

مجلة شهرية . العدد السابع والعشرون . السنة الثالثة . أبريل ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 27 - April 2001

"وقفة مع الصديق الأمريكى"

محمد حسنين هيكل

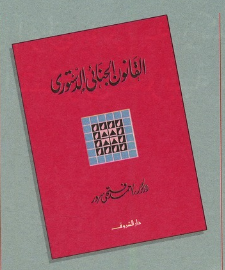
- كيف يمكن فهم شارون / عزمى بشارة
- الوجود السورى فى لبنان / محمود أحمد
- علم اسمه السعادة / أحمد مستجير
- وراثة اللغة ولغة الوراثة / نبيل على
- يوم مات الفرعون / أحمد عثمان
- طالبان تضع العالم الإسلامى فى مواجهة مع الذات / سلامة أحمد سلامة

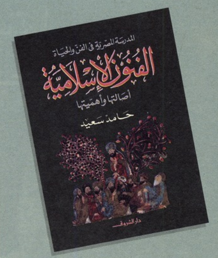
بيكاسو:
لا أرسم
ما أرى
أرسم
ما أعرف

دار الشروق

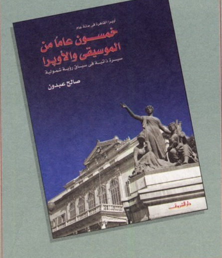
تقدم أحدث وأهم إصداراتها

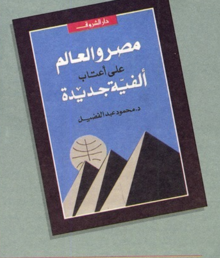


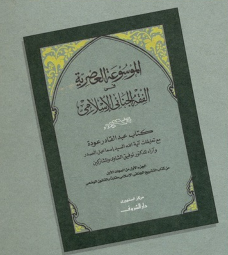


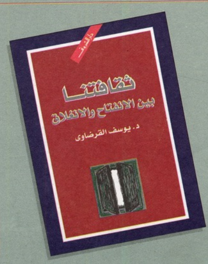


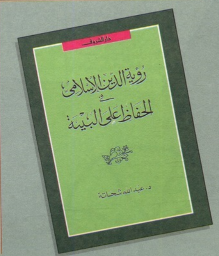












الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد السابع والعشرون
أبريل ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- **أحمد أبو شادى** .. صحفى.
- **أحمد توفيق**... أستاذ الباثولوجى بمعهد بحوث صحة الحيوان.. بالقاهرة.
- **أحمد عثمان**.. باحث فى التاريخ المصرى القديم مقيم فى لندن.
- **أحمد مستجير**.. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة.
- **رولاند بنروز** .. ناقد فنى انجليزى.
- **سلامة أحمد سلامة** .. صحفى.
- **صبرى حافظ** .. أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة لندن.
- **عزمى بشارة**.. سياسى عربى عضو الكنيست الإسرائيلى.
- **محمد حسنين هيكل** .. صحفى.
- **محمد عدنان سالم** .. ناشر سورى.
- **محمود أحمد** .. صحفى.
- **نبيل على**.. خبير الأبحاث اللغوية العربية والإلكترونية.

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجى - نبيل تاج - سعد الدين شحاتة**

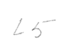
المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - ٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة





كلمـــــة..

حـــــديث الأولــــويات

«نهايات طرق».. العنوان اختاره محمد حسنين هيكل لمقاله، واختارته «وجهات نظر» لغلاف عددها الشهر الماضي، والذى نفد عن آخره. والثابت أنه عند «نهايات الطرق» تكون هناك «وقفة».. لإمعان تفكير أو لاستخلاص عبرة... أو لاستجلاء حقائق ربما غطاها غبار الطريق. وربما قبل - أو بالأحرى بعد ذلك - استشراف «آفاق جديدة».

فى هذا الإطار.. ربما، أو على تماس - طبيعى - منه، تأتى دعوة الأستاذ هذه المرة، مع بشائر موسم رحلات الربيع «العربية» إلى واشنطن - إلى «وقفة مع الصديق الأمريكى».

الدعوة و«صياغتها» تستدعى من الذاكرة القريبة أصداء ما كان قبل ثلاثين عاما، عشية التحضير لحرب أكتوبر. عندما فاجأ الرئيس أنور السادات الكثيرين - وفى أجواء «ضبابية» غائمة - بما أسماه : «وقفة مع الصديق السوفيتى».

ومع ملاحظة أن سياسات الرئيس السادات هى الأصل الذى ما زال مُعتَمَداً حتى الآن، «تَدُلُّ» عليه الأفعال رغم التَّبايُن فى الأقوال. فإن الذاكرة الرسمية العربية تستطيع أن تَستعيد فصلاً من تَجربة «أنور السادات» - وليس من تَجربة غيره - بدون حَرَج.

ويوضح هيكل أنه ورغم أن تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتى» سنة ١٩٧٢ (قبل قرابة ثلاثين سنة) كانت مُخاطَرة، إلا أنها مُخاطَرة حَقَّقَت طلبها رغم المحاذير. بل إنه «لولا هذه «الوَقفة» لكان من المُتَعَيَّن تأجيل معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ إلى ظرف آخر يَصعُب تقدير موعده - أو لكانت المعركة - فى أكتوبر ١٩٧٣ - نوعاً من القمار الأحمَق مُؤديًا إلى إفلاس مُؤكَّد !»

ومتيقناً من أن التاريخ - بالضرورة - لا يعيد نفسه. ولا هو - وإن أردنا - قابل لذلك، فإنه ليس من الضرورى أن تكون «الوَقفة مع الصديق الأمريكى» بطريقة السادات نفسها «الدرامية» أو بأسلوبه ذاته « الصَدَمات الكهربائية» كما أن الخطوة - أو بالأحرى «الوَقفة» - ليس حتمياً أن تأتى من القاهرة ، أو أن تكون من عاصِمة عَرَبية واحدة - فهذا « مَوقِعُ يَتَّسِع الآن لأكثر من طَرَف ويَحتاجه أكثر من طَرَف»!

أياً ما كان الأمر، فإن الثابت على أية حال، أن واشنطن تعمل جاهدةً على «إعادة ترتيب أولويات المنطقة». فضلاً عن أنه - حتى وإن كان من ناحية أخرى - قد بات واضحاً للعيان هذه اللحظة - يقول هيكل - أن العلاقات العربية - الأمريكية لا تستطيع أن تُواصِل المشى على «المَسارات» الحالية، وإلا فإن منطقة الشرق الأوسط تكون مُقبلة على مَرحلة فيها «دولة واحدة مُستَقِلَّة»، هى إسرائيل!

ومرة أخرى - ورغم استرجاع أصداء لتاريخ مؤثر - يحرص هيكل على التأكيد على أن لا أحد يَطلُب أن تكون «الوَقفة مع الصديق الأمريكى» - من نفس عيار تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتى» - لأن واقع الحال لم يَعُد يَسمَح (فى وقت «السلم») ! - بذلك «النوع» من «حَقّ القرار» الذى مارَسَه العَرَب يوماً (وَسَط «الحَرب») - ومع ذلك فإن دَواعى الأمن القومى والاستقلال - و حتى الكبرياء - الوَطَنى - تَفرض أنه فى لحظة ما - بوَسيلة ما - بأسلوب ما. لا بُدَّ من «وَقفة مع الصديق الأمريكى» ! وإلا فإن السؤال يبقى مشروعاً، أو على الأقل مطروحاً: « لماذا أصبح مُستَحيلاً سنة ٢٠٠١ (مع الصديق الأمريكى) - ما كان مُمكناً حتى سنة ١٩٧٢ (مع الصديق السوفيتى) - أو شىء منه ؟»



«حديث الأولويات» تسهم فيه بشكل كبير السياسة الإسرائيلية التى تبذل جهداً غير خافٍ على أحد لإعادة صياغة الأولويات الأمريكية ذاتها. فشارون ذهب إلى واشنطن - مستبقا الآخرين - ليس فقط لأغراض العلاقات العامة، ولغسل يديه - فى مخيلة السامعين والمستقبلين - من الدماء، وإنما، وربما كان هذا هدف الرحلة «الاستباقية» الأهم، ليتأكد فى الوقت المناسب - أو ربما ليؤكد - أن «رغبته وتياره فى السياسة الإسرائيلية بتحييد الولايات المتحدة فى المفاوضات، تتسق مع رغبة الإدارة الأمريكية بعد كلينتون بإعادة العراق والخليج إلى تصدر جدول أعمالها فى المنطقة». كما يقول عزمى بشارة فى مقاله لـ«وجهات نظر» عن «مرحلة شارون.. السياسة والمستقبل».

إعادة صياغة الأولويات الأمريكية لتلفت انتباهها الفعلى - على الأقل حالياً - بعيداً عن الملف العربى الإسرائيلى. تتفق تماما مع براجماتية شارون - يقول بشارة - والذى تتحدد فى أن غايته ليست أكثر من البقاء فى السلطة «دون التوصل إلى اتفاق سلام شامل ودون التدهور إلى حرب شاملة إذا أمكن..» المرحلة الانتقالية طويلة المدى هى خيار فى هذا السياق. واستنزاف السلطة الفلسطينية إلى درجة تصبح فيها العودة إلى التفاوض مع إسرائيل واسترجاع أموال الضرائب من إسرائيل وتخفيف الحصار الاقتصادى هدفا فى حد ذاته بالنسبة لها، هى وسيلة لتحقيق هذا الخيار..

وفى دراسة العضو العربى فى الكنيست الإسرائيلى، والمعايش اليومى لآليات السياسات الحزبية فى إسرائيل، والذى يرى أن الليكود وحزب العمل لا يمثلان مشروعين سياسيين متباينين بحدود واضحة. (بدليل التقارب الواضح فى وجهات النظر - رغم صراع يبدو على السلطة - بين باراك ونتنياهو من ناحية وبين شارون وبيرس من ناحية أخرى) يوضح بشارة مغزى اختيار شيمون بيريز(العمل) ليكون «رجل العلاقات العامة» الذى تتحدد مهمة وجوده فى تحسين صورة شارون (الليكودى حالياً)» ويجعل ابتلاعه - رغم حجمه - أسهل. مؤكداً على أن الرجلين المخضرمين سياسيا، وبالمراهنة على عدم قدرة الشعب الفلسطينى على الاحتمال، يؤمنان أنه لا يوجد حل دائم «مُرض» للقضية الفلسطينية، وأن الأفضل هو الأوضاع القائمة (شارون) أو المراحل الانتقالية (شارون وبيرس) إلى أن يخلق الله ما لا تعلمون.

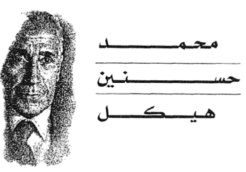


عاد شارون من واشنطن إذن - قبل أن يذهب إليها الآخرون - بوعد واضح «أن الأزمة ستترك لأهلها» - أو هكذا قال - ويأمل - لم يفصح بالضرورة عنه - بتركها للزمن «يزيحها إلى زوايا النسيان»... وباطمئنان - يبدو غير بعيد عن الشواهد والدلائل - إلى أن «الأولويات يعاد ترتيبها»!!

وجهات نظر

> **تنــويه**
>
> وقعت أخطاء مطبعية طفيفة فى بعض النسخ من عدد شهر مارس عام ٢٠٠١، الذى تم توزيعه صبيحة عيد الأضحى المبارك، وأمكن تداركها فى بقية النسخ. وتعتذر «وجهات نظر» لقرائها عن هذا الخطأ.

"وَقفة مع الصديق الأمريكى"





زيارات الربيع إلى واشنطن !

مع بَشائر الربيع يبدأ موسم السَفر العربى إلى واشنطن، والسَفر علىَ مُستوى القمَم العربية - أو بعضها - غايته الحوار والتشاور مع «الصديق الأمريكى» - وذلك تقليدٌ مُستَحدَث جاءت به مُتَغيِّرات أساسية فى السياسة العربية بَدأت منذ سنة ١٩٧٥، ولا زال ذلك التقليد مُستمراً، مَرعياً، مُحافظاً عليه وزيادة، بدليل أن عُروضه فى العاصمة الأمريكية تزداد تَنوُّعاً كل موسم، وتَتَوَسَّع مَظاهرها كل زيارة.

الموسم هذه المرة له أهمية يَختَلف بها عن أى موسم سبق، لأنه يجىء بعد سلسلة من الوقائع بَدَّلَت المشهَد فى الشرق الأوسط، وغيَّرَت أجواءه، وفاجاته بما لم يكن يَتَوَقَّع

(١) أولى المفاجآت (قبل موسم زيارات الربيع إلى واشنطن) - هى نتيجة انتخابات أمريكية للرئاسة خرج بها «بيل كلينتون» من البيت الأبيض، ولم يجئ بعده «نائبه آل جور» كما كانت مُعظم العواصم العربية تَتَوَقَّع - إلى ما قبل أسبوعين على الأكثر من يوم الاقتراع. وكان ظن مُعظم العواصم العربية أن «آل جور» -! - عندما يجىء سوف يُكمل «المسيرة» من حيث تَركها «بيل كلينتون»، وهو فى اعتبار عَدَد من الملوك والرؤساء العَرَب أول رئيس أمريكى قَضى «كل هذا الوقت» مع «قضايانا الكبرى» وخصوصاً فلسطين. وكان رهان هذا العَدَد من الملوك والرؤساء العَرَب عالياً على «كلينتون»، وقد تَمَنَّى بعضهم - أو ألَحّ - على السُلطة الفلسطينية أن تَنتَهِز فرصة وجوده فى البيت الأبيض وتَقبَل - ولو فى الدقيقة الأخيرة من إدارته - حزمَة المقتَرَحات التى طرَحَها للقفز فوق السدود الأكثر وُعورة فى القضية الفلسطينية (القدس، واللاجئين، وحدود الدولة، وخريطة الاستيطان). وعندما بَدا أن السُلطة الفلسطينية مُتَرَدِّدة زادَت الغوايات والضغوط - تُحَرِّض على «قفزة جريئة» تقوم بها السُلطة الفلسطينية بحجَّة أن وجود «كلينتون» فى البيت الأبيض فُرصة لا تَتَكَرَّر، ولأن «المعتَدلين العرب» اعتمادا على ذلك سوف يُساعدون، وإذا لم يكن فى مَقدورهم قبول شىء نيابة عن السُلطة الفلسطينية، فإنهم يَتَعَهَّدون - عندما تَقَع «القفزة الجريئة» - بتوفير «شَبَكة أمان» تَتَلَقَّفها فى الهواء قبل أن تَرتَطم بالأرض !

لكن الوقت نَفَد قَبل أن تَقتَنع السُلطة بـ«القفزة الجريئة». فهى من الأصل لم تَرَ الحوض الذى كان عليها أن تَقفز إليه، وعندما دَقَّقَت النظر وَجَدَت قاع الحوض فارغاً بلا ماء يَكفيها للتَغطُس فيه وتَقب - وهى فى الغالب لم تَشعُر أنها مُستَعدَّة لكَسر رأسها على بلاط حوض فارغ ! - وهى على الأرجَح لم تكن مُتأكِّدة أن هناك «شَبَكة أمان» جاهزة - وحتى إذا كانت جاهزة فإن كفاءتها بدَت مَوضع شك من اتساع الخروق. ولم تَفقد العواصم العربية - أو بعضها - ثقتها فى صحَّة رهانها بمَنطق أن «جور» استمرار لـ«كلينتون» - فهما إدارة واحدة رغم اختلاف الطبائع والأمزجة.

وعندما نَجَحَ «جورج بوش» الابن - فإن العواصم العربية تَرَكَت رهانها فى الساحة ولم تَسحَبه، ذلك أنه إذا كان المنتَظَر من «جور» أن يُواصل سياسة «كلينتون» - فإن المؤَكَّد أن «بوش» الجديد هو ابن «بوش» القديم - «عَرَفناه صَديقاً»، و«تَعامَلنا معه وتَعامَل معنا»، و«أحببناه وأحَبَّنا» - وبالتاكيد فإن الابن مُلتَزمٌ بتَوَجُّهات الأب، أكثر من التزام أى خَلَف سياسى بسَلَف له سَبَقَه فى منصبه (أى «جور» بعد «كلينتون»)، وقد أصبحا عَدُوَّين لَدودَين بعد أن كانا صَديقَين حَميمَين - وإذن فإن المقادير التى أسقَطَت «جور» كانت كَريمة مع العَرَب حين جاءت لهم بـ«جورج بوش» !)

(٢) وكانت المفاجأة الثانية (قبل موسم زيارات الربيع إلى واشنطن) هى نتيجة انتخابات رئاسة الوزارة فى إسرائيل، وكانت تلك عملية تابَعَتها العَواصم العربية - كلها - دون أن يَبين فى رَدِّ فعلها إشارة تَدُلُّ على قَدر كاف من الفَهم لمعناها !

كان التَصَوُّر الشائع - فى العواصم العربية - أن «باراك» دَعا إلى انتخابات رئاسة الوزارة كجنرال أجرى تَقديراً إستراتيجياً لموقفه، وحَسَب الحساب دقيقاً لاحتمالاته، وهَدَفه من الدَعوة لانتخابات قبل أوانها أن يُدَعِّم مركزه ويُحاصر الأحزاب (أو الطوائف ؟!) التى تَزدَحم بها الكنيست، ويَحصُل على تَفويض واسع وكامل لإنقاذ «مَسيرة السلام» (على طريقته) - وهذا التفويض يَجعَل منه فى الشكل وفى الفِعل -

«نابليون إسرائيلي» مُكَلَّفًا بإنقاذ الدولة من أعدائها ومن نفسها أيضاً!

وكما حَدَث في حالة «كلينتون» و«بوش» - حَدَث في حالة «باراك» و«شارون» - فقد ظلَّت العواصم العربية - كلها تقريباً - وإلى ما قبل أسبوعين اثنين من يوم الاقتراع - تَظُن أن القادم إليها «باراك» وليس «شارون».

وبَدَأت الصَدَمات تَجيء ليلة ظهور نتائج الانتخابات الإسرائيلية، فقد سَقَطَ «باراك» - ونَجَحَ «شارون» - وكان نجاحه بأغلبية لم يَسبق لها مثيل في انتخابات سَبَقَت (على مُستوى الكنيست أو على مُستوى رئاسة الوزارة) - أي أنه تَفويض واسِع من الناخب الإسرائيلي للسياسة الإسرائيلية الأخطَر في تَشَدُّد مواقفها، والأعنَف في إدارة هذه المواقف!

أضيف إلى ذلك أمام عَواصِم عربية مأخوذة بالصَدَمات أن «الأصدقاء» -! - في حِزب العَمَل (المعتَبَر في تقدير هذه العواصم «حِزب السلام») تَمَزَّق وخَرَج منه جيل الشَباب -! - الذي كان عليه المعَوَّل (!) مُهاجراً أو مَنفياً، ناقماً في الحالتين، وشديد الإحساس بالإهانة إلى دَرَجَة أن واحِداً من شباب هذا الجيل («حاييم رامون» - ٥٥ سنة!) - قال لـ «باراك» في اجتماع لمركز الحِزب:

«إن كل ما فَعَلته طول رئاستك للوزارة هو أنك وَقَفت في مكانٍ أعلى من الحِزب ثم..... (وَصفُ فِعل تَصعُب كتابته علَى الوَرَق) - وقُلت لنَا: هذا هو المطَر فازرعوا واحصُدوا واشكروا «الرب» الذي أفاضَ عليكم نِعَمَه!»

وبرغم هذه الصَدَمات كانت العَواصِم العربية (أو بعضها) تَرفُض تَصديق ما تراه، وتَبحَث لنفسها عن ذرائع للطمانينة، وقد عَثَرَت عليها، وأولها «أن مجيء شارون سوف يُثبت للإدارة الأمريكية عجز إسرائيل عن مسيرة السلام، وبالتالي فهي الطرَف الذي يَقَع اللوم عليه وليس العرب»، «وكذلك فإن الأصدقاء القدامى - العائدين من جديد - أوْلى بالفهم - وسوف يُقَدِّرون»! - وأقدَر على «الضغط» - وسوف «يَضغطون» - بالطبع على إسرائيل!»



(٣) وكانت المفاجأة الثالثة (قبل موسِم زيارات الربيع إلى واشنطن) هي تَصعيد الغارات الأمريكية على بَغداد دون إخطار مُسبق أو تَشاوُر مع الحكومات العربية «الصديقة» - التي وَجَدَت نفسها مُحرَجة أمام جماهير غاضبة: أقلقها ما وَقَع في إسرائيل، ثم أثارَها تَصاعُد الغارات فجأة على العراق.

وتَفَشَّى في العواصم العَرَبية - كلها تقريباً - نوعٌ من الارتبَاك لا يَعرف ماذا يَفعل؟ - بل ولا يَعرف ماذا يَقول؟!

وعندما خَفَّ وَقع الصَدمة تَصَوَّرَت العواصم العربية - بعضها - أن هناك خطأ في تَرجَمة إشارات مُبَكِّرة بينها وبين واشنطن، وهي إشارات جرى تبادُلها عبر رُسُل أو عن طريق رسائل من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا.

● وعلى سبيل المثال فمن بين هذه الإشارات - أنه ظَهَرَ في بعض العواصم الخليجية مَبعوثٌ يُمَثل نائب الرئيس الأمريكي «ديك تشيني» الذي قيل أن وَضعَه في إدارة «بوش» يَختَلف عن وَضع أي نائب رئيس سبقه، فهو في واقع الأمر رئيس الوزراء الفعلي مع رئيس دولة (لا) يَملك و(لا) يَحكُم.

وفي إحدى هذه العواصم الخليجية (وذلك طبقاً لإيجاز حَضَره عَدَدٌ من الصحفيين المختارين، في اجتماع بالمقر التنفيذي للرئاسة وهو مُواجِه للبيت الأبيض) - سَمِعَ المبعوث الأمريكي ما يُمكن اعتباره رسالة لَوْم إلى السياسة الأمريكية بسبب «تَقاعُسها في حصار العراق. مما جَعَلَ هذا الحصار يَتَداعى ويَتآكل - ويُوشك على السقوط!» - ومَثار اللوْم «أن ذلك «التَقاعُس» غير مَفهوم «لأصدقاء أمريكا من العَرَب» - ونتيجته أن النظام العراقي يَقوى ولا يَضعف». - وكان هناك من البداية انقسام في الرأي بين هؤلاء «الأصدقاء العَرَب لأمريكا» - فيهم من يرى أن أمريكا عازمة على إسقاط النظام، وفيهم من يَشُك في «صِحَّة نواياها أو صدق عَزمها» - والآن ثَبَتَ للجميع - الذين صَدَّقوا والذين شَكُّوا - أن «الولايات المتحدة لها قَصدٌ في الباطن يَختَلِف عما تقول به في الظاهِر».

ويَبين مما طُرِح في ذلك الإيجاز الصحفي في المقر التنفيذي للرئاسة - وفي صَدَد مُهِمَّة المبعوث الأمريكي - أن هذا المبعوث أشار إلى «تَصعيد الغارات» باعتباره شاهِداً على «حَزم السياسة الأمريكية تجاه صدام». وكان الرَدّ عليه «أن هذه الغارات وحدها لن تُسقط النظام العراقي، بَل على العَكس سوف تُكسبه تَعاطُفاً - ثم إن شَعبيَّته سوف تَزداد عندما تثبت مَقدرة احتماله!»

وقيل فى ذلك الاجتماع أن المبعوث الأمريكى سَمِعَ بعد ذلك من مضيفيه تعبيراً صريحاً عن التَوَجُّس يقول له : «إنكم بما تَفعَلون - أو بما لا تفعلون - تَضَعوننا بين نارين : نار أن سياسة النظام فى العراق خطر على حُدودنا، ونار أن سياستكم تجاه هذا النظام خطر على حكوماتنا !»

وطبقاً لمعلومات طُرِحَت فى نفس الإيجاز فى المبنى التنفيذى للرئاسة - فإن المبعوث الأمريكى أشار إلى «أن الإدارة الأمريكية الجديدة، وإدارة «كلينتون» قبلها - كلتاهما مُصابة بخيبة أمَل من عَجز المعارِضة العراقية عن إسقاط النظام» - وكان الرَدّ الذى سَمِعَه بنفاد صَبر :

«لا تُحَدِّثونا فى هذا الموضوع. الناس كلهم يَعرفون أنكم إذا أردتم الخلاص من «صدام حسين» فلن تُعجزكم الوسائل - وأنجعها أن وكالة المخابرات المركزية لا بُد أن تكون قادِرة فى أى وقت على الخلاص منه بوسيلة ما -!- ودون انتظار مُساعَدة من مُعارَضة عِراقية مُفكَّكة ومَعزولة؟!»

● وعلى سبيل المثال كذلك أنه ضمن تلك الإشارات أيضاً وَصلَت إلى واشنطن رَسالة حملها زائر عربى قَصدَ إليها فى «مُهِمَّة خاصة» - مُؤدَّاها :

«أن مَجىء «شارون» إلى رئاسة الوزارة فى إسرائيل أحدَثَ استنفارا شديداً فى العالم العربى مع أن مَجيئه كان فى الأسابيع الأخيرة مُتَوَقَّعاً» !

والمأزق الذى يُواجه كل الأطراف أنه يَصعُب «تَسويق شارون» بوَصفه «أمَلاً» يَستَحِق أن يُعطيه العَرَب فُرصَة تَسمَح لمسيرَة السلام أن تَتَواصَل - والاقتراح (هكذا بالتحديد) : «أن «شارون» جُرعَة شديدة المرارة ويَلزمها كِساء خارجى من السُكَّر حتى يُمكن بَلعها. وكساء السُكَّر المعقول الذى يمكن التفكير فيه أن يَجىء «شيمون بيريز» وزيراً للخارجية، بحيث يَتَصَدَّى هو - وليس «شارون» - لقيادة «عملية التفاوُض على الناحية الإسرائيلية، والسَبَب أن «بيريز» وَجهٌ مألوف فى المنطقة، ومَلامحه مُقتَرنة بالدَعوة لاستمرار مسيرة السلام» !».

وبالفِعل فإن هذا «الرجاء العربى» تَمَّ نقله إلى اثنين من المبعوثين الإسرائيليين ذهَبا مُبَكِّراً باسم «شارون» إلى واشنطن لشرح طلباته وسياساته - هما «زالمان شوفال» و«دورى جولد» - وكلاهما كان سفيراً لإسرائيل لدى الولايات المتحدة على عهد حكومات سابقة لتَجَمُّع أحزاب الليكود.

وحَدَث أيضاً أن الرئيس الأمريكى الذى انتهت إدارته وهو «بيل كلينتون» عَرَف بهذا «الرجاء العربى» بعد أن غادَر واشنطن، ووَجَدَها فُرصة لعَودة إلى الأضواء يَحِنُّ إليها، وهكذا فإنه عَزَّز «الرَجاء العربى» بمَجىء «بيريز»، وأضاف إليه من عنده «تَزكية» بدُخول «باراك» وزيراً للدفاع فى حكومة «شارون»، وبذلك يَطمَئِن العَرَب إلى أن «مَسيرة السلام مُستَمِرَّة كما كانت فى إدارتى»، وأن «حزمَة المقترحَات التى قَدَّمتُها» ما زالت على المائدة». ولم يُبق «كلينتون» اقتراحه سِرّاً، وإنما أذاعه فى حديث صحفى قال فيه أنه «بنفسه» أبلَغَ «شارون» «مُباشرة» به).

....

....

[وليس مَعنى ذلك أن دخول «بيريز» فى وزارة «شارون» كان «رجاء» عَرَبياً أو «وَساطة» عَرَبية - لأن الحقيقة أن دخول «بيريز» (حتى وإن كانت فكرة كساء السُكَّر -! - لعَلقَم «شارون» واردة فيه) كان داعيه الأكبر والأهَم داخلياً إسرائيلياً - ولعله كان مَطلَبَ مُؤسَّسة عسكرية تريد وزارة تُعطيها غطاءًا سياسياً واسعاً، وفترة ثبات فى السُلطة تَحتاجها لمواجهة مَهام أمنية لازمة. وكان من العناصر المساعدة على دخول «بيريز» أنه صديق حَميم لـ«شارون» وزميل فِكر مُتقارب معه، حتى وإن غطى أحدهما تقاطيع وَجهه بالسُكَّر، ووَجَدَ الآخر أنه فى غِنى عن حَلاوة مَذاق (صناعى) وخِداع بَصَر (بالألوان).

وهكذا دَخَلَ «بيريز» وزارة «شارون» - ولم يَدخُل «باراك» رغم أن «شارون» كان يريده - لكن حِزب «باراك» نفسه كان ساخِطاً على رئيسه السابق، مَمروراً منه - وكان على رئيس الوزراء الجديد أن يَختار الرَجُل أو يَختار الحزب. وتَحَقَّقَ ما أرادَته بعض العواصم العَرَبية ودَخلَ «بيريز» - ولم يَتَحَقَّق رجاء «كلينتون» وتَأكَّدَ استبعاد «باراك» !]

....

....

وعلى أية حال فقد ظَلَّ الارتباك ظاهراً، والإشارات مُتَناقضة - والاتصالات مُتَقَطِّعَة ومُتَعَثرة بين واشنطن وبين العواصم العربية (أو بعضها) - وهى أحياناً بالرموز، وأحياناً عن طريق الرسائل والرُسُل.

ولعله كان أفضل للجميع لو أن موسِم زيارات الربيع إلى العاصمة الأمريكية بدأ مُبَكِّراً - دون تَداخُلات - مَن رسائل ورُسُل - زادَت فى خلط الأمور بَدَل أن يُساعِدوا على جَلائها. لكن موسَم الربيع فى واشَنطن كان عليه أن يَنتَظِر عَقدَ مؤتمر عربى على مُستوى القِمَّة فى عَمَّان، وهو مؤتمر فَرَضَ نفسه وتَوقيته منذ شهور، ولم يكن فى اعتبار أطرافه حين قبلوا به وعَيَّنوه أواناً لبداية الانتظام السَنَوى للقِمَّة العربية - أنه سوف يَحِل مُتوافقاً مع ما وَقَع من مُتَغيِّرات.

عَلى أنه فى فترة الحَيرة ما بين التَوَقُّعات الأوَّلية والمتَغيِّرات الطارئة - تَعَلَّل رجاء الجميع بزيارةٍ كان مُقَرَّراً أن يقوم بها الجنرال «كولين باول» وزير الخارجية الأمريكى الجديد - إلى منطقة الشرق الأوسط فى مُهِمَّة استطلاعية.

وكان تَقدير العواصِم العربية - أو بعضها - أنها سوف تَسمَع وتَفهَم من الجنرال الدبلوماسى ما لم يَستَطع الرُسُل والرسائل نقله بدِقَّة، وتَرجَمة إشاراته بأمانة فى اللغة وفى الدلالة !

وبمُجمَل الظروف فإن انتظار وزير الخارجية الأمريكى الجديد اكتسب أهمية كبيرة فى الموضوع وفى الشكل :

ــ فى الموضوع لأن «الوزير الجنرال» لديه - بالتأكيد - ما يُقدِّمه لمضيفيه شرحاً وإيضاحاً.

ــ وفى الشكل لأن مَجىء «الوزير الجنرال» - بعد الخلط فى الإشارات - تَبَدَّى مُحَيِّراً ومُشوِّقاً، مُتَشابهاً مع أسلوب «صمويل بيكيت» فى مَسرحيته الشهيرة : «فى انتظار جودو» - وكان «جودو» المتَحَرِّك على المسرَح فى المشهَد الجديد نَجماً لامِعاً من نجوم واشنطن لأكثر من رُبع قرن عاش فيها الدخائل، واطلع على الأسرار، وخبر حروب السلاح وحروب السياسة من أرفع الدَرَجات، وهو الآن وزير للخارجية الأمريكية قادماً إليها بعد تَجربة سَبَقَت له - رئيساً لأركان الحرب فى البنتاجون - وكذلك فإنه جَمَعَ «المجد» من طَرَفيه ! - ثم هو يجىء إلى المنطقة مُمَثلاً لإدارة جديدة فى الولايات المتحدة، تُواجِه مَوقفاً بالِغ التَعقيد فى منطقة بالغة التَوَتُّر - والأجوبة التى يحملها تَرُدُّ على أسئلة حَرجة - تُواجه قِمَّة عَرَبية على وشك الانعقاد (جمهور مُتَلَهِّف)، وموسماً من مَواسِم الربيع فى واشنطن لم يَبقَ عليه غير شهر واحد !



إخطار الأصدقاء على الطريقة الأمريكية

إذا كان صحيحاً - وهو صحيح - ما صَدَرَ رسمياً من تصريحات فى عَدَدٍ من العواصم العربية وأولها القاهرة - بما مَعناه أن الولايات المتحدة لم تَستَشر أحداً من أصدقائها العَرَب - ولا أخطَرَتهم - بتصعيد الغارات الجَوِّية على بغداد - فذلك مَعناه «الأسهَل» أن الولايات المتحدة ضُبطَت مُتَلَبِّسة بخيانة أصدقائها والتَقصير فى حَقِّهم - لكن المعنى «الأهم» (بصرف النظر عن الصداقات والحقوق) أن العواصم العربية المهتَمَّة كانت فى حالة غياب عن حوار سياسى يَخصها دارَ فى واشنطن - وكان حواراً نصف سِرِّى فى الواقع لأنه وإن دارَ فى غُرَف مُقفلة - تَسَرَّب منه كثير إلى بعض العارفين الواصلين من كِبار الخُبَراء والمحَلِّلين، وبينهم «آرثر شليزنجر» و«لورانس كابلان» و«جيمس تراوب» و«جون بارى» - وكذلك فإنهم - وربما غيرهم أيضاً - تابَعوه وخاضوا فى تفاصيله، وكتبوا عنه وهُم يُتابعون ويَدرسون خطوط السياسات المتَوَقَّعة من إدارة «بوش» الجديدة.

ويَبين مما تَسَرَّب أنه أثناء فترة الريبة التى انقضت من إعلان نتائج الانتخابات الأمريكية يوم الثلاثاء ٧ نوفمبر، إلى تَثبيت هذه النتائج فى مُنتصف ديسمبر سنة ٢٠٠٠ - أى فترة خمسة أسابيع أو أكثر - كان الحِزب الجمهورى واثِقاً من فوز مرَشَّحه. ولأنه لم يكن فى مَقدور «جورج بوش» الابن أن يُشكِّل - على الفور - وزارة أو يُعلِن سياسة، فقد وَجَدَ أركان حُكمه وأولهم نائبه «ديك تشينى» أنه لا داعى لقضاء فترة الريبة فى انتظار عَدِّ الأصوات، وأولى من ذلك الاستفادة بفُسحَة الوقت فى عَقد اجتماعات «تَخطيط سياسى» يكون جاهِزاً للعَمَل فى مناطق لها حساسية خاصة بالنسبة للولايات المتحدة وأولها الشرق الأوسط. وعلى هذا الأساس تَكَوَّنت «مجموعة رئاسية» تَضُمُّ شخصيات كان مَعروفاً «أنهم رجال ونساء قادمون» إلى المواقع الرئيسية للإدارة الجديدة، وكانت المجموعة تَضُمُّ نائب الرئيس المنتَخَب «ديك تشينى» ومعه صديقه المَوثوق به «دونالد رومسفيلد» (أصبح عند التَشكيل الرَسمى للإدارة) وزيراً للدفاع - والسيدة «كوندوليزا رايس» (أصبحت عند التَشكيل الرَسمى للإدارة) مُستَشارة الرئيس للأمن القومى - والجنرال «كولين باول» (أصبح عند التَشكيل الرَسمى للإدارة) وزيراً للخارجية - و«ريتشارد أرميتاج» (أصبح عند التَشكيل الرَسمى للإدارة) نائباً لوزير الخارجية - و«بول وولفويتز» (أصبح عند التَشكيل الرَسمى للإدارة) نائباً لوزير الدفاع - و«ريتشارد هاس» (أصبح عند التَشكيل الرَسمى للإدارة) مَسئولاً عن التَخطيط السياسى للإدارة الجديدة.

□

ويَبين مما تَسَرَّب - وبالتحديد فيما كَتَبَه «آرثر شليزنجر» و«لورانس كابلان» و«جون بارى» - أن مَجموعة التَخطيط الرئاسية تَوَصَّلَت فى شأن أزمة الشرق الأوسط إلى خُطوط مُحَدَّدة :

(١) أوَّلها أنه ضِمن مُراجَعة عامة للسياسة الأمريكية - وهى مُراجَعة تقوم بها كل إدارة جديدة، خصوصاً إذا كانت قادمة من قاعدة حزبية مُختَلفة عن سابقتها - وهَدَف المراجَعَة هو التأكُّد من أن «أفكارها» وليس أفكار الإدارة السابقة هى النافذة والمنفَّذة، وإعادة النَظَر فى الأولويات. وبالطبع فإن منطقة الشرق الأوسط كانت مَدار استقصاء واسع ودَقيق، ليس فقط بسبب أهمية المصالح الأمريكية فيها - وإنما أيضاً لأن شكل التطوُّرات على ساحاتها المختلفة بدا وكأنه يأخذ مُنحَنى خطراً - أو على الأقل غير مُلائم.

وجَرَت مُراجَعة عادَت - كما يجب أن يَكون - إلى أصول المسائل، وهنا فلم يكن هناك خِلافٌ بين أفراد المجموعة الرئاسية على أن

المصلحة الأمريكية العُليا لها فى المنطقة ثلاثة مَطالب : السيطرة على البترول - وضمان أمن إسرائيل - وتوسيع النفوذ الأمريكى فى المنطقة بصفة عامة.

وتَبَدّى للمجموعة الرئاسية أن البترول العربى - بترول الخليج بالدرجة الأولى - لا يَتَعَرَّض للتهديد، فهو فى حماية وجود أمريكى عسكرى قوى على الأرض - وفى عُهدة نُظُم محلية موالية. ثم إن أمن إسرائيل ليس مَكشوفاً، بل العكس فإن إسرائيل لم تكن فى يوم من الأيام مغطاة بدَرَجة التفوّق التى تَتَمَتَّع بها الآن.

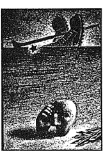
وبرغم ذلك كان واضحاً للمجموعة الرئاسية أن هناك مَخاطر تَتَحَفَّز فى المنطقة - وتَزحَف إلى حيث تستطيع أن تمس أمن الخليج وأمن إسرائيل - وتؤثر سلباً على النفوذ الأمريكى - والسبب أن مشكلة فلسطين التى كانت «تفاعلاتها مضبوطة» منذ مؤتمر مدريد سنة ١٩٩١ - والتى جَرى وَضعها على طريق الحَل والتصفية بعد اتفاق أوسلو سنة ١٩٩٣ - تَبَدَّت مُعَرَّضة للانفلات، وهو انفلات راحَ «يَفيض» على ما حَوله بنوع من «الانسكاب» spill-over - وبسَبَبه استيقظت مَشاعر كَراهية لإسرائيل كانت مَحجوزة - ومَشاعر عَداء للولايات المتحدة كانت كامنة - ومُجمَله أدى إلى وضع نُظُم صديقة للولايات المتحدة على «مَوقف دفاع» يَخشى من الاختراق ويَتَخَوَّف من تَحَوُّل هذا الاختراق إلى تطويق، وتلك أحوال يُضاعف من خطرها أنها تجىء فى ظروف اقتصادية واجتماعية حَرِجة، لا يَظهَر لها علاج قريب أو سَهل، وفى مَوعد يمكن انتظاره والصَبر عليه حتى يجىء !

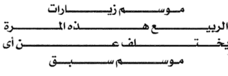


(٢) وفيما بان من الخطوط المحَدَّدة التى تَوَصَّلت إليها مجموعة العَمَل الرئاسية أن السياسة الأمريكية وَصَلت إلى هذا المنزلق الوَعر فى الشرق الأوسط لأن «بيل كلينتون» اندفع بَعيداً وراء حُلم راوَدَه بصُنع سلام كامل ونهائى للقضية الفلسطينية، مُخالفاً فى ذلك كل الإدارات السابقة جُمهورية وديمقراطية - وبالتحديد من زمَن الرئيس السابق «ريتشارد نيكسون» ووزير خارجيته «هنرى كيسنجر» (١٩٧٤-١٩٧٥) - إلى زمن «بوش» الأب ووزير خارجيته «جيمس بيكر» (١٩٩٠-١٩٩٢).

والحاصل أن كل الإدارات السابقة اختارت مُعالجة الأزمة بأسلوب «خطوة خطوة»، مُدركة أن طلب السلام الكامل والشامل سوف يَطرَح قضايا مُستَحيلة الحَل : أولها القدس (وهى صراع آلهة ورُسُل - كذلك قيل) - وثانيها: اللاجئون (وقضيتهم بالنسبة لإسرائيل سؤال مَصير : يَطرَح عليها أن تكون دَولة يهودية أو لا تكون ؟) - إلى جانب قضايا أخرى لا تَقل خطورة واستعصاء على الحل (وبينها الاستيطان والحدود).

والواقع أن هَدَف «كلينتون» من مُقاربة الحَل الكامل والنهائى - كان هَدَفاً شخصياً، وقد جاراه رئيس الوزراء الإسرائيلى «إيهود باراك» على أمل أن الرئيس الأمريكى المُتَشَوِّق لصُنع السلام (والمُتَلَهِّف على جائزته) - قادرٌ بقوة مَنصبه على الإتيان بمُعجزة تاريخية تستطيع إسرائيل أن تَتَعَلَّق بها وتفوز بتسوية ختامية لكل الحِسابات المعلَّقة بينها وبين العَرَب على أساس الأمر الواقع وبلا تَنازل يأخذ منها شيئاً تَحوزه الآن أو تطلبه قبل إغلاق الدَفاتر !





....

....

[كان هناك بين أعضاء المجموعة الرئاسية مَن ذَهَبوا إلى أن «باراك» لم يكن يُجارى رَغبة «كلينتون»، وإنما الحقيقة أن «كلينتون» هو الذى استسلم للغواية مرة أخرى - وهى هذه المرة غواية «إيهود باراك» وليست غواية «مونيكا لوينسكى» - وقد رَجَّحَ هذا الظن عندما تَبَيَّن أن الرَجُلين - «كلينتون» و«باراك» - كانا على اتصال تليفونى مُنَظَّم كل يوم فى ساعة مُحَدَّدة (قبل أن يَنام «كلينتون» فى ليل واشنطن، وفور أن يَصحو «باراك» فى فَجر تل أبيب.

وفيما يقول به «بودستا» رئيس أركان البيت الأبيض على عهد «كلينتون» - أن الرئيس الأمريكى السابق كان مَبهوراً بـ«باراك» لسَبَبَين : أولهما - أنه كان العسكرى الذى حَمل أرفع الأوسمة فى الجيش الإسرائيلى (المقاتل) - و«كلينتون» (فى نَظَر الكثيرين) لديه عُقدة المتَهَرِّب من الجُندية فى فيتنام.

والثانى - أن «كلينتون» كان مأخوذاً بنفوذ رئيس وزراء إسرائيل وَسَط الجالية اليهودية فى أمريكا بتأثيرها النافذ فى الإعلام - وكان ذلك سَبَب قبوله لوَساطة «باراك» فى عَفو رئاسى وَقَّعه فى اللحظة الأخيرة عن بليونير يهودى أمريكى («مارك ريتش») هَرَب إلى سويسرا بعيداً عن مُتَناوَل القضاء الأمريكى الذى كان يُطارده فى تُهَم فساد، وكانت «دنيز ريتش» (زوجة البليونير الهارب وشريكته حتى بعد طلاقهما) واحدة من أكبر المتَبَرِّعين لحمَلات «كلينتون» ولمكتَبَته التذكارية فى ولايته الأصلية «أركنسو» - وكانت تلك آخر فضيحة خَتَم بها «كلينتون» رئاسة حافلة بالفضائح !]

....

....

وفى المحَصِّلة (وهذه عَودة بعد استطراد إلى ما بان من مُداوَلات المجموعة الرئاسية) فقد كان الرأى الذى عَرَضَه «ريتشارد هاس» واحتل مساحة واسعة فى الحوار الرئاسى ومالت إليه الآراء «أن أزمة الشرق الأوسط لم تَبلُغ بَعد مرحلة النُضج maturity الضرورية لحَلِّها (ومن المعروف أن لـ«ريتشارد هاس» نَظَرية مشهورة فى هذا الشأن مُلَخَّصها أن الأزمات لا تُحَل برَغبة الأطراف فى حلها، وإنما بتوافر شروط «مُعَيَّنة» تَجعَل الحَل «مُمكناً») - وكان رأى «ريتشارد هاس» تَحديداً أن «أزمة فلسطين غير قابلة للنُضج من الأساس لأنها تَنطوى - ضمن عَوامل كثيرة - على مُقَدَّسات يَصعُب أن يَكون لها «حَلٌ وَسَط» - وهذا النوع من الأزمات ليس له دَواء غير وَصفة إجراءات تَتَكَفَّل به وهى :

— عَزل الأزمة - واحكام عَزلها عن مُحيطها حتى لا يَتَّسع نطاقها ولو بالعَدوى.

— وإفراغ الأزمة أولاً بأول من عناصر التَوَتُّر حتى لا تنفجر فى مكانها مُدَوِّية فى مُحيطه.

— ثم تَركها بعد ذلك للزمَن يزيحها إلى النسيان، وفى هذا النسيان تَستَهلك الأزمة نفسها بنفسها بالتَحَلُّل والتآكل والتلاشى !»



(٣) وفيما تَسَرَّب أيضاً أن حوار المجموعة الرئاسية تَوَصَّل إلى أن «المأزق الراهن فى الشرق الأوسط - استحكم بسبب التَعَسُّف مع الحقيقة فى طَلَب حَلٍّ نهائى لأزمة الشرق الأوسط، والنتيجة أن القضية الفلسطينية عادَت واحتلت رأس جَدوَل الأعمال فى اهتمام حكومات وشعوب المنطقة. وبما أن الحَل الكامل الذى سَعى إليه «كلينتون» و«باراك» طلبٌ مُستَحيل - فإن العَودة الضرورية إلى الخطوات الجُزئية نُقلة بعد نَقلة مُناوَرة صَعبة. ولا بد من تَهيئة المنطقة لهذه المناورة بجهد عالى الكفاءة، مَرن وحازم فى نفس الوقت، يُحَقِّق نزول القضية الفلسطينية من البَند رقم واحد إلى البَند رقم اثنين أو ثلاثة إذا أمكن.

وإذا كان ذلك - فإن الفراغ الناشئ من إخلاء البَند رقم واحد (بعد تَنزيل الأزمة الفلسطينية منه) لا بد أن تَملأه أزمة أخرى يجرى تَصعيدها إلى رأس القائمة، وهذه الأزمة فى تقدير أهَم المنَظِّرين للإدارة الجديدة - وهو «بول وولفويتز» المساعد المقَرَّب من «ديك تشينى» نائب الرئيس، والمكَلَّف بمنصب نائب وزير الدفاع - هى بالطبع أزمة الخليج، وبمعنى آخر فإن المطلوب على عَجَل هو إحياء التَحالُف القديم لحَرب الخليج، وإعادة بناء الحصار على العراق، والحَشد من جديد لمحاوَلة إسقاط النظام فى بَغداد، وذلك مَطلبٌ لم يَتَيَسَّر تحقيقه - فى وَقته - بالحَرب - لكن المطالب الإستراتيجية لا تَسقُط بالتَقادُم (كذلك قدّروا) .

وقد تَجَلَّت لأهمية - وضرورة - تغيير قائمة الأولويات مَزايا إضافية - مُلَخَّصها «أن مشكلة فلسطين وفيها القدس تَملك جاذبية غلاّبة تَشد كل العَرَب إلى قضية واحدة، وذلك يَخلق مَناخاً مُتَفَجِّراً يَصعُب التعامُل معه - فى حين أن وَضع العراق على رأس القائمة يُفَرِّق صفوف العَرَب، وهو مَناخ يَسهُل ويَطيب التعامُل فيه !

(٤) وفيما تَبَيَّن أنه دارَت فى المجموعة الرئاسية مُناقشات كان بعضها عنيفاً إلى حَد نَكأ جراحاً قديمة، وبالذات فى العلاقة ما بين «ديك تشينى» نائب الرئيس والجنرال «كولين باول» وزير الخارجية.

والظاهر أن المناقشات زادَت سخونتها عندما طُرِح للبحث أسلوب إقناع الدُوَل العربية - وشعوبها إذا أمكن - بتغيير قائمة أولويات المنطقة، بمعنى «تنزيل» بَند فلسطين و«تَصعيد» بَند العراق - وكان الظَنُ فى البداية أنه يمكن «تَسريب» هذا التغيير فى الأولويات من خلال اتصالات تمهيدية جارية بالفعل بين الإدارة الجديدة وبين أطراف فى الشرق الأوسط تَتَعَجَّل استطلاع تَوَجُّهاتها - وكان التقدير أنه بعد «التسريب» يَتَهَيَّأ الجو لنقلة يَتَحَوَّل بها «التسريب» غير الرسمى إلى «إخطار» رسمى.

ولم يكن «كولين باول» - فيما ظهر من تفاصيل مناقشات المجموعة الرئاسية - مُقتَنعاً بأن قائمة الأولويات يمكن تغييرها بهذه السُرعة من «فلسطين» إلى «العراق».

وكان «باول» يَعرف ويُوافق على أنه ليس من المرغوب فيه ترك فلسطين على رأس قائمة الأولويات - لكنه فيما يَتَعَلَّق بتصعيد بَند العراق كان يَحسب أن الأمر يلزمه علاج من نوع مُختلف لدَواعى مُتَعَدِّدة بينها أن الحصار حول العراق بالفعل يَتَهاوى، وأن هناك تعاطفاً شعبياً عربياً واسع النطاق مع العراق، ثم إن النُظُم العربية حتى تلك التى شاركت فى

التحالُف ـ تُبدى كثيراً من التَملمُل والضيق بعد استمرار الحصار عشر سنوات، وعملية خَنق للعراق لم يَعُد ممكناً أن تَستَمر إلى الأبد.

وطُرحَت للبحث فكرة استبدال الحصار ضدَّ العراق كما هو الآن بنوع آخر «أضيَق» ولكنه «مباشر» أكثر، وأطلَق «تشيني» عليه وَصف «العقوبات الذكيَّة»، والمطلوب منها أن تكون «عقوبات تُصيب نظام الرئيس «صدام حسين» وتُؤدِّى إلى إسقاطه دون أن تُصيب الشعب العراقى وتزيد من مُعاناته» !

ويَظهَر أن «الجنرال الدبلوماسى» لم يَستَطع أن يَتَفهَّم وَصف هذه «العقوبات الذكيَّة» و«كيف يُمكن تنفيذها» ؟

وهنا (طبقاً لبعض ما نُشرَ من معلومات وَرَدَت فيما كَتَبَه «جون بارى») وَقَعَت مَشادة بين «كولين باول» وبين «ديك تشينى» استعيدت خلالها تَجربة حرب الخليج حين تَبايَنت الآراء بين «تشينى» (وهو وزير الدفاع وقتها) وبين «باول» (وهو رئيس هيئة أركان الحرب وقتها).

كان «تشينى» (أيامها) يَرى استمرار زحف قوات التَحالُف (١٩٩١) حتى قلب بغداد.

وكان «كولين باول» (أيامها) يَرى أن هَدَف ضَرب العراق تَحَقَّق بالكامل خلال شهر من القصف الجوى المستَمر، وأن العمليات البرية من الأصل لم تكن لها ضَرورة، وحتى بعد بدئها واستمرارها لعدَّة أيام فإن الذهاب إلى قَلب بغداد ليس ضمن الهَدَف المقَرَّر للعمليات ـ بالإضافة إلى أن بعض دُوَل التحالُف تُظهر تَحَرُّجها وتُبدى خشيتها من أن «الاستمرار فى العمليات أصبح غَزواً للعراق وليس تحريراً للكويت».

ووَسَط مناقشات تلك الأيام قبل عشر سنوات ـ احتد «تشينى» وقال للجنرال (بوَصفه وزيراً للدفاع و«كولين باول» مَرؤوساً له) ما مُؤدَّاه : «إننى لا أفهم أن تكون لدى الولايات المتحدة أكبر وأكفأ قوة عسكرية فى العالم ثم لا تستطيع هذه القوة أن تَخدم سياستها، ثم يكون ذلك بتَوصية من رئيس أركان ـ تَرَكَ مُهمَّته وهى الحَرب لكى يُفتى فى السياسة !» ـ ثم يقول «تشينى» لـ«باول» بحَزم : «لا دَخل لك بالتقديرات السياسية، والتزم بتقديم خُطَط عسكرية لما يُطلَب منك، وتلك حدودك» !

وهنا وفى إطار حوارات مجموعة العَمَل الرئاسية تَحَوَّلَ الحِوار (بعد عَشر سنوات) إلى اشتباك بين نائب الرئيس ووزير الخارجية.

....

....

[وأظن أننى أستطيع الوثوق فى معلومات «جون بارى» لأنى عَرَفته عن قُرب، وكان ضيفاً علىَّ فى القاهرة ثلاث زيارات. والرَّجُل صحفى بريطانى فى الأصل، وقد ذهَب إلى الولايات المتحدة يُغَطِّى أخبارها ولكنه اختار البقاء فيها. وكنت أعرف بالتجربة كثيراً عن دقَّته فيما يَكتُب، وكان رئيس تحريره «فرانك جايلز» يقول عنه : «إن جون عندما يَتَحَرَّى خبَراً يُعد له مادة كتاب كامل». وفى الولايات المتحدة أصبح «جون بارى» من أبرز المحلّلين السياسيين والعسكريين، ووَثق صلاته بـ«ديك تشينى» وباقطاب المؤسَّسة العسكرية الأمريكية عموماً ـ ولا يُساورنى شك فى أنه كان يُعَبِّر عن رأى نائب الرئيس الأمريكى فى مَقال شهير وَضَعَته مجلة «نيوزويك» على غُلافها تحت عنوان : «هل هو الرَجُل المناسب فى المكان المناسب ؟» ـ وكان المقال عن «كولين باول»، والمقالَ من أوله إلى آخره تساؤلات عن صلاحية «كولين باول» لمنصب وزير الخارجية. وفى نوادى وصالونات «جورج تاون» ـ مركز السياسة والصحافة فى واشنطن ـ حكايات كلها تُشير إلى أن بقاء «كولين باول» فى مَنصبه أجلٌ مَحدود ـ سنتان على أكثر تقدير ؟!]

....

....

(٥) وفيما بان من حوار المجموعة الرئاسية ـ فى فترة الريبة ما بين النتائج الأوَّليَّة لانتخابات الرئاسة وحتى تأكيدها بعد خمسة أسابيع بإعلان فوز «بوش» الابن ـ أن المناقشات تَطَرَّقَت لكيفية تحويل التسريب غير الرسمى عن تغيير قائمة الأولويات إلى إخطار رسمى، وبدأ سياق المناقشات بأسلوب وانتهى بأسلوب آخر :

● فى البداية كان هناك اقتراح بأنه ربما يكون كافياً تَوصيل الإخطار بواسطة السفراء الأمريكيين فى العَواصم المعنية (وقد نُحِّىَ هذا الاقتراح جانباً لأنه يُضيف خشونة الشكل إلى خشونة الموضوع).

● وكانت مجموعة الخارجية («باول» و«أرميتاج») لا تُمانِع أن يقوم بالمهمَّة مَبعوث يُستَحسَن أن يكون وزير الدفاع «رومسفيلد» (لكن ذلك الاقتراح نُحِّىَ جانباً بدَوره لأن الإخطار عن طريق وزير الدفاع قد يَبدو عسكرياً).

● وأخيراً وَقَعَت المهمَّة على «كولين باول»، وقَبلها باقتناع أنها فى اختصاصه، ثم إنها لم تكن مُتناقضة ـ بشدة ـ مع اقتراحاته فى الاجتماع : فهو يُوافق على «تَنزيل» أزمة فلسطين من رأس قائمة الأولويات، وهو لا يُمانِع فى تَصعيد الأزمة مع العراق، وإن كان يُبدى خشيَته من أن الأحوال فى المنطقة تَغَيَّرَت كثيراً عما كانت عليه سنة ١٩٩١ ـ ومع أن أحداً لم يَتَوَصَّل إلى تَوصيف دَقيق لاقتراح «العقوبات الذكيَّة»، فقد وَجَدَ «كولين باول» فى ذلك الاقتراح مَخرَجاً له من تَصادُم مُبَكِّر مع «تشينى» يمكن أن يَتَحَوَّل إلى خلاف حَسَّاس بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية، ويَكشف الإدارة الجديدة من بداية عهدها ويُعَرِّضها للانشقاق وما يَتَرَتَّب عليه سياسياً وإعلامياً ـ كذلك وَجَدَ «باول» فى اقتراح «العقوبات الذكيَّة» مَدخَلاً له فى لقاءاته المتَوَقَّعة مع ملوك ورؤساء المنطقة حين يَنقل إليهم الإخطار بتغيير فى قائمة الأولويات.

ولكن «كولين باول» كان يُريد «تَوجيهاً رئاسياً» بشأن الأسلوب الذى يَتَّبعه ؟!



(٦) وكان الرَدُّ على طَلَب «كولين باول» ـ اقتراحا طَرَحَه «بول وولفويتز» نائب وزير الدفاع (وهو جنرال سابق ـ يهودى ـ لعب دَوراً مُهمّاً فى حرب الخليج كضابط اتصال بين قيادة التحالُف وبين رئاسة أركان حرب جيش الدفاع الإسرائيلى ـ وكان مُقيماً بهذه الصفة فى إسرائيل طوال شهرى يناير وفبراير ١٩٩١ ـ وكان هو المسئول عن مُطالبة القيادة الإسرائيلية السياسية والعسكرية بأهمية ضبط النفس وعَدَم الرَد على صواريخ عراقية وُجِّهَت إلى عَدَد من المواقِع فى إسرائيل، مُذكِّراً الجميع فى تل أبيب بأن إسرائيل أول مُستَفيد بتَدمير القوة العراقية ـ وبدون تكلفة عليها فى الموارد أو فى الدَم).

والآن كان اقتراح «وولفويتز» أن تَجربَتَه مع العَرَب اقنَعَتهُ بأن أفضل أسلوب لفتح أى موضوع معهم هو «وَضعهم أمام أمرِ واقع» يبدأ منه الحوار معهم !

وقام «وولفويتز» بتَطوير اقتراحه من خلال المناقشة فعَرَضَ أن الولايات المتحدة تستطيع من جانبها وبدون تَشاوُر مع أحد أن تبدأ بتصعيد عسكرى فى الغارات على العراق ـ ويُصاحِب هذا التَصعيد إعلانٌ يُظهِر هَدَف التَصعيد على حقيقته حتى لا يَفوت على أحد (بالتَّجاهُل أو بالجَهل) ـ وبَعدها فسوف يَنتَقل الاهتمام بالضرورة (باقتناعِ العَرَب أو دونَ اقتناعهم) إلى حَدَث مُستَجَدٍّ وَقَع ويَستَوجب البحث العاجل فى أمره ـ وكذلك يكون جَدوَل الأولويَّات قد بَدأ حَرَكَته الأولى ـ لأن تَصعيد الغارات سوف يَطرَح نفسه، وسوف تكون الأطراف العربية هى التى تَفتَح مَوضوعه لتسأل فيه بعد أن تكون رسالته قد وَصَلَت إليها.

وبَعدها يَتَوَجَّه «كولين باول» إلى المنطقة، ولن يكون عليه حَرَج فى كيف يُبادر ويَعرض ـ لأنه سوف يكون أمام إلحاح ورجاء من الآخرين !

وإلحاح الآخرين ورَجاؤهم مُؤكَّد لأنَّ «باول» سوف يجىء والأطراف كلهم يَستَعدون لمؤتمر عَرَبى على مُستوى القمَّة، ثم إن بعضهم يَستَعِد لحَزم الحقائب تأهُّباً لزيارات موسِم الربيع إلى واشنطن !

«٣»

الجنرال والدبلوماسية

وحَدَث فى مُقابلات «كولين باول» مع الملوك والرؤساء العَرَب فى زيارته السريعة (خمسة أيام لسبع عواصم) ما كان مُتَوَقَّعاً بالضبط فى تقديرات «وولفويتز» التى أقَرَّها «الاجتماع الرئاسى» بعد عِدَّة جلسات امتدت من فترة الرَيْبة ووَصَلَت إلى حيث انعقد آخرها فى مكتب نائب الرئيس «ديك تشينى» قبل سَفَر وزير الخارجية إلى المنطقة بثلاثة أيام.

....

....

[ولم يُتَح لى أن أطلع على مَحاضِر ما دار فى اجتماعات وزير الخارجية الأمريكى مع مَن قابلهم من كبار المسئولين العَرَب ـ لكنه أتيح لى ـ كما أتيحَ لغيرى ـ أن أسمع أكثر من رواية وأن أقارن وأستوثِق قبل أن أجازف بنَقل رواية أو ذِكر تَفصيل.]

....

....

● وفى ملاحظة عامة (تَكَرَّرَت أكثر من مرة فيما سَمِعت) ـ أن وزير الخارجية الجديد بدا لمن قابلهم «غير مُستَريح» فى أدائه، وطبقاً لوصف أحد الذين قابلوه فقد بدا مثل «فنجان فى غير طبَقِه»، وفى تقدير صاحب الملاحظة أن «باول» ما زال «يَشعُر بعَدَم انسجام مع المكان» ـ أى أن «الجنرال الذى كانه ذات يوم لم يتاقلم بَعد مع الدبلوماسى الذى حَلَّ محله داخل ثيابه الآن !» ـ وقد بدا من تَصَرُّفِه أنه يَستَشعِر الفجوة، ويُحاول تغطِيتها «بشىء من العلاقات العامة»، يَستَعيد به بعض الحكايات القديمة من تجربة حرب الخليج، خصوصاً مع الذين تَعامَل معهم تلك الأيام ـ ولوحِظ أن «الجنرال» تَعَمَّد أن تكون الحِكايات ضاحكة تُشيع جَوّاً من الألفة ـ تُجَدِّد الذكرياتَ القديمة وتَستَعيد دفئها.

● وعندما بدأ «باول» كَلامه عن مُهِمَّته كان قوله للجميع بما مُؤدَّاه «أنه لا يَحمل جديداً لأن إدارة «بوش» ما زالت بصَدَد تَحديد سياساتها بعد غِيابٍ للحزب الجمهورى عن القرار «طالَ ثمانى سنوَات» (طول رئاسة «كلينتون») ـ وقد استجدت فى هذه المدَّة حقائق كثيرة أولها أن الولايات المتحدة بعد ما جرى فى الاتحاد السوفيتى وَقَعَت عليها مسئوليات دولية واسعة ـ ثم إنه فى فترة هذا الغياب انتهى قرنٌ وانتهت ألفية ـ وفى مسئولية الإدارة الجديدة مَهام تَنتَمى إلى القرن الواحد والعشرين ـ وإلى الألفية الثالثة ـ وكانت إدارة كلينتون ختام زمَن ـ وإدارة «بوش» عليها أن تكونَ بداية زمَن. ولهذا فإنه يُريد أن يَسمَع أكثر مما يَتَكلَّم، وقد جاء «طالباً للعلم» يَتَمَنَّى أن يَسمَع من زُعَماء فى المنطقة «لم تَنقَطِع تجربتهم» و«زادت

مَعارفهم»، وأمَله أن يَعود إلى واشنطن ومعه مُحَصِّلة «أفكار» تُريد الإدارة الجديدة أن تأخذها فى الاعتبار عندما تُقرِّر سياساتها لمرحلة جديدة.

● وهنا - وكما سَبقَ تَوَقُّعه - جاء السؤال (المنتَظَر وجَوابه المقدَّر سَلَفاً) عن تَصعيد الغارات الجوية على العراق ؟ - وكان رَدُّ «كولِن باول» بما مَعناه «إظهار الأسف لأن الولايات المتحدة تَصرَّفت قبل أن تَتَشاوَر مع أصدقائها وحُلفائها، ودون إخطارهم - لكن الطائرات المكَلَّفة بتنفيذ القرار (الأمريكى) بمنطقَتَى الحَظر الجوى على العراق (واحدة فى الجَنوب وثانية فى الشمال) - وَجَدَت نفسها فى مواجهة تَصعيد عراقى مُتَزايد ومُستَفِز يُهَدِّد طائراتها بدقَّة فى الرصد لم تكن موجودة من قبل، وبدِقَّة فى تَوجيه الصواريخ يمكن أن تُصيب - وذلك مَعناه أن «النظام فى العراق» يُعيد بناء قُدراته العسكرية مرة أخرى على نحوٍ يُهَدِّد جيرانه - وهكذا فإن «التَّصعيد الأمريكى» كان رَدّاً دِفاعياً على «تَصعيد عراقى» سبقه.

ثم راح «كولِنْ باول» يَشرَح والجنرال القديم فيه أكثر بروزاً من الدبلوماسى الجديد فيه.

وقد دَخَلَ تَفصيلاً فى عملية تَجديد شَبَكَة الصواريخ العراقية، وأضاف مَعلومات حَصلَت عليها المخابرات المركزية الأمريكية من يوجوسلافيا التى باعَت للعراق على أيام «ميلوسوفيتش» مُعدَّات تَوجيه إلكترونية مُتَطَوِّرة - وزادَ عليها أن الصين وَفَّرَت خُبراء لتَكثيف قوة اندفاع الصواريخ العراقية!

● وفى إحدى المقابلات لم يَتَمالَك أحد المشاركين فى الاجتماع نفسه من سؤال «باول» بما مُؤَدَّاه :

«سيادة الوزير (Mr. Secretary) - إنك تَحَدَّثت الآن - دون مُقاطعة - لمدة إحدى عشرة دقيقة، وفى هذه الدقائق - وهى قليلة - فإنك ذكَرت اسم «العراق» أكثر من عَشر مرات، وذكَرت اسم «صدام حسين» أكثر من عشرين مرة - ونحن نَتَفَهَّم ذلك - لكننا فى نفس الوقت نستَغرب أننا طوال حَديثك لم نسمَع ذكر «إسرائيل» إلا مَرَّة واحدة، ولم نَسمَع اسم «شارون» ولا مَرَّة واحدة.»

وبعد مناقشات فى هذه النقطة كان تعليق «كولِن باول» أنه «تَحَدَّث بمَنطق أولويات فَرَضَت نفسها وخصوصاً أن إسرائيل وشارون «قد» يكونان خطراً من «الخارج»، وأما «العراق» و«صدام» فإنهما خطر من «الداخل» يُهَدِّد الاستقرار، ويُشَجِّع على الفوضى، و«يَعمَل على زيادة التَّطَرُّف والإرهاب» !»

● وفى القاهرة وفى عَمّان سأل «كولِن باول» عن «حكاية هذه الطائرات الذاهبة والعائدة كل يَوم إلى بغداد تَحَدِّياً للحصَار - مع أنه يَعرف أن الأمم المتحدة استُؤذِنَت فيها؟» !

وفى القاهرة وعَمّان أيضاً سأل «كولين باول» : «متى يَعود السفراء (سفير مصر وسفير الأردن) إلى مقر عملهم فى إسرائيل ؟» - وفى القاهرة سَمَّى «كولِن باول» سفير مصر فى إسرائيل بالاسم «بسيونى»، مشيراً إلى «أن عَودته بسرعة إلى هناك الآن مُهِمَّة كـ «عَربون حُسن نِيَّة» لرئيس الوزراء الجديد «آرييل شارون»، وأيضاً لكى تكون الإدارة المصرية على علم بالتَّطوُّرات الجارية فى السياسة الإسرائيلية، وهى تَطوُّرات سوف تَنعَكِس بلا شك على القرار الإسرائيلى!»

من الملاحظات اللافتة أن الجنرال كولين باول قام بتوجيه الدعوات لموسم زيارات الربيع لواشنطن وكان يريد أن يوحى لسامعيه بأفضلية تأجيلها

وجد «باول» فى اقتراح «العقوبات الذكية» مدخلاً له فى لقاءاته المتوقعة مع ملوك ورؤساء المنطقة حين ينقل إليهم الإخطار بتغيير فى قائمة الأولويات

وكان رأى «كولِن باول» أنه لا يجب التَّسَرُّع فى الحُكم على «شارون» بما «يقوله» العَرَب عن ماضيه - وإنما الحُكم عليه يجب أن يكون بتصرفاته. وفى استطاعة العَرَب بعُقولِهم وليس بعَواطفهم أن «يُقنعوه» بالكثير، ومن صالحِهم أن يَقتَنع الرَّجُل، وهو (أى «كولِن باول») يَستَطيع تأكيد أن «شارون على استعداد للتفاوُض وليس له غير شرط واحِد هو تَوَقُّف العُنف بطريقة لا لبس فيها بحَيث يَعرف المواطِن الإسرائيلى أن «العُنف انتهى دَوره» !»

● وفى دمشق سأل «كولِن باول» عن النشاط الذى دَبَّ فجاة فى خط أنابيب بترول العراق بعد أن كان ساكناً أو نائماً لقرابة عشرين سنة - وكانت لَدى «كولِن باول» أرقام مُحَدَّدة عن بترول عراقى يُضَخ فى الأنبوب السورى بالمخالفة لقرارات حصار العراق - وكان تَلميحه واضحاً إلى أن ذَلك قد يَسحَب إجراءات الحِصار من الخليج إلى البحر الأبيض.

وعندما جاء ذِكر البحر الأبيض مَدَّ «كولِن باول» إصبَعا وضغَط على مَوضع وَجَع سائلاً عن الوجود السورى فى لبنانَ ؟ هَدَفه ؟ وكيف ؟ وإلى متى ؟ - ورأيه أن الخروج واجبٌ، وأن البحث عن أسلوب لتنفيذه ضرورةٌ لا تُمانع الولايات المتحدة أن تُساعد فيها حتى تَستَقرَّ الأمور فى لبنان ليُمارس حياة طبيعَية داخله، وعلى حدوده، ومع جيرانه !

وكانت إحدى إيماءات «كولِن باول» قذيفة «مُوَجَّهة» حين تَساءل «كيف يُمكن أن يُعتَبَر «شارون» مَجنوناً يَصعُب التعامُل معه - فى حين يُعتَبَر «صدام حسين» «عاقِلاً» يَسهل التعامُل معه ؟» !

وهنا كان ما استنتجه بعض سامعيه فى دِمشق من أن «باول» يَعرض صفقة مُجمَلها : «نُساعِد مع «شارون» إذا ساعَدتُم مع «صدام» !»

(وخَرَج «باول» من دمشق يقول «أنه حَصل على وَعد بنوع من الرقابة الأمريكية على أنابيب البترول ما بين العراق إلى شواطئ سوريا». وبعد عَودَته إلى واشنطن نُقِلَ عنه إحساسه بأن «المسار السورى» يُمكن تَحريكه لمفاوضات سلام بين سوريا وإسرائيل - وإذا حَدَثَ مثل هذا «الانفتاح» على المسرح السورى، فهو «يستطيع أن يرى انكشافا إستراتيجياً على طول المسافة عبر العراق وإيران حتى باكستان وأفغانستان» ! - ومن دمشق لم يَصدُر أى تَعليق، وهو ما يمكن فَهمه لأن «دمشق» هذه اللحظة مشغولة بـ«عملية تَقييم» مُؤثرة على خيارات وعلى مصائر !)

● وفى لقائه مع مُمَثلى السُلطة الفلسطينية انتهز وزير الخارجية الأمريكى الجديد فرصة اللقاء لمحاضرة عن «وحدة القيادة».

بدأ فطالَب بوَقف العُنف، ورَدَّ «ياسر عرفات» بأن «السُلطة فعَلَت كل ما فى وسعها لتَهيئة أجواء مُناسبة للمفاوضات. لَكن «الطرَف الآخر» لم يَترُك وسيلة لتَعكير هذه الأجواء إلا انتهزها». ورَدَّ الجنرال القديم بأن «إسرائيل تقول بشىء آخر، ولدى أجهزتها معلومات مُفصَّلة عن تشجيع - بل وتَدبير - لعَمَليات إرهابية تُحَرِّض عليها وتقوم بها عَناصر من السُلطة» - لكن الذى يشغله أكثر وينبغى أن يشغل «عرفات» كذلك هو «أنه على الجانب الفلسطينى لا تُوجَد وحدة قيادة، فهناك قيادة «يُفتَرَض أنها» -! - شرعية، ولكن هناك من ورائها ومن حولها «قيادات أخرى» تُنازعها شرعية إصدار الأوامر، وذلك مُخالِف لأبسَط مبادئ «القيادة والسَيطرة»!»

وحَدَثَ مَوقف درامى فى لقاء «كولِن باول» مع «ياسر عرفات»، وكان ذلك حين طَلَب الجنرال الدبلوماسى من الرئيس الفلسطينى أن يَأمُر بوَقف العُنف - وعلا صوت «ياسر عرفات» وتَهَدَّجَت نبرة عباراته إلى حَدِّ الدموع وهو يقول مُرتَجِفاً : «تُكلِّمنى أنا عن وَقف العُنف ؟.. تَطلُب ذلك من القتيل ولا تَطلُبُه من القاتل ؟!» - ثم راحَ «ياسر عرفات» يحصى عَدَد القتلى من الرجال والنساء والأطفال - والبيوت التى تَهَدَّمَت - والمزارع التى خُرِّبَت - والجَرحى فى المستشفيات - وكله إلى جانب اقتصاد يَنهار، وسُلطة تَعجَز عن دَفع مُرَتَّبات مَوَظَّفيها «بمن فيهم رجال الأمن وحتى حَرَس الرئيس» !

□

ومن الملاحظات اللافتة أن الجنرال «كولِن باول» قام بتوجيه الدَعَوات لموسم زيارات الربيع لواشنطن وكأنه يريد أن يُوحى لسامعيه بأفضلية تأجيلها :

— من ذلك مثلاً إلحاحه على أن الإدارة الجديدة لديها عمليات مُراجَعة ضرورية لكل أولوياتها فى الداخل والخارج. وفى الداخل فإنه أشار إلى الاقتصاد الأمريكى وما جرى فى «أسواقه المالية»، وأحدَثَ هَزَّة فى المجتمع الأمريكى. وفى الخارج فإن «كولِن باول» أشار إلى «الخلافات مع أوروبا» ومع «روسيا» ومع «الصين»، وهى خلافات تَرجع إلى مُنافسات اقتصادية وسياسية - وإلى شكوك فى مشروع شَبَكَة الصواريخ المضادة للصواريخ الذى يَتَبَنّاه الرئيس «جورج بوش» وتَعمَل له إدارته.

ـــ ومن ذلك ما أضافه «كولين باول» بما معناه «أن الرئيس «بـوش» (الابن) له أسلوب فى التعامُل مع القضايا يَختَلف عن أسلوب سَلَفه «كلينتون» ـ بل ويَخـتَلف عن أسلوب والـده («بـوش» الأب) ـ ومن اخـتلاف الأسـاليب أن الرئيس الجـديد يُفـضِّل أن تَظلَّ عـلاقـتـه بالسياسات «علاقة تَوجيـه» وليست «علاقة تنفـيـذ». وهو عَـزوفٌ عن الدخـول فى التفاصيل، و«يُضايقه أن يُحاول أحد إدخاله فيهـا». وهو على اعـتقاد أن سَلَفـه أخطأ فى الدخول بنفسه إلى مُقترحـات مُحَدَّدة حملت اسمـه وتعَلَّقت بهـا «فـاعليـة» الرئاسـة فى الموضـوع الفلسطينى. وقـد وَقَـعَ ذلك أثناء اجتماعات «كامب دافيد» وتَكَرَّر فى اجتماعات «شرم الشيخ» وغيرها ـ والرئيس «بـوش» (الابن) يـرى أن الأطراف وَحـدهـم هُـم الذين يجب أن يَتَـوَصَّلوا إلى أية مُقتـرحـات يريدون طرحها من خلال عملية التفاوض ـ ولذلك فإن الرئيس الجديد «ليست لديه مُقترحات يُقَدِّمها» و«لن تكون لديه مُقترَحات يُقَدِّمها»».

ـــ ومن ذلك أن الدبلوماسى كـادَ أن يَختَفى تماماً وراء الجنرال حينما وَصَـلَ «كولين باول» إلى قوله «أنه يَتَمَنَّى أن لا يكون من شان أية زيارات عـربيـة قـادمـة إلى واشنطن زيادة فى التَّوَقُّعات لا داعى لها. خصوصاً وهو يُلاحظ «فـيـمـا سَـمَـعَ الآن» أن خطـر «العـراق» و«صـدام» ليس مَحسوساً فى المنطقة بالقَدر الكافى. فى حين أن هناك تَركيزاً أكثر من اللازم على «إسرائيل» و«شارون»!

ثم يَسـتَطرد «بـاول» ليـقـول «إن قـادة المنطقـة مَرجُـوُّون إذا ذهَبـوا إلى واشنطن أن يأخذوا فى اعـتبـارهم أن الإدارة الجديدة تنظر إلى المنطقـة ككُل واحـد لا يَتَـجَـزأ، وأن سـيـاسـتـهـا فيـهـا رَبطة كاملة من الخليج إلى البحر الأبيـض. ولا يسـتطيع أحد أن يُرَكِّز على «خَطـر» ويَنسـى «خطراً» غـيـره. ولا أن يطلب من أمريكا أن تَضـغط هنا على طَرَف، وأن تُخفـف هنـاك عن طَرَف غيره»!

□

وكـان ذلك كله يَجـرى وذلك كله يُقـال وهناك مؤتَمر عربى على مُستوى القِمَّة على وَشَك أن يَنعَقد فى عَمَّان.

[وبرغم أنه عند كتابة هذه السطور لم تَكُن القمَّة العربية فى عَمَّان قد انعقدت أصلاً ـ فـإنه من الصَّـعب تَصَـوُّر أن هذه القـمَّـة ـ عندما تُعلن قراراتها ـ سوف تستطيع الخروج على السيَاق العام للحوادث كما هو جـار الآن.

وبالتـالى فـإن «الأمـر الواقع» بالفـعل فَـرَضَ قائمـة أولويات مُختَلفـة!]

وقـــفــــة ســـابقــــة

مع «الصـديق الســوفـيــتى»

لو جـاز لأحـد أن يُفكِّر من خـــارج القـيـود والحـدود وعلى طريقـة «عَـواصف العقول» ـ brain storming ـ فقد يَخطر ببالـه أن يَعرض على القيادات العربية التى حَضَرَت قـمَّـة عَـمَّـان أو التى تَخَلَّفت عنهـا، وتلك المسافرة إلى واشنطن مع موسم الربيع، أو التى رأت تأجيل السَفـر ـ اقتراحـاً بإعادة قراءة ومُـراجَـعـة فـصـل من تجربة الرئيس «أنور السادات». لعل قراءته أو مُراجَعته أن تَستَعيد صدى صَيحة مشهورة له أطلقها سنة ١٩٧٢ ـ «عندما فـاض به الكَيْل» كـمـا كان يقول ـ وإذا هو يُعلنها «وَقفة مع الصديـق».

كانت «الوَقـفـة» أيامـهـا مع «الصـديق السوفـيتى» ـ وربما أن صَداها الآن يَطرَح إمكانية «وَقفة مع الصديق الأمريكى» ـ دون أن تكون «الوَقفة» بالضرورة من القاهـرة، أو أن تكون «الوَقـفـة» من عاصمة عَرَبيــة واحدة ـ فـهـذا مَـوقـعٌ يَتَّـسـع الآن لأكثـر من طَـرَف ويَحتـاج أكثر من طَـرَف لـ«وَقفة مع الصديق الأمريكى»!

والشـاهد أن تلك «الوَقـفـة مع الصـديق السـوفـيـتى» سنة ١٩٧٢ (قبل قرابة ثلاثين سنة) كانت مُخاطرة ـ لكنها مُخاطرة حَقَّقت طلبـهـا رغم المحـاذير. والواقع أنه لولا هذه «الوَقفة» لكان من المتعَيِّن تأجيل معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ إلى ظـرف آخـر يَصـعُب تقـدير موعده ـ أو لكانت المعـرَكة ـ فى أكتوبر ١٩٧٣ ـ نُوعاً من القُمار الأحمَق مُـؤدِّيًا إلى إفلاس مُؤكَّد!

ومع أن الرئيس «السـادات» أجـرى تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتى» بطريقـته الدرامية، وبأسلوب الصَدَمات الكهربائية ـ فإنه ليس من الضرورى أن تكون «الوَقفـة مع الصديق الأمـريكى» بنفس الطريقـة أو بذات الأسلوب.

لكن الواضح للـعـيـان هذه اللحظة أن العلاقات العربيـة ـ الأمريكية لا تستطيع أن تُواصل المشـى على «المَسارات» الحاليـة ـ وإلا فإن منطقة الشرق الأوسـط تكوَن مُقبلة على مَرحلة فيـهـا «دولة واحـدة مُسـتَقِلَّة» ـ هى إسرائيل!

ولعل الذاكرة الرسمية العربيـة تستطيع أن تَستَعيد فصـلاً من تَجربة «أنور السادات» ـ وليس من تَـجربـة غـيـره ـ بدون حَـرَج ـ لأن سياسات الرئيس «السادات» هى الأصل الذى ما زال مُعتَمَداً حتى الآن، تَـدُلُّ عليه الأفعال رغم التَّبايُن فى الأقوال.

وفى التمهيد لاستعادة تلك الصَفحة فقد يَستـذكـر القـارئون والمراجعـون أن العـلاقات العربيـة ـ السوفيتية تلك الأيام، بالتَحديد فى الفترة ما بين سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧٣ ـ كانت لها أهميـة غير مَسبوقة وغير مَلحوقة، لأنه فى تلك الأيام كـان الاتحـاد السوفيتى أهَـمّ نصـير دَولى لمطلب تحرير الأرض العَـرَبيـة. وكـان ـ وقـتـهـا ـ مَصـدَر السلاح الوحـيد الذى يمكن للـعَـرَب ـ بالـفـعل ـ استـعـمـالـه مع وسـائل سياسيـة واقتصادية إضافيـة ـ لتـحقـيق مَطلب تحرير الأرض.

وفى تلك الظروف لم يكن السـلاح مُـجَـرَّد وسـيلة ضـمن وسـائل ـ لكنه كـان المفـتـاح، وبغـيـره يَظَل البـاب مُغلقاً دون تحرير الأرض ودون العُبـور إلى مُسـتـقبل ـ لأن اسـتـمـرار احتـلال الأرض كان ارتهاناً للمستقبل فى أسـر الأمـر الواقع.

....

....

[وربما أجـرَب تَحويل صَدى تلك «الوَقفة مع الصديق السـوفـيـتى» إلى صـوت ـ وإلى صورة أيضاً. فقد كنت تلك الأيام أقرَب الناس إلى الرئيس «السـادات» (حسب وَصفه هو فى حديث صحفى أدلى به ـ شهر سبتمبر ١٩٧١ ـ نُشـرَ وقتها على نطاق واسع فى مصـر وفى العالم العربى) ـ ووقتها لم يكن ذلك الخلاف الذى قـام بيننا حـول دور السيـاسـة بعـد دور السـلاح فى مرحلة ما بعد أكتوبر ١٩٧٣ قد ظهَـرَ بَعد واستحكم.

وفى ذاكرتى وأوراقى فـإنه فى ربيع سنة ١٩٧٢ كان الرئيس «السادات» فى حـالة تَوَتُّـر تَعَدَّدت دواعيها :

١ ـ فيها تأخُر وصول صفقات سلاح من الاتحاد السوفيتى جرى التعاقد عليها فعلاً من قبل، وبعضها عقـود تحمل توقيع الفريق «عبد المنعم رياض» ـ أى أنهـا أواخـر سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٦٨.

٢ ـ وفيها أنه ألـحَّ فى طلب ما كان يُسَمِّيه «طائرة الـردع» ـ ويَقـصد القـاذفة المقاتلة بعـيدة المدى من طراز «تَوبوليف ٢٢» ـ لكنه لم يَحصُل على رَدّ ـ فى الغالب فإن السوفييت اعتبروا تَوريد هذه الطائرات لمصـر «تشجيعاً لتَـهَـوُّر مُحـتَـمَـل» يَندَفـع إلى ضـرب العُـمـق الإسرائيلى (بذريعة الرَدّ على غارات إسرائيلية فى العُـمق المصـرى) ـ وكانت للسوفييت فى ذلك حـسـابـاتهم، ومـعظمـهـا إزاء الولايات المتحدة.

٣ ـ وفيها شعوره بأن السوفييت يُقَدِّمون له «سلاحاً دفاعياً» وهو يُريد «سلاحاً هجومياً» (كذلك كانت رُؤيَته) ـ والنتيجة أنه غير قـادر حـتى على فـعـل عـسكرى مُـؤثِّـر ـ يَخلق أوضاعاً سياسية مُتوازنة.]

....

....

[وسـافـر الرئيس «السـادات» مرات إلى موسكو، وفى مرات أخرى إستقبل بعضاً من القادة السوفييت فى القاهـرة ـ وفى كل مرة كـان يطلـب ويرجـو، لكنه تَوَصَّل فى ربيع ١٩٧٢ إلى أن «إخواننا» (على حسب تعبيره) جعلوا «أذناً من طين وأذناً من عجين». وأنه لا بد من «هَـزَّة». وكـان ذلك وَصـفـه قـبـل أن يَتَوَصَّل إلى تعبير «وَقفة».

إن «الهَـزَّة» بدأت بمشهَد لم يسبق له (أو يَلحَق به) مـثـيل فى السـيـاسـة العـربيـة المعاصـرة. وقد جـرى هذا المشهَـد (٣١ مـايو ١٩٧٢) قـبل أسابيـع من «الوَقـفـة» التى أدَّت إلى طـرد الخبراء السوفييت من مصـر.

ولعل الرئيس «السـادات» أراد «للهَـزَّة» أن تُمَـهِّـد «للوَقـفـة»، وأن تكون نوعـاً من لَفت النظر إلى نفـاد صبـره. وقـد قـام بتـأليف مَشهَد هذه «الهَزة» وإخراجه وتمثيله بنفسه، وقد سمعتُ وقائعه منه مُباشرة وبحضور الفريق «محمد أحمد صادق»، وأشرتُ إليه كتابة (سنة ١٩٧٧) فى حياة الاثنين: الرئيس «السادات» والفريق «صادق»!]

....

....

[وكـانت بداية المشـهَـد أن الرئيس «الســادات» عَـرَف أن الماريشـال «إيجـور باتيسكى» قـائد الدفـاع الجـوى السـوفيـتى يقـوم بزيارة للقـاهـرة بدعـوة من الفـريق «محمد أحمد صادق» وهو وقتها وزير الدفاع المصرى. واتصل الرئيس «السادات» بالفريق «صـادق» يطلب أن يَتَضمَّن برنامج الماريشال السوفيتى لقاءً معه «لأنه يريد أن يَسمَع منه مباشرة عن حالة الدفاع الجـوى المصـرى».

وبالطبع جرى ترتيب مَوعد للماريشال مع الرئيس، واسـتغـرب الفريق «صَادق» حين تـمَّ إخطاره بأن «الموعد فى قصـر عابدين»، وأن الماريشال السوفيتى «مَطلوبٌ فيه وحده» أى بدون حضوره وهو مضيفه الرسـمى، فضلاً عن أن مـوضـوع المقـابلة وهو «حـالة الدفـاع الجـوى المصـرى» داخلٌ فى اختصاصه كوزير للدفـاع (بل إن الفـريق «صـادق» تَوَقَّع أن يُدعـى مـعـه اللـواء «محـمد على فـهـمى» قائد الدفاع الجـوى المصـرى).]

....

....

[ومساء نفس اليوم الذى وَقَـعَ فيه اللقاء بين «الرئيس المصـرى» و«الماريشــال السـوفـيـتى» كنت على مَـوعـد مع الرئيس «السـادات» فى بيتـه، ودَخَـل مَعى فى نفس اللحظة الفريق «محـمد أحمد صـادق» الذى كانت عَصَبيَّته بادية ـ وله الحـق ـ بسـبب استبعاده من مقابلة مع رَجُـل هو ضَيفه، ولشأن هو من صَميم اختصاصه.]

[وبـدأ الرئيس «السادات» وَصفه لتفاصيل المقابلة بينه وبين الماريشال، وكنت أسمـع فى «شَغَـف»، وكان الفريق «صـادق» يَسمَـع بنوع من «القَـرَف» لم يَسـتَطع ذلك الجُندى الذى «مـاتَ مُحترقاً بالوَطنيَّة» أن يُداريه.

وعلى نحـو ما فإن الرئيس «السادات» راح يَـروى تفـاصـيل المشـهـد ويُؤدِّيه بطبَقـات صوتـه وبتـعبيرات وجهـه وإشارات يَـده، وبدا لـى (فى بعض اللحظات) وكأنه يُحاوِل إغـاظـة وزيـر دفـاعـه .. وقـد أحَـسَّ بعَـدَم رضـاه عن استبعاده من المقابلـة.

وبـدأت رواية «الســادات» ـ وبالحـرف تقـريبـاً ـ وبزيادة التَّـشـويق قـائلاً : «آه يا محمـد .. لو أنـك كنت معـى».

[وكانت الملاحظة صالحـة لاثنين يَسمَعان روايتـه وكلاهمـا يبـدأ اسمـه بـ : «محـمـد» (محمد أحمد صادق ومحمد حسنين هيكل)] [.]

....

....

ويَحكـى الرئيس «السادات» :

«قَصَدتُ أن يكون اللقـاء مع «باتـيسكى» فى المقـر الرسـمى لرئاسـة الدولة فى قـصـر عـابدين، وكنت أريده وحده لكنه جـاء ومعـه السفير السوفيتى (فى مصـر وقتهـا «فلاديمير فينوجـرادوف») ومعـه أيضـاً كبيـر الخـبراء السوفييت (فى الجيش المصـرى وقتها الجنرال «فاسيلى لاشنكو») ومعـهم المتَرجـم «إيَّـاه» (يَقصد «أليكسى» المتَرجم الرسمى للسفارة السوفيتيـة وقتها). لم أستطع مَنـع هؤلاء من دخـول الاجتـمـاع (ووَجَّـه الكلام إلى الفـريق «صــادق») ـ وإلا تَحَـوَّل اللقــاء إلى أزمـة (مُـوَجِّـهـاً حـديثـه مـرة أخرى إلى الفـريق «صادق») ـ لو كنت أعـرف لطَلَبتُك مـعـهم ـ لكن ربما كان أفضل أنك لـم تَحضـر وإلا لوَجَدوا أنفسهم وَسَط فضيحـة «بجَلاجِل» وعليـهـا شاهد هو أنت بالذات !»

وبَـدا الفريق «صـادق» غيـر مُستَريح فى مقعَده، وملامح وَجهه تَتَكَلَّف أن تَبدو طبيـعيـة ـ ويُواصـل الرئيس «السادات» حكايتـه :

«قَـرَّرتُ أن تكون المقابلة فى قَصـر عابدين بأبَّهَتـه الملَكيـة ـ ورأيت أن أحضـرها بالملابس العـسكرية والعـلامات على كـتفـى عـلامـات القـائد الأعلـى للجـيـش المصـرى ـ فـيلـد مارشـال.

جَـوُّ عــابديـن أثـر على الثــلاثة وهُـم يَدخلون عندى فى المكتـب ـ وبدلـة فـيلـد مارشـال لفَتَـت نظرهـم بالتأكيد !

قلـت للجـمـيـع «تفـضلوا واجلسـوا ـ جَلَسـوا ـ وقُـمـتُ معـهم إلى صـالون المكتَب. رَحَّبتُ بالماريشال «باتيسكى»، وبعد أن جاءت القـهـوة وبـدأ اللقــاء «الجَـدّ» قُمـتُ من مكانى وَسَطهم فى الصــالون وذهبـتُ وراء المكتب وجلستُ على مقـعَده، وقلـت لـ«باتيسكى» : «هـل تَعـرف مَن أنـا ؟»

«الراجل اتخـبط» (كـذلك روى الرئيس «السادات»، وسَجَّلتُ عنه ـ بَعدها ـ ما روَى). (يَستَكمل الرئيس روايتـه) رَدَّ («باتـيسكى») علىَّ باسَـتـغــراب : «أنت الـرئيس أنـور السادات»!

قلـت له : «غير صحيح ـ نَظَـرُك ضعيـف يا ماريشال» !

زادَت «الحـيـرة» على وَجـه مـاريشــال الاتحـاد السوفيتى وعلى وَجـه «فينوجرادوف» (السفير) و«لاشنكـو» (كبير الخـبراء). وقلتُ له : «انظـر إلىَّ جَيِّـداً، مَن تـراه أمامك ؟ ومـا هـذا الرداء الذى ألبسـه ؟» ـ لـم يَفـهَـم «باتيـسكى» قـصـدى، واعـتـدل بجسـمـه الضخـم البدين فى مقعَده وقـال : «لا أفهَم يا سيادة الرئيس ـ أنتَ الرئيس «أنور السادات» وزِيُّـك هـذا هو زِىُّ «مـــاريشــال» إذا لم أكن مُخطئاً؟» !

وَرَدَدتُ عليـه وقلتُ : «نعـم ـ أمـامـك

رأى مسـتشـارو الإدارة الأمريكيـة الجـديـدة أن «أزمـة الشـرق الأوسـط لـم تبلـغ بعـد مرحـلة النضـج الضـرورية لحـلها» وأن علينـا «تركهـا للزمـن يزيحهـا إلـى زوايـا النسـيان»

كان رأى ريتشـارد هـاس أن أزمـة فلسـطين غيـر قـابلة للنضـج من الأسـاس لأنهـا تنطـوى ـ ضمـن عـوامل كثيرة ـ عـلى مقدسـات يصـعب أن يكـون لهـا «حل وسـط»



ماريشال، ولكن ليس الماريشال أنور السادات .. دَقِّـق النظـر جـيـداً .. أمــامك هـذه اللحظة الماريشـال جوزيف سـتالين بنفسـه بلَحـمِـه وشَحـمـه» !

ونَظـر «باتيسكى» إلى رفاقـه و«بُـرج من عَـقلـه على وشك أن يطيـر» ورَدَّدَ مُـتـسـائلاً : «جوزيف ستالين .. كيـف ؟ هو مـات من زمَـنٍ طويل ؟ و«أنـت هو أنـت» ـ قـالهـا المتَـرجم «سيادتكم هو سيادتكم»..»

ورَدَدتُ عليـه بشـدَّة : «لا يا مـاريشــال باتيسكى، الماريشـال سَتـالـين هـو الذى يُكَلِّمك الآن. لك أن تَعتَبر أن الماريشال الذى يُكَلِّمك الآن هو «جوزيف ستـالين»، وهو يَطلُب منك ويأمُرُك أن تنقـل إلى موسكـو الإسراع فى تَوريد سـلاح الردع الذى طلبناه منكم و«نشـف ريقنـا» فى تِكرار الطلب، وأنتم لا تسمعون.»

(ويَستَطرد الرئيس «السادات») :

«فينـوجرادوف نَبيـه، «فهِـم الفولـة» قبل أن يفـهـمـهـا «باتيسكى» وقـال لى ضـاحكاً : «سيادة الرئيس، خَلَعت قلوبنا من الخوف ؟» ـ ورَدَدتُ عليه : «سوف أخلَع قلوبكم فعـلاً إذا لم نَتَلَـقَّ منكم مـا طلبنـاه من سـلاح .. بَلِّـغ موسكـو بما سَمِعـت الآن مـنى» !»

واصَـلَ الرئيس «السادات» روايته :

«فكَّرتُـه بالقـديم والجـديـد ـ فكَرته أن «لسـانـى اهـتـرَا» وأنا أتَكَلَّـم مع الزعـمـاء السوفييت الثلاثة.

بريجنيـف (زعيـم الحـزب الشـيـوعى السوفيتى) كَلَّمتُـه مائـة مـرَة.

وبادجـورنـى (رئيس الدَولـة) كَلَّـمتُـه مائـة مـرة.

وكـوسـيـجـين (رئيس الوزراء) كَلَّـمتُـه مائـة مـرة.

قلـتُ لهم جـمـيـعـاً : «يا ناس أنا حليـف إسـتـراتيـجى لـلاتحـاد السـوفـيتى، لكنكم تتـركوننى خطوة أو خطوتين إلى الوراء دائمـاً بعد إسـرائيل ـ الأمريكان يَضمَنون لإسـرائيل خطوة أو خطوتـين قـبلنا، وهذا يـضـعنـا فى موقـف صعـب سوف يُؤثـر علينا وعليكم».

بعد أن تَكَلَّمتُ مع كل الزعـمـاء فى الاتحـاد السوفـيتى لم يَـعُـد أمامى إلا أن أجـىء إليكم بـ«سـتـالين» ـ وهـا هو «سـتـالين» أمـامكم يُكَلِّمكم، وأنتم تعرفون «ستالين» لا يَطلُب ولكن «يأمُـر» ـ ولا يَنتَظِر ولكن «يَذبَـح» !»

تَوَقَّـف الرئيس «السادات» عن الرواية لأن صَوت قرينته السيدة «جيهان السادات» جاءنا من الردهة الخارجية للصالون الذى كنا نجلس فيه نَسمَع روايتـه ـ ثم دَخَـلَ سكرتيره السيد «فوزى عبد الحـافـظ» يُقَدِّم إليه ورقـة، وقـام إلى خـارج الصالون قـائلاً «أنه سوف يعـود فى دقـيـقتين» ـ وفـور خـروجـه التـفت الفـريق «صـادق» إلىَّ وسـألنى : «هـل هذا كـلام جَـدّ ؟ هل أعجَبَتكَ هذه التَّمثيلية ؟» ـ وحـاولتُ أن أخفِّـف عنه، ولـم يَبـدُ أننى أقنعَته كى يُفسِـحَ صَدره للأسلوب ويُركِّـز أكثر على المعـنى. لكن الفـريق «صــادق» مَـضـى يُكَرِّر وعــلامـات التَّـعَـجُّب كلهـا على وَجـهـه : «سـتـالين إيه «ياعَـم» .. هـل مَعـقـول هذا الكَلام ؟!» ـ ولم يَبـدُ الفريق «صادق» سعيداً حين رَجَوتُـه مرة أخـرى أن يَتَـقـبَّـل الرواية على عِـلاتـهـا، وأن يَنتَظِر حتى نـرى «النتيجـة».

وعـاد الرئيس «الســادات» إلى الصــالون الذى كنا فـيـه (الفـريق «صـادق» وأنـا) ـ وأحَـسَّ بالـغـريزة أن هناك تَبايُناً فى «تَقبُّـل» روايتـه بـين الفريق «صـادق» وبينى، وكـان تعليقه مُوَجِّهـاً الكلام لـى : «صـادق عسكرى مَكـوى بالنشـا ولـن يَفهَم «الدرامـا» فى الموقف الذى حكيتـه لكمـا ـ لكنك أنت سـوف تَفـهَم».

وانتـقلنا إلى مـوضـوع آخـر. ثـم خَـرَجتُ مع الفريق «صادق» وقد قاربَ الليل مُنتَصَـفه. كلانا عائـد إلى بيتـه، لكن الفريق «صادق» لم يَنـسَ قبل أن يُفارقنى أن يَسـألنى : «هل فهمت الدرامـا فى الموقف ؟» ـ ثم أضـاف سـاخطاً : «سـتـالين قال !!» ـ وكـانت عـلامـات «الغَـم» مرسـومة بخطوط ثقيلة على مَلامـح وزيـر الدفاع المصـرى والقائد العام للقوات المسلحـة.

وكانت تلـك بداية عمليـة طـرد الخـبراء السوفييـت التى بَلَغَت ذروَتها بعد ذلك بخمسة أسابيع بالضبط !

....

....

وقد سَمِـعتُ من الرئيس «الســادات» بعـد ذلك (ومُـبـاشـرة أيضـاً) تـفـاصـيل إبلاغ السوفييـت بقـراره طـرد خبرائهم، وقد وَقَـعَ هذا الإبلاغ أثنـاء لقائه بالسفـير السـوفيـتى («فلاديمير فينوجـرادوف») عندمـا استـدعـاه يوم ٩ يونيـو ١٩٧٢.

....

....

والذى حَدَث أنه فى صبـاح اليوم التـالى، كنت على شاطئ «المنتَزَه» بالإسكندرية، ودَقَّ جَـرَس التليفون، والطالـب هو السيـد «فوزى عبد الحافظ» سكرتير الرئيس «السادات» يقول أنه ســوف يُوَصِّلنى بـالرئيس لأنـه يُريـد أن يَتَـحَـدَّث مـعـى. وجـاءنى صـوت الرئيس «السادات» بغـير مـا انتظرت، فقد تَوَقَّـعتُ أنه سوف يعود مرة أخرى إلى إبـداء عَدَم رضـاه عن سلسلة من المقـالات كنت أكـتـبـهـا فى ذلك الوقتَ تَحت عنوان «حــالـة اللا سلـم واللا حَـرب»، وكنت قد ألمحتُ فى إحدى حلَقاتها إلى أن الاتحـاد السـوفيتى هـو المستفيد الأول من حــالـة اللا سلـم واللا حَـرب، وشـرَحـتُ أسـبــابى، ولم يكـن

الرئيس «السادات» مُوافقاً على الطرح ولا على أسبابه. فقد ظلَّ على يَقين برغم إنذاره الدرامي للسوفييت عن طريق الماريشال «باتيسكي» بأنه إذا كان على العَرَب أن يُحاربوا فليس أمامهم مَصدر للسلاح غير الاتحاد السوفيتي، ومن هنا فإنه لم يكن مُتَحَمِّساً لأي «كلام في العَلَن» يُؤخَذ على مَحمَل «لوم السوفييت».

وبتَحَسُّب مُسبق لانتظار ما سوف يقوله بادرتُه في التليفون - ونحن في يوم جمعة، ومقال «بصراحة» مَنشورٌ (كالعادة أسبوعياً) على الصفحة الأولى من عَدَد «الأهرام» الصادر يومها:

«أظن أن لديك مُلاحَظة على ما كتبته اليوم؟» - ورَدَّ بأنه لم يقرأ المقال بَعد! - ثم سألني: «ما الذي أخذك إلى الإسكندرية دون أن تقول لي؟» - ولم ينتظر رَدّاً وإنما واصَلَ كلامه: «يقولون أنك صحفي لا يفوتك خَبَر؟ سافرتَ إلى الإسكندرية وفاتَ عليك خَبَر يُساوي نصف عُمرك؟» - ولم ينتظر وإنما استكمل: «تعال إلى عندي في القناطر وتَغَدَّى معي (في الساعة الرابعة بعد الظهر) وسوف تَسمَع ما فاتك».

وفي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر وَصَلتُ إلى حيث كان في استراحة القناطر، وجَلَستُ إليه أسمَع منه، ومُعظم تفاصيل القصة بعد ذلك مَعروفة، وقد نشرتُ تفاصيلها من قبل، ونشَرَ غيري ما وَصَلَ إليهم منها.]

....

....

على أن الأهَمّ من رواية التفاصيل في هذا الحديث هو استخلاص وتركيز الأسباب التي دَعَت الرئيس «السادات» إلى تلك «الوقفة مع الصديق السوفيتي» سنة ١٩٧٢ - وكانت تلك الأسباب كما رآها الرئيس «السادات»، وبكلماته تقريباً - على النحو التالي:

١ - أن الاتحاد السوفيتي «لا يُعطينا ما يَكفي لتحرير أرضنا». فهو يُعطينا بالقَطّارة، ونحن لا نستجدي وإنما «نشتري». وصحيح أننا نتأخر أحيانا في التسديد، لكن الصحيح أيضاً أننا في النهاية «ندفع»!

٢ - أن الاتحاد السوفيتي يَحجُب عنا «سلاح الردع»، وهذا يزيد طَمَع إسرائيل فينا إذ تَعلَم أنها «تطولنا» ونحن لا «نطولها».

٣ - أن القيادة السوفيتية لا تَتَفَهَّم ضرورات وحقائق موقفنا، وأسوأ الجميع هو رئيس الوزراء «أليكسي كوسيجين» الذي يَنعكس في كلامه إعجاب خفي بإسرائيل - وبالتالي فهذه القيادة لديها مَشاعر نحونا لا بد من جلائها. ثم أنه على الناحية العقائدية في قيادة الحزب رجالٌ مثل «سوسلوف» (عُضو المكتب السياسي السوفيتي لشئون الحزب) ومعه مُساعدوه «بانامارييف» و«مازاروف» - يَرون أن تَعاون بلادهم معنا استثمار سياسي ضائع. وفي الحقيقة (يَظُن الرئيس «السادات») أن بين أعضاء اللجنة المركزية عَدَداً من اليهود يَعملون سِرّاً لصالح إسرائيل، ويَفتحون معها اتصالات تحت الأرض رغم أن العلاقات الدبلوماسية بين موسكو وتل أبيب مقطوعة منذ سنة ١٩٦٧.

٤ - وأخيراً (يُضيف الرئيس «السادات») أنه فوجئ بالبيان المشترك الذي صَدَرَ بعد اجتماع الرئيس الأمريكي «ريتشارد نيكسون» والزعيم السوفيتي «ليونيد بريجنيف» في موسكو قبل ثلاثة أسابيع، وضايقته عبارة جاء فيها أن الطرفين اتفقا على ضرورة السَعي إلى حالة من «الاسترخاء العسكري» في الشرق الأوسط، وهذا معناه «أن الروس اتفقوا مع الأمريكان علينا».

....

....

[وعندما سمعتُ من الرئيس «السادات» ذلك السبب الذي ضايقه في البيان الأمريكي السوفيتي حاولت لَفت نظره إلى أن وَصف «الاسترخاء العسكري» جاء في سياق البيان لاحقاً ومُترتباً على «الوصول إلى تسوية عادلة لأزمة الشرق الأوسط» - لكن الرئيس «السادات» أصَرَّ على أن الكلام «مائع». ومع تسليمه بأن ترتيب السياق كما شرحته له صحيح - فقد كان من الواضح أنه ليس على استعداد للوقوف الآن والتدقيق لأنه اتخذ قراره، وتصرَّف فعلاً بمُقتضاه.]

....

والحاصل أيامها أن عَدَداً من مُستشاري الرئيس «السادات» وأصدقائه (وكنت بينهم) كانوا على معرفة بأسباب ضيقه، لكنهم (وبغير استثناء تقريباً) تَحَفَّظوا على خطوته التي بدت لهم «رِهاناً بكل الرصيد على المكشوف» (حسب وَصف مستشاره القانوني وقتها الدكتور «محمد عبد السلام الزيات» وهو يومها في مَنصب نائب رئيس الوزراء) - وكان تقدير الجميع (تقريباً) أن ذلك «الرِهان» يمكن أن يُؤدي إلى خسائر فادحة - إلا أن الرئيس «السادات» ظلَّ على ثقة بأن مُناوَرته ضرورية «حتى يَعرف رأسه من رجليه» و«حتى نحسب حسابنا على نور».

وربما أن ذلك كان ما دَعا عَدَداً من كبار مساعديه - وبينهم (في تلك الأيام) رئيس وزرائه الدكتور «عزيز صدقي» ونائبه السيد «محمد عبد السلام الزَيات» ووزير دفاعه الفريق «محمد أحمد صادق» (رغم حساسيته الشديدة للسوفييت) ووزير خارجيته الدكتور «مراد غالب» (وكان قبلها ولسنوات طويلة سفيراً في موسكو) واللواء «أحمد إسماعيل علي» (وهو وقتها مدير المخابرات العامة) - أن يبذلوا جهوداً خارقة للعادة كي يمسكوا بالزمام ويحولوا دون قفزة إلى المجهول لا تُضمَن عَواقبها.

وهكذا سافر وفدٌ كثيف منهم إلى موسكو لجهد خارق تحَوَّل به مَجرى الحوادث فعلاً - وعاد الوفد الذي رأسه الدكتور «عزيز صدقي» ومعه برنامج تفصيلي ومُحَدَّد بطلبات سلاح سبق التعاقد عليها وتأخَّر توريدها، وهي الآن جاهزة للشحن، ومعها موافقة على طلبات جديدة قدَّمها الوفد المصري إلى موسكو، وقد جرى تحديد مواعيد نهائية مُتلاحقة لتسليمها في الإسكندرية.

ونجَحَت مُناورة «السادات» في «المقامَرة على المكشوف» بصرف النظر عما إذا كان النجاح رِهاناً مَضموناً من الأصل، أو أن سفر وفد مصري رفيع المستوى أنقذ الموقف في موسكو.

وفي كل الأحوال فإن تلك «الوقفة مع الصديق» بأسبابها الموضوعية، ووقائعها المثيرة، و«مشاهدها الدرامية» - أدَّت إلى تَوافُر «حَجم وقدرة» السلاح الذي حَقَّق ما تَحَقَّق في أكتوبر سنة ١٩٧٣ من أوَّله إلى آخره - ولم يكن هناك سلاحٌ غيره يستطيع مُحاربة إسرائيل - ولم يَكن هناك غيره على الإطلاق في ميادين القتال!



والتاريخ لا يُعيد نفسه - لكن الحقائق المتشابهة تخلق أحياناً ضرورات مُتقاربة.

والحاصل أن حقائق اليوم تجيء وكأنها عملية استنساخ لحقائق الأمس، وعلى نحو شديد التشابه إلى درجة التماثل - وفي الغالب فإنه يَستدعي نوعاً من رَدِّ الفعل يأبَى الوقوف أسير سكون تتآكل فيه المواقف بالضعف إلى حَدِّ السقوط - ولعله على نحو ما يستدعي - وإن بأسلوب مُختلف - «وقفة مع الصديق الأمريكي» هذه المرة.

ولقد كانت حقائق الأمس مُثيرة للقلق وَسط «حالة حرب» - وحقائق اليوم الجديدة «بالاستنساخ» وسط حالة سلم لا تثير القلق فقط - لكنها تُحوِّل السلام إلى «إهانة» لا يَقِلّ أذاها عن الوقوف على حافة الخطر. ذلك أن «حالة الخطر» فيها كرامة اليَقظة والتحفز - وأما «حالة الإهانة» فليس لديها غير الانكسار والهوان!

□

ولإعادة التأكيد فإن الدواعي الرئيسية لتلك «الوقفة مع الصديق السوفيتي» سنة ١٩٧٢ - كانت ثلاثة:

١٩٧٢ - ٢٠٠١

- السلاح الذي نشتريه وندفع ثمنه - وعَدَم كفايته.

- والتفَهُّم الذي ننتظره من «صديق» - لكنه يَتَلكَّأ في تناوُل الأمور ويتسكَّع.

- والشَكّ في عناصر على مستوى القيادة هناك أو في بعضها - ومَبعثه ظنون حول وجود «يهود» هناك مُتعاطفين مع إسرائيل.

- وبيانات وَقَّع عليها «الصديق» - أو شارَك في التوقيع عليها - وفيها «ميوعة» يَصعُب قبولها.



وبقياس الدواعي السابقة لـ«وقفة مع الصديق السوفيتي»، مع الدواعي المستجدَّة التي قد تستدعي «وقفة مع الصديق الأمريكي» - فإن الفارق يُصبح مَهولاً!

١ - في موضوع السلاح - أولاً - فإن العَرَب الذين اشتروا السلاح السوفيتي والذين كان في مقدورهم - ولو نظرياً - استعماله لِرَدِّ عُدوان إسرائيل أو تَوَسُّعها - كانوا ثلاث دُوَل: مصر وسوريا والعراق.

وفي الفترة ما بين سنة ١٩٥٥ - عند عَقد أول صفقة سلاح بين مصر والاتحاد السوفيتي - وحتى سنة ١٩٧٥ - حين ظَهَرَ ما أُطلق عليه في ذلك الوقت سياسة «تنويع مَصادر السلاح» - بَلَغَت عقود التسليح بين القاهرة وموسكو ما قيمته ١٤٠٠ مليون روبل - أو نفس الرقم بالدولار - طبق سعر الصَرف الرسمي أيامها. وبَلَغَت قيمة ما سَدَّدته مصر من قيمة هذه العقود نصف بليون فقط - وقد تَمَّ سَداد معظمه في إطار اتفاقيات دفع - أي أنه كان سلاحاً في مقابل سلع (ضمنها قطن وأثاث ومُستحضرات تجميل!)

وفي نفس الوقت فإن سوريا تَعاقَدَت - حتى سنة ١٩٧٥ - على ما قيمته ٨٠٠ مليون روبل - سَدَّدت نصفها تقريباً.

وتَعاقد العراق - حتى سنة ١٩٧٥ - على ما قيمته ٦٠٠ مليون روبل (وكانت مُشترياته من السلاح - في تلك المدَّة - أكثر، لكن جزءاً منها كان من مصادر غير سوفيتية).

وفي السنوات الممتدَّة ما بين ١٩٥٥ إلى ١٩٧٥ - أي مسافة عشرين سنة - بَلَغ حجم المشتريات العربية كلها من السلاح السوفيتي - وفق بيانات مَعهَد «سيبري» SIPRI السويدي الذي يَتَوَلى مُتابَعة نفقات التسليح في العالم - ما قيمته الإجمالية ٢٨٠٠ مليون روبل - أي ٢٫٨ بليون دولار بسعر الصَرف الرسمي وقتها.

وفي هذه السنوات العشرين خاضَ العَرَب وفي ترساناتهم وفي أيديهم هذا السلاح السوفيتي - حرب السويس سنة ١٩٥٦ - وحرب سيناء سنة ١٩٦٧ - وحرب الاستنزاف من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠ - ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣.

أي أن السلاح السوفيتي - وَضَعَ في ترسانات العَرَب وفي أيديهم ما يُمكن أن يُقاتلوا به. وقد خسروا بعض معاركهم، وانتصروا في بعضها الآخر - على أنهم في

كل الأحوال لم يَستسلموا - وإنما ظلوا على أقدامهم يُقاومون رغم أن جراحهم كانت بليغة فى بعض الأحيان.

وقد تَطلَّب الأمر «وَقفة مع الصديق» السوفيتى - بَدَت ضرورية عندما أحَسّ «السادات» بتَرَدُّد هذا «الصديق» فى تَوريد السلاح كَمًا ونوعًا، وعلى نَحو «جَعلَه خطوة أو خطوتين وراء إسرائيل» - حسب تعبيره.



مع «الصديق» الأمريكى فإن السلاح قصةٌ غريبة وعجيبة - ومُحزنة أيضاً!

ذلك أنه طبقاً لتقارير مَعهَد «سيبرى» SIPRI السويدى نفسه - وآخرها تقريره عن سنة ٢٠٠٠ - بشأن التكاليف العسكرية فى السنوات العشرة الأخيرة فقط - فإن العَرَب دَفعوا فى شراء الأسلحة ما قيمته ٥٠٥٦٠٠ مليون دولار (أى مائتين وخمسين مَرَّة تقريباً أكثر مما دَفعوه فى السلاح السوفيتى على مَدى عشرين سنة وأربع حروب آخرها أكتوبر ١٩٧٣!) - والعُقود فى غالبيتها الساحقة أمريكية والدَفع فَورى وأحياناً مُقدَّماً، والدليل أن نصيب السعودية وحدها فى هذه العقود ١٨٤٠٠٠ مليون دولار. ثم إن تقرير مَعهَد «سيبرى» يُلاحظ أنه لم يَجِد أرقاماً يَتَحمَّل مسئولية نشرها فى تقاريره عن مُشتريات السلاح فى ثلاثة بُلدان عربية هى: العراق - وليبيا - وقطر (!).



ومن المفارقات اللافتة للنظر أن حجم مُشتريات «سَلطَنة عُمان» من الأسلحة (طبقاً لتقرير مَعهَد «سيبرى») عن سنة ١٩٩٩ وحدها تبلُغ قيمته ١٦١٤ مليون دولار، وهو مَبلغ يُساوى ضعف ما دَفعَته مصر وسوريا من السلاح السوفيتى طوال الفترة من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٧٥ - (على مَدى عشرين سنة وأربع حُروب آخرها أكتوبر ١٩٧٣).

يَزيد على ذلك أن السلاح العَرَبى الحالى لا يَبدو من مُجمَل ما تقوله - وتَتصرَّف به - السياسة العَرَبية الراهنة - كافياً أو مُستَعداً - وذلك كلام مَسموع بالتصريح وبالتَلميح، ومَنشور عَلناً ومَنسوباً إلى مَسئولين كبار - وبرغم ذلك لا يَتوَقَّف أحد ليَسأل ويَتَساءل، ولا يُفكِّر أحد فى أن تلك كلها دَواعٍ لـ«وَقفة مع الصديق الأمريكى» سنة ٢٠٠١ - تَستلهم - وليس بالضرورة تُكَرِّر - تلك «الوَقفة» التى اتخذها «أنور السادات» مع «الصديق السوفيتى» سنة ١٩٧٢!

(والقضية ليست قضية سلاح يُساق إلى مَيادين القتال، ولكن القضية بالدَرَجة الأولى قُدرات لها مِصداقيّة إلزام كل طَرَف بحَدِّه!)

□

٢ - بين الأسباب الرئيسية التى دَعَت «أنور السادات» إلى «وَقفة مع الصديق السوفيتى» - وهذا هو السبب الثانى بينها - «التلكُّؤ فى تَناوُل قضايانا والتَسكُّع فى فَهمها!»



ربما كان مفيداً أن نتذكر أن الوقفة مع «الصديق السوفيتى» قبل ثلاثين سنة كانت مخاطرة.. لكنها مخاطرة حققت طلبها رغم كل المحاذير

لا أحد يطلب أن تكون «الوقفة مع الصديق الأمريكى» من نفس عيار تلك التى كانت مع «الصديق السوفيتى».. إلا أن دواعى الأمن القومى والاستقلال - وحتى الكبرياء الوطنى - تفرض أنه فى لحظة ما - بوسيلة ما - بأسلوب ما - لابد من «وقفة مع الصديق الأمريكى»



ومن المفارقات أنه كان يُقال للعَرَب باستمرار:

- «إن الولايات المتحدة لن «تُساعد» ما «دُمتُم» أصدقاء للسوفيت». وقد انتهت الصداقة العَرَبية السوفيتية - ولم يَعُد هناك اتحاد سوفيتى من الأصل - بل إن العَرَب شاركوا عَمَلياً فى سُقوطه (وتلك قصة أخرى مثيرة).

- وأن الولايات المتحدة لن «تَسمَع» منهم ما داموا «مُصرِّين على إلقاء إسرائيل فى البحر» - ومع أن مَقولة «إلقاء إسرائيل فى البحر» لم تَرِد على لسان مسئول عَرَبى واحد - فإن الولايات المتحدة واصلت الادِّعاء بها، برغم أن بعض العَرَب وَصلوا إلى اعتبار ٩٩٪ من أوراق الحَل فى يد الولايات المتحدة، كما وَصلوا جميعاً - تقريباً - إلى اعتماد السلام «خياراً إستراتيجياً» لا رَجعَة عنه - وبالفعل فإنهم مارسوا ذلك الخيار الإستراتيجى فى وَضح النهار على امتداد طريق طويل - واصل من أسوان إلى واشنطن، ومن كامب دافيد إلى أوسلو. (هذا غير ما يَجرى على طُرُق أخرى تحت جَنح الظلام!)

وبالزيادة على ذلك فإن النُظُم العَرَبية نَزلت بالصراع العَرَبى الإسرائيلى دَرَجات، فلم يَعُد الصراع صراعاً، وإنما تَنازلَ ليُصبح «مشكلة» - ولم تَعُد المشكلة عَرَبية - إسرائيلية، وإنما تَنازلت لتُصبح «فلسطينية - إسرائيلية» - ثم تَدهوَرت أحوالها فلم تَعُد «قضية»، وإنما أصبَحَت «عُنفاً» لا بد من وَقفه قبل الجلوس إلى موائد الدبلوماسية من جديد بعد سنوات من الدبلوماسية قديمة وعَقيمة تَوَصَّل بعضها إلى اتفاقيات وَضَع «الصديق الأمريكى» توقيعه ضماناً لها!

ثم كانت مُحصِّلة ذلك كله أن وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية - «الدبلوماسى الجنرال» - جاءهم سنة ٢٠٠١ ليطل على المنطقة وهى تَستعد لمؤتمر عَرَبى على مستوى القمة - لإبلاغ من يلقاهم: «أن عَدوَّهم هناك فى بغداد وليس هنا فى تل أبيب»!

ومع ذلك لا يَحدُث شىء - ويَبدأ موسم الربيع فى واشنطن ولا يَخطُر على بال أحد أنها الآن بالضرورة لا بُدَّ أن تكون «وَقفة مع الصديق الأمريكى» سنة ٢٠٠١ - مثلما كان مع «الصديق السوفيتى» سنة ١٩٧٢!

□

٣ - تجىء - ثالثاً - مسألة الاشتباه فى وجود تأثير يهودى على قرار «الصديق السوفيتى».

وكان ذلك التأثير اليهودى الذى لَمَحه الرئيس «السادات» - ومعه الملك «فيصل» مَلك السعودية وقتها - نوعاً من الظنون والرِّيَب.

لكنه فى حالة «الصديق الأمريكى» - فإن التأثير اليهودى على واشنطن تَجاوَز الظنون والرِّيَب ليُطالع الجميع بحقائق لا تَحتمل الإنكار!

وعلى سبيل المثال فقد قيل - !- أن «بيل كلينتون» كان أكثر رئيس أمريكى فى تاريخ الولايات المتحدة - اهتم بأزمة الشرق الأوسط، وكَرَّس أكبر جهد لحَلِّها، وشارك بنفسه فى تقديم مُقترحات لفَكّ عُقدها، وكان وجوده فى البيت الأبيض فرصةً ما بعدها فرصة - لكن الحقيقة أن قائمة اليهود فى القيادة العليا الأمريكية فى عهد «كلينتون» لابد لها أن تُلفت النظر، وتُخَفِّف ولو قليلاً من حماسة المُتَحمِّسين لـ«كلينتون» ومُقتَرحاته، وفى القائمة مُثلاً وعند المستوى الأعلى:

«مادلين أولبرايت» وزيرة الخارجية - «روبرت روبين» وزير الخزانة - «ويليام كوهين» وزير الدفاع - «جورج تنيت» مدير المخابرات المركزية الأمريكية - «صمويل بيرجر» مُستشار الرئيس للأمن القومى - «رَهم إيمانويل» كبير مُستشارى الرئيس - و«جون بودستا» رئيس أركان البيت الأبيض - «آلان جرينسبان» رئيس بنك الاحتياطى الفيدرالى - «أيفلين ليبرمان» المشرف على الإذاعات الخارجية بما فيها صوت أمريكا - «سوزان توماسيس» كبيرة مُساعدى «هيلارى كلينتون».

وهناك قوائم بكبار المسئولين اليهود فى الإدارة الأمريكية تشمل مئات من رؤساء الوكالات، ومساعدى الوزراء، ورؤساء الإدارات، ومديرى الهيئات. هذا غير السفراء فى وزارة الخارجية، حيث تَذكُر أوراق الخارجية الأمريكية نفسها أن سُفراء الولايات المتحدة فى ألمانيا - وفرنسا - وبولندا - والدانمرك - وهنجاريا - ورومانيا - وبلجيكا - وبيلاروس - وجنوب أفريقيا - والهند - وتركيا - ونيوزيلندا - ومصر - وإسرائيل - والسويد - والمغرب - وسنغافورة - وزامبيا - والبرازيل - والمكسيك - وكندا - وكوبا - والنرويج - وسويسرا - جميعاً من اليهود، وفوقهم السفير «دنيس روس» المسئول لأكثر من عشر سنوات عن إدارة «مسيرة السلام» فى الشرق الأوسط!

ويَستوجب التأمُّل والدَرس أنه فى مؤتمر «كامب دافيد» سنة ١٩٧٨ (الذى حضره الرئيس «السادات» مع الرئيس «جيمى كارتر») لم يكن فى الوفد الأمريكى غير يهودى واحد هو «صمويل لويس» (سفير الولايات المتحدة فى إسرائيل)، وبقيَّة الأعضاء مسيحيون.

وفى «كامب دافيد»



عمارة الفقراء

وُلد حسن فتحى فى عام ١٩٠٠ لأسرة من ملاك الأراضى، وتخرج فى مدرسة المهندسخانة عام ١٩٢٥، وسافر إلى باريس حيث درس الفنون الجميلة، وعاد إلى مصر ليصبح أول معيد مصرى فى كلية الهندسة، ثم عين رئيسًا لقسم العمارة بكلية الفنون الجميلة عام ١٩٥٣.

وحصل على جوائز عديدة بينها جائزة الدولة التقديرية فى الفنون والعمارة عام ١٩٦٩، وجائزة الأغاخان للعمارة عام ١٩٨٠.

توفى حسن فتحى عام ١٩٨٩.

والفقرات التى نعرض لها من كتابه «عمارة الفقراء» الصادر بالإنجليزية وترجمه للعربية مصطفى إبراهيم فهمى.

١ ـ العمارة والتراث

العمارة مازالت من أكثر الفنون تعلقًا بالتراث، وعمل المهندس المعمارى يقصد به أن يتم استخدامه، وشكل العمل يتحدد إلى حد كبير بما سبقه، وهو يقام أمام الجمهور حيث يجب أن يراه أفراده كل يوم. وينبغى أن يحترم المهندس المعمارى أعمال سابقيه ويحترم إدراك الجماهير وذلك بألا يستخدم معماره كوسيلة للإعلان الشخصى. والحقيقة أنه ما من معمارى يستطيع تجنب استخدام عمل المعماريين السابقين له؛ ومهما كان ما يبذله من جهد جريا وراء الأصالة، فإن الجزء الأكبر من عمله يكون إلى حد بعيد منتسبًا إلى تراث أو آخر. فلماذا ينبغى إذن أن يزدرى تراث بلده هو نفسه أو منطقته. ولماذا ينبغى أن يجر تراثًا أجنبيًا فى تركيبات مصطنعة وغير مريحة.



لماذا أصبح مستحيلا
سنة ٢٠٠١ (مع الصديق الأمريكى)
ما كان ممكنا حتى سنة ١٩٧٢
(مع الصديق السوفيتى).
أو شىء منه؟

الفلسطينية («كلينتون» و«ياسر عرفات» سنة ٢٠٠٠) كان الوفد الأمريكى كله يهوداً إلا مسيحى واحد هو «بيل كلينتون» نفسه !!

وفى سنة ١٩٧٢ فإن الرئيس «السادات» حين ساوَرَته شكوك فى تأثير يهودى على القادة السوفييت الملحدين ـ جَعَلَها «وَقفة مع الصديق». وفى سنة ٢٠٠١ والشكوك حقائق ثابتة، واليهودية فى الحالة الراهنة ليست مُجَرَّد ديانة وإنما هى صهيونية لا تُدارى هَواها ولا وَلاءها ـ ومع ذلك فإن أحداً لا يَجدها داعية «لوَقفة مع الصديق» !



وربما أن هذه النقطة تَتَّسع لملاحَظة ضرورية ـ داعيها تَصَوُّرٌ له أنصاره يَرى أن هذا العَدَد من اليهود الذين كانوا فى إدارة «كلينتون»، والذين كان مُحتَمَلاً أن يزيد عَدَدُهم أكثر لو أن «آل جور» فاز بالرئاسة ـ عَهدٌ مضى وانتهى حسابه لأن «جور» سَقَط، ونَجَحَ بَدَلاً منه «جورج بوش» (الابن) الذى لا يُوجَد فى إدارته وزير يهودى ـ هكذا يُقال ـ! ـ لكن هذا التَصَوُّر يَنسى فارقاً أساسياً بين التاثير اليهودى على الحزب الديمقراطى ـ وذات التاثير على الحِزب الجمهورى.

والواقع أن كلا الحزبين مَفتوحٌ لإسرائيل وعليها بنفس الدَرَجة الحَميمة.

● لكن الحزب الديمقراطى مَفتوحٌ لها وعليها عن طَريق يهود الولايات المتحدة (وبينهم مَن هو مَحسوب على اليسار الليبرالى المعتَدِل) ـ ولذلك فإن وجودهم فى واشنطن يَظهَر ويَملأ مساحة كبيرة من الصورة مع أى رئيس ديمقراطى هناك.

● والحِزب الجمهورى مَفتوحٌ لها وعليها مُباشرة عن طريق الدور الإستراتيجى لإسرائيل فى الشرق الأوسط ـ ولذلك فإن الوجود اليهودى فى واشنطن قد لا يَبدو ظاهراً، لكنه يَملأ مساحة كبيرة من خريطة المنطقة هنا فى الشرقِ الأوسط.

أى أنه اختلاف فى طُرُق الاقتراب من واشنطن لإسرائيل فى حالة ـ أو من إسرائيل إلى واشنطن فى الحالة الثانية، وفى الحالتين فإنه ليس زيادة أو نقصاً فى التاثير.

ويَكفِى للبُرهان على هذه الحقيقة استعادة تَوَجُّهات الحِوار الرئاسى ـ والذى كان بمثابة افتتاحية لإدارة «بوش» (الابن)، وبمُقتَضاه تَغَيَّرَت أولويات الشرق الأوسط، وضِمنها : تَصعيد بَند العراق ـ تَنزيل بَند فلسَطين ـ وإعلان التغيير بضرب بغداد. ومن هنا ـ على حسب تعبير «بول وولفويتز» ـ «يكون على العَرَب أن يَسألوا، وعلينا أن نُجيب بأنه تغيير فى الأولويات وليس أمامهم غير قُبوله» ـ وبالفعل فإن العَرَب سَمعوا من الجنرال «كولين باول»، وسألوه، وأجاب ـ وكان الرَجُل واضحاً على غير عادة «الدبلوماسية»، وكَان قاطِعاً على عادة «السلاح» !

□

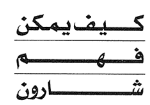
كل ذلك وليست هناك «وَقفة مع الصديق الأمريكى» ـ ولا تَفكير فى «وَقفة» بصورة أو أخرى ـ ولا أحد يَطلُب أن تكون «الوَقفة مع الصديق الأمريكى» ـ من نفس عيار تلك «الوَقفة مع الصديق السوفيتى» ـ لأن واقع الحال لم يَعُد يَسمَح (فى وقت «السلم») ! ـ بذلك «النوع» من «حَقّ القرار» الذى مارَسَه العَرَب يوماً (وَسَط «الحَرب») ـ ومع ذلك فإن دَواعى الأمن القومى والاستقلال ـ وحتى الكبرياء ـ الوَطَنى ـ تَفرض أنه فى لحظة ما ـ بوَسيلة ما ـ بأسلوب ما ـ لا بُدَّ من «وَقفة مع الصديق الأمريكى» !

وإذا لم يَحدُث ذلك ـ وعلى الأرجح لن يَحدُث ـ فربما كان على كل مُواطِن عَرَبى أن يَسأل نفسه :

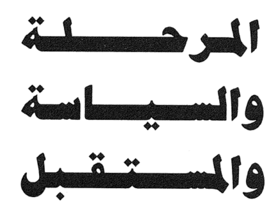
لماذا أصبح مُستَحيلاً سنة ٢٠٠١ (مع الصديق الأمريكى) ـ ما كان مُمكناً حتى سنة ١٩٧٢ (مع الصديق السوفيتى) ـ أو شىء منه ؟

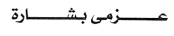
وماذا جرى ؟ ومتى جرى ؟ وكيف جرى ؟

ثم ـ إلى أين من هُنا ؟!











كما أن الصراعات الشخصية داخل هذا الحزب الإسرائيلى أو ذاك ليست قضية كبرى، فإن الصراعات الكبرى التى يعيشها المجتمع الإسرائيلى ليست مجرد تمثيلية



عندما نناقش ما يجرى فى إسرائيل يتنازعنا كما يتنازع الفكر السياسى العربى فى مراحل ترديه توجهان ينفى أحدهما الآخر بشكل مجرد ودون تفاعل جدلى أو حوارى:

١ ـ يتعامل التوجه الأول مع السياسة الداخلية الإسرائيلية كأنها العامل السياسى المركزى فى المنطقة، وكأن مصير المنطقة يرتبط بانتقال بضعة آلاف من الأصوات من هذا المعسكر السياسى الإسرائيلى إلى ذاك. ويقزم هذا التوجه أهمية الاستراتيجيات العربية بل يغيبها، كما يسئ استخدام ندائنا الدائم للعرب لدراسة إسرائيل والمجتمع الإسرائيلى. أما فى أجواء الانتخابات الإسرائيلية ذاتها فتغيب الأخبار العربية تماماً ويسيطر هذا التوجه بشكل محبط على وسائل الإعلام العربية وخاصة الفضائيات التى تخلط التركيز على الموضوع مع الجهل به، محولة أى صحفى إسرائيلى يتقن العربية وأى نائب عربى فى الكنيست إلى محلل بل إلى مصدر مطلع على السياسة الإسرائيلية.

٢ ـ يتعامل التوجه الثانى مع الصراع السياسى والاجتماعى داخل الدولة العبرية كأنه مجرد مؤامرة وتوزيع أدوار. وفى حين يحول الاتجاه الأول أى تفصيل عن الصراعات الشخصية داخل هذا الحزب الإسرائيلى أو ذاك إلى قضية كبرى، يعتبر التوجه الثانى حتى الصراعات الكبرى التى يعيشها المجتمع الإسرائيلى مجرد تمثيلية. والحقيقة أنه يدور فى المجتمع الإسرائيلى صراع طبقى واقتصادى واجتماعى وثقافى كما يدور فيه صراع على السلطة.

فالصراع بين «معسكر اليمين ومعسكر اليسار» فى انتخابات رئاسة الحكومة الإسرائيلية هو أولاً وقبل كل شىء صراع بين نخب سياسية واجتماعية على السلطة وليس على القضية الفلسطينية ـ ويدور هذا الصراع على السلطة ضمن قواعد لعبة سياسية ديمقراطية متفق عليها وعلى عدم خرق قواعدها، كما يدور ضمن إجماع محدد على بديهيات سياسية مثل: ١) يهودية الدولة ٢) محورية سياسة الأمن وتقوية الجيش ٣) محورية العلاقة مع الولايات المتحدة ٤) محورية التنمية الاقتصادية وإقامة اقتصاد سوق متطور بشكل يتناسب مع التوزيع الديمجرافى لليهود فى الدولة ٥) أهمية تشجيع الهجرة واستيعاب المهاجرين اليهود ٦) رفض حتى العودة للاجئين الفلسطينيين، وهو يندرج فى الواقع ضمن البديهية الأولى ٧) رفض السيادة العربية فى القدس ٨) رفض إزالة كتل الاستيطان الأساسية.

ولكن الصراع على السلطة يتم أيضاً عبر تنافس توجهات سياسية مختلفة ضمن هذه البديهيات حول حجم «التنازلات» المطلوبة من إسرائيل لتحقيق سلام مع العرب بشكل يضمن الاعتراف بإسرائيل وبحاجاتها الأمنية، وعبر تنافس متعلق بالموقف من العلاقة بين الدين والدولة ـ ولكن يجب ألا ننسى أنه صراع على السلطة بين نخب ذات أصول اجتماعية مختلفة أو ذات أصول فى تقاليد سياسية مختلفة يعود عهدها إلى الجماعة اليهودية السكانية المنظمة فى فلسطين قبل عام ٤٨ «اليشوف».

كانت هذه ملاحظة سريعة وضرورية. ولأننا لن نقوم ببحث هذه القضايا فى هذا النص، فإننا لا نريدها أن تكون غائبة عن الأذهان أثناء مراجعة سقوط باراك.

[١]

ويبدو لأول وهلة أن الصراع الدائر على السلطة والذى عبر عنه فى الانتخابات الإسرائيلية عام ٢٠٠١ هو استمرار لذات الصراع المعهود بين اليسار واليمين، أو بين حركة العمل الصهيونية من جهة وبين تيارات اليمين المختلفة التى التقت فى ليكود عام ١٩٧٧ والقيادات الدينية الأقرب إلى التحالف مع معسكر اليمين من جهة أخرى. ولا شك بصحة هذا الانطباع الأولى ولكنه لم يعد كافياً لفهم ما يدور فى إسرائيل، خاصة أن العناصر الجديدة فى الصورة السياسية الإسرائيلية بدأت تطغى على العناصر القديمة.

فالمهاجرون الروس مثلاً ويشكلون خمس سكان الدولة العبرية يعيشون صراعاً بين نزعتين: تؤكد الأولى على أهمية نمط الحياة العلمانى مقابل قدرة الأحزاب الدينية على الإملاء فى حكومة يمينية تتبوأ فيه الأخيرة منصب وزير الداخلية مثلاً، وبين نزعة علمانية هى الأخرى ولكنها تضع قضية «أرض إسرائيل» والصراع مع العرب فى المرتبة الأولى لتحصد أصوات الناخبين الروس الذين يميلون إلى التشدد فيما يتعلق بالصراع وإلى رؤية مسطحة للصراع مع العرب كصراع بقاء فى وطنهم الجديد.

تبدى قيادة الأحزاب الروسية موقفاً سياسياً يمينياً فى قضايا الصراع العربى الإسرائيلى منسجماً مع خيال جمهور لا يعرف إسرائيل فى حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧ ويبدى دهشته من وجود عرب فى البلاد ويتعرض بسهولة للتعبئة القومية الإثنية الطابع. ولكن الجمهور الروسى أقل تشدداً من قيادته لأن جدول حياته اليومى يكتظ بجدول أعمال لا علاقة له بـ« أرض إسرائيل الكاملة»، وإنما بقضايا الدين والدولة والاندماج فى المجتمع الإسرائيلى والسياسات الاقتصادية والاجتماعية.

الصورة مقلوبة عند حركة شاس حيث تبدى القيادة السياسية موقفاً أقل تشدداً فى القضايا السياسية وأكثر تشدداً فى قضايا الدين مقابل قواعدها الجماهيرية التى تميل إلى الإصغاء لديماجوجية اليمين سياسياً، وهى أى القواعد الجماهيرية أقل تشدداً فى قضايا الدين من قيادتها الأرثوذكسية الطابع والمتأثرة بالمدارس الدينية الشرق أوروبية.

جمهور حركة شاس هو جمهور شرقى من ذوى الدخل والثقافة المحدودين، تقليدى اجتماعياً ومعرض لديماجوجية اليمين سياسياً. وقيادة شاس مضطرة إلى دعم مرشح اليمين لرئاسة الحكومة وإلا فقدت قطاعات كبيرة من جمهورها قد يحرضها اليمين ضد قياداتها الحزبية الانتهازية. ولذلك فهى غالباً ما تلجأ إلى الديماجوجية القومية أيضاً. لقد أفشلت شاس (ومعها الأحزاب العربية) عملية حل الكنيست وأصرت على إجراء انتخابات لرئاسة الحكومة وحدها لأنها خشيت أن تفقد عدة مقاعد نيابية لصالح الليكود، وخاصة أن موضوع الانتخابات هو القضية الفلسطينية، وما دامت الانتخابات تتمحور حول الموضوع السياسى فإن قسماً من مصوتى شاس يعود إلى أحضان الليكود.

لقد حاولت الأحزاب العربية حينه تبرير تصويتها ضد حل الكنيست بضرورة منع نتنياهو من المنافسة، فقد اشترط الأخير ولوجه المعركة الانتخابية بحل الكنيست وإجراء انتخابات نيابية. وتبين فيما بعد أن عدم حل الكنيست لم يجلب الفائدة لباراك بل بالعكس فقد تفوق عليه شارون بسرعة، كما

تبين أن انتصار باراك عام ١٩٩٩ لم يتم بجهوده الشخصية فحسب وإنما كان أيضاً حصيلة تجند قوى وأحزاب عديدة للانتخابات البرلمانية - وهذه الأحزاب لم تتجند فى معركة انتخابات رئاسة حكومة مباشرة دون أن تجرى انتخابات للكنيست. وبذلك تورط باراك فى مباراة شخصية ومنافسة فردية لا يمكن أن ينتصر فيها، فذاكرة الناس قصيرة تتذكر أخطاءه وتميل إلى نسيان ماضى شارون.

لقد خسر باراك عندما استهل فترته فى السلطة بمواجهة مع حزبه ، حزب العمل، أدت إلى تآمر أقطاب هذا الحزب عليه فى الكنيست وفى الائتلاف وإلى خلق مناخ إعلامى غير ودود. ثم خسر باراك عندما جعلت حركة ميرتس معركتها الأساسية مع شاس وليس مع اليمين (وهؤلاء من اليسار الصهيونى الذين عينوا أنفسهم أوصياء على العرب ينصحون الوسط العربى حالياً بضرورة التركيز على المعارك الرئيسية مع اليمين)، ثم خسر باراك عندما حاول أن يفرض على معسكره العلمانى تنازلات للأحزاب الدينية بدا بعدها عديم المصداقية. وخسر باراك خسارته الكبرى عندما حاول أن يفرض تصوره للسلام الدائم بموجب جدول مواعيد أعد سلفاً، وعندما تعامل مع المواطنين العرب كأنهم فى جيبه وكأنه لا خيارات أمامهم سوى خيار حزب العمل.

يتلخص مغزى انتصار شارون فى السطر الأخير باستمرار التحول التدريجى نحو اليمين فى المجتمع الإسرائيلى، ويعتقد بعض علماء الاجتماع الإسرائيليين أن العملية ذات أصول ديموجرافية، وهى إذاً عملية حتمية تستند إلى ازدياد نسبة المصوتين المتدينين والشرقيين من بين المواطنين نتيجة لارتفاع نسب الولادة لديهم. وبما أننا لا نؤمن بعقليات جوهرانية فى السياسة تكرس يمينية المتدين أو الشرقى ، وبما أننا نرى أن المهاجرين الروس (وهم غربيون فى القاموس الإسرائيلى) لا يقلون يمينية فى نزاعاتهم السياسية عن القطاعين المذكورين، فإننا لا نقبل هذا الشرح للتحول المستمر نحو اليمين إلا كوصف لحالة مؤقتة.

لقد طرأت على المزاج السياسى الإسرائيلى ردة فعل يمينية عصبية على الانتفاضة وانهيار ما صور إسرائيليا على أنه نهج السلام، والمقصود بالطبع سياسة حزب العمل. ولكن هذا لا يكفى لتفسير وصول شارون إلى رأس السلطة فى الدولة العبرية، وكنا فى حينه قد رفضنا فكرة أن انتصار باراك فى انتخابات آيار ٩٩ هو انتصار لليسار ، ولذلك فنحن لا نقبل مقولة تذبذب مزاج المجتمع الإسرائيلى من اليسار إلى اليمين.

لقد انتصر باراك فى حينه على نتنياهو وليس على اليمين لأن الانتخابات تحمل طابعاً تنافسياً شخصياً أيضاً. وقد تازمت مرحلة نتنياهو بفعل :

١ - جمود العملية السياسية وما أدت إليه من جمود اقتصادى وانخفاض فى معدلات النمو مقارنة بالمرحلة التى سبقتها.

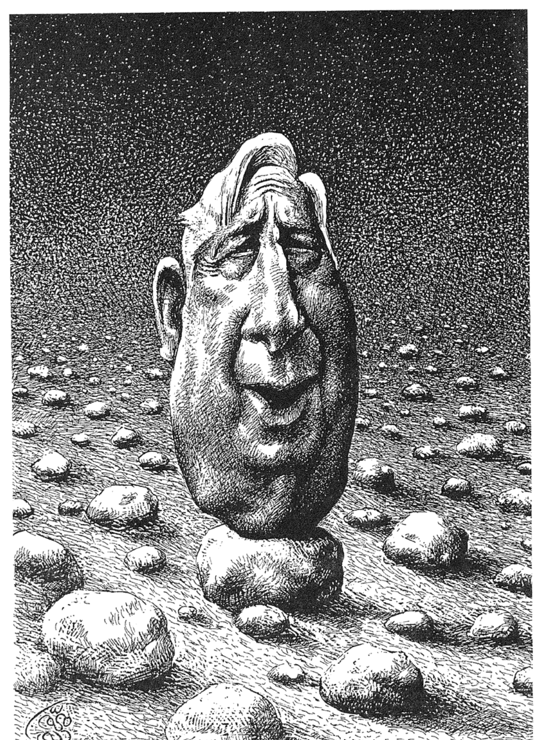
٢ - التناقض بين الانخراط فى العملية السياسية بقيادة الولايات المتحدة وبين الارتباط بالمستوطنين وغلاة اليمينيين والمتدينين فى الائتلافات الحكومية.

٣ - الصدام بين طريقة نتنياهو فى الحكم والنظام الحزبى الإسرائيلى وصدامه مع نخب حزبه القديمة ومحاولة فرض نخب يمينية جديدة من المقربين إليه بدلاً من قيادة الحزب التقليدية.

لقد استهل باراك فترة حكمه بصدام من نفس النوع مع حزب العمل ، الذى رشحه لرئاسة الحكومة وحاول أن يحجم قيادات الحزب التقليدية. ولذلك تآمرت عليه قيادة هذا الحزب طيلة فترة حكمه القصيرة ، ولم تتجند بشكل جدى إلى جانبه فى الانتخابات المبكرة.

هذا اللقاء بين شخصيتى باراك ونتنياهو فرضته طريقة الانتخابات الإسرائيلية الجديدة والسارية منذ عام ١٩٩٦، فقد فرضت هذه الطريقة نجوماً لم ينشأوا داخل جهاز الحزبين، وقلصت من نفوذ جهاز الحزب برلمانياً مع تحول التمثيل البرلمانى إلى «سياسات هوية» (politics of identity [AB1]) يعبر من خلالها الروس والمغاربة والعلمانيون والمتدينون واهمين عن هويتهم، ويشكل هذا الوهم هوياتهم من جديد كاستراتيجية تتبعها نخبهم الجديدة للوصول إلى مصادر القوة السياسية ومنها إلى الكعكة الاقتصادية .

ولكن من الخطأ نعى الأحزاب السياسية التقليدية، فهى حية ترزق وتركل باراك كما ركلت نتنياهو فى حينه، ولكن الأحزاب الإسرائيلية التقليدية من عمل وليكود ومفدال رغم فقدان العديد من وظائفها منذ اليشوف بقيت ذات جذور عميقة وقدرة على المقاومة. وما زالت وظيفتها الاندماجية الانصهارية الصهيونية تلح عليها بسبب خطر التفتت الثقافى أو الطائفى التى يواجهها المجتمع الإسرائيلى. وإذا كانت لدى الصهيونية غريزة بقاء متطورة فلا بد أن تحارب للعودة إلى طريقة الانتخابات القديمة التى لا تفصل بين التصويت لرئاسة الحكومة وبين التصويت للبرلمان، بحيث يكون التصويت لحزب وبرنامج وشخص وهوية فى ورقة تصويت



واحدة لا بد من أن تزيد قوة الأحزاب من جديد.

هل يمكن فهم شارون



لقد فقد باراك رفاق طريق مؤقتين في السنة والنصف من حكمه وحلفاء عديدين ضد نتنياهو إذ فقد تيارًا علمانيًا واسعًا تحالف معه ظنًا منه أنه سيحدث انقلابًا بعلاقة الائتلافات الحكومية التي كرسها اليمين مع الأحزاب الدينية. كما فقد جزءا ممن انتخبوه لأنه سيجلب السلام، وفقد أصوات العرب، وفقد حتى أولئك الذين انتخبوه لأنه سيجلب الأمن.

وربح شارون لأن أعداءه بعد مرور ثمانية عشر عاماً على حرب لبنان باتوا أقل عدداً من أعداء باراك ونتنياهو، مما جعل الفارق بينه وبين باراك أكبر من ذلك الذي بينته الاستطلاعات بين نتنياهو وباراك. وربح شارون لأن المجتمع الإسرائيلي ما زال يراوح في ردة الفعل اليمينية الأمنية الحربجية على الانتفاضة الفلسطينية للتنازل عن كل شيء مقابل دولة. وربما كان أهم إنجاز لمرحلة باراك هو اضطراره في نهاية فترته إلى مواجهة شروط السلام العادل وفتحها للنقاش، بعد أن فشل في فرض شروط سلامه هو بالقوة على الفلسطينيين وبعد تفجر الانتفاضة.

وبقيت الكنيست على حالها، ويستطيع شارون لو رغب إقامة ائتلاف يميني من ٦٢ وربما ٦٤ نائباً، أي أنه توجد في الكنيست الحالية الخامسة عشرة أغلبية يمينية. وهذا يعني أن اليسار الصهيوني لم ينتصر عام ١٩٩٩.

لكن شارون فضل حكومة « وحدة وطنية» تماماً كما فضل الصمت عن برنامجه السياسي أثناء الدعاية الانتخابية، إذ أحاط نفسه بعشرين خبيراً ومستشاراً يتلخص عملهم بالمحافظة على صمته. لماذا؟ هل لأن شارون تغير؟ لا، ليس لأن شارون تغير بل هنالك سببان آخران لإخفاء شارون أفكاره السياسية أثناء الدعاية الانتخابية:

١ ـ لأن شارون لا يستطيع مواجهة العالم وحتى شعبه بأفكار تقود مباشرة إلى الحرب.

٢ ـ لأن هنالك فرقاً بين تحريض السياسي في المعارضة والمسؤوليات التي تفرضها السلطة.

لا يضمن شارون ألا تقود اقتراحات المرحلة الانتقالية إلى صدام أكثر حدة مع الشعب الفلسطيني، لذلك قد يحاول شارون إضافة مفهوم الدولة وبعض التواصل الإقليمي الفلسطيني بإزالة مستوطنات صغيرة ومعزولة داخل قطاع غزة إلى أفكاره حول «المرحلة الانتقالية الممتدة» حتى قبل الاتفاق على مواضيع مثل السيادة والقدس واللاجئين والحدود وذلك لتقليل نقاط الاحتكاك بين الفلسطينيين وإسرائيل حتى قبل التوصل إلى حل دائم ـ الدولة كمرحلة انتقالية وليس كحل دائم، أي الدولة الفلسطينية على جزء من الأرض دون التنازل عن القدس أو حق العودة. يبدو هذا الطرح مغرياً، ولكنه سيتحول في الواقع إلى أبارتهايد، وسيكون مقدمة لتصعيد الصدام مع السلطة الفلسطينية ومع شخوصها إذ لا يوجد أي التزام شاروني سياسي أو أخلاقي أو شخصي تجاه البنى التي أفرزتها أوسلو إذا لم تنسجم مع تكريس الوضع القائم الذي يضمن بقاءه في السلطة.





قد يفكر شارون في طرح مفهوم الدولة كمرحلة انتقالية وليس كحل دائم، (دون التنازل عن القدس أو حق العودة). وهذا الطرح، وإن كان يبدو مغريًا للوهلة الأولى، إلا أنه يتحول في الواقع إلى أبارتهايد

[٢]

كان سقوط باراك بهذا الفارق أمراً متوقعاً بعد أن انفضوا عنه. وقد تجسد فشله أكثر ما تجسد بعدم القدرة على الانتقال من عقلية العسكري الفاعل بناء على قواعد ثابتة وافتراضات عن نوايا « العدو» وقدرات محسوبة ومنفذين مأمورين إلى عقلية السياسي رئيس الحكومة في دولة منهمكة في صراع وعملية سياسية مع أعدائها وخاصة أن هذه الدولة تعيش داخليا حياة سياسية وحزبية موتورة وشديدة التعقيد وسريعة الانفعال بإيقاع ينافس وسائل الإعلام على الدراما في غاية إعلامية متوحشة.

فشل باراك الآمر العسكري في التعامل مع حزبه ثم مع بقية الأحزاب، كما فشل باراك الآمر في فرض شروطه ومواعيده على السوريين والفلسطينيين. ولا أدري هل كان جادا في اقتراحاته أثناء المفاوضات التي أدت إلى الانتفاضة ثم في المفاوضات التي رافقت الانتفاضة؟ أم أنه قصد منها إحراج القيادات العربية «باقتراحات كريمة» لكي يفضح عدم رغبتها بالسلام.

لم ينتخب باراك من أجل فضح القيادات العربية. وما دامت الانتفاضة مشتعلة وعدم الاستقرار السياسي يترجم مباشرة إلى عدم استقرار اقتصادي وحتى نفسي، فليس بمقدور أحد في المجتمع الإسرائيلي أن يرى اعتزاز باراك بفضح القيادات العربية انتصاراً، تماماً كما لم يفلح الإسرائيليون بالتعامل مع الانسحاب من طرف واحد من جنوب لبنان مهما قلبوه كانتصار، وكما لم ينجح في إقناع العرب أن الانسحاب الإسرائيلي من لبنان هزيمة وفضيحة لهم لأنهم ـ أي العرب ـ كشفوا عالميا كغير جديين في موضوع المسيرة السلمية.

لقد انتخب باراك لكي يجلب السلام فقرب المنطقة إلى حافة الحرب، وانتخب لكي يدفع بعلمنة المجتمع والدولة إلى الأمام فتعرجت طرقه بين التحالف مع المتدينين ومعاداتهم في الإعلام، وبين الإصرار على نقل مولد كهربائي في يوم السبت بشكل أغاظ المتدينين من ناحية، وقبول إعفاء تلامذة المدارس الدينية من الخدمة العسكرية بشكل أغاظ مؤيديه العلمانيين من ناحية أخرى.

وتبين خلال السنة ونصف السنة أن باراك غير قادر على إنجاز هذه المهام. وقد تبين هذا خلال فترة قصيرة لأنه جاء إلى السلطة مع مشاريع من نوع اقتراحات للحل الدائم مع الفلسطينيين واقتراحات الثورة المدنية وغير ذلك، أي أنه واجه حزب العمل بحماقة، وربما بغرور، بالحدود القصوى التي يترتب عليه أن يصلها من أجل تنفيذ هذه المهام التاريخية دون توفر الاستعداد لمواجهة هذه التحديات. ولأن الأسئلة كبيرة واستعداد باراك لطرح الأجوبة الوهمية الشاملة متوفر كما في عقلية الآمر في وحدة كوماندو(خلافا لواقعية بيرس أو رامون أو غيرهما التي تتسع لإجابات جزئية وحلول لكافة القضايا التفصيلية)، فقد فضح أمر حزب العمل. لقد فضح باراك أمر هذا الحزب عندما بين أنه غير قادر على تحقيق المهام التاريخية التي تبرر وجوده، من نوع تحقيق السلام الدائم مع الفلسطينيين.

لا تكفي سياسة حزب العمل الاقتصادية لتبرير وجوده فهي لا تختلف جوهريا عن سياسة الليكود، وما يتحكم بها في نهاية الأمر هو مجموعات الضغط الاجتماعية ذاتها مقابل رؤوس الأموال والبنوك والشركات الكبرى ذاتها، وضرورة الموازنة بين القوتين في برلمان منقسم إلى ممثلين عن نخب لقطاعات اجتماعية وعن مصالحها (لقد تبينت صحة هذه المقولة بشكل متطرف لافت للنظر عندما تبنت حكومة شارون ميزانية الدولة ذاتها التي أعدتها حكومة باراك والتي منع الليكود وشاس تمريرها في الكنيست عندما كانا في المعارضة).

وكان الهستدروت في الماضي يشكل قاعدة اجتماعية اقتصادية للحزب حتى بعد أن زال مشروعه الاقتصادي المتميز المتمحور حول اقتصاد الدولة والقطاع العام إذ كان يضمن ولاء قطاع واسع من الأخيرين والطبقات الوسطى للحزب.. ولكن إصلاح الهستدروت وخصخصة جزء كبير من ممتلكاته قضى على الهستدروت كقاعدة حزبية، كما أضعفت طريقة الانتخابات الجديدة بنية حزب العمل القديمة.

ولذلك ارتبط تميز حزب العمل عن اليمين ومبرر وجوده بمهمة تحقيق السلام مع العرب. ويميل الساسة الإسرائيليون إلى تقسيم التاريخ الإسرائيلي إلى مرحلتين كبيرتين مرحلة إقامة الدولة الصهيونية والحروب التي رافقت أو أعقبت إقامتها بسبب إقامتها، وبعدها مرحلة العمل من أجل تحقيق السلام مع العرب، أي مرحلة قبول إسرائيل في المنطقة ضمن حل وسط وتسوية إقليمية جعلتها حرب ٦٧ ممكنة ولم تؤثر عليها حرب ٧٣، بشكل جذري.



كان المبرر التاريخي لوجود حركة العمل الصهيونية هو عملية بناء الأمة / الدولة وما رافق ذلك من سياسات طبقية واقتصادية ذات طابع دولاني اشتراكي، وبعد ذلك أصبح مبرر وجودها، برأيها هي على الأقل، هو قدرتها على استحضار اتفاقيات السلام.

وقد تبين تحديدا في هذه المرحلة أكثر مما تبين في أي وقت مضى، وذلك بسبب مواجهة شروط السلام العادل مع سوريا وشروط السلام العادل مع الشعب الفلسطيني، وبسبب الإخفاق المباشر والواضح في تلبية هذه الشروط.. إن حزب العمل لا يعيش أزمة عادية بعد فشله في الانتخابات وإنما يتخبط في مأزق وجودي، ومن حق الباحث أو المعلق أن يتساءل عن مستقبل هذا الحزب.

وعندما يفقد حزب ما مبررات وجوده بمعنى مشروعه السياسي والأيديولوجي والفكري، أي الطرح الذي يواجه به المجتمع



لا يوجـد أى التـزام شـارونى سياسـى أو أخلاقـى أو شخصـى تجـاه البنـى التـى أفرزتهـا أوسـلو إذا لـم تنسجـم مع تكريـس الوضـع القـائم الذى يضمن بقاءه فى السلطة



بأسره والذى يؤهله ليصبح حزب سلطة، أو حزبا قائدا لشعب بأكمله أو لأقلية قومية مثلا.. فإن هذا الحزب لا ينهار مباشرة وإنما يواصل مسيرته بقوة الاستمرار والقصور الذاتى مستفيدا من خيرات السلطة ووظائفها والأجيال التى تربت ضمن سياق مصالح السلطة وثقافة السلطة. ولكن هذه الأجيال والفئات الاجتماعية تتغير مع تغيير بنية المجتمع والسلطة.. وبعد فترة وجيزة يجد هذا الحزب ذاته دون البرنامج السياسى أو المشروع الذى يميزه وقد انفضت عنه الفئات الاجتماعية الواسعة التى يستند إليها وتمنحه الولاء بقوة الاستمرار حتى عندما لا يعبر عن مصالحها.. عند ذلك يتحول الحزب من حزب سلطة ذى تصور برنامجى شامل يقدمه للمجتمع ككل إلى حزب قطاعى يمثل مصالح نخبة تدعى بدورها تمثيل قطاع اجتماعى أو فئة اجتماعية بعينها.

يعانى حزب العمل وتعانى حركة العمل الصهيونية بشكل عام أزمة وجودية من هذا النوع.. وهو لا يشعر بالألم حتى الآن من شدة الصدمة، ويستمر بقوة الاستمرار دون أى مبرر فى الوجود، ولذلك أيضا تبدو شخصياته وشخوصه باهتة وعديمة اللون ومتآمرة على بعضها داخليا بشكل يثير القرف والاشمئزاز من السياسة بشكل عام. هذه الشخصيات الباهتة واللاهثة وراء المنصب والمتآمرة مع كل شىء ضد كل شىء والتى تشى بحزبها وشخوصه للإعلام إلى أن تنسى لمن كذبت أية كذبة ومتى؟ هى انعكاس لمازق وجودى وفكرى وقيمى وسياسى. والوضع يشبه إلى حد بعيد وضع بعض القيادات والتيارات السياسية فى المجتمع العربى فى إسرائيل التى فقدت دورها التاريخى، أو لم تحصل على دور كهذا أصلا، ولهذا تعيش من خلال الصراع على المناصب الذى تتيحه الديمقراطية الإسرائيلية، وتردد وتجتر كلاما متناقضا وغير مفهوم حسب الحاجة، وتنتحل أفكارا متناقضة من مصادر مختلفة لانه ليس لديها مشروع سياسى أو ثقافى أو اجتماعى للعرب فى هذه البلاد يجيب على القضايا الأساسية المتعلقة بعلاقتهم مع الدولة ومع الأمة العربية.

بوسع الباحث إذا شاء أن يثبت أن مصادر شارون السياسية والفكرية والعملية تعود جذورها إلى هناك، إلى حركة العمل الصهيونية.. ولكن هذه عملية سهلة وليست بحد ذاتها دليلا على مازق حزب العمل الفكرى بقدر ما هى دليل على انتهازية شارون الباحث عن السلطة لدى اليمين، عندما لم يجدها لدى حزب العمل مثل بقية الجنرالات من أبناء جيله.. ولكن التعبير الحقيقى عن مازق حركة العمل الصهيونية نجده فى التقارب السياسى وليس الشخصى فقط بين شارون وبيرس، إذ يؤمن كلا الرجلين المخضرمين سياسيا أنه لا يوجد حل دائم للقضية الفلسطينية، وأن الأفضل هو الأوضاع القائمة (شارون) أو المراحل الانتقالية (شارون وبيرس) إلى أن يخلق الله ما لا تعلمون، على مستوى تغير القيادات الفلسطينية وتغير سقف توقعاتها بالمراهنة أيضا على عدم قدرة الشعب الفلسطينى على الاحتمال.

لقد وجدنا تقاطعات فى التفكير بين نتنياهو وباراك بإصرارهما على عدم «التنازل» عن أى قطعة أرض لصالح الحلول الانتقالية وعلى أنه بالإمكان فرض حل دائم على الشعب الفلسطينى أو الاستمرار بالمواجهة. وقد نفذ نتنياهو بعض التزامات المرحلة الانتقالية ، أما باراك فلم ينفذ أيا منها وكان هذا الموقف الرافض لتنفيذ الالتزامات الموقعة ثم تحويله إلى وسيلة ضغط على الفلسطينيين للقبول بشروط باراك للحل الدائم أحد أسباب اندلاع الانتفاضة!! هذا التقارب فى وجهات النظر بين باراك ونتنياهو من ناحية وبين شارون وبيرس من ناحية أخرى وكأن المشترك هو الجيل وليس الموقف السياسى هو دليل أن الليكود وحزب العمل لا يمثلان مشروعين سياسيين متباينين بحدود واضحة.



أفرز سقوط باراك المدوى فى انتخابات رئاسة الحكومة المباشرة يوم ٦ شباط ما يبدو وكأنه تصدع أيديولوجى داخل حزب العمل. إذ قام تيار يدعو لعدم الانضمام إلى حكومة وحدة وطنية والبقاء فى المعارضة لإعادة بناء الحزب وبلورة موقفه السياسى دون التلوث بمواقف القوى اليمينية المتطرفة التى سوف يضمها شارون إلى حكومته. ولا شك أن يوسى بيلين يمثل موقفا مثابرا بهذا الاتجاه، ولكن لا يمكن اعتبار البروفيسور شلومو بن عامى أو إبراهام بورج أصحاب مواقف مثابرة لأنهما فى الواقع يربطان الموقف بإمكانية التسلق داخل حزب العمل إلى منصب رئيس الحزب.

ويشكل البروفيسور بن عامى مثالا شخصيا بارزا لانحطاط السياسة الإسرائيلية، إذ حاول تفصيل بدلة سياسية تناسب متطلبات التسلق حتى رئاسة الحكومة. فأعاد إحياء أصوله الشرقية فى نوع من سياسات الهوية يجمع بين الهوية الشرقية والمؤهلات، وللدقة نقول الهوية الشرقية ولقب البروفيسور. وما دام بن عامى بروفيسور فإن تهمة العنصرية جاهزة للإلصاق فى وجه كل من ينتقد مؤهلاته. كما حاول بن عامى استنباط اشتراكية ديمقراطية إسرائيلية تضع القضايا الاجتماعية على رأس جدول أعمالها فى محاولة للمصالحة بين حزب العمل والطبقات الفقيرة. وقد حوله كتاب «مكان للجميع» والذى نشره مع دخوله إلى عالم السياسة الحزبية إلى أمل بعض اليساريين الباحثين عن مبرر للعودة لعالم حزب العمل، إذ اكتشفوا اشتراكيا فى صفوفه. ولكن ما لبث الكتاب أن أصبح موضع سخرية بعد أن أصبح بن عامى وزير شرطة يتجاهل مطالب المواطنين العرب بوقف عنف الشرطة العنصرى ضدهم إما لأنه مثل سابقيه أو لأنه اعتقد أن المواجهة مع كبار ضباط الشرطة ستؤدى إلى حشره فى يسار الخارطة السياسية وتقلل من إمكانيات فوزه فى المستقبل. وقد أدى تهاون وربما تواطؤ البروفيسور الليبرالى إلى مذبحة الأقصى بيد شرطته وتلاها مقتل ١٣ مواطنا عربيا بيد نفس الشرطة.

كما وجه بن عامى الليبرالى والمؤيد للعملية السلمية أقسى التهم وأسوأ الألفاظ ضد القيادة الفلسطينية بعد كامب ديفيد. وهنا لا يصلح بن عامى مثالا لليبرالى غير المثابر وغير مستقيم فحسب بل أيضا لحالة البروفيسور فى السياسة. فهو يتصرف كأن موقفه السياسى هو فرضية علمية أو فكرية ينهار العالم إذا ثبت خطؤها، أى إذا لم يتطرق موضوع بحثه كما توقعت فرضياته.

لقد تصرف عرفات، موضوع بحث البروفيسور، فى كامب ديفيد خلافا لفرضيات بن عامى، ولذلك فإن الحرج الأكاديمى التافه يضاف إلى سخطه السياسى على القيادة الفلسطينية. يجسد بن عامى نموذجا جيدا لبروفيسور التاريخ كسياسى هاوٍ وتعامله مع التنافس فى الحزب بآليات التآمر بين محاضرين جامعيين على منصب أستاذية فى جامعة إسرائيلية، هذه المؤامرات التى تجعل المؤامرات فى حزب العمل تبدو شاحبة.

على اليسار الإسرائيلى إذاً ألا ينتظر منقذا من داخل حزب العمل على شاكلة بن عامى لمجرد أنه يعارض «حكومة الوحدة الوطنية»، فهذا ما يتوقعه منه جمهوره بعد خيبات الأمل الكبير منه، ولأنه لا أمل له بالتنافس على قيادة حزب العمل فى أجواء تأييد أغلبية حكومة «الوحدة الوطنية».

[٣]

لقد تبين بعد التحالف العمالى الليكودى الأخير أن التقسيم يسار - يمين فى المجتمع الإسرائيلى ليس تقسيما يفصل حزب العمل عن الليكود، فهذا التحالف يقبل ميزانية الدولة للعام ٢٠٠١ التى أعدتها حكومة باراك وعارضتها الأحزاب اليمينية، خاصة الليكود، بشدة عندما كانت فى المعارضة.لقد عادت هذه الأحزاب لتبنى نفس الميزانية، أى نفس السياسة بالأرقام، دون تغيير بند واحد وبدأت بالمصادقة عليها فور انتخاب شارون بعد أن كانت المصادقة عليها متعذرة فى مرحلة حكومة باراك.

وهذا يعنى أن الليكود وحزب العمل لا يمثلان مشروعين اقتصاديين اجتماعيين مختلفين، وإنما هنالك مشروع السلطة ومشروع المعارضة. ومشروع المعارضة هو الوصول إلى السلطة لاتباع نفس السياسة. وتتلخص أزمة حزب العمل منذ تشكيل حكومة الوحدة الوطنية شمير - بيرس عام ١٩٨٤ أنه لم تعد لدى الحزب مهمة تاريخية واضحة تختلف عن الليكود.



لقد كان حزب العمل حزب دولة وتأميم وقطاع عام لأن كل هذا كان ضروريا بل مشتقا من مهمة بناء الدولة والاستيطان والحرب.. ولكن منذ الثمانينيات يتنافس حزب العمل مع الليكود فى انتهاج منهج السياسات الاقتصادية الهادفة إلى «تطبيع» المجتمع الإسرائيلى والتنافس على كسب تأييد الطبقات الوسطى باستمرار.

وانحسر الفرق بين الحزبين إلى أن اختزل إلى موضوع العملية السلمية بين تأييد ومعارضة أوسلو مثلا.

وفى مرحلة نتنياهو تبين أن

الليكود لا يســتطيع أن يعارض أوسلو منهجيا إلا فى المعارضة. كما تبين فى فترة باراك أن برنامج حزب العمل للسلام لا يرتقى فى حدوده القصوى إلى تطلعات الفلسطينيين. ولذلك طمست الحدود بين الحزبين حتى فى موضوع السلام.

أما فى موضوع الخلاف حول الموقف من الأحزاب الدينية فقد تبين فى مرحلة باراك أن ما يحدد الموقف منها هو حاجات البقاء فى السلطة - ولم تعدل خطوات حكومة باراك الأخيرة ضد الأحزاب الدينية (إلغاء وزراء الأديان على سبيل المثال) هذا الانطباع لأنها اتخذت بعد أن يئس باراك من عودة هذه الأحزاب إلى الحكومة.

لقد نجح باراك فى الانتخابات الماضية محمولا على بساط الأساطير العسكرية المطرزة «بالخيال الجامح» عن بطولاته فى اقتحام هذه الطائرة المخطوفة وذلك البيت فى الفاكهاني وتمجيد ماضى باراك العسكرى خاصة فى التيار الصحافى المركزى الأمنى الطابع(زئيف شيف، دان مرغليت، ناحوم برنيع، آمنون إبراموفيتش وغيرهم من صناع الرأى العام، أو الأصح الخيال الشعبى) لم يمنع الصحافة ذاتها فيما بعد من استخدام نفس الرصيد كنقيصة تحط من قدره كآمر لا يعرف التعاون والتشاور والعمل الجماعى. وصحيح أن ذمة الإعلام التنافسى واسعة إلى درجة تقلب المزاج بين الحماس لصورة باراك الإعلامية وحتى التعب منها.

ولكن هذا التقلب لا يعكس طبيعة الإعلام الإسرائيلى، الذى يبنى تمثالا لفلان ثم يحطمه قبل أن يجف طينه فحسب، وإنما أيضا نزعات متصارعة فعلا فى المزاج السياسى الإسرائيلى بين تمجيد الماضى العسكرى بدون قيد أو شرط والمطالبة بمؤهلات مدنية تتجاوز ذلك من أجل إدارة المجتمع والدولة، بين الحنين إلى فردوس الاستيطان الزراعى العسكرتارى المفقود والذى يذكر به الجنرالات ذوو الصوت الأجش والأيدى الخشنة وبين متطلبات الحياة المدنية المركبة.

هكذا لم يمنع ذم عقلية الآمر العسكرى لدى باراك من انتخاب جنرال عسكرى مغامر لرئاسة الحكومة الإسرائيلية. وتختلط فى صورة شارون الشعبية المتخيلة صفات مطلوبة فى مرحلة الصدام مع العرب مثل: الحزم فى التعامل مع العرب بالقوة إذا لزم، الماضى العسكرى المغامر المختلط فى الخيال الشعبى بصورة بطل هوليوودى أو «شيرف» يحارب الأشرار بطريقته دون أن يلتزم بالتعليمات والقوانين الشكلية إذا تطلب الأمر ذلك، الاستخفاف بالبيروقراطية الحكومية وتنفيذ المهام المطلوبة مباشرة «كالبولدوزر».. هكذا عندما كان وزيرا للإسكان وأيضا عندما كان وزيرا للبنى التحتية .. ناهيك عن الاستيطان والأمن.

والحقيقة أن عقلية الرجل استيطانية خالصة، والبولدوزر من رموز الاستيطان التى تشق الطرق وتزيل العوائق (مثل العرب) دون أخذ أمر ما بعين الاعتبار سوى خدمة الهدف، الذى هو الانتشار اليهودى الاستيطانى فى البلاد وإقامة بناء التحتية الاقتصادية..ولذلك فإن توجهات شارون دولتية بحتة وأصوله فى الصهيونية العمالية حيث الدولة هى أداة الاستيطان وإرساء البنى التحتية، وهى أداة الحرب دون منازع.

مقابل هذه الصورة الشعبية تبرز أيضا الصورة التى يرسمها اليسار الصهيونى الذى هيمن فترة طويلة على ثقافة البلاد، ثم انحسرت هيمنته فى ثقافة النخبة والتى يسقط بموجبها قسما كبيرا مما يخجل فيه من ماضيه على الآخر - اليمين الصهيونى.. هكذا تتجمع صور كل المذابح التى نفذتها الهاجناه ليختزل الغضب عليها فى مذبحة دير ياسين التى قام بها اليمين(الايتسل). ولذلك أيضا تتكثف كل نزعاته العسكرتارية المغامرة بدءا بتمجيده للجندى العبرى الإنسان اليهودى الجديد بلغة بن جوريون وانتهاء بالتسلل إلى خلف خطوط «العدو» لذبح المدنيين انتقاما فى شخوص مثل شارون ورفائيل ايتان. وما كانوا إلا جنودا نفذوا أوامر زعماء مثل بن جوريون. لقد تبين أن قتل المدنيين فى مذبحة قبية مثلا انسجم مع أمر بن جوريونى مباشر كما كتب شبتاى طبيت مؤرخ بن جوريون الرسمى والمعجب به.



ارتبط تميز حزب العمل عن اليمين ومبرر وجوده بمهمة تحقيق السلام مع العرب. ثم جاء باراك ليفضح أمر الحزب عندما بيَّن أنه غير قادر على تحقيق المهام التاريخية التى تبرر وجوده

كانت بداية شارون وأمثاله «رامبو» الغاضب على تنصل مرسليه السياسيين منه، والعائد من الحرب إلى السياسة لكسب تعاطف المجتمع ضد هؤلاء فى مرحلة الأزمة والتخبط. ولكن سن شارون تجاوزت عمر رامبو، وهو لا يريد أن ينتقم أو يفضح كذب وتلون المجتمع الذى أرسله ليقتل ثم أخذ ينظف ضميره على حسابه، بل يريد أن يجلس فى كرسى رئيس الحكومة وأن يحكم دولة متطورة نسبيا ويدير مجتمعا شديد التركيب فى منطقته.

[٤]

لقد توقعنا أن يؤكد شارون على حل مرحلى طويل المدى على المسار الفلسطينى وهاهى صحيفة هآرتس ١٨/١/٢٠٠١، تسرب أنباء برنامجه هذا. كان الموضوع متوقعا للأسباب التالية:

١ - شارون مقتنع أن برنامج باراك لن يلقى قبولا لدى العرب والفلسطينيين وبالتالى لن يجلب سلاما.

٢ - هو ذاته لن يذهب أبعد من باراك لإرضائهم.

٣ - على الفلسطينيين إذن أن يغيروا وجهة نظرهم من الحل.

٤ - هذا الأمر لن يتم قريبا، إذن لا بد من مرحلة انتقالية طويلة، يخلق الله فيها ما لا تعلمون، وتولد فيها حقائق جديدة على الأرض.

وإذا أراد شارون أن يحافظ على سلطته فسوف يضطر إلى احترام قواعد اللعبة السياسية القائمة فى مجتمعه وفى المنطقة.. ولكن رغبته هذه سوف تصطدم بحدود موقفه السياسى اليمينى الذى يتعامل مع الفلسطينيين والعرب عموما بمنطق الردع كما سوف تصطدم بنزعاته الاستيطانية التوسعية.

لقد قال شارون لكولن باول أثناء زيارته الأولى للدولة العبرية بعد تعيينه وزيرا للخارجية أن الأمريكيين يستطيعون تفهم موقفه من الاستيطان لأنهم يدركون معنى ودافع الاستيطان الذى كان يدفعهم بالاستمرار للتوسع نحو الغرب.. وبقى أن يتحدث شارون عن اكتشاف «الأرض البكر» (العذراء بالإنجليزية الاستيطانية) وعن الهنود الحمر. وإذا أعدنا إلى الذاكرة أن المستوطنين الأمريكيين قد استخدموا مصطلحات ومفاهيم مستقاة من العهد القديم مثل «أرض الميعاد» وأنهم وسموا أنفسهم ومستوطناتهم بأسماء توراتية نكتشف أن هناك ثيولوجيا سياسية كاملة تجمع بين الولايات المتحدة وإسرائيل وليس مجرد مصالح.

وإذا كان شارون يبنى لا على المصالح والحسابات البراجماتية وإنما على الثيولوجيا السياسية الغيبية فهذا يعنى أنه يقود بلاده والمنطقة إلى كارثة محققة. إذ لا ينقص العرب بتياريهما الكبيرين القومى والإسلامى وبتنوعات هذين التيارين الفكرية لاهوتا سياسيا لمواجهة إسرائيل والصهيونية والاحتلال فيه أيضا قدر كبير من الغيبية.

شارون الذى يؤمن « بالتنازلات المؤلمة» ، كما تسمى فى القاموس الإسرائيلى إعادة أجزاء صغيرة من الأرض لأصحابها بعد سلبها منهم بقوة السلاح، فى سياق تحقيق السلام مع العرب يعرف جيدا أن تنازلاته هذه لا تعتبر تنازلا، كما لا تعتبر كافية حتى بنظر العرب أصحاب الخيار الإسرائيلى الذين خفتت أصواتهم إبان الانتفاضة. ولذلك فإن شارون يقترح المرحلة الانتقالية طويلة المدى فى محاولة لإحلال «البراجماتية أو التوجه الواقعى» محل برنامج السلام كبرنامج سياسى.

ولا تعود براجماتية شارون هذه إلى البراجماتية الأمريكية الفلسفية بل تقترب أكثر من مفهوم:« الغاية تبرر الوسيلة». وعلينا ألا ننسى أن الغاية هنا هى البقاء فى السلطة دون التوصل إلى اتفاق سلام شامل ودون التدهور إلى حرب شاملة إذا أمكن.. المرحلة الانتقالية طويلة المدى هى خيار فى هذا السياق. واستنزاف السلطة الفلسطينية إلى درجة تصبح فيها العودة إلى التفاوض مع إسرائيل واسترجاع أموال الضرائب من إسرائيل وتخفيف الحصار الاقتصادى هدفا بالنسبة لها، هى وسيلة لتحقيق هذا الخيار. لكن شارون لا يستطيع أن يتحكم بوتيرة الاستنزاف ودرجة التصعيد، فهو ليس اللاعب الوحيد.

وربما تتفق رغبة شارون وتياره فى السياسة الإسرائيلية بتحييد الولايات المتحدة فى المفاوضات مع رغبة الإدارة الأمريكية بعد كلينتون بإعادة العراق والخليج إلى تصدر جدول أعمالها فى المنطقة.

ومن المؤكد أن سياسة الولايات المتحدة فى حرب الخليج الثانية هى التى أدت إلى مؤتمر مدريد للسلام كجواب أمريكى على الانتفاضة وعلى ما سمى خطأ فى حينه « ازدواجية المعايير» الأمريكية ، وأن الربط بين ضرب العراق وبين الحل السلمى للمسألة الفلسطينية هو اختراع أمريكى تماشى بعض العرب معه فى فترة « النظام العالمى الجديد» . ولكن من الواضح لدى أى مراقب أمريكى وغير أمريكى لتطورات الأحداث فى المنطقة أن المعادلة قد انعكست فى الأذهان، بل فى الضمائر العربية فى السنوات العشر العجاف، سنوات حصار العراق، وسنوات تعثر مسيرة أوسلو وأن ضرب العراق بات مرتبطا بحصار الشعب الفلسطينى، وحصار الشعب الفلسطينى مرتبطا بضرب العراق. وأصبح هذا الربط عامل تفجر فى المنطقة، أو «عامل عدم استقرار» كما يحب الأمريكيون أن يسموا ما لا يندرج ضمن خططهم.



يكرر شارون ومعه أوساط رسمية وشعبية إسرائيلية الادعاء القائل أن إسرائيل لا تستطيع التفاوض فى ظل العنف الفلسطينى أو تحت التهديد باستخدامه، والحقيقة أن غالبية المستعمرين فى التاريخ الحديث فاوضوا أثناء الصراع العنيف ضد الاستعمار أو على أثره ، وذلك لأن الاستعمار ذاته ، أى الاحتلال ومؤسساته، وتفوق قوته على قوة المستعمر تشكل جميعا أشكالا من العنف أو من التهديد باستخدامه لا بد من موازنتها بعنف مضاد لكى تبدأ أصلا حالة مفاوضات حقيقية.

وقد صمدت إسرائيل فترة طويلة أمام العنف الفلسطينى الذى سمى بالكفاح المسلح وأسمته إسرائيل إرهابا.. ومع أن التفاوض لم يكن مطلب الكفاح المسلح الفلسطينى فى غالبية مراحله، إلا أن الدولة العبرية صمدت على أية حال، وأقنعت ذاتها أنه لا معنى للتفاوض مع من يهدف لإبادة كيانها. ولكن انتفاضة الشعب الفلسطينى تحت الاحتلال أدت إلى مفاوضات محددة السقف وما لبثت أن أعادت المطالب التاريخية الفلسطينية إلى طاولة المفاوضات . ولم تتجرد إسرائيل ذاتها خلال التفاوض لا من سلاح القمع اليومى الاحتلالى المنظم ولا من سلاح الرد على العنف بعنف أشد وأكثر فاعلية وفتكا.

تدعى إسرائيل أن العنف يصعب المفاوضات وتثور ثائرة اليمين الإسرائيلى ضد استمرار التفاوض كلما قتل أو أصيب مستوطن إسرائيلى من كمين فلسطينى. ولكن لنتخيل ماذا كانت إسرائيل فاعلة لو عملت أجهزة الأمن الفلسطينية وفق لائحة أسماء معدة سلفا على تصفية كوادر الحزب الحاكم فيها، أو قيادات فى الجيش الإسرائيلى، أو حتى على تصفية قيادات ميدانية من المستوطنين بناء على قوائم جاهزة؟ فالقيادة الفلسطينية تفاوض فى حين تقوم أجهزة الأمن الإسرائيلية باغتيال كوادر وقيادات ميدانية من حركة فتح بموجب قوائم، أى ليس عرضا وأثناء القتال بل عن سبق إصرار وترصد.

ما زالت إسرائيل تحتكر أنماطا من العنف بحكم تعريفها كدولة محتلة. فهى وحدها القادرة على إغلاق مناطق بأكملها وعلى تقطيع أوصال قطاع غزة بشكل غير مسبوق منذ العام ١٩٦٧، وهى قادرة على تقييد تحرك المفاوض الفلسطينى ثم مصادرة حتى حقه بالسؤال، تماما كما اعترضت إسرائيل على حق المفاوض الفلسطينى أن يوجه أسئلة توضيحية حول أفكار كلينتون - باراك.

وسوف يحاول شارون فى بداية فترة حكمه أن يلطف صورته أمام العالم، وفقط هامش المناورة الذى سيفسحه له العالم العربى سوف يمكنه من تمرير هذه الخطة. ولن يكون باستطاعة شارون أن يثبت أنه رجل السلام، إذا وجد نفسه مضطرا لمواجهة الانتفاضة والتضامن العربى معها. وفى الوقت الذى تمنع فيه سياسة الإغلاق إمكانية عقد جلسة للمجلس التشريعى الفلسطينى ناهيك عن المجلس الوطنى الفلسطينى، يعقد البرلمان الإسرائيلى جلساته بحرية ويقرر من طرفه بالإجماع الصهيونى إلغاء حق العودة للفلسطينيين وتحصين رفض إسرائيل لهذا الحق، كما يجتمع البرلمان الإسرائيلى ويقرر خصخصة أراضى اللاجئين الفلسطينيين كعائق قانونى أمام المطالبة بها مستقبلا.

يجرى هذا فى عالم يستسهل تعريف العنف كعملية رمى حجر أو كعملية انتحارية. ■

كتاب الزاوية

عمارة الفقراء

٢ ـ الفساد الحضارى

الحضارة تنطلق من الجذور

وتتسرب لتنفذ إلى كل طلع

إلى الورقة والزهرة والبرعم

ومن خلية للأخرى، وكأنها دم أخضر .

ويطلقها رذاذ المطر

كعطر من زهور منداة

يفعم الهواء

ولكن الحضارة التى تنصب على البشر

من فوقهم من عل . لا تلبث أن تنعقد

كما ينعقد السكر الرطيب . وهكذا يصبحون

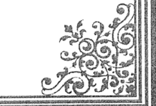
مثل عرائس السكر وعندما

يبللهم بعض رذاذ من المطر الواهب للحياة

فإنهم يتلاشون . يذوبون

فى خليط لزج

إن الفساد الحضارى يبدأ بالفرد نفسه . الذى يواجه بخيارات لم يهيأ للقيام بها ، وينبغى أن نعالجه عند هذه المرحلة . والبناء إنما هو نشاط خلاق حيث اللحظة الحاسمة هى لحظة التصور . تلك اللحظة التى تتخذ الروح عندها شكلاً . وتتحدد بالفعل كل ملامح المخلوق الجديد . وإذا كانت خصائص الكائن الحى تتقرر بلا رجعة فى لحظة الإخصاب ، فإن خصائص المبنى تتحدد بكل مركب القرارات التى يعطيها كل من له يد فى الأمر .





وراثة اللغة
و
لغة الوراثة

نبيل علي

يواجه العقل الإنسانى مع بداية القرن الواحد والعشرين وجهًا لوجه واقعًا جديدًا معقدًا فى مجالات معرفية ثلاثة أصبحت تحتل موقع الصدارة على خريطة المعرفة الإنسانية.. هذه المجالات الثلاثة هى: البيولوجيا الجزيئية من ناحية. وعلم اللغة من ناحية أخرى. ثم المعلوماتية من ناحية ثالثة.. التى تقوم بدور الجسر الواصل بين علوم الطبيعيات وعلوم الإنسانيات.. ومن هذا المدخل يقدم الدكتور نبيل على رؤية متقدمة للآفاق الجديدة للمعرفة الإنسانية، وهى تبحث عن قانون جديد أو محور جديد، خارج حضارة الفيزياء التى سيطرت على العلم مدة طويلة، ويحاول فى هذه الدراسة تناول الإشكاليات المستجدة التى اظهرتها بصورة غير مسبوقة متغيرات عصر المعلومات، بحيث توشك المعرفة الإنسانية أن تنتقل من معرفة أحادية المحور تركز على مجال واحد بعينه إلى معرفة متعددة المحاور متشابكة المجالات.

هذه النظرة المعرفية الجديدة بكل إشكالياتها تحتاج من القارىء إلى أناة فى النظر، وصبر على القراءة، وحوار مع النفس، لكنها قبل كل شىء تنطوى على دعوة للمثقفين والمفكرين لمناقشة هذا الاتجاه الجديد والإسهام فى إبراز جوانبه.

المحرر



برغم كل ما تحقق من انتصارات علمية وإنجازات تكنولوجية، مازلنا نجهل الكثير عن بيولوجيا الكائن البشرى ونشأته وتطوره، وكذلك عن اللغة التى صنعها هذا الكائن لتسهم بدورها فى صنعه، فما أشد قصور معرفتنا عما يجرى داخل أدمغتنا وأجسادنا وما تموج به منظومة لغتنا. وكل ما نسمعه حاليا عن خرائط المخ وخرائط الجينات ونظريات اللغويات ما هو إلا مجرد خطوةٍ أولى على طريق طويل وشاق سعيا إلى فك طلاسم اللغزين التوءمين: لغز البيولوجى ولغز اللغة. وعلى ما يبدو، ستظل تطرح المرة تلو المرة تلك الأسئلة نفسها التى حيرت البشرية على مر القرون: كيف نشأت وتطورت الكائنات واللغات؟ وأين يلتقى مسار التطور البيولوجى مع نظيره اللغوى؟ وكيف يتفاعل الداخلى الحيوى مع الخارجى البيئى فى توجيه كلا المسارين صوب غايات معينة؟. ولماذا تبلى أجيال البشر وتزدهر البشرية؟ وما السر وراء صمود اللغة أمام كل ما يفعله بها أهلها؟

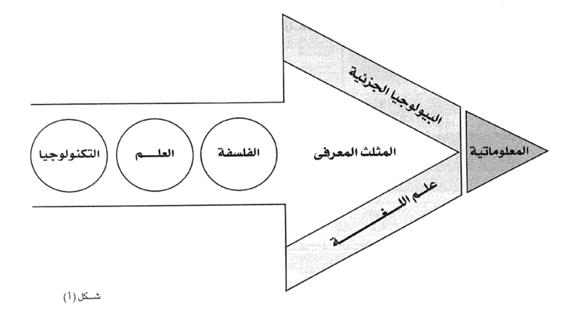
وحديثنا الراهن يحوم حول العلاقة بين هذين اللغزين، وهو يقحم نفسه مجازفا فى المواجهة المباشرة بينهما، متنقلا بين النظر إلى اللغة من منظور البيولوجيا الجزيئية، وإلى البيولوجيا الجزيئية من منظور اللغة. ولم يكن الدافع وراء هذا الحديث المجازف هو إغراء المبادرة بقدر ما هو قناعة كاتبه أن العلاقة البيولوجية ـ اللغوية ستلعب دورا حاسما فى صياغة مصير البشرية: فلسفيا وعلميا وتربويا وتكنولوجيا، وبالتالى ثقافيا واقتصاديا. ما نسعى إليه هنا هو تجاوز ما شاع من الخطاب البيولوجى عن العلاج بالجينات، والاستنساخ والنعجة دوللى والقرد أندى، ومن الخطاب اللغوى عن إشكالية الرمز والمعنى، وثنائية النحو والمعجم، ودور اللغة النفسى والاجتماعى وما شابه، مع إقرارنا بالطبع بأهمية هذين الخطابين. نريد بحديثنا هذا أن ننفذ إلى المغزى المعرفى لهذا اللقاء البيولوجى ـ اللغوى المثير، والذى يمثل، من وجهة نظر الكاتب، ذروة اللقاء العلمى ـ التكنولوجى، فاللغة، بلا منازع، هى «سندريلا» العلوم الإنسانية، فى حين يتربع البيولوجى حاليا على قمة العلوم الطبيعية. وما أكثر ما التقت فيما مضى العلوم المتقاربة: التقت الكيمياء مع الطبيعة، والرياضيات مع المنطق، والسياسة مع الاقتصاد، والميكانيكا مع الهيدروليكا، والتقى السيكولوجى مع الفسيولوجى، والتربوى مع الإعلامى، والأدبى مع اللغوى، واللاهوتى مع الأنثروبولوجى. ولكن شتان الفرق بين لقاءات المتقاربين هذه ولقاء المتباعدين: البيولوجى واللغوى: فهو يمثل من حيث مستوى المزج المعرفى، أقصى درجات قوة التهجين hybrid vigor بلغة أهل تربية الحيوانات. إنه ـ بحق ـ اللقاء الجامع الذى تندرج تحته معظم اللقاءات المعرفية الأخرى، إما كفروع تنبثق منه، وإما كروافد تصب فيه.

نريد بحديثنا هذا أن ننفذ إلى المغزى المعرفى لهذا اللقاء البيولوجى ـ اللغوى المثير، والذى يمثل، من وجهة نظر الكاتب، ذروة اللقاء العلمى ـ التكنولوجى، فاللغة، بلا منازع، هى «سندريلا» العلوم الإنسانية، فى حين يتربع البيولوجى حاليا على قمة العلوم الطبيعية. وما أكثر ما التقت فيما مضى العلوم المتقاربة: التقت الكيمياء مع الطبيعة، والرياضيات مع المنطق، والسياسة مع الاقتصاد

المثلث الذهبى

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا، هو: كيف التقت اللغة، المنشغلة بالمفاهيم والمعانى والمجردات والبنى المعرفية والأمور الثقافية والتربوية، مع البيولوجى، المنشغل بالكيمياء الحيوية والوظائف العضوية والعناصر المادية من خلايا وبروتينات وأنسجة وعظام وغدد وأعصاب وأعضاء؟ إن الإجابة عن هذا السؤال هى صلب دراستنا الراهنة، ونكتفى حاليا بأن نشير إلى أن هذا اللقاء يقع ـ أساسا ـ على جبهة الرمز. فاللغة هى النسق الرمزى الأم الذى يَجُبُّ ما دونه من أنساق الرموز: أصواتا وألحانا وأشكالا وكتلا وإشارات وحركات، فى الوقت الذى أصبح فيه للبيولوجى شقه الرمزى ونقصد به لغة الجينات، تلك اللغة التى أودعها الخالق الأعظم خلايا كائناته ليصوغ بها حياة هذه الكائنات ويوجه من خلالها مسار تطورها. لا يظهر مدى تعاضد هذا الثنائى الرمزى للغة والبيولوجى دون أن يُدعى للانضمام إليه طرف ثالث لا يقل إثارة وأهمية وتعاضدية ألا وهو المعلوماتية، بصفتها الأداة الرئيسية للتعامل مع الرمز. وبهذا، تكتمل عناصر «المثلث الذهبى: البيولوجى ـ اللغوى ـ المعلوماتى». إن كلا من هذه العناصر الثلاثة يمثل عالما رمزيا زاخرا بالتحديات والتوقعات والمخاوف، يتلاحم فى أرجائه النظرى الصورى مع التطبيقى العملى، ويقترب بفضله الواقعى من الخائلى virtual، ويتداخل المستقبلى مع التراثى. لقد تردد على الألسنة هذه الأيام سؤال، خلاصته: ما السبيل إلى عقل جديد يواجه به إنسان العصر عالمه الجديد؟ وفى اعتقادنا أن الإجابة عن هذا السؤال الحيوى تكمن فى قلب هذا المثلث الذهبى؛ حيث تجمع أطرافه ـ كما سيتضح لنا ـ شتات المعرفة الإنسانية فى منظومة متكاملة شديدة الرسوخ. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن لقاء عناصره الثلاثة يطرح إشكاليات مستجدة عديدة تستنفر العقل، وتفرض عليه ضرورة أن يجدد عتاده ويوسع من مجال رؤيته. ولا نبالغ إذا ما قلنا إن مثلثنا الذهبى هو بالنسبة إلى حضارة اليوم بمثابة رأس الحربة لركبها المنطلق الذى يصعب ـ بل يستحيل ـ التكهن بالمصير الذى يدفع إليه البشرية جمعاء. وما من أحد يدرى هل ننتظر فردوسا أرضيا من صنع عوالم الرمز الثلاثة تلك، أم جحيما من صنع بربرية التكنولوجيا المتقدمة، وأوهامها الزائفة وكوابيسها المفزعة.

يشهد كل ضلع من أضلاع هذا المثلث المعرفى تلاقحا علميا بالغ الأهمية والإثارة، يتبادل فيه طرفاه موضعى التأثير والتأثر، وجانبى ثنائية المشكلة والحل. سنركز هنا على الضلع الواصل بين البيولوجى واللغة، وسنبدأ



شـكل (أ)

بتقديم طرفيه في إطار العلاقة الانعكاسية لـ «وراثة اللغة ولغة الوراثة»، ثم نحدد على ضوئها أين يلتقي الطرفان؟ وأين يفترقان؟ ونختتم بطرح تصورنا عن المغزى المعرفي للقاء اللغوي ـ البيولوجي بصفته الركيزة الأساسية لمثلثنا الذهبي.

وراثة اللغة

مع شيوعها وأهميتها وشدة التصاقها بنا، تظل اللغة ذلك الشائع المجهول: فهي دفينة مستترة، غائرة في متاهات المخ البشري وثنايا النسيج الاجتماعي. وهي ـ أي اللغة ـ لغز حير الفلاسفة والعلماء على مر العصور، ومصدر الإشكالية في تناول اللغز اللغوي هو حتمية الوقوع في فخ «الحلقية» أو الارتداد دوما إلى نقطة البداية: فالتفكير في اللغة يعني التفكير في ماهية التفكير ذاته، والبحث في المعنى اللغوي يجرنا ـ حتما ـ إلى الخوض في معنى المعنى.

وتتعدد الرؤى وتتباين في شأن اللغة، ويتمحور الخلاف النظري ـ فيما يخصنا هنا ـ حول السؤال الجوهري: هل اللغة سلوك يكتسب، أم ملكة عقلية نولد بها؟ في نظر سكينر، اللغة نوع من السلوك، السلوك الشفاهي كما أسماه، يتم اكتسابه من خلال التفاعل مع البيئة المحيطة، فنحن ـ كما يرى السلوكيون ـ نولد بأمخاخ خالية، صفحة بيضاء، ليس بها من وسائل معالجة الإشارات والمعلومات سوى عدد محدود من الآليات العامة لاستقبال المؤثرات وتوليد ردود الأفعال. في ظل هذا التصور، يتم اكتساب اللغة ـ كغيرها من أنماط السلوك ـ عن طريق التقليد والتجربة والخطأ، ومن خلال تطبيق مبدأ الثواب والعقاب، من أجل تأكيد ردود الفعل الإيجابية تجاه المؤثرات اللغوية، وتثبيط السلبي منها. وهكذا تحولت عملية اكتساب اللغة إلى شيء أقرب ما يكون إلى تجارب بافلوف على كلبه الشهير، وردود فعله الشرطية الأكثر شهرة.

وفي منتصف الخمسينيات من القرن المنصرم، يتحرك بندول التنظير اللغوي إلى الاتجاه الآخر المناقض تماما لسلوكية سكينر، وذلك على يد نعوم تشومسكي ونموذجه الذهني لتفسير أداء منظومة اللغة وكيفية اكتسابها. يفترض هذا النموذج أن البشر، على اختلاف أجناسهم، يولدون بملكة لغوية عامة يتوارثونها جيلا بعد جيل. يتم تطويع هذه «الغريزة اللغوية» ـ كما أطلق عليها البعض ـ لمطالب البيئة اللغوية الخاصة خلال عملية اكتساب الطفل لغته الأم. لقد افترض هذا النموذج الذهني وجود «عضو لغوي» في بنية المخ البشري يتولى القيام بالوظائف الذهنية المتعلقة باللغة. كغيره من مكونات المخ، يمكن النظر إلى هذا العضو بصفته نظاما فعالا لمعالجة المعلومات. يعمل هذا النظام البيولوجي المعلوماتي في ظل مجموعة من القيود العامة التي توجه سلوك اللغة وعملية اكتسابها. تمثل مجموعة القيود هذه ما يعرف بمصطلح «النحو العام Universal Grammar»، أو «نحو الأنحاء» الذي تخضع له جميع اللغات الإنسانية قاطبة.

واجه تشومسكي صعوبة بالغة في إثبات صحة الفرضية التي أقام عليها نموذجه الذهني، ونحوه العام الذي تندرج في إطاره جميع اللغات. وفي غياب الدليل البيولوجي المادي، لم يكن أمامه إلا أن يلجأ إلى التجريد النظري. ومن خلاله، أثبت تشومسكي وجود العديد من القواسم المشتركة بين جميع اللغات، وفسر كثيرا من ظواهر الاختلاف بينها، وقد أسس برهانه على «تشريح» السلوك النحوي للغة الإنجليزية أساسا، مدعوما بشواهد عديدة من لغات أخرى تنتمي إلى أسر لغوية متباينة: وذلك من حيث أنماط تراكيب الجمل، وعلاقاتها النحوية، وعمل آليات التقديم والتأخير والإضمار والحذف والوصل والفصل وما شابه. لقد اتضح، بما لا يدع مجالا للشك، أن اللغات، مع شدة اختلافها وتنوعها، ودوام تطورها وتغيرها، تخضع لقيود معينة تمنعها من أن تشرد إلى ما هو غير نحوي، فلا توجد لغة ـ على سبيل المثال ـ تسمح بوجود أكثر من فعل للجملة الواحدة، وفي حين تسمح جميع اللغات بتعدد المفاعيل (أهدى فلان فلانا كتابا) إلا أنها تلتزم جميعا بوحدة الفاعل. وفي رأي تشومسكي، أن هذه القيود، التي يفرضها النحو العام للغات ذات أساس بيولوجي؛ بمعنى أن هناك في المخ البشري من العناصر المادية والوظائف الفسيولوجية ما يقيد عملية تطور اللغات بحيث لا يفلت زمامها وتتغير بصورة عشوائية، وذلك بالرغم من كل ما يطرأ عليها من إضافات وتحولات، وما يبتدعه الناطقون بها من جديد الألفاظ والتعابير، وما يسلكونه بها من مسالك شتى تلبية لمطالب حياتهم اليومية.

على الرغم من وجاهة التجريد النظرى الرياضي، ورصانة المنهجية العلمية التي صاغ بها تشومسكي نظريته العامة للغة، إلا أنها ظلت تنتظر سندا ماديا يأتيها من البيولوجي. وجاء الدليل الحاسم أخيرا من خلال دراسة أجريت على أسرة بريطانية يشكو أفرادها من عاهة لغوية مستديمة أفقدتهم القدرة على تكوين جمل نحوية سليمة، كأن يقولون مثلا: «عانت فلان من قلب في مرضه» بدلا من «عاني فلان من مرض في قلبه». لقد أسفر التحليل البيولوجي لعينات من الدم أخذت من أفراد هذه الأسرة عن وجود جين معطوب توارثته سلالتها جيلا بعد جيل. صاحبت هذا الاكتشاف ضجة إعلامية كبيرة تعلن عن اكتشاف «جين النحو». ولا شك أن في هذا ضربا من التبسيط الزائد: فلا يمكن لوظيفة ذهنية معقدة، مثل الوظيفة النحوية، أن يقوم بها جين واحد بعينه مهما بلغت قدرة هذا الجين. إن هذه الوظيفة مهمة فسيولوجية مركبة تتضافر في القيام بها شبكة من الجينات، يمكن أن يؤدي عطب أي منها إلى خلل في القدرة النحوية، كما حدث لأفراد الأسرة البريطانية المشار إليها. من جانب آخر، فالمخ البشري بحكم طبيعته ينأى عن التخصص الوظيفي الضيق، ولا يمكن ـ بالتالي ـ أن تقوم آلياته بوظائف نحوية معينة كضبط أواخر الكلمات، أو مطابقة الفعل مع فاعله، أو ربط الضمير بمرجعه، فموارد المخ البشري أثمن من أن تبدد باحتكارها من قبل واحدة أو أكثر من وظائف المخ اللغوية. إن عمل المخ يقوم على فكرة بسيطة وأساسية، مفادها: أن الوظائف المتخصصة يتم «تفتيتها» في صورة آليات فسيولوجية أولية شديدة العمومية. بفضل طابعها الأولي اللاتخصصي هذا، يصبح بالإمكان أن تتقاسم هذه الآليات وظائف ذهنية متعددة، كوظائف اللغة والإبصار والتوافق الحركي وتذوق الجماليات وخلافه. وعليه، فالوظائف اللغوية، كغيرها من الوظائف الذهنية. لا تدين لنظام معالجة المعلومات داخل المخ إلا بعد تجريدها في صورة عدد قليل من الآليات الأولية كالمطابقة والمقارنة، والدمج والفصل، والتفريع والتجميع، وهلم جرا.

تتفق الآراء على أن فهمنا لعمل منظومة اللغة واكتسابها لا يمكن أن يقوم على دراسة جين معين، أو حتى عدة جينات. إن عملية الفهم هذه أعقد من ذلك بكثير، ولن تتأتى لنا دون إماطة اللثام عن شبكة العلاقات الكثيفة التي تربط بين جينات «العضو اللغوي» سالف الذكر، وهنا يأتي دور نظم الذكاء الاصطناعي التي تسعى إلى محاكاة وظائف المخ البشرية كوسيلة للسيطرة على هذه العملية البيولوجية البالغة التعقيد. لا يمكن القيام بهذا الدور التكنولوجي والكشف عن النسق المعرفي اللغوي داخل المخ دون إسهام فعال من البيولوجيا الجزيئية في مجال فسيولوجيا المخ عموما، ومجال اللغويات الأعصابية neuro-linguistics بصفة خاصة.

لغة الوراثة

مسار التطور البيولوجي أبعد ما يكون عن كونه سلما للصعود صوب الأعقد والأرقى. ومن الخطأ أن ينظر إلى هذا المسار على أنه تدرج سلس تتطور من خلاله الكائنات بصورة منتظمة، في خطية زمنية يسهل معها استشراف غاياتها وتوقع ما يسفر عنه تعاقبها. ومن أين لنا بهذا الانتظام، وتلك الخطية، والتطور البيولوجي هو ـ في جوهره ـ وليد الطفرات المفاجئة: فبانتقال التعليمات الوراثية من جيل إلى جيل، تحدث أخطاء يؤدي تراكمها إلى ظهور أشكال جديدة من الحياة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف لهذه الطفرات العشوائية أن تنتظم لتؤلف هذه السيمفونية الرائعة لتنوع الكائنات الحية؟ وكيف ظلت تتراكم وترقى بمسار التطور حتى أفرزت هذا الكائن البشري الفريد؟!!.



في نظر الكثيرين، لم يعد كافيا، ولا مقنعا، تفسير هذا التطور البيولوجي بالاستناد فقط إلى قانون الانتخاب الطبيعي، وهو القانون القائم على مبدأ البقاء للأصلح. و«الأصلح» هنا هو ذلك الكائن المحظوظ الذي تهبه صدفة الطفور ميزة تنافسية تزيد



سنركز هنا على الضلع الواصل بين البيولوجى واللغة، وسنبدأ بتقديم طرفيه فى إطار العلاقة الانعكاسية لـ «وراثة اللغة ولغة الوراثة»، ثم نحدد على ضوئها أين يلتقى الطرفان؟ وأين يفترقان؟ ونختتم بطرح تصورنا عن المغزى المعرفى للقاء اللغوى - البيولوجى بصفته الركيزة الأساسية لمثلثنا الذهبى

من قدرته على التكيف مع البيئة، والتفوق على منافسيه من الكائنات التى تشاركه الحياة فى هذه البيئة. إن الانتخاب الطبيعى يفسر التطور من خارجه، باعتباره محض تراكم لصدف الطفرات يتم تهذيب عشوائيتها بفعل أيادى الطبيعة الخفية. ليس من الصعب إدراك ما فى هذا التوجه من قصور: فكيف يتاح لنا تفسير آلية تطور الكائنات اكتفاء بعلاقتها بخارجها، دون أن نأخذ فى الاعتبار ما يجرى بداخلها، داخل خلاياها وأنسجتها وأعضائها وشبكة أعصابها؟!! وإذا ما اتفقنا على أن التطور هو وليد تراكم الطفرات، أليس من المنطقى أن تكون نقطة البداية هى البحث فى مصدر توليد هذه الطفرات؟ دعنا نصغ ما نرمى إليه بلغة نظرية الاتصال لنؤكد أنه قد صار لزاما علينا إعادة النظر فى عملية التطور انطلاقا من المرسل الذى يولد الطفرات، بدلا من منظور المستقبل الذى يكيفها لمطالب بيئته. إن الهدف من وراء ذلك هو التعرف بصورة أوضح وأعمق على مصدر الطفرات الوراثية النابض داخل الكائن الحيوى، وأن نضع أيدينا على القيود الكامنة التى تحدد سلوك هذا المصدر من حيث معدل ظهور الطفرات، ومدى الاحتمالات التى تتحرك فى نطاقه. وهى القيود التى تتحكم فى عملية التواصل الوراثى، والتى تمنع - بالتالى - ظهور كائنات عشوائية كتلك التى نسمع عنها فى عالم الكائنات الخرافية من ذوات الرأسين والأرجل الست والعين الواحدة.

كما يقر اللغويون بمبدأ العموم اللغوى الذى يقوم - كما سبق وأوضحنا - على أساس وجود نحو عام موحد تخضع له جميع اللغات، تقر كذلك غالبية البيولوجيين بأن جميع الكائنات الحية تؤول إلى أصل واحد مشترك، وهو الأمر الذى أغرى بالبحث عن نظرية بيولوجية عامة تندرج فى إطارها جميع الكائنات: من الحيوانات إلى النباتات، ومن أرقى المخلوقات إلى أدنى الفيروسات. عادة ما يكون الطريق إلى مثل هذا التعميم التنظيرى من خلال إسقاط التفاصيل والارتقاء إلى مستويات أعلى من التجريد، وهو الأمر الذى يصعب تحقيقه على المستوى البيولوجى ما لم تتجاوز الكيمياء الحيوية بتفاصيل جزيئاتها وذراتها وتفاعلاتها. فكيف يمكن لنا الإحاطة بحقيقة ما يحدث بين هذا الكم الهائل من العناصر البيولوجية دون أن نضحى بدقائق الميكرو الكيميائى حتى يتسنى لنا الإلمام بأطراف الرواية الكبرى للحدث البيولوجى الجلل. لقد كان أرسطو هو أول من قال بأن هنالك وراء العمليات البيولوجية وظاهرها المادى قوانين صورية تتحكم فيها وتوجه مسارها، وبعد ثلاثة وعشرين قرنا تقدم لنا البيولوجيا الجزيئية الدليل القاطع على نفاذ بصيرة المعلم الأول، وتطلق بذلك إشارة البدء لعصر ما يمكن أن نطلق عليه «البيولوجيا الصورية formal biology. خلاصة القول، لا بد من اللجوء إلى التجريد الرمزى، ونعنى به ضرورة الارتقاء بالمعالجة التنظيرية من مادية الكيمياء الحيوية إلى رمزية لغة الجينات، وهنيئا لأهل اللغة وأهل البيولوجيا الجزيئية زواجهما الكاثوليكى السعيد.

لتأكيد أوجه الشبه بين اللغة الإنسانية ولغة الجينات، رأينا أن نقيم بينهما تناظرا مباشرا بأسلوب «واحد-إلى-واحد»، وذلك على المستويات اللغوية المختلفة، ونقصد بها مستويات: النص والفصل والفقرة والجملة والكلمة والمعجم والمعنى والنحو. يلخص الشكل هذه المقابلة اللغوية - البيولوجية متدرجة على مدى المستويات المذكورة، من سردية النص إلى سلاسل الحروف، ومن معانى الكلمات المفردة إلى معانى الجمل والفقرات[1]. ويوصى الكاتب بشدة أن تقترن قراءة الفقرات التالية بقراءة الشكل أيضا، وقد رأينا تسهيلا لذلك أن نسلسل السرد وفقا للتتابع الذى صمم به الشكل.

(أ) النص: تواتر استخدام مصطلح «الجينوم» حتى أصبح أكثر مفردات الفلكلور البيولوجى جاذبية وسحرا، ويرمزون به إلى «السفر الوراثى» الكامل الذى تحمله فى جوفها نواة كل خلية، من الـ ٦٠ تريليون خلية التى تبنى الكائن البشرى. يقدر حجم هذا النص البيولوجى بثلاثة بلايين حرف، وهو يتضمن جميع المعلومات اللازمة لكى نكون بشرا. إن السفر الوراثى هو السر المكنون الذى أودعه الخالق فى نواة الخلية، وهى - أى النواة - بالنسبة إلى مملكة الخلية فى مقام «غرفة العرش» كما شبههما البعض: فهى صاحبة الأمر والنهى، التى تختزن دستور حياتنا المدون فيه جميع التعليمات التى تصنع مادة الحياة (البروتينات) وتبنى الأنسجة والعظام وتوجه وظائف الأعضاء، وتشكل غرائزنا وميولنا النفسية، وتتحكم فى حياتنا: فسيولوجيا وباثولوجيا، من لحظة الميلاد حتى ساعة الممات. والجينوم ليس دستور حاضرنا البيولوجى فقط، بل هو أيضا - وهذا سر آخر من أسرار عظمته - أرشيف وراثى تسجل فيه جميع وقائع التطور البيولوجى على مر العصور. فكل مرحلة من مراحل التطور تترك وراءها بقايا رمزية تحفر فى سفرنا الوراثى. وبناء على ذلك، فكل خلية من خلايانا - كما قيل - تمثل أحفورة fossil بيولوجية تحمل من البيانات ما يفوق أحفورات الصخور. الجينوم - إذن - هو الدستور وأرشيف المحفوظات معا؛ لكونه النص الذى يجمع بين الحاضر البيولوجى وبين الأركيولوجى الوراثى. بقول آخر، إن الجينوم لا يتضمن معلومات بناء أجسامنا فقط، بل يحمل أيضا من المعلومات ما يمكن بواسطتها إعادة بناء تاريخنا الوراثى.

(ب) الفصول: كنظيره اللغوى، ينقسم النص الوراثى إلى مجموعة من الفصول، يمثلها ٢٣ زوجا من الكروموزومات الموجودة فى نواة الخلية. والكروموزوم هو «خيط» ملتف من البروتين يغلف الحلزون المزدوج، جزئ الدنا، أو معبود القرن العشرين كما يهوى للبعض أن يدلله. وهو - أى الحلزون المزدوج - سلسلة متصلة من الجينات تختلف أعدادها ومهامها البيولوجية من كروموزوم إلى آخر، ولكل من هذه الجينات موقعه المحدد فى النص الكروموزومى. تتخلل سلسلة الجينات داخل هذا النص مسافات من سقط الدنا، أو الفائض، وهو ما يمكن اعتباره لغوا بيولوجيا - إن جاز التعبير - لم تتضح وظيفته بعد.

(ج) الجمل: يمثل الجين الأساس الرمزى للكائنات الحية الذى يتحكم فى نمونا وكيمياء أجسادنا ولون أعيننا وبشرتنا ووظائف أعضائنا. وكما أن الجملة فى النص اللغوى هى أصغر وحدة لغوية تفيد المعنى، فالجين بالنسبة إلى الجينوم هو بمثابة «الجملة البيولوجية» التى تفيد القيام بمهمة بيولوجية محددة وفقاً للتعليمات المسطورة بسلسلة حروف الجين. تصدر هذه التعليمات فى هيئة رسالة توجهها نواة الخلية إلى مصنع إنتاج مواد بناء الجسم و«مستلزمات تشغيله». تتم عملية التصنيع بواسطة آليات متخصصة خارج نواة الخلية تقوم بتنفيذ المهمة البيولوجية الموكلة إليها، وذلك بترجمة مضمون رسالة الجين إلى مقابله المادى من بروتينات وإنزيمات وخلافه.

ومرة أخرى، وكما تمثل الفقرة، أو مجموعة الجمل، وحدة مفهومية قائمة بذاتها داخل النص، تمثل مجموعة الجينات، أو الجمل البيولوجية، فقرة كروموزومية تؤدى وظيفة بيولوجية متكاملة، فهناك - على سبيل المثال - فقرة كروموزومية لا يزيد طولها على عشرة جينات هى المسئولة عن لون بشرتنا، وفقرة أخرى أطول منها مسئولة عن إكساب العين القدرة على تمييز الألوان.

(د) الأبجدية: يصاغ النص الوراثى باستخدام أبجدية بسيطة مكونة من أربعة أحرف لا غير، وهى (A,C,T,G)، يناظر كل حرف منها قاعدة كيميائية (جزئ قاعدى) معينة. يناظر حرف (A) الجزىء القاعدى «أدنين»، وحرف (C) الجزىء القاعدى «ستوزين» وحرف (T) الجزىء القاعدى «ثيمين»، وحرف (G) الجزىء القاعدى «جوانين». (لقد اكتشف العلماء أن درجات سلم الحلزون المزدوج تتكون كل واحدة منها من اثنتين من القواعد الأربعة، وأن جزئيات هذه القواعد ترتبط بعضها مع بعض بنظام ثابت، فإذا كانت إحداهما «جوانين» فلا بد أن تكون الثانية «ستوزين» وإذا كانت إحداهما «أدنين» فلا بد أن تكون الثانية «ثيمين»، وهكذا)[2]. ترتبط سلاسل الحروف بشريط الحلزون المزدوج برباط كيميائى متين يضمن الحفاظ على مضمون النص الوراثى، فى حين يرتبط كل حرف على شريط الحلزون المزدوج بنظيره على الشريط الآخر برباط كيميائى ضعيف يسمح بسهولة انشطار شطرى الحلزون المصاحبة لعملية الانقسام الخلوى.

(هـ) الكلمة: ومن الحروف إلى الكلمات، حيث تمثل كل ثلاثة أحرف من سلسلة حروف الجين، كلمة بيولوجية، أو «كودون» وفقا للمصطلح الفنى.



هذا يكفى عن البنية الرمزية للجينوم؛ من نصه الكامل حتى سلاسل حروفه، لننتقل بحديثنا إلى معنى الكلمات والجمل والفقرات البيولوجية.

(و) معجم اللغة: يمثل الكود الوراثى معجم لغة الجينات، وهم معجم ذو عدد ثابت من الكلمات، أو الكودونات (٦٤ كلمة). يقابل كل كودون منها حامض أمينى معين، وهو فى مقام المعنى بالنسبة إلى الكلمة البيولوجية. لا تنتج آلية التصنيع البيولوجى إلا ٢٠ نوعا من الأحماض الأمينية فقط، وهو ما يقل بكثير عن العدد السابق ذكره لكلمات المعجم الوراثى. يعنى ذلك أن هناك أكثر من كلمة بيولوجية (كودون) يتم «تشفيرها» إلى نفس الحامض الأمينى، وهو ما يشبه ظاهرة الترادف فى اللغة الإنسانية الذى يسمح بوجود أكثر من كلمة للدلالة على نفس المعنى.

(ز) معنى الجملة: يناظر البروتين معنى الجملة، فهو المقابل المادى المعبر عن المضمون الرمزى للجين، وكما يتكون الجين، أو الجملة البيولوجية، من الكودونات (الكلمات البيولوجية)، يتألف البروتين من سلسلة الأحماض الأمينية التى تشفر إليها هذه الكودونات. مثله مثل الجملة اللغوية، يشتمل الجين على علامات ترقيم فى هيئة كودونات معينة تحدد بدايته ونهايته، وهما تحددان بدورهما بدء عملية تصنيع البروتين وإنهاءها. البروتين - إذن - هو التعبير الجينى المحسوس الذى تترجم إليه سلسلة حروف الجين. إنها عملية الترجمة البيولوجية التى تتوقف عليها حياتنا. لقد هلل البيولوجيون كثيرا ما إن اكتشفوا أن الجين، وليس البروتين، هو الحامل للمادة الوراثية؛ وذلك نظرا إلى صعوبة عزل البروتين النقى، والتعامل معه معمليا. ولكن وراء هذه النقلة النوعية فى الفكر البيولوجى ما هو أهم بكثير من تلك الدوافع العملية. فهى تعنى التحرر من قيود التعامل مع العناصر المادية، والانتقال إلى رحابة التعامل مع الرمز. إن الرمزية هى التى مكنت عملية تطور الكائنات من تجاوز القيود المادية؛ فالتعامل مع الرمزى - بحكم طبيعته - أقل مسئولية من التعامل مع المادى؛ مما يسمح لآليات التطور بأن تلهو وتمرح وتمارس حقها فى التعلم بالاكتشاف، ومن خلال التجربة والخطأ.

(ح) تفاعل معانى الجمل: تتفاعل الجمل داخل النص اللغوى وتتماسك بداخله لفظيا

وتركيبيا ومنطقيا، كذلك تتفاعل الجينات داخل النص الكروموزومي، وتتفاعل فيما بينها البروتينات التي تترجم إليها. وقد ثبت أن البروتينات الأساسية تمتزج مع بعضها في صورة بروتينات مركبة، بصورة تشبه تكوين الجمل اللغوية المركبة من الجمل البسيطة.

(ط) النحو: للغة الجينات، شأنها في ذلك شأن اللغات الإنسانية، نحوها الخاص بها. إن هذا النحو البيولوجي هو الذي يحدد بنية البروتين ووظيفته، ويصوغ العلاقات بين الكودونات والجينات وخلافه. من المهم هنا أن نؤكد حقيقة أننا مازلنا نجهل الكثير عن طبيعة هذا النحو، وما نجحنا فيه حتى الآن هو قراءة نص الجينوم البشرى، لكننا أبعد ما نكون عن فهم بنية هذا النص، وتحليلها وإعرابها، وتحديد نوعية العلاقات التي تشغى بداخله، وكيف تتغير وظيفة الجين وفقا لموقعه داخل النص الوراثى؟ وكيف تمتزج البروتينات وتتضافر في عملية بناء الأنسجة والقيام بالوظائف الفسيولوجية؟. هنا تبرز أهمية اللغة الإنسانية كنسق رمزى عام يمكن الاهتداء به من أجل فهم النسق الداخلى للغة الجينات. إن اللغة الإنسانية بمعجمها ونظمها وقيودها وبلاغتها ولبسها، بالإضافة إلى مشوار تنظيرها الطويل، تمثل نبعا معرفيا لا غنى عنه؛ من أجل اتخاذ أقصر السبل وصولا إلى تحديد البنية النحوية للغة الجينات.



خلاصة: لقد ولى عصر سيادة الكيمياء الحيوية على البيولوجى، فمرحبا بالرمزية ونظم المحاكاة والترجمة ونظم التكويد والتشفير والاختزال والاستخلاص والاشتقاق والإعراب الآلى والتحليل الدلالى. إن الصورية الرمزية تعطى شكلا لما لا شكل له، وتعيد تشكيل ما سبق أن تشكل في أذهاننا. لذا سيؤدى التوجه الرمزى اللغوى حتما إلى إعادة طرح كثير من الظواهر البيولوجية طرحا مغايرا تماما لما عهدناه في الماضى. ففى ظل هذا التوجه، ربما ينظر إلى الشيخوخة ـ على سبيل المثال ـ على أنها نتيجة زيادة الأخطاء المطبعية في الرسائل البيولوجية المتبادلة داخل الجسم، وإلى صعوبة اكتشاف مصل مضاد لمرض الإيدز على أنها نتيجة للعبث في قراءة جينوم الفيروس المسبب للمرض. فقد ورد في إحدى الأدبيات (٣) أخيرا إن قراءة الجينوم تتم بصورة عشوائية، حيث تقفز آلية القراءة البيولوجية من موضع إلى موضع آخر فيه بلا ضابط ودون تدقيق هجائى أو نحوى. إنه ضرب من تعدد القراءات إن جاز التعبير، مما يبدو معه الجينوم كنص دائم التغيير، وهو ما يؤدى بدوره إلى إنتاج بروتينات غريبة غير متوقعة يصعب تحديد المواد المضادة لها. يصل التطرف في

اللغة الإنسانية:

لغة الجينات

النص

النص: مجموعة فصول
الفصل: سلسلة من الفقرات
الفقرة: سلسلة من الجمل
الجملة: سلسلة من الكلمات
الكلمة: سلسلة من الحروف

نواة الخلية

الكائن البشرى:
يتكون من 60 تريليون خلية
كل نواة خلية:
تتضمن جينوما كاملا
الجينوم: 3 بلايين حرف
، 34 ألف جين

الجينوم
(السفر الوراثى)

الفصول

الجينوم: أو النص الوراثى، موزع على مجموعة الكروموزومات داخل النواة

تتضمن نواة الخلية 23 زوجا من الكروموزومات

الكروموزومات

الجمل

يحمل الكروموزوم جزئ الدنا، أو اللولب المزدوج

سقط الدنا أو الفائض
سقط الدنا
الجين (الجملة البيولوجية: مقطع من جزئ الدنا

اللولب المزدوج

الأبجدية

تختلف أبجديات اللغات من حيث عدد حروفها وطبيعة الحروف

الجين سلسلة من أزواج الحروف من أبجدية رباعية (قواعد كيميائية)

أبجدية البيولوجى

الكلمة

الكلمة اللغوية متغيرة الطول

الكودون، أو الكلمة البيولوجية، سلسلة من ثلاثة حروف

شريط اللولب المزدوج

UAA GAC GAG ACG CCA UAG

الكودون

الكلمة البيولوجية ثابتةالطول

معجم اللغة

قائمة الكلمات ومعانيها

نهاية - برولين - ثريونين - جلوتاميك - أسبارايتك - بداية

كل كودون (كلمة بيولوجية) يناظرها حامض أمينى معين

البروتين: سلسلة من الأحماض الأمينية

الكود الوراثى

حامض أمينى	كودون
هستيدين	GAC
جلوتاميك	GAG
ثريونين	ACG
برولين	CCA

معنى الجملة

البروتين
(التعبير الجينى)

تفاعل الجمل

تفاعل البروتينات

شكل (ب)



لقد افترض هذا النموذج الذهنى وجود «عضو لغوى» فى بنية المخ البشرى يتولى القيام بالوظائف الذهنية المتعلقة باللغة. كغيره من مكونات المخ، يمكن النظر إلى هذا العضو بصفته نظاما فعالا لمعالجة المعلومات. يعمل هذا النظام البيولوجى المعلوماتى فى ظل مجموعة من القيود العامة التى توجه سلوك اللغة وعملية اكتسابها. تمثل مجموعة القيود هذه ما يعرف بمصطلح «النحو العام Universal Grammar»



نزعة الرمزية البيولوجية من قبل البعض إلى حد اعتبار الفروق بين الإنسان وسلالة القرود مجرد اختلاف فى المعلومات لا أكثر. حقا، لقد تهيأ العقل البشرى لحوار مثير بين البيولوجى واللغة، وهو ما يفرض علينا أن نحدد أين يلتقى طرفا هذا الثنائى المعرفى المحورى، وأين يفترقان؟.

مواضع الالتقاء والافتراق

سنتناول فيما يلى بإيجاز أوجه الالتقاء والافتراق بين اللغة الإنسانية ولغة الجينات، وسينحصر حديثنا على بعض الجوانب الرئيسية لمنظومة اللغة، وهى: العمومية اللغوية - الخاصة التوليدية - ثنائية البنية - نمط التطور - الحساسية السياقية - آلية الاشتقاق - خاصية التضاد - الفائض اللغوى - الحتمية - المنهجية العلمية.

(أ) العمومية اللغوية: كما أوضحنا سابقا، تتسم اللغات الإنسانية ولغة الجينات بما يطلق عليه خاصية العمومية اللغوية. فقد ثبت نظريا، ومن خلال البحوث الميدانية للأنثربولوجيا اللغوية، أن جميع اللغات الإنسانية تشترك فى خصائص عديدة سواء على مستوى الصوتيات أو بنية الكلمات أو تراكيب الجمل وأنماطها. أما لغة الجينات، فهى لغة عامة مشتركة بين جميع الكائنات، وهى تتسم بدرجة عالية من العمومية، حيث تستخدم نفس الأبجدية الرباعية، ونفس الكود الوراثى، أو معجم الكلمات (الكودونات)، التى تشفر لنفس مجموعة الأحماض الأمينية. بناء على ذلك يمكن القول أن عمومية لغة الجينات، نظرا إلى وحدة أبجديتها ومعجمها، تفوق بكثير عمومية اللغات الإنسانية التى تختلف أبجدياتها ومعاجمها بصورة كبيرة.

(ب) الخاصية التوليدية: يواجه علماء البيولوجيا الجزيئية هذه الأيام سؤالا محيرا بعد أن اظهر مشروع الجينوم خطأ التقديرات السابقة لعدد جينات النص الوراثى البشرى، والتى تقدر حاليا بما لا يزيد على ٣٥ ألف جين. والسؤال هو: كيف لهذا العدد المحدود من الجينات أن يولد كل هذه البروتينات، والإنزيمات والوظائف الفسيولوجية، والخصائص البيولوجية والغرائز النفسية؟. لقد واجه اللغويون من قبلهم ذات السؤال فى صياغة أخرى هى: كيف للغة الإنسانية المحدودة من حيث عدد الحروف والكلمات والأساليب النحوية أن تولد هذه الأعداد اللانهائية من التعابير اللغوية؟. وجاءت إجابة هذا السؤال من قبل نظرية النحو التوليدى التى تتناول كيفية توليد الصيغ اللغوية المتعددة من الكلمات وأشباه الجمل، والتى تلخصها مقولة تشومسكى الشهيرة: اللغة هى الاستخدام اللامحدود لموارد محدودة. لا يبدو مستغربا فى ظل ما طرحناه من أن يكون عنوان المحاضرة التى ألقاها أحد علماء البيولوجى فى حفل منحه جائزة نوبل هو: «النحو التوليدى للحياة».

(ج) ثنائية البنية اللغوية: أقام تشومسكى نظريته اللغوية على أساس أن منظومة اللغة ذات بنية ثنائية، ويقصد بذلك أن الجملة اللغوية لها بنية سطحية ظاهرة هى تلك التى تنطق بها، وبنية منطقية عميقة، وهى البنية التى تتشكل فى مخ صاحب الجملة قبل النطق بها. خلال عملية الإخراج الصوتى، يتم تحويل هذه البنية العميقة إلى البنية السطحية، وقد تجسدت ألفاظا وأصواتا، ونبرا وتنغيما، وتقديما وتأخيرا، وإسقاطا وحذفا وإضمارا وهلم جرا.

تتسم لغة الجينات بعدة مظاهر تؤكد خاصية الثنائية بنيتها. من أبرز هذه المظاهر ما يطلق عليه ثنائية النمط الجينى genotype والنمط الظاهرى henotype يقصد بالنمط الجينى سلسلة حروف الجين كما هى مسجلة فى نص الجينوم، وبالتالى فهو بمثابة البنية العميقة الكامنة فى نواة الخلية، حاملة هذا النص. يمثل النمط الظاهرى البنية السطحية التى يتحول فيها النمط الجينى إلى سمات ظاهرة محسوسة، كلون البشرة، ودرجة خشونة الشعر، ونوع فصيلة الدم.

(د) نمط التطور: بصفة عامة: يمكن القول إن الكائنات واللغات فى عملية تطور مستمر، وكما تنقرض الكائنات تنقرض اللغات أيضا، وكما أمكن فى الماضى إعادة إحياء اللغات المندثرة (كاللغة العبرية مثلا) يتنامى الاعتقاد حاليا بإمكان إعادة إحياء بعض ما انقرض من الكائنات.

تتطور الكائنات الحية من خلال تراكم الطفرات، وبالمثل تتطور اللغات الحية من خلال تراكم طفرات الإبداع اللغوى، الذى يضيف كل يوم جديدا إلى معجم اللغة وأنماط استخدامها، فى هيئة ألفاظ ومعان جديدة، وتراكيب نحوية مستحدثة، وصور مجازية مبتكرة.

من أبرز أوجه الافتراق، بين تطور الكائنات وتطور اللغات، هو التباين الشديد فى القاعدة الزمنية لكليهما، فعقارب ساعة التطور البيولوجى تتحرك بوحدة البلايين والملايين ومئات الآلاف من السنين، فى حين تتسم ساعة التطور اللغوى بإيقاعها السريع (نسبيا بالطبع)، فجميع اللغات الإنسانية قد نشأت فى الثلاثين ألف سنة الأخيرة، وعادة ما يطمس أصل اللغات ما إن يمضى على تغيرها ألف سنة على الأكثر، حيث يصعب بعدها معرفة أصل الألفاظ، أو العوامل التى أدت إلى تغير الظواهر اللغوية الأخرى.



ننهى حديثنا عن تطور الكائنات وتطور اللغات بما خلص إليه البعض من أن التنوع اللغوى كان عاملا أساسيا فى الحفاظ على تنوع الأجناس؛ حيث حدت الحواجز اللغوية من تداخل الجماعات ومن امتزاج الأجناس بالتالى، وربما يفسر ذلك جزئيا ما لوحظ من أن الأجناس القريبة فى شجرة تطور الكائنات عادة ما تتكلم لغات من نفس الأسرة اللغوية، وهو ما يؤكد الارتباط الوثيق بين تطور الكائنات وتطور اللغات.

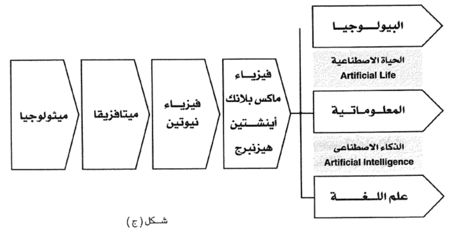
(هـ) الخاصية الاشتقاقية: تشتق الألفاظ اللغوية من بعضها البعض فى مسار اشتقاقى متصل، فمن الفعل «عمل» - على سبيل المثال - يشتق اسم فاعله «عامل»، ومن «عامل» تشتق صيغة الجمع «عمال» ومنها تشتق صيغة صفة النسب «عمالى». لهذا الاشتقاق ذى المستويات المتعددة ما يقابله فى عالم البيولوجى، حيث يمكن أن يؤدى أحد الجينات إلى توليد إنزيم معين، والذى يؤدى بدوره إلى توليد إنزيم آخر، وهكذا فى تسلسل متعاقب يصل أحيانا إلى أربعة مستويات من «الاشتقاق الإنزيمى».

(و) الحساسية السياقية: تتأثر الكلمات بالسياق الذى ترد به داخل الجملة، أى ما يحيط بها من كلمات، وكذلك تتأثر أصوات الحروف داخل الكلمات بما حولها من حروف. وهى الخاصية اللغوية المعروفة بمصطلح «الحساسية السياقية»، كمثال لها على مستوى التركيب، أو النحو، تظهر الكلمات حساسية نحو الكلمات التى تسبقها أو تلحقها، فيتطابق الفعل مع فاعله (جاء فلان، جاءت فلانة) وتتطابق الصفة مع موصوفها (رجلان كريمان، من امرأتين كريمتين). وكمثال على مستوى الدلالة، أو المعنى، تختلف معانى الكلمات وفقا لسياقها، فمعنى كلمة «قانون» - على سبيل المثال - يختلف فى سياق «ألحان القانون» بمعنى الآلة الموسيقية عن معناه فى «بنود القانون» بمعنى التشريع. للغة الجينات نصيبها من الحساسية السياقية أيضا؛ من بعض شواهدها اختلاف المهمة الموكلة إلى جين معين وفقا لسياقه داخل فقرة جزئ الدنا، وكذلك تتباين وظيفة الحامض الأمينى وفقا لموقعه داخل سلسلة الأحماض الأمينية المكونة للبروتين.

(ز) خاصية التضاد: يمثل التضاد خاصية أصيلة فى منظومتى اللغة والبيولوجى؛ حيث تزخر اللغة بمظاهر التضاد، كتلك بين الاسمية والفعلية، والمعلوم والمجهول، والظاهر والمستتر، والمهموس والمجهور، والإثبات والنفى، وهلم جرا. ومنظومة البيولوجى هى الأخرى زاخرة بالتضاد، تضاد الحمضى والقلوى، والكودون والكودون المضاد anti-codon، والأجسام والأجسام المضادة anti-bodies، ناهيك عن أن الأبجدية البيولوجية الرباعية هى فى حقيقة أمرها زوج من ثنائيات الحروف المتضادة؛ حيث يمثل زوج الحرفين (G, A) - كما أوضحنا سابقا - نوعا من التضاد الكيميائى مع زوج الحرفين (T, C)، وهذا التضاد هو ركيزة الترابط العضوى بين كل حرف ونظيره.

(ح) خاصية الفائض: يقصد بالفائض اللغوى أن اللغة توفر موارد معجمية ونحوية ودلالية تزيد على تلك المطلوبة لإنجاز عملية التواصل ونقل المعنى. فعلى المستوى المعجمى،

كما يقر اللغويون بمبدأ العموم اللغوى الذى يقوم - كما سبق وأوضحنا - على أساس وجود نحو عام موحد تخضع له جميع اللغات، تقر كذلك غالبية البيولوجيين بأن جميع الكائنات الحية تؤول إلى أصل واحد مشترك، وهو الأمر الذى أغرى بالبحث عن نظرية بيولوجية عامة تندرج فى إطارها جميع الكائنات



شكل (ج)

يعد الترادف نوعا من الفائض؛ فهو يوفر أكثر من لفظ للدلالة على نفس المعنى (مثال رقم واحد: أسد، ليث، مثال رقم ٢: يأتى إلينا - يقدم علينا - يحضر إلينا - ينزل لدينا). وعلى مستوى النحو، هناك أكثر من تركيب نحوى لصياغة نفس التعبير اللغوى (مثال: هل قرر الذهاب؟ - أقرر أن يذهب؟). وعلى مستوى الدلالة، فمعظم النصوص تضمن لغوا زائدا يمكن إسقاطه دون أن نخل بالمعنى الكلى للنص.

يشبه الفائض البيولوجى نظيره اللغوى فى كثير من الأمور؛ فكما أن هناك ترادفا لغويا، هناك أيضا - كما أوضحنا سلفا - ترادف بيولوجى، ولكن أقوى شاهد على حدة الفائض البيولوجى هو - بلا منازع - كون الجينوم البشرى فى أغلبه يمكن اعتباره فائضا، حيث لا يشفر منه إلى بروتينيات إلا ما يوازى ٣٪ تقريبا من إجمالى النص، أما الباقى، أو سقط الدنا، فهو بمثابة لغو بيولوجى إن جاز التعبير، لم يكتشف سره حتى الآن، ولا شك أن له دورا ستكشف عنه البيولوجيا الرمزية يوما ما، وربما تكون قد شرعت فى ذلك بالفعل.

(ط) الحتمية: تقابل آخر بين اللغة والبيولوجى على مستوى الأيديولوجى هذه المرة، ونقصد بذلك الحتمية اللغوية ونظيرتها الحتمية البيولوجية، وكلتاهما ذات صلة وثيقة بالأخرى. تلخص المقولة الأخاذة «لغتى هى عالمى وحدود لغتى هى حدود عالمى» موقف دعاة الحتمية اللغوية، وذلك فيما يرونه من أن الجماعات الإنسانية تعى العالم وفقا لمسارات ترسمها لها لغتها، وفكر البشر تحدده المقولات اللغوية التى تتيحها لهم لغتهم الأم. وعليه، فالاختلافات اللغوية لا بد أن تؤدى بالتالى إلى اختلافات فى الفكر. تشابه الحتمية البيولوجية فى كثير من أوجهها نظيرتها اللغوية؛ حيث يزعم دعاتها أن هناك بعض سلالات بشرية قد حكم عليها بالتخلف الأبدى، وأن الجنس الذى ينتمى إليه الإنسان هو الذى يحدد مصيره الاجتماعى والاقتصادى والثقافى.



وجد دعاة الحتمية البيولوجية فى نظرية داروين، ومبدأ البقاء للأصلح، سندا علميا زائفا يبررون به نزعاتهم العنصرية المتطرفة، وتصرفاتهم الشائنة من تعقيم وتعذيب واستبعاد اجتماعى. ومع أن المجتمع الغربى قد أعلن رفضه الرسمى لمفهوم الحتمية البيولوجية، إلا أن الكثيرين مازالوا متمسكين بالرأى القائل بأنْ هناك فروقا بيولوجية بين أجناس الشعوب. وها هى ذات النغمة العنصرية تتردد من جديد، متخذة هذه المرة من البيولوجيا الجزيئية سندا لا يقل فى زيفه العلمى عن سابقه. يرى دعاة الحتمية البيولوجية الجدد أنها - أى البيولوجيا الجزيئية - قد وفرت الدليل العلمى القاطع على صحة نظرتهم العنصرية. حيث يمكن بواسطتها إرجاع الفروق بين الأجناس إلى تباين فى جيناتها. لقد نسى هؤلاء، أو تناسوا، أن البيولوجيا الجزيئية قد جاءت بما هو عكس ذلك، بعد إثباتها أن فئات البشر جميعا تشترك فى ٩٩,٩٥ من جيناتها.

(ى) المنهجية العلمية: من حيث المنطلق الأساسى، يقوم البحث العلمى فى مجال علم اللغة - كما أسس له دى سوسير - على دراسة علاقة الرمز بالمعنى، والمعنى بدوره ليس كامنا فى اللفظ، أى ليس جوهرا يحمله اللفظ فى جوفه، بل المعنى - فى حقيقة الأمر - قائم على التباين أصلا. ونقصد بذلك أنه - أى المعنى - هو محصلة علاقات الاختلاف التى تميز دلالة اللفظ عن غيره؛ فمعنى كلمة «حصان» - على سبيل المثال - هو محصلة الاختلافات بين «الحصان» وبين أقرانه من فصيلة الدواب الأخرى، وبين فصيلة الدواب تلك وفصائل الحيوانات الأخرى، وهكذا صعودا إلى اختلافات الثدييات عن غير الثدييات، وانتهاء بالاختلافات بين الكائنات الحية وغير الحية مرورا بتلك بين الحيوان والنبات. هذا النهج القائم على مفهوم التباين نجده أيضا فى مجال البيولوجى، فقد خلص البعض إلى أن علم الوراثة ما هو، فى جوهره، إلا بحث فى التباين، التباين بين الجينات، وما يترتب عليه من تباين فى السمات الوراثية.

وفيما يخص التعامل مع الظاهرة الزمنية، فقد فصل دى سوسير فصلا واضحا بين دراسة للغة الراهنة كما هى قائمة بالفعل، وبين دراسة ظاهرة التغير اللغوى ما بين فترة زمنية وأخرى، كتغير الإنجليزية القديمة إلى إنجليزية العصور الوسطى، ومنها إلى الإنجليزية الحديثة. هذا الفصل الزمنى له ما يقابله أيضا فى مجال البيولوجيا الجزيئية؛ فبينما يتصدى مشروع الجينوم لقراءة النص الوراثى كما هو قائم بالفعل، يسعى مشروع مواز آخر، مشروع تنوع الجينوم البشرى، إلى دراسة ظاهرة التطور البشرى، وتوثيق التباين بين أجناس البشر والتغيرات التى طرأت عليه بفعل الزمن نتيجة للتبادل الثقافى والاتصال الجغرافى وما أدى إليه من امتزاج الأجناس والأعراق.

على صعيد آخر، ومن منظور الوحدة اللغوية التى يجرى التعامل معها، يمكن القول أن اللغويات الحديثة بصورة عامة مازالت تتناول اللغة على مستوى لا يتجاوز وحدة الجملة، ومازال فى بداياته الأولى علم النص الذى يتصدى لدراسة اللغة على مستوى ما فوق الجملة. تواجه البيولوجيا الجزيئية وضعا مشابها، حيث لم تتجاوز هى الأخرى وحدة الجين (الجملة البيولوجية)، ومازال أمام البيولوجيين شوط طويل قبل أن ينفذوا ببصيرتهم إلى ما فوق الجين، ونقصد بذلك دراسة محصلة التفاعل بين الجينات والبروتينات، وكيف تتضافر مع بعضها لبناء عضو بيولوجى معين، أو القيام بوظيفة فسيولوجية متكاملة، أو إكساب الفرد سمة وراثية محددة.

وأخيرًا، وليس آخرا، فإن النظرية اللغوية الحديثة قد قامت على أساس اللغة المفترضة، أى نظام اللغة المثالى كما يجب أن يكون من منظور النحاة، وليس على أساس اللغة الواقعية المستخدمة فى الواقع العملى وهو ما يعرف فى نظرية دى سوسير بثنائية: La langue - La parole. مازال علم اللغة فى انتظار حدوث هذه النقلة النوعية فى التعامل مع إشكالية اللغة وقد لاحت فى الأفق بوادر هذا الحل فيما يعرف حاليا باللغويات النصية. يشابه هذا الموقف فى أمور عدة ما يجرى حاليا على جبهة البيولوجى، فما إن أوشك العلماء على الانتهاء من مشروع الجينوم البشرى القائم أصلا على لغة الجينات، أو لغة البيولوجى المفترضة كما ينص عليها دستور حياتنا، حتى شرع البعض فى التخطيط لمشروع عملاق آخر، مشروع البروتينوم Protenome: من أجل دراسة الواقع الفعلى للغة الجينات، وقد ترجمت إلى مقابل مادى محسوس من البروتينات والإنزيمات.

المغزى المعرفى للمثلث الذهبى

والآن عودة بحديثنا إلى الثلاثى المعرفى الذى يربط بين البيولوجى واللغة والمعلوماتية كى نتمعن فى مغزاه من منظور فلسفة العلم وتاريخه. مدخلنا إلى ذلك هو تحديد موضعه على المسار التاريخى لتطور المعرفة الإنسانية الذى نستعرضه فيما يلى بإيجاز شديد وتبسيط أشد.

فى طفولة عقله الأول، لم يكن أمام الإنسان إلا خرافة الأسطورة أداة لتفسير الظواهر من حوله، وما إن تنأى المعرفة الإنسانية عن لاعقلانية الميثولوجيا حتى تجد نفسها تائهة فى تأملات الميتافيزيقا. وتستمر الحال إلى أن يأتى فرنسيس بيكون مطالبا بأورجانون جديد يخلص العقل الإنسانى من جنوح الميتافيزيقا، على حد تعبير يمنى الخولى[٤]، ويعتمد بصورة أساسية على الملاحظة والتجريب، وعلى النظر إلى الطبيعة ككتاب مفتوح يمكن لنا اكتشاف القوانين التى يحكمها. وجاءت الاستجابة الرائعة متمثلة فى فيزياء نيوتن وقوانينها القاطعة. لقد افترض العقل النيوتونى كونا وديعا مسالما خاضعا لصرامة القوانين الميكانيكية وحتمية المعادلات الرياضية. وهكذا، اختزلت الظواهر إلى مجموعة من الآليات، فحركة كل ما فى الكون المادى، من أضخم الأجرام السماوية إلى أصغر الأجسام الأرضية، آلية يتحكم فيها قانون الجاذبية وثنائية الفعل ورد الفعل، والمجتمع آلية بيولوجية تعمل فى ظل مبدأ البقاء للأصلح، وتطور الكائنات الحية آلية يسيرها قانون الانتخاب الطبيعى، والسوق آلية يسيطر عليها قانون العرض والطلب، والتاريخ - هو الآخر - آلية توجه أحداثه فى خطية مطردة صوب غايات معينة بفعل قانون المادية الجدلية. حقا، لقد امتهن الزمن إلى الحد الذى أفقد التاريخ زمنيته؛ فالصيرورة، فى ظل هذه الغائية المفرطة، وليدة الكينونة، والزمن، فى هذا الكون الآلى المنضبط، يبدو وكأنه لعبة نلهو بها، يمكن أن نعكس اتجاه مساره لاسترجاع أحداث ماضيه استنادا إلى وقائع حاضرة.

وكان لا بد أن يؤدى الإسراف فى الآلية إلى ظهور الحتمية، وقد شهد التاريخ الحديث سلسلة من الحتميات: حتمية بيولوجية وحتمية اجتماعية وحتمية تاريخية وحتمية لغوية. ويفيق العالم فى بداية القرن العشرين من غيبوبة الحتم والإجابات النهائية الحاسمة؛ ليكتشف أن الكون ليس بهذه الوداعة، ولا يمكن إخضاع الظواهر إلى هذه الصرامة الميكانيكية القاطعة. وهكذا تأخذ الفيزياء الكلاسيكية فى الأفول بخطى متسارعة، فكانت لاحتمية «كوانتم» ماكس بلانك ونسبية أينشتين وعدم يقين هيزنبرج. لقد تكشف للكثيرين مغزى مما خلص إليه نوربرت وينر، مؤسس علم السيبرناطيقا، من إنه لا يمكن توليد الجديد من القديم فى عالم كل ما فيه ضرورى وحتمى، ولا مجال فيه لعبث المصادفة وزيغ الاحتمال. وهكذا تغيرت نظرة العلم إلى العالم، من عالم يقينى، محكوم بقوانين الانتظام والخطية والاطراد والتدرج والتراكم، إلى عالم لايقينى لاخطى غير مطرد ملئ بالشكوك والاحتمالات والمفاجآت. أمام كل هذه المتغيرات، كان لا بد للعلم أن يقر بديمومة عجزه، فهو يحمل فى جوفه جرثومة خطئه وشرط تخطئته، محكوم عليه بعدم الاكتمال الأبدى، وستظل هناك - دوما - فجوة تفصل بين تعقد الواقع، وبين قدرة العقل على إدراك هذا التعقد وتفكيكه وسبر أغواره.

وها هى المعرفة الإنسانية قد راحت تبحث - ثانية - عن أورجانون جديد، لا يخلصها هذه المرة من جنوح الميتافيزيقا بل من جنوح الفيزيقا (الفيزياء) نفسها. لقد تمحورت فلسفة العلم حتى الآن حول الفيزياء، وحان لها أن تبحث عن

أرسطو هو أول من قال بأن هنالك وراء العمليات البيولوجية وظاهرها المادى قوانين صورية تتحكم فيها وتوجه مسارها، وبعد ثلاثة وعشرين قرنا تقدم لنا البيولوجيا الجزيئية الدليل القاطع على نفاذ بصيرة المعلم الأول، وتطلق بذلك إشارة البدء لعصر ما يمكن أن نطلق عليه «البيولوجيا الصورية formal biology.

محور جديد أو محاور جديدة؛ فكل مجالات العلوم، طبيعية كانت أم إنسانية، تواجه أزمة منهجية من نوع ما، وقد باتت فى أمس الحاجة إلى منطلقات جديدة يمكن من خلالها تناول الإشكاليات المستجدة التى أظهرتها بصورة غير مسبوقة متغيرات عصر المعلومات. لقد حان الوقت لكى يتخلص العقل الإنسانى من النزعة الاختزالية ليواجه تعقد الواقع وجها لوجه، يواجه زيغه وشواشه وديناميياته، دون ما حاجة إلى تقليص هذا الواقع حتى يدين لأدواتنا الذهنية ومواردنا المعرفية.



من الصعوبة بمكان التكهن بمسار تطور المعرفة الإنسانية، إلا أن هناك عدة مبررات وشواهد تشير إلى أن هناك ثلاثة مجالات معرفية تحتل مواقع الصدارة على خريطة المعرفة الإنسانية، وهى كما أشرنا فى أكثر من موضع سابق: البيولوجيا الجزيئية، وعلم اللغة، والمعلوماتية. سنتناول فيما يلى باختصار مصادر الأهمية العلمية لكل من هذه المجالات الثلاثة.

(أ) البيولوجيا الجزيئية: اتخذ علم الماضى من الفيزياء التى تتعامل مع المادى غير الحيوى مدخلا لفهم البيولوجى الحيوى الزائغ الدائم التطور. من السهل علينا أن ندرك ما ينطوى عليه هذا التوجه العلمى من منطق عكسى لاستيعاب الأعقد فى إطار الأبسط. لعبت الكيمياء الحيوية دور الوسيط المعرفى بين الفيزياء والبيولوجى، إلا أنها عجزت عن سبر أغوار اللغز البيولوجى. وجاءت لحظة الانفراج عام ١٩٥٣ باكتشاف جزئ الدنا، أو الحلزون المزدوج؛ ليتحرر بذلك البيولوجى من قبضة الفيزياء والكيمياء الحيوية. مع التقدم السريع فى بحوث البيولوجيا الجزيئية، انقلب الوضع رأسا على عقب؛ حيث يسعى البيولوجيون حاليا إلى احتواء الفيزياء بصفتها حالة خاصة من البيولوجى؛ حالة «الصفر الحيوى» أو «بيولوجيا اللاحياة lifeless biology.

وكعهدنا بهم، يغالى المتخصصون فى قدرة مجالهم المعرفى، فما من ظاهرة، طبيعية كانت أم إنسانية، إلا ولها - فى رأيهم - شقها البيولوجى الذى يتناول جوانبها الدينامية وتطورها التاريخى بما فيه من طفرات النقلات النوعية المفاجئة. وتنشط آلة المجاز اللغوى لتفرز قائمة طويلة من المصطلحات ذات الطابع البيولوجى، التى إن دلت على شىء فإنما تدل على تغلغل النهج البيولوجى فى منظومة الفكر الإنسانى. من أمثلة هذه المصطلحات: أركيولوجيا المعرفة - الاستنساخ الثقافى - الذاكرة الجمعية - الداروينية الاجتماعية - الانقراض اللغوى - الميمات الذهنية كنظير معرفى للجينات البيولوجية. وربما نسمع عما قريب عن الدنا النفسى والجينوم الاجتماعى، والميموم الثقافى وما شابه. إنها نزعة «البلجنة» وقد تفشت فى كل المجالات، فالبيولوجيا الجزيئية - فى نظر أهلها - هى علم العلوم، وهى مفتاح فهم الماضى، والمدخل لحل إشكاليات المستقبل ووسيلة التخلص من الآثار السلبية التى خلفتها «حضارة الفيزياء». ويبدو الوضع وكأننا نواجه حتمية بيولوجية من نوع جديد، فالكائنات الحية ما هى إلا آليات تحركها الجينات، وكل شىء من السمات الجسدية إلى الميول النفسية والقدرات العقلية، بل وبعض أنماط السلوك الاجتماعى غير السوى، كالإجرام والخيانة الزوجية على سبيل المثال، يمكن إرجاعها إلى علل جينية. وكان لا بد أن تستفز نزعة التفسير الجينى المسرفة هذه سخرية البعض، فراح يتهكم: لقد اكتشفوا الجين الذى يؤدى إلى إرجاع كل شىء إلى الجينات..!!.

(ب) علم اللغة: ومن «بلجنة» العالم إلى «لغونته»؛ حيث سعى أهل الوضعية المنطقية وفلسفة اللغة إلى جعلها - أى اللغة - المحور الرئيسى الذى تدور حوله المعرفة الإنسانية الشاملة، فى ظل هذه النزعة اللغوية يختزل أداء المجتمع إلى ناتج لتفاعل ألعاب اللغة، أو أنواع الخطاب اللغوى التى تسرى داخل كيانه. وكل مدارس الفكر المعاصر، من الحداثة وما بعدها، والبنيوية وما بعدها. والتأويلية والتفكيكية، قد اتخذت من اللغة ركيزة لها. وفى نظر أهل اللغة، ما من ظاهرة، طبيعية كانت أم إنسانية، إلا ولها شقها اللغوى السردى. ولم ترتق الفيزياء إلا بعد أن أجادت الحديث بلغة الرياضيات، وكذلك الكيمياء بعد أن لجأت إلى لغة الشكل وأبجدية رموز الجزيئات، والتقدم فى علم الديناميكا الحرارية قد حدث بعد اكتشافها لغة الإحصاء. وأخيرا وليس آخراً، لم يكن للبيولوجيا الجزيئية أن تقوم لها قائمة ما لم تكتشف لغة الجينات. لقد أصبح الشاغل الرئيسى للفكر العلمى فى ظل هذا التوجه اللغوى هو البحث فى معنى الظواهر والأحداث، وكيف ينشأ هذا المعنى، لا البحث فى الظواهر ذاتها، وكيف تنشأ هذه الظواهر والأحداث. لقد وصل الأمر إلى حد اعتبار الفكر العلمى ذاته ضربا من المهارات الذهنية لفك ألغاز اللغة، على حد تعبير كارل بوبر، فى مقام هجومه على إسراف الوضعية المنطقية فى تمركزها اللغوى.

(ج) المعلوماتية: وأخيرا، يخرج إلينا أهل المعلوماتية بقضهم وقضيضهم، يزعمون أن المعلوماتية هى الحل، فكل الظواهر فى تصورهم يمكن صياغتها فى صورة أنساق رمزية تدين للمعالجة الآلية بواسطة الكمبيوتر، وتخضع للنموذج الاتصالى الثلاثى المكون من المرسل والمستقبل وقناة الاتصال التى تربط بينهما. وفقا لهذا النموذج، البيولوجى نظام اتصال ترسل فيه نواة الخلية رسائلها إلى آليات إنتاج البروتين خارج النواة، واللغة نظام اتصال يربط بين المتكلم والمستمع من جانب، وبين المخ وجهازى النطق والسمع من جانب آخر. يمكن تطبيق نفس هذا النموذج الاتصالى على مجالات عدة من قنوات الإعلام الفضائية والمنظومات الاقتصادية إلى نظم الأفلاك السماوية والظواهر البيئية. ولا جدال فى أن المعلوماتية هى الأداة المثلى لمواجهة التعقد، ووسيلة التحرر من الخطية والارتقاء صوب التفكير الشبكى المنظومى. لقد ساد فكر الماضى تناول العناصر منفردة مقطوعة الصلة بغيرها. ستتيح المعلوماتية النظر إلى هذه العناصر فى هيئة منظومة شاملة تتفاعل بداخلها العناصر من خلال شبكة كثيفة من العلاقات، تتداخل فيها المؤثرات والنتائج بصورة تتجاوز ميكانيكية قانون العلة والأثر. علاوة على ما سبق، تعمل المعلوماتية كمعول هدم لكسر الحواجز المعرفية بين مجالات التخصص المختلفة. فبحكم طبيعة تعاملها مع الرمز، تنحو المعلوماتية إلى طمس التفاصيل وتناول الإشكاليات على مستوى المفاهيم المجردة؛ وهو ما يعمل على التقريب ما بين المجالات المعرفية المتباينة. وخير شاهد على ذلك هو ما نلاحظه حاليا من قيام المعلوماتية بدور الجسر الواصل بين علوم الطبيعيات وعلوم الإنسانيات، وعسى أن يكون فى ذلك شقاء الفكر الإنسانى من داء الثنائية الثقافية الخبيث.

ومرة أخرى، فلكل ظاهرة شقها المعلوماتى، وكل معرفة علمية لا تدين للمعالجة الآلية بواسطة الكمبيوتر - كما يزعم فرنسوا ليوتار - مآلها إلى الزوال. ولكن يقينا ستظل هناك - فى رأينا ورأى كثيرين غيرنا - أمور عديدة يصعب أن تصل إليها اليد الطولى لتكنولوجيا المعلومات، فليس بالمعلومات وحدها يحيا الإنسان.



لعل ما أوردناه أعلاه يرقى دليلا على أن لكل من المجالات المعرفية الثلاثة حيثياته التى تؤهله لكى يصبح محورا تدور فى فلكه الفصائل المعرفية الأخرى. أمام ظاهرة التنافس المعرفى هذه، يزعم الكاتب أن طبيعة المعرفة الإنسانية توشك أن تنتقل من معرفة أحادية المحور إلى معرفة متعددة المحاور، وكما قيل لا يمكن للمعرفة أن ترسخ وتكتمل إلا إذا نظرنا إليها من خلال عدة زوايا، وهنا يطرح المثلث البيولوجى - اللغوى - المعلوماتى نفسه كنقطة بداية قوية لفلسفة علم جديدة تقوم على تعدد مجالات المعرفة، وعبور حواجز التخصص التى تفصل بينها.

ما إن أوشك العلماء على الانتهاء من مشروع الجينوم البشرى القائم أصلا على لغة الجينات، أو لغة البيولوجى المفترضة كما ينص عليها دستور حياتنا، حتى شرع البعض فى التخطيط لمشروع عملاق آخر، مشروع البروتينوم Protenome**؛ من أجل دراسة الواقع الفعلى للغة الجينات، وقد ترجمت إلى مقابل مادى محسوس من البروتينات والإنزيمات**

خلاصة القول

تكمن قوة التهجين لمثلثنا المعرفى فى أمور عدة من أبرزها فى رأى الكاتب:

* التمفصل المعرفى

ولا جدال فى أن المعلوماتية هى الأداة المثلى لمواجهة التعقد، ووسيلة التحرر من الخطية والارتقاء صوب التفكير الشبكى المنظومى. لقد ساد فكر الماضى تناول العناصر منفردة مقطوعة الصلة بغيرها. ستتيح المعلوماتية النظر إلى هذه العناصر فى هيئة منظومة شاملة تتفاعل بداخلها العناصر من خلال شبكة كثيفة من العلاقات، تتداخل فيها المؤثرات والنتائج بصورة تتجاوز ميكانيكية قانون العلة والأثر



* ندية التلاقح المعرفى
* النضوج الهندسى

(أ) التمفصل المعرفى: يمثل كل عنصر من هذه الثلاثية مفصلا معرفيا أساسيا، فعلى جبهة البيولوجى يلتقى الرمزى مع الكيميائى، ويلتقى الفسيولوجى مع الأركيولوجى، أى الوظيفى الفورى الراهن مع التراثى التاريخى المتراكم. وعلى ذات الجبهة أيضا، تلتقى قوة الداخل، المتمثلة فى قوة الجينات الكامنة فى نواة الخلية، مع قوة الخارج المتمثلة فى العوامل البيئية، كظروف المناخ ونمط الحياة اليومية والسلوك الفردى وما شابه. هذا عن المفصل البيولوجى. أما اللغة، هى المفصل بين البيولوجى والنفسى، وبين الشخصى والاجتماعى، وبين اللاوعى الفردى واللاوعى الجمعى. ويلتقى على جبهة اللغة أيضا الذاتى مع الموضوعى، والظاهرى مع البنيوى. وأخيرا، وعلى جبهة المعلوماتية، يلتقى المادى الفيزيائى، المتمثل فى شق العتاد hardware مع اللامادى الذهنى المتمثل فى شق البرمجيات software وقد أثمر هذا اللقاء المادى ـ الذهنى لقاءات أخرى أكثر إثارة، من أبرزها لقاء الواقعى مع الخيالى، ولقاء الآلى مع الحيوى، أو الاصطناعى مع الطبيعى.

إن هذا التمفصل المنهجى المعرفى لكل من عناصر مثلثنا الذهبى يضاعف من قوة التهجين العلمى، ويلم شتات المعرفة الإنسانية، ويعمل على ردم الهوة التى تفصل بين فروع التخصص المختلفة.

(ب) ندية التلاقح المعرفى: من أهم مصادر قوة هذا المزيج المعرفى الثلاثى أن كل عنصر فيه يمثل مدخلا أساسيا لحل إشكالية العنصرين الآخرين، وهو ما يمثل نموذجا فريدا فى دنيا التلاقح العملى والتكنولوجى لم يشهده تاريخ المعرفة الإنسانية من قبل. نستهل حديثنا عن هذا التلاقح عبر المحور البيولوجى ـ اللغوى، بما خلصت إليه «ليلا جالتين»، عالمة الفيزياء البيولوجية، من أن حل إشكالية البيولوجى يكمن فى اللغة، وأية نظرية بيولوجية لا تأخذ فى اعتبارها العمليات ذات الطابع اللغوى التى تحدث داخل الخلية هى ـ فى رأى جالتين ـ نظرية محكوم عليها بالفشل مسبقا. فى المقابل، يرى نعوم تشومسكى، رائد اللغويات الحديثة، أن حل اللغز اللغوى لن يحسمه المنطق والرياضيات، بل يكمن أساسا فى البيولوجى، ويقصد بذلك إماطة اللثام عن وظائف المخ اللغوية، وعلاقتها بجهازى السمع والنطق.

ويتكرر نفس مشهد الندية العلمية على المحور البيولوجى ـ المعلوماتى؛ فقد أيقن الكثيرون أنه لا يمكن السيطرة على ظاهرة التعقد البيولوجى دون اللجوء إلى المعلوماتية. لقد تجاوزت الإشكالية البيولوجية مرحلة الاستعانة بالفئران والذباب والأرانب والديدان، ولا بديل لاستخدام نظم المحاكاة الرقمية بواسطة الكمبيوتر، فبدونها يتعذر تصور ما يجرى من تفاعلات بين هذه الأعداد الهائلة من الخلايا والجينات والأنسجة والأعضاء والوظائف الفسيولوجية. من المتوقع أن يتم تقديم الدعم التكنولوجى الذى تعد به المعلوماتية علم البيولوجى من خلال ما يعرف حاليا بتكنولوجيا الحياة الاصطناعية Artificial Life، القائمة على محاكاة الوظائف الحيوية. من جانب آخر، فإن تكنولوجيا المعلومات بصفة عامة، ونظم قواعد البيانات واسترجاع المعلومات بصفة خاصة، تلعب دورا رئيسيا فى السيطرة على البيانات الوراثية ذات الكم الهائل ودرجة التعقد العالية. إن البحث فى محيطات المعلومات الشاسعة هذه يحتاج إلى أدوات برمجية متقدمة؛ من أجل تحديد مواضع سلاسل الجينات، وتمييز أنماطها آليا. تشهد على ذلك الأهداف الموضوعة لمشروع الجينوم، والتى شملت عدة أهداف ذات صلة وثيقة بتكنولوجيا المعلومات.

فى المقابل، فإن فضل البيولوجى على المعلوماتية، عتادا وبرمجيات، لا يقل ـ بل ربما يزيد ـ عن فضلها عليه. فعلى جبهة العتاد، قد بات واضحا أن التكنولوجيا القائمة على الفيزياء وشرائح السيلكون الإلكترونية اقتربت من حدودها القصوى، ولا أمل فى زيادة سرعة الكمبيوتر فى إنجاز العمليات الحسابية والمنطقية، إلا بتخلصه من قبضة الفيزياء واللجوء إلى البيولوجى. يجرى حاليا تطوير شرائح بيوسيلكونية bisilicon تجمع بين السيلكون والعناصر البيولوجية. علاوة على ذلك، يجرى حاليا دراسة استخدام هذه العناصر فى تطوير وسائط لتسجيل البيانات ذات سعة تخزين هائلة تفوق بكثير تلك الوسائط المغناطيسية والضوئية. وكما يسهم البيولوجى فى حل أزمة العتاد، يسهم كذلك بدور فعال فى تطوير البرمجيات؛ حيث تعد الخوارزميات الجينية genetic algorithms، والشبكات الأعصابية neural networks، بمثابة نقلة نوعية فى تكنولوجيا البرمجيات؛ من أجل تطوير نظم برمجية تحاكى النظم الحيوية فى مرونتها، وقدرتها على التعلم ذاتيا، والتكيف تلقائيا مع الظروف المحيطة.

وأخيرا، وعلى محور اللغة ـ المعلوماتية هناك تلاقح معرفى لا يقل إثارة عما سبق، فالمعلوماتية متمثلة فى هندسة اللغة، تمد اللغة بنظم آلية لمعالجة الصرف والنحو والدلالة، وتتيح لها أدوات برمجية لتنظيم المعاجم وإزاحة النقاب عن دقائق البنية الداخلية المعجمية. علاوة على ذلك، توفر المعلوماتية ـ ولأول مرة ـ وسائل عملية لتخزين الكم الهائل من النصوص الواقعية التى تمثل الاستخدام الفعلى للغة، اللغة وهى تعمل، وهى تؤدى وظائفها المختلفة فى الحياة اليومية، كوسيلة للإقناع والخداع، والمحاجاة والمناجاة، والتلقين والإيضاح، والقبول والاعتراض، وهلم جرا. وهو ما سيؤدى ـ كما يتوقع البعض ـ إلى تنظير لغوى ومعجمى جديد يتعامل مع واقع اللغة، لا كما يتصورها النحاة والمعجميون. وفضل اللغة على المعلوماتية لا يقل عن فضل الأخيرة عليها، فقد اقترضت لغات البرمجة (اللغات الاصطناعية كلغة بيسك وكوبول وباسكال) الكثير من خصائص اللغات الإنسانية، ويمثل الذكاء الاصطناعى همزة الوصل بين اللغة والمعلوماتية؛ حيث يرتكز ذكاء الآلة، بصفة أساسية، على محاكاة وظائف المخ اللغوية، فى ذات الوقت الذى ستستخدم فيه نظم الذكاء الاصطناعى (كنظم الترجمة الآلية على سبيل المثال) كمعمل تجريب لفهم الظواهر اللغوية المختلفة، واختبار صحة الفروض التى تقوم عليها النظريات المختلفة للغة، علاوة على تأصيل البحث فى مجال الدراسات اللغوية المقارنة والتقابلية.

(د) النضوج الهندسى: كل من عناصر مثلثنا المعرفى له شقه الهندسى، فللبيولوجيا هندستها الوراثية، وللغة هندسة اللغة ونظم الذكاء الاصطناعى، وللمعلومات هندسة النظم والبرمجيات والاتصالات. إن هذا النضوج الهندسى يؤهل هذه المجالات العلمية للدخول فى مجالات التطبيق التقنى سواء منفردة أو مجتمعة. وكما تتلاقح الفروع النظرية للمجالات المعرفية الثلاثة، كذلك تتلاقح فروعها الهندسية فى مزيج هندسى فريد من نوعه هو الآخر، وقد لاحت فى الأفق بالفعل بوادر هذا اللقاء الهندسى الثلاثى؛ فها نحن نسمع عن الروبوت الفيروسى، والبرمجيات الوراثية والبيومعلوماتية، وربما يتفتق ذهن البعض عن نظم برمجية تجمع بين الترجمة الآلية للغات، وآلية الترجمة البيولوجية التى تعمل داخل الخلية.



ننهى حديثنا عن المثلث المعرفى لتضافر البيولوجى واللغة والمعلوماتية، بتلخيص ما يمكن أن يؤدى إليه من نتائج فى دفع مسار المعرفة الإنسانية:

* عدم الفصل بين الماكرو والميكرو، على خلاف ما كان يحدث عادة فى الماضى؛ حيث كان الخوض فى التفاصيل الميكروية الدقيقة يتم عادة على حساب فقدان الرؤية الشاملة على مستوى الماكرو. إن التصدى للتعقد يتطلب التنقل الدائم بين الجزئى والكلى، وبين القدرة على تصور طوبوغرافية الماكرو انطلاقا من الميكرو، وعلى النفاذ إلى دقائق الميكرو انطلاقا من الماكرو.
* عدم الفصل بين الداخلى الحيوى والخارجى البيئى، وكذلك بين المعرفة الظاهرة الواعية، التى يتم اكتسابها بكامل إرادتنا من خلال قدراتنا ومهاراتنا، والمعرفة اللاوعية، فردية كانت أم جماعية، التى يتم اكتسابها وتوظيفها وفقدها دون إرادة منا.
* عدم الفصل بين العلوم الصورية formal المنطق والرياضيات، والعلوم الإخبارية informal الفيزياء والكيمياء والأحياء وما شابه.
* انتقال مركز الثقل فى مجالات علمية عديدة من دراسة أوجه الاختلاف والتباين، إلى دراسة أوجه التشابه والقواسم المشتركة. وتشمل هذه المجالات على سبيل المثال لا الحصر: البيولوجى، اللغويات، علم الثقافة، نظرية الأدب والأنثروبولوجيا. ونكتفى هنا بملاحظة عابرة فيما يخص تلك الأخيرة، فما أكثر ما تناول الخطاب الأنثروبولوجى الفوارق بين أجناس البشر، وما أقل ما قيل عن الإنسان العام universal human والقواسم المشتركة العديدة بين بنى البشر. وهل لنا أن نصغى إلى ما يعنيه الرأى القائل من أن القرن الماضى قد شهد مئة عام من الفكر الأنثروبولوجى الخاطئ، فقد أدخلنا هذا الفكر فى كرنفال من عوالم الدهشة بتركيزه على المثير فى حياة الجماعات والشعوب من غريب العادات والطقوس وعلاقات القرابة والأزياء الشعبية وما شابه؛ ليلهينا بغريبه المثير هذا عن رؤية السائد والمشترك بين فئات البشر.
* تضافر البيولوجى واللغوى والمعلوماتى فى سبر أغوار المخ البشرى، وما سيؤدى إليه ذلك من نتائج عديدة على أصعدة التربية والمعلوماتية وعلم النفس. ■

الهوامش

(١) استعان الكاتب فى تصميم هذا الشكل بما ورد فى المقال الرائع بقلم الدكتور أحمد مستجير بعنوان الجينوم: قراءة فى سفر الإنسان. وجهات نظر. يوليو، ٢٠٠٠

(٢) الفقرة ما بين القوسين نصًا من كتاب د. سمير حنا صادق «العلم ومستقبل العالم». ص ٤٣

(٣) Biology of human immunodeficienc Viruses M. Show P. 1845 in: Cecil Text Book of Medicine. ed. J. Claude Bennett and Fred Plum

(٤) يمنى الخولى: فلسفة العلم فى القرن العشرين. سلسلة عالم المعرفة. العدد ٢٦٤، ص ٦٣ـ٦٨

نولد جميعاً سعداء، نولد وفى داخلنا «توق طبيعى» إلى السعادة يظل معنا طول العمر. كل شخص على وجه البسيطة يمكن أن يكون سعيداً. السعادة هى إحساس بالغبطة الحقيقية الطويلة الأمد، هى درجة رضا الفرد عن حياته. ليست السعادةُ ضحكةً طيبة، أو لهواً قصيراً، أو سروراً زائلاً. ليست بضع لحظات هانئة نقضيها قبل أن نعود إلى الحياة القاسية. نخلط كثيراً بين السرور والبهجة والضحك والانبساط والسعادة. نستخدم أيا من هذه الكلمات لنخلق صورة عامة لأناس يتمتعون بالحياة. لكن السعادة شىء مختلف. هى لا تروح وتجئ. السعادة باقية معنا بغض النظر عن الانفعالات اللحظية. يمكنك أن تضحك من قلبك وأنت سعيد، يمكنك أن تندب ضياع حبيب وأنت سعيد. السعادة حالة من حالات الشخصية، تبقى مع الفرد وهو يمور بشتى الانفعالات. أُمُنا الطبيعة تقول إن السعادة فى راحة البال. راحة البال هى أفضل هدية تهديها لنفسك. أنت السعيد إذا كنت تقدر ذاتك، إذاكنت تعترف بقصورك، إذا قبلت ألاَّ حق لك فى أن تحكم على الآخرين، إذا كنت واثقاً بقدرتك على التعامل مع الحياة، إذا تقبلت كل إهانات الحياة بصدر رحب، إذا أدركت أن النجاح والثروة لا علاقة لهما بالسعادة !

كلنا ينشد السعادة. السعادة هدف نسعى إليه جميعاً. كل إنسان - أيًا كانت ثقافته أو عمره أو درجة تعليمه - يريد أن يصبح سعيداً. رغبتنا فى السعادة لا حَدَّ لها، توقُنا العاطفى إلى أن نحب وأن نُحَب، دافعنا الجسدى إلى الجنس والطعام والشراب، نزعتنا إلى التعبير الفنى أو العلمى، جوعنا الروحى للمغزى والراحة فى عالم مشوَّش محيِّر، كل هذه تختلط وتمتزج لتَنتج عنها رغبة عارمة لا تقاوم فيما نسميه السعادة.

ماذا يعنى إذن ألاَّ تكون السعادة - هدفنا الأسمى - هى نتيجة سعينا وإنما نتيجة بنية المخ؟ نتيجة الجزر والمد فى الناقلات العصبية، ونتيجة الكوكبة المتفردة من جيناتنا؟ أم تأتى السعادة عن مساعينا وخياراتنا وخبراتنا الحياتية؟ أم أن هذه مجرد روافد تُسهِم فى السعادة؟ وإذا كانت تسهم فبماذا؟ إذا كانت السعادة مرتبطة ولو جزئياً بعلم الأعصاب، فهل يمكننا بالتحكم فى أمخاخنا وضبط الناقلات العصبية أن نصلح شبكة منظومة التوصيلات الكهربائية بالمخ لنصبح أكثر سعادة ؟ يحاول الكتاب الذى نعرضه هنا أن يجيب عن هذه الأسئلة.

منذ أكثر من قرن كتب الفيلسوف والسيكولوجى الكبير ويليام جيمس عن كيفية اكتساب السعادة والاحتفاظ بها واسترجاعها:

السعادة هى فى الحق سر الحافز الغامض وراء ما يفعله كل الناس فى كل زمان. كانت السعادة فى أيامه تعتبر ثمرة تجاريب الحياة التى عاشها الفرد، كانت هى النتيجة المباشرة للعمل الشاق، للقرارات الحياتية الصائبة، للتعليم الطيب، للحياة الهانئة، ولمجموعة أخرى من الأنشطة التى يتحكم فيها الفرد. الشخص يبذل ليجنى سعادته. أما الحزانى والمكتئبون فإنهم هم من جلبوا التعاسة على أنفسهم. لو أنك اقترحت فى تلك الأيام أن السعادة هى ثمرة عوامل وراثية أو بيولوجية، أو أن للعقاقير القدرة على إسعاد الناس، لَوُصِفْتَ قطعاً بأنك أبله أو بأنك وغد !

عَالم جديد شجاع

فى عام ١٩٣١ نشر ألدوس هكسلى روايته الشهيرة «عالم جديد شجاع»، تخيلَ فيها العالم بعد ستمائة عام، وتنبأ بالكثير من المشاكل، من بينها عقار بلا آثار جانبية أسماه «صوما» يخلِّص الإنسان من الكرب والألم وفراغ الحياة فى مجتمع طبقى مفرط فى تكنولوجيته مفلس فى روحانيته. هو دواء منشط مخدر يصيبك بالهلوسة اللذيذة، يأخذك فى إجازة من الواقع عندما ترغب، ثم يعيدك دون صداع أو قرف. كان هكسلى يرى فى الصوما شيئاً منكراً شريراً، فحماية الناس من الواقع الأليم، وتخديرهم فلا يحسون، واستبدالهم النشاط الصُّنْعى بالسعادة الحقيقية، إنما يشجع القبول السلبى للحكم القمعى. كان هكسلى لا يرى خيراً فى حبة الصوما، « حبة السعادة » المنشودة.

وبعد سنين من نشر كتابه، انتاب هكسلى القلق إذ رأى أن ما توقع حدوثه بعد ستمائة عام قد غدا على وشك أن يتحقق فى حياته. فى طبعة ١٩٤٦ من هذا الكتاب كتب يقول: « إن تحرير الطاقة الذرية يسجل ثورة هائلة فى تاريخ البشرية، لكنه ليس بالثورة الأخيرة، ولا بالثورة الكبرى. الثورة الثورية لن نبلغها فى العالم الخارجى، وإنما فى روح الإنسان ولحمه». كان هكسلى يشير إلى النشاط المتزايد فى علمين جديدين : علم الوراثة وعلم العقاقير. فقبل أن يكشف واطسون وكريك تركيب الدنا (DNA مادة الوراثة) أدرك هكسلى أن التوسع فى تفهم الوراثة سيمكِّن الإنسان من تحوير طبيعته قبل أن يولد. وبنفس البصيرة رأى أن انفجاراً معرفياً مشابهاً فى مجال عمل المخ سيمكِّننا فى نهاية الأمر من تغيير الطبيعة البشرية بعد الولادة، بتخليق عقاقير تناغش آلية المخ الرهيبة المراوغة.



وفى أواخر خمسينيات القرن الماضى وصلت إلى هكسلى أخبار عن عقار إيبرونيازيد Iproniazid، وكيف أن بعض مرضى الاكتئاب قد استجابوا له استجابة رائعة. فَهِم الرجل على الفور ما سيكون لمثل هذا العقار من شأن، فكتب فى عام ١٩٥٨ كتاباً آخر عنوانه « عودة إلى العالم الجديد الشجاع»، قال فيه إنه قد أخطأ إذ ظن أن الصوما لن تظهر إلا بعد ستمائة عام، «فلقد أصبحنا بالفعل على مرمى حجر منها ... لن يحتاج من يتعاطى هذه الحبة إلى نوم طويل، سيشعر بأنه يقظ ومبتهج، وسيفكر بشكل أسرع وأفضل دون أية أضرار جسدية - على الأقل فى المدى القريب ».

لكن، كانت للايبرونيازيد آثار جانبية عديدة، ولا يزال الكثيرون يرون الآن مثل هذه الآثار بالنسبة للبروزاك Prozac والزولوفت Zoloft والريمرون Remeron والسيرزون Serzone، فهذه العقاقير تنتشل بعض المرضى من البؤس وتجعلهم أكثر انشراحاً ونشاطاً وأسرع تفكيراً. تباع من مضادات الاكتئاب هذه كميات مهولة ، فلقد وُصِف البروزاك مثلاً فى عام ١٩٩٧ لأكثر من ٣٤ مليون أمريكى، وهناك عشرات الملايين غير هؤلاء يستخدمون واحداً أو آخر من مضادات الاكتئاب.

يَسْتخدم مضادات الاكتئاب الآن البعضُ ممَّن لم يكن يُشَخَّص مَريضاً، فلقد غدا الخط الفاصل بين الشخص الطبيعى والشخص المريض غير واضح، أصبحت الحدود بين التعاسة «الإكلينيكية» وبين التعاسة «العادية» ضبابية، حتى غدا استخدام العقاقير لجلب «السعادة» أمراً جائزاً ومنطقياً وأخلاقياً. وهذا التحول الثقافى، ومعه التقدم المذهل فى مجالى بحوث المخ والعقاقير إنما يعنى أنَّا على مشارف «الثورة الثورية حقاً». لكن، أثمة ما هو خطأ فى هذا ؟ لو توصلنا إلى عقاقير «مُحَسِّنة» بلا آثار جانبية أو شبهة إدمان، فهل ستكون النتيجة - كما يقول هكسلى - مظهراً كاذباً للسعادة : «بسمةً بلا روح، سماءً بلا سحب، كعكةً بلا حشو؟». هذه السعادة الكاذبة ألن تقطع الأواصر ما بين الفرد والمجتمع ؟ ألن تخلق هوة واسعة بين الذات وبين الواقع ؟ أثمة مخاطر تكمن فى اللعب بآلية عقولنا ؟ ما هو العقار المثالى الذى نبحث عنه، نحن وشركات الدواء؟

بروزاك ... بروزاك ...

سمعنا خلال العشرين عاماً الماضية أن عقاراً كالبروزاك يمكن أن يوفر لبعض الناس سعادة حقيقية بعض الوقت. إنَّ تعاطى عقاقير مضادة للاكتئاب كالبروزاك قد مكّن البعض لأول مرة فى حياتهم من الولوج إلى مجال العواطف البشرية فأصبحوا يقدُرون شذا الوردة، يقعون فى الحب، ينهمكون فى أعمال إبداعية، ينتجون أعمالاً فنية باهرة، يربُّون أطفالهم، ويسخرون من مخاوف هكسلى. إن التحول الذى يسببه البروزاك هو تحول فى الوعى يختلف من شخص لآخر، لكنه يتضمن تحولاً عن الأفكار الكئيبة نحو الاستقرار العاطفى والمرونةِ وزيادةً عامة فى الشعور بالبهجة والحيوية، ولكنه - على عكس الصوما - لا يقضى على العواطف السلبية كالغضب والحزن والقلق والخوف، لا يقضى على الإحساسات التى توقع فى النفس الكآبة، بل يوفر ما يكفى من العواطف السلبية حتى لا يقع المريض ضحية انفجار من بهجة محمومة مهووسة. لكن لنا أن نتوقع أن يكون الجيل الجديد من مضادات الاكتئاب أفضل كثيراً من الجيل الحالى.

جزئ واحد اسمه البروزاك، ثمن الحبة منه دولاران، كسبت من ورائه شركة إيلى ليلى ٢٥ بليون دولار. عندما اكتُشف هذا الجزئ أُطلق عليه اسم «المركَّب ٨٢٨١٦»، ثم أُطلق عليه فيما بعد اسمه العلمى فلوكستين Fluoxetine، وأخيراً «بروزاك». بدأ تسويق هذا الجزئ العقار فى يناير ١٩٨٨، وأصبح أكثر العقاقير المضادة للاكتئاب مبيعاً، وفى عام ١٩٩٧ كان هو ثانى أكثر العقاقير كلها مبيعاً بالولايات المتحدة، ومبيعات هذا العقار وحده تشكل ٣٠٪ من مبيعات شركة ليلى فى السنوات الخمس الأخيرة.

غير أن هذه الدجاجة التى تبيض ذهباً قد أوشكت على الموت، فبراءة الجزئ تنتهى فى ٢ ديسمبر ٢٠٠٣، وعندئذ ستغمر السوق مستحضراتٌ أرخص منه كثيراً، كما ستنخفض مبيعات البروزاك ذاته. ومع اقتراب نهاية البراءة تنفق الشركة مئات الملايين من الدولارات بحثاً عن دجاجة جديدة

عقود من البحوث المتأنية فى طبيعة السعادة أثبتت أن السعادة ـ على عكس ما تقول به طبيعتنا ـ لا ترتبط كثيراً بالمال أو غيره من العوامل الخارجية، وإنما تعتمد على شىء أكثر غموضاً بكثير : على صفة داخلية تسمح للناس باكتشاف السعادة والتمتع بها بغض النظر عن الظروف الخارجية ـ مادامت هذه الظروف ليست محبطة تماماً

The Science of Happiness

(علم اسمه السعادة)

Stephen Braun

John Wiley & Sons, Inc, 2000, 192 pp., $ 24.95

علم اسمه السعادة



تبيض لها الذهب : جزئ أكثر كمالاً من البروزاك، أكثر كمالاً فى رفع معنويات المكتئبين، فى إيقاظ السعادة، فى انعدام أية آثار جانبية غير مرغوبة.

والحق أن شركة إيلى ليلى قد بدأت منذ ظهور البروزاك تبحث فى المشاكل التى نشأت عند استخدامه : فالعقار يحتاج إلى فترة طويلة حتى يظهر أثره، وكفاءته محدودة، وله آثار جانبية ذات شأن أهمها العصبية واضطراب المعدة والأرق، بجانب المشاكل الجنسية التى يعانى منها مستخدموه. ولقد تسربت مؤخراً أخبار تقول إن الشركة تبحث مع شركة أخرى صغيرة فى تطوير صورة « أنقى» من البروزاك. يوجد الكثير من الجزئيات فى الطبيعة على صورتين: الواحدة منهما هى صورة المرآة للأخرى ـ للصورتين نفس التركيب الكيماوى، نعم، لكنهما تختلفان مثلما تختلف يدك اليمنى عن اليسرى. وهذا الاختلاف كثيراً ما يفسِّر سلوك الجزئيات داخل الجسم. تأمل شركة إيلى ليلى أن يكون عقار الفلوكستين « الأيمن» أفضل فى تقليل القَلَق مقارنةً بالفلوكستين المختلط الذى يُسوَّق الآن تحت اسم بروزاك، وأن تكون آثاره الجانبية أقل.

السباق الآن محموم بين إيلى ليلى ونحو عشر شركات أخرى فى البحث عن العقار المنشود. هناك عقبات هائلة تقف أمامها، هم يقولون إن هذه المهمة لا يوازيها إلا حل الشفرة الوراثية للإنسان. فالشركات بادئ ذى بدء لا يمكنها أن تجرى تجاربها على البشر، عليها أن تلجأ إلى الحيوان. لكن الحيوانات، حتى لو كانت القِرَدَة، هى نموذج سيئ عند دراسة أمراض الإنسان المزاجية. فكيف سنعرف إذا كان القرد مكتئباً؟ وكيف سنعرف ما إذا كان العقار قد خفف من اكتئابه ؟ ثم إن الجزئ الهدف هو أعقد جزئ فى الوجود، فالعضو الذى يولِّد المزاج والشعور والذاكرة وإدراك الذات والوعى، هو آلة بيولوجية تتالف من مائة تريليون اقتران عصبى، تتشابك فى دوائر غاية فى التعقيد. لكن، ربما كانت أكبر العقبات فى سرعة بناء الجزئ المنشود هى أن الاكتئاب ليس شيئاً واحداً، هو كالسرطان، كلمة واحدة تصف مجموعة من الأمراض مختلفة، لها جذور مختلفة تماماً. يأتى المكتئبون فى صور عديدة، فمنهم مَنْ يأكل فوق طاقته ولا يستطيع النوم وينهكه القلق، ومنهم مَنْ يفقد الشهية وينام طويلاً طويلاً ويشعر بهدوء مقبض. ولاشك أن الصور المختلفة للاكتئاب تأتى عن أسباب مختلفة، البعض منها بيولوجى الأصل، والبعض منها





السعادة



سيكولوجى الأصل، ومعظمها مزيج من هذا وذاك. الاكتئاب تنين له رءوس عديدة !

ثم هناك حقيقة ألاَّ أحد يعرف حتى الآن كيف تعمل مضادات الاكتئاب الحالية. معجزة حقاً أن يعمل البروزاك بالروعة التى يعمل بها!

السعادة والمال

كلنا يبحث عن السعادة ـ مدركين أو غير مدركين ـ وتتباين أهدافنا لبلوغ السعادة : التعليم الأفضل، الصحة الجيدة، الرفيق الحبيب فى الحياة، الوظيفة الممتازة، الوضع الاجتماعى السامى. لكن المال، وإلى حد كبير هو أكثر الأهداف التى نجدُ فى طلبها فى بحثنا عن السعادة. ياما قرأنا من قصص تقول إن المال ليس هو السبيل، لكن معظمنا يشعر فى داخله أن المال إذا كان منه ما يكفى، سيحل كل المشاكل الأخرى. سُئل الكثيرون عما يعتقدون أنه يحسّن نوعية حياتهم، وكانت الإجابة دائماً « مالاً أكثر»، لم يطلبوا «أصدقاء أكثر» أو «حباً أكثر» أو «وضعاً اجتماعياً أفضل»، وإنما «مالاً أكثر».

لكن عقوداً من البحوث المتانية فى طبيعة السعادة قد أثبتت أن السعادة ـ على عكس ما تقول به طبيعتنا ـ لا ترتبط كثيراً بالمال أو غيره من العوامل الخارجية، وإنما تعتمد على شىء أكثر غموضاً بكثير : على صفة داخلية تسمح للناس باكتشاف السعادة والتمتع بها بغض النظر عن الظروف الخارجية ـ مادامت هذه الظروف ليست محبِطةً تماماً .

وجد العلماء أن الرابطة ضعيفة بين السعادة وبين ما يعتقد معظم الناس أنه يجلب السعادة، أما الصلة بينها وبين العوامل الداخلية ـ قل مثلاً وجهة النظر إلى الحياة، أو المزاج، أو الشخصية ـ فهى صلة وثيقة. لو أن السعادة كانت هى النتيجة الحتمية للمال والحب والتعليم ... إلخ، لأصبحت فكرة استخدام العقاقير فى إضفاء السعادة مجرد هراء. إن هناك قدراً هائلاً من البيانات يؤكد أن أثر العوامل الخارجية على السعادة داخل المجتمع أثر محدود للغاية.

خذ المال مثالاً: لو كانت السعادة تشترى بالمال لكان الناس فى الدول الغنية أسعد ـ فى المتوسط ـ من الناس فى الدول الفقيرة. ربما كانت أفضل دراسة عن هذه القضية هى تلك التى تمت عبر بضع سنين فى أواخر ثمانينيات القرن العشرين عندما أُجرى مسح على ١٧٠ ألف شخص فى ست عشرة دولة صناعية باستخدام استمارات استبيان قياسية. اتضح أن متوسط مستوى السعادة لا يتأثر إلا قليلاً بدخل الفرد. يبلغ دخل الألمانى نحو ضعف دخل الأيرلندى، لكن الأيرلنديين كانوا أسعد. كان البلجيكيون أسعد من جيرانهم الفرنسيين الأغنياء. أما اليابانيون، وهم من بين أثرى شعوب العالم، فكانوا من بين الدول الأقل سعادة.

لكن، هل الأغنياء فى أية دولة أسعد من مواطنيهم الفقراء ؟ يقول بحث أُجرى فى إلينوى عام ١٩٩٣ إن الأفراد الأثرى يكونون فى المتوسط أسعد، إنما بفارق ضئيل جداً. ولقد أثبتت بحوث عديدة أُجريت بعد ذلك صحة هذه النتيجة: إذا ما توافرت للفرد متطلباته الأساسية (الملبس والمأكل والمسكن والصحة) فإن أية إضافة للدخل لا تضيف إلى السعادة إلا القليل جداً.

ثمة تعضيد جديد جاء عن مركز بحوث الرأى الوطنى الذى يعمل منذ أكثر من ثلاثين عاماً على المظاهر الرئيسية فى حياة الأمريكى. كان متوسط الدخل السنوى للأمريكى عام ١٩٥٧ هو ٧٥٠٠ دولار، ووصل الدخل عام ١٩٩٠ إلى نحو ١٥٠٠٠ دولار. تضاعف الدخل فهل تضاعفت السعادة، أو ازدادت ولو قليلاً ؟ كلا . لم يتغير مستوى السعادة .

هناك أيضاً من يتحولون من حيث لا يحتسبون إلى مليونيرات، بضربة حظ فى «اليانصيب». فى أواخر سبعينيات القرن العشرين أجريت دراسة سيكولوجية مفصلة على ٢٢ من هؤلاء، واتضح أنهم ليسوا بأسعد من ٢٢ شخصاً طبيعياً آخرين اختيروا عشوائياً للمقارنة وخضعوا لنفس الدراسة، بل لقد اتضح أن الوقائع اليومية التى كانت تسعدهم من قبل (كمثل لقاء الأصدقاء ومشاهدة التليفزيون وسماع النكات والتسوق) لم تعد تثير فيهم نفس القدر من السعادة ـ الأمر الذى يعنى أن السعادة، لحد ما، نسْبيَّة. فالناس يقارنون على الدوام ظروفهم الحياتية بظروف من حولهم. السعادة إذن هدف متحرك. من بين تفسيرات الطبيعة المخادعة للسعادة أن الإنسان عبقرى فى التكيف. إننا نتكيف بسرعة للأوضاع الجديدة، تتغير رغباتنا لتتوافق مع الظروف الجديدة. وظاهرتا التكيف ونسبية السعادة تفسِّران السبب فى ألاَّ يجد مليونيرات الصدفة نفس السعادة فيما كان يسعدهم قبلاً من وقائع حياتية. هم يتكيفون بسرعة للوضع الجديد فيشحب لديهم أثر الوقائع اليومية القديمة وتطغى البهجة العارمة التى تصطحب الجائزة!

المال هو الشىء الوحيد الذى يعادله الناس خطأً بالسعادة : فالشبان ليسوا أسعد من المسنين، والرجال ليسوا أسعد من النساء، والبيض الأمريكيون ليسوا أسعد من السود، وخريجو الجامعة ليسوا أسعد ممن لم يكملوا دراستهم الثانوية. أما ما يرتبط حقاً بالسعادة فهى الروابط الاجتماعية المتينة، علاقات الحب الطويلة، الشعور بالتفاؤل، الاستعداد الصريح للخبرات الجديدة، الانشغال بعمل ذى معنى ، العقيدة الدينية، التوحد مع قضية أو فكرة أكبر من ذات الفرد. تفسِّر مثل هذه المتغيرات بعضاً من الفروق فى السعادة بين الناس. لكن لا يجب أن ننسى أن هذه كلها مجرد ارتباطات. فهل التفاؤل مثلا يؤدى إلى السعادة، أم أن السعيد يكون دوماً متفائلاً؟ أثمة مستوى جُوَّانياً من السعادة يُسَيِّر وقائع الحياة ؟ أم أن وقائع الحياة هى التى تقود إلى المستويات الملحوظة من السعادة ؟

تنبع السعادة من تفاعل مستمر بين بيئة الفرد (علاقاته، عمله، صحته، نشاته) وبين مزاجه الشخصى، ميله الفطرى إلى التفاؤل أو التشاؤم، بشاشته أو صرامته، انطوائيته أو انبساطيته. يمكن للعوامل الجُوَّانية للفرد ـ كمثل درجة نشاطه، استعداده للخبرات اليومية، ومرونته العاطفية ـ أن تشكل وقائع حياته، بما فى ذلك علاقاته بالآخرين، حتى ليمكن القول إن الناس يصنعون واقعهم البيئى ـ يصنعونه على صورتهم.

النقطة المرصودة

ولقد بدأ بالفعل الاهتمام بهذه العوامل الداخلية الغامضة. اقترحت النتائج التى جُمعت فى سنين طويلة أن المزاج يخضع للوراثة، أنه ثابت على المدى الطويل، وأنه يؤثر على السعادة. قد تدفع تصاريفُ الحياة الناسَ مؤقتاً إلى البهجة أو إلى الاكتئاب، لكنهم يعودون دائماً وبسرعة إلى مزاجهم الطبيعى. يبدو أن «المزاج الطبيعى » يأتى من الداخل، لا من الخارج.

أجرى فيما بين ١٩٧١و ١٩٧٥ مسح واسع النطاق شمل ما يقرب من سبعة آلاف من الرجال والنساء. أُعيد المسح ثانية بعد عشر سنوات على نحو خمسة آلاف منهم، واتضح أن الأسعد اليوم هو الأسعد بعد عشر سنوات، على الرغم من التقلبات اليومية. الشخص المتحمس المرح عاشق النكتة فى سن الخامسة والأربعين سيكون هو الشخص المرح المتحمس عاشق النكتة فى سن الثمانين ! دَرَس المسح بوجه خاص بعض مَنْ تعرض لتغيرات حادة فى حياته ـ كالطلاق أو موت عزيز أو تغير الوظيفة أو الإحالة إلى المعاش أو الهجرة. لم يكن لأى من هذه التغيرات أىُّ أثر على سعادة هؤلاء على المدى الطويل.

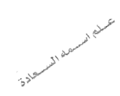
ركَّز الباحثون على ٤٩ شخصاً تعرضوا أثناء فترة البحث لكل التحولات الثلاثة الخطيرة المعروفة فى حياة الفرد : هاجروا إلى ولاية أخرى، غيَّروا وضعهم الاجتماعى، غيروا وظيفتهم. ومن عجب أنْ كان مستوى السعادة لديهم مماثلاً بشكل لافت للنظر لما كان عليه قبل السنين العشر. يقول هذا البحث إن لمعظم الناس مستويات ثابتة طويلة الأمد من السعادة، لا يتأثر متوسطها بكل العوامل التى رَسَخ فى عقولنا أنها مصادر للسعادة. ولقد أُطلق على النقطة التى يتأرجح حولها مزاج الفرد اسم «النقطة المرصودة»، هى نقطة حظ الفرد من السعادة، هى «النصيب»، هى «المقسوم». ولقد وُضعت هذه النقطة الآن هدفاً لدراسات مكثفة، ذلك أنها لو كانت ظاهرة بيولوجية، ولو جزئياً، فإنَّا نتوقع أن نتمكن من تغييرها بالتدخلات البيولوجية، كالعقاقير.

والنقطة المرصودة لسعادة أى فرد هى متوسط كل المزاجات التى يخبرها الفرد فى فترة معينة من الزمن. تنشأ كلٌّ من العواطف والحالات المزاجية عن دارات بالمخ مستقلة، ليختلط ويتداخل نتاجهما فى صورة نماذج معقدة لا يمكن أن تشرح ببساطة. فأنت قد تكون مُتَهَيِّجاً جنسياً، وعصبياً، وسعيداً فى نفس الوقت. وهناك عامل إضافى يزيد من تعقيد الأمر، هو أن السعادة والتعاسة، لحد ما، حالتان للمزاج مستقلتان عن بعضهما بعضاً، وتنشآن عن منطقتين بالمخ مستقلتين، إن تكونا مرتبطتين، والعادة أن يكْبت نشاطُ الواحدة منهما نشاطَ الأخرى، بمعنى أنَّا إذا كنَّا سعداء فإنا لا نكون تعساء، غير أن المنطقتين كلتيهما قد تعملان سوياً فى بعض الحالات، لتنشأ حالة مختلطة ما بين الحزن والسعادة.

يختلف الناس فى نمط تذبذب الحالة المزاجية، فالبعض لا يَخْبِر إلاَّ تارجحات طفيفة، والبعض يقاسى من ذبذبات عنيفة. والعادة أن تكون الأنماطُ المتطرفة من الحالات المزاجية والاستجابات العاطفية ناجمةً عن خلل وظيفى. هناك بين مَنْ يعانون من الانطواء مَنْ لا يُظْهِرون أية ردود فعل عاطفية، حالتهم المزاجية مسطحة تماماً، يصعب عليهم الاستجابة للإيحاءات العاطفية ممَّن حولهم من الناس، وهناك من ناحية أخرى مَرضى الهوس الاكتئابى الذين تتارجح حالاتهم المزاجية بعنف ما بين اكتئاب عميق انتحارى وبين فيض طائش من الحمية والحماس والبهجة. ومعظمنا بالطبع يقع ما بين هذين المثالَيْن المتطرفَيْن.

تقول الأبحاث إن الشخص إذا وقع ضحية تغير كبير فى حالته المزاجية ـ كأن يُرَقَّى فى عمله أو يهجره حبيب ـ فإنه يعود إلى نقطته المرصودة خلال ثلاثة أشهر، لينتهى كل أثر للتغير بعد ستة شهور ـ وإن كان فَقْدُ القرين قد يتطلب عاماً. وجد العلماء أن الطرب العظيم الذى يجتاح مليونيرات الصدفة يأفل بعد ثلاثة أو ستة أشهر ليعودوا إلى نقاطهم المرصودة. يبدو أن الفرد يولد ولديه قدرة فطرية على استعادة الإيقاع الطبيعى للحالة المزاجية بعد جسام الأحداث، هكذا شَكَّلنا الانتخاب الطبيعى. نولد ولدينا قدرة على أن نتحمل

تنبع السعادة من تفاعل مستمر بين بيئة الفرد (علاقاته، عمله، صحته، نشاته) وبين مزاجه الشخصى، ميله الفطرى إلى التفاؤل أو التشاؤم، بشاشته أو صرامته، انطوائيته أو انبساطيته ويمكن للعوامل الجُوَّانية للفرد ـ كمثل درجة نشاطه، استعداده للخبرات اليومية، ومرونته العاطفية ـ أن تشكل وقائع حياته بما فى ذلك علاقاته بالآخرين





تارجحات العواطف لا أن ننكرها أو نكبتها أو نتجنبها. ونحن نتباين في سرعة معالجة الحوادث السعيدة والحزينة، البعض يحتاج إلى زمن قصير والبعض يتطلب زمنا أطول.



لكلٍّ منا إذن نقطته المرصودة للسعادة التى يتذبذب مزاجه حولها، لكن الغريب هو أن متوسط هذه النقط فى المجتمع عادة ما يكون أعلى من المتوسط (المحايد) ما بين الانبساطية والاكتئاب. الناس بطبيعتهم سعداء. هذه ظاهرة عامة على ما يبدو. جُمع فى عام ١٩٩٣ عدد من البحوث من ٤٣ دولة واتضح أن متوسطات ٣٧ منها كانت أعلى من النقطة المحايدة. فعندما وُضِع مقياسٌ يبدأ برقم ١ للأكثر تعاسة وينتهى برقم ١٠ للأكثر سعادة كان متوسط كل هذه الدول هو ٦,٣٣ (والنقطة المحايدة بين ١ و ١٠ هى بالطبع ٥,٥). إن معظم الناس، كما يقول دينر لا يعيشون فى بهجة غامرة معظم الوقت، لكنهم يعيشون سعداء بعض الشىء. إن معظمنا ينظر إلى الحياة بمنظار وردى دون أن يدرى، ويرى بعض كبار العلماء أن هذا قد لعب دوراً رئيسياً فى نجاح جنسنا البشرى.

بدأت فى السنين الأخيرة دراسات عن وراثة النقطة المرصودة للسعادة باستخدام بيانات عن خبرة التوائم المتطابقة، فهذه التوائم تمكِّننا من فصل أثر البيئة عن أثر الوراثة، إذ يحمل كل من التوءمين نفس الجينات، فإذا ما قورنت مستويات السعادة لديهما عبر فترة من الزمن بمستويات السعادة عند غيرهم، أمكننا أن نحدد مدى إسهام الوراثة فى تحديد النقطة المرصودة. فى سنة ١٩٩٦ نُشر بحث يقول إن العمق الوراثى لهذه الصفة يبلغ نحو ٨٠٪. صحيح أن هذا الرقم مرتفع جداً ويؤكد أن الجينات ـ لا النشأة، لا التربية، لا التعليم، لا النجاح، لا الدخل ـ هى حجر الأساس فى تشكيل النقطة المرصودة للسعادة. فى بحث حديث (ظهر عام ١٩٩٦) اتضح أن أيا من الفروق بين التوائم المتطابقة فى الوضع الاقتصادى الاجتماعى، أو درجة التعليم، أو دخل الأسرة، أو الحالة الاجتماعية، أو التدين، لا يفسر أكثر من ٣٪ من التباين فى النقطة المرصودة للسعادة، أما نسبة ما تفسره العوامل الوراثية فتبلغ ما بين ٤٤٪ و٥٢٪.

يهدف مشروع الجينوم البشرى إلى خَرْطَنَة كل الجينات البشرية (وعددها نحو ٨٠ ألف جين) لكن الأمر سيتطلب سنين طويلة حتى نتمكن من معرفة ما تفعله كل هذه الجينات، وكيف تتفاعل مع بعضها بعضاً لتظهر صفات فى مثل تعقيد السعادة أو الذكاء أو الشخصية. غير أن المؤكد هو أن السعادة لا تعتمد على جين واحد فقط ـ مثل مرض هنتنجتون أو ليش نيهان ـ وإنما على عشرات أو ربما مئات من الجينات، تعمل ويتداخل عملها لتظهر صفة كهذه عريضة معقدة.

إذا كانت نسبةٌ تبلغ ٥٠٪ أو ٨٠٪ من تباين النقطة المرصودة داخل أى مجتمع تقع تحت تحكم الجينات، أفلا يعنى هذا أن محاولاتنا لتنظيم سعادتنا محكوم عليها بالفشل ؟ قَدَرُنا من السعادة مرصود فى جيناتنا، فكيف لنا أن نغيره ؟ لو استطعت أن تزيد طولك فسيمكنك زيادة سعادتك! هنا يلزم التاكيد على أن قبول الأساس الوراثى للسعادة لا يعنى قبولنا بالحتمية الوراثية، الجينات ليس لها التحكم المطلق. الكثيرون من علماء السعادة يرون أن الجينات تفسح مجالاً واسعاً لممارسة حرية الإرادة لبلوغ السعادة، عبر الطرق التقليدية الراسخة، كإقامة علاقات طويلة المدى والانشغال بعمل مُحَبب والحفاظ على الصحة. السعادة ليست مسألة جينات وناقلات عصبية فحسب، البيئة أيضاً تُهِمّ ـ لاسيما إذا كانت البيئة مؤذية أو مُقَيِّدة أو سلبية بصورة أو بأخرى. لن يكون للنقطة المرصودة المتاصلة فى كياننا أن تسود وتُظْهر أثرها تحت ظروف الظلم والإيذاء الجسدى وسوء التغذية والتعصب والفقر المدقع. الجينات تعبر عن نفسها كأبلغ ما يكون عندما تتوافر الحاجات الأساسية للفرد، ومن ثم لا يصح أن نُتَفِّه من أهمية هذه العوامل.



علماء السعادة يُسَلِّمون بأن أبحاثهم تقترح أن فعْل مثل هذه العوامل البيئية محدود، فالأساس البيولوجى للنقطة المرصودة يقيد هذا الفعل ويكبحه. طبع الفرد، طريقته فى النظر إلى الأشياء، المرونة العاطفية، النشاط، التسامح، القدرة على مواجهة تحديات الحياة، كلّ هذه الخلال تتجذر فى الكيمياء العصبية، فى تدفق الناقلات العصبية، فى سلامة الآلية العصبية للفرد. والعقاقير وسيلة مباشرة موجَّهة لمنابلة هذه الآلية. لقد استخدم الإنسان من قديم الأزل عقاقير بدائية كالكحول والكوكايين لمناغشة هذه الآلية من أجل رفع سعادته أو تخفيف الألم، لكن مثل هذه العقاقير إنما تؤدى إلى سرور عابر لا إلى السعادة، بل وكثيراً ما تتسبب فى الإدمان وفساد المخ. غير أن عقاقير كالبروزاك والزولوفت عقاقير مختلفة، فى مقدورها أن تغير النقطة المرصودة للسعادة بأقل قدر من الآثار الجانبية، يمكنها عندما تعمل جيداً أن تشجع السعادة الحقة كثيراً. أمن الممكن حقاً أن نُعَدِّل النقطة المرصودة ؟ إن الأمر يتوقف على طبيعة الكيمياء العصبية. يقوم الآلاف من العلماء الآن فى معامل شركات الأدوية بمحاولاتهم لسبر هذه الآلية، هم يحاولون أن يعرفوا طريقة عملها حتى يمكنهم أن يصمموا وسائل أفضل وأكثر فعالية لتغييرها. ولقد جاءت عن هذه المحاولات نتائج مدهشة حقا.

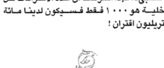
الآليــــــــة التــى تتـــــحكم فى المزاج

ماذا يحدث فى مخ الإنسان عندما يتعاطى البروزاك ؟ كيف يمكن لعقار أن يغير نظرة الإنسان إلى الحياة ؟ بل ولماذا يتصور العلماء ـ من أصله ـ أنه من الممكن الوصول إلى عقار يشجع السعادة ؟

يقدم علم الأعصاب (دراسة المخ) الإجابات عن هذه الأسئلة. لقد وَضَعَت الثورةُ فى بحوث ودراسات المخ الأساسَ الراسخ لثورة نظيرة فى تطوير عقاقير أكثر كمالاً لتحوير المزاج، وصلنا بها إلى تفهم أوضح للمخ وكيف يعمل، للمزاج ومن أين ياتى، لعقاقير كالبروزاك وكيف تعمل.

ثمة رسالة ينقلها لنا علم الأعصاب ولا يقبلها الكثيرون بسهولة: إن المخ آلة بيولوجية، إن ماهيتَنا، أو ما نعتقد أنه ماهيتُنا، ليست سوى نتاجٍ لهذه الآلة. من السهل أن نتصور عكس ذلك فنقول : إنما «نحن» منفصلون عن أجسادنا. نتصور دائماً أن ذاتنا «الحقيقية» هى مجرد شبح لا مادى «يسكن» جسمنا المادى، يسكن فى المخ. فشخصيتك وذاكرتك لا تتغيران إذا جَرَحْت رجلَك أو فقدْتَ ذراعَك، أما إذا أُصيب المخ بأذى ـ بمرض ألزهايمر مثلاً ـ قلنا إن المريض قد «فُقِد» قبل أن يموت جسمه بزمان.

والواقع أن المخ بالفعل آلة، إن تكن قد شُيِّدت بمقياس مختلف تماماً عما هو مألوف لدينا. يزن مخ الإنسان نحو ثلاثة أرطال ويحتوى على نحو مائة بليون خلية عصبية. هذا رقم هائل. لكن، انتظر. تتصل الخلايا العصبية (النيورونات) ببعضها بعضاً عن طريق «زوائد شجرية» و«ألياف عصبية». «تستمع» الخلية العصبية لما يأتيها من إشارات عن طريق الزوائد الشجرية، كما «تتحدث» إلى غيرها من الخلايا العصبية عن طريق إرسال إشارات على طول «ليفتها العصبية». يمكن للخلية العصبية أن تستمع فى نفس الوقت إلى ما قد يصل إلى خمسين ألف خلية عصبية أخرى. وكل من هذه الروابط يسمى « اقتران عصبى». فإذا افترضنا أن عدد الاقترانات لكل خلية هو ١٠٠٠ فقط فسيكون لدينا مائة تريليون اقتران !



تتشكل اقترانات جديدة وتختفى قديمة. تتقاطر المعلومات من أعيننا وآذاننا وكل أعضاء الحس، فتُلْتَقَط إذ تتغير الروابط بين الخلايا العصبية فى جزء من الثانية لتتشكل دوائر متفردة جديدة. كذا تتشكل الذاكرة. كذا تُنَابَلُ الأفكار. الشعور ذاته هو تدفق متموج متغير أبداً من النشاط الكهروكيماوى، ينساب عبر مئات الآلاف من الشبكات العصبية المتفردة ـ شبكات يتألف كلٌّ منها من آلاف، أو ملايين الخلايا العصبية المتزامنة الاضطرام. تعقيد المخ لا يتمثل فقط فى ذلك العدد المهول الذى يحمله من الخلايا أو من الاقترانات العصبية، إنما أيضاً فى العدد الكلى الممكن من الروابط ـ عدد الطرق التى بها يمكن لهذه البلايين من الخلايا أن ترتبط فى أنماط متفردة.

يأخذ علماءُ الأعصاب الآن العقلَ على أنه كيانٌ لا مادى بازغٌ ينشأ من عمل مخٍّ حى. العقل هو ما يصنعه المخ، وينشأ عن اضطرام متناغم لبلايين الخلايا العصبية المفردة. وهذا يعنى أن تغيير الآلية يمكن أن يُغَيِّرَنا.

الأمر الذى يعود بنا إلى عقاقير كالبروزاك وغيره مما قد يظهر.

يبدو أن البروزاك، والبعض غيره من مضادات الاكتئاب، قادر على تحويل





الشخصية، على الأقل بالنسبة للبعض، فهو يشعل اللذة من جديد، ويجدد القدرة على السرور، ويعيد الحياة إلى الحواس، فيصبح الشخص أسعد. أما ما يقلق البعض فهو أن هذه العقاقير تتوجه إلى لب الآلية العصبية وتناغشها، الآلية التي نعتبر أنها «نحن».

مضادات الاكتئاب على ما يبدو تعمل، عندما تعمل، على الآلية العصبية للسعادة ذاتها، على الآلية التي تنظم النقطة المرصودة للسعادة. لا يستجيب لمضادات الاكتئاب إلا ثُلُث من يتعاطونها، وهناك ثلث تكون استجابته جزئية أو محدودة، بينما لا يستجيب لها الثلث. من هنا هذا السعار المحموم الذي يجتاح شركات الأدوية في بحثها لتفهم طبيعة وعمل آلية المزاج.

كانت هناك نظرية تقول إن السبب في الاكتئاب هو انخفاضٌ في النشاط الكهربائي بالمخ ناشئ عن تَدَنّي مستوى إفراز ناقلات عصبية معينة (السيروتونين Serotonin والنوربينفرين norepinephrine والدوبامين dopamine) والناقلات العصبية كيماويات مسئولة عن نقل الرسائل بين الخلايا العصبية. ولقد اتضح الآن خطأ هذه النظرية، فلقد اكتُشف مؤخراً جزئ مضاد للاكتئاب يعمل بإعاقة مركب بالمخ يسمى العنصر - ب - P element ولا يؤثر على مستوى الناقلات العصبية الثلاثة، كما يرى بعض العلماء أن انخفاض مستويات هذه الناقلات هو نتيجة للاكتئاب وليس سببا له، وإن كانت الأدوية التي ترفع من مستوياتها تخفف بالفعل من أعراض الاكتئاب.

ثم، لماذا يتطلب الأمر فترة تتراوح ما بين أسبوع وستة أسابيع بعد استعمال العقار المضاد للاكتئاب حتى يظهر أثره. عندما يبتلع المريض البروزاك أو غيره من مضادات الاكتئاب فإنه يصل بسرعة إلى الدم ويبدأ مستوى الناقلات العصبية في الارتفاع على الفور. لو أن انخفاض مستوى هذه الناقلات هو السبب في الاكتئاب لظهر الأثر على الفور. تقترح آخر الأبحاث أن من بين أسباب تأخر العمل أن هذه العقاقير تَستحث المخ كي يبدأ في النمو. والمخ كما نعرف هو العضو الوحيد في الجسم الذي لا يجدد خلاياه، فخلاياه هي الوحدات الأساسية لتخزين المعلومات، وتغييرها يعني أن يفقد الفردُ ذاكرته. لكن المخ ينمو بطريقة أخرى، ينمو ببناء زوائد شجرية جديدة على الأشجار العصبية الموجودة، والاقترانات العصبية التي تنشأ هي وحدات تخزين المعلومات ونقلها في المخ، ولقد اتضح أن مضادات الاكتئاب ترفع مستويات كيماويات خاصة تسمى «عوامل نمو الأعصاب» تحفز الخلايا العصبية على تنمية أفرع جديدة للزوائد الشجرية - وهذا يتطلب زمناً، ويتحكم فيه عدد محدود من الجينات يوجد في نوايا الخلايا العصبية. تلعب عوامل النمو هذه دوراً هاماً خلال حياة الفرد إذ تشجع تبرعم زوائد شجرية جديدة، فإذا ماتت هذه الزوائد لقلة الاستعمال أو للإجهاد أو الإصابة بمرض، شحبت الذاكرة وفشل التنسيق العضلي، وانخفض إنتاج الهرمونات وتغير المزاج والشخصية. توجد الجينات التي تتحكم في عوامل النمو العصبي في الخلايا العصبية التي تتأثر بدورها بالناقلات العصبية الثلاثة.

وعلى هذا، فإن عثورنا على عقاقير تستهدف هذه الجينات مباشرة وتنشطها، سيُسرع من عمل مضادات الاكتئاب ويُقلل من الآثار الجانبية.

قشرة المخ

وكان هناك علماء يبحثون في المخ عن المكان الذي يولد المزاج والعواطف. هناك منطقة بالمخ تسمى «القشرة الخارجية لمقدم الجبهة» كان من المعتقد أن بها مقرَّ الشعور والقدرات الإدراكية وأن لها دوراً رئيسياً في تنظيم العواطف، وكانت هذه المنطقة من بين كل المناطق هي المرشحة لتكون موقع الشبكات العصبية التي تشقّ إدراكنا لأنفسنا، فتغيير نشاطها الكهربائي له أثره الكبير على المزاج. تنقسم قشرة مقدم الجبهة - كالمخ نفسه - إلى قسمين، أيمن وأيسر، لكلٍ وظائف مختلفة، فالجانب الأيسر هو الذي يحثنا على القيام بكل المهام التي تؤدي إلى زيادة قدرتنا على التكاثر - مهام كالسلوك الاجتماعي والعواطف، أما الجانب الأيمن فيتحكم في استجاباتنا للعوامل الخارجية لتحقيق أهداف الجانب الأيسر، وذلك بتوجيه الاستجابات إلى التهديدات والمواقف الخطرة. وقد اكتُشف أن الناس يختلفون كثيراً في قوة وتوازن النشاط الكهربائي في هاتين المنطقتين من المخ، وأن هذا الاختلاف يرتبط بالمزاج ارتباطا قويا: فإذا كان الجانب الأيسر هو الأنشط كان مزاج الفرد أكثر إيجابية، يستيقظ في الصباح متفتحاً على العالم ويتصدى لحل المشاكل ولا يثبطه الفشل، أما مَنْ كان الجانب الأيمن فيه هو الأنشط فنجده ينسحب عادة إلى داخله، خجولاً قلقاً مكتئباً. كل هذا يثير احتمال أن يتسبب رفع نشاط الجانب الأيسر - بالعقاقير - إلى رفع النقطة المرصودة للسعادة، بمعنى أن عقاراً ينبه النشاط الكهربائي في الجانب الأيسر من القشرة الخارجية لمقدم الجبهة - أو يثبط نشاط الجانب الأيمن - سيسبب سلوكاً مليئاً بالبهجة والتفاؤل والانفتاح، أي سيكون مضاداً للاكتئاب. وهناك بالفعل من البحوث ما يقول هذا، فقد قيس النشاط الكهربائي للجانب الأيسر في بعض المرضى قبل تعاطي أحد مضادات الاكتئاب، ثم أعيد القياس بعد ستة أسابيع من بدء استخدامه، وظهرت بوضوح زيادة مستوى النشاط فيمن استجاب للدواء، وقد يرجع ذلك إلى أن هذا العقار قد نشَّط جينات معينة بالخلايا العصبية ودفعها إلى إضافة زوائد شجرية أكثر تصنع ارتباطات أكثر بين الخلايا في الجانب الأيسر من قشرة مقدم المخ.



ستحاول شركات الدواء أن تصل إذن إلى الدواء المثالي الذي يسمح للفرد بأن يحول النشاط الكهربائي في مجموعة الدارات العصبية ليصل إلى شعور إيجابي أكبر، إلى قدر من السعادة والسرور أكبر، وقدر أقل من الشعور بالبؤس والقلق والاكتئاب، عقار ليس كحبَّة السعادة القديمة التي يمثلها الهيروين والتي تجلب الحبور بغض النظر عن ظروف الفرد، وإنما حبة ترفع النقطة المرصودة ليصبح الفرد سعيداً أوقاتاً أطول ومكتئباً أوقاتاً أقل. سيغدو السؤال هو: كيف نستخدم هذه التكنولوجيا الجديدة الاستخدام الأكفأ ؟ إلى أي مدى يمكن أن نقلل من الشعور السلبي، كالخوف والإحساس بالإثم والحزن والقلق ؟ أهناك حقاً حالة مزاجية مثالية؟ أثمة نطاق مثالي للعواطف؟ كل هذه قضايا تهم المجتمع مثلما تهم الفرد.

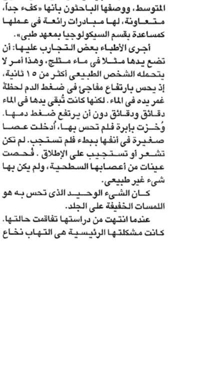
قصة غريبة

هناك قصة حقيقية عن فتاة من مونتريال لم تشعر بصداع مطلقاً، أسنانها لم تؤلمها يوما، لا ولا أحست مرة بمغص في بطنها أو ألم في أذنها. أبداً لم تحس بحاجتها إلى أن «تهرش» جلدها. لم تعرف معنى كلمة ألم. قد تقول يالها من حياة خالية من المنغصات الجسدية ! لكن، أتحب أن تكون مثلها ؟ عندما كان عمرها ٢١ شهراً ظهر بمؤخرة رأسها ورم، في المستشفى أُجريت لها عملية جراحية صغيرة، فلم تصرخ ألماً. وعندما بلغ عمرها ثلاث سنوات أصيبت في كعبها بالتهاب نخاع العظام نتيجة تلوث بكتيري يحدث كثيراً عند كسر العظام. ومثل هذا الالتهاب يسبب آلاماً مبرحة، ومن ثم فالعادة أن يُعالج الفرد سريعاً قبل أن يستفحل، لكنها لم تشعر بشيء واكتشفته والدتها عندما لاحظت احمراراً وورماً في كعبها فاصطحبتها إلى المستشفى. مرةً كانت في حجرتها وحيدة في الشتاء عندما سمعت أطفالاً يلعبون في الشارع، فاتجهت إلى النافذة وركعت بركبتيها على أنابيب التدفئة لتنظر إلى الخارج. كانت الأنابيب ساخنة جداً لكنها لم تحس ومكثت تنظر بضع دقائق ليكتشف والداها الحروق الخطيرة في ركبتيها ويحملانها سريعاً إلى المستشفى حيث أجريت لها عملية ترقيع للجلد. في عمر التاسعة أُدخلت إلى المستشفى أربع مرات، كانت إحداها بسبب إصابتها باحتباس في البول لم تحس به. بدأت الطفلة تفحص نفسها بنفسها كل يوم بحثاً عن أية جروح جديدة. ورغم ذلك فقد كانت نشأتها طبيعية، وكان ذكاؤها فوق المتوسط، ووصفها الباحثون بأنها «كفء جداً، متعاونة، لها مبادرات رائعة في عملها كمساعدة بقسم السيكولوجيا بمعهد طبي».

أجرى الأطباء بعض التجارب عليها: أن تضع يدها مثلا في ماء مثلج، وهذا أمر لا يتحمله الشخص الطبيعي أكثر من ١٥ ثانية، إذ يحس بارتفاع مفاجئ في ضغط الدم لحظة غمر يده في الماء. لكنها كانت تُبقي يدها في الماء دقائق ودقائق دون أن يرتفع ضغط دمها. وُخزت بإبرة فلم تحس بها، أُدخلت عصا صغيرة في أنفها ببطء فلم تستجب. لم تكن تشعر أو تستجيب على الإطلاق . فُحصت عينات من أعصابها السطحية، ولم يكن بها شيء غير طبيعي.

كان الشيء الوحيد الذي تحس به هو اللمسات الخفيفة على الجلد.

عندما انتهت من دراستها تفاقمت حالتها. كانت مشكلتها الرئيسية هي التهاب نخاع





العظام. وكان جهاز الإنذار في جسدها معطلاً، لم تكن تحس بالألم لتعاود الطبيب في الوقت الملائم، وعندما أُدخلت المستشفى عام ١٩٥٧ كان الالتهاب حادًا للغاية، ووقف الأطباء عاجزين إزاء التلوث الخطير الذي عم جسدها. ثم أحست بالألم لأول مرة في حياتها. لكن لم يعد ثمة ما يمكن أن ينقذها فماتت بعد شهر في عمر التاسعة والعشرين.

فائدة الألم والاكتئاب

تُذكِّرُنا هذه القصة بأن الألم، رغم فظاعته، ليس شيئاً سيئاً، بل هو في الحق ثمين يقدم لنا الإشارات الفورية اللازمة لضمان بقائنا. إن عدم القدرة على الشعور بالألم أمر خطير وقاتل. لا يجب أن ننظر إلى الألم على أنه عدوٌ يلزم قتله بأسرع ما يمكن.

والعواطف والمزاج، مثلها مثل الألم، هي نظم للاستجابة وظيفتها حمايتنا وتوجيه سلوكنا. الخوف والذعر مثلاً هي استجابات لتهديد مباشر لحياتنا الجسدية أو الذهنية أو الاجتماعية. العواطف تُنَسِّق استجاباتنا وتوفر شيئاً كالرادار يفتش عن كل ما هو مهم فيما يحيط بنا. السعادة إذن خصيصة تكيفية، فالسعداء أناس نشيطون اجتماعيون متفتحون مفعمون بالحيوية الجنسية يستثمرون وقتهم وطاقتهم من أجل المستقبل. تستثير السعادةَ المعلوماتُ المرتبطة بالنجاح التكاثري: أن يُحِب الفرد، أن يعشق، أن يجامع المحبوب، أن يرى أبناءه ينجحون، أن يرى أحفاده. ثم إن السعادة قد تاتي أيضاً عن أوضاع لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بالتكاثر: مثلاً في حل مشكلة ذهنية أو في إبداع عمل فني أو أدبي أو علمي مثير.



لكن ماذا عن الاكتئاب ؟ إن الهدف من هذه العاطفة السلبية ليس واضحاً مثلما الأمر مع السعادة. فالمكتئب كثيراً ما ينسحب من النشاط الاجتماعي، ويميزه فقد الشهية والنوم القلق وعدم الاهتمام بالجنس. ماذا في هذا يكيِّف للحياة؟ لماذا لم يُجتث الاستعداد للاكتئاب من الجينوم البشري من ملايين السنين؟ فيم يفيد ؟ لقد سيطرت علينا بالفعل فكرة أن عاطفة الاكتئاب - بل والحزن - ليست سوى خلل في طبيعة الإنسان، ولم نعد نتصور أن هذه الخصيصة قد تكون مفيدة، مثل الشعور بالألم. لكن آلام الاكتئاب قد تكون حقاً في مثل أهمية الشعور بالألم.

يقول العلماء إن العواطف الاكتئابية بالنسبة لحياتنا الذهنية هي المعادل للألم بالنسبة لحياتنا الجسدية: هي إشارات ذات معنى تقول إن شيئاً ما يقلل من فرص الحياة والتكاثر والرفاهة. ينقل الاكتئاب إلينا رسالةً تقول إن شيئاً ما خاطئ في علاقاتنا الحميمة أو في وضعنا الحياتي أو في سعينا لبلوغ هدف نسعى إليه .

ينبهنا الاكتئاب على الأغلب إلى أننا نعاني من أزمة في اللاوعي، إحباط أو خيبة أو مشكلة تستوجب الاهتمام، لكنها لا شعورية، وإدراك الخسارة أو الأزمة يغير الإحساس . الحسرة مثلاً عاطفة سلبية تشبه الاكتئاب لكنها ترتبط بفقدان صحبة شخص ما، قد يكون الزوج أو الصديق أو قد يكون حتى كلباً أو قطة. أما الحزن فقد يأتي عن فقدان مال أو هيبة أو مركز اجتماعي أو صحة. لكن الاكتئاب له شعور خاص به - شعور يشوبه الإحباط والارتباك والخوف يأتي عن عاطفة قوية تمور داخل الفرد وتغلي دون أن يدري لها سبباً محدداً .

المخ لا يعمل ككيان واحد، وإنما كمجموعة من وحدات مستقلة أو متوافقة. البعض يتحكم في عمليات أوتوماتيكية كضربات القلب أو التنفس، والبعض يعالج ما يَرِدُ من معلومات حسية، والبعض يولِّد إشارات عاطفية، والبعض يخزِّن ذكريات، البعض يولِّد عواطف إيجابية والبعض يولد عواطف سلبية. وكثيراً ما تتعارض أنشطة وحدتين أو أكثر من وحدات المخ. فأنت مستعد مثلاً أن تعشق الكثيرات لتنشر جيناتك على أوسع نطاق، لكنك في نفس الوقت تريد أن تظل مخلصاً لزوجتك. ومثل هذا الصراع بين وحدات المخ لا يكون بالضرورة صريحاً واضحاً، بل إنَّا نجاهد في الواقع كي نتجنبه أو نكبته أو نتجاهله. يعمل الاكتئاب كإشارة تحذير، وقد يكون هو المؤشر الوحيد لوجود هذا الصراع العقلي الداخلي. ولما كان العنصر المعجِّل للاكتئاب في العادة مجهولاً، فإن المريض يحار في تفسير أعراضه وبذا يبدو الاكتئاب وكأنْ لا علاقة له بوقائع الحياة ومن ثم فقد يُفَسَّر على أنه خلل بيولوجي لا ألم سيكولوجي.

تبين الدراسات على الحالات الواقعية أن الاكتئاب ينقل للمكتئب في العادة شيئاً - أما ماهية هذا الشيء بالتحديد فيندر أن تكون واضحة، على الأقل في البداية. قد يقول الاكتئاب شيئاً مهمًا بالنسبة لحياة الفرد أو عائلته أو كيميائه العصبية أو لمزيج من هذا كله. قد يكون الاكتئاب استجابة طبيعية للنفس تجاه صراعات سيكولوجية أو مشاكل مع الآخرين لم تُحَلّ. وقد يكون إشارة بأن المخ قد غدا عاجزًا عن العمل كما يجب. والمخ العاجز عن العمل الصواب قد يؤدي إلى حياة مختلة، والعكس بالعكس .

يخلع المكتئب النظَّارة الوردية التي يرتديها «العاديّون» من الناس، تصبح نظرته واقعية، تصبح له قدرةٌ أفضل على تقييم أدائه مقارنة بالآخرين، يصبح أكثر فهما لحدوده، وأدقَّ في مراقبة سلوكه الاجتماعي، يصبح أكثر إدراكاً لمسئوليته عن نجاحاته وعن أخطائه، لا عن نجاحاته فقط. وهذه الوقفة المتأنية لتأمل الحقائق العارية تسمح للفرد بأن يصل إلى تقدير أدق لوضعه مما قد يؤدي به إلى النجاح: للفرد إذن أن ينسحب إلى داخل ذاته، أن يضطجع يقظاً، أن يحلم أحلاماً مقلقة، أن يتباطأ، حتى تحل المشكلة العاطفية. له أن يكتئب. الاكتئاب ليس بالضرورة مرضاً يلزم أن «يُعَالج» بأي ثمن. بل الحق أن التخلص تماماً من قدرة الفرد على الاكتئاب - باستخدام العقاقير - قد يكون في النهاية أمراً ضاراً، تماماً كاستئصال قدرة الفرد على الألم. يحتاج كل فرد سليم إلى القدرة على أن يكتئب.

نعرف أن إشارات الألم كثيراً ما تكون أكثر حدة مما يلزم، كما أنها تستمر لفترة أطول مما يجب. إذا جُرحت استمر الألم طويلاً بعد أن تُحس بالجرح، وتُوقف سبَبَه، وتُعَالجه. من الممكن بالأدوية أن تخفف «فيض» الألم غير الضروري بأمان. وبالمثل سنجد أن الاستجابات العاطفية عادة ما تفيض كثيراً وبسهولة وبصورة أكثر حدة مما يتطلبه الوضع، الأمر الذي يعني أنه من الممكن بالأدوية أن نخفف غير الضروري منها بأمان.

الجينات والسلوك

ذكرنا أن كل مناحي سلوك الإنسان - الطبيعي منها والمنحرف - يعْكس الخبرات الشخصية والنزعات الوراثية. كنا إلى عهد قريب نولي جلَّ اهتمامنا إلى نواحي الخبرة الشخصية لأن آثارها تبدو أوضح بكثير. لكن الأمر قد تغير الآن بعد أن بدأ العلماء يمضون إلى أبعد من «النزعات الموروثة» التي يصعب تحديدها بوضوح : إلى أصلها الدقيق - إلى الجينات ذاتها. فمنذ اكتشف تركيب الدنا DNA، مادة الوراثة، عام ١٩٥٣، طُوِّرت تقنيات غاية في القوة لتفحُّص الفروق المضبوطة في جينات الأفراد وربطها بالكثير من الصفات، مثل القابلية للإصابة بأمراض معينة. يُستخدم هذا المدخل الآن في تعقب التباينات في الدنا التي تلعب دوراً في أمراض المزاج التي بدا يوماً أنها تتأثر فقط بخبرات الحياة بحيث تبدو الدراسات الوراثية وكأنْ لا أهمية لها.



منذ زمن ليس بالبعيد كان المفهوم هو أن القابلية الوراثية للإصابة بالمرض السلوكي إنما تعني أنه لا يمكن تغييرها. لكنا نعرف الآن أن العثور على الجينات التي تؤثر في تباينات سلوكية معينة لن تفيد فقط في التنبؤ بمصيرنا والاستعداد له، وإنما في اتخاذ إجراءات لإحباط عملها أو الحيلولة دون وقوعه.

من بين الأمراض السلوكية هناك مرض مثير للانتباه هو مرض الهَوَس الاكتئابي الذي يتميز بتأرجحات في المزاج عارضة حادة ومُمَزِّقة. يصاب نحو ١٪ من الناس بالصورة الصريحة من هذا المرض، وربما كانت هناك بضعة أضعاف هذه النسبة ممن يصابون بالصورة الأخف وطأة. وعدم علاج هذا المرض يؤدي إلى نسبة انتحار تبلغ نحو ٢٠٪. من بين من أصيبوا بالهوس الاكتئابي هناك تشارلس ديكنز، ووالده جون ديكنز، وفان جوخ، ونيوتن، ولقد أثار المعدل المرتفع لظهور الهوس الاكتئابي بين الأقارب والتوائم والآباء، أثار فكرة وجود دور للوراثة. فإذا ما ظهر المرض مثلاً في واحد من توءمين متطابقين كان احتمال ظهوره في الآخر هو ٦٠٪ - الأمر الذي يعني بدوره أن ثمة عوامل بيئية تشترك فعلاً في حلول المرض، وإلا لكان الاحتمال هو ١٠٠٪، نعني أن الجينات المرضية تحتاج إلى ظروف بيئية خاصة حتى يَحِلّ المرض. ولقد استعملت الوراثة الجزيئية لمحاولة تحديد مواقع الجينات المسببة للهوس الاكتئابي، وتشير النتائج المتجمعة إلى احتمال وجودها على منطقة محددة بالذراع القصيرة قرب سنتروميرالكروموزوم ١٨،وعلى منطقة معينة بالذراع الطويلة للكروموزوم ٢١، وأخرى بالذراع الطويلة للكروموزوم ١٣، وهناك شواهد أقل وضوحاً لمناطق بالذراع الطويلة لكروموزوم الجنس X، وبطرف الذراع القصيرة للكروموزوم ١١، وربما أيضاً بالذراع الطويلة للكروموزوم ١٢, ويرى بعض العلماء أن حلول المرض يتطلب ثلاثة جينات مختلفة.

الديموقراطية وسعادة الشعوب

الشواهد على أهمية الوراثة في تحديد النقطة المرصودة للسعادة شواهد مقنعة. لكن هناك من يرى أن العوامل الثقافية والتاريخية تلعب هي الأخرى دوراً محسوساً. لم تلق هذه العوامل إلا أقل اهتمام لأن التباين الثقافي ثابت نسبياً داخل أي مجتمع معين، ويكون كبيراً نسبياً بين المجتمعات المختلفة. والواقع أن الغالبية العظمى للبحوث في أثر الوراثة في السعادة قد أُجريت داخل مجتمعات مفردة، حيث تتباين السعادة الشخصية داخل مجال محدود، ويمكن للعوامل الوراثية في هذه الحالة أن تفسِّر بالفعل معظم التباين. أما إذا تحدثنا عن التباين بين الدول، فإن الفروق الثقافية على ما يبدو قد تفسِّر قدراً من التباين معادلاً لما تفسره الوراثة.

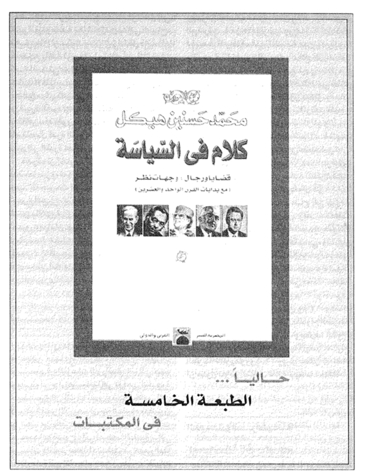
تقول الدراسات إن أفضل مقياس للسعادة هو إجابة السؤال التالي : « ما مدى رضائك عن الحياة في مجملها ؟ أتقول إنك راض جداً، أم راض إلى حد معقول، أم لست راضياً الرضاء الكامل، أم غير راض على الإطلاق ؟». يقول مسح أجري عام ١٩٩٨ مثلاً إن ٦٥ ٪ من

السعادة والتعاسة، لحد ما، حالتان للمزاج مستقلتان عن بعضهما البعض، وتنشآن عن منطقتين بالمخ مستقلتين، وإن تكونا مرتبطتين، والعادة أن يكبت نشاط الواحدة منهما نشاط الأخرى، بمعنى أننا إذا كنّا سعداء فإننا لا نكون تعساء، غير أن المنطقتين كلتيهما قد تعملان سوياً في بعض الحالات، لتنشأ حالة مختلطة ما بين الحزن والسعادة





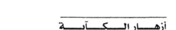




الدانيمركيين وصفوا أنفسهم بأنهم راضون جداً، بينما لم تتعدَّ نسبة من وصفوا أنفسهم هكذا ٥ ٪ في البرتغال. يبدو أن مثل هذه الأرقام تعكس التجارب التاريخية للمجتمعات، أي أنها خصائص ثابتة نسبياً للمجتمعات، كما تؤكد دراسة استمرت ٢٥ عاماً على ٦٤ دولة تمثل كل القارات (ليس بينها بلد عربي واحد). ويبدو أيضاً أن للثقافات - كالأفراد - مستوى قاعدياً للسعادة لا يتغاير إلا قليلاً استجابة للوقائع الحياتية. فهل الاختلافات بين الدول تعكس اختلافات وراثية ؟ هذا أمر بعيد الاحتمال، وإنما يبدو أن لمستوى التنمية الاقتصادية في الدولة أثراً مهمًا على سعادة الناس. والتفسير الوراثي يعني أن شعوب الدول الثرية تختلف وراثياً عن الشعوب الفقيرة ! لقد ارتفع مؤشر السعادة في الدول حديثة الثراء كاليابان وكوريا الجنوبية وتايوان، ولا يُعقل أن نقول إنها قد خَبِرت بغتةً تغيرات وراثية ! ربما قلنا إن السعادة تدفع المجتمع إلى أن يصبح أثرى، لكن ليس مَنْ يأخذ هذا مأخذ الجد، إنما الأكثر معقولية أن نقول إن لتحرك المجتمع من اقتصاديات الكفاف إلى اقتصاد آمن بعض الشيء أثراً كبيراً على السعادة والرضا بالحياة (يقل الأثر كثيراً عندما تكون المقارنة بين الدول الصناعية الآمنة اقتصاديا) .



ليست التنمية الاقتصادية بالعامل الوحيد الذي عليه يُبنى المستوى القاعدي لسعادة الشعوب، فالنقطة المرصودة لسعادة شعب ما قد تعكس ماضيه التاريخي. تقول الدراسات إن مستويات السعادة في كل المجتمعات التي خضعت للحكم الشيوعي كانت منخفضة حتى عند مقارنتها بمجتمعات أقل منها في المستوى الاقتصادي كالهند وبنجلاديش ونيجيريا. بل إن المجتمعات التي خضعت للحكم الشيوعي لفترة أطول نسبياً كانت مستويات السعادة فيها أقل من الأخرى التي لم تخضع للحكم الشيوعي إلا بعد الحرب العالمية الثانية. هناك شواهد جديدة تعضد نظرية تقول إن مستوى سعادة المجتمع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بازدهار الديموقراطية وارتفاع مستوى الحقوق السياسية والحريات المدنية. لكن الأمر ليس بهذه البساطة، فلم ترتفع سعادة الشعب الروسي مع الانتخابات الحرة عام ١٩٩١، بل إنها انخفضت: يبدو أن التدهور الاقتصادي والخيبة الإيديولوجية والمعدل المرتفع للجريمة كان لها أثر على سعادة هذا الشعب أكبر من أثر التحرك نحو الديموقراطية. من ناحية أخرى سنجد أن الصين قد تحركت نحو اقتصاديات السوق دون أن تغير نظامها السياسي، ورغم ذلك فإن مستويات السعادة فيها تفضُل مستوياتها في بعض الديموقراطيات. لو كانت سعادة الشعوب تحددها الديموقراطية لكان الشعب الصيني هو أتعس الشعوب !



أزهار الكآبة

أثمة رابطة تربط الاكتئاب بالإبداع؟ لماذا نجد بين ضحايا الاكتئاب والهوس الاكتئابي كلَّ هذا العدد من كبار الشعراء والكتَّاب. أصابني الفزع لَّما وقعتُ على قائمة (من الإنترنت) بأسماء المكتئبين من الكبار. وجدت بينهم من الشعراء : إدجار آلان بو، الفريد تنيسون، بوريس باسترناك، بيرسي شيلي، ت.س. إليوت، جون كيتس، صمويل تايلور كولريدج، عزرا باوند، فيكتور هوجو، وليام بليك، وكان من بينهم من كتاب الرواية والقصة: أجاثا كريستي، إيرنست همنجواي، تِنْيسي ويليامز، جراهام جرين، روبرت لويس ستيفنسون، سكوت فيتزجيرالد، فيرجينيا وولف، مارك توين، ماري شيلي، هانس كريستيان أندرسون، هنريك إبسن، وليام فوكنر. ماذا إذن عن شعرائنا وكتابنا ؟ أكان شاعرنا الرومانسي الكبير أبوالقاسم الشابي ضحية من ضحايا الاكتئاب ؟ له قصيدة عنوانها «السعادة» يقول فيها :

ترجو السعادةَ يا قلبي ولو وُجِدت
في الكون لم يشتملْ حزنٌ ولا ألمُ
فما السعادة في الدنيا سوى حُلُم
ناء تُضَحِّي لـه أيامَها الأُمَمُ

السعادةُ عنده حلم لا يثق في إمكانية تحقيقه، هو يرى ما رآه فولتير من أن «السعادة وهم والشقاء حقيقة»، وهو يضرب على وتر الكآبة كثيراً كثيراً :

أنا كئيب ...
أنا غريب ...
كآبتي خالفت نظائرها
غريبة في عوالم الحَزَنِ
كآبتي فكرة مغردةٌ
مجهولة من مسامع الزمنِ

ليختتم قصيدته (الكآبة المجهولة) بما يؤكد أن كآبتَه باقيةٌ إلى الأبد :

كآبةُ الناس شعلةٌ، ومتى
مرتْ ليالٍ خَبَت مع الأمدِ
أما اكتئابي فلوعةٌ، سكَنَتْ
روحي، وتبقى بها إلى الأبدِ

ومثله، أكان أيضاً صلاح عبدالصبور الذي قال :

شجرُ الليل على مفرقنا مالَ، وأرخى
شَعرَه المحلولَ في أكتافنا
ثم ألقى ثمر الوجد، وأزهار الكآبة
في مآقينا وفي أكمامنا

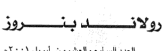
لماذا تتفتح في أشعار الكثيرين من كبار الشعراء أزهارُ الكآبة ؟ ولماذا نستعذب دائماً مذاق أزهارهم المكتئبة؟ هل نقاطهم المرصودة للسعادة أدنى من بقية الناس ؟ هل هم مختلفون ؟ وإذا كانوا كذلك، فهل صحيح قول شوقي « أنتم الناسُ أيها الشعراء» ؟ ■

بيكاسو بريشته .. من المرحلة الزرقاء

"أنا لا أرسم ما أرى بل أرسم ما أعرف"

بيكاسو

فرشاة ومحبرة غيرتا معنى الفن!!



العدد السابع والعشرون- أبريل ٢٠٠١م



١ مايو إلى ٤ يونيه ١٩٣٧ ـ «الجورنيكا» .. من أعظم الأعمال الفنية فى تاريخ البشرية (زيت على قماش ٣٥١ × ٧٨١سم)

يعد بيكاسو واحدًا من أشهر الأسماء فى عالمنا المعاصر ورغم هذا، فإن قلة قليلة فقط من الناس هم الذين يعرفون كل جزء فى إنتاجه الضخم الشديد المتنوع بصورة لا تصدق، وحتى هؤلاء الذين يعرفونه جيدا هم أول من يعترف بأنهم غير قادرين على القول بصدق أنهم كانوا يفهمونه كإنسان أو كانوا يملكون قدرة على التكهن بالموضوع الذى سوف يستولى على اهتمامه فيما بعد، ولذلك نشرت عنه كتب كثيرة، واذيعت كثير من الأساطير حتى نظن أحيانًا أن مصدر هذه الأمور ليس شخصا واحدا، بل جيشا من الرجال يحملون اسم بيكاسو.

ومن المعروف على مستوى العالم كله أنه كان عبقرية ثورية عظيمة قدم فى حياته الطويلة التى امتدت زهاء اثنتين وتسعين عامًا كثيرًا من الأعمال التى ساهمت فى تغيير معنى الفن ومظهره أكثر من أى فنان آخر فى القرن العشرين.

ولد بابلو ريزى بيكاسو Pablo Ruizy Picasso فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٨١ فى مالقة Malaga على ساحل أسبانيا الجنوبى المطل على البحر المتوسط، وأخذ معارفه الأولى فى الفن عن والده، جوزيه ريزى بلاسكو José Ruizy Blasco. وهو فنان أكاديمى متوسط الموهبة. وقد أظهر بيكاسو وهو ما يزال طفلا مقدرة ملحوظة فى الرسم، إذ كان يسلى أصدقاءه برسم اسكتشات سريعة تتجاوز فعلا خيال الطفولة البرئ.

انتقلت الأسرة إلى لاكورينا La Coruna فى ١٨٩١، ثم إلى بارشلونة سنة ١٨٩٥. وهناك شرع بيكاسو الشاب فى تأكيد استقلاله، إذ وجد له أصدقاء بين طليعة الشعراء والرسامين والفلاسفة الذين كانوا يترددون على حانة البوابات الأربعة Els Quatre Gats وكانوا يحثون بعضهم بعضا على السير فى الاتجاهات الفوضوية والاشتراكية، وفى جو نفسى تسيطر عليه سوداوية نهاية القرن، كانت تيارات الفكر محكومة بالرغبة فى الهروب من القيود الضيقة للمجتمع الأسبانى وهكذا بدأ بيكاسو رحلته إلى الشمال فى ١٩٠٠.

كان اتصاله الأول بباريس ذا أهمية عظيمة، لكنه لم يستمر إلا وقتا قصيرًا نظرًا لإمكانياته المحدودة، وقد أخذ يقسم وقته على مدى السنوات الأربع التالية بين بارشلونة ومدريد ثم باريس. فى بارشلونة كانت عائلته ما تزال تقدم له معونه متواضعة، وهناك رسم عددًا من الصور تصنف الآن على أنها مرحلة حياته الزرقاء Blue Peried، وفى تلك الفترة بدأ يوقع لوحاته باسم أمه، بيكاسو.

وبدءًا من ١٩٠٤، جعل بيكاسو من باريس وطنا له، وفى مونتمارتر Montmartre وجد بيكاسو ستديو معروفًا باسم باتو لافوار Bateau - Lavoir، حيث كان يحيط به فنانون وشعراء آخرون وكانت عشيقته المخلصة أوليفييه Olivier تشاركه الحياة البوهيمية فى ذلك الحى، وكان من بين أصدقائه هناك ماكس چاكوب وألفريد جارى Jarry وأندريه سالمون وجيوم أبولينار Apollinaire. وكان بيكاسو محظوظًا إذ وجد تجار اللوحات وجامعيها من أمثال أمبروزو فولارد وليوشتين Leo Stein والتاجر الروسى، شوكين ودانيال هنرى كاهنفلر Kahnaviler الذين استطاعوا تقدير لوحاته وما تتميز به من حيوية فذة، ثم ساندوه بشراء رسوماته، لكن السرعة المربكة التى كان يتابع بها بيكاسو اكتشافاته دون اهتمام بالحصول على ضمان مادى، كانت تسبب لهم هلعًا كبيرًا.

وبين الفنانين الذين عرفوا بيكاسو جيدًا في ذلك الوقت الفنان ماتيس وديران Derain وفلامينك Vlamink وكان الفنان براك فقط هوالذى تفهم بسرعة تلميحات بيكاسو في لوحة بنات أفينون -Les Demoiselles d'Avig non ذلك الرسم المدهش الذى أنتجه بيكاسو عام ١٩٠٧.



ولولا تفهم بيكاسو المفاجئ لفن النحت الأفريقي ما كان قد قدر للحركة التكعيبية الظهور، إذ ساهم النحت الأفريقي بقوته البدائية في ابتكار وتطوير أسلوبه الثورى بسرعة فائقة مما جعله شائعًا معروفا في خمس سنوات.

وسع بيكاسو من نشاطه في سنة ١٩١٧ بتصميم مشاهد وملابس لفرقة سرجي ديجيليف Serge Diaghilev الروسية للباليه وتزوج بعد ذلك بوقت قصير من إحدى الراقصات أوجلا كوكلوفا Ogla Koklova التي أنجبت له ابنا أسماه باولو، في ١٩٢١، وبدا له أن زواجه ينجو به بعيدا عن الحياة البوهيمية في مونتمارتر ويتجه به نحو الدائرة العالمية الثرية التي احتضنت الفنون بعد الحرب وأضفت على أعماله قيمة عالية.

وعلى الرغم من ذلك، فقد أكد للمرة الثانية في ١٩٢٥ استقلاله وكشف عن ازدرائه للذوق الاجتماعي العام بأن رسم صورًا تحمل في طياتها سخرية وتحريفات عنيفة مناقضة لذوق أولئك الذين كانوا يتوقعون من الفن أن يمنحهم السعادة والتسلية وأن يدغدغ مشاعرهم بالنفاق، واستمر عنف التعبير في الازدياد وترجم ذلك إلى أعمال نحت ورسم وحفر نالت إعجاب السرياليين لأسباب كثيرة، وعلى الرغم من أنه ظل بعيدًا إلى حد ما عن جماعتهم فإن صداقته الوثيقة لأندريه بريتون Breton وبول أيلوار Eluard وفرت حافز الصداقة المتبادلة بينهم والتي استمرت في حالة إيلوار حتى وفاة هذا الشاعر في ١٩٥٢.

وظل بيكاسو طيلة هذه العقود يقضي معظم حياته في باريس يتخللها زيارات متكررة لجنوب فرنسا. وكان يصحبه في كثير من هذه الزيارات دورا مار Dora Maar التي استطاعت بذكائها وعمق إدراكها أن تكون صديقته الحميمة لسنوات طويلة بعد انفصاله عن زوجته أولجا Olga.

وبحثا عن مجال أوسع لنشاطه، اشترى بيكاسو قلعة دي بوازيلوب -Chateau de Boise geloup في نورماندي، حيث أنتج سلسلة رائعة من أعمال النحت التي استوحاها من جمال ماري تيريز فلتر Marie -Thérése Walter وفي باريس، وبالإضافة إلى شقته القائمة في شارع لابواتيه La Boetie، حيث كان يعيش مع زوجته، حصل بيكاسو على قاعات واسعة في شارع دي جراند Des Grands Augustins أوغسطين، حيث استخدمها كاستديو لمدة عشر سنوات.

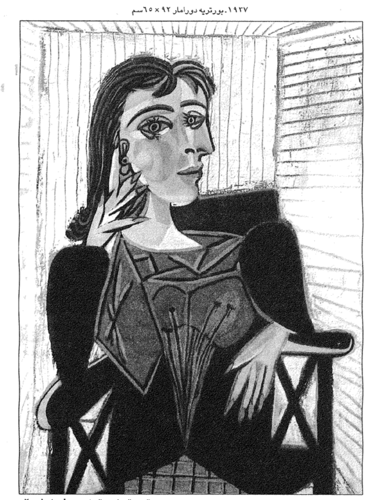


وكان المناخ السياسي قد أخذ يزداد قتامة في الثلاثينيات، وبلغ ذروته بالنسبة لبيكاسو باندلاع الحرب الأهلية في أسبانيا وتدمير قرية جرنيكا سنة ١٩٣٧، هذه الحادثة أشعلت نار الغضب في نفس بيكاسو، هذا الغضب الذي وجد تعبيره في الرسم الجداري الذي قدمه بيكاسو في جناح المعرض الجمهوري الأسباني في المعرض العالمي بباريس في تلك السنة، واستمر هذا المزاج الغاضب يتحكم في أعماله طيلة السنوات الأشد ظلاما التي أعقبت هذه الحادثة، وقد اتسع نشاطه خلال تلك الفترة وامتدت إلى أعمال نحتية تصور الإنسان بصورة أكبر من الحقيقة في واقع الحياة.

في ١٩٤٦ أصبح بمقدور بيكاسو ثانية أن يسافر إلى البحر المتوسط وسرعان ما استقر في فالوريس Vallauris مع فرنسوا جيلو Francois Jilat وطفليهما كلود وبالوما واستطاع في هذه المدينة الصغيرة أن يضيف السيراميك والنقش على الحجر إلى مجال نشاطه الواسع ثم شعر بحافز في أن يستخدم نفوذه في الأحداث الجارية، فانضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي كعلامة على تضامنه مع مبادئ الحزب، ثم قام برحلات خاصة لمؤتمرات السلام في روما ووارسو ولندن.

وقد تسبب انفصاله عن فرنسوا جيلو


١٩٢٣. آرليكان جالسًا ١٣٠ × ٩٧


١٩٢٧. بورتريه دورامار ٩٢ × ٦٥سم



مايو - يونيه ١٩٠٧ ليه دموازيل دافينيون ٢٤٤ × ٢٣٤ سم

سنة ١٩٥٣ في تفجر عاطفي يتجلى في سلسلة فذة من النقوش الحجرية التي تصوره بصورة رمزية في دور الرسام المخلص الكهل الذي وقع في أزمة التمزق بين إخلاصه لنموذجه الحي وبين إخلاصه لعمله. وموقف النقد الذاتي الذي يمكن تتبعه خلال حياته كلها، خدم بيكاسو كدرع واق ضد ما كان يستشعره من أخطار الثروة الكبيرة والشهرة العالمية.

وبعد أن ترك مدينة ڤالوريس، استقر سنة ١٩٥٥ في ڤيلا كبيرة بمدينة كان Cannes. وفي ١٩٥٨ تزوج محبوبته الجديدة جاكلين روك واشترى قلعة ڤوفنارج القديمة Chateau de Vauvenargues في جبال سانت ڤيكتوريا بالقرب من أيكس Aix. وبعد ذلك حصل عام ١٩٦١ على بيت جديد Notre Dame de vie بالقرب من موجانز Mougins في موقع جميل معزول جدًا تحيط به مناظر البحر والجبال، وهناك وجد هو وزوجته الشابة الجميلة مهربًا من الفضوليين واستمر بيكاسو في عمله دون كلل أو ضعف ومات في نوتردام دى ڤى في ٨ أبريل ١٩٧٣، عن عمر يناهز اثنين وتسعين عامًا، وهو ما يزال ينبض بمشاعر الإبداع وبالأفكار الجديدة.

إن أكثر الآراء شيوعًا عن بيكاسو هي التي جاءت نتيجة معرفة الناس به كفنان متمرد، لكن إذا أمعنا النظر بشدة فإننا نكتشف في أعماله أيضا دلائل مدهشة متكررة (حيث نتوقع تضاؤلها إلى أدنى درجة) ذات قدرة على الاستمرار تربطها أساسًا بألوان التعبير الفني على مدى العصور، هذه الروابط التي تصله بالماضي ترجع جزئيا إلى اهتمام بيكاسو الواسع المدى بكل الأشكال الحية للتعبير الإنساني، حتى تلك الأشكال التي لا يعرفها إلا القلة، كما ترجع جزئيا إلى خبرته التي كانت تسكن خياله من أيام الشباب، وهي خبرة تحتوي على مفاتيح هامة توصلنا إلى الأشياء التي كان يحبها والأفكار التي تشغل عقله كما ترجع إلى ذاكرة تصويرية فذة.

هذه المفارقة أو هذا الزواج غير المتوقع بين الابتكار المدهش بدرجة نعجز معها عن اكتشاف أي أثر يقودنا إلى مصادرها وبين التقليد الراسخ، إنما هو ملمح دائم لعبقرية بيكاسو، ولولا قوة إبداعه التي كانت تندفع بقوة دافعة هي سخطه الطبيعي على التقاليد الموجودة، كان يمكن لموهبته النادرة المبكرة النضوج واجتهاده في تعلم الفن أكاديميًا بمعاونة أبيه، أن ينتهي به هذا كله إلى عمل شريف كرسام جيد، لكن شيئين جعلا من بيكاسو فنانًا فريدًا منذ شبابه الباكر - مقدرته الفذة على التعبير عن نفسه كفنان ثم بحثه الدائب من أجل الوصول إلى فهم جديد ونافذ للحياة.

حين بلغ بيكاسو الرابعة من عمره، سلمه أبوه، الذي كان ينحدر من عائلة برجوازية في مالقة Malaga، فرشاة ومحبرة لخلط الألوان اعترافًا بأن ابنه قد تفوق عليه، ثم جاء الانتصار الثاني، حين انتقلت الأسرة إلى برشلونه واجتاز الفنان الشاب اختبارات القبول التقليدي ونجح في دخول مدرسة الفنون التابعة للبلدية، وبدلا من استخدام موهبته بالطريقة التي رسمت له، نجده يقيم صداقاته الأولى مع شباب الشعراء والرسامين الذين كانوا يترددون على بعض المقاهي الشعبية، وكانت جاذبيتهم نابعة من أنهم يشكلون من رومانتيكية آخر القرن السوداوية نبضا ثوريا صاخبا.

وبدلا من رسم صور زيتية يمكن عرضها ببساطة للمواطنين الأغنياء، اختار لموضوعاته صور المنبوذين، والمتسولين العميان وبنات الشوارع ومشاهد المقاهي ومشاهد مصارعة الثيران.



وعلى الرغم من التقاليد العظيمة التي يحفل بها الفن الأسباني، والتي لم تضعف حساسيته له أبدًا، فسرعان ما ضاقت به حدود برشلونة ضيقًا شديدًا وبدافع الشغف الشديد لاستكشاف آفاق أخرى أكثر رحابة قرر أن يخاطر بكل ما يملك من مال قليل، واتجه إلى الرحيل، ولم يقصد باريس طبعًا ولكنه اتجه إلى الشمال البعيد، حيث توجد مدينة لندن، إذ توقع أن يجد في هذه المدينة نساء جميلات وذكيات حصلن على حريتهن وأن يرى شحاذين يمشون في الشوارع وهم يرتدون قبعات عالية، لكن في الطريق كانت باريس قد خلبته، إذ وجد هناك المناخ الذي يلائم خياله، والأصدقاء الذين يمكن أن يلهموه والمتاحف الغنية بالكنوز، لكل هذه الأسباب لم يترك بيكاسو الأرض الفرنسية إلا نادرًا.

كان بيكاسو يجد دائما أقرب أصدقائه بين الشعراء، وكان ماكس جاكوب هو الذي عرفه بألوان المتعة وألوان التعاسة في حياة البوهيميين في مونتمارتر، وقادته سخرية ألفريد جاري اللاذعة وانتقادات أبو ليناز البصيرة إلى تفكير جديد كان لا بد أن يصل به ليس فقط إلى أسلوب جديد في الرسم، بل وأيضًا إلى مفهوم جديد لمعنى الفن. وتعرف بيكاسو على الباليه لأول مرة عن طريق جان كوكتو الشاب الذي التقى به في لحظة مواتية أثناء الحرب ١٩١٤-١٩١٨، وأخذ في الثلاثينيات يتابع كتابات الداديين والسيرياليين باهتمام عميق وأقام صداقة مستمرة مع الشعراء من أمثال تريستان تزارا Trislan Tzara، وبول إيلوار Poul Eluard وبيير ريڤردي Pierre Reverdey وجاك بريڤير Jacques Prévert وميشيل ليريس Michel Leiris، ولا يجب أن يفهم من هذا أن بيكاسو كان يتجاهل الرسامين، ففي بكورة شبابه أقام صداقة مع دوانيير روسو Dauanier Rousseau وهو في شيخوخته، وكان يلتقي كثيرًا بماتيس وديران وبراك، في تلك الأيام التي كانوا ينشغلون فيها بتجاربهم الجريئة مع الألوان التي أكسبتهم اسم الوحوش البرية Les Fauves.

مع ذلك فإن اهتمامات بيكاسو ومشاغله كانت تختلف اختلافا واضحا، ففي فترته الزرقاء Blue Periad رسم بيكاسو صورًا للأمومة والطفولة والشحاذين العميان كما رسم بعض التكوينات الكبيرة التي تعبر من خلال رؤى شاعرية عن الشفقة والرثاء، كما تعبر عن بعض الأفكار المتجاوزة أو المتعالية transcendental وكانت هذه الصور مستوحاة من بقايا تنشئته الأكاديمية.

وفي ١٩٠٦ خرج من هذه

الطفلة مارجريتا مارى نقلا عن لوحة وصيفات الشرف للفنان ڤيلاسكويز. ١٩٥٧. زيت على قماش ١٠٠ × ٨١ سم



المرحلة باعتقاد قوى بأنه يجب على الفن أن يتحرر من أثر الحدوته أو الحكاية وأن يكتشف فى الوقت نفسه دافعًا أعمق وأكبر من الرغبة المسيطرة على التأثريين فى عرض تأثيرات الضوء واللون العابرة فى رسوماتهم، كان بيكاسو يطمح فى إحياء الإحساس بالواقع الذى وجدوه فى رسوم الفريسك Frescoes لأهل كاتالان Catalan البدائيين، كما وجدوه فى النحت المصرى القديم الإغريقى قبل المرحلة الهلينية، وكذلك البيزنطى والقوطى، إذ تبدو هذه الأساليب حية بفعل ديناميكية غامضة تجعلها جميلة أحيانًا وأحيانًا أخرى مخيفة مفزعة.

لم تكن هذه الاكتشافات فقط هى سبب الأزمة الكبيرة فى ربيع عام ١٩٠٧، فقد كان بيكاسو يعرف دائمًا أنه لا يمكنه تحقيق أى تقدم دون دراسة مستمرة لما يقدمه الآخرون من حلول ونقد أعمالهم نقدًا لا يعرف اللين، وربما كان ماكس جاكوب يقصد موقف بيكاسو حين قال «إن الفن هو الشك» "Le doute Ce l'art" وقد كان بيكاسو طوال أيام حياته، ورغم نجاحه العظيم، يحتفظ بقدر كبير من التواضع والشك مما يمكن اعتباره أحد الأسباب الرئيسية لقدرته على إنتاج أعمال أصيلة حتى فى شيخوخته.

ففى خريف ١٩٠٦ بعد إتمامه لعدد من أعمال الرسم أخذ فى رسم تكوين كبير يحوى عددًا من الأشكال النسائية يمزج بين العمدية والشك فيما يمكن أن تقود إليه هذه الأعمال، هذا الرسم الذى سمى فيما بعد «بنات أفنيون» "Les Demoiselles d'Avignon" وفر له ميدان معركة وأرض اختبار لمفاهيم جديدة، كان من بينها اكتشاف بيكاسو، أثناء قيامه بهذا النحت لأهمية النحت الأفريقى، وفى نوبة انفجار للعنف الثورى أدخل رأسين على يمين لوحة الكانفاس Canvas مما بدا نشازًا غريبًا بالنسبة للأشكال الكلاسيكية وإهانة قاسية لكل التقاليد الجمالية، وعلى حد قول هيرمان ملڤيل «فإن هذه الوجوه التى تحمل فى تركيبها هكذا الجحيم والنعيم، تلقى فى روعنا كل غوايات الماضى، وتجعل منا للمرة الثانية أطفالاً مندهشين فى هذا العالم».

فى هذا الوقت كان بيكاسو قد اكتسب فعلا شهرة عالمية عظيمة وودع أيام الفقر والحرمان فى باريس، ولكن الامتعاض الذى سببه هذا الرسم لأولئك الذين كانوا معجبين بأعماله الأولى فى مرحلتيه الزرقاء والقرمزية كان مخيفا، وقد عبر ديران عن اهتمام أصدقائه وعدم استحسانهم بقوله: «يومًا ما سنجد بيكاسو قد شنق نفسه خلف قماشة كبيرة» أما أبولينار فقد لخص هذه الحادثة الشاذة فيما بعد بقوله «لم يكن هناك شيء أروع من مشهد التحولات التى كان يجتازها». ازدادت درجة الفهم مع مضى الأيام، إذ أخذ بعض الفنانين الآخرين وأولهم براك يرون أهمية هذا الرسم وقوته.

مع ذلك، فإن بعض الفنانين قد أخذوا يشككون فى الاعتقاد السائد بأن الجمال والكمال هما الغاية الوحيدة للفن، إلا أن لوحة «بنات أفينون» أثبتت بقوة مقنعة ولأول مرة وجود قوة سحرية فى الفن البدائى، وأن حيوية الفن يمكن أن تستعيد مكانتها فى الرسم الغربى المعاصر، وأن الجمال والقبح ما هما إلا جوانب فرعية فى أى شكل تعبيرى ينطوى على هذه القوة العاطفية الديناميكية، فالوسائل التى استخدمها بيكاسو كتحريف الصور بطريقة متعمدة وإزاحة الأطراف والتبسيط الشديد هى خطوات ثورية نحو تحليل وتركيب جديد للشكل كما نراه ثم تشكيله حسب معرفتنا، إن مقولة بيكاسو نحو تحليل وتركيب جديد للشكل كما نراه ثم تشكيله حسب معرفتنا، إن مقولة بيكاسو «أنا لا أرسم ما أرى وإنما أرسم ما أعرف» لم تكن ترمى فقط إلى الهجوم على الانطباعيين وإنما كانت أيضا إعلانا عن موقف جديد إزاء الفن الذى كان يتحتم عليه أن يجد تعبيره فى الأسلوب الذى سمى بالتكعيبية، وهذا الأسلوب ذاته هو نتاج فكر هذا القرن واكتشافه وهو تأسيس لتصورات جديدة لمعنى الفن.



وخلال السنوات الست السابقة على الحرب العالمية الأولى ١٩١٤، اشترك براك وبيكاسو فى محاولة اكتشاف شديدة الأهمية والأثر وعلى حد وصف براك إذ يقول «كنا مربوطين بحبل مثل متسلقى الجبال» وراحا يكتشفان كنوز أرضهم الجديدة، وكانت السنوات الأولى التى تعرف بمرحلة التكعيبية قد انتهت فى سنة ١٩١١ إلى أزمة حين وصل الأسلوب الجديد عمدًا إلى ضياع الخصوصية وأوغل فى التجريد إلى درجة الكمال مما جعله شديد البعد، شديد العزلة. وللإفلات من أسر هذه المخاطر جاء الرجلان بأشياء حقيقية ثبتاها على سطوح الرسومات وأعادا إلى اللون مكانته التى كانت قد تضاءلت لرغبتها فى تأكيد أهمية الشكل، حدث هذا التغير بغرض إنشاء علاقة جديدة مع الواقع ومن هنا جاء التكنيك المعروف الآن بفن اللصق (أو الكولاج Collage) - وهى طريقة إدماج قصاصات من الورق والصور والصحف داخل صورة عن طريق لصقها على السطح.

وقد حدث تطور هام مماثل برسم صورة «سيدة فى كرسى ذى مساند Woman in an Armchair» سنة ١٩٦٣، حيث أدخل بيكاسو فى الرسم مفاهيم وتداعيات شاعرية ذات نظام جديد، فالصورة موجودة الآن فيما يحق لها، إذ صار الشكل منحوتًا وموضوعيًا، وأن ما تحركه

صورة نصفية لامرأة جالسة. نقلا عن الفنان جراناش. صورة مطبوعة من حفر على اللينوليوم
٧٦ × ٥٧ سم



في الذهن من تتابع للصور لا ينبع من محاكاة أشياء خارجية ولكن من خلق كيان واقعي قائم بذاته.

يبدو أن بيكاسو قد اختار أن يعبر عن نفسه بطرق شديدة التنوع، وكأنه قد وجد أن الضرورة تملى عليه أن يثبت أنه لا يرغب في تأسيس أسلوب جامد أو مدرسة ذات طابع محدد، بل يريد أن يواصل الاكتشاف إلى ما لا نهاية، فأنتج رسوما واقعية ذات صفاء كلاسيكي حتى في أوج فترة التكعيبية ونظامها الصارم، وفي سنة ١٩١٨ بعد زواجه الأول عاد إلى موضوع الأمومة والطفولة برؤية جديدة، فالعمالقة الذين كانوا يلعبون مع أطفالهم أو يحتضنونهم على شاطئ البحر في رسومات العشرينيات، قد أضفى عليهم قوة جمالية وتناسبًا مهيبًا بدل أوضاعهم من عالمهم الواقعي العادي إلى عالم أساطير هوميروس.

وبالمقابل؛ أنتج من تلك السنوات ذاتها، صورًا مثل «العازفون الثلاثة» «متحف الفن الحديث - نيويورك» ورسومًا أخرى كثيرة من واقع الحياة تتكون من أشكال هندسية مسطحة في إطار منهجي محكم، وعلى درجة كبيرة من السمو الأثري مثل صورة «العمالقة العراة» لكنها تختلف اختلافًا كاملاً في أسلوب تناولها.



ورغم ذلك وقعت الأزمة في سنة ١٩٢٥، وهي أزمة عنيفة وبعيدة المدى في آثارها تذكرنا بما حدث معه حين رسم «بنات آفنيون» إذ أنتج بيكاسو رسمًا ثوريًا آخر على الخيش Canvas، في وقت كان يضطرم فيه حزنًا على وفاة أحد أصدقائه القدامى وهذا الكانفاس لا يعتمد على التوازن المعماري الاستاتيكي للبناء التكعيبي، «فالراقصات الثلاثة». تبرز ملامح العذاب والتشوهات بصورة لم نرها في أعماله من قبل، إذ تظهر أمامنا تكشيرة جديدة مفزعة كجزء متمم للصورة داخل فيضان من العربدة والمجون، إننا ندرك فجأة أن بيكاسو لم يكن يبحث عن حل يحقق التناغم الهارموني، بل كان يسعى إلى التعبير عن الصراع الشرس الذي يدور بين القوى التي تخلق الحياة وبين القوى التي تمزقها.

هذه الحالة المزاجية المتشنجة الضيقة، تعاود الظهور في أعمال بيكاسو خلال العقدين التاليين، فالشكل الإنساني يتمزق ثم يعاد تركيبه، فالعيون، والآذان، والأنف، والفم، تتحرك إلى مواقع جديدة تزين رأس الإنسان بإمارات العذاب أو الفرح، ونحن نتحرك معها، فنرى الوجه من الخلف مثل بروفيل أو كشكل كامل في لمحة واحدة.

هذه الحيل التي تم اكتشافها من خلال الدهشة والتأمل على مدى عشر سنوات ماضية، صارت هي القاعدة المرنة للغة تتأهب للانفجار في رسم جداري بالغ الأهمية والخطورة هو لوحة الجيرنيكا Geurnica التي رسمها أثناء الحرب الأهلية في أسبانيا، وكان من المحتم أن يستمر هذا التفجر في صور زيتية عديدة رسمها خلال سنوات الاحتلال النازي لباريس، وهي سنوات شديدة الظلام.

لكن بيكاسو اعتاد ألا يسمح لأي أسلوب حتى لو كان من ابتكاره أن يقيد حريته كما اعتاد كذلك أن ينفعل ضد حالاته المزاجية مهما بلغت حدتها، فالغضب، والقلق، وضياع الوهم قد أخلى مكانا لنوع من المزاج الوحشي أو المتعة الخفيفة، والنساء اللواتي يرسمهن يمكن أن يكن حيوانات خرافية أو مخلوقات جشعة، لكنهن في أغلب الأحوال قد خلقن بالحب، والملاحظة الحادة لجمالهن تتكشف في الذكاء المتألق في عيونهن وفي أحضانهن القادرة على الاحتواء.

لقد لاحظ بيكاسو ذات مرة أنه رغم كل شيء، فنان واقعي مثل كل الرسامين الأسبان. والحقيقة، أننا عند الفحص الدقيق نجد أن تشويه الأشياء، وتحريف شكل الإنسان بطريقة عنيفة، خصوصًا في أعماله التي رسمت بعد ١٩٢٥، إن دل على شيء فإنما يدل على ضيق بيكاسو بالحلول التي تتجه نحو تحقيق توازن هارموني، لأنه كان مهتما في الأساس بالتصدعات العظيمة التي باتت ظاهرة في كل مكان بقدر اهتمامه بما تثيره تناقضات الواقع من توتر.

ولكي يجعلنا نرى بوضوح أكبر، فإنه يرغمنا على أن ننفذ إلى الواقع بكل حواسنا وأن نتساءل عن قيمة المستويات المقبولة التي فقدت معناها. وقد قال بيكاسو ذات مرة «أن الرجل لا يحب فينوس، إنه يحب امرأة».

لقد لوحظ أنه يجب النظر إلى بيكاسو باعتباره شاعرًا يعبر عن نفسه بالصور المرئية، ورسامًا يخلع على الشعر ثوبًا جماليًا، إن لقاءه بشعراء مثل بول إيلوار وأندريه بريتون في أوائل العشرينيات - عندما كانوا يحاولون في قصائدهم السيريالية وبياناتهم أن يبحثوا عن منابع الإلهام في الأحلام الغامضة وفي عمليات اللاشعور غير المنطقية - هذا اللقاء قد توافق بالصدفة مع رغبته الخاصة إلى الوصول إلى فهم للواقع ونحن قد يسهل علينا أن نتتبع تأثير هؤلاء الشعراء لكننا إذا نظرنا إلى أعمال بيكاسو في مجموعها، فسوف يتكشف لنا أيضا أن التغيرات الثورية في أسلوبه تتضافر معها بعض التيمات والهواجس الشخصية التي يمكن أن تغزوها إلى خبرته الواعية، التي ترجع إلى ذكريات طفولته غالبا، ومن الأمثلة الواضحة جدا على هذا نجد ارتباطه بموضوع الأم والطفل، وبالجسم العاري، وبعض الحيوانات الأليفة، وبالدهشة أو الفزع الموجود في رأس الإنسان، ثم خوفه من العماء، ومن الموت الذي يلازمه كظله.

هناك موضوعات أخرى كان يعود إليها مرارًا وتكرارًا، مثل مناظر الطبيعة والحياة الجامدة بما فيها من أشياء، ومناظر أخرى مألوفة بالإضافة إلى هذا الثالوث الخالد المفعم بالتوتر النفسي - الرسام، والموديل، والعمل

الفني ـ وقد منحه هذا المدى مجالاً فسيحًا للاكتشافات الجديدة حتى فى أخريات أيامه.

ودراسة هذه التيمات المتوترة تستلزم منا أن نفحص أعمال بيكاسو على احتمال أن نجد فيها مفاتيح توصلنا إلى غرامياته وآماله وكذلك إلى معرفة مخاوفه والأشياء التى كانت تثير نفوره واشمئزازه، ومن هنا سوف نتبين أن النحت قد استوعب أفكاره بنفس درجة الرسم حتى أن هذين النوعين من الفنون كانا يتوافقان فى أغلب الأحيان، ففى سنة ١٩٠٦ مباشرة بعد أن فزع من تلك الصور العارية فى مرحلته القرمزية التى كانت تستوحى بتناسبها الكلاسيكى ورشاقتها آلهة اليونان القديمة، أن ظهرت أول الرسوم المنحوتة، وظهرت أشكال قصيرة القامة مربوعة، ومقنعة بوجودها الصلب، حدث هذا بعد أن رسم بيكاسو عددًا من الأشكال البرونزية فى استديو صديقه النحات الأسبانى جونزاليز.



بعد ذلك، جاء اكتشاف بيكاسو للنحت الأفريقى، وهذا الاكتشاف هوالذى أوصله إلى مفاهيم جديدة فى الرسم التكعيبى، هذه البدايات الأولى، أعقبها عدد كبير من الأشكال المنحوتة الصلبة، والكثير من الصور المرسومة بالنحت خلال حياته العملية، إنما تعطى برهانا على رغبة بيكاسو فى أن يوحد بين هذين الفنين، وأن يزود كل فن ببعض الصفات التى تنتمى تقليديًا إلى الفن الآخر.

لقد أشرت من قبل إلى الظهور المتكرر لبعض التيمات فى أعمال بيكاسو وارتبط هذا ارتباطا وثيقا بقدرته على الدخول إلى حياة موضوعه أو إلى وجوده، سواء كان هذا الموضوع جيتارًا أو قردًا أو شخصيات أسطورية مثل هارلكان Harle-guin والمينوتاور. كل منها يبدو متوافقًا بطريقة غامضة مع فكرة سبق له أن كونها عن نفسه، وهناك أسباب عديدة جعلت هارليكان بشخصيته ومظهره، يستهوى بيكاسو، فهذه الشخصية الأنيقة الجذابة، هى بطبيعتها شخصية تتسم بالمراوغة، فهو محب عاشق، وممثل بطئ الحركة، وصديق روحى للمنبوذين والسكارى والمومسات، إنه المهرج البارع الذى يكذب لكى يقول الحقيقة.

هذه الصفات يمكن أن يقال أنها صفات بيكاسو نفسه، وفضلا عن هذا، فهناك جاذبية مؤكدة للبدلة الماسية ذات الألوان العديدة التى وجدت فى سنواته الأخيرة مكانا مناسبا لها فى التكوينات التكعيبية، كذلك فإن هناك لوحات مبكرة لبيكاسو نفسه فى ملابس الهارليكان تثبت بغير شك أنه كان يريد أن يتوحد مع هذه الشخصية الزئبقية ذات المزاج السوداوى وأن يتقبلها كرمز لشخصيته التى تشبه اللغز.

أما انتحال الشخصية الثانية فقد حدث بنفس الطريقة فى السنوات التى تلت ذلك، وكان السيرياليون قد نجحوا من قبل فى جذب الاهتمام إلى ما تتضمنه قصة المينوتاور من دلالات سيكولوجية عندما قدم بيكاسو فى سنة ١٩٣٣ وجوده المزعج فى سلسلة من الرسومات المحفورة على المعادن والتى تعرف باسم «استديو النحات»، وقد حدث أن ذكر أبولينار فى وقت مبكر من سنة ١٩١٣ وحوش بيكاسو «المهجنة التى تحمل وعيًا مثل أشباه الآلهة فى مصر القديمة». وكان لا بد أن تمر عشرون عامًا على هذا الأمر حتى يجعل بيكاسو النحت شاغله الأساسى ولمدة قصيرة، إذ نجد تقديمه المتعمد لصورة لأحد أشباه الآلهة ذى قرون horned demi- god.

ويظهر لنا فى ظروف توحى بانه إذا كان هارلكان هو الرمز الذى اختاره الرسام الشاب لنفسه، فالمينوتاور يتطابق بدقة شديدة مع مفهومه عن نفسه كنحات فى ربيع العمر ـ إنه قريب جدًا من أرض الواقع، أقل تشردًا، لكنه هوائى، وإن كان لايزال هو الطريد المنبوذ من المجتمعات لأنه مستعبد لشهواته وضعفه الجسدى بصورة وحشية، يزيد من قوة هذا الانطباع إشارته إلى عاهة فقد البصر التى نكب بها المينوتاور فى بعض رسوم بيكاسو المنحوتة الأخيرة، إن فقدان البصر، وإن يكن كارثة، إلا أنه يتيح للنحات أن يستمتع بحاسة اللمس وأن يرقى بها.

ورغم أن الأسطورة تعد وسيلة قديمة وأساسية فى فهم الواقع، فإن بيكاسو لا يقبلها كرمز جاهز، فهو يخترع أساطير جديدة كتعبير مجازى عن نفسه وحياته، ومع أن هذه الشخصيات تمثل مشاكله ومشاعره الخاصة، فإنها تظل مع ذلك شخصيات عامة غير محدودة بزمان أومكان، وأهم مثال على تبديل وضع الأساطير نجده فى لوحة «جيرنيكا Gurenica»، ففى هذه الصورة الرائعة التى رسمت سنة ١٩٣٧ بروح الغضب والحزن (إبان الحرب الأهلية الأسبانية) والذى ساعد على وضعها فى بؤرة الضوء حادث تدمير عاصمة الباسك القديمة بقاذفات القنابل التابعة لفرانكو، لقد أجرى بيكاسو عملية الاستبدال بإحساس غريزى واستخدم مفاهيم بدائية مأخوذة من خبرة الحياة العادية مما أضفى على مشهد الكارثة جوًا من الواقعية فاق هول المأساة ذاتها، فالحيوانات، وصورة البيت الذى تشتعل فيه النيران، ثم صورة الشمس المشوهة، قد أخذت نصيبها من الأهمية الدرامية مثل صورة النسوة اللاتى أصابهن الذهول أمام مصرع أطفالهن، فالحيوانات تمحو الصفات الشخصية، وتحدث التطهير، وتشدد على أهمية الممتلكات البشرية التى تمثلها هذه الحيوانات.

كانت الحرب الأسبانية التى وجد بيكاسو نفسه مشتركا فيها عاطفيا بدرجة لم يجربها فى الحرب العالمية الأولى، مقدمة لسنوات من البؤس والحرمان التى قضاها فى باريس المحتلة، وأيقظت وحشية الحرب فى نفسه من جديد وعيا اجتماعيا يمكن تتبع آثاره فى صورة المنبوذين والشحاذين العميان التى رسمها فى مرحلته الزرقاء، صور كثيرة تعطى دليلاً على ما كان يعانيه من كرب عن طريق العنف الذى يمزق به الشكل الإنسانى ويعيد تجميعه بما يعطى فى أغلب الأحوال معنى الشؤم، وعند نهاية الحرب وجد أن بإمكانه السفر، فعاد إلى جنوب فرنسا، حيث استأنف عمله بجهد لا يعرف الكلل كرسام، ونحات، وخزاف، ونقاش، وشاعر.

وصلت شهرة بيكاسو فى سنواته الأخيرة حدًا جعل من الصعب عليه أن يظهر علنا وسط الجماهير، وظل فى عزلته فى نوتردام دى فى Notre Dame-de-Vie يواصل عمله الدائم التغير، الدائم النمو مع استطلاعه للاكتشافات الجديدة من خلال شبكة الإعلام الواسعة المدى والموجودة تحت إمرته، كذلك ظلت قواه الإبداعية كما هى دون أن يعتريها ضعف حتى آخر لحظة فى حياته.

وسوف تمضى سنوات طويلة قبل أن نتمكن من تقييم عظمة بيكاسو وأهميته تقييما حقيقيا، إن فهمنا له يتطلب فهما لأسرار الحياة ذاتها، لكن من الممكن لنا أن نرى بوضوح التأثير الهائل الذى تركه على مجريات الفن فى هذا القرن. ■

ترجمة: نسيم مجلى

عن: The Great Artists Series;
Book Six: Picasso (1881-1973)
Roland Penrose
New York: Funk & Wagnans Inc.





يوم مات الفرعون

أحمد عثمان

يقول الباحث الأمريكى بوب براير إن الملك الشاب أصيب بضربة عنيفة على رأسه بآلة حادة تسببت فى هذا الكسر الذى لم يؤد إلى الوفاة مباشرة، وإنما ظل الملك فى حالة غيبوبة «كوما» فترة طويلة - عدة أسابيع - من الوقت قبل وفاته

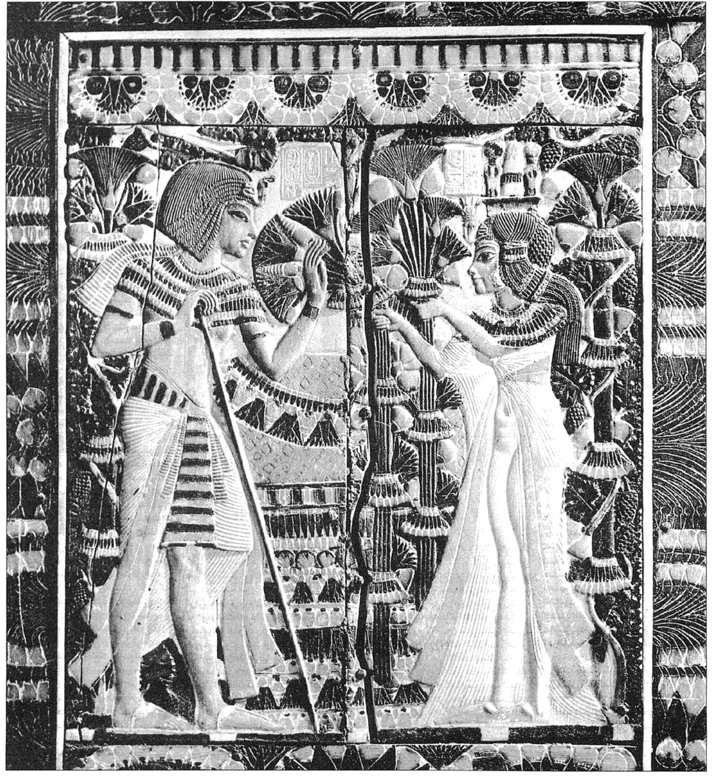
صدرت الطبعة الأولى لكتاب «مقتل توت عنخ آمون» سنة ١٩٩٨ عن دار ويدنفيلد آند نيكولسون، ثم جاءت الطبعة الشعبية فى العام التالى ١٩٩٩ عن فينكس. ورغم أن الكتاب يعتبر بمثابة دراسة تاريخية حول الطريقة التى مات بها الملك المصرى توت عنخ آمون، فإن بوب براير بدأ

The Murder of Tutankhamen
(مقتل توت عنخ آمون)
bob Prier
London, Wiendfield & Nicolson: 1998.

كتابه بطريقة قصصية روائية. إذ قدم الكاتب وصفا خياليا للكيفية التى يعتقد أن الملك لقى حتفه بها اثناء نومه:

«فى أحد أيام الخريف المتأخر خلال السنة الثامنة عشرة من عمره، ذهب توت عنخ آمون وحده إلى الفراش. فرغم أن أزواج الفلاحين ينامون مع زوجاتهم فى نفس الغرفة، إلا أن الفراعنة المصريين كانوا يقيمون فى قصور منفصلة عن تلك التى تسكنها ملكتهم وسيدات الحريم. فالزيارات الزوجية شيء، والنوم شيء آخر. اضطجع توت عنخ آمون فى غرفة كبيرة، وضعت مفروشاتها متباعدة - قليل من المقاعد والموائد وفراش واحد من الخشب له أقدام على شكل مخالب الأسد. وعلى حوائط الغرفة لمعت رسومات للأسماك والبط والحشائش بشكل خاص على سطح من الجبس، فى الضوء المعتم. وفتح الباب ببطء بدون صوت فى أعماق تلك الليلة، فتحة صغيرة تسمح لشخص واحد أن يتسلل إلى الداخل ثم يقفله من خلفه، بعد أن كان (هذا الشخص) قد أفلت بطريقة ما عبر الحراس.

واختلس مقتحم الليل طريقه إلى فراش الفرعون، وربما حجب صوت الساعة المائية التى تنقط - نقطة نقطة - صوت خطواته. وجد الملك نائما على جانبه، ورأسه يرتكز فوق مسند للرأس من الرخام. أخرج الرجل شيئا ثقيلا من تحت ملابسه، ربما يكون صولجانًا مصريًا ملتصقًا به حجر صلب (طوله) ثلاث بوصات، عند مؤخرة عصا متين طوله قدمان. وبعد أن أخذ نفسا عميقا، طوح الشيء الثقيل (فى الهواء ثم أنزله) على جمجمة توت عنخ آمون. وبعد لحظة



توت عنخ آمون مع زوجته عنخ سبا آمون

انتظار ليضيع الصوت المفاجئ في وسط الليل، تراجع المقتحم بخطواته في غرفة النوم الملكية إلى خارج الباب، وانصرف إلى داخل القصر في أمان الليل».

كسر الجمجمة

وروبرت برابر أحد علماء المصريات بجامعة لونج آيلاند الأمريكية بنيويورك، ذهب إلى جامعة ليفربول البريطانية وطلب الاطلاع على صور الأشعة التي سبق لبعثة الجامعة أن أخذتها لمومياء توت عنخ آمون منذ ٣٣ سنة. وبعد أن حصل براير على نسخة من صور الأشعة - التي لا توجد نسخة منها لدى رجال الآثار في مصر حتى الآن - عرضها على بعض الخبراء في علم التشريح، فأكدوا له وجود عدة كسور في عظام الجمجمة هي التي تسببت في وفاة الملك. ورغم وجود عدة كسور بالجمجمة، إلا أن الباحث الأمريكي ركز اهتمامه على جرح دائري في الحفرة التحت صدغية في الخد الأيسر بجوار حلمة الأذن اليسرى، أدى إلى حدوث بقعة من الدم وجدت متجلطة أسفل الأذن. وفضل براير الاعتماد على هذا الجرح تحت الأذن للقول بأنه هو الذى سبب الوفاة، لأن هذا التفسير يساعده - كما سنرى - في تحديد القاتل، وهو ما يفسر البداية الروائية التي فتح بها التحقيق في كتابه. ويقول الباحث الأمريكي بوب براير إن الملك الشاب أصيب بضربة عنيفة على رأسه بآلة حادة تسببت في هذا الكسر الذى لم يؤد إلى الوفاة مباشرة، وإنما ظل الملك في حالة غيبوبة «كوما» فترة طويلة - عدة أسابيع - من الوقت قبل وفاته.

ومنذ العثور على المومياء داخل مقبرته في وادى الملوك في نوفمبر ١٩٢٢ حاول الباحثون التعرف على سبب وفاة توت عنخ آمون بسبب موته المبكر وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة من العمر. وذهب البعض إلى أنه مات على أثر إصابته بأحد الأمراض الخطيرة التي يصعب علاجها مثل السل. كما أعلن بعض علماء المصريات من البريطانيين والهولنديين في أمستردام في يوليو سنة ٢٠٠٠ أن توت عنخ

آمون كان مصابا بمرض وراثي تناسلي، يؤدي إلى تراكم الدهون عند الأرداف. وعلى حسب قولهم، تبين بعد فحص مقاسات عدد من الأردية التي وجدت في مقبرة توت عنخ آمون، أن أرداف الملك كانت متضخمة بشكل غير طبيعي، وهم يزعمون بناء على ذلك أنه ورث مرضا اسمه «مارفان» عن أبيه إخناتون. ولا تتفق نتائج فحص مومياء توت عنخ آمون مع تكهنات جماعة أمستردام الأخيرة، بل هي تتعارض معها كلية. فمن المعروف أن المصابين بمرض «مارفان» عادة ما يكونون نحافا طوال القامة، ولهم أصابع طويلة وأرداف متضخمة. كما أن هذا المرض يسبب اختلالا في التوازن يؤثر على العينين والرئتين والعضلات والعظام. وقد أوضح التقرير الطبي لجسد توت عنخ آمون عدم وجود تضخم في حجم الأرداف، وبين خلو عظامه من أية علامات للمرض أو التشويه، كما أنه ليس طويلا بشكل غير طبيعي حيث لا يتجاوز طوله ١٦١ سنتيمترا.



جمجمة توت عنخ آمون - انفصلت عن جسده

مقـبـرة توت عنخ آمـون

كان اللورد كارنارفون البريطاني مريضا ونصحه الأطباء بان يقيم في منطقة جافة خالية من الرطوبة، فقرر قضاء معظم وقته في مدينة الأقصر بصعيد مصر، التي كانت بمثابة مشتى للأغنياء في بداية القرن العشرين. وحتى يسلي نفسه ويملأ فراغ حياته، حصل كارنارفون على تصريح بالتنقيب في وادي الملوك عام ١٩١٤، واختار هوارد كارتر للإشراف على البعثة الأثرية في الموقع. وبعد مرور ثمانية أعوام وإنفاق الآلاف من الجنيهات دون العثور على أية مقابر مهمة، قرر اللورد البريطاني عدم الاستمرار في المشروع، إلا أن كارتر تمكن من إقناعه بمنحه مهلة أخيرة قبل إيقاف العمل. وبمجرد عودة كارتر إلى الأقصر في أكتوبر ١٩٢٢ بعد لقائه مع كارنارفون في بريطانيا، قرر تغيير الموقع الذي كان يعمل فيه من قبل، ونقل المنقبين إلى المنطقة المحيطة بمقبرة رمسيس السادس. وكانت المفاجأة عندما وصل الأثري البريطاني إلى موقع الحفريات في صباح يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٢ وأخبره رئيس العمال أحمد الجرجار بالعثور على بداية سلم من الدرجات الحجرية، وفي اليوم التالي تم الكشف عن ١٦ درجة تقود إلى باب خشبي مختوم بختم كهنة الجبانة الملكية.

وعند افتتاح المقبرة تبين أنها لملك صغير السن هو توت عنخ آمون، الذي خلف إخناتون في حكم مصر عند منتصف القرن ١٤ قبل الميلاد. وكانت هذه هي المقبرة الوحيدة التي وجدها الآثاريون مغلقة، وبها كامل محتوياتها التي وضعت مع الملك منذ أكثر من ٣٣ قرنا.

ولد توت عنخ آمون في القصر الملكي بمدينة العمارنة في العام السابع من حكم إخناتون، وقد عثر في مقبرته على قميص من الكتان مسجل عليه تاريخ مولده هذا. وسمي عند ميلاده توت عنخ آتون، ولم يغير اسمه إلى توت عنخ آمون إلا في العام الخامس من توليه الحكم. ووجدت مومياء الملك داخل ثلاثة توابيت ذهبية، وفوق رأسه قناع يمثل وجه توت عنخ آمون الذي مات في ظروف غامضة ولم يتجاوز ١٩ سنة. واستطاع الآثاريون عن طريق دراسة محتويات المقبرة التعرف على الكثير من المعلومات التاريخية المهمة، إلى جانب أشكال اللباس والمفروشات والحلي في مصر القديمة.

وثار الخلاف بين الباحثين عن علاقة توت عنخ آمون - الذي حكم مصر لمدة تسع سنوات عند منتصف القرن ١٤ ق. م. - بالأسرة المالكة الثامنة عشرة. وساد الاعتقاد في النصف الأول من هذا القرن لدى علماء المصريات بانه كان واحدا من النبلاء، ليست له علاقة قرابة بالعائلة المالكة إلا عن طريق الزواج. فقد تزوج توت عنخ آمون من «عنخ سنبا آتون» الابنة الثالثة لإخناتون، ليصبح له الحق في الجلوس على العرش. إلا أن الأمر تغير بعد الحرب العالمية الثانية بعد أن اتيحت الفرصة لفحص ودراسة البقايا الأثرية التي تم العثور عليها في مقبرته، إلى جانب ظهور العديد من البقايا في مناطق أخرى من البلاد، مما أدى إلى اقتناع الباحثين بانتمائه إلى العائلة الملكية. وكان هوارد كارتر الذي عثر على المقبرة في ١٩٢٢ - وهو فنان تشكيلي - قد لاحظ التشابه الشديد بين قناع توت عنخ آمون وبين وجهي إخناتون وأمه الملكة طاي، كما يظهران في الأعمال الفنية. كما تم العثور على تمثال من الجرانيت الأحمر على شكل أسد - موجود بالمتحف البريطاني - كتب عليه نص يشير إلى أن توت عنخ آمون كان من سلالة «أبيه أمنحتب الثالث». وعثر في مقبرة توت عنخ آمون على بقايا تحمل أسماء معظم أفراد العائلة المالكة، منذ عصر جدهم الأكبر تحتمس الثالث. وعلى هذا فإن انتماء توت عنخ آمون للأسرة الثامنة عشرة بات مؤكدا، إلا أنه - بسبب عدم العثور على مومياء إخناتون حتى يتم فحصها - ظهر خلاف جديد في من يكون والد الملك الصغير، أهو أمنحتب الثالث أم إخناتون؟

فحص المومياء

كان أول فحص طبي لمومياء توت عنخ آمون هو الذي جرى عام ١٩٢٥ بعد ثلاث سنوات من العثور على مقبرته، قام به الدكتور دوجلاس دري أستاذ التشريح بجامعة فؤاد الأول - جامعة القاهرة فيما بعد - الذي أخرج المومياء التي لا تزال محفوظة بمقبرته بوادي الملوك حتى الآن، إلى مقبرة مجاورة لفحصها. إلا أن «دري» اعتمد في فحصه على مجرد ملاحظة المظاهر الخارجية التي يمكن رؤيتها بالعين المجردة، فلم يتمكن من تحديد سبب الوفاة. وجاء في التقرير الذي سجل به نتيجة فحصه إن هناك:

«علامات قليلة ظاهرة على الأجزاء الخارجية من الجسد (للدلالة على) أسباب الوفاة».

وبعد مرور ٤٣ سنة من هذا الفحص تم إجراء الفحص الثاني للمومياء عام ١٩٦٨ قام به وفد طبي من جامعة ليفربول البريطانية، برئاسة الدكتور رونالد هاريسون الذي تمكن من عمل عدة صور للمومياء عن طريق أشعة إكس. وبعد أن نفى الطبيب وجود أية أمراض بالجسد وقت الوفاة، أورد هاريسون تفاصيل جديدة عن حالة المومياء في تقريره الطبي:

«عندما تمت إزاحة الأربطة المحيطة بالجسد تبين مباشرة أن المومياء لم تكن في كيان واحد، فقد تم فصل الرأس والعنق عن باقي الجسد، كما انفصلت الأعضاء عن جذع البدن ... وأظهرت الفحوصات التالية أن الأعضاء انكسرت في عدة أماكن كما انفصلت عن الجسد، وانكسرت الذراع اليمنى عند المرفق ... والذراع اليسرى مكسورة عند المرفق وكذلك عند المعصم ... وأبعد الرأس والرقبة عن الجسد عند نقطة الالتقاء (في العمود الفقري) بين الفقرة العنقية السابعة عشرة وأولى الفقرات الصدرية».

واستنادا إلى هذا التقرير الذي ظل مجهولا في الملفات مدة أربعة وعشرين عاما، كنت أنا أول من أشار إلى مقتل توت عنخ آمون في كتابي «بيت المسيح» الذي صدر في لندن بالإنجليزية عام ١٩٩٢ عن دار هاربر كولينز. فعندما عرضت تقرير هاريسون على بعض الخبراء الطبيين أكدوا لي أن الملك تعرض إلى العديد من الضربات القوية التي أحدثت عدة كسور في عظامه، وإن كانت هناك بعض الكسور التي لم تحدث إلا في العصر الحديث عند إخراج المومياء من التابوت. إلا أن الوفاة تمت نتيجة لفصل العمود الفقري عن الرأس عند أولى الفقرات التي تربطه بالجسد، مما يدل على أن الملك تعرض لعملية تشبه الشنق.

من قـتـل توت عنخ آمون؟

عند محاولته تحديد الفاعل لجريمة القتل، استعرض الباحث الأمريكي الشخصيات التي كانت تحيط بالملك الشاب في تلك الحقبة من الزمان - منذ أكثر من ٣٣ قرنا - وحاول التعرف على من منهم كانت له مصلحة شخصية في قتله، إذ رأى أن المصلحة من أهم الدوافع في هذه الجريمة. ولما كان «آي» - الذي هو خال إخناتون - رئيس وزراء الملك والمسئول عن سلاح الخيالة والعجلات وعن الحرس الملكي وهو الذي خلف توت على العرش، أصبح هو المتهم الأول لدى برايير. ومما زاد في شكوك برايير في دور «آي» في جريمة القتل، أنه أجبر الملكة عنخ سنبا آمون على الزواج منه، حتى يحصل على الحق الشرعي في الجلوس على العرش. وهناك خاتم موجود في أحد المتاحف الألمانية يشير إلى أن «آي» تزوج من أرملة توت عنخ آمون صوريا، ليكتسب الحق في الملك. واستند برايير على خطاب عثر

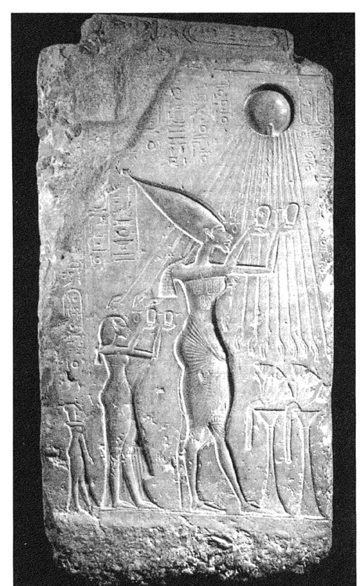
عليه الأثاريون فى بلاد الحيثيين بآسيا الصغرى موجه من أرملة توت عنخ آمون - عنخ سنبا آمون - إلى ملك الحيثيين، تطلب منه إرسال أحد أبنائه إلى مصر حتى تتزوجه ويصير ملكا على مصر لأنها لا ترغب فى الزواج من أحد التابعين لها بعد وفاة زوجها. وبالطبع فإن الأمير الحيثى الذى خرج من بلاده قاصدا مصر لم يصلها، ولابد أنه لقى مصرعه فى الطريق على يد رجال رئيس الوزراء المصرى. والرسالة التى بعثت بها أرملة توت عنخ آمون إلى سوبيلو ليوما ملك الحيثيين بآسيا الصغرى، جاء ذكره فى ألواح الأرشيف الملكى للحيثيين، فى بقايا عاصمتهم القديمة فى بوغاز كوى بتركيا. وظهر اسم الملك المصرى مكتوبا بلغة الحيثيين «نب حو ريا» الذى يتفق مع أحد أسماء توت عنخ آمون الملكية وهو «نب خبرو رع». ولم يرد اسم الملكة فى المصادر الحيثية، التى ذكرت لقبها فقط «دها مونزو» الذى يشبه لقب الملكة فى مصر «طا حمت نيسو». ورغم أن الخطاب لم يحدد اسم الملكة التى أرسلته، فإن براير يعتقد - ومعه عدد كبير من علماء المصريات - أنها كانت أرملة توت عنخ آمون. يقول الخطاب:

«مات زوجى وليس لى أولاد، إلا أنهم يقولون أن لديك أولادًا كثيرين. إذا أنت أعطيتنى واحدا منهم فسوف يصبح زوجى. فأنا لن أختار خادما عندى لأجعله زوجى».

ولما كانت صورة الوزير آى قد ظهرت مرسومة على جدار مقبرة توت عنخ آمون وهو يشترك فى طقوس دفنه، وقد صار ملكا جالسا على العرش فى هذا الوقت المبكر، فإن تفسير روبرت براير هذا يتطلب مرور فترة من الزمان بين إصابة الملك وموته، تسمح لأرملته بإرسال خطابين إلى ملك الحيثيين، ومقتل الأمير الحيثى وهو فى طريقه إلى مصر، قبل اعتلاء «آى» للعرش. لهذا فضل أستاذ المصريات الأمريكى الاعتماد على الكسر الموجود تحت الأذن اليسرى كسبب للوفاة، لأنه يسمح بمرور فترة زمنية بين الإصابة والموت.

بـــا نـــحـــس

إلا أننى أختلف مع بوب براير سواء فى تحديد الكسر الذى أدى إلى الوفاة، أو فى اختياره للوزير «آى» ليكون هو المتهم بقتل توت عنخ آمون. فبالرغم من وجود عدة كسور فى عظام الملك، إلا أن الإصابة الوحيدة التى يمكن أن تؤدى إلى الوفاة المباشرة هى فصل الرقبة عن باقى الجسد. ومن المؤكد أن هذا الفصل لم يتم فى الأزمنة الحديثة بعد فتح المقبرة، بل تم قبل الوفاة حيث أظهرت صور الأشعة وجود تكلس - فى نفس موضع الكسر - عند أسفل الجمجمة من الخلف عند التقائها بالعمود الفقرى. ولم تقل رسائل عنخ سنبا آمون إلى ملك الحيثيين إن الملك المصرى كان مريضا فى غيبوبة، وإنما أخبرته بموت توت عنخ آمون، ولهذا فهى تبحث عن زوج آخر. كما أن أرملة توت فى


أخناتون ونفرتيتى يتعبدان لأتون


آى وزير توت الذى خلفه على العرش هل هو القاتل؟

رسالتها إلى ملك الحيثيين، لم تتهم الشخص المعروض عليها الزواج منه فى مصر بقتل زوجها، والسبب الوحيد الذى ذكرته لرفضها هذا الزواج أن الزوج يعمل عندها كخادم. وأنا أستبعد أن يكون آى هو القاتل، فهو شقيق الملكة طاى والدة إخناتون وهو الذى تولى حماية ملوك العمارنة حوالى ربع قرن، ولا يعقل أن يتحول ضدهم فجأة فى نهاية حياته بعد أن تجاوز سن الستين.

ذلك أن توت عنخ آمون جاء إلى العرش خلفا لإخناتون الذى قام بثورة دينية توحيدية، أدت إلى إغلاق جميع المعابد المصرية ومصادرة أوقافها. ولم يعد قائما سوى عبادة آتون الواحد الذى ليست له صورة أو تمثال. ولما كانت هذه الاعتقادات مفاجئة للمصريين الذين اعتادوا لآلاف السنين على تعدد الآلهة التى يرونها دائما متمثلة فى أشكال فنية، فلم يتبع إخناتون سوى القليل من رجال الفكر والثقافة. فجاء توت عنخ آمون ليعيد فتح المعابد القديمة التى أغلقها والده، كما أعاد تنظيم طائفة الكهنة وأغدق عليهم من الأوقاف والعطايا. لهذا رأيت أنه من الطبيعى فى هذه الحالة أن يغضب أتباع إخناتون لتصرفات ابنه ويعتبروه مرتدا يباح إهدار دمه. ولما كان با نحس هو كاهن آتون الأكبر. وقد وردت قصص عنه فى التوراة والتلمود تقول بأنه قتل رجلا مهما ارتد عن ديانة التوحيد، فقد رجحت أن يكون هو المسئول عن قتل توت عنخ آمون.

تـــوت لـــم يـــرتـــد

ورغمًا عن هذا الاتهام الذى يوجهه حتى بعض الباحثين الحديثين للملك الشاب بالارتداد عن الديانة التوحيدية، فليس صحيحا أن توت عنخ آمون ارتد عن دعوة إخناتون عندما أعاد فتح المعابد المصرية التى أغلقها سلفه، وسمح برجوع العبادات القديمة. فكل النصوص التى عثر عليها فى مقبرة هذا الملك تناقض الفكرة الشائعة عن ارتداد توت عنخ آمون، حيث ورد بها اسم آتون على أنه الإله الواحد، كما يتبين بوضوح من الصورة المرسومة على ظهر كرسى العرش، بالرغم من ظهور أسماء المعبودات القديمة مثل آمون ورع إلى جانبه. وتأكد هذا الفهم مؤخرا من المنظر المرسوم على حائط مقبرة مايا مرضعة الملك الشاب، التى عثرت عليها البعثة الفرنسية للآثار بمنطقة سقارة قبل ثلاث سنوات. فهنا نرى توت عنخ آمون يجلس على حجر المرضعة وتعلوه رموز آتون الواحد، رغم أن اسمه المنقوش يؤكد أنه تغير من توت عنخ آتون إلى توت عنخ آمون. فلم يرتد توت عنخ آمون عن الاعتقادات الآتونية، وإنما اعتبر المعبودات القديمة بمثابة وسطاء - مثل الملائكة والقديسين - بين آتون الواحد وبين جماهير الشعب، التى لم تكن تدرك فى هذه المرحلة المتقدمة الفكرة المجردة لوجود إله ليست له صورة. ■

بين صمت دمشق وصخب بيروت وضغوط واشنطن

قصة الوجود

محمود أحمد

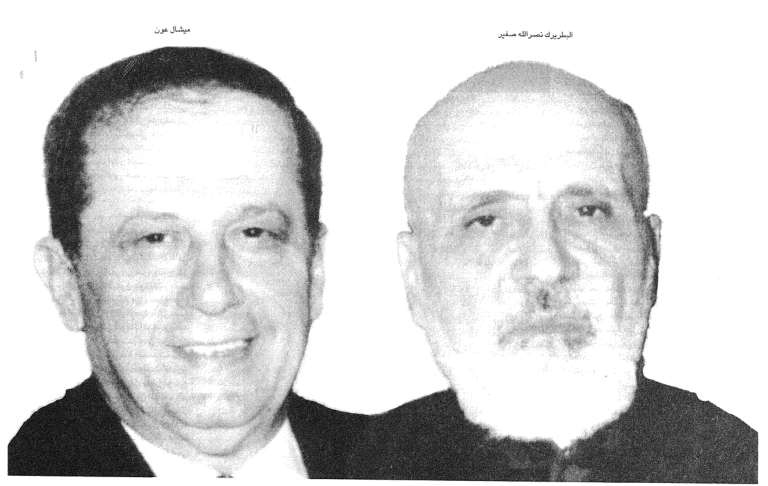
طرات على قضية «الوجود السورى فى لبنان»، فى الآونة الأخيرة، تطورات لفتت الأنظار مجدداً حتى أن الاهتمام تخطى هذه القضية ليمتد إلى مجمل الوضع اللبنانى عموماً. ذلك أن الذكرى الأليمة للحرب الأهلية التى عصفت بلبنان على مدى خمسة عشر عاما لا تزال ماثلة فى الأذهان، وهى تعود فتجدد المخاوف كلما هبت رياح ساخنة على الساحة اللبنانية.

كان آخر ما طرأ على قضية الوجود السورى فى لبنان قد جرى خلال شهر مارس الماضى. ولفت انتباه الكثيرين أن التطورات الأخيرة كانت لها أبعاد محلية وخارجية فى آن. وتمثل البعد المحلى فى المظاهرات الطلابية التى قام بها ما يسمى بـ «التيار الوطنى الحر» فى بعض الجامعات والمعاهد اللبنانية، يوم ١٤ مارس تعبيراً عن «رفض» الوجود السورى والعودة إلى انسحاب القوات السورية من لبنان (وهو تيار يضم أنصار العماد ميشيل عون قائد الجيش الأسبق الذى تولى رئاسة حكومة عسكرية فى لبنان لفترة قصيرة فى عام ١٩٨٨، وخاض فى ١٤ مارس من ذلك العام ما أطلق عليه اسم «حرب التحرير» ضد القوات السورية. وقد اضطر عون فى النهاية إلى مغادرة لبنان والإقامة فى منفى اختيارى فى باريس، وتحالف أنصاره مع تنظيمات محلية أخرى - مسيحية غالباً - من «القوات اللبنانية» المنحلة و«حزب الوطنيين الأحرار» و«حركة التغيير» و «التجمع من أجل لبنان» وغيرها).

وكادت مظاهرات الطلاب تصطدم مع قوات الجيش اللبنانى التى سارعت إلى اتخاذ إجراءات مشددة بهدف منع وصول المظاهرات إلى أية مواقع للقوات السورية، وكانت الإجراءات التى اتخذت واسعة النطاق ومكثفة إلى الحد الذى دفع صحيفة «الحياة» اللندنية إلى وصفها فى عددها بتاريخ ١٥مارس الماضى بأنها كانت أشبه بـ «حالة طوارئ». إذا كانت هذه الاحتجاجات قد مرت بسلام فى نهاية المطاف، إلا أنها نبهت إلى الانقسام الذى لا يزال قائماً بين اللبنانيين، والذى تجلى عندما عمد فريق آخر تعبر عنه تنظيمات يسارية وإسلامية لبنانية إلى تحرك مضاد للاحتفال بمناسبة أخرى فى اليوم نفسه (١٤ مارس) لإحياء الصمود والمقاومة فى وجه أول اجتياح إسرائيلى للبنان قبل نحو ٢٣ عاماً.

أما البعد الخارجى، فقد كشفت عنه تصريحات لوزير الخارجية الأمريكى كولن باول الذى أشار إلى الوجود السورى فى لبنان، ملمحاً إلى معارضة واشنطن له. وقال باول، الذى أدلى بتصريحاته تلك أمام لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب الأمريكى، خلال شهر مارس أيضاً، إنه أبلغ الرئيس السورى بشار الأسد عندما اجتمع به فى وقت سابق فى دمشق، خلال أولى جولاته بالمنطقة، بأن الولايات المتحدة «تنصح» بخروج القوات السورية من لبنان. وقد بدت أقوال وزير الخارجية الأمريكية مثيرة للدهشة، فى نظر الكثيرين، وخاصة أن باول - الذى لم يكد يتعرف بعد على تفاصيل وتعقيدات الوضع فى الشرق الأوسط - لم يتورع عن أن يلمس بتصريحاته قضية حساسة بطبيعتها كهذه القضية التى من شانها أن تلهب الساحة اللبنانية إذا هى لم تعالج بحذر كاف.

على أنه من المثير للانتباه أيضاً، فيما يتعلق بالموقف الأمريكى، أنه بدا أن واشنطن لا تريد الإقدام على خطوة قد تفسد علاقتها مع دمشق فى المستقبل المنظور، وهى علاقة قد تظهر الحاجة إليها إذا ما تجددت جهود السلام فى المنطقة بعد زوال الاحتقان الذى رافق وصول رئيس الوزراء المتطرف أرييل شارون إلى السلطة فى إسرائيل. وهكذا، فإن المسئولين الأمريكيين حرصوا على إظهار امتناعهم عن الترحيب أكثر من اللازم بزيارة قام بها إلى الولايات المتحدة مؤخراً البطريرك المارونى اللبنانى نصر الله صفير الذى تصاعدت انتقاداته العلنية للوجود السورى فى لبنان فى الآونة الأخيرة. فلم يتمكن البطريرك المارونى من إقناع الأمريكيين بتحديد موعد له للقاء الرئيس بوش، أو نائبه ريتشارد تشينى، ولا حتى وزير الخارجية باول .. ويبدو أن ذلك قد أثار حفيظة البطريرك صفير وغضبه، لأنه عندما أبلغ بأنه سيتم تحديد موعد له مع مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط. فإنه وجدها فرصة لكى يعبر عن هذا الغضب، فرد برفضه هذا اللقاء.



البطريرك نصرالله صفير

ميشال عون

واستطرادا للحديث عن البعد الخارجي فيما جرى في لبنان من تطورات بشأن «الوجود السوري» لا يمكن استبعاد عنصر«العبث الإسرائيلي» في هذه التطورات . ذلك أن إسرائيل التي استباحت دائماً ساحة لبنان ، بدءا من نسف الطائرات على أرض مطار بيروت في نهاية الستينيات واغتيال قادة المقاومة الفلسطينية في حادثة «فردان» المشهورة في أوائل السبعينيات ، ومروراً باجتياح الجنوب اللبناني أولاً في عملية «الليطاني» ثم باجتياح الأراضي اللبنانية واحتلال بيروت نفسها في عام ١٩٨٢ ، وانتهاء بتعيين«منسق» إسرائيلي للشئون اللبنانية وهو أوري لوبراني الذي اتخذ مكتباً له في شرقي العاصمة اللبنانية بعد احتلالها .. إسرائيل هذه لا يمكن أن تكون بعيدة عن أية تطورات خاصة إذا كانت تتعلق بالوجود السوري الذي تعتبره رصيداً لحركة«حزب الله» التي تصدرت المقاومة اللبنانية المنظمة التي نجحت في«طرد» القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان في صيف العام الماضي . بل إن مسئولاً حكومياً إسرائيلياً أعلن صراحة ، قبيل زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد لواشنطن أخيرا ، أن شارون يعتزم أن يطلب إلى الرئيس الأمريكي بوش عند لقائهما فرض عقوبات على سوريا لدعمها «الإرهاب». وقال المصدر الإسرائيلي إن شارون «يأخذ على الرئيس السوري بشار الأسد زيادة دعم دمشق لجماعة حزب الله .. مقارنة مع والده الرئيس الراحل حافظ الأسد» على حد ما نقلته وكالات الأنباء.

وكان البطريرك الماروني قد أطلق ضجة كبيرة ، على مدى الشهور الثلاثة الأخيرة من عام ٢٠٠٠ ، حول «الوجود السوري» في لبنان ، وهي ضجة سرعان ما شاركت فيها فعاليات لبنانية (مسيحية في الأغلب) وقوبلت من جانب سوريا باستياء مكتوم . ولكن هذه الضجة ، بكل ما أثارته من صخب ، لم تستطع أن تحجب حقيقة مهمة في الموقف من هذه القضية وهي أنه لا يزال من المتعذر - في الوقت الراهن - الوصول إلى تصور حول الكيفية أو المدى الزمني لتحقيق ما يطالب به أصحاب الدعوة من إنهاء الوجود السوري ، أو حتى التخفيف منه ، على الأرض اللبنانية .

أيضاً ، وفي المقابل ، فإنه لن يكون مستبعداً أن تتكرر الدعوات في المستقبل وهي دعوات يستند أصحابها إلى أن لبنان لم يعد بحاجة إلى وجود القوات السورية .. خاصة بعد أن اضطرت إسرائيل إلى سحب قواتها من جنوب لبنان في الصيف الماضي . ومع وجود تلك الأطراف في لبنان التي تعتبر أن استمرار القوات السورية (أكثر من ٢٠ ألف جندي) يعني الانتقاص من سيادة لبنان واستقلاله ، فإن الدعوات لإنهاء الوجود السوري ربما تزداد تشددا مع الأيام .

ولكن المطالبة بانسحاب القوات السورية من لبنان - أو «إعادة انتشارها» كمرحلة أولى - أثارت ، من ناحية أخرى ، مخاوف لدى أوساط لبنانية وعربية عديدة من أن يتحول الجدل الذي أثير حولها بين الفئات اللبنانية إلى «انقسام» لا يستطيع لبنان أن يتحمله في الوقت الذي لم يتعاف فيه بعد من آثار الحرب الأهلية الطاحنة التي عصفت به على مدى خمسة عشر عاما (من ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠) . ورأى كثيرون أن الأمر يتطلب إلقاء نظرة جدية ومتفحصة ، على طبيعة العلاقة بين هذين البلدين العربيين اللذين خضعا - بسبب ظروف تاريخية وجغرافية طاغية - لأحداث وتجارب مريرة استمرت تتتابع عليهما على مدى قرنين من الزمان .

[١]

من الحقائق الثابتة ، جغرافيا وتاريخيا ، أن لبنان هي جزء من سوريا التاريخية . وقد خضعا معا وعلى مدى قرون عديدة ، لحكام وملوك وسلاطين وأباطرة ، وكان يطلق عليهما معا اسم البلاد السورية أو بلاد الشام التي كانت تضم أيضا فلسطين وأجزاء من الأردن وتمتد من العريش في مصر حتى حدود الأناضول شمالا وبلاد النهرين شرقا . وعندما قضى العثمانيون على دولة المماليك في عام ١٥١٧ م ، ضموا الديار السورية إلى إمبراطوريتهم ، «غير أن السلطان سليم العثماني لم يشأ أن يعطل حركات جيشه في حرب جبلية فاكتفى بطاعة أمراء الجبل وقبل قرقماز بن يونس أميراً للدروز على المنطقة فتولى هذا حكم الجبل حتى خلفه عليه ابنه فخر الدين في ١٥٨٤». [١]

غير أنه يمكن القول إن هذه الواقعة التاريخية المتمثلة في إحجام الجيوش العثمانية عن اقتحام جبل لبنان ، كانت في حد ذاتها بداية لتميز هذه المنطقة من الديار السورية عن محيطها وتحولها تدريجيا إلى معقل للطوائف والملل التي احتمى أصحابها بالجبل فرارا بعقائدهم من الاضطهاد ، وكان في مقدمة هؤلاء الدروز والموارنة . وربما يعود إلى هذه الحقبة تكوّن البذور الأولى لـ «الوطنية اللبنانية» والتي أخذت تنضج ببطء حتى أصبحت هناك حاجة إلى أن تسفر هذه الحركة الوطنية عن وجهها وتبدأ في التعبير عن نفسها إثر خروج جيوش محمد علي باشا من البلاد السورية ١٨٤٠ م ، وتزايد ضعف الدولة العثمانية الذي أغرى القوى الأوروبية بأن تسارع لكي ترث هذه المنطقة التي وجدت نفسها ، منذ ذلك الوقت ، تدور في دوامة نفوذ الدول الكبرى .

على أنه يجدر التنبه ، في هذا السياق ، إلى أن «الجبل» لم يكن في يوم من الأيام وحدة واحدة ، سياسيا أو اقتصاديا . فرغم التعايش الذي فرضته ظروف الجوار، والتعاون التجاري الذي كان

السوري في لبنان



اميل لحود

بشار الأسد

يجرى أحيانا بسبب قلة موارد الأرض الجبلية والحاجة إلى التبادل مع أهالى «السهل»، ورغم تحول بعض الدروز - بمن فى ذلك أمراؤهم - إلى الديانة المسيحية المارونية أحيانا ، فقد ظل التنافس من أجل السيطرة مستمرا طوال الوقت بين الدروز والموارنة . وقد احتدم هذا التنافس علنا ، وبعنف ، فى حقب متباعدة ، رغم أن المنطقة كلها كانت تخضع لأحد الولاة العثمانيين (إما والى «صيدا» أو والى «دمشق» فى الأغلب) ، كما كانت كثيرا ما تجد نفسها نهبا للصراع بين هؤلاء الولاة . وعموما ، فقد ظل الأمراء الدروز يحكمون الجبل على مدى عدة قرون، حتى تمكن الموارنة من تدعيم مركزهم اقتصاديا بتجارة الحرير التى فتحت لهم طرق الاتصال مع أوروبا ، وخاصة فرنسا ، ومن ثم العثور على حلفاء خارجيين (مسيحيين أيضًا) أصبحوا - منذ بدايات القرن التاسع عشر - يوفرون دعما سياسيا ومعنويا للموارنة .

فعندما قويت شوكة الموارنة إلى الحد الذى دفعهم إلى منازعة الدروز حكم الجبل ، بدا أن الصدام بين «الجارين» الجبليين قد أصبح حتميا وأنه ينتظر فقط الظروف المناسبة التى تتمثل أساسا فى ضعف الحاكم الذى يسيطر على البلاد السورية كلها . ولذلك فإنه لم يكد محمد على يسحب جيوشه من سوريا ، حتى انفجرت أول فتنة كبرى عام ١٨٤١ بين الدروز والموارنة ودارت الدائرة فيها على الدروز الذين فقدوا جزءا كبيرا من أراضيهم فى منطقة «الشوف» التى تغلغل الموارنة فيها حتى بلدة «دير القمر».

وأزعجت هذه الأحداث الدولة العثمانية ، وأراد الباب العالى أن يفرض نفوذه على الجبل وأن يلغى الامتيازات الطائفية فأرسل واليا هو مصطفى باشا إلى المنطقة بهدف إخضاع سكان جبل لبنان لمبدأ المساواة فى المعاملة. وصار الجبل بعد ذلك «إيالة» عثمانية تولاها عمر باشا النمساوى الذى أقام مركز حكومته فى بلدة «بيت الدين» الشوفية . ولم يرض الدروز عن هذا فثاروا ، ولكن الثورة زادتهم ضعفا، بينما وجدت الدول الأوروبية أن خضوع لبنان للعثمانيين مباشرة يشكل عقبة فى سبيل فرض إرادتها ، فضغطت على «استانبول» حتى رضخت (فى ٧ ديسمبر ١٨٤٢) لوضع نظام جديد للبنان كان يمثل حلا وسطا بين ما يريده الباب العالى وما يسعى إليه الأوروبيون . وقضى هذا النظام الجديد بأن يظل لبنان تحت الحكم العثمانى ولكن مع انتداب لبنانيين لتنفيذه .. وهو ما عرف بنظام «القائمقامتين» ، إحداهما درزية فى الجنوب والأخرى مسيحية (مارونية) فى الشمال . وأصبح طريق بيروت - دمشق هو الحد الفاصل بين القائمقامتين ، على أن تكون كلتاهما تحت النفوذ الفعلى لوالى صيدا الذى أصبح يتخذ من بيروت مقرا له .

ويرى الكثير من المؤرخين أن هذا الحدث، أى بدء تنفيذ نظام القائمقامتين فى جبل لبنان، هو البداية الأولى لظهور لبنان المستقل عن المنطقة السورية .

المطالبة بانسحاب القوات السورية من لبنان أثارت مخاوف من أن يتحول الجدل الذى أثير حولها بين الفئات اللبنانية إلى «انقسام» لا يستطيع لبنان أن يتحمله

[٢]

كان لابد من الانتظار حتى تنهار الدولة العثمانية ، وينتصر الحلفاء الأوروبيون فى الحرب العالمية الأولى ، قبل أن تتهيأ الظروف لإنشاء ما سمى بـ (لبنان الكبير) الذى أعلن المندوب السامى الفرنسى «الجنرال جورو» قيامه فى عام ١٩٢٠ .

وعلى مدى هذه الحقبة الزمنية المضطربة ، بين إنشاء نظام القائمقامتين وحتى إعلان لبنان الكبير ، توالت على المنطقة وعلى لبنان خصوصا أحداث واضطرابات ومحن من كل نوع . فبعد مرور أقل من عشرين عاما على الفتنة التى وقعت عام ١٨٤٠ ، اندلعت الحرب الأهلية الثانية عام ١٨٦٠ والتى أكدت أن الروح الطائفية قد ترسخت على نحو قضى بشكل ماساوى على التعايش بين الدروز والموارنة فى جبل لبنان ، وهو ما يرجع المؤرخون أهم أسبابه إلى نشاط المبشرين الغربيين . كان من نتيجة هذه الفتنة الثانية ، أن سقط نظام القائمقامتين وحل محله نظام المتصرفية الذى اعتمد مايشبه الحكم الذاتى ولكنه فشل بدوره فشلا ذريعا لأسباب كانت فى معظمها اقتصادية.

وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى ودخلت قوات الحلفاء الشام فى أكتوبر ١٩١٨ ، احتفظ البريطانيون لفترة من الوقت بالقيادة العسكرية العليا واعتبروا الشام «أرض أعداء محتلة» إلى أن يتقرر مصيرها فى مؤتمر الصلح. وقسمت القيادة البريطانية الشام إلى ثلاث مناطق عسكرية : منطقة تخضع للقوات العربية التى صارت دمشق مقرا لها تحت حكم فيصل بن الشريف حسين ، ومنطقة ساحلية تمتد من الناقورة على طرف الساحل الجنوبى اللبنانى إلى الإسكندرونة شمالا وتخضع للإدارة العسكرية الفرنسية ، أما الثالثة فهى فلسطين أو سورية الجنوبية واحتفظ الإنجليز لأنفسهم بإدارتها .



ومنذ البداية ، حدث تسابق بين القوات التابعة لفيصل وبين الفرنسيين للسيطرة على بعض موانئ لبنان (التى تسكنها غالبية من المسلمين السنة) فرفع علم الدولة العربية لبضعة أيام فى بيروت إلى أن تدخل الفرنسيون لإزالة مظاهر الدولة العربية على امتداد الساحل اللبنانى . ويبدو أن الخطة الفرنسية كانت تستهدف فى البداية إخضاع سوريا ولبنان كدولة اتحادية تحت الانتداب الفرنسى ، ولكن فرنسا لم تلبث أن تحولت إلى فكرة «لبنان الكبير» فى صيف عام ١٩١٩ بعد أن جوبهت بمعارضة شريكيها فى احتلال بلاد الشام ، أى فيصل والبريطانيين . ومع تغيير الخطط ، رأى الفرنسيون أن يستعينوا بالموارنة لإقامة دولة لبنانية موسعة يمكن استخدامها فى الضغط على الحكومة العربية فى دمشق . ووجد الفرنسيون استجابة على نطاق واسع من جانب الطائفة المارونية التى سارعت بإرسال وفد برئاسة البطريرك المارونى إلياس الحويك إلى عصبة الأمم لعرض وجهة نظرهم التى لخصها فى نقاط ثلاث:

١- الاعتراف باستقلال لبنان داخليا وخارجيا .

٢- تعديل الحدود الطبيعية والتاريخية للدولة اللبنانية (ويلاحظ أن الإشارة إلى الحدود الطبيعية والتاريخية تعطى لهذه الحدود مفهوما مرناً يفسره الأقوى لصالحه عادة) .

٣- الاعتماد على مساعدة الفرنسيين لتحقيق هذه الأمانى.

ثم تطورت الأحداث إلى حد أن فرنسا لجأت إلى القوة العسكرية ضد الدولة الفيصلية فى دمشق ، وأسقطتها فى يوليو ١٩٢٠ ، وكانت ذريعتها فى ذلك هى الدفاع عن استقلال لبنان الذى هددته الدولة العربية . وعلى أثر سقوط الدولة الوطنية القائمة فى دمشق ، بادر الجنرال «جورو» المفوض العام الفرنسى إلى إعلان قيام الكيان اللبنانى بحدوده الجديدة الموسعة والتى شملت - إلى جانب جبل لبنان - وادى البقاع ، والساحل المحاذى للجبل . وبضم هذه الأقاليم ، تضاعفت مساحة لبنان ، بالمقارنة إلى ما كان عليه فى عهد المتصرفية ، فاصبح مجمل هذه المساحة يصل إلى ١٠٤٥٢ كيلو مترا مربعا . كذلك زاد عدد السكان من ٤١٤٨٠٠ ، كما قدرهم إحصاء عام ١٩١٣ ، إلى ٦٢٨٣٦٨ حسب ما ورد فى إحصاء عام ١٩٢٣. ولكن هذا الضم أسفر ، من ناحية أخرى ، عن انخفاض نسبة السكان المسيحيين فى إطار لبنان الكبير .. ذلك أنه بالإضافة إلى أن أعدادا غير قليلة من المسيحيين سكان الجبل كانت قد هاجرت إلى العالم الجديد ، كما قضت المجاعة التى وقعت فى زمن الحرب على الكثيرين ، فإن إدماج السكان السنة والشيعة فى المناطق التى ضمها الكيان الجديد أدى إلى تدنى نسبة السكان المسيحيين التى كانت تقدر ، قبل هذا الضم ، بنحو ٧٨ فى المائة.

[٣]

نشأ الكيان اللبنانى ، إذن ، فى حضن قوة أجنبية كانت هى التى ضمت أجزاءه إلى بعضها ورسمت حدوده مع جيرانه نتيجة لهذا الضم . ومع ذلك ، فسرعان ما بزغت المعارضة اللبنانية للوجود والنفوذ الفرنسى فى لبنان ، ثم أخذت هذه المعارضة تتسع لتضم المسلمين والمسيحيين على السواء . ولكن إذا كان المسلمون قد عارضوا فرنسا لأسباب قومية فى الأساس ، واعتمدت معارضتهم على المناداة بالاتحاد مع سوريا كما حدث خلال مؤتمرين عقدوهما عامى ١٩٣٣ و ١٩٣٦ ، فإن المعارضة المسيحية جاءت لأسباب مختلفة تماما . ذلك أن الرأسمالية المارونية سرعان ما اصطدمت مصالحها بالاحتكارات الفرنسية ، وخاصة إبان الأزمة الاقتصادية العالمية فى نهاية العشرينيات وتضافر مع هذا الاصطدام فى المصالح تنافس من نوع آخر اتخذ صورة صراع على النفوذ بين «بكركى»، مقر البطريركية المارونية ، والمندوب السامى الفرنسى الذى لم يكن يرضيه أقل من الاستئثار التام بالسلطة .

وعندما فرضت تداعيات الأحداث تراجع قوة الاحتلال الفرنسى ، نتيجة لانهزام فرنسا عام ١٩٤٠ فى الحرب العالمية الثانية ، وبدا أن عهد الانتداب قد أصبح على وشك الزوال ، ظهر الخلاف بين اللبنانيين مرة أخرى .. ودار الخلاف هذه المرة حول علاقة لبنان مستقبلا مع مشروع الجامعة العربية ، الذى طرح فى ذلك الوقت ، وكذلك العلاقة مع سوريا . كما أضيف سبب آخر للخلاف كان محوره التنازع حول اقتسام مقاعد مجلس النواب على نحو

قصة الوجود السورى فى لبنان



يرضي مختلف الطوائف، وطرح اقتراح بأن يكون نصيب الطوائف المسيحية ٣٢ مقعدا مقابل ٢٢ مقعدا للمسلمين. وكادت لبنان أن تسقط في حرب طائفية نتيجة الخلاف حول اقتسام مقاعد مجلس النواب، لولا وساطة قام بها رئيس وزراء مصر آنذاك مصطفى النحاس الذى اقترح حلا وسطا بين هذا الاقتراح وبين مطالبة المسلمين باقتسام مقاعد المجلس مناصفة ، وذلك بأن تكون النسبة ٥ إلى ٦ أى ٢٥ مقعدا للمسلمين مقابل ٣٠ مقعدا للمسيحيين .

وفى أواخر عام ١٩٤٢ ، دعا مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر بشارة الخورى لزيارة القاهرة لبحث التحاق لبنان بالجامعة العربية عند إنشائها . وكانت النقطة الحساسة التى تثير مخاوف اللبنانيين ، أو قسم منهم على الأقل ، هى أن تطالب سوريا بالأقضية الأربعة التى اقتطعت منها ، بالإضافة إلى طرابلس ، عند إعلان «لبنان الكبير» . ورأى النحاس أن يجمع بين بشارة الخورى والمندوب السورى جميل مردم ، فأوضح الخورى أنه يؤيد التحاق لبنان بحركة التجمع العربى ، رغم اعتراض بعض المسيحيين ، ولكنه يصر على عدم المساس بالأراضى اللبنانية . وقد أجاب مردم بأن سوريا مستعدة لأن تعطى لبنان مزيدا من الأراضى . وهكذا أزيلت الشكوك من النفوس ، وخاض بشارة الخورى انتخابات رئاسة لبنان فى العام التالى على أساس التوفيق بين فكرة الكيان اللبنانى وحركة التجمع العربى . ونجح الخورى فى الفوز برئاسة لبنان وهزم منافسه «إميل إدة» الذى كان يعتمد على المتطرفين فى فكرة الوطنية اللبنانية والذى كان يحظى أيضا بدعم من فرنسا .

وجاء الانحسار التدريجى للنفوذ الفرنسى فى لبنان وتصفية الانتداب ، والذى عززه تغير نظرة اللبنانيين إلى فرنسا بعد أن رأوها تهزم بسهولة فى الحرب ، ليشكل تحولا فى موقف الموارنة خصوصا إزاء علاقات لبنان الخارجية بحيث لم يعودوا يعتمدون على قوة أجنبية لتدافع عن الكيان اللبنانى بوجودها العسكرى. ولكن هذا التحول فى النظرة إلى العلاقات الخارجية لم يقترن بتحول مماثل فى علاقات الطوائف بعضها ببعض ، الأمر الذى دعا إلى استحداث صيغة لترتيب هذه العلاقات الداخلية قبل انتقال السلطة الفعلية إلى أيدى اللبنانيين بعد انتهاء الانتداب . وهكذا ولد «الميثاق الوطنى اللبنانى» فى عام ١٩٤٣ ، وإن لم تتم صياغته فى وثيقة مكتوبة وإنما بقى اتفاقا عرفيا ظلت الطوائف ترجع إليه للتهدئة وعلاج المشاكل التى لم تتوقف عن التوالد منذ إعلان الاستقلال . ولكن هذه «الصيغة» المعتمدة على «الميثاق الوطنى».. كانت تحمل فى الوقت نفسه ، ولسوء الحظ ، جرثومة الطائفية التى ظلت تنمو حتى تحولت إلى وحش فتك بالجميع فيما بعد . كما أن الصيغة التى فرح اللبنانيون بها كثيرا فى البداية ظلت قائمة على الأساس نفسه الذى

كان لابد من الانتظار حتى تنهار الدولة العثمانية، وينتصر الحلفاء الأوروبيون فى الحرب العالمية الأولى، قبل أن تتهيأ الظروف لإنشاء ما سمى بـ (لبنان الكبير) الذى أعلن المندوب السامى الفرنسى «الجنرال جورو» قيامه فى عام ١٩٢٠

بعثته - فى ظرف تاريخى معين - فورة وطنية جياشة ، دون أن يحاول الزعماء تأصيل تلك الصيغة على أسس واقعية تجعلها قابلة للاستمرار وقادرة على مواجهة المتغيرات المتتالية والمحتومة . وهكذا فإن الصيغة لم تستطع الصمود للرياح والعواصف التى كانت تهب على لبنان بين الحين والآخر ، وخاصة أن الشقوق والخلافات الجذرية بين سكان لبنان كانت موجودة طول الوقت فى أعماق التربة اللبنانية وتركت حيث هى دون محاولة جدية لمعالجتها . وعندما زلزلت الحرب الأهلية لبنان (فى عام ١٩٧٥) ، فإن هذه الصيغة كانت فى الحقيقة هى أولى الضحايا الذين سقطوا فى الحرب واحترقوا فى أتونها».[٢]

[٤]

ظلت سوريا دائما تبدى اهتماما بالغا بلبنان وما يجرى فيه ، سواء عندما كانا معا تحت الانتداب الفرنسى أو فيما بعد عندما تحقق الاستقلال لكل منهما . ولم يكن مبعث هذا الاهتمام هو أن سوريا - أيا كان الحكم القائم فيها - كانت تعتبر لبنان جزءا منها فقط ، وإنما كان مبعثه أيضا الخوف من أن تؤثر الأحداث اللبنانية على سوريا أو تمتد عدوى تلك الأحداث إليها .. هذا فضلا عن مخاوف - قد يكون لها ما يبررها - فى أن يستخدم لبنان ، من جانب قوى أجنبية ، منطلقا لإلحاق الأذى بسوريا . كان لدى الحكام السوريين ، على اختلافهم ، شعور بأن لبنان يمثل «خاصرة سوريا الضعيفة».. وقد تعززت هذه المخاوف - بالطبع - بعد قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين ، واستشعرت سوريا خطر المحاولات الإسرائيلية لاختراق لبنان سواء بعمليات التجسس التى لم تتوقف أو عن طريق إقامة علاقات خاصة مع بعض العناصر اللبنانية المارونية المتطرفة .

ولاشك فى أن هذا الاهتمام السورى بكل ما يجرى فى لبنان قد ازداد بعد أن تعقد الوضع على الساحة اللبنانية بانتقال قيادة المقاومة الفلسطينية وكوادرها المقاتلة إلى لبنان ، مما جعل منه ساحة مفتوحة للصراع . وأخذت السياسة السورية تجاه لبنان تشكل ، منذ ارتقاء الرئيس حافظ الأسد سدة الحكم فى سوريا ، أحد المرتكزات الأساسية التى تعتمد عليها دمشق للتحرك وإدارة الصراع . ولأن سوريا أصرت دائما على أن تربطها بلبنان «علاقات خاصة» تفوق ما يربط الدول المتجاورة عادة ، ورفضت باستمرار إقامة علاقات دبلوماسية عادية وتبادل السفراء وما إلى ذلك ، فإن التطورات المتلاحقة والحاجة إلى «دور سورى ما» جعل اللبنانيين ، على اختلاف اتجاهاتهم وانتماءاتهم وطوائفهم ، يقبلون فى أغلب الأوقات أو يسلمون بما يجرى ترتيبه من جانب سوريا فيما يتعلق بالشئون اللبنانية . وهكذا ، فإنه لم يكن ممكنا أن يصل إلى الحكم فى لبنان رئيس دون أن يتوافر له دعم سورى ، بدءا من سليمان فرنجية وحتى إميل لحود .. وباستثناء بشير الجميل الذى انتخب رئيسا فى عام ١٩٨٢ فى أعقاب الغزو الإسرائيلى للبنان وبعد أن دخلت القوات الإسرائيلية إلى بيروت ، ولكنه قتل فى انفجار مروع قبل تسلمه الحكم .

وعندما احتدمت الحرب الأهلية اللبنانية فى عام ١٩٧٦ ، وبدا أنها خرجت عن نطاق السيطرة وأن نيرانها تزداد اشتعالا كل يوم ، كان لابد أن تتدخل سوريا عسكريا.. إن لم يكن لوقف الحرب كلية ، فمن أجل حصر الخطر على الأقل . ومن المفارقات أن التدخل السورى فى بدايته جاء استجابة للزعماء الموارنة - وفى مقدمتهم الرئيس اللبنانى الأسبق كميل شمعون رئيس حزب الوطنيين الأحرار وبيير الجميل رئيس حزب الكتائب - والذين كانت الميليشيات التابعة لهم تخوض حربا شرسة ، لاسيما فى الجبل ، ضد التحالف الذى ضم القوات الوطنية اللبنانية بزعامة كمال جنبلاط الزعيم الدرزى وقوات المقاومة الفلسطينية . وكانت العلاقات قد تدهورت آنذاك بين الرئيس السورى حافظ الأسد والرئيس المصرى أنور السادات ، حتى وصلت العلاقات بين سوريا ومصر إلى أدنى مستوى لها إثر اتفاق فك الاشتباك الثانى الذى أبرم بين مصر وإسرائيل . وبدا واضحا أن مصر تدعم الحركة الوطنية اللبنانية المناوئة بزعامة جنبلاط وحلفاءها الفلسطينيين ، فى وجه «الجبهة اللبنانية» التى ضمت الزعماء اليمينيين الموارنة . ولهذا فإن دخول أولى الوحدات العسكرية السورية إلى لبنان ، فى صيف عام ١٩٧٦ ، اتخذ أيضا بعدا «إقليميا» فى خضم الصراعات والخلافات التى سادت المنطقة .

على أن الوضع اللبنانى ، واحتمالات استشراء خطر الحرب ، كان يسبب لسوريا قلقا كبيرا ويشكل هماً يوميا للمسئولين فى دمشق الذين كانوا يتابعون الحرب الأهلية بكل تفاصيلها ساعة بساعة، بينما القتال يستمر بشراسة تجاوزت كل الحدود . وتزايد الخوف فى العديد من العواصم العربية إزاء هذا التدهور المستمر ، وبدا أن الخطوة الأولى الضرورية هى عقد مصالحة بين الرئيسين السادات والأسد ، وهو مانجح فى تحقيقه ولى العهد السعودى حينذاك الأمير فهد بن عبد العزيز من خلال قمة عربية سداسية عقدت فى الرياض فى ١٦ أكتوبر ١٩٧٦ ، بعد وقت قصير من انتخاب رئيس جديد للبنان هو إلياس سركيس . وفى هذه القمة اقترح سركيس تشكيل قوة ردع عربية لتعمل على وقف الحرب وتكون «تحت إمرة السلطة اللبنانية» على أن تتألف من ثلاثين ألف جندى . وعندما أقرت نتائج قمة الرياض من جانب القمة العربية الشاملة ، التى عقدت إثر ذلك بالقاهرة فى ٢٥ أكتوبر ، كان ذلك بمثابة اعتراف عربى صريح بتدخل سوريا السياسى والعسكرى فى لبنان .

ولفت أنظار المجتمعين فى قمة القاهرة أمران :

الأول : أنه عندما هاجم سعدون حمادى وزير خارجية العراق الذى رأس وفد بلاده ، الوجود السورى فى لبنان وطالب بانسحاب القوات السورية من لبنان ، كان الذى تولى الرد عليه هو الرئيس اللبنانى إلياس سركيس الذى أكد أن «وجود القوات السورية فى لبنان هو وجود شرعى».

الثانى : تأكيد الرئيس الأسد أن الجيش السورى إنما دخل لبنان تلبية لطلب السلطة الشرعية اللبنانية ، وأنه لن يخرج إلا استجابة لطلبها.

وفيما بعد ، فى أواخر عام ١٩٧٦، أبلغ الرئيس الأسد وفدا مارونيا من «الجبهة اللبنانية»، ضم أمين الجميل وطونى فرنجية وجورج سعادة وإدمون رزق ودانى شمعون ومارون الحلو وكريم بقرادونى ، أنه لايرى أن هناك «خطوطا حمراء» أمامه فى لبنان. وقال: «لا تهتموا بالخط

قصة الوجود السورى فى لبنان



الأحمر الذى يتحدث عنه الأمريكيون والإسرائيليون، فلا وجود له، وعلى كل حال فإننى لا أراه. فى بدء عام ١٩٧٦، حذرتنى الولايات المتحدة ونصحتنى الاتحاد السوفيتى ألا أجتاز الحدود اللبنانية فى المصنع (نقطة الحدود بين لبنان وسوريا على طريق بيروت - دمشق).. فالخط الأحمر كان إذن فى المصنع، لأن إسرائيل كانت تعتبر دخول الجيش السورى لبنان سببا كافيا لإعلان الحرب. اجتزنا المصنع، فحدثونا عن خط أحمر جديد فى صوفر (بلدة جبلية على طريق بيروت - دمشق)، فلما تجاوزنا صوفر حددوا لنا بيروت على أنها الخط الأحمر الجديد. فما هو هذا الخط الأحمر المبهم والمتحرك والمتنقل بشكل مستمر من مكان إلى آخر؟»[3].

وأيا كان الأمر، فقد استمرت الحرب على أرض لبنان، بعد دخول القوات السورية، لمدة أربعة عشر عاما جرت خلالها أحداث جسيمة بلغت ذروتها فى الغزو الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢، وخروج المقاومة نتيجة لذلك.. ثم اصطدام القوات السورية بأطراف لبنانية وهى صدامات بلغت مداها فى الحرب الشرسة التى شنتها سوريا ضد الميليشيات المارونية حتى نجحت فى إسقاط الاتفاق الذى كان قد تم التوصل إليه عام ١٩٨٣ بين لبنان وإسرائيل وعرف باتفاق ١٧ آيار - مايو -، ثم بعد ذلك بسنوات عندما اشتبكت مع القوات التابعة للعماد ميشيل عون قائد الجيش الذى عينه الرئيس الأسبق أمين الجميل عند انتهاء ولايته رئيسا لحكومة عسكرية رغم إرادة سوريا. ومن الواضح أنه لم يكن فى مقدور أى حكم لبنانى أن يعلن استغناءه عن القوة السورية فى لبنان وسط هذه الأحداث. فلما انتهت الحرب، كان لبنان قد بلغ حدا من الضعف استدعى استمرار الوجود السورى، على الأقل إلى أن تسترد البلاد عافيتها ويصبح فى إمكان الحكم أن يعول على القوى اللبنانية الذاتية.

كادت لبنان أن تسقط فى حرب طائفية نتيجة الخلاف حول اقتسام مقاعد مجلس النواب، لولا وساطة قام بها رئيس وزراء مصر آنذاك مصطفى النحاس الذى اقترح حلا وسطا باقتسام مقاعد المجلس مناصفة

[٥]

مثلما كان العمل العربى هو الغطاء الذى مكن سوريا فى عام ١٩٧٦ من التدخل العسكرى فى لبنان، تحت مسمى قوات الردع العربية، فقد كان هو أيضا الذى انبثقت عنه أول «وثيقة» تتناول الدور السورى فى لبنان بعد تحقيق الوفاق، وإعادة انتشار القوات السورية. وكان المحفل العربى الذى صدرت عنه هذه الوثيقة هو مؤتمر الطائف الذى عقد بالمملكة العربية السعودية، فى أكتوبر ١٩٨٩، بهدف وضع صيغة للوفاق بين الأطراف المتنازعة فى لبنان ووضع نهاية للحرب الأهلية.

كانت الظروف قد اختلفت جذريا عما كانت عليه فى عام ١٩٧٦ عند دخول القوات السورية، إقليميا ودوليا، وبدا أن الأطراف الرئيسيين المستمرين فى القتال - بعد خروج المقاومة الفلسطينية عام ١٩٨٢ - هم الأطراف اللبنانيون فقط. كما بدا أن تحقيق الوفاق، الذى كان صعب المنال طوال سنوات الحرب، قد أصبح فى متناول اليد بعد أن أنهك القتال كل الأطراف وكاد أن يقضى على البلد الذى يقتتلون بحجة الدفاع عنه. كذلك، فقد كان هناك عامل جوهرى مهم يجعل استمرار الحرب الأهلية مستحيلا من الناحية العملية، وهو «نضوب الموارد» من المال والسلاح الذى كان يتدفق على لبنان ويذكى نيران القتال.

وهكذا أمكن، فى الطائف، الخروج بوثيقة الوفاق التى صدق عليها مجلس النواب اللبنانى فى ٥ نوفمبر ١٩٨٩، والتى أدخل بمقتضاها تعديل له مغزاه على النظام و«الصيغة» اللبنانيين، وبالتالى على مشاركة الطوائف فى الحكم واقتسام المناصب. أما فيما يتعلق بالدور الذى تقوم به القوات السورية فى لبنان، فقد نصت وثيقة الطائف فى نهاية البند الثانى منها على مايلى:

«وحيث إن هدف الدولة اللبنانية هو بسط سلطتها على كامل الأرض اللبنانية بواسطة قواتها الذاتية المتمثلة بالدرجة الأولى بقوى الأمن الداخلى، ومن واقع العلاقات الأخوية التى تربط سوريا بلبنان، تقوم القوات السورية مشكورة بمساعدة قوات الشرعية اللبنانية على بسط سلطة الدولة اللبنانية فى فترة زمنية محددة أقصاها سنتان تبدأ بعد المصادقة على وثيقة الوفاق الوطنى وانتخاب رئيس الجمهورية وتشكيل حكومة الوفاق الوطنى وإقرار الإصلاحات السياسية فى صورة دستورية. وفى نهاية هذه الفترة، تقرر الحكومتان - الحكومة السورية وحكومة الوفاق الوطنى اللبنانية - إعادة تمركز القوات السورية فى منطقة البقاع ومدخل البقاع الغربى فى ضهر البيدر حتى خط حمانا - المديرج - عين دارة، وإذا دعت الضرورة فى نقاط أخرى يتم تحديدها بواسطة لجنة عسكرية لبنانية سورية مشتركة. كما يتم اتفاق بين الحكومتين يجرى بموجبه تحديد حجم القوات السورية ومدة وجودها فى المناطق المذكورة أعلاه، وتحديد علاقة هذه القوات مع سلطات الدولة اللبنانية فى أماكن وجودها. واللجنة الثلاثية العربية العليا مستعدة لمساعدة الدولتين فى الوصول إلى هذا الاتفاق إذا رغبتا فى ذلك».

وتعرضت وثيقة الوفاق الوطنى، أيضا، للعلاقات اللبنانية السورية، فى بندها الرابع، فنصت على مايلى: «إن لبنان، الذى هو عربى الانتماء والهوية، تربطه علاقات أخوية صادقة بجميع الدول العربية، وتقوم بينه وبين سوريا علاقات مميزة تستمد قوتها من جذور القربى والتاريخ والمصالح الأخوية المشتركة، وهو مفهوم يرتكز عليه التنسيق والتعاون بين البلدين، وسوف تجسده اتفاقات بينهما فى شتى المجالات بما يحقق مصلحة البلدين الشقيقين فى إطار سيادة كل منهما واستقلاله. استنادا إلى ذلك، ولأن تثبيت قواعد الأمن يوفر المناخ المطلوب لتنمية هذه الروابط المتميزة، فإنه يقتضى عدم جعل لبنان مصدر تهديد لأمن سوريا، وسوريا لأمن لبنان، فى أى حال من الأحوال. وعليه، فإن لبنان لا يسمح بأن يكون ممرا أو مستقرا لأى قوة أو دولة أو تنظيم يستهدف المساس بأمنه أو أمن سوريا، وإن سوريا الحريصة على أمن لبنان واستقلاله ووحدته ووفاق أبنائه لا تسمح بأى عمل يهدد أمنه واستقلاله وسيادته».

وبعد إعلان وثيقة الوفاق، التى أنهت فعليا الحرب الأهلية فى لبنان، دخلت الحكومتان السورية واللبنانية فى حوار بهدف محاولة تنظيم وتقنين العلاقات بينهما على نحو يلائم مرحلة ما بعد الحرب. وتمخض هذا الحوار عن وثيقة أخرى حملت اسم «معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق» التى تم التوقيع عليها فى دمشق فى ٢٢ مايو ١٩٩٩. وبالإضافة إلى ما نصت عليه هذه المعاهدة من إنشاء مجلس أعلى وهيئة للمتابعة والتنسيق ولجان لتنظيم التعاون فى مختلف المجالات، فإنها تضمنت أمرين مهمين:

الأول: أنها تصدت، مثلها فى ذلك مثل وثيقة الوفاق، لقضية أمن البلدين (الذى يمثل هاجسا لسوريا) فنصت فى مدتها الثالثة على أن «الترابط بين أمن البلدين يقتضى عدم جعل لبنان مصدر تهديد لأمن سوريا، وسوريا لأمن لبنان، فى أى حال من الأحوال. وعليه، فإن لبنان لا يسمح بأن يكون ممرا أو مستقرا لأى قوة أو دولة أو تنظيم يستهدف المساس بأمنه أو أمن سوريا. وإن سوريا الحريصة على أمن لبنان واستقلاله ووحدته ووفاق أبنائه، لا تسمح بأى عمل يهدد أمنه واستقلاله وسيادته».

والثانى: أن المعاهدة أكدت من جديد الالتزام الذى ورد بوثيقة الوفاق فيما يتعلق بإعادة انتشار القوات السورية فى حدود المهلة المثبتة فى هذا الخصوص (أى مهلة السنتين).

ولكن، أيا كانت الأسباب والظروف التى تلت ذلك، فإن ما حدث هو أن سوريا لم تنفذ إعادة انتشار قواتها أو إعادة تمركزها خلال المهلة المحددة فى وثيقة الوفاق اللبنانية أو المعاهدة الموقعة بين البلدين.

[٦]

كان أول «تحرك» باتجاه تخفيف الوجود العسكرى السورى فى لبنان، هو ذلك الذى قامت به القوات السورية فى شهر أبريل عام ٢٠٠٠، وإن يكن قد جاء محدودا وتم بهدوء حتى أنه لم يلفت الانتباه، كما أن أحدا لم ينظر إليه على أنه جزء من خطة لتنفيذ ما نصت عليه وثيقة الوفاق ومعاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق. ومن المؤكد أن احتلال إسرائيل لجزء من أرض لبنان فى الجنوب، طوال هذه السنوات، كان يشكل عائقا يحول دون إقدام سوريا على تقليص وجودها العسكرى، ربما خوفا من ترك الساحة اللبنانية نهبا لمزيد من الاختراق الإسرائيلى بكل ما يحمله من أخطار على سوريا. ولم تابه دمشق كثيرا للدعوات التى كانت ترتفع فى لبنان بين وقت وآخر، وخاصة من جانب السياسيين الموارنة، تطالب بإنهاء الوجود العسكرى لكل «القوى الأجنبية» على أرض لبنان. وكان رد الفعل السورى المعتاد على هذه المطالبة، هو الإعراب عن الغضب إزاء ما تنطوى عليه من مساواة الاحتلال الإسرائيلى للجنوب بوجود القوات السورية التى دخلت لبنان أصلا بطلب من سلطته الشرعية، وبتغطية عربية، وبهدف واضح هو مساعدة لبنان على اجتياز محنة الحرب الأهلية واستعادة الحكومة اللبنانية سلطتها التى أهدرتها الحرب.

ويمكن القول عموما إن العامل المهم الذى طرأ على الموقف وأدى إلى تزايد المطالبات علنا بخروج القوات السورية، أو إعادة انتشارها على مراحل، هو

قصة الوجود السورى فى لبنان



اضطرار إسرائيل إلى سحب قواتها المحتلة من جنوب لبنان نتيجة للضربات الموجعة والمتزايدة من جانب المقاومة اللبنانية. ذلك أنه منذ انسحاب القوات الإسرائيلية من الجنوب، فى الصيف الماضى، بدأت الأصوات تعلو فى لبنان بأن الوقت قد حان لأن تقوم القوات السورية بتنفيذ ما سبق الاتفاق عليه وما تضمنته وثيقة الوفاق الوطنى ومعاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق. وتدريجيا، بدا أن المطالبات توشك أن تتحول إلى تيار يتعذر تجاهله. وبلغت هذه الموجة ذروتها فى موقف البطريرك المارونى نصر الله صفير، والذى عبر عنه خصوصاً فى سبتمبر ونوفمبر عام ٢٠٠٠، ثم من خلال مناقشة بيان حكومة رفيق الحريرى أمام مجلس النواب إثر الانتخابات التى جرت فى أكتوبر، وانتقلت بعد ذلك إلى الشارع اللبنانى.

وقد جاء التعبير عن موقف الطائفة المارونية، سواء من جانب البطريرك نفسه أو الفعاليات السياسية المارونية، واضحاً وصريحاً فى مطالبته بخروج القوات السورية - حتى ولو تم ذلك تدريجياً - من لبنان.

على أن أكثر ما أزعج دمشق خصوصاً، هو أن تأتى مثل هذه المطالبة من جانب شخصيات وزعامات لبنانية ظلت على مدى الأعوام العشرين الأخيرة تعتبر فى عداد «حلفاء» سوريا. ويأتى فى مقدمة هؤلاء الزعيم الدرزى وليد جنبلاط الذى ألمح إلى دعوة مماثلة لإعادة انتشار القوات السورية فى لبنان، وذلك عندما كان يتحدث أمام مجلس النواب بمناسبة مناقشة بيان الحكومة. وقد أثار موقف جنبلاط غضب دمشق إلى الحد الذى دفعها، فيما يبدو، إلى اعتباره شخصاً غير مرغوب فيه وحظرت عليه دخول سوريا إلا «كشخص عادى».



وسرعان ما خرجت المناقشات إلى دائرة أوسع، حتى أصبح «الوجود السورى» قضية مطروحة بالفعل على الساحة اللبنانية. ويلفت النظر بوجه خاص، فى هذا الصدد، أن شخصيات لبنانية بارزة انجذبت إلى الحوار الذى أخذ يزداد حرارة - حتى لا نقول يزداد التهاباً - حتى احتل الدرجة الأولى من الاهتمام فى الشارع وفى وسائل الإعلام على السواء.

ولكن الظاهرة الأهم، وربما الأخطر، التى لفتت الانتباه وسط الضجة التى تعالت بسبب طرح قضية «الوجود السورى» فى لبنان على هذا النحو، هى أن القضية أظهرت بجلاء أن اللبنانيين ما زالوا مختلفين حول الأمور الأساسية ذاتها، رغم مرور ما يقرب من ستين عاماً على الاستقلال واعتماد «الصيغة الفريدة للتعايش» التى بنى عليها نظام الحكم منذ عام ١٩٤٣. ذلك أنه - مع استثناءات قليلة - فإن الحوار الساخن أدى إلى استقطاب فى المواقف:

ولد «الميثاق الوطنى اللبنانى» فى عام ١٩٤٣، وإن لم تتم صياغته فى وثيقة مكتوبة وإنما بقى اتفاقا عرفيا ظلت الطوائف ترجع إليه للتهدئة وعلاج المشاكل التى لم تتوقف عن التوالد منذ إعلان الاستقلال

فالطوائف المسيحية انحازت إلى وجهة النظر التى تنادى بخروج القوات السورية من لبنان، واندفعت إلى انتقاد موقف الحكومة اللبنانية من القضية على نحو ما جاء فى بيان للجنة التنسيق التى تضم حزب الوطنيين الأحرار والقوات اللبنانية (وهى جناح لحزب الكتائب). فقد أكد هذا البيان، الذى صدر فى ١٤ نوفمبر ٢٠٠٠، رفض «اعوجاج المنطق الذى يتحكم بالسلطة فى تغطيتها الوجود السورى غير الشرعى فى لبنان، متوقفة فى هذا السياق عند الحديث عن ربط بقاء هذا الجيش بتحقيق السلام فى المنطقة وفق المفهوم السورى الحرفى لهذا السلام». ثم مضى البيان قائلاً: «إن الوجود العسكرى السورى فى لبنان لا يحمى أى مصلحة لبنانية ولا يدرأ عن لبنان أى خطر».

وفى المقابل، أعربت قيادات الطوائف اللبنانية الإسلامية عن موقف مغاير، أو مناقض، عبر عنه مفتى الجمهورية اللبنانية الشيخ الدكتور محمد رشيد قبانى الذى أعلن، عقب لقاء له فى اليوم نفسه مع المفتى الجعفرى الممتاز الشيخ عبد الأمير قبلان نائب رئيس المجلس الإسلامى الشيعى الأعلى، قائلاً: إن الوجود السورى فى لبنان «شرعى وضرورى ما دامت إسرائيل تحتل مزارع شبعا والجولان وترفض منح اللاجئين الفلسطينيين حق العودة». واعتبر المفتى قبانى أن أمر الوجود السورى موكول إلى رئيس الجمهورية وأركان الدولة، ثم أضاف: «نحن نثق بالدولة .. باركانها وبرؤسائها الثلاثة (يقصد رئاسة الجمهورية ورئاسة الحكومة ورئاسة البرلمان وهى الرئاسات الموزعة على الطوائف الرئيسية الثلاثة المارونية والسنية والشيعية على التوالى وفقاً للصيغة اللبنانية) وهى صاحبة القرار. ونرفض الدخول فى حوار جانبى أو فى خلق الحساسيات وفى خلق شرخ بين المواطنين، لأننا نعتمد أولاً وأخيراً على حكمة رؤساء البلاد وخصوصاً الرئيس العماد إميل لحود الذى صرح مراراً بأن الوجود السورى شرعى ومؤقت. ونحن معه لأن بقاء الجيش السورى ضمانة للبنان من كل الاختراقات لأصحاب النفوس السيئة والمريضة.

ومن الواضح أن هذا الاستقطاب قد أثار مخاوف لدى المسئولين اللبنانيين الذين أبدوا انزعاجاً «من الخلفية الطائفية المتزايدة للجدل الحاصل حول موضوع الوجود السورى والعلاقة مع سوريا» على حد ما جاء فى صحيفة «الديار» اللبنانية. (١٦ نوفمبر ٢٠٠٠). ولكن كبار المسئولين اللبنانيين أبدوا اهتماماً أكبر بمحاولة إزالة التأثير المحتمل لهذه الضجة على العلاقات بين لبنان وسوريا، وذلك من خلال تصريحات تدعو إلى «عدم إثارة قضايا فى غير أوانها وفى غير محلها، لأن الانعكاسات لن تصب فى مصلحة لبنان» على حد تعبير الرئيس اللبنانى إميل لحود .. أو تؤكد أن الوجود السورى فى لبنان «ضرورى وشرعى ومؤقت وليس أبدياً» على حد ما جاء على لسان رئيس الحكومة رفيق الحريرى الذى حرص على أن يؤكد أيضاً أن «هناك مصلحة لبنانية فى تطوير العلاقات أمنياً وسياسياً، وليس اقتصادياً فحسب» مع سوريا.

كذلك، حاول رئيس المجلس النيابى اللبنانى نبيه برى القيام بمساع للتخفيف من حدة الجدل الذى احتدم حول الوجود السورى فى لبنان، فقام بزيارة البطريرك المارونى نصر الله صفير فى مقره، وأعلن من هناك أنه ليس هناك داع لكل هذا القلق الذى يبديه الأقطاب الموارنة، لأن الجيش السورى فى لبنان قد بدأ بالفعل تنفيذ خطة إعادة انتشار كان قد بدأها فى أبريل الماضى وأن القيادتين السورية واللبنانية ستجتمعان لبحث تحديد مراكز تجمع القوات السورية بما يتفق مع ما جاء فى اتفاق الطائف. وقد رحب البطريرك والزعماء الموارنة بهذه التصريحات التى أدلى بها نبيه برى، ولكن مبادرة رئيس مجلس النواب سرعان ما «بردت» نتيجة للفتور الذى واجهها من جانب دمشق.

أما المسئولون السوريون، فقد تعاملوا مع هذا الموقف بأقصى درجة من الهدوء والبعد عن الانفعال الذى يقترب من أن يكون «عدم اكتراث» .. ظاهرياً على الأقل. وكان من اللافت للانتباه، أن أى مسئول سورى لم يتورط فى الدخول إلى حومة الجدل الدائر فى لبنان حول وجود القوات السورية على الأرض اللبنانية، كما أن وسائل الإعلام السورية تجاهلت الأمر بصورة تامة تقريباً. وربما كان أقصى ما عبر عنه مسئول سورى فى هذا الخصوص هو ما جاء على لسان رئيس مجلس الشعب السورى عبد القادر قدورة خلال لقاء صحفى معه يوم ١٦ نوفمبر، وشارك فيه كاتب هذه السطور، فقال إن الإخوة فى لبنان أحرار فى إبداء آرائهم فى هذه القضية بالشكل الذى يرونه .. أما سوريا فإنها تتعامل فقط مع الدولة اللبنانية ممثلة فى رئيس جمهوريتها ورئيس حكومتها، ولا يمكن لها أن تدخل فى حوار مع أى طرف آخر.

على أن هناك ملاحظة جديرة بالتسجيل، فى هذا السياق، وهى أن كل هذه التطورات التى جرت حول «الوجود السورى» فى لبنان، سواء فى أكتوبر ونوفمبر عام ٢٠٠٠ أو فى مارس ٢٠٠١، قد تداعت فى أعقاب حدثين مهمين: أولهما، غياب الرئيس السورى الراحل حافظ الأسد الذى ظل طوال مدة حكمه يمسك بيديه جميع الخيوط المتعلقة بالشئون اللبنانية ويحدد بنفسه سياسات سورية إزاءها. والثانى: هو خروج القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، تحت وطأة ضربات المقاومة اللبنانية الفعالة والناجحة .. وهو خروج تم دون أن يطرأ أى تغيير على «الوجود السورى» فى لبنان.

وهكذا تتأكد إحدى الحقائق الثابتة فى الموقف الراهن فى قضية الشرق الأوسط، وهى ارتباط المسارين اللبنانى والسورى على نحو لا يسمح بمعالجة الشق اللبنانى منفرداً. ويتأكد أيضاً أن سوريا لا يمكنها، وفقاً للمعادلة القائمة، أن تتخلى عن ورقة لبنان قبل أن تعرف بوضوح كيف سيتم حل المشكلة برمتها.. بما فى ذلك إنهاء احتلال الجولان. ولهذا فإنه يبدو من المتعذر إمكانية الوصول إلى تصور لتحقيق خروج القوات السورية من لبنان، فى الوقت الراهن على الأقل، رغم الضجة التى يمكن أن تثار بين الحين والآخر من جانب «بعض» الفئات اللبنانية. ■

هوامش

(١) عبد العزيز عبد الغنى، فى دراسة ضمن مجموعة دراسات بعنوان «الأزمة اللبنانية» إصدار معهد البحوث والدراسات العربية. ١٩٧٨.

(٢) م. أحمد: «لبنان، انهيار أم انتحار» إصدار مركز الأهرام للترجمة والنشر. ١٩٨٩.

(٣) كريم بقرادونى: «السلام المفقود» إصدار عبر الشرق.

قصة الوجود السورى فى لبنان





الجنيه المصرى إلى أين؟

أحـــمـــد أبــو شـــادى

إن أهـم ما غـاب عن نص الإجراءات العشـرة التى أعلنتـها الحكومـة أنها تعنى خفض سعـر الجنيـه المصـرى مقـابل الدولار الأمريكـى بنسبـة ١٣٪ تقريبا فى عام واحد، مـن ٣٤٠ قرشـا للدولار فى ينـاير ٢٠٠٠ إلى ٣٨٥ قرشـا للدولار فى ينـاير ٢٠٠١

أزمة سعر صرف الجنيه المصرى مازالت مستحكمة رغم مرور أكثر من شهرين منذ إعلان نظام جديد كان المأمول أن يعيد قدرًا من الاستقرار للأسواق التى تعانى من تفاوت الأسعار واختفاء الدولار فى البنوك وشركات الصرافة على السواء وعودة السوق السوداء وارتفاع معدلات اكتناز الدولار.

وكانت الحكومة المصرية قد أعلنت بعد طول سكوت عشرة إجراءات «لضَبْط» سوق النقد الأجنبى يوم الاثنين ٢٩ يناير ٢٠٠١ فى مؤتمر صحفى امتزج فيه التوتر بالتهكم وسط حشد من المحررين الاقتصاديين المصريين والأجانب، تحدث فى المؤتمر الدكتور يوسف بطرس غالى وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية باعتباره المسئول الأول عن رسم السياسة الاقتصادية بما فى ذلك السياسة النقدية، والأستاذ إسماعيل حسن محافظ البنك المركزى، المسئول عن وضع هذه السياسة موضع التنفيذ كما أوضحت إجراءات «الضَّبْط» الأخيرة.

وطبقا للمرجع اللغوى العريق «مختار الصِّحاح» للشيخ الإمام محمد بن عبد القادر الرازى فإن فعل «ضَبَطَ» الشيء (الجنيه المصرى فى هذه الحالة) يعنى «حفظه بالحزم»، وهو فعل يتفق مع المهمة الأولى للبنك المركزى فى تحقيق الاستقرار فى أسعار الصرف وفى هيكل الأسعار بشكل عام.

وهناك أيضا فعل «ضَبَطَ» الذى نستخدمه فى الإشارة إلى تصويب الشيء وإصلاحه كما أن هناك المعنى الدارج للكلمة فى الإشارة إلى ضَبْط المسئول عن المخالفة ومثوله أمام السلطات العليا!

أيا كان المعنى المقصود فإن أهم ما غاب عن نص الإجراءات العشرة التى أعلنتها الحكومة أنها تعنى تخفيض سعر الجنيه المصرى مقابل الدولار الأمريكى بنسبة ١٣٪ تقريبا فى عام واحد، من ٣٤٠ قرشا للدولار فى يناير ٢٠٠٠ إلى ٣٨٥ قرشا للدولار فى يناير ٢٠٠١ وهو ما ينطوى طبقا للتعريف الشائع بين المتخصصين فى علوم الاقتصاد على انهيار فى قيمة الجنيه والذى يعرفونه بانه «انخفاض فى قيمة العملة بنسبة تزيد على ١٠٪ خلال ١٢ شهرا»!





ومن ناحية أخرى فإن لفظة «ضَبْط» قد تعنى بالإنجليزية التعديل الملموس فى سعر الصرف استجابة لضغوط السوق خلال السنوات الأربعة الماضية بعد أن تصاعدت قيمة الجنيه المربوطة بالدولار بأكثر من ٤٠٪ تجاه العملات الأجنبية الأخرى وبالذات عملات شركائنا التجاريين الرئيسيين فى أوروبا، ومع ذلك لم تتدخل السلطات النقدية لتصويب الخلل مما أدى إلى غبن فادح للصادرات المصرية والمصدرين ومعهم الملايين من المستفيدين من هذا القطاع الحيوى المهم فى مقابل رغد ربحى غزير حظى به المستوردون بهذه العملات والذين حققوا مكاسب ضخمة يبدو أنهم احتفظوا بها فى جيوبهم فلم يشعر المستهلكون بأى انخفاض فى الأسعار الاسمية للسلع المستوردة.

يعتبر هذا «الضَّبْط» إذن أول تحريك رسمى لسعر الجنيه خلال ما يقرب من عشر سنوات منذ عام ١٩٩١ عندما تم توحيد سعر الصرف فى إطار برنامج قوى للإصلاح الاقتصادى تم الاتفاق عليه وجرى تنفيذه بنجاح بالتعاون مع صندوق النقد الدولى خلال ست سنوات انتهت فى أكتوبر ١٩٩٧.

وقد اعتمد برنامج الإصلاح الاقتصادى منذ عام ١٩٩١ على ثلاثة محاور رئيسية هى:

*تحقيق التوازن التدريجى وتقليص العجز الكلى فى الميزانية العامة للدولة من خلال زيادة الموارد وضغط الإنفاق العام.

*إصلاح جذرى فى نظام الصرف بتوحيد أسعار صرف الجنيه المصرى وربطه بالدولار للسيطرة على التضخم وتحقيق الاستقرار فى الأسعار.

*سياسة نقدية مواتية وملتزمة بأهداف كمية محددة لتحقيق التوازن بين متطلبات توفير السيولة النقدية للاقتصاد وخفض معدلات التضخم.

ولعله كان من أول المظاهر الملموسة لبرنامج الإصلاح التى ارتاح لها الشارع المصرى حينذاك اختفاء السوق السوداء للدولار والعملات الأجنبية الأخرى بين يوم وليلة فى فبراير ١٩٩١ عندما أعلن عن توحيد أسعار الصرف وإطلاق التعامل فى النقد الأجنبى ورفع أسعار الفائدة لتتناسب ومعدلات التضخم، وأدى ذلك إلى تدفقات مالية كبيرة وصل مجموعها خلال السنوات الثلاث الأولى من برنامج الإصلاح إلى ٥ مليارات دولار أو ما يعادل ١١٪ من الناتج القومى الإجمالى حتى يونيو ١٩٩٤، واستمرت التدفقات المالية فى السنوات الثلاثة التالية بمعدلات أقل بلغت ٢,٥ مليار دولار حتى يونيو ١٩٩٧، وارتفع صافى الاحتياطيات الدولية لدى البنك المركزى إلى أكثر من ٢٠ مليار دولار، أى ما يكفى لتغطية تكاليف الواردات المصرية لحوالى ١٦ شهرا، وبلغت الثقة فى الجنيه المصرى أوجها مع انكماش ظاهرة الاحتفاظ بالدولار وتزايد الإقبال على الجنيه وتناقص معدلات «الدولرة» فى الاقتصاد المصرى.

اقتصر دور السلطات النقدية ممثلة فى البنك المركزى حتى عام ١٩٩٧ على التدخل فى السوق لشراء بلايين الدولارات التى تدفقت على مصر سعيا وراء الاستفادة من معدلات الفائدة المرتفعة على الودائع بالجنيه المصرى لكى تمنع سعر صرف الجنيه من الارتفاع، وتحملت الخزانة العامة خسارة بلغت حوالى ٦٠٠ مليون دولار فى المتوسط سنويا (٢,٤ مليار جنيه مصرى) تمثل الفارق بين الفائدة المرتفعة المدفوعة على الودائع بالجنيه وعائد الفائدة المتدنية على ودائع البنك المركزى بالدولار.

ومع ذلك التدخل من قبل البنك المركزى قدر الاقتصاديون أن القيمة الفعلية للجنيه ارتفعت بنسبة تصل إلى حوالى ٣٠٪ خلال المدة من ٩٠ / ١٩٩١ إلى ٩٦ / ١٩٩٧ وهو ما دعا صندوق النقد الدولى فى منتصف تلك الفترة إلى إثارة موضوع سعر صرف الجنيه وضرورة النظر فى تخفيضه حفاظا على تنافسية الصادرات المصرية وتحفيزا لها.

وشهدت تلك الحقبة فى منتصف التسعينيات مواجهات عديدة بين الحكومة المصرية وفريق مفاوضى صندوق النقد

الدولى برئاسة اقتصادى لبنانى مرموق - الدكتور صالح نصولى - الذى كان قد فرغ لتوه من مفاوضات ناجحة مع الحكومة التونسية انتهت إلى الاتفاق على نظام مرن لسعر الصرف ما زالت تنعم به تونس حتى الآن يحمى للصادرات والسياحة أسواقها ويوسع رقعتها ويحفظ قطاعاتها الإنتاجية ويرشد وارداتها .

وكما يحدث كثيرا فى حياتنا العامة تحول الخلاف فى الرأى بين فريق المفاوضين المصرى وبين الدكتور صالح نصولى ومعاونيه إلى خلاف شبه شخصى انتهى بان تنحى الرجل عن مهمته وهو فى أشد المرارة والأسف لرفض الجانب المصرى رؤية ما أثبته لهم بالحساب والأرقام من مغبة عدم تعديل نظام الصرف فى مصر بما يتيح الحد الأدنى من المرونة المطلوبة لحماية الصادرات المصرية وترشيد الواردات والمحافظة على التوازن الضرورى فى ميزان المدفوعات دون اللجوء إلى فرض قيود كمية وإدارية .



وسمحت ظروف هبوط مؤقت فى سعر صرف الدولار فى الأسواق العالمية فى ذلك الوقت وما واكبها من انفراج لم يطل فى سعر صرف الجنيه مقابل العملات الأخرى ، بالإضافة إلى ضغوط سياسة نجحت مصر فى تجنيدها داخل صندوق النقد الدولى وخارجه أدت فى النهاية إلى أن تخلى الصندوق عن مطالبه بضرورة تقييم نظام الصرف وتعديله وخفض سعر الجنيه إذا لزم الأمر بما يخدم مصالح الاقتصاد المصرى على المدى الطويل ، واعتبرت الحكومة المصرية فى ذلك القرار انتصارا كبيرا لها ، ومدعاة للتندر والحبور لفترة ، لم تشا الاقدار لها أن تطول .

ففى منتصف عام ١٩٩٧ تغير اتجاه الموارد من النقد الأجنبى الذى تمتع به الاقتصاد المصرى خلال السنوات السابقة مع الانخفاض الحاد فى عوائد السياحة فى أعقاب مأساة الأقصر الإرهابية كما انخفضت عائدات البترول لهبوط أسعاره فى أسواق العالم وضعف حجم الكميات المتوافرة للتصدير مما أدى إلى عجز فى الحساب الجارى بلغ ٢,٥ مليار دولار، قامت البنوك التجارية بتغطيته من مواردها الخاصة بطلب من الحكومة التى فضلت ألا تمس احتياطى النقد الأجنبى فى البنك المركزى .

وتحول فائض ميزان المدفوعات الذى بلغ مليار دولار فى العام السابق ٩٦ / ١٩٩٧ إلى عجز وصل إلى ٣,٦ مليار دولار عام ٩٧/ ١٩٩٨ بما فى ذلك ٢٥٠ مليون دولار تمثل أساسا تحويلات المستثمرين الأجانب لأرباحهم من عائدات أذون الخزانة .

وتفاقمت الضغوط على الحساب الخارجى فى العام التالى ٩٨ / ١٩٩٩ وازداد العجز فى الحساب الجارى إلى ٤,٥ مليار دولار قامت البنوك التجارية مرة أخرى بناء على طلب الحكومة بتغطية ٢,٥ مليار دولار منها بينما ساهم البنك المركزى بسحب ٢ مليار دولار من الاحتياطى الدولى المتراكم لديه .

ويقول الاقتصادى الأيرلندى اللامع هاوارد هاندى الذى خلف اللبنانى صالح نصولى فى رئاسة فريق مفاوضى صندوق النقد الدولى حتى مطلع العام الماضى أن قرار الحكومة التضحية بأرصدة البنوك التجارية بدلا من اللجوء لاحتياطى البنك المركزى لتغطية الطلب على النقد الأجنبى أدى إلى تعقيدات كان الاقتصاد المصرى فى غنى عنها .

* أولها: كما جاء فى ورقة بحثية قدمها أمام مؤتمر عقده المركز المصرى للدراسات الاقتصادية فى نوفمبر الماضى - أن بيع البنوك التجارية لأرصدتها من العملات الصعبة نتج عنه ارتفاع حصيلتها من العملة المحلية التى لجأت إلى التخلص منها بالتوسع فى الإقراض للقطاع الخاص بنسب فاقت ٢٥٪ سنويا مما أدى بدوره إلى زيادة فى الطلب المحلى واستمرار الضغط على أسواق النقد الأجنبى ، بينما لو قام البنك المركزى بتوفير النقد الأجنبى فإنه يمتص السيولة المتمثلة فى حصيلة البيع بالنقد المحلى ويسهم بالتالى فى تهدئة السوق.

* ثانيا : انخفضت أرصدة البنوك التجارية من أذون الخزانة انخفاضا ملحوظا مما أدى إلى ارتفاع حاد فى إقراض البنك المركزى للحكومة والذى ارتفع بأكثر من ١٥ مليار جنيه فى العام المالى ٩٨ / ١٩٩٩ ليصل إلى ٥٠ مليار جنيه .

* ثالثا: بينما حافظ البنك المركزى على الجزء الأكبر من صافى الاحتياطيات الدولية لديه خلال العام المالى ٩٨ / ١٩٩٩ بالرغم من الضغوط على النقد الأجنبى، اهتز توازن الأصول والخصوم الأجنبية لدى البنوك التجارية ويضيف مصرفى معروف أن معظم البنوك لجأت إلى إخفاء ما لديها من أرصدة أجنبية تحت مسميات وهمية تحسبا لاحتمال تخفيض الجنيه .

وهكذا تفاقمت حالة القلق فى سوق النقد الأجنبى ، وتصاعدت الضغوط على سعر الصرف حتى وصل إلى ٣٧٠ قرشا للدولار فى أغسطس ١٩٩٨ ، ونشطت عمليات اكتناز الدولار التى عرفتها السوق المصرية قبل بدء برنامج الإصلاح الاقتصادى وعادت نسبة «الدولرة» للارتفاع مرة أخرى لأول مرة منذ عشر سنوات.

وتحسن الموقف مؤقتا خلال عام ٩٩/ ٢٠٠٠ عندما توقفت عمليات السحب من الأرصدة الأجنبية للبنوك التجارية ولجأ البنك المركزى للاعتماد على الاحتياطيات الدولية المتوفرة لديه لمواجهة الطلب على النقد الأجنبى ، لذلك أضافت البنوك التجارية مليار دولار

بيان بأهم الموارد والاستخدامات من النقد الأجنبى
وفقا لبيانات ميزان المدفوعات

المصدر: البنك المركزى المصرى — بالمليون دولار — للربع الأول

بيان	٩٧/٩٦	٩٨/٩٧	٩٩/٩٨	٢٠٠٠/٩٩	٢٠٠١/٢٠٠٠
أولا: الموارد					
حصيلة الصادرات البترولية	٢٥٧٧,٨	١٧٢٨,٤	٩٩٩,٧	٢٢٧٢,٩	٦١٩,٥
حصيلة الصادرات غير البترولية	٢٧٦٧,٦	٣٤٠٠	٣٤٤٥,٤	٤١١٤,٨	١٠٣٥,٤
إجمالى الصادرات السلعية	٥٣٤٥,٤	٥١٢٨,٤	٤٤٤٥,١	٦٣٨٧,٧	١٦٥٤,٩
حصيلة السياحة	٣٦٤٦,٣	٢٩٤٠,٥	٢٢٣٥,١	٤٣١٣,٨	١٢١٣,٢
النقـــل	٦٨٦,١	٦٨٠,٦	٨٦٥,٩	٨٥٣,٩	٢١٣,٢
موارد قناة السويس	١٨٤٨,٩	١٧٧٦,٥	١٧٧١	١٧٨٠,٨	٤٦٥,٨
التحويلات الرسمية	٨٨٩,٦	٨٨٢,٦	١٠٩٦,٧	٩٣٢,٤	٢٧٦,٤
التحويلات الخاصة	٣٢٥٥,٦	٣٧١٧,٧	٣٧٧٢,٤	٣٧٤٧,١	٦٣٣,٩
دخل الاستثمارات	٢٠٥٢,٣	٢٠٨١,٣	١٩٣٢,٧	١٨٣٢,٥	٤٥٧,١
صافى الاستثمار المباشر فى مصر	٧٦٩,٧	١١٠٣,٩	٧١٠,٦	١٦٥٦,١	١٠٩,٨
صافى استثمارات محفظة الأوراق المالية فى الداخل	١٤٦٢,٩	-٢٤٨	-١٧٢,٦	٤٧٢,٦	٢٨٦,٨
موارد أخرى	٢٤٩٨,٤	٤٧٣٥,٢	٤٣٦٢,٨	١٣٠٠,٧	٢٧٩,١
١ - إجمالى الموارد	٢٢٤٥٥,٢	٢٢٧٩٨,٧	٢٢٠١٨,٧	٢٣٢٧٧,٦	٥٥٩٠,٢
ثانيا: الاستخدامات					
الواردات السلعية	١٥٥٦٤,٨	١٦٨٩٩	١٧٠٠٧,٦	١٧٨٦١,٤	٤٠٢٧,٤
الفوائد المدفوعة	٩٩٥,١	٧١٥,٧	٧٨٩,٣	٧٦٩,٨	٢٥٧,٣
سداد الديون	٨٥٦,٣	٨٠٣,٨	٨٠٨,٢	١٠٥٦,٢	٣٨٣,٥
الاستثمار المباشر فى الخارج	٤٧,٢	١٣٦,٩	٥٥,٨	٤٢,٥	١١,١
استثمارات محفظة الأوراق المالية فى الخارج	٠	٥٦,١	٤٣,١	١٢,٢	٣
استخدامات أخرى	٢٨٣٢,٥	٣٢٧٨,٩	٤١٢٠	٥٦٨٠,١	١٧٢١,٣
٢ - إجمالى الاستخدامات	٢٠٢٩٥,٩	٢١٨٩٠,٤	٢٢٨٢٤	٢٥٤٢٢,٢	٦٤٠٣,٦
٣ - صافى السهو والخطأ	-٢٤٧	-١٠٤٣,٣	-١٣١١,٥	-٨٨٠,١	٢٥٧,٥
الفائض/ العجز (١ - ٢ + ٣)	١٩١٢,٣	-١٣٥	-٢١١٦,٧	-٣٠٢٤,٧	-٥٥٥,٩



عمارة الفقراء

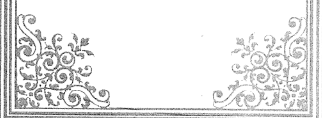
٣- القرنة.. مشروع رائد

القرنة بالنسبة لى هى تجربة ومثال معًا . وكنت آمل أن يكون من القرنة عرضًا للطريقة التى يعاد بها بناء كل ريف مصر . وكنت آمل أنه ما إن يرى الناس كيف يمكن أن يكون الإسكان الجيد رخيصًا، فإنه ستوجد بين فلاحينا حركة هائلة للبناء بطريقة «أد العمل بنفسك» .

وحتى نعطى أكمل المعلومات لبنّائى المستقبل الذين سيؤدون العمل بأنفسهم كان مطلبنا أن نأخذ فى إنشاء هذه القرية ابتداء من تراب الأرض، وأن نصنع كل أصغر التفاصيل بأنفسنا، ونكتشف كيفية القيام بها، وقدر تكلفتها، وكان علينا أن نصنع طوبنا بأنفسنا، هو وملاطنا، وأن نحفر طيننا، ونستخرج جيرنا ونحرقه، ونحتجر الحجارة لأنفسنا، ونصنع سباكتنا، ونقوم بكل شئون نقلنا .

وكنت آمل أنى باهتمامى اهتمامًا وثيقًا بكل تفصيل فى العمالة ومشتريات المواد، فإن هذا ينبغى أن يمكننى من عمل تحليل مفصل لتكاليف القرية عند اكتمالها، وينبغى أن أعرف كيف تم إنفاق كل قرش، وأن أتمكن من أن أقول واثقًا أن قرية مثل كذا وكذا فيها العدد كذا من البيوت، والعدد كذا من المبانى العامة، ستكلف بالضبط قدر كذا من النقود وتتطلب قدر كذا من العمالة .

وبهذا يمكن أن تطبق نتائجى على أى مشروع فى المستقبل، ويمكننا أخيرًا أن نضع جسرًا فوق تلك الهوة الغامضة- التى تبتلع ملايين كثيرة من الجنيهات- تلك الهوة ما بين الخطط التى تضعها هيئات التخطيط القومية، والمبانى التى تخرج للعيان كنتيجة لهذه الخطط .



لأصولها الأجنبية خلال العام بينما انخفض احتياطى البنك المركزى من العملات الصعبة بحوالى ٣ مليارات دولار خلال المدة ذاتها .

ومع انتصاف عام ٢٠٠٠ هبطت حدة الطلب على احتياطى النقد الأجنبى لدى البنك المركزى بعد أن قامت الحكومة بفرض التغطية الكاملة لقيمة اعتمادات الاستيراد مع ضرورة الإفصاح عن طبيعة استخدام النقد الأجنبى، كما تخلى أصحاب شركات الصرافة عن محاولة تقييد سعر الصرف مما أدى إلى ارتفاعه حتى وصل إلى ٣٨٠ - ٣٩٠ قرشا للدولار استجابة لتزايد الطلب .

وعندما لجأت الحكومة فى نهاية عام ٢٠٠٠ إلى فرض قيود كمية على السحب من الحسابات المفتوحة بالنقد الأجنبى وتقييد المعاملات المصرفية بين تلك الحسابات تبخرت ثقة المتعاملين فى السوق وتحولت مشكلة الدولار إلى أزمة مازالت جاثمة على أنفاس سوق النقد الأجنبى إلى يومنا هذا .



الإجراءات العشرة الأخيرة «لضبط» سوق النقد الأجنبى لا تتفق فى مجملها وما أعلنته الحكومة فى تقديمها لهذه الإجراءات عن إيمانها الراسخ بفاعلية آليات السوق، وإلا لما لجأت لمضاعفة رأس المال المدفوع لشركات الصرافة عشر مرات ليصل إلى ١٠ ملايين جنيه بدلا من مليون جنيه. والذى يعنى عمليًا إغلاق ٩٧٪ من شركات الصرافة المرخص لها بالعمل فى السوق المصرية.

ومن ناحية أخرى لم تعلن الحكومة عن توقعاتها بشأن أسعار صرف الدولار فى الأسواق العالمية والتى بدأت فى الاتجاه إلى الهبوط مقابل اليورو والعملات الأوروبية الأخرى مما يعنى أن استمرار ربط الجنيه بالدولار فى هذه المرحلة قد يعيد بعضا من التوازن إلى أسعار التبادل مع العملات الأوروبية خلال الأشهر القادمة وهو ما يفسر الطبيعة الانتقالية التى يتسم بها نظام الصرف الجديد.

وإذا صح هذا السيناريو الذى تؤكده شواهد التباطؤ فى معدلات نمو الاقتصاد الأمريكى، فإن ذلك يعنى أن الدولار الذى كان مسئولا إلى حد كبير عن «شنق» الجنيه المصرى فى الفترة الأخيرة برفع قيمته بشكل مبالغ فيه تجاه العملات الأوروبية قد يتحول إلى سلم النجاة الذى يهبط بالجنيه إلى أرضية أكثر ثباتا وتوازنا مع العملات الأخرى كمقدمة لتبنى نظام صرف أكثر مرونة وواقعية من النظام الانتقالى الذى أرضى البعض ولكنه أدى أساسًا إلى ظهور السوق السوداء مرة أخرى.

وأيا كانت النتائج التى سوف تتمخض عنها الأسابيع والشهور القادمة فيما يتعلق باستقرار سعر صرف الجنيه وبنظام الصرف الحالى الذى يربطه بالدولار الأمريكى، يؤكد الأستاذ إسماعيل حسن محافظ البنك المركزى أن التحول إلى نظام صرف جديد أمر مطروح فى أروقة البنك المركزى بما يعكس الأهمية النسبية لشركائنا التجاريين، ويؤكد هذا الاتجاه المصرفى الكبير الأستاذ على نجم، الذى يقترح ربط الجنيه بـ«سلة» من العملات (بفتح السين) بنسب ترجيحية تضم ٤٠٪ لكل من الدولار واليورو و ١٠٪ لكل من الجنيه الإسترلينى والين اليابانى فلا يصبح الجنيه مرة أخرى عرضة للتأرجح هبوطا أو صعودا مع عملة واحدة.



ولن يغنى الاستقرار فى أسعار الصرف - إذا تحقق - عن استمرار البحث والاتفاق على نظام للتبادل يأخذ فى الاعتبار أن الأداء الاقتصادى الأفضل فى الدول النامية ارتبط بوجود سعر صرف واقعى ومرن يساهم فى زيادة الصادرات الصناعية واجتذاب الاستثمارات المباشرة وتحقيق معدلات نمو مرتفعة، وفى المقابل أثبتت تجربتنا العملية، كما عرفت دول كثيرة من قبلنا، أن التمسك بسعر صرف ثابت لمدة طويلة بعد استنفاد الغرض منه يؤدى إلى ارتفاع غير واقعى فى قيمة العملة وانكماش فى الصادرات السلعية.

* المهم أن التباطؤ فى العلاج الحاسم للأزمة واللجوء للمسكنات والحلول الجزئية سوف يضر أكثر مما ينفع كما أثبتت التجربة المصرية السابقة لتنفيذ برنامج الإصلاح الاقتصادى الناجح عام ١٩٩١، والذى اعتمد ضمن أسسه المهمة نظام صرف واقعيًا حقق الاستقرار وخدم أهداف السياسة الاقتصادية.

وتبقى تحديات السياسة النقدية الأخرى المتمثلة فى المرونة المطلوبة فى أسعار الفائدة استجابة للمتغيرات الطارئة فى أسعار الصرف والاحتياطيات الدولية، ويدعو هاورد هاندى الخبير الاقتصادى الذى ترك صندوق النقد وانضم منذ عام إلى معهد التمويل الدولى بواشنطن إلى ضرورة إطلاق قدرات البنك المركزى فى إدارة السياسة النقدية ويطرح ثلاثة مقترحات :

* أولاً: أن تتوافر للبنك المركزى محفظة متنوعة من الأوراق المالية القابلة للتداول حتى يتمكن من خلالها من التأثير فى السوق، وأن يكون البنك المركزى «سيد قراره» فعلا وقولا فيما يختص بتدخله فى السوق وفى إدارته للسياسة النقدية !

كما يجب أن تنعكس قوى السوق على عطاءات أذون الخزانة والتخلص من حالة الجمود التى تسود أسعار الفائدة عليها مما يؤدى إلى تطوير الأوراق المالية الحكومية فى إطار تعميق وتوسيع الأسواق المالية .

* ثانيا: تحديث النظام المالى والمصرفى ووضع برنامج محدد للإسراع فى عملية خصخصة البنوك التجارية الكبرى والمشتركة



إن التباطؤ في العلاج الحاسم للأزمة واللجوء للمسكنات والحلول الجزئية سوف يضر أكثر مما ينفع كما أثبتت التجربة المصرية السابقة لتنفيذ برنامج الإصلاح الاقتصادى الناجح عام ١٩٩١



والتى توقفت بالرغم من صدور التشريعات المطلوبة منذ عام ١٩٩٨ والتى تسمح بنقل ملكية البنوك العامة وشركات التأمين إلى القطاع الخاص لكى تسهم بشكل نشط وفعال فى الانطلاقة الاقتصادية المأمولة، وقد أثبتت تجارب الدول الصناعية والنامية على السواء أن سيطرة الدولة على القطاع المصرفى مسئولة عما تتعرض له تلك المصارف من أزمات وما يحوط قروضها ومعاملاتها من شبهات، وعن حالة الجمود وتدنى الأداء والخدمات للعملاء.

* ثالثًا: الإشراف والرقابة على البنوك من أخطر المهام التى يضطلع بها البنك المركزى، ومع التطوير المستمر الذى يشير إليه التقرير السنوى للبنك المركزى فى هذا المجال إلا أن البيانات التى توفرها البنوك فى مصر ما زالت دون الحد الأدنى المطلوب من الدقة والشفافية والإفصاح.

ويشير التقرير السنوى الأخير للبنك المركزى إلى سعيه لتحقيق الدورية والانتظام فى الفحص الميدانى بما يكفل الاكتشاف المبكر لأية ظروف غير مواتية فى العمل المصرفى... وفى هذا الإطار تم التفتيش على ١٥ بنكًا من أصل ٦٢ بنكًا خلال السنة المالية ٩٩ / ٢٠٠٠ أى ٢٥٪ من إجمالى عدد البنوك!



يبقى فى النهاية فض الاشتباك وتداخل المهام والاختصاصات سواء فى رسم السياسات أو فى إجراءات تنفيذها بين وزارات الاقتصاد والمالية والبنك المركزى والبنوك الحكومية حتى تتحقق الاستقلالية والتوازن بين تلك المؤسسات الحيوية لكى تضطلع بمهامها الخطيرة من أجل الصالح العام. ■

إجراءات ضبط سوق النقد الأجنبى

على ضوء التطورات الأخيرة فى سوق الصرف الأجنبى، وما شهدته هذه السوق من تقلبات غير مبررة، وفى إطار تأكيد الحكومة على إيمانها الراسخ بفاعلية آليات السوق المنظمة، وبكافة الحقوق التى يكفلها قانون النقد الأجنبى، قررت الحكومة اتخاذ مجموعة من الإجراءات والتدابير التى تهدف أساسًا إلى تحقيق الاستقرار، وتوفير الطمأنينة لكافة المتعاملين فى السوق. وتتمثل هذه الإجراءات والتدابير فيما يلى:

١ ـ يعلن البنك المركزى المصرى سعرًا مركزيًا للدولار الأمريكى مقابل الجنيه المصرى قدره ٣٨٥ قرشًا، وهو المتوسط المرجح لأسعار التعامل فى السوق (بنوك وشركات الصرافة) خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، وتتحدد أسعار باقى العملات الأجنبية مقابل الجنيه المصرى بناء على هذا السعر.

٢ ـ تقوم البنوك وشركات الصرافة بتحديد أسعار بيع وشراء الدولار الأمريكى (بنكنوت وتحويلات) بما يتوافق مع آليات السوق، وفى حدود هامش لايزيد على ± ١٪ ارتفاعًا وانخفاضًا من السعر المركزى الذى يعلنه البنك المركزى المصرى. وبالنسبة لأسعار العملات الأخرى، فتتحدد من واقع علاقة الدولار بهذه العملات فى الخارج.

٣ ـ يتدخل البنك المركزى المصرى بائعًا أو مشتريًا للنقد الأجنبى كلما اقتضت الحاجة، وذلك لموازنة تحركات أسعار الصرف بالسوق، وسوف تتم مراجعة سعر البنك المركزى دوريًا وفق ظروف السوق.

٤ ـ تلتزم البنوك وشركات الصرافة بإبلاغ تعاملاتها كل ساعة لغرفة إحصاءات النقد الأجنبى بالبنك المركزى المصرى، وتقوم الغرفة يوميًا بالإعلان عن متوسط مرجح لأسعار صرف العملات الأجنبية لكل المتعاملين فى السوق.

٥ ـ تقوم البنوك بعرض كميات وأسعار بيع النقد الأجنبى الفائض على حاجتها، وأسعار شراء ما قد تحتاجه منه، وذلك من خلال الإعلان عنها لدى غرفة إحصاءات النقد الأجنبى بالبنك المركزى المصرى.

٦ ـ تلتزم شركات الصرافة ببيع ما يزيد على أرصدة تشغيلها المصرح بها للبنوك فى نهاية كل يوم عمل، وذلك فى صباح يوم العمل التالى.

٧ ـ يقوم البنك المركزى بتغطية كافة مراكز العملات الأجنبية القائمة لدى البنوك، كما فى نهاية عمل يوم الاثنين الموافق ٢٩ يناير ٢٠٠١، وذلك بسعر البنك المركزى السائد اليوم.

٨ ـ يمكن لشركات الصرافة بيع ما لديها من عملات أجنبية قابلة للتحويل للبنوك مقابل الجنيه المصرى، وكذلك شراء ما تحتاجه من عملات أجنبية مقابل الجنيه وذلك فى إطار الآلية سالفة الذكر.

٩ ـ تم تعديل اللائحة التنفيذية لقانون النقد الأجنبى رقم ٣٨ لسنة ١٩٩٤، بما يكفل ضبط السوق وإضفاء الحماية على العمليات السليمة لكافة المتعاملين، وكذا تشديد العقوبات على المخالفين والمتلاعبين.

١٠ ـ يسرى تنفيذ هذه الآلية اعتبارًا من يوم الثلاثاء الموافق ٣٠ يناير ٢٠٠١.

يتم تنفيذ سياسة سعر الصرف السابق بيانها جنبًا إلى جنب مع مكونات السياسة النقدية الأخرى.

المصدر: وزارة الاقتصاد والبنك المركزى المصرى

كتاب الزاوية

عمارة الفقراء

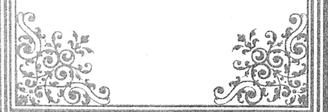
٤ ـ بيت الفلاح

الفارق بين طريقة حياة الفلاح وساكن المدينة ينعكس على بيتيهما. فبينما يُقصد بالبيت فى المدينة أن يكون فحسب مأوى للناس الذين يعيشون فيه. فإن البيوت فى القرية يجب أن تحوى أنواعًا كثيرة من المخازن الواسعة كما تحوى أيضًا ماشية المالك.

وهكذا كان علينا أن نوفر فى بيوت القرنة مساحة رحبة للتخزين وحظائر كبيرة للماشية. وقد فكرنا فى بدائل شتى. فالوقود الذى يختزن عادة فى مصر فوق أسطح البيوت كثيرًا ما يسبب حرائق مدمرة تنتشر لتحرق قرى بأسرها، بمواشيها، ومحاصيلها. وكل ما عليها.

إذن فإنه بدا معقولاً أن تخزن هذه المواد سريعة الاشتعال تخزينًا آمنًا فى مبنى عام كبير. كما بدا صحيًا أكثر أن تكون هناك حظائر ماشية عامة بعيدة تمامًا عن البيوت. إلا أن الفلاحين ماكانوا ليفترقوا عن محاصيلهم ولا عن ماشيتهم. كيف يتأتى أن تظل النساء يجرين طول اليوم فى الشوارع العامة لإحضار الوقود وحلب البقر؟

ألزمت نفسى فى القرنة بأن أجعل البيوت تختلف فى حجمها حسب مساحة البيوت الأصلية التى ستحل محلها. بحيث يتم إعدادها فى رقع شتى غير منتظمة، وإذا كنت مستعدًا لتغيير خطة كل منها لتلائم الناس الذين سيعيشون فيها، فإنى بذلك ضمنت أننى سأفكر بما ينبغى من حرص بشأن تصميم كل واحد منها، وأتجنب فخ إضافة التنوع بلا هدف. وإنى سوف أنتج قرية يكون للانتقالات المقامية المعزوفة فيها سبب واضح لأن توجد.



أمراض الحيوان .. تهدد

أحمد توفيق

لم يكن يخطر ببال أحد أن تظهر كل هذه الأمراض التى تنتقل من الحيوان إلى الإنسان فجاءة وبهذا القدر من الإثارة التى تصل إلى حد الرعب، وكأن هناك اتفاقا ضمنيا بين الهيئات العلمية العالمية على أن تلقى فى وجه البشرية وهى تبدأ القرن الواحد والعشرين بهذا الكم الهائل من الأخبار غير السارة التى تصيب الإنسان بالأرق وعدم الطمأنينة

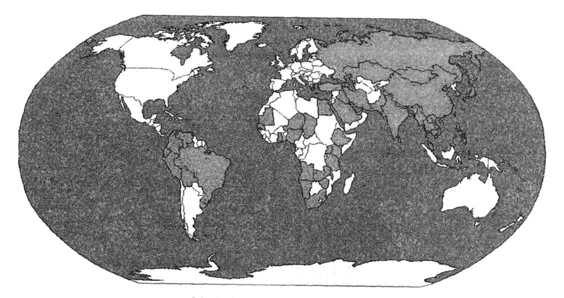
هناك حالات مرضية تظهر بصورة فردية فى الحيوان أو الإنسان أو على هيئة أوبئة فى بعض مناطق من العالم من حين لآخر حيث تساعد عوامل البيئة (مثل أمطار غزيرة وفيضانات ورياح وارتفاع درجة حرارة (الجو) وأنواع النشاط الآدمى والسلوكيات (مثل نظام الرى والحالة الاجتماعية والاقتصادية والتلوث البيئى) على زيادة أو ارتفاع نسبة الحشرات الناقلة للمرض أو تواجد العائل الرئيسى أو الوسيط (الطيور والطيور المهاجرة كما تتوقف شدة الإصابة على الكثافة السكانية والحالة المناعية لكل من الحيوان والإنسان وعلى طرق ونظم الرعاية الصحية لكل من الإنسان والحيوان .

ومن خلال دراسة استرجاعية لتحديد أهم العوامل (عوامل بيئية - مناخية - هيدرولوجية - زراعية) التى تسبق الوباء وباستخدام تكنولوجيا الفضاء المختلفة يمكن التنبؤ بالظروف والمؤشرات التى تسبق الوباء بوقت كاف والتنبؤ بالأوبئة والأمراض المتوقع ظهورها حتى يمكن إبلاغ الجهات المعنية لاحتواء الأزمة قبل حدوثها وهو ما يستدعى ضرورة التعاون والتنسيق بين الهيئة القومية المصرية للاستشعار عن بعد ووكالات الفضاء العالمية (مثل وكالة الفضاء الفرنسية واليونسكو) ووزارة الزراعة (ممثلة فى المعاهد البحثية للثروة الحيوانية والهيئة العامة للخدمات البيطرية) ووزارة الصحة (ممثلة فى الإدارة المركزية للطب الوقائى) .

ويمكن فى هذه الحالة إنشاء نظام للإنذار المبكر والاستشعار عن بعد لإجراء دراسات علمية لتحديد الأماكن الجغرافية والاتصالات الفضائية وتشخيص الأمراض والطب عن بعد، وذلك لحماية صحة الإنسان والثروة الحيوانية.

هناك مجموعة أمراض مشتركة وهى تلك المجموعة من الأمراض التى تنتقل من الحيوان للإنسان عن طريق الاختلاط المباشر أو من خلال المنتجات والمخلفات الحيوانية العديدة. وقد يصل عدد الأمراض المشتركة الى أكثر من ٢٢٠ مرضًا تختلف مسبباتها وأعراضها وأهميتها وهى تمثل مشكلة صحية عامة فى العالم وخاصة فى الدول النامية أو دول العالم الثالث. ومن هنا أولتها منظمة الصحة العالمية (WHO) ومنظمة الأغذية والزراعة العالمية (FAO) أهمية خاصة فى برامجها، ومنها على سبيل المثال الفيروسية مثل الحمى القلاعية وحمى الوادى المتصدع وحمى غرب النيل، والبكتيرية مثل البروسيلا والسل والطفيلية مثل التركسوبلازما والليشمانيا والترايكينيلا والدودة الحلزونية والفاشيولا، وظهر أخيراً على الساحة مرض جنون البقر حيث إنه لم يثبت علمياً حتى الآن انتقاله للإنسان إلا بطريقة استنتاجية وليس بطريقة علمية مؤكدة .

ولم يكن يخطر ببال أحد أن ينفجر الوضع هكذا فجاءة وبهذا القدر من الإثارة التى تصل إلى حد الرعب، وكان هناك اتفاقا ضمنياً بين الهيئات العلمية العالمية والمنظمات الدولية والمعنية بالصحة العامة والأمراض والأوبئة ورافقتها الشبكات العالمية وأجهزة الإعلام بسيطرتها وقدرتها البالغة على أن تلقى فى وجه البشرية وهى تبدأ القرن الواحد والعشرين بهذا الكم الهائل من الأخبار غير السارة التى تصيب الإنسان بالأرق وعدم



خريطة تبين الموقف الوبائى لمرض الحمى القلاعية وانتشاره بالعالم

الطمأنينة وتدفع دول الجنوب لدراسة الموقف بجدية في مواجهة ذلك الخطر الداهم دون الاعتماد على دول الشمال ونظرة إلى ما يبث حالياً في جنبات الدنيا الأربعة تكشف لكل ذي بصيرة خطورة الموقف وحتمية التكتل لعمل شيء حقيقي وذلك من خلال تعظيم الإمكانيات الذاتية وسد الفجوة الغذائية.

وقبل أن نتعرف على بعض الأمراض والأوبئة التي ظهرت على الساحة في الآونة الأخيرة نريد أن نستعرض بعض الحقائق والأرقام لتوضيح الرؤية المستقبلية لتوفير المنتجات ذات الأصل الحيواني في مصر:

١ - متوسط نصيب الفرد في مصر هو ٠,١٧ وحدة حيوانية بينما هذا المتوسط يصل إلى ٣ - ٤ وحدات حيوانية في أورجواي والأرجنتين وأستراليا على سبيل المثال.

٢ - يمثل الإنتاج الحيواني ما قيمته ١٩,٥ مليار جنيه من صافي الدخل الزراعي والبالغة قيمته حوالي ٦١ مليار جنيه، أي ١ إنتاج حيوان : ٢ إنتاج نباتي في مصر.

٣ - كمية الأعلاف المنتجة في مصر عام ٩٧ نحو ٦٤,٣ مليون طن أي بقيمة نشوية قدرها حوالي ٩,٤ مليون طن معادل نشا. وقد قدرت الاحتياجات النشوية للثروة الحيوانية والداجنة في عام ٩٧ بنحو ١٦,١٣ مليون طن معادل نشا. وبمقارنة القيمة الغذائية للأعلاف المنتجة (٩,٤ مليون طن معادل نشا) والقيمة الغذائية لاحتياجات الثروة الحيوانية والداجنة (وقدرها ١٦,١٣ مليون طن معادل نشا) يتضح وجود عجز قدره ٦,٧ مليون طن معادل نشا بنسبة قدرها ٤١,٧٪.

٤ - نصيب الفرد في مصر من اللحوم الحمراء حوالي ١٤ كجم / سنة (إحصائية عام ١٩٩٧ من الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء) وهو أقل من الحد الواقي الصحي

ومقارنتها بتلك الموجودة في الدانمارك على سبيل المثال نجد أن أعداد الماشية في مصر تبلغ حوالي ٦,٢ مليون رأس تعطي إنتاجاً سنوياً حوالي ٣,٦ مليون طن لبن بينما عدد الوحدات المنتجة في الدانمارك ١,٥ مليون رأس تعطي ٥,٥ مليون طن لبن، سنوياً ويتضح من هذه المقارنة مدى انخفاض الكفاءة الإنتاجية للوحدات المنتجة في مصر (١٢٠٠ كجم لبن سنوياً في الجاموس، ٨٠٠ كجم لبن سنوياً في الأبقار).

٨ - تختلف القيمة الغذائية للبروتين تبعاً لأنواعه حيث تبلغ نسبة البروتين الحيواني في لحم الدجاج حوالي ١٩,٨٪ ممثلة أعلى نسبة من البروتين الحيواني بينما تبلغ في لحوم الأبقار ١٧,٥٪ ولحم الضأن ١٥,٧٪ والبيض ١٣,٤٪ ولبن الجاموس ٤,٧٪ ولبن الأبقار ٣,٤٪ ولبن الأغنام ٦,٧٪ .. وهناك فارق ملحوظ في متوسط نصيب الفرد في مصر من البروتينات ذات الأصل الحيواني بالمقارنة بالدول المختلفة مع وجود اختلاف كبير داخل الدولة الواحدة نتيجة للتفاوت في الدخول.

هناك عوامل مساعدة على انتقال أمراض الحيوان كما ذكرنا مثل البعوض والطيور المهاجرة والهواء وعن طريق زيادة سرعة الرياح. وعلى سبيل الأمثلة لا الحصر حيث ظهر بأمريكا مرض الطاعون الأمريكي عام ١٦٤٧ وهو مرض انتقل خلال تجارة العبيد مع أفريقيا وعرف بمرض الحمى الصفراء (yellow fever) الذي ينتقل عن طريق البعوض، كما ظهرت حالات حمى الدنج (dengue fever) في آسيا وأفريقيا وشمال أمريكا عام ١٧٧٩ - ١٧٨٠ وأصبح المرض عام ١٩٩٦ متوطناً في حوالي ١٦ دولة في أمريكا الجنوبية كما اكتشف عام ١٩٣٠ أن البعوض ينقل إلى الإنسان والحيوان حمى الوادي المتصدع الذي ظهر في اليمن والسعودية أخيراً (Rift Valley fever).

بعوضة آيبدس وحمى الوادي المتصدع) ويحتوي لعاب البعوضة على مانع للتجلط (Anticoagulalant) حتى لا يتجلط الدم أثناء سحبه من جسم العائل وأخرى موسعة للأوعية الدموية (Vasodilator) حتى تضمن وصول الدم إلى مكان اللدغة وتضع الإناث لعابها على جسم العائل قبل اللدغ مما يسبب التهاب الجلد خاصة عند بعض الأفراد ذوي الحساسية العالية التي قد تصل إلى ورم واحمرار الجلد وألم شديد. واللعاب له دور كبير في نقل المرض وانتشاره عن طريق البعوض الحامل للميكروب والموجود أصلاً في الغدد اللعابية للبعوض إلى العائل أثناء سحب الدم.

ويعتمد البعوض كثيراً على عوامل البيئة المختلفة في حياته مثل الأمطار والفيضانات والرياح والجفاف.

وكما ذكرنا فإن حمى الوادي المتصدع مرض فيروسي ينتقل عن طريق الحشرات وظهر لأول مرة قرب بحيرة نيفاشا بمديرية الوادي المتصدع بكينيا عام ١٩١٢ - ١٩١٣. وفي عام ١٩١٣ قام العالمان د. هدسون ديبني وجرنهام بعزل المسبب المرضي من الحيوان والإنسان وظهر المرض لأول مرة في مصر عام ١٩٧٧ حيث ظهر الوباء فجأة في محافظة أسوان وانتشر في محافظات الوادي والدلتا عام ١٩٧٨ محدثاً خسائر في الثروة الحيوانية نتيجة نفوق الحملان والأغنام والأبقار والجاموس علاوة على حالات الإجهاض في هذه الحيوانات، بالإضافة إلى الإصابات الآدمية التي قدرت بحوالي ١٨٠٠٠ مصاب توفي منهم ٥٩٨، وقدرت الخسائر في الثروة الحيوانية بحوالي ٨٢ مليون جنيه، ولكن انحسر المرض واختفى وذلك نتيجة الجهود التي تبذلها وزارة الزراعة ممثلة في الهيئة العامة للخدمات البيطرية والمعاهد البحثية البيطرية التابعة لمركز البحوث الزراعية في

الحمى القلاعية، وهو مرض فيروسي يصيب الماشية عموماً ويعتبر ضمن مجموعة الأمراض المشتركة التي يمكن أن تصيب الإنسان أحياناً. ولكنه في الحقيقة مرض قديم ظهر في إيطاليا سنة ١٥١٤ وما أن حل القرن التاسع عشر حتى شمل الوباء كل قارات العالم ولم يكن بمقدور المزارعين والمربين معرفة خطورة هذا المرض وذلك لقصر مدة الطور الحاد للمرض ولقلة الأعداد النافقة.

ومع مطلع القرن العشرين اتضح مدى تأثير الإصابة بمرض الحمى القلاعية على الاقتصاد ويعد ذلك نقطة تحول في مقاومة هذا المرض.

ورغم النتائج الإيجابية الناتجة عن تطبيق قوانين الذبح والتحصين والوقاية إلا أنه مازالت الحمى القلاعية تهدد اقتصاد العديد من البلاد التي تعتمد على مزارع تربية الماشية. بالإضافة إلى الخسائر المباشرة الناتجة عن نقص الإنتاج.

- ومن أهم هذه الخسائر التي يسببها مرض الحمى القلاعية:

١ - نقص معدل نمو الحيوانات حيث يتوقف لعدة أشهر.

٢ - نقص إنتاج اللحم واللبن والمنتجات الحيوانية الأخرى.

٣ - قلة الخصوبة في بعض الحيوانات.

٤ - نفوق نسبة من الحيوانات وخاصة الحيوانات صغيرة السن.

وينتشر المرض في معظم بلدان العالم المنتجة للماشية فيما عدا أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى، استراليا، نيوزيلاندا، أندونيسيا، أيرلندا، شيلي، وجنوب الأرجنتين.

ومرض الحمى القلاعية مرض فيروسي سريع الانتشار يصيب الأبقار والجاموس والخنازير والأغنام والماعز والمجترات البرية، ويسببه فيروس من عائلة بيكورنيا جنس Aphthovirus ولفيروس المرض سبع عترات (أنواع) رئيسية ذات خواص مختلفة وذات درجات ضراوة متباينة، وقد لوحظ أن الإصابة أو العدوى بنوع واحد من العترات لا تعطي مناعة ضد العدوى بالعترات الأخرى، ولا توجد مناعة متبادلة بين هذه العترات أو تحت العترات المسببة للمرض. والحمى القلاعية من الأمراض المشتركة التي تصيب الإنسان أحياناً وخاصة الأطفال مسببة الحمى والقيء وظهور فقاقيع صغيرة على الشفتين واللسان وداخل الفم وأحياناً على الأيدي التي تستمر فترة قصيرة، حيث إنه من الفيروسات الضعيفة ونادراً ما يصاب به الإنسان.

صحة الإنسان!

وقدره ٢٥ كجم / سنة طبقاً لما حددته منظمة الأغذية والزراعة.

٥ - ارتفاع نصيب الفرد من ١٢ جم بروتين حيواني / يوم، عام ١٩٨٢ إلى ١٧ جم بروتين حيواني / يوم في التسعينيات رغم الزيادة السكانية، ومع ذلك فإن هذا المعدل يقل عن الحد الذي تنادي به المنظمات الدولية والذي يصل الى ٢٤ جم بروتين يوم. ولذلك فإن إستراتيجية النهوض بالثروة الحيوانية تهدف لزيادة نصيب الفرد من البروتين الحيواني ومن ضمن هذه الإستراتيجية مقاومة ومكافحة الأمراض والسيطرة أو القضاء عليها.

٦ - ارتفاع إنتاج اللحوم الحمراء من ٣٧٥ ألف طن إلى حوالي ٥٥٠ ألف طن كما ارتفع إنتاج الدواجن من ٢٤٠ ألف طن عام ١٩٨٢ إلى حوالي ٦٨٠ ألف طن وبالتالي أمكن سد الفجوة في اللحوم البيضاء وكذلك ارتفع إنتاج البيض من ٣,٤ مليار بيضة الى ٦,٨ مليار بيضة والألبان من ١,٨ مليون طن إلى ٣,٦ مليون طن.

٧ - من خلال التعرف على أعداد الوحدات المنتجة في مجال الألبان في مصر وإنتاجها

وكان للبعوض دور أيضاً في نقل أمراض أخرى مثل مرض حمى غرب النيل (west Nile Fever) كما ينقل البعوض ديدان النيماتودا التي تسبب بعض أنواع داء الفيل في الإنسان والحيوان ولا ينقل البعوض مرض نقص المناعة المكتسبة (AIDS) لهضم فيروس المرض في معدة البعوض، وتلعب الحشرات دوراً أقل خطورة في نقل بعض الأمراض للإنسان مثل حمى الثلاثة أيام في الإنسان (مثل ذبابة الرمل) ومرض القلب المائي (مثل القراد) كما تنقل أيضاً أمراضاً غير فيروسية للإنسان مثل الطاعون (البراغيث) والتيفوس (بواسطة القمل) ومرض النوم (ذباب التسي تسي).

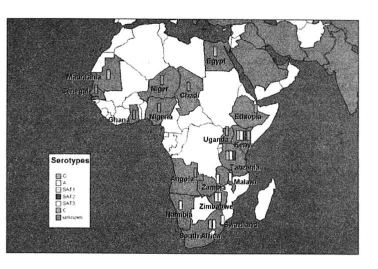
وتنتشر العدوى عن طريق البعوض إما أفقياً (Horizontal) بالطريق المباشر من حيوان أو إنسان لآخر أو العكس ويحدث ذلك في معظم الأمراض التي ينقلها البعوض أو رأسياً (vertical) حيث ينتقل الفيروس للبيضة (Trans- Overian - Transmission) ومن خلال ذلك تظهر أجيال جديدة من البعوض بعد فقس البيضة حاملة مسبب المرض علماً بأن البيضة يمكن أن تقاوم الجفاف لمدة سنوات (مثل

التشخيص والمقاومة عن طريق استعمال اللقاح المحور المستضعف لتحصين الحيوانات.

واحتمالية ظهور المرض أو عودة ظهوره ترجع إلى ورود الفيروس في دم الجمال المستوردة من السودان (الفيروس كامن في الجنين المجهض من الناقة) أو ورود الفيروس مع الحشرات الطائرة من المناطق الموبوءة عن طريق التيارات الهوائية العلوية من أفريقيا إلى الشرق الأوسط وشرق آسيا (لذا وسائل الإنذار الميكروالاستشعار عن بعد أحدث الوسائل المهمة لاتخاذ الإجراءات الوقائية حيث بدأ ظهور المرض في السعودية واليمن عام ٢٠٠٠) أو وصول مريض آدمي في فترة الحمى من السودان أو أي مكان موجود بمرض حمى الوادي المتصدع بأفريقيا كما أن تواجد البعوض في المنخفضات حول السد العالي له دور كبير في نشر المرض.

وحيث طالعتنا شبكات التليفزيون العالمية وأجهزة الإعلام بأخبار ظهور مرض

ولا يتأثر فيروس الحمى القلاعية بالمطهرات العادية أو الأساليب الشائعة لحفظ اللحوم كما لا يتأثر بالكحول والإثير ومذيبات الدهون الأخرى، ويساعد الجليسرين على احتفاظ الفيروس بحيويته خاصة إذا مزج بمحلول يمنع زيادة معدلات الحموضة حيث إن الفيروس أكثر تأثراً بالحموضة ويظل الفيروس حياً في الأدوات الملوثة لمدة ستة أسابيع وعلى الملابس والأغذية لمدة أسبوع وفي الشعر لمدة شهر وفي نخاع العظام الطويلة للحيوانات المذبوحة أو النافقة لمدة شهور نظراً لعدم تعرضها للحموضة التي تنشأ في الأنسجة كما يستمر الفيروس حياً في اللبن المبرد لمدة ٦ أيام عند درجة ١٨°م ولمدة ١٥ يوماً عند درجة ٤°م ويقضي على



خريطة تبين الموقف الوبائى للحمى القلاعية بأنواعها المختلفة بأفريقيا

الفيروس فى درجة تركيز هيدروجينى PH6.7 بينما يثبط الفيروس فى اللبن إذا تعرض لدرجة ٥٦ درجة مئوية لمدة سبع ثوان أو لدرجة ٨٠ درجة مئوية لأقل من خمس ثوان فإنه يقضى على الفيروس تماماً ويظل الفيروس حياً فى اللبن المجفف لمدة سنتين وفى الجبن لمدة تزيد على شهرين.

وفيما يتعلق بطرق الإصابة بالمرض، فهى تنتقل بطريقة مباشرة نتيجة ملامستها للمواد الملوثة بالفيروس، وفى أماكن تجمعها بواسطة استنشاق الفيروس المنبعث من اللعاب أو من إصابات القدم أو عن طريق اللبن الملوث والبول والبراز أوعن طريق وسائل النقل المختلفة والأدوات وأكياس العلائق الملوثة كما يتلوث الهواء عند وجود حيوانات مصابة بالمرض عن طريق الجهاز التنفسى.

ويبقى فيروس الحمى القلاعية لمدة طويلة فى هيكل الحيوانات المصابة وكذلك فى الغدد الليمفاوية وداخل النخاع، وتظل الحيوانات النافقة حاملة لفيروس الحمى القلاعية لمدة طويلة وتكون مصدراً للعدوى بالمرض.

وتتراوح مدة الحضانة فى مرض الحمى القلاعية من أربعة أيام إلى عشرين يوماً حسب ضراوة الفيروس ومقاومة الحيوان ولا يكتسب الحيوان بعد الإصابة بمرض الحمى القلاعية لأول مرة مناعة تستمر مدى الحياة ولكن يكتسب الحيوان مناعة لمدة حوالى سنة وضد نفس العترة التى أصيب بها، كما يكتسب النتاج حديث الولادة مناعة سلبية عن طريق السرسوب إذا كانت الأم ذات مناعة ناشئة من عدوى طبيعية أو عن طريق التحصين.

ومن بين أعراض المرض ارتفاع فى درجة الحرارة وظهور حويصلات حول الفم والخد واللثة واللسان والقدم وعلى الأظلاف، ويسيل اللعاب بشدة من الفم ويصل حتى الأرض على هيئة خيوط فضية. كما يصاب الحيوان بالعرج وعدم المقدرة على المشى نتيجة ظهور الحويصلات بين الأظلاف.

وفى الدول المتقدمة التى لا يتوطن فيها الفيروس يتم استئصال المرض والسيطرة عليه عن طريق التخلص من الحيوانات المصابة وما يخالطها من حيوانات قابلة للعدوى بمرض الحمى القلاعية بالذبح والإعدام مع اتخاذ الإجراءات الصحية اللازمة. كما يحدث فى إنجلترا الآن. ونظراً لأن الإمكانيات المحلية لا تساعد فى اتباع مثل هذا الأسلوب لذا تتلخص الإجراءات المحلية فى مقاومة المرض بعدم استيراد ماشية أو أغنام حية أو لحومها أو الألبان ومنتجاتها إلا من المناطق الخالية تماماً من الحمى القلاعية لمدة ستة شهور سابقة على التصدير على الأقل وذلك منعاً لتسرب عترات أخرى للفيروس إلى البلاد وطبقاً لتعليمات مكتب الأوبئة الدولى بباريس (OIE).

كما تتخذ إجراءات بيطرية صحية تهدف إلى القضاء على الفيروس فى الموقع المصاب ومنع انتشار التلوث خارجه بالوسائل الآتية:

(أ) عزل الحالات المصابة فى مكان بعيد ومنع اختلاطها مع الحيوانات القابلة للعدوى، عدم انتقال الأفراد المكلفين برعايتها إلى حظائر الحيوانات السليمة.

(ب) قطع الأرضيات الترابية والتخلص الصحى من علائق ومخلفات الحيوانات المصابة بالتطهير والحرق والدفن.

(ج) التطهير بالمطهرات المناسبة بمجرد الاشتباه لسرعة التحكم فى مصدر العدوى ومنع انتشاره.

(د) عدم إدخال حيوانات جديدة فى موقع سبق تعرضه للعدوى إلا بعد إخلائه وتنظيفه وتطهيره وتدخل الحيوانات بالتدريج.

وتتخذ وزارة الزراعة ممثلة فى الهيئة العامة للخدمات البيطرية للسيطرة على المرض عددًا من الإجراءات من بينها:

١ - تحصين جميع الحيوانات (أبقار، جاموس، أغنام، ماعز) على مستوى الجمهورية دورياً (كل ٤ شهور لماشية اللبن أو كل ٦ شهور للتسمين).

٢ - ثم جمع عينات سيرم من الحيوانات المحصنة قبل وبعد التحصين للاطمئنان على المستوى المناعى.

هناك أمراض أخرى مثل حمى غرب النيل وهو مرض يصيب الطيور البرية ويسبب التهاب المخ وأحيانا النخاع الشوكى، ويسببه فيروس من الفيروسات التى تنتقل عن طريق الحشرات ولا ينتقل المرض بالطريق المباشر بل ينتقل عن طريق لدغ البعوض ويصيب المرض الإنسان وبعض الحيوانات خاصة الخيول عرضياً، ويشمل تاريخ المرض اشتراك خمسة عناصر؛ ثلاثة منها أساسية [الفيروس - البعوض - الطيور] واثنان عرضيان (الإنسان والحيوان).

ومن حيث الطيور هى العائل الرئيسى بالمرض خاصة الطيور المائية وقد تم رصد أكثر من ٧٠ نوعا من الطيور التى تقوم بنقل فيروس المرض مما يؤكد أهمية دور الطيور المهاجرة فى نقل المرض كما تلعب الطيور دور الخازن أو الحامل الأساسى للفيروس. ومن هنا نؤكد على أهمية دور المسح الشامل للطيور المهاجرة والمحلية للاكتشاف المبكر للأمراض كإحدى وسائل الإنذار المبكر لتوقع حدوث الأمراض الوبائية.

وأخيرا نتيجة لسلوك الإنسان وتغييره لطبيعة الحيوان من التغذية النباتية إلى إضافة مسحوق البروتين الحيوانى المصنع من مخلفات الحيوانات النافقة والأغنام المريضة بمرض الحكة ومخلفات السلخانات، مما أدى إلى ظهور مرض جنون الأبقار أو مرض الاعتلال المخى الإسفنجى بالأبقار الذى يؤدى إلى ظهور أعراض عصبية بالحيوان نتيجة حدوث فراغات بالخلايا العصبية وحدوث شلل كامل ورقود الحيوان على الأرض نتيجة تلوث الغذاء بالبريون المعدى لمرض جنون الأبقار.

ولم تسجل رسميًا أى حالة مرضية لمرض جنون البقر فى مصر، وذلك من خلال العينات التى وردت لمعهد بحوث صحة الحيوان وتوجد إمكانيات معملية وعلمية بمعهد بحوث صحة الحيوان التابع لمركز البحوث الزراعية لتشخيص المرض، بينما المطلوب علميًا إجراء مسح شامل لظاهرة الأعراض العصبية بالأبقار وذلك حسب توصيات مكتب الأوبئة العالمى بباريس (OIE) لتسجيل وتصنيف أن مصر خالية من مرض جنون البقر. وهذا التسجيل يجعل مصر مركزاً لإنتاج الجيلاتين والشحوم الحيوانية وبعض المنتجات الدوائية التى يمكن تصديرها لدول العالم.

ثم نستعرض مرضًا آخر وهو مرض نتيجة عوامل بيئية واجتماعية واقتصادية

ثبت أن السل يقتل الكثير من الشباب اليافع والبالغ وهو قاتل أكثر ضراوة من الملاريا والإيدز معا .. وبينما يقتل من النساء أكثر مما تسببه عمليات الولادة والإجهاض فهو يقتل أيضا حوالى مائة ألف طفل كل عام. ولعل ذلك وغيره مما دفع منظمة الصحة العالمية لاتخاذ خطوة غير مسبوقة عام ١٩٩٣ عندما أعلنت أن السل مرض عالمى



رغم شهرته الواسعة كمرض يرتبط بالأوضاع الاجتماعية ونظم المعيشة من غذاء وسكنى ونظافة وأنماط عمل وسلوكيات .. فقد خيل للعالم خلال العقدين الأخيرين بفعل ارتفاع مستويات المعيشة والدخول والتقدم الطبى والعلمى عامة، أن الدرن أو السل يودع عالمنا إلى غير رجعة



وسلوكيات الإنسان ألا وهو مرض الفقراء أى مرض السل.

فرغم شهرته الواسعة كمرض يرتبط بالأوضاع الاجتماعية ونظم المعيشة من غذاء وسكنى ونظافة وأنماط عمل وسلوكيات .. فقد خيل للعالم خلال العقدين الأخيرين بفعل ارتفاع مستويات المعيشة والدخول والتقدم الطبى والعلمى عامة، أن الدرن أو السل يودع عالمنا إلى غير رجعة .

ونظرة إلى ما يبث حاليا فى جنبات الدنيا الأربعة تكشف لكل ذى بصيرة خطورة الموقف وحتمية التكتل لعمل شىء حقيقى ... فقد ثبت أن السل يقتل الكثير من الشباب اليافع والبالغ وأكثر من أى مرض معدٍ آخر فى العالم الآن . هو قاتل وأكثر ضراوةً من الملاريا والإيدز معا .. وبينما يقتل من النساء أكثر مما تسببه عمليات الولادة والإجهاض فهو يقتل أيضا حوالى مائة ألف طفل كل عام . ولعل ذلك وغيره مما دفع منظمة الصحة العالمية لاتخاذ خطوة غير مسبوقة عام ١٩٩٣، عندما أعلنت أن السل مرض عالمى ... يثير قلق البشرية ويهددها ... ومن ثم يستوجب إعلان حالة الطوارئ الدولية .وتَوَقَّعتْ أنه من الآن وحتى عام ٢٠٢٠ - سيصاب أكثر من بليون شخص جديد بهذا الداء وسوف يسقط مائتا مليون منهم مرضى ، بينما سيقضى نحبهم نحو سبعين مليونا منهم، ما لم يتحرك العالم ويتم اتخاذ إجراءات وقائية ناجحة ...



وبالنسبة لفرص المرض فى الدول النامية - فحدث ولا حرج - حيث تدفقت المعلومات من كل صوب، لتؤكد أن عام ١٩٩٨ شهد مصرع أعداد لم يشهدها عام آخر عبر التاريخ بسبب السل .

كما تؤكد حدوث فورة جديدة من المرض الآن فى شرق أوربا حيث تتسارع أعداد الوفيات وتتضاعف بعد أربعين عاما من تجمد الموقف الوبائى للسل فى تلك المناطق ... وأشارت الأرقام فى خوف إلى أن اكبر معدلات الوفيات سوف تتركز فى جنوب شرق آسيا ..

وعن الدول النامية مازال سيل الأرقام يتدفق .. حيث يقتل السل من ٢ - ٣ ملايين شخص كل عام. وأنه قد ثبت ازدياد الإصابة بنسبة ١٣٪ بين عامى ١٩٩٣ - ١٩٩٦ وأن حوالى مليونى حالة سنويا من المصابين بالسل تحدث بين سكان جنوب الصحراء الكبرى بأفريقيا، وحوالى ٣ ملايين حالة سنويا فى جنوب شرق آسيا ، وأكثر من ربع حالات الإصابة تحدث فى شرق أوربا .ويبدو أنه حتى فى أوقات الخطر - لا ينسى البعض انحيازاته النوعية .. فقد أثارت وسائل الإعلام المعنية بشئون المرأة ضجة بالغة بعد اجتماع خبراء السل العالميين تحت مظلة منظمة الصحة العالمية مؤخرا فى السويد حيث حذرت العالم من خطر السل ... ذلك الطاعون الجديد ... الذى أصبح السبب الأول فى وفيات النساء ما بين ١٥ و ٤٤ عاما وأن ٩٠٠ مليون فتاة وسيدة قد أصبن بميكروب الدرن وينتظر أن تظهر الأعراض على ٢,٥ مليون منهم خلال العام الحالى . وسوف تلقى أكثر من مليون امرأة حتفها بسبب تأثر جهازها المناعى بهذا المرض المعدى .. وتؤكد تلك الأجهزة على وفاة ٧٠٠ ألف امرأة فى آسيا عام ١٩٩٧ مقابل ٣٩٠ ألف امرأة فى أفريقيا ، ٦٦ ألف سيدة فى القارة الأمريكية ، ٥٠ ألف حالة من النساء والشابات فى دول أوروبا الشرقية فى عام ١٩٩٧ .

وتنهى أجهزة ضخ المعلومات العالمية بياناتها التى لن تنتهى بسهولة بعدة ثوابت تؤكدها الخبرات المتراكمة حيث تقول إن أسلوب حركة وتنقلات الأشخاص على المستوى الفردى والإقليمى والعالمى تؤدى إلى ازدياد الإصابة بالمرض ، كما أن حالات فقدان المناعة المكتسبة تزيد ارتفاع معدلات الإصابة ، وأخطر من ذلك فإن البرامج المعدة لمكافحة المرض والتى تتميز بسوء الإدارة تجعل من المرض مرضا غير قابل للشفاء ولأن السل مرض مشترك بين الإنسان والحيوان فلعل هذه العجالة تمثل قطرة فى محيط مواجهة هذا الخطر الداهم ، ودافعا لمزيد من الفعل الجاد للتصدى له .

ونظرا لما سلف ذكره، فهناك دور لابد أن تنهض به وزارة الزراعة لتعظيم الإمكانيات الذاتية والنهوض بالثروة الحيوانية وذلك لسد الفجوة الغذائية للإنسان والحيوان من خلال مقاومة الأمراض الوبائية للحفاظ على الثروة الحيوانية وحماية الإنسان بمصرنا الحبيبة. ■

«موسوعة الأدب العربى»
بين نبل الهدف وقصور الجهد

صـــبـــرى حـــافـــظ

لاشك أن صدور هذه الموسوعة الأدبية الجديدة والفريدة معا عمل مهم وضرورى إلى أقصى حد. ومبادرة رائدة تستحق الثناء عليها والاعتراف بقيمتها كمبادرة ثقافية مهمة بسبب تنامى الاهتمام بالأدب العربى فى العالم الناطق باللغة الإنجليزية، بل فى العالم أجمع. لأن اللغة الإنجليزية أصبحت من اللغات المتاحة بقدر لابأس به من اليسر والسهولة لكل الباحثين فى شتى بقاع العالم. ولأن صدور موسوعة للأدب العربى فى هذه اللغة له أهمية صدور عدة موسوعات فى نفس الحقل المعرفى بلغات أوروبية أو غير أوروبية عديدة. فالموسوعات الكبيرة من هذا النوع، ليست مجرد أداة من أدوات البحث، وهى كذلك فى المحل الأول، ولكنها أداة لتنظيم المعرفة فى الحقل الذى تتناوله، ولنشر المعلومات الدقيقة عنه، بصورة تتيح لقارئها أو مستخدمها أن يمحص معرفته عن أى عمل يقرأه أو كاتب يصادف اسمه فى مقال ما، وأن يموضع كلا منهما فى سياق ثقافته، وضمن تطورها التاريخى والمعرفى. وهى فضلا عن هذا كله اعتراف ثقافى بأهمية الحقل الذى تخصص الموسوعة لتغطيته، وتكريسه كحقل معرفى جدير بأن تكون له موسوعته. لأن تأليف الموسوعة يتطلب قدرا من الاستثمار المادى والمعرفى لا يقبل الناشرون على الاستثمار فيه إلا بعد اقتناع بجدارته بهذا الاستثمار، وبأن مردود الاستثمار المادى والمعرفى فى هذا الحقل مضمون إلى حد ما.



وقد أصابت هذه الموسوعة من هذه الناحية الأولية فى تحقيق أهدافها. إذ رسمت حدود المجال المعرفى الذى تغطيه، وبرهنت على أهميته وحيويته وثرائه. وقدمته كحقل معرفى متماسك، له استمراريته التاريخية، برغم تباينات أجناسه ومراحله ومناطقه الجغرافية. وفضلا عن هذا كله تعد هذه الموسوعة عملاً مهمًا لأن الأعمال التى تنتمى لصناعة الثقافة الثقيلة من هذا النوع نادرة لما تحتاجه من استثمار وجهد كبير. تقوم به الدول أو المنظمات الكبرى فى كثير من الأحيان، ولكن الذى اضطلع به فى هذه الحالة ناشر إنجليزى خاص دون أى عون من المؤسسات العربية أو غير العربية. وهى عمل مهم وطموح. ثالثا لأن هذه هى المرة الأولى، لا فى اللغة الإنجليزية وحدها، بل فى اللغة العربية ذاتها، التى نعثر فيها بين دفتى كتاب واحد كما تقول مقدمة الموسوعة على «أهم الكتاب، والأعمال، والأجناس الأدبية، والمصطلحات الأدبية الرئيسية، والموضوعات المهمة فى التراث الأدبى العربى منذ العصر الجاهلى وحتى العصر الحديث مرورا بكل مراحل هذا الأدب القديمة والوسيطة».

وهذا فى حد ذاته عمل جليل ونبيل. لأنه ينطلق من مصادرة أساسية بوحدة الثقافة العربية فى عصورها القديمة والوسيطة والحديثة. وبوحدة الأدب العربى واستمراريته التاريخية والموضوعية معا، باعتباره التعبير الأدبى عن ثقافة واحدة، وليس عن ثقافات متعددة. وهى مصادرة على درجة كبيرة من الأهمية وتستحق الكثير من التقدير، خاصة ونحن نعرف أن التصور السياسى الغربى للعالم العربى يسعى لتأكيد عدم وحدته من

Encyclopedia of Arabic Literature (two volumes)

(موسوعة الأدب العربي «مجلدان»)

Edited by Julie Scott Meisemi, Paul Starkey

London, Routledge, 1998, 857pp.

النواحي التاريخية والجغرافية والقومية على السواء، منذ كانت «فرق تسد» هي أداة الاستعمار القديم للحكم، وحتى أصبحت الزراية بالتاريخ العربي وبتصور العربي لهويته وقوميته ووحدته هي أداة الاستعمار الأمريكي الجديد للسيطرة على واقعنا العربي الراهن. وهو تصور يحرص على إبراز التناقضات العرقية والإقليمية والثقافية لا داخل المنطقة العربية الكبيرة فحسب، وإنما داخل حدود القطر العربي الواحد كذلك.

ويعلن محررا الموسوعة في مقدمتهما لها أن النموذج الذي نسجا على منواله، وتوخيا الاقتراب من إنجازه في تأليف هذه الموسوعة هو نموذج سلسلة معاجم أوكسفورد الشهيرة المعروفة بـ Oxford Companion التي قدمت عبرها مؤسسة نشر جامعة أكسفورد العريقة موسوعاتها الميسرة للأدب الإنجليزي وغيره من الآداب الكلاسيكية القديمة إلى الأدب الفرنسي أو الألماني أو الإيطالي أو الأمريكي، وكذلك من الفنون العديدة من موسيقى ومسرح وفن تشكيلي. ولأنني من الذين يستعملون هذه المعاجم الأوكسفوردية الشهيرة، ومن المعجبين بمنهجها الموسوعي الذي جعلها أدوات لا غنى عنها للباحثين في كل اللغات والثقافات، فقد قررت استخدام هذه الموسوعة الجديدة لعام قبل الكتابة عنها. فمحك الحكم على الموسوعات ليس قراءتها أو تصفحها، لأنه ليس بطاقة أحد أن يقرأ موسوعة مهما كانت درجة فراغه، ونحن نعيش في عالم يتآكل فيه وقت الفراغ باستمرار. كما أن التصفح وحده، لن يمكن الباحث من اكتشاف مزايا الموسوعة وعيوبها. فالموسوعات أولا وأخيرا أدوات للبحث والمعرفة، قبل أن تكون كتبا للقراءة والإطلاع. وكلما استخدمت هذه الموسوعة وطال أمد استخدامي لها كلما اكتشفت المزيد من نواقصها وتناقضاتها وعيوبها، وكلما أدركت عجزها عن تلبية كثير من الحاجات المعرفية التي صدرت من أجل سد النقص فيها.



ومن البداية نجد أن إشارة المحررين إلى أنهما نسجا في موسوعتهما على منوال المعاجم الأوكسفوردية الشهيرة تستدعي من مراجع هذه الموسوعة مقارنتها بها. وهي مقارنة سرعان ما تخرج منها هذه الموسوعة خاسرة، لأن زعمهما بالنسج على منوال المعاجم الأكسفوردية الشهيرة ليس إلا تعبيرا عن طموح قصر الجهد عن الاقتراب من مشارفه. فليس لها سعة المجال، ولا اتزان الحكم، ولا دقة تمحيص المادة التي نجدها مثلا في معجم أكسفورد للأدب الإنجليزي Oxford Companion of English Literature أو الأدب الفرنسي أو الأدب الأمريكي. فقد أسندت أكسفورد مثلا تحرير الطبعة الجديدة من معجمها للأدب الإنجليزي إلى واحدة من أنشط الفاعلين في الحقل الثقافي الإنجليزي وهي الروائية والناقدة الإنجليزية مارجريت درابل. فلابد للطبعة الجديدة، وهي تبنى على تراث قديم ترسخت فيه إنجازات القرون السابقة، من أن تواكب جديد الأدب الإنجليزي ورصينه معا. لذلك حظي الجهد الذي بذلته درابل في مواكبة حركة الأدب الإنجليزي في القرن العشرين بشمول ورصانة بإطراء النقاد والدارسين. وهو الأمر الذي لم تحققه للأسف هذه الموسوعة الجديدة عن الأدب العربي. لأنها لم تتمكن من تحقيق التوازن المطلوب في مثل هذه المراجع بين الشخصيات والأعمال والمصطلحات.

والواقع أن الأدب العربي الذي يمتد لأكثر من خمسة عشر قرنا، ويغطي الإنتاج الأدبي لما يقرب من عشرين بلدا يستحق أن تكرس له أحد معاجم أكسفورد الشهيرة تلك، لا أن تكون موسوعته ضمن مشروعات ناشر جديد في هذا المجال مثل دار نشر روتليدج Routledge النشيطة.

والواقع أن هذه الموسوعة، بالرغم من صدورها في جزءين، إلا أنها أقصر من حيث عدد الصفحات، مع تجاوز صفحاتها الثمانمائة صفحة، من أي من تلك الموسوعات الأكسفوردية التي كرست لأدب بلد واحد وثقافة واحدة. ومع ذلك فلابد من أن نحيي بداءة هذا الجهد العلمي الذي جاء ليسد فراغا حقيقيا في المكتبتين العربية والغربية. وأن نشيد به وبما بذله القائمون عليه من جهد. وبعد هذه التحية الواجبة لابد من التأكيد على أن هذه الموسوعة تعاني من الخلل الشديد، ونقص المادة، وغياب الكثير من الشخصيات والأعمال والمصطلحات عنها. ولكن عذرها أنها عمل رائد في هذا المجال، ولذلك فقد عانت من عثرات الأعمال الرائدة والأولى. ويبلغ ضعف الموسوعة وما بها من خلل وتخليط ذروته في تغطيتها للأدب الحديث. ذلك لأن هناك موسوعات أخرى في الثقافة الغربية سبق لها أن غطت، وبمزيد من التوسع والإحاطة، الأدب العربي القديم، من (دائرة المعارف الإسلامية Encyclopaedia of Islam) الشهيرة والتي تتوافر في أكثر من لغة أوروبية ومنها العربية إلى (قاموس الآداب الشرقية Dictionary of Oriental Literatures) وهي موسوعات ساهمت في دعم تغطية الجانب المتعلق بالآداب العربية القديمة والوسيطة في الموسوعة وإقالة الكثير من عثراته والتغلب على نواقصه. وهو الأمر الذي لم يتوافر في الأدب العربي الحديث الذي يعاني بحق من غياب المراجع الموسوعية عنه. فضعف الموسوعة في مجال الأدب الحديث هو ابن التواريخ الاستشراقية القديمة التي استمرت لأمد طويل الزعم بأن الثقافة العربية هي ثقافة حضارة قديمة درست، ولم يعد لها في حاضرها ما يستحق الاهتمام، ولذلك على الدارس الاكتفاء بمعرفة قديمها وحده. وهو زعم كرس تجاهل هذه الثقافة للأدب الحديث وجهلها الفاضح به لعقود طويلة. وأعفى كثيرًا من المستشرقين من التمكن من اللغة العربية، أو تكبد مشاق الحديث بها. فهي كاللغة اللاتينية عندهم ماتت منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية ولم يعد أحد يتحدث بها.

والواقع أن المحررين يعبران في مقدمتهما عن وعيهما بما تنطوي عليه الموسوعة من خلل، ويقدمان اعتذاراتهما المسبقة في هذا الشأن حينما يقولان إن «من الحتمي في مطبوعة من هذا الطراز أن تكون هناك بعض الفجوات. وقد كانت بعض هذه الفجوات حتمية بالطبع إذ نجمت عن ضرورة ألا يتجاوز حجم الموسوعة عددا معينا من الصفحات. أما في بعض الحالات الأخرى فقد تم للأسف التخلي عن مواد كانت موجودة في قائمة المحررين الأصلية، عندما أخفقنا في العثور على كتاب يستطيعون الكتابة عنها بكفاءة، أو يقبلون الكتابة ضمن الفسحة الزمنية المتاحة. وفي بعض الحالات الأخرى، وهي لحسن الحظ قليلة، فإن من وعدونا بتقديم مواد محددة لم يفوا بوعودهم، ولم يتح لنا بعد تقاعسهم الوقت الكافي لتكليف غيرهم بكتابتها. أما الجانب الآخر لهذا كله، فقد ظهرت بعض المواد التي قد يجدها أغلب القراء غريبة أو مستهجنة أو غير متوقعة، لأن بعض من كلفوا بالكتابة للموسوعة تطوعوا بتقديمها لنا لحماسهم لها، وقد كانت هذه المواد شيقة إلى الحد الذي لم نستطع معه رفضها».



تعد هذه الموسوعة عملاً مهمًا لأن الأعمال التي تنتمي لصناعة الثقافة الثقيلة من هذا النوع نادرة لما تحتاجه من استثمار وجهد كبير. تقوم به الدول أو المنظمات الكبرى في كثير من الأحيان، ولكن الذي اضطلع به في هذه الحالة ناشر إنجليزي خاص دون أي عون من المؤسسات العربية أو غير العربية



والواقع أن الباحث ما أن يستخدم هذه الموسوعة لفترة من الزمن حتى يكتشف أن هذا ليس مجرد تكرار للاعتذار التقليدي والضروري لتواضع العالم وحيطته في عمل بهذا الحجم وبهذا الطموح، ولكنه اعتذار يثير العديد من التساؤلات حول مدى صرامة سياسة تحرير هذه الموسوعة المهمة ومدى عشوائيتها. بل يوشك أن يكون تعبيرا عن السياسة التحريرية للموسوعة، وعن المبادئ الحاكمة لإنتاج مادتها، وليس مجرد اعتذار عن تجاوز المطامح عادة للإنجازات. لأن الباحث الملم بهذا الحقل المعرفي سرعان ما يكتشف أن أهم عيوب هذه الموسوعة هو افتقارها للصرامة التمحيصية التي هي السمة الأساسية، بل التعريفية، للموسوعات. فالصرامة والدقة وتحرير المادة والقصد هي رديف كلمة موسوعة في اللغة، ونظيرها في المفهوم. والغريب أن هذا التخبط يرافقه ما يمكن دعوته بالتحيزات الاستشراقية الواضحة. وهي مفارقة مؤسية، لأن الاستشراق القديم، كان برغم تحيزاته الجائرة يفاخر برصانة مادته ودقة معلوماته. وكانت هذه الرصانة العلمية القائمة على التمحيص والتحرير هي سمة هذا الاستشراق التي يستند عليها في تحقيق مشروعيته في الحقل المعرفي الذي يعمل فيه، بالرغم من التحيزات الأيديولوجية التي تحكم منطلقاته.

وتكشف هذه التحيزات الاستشراقية عن نفسها في ميل الموسوعة للأدب القديم والوسيط على حساب الحديث. وقد اتسم الاستشراق القديم، ولعقود طويلة من الزمان، بالانطلاق من تصور مفاده أن العرب قوم كانت لهم حضارة قديمة وبادت، وأن على دارس ثقافتهم أن يتعامل معها باعتبارها ثقافة دارسة اندثرت منذ أمد بعيد، كما ذكرت. وكانت هناك بسبب هذا التصور الراسخ مقاومة كبيرة للأدب الحديث، لأن مجرد وجوده ينال من مصداقية هذا التصور الذي كان يخدم بالقطع تصورات استشراقية، ومازال. ولأن المعرفة قوة، ولأن للصورة السائدة عن ثقافة بعينها دورها في تكوين الاتجاه الغربي العام تجاهها، فإن لهذا التصور خطورته الثقافية والسياسية على السواء. فإن استقرار الاعتقاد بأن الثقافة العربية بادت ولا حاضر لها، ييسر كل ما يقترف في حق الواقع العربي والإنسان العربي من مظالم وآثام. كما أن انطلاق موسوعة من مثل هذا التصور، والموسوعات ذات عمر طويل نسبيا في أي ثقافة بالنسبة للعمر الفاعل لغيرها من التآليف، له دوره في تكريسه وإطالة أمد فاعليته في الثقافة الإنجليزية التي تعد مرجعا ثقافيا ـ بسبب سطوة اللغة الإنجليزية والقوة العظمى الأمريكية الناطقة بها ـ له تأثيره الكبير على صياغة الصورة المستقرة للعالم ولخريطة المكانات الثقافية فيه.

لهذا كله أعتبر هذا الخلل الأولي من أخطر سلبيات هذه الموسوعة. فإذا كانت موسوعات أكسفورد قد أوكلت لكاتبة معاصرة الإشراف على الطبعة الجديدة لمعجم الأدب الإنجليزي بها كما ذكرت، فإن هذا ابن وعي حاد بأهمية أن تبدو الثقافة الإنجليزية الطالعة من صفحات المعجم كثقافة حية ومعاصرة بل متجددة في المحل الأول. وهذا هو سبب تركيزي على دلالات هذا الخلل السلبية. لأن (موسوعة الأدب العربي)، على العكس من (موسوعة أكسفورد للأدب الإنجليزي) تكرس القسط الأكبر من صفحاتها للأدب القديم الذي ينال ثلثي صفحاتها، ولا يبقى للأدب الحديث إلا الثلث الأخير. وقد أدى هذا إلى تغطية أعلام الأدب القديم والوسيط.

وأجناسه الأدبية المختلفة، بينما نجد أن تغطية أجناس الأدب الحديث وأعلامه تتسم بالفقر المدقع. والغريب أن الأدب الحديث أشد حاجة لمثل هذه الموسوعة من الأدب القديم الذى تيسر للباحثين تغطيته فى المعاجم العربية والغربية على السواء، وأشهرها دائرة المعارف الإسلامية. ويمتد هذا التحيز إلى الجداول التاريخية المفيدة التى تنتهى بها الموسوعة (ص٨٣٥-٨٤١) والتى يبدو أنها تتوقف بشكل غامض عند القرن السادس عشر. أهى التصورات الاستشراقية القديمة عن أن حضارة العرب قد توقفت فى هذا الوقت، الذى انتقلت بعده السيادة للدولة العثمانية المشئومة؟ أهو تكرار جديد لانحطاط الثقافة العربية فى العصر العثمانى؟ والواقع أننا بحاجة إلى جدول تفصيلى للمرحلة الحديثة، وكل ما قدمته الموسوعة فى هذا الشأن هو قائمة بأسرة محمد على من حكام مصر. وهو أمر دال فى حد ذاته: أتقول لنا الموسوعة أن العصر الحديث فى مصر هو العصر الاستعمارى، وأنه ما أن تحررت مصر من أسرة محمد على ومن الاستعمار البريطانى معها حتى توقف تاريخها؟ أم أنها حدود المعرفة القاصرة؟ وما هو وضع بقية البلدان العربية فى العصر الحديث، بما فيها تلك التى وقعت فى ربقة الاستعمار؟ أين تواريخها فى الجداول التاريخية للموسوعة؟ وما هى دلالة هذا الصمت والغياب؟




أما الجانب الآخر لهذا التحيز الاستشراقى فقد أسفر عن نفسه فى غلبة المستشرقين على الباحثين العرب فى تحرير هذه الموسوعة. لأن أغلب محرريها من المستشرقين الغربيين، وحتى العرب القلائل الذين نجد أسماءهم فى هذه الموسوعة، فإنهم من العاملين فى المؤسسات التعليمية، أو الاستشراقية الغربية. ولم يكلف المحرران نفسيهما عناء الاتصال بأى باحث يعمل فى أى جامعة عربية، إلا من قبيل ذر الرماد فى العيون، أو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة. فقد شارك فى تحرير هذه الموسوعة، أو بالأحرى فى كتابة مواد لها ١٠٤ باحثين، ليس بينهم إلا ثلاثة يعملون فى جامعات عربية، وأحد هؤلاء الثلاثة مستشرق غربى يعمل فى جامعة السلطان قابوس بعمان. ويبدو أن هذا يتسق مع التصور الاستشراقى السقيم، ولا أريد أن أقول التصور الاستعمارى، بأن «أهل البلد الأصليين» Natives لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم، أو تناول ثقافتهم بمنهج غربى متطور. وعندما توجه المحرران إلى الشرق الأوسط، فإنهما لم يذهبا إلى أى بلد عربى، ولم يتوجها إلى الجامعات العربية الكبيرة أو العريقة، وإنما إلى الدولة العبرية فى فلسطين المحتلة، حيث تعاملا مع كل من يعرف أدنى شىء عن الثقافة العربية، أو يلم ببعض قشورها وسفاسفها. وكانت المفارقة المؤسية الناجمة عن ذلك أن هناك سبعة مشاركين من مختلف الجامعات العبرية، ومشاركان فقط من كل الجامعات فى كل الأقطار العربية العشرين. وكان من الطبيعى أن تعانى المادة التى كتبها باحثون من الدولة الصهيونية فى فلسطين المحتلة من التخلف والقدم، إذ نجد أن بعضها قد تجاوزه الزمن بأكثر من ثلاثين عاما، كما هو الحال فى مادتى «قصيدة النثر» و«الترجمة» على سبيل المثال لا الحصر. والواقع أن غياب المشاركين من الجامعات العربية الرئيسة قد أضعف الموسوعة بشكل كبير، إذ حرمها من الباحثين القادرين على متابعة آخر التطورات فى الأدب العربى الحديث وملاحقة أحدث إصداراته وأكثر قضاياه حيوية وسخونة، فى هذا الميدان المعرفى الكبير الذى يتسم بالخصوبة وتلاحق الإصدارات. كما حرمها

يعلن محررا الموسوعة فى مقدمتها أن النموذج الذى نسجا على منواله، وتوخيا الاقتراب من إنجازه فى تأليف هذه الموسوعة هو نموذج سلسلة معاجم أوكسفورد الشهيرة المعروفة بـ Oxford Companion التى قدمت عبرها مؤسسة نشر جامعة أكسفورد العريقة موسوعاتها الميسرة للأدب الإنجليزى وغيره من الآداب

حتى من معرفة أبرز إنجازات الباحثين العرب فى مجال الأدب القديم والوسيط على السواء. فلا نجد فى الموسوعة إشارة واحدة إلى أى من كبار محققى النصوص القديمة والوسيطة من الباحثين العرب من محيى الدين عبدالحميد ومحمود شاكر وأبوالفضل إبراهيم وعبدالسلام هارون وغيرهم.

وقد أعلنت الموسوعة أن هدفها هو أن تجمع فى «مجلد واحد أكثر الكتاب أهمية، وأهم الأعمال والأجناس الأدبية والمصطلحات الأساسية والقضايا». ومع أنها ظهرت فى نهاية الأمر فى جزءين لا فى مجلد واحد، فإنها أخفقت فى تحقيق هدفها المعلن ذاك. إذ نجد فيها الكثير من المداخل عن الكتّاب، أو بحسب تعبيرها «عن أكثر الكتاب أهمية»، ومن وجهة نظر محدودة وإشكالية بالطبع، ولكننا لانستطيع العثور فيها على «أهم الأعمال والأجناس الأدبية والمصطلحات الأساسية والقضايا». فليس فيها مدخل عن الرواية العربية، أو عن القصة القصيرة، بالرغم من أنه ليس ثمة نزاع فى أن كليهما من الأجناس الأدبية المهمة فى الأدب الحديث. ومع ذلك فثمة مداخل عن المسرح الحديث منه والوسيط، ومدخل عن القص بشكل عام. والمدخل الخاص بالمسرح الحديث كتبه أحد محررى الموسوعة، مما يعنى أنه واع بأهمية المسرح فى الأدب الحديث، وهو أمر يثير تساؤلا عن أسباب تجاهل الرواية والقصة القصيرة. هذا فضلا عن أنه ليس ثمة مدخل واحد عن أى عمل من الأعمال البارزة فى الأدب الحديث. فلم يحظ أى عمل من أعمال نجيب محفوظ الحاصل على جائزة نوبل فى الأدب بمدخل مستقل، ولا حتى ثلاثيته العظيمة (بين القصرين) و(قصر الشوق) و(السكرية). وهى أعمال ما كان ممكنا لموسوعة تتوخى أن تقتفى خطى معاجم أكسفورد الشهيرة أن تهملها. ويبدو أن الموسوعة تبلغ قارئها فى هذا المجال رسالة مضمرة، ولكنها بالغة الخطورة، وهى أنه ليس ثمة أعمال أو أجناس أدبية أو مصطلحات وقضايا جديرة بالذكر فى الأدب الحديث. وهى رسالة بالغة الخطورة والخطر فى آن.



وحتى المداخل التى تناولت الأعمال والأجناس الأدبية والمصطلحات والقضايا فى الأدب القديم والوسيط، فإنها لا تقدم لنا سياسة تحريرية تتسم بالاتساق ويحكمها منطق واحد. إذ تقرر مقدمة الموسوعة «أن هدفنا من تأليف هذه الموسوعة هو تقديم أحدث ما وصلت إليه الدراسات الجادة فى الأدب ما وسعنا الجهد، حيث سنعتمد على الدراسات الحديثة وليس على الرواسى القديمة التى استقرت عليها الدراسات التقليدية». ويبدو أن هذا الأمر لم يتحقق إلا فى حالات نادرة، لأن هناك الكثير من الحالات التى تبرهن على عكس ذلك كلية. فالمدخل الذى تقدمه الموسوعة عن (ألف ليلة وليلة) يتميز عن غيره من المداخل الكثيرة المشابهة بأنه يتناول تأثير هذا العمل الأدبى الكبير على الرواية الحديثة وعلى الشعر الحديث فى كل من العالم العربى وأمريكا فى العقود الأخيرة. وهذا هو الحال كذلك بالنسبة للمداخل التى تناولت النحو والنحاة والترجمة والمعاجم والتى تسعى للوصول بتغطيتها لمادتها إلى الزمن الحديث. لكن المدخل المتعلق بالمنتخبات anthologies وهى جنس أدبى راسخ يمتد من (المفضليات) فى القرن الثامن وحتى العصر الحديث، يقتصر بشكل غريب على المنتخبات القديمة وحدها، ويتجاهل المنتخبات الحديثة كلية، مع أن هذا النشاط الأدبى فى جمع المنتخبات لم يتوقف فى العصر الحديث منذ أن جمع محمود سامى البارودى مختاراته فى مطلع القرن وحتى الآن. وهذا هو الحال مع مداخل مثل الأمثولة، والإحالة، والتناص، والنثر الفنى، والأجناس الشعرية، والأدب الجغرافى، والخيال، والسيرة، والشروح، والارتجال، والأدب الفلسفى، وغيرها إذ تقتصر المعالجة فيها على القديم دون الحديث، حتى عندما يكون واضحا أن هذه الأجناس تمتد حتى العصر الراهن.

ومن المفارقات الغريبة فى هذا الصدد أن الموسوعة تكرس ثلاثة مداخل مختلفة للصوفية وأثرها، دون أن يتناول أى منها أثرها على الأدب العربى الحديث. ففى الشعر الذى أفردت له الموسوعة مدخلا خاصا حول الشعر الصوفى فإن هذا المدخل ينتهى عندها فى القرن السابع الهجرى بتأليف بردة البوصيرى دون أن يذكر شيئا بعد هذا التاريخ. ومع توسع الموسوعة نسبيا فى تغطية الشعر، وهو توسع يحمل ترسبات التاريخ الاستشراقى القديم لدراسة الأدب العربى والذى يعتبر أنه هو فن العرب الوحيد، لأنه فنهم القديم، فإن الموسوعة لم تجهد نفسها فى تتبع أثر النصوص الصوفية على الشعر الحديث، والذى لابد أن عددا من الذين تناولوه يعرفون مدى تأثير الصوفية لغة وقاموسا ورؤية، إلى حد استعارة بعض الشعراء المحدثين مفرداتها وصورها، على عدد من أبرز الشعراء المعاصرين، لانجد له ذكرًا أو تغطية فى هذه المداخل المختلفة. وهذا هو نفس الحال مع مدخل النثر الصوفى الذى يكتفى بذكر نماذج قديمة وشائعة مثل ابن عربى والسراج ولا يشير إلى النفرى أو أبوحيان التوحيدى. ناهيك عن أى تأثير للأدب الصوفى على الرواية أو القصة القصيرة فى الأدب الحديث، وثمة نماذج كثيرة فى هذا المجال تمتد من نجيب محفوظ وحتى أحدث كتاب القصة والرواية فى جيل التسعينيات، كما هو الحال مع منتصر القفاش مثلا.



والواقع أن إحدى السمات الفاشية فى هذه الموسوعة هى افتقارها للنسقية والإحكام المنهجى. فهناك مثلا مدخلان عن مدينة القاهرة: أحدهما عن قاهرة العصر الوسيط والآخر عن قاهرة العصر الحديث، بينما ثمة مدخل واحد عن دمشق فى العصر الحديث، وآخر عن بغداد فى العصر الوسيط فقط، وكان بغداد لاحاضر لها أو كأنها اندثرت (وربما كان هذا ما يرجوه الغرب لها بحصاره الظالم)، وثالث عن تونس الدولة لا المدينة، والحديثة لا الوسيطة، بينما ليس هناك مدخل عن فاس أو مراكش. فإذا ما تمحصنا هذه المداخل فسنجد أنها شديدة الاختلاف عن بعضها البعض، ولا يوجد منهج واحد يحكم كتابتها. فبينما يهتم مدخل القاهرة الحديثة بمعالم النهضة العمرانية والبنية الثقافية لمؤسسات المدينة، فإن مدخل دمشق الحديثة يهتم بكتاب سوريا عامة وبتأثير الرقابة والتسلط السياسى عليهم. ويقدم لنا مدخل تونس الحديثة عرضا مختصرا لتطور الأدب العربى الحديث فى تونس. ونجد الافتقار نفسه فى النسقية والمنهجية إذا ما قارنا المدخل المكتوب عن بغداد فى العصر الوسيط، وهو مدخل جيد يربط بين المدينة وتطور الدولة العباسية وبين عمران المدينة وتطور بنية الدولة، بذلك المكتوب عن قاهرة العصر الوسيط سنجد أنه مدخل مليء

بالفجوات التاريخية والانتقائية ويفتقر إلى أية فكرة أساسية عن دور المدينة في مسيرة الثقافة أو بنية الدولة على السواء.

فإذا انتقلنا إلى مجال آخر، وهو مجال المؤسسات العلمية والثقافية سنجد أن المدخل الذى تناول مؤسسة الأزهر مثلا يعانى من الهزال فى سرده التاريخى فى مرحلة مابعد القرن الثامن عشر. إذ تختلط فيه التواريخ، ويتعثر الحديث به عن الإصلاحات، ولا نجد فيه أى ذكر لدوره إبان حملة نابليون بونابرت على مصر. ناهيك عن قانون إصلاح الأزهر فى الستينيات فى العصر الناصرى، وما ترتب عليه من تحويله إلى جامعة حديثة أقرب ما تكون من حيث البنية وشمول الاهتمامات المعرفية للجامعة العصرية. وسيكون من التزيد مطالبة الموسوعة بملاحقة ما حدث فى هذه المؤسسة العريقة فى العقود الثلاثة الأخيرة التى اتسمت بتعقد العلاقة بينها وبين السلطة من ناحية وبينها وبين مختلف تيارات الإسلام السياسى فى مصر وخارجها من ناحية أخرى. ومع أن مدخل الموسوعة حول الأزهر قاصر، فإن القصور بلغ درجة الشلل الكلى حينما يتعلق الأمر بمؤسسات عربية أخرى مشابهة من القرويين فى فاس، والزيتونة فى تونس، وحتى المركز الشيعى الكبير فى النجف، فإنها جميعها غير موجودة فى الموسوعة. أما بالنسبة للمؤسسات العلمية والبحثية الحديثة والجامعات العربية المختلفة فإنها غائبة كلية من الموسوعة. وحتى المدخل الذى تخصصه الموسوعة للتعليم فى العصر الحديث فإنه مدخل قاصر ومعيب، لأنه ملىء بالأخطاء ويعانى من نقص خطير فى المعلومات. يذكر الجامعة الأمريكية فى بيروت والقاهرة، وجامعة القديس يوسف بلبنان، ولا يذكر أيًا من الجامعات العربية على الإطلاق. اللهم إلا تأسيس الدول النفطية للجامعات الحديثة فى السبعينيات، واستقدامها للأساتذة المصريين والفلسطينيين والسودانيين للعمل بها، دون أن يذكر شيئا عن الجامعات التى جاء منها هؤلاء الأساتذة. صحيح أن بالمدخل إحصائية حول معدلات التعليم فى البلدان العربية المختلفة وعدد الجامعات فى كل بلد، وتاريخ تأسيس أول جامعة حكومية، لكن هذه الإحصائية مليئة هى الأخرى بالأخطاء، لأنها تشير إلى أن أول جامعة حكومية فى مصر قد أسست عام ١٩٢٥، أى بعد الجزائر ١٩٠٩ وسوريا ١٩٢٣، وهو أمر غير صحيح، لأنه لايأخذ فى اعتباره تاريخ الجامعة المصرية، ليس فقط من حيث تأسيسها كجامعة أهلية أولا، ولكن لأن نواتها الحكومية التى تجسدت فى المدارس العليا قد تبلورت، حكوميا كذلك، منذ زمن تأسيس محمد على لهذه المدارس مثل مدرسة الطب والمهندسخانة.

هذه بعض القضايا العامة التى تطرحها هذه الموسوعة على قارئها، أما القضايا التفصيلية وإشكاليات الحذف والتقييم، أى إسقاط بعض الشخصيات وإعطاء البعض الآخر حجما أكبر من حجمها الحقيقى، ومدى تمحيصها للمعلومات التى تذكرها فى كل مدخل، فإنه أمر يحتاج إلى المزيد من التفصيل وذكر الأمثلة التى لا يمكن بدونها تصور حقيقة الخلل الذى يعمر صفحات هذه الموسوعة. والواقع أن الفرق الأساسى بين العمل الموسوعى، وأى نوع آخر من التآليف الأدبية هو الصرامة المنهجية المطلقة فى تأسيس المعلومة وتمحيصها والتأكد من صحتها قبل إدراجها فى أى مدخل من مداخل العمل الموسوعى. ليس فقط لأن الهدف الأساسى من أية موسوعة هو تقديم هذه المعلومات بطريقة يعتمد عليها، ويثق الباحث فى صحتها. ولكن أيضا لأن الموسوعة هى العمل التأليفى الوحيد الذى لا تستطيع أن تستخدم معه العبارة الشائعة فى التمهيد التحريرى لمختلف الدوريات والكتب بأن النصوص المنشورة هنا تعبر عن آراء أصحابها، ولا مسئولية للناشر عنها. فالموسوعة وكل ما بها من معلومات هى مسئولية الناشر والمحررين أولا وأخيرا، لأنها عمل يتوخى بالدرجة الأولى تأسيس المعلومات والحقائق المعرفية فى الحقل الذى يشمله، ويتجنب بقدر الإمكان الآراء الشخصية للكتاب، أو وجهات النظر ذات الطبيعة الخلافية، أو التقييمات التى لا تجمع الثقافة عليها دون جدال. فإذا ما اعتورك الشك فيما تقدمه لك أى موسوعة من المعلومات، فلن تلجأ إليها بعد ذلك. وإذا ما وجدت تناقضا بين المعلومات التى تقدمها المجموعة فى مداخلها المختلفة، كأن تذكر شيئا فى مدخل ما ثم تشكك فيه فى مدخل آخر، فلن تثق فى المدخلين معا، بل فى الموسوعة كلها. ويختبر الناقد عادة مصداقية أى عمل موسوعى، لا بالكشف فيه عما لايعرفه، وإنما بالكشف عما يعرفه جيدا، للتأكد من مدى دقة ما تقدمه الموسوعة عنه. فإذا انتفت الدقة الصارمة عن الموسوعة فى هذا المجال، فلن يستطيع أن يمنحها ثقته فيما لايعرفه فمن الذى يستطيع أن يطمئنه على صدقها؟

وكان هذا هو ما فعلته مع (موسوعة الأدب العربى) فتأكدت من افتقارها للصرامة المنهجية، وتزعزعت بذلك ثقتى فيها بالرغم من أهميتها ومن الحاجة الماسة إليها فى الدراسات العربية التى تلقى فى الغرب كل عام المزيد من الاهتمام والتوسع. ولنبدأ أولا بالتناقض داخل الموسوعة بين مداخلها المتعددة. ففى المدخل الذى خصصته للكاتب الفلسطينى الشهيد غسان كنفانى، تخبرنا الموسوعة، وقد حالفها الصواب فى هذا الخبر، بأنه قد اغتيل بقنبلة زرعها فى سيارته عملاء الدولة العبرية فى فلسطين المحتلة (ص ٤٢٦)، بينما يخبرنا المدخل الذى خصصته الموسوعة للرقابة فى الأدب العربى - وهو مدخل غبى مشوش وملىء بالتخليط يتعمد كاتبه ألا يذكر فلسطين بل يشير إلى الأراضى التى تحتلها الدولة العبرية - بأن الكتاب الذين ينتقدون السلطات الحاكمة يتعرضون للاعتقال والضرب وأحيانا للاغتيال أو القتل غير المشروع مثل غسان كنفانى الذى يزعم أنه قتل فى لبنان من قبل عملاء لـ«...» ويذكر اسم الدولة العبرية فى فلسطين المحتلة (ص ١٧١) فأيهما نصدق؟ المدخل الذى ذكر الحقيقة وأكد أن الصهاينة القتلة، الذين قتلوا عددا كبيرا من المثقفين الفلسطينيين، هم الذين فخخوا سيارته وقتلوه، أم هذا المدخل الغريب الذى يريد للقارئ أن يعتقد أن غسان كنفانى قد قتل لأن من ينتقد السلطات العربية يتعرض للاعتقال والتعذيب والاغتيال؟ ثم يزعمون أن الصهاينة هم الذين قتلوه! أى هراء هذا!



وهناك العديد من المداخل التى تنطوى على معلومات خاطئة، أو تتوقف معلوماتها قبل عشر سنوات أو أكثر، أو تنطوى على معلومات قديمة عفى عليها الزمن، مثل المدخل الذى تناول «السينما والأدب» والذى ينطوى على معلومات خاطئة عن عدد الأفلام المصرية المنتجة كل عام، وعن أكثر الكتاب الذين حولت أعمالهم إلى أفلام وغير ذلك من الأخطاء. وهذا هو الحال فى المدخل المخصص للأدب العربى المسيحى الذى يتوقف عند حنين بن اسحاق ويحيى بن عدى من العصر القديم، ولا يذكر فى العصر الحديث غير حركة المهجر فى سطر واحد. وكأن الإسهام المسيحى فى الأدب الحديث غير موجود، مما يؤكد بشكل مضمر مصادرة استشراقية أخرى حول قمع الثقافة العربية الإسلامية لإسهامات غير المسلمين. أو المدخل الذى تناول «الالتزام» فى الأدب، فتوقف عند الجدل الذى دار حوله فى جيل طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم، ولم يذكر شيئا عن دور محمود أمين العالم أو رئيف خورى أو حسين مروّة فى هذا المجال. ولم يميز بين دعوات الالتزام القومية والماركسية والسارترية، وإن ذكر دور مجلة (الآداب) البيروتية فى إشاعة هذا المفهوم. أما مدخل «الترجمة» والذى قسمته المجموعة إلى قسمين أحدهما عن الترجمة فى العصر الوسيط وهو مدخل جيد بحق لا يهتم بترجمة العرب لعيون الآداب الهندية والفارسية واليونانية، وإنما بترجمة أوروبا العصور الوسطى لعيون المعارف العربية ودور الأندلس وصقلية فى نقل التراث العربى لأوروبا. أما القسم الآخر الذى خصص للترجمة فى العصر الحديث فإنه لم يقترب من رديفه الوسيط، بل عجز حتى عن الوفاء بجانب واحد مما حققه. فقد فهم الترجمة على أنها ترجمة الأدب الأوروبى للعربية دون بقية الآداب الأخرى. ولم يشر من قريب أو بعيد إلى ترجمة عيون الأدب العربى الحديث للغات الأوروبية المختلفة. وانشغل المدخل بإثبات دين الأدب الحديث للغرب وتأثره به. ويبدأ المدخل بذكر ترجمة الطهطاوى لرواية فينيلون (مغامرات تليماك) ويدون بعدها تاريخ ١٦٩٦ بينما تاريخ نشر رواية فينلون الصحيح هو ١٦٩٩. ثم يتناول الترجمة فى بدايات هذا القرن، فيذكر الترجمة من الإنجليزية والفرنسية دون الروسية التى كان لها تأثير كبير على تطور فنون القص العربية. ويزعم أن الترجمات حتى العشرينيات كانت تأتى للعربية عن طريق التركية أو الفارسية وهو زعم غريب. كما يذكر أن الرواية كانت أكثر الفنون الأدبية ترجمة للعربية، ثم يضيف أن الروايات التى اختارها العرب للترجمة كانت روايات تافهة، ونادرا ما ترجمت عيون الرواية الأوروبية. ويبدو أنه لايعرف أن جل أعلام الرواية الأوروبية الكبار من تولستوى وتورجينيف وبلزاك وفلوبير وستندال وكبار الروائيين الإنجليز وحتى الأمريكيين مترجمين للعربية، وأن الأعمال الكاملة لأعظم روائيى أوروبا وهو فيدور ديستويفسكى مترجمة كلها للعربية وفى أكثر من طبعة، ولكنها الرغبة المسمومة فى تشويه الأدب العربى من الباحثين الصهاينة. وعندما يشير إلى ترجمة الأعمال الشعرية يذكر (روميو وجولييت) و(تاجر البندقية) لشكسبير دون أن يدرك أن أعماله الكاملة ترجمت للعربية وأن بعضها ترجم أكثر من مرة. ولا يشير المدخل إلى أى من المشاريع الكبرى للترجمة سواء مشروع طه حسين الكبير (الألف كتاب) فى الخمسينيات، أو (الألف كتاب الثانى) فى الثمانينيات، أو المشروع القومى للترجمة فى التسعينيات، ناهيك عن حركة الترجمة النشيطة فى المغرب العربى.

أما المدخل الذى يتحدث عن «العامية فى الأدب» والذى قسمته الموسوعة إلى قسمين أحدهما عن العصر الوسيط، أو الأدب القديم، والآخر عن الحديث فإنهما - كليهما - مليئان بالتخليط والأراجيف. إذ يزعم أولهما أن سيطرة الفصحى القرآنية







أسلوبيا وأدبيا هى المسئولة عن الازدواج اللغوى فى البلدان العربية، وأن العامية هى اللغة الأم لكل عربى، وأن الأدب العربى الذى كتبه اليهود والمسيحيون هو الذى يوثق التطور الحقيقى للغة العربية أكثر من الأدب الذى كتبه المسلمون(كذا) (ص١٨٩). أما ثانيهما فإنه لايقل تخليطا عن الأول، إذ يزعم أن لويس عوض كتب مذكراته بالعامية، فلما أدانها الواقع الأدبى بقسوة أعلن بعدها أنه سيلتزم بالفصحى فى كتاباته الأكاديمية، وأن أحمد شوقى كتب شعرا بالعامية، وأن بيرم التونسى وأحمد فؤاد نجم يحظيان بسوء السمعة ولم يدرجا ضمن النصوص المقبولة أو المكرسة فى الأدب. بينما حظيت حفنة قليلة من الذين كتبوا بالعامية بالاهتمام النقدى مثل ميشيل طراد وفؤاد حداد وصلاح جاهين (كذا). ونجد الأمر نفسه فى المدخل المخصص لـ«الحوار فى الأدب» والذى يعد امتدادا من نوع ما للمدخلين السابقين. أما المدخل الخاص بـ«قصيدة النثر» فقد توقف بها عند بدايات أنسى الحاج، ولم يتطرق إلى التطورات التى انتابت هذا الشكل الشعرى بعده حتى أصبح أكثر الأشكال الشعرية انتشارا بين كتاب آخر جيلين من شعراء العربية الذين لانجد ذكرا لأى منهم فى المدخل. وهذا مرة أخرى من عواقب الاعتماد على باحثين من الدولة الصهيونية لايتابعون بحكم رفض الثقافة العربية لهم من ناحية وحالة العداء بينهم وبين العالم العربى من ناحية أخرى ما يدور فى حاضر هذه الثقافة القريب.

وإذا كان من الممكن الدفاع عن بعض هذا التخليط بانه من قبيل التفسير ووجهات النظر، فإن هناك مجموعة كبيرة من الأخطاء الفاضحة التى لايمكن التعلل بأنها آراء أو وجهات نظر. مثل تلك التى ترد فى المدخل الذى تناول الشاعر «محمد عبدالمطلب»، وأخبرنا أنه ولد فى «باصونا» بمحافظة «جرجا» فى صعيد مصر (كذا)، (ص١٥) لأن أى باحث عربى يعرف أنه ليست هناك محافظة باسم جرجا فى صعيد مصر، وليست بها قرية باسم باصونا. وينطوى هذا المدخل على العديد من الأخطاء مثل إشارته إلى أن عبدالمطلب عمل مدرسا فى المدارس الابتدائية ثم أستاذا «بروفيسور» فى مدرسة «القانون الدينى» (كذا) ثم أصبح بعد ذلك أستاذا فى دار العلوم. أما المدخل الذى خصصته الموسوعة للكاتب العراقى «فؤاد التكرلى» فإنه يخبرنا بانه هاجر إلى باريس عام ١٩٧٩ وهو أمر عار من الصحة تماما، صحيح أنه عاش فى باريس عاما أو بعض عام، وكان هذا بالقطع بعد هذا التاريخ، لكنه لم يهاجر إليها، بل عاد بعد فترة باريس تلك إلى العراق وأمضى به سنوات عديدة، ثم انتقل عام ١٩٩١ إلى تونس، ومازال يعمل بالسفارة العراقية بها. كما أنه يذكر تاريخين مختلفين لروايته (الرجع البعيد) وهما ١٩٨٠-١٩٩٣، ويكتبهما بعد الرواية بطريقة توحى بأن كتابة الرواية التى يقول لنا أنها استغرقت ١١ عاما هى الفترة الممتدة بين التاريخين، دون أن يدرك أنهما تاريخان لطبعتين مختلفتين للرواية نفسها، وأن التاريخ الدقيق هو تاريخ الطبعة الأولى وهو ١٩٨٠. ناهيك عن خلل المدخل فى تفسير هذه الرواية الجميلة، وإخفاقه فى فهم دلالاتها أو سبر أغوار عوالمها الثرية. وهو نفس الأمر الذى تكرر مع ما ذكره المدخل عن روايته التالية (خاتم الرمل) ١٩٩٦ ثم لم يذكر لنا المدخل شيئا عن بقية أعمال التكرلى الواقعة بين الروايتين.

شارك فى تحرير هذه الموسوعة، أو بالأحرى فى كتابة مواد لها ١٠٤ باحثين، ليس بينهم إلا ثلاثة يعملون فى جامعات عربية، وأحد هؤلاء الثلاثة مستشرق غربى يعمل فى جامعة السلطان قابوس بعمان. ويبدو أن هذا يتسق مع التصور الاستشراقى السقيم





وهناك مداخل كثيرة مليئة بالأخطاء الفاضحة. ففى صفحة واحدة (ص١٨) تقدم لنا الموسوعة مدخلين أولهما عن عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) فتذكر التاريخين التاليين بعد اسمها (١٩١٢-١٩٧٤) بمعنى أنها ماتت عام ١٩٧٤، مع أنها كانت لاتزال على قيد الحياة عند صدور الموسوعة، وماتت بعد صدورها عام ١٩٩٩. ولا يقتصر خطل هذا المدخل على هذا الخطأ الفادح باى معيار، وإنما يذكر لنا أنها كانت رئيسة لتحرير مجلة (الأدب) وهى المجلة التى كان يرأس تحريرها زوجها الشيخ أمين الخولى وليست هى. أما المدخل الثانى بنفس الصفحة فعن الشاعر السودانى جيلى عبدالرحمن الذى تذكر الموسوعة بعد اسمه هذا التاريخ (١٩٣١-) مما يوحى أنه ما زال على قيد الحياة، بالرغم من أنه رحل عن عالمنا عام ١٩٩٠. فالحى تؤكد الموسوعة موته، والميت تزعم أنه لايزال على قيد الحياة. فكيف يمكن أن نثق فى المعلومات التى تقدمها عنهما وهى أيضا معلومات ناقصة وغير دقيقة. ولايقتصر الزعم بأن الراحلين لايزالون على قيد الحياة على هذا المدخل وحده، فكثير من الكتاب الراحلين تذكر الموسوعة أنهم لايزالون على قيد الحياة. وكثير من سنوات ميلاد الكتاب مذكورة خطأ (مثلا :إبراهيم أصلان ١٩٣٧ وليس ١٩٣٩ كما بالموسوعة). وسوف أقتصر هنا على ذكر عدد من الأمثلة من الذين رحلوا قبل عامين على الأقل من صدور الموسوعة، ومع ذلك تركت الموسوعة أقواس التواريخ أمامهم مفتوحة مما يعنى أنهم على قيد الحياة وقت صدورها. فبالرغم من أنها استطاعت أن تسجل رحيل سعدالله ونوس ومحمد مهدى الجواهرى فقد أخفقت فى تسجيل رحيل أمينة السعيد وإبراهيم ناجى (١٩٨١) وفتحى رضوان (١٩٨٨) وعمر أبوريشة (١٩٩٠) وعبدالرحمن الخميسى (١٩٩١) وعبدالحميد بن هدوقة (١٩٩٦) وسهير القلماوى (١٩٩٥) ولطيفة الزيات (١٩٩٦) وعبدالملك نورى (١٩٩٧) وكثيرين غيرهم.

ولايقتصر الأمر على هذه الأخطاء، فهناك الكثير من المداخل التى لا يمكن اعتبارها أكثر من مجرد مسودة لمدخل تحتاج إلى التحرير والتدقيق والتمحيص والإضافة. فالمدخل الخاص بفاطمة اليوسف مثلا يذكر لنا التواريخ الآتية بعد اسمها (؟١٨٩-؟؟١٩) بمعنى أن كاتبة المدخل لم تبحث بعد هذه التواريخ، وربما تعود إليها بعد مراجعة بعض المصادر. لكن هذه المسودة تنشر كما هى فى الموسوعة، بالرغم من أن هناك مصادر عديدة متوافرة تؤكد أن فاطمة اليوسف، مؤسسة مجلة (روز اليوسف) والتى تحولت إلى مؤسسة صحفية كاملة بعد وفاتها قد ولدت عام ١٨٨٨، وليس فى تسعينيات القرن الماضى كما تخمن الباحثة، وهى للأسف باحثة مصرية تعمل فى جامعة نيويورك وتتسم كل مداخلها فى الموسوعة وهى عديدة بنفس السمات التى نجدها فى هذا المدخل، كما أن تاريخ وفاتها معروف وهو بالتحديد ١٠ أبريل ١٩٥٨. فلم يكن ثمة داع لعلامات الاستفهام لو أجهدت الباحثة نفسها قليلا. أما المدخل نفسه فحدث عما به من خلل دون حرج. إذ يذكر أنها تزوجت محمد عبدالقدوس، دون أن يذكر السنة وهى ١٩١٦، ولا ندرى سبب ذكر هذا الزوج دون بقية أزواجها، زكى طليمات ثم حفيد قاسم أمين. ثم يشير المدخل إلى بداية حياتها كممثلة عملت مع عزيز عيد وجورج أبيض وفرقة رمسيس، دون أن يذكر يوسف وهبى. ثم يقول لنا أنها أسست مجلة (روز اليوسف) عام ١٩٢٩، وهى أسبوعية سياسية و«أكثر المجلات الأسبوعية السياسية احتراما فى العالم العربى»(ص٨١٥) ويبدو أن الباحثة لم تر هذه المجلة مؤخرا، ولو طامنت من حماسها قليلا، وأشارت إلى أنها «من أكثر» وليست «أكثر» بأفعل التفضيل على إطلاقها لغفرنا لها حماسها. ثم تذكر بعد ذلك أنها «أصدرت بعد ذلك صحيفة يومية» مما يفهم منه أنها صحيفة أخرى غير (روز اليوسف) الأسبوعية، دون أن تحدد أن «روزاليوسف» الأسبوعية نفسها صدرت يومية لمدة عامين، ثم عاودت الصدور كأسبوعية بعد ذلك مرة أخرى.



ونجد هذا الإهمال نفسه فى المدخل الذى كتبته الباحثة ذاتها عن «ثروت أباظة» إذ ينطوى على معلومات ناقصة وشحيحة عنه، والرجل شهير إلى حد كبير، ويقف المدخل بإنتاجه عند (السباحة فى الرمال) سنة ١٩٧٢، وكأنه لم يكتب شيئا بعد هذا التاريخ، بالرغم من أنه أصدر العديد من الروايات والمجموعات القصصية بعدها. وهذا هو الحال مع مداخل كثيرة تبدو وكأنها كتبت قبل عشرين عاما، حيث توقفت معلوماتها عند ذلك مثل المداخل الخاصة بكل من سليمان فياض، وحيدر حيدر، وألفريد فرج، وعبدالله العروى، ويوسف العانى، والأدب الجزائرى الحديث الذى لايذكر شيئا بعد الطاهر وطار وعشرات المداخل الأخرى. وهذا هو الحال كذلك مع المدخل الخاص بإحسان عبدالقدوس، والذى كتبه أحد محررى الموسوعة. فهو الآخر مدخل ناقص، يتناول إحسان عبدالقدوس كصحفى سياسى بالدرجة الأولى، دون أن يخبرنا بما جرى له سياسيا، ويشير إلى أنه كاتب قصة ورواية، دون أن يذكر لنا شيئا عن أعماله الأدبية، ودون أن يكلف نفسه عناء ذكر عنوان رواية واحدة أو مجموعة قصصية واحدة من أعماله الغزيرة بالرغم من اعتراف المدخل بشعبية أعماله القصصية، وتحول الكثير منها إلى أفلام أو مسلسلات تليفزيونية وبالرغم من أن إحسان عبدالقدوس هو أكثر الأدباء الذين تحولت أعمالهم للسينما، فإننا لانجد له ذكرا فى المدخل المخصص «للأدب والسينما»، بمعنى أن قارئ الموسوعة لايستطيع العثور على اسم عمل واحد لإحسان عبدالقدوس بها فى أى من مداخلها التى يمكن أن نتوقع وجوده فيها.



ولا يمكن أن نتصور أن يكون هناك استسهال أكثر من ذلك فلا تمحيص للمداخل ولا تأكد من بقية المعلومات الضرورية عن صاحب

المدخل أو صاحبته التى لانعرف عنه أو عنها من هذا المدخل إلا أقل القليل. فهناك مدخل عن الكاتبة الكويتية ليلى العثمان لا يذكر سنة ميلادها ويكتفى بـ؟؟١٩، أما المدخل الذى خصصته الموسوعة لروفائيل نخلة فإنه يكتفى بأن يذكر (؟؟١٨-؟؟١٩) فيا للحصافة! لكن مدخل حنين نعمت الله خورى لا يقدم لنا حتى سنة ميلاده أو وفاته أو علامات الاستفهام التخمينية كما فى سابقه. إنه لايحترم أبسط شروط العمل الموسوعى ويترك الاسم غفلا من كل تاريخ. وليس فى المدخل ما يبرر تخصيص مدخل خاص لشخص كهذا. كتب عدة مقالات عن التاريخ فى (المقتطف)، وترجم كتابين، وهناك كثيرون أهم منه لم تدرجهم الموسوعة ضمن أعلامها. ويقودنا هذا إلى أهم نواحى الضعف فى هذه الموسوعة، بالرغم من كثرة ما بها من قصور وأخطاء، وهو افتقاد أى معيار سليم لإدراج علم أو جنس أدبى دون غيره، وكذلك افتقاد معيار تخصيص المساحة أو عدد الكلمات لكل مدخل. فإذا خصصت الموسوعة مثلا صفحة لعلم ما، فإن القارئ يستنتج أنه أهم من ذلك الذى خصصت له عمودا أو نصف عمود، وأنه أقل أهمية من ذلك الذى اختص بصفحتين كاملتين. فالمساحة التى تفردها الموسوعة عادة لأى مدخل تتناسب مع أهمية المدخل، وفق قانون الأوزان الثقافية النسبية للمداخل، أو عدم أهميته. لأن تخصيص المساحة فى الموسوعة هو الحكم المعيارى، أو حكم القيمة الوحيد المتاح لمحرريها، إذ يجب بعده تجنب الدخول إلى الرمال الناعمة لأحكام القيمة والآراء الشخصية.

فإذا تناولنا ما لم تدرجه، بالنسبة لما أدرجته سنجد أننا بحاجة إلى قائمة طويلة من الأمثلة والمقارنات. وساكتفى هنا بعدد من الأمثلة القليلة. ففى مجال المجلات الأدبية مثلا نجد أنها أهم المجلات الأدبية فى العصر الحديث مثل (الآداب) و(الأديب) و(شعر) البيروتية، و(المجلة) و(المجلة الجديدة) القاهريتين لم تدرجا، بينما أدرجت الموسوعة مجلات أقل منها أهمية، وأضعف دورا. وهذا هو الحال مع الأعلام. حيث نجد أن أعلاما قد أدرجوا مع أنهم أقل أهمية من أعلام آخرين من نفس البلد لم تدرجهم الموسوعة، فبينما تدرج أنيس منصور، فإنها تهمل الكثيرين ممن هم أهم منه أدبيا مثل سعد مكاوى ويوسف الشارونى وبدر الديب ومحمد عبدالحليم عبدالله وأبوالمعاطى أبو النجا، وصالح مرسى وعلاء الديب ومحمد البساطى. وبينما نجد فيها نقادا مثل عزالدين إسماعيل، وخالدة سعيد، وعبدالعظيم أنيس، فإن نقادا أهم منهم، أو لايقلون عنهم أهمية مثل شكرى عياد وعلى الراعى وعبدالقادر القط وأنطون مقدسى وعبدالمحسن طه بدر ويمنى العيد ليس لهم وجود فى الموسوعة. وإذا ما انتقلنا إلى الجيل الأصغر من النقاد فإننا سنجد أنها تفرد مدخلا لكل من عبدالسلام المسدى وخلدون الشمعة، بينما تهمل جابر عصفور ومحمد عابد الجابرى ورضوى عاشور وسيزا قاسم وفريال غزول ونبيل سليمان وعبدالمنعم تليمة وفاضل ثامر وياسين النصير ومحمد مفتاح وصلاح فضل وغيرهم. وبينما تخصص مدخلا لإحسان عباس، فإنها تهمل محمد يوسف نجم. وتخصص مدخلا للكاتب المغربى محمد شكرى وتهمل محمد برادة ومحمد الأشعرى وعبدالجبار السحيمى ومحمد بنيس وغيرهم من مجايليه البارزين.




فإذا ما انتقلنا إلى مساحة المداخل وحجمها، فسنجد أن الموسوعة مليئة بالعجب العجاب. وأكثر الأمثلة غرابة فى هذا الموضوع هو أنها تخصص أربعة أعمدة كاملة لمدخل عن أدونيس بينما لايحظى أعلام أهم منه بعشرات المرات مثل ابن رشد وابن خلدون والمعرى والمتنبى وأبو العلاء بنصف هذه المساحة. وهى مساحة لم يحظ بها فى تغطية الموسوعة لأعلام العصر الحديث الكاتب العربى الوحيد الذى نال جائزة نوبل فى الآداب وهو نجيب محفوظ. كما أن شعراء جيله، وبعضهم أهم منه دورا وإنجازا مثل بدرشاكر السياب وصلاح عبدالصبور وخليل حاوى لم تخصص لهم إلا ربع هذه المساحة، وبعض شعراء جيله مثل أحمد عبدالمعطى حجازى لم يحظ حتى بربع عمود، إذ لم يتعد المدخل الذى خصص له تسعة أسطر. فما هو معيار تخصيص المساحة فى هذه الموسوعة؟ وهل يجوز أن يخرج القارئ غير المتخصص بانطباع بأن أدونيس أهم من المتنبى أو ابن خلدون أو ابن رشد أو نجيب محفوظ؟ أى هراء هذا؟! وقد كان يمكن التساهل مع مثل هذا الخلل لو أن المدخل الذى كتب عن أدونيس كان مدخلا موضوعيا، لكن الموسوعة توكل كتابة هذا المدخل لأحد حوارييه، فجاء مترعا بالعواطف الفجة والمبالغات، ويفتقر إلى أبسط قواعد الكتابة العلمية والموسوعية. إذ لم يشر إلى أبسط الحقائق مثل علوية أدونيس وأثر باطنية العلويين عليه، ولم يذكر اعتناقه فى بداية حياته لمبادئ الحزب القومى السورى، وهو من الأحزاب الفاشية العربية، وعلاقته الخاصة بزعيم هذا الحزب الذى منحه اسمه الشعرى «أدونيس».

ولا أريد الاسترسال فى ذكر الأمثلة الكثيرة فى هذا المجال، فقد أوشكت المساحة المخصصة لهذا المقال على النفاد، ولكنى أود أن أؤكد أن هناك عشرات من الأمثلة التى لم أذكرها. والتى تؤكد كلها كثيرًا مما ذكرت من نقاط. ومع أننى لا أريد أن ألتمس العذر لهذه الموسوعة فقد بددت إلى حد كبير فرصة كبيرة لاتعوض بيسر، إلا أننى أود الإشارة مع ذلك إلى أن تغطيتها للأدب الحديث تعد تغطية رائدة إلى حد ما، فلم يسبقها فى هذا المجال إلا قاموس روبرت كيمبل Robert Campbell الذى أصدره المعهد الألمانى للدراسات الشرقية ببيروت (أدباء العرب المعاصرين) Contemporary Arab Writers ولايزال هذا الحقل الحديث فى حاجة إلى المزيد من العمل والتدقيق. ولابد فى النهاية أن أشير إلى أن هذه الموسوعة برغم كل ما بها من خلل وأخطاء فادحة هى خطوة أولى على الطريق الصحيح، ولايجب أن يعتبرها الباحثون والناشرون نهاية المطاف بأى حال من الأحوال. بل بداية نبهت إلى وحدة هذا الأدب العظيم وثرائه. وتحتاج إلى متابعة العمل فى هذا المجال حتى يحظى الأدب العربى بقاموس أكسفورد الخاص به فى نهاية الأمر، والذى لابد له ـ بسبب سمعة سلسلة قواميس أكسفورد المرموقة ـ من أن يتغلب على كل نواحى القصور فى هذه الموسوعة. ■

كتاب الزاوية

عمارة الفقراء

٥- فشل التجربة

تجربة القرنة أصابها الفشل، ولم تكتمل القرية قط، وهى حتى يومنا هذا لم تصبح بعد مجتمعًا قرويًا مزدهرًا، ولن يكون من الإنصاف القول أن المبادئ تنجح أوتوماتيكيًا عند التطبيق. وفى نفس الوقت فإنى لن أكون منصفًا لنفسى ولا لبلدى لو تركت هذه المبادئ تظل مدانة بسبب فشل هذه المحاولة الوحيدة لتطبيقها. فليست القرنة وحدها التى توقفت. بل لقد توقف كل أمل حقيقى للوصول بالفلاح المصرى إلى المستوى اللائق من المعيشة.

وكنتيجة لأن القرنة لم تكتمل قط. تمت إدانة كل نظرية البناء بطوب اللبن هى والرأى بأن الإسكان الريفى يقتضى استخدام المهارات التراثية، وأدين كل هذا على أنه نزوات غير عملية. ولم يقتصر الأمر على عدم بذل أية محاولة لاستكمال القرنة بل ولم تبذل أية محاولة لإيجاد وسائل أخرى عملية للوصول إلى بناء بيوت ريفية. وكان المهندسون المعماريون الحكوميون أثناء بناء القرنة وبعد توقف العمل فيها، يصورونها على أنها ـ بأكثر التعبيرات تأدبًا ـ فشل مثير للاهتمام، رحلة عاطفية على درب منحرف لا يمكن أن يؤدى إلى النجاح. وكان يتم الهمس بهذه الافتراءات فى دهاليز الوزارات بل إنها ظهرت فى صحيفة أجنبية فى وقت تأخر حتى عام ١٩٦١. وبالتالى فلابد أن أرد على هذه التهم قبل المضى لما بعد ذلك.

وليس أسهل من أن أقول فى إبهام أن ما منعنى من إكمال القرنة هو ما عند الفلاحين من غموض وما عند البيروقراطيين من عداء. إلا أننى سأكون أكثر إقناعًا لو تركت لتاريخ المشروع أن يتحدث عن نفسه.



يصقله النقد..

هموم الكتاب العربي

محمد عدنان سالم

أليس مما يبعث على الملل ويدفع إلى السآمة - إن لم أقل إلى السخرية - أن نكرر على أسماع الناس وأبصارهم، حديث أزمات الكتاب: أسبابها وبواعثها وسبل الخلاص منها، من دون أن تجد واحدة من هذه الأزمات طريقها إلى الانفراج، أو يجد اقتراح من الاقتراحات سبيله إلى بؤرة الضوء وحيز التطبيق؟!

أشعر بكثير من الخجل والمرارة والرغبة في اللواذ بالصمت تجنباً لتداعيات القرف والغثيان، كلما دعيت للحديث عن أزمات الكتاب.. أشعر كما لو أنى أعاني من إدمان غريب؛ أكرر الشيء نفسه وأنا أحسب أني قد أتيت بجديد، كأني أتحول إلى مسجلة، ما إن تضغط على زر التشغيل فيها حتى تنطلق بحديثها المكرور، أو أني ارتديت جبة واعظ يعتلي أحد المنابر العثمانية، ما إن يؤذن بين يديه للخطبة حتى يستل من جيبه كتابه - المهترئ من كثرة الاستعمال - وقد وضع داخله علامة على خطبة اليوم، التي تكررت وستتكرر في اليوم ذاته من سنوات خلت أو هي قادمة.

ولكي لا يظن قارئي أني أبالغ أو أغالي من أجل لفت انتباهه، أو أني كرسام الكاريكاتير أُضخم العيوب لاجتذاب نظره إليها، فإني أؤكد له أني أستطيع أن أنثر بين يديه عشرات الأمثلة تتراوح أعمارها بين عشر سنوات وخمسين سنة: مقالاتٍ صحفية، وندواتٍ ثقافية، ومحاضرات، ومؤتمرات، وتوصيات، بل واتفاقيات، لو استبدلتَ بتاريخها الذي يعود إلى الأربعينيات تاريخ اليوم الحاضر، لما شعر أحد بفعلتك التي فعلتَ، فالأزمة هي الأزمة، قد جُمِّدت في ثلاجة شديدة البرودة، أو اعتقلت في سجن محكم الأسوار من سجون التخلف، أو أحيطت بخط أحمر مغلق منعت من تجاوزه فظلت تراوح مكانها في داخله.

أحد هذه الأمثلة مقال منشور في مجلة الكتاب، في عددها الصادر عن دار المعارف المصرية في أبريل (نيسان) عام ١٩٤٧م جاء فيه ما يلي: «انتهى إلينا أن اللجنة القانونية بجامعة الدول العربية قد وضعت مشروعاً لحماية الملكية الأدبية والفنية،..وهذا هو أمنية أهل الجد والكرامة من حملة الأقلام: لأن الملكية الفكرية لا يجوز أن تبقى نهباً لدى لصوص الإجهاد العلمي والإنشاء الفكري، فلا بد من حمايتها كالملكيات الأخرى، فهي ملكية مشروعة، لها قوتها وسلطتها وتعيينها.. إنَّ طبع مؤلَّف الآخرين غصبٌ بيِّن واعتداء صارخ على ملكية صاحب الكتاب، لأن الغاصب يستفيد مالاً بما لا مبرر له، كمن يسرق شيئاً يضعه في وعاء ويبيع الوعاء وما احتواه».

وعلى الرغم من أن أي نص قد يحمل في أسلوبه ما يحدد هويته والعصر الذي كتب فيه، فإني لا أجد في هذا النص ما يثير الارتياب في تاريخه لو أعيد نشره حاملاً أي تاريخ على مدى الأعوام التي أربت على الخمسين، ونسب إلى أية مؤسسة أخرى ممن يهتم بشؤون الملكية الفكرية غير الجامعة العربية.

ومثال آخر: قرار مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، الصادر عنهم في دورتهم السادسة المنعقدة في دمشق في ٢١-٢٣ أبريل (نيسان) ١٩٨٧ المتضمن مشروع (الاتفاقية العربية لتيسير انتقال الإنتاج الثقافي العربي) التي تم تنقيحها في ضوء الملاحظات التي تقدمت بها بعض الدول العربية، ثم حظيت بموافقة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في مؤتمرها العام في دورته التاسعة المنعقدة في تونس ١٩ - ٢٢ /١٢/ ١٩٨٧ (العام ذاته)، وقررت توجيه الشكر للدول التي وقعت على هذه الاتفاقية ودعوة الدول الأخرى للتوقيع عليها.

فبعد أن أوضحت المادتان الأولى والثانية المقصود بالتعابير الواردة، وأنواع المصنفات المشمولة بالاتفاقية، تعاقبت المواد للنص على ما يلي:

المادة الثالثة: تعمل الدول العربية على تيسير انتقال الإنتاج الثقافي العربي.. (سواء داخل الأقطار العربية أو خارجها) بمختلف الوسائل الناجعة ومنها بصورة خاصة:

(أ) إعفاؤه من الرسوم الجمركية.

(ب) منحه أولوية النقل بين الأقطار العربية.

المادة الرابعة: تعمل الدول العربية على أن يتمتع الإنتاج الثقافي العربي الوارد ذكره في المادة الثانية من هذه الاتفاقية بتعرفات نقل مخفضة على وسائل النقل بين البلاد العربية، بحيث لا تزيد تعرفات نقل هذا الإنتاج عن ٢٥ ٪ من تعرفات النقل المفروضة على السلع الأخرى.

المادة الخامسة: تعمل الدول العربية على إعفاء ما تستورده من مواد تدخل في عملية الإنتاج الثقافي العربي من الرسوم الجمركية، وفي حال تعذر ذلك تضع الدول العربية رسوماً جمركية رمزية على هذه المواد المستوردة.

ثم أوضحت المواد السادسة إلى التاسعة بعض الإجراءات اللازمة لتطبيق بنود هذه الاتفاقية أو تجاوزها إلى ما يفوقها في اتفاقيات ثنائية، عادت لتتحفظ كالمعتاد.

المادة العاشرة: مع عدم الإخلال بالاتفاقيات المبرمة فيما بين الدول عربياً ودولياً، لا تمس أحكام هذه الاتفاقية حق كل دولة من الدول الأعضاء في أن تسمح أو تراقب أو تمنع وفقاً لتشريعها الوطني تداول أي مصنف في إطار سيادتها.



ولو استنطقنا الكتاب للإجابة عن تساؤلنا عما حدث له منذ اتفاقية عام ١٩٨٧ لتيسير انتقاله بين الدول العربية، لأجابنا، بصوت خافت مبحوح، وقلب كسير مهان:

ما رأيت غير مزيد من التعقيد والقيود، مزيد من الرسوم والأعباء. ونظراً لنفاذ بصيرته التي تهتم بالمسميات قبل الأسماء وبالنتائج قبل المقدمات لم ينخدع بما أعلنته الأنظمة تطبيقاً للاتفاقية؛ من إعفاء شكليّ من الرسوم الجمركية عوضته أضعافاً مضاعفة بما فرضت عليه من رسوم أخرى، أطلقت عليها أسماء شتى، كمن يأخذ بإحدى يديه أضعاف ما أعطاه بالأخرى.

مادة واحدة من الاتفاقية طبقتها الأنظمة بصدق وشفافية عالية هي المادة العاشرة، فمارست حقها المزعوم في الرقابة على الأفكار، والوصاية على الناس، مفترضة قصور عقولهم، وعجزهم عن تمييز النافع من الضار، والخبيث

وتقتله الرقابة

من الطيب، مما يستدعي فرض الحجر عليهم، وحجب الرؤية عن بصائرهم، ومنعهم من الاطلاع على ما تمنعه السلطات، والاقتصار على ما تسمح به، مبدية إشفاقها الحاني عليهم وسهرها على مصالحهم وحرصها على إراحتهم من عناء التفكير، مرددة قولة فرعون:

﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر ٤٠/٢٩).

يقول الكتاب: لقد كنت قبل اتفاقية التيسير أتنقل بين البلدان بكثير من اليسر؛ ما إن أخرج من المطبعة حتى تستقبلني وسائط النقل المختلفة بكل ترحيب لتقلني إلى مختلف الأصقاع؛ تتوقف جميع السلع عند موظفي الجمارك على الحدود، يدققون مستنداتهم ويتفحصون شهادات منشئها وفواتيرها، ولا أتوقف... كنت أشعر بكثير من الاحترام، أجتاز الحدود كمن يحمل جواز سفر دبلوماسيًا، ترفع له التحية وتفتح له الأبواب، لا أحتاج إلى إذن بالطبع ولا إذن بالخروج ولا بالدخول. لا يفصل بين ولادتي ووصولي إلى يد قارئي في أي بلد عربي غير ساعات يتفاوت عددها حسب تباعد المسافات بين القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد وعمان والدار البيضاء، ولم أكن أحمّل القارئ في بلد المقصد عبئاً مالياً يذكر فوق ما يحمله في بلد المولد، إذ لم أكن أطالَب في طريقي إليه بأية رسوم..

لا أنكر أن من بين لداتي وأترابي كتباً تتوارى زهراتها خلف أشواك تدمي اليدين، وأن فيها ما يتشكل بأشكال الورود، ويتلوّن بألوانها الزاهية، وهو يخفي في طياته السم الزعاف مثل زهر الشوكران، وأن فيها ما ينطوي على الأحقاد والضغائن ويضمر الشر والإيقاع بالقارئ، وفيها ما يمتلئ بالغثاثة والتفاهة لتزجية وقت الإنسان بما لا ينفع إن لم يضر؛ وفيها، وفيها... ولكن صدقوني أن القارئ كان دائماً أكثر وعياً وأشد يقظة من رقباء آخر الزمان. وما أكثر ما دفن من هذه الكتب في مقابر النسيان والإهمال، وما أكثر ما ألقي في حاويات النفايات. فلم يبق بين يديه ولم يحتفِ إلا بما ينفعه من أدب وعلم.

أنى للقارئ أن يتكون لديه هذا الوعي، لو لم تدمَ يداه بتنحية الشوك ليصل إلى الأزهار ويقطف الثمار؟!

أنى له أن تتكون لديه هذه المناعة لو لم يتدرب على فرز الخبيث، وتمييز الغث، وتذوّق المر، وتجنب لسع الأفاعي؟!

ولقد رأيت هذا القارئ ينزلق أحياناً مجاراة لبعض ما قرأ، وسرعان مايسترد صوابه بعد قراءة أخرى، فعرفت أن القراءة تصحح أخطاءها، وأن من يقرأ أكثر ينْمُ أكثر..

ثم إني رأيت في ظلال نظم الوصاية والحجر ـ أياً كان نوع الوصاية والحجر ـ عجباً..

رأيت كتباً دفنها وعي القراء عشرات السنين، فأحياها ضجيج الاستنكار والقمع وهي رميم..

ورأيت كتباً ممنوعة تنتشر في أيدي القراء، يدفعهم حب الاطلاع لاقتنائها واجتلاء أسباب منعها، وذلك طبعٌ في الإنسان جُبل عليه في جيناته الوراثية، فكل ممنوع عليه مرغوب لديه، وكل مبذول له مزهود فيه..

ورأيتُ كتّاباً وناشرين فطنوا لهذا الطبع الإنساني فاستخدموه وسيلة للترويج، وطريقاً للنجومية، فسعوا إلى استصدار قرارات المنع، واستثارة الضجيج والإنكار، ولم يكن حصادي من ذلك كله غير المزيد من التسطح الفكري والعوز الإبداعي بين ثقافة سلطوية (مؤدلجة) في اتجاه واحد يرفضها القارئ برماً بها، وبين (سيناريوهات) الترويج لثقافة التهريج التي يديرها المتسلقون من أدعياء الإبداع.

ويتابع الكتاب بثّ أحزانه، مستعيداً ذكريات صباه وأيام عزه:

لقد كنت دائماً تحت الوصاية، ولكن شتان بين وصايتين؛ أولاهما كانت تكلني إلى النقد، وتسلم زمام أمري إلى كبار الأدباء والكتّاب، يختصمون فيّ، ثم يحتكمون إلى قواعد وضوابط تعارفوا عليها، تكشف الزيف، وتميز الخبيث من الطيب..

يومها كانت الكلمة مسؤوليةً، يتردد الكاتب في قولها، ويقلبها على وجوهها قبل أن يخطها في كلمات، حتى لا يُسلق بألسنة حداد، أو يشوى على السفّود.

وكان النقد جاداً يسهم بفعالية في توليد الأفكار وفي إنضاجها، مثلما يسهم في تداولها فيستخلص سمينها وينفي خبثها..

وكانت الحركة الثقافية، على ضعف أدواتها، نشطة صاخبة؛ تمور بالأفكار يضخها المبدعون الرواد، ويتلقفها المجتمع بكل فئاته زاداً معرفياً قد أنضجه النقد الموضوعي، وتباينت فيه وجهات النظر تأييداً ومعارضة، تترك للقارئ إصدار حكمه بعد إعمال عقله، فيصبح هذا القارئ جزءاً من عملية الإبداع وإنتاج الأفكار.

أما الوصاية الأخرى التي وَلِيت أمري في آخر الزمان، فقصمت ظهري وأفسدت عيشي وعطّلت وظيفتي، وحالت بيني وبين قارئي، فهي (الرقابة) بكل أشكالها السلطوية الرسمية والدينية والاجتماعية .

آه من الرقابة!! ثم آه من الرقيب!!

لقد استيقظ ضمير الدولة الحديثة فجأة أواسط القرن المنصرم، واستشعرت مسؤوليتها عن ثقافة الأمة وصيانتها من الاختراق والعبث والتلوث، فاستحدثت وزارات للثقافة والإعلام، وزودتها بميزانيات ضخمة لإنتاج ثقافة الاتجاه الواحد والرأي الواحد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، واستصدرت قوانين للمطبوعات منحتها صلاحيات واسعة تمكنها من ممارسة جميع أشكال الحجز والمنع والقمع والمصادرة والتجميد والحبس وحتى الإعدام.

لم يعد القارئ في نظرها، ذلك الراشد الذي وهبه الله عقلاً قادراً على التمييز والمحاكمة، بل أصبح قاصراً، يستوجب قصوره إحكام الوصاية عليه، حرصاً على أمنه الثقافي، فحجرت عليه، وأوكلت أمره إلى رقيب وعتيد يتوليان الإشراف على مقروءاته وتنقيتها من الشوائب: أما رقيبٌ فيقيم في الإدارة المركزية، يتولى الإذن بطبع الكتب والدوريات، وإصدار قوائم المسموحات والممنوعات، يصدر قراراته أحكاماً مبرمةً غير قابلة لأيّ من طرق الطعن أو النقض والمراجعة، أحكاماً أبديةً لا تسقط بمرور الزمن، ولا يعاد النظر فيها عند تغير الأحوال. وقرارات رقيب غالباً ما تكون عشوائية مزاجيةً، شأنه شأن الرقباء الآخرين، تختلف قراراتهم باختلاف أمزجتهم وثقافاتهم وآفاقهم، وأمرهم كلهم عجب، فواحد يمنع وآخر يسمح، لا تعرف لم سمح هذا ولم منع ذاك.

وأما عتيد فيقف على الحدود، الأصل عنده المنع، فإذا أمسك بكتابٍ مستعلن في يد مسافر أو مستخف في حقيبته، طالبه بموافقة رقيب، وإلا فالمصادرةَ.

ولم تقتصر الوصاية على القارئ المتلقي على حريته في القراءة، وإيصاد أبواب المعرفة في وجهه، والحيلولة دون إرواء حبه للاطلاع، بل هي تقف في مراكز إنتاج المعرفة على أبواب المفكرين والمبدعين؛ تعلن تقديرها وتقديسها لحرية التفكير، مكرهةً نتيجة عجزها عن الولوج إلى تلافيف عقل المؤلف للحد منها، ثم تفرض وصايتها على حرية التعبير بذريعة الأمن الثقافي، افتئاتاً عليها بوصفها حقاً من حقوق الإنسان التي منحه الله تعالى إياها، وهي في الحقيقة تنشد أمنها السياسي أكثر مما تنشد أمن الأمة الثقافي.

والفكرة عند أجهزة الرقابة تولد مدانة منذ أن تنفصل عن ذهن مبدعها، وعليها أن تقضي بضعة أشهر في حبس احتياطي أحكمت تحصينه في أقبيتها، فإذا انقضت المدة، فإما أن يفرج عنها لثبوت براءتها من تهمة المساس بالنظام العام، أو إقلاق الراحة العامة، أو الخروج عن الأعراف والتقاليد السائدة، وإما أن تمدد فترة الحبس الاحتياطي لأجل غير مسمى، وهو ما أطلق عليه مصطلح التريث أو التجميد، وإما أن تواجه الحكم المبرم بإعدامها ومنعها من الطباعة والتداول.

ونظراً لأن ثقافة الرقباء ـ مهما عظمت واشتُرطت لها المؤهلات العالية والشهادات ـ تظل محدودة، فإنه يتوجب على كبار العلماء والأدباء والمفكرين أن يراعوا ظروفهم وإمكاناتهم، ولا يثقلوا عليهم بمفاهيم أعلى من قدرتهم على التمثل، وأفكار أعلى من قدرتهم على الاستيعاب.

ونظراً ـ لأن عدد هؤلاء الرقباء يظل محدوداً بمحدودية عنق الزجاجة ـ مهما تعاظموا، وتعاظمت قدراتهم على القراءة ـ، فإنه يتوجب على الإبداع، الذي يفترض فيه ألا يكون محدوداً، أن يمر من خلال ذلك العنق ويجتازه.

هكذا تتسطح الثقافة؛ فيتكيف المفكرون مع فكر الرقباء، ويهبطون بأفكارهم، فلا يبقى لها وزن يتغلغل في الأعماق فيحرك مياه المستنقع الراكد، ولا صوت يدوي في الأسماع فيوقظ النائمين في خيام الغفلة والتخلف.. ويتضاءل الإبداع ويضمُر لكي يتسنى له المرور من عنق الزجاجة، ويتمكن من اجتياز العقبة.. ويتمادى الفاصل الزمني بين إبداع الفكرة ووصولها إلى القارئ، بانتظار دورها على طاولة الرقيب، ولو أدى الانتظار إلى أن تفقد قيمتها ويفوت أوانها في عصر المعلوماتية وسرعة التحولات..ويتخفف القراء من عناء القراءة، فلا يقرءون إلا ما يجود به الرقيب،وبذلك تتجنب ثقافتهم السمنة والترهل، ويحققون لأفكارهم ما تتطلبه أنظمة الرقابة من ضمور ورشاقة فيها أصبحت لديها مطلباً عصرياً أسوة برشاقة الأجساد.. وتضيق ساحة انتشار الكتاب نظراً لتباين الاتجاهات لدى أنظمة الرقابة، واتفاقها جميعاً على الأحادية والانغلاق ورفض الآخر، فما يُسمح به هنا يمنع هناك ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم ٣٠/٣٢).

ولئن ابتلي مجتمع بمثل هذه الرقابة الأحادية، فلسوف تصاب ثقافته بالكساح والطفولة المزمنة والعجز عن النماء، لأن الفكر الأحادي عقيم لا ينجب، والأفكار لا تنمو إلا بالتزاوج.

أما إذا ابتلي مجتمع برقابة مزدوجة متباينة (علمانية وإسلامية مثلاً)، فلن يقرأ هذا المجتمع شيئاً، وسيرتاح من عناء التفكير أبداً ليأوي إلى كهف يغط به في نوم عميق خارج التاريخ.

ويشهق الكتاب متسائلاً: أأخرج من القرن العشرين أسوأ مما دخلته؟!

أما أنا، فلي في أزمات الكتاب رأي آخر مختلف:

ففي عصر المعلومات، وثورة المعلوماتية والاتصالات، وهذا المنعطف الخطير الذي تمر به البشرية بتسارع مذهل، لتتحول من عصر صناعة المواد الذي تتفاوت فيه الأمم فيما تمتلكه من خامات وثروات وتقنيات ومصانع، إلى عصر صناعة الأفكار الذي يتساوى فيه البشر فيما يمتلكونه من نعمة العقل؛ هبة الله للإنسان، فيقفون جميعاً على عتبة سباق واحدة، يستقبلون ألفية ثالثة، سوف يتغير فيها كل شيء..

سوف يقترب الناس بعضهم من بعض، ويتعارفون، وتتمازج الحضارات.. وسوف يتخاطبون عن بعد من دون أسلاك ولا أدوات.. وسوف تسقط المسافات والأبعاد والحدود وسائر القيود..

وسوف تنمو الأفكار وتُسال المعلومات إلى الإنسان في كل مكان، كما يسال الماء والغاز والكهرباء؛ قطرات تنهمر عليه من فضائيات السماء، وينابيع تتفجر بين يديه من شبكات الأرض.

وسيلوذ الإنسان بالقراءة طوقَ نجاة يعصمه من الغرق في طوفان المعلوماتيةَ الهادر من حوله..

وسيذهب ورق الكتاب، ومداد الكاتب، ومقص الرقيب، وتعليمات الوصي، وقوانين المطبوعات، وقوالب (الأيديولوجيات) إلى متاحف التاريخ مع الديناصورات.

وسينكسر احتكار الحقيقة والمعرفة، وينعم الناس بنعمة الاختلاف التي أنعم الله عليهم بها وسيلةً للنماء والارتقاء..

وستسقط الوصايات الفكرية وتتهاوى أنظمة الحجر، وتتراخى قبضة السلطة عن الثقافة، التي سيشتد ساعدها، ويزداد تأثيرها، ويعلو شأن المثقفين..

وستتعدد الخيارات أمام المتلقي، فلا يبقى أسير الصوت الواحد، والرأي الواحد، بل سيصغي إلى الصوت الآخر ويتفهم الرأي الآخر، ويسود الحوار..

وستتبدل الأذواق والعادات والتقاليد وأنماط الحياة وأساليب العيش ووسائط النقل وطرق التعليم والتوثيق.

ولسوف تزول جميع المشكلات التقليدية للكتاب، لتحل مكانها مشكلات جديدة تستدعي التأمل.

وستذهب أنظمة الرقابة، بكل أشكالها، ولن يكون إصرارها على ممارسة هوايتها بالوصاية على الكتاب ـ ذي العدد المحدود ـ إلا نوعاً من التشبث بالماضي دفاعاً عن الذات وثأراً من الكتاب لكرامتها التي داستها الفضائيات والشبكات ذوات القدرة غير المحدودة على الاتصال.

ويسألني المشفقون على ثقافة الأجيال: هل نرفع الوصاية، ونطلق العنانَ، ونترك الحبل على الغارب؟!

وأقول في الجواب:

أنا مع تكوين (المناعة)، لا مع (المنع) .

ومع تقديم (البديل) الأكثر نفعاً.

إن وعي القارئ هو وحده جهاز المناعة القادر على تحصين ثقافة المجتمع وتنقية أجوائها، وهو جهاز الرقابة الكفيل بتوجيه الثقافة ونفي خبثها. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (الرعد ١٣/١٧). ■

كتب عربية

السجينة
مليكة أوفقير
ترجمة: غادة الحسيني
بيروت: دار الجديد، ٢٠٠٠، ٢٧٥ صفحة



في أغسطس ١٩٧٢، طاردت طائرة من سلاح الجو المغربي طائرة الملك الحسن الثاني فوق مدينة تطوان المغربية.

أطلقت في اتجاهها عددًا من الصواريخ، أخطأت الصواريخ هدفها، وهبطت طائرة الملك بسلام في مطار الرباط.

أحد الطيارين الذين نفذا المحاولة، قال إن مدبر الانقلاب هو الجنرال محمد أوفقير، وزير الدفاع وقائد القوات الجوية الملكية آنذاك.

استدعى الملك الجنرال أوفقير إلى قصر الصخيرات، وقبل أن يصل إليه كانت نهايته تقررت: خمس رصاصات مزقت جسده وحولته إلى أشلاء.

لا شيء يستدعي الأسى في مصير أوفقير حتى لو لم يكن هو مدبر الانقلاب، فقد كان أوفقير رجل الملك وذراعه الباطشة، هو الذي أخمد انقلاب الصخيرات قبل ذلك بشهور، وقتل أصدقاءه من الجنرالات والضباط كي يؤكد ولاءه للعرش، وهو الذي اغتال «المهدي بن بركة» أحد زعماء المعارضة في باريس، وعشرات غيرها من الجرائم الإنسانية والأخلاقية.

ما يستدعي الأسى فعلاً هو ما جرى لأسرته، إذ جاوز انتقام الملك مدبر الانقلاب إلى أسرته، فألقى بها عشرين عامًا في السجون، من نهاية ١٩٧٢ وحتى ١٩٩١، حين تمكنوا من الهروب في عملية أسطورية عصية على التصديق، إذ حفروا نفقًا أسفل السجن بالملاعق والشوك والأظافر وعلب الصفيح، تمكنوا عبره من النفاذ إلى خارج أسواره الرهيبة، بعد سنوات من الجوع والتعذيب والقهر النفسي والإحباط، ومحاولات متكررة يائسة للانتحار، جعلتهم جميعًا في حالة لا تسمح بأكثر من انتظار الموت.

ومليكة صاحبة هذه المذكرات، كتبتها بعد ٦ سنوات من هروبها، وبعد عام واحد من هجرتها إلى باريس في عملية هروب ثانية، والغريب أن مليكة هي ابنة الملك محمد الخامس بالتبني، إذ تبناها الملك كي تؤنس وحدة ابنته الصغيرة «للا أمينة»، التي تقاربها في السن، عاشت في كنفه سنوات طفولتها الأولى، وحين مات واصل الحسن الثاني ما بدأه أبوه، إلى أن طالبت هي ذاتها بأن تعود إلى أهلها لتعيش حياتها الطبيعية في كنفهم.

وحين اتهم أبوها بتدبير انقلاب ضد الملك، أخذت أسرته بجريرته، دخلوا جميعًا السجن وتنقلوا بين عدد من الحصون والقلاع في الصحراوات المغربية. كانت الخطة، أن يتركوا لمصيرهم داخل السجون حتى يلاقوا حتفهم واحدًا تلو الآخر، لكن إرادة الحياة لديهم كانت أقوى من حقد ساجنيهم، فهربوا بطريقة يعجز عن وصفها خيال السينما، وحكوا قصة معاناتهم للصحافة والإعلام الفرنسي، الذي مثل ضغطًا على النظام الملكي وأركانه، فأفرجوا عن بقيتهم، وبقيت الأسرة ٥ سنوات قيد المراقبة داخل المغرب، عاجزين عن العمل أو التنقل أو السفر، حتى نجحوا في الهجرة إلى باريس.

ما عانته أسرة أوفقير يفوق أي تصور، فحين دخلوا السجن كانت مليكة أكبرهم في الثامنة عشرة وغادرته في الثامنة والثلاثين، أما أصغر الأولاد عبد اللطيف، فقد كان عمره حين زُج به في السجن عامين، وغادره شابًا في الثانية والعشرين!

حكاية مليكة أوفقير وأسرتها إلى جانب كونها رواية عن الطغيان والقهر في أبشع صوره، فإنها رواية عن إرادة الحياة في أسمى معانيها.

□ □ □

ثورة الزنج
فيصل السامر
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٠، ١٩٢ صفحة



نصح القرآن الكريم بحسن معاملة الرقيق، ودعا المسلمين إلى تحريرهم، والشريعة الإسلامية تنظر إلى تحرير العبيد كعمل من أعمال التقوى يثاب عليه المسلم، وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد اشترطت أن يستعبد الأسرى في حالة الحرب الشرعية مع الكفار بعد الإنذار والإشهار، فإن التطور الاقتصادي الذي شهده العالم الإسلامي، وتغلب المصالح المادية على الشعور الديني في كثير من الأحيان، أدى إلى قيام نوع جديد من الرق لم يكن مشروعًا ولا مقبولاً هو النخاسة، أو تجارة الرقيق التي انتشرت في أسواق الشرق وبخاصة في بغداد، وقد جلب تجار الرقيق المسلمون العبيد السود من ساحل أفريقيا الشرقي، وهي أرض الزنج التي أطلق العرب عليها زنجبار.

عمل الزنج في ظروف بالغة القسوة والضراوة، ولم يُسمح لهم بتكوين أسر أو العيش في كيانات اجتماعية قابلة للنمو والتطور.

وقد ضرب علي بن محمد «صاحب الزنج»، على وتر المستوى المعيشي المتدني واللا إنساني الذي عاش في ظله الزنج، فاستجابوا لدعوته وناصروه.

انطلقت ثورة الزنج بقيادة علي بن محمد من فرات البصرة عام ٢٥٥ هـ، ودامت نحو ١٤ سنة، وعُرف عنه تذوقه للأدب وكان هو نفسه قارضًا للشعر، وقد رأى بعض الباحثين أن صاحب الزنج إنما قام بثورته لتحقيق طموحه الشخصي ونزعاته إلى الشهرة والمجد، فيما يرى آخرون أنه خرج على الدولة العباسية متألمًا مما آلت إليه الأمور من فساد، ولرغبته في نشر العدل وتحقيق العدالة الاجتماعية، ويذهب المؤلف إلى أن صاحب الزنج كان مخلصًا للدعوة التي تبناها، برغم أن عديدًا من المؤرخين كالوا له السباب والشتائم ووصفوه بأقذع الصفات، فهو الدعي الخبيث اللعين عدو الله والمسلمين.

ويعترف المؤلف بفظاعة الجرائم التي ارتكبها علي بن محمد وأتباعه في عديد من المدن والقرى التي دمروها ونهبوها، لكنه يبرر هذه الأفعال بأمرين، أولهما: أن الزنج كانوا في حالة حرب سافرة مع الدولة، وأن الجميع وقفوا ضدهم وحاربوهم بكل قواهم، مما جعلهم في موقف دفاع عن النفس، وثانيهما: أن أعمال القسوة والتعذيب والعنف في الحروب، وجدت دائمًا في حروب ذلك الزمان، وأنها شملت معسكر الزنج والعباسيين على السواء.

كانت ثورة الزنج هي ثورة العبيد الأفارقة في البصرة وما حولها، كانت حلقة في سلسلة من الحركات التي عبرت عن القلق الاجتماعي وعدم الرضا عن النظام السياسي الذي كان قائمًا آنذاك، كانت ثورة الزنج بحسب ما يشير المؤلف، حربًا اجتماعية ذات طابع طبقي، ضد الظلم والفساد والتفاوت في الغنى والفقر.

حقق الزنج انتصارات كبيرة على العباسيين، واحتلوا مدنًا وقرى عديدة، وهددوا أملاك الدولة العباسية سنوات عديدة، وعقدوا تحالفات مع خصومهم، ومع بدء العام ٢٦٦ هـ، بدأ نجم الزنج كقوة عظيمة يأفل، وبدأ الإعداد لحرب حاسمة قادها أبو أحمد الموفق، الذي أسقط عاصمتهم «المختارة» في عام ٢٧٠ هـ، لينهي بذلك واحدة من أهم الثورات الاجتماعية في التاريخ الإسلامي.

□ □ □

يهود الجزائر
٢٠٠٠ سنة من الوجود
عيسى شنوف
الجزائر: دار المعرفة، ٢٠٠٠، ٢٢٦ صفحة



يوهمنا المؤلف الذي يقول أنه عمل سنوات في الصحافة المكتوبة، بأن دافعه إلى كتابة هذه الدراسة علمي بحت، وأنه توخّى الموضوعية التامة في تناوله لليهود كظاهرة تاريخية في المجتمع الجزائري، لكن سطورًا قليلة في مقدمته، تكفي تمامًا لكشف نواياه، فالمؤلف داعية تطبيع لا تنقصه السذاجة والادعاء، ويخلط عمدًا بين التاريخي والسياسي.

ويصير الكلام عن يهود الجزائر واندماجهم في المجتمع الجزائري وتميزهم في أشغال المال والتجارة، وعطائهم في الفن والأدب، وتعاطف كثيرين منهم مع الكفاح الجزائري في مواجهة الاستعمار الفرنسي، يصير هذا كله أسبابًا معقولة وتبريرات منطقية للتعاطف مع الإسرائيليين، ويتساءل بسذاجة لا يحسد عليها: «هل علينا أن نتفاعل مع اليهود بموضوعية وروية أم سلبيًا وبرعونة باللعب على الجانب العاطفي.

والموضوعية التي يقصدها تلخصها تلك السطور: هل ننسى أن اليهود مازالوا إلى يومنا هذا شركاء ممتازين للشركات الخاصة والعمومية الجزائرية؟ علاقات اقتصادية هائلة مربوطة معهم عن طريق الفاكس دون أن نغادر الحدود.

ويقول في موضع آخر: نحن نعلم أن اليهود وسطاء تجاريون محنكون إلى درجة مكنتهم اليوم من التحكم في مفاتيح المالية العالمية الكبرى، فهم يتحكمون في وسائل النقل البحرية ويستخلصون فوائد جمة من الصفقات التجارية التي يديرونها بمهارة في العالم العربي وفي الشرق الأوسط، ونجدهم في كل مكان به المال أو تتداول به العملة أو تحصّل منه الفوائد، وهم ينسجمون بسهولة في نموذج المجتمع الذي هم مطالبون بالعيش فيه، ويكشف سريعًا عن نواياه حين يقول: الآن وقد سارت الأمور في اتجاه السلام على النحو الذي آلت إليه، فهل علينا أن نكون ملكيين أكثر من الملك، وإذا كان الفلسطينيون قد قبلوا السلام ، فلماذا لا تقبل به الأمم العربية الأخرى، فلماذا علينا أن نكون عربًا أكثر من العرب ومسلمين أكثر من المسلمين.

ولا يجد المؤلف حرجًا في أن يرى في

عروض موجزة

انتصار أكتوبر هزيمة، مرددًا نفس الدعاوى الإسرائيلية، يقول بوضوح لا يحتمل التأويل: إن القوة المتعجرفة للإسرائيليين كانت لها الكلمة الأخيرة أمام جبن الأمم العربية التى فترت عزيمتها هزائم ١٩٦٧ و١٩٧٣.

لقد كتب الكثير من المؤرخين عن اليهود فى بلادهم، وتناولوا عطاءهم أو عزوفهم فى إطار المجتمعات التى عاشوا فيها، وتاريخهم السياسى والاجتماعى وإسهاماتهم الثقافية، وهى دراسات لم تغضب أحدًا، لأن اليهود كانوا عمليًا جزءًا من هذه المجتمعات، والوجود اليهودى لا يمكن إنكاره فى غير عاصمة عربية، فى العراق وسورية والمغرب والجزائر وسواها، لكن القبول باليهود شىء، والقبول بإسرائيل كمشروع استيطانى استعمارى شىء آخر، وهو ما يشكك كثيرًا فى حيادية المؤلف وموضوعيته المزعومة.

□ □ □

أبوالعلاء المعرى
أو... متاهات القول

عبدالفتاح كيليطو

الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٠



عاش أبوالعلاء المعرى فى «معرة النعمان» بسورية بين القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين، وذهب كثير من الباحثين إلى أن «دانتى» استفاد كثيرًا فى كتابه الشهير «الكوميديا الإلهية» من كتاب المعرى الشهير أيضًا «رسالة الغفران»، وعرف المعرى بأنه رهين المحبسين، خلوته وبصره الذى فقده وهو فى الرابعة من عمره، كما عرف بتشاؤمه الذى كان نتاجًا طبيعيًا لظروفه القاسية، وكان يؤرقه دومًا أنه لا يستطيع أن يحقق شيئًا بمفرده، وإنما هو فى حاجة دومًا إلى معونة آخرين، يقول عن ذلك فى رسالة الغفران: «وأنا مستطيع بغيرى، فإذا غاب الكاتب فلا إملاء» واشتهر بقدرته الخارقة على الحفظ، حتى حفظ وهو فى العشرين من عمره كل الشعر العربى. يقول المعرى: «ما سمعت شيئًا إلا حفظته، وما حفظت شيئًا ونسيته»، وقيل أن الناس كانوا يلجأون إليه إذا تعذَّر عليهم الحصول على نسخة من كتاب مفقود، أما أشهر أبياته الذى يعرفه العامة والخاصة فبيته المعروف:

هذا جناه أبى علىَّ
وما جنيت على أحد

وقد تأثر كثيرًا بفقد أمه التى فارقته وهو فى السابعة والثلاثين. وقال فى فقدها:

مضت وقد اكتهلت فخلت أنى
رضيع ما بلغت مدى الفطام

المؤلف يغوص فى عالم أبى العلاء كاشفًا عن المضمر فى قوله، ومنقبًا بين السطور عما لم يقله، فى محاولة لاكتشاف عالمه وسبر أغوار حياته النفسية والاجتماعية، وفى سبيل ذلك يعيد قراءة «رسالة الغفران»، وينفى أن يكون «دانتى» قد أفاد منها لأنها ببساطة لم تترجم إلى أية لغة.

ثم يعيد الاعتبار لكتابه «الفصول والغايات فى تمجيد الله والمواعظ»، الذى قُرئ قديمًا بوصفه محاولة لمضاهاة القرآن الكريم، ولهذا رُفض وأهمله النقاد، وبرغم أن المؤلف يراه كتابًا حافلاً بالوعظ والتقوى، رآه ابن الجوزى غير ذلك، يقول: «رأيت للمعرى كتابًا سماه الفصول والغايات، يعارض به السور والآيات، وهو كلام فى غاية الركة والبرودة، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته».

ولم يشفع للمعرى عند ابن الجوزى إقراره فى كتابه أن كلام الخالق فوق كل كلام، وأنه يتعدى قدرة المخلوق.

أما «لزوم مالا يلزم» فإن المؤلف يعتبره دليلاً أكيدًا على أن المعرى هو ربَّان سفينة الحداثة قبل أن يعرف الغرب الحداثة بقرون، فقد حرَّم المعرى على نفسه فى هذا الكتاب الأغراض التقليدية التى تحبب الشعر إلى الناس، وقد أكد فيه على ذم الدنيا وتبكيت النفس، وألح إلى الفتور والضعف اللذين يلحقان الشعر عندما يقتصر على الصدق، فأجمل الشعر برأيه أكذبه.

لقد ظلم معاصرو المعرى شعره وكتابته إجمالاً، لأنهم قرأوا ظاهرها بروح عدائية، ولم يسعوا إلى فهم أغراضه ومراميه.

□ □ □

مقاومة

سهى بشارة

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠، ٢٥٤ صفحة



كان يكفى ذكر معتقل «الخيام»، حتى ترتعد فرائص اللبنانيين من هول ما سمعوه وما عرفوه عن هذا السجن الرهيب. فى هذا المعتقل، قضت سهى بشارة عشر سنوات من أجمل سنوات عمرها، حيث تعرضت لتعذيب قاس يفوق القدرة على التصور والاحتمال، عقابًا لها على محاولتها اغتيال قائد جيش لبنان الجنوبى العميل لإسرائيل.

تنتمى سهى إلى إحدى قرى الجنوب التى تحررت أخيرًا، لم يكن يفصلها عن مواقع الجيش العميل سوى أمتار معدودة. كان بوسعها حين تعتلى ربوة عالية، أن تواجه فوهات مدافعهم موجهة نحو أهاليهم من اللبنانيين مثلهم، وهى نضاليًا وأيديولوجيًا، تنتمى إلى أسرة شيوعية، فقدت بعضًا من أفرادها فى حروب المقاومة ضد الإسرائيليين، وفى الحرب الأهلية اللبنانية، التى تفتح وعى سهى على جنونها الذى لم يبق أو يذر، ولم تفرِّق فى جنونها بين المشاركين فعلاً فى الحرب، وسواهم ممن أخذوا بجريرة غيرهم. لا تبدأ سهى مذكراتها عن السنوات العشر الرهيبة من لحظة المعاناة، وإنما قبل ذلك بسنوات فتحكى عن قريتها «ديرسيماس»، وعائلتها وعلاقتها بالسياسة والحرب الأهلية اللبنانية وجنونها غير المبرر، وتعاطفها مع النضال الفلسطينى ضد الاحتلال الإسرائيلى، ثم الاجتياح الإسرائيلى لبيروت بقيادة اريل شارون فى الخامس عشر من يونيو ١٩٨٢، وقتها كانت سهى تستعد للاحتفال بعيد ميلادها الخامس عشر. هكذا، قُدِّر لها أن تواجه وهى على عتبات المراهقة مع جيش الأعداء الذى أحال - ومازال - حياة الفلسطينيين واللبنانيين إلى جحيم مستمر، وأشعل بداخلها رغمًا عنه، رغبة المقاومة والتحدى لوجوده المأساوى، مهما كانت التضحيات.

فى هذه اللحظة بالذات، تولَّدت لديها فكرة عما يمكن أن تفعل لمقاومة الأعداء الذين كان وجودهم سببًا فى كل ما جرى فى المنطقة، وعليه، قررت الانضمام فورًا إلى جبهة المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلى، التى أعلن عن قيامها فى ١٦ سبتمبر ١٩٨٢، وجعلتها الشهيدة سناء محيدلى، التى فجرت نفسها بقنبلة لدى مرور دورية إسرائيلية، واختارت الموت وهى بعد لم تبلغ التاسعة عشرة، تدرك أن النضال فى مثل تلك الظروف ليس شعارات ومظاهرات فحسب، ولابد من أن يجد صداه فى صور من التضحية أسماها التضحية بالنفس. بدأت سهى عملها السرى، إذ تم تكليفها باغتيال أنطوان لحد قائد جيش لبنان الجنوبى الموالى لإسرائيل، وتمكنت بعد جهود مضنية، من الاقتراب من «نيرفا» زوجته، بوصفها مدربة للتمارين الرياضية، وتحكى سهى عن الفرص التى واتتها لقتل لحد. إلا أنها لم تستطع، حتى حانت لها اللحظة المناسبة وأطلقت عليه رصاصتين من مسدسها. فى بيته وأمام زوجته وضيوفه، أصابته الطلقتان إصابات بالغة، نقل بسرعة إلى إسرائيل حيث اخترعت الأعاجيب لإنقاذه، فتم إنقاذه فعلاً، وخضعت سهى لعملية استجواب طويلة استمرت نحو ثلاثة أشهر، أودعت بعدها فى معتقل الخيام عشر سنوات، بينها ست سنوات فى حبس انفرادى، حتى أفرج عنها فى عام ١٩٩٨، لتشهد بعد ذلك بعامين خروج الإسرائيليين القسرى من جنوب لبنان، ورحيل أنطوان لحد إلى تل أبيب، ليعيش بقية حياته بين من اختار أن يكون عميلاً لديهم، مقابل قتل أهله وبنى عروبته.

□ □ □

مصر والعالم على أعتاب ألفية جديدة

محمود عبد الفضيل

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ١٧٠ صفحة



مفاهيم وأفكار جديدة حول العمل وأساليب الإنتاج حملتها الثورة التكنولوجية الثالثة، ثورة الاتصالات والمعلومات، فقد اختفت أو كادت، الوظيفة الثابتة، وصار العمل لبعض الوقت أو بالمشروع هو النمط التوظيفى السائد، بما يستتبع ذلك من تقلص الحقوق التأمينية للعاملين، والإحساس بعدم الأمان لانعدام تدفق الدخل الثابت لديهم، وفى أساليب الإنتاج تزايد الاعتماد على العمالة الاصطناعية «الروبوت»، واستتبع ذلك بطبيعة الحال تحولات مهمة فى أداء الأسواق وظهرت التجارة الإلكترونية التى تختصر المسافات والمساحات وتتم عبر شبكة الإنترنت، مما أدى إلى اختفاء الوسطاء وتوفير الوقت المكرس لعمليات البيع والشراء، ومن المتوقع أن يبلغ حجم التجارة الإلكترونية ما بين ٢٠٠ مليار دولار إلى ٨٠٠ مليار دولار خلال السنوات الخمس المقبلة.

تطرح هذه التحولات وغيرها كثير، تحديات كثيرة على مصر والعالم العربى، كما تمنحها فرصًا لم تكن متاحة من قبل، ثمة عملية «هدم» تجرى، تقابلها عملية «خلق» جديد، وهما عمليتان تتمان بالتوازى وبالسرعة نفسها فى ظل التغيرات المتسارعة التى تفرضها العولمة، لكن المشكلة الأساسية التى تواجه العالم العربى، هى عدم استعداده للاستجابة الإيجابية لما يجرى، والكتابات الحديثة فى معظمها تصوِّر عمليات العولمة ونتاج ثورة المعلومات والاتصالات على أنها تفضى إلى كونية جديدة، ينجم عنها تقصير المسافات فى

عروض موجزة

الزمان والمكان. لكن العولمة في جوانب عديدة منها، تقود إلى توسيع وزيادة المسافات بين العالم المتقدم والعالم العربي في العديد من المجالات الاقتصادية والتقنية والاجتماعية.

والمؤلف يشير إلى التباس في فهم الظاهرة يخلط بين قضيتين: أولاهما أن العولمة الجارية عملية تاريخية تجرى في إطار مرحلة عليا من مراحل التطور الرأسمالي.

وثانيتهما أنها نفع خالص وحتمية تاريخية لا فكاك منها دونها الموت والفناء. وعليه فإن الاندماج في ثورة الاتصالات والتسليم بصعود رأس المال المالي ونمو وتوسع الشركات متعدية الجنسيات يعد بدوره من المسلمات.

العولمة - بحسب ما يذهب المؤلف - تخلق علاقات قوى جديدة على الصعيد العالمي، تتسم بعدم المساواة بين هؤلاء الذين يمتلكون مفاتيح التقدم التكنولوجي وهم اللاعبون الرئيسيون، والآخرين الذين يقتصر دورهم على الاستقبال والاستهلاك. تلك هي الفكرة الأساسية التي يدور حولها الكتاب الذي يشتمل على أقسام ثلاثة. يتناول الأول منه مصر والعرب في ضوء تلك التحديات، ويخصص القسم الثاني للوضع الاقتصادي المصري على أعتاب ألفية جديدة، ويتناول الثالث إشكاليات وتداعيات وتناقضات العولمة، التي تواجهنا بشراسة وقوة ولا فكاك من آثارها شئنا أم أبينا.

□ □ □

ليتك يا ليليان ما قرأت الفنجان

جمال إسماعيل

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ١٣٥ صفحة



لا يمكن المغامرة بتصنيف هذا الكتاب ضمن أدب الرحلات، ولا اعتباره مذكرات شخصية، ولا يجوز التعاطى معه كرواية أو قصة طويلة، الأصوب أن نعتمد ما أقره المؤلف على غلافه بوصفه سردًا صحفيًا.

يحكى المؤلف شيئًا من تجاربه الصحافية والحياتية في العاصمة البريطانية «لندن»: التي هبط إليها في أواخر السبعينيات، طامحًا في تحقيق ذاته المهنية.

في هذه الفترة، كان التدفق العربي على لندن هائلاً ومتنوع الأسباب، البعض جاء لأسباب اقتصادية، آخرون أجبرتهم الأحوال السياسية في بلادهم على الهجرة إلى عاصمة الضباب. فريق ثالث كانت دوافعه علمية وتعليمية ومهنية، المهم أن لندن كانت مقصدًا لعشرات الآلاف من العرب، عرب الخليج وشمالي أفريقيا والشام على السواء، وكانت مناسبة جيدة أن يحتك المؤلف بهذه النماذج على اختلاف مقاصدها، وأن يختبر بعض قناعاته عن العروبة والوحدة والدم الواحد والمصير المشترك، وأغلب الظن أن النتائج جاءت مخيبة لآماله، تمامًا كما خاب أمله في تحقيق بعض ما طمح إليه في مهنة الصحافة التي أحبها، وانتهى به الأمر إلى صحفى بعض الوقت و«نصاب كل الوقت». والمؤلف هنا يسرد لنا كيف تدار الأمور في الصحافة المهاجرة، وكيف ينتقل الصحافيون بين ليلة وضحاها من الضد إلى الضد، كيف يدافعون عن سياسة دولة ما يومًا، وينتقدونها بالحماس ذاته في اليوم الذي يليه، كيف كان الخبر الواحد تعاد صياغته وتنسب مصادره إلى مجهولين أحيانًا، ومصادر عليمة ببواطن الأمور أحيانًا أخرى، كي يقرأه الجمهور في الحالين ظنًا منه أنهما مختلفان.

ويروى لنا المؤلف شيئًا مما واجهه من مؤامرات «إخوة العروبة» في إحدى الصحف التي عمل بها تحت عنوان «الغابة»، فيختار لكل شخصية اسم حيوان تتشابه معه صفاته، المهم أن الأمور تنتهي بفضيحة كبرى لـ«الحمار الأشيب» عكرت صفو حياته وجعلته نهبًا للألسنة والأقاويل.

لكن القسم الذي يبدو مسيطرًا أكثر على السرد، هو ذاك الذي يحكى فيه المؤلف عن بعض تجاربه النسائية، وزواجه من «ليزا» الذي نجم عنه ابنتهما «زينة» وقد ظل هذا الزواج ثم الانفصال فيما بعد واحدًا من منغصات حياته حتى الآن.

ولا يفوت المؤلف أن يقدم لنا نقدًا اجتماعيًا لعديد من المشاهد التي صادفها بعد عودته إلى القاهرة، وهذا بُعد آخر في السرد الذي يتداخل فيه السياسي بالاجتماعي بالإنساني في نسيج متصل.

أما أكثر ما يلفت الانتباه، فهي اللغة الأدبية الرشيقة التي اعتمدها المؤلف، فقد جاءت مقتصدة بلا زوائد، بسيطة ومباشرة، دون أن تنزلق إلى فخ التقريرية، وأتصور أن أكثر من عقد من العمل الإعلامي في لندن، وفي هذه الأجواء، أجواء الثمانينيات والسنوات الأولى من التسعينيات، يمكن أن تعدنا بأكثر مما جاء في الكتاب، عن علاقات الجاليات العربية ونظرتهم إلى المجتمع الغربي، ونظرة الغرب إليهم، وقضاياهم ومشاحناتهم واتفاقاتهم واختلافاتهم وقصص نجاحهم وإخفاقهم، وعشرات غيرها من الموضوعات التي ربما أفرد لها المؤلف كتابًا مستقلاً فيما بعد.

□ □ □

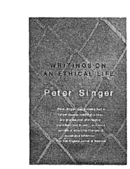
كتب أجنبية

Writings on an Ethical Life

(كتابات في الحياة الأخلاقية)

Peter Singer

Fourth State, 2001, £15.00.



يعد بيتر سينجر من أهم الفلاسفة المعاصرين الذين كانت لهم بصماتهم الواضحة على عالمنا الحالي. وقد أدى كتابه الذي صدر عام ١٩٧٥ بعنوان «تحرير الحيوان» إلى ظهور حركة بنفس الاسم. وقد تعرض مؤخرًا للانتقادات، بل والتشويه لأنه حبذ مسألة القتل الرحيم لهؤلاء المرضى غير المتوقع شفاؤهم، أو الأطفال المعوقين إعاقة شديدة. وهي قضية تثير مشاكل كثيرة في دول الغرب ومنها بريطانيا.

والكتاب عبارة عن مجموعة مقالات وكتابات للمؤلف في هذه القضايا التي تثير جدلاً شديدًا ليس بين المتخصصين ولكن مع القراء أيضًا. ويخلص سينجر إلى مجموعة من الاستنتاجات هي باختصار: أن الألم أمر سيئ لكن البشر ليسوا هم وحدهم الذين يشعرون بالمعاناة والألم، وأنه فيما يتعلق بمسألة القتل فإن المسألة لا يجب أن تتوقف فقط عند اللون أو الجنس أو النوع، بل على كون هذا المقتول فردًا أيًا كان نوعه أو جنسه أو لونه. وبهذه المناسبة فإن البشر يقضون على عشرات الملايين من الكائنات الأخرى لكى يأكلوها دون أن يرف لهم جفن.

ويؤكد المؤلف أيضًا أن البشر مسئولون ليس فقط عما يفعلونه ولكن أيضًا عما يمكنهم أن يمنعوا حدوثه. إن أرواح بعض الحيوانات في نظر سينجر ربما تكون لها قيمة أكبر من قيمة بعض البشر، ثم إنه ليس لكل البشر قيمة متساوية.

ويقارن المؤلف بين المحاولات غير العادية للإبقاء على حياة إنسان ما (مريض أو معاق في الغالب) رغمًا عن إرادته في بعض الأحيان وبين قتل الكائنات الأخرى دون أن يكون أفراد هذه الكائنات راغبين في الموت. ويتناول سينجر في كتابه قضايا أخلاقية عديدة تصدم القارئ وتحتاج لنقاش عميق سيختلف بالتأكيد من حضارة لأخرى ومن مجتمع لآخر وحتى من شخص لآخر. لكن النقطة الأهم في هذا الكتاب هي أن المؤلف يتحدث بشجاعة ويقول بصدق ما يعتقد حتى لو أدى ذلك لتعرضه للانتقاد والهجوم، وهو يؤمن بأن هناك حقًا في المعرفة ولا يجب على الإطلاق أن نتوقف عن استخدام هذا الحق حتى لو فسر الآخرون ما نقول بصورة غير صحيحة أو مغلوطة.

□ □ □

Niccolo's Smile

(ابتسامة نيكولاى)

Maurizio Viroli

IB Tauris, 2001,27PP,. £18.95

من العبارات الشهيرة للفيلسوف البريطاني الراحل برتراند راسل عن كتاب «الأمير» للفيلسوف الإيطالي نيكولاى ميكافيللي أنه «دليل لقطاع الطرق». وهذه العبارة ليست سوى نموذج لآراء كثيرين من المفكرين والفلاسفة والأدباء حول فكر ميكافيللي والذى اختصره كثيرون في مبدأ الغاية تبرر الوسيلة. لقد رسم ميكافيللي طريقًا شهيرًا للحكام لكى يسيروا عليه من أجل أن يبقوا في السلطة وهم لا بد أولاً أن يقضوا على كل من يقف في طريقهم دون رحمة أو شفقة.

لكن مؤلف هذا الكتاب له رأى مختلف إلى حد ما حيث ينظر إلى الجانب الإنساني في ميكافيللي، والذى اعتقد كثيرون أنه غير موجود بالأساس. ويرى المؤلف أن الإنجاز الأساسي لميكافيللي يتمثل في تطوير فلسفة إنسانية رحيمة للحياة، ومستخدمًا ليس فقط كتاباته، بل ورسائله وأدلة كثيرة من حياته، فإن المؤلف يرسم صورة لميكافيللي باعتباره الرجل الذى استقطر الحكمة من بيئة جافة للغاية.

ومن المعروف أن ميكافيللي لم يكن باحثًا أكاديميًا، بل رجل عمل، فقد خدم في السلك الدبلوماسي لفلورنسا وفي عهد أسرة ميديتش تعرض للإذلال والإهانة وتقاعد ليعمل في مزرعة للأسرة.

ويشير المؤلف إلى أن هذه الحياة الصاخبة الشاقة علمته كثيرًا من الحكمة، الأمر الذى جعله يعتقد أن على المرء أن يسير وفق ما تراه نفسه وطبيعته دون قلق أو خوف من آراء الآخرين. ويقول إن ميكافيللي زهد السلطة ووجد نفسه أكثر رضًا مع الحب والضحك والسعادة. وهذا

عروض موجزة

الرأى سيكون مثيرًا وغريبًا بالنسبة لأناس كثيرين اعتبروا ميكافيللى فيلسوف الشر وليس فيلسوفًا أخلاقيًا كما يقول المؤلف. ورغم كل شيء فإن قراءة فكر ميكافيللى أمر ضرورى، فهو رأى هذا الفكر - مازال حتى الآن لديه ما يقوله بشأن طبيعة السلطة. والسياسيون بالنسبة له هم دعاة الوهم الذكى والذين لا مكان لديهم للعواطف. إن السياسة فى نظر ميكافيللى، هى استغلال للضعف الإنسانى وكذلك للقسوة البشرية.

□ □ □

Late victorian Holocausts

(هولوكوست نهاية العصر الفيكتورى)

Mike Davis

Verso, 2001, 462PP., £20.00.



فى نهايات العصر الفيكتورى تعرض العالم لموجتين صاعقتين من المجاعات والجفاف اكتسحتا مناطق كثيرة من العالم آنذاك.

وقعت المجاعة الأولى فى الفترة من ١٨٧٦ حتى ١٨٧٩ ثم جاءت الثانية فى الفترة من ١٨٩٦ - ١٩٠٠. وكانت أشد الدول تضررًا منها الهند والصين والبرازيل، ويقدر الخبراء بأن ما يتراوح بين ٣٠ إلى ٦٠ مليون شخص ماتوا فى هذه الدول وحدها نتيجة لذلك. وقد وقعت مجاعات أقل شأنًا من تلك السابقة فى فلسطين وأمريكا الجنوبية وكوريا وأثيوبيا. ويعتقد بعض المؤرخين أن ضحايا هذه المجاعات أكثر عددًا من ضحايا أية كوارث كبرى فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين باستثناء الموت الأسود. ويقول المؤلف أنه ربما يكره البعض، يقصد اليهود، أن يطلق لفظ هولوكوست على أية كارثة باستثناء ما حدث فى عهد النازى، لكن هذه المجاعات هى هولوكوست أو عملية إبادة حقيقية.

إن هناك سببين لهذه الكوارث، الأول: الأحوال المناخية السيئة وخاصة إعصار النينو والذى يعنى حرفيًا المسيح الطفل، والذى اكتشفه العلماء فى نهاية الستينيات من القرن العشرين فقط، والسبب الثانى وهو الأهم: سياسى، فقد شهدت تلك الفترة حركة استعمارية كاسحة قادتها بريطانيا، الامبراطورية التى لم تكن تغيب عنها الشمس آنذاك، وسيطرت من خلالها على مناطق عديدة وشاسعة من العالم وقد ربطت الدول الاستعمارية خاصة بريطانيا وفرنسا هذه الدول المحتلة بها وبعد أن كانت تلك المستعمرات فى السابق تعتمد ذاتيًا على نفسها أصبحت تابعة للدول الاستعمارية التى استولت على كل المواد الخام لصالح مصانعها.

ويتحدث الكتاب تحت عناوين لافتة مثل التاريخ السرى للقرن التاسع عشر عن شرور الرأسمالية التى جاء بها الاستعمار إلى ما سيصبح بعد ذلك العالم الثالث. وهو لا يكتفى فقط بالحديث عن الأحوال المناخية السيئة كسبب للكوارث، كما يعتقد كثير من المؤرخين، بل يتحدث بالتفصيل عن الأسباب السياسية. وللحق فإن أمارتياسين الاقتصادى الهندى الفائز بجائزة نوبل فى الاقتصاد كان أول من تحدث عن أن الناس من النادر أن يموتوا فقط، لأنه لا يوجد طعام حولهم، ولكنهم يموتون لأن هناك هياكل اقتصادية وشبكات اجتماعية تتسبب فى حدوث المجاعات.

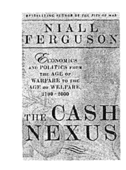
□ □ □

The Cash Nexus: Money And Power in the Modern World

(المال والسلطة فى العالم الحديث)

Niall Ferguson

Allen Lane, 2001, 553PP., £20.00



الفكرة الرئيسية التى يدور حولها الكتاب للمؤلف والمؤرخ البريطانى البارز نيال فيرجسون هى الحتمية الاقتصادية. وهناك تساؤلات داخل هذه الفكرة: هل الاقتصاد هو البنية الأساسية والسياسة هى البنية الثانوية المترتبة على ذلك، وهل المال هو الذى يصنع كل ما حولنا فى العالم، وهل هو مصدر السلطة.. ويحاول فيرجسون أن يناقش كل ذلك من خلال دراسة الافتراض الأساسى لفلسفة كارل ماركس القائم على الحتمية الاقتصادية. وللإجابة عن هذه التساؤلات يأخذ فيرجسون القارئ فى رحلة طويلة ليشير أولاً إلى أن هناك بعض الحقيقة فيما يتعلق بالحتمية الاقتصادية فالمؤسسات الاقتصادية التى كانت لدى بريطانيا فى القرن السابع عشر هى التى مكنت البلاد من هزيمة فرنسا فى المعركة الطويلة للسيادة على العالم فى الفترة من ١٦٨٨ حتى ١٨١٥، ثم يقول إن هناك مشابهة بين هذا النجاح البريطانى فى الماضى وبين الانتصار الأمريكى على الاتحاد السوفيتى فى الحرب الباردة، ففى الحالتين فازت الدولة التى لديها سوق أسهم متطورة وقدرات مالية تساعد فى تحقيق النصر العسكرى.

إن الدور الاقتصادى فى التاريخ لا شك فيه لكن المؤلف يعتقد أن فى الأمر سوء فهم. ويقول إن السياسة هى الأساس والاقتصاد هو الثانوى، فالتدفق النقدى ربما كان ضروريًا لشرح أحوال العالم الحديث، لكن ذلك ليس كل القضية ويشير إلى أن الكساد العظيم الذى ضرب العالم فى الثلاثينيات من القرن العشرين على سبيل المثال لم يؤد إلى ظهور هتلر كما كان مؤرخون ومفكرون كثيرون يعتقدون لأن النازى كان قد ظهر قبل ذلك. ويشير إلى أمثلة عديدة على صواب فكرته.

إن فيرجسون مقتنع بأن التاريخ الإنسانى ودوافع الجنس والعنف والسلطة أكثر أهمية من الاقتصاد وهو يفضل فرويد وديستوفيسكى لكى يعرف الطبيعة البشرية عن طريقها أكثر من كينز أو ميلتون فريدمان وهما من أشهر الباحثين الاقتصاديين.

ويشير إلى أنه فى كل يوم نلاحظ أن هناك من البشر من يضحى بمصلحة اقتصادية من أجل دوافع أخرى. والمسألة برمتها دار حولها جدل كبير، وفى هذا الكتاب فإن فيرجسون يعطى أدلة واضحة وقوية داعمة لوجهة نظره.

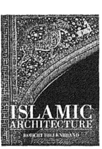
□ □ □

Islamic Archtecure: Form, Function Meaning

(العمارة الإسلامية: الشكل، الوظيفة، المعنى)

Robert Hillenbrand

Cairo, Auc Press, 2000, 664 PP., L.E. 150



مؤلف هذا الكتاب واحد من أعظم المتخصصين فى العمارة الإسلامية فى العالم، وهو يقدم نصًا ضخمًا بالغ الروعة والجمال للعمارة الإسلامية على مدى تاريخها وتنوع مجالاتها، والكتاب لا يسير على خطى الكتب السابقة عن العمارة الإسلامية التى تهتم بإعطاء سجل زمنى للأعمال الشهيرة فى هذا المجال، بل إنه يغوص فى أعماق العمل ويحاول الإحاطة به فنيًا وتاريخيًا ودينيًا. ويتضمن الكتاب فصولاً عن العمارة الدينية والعمارة العلمانية ويحتوى على ١٥٠٠ من الرسومات والصور والتوضيحات بينها ٣٠٠ من الرسوم ثلاثية الأبعاد لمبان كاملة.

ولأن هذا الكتاب بالغ العمق والإحاطة بموضوعه، فقد أصبح المرجع الرئيسى والدليل الشامل حول مواضيع العمارة الإسلامية. وقد اعتبره النقاد أحد أهم الكتب التى تناولت موضوع العمارة الإسلامية فى القرن العشرين بأكمله. والمؤلف يعمل أستاذًا للفن الإسلامى فى جامعة أدنبرة فى اسكتلندا.

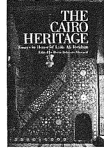
□ □ □

The Cairo Heritage: Essays in Honor of Laila Ali Ibrahim

(تراث القاهرة، مقالات فى تكريم ليلى على إبراهيم)

Edited By Doris Behrins Abouseif

Cairo, Auc Press, 2000, 340 PP., L.E. 80



يضم الكتاب ٢٠ مقالة تكريمًا للباحثة المصرية فى مجال الفن والعمارة الإسلامية ليلى على إبراهيم. وكتاب هذه المقالات مجموعة متميزة من الباحثين فى التاريخ الإسلامى وفى الثقافة والعمارة الإسلامية، وكذلك فى الحفاظ على التراث الإسلامى. ويقع الكتاب فى ٤ أجزاء، الأول تاريخى يتضمن دراسات عن خطط المقريزى وعن الشئون الأسرية والأوقاف فى العهد المملوكى، بينما يتناول الجزء الثانى التراث المعمارى والحضرى للقاهرة، ويتضمن العمارة الإسلامية والمصرية فى العهد المملوكى، أما الجزء الثالث فيتناول فنون الزخرفة، وتتحدث فيه المقالات عن صناعة الفخار المملوكية والزجاج المطلى.

ويتحدث الجزء الرابع عن الحفاظ على التراث المعمارى للقاهرة ويناقش الجوانب المحيطة بذلك والتعقيدات الاقتصادية، والموقف الحالى لمدينة القاهرة التاريخية.

□ □ □

اجتمـــــــاع

علم الاجتماع السياسى
شعبان الطاهر الأسود
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

عن علاقة التأثير المتبادلة بين الظواهر السياسية والظواهر الاجتماعية، والتداخل بينهما قد لا يُرى على السطح، لكن تأثير السياسى الفوقى على الاجتماعى الشعبى مما لا يمكن إنكاره.

■■■

Endangered Daughters: Discrimination and Development in Asia
(بنات فى خطر: التفرقة والتنمية فى آسيا)
Elisabeth Croll
Routledge, 2000, 224 PP., £ 14.99

تحلل المؤلفة الآثار الاجتماعية الضارة التى ترتبت على السياسات التنموية فى الصين والهند. ففى الصين أدت سياسة «طفل واحد لكل أسرة» التى بدأت فى السبعينيات إلى إصرار كثير من الأسر على أن يكون هذا الطفل ذكرًا وليس أنثى. مما أدى إلى عمليات إجهاض ووأد للإناث.

وقد بدأ الاهتمام يزداد بمخاطر هذا الخلل فى التوازن الديموجرافى، حيث يزداد الآن عدد البنين عن البنات بدرجة عالية مما يهدد أمن المجتمع.

■■■

Purified by the Fire: A History of Cremation in America
(التطهير بالنار: تاريخ حرق جثث الموتى فى أمريكا)
Stephen Prothero
University of California, 2000, 280pp., $ 27.50

أصبح الناس فى المجتمع البريطانى يفضلون بشكل متزايد أن تحرق جثثهم بعد الموت على أن تدفن فى الأرض، حتى وصلت نسبة حرق الموتى فى بريطانيا إلى ٧٠٪، بينما لم تتعد النسبة فى أمريكا ٢٥٪، حيث يفضل الناس الدفن على الطريقة التقليدية. وقد تبين للمؤلف أن الموضوع يتضمن صناعة مربحة يقف وراءها تجار كبار يدافعون عن الطريقة التقليدية. أما أنصار الحرق، فيعددون المزايا الاجتماعية والبيئية لطريقتهم، التى لا تكلف أسرة المتوفى النفقات الباهظة ولا الزيارات المتتالية للمدافن.

اقتصـــاد

الأموال
أبو جعفر الداوودى
القاهرة: مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية، ٢٠٠٠

يهتم الكتاب بتعريف ما الذى يعنيه الاقتصاد فى الإسلام، ويقدم حلولاً لبعض المشكلات الاقتصادية من منظور إسلامى، وأهمها بطبيعة الحال، تلك المتعلقة بعمل البنوك والفوائد والربا.. إلخ.

■■■

الفقر وتوزيع الدخل فى الوطن العربى
عبد الرزاق الفارسى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠

يبحث الكتاب فى ظاهرة الفقر وحدوده داخل أقطار الوطن العربى، وبحسب إحصاءات مؤسسات رسمية اقتصادية دولية، فإن نسبة كبيرة من سكان الوطن العربى يعيشون تحت مستوى الفقر.

والمؤلف يحاول اكتشاف خصائص الفقر والفقراء فى الوطن العربى، ويدرس التفاوت الرهيب فى توزيع الدخل بين أقطاره والسياسات المتبعة لمواجهته، وأثر النمو الاقتصادى فى تخفيف حدته.

■■■

India Unbound
(الهند تتحرر من قيودها)
Gurcharan Das
Knopf, 384pp., 2001, $ 27.50

بعد عشر سنوات من الإصلاح الاقتصادى فى الهند، والذى أطاح بشعارات الاكتفاء الذاتى والتخطيط الاقتصادى، يحتفى هذا الكتاب بنتائج السياسة الرأسمالية الجديدة التى أفرزت قطاعًا ناجحًا فى تكنولوجيا المعلومات، ومعدلات نمو أسرع.

المؤلف وهو رئيس سابق للفرع الهندى من شركة «بروكتر آند جامبل» المتعددة الجنسية، يعتقد أن الرأسمالية سوف تعالج الفساد الذى استشرى فى ظل النظام الاشتراكى، حيث إن شدة المنافسة تجعل من الوساطة والمحسوبية أمورًا مكلفة ومهددة للربح.

■■■

Creative Destruction: Business Survival Strategies in the Global Internet Economy
(التدمير الخلّاق: استراتيجيات البقاء فى اقتصاد الإنترنت العالمى)
Lee Mcknight, Paul Vaaler, Raul Katz (eds)
MIT Press, 2001, 250 pp, $ 24.95

منذ خمسين عامًا، خرج جوزيف شومبيتر بمقولة أو نظرية «التدمير الخلّاق» قاصدًا أن العمليات المرتبطة بالمجتمع الرأسمالى تتضمن باستمرار ابتكارات تكنولوجية جديدة وأكثر كفاءة تدمر الأساليب التكنولوجية الأقدم، وتحل محلها.

السؤال فى هذا الكتاب هو: هل ما يحدث الآن فى الصناعات المرتبطة بالانترنت والاتصالات يعد دليلاً على «التدمير الخلّاق» أم انه دليل على الفوضى؟

يقدم الكتاب كذلك نصائح للشركات والحكومات فى كيفية مواجهة تحديات هذه المرحلة وكيفية اقتناص الفرص التى تتيحها.

■■■

The Wind of the Hundred Days: How Washington Mismanged Globalization
(رياح المائة يوم: كيف أساءت واشنطون إدارة العولمة)
Jagdish Bhaguati
MIT Press, 2000, 408 pp., $ 32.95

يعد جاجديش باجواتى من أهم الاقتصاديين المدافعين عن العولمة والتجارة الحرة. ويقول فى هذا الكتاب أن فضيحة كلينتون الحقيقية تتمثل فى فشله فى إدارة العولمة الذى نتج عنه تناقض بين نجاح السياسة الاقتصادية الداخلية والفشل الذريع على الجبهة الخارجية.

يحلل باجواتى كذلك أزمة النمور الآسيوية، وينتقد الإدارة الأمريكية فى تحرير التجارة التى أدت إلى أحداث سياتل، وهو يرى أنه كان من الممكن تجنبها بتفعيل دور منظمات مثل «منظمة العمل الدولية» بدلاً من «منظمة التجارة العالمية».

إعـــــــلام

Me And Ted Against The World: The Unauthorized Story of the Founding of CNN
(أنا وتيد فى مواجهة العالم: القصة غير المعتمدة لإنشاء محطة الـ سى. إن. إن)
Reese Schonfeld
Harper Collins, 2001, 407 pp., £ 26.00

اشترك ريز شونفلد مؤلف الكتاب مع «تيد ترنر» فى تأسيس محطة الـ سى. إن. إن، كما كان أول رئيس لها للمحطة فصله ترنر عام ١٩٨٢. وهو يقوم هنا بتوجيه نقد لاذع للمستوى الذى آلت إليه المحطة فى السنوات القليلة الماضية. بعد أن وصلت لقمة مجدها أثناء تغطية حرب الخليج.

فاليوم تواجه سى إن إن منافسة خطيرة من مقلديها مثل إم. إس. إن. بى سى. وفوكس نيوز، بالإضافة إلى انخفاض فى شعبيتها، وقد تمثل أكبر فشل للمحطة فى تغطية انتخابات الرئاسة الأمريكية لعام ٢٠٠٠. ويقول ريز أن المحطة التى أحدثت ثورة فى الصحافة الإخبارية التليفزيونية أصبحت بطيئة وسطحية، فقد توسعت فى جميع أنحاء العالم أفقيًا على حساب العمق والاستيعاب الحقيقى.

■■■

The First Casuality: The War Correspondent as Hero and Myth - Maker from the Crimea to Kosovo
(الضحية الأولى: المراسل الحربى بطلاً وصانعًا للخرافة، منذ حرب القرم حتى كوسوفا)
Knightley Phillip
Propn Books, 2000, 585 pp., £ 15.00

هذه قصة المراسلين الحربيين والمؤثرات العديدة التى يمكن أن تشوه أو تحول دون وصولهم إلى الحقيقة. والمراسل هنا يقوم بالبحث عن الحقيقة كما يلعب دور المروج لحكومته (أو أى حكومة أخرى). وأحيانًا مايشترك مع حكومته فى خداع العدو بنشر أكاذيب أو بالتجسس لصالحها.

■■■

Veils and Daggers: A Century of National Geographic's Representation of the Arab World
(أحجبة وخناجر: قرن من تناول العالم العربى فى مجلة الناشونال جيوجرافيك)
Linda Steet
Temple Up, 2000, 194 PP., £ 18.50

على مدى قرن كامل، تناولت مجلة الناشونال جيوجرافيك العالم العربى فى أعداد كثيرة. هذا الكتاب يحلل الصورة التى أنشأتها وقدمتها المجلة عن الرجال والنساء العرب والثقافة العربية والإسلامية، ونوع الخطاب الاستشراقى المتصل بتلك الصورة.

تاريـــــخ

العلم العربى فى حضارة الإسلام
عبد الحميد صبرة
الكويت: دار قرطاس، ٢٠٠٠

تاريخ نشأة العلم عند العرب وتطوره وتأثير الإسلام فيه، وأهم مراكز الإشعاع العلمى فى التاريخ العربى والإسلامى.

■■■

Islam's Black Slaves: The Other Black Diaspora
(الرقيق الأسود فى الإسلام: الشتات الأسود الآخر)
Ronald Segal
Farrar, Straus, & Giroux, 2001, 273pp., $25.00

يتناول الكتاب تاريخ الرق الأسود فى العالم الإسلامى والذى بدأ قبل الرق الأطلنطى بزمن طويل، كما أن أهدافه كانت مختلفة، حيث لم يكن العبيد يجلبون فقط من أجل العمل فى الحقول، ولكن كانوا يعملون كجنود وحراس وجوارٍ وطهاة وموسيقيين. يبين الكتاب كيف أن الحدود التى تفصل بين الحرية والعبودية كانت أكثر سيولة عما كانت عليه فى الغرب. فقد كان السلطان العثمانى يزوج بناته وأخواته إلى العبيد (المماليك) كما كان من الممكن جدًا أن يصل هؤلاء العبيد إلى مناصب قيادية فى الدولة مثل الظاهر بيبرس ومثل غيره من الوزراء وقادة الجيش والحكام الإقليميين.

يصل الكتاب فى النهاية إلى تحليل أوضاع الرق فى الوقت الراهن، حيث مازال قائمًا فى السودان وموريتانيا، ويلقى باللوم على الاستعمار الفرنسى فى الإبقاء عليه فى الأخيرة، كذلك يربط المؤلف بين الرق فى الإسلام وبين أسباب انتشار الإسلام بين الأمريكيين السود وقيام منظمة «أمة الإسلام» فى الولايات المتحدة الأمريكية.

■■■

Battle of Wits: The Complete Story of Codebreaking in World War Two
(معركة الذكاء: القصة الكاملة لفك الشفرات فى الحرب العالمية الثانية)
Stephen Budiansky
Free Press, 2000, 448 PP., $ 27.50

خلال السنوات الخمس الماضية، أفرج الجيش الأمريكى والحكومة البريطانية عن مليون ورقة من وثائق الحرب العالمية الثانية المتعلقة بفك الشفرات، هذا الكتاب يقدم لأول مرة تاريخ الحرب العالمية الثانية من خلال تلك الوثائق، التى تبين كيف حسمت عديد من المعارك لا بسبب التفوق

العسكرى لطرف على الآخر، ولكن بسبب تمكنه من معرفة نواياه وقراءة خططه.

تـــراث

مكائد النساء
فوزى شعبان
القاهرة: دار الأحمدى للنشر، ٢٠٠١
سياحة فى كتب التاريخ والتراث، عن النساء ومكائدهن، والنساء عنده لسن فقط العاديات منهن، فهو يبدأ من نساء الأنبياء وعلاقتهن بأزواجهن وبغيرهن من النساء، ونكاد نجزم مع المؤلف أن الغيرة هى المحرك الرئيسى للمرأة أيًا كانت، وأن هدفها دائمًا هو إثارة غيرة زوجها وإبعاد منافساتها عنه.

تعـــليم

العربية والتحديث.. اتجاهات التأليف

اللغوى فى العراق
محمد عبد المطلب البكاء
بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ٢٠٠١
عن اللغة قديمًا وحديثًا، وطرق تدريسها فى المدارس، ومشكلات النحو والمصطلحات العربية وبدائلها الأجنبية فى المجتمع العراقى، وإلى جانب الرصد، يسعى المؤلف إلى وضع تصورات لرفع مستوى اللغة العربية فى العراق.

■■■

دفتر أحوال الجامعات المصرية
محمود عارف
القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠١
رؤية صحافية للأوضاع التعليمية عبر ٣٢ عامًا عمل خلالها المؤلف محررًا للتعليم، وهو هنا يطرح القضايا التعليمية من منظور استراتيجى بهدف إصلاح المسار التعليمى والاستعداد للمستقبل.

رواية وأدب

الآثار الكاملة مع تفسيراتها
فرانز كافكا
دمشق: إبراهيم وطفى، ٢٠٠٠
يضم الجزء الأول من أعمال كافكا أربعة أعمال تحت عنوان «الأسرة» بالإضافة إلى دراسات ومقالات عن هذه الأعمال.

■■■

التوءم المفقود
سليم مطر
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١
تحكى الرواية قصة التطرف فى مواقف البطل وانتقاله الحاد بين الشيوعية فى أقصى حالاتها والبحث الدءوب عن اليقين الروحى والصفاء النفسى، وهى عبر شخوصها وعلاقاتهم والمشاحنات بينهم، تعبير عن حالة التطرف فى المواقف والأفكار التى تقود حتمًا إلى انفصام فى الشخصية، وهى حالة يعيشها عالم عربى ممزق بين شعارات ترددها أجهزة إعلامه ليل نهار، وقدراته التى لا تقارب بحال شعاراته.

■■■

فتنة الرءوس والنسوة
سالم حميش
بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١
رواية جديدة للروائى التونسى المقيم فى ميونيخ بألمانيا، وهى مغامرة جديدة فى اللغة وفى عالم المؤلف الذى يحتشد بالشخوص والعلاقات وربما المؤامرات، المؤلف كما فى روايته السابقة «الآخرون» ينهل من تجاربه العميقة بين الحياة والناس.

■■■

لحم السعادة
محمد العبد الله
بيروت: دار الفارابى، ٢٠٠٠
كتابات تجمع بين الحزن الشفيف والسخرية اللاذعة، وهى سخرية تقترب من الكوميديا السوداء عن حال الناس فى الجنوب اللبنانى، وضغوط الاحتلال الجائمة التى تحيل حياة الناس إلى جحيم يومى لا يطاق.

■■■

هليوبوليس
مى التلمسانى
القاهرة: شرقيات، ٢٠٠١
تصف الرواية قصة حياة عائلة من عائلات حى مصر الجديدة الراقية، والبطولة هنا للمكان، ليس لناسه أو لأشيائه، عين مراقبة تلاحظ وتلتقط أدق التفاصيل كى تحدثنا عن أشياء تتهاوى وزمن يمضى وعالم يتصدع ومصائر تهوى.

■■■

Martyr's Crossing
(معبر الشهداء)
Amy Wilentz
Simon & Schuster, 2000, 311pp., $24.00
الرواية الأولى لمراسلة مجلة «النيويوركر» السابقة فى إسرائيل. وتحاول فيها أن تجسد للقارئ مدى تعقد الموقف السياسى والإنسانى والأخلاقى الذى يواجهه يوميًا الفرد العادى سواء على الجانب الإسرائيلى أو الجانب الفلسطينى. ومعبر الشهداء الذى يأتى فى عنوان الرواية هو نقطة تماس إسرائيلية على طريق رام الله، والذى يجب أن يعبره الفلسطينيون الراغبون فى الوصول إلى القدس.

تبدأ الرواية حين يتم غلق الممر على أثر حادث انفجار حافلة فى القدس، بينما تريد سيدة فلسطينية العبور إلى القدس بطفلها المصاب بالربو لتتمكن من معالجته فى مستشفى هناك، وعندما يرفض الضابط الإسرائيلى تمريرها يموت طفلها، وتتداعى الأحداث والشخصيات، التى تحاول المؤلفة أن تبين مواقفها ومنطلقاتها الأخلاقية والمبدئية المتباينة.

سـيـاسـة

البوسنة والهرسك وأشواك السلام
زكريا عبيد
القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠١
بعد خمس سنوات من إقرار السلام فى البوسنة والهرسك، يحاول المؤلف أن يستقرئ محاولة لتحليل الأوضاع هناك وعلاقات هذه الدولة بجيرانها فى البلقان وأوروبا سعيًا من أجل سلام نهائى بين طوائفها وفصائلها.

■■■

الدولة والكنيسة
رأفت عبد الحميد
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١
هذا هو الجزء الثالث من كتاب المؤلف فى هذا الموضوع الشائك عن علاقة الدولة بالكنيسة وعنوانه «قيصر والمسيح»، والكتاب يتناول فترة مهمة وحرجة فى تاريخ الكنيسة شهدت توترًا هز أركان العلاقة بين الطرفين.

■■■

العلاقات الكويتية اللبنانية
حمزة عليان
الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ٢٠٠٠
دراسة فى العلاقات بين بلدين على صغر وضآلة سكانهما، يلعبان دورًا بالغ التأثير فى سياسة المنطقة وثقافتها، وقد تعرضت لبنان لحرب أهلية طويلة أثرت فى نموها وتطورها طوال ربع قرن، كما تعرضت الكويت لعملية غزو من دولة عربية شقيقة، وقد أثرت هذه الأحداث على علاقات البلدين بجيرانهما وعلاقتهما ببعضهما البعض.

■■■

التيارات السياسية فى إيران
سعيد برزين
أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات، ٢٠٠٠
تيارات سياسية عديدة أثرت فى سياسة إيران وفى المجتمع الإيرانى، وهى تيارات تمايزت حسب المرحلة التى عاشتها إيران أيام الحكم الامبراطورى، ثم بعد الثورة الخمينية، حتى الإصلاحات الخاتمية الأخيرة.

■■■

المؤسسة العسكرية فى إسرائيل
أحمد المسلمانى
بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ٢٠٠١
يتناول الكتاب المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ويحاول أن يفسر آليات عملها بعد نصف قرن من إعلان قيام الدولة، ويتتبع فى خمسة فصول تاريخ هذه المؤسسة وهيكلها التنظيمى وعقيدتها العسكرية والعلاقات بينها وبين المؤسسة المدنية، ويستشرف مستقبل هذه المؤسسة وآثار عملية التسوية السياسية عليها.

■■■

أيام مع الرئيس هوارى بو مدين
محيى الدين عميمور
الجزائر: دار موفم، ٢٠٠٠
رافق عميمور وزير الإعلام والثقافة الحالى فى الجزائر الرئيس بو مدين فى مسيرته النضالية والرئاسية، وهو هنا يحكى عن هذه المسيرة سياسيًا وإنسانيًا.

■■■

براءة سياسية
أحمد شرف
القاهرة: مركز الحضارة للنشر، ٢٠٠١
عن أحداث مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٨، وهى المظاهرات الشهيرة التى أعقبت أحكام الطيران، وهو شهادة تاريخية لشاهد عيان ومعايش للأحداث التى تفجرت ببراءة وعفوية بين طلاب الجامعة فى مصر، الذين هالتهم الهزيمة، ورروعهم أن يكون العقاب مخففًا إلى هذا الحد.

■■■

Stars and Strife: The Coming Conflicts Between the USA and the European Union
(الصراعات القادمة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبى)
John Redwood
Palgrave, 2001, 202 pp., £ 39.95
يتناول المؤلف البريطانى قضية الاتحاد الأوروبى من زاوية بريطانية متشككة، حيث يؤكد مرارًا على أن علاقات بريطانيا الجيدة مع الولايات المتحدة ونظامها الليبرالى يتعارض مع الاتحاد الأوروبى الفيدرالى، الذى يؤيد السياسات الحمائية ويعادى الولايات المتحدة.

بل ويرى أيضًا أن مصلحة بريطانيا تتحقق بالاشتراك فى منظمة النافتا (اتفاقية شمال الأطلنطى للتجارة الحرة) حيث تتميز بالمرونة والحداثة كما تقوم على الاقتصاد الجديد، بينما الاتحاد الأوروبى ينتمى للعالم القديم، حيث يقوم فى جوهره على الصناعات التقليدية مثل الفحم والحديد والمواد الغذائية.

■■■

Eastword to Tartary: Travels in the Balkans, the Middle East, and the Caucasus
(شرقًا إلى التتار: رحلات فى البلقان والشرق الأوسط والقوقاز)
Robert D. Kaplan
Random House, 2000, 384PP., $ 26.95
اشتهر روبرت كابلان بكتبه وتحليلاته السياسية للمناطق المتوترة من العالم. وفى هذا الكتاب يستعرض المؤلف منطقة «الشرق الأدنى الحديث» التى تضم من وجهة نظره البلقان والشرق الأوسط ووسط آسيا. ويرى أن مستقبل العالم سوف يحدده مستقبل الصراع فى هذه المنطقة المتفجرة من العالم.

يزور المؤلف سوريا والأردن وتركيا ومجموعة دول القوقاز، كما يذهب إلى رومانيا وبلغاريا التى يسميها «العالم الثالث الأوروبى».

شـــعـــر

الأيقونات والكونشرتو

محمد القيسي

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

القسم الأول من الديوان، حنين وغنائية مباشرة لأرض الذاكرة الأولى: فلسطين المحتلة. والقسم الثاني تتعدد فيه أغراض الشاعر وموضوعاته، مراوحًا بين قصيدة التفعيلة التي تعتمد قافية ظاهرة، فيما ترتكز قصائد أخرى على موسيقى الألفاظ ودلالاتها.

■■■

المثاقيل

سليم بركات

بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠

مجموعة شعرية جديدة، يواصل فيها المؤلف الإعلان عن بيانه اللغوي ومغامراته المعجمية التي اعتادها في أعماله الشعرية والروائية أيضًا، فالمؤلف شغوف بالمعاجم، حريص على استدعاء ما هُجر من الكلام لا ما شاع منه، صانعًا بتلك الوسيلة المرهقة عالمه الأدبي الخالص.

■■■

إلياذة هوميروس.. الجزء السادس عشر

ترجمة: فالح حسن عبد الرحمن

بيروت: دار رياض نجيب الريس، ٢٠٠٠

يتناول هذا الجزء مقتل باتروكلوس، ويحافظ المترجم على الأسلوب الهوميري دون أن يخلو من النفس الشعري ذي الإيقاع النثري الحسي، مواكبًا المواقف الدرامية المشحونة التي تشتمل عليها الإلياذة.

■■■

Cairo Traffic

(زحام القاهرة)

Lioyd Schwats

University of Chicago Press, 2000, 83pp., $26.00

مجموعة من القصائد المتنوعة، اختار لها الشاعر عنوان «زحام القاهرة» لأنه يرى العالم على أنه مشهد يماثل الاختناق المروري الذي يحدث في شوارع القاهرة، فهو مشهد كوميدي ومؤلم في ذات الوقت، تتداخل فيه وتتشابك الأصوات في صراع مستمر. زار الشاعر مصر كما زار البرازيل وروسيا، وفي مصر طلب من «أبو الهول» أن يجيب له عن ألغاز الحياة، ثم تركه قبل سماع الإجابة لأنه مؤمن أننا فقط القادرون على حل ألغاز وتناقضات حيواتنا.

فـكـــــر

الأخـلاقـيـات الإسـلامـيـة وأسس الديمقراطية

مؤلفون عرب وفرنسيون

الدار البيضاء: دار مقدمات، ٢٠٠٠

المشاركون ينتمون إلى تيارات فكرية وتوجهات مختلفة إلى حد التمايز، وهو ما يمنح الكتاب نكهته الخاصة، فالديمقراطية تطرح هنا من وجهات نظر غربية وإسلامية بما يثير الموضوع، وبين المشاركين في الكتاب وجيه كوثراني ومحمد شحرور وعبد الله النعيم وعابد الجابري وغيرهم.

■■■

العلمانية بين الإسلام والعقل والتأسلم

رفعت السعيد

دمشق: دار الأهالي، ٢٠٠١

تثير العلمانية التباسًا بين جمهور الناس، فهي عند البعض مرادف الإلحاد، وعند آخرين إعمال للعقل ومحاولة لإبراز طاقاته الخلاقة في النقد والإبداع، وبين الرافضين لمفهوم العلمانية باعتباره ضد الدين، فئة يسميها المؤلف المتأسلمين، ويعني بهم أصحاب التوجهات السياسية التي ترتدي مسوح الدين وهي التي يتناولها في كتابه.

■■■

القاهرة تبحث عن مستقبلها

محمد الجوادي

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠١

يرى المؤلف أن القاهرة في عام ٢٠١٠ ستصبح مدينة العالم العربي الأدبية لاعتبارات عديدة، أهمها أنها المدينة الكبرى الوحيدة التي تمثل تاريخ الإنسانية كله، والتي يتجلى فيها أهم ما أنجزته الحضارة في الفنون والآداب وغيرها، فضلاً عن ميزات موقعها الجغرافي وميراثها الحضاري.

■■■

المسيحية، الإسلام، والنقد العلماني

وليم الشريف

بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٠

دعوة إلى التفكير والتأمل وإعادة النظر في عديد مما يُظن أنه ثوابت، من أجل تفعيل الحوار الإسلامي المسيحي، وتحقيق درجة أكبر من العدل والسلام والحرية بين الجماعات وفق أسس عقلانية وموضوعية.

■■■

جادة الرؤيا - مقالات نقدية حول الشرق والغرب

أمين الريحاني

ترجمة: هنري ملكي وأنطوان عبيد

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

مجموعة من المقالات لأمين الريحاني كتبها في عشرينيات القرن ولم يسبق نشرها، وهي تعد محاولة أولى للتصدي لإشكالية المقارنة بين خصائص المجتمع الشرقي وسمات المجتمع الغربي، وهي الإشكالية التي شغلت كثيرًا من الأدباء والمفكرين في مراحل لاحقة.

■■■

دراسات في الحداثة وما بعد الحداثة

عصام عبد الله

القاهرة: المؤلف نفسه، ٢٠٠١

خمسة فصول يتتبع فيها المؤلف الإرهاصات الأولى للحداثة، فيعرض للرشدية اللاتينية بوصفها نقطة تحول في تاريخ الفكر الحديث، ثم بومبو ناتزي قديس الفلاسفة المحدثين، ويقدم في الفصل الثالث تحليلاً لآراء «هابرماس» أبرز الفلاسفة المدافعين عن الحداثة، ويخصص الفصل الرابع لجذور ما بعد الحداثة في الفلسفة المعاصرة ثم يعرض لعديد من الأفكار المهمة التي قيلت فيما بعد الحداثة.

■■■

رهانات النهضة في الفكر العربي

ماهر الشريف

دمشق: دار المدى، ٢٠٠٠

شغل موضوع النهضة - ومازال - عشرات المفكرين العرب، وفي أوضاعنا العربية المعاصرة التي بلغت حدًا من التردي لا يمكن إنكاره، فإن الحديث عن مشروع للنهضة يبدو مشروعًا، وهو حديث لا يبدأ من فراغ، وإنما من مراجعة نقدية تقويمية لمشاريع النهضة السابقة وهو ما يجتهد فيه المؤلف، الذي يشير إلى العلاقة بين انتكاسة مشاريع النهضة ونشأة الدولة التسلطية.

■■■

هويات متغيرة

مي يماني

بيروت: دار رياض نجيب الريس، ٢٠٠١

نشر الكتاب بالأصل باللغة الإنجليزية، وتأتي ترجمته العربية لتضع بين يدي القارئ العربي نصوصًا لا تنقصها الجرأة وشجاعة التناول، حيث تعرض المؤلفة السعودية لتطور مجتمعها عبر ثلاثة أجيال، وتعالج مسائل التعليم والاقتصاد والطموح السياسي وإشكاليات الهوية.

■■■

The Islamic Roots of Democratic Pluralism

(الجذور الإسلامية للتعددية الديمقراطية)

Abdulaziz Sachedino

Foreword by Joseph Montville

Oxford/ CSIS, 2000, 208 pp., $25.00

أصبحت اليوم الديانة الإسلامية ثاني أكبر ديانة في العالم، ومنذ عدة عقود تلح على جماعة المسلمين في كل مكان قضايا الاستقلال الوطني والهوية الثقافية والتحديث والتنمية والديمقراطية والتعددية. هذا الكتاب يتناول تلك القضايا المهمة معلنًا أن الطريقة التي ستعالج بها هذه المسائل إسلاميًا سوف يكون لها أثر بالغ على السياسات العالمية في القرن القادم. ويؤكد المؤلف ضرورة فتح باب الاجتهاد وإعادة النظر في التفسيرات والتشريعات المتوارثة، كما يبين كيف أن الشريعة الإسلامية أصبحت مع الوقت عاكسة للمؤثرات السياسية والاجتماعية، بشكل نأى بها عن روح القرآن.

فكر ديني

أدب الاختلاف في الإسلام

محمد علي تسخيري وآخرون

الرباط: الإيسيسكو، ٢٠٠٠

يعد تسخيري واحدًا من العلماء الإيرانيين البارزين وثيقي الصلة باللغة العربية وآدابها، وهو من ناحية ثانية معني بتنشيط العلاقات الثقافية بين إيران وجيرانها العرب، وهو في مساهمته هنا مع آخرين، يطرح رؤى مستنيرة لأدب الاختلاف بين الفرقاء في الإسلام، أو الآخرين من ذوي الديانات والثقافات الأخرى.

■■■

الردة في الإسلام

حسن غريب

بيروت: دار الكنوز الأدبية

يحاول المؤلف أن يقرأ بطريقة جديدة مفهوم الردة في الإسلام، وما إذا كان هذا المفهوم موجودًا من قبل في الديانتين اليهودية والمسيحية، حيث يدرس مواقف الفرق الإسلامية من هذا المفهوم، كما يقرأ النصوص ذات العلاقة به في الديانات المختلفة.

■■■

Adam's Contract With Satan: The Legend of the Cheirography of Adam

(تعاقد آدم مع إبليس)

Michael E. Stone

Indiana University Press, 2001, $39.95

يوجد في الثقافات المسيحية الشرقية الممتدة من اليونان غربًا إلى جورجيا وأرمينيا شرقًا، اعتقاد بأن إبليس أو الشيطان قام بخداع آدم وحواء مرة ثانية على الأرض، عندما جعلهما يوافقان على إخضاع نسلهما تحت إمرته حتى «يولد الذي لا يولد ويموت الذي لا يموت». أي أن التخلص من هذا العقد سوف يحدث مع ميلاد المسيح. يتتبع المؤلف انتشار هذا الاعتقاد في مظاهره الفنية والشعبية، ويقارنه بالنظرة الغربية التي عبر عنها القديس أوغسطين، ويحلل تأثيره في النظرة الشاملة إلى الحياة والعالم.

فن تشكيلي

وجوه الحداثة في اللوحة العربية

أسعد عرابي

الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠١

لا يقدم هذا الكتاب نقدًا تطبيقيًا مباشرًا، ولا نقدًا انطباعيًا موازيًا للوحة، بل هو نقد أقرب إلى النص، يستفيد فيه المؤلف من موهبته وتجربته كفنان تشكيلي، ودراساته النظرية وإسهاماته النقدية والصحافية وجولاته في المعارض العربية والأجنبية، وهو ما يمنح كتابه ميزات إضافية يسد بها نقصًا في المكتبة التشكيلية العربية.

■■■

Leonardo Da Vinci: The Complete Paintings

(ليوناردو دافنشي: اللوحات الكاملة)

Pietro C. Marani

Abrams, 2001, 224 PP., $ 85.00

يحتوي الكتاب على ٢٠٠ صورة ملونة من اللوحات التي صورها ليوناردو دافنشي، ويصاحبها تحليل نقدي من أستاذ تاريخ الفن الإيطالي بيترو ماراني المسئول عن ترميم لوحة «العشاء الأخير».

يقول مارانى أن أسلوب ليوناردو فى تصوير الحركة والزاوية، واعتماده على الملاحظة العلمية ودراسته للنحت الكلاسيكى، جعلت من أعماله إعلانًا عن الازدهار الكامل لحركة النهضة.

ويقول عن الموناليزا: «موهبة ليوناردو تجعلنا نرى حركة الدماء تجرى من تحت جلد الوجه، ونرى قشعريرة الشفاه التى يصاحبها انقباض طفيف فى عضلات الوجه والذى ينبئ عن بداية ابتسامة».

■■■

Colour and Meaning

(اللون والمعنى)

John Gage

Thames and Hudson, 2000, 320 pp., £19.95

هل اللون ظاهرة فسيولوجية؟ هل له أثر على مشاعرنا؟ هذه الدراسة تتناول معنى اللون الذى يماثل اللغة من حيث إنه يقع فى السياق التاريخى الذى يختبر فيه. الكتاب يتابع المعنى الرمزى للألوان من خلال الفن التشكيلى منذ العصور الوسطى وحتى القرن العشرين.

متنوعات

أحدث صيحات الجمال.. الزخرفة والنقش بالحناء

وفاء رضوان

القاهرة: دار الطلائع، ٢٠٠٠

يتناول الكتاب تاريخ استخدام الحناء، للتزين أو لعلاج بعض الأمراض، حيث كانت تستخدم لأمراض الضغط والصداع، كما تزينت بها النساء قديما، ووضعت فى أماكن عديدة من الجسم، وما يصاحب ذلك من النقوش، كما تعرض المؤلفة لأنواع الحناء التى تستخدم لصبغ الشعر وغيرها مما يستخدم للجلد.

■■■

استعادة حديقة الشلالات

عادل أبو زهرة

الإسكندرية: جمعية أصدقاء البيئة، ٢٠٠٠

خاضت جمعية أصدقاء البيئة معركة حقيقية لوقف بناء فندق فوق حديقة الشلالات ذات الموقع المتميز والأثرى فى آن معًا، المؤلف يعرض فى هذا الكتاب تفاصيل المعركة وأطرافها، وكيف تطور السجال بين الطرفين المتنازعين إلى أن وصل إلى القضاء الذى انصف أصدقاء البيئة.

■■■

أكلة جديدة كل يوم

إبراهيم مرزوق

القاهرة: الدار الثقافية، ٢٠٠٠

مجموعة من الأكلات المتعددة، من المشهيات والوجبات الرئيسية والحلوى، التى تفيد ست البيت وتجدد مطبخها.

■■■

كيف تستثمر وقتك

دنيا سمك

القاهرة: سلسلة ولد وبنت

إحدى مشكلات مجتمعاتنا العربية هى إهدار الوقت، وهى قضية سلوك وعادة قبل أن تكون قضية مؤسسات ونظم، المؤلفة تذكرنا بأهمية الوقت وتطرح سبلاً لشغله واستثماره بما يحقق أعلى عائد ممكن للشخص وللمجتمع.

■■■

لبنان

عبد الرءوف فضل الله

بيروت: دار النهضة العربية، ٢٠٠١

دراسة جغرافية عن الطبيعة اللبنانية والموقع الذى كان أحد أسباب التميز الحضارى والدور الثقافى الذى لعبته لبنان طوال تاريخها.

مذكرات وسير

الرحلة المنسية

يوسف بكار

عمان: دار الفارس، ٢٠٠٠

عن الشاعرة فدوى طوقان، طفولتها وتعليمها ونبوغها الإبداعى المبكر، وشواغلها التى استطاعت أن تعبر عنها فى نصوص شعرية خالدة.

■■■

ترحالات يحيى الرخاوى

يحيى الرخاوى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١

ثلاثة مجلدات تضم الأعمال الكاملة لأستاذ الطب النفسى المشغول بالشئون العامة، وصاحب الرؤى فى الإبداعات الأدبية والنقدية، المجلد الأول يحمل عنوان: «الناس والطريق»، والثانى: «الموت والحنين» والثالث: «ذكر ما لا يقال».

■■■

نحن.. النساء المصريات

إنجى أفلاطون

القاهرة: لوتس للنشر، ٢٠٠١

طبعة جديدة من كتاب يحكى عن عدد من النساء المصريات الرائدات فى العمل السياسى والاجتماعى والأدبى والتربوى، بينهن عائشة التيمورية وزينب فواز وهدى شعراوى وملك حفنى ناصف ولطيفة الزيات ودرية شفيق ونبوية موسى وغيرهن، يتضمن الكتاب مقدمة كتبها المؤرخ عبد الرحمن الرافعى، عن دور المرأة فى المجتمع المصرى.

■■■

Indira: the Life of Indira Nehru Gandhi

(إنديرا: حياة إنديرا نهرو غاندى)

Katherine Frank

Harper Collins, 2001, 545PP. $19.95

حكمت إنديرا غاندى الهند لما يقرب من عقدين، وقد عنفتها الصحافة كثيرًا، خاصة بعد أن أصدرت قرارًا فى ١٩٧٥ يوقف العمل بالدستور ويعلن حالة الطوارىء فى البلاد.

هذا الكتاب يتناول حياتها كامرأة، مبينًا علاقاتها بأفراد أسرتها وأصدقائها وزملائها. تبين المؤلفة كيف عانت إنديرا طفولة وحيدة وفوضوية بسبب موت أمها المبكر وانشغال أبيها جواهرلال نهرو بالسياسة، ودخوله السجن أكثر من مرة. ثم تروى لنا باقى فصول حياتها التى غطت جزءاً كبيرًا من القرن العشرين حتى تم اغتيالها عام ١٩٨٠.

■■■

The Blood of Strangers: True Stories from the Emergency Room

(قصص حقيقية من غرفة الطوارىء)

Frank Hayler

Fourth Estate, 2001, 182PP., £ 10.00

يكتب المؤلف وهو طبيب يعمل فى غرفة الطوارىء بأحد المستشفيات عن مشاعره الغامضة أثناء عمله الذى يجعله يعايش أفرادًا وأسرًا بين لحظات الحياة والموت. يروى المؤلف أحداثا وحالات حقيقية رآها وتعامل معها أثناء عمله المثير، كما يتحدث عن أخلاق الأطباء وما تتميز به من استعلاء وعجرفة، وحالة الشعور بالأهمية التى تنتاب الطبيب والتى تصعب مقاومتها عندما تتعلق عائلات بأكملها بكل كلمة يتفوه بها.

■■■

The Man Who Became Sherlock Holmes

(الرجل الذى أصبح شرلوك هولمز)

Terry Manners

Virgin, £12.99

ظل الممثل جيرمى بريت يمثل دور شرلوك هولمز فى حلقات تليفزيونية لمدة تزيد على خمس عشرة سنة. وقد تأثرت حالته النفسية والعقلية بسبب استحواذ الشخصية التى يمثلها على شخصيته الطبيعية. الكتاب يتناول شخصية جيرمى الموهوبة وما آل إليه من الهوس الاكتئابى بسبب موهبته هذه.

نقد

أستاذ الجامعة فى عالم نجيب محفوظ

مصطفى بيومى

القاهرة: دار الهدى للنشر والتوزيع، ٢٠٠١

تقدم هذه الدراسة زاوية جديدة فى عالم نجيب محفوظ، حيث تعنى بطريقة تصوير أديب نوبل لأستاذ الجامعة من خلال روايته «المرايا»، التى قدم فيها وجوهًا عديدة صادفها فى حياته، وبين من صادف أستاذ الجامعة، حيث يقدم شهادته عن الجامعة المصرية وأساتذتها منذ نشأتها وحتى نهاية الستينيات.

■■■

اللغة وبناء الشعر

محمد عبد اللطيف حماسة

القاهرة: دار غريب، ٢٠٠١

يقدم الكتاب دلائل أكيدة على العلاقة بين النص الشعرى وعلم النحو، والنحو هنا يفسر النص الشعرى ويغنى دلالاته الفنية واللغوية، خالقًا سياقًا خاصًا بالنص ذاته، وهى وظيفة للنحو لم ينتبه إليها كثيرون.

■■■

الوهم

منصور الحازمى

الرياض: المؤلف نفسه، ٢٠٠٠

بحوث فى الأدب العربى الحديث فى المملكة العربية السعودية، والمعروف أن شبه الجزيرة العربية تشهد نهضة أدبية شاملة، فى الشعر كما فى القصة والرواية والنقد الأدبى عمومًا.

■■■

صفحات من النقد المسرحى

على الراعى

القاهرة: المركز القومى للمسرح والموسيقى، ٢٠٠١

كتاب تذكارى يضم مجموعة من المقالات التى كتبها الناقد المسرحى والأدبى الراحل الدكتور على الراعى والتى اكتشفتها ابنته بعد رحيله، كما تتضمن دراسات عنه كتبها أصدقاؤه وتلاميذه، وبينهم محمود أمين العالم، وعبد القادر القط، وبهاء طاهر، وسعد أردش، وصلاح فضل، وجابر عصفور، وآخرون.

■■■

فى العلاقة بين الشعر المطلق والإعجاز القرآنى

أبو يعرب المرزوقى

بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠١

مر الشعر العربى طوال تاريخه بعديد من الأزمات والانتقالات التى أضاف بعضها إلى مسيرته، وكان تأثير بعضها الآخر عليه سلبيًا للغاية. المؤلف هنا يتناول واحدة من العلاقات الإشكالية فى الشعر العربى الذى هو ديوان العرب.

■■■

من الصمت إلى الصوت

إدوارد سعيد وآخرون

بيروت: دار الغرب الإسلامى، ٢٠٠٠

دراسات أدبية ولغوية يساهم فيها المفكر الفلسطينى البارز الذى عرف بدراساته عن الاستشراق والثقافة والامبريالية وكتاباته السياسية عمومًا، لكنه أساسًا أستاذ للأدب المقارن فى جامعة كولومبيا، ودراساته الأدبية واللغوية لا تقل أهمية عن دراساته السياسية.

■■■

Empty Figure on an Empty Stage: The Theatre of Samuel Beckett and his Generation

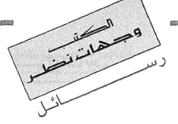
(شكل فارغ فوق مسرح فارغ: مسرح صامويل بيكيت وجيله)

Les Essif

Indiana University Press, 2001, $47.95

دراسة عن المسرح العبثى تبحث فى الوسائل التى تمكن كتاب المسرح من استخراج المعنى من الفراغ.

■■■



رسائل هيكل

أخذنا الأستاذ محمد حسنين هيكل معه في سياحة صيف طويلة عبر حلقات ثلاثة ممتعة.. داخل الوثائق الإسرائيلية، ليطوف بنا في ألم شديد ولكنه مهم داخل كنائز الخطط الاستراتيجية الإسرائيلية ضد العديد من الدول العربية وضد مصر بالذات التي اعتقد أحد جنرالاتها أن صيدهم لها لابد أن يكون بالرمح القاتل.. وليس بالشبكة المقيدة!

وبعد قراءتي للحلقة الثالثة في عدد ديسمبر ٢٠٠٠، وجدتني مشدودًا لمشاهدة الفيلم من بدايته فأعدت قراءة الحلقة الأولى والثانية والثالثة منه مرة أخرى.. واستوقفتني بعض الرسائل والأسئلة التي أستأذن في عرضها «وجهات نظر» كما رآها وشعر بها شاب مصري.

أولى هذه الرسائل: أن الأستاذ هيكل أهدى لنا الحلقات أو على الأصح أخذنا معه داخلها.. لكي تبقى ذاكرتنا يقظة «وهو في حد ذاته هدف سام» لنرى ولنحس بمواجعنا مرة ثانية وبإرادة المعرفة وليس بحقن التخدير ولنتحرك خطوة نحو الديمقراطية بالتفكير ليدفعنا بعدها إلى الحوار ثم يتخذ الحوار لنفسه بحكم المعرفة موقفًا مشروعًا ربما يكون له تأثير في مجرى الحوادث!

ثانيتهما: أنني أعترف أنني كنت واحدًا من هؤلاء الناس الذين لم يفهموا بصورة كاملة ما كان يرمي إليه الأستاذ هيكل ولأكثر من مرة وفي العديد من كتبه بأن يقول مختصرًا «إن السلام الإسرائيلي الذي أتى بعد ذلك وبالتحديد في مارس ١٩٧٩ وبتوقيع اتفاقية رسمية على الجبهة المصرية.. قد أخرج مصر وبصورة نهائية من مجموع القوة العربية أو من ميزانها، ولهذا فقد استعادت مصر سيناء وسلبت الأمة قوة كبيرة وحشدًا كان ذا نفوذ واصل طوال الوقت في موضوع المواجهة مع إسرائيل».

لم أكن أفهم - وأعتقد أن الكثيرين مثلي حتى هذه اللحظة - حقائق الخسائر الفادحة التي منيت بها الأمة فور دخول مصر منفردة حلبة ما يسمى بمفاوضات السلام مع إسرائيل في عهد الرئيس الراحل أنور السادات حيث كنت دائمًا أقف أمام المكاسب المرئية التي حققتها الاتفاقية، وهي عودة سيناء رغم الشروط وليس أكثر!

إلى أن جاء لنا الأستاذ هيكل بترجمة عربية لما خطه «بن جوريون» بندًا رئيسيًا من بنود الاستراتيجية الإسرائيلية عندما قال بالنص في اجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلي في ٢٩/٥/١٩٤٩، وكما ورد في الحلقة الأولى من حديث الوثائق:

- إن مصر يجب أن تظل وراء حدودها ويجب أن يعلم الإنجليز والأمريكان أن ذلك في صالحهم من الناحية الإستراتيجية وتأمين البترول!

- يجب أن نمنع مصر من إقامة أية تحالفات مع بقية العالم العربي قفزًا فوق إسرائيل وخصوصًا مع سوريا بالذات.

أحسست بعدها قرأت هذا الكلام بمدى عمق الصدمة التي تلقاها العالم العربي آنذاك على يد الرئيس السادات وترتب عليها ما نراه اليوم:

- من تمثيل لا يعدو عن كونه مشرفًا لمصر.. ولكن غير مؤثر على الإطلاق في مفاوضات التسوية الجارية بين الفلسطينيين والإسرائيليين، إن كانت مفاوضات حول الأرض من الأساس وليست من أجل عملية تدويخ وتعليم فنون الصياغة والحوار للفلسطينيين!!

كما اعترف بذلك شيمون بيريز صراحة للرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران ونقله عنه أ. هيكل.

فدور مصر لا يتعدى أكثر من توفير مكان محايد مكيف.. ومريح يجلس فيه الفلسطينيون والإسرائيليون معًا ولا مانع لديهم من أن يساهم الرجل المضيف ببعض عبارات المجاملة أو الترحيب أو حتى التهدئة في حالة الخناق!

- الثبات والاستقرار غير المريح الذي نشهده اليوم على الجبهة السورية ومنذ نحو ٢٧ عامًا منذ حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وعجز الجبهة السورية - على الأقل حتى الآن - عن القيام بحرب واسعة أو حتى محدودة تستعيد بها أية أجزاء من هضبة الجولان السورية المحتلة - على الأقل حتى الآن - بدون مصر التي لا تستطيع العودة!

إبراهيم شعبان مصطفى
بكالوريوس التربية
جامعة المنوفية



توضيح بالغ الأهمية

في العدد الثالث والعشرين (ديسمبر ٢٠٠٠)، وعلى الصفحة ٧٣ من (وجهات نظر)، قرأت للأستاذ عماد الغزالي تعريفًا بكتاب (المرأة والدين والأخلاق) من سلسلة حوارات لقرن جديد)، وقد أسعدني كثيرًا وعيه لأهمية هذه السلسلة وعرضه الشيق لها ولهذه الحلقة منها عن (المرأة) على وجه الخصوص.

غير أن فقرة وردت في آخر المقال، جعلتني - بوصفي الناشر لهذه السلسلة - أشعر بخطأ كبير ارتكبته وأنا أحسب أنني قد أحسنت صنعًا.

يقول الأستاذ عماد: «وفي سبيل ردودها على ما ساقته «نوال السعداوي» تقع «هبة» في خطأ «اصطيادي» إذ تقول: إن «نوال» أشارت إلى الحديث النبوي «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» بوصفه آية قرآنية، والحق أن د. نوال لم تفعل. بل قالت إنه حديث شريف.

وتبرئة لـ«هبة رءوف عزت» من تهمة «الافتراء» هذه، أقول: إنني أنا الذي أوقعتها في هذا الخطأ. فالنص الأصلي الذي زودتها به - كما ورد من الدكتورة السعداوي كي تعقب عليه - تقول فيه: «ويقول الله في القرآن: لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» (طيًا صورة عنه)، وتصويب قول الله تعالى إلى قول الرسول إنما قام به قسم التدقيق اللغوي في دار الفكر أثناء تنقيحه المعتاد للكتب قبل طبعها (طيًا صورة عن التنقيح).

إن هذا الالتباس أوقعني في حيرة بين واجبين يفرض أولهما على الناشر أن يكون لديه جهاز للتدقيق اللغوي يقوِّم ما سها عنه المؤلف أو ندبه قلمه من أخطاء لغوية أو إملائية أو علمية (كالتي بين أيدينا) من دون رجوع إلى المؤلف، ويفرض عليه ثانيهما ما تقتضيه الأمانة العلمية من إبقاء كل شيء على حاله، على ما في هذا الخيار الثاني من تقصير بحق المؤلف والقارئ معًا.

من طرفي ساحل المشكلة، ربما بإشارة إلى التصويب في الحاشية، في طبعة لاحقة.. لكن تهمة الافتراء التي وجهت إلى هبة رءوف عزت بسببي، لا يرفعها إلا أنتم، بالطريقة التي ترونها مناسبة.

وإني لمعتذر وشاكر ومقدر ومعبر لكم ولـ«وجهات نظر» عن بالغ تقديري واحترامي.

محمد عدنان سالم
المدير العام - دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر - دمشق



تاريخ بني إسرائيل

أود أن أسجل إعجابي الشديد بهذا الصرح الثقافي المتجدد والذي أتشرف بكوني أحد المتابعين له، وأثناء قراءتي لعدد مارس ٢٠٠١ وجدت أن هناك حاجة لإيضاح بعض النقاط التي أظن أنها كانت غير موفقة بمقالة الأستاذ عفيف البهنسي (فلسطين لم تكن وطنًا لبني إسرائيل) فمما أثار دهشتي أن الكاتب ابتدأ المقال بذكر آية من آيات سورة البقرة يستدل بها على تحريف اليهود للتوراة، لكن ما أدهشني أنه لم يراجع سيرة بني إسرائيل المذكورة في القرآن واعتمد على تكذيب كل ما ذكر بالتوراة حتى وإن كان متوافقًا مع ما جاء بالقرآن وقد أورد بعض النقاط - وليس هنا المجال لتفسير الآيات أو شرح معانيها ولست بأهل لهذا ولكن يكفي أن نقرأ الآيات لنرى مدى الفرق بينها وبين ما أورده الكاتب في مقاله.

فهو يستطرد من خلال المقال ليثبت أن من خرج من مصر مع سيدنا موسى ليسوا هم بنو إسرائيل أحفاد نبي الله يعقوب خلافًا مع آيات كثيرة في القرآن تثبت أن نبي الله موسى - وهو من آل عمران من بني إسرائيل - أرسل إلى بني إسرائيل في مصر ليخرجهم من إذلال فرعون لهم وإن شاء فليقرأ عن هجرة موسى وهلاك فرعون.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ البقرة «٥٠»

وأيضًا: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ الدخان

وأيضًا ينفي نسب سيدنا موسى لسيدنا إبراهيم بقوله إنه أمير مصري كما يقول (إن العلماء أجمعوا على نفي العلاقة بين موسى وبين داود وسليمان وليس أصدق من هذه الآية للرد على كل العلماء:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ الأنعام (٨٤)

وإن شاء أيضًا فليقرأ الآيات من ٢٤٦ حتى ٢٥١ من سورة البقرة وبها توضيح كامل لإنشاء دولة بني إسرائيل وظهور نبي الله داود من بينهم حتى قوله تعالى:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ البقرة (٢٥١)

كما يقول أيضًا (لم تبين البرديات التي تضمنت تاريخ مصر القديم أي وجود لبني إسرائيل أو لليهود على أرض مصر) فلا أدري أيهما أوجب بالتصديق البرديات أم القرآن الكريم.

كما يورد الكاتب قول أحد المؤرخين بقوله (إن الملك سليمان لم يكن أكثر من حاكم صغير يحكم مدينة صغيرة) وهنا لا أدري من هو المقصود بالملك سليمان؟ هل هو نبي الله سليمان أم لا؟ وهو ما لم يوضحه الكاتب فإن كان المقصود هنا هو نبي الله سليمان فكيف يكون ملكًا صغيرًا لمدينة صغيرة وهو الذي قال عنه القرآن:

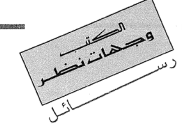
﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)﴾

وكيف يكون (كنعانيًا بعقيدته) كما ينقل القول وهو مسلم كما في الآية:

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ النمل (٤٤)

كل ما سبق يثبت أن القوم الذين خرجوا من مصر مع نبي الله موسى هم بنو إسرائيل وأنهم من نسل سيدنا إبراهيم وأنهم كانوا يعيشون في مصر وأن هناك علاقة نسب بين نبي الله موسى وبين نبي الله داود وسليمان وأن نبي الله سليمان لم يكن حاكمًا صغيرًا لمدينة صغيرة.

ولكن هل يعطي كل هذا لليهود حقًا شرعيًا في فلسطين؟ وهل لمجرد أن نكذب كل ما يقولونه يدفعنا انفعالنا بالقضية لأن نهدم المعبد فوق رؤوسنا ونطيح بثوابت لا يمكن، بل لا يجب أن نحيد عنها.



أخيرًا كان يجب علي الكاتب - وهو الذى بذل مجهودًا ملموسًا في بحثه - أن يستعين أولاً بالقرآن وأن يتخذ منه مرجعًا أساسيًا لبحث سيرة بنى إسرائيل إلي جانب الحقائق العلمية الموجودة والحقائق الأثرية - والمتخصص فيها كاتبنا - ولا أظن أن الحقائق العلمية سوف تكذب القرآن - وهو الحق - وإن حدث اختلاف فكم من حقائق علمية ثبت كذبها بعد حين وظل القرآن هو كلمة الحق إلي أبد الآبدين.

صلاح خلاف
محاسب



نكسة ثقافية

نشكر الأستاذ «قاسم عبده قاسم» علي المقال الذى نشره في مجلة «وجهات نظر» في عددها الخامس والعشرين (فبراير ٢٠٠١) بعنوان: «التاريخ.. كيف يدرسه التلاميذ في مصر» والذي يتناول بتركيز مراحل تدريس التاريخ من التعليم الأساسى إلي الثانوى العام، ولأنى كنت دائم الاهتمام بمادة التاريخ أعلم مدى سطحية وتفاهة المادة التاريخية في كتب الدراسة المصرية. وأنا لا أعلم لماذا لا تتم دراسة مادة التاريخ في الجامعات المصرية حتى نرفع من النكسة الثقافية لشباب الجامعات المصرية وفي حين أن هناك مواد كثيرة لا تستحق الدراسة أساسًا.

وعلي سبيل المثال، نحن ندرس مادة «الكمبيوتر» من الناحية النظرية فقط علي طريقة خذ فكرة، والإدارة الجامعية لها العذر، فهى ليس لديها القدرة علي توفير أربعة آلاف جهاز كمبيوتر لطلبة الجامعة كلها.

هذه مشكلة من مشاكل كثيرة في الحياة الجامعية. ولعلى أتساءل: لماذا انحدر منحنى الثقافة للطلبة الجامعيين إلي هذا التدنى لدرجة أنهم لا يعلمون شيئًا عن أهم الأحداث في تاريخ مصر الحديث وبالطبع فإننى لا أعمم هذا الرأى علي جميع الطلبة ولكن معظمهم علي هذا النحو من الجهل التاريخي.

ونرجو من الأستاذ «قاسم عبده قاسم» أن يكتب مقالات أخرى في سلسلة الكبوة التعليمية التى تمر بها مصر.

وفي النهاية نشكر مجلة «الكتب.. وجهات نظر» على هذه المساهمة في رفع مستوى الثقافة وعلى الموضوعات المهمة التى تعرضها.

محمد عبد الله أحمد
كلية التجارة (الفرقة الأولى)
الإسماعيلية

أمنياتى للمجلة

كل عام وحضرات أعضاء هيئة التحرير بالصحة والسعادة. وأمنياتى للمجلة فى عام ٢٠٠١ هى كالآتى:

١- أن تتحرر المجلة من قيود الثقافة الموجهة.

٢- أن تخرج المجلة من المحلية والإقليمية إلى العالمية بمعنى أن نرى العالم من خلالها، كأن نرى كتبًا من اليابان، الصين، البرازيل وأفريقيا وفى صورة مقالات حتى وإن كانت على حلقات.

٣- أن تكون هناك صفحة أو صفحتان، واختيار حرف أو كلمة من الموسوعات، ولتكن البريطانية مثلاً «بتصريح».

٤- أن تقسم أبواب المجلة كما يحدث فى المجلات العالمية إلى باب السياسة، الاجتماع، العلوم، الفكر، .....

٥- أن نتعرف على مجالات جديدة، من خلال المجلة لم تكتب من قبل مثل علوم الطيران ومشاكله، علوم الأقمار الصناعية، علوم المناجم، علوم الغواصات، علوم البحث عن البترول، علوم الموسوعات، زيارة إلى المعابد فى شرق آسيا، العبادات فى العالم، القبائل المتخلفة فى أمريكا اللاتينية.. الخ وخاصة أن هذه المجلة تخاطب فئة معينة من المثقفين.

٦- أن تخرج المجلة من الحداد الذى هى فيه، وتصبح الرسومات والمقالات بألوان وليست الإعلانات فقط.

هانى بولس زكى
محاسب



تنويه

جاء بمقال الأستاذ وديع فلسطين بالعدد الرابع والعشرين للمجلة بأن المحكمين اختاروا البروفيسير جورج ساوسوهول.. رئيسًا لهيئة التحكيم وفيصلاً في النزاع «Referee» وصحتها «Umpire» من حيث إن الاسم الأول هو اسم الحكم الرياضى. أما «Umpire» فهو الاسم الصحيح وإن كان هذا الاسم يطلق على حكم كرة المضرب «التنس» لأن قراره نهائى نظرًا لوجود أكثر من مراقب خطوط.

وقد راجعت جميع قوانين التحكيم قبل الكتابة إليكم.

برجاء التنويه ولكم جزيل الشكر وخالص التحيات.

محمد السمنودى
محكم معتمد
لدى غرفة التحكيم الدولية بباريس



عمارة الفقراء

٦- التراث المعمارى ميت

مصر الحديثة ليس فيها أسلوب محلى، فالبصمة مفتقدة: وبيوت الأغنياء والفقراء هى على السواء بلا طابع، بلا لهجة مصرية. لقد ضاع التراث، وانفصمنا عن ماضينا منذ قطع محمد على رأس آخر مملوك. وهذه الثغرة فى تواصل التراث المصرى قد أحس بها أناس كثيرون. فطرحت لها كل صنوف العلاج. والحقيقة أن هناك نوعًا من الغيرة بين أولئك الذين يعدون القبط السلالة الحقيقية المنحدرة من قدماء المصريين، وأولئك الذين يؤمنون بأن الأسلوب العربى هو ما ينبغى أن يمد بنموذج للمعمار المصرى الحديث.

ومما لا يفهم حتى الآن أن المعمار الحقيقى لا يمكن أن يكون موجودًا إلا فى تراث حى، وأن التراث المعمارى فى مصر هو الآن تقريبًا ميت.

وكنتيجة مباشرة لضياع التراث فإن مدننا وقرانا أصبحت تزيد وتزيد قبحًا. وكل بناء بمفرده يؤدى إلى زيادة هذا القبح. وكل محاولة لعلاج الموقف لا تؤدى إلا لتأكيد هذا القبح تأكيدًا أثقل.

ولكن مدارس العمارة ليس فيها أية دراسة لتاريخ البنايات المنزلية وهى تدرِّس العصور المعمارية عن طريق ما هو أسلوب عارض ليس إلا، كمعالم الظاهرة من مثل بوابات المعبد الضخمة وسدائل المقرنصات.

وهكذا فإن المهندس المعمارى يتخرَّج وهو يعتقد أن هذا هو كل ما يعنيه «الأسلوب»، ويتخيل أن البناء يمكن أن يغير أسلوبه بمثل ما يغير الإنسان ملابسه.





طالبان تضع العالم الإسلامي في مواجهـــة مـــع الـــذات

لم يكن العـالم الإسـلامي أقـرب إلى المواجهة مع نفسه في لحظة صدق تاريخية، كما كان في الأزمة التي أثارتها أخيرًا حركة طالبان. حين قررت ثم أقدمت على تدمير التماثيل البوذية المنحوتة في الصخر في أفغانستان، والتي يرجع تاريخها إلى عدة قرون خلت.. بزعم أنها مخالفة للشريعة الإسلامية التي تحرم عبادة الأوثان.

وقد انقسم العالم الإسلامي على نفسه بين مدافع عن حق حركة طالبان في تحطيم هذه التماثيل استنادًا إلى أنها مسألة دينية صرفة لا شأن للآخرين بها.. خاصة أن العالم لم يتحرك حين هدم الهندوس مسجد بابري الأثري في الهند، ولم ينزعج كثيرًا حين تعرض المسجد الأقصى في القدس للاعتداءات الإسرائيلية.. ومن ثم فإن الاحتجاج الدولي الذي قادته اليونسكو على تحطيم تراث ثقافي عالمي لا يصدر عن نيات خالصة، بقدر ما يصدر عن نعرات ثقافية وازدواجية في الحكم لا يؤبه لها.

وعلى الجانب الآخر في العالم الإسلامي، كانت الأصوات الأعلى والأكثر غضبًا هي تلك التي رأت في تحطيم التماثيل إهدارًا لتراث ثقافي عالمي، ينتمي إلى حقبة تاريخية مضت منذ قرون. وأن المسلمين الأوائل حين فتحوا أفغانستان وأدخلوا إليها الإسلام لم يهتموا بإزالتها، بل تركوها قائمة.. وظلت كذلك دون أن تتحول إلى مصدر للغواية والضلال على مر مئات السنين. فما الحكمة إذن في هدمها الآن، إلا أن تثير ثائرة العالم ضد الإسلام والمسلمين، وتثبّت الصورة النمطية الجاهزة التي تصم العالم الإسلامي بالجهل والتأخر والتعصب؟

وما سبب إصرار طالبان على تجاهل النداءات العالمية، إلا أن حكامها وأمراءها الذين يرتدون عباءة الإسلام، لم يعد يهمهم شيء، مادامو قد سقطوا في وهدة الرجعية الدينية والانغلاق الفكري، فحرموا على المرأة الخروج من البيت، ومنعوها من التعليم، وأنكروا على الناس استعمال التليفزيون وسمحوا بزراعة وتجارة المخدرات؟!

وعلى الرغم من أن ما تردد حول الأوضاع في أفغانستان، سواء حول الدواعي التي حملت زعماء طالبان على تحطيم التماثيل البوذية، أو ما تردد حول زراعة المخدرات واحتجاز النساء والبنات في بيوتهن دون تعليم، لا تخلو من المبالغات، بل ربما كانت - على الأرجح - جزءًا من حملات الحصار والعزل والضغط التي تشنها الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والهند بسبب الحماية التي أسبغتها طالبان على بن لادن من ناحية، وبسبب مؤازرتها القوية للحركات الإسلامية التي تناوئ النفوذ الروسي في الجمهوريات الخمس التي كانت جزءًا من الاتحاد السوفيتي، وتمثل تعضيدًا للشيشان ضد موسكو من ناحية أخرى، ثم أخيرًا بسبب تأييد طالبان للمقاومة الكشميرية ضد الهند من ناحية ثالثة.

لكل هذه الأسباب مجتمعة ومنفردة، ونظرًا لحواجز الفرقة والتباعد التي صارت تفصل بين الأمم والأقطار الإسلامية، فلا يعرف بعضها عن بعض شيئًا.. بل ربما اكرهت بعضها على قطع الروابط التي كان من شأنها أن تصلح بعض الأوضاع في بلد مثل أفغانستان.. فإن الخلط الشديد بين ما هو ديني عقيدي وما هو سياسي واقتصادي، دون تمييز دقيق بين الخصوصية الثقافية التاريخية والهوية الحضارية من ناحية، وبين الأسس والمصالح الدولية المشتركة القائمة على تبادل المنافع أو اغتصابها من ناحية أخرى، هو الذي يطرح تحديًا عصريًا على الأمة الإسلامية وشعوبها، في وقت يتآكل فيه مفهوم سيادة الدولة ويعطي العالم لنفسه حق التدخل لمقاومة ما يظنه تهديدًا لتراث عالمي مشترك.



تتصل هذه الإشكالية بإشكالية أخرى، باتت من أكثر ما يميز الحياة المعاصرة في العالم الإسلامي، هي ذلك الطموح القديم المتجدد لإقامة حياة سياسية تجمع بين حكم الدين أو بمعنى أصح رجال الدين، وبين أساليب الحياة العصرية القائمة على الحرية والديمقراطية وتداول السلطة.. وقد أدى الإخفاق في تحقيق هذه المعادلة حتى الآن، إلى إصابة نظم الحكم التي حاولت تطبيقها في العالم الإسلامي بالوهن والضعف والصراعات الداخلية الحادة.

فلم تكن الحجج الشرعية والدينية التي استخدمتها طالبان لتدمير التماثيل البوذية، سوى ذريعة لمقاومة ضغوط سياسية خارجية فضلاً عن صراعات داخلية على السلطة بين طالبان والفصائل الأفغانية الأخرى. ومن المؤكد أن الوضع المتردي في أفغانستان المحاصرة والجائعة والمنبوذة إسلاميًا ودوليًا في قلب صراع دولي. أعقد من أن يحل في إطار التضاد بين فتوى دينية بتحطيم الأوثان وبين مبدأ المحافظة على التراث الإنساني الثقافي باعتباره ملكًا عامًا مشتركًا للإنسانية جمعاء.

فالخطاب الديني الطالباني الذي يعبر عن وضعية محاصرة ومحصورة، يصطدم بخطاب سياسي عالمي إنساني يضم بين جوانبه من الاعتبارات الدينية والسياسية والثقافية ما يستجيب للنزعة الإنسانية الحضارية، وقد اختلفت الرؤية اختلافًا جذريًا بين علماء الدين الأفغان وبين علماء الدين الذين حملتهم الطائرة من أنحاء العالم الإسلامي.. إلى كابول لمجادلتهم بالتي هي أحسن، ودعوتهم إلى إعادة النظر في تحطيم التماثيل البوذية. فلم يكن الاختلاف بين الطرفين غير اختلاف بين عالمين وعصرين وفهمين للخطاب الديني بمعناه الواسع. كلاهما قد يكون صحيحًا، ولكنهما ينطلقان من منطلقات مختلفة، وينطبقان على أزمان مغايرة وأقوام متباينة.

وعلى الرغم من عدم تطابق وجهتي النظر في إطار خطاب ديني واحد، يستند إلى مرجعية واحدة، فإن دخول البعد السياسي تعبيرًا عن مصلحتين متباعدتين أو متناقضتين، هو الذي أوجد الهوة الفاصلة بين ملالي طالبان وعلماء الدين الذين جاءوا من أنحاء العالم الإسلامي.

وهنا، فلابد من الاعتراف بأن ثوابت الدين يجب أن تظل بمنأى عن الصراع السياسي. وأنه في كل مرة وقع خلط بين ثوابت العقيدة وأهداف السياسة، اشتعلت الفتنة وتأججت حدة الصراع، وتاهت المرجعيات فلم يعد أحد يفرق بين الخطأ والصواب.



سوف نلاحظ هذه الظاهرة في إيران وفي السودان وفي باكستان.. وفي كل التجارب السياسية الحديثة التي خلطت بين مبادئ العقيدة في ثباتها ووضوحها وبين مقاصد السياسة في تقلباتها ومقتضياتها العملية، وملاءماتها ومتغيراتها البرجماتية. لم يتحقق النجاح المطلوب ولا استقرت المفاهيم والنظم التي تضمن للشعوب والدول إنجاز تقدم مطرد على وتيرة ثابتة. بل إن ما نراه نصب أعيننا اليوم هو ذلك الصراع المتأجج على السلطة بين التيار المعتدل الذي يسعى إلى إزالة التناقضات بين الدين ومفاهيم العصر والذي يقوده خاتمي في إيران، وبين المتشددين الذين يلوذون بسلطان رجال الدين لإبقاء الأوضاع جامدة على ماهي عليه، استنادًا إلى مقولات دينية وسلطات حاكمية لا سبيل إلى زعزعتها أو تبديلها.

وتتكرر تنويعات الصراع بأشكال ودرجات مختلفة في دول ومجتمعات وجماعات إسلامية عديدة يقودها سياسيون إسلاميون.. تستغل المقولات الدينية كواجهة للصراع، بينما تكشف الأعماق عن صراع محض على السلطة. ولا بأس من تغيير المواقف من النقيض إلى النقيض، وتغيير التحالفات والارتباطات طبقًا لمصالح آنية، وتوازنات سياسية، ومغانم دنيوية في كثير من الأحيان، تتغير معها الحجج الشرعية والتأويلات الدينية وتشكك في شرعية النظام الإسلامي.

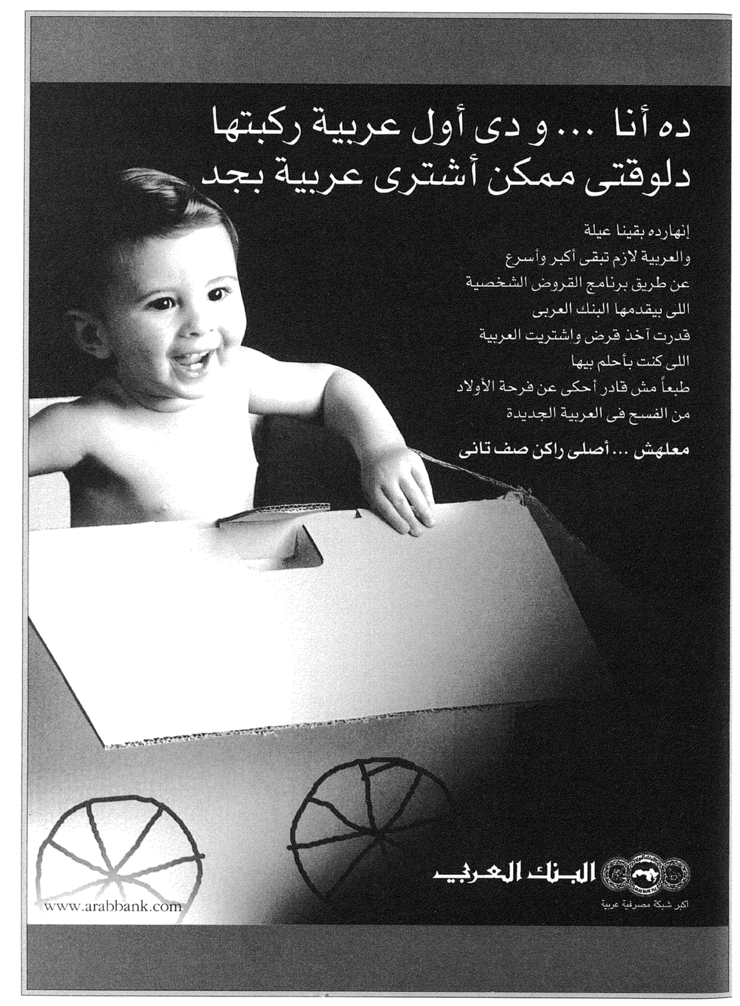


إن التغير المتسارع الذي يشهده العالم الآن، لابد أن يحملنا على التفكير العميق في دلالات أزمة التماثيل البوذية، والتطور الحادث في الخطاب العالمي، والحاجة الملحة إلى إعادة النظر في الخطاب الإسلامي وقدرته على مخاطبة العالم، فلم يعد ممكنًا أن يظل الخطاب الديني في العالم الإسلامي عاجزًا ومحصورًا في أطره الضيقة التي تصطدم بكثير من القيم الإنسانية السائدة، بسبب الخلط بين ثوابت العقيدة ومتغيرات السياسة، أو بسبب سيطرة أفكار جامدة.

لقد اتسع الخطاب العالمي الآن لكل ما هو اقتصادي وثقافي وسياسي واجتماعي، بل وديني. وأصبح قادرًا على استيعاب هذه الأبعاد جميعًا في وقت واحد. ولهذا لم يكن غريبًا أن يطالب المدير العام لليونسكو بتوقيع عقوبات على الدول أو الجماعات التي ترتكب جرائم في حق الثقافة والتراث المشترك للإنسانية، باعتباره تراثًا دينيًا في الأساس.. إذ من الواضح أن الديانات كانت ومازالت هي مهد الثقافة والفكر والفن. احتضنت وأنتجت على مر العصور أغلب ما أبدعه العقل البشري في هذه المجالات جميعًا. ومن ثم لم يعد الخطاب السياسي العالمي قصرًا في الحديث عن حقوق الشعوب في الحرية والاستقلال أو في الالتزام باتفاقيات دولية أو معاهدات سياسية، بل اتسع ليشمل الأبعاد الدينية كما تنعكس في حرية الاعتقاد والعبادة، بقدر ما يشمل الحفاظ على التراث الثقافي الإنساني، وبقدر ما يتسع لمتغيرات الاقتصاد العالمي.

لم يعد واردًا أن ترتكب الجرائم الثقافية والسياسية باسم الدين. ولم يعد من مصلحة العالم الإسلامي أن تستمر الصراعات السياسية على السلطة بين المسلمين في أجزاء متفرقة من العالم باسم تطبيق الشريعة. وعلى عاتق المفكرين الذين يتصدون للحديث عن النهضة الإسلامية أن يضعوا الحلول الحقيقية لتجريد الدين من صراعات السياسة وأباطيلها وتقلباتها. فلم تعد الشعوب الإسلامية مستعدة لتجرع المزيد من هذه الصراعات التي عطلت تقدمها وشلت حركتها، ولم يعد العالم قابلاً لمفهوم السيادة الوطنية التي تقوم على منع حريات الشعوب وحرمانها من حقوقها، أو على تدمير التراث الإنساني المشترك، أو تلويث البيئة وإهدار الثروات الطبيعية، تحت أية ذريعة من الذرائع!

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com



Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 28 - May 2001
مجلة شهرية . العدد الثامن والعشرون . السنة الثالثة . مايو ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل
"الفرانكوفونية".. وأخواتها

مدرسة الطب المصرية من أبى زعبل إلى قصر العينى
محمد فؤاد الذاكرى

جدلية الصحراء والمدينة
سلامة أحمد سلامة

الفن التلقائى
حسام الدين زكريا

عادل حسين ومأزق المثقف الوطنى
رءوف عباس

شحاتة هارون مصرى عادى يهودى غير عادى
أمينة شفيق

التحديث فى تركيا بين العثمانيين وأتاتورك



فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد الثامن والعشرون
مايو ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد



تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أمينة شفيق .. صحفية.
- حسام الدين زكريا ... باحث فى العلوم اللغوية والموسيقية
- حسين عبدالله.. أستاذ اقتصاديات البترول ووكيل سابق لوزارة البترول المصرية.
- ذوقان قرقوط.. كاتب سورى.
- رءوف عباس .. أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة.
- زياد بهاء الدين .. محام.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- شوقى ضيف .. رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- كريستوفر دى بيليج.. مراسل صحيفة «الاندبندنت» البريطانية فى إيران.
- مايكل هيرش .. صحفى أمريكى.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد فؤاد الذاكرى.. باحث فى التراث العلمى من سوريا.
- ناصيف حتى.. أستاذ العلاقات الدولية ومدير مكتب الجامعة العربية بباريس.

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجى - سعد الدين شحاتة**



المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالاً - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــة..



اللغـــة .. والسيـــاســــة

أحدَ عشرَ يوماً كاملة أمضاها الأمريكيون والصينيون فى البحث عن لفظ يعنى الاعتذار، يُرضى الصينيين الذين سقطت لهم طائرةٌ.. ومات لهم طيار، ويمنعُ فى الوقت نفسه إراقة ماء وجه الإدارة الأمريكية الجديدة.. التى هى، وبحكم كونها «سيدة العالم»، تستنكف الاعتراف بالذنب.

«دبلوماسية اللغة» ـ وليست «البنج بونج» هذه المرة ـ نجحت فى الحفاظ على العملاقين على الطريق الذى دلفا إليه قبل سنوات طويلة. يومها لم تكن الطَرَقاتُ الافتتاحيةُ، كما اعتاد الناسُ «لكفٍ على باب» وإنما كانت لكرةٍ صغيرةٍ بيضاء على طاولة خضراء. وكان «مهندس اللعبة» الدبلوماسى الأشهر هنرى كيسنجر.

كرة كيسنجر الناعمة «المستديرة»، والتى بحثوا عنها ـ أو لعلهم احتاجوها ـ هذه المرة أيضا، لم يجدها الدبلوماسيون تحت الطاولة، ولا فى اضابير الاتفاقات الدولية ذات الصلة بالطيران أو بالقواعد الحاكمة للمجالين الجوى والبحرى للدول ذات السيادة، وإنما بين دفتى القاموس، أو بالأحرى القواميس والمعاجم اللغوية التى كان فى اختلافها «دلالياً وثقافياً» الحل السحرى لأزمة لا يريد لها الطرفان قطعاً أن تستمر.

نطقها الأمريكيون إذن دون أن يعتبروها اعتذاراً. وسمعها الصينيون «ترجمةً» إقرارا بالذنبِ يعتبرونه فى ثقافتهم مهانةً ومذلة. ونجح اللغويون فى أن يصنعوا من معاجمهم «الاثنية» جسرا بين ضفتين لولا ابتعادهما ـ ويا للغرابة ـ ما كان بناؤه ممكنا ولا متاحا.



وإذا كانت العلاقةُ بين اللغةِ (أصوات ونبرات ودلالات وإيحاءات وتراثا) وبين ثقافة أمة ما (متمايزة عن غيرها بالضرورة)، لا يحتاج إلى تذكرة.. فضلاً عن برهان، فإن «الحل اللغوى» لواقعة الطائرة الصينية أخيرا، ليس الشاهد الأوحد لما بين اللغة والسياسة من علاقة. فقبل ثلاثة عقود نجح اليهود ـ ومازالوا ـ فى أن يُدخِلوا العربَ فى «تيه» الصحراء الشاسعة التى تفصل بين لفظة «أراضٍ» محتلة فى النص الإنجليزى، و«الأراضى» المحتلة فى النص الفرنسى للقرار ٢٤٢ الشهير. وقبل أسابيع فقط نحت الأمريكيون بذكاء تعبير «العقوبات الذكية» مستبِقين به قمة عربية ترقبها الجميع. ولم يكن صعباً أن يلاحظ ـ من يريد أن يلاحظ ـ كيف تسلل التعبير «الذكى» إلى لغة اجتماعات إقليمية سبقت القمة وجمعت أعضاء بها ذوى علاقة.



وتتعدد ـ بطبائع الأشياء ـ جوانب العلاقة بين اللغة والسياسة. وأحدها ـ فقط أحدها ـ تعبر عنه وجهة نظر رَجُل مثل «جاك لانج» (وزير الثقافة الفرنسى) والذى يحذر من خطورة «الاستيلاء على اللغة»، والذى يمكن أن يكون «مُقَدِّمة لإلغاء هَوِيَّة أصحابها».

ليس بعيداً عن ذلك ما قرأناه قبل أسابيع عن قرار إمارة راس الخيمة بدولة الإمارات العربية المتحدة، والذى فرض عقوبة موجعة، على الشركات التى تستخدم لافتات وإعلانات تحتوى على أخطاء فى قواعد اللغة العربية الإملائية والنحوية. القرار الذى أكد واضعوه أنه يستهدف الحفاظ على الهوية فى عالم متسارع متغير، بدأ تنفيذه بكل حزم وحسم. وكان المأمول ـ تعميماً لفائدةٍ مرجوة ـ أن تحذو دول «عربية» كبرى حذو الإمارة الصغيرة التى ترقد فى هدوء الصحراء على ضفاف خليج طالما ماجت مياهُهُ بعواصفِ السياسةِ وتياراتِ الثقافةِ متباينةً ومتفاعلة، ومازال وصفه «لغويا»: بين فارسيٍ وعربيٍ، انعكاسا لكل ذلك.

العلاقة المتداخلة بين اللغة والسياسة، لم تغب أبداً ـ ولا كان يحق لها ذلك ـ عن ذهن الساسة والمفكرين. فكمال الدين اتاتورك، بكل ماله وبكل ما عليه، كانت خطوته «السياسية» الأولى.. لغوية. وفى «وجهات نظر» هذا العدد للشأن التركى مكانه فى مقال يحاول الإجابة عن سؤال قديم جديد: «من بدأ التحديث فى تركيا؟»

واللغة ـ بالمعنى الحرفى للكلمة ـ لها مكانها أيضاً فى مقال لشوقى ضيف رئيس مجمع اللغة العربية: المعقل الرسمى للغة التى هى عريقةٌ بتاريخها، ثريةٌ بتراثها، قويةٌ بدينها، كبيرةٌ بعددالناطقين بها.. والتى هى بعد ذلك ـ أو ربما قبله ـ فى مأزقٍ لا تجد لنفسها فيه نصيراً إزاء غوائل عصور مُستَجَدَّة، كما يقول محمد حسنين هيكل فى مقال يستغرب فيه انخراط العرب ـ أو بعضهم ـ من موقع المشارك ـ لا المراقب ـ وإن قيل ذلك، فى منظمة «الفرانكوفونية» والتى تنعقد «قمتها» فى أكتوبر القادم، لأول مرة فى عاصمة «عَرَبية» هى بيروت، لدَواعٍ «لا تَبدو ـ لى ولغيرى ـ مَفهومة ، ولمقاصد لا يَظهَر فيها للأمَّة نَفعٌ». والكلام لهيكل الذى يرى فى ذلك استمراراً «للشرود عن نظام السرب العَرَبى» ، تتبَعثر أجنحته كلٌ منها مُستَسلمة لريح !

ويقارن هيكل بين منظمات وتشكيلات عدة، دخلها العالَم العَرَبى منذ بداية يَقظته الحديثة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، مشيراً إلى «مشروعات سَقَطَت لأنها كانت حَملاً خارج الرَحِم، فى حين نَجَحَ مشروع الجامعة العَرَبية لأنه حَملٌ طبيعىٌّ». ذلك أن الأمَّة كانت مُتَّسِقة مع نفسها ، مُتَّسقة مع عالمها ، مُعَبِّرة عن «هَوِيَّة» يَقوم عليها «وَلاء» ، ومُعَبِّرة عن «مَصالح» تَتَرَتَّب عليها «التزامات» ـ ذلك أنه لا أحد فى هذا العالَم يَنتَمى خارج هَوِيَّته ، أو يَنتَظِم خارج مصلحته.



الملاحظ أنه فى مَطلع السبعينات راحَ التنظيم العَرَبى الجامع ـ المعَبِّر عن الانتماء وعن المصلحة ـ يَتَراخى وتَنفلِت منه أجزاء تَتَطاير وتَشرُد. فظهرت «أجنحة» تارة، و«اقتطاعات» تارةً أخرى، فى شكل تنظيمات و«كيانات»، منها ماكان استجابة لرؤى «لحظية» ضيقة. ومنها ماركن إلى هوية رآها ـ أو اجتزأها ـ إقليمية. ومنها ما أعيا أصحابَه البحثُ عن هويةٍ، فلجأ إلى «اللغة» وقواميسها مرة أخرى.. ليبحث عن مسمياتٍ تصلحُ للمناسبة.

قد يكون ذلك كله مفهوماً، وإن انحصر فى مصالح ضيقةٍ، يحسب أصحابها أن الانزواء فى ركن ـ أو التحليقَ بعيدا عن السرب ـ يظل مأموناً وبعيدا عن الصراعات وطلقات القناصة.. إلا أنه فجأة ، ومن المجهول ، وبالانسياق ـ فى الغالب ـ أو بالانزلاق ، ظَهَرَ على ساحة المنطقة مَشروع طارئ باسم «الفرانكوفونية» ـ وهو مَشروع مُنظمة غريبة لا تُعَبِّر بالنسبة للأمَّة عن هَوِيَّة ، ولا أمن ، ولا مصلحة ، ولا أمَل . ومع ذلك فهناك الآن دَعوة إلى قِمَّة لها ـ تَجتَمِع فى عاصمة من أجمل عَواصم الأمَّة العَرَبية ، وأكثرها صلابة، وأغناها إسهاماً فى الثقافة العَرَبية .وهنا يَبرُز سؤال هيكل: ما هى «الفرانكوفونية» بالضبط ؟ ـ تلك التى التحقنا بها ونحن لا نَعرف متى؟ ـ وتلك التى نشارك فى اجتماعاتها ولا نعرف لماذا؟!

ليس بعيداً أبدا عن مقال هيكل، يأتى مقال المفكر السورى ذوقان قرقوط والذى يقول فيه أن هوية مصر «العربية» ليست هوية مستعارة، على ماحاول بعضهم استعارة هوية أفريقية لها أو متوسطية أو أوروبية إلخ «هربا من المسؤولية»، بل هى هوية عربية أصيلة... ومصر بمثل ماهى مسؤولة عن عروبتها، فهى مسؤولة ـ شاء البعض أم أبوا ـ عن العرب بل وعن العروبية فى حد ذاتها.

وجهات نظر

"الفــــرانكــــوفــــونيـــــة"



محمـــــد حســــنين هيـــكل



"١"

مــــهـــمــــة مطروحـــــة علـى عـــمـــرو مـــوسى

■■ وَسَط اهتمام مُتَزايد بجامعة الدُوَل العَرَبية - مع ابتداء مَسئولية «عمرو موسى» عن أمانتها العامة - خَطَرَ ببالى أنها مُناسَبة لطَرح مَسألة تستحق الاهتمام - هى ذلك الشُرود العَرَبى إقليمياً ودَولياً حتى أصبح جَمعُ الأمَّة قريبَ شَبَه بسِرب طيور ضاعَ نظامه وتَبَعثَرَت أجنحته كلٌ منها مع ريح !

وخَطَرَ - أيضاً - ببالى أنه ربما استطاع المناخ الجديد فى جامعة الدُوَل العَرَبية أن يُساعد على عَودة الشارد والمبَعثر، أو يُوقف الطيران الأعمى بحيث يَعود إلى السِرب شىء من نظامه - واحترامه !

أعرض ذلك عارفاً حدود الجامعة العَرَبية، وحدود أمينها العام :

- بمعنى أننى أعرف أن الجامعة العَرَبية منظمة إقليمية تُشارك فيها دُوَلٌ ذات سيادة، وَجَدَت «المشتَرَك» بينها كبيرا، ورأت أنها فى إطار هذا «المشتَرَك» قادرة على إظهار نوع من «الإرادة الجماعية» لصالح شعوبها، مُدركة حَجم وعُمق ما بينهم من روابط لها طبيعة خاصة ومُتَمَيِّزة.

- وبمعنى أننى أعرف أن الأمين العام للجامعة العَرَبية لا يَصنع سياسة - وإنما هو فى حدود «المشتَرَك» بين الدُوَل الأعضاء فى الجامعة مَسئولٌ عن التحضير والتجهيز ومتابعة التنفيذ بما يَخدم المتَّفق عليه ضِمن «المشتَرَك» ويُنَظِّم حُسن أدائه.

لكننى مع ذلك أعرف أن لدى «عمرو موسى» مَزايا لم تَتَوَفَّر لآخرين :

١ - فهو يَجىء إلى مَنصبه كاختيار إجماع لم تَتَخَلَّف عنه دَولة عَرَبية واحدة.

٢ - وهو يَجىء إلى مَنصبه ومعه قَدرٌ واضحٌ من الرضا العام يُضيف مَعنوياً إلى قُدرته.

٣ - وهو يَجىء إلى مَنصبه بدَرَجة عالية من الكفاءة والحَيَويَّة.

٤ - وهو يَجىء إلى مَنصبه فى ظرف تَستَشعر فيه الأمَّة خطراً على وجودها ذاته، ومن ثم فهى مُستَعِدَّة لأن تَسمَع وقابلة لأن تَستَجيب.

وهذه المزايا كلها لا تُعطى لـ«عمرو موسى» «سُلطة» لا يَمنحها له الميثاق - لكنها تُعطيه «حق» أن يَتَكَلَّم دون أن يَتَلَعثَم، وأن يُبادر دون أن يَنظر خلفه، وأن «يُوصى» دون أن يَستَسلم، وأن يَعتَذر عن الولاية والوصاية وفى المقَدِّمة ولاية ووصاية «دولة المقَر»، التى نَسيَت نفسها مرات وتَصَوَّرَت أن الجامعة العَرَبية «إدارة أخرى» من إدارات الدولة المصرية، وساعَدَها على الوَهم وجود المقَر فيها، وواقع أن كل الأمناء العامين للجامعة - باستثناء واحد لا يُقاس عليه - كانوا من مُواطنيها، والغريب أن ذلك كان إصرارها دون نَصٍّ فى الميثاق !



أمَهِّد بذلك وفى اعتباري أن مصر - ودُوَلاً عَرَبية غيرها - علي وشك أن تُشارك فى مؤتمر على مستوى القمَّة لتَنظيم دَولى يُطلَق عليه وَصف «الفرانكوفونية»، وهذا التنظيم الدَولى يَعقد قِمَّته - فى أكتوبر القادم - لأول مرة فى عاصِمَة عَرَبية هى بيروت، لدَواعٍ لا تَبدو - لى ولغيرى - مَفهومة، ولمقاصد لا يَظهَر فيها للأمَّة نَفعٌ.

ومُؤَدَّى ذلك أنه مرة أخرى سنة ٢٠٠١ يَستَمر الشرود عن نظام السرب العَرَبى، وتَتَبَعثر أجنحته كلٌ منها مُستَسلمة لريح !

وفى بعض الأحيان يَتَبَدَّى لى أن مصر دَخَلَت تَنظيم «الفرانكوفونية» بالخطأ، أو بالتَوَرُّط، دون قَصد. وفى أحيان أخرى يَتَبَدَّى لى خلاف ذلك وتَعتَرينى الدَهشة لأن الدُوَل لا تَدخل فى تَنظيمات، إقليمية أو دَولية، إلا بناء على مَطالب من تاريخ أو مُستقبل، من أمن أو مصلحة، من زيادة فاعلية أو زيادة نفوذ - وأما بدون ذلك فإن الدَولة الرشيدة لا تُضَيِّع وقتها، ولا جهدها، ولا هيبتها، إذ تَتَسَكَّع فى غير مَكانها وفى غير ما يَعنيها، وبلا سَبَب يُقنع أو هَدَف يُساوى.



والحاصل أن العالَم العَرَبى منذ بداية يَقظته الحديثة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية - دَخَلَ وشارَك فى مُنظَّمات وَجَدَ نفسه فيها طبيعياً، ورأى مَطالبه منها جَلِيَّة واضحة، وقَصد من خلالها إلى ما يُريد واثقاً.

● وكانت البداية أن الدُوَل العَرَبية المستقلة سنة ١٩٤٤ تَقَدَّمَت وأنشأت بإرادَتها مُنَظَّمة إقليمية (الجامعة العَرَبية) مُعتَبرة ذلك تأكيداً لانتماء قومى أصيل - فيه التاريخ، وفيه اللغة، وأمَلاً فى شَراكة للمستقبل واسعة - فيها الاقتصاد والأمن، وفيها التعليم والثقافة، وفيها رَغبة فعل إقليمى مُؤثر يُساهم فى بناء عالَم تَتَطَلَّع إليه البَشَرِيَّة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

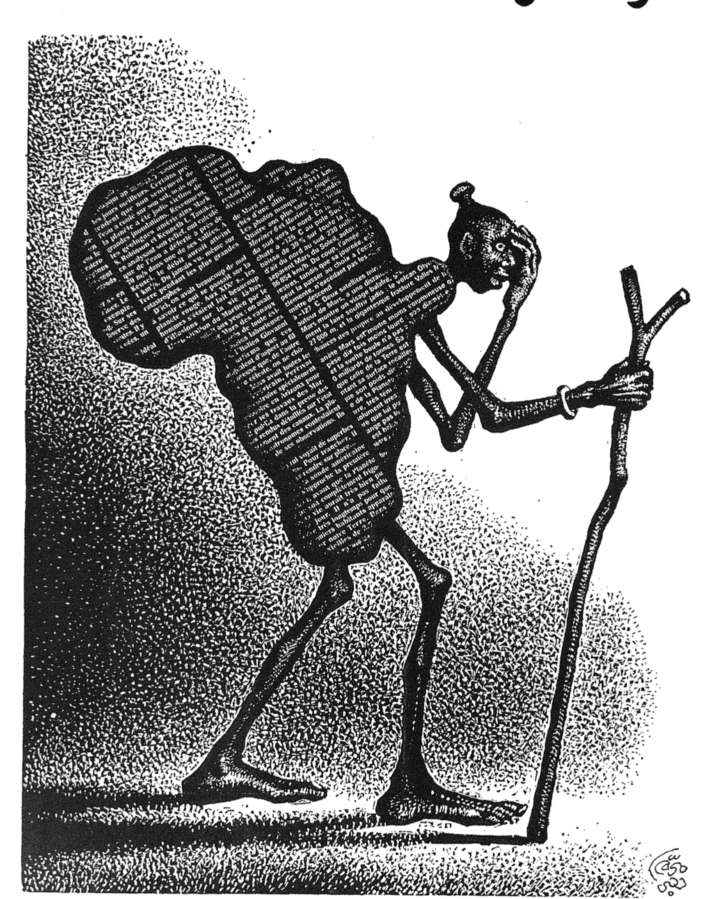
وفى وضوح فِكر الأمة وعَزمها - فإنها رَفَضَت مَشروعات طُرِحَت عليها لتنظيم المنطقة إقليمياً وعَرَبياً. بينها مشروع حلف للدفاع عن الشرق الأوسط فى نفس الصَف مع تركيا وإيران وباكستان. وبينها اقتراحات لمشروعات تَقوم إما فى إطار «الهلال الخصيب» تَدعو إليه بغداد ويَجمَع سوريا ولبنان والأردن (ولاحقاً تركيا)، وإما فى إطار «سوريا الكبرى» يَجمَع الدُوَل العَرَبية السابق ذكرها ولكن تحت تاج هاشمى !

وقد سَقَطَت كل هذه المشروعات لأنها كانت حَملاً خارج الرَحِم، ونَجَحَ مشروع الجامعة العَرَبية لأنه حَملٌ طبيعىٌ.

ثم لَحَقَ بذلك أن الدُوَل العَرَبية الأعضاء فى جامعة الدُوَل العَرَبية سنة ١٩٤٥ دَخَلَت فى النظام العالمى للأمم المتحدة - وكانت هى التى سَعَت للمشاركة فى تأسيسه بـ«إعلان سان فرانسيسكو» طامحة أن تُحَقِّق لنفسها مكاناً ووَزناً فى شئون عالَم ما بعد الحرب، قاصدة أن تكون مَوجودة عند وضع القانون الأساسى الذى يَحكُم مُجتمع الدُوَل فى عالَم السلام القادم، وهو ميثاق الأمم المتحدة.

وبالفعل فقد جاء نظام الأمم المتحدة شاملاً للسياسة (الجمعية العامة ومجلس الأمن) -

.. وأخواتها



والاقتصاد (صندوق النقد الدولي والبنك الدولي) - ومَمْتدًا إلى مَجالات أوسَع وأرحَب بعد ذلك من الثقافة والعلوم (منظمة اليونيسكو)، إلى الصحّة (منظمة الصحّة العالمية)، إلى الطيران - إلى الرّصد الجَوى لسماء عالمية واحدة - وحتى توزيع مَوجات الإذاعة والتلفزيون (فى بداية ثورة الاتصال).

وفى إطار ميثاق جامعة الدُوَل العَرَبية (على مستوى الإقليم) - وفى إطار ميثاق الأمم المتحدة (على مستوى العالم) - كانت الأمّة مُتّسقة مع نفسها، مُتّسقة مع عالمها، مُعبّرة عن «هُويّة» يَقوم عليها «وَلاء»، ومُعبّرة عن «مَصالح» تَترتَّب عليها «التزامات» - ذلك أنه لا أحد فى هذا العالم يَنتمى خارج هُويّته، أو يَنتظم خارج مَصلحته.

□

وفى مرحلة الفَوران التى اعترت العالم أحلاماً وأفكاراً وطموحات بعد انتهاء الحرب العالمية - شارَكَت الدُوَل العَرَبية أو بعضها - فى تَجَمُّعات استدعتها أسباب التّكيُّف والملاءمة، وخصوصاً حين بدا أن النظام الدولى الذى عَبَّر عنه قيام الأمم المتحدة يَنزع إلى نوع من الاستقطاب الحاد بين إمبراطوريتين: الولايات المتحدة الأمريكية - والاتحاد السوفيتى.

ووَقَع فى ذلك المناخ أن دُوَل آسيا وأفريقيا - وضمنها بعض الدُوَل العَرَبية - تَنادَت إلى طلب التّحرُّر (وكان ذلك مَقصد تَجَمُّع «باندونج») - ثم تَنادَت إلى طلب قَرار مُستقل تَبتَعد به عن الانحياز المسبق لهذه القوة الأعظم أو تلك (وكان ذلك مَطلب حَرَكة عَدَم الانحياز).

وفى ذلك المناخ أيضاً نشأ ما سُمّىَ بالمؤتمر الإسلامى، وكانت مصر هى البادئة بالدّعوة إليه بهَدَف ثقافى هو مُساعدة الموروث الإسلامى ليكون فاعلاً حضارياً فى عُصور انتقلت فيها مراكز التّنوير إلى ما وراء البحار والمحيطات!

وبالتّوازى مع المؤتمر الإسلامى - وَقَعَ لقاء دُوَل أفريقيا - وضمنها بعض الدُوَل العَرَبية - ورجاؤه المساعدة على إنقاذ القارة السوداء من مَطامع تَتَربَّص بها، تَقصد حرمانها من سيادتها أو حرمانها من مَواردها!

وفى كل الأحوال فإن هذه التّجَمُّعات (فى آسيا وأفريقيا - وأمريكا اللاتينية فيما بعد) كانت أشبه ما تكون بالنوادى يتلاقى أعضاؤها، مع ملاحظة أن الناس لا يَشتركون فى النوادى تَطفُّلاً، وإنما لأنهم يَجدون فى إطارها مُتّسعاً لحاجات يَستشعرونها، وهُم يَحملون بطاقات عُضويتها بالتحديد، دون أن يكون وراء ذلك - فى الواقع العَمَلى - ما هو أكثر من الاقتراب والانتساب.

ثم كان بجانب هذه التّجَمُّعات - النوادى - أن المصالح استدعت أشكالاً من التّقارُب أوجَدَت ما يُشبه الاتحادات. وعلى سبيل المثال فقد كان طبيعياً أن تَتَقارَب الدُوَل المصدِّرة للبترول مثلاً («أوبيك»)، أو أن تَتَقارَب دُوَل حوض النيل، أو الفرات، أو الأردن - لدَواعٍ مَحصورة فى حقل مُعَيَّن، أو بين ضفّتين ظاهرتين!

وكان هذا كله فى إطاره السّليم: مَفهوماً، مَعقولاً - ومَقبولاً.

□

لكنه فى مَطلع السبعينات راحَ التنظيم العَرَبى الجامع - المعَبِّر عن الانتماء وعن المصلحة - يَتراخى وتَنفلت منه أجزاء تَتطايَر وتَشرُد.

- كانت البداية تَفاهُماً بين الملك «فيصل» (السعودية)، والملك «الحسن» (المغرب)، والشاه «محمد رضا بَهلوى» (إيران) - على أن يَتَحوَّل المؤتمر الإسلامى (الثقافى فى أصله المصرى) إلى منظمة سياسية جامعة للدُوَل الإسلامية لها ميثاقها وإطارها والتزامها، ولم يكن القصد خالصاً لأن أقطار العالم الإسلامى على اتساع القارات لا يَربطها على سبيل المثال أمن مُشتَرَك (لأنه يَصعُب ظهور تَهديد، ويَستحيل قيام ضرورات أمن مُشتَرَك - يَستدعى فعل دفاع مُشتَرَك بين الملايو والمغرب، أو بين إندونيسيا وسوريا مثلاً) - وبنفس المقياس - وعلى سبيل المثال فإنه من الصَعب تحديد ضرورات مَصلَحة مُشتَرَكة (بين موريتانيا وأفغانستان، أو تركيا والسودان مثلاً)، وأسباب ذلك منطقية لأن «الإسلام» نورٌ عابرٌ للقارات مُتَجاوز للأوطان - والأمن ليس كذلك، والاقتصاد ليس كذلك، لأن كليهما له مَوقع وله حدود.

ثم كان أن أصبح «المؤتمر الإسلامى» السياسى بَديلاً مُوازياً أو مُكَرَّراً لجامعة الدُوَل العَرَبية. وفى الواقع فإن «المؤتمر الإسلامى» قُصِد به أن يكون بَديلاً لجامعة الدُوَل العَرَبية التى أخذتها الفكرة القومية إلى عَداء مُسَلَّح مع إسرائيل - وفى الحقيقة فإن هذا المؤتمر الإسلامى الجديد كان بذاته وصفاته مشروع «الحلف الإسلامى» الذى طَرَحَته الولايات المتحدة استنساخاً لـ«حلف بغداد» بعد سقوطه سنة ١٩٥٨!

والمهم أنه بإنشاء «المؤتمر الإسلامى» الجديد جرى اقتطاع جزء من التنظيم العَرَبى - المعَبِّر عن النظام العَرَبى - لصالح تنظيم آخر اسمه «المؤتمر الإسلامى».

فى إطار ميثاق جامعة الدول العربية (على مستوى الإقليم). وفى إطار ميثاق الأمم المتحدة (على مستوى العالم). كانت الأمة متسقة مع نفسها، متسقة مع عالمها، معبرة عن «هوية» يقوم عليها «ولاء». ومعبرة عن «مصالح» تترتب عليها «التزامات». ذلك أنه لا أحد فى هذا العالم ينتمى خارج هويته

ولم يَعترض أحد، ولم يكن فى وسع أحد أن يَعترض، لأن تنظيم المؤتمر الإسلامى وَقَع بعد ظروف حَرب سنة ١٩٦٧ - وكانت الحَرَكة القومية العَرَبية مُقيَّدة فى فعلها - مَحصورة فى رَدّ فعلها - مُطالبة بالتركيز على الأساسى، وتأجيل الفرعى، والتَحرُّك إلى أمام بغير انشغال بمَعارك جانبية.



- ومع بداية الثمانينات وَقَعَ اقتطاع آخر من الجامعة العَرَبية، فقد ظَهَر إلى جوارها وبالإضافة إلى «المؤتمر الإسلامى» تَجَمُّعٌ ثالث جديد هو «مجلس التعاون الخليجى». وإذا كان «المؤتمر الإسلامى» قد اقتطع جُزءاً من وحدة التنظيم العَرَبى، فإن مجلس التعاون الخليجى - أحدَثَ تَقسيماً فى المصلحة العَرَبية، وفى الإرادة العَرَبية أيضاً. وأبسَط النتائج أن بعضاً من أهَمِّ عَناصر قوة الفعل العَرَبى خَرَجَت من صراع المستقبل باحثة لنفسها عن رُكن من شبه الجزيرة العَرَبية تَظنُّه مأموناً وبعيداً عن الصراعات - وكان ذلك إنكاراً للحقائق وللضرورات، لأن دُوَل الساحل العَرَبى تُصبح بلا عُمق إذا انعزلت عن الداخل العَرَبى - فالتاريخ ليس قشرة على سطح الجغرافيا، وإنما هو علاقة أطراف حَيّة بجسم حَى!

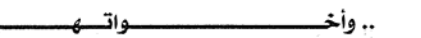


ثم حَدَث قريباً أن العقيد «معمر القذافى» أعلن نظرية «الفضاءات» الحضارية، وظَهَر له أن العالم العَرَبى ليس له «فضاء» حضارى! - وإنما فيه عُنصرية عَرَبية تَحسب نفسها دُوَلاً - ! - وهى جميعاً بلا أمَل فى المستقبل إلا إذا عَثرت لنفسها على «فضاء»، و«فضاؤها» هو أفريقيا التى أعاد العقيد «القذافى» اكتشافها، وأعلن تَوحيدها، وقَرَّر تنظيم دُوَلها فى اتحاد شامل تَتَرامى حدوده من «جوهانسبرج» جنوباً حتى «طنجة» شمالاً، ومن «داكار» غرباً حتى «دار السلام» شرقاً، ثم انتهز فُرصة القِمَّة العَرَبية الأخيرة فى عَمّان ودعا زملاءه من رؤساء الدُوَل العَرَبية أن يَفيقوا من عُنصريّتهم، ويعودوا إلى رُشدهم، ويَلتحقوا بالفضاء الأفريقى قبل أن يَسقطوا من حساب القرن الواحد والعشرين، ويَتركهم التّقدُّم وراءه بقايا من قرون سابقة!

وكان ذلك مرة ثالثة - ورابعة - وخامسة - اقتطاعاً لجُزء من قوة الفعل والإرادة العَرَبية يُضاف إلى كل ما سَبَق - يَطرَح ولا يَجمَع، ويَقسم ولا يَضرب!



- وخلال ذلك - وعلى طول سنين - طرأت على الساحة العَرَبية مشروعات عَرَضَت نفسها





دون قبول، وهى مَنسيَّة هذه اللحظة أو ضائعة.

■ بينها مشروع - مُعَلَّق - بعنوان الاتحاد المغاربى [لدُوَل شمال أفريقيا من تونس إلى المغرب، وهو حتى إشعار آخر حِبرٌ على وَرَق، ولعله يَظَل كذلك].

■ ومشروع ضاع - وكان يُطلق عليه اسم مجلس التعاون العربى [وقد ضَمَّ مصر والعراق والأردن واليمن - وكان مَشروعاً مَشئوماً من يومه، وربما أن الأثر الإيجابى المفيد لحَرب الخليج الثانية أنها أطاحَت به !]

■ ثم أطَلَّ على الساحة مشروعٌ آخر مُعَلَّقٌ بين النسيان والضياع، هو «مشروع الشرق الأوسط»، وصاحبه «شيمون بيريز». والفكرة المركزية فيه أن العَرَب ليست لهم هَويَّة أو مُستقبل غير المنطقة التى يعيشون فيها، وهذه المنطقة ليست لهم وَحدهم، وإنما لشركاء غيرهم فيهم إسرائيل وتركيا وكذلك إيران (عندما تَتِم تَصفية الثورة الإسلامية فيها بالطبع).

وكانت تلك كلها مُحاوَلات لم تَنجَح فى تَجاوز النظام العَرَبى الشامل، أو خَلق تَوازنات مُختَلفة فيه بعد أن وَقَعَ انقسامه. ومن حُسن الحَظ أنها جميعاً نُسِيَت أو تَعَطَّلَت.

وأخيراً، وفجاة، ومن المجهول، وبالانسياق - فى الغالب - أو بالانزلاق، ظَهَرَ على ساحة المنطقة مَشروع طارئ باسم «الفرانكوفونية» - وهو مَشروع مُنظمة غريبة لا تُعَبِّر بالنسبة للأمَّة عن هَويَّة، ولا أمن، ولا مصلحة، ولا أمَل. ومع ذلك فهناك الآن دَعوة إلى قِمَّة لها - تَجتَمِع فى عاصمة من أجمل عَواصم الأمَّة العَرَبية، وأكثرها صلابة، وأغناها إسهاماً فى الثقافة العَرَبية.

وهنا يَبرُز سؤال : ما هى «الفرانكوفونية» بالضبط - تلك التى التحقنا بها ونحن لا نَعرف متى ؟ - وتلك التى نشارك فى اجتماعاتها ولا نعرف لماذا؟! ■

" ٢ "

الإمــــبــــراطوريات تعـوض عن القـوة الضــــائعــــة

■■ ليس سرًا خافياً على أحد أن مُنظمة «الفرانكوفونيَة» هى مُنظمة أقامتها «فرنسا» (ومَعناها الحَرفى استنادا إلى قاموس «أوكسفورد» - «الصوت الفرنسى»)، ثم إنه ليس خافياً أيضاً أن هذه المنظمة فى السياسة الفرنسية وفى تركيبة الدولة الفرنسية اختصاص مُوَزَّع بين رئاسة الجمهورية، ووزارة الخارجية، وبقايا وزارة المستَعمرات، ثم - وهذا هو الأخطر - إدارة المخابرات الخارجية للدولة الفرنسية! (S.D.E.C.E.)

ومُؤدَّى ذلك ببساطة أن هذه المنظمة مشروع فرنسى، قامَت على إنشائه الدَولة الفرنسية بسُلطتها، وتُوَجِّهه الدَولة الفرنسية بأدَواتها، وتُديره الدَولة الفرنسية بأجهزتها لبلوغ هَدَف ومَصلحة، وهذه طبيعة أشياء وحقائق أمور، لأن الدُوَل الكبرى - وفرنسا بينها - تَصرف وقتها فيما يَنفعها ولا تُضَيِّعه فراغاً أو هوايات !

وبالطبع فإنه من حَقِّ كل قُوَّة كبرى - بما فيها فرنسا - أن يكون لها مشروعها إذا تَمَكَّنَت إرادَتها، وإذا استطاعت مَواردها.

وفرنسا بالتحديد قُوَّة كبرى لها وَزنها ولها دَورها :

● أوَّله فرنسا فى قلب أوروبا قُوَّة مُتَحَرِّكة واصلة إلى أبعَد من غيرها لأنها صاحبة إسهام حضارى وثقافى، فكرى وفنى، لا يُضاهيه إسهام أوروبى آخر. وهى لذلك قيمة عالمية مُعتَرَف بها قبل أن تكون قُوَّة يُحسَب حسابها.

● وثانيه أن فرنسا بحكم التَقابُل عبر شمال البحر الأبيض وجنوبه لها مع العالَم العَرَبى علاقات مُتَشابكة وأحياناً مُشتَبكة - والبحر الأبيض بُؤرة الصراعات العالمية، وفرنسا على شاطئه الشمالى مُواجهة لضفته الأخرى وعليها الشرق الأوسط ووراءها أفريقيا.

وفى إطار هذا التشابُك والاشتباك كانت فرنسا طَرَفاً فاعلاً فى الحروب الصليبية، وكانت طَرَفاً فى سباق إمبراطورى دَعا واحداً من أكبر قُوادها وهو «نابليون بونابرت» إلى غَزو مصر. وبعد تَراجُع الغَزو تارجَحَت فرنسا بين تأييد مشروع «محمد على» فى بدايته، وبين المشاركة مع القوى الأوروبية بعد ذلك فى ضربه وتَدمير أسطوله، وفرض مُعاهَدة سنة ١٨٤٠ عليه. وكانت فرنسا بعد ذلك إلهاماً للخديو «إسماعيل»، لكنها انضمت إلى بريطانيا فى وصاية على المالية المصرية، حتى وَقَعَ اقتسام النفوذ بين الاثنتين بالوفاق الودِّى فى «فاشودة» فانفردت بريطانيا بمصر، وانفردت فرنسا بالمغرب. وتاكيداً لـ«فاشودة» اقتسمت فرنسا مع بريطانيا الإرث العَرَبى لدَولة الخلافة باتفاقية «سايكس بيكو» (بما فيها تَنفيذ وَعد بَلفور بوَطَن قومى لليهود فى فلسطين)، ثم كان ما كان من سياسات فرنسا على طول المسافة من الجزائر حتى السويس (١٩٥٦).

كل ذلك فى إطار التشابُك والاشتباك، وكله الآن تاريخ، والتاريخ ليس خزانة مَحفوظات وإنما هو تَجربة حَيَّة عاشَت بالأمس يَوماً وتعيش الآن غيره - مُدركة أن الحياة مُستَمِرَّة، وحَرَكَتها صراعٌ بالاتفاق والاختلاف، لأن الدُوَل لها مصالح ثابتة وسياسات مُتَغَيِّرة مع الظروف.

● وثالثه أن فرنسا جُزء كبير من قُوَّة أوروبا. وأوروبا هى المركز المؤسِّس لحَيَوية وتَدَفُّق مَدَنيَّة هذا العصر، وإذا كان التَواصُل بين شمال البحر الأبيض وجنوبه مَطلوباً، وهو أكثر من مطلوب، فإن فرنسا كانت وتَبقى علاقة عَرَبية مَرغوباً فيها، خصوصاً عندما تَكون العلاقة صحِّية بالوضوح وبالشفافية.

● ورابعه أن انفراد الولايات المتحدة بالقوة بعد سقوط الإمبراطوريتين الكبيرتين فى الشرق (الأوسط والأقصى) - يَدعو العَرَب وغيرهم أن يبحثوا عن حُلفاء وعن أصدقاء خصوصاً فى أوروبا. وفرنسا لأسباب عديدة صديق مُحتَمَل، وصَداقته نافعة، على أن يكون معنى الصداقة مَفهوماً للأطراف - مُحافَظاً عليه ومُحتَرَماً.

....

....

[وأتذكر عندما قَصَدتُ فى شهر سبتمبر ١٩٦٧ إلى باريس لموعد مع الرئيس الفرنسى الأشهر الجنرال «شارل ديجول» - أننى مَرَرتُ على «جمال عبد الناصر» فى طريقى إلى المطار أسمع آخر ما لديه قبل السفر. فلم تكن باريس يومها سياحة أو صحافة، وإنما كانت رسالة سياسية من مصر إلى فرنسا. وأذكر ما قاله لى يومها وبنَصِّه تقريباً :

«نحن فى حاجة إلى دولة أوروبية كبرى لكى نجد لأنفسنا جسراً إلى الغرب، وإلا فقد نَجِد أنفسنا (وَسَط هذه المعركة) - مع الاتحاد السوفيتى وَحده. إن الاتحاد السوفيتى مفيدٌ لنا عسكرياً واقتصاديا - لكن وجودنا معه وَحده فى هذه الظروف ضارٌ بصورَتنا أمام العالَم الآن، وضارٌ بحقيقة موقفنا فى المستقبل، ولهذا نحتاج إلى جسر مع أوروبا.

وفرنسا هى الجسر المعقول - لأن بريطانيا حَليفٌ مُخلص للولايات المتحدة - وألمانيا ما زالت بَعد غير قادرة.

وإذن فرنسا هى المرشح الأصلح. و«ديجول» الذى يُلهم فرنسا بنوع من استقلالية القرار تَستَعيد بها مجدها القديم - هو بالنسبة لنا رَجُل فى مكانه وفى وقته.

وحتى إذا لم تكن فرنسا بالفعل مُستعدَّة، وحتى إذا لم يكن «ديجول» مُتَفَهِّماً بقَدر كاف لمواقفنا - فإن فرنسا هذه اللحظة ضرورية».

أضاف «جمال عبد الناصر» بنبرة لها معنى :

«أريدك أن تعرف أنه إذا كانت فرنسا غير مُستعدَّة - فعلينا أن «نَختَرعها»..

وإذا لم يكن «ديجول» مُتَفَهِّماً لمواقفنا فعلينا أن نَتَصَرَّف على أساس أنه مُتَفَهِّم، وذلك بالممارسة سوف يُحدث أثره ويَصنَع حقائقه».

وفى قصر «الإليزيه» - فى اليوم التالى - كان من حُسن الحظ أننى وَجَدتُ فرنسا - لأسبابها - مُستعدَّة، و«ديجول» - بتجربته - متفهما.

وهكذا فإن «جمال عبد الناصر» دَعا فرنسا إلى دور فى أزمة الشرق الأوسط - وتَقَدَّمَت فرنسا للدور (تَعتَبره مُقَدِّمة وراءها ما وراءها، وكذلك تَفعَل القوى الكبرى إذا قبلت دَعوة ووَجَدَت فرصة).]

....

....

ثم حَدَث أن فرنسا ومع الدَور الذى ارتآه «ديجول» حاوَلَت وما زالت تُحاول أن تَتَّخذ لنفسها خطاً مُختلفاً، تَتَحَرَّك عليه باستقلالية - ولو نسبية - وضمن أغراضها أن تَتَوَقَّى هَيمَنَة أسلوب الحياة الأمريكى وطغيانه على الدُنيا - وذلك الخَط الفرنسى المختَلف مَجهودٌ يَستَحق التكريم، ويَستَوجب الاحتَرام، ويَستَحق المساندة.

على أن ذلك كله جزء من الحقيقة.

وبقيَّة الحقيقة ولا يَصح نسيانها - أن فرنسا قوة عُظمى، وكانت ذات يوم وإلى عَهد قريب إمبراطورية كبرى، ثم ضاعَ منها ما كان من أملاكها - لكن القوى الكبرى إذا فَقَدَت مجالها الإمبراطورى لا تُهَرول بالانسحاب، وإنما تُحاول التَعويض، وذلك مَنطِق القُوَّة - وشخصيتها كذلك.

والشاهد أن بريطانيا حين فَقَدَت الإمبراطورية جَرَّبَت التَعويض عنها - فى ظروف مُتَغَيِّرة - بالكومنولث - وكان الرابط فيه هو الجنيه الإسترلينى «يُلَملم» عَشرات من الدُوَل كانت يوماً حَبَّات عُقد واحد. وتَوَصَّلَت حكمة الإمبراطورية إلى «أنه مع انفراط العُقد فلَيس ضرورياً أن تَتَبَعثر الحَبَّات وتَتَدَحرَج».

وكان المثال البريطاني مُؤثراً على خيال الجنرال «ديجول» بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وقد حَرَّكَه الخيال وحكمة التجربة القديمة إلى فكرة التعويض عن الإمبراطورية. وتَوَلَّدَ لدى «ديجول» اعتقاد بأن فرنسا تحتاج إلى «مَثيل فرنسي» للكومنولث البريطاني. وبما أن الفرنك الفرنسي لم يكن وقتها في قوة الجنيه الإسترليني - فإن اللغة الفرنسية طَرَحَت نفسها بديلاً للإسترليني تُضيف إلى القوة الفرنسية وتدعمها بـ«عَظَمة الثقافة» التي تحتويها هذه اللغة. وكان حُلم «ديجول» أن تكون «اللغة والثقافة الفرنسية» قادرة على خدمة «عَظَمة الدولة الفرنسية» (وربما أن ذلك كان تأثير صَديقه ووَزيره «أندريه مالرو») !

هكذا وعند أواخر عَهد «ديجول» - قبل أن تَهل السبعينات - بَدَأت قصَّة ما سُمِّي مُنَظَّمة «الفرانكوفون» - «فرَنسا - الصوت الفرنسي - اللغة الفرنسية».

أي أنه مَشروع فرنسي. هَدَفه أن يُعَوِّض القُوَّة الإمبراطورية الفرنسية. وقاعدته وسلاحه اللغة الفرنسية - حاملة الثقَافة الفرَنسية. ومن اللغة والثقافة إلى ما بعدهما حَسَب ما تَسمَح به الظروف وتَحتَمله الإرادة.

كذلك كانت نشأة المنَظَّمة. وَذلك هَدَفها. وبالتالي تَحَدَّدَ مَوضعها عند نقطة مُعَيَّنة، في مَوقع مُعَيَّن من تركيبة الدولة الفرنسية بين الرئاسة - ووزارة الخارجية - ووزارة الدفاع - وبقايا وزارة المستعمرات - ثم إدارة المخابرات الخارجية الفرنسية (D.E.C.E.).

□

وحين أعلِن ميلاد المنَظَّمة («الفرانكوفونية») رَسمياً سنة ١٩٧٠ - كان «ديجول» قد اعتزل وتَرَك قصر «الإليزيه» لـ«جورج بومبيدو» (صديقه ومُعاونه ونائبه في رئاسة حزبه) - وقد حَدَثَ الميلاد أثناء انعقاد مُؤتمرَ تَمهيدي للدُوَل الأفريقية الناطقة باللغة الفرنسية - وكلها بالطبع من المستعمرات الفرنسية السابقة. وكانت شهادة الميلاد اقتراحا من رؤساء ثلاث دُوَل شاركت في اجتماع عُقِدَ في «نيامي» عاصمة «النيجر»، يَحمل توقيعَ الثلاثة وهُم «ليوبولد سينجور» رئيس السنغال، و«الحبيب بورقيبة» رئيس تونس، و«هاماني ديوري» رئيس النيجر (وهي البلد المضيف للاجتماع).

ثم انتقلت مسئولية المنظمة الوليدة إلى الحكومة الفرنسية بوزاراتها وإداراتها وأجهزتها (بما فيها المخابرات)، وقامت الخارجية الفرنسية على وضع ميثاق لها يقول بغير التباس أن «الهَدَف من المنَظَّمة الجديدة هو تَجميع الدُوَل المتَكَلِّمة باللغة الفرنسية (المستعمرات الفرنسية السابقة) حتى تَعمَل معاً في مجالات تطوير الثقافة، والتعليم، والعلوم والتكنولوجيا». ثم أضيف إلى ذلك هَدَفٌ جرى التعبير عنه بأسلوب شاعري وهو أن تكون المنَظَّمة «حارساً للغة الفرنسية» (حتى لا تقوم اللغة الإنجليزية بقهرها وتَهميشها).

لكن المنظمة الجديدة تَخَلَّفت عن النمو لأسباب :

١ - أوَّلها أن عَدَداً من المستعمرات الفرنسية السابقة خصوصاً في العالَم العَرَبي - بالذات سوريا في المشرق العَرَبي، والجزائر في المغرب العَرَبي - تَخَوَّفت من المشروع واعتبرته مُحاولة «لإعادة الروح» إلى الإمبراطورية الفرنسية التي سَقَطَت على المسافة ما بين الجزائر والسويس. وكان رأي سوريا والجزائر في ذلك الوقت أن «الثقافة شَلال قوي مُتَدَفِّق بحَيَويَّة إنسانية تَتَحَرَّك به من لغة إلى أخرى، كما أن المحتوى الثقافي للغة الفرنسية عالَم تأثر بغيره وأثر فيه، وحتي إذا كانت اللغة وعاء الثقافة فإن كل لغة تُراث عالمي شائع لا يَحتاج إلى وصاية دَولة».

٢ - أن الطابع الفرنسي لإقليم «كويبيك» - في كَندا - أثارَ مشكلة عويصة أمام المنَظَّمة الجديدة، لأن كَندا كلها عُضوٌ مُهمٌ وبارزٌ في منَظَّمة الكومنولث البريطاني، ولا يَعقل أن يكون البَلَد كله في الكومنولث ثم يَلتَحق إقليم منه مُستَقل بدَعوى طابعه الفرنسي ويَنتَمي إلى مُنَظَّمة مُنافسة هي «الفرانكوفونية».

ومن الغريب أن هذه المشكلة ما زالت قائمة حتى الآن، وإلى دَرَجة أنه عندما ذهَب السكرتير العام لمنَظَّمة الفرانكوفون (الدكتور «بطرس غالي») لزيارة إلى كَندا، وَقعَت مَشادة بين ولاية «كويبيك» (فرنسية الطابع) وبين الحكومة الكَندية (عُضو الكومنولث) - أيهما يكون المضيف الرسمي للسكرتير العام الزائر (دَولة الكومنولث - أو إقليم الثقافة الفرنسية) ؟!

٣ - إن كثيرين تَرَدَّدوا في الاعتراف بالمنَظَّمة الجديدة على أساس «مَحدوديَّة اللغة الفرنسية»، وتَقدير هؤلاء - وهو صحيح - أن اللغة الفرنسية رغم ثرائها تَقَع في المرتَبَة التاسعة بمقياس الانتشار، لأنه في اتساع التداوُل العالَمي قبلها، ثماني لغات غيرها هي: الصينية، والإنجليزية، والهندية، والأسبانية، والروسية، والعَرَبية، والبنغالية، والبرتغالية.

٤ - وأخيراً كان هناك سَبَبٌ رابع - أهَمَّ الأسباب - ومُلَخَّصه أن الحكومة الفرنسية لم تكن لديها الموارد التي تمكنها من الصرف على المنَظَّمة وفتح الطريق أمامها حتى تُنافس الكومنولث البريطاني على الأقل، وفي تلك الأيام شاعَ في المجتَمَع الدَولي وَصفٌ لمنَظَّمة «الفرانكوفونية» يَعتَبرها : «مُنَظَّمة ذات «شُهرة» متواضعة و«سُمعة» أكثر تواضعاً !»



ولعل السَبَب الذي استدعى ذلك الوصف القاسي أن مُنَظَّمة «الفرانكوفون» زادَ اقترابها من إدارة المخابرات الخارجية - والسَبَب العَمَلي أن الاتحاد السوفيتي في أواخر الحَرب الباردة اتخذ من أفريقيا ساحة لهجومه الأخير، وبتركيز على المستعمرات الفرنسية السابقة التي تأثر زعماؤها بالماركسية وانتمى عَدَدٌ منهم فعلاً إلى الحزب الشيوعي الفرنسي عندما كانوا طَلَبَة علم في باريس (وبينهم رجال من أمثال «سيكوتوري» زعيم غينيا، و«موديبو كيتا» زعيم مالي. وكلاهما لم يكن عُضواً نشطاً في الحزب الشيوعي الفرنسي وحسب، وإنما استطاع أن يُصبح زعيماً نقابياً له سَطوته).■



رَجُل باريس القوي في السبعينات

■■ في سبتمبر ١٩٧١ كنت في فرنسا لزيارة عَمَل. فقد كانت الطبعة الفرنسية من كتابي عن «جمال عبد الناصر وعلاقاته الدولية» على وشك أن تَظهَر تحت عنوان «وثائق القاهرة» عن دار «فلاماريون» للنشر. لكن الزيارة أحاط بها مَناخ أضفي عليها ما زادَ عن حقيقتها.

وكان السَبَب أنه شاعَ في الولايات المتحدة وفي أوروبا أنني - في ذلك الوقت - الصديق الأقرب إلى الرئيس المصري الجديد «أنور السادات» - وأنني كنت أحد الجسور التي انتقلت عليها الرئاسة إليه من سَلَفِه («جمال عبد الناصر») - (وكان ذلك ما دعَا جريدة مثل «النيويورك تيمس» أن تَنشر مقالاً بعَرض سَبعة أعمدة عنوانه «الرَجُل الأهَم الثاني في مصر» - وكنت المقصود به. ورغم أنني حاوَلتُ أن أصَحِّح، فإن كثيرين تَصَوَّروا أن التصحيح «تَواضُعٌ» !)

والشاهِد أنني أذكر ذلك لأن وقائع ما سوف أسرده فيمَا بَعد تَرَتَّبَت على هذا الانطباع رغم كل ما حاولت - وعليه فقد لاحَظتُ أثناء تلك الزيارة لفرنسا اهتماما غير عادي تَبَدَّى في الترتيبات وفي المراسم، وبين ما لاحظته أنني طلبت مَواعيد مع عَدَدٍ من الناس، لكن ما تَحَدَّدَ لي تَجاوَز ما طلبتُه، وهكذا وَجَدتُ لي مواعيد تَحَدَّدَت مع رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، ووزير الخارجية، وحتى وزير الاقتصاد وهو في ذلك الوقت «جيسكار ديستان» الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية.

ومع أني شديد الاعتزاز بمِهنتي، فلم يكن في مَقدوري أن أتَجاهَل حقيقة أن بعض ما ألقاه «رَسمي» أكثر منه «صَحَفي».

□

وحَدَث يوم ١٢ سبتمبر (١٩٧١) أن زارني لفنجان شاي حيث كنت أقيم في فندق «الكريون» (على ميدان «الكونكورد» وفي مواجهة المسَلَّة المصرية الشهيرة في وَسَطه) - عَدَدٌ من المهتمين بالفكر والنشر - أربعة أو خمسة (فقد سَجَلتُ المناسبة في أوراقي ولم أسَجِّل العَدَد) - وكانت بينهم صديقة عَزيزة هي الكونتيسة «تيريز دي سان فال»، وهي سيدة من أسرة عريقة جَذَبَتها عوالِم الثقافة فاقتربت واهتمت.

وانتهى اللقاء، وبينما كنا نخرج (من الصالون الوحيد الذي بقي على حاله من عَهد صاحب القصر - الذي تَحَوَّل إلى فندق - وهو «الدوق الماريشال دي كريون» صديق «هنري الرابع» وصَفِيُّه) - أمسَكَت «تيريز دي سان فال» بيَدي وأخَذتني جانباً لتقول لي هَمساً : «ابن عَمِّي يريد أن يقابلك .. وقد طَلَبَ مني أن أرَتِّب له مَوعداً معك بعيداً عن الإطار الرسمي. وكان يستطيع أن يَطلب تَحديد مَوعد معك بواسطة وزارة الخارجية، لكنه فَضَّلَ أن تَصِل إليك رَغبَته بطريق غير رسمي».

ولاحَظَت الكونتيسة «دي سان فال» أنني أحتاج تَفصيلاً أكثر، فأضافت دون سؤال : «ابن عَمِّي مسئول كبير في الدولة وهو الكونت ألكسندر دي مارانش».

ووقتها كان هذا الاسم جديداً عليَّ وغريباً تماماً، لكنني لم أجد في جِدَّة الاسم وغُربته ما



يَدعوني إلى الاعتذار عن طَلَب اللقاء خصوصاً وقد جاءني من صديقة عزيزة عرفتها من قبل زمناً طويلاً.

وصباح اليوم التالي - الساعة العاشرة صباحاً - كنت انتظر زائري في القاعة الصغيرة الأخرى المواجهة لصالون «الدوق الماريشال دى كريون» - وكانت تلك القاعة الصغيرة ما تزال أيامها مكتبة أصيلة عتيقة، موحية - بكل محتوياتها وبينها الكتب صفوفاً على الرفوف - بنوع من الكبرياء والجلال (ومن سوء الحظ أنها تَحَوَّلت فيما بَعد إلى دُكّان لبيع التُحَف والتذكارات). ولاحَظتُ من حيث كنت جالساً - أنتَظر ضَيفي - حَرَكَة بَدَت لي غير عادية عند مَدخل الفندق، لكنني لم أتوقف مع ما لاحظتُ طويلاً، فالفندق هو: المَقر الرسمي الذى تختاره الحكومة الفرنسية لضيوفها، ومن الطبيعي أن يكون نُزلاؤه ممن يُستَقبلون بحَرَكة غير عادية عند مَدخله. ثم وَصَل الرَجُل الذى كنت انتظره، وقَدَّم لي نفسه: «ألكسندر دى مارانش، من مساعدى رئيس الدولة».

وبالمظهر والحَرَكة والإيماءة بدا لي الرَجُل أرستُقراطياً إنجليزياً أكثر منه أرستقراطيا فرنسيا. وكنت قَدَّرتُ للقائنا نصف ساعة، لكن زائرى كان عارفاً ومُطّلعاً ومُشَوِّقاً إلى دَرَجة أننا جَلَسنا معاً ساعة ونصف الساعة ولم أنتبه إلى مرور الوقت. وحين خَرَجتُ بعد انتهاء اللقاء أوَدِّعه إلى باب الفندق، لم يكن في مقدورى أن أتجاهَل حَجم «الضَجَّة» التى أثارها مَجيئه وانصرافه، فمدير الفندق نفسه كان واقفاً في الانتظار ومعه مُساعده (الأستاذ «عزيز جرجس» وهو مُحاسب مصرى كُفء هاجَرَ إلى فرنسا مُبَكِّراً)، كما أن هناك جماعة من الرجال كانوا مُتناثرين عند مَدخل الفندق وقد تَجَمَّعوا مع خروج «ألكسندر دى مارانش»، وأحاطوا بسيارته حتى انطلقت إلى زحام «الكونكورد».

والتفت إلى مدير الفندق وسألته عن داعي ذلك الاهتمام كله ؟ وسألني الرَجُل باستغراب : «ألا تعرف مَن كان زائرك ؟» - قلت : «أعرف اسمه، وعَرَفتُ منه أنه من مساعدى الرئيس».

وهَمهَم مدير الفندق على الطريقة الفرنسية: «آ... هـم» - ثم تَرَدَّدَ قبل أن يقول : «سيدى .. هذا أقوى رَجُل في فرنسا. ومع ضَعف الأحزاب السياسية، ومع تَرَدِّي الإدارة الحكومية كما هو الواقع الآن - فإن الكونت ألكسندر دى مارانش «أهَم رَجُل» في الدولة الفرنسية، هو مدير «المخابرات الخارجية» لفرنسا».

ثم أضاف بعد وَقفة قصيرة : «المخابرات الخارجية لفرنسا - والداخلية أيضاً .. إذ كيف يمكن - يا سيدى - أن تفصل الخارج عن الداخل؟»



وفي السفارة المصرية في باريس ذات اليوم سمعتُ تأكيداً لوَضع «ألكسندر دى مارانش» على هَرَم السُلطة في باريس عند الذروة أو قربها. ومَرَّ علىَّ في الفندق مسئول مصرى كنت أعرف أنه حلقة اتصال لها دورها في علاقات أجهزة المخابرات المصرية مع غيرها من أجهزة المخابرات في فرنسا وحولها، وكان بوسائله قد عَرَف بزيارة «دى مارانش» لي، وزادَ بما لديه في تعريفي بأهمية زائرى!

□

مساء نفس اليوم عادَت الكونتيسة «تيريز دى سان فال» تتصل بى تليفونياً لتقول إن «ابن عَمِّها» يريد دَعوتى في مكتبه لأن لديه ما يَوَدُّ إطلاعي عليه والحديث معى في شأنه، وقد طَلَبَ إليها أن «تجس النبض» لتتأكَّد من قبولى قبل أن يُجازف بالاتصال ليُوَجِّه الدعوة، وعَلَّقَت «تيريز» : «الحقيقة أنك قد ترى مناسباً أن تَرُدَّ له الزيارة».

ومساء اليوم التالي - ١٤ سبتمبر - كنت «أرُدُّ الزيارة» للكونت «ألكسندر دى مارانش» في مكتبه.

واترك وَصف إجراءات الزيارة - ووَصف مَقر إدارة المخابرات الخارجية الفرنسية S.D.E.C.E - ووَصف مكتب مديرها القوى - لأن ذلك مما يَطول شرحه، ويَخرج عن سياق الموضوع - لأرَكِّز أكثر على كلام «ألكسندر دى مارانش».

....

....

بعد دقائق من بدء اللقاء لَمَسَ الرَجُل زراً أمامه، وأضاءت ورائى خريطة بالألوان استدرت لأراها بناء على طلبه. وكانت الخريطة لمواقع إنتاج البترول في أفريقيا وآسيا على عَرض المسافة من أنجولا على المحيط الأطلنطى وحتى الملايو على بحر الصين. وكان أهم ما في الخريطة تلك الخطوط العريضة والأقل عَرضاً للطُرُق الرئيسية والفرعية لمواصلات البترول من منابعه إلى موانئ أوروبا، وخصوصاً «روتردام».

وقال لي «دى مارانش» وهو يُلفت نظرى إلى هذه الطُرُق لشَبَكَة نَقل البترول - أو حَرَكة الدَورة الدَمَوية لاقتصاد الغرب - كما سَمَّاها - ما مُلَخَّصه : «سوف أطبع لك نُسخة من هذه الخريطة، خُذها معك وادرسها على مهل، ودَقِّق في مفاتيح الخريطة وأرقامها، وستَشعُر بخطورة ما أريد أن أشرحه لك».

وقلت لـ«ألكسندر دى مارانش»: «ثم ماذا؟»

وكانت تلك دَعوة له يَشرَح ويَستفيض، ولم يَتَرَدَّد، فقد كان ذلك قصده ومَطلبه من دَعوتى إلى مكتبه، وكان مُلَخَّص ما قاله :

١ - أن العالَم العَرَبى - بتروله ومَوقعه - قَضيَّة كبرى بالنسبة للغرب : أمنه واقتصاده.

٢ - أن البترول في الواقع - وبسبب إغلاق قناة السويس منذ سنة ١٩٦٧ - يَدور حول أفريقيا على خطين : من الجزائر - إلى سيراليون - إلى نيجيريا - إلى أنجولا - ثم يَلف حول «رأس الرجاء الصالح»، وهناك يَلتَقى بالمحيط الهندى ذاهباً وعائداً - هذا خط. وخط ثان أهم وهو من الخليج العَرَبى وإليه طالعاً على البَرِّ من البَصرة إلى الموصل، ومن الموصل إلى القوقاز. ورأى «دى مارانش» في النهاية أن هذه الدائرة نزولاً في الأطلنطى إلى «رأس الرجاء الصالح»، وصعوداً من هناك إلى المحيط الهندى، ونفاذاً من البصرة إلى القوقاز - هى الدائرة التى يَتَعَلَّق بها مصير العالَم وتَجرى من حولها صراعاته، وأنه في داخلها ومن حولها تتَرامى كل المواقع الحسَّاسة والمكشوفة والمعَرَّضة للخطر.

٣ - وحماية البترول وتأمين مواصلاته يمكن في أحوال عادية أن تكون مسئولية أمريكية - أوروبية، لكن المشكلة أن أمريكا غارقة في المستنقعات الدَموية لفيتنام. ثم إن أوروبا ليست واعية بما فيه الكفاية. قُوَّة بريطانيا شاخَت. وقوة ألمانيا في طفولتها. وهذا يُعطى مسئولية أوروبا لفرنسا بالدَرَجة الأولى.

٤ - وفرنسا لا تستطيع أن تقوم بالمهمَّة وحدها، ولا تريد أن تقوم بالمهمَّة وحدها، وإنما تريد شراكة مع العالَم العَرَبى تَقودها مصر وهى أكبر الدُوَل العَرَبية. واعتقاده - وهو يريد أن يَسمَع تأكيداً له - أن مصر مُهَيَّأة للتعاون مع فرنسا أكثر من أى دَولة عَرَبية أخرى - كما أن فرنسا أكثر من جاهزة للتعاون مع مصر بحكم علاقات مُتَوَسِّطية زادت قرباً بصلات ثقافية بَدَأت من «نابليون» وقُدومه - ! - إلى الموقع الذى اعتبره وبحَق - بتأكيد «دى مارانش» من جديد - «أهم موقع على خريطة الدُنيا» !



وكنت أريد أن أسمع «ألكسندر دى مارانش»، وقد ألزمتُ نفسى بحزم أن لا أتَدَخَّل في مَجرى حديثه إلا بالقدر اللازم لاستمرار تَدَفُّقه. ولم يكن غافلاً عن قصدى، فقد أدرك بحاسته أننى أريد أن أسمع فقط، ولم يكن يمانع. ومرة أخرى كان ذلك ما يُريده وما يَطلبه من لقائنا. وكذلك كَرَّرتُ له نفس ما سمعه منى سابقاً: «ثم ماذا؟»

اللغة الفرنسية - رغم ثرائها - تقع في المرتبة التاسعة بمقياس الإنتشار، لأنه في اتساع التداول العالمي قبلها، ثماني لغات غيرها هي: الصينية، والإنجليزية، والهندية، والأسبانية، والروسية، والعربية، والبنغالية، والبرتغالية

واســتطرد «دى مــارانش» يســألنى بما مُلخَّصه:

«هل تظـن أن الرئيس الســادات على استـعداد لأن يَتَعاوَن مع فرنسـا ؟ نريده أن يَثِـق أننا معه بأكثر مما قد يَظُـن».

ثم واصَـلَ حديثه يَعـدُّ أسبابـه :

أوَّلاً ـ «نحن وأنتم مُتَّفقـون على أن الاتحاد السوفيتى موجود فى المنطقة ويُؤيِّـد العَـرَب ليس حُبّـا فيهم أو كراهيـة فى إسرائيل ـ وإنما هو هناك يُساعد لأنه يَطلُـب الموقع ـ وثرواته (مَنابع البتـرول) ـ وخطوط مـواصـلاته من حول أفريقيـا وحتـى المحيط الهندى. والمياه الدافئة كما تَذكُر كانت حُلـم «بطرس الأكبر» ـ وهى أحلام كل قيصَـر روسـى من يومها وحتى الآن.

ونحن لدينا معلومات كافيـة عن طلبات الرئيس «السادات» من أصدقـائه السوفييـت (قـالها وابتـسم) ـ نعـرف أنه يَطلُب وأنهم لا يُلبُّون طلباته، ونعرف أنه مُتَضايق».

ثانيـاً ـ «نحن سـاعـدناكم فى السـلاح بأكثر مما تَتَصَوَّرون. وإذا كنتم تتصورون أننا تَعـاقَـدنا على أكـثـر من مـائة طائـرة من طراز «ميراج» لليبيـا دون أن نعـرف أنها فى الحقيقة لكم (لمصـر) ـ فإنكم تَقَعون فى خطأ كبير. لقد كنا نعـرف، وعندمـا جاءتـنا بعثـة المشتـروات الليـبـيـة الأولى كنا مُـتـأكِّـدين أن رئيـسـهـا البريجادير «حسن مطاوع» ضابطٌ رفيع الرتبة فى سلاح الطيـران المصـرى، ومع أنه جاء إلى باريس هو ووفـده بجوازات سفر ليبيـة، فقد كنا على عِلـم ـ حتـى قبل أن يلفت الأمـريكان والإسرائيليون نظرنا ـ بأنها جوازات مصنوعة لهذه المهمَّـة ـ وقد استطعنا الحصـول على الجوازات الأصلية المصريـة. كنا على عِلـم ـ على يَقِـين. لم يَخـدَعنا أحـد وإنما عـرفنا الحقيقة من اللحظة الأولى، ومشينا فى اللعبة حتى نبيع لليبيـا ـ أو لكم ـ مُقاتلة قاذفة حديثـة طلبتـموها من مـوسكـو وبَخَلَت بها عليكم».

....

....

استـطرد الكونت «ألكسندر دى مـارانش» وكـأنه يَـرُدُّ على تَساؤلات طَرَحَت نفسها على خَواطرى، واستشعرها بحَواسه ـ فقـال :

«لا أريد أن أخدَعَك وأصَوِّر لك المسألة لتبدو مساعدة لكم فى الحرب ضِدَّ إسرائيل. ذلك أبعد ما يكون عن تفكيرنا.

لقد قبلنا بالصفقة مع ليبيـا ونحن نعرف أنها فى الحقيقة لكم ـ قبلنا لأربعة أسباب :

● أن الصفـقـة من الناحيـة الاقتـصـادية مُجزية ونحن نريدها.

● وأن الصفقة تَفتَح للصناعة الفرنسيـة فُرَصاً فى سوق المنطقة، ونحن نسعى إليه.

● أن دخـول السـلاح الفـرنسى إلى المنطقة يُعطينا على مائدة «التسوية» مقعَـداً.

● ثم إننا شبـه مُـتَـأكِّـدين أن المخـاطرة مَحسوبة لأن طائـراتنا لن تُشارك فى معـركـة، لأننا نعتقد أن الأزمـة لا تَحلها الحَـرب».

....

....

ومَـضَـت لحظة صَـمـت، وواصَـل «دى مارانش» عَـرض أسبابه :

«ثالثاً ـ إن فرنسا اتخذت موقفاً حيال إزاء أزمـة الشرق الأوسط يَختـلف عن موقف أمريكا وبريطانيا، وأنتم فتَحتُم صفحة جديدة معنا من أيام «نـاصـر»، وأنت بنفسك جـئت وقـابلت الجنرال «ديجـول»، ولم أجـد فى سـجـلات «الإليزيه مَحضَـراً تَفصيلياً للمقابلة، ولكنى وَجَدتُ مُلَخَّصاً لها واضحاً فيما يَعنيه ـ مُؤدَّاه: «إنكم تريدون فتـح صفحة جديدة مع فرنسـا».

رابعـاً ـ سواء تَوَصَّلتم إلى حَـلٍّ سلمى مع إسرائيل أو لم تَتَوَصَّلوا فإن هذه الأزمـة سوف تَجِـدُ حَـلاً لنفسها قريبا ـ سنـة ـ سنتان ـ لا أستطيع أن أقـدِّر تماماً ـ لكنه بعـد هذه الأزمـة يَتَعَيَّن على مصـر أن تمارس دورها إيجابياً فى المنطقة وفى العالَم. ظروف سنة ١٩٦٧ ألزَمَتكم سيـاسـيـاً بموقف دفـاعى ـ سَلبى ـ لكنه بعد انتـهاء هذه الأزمـة عليكم أن تَستـأنفوا دَوركم، ولكن دَعنى أقـول لك بصـراحـة أن دَوركم فى المستقبل لا بد أن يَختَلف عن دَوركم فى الماضى، والسـبب بسـيط وهو أن «الســادات» غـيـر «ناصـر»، ثم إن الزمَـن القـادم يَخـتلف عن الزمَـن الماضـى».

□

قلت للكونت «دى مـارانش» : «مـا زال سؤالـى المتَكَرِّر فى هذا اللقـاء قـائمـاً مُعَلَّقـاً فى الهواء : ثم ماذا؟»

وقال الرَجُل بأمانة احترمتها فيه :

«أفهمك جيداً .. أنت لا تريد أن تُلزِم نفسك بـرَدٍّ على مـا أقوله لـك .. ولا حتى برَدِّ فـعل لما تَسمعه منى. تريد أن تَحتَفظ لنفسك بموقفك. حسناً . (Bon) ذلك حقك !»

واستأنف حديثه طارحاً مُقتَرَحات على شكل أسئلـة :

ـــ «ما رأيك مثلاً فى فكرة «عَمَل مُشتَرَك» نقوم به معاً (فرنسا ومصـر) فى أفريقيا، قد نرى أن ندعـو معنـا بعض الأصدقـاء المهتـمين الذين يمكن إقناعـهم بالمشـارَكـة. مـا رأيك فى مُشارَكة المغرب ؟ فى مُشارَكة إيران ؟ كنا نَتَمَنى لو استطعنا أن نعرض على «سوريا» أن تُشارك، لكن «سوريا» فيما يَظهَر لنا «مَقفولـة».

الـروس يَنفُذون بسرعـة فى وَسَـط القـارة الرَخـو من غـانـا إلى الصومـال، ومن مصلحـتنا جميعاً إيقافهـم !

ـ ما رأيك مثلاً فى فكرة حـوار بين المسيحية والإسلام ؟ ـ الإسلام تَيَّار سياسى صـاعد فى المنطقة، وإذا لم نستطع تَرويض هذا التيَّار فقد يَتَحَوَّل إلى تهديد. المعـهد الفرنسى كـان لديه مشروع حوار بين الغرب والإسلام ـ الحوار بين الاثنين طويل ـ وعَميق، وفى بعض الأحيان «لم يَكن وِدِّياً». فى الظروف المستَجَدَّة نستطيع أن نُحَـوِّله من عَـداء نـاطق أو صـامت إلى حِـوار مُتَفَهِّـم وَدُود.

ـــ ما رأيـك مثلاً فى فكـرة اشتراك مصـر فى مُنَظَّمـة الفـرانكوفـون ؟ ـ فى وقت من الأوقـات كـانت اللـغـة الفرنسيـة لغـة الصَفـوَة عندكم، ونعـرف أنهـا لـم تَعُـد كـذلك الآن لأن اللغـة الإنجليزية طَغَـت عليها. لكن الثقافة الفرنسية فى مصـر لهـا جذور عـمـيـقـة، ومُنَظَّمـة الفرانكوفـون بالدرجة الأولى تَجَمُّـعٌ «ثقافىٌ» وهى لمصلحتكم. وأنتم تريدون مَدخلاً أوروبياً إلى الغـرب. وفرنسا قلب أوروبا، وهى المرشَّحَة أن تكون مَدخلكم إلى الغـرب. مهما فعلتم فإن هـوى أمـريكا سـوف يَظَـل دائمـاً مع إسرائيل. وإسرائيل صديق لفرنسـا، لكنهـا صديق يَلزَم حَـدَّه ولا يَتَـجاوَزه. ليس عندنا لوبـى يهودى يُؤثـر على سيـاسـة فرنسا. بالـعكس عندنا فى فرنسـا حسـاسيـة شديدة من اليـهود. لسنا مُعـادين للسامية طبعـاً، لكننا نَكـرَه نفوذاً نراه عابـراً للحدود، نافِذاً إلى بعيـد ـ إلى أبعَـد مما نَـرى ؟!»

ومَـضـى الكونت «دى مـارانش» إلى اقتراحات أخرى عَـرَضَ لها بسرعـة ـ ولم يكن فيها ما يَستَوقـف النَظَـر، أو يلفـت ويُثـير !

ونَظرتُ إلَى ساعـتى. وتَنَبَّـهتُ إلى أننى فى هذا المكتب منذ ساعتين وثلث الساعة. وقد كان ما سمعته شديد الأهَمِّية ـ لكن الوقت الآن أزَف، ولدَىَّ مَوعِد للعَشاء مع وزير الخـارجية «ميشيل جـوبيـر»، وقلت للكونت «دى مـارانش» مـا مُلَخَّصه :

«إنه أدرَك بذكائه وكَرَمه أننى أريد أن أسمـع دون تعليق، ليس لأنى لا أريد أن ألـزم نفـسى بشـىء، وإنما لأنى أعتبـر أن ما قاله لى رسالة إلى الرئيس «السـادات»، وسـوف أنقلهـا إليـه بأمـانة. لكنه فى هذا الشـأن سـوف يَسمَع رَدَّ الرئيس من غيرى لأنى ـ حتى إذا لـم يُصَدِّق هو ولم يُصَدِّق غيره ـ أريد أن أظَـلَّ باستمرار داخل حـدود رَسَمتها لدَورى، وتَعَهَّدتُ فيما بينى وبين نفسـى أن لا أتخطاها. وأحسب أنه يستطيع أن يَفهمنى فيما أقـول».

وكـان الرَجُل رقـيـقـاً حين رَدَّ علىَّ «بأنه لا يَتَفَهَّم مـا أقول فقط ولكنه يُصَدِّقه أيضاً، فقد سَمَعَ حتى قبل أن يَلقانى نصيحة من «كوف دى مـورفيل» ـ وكـان من قبل سفيـراً لبـلاده فى القاهـرة (وفيما بعد أصبح رئيساً للوزراء) ـ ما يُؤكِّد له هذا الموقف الذى ألزمـتُ نفسى به».

ثم أضـاف : «أنـه واثـق أننى أسـتطيع أن أنقـل للرئيس «السادات» صـورة كـاملة مُقنعـة لما سَمعتُه منه».

وقلـتُ بسرعـة : «صـورة كـاملة نَعَـم ـ ولكن مُقنعَة .. هذه مسألة أخرى؟!»

وكـانَ الرَجُل مُتَحَضِّراً حين قـال : «معـك حَـق .. هناك فـارقٌ بين الحالتين» !



أقوى رجل فى فرنسا يسأل:

ـ ما رأيك مثلا فى فكرة «عمل مشترك» نقوم به معا (فرنسا ومصر) فى أفريقيا؟

ـ ما رأيك مثلا فى فكرة حوار بين المسيحية والإسلام؟ ـ الإسلام تيار سياسى صاعد فى المنطقة، وإذا لم نستطع ترويض هذا التيار، فقد يتحول إلى تهديد.

ـ ما رأيك مثلا فى فكرة اشتراك مصر فى منظمة الفرانكفون؟





مُـغـامَـرات نادى «السـافـارى» فى أفـريقـيـا

■ ومَرّت سنوات - تَجُرُّ وراءها سنوات - وغابَت عن فكرى واهتماماتى مشروعات الكونت «ألكسندر دى مارانش» رئيس إدارة أمن الدولة ومكافحة التَجَسُّس «S.D.E.C.E.» - بخصوص أفريقيا - والإسلام - والفرانكوفونية - وماذا يستطيع العَرَب أن يَفعلوا؟ وكيف يكون دورهم إذا قرروا «المشارَكة» فعلاً فى سياسات «دى مارانش» مُحَقِّقة لصالح وأمن فرنسا و«أوروبا والعالم الحُر»، وفى نفس الوقت للعَرَب (كذلك فى شرحه).

ثم حَدَثَ فى طهران بداية سنة ١٩٨١ أننى وَجَدتُ أول مشروعات «ألكسندر دى مارانش» أمامى حَيَّة صاخبة بالحَرَكة - ورأيتُ الدليل عليها أمامى ناطقاً بالتفاصيل فى مجموعة الوثائق التى تَرَكها شاه إيران - «محمد رضا بهلوى» - وراءه عندما غادَرَ قصره الشاهنشاهى «نياڤاران» قاصداً إلى مَنفى - مصرى - كُتِبَ عليه أن يَموت فيه!

وكان ضمن هذه الوثائق التى اطلعت عليها بتصريح من «آية الله الخمينى» قائد الثورة الإسلامية فى إيران - نَص معاهدة من أغرب النصوص السياسية التى صادَفتُها فى عَمَلى. وكانت المعاهدة تحمل عِدَّة توقيعات أوَّلها وأبرزها توقيع «ألكسندر دى مارانش»!

ثم كانت هناك مع نَص هذه المعاهدة - وثائق وأوراق أخرى تَروى تفاصيل واحدة من أهَمِّ العمليات السرية فى عصر الحرب الباردة - وكان مما يُضيف إلى أهميتها أن هذه العملية سَجَّلها اتفاق مكتوب وَقَّعَ عليه الأطراف - خلافاً لكل المتعارف عليه فى التَجَمُّع وراء عملية سرية.

....

....

[وربما أن اتفاقية «سيفر» المشهورة فى تَواطُؤ العُدوان الثلاثى بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على السويس سنة ١٩٥٦ - كانت المثل الوحيد الذى سَبَق فى عصر الحرب الباردة. وعلى أية حال فإنه فى ذلك الوقت لم يكن نَص اتفاقية «سيفر» التى وَقَّعَ عليها رؤساء حكومات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل قد أذيع بنَصِّه وتأكَّد وجود الاتفاقية بيقين لا يُداخله شك، ومع ذلك فإن «سيفر» كانت اتفاقية وَقَّعها ساسة - لكن المذهل فى تلك الاتفاقية التى تركها شاه إيران وراءه فى مكتبه وخرج - لم تكن بتوقيع ساسة وإنما كانت بتوقيع مسئولى أجهزة مُخابرات مَثّلوا رؤساء دُوَلهم مباشرة وفُوِّضوا فى التوقيع، وهى - فيما أعلم - سابقة ليس لها مثيل فى العَمَل السِرِّى.]

□

كانت مُلابَسات المعاهدة كما تُظهر الأوراق التى تركها الشاه وراءه - كما يلى:

١ - أن الكونت «ألكسندر دى مارانش» زارَ طهران سرّاً فى وقت ما - بين يناير ومارس سنة ١٩٧٤ - وعَرَض على الشاه خطة عَمَل مُشتَرَك «ضدَّ النشاط الثورى الشيوعى فى أفريقيا»، وهو - حَسَب قوله - نشاط يُهَدِّد القارة كما يُهَدِّد الطُرُق الملاحية المحيطة بها، وهذه الطُرُق أصبحت لها أهمية حَيَوية بحقيقة أن إغلاق قناة السويس (نتيجة معارك ١٩٦٧) جَعَلَ الدَوَران حول أفريقيا هو الطريق الدائرى الوحيد لمرور ناقلات البترول من كافة المنابع (الشرق الأوسط، والخليج، والقوقاز، وجنوب شرق آسيا، وسَواحل أفريقيا الغربية (نيجيريا وانجولا).)

٢ - وكان «دى مارانش» يعرف اهتمام الشاه «محمد رضا بهلوى» بأفريقيا سواء لأسباب عاطفية إنسانية، أو لأسباب اقتصادية مالية. فمن الناحية العاطفية الإنسانية فإن والده «رضا خان» الذى خُلِعَ عن العرش سنة ١٩٤١ وتَقَرَّر نَفيُه - اختار مَنفاه فى جنوب أفريقيا (أبعد ما يكون عن إيران وعن الألمان الذين اتهم بالتَواطُؤ معهم). وقد بقى «رضا خان» فى جنوب أفريقيا حتى مات. لكنه أثناء وجوده فى المنفى اقتنع باستثمار جزء كبير من أمواله فى شركة «الترنسفال للتنمية»، وهى شركة كانت تعمل بالتعاون مع مجموعة شركات «دى بيرز» للتنقيب عن الماس فى مناجم جنوب أفريقيا - وكذلك فى صَقله وتسويقه. وكانت الشركة فى ذلك الوقت تُنتِج وتَحتفظ بإنتاجها فى خزائنها تَستَعد به لعالَم ما بعد الحرب وأسواقه المتشَوِّقة للاستهلاك بعد سنوات من القيود والضغوط - وكانت تَوَقُّعاتها أن «أمريكا» سوف تكون السوق الأعظم حينئذ - ثم تليها أوروبا عندما تستعيد عافيتها بعد سنوات قَدَّرتها شركات الماس بما بين عشر إلى خمس عشرة سنة.



> **عندما جاء وقت الغنائم**
> **لم تكن الأطراف العربية هناك،**
> **وإنما كانت هناك إسرائيل تقيم شراكة مع**
> **«اتحاد معادن كونسوليديتد المحدود» الذى تملكه**
> **«دى بيرز»، ثم تحصل شركة إسرائيلية تعمل فى**
> **«أنجولا» على ثلاثين موقعا للبحث عن الماس**
> **مع الحق فى ثلاثمائة أخرى**

وفى ذلك الوقت - وحين كان «دى مارانش» يُفضى إلى الشاه بمشروعاته - كانت استثمارات أسرة «بهلوى» فى جنوب أفريقيا قد بلغت ذروتها، وزادَ عليها أن ارتفاع أسعار البترول (١٩٧٤) مَكَّن أسرة «بهلوى» من زيادة استثماراتها الأفريقية، التى أصبحت أكثر إغراء لسبب مُستَجَد وهو أن العَرَب دخلوا مُشترين بشدة فى أسواق الماس وأسواق غيره من الأحجار الكريمة (ولم يكن العَرَب يعرفون هذه الأحجار من قبل، لأنهم استغنوا باللؤلؤ المتاح لهم فى الخليج عن الماس الذى خطف بريقه أنظارهم من بعيد، ثم أصبح البعيد قريباً بثورة أسعار النفط بعد حَرب أكتوبر ١٩٧٣!)

٣ - أن «دى مارانش» أيضا كان يَعرف عند الشاه «نزعات إمبراطورية» تبحث عن ميادين تُحَقِّق عليها طموحها - وهكذا عَرَضَ عليه أفريقيا.

وكانت حُجَج «دى مارانش» كما هى ظاهرة فى الأوراق:

- أن أفريقيا هى المجال الإستراتيجى الأكبر والأغنى، والأكثر تَعَرُّضاً للخطر والطمع من جانب «قوى الثورة العالمية» - الاتحاد السوفيتى - والصين.

- وأفريقيا هى العُمق الإستراتيجى الطبيعى والمفتوح للشرق الأوسط، وإذا كان العُمق الأوروبى فى الشمال مُزدَحماً بما فيه من القوى - فإن العُمق الأفريقى فراغ تماماً من أى قوة، لأن القوى الإمبراطورية التى كانت تملأ الفراغ إما غير قادرة وإما غير راغبة.

■ وبريطانيا مثلاً غير قادرة وغير راغبة (فى تقدير الكونت «دى مارانش»).

■ وأمريكا قادرة وراغبة، لكن فعلها مُقَيَّد الآن (سنة ١٩٧٤) بسبب ضعف الرئاسة الأمريكية الذى نشبت فيه وَرطة الحرب فى فيتنام من أيام «جونسون»، ثم فضيحة «ووترجيت» التى انزلق إليها الرئيس الحالى «ريتشارد نيكسون». وقد تفاقم العجز الأمريكي بالقيود التى وَضَعَها الكونجرس مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

ـــ وأنه فيما يتعلق بفرنسا فاهتمامها بأفريقيا له أسباب إستراتيجية، وتاريخية، وثقافية. لأن فرنسا ـ كذلك يقول الكونت ـ قادرة وراغبة، لكن العبء كبير وهى لا تستطيع احتماله وحدها. وقد فكَّرت فى العَرَب، وجَسَّت نبض أصدقاء لها بينهم وأهمهم «السعودية»، ووَجَدَت لديهم استعدادا، لكنهم أرادوا أن يستوثقوا من أن الولايات المتحدة لا تعترض، فهم يعرفون حساسية واشنطن من «تعامُل أوروبى عَرَبى» يجرى وراء ظهرها ـ وقد تَفَهَّمَت فرنسا هذا الحَذر السعودى وفتحت له الطريق. وتَكَفَّل الكونت «دى مارانش» نفسه بمفاتحة مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض («هنرى كيسنجر»)، ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية ورئيسها («ريتشارد هيلمز»)، وحصل بالفعل على إشارة ضوء أخضر وَصَلَت إلى السعوديين وهُم الآن جاهزون.

«لكن العَرَب يَحتاجون تَشجيعاً يُطمئنهم ويَقودهم» ـ كذلك قال الكونت «ألكسندر دى مارانش»، وهكذا تَحَمَّسَ الشاه «محمد رضا بهلوى».

وقد تَعَدَّدَت اللقاءات بين الاثنين ـ الشاه والكونت (ستة لقاءات فى ظرف شهرين) وعَرَض الشاه استعداده لمفاتحة الرئيس «أنور السادات» فى الأمر واثقاً أنه سوف يَشترك. كذلك عَرَض الشاه استعداده لإقناع الملك «الحسن» مَلِك المغرب. وأبدى الكونت «ألكسندر دى مارانش» «أنهم اتصلوا» بالملك «الحسن» وهو «مُعجَب» بالفكرة، مُعتَقِد بإمكان تحقيقها، مُقتَنِع بجدواها.

٤ ـ وأبدى شاه إيران ملاحظة عما إذا كان مفيداً دعوة الجزائر للاشتراك فى هذا «المجهود الطيِّب» لإنقاذ أفريقيا، ولكن «دى مارانش» عارَض مُفاتَحَة الجزائر لأن الرئيس الجزائرى (هوارى) «بومدين» ما زال يعيش «أوهامه الثورية» وله صداقات قوية مع الشيوعيين فى موسكو وبكين ـ وزيادة على ذلك فإن الجزائر لديها «حلم أفريقى» يخصها، وهو يشك أنها تريد أن تَتَعاوَن مع أحد فى مشروع هو أكبر من اختصاص دولة واحدة، وأوسع من أحلام (جزائرية) لا تَسندها إمكانيات حقيقية أو كافية!

٥ ـ أضاف «دى مارانش» أن المشروع لا يَجب أن يكون مشروع دُوَل فقط، وإنما من الأفضل أن تَقتَرب منه مجموعة الشركات الدولية المهتَمَّة بأفريقيا ومواردها، وسَمَّى بالفعل، وعلى سبيل المثال لا الحصر، مجموعة شركات «الأنجلو أمريكان» التى تملكها عائلة «أوبنهايمر» فى جنوب أفريقيا (وهى أهم مُحتَكِر لأسواق الماس) ـ كما سَمَّى بنك «تشيز مانهاتن» الذى استثمر بكثافة فى أفريقيا ـ وأضاف أنه تَحادَث فى «هذه الفكرة» مع «دافيد روكفللر» رئيس مجلس إدارة «تشيز»!

وربما أن «دى مارانش» أشار فى حديثه مع الشاه إلى أسرة «روكفللر» وهو يَعلَم أن الأسرة «مُتَعامل نشيط» فى «سوق البترول الإيرانى»، ثم إنَ الأسرة أيضاً على علاقة وثيقة بعَرش الطاووس الإيرانى من قبل ثورة الدكتور «محمد مصدق» (تأميم البترول الإيرانى)، وبعد سقوط «مصدق» (بانقلاب مَوَّلَته شركات البترول العالمية ونَفَّذته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية!

□

وبعد اتصالات مكثفة وسرية التقت فى مدينة «جَدة» (فى أواخر سنة ١٩٧٤ أو أوائل ١٩٧٥) مجموعة من خمسة رجال مُفَوَّضين من رؤسائهم بالتوقيع على معاهدة للعَمَل السرى المشترك فى أفريقيا. وكان الاجتماع فى بيت الشيخ «كمال أدهم» رئيس المخابرات السعودية (فى ذلك الوقت).

وطبقاً لنص المعاهدة الذى وُجِدَ ضمن أوراق الشاه ـ بدأت المعاهدة بمقدمة جاء فيها:

«إن الحوادث الأخيرة فى أنجولا وفى أجزاء أخرى من أفريقيا أظهرت أن القارة الأفريقية الآن وأكثر فى المستقبل مسرحٌ لنشاط ثورى يُؤدى إلى حروب يغذيها الاتحاد السوفيتى ويستعمل فيها أفراداً ومُنظمات موالين له، والهَدَف هو التمكين للعقيدة الماركسية إلى جانب تحقيق الأهداف الإستراتيجية التى تطلب هَيمَنة الاتحاد السوفيتى على القارة وعلى مَواردها الكامنة، مما يعطى السوفييت سيطرة مؤثرة على الموارد الخام المطلوبة للمؤسسات الصناعية والتجارية والمالية لأوروبا وللعالَم الثالث، ونتيجة ذلك أن حياة أوروبا والعالم الثالث سوف تكون تحت سيطرة الشيوعية، كما أن الممرات البحرية حول القارة سوف تُصبح مُهَدَّدة، وكذلك مستقبلها السياسى الذى سوف تَتَحَكَّم فيه نُظُم عميلة للشيوعية».

وتَخلُص مُقَدِّمة المعاهَدة إلى أن «تلك المخاطر كلها لا بد من التَصَدِّى لها وإفشالها».





بشكل ما وعلى نحو ما ظهرت
فى باريس دعوة إلى «حوار بين الأديان»،
ونشأ ظن بأنه المشروع القديم لـ«دى مارانش»
يطرح نفسه من جديد ـ وأنه على حسب
تعبير سفير فرنسى سابق:
«نفس النبيذ القديم معبأ
فى قوارير جديدة»!



وتمضى نصوص المعاهدة من هذا المدخل العام إلى التفاصيل المحَدَّدة فتقول:

«ـــ إن الاتفاقية لها مفهوم عالمى واسع تُسانده الدُوَل الموَقِّعة عليها وأطراف آخرون يَتعاطفون مع أهدافها.

ـــ إن مسئولية تنفيذ الاتفاقية مَنوطة بـ«مركز عمليات خاص» مقره القاهرة لسَبَب واضح هو مَوقع العاصمة المصرية فى مركز يَتَوَسَّط أفريقيا والمهتمين بشأنها من الدُوَل المشاركة فى الاتفاقية (فرنسا وإيران مثلاً) ـ ومُهمَّة هذا المركز أن يقوم «بتحديد أولَويات العَمَل والميادين المستَحِقَّة للاهتمام العاجل»، و«تخطيط العمليات المَطلوب تنفيذها فيه»، و«تكليف من يديرها ويشرف عليها»».

[وبالفعل تَمَّ اتخاذ مقر لمركز العمليات فى «مصر الجديدة» أصبح جاهزاً يوم ١ سبتمبر ١٩٧٦، ودَخَلَته مجموعة سكرتارية فنية، وانعقد فيه أول اجتماع لمركز العمليات بعد ذلك بأسبوعين.]

وبنصوص الاتفاقية:

ـــ كان على فرنسا أن تتولى تزويد «المجهود المشترَك» بكل ما يلزمه من معدات فنية ووسائل تكنولوجية، ومعلومات كافية تُمَكِّن من تَخطيط دَقيق لهذا المجهود.

ـــ وكان على المَغرب أن تُقَدِّم مجموعات مَيدانية، وقوات عمليات خاصة.

ـــ وكان على السعودية أن تُمَوِّل.

ـــ وكانت إيران شريكاً بالعرض: من التخطيط إلى التنفيذ إلى التمويل.

لكن القوة الحقيقية وراء الاتفاقية كانت فرنسا و«مدير أمن الدولة فيها» الكونت «ألكسندر دى مارانش» ـ مع أن نَصَّها حَمَل خمسة توقيعات:

ـــ الشيخ «كمال أدهم» ـ مدير المخابرات السعودية ممثلاً للملك «فيصل».

ـــ الجنرال «أحَمد الدليمى» ـ رئيس المخابرات المغربية ممثلا للملك «الحسن».

ـــ الجنرال «نعمة اللهَ ناصرى» ـ مدير المخابرات الإيرانية (السافاك) ـ ممثلاً للشاه «محمد رضا بهلوى».

ـــ الدكتور «أشرف مروان» ـ ممثلاً شخصياً للرئيس «أنور السادات» (وقد حضر الاجتماع التاسيسى ووَقَّعَ على المعاهدة، ثم تَغَيَّر منصبه فترك «مكتب الرئيس للمعلومات» ليُصبح مسئولاً عن إدارة الهيئة العَرَبية للتصنيع الحربى ـ وحَلَّ محله مسئول غيره مُكَلَّف من الرئيس «السادات»).

ـــ ثم ـ وهذا هو الأهَم ـ الكونت «ألكسندر دى مارانش» ـ مدير جهاز أمن الدولة ومكافحة الجاسوسية ـ ممثلاً لـ«الحكومة الفرنسية».

ومن المفارقات أنه فى نهاية الاجتماع التاسيسى نوقِش اقتراح بإطلاق اسم «رمزى» على «مجموعة الاتفاقية»، واقترح الشيخ «كمال أدهم» تسميتها «نادى السافارى» (و«السافارى» هو الوصف الذى يُستَعمَل لرحلات السياحة للصيد أو مشاهدة الوحوش فى أدغال أفريقيا ـ وقُبِلَ الاقتراح على الفور، وخرج إلى الوجود ذلك التنظيم السرِّى للعمل فى أفريقيا ـ وفق تَصَوُّرات



وخطط الكونت «ألكسندر دى مـارانش»، وتسمية الشيخ «كمال أدهم» !

□

ومَضَت السنون تَجُرُّ السنين، ووَجَدتُ نفسى مرة أخرى وجهاً لوجه أمام الكونت «ألكسندر دى مارانش»، وكانت المواجهة هذه المرة قضائية - فى محاكم باريس.

والحاصل أننى كنت عَرَفتُ أثناء زيارة إيران (يناير) سنة ١٩٨١ بسرِّ «مجموعة السافارى»، عندما وَجَدتُها فى أوراق الشاه ثم نَشرتُ تفاصيل عنها فى الطبعة الإنجليزية لكتاب «عودة آية الله» (الذى صَدَرَ باللغة العَرَبية تحت عنوان «مَدافع آية الله»، وكان ذلك فى حياة الرئيس «السادات» وقبل اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ بأسابيع قليلة).

وقد تَوَسَّعتُ فى النشر لأن ما قرأتُه هالنى بحَجم ما فيه من مُغامَرات وحَماقات قامَت بها مجموعة نادى «السافارى».

ـ وكان بينه على سبيل المثال :

ـ أن «مجموعة السافارى» كانت أهم العناصر المؤيِّدة للجنرال «بومبا» عندما استولى على إقليم «كاتانجا» فى الكونجو بقصد تأمين مناجم الماس والنحاس الغنية فى هذا الإقليم لصالح الشركات الغربية الكبرى.

ـ وأن «مجموعة السافارى» تَعاوَنَت بكل قوة مع «موبوتو» ديكتاتور الكونجو وجَزَّاره الشهير. وعندما احتاج «موبوتو» قوات لتأمين قَصره فى تلك الأيام، إذا مصر والمغرب تقرران إرسال قوات إلى الكونجو قامَت السعودية بتكاليفها.

ـ وأن «مجموعة السافارى» غاصَت بعيداً فى القرن الأفريقى بحُجَّة مساعدة «سياد برى» فى محاولته العسكرية اليائسة ضدَّ أثيوبيا ونظام الحُكم الشيوعى الذى قَام فيها بزعامة «منجستو هيلا مريم». ويشير مُلَخَّص وثائق فى أوراق «مجموعة السافارى» إلى لقاء بين الرئيس الصومالى «سياد برى» وبين السفير المصرى فى «مقديشيو»، وفى هذا اللقاء يَرِدُ - منسوباً إلى السفير المصرى - قول الرئيس الصومالى له «إن رَقَبَتى فى خطر». ثم تَذكُر الأوراق بعد ذلك أن الرئيس «السادات» قَرَّرَ أن تبيع مصر للصومال أسلحة سوفيتية (لاتريدها) بما قيمته ٧٥ مليون دولار (تدفعها السعودية).

وفى الأوراق (التى تركها الإمبراطور «محمد رضا بهلوى» فى مكتبه) أن «الولايات المتحدة تَدَخَّلَت مرة لوقف نشاط «مجموعة السافارى» عند حَدِّه المامون الذى تقبله، وحَدَث ذلك عندما تمكن الجيش الصومالى بأسلحة وَصَلَته حديثاً أن يُغَيِّر الموقف فى ميدان القتال، وأن يُهَدِّد إقليم «الأوجادين» الأثيوبى. وكان أن وزير الخارجية الأمريكى «سايروس فانس» وَجَّه بنفسه تحذيرات إلى بعض الدُوَل المشاركة فى «مجموعة السافارى» يلفت نظرها إلى أن دخول الجيش الصومالى إلى منطقة «الأوجادين» ليس شأناً محلياً بين أثيوبيا والصومال (أو غيرهما من الدُوَل المهتَمَّة) - «لكنه الآن تَدَخُّل غير مَسئول من «المجموعة الفرنسية» قد يُؤدِّى إلى انقلاب الموازين فى القرن الأفريقى بما لا تقبل به الولايات المتحدة.

....

....

[وظَهَرَ فى الأوراق أنه كان هناك اتفاق على أن تكون الولايات المتحدة وإسرائيل على علم بنشاط «نادى السافارى» - فقد كانَ فى مسئولية المخابرات السعودية أن تُبلغ المخابرات الأمريكية - وكان فى مسئولية المخابرات الإيرانية أن تُبلغ المخابرات الإسرائيلية .

....

....

ومن المفارقات الداعية إلى مزيج من الأسى والغَضَب أن ثلاث دُوَل عَرَبية (مصر والسعودية والمغرب) اشتركت بهِمَّة فى عَمَليات «نادى السافارى» فى أفريقيا - تحت تَوجيه وإدارة الكونت «دى مارانش» - لكنه عندما جاء وقت الغنائم لم تكن الأطراف العَرَبية هناك، وإنما كانت هناك إسرائيل تُقيم شراكة مع «اتحاد مَعادن كونسوليديتد المحدود» الذى تملكه «دى بيرز»، ثم تَحصُل شركة إسرائيلية تَعمَل فى «أنجولا» وهى شركة «أفريقيا - إسرائيل» (التى يرأس مجلس إدارتها «شموئيل شنتندر») على ثلاثين موقعاً للبحث عن الماس مع الحَقّ فى ثلاثمائة أخرى. والآن يَصِل حَجم الاستثمارات الإسرائيلية فى «أنجولا» إلى بليون دولار.]

....

....

(وفى الأوراق التى تَرَكَها الشاه فى مكتبه أيضاً) أنه عندما تَدَخَّل «سيروس فانس» بحَسم فى الموضوع فإن «نادى السافارى» اضطر إلى تهدئة أعصابه.

ثم تَحَوَّلَت التَهدئة إلى خمول عندما تأكَّد أن السوفيت حصلوا على وثائق حسَّاسة عن نشاط «المجموعة» فى أفريقيا، وذلك بعد مؤتمر سرِّى «لها» انعقد فى الدار البيضاء (المغرب).

والذى جَرى وقتها هو أن عميلاً سوفيتياً سَرَق حقيبة أوراق الجنرال «نعمة الله ناصرى» وكانت على مقعَد بجواره وهو ينتظر فى مَطار الدار البيضاء قاصداً إلى «كان» حيث كانت تنتظره زوجته لإجازة فى «الريفييرا» الفرنسية. وشاعَ فى ذلك الوقت أن أحد مساعدى الكونت «دى مارانش» كان مَصدَراً ثانياً حصل منه السوفييت على وثائق «نادى السافارى» - وظَهَرَ هذا المساعد وهو برُتبة «كولونيل» فى المخابرات الفرنسية - كان عميلاً مباشراً للسوفييت، وحين انكشف أمره انتحر أو قُتِل.

وهنا وَقَعَت المواجهة القضائية بين الكونت «دى مارانش» وبينى.

□

أثناء عَمَلى فى كتاب «عودة آية الله» كنت قد عَرِفتُ ونَشَرتُ واقعة سرقة حقيبة أوراق الجنرال الإيرانى «نعمة الله ناصرى» فى مطار «كازا بلانكا». وكنت قد عَرَفتُ وكَتَبتُ إشارة إلى قَتل أو انتحار أحد مُساعدى «دى مارانش»، بعد الشك فى عِمالة السوفييت.

....

....

وكان مقرراً أن الطبعة الفرنسية من الكتاب سوف تظهر بعد الطبعة الأصلية الإنجليزية بشهر واحد، وحقوق الطبعات بكل اللغات عند مؤسسة «أندريه دويتش» الإنجليزية العريقة.

وفوجئتُ ذات صباح فى القاهرة بتليفون من لندن و«أندريه دويتش» رئيس مجلس إدارة شركة النشر العريقة فى لندن يقول لى : «إن الكونت «ألكسندر دى مارانش» رَفع قَضيَّة يطلب فيها وقف نشر الطبعة الفرنسية من الكتاب، ويطلب أيضا إعطاءه الحق فى مُلاحَقة الكتاب فى كل طبعاته لأنه وَجَدَ فى النص المكتوب عن حادثة انتحار أو قتل مساعده المتَّهَم بأنه عميل سوفيتى - ما يوحى بأن قتل الرَجُل أو انتحاره كان بأمرِ - أو بضغطِ - منه قصاصاً وعِقاباً على خيانته.

وقلتُ على الفور لـ«أندريه دويتش» أننى فيما كتبتُ لم أتَّهِم «دى مارانش» بالقتل على الإطلاق. وعلى التليفون عَرَضنا - «أندريه دويتش» وأنا - للنَصّ الإنجليزي كما كتبتُه، وطلبتُ إليه أن يبعَث لى بالترجَمة الفرنسية التى أعِدَّت له فى باريس.

وفى اليوم التالى عاد «أندريه دويتش» للاتصال بى فى القاهرة يقول «أن محامى الكونت دى مارانش اتصل يسأله عما إذا كان فى الإمكان ترتيب لقاء بين مُوَكِّله وبينى يَتِم به تعديل النص الذى اعتبره الكونت مُسيئاً له ؟» - وقلت بوضوح «إننى فيما نَشرتُ رَوَيتُ واقعة لم يَرِد فيها اتهام بالقتل للكونت أو لغيره، وقد كان هَدَفى هو «سر نادى السافارى» وليس «سِر قتل كولونَيل فرنسى»».

وقَبلتُ فكرة اللقاء المباشر - كما عَرَضَ محامىَ «دى مارانش».

وعندما تقابلنا من جديد - وهذه المرة فى فندق «بلازا أتينيه» - كان «الكونت «دى مارانش» رَجُلاً مُختلفاً. (تَرَكَ مَنصبه، وفَقَدَ قُوَّته، وسَقَط مشروعه «نادى السافارى»). ولم تَمض عدة





بالتجربة العملية ظهر أن الحوار «المستجد» يقترب أكثر من اليهودية. ثم إن إسرائيل تحاول أن تأخذ الناحية اليهودية فى الحوار لحسابها. وكان ذلك هو الإطار الذى جاء فيه حاخامات إسرائيل. وأولهم الحاخام «لاو»، ودخلوا إلى رحاب «الأزهر»

دقائق حتى حلَّت المشكلة. فقد قرأتُ النَص الفرنسي ووَجَدتُ أن ما تُرجم عن الأصل الإنجليزي الذى كتبته كان تعبيراً يَحتمل التأويل. ومساء ذلك اليوم فى فندق «بلازا» وفى حضور «أندريه دويتش» واثنين من المحامين أعَدتُ قراءة النص المترجَم إلى الفرنسية عن الإنجليزية، وأمسكتُ قلَماً وغيَرتُ ثلاث كلمات بالعَدَد وأعطيت النص الجديد للكونت «دى مارانش» أسأله «إذا كان ذلك يَكفيه؟» - وكان تعليق الرَجُل رقيقاً باللغة الإنجليزية « fair enough عادل بما فيه الكفاية».

وبدا مرتاحاً، وكذلك كنتُ.

ثم ذهَبَ الجميع وبقى هو، وقد أحسستُ أن لديه ما يقوله، وكنت مثله لدىَّ أنا الآخر ما أقوله.

كانت قصَّة «نادى السافارى» كلها قد انقضى زَمَنها : سَقَط عرش الشاه فى طهران، ثم مات «محمد رضا بهلوى» فى القاهرة - ثم انتهت حياة الرئيس «السادات» فى مَشهَد مُرَوِّع على منصة عرض عسكرى - وتَرك «كمال أدهم» مَوقعه مَسئولاً عن المخابرات السعودية - كما أن الكونت «دى مارانش» نفسه أصبح على التَقاعُد!

وبدأتُ الحديث فقلت لرَجُل فرنسا القوى ذات يوم :

«إننى استغربت أنك لم تَعترض فيما نَشَرتُه إلا على واقعة الكولونيل - تَصَوَّرتُ أن نشر قصَّة «مجموعة السافارى» من الأصل سوف يُضايقك ؟..»

ورَدَّ بتُؤدة رَجُل عَرَف الدنيا وخبرها قائلاً ما مؤدَّاه : «ذلك حقك ما دامت التفاصيل قد أتيحت لك».

واستطرد :

«وبالنسبة لى فليس هناك فى الموضوع كله ما أخجل منه : كان هَدَفى ولا يزال مصلحة فرنسا، ونفوذها، ودَورها فى العالَم. الأوضاع فى أفريقيا تهمنا، وسوف تَظَل تهمنا لأن نصف أفريقيا فرنسى أو كان فرنسياً فى يوم من الأيام، وهذا استثمار لا يستحق الإهمال، وميراث لا بد من حمايته من وجهة نظر فرنسا ولضروراتها».

ثم أضاف الكونت «دى مارانش» :

«أتذكر أننى تحدثت معك فى هذا الموضوع عندما التقينا فى باريس قبل سنوات».

وقلت : «إننى أتذكر ولكنى لا أفهم». ولم أكمل بقية عبارتى، فلم أقل له إننى على استعداد لأن أرى قوى عظمى تَعمَل بكل طاقتها «لتَعويض إمبراطورياتها الضائعة» بوسائل مُستَجَدَّة - لكن الذى لا أفهمه هو ما الذى تفعله «قوى محلِّية» فى مشروعات إمبراطورية لا شأن لها بها - لا مَصلحَة ولا أمن ولا هَدَف من أصله ؟»!

....

....

وتَشعَّب الحديث مع الكونت «ألكسندر دى مارانش» لأكثر من ساعة، ثم خرج الكونت «دى مارانش» وخرجت معه من صالون «البلازا أتينيه» إلى باب الفندق، وكان خروجه عادياً، لا إجراءات، ولا حراسة ظاهرة أو خَفِيَّة، ولا وجوه يَمتزج فيها الاهتمام بالرَهبة كما حَدَث قبل سنوات فى فندق «الكريون».

كانت الدنيا قد تَغَيَّرَت، وتَغَيَّرَت الحظوظ.

لكن مصالح الدُوَل ومطالبها الضامنة لهذه المصالح - لا تَتَغَيَّر!

الـــــــــدور الآن عـــــلــــى الإســـــــــلام ؟!

عندما قابَلتُ الكونت «دى مارانش» فى مكتبه (سبتمبر ١٩٧١) كان لديه جَدوَل أعمال كامل :

● البند الأول فيه (وقتها) هو العَمَل فى أفريقيا، وكان أمَله أن يَقتَنع الرئيس «السادات» وأن يَتَقَدَّم ومعه السعودية والمغرب وإيران، وشاه إيران المتَحَمِّس، وموارد بلاده الطائلة.

● والبند الثانى فى جَدوَل أعمال «دى مارانش» «التَعاوُن» مع الإسلام الذى رآه قوة صاعدة ومؤثرة مع تراجع الفكر القومى بعد ١٩٦٧، وكان اقتراب الكونت من هذا الهَدَف - وقتها - باقتراح حوار بين «المسيحية والإسلام»، والدولة الإسلامية المهيَّأة لهذا الدور فى رأيه - مظهراً وجوهراً - هى المملكة العربية السعودية.

● والبند الثالث - على جَدوَل أعمال الكونت - دَعوة أكبر عَدَد من الدُوَل العَرَبية (وأولها مصر) إلى مُنظَّمة «الفرانكوفون»، وهى البديل الفرنسى للكومنولث البريطانى - والجامع لشتات مستعمرات فرنسا السابقة فى أفريقيا - والحارس للغة فرنسا وحُمولتها - وكان ظن الكونت أن هذا البند يمكن أن يُعهَد به إلى «المغرب»، وكان أمَله أن قاعدة فرانكوفونية فى المغرب تستطيع الوصول إلى الجزائر، وتستطيع أيضاً طمانة المشرق (سوريا ولبنان) - خصوصاً إذا تصَرَّف الملك «الحسن» فى الموضوع برقَّة وكَياسَة لا تستثير الجزائر.

□

فى الوقت الذى بدأ فيه البند الأفريقى يتحرك - ويبدو تَحَرُّكه مشجعاً مليئاً بالاحتمالات بعد أن دَخل «نادى السافارى» رحلة التأسيس الجدِّى والتأهُّب للعَمَل - جاء الدور على البند الثانى : «الإسلام».

وكان «دى مارانش» مُتَشجِّعاً بانضمام السعودية إلى «تَجَمُّع العَمَل فى أفريقيا». ولعدة شهور بدا أن السعودية تَستَجيب، فقد وَصَلَت إلى باريس وفود عُلماء دين سعوديون، كما أن وفوداً علمية مقابلة - مسيحية - تَوَجَّهَت إلى جَدَة تحت عنوان ما أطلق عليه فى ذلك الوقت «الحوار الإسلامى المسيحى» - وفجأة تباطأت الحركة على خط باريس - جَدَّة، ثم تَوَقَّفت تماماً.

وذات مرة فى باريس خطر لى أن أسأل عما جرى فى ذلك الحوار الإسلامى - المسيحى ؟ وكان مُؤدَّى ما فهمته أن مُفتى السعودية فى ذلك الوقت (وأظنه الشيخ «عبد العزيز بن باز») اعترض على المشروع من أساسه. فقد كان حسبانه عندما سمح باللقاءات أن فرنسا تريد أن «تَتَعَرَّف على الإسلام»، لكنه عندما وَجَدَ الموضوع «حواراً» تَغَيَّرَت فتواه - إلى الاعتراض والإنكار.

وبدا أن الفكرة ماتت فى مَهدها خصوصاً بعد أن تَرَك «دى مارانش» مَوقعه وسافر فى النسيان.

ثم تَبَيَّن فيما بعد أن الخطط لها عُمر يستبقيها على الساحة حتى بعد غياب آبائها الشرعيين. وذلك ما كان.

والذى جَرى أنه أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات كانت «باريس» ساحة نشاط شرق أوسطى مُتَعَدِّد الجبهات ساعَدَت عليه ملابسات :

■ فيها معاهدة «كامب دافيد» التى عَجَزت عن جَذب دُوَل عَرَبية غير مصر تنضم إليها.

■ وفيها أن مستقبل السلام فى الشرق الأوسط بَدا مُعَرَّضاً للخطر لأن الجهد الأمريكى الذى أوصَلَ إلى «كامب دافيد» قطع أنفاسه بَعدها رُسُلاً إلى كل عاصمة عَرَبية بغير نتيجة.

■ وفيها أن الثورة الإسلامية فى إيران بعد نجاحها راحَت تَعرض نفسها وكأنها شكل المستقبل.

■ وفيها أن اغتيال الرئيس «السادات» (أكتوبر ١٩٨١) أحدَث صدمة فى العالَم كله خصوصاً والمدفع الرشاش الذى اغتاله «إسلامى».

■ وفيها أن إسرائيل أصبَحَت شديدة القلق. تَخشى من تَداعيات نجاح الثورة الإسلامية، وتُوقف عَمَلية السلام. وكان يهود أمريكا فى حالة حَيرة مما حَدَث، وأما يهود أوروبا فقد زادَ نشاطهم خصوصاً فى باريس، وكانت أسرة «روتشيلد» رأس الحَربة فى نشاط يهود أوروبا، كما كانت أرملة الزعيم الاشتراكى الكبير «منديس فرانس» نجمة الجهد اليهودى من مقر إقامتها فى باريس.

■ وفيها أنه ظَهَرَ فى أوروبا من يعتقدون أنهم الطَرَف الغربى الذى يستطيع أن يدخل إلى الشرق الأوسط ويقوم بمهمة تلطيف الأجواء على الأقل (وبينهم «كرايسكى» مُستشار النمسا وغيره).

■ ثم إن هذا كله كان المناخ الذى تَقَدَّمَت فيه دُوَل أوروبية ظنت نفسها فوق الشبهات لاستحالة اتهامها بخطط إمبراطورية - بالنسبة إلى حجمها، وكانت الدُوَل الاسكندنافية «السويد» أوَّلاً، ثم «النرويج»، طليعة المتقدمين. وبالفعل فإن الجهد السويدى النرويجى هو الذى قاد بعد سنوات إلى اتفاقية «أوسلو».

■ وكذلك وَصَل التأهُّب الفرنسى مَداه. ذلك أنه إذا كانت تَطوُّرات الحوادث قد عادَت إلى أوروبا بدور وضعته الحقائق المستجدة على عَتَبَة بابها، فإن فرنسا هى الأقدر وهى الأجدر. فلا بريطانيا مقبولة لقيادة دور أوروبى - شرق أوسطى - ولا ألمانيا جاهزة لمثل هذا الدور - وفى نفس الوقت من وجهة النظر الفرنسية - فإنه لا «ستوكهولم» ولا «أوسلو» لديها الجاذبية الغلابة لباريس وأنوارها الباهرة.

□

وبشكل ما وعلى نحو ما (والوقائع هنا غامضة والصلات مُلتبسة) ظهرت فى باريس دعوة إلى «حوار بين الأديان»، ونشأ ظن بأنه المشروع القديم لـ«دى مارانش» يطرح نفسه من جديد - وأنه على حَسَب تعبير سفير فرنسى سابق : «نفس النبيذ القديم مُعَبَّأ فى قوارير جديدة»!

لكن طَعم «الجديد» بدأت تختلف فى بعض الملامح عن طَعم «القديم».

وفى حين أن المشروع «القديم» كان طرفه الإسلامى هو السعودية - فإن المشروع الجديد بدا وكان طرفه الإسلامى هو مصر.

وفى حين أن الراعى الإسلامى السابق هو



مُـفـتـى السـعـودية (الشـيخ «بن بـاز» الذى تَوَقَّف فى مُنتَصَف الطريق وانسحب) - فـإن الراعى الإسلامى هذه المرة كان «الأزهـر» (الذى لم يُعارض ولم يَرفض، ولعله انتظر إشارة من الدولة تَـدُل على مـا تراه صـالحـاً للأزهـر وللبلـد).

وأخيراً فإن عنوان المشروع السابق كان «الحـوار الإسلامى المسيحى» - لكن العنوان فى المَشـروع المسـتـجـد أشـمـل فـهـو «حِـوار الأديان».

وبالتجربة العَمَلية فقد ظَهَر أن الحـوار «المستَجَد» يقترب أكثر من اليهودية - ثم إن إسرائيل تحـاول أن تاخذ الناحية اليـهودية فى الحـوار لحسابها - وكان ذلك هو الإطار الذى جـاء فيه حاخامات إسرائيل، وأوَّلهم الحـاخام «لاو»، ودخلوا إلى رحاب «الأزهـر».

ولقد بـدا الأمـر فى ظاهره مثيراً للمشـاعر، وانصرف الكثير من النقـد لشيخ «الأزهر» دون مُراعاة لمقامه الجليل، مع أنه كان بادياً لكل من يريد أن يـرى أن «الشـيـخ» يَتَصَرَّف بظن أنها «الدولة ومـصـالحـهـا العُليـا». وقـد بـدا «الشـيـخ» حائراً بين «ظنون مـا هو مطلوب منه لمصالح أعلـى» وبين هَجَمات عنيفة تَعَـرَّض لها واعتقاده أن الصـواب جانَبَها. وفى هذه الحـيـرة التى تنازعت «الشـيـخ» ظَهَـرَت فى تصـرفاته - وذلك طبـيـعى وإنسـانى - ردود فعل عَصَبيَّة أدَّت بدورها إلى زيادة المساحة فى سوء الفهـم بين «نـوايا الشيخ» وبين «ظواهر» ما سَمَح به.

....

....

والشـاهد أن المشروع كله فى هذه اللحظة يومـئ إلى أشيـاء :

■ يومــئ هذه اللحظة إلى أنـه جـزء من مـحـاولة «تفويت نـوع من السـلام» لا يَصـح إدخال «الأزهـر» فيه ولا يَليـق.

■ يومـئ أيضـاً إلى أنه «دخـول فى رحـاب الإسـلام» بغرض سياسى لا يتفق بالضرورة لا مع رسـالة الديـن الإسـلامى، ولا مع عـالميتـه المفتوحة على الدنيا كلها.

■ يومـئ أخيـراً إلى أنهـا «ربما لا تـكون فرنسـا» و«نبيذها القديم فى قوارير جـديدة». وإنما هو على الأرجح «نبيذ جديد فى قوارير قديمة» توحى بأنه لا اختلاف - بينما هو فى الواقع أكثر من مجرد اختلاف !

....

....

وربما أن الأمـر هنا يحتـاج إلى مُراجَـعـة، وربما أن شيخ «الأزهر» ومقامه الجليل له على الدَولة حَـق أن توضح أمامه رؤيتها للمصالح العليـا للبلد، ومقتضيات هذه الرؤية فيما هو مطلوب منه.

لكنه من غير المقبول أن يبقـى الحـال على حاله !

والشاهد أن العلاقة بين «الأديان» لا تحتاج إلى حـوار وجَـدَل، وإنما تحـتـاج إلى فـهـم متـبـادَل. والحـوار فى مفـهـومـه الطبـيـعى يُطالِب أطرافه أن يَتَـوَصَّلوا إلى لقـاء، وذلك يجـوز فى الأفكار وليس فى الأديان. فـالأديان مـسـالة «إيمان» لا يَعرف حَـلاً وَسَطاً. بل إن الحَـلَّ الـوَسَط يحـرج اليَـقـيـن ! - ولذلك فالمطلوب من كل «مؤمن» أن يَحتَرم «إيمان» غـيـره عن طريق الفَـهـم وليس عن طريق الجَـدَل. يَدخُل فى ذلك أنه حـتـى مـقـولة أن «الكل أبناء إبراهيم» مقولة تحتاج إلى تدقيق. فالديـن ليس نَسَبـاً عـائلياً. ولكنه اخـتـلاف «مُعتَقَدات إلهيـة ورسولية» مُتجاوزة للنَسَب - البَشَرى - على فـرض تَحَقُّقه.

وحـتـى إذا تَـقَـدَّم منطق «الحِـوار» على منطق «الفهـم» - فـالأوْلى بأى «حِـوار» دينـى يقـوم عليـه «الأزهـر» أن يكون إسـلامـيـاً - مسيحياً، وأن يَجرى أولاً بينه وبين الكنيسة القـبـطيـة، وهى واحـد من أهـم مُكَوِّنات الشخصية المصرية والثقافة الوطنية من قبل دخول الإسـلام إلى مصـر وبعده.

وهنـا قـد يُصبـح الحـوار - على قـاعدة الوَطَـن الواحـد - مُـجـدِيـاً ونافـعـاً لأنـه على أرض وإلى هَـدَف. ■



قِـمَّـة فــرانكوفــونيـــة فى بيـــروت مع الخـــريف القـــادم

■■ مع أواخــر الثــمــانينات وبداية التسعينات عادت فرنسا - وكأن بنود «دى مارانش» وَصايا - لها جَدوَل أعمال جاء الدَور فيه على «الفرانكوفونية»، والظن أنها وسيلة للنفاذ صالحة مع متغيرات شديدة الأهمية طرأت على الساحة العالمية.

والواقع أن الأفكار - الوَصايا - التى عَبَّرَ عنها الكونت «ألكسندر دى مارانش» عادَت تَطرَح نفسها فى عالَم مُتَغَيِّر :

١ - الاتحاد السوفيتى يَتَرَنَّح، وهو على وشك السقوط .

٢ - ودُوَل كانت تحت سيطرته تَنفلت الآن من قبضته (بولندا - تشيكوسلوفاكيا - بلغاريا - وغيرها) وتحاول البحث عن مكان لها يَصِلها بأوروبا الغربية .

٣ - وفرنسا - والرئيس فيها فى ذلك الوقت «فرانسوا ميتران» - تَتَخَوَّف من انفراد الولايات المتحدة بأمور العالَم ومصائره .

٤ - واللغة الإنجليزية - وهى عِماد لغة العُلوم والتكنولوجيا والإنترنت - تَتَوَسَّع بشدة وتزيح غيرها من اللغات، ومع اللغات حمولاتها الثقافية .

٥ - ومن وجهة نظر رَجُل مثل «جاك لانج» (وزير الثقافة الفرنسى) فإن خطورة الاستيلاء على اللغة يمكن أن تكون مُقَدِّمة لإلغاء هَوِيَّة أصحابها. وإذن فإن اللغة الفرنسية - حاملة ثقافة فرنسا - ووعاء هَوِيَّتها الإنسانية والتاريخية - فى خطر.

٦ - إن أفريقيا تَتَحَوَّل بسرعة من ساحة حرب باردة بين الشرق والغرب، لتُصبح ساحة منافسة ساخنة بين الولايات المتحدة وبين فرنسا. وفى وقت الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى والغرب، كانت الولايات المتحدة وفرنسا «على نفس الجبهة إلى حَدٍّ ما» أمام عَدُوٍّ ماركسى مُشتَرَك ظَهَرَ فى غينيا وفى مالى، ثم الكونجو وأنجولا - لكنه بعد انتهاء الحرب الباردة تباعَدَت المواقف مع تَبايُن المصالح.

□

والواقع أن الذى يُتابع الخلافات الأمريكية - الفرنسية يستطيع أن يلمح كيف تَطَوَّرَت الأمور بحيث جَرى - ولا يزال يجرى - تَدعيم «الفرانكوفونية» لكى تَدخل المنافسة الساخنة مع الولايات المتحدة الأمريكية - فى أفريقيا وخارجها أيضاً.

ومن المفيد - مثلاً - مُلاحَظة ما كَتَبَه «جورج بول» مساعد وزير الخارجية الأمريكى (مع «دين راسك» - على عهد «كنيدى» و«جونسون») فى مذكراته - وقوله فيها أنه : «طوال السبعينات والثمانينات لم يكن لدى الولايات المتحدة مانع من تنشيط «الفرانكوفونية» لأنها كانت فى خندق قريب من خنادقنا فى أفريقيا !»

ومن المفيد أيضاً مُلاحَظة ما رَواه «كلود ووتيير» فى كتابه «أفريقيا و ٤ رؤساء من فرنسا» (هُم «ديجول» - و«بومبيدو» - و«جيسكار ديستان» - و«ميتران») - ومُؤَدَّاه «أن الخلافات بين الولايات المتحدة وفرنسا - بعد انتهاء الحَرب الباردة مع الاتحاد السوفيتى - احتدمت فى أفريقيا بسبب الرفض الأمريكى لدور فرنسى خاص فى القارة السوداء مع ظروف مُتَغَيِّرة».

وكَشَفَ «ووتيير» أنه أثناء محادثات على أعلى المستويات بين الولايات المتحدة وفرنسا وَرَدَت عدة مَطالب فرنسية لم تقبل بها واشنطن :

ـ أحد المطالب الفرنسية أنه بسبب القرب الجغرافى عبر البحر الأبيض، وبسبب العلاقة القديمة (الاستعمارية)، وبسبب سيادة اللغة الفرنسية - فإن فرنسا لا بد أن يُعتَرَف لها فى القارة الأفريقية بنوعٍ مما يُعتَرَف به للولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية طبقاً لـ«مَبدأ مونرو» الذى يَقبَل العالَم به أن أمريكا اللاتينية اختصاص للولايات المتحدة أصيل - لا يَدخل فيه طَرَف أجنبى، وإذا دَخَل فبحساب وبعد إذن.

ـ مَطلَب آخر عَبَّرَ عن نفسه - على مائدة المفاوضات - بطريقة فَجَّة تَرى ضرورة الاعتراف بأن أفريقيا هى منطقة «صيد محفوظ» chasse guardée لفرنسا، ومَفهوم العبارة أنها عَودة إلى أيام كانت مَوارد القارة فيها نُهباً بالقِسمَة بين الدُوَل الكبرى وشركاتها !

ـ وفيما كَتَبَه «ووتيير» وغيره - مثلاً - إن كلا من فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية اتخذت لها فى القارة الأفريقية رجالاً مَحسوبين عليها، ترعاهم وتدعمهم. ولسنوات طويلة كانت فرنسا حامية رَجُل مثل «جان بيدل بوكاسا» الذى قام بانقلاب فى جمهورية أفريقيا الوسطى وأعلن نفسه إمبراطوراً، وأمَرَ بصُنع «تاج» فى محل «كارتييه» فى باريس يقوم هو بوضعه فوق رأسه «على طريقة نابليون» - وكانت فرنسا توافق، وكان رؤساؤها وبينهم «جيسكار ديستان» يَقبلون هدايا «بوكاسا» من قطع الماس والزُمُرد (وسَبَّبَ ذلك ضجَّة كبيرة فى فرنسا).

وفى مقابل ذلك فإن «جوزيف ديزيريه موبوتو» أصبح لأكثر من عشرين سنة رَجُل الولايات المتحدة القوى فى الكونجو، وقد سَمَحَت له الولايات المتحدة وساعَدَته بالتخطيط كى يأسر منافسه الوَطنى «لومومبا» زعيم استقلال الكونجو، ثم يقتله وهو أسير، ثم يَعتَرف أحد عُملاء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أن جثة «لومومبا» لم يُعثر عليها لأن الأوامر قَضَت باستعمال «منشار كهربائي !» يُحَوِّلها إلى «شرائح» تُبَعثر فى بُقَع مختلفة من الأرض، أو مواقع مُتَباعدة من الماء فى نهر الكونجو المتَدَفِّق بسرعة نَحو المحيط.

ـ وكان الصراع على المواد الخام، والبترول - كالعادة أوَّلها



- حرباً مستمرة بين عملاقين أحدهما أمريكي والآخر فرنسي. الأمريكي هو شركة «أوكسيدنتال» والفرنسي هو شركة «إلف أكويتين» - والموقعة بينهما كانت - ولا تزال حتى الآن - شبه حرب في جمهورية «الكونجو برازافيل» !

وقد وَصلَت الصراعات بين القوتين - بوكالة الشركات الدولية الكبرى - إلى حَدّ استباحة منطقة البحيرات العُظمى باستغلال الأجناس والأعراق والقبائل، وتَحويل قلب أفريقيا («رواندا») إلى فَيَضان دَمَوى يُعيد تلوين البحيرات باللون الأحمر.

وخلال هذه المنافسة الساخنة فإن القوة الأمريكية في أفريقيا دَخَلَت إلى الساحة بنفسها وباسمها وتحت عَلَمها مُعتَمِدة على غَلَبة لها في العصر كاسحة - وأما فرنسا فقد حاوَلَت وراء واجهة «الفرانكوفونية»، وبمنطق تَرَدَّدَ كثيراً في الأدبيات الأساسية «للفرانكوفونية» مُؤدّاه أنه في «مجال السياسة الخارجية فإن المصالح تمشي على خطٍّ متواز مع الثقافة، وأنه في حالة فرنسا بالتحديد فإن هذه المقولة أصدق ما يكون !»

□

كان الصراع الثقافي - مُتوازياً مع الصراع الاقتصادي - عنيفاً على «روح» أفريقيا بمقدار عنفه على «موارد» أفريقيا.

وكانت الولايات المتحدة تُقَدِّم أسلوبها في الحياة إغراءً، وتُقَدِّم تكنولوجيا التَقَدُّم إقناعاً - وفي نفس الوقت فإن فرنسا اعتمدت على «اللغة» وعلى «الثقافة» قاطرات تَجُر المصالح وراءها.

وفي خضم هذا الصراع أصبح للوجه الأمريكي في القارة رجال - وللوجه الفرنسي رجال.

وكان أبرز الوجوه الفرنسية - رجال من أمثال «ليوبولد سنجور» (السنغال)، و«هوفيه بوانييه» (ساحل العاج).

ومن المفارقات أنه في خضم الصراع انتزعت فرنسا واحداً من رجال أمريكا هو «سانا أباتشي» الذي استولى على الحُكم في نيجيريا، ونَهَبَ مليارات من مواردها. وقد قَرَّرَ الانضمام إلى مجموعة «الفرانكوفون» طلباً للنجاة، لكن الولايات المتحدة طارَدَته بانقلاب من داخل جيشه فتَح الباب لحُكم مَدَني - صَديق لأمريكا - يَرأسه جنرال سابق هو «أوباسنجو» الرئيس الحالي لأكبر بَلَد أفريقي في تعداد السكان.

وفي هذا الإطار وليس في غيره يَتَغَيَّر النظر إلى عملية إحياء «الفرانكوفونية» التي أخذت مع بداية التسعينات تَتَّجه بنشاط ظاهر إلى العالَم العَرَبي.

....

....

[وبرغم أنني واحد من الذين يَتَحَمَّسون لأي محاولة لوقف الهيمنة الأمريكية على العالم حتى لو كانت في إطار مُنافسة - فإن الحالة هنا أكثر تَعقيداً، بمعنى أن المنافسة الساخنة أمريكية وفرنسية يمكن متابعتها باهتمام والاستمتاع بمشاهدتها وعن بُعد، لكنها في البداية والنهاية صراعٌ لا شأن للعَرَب فيه - لا في مجال المصالح - ولا في مجال اللغة وحمولاتها الثقافية.]

....

....

ولم يلتفت كثيرون من العَرَب إلى معنى اختيار الدكتور «بطرس غالي» أميناً عاماً للأمَم المتحدة في أوائل التسعينات، ومع «لحظة توفيقية» بين الولايات المتحدة وفرنسا.

ولم يلتفت كثيرون إلى معنى اعتراض الولايات المتحدة على تجديد خدمة الدكتور «بطرس غالي» لمدَّة ثانية كانت من حَقِّه تقليدياً - لأن رَغبات التوفيق تَعَثَرَت، وحَلَّت محلَّها تلك المنافسة الساخنة، مما اقتضى اختيار «كوفي عنان»، وتجديد اختياره هذه الأيام لمدَّة خِدمة ثانية.

....

....

[وقد سمعتُ أحد وزراء الخارجية الأوروبيين يقول في مَعرَض محاولة لشرح ما جَرى ويَجري في الأمانة العامة للأمم المتحدة - وقوله بالنص :

«قَضى بطرس غالي طول المدَّة التي قضاها في منصب السكرتير العام للأمم المتحدة وهو يحاول إقناع أمريكا أنه ليس مُرَشَّح فرنسا - لكن «مادلين أولبرايت» كانت تَعرف أكثر.

وقَضى كوفي (عنان) الشهر الأوَّل من عَمَله سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة يُحاول إقناع أوروبا أنه ليس مُرَشَّح أمريكا - ثم تَمالك نفسه وكَفَّ عن المحاوَلة، وتَرَك للأطراف أن يأخذوه كما هو، وإذا حَسَبوه مُرَشَّح أمريكا فهذا حقهم، وأما هو فلم يَعُد مَشغولاً بإقناع أحد - بشيء !»]

....

....

وبحلول المنافسَة مَحَل اللحظة التوفيقية في العلاقات الفرنسية - الأمريكية - ومجيء «عَنان» - عُرِضَ على «غالي» وقَبِل أن يكون سكرتيراً عاماً «للفرانكوفونية».

(وربما أسَجِّل هنا أن رجالاً من طراز «كوفي عنان» و«بطرس غالي» - رجالٌ لهم قيمة في حَدِّ ذاتهم - وكلٌّ منهما مُؤهَّلٌ للمَنصِب الذي وَصَلَ إليه - لكن هناك فارقاً بين القيمة في حَدِّ ذاتها - وبين الملابَسات التي تَحمِل القيمة إلى نقطة الوصول).

....

....

[وفي أواخر الثمانينات وبداية التسعينات بَدا أن مصر تَقتَرب دون داعٍ من «الفرانكوفونية».

وأتذكر أنني سألتُ، وفي السؤال استغراب يُقارب القلق، عن السبب - وقيل لي والقائل مسئول : «إن مصر لم تَقبَل بأكثر من وَضع المراقب».

وكان رَدِّي أن مصر عندما تريد وضع المراقب - سواء في أفريقيا أو غيرها - عليها أن تطل إما من نافذة سياستها الأفريقية المستقلة، وإما من خلال عضويتها كمؤسِّس في منظمة الوحدة الأفريقية - وإما من موقعها الأهم من خلال جامعة الدُوَل العَرَبية.

لكنه يَبدو لي غير مَنطقي أن تُراقِب مصر من موقع «الفرانكوفونية» نفسه.]

....

....

على أن مصر راحَت تَقتَرب أكثر، وكانت المحاولة حثيثة تُشَجِّع اقترابها باعتقاد أنه إغراءٌ لغيرها، ونداءٌ أن الباب مفتوح.

□

ثم كان أن تَقَرَّر لأول مرة عقد مؤتمر «للفرانكوفونية» على مستوى القمَّة - في عاصمة عَرَبية - هي بيروت، والموعد أكتوبر القادم (٢٠٠١).

وذلك في أقل القليل وَضع غير مريح، بمعنى :

١ - أن الدُوَل العَرَبية كلها - وليس بعضها - من واجبها أن تُتابع ما يَجري على الساحة العالمية وتَهتَم به وتأخذ حَرَكَته في علمها وفي حسابها. لكنها وهي تفعل ذلك عليها أن تَعرف أنها طَرَف مُستَقل له مجالاته الشرعية في العَمَل الجماعي الدولي وأولها الجامعة العَرَبية ومؤسساتها - والأمم المتحدة ونظامها - ومَجالات أخرى مُنَسَّقة من العَمَل الجماعي تَهتَم بالمصالح وتحصيل العلوم والتكنولوجيا إلى آخره. أما معسكرات القوى العُظمى، أو مُنافساتها، أو تَحَيُّزاتها - فذلك ما لا شأن لها به.

٢ - أنه إذا كانت الدُوَل العَرَبية - أو بعضها - تريد أن تكون حارسة لغة وحافظة ثقافة، فاللغة العَرَبية أَوْلى بالرعاية خصوصاً وهي أكثر انتشارا من اللغة الفرنسية، وليست أقل غنى، ثم إن هذه اللغة الآن في مأزق لا تجد لنفسها فيه نصيراً إزاء غوائل عصور مُستَجَدَّة - تَستَشعرها فرنسا - وهذا حقها - ولا يَستَشعرها العَرَب، وإذا استشعروها تَرَكوا لغتهم إلى مُنظمة في مُهِمَّتها «حراسة اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية» .

٣ - أنه إذا كانت الدُوَل العَرَبية في حاجة إلى تأثير دَولي نافذ فإن إعادة تنظيم الجامعة العَرَبية - مع قادم جديد يُدير شئون أمانتها العامة - أَوْلى من زيادة تأثير مُنَظَّمة فرنسية هَمُّها تعويض إمبراطورية مضى زَمَنها بدائرة أخرى للنفوذ على نحو ما فَعَلَت الإمبراطورية البريطانية : «الفرانكوفونية» - مثيل فرنسي «للكومنولث».

....

....

ولعله من المفيد هذه اللحظة أن تكون هناك مراجعة تطلب التَثَبُّت واليقين :

- نعم لفرنسا من قلب أوروبا.

- ونعم لفرنسا صاحبة التاريخ وشريكة الحضارة.

- ونعم للفِكر الفرنسي والثقافة الفرنسية.

- ونعم لفرنسا جواراً شمال البحر الأبيض.

لكن فرنسا التي تَقصد التَعويض عن الإمبراطورية مَسألة أخرى !

....

....

ويقال - ضمن ما يُقال - أن هذه القمَّة «الفرانكوفونية» القادمة قَصد مَقصود لدَعم لبنان - البَلَد المضيف لها.

ثم إن ترتيبات القمَّة قاربت أن تكتمل ويَصعُب الرجوع عنها أو إلغاؤها.

لكني أجازف وأتَجاسَر على سؤال :

«ألا يُمكن أن تكون القمَّة القادمة (في بيروت - أكتوبر ٢٠٠١) - تَجَمُّعاً لأصدقاء لبنان وأحبابه يَتَنادون إلى الإحاطة به عرفاناً بقيمته وفضله (حتى على اللغة العَرَبية والثقافة العَرَبية)؟ - وأليس واردا أن لبنان هذه اللحظة يحتاج عالما يحرسه بأكثر مما تحتاج اللغة الفرنسية إلى حارس أفريقي أو عربي؟ - ثم ما الذي يمنع أن يتحول مؤتمر أكتوبر القادم في بيروت على مستوى القمة، إلى تجمع من أجل لبنان وحوله وتكون إدارته وتنظيمه - جهدا مشتركا بين منظمة «الفرانكوفون»، وجامعة الدول العربية، والأمم المتحدة، والمؤتمر الإسلامي، وحتى مجموعة دول الخليج ؟

هل يُمكن؟

ولِم لا؟»

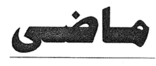
....

....

لسوء الحَظ فإن ذلك السؤال سوف يَظَل بلا إجابة لأن العالَم العَرَبي الآن عَجَلة تَجري مُسرعَة - ولا تَعرف إلى أين ؟

إن المنافســـة الساخنـــة
أمريكيـــة وفرنسيـــة يمكن متابعتهـــا
باهتمام والاستمتاع بمشاهدتها وعـــن بُعـــد،
لكنهـــا فى البـــداية والنهـــاية صـــراع لا شـــأن
للعـــرب فيه - لا فى مجـــال المصـــالح -
ولا فـــى مجـــال اللغـــة
وحمـــولاتها الثقافيـــة

مــن بـــدأ التحـــديـــث:







كريستوفر دي بيليج

■■ منذ تأسيس الجمهورية التركية على أنقاض الدولة العثمانية سنة ١٩٢٣، وهناك من يشجع مواطني الدولة الجديدة على قبول رواية شديدة الانتقائية من التاريخ. وطبقاً لهذه الرواية، فإن الدولة العثمانية والجمهورية التركية على عداء متبادل - فالأولى نظام إقطاعي عسكري يقوم على سياسة إسلامية رجعية، والثانية جمهورية علمانية استمدت مبادئها من مفكري التنوير التقدميين. والدولة غير مأسوف عليها، بينما تحظى الجمهورية بالتمجيد. وأية صلة بين الاثنتين لا تعدو كونها مصادفة.

ولم يكن التاريخ مرناً في شيء مرونته في مقارنة خصال عبد الحميد الثاني، السلطان البارز في نصف القرن الأخير من الدولة العثمانية، ومصطفى كمال أتاتورك، مؤسس الجمهورية. إذ يحلو للمؤرخين الأتراك وصف السلطان عبد الحميد بالدكتاتور الدموي - القاتل والمصاب بجنون العظمة والرجعي. وصحيح أنه ربما ألغى أبرز نظام دستوري مبكر للدولة، وأن في عهده لقي آلاف الأناضوليين حتفهم في ثورتهم ضد المسلمين العثمانيين في تسعينيات القرن التاسع عشر. وقد وصف أتاتورك عبد الحميد بأنه «شخصية كريهة تدمن اللذة والتسلط»، وقد أسعده خلع السلطان ونفيه سنة ١٩٠٩.

ومنذ ذلك الحين والأتراك الجمهوريون - أو «الكماليون» الذين كان أتاتورك الأب المؤسس لهم - يتبنون الرأي ذاته في السلطان. لقد ضخموا على سبيل المثال فشل محاولات السلطان عبد الحميد في الترويج للوحدة الإسلامية. إذ أنشأ خط سكك حديد الحجاز الذي كان ينقل الحجاج الأتراك من اسطنبول إلى الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية التي كانت تخضع للسيطرة العثمانية، إلا أن هذا لم يؤد إلى توحيد المسلمين سياسياً. ومن ناحية أخرى فإن أتاتورك كان يحتقر أبناء دينه من العرب وكان له رأي يزدري الدين بصفة عامة. وفي الوقت الذي يتهم فيه السلطان بتوجيه العائدات الآتية من ضريبة الإنتاج إلى دائني الدولة الأجانب، فإنه يحمد لأتاتورك وضع نظام كفء للمحاسبة. وفي عهد السلطان عبد الحميد كان من الواضح أن الدولة تستحق لقب «رجل أوروبا المريض»، الذي جرى العرف على نسبه إلى القيصر الروسي نيقولا الأول في وقت سابق من القرن، وإن كان هذا غير صحيح. ومن ناحية أخرى، زعمت جمهورية أتاتورك أنها بلد فتي قوي ينمو بسرعة.

ومن الطبيعي أن أكثر من يحتقرهم الكماليون هم الذين يحاولون تبرير أعمال السلطان «عبد الحميد». إن الكماليين يقولون إن الدفاع عن هذا الحاكم الرجعي يرقى إلى مهاجمة أتاتورك نفسه. ولذلك كان المتوقع عند نشر المؤرخ نسيب فضل كساكورك لكتابه «أولو خاقان الثاني: عبد الحميد خان»، وهو السيرة التي كتبها لعبد الحميد، أنه سوف يثير عليه هجوماً مريراً من جانب الصحفيين الكماليين. ووصف الكاتب الصحفي الإسلامي عبد الرحمن ديلبياك عبد الحميد بأنه «أحد أمهر السلاطين».



ومضى سليم ديرينجيل في كتابه الذي صدر مؤخراً إلى أبعد من ذلك في تقدير صفو الحكمة الكمالية التقليدية. وديرينجيل، الذي يعمل أستاذاً للتاريخ في جامعة بوغاز اتشي، وهي أفضل الجامعات العامة سمعة في تركيا، ليس إسلامياً. وهو يأمل في أن تنضم تركيا إلى الاتحاد الأوروبي بعد أن منحت وضع المرشح سنة ١٩٩٩. إلا أنه لا يعتقد فقط أن عبد الحميد ومؤيديه بحاجة إلى أن «ينقذوا...من المهاجمين الكماليين»، بل إنه يرى أن عبد الحميد وأتاتورك «تجمع بينهما أمور كثيرة». وفي معرض البحث الواعي العليم غير المتعاطف الذي يتناول الدولة العثمانية خلال عهد عبد الحميد الذي دام ثلاثين سنة، ومحاولات النظام الحاكم للحفاظ على سلطته بين رعاياه اليائسين، يقدم ديرينجيل بديلاً لعالم التاريخ التركي الازدواجي.

ويؤدي كتاب أندرو مانجو الضخم الذي يحظى بالإعجاب Atatürk وظيفة مشابهة، وإن تمت بطريقة مختلفة. ومع أن أتاتورك نفسه لم يظهر بشحمه ولحمه في كتاب مانجو، فمن المؤكد أن هذا الكتاب سيصبح السيرة المعيارية، لأنه يقدم رواية مفصلة ومقنعة للحياة داخل تركيا في عهد أتاتورك وقبل مجيئه.

بل إنه رغم إعجاب مانجو بأتاتورك، فإن كتابه هو أكثر سير أتاتورك العلمية التي ظهرت حتى الآن انتقاداً له. ويصف مانجو بالتفصيل سمات أتاتورك التي تحاشى تناولها من سبقوه من كتّاب السير، مثل غطرسته الشديدة، وادعاءاته المبالغ فيها بشأن تغييره للتاريخ، والفظاظة والازدراء اللذين عامل بهما المرأة. ويقول مانجو إن أتاتورك لم يكن فوق شبهة «الحكم بإعدام الزملاء السابقين بما يتنافى مع مبادئ العدالة». وفي بعض الأحيان كان نظامه أقرب إلى الفاشية. واعتمدت آخر سيرة باللغة الإنجليزية لأتاتورك، وهي من تأليف باتريك كينروس، اعتماداً كبيراً على تذكر أتاتورك للأحداث. وهو ما لا يفعله مانجو، الذي سيكون لكتابه أثره على أسطورة أتاتورك.

[١]

في أواخر القرن الثالث عشر، خرج عثمان غازي القائد التركماني المسلم على رأس جيش لتوسيع إمارته عند الحدود الأناضولية على حساب الإمبراطورية البيزنطية، التي كانت في سبيلها إلى الانهيار وكانت تحكم جزءاً كبيراً من تركيا واليونان الحاليتين من القسطنطينية. (كانت تربط عثمان قرابة بعيدة بالأتراك السلاجقة الذين كانوا يسيطرون على أجزاء من آسيا الصغرى منذ القرن الحادي عشر). وخلال ثلاثمائة سنة، قضى من خلفوا عثمان على البيزنطيين الأرثوذكس اليونانيين وحولوا القسطنطينية إلى أعظم مدينة مساجد في العالم. فقد حولوا إقطاعية عثمان إلى دولة دينية رفيعة الثقافة ومتعددة الأعراق تتسم بالتسامح بصورة عامة مع رعاياها من غير المسلمين، إلا أنهم تعهدوا كذلك بالجهاد ضد الكفار الذين فشلوا حتى ذلك الوقت في إخضاعهم. وامتد نفوذ الدولة العثمانية من الدانوب إلى الفرات، وعلى امتداد جزء كبير من ساحل البحر المتوسط الجنوبي.

كما سيطرت الدولة العثمانية على العالم الإسلامي. ولكي يعزز العثمانيون مطالبتهم بزعامة المسلمين، ادعوا سنة ١٥١٧ أن آخر الخلفاء العباسيين أوصى السلطان سليم الأول على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة. ورغم الشك في صحة هذه القصة، فقد اعترف ملايين المسلمين في الشرق الأوسط وفي غيره بالسلطان خليفة للمسلمين. وأعلن السلطان سليمان القانوني - الذي وسع حدود الدولة إلى أقصى مدى لها:

أنا زعيم أمة محمد. تصحبني قدرة الله ومعجزات محمد. أنا سليمان الذي يرفع اسمه في الخطبة في مكة والمدينة. أنا الشاه في بغداد، والقيصر في الأراضي البيزنطية، والسلطان في مصر.

وعلى العكس من الأملاك الاستعمارية في غرب أوروبا، كانت الدولة العثمانية إمبراطورية قومية في معناها الأوسع وحسب. ففي زمن محمد الفاتح، الذي استولت قواته على القسطنطينية سنة ١٤٥٣، كانت الأفكار الخاصة بالخلفية العرقية تطغى عليها الالتزامات العمومية المفروضة على الغازي (المقاتل في سبيل الله). ويقول خليل انشنالك، وهو أشهر من يرجع إليهم بشأن الدولة العثمانية في تركيا: «كان الجهاد والاستعمار هما الأساس الديناميكي في الفتوحات العثمانية». وهناك القليل من الأدلة على أن محمداً كان يفكر في نفسه باعتباره تركياً، ذلك أن هذه الكلمة كانت تستخدم في ذلك الوقت استخداماً هجائياً، وكان استخدامها فضفاضاً جداً فيما يتصل بالناحية العرقية. وصارت الكلمة لدى مسيحيي أوروبا الذين لم تخضعهم الدولة العثمانية، مرادفة لكلمة مسلم. وعلى التراب العثماني، كانت «تركي» تعني شيئاً أشبه بالقرع.



وبالنسبة للغريب الذي يألف الطبيعة العنصرية للاستعمار الأوروبي، فإن ما

1- The Well-Protected Domain,
Ideology and legitimation of Power in Othoman Empire, 1876-1909
(الأيديولوجية وشرعية السلطة في الامبراطورية العثمانية ١٨٧٦-١٩٠٩)
By Selim Deringil
IB Touris, 1999, 272pp.

2- Atuturk: The Biography of the Founder of Modern Turkey
(أتاتورك.. سيرة حياة مؤسس تركيا الحديثة)
By Andrew Mango
Overlook Press, 2000, 539pp.

3- A Middle East Mosaic
(فسيفساء الشرق الأوسط)
By Bernard Lewis
Random House, 2000, 512pp.

العثمانيون أم أتاتورك؟

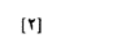
السلطان عبدالحميد

كمال أتاتورك

يجذبه إلى تلك الدولة هو عدم اهتمام العثمانيين بالخلفية العرقية. وكان ذلك التسامح خروجاً عن الفصل العنصري للمسلمين غير العرب في ظل الخلافة العربية المبكرة، وكانت له منافعه العملية. فكثير من أطفال الرعايا المسيحيين، وخاصة من يعملون بالزراعة، جندتهم الدولة وكانوا بمثابة أشخاص متحمسين دخلوا في الإسلام في القصر وفي الحرملك، كما كانوا أفراداً في الإنكشارية - وهي أول جيش عامل في أوروبا. وحظيت هذه التركيبة، التي تجمع بين التحول الديني والتعاون من أجل الخدمة العامة، بولاء الشعوب التي فتحت بلادها، كما أنها حالت دون ظهور طبقة أرستقراطية راضية عن نفسها، وجددت طاقة الطبقة الحاكمة. وكان وزراء محمد الفاتح الخمسة من العبيد السابقين الذين جندوا لخدمة السلطان.

وبالإضافة إلى انفتاح الدولة العثمانية على الاختلاف العرقي، فقد كانت في الوقت ذاته متسامحة نسبياً مع الأقليات الدينية - وهو التسامح الذي يأمر به القرآن، وبات واقعاً عندما برز السلطان حامياً لملايين المسيحيين الأرثوذكس في أنحاء البلقان. وعندما فتح السلطان بايزيد الثاني حدود الإمبراطورية أمام اليهود المطرودين من أسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر، كانت تلك اللفتة منه تنم عن الحرص وبعد النظر، وإلى جانب كونها لفتة إنسانية؛ فإن ذريتهم ستساهم في يوم من الأيام مساهمة كبيرة في خزانة الدولة. وأظهر تعداد ١٨٩٣ للدولة (التي تقلص حجمها في ذلك الوقت) أن من بين السبعة عشر مليون عثماني المسجلين - وربما كان الرقم الحقيقي أعلى من ذلك بكثير - كان هناك حوالي خمسة ملايين ما بين مسيحي ويهودي. وفي اسطنبول نفسها، لم يكن عدد المسلمين يزيد على ٥٠ بالمائة من السكان.

وفي نهاية القرن السابع عشر، اجتمع التوسع التجاري الأوروبي والتقدم التكنولوجي مع سوء الإدارة الاقتصادية العثمانية والنكسات العسكرية والدبلوماسية لتحول جميعها دون المزيد من نمو النفوذ العثماني. وقد تداعت الدولة تحت عدم كفاءة إدارتها، وعدم أهلية الكثير من سلاطينها، وعدم مسايرة جيشها للعصر. وفي الوقت الذي تولى فيه عبد الحميد الحكم سنة ١٨٧٦، كان العثمانيون يعتمدون دبلوماسياً واقتصادياً على القوى الأوروبية الكبرى. وكانت الشعوب الخاضعة لهم تطالب بالاستقلال، متأثرة في ذلك بالحركات القومية التي ظهرت في أنحاء أوروبا. وعندما دخل أتاتورك في خدمة عبد الحميد ضابطاً صغيراً في الجيش، كان بقاء الدولة يعتمد على التلاعب بالخصوم داخل العالم المسيحي الأوروبي، حيث سعى السلطان إلى تأليب كل من الفرنسيين والبريطانيين والروس والألمان على بعضهم البعض. وكثيراً ما كان ينجح في مسعاه.


[٢]

ولد مصطفى كمال أتاتورك في سالونيكا الخاضعة للعثمانيين عام ١٨٨٠ أو ١٨٨١ في جو سياسي عقيم. وقد أمضى فترة تعليمه



اعترف ملايين المسلمين في الشرق الأوسط وفي غيره بالسلطان خليفة للمسلمين. وأعلن السلطان سليمان القانوني - الذي وسع حدود الدولة إلى أقصى مدى لها -: أنا زعيم أمة محمد. تصحبني قدرة الله ومعجزات محمد. أنا سليمان الذي يرفع اسمه في الخطبة في مكة والمدينة. أنا الشاه في بغداد، والقيصر في الأراضي البيزنطية، والسلطان في مصر

العسكري وسط الكآبة والهزيمة. فقبل الحرب العالمية الأولى شكلت الجبل الأسود وصربيا وبلغاريا واليونان تحالفاً عسكريّاً، لتنهي بذلك السيطرة العثمانية على البلقان إلى الأبد. وبعد أن تحالف العثمانيون مع الألمان أثناء الحرب، كانوا يأملون في وقف التوسع الروسي، واستعادة الأراضي التي فقدوها في البلقان. وأخيراً كان أملهم مع استمرار الحرب هو خلق إمبراطورية تركية جديدة في وسط آسيا. ولكن ما حدث هو أن المسئولين العثمانيين شاهدوا رعاياهم وهم يتواطأون مع عدوهم في طردهم من البلاد العربية. واحتلت قوات الحلفاء اسطنبول وشرقي تراقيا وميناء أزمير على بحر إيجة وموانئ جنوبي الأناضول. وما إن حل عام ١٩١٨ حتى لفظ «الرجل المريض» أنفاسه. وكانت القوى الكبرى على وشك اتخاذ قرار بشأن الطريقة التي يتم بها التخلص من رفاته، مع أن السلطة كانت لا تزال في يد الحكومة العثمانية من الناحية الرسمية.

وكان أتاتورك في ذلك الوقت ضابطاً غير معروف على نطاق واسع برتبة لواء سبق له الخدمة بإخلاص في ليبيا، وحارب بامتياز بشكل خاص في صده للهجوم الذي شنه الحلفاء على الدردنيل سنة ١٩١٥، إلا أن أتاتورك كان طموحاً ومتشبثاً بآرائه. وكان يكره تأييد تركيا لألمانيا في الحرب العالمية الأولى. وبدلاً من أن ينتظر نتيجة المفاوضات بين ممثلي الشقيق الأصغر للسلطان عبد الحميد، السلطان محمد السادس وحيد الدين، والحلفاء، شرع في تنظيم المقاومة في الأناضول. ولم يكن تحدي أتاتورك في «حرب الاستقلال» التي شنها للمحتلين البريطانيين والفرنسيين واليونان والإيطاليين وحسب، بل تحدى كذلك النظام العثماني الذي استسلم استسلاماً مخزياً.

وأظهرت معاهدة ١٩٢٠ التي عقدت في سيفْر أن أتاتورك كان حكيماً في توجيهه ضربة إجهاضية. فقد أشار الحلفاء في سيفْر إلى أنهم سيقبلون إنشاء دولة كردية وأخرى أرمينية في الأناضول، على أن تستولي اليونان على أزمير وما حولها. ووقعت الحكومة التركية على المعاهدة، مما فتح ثغرة أمام أتاتورك يناشد من خلالها المسلمين الأتراك في الدولة، الذين وعدهم بألا يقسَّم وطنهم الأناضولي. ومن أنقرة، التي أقام فيها نظاماً حاكماً منافساً لذلك الذي في اسطنبول، رفض المجلس القومي الأعظم، وهو برلمان أتاتورك الجديد، معاهدة سيفْر وأعلن أن من وقعوا عليها من الأتراك خَونة. وبدعم من تركيبة غير محتملة تضم أشباهاً من القوميين الأتراك، والملكيين، والقتلة، شن أتاتورك حملة عسكرية لطرد الغزاة.

وبعد عامين من الكفاح ضد ما اعتبرها كثيرون صعاباً لا سبيل للتغلب عليها، حقق أتاتورك هدفه. فقد ألقى باليونانيين في البحر عند أزمير، ونصت شروط الهدنة على انسحابهم من تراقيا؛ كما سحب البريطانيون والفرنسيون والإيطاليون قواتهم كذلك. وكانت معاهدة لوزان في سنة ١٩٢٣ انتصاراً لأتاتورك. وإلى جانب محو مهانة سيفْر، قدمت المعاهدة اعترافاً دولياً بحكومته وبالجمهورية الجديدة التي ظلت حدودها قائمة حتى يومنا هذا، مع بعض التعديل الطفيف. ورفضت مطالب الأكراد والأرمن.



كان ما أنجزه أتاتورك عظيماً من النواحي العسكرية والسياسية والدبلوماسية؛ فقد نجح في القضاء على الإمبراطورية متعددة القوميات، حيث صورها على أنها تقوم على مفهوم عاطفي عفى عليه الزمن. وما إن انتهت حرب الاستقلال حتى بات واضحاً أنه لن يُسْمَح بعد ذلك بتنوع الأناضول الديني والعرقي. فقد برزت هوية تركية من الصراع العرقي، وخاصة الصراع بين الأتراك والأرمن، الذين لقي حوالي نصف مليون منهم مصرعهم أثناء الإبعاد والمذابح سنة ١٩١٥، وصار مسلمو الأناضول ينظرون إلى المسيحيين الأرمن والمسيحيين بشكل عام على أنهم خونة، واعتبر المسيحيون المسلمين طغاة. وعلى هذه الهوية التركية أقام أتاتورك جمهوريته.

وفي سنة ١٩٢٥ شرع أتاتورك في تبادل بالقوة للسكان بين تركيا واليونان. فقد أرسل ما يربو على المليون أناضولي أرثوذكسي يوناني إلى اليونان، وقطع الرحلة نفسها ٣٨٠ ألف تركي في الاتجاه المعاكس. وعانى كثيرون من المصاعب الجمة، إلا أن هذا التبادل أفضى بعملية التطهير الديني والعرقي إلى خاتمة إنسانية نسبياً. وكان قمع أتاتورك فيما بعد للنزعة القومية الكردية -في جزء منه- رد فعل للطابع الإسلامي الرجعي للثوار الأكراد الأوائل. إلا أنه كان كذلك جزءاً من عملية أكبر للمجانسة تعد حيوية لأمن تركيا. ويقول مانجو: «لم يأت أكبر تغيير في التاريخ الاجتماعي التركي مع إصلاحات أتاتورك، بل سبقها حين غادر المسيحيون البلاد».

وليس مستغرباً أن حرب الاستقلال صارت هي الفصل الأول من التاريخ الرسمي لتركيا الحديثة. فقد خلقت كل من بطولة أتاتورك وخيانة السلطان الظروف المواتية للثورة السياسية والاجتماعية التي تلت ذلك. حيث خرج السلطان من اسطنبول متسللاً على سفينة حربية بريطانية. ولا يمكن ألا يروق هذا لأتاتورك، لأنه زاد من قوة السلطة الأخلاقية التي كان بحاجة إليها كي يقنع الأتراك بقبول إلغاء حكمهم الملكي ثم الخلافة بعد ذلك بعام. وفي سنة ١٩٢٢ اتهم أتاتورك الأسرة العثمانية بالاستيلاء على «سيادة وسلطنة الأمة التركية»، وأضاف «أنهم أداموا هذا الاغتصاب طيلة ستة قرون». وفي وقت لاحق وُصِفَ وحيد الدين بأنه «فاسد». وكانت تلك كلمات مريعة؛ وهي تصور ما آل إليه العثمانيون فجأة.

[٣]

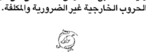
وطبقاً لما يقوله سيفكت باموك، الذي شارك في تأليف كتاب مهم عن تاريخ الدولة العثمانية الاقتصادي والاجتماعي، فقد كان هناك «قرار سياسي اتخذه النظام الحاكم الجديد بأن لا تستمد شرعية من الشرعية القديمة... فعن طريق الإساءة إلى الدولة العثمانية وحده يمكنهم خلق جمهورية

جديدة». وأمضى أتاتورك فترة رئاسته في تشجيع شعبه على اعتبار الدولة القديمة استبداداً متخلفاً منعت أيديولوجيته المرشدة _ وهى الإسلام _نخبته التركية من مجاراة التقدم التكنولوجي والاقتصادى الغربي - وهو الشلل الذى يمكن علاجه بإصلاحاته المحدثة والمعلمنة. وفى كتاب The Emergence of Modern Turkey أيد برنارد لويس أكثر المقولات الأكثر كمالية - وهى أن ثورة أتاتورك كانت تمثل «تحرير آخر الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية».

صحيح أن لويس متعاطف مع أهداف تلك الثورة وأساليبها. إلا أن كتابه The Emergence of Modern Turkey اعترف بأن الدولة الجديدة بدأت فى الظهور حتى قبل أن يولد أتاتورك، وبأن أتاتورك أنهى عملية الإصلاحات التى كان العثمانيون يسعون لتحقيقها منذ بداية القرن التاسع عشر. وفى كتاب «أطول قرون الإمبراطورية»، وهو كتاب عن تاريخ الإصلاح العثمانى فى القرن التاسع عشر، يكرر اتشلبر أورتايل ويشير إشارة واضحة إلى تأثير الدولة العثمانية على النظام الجمهورى. وفى كتابه الأخير، يمضى ديرينجيل بمقولته خطوة إلى الأمام. فهو يقول إن «خيطاً مباشراً يمكن مده من القاعات المذهبة فى الباب العالى إلى مبنى البرلمان الآيل للسقوط فى أنقرة».

بدأ السلطان محمد الثانى الإصلاحات العثمانية بجد وإخلاص فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر، وتم توسيعها بسلسلة من المراسيم الإصلاحية المعروفة باسم «تنظيمات». وشملت تلك الإصلاحات تحديث القوات العسكرية وتحسينات فى التعليم. كما علمنت الإصلاحات النظام القانونى الإسلامى علمنة جزئية، وحدت من نفوذ علماء الدين. بل إن التغييرات التى ينظر إليها حالياً على أنها كمالية خالصة، مثل استبدال الأبجدية العربية بالأبجدية الرومانية لكتابة اللغة التركية، وتحديث الملابس، وتحرير المرأة، كانت قد اقترحت أو بدأ العمل بها فى عصر الدولة العثمانية. كما أن صحافة الجمهورية وبرلمانها وتقليدها الخاص بالسياسة الحزبية تعود جذورها جميعاً إلى الدولة العثمانية.

ولا ينبغى أن نفزع من أن أتاتورك المصلح استمد أفكاره من نماذج عثمانية. فقد ولد عثمانياً وأمضى بداية حياته العملية فى القتال باسمها - سواء أكان يدافع عن الإقليم العثمانى فى ليبيا ضد إيطاليا فى عامى ١٩١١ و١٩١٢، أم كان يقود القوات فى غاليبولى سنة ١٩١٥. وحقيقة أنه أمضى عامين فى صوفيا ملحقاً عسكرياً وكان متحمساً للثقافة الفرنسية بشكل يعيد إلى الأذهان مهندسى التنظيمات الأساسيين - وجميعهم يتحدثون الفرنسية وخدموا فى السفارات العثمانية فى أوروبا. واستفاد أتاتورك نفسه فى شبابه من استثمار عبد الحميد المفرط فى التعليم. وعندما صار رئيساً، اتبع النموذج السلطانى فى تجنب الحروب الخارجية غير الضرورية والمكلفة.



هذا كله يثير سؤالاً، وهو إذا كان أتاتورك تكوَّن بصفته عثمانياً، وكانت معظم السياسات التى نفذها من اقتراح من سبقوه من العثمانيين أو أنهم نفذوها تنفيذا جزئياً، فما هو على وجه الدقة الذى يفصله عنهم؟ لكى نجيب عن هذا السؤال، يجدر بنا استعادة الحجة التى ساقها ديرينجيل بأن أتاتورك وعبد الحميد «كانا سيجدان أن هناك أموراً كثيرة تجمع بينهما». ويتسم تعليق ديرينجيل بأنه مبالغ فيه لوقوعه فى خاتمة كتابه، ذلك أنه يدعونا لتخيل استحالة تاريخية مغرية.

لنتصور السلطان الملتحى فى قاعة الاستقبال بأحد مقار إقامته فى منتزه يلدز، الذى يدفعه خوفه من الاغتيال إلى ألا يغادره إلا نادراً. وكما هو سلوكه مع ضيوفه من غير رجال الدين المسلمين، لا ينهض السلطان العثمانى لمقابلة رئيس الجمهورية التركية. ينحنى أتاتورك ثم يجلس على مقعد يشير إليه أحد الياوران. إنه حليق الذقن وممتلئ من كثرة شرب الخمر. والواقع أنه يود لو يتناول كأساً من «العرقى» فى تلك اللحظة، ولكنه يعلم أنه لا ينبغى له أن يطلبها. وهو يرتدى ملابس رسمية منمقة يتباهى بأن خطوطها جيدة مثل أية ملابس رآها فى أوروبا. إلا أن السلطان لا يشعر بالراحة وهو يرتدى معطف الصباح. فالقفطان المطرز الذى كان أسلافه يرتدونه يناسبه أكثر.

غير أن هناك مشكلة وشيكة. فالتركية العثمانية التى يتكلمها السلطان لغة شديدة الرسمية، وزاخرة بالمفردات العربية والفارسية، ويكثر فيه ذكر الله والرسول، وتستخدم الكثير من الصنعة والتلميحات. الرئيس يفهم ما يقال تمام الفهم، بما أنه ولد وتعلم كعثمانى، ولكن يبدو أنه يجيب بلغة مختلفة كل الاختلاف. وهناك فى عاصمة الجمهورية التركية، أنقرة، يسعى أتاتورك وزملاؤه إلى تطهير التركية من كثير من التأثيرات الفارسية والعربية بقدر الإمكان، حيث يبحثون عن بدائل «تركية» للكلمات «الأجنبية». وعندما يشير السلطان إلى أنه لا يفهم هذه التركية «الأنقى»، يعرض عليه أتاتورك الحديث بالفرنسية أو الألمانية. ويصر السلطان على أى من العربية أو الفارسية. ويستدعى أحد المترجمين.

وبما أن مشكلة الاتصال قد حُلَّت، فبإمكان الرجلين أن يختبرا نظرية ديرينجيل. ورغم ذلك فهما يبدوان وكأنهما ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين. كتاب «روح القوانين» لمونتسكيو، وأوجست كونت، وإتش جى ويلز، والثورة الفرنسية، ومقال بعنوان «هل يمكنك إنكار وجود الإله؟» - يلاحظ عبد الحميد أن كل ما هو غير إسلامى ودنيوى وأوروبى يلفت نظر هذا الرئيس. حتى اسم الجمهورية، تركيا، مأخوذ من الفرنسية Turquie. ويمضى أتاتورك فى كلامه ليصف بالتفصيل تمثالاً له مع العديد من زملائه فى أنقرة، وقد أتمه منذ سنوات مثَّال نمساوى يدعى كريبل. يهز عبد الحميد كتفيه. فقد حظر السلطان عرض تماثيل له فى أنحاء الدولة. ذلك أن هذا مناف للإسلام ويشجع المتآمرين.

ويحاول السلطان أن يعطى الرئيس انطباعاً عما يعتبره عفن أبحاثه الفكرية. وهو يقول إن مهمة المحدِّث الإسلامى هى أن يعيد اكتشاف جوهر الإسلام، الذى يمكن بالضرورة تطبيقه على الحياة الحديثة. كما يقول إن أفضل ما فى أوروبا موجود بالفعل فى الإسلام. على سبيل المثال، أليست «الديمقراطية» سوى تنويع على الآية القرآنية ﴿وشاورهم فى الأمر﴾ « - آل عمران ١٥٩»، التى يأمر فيها الله الرسول بمشاورة أصحابه؟ فلماذا نقلد الغرب برعونة، بينما لدى الإسلام الإجابة عن كل أسئلة الإنسان؟





بالإضافة إلى انفتاح الدولة العثمانية على الاختلاف العرقى، فقد كانت فى الوقت ذاته متسامحة نسبياً مع الأقليات الدينية. وهو التسامح الذى يأمر به القرآن، وبات واقعاً عندما برز السلطان حامياً لملايين المسيحيين الأرثوذكس فى أنحاء البلقان. وعندما فتح السلطان بايزيد الثانى حدود الإمبراطورية أمام اليهود المطرودين من أسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر

ويقطع صوت الأذان المقابلة قبل أن تتدهور. وعند الباب يقود موظف الياوران الرئيس إلى غرفة صغيرة للصلاة خصصت للضيوف. يشير أتاتورك للرجل بأن يبتعد. إنه يريد العودة إلى مزرعته خارج أنقرة. وبينما يغادر المقر، يقتبس فقرة من إحدى خطبه الأثيرة: «أصدق مرشد لإنجاز كل شىء فى هذه الدنيا، ولإقامة الحضارة، وتحقيق النجاح، والاستمتاع بالحياة، هو المعرفة والعلم. والتماس أى مرشد سوى المعرفة والعلم علامة من علامات الغفلة والجهل والانحراف».



إن الفصل بين أتاتورك ومن سبقوه من العثمانيين، حتى من عارض عبد الحميد منهم، يعد فصلاً بين المصلح الذى يدعو للتغيير لظنه أنه سوف يقوى النظام الحالى فى آخر الأمر، والثورى الذى لا تعنى التغييرات نفسها أى شىء بالنسبة له، ما لم تكن مصحوبة بتبديل لذلك النظام برمته. وأشار برنارد لويس برقة فى كتابه The Emergence of Modern Turkey إلى أنه عندما اتجه أتاتورك إلى الحضارة الأوروبية، كان يفهم هذه البديهية أحسن من أى عثمانى آخر. «لا يمكن أن يكون اقتراض حضارة ما لممارسات حضارة أخرى محدوداً أو معزولاً....فكل عنصر يؤتى به من الخارج يأتى معه بسلسلة من التبعات».

وكتاب لويس الأخير A Middle East Mosaic موجز لطيف. ولكن لا شكل له، للآراء الشرقية فى الغرب والآراء الغربية فى الشرق. وهو ينقسم إلى أقسام تحمل أسماء من قبيل «حزمة من الآراء المسبقة» و«الطعام والشراب» و«الفطنة والحكمة» و«النبوءة والإمبراطورية». ومن اللافت للانتباه والمفيد أن تكون بين أيدينا مقتطفات من مذكرات فلوبير بشأن إحدى قوافل الجمال، وملاحظة مارك توين الخاصة بـ«قرية المساكين» فى القدس، إلى جانب برقية كارل ماركس المطولة التى بعث بها من لندن عن حرب القرم، وتوجيهات من العراقيين والإيرانيين والمصريين عن كيفية التعامل مع الجواسيس. ويبدو أن تعليقات آتشيسون على مُصَدَّق، رئيس الوزراء الإيرانى، تأسف أسفاً ضمنياً على الدور الذى قامت به أمريكا فى خلعه سنة ١٩٥٣:

ربما أبطأنا فى إدراك أنه فى المقام الأول إيرانى ثرى ورجعى ذو عقلية إقطاعية تحركه كراهية متعصبة للبريطانيين والرغبة فى طردهم وطرد كل أعمالهم من البلاد، بغض النظر عن ثمن ذلك. لقد كان ممثلاً عظيماً ومقامراً كبيراً.

إلا أنه من الصعب أن نحدد ما الذى يود لويس أن يخرج به القارئ من هذه المجموعة. فقليل من الملاحظات التى ضمَّنها كتابه تبين أى إدراك كبير أو أصالة كبيرة بشأن الفروق بين الثقافات. والمجموعة التى انتقاها لويس، من محاضرات الرحلات والخطابات وغيرها، توضح أكثر

من أى شيء آخر الاحتقار المتبادل والجهل اللذين أوحيا - ومازالا يوحيان - بآراء كل من أبناء الشرق الأوسط والأوروبيين.

[٤]

يرى الزائر العابر أن فكرة فقدان الأب المؤسس لتركيا لسلطته تخالف المنطق والعقل إلى حد ما. فبعد ما يزيد على ستين سنة من وفاته، لم يكن أتاتورك أكثر بروزاً مما هو عليه الآن. فلا يكاد يمر أسبوع دون أن تقيم له إحدى البلديات تمثالاً ضخماً جديداً. كما يعلق موظفو الدولة والمحامون صورته على دبابيس أربطة أعناقهم. ويحيى الساسة، ومنهم أصحاب الآراء التى لا تتفق مع آرائه، ذكراه فى خطبهم. وفى الذكرى السنوية للأحداث المهمة فى حياته (وحياة الجمهورية بالتالى) تتنافس الصحف اليومية مع بعضها فى إبداء الإعجاب به. وتزيِّن المبانى العامة بصور ضخمة لأتاتورك السياسى والجندى ومحب الأطفال.

ولا يزال ملايين الأتراك ينظرون إلى أتاتورك باحترام وتبجيل. فلو لم يطرد المحتلين الأوروبيين فى ١٩٢٢ و١٩٢٣، ويقنعهم بالاعتراف بحدود جمهوريته الجديدة فى لوزان، لربما لم يكن هناك وجود لتركيا التى يعرفونها. بل إن معظمهم يشارك أتاتورك طموحه من أجل شعبه - وهو بناء الدولة القومية الحديثة. ورغم قوة الصحوة الإسلامية الحديثة فى تركيا، والآثار المنهكة لمحاربة الثورة القومية الكردية طوال ست عشرة سنة فى الجنوب الشرقى، فإن معظم الأتراك يتبنون مبدأ كمالياً أساسياً، وهو أن بلدهم بلد علمانى يقوم على أسس قومية.

إلا أن اتفاق الأتراك المحدثين مع جوانب رسالة أتاتورك تصحبه كراهية متزايدة لجوها العام. فمن بين الستة «مبادئ الأساسية التى لا تتغير» التى أدخلها أتاتورك فى الدستور، لا يزال واحد منها فقط بلا تغيير - وهو الجمهورية. أما الخمسة الأخرى - وهى القومية والشعبية والدولية والعلمانية والثورية (الولع بالتغيير) - فقد جرى تعديلها. إذ أثارت الصحوة الإسلامية وقوة الوعى العرقى الكردى المستمرة الشكوك فى العلمانية والقومية، فى حين جعل تأثير اقتصاد السوق الخاص بأوروبا والولايات المتحدة - ناهيك عن صندوق النقد الدولى الذى وقَّعت تركيا اتفاقية معه سنة ١٩٩٩ - سائر المبادئ غير متماشية مع العصر. والأمر الأكثر أهمية هو أن أعداداً متزايدة من الأتراك مستاءة من إشراف الجنرالات ومن السيطرة عليها بالقوانين الاستثنائية وبنود الدستور.

ولا شك فى أن أسلوب أتاتورك الدكتاتورى كان فى مصلحة تركيا أثناء حرب الاستقلال والفترة التالية لها مباشرة. فمن الصعب رؤية الطريقة التى كان يمكن بها لشخص يراعى المعايير الديمقراطية إقناع القادة والإداريين العثمانيين بتحدى سلطانهم وطرد المحتلين الأجانب. إن أى منهج تشاركى ما كان ليخدم أتاتورك فى مساعيه للسيطرة على الجهازين المدنى والعسكرى اللذين أقامهما فى أنقرة. لقد استغل تلك الهيمنة فى خلع سلطة السلطان، وقمع التمرد على الجبهات العديدة، وإعلان الدولة الجديدة، وطرد اليونانيين. ولم يكن بالإمكان إقامة الديمقراطية بين عشية وضحاها كى تتصدى للتحديات التى واجهها أتاتورك عندما كان يسعى لتولى السلطة.



ومن ناحية أخرى، نجد أن الخمس عشرة سنة التى أمضاها رئيساً لجمهورية دستورية فى وقت السلم موضع قدر أكبر من الجدل. ويقول مانجو: «من الناحية النظرية، انتقلت السيادة من السلطان إلى الأمة،... إلا أن أتاتورك هو الذى كان يمارسها باعتباره الرئيس. وكان رئيس الوزراء هو وزيره الأول فى كل شيء ما عدا الاسم». ويرى مانجو فى استنتاجه أن أتاتورك كان محقاً فى عدم تخليه عن القيود المفروضة على المعارضة السياسية فى حياته. وهو يقول إنه فيما بين الحربين «لم يكن بالإمكان المحافظة على الديمقراطية فى كثير من المجتمعات الأكثر ثراء والأفضل تعليماً». وللحق، فإن هذه المجتمعات نفسها - وهى فى أغلبها أوروبية - وضعت أنظمة ديمقراطية فعالة، فى حين فشلت تركيا فى ذلك.

بل إنه منذ الهزيمة التى مُنى بها حزب أتاتورك الشعبى الجمهورى فى انتخابات ١٩٥٠ وكانت بداية سياسة التعددية الحزبية، ذكَّرت ثلاثة انقلابات عسكرية «تصحيحية» الأتراك باهتمام الجنرالات الخطير بالشئون اليومية. وحالت دون الديمقراطية ضغوط الحرب الباردة، حين كانت تركيا دولة مواجهة لحلف الناتو. وكان ينظر إلى معارضة اليسار على أنها مدمرة. وكان هناك قدر كبير من الفساد فى البرلمان والجهاز البيروقراطى. فقد جرى تعويد الأتراك العاديين على الركوع للسلطة مهما كانت. ولا بد أن أتاتورك يتحمل بعض الوزر فى ذلك. فربما وضع دستوره فى سنة ١٩٢٤، الذى يدعو إلى برلمان يتم انتخابه من خلال حق التصويت للذكور وحدهم، إطاراً للتحول الديمقراطى فيما بعد؛ إلا أن كمال حكم باعتباره دكتاتوراً فعلياً، وكان عدم سماحه للديمقراطية بالانتعاش فى فترة رئاسته بمثابة سابقة تنذر بالسوء. إنه تعليق سيئ على نوعية الحياة العامة التركية أن يظل أتاتورك أهم شخصية فى سياسة البلاد بعد ستين سنة من وفاته.

إن التلاعب بذكراه منظر يتسم بالبشاعة، ذلك أنه يجعله يبدو وكأنه رجل تافه ومنتقم، لا صاحب رؤية كما كان. ويتذكر الجنرالات وكبار الساسة مبدأه الخاص بتركيا الموحدة عندما يلقون القبض على الأكراد، الذين يعرِضون مطالب خاصة بالحقوق الكردية، ويدينونهم. واستحضر الجنرالات ذكرى أتاتورك منذ ثلاث سنوات عندما أخرجوا أول حكومة إسلامية فى تركيا من السلطة.





أن فكرة فقدان الأب المؤسس لتركيا
لسلطته تخالف المنطق والعقل إلى حد ما.
فبعد ما يزيد على ستين سنة من وفاته، لم يكن
أتاتورك أكثر بروزاً مما هو عليه الآن. فلا يكاد يمر أسبوع
دون أن تقيم له إحدى البلديات تمثالاً ضخماً جديداً.
كما يعلق موظفو الدولة والمحامون صورته
على دبابيس أربطة أعناقهم

وفى الوقت الذى يدرس فيه الأتراك احتمال أن يتخلوا طواعية عن قدر كبير من سيادة أتاتورك التى حصلوا عليها بشق الأنفس وينضموا إلى الاتحاد الأوروبى، فإنهم يعيدون تقييم التاريخ الكمالى ومعه مواقفهم من الدولة العثمانية. وطبقاً لما يقوله المؤرخ التركى اتشلبر أورتايل، فإن تزايد الاهتمام مؤخراً بالعصر العثمانى مرجعه إلى الرغبة فى اكتشاف «ما هو معنى الدولة العثمانية». وربما يعود بعض من هذا إلى الحنين إلى الماضى؛ فقد كانت الدولة العثمانية، حتى فى مرحلتها الأخيرة، قوة عظمى، بينما تركيا ليست كذلك. وهو فى جزء منه تسجيل نقاط من جانب الإسلاميين الأتراك الذين يحبون أن يثيروا حفيظة العلمانيين بثنائهم على حماس الدولة العثمانية الدينى. إلا أن النتيجة النهائية واضحة: فكما يمكن لنا أن نتوقع، سوف يميل التاريخ الكمالى لمصلحة الكمالية، وكلاهما قد أصابه التصدع.

وكانت الغلطة الكمالية الأساسية هى تجاهل المسألة التى يواجهها أى بلد إسلامى يسعى إلى التحول الاجتماعى والسياسى على النمط الأوروبى أو الأمريكى الشمالى. فإلى أى مدى يمكن التوفيق بين شعب من الشعوب، جزء كبير منه من المسلمين المؤمنين، وبين أساليب الحكم والتفكير الغربية؟ ويوحى النجاح النسبى لثورة أتاتورك بأن هذا ممكن، ولكنه شديد الصعوبة. وحتى الآن لم يتحقق الهدف إلا على حساب المُثُل الأوروبية القيمة الأخرى، كالحرية وحقوق الإنسان. وبما أن الأتراك يحلقون تحليقاً مشكوكًا فيه على أبواب الاتحاد الأوروبى، فلا بد أنهم يحاولون العثور على حل أكثر إرضاء لهذا التناقض. وفى إيران المجاورة، حيث الجدل أصعب من أن يتم، يحاول مصلحو الديمقراطية الشيء نفسه.

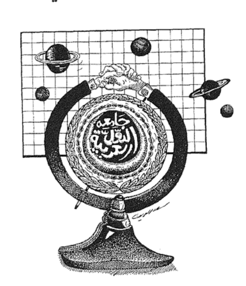
وإذا كان على تركيا أن توفق فى نهاية الأمر بين الجوانب الجمهورية والإمبراطورية وجوانب حكم رجال الدين الخاصة بهويتها، فحينئذ سيكون التاريخ مرشداً مهماً. ويبدو أن أعداداً متزايدة من عامة الأتراك توافق على ذلك. ففى سنة ١٩٩٨ شاركوا فى احتفال على مستوى الأمة بالذكرى الخامسة والسبعين لميلاد الجمهورية. وفى العام الماضى أحيوا ذكرى مرور سبعمائة سنة على ميلاد الدولة العثمانية التى خلعتها الجمهورية وشانت أيديولوجيتها، وإن كان الاحتفال على نطاق أضيق. وليس هذا خروجاً على القياس كما قد يبدو. فداخل معظم الأتراك هناك شيء من أتاتورك وشيء من عبد الحميد، بغض النظر عما تقوله لهم كتبهم المدرسية. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة: أحمد محمود

لكى لا يطغى الوطنى على القومى

أى مستقبل للجامعة العربية؟

ناصيف حتي



تصور الكثيرون أن النظام العربى الذى عاش حالة من الفوضى والتفكك والانكشاف الكلى فى التسعينيات قد دخل مرحلة الاحتضار وبقى فقط الإعلان الرسمى عن وفاته. فأزمة الخليج الثانية كشفت العجز الذى كان يعيشه النظام العربى ودفعت تداعياتها إلى تعميق حالة «اللانظام» والفوضى. وإذا كانت للحرب فى الخليج تداعيات سلبية على هذا النظام فإن تداعيات السلام المنقوص فى الفضاء العربى الإسرائيلى قد سمحت ،لا بل شجعت البعض الإسرائيلى والخارجى على التشكيك بقومية النظام معتبرة إياها مسئولة عن التخلف وحاجزًا أمام التقدم وللتذكير فقط دعا شيمون بيريز إلى التخلى عن جامعة الدول العربية باعتبارها تنتمى إلى الماضى الذى يجب إقفال صفحته والتفكير بصيغ تعاون جديدة. كل ذلك سمح بطرح مشاريع إقليمية تقوم على الجغرافيا الوظيفية بشرط نفى الهوية العربية، وكأنما، كما أشرنا فى مقال سابق، «شرط تحقيق السلام والتقدم والتحديث يتطلب من العرب وحدهم، دون غيرهم، فى عالم يتسم بانتعاش الهويات وتجددها، التخلى عن هويتهم» وكأنما أيضًا لا تستطيع الجغرافيا القومية أن تحتضن الجغرافيا الوظيفية التعاونية. وتشكل بالتالى وعاء لهذه الأخيرة دون أن يكون ذلك الوعاء مقفلاً على الخارج فى عصر العولمة أو غير متصالح مع بيئته المباشرة ولكن بالشروط التى يحددها لهذه المصالحة.

إذا كان السؤال القائم فى التسعينيات من نوع هل من مستقبل لجامعة الدول العربية يحمل نوعًا من التشاؤم الحتمى فإن بعض المعطيات تسمح بتحويل السؤال إلى: أى مستقبل لجامعة الدول العربية وهو سؤال يحمل نوعًا من التفاؤل المشروط. وإذا رأى البعض أن العرب عاشوا لحظات قومية فى الماضى سرعان ما انتهت إلا أن المعطيات الجديدة بما تحمله من تغيير قيمى ومؤسسى تسمح بالحديث عن نشوء نظام عربى جديد يقترن بولادة جامعة عربية جديدة، ولابد من التذكير بإحدى المسلمات المعروفة على صعيد السياسة الدولية وقوامها التلازم الوثيق بين النظام الإقليمى، فبقدر ما يكون الأول متطورًا بقدر ما تزداد فعالية الثانى، الأمر الذى يساهم بدوره فى تطوير النظام الإقليمى والعكس صحيح.



المعطيات الثلاثة هى - أولاً - مأسسة القمة العربية ودوريتها بعد أن بقيت القمة موسمية وعرضة للتجاذبات السياسية وخارج إطار الجامعة منذ خمسين عامًا ونيف، الأمر الذى أضعف القمة من جهة وأبقى الجامعة ضعيفة من جهة أخرى رغم كل الدعوات التى تمت فى الماضى لإدماج القمة فى الجامعة العربية ويعتبر القرار الصادر عن مؤتمر القمة العربى غير العادى المنعقد فى القاهرة فى ٢١ - ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٠، تحولاً نوعيًا وتاريخيًا على الصعيد المؤسسى. صحيح أن استقرار القمة كأعلى سلطة تقريرية لمجلس جامعة الدول العربية لايعنى النجاح التلقائى فى حل الخلافات العربية لكنه يعنى توفير أفضل الفرص لاحتواء الخلافات أو تجميدها أو تسويتها كما أن دورية القمة تزيد من هذه الفرص وتمنع من تلافى تناول بعض الخلافات الرئيسية أو تجاهلها، زد على ذلك أن عنصرى الاستمرارية ومستوى صناعة القرار الجماعى خاصة بالنسبة لطبيعة صناعة القرار فى الدول النامية، تضفيان مزيدًا من المصداقية والجدية على القرارات العربية. كما يلحظ الملحق الخاص لميثاق جامعة الدول العربية بشأن القمة حق الدعوة لدورات غير عادية إذا ما استدعى الأمر ذلك مما يضفى مرونة على دور القمة ولا يجعلها أسيرة قوالب زمنية. ويعطى الملحق هذا الحق بطلب عقد دورات غير عادية يستدعى عقدها موافقة ثلثى الدول الأعضاء إلى الأمين العام وهو ما يعزز دور هذا الأخير فى رصد الأزمات العربية أو العربية الدولية وفى الدبلوماسية الوقائية. من المكاسب الجانبية أيضًا أن القمة توفر الإطار للقاءات تهدف إلى تسوية خلافات أو احتواء أخرى كان من الصعب عقدها خارج إطار هذه الآلية العربية نظرًا لاعتبارات عديدة معنوية وغيرها قد تحكم أطراف اللقاء فى حين توفر القمة المخرج الأمثل لهذه القمم المصغرة ذات الهندسات المختلفة.

وفى سياق تعزيز أجهزة الجامعة العربية، كان مجلس الجامعة قد أقر فى ٢٨ مارس ٢٠٠٠ إنشاء آلية جامعة الدول العربية للوقاية من النزاعات وإدارتها وتسويتها بين الدول العربية التى تعمل تحت إشراف مجلس الجامعة. وستعطى عملية مأسسة القمة دفعًا قويًا لتفعيل هذه الآلية الأساسية فى الدبلوماسية الوقائية.

ثانيًا: انتشار قيم ومفاهيم التعاون الاقتصادى واستقرارها فى اتفاقيات عربية ومن الأمثلة على ذلك إنشاء منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى والعديد من اتفاقيات التجارة الحرة الثنائية، إلى جانب التعاون القطاعى مثلاً فى مجالى الربط الكهربائى والغاز الذى يضم مصر وسوريا والأردن ولبنان وأخيرًا تبنى القمة عقد المؤتمر الاقتصادى العربى الأول فى القاهرة فى نوفمبر ٢٠٠١ بناء على مبادرة جمهورية مصر العربية وتكمن أهمية المؤتمر فى شموليته إذ أنها المرة الأولى التى يشارك فيها إلى جانب الأطراف الرسمية القطاع الخاص والعربى وكذلك الأجنبى والمؤسسات الاقتصادية الإقليمية والدولية، ومشاركة هذه الأطراف ضرورية فى ظل العولمة واقتصاد السوق لإنجاح أهداف هذا المؤتمر. وعلى صعيد آخر خص البيان الختامى للقمة العمل الاقتصادى العربى المشترك بفقرات عديدة وبشكل دقيق وتفصيلى ويعكس ذلك التوجه العربى «الجديد» نحو إيلاء «المسألة الاقتصادية» الأهمية التى تستحقها فى عملية تطوير التعاون العربى المتعدد الجوانب.

ثالثًا: الاهتمام الكبير الذى أولته القمة وبلغة واضحة أيضًا لعملية الإصلاح الشامل للأمانة العامة للجامعة والدعم والصلاحيات التى منحتها فى هذا الخصوص للأمين العام للانطلاق فى ورشة إعادة الهيكلة والإصلاح ويسمح ذلك ليس فقط بإعادة تنشيط دور الأمانة العامة ولكن بالعمل أيضًا على بلورة وظائف جديدة لها وتوسيع وظائف قائمة لتكون «دينامو» أساسيًا فى عمل جامعة الدول العربية. ويعبر هذا التوجه عن أهمية الدور المستقبلى الذى يوليه القادة العرب للأمانة العامة.



إن المعطيات السابقة تدفع باتجاه إحداث المصالحة المطلوبة بين «القومى» و«الوطنى» اللذين يشكلان ثنائية شديدة التعقيد فى النظام العربى وإحدى أهم خاصيات هذا النظام. وتبقى هذه الثنائية من مصادر التأثير الأساسية فى السياسات العربية وفى العلاقات بين المجتمع والدولة من المنظور العربى. فهى قد تكون مصدر توتر وتدخل من جهة كما أنها قادرة أن تكون مصدر تعبئة للإمكانات العربية، وقوة للنظام العربى ودوله من جهة أخرى فيما لو تم خلق تناغم بين طرفى هذه الثنائية.

فلم يعد من الجائز أن يبقى «القومى» غطاء انتقائياً، خاصًا ببعض القضايا أو موسميًا أو الاثنين معًا، لمصالح «وطنية» أو انعكاسًا لمشاعر أو عواطف جامعة، مهما كانت هذه مشروعة لكنها غير قابلة للتحول إلى سياسات عملية وقادرة أن تكون فقط مصدر اضطراب وإحباط وقلق. ولم يعد من الجائز أيضًا أن يبقى «الوطنى» ذا حساسية سلبية مفرطة تجاه الآخر العربى فى عصر لم تعد علاقات الاعتماد المتبادل فيه خياراً وطنيًا بل واقعًا موضوعيًا يزداد رسوخًا يومًا بعد يوم. فالتطلع إلى التقدم يفترض التطلع إلى الاندماج فى فضاء إقليمى أوسع من «الوطنى». يتطلب ذلك كله ونحن على مفترق طرق إحداث تطور ومراجعة فى ثلاثة مجالات رئيسية. أولها: تفعيل مؤسسات العمل العربى المشترك، الأمر الذى يستدعى بداية البحث بطبيعة عمل القمة فالتنفيذ

(*) الأفكار الواردة فى المقال تعكس وجهة نظر الكاتب ولا تمثل بالضرورة رأى المنظمة التى يعمل بها



والمتابعة والمساءلة الجماعية من العناصر الضرورية لإعطاء مصداقية لمفهوم القمة الدورية ولقراراتها التى يجب أن تكون ذات قابلية للتنفيذ ضمن فترة زمنية محدودة هى المسافة التى تفصل بين القمتين. الأمر الذى يستدعى بداية إنشاء آلية خاصة لذلك: ترويكا وزارية هى فى حقيقة الأمر رباعية تضم وزراء خارجية الرئاسة السابقة والرئاسة الحالية والرئاسة اللاحقة مع الأمين العام للجامعة، تعمل بإشراف رئاسة القمة التى تتشاور دون شك مع الترويكا الرئاسية بشكل خاص فى هذا المجال، من أجل متابعة تنفيذ قرارات القمة على جميع الأصعدة.

وتكون هذه الترويكا بمثابة الجهاز الدبلوماسى والتنفيذى للقمة ولا ضير، تلافيًا لحساسيات قد تنشأ أو لتلافى الالتباس والازدواجية فى بعض المجالات، فى أن تنضم إلى هذا الجهاز رئاسة مجلس الجامعة على المستوى الوزارى وهى رئاسة نصف سنوية، وقد يكون من المفيد التفكير لاحقًا بأن يتولى وزير خارجية دولة رئاسة القمة رئاسة الدورتين الوزاريتين والإبقاء على الترويكا المذكورة سابقًا فى هذا الإطار تلافيًا للاضطراب المؤسسى وتبسيطًا للعمل العربى خاصة أننا أمام جهاز واحد فى نهاية الأمر هو مجلس الجامعة الذى ينعقد على مستويات مختلفة ولا يجوز بالتالى أن تكون هنالك رئاستان مختلفتان تعتبر كل منها رمزًا وتعبيرًا عن المؤسسة العربية ذاتها وفى الإطار العام ذاته.

ومن مهام الترويكا الوزارية دون شك تقديم تقرير سنوى إلى الرئاسة يتعلق بتقويم تنفيذ القرارات التى اتخذتها القمة السابقة لتكون هنالك مساءلة جماعية فى بداية كل قمة حول ما آلت إليه قرارات القمة السابقة وهو ما يشجع على تخفيض سقف بعض الأهداف العربية فى صياغة قرارات القمة لتبقى منسجمة قدر الإمكان مع الإمكانيات التى ستوضع فى خدمة هذه الأهداف حتى يمكن تنفيذها وهو ما يشجع أيضًا على الابتعاد عن الخطاب السياسى «العاطفى» والعام والمبهم ومحاولة صياغة مواقف عملية محددة يمكن ترجمتها فى عمل دبلوماسى جماعى.

لابد أيضًا من إحداث تقويم شامل لعمل المنظمات العربية المتخصصة. ينطلق هذا التقويم من ضمن المنظمة ذاتها فى مرحلة أولى ثم يجرى فى إطار مأسسة الجامعة ككل آخذين بعين الاعتبار عنصرين رئيسيين: أولهما: أن على هذه المنظمات أن تتعامل مع الثقافة الوظيفية الجديدة السائدة فى العالم بجميع عناصرها لتوفير خدمة أمثل للمصالح العربية، وثانيًا: نشاط هذه المنظمات يجب أن يندرج دائمًا فى خدمة أهداف الجامعة ككل كما تحدد سياستها القمة فى المجالات التى تخص عمل هذه المنظمات.

ثالثًا: أن المحور الأساسى للإصلاح والتحديث يتعلق بالأمانة العامة للجامعة التى لا يجب أن تكون جهازًا تنفيذيًا «عصريًا» فحسب بل «صندوق أفكار» (Boite A Idees) لأجهزة العمل العربى المشترك لتكون فى موقع المحرك والمبادر وليس فقط فى موقع المنفذ. ومفهوم صندوق الأفكار يتطلب أن تعمل الأمانة العامة أيضًا ضمن صيغ مختلفة ومرنة كجهاز رصد للتطورات والمستجدات على الصعيدين الدولى والعربى تستطيع من خلال ذلك أن تبلور أفكارًا ومقترحات وتصورات عملية للسياسات العربية المشتركة أو أن تقترح سياسات جديدة تستدعيها هذه المستجدات.

ومن أجل تنشيط الأمانة العامة وضخ دماء جديدة فى جسدها الوظيفى من المفيد الأخذ بالعناصر التالية:

أولاً: فيما يتعلق بالتوظيف، البدء من أول السلم الوظيفى أسوة بما يجرى فى وزارات الخارجية وتلافيًا لإحداث أى اضطراب وظيفى أو معنوى فى الهيكل الإدارى، الأمر الذى يحصل عادة من خلال ما يعرف بنظام «الإسقاط بالمظلة» المعمول به فى الأمانة العامة وهو نظام يتعارض مع مفهوم «الجسم الدبلوماسى» إذ قد يدخل شخص فى وظيفة عليا من خلال احتساب فقط لسنوات تخرجه أيًا كانت خبرته فى الخارج ليتقدم على من هو «ابن» المؤسسة وتدرج فيها واكتسب الخبرة التراكمية المطلوبة فى مجالات عملها. ويمكن إبقاء استثناء فى أضيق المجالات فى هذا الباب إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، إن إعمال هذا المبدأ يساهم فى تصحيح الخلل الكبير الحاصل فى الهرم الوظيفى للأمانة العامة.

ثانيًا: ودون المساس بنظام الكوتا أو المحاصصة بين الدول الأعضاء يجب أن يكون الاختيار من خلال امتحانات عامة تقوم على المعايير المعمول بها فى مجمل وزارات الخارجية من خلفية علمية وثقافية عامة ولغات أجنبية إلى جانب العوامل الشخصية التى يفترض أن تتوافر فى كل دبلوماسى أو موظف دولى والتى تختبر فى الامتحان الشفهى على أن يقضى الموظف الجديد دورة تدريبية متنوعة قد تطول لسنة كاملة يتنقل خلالها فى جميع إدارات الأمانة العامة. فأيًا كان التخصص الذى يحمله الموظف الجديد والمجال الوظيفى الذى يتطلع للعمل فيه فإن عمله يتأثر ويؤثر فى جميع القطاعات الوظيفية فى الأمانة العامة، الأمر الذى يستدعى أن يكون على اطلاع ودراية كافيين بمختلف أعمال هذه القطاعات، زد على ذلك أنه فى نهاية الأمر يمثل الجامعة العربية ولا يمثل تجاه الآخرين قطاعًا وظيفيًا معينًا مما يفرض عليه أعباء شمولية التمثيل. وإلى جانب الدورة العملية، يخضع الموظف الجديد لدورة تعليمية تشمل محاضرات وندوات مصغرة تتناول مختلف جوانب آليات العمل العربى المشترك والقضايا والمسائل التى تعنى بهذه الآليات.

ثالثًا: إقرار نظام الدورات التدريبية المتخصصة والعامة لجميع موظفى الأمانة العامة حول مختلف المسائل والقضايا التى يعنى بها عملهم كأن تشمل هذه الدورات محاضرات مكثفة إلى جانب تقنية المحاكاة للتدريب على العمل الدبلوماسى.

رابعًا: إن إعادة الهيكلة تتطلب التكيف مع تغير الاهتمامات والأولويات فى العقود الخمسة الماضية ومعها الأدوار والوظائف التى تقوم بها الجامعة أو التى بصدد القيام بها أو تعزيزها. فاللجان المتخصصة والتى تضم أعضاء من إدارات مختلفة (Interdepartmental) حسب المسألة المطروحة والتى تعمل كجهاز متابعة واتصال «وحزام نقل» الأمين العام، تزيد من مرونة وفعالية العمل فى الأمانة العامة. كذلك الأمر بالنسبة لخلق نظام «الملفات» المختصة.

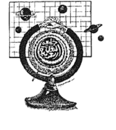
وخامسًا: من الضرورى منح الأمين العام سلطات كافية تسمح بإرساء نظام حوافز مرن يستطيع من خلاله تنشيط العمل بواسطة خلق حالة من التنافس الإيجابى بشكل مستمر ومنع حصول حالات من الركود الذهنى والكسل الوظيفى التى عادة ما تصيب الإدارات الجامدة بالترهل. وأخيرًا لابد من إضافة ملحق إلى الميثاق العام يعطى الأمين العام الصلاحيات التى تعطيها المادة ٩٩ من ميثاق الأمم المتحدة لأمين عام المنظمة الدولية.

ثانى المجالات الخاصة بالمراجعة والتطوير تتعلق بالنظام العربى، وبداية لابد من التأكيد على ضرورة إيلاء الشأن «الداخلى» العربى أولوية مطلقة مقارنة بالشأن «الخارجى» الدولى فلا يمكن أساسًا بلورة سياسة عربية خارجية فعالة إذا لم تستند إلى بيت عربى فى حالة مصالحة مع ذاته وعلاقات عربية عربية مستقرة تسمح بتوظيف الحد الأدنى الممكن من الإمكانات الجماعية خدمة لعلاقات «خارجية» ناشطة تخدم الكل العربى. فإذا كان «الداخل» مصابًا بتناقض وتضارب فى الأولويات وتبعثر فى السياسات، تدخل السياسة الخارجية المشتركة فى عالم المستحيلات أو تصبح من نوع سياسات التمنى والمناشدة التى تفقد كل تأثير والأمثلة على ذلك كثيرة آخرها فى التسعينيات.

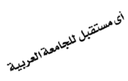
وتشكل آلية جامعة الدول العربية للوقاية من النزاعات وادارتها وتسويتها بين الدول العربية أحد أهم المداخل لهذا الدور العربى. ومن الضرورى الإسراع فى تنفيذ القرار الخاص بإنشاء هذه الآلية وربما إحداث تعديلات طفيفة عليه بسبب المستجدات الحاصلة من خلال مأسسة القمة خاصة فيما يتعلق بتشكيل الجهاز المركزى وهو جهاز وزارى.

وفى تقديرى أن هيئة الحكماء التى ينشئها هذا الجهاز يمكن أن تلعب أيضًا دورًا استشاريًا بالنسبة للأمين العام خارج الصلاحيات المحددة فى الآلية والخاصة بالنزاعات، لتكون أحد الروافد المؤسسية الرئيسية فى مساعدة الأمين العام على بلورة أجندة تحركه على الصعيد العربى. وقد يكون من المفيد العمل على إنشاء محكمة العدل العربية لتكون الجهاز القانونى إلى جانب هذا الجهاز السياسى فى دبلوماسية احتواء وتسوية النزاعات العربية. فمن أهم أدوار الجامعة العربية العمل على دفع عملية مأسسة مختلف جوانب العلاقات العربية العربية سواء من خلال إنشاء هذه الأجهزة أو قوننة دور الأمين العام ونشر قيم الثقافة المؤسسية العربية للتعاون مع مختلف أوجه العلاقات عن تعاونية وخلافية والتأكيد على منافع هذا المدخل.

تبقى هنالك أيضًا مهمتان أساسيتان للجامعة؛ أولاهما: أن تكون بمثابة حزام نقل للأفكار والحوار بين النظام الدولاتى العربى



من الضرورى منح الأمين العام سلطات كافية تسمح بإرساء نظام حوافز مرن يستطيع من خلاله تنشيط العمل بواسطة خلق حالة من التنافس الإيجابى بشكل مستمر ومنع حصول حالات من الركود الذهنى والكسل الوظيفى التى عادة ما تصيب الإدارات الجامدة بالترهل



(State System) والنظام المجتمعي العربي في مختلف قطاعاته. وتساهم من خلال ذلك في تعزيز شرعيات العمل العربي وفي ترشيد هذا العمل من جهة وتعبئة الإمكانات والموارد العربية من جهة أخرى لدعم هذا العمل العربي. وللجامعة أن تنشط في إنشاء «لوبيات» لها في الدول العربية من جمعيات أصدقاء للجامعة أسوة بما هو قائم بالنسبة للأمم المتحدة. تعمل هذه الجمعيات في تدعيم هذا الحوار الذي أشرنا إليه ويكون دورها مكملاً لدور الجامعة.

ثاني هذه المهام: وهي منبثقة عن الأولى، قوامها أن تنشط الجامعة بواسطة الأمانة العامة والمنظمات المتخصصة على دعم وتعزيز دور الهيئات غير الحكومية في مختلف القطاعات وإحداث ربط بينها وتشجيع انشاء مجتمع مدني عربي من قوى وقطاعات ناشطة ذات اهتمامات ومصالح «عربية»، ولا داعي للتذكير بوجود علاقة جدلية «إيجابية» بين مجتمع مدني إقليمي حيوي وتنظيم إقليمي ناشط وفعال. فالتجربة الأوروبية خير مثال على ذلك.

خلاصة القول أنه بقدر ما تنجح الجامعة في الإسهام في مأسسة العلاقات العربية العربية والإسهام في خلق مجتمع مدني عربي بقدر ما تنجح في تطبيع العلاقات العربية العربية وإرسائها على قواعد ثابتة وتقاليد مستقرة وهي شروط ضرورية لتثمير الإمكانات العربية وتعظيمها.

ثالث مجالات المراجعة والتطوير يتعلق بالخارجي أو الدولي، وبداية لابد من التأكيد على الصعيد المفهومي أن المقصود بالسياسة الخارجية للجامعة العربية هي السياسة المشتركة وليس الموحدة إذ أن هذه الأخيرة من الصعب تحقيقها مادمنا نتحدث عن دول لها أولويات مختلفة، والسياسة المشتركة تعني تحديد مساحة التوافق بين الدول الأعضاء في الجامعة والعمل دائمًا على توسيعها والبناء عليها.

من ينظر إلى العلاقات العربية المشتركة مع الخارج يلاحظ بسرعة أن بعض هذه العلاقات التي شهدت ازدهارًا ولو نسبيًا في الماضي قد أصيبت بالبهتان والتهميش والترهل وأننا مازلنا نردد بشكل تلقائي ودوري بضرورة العمل على إحياء هذه العلاقات التي توقف بعضها لأسباب سياسية مثل الحوار العربي الأوروبي والتعاون العربي الأفريقي كما أن هنالك علاقات يفترض أن تكون على درجة عالية من الأهمية لم ننشئها أو لم نهتم بإنشائها أو قد سبقنا المجتمع المدني العربي إلى ذلك مثل العلاقات التي يجب أن تقوم مع دولتي الجوار إيران وتركيا اللتين ترتبط معهما بعلاقات استراتيجية وحضارية أيًا كان الوضع السياسي الذي تعيشه تلك العلاقات، وقد جرت حوارات أكاديمية وفكرية عربية تركية وعربية إيرانية ولم يحدث شيء بعد على الصعيد الرسمي وهذه من المهام الأساسية الملقاة على عاتق الجامعة.



والمطلوب في تقديري وقفة مع الذات هدفها - أولاً - بلورة تصور يتعلق بالعلاقات من «حوارات» وشراكة استراتيجية بمفهوم الشمولية والاستمرارية والتنوع التي على الطرف العربية، جامعة الدول العربية وثانيًا: بعد تحديد هذه الأطراف، إيجاد «مجموعات تفكير» متخصصة كل منها في إحدى هذه العلاقات المعطلة أو المعلقة أو المنشودة. تضم كل من المجموعات خبراء تختارهم الدول وخبراء يختارهم الأمين العام لإحداث تقويم كلي للعلاقات المعنية من خلال استخلاص دروس الماضي ومحاولة تحديد الجوانب الممكنة لهذه العلاقات ونقاط الالتقاء والاختلاف المحتملة ومحاولة استكشاف وفهم المتغيرات الحاكمة عند الطرف الآخر لعلاقاته العربية لتشكل هذه الأفكار والتصورات مادة لاتخاذ القرار الرسمي بإعادة صياغة العلاقات مع أفريقيا ومع أوروبا مثلاً على قواعد ستكون دون شك مختلفة جذريًا عما كان قائمًا في الماضي. كما أنه من المفيد البحث في إقامة حوارات استراتيجية على الصعيدين الرسمي وغير الرسمي ولو برعاية رسمية مع القوى الكبرى. وهنالك حوار قائم مع الصين الشعبية وبناء على مبادرة صينية أساساً ولو أنه بحاجة لتنشيط أو إعادة تصويب لتصبح هذه الحوارات المتغيرة بأشخاصها تقليدًا راسخًا في العمل العربي المشترك وتؤسس منتديات لها. وعلى الصعيد الخارجي أيضًا هنالك الجانب الإعلامي الاستراتيجي وهو جانب يعيش حالة من الإهمال والقصور. فبقدر كون الإعلام المباشر الذي يقوم على نقل المعلومات والمواقف ضروريا ومفيدًا إذا ما جرى تلافي المنطق الإعلاني والتبسيطي والدعائي، بقدر ما أن المطلوب التركيز على الإعلام الثقافي. وهذا الأخير استراتيجي الأفق وشمولي الأبعاد، إذ يعني بتغيير الصور والمدركات الحسية التي يحملها الغير عن «العرب» وقيمهم وقضاياهم ويكون ذلك من خلال العمل على تقديم صورة حقيقية عن الجانب المطروح لكنها تضع الأمور في نطاقها التاريخي السوسيولوجي مثلاً مما يسمح بفهم السلبيات في إطارها الصحيح متى وجدت وتقدير الإيجابيات.

ويمكن للجامعة العربية أن تعمل الكثير في هذا المجال في عصر ثورة الاتصالات من خلال آليات مختلفة مثل الندوات والمحاضرات وتبادل الوفود والقوافل الثقافية المختلفة على سبيل المثال وليس الحصر. وللجاليات العربية دور أساسي في هذا المجال في عصر الهويات المركبة والهجرات المتكاثرة.

ومن الضروري ربط الصلة مع هذه الجاليات التي لكل منها خاصيتها بسبب عنصري الجغرافيا والتجربة لكنها تشترك كلها في كونها مصدر طاقات كبيرة إذا ما أحسن توظيفها تستطيع أن تقوم بدور ناشط لتعزيز علاقات التفاهم بين «العرب» والأوطان التي تحتضن هذه الجاليات. فليس المقترب الموسمي والعاطفي هو القادر بجذب هذه الجاليات بل إن المقترب الثقافي الذي يطمئن هذه الجاليات إلى هويتها المركبة مصدر غنى ومعه المقترب المصلحي هما القادران على توثيق هذه العلاقات.

خلاصة القول أنه بقدر ما يتقدم التعاون في جميع المجالات الممكنة بقدر ما تكسب السياسات الوطنية شرعيات قومية تعززها وتحتضنها وبقدر ما تكتسب الشرعيات القومية مضمونًا ماديًا قائمًا على المنافع المشتركة والمتبادلة بقدر ما تزداد قوة هذه الشرعيات ومكانتها. وتبقى الجامعة فيما لو نجحت في هذه المهام، وهنالك مصلحة الجميع في نجاحها، وإن اختلف مدى استيعاب هذه المصلحة في لحظة معينة، نقطة التلاقي والتوازن المنشود بين الوطني والقومي. ■



من رسائل الجاحظ

الجاحظ

هو عمرو بن بحر (٧٧٥-٨٦٨م). ولد ومات في البصرة من أسرة فقيرة. اضطر إلى احتراف بيع الخبز والسمك إلى جانب مواصلة التعليم في الكتّاب والمسجد. قصد بغداد حيث حظي باهتمام الخلفاء والوزراء وولاّه المأمون ديوان الرسائل.

اتصل بعلماء الكلام وانضم للمعتزلة، وقد أحاط بمعارف عصره من عربية وأجنبية. ألّف أكثر من ٣٥٠ كتابًا صوّر فيها جميع مظاهر النشاط في المجتمع الإسلامي. أشهر كتبه «الحيوان» و«البيان والتبيين» و«البخلاء» و«المحاسن والأضداد». وفيما يلي مختارات من رسائله عن الحنين إلى الأوطان والبلاد تحقيق عبدالسلام هارون.

١- الشوق إلى الأوطان والبلدان

إن السبب الذي بعث على جمع نتف من أخبار العرب في حنينها إلى أوطانها، وشوقها إلى تُربها وبُلدانها، ووصفها في أشعارها توقُّدُ النار في أكبادها، أنّي فاوضتُ بعضَ من انتقل من الملوك (في) ذكر الدِّيار، والنِّزاع إلى الأوطان، فسمعته يذكر أنه اغترب من بلده إلى آخرَ أمهدَ من وطنه، وأعمر من مكانه، وأخصبَ من جَنابه. ولم يزلْ عظيمَ الشأن جليلَ السُّلطان، يقود الجيوش ويَسُوس الحروب، وليس ببابه إلا راغبٌ إليه، أو راهبٌ منه؛ فكان إذا ذكر التُّربة والوطنَ:

إذا ما ذكرتُ الثَّغر فاضت مدامعي
وأضحى فؤادي نُهبةً للهَماهمِ
حنينًا إلى أرض بها اخضرَّ شاربي
وحُلَّت بها عنّي عُقودُ التمائم
وألطفُ قومٍ بالفتى أهلُ أرضه
وأرعاهُمُ للمرءِ حقَّ التقادمِ



عادل حسين ومأزق المثقف الوطنى

فى تاريخ الوطن شخصيات تلعب دورها وتمضى فى طريقها فلا تترك أثرًا ينبئ عن وجودها، وشخصيات أخرى تفرض نفسها بإلحاح مخلفة وراءها آثارًا يدور الجدل حولها، وعادل حسين المثقف والمناضل الفذ ينتمى إلى النوع الثانى من الشخصيات العامة بفضل ما تركه للثقافة العربية المعاصرة من فكر جدير بالاهتمام، وما لعبه من أدوار فى إطار الحركة الوطنية المصرية

رءوف عباس

أفرزت الحركة الوطنية المصرية فى أطوارها المختلفة عددًا من التيارات السياسية المتباينة، التى تصادمت وتحالفت وتلاقت وافترقت، وتقاربت وتباعدت، لكنها شكلت وجدان هذه الأمة على اختلاف توجهاتها، فأضفت عليها ثراء وتنوعا قلما يتكرر فى ظروف أخرى. ومن ثم لم يكن غريبًا أن تولد فى أحشاء هذه الحركة شخصيات وطنية فريدة لعبت أدوارها على مسرح الأحداث السياسية، وتركت بصماتها على الحياة العامة فى مصر. من بين هذه الشخصيات التى ودعها الرأى العام خلال الأسابيع القليلة الماضية بكثير من الأسى والأسف: عادل حسين؛ المثقف والمناضل الفذ، وشحاتة هارون شحاتة اليهودى المصرى غير العادى. ولاشىء يربط بين هاتين الشخصيتين الفريدتين فى العمل الوطنى والسياسى ربطًا مباشرًا، اللهم إلا أنهما عرفا طريقهما إلى «حزب مصر الفتاة» فى أوائل تفتحهما على العمل السياسى، ولكن فى ظروف وملابسات مختلفة تمام الاختلاف، ثم انضم كل منهما فى ظروف خاصة إلى تنظيمات يسارية.. ولكن سرعان ما تفرقت بهما السبل.

عرف الرأى العام المصرى والعربى خلال السنوات الأخيرة عادل حسين كمفكر ومثقف وناشط سياسى إسلامى بارز فى حزب العمل ورياسة تحرير جريدة «الشعب»، حرك بين صفوفه أمواجًا من الحركة والجدل وقدم إسهامات اقتصادية وفكرية وإسلامية. ثم مضى قبل أن تحسم الظروف مصيره.. وعلى العكس من ذلك لم يعرف الرأى العام الكثير عن شحاتة هارون شحاتة اليهودى الديانة والمصرى المولد والجنسية والذى حافظ على ولائه وانتمائه وهويته لمصر الوطن رغم كل الصعوبات والمواقف التى عصفت به وبكل ما حوله. لكنها أبدًا لم تغير إيمانه العميق بمصريته ولم تدفعه إلى الهروب والهجرة كما دفعت بغيره. وبقى حتى اللحظات الأخيرة من حياته وبعد موته يضع إنسانيته ومصريته فوق كل انتماء دينى. ليقدم بذلك نموذجًا فريدًا للإنسان المصرى الذى وقف ضد العنصرية والتعصب الدينى بكل ذرة فى كيانه.

ومن هذا المنطلق تقدم «وجهات نظر» صورة شخصية لحياة كل منهما ودوره فى العمل الوطنى، تكريمًا وتقديرًا لنوع فريد من العطاء.

المحرر

عرفت عادل حسين ـ أول ما عرفته ـ من عمله الرائع «الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية» الذى صدر عام ١٩٨١ وكان يباع سرًا فى القاهرة، ويمثل موضوع الساعة فى حوارات المثقفين، وكنت أتحدث مع الصديق السيد يس عن تلك الدراسة الهامة، فإذا بعادل حسين يدخل علينا مكتب السيد يس بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، أحسست خلال الحديث أنى أعرفه منذ سنوات، فقد كان (رحمه الله) يمتاز بشخصية آسرة، ويتمتع بقدرة متميزة على الحوار والجدل. وتواعدنا على اللقاء فى بيته بمصر الجديدة، وتصادف أن كانت هذه الزيارة (التى حددنا موعدها سلفًا) بعد اغتيال السادات بحوالى أسبوع، وبالطبع كان حوارنا الذى دام نحو الثلاث ساعات حول هموم الوطن فى تلك المرحلة الدقيقة من تاريخه. ورغم متابعتى لكتاباته، لم ألتق به إلا بعدما حسم اختياره بالانضمام إلى حزب العمل ورئاسة تحرير «الشعب»، وكان ذلك فى مناسبة اجتماعية ببيت أحد الأصدقاء، وأذكر أنه تقبل بصدر رحب نقدى الشديد لأسلوبه فى صياغة مقالاته التى كان ينهيها ـ عندئذ ـ بعبارة «الله أكبر والعزة للإسلام» مهما كان موضوع المقال، فذكرته بما قاله مصطفى النحاس باشا لأخيه أحمد حسين عندما عرض عليه نسخة من برنامج «مصر الفتاة» يتصدرها شعار «الله ـ الوطن ـ الملك» فقال له النحاس إن ذكر «الله» فى مطلع بيان حزبى ليس إلا شعوذة، وقلت لعادل ـ يومها ـ أخشى يا صديقى أن يفهم من عبارتك أنك لجأت إلى نفس الشىء، ورغم محاولته الدفاع عن وجهة نظره، فوجئت باختفاء العبارة التقليدية من مقالاته التالية.

ومضت بضع سنوات ثم التقينا بصفة شبه منتظمة بصالون أنور عبدالملك، وكانت لعادل حسين تجليات لافتة للنظر فى الحوارات التى كانت تدور بين رواد الصالون من المناضلين الماركسيين القدامى والناصريين والقوميين، وكان البون شاسعًا بين ما يطرحه عادل من أفكار فى جلسات صالون أنور عبدالملك وما نقرأه له على صفحات «الشعب»، فقد كان إطار فكره فى تلك الدائرة المغلقة قوميًا جدليًا يشى بتأثره العميق بالفكر الماركسى، تحس عندما تسمعه ثم تقرأ مقالاته بالشعب التى تبنى فيها أكثر اتجاهات التيار الإسلامى تطرفًا، بالحيرة الشديدة لهذه القدرة الفائقة على الجمع بين الأضداد، فشتان ما بين أطروحاته الفكرية فى صالون أنور عبدالملك وبين الأسلوب الديماجوجى الذى صاغ به مقالاته فى الشعب، ولا نستطيع أن نجد تفسيرًا مقنعًا لذلك إلا فى إطار مأزق المثقف الوطنى الذى يشغله الهم الوطنى العام: الاستقلال الوطنى، والتنمية التى تحقق قدرًا معقولاً من العدالة الاجتماعية، والحفاظ على الهوية القومية، ويسعى ـ فى نفس الوقت ـ إلى حشد الجماهير وراءه لتحقيق ما يتمناه لوطنه وأمته، فيستخدم خطابًا يدغدغ عواطف الجماهير قد يبعده كثيرًا عن الهدف الذى جعله يسعى لحشد الجماهير من أجله.

ولد عادل حسين فى ٢٩ من نوفمبر ١٩٣٢ لأسرة تنتمى إلى الطبقة المتوسطة الصغيرة التى كانت قطب الرحى فى الحركة الوطنية المصرية، وقدمت لمصر معظم قياداتها الوطنية من مصطفى كامل إلى جمال عبدالناصر مرورًا بسعد زغلول ومصطفى النحاس وأحمد حسين وحسن البنا، كما قدمت العناصر الوطنية الفاعلة والمؤثرة فى مختلف التيارات التى عبرت عن الحركة الوطنية المصرية.

كان عادل أصغر أبناء محمود أفندى حسين الذى ورث عن والده مهنة «المباشر» وهى مهنة يتولى صاحبها ضبط حسابات الدوائر الزراعية لكبار الملاك، وكانت حكرًا على الأقباط، ولا يعمل بها إلا عدد قليل من المسلمين. وخلف محمود حسين والده فى عمله بإحدى الدوائر القريبة من بلدته «كفر البطيخ» بمحافظة دمياط، ولعل كفاءته جعلته ينتقل للعمل ببعض الدوائر الزراعية الكبرى حتى انتهى به المطاف فى دائرة السلطان حسين كامل بالقاهرة حيث استقرت الأسرة قل مولد الابن الأكبر أحمد حسين عام ١٩١١، ونستطيع أن نستنتج أسلوب محمود أفندى حسين فى تربية أبنائه من سيرة ابنه الأكبر أحمد حسين الذى بدأ يهتم بالعمل السياسى منذ كان تلميذًا بالمرحلة الثانوية حتى إذا دخل الجامعة وعمره ١٨ عامًا كان شعلة من النشاط وكان اسمه معروفًا بين الطلاب ثم على المستوى الوطنى بعد تأسيس «مشروع القرش» عام ١٩٣٠، ثم أنشأ «جمعية مصر الفتاة» فى العام التالى، وحولها إلى حزب سياسى عام ١٩٣٣. فسيرة أحمد حسين تشى بالكيفية التى كانت





عادل حسين

أحمد حسين

تقوم بها الأسرة عند تربية أبنائها، وإتاحة الفرصة لهم للانخراط فى العمل الوطنى العام.

وعندما ولد عادل كان شقيقه أحمد حسين يكبره بواحد وعشرين عامًا، وعندما تفتح وعيه فى سنوات الحرب الثانية كان أحمد حسين معتقلاً بناء على طلب الإنجليز من حكومة الوفد اعتقال رموز التيارات السياسية الممالئة للمحور أو الموالية لدوله. وقد تأثر عادل تأثرًا كبيرًا بأخيه أحمد حسين الذى كان له أثره الواضح فى تكوين الوعى السياسى عند عادل، وأصبح شقيقه الأكبر مثله الأعلى الذى يتلمس خطاه، ويسعى دائمًا للاقتداء به، مما كان له صداه فى اختياراته السياسية فيما بعد، بل فى انغماسه الشديد فى العمل السياسى.



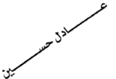
وقد بدأ عادل حسين نشاطه السياسى فى «حزب مصر الفتاة» تحت زعامة أخيه، وكان عمره عندئذ - فيما ذكر لى - خمسة عشر عامًا، أى عام ١٩٤٧ الذى لعب فيه حزب مصر الفتاة دورًا بارزًا - بالتنسيق مع الإخوان المسلمين - لتأييد قضية فلسطين واستخدام العنف ضد الجالية اليهودية فى مصر، ثم تسمى «حزب مصر الفتاة» بالحزب الاشتراكى عام ١٩٤٩ عندما لاحظ أحمد حسين تصاعد الاهتمام بالفكر الاشتراكى بين الشباب الذى كان دائمًا ضالته المنشودة لحشد التأييد الجماهيرى لحركته، وهو نفس السبب الذى دفعه من قبل إلى تغيير اسم الحزب (عام ١٩٤٠) إلى «الحزب الوطنى الإسلامى» عندما أحس أن «جماعة الإخوان المسلمين» قد سحبت جموعًا من أعضاء حزبه إلى حركتها بعد إعلانها النزول إلى ميدان العمل السياسى عام ١٩٣٨، وفى ذلك التغيير والتبديل كان أحمد حسين يسعى لحشد الجماهير وراء حركته، فلا بأس من أن يغير ويبدل فى برنامج الحزب وخطابه السياسى، وقد تأثر عادل - دون شك - بأخيه ومثله الأعلى فى خطابه السياسى فى السنوات الأخيرة رئيسًا لتحرير «الشعب» ثم أمينًا عامًا لحزب العمل. فمن كانت لديه معرفة دقيقة بتاريخ مصر المعاصر يكاد يجد تطابقًا (وليس مجرد تشابه) بين أسلوب الخطاب السياسى لعادل حسين وذلك الذى عرف عن شقيقه الأكبر مؤسس مصر الفتاة وزعيمها.

ولا يستطيع منصف أن ينكر دور أحمد حسين فى تكوين الحس الوطنى عند أخيه عادل، فقد انخرط الأخير فى نشاط الحزب فى أكثر مراحل تطوره راديكالية، فاشترك فى كتائب الشباب التى أعدها الحزب للمشاركة فى الكفاح المسلح فى منطقة القناة عام ١٩٥١، وذاق مرارة السجن لأول مرة عندما اعتقل أحمد حسين وبعض أعضاء حزبه عقب حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢، وكان بين صفوف الحزب حتى قامت ثورة يوليو بحل الأحزاب فى مطلع عام ١٩٥٣، ولعل إلغاء حزب مصر الفتاة أو (الحزب الاشتراكى) كان له تأثيره السلبى على الشاب عادل حسين، جعله يتحفظ تجاه نظام ثورة يوليو، ويختار أن يتابع عمله السياسى فى صفوف «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) وهى المنظمة الماركسية التى تعاونت مع الضباط الأحرار قبل الثورة ثم تبنت موقف الاتحاد السوفيتى منهم بعد قيام الثورة بفترة قصيرة فاعتبرت ما قاموا به انقلابًا عسكريًا فاشيًا لصالح عصبة بنك مصر، أى لصالح الرأسمالية الوطنية. ولم يكن عادل قد بَعُد كثيرًا عن فكر الحزب الاشتراكى الذى تبنى الكثير من الأطروحات السياسية التى قدمها اليسار المصرى فى الأربعينيات.

ويبدو أن الشاب الممتلىء حماسًا للعمل السياسى لم يستمتع بهذا العمل إلا أسابيع قليلة، فقد اعتقل مع بعض نشطاء (حدتو) لمدة قاربت على الثلاث سنوات (١٩٥٣-١٩٥٦) وما كاد ينعم بالحرية ويتابع نشاطه السياسى فى صفوف تلك المنظمة الشيوعية حتى عاد إلى المعتقل مرة أخرى ضمن موجة الاعتقالات الواسعة التى تعرض لها الشيوعيون على اختلاف تنظيماتهم عام ١٩٥٩ واستمر فى المعتقل حتى أفرج عن الشيوعيين عام ١٩٦٤. وقد ساعدت سنوات الاعتقال الطويلة عادل حسين على العمق فى الفكر الماركسى وامتلاك ناصية المنهج الجدلى، كما جعلته يتجه إلى الاهتمام بالاقتصاد اهتمامًا كبيرًا جعله يبارى المتخصصين فيه رغم اتساع الشقة بين دراسته الأصلية (درجة البكالوريوس فى الجيولوجيا) وبين علم الاقتصاد، واستطاع - فيما بعد - أن يقدم للمكتبة العربية أروع ما كتب عن الاقتصاد المصرى المعاصر.

ولا يعنى ذلك أنه قد تبنى الفكر الماركسى تبنى أولئك الذين يقيمون لأيديولوجية ما معبدًا يشتغلون بسدانته، فقد كان أبرز ما امتاز به عادل حسين ديناميكيته وحرصه على الاستقلال الفكرى، فشهدت سنوات المعتقل الأخيرة مراجعة هامة لفكره، كانت التطورات التى شهدتها مصر على يد ثورة يوليو خلال الفترة التى غاب فيها عادل مع رفاقه الشيوعيين وراء أسوار المعتقلات موضع تفكيره ومجموعة من رفاقه فمقولة النظام العسكرى الفاشى الذى استولى على السلطة لصالح عصبة بنك مصر، أثبتت افتقارها إلى المصداقية، فخط التحرر الوطنى واضح وضوح النهار، ودور النظام فى حركة عدم الانحياز لافت للنظر، والإجراءات التى اتخذت على طريق التحول الاشتراكى فى يوليو ١٩٦١ جذبت أنظار عادل وحفنة من رفاقه المعتقلين فتبنوا اتجاهًا انفردوا به بين رفاقهم الآخرين يرى أن فى النظام جماعة اشتراكية يمكن أن تقود البلاد إلى طريق الاشتراكية، خاصة أن ذلك كان يتسق مع الاتجاه الذى شاع فى دوائر اليسار العالمى - عندئذ - والذى قال بوجود طريق غير رأسمالى للاشتراكية تسير عليه نظم الحكم فى البلاد حديثة العهد بالتخلص من ربقة الاستعمار.

وما كاد عادل يسترد حريته المفقودة عام ١٩٦٤ حتى اختار لنفسه توجهًا جديدًا، فقطع روابطه التنظيمية بالشيوعية، وإن ظل يحتفظ بأثر باق لتجربته



الفكرية الماركسية انعكست على منهج مؤلفاته، وأسلوبه في الحوار، وفي ترتيب أولوياته السياسية التي ياتي في مقدمتها الاستقلال الوطني والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وهي جميعًا الثوابت التي دار حولها محور الحركة الوطنية المصرية منذ بدايتها.

عُيِّن عادل حسين بعد خروجه من المعتقل عام ١٩٦٤ صحفيًا بدار أخبار اليوم، واختاره خالد محيي الدين ليعمل معه في سكرتارية مؤتمر السلام إلى جانب رفعت السعيد، لكنه لم يعمر في ذلك الموقع طويلاً لأسباب لا نعرفها وإن كنا نستطيع تفسيرها على ضوء نفوره الدائم من التبعية بمختلف أشكالها.

اختار عادل النضال في حركة القومية العربية تعبيرًا عن اطمئنانه لخط عبدالناصر. كان الاستعمار بمختلف أشكاله عدوه اللدود، وكان نضاله السياسي منذ نعومه أظفاره في صفوف مصر الفتاة وتحت قيادة مثله الأعلى أحمد حسين موجهًا ضد الاستعمار، فكان التوجه القومي بالنسبة له قلعة النضال ضد الهيمنة الأجنبية، وكانت التحولات السياسية والاجتماعية التي قادها نظام عبد الناصر تفي - إلى حد ما - بما كان ينشده من العدل الاجتماعي، ولكنه ظل محتفظًا بموقفه المعارض من ظاهرة القصور في التحول الديمقراطي وإن كانت لا تحتل أهمية بارزة عنده، وهو الذي يؤمن بالدور التاريخي «للزعيم» في قيادة الأمة في مرحلة التحول سعيًا لتحقيق الاستقلال الوطني ودعمًا له، وضمانًا لتحقيق العدالة الاجتماعية. لقد آمن بهذا الزعيم في شخص أخيه أحمد حسين، ثم أصبح مقتنعًا به في شخص جمال عبد الناصر.

وما كاد الرجل يستقر عند توجهه الجديد، يتحمس له، ويسهم فيه بفكره فيما خرج من قلمه من كتابات، حتى جاءت هزيمة يونيو ١٩٦٧، فأصابته بما أصابت به غيره من المثقفين من خيبة أمل، ولكن عادل حسين لم يسمح لتلك الخيبة أن تقوده إلى اليأس بعد ما احتل الكيان الصهيوني خُمس مساحة مصر «سيناء»، بل قام بعملية مراجعة فكرية شاملة قادته إلى معسكر التيار الإسلامي في نهاية المطاف. وكل من اقترب منه واتصل به في السنوات القليلة التي تلت هزيمة ١٩٦٧ يؤكد شواهد تلك المراجعة عنده التي عبر عنها في عمله المهم «نحو فكر عربي جديد، الناصرية والتنمية والديمقراطية» الذي نشر عام ١٩٨٥، وحسم به خياره السياسي الأخير بالانضمام إلى «حزب العمل الاشتراكي».

ورغم أن عادل حسين لم يسجل مواقف سياسية واضحة فيما بين ١٩٦٧ ورحيل عبد الناصر إلا أنه ظل محسوبًا على التوجه القومي الناصري الذي اختاره بعد خروجه من المعتقل عام ١٩٦٤، فناله ما نال أصحاب هذا التوجه من الإجراءات التي اتخذها أنور السادات بعد تصفية ما أسماه بمراكز القوى، فأبعد مع من أبعدوا من الإعلاميين عن مواقعهم، وفضل التوجه إلى بيروت حيث عمل بضع سنوات في مركز دراسات الوحدة العربية وشارك في تحرير مجلته «المستقبل العربي»، ولكن همه الرئيسي كان عملية المراجعة لتجربته الفكرية في التوجه القومي.

وكانت سنوات بيروت - في رأيي - أهم مرحلة في صياغة مشروعه الفكري، فعكف على دراسة ما حدث لمصر من تطورات سياسية قوضت دعائم التوجه القومي، وجرت معه البلاد إلى طريقه التبعية للإمبريالية العالمية، وحققت أهداف الصهيونية، وكانت ثمرة الدراسة عمله الرائع الخالد «الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية ١٩٧٤-١٩٧٩» الذي نشر عام ١٩٨١، وهو الكتاب الذي قال عنه جلال أمين «إن أي عالم اقتصاد يتمنى أن ينسب هذا الكتاب له».

فبعد دراسة دقيقة وموثقة للتحولات التي شهدتها مصر على يد نظام السادات فيما بين تطبيق ما سمي «بالانفتاح الاقتصادي» ومعاهدة السلام مع الكيان الصهيوني، ذهب عادل حسين إلى أن «توازن القوى الدولي فرض علينا أن نخضع لقرارات الدول الغربية المتقدمة صناعيًا، وبالتالي فإن مهمتنا الأولى هي أن يتمكن مجتمعنا من انتزاع حقه في أن ينهض وفق متطلباته واحتياجاته، وأن يجسد هذه الإرادة المستقلة في سلطة سياسية قادرة، تحفز وتنظم القوى الاجتماعية المتطلعة للنهضة الأصيلة، وتقود ما تتطلبه هذه النهضة من تجدد ذاتي ومن تنمية شاملة (تتضمن تنمية اقتصادية مستقلة وتنمية قدرات الدفاع)». ورأى في الهيمنة المتنامية لقيم الحضارة الغربية أداة فعالة لفرض التبعية، مما يفرض علينا أن ننتزع حقنا في النهضة وأن نعمل على إقامة نسق عربي مستقل في مواجهة تحديات التفكك الإقليمي العربي والكيان الصهيوني والنفط والمال النفطي، كما علينا أن نواجه موقعنا من التراث الإسلامي بكل امتداداته في آسيا وأفريقيا وبكل آثاره المباشرة على مضمون حضارتنا.



وعرض عادل حسين لآليات الانتقال إلى التبعية بدءًا باختراق السلطة السياسية وإصدار القرارات المترابطة التي من شأنها تصفية الإدارة الاقتصادية المستقلة، وعودة الإدارة الأجنبية المباشرة كمدخل لإعادة تشكيل البنية وهيكل التنمية، ومن ثم كان انهيار ميزان المدفوعات، وكان الإغراق في الديون المصرفية عملاً مدبرًا. وهنا قدم عرضًا تفصيليًا موثقًا للدور الذي لعبه صندوق النقد الدولي لتحقيق تنازل الدولة المصرية عن صلاحياتها في إدارة الاقتصاد الوطني للجهات الأجنبية، ودور البنك الدولي في تحقيق التوجه الاقتصادي نحو هيكل تابع وبنية تابعة. وأنهى الكتاب بتأكيد أن التحولات التي شهدها الاقتصاد المصري في السنوات الخمسة موضوع الدراسة جزء لا يتجزأ من مفهوم السلام الأمريكي - الإسرائيلي هدفه إبقاء مصر خاضعة وضعيفة، وبذلك يضمن الأمن والتوسع للمشروع الصهيوني.

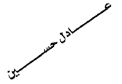
وفي إطار هذا العمل المهم قدم عادل حسين نقدًا لأطروحات الفكر الماركسي والفكر الليبرالي باعتبارهما يعجزان عن تقديم دليل عمل يصلح لمجتمعنا نتخذه إطارًا لمشروع لنهضة عربية مستقلة. ويستشف من هذا النقد تشكيك عادل حسين في صلاحية الفكر الغربي على اختلاف توجهاته للمجتمع العربي وإن لم يذكر ذلك صراحة في هذا الكتاب على نحو ما فعل في كتابه الآخر «نحو فكر عربي جديد»، ولكننا نلمح في استشهاداته رجوعًا إلى مقولات ابن خلدون، وجمال الدين الأفغاني، وبعض ما جاء بكتب التراث الإسلامي، ولعل تلك الاستشهادات كانت أكثر ما استخدمه منها ضعفًا، فقد نسي أو تناسى أن مقولات هؤلاء جاءت في سياق تاريخي موضوعي يختلف تمامًا عن ظروف المجتمع المصري في سبعينيات القرن العشرين، ولكنها - على أية حال - تعطي مؤشرات عن حيرة المؤلف وبحثه الدءوب عن إطار مرجعي إسلامي يعبر عن ثقافتنا ويغنينا عن الحاجة إلى ما هو غربي.

ولكنه عبر عن هذا التوجه بصورة واضحة في البحث الذي تقدم به لندوة «التراث وتحديات العصر في الوطن العربي - الأصالة والمعاصرة» التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية وعقدت بالقاهرة عام ١٩٨٣، وكان موضوع بحثه عن الحاجة لمناهج بحث عربية إسلامية في العلوم الاجتماعية» وقد راعني إنكاره التام لمناهج البحث في العلوم الاجتماعية التي نعرفها لأنها غريبة على ثقافتنا، وأنها صيغت من أجل إخضاعنا للغرب والهيمنة علينا، وقدم مقترحات فضفاضة لإطار مقترح لما يجب أن تتضمنه مناهج البحث الإسلامية في العلوم الاجتماعية. وأذكر أنه في تعقيبه على المدخلات التي قدمها الحضور على ورقته، وكانت تدور في سياق عدم الحاجة إلى ابتداع «مناهج بحث إسلامية» لأن مناهج البحث المعروفة نتاج للفكر الإنساني الذي ساهم العرب فيه، وأن المخاوف التي أثارها ليس لها ما يبررها، في ذلك التعقيب تمسك برأيه بطريقة خطابية وأعلن أنه نادم لأنه أضاع ما يقرب من الثلاثين عامًا من عمره في «فكر رث».

ومن الطريف أن أحد المشاركين من الإخوان المسلمين انتقد هذا الموقف في حديث جانبي، وأبدى مخاوفه من أولئك الذين يعبرون عن تحولهم الفكري إلى



ما كاد عادل يسترد حريته المفقودة عام ١٩٦٤ حتى اختار لنفسه توجهًا جديدًا، فقطع روابطه التنظيمية بالشيوعية، وإن ظل يحتفظ بأثر باق لتجربته الفكرية الماركسية انعكست على منهج مؤلفاته، وأسلوبه في الحوار



التوجه الإسلامي بهذا الشكل المتطرف الذى يفوق ضرره ما قد يكون فيه من نفع.



وفيما بين صدور «الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية» وانعقاد الندوة سالفة الذكر، كان وقوع الثورة الإسلامية فى إيران قد جذب انظار الكثير من المثقفين، ولكنه اكتسب معنى آخر عند عادل حسين، فهذه ثورة شعبية انتصرت على أعتى النظم الاستبدادية التابعة للغرب، وأذلت «الشيطان الأكبر» أمريكا، وأعلنت عداءها للصهيونية والدعوة للجهاد لتحرير فلسطين. هذه التطورات وما صاحبها من دعاية سياسية إيرانية لمست وترًا حساسًا عند عادل حسين الذى كان قد حسم اختياره الفكرى استنادًا إلى عدائه الشديد للغرب الذى يمثل خطرًا شديدًا على الاستقلال الوطنى، ويحبط محاولة تحقيق مشروع نهضوى عربى. هذا العداء الشديد للغرب قاد عادل حسين إلى نفى كل ما هو غربى بما فى ذلك الفكر الغربى ورغم دعوته اللافتة للنظر إلى ضرورة وضع مناهج إسلامية للبحث فى العلوم الاجتماعية، ظل تأثره فى كتاباته الفكرية واضحًا بالمنهج الجدلى الماركسى، ويتجلى ذلك بوضوح فى كتابه الأخير المهم: «نحو فكر عربى جديد ـ الناصرية والتنمية والديمقراطية» الذى نشر عام ١٩٨٥.

ويكاد الفصل الأول من الكتاب يقدم نصًا للورقة التى تقدم بها عادل حسين إلى ندوة «التراث وتحديات العصر فى الوطن العربى» فهو يتناول النظريات الاجتماعية الغربية باعتبارها قاصرة وعاجزة. وقد قدم الكتاب بعبارة لافتة للنظر قال فيها: «إننى منحاز لأمتى العربية ورسالتها الإسلامية» وأنه يؤمن بحقها فى إنهاض حضارتها المستقلة (بكافة مكوناتها) ويقف إلى جانب العدل الاجتماعى والمستضعفين. وفى الفصل الأول طالب بعزل النظريات الاجتماعية الغربية خارج إطار «خصوصيتنا التاريخية المتميزة»، ورأى أن العلوم الاجتماعية الغربية كلها «كانت مجرد إجابة على أسئلة أوروبية حديثة» وهى تختلف عن الأسئلة التى يواجهها مجتمعنا من مواقع التبعية والتخلف الاقتصادى ومن ثم نحتاج إلى مدارس تختلف عن مدارسه «حتى نفهم مجتمعنا ومراحله فى ضوء عقيدتنا السائدة». ويدعو إلى مشروع حضارى عربى إسلامى مستقل، يستند إلى نظرية مستقلة ومشروع تنموى مستقل نابع من خصوصيتنا التاريخية والاجتماعية والثقافية، والنظرية المستقلة عنده تقوم على الإيمان بالله الواحد الخالق.

وقد أجهد عادل حسين نفسه فى البحث عن سند لأطروحته الفكرية الجديدة فى كتابات أبو حامد الغزالى وابن تيمية والماوردى والفارابى والرازى وغيرهم. ولا يحتاج القارئ المدقق إلى بذل جهد كبير لاكتشاف أن المؤلف لم يطلع على أى من تلك الكتب التى يستشهد بها للدلالة على صلاحية النظام الإسلامى السياسى لمجتمعنا المعاصر، فشتان بين شروط الإمامة والتزامات الحاكم نحو الرعية فى الفقه وبين التطبيق العملى أو ما كان معمولاً به فعلاً، ولو تعمق عادل حسين فى قراءة التاريخ الإسلامى لوجد البون شاسعًا بين النظرية والواقع، ولما وجد أحدًا من الحكام يلتزم بالقيود الفقهية، ولصدمه تحول نظرية الحق الإلهى للملوك الموروثة عن البيزنطيين إلى أمر مسلم به على يد العباسيين وغيرهم، وربما تروى كثيرًا فى إطلاق أحكامه على هذا النحو.

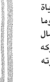




وعلى كل، تكمن أهمية هذا الكتاب فى تعبيره عن الخيار الفكرى الأخير لصاحبه، ولا يخالجنى الشك أنه لو أتيحت له الفرصة لتأصيل هذا التوجه ربما استطاع أن يقدم مساهمة فكرية مهمة فى هذا المجال، ولكنه انخرط بعده فى العمل السياسى فى صفوف حزب العمل، وإن شئنا الدقة لقلنا أن عادل حسين عاد إلى مصر الفتاة حزبًا ومنهجًا وأسلوبًا للعمل السياسى، عاد إلى طريق مثله الأعلى وقدوته أخيه أحمد حسين.

كان المسرح مهيأ أمامه للعب دور رئيسى فى الحزب لعله كان بالنسبة له حقًا مكتسبًا بحكم الإرث، وما لبث أن أصبح الأمين العام للحزب، ولعب دورًا رئيسيًا فى ذلك التحالف الذى أقامه مع الإخوان المسلمين وحزب الأحرار لخوض انتخابات ١٩٨٧، على ما فى ذلك من غياب للكياسة السياسية التى تميز بها رائده أحمد حسين الذى كان يحرص دومًا على استقلال حزبه عن الإخوان، قد ينسق معهم فى مواقف معينة ولكنه يحرص على استقلال حركته عنهم، وكانت النتيجة زيادة نفوذ الإخوان وتأثيرهم على مواقف حزب العمل. أمر واحد سار فيه عادل على درب أخيه أحمد حسين هو ذلك الأسلوب الديماجوجى الذى غلب على الخطاب السياسى فى مقالاته التى احتلت مساحة كبيرة من صفحات «الشعب»، وكذلك اتباع أسلوب الإثارة ودغدغة عواطف الجماهير من أجل حشدهم وراء الحزب، وجماهير الحزب التى أراد عادل أن يستقوى بها كانت الجماعات الإسلامية، ولكن الأجنحة الإرهابية منها استلهمت كتابات عادل حسين فى الهجوم على السياحة (السياحة حرام) أو الهجوم على بعض الكتاب «الدنيويين» على حد تعبيره باعتبارهم نقيض المتدينين فى تحديد الأشخاص الذين تستهدفهم عمليات الاغتيال، لقد دهش عادل حسين حين علم أن قوات الأمن ضبطت مع إحدى خلايا الجماعات الإرهابية مقاله الذى هاجم فيه أحد الكتاب الأقباط ومعه قائمة يتصدرها اسم ذلك الكاتب على رأس المخطط لاغتيالهم، ونفى بحدة علاقته بمثل تلك الأعمال، ولم أملك إلا تصديقه فى ضوء معرفتى لنزاهته ونبله، ولكن خطابه الديماجوجى لابد أن يورطه فى مثل هذه المواقف. وهو ما كان لا يدركه تمامًا. ولا أدل على ذلك من إثارة موضوع رواية حيدر حيدر «وليمة لأعشاب البحر» وما نتج عنها من آثار سلبية على الحزب والجريدة معًا.

لقد استطاع عادل حسين أن يبعث الحياة فى حزب العمل، ولكن شتان بين ما بدأ به وما انتهى إليه الحال. غير أن هذا الجانب من أعمال عادل ربما يطويه النسيان، ولكن يبقى ما تركه من مشروع فكرى موضع الجدل وتبقى سيرته نموذجًا فذًا لأزمة المثقف الوطنى. ■





من رسائل الجاحظ

٢ ـ فى الحنين إلى الأوطان

قالت الحكماء: الحَنين من رقَّة القلب، ورقَّة القلب من الرِّعاية، والرِّعاية من الرَّحمة، والرَّحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرِّشدة، وطهارة الرِّشدة من كرم المحتد.

وقال آخر: ميلك إلى مولدك من كرم مَحتدك.

وقال آخر: عُسرك فى دارك أعزُّ لك من يُسرك فى غربتك.

وأنشد:

لقربُ الدار فى الإقتار خيرٌ
من العيش الموسَّع فى اغترابِ

وقال آخر: الغريب كالغَرْسَ الذى زايل أرضه، وفقد شِربَه، فهو ذاوٍ لا يثمر، وذابلٌ لا يُنضر.

وقال بعض الفلاسفة: فطرة الرجل معجونةٌ بحبِّ الوطن.

ولذلك قال بُقراط يُدَاوَى كلُّ عليلٍ بعقاقير أرضه؛ فإنّ الطبيعةَ تَتَطلَّع لهوائها، وتنزِع إلى غذائها.

وقال أفلاطون: غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها.

وقال جالينُوس: يتروّح العليل بنسيم أرضه، كما تنبت الحبة ببَلِّ القَطْر.

والقول فى حبِّ الناس الوطن وافتخارهم بالمحالِّ قد سبق، فوجدنا الناسَ بأوطانهم أقنعَ منهم بأرزاقهم.

ولذلك قال ابن الزُّبير: «لو قَنَع الناس بأرزاقهم قناعتَهم بأوطانهم ما اشتكى عبدُ الرزق».

مصرى عادى
يهودى غير عادى

شحاتة هارون.. «الآخر»

أمينة شفيق

لكل إنسان أكثر من هوية. وأنا إنسان. أنا مصرى حين يضطهد المصريون. وأسود حين يضطهد السود. ويهودى حين يضطهد اليهود. وفلسطينى حين يضطهد الفلسطينيون

مات شحاتة هارون شحاتة سلفيرة كما عاش سنوات عمره الإحدى والثمانين، محاطا بزوبعة وتوابع متتالية لهذه الزوبعة. صاغ وضعه الخاص كمصرى يعتنق الديانة اليهودية هذه الزوبعة الممتدة، التى لم تهدأ حتى بعد أن لفظ آخر أنفاسه والتف حول جثمانه مئات الأصدقاء والأحباء المصريين من المسلمين والأقباط.

بعد الوفاة، جلست أسرته الصغيرة المكونة فى الأساس من زوجته، مارسيل سيمون ومن ابنتين المهندسة ماجدة هارون والمحامية نادية هارون ليكتبن نعيه فى جريدة الأهرام. واحتارت الأسرة فى كتابة مقدمة النعى. فى حالة المسلمين تتقدم النعى إحدى العبارتين «البقاء لله» أو «انتقل إلى رحمة الله تعالى» أو تتصدره آية من الكتاب الكريم. فى حالة المسيحيين تتصدر النعى عبارة «انتقل إلى الأمجاد السماوية». أما فى حالة شحاتة هارون المصرى اليهودى الديانة، فما هى العبارة التوراتية التى ستتصدر النعى؟

كيف تتصرف الأسرة؟

بعد التفكير والمداولة قررت الأسرة أن تستعير، من كتابه الوحيد الذى قدمه للقارىء المصرى بعنوان «يهودى فى القاهرة»، عبارة تلخص البعض من أفكاره التى أسهمت فى صياغة هذه الزوبعة. وكانت هذه العبارة قد وردت فى حديث صحفى أجراه معه الكاتب الراحل صلاح حافظ فى مجلة «روز اليوسف» عقب الإفراج عن شحاتة هارون فى القضية رقم ١٠٠ لعام ١٩٧٥ حصر أمن دولة عليا. ثم نقلها شحاتة هارون إلى كتابه هذا مع نص الحوار. وجاءت العبارة كالتالى:

لكل إنسان أكثر من هوية.وأنا إنسان. أنا مصرى حين يضطهد المصريون. وأسود حين يضطهد السود. ويهودى حين يضطهد اليهود. وفلسطينى حين يضطهد الفلسطينيون.

مات الإنسان.

ثم يستانف نص النعى.

توجهت الأسرة إلى شباك إعلانات مؤسسة الأهرام فى شارع الجلاء. قدمت النعى ودفعت تكاليفه ثم انصرفت. بعد ساعة أو حوالى الساعة، اتصل مسئول شباك الإعلانات بالأسرة ليبلغها أن العبارة التى تتصدر النعى قد حذفت. فهى عبارة غير مفهومة وغير واضحة. «هى إيه الحكاية؟ مصرى على يهودى على أسود على فلسطينى. حاجة مش مفهومة».

بعد اتصالات، توجهت المهندسة ماجدة الابنة الكبرى لشحاتة هارون إلى أحد المسئولين عن التحرير فى جريدة الأهرام لتشرح له أصل الموضوع وجذور المشكلة. شرحت كيف أن الأسرة لا تستطيع كتابة أى عبارة قرآنية أو إنجيلية فى صدارة النعى.سألها المسئول : «ليه؟».

أجابت: «إحنا لا كده ولا كده، إحنا يهود. فضلنا كتابة عبارة تدلل على أفكار والدى السياسية».

وبعد أن تم الشرح والتفسير، نشر النعى فى اليوم التالى فى صفحة الوفيات فى جريدة الأهرام كما أرادته الأسرة الصغيرة لشحاتة هارون شحاتة سلفيرة عضو نقابة المحامين المصريين وعضو اللجنة المركزية لحزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى والمحامى بالنقض.

هكذا يُعرَّف شحاتة هارون. أو هكذا كان يجب أن يُعرَّف شحاتة هارون. وهو تعريف بسيط لا يحدث زوبعة ولا يصنع توابع لها. لكن هذا الإنسان المصرى المولد والنشأة والحياة عاش هذه السنوات الطويلة من عمره يجنح دائما إلى تأكيد حقيقة لا تحتاج منا، نحن الأناس المصريين العاديين، إلى تأكيد. ثم ليعود ويؤكد دائما، بجنوح من نوع مختلف، على هذا التأكيد. حقيقة أنه مصرى الجنسية والهوية والهوى. كان يضع جانبا كل التعريفات التى قد ترفعه إلى شريحة اجتماعية أنيقة أو متانقة ليتمسك بتعريف واحد . . . مصريته. عاش يؤكد هذه الحقيقة لسنوات طويلة تزيد على الخمسين عاما، هى بالتقريب أكثر من ثلثى عمره.

واستمرت الزوبعة التى أحاطت وفاته حتى بعد أن نشر النعى بالنص الذى أرادته الأسرة فى جريدة الأهرام.

لقد واجهت الأسرة مشكلة أخرى. فالمفروض أن يصلى حاخام يهودى على جثمان الراحل. وفى مصر لا يوجد حاخام. ترك آخر حاخام مصرى أرض مصر عام ١٩٧١. يومها، كتب شحاتة هارون خطابا بصفته مفوضا من الجالية اليهودية فى مصر« تفويض لكتابة الأمر ورفعه إلى السلطات . . فقط» إلى وزير داخلية مصر يطالبه فيه بسرعة إحضار حاخام ليقود الصلاة فى المعبد الذى يذهب إليه أبناء الطائفة للعبادة. ويكتب لوزير الداخلية بالنص: «نريده عربيا إما من سوريا أو العراق أو لبنان أو تونس أو الجزائر أو المغرب. وإن لم نستطع، نحضر حاخاما من إيران أو من بلغاريا». ولم يات حاخام إلى مصر لأسباب قد لا نعرفها ولكن يمكن أن نستنتجها.

بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد وبعد أن تم تبادل السفراء بين مصر وإسرائيل حدث ما لم يكن فى حسبان الجميع. فقد فوض كبير حاخامات إسرائيل السفير الإسرائيلى فى القاهرة للقيام بكل المراسم والطقوس التى تقام فى كل المناسبات اليهودية الدينية السعيدة وغير السعيدة، ومنها ما يخص حالات الوفاة. «فإسرائيل هى دولة كل اليهود. أليس كذلك؟» وبالتالى يصبح حاخاماتها مسئولين عن كل اليهود. «أليس كذلك أيضا؟» ومادام لايوجد حاخام فى مصر، يصبحون هم، أى حاخامات إسرائيل ويمثلهم كبيرهم، مسئولين عن كل يهود مصر بمن فيهم شحاتة هارون الرافض لكامب ديفيد وكل ملحقاتها بدءا من نصوصها إلى تلك العلاقات التى أقيمت بموجبها بين مصر وإسرائيل. وعلى هذا الأساس الإسرائيلى لفكرة مواطنة كل يهود العالم لدولة إسرائيل، وعلى أساس أن إسرائيل مسئولة عن كل يهود العالم تم تفويض السفير الإسرائيلى بهذه المهام الدينية التوراتية.

لكن شحاتة هارون يجنح دائما لتأكيد مصريته وهو ما يتعارض مع التفويض الدينى للسفير. من وجهة نظر شحاتة هارون، إسرائيل ليست وطنا لكل اليهود. وهو يهودى ولكنه مصرى. وبالتالى لا يقبل أن يصلى على جثمانه السفير الإسرائيلى. «بأية صفة؟».

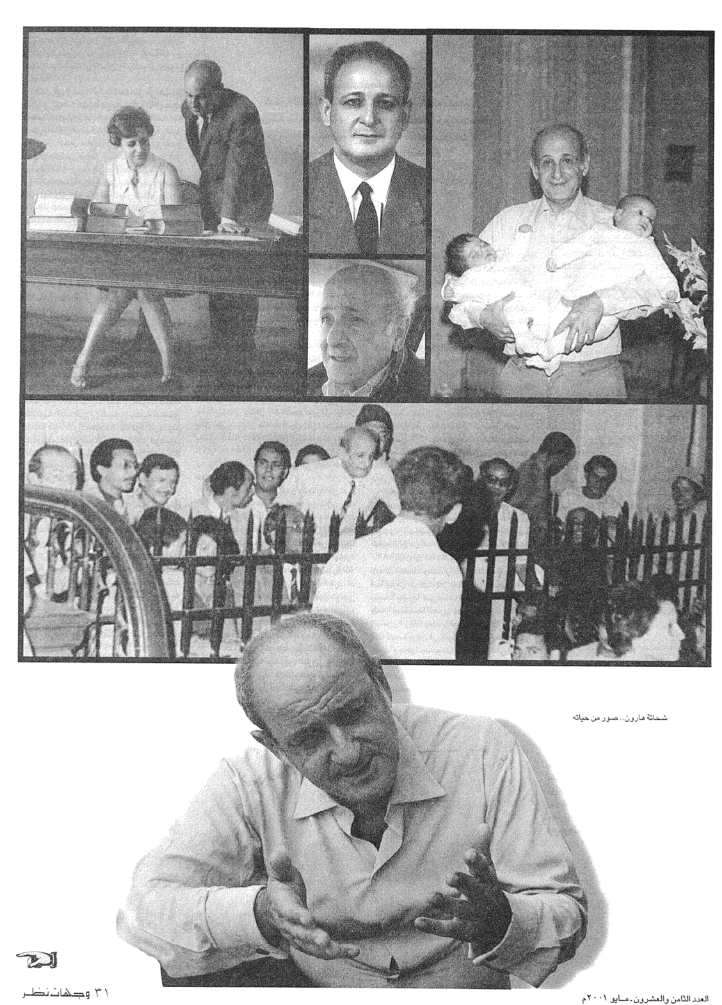
فكان للزوبعة التى أحاطته فى حياته أن تستمر بعد وفاته، عندما استدعت أسرته حاخاما فرنسيا للصلاة على جثمانه فى المستشفى الإيطالى بالعباسية بدلا من الصلاة عليه فى المعبد اليهودى فى شارع عدلى فى وسط القاهرة، تجنبا لأية توقعات غير مستحبة من أطراف غير مرغوب فيها.

فكان لشحاتة هارون ما أراد فى حياته وبعدها.

ويرقد الآن شحاتة هارون فى مقبرة أسرته فى البساتين على مقربة من أبيه الخواجة هارون شحاتة سلفيرة وأمه أليجرا زكى كريم. يرقد حيث كان يريد وعلى الأرض التى سعى دوما للبقاء عليها، مصريا يعتنق الديانة اليهودية التى ورثها مع هويته المصرية من أبوين مصريين يهوديين ينتميان إلى الفقراء من المصريين اليهود.



ولد عام ١٩٢٠ فى القاهرة ابنا لأسرة صغيرة وفقيرة، عمل أبوه طوال عمره بائعا فى محل شيكوريل المملوك لأحد رموز اليهود الرأسماليين. يعرض البضاعة النسيجية على الزبائن من نساء الطبقتين العليا والوسطى. ثم يقيس الأمتار ويقطعها لتحملها كل زبونة بعد أن تكون قد تلقت من والده بعضًا من المجاملات والمداعبات اللفظية، «كان والدى خبيرا فى هذه المجاملات، وكان يعتبرها جزءا من أساليب جذب الزبائن. وكان يفرح ويبتهج وتنفرج



شحاتة هارون.. صور من حياته

أساريره عندما تدخل النسوة الأنيقات الجميلات إلى المحل ويسألن تحديدا عن «الخواجة هارون» ثم يتجهن إليه ليسألنه عن آخر الموضة في الألوان والنقوش وأنواع الأقمشة».

لم يكن لهذا الوالد العامل في محل شيكوريل من أمنية في حياته إلا أن يعلم شحاتة الابن الذكر، أو «الأمانة»، بالثقافة العبرية، التي قدمها الرب إلى الوالدين، أفضل تعليم في أفضل مدارس وجامعات حتى يفخر به وهو يمتهن مهنة جيدة ويحتل مركزا مرموقا. لذلك أرسله إلى مدرسة الفرير بالرغم من كاثوليكيتها وبالرغم من مصاريفها العالية التي كانت ترهقه. وفر له الملبس اللائق حتى لا يشعر الصبي بأية تفرقة بينه وبين أبناء الطبقات المصرية العليا في المدرسة. أحضر له شيخا ليلقنه أصول اللغة العربية السليمة ليعده للمهنة المرتقبة. ومثل الكثيرين من المصريين في ذلك الوقت حرم ابنته ديان الأخت الكبرى لشحاتة من فرص التعليم العالي لمجرد إتاحة أكبر الفرص للابن الذكرالوحيد. مع كل ذلك، كان يلقنه أقسى دروس الأدب والأخلاق إذا ما أخطأ حتى لو كان الخطأ صغيرا.

في مدرسة الفرير تعرف على زملاء كثيرين، منهم من بات وزيرا ومنهم من أصبح عضوا في مجلس قيادة الثورة ومنهم من نما مهنيا فأصبح من كبار المهنيين المصريين من الأطباء والمحاسبين والمحامين والسفراء وأساتذة الجامعات. كون شبكة هائلة من المعارف والأصدقاء. أما بعد أن أنهى دراسته الثانوية، فقد قرر أن يلتحق بكلية حقوق جامعة فؤاد الأول «جامعة القاهرة الآن». ولم يبخل الأب على شحاتة الابن الذكر الوحيد و«الأمانة التي قدمها له الرب». وفي الجامعة ازداد اتساع دائرة الأصدقاء والمعارف الذين تخرج من صفوفهم كتاب مسرح وصحفيون وشعراء وأدباء وسياسيون.

لقد تنوع الأصدقاء واتسعت دائرتهم. دخل بيوتهم ودخلوا بيته. أكل على موائدهم وأكلوا على مائدته. اتفق مع بعضهم واختلف مع الآخرين.

لكن، في الجامعة اكتشف شيئا جديدا في الحياة. عرف أنه بجانب الدراسات القانونية التي يجب أن يدرسها توجد أيضا دراسات أخرى في الحياة تستحق منه العناية، وخاصة تلك الدراسات السياسية. بدأ بالتحرك إلى حزب مصر الفتاة، وتركه. ثم تحرك إلى حزب الوفد وتركه. وبدأ يتعرف على تيار سياسي جديد، التيار الاشتراكي.

حتى هذه المرحلة لم يكن شحاتة هارون قد أحاطته أية زوبعة. كان مصريا عاديا ولكنه كان يهوديا غير عادي. كان يهوديا محاطا بكم هائل من المصريين العاديين، ومن خليط من كل الأديان ومن كل التيارات السياسية. لم يعش في محيط يهودي خالص وإنما عاش في حالة مصرية كاملة. خليط كامل من المهن والتخصصات ومن الأفكار السياسية.

الذي حركه إلى الحياة الأكثر اتساعا، كان لقاء تم بعد تخرجه من الجامعة، رتبه الخواجة هارون، والده، مع شخص مصري يهودي آخر اسمه دافيد ناحوم انشغل كثيرا بتأسيس نقابة للعمال المصريين العاملين في المحال التجارية. هنا تعرف شحاتة على

كان يضع جانبا كل التعريفات التي قد ترفعه إلى شريحة اجتماعية أنيقة أو متأنقة ليتمسك بتعريف واحد... مصريته

مشاكل من نوع اجتماعي جديد تواجدت في أماكن تجمع بين عمال تجارة مسلمين ومسيحيين ويهود من جانب وأصحاب محال تجارية من جانب آخر. وفي حالة والده كان صاحب المحل الذي استمر يعمل عنده طوال الحياة دون أية فرصة للترقية والترقي، من اليهود الماليين الكبار.

ثم اتسعت حركته في الحياة العامة بعد انغماسه في التنظيمات اليسارية. تم القبض عليه عام ٤٦ في قضية شيوعية تحمل اسم «تنظيم بج بن». وقد سميت بهذا الاسم لأن القبض تم على أعضاء مجموعتها في مقهى صغير كان يحمل ذات الاسم «بج بن» وكان يطل على ميدان طلعت حرب الآن« سليمان باشا سابقا». ثم تم القبض عليه مرة ثانية عام ١٩٤٨.

وأرسل إلى سجن عين موسى حيث استمر حتى عام ١٩٥٠.

داخل جدران هذا السجن وتحديدا في عام ١٩٥٠ بدأ شحاتة هارون ينسج أول ملامح تلك الزوبعة التي أحاطته طوال حياته واستمرت تحيطه بعد وفاته. في هذا العام بالتحديد كانت الجامعة العربية قد اتخذت قرارا سريا يلزم كل الدول العربية لدفع اليهود إلى الهجرة إلى خارجها. كانت أولى موجات الهجرة تلك الاختيارية والأخرى الإجبارية لليهود العرب قد بدأت بالفعل. في داخل سجنه في عين موسى في سيناء اتخذ شحاتة هارون قراره الذي لم يحد عنه لأكثر من خمسين عاما هي الفترة الواقعة ما بين ذلك العام، ١٩٥٠ إلى عام ٢٠٠١ العام الذي توفي فيه. لم يتخذ هذا القرار بمفرده وإنما شاركه فيه يهود آخرون. واختلف معه يهود فضلوا البعد عن الزوابع وتوابعها.

منذ هذا التاريخ، استمر شحاتة هارون يعلي من مصريته ويتمسك بالأرض التي ولد عليها ويرفض كل المحاولات القهرية التي تعرض لها من أجل أن يرحل عن البلاد دون عودة. لم يكن سهلا عليه أو على والديه المتقدمين في السن أو على زوجته التي لقبها بالصبورة أو على ابنتيه الصغيرتين المنخرطتين في صفوف مدرسة تسب اليهود في كل درس من دروس القومية والتربية الوطنية.

صمد الرجل وأسرته. ولم يكن صموده عاطفيا. بل كان عقليا منطقيا مع سبق الإصرار. كتب يقول: «أنا يهودي نعم.. يساري نعم.. لكن الصفة الأهم هي أنني مصري.. وفي حدود معلوماتي لا يشترط لأن أكون مصريا أن أغير ديني أو عقيدتي السياسية».

لقد اقتنع أن هذه الدولة العنصرية الناشئة على أرض الفلسطينيين لا يمكن أن تنمو على أكتاف وبسواعد هذا العدد المحدود نسبيا من اليهود المهاجرين من شرق أوروبا، أو بهذا العدد الأقل من البلاد الأوروبية الغربية. في عام ١٩٥٠ تيقن أن هذه الدولة، من أجل أن تستمر، لابد أن تستوعب، وبشكل سريع، يهودًا مهاجرين من كل مكان حتى تستطيع أن تقيم بنيانا بشريا على هذه الأرض التي سلبتها. فلماذا يساعدها العرب على تحقيق هذا الهدف البشري؟ ولماذا يهاجر اليهود العرب إلى هناك؟ لماذا لايستمرون في البلاد العربية التي ولدوا عليها وحملوا جنسيتها؟ اقتنع أن على اليهود في كل بلد أن يستمروا حيث هم. يتفاعلون مع مجتمعاتهم ويناهضون الهجرة إلى إسرائيل. لذلك استمر يعارض موجات هجرة اليهود العرب، الاختيارية أو الإجبارية، إلى هناك. كما استمر يشير، في كتاباته، إلى أن هجرة اليهود العرب إلى إسرائيل أمدتها، أي أمدت الدولة العبرية، بنسبة تتراوح بين ٦٠ و٦٥٪ من زادها البشري.

كان يفخر دائما وكثيرا بأن نسبة صغيرة من اليهود المصريين الذين تركوا مصر إجباريا أو اختياريا توجهت إلى إسرائيل. وأن النسبة الأكبر هي التي توجهت إلى بلدان أوربا الغربية. «ربما لم يسافر إلى إسرائيل إلا نسبة تتراوح بين ٢٠ و٢٥٪ من يهود مصر والباقي نجدهم في فرنسا أو إيطاليا».

استمر على موقفه الفكري هذا المناهض للهجرة حتى في تلك الحالات التي بدا فيها ضد تيار جارف.

عندما ترك الشاعر محمود درويش أرض فلسطين في نهاية الستينيات وتم الترحيب به في كل الأوساط العربية كتب شحاتة هارون رسالة إليه يقول فيها:

نداء ورجاء من يهودي القاهرة إلى شاعر حيفا

أخي ورفيقي محمود درويش

تحية خالصة طاهرة أهديها إليك من القاهرة «صخرتي التي لن أبيعها باللآلىء». حبيبتي التي أبدا لن أهجرها.

أكتب لك ملحا عليك صارخا إليك من أعماق أعماقي: عد يا محمود إلى حيفا. عد إليها. إن «أقواس القزح» ستغطي حتما سماءها إذا غنيت أنت من حيفا.

عزيزي يا أقرب القوم إليّ. أنت لا تعرفني وأنا لا أعرفك. كيف؟ وأنت أخي وأنا لك الأخ. حاصرتنا سويا سياسة الغباء والظلام. صمدت أنا وما كان لي سوى الأمل (في حزب) فكيف لا تصمد أنت ولك الحزب.

الليل ينجلي، يبدأ الفجر شعاعه. فلنتمسك به معا، أنت في حيفا وأنا في القاهرة.

أنت وأنا الأمل. أنت وأنا شمس الغد. لو عدت أنت لحيفا وصمدت أنا في القاهرة.

التوقيع

شحاتة هارون

تلك كانت وجهة نظره التي لم يتمسك بها فكريا فحسب وإنما اتخذها كموقف ثابت في الحياة. يعليها ويؤكد على علوها. ويتخذ منها سلوكا يوميا في علاقاته الشخصية والمهنية والسياسية. لذلك لم يتقوقع خوفا من المياه الهادرة المحيطة به وإنما اقتحم هذه المياه بكل شجاعة. وفي أحيان كثيرة، بشجاعة يحسده عليها الآخرون. وفي أحيان كثيرة أخرى، بشجاعة يتعجب منها كل الآخرين. تعامل مع كل الجبهات والجهات، مهما علت مقاديرها الاجتماعية أو السياسية، على أنه مصري له حقوق المصريين وعليه واجباتهم التي تمليها عليهم هذه الهوية التي ورثوها.

شحاتة هارون



أليس مصريا ككل المصريين من مواطنين أطباء محامين وسياسيين وأدباء وشعراء وحتى من العمال والفلاحين؟.

فى عام ١٩٥٦، عقدت نقابة المحامين مجموعة من المؤتمرات النقابية لمساندة قرار الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الخاص بتاميم قناة السويس. حضرها شحاتة هارون وأعلن تأييده للقرار. وبعد أن شنت إنجلترا وفرنسا وإسرائيل العدوان الثلاثى على بورسعيد بهدف إسقاط نظام عبد الناصر وإعادة القناة إلى الملكية الأجنبية، دعت النقابة إلى مؤتمرات أخرى لتأييد الثورة وقيادتها. حضر شحاتة هارون مؤتمرين منها وعندما توجه لحضور المؤتمر الثالث التقطه عبد العزيز الشوربجى، نقيب المحامين حينذاك، من بين الحاضرين، وطرده خارج النقابة. صدم شحاتة وترك المؤتمر وعاد إلى منزله ليبكى.

وفى عام ١٩٦٧ فتحت نقابة المحامين باب التطوع والتبرع لمساندة القوات المسلحة والدعم العسكرى فكتب شحاته إلى النقيب الجديد أحمد الخواجة رسالة يقول له فيها:

> عزيزى أحمد
> تحية كفاح أبعثها إليك مع استمارة التطوع. تاركا لك اختيار المكان الذى أستطيع فيه أن أؤدى حقى وواجبى فى المعركة.
> وإذ أعتبر مجلس النقابة قيادة لى، تجدنى رهن إشارتك.
> وتفضلوا بقبول فائق الاحترام
> التوقيع
> المحامى شحاتة هارون

من وجهة نظر شحاتة هارون، إسرائيل ليست وطنا لكل اليهود. وهو يهودى ولكنه مصرى. وبالتالى لا يقبل أن يصلى على جثمانه السفير الإسرائيلى. «بأى صفة؟»

فى برقياته ومراسلاته التى تتعدد مع المناسبات السعيدة أو غير السعيدة التى تلم به كان يوقع عليها دائما موضحا أنه الشخص

حدد الفارق بينه وبين الآخرين. الفارق أن المصريين يشكلون كثرة من المسلمين والمسيحيين. أما هو فمصرى يهودى واحد.لكنه مصرى مثلهم. ولن يتنازل عن هذه الهوية مهما عظمت المتاعب.

لا يهم.

بالفعل، لم يكن يهتم.

لذلك كان يحاول دائما أن يشرح وجهة نظره لكل مسئول فى هذا البلد حتى لو كان جمال عبد الناصر . . شخصيا.

فى عام ١٩٦٣ أرسل برقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر. جاء نصها كالتالى:

> السيد الرئيس جمال عبد الناصر
> رئيس الجمهورية
> ورئيس الاتحاد الاشتراكى العربى
> تعبت من مديرى مكاتبكم. عايز أقابلك إنت بقه. أرجوك.
> التوقيع
> شحاتة هارون
> بطاقة عائلية
> ١١٧٤٩/ عابدين
> ١٩٦٣/٤/٢٨

فى عام ١٩٥٦ وفور وقوع العدوان الثلاثى على بور سعيد، فرضت الدولة الحراسة على عدد كبير من غير المصريين وكذلك على عدد آخر من اليهود. وكان مكتب المحامى شحاتة هارون ضمن المنشآت التى أخضعت لقرار فرض الحراسة رقم ٢٥٨. فما كان منه إلا أن اتبع ذات الأسلوب الذى يتبع عادة من كل المصريين. أبرق لكل مسئول فى البلاد، للرئيس جمال عبد الناصر وللمشير عبد الحكيم عامر وللسيد على صبرى وللسيد زكريا محيى الدين وللدكتور عبد المنعم القيسونى و و و. لم يترك مسئولا إلا أبرق إليه شارحا مصريته ويهوديته. ثم أرسل شاكيا إلى بعض الصحف، الجمهورية والأخبار والمساء وروز اليوسف والهدف.

فتم رفع الحراسة عن مكتبه ونشر الخبر فى الوقائع المصرية فى عددها الصادر يوم ٢ ديسمبر عام ١٩٥٦.

ثم حدث أن ألغيت التوكيلات الصادرة له من بعض الشركات التى فرضت عليها الحراسة بعد سنوات من استمرار هذه التوكيلات. حدث ذلك يوم ٤ فبراير عام ١٩٥٧. لم يسكت واتبع ذات الأسلوب فى الإبراق إلى كل المسئولين شارحا لهم موقفه الذى لا يلين. أبرق إلى رئيس الجمهورية وإلى وزير الداخلية وإلى وزير المالية و و و. يشرح أنه مصرى أبا عن جد ويهودى أبا عن جد. ولا تعارض بين الهويتين.

المهم أنه يتبع دائما ذات البناء الهرمى المركزى فى تقديم الشكاوى. مثله مثل كل المصريين المتقدمين بالشكاوى. للرئيس أولا ثم للنائب ثم لرئيس الوزراء ثم لوزير الداخلية . . وهكذا.

الفلانى الممتهن لمهنة كذا والمعتنق للديانة اليهودية والحامل للبطاقة الشخصية أو العائلية رقم كذا. سار على هذا النظام حتى عام ١٩٦٣. أما بعد عام ١٩٦٣ فبدأ يضيف إلى كل هذه البيانات بيانا جديدا وهو أنه عضو مؤتمر وحدة باب اللوق فى الاتحاد الاشتراكى العربى منذ أول نوفمبر عام ١٩٦٣ برقم عضوية (١٤٧٩). ولا أتصور أن عامة المصريين الذين كانوا يرسلون شكاواهم إلى المسئولين فى هذا الزمان كانوا يسجلون حقيقة عضويتهم فى الاتحاد الاشتراكى العربى أو موقع وحداتها أو رقم عضويتها أو حتى تاريخ الانضمام إلى التنظيم السياسى. أما شحاتة هارون فكان يصمم عليها ليذكر الجميع أنه لم ولن يتنازل عن أى من حقوقه التى يقرها الدستور.

إصرار غير عادى على التمسك بذاته وبجسده جزءا من النسيج الداخلى لمصريته.

وتستمر أغرب تلك البرقيات هى تلك الموجهة إلى السيد على صبرى مدير مكتب الرئيس جمال عبد الناصر لسنوات ثم رئيس مجلس وزراء مصر مع بدايات الستينيات. كان يبدأها بـ عبارة «السيد رئيس مجلس الوزراء». ثم يبدأ حديثه بـ عبارة «عزيزى على . . . أعتذر لرفع الكلفة بينك وبينى. هل تتذكرنى؟ أنا . . .». ثم يمضى فى حديثه أو شكواه أو تأييده لقرار تكون الحكومة قد اتخذته لصالح «الطبقات الكادحة المصرية» من العمال والفلاحين. والسبب فى رفع الكلفة أنهما، السيد على صبرى وشحاتة هارون، كانا زميلى دراسة لسنوات فى مدرسة الفرير. فكأنه كان يلجأ إلى زميل صبا وشباب ليعيد شرح مشاكله التى قد تكون مفهومة من قبل هذا الزميل القديم، سبب عامل الزمن المشترك وطول سنوات التعارف والزمالة بما تحمله من تجارب وفهم وود متبادل.

ولكن فى كتاباته إلى كل المسئولين لم ينس أن يرفع رأيه فى كيفية التعامل مع اليهود وما هى المضايقات التى تواجههم ولماذا يصر أن تكون مصر . . ومصر بالتحديد هى الأكثر ديمقراطية وتسامحا وقبولا للآخر. وكان يطالب بكل شجاعة ووضوح أن تعيد مصر النظر فى هذا التعامل. لقد تعامل مع كل المسئولين على أنه مثلهم . . مصرى، ولكنه مختلف . . يهودى ومتميز الفكر . . يسارى. ثم شجاع لا يخاف من الحق ولا من الحقيقة.

وتمسك بذات الموقف مع كل ما هو غير مصرى. فى إحدى رسائله إلى صحيفة لوموند الفرنسية ردا على مقال كتب عنه يدافع عنه قال: « . . أنا قادر على الدفاع عن نفسى لأنى قادر على شرح وضعى فى بلادى. . .».

وفى حديث له فى جريدة أمريكية علق الصحفى على موقفه المناهض للصهيونية وللدولة الإسرائيلية العنصرية قائلا: «سوف يقولون أنك لست يهوديا. وأنك تهاجم إسرائيل لأنك تعيش فى مصر وتخاف من الدولة المصرية. ولو كنت تعيش فى الولايات المتحدة أو فى إسرائيل ذاتها لقلت عكس هذا الكلام». أجابه شحاته: «الذين يقولون أنى غير يهودى لا يبصرون لأنهم يعيشون تحت تأثير الدعاية الصهيونية التى تعمى الناس. لقد اخترت أن أعيش فى مصر بمحض إرادتى وبناء على قناعتى وقرارى ولن أتنازل عن هذا القرار. وفى حقيقة الأمر إذا كنت أعيش فى إسرائيل فإننى لن أقوى على شرح رأيى هذا لأنى سأشعر بخوف أكبر من رابطة الدفاع اليهودية «منظمة عسكرية يهودية إرهابية». ولم تكن المرة الأولى أو الأخيرة التى يتعرض فيها المحامى المصرى اليهودى لمواقف تسلبه هويته الدينية أو تتهمه بالعمل لصالح جهات مصرية لم تكن له أية علاقة بها، بل كان دائم التقدم لها والسعى لشرح وجهة نظره لها. لقد عاش مشدودا بين من يسعى لنزع هويته المصرية من ضميره وبين من ينزع بالفعل هويته الدينية من وجدانه. لكنه استطاع أن يقف على قدميه على الأرض التى ولد عليها مقتنعا ومصمما أن لا بديل لها.

فى حياته السياسية الخاصة هذه مر بأعنف تجاربه عندما اعتقل فى شهر يونية عام ١٩٦٧ على أنه يهودى مشكوك فى ولائه لمصريته. حاول أن ينساها كواقعة أليمة فى حياته. لم يستطع. كان يذكرها بمرارة لما تحمله من انتهاكات لكرامته كإنسان مصرى مخلص محب لبلده ولشعبها. ولكنه كان يتذكر دائما أنه بعد الإفراج عنه، وكان ذلك بعد أربعة شهور قضى جانبا منها فى أقسام البوليس وجانبا آخر فى سجن أبى زعبل، أن المرحوم الأستاذ لطفى الخولى وكان حينذاك رئيسا لتحرير مجلة الطليعة، توسط له لدى السيد شعراوى جمعة وزير الداخلية الذى قابله واستمع إلى شكواه من مبدأ الاعتقال ثم من المعاملة غير الكريمة التى عومل بها مع الآخرين من فقراء المصريين اليهود. كما استمع خلال الحديث إلى رأيه السياسى الكامل فى الصراع







من رسائل الجاحظ

٥ ـ حنين الملوك لأوطانها

كانت الملوك على قديم الدّهر لا تؤثر على أوطانها شيئًا.

وحكى الموبَذ أنَّه قرأ فى سيرة إسْفَنْديار بن يستاسف بن لُهْراسف، بالفارسية، أنه لما غزا بلادَ الخزر ليستنقذ أختَه من الأسر، اعتلَّ بها، فقيل له: ما تشتهى؟ قال: شَمَّةً من تُربة بلخ، وشَرْبةً من ماء واديها.

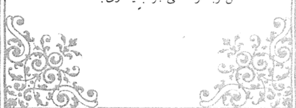
واعتلَّ سابور ذو الأكتاف بالروم، وكان مأسورًا فى القدّ، فقالت له بنت ملك الروم وقد عشقته: ما تشتهى مما كان فيه غذاؤك؟ قال: شَرْبةً من ماء دجْلة، وشَمَّةً من تربة إصطخر! فغبرت عنه أيامًا ثم أتته يومًا بماء الفرات، وقَبضة من تراب شاطئه، وقالت: هذا من ماء دجلة، وهذه من تربةِ أرضك، فشرِبَ واشتمَّ من تلك التربة فنقه من مرضه.

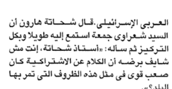
ولما افتتح وَهرز بن شير زاد بن بهرام جور اليمن، وقتل ملك الحبشة المتغلب ـ كان ـ على اليمن، أقام بها عاملاً لأنو شروان، فبنى نجران اليمن ـ وهى من أحصن مدن الثغور ـ فلما أدركته الوفاةُ أوصى ابنه شير زاد أن يحمل إلى إصطخر ناوسَ أبيه، ففعل به ذلك.

فهؤلاء الملوك الجبابرة الذين لم يفتقدوا فى اغترابهم نعمة، ولا غادروا فى أسفارهم شهوة، حنُّوا إلى أوطانهم، ولم يؤثروا على تُربهم ومساقط رءوسهم شيئًا من الأقاليم المستفادة بالتغازى والمدن المغتصبة من ملوك الأمم.

وهؤلاء الأعراب مع فاقتهم وشدّة فقرهم يحنون إلى أوطانهم ويقنعون بتربهم ومحالهم.

ورأيت المتأدِّب من البرامكة المتفلسف منهم، إذا سافر سفرًا أخذ معه من تربة مولده فى جراب يتداوى به.





العربى الإسرائيلى. قال شحاتة هارون أن السيد شعراوى جمعة استمع إليه طويلا وبكل التركيز ثم سأله: «أستاذ شحاتة، إنت مش شايف برضه أن الكلام عن الاشتراكية كان صعب قوى فى مثل هذه الظروف التى تمر بها البلد؟».

كما أنه فى حياته الشخصية مر بأعنف تجربة يمكن أن يمر بها أى أب لابنة صغيرة مريضة.

لا يعرف الكثيرون، حتى من أقرب المقربين إليه ولأسرته، أنه أنجب فى حياته بنات ثلاثة، منى وماجدة ونادية. الذى يعرف الرجل يعرف أن له ابنتين فقط، ماجدة ونادية. وحتى ابنتاه الأخيرتان لم تكونا على علم بهذه الابنة الثالثة التى كانت الكبرى. لقد مر شحاتة فى تجربته مع ابنته هذه عندما كانت البنتان صغيرتين.

عندما ذهبت إلى أسرته أطلب صورا له فى شبابه مع ابنتيه ماجدة ونادية لم أجد له صورة واحدة تجمعه بهما كطفلتين. عرفت من البنتين أنهما تعرفان أن والدهما تخلص من كل صور الأسرة القديمة حرقا. والسبب أنه لم يكن يتحمل رؤية صورة الابنة الكبرى، منى، وسط الأسرة. وأنهما لم تعرفا بحقيقة أنه كانت لهما أخت كبرى إلا بعد أن تجاوزتا سن الخامسة عشرة، وليس قبلا. وكان ذلك بالصدفة البحتة فى سياق أحد أحاديث عمتهما، ديان. والسبب أن هذه الابنة أصيبت فى طفولتها فى الخمسينيات بمرض عضال فى الدم فنصحه الأطباء بالسفر بها إلى باريس للعلاج. وبالفعل تقدم إلى السلطات للحصول على تأشيرة الخروج وموضحا سبب الطلب. وعندما عرف أن شرط الحصول على هذه التأشيرة هو أن تكون بلا عودة إلى الوطن المصرى. قرر أن يعالجها بالإمكانيات المتاحة فى مصر. وكانت إمكانيات ذلك الوقت غير متقدمة. فرحلت الابنة بعد أن عاشت لشهور تحصل على دفعات من دم أبيها. بكى وأحرق كل صور الأسرة التى تجمعها بالطفلة الصغيرة. وحاول أن ينسى الموضوع بأكمله. لم يذكره أبدا لبنتيه.



الذى اقترب من شحاتة هارون اقترب من إنسان يتمتع بحس ساخر وتحيطه، بجانب هذه الزوبعة الخاصة بسبب يهوديته، حالة أخرى من خفة الظل والاستمتاع بالنكتة المصرية وتناقلها. حسده الكثيرون على حسه الساخر وعلى خفة ظله كما حسدوه على إصراره على الاقتراب من أجمل وأبدع ما فى الحياة، بالرغم من هذه الخصوصية الفريدة وبالرغم من كل متاعبها وتجاربها. أحبه كل من اقترب منه.. ثم فهمه فهما جيدا. فى إحدى مناقشاته مع بعض شباب حزب التجمع سأله ماهر بيومى زميله الحزبى فى أمانة القاهرة: «هل صحيح يا أستاذ شحاتة أن اليهود عباقرة؟» أجاب شحاتة هارون: «هل قدم التاريخ عبقريًا يهوديًا من اليمن أو من العراق أو من أثيوبيا أو حتى من مصر؟، العبقرية تنمو وتظهر فى البلاد المتقدمة صناعيا وعلميا. يمكن تولد فى البلاد النامية ولكنها لاتجد فرص النمو والانتشار. الإنسان ابن وامتداد لواقعه الاقتصادى والاجتماعى. أما فى البلاد النامية اللى هى متخلفة فاليهود زيهم زى الآخرين. متخلفون. طيب ما أنا يهودى أهه بس متخلف. مش أنا برضه متخلف. لأنى من بلد نامى يسعى إلى التقدم».

وفى أحد اجتماعات المؤتمر العام لحزب التجمع جلس الأستاذ شحاتة بجانب كارم هاشم، زميله فى الحزب وفى أمانة القاهرة وفى المؤتمر. جلس الاثنان لتناول وجبة الغداء التى يوزعها الحزب فى مثل هذه المناسبات(كيس بلاستيكى يحمل ساندويتش طعمية وساندويتشين فول وكيس بلاستيك صغير به مخلل) مال كارم على الأستاذ شحاتة قائلا:

«أستاذ شحاتة تاخد واحد فول وتدينى واحد طعمية؟».

أجاب الأستاذ شحاتة: «لا».

عاد كارم للعرض: «طيب تاخد اثنين فول وتدينى واحد طعمية؟».

قال الأستاذ شحاتة: «قلت لك لا. يا أخى أنا بحب الطعمية».

لحقه كارم بعرض ثالث: «طيب تاخد اثنين فول والمخلل وتدينى واحد طعمية؟».

قفز الأستاذ شحاتة الخبير فى براءات الاختراع والعلامات التجارية من على مقعده وقال صارخا: «إيه يا أخى.. ما تسيبنى أتمتع بالطعمية. بلاش زن وإلحاح. هو إنت إيه... يهودى!».



التوازن الصعب في قانون الملكية الفكرية



زياد بهاء الدين

لا يكاد يوجد بلد فى العالم اليوم لا يشغله موضوع حماية الملكية الفكرية، هذا الموضوع الذى كان حتى وقت قريب من الأمور المتخصصة التى لا تهم سوى قلة من أهل القانون والاقتصاد والأعمال، فجأة اقتحم بيوت الناس وعقولهم، فصار قضية عامة لا ينقطع الحديث عنها فى الندوات والجلسات العامة والخاصة.

ولأن الموضوع اكتسب اهتمامًا عامًا، فقد اختلط فيه الواقع بالخيال والحقائق بالأساطير والآمال بالأحلام، كما انقسم الرأى حوله بين من يرى أن حماية حقوق الملكية الفكرية وسيلة للاستعمار الجديد وأداة للسيطرة على الشعوب والاستيلاء على ثرواتها.

- ومن يرى أن هذه الحماية هى الوسيلة الوحيدة لضمان تقدم العلوم والفنون والتكنولوجيا وكافة ألوان الإبداع والاختراع، فما هى الحقيقة فى كل هذا؟ ولماذا اكتسب هذا الموضوع أهمية كبرى مفاجئة؟ وأين تقع مصالح الدول النامية منه؟

الإجابة عن هذه الأسئلة تتطلب الرجوع إلى الوراء لفهم أصل الموضوع وأساسيه القانونى والاقتصادى من خلال طرح أسئلة أخرى أولوية وضرورية.

فما هى - أولاً - هذه الملكية الفكرية التى يدور حولها كل هذا الجدل؟ وهل كل شيء غير ملموس يعتبر محلاً للملكية الفكرية؟ والإجابة هى أن الملكية الفكرية هى كل ما يكون نتاجًا للتفكير وليس بالضرورة ما هو غير ملموس، بمعنى آخر هى كل ما ينتج عن أى نوع من البحث أو الدراسة أو الإبداع الفنى، بشرط أن تكون له قيمة اقتصادية، ولذلك يدخل فى عداد الملكية الفكرية، عمل الكاتب والمؤلف والملحن والعازف والمغنى والمخترع والباحث ومصمم برامج الكمبيوتر وغيرهم ممن ينتجون عملاً هو نتاج التفكير أو الإبداع الإنسانى. أما أهمية أن تكون لعملهم قيمة اقتصادية فهو ما يجعله محلاً للملكية لأن حق الملكية لا يرد إلا على ما يكون له قيمة.



ويقودنا هذا التعريف إلى إدراك وقبول حقيقة مهمة، وهى أن الأفكار والاختراعات والتصميمات والألحان والأشعار، وكل ما يمثل إنتاجًا فكريًا، مهما كانت له من قيمة ثقافية وحضارية إنسانية، له أيضًا جانب تجارى واقتصادى، فالنظر إلى المنتج الفنى أو الأدبى على أنه ذو طبيعة خاصة تجعله ملكًا لكل من يرغب فى الاستمتاع به أو إلى الاختراع العلمى على أنه ملك للإنسانية كلها يصطدم مع حقيقة أن هذا المنتج أو الاختراع يمثل لصاحبه نتاج عمل وتضحية واستثمار يجعل من حقه أن يستمتع بعائده الاقتصادى.

السؤال الثانى هو: لماذا تسعى التشريعات المختلفة للحد من قدرة الأشخاص على تصوير الكتب واستنساخ شرائط الموسيقى وبرامج الكمبيوتر برغم أن هذه هى الوسائل الوحيدة المتاحة لكثير من الناس للحصول والتمتع بهذه المنتجات الفكرية؟ والإجابة البسيطة هنا هى أن كل اعتداء على الملكية الفكرية نوع من السرقة نظرًا لأن هذه الملكية مثلها مثل ملكية الأشياء المادية، تعطى لصاحبها وحده حق الاستفادة منها والتمتع بثمارها الاقتصادية. والقول بغير ذلك يترتب عليه أمران، الأول: أن صاحب هذه الملكية يجد نفسه قد بذل الجهد والعمل بلا مقابل ولا أجر، والثانى: هو أن استباحة حقوق الملكية الفكرية عن طريق التصوير أو الاستنساخ (ما يسمى بالقرصنة) لابد أن يترتب عليهما فى نهاية الأمر إحجام كل من لديه القدرة والملكية الفكرية عن الإبداع وإحجام كل من لديه الإمكانيات والموارد اللازمة للبحث العلمى عن الاستثمار فى هذا المجال لعدم الثقة فى وجود عائد مناسب على مثل هذا الاستثمار.

ولعل ما يشجع على قرصنة المنتجات التى تتضمن حقوقًا للملكية الفكرية ويكاد يعطى صفة المشروعية لها هو التباين بين ثمن هذه المنتجات وقيمة المواد المكونة لها، أى الزيادة الكبيرة فى أسعار بعض الأدوية مثلاً عن المواد الكيمائية الداخلة فى تركيبها، أو أسعار الكتب عن الورق أو الحبر اللازم لتصنيعها أو أسطوانات الموسيقى وبرامج الكمبيوتر عن المكونات الصناعية لها. ولكن الواقع أن هذا التباين فى حد ذاته طبيعى ولا يمكن أن يكون مبررًا للسرقة.

فكما أن ثمن المنزل مثلاً يتجاوز قيمة مكوناته من الأسمنت والرمل والحجارة لأن الفارق يمثل نصيب كل من اشترك فى التصميم والبناء والإشراف، كذلك فالفارق بين أثمان هذه المنتجات وقيمة المواد المكونة لها يمثل تكلفة الإنتاج والتصنيع والتسويق بجانب تكلفة شراء أو استغلال حقوق الملكية الفكرية. «فالتباين فى سعر المنتج عن قيمة مكوناته إذن فى حد ذاته ليس مدعاة للاستنكار وبالتأكيد ليس مبررًا للسرقة. إنما يصبح الأمر أكثر صعوبة حينما يزداد هذا التباين إلى الحد الذى يعبر فيه عن استغلال فادح من النوع الذى لا تقبله الأخلاق، ولا يقبله فى بعض الأحيان القانون.

فبقدر ما يكون من واجب سلطة التشريع فى أى بلد أن تتدخل لتحمى الملكية الخاصة وتعطى لكل شخص حقه وتتيح له التمتع بثمار عمله، بقدر ما عليها أيضًا ألا تغفل الجانب الاجتماعى من القانون، فتحد من الاستغلال وتعيد توزيع الثروة. وهذا الأمر لا يتعلق بالملكية الفكرية وحدها وإنما بجميع أنواع الملكيات مهما كان محلها. ولذلك نجد أن النظم القانونية، حتى فى أكثر بلدان العالم أخذا بالاقتصاد الحر، تنظم المنافسة وتمنع المستهلكين من الغش والاستغلال، بل وتعيد توزيع الثروة من خلال السياسات الضريبية.

- فمواجهة مخاطر التباين الفائق بين أسعار المنتجات التى تعتمد على الملكية الفكرية وقيمة مكوناتها لا تكون بالتصوير أو الطبع أو الاستنساخ. وإنما باكتمال البناء القانونى الوطنى الذى يحد من هامش الربح غير المبرر عن طريق تشجيع التنافس وحماية المستهلك من خطر الممارسات الاستغلالية.

وفى المملكة المتحدة مثلاً، قررت لجنة برلمانية منعقدة للنظر فى أسعار الأسطوانات المدمجة للموسيقى أن هذه الأسعار مرتفعة بدرجة لا تبررها التكلفة الاقتصادية للإنتاج وتمثل هامشًا للربح يعبر عن وجود خطر فى التنافس.

وأهمية ما سبق تكمن فى التأكيد على خطورة قيام الدول النامية بإصدار تشريعات تنظم مواضيع معينة دون الأخذ فى الاعتبار بباقى المنظومة القانونية التى توازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع. والنقاش الدائر حول تشريعات حماية الملكية الفكرية مثال على ذلك، إذ أن مساوئ إصدار هذا القانون لا يتم تجنبها أو الحد منها عن طريق رفض القانون برمته أو تأجيل إصداره، وإنما عن طريق الحرص على أن يواكبه إصدار باقى التشريعات الاجتماعية التى تحقق توازنًا معه.

هذه القضية بالغة الخطورة - أى المواءمة بين حماية صاحب الملكية الفكرية وبين مصلحة الجمهور والمجتمع - ثارت فى الآونة الأخيرة على نحو مهم ومثير بشأن صناعة الدواء، فمن المعروف أن التركيبة الكيمائية لكل دواء تعد من أهم أنواع الملكية الفكرية التى تسعى شركات الأدوية للدفاع عنها بسبب التكلفة الباهظة التى تتطلبها الأبحاث العلمية فى هذا المجال.

وقد تمكنت بعض شركات الأدوية أخيرًا من التوصل إلى منتجات جديدة تحد من خطورة مرض الإيدز وتوقف تقدمه. وكان طبيعيًا أن تباع هذه الأدوية بأسعار مرتفعة تتناسب مع الاستثمارات التى أنفقتها الشركات فى البحوث والتطوير.

ولكن على الجانب الآخر من المعادلة يقف الملايين من سكان القارة الأفريقية الذين يعانون من مرض الإيدز الفتاك (نسبة الإصابة به فى بعض البلدان الأفريقية تقرب من ٢٥٪ من السكان) ولا يقدرون على شراء الدواء الجديد ذى السعر الباهظ، كما يوجد معهم على نفس الجانب شركات أدوية فى مختلف أنحاء العالم بدأت فى إنتاج الدواء بشكل غير قانونى وبيعه بأسعار زهيدة نسبيًا. فلما تدخلت شركات الأدوية صاحبة حقوق الملكية الفكرية لمنع الإنتاج والبيع غير القانونى، اندلعت المظاهرات فى عدد من البلدان الأفريقية وتبعتها مظاهر احتجاج من المعارضين لاتفاقيات حماية حقوق الملكية الفكرية وجشع شركات الأدوية فى البلدان الصناعية المتقدمة.

والواقع أن الاحتجاج فى مثل هذا الموقف مشروع، فكيف يمكن قبول استمرار وضع يموت فيه عشرات الآلاف كل يوم لعدم قدرتهم على سداد ثمن دواء صار معروفًا ويمكن توفيره؟ ولكن من جهة أخرى فإن الخروج نتيجة أن الحل يكمن فى السماح لمن يرغب فى أن ينتج الدواء دون التزام الملكية الفكرية لمن اكتشفه يعنى ضياع كل حافز فى المستقبل للمزيد من البحث العلمى والاكتشاف. نعم هناك سبب للاحتجاج، ولكنه ليس مبدأ احترام الملكية الفكرية ولا التشريع الخاص به، نعم يلزم حصول سكان العالم على أحدث الأدوية، ولكن ليس مقابل إهدار كل استثمار فى البحث العلمى. التوازن بين النقيضين يكمن فى اكتمال البناء القانونى الذى يحدد على نحو متوازن ما يعد ربحًا مشروعًا وما يعتبر استغلالاً، ويكمن أيضًا فى تحديد من الذى يتحمل تكلفة توفير الأدوية الحديثة مرتفعة الثمن لسكان العالم، هل هى شركات الأدوية، أم الحكومات أم المنظمات المعنية بالصحة أم غيرها؟



ويقودنا كل ما سبق إلى سؤال ثالث وأخير: إذا كانت البلدان النامية هى الطرف الخاسر من تنفيذ اتفاقات حماية حقوق الملكية الفكرية، فما الذى يدفعها إذن للدخول فيها والالتزام بأحكامها؟

والإجابة عن هذا السؤال لها عدة جوانب. من جهة أولى، فحتى مع افتراض صحة القول بأن اتفاقات وتشريعات حماية حقوق الملكية الفكرية تحقق مصالح أكبر للدول الصناعية المتقدمة باعتبارها صاحبة النصيب الأكبر من تلك الحقوق التى لها قيمة اقتصادية كبيرة، فيظل على البلدان النامية أن تنضم إلى تلك الاتفاقيات والتشريعات؛ والسبب فى ذلك يرجع إلى تحول مهم حدث فى العقود الأخيرة فى طبيعة القانون الاقتصادى الدولى. هذا التحول يتمثل فى ربط كل منظومة المعونات والتعاون الاقتصادى الدولى ببرنامج سياسى واجتماعى واقتصادى شامل يجعل الدول النامية عضوًا مقبولاً فى المجتمع الدولى الجديد. وهذا التحول هو ما يصفه رجال القانون الدولى بالانتقال من مرحلة القانون الدولى الرخو إلى القانون الدولى الصلب أى من القواعد الدولية والاتفاقات التى تكون فى الأصل إرشادية وانضمام كل دولة إليها اختياريًا، إلى القواعد الدولية التى يصبح قبولها والانضمام إليها إجباريًا لأنه شرط بقبول الدولة عضوًا فى المجتمع الدولى الاقتصادى، بكل ما يمثله ذلك من فرص ومزايا.

وحماية الملكية الفكرية من المسائل التى ينطبق عليها تمامًا وصف التحول السابق فى القانون الدولى الاقتصادى، فالاهتمام بهذا الموضوع فى المعاهدات الدولية ليس جديدًا، بل قارب عمره القرن الكامل. ولكن التحول الجذرى الذى طرأ عليه هو أنه بدلاً من أن تكون حماية الملكية الفكرية مقررة بموجب اتفاقات ومعاهدات وتشريعات متفرقة، مثلما كان الحال من قبل، تنضم إليها بعض الدول ولا تنضم دول أخرى، يتباين الاهتمام بتطبيقها فعليًا من مكان إلى آخر، صارت هذه الحماية ركنًا أصيلاً ودائمًا فى برنامج العمل الذى يلزم على كل دولة أن تطبقه لكى تكون عضوًا فى المجتمع الاقتصادى الدولى. وقد تحقق هذا التحول من مرحلة القانون الرخو إلى مرحلة القانون الصلب عن طريق إضافة ملحق كامل من هذا الموضوع إلى اتفاقيات التجارة الدولية التى تم بموجبها إنشاء منظمة التجارة العالمية فى منتصف التسعينيات من القرن الماضى، فأصبح بذلك أمام كل دولة نامية أن تختار بين قبول هذه المعاهدات بما فيها الالتزام بحماية حقوق الملكية الفكرية، أو عدم الانضمام إليها والبقاء خارج المجتمع الدولى الاقتصادى المعاصر بما يترتب على ذلك من الحرمان من كل المزايا التى تتيحها العضوية فيه. وأمام هذا الاختيار الواضح، اختار معظم الدول النامية الانضمام.

وهنا تجدر الإشارة إلى خطأ شائع فى الحوار الدائر حول مغزى الانضمام إلى اتفاقية التجارة الدولية وشقيقتها اتفاقية التجارة فى الخدمات بما تتضمنه من التزامات بشأن حماية حقوق الملكية الفكرية. ففى مصر مثلاً يدور جدل واسع حول مزايا وعيوب مشروع حماية الملكية الفكرية بمناسبة تقديم الحكومة المصرية لمشروع القانون إلى البرلمان المصرى. ووجه الخطأ هنا هو الاعتقاد بأن المطروح هنا هو هل يصدر القانون أم لا يصدر، إذ أن مصر بانضمامها بالفعل إلى مجموعة الاتفاقات المتصلة بمنظمة التجارة العالمية قد وافقت بالفعل على الالتزام بأحكام المعاهدة الدولية لحماية حقوق الملكية الفكرية وصار التزامها قانونيًا منذ أقر البرلمان المصرى هذه الاتفاقية. كل ما يتبقى هو إصدار التشريع المصرى ليس من أجل إنشاء أحكام قانونية جديدة بقدر ما يفرض وضع أحكام المعاهدة الدولية موضع التطبيق المباشر فى صيغة وبناء يقبلهما القانون المصرى، فالمطروح إذن ليس قبول أم عدم قبول الانضمام إلى المعاهدة الدولية، وإنما هل تقبل مصر الاستمرار فى عضوية المجتمع الدولى المعاصر عن طريق الوفاء بما التزمت به سابقًا، أم تنسحب من هذا المجتمع؟

ما سبق يوضح مبررات إصدار تشريع لحماية الملكية الفكرية فى بلد من البلدان النامية من منظور القانون الدولى. ولكن هل هذا هو السبب الوحيد؟ بالقطع إن الإجابة هى النفى.

فبمعزل عن اعتبارات الكسب والخسارة من المنظور الدولى، يظل إصدار تشريع لحماية الملكية الفكرية ضروريًا لأسباب داخلية، وهى ضرورة حماية وتشجيع الابتكار والإبداع والاختراع محليًا من الاعتداءات المختلفة سواء من الداخل أم الخارج.

لقد اعتاد المعلقون على التركيز على البعد الدولى من حماية الملكية الفكرية حتى توازن تمامًا اعتبارات أن المؤلف والمبدع والمخترع أحيانًا ما يكون من مواطنى العالم الثالث، وأنه أيضًا جدير بالحماية وجدير بالحصول على العائد الاقتصادى لعمله. وهذا فى حد ذاته مبرر لإصدار تشريع يحمى حقوق أهل البلد.

فإذا قيل أن هذا الاعتبار الأخير يتضاءل أمام المكاسب الكبرى التى سوف تحققها الدول الصناعية فى مواجهة العالم النامى، فإن الرد على ذلك أن هذا التباين لا يرجع فقط إلى التقدم العلمى والتقنى الذى تتمتع به الدول الصناعية، وإنما أيضًا إلى قدراتها التسويقية والتفاوضية والدعائية، وإلى حجم الوعى المنتشر لديها والبنية المؤسسية التى تجعل صاحب الملكية الفكرية يستفيد من عمله.

فهل يترتب على كل ما سبق ضرورة قبول النظام القانونى الدولى لحماية الملكية الفكرية رغم ما يضعه على كاهل سكان العالم النامى من عبء وتكلفة؟ الإجابة هنا أيضًا هى النفى. فليس علينا قبول الوضع الراهن على علاته، ولكن الاستمرار فى مناقشة المبدأ لم تعد مجدية لأن الصراع الحقيقى يجب أن يكون فى التفاصيل: تفاصيل ما يلزم أن يصاحب إصدار قانون حماية الملكية الفكرية من تشريعات مكملة له بشأن تشجيع التنافس ومنع الاحتكار وحماية المستهلك من الاستغلال، وتفاصيل تتعلق باستمرار دول العالم النامى فى التفاوض الجماعى بشأن تحسين موقفها فى المعاهدات الدولية، وتفاصيل بشأن تطوير البنية المؤسسية والتسويقية المحلية التى تساعد أصحاب الملكية الفكرية المحليين من تحقيق العائد الاقتصادى المستحق لهم وفقًا للأسعار العالمية، وغير ما سبق لن يكون أمامنا سوى التحمل بأعباء هذا النظام القانونى العالمى دون التمتع بأى من مزاياه. ■

كـتـاب الـزاويـة

من رسائل الجاحظ

٦ـ فى الأوطان والبلدان

زيْنكَ الله بالتَّقْوى، وكفاك المهمَّ من أمر الآخرة والأولى، وأثلج صَدركَ باليقين، وأعزَّك بالقناعة، وختَم لك بالسَّعادَة، وجَعَلك من الشاكرين.

سألتَ ـ أبقاك الله ـ أن أكتب لك كتابًا فى تفاضُل البُلدان، وكيف قناعةُ النَّفس بالأوطان، وما فى لزومها فى الفَشَل والنَّقض، وما فى الطَّلب من علم التَّجارب والعقل.

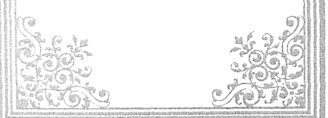
وذكرتَ أنَّ طُول المُقام من أسباب الفقر، كما أنَّ الحركة من أسباب اليُسْر، وذكرتَ قول القائل: «الناس بأزمانِهم أشبَهُ منهم بآبائِهم».

ونسيتَ ـ أبقاكَ الله ـ عملَ البُلدان، وتصرُّف الأزمان، وآثارهما فى الصُّور والأخلاق، وفى الشمائل والآداب، وفى اللُّغات والشَّهوات، وفى الهمم والهَيْئات، وفى المكاسب والصِّناعات، على ما دبَّرَ الله تعالى من ذلك بالحكمَة اللطيف، والتدابير العجيبة.

فسبحانَ من جَعلَ بعضَ الاختلاف سببًا للائتلاف، وجعل الشكَّ داعيةً إلى اليقين، وسُبحان منَ عرَّفنا ما فى الحَيْرَة من الذِّلَّة، وما فى الشَّكِّ من الوَحْشة، وما فى اليقين من العزِّ، وما فى الإخلاص من الأنس.

ولولا ما يجبُ من تقديم ما قدَّم اللهُ وتأخير ما أخَّر لكان الغالبُ على النفوس ذكرَ الأوطانِ وموقعها من قلَب الإنسان.

وقد قال عمر بن الخطاب: «عَمَّر اللهُ البُلدان بحبِّ الأوطان»، وقال ابن الزُّبير: «ليس الناسُ بشىءٍ من أقسامهم أقنَعَ منهم بأوطانهم».





حسام الدين زكريا

قدم لنا شاعر الألمانية الكبير شيللر صورة الفنان التلقائى البسيط، وكأنه كان يضع معايير للشخصية الفنية للتلقائيين قبل أن تتبلور حركتهم بقرن كامل.. إنه الرجل ذو العاطفة، الرجل البسيط الذى يزاول الأشياء بشكل طبيعى، وهو الجنة المفقودة، والمثل الأعلى لكل من تهفو نفسه إلى عالم البراءة والأحاسيس النقية



يلفت توماس كون النظر، فى كتابه «The Structure of Scientific Revolutions» (1962) إلى أن فن التصوير قد ظل لمئات السنين وكأنه منظومة معرفية تراكمية، ويرى أن ذلك الفن كان على مدار السنين مجالاً خصبًا لتراكم المهارات والإبداعات من الجهابذة على اختلاف مدارسهم وتوجهاتهم. وكان الهدف الأسمى له، وهو هدف سعى إليه السواد الأعظم من المصورين طول تلك القرون، هو إخضاع المظاهر البصرية، من خلال تكنولوجيا تصويرية يملك المصور زمامها، لكى تمكنه من تمثيل الطبيعة على أكمل وجه. وسجل نقاد الفن ومؤرخوه الكبار من أمثال بللينى Bellini (١٤٣٠-١٥١٦)، جورجيو فازارى فى إجلال وتوقير، سلسلة الابتكارات الفنية فى التصوير كالتقصير Foreshortening، وتوزيع الضوء والظل Chiaroscuro.. إلخ، والتى أسهمت فى تصوير الطبيعة بكل دقة، إلا أن تلك السنوات، خاصة أعوام عصر النهضة، كانت هى السنوات التى شهدت انقسامًا بسيطًا بين العلوم والفنون، والنموذج الذى قدمه ليوناردو دافنشى كان واحدًا من نماذج عديدة لفنانين تنقلوا بحرية بين مجالات - علمية وفنية - لم تعد متمايزة تمايزًا تاما إلا فى فترة متأخرة. والملاحظ أن مصطلح الفن كان يعنى بنفس القدر التكنولوجيا والحرف الصناعية، وهى فنون كان ينظر إليها هى الأخرى باعتبارها فنونًا مطردة التقدم، شأنها شأن التصوير والنحت. والذى حدث هو أن التصوير والنحت قد نبذا تمامًا القول بأن التمثيل بالصورة هو أسمى أهدافها، وعادا أدراجهما من جديد لينهلا من فنون البدائيين..!! هنا فقط اتخذ الانقسام بين العلم والفن، الذى نسلم به نحن اليوم، أبعاده الواضحة الراهنة.



وإذا كنا اليوم نواجه صعوبات شتى عند بيان الفارق العميق الذى يمايز العلم عن التكنولوجيا، فإن ذلك يرجع فى جزء منه إلى أن التقدم سمة واضحة لهذين المجالين. وقد شرع الفلاسفة منذ العقود الأخيرة للقرن الماضى فى تداول مصطلح سيكولوجية الشعب ضمن مصطلحات أخرى أصبحت أدوات شائعة لا غنى عنها عند محاولة إيجاد تفسير للتمايز بين العلم والتكنولوجيا، ويتداول معظمنا ذلك المصطلح كلما حاولنا فهم سلوك أى جماعة استنادًا لمعتقداتها وتقاليدها ورغباتها، وهو فهم يكون خاطئًا، ولم يكن هناك ما هو أكثر سخرية وازدراء من استخدامه على هذا النحو. ومنذ قرن مضى كان اللفظ يعنى بالتأكيد سيكولوجية هؤلاء الناس (المتخلفين..!!)، الذين يعيشون حياة لصيقة بالطبيعة فى ثقافات توجهها حتمية التقاليد والعادات المتوارثة، ولها أساليب تفكيرها المختلفة عن الحياة من حولها، والأشد بدائية بلا ريب من أناس متحضرين ومتطورين مثلنا..!! إلا أنه عندما نشر عالم الاجتماع الفرنسى كلود ليفى شتراوس Claude Levi Strauss كتابه «التفكير الهمجى La Pensee Sauvage» (1966)، أوضح للأذهان الكيفية التى كانت العقول الهمجية تفكر بها، وكيف اختلفت النماذج البدائية للتفكير عن نماذجنا المتفوقة (المزعومة)، وقد تسربت أفكاره إلى الفلسفة الحديثة، وأظهرت أنه رغم كوننا متحضرين وعلى كل هذا القدر من التقدم، فإن الطريقة التى نفهم بها ونفسر سلوك بعضنا البعض عن طريقها ظلت بدائية ومتأخرة بالنسبة للأساليب العلمية الموثوق بها فى التفسير، ومن ثم فنحن بدائيون بطبيعتنا ومازلنا نفكر بتلك الطريقة. وسنبطل تلك العادة الذميمة مستقبلاً، وهى الإشارة للحالات العقلية عند تفسير السلوك الإنسانى.

والواقع أن فن الشعب هذا يستحق بجدارة أن يدعى فنا خالصًا (إن كان منا من يلاحظ ذلك)، ويكفيه فقط أنه يسعى لنفس الهدف أسوة بفنون التصوير والنحت فى كل مكان، إلا أنه اعتبر فنا شعبيا بسبب ممارساته التى وضعته عند مرحلة مرتدة من التقدم الذى تسنم فيه فن التصوير الذرى من خلال مراكز الفن الكبرى، فهو نتاج لما يستطيعه الشعب بطبيعة الحال، لذا كانت النظرة إلى الثقافة الشعبية دومًا كصيغة حياة غير ناضجة نسبيا إذا ما وضعت على كفة ميزان أمام الثقافة الأوروبية، والمفترض أن فنانى تلك الثقافات لو كان قد قدر لهم فقط معرفة التكنولوجيا اللازمة، مع تحديد الهدف، لأبدعوا أعمالاً فنية على غرار فنانى فلورنسا. إنه نفس ما كان سيحدث مثلاً لشعب الأزتيك لو كان قد عرف شيئًا عن العجلة..! على أنه يجدر القول إن ذلك لا يحدث دائمًا فى عالم الفن، فهناك عادة أسباب ترتبط بأنماط الحياة التى يمارس الفن فى نطاقها، والتى قد لا تكون متوائمة مع التكنولوجيات المتقدمة لفن التصوير، وتعطينا الصين مثالاً رائعًا لذلك - وهى بلد لا تبدو حضارتها بدائية إلا لأكثر وجهات النظر ضيقًا فى الأفق (من خلال شعور الأوروبيين الزائف بالتفوق) - عندما أقرت على الفور بأن المنظور Perspective هو الطريقة الصحيحة على وجه الدقة لإظهار العناصر كما تبدو فى الفراغ، وذلك عندما قام الأب جيوزيبى كاستليونى Giuseppe Castiglione (1688-1766)، وكان مبشرًا وفنانًا، بإجراء عرض لرسم المنظور، إلا أن مثقفى الصين مع تسليمهم بمميزات المنظور



لوحة رقم (١)
هنرى روس
فهد يفترس حصان

الرياضى، سرعان ما استشعروا أن ذلك الأسلوب ليس هو الفعالية الفنية المطلوبة فى حياتهم الثقافية، ومن ثم كانت أفضليته الموضوعية غير متصلة بممارستهم الفنية. أما ما اعترف به الصينيون فهو أن هناك اختلافًا بين دور الفن فى ثقافة ما، وبين وسائل تلك الثقافة لتجسيد الصورة، وقالوا إن الدور الذى لعبته الصور فى الحضارة الغربية لم ينفصل عن الصديق البصرى الذى تبديه تلك الصور، وهى صلة لم تتواجد فى ثقافتهم. وربما سلم الفنانون الشعبيون تمامًا بصحة الاكتشافات الموضوعية التى يظهر التقدم واضحًا خلالها، دون أن يدركوا أنهم قد يحققون فائدة من ورائها، فربما كانت للصور بالنسبة لهم أدوار أخرى تؤديها، بحيث لم يكن هناك اتساق بالمرة بين التقنية، وما تتيحه من إمكانيات ودقة، مع حياتهم الثقافية، وقد يعيد ذلك لأذهاننا حكاية شعب الأزتك مع العجلة ويجعلنا نفكر فى احتمال معرفة هؤلاء القوم بتلك التكنولوجيا، وأنهم ربما فكروا فى الثمن الذى سيدفعونه لقاء استخدامها، وقرروا صرف النظر عنها، ولعلهم فى ذلك كانوا أعقل من شعوب كثيرة فى عصرنا هذا..!! عصر الصدمات التكنولوجية بحق.

مولد الفن التلقائى:

«.. إننى أود أن أستعيد نضارة الرؤيا، وهى خاصية لا نجدها إلا فى منتهى الطفولة، عندما تتبدى الدنيا فى ثوب قشيب..»

«هنرى ماتيس»

عندما صاغ ألفين توفلر مصطلحه «صدمة المستقبل»، واختاره عنوانًا لكتابه الشهير FutureSchock (١٩٧٠)، كان فى ذهنه ما سيلاقيه الإنسان العادى فى مجتمعات الدول المتقدمة تحت وطأة تكنولوجيات عاتية. فلقد وقع هذا الإنسان تحت وطأة مجموعة من الضغوط النفسية والعصبية والفسيولوجية، وهو يحاول لاهثًا ملاحقة التغيرات الحياتية التى سببتها تلك التكنولوجيات، والتى تتبدل وتتغير بإيقاعات فائقة السرعة تجاوزت قدراته على التلقى والاستيعاب. حيث تتنوع تنوعًا هائلاً، وتتجلى على كافة المستويات بدءًا من بطاقات الائتمان، ومرورًا بفيض البث الإعلامى المرئى والمسموع والمقروء، وكأنه كان يبشر بثورة الوسائط المعلوماتية (الإنفوميديا) التى يقول عنها فرانك كيلش Frank Koelsch صاحب الكتاب بنفس العنوان Infomedia Revolution أنها ستقلب حياتنا هى الأخرى رأسًا على عقب بما فى



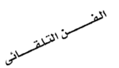
جـعـبـتـهـا من امـتـزاج تكنولوجي Tech. Convergence بـيـن أعظم ثـلاث قــوى عـلـى الساحة الآن:

الحـوسـبــة Computation، والوسـائط الإعــلامـيــة Media، والاتـصــالات Communication.

وهكذا برزت مشكلة الحمل المعلوماتي الزائد Information Overload، ووجد الإنسان نفسه حيالها فاقدًا للسيطرة، تحيطه بيئة غريبة عليه لا يملك أمامها حولاً ولا قوة، فلا هو بالقادر على التفاعل مع معطياتها سواء بالسلب أو الإيجاب لافتقاده الأدوات الذهنية الضرورية لإنجاز ذلك التفاعل، ولا هو بمستطيع التواصل مع رموزها لجهله بدلالات تلك الرموز، فقد أصبحت لغة التفاهم في معظمها مكودة Codified، تفيض بالرموز والاصطلاحات، ولم يكن هناك بديل عن الاغتراب التكنولوجي - أحدث صور الاغتراب في العصور الحديثة، وعندها لم يجد المرء مناصا من اللجوء للحيل الإدراكية كالتبسيط المخل، والرؤية الاختزالية للأمور، ومحاولة إيجاد عالم بديل تجنبًا للوقوع في براثن الاكتئاب والإحساس الممض بالعجز والإحباط عندما يجد نفسه لا يملك حتى ترف الفرجة.

الواقع أن ظاهرة الاغتراب هذه ليست بالظاهرة الجديدة، فقد نشأت في المجتمعات الصناعية مع الثورة الصناعية في أوروبا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وإزاءها اضطلع الفن بواجبه للتصدي لموجات السعار المادي الذي أخذ يجتاح المجتمعات، ولم تكن الرومانتيكية، وهي تنبش عن تراث القرون الوسطى بفروسيتها ونقائها وخرافاتها أو الانطباعية، وهي تلهث خلف تحولات ضوء الشمس، لتزدهر في الهواء الطلق بعيدًا عن دخان المصانع، واستعباد الآلة للإنسان، إلا صيحات احتجاج ضد المادية التي أغرقت العالم في طوفانها، ومن المثير للضحك الآن ما وصف به نقاد الفن في تلك الأيام فن هؤلاء الثائرين، وعلى رأسهم لوي ليروي Louis Leroy: «.. إن التأثيريين، أولئك الهمج المتوحشين العنيدين..! احتقروا مهمة إنجاز صورهم كسلاً أو عجزًا.. لقد اكتفوا ببعض الانطباعات..!!».

ومن المفارقات أن ألد أعداء الانطباعيين هم الذين قدموا للعالم اسم ذلك المذهب، ولو كانوا على دراية كافية لأدركوا أن شمس عصر التمثيل بالصورة والصدق البصري قد آذنت بالمغيب، ولم تعد النظرة إلى تاريخ الفن هي مدى التقدم الذي حدث على أيدي جهابذة القرن السادس عشر، من أمثال فاساري، والذين افترضوا أن تاريخ الفن ما هو إلا بنية الكفاية التصويرية Representational Adequac، فمع نهاية القرن التاسع عشر وبزوغ تيار الحداثة، كان فن التصوير يعاني مخاض تحولات جذرية ولعب الثائرون: بول جوجان Paul Gaugin (١٩٠٣-١٨٤٨)، وسيزان Cezanne (١٩٠٦-١٨٣٩) وفان جوخ (١٨٥٣-١٨٩٠) أدوارهم الطليعية، ورغم أن ثورتهم كانت ثورة فردية، فهم لم يدركوا المعنى التاريخي الكامن وراء ثورتهم تلك، إلا أن التابعين، من الحوشيين Fauves، والتعبيريين، والسرياليين، والتكعيبيين، والتجريديين، كانوا أكثر ضراوة، في ثورتهم على القديم، وقدر للموارد التعبيرية عند



هؤلاء الذين يطلق الغرب عليهم خطأ لفظ البدائيين، تدفعهم طاقات الشمس المختزنة، والأحاسيس المنتشية بالوجود، وحدة المشاعر، واللاوعي - أن يشكلوا الروافد الفنية الهادرة.. وولد الفن التلقائي كما نعرفه اليوم، وسط لهيب مثل تلك الثورات المتأججة، وهو لم يتبلور كحركة فنية استحوذت على الانتباه إلا عندما لفت هنري روسو (١٩١٠-١٨٤٠) وهو من أعلام فن التصوير - أنظار بيكاسو، الذي نوه بأعماله، كما تحمس لها أبولونير - وهو شاعر وناقد فرنسي - كثيرًا.



وهكذا كان الفن التلقائي ابنًا شرعيًا للحداثة، فروسو يقف اليوم شامخًا كرائد وعلامة طريق لهذا الفن المدهش، ولو لم يكن ليتسنم تلك القمة ما لم يحدث ذلك التطوير في مفهوم التصوير. (ولو قدر له أن يقوم من قبره اليوم ويرى كم التبجيل الذي يحيط بأعماله، وما يكتب عنه، وهو الذي ووري التراب بين حفنة من جيرانه تعد على الأصابع، لأصابه الذهول حقا).

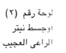
ولابد هنا أن نذكر أن سبب الانشقاق الذي حدث في المفاهيم بين الفن والتصوير الطبيعي كان مشكلة لا يمكن تفسيرها في التاريخ الثقافي لأوروبا، إلا أن الفضل فيه يعود لفكرة التعددية الثقافية Multiculturalism، التي صححت الكثير من المفاهيم الخاطئة عن الفن التلقائي، عندما رسخت علاقات نسبية بين الفنون، وصيغ الحياة المختلفة التي ترتبط بها بحيث لا يدخل فيها ترتيب تصنيفي للفنانين، الأمر الذي دفع بعض نقاد الفن إلى اعتبار الجودة Quality شيئًا دخيلاً في نطاق ثقافة معينة. وقد سعت تلك العلاقة النسبية إلى الابتعاد عن ضيق الأفق الثقافي، فهي تستوعب جميع الفنون بغض النظر عن وظائفها المتنوعة في صيغ الحياة المختلفة، بحيث ينظر إليها جميعًا بنفس الروح الجمالية غير المتحيزة (فيما عرف باسم الانعزالية الجمالية)، كما ننظر إلى الثقافة الغربية ذاتها.

ويمكن القول بأن اللحظة التاريخية الدقيقة التي بدأ يتحول فيها الاهتمام الجمالي نحو الفن التلقائي في الستينيات من القرن التاسع عشر، قد تطابقت مع ما يسمى غالبًا باول لحظة للتصوير الحداثي، وهي إبداع لوحة أوليمبيا Olympia الشهيرة (١٨٦٥) للمصور الفرنسي الانطباعي الكبير إدوار مانيه Eduard Manet (١٨٨٣-١٨٨٢)، ومنذ ذلك التاريخ ارتبط الفن الحديث والفن التلقائي ارتباطًا مصيريا لم تنفصم عراه، وفي قول آخر: فن ما بعد الحداثة Post Modernism مع الفن اللامنتمي، ولقد وصف المصور الفرنسي الشهير جوستاف كوربيه Gustave Courbet (١٨٧٧-١٨١٩) لوحة مانيه، وهي عارية مثيرة، على النحو التالي: «إنها مسطحة..! لم يستخدم فيها موديلاً، بل إنها تشبه البنت في أوراق «الكوتشينة»..!!» وهو التشبيه الذي فتح الأبواب للكثيرين كي يقولوا إن البنت في أوراق اللعب تشبه أوليمبيا مانيه، وسواء كانت أوراق اللعب تشبه نماذج من الفن التلقائي أم لا، إلا أن مانيه كان بذلك قد بدأ، بتسطيحه لأشكاله أسلوبًا جديدًا اتبع فيه ما عرف باسم التفكيكية المنهجة Systematic Deconstruction، وهو ما جعل تاريخ الحداثة يبدو وكأن تاريخ الفن قد عاد للوراء. وربما كان بعض السبب راجعًا لظهور التصوير الفوتوغرافي، الأمر الذي شجع ديلاروش De La Roche وهو مصور فرنسي من رواد المذهب الواقعي ليقول إنه بالاختراع الذي قدمه داجيير Daguerre في أول عملية للتصوير الفوتوغرافي فإن فن التصوير قد مات. وكان ذلك صحيحًا على الأقل بالنسبة للهدف الأسمى لفن التصوير خلال القرون الماضية (حتى القرن التاسع عشر). ما دامت كانت كل المهارات التي تصنع فنانًا قد أصبحت تؤدى من خلال آلة في استطاعة أي شخص تشغيلها دون تعلم الرسم أو التصوير (وهو ما يمكن أن نصف به في ديلاروش نفسه..!!).

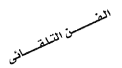
وكان على فن التصوير أن يبحث له عن تعريف جديد أكثر دقة من مجرد التمثيل الدقيق للأشياء، وأخذ الفنانون يجدون في البحث عن ثقافات قد يكون لديها إجابات أكثر فعالية لأسئلتهم مما قدمه تاريخهم (الأوروبي بالدرجة الأولى)، مادامت لم تعد تكنولوجيا التطور التصويري لم تعد وثيقة الصلة بمعنى التصوير، وهكذا رأينا فان جوخ يتخذ من هوكوساي (وهو فنان طباعة ألوان ياباني ١٨٤٩-١٧٦٠) نموذجًا يحتذي، ويبادر جوجان بأخذ صيغه التشكيلية من حفاري بريتاني، ثم يدير ظهره في النهاية لحضارة يعلن أنها قد تعفنت (ويشد الرحال إلى جزيرة تاهيتي). وكان كل ذلك مؤشرات لفقدان ما يمكن تسميته بالثقة الثقافية، وهو ما دفع الفنانين نحو ثقافات أقل تطورًا بحثًا عما يمكن مضاهاته بما في داخلهم، وهم ينقبون عن الأصالة والصدق. ومما لا شك فيه أن الرومانتيكيين كانوا أول من صور الشخص المغترب والمريض النفسي تصويرًا رفعه إلى مرتبة البطولة، ووجدوا في الخروج عن المألوف شريعة لإبداع الذي لا تحده قيود، ولا يعترف بقوانين أو أعراف، حيث يدير الفنان ظهره للعالم متلفعًا بوحدته، ويتأمل مكنون ذاته، وينهل من رؤاه الخاصة، ويمضي في إبداعه كالسائر أثناء نومه، وهكذا فرض التلقائيون واللامنتمون والمجانين أنفسهم على الساحة الفنية، وحفلت قواعد الفن بالاستثناءات.



وكان باول كلي Paul Klee (١٩٤٠-١٨٧٩) أول فنان حديث يعترف علانية بقدرات الفن التلقائي، وفن مرضى العقول


لوحة رقم (٢)
اوجست نيتر
الراعي العجيب

لوحة رقم (٣)
برونو إيبله. تيوليت أبيض



حينما تحدث عن مميزاتهم الإبداعية فى مقالته الشهيرة فى مجلة الألب (Die Alpen) قائلاً: «.. إذا ما أردنا إصلاح الفن اليوم، لن نجد ما هو وثيق الصلة بعملية الإصلاح تلك، على نحو أقوى بكثير من كل ما هو موجود فى متاحفنا كلها، سوى أعمال هؤلاء المجانين، ولكى نتفادى ببساطة استنساخ الماضى، علينا أن نعود أدراجنا للوراء أبعد قليلاً..». وقبل ذلك بعدة سنوات، كان كلى قد كتب فى يومياته: «.. لقد وصلنا إلى نقطة تحول، إننى أنحنى احترامًا لهؤلاء الذين يشاركون فى ذلك الإصلاح الوشيك..». وربما كان كلى قد زار من قبل ذلك المتحف الصغير الذى أقامه الدكتور مورجينتهالر Morgenthaler فى مدينة فالداو Waldau قرب بيرن (المدينة التى قضى فيها كلى فترة شبابه) لأعمال نزلاء المصحات العقلية فى سويسرا، وتلا ذلك بعد قليل ماكس إرنست Max Ernest (١٨٩١ ـ ١٩٧٦) الذى تأثر كثيرًا بالرؤى الهذيانية للمصور التلقائى أوجسط نيتر(١) August Netter (١٨٦٨ ـ ١٩٣٣)، والذى قال عنه، وهو يقارن لوحاته التى أبدعها فى مصحة عقلية، بأعمال السرياليين: «.. لم يصادفنى فى حياتى ما هو أكثر خيالاً من تلك الأعمال..». وإذا ما تمعنا فيما كتبه نيتر بنفسه كشرح للوحته العجيبة تلك لاستطعنا أن ندرك حجم التحول الذى حدث فى نظرة أقطاب الفن الحديث لمفهوم فن التصوير:

«.. رسمت فى البداية ثعبان كوبرا أخضر وأزرق يتلألأ، ثم أضفت القدم فيما بعد ورسمت القدم الأخرى، وهى مصنوعة من اللفت..! وعلى القدم الثانية ظهر رأس حمايا My Father in law، حيث تجعد الجبين ليتخذ شكل فصول السنة، ويصبح شجرة، وانشق لحاء تلك الشجرة من الأمام مكونًا الفم، ثم تكون الشعر من أفرع الشجرة، وظهرت أنثى بين الساق والقدم، تلك (الـ....) هى سبب سقوط الرجل، وإحدى القدمين ترتفع نحو السماء لترمز إلى السقوط فى الجحيم، ثم يظهر راعى يهودى يرتدى فروة نعجة، وتتحول الأحرف WS إلى ذئاب، والتى تتحول بدورها إلى نعاج. لقد أصبحت ذئابًا فى ثياب نعاج.. أنا الراعى.. أنا الرب نفسه..! الذئاب هم أعدائى.. الألمان!!..». وقد يعطى ذلك الشرح فكرة واضحة عن الكيفية التى يطرح بها الفنان التلقائى، خاصة إذا ما كان مريضًا نفسيا (٩٩٪ من الحالات). رؤاه وتصوراته من عالم اللاوعى المثير.

السريالية والفن التلقائى

أو إبـــداع الـــلاوعـــى

يتفق الفن السريالى مع الفن التلقائى فى أن الإثنين يرفضان الواقع ويتخطيانه، ويتخذان من اللاوعى ميدانًا فسيحًا للإبداع، ويجدان فى الحلم صيغة جديدة للواقع، ويبحثان عن صيغ لاواعية دائمًا، مع ما هو معروف من أن الفنان التلقائى إنما يفعل ذلك بفطرية وعفوية وبساطة دون أى تنظير أو مفهوم مسبق. فموضوعات لوحاته تطارده دومًا وكأنها وساوس يريد التخلص منها فى أول فرصة ممكنة، أو أفكار مستحوذة Idees Fixes يسعى لتحقيقها فى تصميماته، وقد يفسر ذلك سبب ترك كثير من التلقائيين، خاصة المرضى النفسيين منهم، للوحاتهم قبل إتمامها.

وما من شك فى أنه من بين جميع الصيغ المختلفة للاوعى، كان نموذج فرويد Freud (1856-1939) الأكثر عمقًا ليس فى مجال علم النفس والطب فقط، بل فى المجالات غير العلمية للشعر والفن.

لقد أعطى فرويد لكلمة اللاوعى معنى جديدًا تمامًا فى القرن العشرين، رغم أن اللفظ كان مستخدمًا بين علماء النفس، حيث لم تعد بنية المنظومة الجسدية Physical System عنده قائمة على الوعى فقط، وهو ما جذب السيرياليين لرؤيته الشاملة لعالم النفس البشرية، ورددت كتاباتهم كلماته فى كتابه تفسير الأحلام: اللاوعى هو الواقع الحقيقى بصفة عامة، وقد ميز فرويد بين استخدامين للفظ اللاوعى، كصفة Adjective، فهو يعنى ببساطة عمليات عقلية لم تكن خاضعة للانتباه الواعى، إلا أنه كاسم (بالألمانية Dasunbewusste)، فقد أخذ معنى أكثر عمقًا وأصالة، حيث كان فرويد يعنى به واقعًا ملموسا فى صميم أعماقنا، إلا أننا نجده مجهولاً لدينا تمامًا، كما تبدو الحقيقة أمامنا فى العالم الخارجى، كما أنه يتمثل أمامنا على نحو غير تام من خلال المعلومات المتواجدة فى الوعى، مثلما يبدو لنا العالم الخارجى من خلال الاتصالات التى تجريها حواسنا. ولما كان علم النفس يعنى بدراسة العقل الواعى، فقد رفض المشتغلون به تلك الأفكار واعتبروها مجرد هراء. وشكل ذلك المفهوم الواسع للواقع تحديًا كبيرًا للفلاسفة ناهيك عن الأطباء، فقد خرق المعايير المعهودة لكل ما هو منطقى وعقلانى. ورغم أن فرويد لم يكن يرمى إلى تلك النتيجة، إلا أن السيرياليين هللوا له واعتبروه تبريرًا محتفى به لرفضهم القيم البرجوازية الأوروبية، وإعادة تقييمهم لموضوع الخيال من جديد.

وفى أول مانيفستو للسيرياليين، رحب أندريه بريتون Andre Breton (١٨٩٦ ـ ١٩٦٦) بالطابع الريادى لاكتشافات فرويد معلنًا أنه: «.. هناك جزء كبير من عالمنا الذهنى لم نكن نحفل به، قد أعيد إلى النور، ولابد لنا من إسداء الشكر لاكتشافات فرويد.. إن الخيال على ما يبدو يقف على أهبة الاستعداد ليطالب بحقوقه. وإذا ما كانت أغوار عقولنا تحمل فى طياتها قوى غريبة، ففى استطاعتنا تعزيز تلك القوى الأخرى الموجودة على السطح، أو شن حرب ظافرة عليها، فالمنطق يدعونا لتشديد قبضتنا عليها، إذا ما أردنا إخضاعها لسيطرة عقولنا..» وكان على فرويد أن يطور نظريتين للبنية العقلية ففى نموذجه الأول ينقسم العقل إلى ثلاثة أنظمة من المراكز النفسية: الواعى Conscious، وما قبل الواعى Preconscious، واللاواعى Uncondcious، واللاوعى ليس ما هو خارج نطاق الوعى، بل ذلك الذى انفصل عنه جذريا من خلال الكبت Repression. وفى ذلك النموذج الطبوغرافى للعقل، سنجد حواجز رقابية بين ما هو قبل الواعى، واللاواعى، حيث تتشوه الأفكار وهى تمر فى طريقها للوعى. وكما يقول فرويد، فإن ما قبل الواعى يقف كحجاب فاصل Screen بين لاوعى النظام، والوعى نفسه. ولا يقوم ما قبل الواعى للنظام بحجز عملية الوصول للوعى فقط، بل إنه يتحكم فى الوصول لقدرة الحركة الإرادية، وله تحت تصرفه طاقة تطهرية Cathartic متحركة يوزعها (جزء منها معروف لنا فى شكل انتباه) كيفما شاء لتسهل له ذلك. ولقد كان ما قبل الوعى أيضًا، والذى يسعى للإبقاء على العقل نائمًا هو الذى قاد فرويد نحو افتراضه بتشوه الأفكار فى الحلم.

ورغم ما واجهته نظريات فرويد للاوعى من إنكار وتحد وتنقيح خلال القرن العشرين، إلا أنها كانت مسئولة عن التحول الكامل الذى حدث لمفهوم الإنسان لهويته، واستيعاب نشاطه الجنسى Sexuality، وإدراكه لمسئوليته. ولقد كان إدراك الإنسان لقوى أخرى مغايرة للوعى قد تحكم رغباتنا وسلوكنا، مصدرًا للرعب للبعض، بينما رأى فيها البعض الآخر تحررًا وانطلاقًا. على أنه لا يجب القول بأن السيرياليين قد فهموا جوهر عمليات التحليل النفسى، فلم يكن اهتمامهم به ذا علاقة بأهدافه العلاجية، أما ما جذبهم فهو أفكار فرويد نفسها كى يجدوا فى البحث عن حقل جديد للنشاط، وإن كانت كتاباته المكثفة بثرائها المعرفى المتشابك الأطراف، لم تمثل لهم سوى النزر اليسير لخلفيتهم الفكرية، إلا أنهم نجحوا فى تأكيد حقهم فى ارتياد مضامين أفكاره غير معتمدين على المحللين النفسانيين، وقد كانت تلك الأفكار خير شاهد على قضيتهم فى مواجهة التفكير العقلى الضيق والبراجماتية، والتى ما زال الافتراض بأنها أساسيات الحضارة الغربية والتقدم ساريا حتى الآن.

لقد كانت الأحلام، وزلات القلم واللسان Parapraxis شاهدًا حيًا على عمليات اللاوعى، كما كانت للشروح التى قدمها فرويد لعمليات العقل الحالم: التلخيص(٢) Condensation، والتعويض(٣) Substitution، وترحيل الوعى(٤) Displacement، وقبول كل ما هو لاعقلانى، والمحتوى العيانى Manifest للحلم، (تلك الأحداث التى يستدعيها الذهن بعد الاستيقاظ)، والذى ناقش فرويد معناها الكامن (وعادة ما يكون جنسيًا) وقع بعيد المدى فى تفسير السلوك البشرى بصفة عامة.. وهكذا وجد السيرياليون فى الحلم صيغة جديدة للواقع، ذلك الواقع السحرى المتوافق مع الطبيعة الداخلية لهؤلاء الذين اختاروا العزلة بمحض إرادتهم، أو فرضت عليهم فرضًا، لظروفهم النفسية، ولم يجدوا عزاء سوى فى خيالهم، فأبدعوا فنا أصبح فيما بعد وعاء للصحة الأخلاقية، ولقد كانت العزلة والزهد ضمانات لكل تلك الأصالة والمصداقية، وهى سمات غابت عن أساليب جماعات فنية عديدة بينما كانت فى نفس الوقت مواصفات قياسية لإبداعات التلقائيين التى أفزعت النقاد بدقتها المهولة، وتضميناتها الحدسية اللاعقلانية.. لقد كانوا يبدعون تحت تأثير لا وعى خارج السيطرة.

كـــيـــف تـبـلـورت

حـــركـــة الفن التلقـــائى

إذا ما أردنا تعريفًا شاملاً للفنانين التلقائيين، فقد يمكن القول بأنهم هؤلاء الفنانون الذين لم يتلقوا تدريبًا منهجيا أو أكاديميا على فن التصوير، والذين يعملون بدافع ذاتى من أجل سعادتهم الشخصية، كما أنهم لا يعرفون سوى النزر اليسير من التاريخ الثقافى أو تقاليد وأصول الفنون الجميلة. وسنجد أن البعض منهم يعانى أمراضا نفسية وآخرين مهمشون اجتماعيا، وهناك قلة منهم تلقت تعليمًا جيدًا، مثل الألمانى برونو إيبله Bruno Eble (ولد عام ١٩٣١)، وكان أستاذًا للغة والتاريخ، لذا نستشعر فى لوحته أسلوبًا خاصا.

١ـ التيوليب الأبيض
٢ـ الراحة فى الغابة
٣ ـ عطيل

على أن الملاحظ بصفة عامة، أن معظمهم قد مروا من قبل بتجارب مضنية مع الفقر والإحباط والأمية، صهرتهم بوتقتها، وأطلقت

وجد السيرياليون فى الحلم صيغة جديدة للواقع، ذلك الواقع السحرى المتوافق مع الطبيعة الداخلية لهؤلاء الذين اختاروا العزلة بمحض إرادتهم، أو فرضت عليهم فرضًا، لظروفهم النفسية، ولم يجدوا عزاء سوى فى خيالهم، فأبدعوا فنا أصبح فيما بعد وعاء للصحة الأخلاقية



لوحة رقم (٤)

برونو إيبله ـ الراحة فى الغابة



قوى الإبداع لديهم، وبعضهم تدفعه قوى روحية داخلية قد تكون دينية أو صوفية. ويشترك الجميع فى نظراتهم اللامبالية لعالم الفنون الجميلة التقليدى. وقد أجمع النقاد على أن أعمال التلقائيين تستعصى تمامًا على الحل حيث لا يمكن تطبيق الطريقة العلمية، وهى أساس تاريخ الفن المتفق عليه، عند الحكم عليها. وقد قدم لنا شاعر الألمانية الكبير شيللر صورة الفنان التلقائى البسيط، وكأنه كان يضع معايير للشخصية الفنية للتلقائيين قبل أن تتبلور حركتهم بقرن كامل.. إنه الرجل ذو العاطفة، الرجل البسيط الذى يزاول الأشياء بشكل طبيعى، وهو الجنة المفقودة، والمثل الأعلى لكل من تهفو نفسه إلى عالم البراءة والأحاسيس النقية. إن استخدامنا الحالى للكلمة يشوبه بعض الغموض، فمعناها الإيجابى الجوهرى هو الإحساس بما يشبه الطفولة، مع شعور بعدم الالتزام بعادات وتقاليد.

ولا يمكن الفصل بسهولة بين أعمال الفنانين التلقائيين، وبين أعمال من أطلق عليهم مرضى العقول، فالمتاحف الآن تقتنى أعمال الجدة موسى(٥) Grandma Moses (١٨٦٠ـ١٩٦١)، وروائع هنرى روسو Henri Rousseau (١٨٤٤ـ١٩١٠)، وهما مثالان رائعان للفن التلقائى، الذى أبدعه أشخاص أسوياء، فالأولى كانت أما لأطفال خمسة وتشارك زوجها فى إدارة المزرعة وتحيا حياة عملية عادية، وهو ما ينطبق على الثانى (مع بعض التجاوز عما تناثر حوله من قصص حول اتصاله بعالم الأرواح، وحياة الوحدة التى يحياها)،



وذلك جنبًا إلى جنب مع أعمال فنانين انشب فيهم الجنون أنيابه وقضوا حياتهم نزلاء مصحات عقلية، بل اغتيل بعضهم على أيدى النازى بدعوى قتل الرحمة، من أمثال الويزة كوربات Aloisa Corbath (١٨٨٦ - ١٩٦٤)، وفرانتس بول Frantz Pohl (١٨٦٤ - ١٩٤٠)، وأنطونيو ليجابو Antonio Ligabue (١٨٩٩ - ١٩٦٥).

ويرجع الفضل فى لفت أنظار العالم المتحضر إلى فن هؤلاء المظلومين، إلى رجلين كان لهما أكبر الأثر فى بلورة حركة الفن الفطرى التلقائى، وربطهما بتيار الفن الحديث، وترسخ مبادئها: اتجاه فنى له اعتباره، وهما الألمانى برينسهورن، والفرنسى جان ديبوفيه.

فى عام ١٩٢٢، نشر الطبيب النابه هانز برينسهورن Hans Prinzhorn كتابه الرائع الذى فتح الأبواب على مصاريعها نحو البحوث فى مجال الفن التلقائى، وكان بعنوان Bildnerei der Geisteskranken (الإبداع الفنى عند مرضى العقول)، وكان برينسهورن قد بدأ حياته بدراسة الفلسفة وتاريخ الفن والغناء أيضًا، وكان ذا صوت باريتون موهوب بالفعل، ثم تحول للاهتمام بالأمراض النفسية عندما أصيبت زوجته باضطراب نفسى فى بداية زواجهما، فتحول إلى دراسة الطب وممارسته، وكما قال: «بحثًا عن مهنة لا بد للمرء فيها من أن يفعل الخير مضطرا»، وبذا كان من الشخصيات الفريدة فى تاريخ الفن. وقد حدث التحول الكبير فى حياته، والذى مكنه من تقديم أكبر خدمة لتفسير الفن التلقائى، وفن المجانين، عندما كلفه الدكتور ويليامز Williams مدير المصحة النفسية بجامعة هايدلبرج بالإشراف على إنشاء مجموعة أعمال فنية للمرضى النفسيين بغرض الدراسة العلمية. وقد بدأ برينسهورن عمله عام ١٩١٩ وكرس نفسه تمامًا لتلك المهمة واستطاع أن يجمع أربعة آلاف لوحة رسمها أربعمائة مريض من ألمانيا وسويسرا، والنمسا، وإيطاليا مع دراسات نقدية مثيرة. وكان برنستون محاضرًا نابغة أيضًا مما سبب ذيوعًا كبيرًا لكتابه، وكان أهم أهداف الكتاب هو إثبات أن هؤلاء المرضى فنانون من الطراز الأول لم تلوثهم الحياة العادية للمجتمع. ورأى أن فنهم ينبعث من الأعماق وخفايا النفس Psyche واعتبرهم صفوة تمتلك بصيرة نحو الحقيقة المطلقة. ومما لا شك فيه أن برينسهورن كان متأثرًا بالنظريات الميتافيزيقية للمذهب التعبيرى وهى الحركة الفنية الرائدة التى تبلورت فى العشرينيات من القرن الماضى فى ألمانيا، وكانت أهم سماتها الثورة ضد التقاليد التصويرية السائدة وهى ترفع شعارها: الاتجاه لما هو بدائى وروحانى والتقمص العاطفى، وهو لفظ أخذ عن الألمانية Einfuhlung (عاطفة مشاركة).

وقد شارك برينسهورن التعبيريين احتقارهم لكل ما يسعى إلى تصوير العالم من الخارج فى بساطة مخلة، وهو ما اعتنقه فن الغرب منذ عصر النهضة، ضد حرية التعبير الفردى. وفى عبارة أخرى، ركز برينسهورن على الوظيفة الذهنية للفن. وكان يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن الطاقة الفنية للترتيب والتشكيل لدى الفنان، إنما تنبع من تجربة الحياة نفسها وليس من ملاحظة الموجودات المرئية أو المهارة فى النسخ التصويرى. وبدت له التعبيرية كرد فعل للجانب العقلانى للمرضى من المجتمع الحديث، والذى كادت الأجيال السابقة فيه أن تخنق أعظم الفنانين بعقلانيتها البغيضة.



ومن حسن حظ تاريخ الفن (وبدا ذلك كمعجزة) أن تلك المجموعة من الأعمال الفنية قد نجت من الإبادة. فعندما صعد النازى للسلطة فى عام ١٩٣٣، بدءوا فى القضاء على كل من يعانون من أمراض عقلية وتم إعدام من قاموا برسم تلك المجموعة، بعد تجميعهم فى هايدلبرج (رحمة بهم كما ادعى هؤلاء الذين اعتقدوا فى فلسفة السوبرمان..!!)، وفى يوليو ١٩٣٧ أمر هتلر بإقامة معرض فى ميونيخ للفن المنحط (كما أسماه) وعرض فيه أعمالاً للفنانين البارزين فى القرن العشرين، بمن فيهم بيكاسو، ونولده، وكوكوشكا، وطاف المعرض بالمدن الألمانية، وهو يضم أيضًا مجموعة برينسهورن جنبًا إلى جنب مع أعمال الجهابذة، ومن المعروف أن هتلر ونظامه قد طاردا كل من أصر من الفنانين الطليعيين فى فترة ما بين الحربين العالميتين، على مواصلة رسالته!!

من حسن الحظ أن كتاب برينسهورن كان قد تداولته أيدى المثقفين ورواد الفنون فى أوروبا قبل أن يستولى هتلر على السلطة، فكانت هناك نسخة لدى باول كلى استخدمها فى التدريس فى معهد الباوهاس Bauhaus فى العشرينيات، حيث كان يستشهد بالمجموعة وما تحمله من عمق تعبيرى (للدرجة التى لا

لوحة رقم (٥): برونو إيبله - عطيل

يستطيع هو نفسه أن يصل إليها، على حد قوله)، وشارك فاسيلي كاندينسكي كلي إعجابه بتلك اللوحات وخاصة ملاك الإبادة لفرانتس بول (١٨٦٤ - ١٩٤٠)، ذلك التعس الذي أعدمه النازي دون ذنب جناه سوى أنه كان مريضًا، بينما يشبه النقاد أعماله بروائع دورر وجرونفالد.

اسمه بالكامل جان فيليب آرثر دي بوفيه Jean Philippe Arther Du Buffet، ولد في ميناء الهافر لأسرة ثرية حيث كان والده يملك تجارة للنبيذ، وفي البداية مارس دي بوفيه التصوير كفنان واعد موهوب، إلا أنه وجد الطريق أمامه مسدودًا بأعمال جهابذة الفن الحديث: بيكاسو، براك وماتيس، وقد أصابه الإحباط بالفعل، حيث أحس بعقم محاولات مواجهة هؤلاء العمالقة وهجر التصوير مرتين قبل أن يكتشف توجهه الذاتي ويعثر على ضالته أخيرًا، ويتخطى فن العظام من المشاهير، ليكشف في أعمال المرضى النفسيين الصيغة الفنية التي مكنته من تحقيق أهدافه.

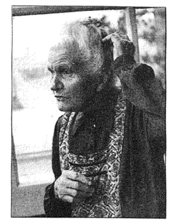
ويختلف دي بوفيه عن برينسهورن الذي كان منهجه علميا تحليليا، أما كيف تعرف دي بوفيه على فنون هؤلاء المرضى، فيرجع الفضل في ذلك لكتاب برينسهورن الذي ذكرناه آنفًا، ورغم أنه لم يترجم إلى الفرنسية إلا في عام ١٩٨٤، إلا أن دوائر السيرياليين الفرنسيين كانت قد بدأت في تداوله بعد صدوره، بقليل، فكان أندريه بريتون - وهو شاعر كبير من رواد السيريالية - يعلق أهمية كبيرة على الجنون، وذكر أول مانيفستو للحركة السيريالية «مسألة الجنون الذى نضع عليه القيود، عندما يرفض الانحناء للتقاليد الاجتماعية، وأبدى إعجابه بهلوسة وأوهام المجانين.. فهم يستقون إلهامهم من المنابع الحقيقية للخيال، وكان أقطاب السيريالية يجتمعون في الأستوديو الخاص بالشاعر والأديب أندريه ماسون Andre Mason، والذي كان قد اقتنى نسخة من الكتاب، فكان هناك خوان ميرو Joan Miro، وجورج ليمبور George Limbour، الذي اصطحب معه صديقه جان دي بوفيه، وهو يجد في البحث عن هويته كفنان، وكانت المرة الأولى التي اطلع فيها على فن هؤلاء المبدعين التلقائيين.

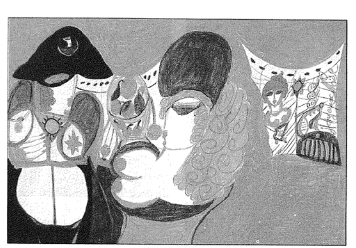
وقرر دي بوفيه أن يجمع أعمال أمثال هؤلاء الفنانين المجهولين، ولم يقتصر على أعمالهم، بل ضم إليها أعمال فنانين ممن لم يتلقوا تعليمًا فنيا، والذين لم تسمع عنهم المتاحف، وأطلق عليهم اسم اللامنتمين The Outsiders، ما داموا لم تمنعهم غرابة أطوارهم من ممارسة حياتهم العادية. وقد صك دي بوفيه مصطلح الفن الفج أو الخشن Art Brut (أو الفن الخام Raw Art) مشيرًا به إلى كل إنتاج فني سواء رسومات وتصويرا، أو تطريزا، أو الأشكال المنمذجة والمنحوتة، والتي تتميز بتلقائية وابتكارية واضحة، ولا تحمل سوى النزر اليسير من سمات الفن التقليدي، والكليشيهات الثقافية المعتادة، يبدعها أناس عاديون وقد يكونون مجهولين، ومن خارج الدوائر الفنية للمحترفين، وبسبيل ذلك أسس دي بوفيه ما عرف باسم مقر الفن الخشن Foyer de L'Art Brut (وهو نفس التصنيف الذي أطلقه النقاد على أعمال دي بوفيه نفسه)، والذي نجح في خلال خمسة وعشرين عامًا، أن يكوّن مجموعة فريدة ضمن ثلاثة آلاف عمل فني أبدعها فنانون تلقائيون تنوعت مهنهم ما بين خباز وإسكافي وساعي بريد، وعمال مناجم، وآخرين من اللامنتمين، ومنهم من حقق شهرة عالمية، ووضعت أعماله جنبًا إلى جنب مع رواد الفن الحديث من الأكاديميين.

بين الفن التلقائي والفن الشعبي

الملاحظ أن هناك الكثير من الخلط بين الفن الشعبي والفن التلقائي، إلا أن هناك فروقًا جوهرية بينهما لا بد لمتذوق الفن أن يكون متنبهًا لها، فالفن الشعبي لا يدرك الوظيفة الجمالية الذاتية للعمل الفني، فهو فن يكمن في جوهره أنه فن تطبيقي، لا تظهر وظائفه إلا من خلال عالم ما هو نفعي، ومن ثم فإن قيمته ليست في تفرده، بل بالأحرى في إخلاصه وأمانته في نقل نماذج سابقة (الموروث الشعبي)، وهو لا يعرف أي تنويع في التعبير الذاتي، وقد تميز الفن الشعبي بخاصية تفرد بها، وهي أنه لم يكن هناك على الإطلاق تلك المسافة التي تفصل أذواق الجماهير العريضة عن الأعمال الفنية، فهناك تطابق تام بين المنتجين والمستهلكين للفن الشعبي، والفن الشعبي نفسه يحمل خاتم العقلية العامة، فهو لا يبتعد أبدًا عن الإطار العام للتقاليد والعادات المحلية، كما لا يتخذ موقفًا متعارضًا في مواجهة الإدراك الحسي الاجتماعي البسيط، وبذا يكون على طرفي نقيض مع الفن التلقائي - هبة التفرد - بما يمتلكه من تجربة فردية بالدرجة الأولى، تدير ظهرها تمامًا لكل الموروثات والتقاليد الفنية. إذن فمن الممكن القول إن الفن الشعبي ما هو إلا نتاج تجارب تراكمية يلعب فيها الموروث والأعراف

لوحة رقم (٦)
لويزة كوريك
صور فوتوغرافية





لوحة رقم (٧)
لويزة كوريك - مرآة الكريسماس

والتقاليد الدور الأساسي، بحيث لا تخطئ العين الموروث الشعبي للفنان وعشيرته، أما الفن التلقائي فالتجربة الشخصية فيه هي الفيصل، بما تشكله من صدمة غير متوقعة للمتلقي، إذا ما أدرك أن اللاشعور ليس مخزنًا مهملاً، بل هو مكان شديد الحيوية يشبه حديقة الحيوان، على حد قول عالم التحليل النفسي إيريك برن Eric Berne. أما نقطة التلاقي الوحيدة بين الإثنين فهي أن الفنانين الشعبيين نادرًا ما يشكلون نماذج واقعية لما هو موجود في الطبيعة المرئية، فهم يقومون بكل بساطة بالمبالغة والتبسيط وتعديل التكوينات لما هو موجود أمامهم من موضوعات، وهم بذلك لا يعملون إلا تحت تأثير توتراتهم العاطفية، وبذا يربطون بين تجاربهم المحلية والعالم الخارجي، وعند التلقائي، لا يتم التواصل بينه وبين العالم الخارجي إلا من خلال تجربته الذاتية.

وما من شك أن الإبداع الفني يتأثر على نحو مباشر بالتحولات الاجتماعية، وما يطرأ على البيئة المحيطة بالفنان من تغيير، فالفن لا يمكنه أن يتطور بمنطقه الداخلي الخاص دون تدخل من مؤثرات شتى تنتمي إلى مجالات خارجة عنه، فهناك دائمًا رابطة قوية بين الفن وما يسمى بالعامل الاجتماعي، والذي هو في الواقع مجموعة عوامل اقتصادية وسياسية وثقافية وتاريخية في آن واحد، بل إن العامل العرقي (الإثنوجرافي Ethnographic) ليشكل هو الآخر إطارا عامًا لشخصية الفنان المبدع، ومهما كانت الظاهرة الفنية، فلا بد من إلقاء الضوء عليها في نطاق الحياة الاجتماعية، والحضارة الإنسانية عمومًا. ولا يمكن أن تكفي شخصية الفنان، والظروف الفردية التي مر بها داخل بيئته التي ترعرع فيها، لكي يتم وضع تصور ومفهوم واضح عنه، علمًا بأن دوافع الفن التلقائي ما زال يشوبها بعض الغموض، خاصة أنها دوافع فردية لكل فنان تلقائي على حدة. وبصفة عامة، نجد أنه كلما تعقدت المجتمعات، وتقدمت مظاهر الحضارة، قل الارتباط بين الفن والظروف البيئية المحيطة به، وبعبارة أخرى، كلما ارتفع مستوى الثقافة التي ندرس فنها، تعقدت شبكة العلاقات البيئية، وزاد غموض الأصل الاجتماعي للظاهرة الفنية، إلا أنه لحسن الحظ، فإن التفسيرات الاجتماعية للظاهرة الفنية تكون أكثر سهولة كلما كان العصر الذي حدثت فيه تلك الظاهرة أقرب إلينا، حيث تتجمع المعلومات بوفرة، وإذا ما كانت ظاهرة الفن التلقائي قد تبلورت في أوروبا أولاً، فإن ذلك يرجع إلى وجود تراكم ثقافي، وتاريخ للفن مدون على نحو أكاديمي، مع رصد للظواهر الفنية والاجتماعية أولاً بأول، إلا أنه ما من شك أنها كانت موجودة داخل مجتمعات عديدة عبر القارات الخمس، غير أنها كانت تحتاج دومًا لمن ينقب عن هؤلاء الموهوبين المهمشين، وهناك بوادر لذلك في مصر من خلال الدراسات الأكاديمية في كليات الفنون.

ومع تصاعد الاهتمام بالفن التلقائي، والتزايد المستمر في أعداد الفنانين الذين قد يمكن إدراجهم في قوائم التلقائيين، تتردد أسئلة ملحة في أوساط النقاد والمؤرخين عما إذا كان هذا الفن يحقق تقدمًا بالفعل، وعما إذا كان مثل هؤلاء الفنانين يقفون بمعزل عن حركة تاريخ الفن وأساليبه، وهل ما يحققه الفن التلقائي من شعبية متزايدة علامة على استمراريته، أم هو مجرد ظاهرة وتنويع على فنون التصوير البدائية..؟ وهل يمتلك الفن التلقائي من الديناميكية ما يؤهله لتجديد نفسه بوسائله مستقلاً، أم هل سيتوقف عن أن يكون هو نفسه بمجرد ما يخرج جوهره الفريد بوسائل زائفة ومصطنعة؟

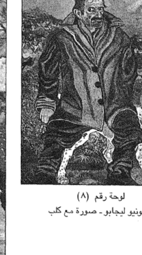


والملاحظ أن الفن التلقائي يكتسب كل يوم أرضًا جديدة، وهو يصادف شغفًا ملحوظًا بين المهتمين بالفن. فمع الإنجاز المعلوماتي المتزايد، والتسارع الهائل في المنجزات التقنية



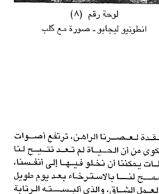


لوحة رقم (٨)
انطونيو ليجابو - صورة مع كلب

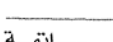




لوحة رقم (٩)
انطونيو ليجابو - صورة ألبا



المعقدة لعصرنا الراهن، ترتفع أصوات الشكوى من أن الحياة لم تعد تتيح لنا لحظات يمكننا أن نخلو فيها إلى أنفسنا، وتسمح لنا بالاسترخاء بعد يوم طويل من العمل الشاق، والذى ألبسته الرتابة ثوبًا رماديا من الكآبة والملل، الأمر الذى أصبح الإنسان يشعر معه أنه يفقد جزءًا حيويا من آدميته وبساطته وتلقائيته.



خـــــــاتمة

إن الكشف عن تلك المواهب يبدو وكأنه كشف عن حفريات نفيسة وروائع لا تظهر إلا عندما يهز الزلزال القشرة الأرضية ويقذف بها إلى السطح، فى أرض أناس لم يكونوا يدرون عنها شيئًا على حد قول الدكتور بنيامين روش Benjanin Rush: أول من قام بجمع الأعمال التى أبدعها الفنانون التلقائيون فى أمريكا، والآن يقتنع كثير من محبى الفنون الجميلة، ونقاد الفن بأنه لا يمكن التغاضى عن مكانة التلقائيين ضمن مسيرة الفن فى القرن العشرين، وإن كان عالم النفس الفرنسى تويليه Thuillier قد رفض التسليم بالقيمة الفنية لهم مدعيًا أنهم لا يجيدون المنظور أو مزج الألوان، ولا يملكون المهارات الأساسية، وقارنهم بالمصورين البدائيين فى كهوف ما قبل التاريخ، فإنه قد مدحهم بالفعل دون أن يدرى، أما ديبوفيه أكبر نصير لحركة الفن التلقائى فقد قال: «.. إذا ما صنفنا الإبداع الفنى فى التصوير فلا بد أن ندرك أنه لا يوجد ما يقال له فن المجانين أو فن المصابين بعسر الهضم، أو المصابين بالروماتيزم، فالآليات النفسية Psychological Mechanisms التى يحتويها الفن فى جميع صوره تدفعنا إلى تصنيف كل الفنانين على أنهم أصحاب حالات مرضية نفسية ممن يقال لهم سيكوباتيين، أو توسيع مفهومنا عما هو صحى وطبيعى بحيث يضم بين جنبيه كل صور الاضطراب النفسى والجنون والاغتراب».



لوحة رقم (١١)
فرانتس بول - صورة شخصية



لوحة رقم (١٢)
فرانتس بول - ملك الإبادة

والخلاصة أن الفن التلقائى مقصور فى مظهره الإبداعى على أفراد معينين، يملكون مواهب أو مهارات معينة، وهى ليست قدرات فكرية أو أسلوبية فى معظمها، وإنما قدرات تعبيرية تجسيدية تحيل الأشياء المجردة إلى أجسام، وقد تحيل تلك الأجسام إلى مجردات ورموز على نحو شديد الخصوصية، وهم يعبرون عن همومهم وأحلامهم ووساوسهم ورؤاهم. وبهذه القدرات استطاع الفنانون التلقائيون أن يخاطبوا المشاعر والأحاسيس، من خلال صدقهم أولاً، ثم بغرابة تجاربهم الذاتية ثانيًا، وثالثًا بعدم تأثرهم بأى قواعد أو تقاليد فنية، كما لو كان عقلهم اللاواعى يعمل طول الوقت، ولا عجب أن أطلق بعض النقاد على هؤلاء الفنانين اسم اللامنتمين The Outsiders.

وما زالت المعركة لم تحسم بعد لإقامة علاقات سوية بين التراث الثقافى العام والفن التلقائى. ■

المراجع

(1) Outsider Art -n Jean Louis Terrail - 1997
(2) Self Taught Artists of The 20Th Century-Chronicle Books - San Francisco 1998.
(3) Art Unsolved - Irish Museum of Modern Art - Dublen - 1998.
(4) Der NaiveMaler Bruno Edle - Rudiger Zuck - Verlag Stadler 1977.

لوحة رقم (١٠)
د. هانز برنسهورن

هـوامش

(١) أوجسط نيتر August Neter (١٨٦٨-١٩٣٣) ولد فى رافنسبورج Ravensburg بولاية بادن فورتنبرج، وكان فنيا ميكانيكا ماهرًا، عمل فى فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة قبل أن يعود لألمانيا ويدير منشأة خاصة به. فى عام ١٩٠٧ فقد شهيته تمامًا للعمل وحاول الانتحار وتم تشخيص حالته كفصام حاد مصحوب بهذيان، وفى المصحة التى ادعى فيها مرة أنه حفيد نابليون الأول واتخذ لقب أوجسط الرابع، ومرة أخرى أنه المسيح، بدأ فى إنتاج أعماله التى جلبت له شهرة عالية ومنها: الراعى العجيب Miraculous (رسم بالقلم الرصاص ٢٤٫٥×١٩٫٥سم)، ومحور العالم والأرنب البرى Axid of the world and Hare (رسم بالقلم الرصاص والألوان المائية ٢٠٥×٢٦١سم) وتحولات التنورة Metamorphoses of the Skirt (رسم بالقلم الرصاص ١٦×١٠سم)، وكلها من مجموعة برينسهورن Prinzhorn - جامعة هايدلبرج، وتوفى نيتر فى مصحة روتفايل Rottweil، وبذا كان سعيد الحظ بنجاته من المذبحة التى أعدها النازى لأمثاله بدعوى قتل الرحمة Euthanasia.

(٢) انصهار فكرتين أو أكثر.. إلخ فى رمز واحد، ويحدث ذلك بصفة خاصة فى الأحلام.

(٣) إحلال منتظم لتعبير ما بآخر.

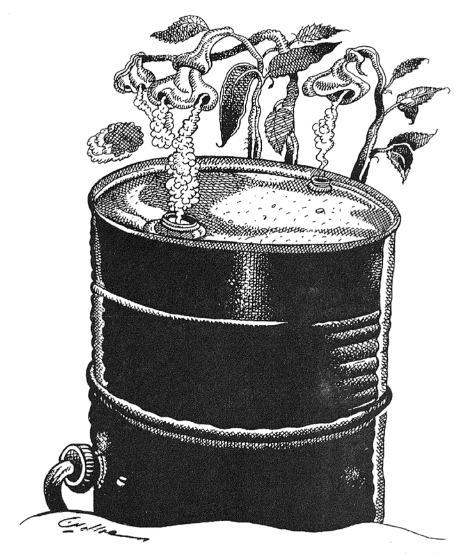
(٤) نقل المشاعر العاطفية من موضوعها الأصلى إلى موضوع آخر يخفى طبيعتها الواقعية.

(٥) أنا مارى روبرتسون موسى Anna Mary Robertson Moses (1860-1961) فنانة تلقائية أمريكية اشتهرت باسم الجدة موسى حققت شهرة مدوية استمرت خمسين عامًا، وتحولت إلى شخصية قومية (احتفلت البلاد بعيد ميلادها المئوى)، أعادت إحياء أجواء القرن التاسع عشر ونفخت فيها روحًا جديدة بأسلوبها الخاص، من أشهر أعمالها: عشية عيد القديسين Halloween (١٩٥٥)، والأزمنة القديمة Old Times (١٩٥٧)، وخياطة اللحاف The Quilting (١٩٥٠).

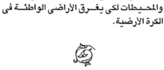
آثـــار حمـــاية البيئـــة

يرى بعض الخبـراء أن الخسـائر التى قـد تترتب علـى ارتفـاع حـرارة الغلاف الجـوى تتضـاءل إلى جـانب الخسـائر الاقتصـادية التى تلحـق بالاقتصـاد العـالمى نتيجـة لفـرض المـزيد من ضـرائب الطاقـة . فالاحتبـاس الحـرارى مـن شـأنه إبطـاء معـدلات النمـو الاقتصـادى وهـو ما يسـبب خسـائر لا تتجـاوز ٢٠٪ مـن النـاتج المحلـى الإجمـالى GDP علـى مسـتوى العـالم علـى مـدى مائـة عـام





ينطلق إلى الغلاف الجوى بمعدلات كبيرة غاز ثانى أكسيد الكربون Carbon Dioxide (CO2) كنتيجة لعوامل طبيعية . ولكن المبتعث من ذلك الغاز بفعل الطبيعة تمتصه عوامل طبيعية كالأشجار والنباتات، وبذلك يتحقق التوازن فى المدى الطويل. غير أن النشاط البشرى يطلق أيضا كميات متزايدة من ذلك الغاز مما يؤدى إلى زيادة تركزه فى الغلاف الجوى محدثا ما يعرف بظاهرة البيت الزجاجى أو الاحتباس الحرارى Greenhouse Effectوهو ما يؤدى بدوره إلى ارتفاع درجة حرارة الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية Global warming. ومن هنا اتجه أنصار حماية البيئة إلى الربط بين ما ينبعث نتيجة للنشاط البشرى وبين هذه الظواهر التى تهدد نوعية الحياة على كوكب الأرض . وتأييدا لتلك النظرية يقول حماة البيئة إن درجة تركز CO2 قد ارتفعت على مدى الأعوام المائة الماضية من نحو ٢٩٠ إلى ٣٥٠ جزءًا فى المليون بمعدل نمو يتراوح بين ٢٠٪ و٢٥٪ خلال الفترة المذكورة . وتشير الدراسات التى قدمت لمؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية UN Conference on Environment and Development، الذى عقد فى ريو دى جانيرو بالبرازيل عام ١٩٩٢ ويعرف باسم قمة الأرض Earth Summit، إلى أن متوسط درجة حرارة الغلاف الجوى قد ارتفع خلال الأعوام المائة الماضية بما يتراوح بين ٠,٣ و٠,٦ درجة مئوية . وكان المبتعث من الكربون نتيجة للنشاط الصناعى وغيره من الأنشطة البشرية لا يتجاوز ١,٦ مليار طن عام ١٩٥٠ إلا أن نمو استهلاك الوقود الحفرى (وهو أساسا الفحم والبترول والغاز الطبيعى) صاحبه نمو تلك المبتعثات بحيث بلغت فى عام ١٩٩٠ نحو ستة ملايين طن كربون . وإذ يتأكسد الكربون بحيث يتحول طن الكربون إلى ما يعادل نحو ٣,٦٧ طن ثانى أكسيد الكربون CO2فإن مبتعثات ذلك الغاز تقدر بنحو ٢١ مليار طن فى عام ١٩٩٠ وبنحو ٢٣ مليارًا عام ١٩٩٦ . وإذا بقيت الأمور على ما هى عليه ، فإن المتوقع أن تبلغ مبتعثات ثانى أكسيد الكربون نحو ٣٠ مليار طن عام ٢٠١٠ ونحو ٣٧ مليارًا عام ٢٠٢٠ . ويرى بعض أنصار حماية البيئة أن ذلك التطور من شأنه أن يرفع حرارة الغلاف الجوى بحلول عام ٢٠٥٠ بحيث تؤدى إلى إذابة الغطاء الجليدى فى القطبين الشمالى والجنوبى فيرتفع مستوى المياه فى البحار والمحيطات لكى يغرق الأراضى الواطئة فى الكرة الأرضية.



ويرد بعض الخبراء على هذه النظرية بأن

Kyoto Protocol

بروتوكول كيوتو

UN Conference of the Parties (COP).

Kyoto December 1997

على عوائد النفط العربى

حسين عبدالله

الخسائر التى قد تترتب على ارتفاع حرارة الغلاف الجوى تتضاءل إلى جانب الخسائر الاقتصادية التى تلحق بالاقتصاد العالمى نتيجة لفرض المزيد من ضرائب الطاقة. فالاحتباس الحرارى من شانه إبطاء معدلات النمو الاقتصادى وهو ما يسبب خسائر لا تتجاوز ٢٠٪ من الناتج المحلى الإجمالى GDP على مستوى العالم على مدى مائة عام. أما آثار الضرائب الإضافية فمن شانها تقليص استخدام الطاقة وهو ما ينعكس على الاقتصاد العالمى بآثار انكماشية تفوق ذلك كثيرا، وبصفة خاصة فى الدول النامية التى تحاول جاهدة اللحاق بركب الدول المتقدمة. ويخلص من يعارضون ضرائب الكربون إلى أن العالم ما زال فى حاجة لإجراء المزيد من الأبحاث العلمية بغية التوصل لتعريف حقيقة المشكلة. ومتى تحقق ذلك يمكن تحديد العلاج الناجع بدلا من التسرع بتنفيذ سياسات وقرارات متعجلة لا يمكن تلافى آثارها الضارة متى تم تنفيذها.

ويتركز الاهتمام العالمى بالبيئة، بصفة أساسية، فيما تم إنجازه بإشراف الفريق الحكومى الدولى للتغير المناخى UN Intergovernmental Panel on Climate Chang (IPCC)الذى تاسس فى إطار الأمم المتحدة عام ١٩٨٨ وعهد إليه بمهمة تقويم المعلومات المتعلقة بالتغير المناخى من الزوايا العلمية والفنية والاقتصادية والاجتماعية. ومن تلك الإنجازات وضع الاتفاقية الإطارية للتغير المناخى Framework Convention of Climate Change (FCCC) التى اعتمدتها الأمم المتحدة يوم ٩ مايو ١٩٩٢ وعرضت لتوقيع ممثلى الدول أثناء انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية الذى انعقد فى ريو دى جانيرو بالبرازيل يوم ٤ يونيو ١٩٩٢. وقد تعهد الموقعون على الاتفاقية بوضع برامج لمعالجة التغير المناخى وتبنى سياسات محلية فى كل دولة عضو لتحجيم GHGعند مستوى عام ١٩٩٠.

وتنفيذا لتلك التعهدات عقدت بعد ذلك عدة مؤتمرات عرفت بمسمى مؤتمر الأعضاء Conference of the Parties (COP). وقد انتهى المؤتمر الثالث فى كيوتو باليابان باعتماد بروتوكول كيوتو Kyoto Protocol الذى وضع أهدافا محددة كميا لمبتعثات الكربون فى الدول المتقدمة ودعا لاتخاذ التدابير الكفيلة بتحقيقها خلال الفترة ٢٠٠٨ - ٢٠١٢. وإذ يمكن اعتبار عام ٢٠١٠ كمتوسط لتلك الفترة، فإننا سوف نستخدم العام المذكور - افتراضا - باعتباره نهاية الإطار الزمنى المحدد لتحقيق أهداف البروتوكول.

ويقضى بروتوكول كيوتو - متى أصبح نافذا - بإلزام الدول الصناعية خفض مبتعثات الاحتباس الحرارى بما يتراوح بين ٥,٢٪ و١٠٪ تحت مستوى ١٩٩٠ بحلول الفترة ٢٠٠٨ - ٢٠١٢. وبذلك يتوقع أن تتأثر أنماط استهلاك الطاقة خلال المستقبل المنظور تأثرا جوهريا بما يتخذ على المستوى العالمى من تدابير لحماية البيئة. ذلك لأن حجم مبتعثات الكربون المرتبطة باستهلاك الطاقة يعتمد من ناحية على حجم النشاط الاقتصادى معبرا عنه بالناتج المحلى الإجمالى GDP، كما يعتمد من ناحية أخرى على طبيعة خليط الطاقة المستخدمة. وتقاس العلاقة الأولى بحجم ما يستهلك من الطاقة لإنتاج وحدة من الناتج المحلى الإجمالى ويطلق على هذا المقياس «كثافة الطاقة» Energy intensity. كما يستدل على طبيعة خليط الطاقة المستهلكة، والذى يضم وقودا حفريا إلى جانب وقود غير حفرى، بما يعرف بكثافة الكربون Carbon intensity.

ومن مؤدى ذلك الارتباط المزدوج أن محاولة تثبيت حجم مبتعثات الغازات الملوثة أو خفضها على المستوى العالمى لابد أن يتحقق إما بخفض كثافة الطاقة، أى تحسين كفاءتها، أو بخفض كثافة الكربون، أى إحلال وقود غير حفرى محل وقود حفرى، أو بكليهما معا. وهذا ما يحتاج لبعض التعريف:

فكثافة الطاقة تقاس بحجم ما يلزم استهلاكه من الطاقة، معبرا عنه بوحدات مثل طن أو برميل بترول معادل، لإنتاج وحدة من الناتج المحلى الإجمالى معبرا عنه بوحدات نقدية كالدولار. ويتاثر هذا المقياس بمستوى كفاءة الأجهزة الرأسمالية الموجودة، مثل محطات توليد الكهرباء، والأجهزة المعمرة التى يستخدمها المستهلك النهائى فى استهلاك الطاقة، ووسائل النقل والمواصلات ..إلخ. وتتاثر كفاءة الأجهزة والمعدات المستخدمة للطاقة بدورها بالأسعار النسبية للطاقة وغيرها من مدخلات الإنتاج مثل رأس المال والعمل. وكلما كانت كلفة الطاقة أعلى من كلفة غيرها من عوامل الإنتاج ازداد الحافز للاستثمار فى تنمية تكنولوجيات كفاءة الطاقة وفى دعم أنشطة البحث والتطوير R&D الموجهة لتحسين تلك الكفاءة. وبالمثل، إذا كانت الطاقة تمثل جانبًا مهمًا من ميزانية المنتج ازداد الاهتمام بكلفة الطاقة وحجم استهلاكها وارتفع بذلك الحافز لترشيدها. وبعكس ذلك يكون الحال، كلما انخفضت أسعار الطاقة أو تضاءلت كلفتها، واستمر ذلك لفترة طويلة. ففى تلك الحالة يتقلص الحافز للإنفاق على ترشيدها ورفع كفاءتها.



وقد انخفضت كثافة الطاقة بصورة مطردة فى معظم الدول الصناعية كنتيجة لارتفاع أسعار البترول وما اقترن بها من شح الإمدادات خلال عقد السبعينيات. ومن ذلك ما حدث فى الولايات المتحدة إذ انخفضت كثافة الطاقة فيها، وخاصة بعد تصحيح أسعار البترول فى أعقاب حرب أكتوبر، بمعدل ٢,٢٪ سنويا فى المتوسط خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٨٦، وذلك نتيجة لتحول الاقتصاد إلى الأنشطة الأقل كثافة فى استخدام الطاقة ونتيجة أيضًا للتقدم التكنولوجى خلال تلك الفترة. أما خلال الفترة ١٩٨٦ - ١٩٩٨، وهى الفترة التى تآكلت خلالها أسعار البترول، وبعد أن أنجزت برامج ترشيد الطاقة أهم أهدافها فى تحجيم الهدر فى استخدام الطاقة، فقد تضاءل معدل انخفاض كثافة الطاقة إلى نحو ١٪ سنويا فى المتوسط.

أما كثافة الكربون فتقاس بكمية الكربون الذى يتخلف عن إنتاج وحدة من الطاقة، ومن ثم فإن تلك الكثافة تختلف باختلاف المحتوى الكربونى لكل مصدر من مصادر الطاقة المستخدمة. فالطاقة النووية ومعظم مصادر الطاقة الجديدة والمتجددة، مثل طاقة الرياح والشمس والطاقة الكهرومائية Hydroelectricity، لا يتخلف عنها شىء من الكربون. أما مصادر الطاقة الحفرية فيختلف محتواها الكربونى بحسب المصدر، إذ يرتفع ذلك المحتوى بالنسبة لكل وحدة حرارية منتجة فى حالة الفحم، ويتدرج انخفاضا فى الزيت ثم فى الغاز الطبيعى. ومن ذلك أن احتراق ما يعادل طنا من البترول Ton of oil equivalent (toe)تحت ظروف معيارية متماثلة يتخلف عنه فى حالة الفحم نحو ١,٠٥ طن كربون، بينما يتخلف عن البترول ٠,٨٢ طن كربون ويتخلف عن الغاز الطبيعى ٠,٦٣ طن كربون. ومن هنا يعتبر خليط الطاقة المستخدم فى أية دولة ذا دلالة حاكمة فى تحقيق الأهداف البيئية، إذ تتوقف قدرة الدولة فى خفض المنبعث من الغازات الملوثة على قدرتها فى إحلال مصدر للطاقة ذى محتوى كربونى منخفض محل مصدر ذى محتوى كربونى مرتفع.

وإذ يتوقع أن يتقلص استخدام الطاقة النووية لما يحيط بها من مخاطر فإن الغاز الطبيعى يعتبر المنافس الأقوى بين المصادر التى يمكن أن تحل محلها، وذلك لما يتمتع به من صفات بيئية حميدة. أما الطاقة الكهرومائية وإن كانت تخلو من الغازات الملوثة إلا أن إمكانياتها ستظل محدودة، لأن أغلب المواقع التى تصلح لاستغلال تلك الطاقة فى الدول الصناعية قد تم استغلالها بالفعل، ولا يتوقع أن يتجاوز نصيبها ٨٪ من الاستهلاك العالمى للطاقة خلال المستقبل المنظور.

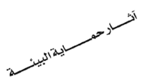
ولا يبقى من مصادر الطاقة المتجددة التى يمكن التوسع فى استخدامها مستقبلا سوى طاقة الرياح والطاقة الشمسية، وخاصة الخلايا الشمسية الفلطائية Photovoltaic cell، وطاقة الكتلة الحيوية ذات الحلقة المغلقة Closed loop biomass. ومع أن استخدام تلك المصادر لا يتخلف عنه كربون إلا أن نصيبها سيظل أيضا محدودا خلال المستقبل المنظور. ولذلك يتوقع أن تظل مصادر الوقود الحفرى تلعب الدور الرئيسى فى مواجهة الاحتياجات العالمية المتزايدة من الطاقة.

وتختلف التحديات التى تواجهها الدول الصناعية، فى مجال مكافحة الأضرار البيئية الناتجة من استهلاك الطاقة، عن نظائرها التى تواجه الدول النامية. فالدول المتقدمة استطاعت أن تحقق ما حققته من نمو اقتصادى بفضل ما أتيح لها من مصادر رخيصة نسبيا من الوقود الحفرى. وبالنظر لضخامة المستثمر فى المعدات الرأسمالية المستخدمة لذلك الوقود، فإن تلك الدول سوف تحتاج لوقت أطول حتى تتمكن من إحلال مصادر ذات محتوى كربونى منخفض محل المصادر ذات المحتوى الكربونى المرتفع، وحتى تتمكن أيضًا من استبدال الأجهزة والمعدات اللازمة لذلك الإحلال. ومن هنا يتمثل التحدى الذى تواجهه الدول الصناعية المتقدمة فى استنباط سياسات تستهدف حماية البيئة على المستوى العالمى، وتوفر لهذه الدول، فى نفس الوقت، المرونة الزمنية التى يتطلبها تعديل نظم الطاقة فيها بما يحقق تلك الأهداف.

أما بالنسبة للدول النامية، فسوف يتطلب الأمر أن تواصل كفاحها لتحقيق أهدافها التنموية، وإن كان فى مقدورها الاستفادة من التجارب التى مرت بها الدول الصناعية فى مجال التنمية الاقتصادية. فالكثير مما يوجد الآن فى الدول الصناعية من بنية صناعية ومعدات رأسمالية مستهلكة للطاقة لا يزال نظيره فى طور البناء فى الدول النامية. وفى ذلك ما يعتبر ميزة ينبغى أن تستغلها الدول النامية لكى تحسن اختيارها منذ البداية فيما تقتنيه من تلك المعدات ومن مصادر الطاقة الأكثر مناسبة لتحقيق الأهداف البيئية والتنموية فى آن واحد.

يتمثل التحدى الذى تواجهه الدول الصناعية المتقدمة فى استنباط سياسات تستهدف حماية البيئة على المستوى العالمى، وتوفر لهذه الدول، فى نفس الوقت، المرونة الزمنية التى يتطلبها تعديل نظم الطاقة فيها بما يحقق تلك الأهداف





سيناريوهات لمواجهة المشكلة

قامت منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) ببناء سيناريو استرشادى Reference caseلقياس التغيرات التى يمكن أن يعكسها بروتوكول كيوتو على إنتاج وصادرات الدول الأعضاء فى المنظمة وعلى حصيلة عوائدها المالية الناتجة من تلك الصادرات . ويفترض السيناريو أن سعر البترول سوف يتراوح حول ١٧ دولارا لبرميل من سلة أوبك ، وأن السعر سوف يتدرج ارتفاعا (بدولارات ثابتة القيمة) بمعدل ١,٥٪ سنويا فى المتوسط خلال المدى المتوسط والطويل . وبذلك يرتفع السعر (بدولارات ١٩٩٨) إلى ١٩,٤ دولار عام ٢٠١٠ وإلى ٢٢,٥ دولار عام ٢٠٢٠ . ومعنى ذلك أن السعر - معبرا عنه بالدولارات الجارية - سوف يتدرج ارتفاعا بمعدل التضخم السنوى فى الدول الصناعية أو بمقدار ما يصيب الدولار من انخفاض فى قيمته بالنسبة للعملات الأخرى ، وذلك للمحافظة على القيمة الحقيقية لأسعار البترول . وفى رأينا أن تلك القيمة لا تقل عن ٣ - ٤٪ ، وبذلك لا يقل معدل ارتفاع السعر الجارى عن ٥٪ سنويا فى المتوسط .

آثار كيوتو على استهلاك البترول

يتوقف تنفيذ بروتوكول كيوتو على تصديق ما لا يقل عن ٥٥٪ من دول الملحق الأول مما لا يقل نصيبها من مبتعثات دول الملحق الأول عن ٥٥٪ عام ١٩٩٠ . وقد بدأت منذ مطلع التسعينيات محاولات الاتحاد الأوروبى لفرض ضريبة للكربون على مستوى الاتحاد لتحجيم المبتعثات الملوثة ، ولكن تلك المحاولات ما زالت تتعثر، والأرجح أن كل دولة سوف تقوم بتبنى هيكل ضريبى فى إطار سياسة محلية موجهة لحماية البيئة وتحقيق أهداف كيوتو . وقد سارع بعض دول الاتحاد الأوروبى بالفعل إلى إضافة ضرائب تحت مسمى الكربون إلى الهياكل الضريبية القائمة ، ولكن دون الالتفات إلى التزامات كيوتو التى لم تصدق عليها بعد . كذلك أبدت الولايات المتحدة أنها ستواجه عقبات كبيرة إذا فكرت فى فرض ضرائب جديدة بمستوى مؤثر . وقد فشل الرئيس كلينتون فى تمرير اقتراحه الخاص بفرض ضريبة على أساس وحدات الحرارة البريطانية المستهلكة وذلك بحجة تأثيرها السلبى على معدل البطالة . كذلك رفض الكونجرس الأمريكى الموافقة على ضريبة هزيلة بمعدل ٤,٣ سنت أمريكى لكل جالون من الوقود المستخدم فى النقل والمواصلات . ولعل فى ذلك ما يفسر انحياز الولايات المتحدة إلى جانب المطالبين بالتوسع فى تجارة صكوك الكربون، وهى وسيلة أجازها كيوتو وبمقتضاها تقوم دولة بخفض مبتعثات ليست ملزمة بخفضها ثم تبيع صكا بما حققته لدولة أخرى من دول الملحق الأول لكى تستخدمه فى الوفاء بالتزاماتها. وبديهى أن تحمل الدول التى تشترى تلك الصكوك بثمنها أو بتكلفة المشروعات التى حققتها سوف يلقى على كاهلها من الأعباء المالية ما يوازى ضرائب الكربون المحلية . غير أن استخدام تلك الوسيلة لا يحمل صورة الضرائب الظاهرة ويتمشى مع نظام منفذ بنجاح فى الإطار المحلى، وهو التجارة فى صكوك ثانى أكسيد الكبريت فى الولايات المتحدة . ولذلك يعتبر شراء صكوك الكربون من دولة أخرى أسهل قبولا لدى المواطن الأمريكى من فرض ضرائب جديدة .

وعلى الرغم من أن استخدام الضرائب فى دول الملحق الأول كوسيلة لتحقيق أهداف كيوتو يعتبر احتمالا ضعيفا . فسوف نقوم بتحليل عدد من السيناريوهات التى تقوم على افتراض استخدام الضرائب كوسيلة وحيدة لتحقيق أهداف كيوتو . وقد تحددت تلك الأهداف فى المناطق الثلاثة المكونة للمجموعة الصناعية الغربية (وهى شمال أمريكا وغرب أوروبا والباسفيك) كما يلى ، منسوبة إلى مستوى مبتعثات كل منطقة عام ١٩٩٠ : شمال أمريكا خفض ٦,٥٪ ، وغرب أوروبا خفض ٨٪ ، والباسفيك (اليابان وأستراليا) خفض ٣,٢٪ .

ويفترض السيناريو الأول والمسمى Kyoto Alone أن كلا من المناطق الثلاثة سوف يفرض من ضرائب الكربون ما يكفل تحقيق التزامه بحلول ٢٠١٠ وفقا لبروتوكول كيوتو . كذلك يفترض السيناريو الأول أن تأثير تلك الضرائب سوف يكون محايدا من حيث وقعه على مستوى الدخول والتضخم . بمعنى أن الدولة سوف تعيد ضخ الحصيلة فى الاقتصاد المحلى فى صور مختلفة ، مثل خفض ضرائب الدخل أو أقساط التأمين الاجتماعى أو زيادة إعانات البطالة ، وبذلك يعاد تدوير الحصيلة بما يحافظ على قوة الدفع السابقة على تحصيلها .

كذلك يفترض السيناريو الأول أن أسعار البترول ستظل دون تغيير عند مستواها المفترض فى سيناريو أوبك ، بمعنى أن أى انخفاض فى الطلب على البترول ، نتيجة لفرض الضرائب ، سوف تمتصه أوبك بتخفيض مماثل فى حجم إنتاجها وصادراتها مع الحفاظ على السعر دون أية زيادة ، وأنها وحدها دون سائر المنتجين من سيتحمل عبء هذا الخفض فى الطلب على البترول .

ومن شأن فرض الضرائب وفقا للسيناريو الأول بمعدلات تبلغ لكل طن CO_2 نحو ٦٨ دولارا فى شمال أمريكا ونحو ١٢٨ دولارا فى غرب أوروبا ونحو ٩٤ دولارا فى الباسفيك ، أن ينخفض الطلب على البترول فى المناطق الثلاثة بنحو ٦,٥ مليون ب/ى سنويا فى المتوسط حتى عام ٢٠١٠ بحيث يبلغ نحو ٤٢ مليون ب/ى بدلا من ٤٨,٥ مليون ب/ى فى حالة عدم فرض ضرائب الكربون . وينعكس هذا الانخفاض فى الطلب على أوبك فى صورة انخفاض فى إنتاج الدول أعضاء المنظمة بنحو ٧ ملايين ب/ى فى عام ٢٠١٠ بحيث يبلغ ٣٢,٧ مليون ب/ى بدلا من ٣٩,٦ مليون ب/ى. ومن مقتضى ذلك الانخفاض فى الإنتاج أن تنخفض عائدات تصدير البترول بنحو ٢٣ مليار دولار كمتوسط سنوى Annualized خلال الفترة المذكورة (وذلك باستخدام ٥٪ سنويا كسعر خصم لتقدير المتوسط السنوى للخسارة) .

ولكن الأرجح أن هذا السيناريو يعتبر غير قابل للتطبيق لعدم واقعيته من حيث ارتفاع حجم الضرائب إذ تبلغ تقريبًا مثل ما هو قائم بالفعل فى الوقت الحاضر من ضرائب على برميل من المنتجات المكررة فى المناطق الثلاثة. وقد سبق أن أوضحنا موقف الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة من ضرائب الكربون .

وإذ يفترض السيناريو الثانى Kyoto OECD إمكانية التبادل التجارى فى صكوك الكربون ولكن فقط بين دول المجموعة الصناعية الغربية ، فإنه يحقق ما يحققه السيناريو الأول من خفض فى المبتعثات وفقا لبروتوكول كيوتو . غير أن السماح بتبادل صكوك الكربون يؤدى إلى توحيد الضريبة عند ٨٥ دولارًا لطن CO_2 فى جميع أقاليم المجموعة الصناعية الغربية . عند ذلك المستوى الضريبى الموحد يتجاوز خفض المبتعثات فى شمال أمريكا هدف كيوتو لهذه المنطقة والذى كان يكفى لتحقيقه فرض ضريبة بمعدل ٦٨ دولارا للطن . أما فى غرب أوروبا فإن فرض ضريبة بمعدل ٨٥ دولارا لطن CO_2 من شأنه خفض المبتعثات بما يقل عن هدف كيوتو والذى يتطلب لتحقيقه فرض ضريبة بمعدل ١٢٨ دولارا للطن . وفى إقليم الباسفيك من المجموعة الصناعية الغربية يتقارب مستوى الخفض فى ظل السيناريو الأول والثانى . ويعتبر هذا التفاوت بين المناطق الثلاثة أساسًا للتبادل التجارى فى صكوك الكربون فيما بينها، إذ تعتبر شمال أمريكا فى ظل السيناريو الثانى منطقة تبيع الصكوك لغرب أوروبا . وهنا تصطدم تلك الفرضية بالواقع المستخلص من المواقف التفاوضية لتلك المناطق ، إذ تعتبر شمال أمريكا المنطقة الأكثر حرصا على شراء الصكوك وليس بيعها . ومن هنا ينبغى توسيع دائرة البحث عن إمكانيات التوسع فى تجارة صكوك الكربون فى الأجل الطويل .



وبالنسبة لدول أوبك فإن أثر السيناريو الثانى يستوى مع أثر السيناريو الأول إذ يقدر متوسط خسائرها بنحو ٢٣ مليار دولار سنويا على أساس الافتراضات المستخدمة فى



يتبين من تحليل السيناريو الثالث أن التوسع فى استخدام الآليات المرنة التى تضمنها بروتوكول كيوتو، ومنها التجارة فى صكوك الكربون ، يعتبر ذا تأثير مباشر قوى ليس فقط على الدول المستهلكة للبترول، بل أيضا على صادرات وعائدات أوبك



السيناريو الأول والذى لا يتضمن التجارة فى الصكوك . ذلك لأن النقص فى حجم الطلب على البترول فى إقليم يعوضه الزيادة فى الطلب عليه فى إقليم آخر ، ومن ثم تظل الخسارة الكلية بالنسبة لإنتاج وصادرات أوبك كما كانت فى ظل السيناريو الأول .

مرة ثانية يرجح عدم الأخذ بالسيناريو الثانى ، لتعارضه مع المواقف المعلنة لكل دولة من دول المجموعة الصناعية الغربية ، إذ لا يوجد بينها من عبر عن استعداده لكى يكون بائعا لصكوك الكربون .

أما السيناريو الأرجح فهو السيناريو الثالث Annex I Trade الذى يفترض اتساع نطاق التجارة فى صكوك الكربون لكى تشمل جميع الدول المصنفة تحت الملحق الأول لبروتوكول كيوتو ، بما فيها الاتحاد السوفيتى سابقا وشرق أوروبا . ومع أن منطقة الكتلة السوفيتية (سابقا) تخضع أيضا لالتزامات كيوتو إلا أن تدهور استهلاكها من الوقود الحفرى بالنسبة لاستهلاكها عام ١٩٩٠ يؤهلها لكى يكون لديها من صكوك الكربون فائضا يمكن بيعه للدول الصناعية الغربية . لذلك ، ووفقا للسيناريو الثالث تتراجع كلفة الالتزام بتحقيق أهداف كيوتو إلى أقل من ٤٠ دولارا لكل طن CO_2 . وعندئذ تبلغ مشتريات شمال أمريكا من الصكوك أقل من ٥٠٪ من التزاماتها طبقا لكيوتو ، بينما تتجاوز مشتريات غرب أوروبا ٧٠٪ من جملة التزاماتها التى حددها البروتوكول .

أما أوبك فإن خسائرها فى ظل السيناريو الثالث تنخفض إلى ١٤ مليار دولار سنويا فى المتوسط بدلا من ٢٣ مليار دولار ، إذ ينخفض الطلب على البترول فى الدول الصناعية الغربية بنحو ٢,٣ مليون ب / ى سنويا فقط مع انخفاض ضئيل بمعدل ١,٥ مليون ب / ى فى منطقتى الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا . وبذلك تخف الآثار السلبية المنعكسة على صادرات وعوائد أوبك .

ويتبين من تحليل السيناريو الثالث أن التوسع فى استخدام الآليات المرنة التى تضمنها بروتوكول كيوتو ، ومنها التجارة فى صكوك الكربون ، يعتبر ذا تاثير مباشر قوى ليس فقط على الدول المستهلكة للبترول ، بل أيضا على صادرات وعائدات أوبك . فبالنسبة للدول الصناعية المصنفة تحت الملحق الأول تنخفض التكلفة إلى ٤٠ دولارا للطن بدلا من ٨٥ دولارا فى السيناريو الثانى . وبالنسبة للاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا فإنها تستفيد من بيع صكوك الكربون للدول الصناعية الغربية دون جهد ، إذ يتيح لها كيوتو الارتفاع بمستوى استهلاكها من الوقود ، المتدنى حاليا بسبب ما أصاب اقتصادياتها من ركود ، إلى مستواه المرتفع عام ١٩٩٠ . أما دول أوبك فإن خسائرها تتراجع من ٢٣ مليار دولار سنويا فى المتوسط فى ظل السيناريو الأول والثانى إلى ١٤ مليار دولار فى ظل السيناريو الثالث كما ذكرنا .



ومما تجدر ملاحظته أن وضع حد أعلى لتجارة الصكوك بنسبة ٥٠٪ فى إطار السيناريو الثالث ، كما يقترح البعض ، يمكن أن يؤثر تاثيرا سلبيا على أوروبا الغربية وحدها ، إذ يفوت عليها فرصة شراء نسبة الـ ٧٠٪ المتاحة بكلفة تقل كثيرا (٤٠ دولارا لطن CO_2) عن الكلفة التى يفترض تحملها فى غياب تجارة الصكوك وتقدر بنحو ١٢٨ دولارا للطن وفقا للسيناريو الأول . أما إقليما شمال أمريكا والباسيفيك فإن مشترياتهما وفقا للسيناريو الثالث ستكون أقل من نسبة الـ ٥٠٪ على أى حال . وفى ظل تحديد تجارة الصكوك بنسبة ٥٠٪ تزيد خسائر أوبك بنحو مليار دولار سنويا عنها فى حالة إطلاق التجارة بين دول الملحق الأول دون وضع حد أعلى .

وأما السيناريو الرابع Global Trade فيفترض إطلاق التجارة فى صكوك الكربون على المستوى العالمى تحقيقا لأهداف كيوتو التى تلتزم بها دول الملحق الأول . ومع أن إطلاق التجارة العالمية فى الصكوك لم يرخص به صراحة فى البروتوكول ، إلا أن آلية الإنماء النقى Clean Development Mechanism (CDM) تعتبر الوسيلة المتاحة لمساهمة الدول النامية فى جانب من تلك التجارة . وعلى ذلك فالمقصود بهذا السيناريو بحث ما يمكن أن ينعكس على أوبك نتيجة لاستخدام آلية الإنماء النقى ، والتى تتلخص فى قيام دولة من دول الملحق الأول بتمويل مشروع لخفض المبتعثات الملوثة فى دولة لا تخضع لهذا الالتزام وهو ما ينطبق على دول العالم الثالث . وبذلك تنتفع الدولة الممولة للمشروع بصكوك للكربون تقدر قيمتها بقدر ما تحقق فى المشروع من خفض للمبتعثات .

فى ظل هذا السيناريو تنخفض تكلفة الكربون إلى نحو ١٥ دولارا لطن CO_2 وينتج عنه تراجع خسائر دول أوبك إلى نحو ١٢ مليار دولار سنويا فى المتوسط ، وهو ما يقرب من نصف خسائرها فى ظل السيناريوهين الأول والثانى ، كما تعتبر أخف الخسائر الممكنة فى ظل السيناريوهات الثلاثة السابقة . ويعزى نحو ٤٥٪ من انخفاض المبتعثات فى ظل السيناريو الرابع إلى الدول التى لم تصنف تحت الملحق الأول Non-Annex I. وفى تلك الحالة يتراجع الطلب على بترول أوبك بمقدار ١,٨ مليون ب / ى فى دول الملحق الأول عام ٢٠١٠ . كما يتراجع بنحو ١,٧ مليون ب / ى فى الدول النامية وهو ما يمكن أن يصدر به صكوك كربونية تشتريها دول الملحق الأول وتحسب لتغطية جانب من التزاماتها وفقا لكيوتو .

ويستخلص من تلك السيناريوهات أن التوسع فى تجارة صكوك الكربون يؤدى إلى خفض التكلفة الحدية لمكافحة الكربون ، إذ يتاح فى ظل تحرير تجارة الصكوك خيارات أرخص لمكافحة الكربون ليست متوافرة على المستوى المحلى لدول الملحق الأول . ويترتب على ما تقدم تحول مركز الثقل من السيناريو الأول والثانى إلى السيناريو الثالث حيث يستفاد مما يوفره الاتحاد السوفيتى سابقا وشرق أوروبا ، أو إلى السيناريو الرابع الذى يشجع الدول النامية على خفض مبتعثاتها بحصولها على مقابل مالى . كذلك يقترن بهذا التحول الإقليمى تحول فى الاهتمام بخفض استهلاك الفحم ، ومن ثم لا يتحمل الطلب على البترول كامل العبء الناتج من تحقيق أهداف كيوتو وإنما يشاركه فى حمل ذلك العبء وقود ذو محتوى كربونى أكثف وهو الفحم .

فى ظل تلك السيناريوهات ، بقيت أوبك طرفا سلبيا تتلقى نتائج السياسات التى تضعها وتنفذها دول مستهلكة للبترول ، وتتحمل أوبك فى النهاية خسائر تتراوح بين ١٢ و٢٣ مليار دولار سنويا . أما كيف يمكن أن تتحول أوبك إلى طرف فاعل مؤثر له سياسته المستقلة التى تدرأ عنه تلك النتائج السلبية فسوف نقوم بمعالجته فى دراسة قادمة بإذن الله. ■

تحريفات العامية

شوقي ضيف



ذكرت فى المؤتمر السابق لمجمع اللغة العربية أن العامية المصرية ـ مثل العاميات العربية المختلفة ـ أهملت الإعراب للأفعال والأسماء المعروف فى الفصحى، كما ذكرت طائفة من تحريفات العامية المصرية للفعل المضارع والأدوات الداخلة عليه والملحقة به، وصيَغ اسم المفعول، وبعض صيغ الأسماء وأسماء الإشارة. ومما ذكرته أيضًا إلغاء العامية الألف والنون فى صيغة المثنى، والمد فى صيغتى الثلاثاء مع قلب الثاء تاء والأربعاء، وألغت فى مفرداتها أربعة أحرف هى الثاء والذال والظاء والقاف.

واليوم أذكر طائفة أخرى من تحريفات العامية لصيغ الفعل الماضى، والمشتقات، وبعض صيغ المثنى والجموع، وبعض الأسماء المبنية، والحروف، والمنادى، والتصغير، والنسب.

التحريف فى الفعل الماضى الثلاثى:

معروف أن للفعل الماضى الثلاثى ثلاث صيغ ثابتة هى فَعِل بفتح الفاء وكسر العين، وفَعَل بفتح الفاء والعين، وفَعُل بفتح الفاء وضم العين، والصيغة الأولى حرفت العامية جميع أفعالها إلى فِعِل بكسر الفاء والعين، فتقول:

تِعِب فى تَعِب ـ حِمِد فى حَمِد ـ خِجِل فى خَجِل ـ سِهِر فى سَهِر ـ عِلِم فى عَلِم ـ عِمِل فى عَمِل ـ فِهِم فى فَهِم ـ وِرِث فى وَرِث.

والصيغة الثانية: فَعَل بفتح الفاء والعين وقد تبقى العامية عليها دون تحريف فى حركاتها مثل:

بَسَط ـ جَذَب ـ حَكَم ـ سَطَع ـ ضَرَب ـ عَطَف ـ غَرَس ـ فَخَر ـ لَمَس ـ مَزَج.

وتنقلها العامية أحيانًا إلى صيغة فِعِل بكسر الفاء والعين المحببة لديها مثل: حِسِب فى حَسَب ـ خِمِد فى خَمَد ـ رِجِع فى رَجَع ـ سِكِت فى سَكَت ـ صِبِر فى صَبَر ـ عِرِض فى عَرَض ـ عِرِف فى عَرَف ـ كِتِب فى كَتَب.

والصيغة الثالثة لا توجد فى العامية المصرية وتجعلها إما فى صيغة فعل بكسر الفاء والعين مثل بِرِد فى برُد ـ بِطِل فى بَطُل ـ بِعِد فى بَعُد ـ حِلِم فى حَلُم.

وإما فى صيغة فُعُل بضم الفاء والعين مثل:

حُمُض فى حَمُضَ ـ حُرُم فى حَرُمَ ـ سُهُل فى سَهُلَ ـ طُهُر فى طَهُرَ.

وقد تنطق العامة فى هذه الصيغة بالنطقين المذكورين لها، فتقول: رُخُص أو رِخِص فى رَخُصَ ـ سُخُن أو سِخِن فى سَخُنَ ـ صُعُب أو صِعِب فى صَعُب. والعامية فى صيغة فعل تارة تنطقها بصيغة فعل المحببة لها وتارة تجانس بين فائها وعينَها فتنطقها بصيغة فُعُل بضم الفاء والعين كما فى صيغة صَغُر فتقول فيها صُغُر أو صِغِر حسب ذوق المتكلم.

وواضح أن أكثر صيغ الفعل الماضى الثلاثى شيوعًا فى العامية صيغة فِعِل، وجعلتها مطردة فى صيغة فَعِل الفصحى بفتح الفاء وكسر العين، واستروحتها فى طائفة من صيغ فَعَل بفتح الفاء والعين وصيغة فَعُل بفتح الفاء وضم العين. وينبغى أن تتخلص العامية من كل صور صيغ الأفعال التى حرفتها وترد أفعالها إلى صياغتها الأصلية فى الفصحى.

صيغة الماضى المعتل الآخر بالياء

هذا الفعل فى مثل بَقِيَ ـ خَشِيَ ـ نَسِيَ تنطقه العامية أحد نطقين: نطقًا تقلب فيه الياء ألفًا والكسرة قبلها فتحة فتقول فى بقى بَقَا وبالمثل فى خَشِيَ: خشا، وفى نسى: نسا، وكانت قبيلة طيئ فى شمال الجزيرة تحتم فيه هذا النطق، ودخل منها مصر كثيرون مع فتحها وبعده. ويبدو أنهم هم الذين أشاعوه بمصر. وشاع معه نطق ثان رُدَّت فيه هذه الصيغة الماضوية إلى صيغة فِعِل الثلاثية الماضوية التى تستروحها مصر، كما أسلفنا، فيقولون: بِقِى، خِشِى، نِسِى. والنطقان فى الفعل الناقص بالياء عاميان، وينبغى أن تبرأ منهما العامية المصرية.

زيادة ياء فى الماضى بعد تاء المخاطبة

وذلك فى مثل «قرأتِ وكتبتِ» تقول العامية: «قرأتيه وكتبتيه» إذ تمد كسرة تاء المخاطبة فتتولد منها ياء ونجدها فى كتاب المكافاة لابن الداية المصرى على لسان تاجر يكافئ امرأة على جميل أسدته إليه. وينبغى أن تتخلص منها العامية المصرية وتكتفى بكسرة التاء مثل الفصحى.

إلحاق علامة الجمع بالماضى مع ذكر الفاعل المثنى والجمع للذكور والإناث

تقول العامية: حضروا الطالبان ـ حضروا الطالبتان ـ حضروا الطلاب ـ حضروا الطالبات.

والعامية فى ذلك تلغى فى الفعل الماضى ألف المثنى مع الذكور والإناث ونون النسوة وتضع مكانها واو الجماعة، وينبغى أن تعود هذه الأفعال إلى الفصحى.

والعامية ـ بذلك لا تستخدم ألف التثنية فى المثالين الأولين ولا نون النسوة فى المثال الرابع إذ تعمم فيهما واو الجماعة للذكور، ويجب حذفها منها جميعًا، وأيضًا فى المثال الثالث حتى لا يكون للفعل فاعلان: ضمير واسم ظاهر.

الجزء الثانى من البحث الذى ألقاه الأستاذ الدكتور شوقى ضيف رئيس المجمع اللغوى فى الدورة السابعة والستين للمجمع (مارس ٢٠٠١) بعنوان «العامية فصحى محرَّفة». وقد سبق نشر الجزء الأول من البحث فى «وجهات نظر» عدد مايو ٢٠٠٠

تسهيل الهمزة وحذفها
فى الأفعـــــال

تكثر العامية من تسهيل الهمزة فى الأفعال، فتقول فى أدّاه: وداه بقلب الهمزة واوا، وتقول فى قرأت - ملأت: قريت - مليت بكسر الحرف الأول والثانى فى الفعل وقلب الهمزة ياء. وتقول بالمثل:

فى بدأت: بديت - وفى خبَّأته: خبّيته بقلب الفتحة قبل الهمزة كسرة وقلب الهمزة ياء. وبالمثل فى هدأته: هدّيته، وفى هنّأته: هنّيته - وفى توضأت: توضّيت وكل هذه الأفعال ينبغى أن ترد هى وما يماثلها إلى أصلها المهموز الفصيح.

وتكثر العامية من حذف همزة صيغة أفعل الرباعية فتقول: تلفه فى أتلفه - حبه فى أحبه - سعفه فى أسعفه - عطاه فى أعطاه - فطر فى أفطر - كرمه فى أكرمه، وكل هذه تحريفات فى العامية وينبغى ردها إلى أصلها المهموز الفصيح.

وتحرف العامية حركة الحرف الأول فى بعض صيغ الأسماء المفردة، من ذلك أن صيغة إفعيل مثل أبريق، فى العامية بفتح الهمزة المكسورة فى الفصحى، وصيغة فِعّيل مثل بِطّيخ فى العامية بفتح الهمزة المكسورة فى الفصحى.

وصيغة مفعيل بفتح الميم المكسورة فى مسْكين - منديل.

التحريف فى المشتقات

ذكرت فى حديثى فى المؤتمر الماضى التحريف فى صيغة اسم المفعول وأذكر الآن التحريف فى بقية المشتقات:

اسم الفـــاعل

أبدأ باسم الفاعل وتحريفاته ومن أهمها كسر الميم المضمومة فى أوله حيث يشتق من غير الثلاثى مثل مِعلم - مِسامح - مِنتصر. ومن ذلك تسكين عَين اسم الفاعل الثلاثى وفى مثل فهمْين أى فاهمين وكتبين أى كاتبين وقَرْئين أى قارئين. ومن ذلك مغنيّة وفاكهة مستوية، وأفكار ملتوية بتشديد الياء فيها، والياء فيها جميعًا غير مشددة.

وأحيانًا يشتق اسم من الفعل الثلاثى فى العامية وهو يشتق من الفعل الرباعى مثل راسل الخطاب والصواب مُرْسِل - ورجل ماسك أى بخيل والصواب مُمْسِك - ورجل فاطر أى غير صائم والصواب مُفطر. ويا غائث المستغيثين والصواب: يا مُغيث. ويسمى مكان المصلين مصلية والصواب مُصَلًّى.

وقد يوضع اسم المفعول مكان اسم الفاعل مثل مذهول والصواب ذاهل، وعمل مهول والصواب هائل. وقد يوضع اسم الفاعل مكان اسم المفعول مثل: مركب موسوق والصواب موسَق - ورقة ملصوقة والصواب مُلْصقة - ومال مودوع والصواب مودَع - فرس ملجوم والصواب مُلْجم - ونار موقودة والصواب موقَدة - ورأسه موجوع والصواب موجَع.

يذكر لفظ لا فى الجواب على المتكلم بالنفى، فيقال لا، غير أن العامية المصرية أضافت إليها همزة ساكنة، فيقول المصريون فى الجواب بالنفى « لأ » ويذكر عن قبيلة طيئ أنها كانت تقلب الألف الموقوف عليها همزة، وكأن المصريين أخذوا من عشائرهم الوقف على « لا » بالهمزة، وشاعت بينهم إلى اليوم. وينبغى أن تعدل العامية عن نطقها إلى نطق الفصحى

تحريفات الصفة المشبهة، من ذلك:

١ - كسر الحرف الأول فى صيغتى فعيل وفعِل فتقول: كبير - شريف - سعيد ، كما تقول عكر - نكد - إنف.

٢ - فى الألوان والعيوب: حين تدخل العامية على صيغة أفعل أداة التعريف تحذف همزتها وألف أداة التعريف وتفتح لامها، فتقول: لَبْيَض - لَحْمَر وينبغى أن تنطقها مثل العربية: الأبيض - الأحمر. وفى صيغة فَعْلاء المؤنثة: تحذف المد وتزيد هاء السكت فتقول فى مثل: بيضاء - حمراء: بِيضة بكسر الباء - حمرة، وينبغى رجوعها إلى الفصحى. وتنطق العامية فى نُفَساء للمرأة الوالدة نِفَسة وينبغى ردها إلى الفصحى، وتقول فى كلمة الآخر: راخر بتسهيل الهمزة وقلب لام التعريف راء مع فتحها. وكل هذه التحريفات فى الصفة المشبهة ينبغى أن تتخلص منها العامية.

تحريفات اسم الآلة:

مما حرفته العامية فى اسم الآلة فتح الميم فى صيغة مِفْعل بكسر الميم مثل: مَبْرد - مَدْفع - مَسْند - مَصْعد - مَضْرب - مَفْرش.

وفتحت الميم فى يفْعَل بكسر الميم فى:

مبخرة - مدخنة - مروحة - مشنقة - مصيدة - مطحنة - مفرمة - مطرقة - مقرعة.

وضمت الميم فى صيغة مفعال فى اسمين هما:

مِفْتاح - مسمار - فقول مُفْتاح - مُسمار

ومما حرفته فى هذه الصيغة كلمتا: مِصْفاة - مِقْلاة.

تنطق بهما العامية: مَصفى - مَقلَى وقد تقول مقلاية بزيادة ياء وهاء السكت.

وحذفت العامية ألف مِفعال فى الأمثلة التالية مع فتح الميم فى المثالين الأخيرين

مخلاة - مسْحاة - مطْواة - مكْواة

فَتقول: مخْلة - مِسْحَة - مَطْوَة - مَكْوة

وكل هذه التحريفات فى اسم الآلة ينبغى أن تصحح وتنطق بها العامية نطقًا سليمًا.

فى المثنى والجــمع

تحذف العامية حالة الرفع بالألف والنون فى المثنى المعروفة فى الفصحى، وتقول حوالينا بكسر اللام خطا وهى مفتوحة: حوالَينا. وتقول عصاتين وهما عصوان رفعًا وعصوين نصبًا وجرًا. ولا يقال اثنين مليون مثل العامية بل يقال مليونان، ولا يقال ثلاثة مليون إلى عشرة، إذ الصحيح ثلاثة ملايين وهى عدوى من تعلم اللغات الأجنبية.

وتحذف العامية علامة الرفع بالواو والنون من جمع المذكر السالم وتسكن النون فى حالتى النصب والجر. ولا تمنع من الصرف صيغة مفاعل مشددة العين. واللام فى مثل مشاق جمع مشقة - ملاذ جمع ملذة - مهاب الريح جمع مهب - ومهام جمع مهمة. وأيضًا تنون خطأ صيغة فعلاء مثل: أدباء - علماء - فقهاء - زعماء - شرفاء - عظماء - كبراء - كرماء - شعراء.

تحريف أسماء الاستفهام:

(مَنْ) تقول العامية فيها مِينْ جاء

أين: تحذف العامية فيها همزة الاستفهام حين تصلها بواو أو فاء فتقول: وين - فين.

متى: تجعل العامية قبلها همزة استفهام وتسكن الميم وتحذف الألف الأخيرة فتقول: إمْتَ.

كيف: تنطقها العامية بكسر القاف. كم: تزيد العامية فيها ألفًا تقول كام الساعة.

وكل هذه التحريفات فى العامية ينبغى تصحيحها.

تسهيل الهمزة وحذفها
فى الأســـماء

تقلب العامية الهمزة الساكنة إلى جنس الحركة السابقة لها فى الأسماء مثل:

بير فى بئر - ديب فى ذئب يقلب الذال دالاً - شوم فى شؤم.

وتسهِّل العامية همزة القطع مع كسرها فى ضمير المخاطب: أنت وفروعه كما سيأتى ومن تحريفاتها:

دَيْرة فى دائرة - عَباية فى عباءة - مراته فى امرأته - ميّه فى مائة - وجميع الأرقام المئوية حرفتها العامية، فتقول: ميتين في مائتين - تُلتمية فى ثلاثمائة بقلب الثاء تاء وهكذا.

ومن التحريف فى الأسماء: ودن فى أذن - إودان فى آذان - وقه فى أقة.

وحذف الهمزة فى الأسماء كثير وهى تحذف فى الأسماء الممدودة بعامة فيقال: دوا فى دواء - سما فى سماء - صحرا فى صحراء - كيميا فى كيمياء.

وينبغى أن تعدل العامية عن حذف همزة المد. وبالمثل ينبغى أن ترد الكلمات التالية إلى أصلها المهموز فى الفصحى، وهى:

فين: أصلها فأين. كسرت الفاء فيها وحذفت الهمزة.

منين: أصلها من أين. حذفت همزتها وكسرت النون قبلها.

وستذكر تحريفات الضمائر المنفصلة المرفوعة والمنصوبة. ومما حذفت فيه الهمزة ياخى أصلها يا أخى.

ياهل الخير: أصلها يا أهل الخير.

والهمزات المحذوفة فى جميع الكلمات السابقة ينبغى أن تعود إليها حتى لا تشذ عن أصلها الفصيح.

القصـــر والمـــد

تحذف العامية الألف قصرًا فى صيغ متعددة هى صيغة فاعل وفاعلة حين يسكن الحرف التالى لها مثل كَتْبه (فى كاتبة) وفطْمه (فى فاطمة). وصيغةُ مفاعل مثل مرَجْعه (مُراجعه) بحذف الألف وكسر الميم، ويقال مِراجْعينه (فى مُراجعيه) بذكر نون الجمعِ مع الإضافة. وتحذف الألف من الخَصْرة (فى الخاصرة) والعُقْبة (فى العاقبة) مع ضم العين، والعيلة (فى العائلة) مع قلب الهمزة ياء وكسر العين، ويَسْمين (فى ياسَمين). وتحذف الألف الأخيرة من الموسى فتقول موس وتجمعه على أمواس والصواب مواس. وتحذف الألف الأولى والثانية من ناداه فتقول نَدَهُ.

وتمدّ العامية الفتحة فتقول كام فى كم الاستفهامية كما أسلفنا - وتقول معاك (فى معك). وتمد الضمة فتقول كورة فى كرة. ويطرد ذلك فى الوقوف بالأمر من الفعل الثلاثى الأجوف الواوى مثل: توب - زوغ - عوم - قوم - وخود (من خذ) مع قلب الذال دالاً، وكول (من كل) والأجوف اليائى والواوى فى مثل: بيع - زيد - صيد - قول.

وينبغى أن تصلح العامية هذه التحريفات فى الكلمات حتى تعود بها إلى الفصحى.

للفصـــحى !!



تحريفــات العاميــة للفصـــــحى

التـحـريف فى الضـمـائر المتـــــــصــلـة

هاء الغيبة: تنقل العامية فى ضمتها إلى الحرف الذى قبلها وتحذف وتسكن ما بعدها وتمد الضمة فتتولد منها واو فى الأفعال مثل كَتْبُو (فى كاتبهُ) والأسماء مثل مكتوبو فى (مكتوبهُ).

وبالمثل إن وأخواتها يقال فيها: إنُّو فى (إنـه) وكـأنُّو (فى كـأنـه) ولكنـو (فى لكنـه).

وأيضًا مع كل مضاف إلى هذه الهاء مثل: علمو (فى علمه) وكتابو (فى كتابه) ومع ثلاثة من حروف الجر - هى اللام فى مثل لو (فى له) ومنو (فى منـهُ) وعنو (فى عنهُ).

ياء المتكلم: تُلْحق بالأفعال والأسماء والحروف، وتقول العامية عصايتى (فى عصاى) فتضيفها إلى ياء المتكلم مرتين. وتشددها مع اللام فتقول لىَّ (فى لى) لحنًا واضحًا.

الضمائر المنفصلة المرفوعة والمنـصــــوبـة

أنا: تحذف منها العامية الهمزة إذا سبقتها واو العطف أو حرف النداء (يا) فتقول ونا (فى وأنا) ويانا يانا (فى يا أنا - يا أنا).

نحن: تنطقها العامية إحنا بقلب النون الأولى همزة وفتح النون الثانية مع مدها.

إنت: تنطق العامية هذا الضمير وفروعه بكسر الهمزة.

هوَّ - هىَّ: تشدد العامية الواو والياء فى هذا الضمير، وكانت تشدده قديمًا قبيلة همدان النازلة بالجيزة فى الفتوح الإسلامية. وعنها شاع فى العامية المصرية.

هم: تشدد العامية الميم فى هذا الضمير الساكن فى الفصحى.

إياك: تحذف العامية همزة القطع فى هذا الضمير المنفصل المنصوب وفروعه مع واو العطف فى إياك وإياكم فتقول فى مثل رأيته وإياك: رأيته ويَّاك.

التـحـريف فى الحـروف الجـــــارة:

على: تحذف العامية منها اللام والألف إذا أعقبها اسم معرف بالألف واللام فى مثل: سافر ع الطائرة - سبح ع الماء، وكانت تنطق بذلك قديماً قبيلة بنى الحارث وأشاعتها فى مصر حين استوطنتها. وينبغى أن تردها العامية إلى نطقها الفصيح.

عَنْ: تشدد العامية نونها فى استعمالين: إذا اتصل بها ضمير المفرد المخاطب فى مثل: عَنْك تقول (عنَّك) أو اتصل بها ضمير المفرد الغائب فى مثل عنه تقول عنُّو بتشديد النون وحذف الهاء مع نقل ضمتها إلى النون المشددة وزيادة واو. وحرى أن تعدل العامية عن هذا النطق إلى نطق الفصحى فيهما.

اللام الجارة: تفتح هذه اللام فى الفصحى مع جميع الضمائر ماعدا ضمير المتكلم فإنها تكسر معه مثل هذا الكتاب لى.

أما فى العامية فإنها تضم مع ضمير المفرد الغائب وجماعة الذكور الغائبين فيقال أعطيت لو الكتاب (فى أعطيت له الكتاب) بنقل حركة الهاء المضمومة إلى اللام مع حذفها ومد الضمة. ويقال (أعطيت لُهم الكتاب) بضم اللام أو حذفها.

وتكسر لام الجر مع بقية الضمائر فى لنا - لك - لكم - لها. ويقول السيوطى فى كتاب الهمع إن عشائر قبيلة خزاعة كانت تكسر لام الجر مع المضمر وكأنها هى التى أشاعتها بمصر، وحرى أن يُرَد نطقها إلى الفصحى.

من: حين تذكر معها نون الوقاية تشددها العامية فتقول (منى) وهو تعبير صحيح لإدغام نون من فى نون الوقاية، غير أن العامية المصرية تطرد ذلك مع ضمير المفرد المخاطب والمفردة المخاطبة والغائب المفرد فتقول: منَّك - منَّك - منُّه. وينبغى أن تعود فيها جميعًا إلى نطق الفصحى بسكون النون.

فى حروف القسم والجواب

واو القسم: مفتوحة فى الفصحى، والعامية تكسرها مثل والنبى - والمصحف - وحياتك. ومثال واحد تفتحها فيه هو لفظ الله فتقول والله. وينبغى أن تلغى كسرها وتفتحها دائماً مثل الفصحى.

إى: بكسر الهمزة فيها وياء ساكنة، وهى حرف جواب مثل نعم تمامًا ويليها دائمًا قسم بالله مثل: إى وربى وإى والله. ومجىء واو العطف بعدها جعلت العرب يقولون فى الجواب بها «إيوه» كما ذكر ذلك الزمخشرى. ومن هذه اللهجة شاعت فى عامية مصر كلمة «إيوه» بمعنى نعم مضيفة إليها هاء السكت للوقف، وقد تفتح العامية الهمزة فتقول «أيوه» وتختصرها العامية فتقول: «أ» بمعنى

شاعت فى عامية مصر كلمة «إيوه» بمعنى نعم مضيفة إليها هاء السكت للوقف، وقد تفتح العامية الهمزة فتقول «أيوه» وتختصرها العامية فتقول: «أ» بمعنى نعم بالمد أو بدونه، وواجب أن تصحح العامية الكلمة

نعم بالمد أو بدونه، وواجب أن تصحح العامية الكلمة.

لأ: يذكر لفظ لا فى الجواب على المتكلم بالنفى، فيقال لا، غير أن العامية المصرية أضافت إليها همزة ساكنة، فيقول المصريون فى الجواب بالنفى «لأ» ويذكر عن قبيلة طيئ أنها كانت تقلب الألف الموقوف عليها همزة، وكان المصريين أخذوا عن عشائرهم الوقف على «لا» بالهمزة، وشاعت بينهم إلى اليوم. وينبغى أن تعدل العامية عن نطقها إلى نطق الفصحى.

تحريفات متنوعة

فى النداء: تسكن العامية الحرف الأول فى العَلَم إذا كان ثانيه متحركًا فى مثل:

يا محمد - يا حسين - يا سليمان.

وتحذف همزة القطع فى ثلاثة أعلام هى:

أحمد - إبراهيم - إسماعيل

وتبدل اللام فى نهاية العلم الأخير بنون فتقول: إسماعين. وتبدل ألف الوصل بألف القطع فى لفظ الجلالة للاستغاثة أو للتعظيم فتقول: يا ألله.

يا أنا: تحذف العامية همزة القطع مع (يا) من الضمير «أنا» فيقول «يانا يانا» تَحسُّرًا على ضياع شىء.

وينادى مثل «أبوحسن» بنفس لفظ «أبو» يا أبو حسن بنطق الواو وعدم إبدالها بألف لأنها مضافة.

وتقول العامية: يابوى - ياخوى تحريفًا بدلاً من يا أبى - يا أخى. وينبغى أن تعدل العامية عن كل هذه التحريفات فى النداء فيما عدا لفظ: يا ألله.

فى التصغير

تحذف العامية فى صيغتين من صيغ التصغير أولاهما صيغة فُعَيل تجعلها فَعيل فى كثير من الأعلام مثل:

حَميد (فى حُمَيد) سعيد (فى سُعَيد).

والثانية صيغة فُعَيْعِل تفتح حرفها قبل الآخر فتقول صُغيَّر فى صُغيِّر وكُبيَّر فى كُبيِّر.

فى النسب

تخطئ العامية فى كلمات كثيرة بالنسب، من ذلك كتبى بسكون التاء: نسبة إلى الكتب، وصوابها كُتُبِى - حلَواني، وصوابها حَلْوانى.

خُضَرى: نسبة إلى ما يبيعه من الخَضْروات، وصوابها خَضْرواتى بفتح الخاء.

فكهانى: نسبة إلى فاكهة والصواب فاكِهانى بزيادة ألف مع كسر الكاف.

الكسر قبل هاء الوقف فى مثل:

حِدِّه - شدِّه - سكِّه - سيره - سلامِهْ - رياسِه - هدايهْ - كلمه - فكره - نكته.

وينبغى أن تعدل العامية عن كسر هذه الكلمات إلى فتحها قبل الوقف عليها.

تقاليب الحروف فى الكلمة:

تاء افتعل

الفصحى تجعل التاء بعد فاء الفعل فى صيغة افتعل والعامية تقدم التاء على الفاء فتصبح اتفعل فى أفعال كثيرة مثل:

اتبلّ فى ابتَل - اتْرمى فى ارتمى - اتْروى الزرع فى ارتوى - اتْغنى فى اغتنى - اتْغاظ فى اغتاظ - اتْكسى فى اكتسى - اتْلوى فى التوى - اتْملى فى امتلى.

وينبغى أن تعدل العامية عن هذا التحريف فى صيغة افتعل.

تحريف فى الكلمات التالية

الباط: الإبط: جعلت العامية الهمزة بعد الباء وحولتها إلى ألف وصل.

جوز: زوج: نقلت آخر الكلمة إلى أولها وضمتها، وصنعت ذلك فى كل المادة فتقول: الجواز فى الزواج وجوزوه فى زوجوه.

سقف: صفق: قلبت العامية السين صادًا وقدمت القاف على الفاء.

فعص: فى عفص البيضة بتقديم الفاء على العين.

ملص ودنه: فى صلم أذنه قدمت العامية الميم إلى مكان الصاد ووضعت الصاد مكانها.

تصنت: تنصت أى تسمع، قدمت العامية الصاد على النون.

وينبغى أن تعود العامية فى كل التحريفات التى ذكرناها إلى النطق الفصيح الصحيح. ■



من رسائل الجاحظ

٤ ـ فى ذكر المدينة

أمرُ المدينة عَجَبٌ، وفى تُربها وتُرابها وهوائها، دليلٌ وشاهدٌ وبرهانٌ على قول النبى صلى الله عليه وسلم: «إنَّها طيِّبة تَنْفى خَبَثَها وتنصع طيبَها» لأنَّ من دخلها أو أقام فيها، كائنًا منَ كان من النَّاس، فإنَّه يجد من تُربتها وحيطانها رائحةً طيبةً، ليس لها اسمٌ فى الأَرابيح، وبذلك السبب طاب طيبُها والمعجوناتُ من الطِّيب فيها. وكذلك العُودُ وجَميعُ البَخُور، يَضَّاعَفُ طيبُها فى تلك البلدة على كلِّ بلدٍ استعمل ذلك الطِّيب بعينه فيها.

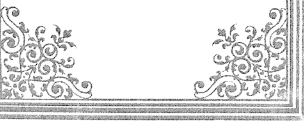
وكذلك صَيَّاحها والبَلَحُ والأُتْرجُّ والسَّفَرْجل، أعنى المجعول منها سُخُبًا للصِّبيان والنِّساء.

فإن ذكروا طيب سابور فإنَّما طيب سابور بطيب أرياح الرَّياحين، وذَلك من ريح رَياحينها وبساتينها وأنوارها، ولذلك يَقْوَى فى زمان، ويَضعُف فى زمان.

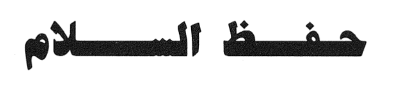
ونحن قد ندخل دجْلة فى نهر الأُبُلَّة بالأسحار، فنجد من تلك الحدائق، ونحن فى وسَطَ النهر، مثلَ ما يجد أهلَ سابورَ من تلك الرَّائحة.

وطَيْبة التى يسمُّونها المدينة، هذا الطِّيب خلقةٌ فيها، وجوهريَّة منها، وموجودٌ فى جميع أحوالها. وإنَّ الطِّيب والمعجونات لَتُحْمَلُ إليها فتزداد فيها طيبًا، وهو ضدُّ قَصَبَة الأهوَاز وأنطاكيَّة، فإنَّ الغَوالىَ تستحيل الاستحالة الشَّديدة.

ولسنا نشكُّ أنَّ ناسًا ينتابون المواضعَ التى يباع فيها النَّوَى المُنْقَع، فيستنشقون تلك الرائحة، يُعجَبون بها ويلتمسونها، بقدر فرارنا نحن من مواقع النَّوى عندنا بالعراق، ولو كان من النَّوى المَعجوم ومن نَوَى الأفواه.



أفلح حيث فشلت



تقرير لجنة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة برئاسة الأخضر الإبراهيمى صيف عام ٢٠٠٠

في السادس من سبتمبر ١٩٩٩، هاجم حشد غاضب مكتب إغاثة تابعًا للأمم المتحدة فى تيمور الغربية. وقد نهبت الجماهير المبنى، وفيما يعد رد فعل مثيرًا للغثيان لما حدث فى مقديشو سنة ١٩٩٣، أحرقت جثث ثلاثة من العاملين مع الأمم المتحدة فى الشوارع. وأسرعت الأمم المتحدة بسحب ما تبقى من أفرادها فى الإقليم الإندونيسى، وهو ما كان له وقعه السيئ على مهمتها غير المستقرة فى إقليم تيمور الشرقية الذى استقل حديثاً.

وأبرزت تلك الكارثة تقريراً مستقلاً كانت الأمم المتحدة قد أصدرته قبل ذلك بأسابيع قليلة. وبما أن الورقة نشرت فى وقت كان يتوالى فيه اتخاذ المئات من جنود حفظ السلام فى سيراليون رهائن - وآخرهم جنود بريطانيون ذهبوا لانقاذ من سبقوهم من ذوى البريهات الزرقاء - فقد كانت رسالة للقوى التى انتقدت جهود الأمم المتحدة لحفظ السلام انتقاداً شديداً، كما كانت بمثابة «روشتة» لمزيد من القوات النشطة والسيطرة والرقابة.

أثارت تلك الأحداث ومعها تقرير الأمم المتحدة جدلاً حول ما بات أمراً مألوفاً إلى حد كبير. ويدور الجدل حول العديد من المسائل الرئيسية مثل هل يمكن جعل حفظ السلام الذى تقوم به الأمم المتحدة يعمل لمدى طويل، أم أنه محكوم على هذه الجهود بالفشل؟ وهل المعايير الدولية فعالة، أم أن العسكرية السافرة قد تكون هى الشيء الوحيد لوقف أشرار العالم ممن هم على شاكلة فوداى سنكوه؟ وهل التدخل الإنسانى غير عملى، أم أن هناك طريقة ما للموازنة بين حقوق السيادة والقيم الكونية؟ شغلت مثل هذه التساؤلات اهتمام الأكاديميين والمفكرين فترة طويلة من العقد الماضى، منذ أن تحول عالم الحرب الباردة المرتب ذو الصراعات بين الدول - الذى قامت فيه الأمم المتحدة بدور بسيط غير مثير للجدل، باعتبارها منطقة عازلة على طول خطوط إطلاق النار والحدود (كما فى قبرص والشرق الأوسط) - إلى هذه الدوامة الحالية من المذابح العرقية والقبلية والدينية.



ويعد هذا الجدل حول التدخل الإنسانى مهماً ويتسم بحسن نواياه. وهو كذلك جدل يفتقر فى أغلبه إلى الصدق. فالنقاش يطرح خيارات زائفة، على الأقل بالشكل الذى تم تأطيره به فى السنوات القليلة الماضية. وفى الجزء الأكبر من فترة ما بعد الحرب الباردة، تركز الجدل الدائر حول النظام العالمى الجديد على إذا ما كانت أى من الأمم المتحدة أو الولايات المتحدة - وهما تعملان منفصلتين أو بالتنسيق فيما بينهما - يمكنها أن تصبح شكلاً من أشكال الشرطى الكونى. غير أنه يحين الوقت، بعد عشر سنوات من سقوط الاتحاد السوفيتى، للاعتراف بان أياً من الخيارين لن يحظى بالقبول. فواشنطن ليس لديها الاستعداد لذلك، بينما الأمم المتحدة تعوزها الوسيلة (بفضل شح الولايات المتحدة فى الغالب).

إلا أنه يخرج حالياً من هذا الفراغ نظام جديد على أرض الواقع، فى الأزمة تلو الأخرى. ولنسمه حكم الشرطة الإقليمية. إنه نظام هجين يعتمد على كل ما تمنحه الأمم المتحدة من مشروعية وكذلك على القوة المحلية. ولكى يعمل النظام الجديد، فهو بحاجة إلى قوى وتنظيمات إقليمية تؤدى العمل البغيض الخاص بحفظ السلام وصنع السلام. غير أن هذه القوى الإقليمية يجرى تدريبها والضغط عليها إلى حد كبير كى تعمل وفق معايير الأمم المتحدة، وكى تخضع فى العادة لقرارات مجلس الأمن.

هذا هو النموذج الذى اتبع من أجل تيمور الشرقية فى سبتمبر ١٩٩٩، عندما قبل الرئيس الأمريكى الأسبق بيل كلينتون بسعادة عرض أستراليا إرسال قوات مقاتلة تتصدى لميليشيات إندونيسيا المقاتلة - حتى عندما بادر الرئيس الأمريكى بتنظيم رد فعل متعدد الجنسيات وترتيب قرار للأمم المتحدة. وكان تلك هى المقاربة التى اتبعت فى كوسوفو كذلك. فقد أصرت الولايات المتحدة على استخدام حلف شمال الأطلنطى (الناتو) لطرد سلوبودان ميلوشيفتش - وفى ذهنها الطريقة التى فشلت بها قوات الأمم المتحدة فشلاً مهيناً فى الحيلولة دون وقوع الفظائع المبكرة فى البوسنة - ولكنها عملت فى نهاية الأمر تحت علم الأمم المتحدة.

وكما امتد هذا النموذج بحرص شديد إلى غرب أفريقيا. ففى الصيف الماضى، أعلن كلينتون أنه سيرسل مدربين عسكريين أمريكيين إلى نيجيريا، كان ذلك اعترافاً ضمنياً ليس فقط بالشرعية الجديدة للحكومة الديمقراطية، وإنما بحقيقة أن نيجيريا، تلك القوة الرئيسية فى المنطقة، لا بد أن تقوم بدور رئيسى فى الحيلولة دون وقوع فظائع فى سيراليون - بغض النظر عن السلوك الوحشى الذى ربما كانت القوات النيجيرية قد سلكته هناك من قبل.



بأرخص الأسعار

هل سينتشر هذا النموذج أكثر وأكثر؟ وهل ينبغي له أن ينتشر؟ لكي نجيب عن هذا، لا بد من مواجهة بعض الحقائق الصعبة. فالنزاع الحالي حول صنع السلام عادة ما يركز على إذا ما كان ينبغي زيادة موارد الأمم المتحدة كي تتعامل مع مواقف بعينها - هي في العادة الصراعات الأهلية التي تتراوح بشكل خطير بين السلم والحرب الصريحة - وهي تلك التي دفع إليها الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان الهيئة الدولية بشجاعة. ويحلل تقرير صدر الصيف الماضي للجنة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، التي يرأسها الأخضر الابراهيمي، أخطاء النظام الحالي تحليلاً حاداً ويضع خطة له تصحيحية. وفي اجتماع الألفية للجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك في شهر سبتمبر، اعتلى المنصة الزعيم تلو الآخر ليقدم الدعم الضمني أو الصريح لروشتة الإبراهيمي. ومن بين هؤلاء الزعماء الرئيس كلينتون، الذي دعا إلى قيام الأمم المتحدة بدور أكبر في التدخلات الإنسانية.

ولكن اعتقادنا بأن نصيحة لجنة الإبراهيمي سوف تنفذ، الآن أو فيما بعد، معناه أننا نذهب بالأمر إلى نقطة الانكسار. فالمطالبة بقوة أكثر نشاطاً تتبع الأمم المتحدة، وتتضمن وحدات «متأهبة» جاهزة للقتال، ترجع إلى ما قبل انهيار الشيوعية. ولا وجود لذلك السبب القوى الذي يجعلنا نظن أنها سوف تنجح الآن فيما أخفقت فيه من قبل. وبينما كان يروج لتوصيات حفظ السلام الجديدة (التي سيتكلف تنفيذها ٢٠٠ مليون دولار أمريكي سنوياً) في نيويورك، كان الكونجرس الأمريكي الشحيح في واشنطن يسعى لتخفيض ميزانية الأمم المتحدة الحالية لحفظ السلام. فمن ناحية، حاول أعضاء الكونجرس بالفعل إلغاء مهام حفظ السلام في أفريقيا بالمرة، مراعاة للحد الأقصى للميزانية - بالرغم من جهود ريتشارد هولبروك مندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة لإعطاء أفريقيا حجماً في اعتبارات الأمن القومي الأمريكي يزيد على أي وقت مضى.

ومن ثم يتضح عبث حث كلينتون الأمم المتحدة على الإعداد لمزيد من التدخل، في حين لم يف هو بما وعد به منذ أربع سنوات من دفع معظم ما على الولايات المتحدة من مبالغ متأخرة. وطبقاً لما ذكره رئيس ميزانية الأمم المتحدة جوزيف كونور، فإن الولايات المتحدة مسئولة عما يزيد على نصف متأخرات الأمم المتحدة التي تقدر بـ٣،٢٤ مليار دولار. وقد اشتكى كونور أثناء اجتماع الجمعية العامة الذي انعقد بمناسبة الألفية قائلاً: «قالت الولايات المتحدة أظهروا الإصلاح وسوف ندفع. وقد أظهرنا الإصلاح [ولا وجود] للمال». وبينما لا تزال الولايات المتحدة على رفضها للدفع، يزداد تردد أعضاء آخرين مثل اليابان في تسديد ما عليهم.



ومن هنا ينبغي أن نكون واقعيين بشأن ما ننتظره من الأمم المتحدة فيما يتعلق بحفظ السلام. والولايات المتحدة، باعتبارها القوة العظمى الوحيدة في العالم، لها حصة في النظام الكوني السلمي أكبر مما لأية دولة سواها. وإذا لم تفعل واشنطن المزيد من أجل الأمم المتحدة الآن - في وقت غير مسبوق من التفوق الأمريكي والفائض القياسي في الميزانية، وفي لحظة ليس فيها جندي أمريكي واحد يخاطر بارتداء بيريه الأمم المتحدة الأزرق في أي مكان من العالم - فمن غير المحتمل أن يحدث ذلك في أي وقت قريب. وليس من المحتمل كذلك أن تبرهن واشنطن على استعدادها للقيام بدور منتظم، باعتبارها «مقاولاً من الباطن» للأمم المتحدة - كما حدث مرتين فقط من قبل في كوريا والكويت، عندما جمعت القوات متعددة الجنسيات تحت لواء الأمم المتحدة. ويصح هذا بصورة أكبر بعد كوسوفو، التي كانت بمثابة مدخل لانعدام الخسائر بالنسبة للتدخل الإنساني الذي تقوده الولايات المتحدة.

التخبط

إلا أن هذا لا يعني أن الدافع وراء التدخل الإنساني سيتضاءل بتضاؤل ميزانية الأمم المتحدة. فقد خلق التدخل ليبقى، شاءت واشنطن أم أبت. وسوف يستمر بطريقته العشوائية، حيث جرت العادة على أن تجتذب أضخم عناوين الصحف وأشد اللقطات التلفزيونية إثارة للرعب أضخم الجهود، حتى في الوقت الذي يحلل فيه الأكاديميون والخبراء «القواعد» العديدة للتوقيت الذي ينبغي فيه أن

الهجين

مايكل هيرش

على عكس التقليد الطويل الخاص بالدول المتقدمة التى كانت توفر الجزء الكبير من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، نجد فى السنوات القليلة الماضية أن ٧٧ بالمائة من الجنود فى الوحدات العسكرية المشكلة.. أسهمت بهم الدول النامية

تتدخل أمريكا وغيرها من القوى الكبرى ـ وكأن هذه الإرشادات شديدة الدقة لها أى ثقل فى مواجهة أثر «سى إن إن».

ونجد أن المؤيدين القدامى للسياسة الواقعية، الذين يرفضون النزعة الدون كيشوتية للتدخل الإنسانى ـ أو الذين ينصحوننا فقط بانتظار السلام الذى يحل بمجرد استنفاد الأعمال القتالية لشهوتها الدموية، مثل الكاتب إدوارد لوتواك ـ يتخلون عن ابتعادهم عن الضغوط المفروضة على المسئولين المنتخبين فى عصر الديمقراطية «فائقة التمكين» (التى عادة ما تهم وسائل الإعلام فائقة التمكين) وجهلهم بها. وقد يكون الأمر كذلك هو أن التدخل الإنسانى «يجمد الصراع بطريقة اصطناعية»، كما يقول لوتواك. إلا أن الناس فى عالم، تسيطر عليه الأعراف الغربية، لا يأبهون بذلك فى واقع الأمر. فهم لا يرغبون وحسب فى رؤية المذابح على شاشات التلفزيون. وبتشجيع من المنتقدين الكثيرين الذين تتزايد أعدادهم باستمرار، سوف يطالب هؤلاء حكوماتهم دائماً بأن تفعل شيئاً بشأن هذا الأمر ـ وعادة ما يكون هذا الشيء سريعًا وسهلاً. ونحن نعيش الآن فى عالم تحدد معالمه المثالية الويلسونية، كما اعترف هنرى كيسنجر على مضض. وكان ليون ويزيلتير قد كتب فى صحيفة «ذا نيو ريببليك» إبان حرب كوسوفو، ملخصاً الوجدان الشعبى بقوله إن أى «مكان يطرد فيه البريئون من الرجال والنساء والأطفال ويقضى عليهم، لهو مكان يتسم بالأهمية. ذلك أنه مكان يتساءل عن الفلسفة التى نزعم أننا نعيش بها».

وبذلك سوف يستمر التدخل. غير أننا إذا تمسكنا بالنظام الحالى، فإن هذا التدخل مقضى عليه بأن يظل على مستوى الهواة ومتأخراً وموارده ضعيفة بصورة تدعو للأسى، كما أظهرت تجارب البوسنة وكوسوفو وسيراليون. وقد يكون هذا عالماً ويلسونياً، ولكنها ويلسونية شحيحة غارقة فى أمورها الذاتية. وكما بولغ فى موت الدولة القومية أيما مبالغة، فقد كانت هناك كذلك مبالغة فى فكرة أن حاجات «المجتمع الدولى» سوف تفوق المصالح القومية. وربما لا تكون لدى الأمريكيين فى الوقت الراهن فكرة واضحة عن ماهية مصالحهم القومية، إلا أن المصلحة التى هم على يقين تام منها هى أن أبناءهم وبناتهم لن يموتوا بعد اليوم فى المعارك.

وما لم تكن الولايات المتحدة على رأس من يتولون أمر العناية بالأمم المتحدة، فليس من المحتمل أن يملأ غيرها الفراغ. والواقع أنه رغم كلام رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير وغيره من الزعماء الغربيين المؤيد للأمم المتحدة، فإن حفظ السلام الذى تقوم به الأمم المتحدة الآن قد ألقى على عاتق العالم النامى. ويقول تقرير الإبراهيمى:

على عكس التقليد الطويل الخاص بالدول المتقدمة التى كانت توفر الجزء الكبر من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة خلال الخمسين سنة الأولى من عمر الهيئة الدولية، نجد فى السنوات القليلة الماضية أن ٧٧ بالمائة من الجنود فى الوحدات العسكرية المشكلة.. أسهمت بهم الدول النامية.

الخـــــروج من المأزق

ويرسم التقرير صورة قاتمة. إلا أنه قد تكون هناك طريقة للخروج من هذا المأزق ـ إذا تم تعديل لغة النقاش تعديلاً شديداً لتبرير التفويض الإقليمى. ويغير ظهور شرطة الأمم المتحدة لفرض العقوبات الكثير من الأشياء. منها أنه قد يسمح لنا فى النهاية بأن نرمى وراء ظهورنا الجدل الذى لا ينتهى بين مؤيدى المعايير والمؤسسات الدولية (كالأمم المتحدة) وهؤلاء الذين يروجون لواقعية القوة تحق الحق. وفى ظل النظام الجديد، وبدون قرار من مجلس الأمن، سوف يصبح تدخل القوى الإقليمية غزواً ـ بغض النظر عن نبل دوافعه ـ وسيحمل معه تهديداً للهيمنة الإقليمية. وهو لن يحظى بترحيب الأطراف المحلية ويبذر بذور الصراع الذى يقع فى المستقبل.

ومن ناحية أخرى، فإنه بدون قوة أو تحالف القوى التى تمثل القوة العسكرية الإقليمية، فمن المؤكد أن الأمم المتحدة، التى تعانى على الدوام من نقص الأموال، سوف تظل تخسر مصداقيتها، كما خسرتها فى البوسنة وتيمور الشرقية وسيراليون قبل دخول القوى الإقليمية. وقد أجبرت الظروف الراهنة أتباع السياسة الواقعية وأتباع النزعة العالمية الليبرالية، الذين طال أمد خلافهم، على الوقوف جنباً إلى جنب. ومن المستحيل فى كثير من المواقف أن يوجد أى الاتجاهين دون الآخر.



ويوحى هذا بما قد سيكون عليه أهم دور للأمم المتحدة فى المستقبل ـ وهو إضفاء الشرعية على القوى المحلية. وربما ترى بلاد كثيرة أن مجلس الأمن الحالى قد يبدو أقرب إلى المحكمة السرية منه إلى مصدر التشريع الدولى. ومن المؤكد أن صورة المجلس قد تتحسن إذا جعلت القوى الكبرى الأخرى مثل ألمانيا واليابان أعضاء دائمين، وبالتالى يتخلص المجلس من ممارسات حقبة الحرب العالمية الثانية البالية. إلا أنه سواء أكان مجلس الأمن به عيوب أم لا، فهو لا يزال قوة فريدة. ذلك أنه المحكمة الفعالة الوحيدة والمستودع الفريد للقانون الدولى المستمد من السوابق الخاص بالتعامل مع التطهير العرقى وغيره من أشكال الرعب الإنسانى. وعليه، فلا بد أن يظل بمثابة الفيصل فى التدخلات.

وسوف يساعد استخدام قوات حفظ السلام الإقليمية التى تحظى بموافقة الأمم المتحدة على حل مشكلة مهمة أخرى، وهى كيف نجعل التدخل الإنسانى متوافقاً مع المصلحة القومية. فاستراليا، التى تراقب الفوضى فى تيمور المقابلة لها على الجانب الآخر من البحر، وربما تخشى تدفق ركاب القوارب عليها، كانت شديدة الحرص على التدخل مجاناً. وقد لا يتصرف غير الأستراليين فى المواقف المشابهة بالشكل الذى تصرفوا هم به، إلا أن هناك أمارات تبشر بالأمل. فبينما انتهز فى الماضى الكثير من الفاعلين الإقليميين فرصة نوع من الشماتة الجيوبوليتكية ـ استغلال نقاط ضعف جيرانهم فى الحرب ـ فإن عدداً قليلاً من الحكومات التى تتزايد أقلمة اقتصاداتها القومية يرغب الآن فى المجازفة بالاضطراب الاقتصادى وتدفقات اللاجئين، التى هى من أهم نتائج الصراع الذى تدور رحاه على مقربة منها. ومن هنا تأتى قوة التنظيمات الإقليمية المتزايدة فى أنحاء الأرض، من المنتدى الإقليمى لاتحاد دول جنوب شرقى آسيا (الآسيان) إلى منظمة الدول الأمريكية (أواس) التى كانت فى يوم من الأيام غير مؤثرة. والكثير من هذه الجماعات بدأ كهيئات اقتصادية ولكنه صار بعد ذلك قوى أمنية.

ولا تزال النزعة الإقليمية تعالج مشكلة أخرى كانت تشغل جهود حفظ السلام التى تقوم بها الأمم المتحدة، وهى كيفية السيطرة على القوات متعددة الأجناس التى غالباً ما تتبع عادات عسكرية مختلفة وتعمل فى ظل إساءة فهم كل منها للأخرى، على نمط ما أصاب بناة برج بابل من فوضى. وأخيراً فإن الرؤساء الأمريكيين وغيرهم من زعماء القوى الكبرى، الذين يواجهون مشاكل الآن فى الحصول على اعتمادات الأمم من مجالسهم النيابية، قد يجعلون الأموال الخاصة بالنزعة الإقليمية فى المستقبل تحت مسمى المساعدات الثنائية.

والآن مـــا لا يســر

طبيعى أن تكون هناك أماكن كثيرة قد تثبت فيها استحالة الحلول الإقليمية التى تقرها الأمم المتحدة، أو تكون أمراً لا يمكن التنبؤ به على أحسن الفروض. ومن الواضح أن الدول الخمسة دائمة العضوية فى مجلس الأمن تتمتع بالحصانة، بما لها من أصوات تتسم بالقداسة. كما أن الحلول المحلية لا تجعل الأمور أيسر على الدوام. فأى قوة إقليمية يمكنها التدخل فى الهند وباكستان؟ والصين وأفغانستان؟ فلا وجود للدولة التى يمكن الوثوق بها بالقدر الكافى لقيامها بهذا الدور. وفى الوقت ذاته فإن نيجيريا حديثة العهد بالتعاون، التى تحررت من ماضيها الذى لم يكن خاضعاً للأعراف، قد يظن ظان أنها ستصبح الشرطى الإقليمى الذى يستمد مشروعيته من الأمم المتحدة فى غربى أفريقيا. إلا أنه ليس فى شرقى القارة من يرغب فى تحرك الأثيوبيين العنيدين أو الكينيين ـ وهما القوتان المهيمنتان فى المنطقة ـ لحل مشاكلهم فى أى وقت قريب. وفى أفريقيا الوسطى، تحارب القوى الإقليمية هناك بالفعل فى جمهورية الكونغو الديمقراطية. وفى أمريكا الجنوبية، تتعايش شيلى والأرجنتين والبرازيل فى عدم ثقة يجيش فى نفوس جيوش كل منها. وتبين هذه المواقف كلها أنه

الســــلام الهجــــين



فى يوغوسلافيا، كانت واشنطن بحاجة إلى مساعدة موسكو؛ وبحاجة إلى الأمم المتحدة لإدخال موسكو فى العملية. وبدعم من قرار مجلس الأمن وقوة حفظ السلام، أثبت الروس أهميتهم فى إجبار ميلوسيفتش على الاستسلام. واضطر الناتو، إلى اللجوء إلى مشروعية الأمم المتحدة لنيل ما يريد

لا تزال هناك حاجة إلى مقدرة قوية على حفظ السلام داخل الأمم المتحدة كذلك. وعلى عكس قوات الأمم المتحدة، فإن القوى الإقليمية نادراً ما تبقى على التزامها لفترات طويلة ـ فقد اضطر الأستراليون على سبيل المثال لفرض ضريبة خاصة لتمويل مغامرتهم فى تيمور الشرقية وتركوها بعد خمسة أشهر فقط على الأرض.

إلا أن هناك طرقاً إقليمية للخروج من الكثير من تلك المآزق ـ ويعتمد الكثير من هذه الطرق على المساعدات الأمريكية، ودعم المنظمات الإقليمية، وقبل كل ذلك على نوع من الثبات طويل المدى كانت سياسة حكومة كلينتون الخارجية تفتقر إليه. فقد دفعت واشنطن بوينس آيريس على سبيل المثال إلى خلق دور لحفظ السلام (وأعطت الأرجنتين دوراً صغيراً فى التدخل فى هايتى). إلا أن البنتاجون جعل تدريباته العسكرية المشتركة الموسعة فى أمريكا اللاتينية أكثر اعتماداً على التعاون الإقليمى برعاية منظمة الدول الأمريكية التى لم تشب بعد عن الطوق ـ وهى التى حالت دون وقوع حرب بين الإكوادور وبيرو فى منتصف التسعينيات ووجهت اللوم إلى رئيس بيرو السابق ألبرتو فوجيمورى بسبب التلاعب فى الانتخابات. وفى جنوب شرقى آسيا، من المعتقد أن منتدى الآسيان الإقليمى قد يزداد قوة بمشاركة الصين، وأن يحمل علم الأمم المتحدة فى كمبوديا فى نهاية الأمر، إذا تصرفت بكين التصرف اللائق.



وعموماً فإنه يبدو أن الحالات التى قد تفلح فيها النزعة الإقليمية تزيد على تلك التى قد لا تفلح فيها. ففى العام الماضى حددت دراسة قام بها مجلس الاستخبارات القومى ٢٣ دولة بها حالات طوارئ إنسانية قائمة بالفعل، وذكرت أن تسع دول أخرى يحتمل أن تظهر فيها أزمات. ومن بين تلك الحالات الاثنتين والثلاثين، قد تستفيد الأغلبية العظمى من حفظ السلام الإقليمى أو حلول فرض السلام ـ مع بعض الاستثناءات الرئيسية، كالهند وباكستان وروسيا وربما نيجيريا نفسها. بل إن النزعة الإقليمية باتت فى بعض الحالات تقليداً. فالولايات المتحدة تقوم منذ مدة طويلة بدور الشرطى الإقليمى إلى الجنوب من حدودها، وأقرب ما كان ذلك فى هايتى. وقامت المملكة العربية السعودية بهذا الدور فى حرب الخليج، حيث جعلت التدخل الذى تقوده الولايات المتحدة مستساغاً فى العالم العربى (وإن لم يكن كذلك بالنسبة لأسامة بن لادن).

وليس هناك ما هو أفضل من كوسوفو لبيان المقاربة الجديدة لصنع السلام وحفظ السلام. وبعد ما أصاب الولايات المتحدة من إخفاق فى البوسنة، دخلت أزمة كوسوفو وهى عاقدة العزم على إدارة الحملة من خلال حلف الناتو وحده. وفى البداية لم يعط أى دور للأمم المتحدة. ولم يحتمل الروس واحتجاجاتهم أحد وقوبلوا بدبلوماسية الرفض واللامبالاة. وقال مسئول أمريكى أثناء الحرب: «إننا نحاول وحسب أن نجعلهم يظنون أن لهم دوراً».

إلا أن هذا كله تغير بنهاية حملة القصف التى شنها الناتو طيلة ثمانية وسبعين يوماً. فقد كان ميلوسيفتش أشد صلابة مما توقعه أحد، وواجه كلينتون بحلول أوائل يونيو التوقع المخيف سياسياً الخاص بإصدار أوامر الغزو البرى. وكانت واشنطن بحاجة إلى مساعدة موسكو؛ وكانت بحاجة إلى الأمم المتحدة لإدخال موسكو فى العملية. وبدعم من قرار مجلس الأمن وقوة حفظ السلام التى تحظى بموافقة الأمم المتحدة، أثبت الروس أهميتهم فى إجبار ميلوسيفتش على الاستسلام. واضطر الناتو، وهو أقوى شرطى إقليمى فى التاريخ، إلى اللجوء إلى مشروعية الأمم المتحدة لنيل ما يريد.

طريقة المدفع

من المفارقات أن الكثير من هذه الرؤية «الجديدة» الخاصة بحفظ السلام منصوص عليها فى ميثاق الأمم المتحدة (فى الفصل الثامن الذى طال تجاهله). إلا أن عدداً قليلاً من المراقبين ربط بين ذلك القسم والفصل السابع الأكثر استخداماً، الذى يفرض الرد على ما يهدد السلام. وتحظى النزعة الإقليمية بفقرة وحسب من تقرير الإبراهيمى الذى تحويه سبعون صفحة. وحتى المراقبين الدهاة مثل ستانلى هوفمان، الذى كان لماحاً فى اتخاذه موقفاً وسطاً بين طرفى الواقعية التقليدية والنزعة الدولية الليبرالية فى كتابه المهم الصادر فى ١٩٩٨ بعنوان «الاضطرابات العالمية»، كانوا يغفلون فى الغالب احتمال المقاربة الهجين. ويعترف هوفمان فى كتابه بأن مجلس الأمن هو «المصدر الرئيسى للسلطة» فيما يتعلق بالشرعية الكونية. إلا أنه يقلل من أهمية الصلة المحتملة بين سلطة الأمم المتحدة والنزعة الإقليمية، حيث يرفض المنظمات الإقليمية باعتبار أنها «كثيرا ما تتورط فى النزاعات التى بين دول المنطقة، أو داخل كل منها، أو تسلبها تلك النزاعات تأثيرها، أو أنها تفتقر إلى وسائل فرض القرارات».

ويظل هذا صحيحاً فى بعض الأحيان. ويتوقف تحسن الأمور أكثر وأكثر على مبادرة الدولة التى سوف تستمر بلا شك فى الهيمنة خلال القرن الحادى والعشرين، وهى الولايات المتحدة. والواقع أن مسئولى حكومة كلينتون أصروا على أنهم ينظرون إلى حفظ السلام منذ مدة طويلة على أنه نموذجهم المثالى، مشيرين إلى الجهود الإقليمية مثل المبادرة الأفريقية لمواجهة الأزمات. إلا أن مقاربتهم العشوائية أضاعت الكثير من الفرص. فلو كان كلينتون قد اعترف قبل ذلك بإمكانيات العمل الإقليمى، على سبيل المثال، لأتيح له استغلال عروض نيجيريا وتنزانيا وغانا وغيرها من الدول لإرسال قوات حفظ سلام إلى رواندا فى المراحل المبكرة من الإبادة الجماعية التى حدثت سنة ١٩٩٤. فى النهاية فإن تلك القوات بقيت على أرض الوطن، لأنه كانت تعوزها وسائل النقل والمعدات. وقد تحسر الرئيس الأمريكى بشدة على عدم اتخاذه إجراء ما فى رواندا.

وإذا كانت هناك بدائل، فلماذا جرى تهميش الخيار الإقليمى؟ أحد الأجوبة هو أن الانتقال إلى النزعة الإقليمية من الناحية البنائية يعد مرتقى شديد الانحدار. ولا تزال الحكومة الأمريكية برمتها تعتمد على العلاقات الثنائية. فالسفراء الأمريكيون فى الدول المختلفة أشد نفوذاً بكثير من نظرائهم فى المنظمات الإقليمية: وفى وزارة الخارجية الأمريكية يدير الموظفون الضعاف معظم السياسة الإقليمية. ويميل صنع القرار إلى اتباع الهيكل التنظيمى. والسبب الآخر هو أن قليلين فى واشنطن يهتمون بمواجهة احتمال أنهم قد يضطرون للعمل بقدر أقل من الفردية ويصبحون أكثر انشغالاً بجداول أعمال الآخرين. وبالنسبة للأمم المتحدة، فهى لا ترغب فى الوقوف موقف المتفرج من قواتها.

ولن تبدو النزعة الإقليمية فى جاذبية مبادرات الأمم المتحدة. فأى نظام يأتى به النيجيريون الآن إلى سيراليون، على سبيل المثال، محكوم عليه بأن يكون أقل قوة من ذلك الذى وعد به اتفاق لومى الذى أبرم تحت رعاية الأمم المتحدة (وإن لم يتحقق). وفى آخر مرة تدخل فيها النيجيريون فى ذلك الصراع احتلو فريتاون بعشرة آلاف جندى، بينما أتاحوا للمتمردين الهروب إلى الريف ـ وتجارة الماس. وأيا ما كانت أساليب النيجيريين، فقد نجحوا فى وقف أعمال القتل وتقطيع الأطراف. وكما قال أحد مخططى البنتاجون بإيجاز: «لكى يتحقق للولايات المتحدة المزيد من النجاح فى النزعة الإقليمية، فإن عليها فى واقع الأمر أن تعترف بالأهداف الإقليمية» ـ وكان لا بد أن يضيف إلى ذلك الأساليب الإقليمية. ومع ذلك فإن الولايات المتحدة والأمم المتحدة يمكنهما أن يجعلا دعمهما مشروطاً بمراعاة الفاعلين الإقليميين لمعايير السلوك الدولى.

وبذلك نجد أن أى نظام للشرطة الإقليمية التى ترعاها الأمم المتحدة سيكون بعيداً عن النموذج المثالى. فهو حل يتسم بالفوضى، وهو فى كثير من الأحيان غير متسق ويتم التوصل إليه بغير نظام، كما ينطوى على الكثير من المخاطر. إلا أنه فى بيئة من البدائل الصارمة ـ حيث الدور الأمريكى الذى تقرر أن يكون فى حده الأدنى، والأمم المتحدة التى تعانى نقصًا شديدًا فى الأموال ولا تحظى بالدعم الواجب ـ قد لا تكون هناك طريقة عملية أخرى أمام المجتمع الدولى لوقف الفظائع التى لم يعد يبدو أنه قادر على تحملها. ■

بترتيب خاص مع مجلة «Foreign Affairs»

ترجمة: أحمد محمود



بدلاً من استعارة الانتماء لأوروبا أو أفريقيا

عروبة مصر

التاريخ يحسمها .. والمستقبل فى صالحها!

ذوقان قرقوط

أما كفانا تشتتًا وهروبًا من المسئولية؟
أبعد استعارة الانتماء إلى أوروبا بدافع الغرور أو مركب نقص، أو الانتماء إلى أفريقيا.. أو لمحمد على الألبانى، أو لعله يجيئ من يقول بانتمائنا إلى النيل.. وربما غدًا إلى منابعه فى بحيرة ألبرت؟

إن هوية مصر العربية ليست هوية مستعارة على نحو ما حاول بعضهم استعارة هوية أفريقية لها أو متوسطية أو أوروبية إلخ هربًا من المسئولية، بل هى هوية عربية أصيلة: عرقًا ولغةً وتاريخًا وجغرافية مثلها مثل فلسطين والعراق والسعودية واليمن وسوريا، إلا أنها أكبر مسئولية، فمصر هى بالعرق أو بالجنس جزء من هذه المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط التى يمكن أن نعتبرها منطقة اللغة العربية ونسميها الوطن العربى، وهى منطقة متصفة بسمات الوحدة الطبيعية والوحدة البشرية والوحدة التاريخية المتصلة المتجانسة عبر العصور (كما يقرر الدكتور يوسف أبو الحجاج وآخرون، فى بحوث فى العالم العربى) ولعل تجانسها هو سبب استقرار اللغة العربية فيها، فقد اندفع العرب بالإسلام وبالعربية إلى أسبانيا واستقروا قرونًا، إلا أنهم وإن كانوا خلفوا لدى انحسارهم آثارًا خالدة لم يتركوا من العربية شيئًا يذكر.

وفى الشرق، على تخوم المنطقة العربية، وليس على تخوم الإمبراطورية، سادت اللغة العربية فى ظل سيادة الإسلام واستمرت هى اللغة الدينية والحضارية (واللغة المحكية) قرونًا عديدة، وكانت وسيلة التعبير الوحيدة لجهابذة العلم والمبدعين فى الأدب والفقه، تفتح آفاقًا رحبة، جديدة للفكر والابتكار، إلا أن اللهجات المحلية الخاصة «القومية» ما لبثت أن تماسكت وانتعشت، على الرغم من خشية اتهامها باعتبارها «لغات زندقية»، تغذيها مشاعر قومية، أمسكت بها عن الزوال والتلاشى، فظلت على شكل لهجات محكية.



وعلى عكس الفرس الذين كان لهم ماض عريق فى الحكم والحضارة، لم ينسوا أبدًا أن العرب أدالوه، لم يكن للعنصر التركى عمومًا ثم للأتراك العثمانيين خصوصًا حين وفودهم إلى عالم الإسلام وولوجهم إلى الحكم، ماض يذكر أو حضارة: كان الإسلام وسيلتهم الوحيدة للظهور على المسرح العالمى، ومع تلازم الإسلام للغة العربية كانوا الوحيدين من بين الشعوب الوافدة من السهوب على العالم الإسلامى الذين احتفظوا بلغتهم الخاصة، وجعلوها لغة للدولة وتمسكوا بها بعنجهية كجامع لقوميتهم، وهى لغة أقل ما يقال عنها إنها لهجة أقوام رعاة من السهوب لا تمت بصلة إلى اللغات العريقة ولا لأية حضارة غير حضارة الإسلام، لم تتميز بأحرف خاصة ولا بنمط كتابة، فاتخذت كالفارسية والأوردية طريقة الكتابة باللغة العربية، وما أن انهارت الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى وانفصم ما بينها وبين تمثيل الإسلام على المسرح العالمى، حتى أقلعت عن أية صلة باللغة العربية فاتخذت قالبًا لها الحروف اللاتينية.

وأيا ما كان الرأى فى أسباب هذا التمايز فى اللغات وبقائه واستمراره بين أمم إسلامية انتظمتها روح ثقافة واحدة، يصدح فيها الأذان بدينها يوميًا خمس مرات بلغة واحدة، ومهما تشعبت الآراء فيها وتغلب اجتهاد على آخر، يبقى للجانب العرقى وللأصول التاريخية الواحدة الجانب الأقوى، سواء فى انبعاث اللغة الفارسية وإحيائها أو فى تمسك الأتراك بلغتهم أو باستعادة الأسبان للغتهم، وليس من المجافاة للحقيقة القول هنا أن تقبل شعوب المنطقة العربية للدين العربى واللغة العربية هو التجانس العرقى.

أصل واحد:

ذلك أن جماعات بشرية تمت إلى سلالات واحدة، أخذت منذ أقدم العصور تجوب أرجاء هذه المنطقة وتتخير أماكن المكوث فيها، ومما عرف من التاريخ حتى الآن وما كشف من علم الأجناس لم يذكر أن شعوبًا أخرى من جنس مخالف لجنس شعوبها سبقت إلى استيطان هذه المنطقة، وإنما يرد ذكر أمم، من خارج هذه المنطقة، غريبة عن مسار الحياة فيها، غزت سكان هذه المنطقة وحلت فيها «حكامًا» أو الأصح حلت فى أطرافها، وتمركزت فى مخارجها، كالقوط واليونان والفرس والرومان، مددًا طالت أو قصرت، إلا أنه ما من أحد يستطيع القول أن أمة من الأمم توصلت بذلك الغزو، إلى تغيير التركيب الأنتولوجى الأساسى لهذه المنطقة، وضمن هذا الإطار نفسه، لا خارجه كما يفعل الاستعمار يجب التماس أسباب تميز الأقلية البربرية فى المغرب.

فمن قبل أن توجد هذه الأمم «الغازية» وتتشكل فى دول، بل قبل أن تصل الموجات البشرية القادمة من شمال شرقى آسيا إلى أوروبا، إلى القارة المواجهة، وتبدأ بمناصبتنا عداءها المستحكم، كانت شعاب منطقتنا هذه من الخليج إلى المحيط مفتوحة للأقوى من تلك الجماعات البشرية المتحدرة من سلالة واحدة ولمن يستطيع أن يطرقها تلمسًا لمناطق العشب فى الجهات الممطرة منها، ومناطق النباتات الطبيعية وأحواض الأنهار، فما لبثت طبيعة المنطقة الجغرافية ودواعى حركة الاستقرار والتبادل البشرية أن قضت بظهور مراكز تجمع سكانية كبرى فى أماكن غنية جدًا، نموذجها: الفرات والنيل وفى أماكن أقل غنى مثل سوريا وفلسطين وتونس وليبيا أو الحجاز ونجد، متباعدة بعض الشيء، إلا أنها غير منقطعة الصلة بعضها ببعض كأنما هى سلسلة واحات ولكنها مؤهلة، تقع على صفحة يائسة من الصحارى والسهوب وبذلك لم يتكون فيها «عرب سعيدة» واحدة فحسب، على حد قول الدكتور جمال حمدان، وإنما حلقات سعيدة مترابطة عبر هذه المنطقة المترامية الأطراف الممتدة من حضرموت وقتبان فى الجنوب إلى أور فى الشمال الشرقى، إلى صيدون «صيدا» فى الشمال الغربى، إلى قرطاجة وإلى مصر فى الجنوب الغربى فاليمن، فكانت هى الدائرة التى نشأت فيها وسادت معظم الحركات التاريخية وجرت فيها أهم فصول الحياة البشرية.

ومصدر واحد أيضًا:

فى صدد البحث عن أى هذه المراكز فى هذه المنطقة أسبق فى العمران وتشييد الحضارة: سومر أم أكاد أم مصر، لفت شونيفرت أنظار العلماء إلى حقيقة طريفة، عظيمة الدلالة فى هذا الأمر وهى أن الشعير والذرة الرفيعة والقمح وتأنيس الماشية والماعز والضأن، وإن ظهرت كلها فى مصر وبلاد ما بين النهرين، من أقدم العهود المدونة، لا توجد فى حالتها البرية الطبيعية فى مصر، بل فى بلاد آسيا الغربية وبخاصة فى بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة، يريد الاستدلال من هذا على أن الحضارة ـ وهى هنا زراعة الحبوب، واستخدام الحيوانات المستأنسة ـ قد ظهرت فى العهود القديمة غير المدونة فى بلاد العرب، ثم انتشرت فى صورة «مثلث ثقافى» إلى ما بين النهرين (سومر وبابل وآشور)، وإلى مصر وإن كان ما وصل إلى علمنا عن تاريخ بلاد العرب القديمة حتى الآن، يبلغ من القلة جدًا لا نستطيع معه إلا القول إن هذا مجرد فرض جائز الوقوع، بيد أننا إذا تفحصنا المعتقدات الدينية، ولا شك أن العلاقات فيها حميمة فإننا نجد فيها إشارات قد تؤيد ما ذهب إليه شونيفرت فى بلاد ما بين النهرين وفى مصر، فإن آلهة سومر وأكاد وبابل لم تكن سوى نسخة من آلهة مصر، طرأ عليها تبديل وتحوير وظل «سن» إله القمر، كبير آلهتها سائدًا إلى ما بعد أيام إبراهيم الخليل، وكان القمر إلها فى مصر، بل لعله أقدم ما عبد فيها من الآلهة، قبل أن تتفوق فيها عبادة الشمس وتتطور وفى أسطورة أوزوريس، أكبر آلهة مصر القديمة أنه سافر إلى اليمن حيث تعلم زراعات عديدة رآها لأول مرة ونقلها إلى مصر، وأورد ديودور الصقلى، وهو يسرد أسطورة إيزيس، عن لسان قدماء المصريين، علاقاتها بمدن تقع فى بلاد العرب.



ويرجع «جواد على» الأسباب إلى الأصول الواحدة، ويعتبر المؤرخون لا يخالف منهم إلا قليلاً، أن البلاد المواجهة للمحيط الهندى هى المخزن الرئيسى لأنها ـ فى علم التاريخ ـ كانت



ترى مأهولة دائمًا ومكتظة، إلا أن تعليل ذلك مازال يعوزنا: وهي توصف بأن الجبال التي تشكلها في مواجهة المحيط الهندي تطوقها كالمعصم، تتصل اتصالاً وثيقًا من الشرق بسهل غريني متدرج، آخذ في الاتساع من قطر إلى الإحساء، فمنخفض الكويت إلى أن ينفتح على العراق، كما أن سلسلة الجبال الغربية، أو بالأحرى سلسلة الهضاب، لأنها لا تعلو أكثر من ألف متر إلا في عدد من القمم التي تتجاوز ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، تمتد من عدن جنوبًا إلى الإسكندرونة شمالاً فتحتضن سوريا وفلسطين ومديان والحجاز واليمن؛ وعلى حين يحول المحيط العربي الهندي ومياه الخليج من الشرق دون التوسع السكاني إلى الخارج في الجنوب والجنوب الشرقي، فلا يجد الناس أمامهم إلا المنحدرات والوديان والسهول، فإن عيون سكان الجبال الغربية الغنية، على العكس تتجه دائمًا إلى الخارج، عبر البحر الأحمر، البحيرة العربية التي كانت إلى أزمان قريبة مغلقة عند باب المندب، أو البحر الأبيض المتوسط إلى السواحل المقابلة من أفريقيا، أو عبر سيناء التي يسميها الدكتور عباس عمار في كتابه الرائع المعبر الشرقي إلى مصر صعودًا أو إلى ما يليها بمحاذاة الساحل أحيانًا.

هكذا لا فرق بين الأقوام التي عمرت مصر من الشمال عبر سيناء والأقوام التي عمرتها من الجنوب فكلهم من أصل واحد، الفرق الوحيد ربما أن الأقوام القادمة عبر سيناء كانت أسبق إلى الحضارة كما تدل دراسة مقابر بني حسن، وكانت أكثر عرضة لتدفق سيول الأقوام اللاحقة من الشرق، كما يشير بناء «حائط الأمير» الذي أقيم لصدها عن ورود النيل بقطعانها، الذي ينوه إليه سيمون لاكوتور في كتابه عن مصر، ولا تخفى أسباب تأخر بناء الحضارة في جنوب الوادي عنها في شماله عن فطنة المؤرخ.

ولقد أمكن تحديد تاريخ الهجرات الكبيرة وأزمان حدوثها، على وجه التقريب، وجرى الاستناد في ذلك على الاعتقاد بفكرة الطفرة السكانية، وحدوث تغيرات مناخية وأحيانًا بسبب «الجفاف» في رأي هينتنجتون «Huntington»، ولم يؤخذ بعين الاعتبار التدافع والتنازع بين السابق واللاحق منها، ربما لعدم توفر الأدلة والمعلومات اللازمة، كما لم تؤخذ بعين الاعتبار الأسباب الأساسية الدافعة، ولم تؤخذ بعين الاعتبار الحركة المحيطة بشبه الجزيرة العربية من تقلص وامتداد، ويكاد الإجماع ينعقد على أن حدوث تلك الهجرات كان يتم في فترات زمنية متقاربة، فقد قرر جيمس هنري برستد، وهو أكبر الدارسين في هذا الباب، أن «تاريخ الهجرة الأولى إلى مصر يرجع بلامراء، إلى ما قبل العصور التاريخية، لكن الثابت أن هذه الغزوة تكررت بعد ذلك مرارًا في العصور التالية، ويرى آخرون ويؤيدهم برستد أن موجة أمت وادي النيل، واستقرت فيه عن طريق باب المندب هي الموجة التي يطلق عليها «موجة الجزريين» نسبة إلى الجزيرة العربية، وذلك حوالي ٣٥٠٠ ق.م في الوقت الذي اتجهت فيه موجة الأكاديين، وقبائل من العموريين الذين كان منهم البابليون ونابغتهم حمورابي إلى العراق، كما اتجه إلى العراق أيضًا العموريون بعد ذلك بحوالي ألف سنة، إلا أن المطاف انتهى بأكثرهم إلى الاستقرار في سوريا وفلسطين، وفي نفس الوقت توزعت القبائل الكنعانية في أجزاء كثيرة من سوريا وفلسطين ولبنان قادمة من شرق الجزيرة العربية بدلالة وجود أسماء أماكن وجزر ومدن وقرى أقامها الكنعانيون في لبنان وفلسطين، فضلاً عن وجود مثل هذا التشابه في المقابر والهياكل والمساكن، كما نجد تشابهًا الآن بأسماء قرى عامرة، مسكونة وأخرى خرائب في جنوب سوريا وأسماء قرى ومدن في جنوب شبه الجزيرة، وقد استقر اليبوسيون وهم أحد بطون الكنعانيين في القدس وما حولها، واستقر الفينيقيون وهم بطن آخر من الكنعانيين في لبنان وعلى الساحل الشمالي من فلسطين وتفاخروا بامتلاكهم شواطئ المتوسط وتلقب بعضهم بملوك العالم وملوك الأقطار الأربعة.

ويذكر إسرائيل ولفستون (أبو ذئيب) ـ في تاريخ اللغات السامية (مطبعة الاعتماد / القاهرة) ـ وإن كانت الأمانة تنقصه في بعض ما يذكره أحيانًا ـ أن قبائل «معين» كانت تسكن جوف اليمن فنزحت في مرحلة أولى واستوطنت بلدان شمالي الجزيرة العربية حيث أثرت في لغة القبائل الحجازية وأقلامها وفي حضارتها تأثيرًا عظيمًا، ثم عرف أنها تفرقت في الألف الثاني قبل الميلاد، وانتشرت انتشارًا واسع النطاق في جميع أنحاء الحجاز وهضاب طور سيناء إلى مصر، وتفرقت في جنبات وادي النيل بدلالة الكتابات التي اهتدى إليها الباحثون وجاء فيها ذكر لبطون تعرف باسم «معين مصران» تؤيدها نقوش عثر عليها في بلاد اليمن وورد ذكرها في التوراة في أخبار الأيام الأولى باسم «معونيم» وفي أخبار الأيام الثانية باسم «بعل جور»، حيث يذكر أبو ذئيب أنها هي التي تصدت لبني شمعون فمنعتهم من التوغل في أرض الجزيرة ومزقتهم شر ممزق، وقد حافظت الدولة التي شكلها أحد فروعهم في غزة بفلسطين على وجودها حتى جاء الإسكندر، فوقفت في وجهه ما يقرب من ستة أشهر وبعد تدميرها اضطر «معين» إلى الانسحاب إلى طور سيناء.

وثمة أمر آخر لم يعره أحد من الباحثين بعد اهتمامه في سكنى المنطقة العربية، بل ولم يلتفت إليه وهو التسرب ـ إذا صح التعبير ـ الذي يجرى من البادية إلى الحضر بجماعات أو أفراد أو بيوت محدودة تتفرق كأنما هي طلائع وتتخير سكناها غالبًا على حواف المعمور، ففي كل عصر وتاريخ كل دولة من دول هذه المنطقة تسمع بذكر جماعات من البدو تتعامل هذه الدولة معها سلبًا أم إيجابًا ثم يختفي ذكرها وما نلبث أن نسمع بذكر جماعات أخرى غيرها حلت محلها، مما يدل على أن سيل هذه الجماعات لم يكن ينقطع باتجاه العمران، وإنها كانت كلما تأنس ظروفًا مواتية، تستقر وتندمج فيما يليها، ولعل هذا ما يفسر تقدم أو تأخر حدود هذه الدول في البوادي المحيطة بها.

وذلك كان شأن الآشوريين مع «البدو» فقد كانوا يتوغلون في بلاد العرب، أحيانًا كثيرة للسيطرة عليهم في مناطقهم؛ وإذا كان «حائط الأمير»، كما ذكر جان وسيمون لاكوتور، في كتابهما: مصر تتحرك الذي شيد بين مصر وسيناء قد درس ولم تنقطع سيول قطعان البدو عن ورود مياه النيل من هذه الجهات، إلا عندما تكون الحكومات قادرة على السيطرة على سيناء نفسها، بل والامتداد إلى فلسطين، فإن الآشوريين جعلوا قاعدة حكمهم اضطرارا ولا شك في قلب صحراء العرب. ويؤخذ من سجلات الآشوريين أن مواقعهم مع البدو امتدت من «قرقر» شمالي مدينة حماة في سوريا، حيث اشتهرت بالمعركة مع «جندب» أحد مشايخ العرب إلى «أدومو» في شبه الجزيرة التي يسمونها «قلعة العرب» وهي التي تطلق عليها المصادر العربية اسم «دومة الجندل» ولقد «بادت» هذه القبائل الواردة في سجلات الآشوريين و«بادت» تلك الوارد ذكرها في تاريخ المصريين، كما جاء بعدها غيرها هنا وهناك وباد أو الأصح أنه اندس في المعمور واندمج وذاب، ولم تنقطع مع ذلك سيول القبائل، وحتى الآن.



ولا أظن أننا نجد أوضح مسلكًا إلى عمران مصر إلا أن كتابة المؤرخين الغربيين، كثيرًا ما توقعنا في الالتباس وكالعادة تسهل علينا مجاراتهم في آرائهم دون تمحيص، مثلاً كما جرى بشأن الهكسوس والليبيين مع أن أمر البت في أصل هذه الأقوام لا يحتاج إلى عناء كبير إذا حَسنت «النية»، ففي الهكسوس إننا لا نعتقد أن تكهن المؤرخين الآن، باعتبارهم غرباء عن المنطقة، أقرب إلى الصحة من معلومات قدامى المصريين أنفسهم عن الهكسوس: فقدامى المصريين كانوا يعتبرونهم «شيوخ الصحراء الشرقية وقبائل آسيا الجنوبية الغربية» وهذا الاعتبار وحده يحسم الأمر.

والأغرب تشتت المذاهب في أمر «الليبيين» والذهاب إلى احتمال أن

لا فرق بين الأقوام التي عمرت مصر من الشمال عبر سيناء والأقوام التي عمرتها من الجنوب، فكلهم من أصل واحد. الفرق الوحيد ربما أن الأقوام القادمة عبر سيناء كانت أسبق إلى الحضارة كما تدل دراسة مقابر بني حسن، وكانت أكثر عرضة لتدفق سيول الأقوام اللاحقة من الشرق، كما يشير بناء «حائط الأمير» الذي أقيم لصدها عن ورود النيل بقطعانها



يكونوا من أصل أوروبي والوصول إلى التقرير بأن الليبيين بعكس المصريين كانوا يكتبون من الشمال إلى اليمين (رجاء الاطلاع على كتاب الدكتور علي فهمي الخشيم في اللغة). لكن كبير هؤلاء المؤرخين - وهو برستد - سرعان ما يتراجع عن هذا الرأي بعد صفحة واحدة من كتابه الضخم لينقض ما ذهب إليه. إذ يعجز عن أن يبين كيف ركب البحر أو اجتاز المسافات الطويلة عبر أسبانيا إلى ليبيا هذا «العنصر الأوروبي» كما يقال، لينشئ حضارة في ذلك الوقت الذي كانت أوروبا فيه بالكاد مسكونة بعد، ثم يقفز إلى مصر ليحكمها، بينما الإجماع منعقد على أن اتجاه الحضارة، بل والعمران كان يسير من الجنوب إلى الشمال. ثم إذا ببرستد ينبذ في تحليله اللاحق وجود أية روافد بشرية يعتد بها يمكن قدومها إلى وادي النيل من غير باب المندب والبحر الأحمر أو من غير سيناء وصحراء العرب، المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بتلك المعابر. إذ من بين الطرق المؤدية إلى مصر، بقيت سيناء «حتى منذ الأزمان التي كانت فيها الآلهة هي التي تحكم مصر»، كما تشير الميثولوجيا المصرية أهم قنطرة ثابتة مفتوحة دائمًا للهجرات على نحو ما يقرر عباس مصطفى عمار، تقطعها إليها بشكل موجات فردية أو بشكل موجات فردية وجماعات قليلة أو بشكل غزوات كبيرة منظمة، سواء أكان ذلك بدافع الطمع في الثروة أو هربًا من قوة عاتية تدفعها من الخلف. فإننا في جميع الأحوال لا نجد قبيلة في سيناء ليست لها فروع ممتدة ومتفرقة في مصر، كما أننا لا نجد قبائل سيناء قد لملمت نفسها ذات مرة وانكفأت داخل سيناء، قاطعة علاقاتها بأصولها المشرقية، فليدلنا الضالعون في العلم على قبيلة كانت تنحدر من «آدم» مباشرة، نشأت في سيناء ولم تكن أصولها ممتدة ضاربة في الأردن وفي سوريا وفي الحجاز وفي مصر.

وهذا ما يجعل مصر - باستثناءات شاذة - تلتفت بوجهها إلى المشرق إذ أن نظرة إلى الخريطة البشرية توضح لنا أن مصر طوال تاريخها المعروف تنتمي إلى آسيا العربية، أكثر مما تنتمي إلى أفريقيا لأنها على حد قول الدكتور عبد المنعم أبو بكر (الأهرام ٢٩/٩/١٩٦٩)، وهي في موقعها هذا منذ الأزل بينها وبين تجمعات العرب البشرية علاقات حضارة وشيجة، لم تنقطع طوال الزمن، وإنما نمت وتبلورت في مفاهيم جديدة.

مميزات حضارة واحدة:

لم تتوقف الصلات والتفاعلات بين الأقطار العربية ومختلف الأقاليم عند الصلة العرقية الواحدة التي لم يعد هناك موجب للشك فيها؛ وإنما هذه الصلات لم تنقطع أبدًا، بل كانت تتزايد مع الزمن، ففي كتاب ميلاد الحضارة يكتب الدكتور أحمد فخري مستندًا إلى أقوال العلماء (المجلة التاريخية المصرية عدد أول أكتوبر ١٩٥٠ ص٦-١٠) يكتب أنه لكثرة ما شاهده علماء الآثار من تأثير فن العراق في الفن المصري حملهم على القول باحتمال وقوع هجرة بشرية واسعة النطاق من بلاد الرافدين إلى وادي النيل منذ عصر ما قبل الأسرات (العصر الناسي في مصر والسومري في العراق ٥٠٠٠ق.م) فمما عثر عليه من ذلك العصر المبكر أختام أسطوانية، مأخوذة عن الأختام الأسطوانية التي كانت معروفة في العراق من العصر الذي يطلق عليه الآن عصر ما قبل اختراع الكتابة، وكما عثر على ما يشير إلى تأثير العراق في مصر، عثر على ما يشير إلى تأثير مصر في العراق. وينتهي «ول ديورنت» من دراسته إلى القول إنه لم يكن التشابه بين مصر والعراق كالشبه بين قطرتين من الماء فحسب، وإنما كان الشبه كذلك في أثرهما في حضارات بلاد الشام وسيناء وفي التوراة وما جمعه الإسرائيليون وخلفوه من تلك العهود (قصة الحضارة، ج٢ - ترجمة محمد بدران ص ٤٤-٤٥).

ولا غضاضة على مصر في أن يكون العراق قد سبقها، لأنه لم يكن غضاضة على مصر نفسها في أن يبدأ فيها نشوء الحضارة بالدلتا - قبل الجنوب - لولاتها لسيناء وبلاد الشام ولسبقها لجنوب الوادي بالتجمعات السكانية، ثم تنشأ في طيبة فإن الأصول التي استمدتها الحضارة في مصر من أرض دجلة والفرات، سرعان ما نمت وأينعت وأثمرت حضارة بيئة خاصة فذة، راحت تعبر عن المنطقة بأكملها: تعبير الجزء المترع عن الكل - أغنى تعبير، وبلا ريب كان أغنى ما قدمه التاريخ المعروف وأعلاه شأنًا وأرفعه وأعظمه.

وقد التقت حضارتا مصر والعراق في حضارات أخرى من حضارات المنطقة وتداخلتا فيها - فثمة قرائن قوية توحي بوجود صلات بالغة القدم بين حضارات ممالك السبئيين والمعنيين والحضريين والقتبانيين الراقية في الجنوب وحضارة ما بين النهرين، كما كان للأدوميين في المنطقة الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة وبين المؤابيين والعمونيين في شرق الأردن، ثم الأنباط الذين جاءوا بعدهم علاقات بقيت وثيقة بأصولهم في الجنوب، حتى ليكاد يخيل للدارس أنها هي الأقوام التي عمرت سيناء لا ينفصل بعضها عن بعض إلا بالاسم (د. حازم نسيبة - قومية عربية - ترجمة عبد اللطيف شرارة).



إن وحدة العناصر السكانية كانت تنزع بأقطار هذه المنطقة منازع صلات أكثر حميمية، إنها كانت تنزع من التشابه الحضاري والتقارب في الأساطير والعبادات، إلى التشارك في ابتداع وسائل التعبير، فإذا نحن تجاوزنا «المدارس» القديمة في النظر إلى اللغة واعتبرناها كائنًا حيًا يتطور بتطور الإنسان وقدراته العقلية وحاجاته، لا أنها قديمة قدم الله ولا أنها لغة الله ولغة الوحي، كما كان يقال، وكان القصد بهذه وتلك الإنقاص من تأهل العرب بجهدهم وأهليتهم لحمل رسالة الإسلام.

لعل أول من سبق إلى القول بوضع اللغة كان «ابن جني» وإن وضعها لم يكن في وقت واحد، بل على دفعات إذ تلاحق تابع منها بفارط على حد قوله في كتابه «الخصائص»، ثم القاضي عبد الجبار الأسد آبادي في «المغني» الذي دلل على أن اللغات تتطور عضويًا، ثم تلاهما ابن خلدون.

إذا كانت اللغة العربية قد شرفت حقًا بالقرآن الكريم وأن القرآن الكريم قد صادف فيها أغنى اللغات وأغزرها تجربة وأفصحها بيانًا وأقدرها على توفير الإعجاز، إلى آخر ما نعتز بوجوده فيها من صفات، فليس ذلك متأتيًا من أنها كانت قديمة قدم الخليقة، أو كانت لغة آدم في الجنة.. أو.. أو.. وإنما لأنها حصيلة تلك الحضارات القديمة الرائعة التي نشأت في جنبات هذا الوطن وورثة تجاربها، استطاع أهلها بما هيئ لهم من ظروف في وسط تلك الحضارات، أن يصفوها ويقطروها فيرتقوا بها وترتقي بهم، حتى إذا ما آن أوان رد فعلهم على حصار الأمم الغازية لبلادهم من حولهم وتضييق الخناق عليهم في شبه جزيرتهم من الخارج ومحاصرتهم بالعقائد الغريبة من الداخل، عند دوران القرن السادس الميلادي، كانت وكانوا أهلاً لحمل الرسالة إلى العالم.

ولا شك في أن لهجات «محلية» و«إقليمية» عديدة، بل ولا حصر لها للتفاهم وجدت وفقًا للمجتمعات البشرية سبقت تكون اللغة، وراحت الحاجة تزداد إلحاحًا لتحويل رموز «البغمات» المحلية إلى ما يشبه القواعد للتفاهم تيسيرًا للمصالح المتشابكة.

ابتداء توصل قطبا تلك الحضارات: مصر والعراق إلى أسلوب واحد للتعبير بالصور: فسميت الكتابة المصرية بالهيروغليفية وكانت ترسم على أوراق البردي لتوفرها في مصر ومجموع صورها خمسمائة، وسميت العراقية بالمسمارية لأن الصور كانت تحفر على ألواح من الطوب وكان مجموعها ثلاثمائة صورة، ولوول ديورانت رأي لم يقطع به بعد، بانتظار بت المختصين مؤداه أن الكتابة التصويرية التي كان قدماء المصريين يستخدمونها قبل عصر الأسرات، كانت قد انتقلت إلى مصر من العراق مستندًا إلى أنه «كلما رجعنا إلى الوراء في دراسة المصرية القديمة زاد ما نجده فيها من صلات بينها وبين لغات الشرق الأدنى السامية، حتى نكاد نقول إنها لغة واحدة»، وأيا كان من أمر انتشار الكتابة واتجاه انتشارها، فإنها أصبحت متقدمة تمامًا في أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد، وبالكتابة يبدأ التاريخ.

ولقد ظل رجال العلم الحديث أمدًا طويلاً، يرون أن الأبجدية الفينيقية الشهيرة مشتقة مباشرة من الهيروغليفية لما بين البلدين من صلات وثيقة، بلغت قبل أن تقوى جذور الإقليمية حد اعتبار فينيقية امتدادًا للأراضي المصرية، وعلى قلة الآثار الفينيقية المتبقية إلى الآن، فإن الفن الفينيقي يشير إلى تبعيته التامة للفن المصري، وكذا سائر مظاهر الحضارة الفينيقية، ومن ذهاب البعض إلى أن الفينيقيين هم الذين كانوا أول من عمم طريقة الكتابة بالحروف الهجائية، أخذوا أصولها من مصادر مصرية.



ولقد كشفت الحفريات في ناحية بنت جبيل (رأس شمرة) شمالي اللاذقية بسوريا على الساحل الفينيقي عن كتابات اتضح إنها من الأبجدية الأوغاريتية المؤلفة من ثلاثين حرفًا، متأثرة بالهيروغليفية وبالكتابة المسمارية، وقد أوردت جميع الحروف على ترتيب الأبجدية الآرامية المكونة من (٢٢) حرفًا صامتًا، وهي تشكل كذلك إحدى الحلقات المفقودة التي يبحث عنها، ولوحظ أنه استعمل فيها نظامًا أبجديًا على أساس مختلف إذ كتبت الأبجدية بقلم على ألواح الطين. ولذلك اتخذت علامات مسمارية أو إسفينية، مستعينة لا شك بما ابتكره الكنعانيون من تبسيط، كذلك وجدت كتابة بهذا الخط في بيت شمش، وهناك ما يحمل على الظن بأن هذه الكتابة كانت في القرون السابقة، بل ربما كانت هناك بالإضافة إلى هذين النوعين من الكتابة اللذين تم التوصل إليهما في سيناء وفي الساحل اللبناني والسوري أنواع أكثر تعقيدًا استخدمت ولم تصلنا، المهم في ذلك كله هو ظهور هذا الواقع المتشابك بين أطراف عديدة في الآثار المكتشفة التي تشير إلى الإسهام والمشاركة.

واقتبس الآراميون عن الفينيقيين لغتهم، فنمت وانتشرت بانتشار تجارتهم ونفوذهم وبما أدخل عليها وغزت سائر المشرق وحلت فيه محل الهيروغليفية والمسمارية البابلية والأبجدية الفينيقية، ففيما اكتشف منها في تل العمارنة - عاصمة أخناتون - أمنحتب الرابع - تظهر أن الحكام المصريين كانوا يخاطبون أمراء سوريا باللغة الآرامية، ومكتوبة بالخط المسماري أي أن تلك اللغة كانت هي اللغة الدبلوماسية المتعارف عليها في العالم المتحضر حينذاك، وكان هذا العالم لا يعدو الشرق العربي الآن وبلاد فارس، (جون ويلسون: الحضارة المصرية، ترجمة: د. أحمد فخري)، وكانت تلك الكتابات بالخط المسماري الأكادي قبل أن تأخذ الآرامية شكلها الأخير، وقد سهلت بساطة أبجديتها على الجنوب اشتقاق لغتهم مباشرة من الكتابة السينائية التي كان لها على الفينيقيين كذلك فضل تحقيق المرحلة الابتدائية.

بات بحكم الثابت الآن أن تلك «اللغات» التي يجمع المؤرخون مع ذلك، على أنها من عائلة لغوية واحدة، بل ومن أصل واحد، لم تكن في حقيقتها إلا لهجات، ضاع غيرها كثير للغة واحدة لم تكن قد اكتملت بعد، ويرجع ما بين هذه اللهجات من أوجه الخلاف إلى عوامل عديدة مثل الزمن وجغرافية المكان وانعدام الوحدة السياسية والأوضاع الدينية.. إلخ لا إلى الخلاف فى المنشا الجنسي، وهذا ما يدعو الباحث المتعمق إلى القول بأن هذه المناطق عثرت في اللغة العربية بمجئ الإسلام بالقرآن على ضالتها: على اختصار لجهدها فوجدت فيه ما يعبر أحسن تعبير عما تريد فلم تكره على تبني اللسان العربي كما يقال، وإنما تقبلته برضى، كما استقبلت حكم العرب المسلمين.

المقصود الأهم، ليس تقديم دراسة في اللغة وأصول نشأتها، وإنما بعد بيان الأصول العرقية الواحدة لهذه المنطقة، إظهار مشاركتها في تطوير اللهجات التي انتهت إلى اللغة العربية، وأصبحت لغة القرآن، وعليه فاللغة الصفوية، لغة سكان الصفا، الدولة المشهورة التي قامت جنوب سوريا ممتدة من شمال الأردن إلى النمارة - كانت لهجة عربية قريبة من لغة القرآن أو هي عربية الكتابة كما يدل على ذلك أقدم نص يرجع إلى القرن الرابع الميلادي وهو نقش النمارة وهي مرتبطة ارتباطًا عضويًا بجنوب شبه الجزيرة.

وباتساع أثر التجار الآراميين اتسع أثر لغتهم وبانتشار الآراميين انتشرت الأبجدية الفينيقية - الكنعانية لغة واحدة فقط، راحت تنمو وتتقدم وتنتشر بجانب الآرامية حيثما كان في جنبات المنطقة، هي اللغة العربية وذلك مع انسياح العرب المستمر، فقد كانت في بوادي الشام والعراق، في المدن والقرى المتاخمة وعلى الأخص في حمص وقنسرين ووادي الأردن وفي الشام والأنبار والمدائن والموصل والرها ونصيبين.. إلخ. في العراق والجزيرة، هي اللغة الدارجة، كما راحت تنتشر في الشمال الأفريقي وفي مصر، بدلالة مراكز الملاحة العربية المنتشرة في عهد البطالمة ووجود الكتابات العربية في المعابد المصرية.

يخطئ من يظن أن اللغة العربية مجرد أبجدية: حروف ترص وتراكيب تنشأ في بناء أصم، إنما هي كائن حي لا تحمل من المعاني والأفكار التي تعبر عن الأفراد فحسب، بل هي ما يلخص وهي تقوم بهذا الواجب بين الأفراد والشعوب والوجود الحضاري للمجتمع وللأمة، لذلك فإن الباحث في اللغة العربية يجب أن يجد مفتاح فهمها وغناها وسعتها في هذه المجتمعات الحضارية التي انتهت بتطورها عبر العصور إلى إخراج اللغة العربية، فقول بعض الباحثين في تاريخها ممن مس بعض جوانب الحقيقة بهذا القول، بأن قبائل جمة، آرامية وكنعانية وآمورية ومعينية.. إلخ، امتزجت بالـ «عرب» في الجزيرة العربية أو على تخومها وتركت فيهم آثارًا ظاهرة - صبحي الصالح - ليس كل الحقيقة، فالوصول إلى استجماع هذه الحقيقة لا بد من الأخذ بعين الاعتبار إلى جانب تمازج هذه الحضارات، الهجرة السلبية منها، هجرة أقوام من الحضارة إلى البادية، على غرار عودة إبراهيم الخليل من الاستقرار فترة، ثم معاودة الترحال، وعودة قبائل «معين» في العراق مرة إلى حياة البادية وعودة القبائل الليبية بعد أن اجتازت النيل إلى الغرب، إلى أرض مصر مرة ثانية للاستقرار فيها.. إلخ. وتمازج البداوة بالحضارة في جميع مراحل تاريخ هذه الأقوام. ونشوء اللهجات المحلية والإقليمية في كافة هذه المجتمعات الحضارية قبل أن تنفتح بعضها على بعض في الإسلام، فها هنا مصدر سعة التعبير في اللغة العربية وكثرة المفردات وتنوع الدلالات.

كتابة المؤرخين الغربيين، كثيرًا ما توقعنا في الالتباس وكالعادة تسهل علينا مجاراتهم في آرائهم دون تمحيص، مثلاً ما جرى بشأن الهكسوس والليبيين مع أن أمر البت في أصل هذه الأقوام لا يحتاج إلى عناء كبير إذا حَسنت «النية»، ففي الهكسوس لا نعتقد أن تكهن المؤرخين الآن، باعتبارهم غرباء عن المنطقة، أقرب إلى الصحة من معلومات قدامى المصريين أنفسهم عن الهكسوس



الحكم الأجنبي ومحاولات التحرر بالمسيحية العربية

لم تكن هذه المنطقة التي يسكنها العرب الآن ويعيشون على سطحها، غائبة عن الصراع الطويل الذي نشب في العصور القديمة بين الشرق ممثلاً في الفرس حينئذ والغرب ممثلاً في اليونان والرومان، الذي أدى بكورش Xerkes أن يصل إلى محاربة الغرب في عقر داره، في ماراثون وإلى أن يرد الغرب الكيل كيلين فيجتاز البحار إلى احتلال الشرق، الذي كان يتمثل في المنطقة العربية وما وراءها، وإنما كان الصراع في حقيقته وجوهره هو عليها وبالذات على الطرق التي تخرج منها أو تؤدي إليها جالبة سلسبيل الحياة إلى المجتمعات البشرية.

ولقد أدى هذا الصراع إلى تناوب السيطرة على هذه المنطقة التي يسكنها العرب ومع أنه ما كان في قدرة هذا الحكم الأجنبي أن يتغلغل ويغير من طبيعة الشعب إذ بقي طيلة وجوده لم يتعد بعض الثغور والبؤر، «محاصرًا» لا حاكمًا، فالإسكندرية وإن بقيت عاصمة البلاد إلا أن اسمها أصبح Polis، الحاضرة وأصبح الوادي هو الريف Chorix وكان مغزى هذا الثنائي ازدهار الحضارة المصرية من خلال معاملتها في معابد إدفو وإسنا وفيلة وطيبة ودندرة، حيث كان وراء نشاط المعماريين والرسامين في زخرفة المعابد ونقش الأساطير الكونية وعلاقتها بمصير الإنسان على الأرض، اعتزاز واضح بخلود مصر من خلال أن الاعتقاد بتخليد هذه الطقوس على الحجارة الضخمة وهو أقوى مواد الكتابة، سيجعلها تخلد لأن خلودها خلود لمصر وللكون بأسره.

ويذكر هيرودوت ما يؤكد على امتناع المصري عن الاندماج ، إذ كان ينفر من الإغريقي ويعاف تقبيله كالعادة عند التحية، كما يرفض أن يستخدم سكينًا أو مقلاة أو مرجلاً صاحبه إغريقي، وحرم على المصريين تذوق لحم العجل المذبوح بسكين إغريقية، وقد ظلت المعابد طوال تاريخها قلاع المقاومة ضد الغزاة وكانت مراكز الثقافة الوطنية، وقد حظر دخولها على غير المصريين. وإذا ارتاب الكهنة في أن يتوصل الأجانب إلى معرفة سر السحر المصري المنقوش على حوائط المعابد ويبطلوا مفعوله، لجأوا إلى تحويل الكتابة المصرية إلى طلاسم ورموز ذات شفرة خاصة لا يعرفها سوى خاصة الخاصة من الكهنة.

ولم تختلف طبيعة الحكم الروماني إلا في أن مدته كانت أطول وأنه كان أشد صلفا وأكثر عنتًا، فمن المعروف أن علية القوم من أهل المدن في بلاد الرومان نفسها كانت تنفرد بحقوق لا يتمتع بها عامتها ولا يرقى إليها أهل الريف فيها، فما بالك بأهل المدن وبأهل الريف في البلدان الأجنبية التي فتحت بحد السيف، إذ لم يكن من حق الشعوب الأخرى أن تنال من الاعتبار إلا بمقدار علاقتها بالتاريخ الروماني على حد تعبير البان ويدجري، من هنا كان لا بد للإدارة الحاكمة في المقاطعات الخاضعة للحكم الروماني من أن تكون منفصلة تمامًا عن الشعب المحكوم، ولم تكن القوانين التي فتحت الأبواب لتسرب عناصر عربية إلى الحكم في أواخر الحكم الروماني، بهدف تحرير الشعوب العربية بمقدار ما كانت دليلاً على تنازلات الحكم الروماني نفسه، فما لبثت السلطة المركزية أن تفككت وإذا بدوقيات مصر الخمسة تستقل الواحدة عن الأخرى بحكومتها وحاميتها، تجهل الواحدة منها ما تفعله الأخرى حتى دخل العرب المسلمون الإسكندرية.

هكذا يمكن القول بأن «المسيحية» الأولى كانت مسيحية عربية، لم يشرف القرن الثالث من تاريخها على نهايته، حتى كانت لها مراكز ثابتة ينتشر منها المبشرون إلى من جاورهم من الأمم في الشمال الغربي من سوريا وفي الشمال الشرقي من العراق وفي الغرب والجنوب من الحبشة، فمن بيت المقدس ومن دمشق ومن أنطاكية ومن الرها انطلق المبشرون إلى حيث العرب، أي إلى حيث مركز القبائل، وحينئذ كما يؤكد د. أسد رستم.ويأخذ عنه د. عباس مصطفى عمار، بدأت تطرق الأسماع أخبار أساقفة بصرى وتدمر.. إلخ. ولم يشعر معتنقو هذا الدين الجديد بشيء من الطمأنينة على دينهم إلا حين انتشرت الكنائس في بلاد العرب الصخرية وقام فيها كرسي ديني عرف بكرسي فلسطين الثالثة امتدت فروعه إلى آيلة وفاران وجبل سيناء وغيرها Palestine Tertur.

كانت رغبة شعوب المنطقة في «الخلاص من الحكم الأجنبي» ظاهرة بكيفية أو بأخرى، وظهور «المسيحية» وانتشارها شكل مرحلة جديدة في تبلور واشتداد نزعة التحرر من خلالها، فقد عثرت فيها هذه الشعوب على طريق الخلاص، وفي هذا اختلفت شعوب شرقي البحر الأبيض المتوسط وجنوبه عن الشعوب غربه وشماله لأسباب عديدة. فكان أن تولدت عوامل الحرص على وحدة الإمبراطورية، وهي وإن بدت بطيئة ولكنها كانت فعالة في تحول القياصرة، وبالنتيجة إلى اعتناق الدين الجديد وحرف تجاهه، إذ مهما حيك من قصص حول اعتناق قسطنطين للمسيحية، فإنها كانت محض أساطير. فشتان ما بين الإيمان بمرسوم كما يجري في الغرب والإيمان العفوي في الشرق للتوافق بين آفاق الدين الجديد والأماني الدفينة التي يغذيها الإنسان في دخائله للخلاص من وضع مهان فيه والانتقال إلى وضع أفضل، كما كان الحال حينئذ بين الغرب الحاكم والشرق المحكوم.

فماذا يهم الإنسان غير ما هو فيه، فإن ذهب به همه إلى أبعد: إلى الجنة أو جهنم فإنما هو ناجم عما هو فيه ودواء له، فلم يكن تعطش ذلك العالم الذي ولدت فيه المسيحية إلى القوة الروحية ناجما من فراغ، وكانت خشية الإمبراطورية الرومانية من هذه القوة الروحية دافعها إلى الاضطهاد لإيقاف الانسياق إلى التحرر بالمسيحية. ومن هنا جاء المجمع النيقي الأول (٣٢٥م) لتلافي هذا «التحرر» في الانسياق الماضي فيه، الذي كان سيؤدي إلى انفراط الامبراطورية إلى اتجاهين، لذلك عاد الامبراطور قسطنطين بإيمانه وقد عاد يجمع في يديه كل السلطة في العالم الروماني شرقه وغربه - بعد أن قسمه إلى إدارتين - يحشد جميع القوى السياسية والدينية في مجمع نيقيا المسكوني لإعطاء الإمبراطورية المهددة بالانهيار، وبالتالي المهددة بانعتاق جزئها الشرقي من نيرها، دعمًا بوحدة أيديولوجية، فكان لا بد لذلك من تغليب المفهوم التقليدي الملكي عن «الرب المعذب» على ذلك المفهوم المنطلق من النظر إلى يسوع المسيح على أنه رسول وكانت تمثل هذه النظرة الإسكندرية وعلى رأسها «أريوس» الليبي الأصل، ومن ورائه «المنطقة العربية».

من هنا، من مجمع نيقيا، تبدأ حقبة الاضطهاد الثانية في تاريخ المسيحية، وهي الحقبة التي تشتد فيها محاربة الدولة والكنيسة الرسمية (التابعة لها) لمسيحية الشرق لإعادتها إلى عقيدة الغرب، باعتبار أن المسيحية أصبحت عقيدة الدولة، ولكن بتفسيرها الخاص لها:اليوناني - الروماني - وليس بعقلية اعتناق المناطق الشرقية لها، وبدت ملامح الانشقاق واضحة بين العقليتين وبين المفهومين، إلا أنه على الرغم من تمسك هذه المناطق بثقافاتها وبهويتها المتميزة عن المحتل رغم جبروته، وبدينها قبل ظهور المسيحية، ثم بعد ظهورها بتمسكها العنيد بتفسيرها الخاص لها المتميز الأكثر إنسانية وتحملها الاضطهاد والتشرد في مرحلتي تاريخها قبل صدور مرسوم ميلانو ٣١٢، وهو المرسوم الذي جعل المسيحية دين الدولة وقنن الاضطهاد لفرضها وتعميمها، على الرغم من توفر

خصائص التفرد، هذه كلها لم تتوصل هذه المناطق التى يكاد ينظمها نزوع واحد للتحرر من الحكم الأجنبى إلى الاستقلال عنه، ولئن كان مجمع خلقيدونيا عام ٤٥١م الذى انقسمت بعده المسيحية نهائيًا فصارت مسيحيتين، يدل على شىء بذلك، فإنما يدل على استعصاء هذه المناطق الشرقية التى انفصلت بدينها عن روما، على الاندماج مع أنها أحق بزعامة المسيحية، لكن الثابت فى التاريخ أن الزعامة الدينية لابد من أن تظللها قيادة مدنية سياسية لتمكن لها.



المعروف أنه عندما أصبحت كنيستا أنطاكية والإسكندرية صاحبتى العقيدة المركزية، أى منذ تأسيسهما حتى مجمع خلقيدونيا عام ٤٥١م، قد حصلتا على «صلاحيات الإدارة الذاتية والمستقلة» وعندما اعترفت الدولة على تملك أهل مصر للأراضى، أخذت الكنيسة فيها والأديرة تضيف باستمرار إلى ممتلكاتها وأصبحت أقاليم بكاملها تخضع لسلطانها (أبو سيف يوسف، وجاك تاجر)، كما أصبح للبطاركة والأساقفة سلطات مدنية، بل وكانت لهم سلطات قضائية، وتوطد نفوذهم ليمارسوا حق الإشراف على الإدارة الحكومية، ولم يجئ القرن السادس حتى صارت الكنيسة المصرية تعد أكبر الملاك، تتمتع بحق الجباية الذاتية وحق الحماية الذى حرم منه كبار الملاك، على ما تؤكد نفس المصادر، وكانت الكنيسة المصرية بلغت ذروة نفوذها فى عهد البطريرك ديستوريس الذى قيل إنه كان «سيد البلاد المطلق» (صبحى وحيدة) وكان ينسب إليه، كما يذكر جاك تاجر قوله: «إن البلاد لى بأكثر مما هى للأباطرة، وإننى أطالب بالسيادة على مصر» وهو كلام غير مستغرب، لأن تقدير عدد أتباعه فى رأى أبو سيف يوسف بكتابه (الأقباط والقومية العربية) كان ستة ملايين على عقيدة واحدة مقابل مائتى ألف، إذ يؤخذ من كتاب أميلينو عن حياة شنودة أن عوامل الاستقلال كانت آخذة فى التوافر فإن عوامل استقلال إقليم أخميم كان يتجلى فى عجز الدولة والإمبراطور عن الوقوف فى وجه المد «العربى» وهجمات القبائل البدوية.

ولا أظن أننا نسقط على حركة «الرهبنة» التى نشأت وتفاقمت «نزوعًا» إلى الاستقلالية عن روما لم يكن فيها، فمما لا شك فيه أنه كانت لحركة الرهبنة التى انطلقت من مصر جذور تاريخية فى حياة المنطقة لم يكن الحكم الرومانى وهيمنته بعيدين عنها، بل تسلطه واستبداده، يلاحظ هذا بوضوح من طبيعة وظروف الأقاليم التى انتشرت فيها: كان أهمها الإقليم الطيبى فى الصعيد وفى الصحراء الشرقية، فى حماية القبائل، وما لبثت ـ إذ اتسع نطاقها ـ أن تحولت إلى حركة جماهير معظمها من الفلاحين الهاربين من قراهم، طابعها المميز خضوعها لنظام موحد، يعكس النظم الإدارية والعسكرية إلى حد بعيد، يشمل أديرة عديدة من الصعيد الأعلى، ثم انتشرت هذه الأديرة فى طول البلاد وعرضها من أعالى الصعيد إلى شمالى مصر عند وادى النطرون، ومما يلفت النظر فى هذه الحركة نظام «رهبان الشركة» الذى كانت المعيشة فيه «بمقتضى حياة جمعية».

فمن منظار الحكم الرومانى المسيطر المستبد من جهة ومن منظار الأهالى من جهة أخرى إذا لم يكن فى هذه الحركة سمات للتحرر والانعتاق، فماذا يكون إذن؟

وبالتأكيد، لم تكن «الحركة الديرية» حركة تصوف منقطعة، منعزلة عما يجرى حولها، فإننا نراها إبان احتدام صراع بطاركة الإسكندرية ضد المذهب الرسمى للدولة تشكل فرقًا منظمة من وادى النطرون ومريوط تظهر فى مدينة الإسكندرية لتساندهم، كما شهدت البلاد «ألوية شنودة الأخميمى تنطلق من الإقليم الطيبى لتمحو آثار الوثنية.

ظل رجال العلم الحديث أمدًا طويلًا، يرون أن الأبجدية الفينيقية مشتقة مباشرة من الهيروغليفية لما بين البلدين من صلات وثيقة، بلغت قبل أن تقوى جذور الإقليمية حد اعتبار فينيقية امتدادًا للأراضى المصرية، وعلى قلة الآثار الفينيقية المتبقية إلى الآن، فإن الفن الفينيقى يشير إلى تبعيته التامة للفن المصرى، وكذا سائر مظاهر الحضارة الفينيقية



من هنا يجىء السؤال: لماذا إذن والحالة هذه لم تتحرك المنطقة للاستقلال والتحرر من الحكم الأجنبى؟

ما دامت البلاد قد أخذت تشهد بالتأكيد «مرحلة تحطيم البنى الإقليمية، وتلاشى المعتقدات المحلية وموت آلهتها، وانفتاح الواحات الحضارية بعضها على بعض، وكأنها تتهيأ.

لا شك أنها مرحلة تستحق الدراسة، وما أكثر ما يستحق الدراسة فى بلادنا!

ظهور الجيل العربى

بدأ ذكر العرب، كجيل جديد من سكان هذه المنطقة الممتدة من «الخليج إلى المحيط» التى تعددت أسماؤها بعد أن أخذ يتردد فى عدد من النصوص فى سجلات ملوك الآشوريين التى بدأت تصف بعض الشخصيات بأنهم «عرب» أو أنهم ملوك أو ملكات على «بلاد العرب» ـ بدون تحديد المدى لمفهوم بلاد العرب، وجاء أوله بمناسبة معركة «قرقر» التى جرت بين شلمناصر الثالث (حكم من ٨٦٠ إلى ٨٢٥ ق.م فى العراق) وبين ملك دمشق الآرامى وحلفائه، وكان أحدهم «جندب»، أحد مشايخ العرب، وأكمل نص لسجل هذه المعركة ما أورده الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى (العرب فى العصور القديمة ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة) هو: «قرقر عاصمة المملكة أنا خربتها، أنا دمرتها، أنا حرقتها بالنار، ١٢٠٠ مركبة، ١٠,٠٠٠ جمل لجندب العربى، هؤلاء تألبوا علىّ».

ثم يتوالى ذكر الحروب مع العرب وقبائل العرب فى سجلات الآشوريين طوال ثلاثة قرون تقريبًا حتى عهد نبوخذ نصر أو بختنصر، كما فى الكتب العربية، يرد فيها اسم عدد من القبائل البائدة مثل غبادير وثمود والقبائل الباقية مثل تيم، وتمتد غزوات ملوك الآشوريين لهذه القبائل إلى سيناء وأحيانًا إلى الاصطدام بفرعون مصر، وتوغل البابليون فى شبه الجزيرة العربية وأخضعوا واحة «أدومو» التى عرفت فيما بعد بواحة دومة الجندل ظنًا منهم أنها معقل العرب وبإخضاعها يكونون قد أخضعوا العرب، ولكن برزت لهم أيام الدولة البابلية الحديثة، واحة تيماء اضطرت الملك نابونيد أن يقيم فيها فترة حكمه، ويبدو أن قبيلة تيم الشهيرة هى التى كانت تملكها.



وقد اختلف الرأى فى أصل هذه التسمية: عرب وعربى وعروبة، كما اختلفت الآراء فى نطقها فى بداية ما نعرف من انتشارها، فقيل إنها كانت تعنى «أربى» وكانت فى لغة الآشوريين غرب، أى تعنى اتجاهًا جغرافيًا، كما قرئت «أروب» و«أربى» و«عربى»..إلخ، وعلى أية حال فالرأى السائد بين العلماء أن تلك اللفظة أو العبارة الواردة لأول مرة فى أخبار تلك الحملات التى كان يقوم بها ملوك الآشوريين على ما حولهم من البوادى فى القرن التاسع ق.م ـ إلى أن يكتشف غيرها ـ أيا كان نطقها، كانت تعنى البدو من ساكنى الأطراف الشمالية للجزيرة العربية (بادية السماوة وشبه جزيرة سيناء وشمالى الجزيرة العربية)، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم اليونانيون بادئ ذى بدء اسم سراكيونى Sarakenai، على ما يذكر مكسيم رودنسون فى كتابه (محمد: طبعة دى سوى) وأطلق عليهم فى اللاتينية Saracini، أى الذين يعيشون فى الخيام، اشتقاقًا من كلمة Skene وتعنى خيمة، والمقصود «بيت الشعر».

والملاحظ أن هذه الصفة كانت تختلف فى بدايات إطلاقها باختلاف اللغات واللهجات التى تصفها من مواقع الحضارات التى تحيط بالمنطقة والتى بدأت تتعامل معها.

فإذا نحن نحينا جانبًا الأساطير التى روجت حول الإسكندر تمهيدًا لفتوحاته فى الشرق بأنه فى الحقيقة ابن الإله آمون رع وليس من صلب فيليب المقدونى، كما يقول مؤرخه كاليثينس Callisthines (مصر وعالم البحر المتوسط: إعداد وتقديم د. رءوف عباس) أو ما تطرق إليه د. جواد على من ترويج الشائعات بأن أصل اليونان من العرب، فإن أول احتكاك جدى كان بين اليونان وهؤلاء العرب هو عندما تصدى زعيم عربى لجيوش الإسكندر فى غزة ليصدها عن المضى فى طريقها لاحتلال مصر، وإعاقتها مدة ستة شهور بتحالف مع جيوش عربية أخرى من سيناء اضطرت الإسكندر إلى نصب آلات القتال فأحرقتها وأرغمت المقدونيين المتحصنين على التراجع وأوشك جيش الإسكندر على الهزيمة لولا المدد، وتسمى المصادر الأجنبية زعيم هذا الصمود باسم باتس Batis لعله باطش بالعربية، وقد علل الدكتور فيليب حتى وهو يحمل ما كتبه هيرودوت وبيلينوس وغيرهما من الكلاسيكيين عدم ذكر هذه الأقوام الآهلة للأقسام الشرقية من مصر والمتصلة بطور سيناء بصفة «عرب» بأن كلمة عرب لم تكن تعرف بعد، علمًا على فئة متميزة، فعدم ورودها لا يمكن أن يكون لعدم الاتصال لأن هذا الاتصال كان طبيعيًا يجرى مجراه منذ القدم، بل لأن قدماء المصريين كانوا يصفونهم بكلمة «عمو» Ammou التى تعنى عندهم معنى «عرب» أى بدوى وآسيوى.

لعل المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) هو الوحيد الذى أشار إلى علاقة شبه الجزيرة العربية بمنطقة الحضارات المحيطة بها بجملة مقتضبة وإن كانت معبرة قال: «إن أمة واحدة سكنت العراق والشام والجزيرة الفراتية والجزيرة العربية، وإن الشعوب الآشورية والآرامية هى فروع أمة واحدة (الكلدانية) وأن لسانها كان واحدًا، إلا أن بلوغ ذلك المستوى الرفيع من الرقى والتقدم بتماسك شخصية الفرد، والفصاحة والبلاغة فى الشعر والحكمة، مما أقر الإسلام الأخذ به ولم ينبذه، يبقى بدون تفسير كاف مقنع حتى الآن.

من هنا ذهب قائلون فى تفسير هذا الرقى البالغ المعجز فى «لغة العرب»، التى هى أساس رقيهم، أنها «لغة قديمة قدم الله» أو قدم الخليقة وأن آدم كان يتكلمها، أو أنها كانت على الأصح لغته، حتى لقد نسبوا إليه شعرًا حفظه العرب وتناقله الناس، هزئ به المعرى بسخريته اللاذعة فى رسالة الغفران وهو يصف بصورة رائعة آدم بين الجنة والأرض، وأيا كان حسن النوايا الدافع إلى هذا الكلام فإن المقصود كان هو التقليل من جهد العرب للوصول إلى مستوى حمل رسالة الإسلام كدين تميز إلهه بالرحمة والعدل ومقت الظلم والحقد.



حقيقة كان ظهور العرب على ذلك النحو المعجز بدون تعليل إنسانى فى ذلك الزمن، إلا إرادة السماء مدعاة للإذهال لدى الذين لم يفطنوا لحكمة التطور فى الكون. فظهورهم فجاة هكذا فى التاريخ، وعلى نحو يكاد يظهر أنهم فى أوج مراحل تطورهم كان مثار الكثير من الاجتهادات والتفسيرات الغربية. نختار من بينها مثالين: أحدهما من بلاد الشام والآخر من أرض الكنانة، يدلان ـ عند غياب العلم ـ على ألا فرق بين تعليل يساق منذ أربعة عشر عامًا وتعليل فى القرن العشرين، ففى دمشق كان أحد أبرز القادة القوميين يفسر أعجوبة نهضة العرب الجاهليين بأن الفارق بين العرب والأمم الأخرى أن العرب ولدوا أطفالًا بكامل أسنانهم ولا يلفت أنظار تلاميذه إلى الأثر المتبادل بين هؤلاء العرب والحضارات المحيطة التى كانت لا تزال مدفونة، ولم يكن ـ فى دراساته العليا فى السوربون بباريس ـ يهتم إلا بما كان حينئذ مفتونًا به: الحضارة اليونانية. وعندما صارت الحضارات العربية القديمة تنبش ويكتب عنها كان ذهنه قد أصبح عصيًا على القراءة، وأغرب من هذا ما طالعنا به فى مصر الدكتور لويس عوض فى كتابه فقه اللغة، إذ تساءل من هم العرب وما موقعهم من

يخطئ من يظن أن اللغة العربية مجرد أبجدية، حروف ترص وتراكيب تنشأ فى بناء أصم، إنما هى كائن حى لا تحمل من المعانى والأفكار التى تعبر عن الأفراد فحسب، بل هى ما يلخص وهى تقوم بهذا الواجب بين الأفراد والشعوب والوجود الحضارى للمجتمع وللأمة، لذلك فإن الباحث فى اللغة العربية يجب أن يجد مفتاح فهمها وغناها وسعتها فى هذه المجتمعات الحضارية



الحضارات حولهم فى مصر والعراق، وانتهى من تحليله المسهب إلى أن ثمة مخزنا بشريا عظيما خرج منه عديد من أقوام منطقة الشرق القديم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، كانت المنطقة المحيطة ببحر قزوين من ميديا عبر جبال القوقاز حتى البحر الأسود، وآخر هذه الموجات كانت الموجة العربية التى وفدت إلى شبه الجزيرة على المستوى الجماعى فى الشرق القديم (مقدمة فى فقه اللغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٣٠)، ولم يذكر كيف تقدموا ولا كيف تيسر لهم الانتشار وهيئ لهم ذلك الرقى، ولا علاقة للغتهم بماضيهم ذاك! وبما وبمن حولهم.

فمن يقرأ المقريزى فى كتابه: «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب». أو كتاب الدكتور عباس مصطفى عمار: «المدخل الشرقى لمصر»، أو كتاب أحمد لطفى السيد (باشا) الملقب بأستاذ الجيل الذى توقف فيه عند نهاية جزئه الأول لأمر لازال مجهولاً، يلاحظ أنهم فى تاريخهم للقبائل البدوية العربية التى عنوا بها لم ينطلقوا من فراغ ومن أن أرض مصر كانت قبلها خالية، كما أراد بعض المؤرخين حينما اعتبروا أول قدوم للقبائل العربية إلى مصر إنما كان بطلب من ولاة مصر المسلمين، فالبدو فى مصر كما فى جميع أمصار الوطن العربى، أصل الحضر يشهد بذلك، كما يقول لطفى السيد فى كتابه «العليقات» التدقيق فى نسب أهل الأمصار فإنك تجد أوليتهم من جانب المصر وبواديه وأنهم أيسروا فبنوا الدور والقصور ولهذا نجد التمدن غاية يسعى وراءها البدوى وكذلك رائد القبائل البدوية كلها ولا يختلف هذا عن رأى ابن خلدون.

كانت طلائع هذا «الجيل العربى» فى المشرق أوضح وأكثر رسوخًا بسعة الانتشار وكثرة تأسيس الإمارات والممالك، فمنذ القرن الرابع قبل الميلاد أصبح العرب الأنباط الذين لا يعرف على وجه الدقة متى تقدموا من الجنوب يهيمنون على الطرق التجارية بين مصر والشام والجزيرة العربية وجنوب الجزيرة، وفى مستقرهم الجديد ظلوا كعادة الذين يؤسسون الإمارات والممالك من القبائل، أهل إبل وماشية معًا أى مهيئين للتنقل، وفى القرنين الأخيرين قبل الميلاد صارت مملكتهم هى المتنفذة فى فلسطين الجنوبية وفى الأقسام الشمالية من الحجاز وبين النبط وحكومة «سبأ وذى زيدان» إمارات ومشيخات.

وعلى كل، منذ بداية التاريخ الميلادى على الأقل، صار المرء أينما سرح نظرة فى بلاد الشام وسيناء وأطراف مصر والعراق بامتداد شبه الجزيرة العربية، إلى قوس جبال طوروس الشاهقة فى الشمال، حيث ديار بكر، نجد قبائل عربية تفترش البوادى وجيوبها فى المعمور، تتنقل فى رحلتين دائمتين بين مصايفها ومشاتيها مرتبطة بمراكز مشيخاتها وإماراتها أو ممالكها الثابتة فيما يشبه رحلتى الشتاء والصيف لقريش اللتين يبدو أنهما خالدتان فى حياة البدو الرحل (د. فكتور سحاب: إيلاف قريش، رحلة الشتاء والصيف، المركز الثقافى العربى - بيروت)، وهما رحلتان خالدتان فى حياة البدوى العربى بشكل أو آخر، فإننا نرى الأمراء السعوديين الآن، رغم بعد الزمن ببعضهم على انطلاقهم من حياة البداوة بين الدرعية موطنهم فى السعودية وديار حمص، ديار رحلتهم فى الصيف، لا يزالون يحنون إلى مناخ الصحراء فيرتحلون كل عام.

ويذكر أن قبائل العرب فى بلاد الشام وما بين النهرين، راحت فى عام «الوفود» ترسل وفودها إلى المدينة، وليس من شك فى أن قبائل مصر فعلت فعلها، إن لم تذكر - وقد أسلم بعضها مثل بنى التمر وقضاعة وكان منها من يفترش أرض مصر لورود ذكرها فى استقبال عمرو بن العاص، وبعضها لم يسلم فظل على نصرانيته، وكان أحد وفود بنى تغلب لا يزال على وثنيته فاعتنق الدين الإسلامى، وقد عقد النبى مع المسيحيين منهم معاهدة سمح لهم فيها بالاحتفاظ بدينهم (الوثائق السياسية جمع محمد حميد الله، دار النفائس بيروت)، ويظن أن ما شرط فيها من عدم تعميد أبنائها كان من اقتراح أسر «تغلب» نفسها، فى حين أن د. خليل عبد الكريم فى كتابه «دولة يثرب» - دار سينا، يرى أنه ترك للأبناء حريتهم فى الاختيار، وعلى كل فمن المعروف أن المسيحية استمرت طويلاً فى هذه القبيلة، رغم ولائها للدولة وللإسلام، وكان شاعرها أشهر ثانى اثنين من شعراء عهد بنى أمية كله، وقد حرم الخليفة عمر ومن جاء بعده استخدام أية وسيلة من وسائل الضغط عليها لفضل ما قدمته فى حروبها إلى جانب الإسلام، ومشهور هو فتاها ببسالته ونخوته الذى شق صفوف المقاتلين فى حرب الإسلام بفارس قاصدًا المرزبان وعاد شاهرًا سيفه يثير حمية الفرسان وهو ينادى: أنا قتلت المرزبان!

لذلك فإن الجزية التى كانت تفرض مقابل الحماية، كانت قبيلة تغلب تدفعها باسم صدقة أو زكاة لا باسم جزية، وقد جرى الأمر على هذا النحو مع قبائل أخرى كقبيلة الجراجمة (بجوار أنطاكية) وغيرها من القبائل التى كانت تقيم شمال بلاد فارس، ولابد أنه كانت لدى الخليفة عمر أسباب شبيهة منها اشتراك المصريين فى صفوف المسلمين وراء أمره بمعاملة البلدان التى فتحت صلحًا.

إن المخطوطات التى عثر عليها مؤخرًا فى شرق الأردن تدل على أن معظم السكان كانوا من العرب المرتحلين، مستعدين أن يعتنقوا وحدانية الإسلام الخالصة، الإسلام الذى يرى أن إبراهيم وموسى وعيسى كغيرهم من الأنبياء هم رسل الله، وهم أنبياء مبشرون بالإسلام، مرهصون بخبره، فها هنا مفتاح الإجابة عن التساؤل الكبير الذى يدور فى أذهان المؤرخين حول تقرير بلاد الشام فى معركة واحدة (اليرموك - ٢٠ آب / أغسطس ٦٣٦م / أوائل رجب ١٥ هجرية)، التى وجد فيها المحتل الإغريقى نفسه وحيدًا وقد انفض عنه الشعب كله بعد أن انسحب النصارى العرب منه وتمرد النصارى الأرمن، فانسحب الجيش البيزنطى ووصلت الجيوش الإسلامية إلى دمشق دون قتال، كما تقرر مصير العراق وما بين النهرين فى معركة «القادسية» ومصير مصر فى معركة واحدة، فقد آل التطور بمفاهيم الدين والنظرة إلى الحياة والكون إلى ما يشبه التلاؤم مع شبه الجزيرة.

ففى ذلك، ابتداءً كما يقول روجيه جارودى فى (فلسطين أرض الرسالات) يكون مفتاح فهمنا لوصول الجيوش العربية - الإسلامية بتلك السرعة الخاطفة إلى سفوح جبال طوروس، حدود التماس بين المد من داخل المنطقة العربية وموجات الأقوام الأخرى، لا فى الاستبداد القمعى الذى مارسه الأباطرة البيزنطيون فأيدوا به الكنيسة الرسمية فى اضطهادها للكنيسة الشرقية، كما يحلو تصويره فى نظر بعض المؤرخين، لا ولا أيضًا بسبب ما راج على أثر نظرية «هنتنجتون» أن القحط والجفاف والفقر والطمع فى ثروات الحضارات.. إلخ كانت وراء استبسال الجيوش العربية - الإسلامية - فتلك نظرية سقطت وبار الأخذ بها (كتابنا الجامعى: تاريخ العالم الثالث - جامعة دمشق ١٩٨١-١٩٨٢)، وكما ثبت زيف مقولات العصور الوسطى، وبخاصة التى صدرت عن «كاثوليكية» أسبانيا المعادية للعرب من مسلمين ومتنصرة التى تمخضت عن محاكم التفتيش وافتراءاتها. ومع ذلك لا نزال نجد بين ظهرانينا ممن يفترض أنهم أقرب إلى تفهم حقائق التاريخ العربى يأخذون بمثل تلك الآراء والمقولات المستهجنة، فيعتبرون أن دافع تلك السرعة الخاطفة كان «استبسالاً من بدو أو شبه بدو للفوز بالغنائم السمينة والفيوء الضخمة التى نهبت من المستعمرات، كذا (خليل عبد الكريم: دولة يثرب، بصائر فى عالم الوفود، دار سينا - القاهرة)، وهو فى كتابه هذا عندما يتعرض للـ«فتوح» يسميها: «فتوح النهب والاستيلاء والاستيطان والاستعمار التى ابتليت بها الشعوب المجاورة» (كذا)، بل والأغرب أننا لا نزال نجد بين ظهرانينا حتى الآن - رغم ما تكشف من الحقائق وبدد من الزيف الذى غلفت به حياة العرب فى «الجاهلية» لطمس مستواهم والتقليل من شأنهم والازراء بدورهم، وذلك بقصد إعلاء مستوى البلدان المجاورة، نرى من لا يزال يردد مقولات العصور الوسطى فى أوروبا، بل ما يتضمن أشد ظلامية منها.

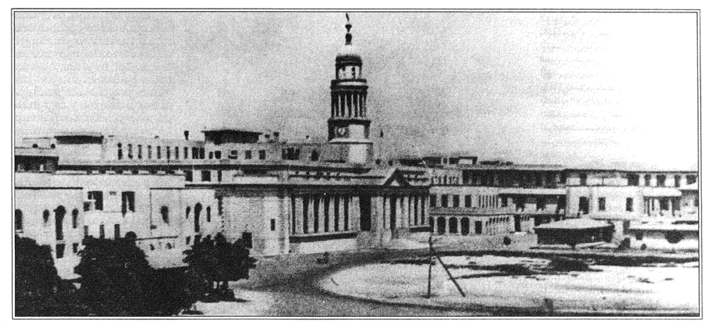
وقد راق للبلاذرى أن يرى فى سرعة وصول الجيوش العربية الإسلامية إلى جبال طوروس «فتحًا سهلاً» فى حين أنه ما كان فتحًا سهلاً ولا انتصارًا حربيًا وإنما كان تحريرًا. وهو ما قرره البطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق من أنه السبب فى «إطلاق نصارى بلاد الشام على عمر بن الخطاب بلسانهم السريانى لقب «فاروق»، ومعناه المحرر المنقذ، وما كان من تقليس المقلسين بين يدى أمراء الجند المسلمين وفى استقبالهم عندما يمرون بمدنهم وقراهم فى حمص وفى معرة النعمان وفى شيزر.

وكان هذا هو الشأن فى العراق ومصر. فقد كان أبو بكر يقارن العقيدة التى يدين بها عرب العراق النصارى فيجدها أقرب إلى الإسلام منها إلى نصرانية الرومان التى أراد هرقل فرضها، وكذلك كانت عقيدة قبط مصر (أبو سيف يوسف: الأقباط والقومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص٣٢) فهم يؤمنون بما جاء فى القرآن عن السيد المسيح عيسى بن مريم ويرون كما يرى المسلمون أن من الكفر القول بأنه إله أو بأنه ثالث ثلاثة آلهة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾. فقد أرسل الخليفة أبو بكر وعمر إلى أمراء الجيوش أن يحسنوا عرض الإسلام على الناس ولا يطمعوا أو يفرحوا بأموال الجزية ويذكروهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (عبد الرحمن الشرقاوى، الصديق أول الخلفاء - الأهرام ١٢/٨/١٩٨٧).

بالنظر لما بدا لنا مما تقدم من مدى انتشار هؤلاء العرب وامتداد الموجة بهم فى أطراف شبه الجزيرة فأصبحوا فى «سلع» على منطقة تمتد من فلسطين وعبورًا فى طور سيناء حتى مشارف النيل فى مصر، متوسعين فى بلاد الشام حتى الرافدين، وإذا كان بنو حفنة الذين عرفوا باسم الغساسنة قد اتخذوا حوران كلها والجولان وشرق الأردن وباديتها إلى باب الجابية فى دمشق، منازل مستقرة لهم وافترشوا ما يتداخل من البوادى حتى حدود اللخميين فى الحيرة (العراق)، وأن عرب تدمر يسيطرون على السهول الممتدة المتداخلة مع المعمور فى جميع الجهات ويتغلغلون إلى الحكم والنفوذ قبل أن تتشكل دولتهم، وبالمقابل كان شأن العرب على ساحل الخليج حتى جبال طوروس (بكر وتغلب) ناهيك عن الأقوام المستقرة من قبل فى العصور الخوالى، فماذا يكون قد بقى تحت الحكم البيزنطى.

وها هنا تفسير أسباب إحاطة البيزنطيين للمعمور بأبراج المراقبة، وأسباب سلوكهم لطرق مستقيمة، معلاة عن سطح الأرض تتوسطها أبراج مراقبة ومخابئ وقلاع ودهاليز. فعلى ضوء هذه الوقائع الأثرية يجب أن نقرر من كان يدفع لمن، من أجل أن يحميه فى أواخر العهد البيزنطى.

فهل تخامرنا، بعد أن نأخذ علمًا بكل هذا، أية غرابة أو شك فى صحة ما أثر عن عمرو بن العاص من قول، ردًا على مساومة قسطنطين بن هرقل له للرجوع عن «الفتح»: هذه البلاد لنا وليست لكم، أنتم غرباء فيها، لأنه لا يعقل أن يكون شخص كعمرو بن العاص جاهلاً على الأقل بأخبار الأنباط وعرب الزباء فى تدمر والضجاغمة وسليح بين غوطة دمشق والأردن والغساسنة وعرب الصفا وأخبار العمالقة، ثم المناذرة فى العراق وتغلب وبكر؟ ■



مستشفى فؤاد الأول «التابع لقصر العينى» عند افتتاحه

بدأت بالتعريب وانتهت بسيادة اللغة الإنجليزية

مدرسة الطب المصرية

ممرضات مستشفى قصر العينى والتدريب على استعمال الأقنعة الواقية من الغازات السامة أثناء الحرب العالمية الثانية

من أبى زعبل إلى قصر العينى

محمد فؤاد الذاكرى

■■ مرت الأمة العربية في تاريخها بمرحلة من الإبداع العلمي والحضاري امتدت من أواخر القرن السابع إلى القرن الثالث عشر للميلاد، ثم تباطأ الإنتاج العلمي العربي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وبحلول القرن السادس عشر واجهت الأمة العربية تراجعًا علميًا حضاريًا بما يشبه العقم في الإنتاج، وقد استمر هذا الوضع طويلاً، والتعليم الطبي العربي لا يخرج عن هذه القاعدة، إذ مر بمراحل مد وجزر وهو ما يتناوله كتاب (تاريخ التعليم الطبي في البلاد العربية) الذي يركز بشكل خاص على التعليم الطبي في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، لأن هذه المرحلة امتازت بقيام مدارس طبية يتم التعليم فيها بما يشبه التعليم في أيامنا الحاضرة. وفي حدود معرفة المؤلف فإن موضوع الكتاب وعرض المدارس الطبية خلال القرن التاسع عشر لم يكتب عنه باللغة العربية بشكل منهجي حتى الآن، وإنما وردت عنه نبذ وفقرات في مؤلفات ودوريات مختلفة غير مستكملة شرائط البحث العلمي.

لكل عمل كبير رائد، قصة وتاريخ. ومدرسة (أبي زعبل) الطبية في مصر، قصتها وتاريخها لا يخلوان من الإثارة والمغامرة. ففي العام ١٨٢٤م أوفد الخديوي محمد علي، حاكم مصر فرنسيًا يدعى فلوران تورنو Florent Tourneau مندوبًا عنه إلى فرنسا للتعاقد مع ضباط لتدريب الجيش المصري، ومع أطباء لتأمين الخدمات الصحية لذلك الجيش.

وقد تعرف تورنو على طبيب شاب يدعى (أنطوان برتلمي كلوت)، فوقع معه عقدًا مؤرخًا في ٢٢/١٢/١٨٢٤م ليعمل في مصر رئيسًا للأطباء والجراحين في الجيش المصري لمدة خمس سنوات، وبراتب قدره ثمانية آلاف فرنك فرنسي، على أن يبدأ سريان مفعول العقد من يوم مغادرة الدكتور كلوت ميناء مرسيليا مبحرًا إلى مصر، وفي اليوم الواحد والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٨٢٥م استقل الدكتور الباخرة من مرسيليا متجهًا إلى مصر برفقة السيد تورنو المذكور ومصطحبًا عشرين طبيبًا آخرين تعاقدوا أيضًا للعمل في مصر.



وصل الدكتور كلوت إلى القاهرة في الثامن من مارس عام ١٨٢٥، ويذكر في مذكراته المنشورة بالفرنسية أنه فور وصوله قابل السيد (بوزاري Bozary) الطبيب الأول للخديوي محمد علي، فطلب منه الذهاب إلى الخانقاه حيث مركز تجمع القوات العسكرية النظامية، وهناك بدأ بتنظيم الأوضاع الطبية، واهتم بمستشفى المعسكر الذي كان شبه متهدم، والفوضى تشيع فيه، فبادر إلى تنظيفه من ناحية التمرين والإطعام والمحاسبة وجميع الشئون الأخرى المتعلقة بتشغيله بأعلى مردود، ولما كان هذا المستشفى مما يصعب الاعتماد عليه بسبب صعوبة ترميمه وإصلاحه، وبناء على اقتراحه أقيم مستشفى جديد، عام ١٨٢٦ في ضاحية أبي زعبل.

لم يكن من السهل استقدام أطباء أو صيادلة من أوروبا، لأن استخدامهم في ذلك الوقت يتطلب وجود تراجمة لهم وهو أمر غير متيسر. ولم يكن الجيش المصري هو وحده الذي يشكو نقص الأطباء، بل كان الشعب المصري بمختلف فئاته يشكو ذلك.

لذلك أرسل الدكتور كلوت إلى الخديوي محمد علي باشا كتابًا يقول فيه: إن مؤسسات النفع العام لا بد لتأمين استمراريتها من أن تكون بأيد وطنية، لأن ارتباطها المباشر بجهات أجنبية يعرضها لاحتمالات التعثر أو التوقف في أداء خدماتها ويقترح إنشاء مدرسة للتعليم الطبي ضمن الخطوط العامة التالية:

١ ـ أن يلتحق بالمستشفى الذي أقيم حديثًا في أبي زعبل، مائة وخمسون شابًا مصريًا، يتقنون لغتهم العربية وأن يعهد إلى أساتذة يوضعون تحت إدارته بشئون التدريس.

٢ ـ أن يسير التعليم الطبي بالاستناد إلى اللغة الفرنسية وبواسطة تراجمة أكفاء يقومون بترجمة الدروس الفرنسية إلى اللغة العربية ليستوعبها الطلاب.

٣ ـ أن يجري توزيع المقررات التالية على سني الدراسة: الفيزياء، الكيمياء، النبات، التشريح، الفسيولوجيا، علم الصحة، المفردات الطبية (الفارماكولوجيا)، السموم، التشخيص المرضي الداخلي والخارجي.

٤ ـ تكليف أعضاء المجلس الصحي، برئاسة وزير الحربية، بالإشراف المباشر على سير الامتحانات.

٥ ـ تكون مدة الدراسة خمس سنوات، ويجري توزيع الخريجين على المشافي والقطاعات الحربية.

وفور اطلاع محمد علي باشا على هذه الاقتراحات، وافق عليها بمجموعها وأصدر أمرًا بتسميته مديرًا لهذه المدرسة.

كانت أول مهمة قام بها هي تعيين الجهاز التعليمي بعد الأخذ بعين الاعتبار مقدرة الأطباء الموجودين، فوزع المهمات التدريسية كما يلي:

* الطبيب الإيطالي جيتاني Gaetani: للتشريح العام والوصفي والمرضي.
* الطبيب دوفيجنو Duvigeam: لعلم الأمراض وللعيادات الداخلية.
* السيد برنار Bernard: لتدريس علم الصحة Hygiene الخاصة والعامة والعسكرية بالإضافة إلى الطب الشرعي.
* الصيدلاني برتلمي Barthelemy: لتدريس علم الأدوية وفن التركيب وفن المداواة ومبحث السموم.
* الصيدلاني فيغاري Figary: لتدريس علم النبات بالإضافة إلى إدارة حديقة النباتات الطبية المقامة في ساحة المستشفى.
* السيد سيليزيا Celisia: لتدريس الكيمياء والفيزياء.

أما الطلاب فتم تحديدهم بمائة وخمسين طالبًا، وذلك انتقاء من بين طلاب الفقه والعلوم الدينية وخاصة من طلاب الأزهر وتأمين معيشتهم على حساب الدولة مع رواتب شهرية تعطى لهم وكان النظام العسكري مطبقًا عليهم.

واجهت المدرسة الجديدة صعوبة كبيرة تمثلت في تأمين التواصل والتفاهم بين الأساتذة الذين يجهلون الفرنسية وكان من الصعب ولضيق الوقت أن يتعلم الأساتذة العربية والطلاب الفرنسية، وقد حل الدكتور كلوت والعاملون معه هذه المشكلة بتعيين ثمانية مترجمين أكفاء تسمح لهم ثقافتهم ومعلوماتهم بالقيام بترجمة صحيحة ودقيقة في مجالات علمية، وأخذ كل مترجم يترجم درس الأستاذ في الفرع المكلف به بعد أن يكون قد فهمه، هذا الإجراء كان صعبًا ومعقدًا في بادئ الأمر إلا أن العادة والتكرار جعلاها أقل صعوبة، فللحصول على نص دقيق بالعربية، كانت النصوص الفرنسية المخطوطة أو المطبوعة تعطى للمترجمين فيدرسونها ويترجمونها إلى العربية، ثم يقوم المترجم بترجمة عكسية لها أي يعيد ترجمة النص إلى الفرنسية أمام الأستاذ، وبعد اطمئنان الأستاذ إلى صحة الترجمة، يصار إلى تدقيق النص العربي من الناحية اللغوية من قبل أشخاص يتقنون اللغة العربية ومن ثم يعطى للطلاب ليدرسوه.



وقد بذل أساتذة المدرسة والمترجمون واللغويون جهودًا كبيرة للتغلب على الصعوبات التي واجهتهم والمتمثلة في تعريب الكثير من المصطلحات الطبية والفنية التي لم تكن موجودة في الطب التقليدي بسبب التقدم الكبير الذي طرأ على العلوم الطبية في القرن التاسع عشر في البلاد الأوروبية، ولخص المرحوم الدكتور حسني سبح رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق المنهج الذي سلكوه في اختيار صياغة المصطلح الطبي قائلاً:

وسلكوا في سبيلها ما يأخذ به المشتغلون باستعراب الطب اليوم:

* أحيوا من مصطلح الطب العربي الإسلامي ما رأوه وافيًا بالغرض.
* واجتهدوا في وضع مقابل بالعربية لما جد من مصطلحات.

لم يكن من السهل استقدام أطباء أو صيادلة من أوروبا، لأن استخدامهم في ذلك الوقت يتطلب وجود تراجمة لهم وهو أمر غير متيسر. ولم يكن الجيش المصري هو وحده الذي يشكو من نقص الأطباء، بل كان الشعب المصري بمختلف فئاته يشكو من ذلك

١ ـ تاريخ التعليم الطبي في البلاد العربية
محمد كمال شحادة
سوريا: منشورات جامعة حلب، ٢٠٠٠.

٢ ـ مذكرات الدكتور كلوت بك (بالفرنسية)
القاهرة: مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٤٩.

٣ ـ بناء أسس التطبيب بمصر في القرن ١٩ (بالفرنسية)
سيرج جاكايو
باريس: منشورات البحث في الحضارات، ١٩٨٦.



كلوت بك

* أما ما لم يهتدوا فيه إلى لفظ عربي مناسب، فلجأوا فيه إلى التعريب.

كذلك عمل الدكتور كلوت على إنشاء مدرسة ملحقة بمدرسة الطب مهمتها الرئيسية تعليم اللغة الفرنسية لطلاب الطب، وعندما أعيد تنظيم التعليم الطبي فيما بعد، أدخل تعليم اللغة الفرنسية في برنامج المدرسة الطبية.

تدريس التشريح

كانت المشكلة الأخرى التي واجهت الدكتور كلوت تتعلق بدراسة التشريح وتدريسه، ويكتب حول هذا الموضوع بقلمه من مذكراته:

عندما أنشئت المدرسة، نقل لي وزير الحربية رغبة محمد علي باشا بألا أمس جثث الموتى. وكان من الصعب عليّ أن أقتنع بمثل هذه الرغبة وبالالتزام بها، فبدون التشريح لا يكون تعليم طبي. فاتصلت بالشيخ العروسي وهو شيخ الإسلام، وكان يتمتع بشهرة وبنفوذ ديني كبير في كل البلاد المصرية، وكنت أهتم به كثيرًا، وباعتباره مسنًا فقد كنت كثير الالتقاء به للكشف عن صحته ولمعالجته، وكان يعاملني بعطف ظاهر. ولكني كلما تطرقت إلى موضوع التشريح يرفض إعطاء أية موافقة للقيام به، وكانت حجته الأساسية هي أن الجثث يمكن أن تتألم، وكنت أتظاهر بقبول هذه الفكرة مع تأكيدي له بأن الجثة في كل الأحوال، سرعان ما تبدأ بالتفسخ وتصبح فريسة للدود، وكنت أقول له أن الدين مادام يقبل الطب والمداواة ويحث عليهما فيجب أن تكون الوسائل المادية المؤدية إلى تعليم هذا العلم مقبولة، ومن هذه الوسائل التشريح الذي هو ضروري جدًا لتدريب الطبيب واطلاعه على تفاصيل الجسم البشري، وكان الشيخ العروسي يجيبني دومًا، بأن المؤلفات المنشورة عن شئون التشريح تكفي لتثقيف الطلاب وتعريفهم به، وفي ذات يوم جربت في محاولة لإقناعه، أن أقدم له مقارنة تثبت أن العلم النظري لا يمكن أن يعطي معلومات كاملة، وكانت المقارنة ما بين جسم الإنسان والساعة، وبينت له أن الساعاتي لكي يستطيع تصليح الساعة لابد له من أن يعرف كل أجزائها بشكل واقعي وعملي. وكذلك الجسم لابد من معرفة أجزائه وأجهزته لكي يتمكن الطبيب من إصلاحه في حالة المرض، لقد بدا لي أن هذا المثال أدخل في نفسه القناعة ولكنه لم يرد أن يعبر عن ذلك صراحة، إلا أنني شعرت بموافقته الضمنية على دراسة التشريح والقيام به، عندما طلب مني التحفظ ومراعاة السرية عندما أود القيام بتشريح الجثث لتعليم طلاب الطب.

وكانت تنتظر الدكتور كلوت مهمة أخرى تتمثل في إقناع الطلاب بضرورة التشريح وإزالة ما في نفوسهم من كراهية ورهبة تجاهه، فأحضر من فرنسا هيكلاً عظميًا عرضه في الصف ليعطي به أول درس في التشريح وكان يردد: هل يعتبر جرمًا أن تكون بين أيدينا عظام تخلفت من جثث منبوشة من قبل ضبع أو ابن آوى مبعثرة في إحدى المقابر المجاورة ولغاية تدريسية؟ واقتنع بعض الطلاب بالفكرة واستجابوا بأن جلبوا ما وقع تحت أيديهم من العظام البشرية وتم تأمين عدد كاف منها لدراستها وتدريسها، أما تشريح الجثث فقد استطاع أن يقوم به بدعوى أنها جثث لعبيد وثنيين، لا يدينون بأي دين سماوي أي ليسوا من أصحاب كتاب.



كل هذه الاحتياطات فيما يتعلق بدروس التشريح، لم تمنع الطالب (حسن الأشموني) من محاولة اغتياله، ففي العشرين من يونيو عام ١٨٢٩م كان الدكتور كلوت يحضر درسًا للدكتور شروبيني Cherubini في مادة الفسيولوجيا فتقدم الأشموني منه في نهاية الدرس وناوله رسالة مكتوبة باللغة العربية لإلهائه، واستل في الوقت عينه خنجرًا كان مخبأ تحت ثيابه وضربه على رأسه فانزلقت عليه شفرة الخنجر، ثم عاد وطعنه ثانية فأصابه في ذراعه اليمنى. وأمام هذا المشهد استولى الذعر على الأستاذ الفرنسي والمترجم ففرا من قاعة الدرس وتركاه ينزف دمًا، وعلى الأثر قامت ضجة كبيرة في الصف، هجم الطلاب فيها على المعتدي وجردوه من سلاحه، حافظ الدكتور كلوت على ثباته وأمر بحبس المعتدي في سجن المستشفى وقام بتهدئة الجميع لأنه خشي أن يؤدي هذا الحادث إلى مضاعفات غير محمودة.

متحف للتاريخ الطبيعي

طلب الدكتور كلوت موافقة وزير الحربية لتعيين السيد ريجيس Regis المختص بالعلوم الطبيعية للإشراف على تأسيس متحف للتاريخ الطبيعي، ولكن طلبه جوبه بالرفض من قبل الوزير بحجة عدم وجود مخصصات، إلا أن كلوت الخبير بالأنظمة واللوائح تعلم كيف يواجه الصعوبات فبادر إلى تعيين الشاب ريجيس بصفة صيدلاني وكلفه بمهمة الإشراف على جمع نماذج من الحيوانات والحشرات لتأسيس متحف طبيعي ممتاز تابع للمدرسة الطبية، حيث تم الاحتفال بتدشينه في فترة الاحتفال بانتهاء السنة الدراسية الثانية من تأسيس المدرسة، ونتج عنه تبادل ناشط بين نماذج من مجموعات المدرسة ونماذج من مختلف المتاحف الطبيعية في أوروبا، وبذلك أمكن تأمين مجموعات كاملة لرباعيات الأرجل والحشرات والطيور والعنكبوتيات والأسماك والأصداف.

أما حديقة النباتات الطبية فأقيمت في الباحة الداخلية للمستشفى، فأضفت مسحة جمالية إضافة لكونها ضرورية للتدريس، وتولى إدارتها صيدلاني من مدينة جنوا الإيطالية هو فيغاري Figari، وخلال فترة تقل عن ثلاثة أشهر، وصلت البذور والشتلات لأنواع كثيرة من النباتات، وكان الأستاذ دوليل Dolille مدير حديقة النباتات في جامعة مونبلييه بفرنسا، يمد باستمرار حديقة أبي زعبل بكثير من النباتات المهمة والنادرة.

نشاط مدرسة أبي زعبل الطبية

كانت السنة الدراسية تبدأ في أول شهر شوال وتنتهي في أول شهر رمضان، ويخصص شهر رمضان بكامله ليكون عطلة سنوية. وحرص المشرفون على المدرسة وبتوجيهات من الدكتور كلوت أن يعهد إلى الأساتذة الذين يدرسون أحد الفروع الطبية من الناحية النظرية أن يقوموا هم بأنفسهم بتدريب طلاب المدرسة على التطبيقات لذلك الفرع، وذلك لئلا يكون ثمة فروق أو تضارب في الآراء ما بين الدروس النظرية وتطبيقاتها العملية أو السريرية. ونصت أنظمة المدرسة على أن يخضع الطلاب لامتحانات شهرية فيما تعلموه، وحينما يحوز طالب الدرجة الأولى في الامتحان، يعهد إليه برئاسة الشعبة التي فحص فيها. وتطلب الأمر كثيرًا من الجهد بذله الأساتذة والطلاب ولكن فائدته كانت كبيرة في حث الطلاب على العمل لخلق روح المنافسة العلمية فيما بينهم. وبدأت الامتحانات العامة للسنة الدراسية الأولى (١٨٢٧ - ١٨٢٨) في الخامس والعشرين من شهر شعبان وكانت اللجنة الفاحصة برئاسة الطبيب بوزاري، وعضوية الصيدلاني المفتش (الساندري Alessandri) والطبيبين (ديباغي Dibaggi) و (دوساب Dussap) وأساتذة مدرسة أبي زعبل الطبية، وذلك باحتفال رسمي حضره عثمان باشا رئيس الأركان العامة والكولونيل (العقيد) سليم بك مساعد رئيس الأركان والعديد من ضباط الجيش كما حضره قناصل فرنسا وإنجلترا وروسيا والنمسا وهولندا وسردينيا وكثير من الشخصيات البارزة، استمرت الامتحانات خمسة أيام وكانت النتيجة نجاح عشرين طالبًا بدرجة ممتازة وثمانية وثلاثين بدرجة أولى، وثلاثة وأربعين بدرجة ثانية. أما طلاب مدرسة اللغة الفرنسية، فقد خضعوا أيضًا للامتحان والنتيجة نجاح ثلاثة وثلاثين طالبًا بامتياز، وثلاثة وعشرين بدرجة متوسطة وخمسة وأربعين بدرجة دون المتوسط، وقد منحت مكافآت إلى جميع المتفوقين في الامتحانات الطبية وفي امتحانات اللغة الفرنسية.



وبالنسبة للامتحانات العامة للسنة الدراسية الثانية من تأسيس المدرسة (١٨٢٨ - ١٨٢٩) فقد بدأت في اليوم الأول من شهر مارس من سنة ١٨٢٩، وذلك في مدرج المستشفى. ومن تقرير تركه لنا الدكتور كلوت في مذكراته نستنتج أنه تم تدريس المواد التالية للطلاب: التشريح والفسيولوجيا، علم الصحة، علم الأمراض (الباثولوجيا)، فن المداواة وعلم الأدوية، الفيزياء، النبات، كما خص المترجمين بالكثير من الثناء وأشاد

بالمترجم (يوحنا عنحورى) قائلا: إن السيد عنحورى يستحق التقدير، لا لأنه ترجمان بارع فقط، بل أيضًا لنشاطه الكبير ولمثابرته فى البحث عن المصطلحات الطبية فى بطون الكتب، وعن مفردات العلوم الطبيعية، وهى إنجازات كبيرة تحققت بفضل هذا العالم المتعاون معنا.

ولم يفته أن ينوه بنتائج مدرسة تعليم اللغة الفرنسية الملحقة بالمدرسة الطبية وأبدى رضاه عن نتائج الامتحان الذى جرى بعد الانتهاء من فحوص المدرسة الطبية مباشرة من قبل لجنة برئاسة السيد (كونيغ Koenig) الذى كان يتقن اللغتين العربية والفرنسية مما جعله قادرًا على الحكم على قوة الطلاب، أما امتحانات السنة الثالثة (١٨٢٩ - ١٨٣٠) فكان من المفترض أن تبدأ جلسات الفحوص النهائية فى ١٣ فبراير من عام ١٨٣٠، وعبّر محمد على باشا عن رغبته فى حضورها شخصيًا إلا أن ظروفًا طارئة منعته من ذلك، فكلف وزير الحربية لينوب عنه، وهذا التغيير استدعى تأجيل البدء بالامتحانات ليوم تالٍ وقد تسابقت شخصيات بارزة للحضور إلى القاعة الكبرى للمستشفى من بينهم شيخ الإسلام ورؤساء مختلف الطوائف الدينية وإبراهيم بك ابن أخ محمد على وجنرالات وضباط من رتب عالية فى الجيش.

كانت اللجنة الفاحصة برئاسة الدكتور (باريست Pariset) الذى سبق أن صدرت تسميته أستاذ شرف بالمدرسة فى فرمان (مرسوم) واحد، وعضوية الدكتور (بوزارى Bosari) والصيدلانى (اليساندرى Alessandri) مدير مدرسة الصيدلة وعضو المجلس الصحى، والدكتور كلوت مدير المدرسة الطبية وعضو المجلس الصحى وأستاذ الأمراض والعيادات الخارجية، وعدد من أساتذة المدرسة، وبعد إلقاء الخطابات والكلمات بدأت الامتحانات بشكل علنى أمام جمهور من المستمعين.

كان من المقرر أن تنتهى الدراسة فى مدرسة أبى زعبل الطبية فى نهاية السنة الدراسية الرابعة (١٨٣٠ - ١٨٣١) للطلاب الذين قبلوا فى المدرسة منذ افتتاحها عام ١٨٢٧، إلا أن صعوبات عديدة سببت إضاعة الكثير من الوقت على الطلاب فقد تقرر بعد مداولات طويلة تمديد الدراسة سنة خامسة وصادق على هذا القرار أعضاء المجلس الصحى ووزير الحربية وتأجيل امتحانات السنة الرابعة إلى السنة الدراسية التالية.

وهكذا فإن طلاب السنة الخامسة الذين اجتازوا هذه الامتحانات بنجاح، كانوا أول فوج من الأطباء المصريين يتخرج من مدرسة أبى زعبل، وأدى الخريجون قسم أبقراط الطبى على غرار ما كان يحدث فى جامعات أوروبا.

واتخذ النص المعتمد فى جامعة مونبلييه بفرنسا، أساسًا تمت ترجمته إلى اللغة العربية مع إجراء بعض التعديلات على النص العربى، التى تقتضيها الاعتبارات الدينية الإسلامية، وأصبح كما يلى:

«أقسم بالله العظيم ونبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، على أن أكون أمينًا حريصًا على شروط الشرف والبر والصلاح فى تعاطى صناعة الطب وأن أسعف الفقراء مجانًا ولا أطلب أجرة تزيد على أجرة عملى، وإنى إذا دخلت بيتًا فلا تنظر عيناى ماذا يحصل فيه ولا ينطق لسانى بالأسرار التى ائتمنونى عليها، ولا أستعمل صناعتى فى إفساد الخصال الحميدة ولا أعاونها على الذنوب، ولا أعطى سمًا البتة، ولا أدل عليه ولا أشير به، ولا أعطى دواء فيه ضرر على الحوامل، ولا إسقاط لهن وأكون موقرًا وحافظًا المعروف مع الذين علمونى، ومكافئًا لأولادهم بتعليمى إياهم مما تعلمته من آبائهم. مادمت حريصًا على عهدى وأمينًا على يمينى، فجميع الناس يعتبرونى ويوقرونى، وإن خالفت ذلك أكون المرذول المحتقر، والله شهيد على ما أقول. قد تم العهد».

ويلاحظ مؤلف الكتاب أن نص القسم يشكو من ركاكة واضحة بدون تفسير مقنع فى حين أن أكثر الترجمات التى أنجزت آنذاك فى مدرسة أبى زعبل، كانت نصوصها أفضل من الناحية الصرفية والنحوية ومن ناحية سلامة الأسلوب الإنشائى.

من الواضح أن الطلاب المتخرجين كانوا يتمتعون بكفاءات طبية ممتازة بالإضافة لإتقانهم اللغة الفرنسية مما يسمح لهم بالتوسع فى دراستهم الطبية بتلك اللغة وبناء على اقتراح الدكتور كلوت وموافقة الخديوى محمد على باشا فقد تقرر إيفاد اثنى عشر من أولئك الخريجين إلى فرنسا وهم:

أحمد الرشيدى، حسين الرشيدى، محمد منصور، حسين الههياوى، إبراهيم النبراوى، مصطفى السبكى، محمد الشباسى، محمد السكرى، محمد الشافعى، أحمد بخيت، محمد على البقلى وعيسون النحراوى.



وصدر المرسوم الخديوى بتاريخ ١/٤/١٨٣٢م والمتعلق بالموافقة على تشكيل ذلك الوفد، نص يسمح لكلوت بمرافقة الوفد، ويمنحه إجازة مدفوعة الأجر لمدة مائة وعشرين يومًا تبدأ من يوم وصوله إلى مدينة مارسيليا وحتى تاريخ إبحاره فى العودة وذلك مع الاحتفاظ بكافة حقوق رتبته العسكرية، وفى ١٧/٨/١٨٣٢ غادر الموفدون ميناء الإسكندرية وصلوا بعدها ميناء مرسيليا بعد رحلة بحرية استمرت أربعة وثلاثين يومًا، وبعد زيارة بعض المؤسسات الطبية فى مرسيليا ومدينة ليون، نجح الدكتور كلوت فى مسعاه لتشكيل لجنة فاحصة من شخصيات طبية فرنسية مرموقة لتقيِّم المعلومات الطبية للطلاب الموفدين، وتم الامتحان فى رحاب الأكاديمية الطبية الملكية فى باريس يوم الأحد فى ١٨ نوفمبر عام ١٨٣٢، وحضر جلسة الامتحان عدد كبير من أعضاء الأكاديمية الطبية ومن الأطباء البارزين، منهم طبيبا الملك البارون دوبوا Duboisi والدكتور مارك، وكانت الضجة الكبرى التى أثارتها الصحف حول كلوت وطلابه المصريين النجباء سبب الإقبال على الحضور، ونتائج الامتحانات جيدة جداً، وعبَّر الحضور مرارًا عن استحسانهم بالتصفيق الحاد، حيث اختتم الدكتور دوبوتيرن Dupuytren جلسة الامتحانات بخطاب هنأ الطلاب المصريين قائلاً: إن إجاباتكم الصحيحة على أسئلتنا، جعلتنا نعتقد أنكم ستكونون الخلف الصالح لابن سينا والرازى والزهراوى.

حرص الدكتور كلوت قبل أن يغادر باريس أن يعهد إلى لجنة من أعضاء الأكاديمية الطبية وبعض الأطباء بالاهتمام بشئون هؤلاء الطلاب، من ضمنها إجراء امتحان دورى كل ثلاثة أشهر ترسل نتائجه إلى مصر بهدف الاطلاع على سير دراستهم لتقديم التوجيهات والمساعدات اللازمة لهم.

قصر العينى

طالب الدكتور كلوت بنقل المدرسة الطبية والمستشفى بأبى زعبل إلى القاهرة، لأن الخانقاه بقربهما وهو معسكر يضم حوالى ستين ألف جندى فرغ من الجنود بعد بدء الحملة المصرية على سورية عام ١٨٣١، ولم يعد المستشفى يخدم سوى عدد محدود من المرضى القادمين من القاهرة، وهذا لم يكن كافيًا للتطبيقات والدروس السريرية لطلاب الطب، لكن هذه المبررات وغيرها لم تقنع محمد على باشا، لعدة سنوات، وأخيرًا بعد إلحاح متواصل اقتنع بنقل المدرسة الطبية والمستشفى من أبى زعبل إلى القاهرة، وفى عام ١٨٣٧ صدر الأمر بنقلهما إلى مبانى قصر العينى الذى يقع بين القاهرة القديمة وبولاق مقابل جزيرة الروضة على الضفة الغربية لنهر النيل الذى أنشأه عامى (١٤٦٦ - ١٤٦٧) أحمد بن العينى، أحد كبار آمرى سلاح الفرسان فى ذلك الوقت، وفى فترة الحملة الفرنسية كان المبنى بملكية إبراهيم بك المملوكى وحول إلى مستشفى عسكرى، أما محمد على باشا فأصلحه وحوله إلى مدرسة تحضيرية عسكرية عام ١٨٢٥ والقصر يتألف من طابق أرضى يعلوه طابقان وتتألف أجنحته من صفوف مزدوجة من قاعات فى كل واحدة منها خمسون سريراً يفصل بينها ممرات عريضة، أما الطابق الأرضى فهو مؤلف من أقبية مقنطرة للتخزين، وتقوم أربع مجموعات سكنية منفصلة بمحاذاة الجناح الجنوبى للقصر، خصصت إحداها للمدرجات ومخابر الكيمياء وغرف الفيزياء والعلوم الطبيعية والثانية لقاعات النوم والطعام وفى الثالثة أسست الصيدلية المركزية أما الرابعة فشغلت بالمطابخ والحمامات والمغاسل، كما جهزت حديقة نباتات جديدة على قطعة من أراضى جزيرة الروضة، ومن النتائج الإيجابية التى تحققت أنه أصبح للمرضى المدنيين الحق ولأول مرة فى الاستفادة من خدمات المستشفى وكانوا قبل ذلك لا يقبلون فيه إلا بإذن خاص من الباشا.

أوضاع المدرسة الطبية

خلال السنوات العشر الأولى من تأسيسها (١٨٢٧ - ١٨٣٧) تخرج فيها أربعمائة وعشرون طبيبًا وفى ١٨٣٧ عام انتقالها إلى قصر العينى كان عدد طلابها خمسمائة طالب، فى عام ١٨٤٩ غادر الدكتور كلوت مصر عائدًا إلى مرسيليا وذلك بعد زمن قصير من وفاة محمد على باشا، ويعلل «جرجى زيدان» ذلك بسبب وحشة بينه وبين الخديوى عباس الأول فبدأت أوضاع المدرسة تسوء ودبت فيها الفوضى، رغم المحاولات المبذولة لإصلاح الأمور، تراجعت خدماتها التعليمية، وبناء على نصيحة طبيب ألمانى، استبدل الخديوى (عباس) المعلمين الفرنسيين بأساتذة ألمان وتم التعاقد مع الدكتور (جريسنجر Griesinger) أستاذ علم الأمراض (الباثولوجيا) فى جامعة كييل الألمانية، ليكون مديرًا لمستشفى قصر العينى والمدرسة الطبية ورئيسًا للمجلس الصحى، وطبيبًا خاصًا للخديوى الذى عمد إلى إرسال بعثة من خريجى المدرسة الطبية إلى ميونيخ، لم تفلح كثيرًا ربما بسبب عدم تمكن أفراد البعثة من اللغة الألمانية.

أما الخديوى الجديد سعيد باشا بن محمد على فقد عمد فى عام ١٨٥٥ إلى إغلاق المدرسة الطبية بعد أن ساءت أحوالها كثيرًا وإرسال جميع

كانت تنتظر الدكتور كلوت مهمة أخرى تتمثل فى إقناع الطلاب بضرورة التشريح وإزالة ما فى نفوسهم من كراهية ورهبة تجاهه، فأحضر من فرنسا هيكلاً عظميًا عرضه فى الصف ليعطى به أول درس فى التشريح وكان يردد: هل يعتبر جرمًا أن يكون بين أيدينا عظام تخلفت من جثث منبوشة من قبل ضبع أو ابن آوى مبعثرة فى إحدى المقابر المجاورة ولغاية تدريسية؟

طلابها إلى القطاعات العسكرية، أما الأساتذة فقد تم الاحتفاظ بهم للاستفادة من خدماتهم فى معالجة مرضى قصر العينى.

وفجأة رجع الدكتور كلوت إلى القاهرة لتقديم واجبات الاحترام لابن أميره السابق، الذى بادر بتكليفه بإعادة تنظيم الخدمات الطبية المصرية المدنية والعسكرية بما فيها شئون المدرسة وتم ذلك فعلاً فى ١٠ سبتمبر عام ١٨٥٦ باحتفال كبير، لكنه اضطر إلى مغادرة مصر نهائيًا عام ١٨٥٨ لاعتلال فى صحته، وانطوت صفحته إلى الأبد حيث توفى فى مرسيليا عام ١٨٦٨.



تعاقب أطباء عديدون على إدارة المدرسة، ففى (فبراير) من عام ١٨٦٢ لم يبق فى المدرسة سوى خمسة وعشرين طالبًا، لكن الدكتور (محمد على باشا البقلى) الذى تولى إدارة المدرسة فى عام ١٨٦٣ استطاع بإخلاصه ومقدرته الإدارية والعلمية أن يقوم بإصلاحات كبيرة فى المدرسة، من أهمها التدريس باللغة العربية الفصحى من قبل أساتذة مصريين تابعوا دراسات اختصاصية فى أوروبا، أى بدون مترجمين ولم يبق فى المدرسة آنذاك إلا أستاذ فرنسى واحد، وكان يوجد فى المدرسة ١٨ أستاذًا مصريًا و١٩٥ تلميذًا فى عام ١٨٧٦ كما يذكر الدكتور سيرج جاكايو وهو مصدرنا الثانى بعد مذكرات الدكتور كلوت التى انقطعت برحيله.

استقال الدكتور البقلى بعد خلاف بينه وبين وزير المعارف على مبارك فى أواخر عام ١٨٧٥، فاستلم الإدارة الطبيب غايلاردوت Gaillardot ومع بداية الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ كان التعليم فى مدرسة الطب غير منتظم وغابت مقررات مهمة عن المجال التدريسى كعلم الجراثيم والمخابر غير صالحة للعمل، واستطاع الدكتور عيسى بك حمدى الطبيب الخاص للخديوى ومدير المدرسة الجديد أن يدخل بعض الإصلاحات كان لها أثر فى إعادة تنظيم الأوضاع والحصول على مخصصات مالية لإقامة بناءين كبيرين فى الباحة المركزية للمستشفى أحدهما للمخابر والثانى لقاعات التدريس، فى عام ١٨٨٧ تشكلت لجنة برئاسة أرتين باشا لإجراء التعديلات والإصلاحات الضرورية فى النظام التدريسى ومن توصياتها إقرار نظام أساسى أصبح فيه جميع الطلاب خارجيين يداومون على المدرسة والمستشفى ويعودون إلى بيوتهم وملزمين بدفع رسوم تسجيل بدلاً من أن تدفع لهم الحكومات مرتبات شهرية كما فى السابق، ومدة الدراسة ست سنوات، يقدم الطلب بعدها رسالة (أطروحة) حول موضوع طبى أصيل.

وعند نجاحه فى الرسالة يمنح لقب دكتور فى الطب، وأصبح المستشفى بإدارة الدكتور ميلتون Milton الذى بادر بافتتاح العيادات الخارجية عام ١٨٨٥.. وسرعان ما نشبت الخلافات من جديد، واستقال المدير عيسى بك حمدى واستلم مكانه حسن باشا محمود الذى يوصف بعدم الكفاءة لكنه مدعوم من السلطة، وفى عهده توقف إرسال البعثات الطبية إلى أوروبا، كما تناقص عدد المقبولين فى المدرسة، ثم تولى الإدارة إبراهيم باشا حسن يساعده الدكتور كيتينج Keatinge، الذى عمل على زيادة المدرسين الأجانب كان من نتيجته إدخال اللغة الانجليزية فى التدريس تدريجيًا، وفى عام (١٨٩٧) حلت نهائيًا مكان العربية، وتم حذف رسوم التسجيل وإعادة دفع المكافآت للطلاب.

يذكر الدكتور جاكايو أن المدرسة حققت فى فترة إدارة كيتينج (١٨٩٣ ـ ١٩١٩) تقدمًا ملحوظًا، وفى عام (١٩٠٢) قبلت الجمعية الملكية للأطباء والجراحين فى بريطانيا أن يتقدم المجازون من الأطباء من قصر العينى لامتحانات شهادتى الـM.R.C.S والـM.R.C.P فى لندن بعد أن يعملوا مدة سنة فى أحد المشافى البريطانية.

بعد إلحاح متواصل اقتنع محمد على بنقل المدرسة الطبية والمستشفى من أبى زعبل إلى القاهرة، وفى عام ١٨٣٧ صدر الأمر بنقلهما إلى مبانى قصر العينى الذى يقع بين القاهرة القديمة وبولاق مقابل جزيرة الروضة على الضفة الغربية لنهر النيل الذى أنشأه عامى (١٤٦٦ ـ ١٤٦٧) أحمد بن العينى، أحد كبار آمرى سلاح الفرسان فى ذلك الوقت



عندما أصبح سعد زغلول باشا وزيرًا للمعارف عام ١٩٠٨، اقترح أن يكون التعليم فى جميع المدارس العليا باللغة العربية ومن قبل مصريين، إلا أن الأجهزة الصحية ومن ورائها البريطانيون اقنعوه (أو أجبروه على التظاهر بالاقتناع) بقلة عدد المصريين الذين يستطيعون ملء كل فراغات التعليم العالى، وبعدم قدرة اللغة العلمية العربية على استيعاب المصطلحات والتعابير العلمية الحديثة المتكاثرة باستمرار، لذا فقد ركز جهوده على زيادة البعثات إلى أوربا وأمريكا، لكن المستشفى بقى يشكو الإهمال وأفاد اللورد كرومر فى تقريره أنه لم يعد يلبى الشروط المطلوبة والمطلوب بناء مستشفى جديد، لهذا السبب توقفت أعمال الصيانة والتطوير فيه مما أعطاه مظهرًا بائسًا وتراجعًا فى خدماته وسببت ظروف الحرب العالمية الأولى بعض التحول، فالتعبئة زمن الحرب أدت إلى نقص فى الجهاز التعليمى الأجنبى، وكان الفضل للمساعدين المصريين الذين حلوا محلهم فى استمرار أعمال المدرسة بشكل ناجح.

مدرسة الصيدلة

فى عام ١٨٢٧ أسس الصيدلانى اليساندرى Alessandri تحت إشراف الدكتور كلوت مدرسة لتخريج صيادلة عسكريين وذلك فى قلعة القاهرة بالقرب من الصيدلية المركزية التى كان يديرها اليساندرى نفسه ثم جمعت مدرسة الطب ومدرسة الصيدلة فى أبى زعبل، وذلك لأن دروس الفيزياء والكيمياء والمفردات الطبية والنبات يمكن أن تعطى لطلاب الصيدلة من أساتذة مدرسة الطب، الأمر الذى يحقق وفرًا كبيرًا، وفى عام ١٨٣٢ تخرَّج أول فوج من الصيدلة مع أول دفعة من خريجى مدرسة الطب، كما انتقلت مدرسة الصيدلة إلى مبانى قصر العينى بالقاهرة مع مدرسة الطب والمستشفى وكانت مدة الدراسة خمس سنوات، فى عام ١٨٨٧ صدر نظام أساسى جديد للمدرسة وبموجبه أصبح طالب الانتساب لمدرسة الصيدلة يجب أن يكون حائزًا على شهادة الدراسة الثانوية، كما أصبحت مدة الدراسة أربع سنوات، وأغلقت فى نهاية القرن التاسع عشر بسبب نقص عدد الطلاب فيها ثم أعيد افتتاحها عام ١٩١٠ وتقلصت مدة الدراسة فيها إلى ثلاث سنوات يحصل الخريجون بعدها على لقب مجاز فى الصيدلة والكيمياء.

مدرسة التثقيف الطبى للنساء

كانت الأمراض الزهرية تفتك بالجيش المصرى، وأصبح ذلك مصدر قلق كبير لمحمد على باشا الذى طلب من الدكتور كلوت أن يجد حلاً لهذه الأوضاع الصحية السيئة. ومن الواضح أن الرجال لا يمكن أن يتحقق لهم الشفاء التام إذا لم تتم معالجة النساء بشكل فعال، ظهرت الصعوبة حول النساء المصابات بالمرض ويكمن وجه الصعوبة أن الأطباء الرجال لا يمكنهم معالجة النساء بسبب عدم سماح التقاليد آنذاك، لاسيما إذا كان الأمر يتعلق بأمراض زهرية وبأعضاء تناسلية، كان الحل أن تتم معالجة نساء من قبل نساء، ولكن كيف يمكن إقناع أولى الأمر بقبول فكرة تعليم الفتيات من قبل أساتذة أوروبيين، فطرحت فكرة تعليم نساء من الرقيق من السودانيات والحبشيات حيث لم يكن فى الحصول عليهن أية صعوبة، فتجارة الرقيق كانت لاتزال موجودة آنذاك علمًا بأنها ألغيت فى مصر فى عهد الخديوى إسماعيل، وكان مشروع الدكتور كلوت يقتضى بتعليمهن القراءة والكتابة أولاً ثم يجرى تثقيفهن وتدريسهن على النمط نفسه الذى تم به تدريس طلاب الطب، وقد وافق محمد على باشا على الخطة وأمر بشراء عشر فتيات تم وضعهن فى مكان مجاور للمدرسة الطبية بأبى زعبل مع ضمان كل ما يلزم من مقتضيات الكساء والمعيشة تحت إشراف اثنين من الخصيان وبعناية تركى مسن وعائلته، بدىء بتدريسهن اللغة العربية، وفى الوقت نفسه وضع لهن كتاب يتضمن مبادىء الولادة وأمراض النساء والأطفال وشرح ما تضمنه من معلومات، وما حصل أن أربعًا منهن توفين أما الست الباقيات فقد حققن تقدمًا سريعًا جدًا، وأصبحن يمارسن بحذق وإتقان عمليات الجراحة الصغرى وبنى لهن مستشفى صغير مجاور لمقر سكنهن يستقبلن فيه النساء الحاملات أو المريضات لتجرى معالجتهن.

كانت الخطوة التالية إدخال طالبات مصريات فى مدرسة التثقيف الطبى للنساء كما سماها الدكتور كلوت فى مذكراته حيث يقول أنه أخذ على عاتقه جلب ست عشرة فتاة عربيات مصريات أدخلن إلى المستشفى بصفة مريضات وذلك ليستطيع تعليمهن بشكل سرى لا يجلب الانتباه، وقد احتفظ كلوت بهن بهذه الصفة طيلة سنتين كان يجرى خلالهما تدريسهن بالطريقة نفسها التى سلكها مع السودانيات والحبشيات، كما يذكر بأن المصاريف المترتبة على تدريس الطالبات كان يتحمل أعباءها من ماله الخاص وفى ذات يوم من عام ١٨٣٩ قام وزير التعليم مختار بك بزيارة المدرسة الطبية وتفتيشها، فقدم له كلوت الطالبات السودانيات والحبشيات وكان الوزير سعيدًا بما وجده عندهن من درجة ثقافية، وبدت سعادته أكثر عندما دخل القاعة بإشارة من كلوت فوجد ست عشرة طالبة مصرية، وحين وجه إليهن الأسئلة كان معجبًا جدًا وبادر إلى معانقة كلوت أمام جميع الحاضرين تعبيرًا عن رضاه العميق. ومنذ ذلك الوقت أصبح من المسموح به تعليم المصريات فى المجالات الطبية وحددت مدة الدراسة فى هذه المدرسة بست سنوات، فالسنتان الأولى والثانية كانتا مخصصتين لتعليم اللغة العربية، أما البرنامج الدراسى للسنوات الأربع التالية فتضمن دروسًا نظرية وعملية مأخوذة من مقررات مدرسة التوليد بباريس، مضافًا إليها دروس فى التشريح

والفسيولوجيا والجراحة والمفردات الطبية والصيدلة، وهؤلاء الخريجات كن يعرفن بالحكيمات. إن هذه التسمية لا تعني أنهن يمارسن أعمالهن كطبيبات وإنما كن في الواقع قابلات وممرضات في آن واحد. ولقب الحكيمات، لتمييزهن عن القابلات الشعبيات (الدايات) وفي كل الأحوال كان لهن دور إيجابي كبير في رفع المستوى الصحي المصري.



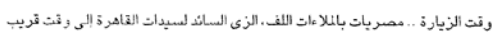
أما أشهر الأطباء والصيادلة الذين عملوا في مدرستي الطب والصيدلة في مصر أو تخرجوا منها، ففي مقدمتهم الدكتور كلوت ومن مؤلفاته: (القول الصريح في علم التشريح) ترجمة يوحنا العنحوري، طبع عام ١٨٣٢ وهو أول كتاب طبي في مدرسة أبي زعبل، و(الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال) ترجمة محمد الشافعي طبع عام ١٨٣٢، و(نبذة في أصول الفلسفة الطبيعية) ترجمة إبراهيم النبراوي طبع عام ١٨٣٦، و(نبذة في التطعيم ضد الجدري) ترجمة حسن غانم الرشيدي الذي عُين معلمًا للعلوم الطبية عقب عودته من بعثته إلى أوروبا وتمتاز مؤلفاته بوضوحها وسلامة تعبيرها، وأهمها: (بهجة الرؤساء وأمراض النساء) طبع عام ١٨٤٤، (الروضة البهية في مداواة الأمراض الجلدية) طبع عام ١٨٤٧ في مجلدين، (عمدة المحتاج لعلمي الأدوية والعلاج) في أربعة أجزاء كبيرة طبع في عام ١٨٦٧.

و(محمد علي باشا البقلي) له مؤلفات جيدة منها: (روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى) طبع عام ١٨٤٣، (غاية الفلاح في فن الجراح) وهو كتاب يبحث في العمليات الجراحية طبع عام ١٨٦٤ في جزءين، وله كتب أخرى لم تطبع. والجدير بالذكر أنه أصدر مجلة شهرية عام ١٨٦٥ أطلق عليها اسم (اليعسوب) وكان يساعده في تحريرها الشيخ إبراهيم الدسوقي مصحح المطبعة الأميرية في بولاق، وتعتبر المجلة الطبية الأولى التي صدرت باللغة العربية.

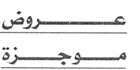
ومن الأطباء البارزين نذكر: أحمد ندا بك متوفى (١٨٧٧)، وله كثير من الكتب من تأليفه أو ترجمته عن اللغة الفرنسية. عبدالعزيز الهراوي باشا من خريجي قسم الصيدلة عهد إليه بمنصب مدير معمل البارود بمصر القديمة وقد اشتهر بالرسالة التي قدمها إلى مدرسة الطب بفرنسا ونال بها درجة الدكتوراة وأثبت فيها إمكان استخراج جميع الألوان من نبات الحناء، وحسين عوف متوفى (١٨٨٣) حيث تخصص في طب العيون وعين أستاذًا للمادة وتخرج على يده أطباء عديدون في هذا الفن. وسالم سالم باشا المتوفى (١٨٩٣) الذي تولى رئاسة المدرسة الطبية والطبيب الخاص للخديوي توفيق. محمد عبدالسميع الذي شارك في الثورة العرابية وسافر إلى التل الكبير لمعالجة الجرحى، وعلي رياض بك متوفى (١٨٩٩) وهو من كبار علماء الصيدلة والكيمياء والطبيعة، ومحمد الدري باشا متوفى (١٩٠٠) الذي كان شغوفًا بالعلم، أنشأ مطبعة خاصة به متقنة يطبع بها مؤلفاته ومؤلفات زملائه بدون مقابل، ترك مجموعة تشريحية عظيمة وصورًا ملونة لجميع الأمراض، كانت معروضة في متحف مدرسة الطب في قاعة خاصة حملت اسمه. ومحمود رشدي البقلي ألف قاموسًا طبيًا بالفرنسية والعربية، طبع في باريس ١٨٦٩، يقع في ٣٥٨ صفحة ويشتمل على نحو ٧٠٠٠ مصطلح.

لقد بدأ التدريس الطبي في مصر باللغة العربية منذ عام ١٨٢٨ واستمر مدة سبعين عامًا، وكانت تجربة رائدة وناجحة، إلا أن المستعمر البريطاني الذي استولى على مصر إثر ثورة عرابي، بدأ بتقليص دور اللغة العربية في التدريس تدريجيًا، ولم يمض عام ١٨٩٧ حتى أصبح التدريس الطبي يتم بكامله باللغة الإنجليزية، وبلغ عدد ما ترجمه وألفه أساتذة مدرسة الطب في مصر ستة وسبعين كتابًا اشتملت على ألوف المصطلحات، هذه الحركة الناشطة والجدية التي قام بها مترجمون ومصححون ومدققون عرب وأجانب لنقل النصوص والكتب الطبية الأجنبية إلى اللغة العربية، أمنت منذ بداية تأسيس مدرسة الطب في أبي زعبل التدريس باللغة العربية وأدت بعد زمن قصير إلى تعريب كامل المقررات في علوم الطب والصيدلة.

تعتبر هذه الكتب أول كتب طبية تظهر في العالم العربي وباللغة العربية وبالأساليب المرتكزة على المفاهيم العلمية الحديثة، الأمر الذي يسجل لأساتذة مدرسة الطب المصرية أسبقية رائدة يحق لهم أن يفتخروا ويعتزوا بها على مر العصور، وأن تكون دافعًا نحو تكثيف الجهود لتعريب التعليم الطبي في الجامعات العربية وهو حلم ليس بمستغرب إذا تضافرت الجهود المخلصة والإرادة الطيبة ولنا في سيرة هؤلاء الأطباء الأوائل وكفاحهم وجهودهم أسوة حسنة حيث نجحوا وتألقوا في مؤلفاتهم وتراجمهم بأسلوب علمي عالٍ آنذاك وصياغة لغوية متقنة.



وقت الزيارة .. مصريات بالملاءات اللف، الزي السائد لسيدات القاهرة إلى وقت قريب



كتب عربية

المحنة الآسيوية
قصة صعود وهبوط دول المعجزات الآسيوية
رمزي زكي
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٠، ١٦١ صفحة



لم يكن أحد يتوقع، مهما جنح به الخيال، أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه في دول جنوب شرق آسيا.

فالأزمة التي ضربت دول النمور الآسيوية في عام ١٩٩٧، انقضت مثل الصاعقة بلا إنذار مسبق، بدأت الأزمة أولاً من «تايلاند» أضعف الحلقات في سلسلة النمور، وانفرطت تاليًا حبات السلسلة، من كوريا إلى سنغافورة وماليزيا وهونج كونج وتايوان وأندونيسيا والفلبين، وتباينت التحليلات حول الأسباب التي أدت إلى الأزمة، البعض أرجعها إلى هشاشة الجهاز المصرفي والفساد الإداري، والبعض رأى أن ثمة مؤامرة غربية رأسمالية هدفت إلى وضع حد للمعجزة الآسيوية الكاسحة، آخرون اعتبروا أن صعود دول النمور ونجاحاتها التي فاقت التوقعات في الاستثمار والتنمية ومعدلات النمو، إنما ترجع أساسًا إلى استفادتها من أجواء الحرب الباردة وتدفق الاستثمارات عليها.

المؤلف يبدأ من تحليل عوامل نجاح دول النمور، وبعضها داخلي مثل رخص الأيدي العاملة والدور المهم الذي قامت به الدولة في بناء شبكة بنية تحتية على درجة عالية من التقدم والكفاءة، والاستثمار الجيد في البشر بالإنفاق الجيد على التعليم والصحة والإسكان، ثم حزمة من السياسات المالية والنقدية التي تم وضعها بعناية لإبعاد شبح التضخم عن هذه الدول وتجنب الوقوع في فخ المديونية الخارجية وتشجيع الصادرات وتكوين قدر كبير من الاحتياطيات الدولية.

وهناك دوليًا قدرة هذه الدول على الاستفادة من تناقضات الحرب الباردة، وكانت نتيجة هذا كله أن حققت هذه الدول معدلات نمو اقتصادي اعتبرت من أعلى المعدلات عالميًا عبر تفوقها الاستثنائي في مجال التصدير وزيادة معدلات الادخار. وكان منطقيًا أن ترتفع مستويات المعيشة بشكل لافت وصل إلى عشرة أضعاف خلال فترة ثلاثين عامًا، من ١٩٦٠ إلى ١٩٩٥ وبعد عامين بالضبط بدأت رياح الأزمة تهب وكانت أسبابها كما يجملها المؤلف - دون أن ندخل في تفاصيلها - انفجار الديون الخارجية مما سبب عجزًا في ميزان المدفوعات، وقد حدث الانفجار في الديون بسبب التوسع الشديد في الاستثمارات، وانخفاض أصول عشرات المشروعات بسبب المضاربات على أسعار أسهمها في البورصات الآسيوية، وانخفاض قيمة العملات المحلية مما أدى إلى هروب الاستثمارات ونشوء ما يعرف بظاهرة «الاقتصادات المنفوخة» التي ولدتها أنشطة المضاربات بفعل فتح الأسواق النقدية والمالية على مصراعيها أمام الأجانب.

وبسرعة تحركت «طفايات الحريق» - وهو التعبير الذي اختاره المؤلف للمؤسسات المالية الدولية مثل صندوق النقد والبنك الدوليين - لتضع روشتتها التقليدية لإصلاح حال اقتصادات النمور، وهي لم تفعل في الحقيقة سوى مضاعفة أزماتها وربطها أكثر بالاقتصاد الرأسمالي العالمي.

المؤلف بعد أن يقدم لنا تحليله المهم لأسباب الأزمة وتداعياتها عالميًا وعربيًا، يقدم لنا عشرين درسًا وعبرة - لمن يعي - لما جرى في دول النمور، التي ربما بدأت الآن التغلب على بعض مظاهر الأزمة.

□ □ □

معجم مراد
القانوني والاقتصادي والتجاري
عبدالفتاح مراد
القاهرة: المؤلف نفسه، ٢٠٠١، ٢٢٤٠ صفحة



يمثل هذا المعجم حصاد الحياة القضائية والعلمية لمؤلفه، الذي عمل بالقضاء والتدريس فجمع بين الخبرات العملية والنظرية والأكاديمية، وهو يتضمن شرحًا تفصيليًا للمصطلحات القانونية والتجارية المستعملة في الدول الناطقة بالإنجليزية، وما يقابلها في الشريعة الإسلامية واللغات الأخرى، ويشتمل على نحو ٥٠ ألف مصطلح تتعلق بجميع فروع القانون العام الداخلي مثل القانون الإداري والدستوري والإدارة العامة والقانون الجنائي والقانون العام الخارجي مثل القانون الدولي العام وقانون المنظمات الدولية والتنظيم الدولي المعاصر ومصطلحات الجات ومنظمة التجارة العالمية والعولمة والمصطلحات الواردة في فروع القانون الخاص مثل القانون المدني والقانون الاقتصادي والتجاري والقانون البحري وقانون العمل والتشريعات الاجتماعية وتشريعات الطيران الداخلي والدولي والنقل الجوي والمصطلحات الواردة في فروع القانون المختلطة مثل القانون الدولي الخاص وقانون المرافعات المدنية والتجارية ومصطلحات البنوك والتأمين والبترول ومصطلحات الشريعة الإسلامية والتشريعات المقارنة القديم منها والحديث.

كما يتضمن ما يزيد على نحو ٥آلاف مصطلح آخر تتعلق بالمبادئ القانونية العامة والأقوال المأثورة بمختلف اللغات ومنها اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية مترجمة إلى اللغات العربية.

وإلى جانب المصطلحات يتضمن المعجم ستة ملاحق إضافية باللغتين الإنجليزية والعربية وهي:

ملحق بأحدث المختصرات القانونية والاقتصادية والتجارية المستعملة في الدولة الناطقة بالإنجليزية ومعناها باللغة العربية.

بيان بالاختلافات القانونية بين بعض المصطلحات الإنجليزية المستعملة في بريطانيا ونظيرتها المستعملة في الولايات المتحدة، بعض العناصر اللاتينية الداخلة في مكونات الكلمات الإنجليزية، أسماء عملات بلاد العالم وعواصمها واللغة الرسمية المستعملة فيها، المختصرات المتعلقة بالمراجع العلمية للباحثين والمؤلفين والعلماء، ملحق بالأرقام الرومانية القديمة ونظيرتها في اللغتين الإنجليزية والعربية.

□ □ □

أزمة الحماية الدينية
هاني لبيب
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٢١٠ صفحة



منذ انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة لحقوق الأقليات في عام ١٩٩٤، وقضية الأقباط تتفاعل متراوحة بين المعالجات الهادئة والأخرى ذات النبرة العنيفة المستفزة. لكن الجماعة الوطنية المصرية، بمفكريها وكُتابها المسلمين والأقباط، أجمعت على أن الأقباط لا يمكن اعتبارهم أقلية، بل هم جزء من النسيج المصري في انسجامه الأتم.

المؤلف يؤكد على هذه الحقيقة عبر استعراض العلاقة التاريخية بين المسلمين والأقباط ونضالهم المشترك ضد الغزاة والمستعمرين، وقبل ذلك بقرون عبر المواقف الوطنية للكنيسة القبطية التي استوعبت الكيان المصري كله.

في العصور الإسلامية ومنذ الفتح الإسلامي، اتسمت العلاقة بين العنصرين بدرجة من الاستقرار والنضج، خصوصًا في عصور الدولة الطولونية والإخشيدية والفاطمية والأيوبية، وحين دب الضعف في أوصال الدولة في بعض فترات الحكم المملوكي والعثماني، توترت العلاقة واضطهدت الأقلية العددية (الأقباط)، وتأكدت هذه العلاقة الحميمة بين العنصرين مع نضال المصريين ضد الحملة الفرنسية في عام ١٧٩٨ ثم كفاحهم ضد الاحتلال الانجليزي وبروز شعار مصر للمصريين وأن الدين لله والوطن للجميع في ثورة ١٩١٩.

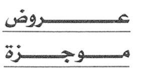
يستعرض المؤلف عددًا من الهيئات والمؤسسات القبطية التي لعبت - ومازالت - دورًا مؤثرًا في بلورة مفهوم المجتمع المدني ومنها مجموعة التنمية الثقافية والمركز القبطي للدراسات الاجتماعية وجمعية الصعيد للتربية والتنمية والهيئة الإنجيلية للخدمات الاجتماعية. ويناقش بعد ذلك فكرة الحماية الدينية عبر تقارير الكونجرس الأمريكي الذي أراد أن يعرض نوعًا من الوصاية في عصر العولمة كنوع من الضغط على الدول، ومنها في منطقة الشرق الأوسط مصر والجزائر والسودان، ويشير إلى الموقف المشرّف الذي اتخذته النخبة المثقفة بمسلميها وأقباطها، والذي تمثل في الرفض التام لأي تدخل في الشأن المصري تحت أي مسمى.

ويشير المؤلف إلى بعض المشكلات التي يواجهها الأقباط أو التي أثيرت في السنوات الأخيرة مثل قضية بناء الكنائس والجامعة القبطية وحوادث العنف التي تعرض لها الأقباط، ثم الخطر الخارجي الذي بات يطلق عليه بتعميم يخلو كثيرًا من الدقة: أقباط المهجر.

وكتب المؤلف أن ثمة مشاكل تواجه الأقباط، كما أن هناك مشاكل تواجه المسلمين، لكنها جميعًا مما يمكن حله في إطار ديمقراطي مجتمعي وليس بمنظور طائفي أو ديني.

ويقدم المؤلف في نهاية الكتاب ملحقًا بالوثائق والشهادات يتضمن شهادات للبابا شنودة والأنبا موسى والشروط العشرة لبناء الكنائس، وبعض البيانات التي أصدرها مثقفو الأمة وفنانوها وعلماؤها من الطرفين وبيان لجنة الحكماء الداعي إلى وقف العنف. ثم تقرير الكونجرس الأمريكي ولجنة حماية الأقليات وتدخلاتها السافرة في شئون الدول.

□ □ □



ابن خلدون من منظور آخر

عبدالسلام الشدادي

ترجمة: محمد الهلالي، وبشرى الفكيكي

الدار البيضاء: دار توبقال للنشر ٢٠٠٠



ثمة حقيقة مؤكدة ومبدئية في مجال العلوم الإنسانية، مؤداها أن ابن خلدون هو مؤسس علم العمران البشري - علم الاجتماع فيما بعد - ومقدمته اعتبرت دومًا عملاً رائدًا سابقًا لعصره، وابن خلدون بحسب «جاك بيرك» هو «العبقري المحيّر» وهما كلمتان لخصتا - كما يقول المؤلف - الفكرة السائدة عن ابن خلدون لدى دارسيه.

المؤلف يعيد قراءة ابن خلدون مستفيدًا من قراءات سابقة، ومقترحًا صيغًا بديلة وفضاءات أخرى للرؤية، ويبدأ من نظام السلطة في المقدمة الخلدونية الذي لم يتم استخلاص جميع نتائجه حتى الآن بحسب رأيه.

ثم النموذج الذي يقترحه ابن خلدون لتفسير المجتمع الإنساني بسيط للغاية، فهو يميز بين مرحلتين من تطور الإنسانية: حالة المجتمع الزراعي الرعوي، وهي مرحلة أولية بسيطة لا توفر إلا الضروري، ومرحلة حضرية، أكثر تعقيدًا وتطورًا تلبي الكمالي والرفاهي، في الأولى يتحدث الاجتماعيون عن «وجود بالقوة» وفي الثانية يتحدثون عن «وجود بالفعل» ويشير المؤلف إلى مفهوم رئيسي عند ابن خلدون لم يتم أيضًا الالتفات إليه، وهو مفهوم الجاه. وهو عنده «القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة، ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة»، وهكذا يبدو الجاه، شرطًا أساسيًا لممارسة الإكراه الذي يعتبر ضرورة للعيش في المجتمع، وهكذا أيضًا فإن الشريعة الإلهية والقوانين السياسية لا تملك في حد ذاتها القوة لتفرض إنها تحتاج لشيء أكثر بدائية وتجذرًا في الطبيعة الإنسانية، الجاذبية الكونية للسلطة وهالة الافتتان المحيطة بها.

والقاعدة الأساسية للبناء السياسي عنده تقوم على التعاون بين الناس خصوصًا في جانبه المتعلق بالتقسيم الاجتماعي للعمل، والإكراه الضروري لتحقيق ذلك التعاون ويرى المؤلف أن نظام الجاه يحمل بذور فنائه بداخله، لأن أصحاب «الجاهات» سيتنافسون فيما بينهم من أجل تحصيل مزيد من الثروة والنفوذ، ومن ثم تفقد الدولة ما حصلت عليه من عظمة وجلال، وسيسري هذا الفساد في المجتمع كله، إلى الحد الذي تؤدي فيه عادات البذخ إلى تدمير المجتمع.

والاقتصاد الخلدوني يعنى بصورة أساسية وسائل العيش وكسب القوت، وهي تقوم على فكرة عميقة وبسيطة في الوقت نفسه، مؤداها أن الإنسان مجبر على الحصول على ما يقتات به، وأن الله وهب للناس كل ما يوجد على الأرض، ولجميع الناس فرص متساوية في الحصول عليه، باختصار: العمل هو المصدر الرئيسي للمكاسب، فإذا اختفى العمل أو تناقص بسبب انحطاط الحضارة، فإن ذلك علامة على أنه لم يعد من الممكن امتلاك المنتوجات.

ويعطي ابن خلدون أهمية استثنائية للتعليم والمعرفة، والإنسان عنده جاهل بطبيعته لا يصبح إنسانًا إلا بالمعرفة، فالتكون يجب أن يبدأ منذ نعومة الأظافر حينما تكون النفس بكرًا، كما أن لاختيار محتوى التعليم الأول أهمية كبيرة، وينصح ابن خلدون بعدم تعليم أكثر من تخصص واحد في الوقت نفسه، ويلح على منهج التدرج والتبسيط دون إرهاق بالواجبات على التلاميذ.

رحلة المؤلف مع ابن خلدون تجوب مواضع كثيرة في مقدمته من السياسة إلى الاقتصاد إلى التعليم، ساعيًا إلى تقديم رؤى مغايرة عن الدراسات السابقة.

□ □ □

تصطفل ميريل ستريب

رشيد الضعيف

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١، ١٥٠ صفحة



تبدو الرواية في ظاهرها الخادع، حكاية عن علاقة فراش بين زوج وزوجته، الزوج متنور، لكنه يتمسك

خارطة الحب

تأليف: أهداف سويف

ترجمة: فاطمة موسى

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ٤٦١ص



عندما تقرأ الترجمة العربية لرواية الأديبة المصرية أهداف سويف «خارطة الحب» تكاد تنسى أنها كتبت في الأصل باللغة الإنجليزية. فإلى هذا الحد يأتي نص الرواية سلسًا خاليًا من التراكيب الغريبة، ويسري الحوار بين أشخاصها بشكل طبيعي بل مطعمًا أحيانًا باللغة المصرية العامية والأمثال الشعبية. وربما يعود الفضل في ذلك إلى فرصة أدبية من النادر أن تتكرر، حيث إن المترجمة هنا، فاطمة موسى، ليست فحسب من أهم نقاد وأساتذة الأدب الإنجليزي والأدب المقارن في العالم العربي، وإنما هي أيضًا والدة المؤلفة وصديقتها الحميمة، وقد اشتركتا بالعمل سويًا في تعريب الرواية التي رشحت للفوز بجائزة «بوكر». وكانت أهداف في مؤلفاتها السابقة الصادرة باللغة العربية قد قامت بتنفيذ عملية تعريبها بنفسها.

كما أن هناك عاملاً آخر يجعل الرواية تحمل الروح المصرية، وهو أن أهداف سويف لا تكتب بالإنجليزية لأنها إنجليزية من أصل مصري أو مصرية نشأت في إنجلترا، وإنما هي حسب تعبيرها ذات تكوين «أدبي» إنجليزي سببته ظروف الدراسة والاطلاع، بخلاف تكوينها «الحياتي». فهي مصرية، نشأت في مصر وتلقت معظم تعليمها في المدارس والجامعات المصرية. ويضاف إلى ذلك أن الرواية عن مصر، وتدور معظم فصولها فيها، وكثير من أشخاصها مصريون تدور على ألسنتهم الألفاظ اليومية الدارجة. وهذا بالتحديد هو ما يجعلها مألوفة - أكثر من اللازم - بالنسبة للقارئ العربي.

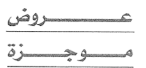
إن من أبرز سمات «خارطة الحب» اختلاف حس اللغة حسب الاختلاف بين الطبقات والشخصيات والأزمنة في الرواية. والقارئ هنا بطبيعة الحال تفوته ملاحظة براعة المؤلفة في التدرج باللغة الإنجليزية من إنجليزية القرن التاسع عشر، إلى الإنجليزية الأمريكية المعاصرة، إلى الإنجليزية المعبرة عن العربية العامية. وعندما تنقل أهداف الحوار المصري العامي باللغة الإنجليزية، بشكل أسلوبها إضافة غير مسبوقة في الأدب الإنجليزي المعبر عن العرب، حيث تنجح في نقل «جو» العامية ببساطته وإيقاعه وفكاهته. ومثل هذا التنوع الغرائبي يدهش القارئ باللغة الإنجليزية ويجذبه، بينما يأخذه القارئ باللغة العربية كأمر مسلم به. فليس مما يلفت الانتباه أن تقرأ عبارة أو دعاء «اسم النبي حارسها»، ولكنك سوف تلتفت إذا قرأت عبارة (the name of God guard and protect her!) كذلك حافظت المؤلفة في النص الإنجليزي على بعض الألفاظ العربية التي كتبتها بالحروف الإنجليزية لكي لا تفقد وقعها وسحرها الخاص، مثل «ياختي» و«خلاص» و«إن شاء الله»، ثم قامت بتزويد نهاية الكتاب بقاموس يحتوي على شرح لمعاني تلك الألفاظ.

أما القصة في «خارطة الحب» فمنسوجة حول أحداث ومناخ الفترة من ١٨٩٨ إلى ١٩١٢ في تاريخ مصر، من خلال يوميات ورسائل ليدي آنا ونتربورن الأرملة الشابة الإنجليزية التي تأتي إلى مصر عام ١٩٠٠ لتقع في غرام شريف باشا البارودي الوطني المصري وتتزوج منه. هذه اليوميات تعثر عليها عام ١٩٩٧ الأمريكية إيزابيل باركمان ابنة حفيدة آنا وشريف، التي تقع في غرام قائد أوركسترا شهير في أمريكا هو عمر الغمراوي - الذي يتصادف أنه ابن عمها - وتأتي إلى القاهرة لتقابل أخته أمل الغمراوي، التي تقرأ يوميات آنا وتضيف إليها يوميات جدتها ليلى البارودي أخت شريف باشا، لتكتمل معايشتنا لتلك الحقبة الزمنية. (ولا أجد سببًا لخلو الطبعة العربية من خريطة شجرة العائلة الموجودة في الأصل، رغم أهميتها في فهم تسلسل علاقات القرابة بين الأبطال).

وكما يبدو فإن الحبكة قائمة على مصادفات كثيرة، وتتوسع الرواية لتغطي قرنًا من الزمان متنقلة عبر القارات والشخصيات. فبخلاف روايتها الأولى المؤثرة «في عين الشمس» لا تتعمق أهداف سويف في التكوين الذاتي للشخصية، وإنما غرضها هنا معالجة إشكالية الشرق والغرب بشكل مباشر. فهي تقدم للجمهور الغربي قصتنا مع الاستعمار من خلال البطلة الإنجليزية المتعاطفة مع المصريين، التي تنتقد سياسات ومبررات أبناء وطنها من أمثال لورد كرومر والمحيطين به. وهي تقدم قضية الاستقلال الوطني وقضية النهضة التي ارتبطت بتلك الفترة من خلال شريف باشا الذي ترسمه المؤلفة في قلب الحركة الوطنية، فهو ابن أخ محمود سامي البارودي وصديق حميم للشيخ محمد عبده وقاسم أمين وغيرهم من الشخصيات التاريخية التي تستنطقها الرواية.

وحين تعود بنا المؤلفة إلى هموم الشخصيات المعاصرة في الرواية، وحوارات المثقفين في «أتيليه القاهرة»، تضعنا أمام مقارنة تاريخية مثيرة للتساؤلات. ما الفرق بين معاناتنا من الاستعمار المباشر ومعاناتنا الآن؟ وهل تقدمنا أم تقهقرنا في مسيرة التحرر والنهضة؟

هديل غنيم



بالخفر والحياء والعفة، يريد زوجة بكرًا، لا خبرات سابقة لها تمكنها من أن تقارن بين زوجها وآخرين، ويطمح فى أن يصبح أبًا لصبى، وأن تسير حياته فى هدوء وسكينة لا يعكرها شيء.

ولأن عمره تقدم، والأهل - مثل كل الأهل فى شرقنا العربى - يلحون عليه فى الزواج، قرر أن يتزوج، وبطريقة شرقية تقليدية تمامًا، إذ لم تكن بباله فتاة بعينها، اختارت له الخالة عروسه، والتقى بها مرات قلائل، لم تكن كافية قطعًا كى تكشف عن أى شيء، وحين حاول أن ينتزع منها اعترافًا بما إذا كانت عاشرت رجالاً آخرين قبله أم لا، تصنعت الغضب وحردت، وحتى لا تضيع فرصة العروس التى وجدها مناسبة وقادرة على تحقيق أحلامه فى الاستقرار والأبوة، سارع بالزواج منها، وبقى ليالى طوالا قبل أن تمكنه من تحويلها من حالة إلى حالة، وحين تم له ما أراد، هالته كمية الدماء التى نزفتها، وطاردته الوساوس، فيم إذا كانت عروسه بالفعل بكرًا أم صاحبة خبرات سابقة، وعزّز هذه الوساوس ما بدا من عروسه بعد أيام قلائل من الزواج، إذ كشفت عن لسان سليط وجرأة بدت له زائدة عن الحد، كما أنها أظهرت قدرًا من الكراهية تجاهه لم يعد بوسعها أن تخفيه، وانتهزت فرصة مناسبة لحادثة عارضة بينهما، فتركت البيت وأجهضت نفسها، وسافرت إلى إخوتها فى الخليج.

ما علاقة «ميريل ستريب» الممثلة الأمريكية الفاتنة التى يزين اسمها عنوان الرواية الذى يعنى إلى الجحيم مع ميريل ستريب بهذا كله.

هذا هو الجانب الأعمق فى الحكى، إذ ينبئنا الراوى أنه لم يقتن تليفزيونا منذ زواجه، لكنه اكتشف بعد أسابيع من الزواج أهمية أن يشتريه، كى يبطل حجة زوجته فى الذهاب عند أمها من ناحية، وكى يتابع ما يجرى فى العالم عبر اشتراكه فى الفضائيات العربية والعالمية من ناحية ثانية.

فجأة.. وجد نفسه مع حادث شبيه بما يجرى بينه وبين زوجته، بطلاه ميريل ستريب وداستين هوفمان، وهو من عشاق فاتنة هوليوود وقد تمناها دائمًا لنفسه، وهكذا تتداخل حكايته مع حكاية الفيلم المبثوث عبر محطة فضائية أجنبية، وهذه واحدة من فضائل - ربما - العولمة، التى تمزج الجميع فى خلطة واحدة، ولكن ماعساه يفعل وهو الزوج الشرقى الذى يتمسك بتقاليد وقيم مغايرة، خصوصًا فيما يتصل بالحياة الأسرية وتضاعيفها، وكيف له أن يتخلى فجأة عن حقوق القوامة - بدون جور فهو مستنير كما أسلفنا - وحقه فى زوجة بكر صانت جسدها حتى أهدته إليه بنضارته الأولى عربون حياة سعيدة ممتدة، يزينها أطفال ظرفاء؟ سيكتشف الزوج أن زوجته التى تمناها بكرًا ليست كذلك، وأنها خبيرة بالرجال حتى الشواذ منهم، وأنها قبيحة النفس وقحة، وأن الفضائيات والعولمة، نجحتا فى تبديل مفاهيمها إلى حد أن حكايات البكارة والعفة والحياء وغيرها مما يقدره الراوى، صارت إرثًا من زمن ولّى ولن يعود.

□ □ □

الألقاب وأسماء الحرف والوظائف فى ضوء البرديات العربية

سعيد مغاورى محمد

القاهرة: دار الكتب والوثائق المصرية، ٢٠٠٠، ٥٠٢ صفحات



يمثل هذا البحث أطروحة جامعية لنيل درجة الدكتوراة، وموضوعه فى علم الدراسات البردية العربية غير مسبوق، وهذا يبدأ بفصل عن نشأة علم البرديات العربية الذى نشأ فى الجامعات والمعاهد الأوروبية، ثم يقدم فى فصل تال أبرز مجموعات البرديات العربية وأشهر دارسيها. ثم يدلف إلى موضوع بحثه الرئيسى وينقب فى أصول ألقاب عربية شهيرة مثل الإبشادى والإبراهيمى والأجهرى والأزدى والأسطى، واللقب الأخير يطلق أصلاً «أسطة»، وهو ربما كان الصيغة المستعملة فى اللهجة الدارجة لكلمة أستاذ، بمعنى الكبير أو الماهر فى صنعته، وكذلك الإسكافى، وهو لقب يرتبط بحرفة قديمة تعنى صانعى النعال. وبين الحرف التى وردت فى البرديات أيضًا «الجبَّاش»، وهى مشتقة من جبش الشعر، يجبشه أى يحلقه وهى تعنى الحلاق أو المزيِّن، و«الدقَّاق» وهو بائع الدقيق أو الطحين، وأحيانًا يستخدم لمن يقوم بدق القماش وتنعيمه، وكذلك «الدهَّان» أى بائع الدهن، ويشمل أيضًا الطلاء بالدهان على الجدران والأسقف وطلاء الأدوات والآنية، وقد كانت للدهانين بيوت خاصة خلف القصر الكبير فى العصر الأيوبى.

وتتردد أيضًا فى البرديات حرفة «الدلال» وهو الوسيط بين البائع والمشترى، وهو ما يعرف فى الوقت الحاضر بالسمسار.

وورد كذلك لفظ «رقَّاص» فى كشوف العمال وإيصالات الجزية والخراج، وهى تعنى فى نصوص البرديات العربية: الشخص الذى يتولى خلط الطين وعجنه وإعداده للبناء.

عشرات الحرف والألقاب التى وردت فى النصوص العربية يتضمنها هذا المجلد الذى يبحث فى جذورها وأنسابها.

كتب أجنبية

State-Owned Enterprises in the Middle East and North Africa

(المشروعات المملوكة للدولة فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا)

Edited by Merih Celasun

Auc Press, 2001, 300PP.



شهدت الفترة التى أعقبت انهيار الاتحاد السوفيتى وسقوط الكتلة الشرقية تسارعًا غير مسبوق فى تطبيق اقتصاديات السوق فى دول العالم النامى إضافة إلى دول أوروبا الشرقية وروسيا بالطبع، وفى مقدمة اقتصاديات السوق الخصخصة ولكن بقدر هذا التسارع العالمى فإن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لم تشهد مثل هذا التسارع، بل كان هناك تباطؤ ملحوظ. وأرجع الخبراء الاقتصاديون هذا التباطؤ إلى عاملين رئيسيين. الأول: العمالة الكثيفة غير المطلوبة فى أحيان كثيرة فى المشروعات المملوكة للدولة بتلك المنطقة، والعامل الثانى هو عدم قدرة اقتصاديات دول هذه المنطقة على خلق فرص عمل بالسرعة الكافية الأمر الذى أثار مخاوف المسئولين من أن الإسراع بالخصخصة من شأنه زيادة معدل البطالة وهو معدل مرتفع من الأساس.

وقد جرى تقسيم هذا الكتاب إلى جزءين الأول يعالج قضايا أساسية بشأن طبيعة الاقتصاد السياسى والمؤسسى فى دول المنطقة. لإيضاح الضغوط المؤيدة والمعارضة لإصلاح وخصخصة المشروعات المملوكة للدولة. ويقدم الجزء الثانى من الكتاب دراسات تطبيقية على مصر والأردن والسودان وتركيا لتوضيح الأدوار المحددة التى تلعبها الدولة والأدوار التى تمارسها جماعات المصالح فى مسيرة إصلاح وخصخصة المشروعات المملوكة للدولة. كما يتضمن هذا الجزء تحليلاً للتأثير السلبى لذلك فى الإنتاجية والإصلاح المالى للقطاع العام الذى يعانى من المشاكل.

والخلاصة التى يتم الخروج بها من الكتاب هى أنه من الضرورى دراسة سياسة الحماية الاجتماعية ومسائل الاستغناء عن العمال وغيرها قبل البدء فى أى مشروع للخصخصة، كما يشير إلى أن زيادة الاستثمارات من القطاع الخاص للمشروعات المملوكة للدولة شرط مسبق للإسراع باندماج اقتصاديات دول الشرق الأوسط وشمال افريقيا فى الاقتصاد العالمى من خلال البرامج ذات العلاقة بالتجارة وإصلاح البنية الأساسية.

ومؤلف الكتاب عميد كلية العلوم الاقتصادية والإدارية والاجتماعية فى جامعة بلكنت فى أنقرة، وقد عمل فى السابق مع البنك الدولى وفى هيئة التخطيط المركزى التركية، وهو عضو فى مجلس الأوصياء فى منتدى البحث الاقتصادى، والمنتدى مؤسسة بحثية إقليمية ومقره القاهرة.

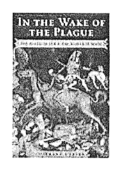
□ □ □

In the Wake of the Plague.. The Black Death and the World at Made

(فى أعقاب الطاعون.. الموت الأسود والعالم الذى صنعه)

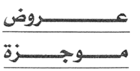
Norman F.Cantor

The Free Press, 2001, 245pp., $25.00,



يعادل «الموت الأسود» الذى تعرضت له أوروبا فى القرن الرابع عشر حربًا نووية، فقد حصد الطاعون الذى استمر من ١٣٥٠ حتى ١٣٥٧ ما يعادل ثلث سكان أوروبا أى ٢٠ مليون نسمة. وقد أحدث صدمات غير مسبوقة فى كل نواحى الحياة من اجتماعية وسياسية واقتصادية بل إنه جعل الناس يتبنون مواقف جديدة إزاء الدين والفلسفة والفن. وهذه المواقف كانت بمثابة المقدمة للتغييرات الشاملة التى عرفتها أوروبا فيما بعد، والتى أطلق عليها اسم عصر النهضة.

وفى كتابه «فى أعقاب الطاعون» يحاول نورمان كانتور أن يوفر للقارىء مسحًا جيدًا للطاعون وتأثيراته. وهو يتناول بشكل تفصيلى تأثيره على الأسر وعلى الأفراد. وأهم ما فى الكتاب العواقب التى سببها الطاعون (الموت الأسود) بشكل خاص على الانجليز، فقد انخفض عدد السكان بشكل درامى وانخفض أيضًا الغذاء الذى يأكلونه، وفى المناطق الريفية ظهر نقص فادح فى العمالة قوض النظام الزراعى آنذاك، فقد طالب المزارعون الأجراء بزيادة كبيرة فى أجورهم من ملاك الأراضى، الأمر الذى كان يحدث



اضطرابات شديدة. ويقول المؤلف أن أعظم انتفاضة عمالية قبل القرن ١٨ حدثت في عام ١٣٨١ في انجلترا وكان من الممكن - حسب قوله - أن تؤدى إلى استيلاء الطبقة العاملة على الحكومة وتقيم نظامًا اشتراكيًا إلا أنه بسبب سذاجة الفلاحين وعدم نضجهم السياسي لم يتحقق هذا الحلم. وكنتيجة لذلك، فإن التأثير الاجتماعي الرئيسي للموت الأسود لم يكن زيادة أهمية الفلاحين بل اتساع رقعة الاستقطاب الاجتماعي والطبقي بينهم وبين النبلاء. الأمر الذي يشكل مقدمة لاقتصاد رأسمالي مبكر. إن الفجوة بين الأغنياء والفقراء في كل قرية انجليزية اتسعت بشكل كبير. واستغل ملاك الأراضي الظروف التي أوجدها الطاعون ليراكموا ثرواتهم وليعيش الفلاحون نتيجة لذلك في أحوال مزرية.

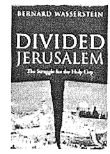
ويشير المؤلف إلى أن المأساة الكبيرة والهائلة التي تعرض لها الناس في أوروبا نتيجة الطاعون أفقدت كثيرين منهم قوة الإيمان بالكاثوليكية وظهرت تساؤلات وتفسيرات تحاول فهم الطبيعة الإنسانية والسلوك البشري.

□ □ □

Divided Jerusalem.. The Struggle for the Holy City

(القدس المقسمة.. الصراع على المدينة المقدسة)

Bernard Wasserstein
Profile, 412PP, £20, 2001



عندما قام أريل شارون رئيس وزراء إسرائيل الحالي بزيارة الحرم الشريف مستفزًا مشاعر المسلمين في فلسطين، فإنه تسبب بشكل مباشر في تفجير الانتفاضة التي حصدت أرواح مئات الفلسطينيين برصاص الجنود الإسرائيليين المحتلين. وقد أعادت الانتفاضة قضية القدس إلى الواجهة.

ويقول المؤلف أنه بينما يكرر شارون دائمًا أن القدس ستبقى عاصمة أبدية لدولة إسرائيل، فإن المدينة مقسمة بشكل فعلي ويشير إلى أن القدس أكثر انقسامًا من جوهانسبرج قبل ٢٠ عامًا عندما كانت في ظل الحكم العنصري للبيض في جنوب أفريقيا. إن الانقسام واضح في شتى مناحي الحياة ويكفي حسب المؤلف أن تقوم بإيقاف سيارة أجرة في الجزء الغربي من القدس الذي يقطنه أغلبية من اليهود وتسأل سائقها أن يذهب بك إلى الجزء الشرقي وعندئذ ستجد رد فعل غاضبًا للغاية وعدم رغبة في الذهاب إلى الجزء الشرقي الذي يعيش فيه الفلسطينيون.

ويركز المؤلف في كتابه على وضع القدس منذ الانتداب البريطاني على فلسطين عام ١٩٢٠. ويقول أن البريطانيين أقاموا الانتداب في فرحة وسعادة لكنهم تخلوا عنه قبيل قيام إسرائيل عندما شعروا باليأس والإحباط. ولم يتمكن الإسرائيليون من الاستيلاء على المدينة بأكملها سوى نتيجة لحرب يونيو ١٩٦٧.

ويشير إلى أنه منذ ١٩٦٧ أصبحت القدس نقطة شائكة للغاية بالنسبة للجانبين العربي والإسرائيلي في الصراع. وقد نشط الإسرائيليون في إضفاء الطابع اليهودي على المدينة لإنهاء حق الفلسطينيين في المطالبة بها.

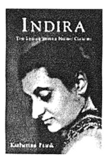
ومن خلال استعراض لشتى نواحي المدينة الديموجرافية والثقافية والاقتصادية والسياسية يتساءل المؤلف في النهاية: هل يمكن حل قضية القدس، ويشير إلى أن اللغة التي يتم الحديث بها عن مشكلة القدس، وكيفية حلها تظهر عدم القدرة على الحل فما يتم التحدث به هو الصراع.. والصراعات، حسب رأيه ليس لديها إجابات أو حلول. إن الصراع على القدس يبدو أنه سيستمر لوقت طويل، كما أن التنبؤ بنتيجة هذا الصراع سيكون مجرد افتراض غير مبني على أسس قوية.

□ □ □

Indira.. The Life of Indira Nehru Gandhi

(أنديرا.. حياة أنديرا نهرو غاندي)

Katherine Frank
Harper collins, 454PP, $19.95, 2001



في مناخ يعيد إلى الأذهان رد الفعل الإيراني على كتاب آيات شيطانية للكاتب البريطاني الجنسية الهندي الأصل سلمان رشدي، صادرت سلطات إحدى الولايات الهندية نسخ مجلة تحتوي على مقتطفات من كتاب صدر للمؤلفة البريطانية كاثرين فرانك عن سيرة حياة أنديرا غاندي رئيسة الوزراء الهندية الراحلة. وقد تم حرق نسخ أخرى من الكتاب على أساس أن المؤلفة تشوه سمعة أنديرا غاندي.

الكتاب يدعي تورط أنديرا في علاقات غير شرعية، وقد أغضب ذلك سونيا غاندي زعيم حزب المؤتمر الهندي وأرملة راجيف غاندي رئيس الوزراء الراحل ونجل أنديرا. وقد فوضت سونيا محامين في الحزب لإقامة دعوى ضد المؤلفة.

نقطة الجدل الرئيسية في الكتاب إشارة المؤلفة إلى الشائعات التي ذكرت أن والدة أنديرا وكانت تدعى كمالا نهرو كانت على علاقة بفيروز زوج أنديرا الذي توفي عام ١٩٦٠. وبينما كانت هناك نميمة على مدى سنوات طويلة عن علاقات أنديرا غير الشرعية، فإن هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها ذكر هذه المعلومات عن كمالا.

وتشير المؤلفة، التي استمرت ٦ سنوات في جمع معلومات الكتاب، إلى أن الشائعات تركز على علاقة خاصة بين أنديرا وماتهاي المساعد الخاص لوالدها نهرو أول رئيس لوزراء الهند المستقلة وتدعي المؤلفة أن هذا المساعد نشر سيرة حياته في السبعينيات من القرن الماضي لكن جرى سحب فصل منها بعنوان «هي» أعطى فيه تفاصيل عن علاقة استمرت ١٢ عامًا. ويتناول الكتاب أيضًا العلاقة المزعومة بين أنديرا ومدرس اليوجا الخاص بها.

وصرح متحدث باسم دار نشر هاربر كولينز التي أصدرت الكتاب بأن محتويات الكتاب - حسب قوله - ليست هي التي فجرت الغضب الهندي بل الطريقة التي تم بها عرض الكتاب في الهند.

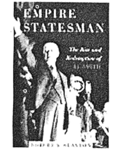
ومن جانبها، فإن المؤلفة أصدرت نفيًا شديدًا للاتهامات بأن كتابها غير دقيق. وقالت أنها تشعر بثقة بشأن المجهود الذي بذلته في الكتاب مشيرة إلى أنها وصفت العلاقة بين زوج أنديرا ووالدتها بأنها شائعة. وأضافت أنها أوضحت أيضًا أنه من غير المرجح بشكل كبير وجود علاقة بين أنديرا وأي شخص آخر ربما باستثناء مساعد والدها. وقد ذكرت أن هناك دليلاً قويًا لتأييد ذلك.

□ □ □

Empire Statesman.. The Rise and Redemption of Al Smith

(رجل دولة امبراطوري.. صعود وافتداء آل سميث)

Robert A.Slayton
Free Press, 2001 400pp., $ 30.00.



ضمن أمور كثيرة أخرى، أظهرت الانتخابات الرئاسية الأمريكية في أكتوبر الماضي مدى الانقسام الشديد في المجتمع الأمريكي سياسيًا وثقافيًا فقد فاز جورج بوش الابن بالجنوب والغرب وأبلى بلاء حسنًا في المناطق الريفية وبين الناخبين المحافظين. أما آل جور فقد حصد أصوات سكان الساحلين الأمريكيين والمدن الكبرى والأقليات والناخبين العلمانيين.

ويقول مؤلف هذا الكتاب روبرت سلايتون أن ذلك ليس جديدًا في مثل هذه الانقسامات عميقة الجذور في المجتمع الأمريكي. ومن خلال سيرة حياة حاكم نيويورك السابق آل سميث يشير إلى أنه في أوائل القرن العشرين حدثت تغيرات عميقة في الولايات المتحدة بما في ذلك هجرة أكثر من ٢٠ مليون شخص أغلبهم من الكاثوليك واليهود. كما حدثت توسعات كبيرة في السكن الحضري. وقد فتح ذلك الباب أمام انقسام ثقافي واسع، فمن ناحية هناك المناطق الريفية والبروتستانتية حيث تزدهر الأصولية الدينية ومن ناحية أخرى هناك - كما يقول المؤلف - «أمريكا الأخرى» التي يمثلها رجال مثل آل سميث.

ولد آل سميث في أسرة ذات أصول أيرلندية وإيطالية وألمانية عام ١٨٧٣ في حي مانهاتن بنيويورك. وخرج من المدرسة وهو في سن الرابعة عشرة لمساعدة والدته الأرملة. وبعد ذلك سيفتخر آل سميث بين السياسيين بأنه عمل في سن المراهقة في سوق السمك. ويصور المؤلف عالم آل سميث في مانهاتن والانقسامات الشديدة في الحي الكبير. كما يتناول طريقه في عالم السياسة وعضويته في مجلس المدينة والشعبية التي حصل عليها عندما رأس لجنة تحقيق في وفاة ١٤٦ شخصًا في حريق بمصنع ملابس، وأصبح بعد ذلك رئيسًا للمجلس ثم حاكمًا لنيويورك عام ١٩١٨. وقد أحاط الحاكم نفسه بمجموعة من الشباب ذوي العقلية الممتازة، الأمر الذي ساعده على النجاح ومحاولة لعب دور على المستوى الأمريكي كله.

وقد رشح آل سميث نفسه في انتخابات عام ١٩٢٨ الرئاسية وحصل سميث على ترشيح الحزب الديمقراطي له ليصبح أول مرشح كاثوليكي يحظى بذلك، لكن الانتخابات كانت - كما يقول المؤلف - بمثابة إعلان حرب ليس فقط على سميث بل على الأجانب خاصة الأيرلنديين من جانب المحافظين والبروتستانت وقد خسر سميث في هذه الانتخابات أمام هوفر. ويتناول المؤلف حياة سميث السياسية بعد خسارته ومعارضته لما سمي بالصفقة الجديدة التي طرحها الرئيس فرانكلين روزفلت. ويضيف المؤلف أن سميث يذكرنا أن الانقسامات الثقافية داخل أمريكا ستظل دائمًا موجودة.

□ □ □

قـــــراءات جـــــديـدة

أدب رحلات

Journey to Portugal: In Pursuit of Portugal's History and Culture

(رحلة إلى البرتغال: بحثًا عن ثقافة وتاريخ البرتغال)

Jose Saramago

Harcourt, 2001, 452pp., $ 30.00

كتب شاعر البرتغال خوزيه سارامجو الفائز بجائزة نوبل هذا الكتاب منذ عشرين عامًا قبل أن يترجم إلى الإنجليزية هذا العام. وقد كتبه بعد ستة أشهر من تجواله بين مدن وقرى البرتغال، محاولاً إلقاء الضوء على تاريخها وثقافتها الخاصة فى ذلك الوقت، بلغته الشاعرية الخاصة.

■■■

An Unexpected Light: Travels in Afghanistan

(ضوء غير متوقع: رحلات فى أفغانستان)

Jason Elliot

Picador, 2001, 473pp., $ 30.00

يتخطى هذا الكتاب مجرد الكتابة الأدبية الجميلة، أو السرد المشوق لوقائع رحلة فى بلاد عجيبة. فهو يقدم نظرة عميقة فى ثقافة وشعب وتاريخ أفغانستان. وقد رحل المؤلف إلى أفغانستان ثلاث مرات على مدى العشرين عامًا الماضية. فى المرة الأولى عام ١٩٧٩ اشترك المؤلف مع المجاهدين الأفغان فى مقاومتهم لاحتلال الاتحاد السوفيتى. وفى المرة الثانية بعدها بعشر سنوات، كان شاهدًا على القتال بين الطالبان وحكومة شاه مسعود. يصف المؤلف بحنين تلك البلاد التى أحبها والشعب الذى احترمه، إلا أنه يرثى لحاله ويشعر بالأسف لما ضاع منه.

■■■

The Flaneur: A Stroll Through the Paradoxes of Paris

(المتسكع: تمشية بين تناقضات باريس)

Edmund White

Bloomsbury, 2001, 211pp., $ 16.95

يكتب الأديب الأمريكى إدموند وايت عن مدينة باريس التى عاش فيها أكثر من خمسة عشر عامًا فى الثمانينيات والتسعينيات. وقد عمل وايت مراسلاً لمجلة فوج الأمريكية فى باريس. ويعلن فى مستهل هذا الكتاب أن الأمريكيين غير مؤهلين لأن يكونوا متسكعين، أى جوالين بلا هدف لأنهم منشغلون بكيفية تعظيم الاستفادة من الوقت.

اقتصاد

دور البنوك فى مكافحة غسيل الأموال

جلال محمدين

الكويت: بنك الكويت الصناعى، ٢٠٠٠

يضع المؤلف البنوك فى قفص الاتهام، ويعتبرها شريكًا فى جرائم غسيل الأموال، ويقدم مبرراته، كما يقدم مقترحاته للدور الذى يمكن أن تلعبه البنوك فى مقاومة هذه العملية التى تهدد الاقتصاد العالمى.

■■■

The Insatiability of Human Wants: Economics and Aesthetics in Market Society

(الرغبات الإنسانية التى لا تشبع: الاقتصاد وعلم الجمال فى مجتمع السوق)

Rigenia Gagnier

Chicago U.P, 2001, 255pp., $ 35.00

بينما ينشغل علماء الاقتصاد بأمور عملية مثل الإنتاج والاستهلاك والاستثمار والربح، يهتم علماء أو فلاسفة الجمال بالحق والجمال والذوق، مما يعنى الافتراق التام بين المنهجين. ولكن هناك خيطًا يجمع هذين الفرعين وهو البحث عن «القيمة».

تقوم المؤلفة فى هذا الكتاب بتوضيح هذا الجسر عبر استعراض تاريخ الفكر الاقتصادى وارتباطه بالقيم الجمالية والفنية السائدة فى كل عصر.

■■■

Basic Economics: A Citizen's Guide to the Economy

(أساسيات الاقتصاد: دليل المواطن العادى للاقتصاد)

Thomas Sowell

Basic Books, 2000, 432pp., $30.00

الكتاب يشرح للمواطن العادى كيف يعمل الاقتصاد فى الدولة، لكى يتفهم ما يحدث من حوله ولكى يستطيع بوعى أن يشارك سياسيًا من خلال الانتخاب.

بيئـــة

البيئة والمشكلة السكانية

حسن أحمد شحاتة

القاهرة: مكتبة الدار العربية، ٢٠٠١

صارت البيئة همًا عالميًا فى ظل العولمة، والمخاطر التى تهدد البيئة وكوكبنا «الأرض»، يتسبب فى أكثرها الدول المتقدمة صناعيًا وخصوصًا الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن البشرية جميعها تدفع الثمن. المؤلف يتناول الأخطار التى تهدد البيئة، سواء منها الطبيعة مثل الجفاف والفيضانات المدمرة، أو تلك التى من صنع البشر.

■■■

Fifty Key Thinkers on the Environment

(خمسون مفكرًا رئيسًا فى شئون البيئة)

Joy A. Palmer (editor)

Routledge, 2001, 288PP, $ 16.95

اشترك أكثر من عشرين خبيرًا فى تلخيص وتقديم الأفكار المتعلقة بالبيئة لخمسين شخصية مختلفة من الأزمنة القديمة وحتى الوقت الحالى.. تضم القائمة فلاسفة ورجال دين مثل جان جاك روسو وسبينوزا وجوته وبوذا، كما تضم علماء وأدباء، ونشطاء من مختلف أنحاء العالم.

تـــاريــخ

فرسان الأمل

فاروق القاضى

القاهرة: مركز البحوث العربية، ٢٠٠١

الفرسان الذين يقصدهم المؤلف هم الطلاب، وقد لعبت الحركة الطلابية دورًا كبيرًا فى توجيه مجريات الأحداث فى العالم كما فى مصر، والمؤلف هنا يتتبع تاريخ الحركة الطلابية وقدرتها على توجيه الأحداث فى انعطافات مهمة فى التاريخ المصرى.

■■■

مجتمع القاهرة السرى

عبد الوهاب بكر

القاهرة: دار العربى للنشر والتوزيع، ٢٠٠١

يتجول المؤلف فى شوارع القاهرة القديمة التى ضمت بيوتًا للدعارة، ويجرى حوارات مع نسوة حضرن تلك الأيام وسكَنّ تلك الشوارع، ويلقى أضواء على ملفات من أجهزة الشرطة تضمنت تحقيقات وقضايا لمن امتهن أقدم مهنة فى التاريخ، وكذلك يشير إلى القوانين التى نظمت العمل فى البغاء منذ عام ١٩٢٦ وحتى عام ١٩٥٢، وخلاصات لأهم الأبحاث الجامعية فى الموضوع.

■■■

Arab Nationalism: A History:Nation and State in the Arab World

(تاريخ القومية العربية: الأمة والدولة فى العالم العربى)

Youssef M. Choueiri

Blackwell, 2001, 272pp., $ 60.00

تتناول هذه الدراسة القومية العربية كحركة تاريخية وعقيدة فى نفس الوقت، وتضم استعراضاً لمختلف الآراء المتباينة عن نشأتها وطبيعتها وأهميتها الثقافية. ويحدد المؤلف أربع مراحل فى تطور الفكر القومى العربى. المرحلة الثقافية والمرحلة السياسية والمرحلة الاجتماعية وأخيرًا المرحلة الراهنة.

■■■

In Defense of Honor: Sexual Morality, Modernity and Nation in Early Twentieth- Century Brazil

(دفاعًا عن الشرف: الأخلاق الجنسية والحداثة والأمة فى أوائل القرن العشرين فى البرازيل)

SueAnn CaulField

Duke University Press, 2001, 312pp.

تتعرف المؤلفة من خلال القضايا التى كانت تعرض على المحاكم البرازيلية فى أوائل القرن العشرين، على التغير والتعقد الأخلاقى والاجتماعى الذى حدث فى البرازيل أثناء عملية التحديث السريعة التى كانت تجرى فى ذلك الوقت.

دراسات المرأة

المرأة العربية.. رؤى سوسيولوجية

عفاف عبد المعطى

القاهرة: المركز المصرى للدراسات والبحوث الإعلامية، ٢٠٠١

تفرّق الكاتبة بين مصطلحى النقد النسوى والنقد النسائى، وتلقى أضواءً على صورة المرأة فى المجتمع من خلال نصوص لمجموعة من الكاتبات العربيات، اللائى عكسن فى أعمالهن حالة الإجحاف والإبعاد التى تعانيها المرأة تاريخيًا وحتى اليوم.

■■■

Manifesta: Young Women, Feminism, and the Future

(النساء الصغيرات، والنسوية والمستقبل)

Jennifer Baumgardner, Amy Richards

Farrar Straus, & Giroux, 2000, 416pp., $15.00

يقدم هذا الكتاب أفكار جيل «الموجة الثالثة» من النسوية فى الغرب. ويتوجه أيضًا لنفس هذا الجيل الجديد، أى النساء فى العشرينيات أوالثلاثينيات من عمرهن.

ويتعرض هذا الجيل باستمرار لهجوم ونقد من أجيال الموجتين النسويتين الأولى والثانية اللائى ناضلن بعنف من أجل المساواة، بينما ينظر العمل النسوى إلى أعضاء الجيل الحالى من النساء باعتبارهن تخلين عن النسوية متمتعات بما تحقق لهن فى السابق. تنفى المؤلفتان هذا الاتهام شارحتين أنه تم استحداث أساليب جديدة تواجه مشاكل جديدة برزت فى هذا العصر.

رواية وقصص

اعترافات عربى طيب

يوراك كانيوك

ترجمة: عدنان حسن

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٠

رواية تختلط فيها السيرة الذاتية بالنهج الروائى، لكن المعنى الذى يقدمه يشير إلى مأزق انتماء، حيث يتزوج العربى الطيب بيهودية وينجب منها، ويضطر بفعل الاضطهاد النازى لليهود فى ألمانيا أن يعيش فى إسرائيل، وهناك يتم إقصاؤه معنويًا، وهو الذى سعى دومًا إلى تأكيد ولائه وصلاحيته للعيش بينهم، وهكذا يرفض الإسرائيليون حتى العربى «الطيب» كما يسمى الراوى أو المؤلف نفسه، وإن كانت لدينا تسمية أخرى لطيبته.

■■■

أيقونة الفن

جورج بهجورى

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠١

جزء ثان من سيرة جورج بهجورى الفنان الذى عاش، جل حياته الفنية فى باريس، الجزء الأول صدر فى عنوان «أيقونة فلتس»، وهو الجزء الذى تناول فيه بداياته ودراسته الفنية وعلاقاته وأصدقاءه، وفى هذا الجزء يركز على الفن بالذات، الأساتذة الذين تعلم على أيديهم ثم إنجازاته ورؤاه للمدارس الفنية المختلفة.

■■■

خشخاش
سميحة خريس
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

رواية تغوص في أعماق امرأة اعتمادًا على المنولوج الداخلي، سعيًا إلى سبر أغوار تعقيداتها النفسية وتقلباتها الحادة بسبب وضعية المرأة في مجتمعاتنا الشرقية عمومًا والنظر إليها ككائن أدنى، وشروط قبولها في المحيط الاجتماعي حتى بين النسوة أنفسهن، خصوصًا إذا لم تسر حياتها وفقًا للسيناريو المعد سلفًا من قبل الأبوين.

■■■

صخور السماء
إدوارد الخراط
القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١

تدور أحداث الرواية في مدينة أخميم بصعيد مصر، وتعرض للحياة هناك خلف الأبواب وداخل أديرة الرهبان والأساقفة، وهي بذلك تنضم إلى نصوص روائية قليلة تعرض لحياة الأقباط في مصر.

■■■

ضوء مهتز
منصورة عز الدين
القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠١

مجموعة قصصية هي الأولى لكاتبتها التي تنهل من معين الطفولة وذكرياتها الحميمة التي تضفي أجواءً حميمية على تجربتها القصصية وتنبئ بموهبة جديدة واعدة.

■■■

Dreamcatcher
(صائد الأحلام)
Stephen King
Scribner, 2001, 20pp., $ 28.00

أصيب «ستيفن كينج» مؤلف روايات الإثارة الأكثر مبيعًا في العالم في يونيو من عام ١٩٩٩ في حادث سيارة أحدث له عدة كسور جسيمة. وروايته الأخيرة «صائد الأحلام» هي الرواية الطويلة الأولى التي يصدرها كينج بعد تلك الحادثة. وعلى عكس ما توقع بعض القراء والنقاد لم تتأثر قدرة كينج على الإثارة والتشويق بعد الحادث، بل الأمر الطريف أن الرواية الجديدة تحتوي أيضًا على شخصية تعاني من كسور بسبب حادث سيارة.

■■■

The Siege of Isfahan
(حصار أصفهان)
Jean Christophe Rufin
Norton, 2001, $ 26.95

تبدأ رواية جون كريستوف رفان بعد عشرين سنة من زمن انتهاء روايته السابقة «الإثيوبي»، أي بعد أن نجح البطل «جون بابتست بونسيه» في إنقاذ أثيوبيا من براثن لويس الرابع عشر. وقد أصبح يعيش مستقرًا مع زوجته وابنه في أصفهان عاصمة فارس حيث يعمل كطبيب في بلاط الشاه. وتدور أحداث الرواية مع سفره إلى روسيا بحثًا عن صديق، ثم بيعه كعبد في أفغانستان، وتنتهي بغزو أفغانستان لفارس.

سيـــاســـة

إسرائيل والولايات المتحدة
أحمد سليم البرصان
أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٠

حول المسكوت عنه في العلاقات الإسرائيلية الأمريكية، والمعلن من تحالفات اقتصادية وعسكرية ومساندة أمريكية إلى حد تبني المواقف الإسرائيلية كاملة والدفاع عنها في كل محفل، ودور الدولتين في عرقلة مسيرة السلام.

■■■

أفغانستان.. السياسة الغائبة والسلام المسلح
محمود المستيري وصالح عطية
تونس: دار الجنوب للنشر، ٢٠٠٠

مازالت أفغانستان تشغل العالم، في البداية بكفاحها المشرِّف ضد الاحتلال الروسي، ثم بعد ذلك بالنزاعات المسلحة الدامية بين فصائل المجاهدين، ثم أخيرًا باستيلاء حركة طالبان على السلطة هناك والمشكلات التي تثيرها بين فترة وأخرى، المؤلفان يعرضان للمسألة الأفغانية في جوانبها المختلفة، وعلاقتها بجيرانها في آسيا الوسطى، وجذور المشكلات الأفغانية والحلول المطروحة لتجاوزها.

■■■

الاتجاهات الوحدوية في الفكر القومي العربي المشرقي
هادي حسن عليوي
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠

يعتمد الكتاب على الوثائق الأصلية الخاصة بالمشاريع الوحدوية والأعمال التي درست الفكر القومي والدوريات الحزبية في دراسته للاتجاهات الوحدوية، في فترة اتسمت بمقاومة الاستعمار والعداء للأجنبي وانفراج المد الوطني.

■■■

الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية
جمال باروت وآخرون
القاهرة: المركز العربي للدراسات، ٢٠٠٠

عن تاريخ الأحزاب والحركات التحررية في الوطن العربي، وكذلك نشأة وتطور الجماعات الإسلامية في عشرينيات القرن الماضي، وتأثيرها على السياسة في الوطن العربي، وعلاقتها بالأحزاب السياسية شدًا وجذبًا.

■■■

التسوية.. أي أرض أي سلام
محمود عبد الفضيل
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠١

حين وصلت التسوية إلى نقاطها الحاسمة، وبدا للإسرائيليين أنهم سيدفعون ثمنًا لم يتوقعوه لبلوغها، سارعوا فورًا إلى تفجير الموقف برمته، وهدم التسوية من أساسها ورفض الاحتكام إلى أية مرجعية أو الاعتراف بأية مواثيق، اللهم إلا قوانين الأمر الواقع التي تمنح إسرائيل الأرض والسلام والأمن معًا، دون أن تضطر إلى دفع شيء في المقابل، هذا هو ما يناقشه المؤلف.

■■■

القدس.. من العهدة العمرية إلى كامب ديفيد الثانية
وليد الخالدي
فلسطين: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

يقدم المؤلف في كتابه استعراضًا تاريخيًا وسياسيًا وسكانيًا لمدينة القدس، وهي سيرة توضح كيف كانت الأوضاع في القدس المحتلة منذ الفتح الإسلامي لها وحتى كامب ديفيد الثانية مرورًا بالحكم العثماني والانتداب البريطاني، حيث بدأت في المرحلة الأخيرة الأطماع الإسرائيلية التي انتهت بابتلاع المدينة.

■■■

شارون.. مجرم مذبحة الأسرى المصريين كيف يكون مفاوضًا للسلام؟
جابر عبد السلام
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

السؤال منطقي جدًا ومطروح بقوة على مستوى الخبراء السياسيين والمراقبين وعلى مستوى الشارع العربي، فتاريخ شارون الدموي لا يعطي بارقة أمل في إمكان تحوله باتجاه السلام والعمل على إرساء دعائمه، هذا ما يؤكده المؤلف الذي يتتبع تاريخ شارون ومواقفه لينتهي إلى معاداته الأكيدة للنهج السلمي.

■■■

شمعون بيريز.. الرحلة الخيالية مع تيودور هرتزل إلى إسرائيل
تعريب: يوسف ضومط
عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠١

رسالة يخفي بيريز عبرها نواياه السياسية خلف غلالة أدبية وأسطورية، لكن أدبه كما يتبدى هنا مشبع بالأيدلوجيا إلى درجة تحيله إلى تقرير دعائي سياسي ساذج، لكن المتلقي العربي سيكشف فورًا ما وراءه من أهداف تتعارض مع التاريخ والحق حتى وإن حملتها رمزية الأدب.

■■■

Beyond The Handshake: Multilateral Cooperation in the Arab-Israeli Peace Process
(ما وراء المصافحة: التعاون متعدد الأطراف في عملية السلام العربية - الإسرائيلية)
Dalia Dassa Kaye
Columbia University Press, 2001, 256pp., $45.00

دراسة موسعة لعملية التعاون متعدد الأطراف في الشرق الأوسط والذي بدأ في عام ١٩٩١ في مؤتمر مدريد للسلام. تتناول المؤلفة وهي أستاذ مساعد في العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة جورج تاون، تطور العلاقات العربية الإسرائيلية بعد حرب الخليج. وعلى خلاف المفاهيم التقليدية للتعاون الدولي، ترى المؤلفة أن التعاون متعدد الأطراف في الشرق الأوسط يجب أن يفهم على أنه عملية للتفاعل أكثر منه محاولة للتوصل لمجموعة نتائج.

ســـــينما

سؤال الذات.. سينما يسري نصر الله
نديم جرجورة
بيروت: جماعة شمس، ٢٠٠١

عن سينما المخرج يسري نصر الله وأفلامه المؤثرة والمهمة على قلّتها، وتأثره بأسلوب يوسف شاهين وعالمه السينمائي، يقدم المؤلف رؤية نقدية لأفلام يسري نصر الله «سرقات صيفية» و«مرسيدس» و«المدينة».

■■■

Stars and Stardom in French Cinema
(النجوم والنجومية في السينما الفرنسية)
Ginette Vincendeau
Continum, 2001, 275pp., £16.99

تحلل هذه الدراسة اختلاف النجومية في السينما الفرنسية عنها في السينما الأمريكية. كما تتناول دور النجم في كل من السينما الجماهيرية، حيث يكون الفيلم مجرد حامل للنجم، وخطر النجومية في السينما الفنية التي تتطلب خضوع النجم للمخرج / المؤلف.

كذلك يستعرض الكتاب عشرة نجوم ونجمات من السينما الفرنسية محللاً تأثيرهم على الجمهور الفرنسي والعالمي، منهم: ماكس ليندر، وجان مورو، وجيرار ديبارديو، وكاترين دونوف، وجوليت بينوش وغيرهم.

■■■

A Century of Films
(قرن من الأفلام)
Derek Malcolm
Taurus, 2001, 184pp., £9.99

مؤلف الكتاب ناقد سينمائي بريطاني مخضرم، وله عمود أسبوعي في صحيفة «الجارديان» منذ سنوات طويلة. وفي هذا الكتاب يكتب ديريك مالكوم عن أحب مائة فيلم إلى قلبه وأفضلها من وجهة نظره. لذلك تأتي أغلب محتويات قائمته من الأفلام التي صنعت بين الأربعينيات والسبعينيات، ولا يوجد سوى ثمانية أفلام من تلك المصنوعة بعد عام ١٩٨٠.

شـــــعـــر

حياة عادية
محمد صالح
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠١

ديوان جديد لصاحب «صيد الفراشات» ١٩٩٦ هو الرابع في نتاجه الشعري، الديوان سبعة أقسام ترصد محطات في حياة الشاعر ونشأته الريفية.

■■■

لابد من خيانة
عمر طاهر
القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠١

قصائد عامية تستعيد قيمًا جمالية عذبة، ومؤلفها الشاب امتداد لسلسال طويل من شعراء العامية المصريين، وهو يقدم قصائده لجمال عبد الناصر وصلاح جاهين وبليغ حمدي وغيرهما من الشخصيات التي أثرت حياتنا في كل المجالات.

عمـــارة

فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري
مصطفى بن حموش
دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ٢٠٠١

تميزت العمارة الإسلامية عن سابقاتها، وهي تعد جزءًا أصيلاً من التراث الإسلامي في الفنون والآداب، وبرغم التباين في أساليب العمارة من بلد إلى آخر ومن منطقة جغرافية إلى أخرى، فإن العمارة الإسلامية حملت سماتها في كل منطقة من تلك المناطق، ويتضمن الكتاب أيضًا معجمًا لأهم مصطلحات العمران الإسلامي التي تم استخلاصها من مخطوطات الأرشيف الوطني في الجزائر.

■■■

Architectural Reflections: Studies in the Philosophy and Practice of Architecture
(ملاحظات معمارية: دراسات في فلسفة وممارسة العمارة)
Colin St John Wilson
Manchester U.P., 2001, 240pp., £19.99

صدر هذا الكتاب لأول مرة قبل ثمانية أعوام. ولكن خلال هذه الأعوام تبدلت سمعة المؤلف بعد أن قام بتصميم «المكتبة البريطانية». فعلى غير العادة، أدى الإعجاب بأعماله المعمارية إلى زيادة الطلب على نظرياته.

ويهتم ويلسون بقضيته الوظيفية في المقام الأول. وهو يطالب المصمم المعماري بالتمسك بقدر من المسئولية والواجب العام، بمعنى أنه عليه أن يعبر عن ذاته على ألا يكون ذلك على حساب القيم العامة والوظيفة المطلوبة من البناء.

■■■

Recycled Spaces: Converting Buildings into Homes
(إعادة تدوير المساحات: تحويل المباني إلى منازل)
Vinny Lee
Ray Main (Photographer)
Soma Books, 2000, 144pp., $35.00

يقدم الكتاب خبرة المشروعات التي قامت بتصميم منازل وشقق سكنية جميلة من مبان قديمة أنشئت في الأصل كدور عبادة أو كمصانع أو كمبان تجارية أو حكومية.

■■■

In the Company of Stone: The Art of the Stone Wall
(فن الجدار الحجري)
Daniel Snow
Peter Mauss (Photographer)
Artisan, 2001, 128pp., $35.00

المؤلف فنان متخصص في بناء الجدران والمصاطب والكهوف الحجرية، وهو فن قديم يعود إلى العصور الأولى ويستمر الآن على نطاق فني ضيق. وهو يعتمد فقط على ما تنتجه الأرض من مواد طبيعية، بدون مسامير أو أسمنت، فلا شيء يمسك ما يقوم ببنائه سوى الجاذبية الأرضية وملاحظته الدقيقة لتجاويف كل حجر.

عـــلوم

الإيمان والتقدم العلمي
خالص جلبي
بيروت: دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٠

يتيح كتاب الكون المفتوح لمن يريد أن يتعرَّف على عظمة الخلق، وفي كل يوم تتكشف أسرار وحقائق جديدة عن الإنسان والطبيعة، تزيد من قناعة الإنسان بقدرة الخالق، المؤلف يبحث في نشأة الكون والتاريخ الجيولوجي للأرض والكواكب، وأهم الكائنات التي وجدت على كوكبنا، وكيف تطورت لتواكب تطور الحياة والطبيعة ذاتها.

■■■

The Ape and the Sushi Master: Cultural Reflections by a Primatologist
(ملاحظات ثقافية لعالم الحيوان)
Frans de Waal
Basic Books, 2001, 433pp., $26.00

المؤلف، وهو من أشهر أساتذة سلوك الحيوانات الرئيسية وهي تلك الفصيلة من الثدييات المتطورة التي تشمل الإنسان والقرد، ينفي الفرض القائل بأن الإنسان يتميز عن الحيوان بالثقافة أو السلوك المتعلم من الآخرين.

فمن خلال ملاحظاته ودراساته التي امتدت لأكثر من ثلاثين عامًا، يؤكد العالم أن القردة تقوم أيضًا بتدريب صغارها على أنماط مختلفة من المهارات الاجتماعية.

■■■

Mauve: How One man Invented a Color that Changed the World
(البنفسجي الزاهي: كيف اخترع رجل واحد اللون الذي غير العالم)
Simon Garfield
W.W. Norton, 2001, 222pp., $23.95

في عام ١٨٥٦ اخترع شاب إنجليزي أول صبغة صناعية في التاريخ، قبل هذا كانت مجموعة الألوان القليلة المستخدمة في الصباغة منتجة من عناصر طبيعية مثل الخضروات والنباتات والحشرات والأسماك القشرية.

وحين قام وليام هنري بركين باختراع صبغة اللون «الموف» أو ذلك المزيج من الأرجواني والبنفسجي بعملية كيمائية، كان ذلك بمثابة فتح علمي وصناعي جديد. وفي القرن العشرين وبسبب فكرة بركين الجديدة أصبح يوجد أكثر من ٢٠٠٠ لون صناعي. أما الآن وبسبب الثورة الرقمية، فأصبح من الممكن استخراج أكثر من ١٦ مليون درجة لونية مختلفة.

فكـــــر

المعرفة والسلطة في المغرب
ديل إف. إيكلمان
ترجمة: محمد أعفيف
المغرب: مركز طارق بن زياد للدراسات والأبحاث، ٢٠٠٠

العلاقة بين المثقفين أو من نالوا قسطًا معقولاً من التعليم والسلطة إشكالية دائمًا، والمؤلف هنا يعرض لهذه العلاقة من خلال قصة حياة قاض، يشير من خلالها إلى مرحلة مهمة ازدهر فيها التعليم في المغرب بفضل تشجيع الخلفاء والأمراء، وتوفيرهم كافة التسهيلات الممكنة لطلاب العلم، وإيفادهم في بعثات إلى الخارج، وحين هبط الاستعمار الفرنسي أدرك المكانة المهمة التي يحتلها الفقهاء والعلماء، وسعى الفرنسيون إلى استغلال هذه المكانة في التأثير على العامة وإقناعهم بمزايا المستعمر، وقد استجاب بعض الفقهاء لهذا الإغراء فيما رفضه آخرون.

■■■

المختلف والمؤتلف
جميل قاسم
بيروت: منشورات الآن، ٢٠٠١

يسعى المؤلف إلى بلورة فكر عربي جديد ومعاصر، عمادة ديمقراطية حقيقية، وهي - أي الديمقراطية - ربما كانت الفريضة الغائبة عن عالمنا العربي كله، والرؤى النقدية التي يتبناها المؤلف ويسعى إلى أن تسود بين مفكرينا، هي القادرة على تبديل الواقع العربي إلى الأفضل.

■■■

المصطلحات السياسية في الإسلام
حسن الترابي
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١

يقدم الترابي شروحًا لمفاهيم ومصطلحات شاع استخدامها في السياسة والحياة العامة، أو أنه يصوغ مقابلاً إسلاميًا لهذه المصطلحات، التي وردت أساسًا من الغرب الحديث، وهي اجتهادات ربما أصابت وربما أخطأت، وهي تصب بالتأكيد في مجرى يضيف إليه زعماء الحركات الإسلامية المعاصرون، الذين يسعون إلى «أسلمة» أو إيجاد مرادفات إسلامية لمفاهيم تطورت أساسًا مع التطور الغربي.

■■■

طه حسين
حسن جغام
تونس: دار المعارف، ٢٠٠٠

لم يكن طه حسين مثقفًا عاديًا ولا أديبًا أو ناقدًا فحسب، كان انعطافة في تاريخ الفكر العربي كله، والقضايا التي طرحها والقذائف التي أطلقها في سماء الفكر العربي والإنساني من نقد الشعر الجاهلي إلى مستقبل الثقافة في مصر وغيرها، والمواقف التي اتخذها حين تولى مناصب أكاديمية أو تنفيذية تشهد له بهذه الريادة، المؤلف يقدم رؤية لهذا المفكر الفذ الذي حُرم البَصر وأضاء ببصيرته الطريق أمام كثيرين، ويركز على مواقفه من تاريخ الأدب الجاهلي وإحيائه لتراث أبي العلاء.

■■■

طواحين الكلام
محيي الدين اللاذقاني
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

ينحاز المؤلف - وهو صحافي باحث وشاعر - للمرأة، ويقدم تحليلاً اجتماعيًا ونفسيًا لعلاقتها بالمجتمع ونظرته إليها، وكذلك علاقتها بالرجل. ويقدم بعضًا من آراء الأولين في هذا الموضوع، ويقوم في دراسات أخرى بكتابة رؤية ساخرة للأوضاع العربية.

■■■

Moral Freedom: The Impossible Idea that Defines the Way We Live Now
(الحرية الأخلاقية: الفكرة المستحيلة التي تحدد الطريقة التي نعيش بها الآن)
Alan Wolfe
W.W Norton & Comp, 2001, 256pp., $24.95

يبحث عالم الاجتماع الأمريكي عن الخصال التي تميز الشخصية الأمريكية في الوقت الراهن، مختبرًا صحة الأفكار السائدة عن الحرب الثقافية الدائرة في المجتمع الأمريكي. وقد اعتمد في دراسته على نتائج استطلاعات الرأي التي أجرتها مجلة النيويورك تايمز في عام ٢٠٠٠ والتي تناولت آراء الناس في الأخلاق والرضا الذاتي. بالإضافة إلى مقابلات معمقة أجراها مع عينة من سكان ثماني مناطق تمثل الجماعات أو القطاعات المختلفة في المجتمع الأمريكي.

■■■

Dogs and Demons: Tales From the Dark Dide of Japan
(كلاب وشياطين: قصص عن الجانب المظلم من اليابان)
Alex Derr
Hill & Wang, 2001, 432pp., $27.00

يرى المؤلف أن المشكلة في الثقافة اليابانية هي غلبة الشكل على حساب الوظيفة والهدف في كل جانب من جوانب الحياة اليابانية.

فعلى سبيل المثال يكثر الحفظ بدون تعلم، والتصميم الخارج عن السياق والبناء بدون هدف، والمعلومات بدون معرفة، والتمويل بدون إنتاج للقيمة.

فكـر ديني

أمهات المؤمنين
على عبد المنعم
القاهرة: دار سفير، ٢٠٠١

أمهات المؤمنين هن المثل الأعلى للمرأة المسلمة، والقدوة الحسنة في إخلاص العبادة وسمو الأخلاق وعفة اللسان وسعة العلم، المؤلف يعرض لحياة أمهات المؤمنين في بيت النبوة ومواقفهن المشرفة في كل شئون الحياة.

■■■

Wide as the Waters: The Story of the English Bible and the Revolution It Inspired
(قصة الكتاب المقدس الإنجليزي والثورة التي ألهمها)
Benson Bobrick
Simon & Schuster, 2001, 379pp., $26.00

المؤلف يسوق نظرية مفادها أن ظهور طبعات شعبية من الكتاب المقدس أحدث ثورة اجتماعية شعبية في إنجلترا وأسهم في ميلاد الديمقراطية.

للأطفـــال

من أين يأتي الطفل؟
سلسلة بدايات العلوم المبسطة
القاهرة: دار سفير، ٢٠٠١

تقدم هذه السلسلة معلومات بسيطة تشكّل عقل الطفل وتغذّي مداركه وتسهم في تكوين شخصيته، وفي هذا الكتيب من السلسلة معلومات عن تكون الجنين ونموه وولادته وكيف تتم عملية الولادة وكيفية استقبال عضو جديد في العائلة، وما الذي يمكن أن تقوم به الأم كي تمهد لإخوته قدومه.

■■■

Waiting for Wings
(انتظارًا للأجنحة)
Lois Ehlert
Harcourt Brace, 2001, 38pp., $17.00
(للأطفال من سن ٤ إلى ٨ سنوات)

كتاب مثالي لتعليم الأطفال دورة حياة الفراشة سواء في المنزل أو المدرسة أو المكتبة، حيث تقدم المعلومات البيولوجية في صورة قصة أو حدوتة تصاحبها رسومات وصور ملونة بشكل جذاب.

■■■

Ramona's World (Ramona Series)
(عالم رامونا «سلسلة رامونا»)
Beverly Clearly
Alan Tiegreen (Illustrator)
Harper Collins, 2001, 208pp., $4.95
(للأطفال من سن ٩ إلى ١٢ سنة)

تعد رامونا كويمبي من أحب الشخصيات في قصص الأطفال الأمريكية، وقد ابتكرتها المؤلفة بفرلي كليرلي منذ الخمسينيات. وهذه القصة تعد الأولى بعد توقف دام خمسة عشر عامًا. ويرجع سبب شعبية قصص رامونا إلى نجاح المؤلفة في التعبير عن مشاعر الأطفال في هذه السن، والمواقف المختلفة التي تسبب لهم الحرج أوالخوف أوالغيرة.

مذكرات وسير

Stet: A Memoir
(ستت: مذكرات)
Diana Athill
N.Y: Grove Press, 250pp., $ 24.00

تكتب السيدة الأولى في عالم النشر البريطاني هذه المذكرات عن عملها في السنوات الأولى مع «أندريه دويتش» الذي تحتل شخصيته وحكاياته الجانب الأكبر من هذه المذكرات.

فقد بدأت معه في تأسيس دار النشر الشهيرة «بنجوين» بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة. والآن تبلغ ديانا أتهل من العمر ٨٣ عامًا. وإلى جانب أندريه دويتش شريكها، وعشيقها، ورئيسها في العمل في ما بعد، تتحدث ديانا في مذكراتها عن مؤلفين آخرين كانت هي أول من غامر وقام بنشر أعمالهم ومنهم في. إس نايبول، وبريان مور، ومورفاي رتشلر.

■■■

Franco: A Concise Biography
(فرانكو: سيرة حياة مختصرة)
Gobrielle Ashford Hodges
Weidinfeld and Nicolson, 2001, 290pp., £20.00

كثيرًا ما يندهش المؤرخون من حسن الحظ الذي حالف الجنرال فرانشسكو فرانكو في حياته العسكرية والسياسية.

فقد كان من القلة الذين نجوا من ميادين القتال في المغرب، كما قتل كثير من منافسيه الحربيين أثناء الحرب الأهلية الإسبانية في حوادث طائرات، بينما خرج هو سالمًا. كذلك انتهت الحياة السياسية لقادة سياسيين في إسبانيا الجديدة بحوادث اغتيال مثل خوزيه سوتيلو وخوزيه دى ريفيرا بخلاف قدرته هو على البقاء. هذا الكتاب لا يهتم بالمصادفة في حياة الجنرال فرانكو بقدر ما يتناول التكوين السيكولوجي لشخصيته، محللاً طفولته ونشأته في منزل غير سعيد، ومعاناته عقدة أوديب وقلقه العصبي وإحساسه بالدونية.

نقـد أدبي

أبو حيان التوحيدي وشهرزاد
أنور لوقا
تونس: دار الجنوب، ٢٠٠١

يؤكد المؤلف أن ثمة حداثات عديدة لا حداثة واحدة، وجمعه بين أبي حيان التوحيدي صاحب الإمتاع والمؤانسة «والمقابسات» وغيرها من عيون النثر العربي، وشهر زاد أشهر شخصيات ألف ليلة وليلة، يؤكد ذلك المفهوم.

■■■

الجوائز الأدبية.. الحدود والأقنعة
حسين بافقيه
أبها: نادى أبها الأدبي، ٢٠٠٠

لم تعد الجوائز الأدبية نزيهة أو معيارًا صالحًا للجودة والاستحقاق، المؤلف يثير أسئلة عديدة حول مقدرة الجوائز العربية على تجذير الإبداع الأدبي والثقافي ويتساءل: هل استطاعت أن تخلق قاعدة جماهيرية عريضة من القراء؟ الإجابة بالنفي، ومن ثم يقدم المؤلف أفكارًا لإعادة الاعتبار إلى الجوائز.

■■■

الشعر والوجود.. دراسات فلسفية في شعر أدونيس
عادل ضاهر
دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

ثمة مداخل عديدة لعالم أدونيس الشعري، المؤلف اختار المدخل الفلسفي واخترق أفكار الشاعر في أسئلته الوجودية المحيرة، كيف استطاع أدونيس أن يحيل هذه الأسئلة المعقدة إلى أبيات شعرية تصنع أفقًا خاصًا.

■■■

القصيدة الحديثة في الخليج العربي
مجموعة من الباحثين
البحرين: إدارة الثقافة والفنون، ٢٠٠٠

يرصد الباحث التحولات التي طرأت على القصيدة العربية الحديثة في منطقة الخليج خلال النصف الثاني من القرن الماضي، ويعرض كذلك للحركة النقدية التي واكبتها وأسهمت في تطور الشعر وتعديل مساراته.

■■■

تفكيك الرواية
فتحي أبو رفيعة
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

يسعى المؤلف إلى اكتشاف طرق جديدة لتحليل النص عبر القراءة الاستدلالية، دون أن يفكك أواصر النص أو بنيته التركيبية، وهو يتناول هنا ١٦ نصًا من أجيال مختلفة وحساسيات أدبية متباينة.

■■■

سيكولوجيا الإبداع الفني في القصة القصيرة
شاكر عبد الحميد
القاهرة: دار غريب، ٢٠٠١

السؤال الذي يتردد باستمرار على مسامع المبدعين هو: كيف تبدأ عملية الإبداع وما هي مؤشراتها وإرهاصاتها وكيف يكتشف المبدع أن حالة الإبداع حلّت، المؤلف هنا يركز على مبدعي القصة القصيرة، ويقدم تحليلات سيكلوجية لقصص أجيال مختلفة منهم عبد الحكيم قاسم، وسعيد الكفراوي، وإدوار الخراط، وجمال الغيطاني، وآخرون، كما يقدم من خلال حواراته معهم تصوراتهم عن انطلاق اللحظة الإبداعية.

■■■

فردنيان دوسوسير
تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات
جوناثان كللر
ترجمة: محمود حمدي عبد الغني
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

يتناول المؤلف الذي يعد أحد تلاميذ دوسوسير، أهم المبادئ التي وضعها دوسوسير في هذا الميدان، والمحاضرات التي ألقاها في علم اللغة وعلم العلامات الذي يعد دوسوسير مؤسسه الحقيقي.

■■■

مدخل إلى الشعر الشفاهي
بول رومتور
ترجمة: وليد الخشاب
القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠١

يقدم المؤلف مفاهيم ودلالات جديدة تتجاوز حدود المتداول والمتعارف عليه، وتُشكل موضوعات حياتية مُلحَّة ومقولات فكرية معقدة، وتتحول قضية الشعر الشفاهي عنده إلى قضية وطنية سياسية، يدعو من خلالها إلى الحفاظ على خصوصيات الشعوب وتعبيراتها الجمالية والثقافية.

■■■

نظرية العماء وعولمة الأدب
سعيد علوش
الرباط: المؤلف نفسه، ٢٠٠١

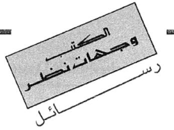
يقدم الكتاب طريقة خاصة لهدم النظريات التي تم استلامها من العقود الأخيرة في حقل النقد الأدبي في أحيان كثيرة بلا وعي أو حاجة، ويفكك مبادئها ومصادرها التقليدية، معتمدًا على نظرية العماء التي تكشف مواقع التشوش والارتجال في النقد العربي المعاصر.

■■■

Ethical Issues in Twentieth-Century French Fiction: Killing the Other
(قضايا أخلاقية في الرواية الفرنسية في القرن العشرين: قتل الآخر)
Coliu Davis
Macmillan, 2001, 228pp., $ 42.50

يرى الناقد أنه ليس من المفروض على الرواية أو القصة أن تؤكد المعتقدات الراسخة لكي تكون أخلاقية، بل إن أخلاقية العمل القصصي من وجهة نظره تنبع من تفادي حسم المسائل الأخلاقية. ومن هذا المنطلق يحلل المؤلف العلاقة مع الآخر، وكيف عالجتها الرواية الفرنسية وكيف تعامل معها النقاد مثل سارتر ولاكان وليفيناس.

■■■



وَرَقَة الخـيـمـة والسـوق

وَرَدَت في مقال سابق للأستاذ محمد حسنين هيكل إشارة إلى ثلاث أوراق تلقاها كيسنجر قبل أن يقوم باول زيارة له إلى المنطقة في شهر نوفمبر ١٩٧٣، وضمنها وَرَقَة عن «الشيخ في الخيمة» والتعامل في «السوق» - وقال الأستاذ هيكل أن الوَرَقَة الأولى كانت من جوزيف سيسكو، والوَرَقَة الثانية: كانت من روجر فيشر، أما الوَرَقَة الثالثة فقد ذكر أنه لم يستطع معرفة كاتبها وإن كان يُرَجِّح أنه ريتشارد هاس.

واعتقادي الشخصي أن الذي كَتَبَ هذه الوَرَقَة كان «بيتر رودمان»، وهو من الذين صاحَبوا كيسنجر في رحلاته وساعَدوه في كتابة مُذكَّراته بخصوص الشرق الأوسط.. وكان يَحمل الخرائط في الفريق المصاحب لكيسنجر.. وكنت أن شخصيًا أثناء فترة عَمَلي في واشنطن - كلما عَنَّ لي أن أتَعَرَّف على أية تفاصيل خاصة برحلات ومباحثات كيسنجر - أتَّصل به.

هذا وقد عَمَل «رودمان» - وهو يهودي - بعد ذلك في مجلس الأمن القومي أثناء إدارة ريجان، وكان مسئولاً عن الشرق الأوسط. أما الآن فهو يعمل في مركز الأبحاث الذي يحمل اسم «نيكسون»، ومازال قريبًا من كيسنجر.

و«رودمان» مُتَزَوِّج من «فيرونيك»، واسمها أيضًا «فايزة»، وهي مولودة في الإسماعيلية، حيث كان أبوها يَعمَل في شركة القناة.. وهي ليست يهودية، وهي في الأغلب كاثوليكية لأن خالتها «مير بولاد» (راهبة) كانت تدير مَدرسَة كاثوليكية في جاردن سيتي «Mere Dieu».

أما «هاس» فقد عَمَل مساعدًا للرئيس بوش لشئون الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومي، وكان دوره بارزًا أثناء الغزو العراقي للكويت. ولكنه يَعمَل الآن - أي في إدارة بوش الابن - في الخارجية ويرأس إدارة التخطيط السياسي.

عبد الرءوف الريدي
سفير مصر الأسبق بأمريكا



العـــرب.. والصـــديق

.. بعـدمـا تسلمت حكومة الدكتور/ عاطف عبيد إدارة الحكومة في مصر المحروسة أعلنت بصوت عال أنها تنتهج «الشفافية» سلوكًا وتدعو لها في بحثها عن حل لمشاكل اقتصادية وسياسية واجتماعية وأخلاقية باتت معقدة ومزمنة، ولقد باغتتنا الكلمة غير المسبوقة في أبجديات الحكومة وتندرنا عليها قليلاً كعادتنا كمصريين. وفي مجلة الإشعاع الثقافي الوحيدة التي نثق بها «وجهات نظر» دأب الأستاذ هيكل على كتابة مقالاته المتميزة العالية والمختلفة عما يقرأه المواطن المصري في أي صحيفة قاهرية أخرى.. وهي مقالات تعتمد على ذخيرة عالية القيمة والاختيار من الوثائق التاريخية لكي نعرف أولاً ولكي نستطيع إعمال عقولنا ثانياً.. فليست هناك قاعدة معلومات ذات قدر من المصداقية المعقولة للقارئ المصري مثلما يكتب لنا أستاذنا هيكل.. وظل الأستاذ هيكل يكتب في تصاعد ملحوظ.. ويزداد اكتئابًا بشكل ملحوظ بعد كل مقالة شهرية بوجهة نظر.. لأن الجهل نعمة مع الأسف.. وحينما نعرف نختنق.. حتى أسقط علينا نحن قراء «وجهات نظر» قذيفة ذات عيار ثقيل أكثر من اللازم في مقالة أبريل.. حيث اسودت لها القلوب والعيون بمقارنته بين موقف السادات من الحليف الوحيد والرئيسي لنا قبيل حرب أكتوبر وهو الاتحاد السوفيتي بغرض تأمين احتياجات الحرب لنا مع إسرائيل.. قارنه مع موقف حكومتنا الآن وكذلك الحكومات العربية من الحليف الرئيسي والوحيد والبلطجي الأول والأخير في هذا العالم وهو الولايات المتحدة الأمريكية.. وكانت المقالة الأخيرة للأستاذ هيكل انتفاضة غير عادية مثل انتفاضة أبناء فلسطين فوق أرضهم المحتلة.. عسى أن يقرأ أحد ليتحرك أي أحد. قبل طوفان الضياع الشديد القادم والذي بدأ منذ ربع قرن وسط سحابة ضخمة ضبابية من الأوهام والأحلام الخادعة والمخدرة لجيلين كاملين من أجيال الشباب المصري.

فهل ستكون الحكومة بإعلانها القديم عن «لشفافية» عونًا لهيكل لاستمرار مقالاته.

د. سمير عنتر
استشاري حميات - الطالبية - الهرم



الخرائط التوضيحية

بمناسبة ما نشرته المجلة في عدد أبريل الماضي تحت عنوان «أمراض الحيوان تهدد صحة الإنسان» وبحكم تخصصي سيقتصر تعليقي على شيء محدد، وهو الخرائط المرفقة بالمقال:

أولاً: يبدو أن الخريطتين مأخوذتان من أصل أجنبي «ملون»، ولذلك فقد فقدتا ما لهما من فائدة توضيحية بعد إعادة نشرهما في المجلة بلون واحد. خاصة خريطة أفريقيا. والتي يصعب التمييز بين الرموز المشيرة لأنواع العدوى. وكان من الواجب إما نشرهما بالألوان إذا كان ذلك متيسرًا، أو إعادة رسمهما على يد متخصص بالأبيض والأسود. وذلك لتكتمل الفائدة المرجوة من نشر الخرائط التوضيحية.

ثانيًا: جاء في الخريطتين خطأ مشترك خاص بالحد السياسي بين مصر والسودان بطريقة تجعل من منطقة حلايب سودانية، الأمر الذي يتعارض مع حقيقة أن الحد السياسي الرسمي بين الدولتين هو دائرة عرض ٢٢ شمالاً.

ورغم علمي بأن الأمر كله يندرج في إطار الهيئات التي قد لا نتوقف عندها إذا صادفناها في صحف أخرى، إلا أن الأمر بالضرورة يختلف مع مجلة في مستوى «وجهات نظر».

الدكتور/ محمد عبد الرحمن المنهاوي
معهد البحوث والدراسات الأفريقية
- القاهرة -



الطريق الطويل للنهضة

تابعت باهتمام ما شرحه الأستاذ رئيس التحرير باقتدار عن أسباب التخلف وكيفية النهضة في مقاله (لماذا يطول بنا الطريق إلى النهضة) المنشور في العدد السادس والعشرين الماضي من مجلتنا الرائعة «الكتب.. وجهات نظر»..

لكني استاذن هنا في إضافة بعض النقاط لما أورده من أسباب للتخلف والركود..

ففي اعتقادي أنه ليس من أسباب تخلفنا فقط انهيار نظام التعليم عندنا وتآكل التفكير العلمي وانحطاط مستوى التربية على مستوى الأسرة والمجتمع.. رغم أهمية وجوهرية كل نقطة وإنما:

١- لأننا وبصراحة لم نفهم إلى الآن ماهية وإطار مشروع النهضة والتقدم الذي نتمناه ونرجو تنفيذه. ولم نحدد بعد هل نحن في حاجة إلى مشروع نهضوي ديني.. يبعث من جديد الروح الدينية العالية والسليمة في النفوس.. وينقي ويفرز ما دخل على العقيدة الإسلامية من مغالطات وتجاوزات.

٢- أم مشروع نهضوي اقتصادي علمي ينتشل اقتصادنا المتدهور صناعيًا وزراعيًا، كما حدث في بلدان نامية كثيرة أصبحت الآن نمورًا، وأشهرها كوريا الجنوبية التي عايرنا بتقدمها علينا الصحفي الأمريكي توماس فريدمان.

٣- أم هو مشروع نهضوي حياتي وأخلاقي نريده الآن ليعيد لنا ولو قليلاً من القيم والأخلاق المصرية الغائبة مثل قيم الشهامة والاحترام والذوق ويحاول أن يجد وسيلة ما فعالة تقضي على اللغة السوقية، وعفوًا (القذرة) المنتشرة حاليًا بقوة بين قطاعات كبيرة من الحرفيين والطلبة والموظفين.. وغيرهم.

مشروع نهضوي يحاول وبقوة أن يحرر الشخصية المصرية باختلاف فئاتها نساءً ورجالاً من عبوديتها للجنس.

لنتفق بداية على ما نريد تحقيقه.. هل هو مشروع نهضوي اقتصادي أم سياسي أم علمي أم حياتي وأخلاقي ثم بعدئذ لنعاتب أنفسنا على عدم قدرتنا على إنجاب شخصيات قيادية مختلفة تتواجد كأعلام ورموز وراء مشاريع نهضوية متعددة وتقاتل في سبيل تحقيقها.. لابد أن تتزحزح القناعات الزائفة بالحاضر المتخلف من مكانها المستقر داخل نفوسنا وأن نخرج شبابنا من الغيبوبة الراقد فيها الآن. ونحطم معه يدًا بيد تماثيل الروشنة واللاشيء وقتل الوقت في اللعب.. واليأس.

وختامًا.. كل الشكر للمقال الذي أعاد تفجير القضية.

إبراهيم شعبان مصطفى
بكالوريوس التربية
جامعة المنوفية



عـــروبة مـــوريتـــانيـــا

بمناسبة مقال الأستاذ هيكل في عدد مارس الماضي بعنوان: «نهايات طرق» تلقت «وجهات نظر» رسالتين بهما معلومات مهمة عن «عروبة موريتانيا».

***

لقد تحدث أستاذنا الفاضل عن القوافل العربية، وهي متوجهة إلى عمان خصوصًا عندما وصل إلى ما أسماه «الذيل» أو «القوافل الوافدة» من خارج كيان الأمة العربية، والتي انضمت إليها مؤخرًا، بسبب «الطفرة المفاجئة للنفط» إذ يرى كاتبنا الكبير أن أمر هذه القوافل يستحق المراجعة والنظر.

وقد عنى بهذه القوافل في الشق الأول «جيبوتي» و«جزر القمر» وفي الشق الثاني «الصومال» و«موريتانيا» باعتبار أن دخولها لجامعة الدول العربية مخالف للشروط المؤسسة للنظام الداخلي للجامعة.

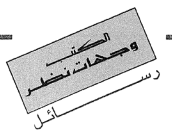
وهذه الشروط كما وردت عن كاتبنا هي:

- أن تكون اللغة العربية هي لغة ذلك البلد.

- وأن يكون البلد الراغب في الانضمام إلى الجامعة قد تمكن من تحقيق قدر من الاستقلال الوطني يكفل نوعًا من الإرادة المستقلة.

ثم أن يكون البلد العربي الراغب في الانضمام على اتصال جغرافي بالعالم العربي، وانطلاقًا من هذه الشروط الثلاثة وباعتبارها أساسية في الانضمام إلى الجامعة العربية، فإني أطمع في أن يسمح لي كاتبنا الكبير في أن أناقشه في مدى توافر هذه الشروط في موريتانيا مما أهلها للانضمام لجامعة الدول العربية حسب المعطيات الموجودة وليسمح لي أيضًا أن أخالفه الرأي في أن أسباب انضمامها ليست سياسية أو اقتصادية «الطفرة المفاجئة للنفط» وسأبرهن على ذلك حتى لا يكون كلامي مصادرة على المجهول.

وأبدأ بالنقطة الأولى وهي مسألة اللغة العربية باعتبارها الوعاء الثقافي للأمة، وهنا أقول لأستاذنا الجليل إن



الشعب الموريتانى شعب عربى، يتكلم اللغة العربية، إذ ترجع أصوله إلى قبائل بنى معقل القادمة من شبه الجزيرة العربية والدراسات التاريخية تثبت ذلك.

وللتذكير فإنه توجد بعض الأمثلة الدامغة التى وقعت كلها على أرض مصر، وشهد بها كبار الكتاب المصريين، حيث أظهر أبناء موريتانيا عبقريتهم وتمكنهم من ناصية اللغة العربية، ويعتبر محمد محمود ولد تلاميد مثالاً ناصعًا فى هذا المجال، وقد شهد بتفوقه عميد الأدب العربى طه حسين فى كتابه الأيام إذ ذكر مدى قدرة ونبوغ الشيخ الشنقيطى فى علم اللغة العربية حيث يقول: (كان أولئك الطلاب الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريبًا للشيخ الشنقيطى فى حفظ اللغة ورواية الحديث سندًا ومتنًا عن ظهر قلب. وكانوا يتحدثون بحدته وشدته وسرعته إلى الغضب وانطلاق لسانه بما لا يطاق من القول. وكانوا يضربونه مثلاً لحدة المغاربة. وكانوا يذكرون إقامته فى المدينة ورحلته إلى قسطنطينية، وزيارته للأندلس، وربما تناشدوا شعره فى بعض ذلك، وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنية بالمخطوط والمطبوع فى مصر وفى أوروبا، وأنه لا يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته فى دار الكتب قارئًا أو ناسخًا). كما كان ينازعه الريادة والسبق أحمد ولد الأمين الشنقيطى وهو من أبناء موريتانيا أيضًا. فقد أثبت الرجلان تفوقهما فى علوم اللغة العربية بين علماء الأزهر، هذا ولم يقتصر عطاء الموريتانيين اللغوى والدينى على مصر وحدها، بل إن عطاءهم تجاوز ذلك إلى الحجاز والعراق.

كما كان لهم دور بارز ومتميز فى نشر اللغة العربية والإسلام، فى ربوع أفريقيا، مما شكل جسرًا للتواصل والتلاقح الثقافى ما بين العرب والقارة السمراء.

أما الشرط الثانى وهو الاستقلال فقد لا يتطلب منا الكثير من الشرح والتفصيل إذ أن موريتانيا نالت استقلالها التام ٢٨/١١/١٩٦٠ ومن ذلك التاريخ وهى تدار من قبل أبنائها وليست هذه الفترة متاخرة، فهى نفس الفترة التى نالت فيها أخواتها الاستقلال (المغرب، الجزائر، تونس) وانضمت للأمم المتحدة ١٩٦١، وكان لها دور بارز وإرادة سياسية وشعبية مستقلة، ليس لأية دولة عليها وصاية، حتى فرنسا التى كانت مستعمرة لها، تعاملها بالندية والاحترام التام لسيادتها.

وعن الشرط الثالث أقول إن موريتانيا تقع فى غرب الوطن العربى، إذ تحدها من الشمال الجزائر، وهى بلد عربى حسب شهادة أستاذنا الكبير، ومن الشمال الغربى المغرب والصحراء الغربية وهما بلدان عربيان كذلك.

هذه الحدود حسب اعتقادى توفر لموريتانيا صلة جغرافية قد تشفع لها عند أستاذنا الكبير، إذ إنه توجد بعض الدول فى الجامعة العربية، أكثر منها صلة موريتانيا الجغرافية بالوطن العربى، دون أن يثير ذلك اهتمام أستاذنا الكبير وبهذا الموقع تمثل موريتانيا بعدًا استراتيجيًا للوطن العربى، وذلك لاطلالتها على غرب أوروبا، وعلى شمال أفريقيا وإن كانت هذه الميزة لم تستدع من أستاذنا الجليل لحظة تامل على الرغم من أنه محلل سياسى واستراتيجى معروف!

وأخيرًا.. وليس آخرًا فإننى أؤكد لكم أن موريتانيا لا ترضى لنفسها أن تكون عبئًا على أحد، ولن تكون كذلك، ما أظلتنا الخضراء، ولن تكون عائقًا لمسيرة العرب، وعروبتها ثابتة شكلاً ومضمونًا، قلبًا وقالبًا. إذ لا فائدة للقلب إذا قصت الأطراف.

محمد الأمين ولد أحمد عبد الله
طالب موريتانى - بالقاهرة

* * *

ما دمنا بصدد الحديث عن عروبة موريتانيا فإن من الضرورى مراجعة التاريخ الوسيط والحديث للمنطقة العربية والاطلاع على ما كتبه ابن خلدون والبكرى والإدريسى والناصر السلاوى، وغيرهم من كتاب القرون الوسطى عن بلاد موريتانيا والهجرات العربية التى وصلتها، وما كتبه الفرنسيون فى كتبهم العلمية وتقاريرهم الاستعمارية عن الثقافة العربية فى موريتانيا ودورها فى تقزيم النفوذ الاستعمارى الفرنسى فى منطقتى الصحراء وغرب أفريقيا من خلال هزيمتها للغة الفرنسية التى قال عنها ديجول: إنها حققت للفرنسيين ما عجزوا هم أنفسهم عن تحقيقه، ولعل أكثر الحق دلالة ما شهدت به الأعداء كما يقال.

ولعل الذاكرة تسعفنا بما وصل إليه العلماء الشناقطة (الموريتانيين) من تالق فى الأزهر الشريف، ذكره محمد عبده وطه حسين فى مؤلفاتهم، وجسده العلماء الشناقطة فى تصحيح وتدقيق الكثير من أمهات الكتب العربية، لعل أهمها وأكثرها ارتباطًا بموضوعنا القاموس المحيط الذى لا يزال مرجعية العرب اللغوية إلى حد الساعة، ولعل المفكر الكبير يتذكر أن انضمام موريتانيا إلى الجامعة العربية لم يحتج إلى فترة تأهيل، كما حدث مع بعض الدول العربية التى تلقت الدعم الفنى والمادى من الجامعة العربية لتدعيم اللغة العربية فيها حتى تكون مؤهلة للانضمام إلى الجامعة، وأن تأخر انضمام موريتانيا إلى الجامعة جاء فى سياق الاعتراضات التى قدمتها المملكة المغربية إلى المنظمات الدولية والإقليمية على استقلال موريتانيا على اعتبار أنها جزء من أراضى المملكة.

أما ما يتعلق بأن موريتانيا لا تتمتع بقدر كاف من الاستقلال يخولها الانضمام إلى الجامعة العربية، فنود أن نشير إلى أن انضمام موريتانيا إلى الجامعة جاء بعد ثلاثة عشر عامًا من الاستقلال التام مليئة بالأحداث المؤكدة على استقلالية القرار السياسى، منها طرد سفيرى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وغلق سفارتيهما فى نواكشوط سنة ١٩٦٧ ردًا على دورهما فى حرب يونيو ١٩٦٧، ووساطة موريتانيا بين مصر والصين الشعبية بطلب من الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، ودور موريتانيا المشرف فى محاصرة إسرائيل فى أفريقيا، وقرارات التاميم المؤسسى للشركات الأجنبية فى البلاد، وإصدار عملة وطنية.

د. محمد الأمين ولد سيدى أحمد
موريتانيا

«وجهات نظر» والبحث العلمى

كنت قد أرسلت رسالة سابقة منذ حوالى شهر تقريبًا أطلب فيها من المجلة السماح لى بنقل مقال د. محمود عبد الفضيل المعنون بـ «نحو تفسير بسيط لأزمة السيولة والركود فى الاقتصاد المصرى» واستخدامه كمرجع فى أبحاثى ودراساتى حيث إننى طالب بكلية الحقوق، ومن خلال قسم الاقتصاد والتشريعات الاقتصادية نتناول كل ما يهم اقتصاد البلاد وما يمر به وماله وما عليه ونحاول استخدامه كسند أو مرجع لدراساتنا الاقتصادية.

وللمرة الثانية أطلب من المجلة السماح لى باستخدامه مع حفظ حق د.محمود عبد الفضيل ككاتب للدراسة والمقال كاملاً من الناحية الأدبية والقانونية.. فأرجو موافاتى بالرد ولعل المانع من الرد على رسالتى الأولى يكون خيرًا.

محمد أحمد عبده عليبة
شباس الشهداء - دسوق
كفر الشيخ

* جرى العرف على أن اقتباس فقرات لا «النقل» من المقالات المنشورة، وذلك لأغراض البحث العلمى لا يحتاج إلى تصريح خاص بذلك، على أن يراعى ذكر المصدر تبعًا لمقتضيات البحث الأكاديمى.

المحرر

من السجن

فى بداية رسالتى أحب أن أُعبر عن مدى حبى وتقديرى لهذه الموسوعة الثقافية والسياسية والفكرية التى تقدمها مجلتكم لكل من يهمه أن يعرف الحقائق والعلوم والأفكار. وإننى لسوء حظى حُرمت من نهرها الفياض بسبب دخولى السجن فى قضية قتل ولم أعد أستطيع الحصول عليها، لذلك فكرت فى أن أكتب إلى سيادتكم هذه الرسالة، فهل تقبلون سيادتكم أن تساعدونى لكى أتابع الأعداد الصادرة من مجلتى المفضلة وأنا أعرف أنكم لا تنظرون إلى الكسب المادى من وراء نشر هذه المجلة بقدر الكسب الفكرى والتنويرى، وأنا متعطش إلى طلب المعرفة فهل أجد عندكم طلبى؟

السجين / محمد عبده محمد الابشيهى
الحكم / مؤبد
التهمة / القتل
الطالب بالفرقة الرابعة بكلية الحقوق
جامعة المنصورة




«لغويات» نبيل على و«سعادة» مستجير

فى منتصف عقدنا الثامن لا يوجد لدينا الكثير من أسباب السعادة التى يطلبها لنا أحمد مستجير فى مقاله بمجلة «وجهات نظر» فى شهر أبريل الماضى، فبين استيلاء اليمين المتوحش على الحكم فى أمريكا، وانتشار آداب وفنون ما بعد الحداثة، والعولمة واتفاقيات الجات، وتهديد الفكر العقلانى بتشويه نظريات اللاحتمية والنسبوية والشواش، بين هذا كله أصبح أمثالى ممن اجتازوا الكهولة والشيخوخة محرومين من أى سبب للسعادة.

ولكن طاقة من الأمل والنور قد انفتحت بمقال الدكتور نبيل على عن اللغة والوراثة فى نفس العدد من المجلة، ها هو صوت عقلانى واضح يتحدث، فبعد عرض جميل واضح وسليم لإضافات تشومسكى فى علوم اللغويات يعرض لنا نبيل على أهم الإضافات فى لغة الوراثة، ثم يربط برباط وثيق بين لغتين.

ويتميز الدكتور نبيل على بوضوح الفكر وعمقه وجمال وشاعرية لغته فهو بحق، كما وصفته يومًا، تشومسكى مصر، بل إنه يتميز عن تشومسكى بعمق معلوماته عن لغة الوراثة والهندسة الوراثية. ورغم سبق عرض الفكرة فإننى أظن أنها لم تعرض من قبل فى أى مكان فى العالم بهذا العمق وهذا التفصيل.

فإذا أضفنا إلى هذا أننى وأسرتى ناكل الآن أرزًا حصده الدكتور أحمد مستجير من نبات غاب استحدثه وراثيًا يروى بماء البحر المالح، اتضح سر تضاعف سعادتى وإقبالى على الحياة - أو على ما بقى منها.

هنيئًا لمصر أمثال نبيل على وأحمد مستجير ممن بقوا فيها وأخلصوا لها وأحبوها حبًا جمًا وممن يستحقون بجدارة كل التكريم والجوائز والشهادات.

وهنيئًا لوجهات نظر مثل هذه الصفحات الجديدة عن العلم التى نرجو أن تستمر.

سمير حنا صادق
لجنة الثقافة العلمية
بالمجلس الأعلى للآثار




نون

جدلية الصحراء والمدينة

كل إنسان يشعر فى لحظة ما من حياته بأن الروابط التى تصله بالحياة قد زادت وطأتها عن قدرته واحتماله. يشتد إيقاع الحياة بوتيرة متسارعة تصل بها إلى حد الاختناق والشعور بالحصار. وتصبح الحاجة إلى التقاط الأنفاس خارج دائرة الحياة اليومية، بعيدًا عن الروابط الروتينية والمألوف من الممارسات، أقوى من الاستمرار بحكم العادة، أو ما يعرف فى الطبيعة بقانون القصور الذاتى.

ولم يعد إنسان العصر الحديث يجد أمامه متنفسًا للخروج من المدينة الكبيرة، بشوارعها المزدحمة، وبيوتها المعلبة، وسياراتها المرصوصة بالحركة أو بالسكون، وضجيجها الذى يصم الأسماع، وروائحها التى تزكم الأنوف.. إلا بالانفلات من قيود العادة. بعض الناس يملأ قلبه عن لذات حياة تشوهت معالمها، بالعزاء النافع والصبر الجميل. والبعض الآخر يملأ قلبه بالخروج إلى البحر، أو إلى الريف، أو الصحراء كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

والناس قد هجروا الريف وقلما يعودون إليه. يذهبون إلى البحر حيث تدعوهم حرارة الصيف وقسوة الهجير. أما الصحراء فنادراً ما يفكر إنسان المدينة فى خوض مجاهلها واستطلاع معالمها. تظل الصحراء بالنسبة للكثيرين لغزًا غامضًا محفوفًا بالمخاطر. فالصحراء نقيض الحياة الرخية الناعمة، وهى مرادف العزلة والوحدة والتيه فى خضم المجهول، رمز الترحال الدائم وعدم الاستقرار.

لم أشعر بجلال الصحراء وجمالها وعظمتها إلا حين قطعت الطريق إلى الواحات فى قلب الصحراء الغربية. فجأة يشعر الإنسان بأنه انفصل عن ذاته.. عما كان منغمسًا فيه. وأصبح وحيدًا، غريبًا، منفرداً بالكون، يبحث عن شىء آخر، تتحول الحياة إلى نوبات من الانفصال والاتصال. ويصبح الشعور بالوحدة فى هذا الفضاء الممتد بغير نهاية، طاغيًا آسرًا، يعبر عن الرغبة فى الخروج عن الذات، والذوبان فى الوجود، وحين يشتد الإحساس بالوحدة، تزداد الرغبة فى الخروج منها، بحثًا عن الاكتمال ولم الشمل والتجاوب مع الحياة. وهكذا تكتمل الدائرة حين يعيد الإنسان أواصره التى تربطه بالحياة، وقد ارتد إليها متطهرًا من الشوائب والسفاسف، تتصاغر الأشياء الكبيرة فى عينيه، وتتحرر روحه من سيطرة الوجود المادى المحسوس حوله. ولكنه يكون أكثر استعدادًا للفهم والتجاوز والتغلب على نفى الذات، فى جدلية واعدة بالسكينة والسعادة.

للصحراء منطقها ولها لغتها.. وعندما كنت أطالع ما كتبه بعض الباحثين والمفكرين عن تأثير الصحراء على العقلية العربية، فسوف تجد اختلافًا شديدًا يصل إلى حد التناقض. ولكنه يثير ما يثيره اليوم حديث بعض المفكرين عن صراع الحضارات، وكيف أن الشعوب العربية والإسلامية بحكم حضارتها وثقافتها لا تستسيغ الديمقراطية ولا تستوعبها، ولا تملك الاستعداد للتفكير العلمى التحليلى الذى يهيئ لها السبيل إلى التقدم والاندماج فى الثقافات الأخرى.



مثال ذلك ما يراه ابن خلدون من «أن العرب لطبيعة التوحش الذى هم فيه أهل انتهاب وعبث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر، والقبائل الممتنعة عليهم. بأوعار الجبال. بمنجاة من عبثهم وفسادهم.. وهم إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، لأنهم أمة وحشية.. وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، وليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد.. وهم متنافسون فى الرياسة. وقل أن يسلم واحد منهم الأمر لغيره، ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا فى الأقل. فيتعدد الحكام منهم والأمراء، وتختلف الأيدى على الرعية فى الجباية والأحكام، فيفسد العمران وينتقض، وانظر إلى ما ملكوه من الأوطان كيف تقوض عمرانه، وأقفر ساكنه.. وهم أصعب الأمم انقيادًا بعضهم لبعض.. إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة».

ويمضى ابن خلدون فيؤكد أن العرب أبعد الناس عن العلوم «لأن العلوم ذات ملكات محتاجة إلى التعليم.. لذلك كان حملة العلم فى الإسلام أكثرهم العجم أو المستجمون باللغة.. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم».

وسبق الجاحظ ابن خلدون فى وصفه لطبيعة العقلية العربية فيقول: «إن الهند لهم معان مدونة، وكتب مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف، وإنما هى كتب متوارثة، ولليونان فلسفة ومنطق.. وفى الفرس خطباء.. وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام. وليست هناك معاناة ولا مكابدة. ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام فتأتيه المعانى إرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً..».

مثل هذه الأوصاف التى نسبها بعض الكتاب العرب من القدامى إلى طبيعة العقلية العربية وتكوينها، عللوها فى رأيهم بما طبعته الصحراء على حياتهم وأسهمت به فى تشكيل وجدانهم وطريقة التفكير وأساليب التعبير عندهم ولم تلبث أن تحولت على أيدى المستشرقين والعديد من المفكرين الغربيين إلى سمات ثابتة متجذرة فى العقل العربى، لا يستطيع منها فكاكًا، ولا تتغير بتغير الأطوار التى انتقل فيها من البداوة إلى الحضارة، ومن البساطة إلى النضج، ومن حياة الصحراء إلى حياة القصور، ومن مضارب الخيام إلى المدن ذات الأبنية الشامخة والقلاع المحصنة والمساجد الباذخة والعمائر السامقة.

وقد ذهب كثيرون منهم بعد ذلك إلى إطلاق أحكام شاملة، نزعت عن العقل العربى قدرته على التحليل والتركيب والاستنتاج، وكشفت عجزه عن النظر الفلسفى، وإغراقه فى الولع اللفظى الذى يغنى عن الفعل، وضعف الخيال الذى يحبس نفسه فى شعر الفخر والحماسة والغزل والوصف الذى يخلو من الابتكار.. وما إلى ذلك من أقوال جردت الإنسان العربى من كل قدرة على كتابة الرواية والقصة والإبداع فى فنون التمثيل والمسرح.. كل ذلك لأن العربى فى العصر الحديث ليس إلا نتاجًا وتسلسلاً طبيعيًا للعربى فى العصر القديم.

وقد ساير عدد كبير من المفكرين العرب هذه الادعاءات. واستخلصوا منها نتائج ومقولات، بحثًا عن الأسباب التى أدت إلى الأزمة العربية المعاصرة، التى نزلت بالأمة العربية فحالت بينها وبين اللحاق بالعصر. وقد ذهب مفكر كبير مثل زكى نجيب محمود فى كتابه عن «تجديد الفكر العربى» إلى أن العلة التى نشكو منها تكمن فى أن «روح» تراثنا الثقافى هو إيثار السكنى فى عالم اللفظ على معالجة الأشياء. وأن الفتنة باللغة فى ذاتها تكاد تصرفنا عن دنيا الكائنات والحادثات، وهو يدعو من ثم إلى الخروج من دنيا اللغة إلى دنيا الأشياء، وأن ننضم إلى قافلة التفكير العلمى الذى يعالج قوانين الطبيعة ومناهج العلم الحديث.

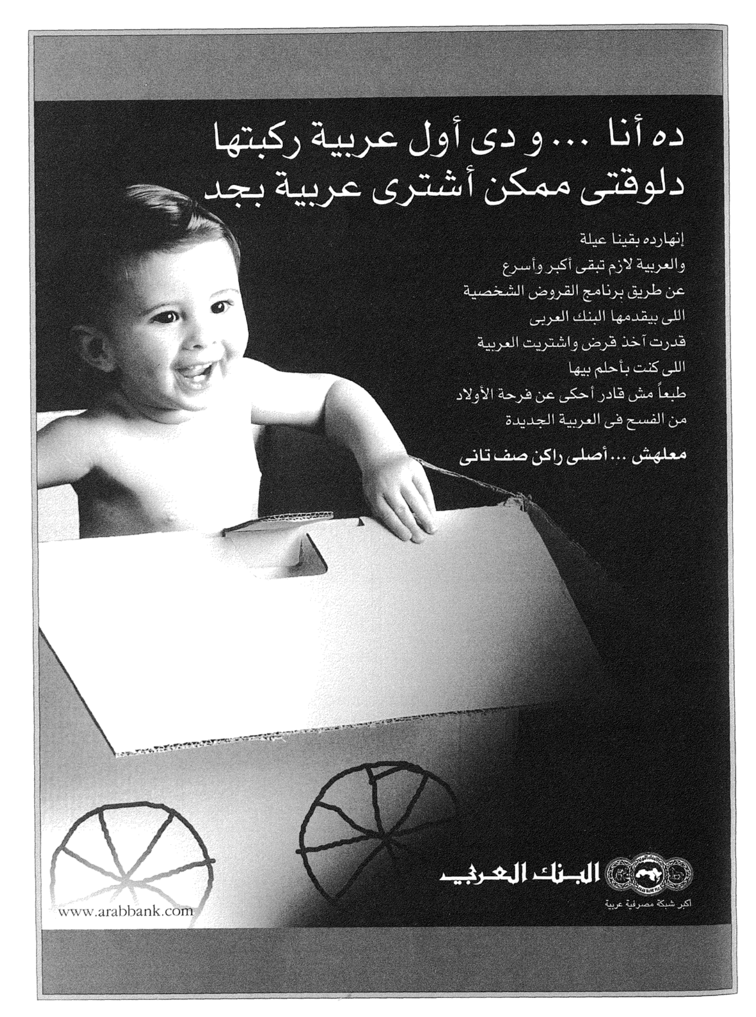


تخايل هذه التساؤلات عقل المسافر عبر الصحراء، والسكون المخيم على الكون المحيط يملأ النفس روعة ورهبة.. فلا يملك المرء إلا أن يسأل نفسه: هل ما خلفه العرب من تراث فى الشعر والقصيد، وما أفضت إليه الحضارة العربية بعد ذلك من فنون القول والرسم والزخرفة وإرهاصات التنوير الذى قاده ابن رشد وغيره من الفلاسفة، وما أنجزه الفنان العربى من خطوط هندسية محكمة، أبدعت كثيرًا من مظاهر التراث العربى فى فن المعمار، وما ألهمته الصحراء للمتصوف العربى من تجليات، وما أضافه الفقهاء من أحكام عقلية فى الشريعة والقانون وكل ما أبدعه فى الأدب والفن والفكر والعقيدة.. ألا يستحق أن يكون جزءًا من التراث الحضارى للعالم نعتز به، كما يعتز العالم بالإلياذة وبالملاحم والمأثورات الشعبية التى تعتبر من المرجعيات التى تؤكد هوية الفرد والجماعة؟؟

مجتمعات الترحال والبكاء على الأطلال قد تكون سمة من سمات الحياة التى تفرضها ظروف الصحراء. ولكن التراث العربى لم يكن كله بكاء على الأطلال وقلما تجد صحراء جرداء لا تتخللها الواحات العامرة بالأشجار والنخيل والأرض الخضراء، التى تمثل فى حياة الإنسان دعوة إلى الاستقرار والبناء والتعمير وبناء الحضارات. تتبدى لك هذه الحقيقة حين تبصر بعينيك ما خلفه السابقون من آثار ومقابر ومعابد فى الواحات التى تتناثر كاللآلئ فى التيه الممتد للصحراء الغربية.. دليل لا يقبل الشك على أن تنوع التراث المشترك للإنسانية لا ينبغى أن يقتصر على نصب قائمة أو مندثرة، ولكنه يجب أن يشتمل على ما خلفته قريحة الإنسان من مأثورات شعرية أو ملحمية تناقلتها الذاكرة الإنسانية عبر العصور، فلا نستهين بفنون الشعر التى أبدعها العرب وربما لم يبدعوا غيرها ولكنها صمدت على مر العصور.

ومع ذلك فلم تعد الصحراء.. فى عصرنا الحديث.. قفرًا يبابًا، بل عمرتها يد الإنسان وزرعتها وأخرجت من باطنها من الثروات والكنوز ما يقيم دولاً وممالك، ويفجر حروبًا طاحنة من أجل شقفة من رمال الصحراء هنا وهناك.. وهذه هى الجدلية الدائمة بين الإنسان والطبيعة على مر العصور!

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com



Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 29 - June 2001

مجلة شهرية . العدد التاسع والعشرون . السنة الثالثة . يونيه ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل

المؤامرة والسياسة والجريمة

الرأسمالية الجديدة والاحتكار

محمود عبد الفضيل

عمارة مصر والعشوائية

عز الدين نجيب

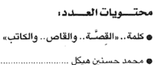
مكتبة الإسكندرية ومجتمع المعرفة

سلامة أحمد سلامة

عبد الوهاب أفلامه وأغانيه

سمير فريد

حلمي التوني ١٩٩٨ ELTOUNI



السنة الثالثة
العدد التاسع والعشرون
يونية ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- روبرت رايت... صحفى أمريكى.
- سلامة أحمد سلامة... صحفى.
- سمير فريد... ناقد فنى.
- ضياء رشوان ... خبير بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.
- عز الدين نجيب ... فنان تشكيلى.
- محمد السعيد إدريس... رئيس تحرير «مختارات إيرانية». مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.
- محمد حسنين هيكل ... صحفى.
- محمود عبد الفضيل... أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.
- مرفت عبد الناصر... أستاذ الطب النفسى بجامعة ليستر فى إنجلترا.
- ناصر الرباط... أستاذ تاريخ العمارة الإسلامية بمعهد ماستشوستس للتكنولوجيا (MIT).

رسوم العدد للفنانين: محمد حجى - نبيل تاج - سعد الدين شحاتة





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



كلمة..



القِصَّة.. والقاص.. والكاتب

حقيقة ملتبسة بالخيال.. وخيال ملتبس بالحقيقة

قد يكون هناك من يستغرب أن يكون موضوع «وجهات نظر» الرئيس هذه المرة.. قصة. أو «يبدو كذلك». والتعبيرُ يظل فى واقع الأمر دقيقاً. إذ رغم كونها فى التصنيف الجامد لموظفى المكتبات وفهارس النشر تندرج – ولا خطأ فى ذلك – ضمن قوائم الروايات، إلا أنها بما فيها وما حولها.. بأبطالها وأدوارهم .. ومن قبل ذلك كله بمؤلفها «تجربته .. ودوره» تظل عملاً خاصاً و«رواية» مختلفة. أقل ماتوصَفُ به أنها ليست مجرد «قصة».. وأنه ليس مجرد «قاص».. وأن «الكاتب» الذى يعرضها لوجهات نظر ليس إلا محمد حسنين هيكل. والذى لم يعرفه القراءُ من قبل «روائياً»، وإن مَلَكَ الأسلوب. ولا ناقداً للأدب، وإن قرأ أمهاته، وحفظَ من شعره الكثير.

وإذا كان فى بعض النظريات العلمية البحتة مايقول بأن بعد النقطة القصوى تأتى النقطة الأولى، فإن قصتَنا، التى هى فى عُمومها «أغرب» من الخيال، تبدو وقائعُها «أقرب» إلى الحقيقة.

القصَّة عنوانها: «عملية هبرون». وهبرون هى الخليل باللغة العبرية. والاسم هو الرمز السرى لعملية استخباراتية «مغامِرَة ومخاطِرَة» خطط لها الموساد الإسرائيلى، بهدف وضع أحد عملائه فى المكتب البيضاوى للبيت الأبيض رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية ، ليكون ذلك هو «الضَمان النهائى الذى لا ضَمان بَعده ولا ضَمان فوقه . فهو كفيل بأن يُحَقِّق لها كل ما تَحلم به ، وأبعَد وأوسَع من الحلم أيضاً». ذلك أن رئيس وزراء إسرائيل – فى القِصَّة – يَشعُر أن إسرائيل تَحتاج إلى ضمان أمريكى نهائى يُوَفِّر لها طول السنوات القادمة الحاسمة - وفيها التسوية الكاملة النهائية لأزمة الشرق الأوسط - ما لا تقدر عليه جَماعات الضغط المؤيِّدة لها ، وما هو أنفع من «أغلبية صديقة من الشيوخ والنواب ، وما هو أقوى من صَفٍّ طويل مُتَعاطِف من رُؤساء تحرير الصحف ومديرى الفضائيات وشركات السينما ».

والقصة فى فصولها ومشاهدها التى تنتقل من عاصمة إلى أخرى.. ومن عوالم علنية، إلى سرية.. ومابينهما من مساحات «غائمة» لايمكنك أبداً أن تعرف لها حدوداً، تروى التفاصيل الدقيقة لوقائع أكثر من مثيرة، يلتبس فيها بالضرورةِ الواقعُ بالخيال.. والقصُّ بالمحتمل والممكن.



قراءة «عملية هبرون» – الرواية – لاتكفى فيها مطالعة الفصول والمشاهد أو حتى مابين السطور. بل هى – بحكم ملابسات عديدة – لاتكتمل إلا بقراءة «السيرة الذاتية» لمؤلفها «إريك جوردان». وهو ليس «قاصاً» محترفاً، كما لم يسبق له – فيما هو معلوم على الأقل – أن كان «مُؤلِّفاً» أو «كاتباً» - وإنما هو مَسئولٌ مهمٌ، ومن أركان العَمَل السِرِّى فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وفى وقتٍ من الأوقات – يعرِّف به هيكل – كان «إريك جوردان» «مَسئول العمليات» فى العالم العَرَبى . وفى خاتمة هذه الفترة من حياته انتُدِبَ للعَمَل فى البيت الأبيض مُستَشاراً للرئيس «رونالد ريجان» مُختَصّاً بمُتابعة الإرهاب ، ومن البيت الأبيض وفى إطار مجلس الأمن القومى الذى أداره، قام «إريك جوردان» بمَهام شديدة الحساسية فى الشرق الأوسط !

«السيرة الذاتية» للمؤلف» تقول أنه فى الستينيات كان مسئول المخابرات الأمريكية فى ليبيا على عَهد الملِك «إدريس السنوسى» قبل أن يهرب منها فجر يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٦٩ على متن طائرة عسكرية أقلعَت من قاعدة «هويلس» - قُرب طرابلس - هاربة فى الثانية الأخيرة بعَدَدٍ من «الرجال» اعتَبَرَ جوردان « سَلامتهم ضرورية». (بينهم ضابط بوليس مصرى سابق،أصبح فيما بعد واحِداً من كبار رجال الأعمال العَرَب ، اتَّخذ من جنيف فى النصف الأول من السبعينيات مَقَراً لإدارة أعماله «المتشابكة والمتعددة». كما اتخذ من «إريك جوردان» مُستَشاراً له). قبل أن يختفى الأخير من جنيف ومن أعمال ضابط البوليس المصرى السابق ، ليظْهَرَ فى واشنطن مُستشاراً للرئيس «رونالد ريجان» لشئون الإرهاب. ثم .. وبعد سنوات اختفاء أخرى، يظهر رجل المخابرات المخضرم فى نيويورك ، ثم يُعاوِد الظهور فى بعض العَواصِم الأوروبية والعَواصِم العَرَبية - وهو هذه المرة رَجُل أعمال لحِساب نفسه. قبل أن يفاجئ الجميع، أو على الأقل من انتبه إلى كل تلك الملابسات، بروايته التى نشرها فى لندن السنة الماضية.

لايمكن قراءة الرواية إذن، دون أن نضع بين سطورها «معرفتنا بمؤلفها» والذى كتبها – بطبائع الأشياء – «ومخزون تجربته كمسئول كبير فى وكالة المخابرات المركزية لمدَّة ثلاثين سنة عِماد مَعرفته ومَصدَر ثقافته».

تعرض القصة – بين ماتعرض له – إلى نمط أصحاب البلايين العَرَب، والذين اقتربوا على نَحو أو آخر من دوائر السُلطة فى العالم العَرَبى ، وحَقَّقوا ثروات طائلة عن طريق المُثَلَّث الذهَبى : نشاط المخابرات - عمليات البترول - تجارة السلاح. كما ترسم وقائعها مشاهد مثيرة للعلاقة المتشابكة والغائمة بين عوالم السياسة والجنس والجريمة.



وفى مقاله لا يقترب هيكل – كما يقول – من هذا العَمَل ناقِداً أدبياً ، وإنما قارئاً سياسياً ، « لا تَشدُّه آفاق الخيال وإنما تَستوقفه لمحات الحقيقة المنثورة على أرضية العَمَل الأدَبى والماثلة على خلفيَّته - والظاهرة فى مَشاهِده وحواراته» موضحاً أن الاكثر إثارة من السياق العام للقِصَّة هو ما وراء الوقائع - ووراء النص لأسباب منها: أن هذه أول مرة يكتُب فيها مسئول كبير فى المخابرات المركزية - عَمَل فى الشرق الأوسط وفى العالم العَرَبى بالتحديد - شيئاً عن تجربته فى العَمَل السِرِّى بوَصف المسارح والمشاهِد ، والمواقف والحوارات. وفى إطار كتابة الرواية القصصية فإن الكاتب لا يصوغ من الخيال رواية ، وإنما يصوغ من الحقيقة خَيالاً. وهو لا يَستَدعى من العَدَم تفاصيله ، ولكنه يأخُذ من الوقائع هذه التفاصيل». ثم إنه من الواضح أنه اختار الأسلوب القصصى لكتابته حتى يُعطى نفسه الفرصة أن يبوح دون انطباق قوانين السِرِّيَّة عليه.

وأخيراً فهذه أول مرة يكتب فيها مسئول كبير من المخابرات المركزية وتكون إسرائيل وسياساتها ووسائلها فى تنفيذ هذه السياسات - موضوع كتابته . وحتى إذا كان الأسلوب روائياً قَصَصياً ، فقد جَرَت العادة على أن كل ما يَتَعَلَّق بإسرائيل مَكتومٌ مَحجوب .

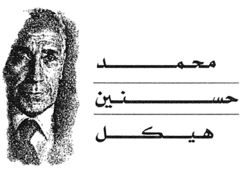


فى «وجهات نظر» هذا العدد أيضا هناك مكان للجزائر التى تموج هضابها ووديانها بأحداث يمتد إرث بعضها ويتشابك فى «الزمان والمكان». وهناك مكان لإيران التى تشهد هذا الشهر انتخابات رئاسية يراها البعض المحطة الفارقة فى رحلة الانتقال الصعبة من «الثورة للدولة».

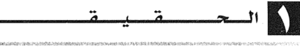
وبعد كل شىء – ورغم كل شىء – هناك مكان «للسعادة». إن كان ذلك مازال ممكناً.

وجهات نظر

المؤامـــــرة والســــ



محمـــــد
حســــنين
هيـــكـل



١ الحـــقـــيـــقـــة والخـــيـــال

أعترف على استحياء، ومُعتذراً بصدق - لأننى منذ سنوات طويلة اختصرت - ولا أقول حَذفتُ تماماً - أدَب الرواية من قراءاتى. وكان ذلك حُكم ضرورات، أو حُكم أولويات تُفرض نوعاً من النظام، وإلا فهى الفوضى وَسَط الزحام فى أوقات اتسع فيها حَجم المادة المقروءة أو المطلوب قراءتها - باتساع الفضاء - واقعاً وفعلاً.

وحتى لو لم أكن اختصرت أدَب الرواية من قراءاتى فلست أتذكَّر أننى حاولتُ فيما كَتَبتُ عَرض شىء مما قرأتُ فى الأدَب (أدَب الرواية أو أى أدَب غيره) عالمياً أو عَرَبياً - وكان ظنى أن ذلك ليس اختصاصى ولا هو دَورى. فالأدَب كله «روائياً أو غير روائى» له أصحابه من النقاد العارفين بأساسه وبنيانه ووَظيفته وزخرفه - وأما الآخرون غير هؤلاء النقاد فمُهمَّتهُم أن يقرءوا - يعجبهم ما يقرءونه أو لا يعجبهم - وذلك قصاراهم لا داعى للتجاوُز بَعده ولا للتزَيُّد.

وبرغم ذلك فإننى الآن على وشك الإتيان بمخالفة مُزدَوَجة للنظام وللاختصاص معاً، وذلك بالإقدام على عَرض «قصَّة روائية»، وهو اجتراء قد يَشفع لى فيه أن القِصَّة لها بُعدٌ سياسى.

Operation Hebron
(العملية هبرون)
Eric Jordan
London: International Media Group, 2001, 370p.

والحقيقة أننى وَجَدتُ القصَّة فى عُمومها «أغرب من الخيال» - وبالتالى وَجَدتها «أقرب إلى الحقيقة». فالخيال حين تكون له قيمة لا يخترع من العَدَم، وإنما قيمته أن يَصف ما يرى على السطح وتحت السطح - ثم يَغوصُ بعد ذلك إلى «المحتَمَل» و«الممكن»، وذلك هو الفارق بين «الخيال» قادراً على الخلق، وبين «العَبَث» تائهاً فى العَدَم!

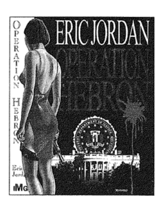
والقصَّة الروائية التى أجازف بالاقتراب منها فى هذا الحديث عنوانها «العَمَلية هبرون» - وقد صَدَرَت أواخر سنة ٢٠٠٠ - وكان صُدورها فى لندن عن «مجموعة الإعلام الدولى»، وهى مُؤسَّسة جديدة على عالم النشر - فيما يبدو - لأنى لم أسمع بها من قبل، ولم أجد لها قائمة مَنشورات سابقة.

ومُؤلف الرواية هو «إريك جوردان»، وقد سمعتُ عنه من قبل، ولكنى لم أسمع به «مُؤلفاً» أو «كاتباً» - وإنما سَمَعتُ عنه مَسئولاً مُهمًا فى المخابرات المركزية الأمريكية، وهى وكالة لها شأنها على اتساع القارات - كما أنها فى منطقة الشرق الأوسط بالتحديد قضية شديدة التَعقيد، مُشتَبكة - تقريباً - مع كل حَدَث. ولم تكن هناك مُبالغة فى الطريقة التى قَدَّم بها ناشر القصَّة لحياة مُؤلِفها حين ذكَرَ فى الثنية الخلفيَة للغُلاف وهو يُعَرِّف به أن «إريك جوردان» دبلوماسى أمريكى بارز، وهو فى نفس الوقت - وراء المظهر - من أركان العَمَل السرِّى فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وأن مجال نشاطه مُعظمه فى منطقة الشرق الأوسط وبعضه تَجاوَز هذه المنطقة واسعاً حولها فى أوروبا وأفريقيا. وفى وقت من الأوقات كان «إريك جوردان» «مَسئول العمليات» فى العالم العَرَبى. وفى خاتمة هذه الفترة من حياته انتدب للعَمَل فى البيت الأبيض مُستَشاراً للرئيس «رونالد ريجان» مُختَصًا بمُتابعة الإرهاب، ومن البيت الأبيض وفى إطار مجلس الأمن القومى الذى يُديره مُستَشار الرئيس للأمن القومى قام «إريك جوردان» بمَهام شديدة الحساسية فى الشرق الأوسط!

وتلك كلها - وكما وَرَدَت فى التَعريف بمؤلف القصَّة - معلومات صحيحة لا مُبالغة فيَها ولا تهويل.

وقد سَمَعتُ عن «إريك جوردان» لأول مرة سنة ١٩٦٩، وفهمتُ وقتها أنه مسئول المخابرات الأمريكية فى ليبيا على عَهد الملك «إدريس السنوسى»، وأن تَكليفه هناك كان مُساعَدة المخابرات الليبية مع بداية نشأتها، وأنه حتى يَتَحَقَّق ذلك أو شىء منه فإن «جوردان» يَقود بنفسه فريقاً أمريكياً ومحلياً يُتابع أمن النظام الملَكى فى سنواته الأخيرة خصوصاً والملك «إدريس» نفسه عَجوزٌ جاوَز الثمانين، واهتَمامه بشئون المُلك مَحدود، وهو علاوة على تَقدُّم سِنّه لم يُنجِب وَلِىَّ عَهد تاركاً الدَور لابن أخ له دون اعتراض ودون حَماسة - وقد تَبَدَّى ذلك للناس زُهداً فى الدُنيا، ولعله كان كذلك. لكن المشكلة أن ليبيا بَلَدٌ مُهمٌ للولايات المتحدة الأمريكية - فهى مُمتَدَّة على ثلث الشاطئ الجنوبى للبحر الأبيض، ولها عُمقٌ واصلٌ إلى قلب أفريقيا، مُجاورٌ لستة بُلدان أفريقيَة هى أفريقيا شمال الصحراء كلها، ثم إن ليبيا مَوطن حقول نفط غنيَّة يُضاعف من غناها أن مَوانئ شحنها على شاطئ البحر الأبيض مُباشرة وعلى مَوقع نظر من «مالطة» و«جنوب إيطاليا». وأخيراً - وهذا هو الأهم - فإن ليبيا بَلَدٌ مَحدود السُكان، وبالتالى مَحدود المشاكل، وخُلاصة ذلك أن البَلَد قاعدة مَطلوبة - مأمونة - لمخَطَّطات إمبراطورية - وبالفعل فقد قامت على أرضها قاعدة عسكرية بَريطانية هى قاعدة «العَظم» المُلاصقة لـ«طُبرُق»، وقاعدة أمَريكية كبرى هى قاعِدة «هويلس» المُلاصِقة

ـياسة والجـــريمة!



لـ«طرابلس» - وذلك كله: الموقع والبترول والقواعد - قابل للحماية بسهولة، شريطة أن يكون الجهد واعياً يرى الخطر إذا لاح، ويسبق الخطر قبل أن يتأكد!

وكان «إريك جوردان» هو الرجل الذي تحمّل بالمسئولية ممثلاً للمخابرات المركزية الأمريكية ومفوّضاً منها!

وفجر يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٦٩، وفي دار القنصلية المصرية ببنغازي، وفي وجود العقيد «معمر القذافي» أمامي في صالونها يحكي لي في أول لقاء بيننا قصة قيام ونجاح ثورة الفاتح من سبتمبر كي أنقل ما أسمعه منه لـ«جمال عبد الناصر» - تردّد أمامي مرة أخرى اسم «إريك جوردان» باعتباره جاسوس المخابرات المركزية «الغامض».

وكان داعي تردّد اسمه أن طائرة عسكرية أقلعت من قاعدة «هويلس» - قرب طرابلس - هاربة في الثانية الأخيرة بعدد من «الرجال تتعرض حياتهم للخطر إذا تغيّرت الأحوال فجأة». وكان بينهم «مصري» هو في الأصل ضابط بوليس عمل في ليبيا، وأصبح مقرّباً من القصر عن طريق عائلة «الشلحي»، وكان الملك «إدريس» يعتبر أبناء هذه العائلة أبناء له يرعاهم ويقرّبهم. ويبدو أن ضابط البوليس المصري السابق كان في ذلك الوقت وثيق الصلة بهم، ولذلك كان «مطلوباً».

وكان الظاهر من الروايات أن «إريك جوردان» وهو المسئول عن أمن النظام في ليبيا فوجئ بقيام الثورة ونجاحها في ساعات، ولم يستطع ترتيب عمل مضاد يتكفّل بردّها، وبالتالي أصبح همّه الأول أن ينجو بنفسه قبل أن يطبق النظام الجديد حصاره على مداخل البلد ومخارجه، وأن يأخذ معه إلى النجاة «عناصر» اعتبر سلامتها ضرورية، وضمنهم ضابط البوليس المصري السابق الذي أصبح فيما بعد واحداً من كبار رجال الأعمال العرب، يتّخذ من جنيف في سويسرا مقرّاً لإدارة أعماله، وفيما عرفت فإنه راكم ثروة طائلة من نشاط اتسع فشمل مجالات عديدة يرتكز معظمها على البترول وصناعته وتجارته.

وبعد سنوات - وفي الفترة ما بين ١٩٧٠ و١٩٧٥ - ظهر «إريك جوردان» مرة أخرى نجماً في مجتمع العرب في جنيف، وإذا هو الآن «مستشار» للرجل - ضابط البوليس السابق - الذي قام بتهريبه من ليبيا فجر يوم قيام الثورة، ثم إذا هو مسئول عن جانب من نشاطه التجاري والمالي. والواقع أن ذلك كان نموذجاً تكرّر كثيراً في علاقات عدد من رجال الأعمال العرب «الجدد» مع مسئولين سابقين في المخابرات الأمريكية والأوروبية. فقد جمعتهم الظروف معاً في أيام سبقت، ثم تغيّرت الأحوال فإذا الطرف العربي رجل أعمال كبير، وإذا الموظف الأمريكي أو الأوروبي السابق يبحث عن فرصة - يجدها في خدمة صديقه الذي عرفه ذات يوم.

والمهم أنه في الثمانينات اختفى «إريك جوردان» من جنيف ومن أعمال ضابط البوليس المصري السابق، ثم ظهر في واشنطن ليظهر مستشاراً للرئيس «رونالد ريجان» لشئون الإرهاب.

ومضت سنوات واختفى «إريك جوردان» من واشنطن ليظهر في نيويورك، ثم يعاود الظهور في بعض العواصم الأوروبية والعواصم العربية - وهو هذه المرة رجل أعمال لحساب نفسه.

وأخيراً سنة ٢٠٠٠ أطلّ «إريك جوردان» على الساحة مؤلفاً لقصة روائية ظهرت في لندن تحت عنوان «العملية هبرون»، ثم وصلت إليّ من صديق غال اقترح «أن أقرأها، مؤكداً لي أن قراءتها ليست مضيعة لوقتي». وتلكأت أسابيع قبل قراءة القصة، فلم يخطر لي أن فيها ما يعنيني. ثم كان أن وجدتها أمامي ذات ليلة بحثت فيها عن «شيء» لا يعلق منه بالفكر أثر أقرؤه قبل أن أنام دون خطر من إثارة خواطر تتداعى ولا تتوقف. وكان أنني لم أنم ليلتها حتى فرغت من قراءة القصة كلها - ٣٧٠ صفحة!

□

وقائع القصة - وكاتبها خبير يعرف الناس والأجواء - تتلخص فيما يلي:

رئيس أمريكي من الحزب الجمهوري اسمه الرئيس «دوجلاس» يراوده شعور بأن إسرائيل تغالي في طلباتها من الولايات المتحدة لدرجة تؤدي لتعريض المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط للخطر. ورغم أنه يتجاوب «بالأفعال» مع المطالب الإسرائيلية، إلا أنه في «النوايا» يحاول نوعاً من المقاومة. وهو على وشك أن يترك البيت الأبيض بانتهاء مدة رئاسته، لكنه غير مطمئن إلى أن مرشح حزبه الطبيعي في الانتخابات القادمة، وهو نائب الرئيس «هيز» - يملك الكفاءة اللازمة لمقاومة طلبات إسرائيل في «الأفعال» أو في «النوايا» - ثم إنه يعرف أن المرشح الديمقراطي في هذه الانتخابات القادمة وهو عضو الكونجرس «ويستليك» صديق حميم لإسرائيل، ومستعد لتلبية كافة طلباتها مهما كان ضررها على المصالح الحقيقية للولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط.

ويحار الرئيس «دوجلاس» كيف يتصرف؟ - ثم يحزم رأيه على إقناع أحد زعماء الجمهوريين الكبار ممن يثق فيهم، ويعرف صدق ولائهم لوطنهم الأمريكي، وهو السناتور «جونسون» - حتى يدخل المعركة ساعياً للحصول على ترشيح نفسه ويفوز بترشيح حزبه في مؤتمره القادم، ثم يخوض انتخابات الرئاسة عن الجمهوريين.

ومع أن الرئيس «دوجلاس» مضطر في العلن إلى إظهار تأييده لترشيح نائبه الضعيف «هيز» فإنه من وراء الكواليس يدعو لـ«جونسون»، وأكثر من ذلك فهو مستعد لإقناع «هيز» بأن يقبل دخول المعركة القادمة نائباً للرئيس مع «جونسون» أيضاً كما هو الآن معه هو («دوجلاس»)، وهو يظن أن نائبه بضعف شخصيته مستعد للقبول لأن منصب «نائب الرئيس» «في اليد خير» من منصب «الرئيس» على الشجرة»!



وعبر المحيط وعبر البحر وعلى الناحية الأخرى من الكرة الأرضية فإن دائرة صنع القرار في تل أبيب يساورها قلق. وداعي القلق أن رئيس وزراء إسرائيل واسمه في القصة «أهارون إيشيل» يشعر أن إسرائيل تحتاج إلى ضمان أمريكي نهائي يوفّر لها طول السنوات القادمة الحاسمة - وفيها التسوية الكاملة النهائية لأزمة الشرق الأوسط - ما لا تقدر عليه جماعات الضغط المؤيدة لها، وما هو أنفع من أغلبية صديقة من الشيوخ والنواب، وما هو أقوى من صف طويل متعاطف من رؤساء تحرير الصحف ومديري الفضائيات وشركات السينما.

ووسط هذه الهواجس يجيء رئيس المخابرات الإسرائيلية (الموساد) «بنيامين شتيرن» إلى رئيس وزرائه بخطة جسورة لا تخطر على خيال، مؤدّاها أن إسرائيل بمقدورها أن تضع أحد عملائها في المكتب البيضاوي للبيت الأبيض رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، ويكون ذلك هو الضمان النهائي الذي لا ضمان بعده ولا ضمان فوقه، فهو كفيل بأن يحقق لها كل ما تحلم به، وأبعد وأوسع من الحلم أيضاً!

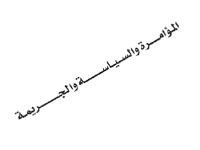
لكن رئيس الوزراء «إيشيل» خائف لأن العملية معقّدة إلى درجة تصعب إدارتها وقد تستحيل سريّتها - وإذا انكشف أمرها في الولايات المتحدة انتهى النفوذ الإسرائيلي كله في لمحة بصر لأن الرأي العام الأمريكي سوف يرى بعينيه تصميم إسرائيل «للسيطرة على قراره» و«اللعب بمقدّساته»، و«استغلال الديمقراطية الأمريكية» ضد «روح هذه الديمقراطية» وضد «الأمن القومي الأمريكي»، وذلك وضع لا يجدي معه رتق أو ترقيع كما حدث عندما انكشف أمر الجاسوس الأمريكي «بولارد» الذي كان يسرّب إلى «الموساد» وثائق وأسرار المخابرات الأمريكية العسكرية والسياسية، ومما اعتبر تهديداً للأمن القومي. وترتّب عليه أنه لم يعد في مقدور أي رئيس أمريكي مهما كانت درجة انبهاره بإسرائيل أن يصدر عفواً عنه (وكان «كلينتون» آخر هؤلاء الرؤساء الأمريكيين الذين أرادوا لكنهم فشلوا)!

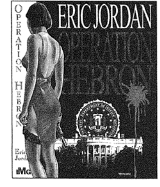
أخيراً وبعد تردّد يقبل رئيس الوزراء «إيشيل» باقتراح مدير الموساد «بنيامين شتيرن». فهو اقتراح ينطوي على مجازفة خطيرة لكنه يستحق المغامرة مع أخذ كل الاحتياطات اللازمة - وحتى غير اللازمة.

وهكذا يكلّف «تيرون» وهو مدير مكتب «الموساد» في واشنطن بأن يكون مسئولاً عن العملية «هبرون» بالتنسيق المباشر مع الجنرال «شتيرن» مدير «الموساد»، كما أن «تيرون» يحصل على صلاحية الاتصال المباشر «برئيس الوزراء إيشيل» على تليفونه الخاص وفي غرفة نومه - إذا وجد داعياً يقتضي ذلك ليلاً أو نهاراً!



وفي وسط هذه العملية الكبرى تجري وقائع القصة، وفيها يظهر أن «الموساد» رأى ضرورة تصفية أحد السفراء الأمريكيين جسدياً - وهذا السفير هو «ريتشارد سورنسون» ممثل الولايات المتحدة في عاصمة السوق الأوروبية «بروكسل»





(بلجيكا) ـ والداعى إلى القتل أن السفير «سورنسون» صديق شخصى للرئيس «دوجلاس» ـ وكان مدير حَملته الانتخابية قبل تَعيينه سفيراً ـ لكنه الآن من مَوقعه فى بروكسل يَقوم باتصالات مع بعض الأَطراف العَرَبية، وهى اتصالات مُتَعَدِّدة الأهداف : فيها الاتصال لمجرد الاتصال (أى المعرفة عن قُرب)، وفيها الترويج لمبيعات (بينها السلاح)، وفيها التَّمهيد لمقترحات وصِيَغ (تَخدم مُفاوضات السلام قبل بَدئها وَعند تَوَقُّفها).

والسفير «سورنسون» ليس صديقاً لإسرائيل، ومشاعره نحوها ليست جَليَّة بما فيه الكفاية. ولأن تأثيره على الرئيس «دوجلاس» زائد، فإن بقاءه فى منصبه قد لا يكون له لزوم من وجهة نظر إسرائيل، ونظراً لأن استهدافه بحَملة تشويه لسُمعَته قد يَجىء بأثر عَكسى يضطر الرئيس للوقوف دفاعاً عنه أو عن نفسه ـ وهو أمرٌ غير مطلوب خصوصاً وإسرائيل على وَشك أن تبدأ العملية «هبرون» ـ إذن فإن الحَلَّ المناسب هو تَصفية «سورنسون»، وتلك عملية سهلة لأن السفير «زير نساء» لا يستطيع مُقاومة «ساق عارية» و«صَدر نافر»، و«شفاه من حَبَّات «الكَرَز» تُنادى شفاهاً غيرها وتنفجر عندما تتلامَس الشفاه!»



وقد وَجَدَ «الموساد» هذه المواصفات المطلوبة لغِواية «سورنسون» فى فاتِنة صربية الأصل اسمها «جاكى ماركوفيتش»، وشَخصيتها مَزيج خطر من القوة والقَسوة، فهى مُصابة بالعُقَد من طفولتها لأن زوج أمها اعتدى عليها بانتهاك بَراءتها، وبَعدها ـ كذلك يَظهَر ـ فإنها خرجَت تنتقم من كل رَجُل خصوصاً إذا كان فى عُمر زوج أمها، أى فى منتصف الحياة، فلا هو الشباب ولا هو اليأس، وعليه فاستعدادهم للغواية يَسبق تَعَرُّضهم لها ـ وذلك ينطبق على السفير «سورنسون».

ويَتَّضح من القصَّة ـ والكاتب خبير مُجَرِّب ـ أَن مخابرات الدُوَل الكبرى حين تُقَرِّر التصفية الجسدية لشخص لا تُمارس القتل بعملائها، وإنما تلجأ إلى فئة من «القَتَلة الدوليين» جاهزين للعَمَل طبقاً لعقود، وقيمتهم أنه يَصعُب الوصول إلى آثارهم، بواقع أنه ليس لهم وجود فى الحياة السابقة لضحاياهُم ـ ومن ثم فهم ليسوا على قائمة المشتبه فيهم بالدافع إلى الجريمة. وأصعَب الجرائم استعصاء على الكشف هى الجريمة التى لا دافع لها عند القائم بها، فنقطة البداية فى أى تحقيق جنائى تبدأ عادة بالبحث عن «المستفيد من الجريمة»، فإذا لم يكن هناك مُستفيدٌ تأخَّر أو تَعَذَّر الإمساك بخيطٍ يُؤدِّى إلى فاعل.

يَتَّضح أيضاً فى السياق أن المخابرات المُتَمَرِّسَة فى عملها حين تُكلِّف قاتلاً مُحترفاً بعملية تصفية جَسَديَّة لا تَفعَل ذلك مُباشرة، وإنما تُفضِّل أن يَصدُر التكليف عن غيرها، أو على الأقل أن يبدو كذلك.

وكان ذلك ما حَدَث بالضبط فى تكليف «جاكى ماركوفيتش» الصربية الفاتنة باغتيال «سورنسون» السفير الأمريكى فى «بروكسل».

وفى هذه الحالة فإن «الموساد» تَصَرَّف بحيث ظنَّت «جاكى ماركوفيتش» أن التكليف، أى العَقد، الذى جاءها باغتيال السفير الأمريكى صَدَرَ عن المخابرات الإيرانية.

ثم حَدَث بعد «تصفية سورنسون» فعلاً أن «جاكى» لم تَجد قيمة عَقدها كما هى العادة فى حِسابها فى البنك ـ وتَحَقَّقَت من الخديعة. وراجَعَت مُمثلى «الموساد» فأنكَروا. وأحَسَّت أنهم فوق استغلالها يريدون «أكل حقها» بعد تَنفيذ ما طَلَبوه منها فى «بروكسل»، وقَرَّرَت بجرح امرأة عَرَفَت من قبل أَلَم الجراح ـ أن تنتقم.



وفى يوم إعلان نتائج الرئاسة الأمريكية كانت «جاكى ماركوفيتش» على موعد مع الانتقام من «تيرون» مسئول «الموساد» فى واشنطن ـ فقد كان هو الذى أنكَرَ عليها تحويل قيمة عقدها مُصَمِّماً على أن تكليفها كان من الإيرانيين وليس من الإسرائيليين ـ وليلتها تَعَقَّبَت «تيرون» إلى موعد سِرِّى ذهَب إليه (ولم تكن تعرف) أنه لقاء مَع «هبرون» ـ العميل الذى ساندته إسرائيل ليصِل إلى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض.

وهكذا فإن «جاكى» تُفاجئ مدير «الموساد» فى واشنطن «تيرون» فى لحظة انتصاره الأعظم بعد نَجاحه فى وَضعَ عميل لإسرائيل فى المكتب البيضاوى للبيت الأبيض ـ وتُصَوِّب إليه رصاص امرأة مَجروحة مُصَمِّمة على الانتقام منه، وبالفعل تَقتُله ـ لكنها تَقتُل معه رَجُلاً آخر يَتَّضِح أنه رَجُله المختار «هبرون»، وهو فى نفس الوقت الرئيس الأمريكى المنتخب الجديد.

وهكذا فإن إسرائيل فى ذروة تَحقيق أوسَع أحلامها خَسَرَت ـ بمجرد مصادفة ـ عميلها الجاهز للرئاسة الأمريكية (فى ظروف حاسمة ونهائية) فى البيت الأبيض ـ وضَيَّعَت برصاص امرأة مَخدوعة ومجروحة ومُعَقَّدة ـ مدير محطة «الموساد» فى واشنطن والرَجُل الذى حَقَّق لإسرائيل خيالها المستحيل.

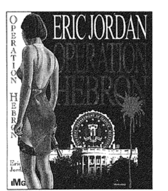
□

هذا هو السياق العام للقِصَّة الروائية، وهو مثير، لكن الأكثر إثارة هو ما وراء الوقائع ـ ووراء النص لأسباب :

١ ـ لأن هذه أول مرة يكتُب فيها مسئول كبير فى المخابرات المركزية ـ عَمَل فى الشرق الأوسط وفى العالم العَرَبى بالتحديد ـ شيئاً عن تجربته فى العَمَل السِرِّى بوَصف المسارح والمشاهد، والمواقف والحِوارات. وقد كَتَبَ كثيرونَ قبل «إريك جوردان»، لكن كتابتهم كانت مُقَيَّدة بما يمكن نشره من الوقائع، وبما يمكن السماح به من تحليل وتعليل. وفى إطار كتابة الرواية القصصية فإن الكاتب لا يصوغ من الخيال رواية، وإنما يصوغ من الحقيقة خَيالاً. وهو لا يَستَدعى من العَدَم تفاصيله، ولكنه يأخُذ من الوقائع هذه التفاصيل.

٢ ـ إن هذه أول مرة يكتب فيها مسئول





كبير من المخابرات الأمريكية عَمَلاً من هذا النوع، ومن الواضح أنه اختار الأسلوب القصصي لكتابته حتى يُعطي نفسه الفرصة أن يبوح دون انطباق قوانين السرِّية عليه، ودون أن يُساءَل عما إذا كان استغَل طبيعة وظيفته ليفشي أسرار أحداث وطبائع بَشَر، وعلاقات تَكشف وتُعلن ما كان يصح أن يَبقى عليه غطاؤه وستره!

٣ - وأخيراً فهذه أول مرة يكتب فيها مسئول كبير من المخابرات المركزية وتكون إسرائيل وسياساتها ووسائلها في تنفيذ هذه السياسات - موضوع كتابته. وحتى إذا كان الأسلوب روائياً قَصَصِياً، فقد جَرَت العادة على أن كل ما يَتَعَلَّق بإسرائيل مَكتومٌ مَحجوب.

....

....

هكذا قَدَّرتُ خصوصية رواية «العملية هِبرون» من أول صفحة - وكذلك قرأتها مرة واحدة - ٣٧٠ صفحة - ثم وجدتني بعد ذلك أغامر بعرضها داخِلاً إلى اختصاص ليس لي، وفي مجال اختصَرت وقتي معه.

وربما أضيف أنني لا أقترب من هذا العمَل ناقداً أدَبياً، وإنما قارئاً سياسياً. لا تَشدُّه آفَاق الخيال وإنما تستوقفه لمحات الحقيقة المنثورة على أرضية العَمَل الأدبي والماثلة على خلفِيَّته - والظاهرة في مَشاهِده وحواراتِه.

والواقع أن هذه اللمحات من الحقيقة الملتَبسة بالخيال - أو الخيال الملتَبس بالحقيقة - هي بالضبط ما يَعنيني!

٢ مؤامرة لصناعة رئيس أمريكي!

وقائع قصة «العملية هِبرون» (التي كتبها «إريك جوردان») تجري بطول خمسة وعشرين فصلاً (٣٧٠ صفحة) - تبدأ حوادثها من الفصل الثاني للرواية لأن الفصل الأول تَشويق بوليسي لا داعي له هنا، وبَعده تَتوالي وقائع القِصَّة بداية من الفصل الثاني.

ومَشاهد هَذا الفصل الثاني تَقَع في مكتب «أهارون إيشيل» رئيس وزراء إسرائيل (من المحاربين القدامى في السويس) وهو يَستَعد لاجتماع على دَرَجة عالية من السرِّية تُناقَش فيه تفاصيل خطة «العملية هبرون»، وهي خُطَّة تُقدِم بها إسرائيل على مُخاطرة كارثية الأبعاد لو انكشفت، لكنه إذا نَجَحَت العملية فإن إسرائيل سوف يكون لها في البيت الأبيض عَميل يَجلس في المكتب البيضاوي رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية لأربع سنوات - قابلة للتجديد أربع سنوات أخرى، ويكون ذلك في فترة حاسمة من تاريخ الشرق الأوسط، أي أن «رَجُل إسرائيل» على قِمَّة السُلطة في مَقدوره أن يُمَكِّن لها من ترتيب أمنها النهائي وسَيطرتها الكاملة حيث تُريد : في مَوقعها، وحول مُحيطها الأقرَب والأبعَد - بما يَجعَلها في القرن الواحد والعشرين لاعِباً أساسياً على مسرح العالَم.

ورئيس الوزراء الإسرائيلي يَظهَر في المشهَد الأول من القِصَّة وهو يُتَحاوَر مع الجنرال «بنيامين شتيرن» مدير «الموساد» (المخابرات العامة الإسرائيلية).

ومن خلال الحوار تَظهَر أول إشارة إلى تلك الخطة التي يَعرضها مدير «الموساد»، ويَبين من مَجرى الحِوار أن رئيس الوزراء قادر على تَصَوُّر إمكانية النجاح - لكنه خائف من جَسارة المخاطرة. ثم هو قَلِق من التكاليف المبدئية المقَدَّرة لإنجاحها - ويَخشى أنها كبيرة رغم تَواضُعها (في مقاييس آخرين من غير الإسرائيليين - خصوصاً لو كانوا من العَرَب!)

ومن كلام مدير «الموساد» تَظهَر دَوافع إسرائيل إلى تلك المغامرة «المريعة» إذا انكشفت، و«البديعة» إذا نَجَحَت.

ومع أن مدير «الموساد» في حواره مع رئيس الوزراء لا يُنكر نفوذ إسرائيل في واشنطن حتى بدون «العملية هبرون» - لكنه كما يقول «لا يَستطيع أن يَضمَن» - ويَرى شواهِد تَجعله لا يَطمئن، وهو يَعد من هذه الشواهد ثلاثة :

● «مَرات يُلِحُّون علينا - يَقصد الأمريكان - حتى نَتَجاوَب مع بعض المطالب الفلسطينية ولو «بطريقة تَجميلية» يَتَوَهَّمون بذلك أنهم قادرون على تَهدِئة مشاعر أصدقائهم من الزعماء العَرَب، وتَسهيلاً عليهم حتى يَتَمَكَّنوا من احتواء «هَوَس» شعوبهم المعادية لإسرائيل».

ويَستَطرد مدير «الموساد» في هذا الموضع فيقول لرئيس الوزراء: «يَتَصَوَّرون (أي الأمريكان) أن هناك «سَلاماً» مُمكناً في المنطقة، ونحن كما تَعلم «يا سَيِّدي» نُرَتِّب خططنا على أساس أنه لن يكون هناك في يوم من الأيام «سلام». وفي ربع القرن الأخير حاولنا شَغل العَرَب بأعداء آخرين غيرنا، وظَهَرَ أن ذلك في إمكاننا : فَفي ثُلث هذه المدَّة اعتبر العَرَب أن عَدُوَّهم هو روسيا - وفي الثُلث التالي اعتبروا عَدُوَّهم هو إيران - وفي الثُلث الأخير كان العَدُو هو العراق - لكن العَرَب لا يَثبَتون عند رأي، وهُم يعودون إلينا في نهاية المطاف لأننا «العَدُو المفَضَّل» لديهم!»

يُواصل مدير «الموساد» عَدَّ الشواهِد التي تجعله لا يَطمَئِن :

● «الأمريكان يريدون منا - أيضاً - أن تكون علاقاتنا بأوروبا عن طريقهم - ولا تُعجبهم علاقاتنا مع ألمانيا، وهُم يُلحون علينا في مَعرفة تفاصيلها ودقائقها. ونحن والألمان معنا نُفضِّل الكتمان، ولا نَعرف لماذا هو حَق الأمريكان أن يَعرفوا كل شيء - دائماً - وفي وقته!»

● هُم كذلك - الأمريكان أيضاً - لا يُقَدِّرون تماماً ضرورات تعاملنا مع روسيا ومع الصين. وقد تَململوا لأننا بعنا للصين بعض المعدات التكنولوجية وفيها ما جاءنا عن طريقهم. والظاهر أنهم يَعتَبرون مُساعداتهم لنا مُبَرِّراً يَسمَح لهم بالوصاية على تَصَرُّفاتنا. ومع أنهم لم يَعرفوا إلا بجزء بسيط عن صَفَقاتنا مع الصين، إلا أنهم مع ذلك عاتَبوا وحاسَبوا. ولو أنهم عَرَفوا كل الحقيقة لأصابهم مَس من الجنون يَصِل بهم إلى حَدُ الفرقعة!

وهذه شواهِد لا تجعلنا قادرين على النوم بلا أرَق!»

....

....

[خلال جَرَيان وقائع هذا الفصل تَظهَر «امتيازات» جواسيس «الموساد» عندما يقومون بعملياتهم السرِّية سواء بمُفرَدهم أو بمعونة وحدات من القوات الخاصة. ويَتَّضح أن حَجم الامتيازات التي يَتَمَتَّع بها كل «عَميل سرِّي خاص» يُؤكِّد بالكامل تلك المقولة الشَائعة عن أن كل عَميل «للموساد» له في إسرائيل وَضع «أمير». و«أمَراء الموساد» في مَواقعهم حيث يَكونون وفي أي مكان من العالم - معهم من الوسائل ما يُمَكِّنهم من الاتصال بقاعدتهم في تل أبيب، وهُم عند الضرورة قادرون على الاتصال بمدير «الموساد» مباشرة، وهُم في أحوال الضرورة القُصوى قادِرون على الاتصال دون وَساطة مع مكتب رئيس الوزراء.]

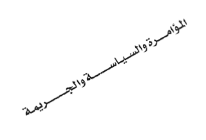
....

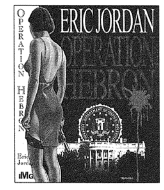
....

[تُؤيِّد ذلك الوضع لجواسيس «الموساد» ولوحدات العمليات السرِّية الخاصة وثيقة سرِّية إسرائيلية (من عوالم الحقيقة وليس من خيال القصص)، وقد اطلعت على مَضمونها فيما قَرَأت وأشَرتُ إليه فيما كَتَبتُ عن «سياحة في الوثائق الإسرائيلية» (ظَهَرَت على خَمس حلقات في هذه المجلة).

وفي هذه الوثيقة السرِّية

مسئول كبير في المخابرات الأمريكية يكتب قصة. والغالب أنه اختار هذا الأسلوب ليبوح دون أن تنطبق عليه قوانين السرية





(وأكرر أنها حقيقية وليست روائية) وهي خاصة بوقائع قيام مجموعة عمليات خاصة من «الموساد» ووحدات الكوماندوز باغتيال عدد من قادة المقاومة الفلسطينية في تونس، وأهمهم «أبو جهاد» الرجل الثاني في منظمة التحرير الفلسطينية. ويومها (١٦ أبريل ١٩٨٨) تبيَّن أن «إسحاق رابين» - وزير الدفاع وقتها - كان موجوداً بنفسه في طائرة تحوم حول العاصمة التونسية قريباً من مسرح العملية، وكان داعي وجوده في الأجواء القريبة - وفق الخطة - أنه إذا حدث لسبب ما وفشلت العملية وألقي القبض على أعضائها - أن يتوجه مباشرة إلى مطار «فاس» ويقابل الملك «الحسن» ويطلب تدخله فوراً مع الحكومة التونسية لإنقاذ «عملاء إسرائيل» وتأمين الإفراج عنهم. وكان بعض المتصلين بإسرائيل من المقربين للملك موجودين في مطار «فاس» بترتيب مسبق (لعلهم لم يعرفوا هدفه)، كما أنه لا يبدو في ظاهر الوثيقة أن الملك «الحسن» نفسه كان يعرف عن العملية شيئاً. لكنه لسبب ما كان «رابين على ثقة أن الملك سوف يقابله وسوف يساعده!» (كذلك يبدو في الوثيقة محسوساً به وإن لم يكن منصوصاً عليه!)]

....

....

□

في نفس الفصل يبين أن القرار الأمني السري في إسرائيل موكول إلى لجنة لا يزيد عدد أعضائها في العادة على خمسة: رئيس الوزراء - ووزير الدفاع - ومدير «الموساد» (المخابرات العامة) - ومدير «آمان» (المخابرات العسكرية) - ورئيس الأركان. وفي أحوال غير عادية يمكن دعوة مسئول واحد مع الخمسة بحسب قرب اختصاصه من تنفيذ أي قرار أمني سري. فهو وزير المالية إذا كانت للقرار تكلفة تتخطى الميزانية المقررة لهذا النوع من النشاط - أو هو مدير محطة مخابرات بالذات يقع تنفيذ القرار الأمني السري في اختصاصها - أو هو وزير العدل إذا كانت للقرار الأمني السري مضاعفات قانونية محتملة.

ويبين أن لجنة القرار الأمني السري - لجنة الخمسة - لا تجتمع في موعد معين أو في مقر معين، وإنما يتم تبليغ أعضاء اللجنة بأي اجتماع قبل موعده بساعات قليلة، والتبليغ بموعد الاجتماع ومكانه يتم مباشرة بهمسات شفاه. وطبقاً لوقائع هذا الفصل من رواية «إريك جوردان» فإن الاجتماع الأمني السري هذه المرة في مزرعة وسط قرية «هولون» على الطريق ما بين القدس وتل أبيب، وهي مزرعة مساحتها سبعة أفدنة - مملوكة لـ«جيروم شتيرن»، وهي شقيقة لمدير «الموساد» (ويشار عرضاً في الحوار إلى أن المزرعة مشتراة بأموال «الموساد» وأن «جيروم شتيرن» مالكة لها على الورق وأمام الناس).



وفي هذا الفصل من رواية «إريك جوردان» فإن أهمية موضوع «العملية هبرون» - وهو غير عادي بالمرة! - اقتضت دعوة ثلاثة مسئولين للمشاركة، وليس واحداً حسب القاعدة المرعية في اجتماعات الخمسة، وأول هؤلاء كان وزير الخارجية «إدموند روثبرج» - والثاني كان «جرشون لاهاف» وزير المالية - والثالث كان «دافيد تيرون» مدير محطة «الموساد» الضخمة في واشنطن.

وفي هذا الفصل من روايته يصف «إريك جوردان» صورة لوقائع الاجتماع (كما تخيلها - أو كما سمع عنها - أو كما عرفها - فالخيال هنا ملتبس بالحقيقة، أو لعلها الحقيقة ملتبسة بالخيال).

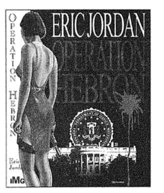
وحسب وصف «إريك جوردان» فإن «جيروم» أخت الجنرال «شتيرن» مدير «الموساد» تظهر وهي ترتب قاعة الجلوس في بيتها الريفي، وكأنها تستعد لمناسبة اجتماعية من نوع ما تقيمه كل أسبوعين أو ثلاثة. ويظهر أنها منذ اشترت المزرعة - أو اشتريت لها المزرعة - وكان ذلك قبل أربع سنوات - استضافت هذا النوع من اللقاءات الأمنية السرية - مرتين بالعدد لأن التكرار بغير حذر قد يكشف الهدف، وهي نفسها لا تعرف أحداً من ضيوفها هذه الليلة ولا نوع شواغلهم، لكن أخاها الجنرال «شتيرن» يعرف كل شيء.

وشقيقها - مدير «الموساد» - يسبق كل الضيوف إلى بيتها ومعه زوجته، حتى يبدو التجمع إلى آخر تفصيل فيه مناسبة اجتماعية. ومع وصول بقية الضيوف، يسمع رنين الكؤوس ولا يشرب أحد، ويعلو صوت موسيقى ولا يسمع أحد، لأن الكل توجهوا إلى مكان منعزل في المزرعة ومؤمن، فالجنرال «شتيرن» يعتبر أن أهم أساليب التأمين المحكم لأي اجتماع أن يتقرر موعده في الساعة الأخيرة، وأن يتقرر مكانه بتلقائية الثانية الأخيرة!



وطبقاً للقصة الروائية «العملية هبرون» (صفحة ٢٧) - يبدأ رئيس الوزراء «إيشيل» اجتماع الخمسة (الثمانية هذه المرة) بعرض «سره الأكبر» فيقول:

«إننا نجتمع الليلة - يا أصدقائي -



لنبحَث أمراً شديد الخطورة ـ وهذا الأمر سواء كانت نتيجته للأفضل أو للأسوأ ـ سوف يُؤثر على مستقبل الدولة وعلى مستقبل الشعب اليهودى فى العالم أجمع. وأصارحكم أن المسئولية التى تَطرَح نفسها عليكم الليلة هى المسئولية الأثقل فى تاريخنا، والعُقدة فيها أن نجاحَها غير مَضمون، لكنها إذا نَجحَت فإن نتائجها سوف تَفوق أى حلم، ولذلك فهى تُساوى المخاطرة. وباختصار فإننى أطلب إليكم الليلة أن تعطوا لـ«الموساد» تَفويضاً سياسياً ومالياً لعملية سرِّية هى الأشدُّ حَساسية والأكثر جَسارة فى كل ما قُمنا به حتى الآن، لأن هَدَفها إنجاح عميل لنا فى انتخابات الرئاسة الأمريكية، وهذا العميل هو الآن عُضوٌ فى مجلس الشيوخ ونحن نريد أن نجعَله رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية».

ويَتَوَقَّف «إيشيل» ويَنظر حوله إلى وُجوه رفاقه ليَتَبَيَّن أثر ما أفضى به للتَّوِّ. وحين يَجد مَلامحهم جميعاً مأخوذة بالصَدمة ـ يواصلَ كلامه تأكيداً لخطورة ما قال، ورغبةً فى تَعزيز نفاذه إلى عُقولهم :

«عُضوُ مجلس الشيوخ الذى أتَحَدَّث عنه عميل لنا منذ سنوات، ونحن نحافظ على سرِّية اسمه بإجراءات أشد مما نَتَّخذه فى المحافظة على ترسانتنا النووية. ونحن نُطلق عليه الاسم الرَمزى «هبرون» (الخليل) ـ وبسبب هذه السرِّية المنيعَة فإن «هبرون» استطاع أن يُقدِّم للدولة معلومات لا تُقدَّر بثمَن. و«هبرون» الآن يَتَصَوَّر، ونحن نَتَصَوَّر معه، أن لديه فرصة للنجاح فى انتخابات الرئاسة، وهو يرى، ونحن نرى معه، أن حظوظه كبيرة، وإذا تَحَقَّقَ ذلك فمَعناه أنه فى ظرف شهور من الآن سوف يكون الجالس فى موقع القرار الأمريكى الأعلى «رَجُلنا» ـ بالفعل وليس بالمجاز، وبالوظيفة وليس بالتَعاطف. لكنه قبل ذلك علينا أن نساعده حتى يَجتاز مَراحل الانتخابات الأوَّلية ويَحصُل على تَرشيح حزبه، والباقى بعد ذلك مُمكن وإن كنت لا أقول أنه سَهل. ما أطرَحه الآن هو أن نعطى لـ«الموساد» إشارة بالموافقة. لاحظوا أنه إذا نَجَحَ «هبرون» ـ فإن «الموساد» يكون قد صَنَعَ للشعب اليهودى ذلك «المسيح المنتَظَر» الذى يَتَحَدَّث عنه «العَهد القديم» مُنقذاً ومُخَلِّصاً. وأنا أقدِّر أن العملية بمجرد التفكير فيها تَبعَث على الرَهبة. لكن لكم أن تَتَصَوَّروا إلى أين تَصل بنا إذا نَجَحَت. فى حالة النجاح، ولعَقد من الزَمَن كامل، تَتَقَرَّر فيه مَصائر العالم بعدَ انفراد الولايات المتحدة بالقوة على القمَّة ـ سوف تكون البَشَريَّة كلها تحت قيادة رَجُل هو بالكامل تحت سيطرَتنا. مَملوك ملكية مُطلقة لنا لأنه منا. قطعة منا. وإذا حَدَث ذلك فلن يَعود مَطلوباً مِنا أن نَسمَع من البيت الأبيض نُصائح تَدعونا إلى حضور مؤتمرات للتسوية مع العَرَب فى «كامب دافيد» أو فى «أوسلو» أو فى «واى». سوف يكون فى إمكاننا أن نُملى ما نشاء دون أن نُدخل فى اعتبارنا مشيئة الآخرين. ويكون فى استطاعتنا إذا رَفَعَ «ديكتاتور» عَرَبى رأسه أن نمحو بَلَده بالكامل من الخريطة. ويكون رئيس الولايات المتحدة هو الذى يَقوم بالمهمَّة ويَتَحَمَّل نَتائجها نيابة عنا.»

يَستَطرد «إيشيل» رئيس وزراء إسرائيل (فى القصَّة الروائية : الخيال الملتَبس بالحقيقَة ـ أو الحقيقة الملتَبسة بالخيال) ليقول وقد تَحَوَّلَت نبرة كلامه من التبشير إلى النبوءة :

«ما تقرِّرونه الليلة سوف يُؤثر على مُستقبلنا ومُستقبل أبنائنا، ومُستقبل كل جيل يهودى قادم. وكذلك فنحن أمام قرار مصيرى نَتَّخذه بأكبر قَدر من الشعور بالمسئولية، وبأعلى قَدر من الطموح لمستقبل يهودى مُحَصَّن ضدَّ الطوارئ».

ثم تبدأ المناقشَة :

يَسأل وزير الخارجية «روثبرج» رئيسه «أهارون»: «هل أستطيع أن أتجَرَّأ وألفتَ نظرك إلى افتتاحية نَشَرَتها جريدة «الواشنطن بوست» فى الأسبوع الماضى قالت فيها أن «نفوذ إسرائيل فى الكونجرس مُطلَق»؟ ـ وأكثر من ذلك فإن كاتب المقال أشار إلى اعتقاده بأن سَيطرة إسرائيل على الكونجرس تَصل بها إلى حَدِّ امتلاك قراره. وما أريد قوله أنه إذا كان لنا هذا التأثير على الكونجرس ـ وهو لنا فعلاً، فما هو داعينا للمُخاطرة بالاستيلاء على الرئاسة الأمريكية استيلاء مادياً وليس سياسياً فقط ـ ثم يُكلِّفنا ذلك مائة وخمسين مليون دولار يَصعُب «تَفويتها» إلى الحَملة الانتخابية الأمريكية دون أن يَنكَشف مَصدَرها ؟ ثم هل أصبحنا فجأة أثرياء بحيث نغامر بمثل هذا المبلغ ومَرافقنا العامة ومَشاريعنا الاجتماعية تَحتاجه بقسوة ؟»

والتفت رئيس الوزراء حوله إلى بقية المجموعة يَنتَظر مُداخَلات أخرى لكى يُجيب على الكل مَرَّة واحدة، لكنه لا يَظهَر أن هناك أحداً غير وزير الخارجية يريد أن يُعلِّق. أو لعل مُلاحَظة وزير الخارجية عَبَّرَت عن مَشاعر أو مَخاوف الكل إجمالاً. وهكذا يَردُّ «إيشيل»، وهو فى رَدِّه يُجيب على كل الأسئلة سواء تلك التى طرَحَها وزير الخارجية بكلامه، أو تلك التى آثرَ أصحابها الصَمت لأن مُداخلة «روثبرج» عَبَّرَت عنهم.

وبعد ثوان من الصَمت أراد «إيشيل» منها أن يَتَنَبَّه الجميع ويتاهَبوا، قال مُوَجِّهاً كلامه لوزير خارجيته :

«صحيح ما قُلتَه. لنا نفوذٌ واسعٌ فى الكونجرس سواء كتَبَت عنه صحيفة من الصُحُف أو لم تَكتُب. لكنك لم تَرَ النقطة التى تعنينى. أنت تتكلم عن «النفوذ» وأنا أتكلم عن «السيطرة». بين «النفوذ» و«السيطرة» مساحة واسعة كما تَعرف».

يَستَطرد رئيس الوزراء مُوَجِّهاً حديثه إلى وزير خارجيته :

«كل إدارة أمريكية قامت على السُلطة فى الولايات المتحدة أعطتنا تأييدها، لكنه من الضرورى أن نُلاحظ نقطتين:

أولاهما : أنه ليس فى مَقدور بَلَد يَحترم نفسه أن يَعتَمِد على تأييد غيره إلى الأبَد!

والثانية: أن اعتمادنا على طرَف واحد قد يَجعَله يظن فى لحظة من اللحظات أننا فى جيبه، وأنه يملك قرارنا!»

يَستَطرد رئيس الوزراء وهو لا يزال مُلتَفِتاً إلى وزير خارجيته :

«ولاحظ أننى الآن لا أطلب منكم الموافقة على اعتمَاد بقيمة الـ ١٥٠ مليون دولار كلها. ما أطلبه هو عشرة إلى عشرين الآن. تَقديرنا أن نرصدها «خميرة» تُؤثر على ما حولها وتُحَرِّك تَفاعُلاته. بمَعنى أننا سوف نبدأ فى صَرف القليل هنا وهناك، ثم نحاول استثارة آخرين كى يُساعِدوا. الفكرة أن تخلق «الخميرة» نَبض ورَوح حَرَكة تُصبح لها مُحَرِّكاتها الذاتية!»

سادَ الصَمت لثوان، ثم تَدَخَّل وزير المالية «لاهاف» مُوَجِّهاً كلامه لزميله وزير الخارجية قائلاً :

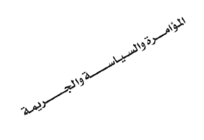
«إذا كانت المشكلة أن المبلغ الإجمالى المقدَّر للعَمَلية هو ١٥٠ مليون دولار ـ منها عَشرة أو عشرون مَطلوبة على الفور ـ فإنى أستطيع أن أدبِّر الحصول على المطلوب من «الاعتماد المشترَك للطوارئ»، وهو الاعتماد الذى تَضَعه الحكومة الأمريكية تحت تَصَرُّفنا لمواجَهة المفاجآت غير المتَوَقَّعة. ليست مُشكلة أن أدبِّر لك المبلغ من هذا الاعتماد، فهوَ غير خاضع للمحاسَبة أو التفتيش».

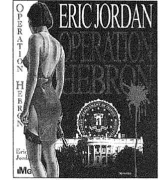
ثم يَستَطرد وزير المالية ليقول لزميله وزير الخارجية :

«ما رأيك فى تَمويل حَملة «رَجُلنا» فى الانتخابات الأمريكية بأموال أمريكية ؟ ـ فكرة مُدهِشة ؟ أليس كذلك ؟»

على لسان مدير
الموساد لرئيس وزرائه:
أقنعناهم لربع قرن بثلاثة أعداء غيرنا.
روسيا، إيران، العراق. لكنهم عادوا
إلينا لأننا عدوهم المفضل

«أمراء» الموساد لهم
حق الاتصال برؤساء الوزارة.
ووزراء الخارجية فى خدمتهم حتى
لو اقتضى الأمر تدخلا
لدى ملك عربى!





٣ عوالم السياسة والجريمة

لعدَّة فصول مُتوالية من قصَّة «العمليَة هبرون» يَرسم المؤلِّف «إريك جوردان» - مسئول المخابرات المركزية السابق أجواء ووَقائع روايته، وهو فى خياله - وهذا شأن أى خيال - يَتَزوَّد من مَخزون تجاربه حتى باللا وَعي - وهكذا فهو يَرسِم صورة مثيرة لعوالم سرِّية تحت أرضية السياسة. ما يَجرى فيها يُؤثر دون أن يَظهَر. ومُعظمه شرير ودَمَوى. يَكذب ويَخدَع، ويَستَدرج ويُحاصِر. ويَقتُل بالمسَدَّسات الكاتمة للصوت، أو بالسُموم التى لا صَوت لها من الأصل.

وهو بكل المعايير عالَم جرائم لا يُسَمِّيها الناس إرهاباً لأن دَخائلها مُستَعصية عليهم، ولأن مَسارحها ساحات ظلال وأشباح عليها حَرَكة لا يَلحَظها أحد، وفوقها خُطى لا تَترُك أثراً يَدُلّ عليه مَوقع قَدَم.

وفى مَطلع الفصول فإن البطل الرئيسى على مَسرَح ذلك العالَم الغَريب العجيب هو السفير الأمريكى «ريتشارد سورنسون» سفير الولايات المتحدة الأمريكية فى بروكسل - وهو كما يَظهَر فى المواقف والحوارات صَديق مُقَرَّب من الرئيس الأمريكى «دوجلاس»، وكان شخصية محوَرية فى حَملَته الانتخابية، ولهذا حاوَل بعَض خصوم الرئيس أن يُرَكِّزوا حملاتهم عليه وعلى نقط ضَعفه إزاء الحياة ومُغرياتها.

....

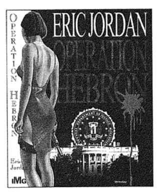
....

[وذلك نموذج شائع فعلاً يُمَثله فى عَوالِم الحقيقة رَجُلٌ مثل «ديك موريس»، الذى كان مُهندس الحملة الانتخابية الأولى والحملة الانتخابية الثانية لـ«بيل كلينتون»، ثم سَبَّبَت تَصَرُّفاته إحراجاً شديداً للرئيس خصوصاً حين جرى القبض على «موريس» مع إحدى العاهرات، وتَبَيَّن أنه حاوَل إظهار نفوذه على الفراش بحديث طويل مع «كلينتون»، وبَهَرَ رَفيقته حين بَرهَن لها على أن الصداقة بينه وبين أهَمّ رَجُل فى العالَم حَميمة والكلفة بين الاثنين مرفوعة - بل إن «موريس» بَدا فى حديثه مع الرَجُل الأول فى الولايات المتحدة - وكأنه «المعَلِّم» والرئيس «صَبيُّه» (كذلك وَرَدَ بالنصِّ فى التحقيق على لسان امرأة ليل التقطها «ديك موريس» من أحد البارات فى واشنطن).]

....

....

[والشاهِد أن حالة السفير «ريتشارد سورنسون» وعِلاقته بالرئيس «دوجلاس» فى القصَّة الروائية «العملية هِبرون» - تُشبه إلىَ حَدٍّ كبير حالة وعِلاقة «ديك موريس» بالرئيس «كلينتون». لكَن الرئيس فى الرواية - أذكى من الرئيس فى الواقع. فذلك الرئيس - فى الواقع - استبقي صَفِيَّه وصَديقه فى واشنطن، وبذلك عَرَّضَه للفَضيحة وانفضَحَ معه. وأما الرئيس - فى الرواية - فإنه بَعَث بصَفِيِّه وصَديقه بعيداً عن واشنطن سفيراً فى بروكسل، وهى عاصمة أوروبا، وكان تَعيينه هناك سَهلاً، لأن الرئيس له الحَق فى حصَّة من المناصب الكبرى (بما فيها السَفارات) يَضَع فيها رجالاً أو نساء يرى تَعيينهم لأسباب يَراها وضِمنها تَبَرُّعاتهم المالية لدَوره السياسى، أو خَدَماتهم لحِزبه، أو نشاطهم فى حملته الانتخابية. وبالنسبة



لمناصب السفراء فإن أصدقاء الرؤساء يُفَضِّلون عواصم مُهِمَّة مثل لندن أو باريس في أوروبا، كما أن بعضهم يُفَضِّل الذهاب إلى عواصم بلدان لهم فيها أصل عائلي وهُم يَحلمون بالعودة إليها وكأنهم يقولون لأهلها - أي أهلهم القدامى : «لقد خرجنا من بينكم مُطارَدين بالفقر أو الخوف، وها نحن نرجع إليكم بالغنى وبالقوة»!]

....

والحاصل أن «ريتشارد سورنسون» يَطلُب منصب سفير الولايات المتحدة في بروكسل، ويُقبَل طَلَبه، وهو يَذهب إلى مَقَرِّ عَمَله ولديه هَدَف آخر غير أن يَبتَعد عن واشنطن لمجرد الاختفاء عن عيون أعداء الرئيس ورَصدهم لتَحرُّكاته، ذلك أن السفير «سورنسون» رغم حُبّه للحياة وضَعفه أمام مُغرياتها يَستطيع في بعض الأوقات أن يكون جَادًا، وهو هنا في بروكسل عاصمة أوروبا - قادرٌ أن يَجعَل رئيسه على علم بما يَجرى في قلب العالم وعلى نحو مُباشر لا يَقدر عليه سفير عادى يَبعَث بتقاريره لوزارة الخارجية. ومُضافاً إلى ذلك فإن الرئيس يَعتبر «سورنسون» رَجُل مُهمَّات سياسية خاصة، ويُكلِّفه مَرَّات باتصالات مع دُوَل لا يريد الرئيس أن يَتَعامَل معها بالوسائل الدبلوماسية الرسمية لسبَب أو آخر. وفي هذا الصَدَد بالتحديد فإنه يبدو أن «سورنسون» على «علاقة وثيقة» بمندوب من ليبيا يُسَمَّى في القصَّة : «حامد بن فزاني»، وهو سفير خاص مُقَرَّب من السُلطات العُليا الليبية مُكلَّف هو الآخر بمهام حَسَّاسة تَطلبها هذه السُلطات العُليا في بَلَده.

ومن مَجرى الحوار يَظهر «الموساد» (المخابرات الإسرائيلية) غير مُطمَئن لمشاعر السفير «سورنسون» تجاه إسرائيل، ذلك أن بعض تقاريره السرِّية إلى رئيسه في البيت الأبيض تَتَعَرَّض للنشاط الإسرائيلي في أوروبا عموماً، وتُرَكِّز خصوصاً على أغراض مُزدَوَجة ووسائل مُلتَوية تَعتمدها إسرائيل فيما تقوم به.

وبالزيادة على ذلك فإن علاقة «ريتشارد سورنسون» بزميله الليبي «حامد بن فزاني» لا تُريح «الموساد» رغم أن إسرائيل لا تَخشى كثيراً مما يَفعَله المبعوثون والممثلون العَرَب، ولا تَعتبر نشاط أحد منهم خطراً جَدِّياً على إسرائيل - أو مَصالحها وأمنها.

وعلى لسان الجنرال «شتيرن» رئيس «الموساد» - فإن هؤلاء المبعوثين العَرَب ليسوا مُفيدين حتى لبلادهم :

ــ بعضهم له اتصالات واسعة، لكن هذه الاتصالات لسبب أو آخر لا تَظهَر في تقاريرهم، أو هي لا تُؤثر في قرارات رؤسائهم (كل أوراقهم مقروءة له).

ــ ثم إن مُعظمهم يَنسى نفسه فيما يقوم به من مَهام : فهو يَستمتع بالوَجاهة الاجتماعية، ويَدخل مَحافل العز غازياً، ويَتَصَرَّف فيها مُستهتراً، ويَخرج منها في الغالب عارياً (كل صُوَرهم في ملفاته)!

ويَستخلص مدير «الموساد» نظرية مُؤدَّاها أن «هؤلاء العَرَب سياسياً يَصرفون ببَذخ ولا يَعرفون متى يقبضون، ويَستثمرون بكثافة ولا يَفهمون كيف يَحصلون على أرباحهم»!!

وعلى أي حال فإنه في حَواشي ومُلحقات قصَّة «العملية هيبرون» تُقرِّر إسرائيل أفضلية تَصفية «سورنسون» أخذاً بالأحوَط!

□

وأثناء نزول السياسة إلى مستوى الجريمة بقرار قتل السفير «سورنسون» تَتَكَشَّف لَمَحات من الحقيقة مُذهلة :

■ أجهزة المخابرات الفاهمة لزمانها وعالمها لا تُمارس «تَصفية المطلوبين سياسياً» بنفسها، فالتعامُل بالدَم وبالسُمِّ ليس لها، تُلَطِّخ به أيدى رجالها أو تُعرِّضهم للانكشاف، فهؤلاء الرجال عُملة نادرة وتُحفة غالية لا يمكن المجازفة بها في عملية قتل (ويُقدِّر «الموساد» أن عملية إعداد وتأهيل عميل مُخابرات من الدرجة الأولى تَتَكلَّف خمسة ملايين دولار! - على الأقل).

■ وفي العالم التحتى للجريمة حين تُقاربها السياسة مجموعات من رجال ونساء مُستعدِّين للتنفيذ بعقود شفوية لها احترام أقوى من العُقود المكتوبة، والرجال والنساء المستعدُّون يُنَفِّذون مهامهم قادمين إليها من الظلام، عائدين بعدها إلى الظلام، وليس لهم وجود على مسرح أي جريمة يمكن تَقَصِّيه - ولا أثر يمكن الاستدلال به - وذلك أنجح أنواع القَتَلة!

والقاتل أو القاتلة المستعد - مَعروف على نَحو ما للأجهزة القادرة النافذة، وبين الطرفين ومن مسافات بعيدة إشارات ورموز لا تَقتضى اتصالات أو لقاءات، أو أي دَرَجة من دَرَجات التخطيط المشترك.

مجرد رمز يَصل إلى «قاتل مُعَيَّن» أو «قاتلة مُعَيَّنة».

ومع الرمز اسم مُعَيَّن - ومَبلغ مُحَدَّد. وفي حالة القبول يكون إقرار التعاقُد على شكل رقم حساب في بنك يُفتَح قبل العملية ويُغلَق بعد تنفيذها دون أثر يَدُلّ على صاحبه أو صاحبته.

إذا وضعنا رجلنا في البيت الأبيض فإن الموساد تكون قد قدمت لإسرائيل مسيحها المنتظر في العهد القديم

حكايات العرب في أوروبا من سفرائهم إلى أغنيائهم، وكيف يتصرفون. في معرفة خبير رأى بنفسه وسمع

■ وأكفأ نجوم العالم التحتى نساء، ونساء فائقات الجمال، عاليات المظهر والتَصَرُّف، لا يَخطر ببال أحد أن القتل صناعتهن، وكلهن يُجدن «فنون الحب» - أو «الجنس العميق» على حَدِّ تعبير وَرَدَ في الرواية على لسان السفير «سورنسون» - لكن الميزة فيهن هي القُدرة على مُمارسة الحُب دون شعور به في الداخل مهما بدا منهن في «حالة الذوبان».

والترتيب المفضل كما يَظهَر من سياق الرواية أن البَطلة من هذا النوع تَظهَر على مَسرَحها وتخطف أبصار من تقصده، وفي أيام من الهَوَى، أو ساعات في بعض الأحيان، يَصِل الهَوَى - رَجُلاً وامرأة - إلى غرف النوم ويَقَع مَشهَد فيَّاض بالنشوة، وفي وَمضة تَنفُذ في الجَسَد العاري للرَجُل طلقة، أو يُؤدى كأس مَسموم دوره المرسوم في دقيقة واحدة.

وفي هُدوء تَرتدى «المرأة» ملابسها من جديد - ثم تَتَسَلَّل خارجة - عارفة أن رفيقها الذي كان معها قبل دقائق أخذ كل احتياطاته مُسبقاً حتى يَظلَّ لقاؤه مع الهَوَى - أو «الجنس العميق» - سراً لا يَراه أو يُتابعه أحد. بل هي واثقة أنه إذا حَدَث ولَحَظها أحد - فإنه سوف يُدير رأسه كأنه لا رأى ولا سَمِع.

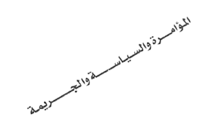
□

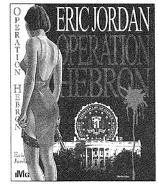
وكان ذلك بالضبط ما جَرى بين السفير «سورنسون» داخل بيته، وفي غرفة نومه - مع الفاتنة الصربيَّة «جاكي ماركوفيتش» - عندما قَرَّر «الموساد» قتله، وزادها ضارباً عصفورين بحَجَر إذ جَرى ترتيب الشواهد بحيث يَظهَر وكأن القاتل «إرهابي من الشرق الأوسط» - وكذلك فإن «الموساد» استعمل في الإشارة التي تَحمل التكليف بالقتل رمزاً تَستعمله المخابرات الإيرانية بحيث تَظُنّ «جاكي» أن العَقد - وكذلك الدَفع - لحساب إيران وعلى حسابها. ثم إن «الموساد» رَتَّب - على الهامش - أن تَظهَر قُرب السفارة الأمريكية في «بروكسل» قُصاصة وَرَق مُكرمَشة من صحيفة تَصدُر في بغداد، وكان عُملاؤه واثقين أن رقم التليفون الخاص بالسفير الليبي مَكتوب في دَفتر «سورنسون» - وتلك خيوط تَقود التحقيق مُؤكِّداً إلى «الإرهاب العَرَبي» هنا أو هناك!

□

في وقائع هذه الفصول من القصَّة الروائية يَظهَر عالَم خفي آخر مُتَحَرِّك فوق الأرض مُخصَّص بمُواجهة العالم الخفي تحت سَطحها.

وفي التصوُّر الشائع أن مُكافحة الجريمة الدولية - سياسية كانت أو غير سياسية - مُهِمَّة البوليس الدولي «الإنتربول» - لكن المسئول السابق في المخابرات المركزية (مازجاً بين الخيال المتلبس بالحقيقة أو الحقيقة المتلبسة بالخيال) يُشير إلى أجهزة لا تَظهَر للناس عَلَناً، مُهِمَّتها مُتابعة ذلك النوع من الجرائم. ثم إن قيادة هذه الأجهزة في يَد مكتب التحقيقات الفيدرالي





الأمريكى .F.B.I. وهو إدارة لها ارتباطاتها مع أجهـزة الأمـن فى كل مكـان من العـالَم ـ ولـها مَكاتبـهـا الخـاصـة تُوَجِّـه وتُدير من عَـواصِم مُنتَشِرة على خريطة القارات.

....

....

[فى عـالَم الواقع وبعـيـداً عن القـصَص الروائى وفنونه فـإن الـ .F.B.I لديهـا مكاتب كبيرة فى خـمسـة عَواصِم عَرَبيـة على الأقل، ولها مُمَثلون رسميون ضمن هيئـة كل سفارة أمريكية فى العالَم العَرَبـى.]

....

....

وكـان من الواضح أن المكَلَّفين بـقضـيـة قَتل «سـورنسـون» (المحَـقِّق البلجيكى بحُكم مكان الجـريمة. والمحَـقِّق الأمريكى بحُكم جنسـيـة الضَـحـية) أدركوا من النظرة الأولى على مكان الجـريـمة أن وراءها امـرأة وَصلَت بـ«الجنس العـميق» إلى نقيضـه الأكثر عُمقاً وهو الموت الأبَـدى!

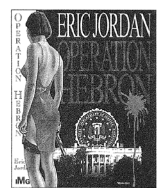
ويَتَّضح من السَـرد أن مكتب التـحـقيـقات الفيدرالى عَهَـدَ بالقضية إلى واحدة من الأنشَط والأكفأ بين أفراده. وفى القِصَّة فإنها مُحَقِّقـة اسمـهـا «بريندا شتـراوس» وهى يهودية غيـر صهيونيـة فيما يَظهَر من تَصَرُّفها. ففى أحـد المشاهد تشعُر بالصَدمة أثناء قراءة تسجيل تليفـونى تَعرف منه أن «والدها» على اتصـال سـرِّى بسفارة إسرائيل فى واشنطن. وتُكتَشف مُستـاءة أن «ولاءه للدولة اليـهودية أكثر منه للدولة الأمـريكيـة التى وَجَـدَ فيـها فـرصتـه مُهاجراً يَبحَث عن مُستقبل»!



ويَستَدعى التأمُّـل ما يَظهَر فى ثنايا السَرد من أن كل الأجـهزة السرِّيـة المكلَّفة فوق الأرض بمتابعة الحَـرَكة تحت الأرض ـ لها سيـاساتها الخاصـة إلى جانب ما هى مُكَلَّفة به رسمياً من حكوماتها.

فـهذه الأجهزة ليـست لهـا بالطبع مَصـالح مـادية. لكن لهـا ـ كمـا هو واضح ـ «تَحَيُّزات» سيـاسية. وهى فى أدائها لدَورها وفى مُمارَسة مسـئـوليـتـهـا تَلعَب دوراً قـد يكون له تأثيـره المدَمِّـر. فـهى تُـبـرز من الحـوادث وتُوارى ـ وتَكشف من التـفـاصيل أو تُغطِّـى ـ ما يَخدم «تَحَيُّزاتها» المسبقة بحيث يَتَأكَّد صدقها فيما أشـارت بـه ونَصَحَت مُـبَكِّراً (وها هى النتـائج الموَثقـة تُبَيِّن صِحَّـة وسـلامـة التَـقـديرات المعروضة من زَمَـن طويـل).

ومع بدايـة التـحـقيق فى قـتـل السـفـيـر «سـورنسون» بكأس مَسموم من «الشمبانيـا» فى لحظة «جنس عميق»، تَدافعَت الشكوك إلى اتهام المخـابرات الليبية بقتـل السفير الأمريكى بقرينة علاقـاته بالسـفـير الليـبى فى بروكسل «بن فزانى». لكن مكتب التـحـقيقـات الفيـدرالى وَجَـدَ نفسـه مُضطرًا إلى تغـيـير رأيـه بعد أن قـامت «وكـالـة الأمـن القـومى» .N.S.A (وهى جهاز آخر للمـخـابرات الأمريكية يَعمَل مُستَقلاً عن وكالـة المخابرات المركزيـة) بالتقـاط رسالَة شـفـريـة صـادِرة من الـسـفـارة الليـبـيـة فى بروكـسل إلى وزير الخـارجـيـة فى طرابلس وفيـها يُبدى السفير الليـبى فَزَعـاً حقيقياً من اغـتـيـال صديقـه «سـورنسـون». ثم تَكشف رسـائل مُلتَقَطة تاليـة أن «فـزانـى» فى حـالَة فَجيـعـة وانهيـار لمَصـرَع صديقـه السـفـيـر الأمريكى. فـقد كـان ظنُّـه أنه نَجَـحَ فى فـتـح قنـاة اتـصـال مُـبـاشـرة مع الـرئيس الأمـريكى «دوجـلاس»، وكـان صَـديقه الحَـميم المقَـرَّب والـواصل إلـى البـيـت الأبيض أمَلَـه وأمَـل حكومَـتـه فى إمكانيـة رَفـع الحِـصـار عن ليبيـا!



٤ حكايات أصحاب البلايين العرب

الفصل الثامن من قصَّة «العملية هبرون» (صفحة ١٢٠) واحد من أمتَع فصول القَصَّة، والبَطَل الذى يَظهَر على مَسرَح هذا الفَصل بليونير عَرَبى : «منصور شريف» (وذلك هو الاسم الذى اختاره المؤلِّف «إريك جوردان»)، وهو فى القصَّة مغربى الأصل يُشار إليه فى الحوار أحيَاناً بوَصف «باشا مراكش»!

ومن حول هذا البليونير يَرسم «إريك جوردان» ما يمكن اعتباره لوحة فنيَة نابضة بالحياة - صادقة وكاشفة إلى أبعَد حَد فى تَصويرها لمعيشَة عَدَد مَن أصحاب «البلايين العَرَب» وطريقة حياتهم حيث اختاروا أن يعيشوا (فى أوروبا غالباً).

وفى واقع الأمر وبنظرة لا تحتاج إلى مَشَقَّة التفكير الطويل - فإن الوصف الذى يُقدِّمه «إريك جوردان» لحياة «أصحاب البلايين العَرَب» - هو فى جُزء كبير منه وَصف لطبيعة «الشخصية السياسية» العَرَبية فى الزمن الراهن، وذلك مَنطق أشياء.

وفى وَصف «إريك جوردان» لحياة أصحاب البلايين العَرَب - وعلى عُهدَته - تَظهَر تَصرُّفاتهم وسلوكهم فى نَمَط من السلوك مُتَكَرِّر :

● أصحاب البلايين العَرَب مجموعة من الرجال اقتربوا على نَحو أو آخر من دوائر السُلطة فى العالم العَرَبى، وحقَّقوا ثروات طائلة عن طريق المثلَّث الذهَبى : نشاط المخابرات - عمليات البترول - تجارة السلاح. وبنفس هذا الترتيب، فكلهم بدءوا على نَحو أو آخر فى المخابرات أو على صلة بأجهزتها (خصوصاً فى بلدان النفط) - وكلهم اقتربوا على نَحو أو آخر من عمليات البترول أو فوائض أموالها الهائلة - وكلهم وَصلوا على نَحو أو آخر إلى تجارة السلاح وأرباحها الخُرافية.

● وفى طريقهم من المخابرات إلى البترول إلى السلاح - عَرَف هؤلاء واتصلوا فى أمريكا وأوروبا مع إدارات مخابرات، ومَندوبى شركات، ومُمَثلى حكومات، وأحيانا رجال إعلام من الدرجة الثانية أو الثالثة فى الصُحُف والإذاعات ومحطات التلفزيون - وقد تَصَوَّر أصحاب البلايين العَرَب أنهم بهؤلاء - الأصدقاء! - الذين اتصلوا بهم وعَرَفوهم وتعاملوا معهم - نَفَذوا إلى الدائرة المؤثرة فى عَواصم بلدان هؤلاء «الأصدقاء»، ومن ثم فإن نفاذهم تَحَوَّل إلى نفوذ، يَظهَر خارج أوطانهم ويَرتَد ليُؤثر داخلها وبالعكس!

● وبطبيعة العلاقة بين العناصر المكَوِّنة لـ: نَمَط أصحاب البلايين العَرَب (المثلَّث الذهَبى للمخابرات والبترول والسلاح) زائداً عليها الثراء والغِنى - فإن أصحاب البلايين العَرَب أصبحت لهم علاقات سارية إلى بعيد فى عَواصم العالَم العَرَبى، فهُم يَعرفون حُكَّامه ويَعرفون خَواصهم، وقد نشأت بين الجميع صِلة «اعتماد مُتَبادَل» يَختَلط فيها المال بالسياسة، والغِنى بالسُلطة. وكَان أن عَواصِم الغرب الكبرى (لندن - باريس - فيينا - مَدريد - وغيرها) - ومَغانى الريفييرا الفرنسية، ومُنتَجَعات الألب السويسرية، وشواطئ أسبانيا وإيطاليا - تَرى مَشاهد تَسقُط فيها القيود وتَختَلط الحدود بين السُلطة فى الداخل والثروة فى الخارج.

● وفى أجواء الاعتماد المتبادَل بين «الأقوى» و«الأغنى» قام المال فى بعض الأوقات بمهام سياسية تَنقل رسائل تُشير برأى أو صياغات تَحلُّ عُقَداً - كما أن السُلطة فى بعض الأحيان تَتَقدَّم لتسهيل صفقات وإنهاء عُقود - وفى بعض المرات يُصبح بعض أصحاب البلايين العَرَب مَداخل إلى دوائر القرار السياسى فى عَواصم عَرَبيَة مُختلفة - كما أن دائرة القرار السياسى يُصبح لها دَلال على أصحاب البلايين العَرَب يُشير دون أن يَطلب، ويُستجاب له قبل أن يَلتَفت.



ومع مرور السنين تُصبح حياة «أصحاب البلايين» العَرَب حالة لها مَناظرها ومَظاهرها :

- قصورٌ فى المصايف والمشاتى وعَواصم المُدُن الكبرى، جرى شراء مُعظمها بأثاثه وتُحَفه ضماناً للمستوى وتَثَبُّتاً من القيمة.

- حاشية مُتَنوِّعة الجنسيات تَسبق أو تَلحَق، وتُرتِّب هنا وتُهَيِّئ هناك حسب الطلب.

- وحَرَس شخصى، غالباً من العسكريين الأمريكيين السابقين الذين خَدَموا فى قوات البَحَرية (المارينز)، وهُم يُسيطرون على الأبواب الإلكترونية عند مَداخل القصور وفى أيديهم أجهزة الاتصال اللاسلكى، وبالقرب منهم رشاشات «أوزى» الإسرائيلية، يَعتَبرونها (دون حساسية!) أقوى سلاح للدفاع الشخصى! - وبعض الحُرَّاس مَوجودون فى الداخل يَرون دون أن يراهم أحد، سواء عن طريق الكاميرات الخفيَّة أو عن طريق النظارات المقَرِّبة، خصوصاً إذا كان القَصر قُرب شاطئ بحر أو على مُنحَدَر جَبَل!

- وفى الانتظار أساطيل من السيارات مُستعدَّة، ويُخوت فى الماء جاهزة، وطائرات كبيرة وأخرى مُتوسِّطة - تُعاونها طائرات هليوكوبتر للمسافات القصيرة.

- ورؤساء خَدَم فى القصور من الإنجليز (بعضهم عَمَلوا فى القصور الملَكية البريطانية)، أو من الفرنسيين (بعضهم التحقوا زَمَناً بقُصور عائلات أوروبية باذخة الغِنى : «روتشيلد» - «آنيللى» - «تايسين».. وغيرها).

- وهناك باستمرار كهف للنبيذ المعَتَّق (فرنسى فى الغالب)، ومطبخ مُتَعَدِّد الجنسيات (عَرَبى، وغربى، وصينى من باب الاحتياط) مع خدمة دائمة لأجنحة «السادة» و«ضيوفهم» تقَوم علينا مُشرفات مُدَرَّبات (أسبانيات أو برتغاليات فى العادة).

- وهناك سكرتارية خاصة موكَلة بمُتابَعة المناسبات جنوباً فى الأوطان وهى تَبعَث بالتهانى والهدايا فى المواسم والأعياد. كما تَنتَظر وتَتَرقَّب مواعيد وصول الكبار إلى أوروبا وأمريكا تأهُباً واستعدادا للقائهم وخِدمتهم بما يريدون هُم وأسَرُهم - ومُساعدوهم ومرافقوهم - وكذلك عشيقاتهم إذا لزم الأمر!

□

وفى ذلك الفصل الثامن من قصَّة «العملية هبرون» يَظهَر الدكتور «ويليام رَسل» (مُستشار الأمن القومى لرئيس الولايات المتحدة) قادماً إلى مطار جنيف قاصداً لزيارة البليونير «منصور شريف» (باشا مَراكش).

وفى انتظار «ويليام رَسل» عند نَزوله من الطائرة إحدى سيارات «منصور شريف» وهى من طراز «مرسيدس ٦٠٠» - وعليها سائق خاص يَعرفه «رَسل» من زيارات سابقة. والسائق إيطالى اسمه «ألفريدو»، وقد رَكب معه «رَسل»، وسأله إلى أين : إلى «فيزينيز» (البيت المطل على بحيرة «ليمان» على طريق «فرناى») أو إلى القصر الكبير فى «ميجيف» (وَسَط جبال الألب بين فرنسا وسويسرا) ؟ ويَرُدُّ «ألفريدو» : «سوف نَذهَب للباشا فى ميجيف «يا سيدى».

وعندما يدخل الدكتور «رَسل» من الباب يَستَقبله «جان بيير» رئيس الخَدَم الفرنسى - يُرَحِّب به فى حرارة - وتبدأ تجربة «ويليام رَسل» فى العالَم المسحور الذى لا يَعرفه فى حياته العادية - ولا حتى فى البيت الأبيض. و«جان بيير» جاهز بكأس من «الكير الملكى» (شمبانيا فوقها قطرات من مشروب الكسيس). الكأس مُثلَّجة، و«رَسل» يَرشف منها بشهيَّة رَجل مُصَمِّم على أن يَستمتع بكل ما هو مُتاح له اليوم - ولن يكون كذلك غداً. ويجيء «منصور شريف» للقائه قادماً إليه فى تُؤدَة يُرَحِّب به مُبتَسماً، ثم يَجلسان، ويجيء «جان بيير» رئيس الخَدَم يُقدِّم للضيف كاساً آخر من «الكير الملكى»، ويُقدِّم لسَيِّده كاساً آخر لكن البليونير العَرَبى يَرُدُّ رئيس خَدَمه الفرنسى قائلاً : «ماء فقط يا جان بيير»!

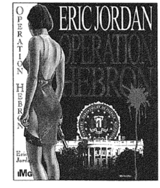
يَلتَفت «منصور» لضيفه ويقول بحكمة (تَتَقصَّد إظهار الحكمة) : «لا يَصح لأحَد أن يَنسى جذوره. نحن بَدو. ولا بد أن نكون على استعداد للعَودة للصحراء فى أى وقت. ففى واحات الصحراء ليس هناك غير الماء. وليس يَصح أن نَتَعَوَّد على غيره لأننا لا نضمَن ماذا تَفعَل معنا الحياة وإلى أين تَذهَب بنا».

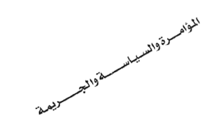
يَرُدُّ «رَسل» مُجاملاً (تَظهَر كلماته مُجاملة حتى وإن لم يَقصد) قائلاً لـ«منصور» : «أنتَ دائماً الفيلسوف «الحَكيم»».

ويَسأل «منصور» ضيفه : «قل لى أى أمر يشغلكم الآن ؟ ما الذى تَنوون عَمَله بالدنيا هذا الصيف ؟ هل تَنوون تَدمير الهند وباكستان بعد تَحَدِّيهما لكم بصُنع قنابل نووية ؟ هل أعمل حسابى من الآن لأقضى الصيف لاجئاً فى خَلاء الصحراء ؟».

ويَنتَهزها «رَسل» فرصة ليدخل فى الموضوع الذى جاء من أجله إلى ☜

ما يقال فى واشنطن
صباحا يرشح فى إسرائيل
مساء. ولذلك فإن تل أبيب هى أهم
مخزن معلومات
للمخابرات فى العالم!





«ميجيف» : «تشغلنا الانتخابات القادمة لرئاسة الولايات المتحدة. هذا الرجُل السناتور «ويستليك». يشغلنا ولابُد أن يشغلكم أنتم أيضاً. أقصد العَرَب. هو على وشك أن يَحصُل على ترشيح الحزب الديمقراطي لانتخابات الرئاسة. وأنتَ تَعرف بالطبع أنه مُوالى إسرائيل. وأنه رَجُل خطر. لابُد من إيقافه».

يَتَّضح بالتلميح أن «رَسل» يريد تَمويلاً «ناعماً» (لا يَرصده أحد) مِن مَوارد عَربية تُساند المرشَّح الجمهوري.

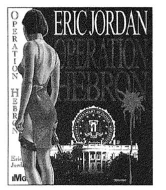
وأول رَد فعل لـ«منصور» قوله : «بصراحة يا صديقي العزيز يَصعُب عليَّ أن أرى الفارق بين المرشَّحين عندكم. فيما يَتَعلَّق بموقفهم من إسرائيل، كلهم يَخضعون أو سوف يَخضعون لإملاء «اللوبي الصهيوني» وأنت تَعرف ذلك. أنت تَعرف أيضاً أننا ساعدنا كثيرين من قبل ليَنجَحوا على أمَل أن يَتَذكَّرونا بعد النجاح، لكنهم جميعاً بعد النجاح نَسونا ودَخلوا في سباق لإرضاء إسرائيل. هذا ما حَدَث ويَحدُث. أحياناً نشعر أن المرشحين عندكم يطلبون رئاسة دولة إسرائيل وليس رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية».

يَستدرك «منصور» ويقول لـ«رَسل» :

«لاحظ يا صديقي أنني لست مُعادياً لليهود. ولا للصهيونية. تَذكَّر أنهم جميعاً (اليهود والصهيونية) قدَّموا لى خدمة لا تُنسى عندما عارضوا في الكونجرس صفقة أسلحة أمريكية (طائرات ف-١٥) للسعودية. وبسبب هذه المعارضة استطعت مع شركائي من السعودية أن نُرتِّب صفقة شراء طائرات «تورنيدو» (أوروبية). عمولاتنا فيها ٢٠ بليون دولار. مَن يُصَدِّق ؟ - مَن يُصَدِّق أن عمولات قطع الغيار سوف تَظل واصلة إلينا لعشرين سَنة قادمة. أيُّ ضمان أكثر من ذلك ولمدى الحياة تقريباً ؟ كلما اطلعت على حساباتي في البَنك دَعَوتُ لليهود وللصهيونية ولإسرائيل، ورَجَوت الله أن يُبارك لنا فيهم».

□

يَصحب البليونير العَربي «منصور شريف» - ضيفه الأمريكي «ويليام رَسِل» (مستشار



الرئيس) إلى قاعة العشاء، ويجلسان وحدهما إلى المائدة، والقائم على الخدمة رئيس الخَدَم «جيمس»، وهو هذه المرة إنجليزي سَبَقَ له العَمَل في قصر «باكنجهام» الملكي!

وعلى العشاء يَعود «رَسل» إلى حديث انتخابات الرئاسة الأمريكية مُلحًا على أن: «هذا الرَجُل السناتور «ويستليك» إسرائيلي أكثر من الإسرائيليين، وإذا وَصَل إلى المكتب البيضاوي فإن السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط سوف تُصبح «صناعة إسرائيلية».. يبدو أنكم لا تُقَدِّرون الخطر؟»

يتساءل «منصور»: «هل هو خطر إلى هذا الحَد؟ - ما هي فرصته للنجاح؟».

يَرُدُّ «رَسل»: «لقد اكتسح طريقه في الانتخابات التمهيدية في كل الولايات الغربية. ونحن الآن في بداية المعركة - مارس - وإذا واصَلَ «ويستليك» تَقَدُّمه على هذا النحو فسوف يدخل مؤتمر حزبه والترشيح في جيبه. وإذا لم يَتَحَقَّق إيقافه مبكراً أو تعويقه فسوف يفوز في نوفمبر». (الثلاثاء الأول من شهر نوفمبر - كل أربع سنوات - هو مَوعِد التصويت في انتخابات الرئاسة).

يقترب رئيس الخَدَم «جيمس» من سَيِّده ويهمس في أذنه بشيء، ويَرُدُّ عليه «منصور شريف» قائلاً: «دَعهما تدخلان.. لا يَصِح للفتنة أن تنتظر».

يُحاول «رَسل» أن يقاوم وهو على وشك الاستسلام قائلاً: «منصور.. ليس الليلة فأنا مُتعَب من السفر، وكنت أريدها سهرة سياسية إذا كان لا بد من السهر».

ويَرُدُّ «منصور»: «أنت بعد هذا السفر المرهق تحتاج أن ترتاح. النوم لا يكون عميقاً خصوصاً على هذا الارتفاع من جبال الألب إلا عندما تكون الأعصاب مُسترخِية».

وتدخل إلى غرفة الطعام امرأتان تتَّجه إحداهما إلى «منصور» والأخرى إلى «رَسل» تُقَدِّم له نفسها: «أورسولا». ويَعرف «رَسل» من نظرة واحدة أنه استسلم فعلاً، ويقول لـ«منصور»: «تَذَكَّر أننا يجب أن نُرَكِّز جهدنا كله على السياسة .. غداً».

ويلتَفِت «منصور» إلى رئيس الخَدَم - وهو الفرنسي «جان بيير» هذه المرة - ويُشير إليه بأن يأخذ «أورسولا» إلى الجناح المُخَصَّص لضيفه، وهو سيلحق بها بعد القهوة. والدكتور «رَسل» يَتَناول فنجانه بسرعة يُقَرِّبه من شَفَتَيه، ويَستَشعِر بُخاره الساخن ويلمسه لرَشفة واحدة بسرعة، ثم يَقوم ملهوفاً و«منصور» يُلاحِقه بضحكة عالية!

□

في اليوم التالي قبل الظهر يلتقي «منصور» و«رَسل» قبل أن يُغادر «رَسل» «ميجيف» قاصداً إلى وجهته التالية على الطريق إلى واشنطن. وخُلاصة اللقاء السريع أن «منصور» مُستَعِدٌ هو وأصدقاؤه لمساعدة الرئيس «دوجلاس» وحتى يَضمَنوا عَدَم فوز المرشح الديمقراطي «ويستليك». وهو سيُقَدِّم لصديقه الدكتور «رَسل» «مُقَدَّماً» دفعة على الحساب. يقول «منصور شريف» ذلك وهو يُناول ضيفه مَلَفاً كبيراً مَحشُواً بالأوراق والصُوَر مَكتوب عليه بالخَط الكبير: «الحياة الخاصة للسناتور ويستليك وغرامياته».

ويُبدي «رَسل» دَهشته، وتعليقه لنفسه: «منصور يَعرف دائماً طريقه إلى ما يهمه. يَستخدم مكاتب خاصة للتَحَرِّي تَجيئه بمعلومات يطلبها لعلمه أو لعلم أصدقائه. ويَستخدمها أو يَسمح لهم باستخدامها».

ويُهَنِّئ «رَسل» نفسه، ويفرك كَفَّيه، لأنها بداية طيبة!

وكذلك يبدأ الدور العَرَبي - أو الظهور العَرَبي في «العملية هبرون» التي تَقصد إسرائيل منها وضع رئيس يَحكم لحسابها وباسمها في المكتب البيضاوي داخل البيت الأبيض!

٥ قـوة عظـمى فـي التيـه

وقائع كثيرة ومُثيرة من قصَّة «العملية هبرون» تجري في روسيا، وخلال مشاهدها وحَرَكة أبطالها وحواراتهم تَتَبَدَّى على نحو صارخ مفارقات الخيال المُلتَبس بالحقيقة، أو الحقيقة المُلتَبسة بالخيال.

والمشهد الأول الذي يَظهَر فيه الدور الروسي - يَجري داخل بيت ريفي في مزرعة بعيدة (ستين كيلومترا عن موسكو) على أطراف قرية «جوكوفكا»، وهي منطقة مُنعَزِلة عن العُمران وَسط الغابات يَهرَع إليها قادة روسيا هَرَباً من موسكو التي زَحَمَها جواسيس العالم كلُّ منهم يَبحث عن شيء وَسط الأطلال التي خَلَّفها «جورباتشوف ويلتسين» بَقايا من قُوَّة إمبراطورية عُظمى كان اسمها الاتحاد السوفيتي.

وفي ذلك المشهد الأول يَظهَر رئيس روسيا واسمه في القصَّة «بوبوف» جالساً في مكتبه ومعه «أندريه سترافينسكي» وزير الخارجية، و«أندريه الكسندروفيتش» رئيس لجنة مُتابعة النشاط الخارجي والمعلومات - والثلاثة في انتظار الجنرال «يوري إيفانوفيتش بروزوف» الذي عُيِّن حديثاً مديراً للمخابرات الروسية «سي. في. آر» (C. V. R.).

والجنرال «يوري» قادم من أمريكا حيث كان مَسئولاً عن النشاط الروسي الخَفي هناك لعدَّة سنوات حَقَّق فيها نجاحات تَشهَد له وتُزَكِّيه ليكون مَسئولاً عن جهاز المخابرات الروسية في عَهد تحاول فيه «روسيا» لَمْلَمَة شَملها والعودة إلى ممارسة دور في السياسة الدولية «مُتماسك» - على الأقل - ذلك أنه من الخطر أن تستمر روسيا على هذا الوضع الذي «تَرَكوها» فيه مثل «عَجوز ثريَّة» ماتَت دون وَريث معروف، والمعَزُّون يَقصِدون إلى بيتها وكل منهم يُصلي إلى جوار سريرها ولا يَنسى قبل الخروج أن يأخذ معه مُحتَويات دولاب يُفرغها في ملاءة، أو قطعة أثاث يَحملها على ظهره، أو تُحفة يَدُسُّها في جيبه. وعندما يَجيء آخر المعَزِّين ويَجد البيت عارياً يَتَرَدَّد قليلاً ثم يَخلَع باب البيت ويَحمله معه».

وفي اجتماع القيادة الروسية العليا في مزرعة «جوكوفكا» يبدو الرئيس «بوبوف» مُصَمِّماً على أن هذه الأوضاع المُتَرَدِّية في «الوطن» يجب أن يُوضَع لها حَد، وأن روسيا لا بد أن تُثبت نفسها لنفسها أولاً ثم لبقية العالم. وحين يَدخل الجنرال «يوري» إلى الغرفة حيث كان الرئيس ووزير الخارجية ومسئول النشاط الخارجي يَحتَسون كؤوس «الفودكا» - يبدو لهم مدير المخابرات الجديد رَجُلاً يَصلح بهيئته لأداء دوره في عَصر جديد. الحَيَوية فيه ظاهرة - وحَرَكته تُوحي بشباب في مُنتَصف العُمر - وتقاطيع وَجهه تُنبئ بذكاء، وعيناه تلمعان كان فيهما سرّاً. لكنه على نحو ما - بطريقة غامضة - يُثير هَواجسهم.

وقد بدأ حديثه أمامهم بإشارة إلى تجربته الأمريكية وقائلاً أنه هناك تأثر بشعار تَضَعه وكالة المخابرات المركزية مَحفوراً على الرخام في مَدخل مقرها، والشعار يقول: «لا بد أن نَعرف كل شيء.. وإذا عَرَفنا، حينئذ نَنتَصِر».

ويَتَحَمَّس القادة الروس لما سمعوا، لكن إلحاح الجنرال «يوري» كان زائداً في الموضع الذي ضَغَط عليه وهو يَذكر لهم شعار وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. أحَسُّوا أنه ضَغَط على عبارة «كل شيء»، وحَيَّرَهم وأثار هَواجسهم إذا كان الجنرال يَقصد «كل شيء هنا» كما يَقصد «كل شيء هناك» - وأين تَقف بالضبط هذه الحدود لـ«كل شيء»؟!

ثم يَدخل الجنرال «يوري» إلى عَرض تَصَوُّره لأداء مُهِمَّته. وهو فيما يبدو فاهِمٌ مُستوعِب، مُقَدِّر للحقائق، عارِفٌ بالظروف، مُدرِكٌ كما يَظهَر أن روسيا لديها قُدرات عالية لكنها غير قابلة للاستعمال. لديها مثلاً أقوى قوة صواريخ بعيدة المدى، ولكن المشكلة هي كيف تستعملها؟ ولأي هَدَف؟ وضدَّ أي عَدُو؟

ثم إن روسيا وَرِثَت عن الاتحاد السوفيتي أقوى جهاز مخابرات في العالم، وهذا الجهاز قادر أن يَضَع قيادة البلد السياسية في صورة ما يجري في أي مكان، لكن هناك مشكلة أن روسيا لا تَملك اعتمادات مالية تَكفي لتَشغيله بكامل طاقته. ثم إنه على فرض تَوَفُّر الموارد فإن المعلومات لا بد أن تكون في خدمة سياسة، والسياسة رُؤية كاملة فيها اقتصاد قوي، ومجتمع مُتَماسك، وهوية مُحَدَّدة، ومَطلب مشروع، وتَهديد مُحتَمَل - وبهذه المعايير فإن روسيا كانت لها سياسة أيام كان الاتحاد السوفيتي دَولة عُظمى - لكنها الآن في عهد الاتحاد الروسي تَقف في مكانها جامدة، وتَتَلَفَّت حولها حائرة، وتُقَدِّم خطوة وتَتَراجَع خطوة - مُحاذِرة!

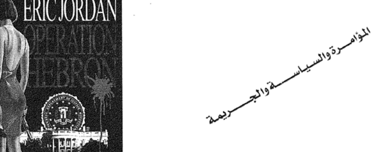
على أنه مهما كان فإن روسيا لها الحَق أن تَعرف. على الأقل تَعرف. مجرد المعرفة تكفيها الآن حتى بغير نَصر!

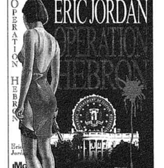
ويَعرض الجنرال «يوري» أسلوب عَمَل يراه قادراً على مَعرفة كل شيء دون أعباء يَعلَم قبل غيره أن من الصَعب توفيرها. وكذلك فهو يقترح التركيز على إسرائيل، وأسبابه كما يلي:

١ - أن كل كلمة تُقال في واشنطن طول النهار ترشح قبل نزول الليل في تل أبيب. وهكذا فإن أفضل مكان - وأرخص مكان - لمتابعة فكر وفعل الإدارة الأمريكية هو تل أبيب وليس واشنطن!

٢ - أن إسرائيل لديها شَبَكة مُخابرات عالية الكفاءة - يُساعد فيها يَهود العالم - ومعنى ذلك أنها خَزَّان مُمتلئ دَواماً بأخبار ما يَجري في كل القارات خصوصاً آسيا وأفريقيا - وإذا كَثَّفت روسيا نشاطها في تل أبيب فإنها تُعطي نفسها مَورداً للمخابرات واسعاً وعميقاً يَتَجَمَّع فيه كل ما تعرفه أمريكا، وكل ما يَعرفه يهود العالم، وكل ما تَعرفه إسرائيل.

٣ - أن روسيا لديها في إسرائيل إمكانيات لا يَتَصَوَّرها أحد، ففي مَوجات الهجرة الروسية استطاعت الـ«كي. جي. بي» (K. G. B.) مخابرات الاتحاد السوفيتي) أن تَسوق مئات ومئات من جواسيسها ضمن المهاجرين. هناك أيضاً أن عصابات المافيا الروسية شَحَنَت عَناصر منها بسرعة إلى إسرائيل، وقد نَشَطت هذه العَناصر من عصابات المافيا على جَبهات عريضة من تجارة الماس إلى استيراد اليورانيوم، ومن تهريب المُخَدِّرات إلى تَصدير العاهرات - ولأن هذه العصابات تريد أن تظل صلتها مع روسيا قائمة فهي تَتَعاون مع المخابرات الروسية، وتَتَعاوَن بمقدرة.





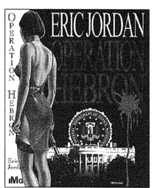
٤ ـ هناك أيضاً إمكانية ثالثة ـ غير العُملاء المدسوسين وغير عصابات المافيا ـ يمكن توظيفها لحساب المخابرات الروسية، وهُم هؤلاء الذين غادَروا روسيا إلى إسرائيل ثم اكتشفوا بعد أن وَقَعت الواقِعة أن الجحيم الروسى أفضل من الفردوس الإسرائيلى. والآن فإن معظم هؤلاء على استعداد أن يَفتحوا طريق عَودتهم ـ بتقديم خَدَماتهم للوَطن الأصيل!

وتَنبَهِر القيادة الروسية بما سمعته ويَصيح «ألكسندروفيتش» بزملائه قائلاً : «هل ترون ؟ كان هذا الكنز من وسائل العَمَل لدينا دائماً ونحن لا ندرى، ولكن «يورى» هو الذى لَفت أنظارنا إليه وإلى إمكانية استخدامه».

□

ويأخذ الجنرال «يورى» سامعيه المبهورين به خطوة بعد خطوة إلى «الحَلّ العَبقرى» الذى يَعرفه ولا يعرفونه لكنهم يَتَشَوّقون إلى سَماع «كل شىء عنه».

يُفاجئهم «يورى» ـ فوق كل ما قال



وزيادة عليه ـ بسرٍ تَوَصَّل إليه وهو سِرُّ «العملية هِبرون».

يبدو الذهول على الرئيس الروسي وزملائه المجتمعين معه في مزرعة «جوكوفكا» لأنهم لا يُصَدِّقون أن مثل ذلك ممكن، ولا يَتَصَوَّرون أن إسرائيل تَصل بالمغامرة إلى هذا الحَد. لكن الجنرال «يورى» يبدو واثقاً مما يقول مُعتَمداً فيه كما هو ظاهر على «شبَكَة معلومات» لا مثيل لها في العالَم كله مَوجودة في إسرائيل.

يَتَساءل الرئيس «بوبوف» :

ـ «هل تُعرف مَن هو «هبرون» الذى يُريدونه «رئيساً» لأمريكا والذى هو «عَميلهم» في الحقيقة؟»

ويَرُدُّ الجنرال «يورى» بلَهجة تُوحى بالاقتدار:

ـ «لم نستطع تحديد شخصيته حتى الآن لكننا سوف نعرف بالتأكيد مع مواصلة البحث».

ويَتَدَخَّل وزير الخارجية «سترافينسكى» فيقول :

ـ «هناك على الساحة أربعة مُرَشَّحين :

عن الحزب الجمهورى يَتَنافس نائب الرئيس «هَيز». لكن الرئيس «دوجلاس» يَظُنُّه ضعيفاً وغير قادر على إدارة مرحلة يَحسبونها مرحلة سيادة أمريكية مُطلَقة في العالَم، ولذلك فهو يُساعد سرًا حتى الآن صديقه السناتور «جونسَون» الذى يَحظى باحترام كبير.

هناك عن الحزب الديمقراطى مُرَشَّح واحد هو السناتور «ويستليك».

من المستَقلين هناك «كرامر» وهو رَجُل لا يبدو منه خطر، وسَوف تُزيحه الانتخابات الأوَّلية من الساحة إلى الهامش كما حَدَث مع غيره ممن دَخلوا الانتخابات مُستَقلين، أو ممن راوَدَهم حلم إقامة حزب ثالث في الولايات المتحدة.

عميلهم الذى يَسعون إلى تَنصيبه رئيساً لا بد أن يكون السناتور «ويستليك»، فهو الصديق المخلص إلى النهاية. سجلُّه في التَصويت على كل مشروع قَرار يَخُص إسرائيل معها ولصالحها دائماً وأبداً.

لا أظنهم يُعلِّقون خُطَّة كبيرة بهذا الحجم على نائب الرئيس «هيز» لأنه شخصية مَهزوزة وسوف يَكشف نفسه ويَكشفهم معه بسرعة.

السناتَور «جونسَون» ليس رَجُلهم. سجلُّه في التَصويت مُعارض دائما لإسرائيل سَواء فيما يَخُصها مباشرة أو لا يَخُصها.

وإذن فهو «ويستليك» ـ أراهن».

لكن الجنرال «يورى» «حريَص» لا يَقبَل الرهان. وتَقديره بالصَمت أن قضية بهذا الحجم لا يَعتَمد فيها على الاستنتاج حتى لو سانده المنطِق فَبَدا معقولاً ـ مُحتَمَلاً أكثر من غيره.

والجنرال «يورى» لا يَدخل في مباراة حماسة أو تَخمين، وإنما يقول في غموض : «الأفضل أن ننتظر حتى نعرف .. حتى نعرف كل شىء .. وسوف نعرفه».

☐

لكن الجنرال «يورى» لا يبوح لرؤسائه «بكل شىء» يعرفه. لا يقول لهم أنه على علاقة مَشبوبة باللهَب مع امرأة صِربيَّة شديدة الجمال اسمها «جاكى ماركوفيتش». وهو يَعرف أنها على صلة بأجهزة مُخابرات تَستَعملها عن بُعد. وأنها قاتلة مُحترفة في مهام خاصة يكون طغيان الجَمال فيها سابقاً على سَفح الدَم أو دَس السُم. على أنه برغم ما يَعرفه عن سرِها يَجد سحرَها طاغياً، وهو قبل وبعد كل شىء رَجُل يَعرف كيف يُحَصِّن نفسه. يمسك بالوَردة ويَتَجَنَّب شوكها. والوَردة لا تُقاومه، بل هى معه تَنزع شوكها مُطمَئنَّة إلى أنها علاقة جَسَدين يَتَشَوَّق كل منهما إلى الآخر، مع بقاء العقول في مكانها، وبقاء القلوب بَعيدة عن الموضوع. فهى ليلة واحدة ـ ما بين فترة وأخرى في تلك العاصمة أو تلك لساعة من اللهَب، وفي الغَد كأن شيئاً لم يكن، مثل بواخر تَقابلَت بالليل في عَرض المحيط وتَلألأت أنوار كل واحدة أمام الأخرى، لكنها لحظات على الموج ثم تَمضى كل باخرة نحو مَقصدها إلى ميناء بعيد!

والجَنرال «يورَى» يَعرف ـ وقد تَرَك «جاكى» تَعرف أنه يَعرف ـ أنها هى التى قامت بعملية تَصفية السفير «سورنسون» في بروكسل.

وأبعَد من ذلك فإن الجنرال «يورى» أوحى لعَشيقته الدَورية أنه «يَعرف» أنها مَخدوعة رغم تَمَرُّسها في عوالِم الظلام.

وقد جَعَلها الجَنرال «يورَى» تَفهَم دون أن يُصَرِّح بأنهم «الإسرائيليون» وليس «الإيرانيون». «الموساد» الإسرائيلى حَصلَ على الرَمز الإيرانى وحَوَّلَه إلى إشارة لها وإلى عَقد عَمَل. وقد وَجَدوا الخديعة مُغرية : لا يَتَحَمَّلون مسئولية إشارة بعَمَلية خطرة ـ ولا يَدفعون أجر تنفيذ العَمَلية ـ ثم يَجعَلون الاتهام مُوَجَّهاً إلى غيرهم.

وفكَّرَت «جاكى» فيما أوحى به «يورى»، ثم تَوَصَّلَت إلى تَصديق ما فهمته منه!

وإذن فقد خَدَعوها. خَدَعَتها المخابرات الإسرائيلية. خَدَعَها الرَجُل الذى تَعامَلت معه بثقة لزمان طويل وهو «تيرون» مدير محطة «الموساد» الرئيسية في واشنطن .. «تيرون» وليس غيره ـ ولم يَقُل لها يورى ما هو أكثر لا بالتصريح ولا بالتلميح.

وتَصَمِّم «جاكى» على أن تَنتَقم. ففي هذا العالَم الخفى تتعلق سُمعة الأطراف بقدرتهم ـ على الفعل عندما يُكَلَّفون به ـ «بأمانة» ـ وعلى الانتقام عندما يُحاول أحد أن يَتَلاعَب بهم ويَغش ـ بحَزم. فهذا العالَم الخفى يَقوم كله على الثقة والحَسم، فإذا اهتزت الثقة ـ أو انكشف التَلاعُب ـ حَدَث في عالَم الجريمة كما يَحدُث في عالَم البنوك، إفلاس وخَراب.

☐

بعد أيام يُفاجأ الجنرال «يورى» بدعوة إلى اجتماع للقيادة الروسية العليا مع الرئيس «فلاديمير بوبوف»، ليَجد كتلة من المفاجآت تنتظره. ففي القاعة الخارجية لمكتب الرئيس «بوبوف» كان في انتظاره مسئوله السياسى المشرف على النشاط الخارجى والمعلومات الذى بَادَرَه بغير مُقَدِّمات :

«عليك أن تنقذنا من كارثة. رئيسنا «بوبوف» طرأت له فكرة لتحسين علاقته بالأمريكان وكسب نقطة عند الرئيس «دوجلاس». وهو يريد أن يُبلغه بسرٍ «العملية هِبرون»، وأنا أعارض، ولكن وزيَر الخارجيَة المنبطح أرضاً «سترافينسكى» يُؤَيِّد الفكرة ويراها «ضَربة معَلِّم». نحن أمام موقف خطير وعليك أن تَثبَت فيه، وإذا مَنَعتَ الرئيس من تنفيذ خُطَّته المجنونة فسوف تَدخُل تاريخ روسيا من أوسع باب. وَسيلَتُك لمنعه أن تُحَذِره. حاولت أنا أن أحَذره لكنه لم يَلتَفت إلى ما قلت. أما أنت وباعتبارك المسئولَ العَمَلِى في ميدان الأمن فإنه سوف يأخذ كلامك أكثر جَدًا».

ويَدخل الجنرال «يورى» مكتب الرئيس «بوبوف»، وكان الآخرون في انتظاره، وانقض عليه السؤال قبل أن يَتَّخذ مقعَده:

«ما رأيك يا يورى إيفانوفيتَش في أن نقوم بإخطار الرئيس الأمريكى «دوجلاس» بسِر «العملية هِبرون» ؟»

ثم يَروح الرئيس «بوبوف» يَشرَح :

«نحن في حاجة إلى «دوجلاس» لضَرورتين عاجلتين : نريد تأييده لانضمامنا إلى مجموعة الدُوَل السبعة التي تُدير سياسة واقتصاد العالَم. ونحلم بأن يَتَحَوَّل السبعة بنا إلى ثمانية ـ هذه هى الضرورة الأولى. والضَرورة الثانية أننا طلبنا من صندوق النقد الدولى قَرضاً كبيراً لتثبيت الروبل. ولا أمَل لنا في الحصول عليه دون تأييد «دوجلاس»..»

يَستَطرد «بوبوف» :

«والسؤال هو ماذا لدينا لنُقَدِّمه إلى «دوجلاس» عَربوناً على حُسن نِيَّتنا وحِرصنا على أمن الولايات المتحدة ؟»

ويَرُدُّ الجنرال «يورى» مُعارضاً يُعَدِّد أسبابه بهُدوء :

«١ ـ إن تَسريب سِر «العملية هِبرون» للرئيس الأمريكى سَوف يَكشف مَصدَراً في إسرائيل يَستَحق الحِرص عَليه، بل يَلزَم الحرص عليه لأَن موقعَه في القرار الإسرائيلى غيرَ قابل للتَعويض.

٢ ـ ما سوف نقوله للأمريكان سوف «يرشح» كالعادة في إسرائيل ومن ثم فسوف تَعرف إسرائيل، وهى لن تقوم بِتَصفية مَصدَرنا فقط ولكنها سوف تَتَقَصَّد نشاطنا كله هناك وتُطارده.

٣ ـ إن الأمريكان لن يُصَدِّقوا ما نقوله إذا كانت إسرائيل طَرَفاً فيه لأن حُبَّهم لإسرائيل أعمى!

٤ ـ إن الأمريكان في العادة يَتَشَكَّكون في أية معلومات تصلهم تَطَوُّعاً. يَعتقدون أن تسليمها لهم لا يمكن أن يكون دليل حُسن نِيَّة، وظنهم أن التسريب سوء نيَّة لها ما وراءها. وهذه عَقليَّتهم. لا يَفهَمون منطق أن يَحصلوا على شىء مقابل لا شىء!»

ويَظهَر أن اعتراضات «يورى» لم تَنجَح في تغيير رأى الرئيس. لأن «بوبوف» مُصَمِّم، وهو يُطلق حُجَّته النهائية قائلاً للجميع :

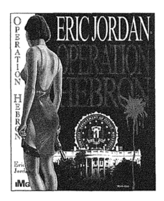
«أريد أن ألفت نظركم إلى أن هناك ما هو أكثر من رَغبَتى في مُجاملة الرئيس «دوجلاس». وهنا فإننى أرجوكم أن تَتَصَوَّروا صعوبة موقفنا إذا أصبح رئيس الولايات المتحدة عَميلاً لإسرائيل ـ وتحت تَصَرُّفه ترسانتها كلها بما فيها الأسلحة النووية.

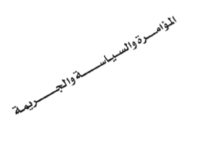
أسوأ الشَرَّين أن نَذهَب إلى هذا المدى في مُجامَلة الولايات المتحدة ـ لكن أسوأ الشرور كلها أن نَقف ساكتين حتى نرى روسيا خاضعَة لإسرائيل إذا تمكنت من وَضع عميلها فى البيت الأبيض!»

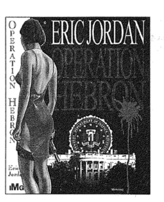
ويَنتَهز «بوبوف» تأثير كلامه المعَبَّأ بنُذُر الشُؤم ثم يَتَّخذ قراره ويُكَلِّف وزير خارجيته المؤتَمَن «سترافينسكى» بأن يَتَوَلى مُهِمَّة إبلاغ رئيس الولايات المتحدة بـ«العملية هِبرون» ـ ويَلتَفت «بوبوف» إلى الجنرال «يورى» ويقول :

«يورى إيفانوفيتش.. عليك أن

أجهزة سرية فوق الأرض تطارد أجهزة سرية تحتها. والجريمة على موعد مع السياسة


ERIC JORDAN
OPERATION HEBRON
OPERATION HEBRON
Eric Jordan
IMG


المؤامرة والسياسة والجريمة



تسبق إلى واشنطن. وتكون جاهزاً هناك لكل الاحتمالات بما فيها تقليل حجم الخسائر المحتَمَلة فى مصادرِك».

ويَنتهى الاجتماع بهذه النبرة الحازمة، ويَهِمُّ الجنرال «يورى» خارجاً من القاعة، ويَلحَق به وزير الخارجية الروسى يحاول تنويم شكوكه قائلاً له :

«لا ينبغى لك أن تَجعَل عقلية الحَرب الباردة تَحكُم تَصَرُّفاتك أو مشاعِرك. هذا الآن عالَم مُختلف وملىء بالاحتمالات».

ويَرُدُّ الجنرال الخبير العارف قائلاً :

«إنك سوف ترى بنفسك. الأمريكان لن يُصَدِّقوك. عندما يجيئهم التحذير من روسيا فأول رَد فعلهم الشك. عندما تَجيئهم المعلومات مَجَّاناً فإنها إذن رخيصة، وهى بالتالى مما لا يُمكن الوثوق به».

ويُطَمئنه وزير الخارجية بقوله :

«إن خَطَر «العملية هبرون» على مستقبل روسيا أكبر من خَطَره على أى طَرَف فى العالَم حتى على العَرَب .. فكِّر كيف تَحمى مَصادرك. فهذا أَولى الآن بجهدك من القَلَق بسبب فكرة «بوبوف»!»

٦ متغيرات الموازين بين قوتين!

في الفصل الخامس عشر من قصَّة «إريك جوردان» «العملية هبرون» والتى كَتَبَها، ومخزون تجربته كمسئول كبير فى وكالة المخابرات المركزية لمدَّة ثلاثين سنة عماد مَعرفته ومَصدَر ثقافته ـ تَصل القصَّة ـ الخَيال الملتبس بالحقيقة والحقيقةَ الملتَبسة بالخيال ـ إلى مكتب مستشار الأمن القومى للرئيس ـ وهو نفسه الدكتور «ويليام رَسِل».

تليفونه الخاص يَدُقّ وهو ما زال فى بيته. والمكالمة من موسكو، ويَفهَم «رَسِل» أن مكتب وزير خارجية روسيا «أندريه سترافينسكى» على الخط ـ ثم يَسمَع صوتاً يقول له «أنه هو نفسه سترافينسكى يَتَحَدَّث إليه مباشرة ودون مدير مكتب يَطلب له الرَقم ويُعطيه جهاز التليفون». ويتأكد «رَسِل» أنه بالفعل صوت «سترافينسكى»، وتُدهِشه المكالمة، ولا يَتَذَكَّر سبباً ظاهراً يَستَدعى تَوَقُّعها. ويُجيب «سترافينسكى» على تساؤله وكأنه أحسَّ بخواطره قائلاً له : «هناك رسالة سرِّية وعاجلة من الرئيس «بوبوف»، وقد كُلِّفت أنَ أنقلها إليكم، وهى لعِلم الرئيس شخصياً، ولا يجب أن يعرف بها أحد من مُساعديه غيرك، ولا من سكرتيريه مهما كانت دَرَجة قُربهم»!

ويَسمَع «رَسِل» وهو يُهَمهِم بأصوات لا معنى لها إلا استَعجال الحديث إلى غايته. ويُواصل «سترافينسكى» كلامه : «لا أريد أن أجىء إلى واشنطن بنفسى وأقابل الرئيس فى البيت الأبيض لأن ذلك سوف يُلفِت الأنظار. رأينا أن تكون أنت الرَجُل الذى نفضى إليه بالرسالة ينقلها إلى الرئيس. وأنا قادِم إلى نيويورك بعد غد، وهو يوم السبت، وأستطيع أن ألقاك فى فندق «والدورف أستوريا» فى الجناح الذى التقينا فيه من قبل وأنت تعرفه. سوف يكون هَدَفى المعلَن من زيارة الولايات المتحدة هو الاجتماع بالسكرتير العام للأمم المتحدة فى نيويورك لبحث التطورات فى البلقان، لكن مُهِمَّتى الحقيقية معك».

يَرُدُّ «رَسِل» : «ألا تستطيع التلميح لى بشىء عن الموضوع من غير تفاصيل ؟ الحقيقة أننى سوف أجد صعباً علىَّ أن أعرض على رئيس الولايات المتحدة موضوعاً لا عنوان له ؟»

ويَرُدُّ «سترافينسكى» بسرعة : «مُستحيل. الموضوع لا يُناقَش ولا حتى بالإشارة عبر الأجواء ـ مع أنى أعرف أن تليفونك آمن وتليفونى كذلك، ولكن إجراءات الحماية الإلكترونية للمحادثات التليفونية تَظَل مُعَرَّضة حتى على مستوى البيت الأبيض والكرملين»!

□

المشهد التالى فى هذا الفصل يَقَع خارج مكتب الرئيس «دوجلاس»، حين يَدخل مستشاره للأمن القومى ينتظره فى مكتب السكرتيرة الخاصة. والرئيس كان يَزور «مَلعَب جولف» يُمارس فيه رياضته المفضلة كلما واتته فرصة. وقد وَصَلَ الرئيس الآن فعلاً إلى البيت الأبيض، لكنه دَخَلَ الجناح الخاص لحَمَّام سريع (بعد الرياضة)، قبل أن يَتَوَجَّه إلى المكتب البيضاوى ليُقابل مستشاره للأمن القومى، ويَعرف منه ما هى الضرورة العاجلة التى استوجبت طلب مقابلته على الفور.

يَصِل الرئيس «دوجلاس». ويَعبُر مكتب سكرتيرَته داخِلاً إلى المكتب البيضاوى، ويَمشى وراءه الدكتور «رَسِل». ويَستَمع «دوجلاس» إلى مستشاره للأمن القومى يَحكى ما لديه. ومع أن الرئيس استغرب الملابسات والتوقيت، فإنه يَقول لـ«رَسِل» :

«ليس أمامنا غير أن نسمع ما عندهم. ولكنى أريدك من باب الاحتياط أن تَطلب إلى وكالة الأمن القومى (N.S.A. وهى تَتَولَّى التَجَسُّس الإلكتروني كله على مستوى العالَم) أن تَجىء بالشريط الذى سَجَّلوا عليه مكالمة «سترافينسكى» معك، وأن يَضَعوه فى ظرف مختوم وأن يبعثوا به إلى البيت الأبيض، وسوف نُرُدُّه إليهم للحفظ فيما بعد طبقاً للأصول».

يُضيفَ الرئيس : «أريد أن أجعل هذا الاتصال محصوراً بحيث لا يُوَزَّع نَصُّه ضمن ما يُوَزَّع من التسجيلات كل يوم على المسئولين الذين لهم حَق الاطلاع. أريد ذلك حتى نَفهَم بالضبط ما هو الموضوع.

أرى من باب الاحتياط أن لا تَذهَب إلى أى مطار لتأخذ منه طائرة إلي نيويورك ـ ظهورك فى أى مطار يُلفت النظر. خُذ سيارة واذهب بها إلى نيويورك، ولا تَذهَب بسيارة من البيت الأبيض، وإنما استأجر سيارة تَذهَب بك وتَعود.

لا أعرف ماذا يُريدون؟ وما إذا كان ما عندهم يُساوى الاحتياط إلى هذه الدَرَجة ؟ ـ لكننا سوف نَحكُم بأنفسنا بعد أن نعرف».

□

المشهَد الثالث فى هذا الفصل يَقَع فى جناح وزير الخارجية الروسى داخل فندق «والدورف أستوريا» فى قلب نيويورك. الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء الأحد، والكل فى إجازة، وليس هناك «مخلوق» فى ممرات الـ«والدورف». وجناح وزير الخارجية الروسى عليه لوحة تقول «رجاء عَدَم الإزعاج». لكن الدكتور «رَسِل» يَعرف أن ساكن الجناح الذى وَضَع بيده لوحة «عَدَم الإزعاج» ينتظره بلَهفة وراء الباب المغلق.

ويلتقى الرَجُلان وَجهاً لوَجه، ووزير الخارجية الروسى لا يُضَيِّع وقتاً. وإنما يبدأ على الفور :

«لدينا رسالة من الرئيس للرئيس. الرسالة بالغة الأهمية!»

يقول له «رَسِل» :

«جئت بأمر رئيسى لأسمعها منك!»

يَستانف الروسى كلامه :

«كل الأجهزة عندنا كانت تعارض قيامنا بإخباركم بما سوف أقوله لك الآن. فى الكرملين كانوا يعارضون. فى المخابرات (الـ«كى. جي. بى.») أصابهم الجنون تقريباً لأن الرئيس قَرَّر إبلاغكم بما سوف أقوله لك. إنما الرئيس «بوبوف» من باب «تأكيد الثقة» و«اعتبار الصداقة» بينه وبين الرئيس «دوجلاس» ـ أسقَط اعتراضات الجميع وقَرَّرَ أن أقوم بإبلاغك بما سوف تَسمَعه الآن».

ويَبدو على الدكتور «رَسِل» نوع من الضيق بكل هذه المقدِّمات «عما سوف يسمعه الآن».

ويَشعُر «سترافينسكى» داخله بنوع من الحَرَج فيَهمس لنفسه : «هؤلاء الأمريكان ليس لديهم عِرفان بالجميل تجاه أحد»!

لكنه يَتَجاوَز حَرَجَه ويقول للدكتور «رَسِل» :

«لدينا معلومات مُؤكَّدة ـ من مَصدَر لا يَرقى إليه شك ـ أن القيادة العليا الإسرائيلية اعتمدت تَنفيذ «عَمَلية» أطلقوا عليها الوصف الرمزى «هبرون» ـ هَدَفها وَضع عميل لهم فوق مقعَد الرئاسة الأمريكية. و«هِبرون» كما يَظهَر لنا واحدٌ من المشاركين فعلاً فى السباق إلى التَرشيح الرئاسى. معلوماتنا فوق ذلك تُؤكِد أن المسئول عن إدارة «العملية هبرون» هو «دافيد تيرون» مدير محطة «المَوساد» فى واشنطن. وتلاحظون أن «تيرون» سافر إلى إسرائيل خمس مرات فى ظرف شهر واحد. السفير الإسرائيلى فى واشنطن لا يَعرف فى الغالب، لأن «العَمَلية» مَحصورة ومباشرة بين رئاسة الوزارة فى إسرائيل وبين مدير محطة «الموساد» فى واشنطن ...»

يَتَوَقَّف وزير الخارجية الروسى ـ ومستشار الأمن القومى يُحاول السيطرة على مشاعره، وبعد لحظة صَمت يسأله : «أهذا هو الموضوع السرِّى العاجل والخطير ؟»!

يُعاود وَزير الخارجية الروسى شعوره بالحَرَج مَمزوجاً هذه المرة بلمسة من النَدَم على أنهم قَرَّروا «إبلاغ هؤلاء الناس عديمى العرفان بسرٍّ يُؤثر على بَلَدهم وهُم لا يُقَدِّرون ولا يَشكرون»!

لكن وزير الخارجية الروسى يُغالب مَشاعره ويقول :

«أفهم أن لديكم شكوكاً ـ أوَّلها ما هى مَصلحتنا فى إبلاغكم ؟ ـ ونحن نعرف أنكم لا تُؤمنون بالمشاعر بما فى ذلك الصداقة والثقة بين الأصدقاء. أنتم لا تقتنعون بشىء إلا إذا أخذتموه بأيديكم أو إذا بَدَت لكم وراءه مصلحة ظاهرة لأصحابه. ليكن. روسيا لها مصلحة أمنية، لا تُريد أن تَرى عميلاً إسرائيلياً جالساً فى المكتب البيضاوى وفى يَدِه قرار الولايات المتحدة الأمريكية وقُوَّتها».

ولا يُعَلِّق الدكتور «رَسِل»، لكنه «يَشفط» آخر قطرة فى كأسه ويقول لـ«سترافينسكى» :

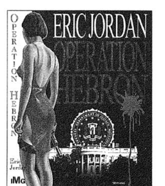
«علىَّ الآن أن أعود إلى واشنطن قبل أن يَطلع نور الصبح وأكون فى مَكتبى كالعادة مع بداية الأسبوع دون أن يَلحَظ أحد غيابى. فليس هناك من يعرف أننى هنا غير الرئيس».

□

المشهَد الرابع فى هذا الفصل يَقَع بين جُدران المكتب البيضاوى والرئيس «دوجلاس» على مقعَده وأمامه مُستشاره للأمن القومى ومعه السر.

يَسمَع الرئيس مستشاره وهو لا يكاد يُصَدِّق، وتَعليقه تلقائياً :





«أهذا معقول ؟ - هل تستطيع إسرائيل أن تُفكِّر في عَمَل من هذا النوع وهي تَعرف مخاطر انكشافه ؟ - أظن أن «الروس» مُخطئون. هُم ليسوا سَيِّئي النِيَّة فيما أظن، لكنهم في الغالب يلعبون على ما نعرفه جميعاً من قُرب السناتور «ويستليك» من اللوبي الإسرائيلي.

ومع ذلك (يَتَرَدَّد الرئيس لحظة) لا نستطيع أن نَتَجاهَل ما سمعناه حتى وإن لم نأخذه جَدًا إلى الآخر. (يَتَرَدَّد الرئيس مرة أخرى) أظن أن الحَلَّ المنطقي أمامنا إدخال مكتب التحقيقات الفيدرالي في الموضوع. نحن لا نستطيع من البيت الأبيض أن نتابع، ولكن مكتب التحقيقات الفيدرالي يستطيع. وفي إمكاننا أن نعتَمد على حكمة رئيسه القاضي «بيكر»، وسوف أطلب منه أن يُكَلِّف بالمهِمَّة عميلاً واحداً من أعوانه. (يَتَذَكَّر الرئيس «دوجلاس» شيئاً ويُضيف) هذه الفتاة التي قامت بالتحقيق في عَمَلية قتل المسكين «سورنسون». اسمها «بريندا» أليس كذلك ؟ - كانت في منتهى الذكاء والنشاط في عَمَلها لأني تابَعت التحقيق. قتلوا «سورنسون» لأنه كان صديقي، ولن أغفر للذين فَعَلوها مهما طالَ الزَمَن».

وتَجري دعوة القاضي «بيكر» على الفور، ويجيء لمقابلة الرئيس ومعه معاونته «بريندا». ويَسمع الاثنان رواية مستشار الأمن القومي في حضور رئيس الولايات المتحدة، وعلى وَجه كل منهما تعبيرات مُحايدة لا تكشف مشاعره (وذلك تَدريب له قواعده).

ويَطلب القاضي «بيكر» تفويضاً رئاسياً يُعطيه الحق في استعمال أجهزة حسَّاسة داخل السفارة الإسرائيلية، ولا يحتاج إلى إذن بمراقبة تليفوناتها لأن تليفونات كل السفارات في واشنطن تحت الرقابة بطريقة «اعتيادية»!

وآخر تَوصية من الرئيس «دوجلاس» قبل أن يَنصَرف رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى مُهمَّته الخطيرة الجديدة هي قوله : «إذا كانت حكاية الروس صحيحة فاظن أن تركيزكم يجب أن ينصَب على السناتور «ويستليك» فهو بالتاكيد رَجُلكم (يُكَرِّر مرة ثانية) هذا إذا كانت الحكاية الروسية صحيحة».

□

وتَقتَرب قصَّة «إريك جوردان» من ذروَتها وكان مُؤلِّفها يَقرأ من كتاب مَفتوح أمامه :

في الأسبوعين السابقين على يوم الاقتراع - زادَت حَرارة السباق الانتخابي إلى دَرَجة الحُمَّى، وتَوَتَّرَت الأعصاب إلى حَدِّ الانفجار!

كان السباق بين المرشحين لعبة قمار، والرهان على أصوات اليهود يَرتفع، ونفوذ اللوبي الصهيوني عالي الرنين والطنين لدَرَجة مُزعجة وإلى حَدِّ أن السناتور «ويستليك» تَعَهَّدَ بأنه غداة دخوله المكتب البيضاوي فسوف تكون أولى مهامه كرئيس هو توقيع قرار بإشراك إسرائيل في صناعة الطائرة «ى. ف. ٢٢» التي تُعتَبَر الطائرة المقاتلة للقرن الواحد والعشرين.

ومع أن الشكوك حول السناتور «ويستليك» تَزيد إلا أن مكتب التحقيقات الفيدرالي رغم كل ما بذله القاضي «بيكر» ومساعدته «بريندا» من جهد - لا يَصل إلى دليل قاطع. وقد تَمَكَّنت «بريندا» عن طَريق الرقابة المكثفة بما فيها الرقابة المباشرة على مكتب السفير الإسرائيلي في واشنطن ومكتب مدير محطة «الموساد» - من العثور على قرينة تشير إلى أن هناك بالفعل عملية يُطلَق عليها اسم «هبرون» - لكنها لم تَتَوَصَّل هي أو غيرها إلى شيء بعد ذلك. وحتى تلك القرينة التي وَصَلَت إلى «بريندا» جاءتها بالمصادَفة حين كانت تَتَسَمَّع بنفسها على ما يجري في مكاتب السفارة الإسرائيلية بفضل وسائل جديدة «مُذهلة في دِقَّتها وتعقيدها» يستعملها مكتب التحقيقات الفيدرالي. وكانت «بريندا» تُفضِّل هذه الوسائل لأنها تَجعلها مُستَمعة - كأنها ترى ما يجري داخل السفارة وفي أَي مكتب. وكانت تُفضِّل وهي تَسمع أن يكون أمامها جهاز خاص يقوم بتحليل نَبرات كل صوت تَسمَعه حتى تستطيع بلوغ أعماقه: تَكتَشف مَدى المجاملة فيه - مَدى الجدِّية - مَدى الصِدق - مَدى الكَذب!

وقد استمعت «بَريندا» إلى «تيرون» (مدير محطة «الموساد» في واشنطن) مرة وهو يُوقف صوتاً ينطق بكلمة «هبرون» ويُقَاطعه «تيرون» قبل أن يُكمِل النُطق قائلاً له : «أنت تَقصد تلك البلدة في الضفة الغربية؟» («هِبرون» هي الخليل).

لكن تلك القَرينة لا تكفي. وتقترح «بريندا» على رئيسها القاضي «بيكر» أن يقوما معاً بزيارة للمرَشَّحين الثلاثة : الجمهوري «جونسون» - الديمقراطي «ويستليك» - المستقل «كرامر» - ثم يُشيران بطرف خَفي لكل منهم إيحاءً بـ«تَدَخُّل أجنبي في الانتخابات الأمريكية»، ثم يَرصُدان ردَّة الفعل ويقيسان مَضمونها على جهاز تسجيل (لا يَعرف سِرَّه أحد) سوف تَخفيه «بريندا» في حقيبة يَدها (وهو يُؤدي دوره مُستعصياً تماماً على الكشف) - وكان جل اعتماد القاضي «بيكر» و«بريندا» على لحظة تَسأل فيها «بريندا» كل واحد من المرشحين الثلاثة : «هل تعرف رَجُلاً اسمه «تيرون» ؟» (والمقصود هو مدير محطة «الموساد» في واشنطن) - ولحظتها مع المفاجأة قد تَلمَع على الجهاز إشارة تَظهَر مُسَجَّلة!

ولسوء الحظ فإن المحاولة لا تكشف دَليلاً يُعتَمَد عليه، لكن «هبرون» نفسه يُصاب بنوبة من الرُعب تُهَيِّئ له أن أمره على وشك أن يَفتَضح!

٧ المفاجأة الكبرى قبل أن ينزل الستار

تَصل قصَّة «إريك جوردان» إلى الذروة، وأَحداثها تَتَصاعَد بسرعة خاطفة:

الحقيقة لا تبدأ في الظهور إلا ليلة إعلان نتيجة الانتخابات، وهي ليلة ليلاء.

تُصبح عملية عَد الأصوات سباقاً مَحموماً لأن الأرقام ظَلَّت حتى اللحظة الأَخيرة شديدة القُرب ما بين السناتور «جونسون» (الذي ساعده الرئيس «دوجلاس» على النجاح) وبين السناتور «ويستليك» (القريب من إسرائيل بما يُرَكِّز الشُبهات عليه). وفي نهاية ساعات من التَوَتُّر العَصَبي تَميل الأرقام لصالح «جونسون» بفارق يَقِل عن خمسة آلاف صوت، ويشيع أن «وَيستليك» سوف يَطلب إعادة فَرز وعَد الأصوات من جديد في ولاية «نيو هامبشَير».

وعند منتصف الليل يبدو وكأن العاصمة الأمريكية فَقَدَت توازنها.

الرئيس «دوجلاس» في البيت الأبيض في حالة نشوة لأن مُرَشَّحه المفضَّل «جونسون» فاز وإن بأغلبية صغيرة، وحتى إذا طلب «ويستليك» إعادة فَرز وعَد صَناديق ولاية «نيو هامبشَير»، فإن معلومات الرئيس «دوجلاس» أن إعادة الفَرز إذا أخَذت وأعطَت هنا وهناك عشرة أصوات أو عشرين صوتاً لن تُغَيِّر شيئاً في تشكيل المجمع الانتخابي للولاية، وسوف يَحصُل «جونسون» على أصواتها ويَنجَح، وسوف يَسقُط «ويستليك» صديق إسرائيل (عميلها «هِبرون» ؟!)



وفي السفارة الإسرائيلية تَثور عاصفة غَضَب، بعد أن سَمَع السفير نفسه على الوكالة الإخبارية الشهيرة «سي. إن. إن.» إعلانها بفوز «جونسون» على «ويستليك»، ومعنى ذلك في تقدير السفير أن كل استثمار إسرائيل في «ويستليك» ضاعَ، ولا بُد أن هناك تقصيراً من جانبهم، والمسئول عن الحملة الانتخابية «تيرون» مدير محطة «الموساد»، وسوف يبدأ باتهامه قبل أن تبدأ تل أبيب باتهامه هو (السفير)، وكذلك يَستَدعيه على عَجَل إلى مكتبه ويَصُبُّ عليه جام غضبه، لكن «تيرون» لا يقول له شيئاً مُقنعاً، وبالعكس فإنه يتظاهر بتماسك لا مُبَرِّر له.

«تيرون» يعرف أكثر. وهو في هذه الساعة المتأخرة من الليل ذاهبٌ إلى مقابلة مع «هبرون» طلبها عَميله بإلحاح مَلهوف في هذه السَاعات المجنونة لأن لديه نَوبة ذُعر أصابته في اللحظة الحاسمة بشَكٍّ يُهَيِّئ له افتضاح أمره - بانكشاف سِرِّه بعد ما سَمَع من القاضي «بيكر» ومُساعدته «بريندا» التي سألته : «هل تَعرف رَجُلاً اسمه «تيرون» ؟»

ويَتَوَجَّه «تيرون» إلى موعده مع «هبرون» في فندق بعيد على أطراف واشنطن وهو لا يَشعُر أن امرأة غامضة هي «جاكي ماركوفيتش» في أثره - تُطارده لأنها تعتقد أنه خدعها، وتَتَّهمه بأنه استعملها لتحقيق هَدَف أراده ثم أنكَرَ، وأسوَأ من ذلك فهو لم يدفع لها أجرها حين طالَبَت به، وهي مُصَمِّمة على القصاص - ثم أنها في هذه اللحظة بالذات وراءه، وهو في غَفلة بسبب العَجَلة.

ويدخل «تيرون» على «هبرون» في الفندق الذي اتفقا على الاجتماع سِرًا فيه، ونِيَّته أن يَلومَه على إلحاحه في طَلَب اجتماع بينهما تلك الليلة بالذات. وفي ثوان تقتحم «جاكي» غرفة اجتماعهما السرِّي، وتُطلق النار بمُسَدَّس كاتم للصوت وتُصيب وتَقتُل الاثنين. أحدهما وهو «تيرون» أرادَت قتله، والثاني لم تكن تعرف من هو ولا كانت تَقصد قتله لكنه وَقَع في مرمى النار وسَقَط غارقاً في دَمه.

ويَتَّضح أن «هبرون» القتيلَ بالمصادفة - هو السناتور «جونسون»، الرَجُل الذي ساعَده الرئيس «دوجلاس» لينجح، والرَجُل الذي يَملك سجلاً مُبرأ من الانصياع للوبي الإسرائيلي عند التصويت على مشروعات القوانين في الكونجرس، وأهَم من ذلك فهو - وليس غيره - الرَجُل الذي نَجَحَ بفارق ضئيل قبل ساعات ليكون رئيساً جديداً للولايات المتحدة الأمريكية.



وتَنتَهي قصَّة عميلة جميلة. قاتلة مُحترفة. امرأة خَدَعوها في أجرها وصَمَّمَت على الانتقام. وفي سورة غَضَبها غَيَّرَت مَجرى التاريخ - وحَقَّقت مفاجأة المفاجآت عن غير قصد، لكنها في المشهَد الأخير من القصَّة تَدفع الثمَن، لأن «بريندا» عميلة مكتب التحقيقات الفيدرالي طارَدَتها إلى أركان الأرض وفجَّرَتها بقُنبلة رَتَّبَت وَضعَها في القارب الذي خَرَجَت به «جاكي» إلى أحد خلجان جزيرة «مايوركا» الأسبانية تَحسب نفسها آمنة في فضاء البحر. وتَقَيَّدَت الحادثة ضدَّ مجهول لأن سِرَّها لم يَظهَر له أثر. فهو عالَمٌ مَجهول فوق الأرض يُطارد عالَماً تحت الأرض!!

....

....

وبالفعل فإن مَشاهد ووَقائع القصَّة مثيرة للخيال - لكن الخيالَ الملتبس بالحقيقة أو الحقيقة الملتبسة بالخيال أكثر إثارة!



قبل أربع سنوات، وعقب إعلان الفوز الكاسح للسيد محمد خاتمي في انتخابات الرئاسة الإيرانية على منافسه القوى على أكبر ناطق نورى (رئيس مجلس الشورى السابق) وصف المفكر الإيراني الليبرالي الدكتور عبد الكريم سورش هذا الفوز بأنه كان بمثابة «ثورة صامتة» عبر فيها الشعب الإيراني عن رغبته العارمة في ضرورة مراجعة مسار الثورة الإيرانية وإعادة النظر في الكثير من السياسات والتوجهات التي تبنتها. كما اعتبر أن هذا الفوز كان «رسالة إنذار» للثورة الإيرانية لإجراء «وقفة مع الذات» لاستخلاص العبر، ومعرفة رغبات وآراء الشعب والتجاوب معها في الاتجاه إلى الانفتاح والتعبير والإصلاح «قبل فوات الأوان، وقبل انفجار الشارع السياسي الإيراني». الأهم من ذلك أن سورش اعتبر أن خاتمي يمثل بتوجهاته «حلاً وسطًا تاريخيًا» يقر فيه الشعب الإيراني بانحيازه لخط ثورة الإمام الخميني، لكن مع ضرورة أن تقوم بإحداث إصلاحات جوهرية في سياساتها ومسارها بما يتوافق مع متغيرات العصر.

ماذا حدث بعد أربع سنوات تحول فيها مشروع الإصلاح الخاتمي إلى «سياسة حكم» وإلى برامج وإجراءات وقوانين وقرارات؟ هل مازالت إيران في حاجة إلى «الحل الوسط التاريخي»، أم أن التحديات والعقبات والإخفاقات التي واجهت هذا الحل الوسط باتت تفرض الحل الجذري الذي ربما يكون ثورة على الثورة؟

الدوافع كثيرة لهذا التساؤل، يأتي في مقدمتها، تردد الرئيس خاتمي لفترة طويلة في التقدم بأوراق ترشيحه لولاية ثانية. فقد بقي خاتمي مترددا إلى ما قبل إغلاق باب الترشيح بـ٤٨ ساعة فقط. وفي أول مواجهة له مع الصحفيين أمام مبنى وزارة الداخلية عقب تقديم أوراق ترشيحه لم يستطع خاتمي أن يمنع تدفق الدموع من عينيه وهو يعترف بصحة تردده عن تجديد ولايته، وبكى ثانية وهو يؤكد أنه بذل كل جهد ممكن للبقاء على العهد الذي قطعه للشعب خلال ولايته الأولى.

لقد حققت حكومة الرئيس خاتمي الكثير من الإنجازات لكنها واجهت أيضا الكثير من الإخفاقات والتحديات ترجع في الأساس إلى خصوصية عملية صنع القرار في النظام الإيراني وإلى طبيعة شخصية الرئيس خاتمي وموقفه شديد الولاء لهذا النظام. ويصعب الإجابة عن سؤال مستقبل «المشروع الخاتمي» باعتباره الحل الوسط التاريخي للجمهورية الإسلامية على حد وصف الدكتور عبد الكريم سورش، الذي يمكن عن طريقه تأمين مستقبل الجمهورية الإسلامية دون مراجعة جادة لتلك الخصوصية التي تميز عملية صنع القرار، ودون تحليل لمعركة الانتخابات الرئاسية الحالية للتعرف على مواقف كافة الأطراف من هذه الانتخابات وبالتحديد موقف مرشد الجمهورية السيد علي خامنئي وموقف الرئيس محمد خاتمي، وحدود التغير والثبات في منظور خاتمي لمشروعه الإصلاحي.

أولا: شخصية خاتمي وخصوصية عملية صنع القرار

يعكس نظام صنع القرار الإيراني هيكلا للقوة غير مركزي، بمعنى تعدد مصادر صنع هذا القرار. فانقسام هيكل القوة، خاصة بعد وفاة الإمام الخميني، بين مؤسسة المرشد ومؤسسة الرئاسة جعل من عملية صنع القرار الإيراني ساحة لبناء الإجماع والجدل والمفاوضات والمساومات والتبادلات لها تكاليفها وآثارها على تشكيل سياسة ثابتة مستقرة. تأسيس نظام متعدد الأقطاب لصنع القرار جعل من سياسة الحكومة محصلة للتفاعل بين قوى مختلفة ولتوازن القوة فيما بينها. فظهرت عدة كيانات ثورية موازية لأداء الوظائف العادية للأجهزة الحكومية الموروثة عن النظام السابق، واستمرت بدرجة أو بأخرى. وأبرز الأمثلة على هذه الكيانات أو التنظيمات الثورية الجديدة الحرس الثوري. ولذا غالبا ما يتم التوصل إلى القرارات في سياق من الحلول الوسط وفقا لنمط توازن القوة، ويتم مراجعتها بشكل دوري، خاصة في مجال السياسة الخارجية.



وتبدو معالم الثنائية أو الازدواجية واضحة داخل الهياكل المؤسسية للنظام الإيراني ذاته. فهناك مرشد للثورة يقابله (وإن لم يكن يوازنه بشكل كامل) رئيس الجمهورية، بشكل يجعل من الأول ممثلا لقمة الدولة الإيرانية بأكملها، ومن الآخر رئيسا للسلطة التنفيذية الإيرانية. وعلى مستوى السلطة التشريعية يوجد مجلس الشورى الإسلامي (البرلمان) المنتخب، يواجهه، أو بمعنى أدق يراقبه، مجلس صيانة الدستور، ويفصل بين الاثنين مجلس تشخيص مصلحة النظام في حالة الاختلاف على تشريع معين حيث يكون له القول الفصل. وإذا كان مجلس الشورى ينتخبه الشعب فإن مرشد الثورة هو الذي يعين مجلس تشخيص مصلحة النظام. كما حرم الدستور مجلس الشورى الإسلامي من أن يلعب دوره الكامل من خلال القيود العديدة التي أضعفت من قوته التشريعية. من أهمها ترك تنظيم الانتخابات البرلمانية للمؤسسات التشريعية الأخرى (المادة ٦٢) خاصة مجلس صيانة الدستور الذي يشترط موافقته على المرشحين الذين سيخوضون الانتخابات سواء كانت انتخابات رئاسية أم برلمانية من خلال وضع شروط تضمن عدم تمكين الأشخاص غير المرغوب فيهم من خوض عملية الترشيح للانتخابات. ولقد تمت صياغة الشروط في عبارات فضفاضة مثل: إن ولاء المرشح للجمهورية الإسلامية لا يجب أن يكون محل شك، الأمر الذي يسمح بإقصاء أي من المرشحين دون عناء.

وإذا كان مرشد الثورة يمتلك الكثير من الصلاحيات الدستورية التي تفوق صلاحيات رئيس الجمهورية، كما أنه يحوز السيطرة على الجيش والحرس الثوري وأجهزة الأمن والاستخبارات والإذاعة والتليفزيون فإن «مجلس خبراء القيادة» الذي يتم اختياره بالانتخاب هو الذي يختار المرشد ويراقب «نظريا» أعماله. لكن مجلس صيانة الدستور الذي يعينه المرشد هو المسئول عن منح صلاحية الترشيح لمجلس خبراء القيادة، أي هو الذي يعطي رخصة الترشيح لخوض انتخابات مجلس القيادة، وبالتالي هو الذي يتحكم، بدرجة كبيرة، في تحديد عضوية هذا المجلس.

وهكذا نجد أن عملية صنع القرار السياسي حافلة بدوائر الصراع السياسي بين المرشد والرئيس وبين الرئيس والحكومة من ناحية ومجلس الشورى من ناحية أخرى، وبين مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور، وبين مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور ومجلس تشخيص مصلحة النظام، ثم بين المرشد ومجلس خبراء القيادة. كل هذه الصراعات الفرعية باتت متجمعة الآن في صراع أساسي بين المرشد والمؤسسات التابعة له من ناحية والرئيس والرأي العام والمجتمع المدني الإيراني والمؤسسات المنتخبة من ناحية أخرى.

ومن هنا كان الانحياز والارتباط بين الرئيس وخاصة الرئيس السيد محمد خاتمي والناخب الإيراني في خوض معركة حسم القرار السياسي في مواجهة المرشد ومؤسساته.

لقد أدرك الرئيس خاتمي مبكرا اختلال موازين القوة بينه وبين المرشد على خامنئى لذلك رفض سياسة المجابهة معه وفضل توظيف القدرات الشعبية للحصول على مكاسب من المرشد تمكنه من تحقيق برنامجه الإصلاحي. لقد فضل خاتمي. بعد انتخابه . بواقعية وذكاء وبراعة «سياسة التقارب» بل والتحالف مع المرشد على خامنئى بدلا من الصراع والمجابهة. وكان خاتمي مدفوعا نحو هذا الخيار بعاملين أساسيين. أولهما : وعيه بأن إيران تعيش تحت حكم «مبدأ ولاية الفقيه». ومن ثم فإن أية مواجهة مع المرشد تعنى الصدام مع مبدأ ولاية الفقيه، وبالتالى مع النظام الإسلامى الحاكم كله. وثانيهما: قناعات الرئيس خاتمي وموقعه داخل النظام الإيرانى .

كان خاتمي واعيا بنصوص الدستور الإيرانى ومدركا أن الدستور يعطى للولى الفقيه السلطة العليا فى إصدار أى قرار. فولاية الفقيه التى هى أساس الدستور تعطى للمرشد كل الصلاحيات وتجعل منه الموجه الأساسى للبلاد، وتخضع له أهم المؤسسات بما فيها مجلس الشورى الإسلامى المنتخب (البرلمان). فالولى الفقيه يستطيع رفض مايقرره مجلس الشورى إذا اعتبر ذلك متعارضا مع مبادئ الثورة الإسلامية وتوجهاتها . ولقد كان خاتمي يعرف مقدما أنه لن يستطيع تنفيذ برنامجه للتغيير والإصلاح فعلا ما لم يملك هو السلطة الحقيقية، ومالم يتم بالتالى تقليص صلاحيات الولى الفقيه بحيث يصبح رئيس الجمهورية هو الحاكم فعلا وليس مرشد الجمهورية. ولكن خاتمي امتنع عن خوض معركة ضد ولاية الفقيه خلافا لما يتمنى ناخبوه وأنصاره ، بل إنه عارض علنا دعوات بعض الشخصيات الإيرانية (من أبرزها آية الله حسين منتظرى) لتقليص صلاحيات الولى الفقيه ولم يتدخل لإنقاذ بعض كبار أنصاره ممن تعرضوا لمسألة ضرورة تقليص سلطات الولى الفقيه وإخضاعه لحكم القانون كى لا يبقى أحد فوق القانون (مثل عبد الله نورى وزير الداخلية السابق).



ولقد لعبت قناعات الرئيس خاتمي وموقعه داخل النظام القائم فى إيران دورا مهما فى تحديد أنماط علاقاته مع المرشد والمؤسسات الأخرى. فخاتمي، قبل كل شيء، ابن الجمهورية الإسلامية والثورة الإسلامية، وهو جزء من المؤسسة الدينية والسياسية الحاكمة التى ينتمى إليها خامنئى . وهو لا يريد الانقلاب على النظام الإيرانى أو الإطاحة به، بل يحاول تطويره وإصلاحه من الداخل، بحيث يصبح أكثر انفتاحا وانسجاما مع ضرورات العصر ومقتضياته، وأكثر فاعلية فى معالجة مشاكل الناس المتراكمة . فخاتمي لم يعتمد على الشعب الذى انتخبه لينفذ انقلابا ويطيح بالقيادة الحاكمة أو ليقوم بثورة على الثورة، بل اعتمد على دعم أغلبية الإيرانيين له ولتياره ليحاول ممارسة نوع من الضغوط الخفية على خامنئى والقوى المحافظة لكى تترك له هامشا يتحرك فيه لتنفيذ مشروعه الإصلاحى. فهو على قناعة بأن أفضل طريقة لحماية التجربة الإصلاحية ولمتابعة عملية التغيير فى إيران ، ولو ببطء وبشكل تدريجى ، هى من خلال التقارب والتحالف مع خامنئى . ومن خلال اعتماد الصفقات والمساومات والتسويات مع المحافظين ، وليس من خلال اعتماد الدخول فى مواجهة مباشرة مع خامنئى والقوى المحافظة والسعى إلى تقليص صلاحيات الولى الفقيه. فخاتمي مقتنع بأن النظام الإيرانى قادر على أن يطور ويجدد نفسه بنفسه بفضل أفكاره ومشاريعه الإصلاحية. وهو يريد ان يكون مصدر قوة للنظام من

خاتمي

خلال تطويره وتحسينه وليس مصدر تهديد له عن طريق الدخول في مواجهة مع الولي الفقيه، وزعزعة استقرار النظام من الداخل.

لقد كان خاتمي حريصا كل الحرص على أن يلتقي بالسيد على خامنئي مرشد الجمهورية قبل أن يعلن ترشيح نفسه رسميا في انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٩٧. وفي اللقاء الشهير الذي جمعهما في يناير ١٩٩٧ أبدى خاتمي رغبة في الترشيح للرئاسة لكنه أفصح عن قاعدة استراتيجية في نهجه المستقبلي، وهي أنه إذا تمكن من الفوز بالرئاسة فإنه لن يصطدم بالمرشد «الولي الفقيه». وعلى هذا الأساس عرض خاتمي العناوين الكبرى لبرنامجه والتي باتت معروفة . كالعمل على قيام مجتمع مدني يسوده القانون ، وتترسخ فيه الحريات العامة في إطار خطة حكم شعارها «التنمية السياسية» داخليا و«إزالة التوتر وحوار الحضارات» خارجيا. وصارح خاتمي المرشد وقتذاك قائلا : «إذا لم تكن راضيا عن هذا البرنامج فأنا لست مستعدا لخوض المنافسة الانتخابية الرئاسية لأنني لا أريد مطلقا أن أكون رئيسا للدولة وبرنامجي لا ينسجم مع توجهات الولي الفقيه». وهنا كانت إجابة خامنئي هو «توكل على الله ، فليس لدى تحفظ جذري على هذا البرنامج» .




وبعد فوزه الساحق بأغلبية ٧٠٪ على منافسه القوى على أكبر ناطق نوري رئيس مجلس الشورى (السابق) كان خاتمي ملتزما بهذه القاعدة الاستراتيجية، لكن كان مدركا اختلال توازن القوى مع التيار المنافس لغير صالحه. فقد كان التيار المحافظ هو الأقوى والأكثر تنفذاً في مؤسسات الدولة، وهياكل الإدارة المركزية وغير المركزية وأجهزة النظام. لكن خاتمي نجح في استخدام نقطة قوته الأساسية وهي الدعم الشعبي ، واتبع استراتيجية اعتمدت على النقاط التالية :

- نقل المعركة إلى المجتمع وليس حصرها في المؤسسات الفوقية للدولة. أي الاستقواء بالمجتمع المدني ومؤسساته .
- تدعيم تحالفه الشخصي مع مرشد الجمهورية السيد على خامنئي .
- الحرص على الامتداد الأفقي بتعيين كوادر ومسئولين مؤمنين بالمشروع الخاتمي وملتزمين بتنفيذه في الإدارة والدولة وبالذات دعوة التنمية السياسية.
- الحرص على تحييد كبار «مراجع التقليد» وعلماء الدين في الحوزة الدينية، وعدم الاصطدام بالكبار الذين يؤيدون التيار المحافظ، والتعاون مع حلفائه وأنصاره داخل الحوزة.
- الحرص على كسب المعارك السياسية والاستحقاقات الدستورية الانتخابية، وتأكيد الأبعاد المدنية للمشروع واستبعاد، بل وتفريغ دائم، لأي خيار عسكري أو أمني.
- الانفراج مع العالم الخارجي عن طريق إزالة التوتر في علاقات إيران مع العالم الخارجي (إقليميا وعالميا) وتوظيف هذا الانفراج في العلاقات الخارجية لدعم معركة التغيير والإصلاح في الداخل.

وفي مواجهة هذه السياسات «الخاتمية» استخدم التيار المحافظ المنافس قاعدة الالتزام بالثورة والنظام والدين والدفاع عن مبادئ الثورة معتمدا على قوته المكتسبة، عبر معارك سياسية سابقة في المؤسسات الدستورية، والمغالاة في توظيف المؤسسات الرسمية في المعركة ضد الرئيس وتيار الإصلاح، مما أدى إلى تآكل شعبيته وابتعاده عن الوعي بالقضايا المجتمعية الأساسية، وفي مقدمتها قضية الإصلاح والحرية، التي أصبحت الشغل الشاغل لتيار الإصلاح المساند للرئيس خاتمي (تيار الثاني من خرداد).

وهكذا خاضت إيران معارك الصراع السياسي بين التيارين وفق هذه المعادلة التي تحكمها تعددية مراكز صنع القرار، والتحالف بين المرشد على خامنئي ورئيس الجمهورية محمد خاتمي، وانخراط التيارين المتنافسين في معاركهما السياسية وفق استراتيجية خاتمي واستراتيجية المحافظين. حيث اعتمد الإصلاحيون على الاستقواء بالمجتمع المدني في حين اعتمد المحافظون على القتال بمؤسسات النظام بما فيها القضاء. وهي - أي المعارك - وإن كانت قد تمركزت على الصراع حول «الإصلاح» وبرنامج خاتمي للتنمية السياسية فإنها في الأصل تبقى معركة حسم اختلال موازين القوة بين التيارين لتحسين مواقع كل منهما في عملية المساومة التي تحكم صنع القرار .

وقد شهد عام ٢٠٠٠ على سبيل المثال مجموعة من المعارك السياسية بين التيارين كانت أقرب إلى الحرب أو كادت أن تكون حربا بينهما. كان من أبرز هذه المعارك : معركة انتخابات مجلس الشورى وما أسفرت عنه من نتائج، ثم معركة الصحافة، ومعركة الاغتيالات والعنف السياسي ، ثم احتدام معارك الصراع بين المؤسسات .

خاتمي

١ ـ معركة انتخابات مجلس الشورى

مرت السنوات الثلاث الأولى من حكم الرئيس خاتمي (٩٧ ـ ١٩٩٩) صعبة ومريرة بسبب سيطرة التيار الإصلاحي على مجلس الشورى حيث لم تنقطع المواجهات بين الحكومة والبرلمان، وجاءت معركة الانتخابات البرلمانية فرصة أمام الرئيس ليدعو الشعب إلى تكرار ملحمة الثاني من خرداد (ملحمة انتخابه رئيسا). وبالفعل استطاعت صناديق الاقتراع أن تزيح الرؤوس الكبيرة للتيار المحافظ وأن تدفع إلى الواجهة بوجوه جديدة. واستطاع الإصلاحيون الفوز في الانتخابات التي أجريت يوم ١٨ فبراير ٢٠٠٠ بـ ١٤٣ من أصل ١٨٥ مقعداً تم حسمها خلال الدورة الأولى، وفي دورة الإعادة التي أجريت يوم الخامس من مايو ٢٠٠٠ فاز الإصلاحيون بـ ٤٦ من أصل ٦٦ مقعداً، وبذلك بلغ عدد مقاعد الإصلاحيين ١٨٩ من أصل ٢٩٠ مقعداً هي إجمالي عدد مقاعد مجلس الشورى قبل تدخل لجنة الانتخابات بإلغاء بعض النتائج حيث تم اعتماد نتيجة ٢٧٩ مرشحاً فائزاً من إجمالي الـ ٢٩٠ الذين أعلن فوزهم في انتخابات مجلس الشورى الإسلامي السادس.

لكن على الرغم من فوز الإصلاحيين بما يعادل ٦٩٪ من مقاعد البرلمان فإن الأعضاء انقسموا بين ١٨ حزباً وتجمعاً تحت الاسم الكبير لجبهة الثاني من خرداد من أهمها: جبهة المشاركة (التي شكلها حديثاً أنصار الرئيس خاتمي ويترأسها شقيقه رضا خاتمي وتضم في صفوفها منظمة مجاهدي الثورة الإسلامية برئاسة بهزاد نبوي) وتجمع العلماء المناضلين (روحانيات مبارز) بزعامة مهدي كروبي، ثم كوادر البناء (المؤيدة للرئيس السابق هاشمي رفسنجاني). وقد انفرط عقد تجمع جبهة الثاني من خرداد قبيل الانتخابات بسبب الموقف الرافض من رموز وكوادر جبهة المشاركة لترشيح رفسنجاني نفسه في هذه الانتخابات خشية أن يشجعه فوزه للسعي إلى ترؤس المجلس، مما أدى إلى ابتعاد كوادر البناء عن الجبهة، ثم انكشف الأمر كثيراً في التصويت لرئاسة مجلس الشورى. فقد تبين أن حزب جبهة المشاركة لا يملك من النواب المنتظمين في إطار برنامجه سوى ٨٠ نائباً وهم أقلية فاعلة لكن ليست حاسمة. ومن ثم فإذا كان المفترض أن الإصلاحيين لهم الغلبة واليد الطولى في السلطتين التنفيذية والتشريعية بعد انتخابات مجلس الشورى فإن هذا الافتراض يبقى رهنا باستمرار تماسك جبهة الثاني من خرداد من ناحية، واستمرار قدرتهم على الاحتفاظ بالدعم الجماهيري من ناحية أخرى، وهذا لن يتأتى إلا بالقدرة على التعبير والإنجاز في مجالات القضايا الشعبية (الاقتصاد والديمقراطية). كما أنه يرتبط باستمرار التيار المحافظ وبالذات رابطة رجال الدين المناضلين (روحانيات مبارز) وجمعية المؤتلفة الإسلامية في الاستقواء بما تسيطر عليه من مؤسسات رسمية والصدام مع الطموحات الشعبية في الإصلاح.

٢ ـ معركة حرية الصحافة

سبقت معركة التيارين الإصلاحي والمحافظ حول حرية الصحافة كمرتكز أساسي للمشروع الإصلاحي معركة انتخابات مجلس الشورى، حيث لعبت الصحافة الإصلاحية الدور الأساسي في تشويه موقف المحافظين ومناصريهم وفي مقدمتهم الرئيس رفسنجاني، بعد أن وضعه المحافظون على رأس قائمتهم الانتخابية في طهران. لقد كان الهم الأكبر للصحافة الإصلاحية هو إسقاط المحافظين كي يكون النجاح مزدوجاً، الفوز للإصلاحيين وإظهار ضعف المحافظين.

وبعد فوز الإصلاحيين بأغلبية كبيرة في مجلس الشورى انقسمت رؤية الإصلاحيين إلى قسمين:

- الأول : رؤية الجناح القريب من الرئيس خاتمي في جبهة المشاركة ورابطة علماء الدين المناضلين. وكانت هذه الرؤية تفهم الفوز في الانتخابات على أنه مبايعة جديدة من الشعب للنظام الإسلامي ولولاية الفقيه ممثلة بالمرشد على خامنئي. وكان الرئيس خاتمي شخصيا وراء هذه الرؤية والترويج لها.
- الثانية : كانت على العكس ترى أن نتائج الانتخابات وسقوط أسهم رفسنجاني تحمل رسالة إلى من هم أكبر منه ولا يجرؤون على النزول إلى ساحة الرأي العام «كي يدركوا حجمهم الشعبي». ومن ثم يجب كشف هشاشة كل هؤلاء وخوض المعركة معهم إلى أبعد مدى، أي إلى فتح ملف سلطات واختصاصات الولي الفقيه. وقاد هذا التوجه بعض أطياف التيار الإصلاحي، وخصوصاً صحيفة «الفتح» التي ولدت من رحم صحيفة «خرداد» التي كان

عقب تقديم أوراق ترشيحه لم يستطع خاتمي أن يمنع تدفق الدموع من عينيه وهو يعترف بصحة تردده عن تجديد ولايته ، وبكى ثانية وهو يؤكد أنه بذل كل جهد ممكن للبقاء على العهد الذي قطعه للشعب خلال ولايته الأولى

يديرها وزير الداخلية السابق عبدالله نوري قبل الحكم عليه بالسجن وإغلاقها بتهم ممارسة النشاط ضد النظام. وكانت الصحافة هي السلاح القوي في يد هذا التيار مما عجل بدفع التيار المحافظ إلى الدخول بقوة إلى ساحة المواجهة مع الصحافة ورموزها من السياسيين، بعد أن دعا بعضها إلى إعادة النظر في بعض الأحكام الإسلامية التي لاتتماشى مع حقوق الإنسان مثل حكم الإعدام (مقالة الصحفي عماد الدين باقي وتمت محاكمته بسببها).



هنا بالتحديد ظهرت قراءتان لهذا الواقع الجديد من جانب المحافظين:

الأولى: تحذر من مغبة الاستمرار في التعاطي «الديمقراطي» مع ما يجري على الأرض في إيران والقبول بقواعد اللعبة الانتخابية. أصحاب هذه القراءة كانوا على ثقة بأن فوز الإصلاحيين في انتخابات مجلس الشورى ونهج الصحافة الإصلاحية «المنفلت» لن يكون على حساب المحافظين فقط بل على حساب النظام بكامله. وهؤلاء كانوا مقتنعين بأن وجود خاتمي «المتعقل» و«رجل الدولة» مؤقت ولن يستمر طويلا، وأن التيار الإصلاحي سوف ينشط في مطالبه ومحاولته لتغيير كل الضوابط والمعايير، ولن ينتهي إلا وقد عدّل الدستور لتقليص صلاحيات «الولي الفقيه» تمهيداً لإلغاء الموقع نفسه. ثم القضاء على الهوية الإسلامية للنظام في الجمهورية الإسلامية. ورأى هؤلاء أن موقف خاتمي أمام هذه التطورات المحتملة لن يخرج عن أمرين: إما الاستجابة لـ «شطط» هؤلاء من الإصلاحيين، وإما التنحي لبديل أكثر ليبرالية. ومن ثم لا يرى أصحاب هذه القراءة من المحافظين من حل سوى تصعيد المجابهة بالعنف والقوة والضغط المستمر على الإصلاحيين، واستخدام كل الوسائل لضبط والقضاء على هذا الخطر.

الثانية: يرى أصحابها أن الأمر ليس بهذه الخطورة وأن مكاسب الإصلاحيين جاءت بسبب عجز وضعف المحافظين، ولذلك فهم ينصحون بمراجعة النهج والخطاب والأفكار والسياسات في اتجاه التأقلم مع الواقع الجديد، ودراسة وفهم أسباب ما جرى وسبل المعالجة بما يحول دون المواجهة واستنزاف الطاقات والقدرات.

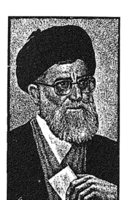
بين هاتين القراءتين كانت هناك اتجاهات وتباينات ركزت على خوض معركة شرسة ضد الصحافة باللجوء إلى دعم مرشد الجمهورية على خامنئي وجهاز القضاء، لكن البعض فضل تصعيد المواجهة باستخدام العنف المسلح. وأخذت المواجهة مع الصحافة طريقين: أولهما: قانون الصحافة بدعم من مرشد الثورة. وثانيهما: استخدام القضاء لإغلاق الصحف، والمجلات غير المرغوبة وإصدار أحكام بالسجن على عدد من الكتاب والصحفيين ممن تورطوا في مواجهة مع المحافظين والقيم والمبادىء الإسلامية التي تحكم النظام الإسلامي في إيران.

أ. قانون الصحافة والمطبوعات

أخذ المحافظون المبادرة عقب الجولة الأولى من انتخابات مجلس الشورى واستغلوا سيطرتهم على المجلس القائم (المجلس الخامس) فأقروا في ١٧ أبريل ٢٠٠٠ (أي قبل أسابيع من انتهاء ولاية المجلس ومجيء المجلس الإصلاحي) بنود «جديدة في مشروع قانون المطبوعات تحرم معارضي النظام من ممارسة أي نشاط صحفي. ومن بين ما تمت إضافته من بنود للقانون: «يمنع منعاً باتاً تحت أي ظرف وبأي شكل على أعضاء ومناصري المجموعات المعادية للثورة، أو التنظيمات السياسية غير الشرعية ومن صدرت بحقهم أحكام من المحاكم الثورية العمل في أي مطبوعة، ويجب أن يحظى أولاً بموافقة وزارات الاستخبارات والعمل والأمن». وهذه الوزارات تحت سيطرة المحافظين. كما أدخل المجلس في إطار القانون نفسه تعديلاً على تشكيل لجنة الصحافة في المجلس، وشدد على أن يكون من «المخلصين للثورة الإسلامية». وأوضح التعديل أن «قرارات اللجنة في مجال النشاطات الصحفية لا تقبل المراجعة». كما منع التعديل نشر أية موضوعات تنتقد الدستور.

جاء هذا التعديل في أعقاب تحذير وجهه الحرس الثوري (الباسدران) إلى الصحافة الإصلاحية، وندد بالذين يدافعون عن الإصلاحات على الطريقة الأمريكية، والصحف التي «تنتهك القيم والمبادىء الإسلامية».

وعقب ممارسة مجلس الشورى الجديد مهامه طرحت فكرة مناقشة موضوع تعديل قانون الصحافة والمطبوعات في بداية الدورة البرلمانية، ولكن المرشد على خامنئي طلب تأجيل تلك المناقشة وعدم طرح التعديلات وتم التأجيل بالفعل في هدوء ودون إعلان، لكن احتدام المواجهة خارج المجلس من الصحافة المحافظة والصحافة الإصلاحية، وغلبة التيار الداعم لتصعيد المواجهة بين المحافظين والإصلاحيين، أعدت مجموعة من أعضاء المجلس من الإصلاحيين مشروع قانون بتعديل قانون الصحافة والمطبوعات خشية أن يتحول التأجيل الذي طلبه المرشد إلى استبعاد، فقدموا المشروع الجديد مما دفع المرشد إلى أن يبعث بخطاب إلى رئيس المجلس مهدي كروبي يطلب فيه سحب المشروع المعروض مما أثار استياء داخل المجلس. وطالب النواب بضرورة قراءة خطاب خامنئي الذي أنهى الجدل حول تعديلات القانون مما اضطر مهدي كروبي إلى الاستجابة وقرأ الخطاب الذي جاء فيه: «أن صحافة البلاد تصنع الأفكار العامة وتمنح الهمة والإرادة للشعب، ولو سيطر أعداء الإسلام والثورة والنظام الإسلامي على الصحافة، أو نفذوا إليها، فسيكون ذلك خطراً كبيراً يهدد أمن الشعب وإيمانه ووحدته، ولا أعتقد أنه من الجائز صمتكم والعاملين معكم على هذا الأمر المصيري. إن القانون المعمول به حاليا قدر استطاعته يمنع ظهور هذه الآفة الكبرى، والتعديلات التي اقترحت في لجنة المجلس ليست مشروعة وفي غير مصلحة الدولة والنظام».



خامنئي

ب. إغلاق الصحف

دفع هذا التدخل من جانب خامنئي بالصحافة الإصلاحية إلى التوجه نحو تصعيد المواجهة، ودفعت بالتصعيد إلى فتح ملف «ولاية الفقيه». فقد أعادت هذه الصحف طرح مجموعة من الأسئلة الجوهرية من قبيل: هل الولاية مطلقة أم نسبية؟ وهل الفقيه فوق القانون، وهل يمثل الأمة أم أنه يمثل قوى غيبية غير مرئية؟ ومن أين يستمد سلطته من الشعب أم من الله؟

ومع هذا التصعيد لجأ المحافظون إلى القضاء كسلاح لمواجهة الإصلاحيين وصحافتهم، فصدرت قرارات وأحكام بإغلاق أكثر من عشرين صحيفة يومية ومجلة أسبوعية وشهرية، خصوصا بعد أن رفض وزير الثقافة والإرشاد عطاء الله مهاجراني التدخل لوقف هذه الصحف وقوله «لو خُيّرت بين إقفال الصحف أو الاستقالة فسأختار الاستقالة». وكانت استقالته مطلباً دائماً للمحافظين، لكن الرئيس خاتمي كان يدافع عنه، لكنه اضطر في النهاية إلى قبول استقالته كوزير لكنه احتفظ به إلى جانبه مستشاراً لشئون حوار الحضارات، وعين بدلاً منه كوزير للثقافة أحمد مسجد جامعي الذي كان يعمل نائباً لمهاجراني للشئون الثقافية.



وتبريراً لقرارات وأحكام إغلاق الصحف قال المرشد على خامنئي «إن عناصر الصحافة تحولت إلى قواعد للعدو»، وأنها «دأبت على نشر مواد تحط من قدر الإسلام وما تدعو إليه الثورة الإسلامية، وأن هناك دلائل تؤكد وجود عملاء للعدو داخل وسائل الإعلام»، لكن الرئيس خاتمي مع حرصه على ضبط النفس كان له رأي آخر مختلف على قرارات إغلاق الصحف واعتقال عدد من الكتاب والصحفيين حيث قال في مقابلة إذاعية وتليفزيونية مساء ٢١ أغسطس ٢٠٠٠: «إن الوسائل التي استخدمها القضاء لإغلاق الصحف غير مقبولة»، وأكد أنه سيظل وفيا للشعارات والبرامج التي أعلن عنها خلال حملته الانتخابية قبل ثلاث سنوات، وأكد أنه يجب تطبيق القانون والعمل في نطاق الدستور الذي يسمح بحرية الكتابة ومزاولة العمل السياسي.

وجاءت مشاركة عدد من الشخصيات الإصلاحية في مؤتمر عقد في برلين حول «مستقبل الحركة الإصلاحية» ليفتح فصلاً جديداً من المواجهة المستمرة. إذ اعتبر المحافظون المؤتمر الذي عقد بين ٧ ـ ٨ أبريل ٢٠٠٠ كان «مؤامرة ضد النظام». ومما أثار حفيظة المحافظين وغضبهم الذي انتقل إلى الشارع في تظاهرات كبيرة هو وجود شريط فيديو للحفل أظهر حدوث رقص وخلع ملابس في هذا المؤتمر من بعض معارضي النظام، وهم إيرانيون ينتمون إلى منظمة «مجاهدي خلق» المحظورة، وغيرها من قوى المعارضة في الخارج التي تدعو إلى إسقاط النظام، وإلى فصل الدين عن الدولة في إيران. مما أدى إلى تحرك القضاء على مستوى المحاكم الثورية حيث تم تقديم عدد من قادة الإصلاح ممن شاركوا في هذا المؤتمر للمحاكمة مثل عزت الله سحابي أحد أبرز وجوه التيار الليبرالي، ورجل الدين الإصلاحي حسن يوسف أشكوري وجميلة كديور النائبة في البرلمان زوجة وزير الثقافة عطاء الله مهاجراني، والمفكر والكاتب الصحفي على أكبر غنجي وغيرهم. وقد تجددت حملة الاعتقالات ضد المعارضين وبالذات من التيار القومي

أدرك الرئيس خاتمي مبكرا اختلال موازين القوة بينه وبين المرشد على خامنئي، لذلك رفض سياسة المجابهة معه وفضل توظيف القدرات الشعبية للحصول على مكاسب من المرشد تمكنه من تحقيق برنامجه الإصلاحي

والليبرالي والتقدمي ووجهت لبعضهم تهم خطيرة أبرزها «التخطيط لمؤامرة ضد النظام»، اعتقل بعضهم من منزل محمد بستيهنيغار يوم الأحد ١١ مارس ٢٠٠١. وكان حجة الإسلام علي مبشري رئيس محاكم الثورة في طهران أعلن يوم الثلاثاء ١٣ مارس ٢٠٠١ أن أولئك الأشخاص كانوا يسعون إلى تدبير مؤامرة ضد النظام ويخططون لتحركات من أجل إثارة الرأي العام وتجمعات استفزازية.

وتكتسب هذه الاعتقالات أهميتها من كونها تأتي في فترة استنفار صعبة للتيارين المحافظ والإصلاحي وهما على شفا خوض معركة انتخابات الرئاسة. ويؤكد هذه الأهمية توجه عائلات المعتقلين للرئيس خاتمي بالتدخل لوقف هذه الحملة والتدخل لإطلاق سراحهم مؤكدة أن هذه الاعتقالات من شأنها «أن تطوى صفحة الإصلاحات».

٣ـ معركة الاغتيالات والعنف السياسي

عاد ملف الاغتيالات بقوة عندما تعمد علي أكبر غنجي تفجير هذه القضية مجدداً في جلسات محاكمته أمام المحكمة الثورية في طهران بتهم كثيرة عقب ندوة برلين المشار إليها أبرزها الإساءة إلى الأمن القومي. فقد وجه غنجي اتهامات إلى شخصيات محافظة بالتورط في عمليات الاغتيالات التي تفجرت منذ عام ١٩٩٨، منهم علي فلاحيان ودري نجف أبادي وزيرا الاستخبارات السابقان. وكان القضاء العسكري قد استدعى دري نجف أبادي للتحقيق معه أكثر من مرة، ثم أصدر قراراً بوقف أي ملاحقة له بعد توصله إلى قناعة بعدم تورطه في إصدار أية أوامر للمتورطين في عمليات الاغتيالات.

وقد أثارت هذه الاتهامات أهمية كبيرة للقضية المعروضة أمام القضاء العسكري خصوصاً أن القتلة والمخططين مسئولون كبار في أخطر وزارة وهي وزارة الاستخبارات، الذين تم كشف تورطهم بعدما أصر الرئيس خاتمي على استئصال ما أسماه بـ «الورم السرطاني» في هذه الوزارة، وأيده في ذلك مرشد الجمهورية علي خامنئي.

وفي ٢٧ يناير ٢٠٠١ أصدر القضاء العسكري أحكاماً قاسية بحق المتهمين باغتيال أربعة من المعارضين القوميين والليبراليين عام ١٩٩٨. فقد حكم على ثلاثة بالإعدام هم منفذو الاغتيالات والسجن المؤبد لخمسة عشر من مسئولي وزارة الاستخبارات. وكان الرأس المدبر لهذه الاغتيالات سعيد أمامي المحسوب على التيار المحافظ قد انتحر في سجنه عام ١٩٩٩، أما مساعده مصطفى كاظمي فقد حكم عليه بالسجن المؤبد أربع مرات مع غيره ممن شملهم هذا الحكم.




وشهد عام ٢٠٠٠ محاكمة المتهمين من رجال الشرطة باقتحام الحرم الجامعي في طهران في يوليو ١٩٩٩، وصدرت أحكام بتبرئة معظم المتهمين وعلى رأسهم الجنرال فرهاد نظري القائد السابق لشرطة العاصمة مما أثار استياء في أوساط الإصلاحيين وخاصة في مجلس الشورى (البرلمان) حيث تجدد الخلاف حول مدى وقيود تدخل الشرطة والأجهزة الأمنية الأخرى في الحرم الجامعي. وكانت الذكرى الأولى لاقتحام الشرطة الحرم الجامعي مناسبة لتجديد الصدامات في طهران بين مناصري التيارين المحافظ والإصلاحي، ولم يكن ما حدث في مدينة خرم أباد عاصمة إقليم لرستان في الأسبوع الأخير من شهر أغسطس بعيداً عن هذا التوتر الطلابي المقترن بالعنف السياسي.

خاتمي

وقد مثلت أحداث خرم أباد جولة جديدة من الصراع بين التيارين فبعد هزيمة الإصلاحيين في ملف أحداث المدينة الجامعية ومعركة حرية الصحافة ردوا باستصدار قانون يمنع دخول الشرطة إلى الجامعات (لم يتعرض القانون إلى قوى الأمن والاستخبارات الأخرى). وجاءت أحداث خرم أباد لتعيد المواجهة من جانب المحافظين حيث تصدوا لأنصار حزب تدعيم الوحدة (تنظيم حزبي طلابي مثل اليسار التقليدي حتى بداية التسعينيات ثم أخذ يعدل مواقفه وبرامجه ليصبح نموذجا لليسار الجديد)، وحالوا دون إنجاح معسكرهم بمدينة خرم أباد، حيث تصدوا بالقوة لأنصار الحزب ولرجال الشرطة ومنعوا كلا من الدكتور عبدالكريم سورش المفكر الإصلاحي الشهير وحجة الإسلام الدكتور محسن كديور صاحب المؤلفات الجريئة والشهيرة عن ولاية الفقيه، من دخول المدينة لإلقاء محاضرات في معسكر حزب تدعيم الوحدة، ثم اعتدوا على محافظ إقليم لرستان أثناء تشييعه لجنازة شهيد الشرطة الذي قتل في المواجهات التي شنها المتمردون.

وكانت جبهة المشاركة قد أعلنت في بيانها الصادر في ٢٧ أغسطس أن الأحداث الأخيرة في خرم أباد أحداث مدبرة من معارضي الإصلاح. وجاء في البيان: «أن ما حدث في خرم أباد يعبر، للأسف، عن أن عصابات مافيا السلطة عادت مرة أخرى لخلق الأزمات»، واعتبرت جبهة المشاركة أن الهدف من خلق الأزمة هو «إشاعة الشعور باليأس من عملية الإصلاحات وسيادة القانون، من خلال نشر العنف والتطرف في المحيط السياسي للمجتمع».

وفي ١٥ مارس ٢٠٠١ أصدرت محكمة خرم أباد أحكاماً بالسجن لمدة خمس سنوات على ستة أشخاص كما أصدرت أحكاماً على ١١٠ أشخاص تراوحت بين السجن لمدة شهر والغرامة ٧٠ دولاراً.

٤ـ معركة صراع الأجهزة

تعتبر المعركة الدائرة بين الأجهزة الرسمية في الدولة حول الإصلاحات من أهم المعارك التي ستحسم مستقبل الجمهورية الإسلامية في إيران حيث يتم توظيف هذه الأجهزة لتصفية الحسابات بين تياري الإصلاحيين والمحافظين بما يعوقها دون أداء المهام الوطنية الموكولة إليها.

فكما استخدم الإصلاحيون الصحافة كوسيلة لتشويه مواقف وسياسات المحافظين والنيل منهم، استخدم المحافظون جهاز القضاء لتصفية دور الصحافة، إما بالاعتقال والمحاكمة للكتاب والمفكرين والصحفيين، وإما بإغلاق الصحف والمجلات، كذلك استخدم المحافظون مجلس الشورى (البرلمان) لإصدار تشريعات تحقق برنامجهم الإصلاحي بما لا يتوافق مع مواقف المحافظين، الذين ردوا باستخدام مجلس صيانة الدستور كخطوة أولى لرفض أي تشريع لا يوافقون عليه تحت زعم التعارض مع القيم الإسلامية ومبادئ الجمهورية الإسلامية، أو اللجوء إلى مجمع تشخيص مصلحة النظام كخطوة ثانية لحسم الموقف لصالحهم قبل اللجوء إلى مرشد الجمهورية علي خامنئي كخطوة أخيرة. وجاء تدخل وزارة الاستخبارات من ناحية والحرس الثوري من ناحية أخرى لدعم المحافظين ضد الإصلاحيين ليخدم ليس فقط تصفية الحسابات بين تيارين ينتميان إلى الجمهورية الإسلامية، بل ويدفع باتجاه انتكاسة تجربة الحكم الإسلامي كلها في إيران، مما دفع بالكثيرين إلى التحذير من سوء عاقبة التمادي في كل هذه المواجهات بين مؤسسات وأجهزة الدولة على نحو ما جاء على لسان أبوالفضل شاكوري عضو مجلس الشورى عندما أعلن أمام المجلس أن «الأزمة وصلت إلى ذروتها»، وإذا استمر ذلك «فمركب الثورة قد يغرق بإصلاحييه ومحافظيه». كما انضم مهدي كروبي رئيس مجلس الشورى إلى قائمة الداعين إلى «وقف إطلاق النار السياسي، ووقف الاتهامات المتبادلة بين الأطراف المتنافسة في الساحة الإيرانية».

وقد احتدمت المواجهة في الأشهر الأخيرة من عام ٢٠٠٠ مع ظهور مؤشرات معركة الترشيح لانتخابات رئاسة الجمهورية حيث تعمد المحافظون توجيه ضربات موجعة للإصلاحيين عن طريق توظيف الأجهزة والمؤسسات التي يسيطرون عليها لإضعاف الرئيس خاتمي ومحاصرته وربما دفعه للتخلي عن فكرة تجديد الترشيح للانتخابات الرئاسية في يونيو القادم.

فعقب نجاح تيار الإصلاحيين بمجلس الشورى في إصدار تشريع يحظر دخول رجال الشرطة والقوى الأمنية حرم الجامعات ومعاهد التعليم العالي وبيوت مراجع التقليد الديني والحوزات الدينية، تصدى مجلس صيانة الدستور لهذا التشريع ورفضه باعتباره «مخالفاً للدستور» معتبراً أنه «يعرض للخطر أمن طلاب الجامعات ورجال الدين». كما انحاز مجمع تشخيص مصلحة النظام إلى مجلس صيانة الدستور ورفض كل المواد «التقدمية» في مشروع الموازنة الجديد الذي قدمه مجلس الشورى باعتبار أن هذه المواد مناهضة للإسلام والدستور. في الوقت نفسه استخدم الإصلاحيون مجلس الشورى لمحاصرة دور جهاز القضاء عندما أعلن مهدي كروبي رئيس المجلس رفض منح القضاء سلطة القيام بملاحقات قضائية ضد النواب أو استدعائهم أمام المحاكم. وقال كروبي: «إننا نطالب بأن يمر أي تحرك قضائي ضد النواب أو أي استدعاء لهم عبر مجلس الشورى. وكان مجلس النواب قد انتقد على لسان رئيسه مهدي كروبي كلا من مجلس صيانة الدستور ومجمع تشخيص مصلحة النظام. فقد انتقد كروبي آية الله جنتي أمين مجلس صيانة الدستور على قوله: «إن النواب يفقدون تمثيلهم للشعب في حال أقدموا على طرح مشروع يتناقض مع الإسلام ويكون مخالفاً للشرع الإسلامي». وقال كروبي «إن مجلس الشورى لا يقوم بأي عمل

عرض خاتمي العناوين الكبرى لبرنامجه والتي باتت معروفة، كالعمل على قيام مجتمع مدني يسوده القانون، وتترسخ فيه الحريات العامة في إطار خطة حكم شعارها «التنمية السياسية» داخليا و«إزالة التوتر وحوار الحضارات» خارجيا



يخالف الشرع الإسلامى»، ودافع عن دور النواب قائلاً: «إن الدستور كفل لهم حرية إبداء آرائهم فى كل القضايا التى تخص البلاد. كما حمل كروبى على مجلس صيانة الدستور بسبب رفض الأخير مشروع قانون يخفف القيود على الصحافة وقال فى كلمة افتتح بها جلسة للمجلس: «ليس هكذا ندافع عن المرشد الأعلى أو الإسلام أو النظام».

وامتدت المواجهة إلى مطاردة القضاء لرجال خاتمى فبعد نجاحهم فى إبعاد عبدالله نورى وزير الداخلية السابق ومحاكمته وسجنه، أجبر الرئيس خاتمى على قبول استقالة وزير الثقافة عطاء الله مهاجرانى، ولم يشفع ذلك لمهاجرانى حيث يؤكد القضاء على أن الملف المالى له لايزال مفتوحاً ولم يقفل مما يعنى احتمال محاكمته. وامتدت المطاردة لوزير الداخلية الحالى حجة الإسلام موسوى لارى ونائبه مصطفى تاج زاده الذى حكم عليه بالسجن لمدة عام ومنعه خلال ٣٩ شهرا من تولى أى منصب عام وحرمانه لمدة ست سنوات من حقوقه المدنية لاتهامه بالتورط فى تزوير الانتخابات البرلمانية لمحافظة طهران. وقد رفض الوزير الحكم وأعلن أن تاج زاده «سيبقى فى منصبه وليس وارداً استبداله، وليس هناك من يحل محله فى تنظيم العملية الانتخابية المقبلة»، ويقصد انتخابات رئاسة الجمهورية. وربما بسبب هذا الموقف للوزير أعلن قصر العدل أن ملف وزير الداخلية أرسل إلى النيابة العامة للمحكمة الدينية الخاصة «وهى الهيئة القضائية المكلفة بمحاكمة رجال الدين، فى الوقت نفسه رفض رئيس لجنة الأمن القومى والسياسة الخارجية بمجلس الشورى محسن ميرد امادى المثول أمام محكمة الثورة، الأمر الذى يعنى احتمال إصدار مذكرة جلب لاعتقاله إذا أصر على موقفه. هذه المحاكمة سبقه إليها عزت الله سحابى أحد رموز التيار الليبرالى الذى اعتقل مساء ١٧ ديسمبر ٢٠٠٠ بتهمة الإساءة إلى المرشد الأعلى. وجاء قرار حظر «حركة تحرير إيران» النشطة فى صفوف التيار الإصلاحى وإغلاق أربع صحف فى ١٨ مارس ٢٠٠١، ليكشف أن الصراع فى إيران بين المحافظين والإصلاحيين دخل مرحلة جديدة وخطيرة من التصعيد، وبات مفتوحاً على كل الاحتمالات مع انخراط التيارين فى معركة انتخابات رئاسة الجمهورية.

ثانيا : معركة انتخابات رئاسة الجمهورية ومستقبل الخاتمية

كانت تلك المواجهة كافية لدفع الرئيس محمد خاتمى لفتح ملف صلاحيات رئيس الجمهورية مما أدى إلى تسريع الخوض فى معركة الرئاسة مبكراً وإثارة التساؤلات حول مستقبل الإصلاح فى ظل النتائج المحتملة لتلك المعركة التى بدت ساخنة منذ الوهلة الأولى.

فخلال الاجتماع السنوى الثالث للجنة «المتابعة والرقابة على تطبيق الدستور» والذى عقد فى ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٠ تعمد الرئيس خاتمى فتح ملف صلاحيات رئيس الجمهورية عندما قال: «إن رئيس الجمهورية استناداً إلى اليمين الدستورية التى أقسم عليها يتولى مهمة شرعية وتعهداً إلهياً وقوميا بحماية الدستور، وذلك جنباً إلى جنب مع حفظ

خامنئى

الاستقلال والحرية وحراسة الحدود». واستطرد خاتمى قائلاً أنه واستناداً إلى هذا الأمر «فإننى أعلن أنه بعد قضاء ثلاث سنوات ونصف السنة فى منصب رئاسة الجمهورية ليس لدى السلطة الكافية ـ حتى الآن ـ لتنفيذ هذه الوظيفة». وحتى لا يؤخذ عليه أى اتهام بالتقصير أو التهاون قال: «أعترف أمامكم أننى لم أقدم للشعب تقريراً وافياً وجامعاً. لكننى رفعت تقريراً، بهذا الصدد، إلى المرشد وإلى مجلس الشورى الإسلامى. على أن السبب الذى منعنى من تقديم تقرير للشعب هو الرغبة فى حفظ الهدوء القائم فى المجتمع، والحيلولة دون وقوع صدامات ومواجهات. مع التأكيد على أن نقض الدستور الذى حدث بشأن بعض النقاط لم يكن عن سوء نية، ولكن حدث بسبب الاختلافات القائمة فى وجهات النظر. لذلك فسوف أقدم تقريراً شاملاً للشعب فى نهاية فترة الرئاسة الحالية حول الجهود التى اتخذت فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومن جملتها الجهود الخاصة بتنفيذ الدستور».

فور إعلان هذه التصريحات انفجرت موجة من الانتقادات من جانب رموز التيار المحافظ. ركز بعضها على توقيت الإعلان وركز البعض الآخر على المضمون. فقد رأوا أن التوقيت يعنى فتح ملف الانتخابات الرئاسية وأن الرئيس خاتمى يريد أن يفتح الجدل مبكراً حول انتخابات الرئاسة من خلال التساؤل عن مدى احتمالية رفض خاتمى تجديد ولايته الرئاسية، أما من ناحية المضمون فقد كان واضحاً أن خاتمى يهدف أولاً إلى تبرئة نفسه من أى قصور قد يتهم به عندما يعرض نفسه للترشيح إلى انتخابات الرئاسة حيث سيكون المسئول فى هذه الحالة هو الإطار الدستورى نفسه. كما أنه يهدف ثانياً إلى تعديل الدستور لإعطاء الرئيس صلاحيات جديدة تمكنه من تحقيق برنامجه الإصلاحى، وهى صلاحيات اعتبروا أنها ستكون على حساب صلاحيات مرشد الجمهورية وإنقاص من سلطات الولى الفقيه. ووصل البعض فى تطرف المطالبة بإلغاء منصب رئيس الجمهورية، واستعادة منصب رئيس الوزراء وتركيز كل السلطات فى يد مرشد الجمهورية. كما دعا أمين عام «جمعية المؤتلفة»، أكبر الأحزاب اليمينية المحافظة حبيب الله عسكر أولادى، الرئيس خاتمى إلى إعلان موقف صريح وواضح من الدستور الراهن ملمحاً بطريقة ذكية تحرج خاتمى أمام نظام ولاية الفقيه، إلى أن خاتمى بتصريحاته كرئيس للبلاد يرمى إلى تعديل الدستور بالشكل الذى يضعف فيه صلاحيات الولى الفقيه.



ومما ضاعف من تحفز المحافظين نحو هذا الموقف الجديد من الرئيس خاتمى قوله أن عدم شنه حربا ضد انتهاكات الدستور لم يكن ضعفاً وإنما حرص على عدم نقل المعركة إلى المجتمع، وإعلان مواجهة مكشوفة، الأمر الذى يعنى، كما قال، أنه عازم فى نهاية فترة رئاسته أن يفتح كل الملفات أمام الشعب ويضع منافسيه فى مواجهة مباشرة مع الرأى العام، ومن ثم يحول دون إمكانية فوز أى منافس محافظ أمامه فى الانتخابات ويتيح له فرص بداية عهد جديد من الإصلاح بآليات أكثر اقتداراً على تنفيذ وحماية الدستور.

لم يكن المحافظون وحدهم الذين استاءوا من تصريحات خاتمى بل وفصائل من الإصلاحيين وخاصة الليبراليين، الذين استاء بعضهم من الغموض الذى يكتنف موقف خاتمى من الترشيح لولاية ثانية، والذين لوح بعضهم الآخر بمرشح بديل لخاتمى، على نحو ما ذكر الناشط السياسى عباس عبدى، وكان من الطلبة الذين احتلوا السفارة الأمريكية فى طهران عام ١٩٧٩، الذى قال: «إن الدستور يمنح الرئيس وظيفة النائب التنفيذى للولى الفقيه، وإذا كان خاتمى يرضى بهذا الدور وهو يتعارض مع ما يؤمن به فعليه ألا يترشح لدورة ثانية». وامتد الأمر إلى مطالبة آخرين بتعديل الدستور الإيرانى بما يتوافق مع مطالب الإصلاح. لذلك حرص الرئيس خاتمى خلال الاحتفال بالذكرى الثانية والعشرين للثورة أن يرد على المتطرفين من التيارين المحافظ والإصلاحى. فقد هاجم غلاة المتطرفين بقوله: «إن جمود الفكر يمثل تهديداً كبيراً للثورة والجمهورية، وأن أصحاب الأفق الضيق والأفكار المظلمة يقفون ضد الشعب». إنهم يضعون القيم الدينية ضد رغبات الشعب، والدين ضد الحرية بصرف النظر عن حقوق المواطنين. إنهم يسعون لكبح الآراء التى لا تتماشى مع آفاقهم الضيقة وآرائهم الظلامية. ونبه خاتمى إلى وجود خطرين، يتمثل الأول بإمكان قيام «قطيعة بين المبادىء الدينية وقيم الاستقلال والحرية»، ويتمثل الثانى بـ«إعطاء صورة سيئة وتفسير ماضوى وشخصى للدين». وأضاف: «يجب ألا يقوم تعارض بين الدين والحرية، أو قمع الحرية باسم الدين، أو قمع الدين باسم الحرية».

وأمام الغموض الذى اكتنف موقف خاتمى من ترشيح نفسه لفترة رئاسية ثانية، وزيادة درجة الاحتقان بين التيارين على نحو ما ظهر فى المظاهرات الطلابية والشبابية وشعاراتها المطالبة بالإصلاح أو عودة الملكية. وجد المحافظون أنفسهم فى الموقف الأكثر صعوبة أمام تصاعد شعبية الرئيس خاتمى كمرشح صعب المنافسة، إذا قرر خوض معركة الانتخابات، مما دفع بعضهم إلى تحبيذ عدم خوض المحافظين معركة الانتخابات بمرشح منافس لخاتمى، فى حين رأى البعض الآخر أن الانسحاب يعد هزيمة مسبقة ومبكرة أكثر إذلالاً وخطورة، لذلك دعوا إلى خوض المنافسة حتى لو كانت بغرض المنافسة ذاتها وليس من أجل الفوز، بينما فضل رأى ثالث الاستمرار فى المواجهة الراهنة مع خاتمى وإجباره على عدم خوض معركة الانتخابات.

ويبدو أن الرئيس خاتمى كان مدركاً لتلك التفاعلات فما كان منه إلا أن بادر بالتلميح إلى جدية عزمه على الترشيح للانتخابات مما وضع المحافظين بين خيارين أحلاهما مُر: إما التراجع عن خوض معركة الرئاسة، أو التورط فى خوض معركة خاسرة. وجاء خطاب الرئيس خاتمى فى مجلس الشورى (١١ مارس ٢٠٠١) ليزيد المواجهة سخونة حيث ألمح إلى احتمال خوض معركة الانتخابات الرئاسية مع عزمه على المضى فى طريق الإصلاح حيث قال «سأقولها صريحة. لست ميالاً للاحتفاظ بأى موقع أو بالسلطة، إلا أنه ليست هناك أية قوة عليها أن تثنينى عن معتقداتى». وأضاف: «سأبقى مادمت أعرف أننى أستطيع أن أتخذ خطوات للأمام ومادام الشعب أرادنى، وسأبقى موالياً للأصوات التى منحها لى».

وأكد خاتمى أن إرادة الشعب والحاجة إلى التغيير دفعتا به إلى سدة الحكم «وإذا ما تجاهلنا تلك الحاجة إلى التغيير سندفع بالمجتمع فى اتجاه سبيل نهاية

أخذت المواجهة مع الصحافة طريقين؛
أولهما: قانون الصحافة بدعم من مرشد الثورة. وثانيهما: استخدام القضاء لإغلاق الصحف، والمجلات غير المرغوبة وإصدار أحكام بالسجن على عدد من الكتاب والصحفيين ممن تورطوا فى مواجهة مع المحافظين



من كتابات حسين فوزى

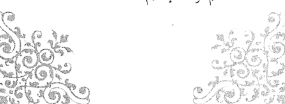
ولد الدكتور حسين فوزى في عام ١٩٠٠ بحى الحسين بالقاهرة. درس الطب ثم حصل علي شهادة العلوم من جامعة السوربون، كما درس علوم البحار والأحياء المائية بجامعة تولوز بفرنسا. تولى عمادة كلية العلوم بجامعة الإسكندرية عام ١٩٤٢. وأسس مع فتحى رضوان وزارة الثقافة في مصر. كما شارك في تأسيس العديد من المعاهد مثل المعهد العالى للفنون المسرحية والباليه والسينما والكونسرفتوار والموسيقى.

وقد أنشأ البرنامج الثانى بالإذاعة المصرية وظل سنوات طويلة يتولى بالشرح والتقديم عرض روائع الموسيقى الكلاسيكية على مستمعى البرنامج الثانى. وتوفى في أغسطس ١٩٨٨. وقد اخترنا بعض المختارات من ٣ كتب صدرت له وهى «سندباد مصرى» و«سندباد إلى العالم الجديد» و«سندباد إلى الغرب».

مصر منبع الفضائل والعلوم

خلاصة التاريخ المصرى منذ نهاية الأسرات حتى مجيء المأمون إلى مصر، أى فى نحو ثلاثة عشر قرنًا، أنه لم يفت فى عضد المصريين اضطهاد ولا ظلم ولا جبروت.

ولا يسع المؤرخ المنصف إلا أن يتابع تصوير المصريين، وقد تحولت غالبيتهم العظمى إلى الإسلام، كشعب حريص على شخصيته، متمسك بعقيدته. وإذا كان المصريون الأقباط قد نسوا تاريخهم الفرعونى، وفقدوا أسرار الكتابة المصرية القديمة، وإذا كان المصريون المسلمون قد نسوا تاريخهم الوثنى والمسيحى، فإن تاريخ مصر الإسلامية الذى يمتد إلى أربعة عشر قرنًا، مؤيد بذاته لحظ المصريين الدائم من الحضارة. فما كان أسرعهم إلى أن يجعلوا من مصر واسطة عقد العروبة، وأن يحولوا الأزهر إلى حصن اللغة الحصين. وحصن السُّنة، الحافظ الأعظم لتراث الإسلام.



أعادت هذه الصحف طرح مجموعة من الأسئلة الجوهرية من قبيل: هل الولاية مطلقة أم نسبية؟ وهل الفقيه فوق القانون، وهل يمثل الأمة أم أنه يمثل قوى غيبية غير مرئية؟ ومن أين يستمد سلطته من الشعب أم من الله؟

محزنة وتدعو للأسف». وأبدى «أسفه» حيال تعليق صدور الصحف منذ عام على يد القضاء داعيا إلى «مواصلة العمل من أجل ديمقراطية دينية »وقال« ليس لدينا أى حل آخر سوى إرساء الديمقراطية فى بلدنا». واعتبر خاتمى أن إيران بإمكانها أن تضمن مستقبلها عبر «عملية تدريجية من الإصلاحات تنفذ بهدوء واعتدال وحكمة وعلى أساس قيم ومرجعيات النظام الإسلامى». وأضاف: «أطلب من كل منكم أن يصمد فى مواجهة هذا التحدى واختيار «طريق الاعتدال» بغية تحقيق الإصلاحات فى إطار الدستور.

كان المتصور بعد ذلك أن يستمر الرئيس فى الإمساك بخيط المبادأة وأن يواصل الطريق الذى افتتحه، لكن على العكس، دخل خاتمى فى دائرة صمت مريب فى حين تولى التيار المحافظ خط الهجوم العنيف ضد تيار الإصلاحيين وضد مشروع خاتمى من خلال التوسع فى عمليات مصادرة الصحف واعتقال الكتاب والسياسيين دون قدرة من الرئيس على حماية رجاله، أو على الأقل، الدفاع عن مشروعه.

وهنا يجدر السؤال: لماذا كان صمت خاتمى؟ ولماذا جمد نشاطه فى إطارمعركة انتخابات الرئاسة للدرجة التى كاد التيار المحافظ أن ينجح فى مخططه الرامى إلى منع الرئيس من تجديد ترشيح نفسه؟

لقد وضع صمت خاتمى وتردده فى الترشيح لانتخابات رئاسة الجمهورية من ناحية وتسخين المحافظين المتشددين المواجهة ضد الإصلاحيين الذين ظهروا فى صورة منقسمة وضعيفة وعاجزة عن الرد أمام آلة التصفية القضائية والأمنية مستقبل الخاتمية كله فى خطر، وبدت الساحة وكأنها قد عادت إلى ما قبل عهد الثانى من خرداد حيث يتسيد الموقف تيار المحافظين وتتشتت جهود الإصلاحيين دون وجود الرمز الذى يبلور نشاطهم ويوحد كلمتهم، ولذلك فإن احتمال عدم خوض خاتمى الانتخابات الرئاسية كان حافزا للمئات وليس للعشرات كى يعدوا أنفسهم للترشيح فى انتخابات الرئاسة. ويبدو أن اهتزاز موقف خاتمى قد وصل بالفعل إلى مداه بدليل أنه على الرغم من تقدمه بأوراق ترشيحه فإن عدد الذين سجلوا أنفسهم فى قائمة المرشحين قبيل إغلاق مكاتب التسجيل أبوابها مساء الأحد ٦ مايو بلغ رقما قياسيا لم يحدث من قبل، إذ وصل العدد إلى ٨١٧ مرشحا، فى حين لم يزد عدد المرشحين فى الانتخابات الرئاسية السابقة (مايو ١٩٩٧) أكثر من ٢٥٠ مرشحا بينهم أعداد كبيرة من المحافظين والإصلاحيين، ومن المستقلين والنساء.

هذه الحالة من عدم اليقين بالنسبة لموقف الرئيس خاتمى تجدد التساؤل عن مستقبل الخاتمية كمشروع حل وسط تاريخى بين تيارى اليمين المحافظ المتشدد واليسار الإصلاحى والليبرالى، وكمشروع مستقبلى لإيران ينطلق من عمق النظام الإسلامى نحو آفاق ما بعد الحداثة والعالمية.

بعض الغموض الذى اكتنف الموقف المتردد والصامت للرئيس خاتمى تكشف فى الزيارة التى قام بها السيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله فى لبنان للسيد على خامنئى مرشد الجمهورية أثناء زيارته للعاصمة الإيرانية ضمن مشاركته فى مؤتمر دعم الانتفاضة الفلسطينية الذى نظمته إيران فى الأسبوع الأخير من أبريل الماضى.

ففى هذا اللقاء طلب حسن نصر الله من خامنئى دعمه لتجديد ترشيح السيد خاتمى لفترة رئاسية ثانية باسم شباب حزب الله «الذين ينتظرون بشوق بالغ إعلان ترشيح الرئيس خاتمى فى الانتخابات باعتباره سياسيا من نوع آخر، جمع بين الديمقراطية والدين، والحرية والأخلاق، والحداثة والتقليد، وأثبت أن تعايش الدين والديمقراطية ممكن، وأن المجتمع المدنى يمكن أن تسوده القيم الأخلاقية والمبادئ الدينية».

كلمات حسن نصر الله كانت بمثابة صرخة فى جو الصمت الذى يغطى كمًا هائلاً من الانفعالات المكبوتة بين مؤسستى المرشد والرئاسة. فالصمت جاء أولا من جانب المرشد على خامنئى على ما يمكن تسميته بمبادرة «عقد سياسى ـ اجتماعى جديد» بين المرشد والرئيس وفق ماجاء فى حديث خاتمى أمام لجنة «المتابعة والرقابة» على تطبيق الدستور« فى ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٠» ، يهدف إلى تمكين الرئيس من القيام بوظائفه فى تنفيذ الدستور بعد الشكوى التى أعلنها الرئيس أمام اللجنة من أنه «بعد انقضاء ثلاث سنوات ونصف السنة فى الرئاسة ليست لديه السلطة الكافية لتنفيذ وظيفته».

كان خاتمى يتوقع مفاتحة المرشد له فى كيفية معالجة الثغرات الموجودة فى الدستور وتعديلها، وفق تجربة حكم خاتمى الأولى، لتمكينه من أداء وظيفته، لكنه لم يفعل، وظل خاتمى فى انتظار مبادرة خامنئى، ولم يشأ أن يتقدم بأوراق ترشيح نفسه لولاية ثانية دون حسم أمر الخلاف القائم حول تفعيل دور الرئيس.

هل تردد خامنئى فى التجاوب مع دعوة خاتمى كان سببها الوشايات التى قام بها عتاة المحافظين المعادين لمشروع الخاتمية والذين

بكاء خاتمي



خاتمي

صوروا دعوة خاتمي على أنها مسعى للانتقاص من اختصاصات وسلطات المرشد لحساب اختصاصات وسلطات الرئيس ؟

ربما ، وقد ساعد الإعلام الغربي طيلة الأشهر الأخيرة في تعميق الفجوة بين الرجلين من خلال تلميع صورة خاتمي على حساب خامنئي ، واستخدم بعض المنافسين لخاتمي ذلك ورقة لتعميق الفجوة بينه وبين المرشد، ولذلك طال انتظار خاتمي، ولم يقطع هذا الانتظار إلا طلب حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله اللبناني مباشرة من خامنئي مساندة ترشيح خاتمي، حيث كان رد المرشد خامنئي على طلب نصر الله إيجابيا وجاء فيه : إن الرئيس خاتمي «مصدر اعتزاز وفخر لنا. إنه الابن البار للثورة والإمام الخميني. وما من شك في أن الشعب سيمنحه ثقته مرة أخرى في الانتخابات المقبلة».

هذه الكلمات حسمت بدرجة كبيرة الموقف ومهدت للقاء شديد الأهمية لم تتكشف تفاصيله بعد بين خامنئي وخاتمي، لكن المهم أن خاتمي خرج من هذه المقابلة ليعلن عزمه على ترشيح نفسه في انتخابات الرئاسة وليذهب في اليوم التالي (الجمعة ٤ مايو) ليتقدم بأوراق ترشيحه .

والآن تبدو الصورة هكذا ..

١ ـ أن خاتمي أصبح مسنوداً ، بدرجة ما، من جانب خامنئي لولاية ثانية.

٢ ـ أن الدعم النسبي والمتأخر جدا من جانب خامنئي لخاتمي يعني ثلاثة أمور :

أولها : أن دعم خامنئي لتيار عتاة المحافظين المتشددين في مواجهة مشروع خاتمي الإصلاحي سيبقى قائما بما يعني استحالة نجاح خاتمي في جعل مشروعه هو المشروع المستقبلي لإيران، ومن ثم فإن الاستقطاب السياسي بين التيارين المحافظ والإصلاحي، ومن ثم القصور في الأداء الحكومي سيبقى سمة غالبة في مرحلة حكم خاتمي القادمة .

ثانيها : أن ربط خاتمي تجديد ترشيحه بلقائه مع خامنئي والحصول على مباركته على غرار ما حدث في الرئاسة الأولى يكشف عن استمرار الخط التوفيقي للرئيس بين تياره الإصلاحي وتوجيهات المرشد واستفزازات المحافظين المتشددين. وهذا سوف يفتح بدوره أبواب الانقسام في صفوف الإصلاحيين ، وسوف يغذى فرص الانشقاق على زعامة خاتمي. وهذا ما حدث بالفعل ومبكرا عندما أقدم إبراهيم أصغر زاده وهو من رموز الإصلاحيين على ترشيح نفسه للرئاسة في مواجهة خاتمي متهما إياه بأنه « ترك أنصاره من دون حماية» وقد فسر أصغر زاده تحفزه للترشيح بأنه جاء في أعقاب سماعه لحديث خاتمي مع الصحفيين عقب التقدم بأوراق ترشيحه حيث كان ذلك سبباً لتأكيد قناعته بضرورة «المشاركة بشكل أكثر جدية في عملية الانتخابات».

ثالثها : أن المحافظين الذين فشلوا في التوافق على شخصية واحدة وقوية من وزن خاتمي (على فلاحيان رئيس الاستخبارات الأسبق، وعلى شمخاني وزير الدفاع ليسا بوزن خاتمي) فإنهم سيركزون على جعل فوز خاتمي ضعيفاً وباهتا ومفتقدا التفويض الشعبي، الأمر الذي سيمكنهم مستقبلاً من التحرك بمزيد من الحرية لاحتواء التيار الإصلاحي وتفتيته والإجهاز عليه.

٣ ـ أن فوز خاتمي، شبه المؤكد ، لم تعد له الأهمية الكبرى بالنسبة لمستقبل مشروعه الإصلاحي، الأهم الآن هو نسبة التأييد التي سيحصل عليها. فإذا حصل على نسبة الـ ٧٠٪ أو أكثر فإن المعادلة ستتغير كثيرًا، أما إذا حصل على نسبة نجاح متدنية ، فإن مشروعه سيواجه بتحديات هائلة ستؤدى حتمًا إلى ذبول ومن ثم تلاشي مشروعه الإصلاحي. ستتوحد مجددًا فصائل الثاني من خرداد، وسيتقوى موقف خاتمي في مواجهة المرشد على خامنئي، وعندها سيكون قادرا على تجديد عرضه بصياغة عقد سياسي ـ اجتماعي جديد بين مؤسستي المرشد والرئاسة يحقق قدرا أكبر من التوازن بين المؤسستين ويمكن الرئيس من الانطلاق في تنفيذ الدستور وتحقيق خياره في الديمقراطية الدينية والإصلاح بما يجدد شباب الثورة ويؤمن لها طريق التفاعل مع المستقبل، وسيتحول هو إلى مجرد أداة أو منفذ لتعليمات المرشد وفق ما يطمع عتاة المتشددين الذين سبق أن طالبوا بتصفية دور الرئيس وتجديد الدعوة لرئيس وزراء يعمل تحت يد المرشد بصفته «الولي الفقيه». واجب الطاعة .

مثل هذا الاحتمال يفرض من الآن وحتى انتهاء الانتخابات على التيار الإصلاحي إما أن يتوحد تحت راية خاتمي، ليمتلك أهلية المنافسة على صنع المستقبل وإما أن يقبل بالهزيمة، ويضيع على إيران ونظامها الإسلامي فرصة إنجاح الحل الوسط التاريخي القادر على العبور بها إلى عصر ما بعد الحداثة والعولمة دون تقلصات مجتمعية مؤلمة ودون الوقوع في خطر فرض الحل الجذري ومواجهات التصفية بين تيارين يفترض أنهما ينتميان إلى ثورة واحدة مازال خاتمي يحلم لها بالعبور السلمي إلى المستقبل. ■

كتاب الزاوية

من كتابات حسين فوزي

حضارتنا وحضارة أوروبا

نحن المصريين أحق الناس بدراسة الحضارات ، لأننا أثبتهم حقًا في تراث الإنسانية العظيم الذي تواضع الناس على تسميته «الحضارة الغربية»، لا لأنها حضارة اختص بها الغرب، أو ورثها عن أبيه ، بل لأنها في التسلسل التاريخي للحضارات نمت وترعرعت أخيراً في غربي أوروبا ، بعد أن تشربت وتمثلت تيارات الحضارة من طيبة وممفيس وصور وصيدا، وأثينا والإسكندرية وروما وبيزنطة ، وبغداد ودمشق والقاهرة .

فلست أفهم أننا نحن المصريين بالذات نطارح أوروبا فضل الشرق على الغرب ـ والغرب آخر من ينكر هذا الفضل ـ فنذهب في المناظرة إلى الانتقاص من الحضارة العربية ، بحجة ماديتها . ثم نسدل ستاراً أسود على تاريخنا المجيد كله ، ماعدا حقبة واحدة من هذا التاريخ ، كأننا في حاجة إلى هذا الستار لنؤكد الجوانب الروحية ، وهي موجودة على مدى تاريخنا من مدرسة هليوبوليس إلى مدرسة الإسكندرية إلى الأزهر الشريف .

وحضارة اليوم هي حقي وملكي ، بقدر ماهي حق لبعض الأوروبيين . لأنني أنا المصري من كبار بنائيها . فكيف أنكر نفسي ، وتاريخي ، وجهاد فلاسفتي وعلمائي والمفكرين من أجدادي وضيوفهم على مدى آلاف السنين . لأقف من حضارة اليوم هذا الموقف السلبي ، وهي من غرس يدي وفكري ومشاعري ، بأكثر مما هي من غرس الصقلبي أو الإسكندنافي ، فليست حكاية الشرق والغرب هذه أكثر من «شخص مقاته» يلوح بها الرجعيون .



الجـــزائـــر: علـى هـــامش

بعد أكثر من سنوات تسع على اندلاع أزمة الجزائر المأساوية يبدو منطقياً فى ظل ما سببته من سقوط أكثر من مائة ألف قتيل، وعلى الأقل مثلهم من الجرحى واختفاء عدة آلاف آخرين، وخسارة مادية يصل تقديرها إلى أكثر من ستين مليار دولار، أن تكون القضية الأكثر إلحاحاً بشأنها هى التساؤل عن المسئول الحقيقى عن العنف المجنون الذى أوصل بلاد «المليون ونصف المليون شهيد» إلى تلك الحالة

لعل الميزة الكبرى والرئيسية لكتاب «الحرب القذرة - شهادة ضابط سابق فى القوات الخاصة بالجيش الجزائرى» أنه يفجر مجموعة من القضايا المهمة التى ربما تتجاوز كثيراً مما كان مؤلفه الشاب وناشره الفرنسى المعروف يرميان إليه من كتابته ونشره فى ذلك التوقيت بالذات. وإذا كان المؤلف قد ركز فى كتابه على أحداث العنف المجنون التى تشهدها الجزائر منذ بداية عام ١٩٩٢ ملقياً بالمسئولية شبه الكاملة عنها على عاتق الجيش الجزائرى، وبصفة خاصة جنرالاته الكبار وأجهزة وقوات الأمن العسكرى ومكافحة الإرهاب، فمن الممكن اعتبار أن تلك هى القضية الأولى المهمة التى يثيرها الكتاب، أو بصياغة أدق: على من تقع المسئولية الحقيقية فى ذلك العنف؟ كذلك يمكن اعتبار الأزمة الجزائرية الممتدة بكل ملابساتها وتفاصيلها هى القضية الثانية المهمة التى يثيرها الكتاب، على الرغم من تناوله لها بصورة مسطحة لا تتناسب مع كل ما بها من تعقيدات وتطورات داخلية وخارجية. وغير بعيد عن مضمون الكتاب ولا عن الجزائر ولا عن العاصفة التى أثارها نشر الكتاب فى باريس، تبدو قضية العلاقات الجزائرية - الفرنسية بأبعادها المركبة وبخاصة صلتها بالأزمة الجزائرية الراهنة القضية الثالثة المهمة التى تثيرها قراءة هذا الكتاب.

أما بعيداً قليلاً عن مضمون الكتاب والقضايا المباشرة وشبه المباشرة التى يثيرها، فإن مطالعته تدفع إلى التفكير فى قضيتين أخريين - على الأقل - لا تقلان أهمية عن الأزمة الجزائرية وإن كانتا أكثر عمومية منها، إلا أن الروابط الوثيقة بينها وبينهما تصل إلى الحد الذى يمكن معه اعتبار تلك الأزمة واحدة من تجليات هاتين القضيتين فى الواقع الجزائرى الخاص. وترتبط أولى هاتين القضيتين بالظاهرة الإسلامية التى راحت تجتاح منذ النصف الثانى للسبعينيات معظم أرجاء العالم الإسلامى طارحة تحديات متنوعة على دوله ومجتمعاته وقواه الفكرية والسياسية، وبصفة خاصة ما يتعلق بطبيعة جماعات وحركات تلك الظاهرة، خصوصاً ما هو موجود منها فى الواقع العربى وحقيقة ومرتكزات مواقفها من العنف الذى مارسه البعض منها بلا حدود أو ضوابط، كما يحدث فى الجزائر منذ اندلاع أزمتها أو كما حدث فى مصر فى الفترة من منتصف عام ١٩٩٢ وحتى نهاية عام ١٩٩٧. وتعد القضية العامة الثانية الوجه الآخر للقضية السابقة، حيث تتعلق برؤية الدول والأنظمة العربية للظاهرة الإسلامية ومواقفها منها والاستراتيجيات السياسية والأمنية التى اتبعتها تجاهها طيلة السنوات الخمس والعشرين الماضية.

بعد أكثر من سنوات تسع على اندلاع أزمة الجزائر المأساوية يبدو منطقياً فى ظل ما سببته من سقوط أكثر من مائة ألف قتيل، وعلى الأقل مثلهم من الجرحى واختفاء عدة آلاف آخرين، وخسارة مادية يصل تقديرها إلى أكثر من ستين مليار دولار، أن تكون القضية الأكثر إلحاحاً بشأنها هى التساؤل عن المسئول الحقيقى عن العنف المجنون الذى أوصل بلاد «المليون ونصف المليون شهيد» إلى تلك الحالة. وقد ظلت هناك إجابة واحدة واضحة ومتداولة طيلة العامين الأولين للأزمة لا يتطرق إليها الظن أو الشك، وهى أن القوى الإسلامية الجزائرية هى المسئولة الوحيدة عن ذلك وبخاصة الجيش الإسلامى للإنقاذ، الذراع العسكرية للجبهة الإسلامية للإنقاذ ومعه جماعات أخرى إسلامية أقل حجماً وأكثر تطرفاً من أبرزها الجماعة الإسلامية المسلحة. وكانت مقدمات تلك الإجابة - النتيجة تبدو منطقية فيما يخص الجبهة الإسلامية للإنقاذ، حيث إن حصولها على الأغلبية الساحقة لمقاعد البرلمان الجزائرى فى الجولة الأولى للانتخابات التشريعية فى ديسمبر ١٩٩١ كان هو بداية الأزمة الجزائرية بإلغاء الانتخابات، ودفع الجيش الرئيس الشاذلى بن جديد للاستقالة ثم حل الجبهة الإسلامية بعد ذلك، لتدخل الجزائر من يومها نفق العنف الذى لم تخرج منه بعد. فالجبهة وذراعها العسكرية وفقاً لتلك المقدمات كانت هى المسئول الوحيد عن العنف الذى اجتاح الجزائر لأنها كانت تسعى إلى الانتقام من إبعادها عن الساحة السياسية وحرمانها من المكاسب السياسية والانتخابية التى حققها لها وجودها الشرعى فى الجزائر منذ عام ١٩٨٩.

إلا أن ملامح إجابات أخرى راحت تتشكل منذ عام ١٩٩٤ حيث وقعت أحداث عديدة دفعت إلى التشكيك فى صحة الإجابة السابقة منها الاغتيال الغامض للرئيس محمد بوضياف فى ٢٩ يونية ١٩٩٢ ثم لحليفه القوى ورئيس المخابرات العسكرية السابق قاصدى مرباح فى ١٢ أغسطس ١٩٩٣ بما يفوق وفقاً للمراقبين المحايدين قدرات أى من القوى الإسلامية فى الساحة الجزائرية. كذلك فإن نطاق وحجم المجازر والاغتيالات الكبرى قد اتسع فى نفس الوقت الذى نشط فيه التحرك السياسى للجبهة الإسلامية للإنقاذ وحواراتها واتفاقاتها العلنية مع أحزاب المعارضة الأساسية الأخرى، مثلما حدث فى اتفاقى روما الأول والثانى، أو السرية ونصف العلنية مع رئاسة الدولة التى تولاها اللواء الأمين زروال فى ٣٠ يناير ١٩٩٤ عبر مستشاره القوى اللواء محمد بتشين. وقد أوضحت تلك التطورات أن هناك بالفعل فوارق - بل اختلافات عميقة - حقيقية بين الجبهة الإسلامية للإنقاذ والجماعات الأكثر تشدداً وفى مقدمتها الجماعة الإسلامية المسلحة مما ألقى ظلالاً كثيفة من الشكوك حول مسئولية الذراع العسكرية للجبهة عن كل أحداث العنف وعلى قدرة الجماعات الأخرى الأكثر تشدداً على القيام بها جميعاً. وهكذا راحت ملامح الإجابة الأخرى تتشكل وتضاف إليها فى الطريق خلال السنوات التالية أحداث جديدة وتقارير صحفية عالمية وأخرى صادرة عن منظمات دولية لحقوق الإنسان... وأخيراً شهادات مباشرة من ضباط سابقين فى الجيش الجزائرى منذ عام ١٩٩٨ الذى شكل فيه البعض منهم منظمة سرية لترويج تلك الشهادات أسموها «الحركة الجزائرية للضباط الأحرار»، كانت آخرها شهادة الملازم حبيب سويدية فى كتابه «الحرب القذرة».

وكما حدث فى العامين الأولين للأزمة الجزائرية من انتشار إلقاء مسئولية أحداث العنف البشعة جميعها على الجبهة الإسلامية للإنقاذ والجماعات الأخرى الأكثر تشدداً، فقد شهد العامان الماضيان شيوع اختزال كل المسئولية فى الجيش الجزائرى وبصفة خاصة المخابرات العسكرية وجهاز الأمن العسكرى والقوات الخاصة بمكافحة الإرهاب، وهى الرؤية التى حملها بصورة نموذجية كتاب «الحرب القذرة». ويوحى تأمل الأزمة الجزائرية بتعقيداتها وتطوراتها المتعددة بأن كلا من الإجابتين المطلقتين غير دقيقة وأن الحقيقة توجد فى نقطة ما بينهما تتقاطع عندها مسئولية كل تلك الأطراف، بحيث تتحدد



ضيـــاء رشــــوان

1 - La Sale Guerre
(الحرب القذرة)
Habib Souaidia
Paris: La Decouverte, 2001, 204p

2 - La crise algérienne n'est pas finie
(الأزمة الجزائرية لم تنته بعد)
International Crisis Group, Rapport Afrique N 24, Octobre 2001,

نسب المسئولية وفقاً للحظة الزمنية التى تمت فيها الأحداث، فتلك النقطة التى تتقاطع عندها المسئوليات لم تكن قط ثابتة بل كانت تتحرك نحو هذا الطرف أو الآخر بحسب السياق المحيط بوقوع أحداث العنف. من هنا فإن تحديداً أدق للمسئولية لا يمكن التوصل إليه فقط عبر شهادات مثل تلك التى حملها كتاب «الحرب القذرة» على ما فيه من بعض الروايات والحقائق التى لا يمكن إغفالها - أو إهمالها - فى تحديد المسئوليات الخاصة بأجهزة الأمن العسكرى وقوات مكافحة الإرهاب وبعض القيادات العليا فى الجيش الجزائرى عن بعض وقائع العنف الكبرى والإجرامية فى مسار الأزمة الجزائرية، فالأمر يتطلب الانتقال من «التحقيق الجنائى» حول المسئولية إلى «التحليل السياسى» للأزمة الجزائرية، وهى القضية الثانية المهمة التى يثيرها الكتاب.

ولعل البداية الصحيحة للنفاذ إلى جوهر تلك الأزمة هى التأكيد على أن ما تشهده الجزائر على ارتباطه فى جزء كبير منه بخصوصية هذا البلد التاريخية والجغرافية والثقافية مما أعطى للأزمة طابعاً مميزاً، قد لا يتكرر فى بلد آخر، فهو لا يعنى أن تلك الأزمة منبتة الصلة بما يحدث حولها من تفاعلات فى العالمين العربى والإسلامى حول علاقة الدين بالدولة والصراعات المحتدمة بين الرؤى والقوى المختلفة حول طبيعة تلك العلاقة. فقد بدأت الأزمة الجزائرية واستمرت فى عاميها الأولين على الأقل على شاكلة الأزمات الأخرى المماثلة فى الجوهر - وإن اختلفت فى النطاق والعمق - باعتبارها صراعاً بين طرفين رئيسيين هما: الحركة الإسلامية بجماعاتها المختلفة السياسية المعتدلة والدينية المتشددة، والدولة بأجهزتها السياسية والأمنية والعسكرية والإدارية، وهو صراع فى جوهره بين تصورين مختلفين بعمق لما يجب أن يكون عليه المجتمع والدولة بل وأحياناً لصورة العالم والوجود الإنسانى برمته.

كان من الممكن أن يسير الصراع فى الجزائر ضمن الحدود «المعقولة» والمفهومة التى سارت بها صراعات مماثلة فى دول عربية أخرى مثل مصر وسوريا وتونس والعراق وليبيا، إلا أن عوامل جزائرية خاصة كان لها دورها المباشر فى إعطائه ذلك الطابع الدموى المأساوى الممتد. فمن ناحية كان الصعود الصاروخى للجبهة

الحرب القذرة





إن تحديداً أدق للمسئولية لا يمكن التوصل إليه فقط عبر شهادات مثل تلك التى حملها كتاب «الحرب القذرة» على ما فيه من بعض الروايات والحقائق التى لا يمكن إغفالها - أو إهمالها - ، فالأمر يتطلب الانتقال من «التحقيق الجنائى» حول المسئولية إلى «التحليل السياسى» للأزمة الجزائرية، وهى القضية الثانية المهمة التى يثيرها الكتاب

الإسلامية للإنقاذ انتخابياً غير متكرر سوى فى الجزائر. فبعد اكتساحها الانتخابات المحلية فى صيف ١٩٩١ حصدت فى الجولة الأولى للانتخابات التشريعية فى ديسمبر ١٩٩١ أكثر من ثلاثة ملايين صوت، أعطتها بسبب النظام الانتخابى أكثر من ثلاثة أرباع مقاعد البرلمان. من ناحية ثانية فإن قرار قيادات الجيش الجزائرى بإلغاء الانتخابات وعزل الرئيس وفرض حالة الطوارئ ثم حل الجبهة والقبض على كل قياداتها وأعداد غفيرة من عناصرها الفاعلة، كانت له آثار مباشرة على مختلف التيارات والمكونات الإسلامية التى كانت تضمها الجبهة والتى رأت فى نفسها حينذاك الممثل الشرعى المنتخب للشعب الجزائرى والذى يغتصب الجنرالات بغير سند حقه فى حكم البلاد وإدارة شئونها. وبالرغم من اتفاق كل تيارات الجبهة على ضرورة مقاومة انقلاب الجيش على العملية الديمقراطية والانتخابية، إلا أنها اختلفت وتفرقت حول صور تلك المقاومة وحدودها. ولما كانت الجبهة فى الأصل تجمعاً لقوى إسلامية عديدة مختلفة الروافد والطبائع ولم يتيسر لها وقت كاف لتصهر خلافاتها فى تصور واحد، حيث كانت قد نشأت قبل نحو عامين فقط من تلك الأحداث (سبتمبر ١٩٨٩)، فقد تفرقت السبل مرة أخرى بتياراتها وعاد بعضها إلى معسكراته الدينية المتشددة الأصلية ليحارب منها الدولة والمجتمع بدون أى ضوابط أو حدود لتلك الحرب.

من ناحية ثالثة وعلى الجانب الآخر راح الحلف الموحد الذى كان يضم مختلف قطاعات الدولة وأجهزتها يتشقق تحت وطأة عوامل عديدة عاتية، وهو ما لم يحدث فى الصراعات المماثلة فى الدول العربية الأخرى سوى فى الجزائر. فقد وجدت القيادات السياسية لجبهة التحرير الوطنى الحاكمة للبلاد منذ انتزاعها استقلالها بحرب دامية دامت ثمانى سنوات، نفسها معزولة عن الشارع الذى أعطى ثقته باكتساح للجبهة الإسلامية للإنقاذ وعن الدولة التى تقدم الجيش لكى يقودها مباشرة وبدون حاجة إليها كوسيط سياسى كما جرت العادة. كذلك فقد تشقق الحلف حول الموقف من الجبهة الإسلامية خصوصاً والطرح الإسلامى عموماً بالنظر إلى الارتباط المبكر بين الإسلام والمقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسى ذى الطبيعة الخاصة، باعتبار أن الإسلام يمثل جوهر الهوية الجزائرية المستقلة وأحد مصادر المقاومة لفرنسا والتميز عنها. فعلى اختلاف الأطر الفكرية التى تبناها جناحا الدولة الجزائرية منذ اندلاع حرب الاستقلال فى الأول من نوفمبر ١٩٥٤، أى جبهة التحرير الوطنى والجيش الوطنى الشعبى، ظل هذا الجوهر للإسلام حاضراً فيها، وهو ما أدى إلى تشقق إضافى لذلك الحلف عندما اشتد الصراع مع القوى الإسلامية وبخاصة جبهة الإنقاذ.

وبالإضافة إلى تلك التشققات بين الأجنحة المدنية والسياسية للدولة وجناحها العسكرى - الأمنى، فقد شهد ذلك الأخير تشققات داخلية أكبر تحت وطأة عوامل ستة على الأقل كما يحددها التقرير المهم الصادر عن جماعة الأزمات الدولية (ICG) فى بروكسل ببلجيكا فى أكتوبر ٢٠٠٠ بعنوان: «الأزمة الجزائرية لم تنته بعد».

فهناك أولاً النزاعات التاريخية بين ضباط الجيش الذين التحقوا به منذ اندلاع ثورة الاستقلال عام ١٩٥٤ وهؤلاء الذين لحقوا به قبل نهاية الحرب مع الفرنسيين وانتزاع الاستقلال وبخاصة من كانوا يخدمون منهم ضمن قوات الجيش الفرنسى. من ناحية ثانية فهناك الاختلافات الجيلية بين قيادات الجيش من الجيل الأول من المجاهدين فى حرب التحرير الذين يرون أن للجيش دوراً سياسياً وطنياً يتحدد فى الحفاظ على الأمة واستقلال الدولة، وبين الجيل التالى لهم والذى تلقى تعليماً عسكرياً متخصصاً يرى بموجبه أن دور الجيش إنما هو مهنى وفنى وليس سياسياً فى الدفاع عن التراب الوطنى وحفظ السيادة الوطنية من أى اعتداء خارجى. كذلك يصعب إغفال تأثير الانقسامات الجهوية فى الجيش الجزائرى حيث إن أغلبية الضباط الذين بدأوا حرب التحرير كانوا من المنتمين لشرق البلاد مما انعكس على تزايد وزنهم فى قيادة الجيش الحالية على خلاف القادمين من المناطق الغربية الذين يمثلون أقلية فى تلك القيادة. أيضاً فإن صراعات أخرى يعرفها الجيش الجزائرى بين جماعات المصالح والنفوذ المختلفة والتى غذاها تصاعد معدلات الفساد فى أحشاء الدولة والجيش معاً خلال السنوات السابقة على اندلاع الأزمة ثم، بعد ذلك فى أثنائها حتى اليوم. ويضيف التقرير المشار إليه إلى ما سبق التعارضات بين أقسام الجيش وبخاصة قيادة الأركان وجهاز الأمن العسكرى فيما يخص الموقف من الإسلاميين وكيفية التعامل معهم، حيث إنه بالرغم من الخضوع النظرى للجهاز لقيادة الأركان فإن دوره الرئيسى فى مكافحة العنف والإرهاب أعطى له استقلالاً واضحاً عنها وساعد على تغلغله بوضوح فى أنحاء المجتمع والدولة. ويوضح التقرير حقيقة كثيراً ما أشارت إليها الدراسات الجادة حول أزمة الجزائر، وهى أن موقف الطرفين تجاه التعامل مع الإسلاميين ظل موحداً حتى تولى الرئيس الأمين زروال الحكم فى يناير ١٩٩٤ حيث بدأ التعارض الذى كانت أبرز أحداثه قيام اللواء محمد بتشين بفتح قنوات حوار سرية مع القيادة السياسية لجبهة الإنقاذ فى نفس الوقت الذى قام فيه اللواء إسماعيل العمارى قائد جهاز الأمن العسكرى بعقد اتفاق الهدنة الشهير مع قيادة الجيش الإسلامى للإنقاذ والذى بدأ سريانه من الأول من أكتوبر ١٩٩٧. ويضيف التقرير عاملاً سادساً وأخيراً لتشقق وحدة الجيش الجزائرى فى مواجهة الإسلاميين وهو الخلاف بين الجناح «الاستئصالى» فى القيادة والذى يرى ضرورة التخلص التام من كافة التيارات الإسلامية بغض النظر عن اعتدالها أو تشددها وهو ما يتطلب اختراقهم وتفتيتهم بل والقيام ببعض العمليات «القذرة» التى يمكن تحميلهم وزرها إعلامياً وقانونياً، وبين الجناح الباحث عن حلول وسطى مع جبهة الإنقاذ والتيارات الوسطى والمعتدلة الأخرى دون أن يؤثر ذلك على موقفه المتشدد تجاه التيارات العنيفة والإرهابية.

لكل تلك الأسباب خرج الصراع فى الجزائر عن الحدود «المعقولة» والمفهومة التى سارت بها صراعات مماثلة فى دول عربية أخرى، وكان لتلك العوامل الجزائرية الخاصة دورها المباشر فى إعطائه ذلك الطابع الدموى المأساوى الممتد حتى اليوم. كذلك كان لتلك الأسباب والعوامل الخاصة تأثيرها فى تأرجح وتفاوت نسب المسئولية عن العنف الدامى فى كل مرحلة من الأزمة بين أطرافها الذين لم يظلوا كما هو الحال فى تلك الدول العربية الأخرى طرفين فقط لكل منهما ملامحه ومصالحه الواضحة التى تفصله عن الطرف الآخر. ولعل هذا التأرجح والتفاوت من مرحلة إلى أخرى هو الذى يقف اليوم - ضمن عوامل أخرى بالتأكيد - وراء مقولة المسئولية الكاملة للجيش عن وقائع العنف الدامى، وهى التى تمثل الأطروحة المركزية وشبه الوحيدة لكتاب «الحرب القذرة».



ويفتح الحديث عن العوامل الأخرى لنشر وشيوع تلك المقولة الباب فوراً للقضية الثالثة التى تثيرها قراءة الكتاب، أى العلاقات الجزائرية - الفرنسية بأبعادها المركبة خاصة صلتها بالأزمة الجزائرية الراهنة. ولعله من التزيد التوسع فى تناول طبيعة العلاقات التاريخية والثقافية التى ربطت فرنسا بالجزائر منذ احتلالها عام ١٨٣٠ حتى استقلالها عام ١٩٦٢ ثم خلال مراحل ما بعد الاستقلال حتى اليوم، إلا أنه قد يكون ضرورياً التطرق إلى موقع الجزائر فيما يمكن تسميته «السياسة الإسلامية» لفرنسا والذى يعد لأسباب عدة موقعاً محورياً. فعلى الصعيد الداخلى الفرنسى يمثل المسلمون الديانة الثانية بعد الكاثوليك وبأعداد يتراوح تقديرها ما بين ٢,٥ و ٤ ملايين شخص منهم أكثر من مليون من حاملى الجنسية الفرنسية، بالإضافة إلى أن المسلمين يمثلون نحو ٦٠٪ من المهاجرين الأجانب فى فرنسا والمقدر عددهم بحوالى ثلاثة ملايين شخص. ومن بين هؤلاء المسلمين فى فرنسا، سواء من حاملى جنسيتها أو المهاجرين إليها، يمثل الجزائريون نحو نصف عددهم. وقد اختلطت مشكلات البطالة بين الفرنسيين ومدى مسئولية المهاجرين - والمسلمون تحديداً منهم - عنها مع مشكلات دمج الحاصلين منهم حديثاً على الجنسية فى المجتمع الفرنسى، لتتحول مع صعود الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى الجزائر فى الانتخابات المحلية فى صيف ١٩٩١ ثم اكتساحها الجولة الأولى للانتخابات التشريعية واندلاع الأزمة فى الجزائر إلى تحد مباشر للأمن القومى الفرنسى الذى راح المسئولون عنه يهتزون أمام تصاعد حجم الظاهرة الإسلامية فى فرنسا وتعرض العاصمة ومدن فرنسية أخرى لبعض الهجمات الإرهابية التى بدأت فى سبتمبر ١٩٨٦ على أيدى عناصر ذات صلة بإيران ثم بعد ذلك على أيدى عناصر جزائرية بعد اندلاع الأزمة عام ١٩٩٢.

أما على الصعيد الخارجى فقد كان لفرنسا أيضاً اهتمامها المبكر بالظاهرة الإسلامية وبخاصة التيارات العنيفة منها، حيث من المعروف أن باريس قد قدمت مساعدة أمنية واسعة وفعالة - ضمن دول غربية أخرى - للسلطات السعودية فى إنهاء حركة جهيمان العتيبى التى احتلت الحرم المكى الشريف فى غرة المحرم عام ١٤٠٠ هجرية / ١٩ نوفمبر ١٩٧٩ ميلادية. وقد عادت باريس مرة أخرى مع ظهور الجبهة الإسلامية للإنقاذ للاهتمام المكثف بما يحدث على الصعيد الإسلامى بعيداً عن أراضيها، أى فى الجزائر، وذلك تخوفاً من أن يهدد ذلك أوضاعها الداخلية السابق شرحها

يضيف التقرير عاملاً سادساً وأخيراً لتشقق وحدة الجيش الجزائرى فى مواجهة الإسلاميين وهو الخلاف بين الجناح «الاستئصالى» فى القيادة والذى يرى ضرورة التخلص التام من كافة التيارات الإسلامية بغض النظر عن اعتدالها أو تشددها، وبين الجناح الباحث عن حلول وسطى مع جبهة الإنقاذ والتيارات الوسطى والمعتدلة الأخرى





ومصالحها الخارجية الكبرى فى الجزائر. فالجزائر بالنسبة لفرنسا هى حجر الزاوية لمصالحها فى مجالها الحيوى الخارجى الجديد وهو حوض البحر المتوسط الذى يحقق لها من ناحية التواجد فى منطقتى نفوذها التقليديتين، أى شمال أفريقيا والشرق الأوسط، ويتيح لها من ناحية ثانية صياغة مجال نفوذ واسع توازن به مجال النفوذ الألمانى فى وسط أوروبا وشرقها، فضلاً عن ارتباطه المباشر بأبرز قضاياها الداخلية ذات البعد الخارجى، أى الهجرة التى يأتى معظمها من جنوب المتوسط.



وكما هو الحال فى الجزائر فقد انقسم رجال السياسة والأمن والثقافة فى فرنسا بين تيارين رئيسيين أحدهما استئصالى يدعم نظيره الجزائرى بلا حدود والآخر أقرب للتيار التوازنى الجزائرى، وإن كان لا يملك كثيراً مما يمكن أن يقدمه له. وقد ظل حاضراً فى فرنسا وموزعاً بين هذين التيارين تيار آخر ذو وجهة مختلفة يحتفظ بتصورات عن الجزائر غير بعيدة عن ماضى فرنسا الاستعمارى فيها، حيث لا يزال يرى فيها أرضاً فرنسية أو شبه ذلك نجح سكانها بغير حق فى فصلها عن فرنسا وهو السبب الرئيسى فى تدهور أوضاعها ووصولها إلى ما هى عليه اليوم سياسياً واقتصادياً وأمنياً. وقد كان لتلك التيارات الثلاثة تأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على مسار الأزمة الجزائرية فى مراحلها المختلفة سواء عبر الدعم الفنى والتسليحى والأمنى وكذلك الصمت والتواطؤ عن بعض التجاوزات الكبرى الذى حظى به الجناح الاستئصالى فى الدولة الجزائرية من نظيره فى أجهزة الدولة الفرنسية، أو الدعم السياسى والثقافى الذى أتى من قطاعات ذلك الجناح فى الدولة الفرنسية وخارجها لأنصارهم فى الجزائر وبخاصة التيارين الفرانكوفونى والقبائلى المتشددين. كذلك قام الجناح التوازنى الفرنسى فى الدولة وخارجها بتقديم صور مختلفة من الدعم السياسى والمعنوى ليس فقط لنظيره الجزائرى عبر الإعلام والمنظمات الأهلية الفرنسية والدولية، ولكن أيضاً وفى أحيان أخرى لبعض التجمعات والحركات الإسلامية السياسية الجزائرية غير المتشددة سواء فى الجزائر نفسها أو لفروعها وممثليها فى فرنسا والخارج عموماً.

أما التيار الثالث، أو الاستعمارى، فقد رأى فى الأزمة الجزائرية فرصة حقيقية لتأكيد مقولاته حول خطأ فصل الجزائر عن فرنسا وسعى من خلالها لدفع الجزائر إلى أكبر مساحة ممكنة من الانهيار وإلى «الانتقام» التاريخى ممن يرى أنهم المسئولون عن ذلك الخطأ. ولاشك أن جبهة التحرير الوطنى والجيش الوطنى الشعبى ظلا فى نظر هذا التيار هما المسئولان الوحيدان اللذان يجب أن تتوجه إليهما سهام ذلك الانتقام، وهو ربما يكون ذا علاقة ما بنشر كتاب «الحرب القذرة» الجزائرية فى ذلك التوقيت بالذات. فمن الصعوبة فصل هذا النشر وذلك التوقيت وما حواه الكتاب من اتهامات - وبعض الحقائق بالطبع - للجيش الجزائرى عن الحملة الإعلامية والسياسية الواسعة التى أحاطت بنشر الجنرال الفرنسى بول أوساريس شهادته فى كتاب حول «الحرب القذرة» التى شنها الجيش الفرنسى فى الجزائر أثناء حرب التحرير بكل ما حواه من تفاصيل متعلقة بالتعذيب المنظم والقتل الجماعى لمجاهدى جبهة التحرير وللمواطنين العزل وربما يكون إعلان السلطات الجزائرية فى هذا السياق عن اكتشاف مقابر جماعية للمجاهدين شرق العاصمة الجزائرية والذين قتلهم الجيش الفرنسى دون تمييز أو تحقيق أثناء حرب التحرير، يعبر بصورة واضحة عن إدراك الدولة الجزائرية لهذا المعنى لنشر كتاب الضابط الجزائرى وما أحاط به من ضجة. إلا أن تلك الضجة الواسعة حول هذا الكتاب فى الأوساط الإعلامية والسياسية الفرنسية لا يكفى تفسيرها فقط بدور التيار الاستعمارى الفرنسى، فقد أسهم التياران الآخران - ولكل منطقه وأسبابه - فى خلقها بما أدى إلى إعادة طباعته سبع مرات حتى الآن وتوزيعه ما يزيد على خمسة وستين ألف نسخة فى طبعته الفرنسية.

وبعيداً قليلاً عن القضايا المباشرة وغير المباشرة التى أثارها الكتاب فيما يخص الحالة الجزائرية الخاصة، فالقضيتان الأكثر عمومية منها والمرتبطتان بها ارتباطاً وثيقاً تستحقان أيضاً بعض التوقف. وتتعلق القضية الأولى العامة بطبيعة جماعات وحركات الظاهرة الإسلامية خصوصاً ما هو موجود منها فى الواقع العربى وحقيقة ومرتكزات مواقفها من العنف. فبصفة عامة تجنح معظم الكتابات حول هذه الظاهرة إلى تقسيمها عموماً ما بين جماعات وتيارات معتدلة وأخرى متطرفة أو متشددة، انطلاقاً من مواقفها تجاه النظم السياسية والاجتماعية فى بلادها ومن النموذج الغربى عموماً ومن مدى لجوئها إلى العنف فى ممارسة تلك المواقف. وقد خضعت الظاهرة الإسلامية فى الحالة الجزائرية - وفى غيرها من حالات عربية أخرى مثل مصر وسوريا وتونس - لهذا التصنيف الذى أضحت بموجبه الجبهة الإسلامية للإنقاذ والجماعة الإسلامية المسلحة والجماعة السلفية للدعوة والجهاد ضمن فئة واحدة هى المتشددة العنيفة، وذلك بسبب لجوئها جميعاً فى أوقات مختلفة للعنف فى صراعها مع الدولة الجزائرية. كذلك ففى مصر استندت كتابات عديدة لنفس التصنيف والمعيار لكى تزج بجماعة الإخوان المسلمين مع الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد ضمن نفس المعسكر المتشدد العنيف استناداً أيضاً إلى لجوئهم جميعاً لممارسة العنف فى مراحل مختلفة من تطورهم وصراعاتهم فى المجتمع ومع الدولة.

والحقيقة أن انتقادات كثيرة ترد على هذا التصنيف الذى يستند فقط لعوامل سياسية ويغفل بعض الخصائص المهمة التى تنفرد بها الظاهرة الإسلامية عن غيرها من الظواهر الأخرى التى تبدو قريبة منها، والتى يمكن لها أن تساعد فى التوصل لتصنيف أدق لجماعات وتيارات تلك الظاهرة. والأكثر دقة فى هذا التصنيف هو أن العامل الفكرى يظل هو الأكثر حسماً فى تطور تلك الظاهرة وانقسامها إلى جماعات وتيارات متباينة ومتميزة عن بعضها البعض على الرغم من انتسابها جميعاً إلى الإسلام كإطار دينى واجتماعى وتاريخى. ووفقاً لذلك فمن الممكن بصورة عامة تقسيم تلك الظاهرة داخلياً - وهو ما ينصرف بالطبع إليها فى الجزائر - إلى نوعين رئيسيين من الجماعات: الجماعات الدينية الإسلامية، والجماعات السياسية - الاجتماعية ذات الأيديولوجية الإسلامية.

تقوم النوعية الأولى من الجماعات على أساس فكرى يأخذ بالمطلقات الكبرى فى الإسلام وبخاصة العقيدة، حيث لا تولى اهتماماً يذكر لما هو دون ذلك من مستويات فقهية وشرعية إلا إذا تماست مباشرة مع هذا الأساس. والإشكالية الرئيسية لتلك الجماعات تتعلق بما تراه إقامة للتوحيد والعبودية الحقة لله سبحانه وتعالى، وبالتالى فاهتمامها الوحيد تقريباً ينصب على مدى صحة إيمان وإسلام الأفراد والمجتمعات والدول، ومن ثم تتحدد مواقفها منهم وفقاً لما تراه فى ذلك الشأن استناداً إلى تفسيرات بعينها لبعض النصوص القرآنية الكريمة. وتركز تلك الجماعات بصورة لا تخطئها العين على تلك النصوص العقيدية بتفسيراتها هذه دون اهتمام مماثل بالنصوص الأخرى التشريعية والإنتاج الفقهى التشريعى الإسلامى الضخم، ومن ثم يبدو واضحاً فى أدبياتها وحركتها الحضور الطاغى للعقيدة والغياب الملحوظ للشريعة. وتُضم تلك الجماعات الدينية الإسلامية «النصية» فيما يخص موضوعنا إلى اتجاهين فرعيين يختلفان بحسب المرجعية التاريخية التى يستند إليها كل منهما، وهما الاتجاه الجهادى واتجاه الغلاة. ويستند الاتجاه الأول، الذى تمثله فى الجزائر الجماعة الإسلامية المسلحة وفى مصر الجماعة الإسلامية والجهاد قبل تحولاتهما الأخيرة، إلى المرحلة المدنية للرسول (ص) حيث اختلطت العقيدة والدين بالدولة والسياسة ولم يعد هناك من مهرب من استخدام العنف أو «الجهاد» لمواجهة أعداء الإسلام ومحاربيه والمرتدين عنه دون الحاجة إلى إعادة دعوتهم إلى الإسلام. أما اتجاه الغلاة، والذى تمثله فى الجزائر ومصر الجماعات المعروفة باسم «التكفير والهجرة»، فهو يستند فى الحقيقة إلى المرحلة المكية بتفسير خاص يرى عدم اللجوء إلى العنف فى مواجهة مجتمعات الكفر التى هى كل مجتمعات الأرض اقتداء بالرسول (ﷺ) الذى لم يحارب الكفار قط فى مكة، مع استبعاد إعادة الدعوة إلى الإسلام لأنها لن تجدى مع حالة الكفر هذه أو الجاهلية الجديدة. ويظل الحل بالنسبة لتلك النوعية من الجماعات هو اعتزال المجتمعات

الجزائر بالنسبة لفرنسا هى حجر الزاوية لمصالحها فى مجالها الحيوى الخارجى الجديد وهو حوض البحر المتوسط الذى يحقق لها من ناحية التواجد فى منطقتى نفوذها التقليديتين، أى شمال أفريقيا والشرق الأوسط، ويتيح لها من ناحية ثانية صياغة مجال نفوذ واسع توازن به مجال النفوذ الألمانى فى وسط أوروبا وشرقها



من كتابات حسين فوزى

خلاصة التاريخ المصرى

فى هذه الجملة خلاصة تاريخ مصر كله : الحكم الصالح يقى المصريين شر الفيضان العالى والنيل المنخفض . وقديمًا استطاع يوسف الصديق أن يحسن التدبير ، فيجتاز بمصر السنوات العجاف .

اعتنق الشعب المصرى المسيحية ، بعد أن فقد الإيمان بآلهته القديمة فتخلى عنها ، إذ شعر بأنها تخلت عنه منذ زمن طويل ، ورأى كيف يمالئ كهنته السلطان الأجنبى . واستشهد المصرى متمسكًا بعقيدته المسيحية ، عندما فرضت عليه روما عبادة إمبراطورها ؛ واستشهد أكثر ما استشهد عندما أراد الإمبراطور البيزنطى أن يفرض عليه مذهبًا مسيحيًا بعينه ، يخالف مذهبه المصرى .

آمن بالإسلام فلم يحمه إسلامه من اضطهاد الولاة والحكام والسلاطين والباشوات ، ولم يكن حظه خيرًا - إلا قليلاً - من حظ أخيه المصرى الذى بقى على مسيحيته . ليتعبد وثنيًا ، أو ليؤمن بعيسى ، أو لينطق بالشهادتين ، فلعنة حكامه قائمة دائمة ، لا تفارقه أبد الدهر . يحارب الوثنية نصرانيًا ، ويعارض الأرثوذكسية الملكية قبطيًا ، ويقاوم الصليبيين مسلمًا ، ولن يغير كل هذا من شراهة حكامه المخادعين ، ولن يغير ما بنفوسهم من نهم الاستيلاء على أرضه ، وخيرات أرضه وصناعته . لأن بغيتهم كلهم من الحكم ، هى عرق جبينه ودمه ، ونتاج عقله وذراعيه .

والشعب المصرى المغلوب على أمره انتصر دائمًا على ظلمته ، إذ لم يستطع حكامه أن يدلسوا عليه طويلاً ، بل هو الذى خدعهم فى نفسه ليحتفظ لنفسه بشخصيته المتكاملة .



من الصعوبة فصل هذا النشر وذلك التوقيت وما حواه الكتاب عن الحملة الواسعة التى أحاطت بنشر الجنرال الفرنسى بول أوساريس شهادته فى كتاب حول «الحرب القذرة» التى شنها الجيش الفرنسى فى الجزائر بكل ما حواه من تفاصيل متعلقة بالتعذيب المنظم والقتل الجماعى لمجاهدى جبهة التحرير وللمواطنين العزل

الكافرة سواء بالمفاصلة الشعورية عنها عند الاضطرار للعيش فيها أو الهجرة منها - وهو الحل الأمثل - حتى يأتى الله بنصره. ومع ذلك فإن تلك النوعية من الجماعات تكون غاية فى العنف عند ممارستها له فى ظل ظروف معينة وهو الأمر الذى تعد بعض أحداث الجزائر شاهداً عليه.

أما النوع الثانى الرئيسى من جماعات الظاهرة الإسلامية فهو الجماعات السياسية - الاجتماعية ذات الأيديولوجية الإسلامية، والتى تمثلها فى الجزائر الجبهة الإسلامية للإنقاذ وفى مصر وسوريا والأردن جماعة الإخوان المسلمين وفى تونس جماعة النهضة. وتستند تلك الجماعات فى طرحها للإسلام على أنه برنامج تشريعى يعد الأفضل لتنظيم الوجود الاجتماعى للبشرية جميعها، وذلك دون إهمال لأسسه العقيدية ولا توغل فيها إلى حد اتهام الأفراد والمجتمعات والدول بالكفر أو الجاهلية. وانطلاقاً من رؤية تلك الجماعات للمجتمعات للإسلام باعتباره برنامجاً لتنظيم المجتمع والدولة، فهى تتوجه بصورة مباشرة نحو السلطة السياسية باذلة كل الجهود السياسية الممكنة من أجل الوصول إليها لتطبيق برنامجها هذا. ولا تتوقف المرجعية التاريخية لتلك الجماعات فى صياغتها لهذا البرنامج عند المرحلة النبوية فقط ولا النصوص القرآنية وحدها على أهميتها بالنسبة لها، ولكنها تتوسع لكى تجعلها تمتد إلى التاريخ الإسلامى كله وتراثه الفقهى الموزع على أربعة عشر قرناً. وفى سعى تلك الجماعات لتطبيق برامجها، أو «الشريعة»، كما تدعوها فهى تذهب أحياناً إلى استخدام العنف بصور مختلفة ضمن الصراعات السياسية التى تخوضها مع مخالفيها وخصوصاً مع الدولة دون أن تصفه بأنه «جهاد» كما تفعل الجماعات الدينية الإسلامية، ودون أن يكون الهدف منه هو إعادة الناس إلى الإسلام أو معاقبتهم لمحاربتهم إياه كما تفعل تلك الأخيرة، بل باعتباره عنفاً سياسياً مشروعاً فى تلك النوعية من الصراع السياسى.



فى ضوء ذلك يمكن إعادة توصيف ما حدث فى الجزائر منذ اندلاع أزمتها باعتبارها قد بدأت بصراع سياسى - وليس دينياً - مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ التى هى جماعة سياسية - اجتماعية تطرح أيديولوجية إسلامية لإعادة تنظيم المجتمع والدولة هناك وفقاً لما ترى أنه الشريعة الإسلامية. وفى هذا السياق فقد كان العنف الذى مارسته تلك الجبهة ضد الدولة فى حقيقته عنفاً سياسياً ضمن ظروف تاريخية لم يكن لها غير أن تؤدى إلى ذلك. ولا شك أن ظهور وتنامى الجماعات الإسلامية الدينية بجناحيها الجهادى والتكفيرى قد حدث أيضاً ضمن تلك الظروف وأدى إلى ممارستها العنف الدينى الذى وصل فى كثير من الأحيان إلى الإرهاب والممارسة الإجرامية. وقد بدا واضحاً الفارق بين هذين النوعين من الجماعات فى مسار الأزمة الجزائرية، بالإضافة إلى نوعية العنف، فى مدى استجابة كل منهما للتفاوض مع الدولة وقبول الجماعات السياسية - الاجتماعية الإسلامية عقد بعض الاتفاقات العلنية أو السرية معها بما فى ذلك توقفها عن ممارسة العنف بل وحل ذراعها العسكرية كما فعلت الجبهة الإسلامية بالجيش الإسلامى للإنقاذ، بينما رفضت الجماعات الدينية تماماً أى حلول وسطى وظل بعضها يقاتل حتى اليوم مثل الجماعة الإسلامية المسلحة والجماعة السلفية للدعوة والجهاد.

أما القضية العامة الثانية، أو الوجه الآخر للقضية السابقة، فهى تتعلق برؤية الدول والأنظمة العربية - بما فيها الجزائر - للظاهرة الإسلامية ومواقفها منها والاستراتيجيات السياسية والأمنية التى اتبعتها تجاهها طيلة السنوات الخمس والعشرين الماضية. ويبدو المشترك الأعظم بين مختلف تلك المواقف والاستراتيجيات هو إعطاؤها وزناً كبيراً للظاهرة الإسلامية واعتبارها التحدى الأول الذى يواجه الدولة العربية فى الربع الأخير من القرن العشرين. كذلك تشترك تلك الاستراتيجيات انطلاقاً من ذلك فى تبنى أحد هدفين فى التعامل مع تلك الظاهرة: إما السعى إلى تصفية الظاهرة ومختلف جماعاتها وتياراتها باعتبارها تمثل تهديداً للدولة واستقرارها واستمرارها، أو العمل على توظيف نفس الظاهرة برموزها وشعاراتها وجماعاتها من أجل خلق قواعد للشرعية السياسية ذات المحتوى الدينى بغية تأمين ذلك الاستقرار وهذا الاستمرار. وعلى الرغم من التناقض الواضح ما بين هذين الهدفين إلا أن الدولة العربية قد انتقلت بينهما بيسر خلال ربع القرن الماضى بكل ما ترتب على ذلك من استخدام استراتيجيات متعارضة. وتبدو الجزائر حالة مثالية لهاتين الخاصتين، فالدولة هناك - بالإضافة إلى جماعات ثقافية وسياسية أخرى - قد حرصت منذ اكتساح الجبهة الإسلامية للإنقاذ الانتخابات المحلية فى صيف ١٩٩١ على اعتبارها ومعها الظاهرة الإسلامية كلها التحدى الأول الذى يواجهها منذ نهاية حرب الاستقلال. أما المراوحة فى تعامل الدولة والنظام السياسى مع الظاهرة ما بين تصفيتها واستخدامها كقاعدة للشرعية فإن مظاهره



تتعدد منذ نشأة جبهة التحرير الوطنى التى تخلل الإسلام رؤيتها الفكرية وسلوكها الحركى وحتى الخطاب والأداء السياسى للرئيس عبدالعزيز بوتفليقة وحكوماته المتعاقبة وتحالفاته مع قوى إسلامية «معتدلة» مثل حزب النهضة وحزب حركة السلم والمجتمع (حمس).

كذلك فإن الاستراتيجيات الأمنية والسياسية العربية تجاه الظاهرة الإسلامية اشتركت فى تعاملها مع الحركة الإسلامية عموماً وفى معظم الوقت باعتبارها كتلة واحدة صماء لا تمايزات حقيقية بين جماعاتها وتياراتها، ومالت دوماً إلى إسباغ سمات الجماعات الدينية الإسلامية وبخاصة الجهادية العنيفة عليها. والحقيقة أن هذا التوجه ينسجم من جهة مع اشتراك تلك الاستراتيجيات فى اعتبار الظاهرة الإسلامية التحدى والخطر الرئيسى عليها، ويبرر من جهة أخرى التعامل الأمنى والإعلامى الموحد مع الحركة الإسلامية ككل دون الأخذ فى الاعتبار الفوارق المهمة والعميقة فيما بين جماعاتها وتياراتها. ولم تكن الحالة الجزائرية أيضاً بعيدة عن استخدام ذلك التعميم والخلط لتحقيق نفس الأهداف، وكانت الأجنحة الاستئصالية سواء فى الدولة أو المجتمع الثقافى والسياسى هى الأكثر استخداماً له وإزالة كل فوارق بين الجيش الإسلامى للإنقاذ والجماعة الإسلامية المسلحة وترويج صورة واحدة لهما كإرهابيين يقترفون نفس الجرائم والمذابح التى لا يمكن لعاقل الدفاع عنها أو تبريرها. وربما يكون ذلك التوجه هو الذى يفسر ما جاء فى كتاب «الحرب القذرة» ومصادر عديدة أخرى من ارتكاب مجموعات استئصالية فى الجيش الجزائرى جرائم ومذابح مماثلة ثم السعى لإلصاقها بالقوى الإسلامية سواء كانت جبهة الإنقاذ أو الجماعة الإسلامية المسلحة.



كذلك تشترك تلك الاستراتيجيات الأمنية والسياسية العربية فى إعطاء وزن مبالغ فيه فى معظم الأحيان للأبعاد الخارجية للظاهرة الإسلامية والتى تحولت لدى بعضها إلى مجرد امتداد داخلى لجذور وقواعد خارجية ما كان يمكن لها أن تنشأ وتستمر بدون دعمها. وقد زاد من ذلك التوجه للمبالغة فى أهمية الأبعاد الخارجية للظاهرة الإسلامية ثلاثة عوامل مهمة هى: الحرب الأفغانية التى مثلت بوتقة حقيقية لتجميع وصهر كثير من الجماعات الدينية الجهادية فى العالم معاً، واللجوء المتزايد لقيادات مختلف جماعات الحركة الإسلامية إلى الدول الغربية حيث استفادت من مناخ الحرية فيها لبث دعايتها المضادة لدولها، وأخيراً وجود بعض النظم الإسلامية سواء الثورية أو المحافظة التى أقامت بعض العلاقات مع بعض جماعات الحركة الإسلامية سواء السياسية أو الدينية. وقد تأثرت الجزائر أثناء أزمتها الممتدة مباشرة بتلك الخاصية، حيث ساد فى كثير من الأوقات تأكيد الدولة على أهمية وحسم العوامل الخارجية فى تشجيع ودعم جماعات الحركة الإسلامية، وهو ما وصل فى إحدى الفترات إلى قطع العلاقات مع الجمهورية الإسلامية فى إيران بعد اتهامها رسمياً بتقديم هذا الدعم والتشجيع.

وعلى الوجه المقابل تشترك الاستراتيجيات الأمنية والسياسية العربية فى التوجه نحو التعاون مع أطراف وقوى خارجية عديدة فى مواجهتها لمختلف جماعات الحركة الإسلامية التى تتفق معها حول خطورتها وضرورة مواجهتها. ويعد التعاون الأمنى والتسليحى هو القلب الحقيقى لهذا التعاون الذى شمل دولاً عربية وإسلامية وغربية، والذى اتخذ بدوره ثلاثة أشكال على الأقل: الأول هو العمل من خلال لجان مشتركة يتم بداخلها تبادل المعلومات بين الأجهزة المختصة لاستكمال ملفاتها وسد الفجوات الموجودة بها. أما الشكل الثانى فيتمثل فى التعاون المشترك بين تلك الأجهزة لإعاقة تحركات القيادات الإسلامية الهاربة من بلادها فى بلدان المهجر - الغربى خصوصاً - مع السعى إلى توفير بعض الركائز القانونية سواء لحرمانها من الحصول على حق اللجوء السياسى أو لطردها من تلك البلدان. ويتمثل الشكل الثالث فى اشتراك تلك الأجهزة فى بعض العمليات الدقيقة والخاصة المتعلقة بتعقب وضرب بعض القيادات والجماعات الإسلامية - وبخاصة الجهادية العنيفة - سواء فى بلدانها الأصلية أو فى المهاجر. وتوضح الأزمة الجزائرية لجوء الدولة - أو بعض أجنحتها وأجهزتها - إلى التعاون الخارجى طوال الأزمة مع أجهزة مناظرة فى دول أخرى وبخاصة غربية وبالأخص فرنسية، والذى تركز بصورة أكثر فى الشكلين الأول والثالث لمثل هذا النوع من التعاون. وإذا كانت مبررات هذا التعاون واضحة فيما يخص الطرف الجزائرى، فهو فيما يخص الأطراف الخارجية الأخرى كان منطلقاً من اعتبارات المصالح المباشرة لها، ولعل تداخل الأزمة الجزائرية مع الأوضاع الفرنسية كما سبقت الإشارة يعطى مثالاً واضحاً لمبررات مثل ذلك التعاون. ■

الفئات الرأسمالية الجديدة
والأوضاع الاحتكارية فى السوق المصرية

محمود عبد الفضيل



[١]

ليس هناك من شك فى ضرورة قيام قطاع أعمال خاص قوى فى مصر، لأن عملية التنمية ينوء بحملها القطاع العام وحده. ويمكن تشبيه الموقف، بسيارة تريد أن تنطلق بسرعة على الطريق .. ولكن لابد لها من عجلتين أماميتين، وعجلتين خلفيتين. وحسب مراحل التطور الاقتصادى، قد تكون العجلتان الأماميتان والخلفيتان هما القطاع العام، كما كان الحال فى الستينيات ومعظم السبعينيات. بينما فى ظل «اقتصاد السوق» وعمليات «الخصخصة»، قد تكون العجلتان الأماميتان هما قطاع الأعمال الخاص، والعجلتان الخلفيتان هما قطاع الأعمال العام. ولكن ذلك يتطلب شروطًا خاصة تتعلق بالدور التنموى لقطاع الأعمال الخاص، وإلا ظلت العجلتان الأماميتان للقطاع العام، والعجلتان الخلفيتان للقطاع الخاص.

وإذا ما دقّقنا النظر فى طبيعة «الفئات الرأسمالية الجديدة» فى مصر، نجد أنها تعتمد فى تمويل جانب هام من أنشطتها الاقتصادية على:

(١) تدفقات أموال المعونات الأجنبية.

(٢) الاقتراض المفرط من القطاع المصرفى.

(٣) الحصول على «التوكيلات التجارية»، من «الشركات دولية النشاط»، لتسويق وترويج «المنتجات الأجنبية» لتلك الشركات.

(٤) الاعتماد على وجود درجة عالية من «الاحتكار» فى السوق المحلية ، تساعدها على تحقيق أرباح احتكارية «وغير تنافسية».

كما أن هياكلها القانونية والتنظيمية تقوم على نظام الشركات العائلية «المفتوحة» أو المغلقة ، فلا توجد جمعيات عمومية حقيقية تحاسب وتسلط الضوء على أنشطة الشركات وممارسات مجالس الإدارة التى تسيطر عليها «العائلية» !

وكل هذه العناصر تؤثر بدورها على «مرجعيتها» الفكرية وعلى منطق تطورها الاقتصادى والاجتماعى.

وفى أحوال كثيرة، نجد أن العديد من تلك «الفئات الرأسمالية الجديدة» تقوم بالتوسع فى نشاطها بالاعتماد المفرط على الاقتراض (من المصارف وغيرها من القنوات التمويلية)، وتقوم بالتوسع غير الرشيد فى أنشطتها مادام يحقق «الربح» ، وبغض النظر عن «العائد الإنمائى». ولا غرو فى ذلك مادام التوسع فى النشاط يتم «بأموال الغير» ، مما يؤدى إلى «تحميل المخاطر» للممولين.

كذلك، فإن تلك «الفئات الرأسمالية» غير منشغلة بقضية الاختراع والتجديد، ناهيك عن التجويد الذى يجعل السلعة قابلة للتصدير والتنافسية فى الأسواق العالمية (باستثناء منتجات محدودة، مثل السجاد والسيراميك). ودعونا نقارن ذلك السلوك بما أنجزه رجال الأعمال المبدعون فى بقاع أخرى عديدة فى العالم. وخير مثال لذلك هو «أكيو موريتا» (Akio Morita)، مؤسس ورئيس



في أحوال كثيرة، نجد أن العديد من تلك «الفئات الرأسمالية الجديدة» تقوم بالتوسع في نشاطها بالاعتماد المفرط على الاقتراض (من المصارف وغيرها من القنوات التمويلية)، وتقوم بالتوسع غير الرشيد في أنشطتها مادام يحقق «الربح»، وبغض النظر عن «العائد الإنمائي». ولا غرو في ذلك مادام التوسع في النشاط يتم «بأموال الغير» مما يؤدي إلى «تحميل المخاطر» للممولين

«شركة سوني» (SONY) اليابانية الذي توفي في أكتوبر ١٩٩٩. فلقد بدأت «شركة سوني» بداية متواضعة للغاية عام ١٩٤٦، بعدد لا يزيد على عشرين موظفاً، وانتهت في التسعينيات بكونها إمبراطورية كبرى للأعمال، ذات سمعة عالمية ذائعة الصيت.

ولقد اهتم «موريتا» منذ البداية، بالتجديد والاختراع والدقة المتناهية في تصنيع المنتجات. إذ يشير «موريتا» في الكتيب التأسيسي لشركة «سوني» إلى أنه: «يجب أن تكون الشركة مكاناً مثالياً للعمل، يحقق السعادة والدينامكية لجميع أفراد فريق العمل، على اختلاف مستويات مهاراتهم ودرجاتهم الوظيفية. وأن يتم التركيز على الأنشطة الجادة وليس لمجرد تحقيق الربح. كما يجب ألا نسعى نحو التوسع في الحجم والنشاط لمجرد التوسع .. بل يجب أن يواكب كل موجة توسع، أنشطة جديدة «ذات محتوى ابتكاري».

ونتيجة هذه السياسة، أصبحت مصانع «سوني» تنافس أكبر الشركات الدولية الكبرى في البلدان الغربية الكبرى، التي ترسخت أقدامها في السوق الدولية منذ عشرات السنين. وهكذا منذ البداية، كان «موريتا» يضع نصب عينيه دائماً كيف يحول منتج «سوني» الياباني إلى منتج يحمل علامة تجارية له صفة «العالمية»، يخترق الأسواق الدولية «بسرعة الصوت»!

وهكذا يكون «رجال الأعمال» العظام: بعيدي الرؤية، يتحملون المخاطر، ويحققون «العالمية» انطلاقاً من «المحلية». ونتيجة لكل هذه الجهود أصبحت «شركة سوني»، ليست مجرد شركة يابانية، بل شركة من الشركات التي تصنع سمعة اليابان كعملاق اقتصادي على الصعيد العالمي، وتساهم في دعم ميزان المدفوعات الياباني. وانطلاقاً من هذه «المعادلة»، يتحقق التوافق الكامل بين ربحية المشروع الخاص، من ناحية، والنفع العمومي للاقتصاد الوطني والمجتمع في مجموعه، من ناحية أخرى. ولقد ألحّ الراحل «طلعت حرب» (مؤسس بنك مصر وشركاته)، على تلك العلاقة الوثيقة بين «المنافع العمومية» و«الربحية الخاصة». وكان يؤكد دوماً على أنّ الثروة الفردية إذا لم تتحول في ذات الوقت إلى ثروة عمومية، فلن ينجح «قطاع الأعمال الخاص» أن ينهض بمهامه في تحقيق تنمية اقتصادية حقيقية، وتحقيق الرخاء لمجمل أفراد المجتمع.

ولعلّ خير ما ندلل به على ذلك، قول «طلعت حرب» في حفل الغرفة التجارية بالإسكندرية (مايو ١٩٣٥)، بمناسبة مرور خمسة عشر عاماً على تأسيس بنك مصر: «ليس يهم بنك مصر بالنسبة لطبقات الأمة كلها، وخاصة طائفة التجار، أن يعني بالمال وحده قدر ما يهمه من أمر الأخلاق وما ينطوي تحت الأخلاق من معاني الشرف واحترام العهود. ونحن نقول اليوم إننا لا نستغل المال حباً فيه، فإننا لسنا من عباده أو ممن يتعلقون بنواصيه. إنما نحن نعرف أن المال قوة في هذا العالم، وأن المال كما يكون قوة للشر في أيدي الأشرار، كذلك يكون قوة للخير في أيدي الأخيار».

[٢]

ويمكن بصفة عامة، رصد نماذج من الأوضاع «ذات الطبيعة الاحتكارية» في السوق المصرية، على النحو التالي:

١ـ اقتسام السوق بين شركتين رئيسيتين، أو ما يسمى في علم الاقتصاد بالاحتكار الثنائي (Dupoly) وينطبق ذلك بشكل واضح على سوق التليفون المحمول. إذ تقتسم «سوق التليفون المحمول» شركتان هما «موبينيل» (بنسبة ٥٧٪ من جملة السوق) و«كليك» (بنسبة ٤٣٪ من الحصة السوقية).

٢ـ ظهور «احتكار القلة» (Oligopoly) في سوق بعض السلع الاستراتيجية مثل: الأسمنت، الحديد، الأغذية والمشروبات. وعلى سبيل المثال، فإن التركيبة الاحتكارية «لسوق الأسمنت» هي على النحو التالي: السويس وطره ٣٠,١٪، حلوان ١٢,٤٪، الأهلية ١١,٢٪، الأميرية ١٠,٧٪، المصرية للأسمنت ١١,٩ (وهي عبارة عن تحالف بين مجموعة «أوراسكوم» بنسبة ٥٣,٧٪ من رأس المال وهولدربنك التي تمتلك النسبة الباقية)، وأسيوط ١٤,١٪. وهكذا تسيطر الشركات الست، على نحو ٩٠,٤٪ من جملة «سوق الأسمنت» في مصر.

كذلك تتعدد مظاهر «احتكارات القلة» في السوق المصرية. ومثال ذلك تحكم بعض كبار التجار في التسويق المحلي للخضر والفاكهة تلك التي تصل قيمتها الإجمالية عام ١٩٩٦ إلى نحو ١٦ مليار جنيه. وكذلك تجارة الدواجن التي تبلغ قيمتها السوقية نحو ٣ مليارات جنيه في السنة، والبيض الذي تبلغ قيمة المتعامل عليه محلياً نحو ٧٠٦ ملايين جنيه سنوياً. كما يتعامل نحو ٤٪ فقط من تجار الجلود في حوالي ٤٣٪ من القيمة الكلية للجلود في السوق المصرية، وهناك عدد محدود من المنشآت يتعامل في نحو ٤٥٪ من القيمة الكلية للجلود المدبوغة في السوق. (راجع: الأهرام الاقتصادي، العدد الصادر في ٢٢/١١/٢٠٠١، ص ٤).

٣ـ شيوع حالة المنافسة الاحتكارية، حيث يوجد العديد من البائعين، ولكن يقومون بتمييز منتجاتهم عن طريق العلامات التجارية والدعاية والإعلان، مما يؤدي إلى خلق مزايا احتكارية في مجال التسعير.

كذلك هناك مخاطر نشوء «أوضاع احتكارية» في المستقبل، في بعض قطاعات الخدمات الحيوية مثل: قطاع المستشفيات والعلاج الطبي، قطاع المواصلات، قطاع توزيع الكهرباء، قطاع الاتصالات. وتلك قطاعات حيوية تقوم بتقديم خدمة السلع العامة للمواطنين بغض النظر عن مستويات دخولهم. ونشوء أوضاع احتكارية في تلك القطاعات يؤدي إلى ممارسة أساليب احتكارية للتسعير، قد لا تتناسب مع «القدرة على الدفع» لمستهلكي الطبقة الوسطى، ناهيك عن عدم قدرة الفئات الشعبية على الاستفادة من تلك الخدمات بالجودة المناسبة والسعر المناسب، في ظل تلك الأوضاع الاحتكارية.



ولذا، فإنه في ظل عمليات «الخصخصة» و«عمليات التحرير السعري» الجارية، هناك مخاطر شديدة تحيط بنشوء «أوضاع احتكارية» في سوق بعض السلع والخدمات الرئيسية في الاقتصاد المصري. ومن المعروف، كما جاء في الكتب المدرسية، أن «سلوك المحتكر» يؤدي، في أحوال كثيرة، إلى «تقييد الإنتاج»، من ناحية، وفرض «أسعار احتكارية» في السوق، أي السيطرة على «الكميات» و«الأسعار» معاً. وقد سبق أن شدد الاقتصادي البولندي البارز «مايكل كاليسكي» (M. Kalecki) على ضرورة التعرف على «درجة الاحتكار» في فروع النشاط الاقتصادي المختلفة، من خلال دراسة «سياسات التسعير»، ولا سيما من خلال حساب نسبة «هوامش الربح» إلى «التكلفة الأولية» للسلعة أو الخدمة.

وأخيراً، لابد من التنويه بأن «التكنولوجيا السائدة» لبعض فروع الإنتاج والخدمات تتطلب حداً أدنى من الحجم ورأس المال، لكي تتم الاستفادة من «وفورات الحجم» ومزايا الإنتاج الكبير. الأمر الذي يجعل السوق في تلك الأنشطة تحكمها «منافسة القلة» بالضرورة.

[٢]

وعلى صعيد «المجموعات المالية الكبرى» ذات الطبيعة القابضة، يمكن رصد ما يمكن تسميته «العشرة الكبار» في هذا المجال. تلك المجموعات التي توسع نشاطها بشكل هائل خلال حقبة التسعينيات، لتشكل «إمبراطوريات» جديدة في عالم المال والأعمال، وهي:

١ـ مجموعة أنسي ساويرس (وآل ساويرس).
٢ـ مجموعة منصور والمغربي.
٣ـ مجموعة النساجون الشرقيون (محمد فريد خميس وشركاه).
٤ـ مجموعة أحمد عز.
٥ـ مجموعة إبراهيم كامل.
٦ـ مجموعة أحمد بهجت.
٧ـ مجموعة محمد أبو العينين.
٨ـ مجموعة شركات «غبّور».
٩ـ مجموعة طلعت مصطفى.
١٠ـ مجموعة سلام (أوليمبيك).

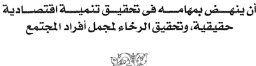
ويوضح الجدول (١) بياناً بأهم المؤشرات المالية والاقتصادية لتلك «المجموعات القابضة» التي تم نشر ميزانيات وقوائم مالية حديثة لها. ويلاحظ أنه لم يتم نشر قوائم مالية «منفردة» أو «مجمعة» للمجموعات التالية:

ـ مجموعة شركات «إبراهيم كامل».
ـ مجموعة «منصور والمغربي».
ـ مجموعة «أبو العينين».
ـ مجموعة شركات «غبور».

هذا ناهيك عن «مجموعة البليدي»، التي قضت نحبها مؤخراً، رغم أنها كانت من أقدم المجموعات. ولعل السبب في ذلك هو أنها ذات «طبيعة عائلية مغلقة»، ولا تعقد لها جمعيات عمومية تستدعي نشر القوائم المالية.

ورغم الطابع المختصر لمعظم تلك القوائم، ومحدودية درجة الإفصاح (de-gree of disclosure) التي

ألحّ الراحل «طلعت حرب» (مؤسس بنك مصر وشركاته)، على تلك العلاقة الوثيقة بين «المنافع العمومية» و«الربحية الخاصة». وكان يؤكد دوماً على أنّ الثروة الفردية إذا لم تتحول في ذات الوقت إلى ثروة عمومية، فلن ينجح «قطاع الأعمال الخاص» أن ينهض بمهامه في تحقيق تنمية اقتصادية حقيقية، وتحقيق الرخاء لمجمل أفراد المجتمع





جدول (١) بيـــان بأهم المؤشـــرات الماليـــة
والاقتصاديـــــة لعــــدد مـــــن المجموعـــات القابضـــة

المصدر: أحدث القوائم المالية المنشورة

م	اسم الشركة القابضة (المجموعة)	النشاط الرئيسى	تاريخ التأسيس	حجم رأس المال المدفوع		نسبة المساهمة العائلية فى رأس المال	الشركات التابعة		حجم الأرباح		إجمالى الالتزامات (مليون جنيه)	نسبة إجمالى الخصوم إلى حقوق الملكية
				مليون جنيه	الرصيد فى		عدد الشركات	متوسط نسبة مساهمة «الشركة الأم»	مليون جنيه	الرصيد فى		
١	شـــركـــة أوراسكوم تيليكوم القابضة	خدمات الاتصالات والتليفون المحمول		٩٠٠	يونيو ٢٠٠٠							(القـــروض إلى صـــافى حـــقـــوق الملكيـــة) ١:٣,٧ (الديون إلى صافى حقوق الملكية)
٢	شـــركـــة أوراسكوم هولدنج للفنادق	فنادق ومنشآت سياحية		٤٥٢,٤	مايو ١٩٩٨		١٩	٪٨٨,٨	٣- (خـــســـائر مرحلة)	ديسمبر ١٩٩٩	٤٩٧,٤	١:١,٠٩
٣	الشركة القابضة للاستثمارات المالية (لكح جروب)	توريد المعـــدات الطبـيـــة والوســـاطة فى مـــجـــال الاستثمارات المالية	نوفمبر ١٩٩٨	١٤٤٩,٩	ديسمبر ٢٠٠٠	٪٥٧,٧٠	٨	٪٩٧,٧	٢٩٩- (خـــســـائر مرحلة)	ديسمبر ٢٠٠٠		١:١,٣
٤ ١/٤	مجموعة العز شـــركـــة العـــز لصناعـــة حـــديد التسليح	صـــنـاعـــة وتجـــارة وتوزيع مـــســـتلزمـــات مـــواد البناء وصناعة الحديد بجميع أنواعه	أبريل ١٩٩٤	٤٣٠	ديسمبر ١٩٩٩		١	٪٩٠,٧				١:٢,٢
٢/٤	شـــركـــة العـــز للســـيـــرامـيـك والبورسلين (الجوهرة)	صـــنـاعـــة وتجـــارة وتوزيع بلاط الســـيـــرامـيـك وبلاط البورسلين	يناير ١٩٩٥	١٨١	ديسمبر ١٩٩٩		١	٪٩٧,٨				١:١,٩
٥	شـــركـــة أولـيـمـبـيـك جـروب للاستثمارات المالية (مجموعة السلام)	إنتاج الســخـانـات والمنتجات الهندسية	١٩٩٢ (دمج شركة نيازي سلام وأوليمبيك الكتريك)	٣٤٠,٩	ديسمبر ٢٠٠٠		٩	٪٧١,٣	٥٤,٣٥٦	للفترة ٣١-٤/١ ديسمبر ٢٠٠٠	١٨٨,٢	١:٠,٤٩ (الـتـــزامـــات متداولة: حقوق الملكية)
٦	شـركة الاسكندرية للاستثمار العـــقـــارى (طلعت مـــصـطفى وشركاه)	العـمل فى كـافـة مـجـالات الاسـتثمار العقارى، وإقامة المجمعات والوحدات السكنية	نوفمبر ١٩٨١ ١٩٨٤	١٩٥	ديسمبر ٢٠٠٠	٪٤٢,٥٧	٣	٪٢٩,٦	٤٤,٢	ديسمبر ٢٠٠٠	٢٤٥	١:١,٠٣
٧	شركة النساجون الشرقيون	صناعة السجاد		١٢٥	ديسمبر ٢٠٠٠		٣	٪٨٥,٣	٪١٣٥,٨	ديسمبر ٢٠٠٠	٤٥٢,٩	١:١,٤
٨	المجـمـوعـة المالية المصـرية (هيرمس)	القيام بالخدمات والسمسرة المالية بأنواعها		١٢٢,٥	ديسمبر ٢٠٠٠		١٢	٩١,٤	٥٣,٠١	ديسمبر ٢٠٠٠	٣٠٩٤ (الالتزامات المتداولة)	١:١,٤ (الالتـــزامـــات المتـــداولة إلى حقوق المساهمين
٩	شـــركة الأهرام للمـــشـــروبات (مجموعة الزيات)	صناعة وبيع البيرة الكحولية وغير الكحولية والنبيذ والمياه الغازية والمولت والمشروبات الأخرى	تم شراء الشركة القائمة التي تأسست عام ١٩٦١	١٠٢,٤٥	ديسمبر ٢٠٠٠		٣	٪٩٨,٠	١٧٢,٣٩	ديسمبر ٢٠٠٠		١:٠,٤٣ (الالتـــزامـــات مـــتـــداولة إلى حـقـوق الملكيـة) (الالتـــزامـــات طـويـلـة الأجـل تساوى الصفر)
١٠	شركة إنترناشونال إلكترونكس العالمية للإلكترونيات (أحمد بهجت وشركاه)	تصنيع الأجهزة الكهربائية والإلكترونية بكافة أنواعها وصيانتها والإتجار فيها	يناير ١٩٨٥	٥٤	ديسمبر ٢٠٠٠		٦	٪٦٠,٠	٤٩,٢٤.	ديسمبر ٢٠٠٠	٧٤٨	١:٤,٩ (الالتزامات إلى حـــقـــوق المساهمين)

تحويها تلك القوائم، فقد أمكن لنا تركيب الجدول (١) ليشير إلى أهم السمات الاقتصادية والمالية، لتلك المجموعات، وهى:

(١) حجم رأس المال المدفوع.

(٢) نسبة المساهمة العائلية (الأبناء والزوجات والأصهار).

(٣) عدد الشركات التابعة، ومتوسط نسبة المساهمة فى رؤوس أموالها.

(٤) نسبة حقوق الملكية إلى مجموع الالتزامات (قروض ودائنون)،

أو ما يسمى فى الكتابات المالية المتخصصة (gearing ratio).

(٥) حجم الأرباح السنوية.

وفى ضوء بيانات هذا الجدول، يمكن إبداء عدد من الملاحظات حول بعض «الخصائص البنيوية» لتلك «المجموعات القابضة»:

١ـ أن هناك طبيعة عائلية غالبة فى هيكل ملكية تلك المجموعات المالية القابضة. وتتراوح تلك الصبغة العائلية من شركات تكاد تكون مغلقة بالكامل (مجموعة العز، الأهرام للمشروبات، المجموعة المالية المصرية هيرمس)، إلى شركات نشأت نشأة عائلية ثم تم بيع حصة محدودة من رأس المال إلى الجمهور عن طريق الاكتتاب العام (مجموعة النساجون الشرقيون، شركة الإسكندرية للاستثمار العقارى «طلعت مصطفى وشركاه).

٢ـ ارتفاع عدد الشركات التابعة للشركة الأم، التى تصل فى بعض الحالات إلى ثمانى أو تسع شركات، وتصل نسبة مساهمة «الشركة الأم» فى هذه الشركات إلى نسبة كبيرة تتراوح فى معظم الأحوال بين ٨٩ـ٩٨٪ (راجع جدول (١) والملحق الإحصائى حول الشركات التابعة).

هنـاك مخاطر نشوء «أوضاع احتكارية» فى المستقبل، فى بعض قطاعات الخدمات الحيوية مما يؤدى إلى ممارسة أساليب احتكارية للتسعير، قد لا تتناسب مع «القدرة على الدفع» لمستهلكى الطبقة الوسطى

٣ـ أن عضوية مجالس إدارة تلك المجموعات، يظل معظمها محصوراً فى أيدى أعضاء «مجلس العائلة» من المؤسسين.

٤ـ أن هناك قدراً كبيراً من الشك حول حجم «رأس المال المدفوع» للشركة القابضة للاستثمارات المالية (لكح جروب)، حيث يبدو أن هناك مغالاة واضحة فى حجم رأس المال مما يؤدى إلى تصوير نسبة إجمالى الخصوم والمديونيات إلى حقوق الملكية بأقل من حقيقتها.

[٤]

يمكن القول بأن «حقبة التسعينيات» قد شهدت تمثيلاً قوياً لرجال الأعمال فى الجهاز المصرفى، سواء كمشترين لحصص رئيسية من أسهم البنوك المطروحة للخصخصة، أو كأعضاء فى مجالس إدارات البنوك المنشأة وفقاً لقانون الاستثمار. ولعل أبرز الأمثلة فى هذا الصدد:

(١) بنك مصر إكستيريور: حيث يظهر أنسى ساويرس (الأب) كعضو مجلس إدارة، كما يظهر محمد الجارحى ـ أحد رجال الأعمال «المتعثرين مالياً» ـ كمساهم رئيسى فى رأس مال البنك.

(٢) بنك مصر العربى الأفريقى: (مجموعة منصور ـ المغربى)، وتحديداً: محمد لطفى منصور، ياسين إبراهيم لطفى منصور، أحمد أمين المغربى ومحمد عاكف أمين المغربى.

(٣) البنك الوطنى المصرى: عبد المنعم سعودى وصفوان أحمد ثابت.

ومن ناحية أخرى، يتواجد معظم رؤساء تلك المجموعات المالية الكبرى كأعضاء فى مجلس إدارة المركز المصرى للدراسات الاقتصادية. وقد تأسس هذا المركز فى عام ١٩٩٢، بمبادرة من القطاع الخاص «لتدعيم ومساندة الإصلاح الاقتصادى، عن طريق القيام ببحوث تطبيقية ونشرها وتقديم المشورة والعون للقائمين على صنع السياسة الاقتصادية»، وذلك حسبما جاء فى ديباجة نشراته.

وتضم عضوية مجلس إدارة المركز شخصيات من كبار رجال الأعمال:

ـ جلال الزربة، رئيس مجلس إدارة شركة النيل للملابس الجاهزة (نائب رئيس مجلس إدارة المركز).

ـ محمد لطفى منصور، رئيس مجلس الإدارة والعضو المنتدب لشركة مانتراك، ورئيس مجلس إدارة مجموعة «منصور موتورز» (الأمين العام للمركز).

ـ إبراهيم كامل، رئيس مجلس إدارة «شركة كاتو أروماتيك».

ـ أحمد بهجت، رئيس مجلس إدارة «مجموعة شركات بهجت».

ـ أحمد عز، رئيس مجلس إدارة «مجموعة العز».

ـ أحمد المغربى، رئيس مجلس إدارة «شركة أكور» للفنادق.

ـ رشيد محمد رشيد، رئيس مجلس إدارة شركة فاين فودز جروب.

ـ شفيق بغدادى، رئيس مجلس إدارة شركة فريش للمواد الغذائية.

ـ محمد شتا، رئيس مجلس إدارة المجموعة الدولية للاستثمار.

ـ محمد شفيق جبر، رئيس مجلس إدارة مجموعة أرتوك.

ـ محمد فريد خميس، رئيس مجلس إدارة مجموعة شركات «النساجون الشرقيون».

ـ معتز الألفى، العضو المنتدب ـ الشركة الكويتية للأغذية (أمريكانا).

ـ محمد تيمور، العضو المنتدب ـ المجموعة المالية المصرية (هيرميس).

ـ منير عبد النور، رئيس مجلس



الإدارة والعضو المنتدب ـ شركة فيتراك للصناعات الغذائية.



والذى يلفت النظر بهذا الصدد، هو أن هذا المركز «المصرى» يتم تمويل أنشطته، بصفة أساسية، بواسطة أموال «هيئة المعونة الأمريكية»، و«مديره التنفيذى» هو أحد خبراء البنك الدولى القادمين من الخارج. ولعل هذه الأوضاع المؤسسية تؤثر (من حيث التمويل) على «الرؤية المستقلة» لمجتمع كبار رجال الأعمال، ومنهج المعالجة لقضايا التنمية والتطور الاقتصادى فى مصر. ولعل تلك «الصيغة» تعتبر صيغة فريدة من نوعها لمراكز «البحث والفكر» التى ينشئها رجال الأعمال فى بلدان العالم النامى.

ولا شك أن الوضع أفضل فى اتحاد الصناعات، والغرف التجارية، من حيث الاستقلالية والمرجعية الفكرية.

على صعيد «المجموعات المالية الكبرى» ذات الطبيعة القابضة، يمكن رصد ما يمكن تسميته «العشرة الكبار» فى هذا المجال. تلك المجموعات التى توسع نشاطها بشكل هائل خلال حقبة التسعينيات، لتشكل «إمبراطوريات» جديدة فى عالم المال والأعمال

[٥]

وحول الدور السياسى والمسئولية الاجتماعية لرجال الأعمال يشير الزعيم «سعد زغلول» فى مذكراته الخاصة إلى العلاقة بين التجارة والحياة السياسية. إذ يقول «سعد زغلول» فى مذكراته: «التجار لا يشتغلون بالأمور العمومية إلا بمقدار ما تروج به بضاعتهم عند العامة. لا يهمهم بعد ذلك «شكل الحكومة» إن كانت مقيدة أو مطلقة»!

وهذه الأقوال لسعد زغلول ـ زعيم الأمة فى مطلع العشرينيات من هذا القرن ـ لها أهميتها، من حيث إنها تطرح العلاقة بين «التجار» و«أرباب السوق» عموماً وقضية الديمقراطية فى مصر. وهل هناك مصلحة حقيقية وأصيلة لرجال الأعمال و«أرباب السوق» فى النظام الديمقراطى، وتعاظم دور قنوات التعبير عن الرأى العمومى؟! إذ إنه وفى ظل انتشار العديد من «الممارسات الفاسدة»، التى نشهدها من حولنا فى عالم الأعمال والمال الجديد، تصبح الرغبة فى الحفاظ على الأشكال والمؤسسات الديمقراطية وحرية الرأى رغبة واهنة إن لم تكن معدومة.

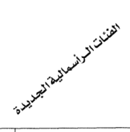
وضمن هذا السياق، لابد أن نطرح السؤال المهم التالى: هل يقوم رجال الأعمال بمسئوليتهم الاجتماعية فى مصر؟ وهل يتم ذلك من تلقاء أنفسهم أم تحت ضغوط معينة؟ وما هو الهدف الحقيقى من تبرعات ومساهمات رجال الأعمال الاجتماعية؟ هل هى الرغبة فى تدعيم النفوذ والفوز فى الانتخابات البرلمانية أو رئاسة وعضوية الجماعات والمنتديات الاقتصادية التى أصبحت تمثل كيانات ذات تأثير قوى فى صنع القرار؟

تلك التساؤلات كانت محور دراسة استطلاعية أجراها مركز البحوث والدراسات الاقتصادية والمالية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة القاهرة مؤخراً، حول المسئولية الاجتماعية لرجال الأعمال. وبلغ مجموع العينة التى تناولتها الدراسة ٦٤ رجل أعمال.

وعن أهم الإسهامات الاجتماعية لرجال الأعمال فى مصر، فقد جاءت بالترتيب التالى، وفق نتائج الاستطلاع المذكور: ١٤٪ لتوفير فرص عمل للشباب، ١٣٪ لسداد مصروفات الطلاب غير القادرين، ١٠٪ لتقديم مساعدات للفقراء، ٨٪ لدعم المشروعات الصغيرة، ٨٪ لإنشاء وتطوير المدارس، ٧٪ لتوفير الرعاية الصحية للمحتاجين، ٦٪ لتوفير الملابس للطلاب، ٦٪ لتطوير الخدمات الطبية، ٥٪ لشراء الكتب المدرسية.

وحول المقصود بجمعيات رجال الأعمال، أكد ٦٢٪ من رجال العينة أنها «تجمع لرجال الأعمال» لتبادل الآراء وخدمة مصالحهم، و١٠٪ يرون أنها «كيان اجتماعى»، و٣٪ أنها قامت بهدف التنسيق مع «أجهزة صنع القرار». ويؤكد ٢٥٪ من رجال الأعمال أن الهدف من هذه الجمعيات التعرف على مجموعة أخرى من نظرائهم، و٢٠٪ يرون أن الهدف هو «تحقيق الربح» للمشاركين فيها، و١٦٪ يشيرون إلى أن الهدف اجتماعى، و١٠٪ يؤكدون أنها «جماعات ضغط لتحقيق مصالحهم».

ولعل ما جاء فى مقال حديث للدكتور إبراهيم شحاتة يؤكد قصور جانب «المسئولية الاجتماعية» فى مجمل نشاط كبار رجال الأعمال فى مصر. إذ يشير إلى أنه من المفترض: «أن مهمة القطاع الخاص لا تقتصر على تحقيق أكبر قدر من الربح، وإنما تشمل أيضاً الإسهام بجزء من هذا الربح فى تقديم الخدمات الاجتماعية أو لتحقيق قدر أكبر من الرفاهية للمجتمع». ويستطرد: «هذه المسئولية الاجتماعية هى إحدى السمات الرئيسية للرأسمالية المستنيرة، بالمقارنة برأسمالية من يغتنمون فرص النهب السريع ويتبعونها بتهريب أموالهم إلى الخارج (رأسمالية النصابين) أو برأسمالية الذين يتكسبون من وراء فرص تتيحها لهم قرابة أو صداقة فى دوائر الحكم (رأسمالية المحاسيب) وكلاهما من شأنه ـ بعد فترة تطول أو تقصر ـ انهيار الاقتصاد الحر والمزيد من التوتر الاجتماعى. والثروة كسماد الأرض، إذا انتشرت تفيد الجميع، وإذا تمركزت على بقعة معينة أفسدتها» (راجع: الأهرام، ١٧ أبريل ٢٠٠١، ص١٠). ■



ملحق
بيان بالشركات التابعة للمجموعات القابضة
محل الدراسة ونسبة المساهمة فيها

المصدر: أحدث القوائم المالية المنشورة

م	اسم الشركة القابضة (المجموعة)	الشركات التابعة: اسم الشركة	٪
١	شركة أوراسكوم هولدنج للفنادق	١. شركة مقبلا للفنادق	٩٩,٩٩٪
		٢. شركة الخمسة للفنادق والمنشآت السياحية	٩٩,٩٧٪
		٣. شركة التبة للفنادق والمنشآت السياحية	٩٩,٩٪
		٤. شركة أوراسكوم للإسكان	٩٩,٩٪
		٥. شركة شدوان للفنادق (النور سابقًا)	٩٩,٩٪
		٦. شركة مارينا (١) للفنادق والمنشآت السياحية	٩٩,٩٪
		٧. شركة الجولف للفنادق والمنشآت السياحية	٩٩,٩٪
		٨. شركة مارينا (٢) للفنادق والمنشآت السياحية	٩٩,٩٪
		٩. شركة مارينا (٣) للفنادق والمنشآت السياحية	٩٩,٩٪
		١٠. شركة باراديسيو للفنادق والمنشآت السياحية	٩٠,٠٪
		١١. شركة الدوار للفنادق	٩٩,٩٪
		١٢. شركة الجونة	٨٧,٠٪
		١٣. شركة الميزة للفنادق	٩٩,٩٪
		١٤. شركة ميد طابا	١٠٠,٠٪
		١٥. شركة ريحانة للفنادق	٥٩,٩٪
		١٦. شركة الجونة للفنادق	٧٦,٠٪
		١٧. شركة طويلة للفنادق	٦١,٤٪
		١٨. شركة الجونة للنقل السياحي	٥١,٠٪
		١٩. شركة أكاسيا للفنادق	٦٢,٩٪
٢	الشركة القابضة للاستثمارات المالية (لكح جروب)	١. شركة تريدنج ميديكان سيستم إيجيبت	٩٧,٦٪
		٢. شركة ميديكيب للتجارة والمقاولات	٩٧,٨٪
		٣. شركة إميتريد للتجارة والمقاولات	٩٧,٠٪
		٤. شركة الاستثمارات الصناعية	٩٨,٠٪
		٥. شركة المصنع العربي للحديد	٩٧,٩٪
		٦. شركة الصناعات الاستهلاكية	٩٨,٠٪
		٧. شركة كويست كونسالت التجارية	٩٧,٥٪
		٨. شركة إدك المراكز الطبية	٩٨,٠٪
٣	مجموعة العز	١. شركة مصانع العز للصلب	٩٠,٧٪
		٢. شركة العز للسيراميك (الجوهرة)	٩٧,٨٪
٤	شركة أوليمبيك جروب للاستثمارات المالية (مجموعة السلام)	١. شركة القاهرة للصناعات الدقيقة	٨٩,٠٪
		٢. شركة القاهرة للصناعات المتطورة	٩٠,٠٪
		٣. الشركة الأولى للتجارة والتسويق ـ أونو	٩٠,٠٪
		٤. شركة المنتجات الهندسية والتوكيلات	٩٢,٠٪
		٥. شركة أوليمبيك إستورز للتجارة والتوزيع	٩٠,٠٪
		٦. شركة الدلتا الصناعية ـ إيديال	٧١,٨٪
		٧. الشركة الدولية للصناعات المتطورة	٥١,٠٪
		٨. شركة القاهرة للصناعات الخفيفة	٣,٥٪
		٩. شركة القاهرة للصناعات الهندسية الحديثة	٦٤,٩٪
٥	شركة الإسكندرية للاستثمار العقاري (طلعت مصطفى وشركاه)	١. شركة نوفوبارك القاهرة	٤٦,٩٪
		٢. الشركة العربية للمشروعات والتطوير العمراني	١٠,٠٪
		٣. شركة الإسكندرية للمشروعات العمرانية	٣٢,٠٪
٦	شركة النساجون الشرقيون (محمد فريد خميس)	١. شركة ألياف النساجون الشرقيون	٩٩,٠٪
		٢. شركة النساجون الشرقيون إنترناشونال	٩٤,٠٪
		٣. شركة النساجون الشرقيون بالولايات المتحدة	٦٣,٠٪
٧	المجموعة المالية المصرية (هيرمس)	١. المجموعة المالية للسمسرة في أوراق مالية	٩٩,٨٪
		٢. المجموعة المصرية لإدارة صناديق الاستثمار	٧٤,٨٪
		٣. المجموعة المصرية لإدارة المحافظ المالية	٦٦,٠٪
		٤. هيرمس للوساطة في الأوراق المالية	٩٧,٧٪
		٥. لإدارة صناديق الاستثمار هيرمس (HFM)	٩٠,٠٪
		٦. Hermes Corporate Finance Co.	١٠٠٪
		٧. EFG Hermes Advisory Inc	١٠٠٪
		٨. Hermes Financial Management ltd	١٠٠٪
		٩. المجموعة المالية ـ هيرمس لترويج وتغطية الاكتتاب	٩٩,٧٪
		١٠. المجموعة المالية هيرمس لتداول السندات	٩٩,٠٪
		١١. إي إف جي هيرمس للخدمات الإلكترونية	٩٩,٠٪
		١٢. إي إف جي هيرمس للإدارة	٩٦,٢٪
٨	شركة الأهرام للمشروبات (مجموعة الزيات)	١. شركة ريتش للتجارة والتسويق	٩٨٪
		٢. شركة الأهرام للتصنيع وتعبئة المشروبات	٩٨٪
		٣. شركة النيل للمشروبات	٩٨٪
٩	شركة إنترناشونال إلكترونكس العالمية للإلكترونيات (أحمد بهجت وشركاه)	١. الشركة العالمية للأجهزة الكهربائية	٦٠,٠٪
		٢. شركة جولدي للتجارة والتوزيع	٩٩,٠٪
		٣. شركة جولدي للصيانة	٩٩,٠٪
		٤. شركة جت للإلكترونيات والتجارة	٩٩,٠٪
		٥. الشركة المصرية لصناعة البلاستيك	٨٠,٠٪
		٦. الشركة المصرية لصناعة اللوحات الإلكترونية المطبوعة	٨٠,٠٪

العمارة فى مصر

من العشوائية إلى ما بعد الحداثة .. والعكس

عز الدين نجيب

قيل عن العمارة أنها أم الفنون، وهذا حق، أو لنقل أنها بيت العائلة الكبير الذى يجتمع فيه الأبناء والأحفاد من الفنون الحضارية المتصلة / المنفصلة: مثل النحت والتصوير والتصميمات الزخرفية.

والعمارة هى الوعاء العمرانى الذى يشكل ملامح المجتمع ويتشكل بها، فتصبح صورة شخصية له تعكس سلوكيات أفراده.

والعمارة هى أكثر الفنون ارتباطًا بالقيم والمعانى المطلقة للحياة والكون وانعكاسا لها، منذ أن كانت تعبيرًا كليًا محسوسًا عن العقائد والحاجات الروحية، وترجمة للإدراك الفلسفى للوجود والخلود فى الحضارات القديمة، حتى أصبحت جسرًا للتواصل الروحى بين العابد والإله الأوحد، أو مجمعًا ديمقراطيًا للجماعة الإنسانية فى شئونها الحيوية التى تشكل مصيرها، مثلما كانت ميادين أثينا وروما القديمتين.

وبالرغم من تجسيدها للقيم المجردة، فإن العمارة لا تقوم على التجريد، بل تنتهى إليه، ذلك أنها فى الأساس فن نفعى يؤدى وظيفة عملية حتى لو كانت معبدًا أو كنيسة أو مسجدًا، وأنها أيضًا الأكثر التصاقًا بالإنسان فى حياته اليومية، بدءًا من مسكنه ومتجره ومشغله، وصولاً إلى المشهد الخارجي الذى تلتقى به عيناه أينما توجه، حتى يشكل مجاله البصرى وذاكرته الحية التى ترتبط بالوجدان والمعانى السامية، وبهذا تنتهى إلى أن تكون قيمة مجردة، بمعنى أن تصبح رمزًا لشخصية المكان والزمان، وللإنسان الذى عاش فيها، ودالَّة على الهوية الثقافية للمجتمع.

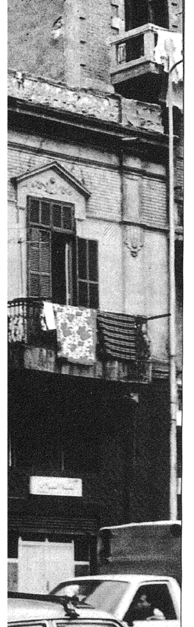
هكذا كانت العمارة فى مصر على امتداد التاريخ، فوق ما تميزت به من انفتاح وتفاعل مع العالم الخارجي، تأخذ منه وتعطيه، وتتأثر به لكنها تهضم عناصره المستعارة داخل شخصيتها القوية وبيئتها الحضارية، وخاصة أن الموقع الجغرافى لمصر جعلها ملتقى للقارات والحضارات، وبوتقة صهر للثقافات.. حتى عندما حلم الخديوى إسماعيل بأن يجعل من القاهرة قطعة من أوروبا وأعاد تخطيط شوارعها لتكون نسخة من باريس ونقل إليها أنماط العمارة الأوروبية وفنونها فى أواخر القرن التاسع عشر، استوعبت مصر هذه النقلة ومصرت أنماطها المعمارية، فصارت قطعة من الذاكرة المصرية الحية وليس من الذاكرة الأوروبية، وقد تعايشت مع الإنسان فى غدوه ورواحه عبر ذائقة فنية تقبل التطور وتنفتح على العصر.

... واليوم، بعد أكثر من قرن على «نقلة الخديوى»، ماذا حدث للعمارة فى مصر؟.. لقد شهد القرن الماضى فى تاريخنا العديد من النقلات، سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وتكنولوجيًا، وتغير من خلالها شكل الحياة ومضمونها.. سقطت أشياء ودخلت أشياء، اهتزت أشياء واختلطت أشياء، وأيًا ما كانت النتائج فإن الخلاصة هى غياب القيمة العليا للعمارة كرمز لشخصيتنا ودالَّة على هويتنا الثقافية.

لنلق نظرة خاطفة على المشهد العام للشارع المصرى، حتى نتبين ما آل إليه حال العمارة قديمها وحديثها، مستعينين بأسلوب التقطيع السينمائى للقطات والمشاهد المتتابعة.

مشهد (١)

العمائر الإسلامية والقبطية فى القاهرة التاريخية بين أحياء الأزهر والجمالية والغورية والقلعة ومصر القديمة، وقد حوصرت حتى الاختناق بالمبانى العشوائية من كل شكل ولون، وبزحام المرور وفوضى وسائل النقل، وبتشوهات الحفر والردم والمستنقعات وطفح المجارى والمياه الجوفية، وبمخلفات العمليات العشوائية الناقصة والمتعارضة لمشروعات الكهرباء والغاز والتليفونات، وبتلال القمامة والأنقاض، أما العمائر الأثرية ذاتها: فهى إما مريضة بآلام المفاصل والتصدعات أو غارقة فى برك المياه الجوفية، أو مصلوبة من أيام زلزال ١٩٩٢...



هكذا تحولت طرز العمارة العريقة وواجهاتها إلى صورة للقبح والفوضى

مشهد (٢)

شوارع وميادين وسط القاهرة بمنطقة العتبة وطلعت حرب وميدان التحرير.. العمائر الكلاسيكية ذات الطابع الأوروبي الباروكي أو العربي أو الأندلسي من أوائل القرن العشرين، تتشوه واجهاتها بأقبح اللافتات التجارية والإعلانات الاستفزازية، بل بالدهانات العشوائية لكل شقة بلون مختلف حسب هوى كل مستأجر، بل تتغير بنيتها المعمارية بإضافات ليست من نسيجها أو في قدرة احتمالها، ناهيك عما يزال منها غيلة لتحل محله عمارات عصرية مهجنة أو جراجات متعددة الطوابق أو مراكز تجارية شاهقة الارتفاع بأضعاف عرض الشارع.

مشهد (٣)

منطقة مصر الجديدة التي أسسها البلجيكي البارون امبان أوائل القرن الماضي على الطراز الإسلامي المتطور والمنغم بإيقاعات الأعمدة والبواكي التي تظلل المشاة، والمزين بالشرفات والزخارف العربية، والمشيد بمواصفات قياسية تشبع حاجة قاطنيه إلى الهواء والشمس والخضرة والأمان لسير المركبات والمشاة، إضافة إلى الفراغات المحسوبة بعناية للاستمتاع بالمشهد العام.. والآن تجتاحها المباني الحديثة فاقدة الهوية، وتبتلع حدائقها المحلات التجارية، كما تبتلع أرصفتها بضائع الباعة الجائلين، ويختنق المشهد الحضاري العريق بهجين الأنساق ومظاهر الفوضى، فاختفى طابعه المتفرد الدال على الهوية، لينضم إلى موكب العشوائية!

مشهد (٤)

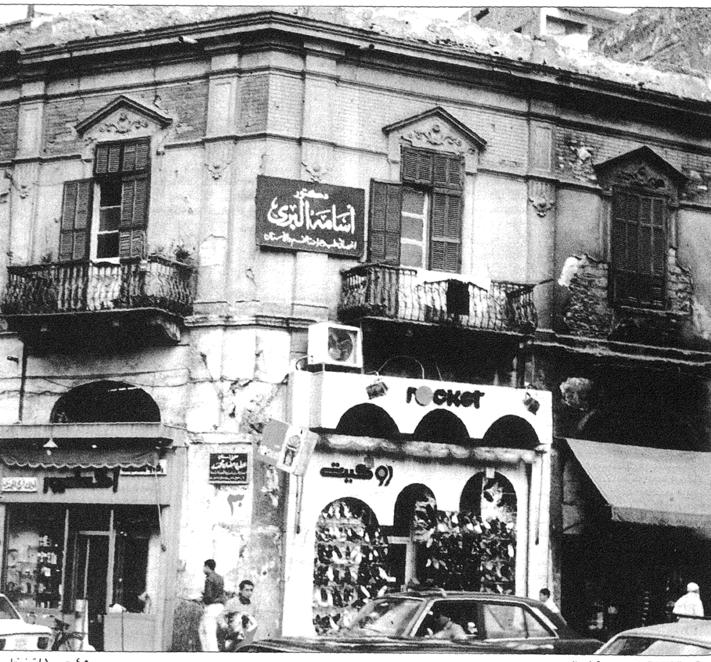
كورنيش النيل عند مدخل حي المعادى، وقد انتصبت على امتداده أبراج خرسانية عملاقة كئيبة الهيئة كأنها خوازيق تطعن الفضاء وتحجب الشمس والهواء ومنظر النيل عن سكان المناطق الخلفية، وتكرس نمطًا معماريًا دوليًا غريبًا على هويتنا ودخيلاً على نيلنا، ولعله التطبيق العملي لزحف العولمة في مجال العمارة، لتصبح خادمة لرأس المال التجاري وللشرائح الطبقية العليا على حساب الطبقات العريضة، فوق ما تفرضه العولمة من أنماط ثقافية جاهزة تسعى إلى توحيد الذوق العام مع النظام العالمي أحادي التوجه.

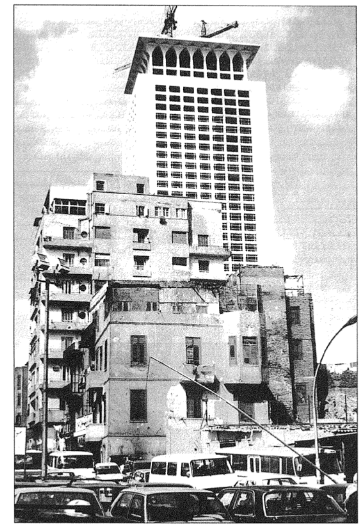
مشهد (٥)

الأحياء الجديدة الممتدة للقاهرة كمدينة نصر والمهندسين، ولن تختلف الصورة فيها كثيرًا عن أبراج كورنيش المعادى، مع خليط من التصميمات المنقولة من كتالوجات أجنبية، وقد كسيت بأقنعة الزخرفة المتبرجة الغليظة، بلا تحكم في خط ارتفاع المباني أو في بروزاتها الخارجية، ولا تكتفي بذلك، بل هي تمد ألسنتها وأنيابها فتلتهم أرصفة المشاة لتضمها إلى محالها التجارية، دون أن تضع وجود البشر في حساباتها إلا كزبائن لتلك المحلات، ناهيك عن عدم الاعتراف بوجودهم كسكان ذوي حقوق في هذه الشوارع، وعن انعدام التناسق الجمالي بين أنماطها المعمارية، لأنها أساسًا لم تشيد من أجلهم، بل من أجل فئات وشرائح الطبقات الجديدة التي نشأت مع عصر الانفتاح والاقتصاد الطفيلي وعبرت عن ذوقها.

مشهد (٦)

الأحياء الوطنية والشعبية القديمة بمناطق القاهرة، مثل السيدة زينب والحلمية وعابدين والزيتون، وقد امتدت إليها عدوى الهوس بالعمارة الحديثة لكن بأسلوب أكثر فجاجة وتنافرًا ليعكس أذواق محدثي النعمة من غاسلي الأموال المشبوهة، ونراها كل يوم وهي





مبنى وزارة الخارجية على كورنيش النيل محاصر بالفوضى والدمامة المعمارية واختناق المرور



تعلية العمارات بغير طرازها وفوضى الدهانات فى شرفاتها

تحل محل فيلات وعمائر ذات طابع جمالى أصيل يتم هدمها بليل بتصريحات مريبة بالإزالة، وتزداد تلك المناطق اكتظاظًا فوق اكتظاظها السكانى، لتتخذ طابعًا عشوائيًا يلتحم بالعشوائيات العمرانية الناشئة على جسد تلك الأحياء، بكل ما تحمله من تلوث بصرى وحضارى.

مـــــشـــــهـــــد (٧)

القرى السياحية والقصور والفيلات الجديدة المتناثرة على شواطئ مصر المختلفة وطرقها السريعة، وقد استعار الكثير منها الشكل الظاهرى لحلول فيلسوف العمارة حسن فتحى دون محتواها، فأفرغت أفكاره من مضمونها الاجتماعى والثقافى والاقتصادى الذى يستهدف فى الأساس خدمة الفقراء واستغلال خامات البيئة وتعاون الأهالى فى تشييد بيوتهم بأنفسهم، والاستغناء قدر المستطاع عن وسائل التهوية والتدفئة الصناعية باستلهام الحلول التقليدية المتوارثة، كل ذلك بجانب تحقيق الهوية الثقافية المستمدة من موروثنا الشعبى والحضارى.. فإذا بالقضية كلها تنقلب رأسًا على عقب، ليصبح المظهر الخارجى لعمارة حسن فتحى حلية يتحلى بها الأغنياء والسياح، وقد أعطت ظهرها لخامات البيئة الطبيعية واعتمدت على الخرسانة وعلى وسائل التبريد والتدفئة الصناعية، فيما تبنى المساكن الاقتصادية للشباب والفئات الشعبية كعلب سردين قبيحة الشكل تبدو سجونًا خانقة للأنفاس والأرواح.

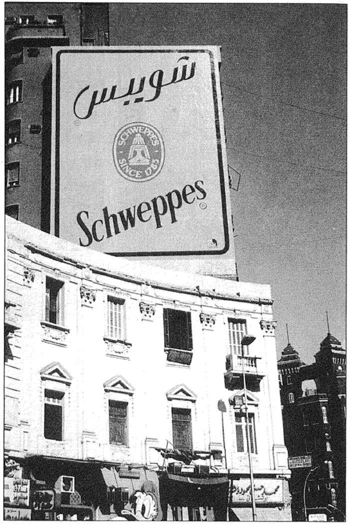
ضــــمـــيـــر المعـــمــــاريين

انطلاقًا من هذا المشهد البانورامى للواقع المعمارى اليوم فى مصر، نحاول هنا التعرف عن قرب على أفكار المعماريين أنفسهم حول جذور هذا الواقع ومنابعه فى ثقافة الغرب التى يحاكيها فى أغلب الأحيان، وكانت المناسبة هى المعرض الشامل الذى أقامته لجنة العمارة بالمجلس الأعلى للثقافة للعمارة بمصر خلال العقد الأخير من القرن العشرين، مصحوبًا بندوة علمية على مدى يومين لمناقشة قضايا الساعة حول العمارة فى مصر وذلك بهدف التوصل إلى رؤى تصورية عن مستقبل العمارة المصرية فى عالم تروج فيه ثقافة القطب الأوحد وفلسفته بحتمية صراع الحضارات وبإلغاء التنوع الثقافى البشرى الخلاق وإغراق أجواء العالم فى ضباب العولمة على حد قول الدكتور يحيى الزينى مقرر لجنة الهندسة بالمجلس الأعلى للثقافة.

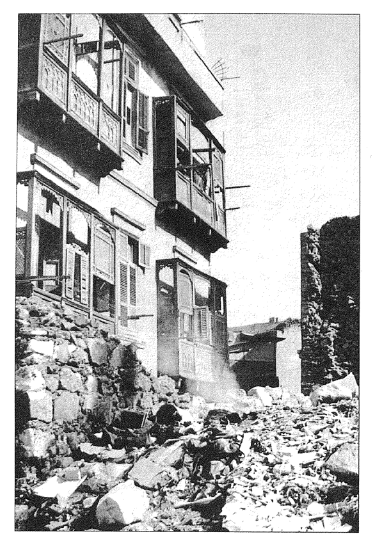
ولعل الجديد فيما يطرحه المعماريون هو اعترافهم أولاً بوجود الأزمة، وثانيًا هو الربط بينها وبين المتغيرات السياسية محليًا ودوليًا حتى تقترن بفكر ما بعد الحداثة وبعولمة الثقافة، وهو ثالثًا إدراكهم لخطورة انعزالهم عن الرأى العام الذى نتجت عنه حالة من انعدام الوعى بالبيئة العمرانية وبقيمة ودور المعمارى فى تشكيلها.

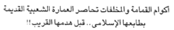
وقد طرح د. عبد الحليم إبراهيم العديد من الأسئلة المحورية أكثر مما قدم من إجابات حول ما إذا كان المعرض يمثل صورة دقيقة عن العمارة فى مصر اليوم (برغم أنه يضم

العمـــــارة هى الوعــــاء
العمــــرانى الـــــذى يشـــــكل
مـــلامح المجتمـــع ويتشـــكل بهـــا، فتصبـــح
صــــورة شخصيـــــة لــــه
تعكس ســـلوكيات أفراده



العمارة العريقة ضائعة بين الإعلانات التجارية
من أعلى والمحلات التجارية من أسفل





أكوام القمامة والمخلفات تحاصر العمارة الشعبية القديمة
بطابعها الإسلامي.. قبل هدمها القريب!!

٢٠٠ مشروع لـ ٤٠ معماريًا). ودور المكاتب الاستشارية فى تقديم طرح جديد واتجاهات معمارية لإقامة ركائز أو ثوابت فى العملية التنموية، أو لرصد المتغيرات وطرح رؤى جديدة لحل إشكالية التأصيل والتحديث، ثم ينتقل إلى التساؤل عن المرجع الفكرى للمعمارى المصرى عند استخدامه مصطلحات مثل الكلاسيكية والحداثة والتجاوز.. ويقول: كلاسيكية من.. نحن أم الآخر؟.. والحداثة بالنسبة لماذا؟.. والتجاوز عن ماذا؟.. وأخيرًا يتساءل عن القيمة والجودة فى تقييم العمل المعمارى.. ما هى معاييرها؟.. ومن الذى يحددها؟

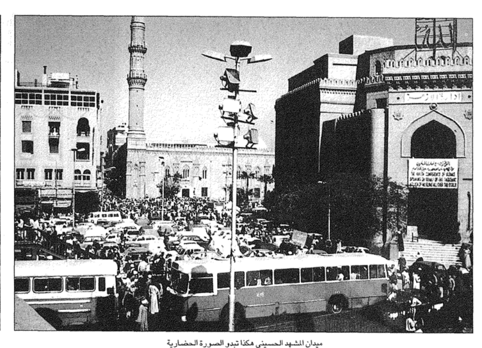
ويستعرض د. محمد أبو المجد تطورات حركة الحداثة وما بعد الحداثة فى العمارة فى أوروبا وأمريكا، ثم فى مصر. وعن حركة «الحداثة» يقول إنها إحدى نتائج الثورة الصناعية فى أوروبا وصعود الرأسمالية، وهى من الناحية الأيديولوجية ذات أسلوب دولى موحد (أو بالأحرى بدون أسلوب حسب قول Jencks) مثالية، ذات تكوينات حتمية، وظيفية، يلعب فيها المعمارى دور المنقذ أو الطبيب الذى يفرض رأيه، كما تمتاز بشموليتها، أما من ناحية الأسلوب فتمتاز بالصراحة والبساطة والفراغات موحدة الخصائص فى جميع الجهات، وكتلها تجريدية نقية، غير مميزة الأجزاء، أو هى علب صماء، وترتبط بجماليات الماكينات، وتتسم بالمنطق الصريح فى مسارات الحركة والتكنولوجيا والإنشاء، وهى ضد الزخرفة، ضد التظاهر، ضد التشبيهات المجازية، ضد الإيماءات التاريخية، ضد الفكاهة، ضد الرمزية..

أما اتجاهات «ما بعد الحداثة» فهى ثورة على «الحداثة»، وعودة إلى التراث بوصفه الذاكرة المكتوبة والشخصية لإنسان الحضارة، لكنها تجمع بين التضاد مع أفكار الحداثة وبين الاندماج معها، فلم يعد فى استطاعة المعماريين تحمل عمارة الحداثة المحملة بالقيم الأخلاقية المتشددة، ولابد من التعامل مع عناصر «التهجين لا النقاء، المزج لا الفصل، التشويه لا المباشرة، الغموض لا الوضوح».. من هنا ياتى اهتمام أصحاب ما بعد الحداثة بالتوسع نحو العامية والتراث التقليدى واللهجات الدارجة المسموعة فى الشارع، وبذلك تصبح العمارة مزيجًا من ذوق الصفوة ورجل الشارع.. وقد أضاف «إيهاب حسن» ـ الفيلسوف المصرى المقيم فى الغرب ـ أن التفكيكية Deconstructivism تقدم مساحة جديدة لحركة مبادئ ما بعد الحداثة.. إلا أن «جنكز» يرفض قبول ذلك، كما يرفض التكنولوجيا العالية، نظرًا لأن الاثنتين تحتاجان إلى ثقافات وإمكانات عالية مما ينفى صفة «الشعبية» التى تعد أساسية فى فكر ما بعد الحداثة. وقد أوجدت تلك التعددية فى التفسير تعددية فى اتجاهات ما بعد الحداثة.. خلاصة القول إن هذه الاتجاهات تقوم على «الازدواجية» كأساس فلسفى، و«التعددية» كاتجاهات معمارية.

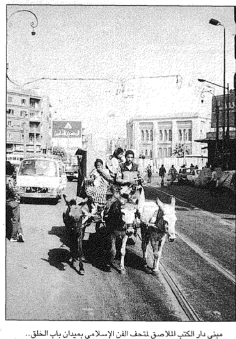
مصر.. مفاهيم ملتبسة!

وفى تطبيقه على واقع العمارة فى مصر، يصل د. أبو المجد إلى نتائج قد تتعارض مع ما استقر فى أذهاننا بشأن أعمال الرواد المعماريين فى مصر.. من جيل رواد الحداثة المبكرة حتى جيل الستينيات، حيث لا يرى فيهم تمثيلاً للأصالة والعودة إلى التراث، بل يرى أنه يتجلى لديهم معنى الاغتراب الثقافى والقطيعة مع التراث، من منطلق اللحاق بالغرب المتمدن، بينما كان الغرب آنذاك يمارس القطيعة مع التراث من مفهوم مختلف.. مفهوم الثورة على نفسه بحثًا عن جديد.. لكن د. أبو المجد لم يقدم لنا تقييمه للمراحل التالية للستينيات، والتى شهدت غلبة اتجاهات ما بعد الحداثة حسب المفهوم الفكرى سالف الذكر، بما فيه الاتجاهات الإحيائية للتراث واستلهام الإبداع الشعبى على نسق مدرسة حسن فتحى، مما يعنى أنها تمثل ملامح إيجابية لتاكيد ما ننادى به اليوم من تاكيد الهوية والانتماء الحضارى، فهل ذلك هو ما يميز الزحام المعمارى فى المجتمعات العمرانية الجديدة التى تكتظ بها الإعلانات المصورة فى الصحف بصفة مستمرة لترويج شراء وحدات سكنية أو تجارية بها؟.. وإذا كان الأمر كذلك.. فأين تكمن المشكلة إذن؟!

يقول الأستاذ سيد ياسين فى كلمته التى شارك بها فى الندوة ـ كمفكر استراتيجى وليس كمعمارى ـ إن سقوط الحداثة وظهور ما بعد الحداثة إنما هو سقوط للأنساق المغلقة فى الفكر والاقتصاد والسياسة على السواء، وبروز ـ فى المقابل ـ للنسق الفكرى المفتوح، وللتأليف



ميدان المشهد الحسيني هكذا تبدو الصورة الحضارية
تائهة وسط الزحام



مبنى دار الكتب الملاصق لمتحف الفن الإسلامي بميدان باب الخلق..
ضائع خلف عربة جمع القمامة والإعلانات والعشوائية

بين المتناقضات، في ظل ثورة معرفية كبرى، لكننا في مصر لا نملك رؤية استراتيجية متبلورة.. فلا نحن اشتراكيون، ولا نحن رأسماليون. بل نحن عاجزون اقتصاديًا أمام أوروبا والعولمة.

واجتماعيًا.. لدينا سيولة طبقية، أفرزت هيمنة للميول والأذواق الفجة التي تميز الفئات الاجتماعية الجديدة، في ظل حراك اجتماعي نحو هبوط الطبقة الوسطى، وفي ظل غياب للقيم الأخلاقية التي تقنن توجهات المجتمع وتحاسب على الثراء غير المشروع.. الذي ينعكس في الفوضى المعمارية التي نشهدها.

مسئولية المعماري

وبعيدًا عن الندوة وما دار فيها، وعن مصطلحات الحداثة وما بعد الحداثة، نستطيع أن نلمس أبعاد الأزمة وتجلياتها وسبل الخروج منها، من خلال رؤية مخطط معماري مرموق له دوره المؤثر في فكر التخطيط العمراني الحديث في مصر وبعض البلاد العربية، هو الدكتور يحيى الزيني، عضو المجالس القومية المتخصصة.

يقول في دراسة قدمها إلى شعبة الفنون بالمجالس، تحت عنوان «الحفاظ على القيم الحضارية في البيئة العمرانية والمعمارية»:

«إن العمارة أصبحت الآن - وفي جو الشره المادي والكسب السريع - تفتقر حقيقة لمن يطلب المستوى الرفيع ويقدر قيمة الجمال، بل لقد صارت إلى حالة من التدهور جعلتها حرمًا مباحًا لممارسات غير ذوي الاختصاص، ومجالاً لاجتهادات غير المتخصصين، وخاصة من بيدهم المال أو من بيدهم اتخاذ القرار..

(....) ومع ذلك فالمعماري مسئول عن حالة الاغتراب في العمارة التي تجتاح مدننا الآن، فالكثير من المعماريين تستهويهم التيارات الواردة، لا يفهمون منها إلا التشكيلات الخارجية والمظاهر السطحية اللافتة للنظر، دون تعمق حقيقي فيما تنطوي عليه من نظريات وما تحمله من فلسفات لا علاقة لها بنا ولا مواءمة بينها وبين تقاليدنا، ولا تناسب واقعنا الاقتصادي والاجتماعي والثقافي جميعًا.

وفي عبارة بليغة الدلالة يقول د. الزيني:

«إذا تبلد الحس وفسد الذوق العام وعمت اللامبالاة في المجتمع فلا نتوقع ازدهارًا لفن أو تقديرًا لقيم أو طلبًا لعمارة رفيعة.. فنحن نبني ونشكل البيت فيعود البيت ويشكلنا كأفراد، ونحن نبني المدينة فتعود المدينة وتشكلنا كمجتمع، ويتفاعل المجتمع في وعاء البيئة العمرانية فينتج حضارة أو لا ينتج، وهنا يصدق القول: «لكل مجتمع العمارة التي يستحقها». وبين الحضر الذي يشكله المجتمع العمراني، والحضارة التي يجب أن يتطلع إليها.. شوط بعيد، على المجتمع أن يقطعه بعزيمة مشحوذة ورهافة حس وطاقة خلاقة..».

مشروع قومي للخلاص

ويتجلى جوهر المثقف والمفكر الملتزم الذي لا يكتفي بطرح النظريات. يقدم لنا د. يحيى الزيني مشروعًا قوميًا متكاملاً لتجاوز الأزمة، في دراسة بعنوان «الشارع المصري ومجتمع المدينة بين التأثير والتأثر»، انتهى فيه إلى عشر توصيات مهمة نلخصها فيما يلي:

* في إطار المشروع القومي لإعادة الاعتبار للشارع المصري، يجب أن تناط إدارة عمران المدن الكبرى إلى جهاز متخصص متكامل، تحشد له الكفاءات الهندسية والفنية والإدارية، في كافة مجالات التخطيط والتنمية الحضرية والارتقاء بالبيئة العمرانية، بما تضمه من نواة تاريخية أو مناطق تراثية أو امتدادات عمرانية جديدة، وهذا الكيان هو «البلدية» التي تعمل أجهزتها في إطار المحافظة المسئولة عن إدارة المدينة ككل.

* في نطاق مسئوليات البلدية - المقترح إرجاعها - يجب معالجة القصور في القوانين واللوائح والقرارات المنظمة للتخطيط والتنمية الحضرية، وبصفة خاصة تلك المتعلقة باشتراطات البناء والهدم، بحيث تشمل كل العناصر التي تؤثر على القيم الجمالية في الشارع المصري.. مثل التوافق والانسجام بين المباني المتجاورة، والالتزام بتشطيب وإتمام واجهات المباني بالمستوى الجمالي اللائق، وإلزام الملاك والشاغلين بالعناية والصيانة الدورية للعقارات وخاصة الواجهات على الشارع ومنع العبث بها بالطلاء بألوان مخالفة للون العمارة أو إضافة عناصر بارزة أو تقفيل الشرفات أو وضع أجهزة تكييف الهواء بأسلوب عشوائي.. إلخ من نماذج التلوث البصري.

ويندرج في نطاق مسئوليات البلدية المقترحة أيضًا إلزام الملاك بإكمال تنفيذ المبنى بالصورة الجمالية المقررة وقيام السلطات الإدارية بالتنفيذ على حسابهم في حالة تقاعسهم، وإعداد تخطيط شامل لعواصم المحافظات والمدن الكبرى، وتعميم شوارع المشاة في منطقة وسط المدينة في إطار تخطيط شامل لحركة المرور، وتحديد محميات تراثية تحتضن حقبًا تاريخية مهمة من تاريخ مصر.

* إنشاء كيان مركزي (هيئة عامة) تتبع وزارة البيئة، وتختص بتخطيط وتصميم وإقامة وإدارة المسطحات الخضراء بكافة أنواعها ووظائفها، بما في ذلك مناطق الغابات والأحزمة الخضراء حول نطاق المدن، والعمل على زيادة نصيب المواطن من الرقعة الخضراء.

* إشراف وزارة البيئة على شئون النظافة العامة ومعالجة النفايات طبقًا لخطة استراتيجية شاملة تستند على تجارب البلاد المماثلة وتنفذها شركات متخصصة.

* معالجة مشكلات المرور المتفاقمة في المدن الكبرى بأسلوب علمي وبإسنادها لإحدى المؤسسات التخطيطية الهندسية والأمنية معًا.

* تنقية الشارع المصري من الهامشيين والمهمشين في إطار مشروعات رعاية الدولة والمجتمع لهذه الفئات المحرومة.

* إعداد دراسة (اجتماعية - هندسية - بيئية - نفسية) لمظاهر الخلل في البيئة العمرانية وأثرها في السلوك والصحة النفسية والبدنية للمواطن، تحت رعاية مشتركة من وزارات الإسكان والمرافق والصحة والسكان وشئون البيئة والمحليات.

* إزالة العقبات البيروقراطية أمام الجمعيات الأهلية المهتمة بهذه القضايا حتى تقوم برسالتها مساندة للدولة في تنفيذ مشروعاتها سالفة الذكر. ■

سمير فريد

في الذكرى
المئوية لميلاده



abdel wahab

وقفت أمام الكاميرا فى بداية العمل وقبل أن أعرف شيئا منه ونظرت إليها نظرة الواثق فى ظرفها ووداعتها ، ولكن مزاجها ويا للأسف كان من نوع آخر لا تفهمه ، فهى لا ترى فى الضوء الطبيعى ولا يكفيها من الأنوار إلا القدر الذى يشوى الوجوه إذا سلط عليها والجلود إذا اقترب منها ، كل ذلك وأنا شخص ضعيف النظر لا تفارق (النظارة) عينى ، ومع هذا فقد حتمت تلك الكاميرا الملعونة أن أخلع (منظارى) وأن ألاقى هذه الأضواء الساطعة الوهاجة وجها لوجه





أفلامه وأغانيه

اشترك محمد عبد الوهاب فى تمثيل ٧ أفلام كلها من إنتاجه عدا الفيلم الأخير وكلها من إخراج محمد كريم على مدى ١٣ عاما من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٤٦ ، وهى : «الوردة البيضاء» ١٩٣٣ ، «دموع الحب» ١٩٣٥ ، «يحيا الحب» ١٩٣٨ ، «يوم سعيد» ١٩٤٠ «ممنوع الحب» ١٩٤٢ ، «رصاصة فى القلب» ١٩٤٤ ، و «لست ملاكا» ١٩٤٦.

وظهر عبد الوهاب بشخصيته الحقيقية ، أى من دون تمثيل شخصيات درامية ، فى ثلاثة أفلام أخرى هى «غزل البنات» إخراج أنور وجدى عام ١٩٤٩ حيث قام بغناء «عاشق الروح» ، والفيلم القصير «الوطن الأكبر» إخراج عز الدين ذو الفقار عام ١٩٦١ ، و«منتهى الفرح» إخراج محمد سالم عام ١٩٦٣ حيث قام بغناء «قالوا لى هان الود عليه» .

فى الأفلام العشرة ٦٦ لحنا من ألحان عبد الوهاب منها ٤٥ أغنية يغنيها وحده ، و١٢ اغنية مع نجاة وليلى مراد وأسمهان ورجاء وراقية إبراهيم ونور الهدى ، و ٩ من ألحانه لكل من ليلى مراد وأسمهان ورجاء ونور الهدى ورئيسة عفيفى ومحمد أمين.

ومن البديهى ونحن نحتفل بالذكرى المئوية الأولى لمولد الفنان الكبير أن أهم ما يجب عمله للمحافظة على هذه الأفلام العشرة ترميم أصولها وطبع نسخ جديدة منها ، وتوفيرها على شكل مجموعة أفلام كاملة على شرائط الفيديو وأسطوانات الـ «دى فى دى» وغيرها من وسائط العرض الحديثة وذلك بالتعاون بين وزارة الثقافة وأصحاب حقوق هذه الأفلام بالطبع.

إن أفلام عبد الوهاب العشرة فضلا عن كونها من كلاسيكيات السينما المصرية ، فهى التسجيلات السمعية البصرية الوحيدة لأغانيه ، إذ لم يسجل أى منها للتليفزيون على شرائط الفيديو وكما أن ترميم هذه الأفلام واجب وزارة الثقافة ، فإن واجب وزارة الإعلام ترميم سلسلة أحاديث عبد الوهاب المسجلة للتليفزيون ، ونقلها على شرائط تحفظها لأنها بدورها الوثائق السمعية البصرية الوحيدة التى تكلم فيها. ولست أدرى بمحتويات متحف عبد الوهاب الذى تنشئه وزارة الثقافة ، ولكن من غير المعقول أن يخلو المتحف من هذه الأحاديث ، ومن تلك الأفلام وكل الوثائق المتعلقة بها.

الوردة البيضاء

يعتبر «الوردة البيضاء» أول أفلام عبد الوهاب الذى أنتج وعرض عام ١٩٣٣ نقطة تحول كبرى فى تاريخ السينما المصرية ، فقبل هذا الفيلم كان إنتاج الأفلام السينمائية سواء الصامتة من عام ١٩٢٧ أو الناطقة من عام ١٩٣١ من قبيل المغامرات الفنية والمغامرات المالية. كانت الأفلام تتكلف القليل وتدر القليل وقلما عرضت خارج مصر ، بل خارج المدن الكبرى داخل مصر. ولكن النجاح الساحق لفيلم «الوردة البيضاء» حيث حقق أرباحا تفوق تكاليفه عشرات المرات ، وعرضه فى كل المدن المصرية والعربية حيث كانت توجد دور للعرض كان البداية لوجود «صناعة السينما» فى مصر.

كتب عبد الوهاب فى تقديم الفيلم فى الملف الصحفى للعرض الأول :



عبدالوهاب



توافق هذه السنة (٢٠٠١) مرور مائة عام على مولد الموسيقار محمد عبدالوهاب، كما مرت الذكرى السنوية العاشرة لوفاته فى ٣ مايو الماضى.

وقد بدأت الاحتفالات بمئوية عبدالوهاب يوم ميلاده (١٣ مارس) فى معهد العالم العربى بباريس. وفى هذه الدراسة قراءة لأفلام عبدالوهاب السبعة الشهيرة من خلال الكتيبات الأصلية للعروض الأولى لهذه الأفلام فى الفترة من عام ١٩٢٣ إلى عام ١٩٤٦ والتى تمكن الكاتب من جمعها على مدى عام كامل من باعة الكتب القديمة ومصادر أخرى مختلفة.

وقد كان الفنان الكبير يكتب المقالات إلى جانب التلحين والغناء وإنتاج وتمثيل الأفلام، وتزيد مقالاته المنشورة على مائة مقال.

المحرر



سيداتى وسادتى

هويت الموسيقى بروحى - واندفعت نحوها بكل ما أملك من عقل وعزم وإحساس . حتى لم يكن يقنعنى منها أى قدر أناله.. مهما يبلغ كماله.. فظللت أدرسها من كل ناحية - وأتعقبها فى كل طريق - فلم أترك درسا علميا إلا وتلقيته - ولا تطبيقا عمليا إلا حضرته. حتى وثقت من نفسى - أنى أستطيع - باسم أمتى العريقة المجد فى الفنون عامة والموسيقى خاصة - أن أكون موسيقيا. فتقدمت - ونصب عينى - أن أكسب بهذه الروح الموسيقية - الكبيرة فى أمانيها القوية بإيمانها - اطمئنان ضميرى أمام الله والوطن والأمة. فاعتليت التخت.

ومن يوم أن اعتليت التخت، ملكتنى أمنية وهبت لها عزمى. وترقبت لها كل فرصة وجعلتها أملا لى فى الحياة، لا أبذل جهدا إلا فى سبيلها، ولا أضحى بعزيز إلا من أجلها، وهذه الأمنية تنحصر فى أمرين :

الأول: عدم وجود الوحدة الموسيقية فى الألحان.

وهذا عيب التزمه رجال الموسيقى إلى عهد غير بعيد. فقد كان التلحين الغنائى يشبه فى تكوينه الشعر العربى. فإذا قرأنا قصيدة وجدنا كل بيت فيها قويا فى ذاته، متينا فى تركيبه له معنى خاص يجعله مستقلا عن غيره.

أما أن يكون اللحن على ألوان متعددة غير متآلفة بحيث يمكننا أن نقنع منه بلون على أنه شىء حسن مستقل كما نعجب بالبيت فى القصيدة ونقنع به بحيث يمكننا أن نستشهد به دون غيره، لاستقلاله فى أداء المعنى ، فهو ما كرهته للموسيقى المصرية، لأنه يسهل السبيل إلى اتهامها بالعجز ، وكما يعانى القصصيون انسجام حوادث القصة وحبك عقدتها وإعطاءها المواقف المختلفة والظروف المفاجئة حتى ينتهى إلى الخاتمة المنتظرة أو غير المنتظرة أردت أن نعانى نحن الموسيقيين فى اللحن الغنائى - مثل هذا العناء - ولا نكتفى بجعله شطرات موسيقية كقصة استعراضية.

وقد بذلت فى ذلك مجهودا لا أعتد به ولكنى لا أحسب الشعب المصرى الكريم ينكره على لأنه مساهم معى فى هذا الجهد بتشجيعه لى فى كل خطوة تقدمت بها إلى تحقيق هذه الغاية حتى وفقت بفضله إلى حد كبير، واستطعت أن أجعل الموسيقى المصرية - كغيرها - تؤدى أعظم ما تتطلبه منها الحياة.

الأمر الثانى : إيجاد الأغانى الاجتماعية وقد وفقت فى إيجادها إلى حد ما - ولا أستطيع أن أدعى إتمام هذه الرسالة - فهى ما برحت فى مهدها محتاجة إلى جولات طيبة.

وأقول إلى حد ما، لأنه من الصعب أن أقدم أغانى اجتماعية فى حفلات عامة ساهرة قوامها التخت وعاداته المقيدة لأن التخت له جوه الخاص . فلا يمكن أن تصدر منه غير الألحان العاطفية المتصلة بالشعور لأن جمهوره لم يحضر إلا لإشباع هذه الرغبة فإن لم يهدئ التخت أفكاره ويعالج شعوره لم يكن تختا موفقا يستحق تقديره.

أجل لقد استطعت أن أخضع موسيقى التخت للوصف فى قطعتى «البلبل» و«فى

محمد عبدالوهاب وسليمان نجيب فى فيلم «الوردة البيضاء» عام ١٩٣٣



على غلاف العدد
بورتريه محمد عبدالوهاب فى شبابه
للفنان حلمى التونى
من معرضه «وجوه جميلة من زمن جميل» ١٩٩٨.
زيت على قماش ٤٠ × ٣٢سم

الليل» لأمير الشعراء وأستطيع أن أقطع آخر مرحلة من هذا الطريق كلما قدم لي شعر من هذا النوع.

ولكن هذا لا يغني عن الأغنية الاجتماعية، ولا يجعلني أقعد عن إيجادها، فأزمعت في يوم ما تأليف فرقة أوبرا مسرحية لتحقيق هذه الفكرة فصادفتني موانع عديدة لم أستطع تذليلها فتركت الأمر للظروف، وأنا جد ولوع به، قلق على يوم تحقيقه، مترقب له كل مناسبة، حتى كان أن أخذت السينما مكانتها من القلوب وغمرت جميع العقول في العالم كله وذهب الجمهور المصري في عشقه بها إلى أبعد حد. فلم أتوان أن ألحق به من هذه الناحية، وأن أوجد الموسيقى الاجتماعية على حسابها، وأن أواجهه بها عند الأمر الذي أحب، وعندما وقف منه العقل والقلب.

ولقد ارتحت إلى هذه النهاية، ولاسيما أن الجمهور عندما يشاهد قصة في السينما إنما يشاهد مجهودا جبارا، تناوله المران والتجارب والوقت المديد، حتى صقل وأتقن بما أخذ من أجمل الظروف وأليقها للعمل من كل ناحية، الأمر الذي لا يوجد في التخت أو المسرح إذ يضطر المغني أو الممثل أن يظهر كما تقتضي الظروف مرغما بوقتها مكرها.

وفي نفس الملف كتب عبد الوهاب :

لو سألني سائل منذ بضعة أشهر عن السينما، لما ترددت لحظة في إجابته بأنها عمل قريب التناول سهل المأخذ لا تعرف الصعوبة سبيلا إليه.

إذ ليس على الإنسان إلا أن يواجه الكاميرا ويؤدي الحركات التي يستلزمها دوره فتلتقط صورته على الأوضاع المطلوبة دون جهد ولا عناء.

كان هذا اعتقادي في السينما إلى اللحظة التي ملأت رأسي فيها فكرة الظهور على الشاشة، ولكنني ما كدت أخطو الخطوة الأولى في التنفيذ حتى تبخر ذلك الاعتقاد القديم وحل محله رأي جازم بأن الله لم يخلق المشقة والعناء في هذا العالم إلا ليجعلهما من مستلزمات السينما وأولياتها.

لقد وقفت أمام الكاميرا في بداية العمل وقبل أن أعرف شيئا منه ونظرت إليها نظرة الواثق في ظرفها ووداعتها، ولكن مزاجها ويا للأسف كان من نوع آخر لا تفهمه، فهي لا ترى في الضوء الطبيعي ولا يكفيها من الأنوار إلا القدر الذي يشوي الوجوه إذا سلط عليها والجلود إذا اقترب منها، كل ذلك وأنا شخص ضعيف النظر لا تفارق (النظارة) عيني، ومع هذا فقد حتمت تلك الكاميرا الملعونة أن أخلع (منظاري) وأن ألاقي هذه الأضواء الساطعة الوهاجة وجها لوجه، وذلك يستلزم بطبيعة الحال أن نجري بعض تجارب على الأنوار قبل أن يعتدل مزاج كريم ويسمح للكاميرا بتأدية عملها.

هذا ولعلكم حذرتم أن ذلك المطرب الذي كنت أسمعه وأشارك إخواني الإعجاب به، لم يكن غير صديقكم الضعيف.



وكتب مخرج الفيلم **محمد كريم** :

«أرى من العبث أن أدلل الآن على أهمية المخرج السينمائي أو أن أستعين بأقوال المشتغلين بالسينما على الكلام عن الإخراج فالعالم يتطور.. ويتطور من جميع الوجوه وقد شمل التطور نظريات الإخراج السينمائي، والذين يهمهم أمر السينما متربصون لهذا التطور ويدركون مداه، ويقدرون الفرق بين ما كان عليه الإخراج منذ بضع سنوات وبين ما أصبح عليه الآن، ولم يعد الإخراج أمرا مهملا كما كان في الماضي، أو أمرا ثانويا في نظر البعض بل أصبح الإخراج هو (الروح) الخفية التي تدب في جسم الرواية فتحييها وتبعث فيها الحياة، وهو القوة الشائعة في جزئياتها، والدم الحار الذي يجري في أصغر شريان فيها.

والإخراج كما قلت يتطور فهو كالموضة، فكما أن الموضة التي كنا نأخذ بها في ملبسنا سنة ١٩٢٠ مثلا قد تطورت، كذلك الإخراج الذي كنا نأخذ به في سنة ١٩٣٠ تطور وإخراج ١٩٣٢ يختلف عن إخراج ١٩٣٣، وهذا التطور يتمشى مع الزمن، فأنا أخرجت فيما مضى بضع روايات ولكنني أقرر أني كنت كذلك أتمشى مع الظروف التي كانت تحيط بي، وأشعر أن إخراج كل مرة كان أكثر حياة وأكثر تطورا من الإخراج الذي سبقه، وقد أدرك الناس ذلك الفرق وتذوقوه واستساغوه لأنه جاء موافقا لميولهم وأذواقهم، متمشيا مع التطور الذي يأخذون به ويسيرون عليه.

والآن أقول للجمهور المصري العزيز هاك فيلم «الوردة البيضاء» إخراج ١٩٣٣، وإذا قلت إنه إخراج ١٩٣٣ فأقصد أن أقول أنه يرقى إلى مرتبة الإخراج في أمريكا وأوروبا.

وسوف يحس الجمهور بعظمة التطور الذي أخرجت به هذه الرواية. وهو في الواقع قضاء على كل نوع لي سبقه من الإخراج، وقد تعمدت ذلك، وهذا هو مبدئي الذي أدين به وهو أن أجعل الجديد مظهرا لآخر ابتكار فني أخرجته العقول في أمريكا وأوروبا.

وأنه عهد أقطعه على نفسي.. فإلى اللقاء في عام ١٩٣٤ إن شاء الله».

وكتب **سليمان نجيب** الذي اشترك في كتابة السيناريو وتمثيل دور إسماعيل :

في أواخر صيف سنة ١٩٢٩ شاهدت في دار سينما رويال بالإسكندرية (لورا لبلانت) في رواية SHOW BOAT تغني وتتكلم على الشاشة البيضاء وكانت دهشة وكانت مفاجأة وخرجت بعد الفيلم وأنا لا أصدق نفسي وكبرت في عيني وفي نفسي تلك الأشخاص التي تحتل مكانها على الشاشة البيضاء وأين أنا المتفرج البسيط من هؤلاء العباقرة الذين نصفق لهم معجبين. وتدرج الاختراع يوما بعد يوم إلى أن شاهدناه في أوجه وفي قمم مجده هو يكبر ويتكبر معه هذه النجوم ونحن كمتفرجين (نكش) وننكمش، وقذفتنا هوليوود وباريس وبرلين ولوندرة بمعجزاتها ومرت هذه المعجزات وأنا قابع في كرسي المتفرج الضئيل.

وقيل لي أتمثل ؟ أتلعب دورا على الشاشة البيضاء ؟ وهذا الشيء الذي يسمونه التمثيل في دمي وكم كلفني ولكن المسرح همه محتمل وفي ساعات ثلاث تنتهي الرواية وينسيك التصفيق تعبك، ثم تنهال عليك التهاني قليلها حقيقي وكثيرها ملق ودهان. أما السينما، وترددت قليلا ثم قبلت ثقة مني بمن أعمل معهم، وكريم صديقي أولهم، سيأخذ بيدي ويصعد معي السلم إلى حيث يرى الجمهور عملي ومجهودي، وسافرنا وبدأنا العمل وأنا خائف وجل ولكن القارئ سيتساءل أهناك داع للاضطراب والخوف، ولو علم أني شعرت بخطورة مركزي كمبتدئ حيث وقفت بجانب نجوم السينما بدار TOBIS وأبطال الفن لعرف أني محق في وجلي، مصري في فرقة مصرية منظور إلى مجهودها بعين الشك من الجميع يعمل على مقربة من الممثل الألماني الشهير فروليش والنابغة الفرنسي نويل والحسناء كاميلا هورن ونحن نسير حينا مقتنعين من حوالينا بمجهودنا وأننا لا نقل شيئا عن جيراننا.

وانتهى العمل في أواخر أغسطس وبقي الصديق كريم لعمل المونتاج وتجهيز الفيلم وهو أصعب ما في العمل ولا أطيل عليك الحديث فقد وصل كريم وذهبنا إلى رويال لمشاهدة الفيلم لأول مرة.

وكتب **زكي رستم** الذي مثل دور شفيق :

إذا أردت أن أكتب عن فيلم الوردة البيضاء، هذا العمل الفني الدقيق، فلا تكفي صفحة كهذه لكي أصف فيها بدقة ما عاناه القائمون بعمل هذا الفيلم من الصعاب والمشاق حتى تم إخراجه على تلك الصورة المشرفة التي سترونه عليها، والتي جعلتنا في باريس موطن الفن موضع احترام أولئك الذين اختصوا بتلك الصناعة هناك ودرسوا دقائقها وكشفوا القناع عن سرها، ولكن على سبيل الذكرى سأصف موقفا لي أثناء قيامي بدوري في الفيلم ترك في نفسي أثرا لا أنساه.

أخرج الفيلم في باريس في استوديو توبس، ولقد مثلت قبل ذلك في عدة أفلام مصرية ولكنها كانت كلها صامتة وأخرجت في مصر ولكن هذا الفيلم كان أول فيلم ناطق قمت بدور فيه وأخرج في أوروبا.

وصلنا إلى باريس وفي اليوم التالي ذهبنا بصحبة المخرج السينمائي محمد كريم لزيارة الاستوديو أولا والتعرف بمديريه والقائمين بالعمل هناك من فرنسيين وألمان، فكانوا يستقبلوننا بالابتسام، ولكنها كانت ابتسامات غريبة ونظرات ملؤها فضول لم أفهم سره مع ما كنا عليه من حسن الهندام ورقة في المجاملة والتعارف.

سألت كريما عن سر ما قرأت في وجوههم. فقال لقد شاهدونا وشاهدوا آلاتنا الموسيقية فهم يتوقعون منا تهريجا لا فنا صحيحا ورقصا بالبطن على أنغام لا عهد لهم بها، فيقطعون الوقت في الضحك واللهو بتمثيلنا ولكن صبرا إلى الغد فسيرون منا ما يجعلنا أندادا لهم وزملاء لا يقلون عنهم ذخيرة بفنهم، فأعجبتني من كريم هذه الثقة بالنفس.

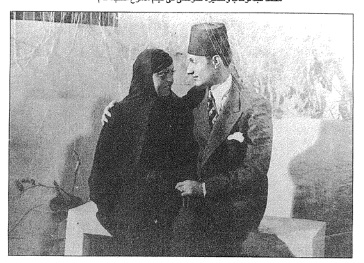
قمت بالتجربة أمام كريم لأول جزء من المشهد مرة ثانية وهو يزودني بملحوظاته حتى اكتفى وقال لنبدأ عملية الالتقاط، وهنا أصدر أوامره لعمال النور ومهندسي الصوت والمصورين، فكان كل منهم يلبي أوامره بكل دقة وطاعة ثم سمعت صوتا جهوريا ينادي: أقفلوا الأبواب أشعلوا الأنوار فشعرت إذ ذاك برجفة تسري إلى جسمي.

ستدار الكاميرا الآن، سيسجل الميكروفون كل لفظة تخرج من فمي، وهذه العيون ترمقني! ليست هي نظرات عادية، بل هي نظرات فنية صادرة عن رؤوس ملؤها الفن الصحيح وأنا غريب ومصري: أأترك لهم فرصة يسخرون فيها منا ومن بلادنا وفننا ؟ تمالكت نفسي في دقيقة واحدة وأصبحت كأستاذ يلقي درسا على تلامذته.

كان يعرض علينا في الأستوديو كل يوم ما عملناه في اليوم الذي سبقه، فكنا نراه وننسر به كثيرا، ولكنا لم نشعر بعظمة النتيجة ونجاحها إلا يوم أن عرض علينا الفيلم لأول مرة في مصر بعد أن انتهى الأستاذ كريم من ترتيبه وتنسيقه لكي يكون صالحا تماما للعرض العام.

في حواره مع سعد الدين وهبة في كتاب

محمد عبدالوهاب وسميرة خلوصي في فيلم «دموع الحب» عام ١٩٣٥



«النهر الخالد» الذى نشرته دار سعاد الصباح فى القاهرة عام ١٩٩٢ يشير عبد الوهاب إلى وجود فيلم قصير صوره عن أغنية بعنوان «الراين» من تلحينه وغنائه وشعر على محمود طه ، ولكن الفيلم احترق فى حريق ستوديو مصر.

عن «الوردة البيضاء» يقول إنه صور فى باريس ، ولكن تم تسجيل الأغانى فى برلين ، وكانت الفرقة الموسيقية مكونة من السنباطى على العود ، ومحمد عبده صالح على القانون ، وجميل عويس عازف الكمان ، وعزيز صادق عازف الناى.

عن «جفنه علم الغزل» يقول عبد الوهاب فى الكتاب / الحوار :

«لحنتها فى برلين.. أيامها كانت الموضة موسيقى الرومبا ، قررت أن ألحن قصيدة بشارة الخورى مستخدما هذه الآلة (ماراكاس)..

كانت الفرقة الموسيقية قد عادت ما عدا محمد عبده صالح وجميل عويس وعازف الرق.. إنها أغنيتى الوحيدة من غير عود.. وذهبت إلى محمد كريم فى باريس وطلبت منه إضافة الأغنية.. قال أين الفرقة الموسيقية قلت له عندك الأسطوانة.. وكانت هذه أول مرة تستخدم فيها الطريقة التى أصبحت معروفة باسم «البلاى باك» . هناك لوحة فى ستوديو اكلير تذكر ذلك » .

السبب الرئيسى لإقبال الناس على مشاهدة «الوردة البيضاء» مشاهدة عبد الوهاب فى ذروة نجاحه ، ولم تكن شهرته تقتصر على مصر وإنما تمتد إلى كل البلاد العربية ، ولذلك حقق الفيلم فى هذه البلاد نفس ما حققه من إقبال فى مصر.

فى «الوردة البيضاء» يغنى عبد الوهاب ثمانى من أغانيه، ٦ من تأليف أحمد رامى (يا وردة الحب الصافى - نادانى قلبى - يا لوعتى يا شقايا - ياللى شجاك الأنين - سبع سواقى - ضحيت غرامى) ، وأغنية «النيل نجاشى» تأليف أحمد شوقى ، وأغنية «جفنه علم الغزل» تأليف بشارة الخورى (الأخطل الصغير)



قصة الفيلم عن الشاب الفقير محمد جلال (محمد عبد الوهاب) الذى يعمل موظفا صغيرا فى إدارة أملاك إسماعيل بك (سليمان نجيب) حيث يتبادل الحب مع رجاء (سميرة خلوصى) ابنة صاحب الدائرة ، ولكن زوجة أبيها فاطمة (دولت أبيض) تحول دون زواجهما حتى تتزوج شقيقها شفيق (زكى رستم). تاتى الفرصة للتفريق بين الحبيبين عندما يقوم محمد بتقبيل رجاء ويراهما شفيق فيبلغ إسماعيل بك الذى يطرد محمد من العمل. يصبح محمد من كبار المغنين ، ولكن شفيق يتمكن من إقناع رجاء بأن محمد لم يعد يحبها ، وأن له علاقات غرامية كثيرة ، فتوافق على الزواج من شفيق ، وفى ليلة الزفاف يغنى محمد حول أسوار القصر : «ضحيت غرامى عشان هناكى» .



عبد الوهاب

تعبر هذه القصة الرومانسية عن المناخ السائد فى الأدب والشعر وغيرهما من الفنون ، زمن إنتاج الفيلم حيث كان أدب المنفلوطى الأكثر رواجا بين القراء ، ويبدو ذلك بوضوح فى نهاية الفيلم الحزينة التى تنتصر فيها المؤامرات على الحب ، وتتم التفرقة بين الحبيبين. وقصة الفيلم عن رواية منشورة لكاتب مغمور يدعى محمد متولى من الواضح أنه كان يحاكى قصص المنفلوطى.

ومن الملاحظ أن عناوين الفيلم لا تشير إلى إعداد القصة عن رواية منشورة ، وكذلك الملف الصحفى.

وقد نشر عن الفيلم فى مصر والبلاد العربية عشرات المقالات ، بل وكتبت عنه القصائد الشعرية ومن أمثلة ما نشر مقال فى «الفجر» السودانية لرئيس تحريرها عرفات محمد عبد الله فى عدد أول يوليو ١٩٣٤ عند عرض الفيلم فى السودان ، وفيما يلى مقتطفات من المقال:

لقد كان الإعلان مغريا ومثيرا لفضول الجمهور وتطلعه ، فمن لم يشأ أن يستعجل الأيام ليرى فيلم «الوردة البيضاء» وليشهد عبد الوهاب محبا وممثلا وفنانا ؟ عبد الوهاب الذى إذا غنى رقصت له القلوب استحسانا وإذا تهادى فى مشيته على شاطئ النيل النسيم حاكته الغصون افتتانا ، عبد الوهاب الموسيقار الذى سمعوه فى «جارة الوادى » وفى «الليل » وفى «الهوى والشباب» وفى «يا شراعا» ، لابد أن يأتيهم فى مقطوعاته الغنائية فى «الوردة البيضاء» خصوصا فى قطعة «النيل» للمرحوم شوقى بك ، لهذا تطلع الجمهور وتشوق إلى «الوردة البيضاء» واستبقوا لدى الباب فى جميع الليالى التى عرضت فيها «الوردة البيضاء» فى الأسبوع الماضى. لقد كان أسبوع عبد الوهاب وكفى.

أما مناظر مصر الساحرة فقد كانت متقنة أيما إتقان فمصر الصاخبة ، مصر الوادعة ، ومصر فى منتصف الليل ، ومصر فى الصباح ، كانت تنطق المناظر بعظمتها وجلالها. مصر أم الدنيا وملتقى جمال الشرق والغرب، كنت تشهدها كانك فيها وبين جمالها تحادث أبناءها وتلاطف فتياتها، تقطف أزهارها وتنعم بسمائها الصافية ، والريف مرتع الحب البرئ والجمال الذى لم يعرف التطرية ، الريف بنيله الباسم الجبار وسمائه الصافية الزرقاء وقمره السامى المضئ، وأشجاره المورقة التى تحتضن المحبين، ونسيمه العليل الذى يداعبهم ويهزأ بهم ، هى التى أخرجت عبد الوهاب وغير عبد الوهاب من الفنانين. وهل تستغرب على مصر نبوغ فنان والفن يغمر نواحيها ؟ كان كل هذا يظهر على الشاشة واضحا جليا غير أن الانتقال من منظر إلى آخر كان سريعا وكنت تشعر كأنها مناظر من خلف التى تشاهدها يزاح عنها ستار.

والآن لنقل كلمة موجزة عن الممثلين :

إن من النظارة لم يعجب بعبد القدوس فى دور خليل أفندى الباشكاتب ؟ وهل كان إلا ممثلا حقيقيا لحياة الكتبة ، ألم يذكرنا ببعض الشخصيات المحبوبة عندنا فى دور الحسابات، حيا الله أيامهم ؟ !

عبد الوهاب موهوب : رزق الصوت الجميل والحنجرة المرنة طوع مراده يموج بها اللحن فيذوب السامع فى طياته يعلو به ويهبط، وأنت تتبعه بروحك وتشعر بانك صاحب اللحن الملذوذ بجماله وسحره المكتوى بجمره.ليست حنجرة فقط وإنما أنامل رقيقة ونفس شاعرة . أنامل إذا عزفت تحرك لنغمها الجماد ، هى التى تستطيع أن تخرج نغمًا يجارى ذلك الصوت فى تموجه وفى رقته ، فبهذا الصوت وبهذه الأنامل وبهذا التلحين جاء عبد الوهاب لهذا العالم قطعة موسيقية ، وحسب الإنسان أن يكون موسيقى الحياة ، وحسب فيلم «الوردة البيضاء» تلك الموسيقى، وتلك المقطوعات الغنائية اللذيذة، ففيها لذة وفيها روعة وفيها نشوة وفيها ذكرى ولوعة» .

دموع الحب

وفى عام ١٩٣٥ أنتج عبد الوهاب وعرض فيلمه الثانى «دموع الحب» وفيه يعتمد على أشهر روايات المنفلوطى مباشرة ، وهى رواية «ماجدولين» للكاتب الفرنسى الفونس كار. فى «دموع الحب» يعمل محمد فكرى (محمد عبد الوهاب) موسيقارا أيضا ، كما فى «الوردة البيضاء» ، ونراه فى البداية متواضع الحال يعمل مدرسا للموسيقى ، ويتبادل الحب مع نوال (نجاة) ابنة أحد الأثرياء ، كما فى «الوردة البيضاء» تماما. تسافر نوال إلى لبنان حيث تلتقى مع حلمى (سليمان نجيب) صديق محمد. يرث محمد مالك المنزل الذى يسكن فيه ، ويصبح ثريًا ، ويبنى فيلا ليتزوج نوال ، ولكنها تتزوج حلمى وتذهب معه إلى باريس لقضاء شهر العسل.وهناك تكتشف نوال عدم إخلاص حلمى وإدمانه للخمر والقمار. يموت والد نوال وينتحر حلمى عقب خسارة كبيرة فى القمار. ينجح محمد ويصبح من كبار المغنين ، وعندما تذهب إليه نوال يرفضها ، فتنتحر ويغنى عبد الوهاب أمام قبرها «أيها الراقدون تحت التراب» .



بهذه القصة ، وتلك المعالجة ، يكاد «دموع الحب» أن يكون تكرارا للفيلم الأول «الوردة البيضاء» نتيجة النجاح الكبير لهذا الفيلم . بل

محمد عبدالوهاب وليلى مراد فى فيلم «يحيا الحب» عام ١٩٣٨



ويغنى عبد الوهاب فى «دموع الحب» ثمانى أغانى أيضا» ، وهى «يا إللى بتنادى» و «ما أحلى الحبيب» ، و «تحية العلم » ، و «قصر الأمانى » ، و «سهرت منه الليالى «و «صعبت عليك » ، و «كل اللى بينا » ، ثم «أيها الراقدون تحت التراب» .. وكلها من تلحينه وتاليف أحمد رامى ماعدا «سهرت منه الليالى» التى الفها حسين شوقى ابن أحمد شوقى.

ولكن ، وعلى العكس من الملف الصحفى لفيلم «الوردة البيضاء» يخلو الملف الصحفى لفيلم «دموع الحب» من أية مقالات. ولعل المعلومة الهامة التى ترد فى هذا الملف أسماء أعضاء فرقة عبد الوهاب الموسيقية بالكامل وهم : عزيز صادق ، ويعقوب طانيوس ، وحسن حلمى ، وسيد كامل ، والحاج يوسف متولى ، وحسين النحاس ، ومحمد العقاد ، وصليبة القطريب ، وإسماعيل العقاد ، وفهمى محمد عوض ، كما يلاحظ أن هناك مصممة خاصة للأزياء وهى صالحة أفلاطون شقيقة الفنانة التشكيلية إنجى أفلاطون. وصالحة أفلاطون من دون شك هى أول مصممة أزياء فى تاريخ السينما المصرية.

يحيا الحب

تم إنتاج فيلم «يحيا الحب» ثالث أفلام عبد الوهاب فى نهاية عام ١٩٣٧، ولكنه عرض فى بداية عام ١٩٣٨. وقد اختلف الفيلم تماما عن الفيلمين الأولين للفنان ، فهو هنا ليس الموسيقار والمغنى محمد جلال فى «الوردة البيضاء » ، ومحمد فكرى فى «يحيا الحب » ، وإنما شاب عادى يدعى فتحى يعمل فى أحد البنوك حتى يعتمد على نفسه وليس على والده رضوان باشا ، ولذلك يخفى أنه ابنه.

والقصة فى «يحيا الحب» بسيطة ، وذات نهاية سعيدة كما فى أغلب الأفلام الغنائية المصرية بعد ذلك ، حيث يتبادل فتحى الحب مع نادية (ليلى مراد) ابنة طاهر باشا (توفيق المردغلى) وابنة أخت شاكر بك (محمد عبد القدوس) مدير البنك الذى يعمل فيه فتحى من دون أن تعلم أنه ابن رضوان باشا (عبد الوارث عسر). يقع بين فتحى ونادية سوء تفاهم عندما تتصور نادية أنه على علاقة مع سهام (زوزو ماضى) وهى لا تدرك أنها أخته. وأخيرا تعرف نادية الحقيقة ، ويعلن فتحى أنه ابن رضوان باشا ، ويتزوجان.

تم تصوير «الوردة البيضاء» و «دموع الحب» فى باريس ، وتم مكساج الصوت فى برلين ، ولكن «يحيا الحب» كان أول فيلم من أفلام عبد الوهاب يصور فى ستوديو مصر الذى افتتح عام ١٩٣٥ . ويقوم بمكساج الصوت فيه مهندس الصوت المصرى الرائد مصطفى والى رئيس قسم الصوت فى الأستوديو. وفيه قدم عبد الوهاب عشر أغان من تلحينه. تسعًا من تاليف أحمد رامى وقصيدة «عندما ياتى المساء» للشاعر محمود أبو الوفا. وفى «يحيا الحب» وبخلاف الفيلمين الأولين اشتركت مع عبد الوهاب فى تمثيل الدور النسائى الرئيسى مغنية وهى ليلى مراد . ولذلك هناك أغنيتان يشتركان فيهما معا «طال انتظارى» و «يادى النعيم اللى انت فيه يا قلبى» . وأغنيتان تؤديهما ليلى مراد وحدها «ياما رق النسيم» و«ويا قلبى مالك كده حيران » . كما أن هناك أغنية «ياللى زرعتوا البرتقال» للمغنية رئيسة عفيفى، وهى لا تذكر فى الملف الصحفى للفيلم.

أما الأغانى التى قام بأدائها عبد الوهاب وحده فهى «أحب عيشة الحرية» و «ياوابور قولى رايح على فين» و «يا دنيا يا غرامى» و «الظلم ده كان ليه» إلى جانب قصيدة «عندما يأتى المساء».



مع فاتن حمامة فى يوم سعيد عام ١٩٤٠





محمد عبدالوهاب مع رجاء فى «ممنوع الحب» عام ١٩٤٢

يقول عبد الوهاب فى الملف الصحفى لفيلم «يحيا الحب»:

«يحيا الحب» مجهود ثالث أقدمه إلى وطنى. وأن ما قوبل به «الوردة البيضاء» و«دموع الحب» وقود يحفز على العمل باستمرار ، ها هو «يحيا الحب» أمام الجمهور المصرى ليتتبع خطوات القافلة إلى الأمام والله المستعان.

وإذا كان لى أن أقول شيئا، فعن الموسيقى أتكلم «الموسيقى التى هى هدفى الأول.

نشأ للتجديد الموسيقى أعداء ، كما ظهر له أصدقاء ، فالأعداء يرون اقتصار الموسيقى المصرية فى حدودها وداخل دائرتها التقليدية التى عرفت من قديم ، والأصدقاء لا يستسيغون طعما لهذه الموسيقى ، ولا يطلبون إلا هدم القديم وبناء الجديد ولو على غير أساس ، هذه هى الحال عندنا وهى حال أحس حيالها بواجب إبداء الرأى.

فالتجديد المطلوب إذا لا يمحو الطابع ، بل على العكس يستند بأمتن الأسس عليه ، لهذا أعمل، وعلى هذا كونت فكرتى التى أسير عليها ، ولا أترك وسيلة فى سبيل إظهار هذه الفكرة إلا طرقتها ، وعندى أن السينما هى الإطار المناسب الذى يصح أن نبرز فيه أى صورة فنية





خصوصًا ونحن فى عصر الحركة والسرعة فى كل شىء».

ويقول محمد كريم فى نفس الملف:

«لا أبالغ إذا قلت أن المشتغلين فى صناعة السينما فى مصر، يترقبون دائما ظهور أفلام عبد الوهاب ليروا ما فيها من جديد.

نعم سيشاهد الجمهور تطورا فى صناعة الإخراج، وجديدا من الوجوه، ومستحدثات ليس له بها عهد من قبل، ولكنى أوثر أن يلمس الجمهور كل ذلك بنفسه، ثم يتحدث به، ولكن هناك مسألة واحدة أقولها الآن، تلك هى أن هذا الفيلم ليس كأفلامى السابقة من حيث نوعه، وإنما هو فيلم خلا من المآسى ولكن تزينه العظة، وشاع فيه المرح والبهجة وإن كانت لم تخرج عن البراءة والاحتشام.

إن كل من اشترك فى هذا الفيلم قد ضحى، فإما أن يكون قد ضحى بمال وفير، أو بأعصاب أرهقها، أو بجسم أضناه وأتعبه، ولكن هذه التضحية تنسى الآن بل نسيت بالفعل حيث إنها تحولت إلى لذة نفسية هى كل ما نقنع به، وإنه لواجب علىّ أن تعودت أن أخرج كل أفلامى فى باريس، أن أتقدم بالشكر إلى رجال ستوديو مصر حيث أمدونى بمساعداتهم الفنية فى إخراج أول فيلم لى فى مؤسستهم العظيمة، وأخص بالشكر كبيرهم الصديق أحمد سالم».

وتقول ليلى مراد فى نفس الملف:

«أنا أحب السينما كثيرا. وكنت أهتم بألا يفوتنى فيلم من الأفلام، ولكن ما كان يخطر على بالى أنى سأظهر يوما على الشاشة البيضاء، إلى أن دعيت لتمثيل دور البطلة فى فيلم «يحيا الحب» مع أستاذنا الكبير عبد الوهاب، فداخلنى شعور غريب هو مزيج من الفرح الشديد والرهبة الشديدة.

أدركت عندما وقفت أمام الكاميرا لأول مرة أن خوفى كان فى محله، وأن السينما فى الواقع متعبة مرهقة، وآية ذلك أنه أغمى على أثناء التمثيل خمس مرات، ولكنها فى الوقت نفسه لذيذة، مغرية ساحرة.

النجاح فى السينما - مثل كل عمل فى الدنيا - ليس أمرا هينا. وأظن أنى نجحت. وليس هذا رأيى وإنما ذلك ما رآه مخرجنا كريم».



عبد الوهاب

يوم سعيد

أنتج عبد الوهاب «يوم سعيد» نهاية عام ١٩٣٩، وعرض بداية عام ١٩٤٠. تحت عنوان «مجهود رابع» قدم عبد الوهاب الملف الصحفى للفيلم قائلا:

«أتقدم به إلى بنى وطنى الأعزاء، وهو مجهود متواضع أرجو أن أكون قد وفقت فحققت بعض ما تصبو إليه نفسى من إرضائهم. ذلك الرضاء الذى لمسته قبل اليوم وكان لا يزال مبعث إقدامى ووحى إلهامى، بل كان خير دافع لى على المضى فى خدمة فنى وبلادى.

فنى الذى أحببته فعشت من أجله وبلادى التى أقدسها وفى سبيلها أعمل.

بنى وطنى: لقد توخيت فى هذه المرة أيضا أن أؤدى رسالتى على الوجه الذى يرضى ضميرى وعقيدتى واتخذت من حسن ظنكم بى مثلا أعلى للنهوض بهذا الفن إلى المستوى الجديد به.

أرجو الله تعالى أن يوفقنى دائما فى ظل جلالة مليكنا المعظم».



فى فيلمه الرابع يعود عبد الوهاب إلى شخصية محمد الموسيقار والمغنى وهو هنا موظف صغير يعمل فى دائرة سهير هانم (إلهام حسين) ويتبادل الحب مع أمينة (سميحة) ابنة عاطف أفندى (عبد الوارث عسر) رئيس الدائرة، ويعيش فى حجرة بمنزل الشيخ مصطفى (فؤاد شفيق) الذى يرعاه، كما ترعاه ألطاف (فردوس محمد) زوجة الشيخ، وابنتهما الطفلة أنيسة التى مثلت دورها فاتن حمامة فى أول أدوارها فى السينما. تحاول سهير هانم غواية محمد وإبعاده عن أمينة ولكنها تفشل ويتم زواج الحبيبين.

و«يوم سعيد» بهذه المعالجة يختلف عن رومانسية الفيلمين الأولين، كما يختلف عن خفة «يحيا الحب»، فهو يقوم بدور موظف من الطبقة الوسطى، وليس ابن باشا يدعى أنه موظف من تلك الطبقة.

يقدم عبد الوهاب فى «يوم سعيد» ثمانى أغان كما فى الفيلمين الأولين ٦ منها يؤديها وحده: «طول عمرى عايش لوحدى» تأليف أحمد رامى، و«اجرى اجرى اجرى ودينى قوام وصلنى» تأليف حسين السيد، و«ايه انكتب لى يا روحى معاكى»، و«يا ناسية وعدى» تأليف عزت الهجين، و«يا ورد مين يشتريك وللحبيب يهديك» وقصيدة «الصبا والجمال» للشاعر اللبنانى بشارة الخورى (الأخطل الصغير)، وأغنية «محلاها عيشة الفلاح» تأليف بيرم التونسى بصوت أسمهان، والمقطع الذى لحنه من مسرحية شوقى «مجنون ليلى»، وأداه مع أسمهان.

ويشير الملف الصحفى للفيلم إلى أغنية تاسعة بعنوان «كده يا بلاش» تأليف بيرم التونسى، ولكنها غير موجودة فى الفيلم. ومن الواضح أنها استبعدت قبل عرض الفيلم.

ممنوع الحب

أنتج عبد الوهاب وعرض فيلمه الخامس «ممنوع الحب» عام ١٩٤٢ وقدمه فى الملف الصحفى قائلا:

«باسم الله العلى القادر أقدم فيلمى الخامس «ممنوع الحب» وإذا كان الفضل لذويه فإن فضل إخراج هذا الوليد الخامس يعود إلى الجمهور الذى حبا أشقاءه الأربعة السابقة بجميل تقديره وتشجيعه.

وأرجو الله الرحمن الرحيم أن يشمل العالم برحمته وأن يعيد للعالم نوره وللحياة بهجتها ليجد الفن موطنه وجوه.

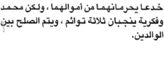
ولا أحب أن أقول شيئا عن الفيلم والجهود التى بذلت فى سبيل إخراجه وخاصة فى هذا الوقت وهذه الظروف.

ويكفى أن أقدم إلى الجمهور بقطعة من روحى وتفكيرى فى جو كل ما فيه جديد ونار.

رعى الله مصر فى ظل مليكنا المحبوب فاروق الأول حفظه الله».

أنتج الفيلم فى ذروة الحرب العالمية الثانية، وفى تقديم عبد الوهاب إشارة إلى ذلك فى دعوته الله سبحانه وتعالى أن يشمل العالم برحمته وأن يعيد للعالم نوره وللحياة بهجتها، فهو يعبر عن موقف واضح ضد الحرب، ويعتبرها شرطا يتيح للفنان أن يجد موطنه وجوه. كما أن موضوع الفيلم يعتبر ضد الحرب أيضا. فالكاتب عباس علام وهو من كتاب المسرح المصرى المرموقين فى عصره، والذى كتب فيلمى عبد الوهاب الثالث والرابع، يقدم فى «ممنوع الحب» معالجة مصرية لمسرحية شكسبير «روميو وجولييت» بل إن عنوان الفيلم «ممنوع الحب» يعبر أيضا عن مناخ الحرب القائم الذى أنتج فيه.

كما فى «يوم سعيد» يقوم عبد الوهاب بتمثيل دور مهنى من الطبقة الوسطى ذات الأصول الريفية وهو المهندس المعمارى محمد الذى تصله فى القاهرة برقية من القرية تخبره بوفاة والده عبد الغفار (عبد الوارث عسر) وفى القطار يلتقى مع فكرية (رجاء) التى وصلتها برقية مماثلة بوفاة والدها على (حسن كامل). وعند الوصول إلى القرية يكتشف محمد ورجاء أنهما من قرية واحدة، وأن البرقيتين كاذبتان ارسلتا من أصحاب المصلحة فى استمرار خلاف قديم بين والديهما اللذين كانا على وشك الصلح. يتبادل محمد الحب مع فكرية ويقنع كل منهما والده بأن زواجهما من أجل الانتقام. يتم الزواج، وعندما يكتشف الوالدان أنهما خدعا يحرمانهما من أموالهما، ولكن محمد وفكرية ينجبان ثلاثة توائم، ويتم الصلح بين الوالدين.



هذه المعالجة لمسرحية شكسبير تعبر عن دعوة عبد الوهاب للسلام فى ذروة الحرب ولعل السبب فى عدم ذكر «روميو وجولييت» فى العناوين أن عباس علام لم

محمد عبدالوهاب وراقية إبراهيم فى رصاصة فى القلب



ياخذ من الأصل الشكسبيرى سوى فكرة الحب بين شابين من عائلتين متصارعتين، ولكنه حولها إلى كوميديا بينما المسرحية تراجيديا.

يقدم عبد الوهاب فى «ممنوع الحب» إحدى عشرة أغنية، ٩ من تاليف حسين السيد وأغنية «ردى علىّ كلمينى» تاليف مامون الشناوى، وأغنية «ما كانش ع البال تشغل بالى» تاليف أحمد عبد المجيد، وكلها من تلحينه كما هو الحال فى كل أفلامه، ولكن من بين أغانى حسين السيد ٦ يؤديها عبد الوهاب: «بلاش تبوسنى فى عنيه» و«هليت ياربيع» و «يامسافر وحدك»، و «يا اللى نويت تشغلنى»، وأغنيتان لرجاء (رجاء عبده) «ح يحبنى»، و «حا تفوتنى لمين»، وأغنيتان يشترك فيهما مع رجاء «يا اللى فت المال» و«آن الأوان»، وأغنية «يا مراكبى» أداء محمد أمين، وهو المغنى الوحيد الذى اشترك مع عبد الوهاب فى هذا الفيلم وفى كل أفلامه.

رصاصة فى القلب

أنتج عبد الوهاب «رصاصة فى القلب «عام ١٩٤٤ وعرض فى نفس العام، وهو فيلمه الوحيد الماخوذ عن مسرحية لكاتب مصرى كبير وهو توفيق الحكيم الذى كتبها عام ١٩٣١.

اكتفى عبد الوهاب فى الملف الصحفى بتقديم الفيلم بكلمات مختصرة «محاولة أخرى أتقدم بها إلى الشعب المصرى الكريم وإلى الشعوب الشقيقة مع حبى وشكرى» وترك لتوفيق الحكيم ليكتب ما يلى فى الملف:

«لا شان لى بالسينما «كان هذا ردى دائما على كل من حاول إغرائى بإخراج رواية لى على الستار. ولعلى قلت ذلك أيضا لصديقى الأستاذ محمد عبد الوهاب. ولكنه جعل يهون علىّ الأمر، حتى وقعت أخيرا بين حبائل أو «شرائط» هذا الفن العجيب.

ولست أدرى بعد نتيجة هذه «الوقعة». فانا قد سبق لى أن أبديت رأيى فى الفن السينمائى، وقلت إن الكاتب غير محتاج إلى الالتجاء إليه. لأن القلم كامل بنفسه، لا ينبغى له أن يستند إلى أداة أخرى تعينه على التعبير، وإن عالم الكتابة مستقل بصوره ومخلوقاته ووسائل إخراجه، إذ الكاتب فى الحقيقة ليس هو الذى يرصف جملا وينمق عبارات إنما هو ذلك الذى سيصنع عالما زاخرا بالأشخاص التى تحيا وتشعر وتسعى دون أن يحتاج فى إنشاء هذا العالم إلى غير قلمه وحده.

وبعد فإنى أرجو أن أكون على صواب. ولعل ما يدعونى إلى الرجاء هو حسن اختيار من وضعت فى أيديهم مصير «أشخاصى» وما من أحد يشك فى أنها أيد معروفة فى عملها بالصبر والكد والاجتهاد، وإنه لمن الظلم أن أسهو عن ذكر تلك الجهود المضنية التى بذلها الأستاذ عبد الوهاب والمخرج الأستاذ كريم ومن عاونوهما خلال عامين طويلين لإعداد هذا العمل الذى يشاهده الناس اليوم فى ساعتين، فإذا ظفروا بعد ذلك بنجاح فهو حقهم وجزاؤهم وثمرة مجهودهم».

وفى نفس الملف كتب محمد كريم:

«إذا أتم الإنسان عملا من أعماله وفق مرامه وهواه فإنه يشعر بإحساسين.. إحساس الغبطة بتمام عمله، وإحساس الأمل فى نجاح ما قام به واستفادة الجمهور منه.

ولكننى وقد أتممت فيلم (رصاصة فى القلب) وهو أول إنتاج للسينما من كاتبنا الكبير توفيق الحكيم أحس غبطتين، وأستشعر أملين.

فغبطتى بتمام عملى تصاحبها سعادة أخرى أتاحها لى من شاركونى فى مهمتى ممن لم أكن حظيت قبل اليوم بمشاركتهم.. فقد كان هذا الفيلم فرصة طيبة لى عرفتنى بإخوان أذكياء أكفاء، سررت بهم ولمست فيهم من الكفاية والمقدرة ما ملأنى فخرا بزمالتهم وسعادة بتوفيق الله فى معرفتهم.

وأما أملى فى النجاح فقد تضاعف بمقدار ثقتى بقوة الزملاء وبمقدار ما عرفت فيهم من الإخلاص للعمل والفناء فيه».



نشرت مسرحية «رصاصة فى القلب» لأول مرة فى كتاب «المسرح المنوع» عام ١٩٥٦ مع ١٩ مسرحية أخرى، ويقول د. رمسيس عوض فى كتابه «توفيق الحكيم الذى لا نعرفه» عام ١٩٧٤ إن الحكيم كتب المسرحية بالعامية عام ١٩٣١، ولكنها لم تعرض على المسرح رغم موافقة الرقابة.

قدم عبد الوهاب فى الفيلم تسع أغنيات قام بتلحينها وغناء سبع منها وحده، واثنتين مع راقية إبراهيم «حكيم عيون» و «حا أقولك إيه» من تاليف حسين السيد. أما أغانيه السبعة فهى: «مشغول بغيرى»، و «الميه تروى العطشان»، و «حنانك بى يا ربى» تاليف أحمد رامى، و «انسى الدنيا» تاليف مامون الشناوى، و «أحبه مهما أشوف منه» تاليف حسين السيد، ثم قصيدة الشاعر اللبنانى إيليا أبو ماضى «جئت لا أعلم من أين».

لست ملاكا

الفيلم السابع والأخير من أفلام عبد الوهاب «لست ملاكا» الذى أنتج وعرض عام ١٩٤٦، كان فيلمه الوحيد الذى لم ينتجه، وإنما أنتجته شركة «بيضا قطان» أشهر شركات الأسطوانات الموسيقية فى مصر والعالم العربى.

يمثل عبد الوهاب فى الفيلم شخصية رءوف المحامى الذى يلتقى مع يسرية (ليلى فوزى) ابنة حسن أبو الدهب (سليمان نجيب) صاحب مصانع النسيج، ويشعر بالحب نحوها. أمين (محمود المليجى) صديق رءوف يتعهد بالحصول على موافقة يسرية على الزواج من رءوف مقابل أن يكتب له شيكا بعشرة آلاف جنيه يصرف بعد الزواج. يخبر رءوف ابنة عمه الكفيفة سعاد (نور الهدى) أنه يحب يسرية، ولا يدرك أن سعاد تحبه، يعمل رءوف مديرا لمصانع حسن أبو الدهب ويطلب الزواج من يسرية ويطالبه أمين بدفع قيمة الشيك، فلا يستطيع. تسترد سعاد بصرها، ويدرك رءوف أنها تحبه، ويفضل الزواج منها.

فى لست ملاكا يقدم عبد الوهاب تسع أغان من تلحينه كلها من تأليف حسين السيد ما عدا قصيدة «الخطايا» للشاعر كامل الشناوى. من بين هذه الأغانى ثلاث مع نور الهدى:

« اضحكى وغنى »، و «شبكونى ونسيونى قوام »، و «كنت فين »، واثنتان لها وحدها:

«مالك محتار »، و «يا عيونى »، وأربع يغنيها وحده: «القمح الليلة»، و«أنا اللى طول عمرى ما حبيت »، و «يوم الاثنين »، ثم «الخطايا».

وربما تكون قصة فيلم «لست ملاكا» الميلودرامية المضطربة سبب عدم تحقيق الفيلم نفس درجة النجاح الجماهيرى لأفلام عبد الوهاب السابقة، وخاصة أن شخصيته فى الفيلم ضعيفة أمام المال، ولا تعلى من شان الحب، مثل شخصياته فى كل أفلامه الأخرى، ولكن هذا لم يكن سبب توقفه عن صنع الأفلام عام ١٩٤٦. لقد عرف عبد الوهاب متى يبدأ فى السينما، وعرف أيضا متى يتوقف قبل أن يبلغ سن الخمسين. ■



من كتابات حسين فوزى

الشخصية المصرية

فى تنقيبى عن الشخصية المصرية اكتشفت حقيقة أولية، وهى ألا تعتمد على الثورات والاضطرابات وحدها كعلامة على يقظة القومية المصرية. وإنك لواجد أمثلة لهذه الثورات والاضطرابات على طول التاريخ المصرى: فى العهد القديم، وبعد استتباب الأمر للبطالسة، وإبان الحكم الرومانى والبيزنطى والعربى والعثمانى والفرنسى والأرنؤدى والبريطانى. بيد أن الثورات والاضطرابات لا تصور وحدها يقظة الوطنية المصرية. لأن المصريين أول من حذقوا ما يعرف بالمقاومة السلبية. وإذا كانت بعض حركاتهم القومية لم تعرف باسم «العصيان المدنى». فكثيرًا ما كانت كذلك فى الحقيقة كما سيجىء شرح ذلك.

ومصر لم تفن فى غزاتها، بل إن غزاتها هم الذين يفنون فى مصر، إن لم يكن بالطريقة التى ابتلعت بها الصحراء جيش قمبيز - كما قيل - فبوسيلة أفعل سحرًا وأقوى أثرًا. الغزاة يفنون فى مصر بالحياة: يتناسلون ويحكمون أجيالاً لينتهوا مجازًا إلى ما انتهى إليه جيش قمبيز فى الأسطورة. هم أيضًا يذوبون، لا فى رمال الصحراء، ولكن فى بوتقة الشخصية المصرية. وقد يفلح الملوك والحكام الأجانب حينًا فى الاحتفاظ بسماتهم الأجنبية ولغتهم، ولكن ذلك يعد من قبيل الاستثناء الذى يثبت القاعدة؛ والفناء الذى نقصد، هو فناء الشعوب الغازية فى الشعب المصرى، وهضم التربة المصرية لكل تلك الأجناس الغريبة، التى قاومت ما استطاعت المقاومة، ثم انتهت إلى ما انتهى إليه سابقوها.

ولا معدى لمن يعالج تاريخ مصر أن يدرس العقائد الدينية عن كثب، حتى يفهم الشخصية المصرية. فقد كانت العقائد «قطب الرحى» فى كل الحركات القومية، إلا فى حركة سنة ١٩١٩.



"العولمة" قد تصنع السعادة ولكنها لا تمنع التعاسة!

روبـــــــــرت رايـت

رغم كل ما نشهده من جدل بشأن العولمة، فحقيقة الأمر هى أن الجميع يتفقون على اثنتين من خصائصها. أولاهما: أنه يصعب كثيراً الوقوف فى وجه العولمة. وقد اختار التقدمى ويليام جرايدر عنوانًا لكتابه الصادر ١٩٩٧ Ready or Not One World (عالم واحد، استعددتم أم لم تستعدوا)، ونحن نجد أنه حتى اليسار ينظر إلى العولمة على أنها شىء يجب ترويضه وليس قتله. الأمر الثانى هو أن العولمة تجعل العالم - بصورة عامة على الأقل - أكثر رفاهية. ولا تُنتقد العولمة لعجزها عن إنتاج المزيد من المواد، بل لأن إنتاج المزيد من المواد له الكثير من المساوئ، وخاصة فيما يتصل بالطريقة التى يتم بها توزيعها.

وهاتان الخاصيتان تتصلان ببعضهما: ذلك أن العولمة لا يكاد يقدر أحد على إيقافها، وذلك على وجه التحديد لأن وراءها أناسًا كثيرين عقدوا العزم على زيادة رفاهيتهم. فحاملو أسهم شركة «نايكى» يرغبون فى زيادة أرباحهم عن طريق تخفيض تكاليف الإنتاج، وهو ما يعنى التصنيع فيما وراء البحار. فى الوقت الذى يريد فيه العمال الإندونيسيون زيادة دخولهم بانتقالهم من العمل فى الحقول إلى مصانع «نايكى». أما عملاء «نايكى» فلا يريدون الحذاء ذا «النعل الهوائى» العام (موضة قديمة) فحسب، وإنما يريدون أحدث طراز من الأحذية ذات الكعب و«الهواء الزوم» فى المقدمة - ناهيك عن «الحزوز المرنة للحركة المثلى».

وبما أن كل هؤلاء يسعون إلى تحديث مستوى معيشتهم، فإن ما تفعله اليد الخفية هو أنها توقعهم فى شبكة أكبر حجماً وأشد كثافة من الاستثمار والإنتاج. والطبيعة البشرية ذاتها - أى الرغبة الشديدة فى جمع الموارد وعدم التخلف عن الأقران - هى ما يحرك الآلة التى تتولى تغيير شكل العالم.

ومما يؤسف له أن الطبيعة البشرية لها سجل سيئ فى موقع السلطة. والمجال الذى قد يظن من يؤمن بأن البشر تحركهم أنانيتهم أن الطبيعة البشرية تتفوق فيه - حيث تساعد الناس على السعى بأنانية وراء رفاهيتهم - هو مجال للإخفاق المتكرر. وتشتهر البشرية بسعيها وراء الأشياء، مثل القوة والثروة، التى لا تجلب سعادة غير زائلة. فهل حاملو أسهم «نايكى» هؤلاء أكثر سعادة حقاً وهم يقودون سيارة «مرسيدس إس يو فى» مما لو كانوا يقودون سيارة «هيونداى أكسنت»؟ هل كان من المحتمل أن يصبح بعض العمال الإندونيسيين أفضل حالاً إن هم لم يغادروا قط المزرعة والعادات الشعبية التى أثبت الزمن فعاليتها؟ هل كان من الممكن أن يعثر رياضى يمارس هوايته فى عطلة نهاية الأسبوع على الرضا الدائم حتى بدون الحزوز المرنة للحركة المثلى فى حذائه؟



إن هذا السؤال - وهو هل تجلب العولمة السعادة؟ - هو السؤال الذى ينبغى أن تسأله. ومع أنه يعد الأساس لجانب كبير من جدال العولمة ويناقش فى بعض الأحيان بلغة منمقة، إلا أنه نادراً ما تعامل معه أحد بجدية، ربما بسبب مراوغته المفترضة. وقد جمع علماء النفس مادة كثيرة عما يسعد الناس وما لا يسعدهم. وهذه المادة لم تأت فحسب من الطلبة المتطوعين فى الجامعات الأمريكية: فقد أجريت استطلاعات «عبر ثقافية» ضخمة على مدى العقدين الماضيين. وأخذت تتضح أكثر وأكثر ماهية الظروف الاقتصادية والسياسية التى تجعل الناس يشعرون بالرضا بحظهم فى الحياة.

وعندما نضع هذه المادة إلى جانب ما

نعرفه عن آثار العولمة الاقتصادية والسياسية، يصبح بالإمكان القيام بمحاولة مبدئية للإجابة عن السؤال الكبير: هل العولمة خير أم شر؟ إذا كنت إلهاً (ونفعياً) هل كنت ستتبنى سياسة عدم التدخل، تاركاً الرأسمالية الانتقالية يسيرها الطيار الآلى، أم كنت ستتدخل؟ وما هو شكل هذا التدخل؟ وما هى الطريقة التى يتم بها التحكم فى العولمة، إن كان هناك لذلك التحكم من سبيل؟ إن قاعدة بيانات السعادة الخاصة بعلماء النفس لا تجيب عن هذه الأسئلة، ولكنها تساعدنا فى تدبر أمرها. كما أنها تساعدنا كذلك فى نقض الحكمة التقليدية بشأن من يستفيد ومن يعانى فى ظل تقدم العولمة.

السعى الكونى وراء السعادة

هل يجلب المال السعادة؟ اتجه علماء النفس إلى عشرات الأمم، الغنى منها والفقير، وسألوا الناس عن مدى رضاهم بحياتهم. وكانت المحصلة أنه يبدو أن الأمم الفقيرة هى موئل التعاسة، وأن الأمم شديدة الغنى ليست هى بالضرورة موئل السعادة. فمن ناحية هناك صلة جلية بين الناتج المحلى الإجمالى لأمة من الأمم ومتوسط سعادة مواطنيها. إلا أن قوة هذه الصلة ـ فى معظم الدراسات على الأقل ـ تكاد تأتى بالكامل من أمم فى ثلاثة الأرباع الدنيا من مقياس الدخل. فما إن تبلغ أمتك مستوى معيشة مريحًا إلى حد ما، حتى يجلب المزيد من الدخل القليل من السعادة الإضافية أو يكاد. وفى الولايات المتحدة فيما بين ١٩٧٥ و١٩٩٥ ازداد الناتج المحلى الإجمالى بمقدار ٤٣ بالمائة، إلا أن معدل سعادة الأمريكيين لم يتزحزح.

والنقطة التى يتوقف المزيد من الثروة عندها عن إحداث المزيد من السعادة هى أن يكون النصيب السنوى للفرد ١٠ آلاف دولار ـ وهو تقريباً ما عليه الوضع حالياً فى اليونان والبرتغال وكوريا الجنوبية. وزيادة على هذه النقطة، لا يبدو أن الدولارات الإضافية تبهج الأمم، وتتوقف الفروق القومية فى السعادة على الأشياء غير الملموسة فى الثقافة. فالأيرلنديون أسعد بكثير من الألمان واليابانيين والبريطانيين، مع أنهم أقل ثراء من هؤلاء جميعاً. وسعادة الدول الاسكندنافية غير العادية (من يصدق ذلك؟) لا يمكن إرجاعها إلى أى تفوق اقتصادى على الدول المتطورة. (أحد التفسيرات المحتملة هو أن الأمم ذات المستويات العالية من الثقة غالباً ما تكون أسعد. وتشير الاستطلاعات إلى أن الاسكندنافيين على قدر غير عادى من الثقة).

وهذه الحقيقة وحدها ـ وهى أن جعل الأمم الفقيرة أقل فقراً يبدو وكأنه يرفع مستوى السعادة، بينما جعل الأمم الغنية أكثر غنى لا يفعل ذلك ـ تستحق التأمل فى ضوء العولمة. ولكن قبل تأملها، لا بد أن نسأل إن كانت هذه الحقيقة راسخة بالفعل من الناحية المنهجية كما تبدو أم لا؟

أول كل شيء هو أن كل هذه الدراسات تعتمد على ما يقوله الأفراد أنفسهم عن رضاهم بالحياة. وقد تجادل لأسابيع إن كان هذا مؤشراً موثوقاً به للسعادة الحقة أم لا، دون الإلمام الدقيق بكل ما يتصل به من إشكاليات نفسية وسوسيولوجية ومعرفية. فهل هناك أى نوع آخر من الأدلة التى تمنح هذه التقارير مصداقيتها؟

نعم هناك. ولنتأمل على سبيل المثال ذلك الوجوم غير العادى الذى يسود الكتلة السوفيتية السابقة. ففى سنة ١٩٩٤، عندما نشرت مجموعة دراسة القيم العالمية ترتيباً لـ«الرضا بالحياة» حسبما جاء على ألسنة الأفراد أنفسهم فى إحدى وأربعين دولة، كانت الأمم الأقل رضا على التوالى هى: بلغاريا وروسيا وروسيا البيضاء ولاتفيا ورومانيا واستونيا ولتوانيا والمجر. ولكن ألا يمكن أن يكون هذا مجرد خطأ فى القياس تسببت فيه الشيوعية؟ ألا يمكن أن تكون عقود من الإدانات الرسمية للأنانية قد منعت الناس من الاعتراف بأنهم سعداء؟



وكما هى العادة، ألقى عالما النفس مارتن سيليجمان وجابريلى أوتينجن الضوء على هذه المسألة فى الثمانينيات. فقد قاما بمراقبة سكان كل من برلين الغربية والشرقية وهم يعيشون حياتهم اليومية. كان أهل برلين الغربية يبتسمون ويضحكون أكثر من أهل برلين الشرقية وكانوا يتمتعون بقامة أكثر اعتدالاً منهم. ومن الواضح أن الألمان الشرقيين لم يكونوا يعانون من مجرد تردد رسخته الثقافة يحول دون الاعتراف بابتهاجهم لمن يقومون بالاستطلاع. بل إن الدراسات التى أجريت فى دول عديدة أظهرت أن السعادة التى يأتى ذكرها على ألسنة الأشخاص أنفسهم لا ترتبط وحسب مع هذا السلوك الذى يلاحظ بطريقة ذاتية، وإنما بتقديرات الأصدقاء والأقارب وبأسئلة الاستطلاع التى تصل إلى السعادة بقدر أكبر من عدم المباشرة (كأن يكون ذلك عن طريق تحديد عدد الذكريات السارة التى يمكن للمرء أن يستدعيها).

والسؤال المنهجى الكبير الثانى هو إذا ما كان المردود الاقتصادى يغطى على المتغيرات الأخرى التى هى المصدر الحقيقى للسعادة أم لا. هل حقاً أن مفاتيح السعادة هى مجرد ما يمكن شراؤه بالمال ـ أى الطعام الأوفر، وماء الشرب الأكثر نظافة، والرعاية الصحية الأفضل، والإسكان الأكثر راحة؟ وكما أوضح ويليام ايسترلى من البنك الدولى فى دراسة نشرت فى العام الماضى، فإن الأمم الأغنى، مقارنة بالأمم الفقيرة، غالباً ما تتمتع بـ«قدر أكبر من الديمقراطية، وتعانى من قدر أقل من الفساد...ويكون فيها قدر أكبر من حكم القانون ونوعية بيروقراطية أرفع...والمزيد من الحريات المدنية، وقدر أقل من انتهاك حقوق الإنسان». وواقع الأمر أنك إذا نحيت الناتج المحلى الإجمالى ورسمت رسماً بيانياً لمستويات السعادة القومية مقابل مؤشرات الحرية المختلفة، فسوف ترى أن هناك علاقة واضحة.

ويشير إد دينر ـ وهو أحد باحثى علماء النفس الرواد فيما يتعلق بالسعادة ـ إلى أن الأمر سوف يحتاج إلى مزيد من الدراسة الأكثر تركيزاً لفصل أثر الثروة عن أثر حقوق الإنسان والديموقراطية. والعلاقة المتبادلة بين المتغيرات الاقتصادية والثقافية من القوة، وعدد نقاط البيانات من الصغر، بحيث يستحيل حتى الآن الفصل بين التأثيرين من الناحية الإحصائية.

ومرة أخرى، فإن قوة هذه العلاقة المتبادلة ذاتها قد تجعل المسألة موضع نقاش. فالواقع أن التطور الاقتصادى إن لم يؤد إلى تحسين المأكل والمأوى والطب وحسب، وإنما يسير جنباً إلى جنب مع المزيد من الديمقراطية وحقوق الإنسان، حينئذ قد يجعل التطور الاقتصادى الناس فى الدول الفقيرة أكثر سعادة. واستناداً على الأدلة الحديثة المليئة بالحكايات من المكسيك وكوريا الجنوبية وتايوان، فإن التطور الاقتصادى يحسن الحياة السياسية فى حقيقة الأمر(مع أن انتهاء الحرب الباردة شهد الديمقراطية وهى تصل إلى الدول الفقيرة، كما يشير ايسترلى.)

إن هذا السؤال ـ وهو هل تجلب العولمة السعادة؟ ـ هو السؤال الذى ينبغى أن تسأله. ومع أنه يعد الأساس لجانب كبير من جدال العولمة ويناقش فى بعض الأحيان بلغة منمقة، إلا أنه نادراً ما تعامل معه أحد بجدية، ربما بسبب مراوغته المفترضة

الأغنياء (والفقراء) يزدادون غنى

قد يبدو أن احتمال زيادة الرفاهية ـ بصورة أو بأخرى ـ لسعادة الأمم الفقيرة بصورة ملحوظة يضفى على الحقبة الراهنة ضوءاً يتسم بالمفارقة. وعلى أية حال، فإن العولمة طبقاً لأحد الآراء الشائعة تغدق الرفاهية على الأمم الغنية، وغالباً ما يكون ذلك على حساب الأمم الفقيرة. وقد كتب الزعيم النقابى جاى مازور أن «العولمة قد زادت من التفاوت داخل الأمم وفيما بينها وبين بعضها»، وهو ما يصدق عليه لورى والاش وهو معارض للعولمة ذائع الصيت. بل إن لورا داندريا تايسون، المستشارة الاقتصادية القومية السابقة للرئيس كلينتون، كتبت مؤخراً إنه «فى الوقت الذى زادت فيه كثافة العولمة، ازدادت الهوة بين دخل الفرد فى الدول الغنية والفقيرة اتساعاً».

وهذه الملاحظات مضللة إلى أكبر حد. فأول كل شيء هو أن الأمم الفقيرة على الإطلاق صارت أقل فقراً. وحتى إذا عانت بعضها من الركود المخيف، فإن المردود الاقتصادى للدولة الفقيرة المتوسطة قد ازداد فى العقود القليلة الماضية. وبطبيعة الحال فإن مازور وولاش وتايسون يتحدثون عن الدخل النسبى ـ فصحيح أن الفجوة بين أغنى الدول وأفقرها قد اتسعت. إلا أنه من الصعب القول بأن العولمة هى المشكلة. فكما أظهر الاقتصاديان جيفرى ساكس وأندرو وارنر منذ عدة سنوات، وكما أكد اقتصاديون آخرون منذ ذلك الوقت، فإن الأمم النامية ذات الاقتصاد الأكثر انفتاحاً ـ وهى الأمم التى دخلت فى نظام الاقتصاد الكونى دخولاً تاماً ـ تنمو بأسرع ما يمكن. أما الأمم الفقيرة الأكثر عناداً فيبدو أن سبب ما هى عليه من فقر هو تخلفها عن العولمة. وتساعد هذه النظرية فى تفسير السبب فى أن شرق وجنوب آسيا بتبنيهما للأسواق الكونية قد قللا من الفقر إلى حد كبير جداً، فى حين كان حظ أفريقيا جنوبى الصحراء الكبرى، التى تتميز بقدر أكبر من اقتصادات الدولة وببيئة سياسية لا تجتذب الاستثمار الأجنبى، من النجاح أقل.

وقد يقول قائل إن مستوى الرفاهية المتزايد بين الأمم النامية الأكثر انفتاحاً مضلل، لأن المواطنين الأكثر فقراً يتركون فى المؤخرة. ومن المؤكد أن الأمم تزداد طبقية من الناحية الاقتصادية كلما ازدادت ثراء. إلا أنه رغم التأكيدات الواثقة التى يقدمها مازور وولاش، لم يجد الاقتصاديون أن هناك اتجاهاً عاماً فى النمو الاقتصادى إلى زيادة حدة التفاوت فى الدخل. وفى الربيع الماضى نشر الاقتصاديان فى البنك الدولى ديفيد دولار وآرت كراى دراسة لم تتناول آثار النمو الاقتصادى وحسب، وإنما تناولت على وجه التحديد أثر العولمة. وبعد تتبعهما لأمم ذات اقتصادات أكثر ما تكون انفتاحاً وعولمة خلال العقود العديدة الأخيرة، وجدا أنه فى الوقت الذى ينمو فيه الدخل القومى، لم ينكمش ذلك الجزء من الكعكة الاقتصادية الذى يذهب إلى الخمس الأدنى من قياس الدخل. فالواقع أن المد المرتفع يحمل كل السفن.

وهناك سبب أخير فى أن ادعاءات التباين المتزايد للدخل بين الأمم مضللة. فالأمم تتباين فى حجمها، وتلك الأمم شديدة الفقر المتخلفة عن العولمة، التى تشكل العامل الأساسى وراء الفجوة المتزايدة بين الأمم الغنية والفقيرة، هى فى الغالب أمم صغيرة، فى حين أن الأمم الفقيرة التى فى سبيلها إلى الثراء (مثل الصين) كبيرة جداً. وإنك إذا نظرت إلى العالم كما ينظر إليه إله نفعى ـ حيث تتجاهل الحدود السياسية وتركز على العدد الإجمالى للأنفس ـ فإن الصور ستبدو أكثر إشراقاً. وقد حسب برنارد واسو من مؤسسة «سنشرى» أنه فيما بين ١٩٦٥ و١٩٩٧ ازدادت حصة أفقر ١٠ بالمائة من سكان العالم من الدخل العالمى بما يتراوح بين ٠٫٣ بالمائة و٠٫٥ بالمائة. وبالطبع فإن نسبة ٠٫٥ بالمائة شديدة الانخفاض ـ وخاصة إذا علمنا أن أغنى ١٠ بالمائة زادت حصتهم فى الوقت ذاته من ٥٠٫٦ بالمائة إلى ٥٩٫٦ بالمائة. ومع ذلك تظل الحقيقة هى أنه فى سنة ١٩٦٥ كان متوسط دخل العشرة بالمائة الأعلى ١٦٠ ضعف العشرة بالمائة الأدنى، وبحلول ١٩٩٧ هبطت هذه النسبة إلى ١٢٧ ضعفاً. وهذه الحسبة تتضمن تلك الأمم الفقيرة ذات الاقتصادات المنغلقة المتخلفة عن العولمة.

وإننا حين نضع التقدم فى مقابل الفقر بطريقة أقل تجرداً إلى حد ما، طبقاً لتقرير أصدره فى شهر يونيو فريق من الوكالات متعددة الأطراف ـ مثل الأمم المتحدة والبنك الدولى ومنظمة التعاون الاقتصادى والتنمية وصندوق النقد الدولى ـ نجد أن عدد من يعيشون على ما يقل عن دولار واحد فى اليوم قد هبط بمقدار ١٠٠ مليون فيما بين ١٩٩٠ و١٩٩٨. ويظل الرقم مرتفعاً بصورة تدعو للدهشة ـ وهو ١٫٢ مليار ـ ولكن لنتذكر أن الانخفاض جاء نتيجة ازدياد عدد سكان الدول الفقيرة بمئات الملايين.

وخلاصة القول هى أنه يبدو أن القياس التقريبى بالنسبة

هل يجلب المال السعادة؟ اتجه علماء النفس إلى عشرات الأمم، الغني منها والفقير، وسألوا الناس عن مدى رضاهم بحياتهم. وكانت المحصلة أنه يبدو أن الأمم الفقيرة هي موئل التعاسة، وأن الأمم شديدة الغنى ليست هي بالضرورة موئل السعادة



أوضح ويليام ايسترلي من البنك الدولي في دراسة نشرت في العام الماضي، فإن الأمم الأغنى، مقارنة بالأمم الفقيرة، غالباً ما تتمتع بـ قدر أكبر من الديمقراطية، وتعاني من قدر أقل من الفساد... ويكون فيها قدر أكبر من حكم القانون ونوعية بيروقراطية أرفع...والمزيد من الحريات المدنية، وقدر أقل من انتهاك حقوق الإنسان»

لفقراء العالم هو أنهم يقلون فقراً بالمعنى المطلق، ويقلون فقراً بالمعنى النسبي، طبقاً لبعض المقاييس. وكلما زادت عولمة الأمم الفقيرة، تحسنت أحوال أهلها بالمعنيين المطلق والنسبي.

وإذا وضعت هذه الاكتشافات إلى جوار بيانات السعادة، فإن التضمين يكون مغلوطاً بعض الشيء. فالفكرة الثابتة عن العولمة هي أنها شيء من صنع الأغنياء ولمصلحة الأغنياء ويقدم للفقراء. ومن المؤكد أن شعوب العالم الغنية تتخذ القرار المهم بشأن كيفية نشر رأس المال وكسب الأموال الضخمة من وراء العولمة. إلا أنه فيما يتصل بالمردود النفسي - أي ما يتعلق بالسعادة الحقيقية - فإن فوائد العولمة قد تبدو وكأنها تتجه بصورة كبيرة إلى الطبقات الدنيا في العالم، وإلى الأمم التي يصل فيها متوسط دخل الفرد إلى ما دون ١٠ آلاف دولار. فعند هذا المستوى من الدخل القومي وحده يجلب المال السعادة بصورة مؤكدة.



والواقع أن الدول الغنية لا تعجز وحسب عن أن تكون أكثر سعادة عندما يزداد الدخل القومي؛ بل إنه في الوقت الذي يثبت فيه مستوى سعادتهم المتوسط، فإن النسبة الصغيرة من السكان الذين يعانون من الأمراض النفسية الخطيرة تتسع. كما يزداد عدد من يعانون من الاكتئاب المزمن، وكثيراً ما يرتفع معدل الانتحار.

وبذلك يتضح أن جزءاً كبيراً من الحكمة التقليدية في بعض الدوائر السياسية - وهو أن العولمة مفيدة للأغنياء وضارة للفقراء - ليس خطأ وحسب، وإنما خطأ بمقدار ١٨٠ درجة. فالعولمة، على الأقل من ناحية أثرها على الدخل وأثر الدخل على السعادة، مفيدة للفقراء وضارة للأغنياء.

استهلك! استهلك! استهلك!

هذا الأمر يجعلك تتساءل: لماذا يبذل الأغنياء كل هذا الجهد كي يزدادوا غنى، إذا كان هذا لا يجعلهم أسعد بحال من الأحوال ويجعل قلة منهم أكثر جنوناً؟ إن سلوكهم ليس غير معقول كما يبدو. وفهم هذه الحقيقة هو الخطوة الأولى لسبر غور الآلة المتناقضة التي تحرك العولمة. وهو كذلك أول خطوة نحو تقرير ما إذا كان ينبغي ترك العولمة للطيار الآلي، باعتبار ما لها من فوائد جلية للفقراء، أم لا.

وهناك داخل الأمم، كما هو فيما بينها، صلة بين الدخل والسعادة. وهذه الصلة ليست شديدة القوة - وهي بطبيعة الحال ليست من القوة بحيث نجبر أنفسنا على تصديقها. فالنشوة التي نشعر بها من زيادة الراتب، تتلاشى معظمها بسرعة إن لم تكن كلها، بعد أن نجتهد في الحصول عليها، تاركة إيانا جائعين نبتغي المزيد. بل إنه فيما يتصل بالسعادة القومية، هناك مستوى لدخل الفرد يؤدي ما يزيد عليه من مال إلى تناقص النشوة النفعية مع كل دولار. (هذه النقطة في الولايات المتحدة هي ٢٠ ألف دولار) ومع ذلك فإن النشوة المقابلة لكل دولار لا تقل حتى تصل إلى الصفر. فالأمريكان ميسورو الحال أسعد حالاً بعض الشيء من مواطنيهم أبناء الطبقة الوسطى، وأسعد بكثير من الفقراء. والواقع أن هذه الصلة بين المال والسعادة قد تعني فقط أن السعداء أكثر احتمالاً لكسب المال من الحزانى دوماً. إلا أنه لا يكاد يوجد بين من درسوا المسألة من يعتقد أن السببية تعمل في هذا الاتجاه وحده. فكسب المزيد من المال يعني فرصة جيدة لجعل الناس أسعد حالاً إلى حد ما على الأقل.

وهكذا فإنه إذا كان الأمريكيون الأفراد يزدادون سعادة عندما يزدادون غنى، فلماذا لا تزداد الولايات المتحدة مجتمعة سعادة عندما تزداد غنى؟ الإجابة التي يفضلها بعض علماء النفس، ومعهم الاقتصادي روبرت فرانك في كتابه Luxury Fever (حمى الترف)، هي ببساطة: إن كثيراً مما يسر الناس بشأن الدخل الأعلى هو أنه يعزز مكانتهم النسبية في المجتمع. وهذا صحيح إلى حد ما - ذلك أن سعادتنا تنبع من مقارنة موقعنا في الحياة بما عليه الآخرون - ثم إن ما يكسبه شخص ما في أي مجتمع هو ما يخسره آخر.

ولنتأمل حالة إمبراطور الشحن اليوناني الراحل أرسطو أوناسيس، الذي أصر على أن تصنع الصنابير في يخته من الذهب الخالص، وأن تُكسى مقاعد بار اليخت بقلفة الحوت شديدة النعومة (وهذا ليس من تأليفي). دعونا نتفق، بغرض تجريب الأفكار، على أن أوناسيس أثار إعجاب الناس بالقدر الذي رفع مكانته الاجتماعية، ورفع مستوى هورمون السيروتونين لديه، وزاد من إحساسه بالرفاهية. وبقدر ما حقق النجاح، قل الوضع النسبي لمنافسه إمبراطور الشحن ستافروس نيارخوس. (ولا حاجة إلى القول بأن سعادة الحوت تأثرت هي الأخرى). وفي المجتمع اليوناني ككل، لم يكن هناك مكسب نفعي خالص.

ولهذه النظرية معناها في ضوء علم النفس الارتقائي. وكما يشير فرانك، فقد صمم الاختيار الطبيعي مخ الإنسان في سياق مجتمعات الصيد والالتقاط الصغيرة عندما كان الوضع الاجتماعي يرتبط بالنجاح التناسلي. وكان هدف المرء، من الناحية الداروينية، هو أن يكون في موضع أعلى من منافسيه - أي جيرانه - على عمود الطوطم. وبطبيعة الحال كانت هناك نقطة قمة واحدة على عمود الطوطم، ونقطة رقم اثنان، وهكذا؛ والوضع الاجتماعي مورد محدود، ولا بد أن يكون مكسب أي إنسان على حساب شخص آخر. والتراث الحديث الخاص بكون أمخاخنا قد شُكّلت بحيث تلعب هذه اللعبة هو أن السعي إلى السعادة من خلال كسب المال، سواء داخل الولايات المتحدة أو اليابان أو فرنسا، هو في المقام الأول لعبة محصلتها صفر. وهذا هو السبب في أن الثروة يمكن أن ترفع مستوى السعادة بالنسبة لشخص أمريكي معين، بينما لا تفعل الشيء نفسه بالنسبة للولايات المتحدة ككل.

وعلى النقيض من ذلك، نجد أن محصلة هذه اللعبة داخل الأمم الفقيرة ليست صفراً إلى حد ما. فالشيء المؤكد هو أن الصلة بين الدخل الفردي والسعادة الفردية التي نجدها في الأمم الغنية قائمة كذلك في الأمم الفقيرة - بل إنها أقوى في تلك الأمم. ولا شك في أن بعضاً من تلك السعادة ينبع من القدرة على التفوق على المنافسين. ومع ذلك فإن محصلة اللعبة لا تكون صفراً تماماً بين المواطنين، لأن الناتج المحلي الإجمالي للأمم الفقيرة يجلب قدراً أكبر بكثير من السعادة. ففي الوقت الذي يكافح فيه الناس من أجل رفع مستوى معيشتهم، يحصلون على أشياء ترفع مستوى سعادتهم دون أن تنتقص شيئاً من سعادة غيرهم - كالتغذية المعقولة والرعاية الصحية. بل إن هؤلاء المواطنين الذين هم في حراك لأعلى يدفعون بالأمة قاطبة نحو المزيد من حقوق الإنسان، والمزيد من الحرية السياسية، بل والمزيد من الديمقراطية - وهي جميعاً مكونات السعادة القومية.

ولهذا السبب نجد أن محصلة العلاقة بين الأمم الفقيرة والأمم الغنية ليست صفراً. فالأمريكيون من الطبقة الوسطى العليا، في سعيهم من أجل الدخل والمكانة الاجتماعية، وفي عملهم وقتاً إضافياً للحصول على السيارة «فورد إكسبلورر»، قد يتدافعون من أجل الحصول على قطع من كعكة السعادة المحدودة تقريباً. ولكن جزءاً على الأقل من هذه السيارة

صنع فى بلد من البلاد النامية، وعليه فإن بعضاً من الدولارات التى دفعوها ذهب إلى حيث يمكن للمال أن يشترى بحق المزيد من السعادة القومية. فالسعادة الخالصة خلقها السعى الأمريكى من أجل المكانة الاجتماعية - حتى وإن لم ينته المطاف بشىء من السعادة فى الولايات المتحدة. وأى إله نفعى، لا يبالى بالحدود القومية، قد يسره هذا.

والمدهش أن العولمة تجلب السعادة عن طريق الحد من الفقر. إلا أن الحد من الفقر ليس هو كل ما تقوم به العولمة، وليس الدخل هو مقوم السعادة الوحيد. فالعولمة تؤثر كذلك على نسيج الحياة، وفى بعض الأحيان بنية الحياة نفسها، وهذان الشيئان هما ما يعتمد عليه قدر كبير من سعادتنا.



إن جزءاً كبيراً من الحكمة التقليدية فى بعض الدوائر السياسية - وهو أن العولمة مفيدة للأغنياء وضارة للفقراء - ليس خطأ وحسب، وإنما خطأ بمقدار ١٨٠ درجة. فالعولمة، على الأقل من ناحية أثرها على الدخل وأثر الدخل على السعادة، مفيدة للفقراء وضارة للأغنياء

ولا بد أن ندرك أن تلك العلاقات المتبادلة عبر القومية بين السعادة والناتج المحلى الإجمالى لا تشى لنا بشىء عن التأثيرات «التحديثية» لعملية التحديث. فالأمم التى فى أعلى سلم الدخل وعلى أعلى قدر من السعادة هى فى الغالب أمم - فى أمريكا الشمالية وغرب أوروبا - مرت بالتحول من المجتمع الزراعى إلى المجتمع الصناعى منذ زمن بعيد، وكان لديها الوقت الكافى لالتقاط أنفاسها. والشىء المؤكد هو أنه من حسن الطالع أن الأمم الأقرب عهداً بالتحديث، مثل كوريا الجنوبية وتايوان، تبدى هى الأخرى مستويات مرتفعة إلى حد ما من السعادة. ومع ذلك، ورغم كل ما نعرفه، فإن السرعة الحالية التى يمضى بها التحول قد تسبب لكثير من الأمم المحدثة قدراً من التشويش يقضى على السعادة التى يأتى بها الدخل المتزايد.

وكانت مثل هذه المشكلة فى ذهن عالم الاجتماع الأمريكى ويليام أوجبرن فى أوائل القرن العشرين حين صاغ مصطلح «التخلف الثقافى». ويحدث التخلف الثقافى عندما تتغير الثقافة المادية بسرعة بحيث تتخلف الثقافة غير المادية (كالحكم والمعايير الاجتماعية والبنى الأخلاقية) تخلفاً خطيراً. وبعض نماذج العولمة الخاصة بالتخلف الثقافى حية وتناقش كثيراً. فعلى سبيل المثال يسابق التلوث الذى يلف مدينة مثل مكسيكو سيتى أو بانكوك قدرة الحكومة أو استعدادها لحل المشكلة. وتقل بعض جوانب «التخلف الثقافى» الأخرى وضوحاً، وإن كانت على نفس القدر من الأهمية على الأقل.

ولننظر إلى الأصدقاء وأفراد العائلة الواحدة. إننا نجد أن الروابط الاجتماعية القوية والحميمة تساهم مساهمة قوية فى تحقيق السعادة. وفى استطلاع أجرى فى الولايات المتحدة، ظهر أن المستجوبين الذين أمكنهم ذكر خمسة أشخاص على الأقل كانوا قد ناقشوا معهم أموراً ذات أهمية شخصية خلال الستة أشهر الأخيرة يزيد احتمال قولهم أنهم شعروا بأنهم «سعداء جداً» بمقدار ٦٠ بالمائة عن هؤلاء الذين لم يمكنهم ذكر أحد بالمرة. كما أن الأشخاص الذين لديهم أصدقاء وأقارب يتعاملون كذلك بطريقة أفضل مع الضغط العصبى والمرض ونكسات العمل.

ويمكن للانتقال من المجتمع الزراعى للمجتمع الصناعى أن يربك البنى الاجتماعية المتأصلة فيها الأواصر الاجتماعية، وهى حقيقة ساطعة الآن فى أنحاء العالم النامى. ففى البرازيل يستيقظ العامل فى «القطاع غير الرسمى» كل يوم ويستقل الأوتوبيس إلى المنطقة الصناعية، ثم يبدأ السير عائداً إلى المنطقة العشوائية التى يقيم فيها، ويتوقف أثناء عودته عند مواقع العمل أملاً فى الحصول على بعض ساعات العمل. وفى حال نجاحه، فإنه قد يقضى اليوم بين الأغراب؛ أما إذا أخفق، فإنه يقضيه بمفرده. وفى الهند، يكتب الصحفى روبرت كابلان عن «مخيمات المصانع الملوثة القذرة» حيث عشرات الملايين من المهاجرين الذين لم يعودوا ملتزمين بمعايير القرية الريفية وقد «انقضت عليهم إغراءات المدينة غربية الطابع - حيث السيارات الفاخرة والنوادى الليلية والعصابات وأفلام الجنس».

وبطبيعة الحال، مرت الأمم الحديثة بتحول شبيه إلى حد ما - وبقيت شاهدة على ذلك. ففى الولايات المتحدة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، عندما انتقل الشباب والشابات من المزرعة للمدينة وأصبحت أماكن العمل أكبر حجماً وأكثر موضوعية، كان هناك إحساس ملموس بالأزمة الاجتماعية. ومثالا البرازيل والهند يذكرانا بعشوائيات الطبقة العاملة فى بداية القرن بالولايات المتحدة، حيث كان المهاجرون الريفيون البعيدون عن عائلاتهم يحاولون انتزاع لقمة العيش بين المرض والفساد وأشكال جديدة من الإغراء. إلا أن الأمريكيين بحلول الحرب العالمية الثانية كانوا قد نجحوا ولو جزئياً فى نسج نسيج اجتماعى جديد - حيث شيدوا الأحياء الحضرية المستقرة، وأسسوا النوادى الاجتماعية والجماعات المدنية.



ومع ذلك تواجه الأمم النامية فى وقتنا الراهن هذا التعديل بسرعة غير عادية: فبعضها يبدأ وهو أكثر زراعية من الولايات المتحدة فى أواخر القرن التاسع عشر ولا يطلب منه الدخول فى عصر الصناعة وحسب، بل فى عصر الإلكترونيات - وهو العصر الذى تكافح حتى الأمم «الحديثة» كى تتماشى معه. فالمعروف فى الولايات المتحدة أن عالم السياسة روبرت بوتمان

.. لماذا تبدو العولمة مخيفة؟

جى باسكال زاكارى

الخوف بياع، ونحن دائماً نُسَوِّقه. والشك فى أن دماراً ما ينتظرنا عند الناصية التالية يشكل وعينا بكل شىء ابتداء من وباء الإيدز، والأطعمة المعدلة وراثياً، وارتفاع درجة حرارة الأرض، حتى الحقيقة الواقعة الخاصة بتعميق ونشر الصلات بين الناس والأماكن فى أنحاء العالم. وبينما يستغل تجار الخوف - لأسباب مفهومة - شبح الأوبئة التى لا يمكن السيطرة عليها، وعش الغراب المسخ، والطقس الذى يزداد سوءاً، فإن سبب ذلك القدر الكبير من القلق الذى تثيره العولمة أقل وضوحاً. والواقع أن مراجعة سريعة للمخاوف الرئيسية التى تثيرها العولمة تشير إلى وجود عدد أقل من الأسباب للقلق مما يظنه الكثيرون.

موت الهويات القومية:

هذا الافتراض من الرعب - ومن القبول على نطاق واسع - بحيث يبدأ كل نقاش حول العولمة بالإعلان عن القلق منه. فنحن نخشى آثار العولمة التى تؤدى إلى التجانس. كما أنه ينتابنا القلق من أن يتكالب المهاجرون على أهل البلاد ويقضون على جهود حماية التراث. ولكن العولمة يمكن أن تنعش الهوية القومية. فالذين يعبرون عن تقاليدهم الاجتماعية والثقافية المميزة يزيد عددهم وعدد بلادهم فى الوقت الراهن على أى وقت منذ فجر الاستعمار الأوروبى قبل خمسمائة سنة. باختصار، فإن تحديد الهوية المحلية فى مواجهة الهوية الكونية يزيد من حدة الأولى. وبالمناسبة، فإن الهويات القومية مراوغة. ولذلك فإن وجود مصدر دولى للخطر أمر مفيد. ولتنظر إلى الطريقة التى بث بها النشطاء الثقافيون الفرنسيون الحيوية فى تقاليدهم عن طريق الهجوم المتكرر على «ديزنى» و«ماكدونالدز».

كلهم غرباء:

هذا هو الجانب الآخر من الخوف الأول. ألن يفقد المهاجرون هوياتهم - بتشجيع من قدرتهم على حمل جوازات سفر متعددة وولاءات كثيرة لدول شتى؟ كلا. فكما أنه يمكن لـ«مواطنى» الغرب الأوسط الأمريكى أو سنغافورة الانفتاح على العالم دون التضحية بجذورهم، يمكن كذلك للمهاجرين أن يضيفوا «أجنحة»، وأن يحتفظوا بأساليب التفكير والعمل الأصلية، فى الوقت الذى يتبنون فيه ممارسات أوطانهم الجديدة. وتلك هى الحياة عندما تكون الجذور قابلة للنقل، ولا تكون الأجنحة أعداء للتميز. وتعنى سهولة السفر والاتصال، مع مقاومة حكومية أقل لاحتفاظ المواطنين بصلات وثيقة ببلادهم الأصلية، أن بإمكان عدد متزايد من الناس التركيز على تقاليده عندما يرغب ويساهم فى المجتمع الدولى عندما يناسبه ذلك؛ فيمكن لأية أسرة نيجيرية أن تقرأ الصحف المحلية، وتستمع إلى الإذاعة المحلية، وتستهلك الأطعمة المحلية - كل ذلك وهى فى بيتها فى لندن. وهذه القدرة على الجمع بين الأطر الثقافية تمثل تقدماً مدهشاً، أكثر منها عرضاً من أعراض انفصام الشخصية أو النفاق.

كوسوفو آتية إلى حيكم:

الذين يشعرون بالقلق من التشابه الزائد عن الحد هم أنفسهم من يخافون كذلك من الاختلاف الأكثر من اللازم. وهؤلاء الفزعون يرون أن الأمم، أو بالأحرى العالم، على شفا حرب قبلية، حتى وهم يدينون انتشار التوحد الذى لا سبيل لصده. فأنى لهاتين القوتين أن تتعايشا؟ إنهما لا تتعايشان. ذلك أن النزعة القبلية تزدهر فى الأماكن التى يقل فيها الاتصال بالعالم الخارجى إلى حد كبير (مثل سيبيريا ورواندا)، ولا يكون الاتصال فيها أكثر مما يجب. واختلاط الشعوب ببعضها هو نقيض النزعة القبلية، كما أنه بمثابة أفضل دفاع ضد الصراع الاجتماعى. فكلما ازداد تنوع أى مجتمع كان أكثر أماناً.

وأحسن طريقة لقياس أى مجتمع هى كيفية تعامله مع الاختلاف. ولا بد أن يتفق دعاة العولمة ودعاة الأقلمة على أنه لا بد أن تكون غايتهم الرئيسية هى ضمان الاختلاف.

الكبير يلتهم الصغير:

إن تكنولوجيات الإنتاج والتوزيع التى تمكن الشركات الكبرى متعددة الجنسيات التى لا جذور لها هى كذلك ما يجعل انتشار المنتجين الصغار الذين يبيعون للأسواق الأكبر ممكناً. فالأمم الصغيرة تستفيد بنفس الطريقة التى يستفيد بها صغار المستثمرين؛ فحقيقة الأمر أنه بعد قرون من التخلف، كثيراً ما تفوق الدول الصغيرة فى الوقت الراهن الدول الكبيرة، من حيث أدائها الاقتصادى. وإلا فكيف يمكن للمرء تفسير السبب فى أن معدل النمو فى أيرلندا واحد من أسرع معدلات النمو فى أوروبا، وأن معدل البطالة فى أيسلندا هو أقل معدل بطالة فى أوروبا، وأن فنلندا أصبحت رائدة دولية فى تكنولوجيا المعلومات؟

سلطة عظمى لمؤسسات كونية:

معذرة. قد تكون منظمة التجارة العالمية هى أعلى المؤسسات، ولكن إدارتها الخرقاء عوقت تحرير التجارة - ولم تخلق «نظاماً عالمياً جديداً». ولا يجرؤ صندوق النقد الدولى على التدخل كونياً، بعد معالجته غير النزيهة للأزمات المالية الآسيوية والروسية. كما أن قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة فشلت فشلاً ذريعاً فى البلد تلو الآخر. وإذا كانت الحكومات القومية فى سبيلها لأن تفقد السلطة، فلا يعود هذا إلى ظهور الدول السوبر الخفية؛ بل إن مرجعه إلى أن الساسة (والنشطاء) المحليين صارت لهم السطوة.

انظر إلى هذه المخاوف الخمسة من حيث علاقتها ببعضها ولن تبدو العولمة مخيفة. صحيح أن القلق أمر لا بأس به. ولكن القلق كمحفز على التحسين يكون أثره أفضل عندما يوجه نحو الأشياء الصحيحة.



(مؤلف كتاب Bowling Alone) ألقى باللائمة على التليفزيون لمساعدته فيما لحق من اهتراء بالنسيج الاجتماعى الخاص بعصر الصناعة الذى نسج حديثاً، وتآكل كل شيء من المشاركة المدنية حتى القيام بالنزهات. (وبالمناسبة فإن من يشاهدون الكثير من برامج التليفزيون تعساء إلى حد كبير، وإن كان السبب فى ذلك هو أن التعاسة هى التى تقود الناس إلى مشاهدة التليفزيون.)

ومن الناحية النظرية، قد تبدو التكنولوجيات الإلكترونية الجديدة ـ كالمايكرو كمبيوتر والمودم ـ وكأنها ما أمر به الطبيب على وجه الدقة. وهى على عكس التلفزيون أدوات اتصال، بل وصداقة عبر المسافات البعيدة. غير أن هناك أسباباً للشك فى أنها سوف تجلب القدر الكبير من النعم لجزء من العالم فى أى وقت على المدى القريب.

أحد هذه الأسباب هو أن مقاهى الإنترنت لم تكن جزءاً من البيئة التى نشأ فيها الإنسان العاقل. فالأمر الطبيعى أننا نحصل فى الغالب على الإشباع الاجتماعى من الاتصال المباشر، وليس من خلال جمل على شاشة الكمبيوتر. بل يبدو أننا نشأنا فى سياق مجتمعات صغيرة وحميمة كانت تتيح الفرصة للروابط الاجتماعية طويلة الأمد: فما نريده ليس مجرد «أصدقاء» بمعنى «المعارف» أو حتى «الزملاء». (ويرى أحد باحثى علم النفس الارتقائى أنه من غير المستغرب أن الجنود الأمريكيين الذين قسموا إلى فرق تضم كل منها اثنى عشر جندياً مع العضوية الثابتة، كانوا أصح عقلياً وأسعد بما يكلفون به من أعمال من الجنود الذين ألحقوا بمجموعات كبيرة مع عضوية غير ثابتة). وفى الوقت الذى تعرض فيه تكنولوجيا المعلومات إمكانية الاتصال الحميم، فإنها كثيراً ما لا تتيحه.

ولتنظر فقط إلى كل الأسماء التى يتضمنها دفتر عناوين البريد الإلكترونى الخاص بك. قد تكون على اتصال جيد بها. ولكن «على اتصال جيد» لا تعنى «على صلة عميقة». إنها تعنى اتصالاً على نطاق واسع وضحل. فأنت تتصل بأناس كثيرين عبر قنوات ضيقة من الاهتمام المشترك، وتعرف عدداً قليلاً منهم معرفة جيدة. وطبيعى أن مختلف الناس يستعملون التكنولوجيا بطريقة مختلفة، وقد تتنوع قدراتكم. ولكن كثيرين يرون أن البريد الإلكترونى يبقى وحسب على الاتجاه ـ الذى وصفه ريسمان سنة ١٩٥٠ فى كتابه The Lonely Crowd - بعيداً عن الثبات بقوة فى الأقارب والأصدقاء الموثوق بهم، ويجره نحو سطحية الشبكات الاجتماعية الواسعة والفعالة. وفى هذا العالم الذى وصفه ريسمان، ازدادت معدلات الاكتئاب والانتحار.

وتعزز تكنولوجيا المعلومات كذلك سرعة زوال مكان العمل التى نلاحظها كثيراً. فالاتصال السريع يسهل على الشركات العثور على عمال مؤقتين، وييسر على المديرين الذين يحصلون على رواتب أقل مما يجب العثور على قيمتهم السوقية الكاملة فى شركة أخرى ـ وييسر بصفة عامة على الكفاءة الاقتصادية الاستفادة كأحسن ما يكون من الاستقرار الاجتماعى. وطبقاً لما أظهرته دراسة نشرتها شركة الاستشارات «ماكنزى أند كومبانى»، فإن عدد الشركات التى سبق للمدير المتوسط العمل فيها ازداد خلال العقد المنصرم من ثلاث شركات إلى خمس. وهناك أناس كثيرون لا يعملون بالمرة فى شركات بالمعنى التقليدى للشركات ـ فهم يتعاقدون معها وحسب. وجعلت ثقافة «العميل الحر» الناجمة عن ذلك كثيراً من الناس أكثر ثراء (وخاصة هؤلاء ذوو مستويات الدخل التى لا يجعلك عندها المال أكثر سعادة بحال من الأحوال) عن طريق جعل بيئتهم الاجتماعية أقل رسوخاً.



وفى العولمة يوزع الاستشاريون والمحامون ومديرو الشركات وقتهم بين الكثير من الدول، حتى يكاد لا يكون لهم وطن. وهذه هى الطبقة التى سميت «الكوزموقراطيين» فى كتاب A Future Perfect، وهو كتاب حديث عن العولمة من تأليف جون ميكلثويت وأدريان وولدريدج. وأنا دائماً أجد مشكلة فى التعاطف مع من يكادون لا يسافرون. وقراءتى لما جاء فى الكتاب من وصف للكوزموقراطيين ـ الذين هم «نخبة قلقة» تواجه «مخاطر ألا يكون لهم بيت» ـ لم تنجح فى انتزاع دمعة واحدة من عينى. ومع ذلك فإنه صحيح أن الكثيرين من الكوزموقراطيين يعيشون فى شبكة واسعة وغير ثابتة من الصلات التى تفتقر إلى العمق. ونحن لم نعرف بعد إن كان ذلك سيجلب سعادة طويلة الأمد أم لا. ولكننا نعلم أن هذه ليست هى الطريقة التى خُلق البشر ليحيوا بها.

ومن المهم الاحتراز من المبالغة فيما نستنتجه من احتمالات خاصة باتجاهات عصر المعلومات هذه. ففى كثير من الحالات لا تكون هناك أهمية كبيرة للاستنتاج بالمرة. إذ لا يزال عصر المعلومات والعولمة صغيرين. وبينما تنتشر شبكة الإنترنت فى أنحاء العالم جاعلة صور الفيديو الكومبيوترية أكثر عملية، وجاعلة «الوجود عن بعد» واقعياً أكثر وأكثر، فإن الشبكة يمكنها كذلك أن تصبح وسيلة أكثر إشباعاً، بل وتسمح للنخبة «التى لا بيت لها» أن تكون على صلة عميقة مع مجموعة أساسية من الأصدقاء المقربين.

ولكن هناك قاعدة بشأن تكنولوجيا المعلومات المتطورة لا بد من قبولها، مهما اتسع النطاق ـ وهى القاعدة التى تؤكد مخاطر «التخلف الثقافى». فبما أن وسائل الاتصال التى تزداد قوة على قوة تزداد فى الوقت ذاته رخصاً، فإن الجماعات والأشخاص الذين تربطهم مصالح مشتركة سوف يجدون تنظيمهم أكثر سهولة. وفى معظم الحالات سوف يكون هذا مدهشاً ـ أو على الأقل لا بأس به. ولكن فى عصر يجعل فيه التحول الاجتماعى السريع بعض الجماعات تشعر بقدر كبير من الضيم، فإن هذه القدرة الجديدة على التعبئة سوف تؤدى هى الأخرى إلى مشاكل.

ولندع الضيم، جديده وما سيأتى فى المستقبل، جانباً. فهناك ما يكفى من الجماعات التى تعانى من ضيم طال أمده ـ كالأكراد والباسك والمسلمين الصينيين والأقليات الإندونيسية ـ وسوف يتلوه دمار حقيقى، بسبب القدرة المتزايدة على الوصول إلى تكنولوجيات التنظيم الفعالة والعتاد الحربى القوى. وعندما نضيف ردود الأفعال المضادة التى تعززها العولمة ـ بين الميليشيات فى قلب الولايات المتحدة، والقوميين المتعصبين فى روسيا، والأصوليين الإسلاميين المنسلخين فى أنحاء العالم ـ تصبح الصورة أكثر رعباً.

والشيء المؤكد هو أن التهديد الذى تمثله تكنولوجيات المعلومات للقوى المركزية المتحصنة يخدم القضايا العادلة فى كثير من الأحيان، وخصوصاً قضيتى الحرية والديمقراطية. إلا أن التحسين السياسى نفسه قد يحدث اضطراباً شديداً عندما يأتى بغتة. وكان أدنى مستوى للسعادة القومية فى جمهورية الدومينيكان سنة ١٩٦٢، ولم يكن قد مضى وقت طويل على اغتيال الدكتاتور رفاييل تروهيو الذى كان الأول ضمن سلسلة من الخطوات نحو الديمقراطية. وإذا تركنا بيانات الاستطلاعات جانباً، فإنه عندما يسفر الاضطراب السياسى عن أعداد كبيرة من القتلى، فإن أناساً كثيرين لا يعودون سعداء للأبد.

أعطها وقتها

سئلت يوماً المؤلفة دوروثى باركر إن كانت تستمتع بالكتابة فأجابت: «لا. إنى أستمتع بالانتهاء من الكتابة». وهكذا ترتبط السعادة أحيانا بالتطور التاريخى. وقد يتضح أن الانتهاء من العولمة أكثر متعة من العولمة. ومع أن غايات العولمة جيدة فى الأساس ـ مثل الحد من الفقر وتعزيز الديمقراطية والحرية ـ فإن عملية العولمة يمكن أن تكون مكلفة من الناحية الإنسانية، وخاصة عندما تمضى بسرعة كبيرة.

ولكن ما العمل، إذا كان المقصد طيباً والرحلة محفوفة بالمخاطر؟ أحد السبل هو قطع المسافة على ما فيها من مشقة. ومن المؤكد أن النصيحة الجيدة كان يمكن أن تكون: اجلسى واكتبى العمل ولتنسى ما عانيت من آلام عند فرحتك بما أبدعت! غير أن هناك فرقاً. فالكتابة ليست أشد إيلاماً فى سرعتها عن بطئها. ولكن يمكن أن يكون هذا هو حال العولمة. فمع التغير التكنولوجى والاجتماعى، يمكن أن تكون هناك انقطاعات فى التسلسل: فبالإضافة إلى السرعة الحاسمة، قد يفرض عظم الحجم آثارًا جانبية سلبية.

ومن بين هذه الأسباب القدرة المتزايدة على الوصول إلى التكنولوجيات المدمرة، وأبرزها الأسلحة البيولوجية والنووية. ولكن حتى الحقب الماضية حيث أشكال القتل الناتج عن التكنولوجيا الأقل تقدماً تعد شاهداً على الخسارة التى يمكن أن تلحق بالتاريخ عندما ينطلق بسرعة كبيرة. فلأن الثورة الصناعية، التى نضجت بصورة تدريجية إلى حد ما فى أقصى الغرب الأوروبى، انطلقت مسرعة ناحية الشرق فى أواخر القرن العشرين، فقد أحدثت تشويشاً اجتماعياً حاداً فى الأرض الألمانية وروسيا. والواقع أنه ليس من الجنون أن ننظر إلى النزعة القومية الألمانية البغيضة فى القرن العشرين وعهد الرعب الخاص بستالين على أنهما نتيجتان طويلتا المدى لهذا التغير المفاجئ. وعليه فإنه ليس من الجنون أن ننظر إلى المعاناة الحالية فى الكتلة السوفيتية السابقة ـ وهى أتعس مكان على ظهر الأرض ـ على أنها الإرث الذى يصعب علاجه لعولمة القرن العشرين المبالغ فى سرعتها.



ما الذى ينصح به الإله النفعى إذن؟ أشك فى أن النصيحة ستكون هى تهدئة العولمة بصورة منظمة. إذ يبدو توليف سرعة التاريخ أعلى من قدرتنا البشرية. ومع ذلك فقد ينبغى علينا النظر بمزيد من التعاطف إلى الأفكار السياسية المقبولة ذات المنطق الداخلى، التى ربما كان لها أثر جانبى يحد من سرعة العولمة بصورة طفيفة.

ولنتأمل خطة روبرت فرانك لتهدئة حمى الرفاهية. ولنتذكر أنه طبقاً لتحليل فرانك، يلعب الناس فى الدول الغنية الذين ينشدون السعادة عبر المال والمكانة الاجتماعية لعبة صفرية النتيجة. ولكن هذا لا يعنى أن التماس السعادة بأية وسيلة حصيلته صفر؛ فإنك إذا أمضيت المزيد من الوقت مع الأصدقاء، فسوف تشعر أنت والأصدقاء بتحسن، ولن يعانى أحد من شيء.

ويتساءل فرانك: ولكن أنى لذلك الذى لا يهدأ سعيه التماساً للسعادة أن يجد الوقت الذى يقضيه مع أصدقائه؟ فإنك إذا اقتطعت شيئاً من ساعات عملك، قد يقل دخلك وتتدنى مكانتك؛ ويمكن أن تخسر قدراً إضافياً من السعادة ليفوز به أحد المنافسين. وهذه هى المفارقة: فلو اقتطع الجميع فى مجتمع غنى ما جزءاً من أوقات عملهم بحيث لا تتأثر دخولهم النسبية، لأمكنهم قضاء المزيد من الوقت مع الأصدقاء ـ ولازداد إجمالى سعادة المجتمع. إلا أنه قد لا يكون فى مصلحة أى شخص أن يأخذ بزمام المبادرة. ويقول فرانك إن ما نحن بحاجة إليه هو طريقة




ما لوقف سباق التسلح التماساً للمكانة ـ وهو السباق المعقول على المستوى الفردى ولا طائل من ورائه على المستوى الجمعى ـ واستغلال الوقت الذى نضيعه فى التماس السعادة بطريقة أكثر حكمة. وهو يرى أن ضريبة استهلاك تصاعدية قد تؤدى ـ بالإضافة إلى تأثيرات أخرى ـ إلى الحيلولة دون العمل لمدة ٦٠ ساعة فى الأسبوع.

ولا شك فى أن مثل هذه الضريبة قد تقلل الطلب على بعض المنتجات المصنوعة فى العالم النامى. وهى بذلك قد تخفف من حدة العولمة. إلا أنه عندما تسير العولمة بخطوات حذرة بعض الشىء، لا تكون تهدئة السرعة هذه بالضرورة مطلباً ملحاً.

وكذلك الحال بالنسبة للمبادرات العديدة التى قد تهاجم لأنها تقلل من سرعة عجلات التجارة بصورة طفيفة. فإذا كان لضريبة الوقود الأحفورى، التى قصد بها مكافحة ارتفاع درجة حرارة الكرة الأرضية، أثر جانبى هو تقليل الطلب على السيارات، فلا يجب اعتبار هذا عيباً. فبإمكانك أن تقول الشىء نفسه بشأن وضع الاتفاقات الخاصة بالبيئة والعمال ضمن اتفاقيات التجارة. فنحن من ناحية لا ينبغى علينا ادعاء أن مثل هذه الاتفاقات لن تحد بصورة طفيفة من المعدل الذى تعزز به العولمة مستوى المعيشة فى الدول النامية. ولكن لا ينبغى كذلك أن نتجاهل احتمال أن يكون لهذا الأثر المهدئ ميزة ما، فى ظل سرعة العولمة المخيفة. فإذا ساعدت هذه الاتفاقات فى حل المشاكل البيئية أو ساعدت فى الحد من الاستياء من العولمة لدى العمال أصحاب الأجور المنخفضة فى الدول الغنية، لكان ذلك أفضل.

وإذا وجدت أنك تشعر بالأرق على عمال المصانع العاطلين فى سريلانكا، وهو ما توحى به العولمة التى قللت سرعتها بعض الشىء، فهناك طرق لتخفيف ما تشعر به من قلق: تبرع بالمال للجمعيات الخيرية التى تقدم الطعام والدواء لفقراء العالم. ولو لم تكن أنت نفسك فقيراً، ما كنت لتحظى بكثير من السرور من هذه الدولارات القليلة بحال من الأحوال. يضاف إلى ذلك أن أحد علماء النفس اكتشف أن القيام بأعمال تنم عن الإيثار يجعل حالة الناس المعنوية مرتفعة. واكتشف آخر أن المراهقين المهتمين اهتماماً خاصاً برفاهية الآخرين ينعمون بقدر كبير من السعادة. ويبدو أن إعطاء أشياء للناس يمكن أن يكون لعبة ليست محصلتها صفراً. وما أكثر ما فى الطبيعة البشرية من مفارقات.

وإذا أتيح للعولمة الوقت الكافى فإنها هى نفسها قد تأتى بمفارقة أخيرة. فلنفترض أن العالم بات مع استمرار تقليص التكنولوجيا للمسافات «قرية كونية» بحق، وعم البشرية جمعاء إحساس بالانتماء المشترك. ألا يحتمل أن يكون هذا مدهشاً؟ ربما لا يكون كذلك. وبقدر ما تعتمد السعادة على مقارنة وضعك الاجتماعى بوضع جيرانك، فإن سعادة الأمم الفقيرة قد تتأثر. فعندما يرى الناس فى العالم النامى الأمم الغنية رأى العين فإنهم قد يبدءون فى اتخاذها مرجعاً، وحينئذ يشعرون بأنهم أقل قيمة مقارنة بهم.




وواقع الأمر أن أحد علماء النفس، وهو مايكل هاجرتى، يرى أن شبكة الاتصالات الكونية تزداد كثافة بالفعل بما يجعل لـ«آثار المقارنة» هذه عواقب وخيمة. ولو تركنا الاتصالات جانباً، لوجدنا أنه كلما كثر الكوزموقراطيون الذين يتجولون فى المزيد من المدن داخل المزيد من الدول النامية، فإن العواقب ستزداد سوءاً. وسرعان ما يعترى فقراء العالم إحساس قوى ـ وجمعى إلى حد كبير ـ بالحسد والسخط تجاه أغنياء العالم مجتمعين.

ومن ناحية أخرى، فإنه مع تقدم التطور الاقتصادى، وعندما يصبح كل من الأغنياء والفقراء فى الدول النامية ميسورى الحال، فإن هذا الوعى الطبقى التحولى نفسه قد يبدأ فى الحيلولة دون وقوع حروب بين الأمم. وأحد النشطة المناوئة للحرب هو اتصال النخب القومية ببعضها عبر شبكة الإنترنت ـ من الولايات المتحدة إلى الصين إلى بتسوانا. كما أن اتصالاً مشابهاً بين طبقات العالم السوسيواقتصادية يمكن أن يكون له الأثر ذاته؛ وكلما ازداد ما هو مشترك بين الناس وبين الأنفس الشقيقة فى الخارج، وكلما ازداد وعيهم بهذه الشراكة، كان ميلهم أقل إلى الحمية القومية الخالصة.

وهذا الصراع الطبقى المتعدى للقوميات يحمل فى طياته دائماً احتمال أن يصبح عنيفاً. إلا أن افتراض امتلاك طبقات العالم العليا من الحضور الذهنى ما يجعلها تقلل من السخط بواسطة السياسات الاقتصادية والاجتماعية المحسنة، فإنه من غير المحتمل أن تكون مثل هذه الحروب على ما كانت عليه حروب القرن العشرين بين الأمم من تدمير. ومن غير المحتمل كذلك أن تضاهى أهوال الحروب الأهلية الحالية القائمة على أسس عرقية (وهى كما ستلاحظون تبتلى بها فى أغلب الأحيان أمم ليست متداخلة بعمق وثراء فى الاقتصاد الكونى). وفى ظل وجود البدائل، يكون قدر معين من الصراع الطبقى على المستوى الكونى مشكلة ينبغى أن نسعد بالتصدى لها. ■

بترتيب خاص مع:

Foreign Policy Magazine

ترجمة: أحمد محمود



من كتابات حسين فوزى

وظيفة التعليم

ليس الغرض من التعليم العام أن نحفظ شيئًا بعينه على كل حال، بل أن ينمى فى نفوسنا حب الفضائل وصدق الإحساس. والمواطن الصالح هو الرجل سليم الفكر سديد الحكم، يعرف كل حقوقه، وأهم ما فى حقوق المواطن الصالح هو ما تحمله إياه هذه الحقوق من واجبات. فالحرية ـ أغلى حقوقه ـ ليست حرية الحيوان فى الغاب، إنما هى حرية الفكر الفردى، وحرية المجتمع يكفلها لكل فرد من أفراده، لا حدود لها غير حرية الآخرين سواء بسواء.

والمواطن الصالح هو الرجل صادق الشعور بالخير والجمال. ولا فرق عندى بين الجمال والخير. فمن أحس بالجمال عرف الخير، ومن عمل الخير شعر بالجمال. ولست أعنى الجمال فيما تواضع عليه الناس. الجمال هو تناسب فى الظاهر يقابله تناسب فى الباطن.

تناسق بين المظهر والمخبر، يكون فى أهون الأمور وأعظمها، فى تأدية الواجب، وفى علاقات الناس بعضهم ببعض، وفى علاقات الحاكمين بالمحكومين، كما يكون فى زى الناس، ودور عبادتهم وندوتهم ولهوهم، وفى مساكنهم أو مقابرهم. والتربية الفنية تنشئ فى المواطنين، وتنمى بينهم هذا التناسق.

والموسيقى واحدة من الفنون، تعمل عملها فى الباطن أكثر من الظاهر. لأنها أقوى روحًا، وأضعف مادة. وإذا كانت الفنون الأخرى لم تدخل فى صميم تربيتنا، فهى على الأقل قائمة عند حدوث الترف الظاهرى. دون استجابة روحية، أى أن لها وجودًا بوسيلة من الوسائل.



في فيلم تسجيلي هادئ ومباشر ولكن خارق التعبير عنوانه «الزواج المختلط في الأرض المقدسة» (١٩٩٥، إنتاج بلجيكي - بريطاني - فلسطيني مشترك) يقدم المخرج الفلسطيني المبدع ميشيل خليفي عشرة نماذج لأزواج من خلفيات مختلفة في فلسطين وفي إسرائيل تغطي غالبية احتمالات الاختلاط العرقي والديني: مسلم ويهودية، مسيحي ويهودية، مسيحية ويهودي، مسلمة ويهودي، ومسلمة سوداء ومسلم أبيض. وخلال الـ٦٦ دقيقة التي يستغرقها الفيلم، تتابع كاميرا خليفي بتؤدة وحنان هؤلاء الأزواج وهم يستلون لحياتهم وحبهم معنى وهدفًا في مجتمعات منغلقة ومتعصبة تراوحت ردود أفعالها تجاه اجترائهم على تحدي معاييرها وممارسة حرية الاختيار بين اللامبالاة الباردة وبين التهديد بالقتل، ولا يعدم التسجيل من لحظات بارقة بالأمل يعبر عنها بعض هؤلاء الأزواج بعفوية وبساطة، عندما يشرحون لنا أمام الكاميرا خياراتهم وقناعاتهم بهذه الخيارات، مع إدراكهم للثمن المرتفع الذي دفعوه والذي يمكن أن يدفعوه، نتيجة لتمسكهم بقرارهم في العيش مع الحبيب المختار في البيئة المعادية والمشحونة بالقلق والتوجس والتعصب التي يعيشون فيها ولا يعدم المتفرج اللبيب من إدراك مجموعة الأفكار التي يتعامل معها ميشيل خليفي، وهي كلها من نوع المتناقضات التراجيدية بدءًا من الفرد مقابل الجماعة، إلى الإحساس الفردي مقابل معايير الجماعة، فالحب مقابل التعصب الديني أو العرقي أو الاجتماعي، وأخيرًا الحرية مقابل الانتماء، ويغلف هذه التناقضات الوجودية والمبدئية التناقض السياسي / الاستيطاني الذي ينخر في جسد البلد وحيوات أبنائه ولاجئيه ومستوطنيه من الطرفين العربي واليهودي منذ نصف قرن، تناقض إسرائيل المحتلة مقابل فلسطين الخاضعة للاحتلال.

نموذجان من نماذج خليفي استوقفاني أكثر من غيرهما، وخاصة أنهما يؤلفان تناقضًا آخر داخل التناقضات العامة التي يرسمها الفيلم بحنكة وروية، النموذج الأول لزوج مؤلف من فلسطيني مسيحي موسيقي، خالد، يدرس في المعهد الوطني للموسيقى في رام الله ويعيش مع يهودية أوروبية الأصل، راما، دارسة للموسيقى هي أيضًا، ولكنها تعمل كمبرمجة في مكتبة الجامعة العبرية في القدس، والزوج الثاني لحالة نادرة في فلسطين وفي العالم العربي عمومًا: امرأة فلسطينية مسلمة، خيرية، متزوجة من يهودي إسرائيلي، أوفر، يلوح لي أن خليفي اختار التركيز على هذين الزوجين لرغبته في سبر التضاد الحاد الذي يمثلانه، أي التقاطع بين المجتمعين المتصارعين على فلسطين: العربي والإسرائيلي، وربما أيضًا لرغبته بالإشارة إلى دور الاختلافات الطبقية / المهنية في وعي الأفراد بمجتمعهم، وهو أيضًا يتابع المرأتين أكثر من متابعته للرجلين، ويدفعهما لرواية قصتيهما على

الحرية والانتماء في العالم



الشاشة مع أقل ما يمكن من التدخل المباشر. ومن ثم ينهي فيلمه معهما ومع اشتفافهما لحلول لمشكلاتهما، مما يؤكد على أهميتهما النسبية في حبك الرواية التي أرادها خليفي، والتي - والحق يقال - تنفذ للأعماق على أكثر من صعيد، من الوطني، إلى الطبقي، فالثقافي، فالإنساني في نهاية المطاف، فالموسيقية الإسرائيلية «راما» مثقفة وعاملة تكنولوجية ماهرة، وهي تحب عشيرها الفلسطيني ومصممة على خيارها، وهي أيضًا واعية بعمق وبتفلسف للمشكلات التي تطرحها علاقتها في إسرائيل بين أهلها وفي فلسطين بين أهله، وهي محللة ماهرة لكل هذه المشكلات واعية لاستحالة حلها على الصعيد الفردي لتشابكها وتداخلها وتجاوزها لمقدرة الفرد على المقاومة. وعندما تبلغ «راما» في تحليلها هذه النقطة، نجدها بكل هدوء تطرح الخيار المنطقي الوحيد المفتوح أمامها للخروج من دوامة الصراع بين خيارها الفردي في الحياة مع الحبيب الفلسطيني وضغوط مجتمعها الذي لا يقبل بعلاقة كهذه: الهجرة من إسرائيل إلى أوروبا التي يمكن أن تمنحها الحرية في العيش مع من اختارته والذوبان في مجتمع لا مبالٍ نسبيًا ولا يدقق كثيرًا في الانتماء العرقي أو الديني أو القومي.

أما «خيرية» فقصتها أكثر حدة، وإن كانت تحكيها بلغة مباشرة وبسيطة مما يخفف من وطأتها وبشاعتها، على أقل تقدير مبدئيًا. فهي وزوجها الذي اختارته عن حب يعيشان في إسرائيل ما قبل الـ ٦٧ بعيدًا عن الناصرة، بلدة أهلها، لأنهم طردوها عندما تبين لهم إصرارها على الارتباط بمن اختاره قلبها، ولأن أخاها الأكبر قد حلف يمينًا بأنه لن يتزوج قبل أن يقتلها لغسل العار الذي جرته على عائلتها بزواجها من يهودي، وهي عندما تحكي قصتها بدون أي حكم مسبق على عنجهية وقسوة أخيها الذي مازال يعتقد أنه مخول التحكم بحياتها، نراها تعبر عن اشتياقها لأهلها وبلدتها رغمًا عن عداوتهم الصريحة والقاسية، ولكنها تؤكد لميشيل أنها أيضًا غير مستعدة للتخلي عن زوجها الذي تحبه وعن أولادها منه. وعندما يسألها ميشيل في النهاية ما إذا كانت قد فكرت في الهجرة للتخلص من هذا الوضع المأزوم في حياتها - وهذا هو السؤال - المحك برأيي بالنسبة لميشيل خليفي الذي يحمل هموم الوطن والانتماء والهجرة والحرية في جوانحه ويصوغها في أفلامه - تجيبه بلهجة فلسطينية محببة وبصوت راسخ وهادئ: صحيح أني قد هيأت جوازات السفر في حالة اضطرارنا للهرب، ولكن كيف أترك بلدي؟ هنا جذوري، أرضي، وطني، لغتي، الجو، الطقس، الناس.

العربي

ناصر الرباط

لا أعلم إذا كان قارئي يشعر هنا بنفس القشعريرة التي شعرت بها وأنا أتابع هذه السيدة البليغة تصوغ بعبارات مباشرة وصريحة واحدة من أكثر المعضلات ضراوة في الحياة الحديثة؛ المعادلة بين الحرية الفردية والانتماء للجماعة كحقين إنسانيين أساسيين، خاصة في حالة خيرية المركزة بسبب من التحدي الإسرائيلي العنيف لكينونة الشعب الفلسطيني نفسه ولارتباطه بأرضه من جهة، ولدموية العرف الذي مازال سائدًا في شرائح عريضة من المجتمعات العربية والإسلامية والذي يسمح لذكور العائلة بتقرير حياة إناثها وبحرمانهن من أبسط الحقوق ومعاقبتهن إلى حد القتل أحيانًا بحجة الدفاع عن الشرف إذا ما حاولن تأكيد ذواتهن. وقد دفعتني عبارات خيرية للتفكير في الوضعية المأساوية التي تعيشها في ظل هذين التحديين الوحشيين وللإعجاب بالشجاعة المبدئية والراسخة التي تبديها بتواضع وبدون أي تبجح أو تفلسف والتي تسمح لها بأن تستمر في حياتها يومًا بيوم قانعة بخياراتها ومتحملة لمسؤولية هذه الخيارات على الرغم من قتامة الاحتمالات، هذه المعادلة / المعضلة نفسها، والتي أراها من أهم ما يواجهه الإنسان العربي اليوم لأنها تمس في آن واحد هويته وكيانه وتعبيره عنهما معًا - ويتساوى في ذلك عرب الداخل وعرب المهجر (وفلسطينيي الداخل المحتل وفلسطينيي الشتات) وإن اختلفت التحديات وتباينت أدواتها - هي موضوع مقالي هذا.

فالحرية تلك القيمة المهدورة في الحياة الخاصة والعامة وفي الخطابات المعاصرة - الرسمية منها والشعبية - على امتداد العالم العربي بشكل خاص والعالم ككل بشكل عام، تتقاطع مع الانتماء القومي واستحقاقاته في عمليتي شد وجذب، ربما كانتا من أهم عوامل تكوّن هويتنا وتاريخنا المعاصرين. وحديثي هذا ذو شجون، ولكنه أيضًا حديث مجرد، يناقش وينقد الحرية والانتماء كمفهوم وكممارسة. وهو إلى ذلك حديث يبحث عن محاورين عن أصداء، عن تفاعل ينفخ بعضًا من الحياة في مفهوم الحرية المفقودة في عالمنا العربي اليوم، وهو أيضًا حديث نابع من إحساسي القوي بأن توازن الحرية والانتماء في تكوين الفرد والجماعة على حد سواء أكثر من ضروري في عالم اليوم متسارع النبض ومتغيره، والذي يحتاج أكثر من أي وقت مضى للتأكيد على أطر مثالية وأخلاقية ومعنوية ترفد تسارعه وتغيره بروافد إنسانية الأصل والطابع والانطباع. والحرية على رأسها، تليها مباشرة وتكملها، برأيي، المسؤولية.



الحرية قيمة مطلقة وسياقية في الآن نفسه، هي مطلقة من حيث إنها لكي تكون حقيقية وفعالة يجب أن تكون متاحة لكل الناس ولكل المجموعات البشرية بالتساوي المطلق بغض النظر عن أي من العوامل الأخرى التي تمايز بينهم كمقدرتهم الجسدية أو العقلية أو جنسهم أو لونهم وعرقهم أو هويتهم أو انتمائهم أو ثقافتهم أو مستواهم المادي أو التعليمي مما يخلق بينهم فروقات على أصعدة أخرى لا يمكنهم الحد منها إلا بوضعها في قوالب معيارية وحقوقية وأخلاقية أوسع منها. والحرية سياقية من حيث إنها تطورت تاريخيًا كمفهوم وكممارسة بتطور الوعي الإنساني بها ومن حيث إنها تتفاوت في مضمونها ومداها وتطبيقاتها بين مجموعة بشرية وأخرى وبين زمن وآخر حسب الظروف والمحددات البيئية والتاريخية والعقائدية والمادية والتأثيرات الخارجية من أفكار ومبادئ ومصالح. فهي في الواقع، على الرغم من طبيعتها المطلقة تعريفًا، مؤطرة تاريخيًا واجتماعيًا وفكريًا ومعرفيًا، بل ومكبلة كممارسة في غالب الأحوال، فنحن كأفراد نعيش في جماعات تحد من حريتنا الفردية بالضرورة مراعاة لحرية الجماعة، أو حرية المتكلمين باسم الجماعة، إن حقًا أو إرهابًا، مقابل منحنا الشعور بالانتماء وربما بعضًا من الطمأنينة والحماية، ونحن أيضًا كجماعات نعيش في ظل جماعات أقوى وأعتى - داخليًا وخارجيًا - قد لا يكون لها مصلحة في تحقيقنا للانسجام بين حريتنا وانتمائنا كما نفهمهما وكما نريدهما. ولعل خلاصة تاريخ الحرية نفسه هي سلسلة من محاولات الجماعات المستضعفة والأفراد المغامرين أو المثاليين، الانعتاق من المكبلات المادية والاجتماعية والمعيشية والانطلاق، أو بمعنى أدق الحلم بالانطلاق. في فضاء الحرية الرحب والواسع. وقد نجح البعض منهم في ذلك وفشل الكثير. ولكن الرغبة بالانعتاق أقوى من الخوف من الفشل، على الرغم من المعوقات الاجتماعية والطبقية والخارجية التي تحد الحلم بالحرية وأحيانًا تدمره، وفي مرات قليلة تتركه يحيا، بل أحيانًا قليلة تنهزم أمامه وينتهي بها الأمر للقبول به كإطار ناظم جديد لفهمها لنفسها يحل محل الإطار السابق.

هاتان الحالتان المتضادتان بنيويًا للحرية قد أشكلتا على عدد كبير من المفكرين والمنظرين والمحللين ودعاة الإصلاح والتغيير ومازالتا. كيف يمكن التوفيق بين المطلق مفهوميًا والنسبي اجتماعيًا وسياسيًا وتاريخيًا. أي بين الثابت والمتحول؟ اختار المنظرون الفلسفيون المثاليون التمسك بالمطلق ولكنهم بقوا ضمن الإطار التنظيري الضيق ورفضوا التعامل مع الواقع «الخسيس» برأي بعضهم، مما وضع «حريتهم» بعيدًا عن متناول محتاجيها من الناس الذين يعيشون في العالم الواقعي إياه بعجره وبجره، بمصالحه الآنية وتراتبياته الاجتماعية، وبمستغليه ومستغَليه. وبقيت رسالة هؤلاء المنظرين بالتالي مثالية وطوباوية، نقرؤها في الكتب ولكننا لا نجد لها تطبيقًا في العالم الحقيقي القائم. أما المصلحون الأجلاء الناجحون في التاريخ فقد رنوا كلهم للحرية بالمطلق عندما كانوا في مرحلتهم التنظيرية والكفاحية المثالية قبل أن يقيدوها بالواقع عندما اصطدمت بمسؤولياتهم وامتيازاتهم الاجتماعية والسياسية المكتسبة خلال صراعهم أو بعد انتصارهم، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر. وقد حاول الكثير منهم، خاصة أصحاب الديانات والدعوات الاجتماعية الأخلاقية، التوصل لحل توفيقي يثبت المتحول ضمن إطار أخلاقي ومرجعي ما أوسع منه وأعلى - إلهي في غالب الأحيان - ونجحوا ضمن مجال جغرافي أو قومي ضيق ولمدى زمني محدد قبل أن تسبقهم المتغيرات التاريخية ونتائجها السياسية والاجتماعية والمعرفية. فعاود البعض محاولة التوفيق بين الرسالة والواقع، مما أفقد الرسالة على المدى الطويل خصوصيتها خاصة بعد زوال الجيل المؤسس، في حين جنح البعض الآخر إلى نسبة المطلق للمطلق، أي نفي الحرية المطلقة لما بعد الزمن التاريخي والإنساني - إلى العالم الآخر بكل مدلولاته الزمانية والمكانية المجردة والمطلقة - وقرروا التعامل حصرًا مع النسبي الاجتماعي والسياسي والثقافي في هذا العالم. أي أنهم حاولوا جاهدين «أنسبة» الحرية.



تاريخ الحرية كمفهوم والحالة هذه لا يختلف كثيرًا عن العديد من المفاهيم المثالية، كالعدالة والإنسانية والمساواة والمواطنة أو الانتماء، التي تؤنسن حياتنا وتحاول الموازنة ما بين بعديها الرئيسيين، المادي، وبالتالي الخاضع لقوانين فيزيائية وبيولوجية وسيكلوجية واجتماعية لا يستطيع الإنسان منها فكاكًا في كل لحظة ولو أنه يقفز فوقها ويتجاوزها أحيانًا، لكي يقع في إطار مرحلة إدراكية أعلى وأعقد تتطلب حلولاً جديدة لا تحويها المنظومة المعرفية السابقة عليها، والمثالي الذي يرنو إلى الاستقرار التام والمطلق، البنيوي وفوق - التاريخي، وبالتالي فوق - الإنساني أو الاجتماعي، الذي يتمثل على الأغلب إما بالتوازن الروحاني المتصعد الذي يجد تعبيرًا عن نفسه عادة في حياة تصوفية أو قدسية مترفعة وبعيدة عن المجتمع، أو بعكسه تقريبًا: التوازن السياسي الدكتاتوري الذي يعتنق مبدأً واحدًا شاملاً ويرفض الاعتراف بتنوع التجربة الإنسانية، ويحاول صهر الكل في بوتقة واحدة تلغي

الاختلافات والفروقات ولكن على حساب حرية الفرد عامة. ولكني لا أريد أن أقضي الوقت الطويل في مناقشة تاريخية مقارنة - على أهمية الموضوع - في الوقت الذي أرى فيه فداحة اضمحلال ممارسة الحرية كحق فردي واجتماعي إلى أقصى درجات الاضمحلال في العالم العربي وهدرها على يد كل السلطات الموجودة فيه اليوم، حتى تلك التي تحسب نفسها في الموقع الريادي من الدفاع عن حرية الفرد، والتي تعاني هي نفسها من الاضطهاد على يد سلطات أخرى أعلى منها وأكثر بطشًا وإهدارًا للحرية، ولأوضح ما أعني.

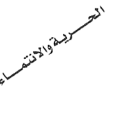
إذا قبلنا بالتطور التاريخي لمفهوم الحرية، أي أن مدلولاتها قد تطورت بتطور الوعي الإنساني بها على الرغم من ثبات المفهوم كمفهوم - وهو ما تقبله كل حركة إصلاحية وإن كانت غالبية هذه الحركات تقف في قبول التغيير عبر التطور عند لحظة انبثاقها هي مما يخالف أبسط قواعد المنطق والتاريخ والعدل - فعلينا أن نحاول تحديد ما تعنيه الحرية اليوم في ضوء التغيرات الهائلة والهزات السياسية والعسكرية والاقتصادية والحضارية والمعرفية العميقة التي مر بها العالم في القرن العشرين، فهناك - أولاً - التقدم السريع في العلم والفكر والإنتاج والتكنولوجيا، وتوابعها من توسع الاستغلال الطبيعي والصناعي والمالي والتجاري وإمكانيات الاتصال السريع عبر كل الحدود البشرية والجغرافية وانتشار معايير علمية عالمية للصحة والتربية والعمل والترفيه. وهناك - ثانيًا - انبثاق أفكار ونظريات شاملة لتفسير حركة المجتمعات والدول والثقافات وتصرفات وعقليات ونفسيات الجماعات والأفراد. وهناك - ثالثًا - تفاقم العنف على الصعيدين الاجتماعي والسياسي محليًا وإقليميًا، وتوافر أسلحة فتاكة في أيدي الحكومات ومناوئها على حد سواء وتطور أسلحة الدمار الشامل كعامل واقعي بتار في حل نزاعات الأمم والشعوب. هذا بخلاف الجراح النازفة التي خلفتها حربان عالميتان مهولتان وحروب الاستعمار والتحرر من الاستعمار والصراعات المحلية والإقليمية الأكثر هولاً خصوصًا في النصف الثاني من القرن في الدول الفقيرة والمستضعفة. مقابل ذلك كله، علينا أن نأخذ في الاعتبار انتشار نموذج الدولة - الأمة في كافة أرجاء المعمورة إثر ظهوره في أوروبا الغربية في نهاية القرن الثامن عشر، بحيث أصبح الانتماء للدولة - الأمة أو الانتماء الوطني هو الانتماء الأول والأقوى، وأحيانًا الوحيد في حياة كل البشر. وقد رافق ذلك الانتماء تبعات ثقيلة من صهر للهوية الفردية أو الأسرية أو القبلية في الهوية الوطنية المجردة والواسعة التي استلزمت استنباط معالم تاريخية ولغوية واجتماعية واقتصادية وسياسية تبررها وتثبتها وتسوغ اختلافها عن غيرها من الدول - الأمم. وتوج هذا الهيكل السياسي السائد ظهور بوادر نظام دولي ابتدأ بمحاولات متعثرة تمثلت بعصبة الأمم في بداية القرن العشرين، أو بمعنى آخر منتدى الدول المستعمرة التي تقاسمت العالم فيما بينها وفقًا لقواعد استغلالية وضعتها. وآل النظام الدولي اليوم إلى الأمم المتحدة مع كل المؤسسات المتفرعة عنها أو المتمثلة بنموذجها، التي مازالت مع كل عيوبها تشكل الإطار الدولي الأوسع والأشمل في تاريخ البشرية الذي يحاول تنظيم علاقات الشعوب والدول ببعضها البعض وطرح أطر حقوقية وتعاقدية ودبلوماسية لهذه العلاقات. وقد أضاف صعود المد الرأسمالي وانتصاره على الشيوعية مؤخرًا بعدًا اقتصاديًا جديدًا لظاهرة القرية الكبيرة التي يعيشها العالم بفضل الاقتصاد المعولم وتكنولوجيا الاتصالات المتسارعة، وإن كانت الظاهرة غير واضحة المعالم بعد. ولكنها على عولميتها الاقتصادية لا يبدو أنها ستؤدي إلى تخفيف أو زوال الفروق المادية والإنتاجية والتكنولوجية والفكرية التي تعاني منها البشرية، بل إنها ستعمق الانقسام الحاد والمتزايد في كل دول العالم إلى أغنياء مستغِلين وفقراء مستغَلين.

أين هو مفهوم الحرية في هذه المعمعة؟ يبدو لي أننا اليوم كجنس إنساني يتقارب أفراده اقتصاديًا وتكنولوجيًا، وإن كانوا قلما يتعارفون أو يتحابون حقًا، نتعامل مع مستويات مختلفة من فهم الحرية كمبدأ مما يسبب الكثير من التناقض والمهاترات والاختلافات في التطبيق. ولكننا في الحقيقة نمتلك مرجعًا عالميًا يمكننا الاحتكام إليه، قبلته كل الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨، (هذا الإعلان، بالمناسبة وقعت عليه كل الدول العربية الأعضاء بالأمم المتحدة مما يجعلها قانونيًا وأخلاقيًا مسؤولة عن تطبيق مواده، أو على أقل تقدير الامتناع عن خرقها، وهي للأسف غالبًا ما تقوم بذلك)، ولا أظن أن أحدًا يمكنه الادعاء بأن الإعلان العالمي هو أكمل وأشمل تعريف بالمطلق لحقوق الإنسان، ولكنه بلا مراء يمثل أكمل تعريف حقوقي متوافر لها اليوم. وعلى الرغم من الاعتراضات التي نسمعها كثيرًا، من اليمين الديني واليسار الفكري على السواء، عن عدم ملاءمة هذه الحقوق لشعوب الدول النامية والفقيرة بسبب من أنها قد فصلت أساسًا على مقاس الثقافات الغربية، الأوروبية والأمريكية المسيحية الديانة والعلمانية التوجه والمهيمنة اقتصاديًا وعسكريًا وإعلاميًا، فإن مواد الإعلان نفسه تستحق التأمل والاعتبار، فالحقوق المذكورة في هذه المواد إنسانية عامة تعريفًا، يهفو إليها الناس أجمعين وإن تفاوتت قدراتهم في صياغتها والتعبير عنها وفقًا لدرجة ثقافتهم ووعيهم السياسي والاجتماعي. وهي تتعارض أكثر ما تتعارض مع مصالح الدول الغربية نفسها، التي ساهمت أكبر مساهمة في صياغتها، كما يبدو واضحًا من تطاول هذه الدول على حريات شعوبها، وخصوصًا فقراءها وأقلياتها ومهاجريها، وعلى حريات الشعوب الفقيرة والنامية التي تعاني من استغلال غربي اقتصادي واستثماري ودعم لأنظمة الحكم الشمولية فيها. وهي، أي الحقوق الأساسية كما وردت في ذلك الإعلان، قد صيغت من قبل مجموعة من المفكرين العالميين إنسانيي النزعة الذين تأثروا تأثرًا بالغًا بهمجية الحرب العالمية الثانية، التي تسببت بها الحضارة الغربية أساسًا، والذين اطلعوا على العديد من النظم الأخلاقية والتشريعية والدستورية التاريخية إما مباشرة أو عبر تشربهم بمبادئ أخلاقية تدين ببعض أو بكل مبادئها لغيرها من النظم السابقة عليها، قبل أن يبدأوا مداولاتهم ومناقشاتهم.



يتناول الإعلان في مواده الأولى (من ١ إلى ٥) الحقوق الإنسانية المبدئية، من الحياة والسلامة والمساواة والكرامة، بلغة بسيطة وواضحة، فيها بعض من صدى دساتير دينية وعلمانية سابقة، ولكنها أعم وأوسع فهي موجهة لكل إنسان بغض النظر عن أي عامل تمييزي طبيعي أو وضعي مهما كان. وينتقل في المواد من ٦ إلى ١٢ للحديث عن الحقوق القانونية للأفراد، من اعتراف بشخصية الفرد القانونية، إلى المساواة بين الأفراد أمام القانون، إلى كفالة نزاهة المحاكم، إلى رفض الإجراءات التعسفية، إلى التمسك ببراءة المتهم حتى تثبت عليه التهمة. ثم يتبعها الإعلان في المواد من ١٣ إلى ١٥ بحقوق الانتماء التي تعكس بالضرورة واقع عالم ما بعد الحرب الكونية المكون من دول - أمم ذات سيادة يتبعها الأفراد ويحملون جنسيتها، كما يتبين لنا من المادة ١٢ البند ١ «لكل فرد حرية التنقل واختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة»، أو المادة ١٥ البند ١ «لكل فرد حق التمتع بجنسية ما»، أي أن الإعلان يتعامل مع الدولة - الأمة على أنها مصدر الانتماء الأول بالنسبة للأفراد، وهو الوضع الذي مازال سائدا اليوم. المادة ١٦ تحدد حقوق الأفراد بتكوين أسرة على اعتبار أنها «الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع»، وهو الوضع الذي مازال سائدًا في أغلبية البلاد ولو أن بعض المجتمعات اليوم بدأت تشهد بوادر تحول في هذه النظرة. والمادة ١٧ تقرر حق التملك للأفراد. هذان الحقان معتمدان في كافة الشرائع والقوانين السابقة على الإعلان، ولو أنهما بطبيعتهما يعكسان تطورًا تاريخيًا واضحًا وطويلاً من المشاع إلى التخصيص فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية وباحتكار الموارد الطبيعية والصنعية ابتداءً من الحضارات البشرية الأولى في أودية الأنهار الكبرى في مصر والعراق والهند والصين، لكي يصل أوجه في عصر القومية الذي مازلنا نعيش فيه، وإن كنا على ما يبدو على وشك مغادرته إلى «العولمة» التي ابتدأت بتوحيد مجالنا الاقتصادي والاتصالاتي وهي الآن بصدد تحدي الحدود الوطنية والدولية.

المادتان ٢٠ و٢١ تعنيان بالحقوق السياسية للأفراد كناخبين وكمشاركين سياسيين في إطار ما يمكن وصفه بالنظام البرلماني الديمقراطي، الذي يبدو أن الإعلان يعتبره النظام السياسي الأمثل، وهو ما يتلاءم مع السياق التاريخي للإعلان عقب الحرب العالمية الثانية التي أدت إلى انهيار الأنظمة الفاشية وانتصار الأنظمة الليبرالية البرلمانية الغربية (وحليفتها الشيوعية السوفيتية، ولكنها لم تكن آنذاك في موقع يمكنها من فرض وجهة نظرها بعد). ولكن الوضع اليوم في العالم يبرهن للأسف أن التفاؤل بالليبرالية البرلمانية الذي عم آنذاك لم يتغلغل في كافة أصقاع العالم، وبخاصة العالم الفقير، داكن الألوان، والمستعمر، حتى بعد نيله حريته ومسيره في دروب الاستقلال، بل إن الغرب الليبرالي هو نفسه معوق الديمقراطية في دول فقيرة كثيرة شاء سوء حظها أن تكون أهميتها التجارية أو الاستراتيجية أكبر من قيمة شعوبها بالنسبة للغرب المهيمن، أما المواد من ٢٢ إلى ٢٧ فهي التي تحدد حقوق العمل والضمان الاجتماعي والصحي وحق التعليم والثقافة لكل الناس كخلاصة لنضال الإنسانية بعد الثورة الصناعية في سبيل تحقيق حد أدنى من الحياة الكريمة والفعالة والمنتجة لكل الناس، وتأتي المادتان ٢٨ و ٢٩ لضمان حقوق الفرد المنصوص عليها في الإعلان بشكل عام ومعادلتها بالواجبات المترتبة على الانتماء للمجتمع وضرورة احترام مبادئ الأمم المتحدة في تطبيق الحقوق والواجبات. وينتهي الإعلان بالمادة ٣٠ التي تؤكد على أنه «ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة أو جماعة أو فرد أي حق في القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه». هذه المادة الختامية تبدو لي كمحاولة من جانب واضعي الإعلان للحد من إمكانيات التسلط والقهر في ظل الأطر السياسية التنظيمية السائدة، من دول وطنية أو تنظيمات حزبية أو حكام دستوريين أو دكتاتوريين، التي يمكنها أن تهدد تطبيق الحقوق الواردة في الإعلان العالمي بغض النظر عن توقيعها عليه،





ولكن هذه المادة الختامية أضعف من أن تحد فعلاً من إمكانية حصول تجاوزات وخروقات بما أنها ترد كمادة في نفس الإعلان التي تروم حفظه من الخروقات. وهي على الأغلب نابعة من صراع فكري بين مندوبي الدول والمفكرين المثاليين من محرري الإعلان تمخض عن حل وسط بضم المادة للإعلان من دون تزويدها بأدوات ضامنة لحسن تطبيقها.

ولكن المادتين اللتين تهمانني في سياق هذا المقال هما المادتان ١٨ و ١٩ اللتان لا يمكن وصفهما إلا بالتحرر بالمعنى الحقيقي بالنسبة لما سبق الإعلان العالمي من دساتير وشرائع في أي مكان من العالم وعلى مر التاريخ، وإن كانتا تدينان بعض الشيء لأفكار ظهرت بشكل جنيني في دستوري الثورتين الأمريكية والفرنسية. المادة ١٨ تتناول حرية الاعتقاد، والمادة ١٩ حرية التعبير. تقول المادة ١٨: «لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سرًا أو مع الجماعة». أما المادة ١٩ فتقول: «لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية».

وليست هاتان الحريتان بالضرورة أكثر أهمية من الحريات المدرجة في مواد الإعلان الأخرى، بل إن إمكانية تطبيقهما مشروطة بتوافر الحقوق الأخرى التي تكفل للفرد حدًا أدنى من الكرامة الإنسانية والاستقلالية تجاه المجتمع. بل إن العديد من المنظرين، خاصة مفكري العالم الثالث المعاصرين من نقاد نظرية التقدم يلحون على أن المطالبة بحريتي الاعتقاد والتعبير عندما تكون الكرامة المعيشية المتمثلة في حقوق العمل والصحة والتعليم والأمان من العوز مفقودة أو مهدورة، إما عبث منهجي أو ترف فكري لا قبل للمجتمعات المسحوقة به.



ولكننا لو تمعنا قليلاً في المادتين ١٨ و١٩ لوجدناهما تمثلان طفرة معرفية في تمثل الحقوق الإنسانية تنتقل بالفرد من ضمان وسائل معيشته في المجتمع حوله ماديًا وقانونيًا وأسريًا واجتماعيًا وسياسيًا إلى ضمان حقوقه (أو حقوقها) كفرد مفكر وعاقل ومستقل، حر بالتفكير في حقوقه نفسها وفي التفاعل معها سلبًا وإيجابًا، وبالاعتقاد الحر في أية منظومة فكرية تستهويه أو ترضي نظرته وفهمه للكون حوله من دون خوف من اضطهاد المنظومات الأخرى القائمة أو تسلط القائمين عليها أو الداعين إليها أو المؤمنين بتفوقها. بل هو حر (أو حرة) في رفض المنظومات الفكرية والأيديولوجية والدينية القائمة ومحاججتها ونقدها والحلم باستبدالها بغيرها والدعوة العلنية لتغييرها وتقديم بدائل لها وتنظيم المؤسسات التي ستقدم هذه البدائل، والعمل على نشر هذه المبادىء في أي مكان بالعالم من دون تقيد بحدود الدول. أي بالمنظومة القومية السائدة عندما كتب الإعلان العالمي قبل أكثر من خمسين سنة. ربما كان هذا التصور عندما وضع، أقرب إلى التمني منه إلى الإمكانية الواقعية. ولكن صياغته نفسها وإعطاءه تعريفًا حقوقيًا ملزمًا، وتوقيع دول العالم بأجمعها - ماعدا استثناءات قليلة - عليه، ومن ثم قيام حركات الدفاع عن حقوق الإنسان الناشطة في أرجاء العالم اليوم باعتماد مبادئه جعله أقرب إلى الواقع المأمول منه إلى التخيل اللاواقعي.

قامت المادتان ١٨ و١٩ في الحقيقة بدفع مفهوم الحرية نفسه دفعة نوعية هائلة، بل إنهما حققتا ما أسماه الفيلسوف الأمريكي الراحل توماس كون (Thomas Kuhn) «انزياحًا استبداليًا» (Paradigm Shift)، تلك العبارة الاصطلاحية التي ابتذلت كثيرًا في الدراسات العلمية والاجتماعية والإنسانية على حد سواء، والتي قصد منها «كون» إنجاز طفرة معرفية أو إدراكية تنقل مستوى الإدراك والعلم من درجة إلى درجة مخالفة لها ومختلفة عنها، وأحيانًا مغايرة ومناقضة لها، لم يكن من الممكن لها أن تتبلور ويعبر عنها في ظل المنظومة المعرفية السابقة بقواعدها وأطرها الفكرية والتنظيرية ومستويات إدراكها. فالمادتان ١٨ و١٩ لم تكونا ممكنتين حقًا في عالم سيطرت عليه أنظمة فكرية غائية ونهائية، حددت تمامًا ما الصالح وما الطالح، وما المقبول وما المرفوض، وما الممكن التفكير فيه وما لا يمكن التفكير فيه، في كل المواقف والمواقع عبر الزمن، كعالم ما قبل الثورة العلمية والمعرفية التي اصطلح على تسميتها في أوروبا بعصر التنوير (Enlightenment). بل إن هاتين المادتين ما كان من الممكن التفكير فيهما إلا بعد أن ثارت الشعوب الأوروبية أولاً، وغيرها لاحقًا، ضد الاستغلال الكنسي والملكي والإقطاعي وضد هدر حقوق الناس السياسية والمعيشية، وبعد أن أسس مفكرو التنوير للعلوم الإنسانية الحديثة التي تنطلق من الإنسان وحياته ومصلحته وتصب بحثها فيه، وبعد أن أسست الفلسفة الحديثة لمبدأ الشك كمنهج للبحث والتقصي الفلسفي والعلمي ابتداءً من القرن السابع عشر قبل أن يعمم على جميع أنواع البحوث الاجتماعية والإنسانية، بحيث أصبح للتساؤل والتخطي وتحدي المنظومات المعرفية القائمة مناهج وإطارات نظرية متماسكة. وقد كان على البشرية جمعاء - وليس ثقافة ما معينة كالثقافة الغربية كما يدعي المشككون والأصوليون - أن ترتفع بالإدراك الإنساني ككل من مستوى المجموعة أو الجماعة أو المجتمع أو الأمة أو أي كيان متعال ومجرد إلى مستوى الفرد العاقل والمدرك لذاته ولإمكانياته لكي تتمكن من صياغة نصية قانونية محكمة لحقوق هذا الفرد مقابل الجماعة ومقابل الهياكل الجماعية الشمولية المهيمنة على فردية الفرد من مؤسسة ودولة وأمة وامبراطورية ووطن ودين.



من هنا تنبع الأهمية الحدية الفاصلة لهاتين المادتين اللتين ترتقيان بمفهوم الحرية إلى أعلى مدى ممكن لها في ظل النظام المعرفي السائد حاليًا على صعيد العالم (مما لا يعني بالضرورة أن هذا هو مداها الأقصى بالمطلق). ومن هنا كذلك تنبع الإشكالات النظرية والمنهجية والتطبيقية التي تواجههما، مفهومًا وممارسة، في عالمنا العربي المعاصر المكبل بقيود هيكلية واجتماعية متوارثة أو مفروضة فرضًا عليه في ظل الأوضاع الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تسحقه داخليًا، والغطرسة الإسرائيلية الاستيطانية والتغلغل الاستثماري الغربي التي تتحداه، وتستنزفه خارجيًا، والأنظمة الشاملة التي تحكمه على مختلف الأصعدة - السياسية والدينية والاجتماعية - وتكتم أنفاسه من المحيط إلى الخليج بغض النظر عن اختلاف التسميات وتفاوت درجات الشمولية والتسلط، ومن هنا أيضًا تنبع الضرورة الملحة لطرق موضوع الحرية الفردية، التي هي أساس الحرية الاجتماعية، كأداة تحرر اجتماعي وسياسي تسمح لمجتمعاتنا العربية بالتعامل واقعيًا وإيجابيًا مع الأزمات التي تكبلها ومواجهة التحديات التي تحيط بها بدلاً من الركون إلى المعزوفة السائدة في معظم الخطاب العربي السلطوي المعاصر عن ضرورة تضحية الحقوق والحريات على مذبح التحرر القومي ومجابهة الغزو الاستيطاني الإسرائيلي والتصدي للمؤامرات - الداخلية والخارجية، والخارجة عن إرادتنا بداهة - التي يبدو أن أمتنا مصابة بأكثر من حصتها المنطقية منها، والتي يبدو أننا على الرغم من تحملنا لفقداننا لحرياتنا كشعوب وكأفراد لم نفلح في مواجهة أو دحر أي منها.

نظريًا، يمكن لأي نظام شمولي القبول بكل مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ما عدا المادتين ١٨ و١٩ اللتين تنتميان لمنظومة فكرية تجاوزت في أسسها ومفاهيمها النظام الشمولي نفسه كأساس لتنظيم علاقة الفرد بالمجتمع. فمن ضمن إطار المرجعية المعرفية للنظام الشمولي، لا ضير حقًا من قبول مبدأ حق الفرد بالحياة أو بسلامة شخصه، (ولو أن معظم أنظمتنا العربية الحاكمة أو المجموعات الثائرة عليها قد أهدرت هذا الحق على حد سواء، مع إدراكها التام لمخالفة ما فعلته لأسسها المرجعية نفسها) أو في العمل أوفي تكوين أسرة، أو حتى بالحصول على محاكمة عادلة (وهو ما أصبح مستحيلاً في معظم بقاع العالم العربي اليوم، ولكن لأسباب لا علاقة لها بالمنظومة المعرفية السائدة بل بسوء تطبيقها). فهذه كلها حقوق لا تتحدى المنظومة نفسها أو تراتبيتها، ولا تفسح المجال لتمكين الفرد من مساءلتها ونقدها مما يهدد بالنهاية أسس شرعيتها ووجودها. وهي أيضًا كلها حقوق تعترف مسبقًا بالجماعة وأولويتها وبوجود نظام يسوسها يعلو على الفرد ويفرض نفسه عليه (أو عليها). ما تحققه هذه الحقوق هو المحافظة على وجود وكرامة ورخاء الفرد ضمن إطار أولوية الجماعة: أي أن هذه الحقوق تنتمي للمنظومة الفكرية والمعرفية السابقة على عصر التنوير، وهي بالتالي لا تتخالف بنيويًا أو معرفيًا مع أي من الشرائع الدينية أو الدساتير الوضعية الإنسانية ما قبل الحداثية التي قدمت الجماعة على الفرد في كل مرة تعارضت فيها مصالح الطرفين. ولكن المادتين ١٨ و١٩ شيء آخر، فهما تعترفان للفرد بكيانه المنفصل عن الجماعة، وتسمحان له (أولها) بمساءلة وتحدي ونقد بل ورفض أنظمة وأطر الجماعة مهما تكن وبتخيل بدائل لها والسعي لتحقيق هذه البدائل والتعبير عن هذا السعي بكافة الوسائل التعبيرية المتاحة من فن وعلم وأدب وفكر وعقيدة وسياسة وغيرها. وهنا بيت القصيد فيما يحدث - أو بالأحرى ما لا يحدث - اليوم في العالم العربي.



فالأنظمة العربية، سياسية كانت أم دينية أم اجتماعية، تنتمي كما لاحظنا بالنسبة لكل الأنظمة الشمولية للمنظومات المعرفية الغائية التي ترى أن هدف الحياة الإنسانية محدد مسبقًا، وهو عمومًا السعي لدوام الجماعة واستقرارها وتماسكها الأخلاقي والانتمائي وخلاصها الديني وطهرها العقائدي أو الوجودي، دائمًا على حساب الفرد وحريته، وأحيانًا على حساب حياته. بل وترى هذه المنظومات أن الطريق إلى هذه الغاية معروف ومرسوم، وإن اختلف بين ثقافة وأخرى اختلافًا بينًا، وأن هناك أسلوبًا واحدًا صحيحًا للوصول إلى الغاية المنشودة، وكل ما عداه مخطىء أو مغرض أو كافر أو متخلف أو غير ذلك من النعوت السلبية. في حين أن حريتي الاعتقاد والتعبير قد تشكلتا فلسفيًا في عصر التنوير الذي شكك بكل الأشكال الميتافيزيقية للتفكير. وتعثرتا في تطورهما خلال نشوء النظام الجديد إثر الثورتين الفرنسية والصناعية اللتين تسببتا بالكثير من الألم والأمل في آن واحد. وصلتنا خلال المخاض الحداثي في بداية القرن العشرين الذي عانت الإنسانية عبره من أهوال الحروب العالمية والهيمنة الاستعمارية التعسفية وصعود



الحرية تلك القيم المهدورة في الحياة الخاصة والعامة وفي الخطابات المعاصرة - الرسمية منها والشعبية - على امتداد العالم العربي بشكل خاص والعالم ككل بشكل عام، تتقاطع مع الانتماء القومي واستحقاقاته في عمليتي شد وجذب ربما كانتا من أهم عوامل تكون هويتنا وتاريخنا المعاصرين



الأنظمة الفاشية بكافة تلويناتها، إلى أن حصلتا على صيغتهما الحالية مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وقد انتمتا أساسًا لمجموعة الأفكار التي ركزت على أولوية الإنسان الفرد المفكر والعاقل، وعلى لزوم الشك في كل منظومة غائية تحد من حريته، والأنظمة الشمولية على رأسها، وعلى القبول بالتخطيء وبالرأي الآخر كوسيلة لدفع الحوار والوصول إلى أجوبة مقبولة لكل الأطراف. ومن هذه الأفكار انطلقت الحركات الإصلاحية الفكرية الجديدة منذ نهاية القرن الثامن عشر، والتي شهدت أوجها في النصف الثاني من القرن العشرين، لترفض مبررات الأنظمة الشمولية كافة، ولترسم مبادىء توازن جديد بين الفرد والجماعة، ممثلة بالسلطة السياسية أو الاجتماعية أو العقائدية والدينية، حرصت فيها على ضمان حقوق الفرد تجاه الجماعة بما أنه أساسًا الطرف الأضعف في هذه العلاقة، وعلى رأس هذه الحقوق حريتا الاعتقاد والتعبير اللتان تسمحان للفرد باختيار انتمائه للجماعة أو بنقده أو برفضه وتغييره بما يوافق آراءه.

وعلى هذا فالأنظمة العربية المعاصرة على الرغم من حداثتها الظاهرية أحيانًا، على الأقل من خلال ارتكازها على مبدأ الدولة - الأمة وهيكل السلطة المركزية بكل أدوات استعراضها ورفاهها وقمعها، لا يمكنها إطلاقًا الاعتراف بحريتي الاعتقاد والتعبير. وليس ذلك لأنهما تتحديان أسس شرعيتها ومبررات وجودها فقط، بل لأنهما «تتحدثان لغة غير لغتها» لغة لا يمكنها فهمها من ضمن المنظومات المعرفية التي تعتمدها في تبرير تسلطها وقراراتها وسياساتها. بل هي لا تريد فهمها لأنها لو فعلت - كما فعلت أنظمة غائية أخرى في الشرق والغرب تمسكت لفترة طويلة بمنظوماتها المتناقضة، كان آخرها النظام الشيوعي السوفيتي وتفرعاته - فهي ستضطر إما لتغيير أسسها المعرفية والإدراكية واليقينية تغييرًا جذريًا، والتخلي بالتالي عن امتيازاتها المكتسبة والمغتصبة والموروثة وإعادة النظر بتقييمها لإنجازاتها الفعلية والموهومة، أو للسقوط بسبب إفلاسها الذي سيكشف عنه وعيها بنظامها المعرفي المتناقض داخليًا وجوهريًا ومنهجيًا وبالتالي فلسفيًا، تمامًا كما اكتشف آدم وحواء عريهما عندما انتقلا من حالة معرفية إلى حالة أخرى.



ولا يقتصر الفهم المجتزأ للحرية على الأنظمة الحاكمة والسائدة التي تعودنا على توجيه اللوم لها فيما تعانيه الأمة العربية عمومًا من إحباط وتخلف وقمع، بل يتجاوزها إلى العديد من الأفراد الفاعلين أنفسهم. فهم وإن تغنوا بحريتي الاعتقاد والتعبير فهم يطبقونهما أو يطالبون بتطبيقهما على أنفسهم ومماثليهم فكريًا أو عقائديًا فقط وحجبها عن غيرهم ممن لا يرونهم مستحقين لهذه الحقوق لأسباب شتى، مع أن الأرضية المعرفية الفعلية لهذين الحقين هي ضرورة تعميمهما على كل الأفراد مهما تخالفوا في الفكر والإدراك والمنظور والأصل والدين والجنس والطبقة الاجتماعية والمستوى الاقتصادي. ولا أظن أن وضع أي شرط اجتماعي أو قانوني لتطبيق حريتي التعبير والاعتقاد، كما تفعل غالبية الخطابات العربية المعاصرة بغض النظر عن توجهها الديني أو العقائدي أو السياسي - فيما عدا ضرورة مراعاة تطبيقهما الدائم والشامل على الكل - محق أو مجد أو ممكن بنيويًا. فأي تحديد لهما ينفيهما نفيًا تامًا، ويعيدنا للمنظومة المعرفية السابقة التي أطرت مفهومي الاعتقاد والتعبير ضمن حدود مصلحة الجماعة ورؤيتها واعتقادها ومدى تقبلها للنقد والتغيير، أي بمعنى آخر رهنتهما بمدى قدرة الجماعة، أو قدرة ممثليها وزعمائها الذين يتكلمون بالنيابة عنها إن انتخابًا أو اغتصابًا، على تقبل ما يغاير أسس معرفتها بنفسها.

هذا هو الشرخ المعرفي العميق الذي تواجهه الغالبية العظمى من قضايا حرية الاعتقاد والتعبير التي شغلت الناس في العالم العربي مؤخرًا من مصر إلى لبنان إلى سورية إلى الأردن وفلسطين والكويت وقطر والبحرين واليمن والجزائر والمغرب: أفراد يمارسون حقوقهم في التعبير عن آرائهم شفاهًا أو كتابة أو فنًا (من موسيقى وسينما ورسم ونحت وغناء ورقص وغيرها) أو من خلال اختياراتهم الشخصية من منطلق إيمانهم بحريتي الاعتقاد والتعبير، وأنظمة وحركات ومؤسسات وأفراد يهاجمونهم ويدينونهم وينزلون أشد العقوبات بهم بتهم مختلفة ومتناقضة أحيانًا ولكنها تصب جميعها في خانة الخروج عن الجماعة وتهديد أمنها أو نظامها أو عقيدتها أو ترابطها الاجتماعي أو أهدافها السياسية المنشودة، أي خانة وضع متطلبات الجماعة فوق حقوق الفرد بالمطلق. ولا فرق أساسيًا حقًا بين ما تدعيه الأنظمة الثورية أو التقليدية الحاكمة عندما تحجر على حرية الأفراد بالتعبير أو بالاختيار بحجة الأمن والنظام وقيم المجتمع، وما تدعيه الحركات الدينية المتطرفة أو العقائدية المغالية عندما تغتال آراء بعض الأفراد (أو الأفراد أنفسهم أحيانًا) بحجة مروقهم وكفرهم وضلالهم أو رجعيتهم وتحجرهم وتشددهم، أو ما يقرره الكثير من المعلقين في الصحف السيارة والإذاعات والقنوات الأرضية والفضائية عن عدم التزام المتهمين بقيم المجتمع وعقائده وتراثه، أو ارتباطهم بجهات أجنبية (من دون أي دليل حقيقي طبعًا)، أو انتمائهم الفكري لبيئات غريبة وخارجية، وما شابه ذلك من الاتهامات التي لا تتناول أبدًا لب المشكلة. فكل هذه الجهات تصدر عن فهم مبتسر وسطحي لحريتي الاعتقاد والتعبير، فهم متناقض لأنه يحاول حصر مفهوميهما التنويري، المرتكز على الفرد كهدف للتفكير، ضمن إطار المنظومة المعرفية ما قبل الحداثية التي ترى الفرد دومًا كتابع للمجتمع. وإلا فكيف نفهم التوافق شبه التام في إدانة بعض المفكرين والمبدعين بين الأطراف السلطوية الثلاثة، النظام الحاكم والهيئات الدينية والإعلام بمفكريه ومعلقيه وصحفييه الذين ينتمون عمومًا للفكر القومي أو حتى الفكر اليساري، عندما تتخالف هذه الأطراف الثلاثة في كل شيء آخر؟ والأنكى من ذلك هو أن هذه الأطراف الثلاثة تتوافق أيضًا في تشكيكها بانتماء الفرد المخالف لمجتمعه وبانصياعه لمصلحة مجتمعه (كما يقررها مسيروه ومستبدوه)، على أساس أن من خالف الجماعة فهو ليس منها. أي أنها تلجأ لسلاحي العزل والتمييز، والتخوين أو النفي أحيانًا، كمقدمة لخلق تباين حدي بين الفرد المستقل التفكير والمجتمع. رافضة حتى القبول بمناقشة فكرة أن التعبير الفردي ليس بالضرورة منابذة للمجتمع. بل ربما كان هذا التعبير، كما في حالة العديد من مفكرينا وفنانينا المخالفين والمعاقبين مؤخرًا، التزامًا واعيًا بهذا المجتمع ونضالاً من أجل نهوضه من كبوته التي طالت. بل ربما كان انتماء الكثير من هؤلاء الأفراد أقوى وأصلب عودًا وأكثر إيمانًا بمجتمعهم من الكثير من منتقديهم ومهاجميهم.



لا غرابة في هذا الوضع من وجهة النظر التاريخية والبنيوية على حد سواء. فالمنظومة المعرفية الغائية مازالت هي الأساس الناظم لكل المؤسسات الفاعلة في العالم العربي اليوم والمحرك المستتر لمعظم المنتج الفكري العربي الذي يلتزم حدود الجماعة على الغالب.

ولا يغنينا الكلام الكثير عن الديمقراطية والحرية واحترام الرأي الآخر الذي نسمعه بصيغ متعددة، فهو لا يعدو كونه محاولات مسرحية للظهور بمظهر حداثي ولمماشاة الاتجاه العالمي نحو المزيد من الحرية للأفراد من دون كبير سبر للتناقضات البنيوية التي تجعل تحقيق هذه الحرية والإبقاء على الأنظمة السائدة سياسيًا واجتماعيًا ودينيًا في آن واحد مستحيلاً. فالثقافة العربية لم تعان الحداثة وجوديًا ومعرفيًا وكيانيًا (أنطولوجيًا)، وهي بالتالي لم تصغ مقاربتها لها بنفسها ولم تمر بالهزات النفسية العميقة التي مرت بها المجتمعات الأوروبية خلال اكتشافها لحداثتها. بل إن الحداثة ومستحقاتها من هياكل معرفية وقانونية وسياسية واجتماعية واقتصادية وتكنولوجية، قد فرضت عليها فرضًا في ظل التدخل الأوروبي الذي مهد للاستعمار الحديث وما تلاه من ظهور الدول الوطنية بأنظمتها الإدارية والسلطوية المستوردة في القرن التاسع عشر، وعودتها ثانية في النصف الثاني من القرن العشرين بعد جلاء المستعمر. ولا تختلف ردود أفعال غالبيتها اليوم كثيرًا عن ردود أفعال أجدادنا في القرن التاسع عشر عندما جوبهوا بضراوة هجوم الغرب متنامي السيطرة الذي ابتدأ يهدد سلطتهم في بلادهم بعد أن كان قد قضى على أي نفوذ لهم خارجها. فقرروا إما تقليده لتلافي تهديده ومن ثم مجابهته. أو الانكفاء على أنفسهم وتناسي التحدي آملين بحل ما. وعندما فوجئوا بالغرب ينزل عليهم مضاربهم محتلاً ومستغلاً ويجبرهم على تقليده وفق هواه ووفق مخططاته الاستعمارية اضطروا للانصياع. ولكن هذا التقليد، سواء منه المقتبس محليًا أو المفروض استعماريًا، لم يتجاوز المظاهر والقشور. فلا الحكام المحليون وأعوانهم ولا المندوبون الساميون المعينون من عواصم الاستعمار وإداراتهم، كانوا فعلاً معنيين بتهيئة تربة صالحة لبزوغ حداثة خاصة بالشعوب العربية التي حكموها كثقافة وكجماعات بشرية متميزة، نابعة من إدراكها ومعاناتها واصطدامها بمعطيات العصر العلمية والفكرية والتكنولوجية. بل هم لم يزيدوا على أن أنزلوا المظاهر الحداثية تنزيلاً على القواعد المعرفية الموجودة من دون محاولات جادة لتطويرها أو مراجعتها ونقدها إلا فيما ندر (حالة مصر محمد علي هي واحدة من هذه النوادر التي بدأت كارهاص يفتش عن كيان اجتماعي وسياسي جديد). وحتى هذه الحالات النادرة لم يتح لها أن تعمر طويلاً أو أن تنفذ عميقًا في الطبقات الجديدة المتعلمة التي أنتجتها لأغراض وظيفية محددة من إدارة وجيش وصحة وتعليم وهندسة وتخطيط.



وهكذا حصلنا على «نظامنا الجديد» - كما عرفه محمد علي والسلطات العثمانية كل على حدة في بداية القرن التاسع عشر، وجيوشنا الجديدة وحكوماتنا الجديدة وشرطتنا الجديدة ومخططاتنا العمرانية الجديدة. وبعدها في القرن العشرين، حصلنا على دساتيرنا الجديدة وأعلامنا الجديدة وبرلماناتنا الجديدة وقوانيننا الجديدة وسجوننا الجديدة وجامعاتنا الجديدة ومدارسنا الجديدة ووسائل إعلامنا الجديدة، غالبًا كمنحة مفروضة من الأعلى من دون كبير مشاركة أو إدراك من القاعدة. ولكننا لم نحصل على حداثتنا ولا على فكرنا الجديد ولا حرياتنا الجديدة إلا كبدايات واعدة في تلك اللحظات الوامضة القصيرة في النصف الأول من القرن العشرين التي اصطلح على تسميتها تيمنًا بإيطاليا القرن الخامس عشر، «عصر النهضة



الحرية والانتماء

العربية»، حينما سطعت أصوات حرة وقوية تسبر غور مجتمعاتها وتنقد هياكلها المتهالكة وتقترح أسسًا جديدة وجادة وموضوعية للنهضة، وفي رحم هذه الحركة النهضوية استطاع فنانونا وأدباؤنا ومفكرونا النهضويون بعد نجاحهم فى هضم واستعمال الأدوات الأساسية لحرفهم التى تعلموها من الغرب أن يصوغوا نتاجًا ثقافيًا متميزًا وأصيلاً ومتعلقًا ببيئته ومنتميًا لتاريخه مع تلاقحه فى الوقت ذاته مع تيارات الثقافة العالمية وتجاوبه معها وطرحه لمعاناة إنسانية شاملة. وقد دام هذا المشروع النهضوى لفترة قصيرة، واستفاد من فراغ الحرية النسبى الذى حققته حركات مقاومة الاستعمار فى مختلف البلاد العربية قبل وبعد تحررها. ولكنه لم يتمكن من تجاوز إطاره النخبوى تعليميًا وطبقيًا والتغلغل إلى لب المجتمعات الشعبية التى بقيت غريبة عنه، أو من إيقاف مد الأنظمة الشمولية التى جاءت بعد مرحلة الاستقلال كردة فعل منطقية للتناقضات الاجتماعية التى تجاهلتها حركات التحرر البرجوازية أو حاولت قمعها أو حلها تجميليًا.



وجاءت مأساة فلسطين وخسارة الجيوش العربية الفادحة أمام المنظمات اليهودية عام ١٩٤٨ وغرس إسرائيل فى قلب العالم العربى لتعطى دفعة قوية للمطالبين بأنظمة سياسية جديدة ومختلفة فى الدول العربية الناشئة. ووجدت الأنظمة الثورية الساذجة والمتحمسة التى جاءت إلى السلطة بانقلابات عسكرية فى أعقاب تلك الخسارة تحت شعارات رنانة من الحرية والوحدة والاشتراكية فى التهديدات الصهيونية والاستعمارية والرجعية، الحقيقية منها والمتخيلة، المتكأ الذى كانت تفتش عنه لتبرير إلغائها لتعددية الأصوات، «لئلا يعلو صوت على صوت المعركة». ولكن هذه الأنظمة استمرأت على ما يبدو لعبة تكميم الأفواه بسبب وبدون سبب حتى عندما استبدلت شعارات المعركة بشعار السلام كخيار استراتيجى فى السنوات العشر الماضية. وقد وافق هذا التوجه مصلحة الغرب المسيطر، الذى استمدت الأنظمة منه عكازاتها وأوراق قوتها، على الرغم من أن هذا الغرب نفسه دعم حركات التعددية فى كل بقعة أخرى فى العالم تقريبًا ماعدا العالم العربى. فالغرب، وإن لمحت أجهزة إعلامه وبعض مسئوليه إلى حالة حقوق الإنسان المتدهورة فى عالمنا العربى بين حين وآخر، لن يحاول قلقلة أنظمتنا الشمولية لأن التعامل مع طرف واحد قلق على كرسيه أسهل كثيرًا من إقناع شعب بكامله بحق الغرب فى نفطنا بأسعار متدنية وبحق إسرائيل فى الوجود.

وهكذا نجد أنفسنا اليوم بعد عقود من التسلط السياسى والاجتماعى والاقتصادى ووأد كل مشروع تنويرى أو تحديثى أو حتى دينى أصولى يمكن أن يهدد شمولية الأنظمة وتسلطها بحجة أو بأخرى، قد انكفأنا كثقافة، وربما كأفراد، على أنفسنا وعلى ماضينا، وعدنا للانغماس فى نقاشات مستمرة وسفسطائية على المدى الطويل، تكرر فى بنيتها وإن لم يكن فى مداها ومنهجها نقاشات القرن الماضى، عن الأسلوب الأنجح فى اقتباس وتطبيق بعض مظاهر الحداثة (الغريبة عنا، والغريبة عمومًا) التى نجد أنفسنا بأشد الحاجة إليها للعيش فى هذا العالم على الأرضية المعرفية ما قبل الحداثية التى يصر الكثير منا على التمسك بها من دون أن يدركوا عبثية التوفيق بين المنحيين. وبدأنا ننسى أن العصر غير العصر، وأن المشاكل التى نعانى منها كمجتمعات وكشعوب هى مشاكل معاصرة لها جذورها ومسبباتها الحقيقية فى تاريخنا الحديث وهياكلنا الطبقية والإنتاجية والاجتماعية والفكرية الجديدة وفى العلاقات الدولية المعاصرة، وأن علينا التعامل معها وجهًا لوجه من منطلقات العصر ومكاسبه وإطاراته السياسية والاقتصادية والمعرفية. بدلاً من ذلك، انكببنا على تحديث تراثنا وتلميعه، مما أفقده فى الحقيقة مصداقيته التاريخية وحوله إلى مسخ تراثى ـ حداثى، ليحل فى مخيلتنا وفى خطاباتنا محل واقعنا المزرى والمعتقل فى سجون الأنظمة والمحدد بالعقليات المتسلطة والجامدة.

فى هذا المحيط المعرفى الراكد، لابد أن يكون دوى تفكير الأحرار والمتفردين مزعجًا ومقلقًا للسادرين فى غيهم الشمولى والاستبدادى أو فى نقاشاتهم اللامجدية عن خروجنا عن مأزق الحداثة مع كل مكاسبها المرجوة بأيدينا من دون أن نعانى الحداثة أصلاً. ربما كان هذا هو سبب ردود أفعال المؤسسات المهيمنة العنيفة والهزلية فى آن واحد مؤخرًا: فأى تعبير فردى خارج إطار الجماعة يمكن أن يفتح صندوق «باندورا» المقفل بكل أفاعيه وسمومه، وبكل تناقضاته ومهازله وحساباته المؤجلة. وقد يؤدى هذا الفتح إلى زحزحة الاستسلام المتكاسل الذى أصابنا أفرادًا وشعوبًا وجعلنا نركن إلى واقعنا المزرى كما لو أنه قدرنا المحتوم من دون كبير مساءلة أو محاولة للمقاومة أو للتفتيش عن بديل، وعلى هذا فأى قصيدة أو أغنية أو لوحة أو فيلم أو مقالة أو كتاب أو محاضرة أو برنامج أو تنظيم أهلى أو قناة فضائية جريئة أو حتى تصرف فردى يشذ عن المرسوم، خطر يجب إسكاته وطمسه ومعاقبة المسئول عنه. ولا يغفر لبعض هؤلاء المتسائلين تراثهم النضالى الطويل والواضح الانتماء، كما حصل لبعض من أعظم شعرائنا وكتّابنا ومغنينا فى الآونة الأخيرة. بل ولا يفلت من ذلك البطش حتى بعض مفتشى الرأى أنفسهم عندما يحاولون، بسذاجة أو بمكر، التعبير عن آرائهم هم بعدما طمسوا آراء الغير كما حدث فى أكثر من حالة فى مصر مؤخرًا.

من هذا المنظور، يبدو الطريق إلى تحقيق بعض من حريتى التعبير والاعتقاد فى العالم العربى شاقًا وطويلاً وأعقد بكثير مما يحلو للكثير من المصلحين والمفكرين المتفائلين أن يتصوروا. فالعالم العربى بالتأكيد ليس هناك بعد، لأن الأنظمة والمنظمات والهيئات والمؤسسات التقليدية بهياكلها القائمة لا يمكنها السماح بحريتى التعبير والاعتقاد، والعمل بوحى من هذا الاعتقاد، من دون التخلى عن هياكلها وقواعدها المعرفية، على الرغم من أن تواقيع مندوبى الدول العربية مثبتة على النص الأصلى للإعلان العالمى لحقوق الإنسان بما يفترض أن الحكومات العربية واعية بالتزامها به بكامل مواده، على الأقل نظريًا. كل ما ألاحظه هو أن أفرادًا ومؤسسات عديدة فى العالم العربى اليوم ـ من مختلف الاتجاهات والعقائد ـ يحاولون ممارسة حريتى التعبير والاعتقاد كما يفهمونها فى محيط لا يريد أن يدرك أهمية هاتين الحريتين أو يحترم ممارستهما. ثم يدفعون الثمن الباهظ لمحاولاتهم سجنًا وتغريمًا وتهديمًا للسمعة، وأحيانًا إعدامًا أو اغتيالاً أو تشريدًا. والبعض غيرهم ينتظرون وجلين أن تكتشف تجاوزاتهم المتحررة التى لم ينتبه إليها حماة النسق المعرفى السائد بعد ويدارونها بكل الوسائل الممكنة. والكثيرون ملوا انتظار التغيير فهاجروا إلى بلاد الله الواسعة. ربما أتيحت لهم هناك كسرة من فرصة بممارسة حريتهم بالتعبير وبالاعتقاد.



نقطتان مضيئتان اليوم تنفحان بعضًا من أمل فى نهضة تحررية قادمة، فلسطين المحتلة والشتات العربى فى الغرب. كلاهما فى بداية نضاله لتعريف هويته الثقافية العربية خارج الإطار الجيوسياسى للعالم العربى وأدواته القمعية. وكلاهما يقف بمواجهة تحديات هائلة من نوع آخر. فالمشهد الثقافى العربى فى أوروبا والولايات المتحدة اليوم غنى باتجاهاته الديناميكية التى تحاول الاستجابة لضغوط الهجرة والتمييز العنصرى من جهة والانتماء والحنين من جهة أخرى والتعامل مع مناخ الانفتاح اللامبالى فى آن واحد. وتبرز هذه الخواص فى أعمال الكثير من الفنانين والمثقفين والكتّاب والمفكرين العرب المهاجرين والمقيمين والمنتجين فى أوروبا والولايات المتحدة، الذين يفوق عددهم عدد أمثالهم فى العالم العربى نفسه وعدد أمثالهم من المهاجرين من أية قومية أخرى (مما لابد أن يطرح سؤال لماذا؟). وكذلك تبرز هموم الوطن الأم وهموم التحرر فى الصحف والمجلات العربية التى تنشر فى أوروبا والولايات المتحدة والقنوات الفضائية التى تبث بالعربية. والكتب التى تطبع بالعربية والأفلام السينمائية عن العالم العربى التى تنتج من قبل سينمائيين عرب، وأصوات المغنين العرب التى تصدح على مسارح وإذاعات بلاد الهجرة. يرافق هذا الزخم الثقافى العربى فى بلاد المهجر، حيث تتوافر حرية نسبية فى التعبير والاعتقاد، تواجد سياسى وتنظيمى لمذاهب دينية وحركات صوفية وكنائس شرقية وحركات فكرية وسياسية نابعة من العالم العربى ومضطهدة فيه ولكنها مهمومة بهمومه. وكذلك الحال بالنسبة لدعاة حقوق الإنسان العرب والسياسيين المبعدين والناشطين الدينيين والعلمانيين وحتى العسكريين المطرودين وشذاذ الآفاق والمغامرين العرب، الذين سمحت لهم الأوضاع بالتعبير عن أنفسهم فى أوروبا والولايات المتحدة بغض النظر عن توافقهم الفكرى مع بلاد هجرتهم. كل هذه الإرهاصات زاخرة باحتمالات التغيير التى لم تجد لنفسها متنفسًا فى منبتها فهاجرت بحثًا عن النور والهواء، ولكنها مازالت مسكونة بآلام وآمال الوطن الأم.

أما شعب فلسطين المحتلة فهو من خلال نضاله المستمر، الذى يتأجج انتفاضات تراجيدية متوالية، يسعى لأن ينتزع فى آن واحد حريته فى تقرير مصيره الوطنى على أرضه، وحريته فى رسم حداثته الخاصة به، على الرغم من وعورة الطريق إلى كلا الهدفين، وعلى الرغم من المعارضة الخارجية والداخلية العنيفة التى تتشابه فى بعض معطياتها ومثيلاتها فى العالم العربى ككل، ولكن معاناة الاحتلال العسكرى الإسرائيلى الغاشم من جهة ومعاناة الاحتكاك الدائم بثقافة المستوطن اليهودى الغربى الحداثية من جهة أخرى، قد عجمتا عود الشعب الفلسطينى ـ فى الداخل ولكن فى الشتات بوجه خاص ـ وشحذتا وعيه مما أكسب بعضًا من أفراده شجاعة المستميت فى التعبير والاعتقاد والدفاع عن هذا الاعتقاد. (ولابد هنا من ملاحظة الظاهرة نفسها فى تطور فكر حزب الله فى لبنان من حزب شيعى إلى حركة تحرر وطنى بالمعنى الحداثى للكلمة)، بل إن بعضًا من هذه الأصوات ينداح خارج المحيط الفلسطينى ليلهم أشقاءً عربًا يعانون من انعدام الحرية فى بلادهم من دون محتل يمكنهم أن يلقوا اللوم عليه أو يناضلوا وطنيًا ضده. هذه الأصوات، بعفويتها وبرسوخ قناعاتها بحقها فى أرضها وبانتمائها لهذه الأرض على الرغم من كل الضغوط الغاشمة تذكرنا جميعًا، نحن الذين أنسينا أو تناسينا، بحقنا بالحرية بواجبنا بالكفاح فى سبيلها. ■



نقطتان مضيئتان اليوم تنفحان بعضا من أمل فى نهضة تحررية قادمة، فلسطين المحتلة والشتات العربى فى الغرب. كلاهما فى بداية نضاله لتعريف هويته الثقافية العربية خارج الإطار الجيوسياسى للعالم العربى وأدواته القمعية. وكلاهما يقف بمواجهة تحديات هائلة

يعود الأمس لنا.. عندما نكتب

مرفت عبد الناصر

ارسم صورة
لرع.. فى قارب
وأرسم بالقرب منها
صورة للنفس
التى تبتغى أن يكون
لها قيمة أو شأن
فإن رآها رع
وهو يجدف فى السماء
وشعر فى قلبه
أنها روح تستحق
هذا الشأن..
سوف تعود معه
روح جديدة
فى الغد..

كتاب الموتى
١٥/١٣٣

روح كهف المخاطر
وعلشان خاطرى خاطر..

كلمات إعلان من إعلانات الرسوم المتحركة القديمة عن عطر «قسمة» تطلب فيه الأميرة غادة من الشاطر حمادة أن يذهب «لكهف المخاطر» ليحصل لها على «قسمة» ويصبح بهذا جديرًا بها!..

كنت أحب كلماته وموسيقاه وأنا صغيرة وأرددها كثيرًا وأشعر بأنها ليست كلمات فى إعلان عابر، بل إنها كلمات سر سحرية تدخلنى عالم المغامرة والمخاطر والأساطير.. كنت بالطبع أريد أن أكون «الشاطر حمادة» الذى يذهب بنفسه إلى أرض المخاطر ليبحث عن كنز مختف فى مغارة ما ليس من أجل الأميرة غادة أو أى أميرة ما، فهذا لم يعننى على الإطلاق.. ولكننى - دون أن أدرى - كنت أشعر أن فى مغارة المخاطر «قسمة الحياة».. قسمة البحث والتنقيب عن المجهول.

وكبرت دون أن أعرف أننى أمضيت حياتى بالفعل (ومازلت) فى اقتفاء أثر هذا المصير.. حتى بدأت أدخل عوالم معرفية مسحورة.. شعرت من خلالها أننى ربما أكون قد تمكنت حقًا من اجتياز بوابات المغارة الحقيقية.. وأن هذا الشىء المجهول ما هو فى الحقيقة إلا «كتاب تحوت» الذى ضاع منذ زمن بعيد ولم يستطع أحد أن يعثر عليه.. كتاب يقولون عنه فى الحواديت أنه لن يصل إليه يومًا إنسان.. كتاب مدفون فى مغارة ما فى آخر البلاد ويقولون أيضًا أنه محفوظ فى خزانة البرونز داخل الخشب، أما خزانة الخشب فهى محفوظة فى خزانة من صفيح يحرسها ثعبان!.. من يحاول العثور على هذا الكتاب له أن يذبح الثعبان.. لا بد أن يحصل على الكتاب بدون أن يؤذى كائنًا ما كان.

«كتاب» فى «خزانة من الصفيح» يحرسها ثعبان فى مغارة فى آخر الدنيا، الوصول إليها محفوف بمصاعب ومخاطر لا بداية لها ولا نهاية.. لا بد لمن يأخذ على عاتقه مهمة البحث عن هذا الكتاب أن يملك الرغبة والتحدى مع مقدرة خاصة تفوق إمكانات بصر العين، لا بد أن يملك القدرة على رؤية وفهم واستيعاب الأشياء من الداخل.. أن يملك «سيا».. «البصيرة» تلك التى تجدف ليلاً لمركب «رع» المسافر فى السماء حتى يتغلب على ثعابين الظلام ليخرج مع كل نهار صباحًا جديدًا!!



ما هى «سيا» تلك وما علاقتها بتحوت وكتابه.. ناهيك عن عين حورس!

سيا - مفهوم مصرى فلسفى فى غاية التعقيد!.. «سيا» تعنى «المعرفة الكلية» الباطنة والمكتسبة. الكم المعرفى غير القابل لاختزالات منطقية سريعة.. ولهذا لا يمكن تعريفها بسهولة ولكنها تحوى فى طياتها مكونات معرفية عالية فى الدقة.

أول مكوناتها «ريخ»، وهى «تقنية المعرفة» - أى الوسائل والأساليب المختلفة التى نكتسب من خلالها المعرفة ونسجل بها أيضًا هذه المعرفة وننقلها للآخرين. وبهذا تكون «ريخ» هى «المعرفة المتعلمة» أى «الجانب المعلوماتى» من المعرفة ومن أجلها اهتم المصرى القديم بفكرة التوثيق - أى الكتابة من أجل التسجيل - ومن هنا يأتى أول الأدوار التحوتية.. «صناعة الكتابة واختراع الحروف والجمع المعرفى» وبهذا جاءت تسميته فى الكتابات القديمة «ريخ - سو» (الذى يعرف) وأحيانًا ريخ - تم (الذى يعرف كل شىء).

ويعين تحوت فى عملية الجمع والتوثيق والتسجيل «سيشات» المماثل الأنثوى له والتى تعرف بـ «ربة المكتبات»، تحمل «سيشات» فوق رأسها تاج «النجمة السباعية» الذى ربما يرمز مجازًا «للسبع كلمات الإبداعية» والتى لا يعرف أحد بالتفصيل مغزاها ولكنها ربما تدل على نظام تصنيفى دقيق للمعرفة يتمكن من خلاله القارئ من اكتساب المعرفة بشكل منظم وإبداعى، أما لباس سيشات فهو «رداء الكهنة»، فهى بالفعل كاهن محراب الكتب فى معبد المعرفة «بير عنخ» أو «بيت الحياة»، وتمسك سيشات دائمًا «بسعفة النخل» رمز السنين والعمر والتاريخ، لدرجة أن الكتابة ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بمفاهيم الخلق واستعادة الحياة مثلها مثل الأسطورة الأوزورية نفسها، كم هو رائع هذا التعبير «يعود الأمس لنا.. عندما نكتب».

ومع كل هذه الأهمية التى أعطيت للكتابة وصناعة الكلام إلا أننا نرى رع فى حكاية جميلة - عرفت عن طريق أفلاطون - يحذر تحوت من مخاطر الكلمة المكتوبة ومخاوفه من أن يدرك البشر أن «الكتابات» هى المصدر الوحيد للمعرفة الكلية، يقال إن تحوت ذهب يومًا إلى رع متهللاً يحكى له بفخر شديد عن اختراعه للحروف، فلم يجد منه غير اللامبالاة ولهذا أخذ تحوت يعيد عليه أخبار اكتشافه وسعادته أن الحروف معناها الكتابة وهذا معناه الكتب.. حتى نطق رع بعد أن نفد صبره قائلاً: «تلك هى المشكلة.. سوف يظنون أن المعرفة تأتى فقط من الكتب»!

وأيضًا إيزيس - التى كان لها دلال كبير على الجد الأسطورى «رع» واكتسبت الكثير من علمه وحكمته - نراها فى بعض المواقف توجه النقد لتحوت بسبب اهتمامه الزائد والمفرط بتفاصيل معرفية على حساب أولويات الموقف الآنى، تقول الأسطورة إن إيزيس استعانت يومًا بتحوت ليشير عليها بعلاج لابنها المريض حورس.. فأخذ تحوت يشرح ويفسر ويسهب فى طبيعة الحال وأسبابها حتى قالت له إيزيس: نعم نحن نعرف أنك الحكيم وتعرف كل شىء ولكنك بطئ للغاية فى اتخاذ القرارات»!



ومن هذه الأمثلة ندرك أن الحصيلة المعلوماتية مهما زادت واتسعت غير كافية وحدها لاكتساب «سيا» ومن هنا تأتى أهمية «حيكا»، أى ملكة الحدس البديهية، وهى تعبر عن تلك المعرفة الداخلية (غير المفهومة) والتى تسكن الأحشاء كما أسماها المصرى القديم، وكما تعبر عنها مفردات لغات كثيرة حتى الآن.

حيكا - هى المعرفة الضرورية التى تأتى للإنسان من حيث لا يدرى لتنقذه فى المواقف الصعبة والحرجة والمهددة لكيانه ووجوده وهى التى تظهر الإنسان متميزًا عن أقرانه وأنداده، إنها المعرفة الدفاعية التى ينتصر الفرد بأسلحتها على كل القوى المعادية

والمشاكسة، إنها القدرة على التصرف السريع الحكيم في الظروف المعقدة، إنها قوة الفرد الغامضة والمدفونة فيه، ومن هنا فإن القرارات التي توحي بها حيكا غالبًا ما تصدق صحتها وإن بدت أحيانًا للوهلة الأولى غير منطقية، إنها أيضًا التعبير الحقيقي عن سحر الشخص نفسه وقدراته الخاصة على تطويع المعرفة المكتسبة لصالحه، إنها ببساطة «المعرفة الإبداعية والقدرة الخلاقية». هذه هي «حيكا».. ومن يمتلكها يملك حساسية عالية متميزة ـ مصنفة ومرشحة جيدة لكل المؤثرات الخارجية السمعية والبصرية وكل ما يستقبل بالحواس الخمس، ولهذا من الممكن أن نقول مجازًا عن «حيكا» إنها «الحاسة السادسة»، كما هو متعارف عليه في تعبيراتنا العصرية.

قرأت منذ فترة بعض الكلمات التي نقلت عن الفيلسوف «كيرجارد» تقول: «فلتجعلني أسمع ما يستحق أن يسمع وأرى ما يستحق أن يرى»، وبالطبع موضوع ما يستحق أو لا يستحق إدراكه أمر متروك للتمني! وأيضًا تقييم ما يستحق بالفعل عملية يطول الشرح فيها، ومع هذا فلقد تعلمت أن أقولها لنفسي في كل صباح عسى أن أنجح فعليًا في ترويض حواسي على الاستقبال الاختياري الجيد للمؤثرات الخارجية!

فالقدرة على التعرف على «حيكا» يعني بالضرورة امتلاك درجة عالية من حدة وحساسية الإدراك، التعرف على حيكا هو التعرف على الطاقة الكامنة فينا وممارستها هي ممارسة الحياة كما ينبغي أن تكون، مبدعة وخلاقة، فحيكا هي الروح الفعالة ـ (حي ـ كا ـ الكا في فعل / الكا تفعل)، وبالتالي من لا يستخدمها أو لا يعرف كيفية ممارستها والتعامل معها يقول المصريون عنه إنه «بلع سحره» مثله مثل من فقد ذاكرته الإبداعية.

وربما يتساءل البعض ويقول أليست «حيكا هي لعبة السحر القديمة؟ والتي أخذ كثيرًا على مصر الاهتمام بها وكانت السبب في اتهامهم الدائم بغياب الفكر المنطقي، أليس إرثنا منها هو ما نلقي على عاتقه مسئولية الجهل والشعوذة التي مازلنا نعاني منها حتى الآن؟

لا.. لا أعتقد هذا مطلقًا «فحيكا» ليست الضرب بالبيضة والحجر (حرفيًا على الأقل!)، ولكنها شيء آخر معقد في عمقه مازلنا نسمع أصداءه في تاريخ الوعي الإنساني والفلسفات الحديثة.



لماذا نجح هاري بوتر؟ سؤال يفرض نفسه على كل المفكرين في الوقت الحالي ـ تلك القصة التي كتبتها سيدة مجهولة للأطفال وهي جاهلة تمامًا بحرفة الكتابة وأدواتها، ليتهافت عليها الكبار قبل الصغار وتصبح ظاهرة ثقافية في مجتمعات ما بعد الحداثة، مجتمعات سفن الفضاء وشبكات الاتصال ونقل المعلومات.

ألم تعتمد حدوتة «هاري بوتر» في محورها على «حيكا» وإن كانت صانعتها غير متمكنة من «ريخ»؟

لتحكي لنا عن طفل يكتشف في نفسه قوته السحرية التي تسميها الكاتبة «رولنج» بدون تلاعب أو تغيير باسم السحر الواضح والصريح.

لماذا نجحت القصة وهي تبدو خرافية ـ قد يقول البعض إنه أمر خطير جدًا فهي تروج للامنطقية ولتغييب الوعي ونجاحها يعكس قوة ونفوذ سياسات تسويق الكتب الحديثة، وفي أفضل الحالات التفسيرية ما هي إلا نوع من التمرد يقصد به هدم النظرية العلمية لأنها في نظر عدد غير قليل لم تأت بما كان متوقعًا منها، بل ربما تكون قد خذلتنا.

وعندما فشل الكبار في إيجاد تفسير مقنع لظاهرة هاري بوتر، قرروا أن يسألوا الأطفال أنفسهم: لماذا يحبون هاري بوتر؟

«الجميل في هاري أنه لم يعرف في البداية عن قدرة السحر الموجود فيه، لم يعرف أنه مولود هكذا. ولكنه قام باكتشافه في نفسه، إنه طفل عادي مثلنا، ولكنه فقط حكيم!». إجابة طفلة عمرها ست سنوات!، وقالت أخرى: «إن هاري استخدم مهارته في التحليل والتركيب فقط بعد أن التحق بمدرسة الحكماء، أريد أن أدخل مدرسة كمدرسة هاري، ربما أستطيع يومًا أن أصنع دواءً شافيًا للسرطان».

وآخرون قالوا إنها قصة مليئة بالحركة والمغامرة والاكتشاف والجميل في هاري أنه يملك شيئًا غريبًا لكنه لا يتباهى به دائمًا.. إن له حياته العادية وله حياة أخرى سحرية، والبعض من الأطفال كان متأثرًا أيضًا بنشأة هاري وطفولته السيئة التي لم تكن عقبة في طريقه لاكتشاف قدراته التي لم يكن يعرف أنها موجودة فيه وهي نفس القدرات التي جعلته في التغلب على صعاب كثيرة فيما بعد.

من هنا نرى أن الأطفال لم يروا في هاري بوتر قصة سحر خرافية ولكنهم اكتشفوا بأنفسهم ضرورة اكتشاف النبع الداخلي والتعرف على المواهب الخفية وضرورة «التميز» في مجتمعات «القوالب العادية والتي تحجم وتسطح الفرد»، وأن العادية برتابتها وقواعدها قد تكون ظالمة مظلمة كالنوم في غرفة ضيقة تحت السلم حتى يكتشف الإنسان نوره الداخلي فيضيء عتمة المكان ويكبر بسحره حتى «يصير السحر حكمة» عندما يلتحق «بمدرسة الحكماء» فيصعد السلم.



يقول مارسيل بروست «لا تأتي الحكمة هكذا ولكن لكل واحد أن يجدها في نفسه بعد رحلة يقوم هو بها ولا يمكن أن يقوم بها أحد بدلاً منه»، وهي نفس الحكمة التي قال عنها فرويد: «إن الوصول إليها لا يتم إلا ببحث شاق وتنقيب، كالتنقيب عن آثار مدفونة في باطن الأرض أو فتح مدينة مجهولة، إنها اكتشاف الحياة السابقة للعقل!».

ومن هنا جاءت أيضًا «التوليفة البروستية» في علاقة «الذاكرة بالمعرفة»، فالذاكرة مرتبطة بشكل وثيق بالإدراك الانتقالي وأيضًا المقدرة الاختيارية على اختزان ما يريد الإنسان اختزانه ـ إراديًا أو غير إرادي ـ بعد تصنيفه أولاً والحفاظ عليه في ملفات تتحكم فيها ملكته الخاصة في التخليق والإبداع، وهي التي تصنع بعد ذلك التركيبات الاستعارية والكنايات التي نستعيدها ونسترجعها كل يوم عندما نخرجها من أراشيف الذاكرة.. «كاستعادة أزمنة ماضية» ـ تلك الكنايات التي تحكم بدورها سلوكياتنا وأفعالنا.

وهذا يعني أن كلا من «فرويد وبروست» أعطى أهمية كبرى لمفهوم «الحيكا المصري» والدور الذي تلعبه في تكوين الفكر التطوري، ولكن أهمية «ملكة السحر الداخلي» لم تجعل المصري القديم يغفل دور التقنية خاصة دورها التنظيمي والترتيبي لمصادر المعرفة المختلفة وطرق استخدامها وتناقلها ولهذا يعود مرة أخرى إلى «ريخ» ويربط ربطًا رائعًا بينها وبين «حيكا»، ليقول لنا إنه لابد من تواجد الاثنين، «أي منهجية المعرفة وسحر الكشف الإبداعي».. لو اهتم الإنسان بشكل ووسائل اكتساب وتوصيل المعرفة أي «ريخ» على حساب «حيكا» دون صياغتها في قواعد وقوالب وأشكال منطقية متعارف عليها وقابلة للتداول بين البشر.. ومن هنا تأتي الكلمة ليست كأداة اتصال ولكن كنفوذ لغوي مؤثر في حد ذاته، قوة الكلمة التعبيرية وخصوصيتها اللغوية وهو ما أسماه المصري القديم «حو».

تقول الأطروحة على لسان تحوت.. «إن شخصية وموسيقية الصوت في الكلمة ومخارج اللفظ في اللغة المصرية تتجسد فيها طاقة الأشياء، نحن لا نستخدم مجرد كلمات ولكنها نغمات تعلو في قوتها».

وقال المصري أيضًا لغتنا ليست مجرد كلمات، ولذلك كان لابد لها أن تأخذ شكلاً يليق بقوتها. كان لابد أن تكون حروفها على هيئة طيور لتكون الوسيط بين معرفة الأرض والسماء، فالطيور فقط هي التي تقدر على التحليق عاليًا في السماء!».

وبهذا تكون للغة أهمية خاصة بها وليس فقط لكونها أداة كتابة وتدوين.. يقول الفيلسوف اللغوي والمحلل النفسي «جاك لا كان»: «عندما نستخدم اللغة في كلامنا نغرس أنفسنا في نظام رمزي معقد نخضع له فيصنعنا ويعيد صياغتنا، الميزة الطريفة في الإنسان أنه يستعمل اللغة وهو غير واع بأن الكلمات هي التي صنعته وتستمر في صناعته!».

وهي نفس «اللغة» التي قال عنها «فرويد» إنها «تخلق اللاوعي» وهي أيضًا «الاستعارات والكنايات البروستية.. «ما نسميه حقيقة واقعة ما هو إلا لقاء بين إدراك وذكرى ـ ثم تبدأ الحقيقة عندما تصف لنا كلمات الكاتب هذا اللقاء!».

تحوت ـ «ريخ تم» ـ العالم الأكبر.. العارف بتقنيات المعرفة (ريخ) وفي داخله سحره الخاص (حيكا).. كل رموز مدرسة الفلسفة التبصيرية الحديثة من فرويد وبروست ولا كان اجتمعوا في شخص تحوت لتكوين «سيا» أو البصيرة.

كل من فرويد وبروست ولا كان تعامل مع مكونات سيا ليؤكد أهمية وجود كل هذه العناصر فينا لاكتساب الوعي الكامل أو البصيرة.. ومن الممكن مجازًا أن نقول إن فرويد ربما لكونه عالمًا ـ كان اهتمامه في الأساس بالتنقيب والبحث عن المعلومة أي المنهجية المعرفية (ريخ) ـ وبروست لأنه أديب كان منطقيًا أن يكون تركيزه أكثر على الإدراك والذاكرة الإبداعية (حيكا) ـ أما لا كان الفيلسوف اللغوي والعالم النفسي فلقد كان اهتمامه بالكلمة ونفوذها في تشكيل السلوك.



الفلسفة المصرية – سيا (المعرفة الكلية / الحكمة) = ريخ (التقنية / الأسلوب) + حيكا (الإبداع / الخلق) + حو (الكلمة).

الفلسفة الحديثة – البصيرة = فرويد (البحث والتنقيب) + بروست (الإدراك / الذاكرة) + لا كان (اللغة).

ومع ذلك نجد المصري يهتم بدرجات تكوين البصيرة وأهمية التناسب والتناغم بين مكوناتها حتى لا تأتي واحدة على حساب الأخرى، ومن هنا جاء ارتباط تحوت بماعت، التي تعني الهارمونية.

ولكن ما علاقة سيا ـ بحورس وعينه؟

تقول الأسطورة المصرية إن حورس فقد عينه أثناء صراعه مع ست.. واستعان بتحوت أثناء القتال الذي نجح في أن يعيد إليه عينه المفقودة ولولا هذا التدخل من جانب تحوت لم يكن لهذا الصراع أن ينتهي لصالح حورس.. فهل يا ترى هذا الصراع مجرد صراع بين الخير والشر، وإن كان كذلك فما هو المغزى من وراء فقدان العين؟ ربما تكون هناك قراءة أخرى لهذا الصراع، أليس من المحتمل أن يكون هذا صراعًا رمزيًا بين المعرفة الذكية الأحادية في أهدافها التآمرية والممثلة في «ست» والمعرفة الحماسية المثالية المشحونة بطاقة شبابية اندفاعية وهي الممثلة في شخص «حورس»؟.. ومن المنطقي أن نستنتج ألا يحسم الصراع أي من الطرفين، ليس من المعقول أن تكون النتيجة لصالح المعرفة التآمرية أو المعرفة الاندفاعية. فكلاهما مدمر ولهذا كان لابد من تدخل تحوت ليصحح طبيعة حورس المعرفية ويعينها أن تصبح معرفة مبصرة واعية.. معرفة حكيمة.

عندما أعاد تحوت البصر لحورس.. أعاد له بصرًا جديدًا.. بصرًا مبصرًا.

العين ـ «الأوتشات» هي أهم الرموز المصرية القديمة والكلمة تحمل في الحقيقة أبعادًا كثيرة في معناها الحرفي مثلها مثل كلمة «ماعت»، ولن أحاول بأي حال اختزانها في كلمات وصفية ولكنني سأشرحها من خلال وصف المصري لعملية حساب النفس.

قرر المصري القديم أن بصيرة الإنسان وحكمته تسكن قلبه، القلب يوزن بميزان ريشة ماعت والناطق بصدق القول في الحياة هو تحوت.

إن عملية حساب النفس هي طريقة رمزية للحكم على النفس أو تقييم النفس من خلال قدرتها على إعادة خلق ذاتها من خلال القول العارف المتمكن والصادق، أي من خلال المعرفة الحقيقية أو «سيا». ■

عــــــــروض
مــــــوجــــزة

كتب عربية

حديث الزمان
أحمد زكي
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١، ٤٢٠ صفحة



يضم الكتاب بين دفتيه عصارة ما كتب واحد من أهم الرموز الفكرية والأدبية والعلمية في مصر، وبرغم عطائه الفذ وتفرده في مجاله، لم ينل حظه من التكريم حتى رحيله عن دنيانا في ١٣ اكتوبر ١٩٧٥.

جمع الدكتور أحمد زكي العلم والفلسفة والأدب، فقد حصل على بكالوريوس العلوم من ليفربول عام ١٩٢٣، وعلى الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٢٤، وعلى الدكتوراه في العلوم عام ١٩٢٨، وهي درجة لم يسبقه إليها سوى على مشرفة وعبد العزيز أحمد. حصل على الأستاذية في الكيمياء، وصار عضوًا بمجمع اللغة العربية منذ عام ١٩٤٦ وحتى وفاته. عين مديرًا لجامعة القاهرة عام ١٩٥٣، ووزيرًا للشئون الاجتماعية عام ١٩٥٢، ورأس تحرير مجلة الهلال من ١٩٤٧ وحتى ١٩٥٠، وأنشأ مجلة العربي في الكويت عام ١٩٥٨.

أُبعد الدكتور أحمد زكي قسرًا عن المشاركة في الحياة العامة في أعقاب أزمة مارس ١٩٥٤، ولا يُعرف سبب وحيد لإبعاده، فربما كان السبب أن الثورة اعتبرته ضمن السياسيين الذين أفسدوا الحياة السياسية قبل يوليو ١٩٥٢، كونه تولي وزارة الشئون الاجتماعية قبل مجيئها، وربما كان السبب أن شقيقه كان الطيار الخاص للملك فاروق، وربما كان نُحي لاعتراضه على ما جرى في مارس ١٩٥٤، ورفضه أن يعمل أستاذًا جامعيًا في وزارة يتولاها رجل عسكري، وخصوصًا أنه تربى ثقافيًا وفكريًا على مبادئ الليبرالية التي عاشتها مصر في السنوات السابقة على الثورة.

ومتابعة أقسام الكتاب تكشف عن موسوعية الدكتور أحمد زكي وتعدد اهتماماته، فهو يكتب في يونيو ١٩٤٩ تحت عنوان «مصرع الحرية في القرن العشرين»، منتقدًا الموقف منها في الشرق والغرب، وبين أصحاب التوجهات اليسارية والليبرالية، يقول: والصراع القائم اليوم بين شرق الأرض وغربها، ليس صراعًا على الحرية، فالكل مجمعون على ضرورة وضعها وراء قضبان من حديد، ولكن الخلاف على مصيرها بعد ذلك. فأهل اليسار يريدون أن يقتلوها بالسم قتلة عاجلة، وأهل اليمين يريدون أن يقتلوها ولكن مصابرة ومطاولة.

ويكتب عن الحكم الصالح فيقول: إن الحكم الصالح ليس بديكتاتورية ولا بديمقراطية، ولا هو بفاشية ولا بديكتاتورية (...) الحكم الصالح برجال له صالحين، يؤمنون بالله ويخافونه، ويؤمنون بالناس ولا يخافونهم، يصدعون بالحق، ويبثون الحب والطمأنينة ويفتحون في قلوبهم للخير بابًا يدخل منه كل راغب في خير، والناس عندهم سواسية (...) يبذلون من أنفسهم أكثر مما يبذلون لها، وتلك صفات الأنبياء، وعز حاكم أن يكون نبيًا.

وتحت عنوان «حروب النساء الناعمة» كتب عام ١٩٤٩ يقول: إن المرأة قد تكسب حق التصويت في سياسة، وقد تكسب ما تراه نصيبها في إدارة، وقد تكسب حق العمل وحقوقًا لها في زواج أو طلاق، وقد تخاصم الرجل خصومة تنتفخ منها أوداجه وينخدش فيها وجهه ويتقطع قميصه، ثم تنفض الجلسة، وتأتي للاستراحة فترة. تبحث فيها عنه وعنها فتجدهما وراء الكواليس وقد جمعتهما قبلة.

إن الغاية لا تستغني أبدًا عن وسيلتها، والرجل وسيلة المرأة، والولد غايتها. أفكار عديدة وموضوعات شتى اجتماعية وسياسية وعلمية وأدبية، جال فيها وبينها الدكتور أحمد زكي، الذي كتب عن الجمال والحب والذرة والهجرة إلى القمر والحياة والحرية ومعنى السعادة وغاية العبادة ودلالة المرض وجمال الشيخوخة والطبيعة وغيرها، يجمع بينها أنها كتبت بلغة أدبية يسيرة وعميقة في آن معًا، سمّاها أحمد أمين أدب العلم، في إشارة إلى دقة الأسلوب وكثافته وهما سمتان اكتسبهما صاحبه من عقليته العلمية، ورفاهة لغته التي منحته إياها ميوله الأدبية وعشقه للشعر.

□ □ □

مي في حياتها المضطربة
جميل جبر
بيروت: دار الجديد، ٢٠٠١، ١٨٢ صفحة



حياة مي زيادة، دراما إنسانية كاملة.

فهذه الفتاة التي ولدت في مدينة الناصرة عاصمة الجليل بفلسطين عام ١٨٨٦، لأب لبناني ماروني وأم فلسطينية أرثوذكسية، قُدّر لها أن تخلب ألباب الرجال من نخبة المثقفين في مصر والشام لعدة عقود، وصار صالونها الأدبي الأسبوعي تجمعًا يضم أشتاتًا من الأفكار والمذاهب، تديره برقة وذكاء وسعة اطلاع، حتى أن كل ضيف فيه، كان يظن أنه المقصود بالحفاوة، المقرّب من قلب الآنسة، كما كانوا يلقبونها آنذاك.

هفت قلوب الجميع إلى قلب مي، وبينهم من كان في مقام أساتذتها، غير أن واحدًا فقط أحبته على البعد، وبقي هو في دنياه معربدًا كما شاء أن يحيا حياته، يرجوها أنثى لا امرأة أديبة مثقفة، هذا ما تؤكده الرسائل المتبادلة بين جبران خليل جبران ومي، فقد أحبته مي حبًا كبيرًا، أما هو فقد دعاها إلى زيارته في نيويورك كي تقيم معه، طارحًا فكرة الزواج منها تمامًا قبل أن تنشئ مي صالونها الأدبي، نشرت مجموعة شعرية حملت عنوان «أزاهير حلم» بتوقيع «إيزيس كوبيا» في عام ١٩١١ باللغة الفرنسية، وهي قصائد لفتت إليها الأنظار بقوة، بعدها بدأت تنشر مقالات في صحيفة «المحروسة»، وقد أشرف أحمد لطفي السيد على تهذيب لغتها العربية وتصحيح عباراتها، فأطلقت لذاتها العنان، وكتبت مقالات عن حرية المرأة ودورها في النهضة الحديثة، وعرّفت قرّاء العربية بعديد من أدباء الغرب بلغات مختلفة، حيث كانت مي تجيد الإنجليزية والفرنسية والإيطالية واللاتينية، وتلم بالألمانية والإسبانية وغيرهما. صارت مي جزءًا من حركة النهضة المصرية التي كانت في طور التشكل آنذاك، مما شجع كثيرين من أبرز رجالات العلم على حضور ندوتها كل ثلاثاء، بل الحرص عليها بقداسة بالغة. وقد شهدت ندوتها سجالات بين مصطفى صادق الرافعي والعقاد وطه حسين وأحمد لطفي السيد وإسماعيل صبري وشبلي شميل ويعقوب صروف وخليل مطران وولي الدين يكن وداود بركات ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمي.

وقد عرفت مصر قبل صالون «مي» صالون الملكة «نازلي»، لكن الأخير كان ارستقراطيًا يجمع النخبة المثقفة الغنية، أما صالون مي فكما وصفه طه حسين «كان ديمقراطيًا .. لا يرد عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز في الحياة المصرية»، وقد قال عنه العقاد: «ساعتان في صالون مي، تنسى معهما أن في البلد أحزابًا أو منازعات سياسية» بما يعني أنه كان برلمانًا ديمقراطيًا حرًا.

يكشف الكتاب من خلال كتابات مي ذاتها ومراسلاتها إلى أصدقائها، عن توق مي إلى الحرية وتحرير المرأة، لكن في إطار الالتزام بالقواعد والقيم الأخلاقية المتعارف عليها في عصرها، فقد دعت إلى «السفور» لكن ليس إلى حد العري، ودافعت عن حق المرأة في التعليم والعمل، لكن دون أن يجور ذلك على حقوق بيتها وأولادها، وقد استنكرت في رسالة لها إلى صديقها جبران كيف يدعوها إلى أن تسافر بمفردها إلى نيويورك كي يراها وتراه!

وبدءًا من عام ١٩٢٩، بدأت المصائب تتوالى على مي، فقدت أباها، ثم صديقها يعقوب صروف، وغير صديق وأديب من رواد ندوتها، وكانت فاجعتها الكبرى حين توفي جبران، حبيبها الأوحد، ثم أمها في عام ١٩٣٢، وبدأت تميل إلى العزلة والوحدة، واستسلمت لأحزانها حتى أنها حاولت الانتحار ولم تفلح.

وقد أثرت وحدتها ووساوسها المخيفة على صحتها النفسية والعقلية، ونقلت إلى مصحة «العصفورية» بلبنان، وبقيت فيه تسعة أشهر لا تقابل أحدًا، تنتابها الأزمات فتثور وتنتحب وتكسّر كل ما يقابلها، ثم يعاودها الهدوء فتدون يومياتها وخواطرها، ويقول الذين زاروها بعد خروجها من المصحة - كما يشير المؤلف - إلى أنها لم تكن مجنونة كما حاول أقاربها الطامعون في ثروتها والذين حجروا عليها أن يشيعوا، بدليل أنها عادت لحياتها الأدبية والاجتماعية، وتواصلت مع أصدقائها عبر الرسائل كما تعودت، حتى وافتها المنية في ١٩ أكتوبر ١٩٤١ بالقاهرة.

□ □ □

التفضيل الجمالي
دراسة في سيكولوجية التذوق الفني
شاكر عبد الحميد
الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠١، ٤٧٢ صفحة



حشد المؤلف في كتابه، المحاولات السيكولوجية المختلفة لدى عشرات الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع والمختصين في علم الجمال، والتي سعت إلى وصف الجمال وفهمه وتفسيره، وقد لاحظ أن تطورًا - وربما تناقضًا - في دلالات المفهوم جرى بتراكم الخبرات وباختلاف البيئات والحضارات، فهل الجمال هو النظام والتماثل والانسجام كما رآه «الفيثاغوريون»، وهل يوازي الجمال الاعتدال ويوزن بميزان الأخلاق كما رآه «دمقريطس»، أم يرتبط بالخير والمنفعة كما تصوره «سقراط»، أم الجمال هو أساسًا في الشكل كما رآه «أفلاطون» لا في المحتوى، وقد تمنى أفلاطون أن يحدث تآلف بين الشكل والمضمون كي يكتسب الشيء أقصى درجات جماله.

ظهر علم الجمال أو «الاستاطيقا» كمصطلح لأول مرة خلال القرن الثامن

عـــــروض مـــوجـــزة

عشر من خلال الفيلسوف «بو مجارتن»، وصار هدف هذا العلم الجديد، تفسير الظواهر والخبرات الجمالية، وغاص علم الجمال في بحور العلوم الاجتماعية والإنسانية وأفاد منها وأضاف إليها.

وخلال عصر النهضة الأوروبية عادت أفكار النسبة والتناسب والتوازن والاعتدال إلى الظهور مرة أخرى، وجاءت الرومانتيكية كرد فعل مضاد للاعتماد الصارم على العقل، ورأى «كانط» ـ خلال القرن الثامن عشر ـ أن النشاط الجمالي نوع من اللعب الحر للخيال العبقرى المتحرر من النفعية ومن التفكير المنطقى، ورأى «هيجل» الجمال فى اتحاد الفكرة بمظهرها الحسى، فيما اعتبر «شوبنهور» الجمال محررًا للعقل.. «فهو يسمو بنا إلى لحظة تعلو على قيود الرغبة وتتجاوز حدود الإشباع».

أما مصطلح «التذوق» الفنى، فظهر أيضًا فى القرن الثامن عشر فى إنجلترا، وقد عرَّف أديسون ملكة التذوق على أنها «ملكة الروح التى تتنبه إلى مظاهر الجمال وتستجيب لها بالسرور، وعلامات النقص فتستجيب لها بالنفور».

وعملية التذوق ذات صلة وثيقة بالإدراك، ثم تجرى محاولة للتمييز بين هذه المدركات أى تحليلها إلى مكوناتها الأساسية، ثم إعادة تركيبها فى مكوِّن جديد، وتتداخل الحساسية الجمالية والحكم الجمالى والتفضيل الجمالى فى عملية الإدراك الكلى للعمل الفنى، وجميعها مما يتأثر بالأبعاد الثقافية والاجتماعية والمعايير القيمية والسلوكية لدى الفرد الذى يمارس عملية التذوق من ناحية، ولدى المجتمع الذى يعيش فيه وأفضلياته من ناحية ثانية بعد أن يبسط المؤلف تصوراته عن علم الجمال ومفاهيم التذوق والتفضيل الجمالى عبر تطورها التاريخى منذ اليونانيين القدماء وحتى اليوم، يقدم لنا عددًا من النظريات الفلسفية التى اهتمت بالتفضيل الجمالى، ثم يناقش فى فصول مستقلة علاقة التفضيل الجمالى بالفن التشكيلى والموسيقى والأدب والبيئة وفنون الأداء، ويقدم فى الختام رؤية مستقبلية للتفضيل الجمالى، يمكن أن تفيد فى التربية الجمالية للنشء، ويؤكد على أن التربية الجمالية ينبغى أن تقوم على جناحين من التفكير، أحدهما منطقى والآخر إبداعى، كى لا يلغى الخيال أو يوارى ضرورات الإلمام بالأسس والقواعد المكونة للعمل الفنى أو العكس، ويدعو إلى ثورة تعليمية تسعى إلى التربية عن طريق الفن، وتقرِّب المسافات بين فنون الغرب ونظرياته وفنون الشرق، وتنمى إمكانيات التلقى وترتقى بها على نحو نقدى ومعرفى.

□ □ □

فنانون وشهداء

عز الدين نجيب

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠١، ٢٤٢ صفحة



يمزج المؤلف إبداع الفنانين بواقعهم السياسى والاجتماعى والاقتصادى، ويجسد مآسيهم على أكثر من مستوى: مستوى الاضطهاد السياسى مثلما حدث مع الفنان عبد الهادى الجزار الذى اعتقل عام ١٩٤٨ بسبب لوحته الشهيرة «الكورس الشعبى»، والتى صور فيها عددًا من أبناء الشعب يقفون حفاة كأنهم فى معسكر اعتقال، وأمام كل منهم على الأرض طبق فارغ.

وكما حدث مع الفنانة إنچى أفلاطون التى اعتقلت عام ١٩٥٩ ضمن مئات آخرين ناضلوا من أجل الحرية والعدالة، وقد قضى الجزار فى السجن عدة أسابيع، أما إنچى فإن فترة اعتقالها دامت ٤ سنوات.

ويطلعنا المؤلف على جوانب اجتماعية قاسية أودت بحياة بعض الفنانين، بينهم «نحميا سعد» الذى أحب فتاة فقيرة مثله كانت تعمل «موديلاً» للفنانين، ولم يستطع بسبب فقره المدقع أن يتزوجها، وأبت نفسه الكريمة أن يعيش على كدها، واضطر إلى هجرها، ومات بنزيف فى الصدر، غير أن القريبين منه أدركوا أن وفاته سبقت ذلك بكثير بسبب ما عاناه من نكران وجحود.

وكذلك تسببت الظروف الاجتماعية التى واجهها الفنان سعد الخادم، الذى ينتمى إلى أسرة أرستقراطية فى تحويل حياته وحياة زوجته الفنانة عفت ناجى إلى جحيم، إذ بسبب فقرهما الشديد، اضطرت زوجته إلى أن تبيع أثاث بيتها وبعض ما يمتلكانه من تحف نادرة.

وظل الفنان عبد المنعم مطاوع يعانى طوال حياته من الفقر والتشرد، بلا بيت يؤويه ولا مرسم ينتج فيه، وقد فارقت روحه جسده بين يدى طبيب ناشئ فى مستشفى حكومى بقرية وحوله نفر قليل من محبيه الفقراء.

وقد لفظ الفنان كمال خليفة أنفاسه عام ١٩٦٨ فى حجرة بائسة فوق إحدى العمارات، مفلسًا لا يملك نفقات علاجه عن عمر يناهز ٤٢ عامًا.

وحين واجه الفنان متعدد المواهب

رحلة إلى عالم الجن والعلاج الروحانى

نادية رضوان

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ٢١٠ صفحات

ميزة هذا الكتاب ومأزقه فى نفس الوقت، أن مؤلفته أستاذة جامعية متخصصة فى علم الاجتماع.

الذين يؤمنون بعالم الجن والعلاج الروحانى، وجدوا فيما قالته دليلاً على صدق إيمانهم، فبعد أن كان الوثوق بهذا العالم والاقتراب منه من خصال العامة، ها هى أستاذة جامعية تنضم إلى القافلة، بما يعطى عالمهم صدقية أكبر.

على الجانب الآخر، المشككون فى وجود هذا العالم وصلته ببنى الإنسان، سارعوا إلى إدانة المؤلفة، واعتبروا ما ساقته فى كتابها محض خيال، وتحريض على العودة إلى عصور الغيبيات والظلام، فكيف والعالم يحتفل ببدايات ألفيته الثالثة، مصحوبًا بانتصارات تكنولوجية هائلة تطل علينا أكاديمية تدعى اتصالها بعالم الجن، وتتلمس علاجًا لمشكلاتها عند أعتابه؟

لكن ثمة ميزة ـ وربما مأزق ـ إضافية فى الكتاب، أنه يستند إلى تجارب شخصية مباشرة للمؤلفة فى هذا العالم، ليس بحوثًا نظرية أو استخلاصات من تجارب آخرين، بل هى التجربة التى عاشتها عبر ترددها على عشرات الوسطاء والمعالجين الروحانيين فى مصر والعالم ترجو عندهم الشفاء من صداع مزمن لازمها لأكثر من ربع قرن، وجرَّبت بسببه عشرات الأدوية والوصفات والعلاجات التى نصحها بها الأطباء، لكن الأطباء فشلوا، فلم يكن بد من أن تقرع أبواب من يزعمون قدرة على الاتصال بالجان والعلاج الروحانى، وهكذا وقعت المؤلفة ضحية لعدد من الدجالين والمشعوذين وأرباب السوابق، وصادفت آخرين حاولوا أن يحلوا مشكلتها بصدق ولوجه الله.

صلة المؤلفة بعالم الأرواح بدأت مبكرة، فهى تحكى لنا كيف حاولت أن تحضر روح أبيها بعد وفاته بشهور قليلة، مستفيدة من كتابات أنيس منصور فى هذا الميدان ومن بعض ما تعلمته من جلسات تحضير الأرواح التى كانت تحضرها طفلة فى بيت الشيخ رافع، حفيد رفاعة الطهطاوى ـ أحد رواد النهضة المصرية المستنيرين بالمصادفة ـ الذى كان يجاورهم فى منطقة حلوان جنوب القاهرة.

تقول المؤلفة إنها نجحت بمعاونة أخواتها فى تحضير روح أبيها، وقد أعجبت اللعبة الأطفال فظلوا يكررونها ويستحضرون أرواح أقاربهم كضرب من ضروب اللهو.

وحين كبرت وأعيتها الحيل فى علاج صداعها المزمن، عادت من جديد تتلمس الشفاء فى عالم الجن والأرواح.

تحدثنا المؤلفة عن عشرات التجارب التى تخصها أو تخص آخرين، لكنها إجمالاً مما شهدته بنفسها وعاينته، متسلحة طبعًا بإيمانها بالعلم وقدراته قبل أى شىء آخر، ويتردد فى ثنايا حكاياتها بعض ما يشاع عن هذا العالم، من قدرة للمعالجين الروحانيين على استخراج الجان من أعماق البشر، فيعودون إلى ما كانوا عليه من طبيعة وتوازن، أو علاج لأمراض استعصت على الأطباء، أو طرد لجنى شرير يعاشر فتاة معاشرة الأزواج ويحول بينها وبين كل عريس يتقدم لخطبتها.. إلخ، كما أن المؤلفة لا يزعجها أن تحكى لنا عن نفر من الدجالين الذين سعوا إلى استغلال حاجتها للعلاج، كى يجبروها على ممارسة الرذيلة، برغم أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن أن تتيح لها الشفاء.

ودون الإسهاب فى سرد الحكايات التى توردها المؤلفة، نود أن نخلص إلى السؤال الأساسى الذى يتعلق بعالم الجن، وهو عالم موجود بنص القرآن الكريم، لكن صلة هذا العالم بالبشر واطلاعه على حياتهم وقدرات الإنس على تسخير الجن لخدمة أغراض خاصة، مما يلتبس على العلماء وليس فقط على العامة، وربما كان أشهر المحدثين الذين غاصوا فى هذا الميدان هو الدكتور رءوف عبيد الذى كان أستاذًا شهيرًا فى القانون، جذبه عالم الروح فكتب مجلدًا ضخمًا عنوانه «الإنسان روح لا جسد»، حكى فيه عشرات من التجارب الروحية التى يعجز العقل عن استيعابها.

المسألة برأيى أعمق من تكذيب المؤلفة أو تصديقها، القضية ببساطة أن هذا الموضوع لم يحسم ـ مثل قضايا كثيرة ـ بين العلماء والفقهاء، وهو ما فتح بابًا للدجالين والمشعوذين لم يغلق، ما حدود الصدق والكذب فيما يدعون؟ وما حدود قدرات الجن على علاج مشكلات الإنس إن صدقنا بالتماس بين العالمين؟

أسئلة معلقة لم يحسم العلماء الإجابات عليها، ولسنا مضطرين للإنابة عنهم فيما هم فيه مختلفون.

عماد الغزالى

عــــــروض مـــوجـــزة

«محمد شفيق» مصاعب مادية واجتماعية دفعته للاكتئاب، فإن المسئولين عن الحركة الثقافية في مصر، بدلاً من علاجه وبحث أسباب ضيقه، ألقوا به في مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية عام ١٩٨١، ليلاقي عذابات فوق طاقة البشر نتيجة جلسات العلاج الكهربائي، وينتهي شفيق جثة بثلاجة المجهولين في مشرحة زينهم، وقد أثبت تقرير الطبيب الشرعي أن جمجمته تعرضت لعدة ضربات في عدة مواضع أدت إلى الوفاة.

ويلقي الفنان أضواءً مهمة على حياة الملكة فريدة، زوجة الملك فاروق التي تركت تراثًا فنيًا بديعًا، وعاشت حياة بائسة في ظل مجون الملك السابق وانفلاته، وفيما سمحت ثورة يوليو ١٩٥٢ للملك بالسفر إلى خارج مصر، فإنها منعت زوجته من السفر، وقضت بقية حياتها بعيدة عن أولادها، وقد وافتها المنية في شقة من غرفتين وصالة بعيدة عن أحبائها وذويها.

ويشير المؤلف إلى ملاحظات لافتة تتعلق بأصول بعض الفنانين، إذ يلاحظ أن بعضًا من هؤلاء ممن عبروا بقوة وشفافية عن الحارة المصرية، ليسوا من أصول مصرية وبعضهم ينتمي إلى الأرستقراطية الصاعدة آنذاك مثل سيف وأدهم وانلي وتحية حليم ومرجريت نخلة ومحمد وعفت ناجي وإنچي أفلاطون وغيرهم.

ويأسى الفنان على مصير نتاج هؤلاء المبدعين وما آل إليه من إهمال وضياع، ويجد في ذلك تعبيرًا عن تردي الواقع الثقافي والاجتماعي الذي سمح بما جرى لهذه المواهب الباهرة.

□ □ □

هكذا يصنع المستقبل
مجموعة باحثين
أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث، ٢٠٠١



يحتوي الكتاب على ١٣ بحثًا، ألقاها خبراء دوليون في مختلف العلوم الإنسانية، في إطار المؤتمر السنوي الخامس لمركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية الذي عقد قبل شهور.

يتعرض «بول كيندي» أستاذ التاريخ ومدير برنامج دراسات الأمن الدولي بجامعة «ييل» للتحديات التي تواجه البشرية في القرن الحادي والعشرين، وقسمها إلى مجموعات ثلاثة، تركز المجموعة الأولى على شكل البشرية وحجمها، أو القوى الديموجرافية الناشطة في أنحاء العالم وتأثيرها المحتمل، وتبحث المجموعة الثانية في الثورات التقنية، ليس من الناحية الفنية فحسب، وإنما من حيث انعكاساتها على الاستقرار المالي والسيادة القومية والحريات الفردية، وتتطرق المجموعة الثالثة إلى التغيرات الحاصلة في موازين القوى، وكذلك إلى الإرهاب الدولي والجريمة المنظمة والحروب العرقية والإقليمية.

وفي الفصل الذي يحمل عنوان «تحول الثقافات»، يرى «ألفن توفلر» أن هذا التحول شهد ثلاث موجات من التغيير: ثورة زراعية أدت إلى التحول من المجتمع البدائي إلى المجتمع الزراعي المستقر، وثورة صناعية بدأت منذ ثلاثمائة عام ومازالت مستمرة، ثم التحول من القوة البدنية إلى القوة الذهنية، وما يصاحب ذلك من عدم استقرار سياسي وثقافي واجتماعي ومؤسسي.

ويكتب «جيرمي ريفكن» رئيس مؤسسة الاتجاهات الاقتصادية الأمريكية عن هندسة الجينات وأثرها على البشرية، ويقدم صورة أكثر تفاؤلاً عن مستقبل العالم الذي يعيش عصرًا من التقنية الحيوية يبشر بوفرة تكفي لإطعام العالم، وتقضي على صور المعاناة الإنسانية، لكنه يؤكد أن ذلك كله لن يتحقق دون ثمن.

ويناقش «كريستوفر موراي» مدير البرنامج العالمي لمتابعة السياسات الصحية في منظمة الصحة العالمية، التحديات العالمية للأنظمة الصحية في القرن الجديد، ويشير «موراي» إلى انتكاستين صحيتين برغم التحسن في المستويات الصحية عالميًا، وهما الزيادة المستمرة في نسبة وفيات الذكور الكبار في دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي السابق، وانتشار فيروس الإيدز.

وتركز «جودي وليامز» الحائزة على جائزة نوبل للسلام في العام ١٩٩٧ على حقوق الإنسان في القرن الحادي والعشرين وتدعو إلى تنشيط منظمات المجتمع المدني وتوقيع معاهدة دولية لحظر استخدام الألغام الأرضية.

أما «زبجنيو بريجنسكي» المستشار السابق لشئون الأمن القومي في الولايات المتحدة، فيؤكد على أن الولايات المتحدة وإن كانت هي القوة العالمية الوحيدة الآن في العالم، فإن هذا لا يعني أنها تملك قدرة مطلقة، ويتعين عليها أن تصوغ استراتيجية تشرك فيها الدول الكبرى هدفها تخفيف الصراعات واحتواؤها.

دراسات عديدة يضمها هذا الكتاب الذي جعل هدفه المستقبل وتحدياته بكل ما ينطوي عليه من مخاطر وما يحدو البشرية فيه من آمال.

كتب أجنبية

Cocaine: An Unauthorised biography
(الكوكايين: سيرة ذاتية غير معتمدة)
Dominic Streatfeild
Virgin, 2001, 485pp., £20.00



في العالم الآن إحصاءات عديدة عن إدمان المخدرات خاصة بين الشباب والمراهقين، وعلى سبيل المثال فإن إحصاء بريطانيًا ذكر أن ٩ من كل ١٠ من البالغين في مدينة برايتون عرفوا الكوكايين بمعنى أنهم جربوه ولو لمرة واحدة. والكوكايين لم يعد مجرد مسألة فردية متعلقة بشخص يدمن تعاطيه أو هو على وشك، بل إنه أصبح تجارة بمليارات الدولارات وهناك عصابات، بل ودول متورطة في إنتاجه وترويجه. إنه كما يقول مؤلف الكتاب الشائعة الأكبر في عالمنا فكثيرون يشكون في أن أموالاً كثيرة تدعي الأموال القذرة ناتجة عن تجارته وإذا كان عليك أن تحصيها بدقة فيتعين أن تنظر في كل ورقة بنكنوت في العالم.

ويقوم الكتاب على أساس جولة عبر جبال الأنديز من بوليفيا إلى كولومبيا، بحث تزدهر زراعة وتجارة الكوكايين، وينطلق من ذلك إلى قصة هذا الخطر المرعب الذي كانت بداية انتشار إدمانه في نهاية القرن التاسع عشر. ويتطرق إلى تأثيره على اقتصاديات الدول وعلى الأفراد من خلال أرقام وإحصاءات عديدة.

إن أول قصة في بريطانيا عن الكوكايين تعود إلى عام ١٩١٦، عندما تمت محاكمة رجل لترويجه لهذا المخدر. وقد تم اتهامه بإمداد الجنود بكميات من الكوكايين تجعلهم أقل قدرة على أداء مهامهم، إلا أن الرجل دافع عن نفسه قائلاً إن المخدر يجعل الشخص متطلعًا لأداء عمله بجد أكبر.

ويقول المؤلف إن نجاح الكوكايين «الوهمي» ينبع بشكل كبير من قدرته على إقناع مستخدميه بأنه يستطيع أن يجعلهم يؤدون أعمالهم بقدرة أكبر.

والكتاب بشكل عام مكرس لاستكشاف آفاق الظاهرة وليس لحل المشكلة التي يمثلها الكوكايين، ولذلك فإن المؤلف مثلاً تحدث عن إمكانية أن يختفي الكوكايين من الوجود عام ٢٠٤٥ على أساس أن الحرب ضده شديدة وعاتية

وهو يستند في ذلك لتوقع قاله أحد المؤرخين، ولكن دون أن يقدم أدلة منطقية عن كيفية اختفاء الكوكايين في هذا التاريخ بالذات.

ومن الأمور الشيقة في الكتاب أيضًا قضية تجريم الكوكايين أو السماح بتداوله وتعاطيه بحرية فبعض الجماعات في أوروبا تطالب بذلك على اعتبار أن السماح به، ولكن في ظل قواعد محددة وصارمة كفيل بالسيطرة عليه بدلاً من محاولة مصادرته، وهو أمر ثبتت صعوبته إن لم تكن استحالته.

□ □ □

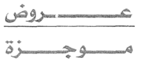
Paris to the Moon
(باريس إلى القمر)
Adam Gopnik
Vintage, 2001, 338PP, £7.99



للكاتب البريطاني الشهير أوسكار وايلد عبارة شهيرة تقول: «عندما يموتون فإن كل الأمريكيين الطيبين سوف يذهبون إلى باريس». ومؤلف هذا الكتاب أمريكي يعيش في مدينة نيويورك لكنه مقيم بالعاصمة الفرنسية منذ الثامنة من عمره، وكتابه ليس مجرد سرد لجغرافية مدينة الجن والملائكة أو مدينة النور، كما تشتهر باريس أو حديث عابر لمحب، لكنه يغوص في أعماق باريس. ومن خلال مجموعة من المقالات يتحدث عن الأطفال في باريس وكذلك الطهي والتسوق. وهناك حديث عن السياسة والجريمة في المدينة. وأسلوب الكاتب تغلب عليه حرفة الصحافة، فهو لا يقدم بحوثًا أكاديمية، بل مقالات مدعومة بالمعلومات والحكايات الطريفة الجذابة.

وإذا كان كتاب كثيرون وبشر عاديون من شتى أنحاء العالم قد انبهروا بباريس وأشادوا بروعتها وجمالها وثقافتها وفنونها، فإن الكتاب الأمريكيين خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين اعتبروا باريس جواز مرور لخروجهم من المحلية إلى العالمية، وهناك كثيرون منهم جاءوا إلى العاصمة الفرنسية ليتعلموا ويتزودوا بمعارف عصرهم ويعودوا إلى أمريكا تسبقهم شهرتهم، كما أن باريس كانت مخترعة الصيحات والموضات الجديدة التي سرعان ما تنتقل إلى شتى أنحاء العالم.

□ □ □



The Silent Take over: Global Capitalism and the death of Democracy

(السيطرة الصامتة: الرأسمالية الكونية وموت الديمقراطية)

Noreena Herty

Heinemann, 2001, £12.99



رغم محـاولات يسـار الوسط من السياسيين الأوروبيين طمس الحقائق إلا أن الواقع يشـيـر إلى أن عـصـرًا من الليبرالية الجديدة يسود العالم وبشكل خـاص أوروبا، وأن مـا يسمى بالطريق الثـالث الذي روج له الرئيس الأمـريكي السـابق بيل كلينتـون ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير ليس سوى مجرد حيلة عبر أطلسية، حسب هذا الكتاب الجديد، لتحلية مذاق الدواء القاسي الذي يتعين على الشعوب تناوله.

وباستثناء بعض المحسوبين على يسار الوسط في الصحافة الغربية، فإن كثيرًا من الناس والمتعلمين بشكل خاص، ينظرون إلى الطريق الثالث باعتباره فكرة خيالية.

إن التأثير الشديد لليبرالية الجديدة يتـمـثل في السـيطرة الشـديدة التي يمارسها نمط الاستـهـلاك على مقدرات الاقتـصـاد الرأسمـالي الحـديث، فـتدفق السلع والخدمات خلال العقدين الأخيرين بلغ مستوى غير مسبوق في مقابل انخـفـاض الإنفـاق العـام وتزايد ضخ رؤوس الأموال الخاصة في الاقتصاد.

ويضرب المؤلف مثالاً بمشروع حزب العمال الجديد في بريطانيا الذي وصل إلى الحكم في مايو ١٩٩٧ ويتوقع له أن يحـقق فـوزًا جـديدًا في الانتـخـابـات البرلمانية المقرر إجراؤها في يونيو الحالي.

ويقول أن فترة الحكم الأولى كـانت مجرد بداية وأن الحزب بعد فوزه المتوقع سيعمل على تشجيع دخول رأس المال الخاص في كل خدمة عامة من التعليم للصحة وجمع الضرائب وحتى السجون.

إن تأثير ذلك كله على الديمـقـراطية واضح فمع سيطرة الشركات الكبرى على وسائل الإعلام والسـيـاسـات، فـإن أي حـديث عن التنوع والتـعـددية سـيكون مجرد «لغو فارغ».

□ □ □

Orientalism.. Areader

(الاستشراق.. مختارات)

Edited By A.L.Macfie

Auc press, 2000, 382pp.



كـثـيـرة هي الكتب التي تناولت مـوضوع الاسـتـشـراق سلبًا أم إيجـابًا ومدى الدور الذي لعـبـه المسـتـشـرقـون، خاصة خلال الحقبة الاستعمارية، فهناك من اتهمهم بأنهم كانوا الطليعة المثقفة للجـيـوش وهناك من أنصـفـهم، وفي كل الأحوال فإن الموضوع أثـار جدلاً شـديدًا ولازال حتى الآن قـادرًا على إثـارة الجدل.

ويعـرض الكتـاب الذي أصـدرته الجـامـعـة الأمـريكيـة بالقـاهرة وقـام بتحريره ايه. إل. مكفاي مختارات تعطي القارئ وخاصة إذا كان طالبًا يبحث في موضوع الاستشراق فكرة جيدة تصلح للانطلاق منهـا. وهي مـخـتـارات تـغطي مناطق عديدة مثل الإسلام والإمبريالية والآداب والأسطورة والأيـديولـوجـيـا والعـلاقـات الثـقـافـية وعلم الاجـتـمـاع والنسوية.

ويبدأ المحرر الكتاب بمقدمة عن جذور الاسـتـشـراق والنقـاش الدائر حـوله ويتحـدث بـالتفصيل عن الهـجوم الذي يتـعرض له خاصـة في الشرق الأوسط. وعقب نهاية فترة الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية أطلق عديد من الباحثين خـاصـة من الشـرق الأوسط هجـومًـا متواصلاً على حركة الاستشراق متهمين المستشرقين بالانحيـاز والتحـيز في دراساتهم وأحكامهم ونشأ عن ذلك نقاش واسع حول الاستشراق وتاريخه والتركة الناتجة عنه.

ويفرد المحرر مسـاحـة كـبيـرة من الكتاب لإدوارد سـعيد المفكر الفلسطيني المعروف والأستاذ في جامعة كولومبيا بالـولايات المتـحـدة وصـاحب الكتـاب المرجع «الاستشراق» الذي حظي بتقدير عالمي غـيـر مسـبـوق وهو أيضًـا مؤلف الثقافة والامبريالية. ويتحدث سعيد عن موضوعات شتى مثل الإسلام والعرب ودوجمـا الغـرب. إن هذا الكـتـاب يقـدم بانوراما عن الاسـتـشـراق مفـيـدة للقـارئ بشكل كبير وهو يـغطي الموضوع من كافة جوانبه.

□ □ □

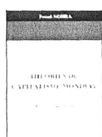
Theories du Capitalisme Mondial

(نظريات في الرأسمالية العالمية)

Fouad Nohra

Preface de Samir Amin

Paris: L'Harmattan, 2001, 303p.

تتجـه التطورات الأخـيـرة لـلأسواق الوطنيـة والعـالميـة نحـو تأكيـد تفـوق الـغـرب الـتـكنولوجي وسـيطرته على المؤسـسـات الدوليـة، مما انـتـهـى بالولايات المتـحدة الأمريكية إلى ادعاء الهـيـمـنـة الحـضـارية العـالمـيـة باسم عـالمـيـة الرأسـمـالـيـة وعـولمة القـيـم الغربية.

لاقت هذه المقولة ردود فـعل نقـدية مـتـعـددة في العـالم الثـالث، تناولت موضوعات الصراع الحضاري والتعددية الثقافية والتحليلات المعرفية والسياسية والاجتماعية لأزمة النظام العالمي الراهن، ويعـد كـتـاب «نظريـات الرأسـمـاليـة العالمية» إضافة مهمة لأنواع التحليل السالفة الذكر، من حيث إن مؤلفه الدكتور فـؤاد نهـرا يتناول هذه الإشكاليـات من زاوية البـاحـث المتـخـصص في الفلسـفـة الاقتـصـادية، فضلاً عن أهميـة الدراسـة التنظيرية المطولة التي كتـبهـا الدكـتـور سـمـيـر أمين في مقدمة هذا الكتاب التي يتناول فـيـهـا تاريخ علم الاقـتـصـاد السـيـاسي ويـعـرض لأحـدث محـاولات التجـديد في هذا العلم على ضـوء آليـات العولمة الراهنة.

يمكننا إيجاز محاور الكتـاب الرئيسية فيما يلي:

ـ قـانون القـيـمـة في إطاره الإبسـتـمـولـوجي بين التـحـليل الكمي والكيفي.

ـ تحـديد آليـات النظام العـالمي وبالتـالي توصـيـفـه بالرأسـمـاليـة أم التغريب.

ـ مفهوم الاستقطاب وفكرة انقسام العالم الرأسمالي إلى مركز وأطراف.

ـ تحليل آليات توسع الرأسـمـاليـة وتجدد إنتاجها على الصـعيد العالمي، ونتائج ذلك فيما يتعلق بمدى وأهمية الدوافع الثقافية في عمليتي التـغريب والتهميش.

ـ مسـألة الدينامـيكيـة السـيـاسـيـة والثـقـافـيـة في الصـراع الطبـقي وفي مـخـططات الطبـقـات المسـيطرة في المجتمعات المركزية.

ويتناول سـمـيـر أمين في المقدمـة، مسـألـة تحليـل الاستـلاب الاقتصادي الذي يتمحور حول مفهوم القيمة.

والجـديد لديه هو تحليله لتطور مفهوم القيمة فيما هو راهن وفيما يمكن أن يصير في المستقبل مما يسوقه إلى القول بـتـراخي قبضة قانون فـائض القـيـمـة وديكتاتوريته التفسيرية لصالح عوامل أخرى سياسية وثقافية تدخل كعناصر شارطة للظواهر محل الدراسة.

إن هذا التحليل، الذي يمكننا أن نصفه بالبنيوي والذي يربط تراخي أو تلاشي قـانون فـائض القـيـمـة بظواهر بنيـوية أخـرى ـ كظاهرة الاسـتـقـطاب وعـولمة السوق ـ يفتح الباب أمام التعامل بشكل جديد مع العامل الثقافي الذي تتعاظم أهميته لديه بالرغم من ثباته على القول بأولوية العامل الاقتصادي وتبعية القيم الثقافية.

ونلاحظ هنا، أن للثقافة مفهومين لدى سـمـيـر أمـين: الثـقـافـة بمعنى الخـصـوصـيـات الاثنيـة والدينيـة ومـا شابهها. والثقافة بالمعنى الكوني العام للبـشـرية، فـهـو يقـول بتـبـعـيـة العـامل الثـقـافي للعـامل الاقـتـصـادي، حـين يستخدم التحليل الأيديولوجي المحارب للخصوصيات الدينية والقومية، بينما يتـعـاظم لديه، شـأن العـامل الثـقـافي بالمعنى الإنسـاني الكوني حين يتصدى للتحليل البنيوي لآليات التوسع والتراكم الرأسمالي.

ويبدو تعاظم العامل الثقافي بمعناه الإنساني الكوني في قوله بضرورة تجاوز المجتمع الشيوعي للقيمة الكمية وتغليبه للقيم الكيفية، وهو ما يُفصله في القسم الرابع من المقدمة المتعلق بتحولات قانون القيمة، والقسم الخامس الخـاص ببعض التـأمـلات حـول الانتـقـال إلى مـا بعـد الرأسمالية.

غير أن سمير أمين يقدم هذا التجاوز الذي يرفع من شأن العامل الثقافي كنظام قيم كوني، باعتباره عودة لكارل ماركس واستـعـادة لمفهوم General Intellect «العقل العام»، الذي تحدث عنه ماركس نفسه.

يقـول سـمـيـر أمـين: إن الثـورة المعلومـاتية والإلكترونية بدأت عملية تصيب «قيمة التبادل» الاقتصادية بتراخ يتزايد بمقدار ما يتعاظم الطابع الجماعي الاجـتـمـاعي للعمل والقيم السـيـاسـيـة والإكولوجية في المجتمعات.

لقد ضـعـفت الـيـوم حـسـابـات الربح الاقتصادي لصالح حسابات كيفية قيمية أخرى تتماشى مع مفهوم «العقل العام» الذي أصبح يفرض أفكارًا مثل فكرة راتب المواطنة بدلاً من فكرة راتب العمل القائمة على السعر الاقتصادي.

ولم يعد الدخل يتم توزيعه بمقتضى ساعات العمل، ولكن وفقًا لمقدار الثروة التي يقررها المجتمع ويحددها، فالمرتبات ينبـغي أن تدفع لـلمواطنين وليس فـقط للعاملين.

د. أسامة خليل

آثـــار

آثار مصر فى العصرين اليونانى والرومانى

عزت زكي قادوس

القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠١

ثمانية أقسام يضمها الكتاب الذى يبدأ بالإسكندرية وآثارها ومعابدها، ثم إقليم مريوط، ثم الفيوم، فالمنيا، ثم معابد مصر العليا ومنها معابد دندرة وإسنا وإدفو وكوم أمبو، وينتهى بآثار النوبة، والأديرة والكنائس فى مصر القبطية، ويضم الكتاب إلى ذلك قائمة بأسماء الأباطرة والملوك فى العصرين الرومانى واليونانى وفترات حكمهم.

■■■

تراث القاهرة

درويش أبو سيف (المحرر)

القاهرة: الجامعة الأمريكية، ٢٠٠١

مجموعة من الدراسات والأبحاث عن الآثار الإسلامية فى القاهرة، والتى تتنوع بين المساجد والأسبلة والمدارس والمنازل وغيرها، يعرض المؤلف لبعض هذه الآثار بالتفصيل فضلاً عن تخصيصه جزءًا خاصًا للأوقاف الإسلامية وأنواعها.

أديـــان

أول السابقين ورابع الراشدين على بن أبى طالب

فؤاد حمدو الدقس

دمشق: دار الرضوان، ٢٠٠١

كان على بن أبى طالب أصغر المؤمنين المصدقين لرسالة النبى الكريم، وكان سلوكه فى حياته نموذجًا للخلق الإسلامى القويم، كما كان دفاعه عن الدين وعدالته حين تولى أمر المسلمين عقب الفتنة الكبرى، تطبيقًا للشريعة السمحاء وفهمًا للتكاليف على وجهها الصحيح. المؤلف يلقى أضواء علىّ على بن أبى طالب كرّم الله وجهه، ودوره فى مسيرة الإسلام وتاريخ المسلمين.

■■■

An Introduction to Buddhist Ethics: Foundations, Values and Issues

(مقدمة للأخلاقيات البوذية: الأسس والقيم والقضايا)

Peter Harvey

Cambridge UP, 2001, 478pp., £40.00

منذ ظهور الديانة البوذية قبل ألفين وخمسمائة عام، انتشرت بشكل واسع من مهدها فى الهند ليصبح لها الآن حوالى نصف مليار متبع من جميع أنحاء العالم.

يتناول الكتاب المبادئ المختلفة للبوذية ومدى تعدد فرقها المتنوعة، ويناقش موقفها من القضايا الإنسانية المعاصرة مثل حقوق الإنسان والحيوان، والبيئة، والإجهاض، واقتصاد السوق، والانتحار، والحرب، والسلام.

■■■

Idolizing Pictures: Idolatry, Iconoclasm and Jewish Art

(عبادة الصور: الوثنية وتحطيم المقدسات والفن اليهودى)

Anthony Julius

Thames & Hudson, 2001, 120 P., £8.95

من ضمن الوصايا العشر التى وردت فى التوراة المتضمنة فى الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم، يوجد نهى صريح لتصوير أو نحت كل ما يشبه ما فى السماء أو فى الأرض.. «حتى لا تفسد النفوس».

ولهذا فإن الفنانين اليهود الذين يقومون بأعمال التصوير هم بالأساس يهود علمانيون. أما مؤلف هذا الكتاب فهو يهودى ملتزم، ولكنه أيضًا رجل مثقف يحب فن التصوير ويحب التردد على المعارض الفنية المختلفة. لذلك يقوم فى الكتاب بتقديم نظرية جديدة مفادها أن تلك النواهى التوراتية إذا نظرنا إليها بتعمق نجد أنها تشجع الفن، ولكنه نوع خاص من الفن. ذلك الفن الثورى الساخر، الذى يؤدى إلى نزع القداسة عن الأشياء والمخلوقات.

■■■

Sikh Religion, Culture and Ethnicity

(ديانة وثقافة السيخ)

Christopher Shockle, Gurpharpal Singh and Arvinel-Pal Mondair (eds)

Curzon, 2001, 220 PP., £40.00

تعتبر ديانة السيخ ديانة حديثة نسبيًا، فقد أسسها «الجورو» أو المرشد الثالث ناناك فى الهند منذ خمسة قرون تقريبًا. وكان ناناك قد ولد عام ١٤٦٩ فى أسرة هندوسية، لكنه كان منزعجًا من الطبقية التى سادت الهندوسية وتعدد الآلهة والأوثان فيها. كما رأى فى المسلمين الموجودين فى الهند آنذاك غزاة يحتلون بلاده وينهبونها. وقد درس ناناك علوم الإسلام وذهب إلى مكة والمدينة وكان من بين أصحابه مسلمون. ونادى بالإيمان بإله واحد غير قابل للتحديد خالق للوجود كله.

يعالج هذا الكتاب قضايا مختلفة فى تاريخ ديانة السيخ وفى تطور جماعات السيخ نفسها، وموقفها السياسى فى الهند. حيث يوجد فى العالم الآن حوالى ١٥ مليون سيخى، بعضهم فى الشتات والبعض الآخر أقلية مهمشة ومعرضة للإبادة فى الهند.

■■■

Can A Darwinian Be A Christian? The Relationship Between Science and Religion

(هل يمكن لدارويني أن يكون مسيحيًا: العلاقة بين العلم والدين)

Michael Ruse

Cambridge UP, 2001, 242pp., £14.95

يهدف المؤلف وهو فيلسوف مؤمن بالداروينية إلى تبيين أنه من الممكن أن يكون المرء مسيحيًا مخلصًا لديانته، ومؤمنًا بالنظرية الداروينية فى آن واحد. حيث لا يوجد تعارض بين وجود الله الخالق للكائنات الحية المختلفة، والإيمان بانه بعد خلقها يتركها لقواعد الانتخاب الطبيعى.

■■■

The Prayer of Jabez: Breaking Through to the Blessed Life

(صلاة يعبيص: التقدم نحو حياة مباركة)

Bruce H. Wilkinson

Multnomah Pub, 2000, 96p., $9.99

حقق هذا الكتاب مبيعات مذهلة فى الولايات المتحدة، وهو يحتوى على دعاء أو صلاة لرجل صالح ذكر مرة واحدة فى الكتاب المقدس فيما لا يزيد على سبعين كلمة. هذا الرجل دعا الله أن يباركه وأن يوسع عليه، فاستجاب الله له. وقد اهتمت الصحف الرئيسية فى الولايات المتحدة بالشعبية الواسعة لهذا الكتاب، حيث أجاب القراء من رجال الأعمال أن الدعاء زاد من أرباحهم، ورد أحد رجال الدين أن هذه الحمى تجسد نرجسية ومادية العالم المعاصر، وليس روح التدين الحقيقية.

اقتصاد

الفقر وتوزيع الدخل فى الوطن العربى

عبد الرازق فارس

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

أظهرت أحدث إحصائية أن نحو ١،٣ مليار نسمة فى العالم يعانون من الفقر المدقع، وبرغم تنوع الموارد ومصادر الدخل فى الوطن العربى، فإنه يحتوى على نسبة لا يستهان بها من الفقراء، ويقع ملايين من سكانه تحت خطر الفقر.

ما هى الأسباب التى أدت إلى هذا الوضع، وكيف يمكن تجاوزه؟ هذا ما يجيب عنه المؤلف الذى تعرض لأثر الصراعات فى تفاقم مشكلة الفقر، ويرسم خريطة بالأرقام لأهم مناطق الفقر وتوزيعها.

■■■

المياه والزراعة فى مصر

تحرير: أحمد السيد النجار

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠١

تعرض الدراسة لمشكلة المياه فى مصر فى الوقت الراهن، حيث الزيادة السكانية المطردة والتناقص الحاد فى مساحة الأرض الزراعية، ومحدودية المياه التى تستفيد منها الصناعة إلى جانب الزراعة، فضلاً عما يذهب منها للاستخدام الآدمى.

مشكلة المياه كما يؤكد الكتاب لم تعد فنية، إنها قضية أمن قومى ومن هنا تنبع أهميتها فى مصر والعالم العربى.

■■■

ثورة الدواء ومستقبل التحديات

محمد رءوف حامد

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠١

تمر صناعة الدواء فى العالم بطفرات هائلة مستفيدة من الأبحاث العلمية والتكنولوجية الكبرى، ومن الثورة فى علوم الجينات والهندسة الوراثية، والتطوير المستمر فى هذه الصناعة بقدر ما يعد بخير كثير للبشرية، بقدر ما يوصد أبوابًا فى وجه فقراء المرضى من قاطنى العالم الثالث الذين لن يستفيدوا من هذه الطفرة مع تطبيق الجات، وهذا هو التحدى الذى يواجه ملايين البشر.

■■■

Taking Trade to the Streets: The Lost History of Public Efforts to Shape Globalization

(التاريخ المفقود للجهود الأهلية فى تشكيل العولمة)

Susan Ariel Aaaronson

Forewords: Pat Choate and I.M. Destler

Michigan UP, 2001, 248pp., $29.95

يصف الكتاب كيف أنه مع مرور الوقت أصبح هناك أفراد ومنظمات غير حكومية يجدون فى اتفاقيات التجارة ما يهدد النظم الوطنية التى تحدد القواعد الاجتماعية والبيئية للدولة.

وتتخذ المؤلفة من الولايات المتحدة دراسة حالة، فتقوم بدراسة تاريخ نقاد اتفاقيات التجارة، وتركز على اتفاقية النافتا واتفاقيات الجات. هؤلاء النقاد قاموا بإرساء حركة عالمية تسعى لمراجعة شروط اتفاقيات التجارة، بدأت فى النمو منذ الثمانينيات وتتخطى الحدود السياسية، كما تتحدى الآراء السائدة حول دور الحكومة فى الاقتصاد.

إنتـــرنت

الشبكة السريعة الذكية

محمد الشرقاوى

القاهرة: دباء للنشر، ٢٠٠١

لم يعد الإنترنت ترفًا، صار ضرورة حياة، يتعامل معه الطلاب والباحثون والجمهور بشكل يومى تقريبًا، المؤلف يقدم معلومات مهمة عن شبكة الإنترنت عمومًا، ثم تفصيلات عن شبكة إنترنت ٢، وهى شبكة تخص التعامل الأمريكى الإسرائيلى فحسب.

■■■

How to Start A Business Website

(كيف تنشئ موقعًا على شبكة الإنترنت لعملك؟)

Mike Powers

Aron Books, 1999, $20.00

يقدم هذا الكتاب نصائحه لكل صاحب عمل، لكى يستطيع أن ينشئ لعمله موقعًا ناجحًا على شبكة الإنترنت وتعظيم ربحه ونطاق عمله بهذه الطريقة. تتضمن النصائح كيفية جذب الزبائن من غرف الدردشة والقوائم الخبرية، وطرق الإعلان على الشبكة، كما يبين الوسيلة المثلى لعقد المعاملات المالية عبر الإنترنت، وأفضل الطرق التى تجعل موقعك جاذبًا للانتباه وسهلاً فى العثور إليه.

تـاريـــخ

Hitler's Italian Allies: Royal Armed Forces, Fascist Regime and the War of 1940 - 1943

(حلفاء هتلر الإيطاليون: القوات المسلحة الملكية والنظام الفاشي وحرب ١٩٤٠-١٩٤٣)

Macgregor Knox

Cambridge UP, 2001, 207pp., £16.95

دراسة عن القوات المسلحة الإيطالية في سنوات الحرب العالمية الثانية، تهدف إلى التوصل إلى أسباب ضعف الأداء العسكري الإيطالي في كل وجه من أوجه تلك الحرب، من الاستراتيجية الكبرى إلى أصغر العمليات التكتيكية.

ويرى المؤلف أن اللوم لا يقع على موسوليني وحده، بل إن المشكلة الحقيقية كانت في «الثقافة العسكرية» الإيطالية، من جهل الجنرالات بالتطورات التقنية الحديثة، واعتمادهم التقليدي على الأعداد الكبيرة والهجمات الأمامية، وغيرتهم العميقة من بعضهم البعض.

■■■

Sheba: Through the Desert in Search of the Legendary Queen

(سبأ: عبر الصحراء بحثًا عن الملكة الأسطورية)

Nicholas Clarp

Houghton Mifflin, 2001, 320pp., $26.00

ملكة سبأ أو بلقيس هي المرأة الوحيدة في القرآن والكتاب المقدس التي مارست الحكم السياسي، ومع هذا فإن الأسس التاريخية لملكة سبأ لم تكن دائمًا واضحة. في هذا الكتاب يصف لنا الأثري الأمريكي رحلته الاستكشافية بين اليمن وإثيوبيا، لتجميع خيوط القصة من مصادرها المختلفة الأثرية والتاريخية والأسطورية والمقدسة.

دراسات نفسية

The Madness of Adam and Eve

(جنون آدم وحواء)

David Horrobin

Bantam Press, 2001, 281PP., £18.99

نظرة جديدة في مرض الفصام، حيث يؤكد المؤلف (مرتكزًا على دراسة لمنظمة الصحة العالمية) على أن مرض الفصام متأصل في البشر منذ بدء التاريخ لأنه موزع بشكل متساو في جميع شعوب العالم التي يحتوي كل منها على نسبة من مرضى الفصام تتراوح بين ٠,٥٪ و١,٥٪.

ويعتقد الكاتب كذلك أن مرضى الفصام يتمتعون بمواهب خاصة وقدر من العبقرية أو الذكاء غير العادي، ويحاول إثبات أن كلا من جايمس جويس وبرتراند راسل وإسحق نيوتن وكانط كانوا جميعًا مصابين بأعراض الفصام.

■■■

Revels in Madness: Insanity in Medicine and Literature

(الجنون في الطب والأدب)

Allen Thiher

Michigan UP, 2001, 354pp.,

محاولة لفهم تغير مفهوم الجنون عبر التاريخ، من خلال البحث في النصوص الأدبية وفي تاريخ الطب. يبحث المؤلف في المراحل المختلفة في الثقافة الغربية منذ هومر في المرحلة الكلاسيكية عبر المرحلة الوسطى لدى سرفانتس وشيكسبير إلى مرحلة الكتابات الحديثة.

رحلات

مفاكهة الخلان في رحلة اليابان

يوسف القعيد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

يمثل الكتاب خلاصة زيارة المؤلف لليابان، وموقفه من الحداثة على الطريقة اليابانية، وحياة اليابانيين وأسباب تقدمهم وازدهارهم، على الرغم من أنهم بدأوا نهضتهم منذ نصف قرن تقريبًا وكيف أثرت العولمة على الشعب الياباني، وهل مازال محتفظًا بخصاله الطبيعية أم تخلى عنها.

■■■

Travels With A Tangerine: A Journey in the Footnotes of Ibn Batutah

(رحلة في هوامش ابن بطوطة)

Tim Mackintosh - Smith

J Murray, 2001, 340pp., £18.00

يصف المؤلف رحلاته إلى المغرب ومصر وسوريا وأنطوليا وعمان واسطنبول، محاولًا اتباع خطى الرحالة العربي الكبير ابن بطوطة الذي تأثر به كثيرًا بعد أن قرأ كتبه التي ترجمت إلى الإنجليزية عام ١٨٢٩.

روايات وقصص

أواني الورد

أحمد الدويحي

دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠١

يقدم هذا الجزء الأول من الرواية يوميات العزلة التي عاشها الراوي في أيام حرب الخليج، ويعرض لرؤى وتفاصيل عن هذه الحروب وانعكاساتها على السياسات الراهنة سواء في المنطقة العربية أو العالم.

■■■

رائحة الصابون

إلياس خوري

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

يتحول أبطال الرواية إلى ضمائر غيبية بعد وفاتهم في الحرب الأهلية، وهكذا يجعل المؤلف تلك الضمائر شواهد على حياة الناس الاجتماعية، والسياسات الآثمة التي تعبث بالأوطان فتمزقها، وتقهر الشعوب تحت وطأة الاحتلال والتطاحن القبلي.

■■■

وداعًا روزالي

حسونة المصباحي

ألمانيا: منشورات الجمل، ٢٠٠١

رواية جديدة للأديب التونسي المقيم في ميونيخ بألمانيا منذ عام ١٩٨٦، وقد نشر قبل عامين «الآخرون» وسبقتها مجموعات قصصية منها «حكاية جنون ابنة عمي هنية»، و«السلحفاة»، و«ليلة الغرباء»، ورواية «هلوسات ترشيش» التي فازت بجائزة «توكان» لأفضل كتاب في عام ٢٠٠٠، وهي جائزة تمنحها مدينة ميونيخ.

■■■

Glue

(صمغ)

Irvine Welsh

Cope, 2001, 470pp., £16.99

اشتهر إرفين ولش برواياته الغريبة التي تتناول الأركان المظلمة في حياة الشباب الأوروبي المعاصر. من ضمن هذه الروايات رواية «تراينسبوتنج» التي تحولت إلى فيلم سينمائي ورواية «إكستاسي» و«قذارة».

وتدور أحداث روايته الأخيرة في أدنبرة، حيث يتتبع حياة أربعة من أصدقاء الطفولة الذين نشأوا في السبعينيات في رحلتهم إلى الرجولة التي تصل بهم إلى الوقت الحاضر. وتدخل بنا الرواية إلى عالم هؤلاء الشباب، أثناء ارتيادهم للنوادي الليلية، وأثناء تناولهم للمخدرات، وأثناء ارتيادهم مباريات كرة القدم، ومعاركهم في شوارع سكوتلنده.

■■■

The Undiscovered Chekhov: Fifty One New Stories by Anton Chekhov

(إحدى وخمسون قصة جديدة لأنطون تشيكوف)

Trans. by Peter Constantine

Duckworth, 2001, 224pp., £14.99

مجموعة من القصص القصيرة التي تترجم لأول مرة، كتبها تشيكوف في الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٨٨٧، أي عندما كان عمره واحدًا وعشرين عامًا. ومعروف أنه لم تتم ترجمة كل أعمال تشيكوف، حيث كان غزير الإنتاج بدرجة كبيرة. فعندما بلغ السادسة والعشرين كان قد نشر أكثر من أربعمائة قصة قصيرة.

سياسة

أرض السفارة الأمريكية في القدس.. الملكية العربية والمأزق الأمريكي

ترجمة: سميرة خوري

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

يؤكد المؤلف أن الموقع المرتقب للسفارة الأمريكية في القدس المحتلة، هو ملك لعدد من اللاجئين الفلسطينيين، صادرته إسرائيل عند احتلالها للقدس عام ١٩٤٨، وقد قام فريق بحث فلسطيني بجمع وثائق وأدلة لمدة ستة أعوام، جميعها تثبت الحق الفلسطيني في هذه الأرض.

■■■

إسرائيل الكبرى والفلسطينيون، سياسة التوسع ١٩٦٧-٢٠٠٠

نور الدين مصالحة

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

عرض للأسس الأصلية للنزاع الفلسطيني اليهودي، وهي الأرض والسكان والماء، وهو ما أدركته باكرًا النزعة الاستيطانية التوسعية لدى اليهود، الذين قاموا بعمليات مصادرة وشراء أراض لم تحدث من قبل في التاريخ بهدف السيطرة على الأرض وتشجيع الهجرة اليهودية، والاستيلاء كذلك على مصادر المياه.

■■■

الجاني والضحية.. مصادرة الإسلام والعروبة

رياض الريس

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٠

الصراع بين الإسلاميين والعروبيين يبدو في كثير من الأحيان مفتعلًا وبلا منطق، وقد عانت منطقتنا من عديد من تلك الصراعات التي تزج بمفكريها ومثقفيها في أتون ملفات لا طائل منها. المؤلف يرصد ما تمخض عنه تلك الملفات ودوافع إثاراتها، ويشير إلى الدور الذي لعبه «النفط» فيها.

■■■

العلاقات الروسية العربية في القرن العشرين وآفاقها

جورج شكري كتن

أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠١

شهدت العلاقات الروسية العربية خلال القرن العشرين انعطافات مهمة، ومرت بثلاث مراحل، بدأت بالمرحلة القيصرية التي شهدت خريفها خلال العقدين الأولين من القرن الماضي، مرورًا بالمرحلة السوفيتية التي استمرت ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن (١٩١٧-١٩٩٠)، وهي مرحلة شهدت تطورات مهمة محليًا وعالميًا، ثم أخيرًا مرحلة روسيا الاتحادية حيث تفكك الاتحاد السوفيتي وصار أثرًا بعد عين، وهي المرحلة التي نعيشها اليوم.

■■■

كويت (٢١) رؤية واقعية

تحرير: غازي الربيعان

الكويت: الجمعية الكويتية للدراسات والبحوث التخصصية، ٢٠٠٠

بحوث ضمتها ندوة عقدتها الجمعية وتناولت عدة موضوعات عن إدارة الأزمات ودور مجلس الأمة ورؤى المثقفين الكويتيين للتيارات السياسية والثقافية التي يموج بها العالم وكيفية التعاطي معها.

■■■

مفاوضات السيادة على الشرق الأوسط

يحيى غانم

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠١

يسعى المؤلف إلى الغوص فيما وراء الكواليس، ليقدم لنا الصراع على السيادة في منطقة الشرق الأوسط، والأسلحة الدبلوماسية التي تم استخدامها في هذا الصراع والأيادي التي لعبت فيه من وراء ستار واللاعبين الأساسيين على مسرحه، ويضم الكتاب وثائق وتعليقات منذ بدء

مفاوضات السلام وحتى اليوم، أى منذ أكثر من ثلاثين عامًا.

■■■

L' Odore Dei Soldi: Origini e Misteri Delle Fortune Di Silvio Berlusconi

(رائحة المال: أسرار ثروة سليفيو برلسكونى)

Elio Veltri, Marco Travaglio

Editori Riuniti, 347pp., 24.000 Lire

تصدر هذا الكتاب قائمة أفضل الكتب مبيعًا فى إيطاليا فى الفترة التى سبقت الانتخابات العامة الإيطالية التى أجريت فى الثالث عشر من الشهر الماضى. الكتاب ينقب فى الماضى الحالى لبرلسكونى المرشح الفائز بالانتخابات، وقد اشترك فى كتابته صحفى من صحيفة «لاريبوبليكا» وسياسى مهتم بالكشف عن الجريمة والفساد فى المجتمع الإيطالى وقامت بنشره دار نشر معروفة بتشجيع الميول اليسارية.

سير ومذكرات

أشواق العاشق العجوز

عاصم الجندى

قبرص: دار الملتقى، ٢٠٠١

عاش المؤلف حياة حافلة، غنية بالصراعات السياسية والاجتماعية، وقدّم تجربته فى هذا الكتاب الذى يتضمن أيضًا إبداعاته الشعرية والقصصية وخواطره التى تحتل المرأة فيها حيزًا كبيرًا، وهى تبدو تارة منفى، وتارة وطنًا، وتارة تعبيرًا عن المعاناة النفسية والعاطفية.

■■■

عبد الرحمن الخميسى.. القديس الصعلوك

يوسف الشريف

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١

يعرف البعض عبد الرحمن الخميسى بوصفه شاعرًا، ويعرفه آخرون بوصفه ماركسيًا مارس دوره الوطنى ضمن تيار سياسى محدد فى مرحلة ما قبل الثورة وبعدها، ويعرفه بعض ثالث بوصفه ممثلاً، وآخرون يرون فيه مكتشفًا للمواهب، ويشيرون بالذات إلى اكتشافه للفنانة سعاد حسنى، والحق أن الخميسى كان ذلك كله، وكان إنسانًا محبًا للحياة بكل ما فيها، وقد اغترف من ملذاتها وتزوج كثيرات من مصر وخارجها. المؤلف يروى لنا كثيرًا عن الخميسى من خلال معاشرته وصداقة استمرت سنوات طويلة.

■■■

مذكراتى

فوزى الزمرلى

تونس: دار الجنوب، ٢٠٠١

تتناول هذه المذكرات الفترة التى قضاها بيرم فى تونس، وأهم إنجازاته فى هذه الفترة أدبيًا وعمليًا، والاضطرابات النفسية التى عاشها بسبب ملاحقته ونفيه، وعبقريته الأدبية الفذة.

■■■

Cocteau L' Egyptien

(كوكتو المصرى)

Ahmed Youssef

Preface de Jean Lacouture

Editions du Rocher, 2001, 189pp.

يكتب مراسل صحيفة الأهرام فى باريس أحمد يوسف فى هذا الكتاب عن علاقة جان كوكتو الكاتب والشاعر والسينمائى والمسرحى الفرنسى الشهير، بمصر بصفة خاصة والشرق بصفة عامة. وكان كوكتو قد زار مصر فى عامى ١٩٣٦ و١٩٤٩ جال خلالهما بأنحاء الإسكندرية والقاهرة والأقصر.

يتحدث الكاتب عن علاقة كوكتو بطه حسين وبالأمير محمد وحيد الدين ابن الأميرة شويكار، كما يضم فى كتابه مجموعة نادرة من صور كوكتو فى مصر، وذكرًا لآرائه وتعليقاته التى وردت عن مصر، خاصة فى كتاب «معلهش» الذى منع ترجمته إلى العربية.

■■■

Apricots on the Nile: A Memoir With Recipes

(مشمش على النيل: مذكرات ووصفات)

Colette Rossant

Bloomsbury, 2001, 178pp., £12.99

ولدت كوليت لأب يهودى ـ مصرى وأم فرنسية، وعندما توفى أبوها تركت لمدة أربعة أعوام فى رعاية جديها الثرين فى مصر. وهناك وجدت كوليت تسليتها ومتعتها فى مطابخ الأسرة مع «أحمد» طباخ الولائم الفاخرة الذى علمها بعض الوصفات المصرية والتركية المهمة. وعندما عادت كوليت إلى أمها فى باريس، وجدت «جورجيت» التى علمتها أصول إعداد الصلصات الفرنسية الشهيرة.

لهذه الأسباب تأتى ذكريات كوليت فى كتابها عن القاهرة وباريس والمنازل التى عاشت وتربت فيها مرتبطة بوصفات لأطباق من الأكلات التى عرفتها هنا وهناك.

شـــعـر

فى الماء دائمًا وأرسم الصور

زياد العنانى

عمان: منشورات أمانة عمان الكبرى، ٢٠٠١

قصائد تتفاوت طولاً وقصرًا يغلب عليها طابع الحزن، والموت هو موضوعها الأساسى، الذى يعتبره الشاعر عتبة أو منعطفًا لحياة جديدة، وهروبًا من مأزق الحياة ومآسيها التى لا تنتهى.

■■■

هواء قديم

محمد سليمان

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١

ديوان جديد لأحد الأصوات المهمة من شعراء قصيدة النثر فى مصر، يضم الديوان ٥ قصائد طويلة يشتمل بعضها على مقطوعات هى: عادة فى الشتاء، دهاليز، البعيدة اسمها مليح، حفريات، ورق أصفر.

■■■

وحدك

خلود المعلا

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

قصائد قصيرة للشاعرة الإماراتية التى صدر لها من قبل ديوان «ضيعت الزمن» عام ١٩٩٧، وهى قصائد عليها الطابع العاطفى والإنسانى، تشبه لوحات مرسومة للحظات مسروقة من عمر الزمن.

صحـــافة

الصحافة العمانية المهاجرة.. صحيفة الفلق وشخصياتها

محسن الكندى

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١

دراسة نظرية وتطبيقية فى واحدة من الصحف العمانية المهمة، كيف كانت هذه الصحيفة معبرًا عن الوطن العمانى وتطوراته، وأشواق العمانيين وطموحاتهم، ومن هم أبرز محرريها ومن تناوبوا على إدارتها.

■■■

I Watched a Wild Hog Eat My Baby: A Colorful History of Tabloids and Their Cultural Impact

(تاريخ صحافة التابلويد وأثرها الثقافى)

Bill Sloan

Prometheus Books, 2001, 255pp., $25.00

رغم عنوانه المثير، إلا أن هذا الكتاب يقدم دراسة جادة عن الأثر المجتمعى لصحافة التابلويد.

عـــلوم

العلاج الجينى واستنساخ الأعضاء البشرية

عبد الهادى مصباح

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

عن استنساخ وتصنيع الأعضاء البشرية وزراعة الخلايا والأنسجة بديلاً لزراعة الأعضاء، والمؤلف يعرض لمشكلات العلاج الجينى ويشرح معنى الجينوم البشرى وكثيرًا من قضايا الهندسة الوراثية وعلاقتها بالخريطة الجينية، وكيفية استخدامها والآفاق التى تفتحها فى مجال الطب خصوصًا فى علاج أمراض القلب والشرايين والأورام السرطانية.

■■■

Annie's Box: Charles Darwin, His Daughter and Human Evolution

(صندوق آنى: تشارلز داروين وابنته والارتقاء البشرى)

Randal Keynes

Fourth Estate, 2001, 345pp., £16.99

راندال كينز مؤلف هذا الكتاب هو أحد أحفاد العالم الإنجليزى الشهير تشارلز داروين. وفى هذا الكتاب يتعمد المؤلف الربط بين حياة داروين الشخصية وبيئته المنزلية وبين نظريته الشهيرة فى النشوء والارتقاء. فطبقًا للمؤلف لم تكن رحلات داروين فى غابات وجزر أمريكا الجنوبية هى التى شكلت نظريته وإنما حديقة منزله والطبيعة المحيطة بها حيث كان يمشى يوميًا لعدة ساعات ويجرى اختباراته.

ومن ناحية أخرى كان لداروين وزوجته عشرة أبناء وبنات، من بينهم ابنة تدعى آنى ماتت وعمرها عشر سنوات. يقول المؤلف إن موت آنى بالرغم من وجودها فى بيئة صحية بسبب مرض ضعف وراثى، كان وراء إيمان داروين بسطوة قوانين الطبيعة ونظريته عن البقاء للأصلح.

فـكــر

العقل الأخلاقى العربى.. دراسة تحليلية

محمد عابد الجابرى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

ينشغل الجابرى فى هذا الكتاب بالموروثات الخمسة فى الفكر الأخلاقى، وفى الثقافة العربية، وهى الموروث العربى الخالص، والموروث الإسلامى، والموروث الفارسى، والموروث اليونانى، والموروث الصوفى، وهو يدعو إلى استفادة الفكر الأخلاقى العربى من هذه الموروثات جميعها كى يواكب عصره.

■■■

المثاقفة بين العروبة والإسلام

مجموعة من المستشرقين

دمشق: دار الجندى، ٢٠٠٠

لعب المستشرقون دورًا غير منكور فى الثقافة والفكر العربى الحديثين، البعض ثمّن هذا الدور غاليًا، وآخرون رأوه مؤامرة للنيل من الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة، هذه المجموعة من الدراسات تلقى أضواءً على نشوء الثقافة العربية فى القرون الوسطى.

■■■

المعرفة الإسلامية والعولمة

إدريس الخرشاف

الرباط: منشورات الزمن، ٢٠٠٠

محاولة لإبراز ما يمكن أن تسهم به العلوم الإسلامية فى زمن العولمة والإنترنت، ردًا على الادعاء بأن هذه العلوم لا صلة لها بعلوم العصر وتقنياته.

■■■

اليوتوبيا والجحيم

نبيل عبد الفتاح

القاهرة: المركز القومى للدراسات الاجتماعية، ٢٠٠١

تبدو العولمة فى تجلياتها الإيجابية يوتوبيا، تعد بالرفاهة والثراء والاستحواذ والتواصل الذى لا يعرف حدودًا، لكن هذه اليوتوبيا ليست صحيحة على إطلاقها فثمة ما يشقى ويؤلم فى هذه المرحلة من

مراحل التطور الإنساني، وأكثر من سيعاني من سلبيات العولمة هم شعوب العالم الثالث.

المؤلف يحدثنا عن اليوتوبيا والجحيم في ٩ فصول، أحدها يناقش الفكر المصري الحديث بين التقليد والتحديث.

■■■

دولة الإمارات العربية المتحدة.. الوطنية والهوية العربية الإسلامية

سالي فندلو

ترجمة: مركز الإمارات للدراسات

أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠١

تطرح مدارس الاستشراق عادة ما يخلخل مفاهيم الهوية، ويعكس صورة مرتبكة عن الذات في علاقتها بالآخر، هذه الدراسة تصحح تلك المفاهيم، وتقدم تصورات عن الهوية والذات الوطنية في علاقتها بمحيطها العربي الإسلامي من خلال قراءة للتاريخ وللواقع العملي معًا.

■■■

نبض الأشياء الضائعة

شريف حتاتة

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

صور صيغت بطريقة أدبية وبحساسية تعبيرية رفيعة لعشرات القضايا والمشكلات التي تواجهنا في حياتنا، والكاتب صاحب تجربة ثرية ضمن الحركة اليسارية العربية، وصاحب مواقف دفع ثمنها باكرًا ولايزال.

فنــــون

Gary Cooper: American Hero

(جاري كوبر: بطل أمريكي)

Jeffrey Meyers

Robert Hale, 2001, 384pp.

مثل جاري كوبر في أكثر من تسعين فيلمًا سينمائيًا على مدى ٣٦ عامًا من الحياة المهنية. وقد ولد جاري كوبر عام ١٩٠١ لأبوين إنجليزيين وسافر إلى إنجلترا لإتمام دراسته، ثم بدأت نجوميته عام ١٩٢٧ في الفيلم الصامت «أجنحة» الذي كان أول فيلم يفوز بجائزة أوسكار.

يقوم المؤلف في هذا الكتاب بإبراز شخصية جاري كوبر في حياته الخاصة وشخصيته في حياته السينمائية. حيث ظل لفترة طويلة يقدم نموذج بطل الغرب الأمريكي، ثم تنوعت أدواره بعد ذلك. ويتحدث المؤلف عن أبرع أدواره في أفلام «الظهيرة»، و«جون دو»، و«مستر ريدز يذهب إلى المدينة»، و«موروكو»، و«الحب بعد الظهر». كما يتحدث عن حياته الشخصية، التي اتسمت بتعدد علاقاته الغرامية رغم زواجه المستقر الذي دام ٣٠ عامًا حتى وفاته عام ١٩٦١. حيث أقام علاقات مع معظم الممثلات اللاتي مثلن معه، مثل مارلين ديتريش، وكارول لومبارد، وانجريد برجمان، وجريس كيلي، وآنيا اجبرج. وقد قام جاري كوبر في نهاية حياته باعتناق المذهب الكاثوليكي، وربطته

هواية الصيد بعلاقة صداقة وثيقة بالكاتب الأمريكي «إرنست همنجواي».

■■■

Reflections On Baroque

(أفكار عن الباروك)

Robert Harbison

Reaktion, 2001, 264pp., £19.95

يقوم المؤلف بتوسيع مفهوم الباروك بالحديث عن مختلف أنواع الفنون المعاصرة التي تحمل سمات الباروكية. والباروك أسلوب فني ومعماري تطور في أوروبا في القرن السابع عشر. وهو يتميز بالزخارف الجريئة والغريبة أحيانًا التي تضم أشكالًا ملتوية ولا متساوية، ولكنها منسجمة في مجملها. ذلك في العمارة، أما في الأدب، فتتميز الباروكية بالتعقيد وبالإفراط في الصور الغريبة الغامضة.

يبين المؤلف أن الفن الحداثي في القرن العشرين، يمثل الامتداد الطبيعي لعصر الباروك في القرن السابع عشر.

فلسفة

عبد الرحمن بدوي.. فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام

سعيد اللاوندي

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١

أثار كتاب بدوي الصادر في العام الماضي ضجة كبيرة، فقد ألقى الفيلسوف الوجودي بسهامه في كل اتجاه، ولم ينج أحد من طعانه، مفكرو عصره جميعًا وحتى الساسة الذين تعامل معهم والذين لم يتعاملوا معه.

المؤلف يقدم الجانب الآخر في حياة عبد الرحمن بدوي، ويعرض لبعض معاركه الفكرية مع فلاسفة ومفكري عصره.

■■■

من النقل إلى الإبداع

حسن حنفي

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

يتعرض المؤلف لموقف الموروث الفلسفي العربي من الحكمة اليونانية والرومانية وكذلك الهندية والآسيوية، وكيف أمكن للعرب الاستفادة منها، ويتناول بشكل مفصل الحكمة الإسلامية وكيفية معالجتها لإشكالية الوافد والموروث وتطوير آلياتها بما يحقق الإبداع.

قــراءة

العلاج بالقراءة

شعبان خليفة

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

عن تاريخ ومبادئ العلاج بالقراءة، والعلاج في المستشفيات والمؤسسات الخاصة، ومؤسسات العقاب الجماعي، ومؤسسات الإصلاح، وكيف يمكن أن يكون العلاج بالقراءة وسيلة ناجحة في هذا الإطار، ويشير المؤلف بوجه خاص إلى

العلاج بالقرآن والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية وكتب السلوك والشعر وغيرها.

■■■

Speed Reading

(القراءة السريعة)

Tony Buzan

BBC Consumer Pub., 2000, 223pp.,

يقدم معلومات ونصائح عن كيفية التمرس على القراءة السريعة بكفاءة، مبينًا فوائدها العديدة. كما يقدم معلومات حول آخر الاكتشافات الطبية والعلمية عن حدود ميكانزمات الذاكرة المخية.

للأطفـــال

لماذا يحل الظلام؟

تاهنا صوفي

ترجمة: محمد أمين سليمان

القاهرة: دار سفير، ٢٠٠١

جزء جديد من سلسلة «لماذا» التي ترد على استفسارات الأطفال وأسئلتهم عن الكون والحياة، وهذا الكتاب يرد على سؤال عن حلول الظلام وأسبابه، وحركة الأرض حول الشمس، وحركة النجوم والمجموعة الشمسية وحركة المذنبات وتأثيرها على الأرض.

■■■

The New Faber Book of Children's Verse

(كتاب فابر الجديد لقصائد الأطفال)

Mathew Sweeny (editor)

Sarah Fanilli (illustrator)

Faber, 2001, £16.99

(للأطفال من سن التاسعة إلى سن الخامسة عشرة).

طبعة محدثة ومزيدة من الكتاب الذي أصدرته «فابر» عام ١٩٥٣ ويضم مختارات متنوعة من القصائد للأطفال. يحتوي الكتاب على قصائد للشعراء القدامى المفضلين مثل روبرت لويس ستيفنسون ووالتر دولامار وكريستينا روسيتي، إلى جانب قصائد أخرى لشعراء حديثين مثل سيمون أرميتاج وسيموس هيني وغيرهما.

أغلب القصائد لم تكتب أصلًا للأطفال وإنما قصائد عامة، ولكن اختيارها من جانب المحرر للأطفال يعود إلى سهولتها وموضوعاتها الجذابة وما تحتويه من موسيقى محببة أو أقصوصة صغيرة أو طرفة.

نقــــد

الأدب العربي والعالمية

مجموعة من النقاد

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

بحوث أدبية قُدِّمت في المؤتمر الذي أقامته لجنة الدراسات بالمجلس، يتحاور فيه الباحثون حول كيفية تجاوز أدبنا العربي واقعه وعبوره إلى العالمية، ويدللون على نقاط تماس بين الأدب العربي والأدب العالمي سواء في أعمال أديب نوبل نجيب محفوظ أو سواه من الأدباء العرب الذين ترجمت أعمالهم إلى لغات أجنبية.

■■■

تقاسيم نقدية

زينب العسال

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١

دراسة لعدد من الأعمال الأدبية المميزة، تستفيد فيها المؤلفة من المناهج النقدية الحديثة، فضلًا عن إفادتها من الدراسات السوسيولوجية والاجتماعية التي قام بها باحثون عرب وأجانب، وبين ما تدرسه «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، ورواية «الجبل» لفتحي غانم، و«ارتحالات اللؤلؤ» لنعمات البحيري.. وغيرها.

■■■

جغرافية الشعراء

أنماري شميل

لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠١

نجح الشعراء القدامى في تقديم صورة واضحة عن بيئتهم الطبيعية، من تلال وجبال وصخور وأنهار ووديان، والمؤلف يتناول هذه القدرة والموهبة الفذة على التصوير الطبيعي للكون والناس.

■■■

دراسات جدية العروض بالشعر الشعبي الكويتي

عبد الرزاق العدساني

الكويت: المؤلف نفسه، ٢٠٠٠

يؤرخ المؤلف لحالة الشعر العامي الكويتي على مدى ١٥٠ عامًا، وكيف واكب هذا الشعر التحولات التي شهدتها الكويت طوال هذه الفترة.

■■■

شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي

دان أوريان

ترجمة: محمد أحمد صالح

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

تبدَّلت صورة العربي في المسرح الإسرائيلي تبعًا لمراحل الصراع ذاته، فالعربي ما قبل النكبة هو بدوي جاهل لا صلة له بما يجري حوله في العالم، وهو في الستينيات شخص ذليل مكسور لا يصلح إلا لممارسة الحقير من الأعمال، وفي المرحلة الأخيرة هو متطرف إرهابي ضد السامية، هذه هي صور العربي المختلفة التي تعكس الذهنية الإسرائيلية وتصوراتها عن العرب.

■■■

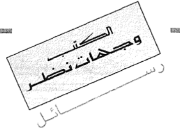
The Strength of Poetry

(قوة الشعر)

James Fenton

Farrar, Straus and Giroux, 2001, 276pp.

مجموعة من محاضرات أستاذ الشعر السابق بجامعة أوكسفورد، تتركز كل منها على حياة شاعر بالتحديد، وعلاقة آلامه ومعاناته بالأشعار التي أنتجها.



عــــادل حســـين.. تأبــين ظــــالـم ورد اعتبـــــار لازم

كــتــبت كــريــســتــيــنا أودون فى «الأوبزرفـر» تنتـقـد ثلاثة من «قـلاع الليبرالية» فى بريطانيا الذين يفاخرون بإسلاموفوبيتهم، ويقرون بعجزهم عن كبح جماحها. وتقول أودون أن التحامل والتحيز كلمات كريهة عند الليبراليين إلا عندما يتعلق الأمر بالإسلام.

يبدو لى أن ما يعانيه «الليبراليون» الإنجليز الكارهون للإسلام لا يختلف فى جوهره عما يعانيه «المتنورون» المصريون المناهضون للوسطية الإسلامية، حيث يكمن الاختلاف بين الفريقين فى المسمى: عنصرية دينية وأخرى فكرية، تسعى كل منهما إلى نفى وتهميش الآخر، إما بتجاهل وجوده والاستخفاف بحقوقه أو بتسفيه فكرته وتشويه سمعته. والمؤسف أنه فى بعض الأحيان يتورط أعضاء الفصيل المصرى فى الهجوم على الخصم الإسلامى رغم علمهم أنه لا يملك الدفاع عن نفسه ودحض ما يوجه إليه من افتراءات، إما لأنه رحل عن الدنيا أو لأنه محظور عليه الوصول لأى من المنابر التى يُشهر به على صفحاتها، والأمثلة على ذلك عديدة، كان آخرها مقال د. رءوف عباس فى عدد مايو ٢٠٠١ من مجلة «وجهات نظر» الذى أبّن فيه المفكر الإسلامى الراحل عادل حسين، الأمين العام السابق لحزب العمل.

ولكن قبل مناقشة هذا المقال تجدر الإشارة إلى عدم توفيق محرر المجلة فى جمع مقالىَ رءوف عباس عن عادل حسين، وأمينة شفيق عن المصرى اليهودى الراحل شحاتة هارون، تحت مقدمة واحدة. ولا أجد تفسيرًا لهذا الجمع سوى اعتقاد المحرر بأن عدد المجلة قد يفتقد التوازن إذا تم تأبين إحدى الشخصيتين دون الأخرى، وأنه لإحداث هذا التوازن، لا بد من الجمع بين الإسلامى والماركسى بغض النظر عن أنه لا يوجد أساس للمقارنة بينهما سوى ما يشاركهما فيه عشرات الملايين من البشر: المصرية والوطنية. إذن التوازن لا يتحقق بالصورة التى شاهدناها فى عدد مايو، وإنما يتحقق بالتناول الموضوعى للشخصيتين دون الربط بينهما، وهو ما لم يتأت للأسباب التالية:

أولاً: من حيث الشكل لم يكن أى من الكاتبين موضوعيًا فى تناول الشخصية محل التقييم، حيث ظهر شحاتة هارون فى صورة ملاك، بينما ظهر عادل حسين فى صورة انتهازى منافق، كما سيأتى تفصيله. وبينما اهتمت أمينة شفيق بالتركيز على محاسن شحاتة هارون والاحتفاء بيهوديته، عمد رءوفَ عباس إلى تضخيم مساوئ عادل حسين والادعاء عليه بغير دليل والازدراء بإسلاميته. لم ينتبه المحرر أيضًا إلى أن تابين شحاتة هارون جرى بقلم من تنتمى إلى فصيله الفكرى والسياسى، بينما تابين عادل حسين جرى بقلم من يناهضه فكرًا وسياسة. وإذا جاز لنا أن نفاضل بين لاموضوعية أمينة شفيق ولاموضوعية رءوف عباس، فلا جدال حول تفضيل الأولى على أساس أن اعتبارات اللياقة، التى تفرضها الأعراف السائدة فيما يخص احترام الأموات، تقضى بإمكانية التجاوز عن المبالغة فى المحاسن، وتستنكر التركيز على المساوئ فضلاً عن المبالغة فيها.

ثانيًا: من حيث المضمون، فلا أحد ينكر شجاعة شحاتة هارون فى التمسك بمصريته، غير أنه عدا ذلك لم نسمع أنه كانت له إسهامات فكرية أو سياسية يمكن أن تُقارن بإسهامات عادل حسين. والمحرر يناقض نفسه عندما يقول فى المقدمة أن الرأى العام «لم يعرف الكثير عن شحاتة هارون»، ومع ذلك يصفه بأنه شخصية «تركت بصماتها على الحياة العامة فى مصر». الواقع أنه على نقيض عادل حسين، لم يكن لشحاتة هارون صوت مسموع ضد الصهيونية. والمعروف أن أقوى الكتابات المناهضة للصهيونية كتبها يهود من أمثال نوام تشومسكى والحاخام إلمر برجر وألفريد ليلينتال. كان عادل حسين إذن مثقفًا ومفكرًا همه الأول قضية الاستقلال الوطنى، بينما كان شحاتة هارون مواطنًا عاديًا همه الوحيد استقلاله الذاتى.

أما رءوف عباس فقد اتسم مقاله بتغليب تحيزاته وأحكامه المسبقة إزاء انتماء عادل حسين الإسلامى. لقد كان عادل حسين شخصية عامة مؤثرة فى محيطها، وبالتالى فإن تقييمًا موضوعيًا لمساوئه قبل محاسنه أمر لا مفر منه، ولا اعتراض عليه، إنما يثور الاعتراض عندما تقترب الوسيلة التى يجرى بها تناول هذه المساوئ من حد التشهير، فالبون شاسع بين التعامل مع المساوئ بإنصاف وحيدة وبين استغلالها للتشكيك فى سمعة الشخصية ونزاهتها. إن أسلوب عادل حسين الخطابى الذى وصفه عباس بالديماجوجية التى تدغدغ عواطف الجماهير - ما يعنى أننا بصدد شخصية انتهازية هدفها تحقيق مكاسب ذاتية عن طريق التلاعب بعقول البسطاء وتضليلها - يمكن أن يصفه المراقب المحايد بأنه أسلوب مفرط فى عاطفته الوطنية، مندفع للذود عن البلد مما يتربص به من أخطار. وحتى فيما يتعلق بأهم أخطاء عادل حسين، وهى الخاصة بتعامله مع كارثة غزو العراق للكويت وموقفه فيما بعد من صدام، فلا يستطيع المحلل المنصف أن يخلص من هذه الأخطاء إلى التشكيك فى نزاهة دوافع عادل حسين أو طهارة غاياته، إن الإنسان لا يعيبه أن يتطرف فى القلق والحرص على سلامة واستقرار وطنه والدفاع عن هويته، حتى وإن أدى هذا التطرف المحمود إلى الوقوع فى خطأ، مادام الخطأ لا يقترن بظلم للآخرين أو انتهاك لحقوق وحريات إنسانية. لقد كان عادل حسين يجتهد فيصيب أحيانًا ويخطئ أحيانًا أخرى. أما ما يعيب بحق، فهو أن يدّعى إنسان على آخر بما ليس فيه.

لم يكن من الكياسة مثلاً أن يقحم عباس على مقاله وقائع يبدو سردها وكان الهدف منه هو تبرير اتهام عادل حسين بالتطرف، فضلاً عن انه يصعب التحقق من دقتها، مثل زعمه أن «أحد الإخوان المسلمين انتقد مقولة عادل حسين (عن ندمه على إضاعة ثلاثين عامًا فى فكر رث) فى حديث جانبى «وأبدى مخاوفه من هذا التطرف. أيضًا يستحيل التحقق من صحة الزعم بأن جماعات الإرهاب ضُبطت معها كتابات عادل حسين، وهو الزعم الذى كان ومازال يستهدف تلبيس تهمة التطرف لمن لم يُمكن من - ولا يملك الآن - ردها عن نفسه، وبالذات عندما تكون «الجماهير التى يسعى عادل حسين للاستقواء بها هى الجماعات الإسلامية ذات الأجنحة الإرهابية».

لقد تكررت غير مرة فى مقال عباس اتهامات التطرف والديماجوجية ودغدغة العواطف والسعى لحشد الجماهير، وكأن هذا الإيحاء بالانتهازية لا يكفى، فقد تمادى الكاتب إلى التلميح إلى نفاق عادل حسين وافتقاده للأمانة العلمية، حيث زعم أن الراحل «كانت لديه قدرة فائقة على الجمع بين الأضداد»، لأنه يطرح - على حد قول الكاتب - أفكارًا فى صالون ثقافى تتناقض مع ما يتبناه على صفحات جريدة (الشعب) من «أكثر اتجاهات التيار الإسلامى تطرفًا»، ثم يكرر «شتان بين أطروحاته الفكرية فى الصالون وبين أسلوبه الديماجوجى فى (الشعب)». ولا أظن أن أحدًا ممن خالطوا عادل حسين وعرفوه حق المعرفة يمكن أن يقتنع للحظة أنه كان يتكلم فى الجلسات الخاصة بما يتناقض مع إسلاميته، أو يقتنع للحظة أنه كان يستشهد فى كتاباته بمراجع «لم يطلع على أى منها»، أو يقتنع للحظة أنه كان «ينفى كل ما هو غربى ويشكك فى صلاحية الفكر الغربى على اختلاف توجهاته». كلها اتهامات أطلقها عباس بلا دليل ولا سند سوى ما تمليه أهواؤه هو. والمؤكد أن عادل حسين لم يكن بهذه الصورة البائسة التى حاول رءوف عباس أن يطبعها فى ذهن القارئ.

يبقى رأى الكاتب أن عادل حسين ظل «تاثره عميقًا بالفكر الماركسى» حتى بعد تحوله إلى الإسلامية، وهو رأى يختلف معه المستشار طارق البشرى الذى ربطته بعادل حسين صداقة وطيدة وتقارب فكرى داما ٣٥ عامًا، فقد نشرت صحيفة «أخبار الأدب» فى مارس الماضى مقالاً للمستشار البشرى يقول فيه إن «عادل لم يكن ماركسيًا بالمعنى الذى يتبادر فهمه، والماركسية بالنسبة له كانت مجرد تجربة فكرية يمر بها، وأداة من أدوات التحليل السياسى للأوضاع السياسية والاجتماعية دون أن تكون نظرية يؤمن بها ومذهبًا ينتمى إليه»، وانطلاقًا من هذه الخلفية يخلص البشرى إلى أن تحول عادل حسين إلى الحركة الإسلامية «لم يكن ذهابًا بقدر ما كان عودة.. فالتقارب كان قائمًا فى الثلاثينيات بين الإخوان المسلمين ورموز تيار الحزب الوطنى ومصر الفتاة، وفى عام ١٩٤٦ تشكلت «الجبهة القومية» من الإخوان ومصر الفتاة والحزب الوطنى».

يعنى كلام المستشار البشرى أن تغيير اسم حزب مصر الفتاة إلى «الحزب الوطنى الإسلامى» لم يكن أمرًا شاذًا ولا تزلفا لجمهور الإخوان كما يزعم رءوف عباس، وإنما تدعيم لتيار الحركة الإسلامية. وكذلك لم يكن تغيير الاسم إلى (الحزب الاشتراكى) مسايرًا للتيار السائد فى تلك الفترة الذى كان يتحرى توليف الاشتراكية بالإسلامية، وهو ما جسدته على سبيل المثال كتابات سيد قطب ومحمد الغزالى عن العدالة الاجتماعية و«الإسلام بين الرأسمالية والاشتراكية». إن تغيير اسم الحزب وتعديل برنامجه هما تعبير عن ديناميكية قد يتطلبها العمل السياسى لتنشيط حيويته من أجل مواجهة ما يستجد من متغيرات محلية وإقليمية، وهى لا تختلف عن ديناميكية عادل حسين بـ«عودته» إلى الفكر الإسلامى. هذه الديناميكية لم تشكل مأزقًا لعادل حسين فى حياته على عكس ما يزعم الكاتب فى عنوان مقاله «مأزق مثقف وطنى»، وإنما الواضح أنها تسببت فى مأزق لرءوف عباس عندما أيدها بقوله «كان أبرز ما يمتاز به عادل حسين ديناميكيته»، ثم هاجمها فى المقال نفسه.

صلاح عز
أستاذ بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

** حرصت «وجهات نظر» على نشر نص الرسالة «كاملاً» للتأكيد و«التذكير» بموقف ثابت أعلنته مرارًا يتمثل فى الحرص على نشر «رأى الكاتب» دونما أن يكون بالضرورة متوافقًا مع رأى القائمين على تلك المجلة.

ورغم أن القاعدة المهنية تقضى أن تُطلع المجلة كتابها على ما يرد لها من تعلَيقات على مقالاتهم ليعقبوا عليها، استكمالاً للفائدة المرجوة من تبادل الرأى فضلاً عن «تباينه»، إلا أننا ارتأينا هذه المرة الخروج عن القاعدة، تلافيًا لفتح باب «مجادلة لا تنفع».

وعلى أية حال فربما تنفع هنا الإشارة إلى عدة نقاط حكمت تناول المجلة للمقال - أو بالأحرى - للمقالين محل التعقيب.

١ - لم يكن الربط بين المقالين لأسباب سياسية «أو مقارنة» وإنما لأسباب مهنية



بحتة. وهو الأمر الذى أشارت إليه مقدمة المحرر بوضوح حينما ذكرت أن «لا شيء يربط هاتين الشخصيتين... إلا أنهما عرفا طريقهما إلى حزب مصر الفتاة فى أوائل تفتحهما على العمل السياسى...».

٢. لم يكن مقال د. عباس «تأبينًا» لعادل حسين. كما لم يكن التأبين فى الأصل قصدًا لمثل هذا المقال، ولا مناسبًا لمثل تلك المجلة. وإنما كان المقال «دراسة تحليلية» لأستاذ فى التاريخ المعاصر عن «عادل حسين، الشقيق الأصغر لأحمد حسين». والشخصيتان الراديكاليتان بقدر ما أثارتا من حركة لا يمكن تجاهلها فى الحياة السياسية المعاصرة، بقدر ما أوجدا جدلاً لا يصح إغفاله.

٣. كان لاختيار كاتبى المقالين أيضًا أسبابه المهنية التى لا علاقة لها بانتماءاتهما الفكرية والسياسية. فعائلة حسين ذات التاريخ السياسى كتب عنها أستاذ متخصص فى الموضوع. وشحاتة هارون، الشخصية «المجهولة» لدى الكثيرين، والذى كانت له تجربته «الإنسانية» فى العيش متفاعلاً مع محيط رافض له، كتبت عن «محاولته الإنسانية» صحفية قُدر لها أن تقترب منه بقدر يسمح لها بالكتابة عنه «احتفاء بمصريته رغم يهوديته» لا العكس.

٤. تحرص «وجهات نظر» فى كل الأحوال ألا تستبق قراءتها لإسهامات كتابها تصنيفات فكرية أو سياسية راجت بين الناس، ويعتقد القائمون عليها أن «الخطوط الفاصلة» ينبغى أن تكون أفقية بين جيد ورديء لا رأسية بين اتجاه وآخر.

المحرر



الحمى القلاعية والإيدز

تعليقًا على مقال «أمراض الحيوان تهدد صحة الإنسان» فى عدد أبريل الماضى من المجلة أود إبداء ما يلى:

إن من القواعد الطبية المعروفة أن كل جهاز بالجسم مهيأ لعمله بصورة فسيولوجية، أى حسب ظروف معيشته الطبيعية التى يعيش فيها وعاش فيها أجداده منذ آلاف السنين. فالبقر جسمه مهيأ للمراعى حيث الشمس المشرقة والهواء الطلق والحشائش الخضراء وما شابه ذلك والماء العذب النظيف أو العلف الجاف المكون من الفول والشعير وما إلى ذلك، وعادة يأكله الحيوان ليلاً مع التبن وهى الأعواد الجافة للقمح والشعير بعد تكسيرها إلى قطع صغيرة. وعلى هذا الأساس ففى محطات تسمين وتربية البقر تعيش هذه الحيوانات تحت ظروف لا تلائم الأجهزة البديعة لجسمها، فهى تعيش بعيدًا عن الشمس والهواء الطلق ويقدم لها غذاء من بقايا الحيوانات المذبوحة أو مواد عضوية حيوانية وهى لم تتعود إلا على المواد النباتية فقط سواء كانت حشائش أو حبوبًا.

وفى هذه الأحوال تنخفض درجة المناعة ومقاومة الأمراض المعدية إلى درجة خطيرة، فالمرض الذى يسهل علاجه فى الأحوال الطبيعية يصبح مرضًا خبيثًا لأن الإنسان بدافع من جشعه وحبه فى الثراء السريع يجبر هذه الأنعام على حياة غير صحية. هذا بالإضافة إلى ما يضاف إلى هذا العلف غير الصحى من هرمونات أو بحقنها بهذه الهرمونات التى تدمر جهاز المناعة فى جسمها - لا ننسى أن من أهم مكونات جهاز المناعة فى الجسم هو الجلد والإقامة فى مكان بعيد عن الشمس يضعف الجلد. ولهذه الأسباب انتشرت الحمى القلاعية التى أصبحت وباء رهيبًا. وهذه هى إحدى عيوب التكنولوجيا المقترنة بالجشع. ولذلك بدأت هذه الأمراض فى البلاد المتقدمة كدول أوروبا. ولنفس الأسباب التى ذكرناها وهى سوء استخدام أجهزة الجسم، ظهر مرض الإيدز. فقد ظهر هذا المرض فى نوادى الشذوذ الجنسى فى أمريكا بلد التكنولوجيا، فهى منبع المرض وليس أفريقيا كما يدعون. ففى هذه النوادى انتشرت أمراض كان من السهل السيطرة عليها كالدرن الرئوى والإسهال والالتهابات الصدرية وكل هذا بسبب سوء استخدام أجهزة الجسم وبالأخص الجهاز التناسلى، ولذلك لم يستطع الأطباء علاج هذه الأمراض.

ولقد كنا ننتظر أن يعلن الأطباء البيطريون فى إنجلترا أن فيروس الإيدز انتقل إلى البقر ودمر جهازه المناعى وذلك للتشابه بين هذه المواشى والشواذ فى سوء استخدام أجهزة الجسم، وهذا هو السبب فى عدم السيطرة على الوباء الرهيب الحمى القلاعية.

د. عمران البشلاوى
معهد أبحاث المناطق الحارة
القاهرة



تعقيب:

تعليقًا على ما جاء فى باب «رسائل» فى عدد أبريل ٢٠٠١ من مجلة «الكتب وجهات نظر» أرجو التكرم بنشر التعقيب التالى:

أشكر الأستاذ محمد السمنودى المحكم المعتمد لدى غرفة التحكيم الدولية فى باريس على ملاحظته المندرجة فى عدد أبريل من مجلة «الكتب: وجهات نظر» التى نبهنى فيها إلى أن رئيس هيئة التحكيم يطلق عليه عادة صفة Umpire، وهو ما لم أكن أجهله بعد ستين عامًا من العمل فى الترجمة. ولكن البروفيسور جورج ساوسرهول رئيس هيئة التحكيم فى نزاع أرامكو/ السعودية آثر أن يصف نفسه بـ Referee حسب صورة غلاف قرار التحكيم. ولعله اختار أن يطلق على نفسه صفة Referee المستخدمة فى مباريات الكرة لأن النزاع المذكور أريد له أن يكون نزاعًا وديًا خلوًا من لدد الخصومة وكأنه مباراة رياضية بين طرفين.

وديع فلسطين



عبد الرزاق السنهورى

أود أن أعرب عن مدى الاحترام والتقدير الذى أحمله لمجلتكم الغراء بما تحتويه من أفكار مدروسة، ومقالات موزونة تشكل تحديًا للعقل العربى التقليدى، وبادرة أمل عظيمة نحو مستقبل مشرق لأمتنا العربية أساسه العلم والثقافة.

وقد وقع فى يدى العدد الحادى والعشرون، أكتوبر ٢٠٠٠ من مجلتكم الراقية، وتحت عنوان «كتاب الزاوية»، كُتب عن العلامة المرحوم عبد الرزاق السَنهورى، وأرجو أن تتكرموا علىّ وتسمحوا لى بإبداء التالى:

١- أن العلامة السنهورى لم يكن فقيهًا دستوريًا فقط، بل هو عالم وفقيه فى القانون بصفة عامة، وبالقانون المدنى بصفة خاصة، فقد قام - رحمه الله - بوضع القانون المدنى العراقى والسورى وقانون الالتزامات الكويتى بالإضافة إلى القانون المدنى المصرى وشرحه فى موسوعته الخالدة بعنوان «الوسيط فى شرح القانون المدنى».

٢- أن وفاة العلامة السنهورى كانت يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٧١م، وليست كما ورد فى مجلتكم الغراء أغسطس ١٩٦٩م. (لطفًا، انظر فى ذلك كتاب عبد الرزاق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية، إعداد د. نادية السنهورى ود. توفيق الشاوى، ص ٣٢٤. وكذلك كتاب نجوم المحاماة فى مصر وأوروبا، للمستشار عبد الحليم الجندى، عن دار المعارف ص ١٥٨، وكذلك مجلة إدارة قضايا الدولة، يونيه ١٩٨٩ ص ١١).

هانى محمد على اللوبانى
المملكة الأردنية الهاشمية - عمان

* القارئ الكريم على حق، فالفقيه الدستورى عبد الرزاق السنهورى توفى بالفعل فى ٢١ يونيو ١٩٧١، وليس فى أغسطس ١٩٦٩، كما ذكرت المجلة، وسبب اللبس ما جاء فى مقدمة الدكتور توفيق الشادى لكتابه «عبد الرزاق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية» من أن حياة السنهورى انتهت فى أغسطس ١٩٦٩، عندما «توقفت يده عن الكتابة بسبب مرضه الذى أدى إلى وفاته» ولعل الدكتور الشادى كان يعنى توقف الحياة العملية للفقيد. ومن هنا جاء اللبس.

المحرر

ومــــاذا عـن الفـن التلقـائى المصـرى؟

امتعنى المقال/ الدراسة حول الفن التلقائى وإبداع اللاوعى للأستاذ/ حسام الدين زكريا بالعدد (٢٨) مايو ٢٠٠١، خاصة إبراز الفرق بين الفن التلقائى والفن الشعبى، ثم فكرة ظهور الحداثة من رحم الفن التلقائى. بالإضافة للجهد الفائق فى تقديم بانوراما شاملة لمسيرة هذا الفن وارتباطه بإبداع اللاوعى عند الفنان.

وكم تمنيت لو أضيف جزء خاص عن فنانى مصر التلقائيين، ومدى انتشار هذا الفن الجميل فى الأشكال الفنية المتعددة، فلدينا مدرسة ويصا واصف بالحرانية لإنتاج السجاد والكليم، ومدرسة إيفلين فى الفيوم لفن الفخار، ورسوم أطفال أخميم بمحافظة سوهاج وأعمال أطفال جمعية الصعيد من المنتجات الخشبية ومنسوجات قرية «حجازة».

ومن كبار الفنانين التلقائيين، الفنان حسن الشرق، الذى أبدع فى إعادة تصوير السيرة الهلالية، وأخرج من أعماقه مجموعة من الرسوم التى تعبر عن أشكال الحياة المختلفة فى قريته «زاوية سلطان» بمحافظة المنيا.. لقد صور حال المرأة وواقع حياة الرجال، وعلاقة الإنسان بالمكان والزمان وانتقل فى طوره الأخير لتناول قضايا أكثر تعقيدًا مثل العلاقة مع الكون وما وراء الأشياء.

تقع زاوية سلطان التى ولد بها حسن الشرق فى حضن الجبل الغربى على النيل، وبها قبر الإمام القرطبى صاحب المسجد الشهير بإسبانيا، ويتجاور الموت مع الحياة فى كل درب من دروب القرية، لأن الأهالى يبنون مقابرهم ملاصقة لدورهم السكنية، وكان لافتًا للنظر مهنة حسن نفسها، فلقد نشأ جزارًا ومن عائلة تمتهن الجزارة عن بكرة أبيها، ولكنه عاف تلك المهنة واتجه بكليته نحو الريشة والألوان ليرسم ويرسم مسحورًا بالأجواء والبيئة المحيطة به.

لم يهتم بفن حسن التلقائى سوى فنانة ألمانية زارته فى قريته وأقامت له معرضًا بمتحف حسن رجب للبرديات، ثم معرضًا ثانيًا بمدينة «شتوتجارت الألمانية» عام ١٩٨٨.

وبعدها بدأ العالم الخارجى فى التعرف على إبداعات هذا الفنان التلقائى. وأقيمت له معارض بفرنسا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية وأخيرًا بكولومبيا فى قارة أمريكا اللاتينية. ولحسن الحظ أن دار الأوبرا المصرية اهتمت بفنه واقتنت لوحة له وتبعتها مكتبة المخطوطات بكلية «الدراسات العربية - جامعة المنيا» وأيضا قصر ثقافة محافظة المنيا.

عمرو كمال حمودة
كاتب وباحث - القاهرة

نون

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية: مجتمع المعرفة وأسئلة المستقبل

«مجتمع المعرفة» هو المفهوم الحديث لتيار التقدم فى عالمنا المعاصر. وهو التيار الذى تحكمه عولمة الاقتصاد من ناحية وثورة المعلومات والاتصالات من ناحية أخرى.

ولئن كانت البشرية قد عرفت مجتمعات المعرفة بدرجات متفاوتة منذ فجر الحضارة، إلا أن الفرق بين القديم والحديث، هو فرق السرعة التى يتم بها تراكم المعرفة ومدى تأثيرها على مجتمعاتها. ومثل هذه السرعة لا تتحقق بدون نظام لجمعها وحفظها وتداولها، بما يكفل درجة عالية من التوثيق والتواصل التاريخى، الذى ينقل المعارف الإنسانية من مرحلة أدنى إلى مرحلة أرقى، ومن دورة حضارية سابقة إلى دورة حضارية تالية.

ويثبت التاريخ أن من أول النظم التى عرفتها الحضارات الإنسانية وأكثرها رسوخًا ذلك النظام الذى نشأ فى أحضان الحضارة المتوسطية، وبالذات على شواطىء الإسكندرية، فى ظل معاهدها ومدارسها ومكتبتها التاريخية الشهيرة.

ومن هنا فحين تعيد مصر فى أيامنا هذه بعد أكثر من ٢٣ قرنًا إحياء مكتبة الإسكندرية، فإنها تتطلع بذلك ـ فيما يبدو ـ إلى إحياء «مجتمع المعرفة» الذى نشأ على ضفاف البحر المتوسط فى تلك الأزمنة البعيدة. بكل ما حفل به من تزاوج بين الحضارة الفرعونية القديمة والحضارة الهللينية الوافدة.. بين تراث الإسكندر الأكبر الذى سميت المدينة باسمه، وتوّجه الكهنة المصريون حاكمًا بعد أن اعتنق دينهم، فى أحد معابد آمون فى سيوة فى الصحراء الغربية، وبين الإنجازات العلمية التى تحققت فى عهد البطالمة.. بين الدولة الزراعية والدولة البحرية.. بين اللغات الفرعونية والديموطيقية الآخذة حينذاك فى الانقراض وبين اللغة اليونانية ثم القبطية.. بين تراث البحر المتوسط وتراث الشرق البعيد من الهند وفارس.. بين صلوات الكهنة وتراتيلهم وفنونهم وأساطيرهم الدينية التى نقشت على جدران المعابد الفرعونية وبين الآداب والملاحم وعلوم الطب والرياضيات اليونانية.



كثيرة هى القصص والألغاز التى تدور حول مكتبة الإسكندرية القديمة ويتفق المؤرخون تقريبًا على نشأتها الأولى، لكنهم يختلفون أشد الاختلاف حول نهايتها المروعة، حين شبت ألسنة اللهب فيها وأحرقتها بما فيها من كتب ومخطوطات عن آخرها.

وما يتفق عليه المؤرخون هو أن الذى أنشأها هو بطليموس الأول سوتير (المنقذ) الذى كان جنرالاً فى جيش الإسكندر وامتد حكمه لمصر ٤٠ عامًا. وقبل وفاته بعامين شرع فى إنشاء المكتبة بناء على اقتراح من ديمتريوس فاليرا، الذى كان تلميذًا لأرسطو.. وطرد من أثينا محكومًا عليه بالإعدام بعد أن حكمها ست سنوات، وكانت فكرته تقوم أساسًا على إنشاء وجمع عدد من الكتب تكون مصدرًا للمعرفة يزود حكام الإسكندرية بما يمكنهم من الحكم والقيادة الحكيمة وتم إنشاء مكتبة الإسكندرية على غرار مكتبة أرسطو، بهدف جمع الكتب التى أنشأتها شعوب الأرض كافة. وعندما خلفه ابنه بطليموس الثانى فلاديلفوس «المحب لإخوته وأخواته» توسع فى تنفيذ الفكرة. فأضيفت إلى المكتبة قاعات الدرس والبحث والمعامل والمراصد. وفى غضون قرنين من إنشائها كانت المكتبة قد بلغت أوج مجدها وضمت مجموعة من البردى تتراوح بين ٤٠٠ ألف و ٧٠٠ ألف بردية، تشكل نحو ٣٠ ألف مصنف. ويعكف النساخ على نقل ما يصل إليهم من المخطوطات، التى أرسلت إليهم من مكتبات أخرى، ذلك أن بطليموس الأول كان قد بعث برسائل إلى عدد من الملوك والحكام، طالبًا منهم أن يعيروه مؤلفات لشعراء وخطباء وفلاسفة وأطباء وكهنة ومؤرخين. كما ألزم بطليموس الثالث جميع القادمين إلى الإسكندرية بتسليم ما لديهم من كتب إلى مكتبتها لاستنساخها.

وكان طبيعيًا فى ظل هذه النهضة الثقافية، التى جعلت من الإسكندرية مقصدًا للعلماء والدارسين من مختلف جنسيات وشعوب العالم، أن تشهد المكتبة الكبرى حركة ترجمة واسعة لمصنفات تنتمى إلى حضارات مختلفة خاضعة للعالمين اليونانى والرومانى. وطبقًا لبعض الروايات أن ما يعرف بـ«الترجمة السبعينية» للعهد القديم تمت فى هذه الحقبة، حين استقدم ستة علماء من كل قبيلة من قبائل بنى إسرائيل إلى الإسكندرية عكفوا على ترجمته إلى اليونانية.

وطبقًا لما رواه المؤرخون فلم تكن مكتبة الإسكندرية توجد فى مبنى واحد. لكنها تكونت من مكتبتين فى بنايتين مختلفتين، إحداهما كبيرة تقع فى حى القصر الملكى المطل على البحر (مكان المكتبة الحالية تقريبًا)، والأخرى أصغر منها وتقع فى حى معبد السيرابيوم. ويدهش المرء ـ فى أوائل القرن الواحد والعشرين ـ حين يعرف مدى الجهد والمال الذى تجشمه القائمون على مكتبة الإسكندرية لشراء واقتناء مجموعات جديدة، مثل مكتبة «أبوقراط» أبى الطب القديم. ومكتبة البرجامون التى أهداها أنطونيوس لكليوباترا، وهى مكتبة كان قد نهبها من المدينة البيزنطية المعروفة فى غرب تركيا.

ويعتقد د. لويس عوض فى دراسة مستفيضة عن مكتبة الإسكندرية القديمة أنها لم تكن مجرد مكتبة أو خزانة كتب بها نصف مليون مصنف.. أى مجرد مكتبة للمراجع كالمتحف البريطانى أو المكتبة القومية فى باريس أو دار الكتب المصرية.. بل كانت فى المقام الأول جامعة بالمعنى الواسع، رفيعة الشأن، فيها من العلماء والأدباء والمفكرين فى كل تخصص أعلام نابهون، جيلاً بعد جيل.. وهو ما يدعو إلى التساؤل حول ماذا يراد اليوم بمكتبة الإسكندرية الحديثة.. هل تكون مجرد خزانة ضخمة للكتب أم تكون إحياء للجامعة القديمة العظيمة، ومركز إشعاع ثقافى فى منطقة البحر المتوسط؟



أيًا كان ما ينتهى إليه قرار البناة الجدد لإحياء مكتبة الإسكندرية، فإن الحريق الذى قضى على المكتبة القديمة قبل قرون مازال لغزًا يؤرق المؤرخين. تبودلت حوله الاتهامات والادعاءات التى لا يستند معظمها إلى أدلة قاطعة وكان أقلها مدعاة للتصديق ما رددته بعض الكتابات الاستشراقية وجاراها فيه مؤرخون عرب، فى محاولة لإلصاق تهمة إحراق المكتبة بالعرب فى عهد عمرو بن العاص. لكن أقرب هذه الروايات للتصديق، هى أن المكتبة الكبرى أُحرقت على يد يوليوس قيصر عام ٤٨ ق.م عندما غزا الإسكندرية أيام حكم كليوباترا وأحرق قطع الأسطول المصرى الراسية قرب ميناء القصر الملكى، فامتدت ألسنة اللهب إلى المكتبة وأتت على ما فيها. ثم كانت الكارثة الأكبر التى تعرضت لها المكتبة الثانية فى معبد السيرابيوم عام ٣٩١م. حين حصل البطريرك ثيوفليس من القيصر ثيودوسيسوس على إذن بتدمير هذا «المعبد الوثنى»، بعدما صارت المسيحية هى الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية، وكانت تلك واحدة من أكثر الضربات التى أصابت الإنسانية بسبب التعصب الدينى.



وما علينا ولا على الذين يضيقون بطموح مصر المشروع لاستعادة دورها الثقافى والحضارى إن كان الرومان أم العرب أم المسيحيون المتعصبون هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية، فالبكاء على أطلال الماضى لن يجدى كثيرًا، وفى كل الأحوال فإن إحراق مكتبة تضم آلاف الكتب يستوى وإحراق أو إعدام كتاب واحد. وهو ما سوف يطرح على بناة مكتبة الإسكندرية الحديثة أسئلة صعبة، فلن يكون من اليسير بعد اليوم على الذين يقفون بالمرصاد لكل فكر حر، يتمرد على قيود الماضى ويثور على جمود التقليد والسير وراء القديم، أن يجدوا طريقهم للتفتيش فى رفوف المكتبة الجديدة، لينزعوا منها مالا يرضى أذواقهم ولا يستقيم مع أفهامهم ومداركهم وحدهم.

ولن يكون من اليسير ـ إذا أُريد لهذه المكتبة أن تكون مركز إشعاع حضارى حقيقى ـ أن يفرض أمناء المكتبة وصايتهم على عقول الباحثين والمفكرين لهذا الجيل أو لمن يأتى بعده من أجيال، فيمنعون كتبًا بعينها من التداول، أو يفرضون قيودًا عليها، مهما كان محتواها.

وإذا أُريد لهذه المكتبة فعلاً أن تكون نافذة مصر على العالم، أو مركزًا للحوار والتعليم فلن يكفى حديث يعاد ويزاد فيه عن الثورة الرقمية والمعلوماتية، ولا عن تكنولوجيا وسائل الاتصال والمعلومات، بدون أن نتحدث عن حرية الفكر والتعبير، والإيمان الراسخ بالمنهج العلمى، وفتح الأبواب والنوافذ أمام الروافد الثقافية المتدفقة على ضفاف البحر المتوسط، والقادمة من وراء البحار.. ليس فقط فى مجال التكنولوجيا والعلوم الحديثة، ولكن أيضًا وقبل كل شىء فى العلوم الإنسانية بفروعها المختلفة: فى الآداب والفنون والتاريخ والفلسفة والعقائد.. وهى الركائز التى تبنى عليها الحضارة، ويتحقق فى ظلها التقدم.

لن يمضى عام إلا وتفتح مكتبة الإسكندرية أبوابها. وعلينا وحدنا سوف يتوقف، أن تصبح هذه المكتبة هى الطريق الذى يقودنا إلى «مجتمع المعرفة» أو تتحول إلى مخزن أنيق للكتب.. أسئلة المستقبل لن يجيب عنها أحد سوانا.

سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر
مجلة شهرية. العدد الثلاثون. السنة الثالثة. يوليو ٢٠٠١. الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 30 - July 2001

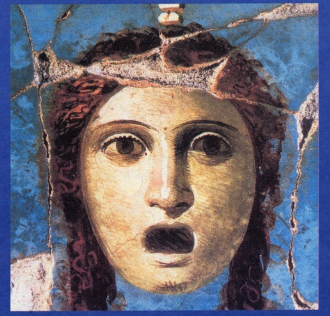
أيام وليال فى لندن
محمد حسنين هيكل



طه حسين وثورة يوليو
(رسالة لم تنشر)

سيطرة صناعة السلاح على سياسة أمريكا الخارجية

إيران.. الأدب والثورة والدولة
يوسف القعيد



الأزرق تاريخ لون
ليلى حافظ

هل تنسحب أوروبا من إدارة العالم ؟
سلامة أحمد سلامة

أزمة الاقتصاد المصرى بين المسكنات والعلاج
شريف لطفى

امرأتان ومعركة ..لينفرد بزوجته ذهب لويس التاسع إلى الحرب
عبد الرحمن الكواكبى (الحفيد)

لويس عوض المعلم العاشر
نسيم مجلى


فـان هـاوزن
القميـــص الرجـــالى الأول
Van Heusen
THE MASTER SHIRTMAKER
شركة النيل للملابس
الإدارة العامة وإدارة المبيعات: ١٤ ش جزيرة العرب - المهندسين ٣٤٥٤٢٧٧ - ٣٤٦٨٠٩١ - ٣٠٣٠٩٢١ - ٣٤٥٦٦٨١ فاكس: ٣٤٦٩١٩٦

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

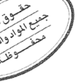
السنة الثالثة
العدد الثلاثون
يوليو ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- جلال أمين ... أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- حسين الواد ... أستاذ الأدب العربى بجامعة تونس.
- سلامة أحمد سلامة ... صحفى.
- سمحة الخولى ... أستاذ علوم الموسيقى بالكونسرفتوار وممثل مصر فى المجلس الدولى للموسيقى التابع لليونسكو.
- سمير غريب ... رئيس مجلس إدارة دار الكتب المصرية.
- شريف لطفى ... خبير اقتصادى.
- طه حسين ... أديب راحل.
- عبدالرحمن الكواكبى (الحفيد) ... وزير سورى سابق.. توفى قبل أسابيع
- ليلى حافظ ... صحفية.
- محمد حسنين هيكل ... صحفى.
- نسيم مجلى ... ناقد أدبى.
- وليام د.هارتونج ... صحفى وباحث أمريكى.
- يوسف القعيد ... صحفى وروائى.

رسوم العدد للفنانين: محمد حجى - نبيل تاج - سعد الدين شحاتة

المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكيا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكيا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٥ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــــة..

حــــــروب .. «نســــويـــة»

من سمات التاريخ اللصيقة به، أو لعلها الأصيلة فيه، أن يظل مختلَفاً عليه، وحوله. ليس فقط بسبب تعددِ «للرواياتِ» متوقع، وإنما بسبب تباينِ «للرؤى» وزوايا النظر. لا توجبه فقط «حتميةُ الجغرافيا» وإنما أيضاً الاختلاف في المعتقدات، والانتماءات.. والمصالح.

وعلى مسار تاريخ البشرية الطويل، تظل الحروبُ الصليبية المتعاقبة، إحدى المحطات الدالة التى تجسد الظاهرة الطبيعية: «اختلافُ الرواياتِ والرؤى».

قبل أسابيع، وعلى خطى القديس بولس، الذى تحول فى دمشق من اليهودية إلى المسيحية، زار البابا يوحنا بولس الثانى بابا الفاتيكان عاصمةَ الأمويين السورية. يومها – ولأسبابٍ تباينت وتباعدت – صحا التاريخُ المثقلُ بالسياسةِ والمعتقدات.. والأسطورة، ليثور جدلٌ وغبارٌ كثيف. فاليهود أقاموا الدنيا فى وجه تصريحات للضيفِ ومُضيفه. والمسيحيون الأرثوذكس – رغم اعتذار البابا – استقبلوه فى اليونان بالتظاهرات وقرع أجراس الحزن فى الكنائس، مذكِّرين بمجازر الصليبيين فى حقهم قبل ثمانية قرون (الحملة الرابعة ١٢٠٤م). والمسلمون من ناحيتهم عبروا عن مرارةِ الذى توقعَ اعتذاراً «مشابهاً» عن معاناةٍ أكبر، وأحبطهم أنهم لم يسمعوه أبداً.

زيارةُ البابا إذن أيقظت التاريخَ المفعمَ بالأوجاع والآلام، والتنافر والتسامح... وبالمشاهد.

وفى حين كان المشهدُ فى شوارع اليونان مزدحما بأعلام بيزنطة والمنشورات واللافتات العدائية: «فروا من البابويين.. كما تفرون من الأفعى»، كان المشهد فى عاصمة «صلاح الدين» مختلفاً. ففى دمشق دخل البابا بصحبة المفتى إلى الجامع الأموى، مستعيدين من ذاكرة التاريخ مشهداً كان قبل ١٣٦٦ سنة. حين سمح أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد للنصارى أن يمارسوا شعائرهم الدينية إلى جانب المسلمين. فصار الجانبان يومها يدخلان من باب واحد يقود يميناً إلى المسجد ويساراً إلى الكنيسة.



وأيًا ما كان أمر الجدل، سياسياً كان أو عقائدياً، حول زيارة البابا، فإن تاريخ الحروب الصليبية – لا ينافسه فى ذلك ربما غير تاريخ النازى وحروبه – مازال يمثل مادةً شهيةً للباحثين «الأوروبيين خصوصاً». ويظل مثيراً على أية حال أن تذهب بعض الروايات إلى أن «شؤوناً نسوية» كانت ذات علاقة بحملة لويس التاسع الشهيرة (١٢٤٨م). والذى لم يجد سبيلاً فيما يبدو للانفراد بزوجته «مارجريت» بعيدا عن أمه المسيطرة المستبدة، والتى كانت تعتقد أن العلاقة الزوجية لاتخلو من إثم ومنكر، إلا أن يجهزَ لحملة حربية «دينية» يصطحبُ فيها زوجته. حالِماً – ربما – بأن يتسنى له بذلك الجمعُ بين الدين والدنيا.

الروايةُ جاءت فى كتابين فرنسيين كتب لـ «وجهات نظر» عنهما عبد الرحمن الكواكبى. وهو ليس صاحب «طبائع الاستبداد» و«أم القرى» والذى توفى قبل قرن من الزمان (١٩٠٢). وإنما هو حفيده وسَميُّه. ومقالُه هذا هو آخرُ ماكتبه قبل أن توافيه المنية منذ أسابيع ليلحق بجده «مثله الأعلى» والذى كرَّس حياته من أجل إحياء تراثه الإصلاحى وجمعه وتحقيقه، منذ أن تخرج من السوربون فى الخمسينيات يحملُ شهادةَ الدكتوراه فى الاقتصاد، وحتى بعد أن أصبحَ وزيرا للأوقاف ثلاث مرات.

والحاصل أن معظم نتاج عبد الرحمن الكواكبى (١٨٥٥– ١٩٠٢) – بعكس أبناء جيله: الأفغانى ومحمد عبده ومارون النقاش وبطرس البستانى – بقى مفقوداً حتى يومنا هذا، ذلك أن الثابتَ أن كتابيه الأشهر ليسا كلَّ أو معظم نتاجه. فقد كانت له مؤلفات أخرى قيد الطبع ومنها «صحائف قريش» و« العظمة لله»، ولكنها فُقدت إثر وفاته الغامضة فى القاهرة. وربما كان الضياعُ سيصيبُ أيضاً من نصيب «أم القرى» و«طبائع الاستبداد»، لو لم يبادر مؤلفهما إلى نشرهما فى مصر إثر لجوئه إليها أواخر القرن الماضى. ولأن الكواكبى كان نموذجاً للكتاب المهمومين بشؤون أبناء قومه، وليس مجرد كاتبٍ محترف، فإن مؤرخى الفكر العربى يعتبرون رسائله يوم تولى المكتب المختص بالدفاع عن المظلومين فى ولاية حلب، فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، من نتاجه الثمين.



تذكر المراجعُ أن عبدالرحمن بن احمد بن مسعود الكواكبى نشأ فى أسرةٍ من أسر حلب العريقة، كانت لها مدرسة تنسب إليها هى «المدرسة الكواكبية»، يعلم فيها والده العلوم الشرعية. وفيها تعلم عبد الرحمن قبل أن يضيف إلى العلوم الدينيةِ اللغات الفارسيةَ والتركيةَ. ثم التاريخ والقانون العثمانى و بعض العلومَ الرياضية والطبيعية. ويتدرج بعد ذلك فى الحياة العملية فيشتغل محررا فى الجريدة الرسمية، ثم رئيسا لكتاب المحكمة الشرعية وقاضيا لها. فرئيسا للبلدية. قبل أن يضيق ذرعا بالوظائف الحكومية كلها. حيث كان طبيعيا أن توفر له مناخاً يصطدم فيه باستبداد الحكام، وفساد رجال الإدارة، فيحاربهم ويحاربونه، قبل أن ينتصروا عليه فى النهاية. فيترك الوظائف الحكومية، وينشئ صحيفة «الشهباء» فيغلقها الوالى عارف باشا. لتلقى المصير نفسه الذى يصبح بعد ذلك من نصيب محاولته الصحفية الثانية «الاعتدال» والتى يعطلها هذه المرة الوالى جميل باشا.. ثم ينتهى مصير الكواكبى فى حلب – بطبائع الأمور – إلى السجن بعد أن يخسر كل ماله. قبل أن يذهب – مجبراً أو مختاراً – فى رحلة طويلة إلى بلاد العرب والهند وشرقى أفريقيا حيث ينتهى به المطافُ فى مصر التى يموتُ فيها مسموماً. بعد أن يكتب معدداً أسبابَ انحطاط المجتمع الإسلامى من ناحية وداعياً إلى مقاومة الاستبداد مهما كانت منابعه من ناحية أخرى.

يومها.. ورغم استبداد الإدارة وعسف الحكام، كان «المناخ الثقافى» فى مصر يسمح للكواكبى، الذى درس العلومَ الشرعية، أن يطالب بتحكيم العقلِ فى كل أمورنا حتى فى النظرةِ إلى الدين حيث يقول: « ما أحوجَ الشرقيين إلى حكماءِ يجددون النظرَ فى الدين.. إن كل دينٍ يتقادمُ عهدُه يحتاجُ إلى مجددين».



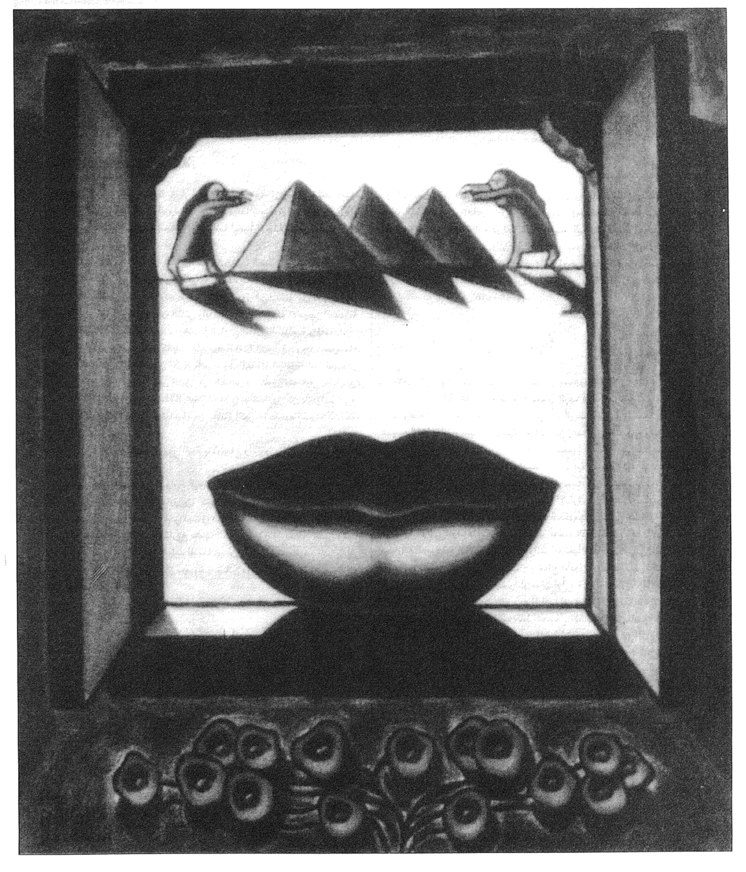
مات الكواكبى قبل مائة عام بالضبط. ولكن يبدو أننا مازلنا بحاجة إلى قراءة كلماته فى طبائع الاستبداد:

«إذا كان كبارُ الأمة قد ألفوا النفاقَ والرياءَ مرضاةً للمستبد.. فعامةُ الناس سيألفونها أيضا.. حتى يضطر أكثر الناس إلى إباحةِ الكذب والتحايل والخداع والنفاق والتذلل وإهانة النفس، حتى يصبحَ من القيمِ المعترفِ بهَا: اعتبارُ التصاغرِ أدباً، والتذلل لطفاً، والتملق فصاحةً، وترك الحقوق سماحةً، وقبول حريةَ القولِ وقاحةً، وحرية الفكر كفراً».

رحم الله الكواكبى «الجد» وجزاه الله عما ترك.

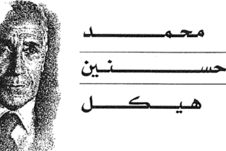
ورحم الله الكواكبى «الحفيد» الذى عرف قيمة ما ورث.

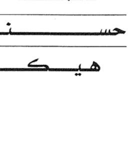
وجهات نظر

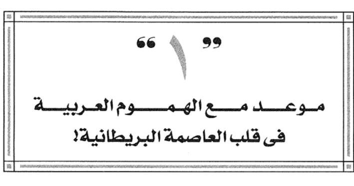


«نافذة الصمت.. نافذة الكلام» للفنان حلمى التونى . زيت على توال ٧٠×٦٠سم

أيام وليال فى لندن







« الأربعاء »

■■ مشيت من ميدان «سلون» (قلب لندن الشاب) نحو حدائق «لينوكس» إلى شارع «ويلتون» لموعد مع صديقين قديمين كل منهما جاء من طريق ويَمضى إلى طريق، لكن الهموم واحدة، فكلنا مسكون بأحوال الأمة، مَشغولٌ بأمرها، قلق عليها، شأن آخرين بلا عَدَد.

الصديقان هما «الأخضر الإبراهيمى» (وزير خارجية الجزائر سابقاً وهو الآن مساعد خاص للأمين العام للأمم المتحدة «كوفى عنان»، مكلف بمسئوليات خاصة كلها مُعَقَّدة ومُستَعصية، من أفغانستان إلى الكونجو) - والثانى هو «إدوارد سعيد» (أستاذ الأدب المقارن فى جامعة «كولومبيا»، وصاحب أهم المراجع عن «الاستشراق» - إلى جانب أنه وَجه عربى مقبول هذه اللحظة فى الغرب بمَلامح وصوت المفكر الإنسانى بعد أن فَقَدَ السياسى العربى كل شىء - مَلامحه وصوته - وأحياناً ملابسه!)

□

شارع «ويلتون» هادئ هذه الساعة (الثامنة مساءً)، وحدائق لندن وشوارعها فى أحلى مواسمها، لأن بوادر الربيع تطل، والشتاء لم يغب. والهواء بارد لكن أزهار الـ«دافوديل» المبكرة فى شهر أبريل طالعة فى وجهه تُذكِّره أن ندى الصباح ينتظرها، لأن درجة الحرارة فى ارتفاع مهما عاند الشتاء!

أفكر فى الصديقين اللذين ينتظران فى مطعم «توتو» الذى يتوارى فى منحنى على شارع «ويلتون» ويكاد يخفى بابه وراء شجَرة مُثقلة بزهور صفراء ما زالت زاهية بأضواء المساء لأن الليل ينزاح كل يوم إلى الوراء، فالربيع يُطيل النهار، والشتاء يختصره بغروب مُبَكِّر.

كان «الأخضر» هو صاحب اقتراح لقائنا على العشاء، وقبله وأثناءه وبعده يَتَواصَل حَديثنا. اتصل بى «الأخضر» فى القاهرة قبل أسبوع من سفرى يقترح الموعد. سيكون هو فى لندن قادماً من ناميبيا، و«إدوارد» قادمٌ من نيويورك، وحين عَرَف الاثنان أننى الآخر واصلٌ من القاهرة، فقد وَجَداها فرصة لحوار مفتوح وحُر، ليس فقط فى مداره وفى إطاره (فحوارنا كذلك دائماً)، ولكن أيضاً فى محيطه وفى جواره (لأن كل واحد منا على بُعد خمسة آلاف ميل من بلده ومحل عَمَله وإقامته).

اختيار ما نريد من قائمة الطعام لم يستغرق دقائق، لكن أدوات المائدة ظلت على الأطباق لم تُلامس شفاهنا غير مرة أو مرتين على الأكثر، لأن الحديث أخذنا بعيداً معه، حتى تنبهنا أخيراً إلى انه منتصف الليل تقريباً، ومَطاعم لندن فى العادة لا تَعرف طول السهر، وزادَ أنه لم يَبق فى القاعة الرئيسية للمكان غيرنا - وكذلك آن أن نَخرُج كل منا إلى وجهَته: «الأخضر» إلى باريس - «إدوارد» إلى نيويورك - وأنا باقٍ فى لندن لأسبوع قبل أن أغادرها عابراً المحيطَ الأطلسى قاصداً الولايات المتحدة.

□

فى غرفتى حيث أقيم فكَّرتُ أن أسجل بعضاً من مَلامح الحوار قبل أن يبدأ صباح جديد معه ارتباطات أخرى، ووجوه مُتَغيِّرة، ولقاءات وموضوعات مختلفة.

لكن ما أسَجِّله هو ما تَرَسَّبَ فى ذاكرتى، وفيه ما سمعته، وفيه ما فهمته، وقد يكون فيه ما تَصَوَّرته، ولهذا فلست أريد أن أنسب قولاً بالذات لقائل بذاته وإلا تَجاوَزتُ. وإذن فكله على عُهدَتى ومسئوليتى، خطأ كان أو صواباً!

وعلى وجه المشاع بيننا - أشهَد أن «الأخضر» كان الأكثر تأنياً، و«إدوارد» كان الأعمَق تأملاً، فى حين كنت الأشد اندفاعاً، ربما لأنى كنت قادماً للتَوّ من الأجواء العربية، وبصفة عامة فقد كان ظاهراً لى مما استرجعته أو حاوَلتُ - أن مجمل حوارنا مشى وتَفَرَّعَ فى نواحٍ شتى:

● تَبَدَّى لنا أن هناك ظاهرة تهافت - إلى درجة التساقط - فى العالم العربى، ومن اللازم وقفها بأى وسيلة، وإلا فإن الأمة سوف تجد حاضرها يتآكل أمام عيونها، ومستقبلها يَضيع قبل أن تصل إليه. وإذا كان هناك من يحتاج إلى دليل فإن الأدلَّة طوفان أمام الكل فيما يجرى على أرض فلَسطين هذه اللحظة، سواء ذلك الجَبَروت الذى تتصرف به إسرائيل - أو الوَجه الآخر لهذا الجَبَروت مُتَمَثِّلاً فى المحنة التى يَعيشها الشعب الفلسطينى - ثم أن يجرى ذلك وسط عَجز عربى مُهين يُغَطِّى عليه خلط عالمى مُريب!

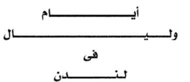
● وتَبَدَّى كذلك أن العالم العربى أصبح - مع بدايات قرن جديد - رَجُل الشرق المريض بمقدار ما كانت الخلافة العثمانية رَجُل أوروبا المريض قبل قرنين من الزمَن! - وكما حَدَث مع الخلافة العثمانية، فإن هناك قُوَى تريد أن تَرث رَجُل الشرق المريض، وبين هذه القُوَى ما هو عالمى، وما هو إقليمى، بل وما هو محلى يَتَصَوَّر أنه يقدر على النجاة من السقوط العربى، ويَرث البقايا بذريعة النَسَب أو بشريعة الأخُوَّة، وهو خطأ لأن القوة الدولية التى تستطيع أن تَرث هى الولايات المتحدة، كما أن القُوَّة الإقليمية التى تستطيع بعدها هى إسرائيل، وغير ذلك سَرابٌ يَحسبه الرائى ماءً!

● وتَبَدَّى أيضاً أن العالم العربى مُعَرَّضٌ لحالة اختراق عميق طالت كل ركن فيه، وعرضت أدق خصائصه وخصوصياته لانكشاف وَصَلَ أحياناً إلى درجة الانتهاك، وذلك يكاد يسلب الأمة فرصة استعادة التوازن، والمقاومة، والوقوف من جديد.

● وأخيراً تَبَدَّى أن هناك «فيروساً» خطيراً أصاب الفكر العربى ومعه الإرادة والضمير، وأظهَر أعراض الإصابة بهذا «الفيروس» أن الوَهَن يَصل بالمصابين به إلى حَدُ «الهَلوَسة»، وبحيث يُهَيَّأ لهم أن شفاءهُم حاضرٌ بغير إرادتهم. وأنه بصرف النظر عن الشواهد والتجارب والمشاعر فإن «الواقعية السياسيَة» وهى «التَشخيص» المعتَمَد الآن فى العالم العربى، تَضَع فى يَد الولايات المتحدة وَحدها أمَل الشفاء. وأن الولايات المتحدة حتى وإن ظَهَرَ منها ما تَجزع له العُقول والقلوب - فإن ذلك الظاهر هو مما يجب احتماله كما تُحتَمَل مَرارة طَعم الدواء، فتلك ضرورة العلاج!

● ومع ذلك تَبَدَّى، وبالرغم من كل ما سبق، أن هناك إمكانية متاحة تَسمَح للأمَل أن يَغلب اليأس - لكن شرطها إدراك الحقيقة والتصرف وفق أحكامها دون ادعاءات لا تسندها حقيقة، وأوَّلها أن لا يَتَصَرَّف العَرَب وكأنهم ربحوا رهان المستقبل، لأنهم فى الواقع خسروه، وإذا كان عليهم أن يُعَوِّضوا فأول التعويض إدراك الحقيقة.

ثم إنه مع إدراك الحقيقة لا بد من استيعاب أن مجمل الظروف فى العالم العربى وحوله وعلى اتساع العالم تؤكد لمن يريد أن يُدَقِّق - أن ذلك الممكن المتاح مُعَلَّقٌ بسياسة نَفَس طويل - تَقدر على المثابرة، وعلى الصَبر، وتُهَيِّئ



نفسها لكل الأجواء دون أن تفقد اتجاهها مع أى ريح، أو تَترُك هَدَفها يَضيع من مَدى بَصَرِها بعد أول مُنحَنى على الطريق!

□

وقد ظَهَرَت خلال المناقشة عدة تعبيرات فى توصيف ما يلزم عمله ابتداء من اللحظة الراهنة، أى من المشهد الفلسطينى بذاته، لأن نقطة الاشتباك مع الخطر يجب أن تكون نفسها نقطة تَوَقى السقوط فى غياهبه.

أولاً - ظَهَرَ تَوصيف مضمونه أن «العَرَب عليهم أن يكفوا عن الصخب الفارغ بادعاء القوة، لأن ذلك الممكن المتاح لهم الآن يَتَطلَّب منهم أن يَضعوا أنفسهم فى «الموضع الأخلاقى الأعلى» high moral ground، وذلك مَوضع تساعدهم إسرائيل بتصرفاتها على الصعود إليه. واستنادا إليه، وليس إلى ادِّعاء القوة، فقد يستطيع العالم أن يرى بعينيه ما تَفعَله القوة الإسرائيلية بحياة الإنسان، وحرية الإنسان، وحَق الإنسان، وكرامة الإنسان. وسوابق الالتجاء إلى «الموضع الأخلاقى الأعلى» مع الخلل فى موازين القوة والاعتراف به - عديدة فى التاريخ الحديث ابتداء من تجربة «غاندى» (أوائل القرن الماضى) ضدَّ الإمبراطورية البريطانية فى الهند، وحتَى تجربة «مانديلا» (أواخر القرن العشرين) ضد نظام التمييز العُنصُرى فى جنوب أفريقيا.

....

....

[من اللافت للنظر أنه فيما بعد قَرَّرَ «شارون» أن لا يَرُدَّ بعُنف على عملية تفجير الملهى الليلى «دولفيناريَم» على شاطئ تل أبيب، رغم أن حوالى عشرين من الإسرائيليين قُتلوا فيه. وقد امتنع «شارون» عن الرَدّ بسرعة، آخذاً بنصيحة مُلحَّة من وزير خارجية ألمانيا «جوشكا فيشر» - الذى تَصادَف وجوده زائراً لإسرائيل عندما وَقَعَ الانفجار - وتَمَكَّن من إقناع «شارون» أن إسرائيل تحتاج بعد كل العُنف الذى مارَسَته إلى استراحة على «الموقع الأخلاقى الأعلى» كى يراها الناس فى إطاره حتى مع تسليمهم جميعاً بأنها تملك السلاح الأقوى. وفى نفس الوقت فإن الوزير الألمانى هَدَّدَ السُلطة الفلسطينية بوقف المساعدات الأوروبية إذا لم تُعلن قبولها لوقف إطلاق النار فوراً ودون شروط - وكان هو الذى صاغ البيان الرسمى الذى صَدَرَ عن السُلطة بالامتثال، ولم يَسمَح لأحد بتغيير حَرف فيه!]

....

....

ثانياً - وظهَرَ تَوصيف مضمونه أن «من الأفضل للعرب أن يَتَصَرَّفوا كما يَتَصَرَّف الضعفاء من أصحاب الحق (وليس المتخاذلين). والضعيف صاحب الحق (وليس المتخاذل) لا يستسلم، لكنه يَلتَجئ إلى أسلحة الضعيف:

■ وضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يقرِّر لنفسه الحَدَّ الذى لا يستطيع أن يتنازل عنه - وأن يَرسم عليه خطاً أحمر يُحَرِّم على نفسه تَعَدّيه لأنه إذا فَعَل فَرَّط، وإذا فَرَّط هان. ومؤدى ذلك عملياً أن يتفاوض أى طَرَف مع نفسه قبل أن يتفاوض مع غيره، وأن يُقدِّر لقضيته حَلَّها المعقول آخذاً فى اعتباره ما يشاء من حقائق الظروف، وموازين القوة الراهنة والتاريخية، وحقائق الأوضاع على الأرض، ثم يَلتزم بخطه الأحمر أمام نفسه وأمام الآخرين - واعياً لحقيقة أن احترامه لهذا الخط الأحمر، حتى وإن لم يُفصح عنه لأطراف أخرى، هو الذى يفرض احترامه أمام هذه الأطراف، لأن اتصال المبدأ بالموقف ضمان أن يعرف الناس حدود صاحبه وطاقته. وهو كذلك تَحصين للحقوق، فضرورات الأمَم - ضروراتها - ليست مَزادات ولا مُناقصات!

والأطراف العربية فى العادة مُغرَمَة بأن تُظهر قوتها وتُبالغ فيها، وذلك يزيد تَوَقُّعات الآخرين وطَمَعَهم فيما يطلبونه، باعتبار أن القَوى يملك أن يُعطى (وحتى إذا كانت قُوَّته ادعاء فهو المكَلَّف بضريبة ما ادعى أنه يملكه!)

ومن سوء الحظ أنه حين يريد طَرَف عربى إظهار محاذيره المانعة، فإنه يُقَدِّم هذه المحاذير مُرادفة للموت، وبما يَعنى أن المطلوب منه بمثابة توقيع فتوى تهدر دَمَه. وذلك مُنزلق يُحسن تَجَنبه لأن الحرص على المبدأ فى تَقدير الآخرين - حتى من الأعداء - غال، وأما الحرص على الحياة - بصرف النظر عن المبدأ - فهو فى تَقدير الآخرين - حتى من الأصدقاء - رَخيص!

■ وضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يتمسَّك باحترام حَقه الذى لا يستطيع التنازل عنه، وأن يَثبَت عليه ويُدافع عنه بمنطق الحق المستقيم وليس بعَوَج السياسة. وعندما يكون الحَق ملكَ وَطَن مُحتَل فإن شرعية المقاومة الوطنية لها أسبقية على أى شرعية غيرها. والأمم المتحدة نفسها تُبيح رُخصةً لمقاومة العدوان خصوصاً على الحقوق المعترف بها دولياً. ومثل هذه الحقوق لا تَتَغيَّر سنوياً أو شهرياً أو يومياً بهَوى الساسة أو الإدارات، فالحق المعترف به دولياً يَصعُب تغييره إلا عندما يتنازل أصحابه ويَقبَلون بأقل منه سواء بسبب وَهَن فى الإرادة يَستَسهل التضحيات، أو يَستَسهل الغواية - سواء كانت الغواية انكسارا أمام قوى كبرى أو تَقَرُّباً إلى ساسة كبار - أو كانت الغواية طموحاً يَتَوَهَّم إمكانية اختزال الطريق قفزاً إلى مُستَقبَل يظنه هناك!

■ ضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يتمسَّك بلغته ولا يستبدلها بلغة يستعيرها من آخرين يريدون أن يسلبوه إرادته، وأول الاستلاب أن يَستَدرجوه إلى استعمال لغتهم!

وعلى سبيل المثال فإن المقاومة الفلسطينية إذا كان لها الحق أن تقاوم فليس يَجوز لها أن تخشى فى ذلك تُهمة «الإرهاب» - ذلك أن المقاومة الوطنية شىء مختلف. والشاهد أن تجربة أوروبا فى الحرب العالمية الثانية ما تَزال مُرشداً ودليلاً، فالمقاومة ضدَّ الاحتلال الألمانى كانَت واجبة، والعَمَل ضدَّ قواته لم يُعتَبَر «إرهاباً»، وحتى مُنشآتَه ذات الطابع غير العسكرى داخل مُدُن مثل باريس ووارسو وبراج كانت أهدافاً مشروعة لأنها أشكالٌ من الحياة المدنية أقيمَت على أرض مُغتَصَبة بالسلاح. وبالنسبة لأى فلسطينى فإن المستوطنات داخل خطوط ١٩٦٧ هى مُنشآت قامَت على أرضٍ مُحتَلة كانت ولا تزال ملكَه، وله فيها زرع وبيت ومَدرَسة، وقَبر أب وجَد.

وعندما توضع المقاومة الفلسطينية أمام تَعَسُّف يَصف أعمال المقاومة بـ«الإرهاب»، فذلك لا يَصح أن يُخيفها فتَرضخ له، أو تَخضع لابتزازه.

....

....

[ومن المحزن أن الوَطَنية الفلسطينية وهى نضالٌ ليس له مثيل فى أصالته وشرعيته تتنازل عن أسلحة الضعيف، فى حين أن غيرها من الحَرَكات الوَطَنية على اتساع القارات من أمريكا الشمالية وحتى أمريكا الجنوبية، ومن شرق أوروبا إلى جنوب أفريقيا - مارَسَت كلها هذا الحق وتَمَسَّكت به. ويُلفت النظر مثلاً أن الولايات المتحدة نفسها رَفَضَت أن تُدين بالإرهاب عمليات الجيش السرى الأيرلندى فى قلب لندن رغم أن قضية أيرلَندا لم تكن قضية تَحَرُّر وطنى أو قومى.

وحتى على مستوى البيت الأبيض ذاته فإن الولايات المتحدة من أيام «كنيدى» تَعاطَفت مع الشعب الأيرلندى حتى عندما استعمل الجيش السرى قنابله ومَدافعه الرشاشة فى قلب لندن، وقيل فى ذلك الوقت أن «كنيدى» تَعاطَفَ لأنه من الأصل أيرلندى، وكذلك كانت ولايته (ماساتشوستس) - لكن التَعاطُف الأمريكى مع الجيش السرى الأيرلندى تَواصَل من إدارة «كنيدى» إلى إدارة «كلينتون»، وكان كل ما تنازل به الرؤساء الأمريكيون بين مطالع الستينات من القرن الماضى إلى أوائل هذا القرن هو إبداء استعدادهم للوساطة بين الجيش السرى الأيرلندى وبين الحليف الأقرب إلى الولَايات المتحدة فى أوروبا وهو بريطانيا - وكانت الوساطة حقيقية، خالصة وغير مُتَحَيِّزة - بل لعله كان هناك مَيل عاطفى وإنسانى للجيش السرى الأيرلندى.]

....

....

[عندما جلَستُ أستذكر حديث الليلة لأستعيد أجواءه، طرأ على بالى أن إسرائيل بالتحديد آخر طرَف فى الدنيا يَحق له أن يَتَحَدَّث عن «الإرهاب» الفلسطينى. فذلك «الإرهاب» الفلسطينى يأخذ أصحابه إلى نهاية الحياة، وأما فى الحالة الإسرائيلية فإن «الإرهاب» الصهيونى يأخذ الذين يقومون به إلى رئاسة الوزارة. ولن أشير هنا إلى «دافيد بن جوريون» وما خطط له وأمَرَ به من مَذابح، لأن ذلك الرَجُل كانت لديه ذريعة إقامة الدولة اليهودية - لكن من جاءوا بعده، وبدون استثناء تقريباً، وَصَلوا إلى رئاسة الوزارة عن طريق «عمليات إرهابية» - لم تكن بالتأكيد عسكرية - لأنها بدون استثناء استهدفت مدنيين.

«مناحم بيجين» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق مَذبحة «دير ياسين».

و«إسحاق رابين» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق ذبح مئات وتَهجير عشرات ألوف من أهل «اللد» و«الرملة».

و«إسحاق شامير» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق اغتيال وسيط الأمم المتحدة الأول الكونت «فولك برنادوت».

و«إيهود باراك» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق عمليات اغتيال، قَتَل فيها وخَنَق بأصابع يديه فى شوارع بيروت.

و«أريك شارون» وَصَلَ إلى رئاسة الوزارة عن طريق مَذبَحة «صبرا» و«شاتيلا»، وعشرات من المذابح غيرها لم يُضبَط فيها مُتَلَبِّساً والدَم يُلطخ يديه - لكنه بالتأكيد كان هناك.

وحتى «حمامة السلام» الحالية - «شيمون بيريز» - لم يَجِد فُرصَة يُعَزِّز فيها بقاءه فى رئاسة الوزارة إلا عن طريق مَذبحَة «قانا».

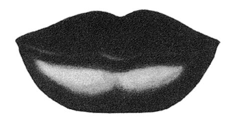
إلى جانب ذلك نماذج مُدهشة:

فالرَجُل الذى قَتَل خمسين من المصلّين المسلمين فى الحَرَم الإبراهيمى له الآن فى الخليل مَشهَد ومَزار.

والرَجُل الذى أمَرَ بقتل ثلاثمائة أسير مصرى فى العريش، ووَقَفَ يَتَفَرَّج على دائرة نيران تُحاصرهم بإطلاق النار عليهم، ثم أمَرَ بدَفن بعضهم أحياء - هو الآن وزير الدفاع فى الحكومة الراهنة («بن إليعازار»).

وأكثر من ذلك - هكذا خَطَر لى فى هَدأة الليل - فإن جائزة «نوبل» للسلام مُنِحَت لخمسة رجال

العالم العربى
أصبح رجل الشرق
المريض بمقدار ما كانت
الخلافة العثمانية رجل
أوروبا المريض
قبل قرون
من الزمن!



«إرهابيين» -! - كلٌ منهم أمَرَ بعملية قَتل أو شارك فيها:

«مناحم بيجين» - و«أنور السادات» أيضاً! - أولهما قَتَلَ، وثانيهما اغتال، ومع ذلك تَقاسَما جائزة «نوبل» للسلام.

«رابين» و«بيريز» و«عرفات» شارَكوا أو أمَروا بعَمَليات بالسلاح - لكن حُكماء السلام فى لجنة «نوبل» أخذوا فى اعتبارهم أن هؤلاء جميعاً قَتَلوا أو شاركوا فى القَتل «تحت دَوافع وطنية» - أو هكذا تَصَوَّروها.

ومن المفارقات أن إسرائيل لم تَتَنَصَّل من أى عَمَل «إرهابى» قام به رجالها ونساؤها. بل إنه حتى الشابين اللذين قَتَلا وزير الدولة البريطانى اللورد «مُوين» فى القاهرة سنة ١٩٤٥ (قبل قيام الدولة اليهودية)، وجرى شنقهما بعد حُكم قضائى فى مصر سنة ١٩٤٦ - أصَرَّت إسرائيل على أن تَضَع ضمن بنود اتفاقية فك الارتباط مع مصر سنة ١٩٧٣ شرطاً يقضى بإعادة رفاتهما، وفى القدس جَرَت للأكفان مَراسم «تحية البطولة». لكن بعض العَرَب الذين يريدون أن يمنحهم الغرب نياشين «التَحَضُر والتَمَدُن» على استعداد للشجب والاستنكار والإدانة، وتسمية رجالهم بـ«المنتحرين» وليس بـ«الفدائيين»، برغم أن ما قاموا به فى البداية والنهاية كان أعمالاً قَدَّمَ أصحابُها حياتَهم مُقابل مُعتَقَداتهم وبغير دافع آخر، فغواية المال لم تَكن مطروحة، وغواية الشهرة لم تَكن لديها فرصة، ثم إن رئاسة الوزارة لم تَكن فى انتظار أىٍ منهم!

....

....

ومع أنى بالطبيعة والمزاج والاعتقاد أحسب نفسى ضمن هؤلاء الذين يَنفُرون من السلاح لغةً ووسيلة - إلا أنه ليس بمقدور أحد أن يكون انتقائيا إزاء القانون، وفى أسوأ الأحوال فإن ما يمكن تسميته بـ«الإرهاب» لا بد أن يُحكَم عليه وفق معيار واحد، وقاعِدة سارية فى كل الأحوال!

خَطَرَ ذلك كله ببالى، ثم طَرَحتُه جانباً مُستَدعياً حقائق العصور والأزمنة: وأوَّلها أن القوة دائماً على حق - وأن الضعف محكوم عليه حتى وإن كانت القوانين والمواثيق كلها تُزَكّيه وتَشهَد له!]

....

....

■ ضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يستعمل قوة الصورة فى هذا العصر بدلاً من قوة الدبابة، والمشكلة هنا هى: أى الصُوَر؟ - وفى الانتفاضة أخيراً كادت الصورة المطلوبة أن تضيع وسط عشرات من الصُوَر غير مطلوبة؟

كان هناك زحام من الصُوَر:

صُوَر لطوابير ممن يقال أنهم فدائيون يضعون الأقنعة السوداء على رؤوسهم لتغطى وجوههم، بينما يلفون حول بطونهم وظهورهم أحزمة من العبوات الناسفة تشير إلى استعدادهم طوابير بعد طوابير للشهادة.

وصُوَر لجموع مُحتَشِدة ترفع فوق رؤوسها مدافع رشاشة وبنادق من كل عيار، وتُلَوِّح بها فى الهواء غضباً وتهديداً، بينما العيون يطق منها الشرَر!

وصُوَر تكاد أن تكون يومية لاستعراضات حَرَس شَرَف، إما أنها غير ضرورية، وإما أنها سابقة لأوانها - وفى الحالتين فهو الانطباع الخطأ!

وصُوَر .. وصُوَر - تنسى كلها أن الشهيد يَفعَل ولا يَستَعرض.

وأن الشهيد يُفارق الدُنيا على موقع عطائه ولا يتلكأ أمام العدَسات ينظر إليها بزاوية حتى يَتَأكَّد أنها وَمَضَت!

وأن المراسِم تستطيع أن تنتظر حتى يَتَّسِق واقع الحال مع مُستوى الآمال!

وفى الواقع فإن الصورة الوحيدة التى غيرت مشهد الانتفاضة كله وأعطت وجهه المؤثر هى صورة الطفل «محمد الدرَّة» وهو يموت مُحاصَراً بالنار فى حُضن أبيه الذى لم يقتله الرصاص وإنما ذبَحَته الحَسرة!

كانت تلك صورة «الضعيف القادر» بينما كانت الصُوَر غيرها «للقَوى العاجز»!

رأى أحدنا أن صورة «الدرَّة» ومثيلاتها من الصُوَر زادَت تَعاطُف الرأى العام فى أوروبا من ثلاثين إلى خمسين فى المائة، وفى الولايات المتحدة من واحد إلى عشرة فى المائة.

لكن ما جاء بَعدها من صُوَر يوشك أن يَمحو أثرها!]

■ وضمن أسلحة الضعيف (وليس المتخاذل) أن يمارس المقاطعة على كل مستوى: من السياسى، إلى الاقتصادى، إلى الثقافى، إلى الاجتماعى. فهذه المقاطعة عَمَل من أعمال المقاومة لا يَتَعَرَّض للغير، وإنما هو إجراء لضبط التصرفات الذاتية يَتَّخذه أصحابه حفاظاً على المصالح وعلى الأوطان وعلى العقائد عندما تَتَعَرَّض للعُدوان إلى درجة الاغتصاب.

وكان ذلك ما فعلته الأغلبية السوداء فى جنوب أفريقيا ضدَّ الأغلبية البيضاء المستَبدَّة بالثروة والسُلطة، فقد قاطعَت ونجَحَت - ودَعَت القارة الأفريقية كلها أن تقاطع معها ونجَحَت - ثم دَعَت العالم الغربى نفسه أن يَتَضامَن معها بمقاطعة نظام الأقلية العنصرية ونجَحَت - حتى أن بريطانيا نفسها على عهد رئاسة «مارجريت ثاتشر» بالذات اضطرت سنة ١٩٨٤ أن تقاطع، وكانت قبل ذلك بأربع سنوات - ١٩٨٠ - ترفض وتهاجم فكرة المقاطعة.

□

ثالثاً - كان هناك تَوصيفٌ ذهَبَ إلى أن «الديمقراطية هى الحل».

....

....

[على أن هذا التَوصيف لَحَق به تَحَفُّظٌ يَرى أن الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية الراهنة فى العالم العربى لم تَزَل بَعد غير قادرة على فَرض ديمقراطية حقيقية. والمشكلة أن النُظُم المتَربِّعة على القمَّة فى المنطقة تَملك «شَطارة» تَصنيع نوع من «الديمقراطية الرخيصة» مثل «أوراق النقد المزَيَّفة» تَقدر عليها الوسائل الجديدة فى تكنولوجيا الطباعة (والتصوير!).

وكذلك فقد تَقتَضى الضرورات العَمَلية إيجاد عامل كيميائى يُمَكِّن من نضوج ديمقراطى حقيقى، وهذا العامل المساعد - كيميائياً - هو الدَعوة والعَمَل بإلحاح على حرية تَدَفُّق المعلومات بهَدَف تَوسيع دائرة المعرفة، وتكثيف حِدَّة الوَعى، بحيث يَرى الناس حقيقة ما يَجرى حولهم بما فى ذلك حَرَكته ودلالاته.]

....

....

[وعلى سبيل المثال فإنه حين يُصبح المسئول عن المفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين هو مُدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية («جورج تنت») - إذن فإن ألف جَرَس إنذار يجب أن تَدُق، وألف لَمبَة حمراء لا بُد أن تَشتَعِل!]

....

....

وأخيراً كان هناك تَوصيفٌ رابع يرى أنه بصَرف النظر عن «اتخاذ الموقع الأخلاقى الأعلى»، وبصَرف النظر عن ممارسة سياسة الضعيف (غير المتخاذل)، وبصَرف النظر عن حُرِّية تَدَفُّق المعلومات - فإن هناك إضافة ضرورية وهى استعادة مصداقية القيادات العربية أمام شعوبها - وأمام خصومها (أو حتى مفاوضيها من هؤلاء الخصوم على الجانب المقابل) - وأمام الأطراف الدولية المهتَمَّة.

هناك إمكانية
متاحة تسمح للأمل
أن يغلب اليأس. لكن شرطها
إدراك الحقيقة والتصرف
وفق أحكامها دون
ادعاءات لا تسندها
حقيقة

ووفق هذا التَوصيف «فإنه لا يمكن البدء «بموضع أخلاقى أعلى»، ولا بممارسة الحق فى مبدأ أو لغة إلا إذا كانت القيادات العربية مُهَيَّأة لما هو مطلوب، وإلا وقَعَ الصدام بين القيادات العربية وبين شعوبها».

والذى حَدَث أن هناك قُوَى دولية استخدمت واستهلكت مصداقية القيادات العربية حتى استنفدتها!

وذلك بدَوره أنشأ حالة أمكن معها ابتزاز هذه القيادات العربية. فتلك القيادات صَوَّرَت لنفسها أمام جماهيرها نجاحاً لم يَتَحَقَّق، وتَسَتَّرَت القُوَى الخارجية على «هذا النجاح» غير المتَحَقِّق.

وهكذا فإنه إذا كان على القيادات العربية أن تستعيد مصداقيتها - فهذه القيادات أمام خطر مُؤكَّد يُعَرِّضها لأن تَفقِد «حُباً» اشترته بقبول ما لا يُقبَل.

والحقيقة أن القيادات العربية تَحتاج من العالَم الخارجى إلى الاحترام أكثر مما تَحتاج إلى الحُب: ذلك أن «الحُب» كَسبٌ قصير الأمَد - وأما «الاحترام» فاستثمار بَعيد المدى.

لكن المشكلة المعَقَّدَة أن الأنظمة العربية - معظمها على الأقل - معنى ملهوف على الكسب السريع، بينما الاستثمار على المدى الطويل عُمرٌ لا يضمنه أحد، وذلك هو الفارق بين نظم مَوقوفة على أفراد، ونُظم «مَنذورة» لأوطان!

□

استعدت ذلك كله فى غرفتى بعد سَهَر طويل.

سألتُ نفسى قبل أن أطفئ نور الغرفة وأغمض عينى: هل لذلك كله أو شىء منه فائدة؟ وإذا لم تكن فأين هو الحل؟ - أو أين هى المعجزة إذا تَعَذَّر الحل؟!

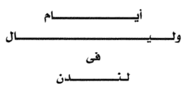
مَرَّ بخيالى النعسان - ويَدى تَمتَدُّ لإطفاء نور الغرفة - رَجعُ صَدى يَسرى فى الأجواء العربية يُرَدِّدُ أن «أمريكا وَحدها تستطيع»، و«أمريكا بمفرَدها تَقدر»، و«أمريكا عليها أن تَتَحَمَّل مسئوليتها»، و«أمريكا عليها أن تَرُدَّ وتَصُد، وتَمنَع وتَردَع»!

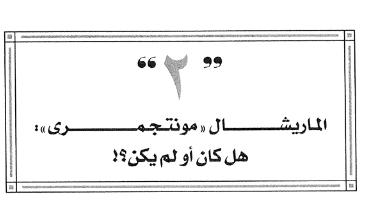
تذكرتُ - بين اليَقَظة والنوم - حكاية مشهورة فى تاريخ أوائل هذا القرن (١٩٠٣)، كان بطلها المعتَمَد البريطانى العتيد اللورد «كرومر».

حضر «كرومر» حفل زفاف لأسرة مصرية من كبار مُلاك الأرض، وكان الجالس بجواره «سعد زغلول» (باشا)، وكانت الصداقة بين الاثنين وَطيدة. وطبقاً للحكاية فإن المطرب الشهير «عبده الحامولى» كان يُغنى «طقطوقة» ذاعَ صيتُها فى ذلك الوقت تقول «حبيبى راح هاتوه لى يا ناس». وسأل اللورد «كرومر» عن مَعنى الكلمات التى يسمعها مُلَحَّنة، وحاوَلَ «سعد زغلول» أن يَشرحها له، وعَلَّق «كرومر» مُستَغرباً: «حتى فى العشق لا يُكَلِّف المحب عندكم خاطره بفِعل مباشر .. لا يُريد العاشق أن يسعى لحبيبه بنفسه، وإنما يَطلب من الناس أن يجيئوا له به؟»

وجاء النوم تُداخله تهويمات راحت تَعبُر فراغ الوعى أطيافاً وظِلالاً: العَرَب - إسرائيل - أمريكا - «عبده الحامولى» - «سعد زغلول» - واللورد «كرومر»!

ودَخلتُ فى النوم!





« الخميس »

■■ فنجان شاى بعد الظهر مع الليدى «أوليف هاملتون».

....

....

[هى أرملة السير «دنيس هاملتون» الذى كان رئيس مجلس إدارة مجموعة صُحُف «التيمس» و«الصنداى تيمس» ورئيس تحريرها العام طول فترةٍ مُهمَّة من تاريخ الصحافة العالمية، وَقَعَ فيها انتقال «الخبر» من حَرَكة الصحفى الفرد إلى شبَكَة وكالة الأنباء الكبرى، وانتقال «المطبعة» من قوالب الرصاص المصبوب إلى الومضات الإلكترونية لـ«الكومبيوتر». وقد اشتهر «دنيس» فى أوساط الصحافة الأوروبية بلقب «المجَدِّد» لأنه كان يملك خيالاً نافذاً وإرادة قادرة على تحقيق ما رآه من متغيرات عصور مُستَجَدَّة، وساعده على ذلك أنه وَجَدَ مجموعة من خيرة الصحفيين البريطانيين تصطف حوله وتساعده، ثم إنه كان محظوظاً فى الجزء الأكبر من عمله بمُلاك صُحُف يُقَدِّرون قيمته ويدعمون جهده، ولا يتدخلون فى عمله، ابتداء من اللورد «كيمزلى» صاحب «الصنداى تيمس» القديم، حتى اللورد «طومسون» المليونير الكَنَدى الذى اشترى تلك الجريدة العتيدة وضمها إلى «التيمس» وجعل من الاثنتين كياناً صحفياً واحداً ظل متماسكاً حتى اشتراه «روبرت مردوخ» سنة ١٩٧٤.

وبعدها بسنوات مات «دنيس» متأثراً بجرح قديم من شظية أصابته وظلَّت عشرات السنين كامنة فى رأسه، وقد أصابَته تلك الشظية عندما كان أول ضابط من أركان حرب الماريشال «مونتجمرى» ينزل على الشاطئ الفرنسى الشمالى فى عملية «أوفرلورد» لفك قبضة «هتلر» عن أوروبا الغربية، وتحريرها من عاصفة الجنون النازى التى اجتاحتها بلداً بعد بلد وعاصمة بعد عاصمة، حتى انطفأت الأنوار على اتساع قارة كانت طوال القرون الثلاثة الأخيرة من التاريخ الإنسانى مَوئلاً للحضارة العالمية ومُستقراً.]

....

....

لدىّ ضعف شديد إزاء الليدى «هاملتون» - «أوليف» - وهى قرب التسعين من عمرها - ولدت سنة ١٩١٥ - لكن حيويتها ما زالت متدفقة، تلمع فى عينيها زرقة شفافة لها عمق لا يَبين له قاع. وهى تتكلم حتى الآن بتلك اللهجة الضاغطة بالثقة على كل حرف تنطق به، وكأنها حالة تأكيد مستمر لأى شىء تقوله.

كانت «أوليف» هذه المرة كما هى دائماً فيما عدا انحناءة بسيطة مالت بقامتها إلى أمام، لكن رأسها بقى مرفوعاً بنوع من الاطمئنان لمجمل ما اعتنقته من آراء كلها محافظة، شديدة المحافظة فى بعض الأحيان إلى درجة التزمُّت.

وقد ظلَّت «أوليف» بعد وفاة «دنيس» تعيش فى بيتها، محاطة بكل ذكريات «الأعز» (dearest) كما تسميه، وضمنه تلك المقتنيات التى جمعها الزوجان معاً عندما حملهما عمله الصحفى وزياراته المهنية إلى أركان الأرض القصية: قطع نسيج من التبت، أطباق صينية من عهد المينج، فُخار إسلامى مَصنوع لسَلاطين المغول، نابان من العاج لفيل أفريقى، مشغولات ذهبية من حيدر أباد فى الهند تعود للقرن الثامن عشر. وحول ذلك صُوَر لـ«دنيس» فى مواقع مختلفة من حياته أكبرها صورة له مع الماريشال «مونتجمرى» - «مونتى» - تعود لأيام الحرب عندما كان «دنيس» أقرب الناس إلى الماريشال الذائع الصيت والغريب الأطوار.

كانت «أوليف» - نفسها - شديدة الإعجاب بـ«مونتى» وبدوره. وكان «مونتى» شديد القُرب من أسرة «هاملتون»، وأظنه وَجَدَ مع هذه العائلة ألفة عَوَّضَت عليه حياته مُنفرداً بعد وفاة زوجته «بيتى»، وبعد أن خَفَّ الوَهج الذى أحاط بالقادة المنتصرين فى الحرب ضِدَّ «هتلر» بمرور السنين، ثم مَشوا جميعاً فى «شارع الغروب» ذاهبين إلى نوع من النسيان يعودون منه بين فترة وأخرى كاستعادة لذكريات مجد تباعَدَت عنه الأيام، لكنه حاضر فى المناسبات وفى الاحتفالات إشارة إلى أيام لها مَعنى ومواقع لها قيمة (وتلك من ضرورات الحفاظ على ذاكرة - وهَويَّة - الأمم والشعوب).

أقبَلَت «أوليف» كالعادة وألوان مَلابسها كما هى معظم الأوقات زاهية كأنها تقصد إلى تحدى العُمر (فستانها اليوم أزرق أحمر) - صوتها المتهلل يَسبق يدها الممدودة وابتسامتها العريضة وقُبلتها التقليدية على الخَدَّين. وحين خطونا إلى غرفة المكتبة، وهى على حالها كما تَرَكها «دنيس» - توقفتُ أمام «أوليف» وفاجأتُها بسؤال يلح على خواطرى منذ أسابيع: «والآن.. ليدى هاملتون (تَعَمَّدتُ أن أناديها بلقبها الرسمى) قولى لى صراحة هل كان أو لم يكن؟»

وفاجأها سؤالى ورَدَّت عليه: «مَن هو؟ .. ماذا تقصد؟»

قلتُ بسرعة: «مونتى» . «مونتجمرى». ماريشال العَلَمين!

وفهمَت «أوليف» بسرعة ما قصدتُ، وقالت: «أوه .. أنت تريد أن تعود إلى هذه الحكاية؟»

وقلتُ: «لم تَعُد حكاية .. فهذا كلام كتبه «نيجيل» (ابنها «نيجيل هاملتون») قبل أسابيع، وقد أثار ضجة فى بريطانيا وخارجها. ليس بسيطاً أن يقول ابنك وهو المؤرخ الرسمى الذى اعتمده «مونتجمرى» ليكتب قصة حياته أن الماريشال كان «رجلاً معكوساً (شاذاً) جنسياً» رغم أنه ألزم نفسه بكبت غرائزه، وأن هذا الكَبت - أو محاولته - أثرَت، وكان لابد أن تؤثر، على شخصية الرَجُل - الماريشال - وعلى عَمَله وعلى قراراته!»

وقالت «أوليف» بطريقة متأنية: «هذه حكاية ليس لها لزوم. لم تكن لها ضرورة، ولست متأكدة منها. «نيجيل» (ابنها ومؤرخ «مونتجمرى») لديه كل الأوراق. كانت فى الأصل عند «دنيس». «دنيس» أعطاها له كما تذكر و«مونتى» وافق. و«نيجيل» قام بجهد خارق كى يؤدى مُهمَّته بكفاءة المؤرخ وأمانته. وأنا لم أشأ أن أسأله كيف تَوَصَّل إلى ما تَوَصَّل إليه رغم أن كثيرين سألونى».

قاطعتُها قائلاً: «أوليف .. لا بُد أنك تَعرفين أكثر من ذلك. والمسألة الآن سِرٌ ذائع! - فقولى لى أنت: هل كان أو لم يكن .. نَعم - أو لا؟»

تَعَمَّدتُ أن أوَجِّه لها السؤال ضاحكاً مُحتَرِماً عُمق ولائها لصداقاتها، وشِدَّة محافظتها الإنجليزية التقليدية إلى درجة التَزَمُّت أحياناً - ومَضيتُ أكثر فطَوَّقتها بذراعى قاصداً - حتى لا يخطر لها أن تكرار السؤال حصَار.

وقالت هى: «صَدِّقنى لا أعرف؟ لماذا لا تسأل «نيجيل» نفسه؟

....

....

كان ما نشره «نيجيل هاملتون» قبل أسابيع عن «الجنس فى حياة الماريشال» مثيراً للجَدَل فى لندن وما زال. فالرأى العام البريطانى ليس مُستَعِداً لأن يَقبَل شيئاً عن أشهَر قادته العسكريين، وخصوصاً «مونتى» وهو صاحب أول انتصار بريطانى فى الحرب العالمية الثانية، وهو انتصار «العَلَمين» الذى جاء بعد سلسلة طويلة من الهَزائم. ثم إن الباقين على قَيد الحياة من ضباط وجنود الجيش الثامن - جيش «مونتجمرى» فى حالة غَضَب. وزادَ من حدَّة الجَدَل أن كاتب القصة ليس مؤرخاً عادياً، وإنما هو كاتب أتيح له ما لم يُتَح لغيره فى الموضوع الذى كتب فيه.

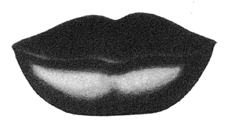
□

كان «دنيس» (والده) من أركان حرب «مونتجمرى»، وعندما عاد إلى بريطانيا جريحاً بتلك الشظية التى استقرت فى رأسه، كان قائده دائم السؤال عنه، وبَقى كذلك بعد أن صَفَّى الماريشال قيادته فى أوروبا وعاد إلى إنجلترا لتولى رئاسة أركان حرب الإمبراطورية.

ثم كان أن قضى الماريشال مدة خدمته فى رئاسة أركان حرب الإمبراطورية قبل أسابيع قليلة من حرب السويس ١٩٥٦ - تاركاً مكانه للورد «مونتباتن». وقبل أن تهديه المِلكة بيتاً

الأطراف العربية فى العادة
مغرمة بأن تظهر قوتها وتبالغ فيها،
وذلك يزيد توقعات الآخرين وطمعهم
فيما يطلبونه، باعتبار أن القوى يملك أن يعطى،
وحتى إذا كانت قوته ادعاء
فهو المكلف بضريبة
ما ادعى أنه يملكه!





يقضى فيه عطلة نهاية الأسبوع ـ كان الماريشال يُوَزِّع عطلاته على بيتين فى الريف: بيت «دنيس هاملتون» (ضابط أركان الحرب السابق للماريشال ورئيس تحرير «الصنداى تيمس» الآن)، وبيت «ونستون تشرشل» (على حافة «ووركشير») حيث كان رئيس الوزراء السابق والقائد العسكرى السابق يجلسان معاً لساعات طويلة قال لى عنها «مونتجمرى» نفسه ذات مرة: «كانت بينها ساعات نتحدث فيها بالصمت، نشعر أن خواطرنا تتلاقى دون حاجة لكلام». ويُضيف الماريشال: «أعمق الصداقات ما يستطيع فيه صديقان أن يتواصلا بعمق حميم دون حاجة للقول بالألفاظ».

ولم ألتق بالماريشال «مونتجمرى» فى البيت الريفى لـ«دنيس هاملتون» فى تلك المزرعة، القريبة من ميناء «بورتسموث» رغم أن كلينا كان يتردد عليه فى نفس السنوات. لكنى بعد ذلك قابلته عن طريق «دنيس» ضمن مشروع مشترك بين «الصنداى تيمس» و«الأهرام» تلك الأيام من مُنتَصَف الستينات، وكان المشروع «استذكارا يعود به ماريشال العلمين إلى ميدان معركته فى الصحراء المصرية، ومعه عَدَد من كبار قادته، ثم يكتب سلسلة مقالات تنشرها «الصنداى تيمس» مع «الأهرام» فى نفس الوقت، وتكون التكلفة شركة بين الجريدتين. تتحَمَّل «الصنداى تيمس» بالتكاليف الأجنبية كلها، ويَتَحَمَّل «الأهرام» بالتكلفة فى مصر. وقَضى الماريشال عشرة أيام ما بين الصحراء الغربية والعاصمة المصرية، وخلال هذه الأيام العشرة عرفتُ «مونتجمرى» عن قُرب، ولمستُ فى نفس الوقت عُمق صلَته بـ«دنيس»، وأحسَستُ فى بعض الأحيان أَنها ليست علاقة ضابط سابق مع قائد سابق، ولا علاقة رَجُل مُتَحَمِّس لبَطَل أسطورى أتاحَت له الظروف أن يَعمَل معه، وإنما بَدَت لى العلاقة أحياناً وكأنها علاقة تلميذ بأستاذ ـ أكبرهما يرى «الوَعد» فى الأصغر، والأصغر يرى «المَثَل» فى الأكبر.

□

كان «دنيس هاملتون» هو الذى ابتدع فى الصحافة البريطانية ـ وفى الصحافة العالمية فيما أعرف ـ فكرة عرض الكتب السياسية الكبرى سلاسل فى الصحافة الأسبوعية ـ أو فى اليومية مرات. والحقيقة أن تلك كانت نقلة ضخمة فى صناعة الكتاب السياسى (لأن دخل النشر مسلسلاً فى الصحافة أصبح يحقق ٦٠ ٪ من إيراد الكتاب السياسى، فى مقابل ٤٠ ٪ يحققها نشره داخل غُلاف كتاب).

وكذلك فإن «دنيس» ذهب إلى تحريض كثيرين من الساسة والقادة ـ خصوصاً من الحرب العالمية الثانية ـ على كتابة مذكراتهم لكى تَتَحَوَّل إلى «سلاسل أسبوعية» على صفحات «الصنداى تيمس»، وتَحَمَّس كثيرون منهم خصوصاً أن النشر السياسى أصبح مغرياً لرجال ساهموا فى صنع تاريخ مشهود، ثم أنهوا مدة خدمتهم بمعاش محدود (معاش الماريشال «مونتجمرى» مثلاً كان ٦٤٠ جنيهاً إسترلينياً فى الشهر، ونصيبه المقدم له قبل نشر مذكراته كان قرابة مليون جنيه إسترلينى، وكان فى مقدوره أن يحصل على أكثر، لكنه لم يشأ أن يكتب مذكراته بنفسه).

كان الذى حَدَث أن «مونتجمرى» اقتنع بما عرضه عليه «دنيس هاملتون» فى شأن كتابة مذكراته، لكنه لم يكن يريد أن يكتبها بنفسه، ولا كان يريد أن يستعين بكاتب محترف يملى عليه ما يريد. وبدلاً من ذلك كان رأى الماريشال ـ وقد صَمَّم عليه، أن يعطى أوراقه كاملة إلى «دنيس هاملتون»، وفيها سجلات قيادته ويومياته الشخصية (التى راحَ يكتبها قبل أن ينام كل مساء ابتداء من يوم ١٠ مايو ١٩٤٠، وعندما كانت معركة فرنسا التى انتهت بسقوطها أمام قوات «هتلر» على وشك أن تبدأ) ـ وكان المتَوافَق عليه أن يتولى «دنيس» بنفسه كتابة قصة حياة «مونتجمرى»، وتقدير «مونتجمرى» أن «أركان حربه السابق» يعرف عنه ما فيه الكفاية ـ وأنه بتجربة مباشرة تُسندها خبرة صحفية نادرة ـ يستطيع أن يَكتُب القصَّة أحسَن من الماريشال الذى أصبح صبره نافداً يوماً بعد يوم وهو يرى «هذا المنحَدَر السياسى الحزين الذى تَدَحرَجَت عليه الإمبراطورية بعد الحرب»! (حسب قوله). وفى البداية قَبَل «دنيس» ـ وللحقيقة على مَضَض ـ لأنه كان شبه واثق مقدماً أن شواغل عمله كرئيس لتحرير «الصنداى تيمس» ـ و«التيمس» بعدها ـ لن تسمح له بوقت كافٍ يكتب فيه قصة حياة «مونتجمرى»!

□

ووَقَعَ ما كان «دنيس» يخشاه، لأن وقته كان بالفعل ضيقاً بمشاغل عَمَله الأصلى. ثم كان أن أحد أبناء «دنيس» الأربعة ـ وهو «نيجيل» ـ بدأ يظهر ككاتب صحفى مقتدر ميال إلى الكتابة التاريخية المعاصرة. وكان «نيجيل» قد رأى صناديق الملفات والأوراق التى بعث بها الماريشال إلى والده، ثم لاحَظ أنها راقِدة حيث هى لشهور ولسنين. وراوده أمَل أن «الابن» يستطيع أن يقوم بما لم يَسمَح به وقت «الأب». وعلى استحياء عَرَضَ «الابن» استعداده على «الأب». ومع أن «دنيس» أحَسَّ أن دخول «نيجيل» يعطيه مخرجاً، خصوصاً وهو يثق فى كفاءته، فإنه بعد أن فكر طويلاً (كعادته) طلب إلى «نيجيل» أن يفاتح صاحب الشأن الأصلى (وهو الماريشال «مونتجمرى») فى الموضوع ويرى ردَّة فعله. وكانت المفاجأة للجميع أن الماريشال الذى أعجب بكتابات قرأها لـ«نيجيل» ـ وافق على الاقتراح، وتَحَمَّس، لكنه سأل «إذا لم يكن ذلك مُحرجاً لـ«دنيس» مع أنه عاتب عليه تأخره فى الكتابة؟» ـ لكن الاقتراح كان حَلاً سعيداً للجميع!

وكتب «نيجيل» بالفعل ثلاثة أجزاء تروى قصة حياة وعمل الفيلد مارشال «مونتجمرى» فيكونت العلمين (لحظة المجد التى اختارها «مونتجمرى» للقب الملكى الذى مُنِحَ له بعد النصر تعظيماً وإجلالاً). وكانت الأَجزاء الثلاثة تحمل عنوان «مونتى»، وتحته عنوان فرعى يخص كل جزء:

الجزء الأول: «صناعة جنرال» من ١٨٨٧ إلى ١٩٤٢

الجزء الثانى: «سَيِّد ميدان القتال» من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤

الجزء الثالث: «ماريشال الإمبراطورية» من ١٩٤٤ ـ ١٩٧٦.

وكان نجاح كتاب «حياة مونتجمرى» مُدَوياً، ولم يكن سراً على أحد أن الأب («دنيس») لم يُعط لابنه أوراق «مونتجمرى» ـ فقط، وإنما قَدَّم له مع الأوراق خبرة لا تُعَوَّض ـ خصوصاً أن «دنيس» كان قد تقاعَد أثناء إعداد الكتاب، بعد خلافات بينه وبين «روبرت مردوخ» المالك الجديد لمجموعة «التيمس» و«الصنداى تَيمس».

وعندما صَدَرَ الجزء الأول من الكتاب سنة ١٩٨١ كان الذى أهدانى نسخة منه هو «دنيس» قبل أن تصلنى نسخة ثانية وَقَّعَ عليها «نيجيل».

ولم يبعث إلىَّ «دنيس» بنسخة من الكتاب المطبوع وحده، وإنما أضاف إليها زيادة كان يعرف أنها تهمنى، وهى صُوَر من مجموعة الأوراق الأصلية «للماريشال» تتصل بأيام خدمته فى مصر ما بين سنة ١٩٣٤ إلى سنة ١٩٣٥، حين كان قائداً لمعسكر «مصطفى باشا» فى الإسكندرية، ثم فى فلسطين عندما كان قائد القوات البريطانية فيها من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٨. وفوق هديته كتب «دنيس» بخط يده على بطاقة منه عبارة نصها: «إلى محمد الذى كان مونتى يحتفظ له بإعجاب كبير ـ من صديقه دنيس».

وعلى أى حال فإننى بالفعل وَجَدتُ نفسى مرات عديدة فى إطار الجو الودِّى الذى كانت أسرة «هاملتون» تحيط به صديقها الكبير الفيلد مارشال «مونتجمرى»، وبالذات فى الفترة ما بين زيارته لمصر سنة ١٩٦٧ وحتى وفاته بعدها بعشر سنوات سنة ١٩٧٦.

فى تلك السنوات العشرة قابلتُ الماريشال مرات عديدة، سواء فى بيت «دنيس» فى لندن، أو فى البيت الريفى الصغير (فى «هامبشير») الذى أهدته الملكة «إليزابيث» لقائدها فى سنوات عمره الأخيرة.

وطوال هذه السنوات العشرة سمعتُ من «مونتجمرى» فيضاً من قصص ذلك الزمن الأسطورى ورجاله من «تشرشل» إلى «أيزنهاور»، ومن «ستالين» إلى «روزفلت»، وحتى من «روميل» إلى «بن جوريون» الذى تعامل معه «مونتجمرى» بـ«الشك» أثناء خدمته فى فلسطين، حين كان «بن جوريون» رئيساً «للوكالة اليهودية» التى سبقت قيام دولة إسرائيل!

ثم مضت السنوات حتى كتب «نيجيل» فى بداية سنة ٢٠٠١ ذلك الذى كتبه عن الحياة الجنسية للماريشال، ومؤداه أنه كان «معكوساً» (شاذاً) جنسياً لكنه بذل جهداً خارقاً كى يكبت غرائزه.

والآن ـ أبريل ٢٠٠١ ـ كنت فى بيت «دنيس هاملتون» ـ أسأل «أوليف» (ليدى «هاملتون»): «هل كان أو لم يكن؟»

كنت أسأل ضاحكاً، ورَدَّت هى بلهجة تمتزج فيها الحَيرة بظلٍ من أسى:

«محمد. ماذا يفيد ذلك كله الآن؟ .. ذلك زمان مضى؟»

وقلتُ لـ«أوليف» (ليدى «هاملتون»):

«أوليف .. هل أترجم لك بيتاً من الشِعر العربى؟»

قالت:

«سمعت منك ترجمات شِعر عربى من قبل. والآن قُل لى كيف استطاع الشعر العربى أن يعرف شيئاً عن حياة «عَزيزنا مونتى»؟»

وترجَمتُ لها بيتاً من الشِعر العربى يقول:

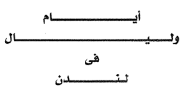
«قد كان ما كان مما لست أذكره
فظن خيراً ولا تسأل الخبر»

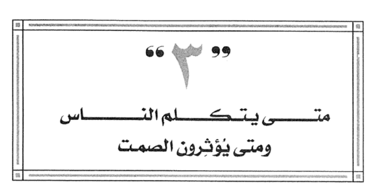
واستمعت «أوليف» باهتمام للكلمات، ثم استفسرت مُستَوضِحة للمعانى، وقالت مبتسمة:

«بالضبط .. الشعر العربى كما يبدو لى مما أسمعه منكَ ـ بحور من الحِكمة»!

إسرائيل بالتحديد آخر طرف
فى الدنيا يحق له أن يتحدث عن «الإرهاب»
الفلسطينى. فذلك «الإرهاب» الفلسطينى
يأخذ أصحابه إلى نهاية الحياة، وأما فى الحالة
الإسرائيلية فإن «الإرهاب» الصهيونى
يأخذ الذين يقومون به
إلى رئاسة الوزارة







« الجـمـعـة »

العشاء مع صديق قديم هو «أيان جيلمور» - اللورد «أيان جيلمور»، وكان وزيراً للدولة فى وزارة الخارجية البريطانية ضمن التشكيل الأول والثانى لوزارات «مارجريت تاتشر»، لكنه بعد ذلك اختلف معها وأبعَدَته من وزارتها. كان وقتها يحمل لقب «سير» رغم أنه من أسرة لها صفحات فى التاريخ البريطانى. وكان المفروض أن تضعه «مارجريت تاتشر» فى قوائم الألقاب التى يقدمها رؤساء الوزارات للقصر تقديراً لجهد الذين أسهموا بقسط فى خدمة الدولة البريطانية. لكن «مارجريت تاتشر» لم تضع اسمه فى قائمتها بسبب انتقاده الدائم لسياساتها، ثم كان أن ظهر اسمه فى قائمة الملكة تقديراً لجهوده فى سبيل «الكومنولث»، وذلك حق العرش.

«أيان» كان واحداً من المهتمين بالقضايا العربية لزمَن طويل، والحقيقة أنه صوت نادر فى التصدى بمصداقية ودون تردد للدعاوى الصهيونية - الإسرائيلية. «أيان» له ابن («دافيد») يعمل فى إحدى وكالات الأمم المتحدة الناشطة فى قطاع غزة. فى حين أن ابنه الثانى («كريستوفر») اختار اتجاها مخالفاً، فافتتح مطعماً يحمل اسمه فى حى «تشلسى» وهو آخر صيحة الآن فى مطاعم لندن.

قال لى «أيان» ضاحكاً أنه يجب أن يُتَصَوَّر أن له تأثيراً على كل من وَلَدَيه «دافيد» و«كريستوفر»، فهو من المتحَمِّسين للقضية الفلسطينية وهو ما انتقل منه إلى «دافيد»، ثم هو من هواة مطبخ راق، وقد نقل عنه «كريستوفر» هوايته وحوّلها إلى مشروع ناجح.

سألنى «أيان جيلمور» ثلاثة أسئلة:

- «هل تستطيع أن تُفسِّر لى الصمت العربى عما تقوم به إسرائيل فى الأراضى التى تحتلها؟»

قلت: «لا؟» (باختصار، ولم أزد).

- «هل هناك طرَف عربى أو دولة عربية لديها تصَوُّر معقول وعادل لإمكانية حل؟»

قلت: «لا؟» (باختصار، ولم أزد).

- هل تنوى مقابلة أحد من المسئولين فى لندن هذه المرة؟

قلت: «لا».

ولم يتركها «أيان» باختصار أو بدون زيادة، وإنما سألنى: «لماذا؟ - عندك بالتأكيد كثيرٌ يَصح أن يسمعوه. أخشى أنهم لا يعرفون ما هو كاف عما يجرى فى المنطقة. هُم يفهمون أكثر من الأمريكان بالطبع، لكنكم تتركونهم للأمريكان ولإسرائيل».

قلت: «لدىَّ مائة سَبَب تُحَرِّضنى على أن لا أطلب مقابلة أحد من الرسميين - فيها سَبَب يَجُبُّ غيره من الأسباب، وهو أننى أراهم جميعاً مشغولين فى الانتخابات القادمة، وكل من أريد مقابلته مُنهمك فى تحضير دائرته، وقد قرأت أن «تونى بلير» طلب من وزرائه أن لا يجلسوا فى مكاتبهم أو يناموا فى بيوتهم، وإنما أن يبقوا وسط الناس فى دوائرهم باستمرار.

فى تقديره وتقدير الكل أن نجاح «العُمال» أو فشلهم فى الانتخابات مسألة مفروغ منها ومحسومة، وبالتالى فإن معيار النجاح أصبح مُعَلَّقاً بحجم المشاركة فى الانتخابات، خصوصاً أن «تونى بلير» يريد حضوراً كثيفاً يُؤيِّده ليكون منه مَدخلُه إلى الاستفتاء على انضمام بريطانيا إلى العُملة الأوروبية الموَحَّدة (اليورو)، وتلك ضرورة مُلِحَّة لم يَعُد فى مقدور بريطانيا أن تتأخَّر عنها».

....

....

[ظهَرَ فيما بعد أن نسبة الحضور لم تكن كما تَمَنَّى «تونى بلير». لم تزد على ٦٠٪ وهى أدنى نسبة مُشارَكة ديمقراطية فى الانتخابات منذ انتهت الحرب العالمية الثانية - أى منذ أكثر من نصف قرن].

....

لم يقتنع «أيان» بما قلته، ورأيه أنه برغم كل الشواغل فإن اللقاء مع «بعضهم» لا يمكن إلا أن يكون مفيداً للطرفين.

قلت له «أننى متنازل عن حقى فى الفائدة»؟

نظر إلىَّ باستغراب مُضيفاً أنه لا يفهمنى؟

قلت له «أنه برغم معرفته الوثيقة بالعالم العربى لا يَعرف مناخه الآن.

أحواله لسوء الحظ مُتَرَدِّية. وأسوأ من تَرَدِّيها فى حَدِّ ذاته - ما يحيط بهذه الأحوال من أجواء وملابسات.

ومن ذلك مثلاً أن أى مُهتَم بالشأن العام يَجِد نفسه أسير مأزق مُزعج سواء كان داخل وطَنه أو خارجه.

- داخل وطنه يجد نفسه حائراً بين الكلام وبين الصمت. يسأل نفسه إذا كان الكلام مُجدياً، مع يقينه بأن الصمت لا أخلاقى؟

- فى الخارج تنعكس الآية: الصمت يكون غليظاً لأن الحقائق ظاهرة - لكن الكلام يمكن أن يكون ثقيلاً حتى بدواعى الكبرياء!»

قلت لـ «أيان جيلمور»:

«أظن أن كثيرين - أجد نفسى بينهم - يَشعرون بالمأزق، ومع ذلك يُحاولون:

- فى الداخل يرون أن الكلام يَجوز حتى وإن تضاءل الأمَل.

- وفى الخارج يَرون أن الكلام لا يجوز حتى وإن كانت حقائق ما يجرى على رؤوس الأشهاد.

هناك مسألة كرامة لأوطان ولمواطنين - لكن ممارسة هذا النوع من الكرامة مَسألة حساسة، لأن من تتحدث إليهم - من الرسميين وغير الرسميين - يعرفون. وتكتشف أنك لا تستطيع أن تُدارى، لكنك قبل ذلك تكتشف أنك غير قادر على البوح!

ثم يكون الحل «اللائق» تفادى الكلام أصلاً: سؤالاً وجواباً. ذلك لأننا حين نتكلم مع أصدقائنا فى الخارج - رسميين وغير رسميين - نسأل ويجيبون، ويسألون ونجيب، فإذا لم نكن نريد أن نجيب فأفضل الصمت أن لا ندع للكلام مناسبة من الأصل والأساس!»

ولم ييأس «أيان» وإنما قال:

«هل هذا يتعارض مع ضرورة أن تتحدث هناك عن أشياء يجب أن يفعلوها؟»

قلت: «وإذا أجابنى أحدهم سائلاً لماذا لا تفعلون ذلك أنتم قبل أن تدعوا غيركم إليه؟ - ماذا أقول؟»

سكت «أيان جيلمور» يفكر - وغَيَّرتُ الموضوع!

هنأت «أيان» على خطاب بعث به لجريدة «الإندبندنت» وانتقد فيه بشدة «أيان بلاك» صاحب دار «التلجراف» لاتهامه أحد كُتَّاب إحدى جرائده («الاسبكتاتور») بالعداء للسامية.

قال لى «أيان»: «تَتَذكَّر.. كانت مجلة الاسبكتاتور فى يوم من الأيام من الأيام ملكى، وكنت مُولعاً بالعَمَل فيها - ولسوء الحظ بعتُها، ثم تبادَلَتها الأيدى حتى وَصَلَت إلى «كونراد بلاك» - «كونراد بلاك» ليس يهودياً، ولكنه صهيونى.. أكثر صهيونية من أى رَجُل عَرَفته».

سألتُ «أيان» إذا كان ذلك تأثير زوجته «آميل».

....

....

[وهى كاتبة يهودية كانت تكتب من قبل فى «الصنداى تيمس»، وهناك التقيتها مرة واحدة أثارت فيها دهشتى. كانت جميلة وجريئة، وأتذكر أننى قلتُ لرئيسها وهو وقتها «فرانك جايلز»: «هذه السيدة تعمل فى الصحافة محطة، وليس نقطة وصول نهائية». ووافق على رأيى. وبعد سنوات وَقَع «كونراد بلاك» الذى اشترى مؤسسة «التلجراف» فى غرامها، وطَلَّق من أجلها زوجته الكَنَدية وتزَوَّج منها، وأكثر من ذلك جَعَلها رئيسة تحرير لإحدى جرائده]

....

....

سألتُ «أيان»: «ما الذى جرى للصحافة البريطانية حتى أصبح مُلاكها جميعاً من الأجانب؟

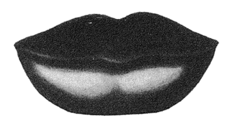
مجموعة «التيمس» يملكها «مردوخ» (أسترالى)

مجموعة «التلجراف» يملكها «بلاك» (كَنَدى)

مجموعة «الميرور» كانت ملكاً لـ«ماكسويل» (مُهاجر من تشيكوسلوفاكيا القديمة)

دار «ويندنفيلد» للنشر يملكها «ويندنفيلد» (مُهاجر من المجَر)».

صورة «الدرة» ومثيلاتها
من الصور زادت تعاطف الرأى
العام فى أوروبا من ثلاثين إلى خمسين
فى المائة، وفى الولايات المتحدة من واحد
إلى عشرة فى المائة.
لكن ما جاء بعدها من صور
يوشك أن يمحو أثرها!



قال «أيان»: «الإندبندنت هى الجريدة البريطانية الوحيدة الآن».

قلتُ: «إننى غير متأكد لأن «إيفلين روتشيلد» مُساهم فيها.

قال «أيان»: «لكن إيفلين إنجليزى».

قلتُ: «إن اسم «روتشيلد» وحده جنسية مستقلة .. دولية؟!»

سألتُ «أيان» عن أحوال حزب المحافظين؟ - وكان ردُّه: كما ترى».

سألته «إذا كان يشعر بشىء من الحنين - وشىء من النَّدم - لأيام كانت فيها «مارجريت ثاتشر» تقود الحزب من نجاح إلى نجاح فى الانتخابات العامة - ثلاث مرات متوالية، وكانت المرة الرابعة فى الطريق لولا أن عارضها أقطاب حزبها وضمنهم هو - «أيان جيلمور» نفسه، ثم ظلوا يضغطون عليها حتى دفعوها إلى الاستقالة من رئاسة الحزب ورئاسة الحكومة دامعة العينين كسيرة القَلب؟!»

لم يُجب «أيان» مباشرة وإنما سألنى هل رأيتها هذه المرة؟ - وأجبتُ بالنفى، وأضفتُ: «ولكنى رأيتُ زوجها «دنيس ثاتشر» (وهو الآن أيضاً وبسبب زوجته أصبح «اللورد دنيس ثاتشر»)، كان أمامى على العشاء وقد حَسَدْتُه على شهيته المفتوحة. بدأ طعامه بالكنتالوب (شمَّام)، ثم انتقل إلى الإسباجيتى، وبعدهما قطعة من سَمَك السلمون لا بأس بها، وخَتَمَ بفنجان قهوة معه عدة قطع من حلوى «الفريانديز». تابعتُه وهو يأكل وسألتُ نفسى بعد أن نظرتُ إلى ساعتى وتَعَجَّبتُ كيف يستطيع رجل فى سِنِّه (٨٦ سنة) أن يأكل ذلك كله على العشاء وينام الليل؟»

يبدو أن فكر «أيان» كان يعمل لا يزال عند السؤال الأصلى الذى وَجَّهتُه له عن سقوط أو إسقاط «مارجريت ثاتشر» - وهكذا عاد يقول:

«مارجريت ثاتشر فَقَدَت صلتها بالواقع، وذلك هو الذى قضى عليها وليس تآمُر عدد من وزرائها وأقطاب حزبها كما يحلو لها أن تظن. هى لم تَعُد تظن وإنما اقتناعها الآن كامل بأننا جميعاً أمسكنا بالخناجر وراء ظهورنا ثم انتهزنا لحظة غفلة منها وغرزنا الخناجر كلٌّ منا حيث طال. وذلك غير صحيح بالطبع. يُحب بعض الساسة أن يُصَوِّروا أنفسهم ضَحايا. ليس هناك سياسى قابل للاقتناع بأن زمانه انتهى، وأن عُمره الافتراضى انقضى، وأنه لم يَعُد قادراً على الاستيعاب والاستجابة».

استطرد «أيان» يقول:

«لاحظ أننى أعتقد أنها أقوى زعيم للمحافظين منذ أيام «تشرشل». هى امرأة قادرة، ولم يُخطئ ذلك الذى وصفها بالمرأة الحديدية - لكن حتى الحديد له عُمر افتراضى. مارجريت أعطت الحزب دَفعة قوية. شَكَّلَت وزارات للمحافظين من أحسن ما عَرَفَته بريطانيا بعد الحرب. قامت بتَحَوُّلات اقتصادية أساسية. أضافت بشخصيتها إلى السياسة البريطانية فى زمانها مذاقاً خاصاً - لكن ليس هناك «سياسى إلى الأبد». السياسى الحقيقى رَجُل يعرف متى يجىء أوانه، ومتى تنتهى صلاحيته، وعليه أن يبتعد قبل أن تزيحه الضرورات، وذلك أذكى قرار يستطيع أى سياسى أن يتخذه. أى سياسى. أى مشتغل بالشأن العام. أى رَجُل أو امرأة يكون تقدير عمله وحجم سُلطته مرهوناً بقبول الناس، عليه أن يَعرف متى يغادر خشبة المسرح، وإلا فإنه سوف يغامر بموقف كوميدى يَصعَد فيه الجمهور إليه على المسرح، ويَحمله من يديه وقدميه ويلقيه بعيداً فى الخارج. أكبر إهانة لرَجُل أو امرأة فى ساحة الأداء العام - سياسة، ثقافة، فناً - أن ينتظر حتى يلقى به فى العراء!»

سألنى «أيان»: «هل قابلت «تيد» (يقصد «إدوارد هيث» رئيس وزراء المحافظين الأسبق والرجل الذى أعطى منصباً وزارياً أول مرة لـ«مارجريت ثاتشر»، وكانت تلك هى البداية التى تقدمت منها «مارجريت» من وزارة التعليم فأزاحَت «هيث» وأخذت رئاسة الحزب، ثم رئاسة الوزارة).

قلت: «سوف أقابل «تيد» غداً».

قال: «اسأله كما سألتنى إذا كان آسفاً على أيام «مارجريت ثاتشر»؟»

قلت: «لا داعى لأن أسأله لأنى أعرف رأيه، وهو لا يخفيه، بل إنه قاله لأحد ملوك السعودية (الملك «خالد»)».

....

....

[كان «هيث» يزور السعودية، وراح الملك «خالد» يُحَدِّثه عن نهضة المملكة فى عهده بما فيها التوسع فى تعليم البنات، وقاطعه رئيس وزراء بريطانيا السابق قائلاً له: «لماذا تعلمونهن؟ تعليم المرأة خطر .. الأفضل تَركها حيث هى!» - ولم يُدرك الملك «خالد» أن «هيث» لا يتحدث عن المرأة السعودية، وإنما يتحدث عن المرأة الحديدية التى انتزعت منه رئاسة المحافظين ورئاسة الوزارة.]

....

....

وقلت لـ«أيان»: «سوف أسأل «هيث» عن «هيج» رئيس الحزب الحالى الذى يقوده الآن فى معركة الانتخابات».

واغرق «أيان جيلمور» فى الضحك - قائلاً:

«أعرف ما سوف يقوله لك «تيد» مقدماً عن «هيج» - سوف يقول لك انه رَجُل قام بقفزة تَصَوَّر فيها أنه يَملأ فراغاً فى زعامة حزب المحافظين، وهو فى الحقيقة لم يكن قادراً عليه. وفى النهاية فليس أمامه غير ما ينتظره عند نهاية قفزة أوسع من طاقته - الوقوع!»

....

....

[حَدَث ذلك فعلاً - وأعلَن «هيج» استقالته من الحزب بعد ساعة واحدة من ظهور نتائج الانتخابات.]

....

....

سكت «أيان»، واستطرد:

«حزب المحافظين فى أزمة. إن العُمال سرقوا برامجه أو معظمها. «تونى بلير» أعطى وجهاً اشتراكياً مُستعاراً من تاريخ حزب العُمال - لسياسة ليبرالية صاحبها حزب المحافظين، ثم قَدَّم هذا المزيج السحرى إلى الناخب البريطانى باعتباره «مَطلَب عُصور جديدة».

....

....

[أظنها ظاهرة عالمية جديدة تَختَطُّ مَجرى للسياسات يَلتَزم الوَسَط، وفى الغالب يسار الوَسَط. والأرجَح أنه التأثير المباشر لتكنولوجيا الإنتاج وتكنولوجيا المعلومات .. والظاهرة فى كل الأحوال تَستَحق المتابعة - وهى فى العالم الثالث تَحتاج مع المتابعة إلى شىء من المراجَعة!]

....

....

واصَل «أيان»:

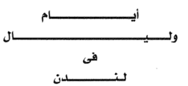
«نحن (حزب المحافظين) لم نستطع مجاراة متغيرات العصور. مارجريت فى البداية استطاعت، لكنها اندفعت إلى بعيد مُعتمدة على شخصيتها أكثر من اعتمادها على فكرة وبرنامج وحركة تُقيم وتُجَدِّد حزباً سياسياً. أظنها كذلك بطول بقائها أضاعت الفرصة على غيرها كانوا يصلحون، لكنها لم تفسح لهم الطريق».

قلت: «لم أجد أحداً فاتته فرصة رئاسة المحافظين ورئاسة الوزارة مع طول فترة ما بعد الحرب العالمية غير «أنتونى ناتنج» (الذى اختلف مع «إيدن» واستقال إبان أزمة السويس سنة ١٩٥٦).

تَمتَم «أيان» وهو يهز رأسه بقوله: «لا أعرف».

حين يصبح المسئول عن المفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين هو مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «جورج تنت» - إذن فإن ألف جرس إنذار يجب أن تدق، وألف لمبة حمراء لابد أن تشتعل!





قلت: «كثيرون من المحافظين يقولون أن «بَتلر» ضاعَت منه الفرصة لأن «ماكميلان» عندما قَدَّم استقالته اقترح على الملكة أن تَستَدعى اللورد «هيوم» لرئاسة الوزارة رغم أن «بَتلر» أقدَم منه - وكان أصلَح. لست مُتأكداً أن «بَتلر» فاتته الفرصة. فى حِزب العُمال كثيرون أظن أن الفرصة ضاعَت منهم. فى ذاكرتى ثلاثة رجال أو أربعة ظننتُ أن زعامة حزبهم ورئاسة الوزارة فى انتظارهم، لكن ظنى لم يتحقق».

عددتهم له: «جورج براون»، و«دنيس هيلى»، و«روى جينكينز»، و«دافيد أوين».

علق «أيان»: «جورج براون كان على وشك، لكن إدمانه على الشراب ضَيَّعَ فرصته ومَكَّن «ويلسون» من الإجهاز عليه..

«دنيس هيلى» كان يمكن أن يكون رئيساً ممتازاً للوزراء، لكن عَدَداً من زملائه كانوا يَخشون قُوَّته، وذهَبَت أصواتهم إلى «جيم كالاهان» الذى بدا لهم طيِّعاً أكثر من «هيلى».

«روى جينكينز».. لا أعرف. «روى» مثقف، والمثقف مع السُلطة مشكلة. هو مشكلة للسُلطة والسُلطة مشكلة له.

«دافيد أوين» لم تكن لديه تلك الجذور أو القواعد فى الحِزب .. هو طارئ جديد على حِزب العُمال فى وزارة «كالاهان»، وكان الذى قدمه لرئيس الوزراء هو زوج ابنته «بيتر جاى»، وأعجب به «كالاهان» وعَيَّنه (وهو الطبيب أصلاً) وزيراً للخارجية مرة واحدة».

سَكَتُّ قليلاً ثم قلتُ لـ«أيان»:

«لاحظتُ هذه المرة فى الحملة الانتخابية لـ«تونى بلير» أنها تدور على نقطة «الهوية» البريطانية.

نفس الموضوع تبناه «هيج» لكنه حَوَّله إلى عنصرية على طريقة الزعيم المحافظ القديم «إينوك باول» الذى طالب بطرد كل الملوَّنين من بريطانيا لكى تحتفظ الجزر بنقائها العنصرى.

لفت نظرى موضوع «الهوية» كمسألة مركزية فى الحملة الانتخابية هنا. عندنا هناك - فى العالم العربى - كثيرون «طَقَّ» فى رأسهم أن «العَولمة» تقتضى الاستغناء عن «هوية».

أضفتُ:

«قليلاً ما نعرف - كثيراً ما نتكلم».

وكان فكرى قد ذهب بعيداً إلى العالم العربى.

٤

أساطير صحفية وفنية وسط الريف البريطانى!

« السبت »

موعد لقضاء نهاية الأسبوع فى بيت «أندرو نايت». «أندرو» قصة صعود مذهل - صاروخى - فى الصحافة البريطانية. جاء إلى لندن من نيوزيلندا حيث كان والده يَعمَل. تَعَلَّم «أندرو» فى «أوكسفورد»، واتجه إلى الصحافة، وأصبح مراسلاً لجريدة «الأيكونوميست» الشهيرة فى نيويورك، ثم فى بروكسل عندما أصبحت عاصمة بلجيكا - عاصمة للسوق الأوروبية كلها. وبعد ثلاث سنوات فى بروكسل استدعى «أندرو» للعَمَل فى المقَرّ الرئيسى لـ«الإيكونوميست» على حافة طريق «هوايتهول» فى قلب لندن. بعد خمس سنوات أصبح «أندرو» رئيساً لتحرير المجلة الاقتصادية الأشهر فى أوروبا كلها، وفيها حقق مجده الصحفى خلال إحدى عشرة سنة قضاها على رأس «الإيكونوميست». ثم بدا لكل الناس - إلا لـ«أندرو» نفسه - أن طاقته أصبحت أكبر من منصبه الحالى، وأنه إذا لم يجد فرصة جديدة فإن منصبه الحالى سوف يَتَحَوَّل إلى قفص يحبسه.

□

على مائدة الإفطار فى فندق «كلاريدج» ذات صباح - ومعنا صديق مصرى لى وله كان هو داعينا - سألنى «تاينى رولاند» المليونير البريطانى الشهير الذى مات بحسرة عجزه عن استرداد محلات «هارودز» (وكان قد باع نصيباً منها إلى المليونير المصرى «محمد فايد» مع تفاهم بينهما - كما قال «تاينى» - أن تعود إليه عندما يُسَوِّى أموره فى إدارة الشركات البريطانية - لكن ذلك التَفاهُم انكفأ على وجهه ووَقَع على الأرض - وتلك حكاية أخرى). سألنى «تاينى رولاند» عما إذا كنت أظن أن «أندرو نايت» مُستعدٌ للعَمَل معه رئيساً لتحرير جريدة «الأوبزرفر» التى اشتراها هو قبل شهور وتُقلقه أحوالها لأن رئيس تحريرها («تريلفورد») غير قادر على تطويرها بما يوقف خسائرها رغم سُمعتها العريقة؟

وأضاف «تاينى رولاند»: «إنه يعرف أن «أندرو نايت» صديق مُقَرَّب لى، فهل أستطيع مفاتحته؟»

وقلتُ لـ«تاينى رولاند» ما مؤداه «أننى لست الشخص المناسب لمفاتحة «أندرو نايت» لأنى إذا فاتحته سألنى عن رأيى، وإذا سألنى فسوف أقول له إن بقاءه فى «الإيكونوميست» أفضل له!»

وضاقت عينا «تاينى رولاند» وهو ينظر إلىَّ محاولاً استقراء دلالة ما قلته، ويسألنى: «هل ذلك رأىٌ فى «الأوبزرفر» أو رأىٌ فىَّ شخصياً؟»

وقلتُ بصِدق: «بل هو رأىٌ فى «أندرو نايت» نفسه». ثم أضفتُ محاولاً أن لا أسبب حَرَجاً لأحَد: «لا أخفى عليك أن بى خشية من رأس المال على الصحافة، تزعجنى دائماً ملكية رَجُل فرد لجريدة كبرى - مع أننى لا أومِن بتاميم الصُحُف، ولا تاميم الإعلام بصفة عامة - والحقيقة أننى أحس بالحاجة إلى صيغة أخرى لملكية هذه الوسائل الخطيرة والخطرة على الأفكار والناس والأوطان فى أحوال وطنية وعالمية لا تَظهَر لها حدود أو ضوابط. ولأنى أُقَدِّر كفاءات «أندرو» فإننى أُفضِّل أن يَتَجَنَّب التجربة .. الإيكونوميست كما تَعرف شركة مُساهمة وليست ملكية فرد - المساهِم الأكبر فيها شركة «بيرسون» - شركة أيضاً».

□

وافقنى «أندرو نايت» تماماً عندما عَرَف بما دار بينى وبين «تاينى رولاند» من حِوار. على أنه لم تَمض شهور حتى كان «أندرو» قد ترك «الإيكونوميست» إلى «التلجراف» وسط موقعة دَوَّت أصداؤها فى الصحافة البريطانية كلها.

كان «أندرو» صديقاً لـ«كونراد بلاك» صاحب مجموعة الصُحُف الكندية الكبرى، وكان «كونراد» يَطمح إلى تَواجُدٍ فى لندن بمثل ما فَعَل «روى طومسون» (مليونير كندى) قبله حين استطاع شراء «التيمس» و«الصنداى تيمس». وتمكن «أندرو» من إتمام الصفقة عارفاً أن اللورد «مايكل هارتويل» آخر البارونات من أسرة «برى» يريد أن يبيع. وكان أن «بلاك» اشترى مجموعة «التلجراف»، وأصبح «أندرو نايت» بعدها رئيساً للتحرير العام لهذه المجموعة الصحفية الكبرى.

كان «بلاك» حتى ذلك الوقت يعيش فى كندا رغم ملكِيَّته لمجموعة من أكبر الصحف البريطانية وأعرقها - وكان «أندرو نايت» مُفَوَّضه العام. وأعاد «أندرو» تنظيم «التلجراف»، ومع أن أرباحها حين قام على مسئوليتها كانت مَعقولة (٣٦ مليون جنيه إسترلينى سنة الشراء) فإن «أندرو» دَفَعَ بالأرباح عن طريق إعادة التنظيم فى التحرير والتوزيع والإعلان بما رَفَعَ الأرباح فى ظرف ثلاث سنوات (٢٧٠ مليون جنيه إسترلينى).

وإزاء هذا النجاح الساحق قرَّر «كونراد بلاك» أن الفرصة حانت لنقل «عاصمته» إلى لندن، وكان أن أدرك «أندرو نايت» أن دَولته المستقلة فى «التلجراف» وَلى زَمَنُها، لأن مجىء صاحب الجريدة للجلوس والعَمَل من مَقَرِّها سوف ينزع عنها صفتها المؤسسية ويؤكد ملكيتها الفردية (كذلك قال لى «أندرو» بنفسه) - والنتيجة أن «أندرو» سَوَّى أموره مع «كونراد بلاك» وخَرَجَ من «التلجراف» ومعه حصة نصيب فى الأرباح (مُتَّفق عليها) بَلَغَت خمسة عشر مليون جنيه إسترلينى.

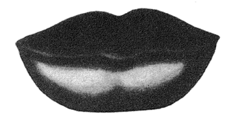
□

المدهش أن «أندرو» كرَّرَ نفس التجربة تقريباً مع «روبرت مردوخ»، فقد خرج من «التلجراف» إلى «التيمس»، ثم تركها بعد ست سنوات ومعه نصيب أرباح بلغ ثمانية عشر مليون جنيه إسترلينى.

وفاجأنى «أندرو» حين جاء إلى مصر يقضى أياماً معنا فى الغردقة، عندما أبلغنى فى اليوم الأخير من زيارته أنه «قرَّرَ ترك التيمس»، مضيفاً أن «رأيه مثل رأيى» بعد التجربة العملية، فهو الآن مُقتنع بأن الملكية الفردية للصُحُف قضية مُعَقَّدة لم يعثر أحد على حَلٍّ لها حتى الآن. وعلى أى حال فقد اتخذ قراره بأن يترك «التيمس». وسألته «إلى أين؟» وأدهشنى حين قال: «إلى مزرعة سوف أشتريها فى الريف الإنجليزى»!

ولم تمض غير شهور حتى تلقيت من «أندرو» أنه اشترى البيت الريفى الذى حلم به طول عمره. وهو وسط مزرعة فى مقاطعة «ووركشير»، وتلك أحلى منطقة من قلب الريف البريطانى وهى منطقة «كوت فولد». البيت فيها بناه سَيِّد إنجليزى من القرن الثامن عشر، وتوارَثته أسرته، ثم تَغيَّرَت الظروف وعَرَضَته للبيع. وبعثَ إلىَّ «أندرو» بصُوَر وتفاصيل عن «بيت الأحلام»، فهو واقع على تلٍّ عال أخضر وسط ستمائة هكتار (حوالى ألف وخمسمائة فدان)، وفى وسط الأرض نهر صغير يتدفق من أعلى إلى وادٍ تمتد بعده المروج إلى مدى البصر. وتَحَوَّل «أندرو» إلى شاعر وهو يكتب لى عن بيته الجديد فى الريف، ولاحظت أن الخطاب نفسه ورق مطبوع باسم المزرعة مع رَسم لخطوط البيت.

وبدا لى البيت أساساً بديعاً - حسب ما قرأت ورأيت من الخطابات والرسوم - لكنه كان يحتاج إلى عملية تجديد شاملة لغرف النوم وحماماتها، وصالونات الاستقبال والمعيشة وأثاثها، لأن «أندرو» يريد غرفة مدفاة، ويريد المدفاة بعرض ستة أمتار، كما أنه يريد حمَّام سباحة نصفه مغطى ونصفه مفتوح، ويريد ملعب تنس، ويريد ويريد ..



تَجديدات سوف تزيد تكاليفها على ثلاثة ملايين جنيه إسترليني.

كانت صديقته التي تقدم لخطبتها «مريتا» سليلة أسرة من أعرق الأسر البريطانية، وشقيقتها هي «دوقة وستمنستر» وزوجها ليس عريق النَسَب واللقب فحسب وإنما هو أغنى رَجُل في بريطانيا لأنه يملك أكبر دائرة عقار في قلب لندن، وهي تحمل اسم أسرته ولقبها الموروث (وستمنستر).

كان «أندرو» قد طلَّق زوجتين سابقتين، وكانت «مريتا» متزوجة من قبل «أندرو» لكن زوجها مات في حادث طائرة تاركاً لها ثلاثة أطفال، ولم تكن لديها مشكلة غير شجَن خَلَّفته الأحزان، وهكذا فإنها حين التقت بـ«أندرو» كان كلاهما مهيأ لحياة جديدة - لكنها ظلت لسنوات تعتذر عن يده الممدودة لطلب خطبتها. وأتذكر أنني تحدثت إليها مرة في علاقتها بـ«أندرو» وكان ردها: «أن أندرو إنسان يستحق كل خير، وأنها بالفعل بدأت تنشغل به، لكنها تشعر أن زوجها الراحل ما زال يسكن قلبها، وهنا فهي لا تستطيع أن تقف على مَذبَح الكنيسة يوم عَقد القران وتُقسم يَمين الولاء في السرَّاء والضرَّاء لرَجُل دون أن تتأكَّد أن قلبها أصبح حُراً من رباط الماضي».

وكان على «أندرو» أن ينتظر قبولها لعرضه بالزواج، وقد ظلت تمانع رغم أنها تَوَلَّت أمر تجديد البيت الريفي الذي اشتراه، وأكثر من ذلك أخَذَت أطفالها الثلاثة وذهبت للحياة فيه «لأن ذلك البيت على الربوة في «الكوت فولد» خطف خَيالها من بيت أسرتها القديم وسط اسكتلندا وحملها جنوباً إلى وسط إنجلترا»!

وكنت رأيت البيت والمزرعة مرة وسط عملية إعادة البناء والترتيب. فقد عرف «أندرو» - مرة أثناء زيارة قُمتُ بها لإنجلترا - أنني ذاهب لعطلة نهاية الأسبوع في مدينة «باث»، واقترح أن أمُرَّ عليه في «مَوطنه الجديد» وهو قريب من «باث».

لكنها هذه المرة ليست دعوة غداء، وإنما هي دعوة قضاء عطلة نهاية الأسبوع!

وذهبنا وفي حسباني أنها ليلة في الريف البريطاني. فنجان من الشاي بعد الوصول عصر السبت. نصف ساعة أو أكثر من المشي وسط الوديان والمروج. قبل أن ينزل المساء سوف نَذهَب إلى القرية العتيقة القريبة نستكشف معالمها ومعظمها مما بُني في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر. وعندما ينزل المساء سوف نعود إلى البيت. وعندما نعود فإن «مريتا» و«أندرو» سوف يأخذاننا إلى جولة في غرف البيت (القصر في الواقع) - وبعدها عشاء خفيف مع صوت موسيقى (كنت واثقاً أنه سيكون لـ«جون فيلدز» الذي اكتشفته لأول مرة عن طريق «أندرو» و«مريتا») - ثم النوم بالتأكيد قبل العاشرة.

فوجئت بأن ما تَوَقَّعتُه لم يَحصل، وإنما حَصل ما لم أكن أتَوَقَّع.

كنت أعرف - من قبل - أن «مريتا» تَتَمَلَّكها فكرة أن تكتب مسرحية غنائية عن الشاعر الروسي العبقري «بوشكين»، لأنها تَعتَقد في شِبه يقين بأن عروقها تَحمل بعضاً من دَم ذلك الشاعر، وأن ذلك الدَم وَصَلَ إليها عن طريق جدَّة لها هامَت به حُباً أثناء زيارة قامت بها في شبابها للعاصمة الروسية القيصرية «سان بيترسبورج». وكان اعتقاد «مريتا» أنه حتى إذا لم تكن دماء «بوشكين» في عروقها بقوة الطبيعة فإن هذه الدماء موجودة في عروقها بقوة العاطفة التي تحس بها إزاء «شاعرها» الذي تقوم وتنام معه (على حَدِّ تعبيرها).

وكانت «مريتا» قد كتبت لنا مرة تقول أنها أعطت نصوصاً مما كتبته إلى موسيقى روسي يُلحِّنها. وفي خطابها أبدَت دهشتها وتفاؤلها من أن الموسيقى الذي رَشحوه لها كان من «سان بيترسبورج» (ستالينجراد طول فترة الحكم الشيوعي) - اسمه «تشايكوفسكى» (على اسم العبقرى الأشهر).

وهذه المرة عندما وصلنا إلى مزرعة «سكوربى» (مزرعة «أندرو» وبيته الريفى) وجلسنا إلى فنجان الشاى التقليدى بعد الوصول، كان أول ما قالته لنا «مريتا»: «هل تعرف من سيكون معنا على العشاء الليلة؟ «تشايكوفسكى» الموسيقى الروسى الذى يقوم على تلحين المسرحية الغنائية التى كتبتها عن «بوشكين» وأتَشَوَّق إلى أن أراها حَيَّة ذات يوم على خَشَبة مَسرَح. جاء «تشايكوفسكى» إلى هنا بالأمس، واليوم ذهب إلى لندن ليرى صديقة له عازفة «كمان» جاءت مع فرقة «كيروف» للباليه التى تزور العاصمة البريطانية لمدة شهر تقدم فيه بعض عروضها. «تشايكوفسكى» قادم قبل العشاء».

تأخر «تشايكوفسكى» عن موعد العشاء ربع ساعة، وجاء، ولكنه جاء ومعه صديقته «أولجا» عازفة الكمان التى اعتذرت ليلتها عن العمل مع فرقة «كيروف». وكان «تشايكوفسكى» يحمل معه اقتراحا مثيراً. فقد فَرَغ من تلحين فصل كامل من الرواية الغنائية التى أعطتها له «مريتا» قبل شهور، وهو يَقتَرح أن يَعرض ألحانه الليلة على صاحبة الرواية، وسوف يجلس إلى البيانو وصديقته «أولجا» إلى جواره وفى حضنها الكمان. وكانت «مريتا» مأخوذة بما سمعت، وحماستها تَتَحَوَّل إلى شعلة لهب.

ومضى العشاء بسرعة لم يستغرق غير دقائق، وانتقلنا جميعاً إلى قاعة الاستقبال الرئيسية والمدفاة فيها بعرض ستة أمتار، والضوء حَنون على ألوان الأثاث العتيق، واللوحات اختيار بَديع، وهى تُغَطِّى الجدران بين السَتائر نصف المسدَلة على النوافذ، ومن الستائر نصف المفتوحة تظهر أضواء الحديقة، وكذلك تَلوح من بَعيد أضواء قرية تَقبَع على الناحية الأخرى من التَلِّ القريب.

وأمام البيانو جلس «تشايكوفسكى»، وبجواره جلست «أولجا» و«كمانها» بين يديها ووجهها، ووراء الاثنين وقفت «مريتا» وفى يدها النص الذى كتبته.

ثم انطلقت الأصوات والألحان والكلمات فيضاً. رُؤى ومَشاعر وخيالات امتزجت مع بعضها وذابَت.

كان عَدَد المشاهدين موازيا لعَدَد المؤدين. قرينتى وأنا - و«أندرو» - وأمامنا ثلاثة غيرنا معهم النص واللحن والأداء. والَجو شبه أسطورى.

صباح اليوم التالى - الأحد - استيقظت مبكراً ونزلت إلى غرفة الإفطار تُحيط بها الحديقة، وجاءت مديرة البيت بوجهها الأحمر وشعرها الأبيض وملامح وجهها التى تشى بزمان جميل مضى، وعافية ما تزال حاضرة ومُتَحَفِّزة، تسالنى عما أريد - ولحق بى «أندرو» يأخذ لنفسه فنجاناً يملؤه بالقهوة ثم يسالنى: «ما رأيك فى اللحن الذى سمعناه أمس؟ «مريتا» كانت تريد أن تسمع رأيك تَفصيلاً - لكن الوقت تَأخَّر بنا كثيراً».

وسالته وهو لا ينتظر سؤالى بما مؤداه: «أندرو .. ماذا تنوى أن تفعل؟»

ورَدَّ باسماً: «سالتنى هذا السؤال مرة وأجبتُ عليه، وما زالت إجابتى كما كانت عندما سالتنى أول مرة: سوف أفعل ما أفعله الآن».

وسالته: «تعنى أنك ستبقى هنا فى «كوت فولد»؟»

قال: «هذا هو البيت الذى حلمت به. وقد تحقق حلمى، وأنا هنا أعمل عدة ساعات فى الصباح أتابع فيها مَصالِحى - حتى أضمَن حَقى فى أن أعيش عُمرِى»!

وسالته: «والمهنة؟»..

وقال: «هل تَتَصَوَّر أننى على استعداد لأن أذهب إلى مؤسسة صحفية وأبدأ من جديد؟ - لقد عملت بما يكفينى، ولا أجد منطقاً يقنعنى بأن أترك حياتى هنا كما حلمت بها وحققتها لكى أذهب إلى لندن وأعود إلى «المهنة» كما تقول أنت».

واستطرد: «تعال معى بعد الإفطار، أريد أن أريك قطعة أرض جديدة اشتريتها لتوسيع المزرعة .. رَتِّب نفسك لصُعود تَلٍّ عال .. مائتى متر تقريباً، لكنك من هناك سوف ترى مَشهد «بانوراما» تَخطف البصر!»

بعد الغداء كان علينا أن نعود إلى لندن. وركب «أندرو» معنا إلى باب المزرعة الخارجى على الطريق الرئيسى من «وريك» إلى «باث»، ثم نزل إلى سيارة جيب انتظرته ليعود بها.

والتفت إلى المشهد الذى تركته ورائى، وكانت المزرعة وبيت «سكوربى» العالى على التل وسطها، وسالتُ نفسى دون كلام: «هل يعقل أن يقرر أهم صحفى بريطانى ظهر فى الثمانينات والتسعينات بسرعة صاروخ أن يعتزل ووراءه سجِلٌ هائل - وناجح بكل المعايير؟ - لست مَتاكداً لأنى فى ظروف سابقة لَمَحتُ وأحسَستُ بجذوة النار المقَدَّسة فى قلبه، ولولا هذه الجذوة لما نجح إلى هذا المقدار - فهل يَقدر على البعاد والفراق؟

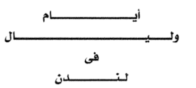
طول الطريق إلى لندن كان «أندرو» فى خواطرى - أسال نفسى هل وَجَدَ «سَعادَته النهائية» كما يقول، أم أن «السَعادة الحقيقية» سوف تُناديه مرة أخرى إلى مَوقع آخر؟

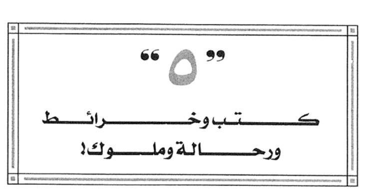
طرأت على فكرى مَقولة أتذكَّرها لفيلسوف (أظنه «باسكال»): «السَعادة مثل الكرة، نجرى إليها، فإذا وَصَلنا رَكَلناها باقدامنا إلى بَعيد، ثم عُدنا نَلهَث وراءها حتى نَلحقها، ثم نَركلها من جديد». هل تَوَقَّف «أندرو» عن اللعب؟.. وَصَلَ إلى الكرة فى مَلعَب الطموح الكبير ثم قَرَّرَ أن السَعادة فى التَوَقُّف. يمسك بالكرة فى يَده - ولا يَركلها بقَدَمه!! - وإذا كان ذلك فما هى اللعبة إذن؟

- لستُ واثقاً!؟

أى مهتم بالشأن العام
يجد نفسه أسير مأزق مزعج
سواء كان داخل وطنه أو خارجه،
يجد نفسه حائرا بين الكلام وبين الصمت.
يسأل نفسه إذا كان الكلام
مجديا، مع يقينه بأن
الصمت لا أخلاقى







« الاثـــنـــين »

ذهبتُ لأشترى ربطات عنق، لكنى فى منتصف الطريق نسيت مقصدى.

مشيت من فندق «كلاريدج» فى شارع «بروك» - متَّجهاً نحو «بوند ستريت» وفيه مجموعة من أشهر المحلات، ورُحتُ أتطلع إلى بعض واجهات العرض على مَهل. ولمحتُ على الجانب الأيسر من الطريق لوحة شَدَّتنى إليها كعادتها. وعَبَرتُ الشارع فى منتصفه قاصداً إليها - دار «سوذبى» الشهيرة للمَزادات، وهى متخصصة فى أشياء نادرة: من تُحَف تَنتَمى إلى كل العصور والمعادن والمدارس - إلى الأثاث المنسوب لعصورد المَلَكية والإمبراطورية، وحتى الاستعمارية - إلى الخرائط والكتُب القديمة - تلك التى لا بد أن يكون عمرها قرناً أو قرب القرن على الأقل - ثم أن تكون بالشرط طبعة أولى وليست تكراراً من طبعات.

والتُحَف والأثاث ليست شواغلى. ولكن الخرائط القديمة والكتب المطبوعة قبل قرن أو قرون مَضَت لم يبطل سحرها علىَّ!

وفى الحقيقة فأنا أتوقى هذا النوع من المعارض وصالات المزادات . لكن صالات دور من وَزن «سوذبى» و«كريستى» مسألة أخرى لأن الكتُب والخرائط عندها، وأصحاب المجموعات النادرة لا يبيعون ما عندهم إلا هناك.

بين أسباب التَرَدُّد أننى أعرف - مما أقرأ - أن ذلك سوق «ملعوب فيه» - فالمعروضات فى هذه الدور بالطبيعة نادرة، ثم إن توافرها ليس حركة سوق عادية تُلَبِّى طلبات الراغبين بانتظام مُنتَج مَوصول بالسوق، وإنما الحركة مُعظمها مُصادَفات حتى وإن حاوَلَت هذه الدور («سوذبى» و«كريستى» وغيرهما) أن تتحكم فى المصادفات بإدارتها عن طَريق ترتيب المواقيت والمواسم - بظن أن ذلك يتيح نوعاً من «التحكُّم» أو «التلاعُب» فى الأسعار - وهو صحيح. وكانت الشكوك فى «التحكُّم» و«التلاعُب» تُطارد الدارين الشهيرتين («سوذبى» و«كريستى» معاً) وحاوَلَت كلتاهما أن تَرُدَّ الشكوك بمظلات وواجهات من «الاحترام» تضعها على رأسها أو تحتمى وراءها.

وفى وقت من الأوقات نجَحَت دار «كريستى» حين عَرضَت على اللورد «بيتر كارينجتون» نائب رئيس حزب المحافظين ووزير الخارجية السابق، وقريبٌ للملكة مسموح له بوضع التاج على أوراق مراسلاته الخاصة - أن يرأس مجلس إدارتها.

....

....

[تذكرتُ أننى فى ذلك الوقت - قبل أكثر من عشرة أعوام - سألتُ اللورد «كارينجتون» لماذا قَبِل؟ - وكان رَدُّه: «ذلك مجالٌ أعرف شيئاً عنه، وأحبه - هذا سَبَب. وسَبَب آخر أنه يتعين علىَّ أن أجد عملا يجيئنى منه إيراد منظم».

ذكرنى رَدّ «بيتر كارينجتون» بِرَدٍّ من نوعٍ آخر على سؤال وَجَّهتُه إلى «جورج براون» نائب رئيس حزب العُمال ورئيس الوزراء السابق فى وزارة «هارولد ويلسون» - عندما خرج من الحُكم ثم قَبِلَ أن تَمنَحه الملكة لَقَب «لورد». وسألته وقتها: «كيف رَضَيت وأنت الزعيم العمالى اليسارى أن تقبَل لقباً يُوحى - حتى باللفظ - أنك التحقت بالأرستقراطية؟!»

وكان رَدُّه: «لم أتخَل عن شىء، ولم ألتَحِق بشىء، لكنى أريد منبراً (منبر مجلس اللوردات) أتكلم من فوقه ليظل رأيى مسموعاً فى الساحة السياسية!»

ثم مضى «جورج براون» يقول: «لم أكن أريد لقباً ولكنى أردتُ منبراً. لقد «شختُ» بالنسبة لمجلس العموم ولم يعد فى مقدورى أن أذهب إلى دائرتى الانتخابية وأتابع أحوال أهلها وأخوض المعارك لأفوز بأصواتهم - وإذا كان ذلك فكيف أجد لنفسى منبراً أطلُّ منه على الناس غير مجلس اللوردات؟»

وكذلك مفارقات الظروف:

أصحاب الألقاب يبحثون عن عَمَل ودخل..

وعامة الناس يبحثون عن منبر لا سَبيل إليه بغير لقب! (أو هكذا يقولون!)]

....

....

«بيتر كارينجتون» بالفعل كان رَجُلاً مُحتَرَماً، لكنه لم يبق مع «كريستى» غير أربع سنوات، ثم انسحب من رئاسة مجلس إدارتها. وكان ذلك من حُسن حظه لأن هناك - هذه الأيام - تحقيقات مع كل من رئيس مجلس إدارة «سوذبى»: السير «أنتونى تنانت»، ورئيس مجلس إدارة «كريستى»: «آل توبمان» (وهو أمريكى متزوج من ملكة جمال سابقة لإسرائيل اسمها «جودى»!) - والتُهَم المُوَجَّهة إلى الاثنين هى «التعاون» أو «التواطؤ» على رفع الأسعار والعمولات - وهذه تُهَم توشك أن تَضَع الاثنين فى السجن!

ليس هناك
« سياسى إلى الأبد ».
السياسى الحقيقى رجل يعرف
متى يجىء أوانه، ومتى تنتهى صلاحيته، وعليه أن
يبتعد قبل أن تزيحه الضرورات،
وذلك أذكى قرار يستطيع
أى سياسى أن يتخذه

□

كانت المصادفات موَفَّقة ذلك اليوم، فعندما عَبَرتُ رصيف «بوند ستريت» لمحتُ فى لوحة إعلانات «سوذبى» إشارة إلى مَزاد على خرائط قديمة فيها ما يعنينى من خرائط قديمة لمصر (وتلك بالذات هوايتى الوحيدة فى جمع الأشياء).

فى الإشارة التى لمحتها كانت هناك إضافة أخرى عن كُتُب قديمة، وعن «مجموعات أوراق» من الشرق الأدنى. ولم أستطع أن أقاوم، ودخلت.

دخلتُ أولاً قاعة العرض التى غطت الخرائط القديمة جدرانها - وبدأت بها ليس فقط لأنها «هواية»، ولكن أيضاً لأن أسعارها فى العادة معقولة.

فى ربع ساعة غطيت قاعة العرض كلها: خرائط مصر التى رأيتها لدَىَّ مثلها وأحسن منها، ولم تكن هناك فى القائمة - مما يَستَحِق الاهتمام - غير خريطة واحدة توقفتُ أمامها لبعض الوقت متأملاً ودارساً - كانت خريطة للعالم مطبوعة على الحجر سنة ١٦٤٨ - لكن سعرها التقديرى الذى وضع تحتها ليبدأ منه المزاد بدا لى عالياً: ما بين ٢٥ إلى ٣٥ ألف جنيه!

توجهتُ إلى القاعة التى تعرض الكتب القديمة المعروضة للبيع. استوقفنى بعضها. وأول ما استوقفنى كتاب مطبوع فى باريس سنة ١٨١٤ بعنوان «رحلات على بك العباسى»، وتصفحتُ الكتاب لأعرف أن ذلك اسم مُستعار لرحَّالة أسبانى اسمه «باديا دومنجو» اتخذ لنفسه اسم «العباسى» وطاف بالعالم العربى، وسافر إلى الأراضى المقدسة فى مكة والمدينة، ورَسَمَ ووَصَف وسَجَّلَ ما رأى وسمع، ثم نشر كتابه فى أربعة أجزاء بالرسوم والخرائط.

لاحظتُ على الرفوف كتباً كثيرة قريبة شَبَه به، وجميعها تَشى بأنه على مساحة الزمن الممتَد بين القرن السابع عشر والثامن عشر كان رَحَّالة الغرب (إنجلترا، وفرنسا، وأسبانيا، وألمانيا) فى سياحة لا تتوقف إلى كل أرجاء العالم العربى، حتى تلك المحظورة عليهم وأولها مكة والمدينة. والظاهرة بالفعل لافتة يؤكِّدها مرة أخرى حجم الكتُب المعروضة.

أخذتُ ورقة ومَضَيتُ أدَوِّن عناوين بعض الكتُب، ولَفَتَ ذلك نظر السيدة المشرفة على قاعة العرض، وتَصَوَّرَت بالطبع أننى مُتَفَرِّج مُهتم ومُشتَرٍ مُحتَمَل، فجاءت تُقَدِّم لى إيضاحات إضافية لعلها تثير وتغرى.

وقَدَّمَت لى نفسها باعتبارها المسئولة عن القاعة.

وسألتها إذا كنتُ أخطأتُ بأن أخذتُ كتاباً وفتحتُ غلافه؟ - وكان رَدُّها «أن تلك هى القاعدة المتَّبَعة عادة، بمعنى أن غلاف

Cairo
Nov. 20. 1906

My dear Moncrieff.
The next time I
see Mitchell I will
ask him whether
there is any chance
for Sir Alexander
Christison soon. –

I am touched
by your most
kind remarks.
Indeed there is
nothing I feel more
than the appreciation
of those who have
lived in Egypt &

know all the diffi-
-culties of the situation.
I am going to
make a great break
for the reservoir
this year. – For
years past I have
had two objects in
view which I hoped
to accomplish before

I make room for a
successor man. – One is
to get back to Khar-
-toum without a fi-
-nancial collapse
here. The other is to
finish off the Nile
work which we began
so well. –
Very sincerely yours
Cromer

صفحات خطاب من مجموعة «كرومر»، وفيه يتحدث عن بناء خزان على النيل ـ وعن عودة إلى السودان يظنها قريبة.

الكتاب وعنوانه فيهما الكفاية لأى زائر، لكنه عندما تتضح جدّية أحدهم فمن المعقول أن يُسمح له بالتأكد من «سلامة الأوراق»، و«تسلسل الصفحات»، و«الحالة العامة للكتاب».

تطلَّعت السيدة إلىَّ وقالت بأدب: «أظنك من الشرق الأدنى ـ أليس كذلك يا سيدى؟ وأظن أن لك اهتماماً خاصاً بموضوعات هذه الكتُب؟»

ورَدَدتُ بأن «ما ظنَّته صحيح فى المرتين: أننى من المنطقة، وأننى مُهتَم بصفة خاصة».

وذهَبَت السيدة الكريمة فجاءت إلىَّ بأوراق إضافية وبقلم أكثر سيولة إذ لاحَظَت أن القلم الذى أمسكه بين أصابعى قارَبَ الجفاف ولذلك يَتَعثر على الورق ويَتَعطَّل. وأفضل من ذلك فإن السيدة ظلَّت قريبة منى تتابع مَواقِع تركيزى تَدُلُّ عليها وقفاتى الطويلة بين وقتٍ وآخر.

□

كانت وقفتى الأطول فى قاعة مجموعات الأوراق الخاصة، فهناك وَجَدتُ مجموعتين:

● الأولى تحت رقم ٢٠٦ ـ تحتوى على ١٨ خطاباً بخط يد «جون فيلبى» المستشار الشهير للملك «عبد العزيز آل سعود»، وكان فى الأصل ضابطاً سياسياً تابعاً لحكومة الهند كلف بأن يكون «مركز اتصال» بين حاكم الرياض والأحساء الوهابى: «عبد العزيز آل سعود» (قبل أن يصبح أميراً، ثم سلطاناً، ثم ملكاً) ـ والخطابات الثمانية عشر لم تُنشر من قبل ـ وكلها مكتوبة بخط اليد ومُوَجَّهة إلى السير «بيرسى كوكس» وهو المقيم البريطانى العام فى منطقة الخليج مكلفاً بهذه المسئولية من حكومة الهند وكان مَقَره فى «البَصرة» ثم فى «بغداد» بعد دخول قوات الجنرال «مود» إليها ضمن وقائع الحرب العالمية الأولى (وفيما بعد وحين أصبح «عبد العزيز» سُلطاناً على «نجد» ثم على «الحجاز»، ثم ملكاً بتوحيد القطرين ـ ظَهَرَ «فيلبى» مستشاراً مُقَرَّباً من الملك «عبد العزيز» ونجماً ظاهراً فى بلاطه).

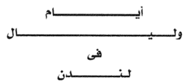
● والمجموعة الثانية ـ ملف واحد فيه سبع أوراق، وهو قائم وحده على الهامش وكان من عَرضَه يائسٌ من بَيعه، ولدهشتى فإن ذلك الملف كان يَحمل خطابات كلها بخط وتوقيع اللورد «كرومر»، وهو الرَجُل الذى كان حاكماً بأمره لمصر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مع بداية الاستعمار البريطانى لمصر. بل إنه ـ «كرومر» ـ كان الرَجُل الأشهر، والأبعَد نفوذاً، والأكثر تأثيراً، فى قصة الاحتلال البريطانى على مدى سبعين عاماً لوادى النيل: شماله وجنوبه!

....
....

كانت السيدة المسئولة عن القاعة قريبة منى، والتفت أسألها «هل يمكن فتح الأوراق والاطلاع عليها ـ أو أن الأوراق غير الكُتُب عليها قيود؟»

وقالت: «إن تلك بالضبط هى الحالة، لكنها تستطيع (وهى تَلمَح اهتمامى المتزايد) أن تضع الأوراق أمامى بنفسها، وأن تفتح لى باحتياط زائد بعض الصفحات أطل عليها دون لمس».

وأضافت: «تعرف يا سيدى أن كل هذه الأوراق هَشَّة بسبب طول السنين، والذين كتبوها فعلوا ذلك على أى ورق وجدوه أمامهم، لم تكن لديهم الفرصة للبحث عن وَرَق يَقدر على مقاومة عوامل الزَمَن، ولو أننا تركنا مثل هذه الأوراق لكل مُهتَمٍّ بها



يُقَلِّب كما يشاء لأصابها التَّلَف، ولما بقى منها شىء يشتريه أحد!».

وافقتُها، ومن جانبها تَحَمَّسَت، ونادَت مساعِدة لها أسَرَّت إليها بأمر، ثم التفتت إلىَّ تقول:

«طلبتُ لك من الإدارة تفاصيل عن أهم ما يحتويه كل خطاب؟ - هل يكفيك ذلك؟»

ورَدَدتُ بأنه «يكفى وزيادة».

□

خطابات «فيلبى» الثمانية عشر إلى رئيسه السير «بيرسى كوكس» تساوى القراءة على وجه اليقين، فهى لمحات كاشفة لجوانب من التاريخ العربى سياسية وإنسانية لها دلالاتها. والسبب أن مُهِمَّة «فيلبى» الأساسية كانت «العَمَل على تصفية وجود الخلافة العثمانية فى شبه الجزيرة العربية بما يُمَهِّد للعَمَل ضِدَّها (ضِدَّ الخلافة) وهزيمتها فى منطقة الشام، باعتقاد أن ذلك مُؤدٍّ إلى سقوطها فى عُقر دارها» (وهو ما حَدَث فعلاً).

- وكان تكليف «فيلبى» الأول هو «توجيه عبد العزيز آل سعود لمهاجمة أمير «حايل» الموالى للأتراك حتى تَنكَشِف القوة العثمانية فى «نجد»»..

- ثم العَمَل على «منع عبد العزيز آل سعود من مهاجمة الهاشميين (الشريف حسين وأبنائه) فى «مكة»»، لأن هؤلاء الهاشميين الحلفاء لبريطانيا سوف يقودون ثورة العَرَب ضِدَّ الأتراك، مُعتمدين على وَلاءات وتحالفات وصداقات لهم فى الشام تَحمل الثورة ضِدَّ الخلافة إلى قُرب معقلها الداخلى فى تركيا!»

تَوَقَّفتُ قرابة نصف الساعة أقرأ الخطاب الأول لأنه تقرير واف كتبه «فيلبى» بعد إقامة طالت ثلاثة شهور فى معسكر حاكم الرياض والأحساء.

الخطاب فى ٣٢ صفحة - بتاريخ ٢ يونيو ١٩١٨ - من «وادى الدواسر» - مكتوب بالقلم الرصاص، وأول سطر فيه اعتذار عن «أننى كتبتُ بالقلم الرصاص لأنى لم أجد غيره فى بلاد لم تصل إليها بعد أدوات المدنية الحديثة». ثم يستطرد «فيلبى» إلى وصف تفصيلى لرحلته إلى معسكر «ابن سعود»، والمشاكل التى لاقاها فى طريقه، والمخاطر التى كادت تودى به، وضمنها صراعات القبائل والمشايخ. ثم يصل إلى القول:

«ابن سعود رَجُل يحتاج إلى صداقة بريطانيا وتأييدها حتى يستطيع أن يُساعِد أهدافها ومطالبها، مع العلم أن أول ما يحتاج إليه هو السلاح والمال. والحقيقة أن المال له عنده اعتبار كبير لإيمانه بأن حصوله عليه وعطاياه منه لأنصاره هو المبَرِّر لسياسته أمام هؤلاء الأنصار حتى يقبلوا العَمَل مع الأجانب (الإنجليز) ضِدَّ المسلمين (دولة الخلافة). وهذه مسألة حساسة جداً».

يضيف «فيلبى» بالنص:

«طبقاً للقرآن فلا يَنبَغى أن يكون هناك قتال بين أخيار المسلمين - أى الوهابيين (هكذا يقول «فيلبى») - وبين المسيحيين لأنهم من أهل كتاب، والتسامح معهم تَوجيه من الله. أما قتال المسلمين الأخيار وجِهادهم فلا يكون إلا مع المشركين والكُفار، وأول الكُفَّار والمشركين هم الأتراك العثمانيون - وأيضاً الأشراف الهاشميون - وباختصار كل «المحمديين فيما عدا الوَهَّابيين»!»

ويضيف «فيلبى» عبارة لها رنين (ما تزال أصداؤه سارية حتى الآن):

«ليس من شاننا تصحيح الخطأ فى هذا الموضوع، بل على العكس علينا تعميق كراهية «ابن سعود» لكل المسلمين من غير الوَهَّابيين، فكلما زادت هذه الكراهية للجميع كلما كان ذلك متوافقاً أكثر مع مصالحنا!»

ويستطرد «فيلبى»:

«قدمتُ لابن سعود مبلغ الخمسة وعشرين ألف جنيه ذهباً التى حملتها معى بتكليف منكم (السير «بيرسى كوكس»)، وأفهمته أنها دُفعة مقدمة لتمويل حملته ضِدَّ «حايل». طلب ابن سعود وألَحَّ للحُصول على «زيادة» لأن مصاريفه كثيرة، والكل يطلب «الذهب»».

□

كنت مُستغرقاً فى القراءة، وفى تسجيل بعض الفقرات، وانتبهت إلى أن السيدة المسئولة عن القاعة تَحَمَّلَت منى أكثر مما هو جائز. نصف ساعة أمام خطاب واحد، وإذا فعلتُ ذلك مع ١٨ خطاباً إذن فعليها أن تظل هنا حتى صباح اليوم التالى، وهو شىء غير معقول. وَجَّهتُ حديثى إليها مُعتذِراً، وكانت كريمة فى القبول، وقالت «إنها تفهم أننى شديد الاهتمام».

سألتها عن الثمن المقَدَّر لبيع مجموعة «فيلبى»، وكانت تحفظ الرقم عن ظهر قلب: «ما بين ٨٠ ألفا إلى مائة ألف جنيه إسترلينى».

قلتُ: «أليس ذلك تقديراً مبالغاً فيه؟»

رَدَّت بابتسامة: «بالعكس .. كل توقعاتنا أن المزاد على هذه الخطابات سوف يحقق أكثر. بعضهم جاء إلى هنا من قبل وأبدى اهتماما لا يقل عما أبديتَه أنت».

وقلتُ: «ربما .. فهناك من يهمه الأمر أكثر منى - وربما لأسباب تختلف عن أسبابى».

....

....

[ما زلتُ معجباً بالملك «عبد العزيز آل سعود». أراه حتى فى البداوة رَجُل دولة من طراز مثير للاهتمام. وبرغم السيف والذهب، وبرغم الإنجليز والأمريكان، فإن ذلك البَدَوى استجاب لضرورات العصور. ففى الفضاء الجغرافى والتاريخى لشبه الجزيرة العربية على أيامه، كان ذلك الفضاء فراغاً سياسياً ينادى من يملؤه، وتَقَدَّم الرَجُل لأداء المهمة، وقد رآها وأمسك بها.

لستُ متأكداً أن لدىَّ إعجابا بأبناء «عبدالعزيز» الأربعة الذين خلفوه على العرش منذ رَحيله قبل نصف قرن.

ومع ذلك فهناك بقية من أبناء «عبدالعزيز» ما زالوا ينتظرون - ومَن يَدرى؟ - فربما استطاع أحدهم أن يستجيب لدواعى زمانه ولضرورات العصور].

....

....

تركتُ مجموعة أوراق «فيلبى» فى مكانها، وانتقلت إلى ملف أوراق «كرومر» (من الغريب أننى تذكرتُ «كرومر» قبل النوم من أيام - والآن أمامى بعض أوراقه بخط يده وكما لَمسَها آخر مرة ووَقَّعَ عليها بإمضائه!!)

خمسة خطابات بإمضاء «العميد العتيد» - على وصف «سعد زغلول» له.

ثلاثة منها بخط اليد - وكذلك الإمضاء.

واثنان بالآلة الكاتبة فى بداية اختراعها - ولكن الإمضاء بخط «كرومر».

واحدٌ منها على وَرَق دار المعتَمَد البريطانى فى القاهرة - كله بخط اليد نَصّاً وإمضاء - وهو بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٨٩٦.

والأربعة الباقية بعنوان بيت «كرومر» فى لندن وهو «٣٦ شارع ويمبول».

والخطاب الأول (المكتوب على الوَرَق الرسمى لدار المعتَمَد البريطانى) له أهمية خاصة لأن «كرومر» يُوَجِّهه إلى مهندس الرى البريطانى الشهير «مونكريف»، وفيه يتحدث عن موضوعين: ضرورة العودة إلى السودان بعد الانسحاب البريطانى المصرى منه أمام ثورة «المهدى» و«التعايشى» - ثم أهمية بناء خزان على النيل عند أسوان (خزان أسوان القديم). وفى هذا الخطاب يكتب «كرومر» بخط يده وإمضائه ما نصه:

«القاهرة

٢٠ نوفمبر ١٨٩٦

عزيزى مونكريف

حين أرى «ماشيل» فى المرة القادمة سوف أسأله إذا كانت هناك فرصة لابن السير «ألكسندر كريسترفار» (يبدو أن «كرومر» يستجيب لوساطة بطلب وظيفة فى الإدارة البريطانية فى مصر قام بها «مونكريف»).

لقد تأثرتُ بعُمق بملاحظاتك الكريمة. والحقيقة أنه لا يسعدنى أكثر من أن أجد التقدير من هؤلاء الذين خدموا فى مصر، ويعرفون كل الصعوبات التى تكتنف الموقف فيها.

أظن أننى سوف أحرز اختراقات عظيمة هذه السنة بالنسبة للخزان (خزان أسوان).

ففى السنوات الماضية وَضَعتُ أمامى هدفين أريد تحقيقهما قبل أن أترك مكانى هنا لرَجُل أصغر منى سناً: الأول أن أرَتِّب للعودة للخرطوم دون أن أتَسَبَّب فى عِبء مالى يؤدى إلى انهيار هنا (فى مصر) - والثانى أن أتَمِّم هذا العَمَل الكبير على النيل، وكنت أنت الذى بدأتَ فيه بجدية.

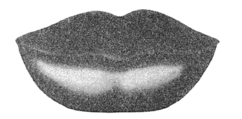
المخلص لك دائماً

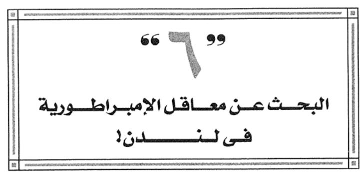
كرومر»

□

وكانت خطابات «كرومر» فى إطار ما أستطيع أن أدفعه. وقد سعدت حين حصلت عليها تَنضَم لمجموعة أوراقى. لكنى عائداً إلى فندق «كلاريدج» ماشياً فى «بوند ستريت» - تذكرتُ أننى لم أشتر ربطات عُنق - وإنما اشتريت مجموعات وَرَق.

بأثر رجعى فإن أى زائر للمتحف البريطانى يستطيع أن يفهم «لينين» و«تروتسكى»، وربما كان «تروتسكى» قاسيا فيما كتب، لكن المتحف البريطانى فعلا هو «معقل الإمبراطورية» - مع العلم أن نظرة أكثر تسامحا تستطيع أن تعتبره - ربما!- «مدرسة» الإمبراطورية و«جامعتها»





"٦"
البحث عن معاقل الإمبراطورية في لندن!

«الثلاثاء»

لم يبق لي في لندن سوى يومين اثنين قررتُ أن أخصصهما للثقافة، مُتَحَسِّباً أنني بعد غد ساجد نفسي على طائرة تَشُقُّ السُّحُب فوق المحيط إلى الشاطئ الآخر من الأطلسي. وفي الولايات المتحدة بالطبع مَوارد ومَعالم ومَشاهد ثقافية بغير حساب - لكني في مجالات الثقافة أشعر بالألفة أكثر في أوروبا (بصفة عامة).

بدأتُ اليوم بالمتحف البريطاني وسط «بلومسبرى»، وذلك هو حَي المتاحف ودور النشر العريقة بمقدار ما أن «شافتسبرى» هو حَي المسارح ودور العرض في لندن.

حَي «بلومسبرى» هو المثيل الإنجليزي لـ«الحَي اللاتيني»، لكن قارئ اللغة العربية يعرف عن «الحَي اللاتيني» أكثر من الكفاية، ولا يعرف عن «بلومسبرى» ما هو ضروري، والسبب أن معظم أدَباء مرحلة التَّعَرُّف على فكر الغرب وأدبه ذهبوا إلى باريس - وكان رفاعة الطهطاوي هو لحظة الانبهار - جاءت بعده لحظة التَّعَرُّف، ومعها ذهب كثيرون: من «أحمد لطفي السيد» وحتى «توفيق الحكيم». وأما لندن فقد جاء دورها مُتَأخراً عندما حان الوقت لبعثات العلوم: الطب، والاقتصاد، والهندسة، والسياسة. حتى حَدَث أخيراً أن أتى زمان مُختلف، وتَحَوَّلَ مقصد الجميع إلى نيويورك وسان فرانسيسكو، وأصبحت باريس ولندن خياراً من الدرجة الثانية مقبولاً إذا لم يكن منه بُد!

والمتحَف البريطاني الشهير أهم مَعالم «بلومسبرى» - هو اليوم مقصدي لمشاهدة معرض «كليوباتره» الذي ما زال الحديث عنه ملء صفحات الجرائد والمجلات، وشاشات التلفزيون كذلك.

□

كلما قصدتُ إلى المتحف البريطاني تذكرت زعيم الثورة الشيوعية الأكبر «لينين» وتذكرتُ حكايته مع زميله في قيادة الثورة الشيوعية «ليون تروتسكي»!

كان «لينين» - سنة ١٩١٠ - لاجئاً سياسياً يعيش في لندن خائفاً أن يقبض عليه عُمَلاء «الأوخرانا» (البوليس السرِّي القيصري) - لكن القيادة الشيوعية في داخل روسيا بدأت تسيء الظن به وتَتَصَوَّر أنه استمرأ حياة المنفى «مُسترَيحاً»، ومُكتفياً بما تبعث به قيادة الداخل إليه من مبالغ مُهَرَّبة بين الحين والآخر - وكذلك فهو لا يتحرك سياسياً بما هو لازم، ولا يُساهم - حتى - بالكتابة في «أسكرا» وهي النشرة السرِّية التي تُحَرِّض على الثورة في الداخل.

وفي أوساط الحركة الشيوعية في الداخل كان هناك نجم صاعد لَفَتَ إليه الأنظار وهو «تروتسكي»، وكانت مقالاته النارية تظهر بانتظام في «أسكرا»، وكان «لينين» مُعجباً بهذه المقالات من بعيد، ومُقَدِّراً من خلالها (كما كَتَب) لـ: ثورية «تروتسكي» وطاقته الهائلة.

ثم جاء يومٌ قَرَّرَت فيه قيادة الداخل أن تبعث إلى لندن برسول يمثلها «ليطلَّ» على نشاط الزعيم الذي يعيش في المنفى («لينين»)، ويتأكد أن قِلَّة نشاطه ليست تآكلاً في ثوريته بفعل «تَرَهُّل أصابه» في وَطَن البورجوازية الأول - في ذلك الوقت - وهو بريطانيا. وكان ذلك الرسول المختار «ليطلَّ» على «لينين» هو «تروتسكي»!

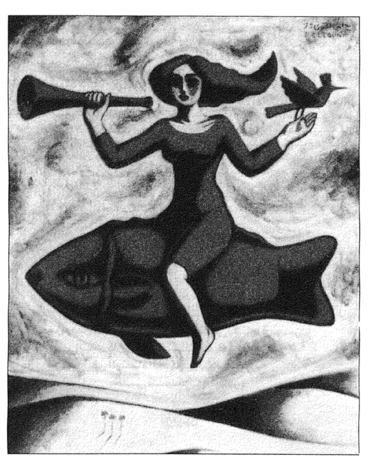
وعلى نحو ما جرى إخطار «لينين» بأن ينتظر رسولاً قادماً إليه. وبشكل ما فإنه عَرَف أن ذلك الرسول هو نفسه كاتب تلك المقالات النارية «تروتسكي»، وراح «لينين» يَتَحَسَّب ليوم يظهر فيه «تروتسكي» أمام بيته في حَي «هامبشير». ثم جاء المنتظر ودَقَّ جَرَس باب البيت ذات صباح. وفتَحَت زوجة «لينين» «تروبسكايا»، وقبل أن يُقَدِّم لها الطارق نفسه كانت قد تَعَرَّفت عليه بالوصف.

والتقى الرَّجُلان أخيراً. «لينين» الذي يعيش في المنفى، و«تروتسكي» القادم من قلب «المعمَعَة» في الداخل إلى الغرب لأول مرة. وبعد أن اطمأن «لينين» على أن زائره نامَ وأفطر، اقترح عليه أن يخرج معه إلى جولة في لندن يَتَعَرَّف فيها على «مَعاقِل الإمبريالية».

كان «لينين» يريد أن يكسب وقتاً تهدأ فيه أعصاب «تروتسكي» فلا ينطق بما عنده دفعة واحدة مكثفة تسبب حَرَجاً! - ومن ناحيته كان «تروتسكي» مُتَشَوِّقاً إلى التَّعَرُّف على ذلك العالم الغريب الذي جاء إليه.

وسأله «لينين»: «من أين تريد أن نبدأ؟»

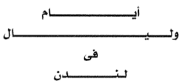
وقال «تروتسكي»: «من القلعة الأكبر للإمبراطورية»!



وفيما بعد كتَبَ «تروتسكي» يقول أنه تَصَوَّر أن «لينين» سوف يذهب به إلى قصر «باكنجهام» حيث يقيم الملك («جورج» الخامس وقتها)، أو إلى قيادة القوات الإمبراطورية، أو إلى وزارة المستعمرات في «هوايتهول» - لكن «تروتسكي» فوجئ بأن «لينين» يأخذه إلى المتحف البريطاني.

ويكتُب «تروتسكي» أنه عندما فَرَغ من زيارة المتحف البريطاني فَهِم عبقرية «لينين» - «فأي رَجُل غيره كان يمكن أن يأخذني إلى مراكز الحكم المشهورة ويقول لي: هنا معقل الإمبراطورية. «لينين» أكَّدَ لي عبقريته حين أخذني إلى المتحف البريطاني لأنه بالفعل المكان الوحيد الذي يمكن فيه أن ترى «الفعل الإمبريالي» في حالة تَلَبُّس. كنوز مَنهوبة من أرجاء الدنيا الواسعة. كل حجرة «مُنتَزَعة» من بلد. كل طابق مَخطوف من قارة. المتحف كله على بعضه هو الكنز الإمبراطوري الكبير الذي استولى عليه الاستعمار من كل مكان ذهَبَ إليه. من اليونان القديمة إلى مصر الفرعونية - من الهند الإسلامية إلى أطراف الصين - من أعماق أفريقيا إلى غابات أمريكا - كله هنا دليل حَي على الغلبة والغزو».

وبأثر رجعي فإن أي زائر للمتحف البريطاني يستطيع أن يفهم «لينين» و«تروتسكي»، وربما كان «تروتسكي» قاسياً فيما كتَب، لكن المتحف البريطاني فعلاً هو «معقل الإمبراطورية» - مع العلم أن نظرة أكثر تَسامُحاً تستطيع أن تعتبره - ربما! - «مدرسة»



الإمبراطورية و«جامعتها». فهُنا روائع كان يمكن أن تضيع فى أوطانها، لكنه أمكن الحفاظ عليها فى مكان آمن تَحكى منه تجربتها وتُعلِّم حكمتَها!

□

وكانت مشروعات «تونى بلير» لتخليد اللحظة النادرة للألفية الجديدة - ثلاثة: القُبَّة وقد فشلَت - والعَجلة الدَوَّارة وهى نصف نجاح - وتجديد المتحف البريطانى، وظنى أن النجاح هنا كان ضخماً يستحق الإشادة.

فى اللحظة التى دخلتُ فيها من باب المتحف (دخلتُ عشرات المرات من قبل) طالعَتنى رَوعَة التجديد، وهى الصرح الضخم على شكل واجهة دائرية مهيبة تلف محيطها سلالم صاعدة إلى أعلى. وأرضية المدخل وساحَته والسَلالم الصاعدة كلها من الحَجَر. وبعد الباب مُباشرة نَقشٌ على الأرض بحَفرٍ لا يكاد يَبين لبيت من الشعر كَتَبَه «تنيسون» الشاعر الرومانسى الشامخ، وفيه يقول: «أيها الساعون للحُرِّية الحَقَّة .. تَذكَّروا أن المعرفة هى الطريق الصحيح إلى مُبتَغاكم».

رحتُ أتأمَّل حولى قطعة معمار مَهولة وباهرة تكاد تذوب من الرقة والجلال فى آن معاً. وكنت أريد أن أتوقف طويلاً وأتأمَّل ما حولى، لكنى آثرتُ أن أتوجَّه مباشرة إلى «كليوباتره» ومَعرضها الذى ذاع صيتُه، حتى أنه أعاد إلى الحياة أسطورتها حَيَّة، وغرامياتها بالتفاصيل -! - صاخبة، ونهايتها بالانتحار مأساوية.

متحف «كليوباتره» كله قاعة واحدة فسيحة - وواجهات العَرض هى الصفوف التى تَصنَع مَمَرَّات القاعة، وهذه الممرات تقود الزائر انسيابيا إلى مواضع الاهتمام. وبالطبع فإن التركيز الإعلامى كله أصبح على جَمال «كليوباتره»: هل كانت فادحة الجمال كما تروى قصص التاريخ؟ أو كانت قصيرة كئيبة كما يظهر من بعض تماثيلها التى وُجِدَت فى بقايا قصرها الذى كان راقداً تحت سطح البحر فى الميناء الشرقى بالإسكندرية حتى سنوات قليلة. والتماثيل بالفعل تقول أن «كليوباتره» لم تكن على تلك الدرجة من الجمال الأسطورى الذى تتحدث عنه القصَص. لكن التاريخ يذكرنا أن هذه التماثيل - معظمها - صُنِعَت لـ«كليوباتره» بعد انتحارها، وقد جرى نَحتُها بأثر رجعى لأن «أوكتافيوس» الغازى الغاضب عليها لأنها أغوَت خاله «يوليوس قيصر» - ثم خانته مع تلميذه «مارك أنتونى» - صَمَّم على الانتقام من الملكة التى آثرَت أن تَحفظ كرامتها وحُرِّيتها بسُمِّ حَيَّة وَضَعَتها على صَدرها قبل أن يَطالها الانتقام. وقد بَلَغ الغضَب بـ«أوكتافيوس» إلى الأمر بتحطيم كل تماثيل آخر ملكات مصر البطلمية (وهى السابعة بينهم)، وكان أن صُنِعَت فى عهده تماثيل - شبه كاريكاتورية - تُسىء إلى الجمال وتطغى على مفاتنه (ربما).

....

....

[صورة «كليوباتره» فى الذاكرة المعاصرة مقترنة باستمرار بصورة آخر ممثلة قامت بدَورها على الشاشة وهى «إليزابيث تايلور»، وكان ذلك رأى الرئيس «أنور السادات»، فعندما قامت «إليزابيث تايلور» بزيارة مصر ضمن عملية «الترويج للسلام!» أمَرَ الرئيس «السادات» أن تُستَقبَل فى المطار بطابور شرَف من الحَرَس الجُمهورى، وحين التقته مباشرة وحاوَلَت أن تقدم له شكرها كان قوله على طريقته المَسرَحة أحياناً: «يا صاحِبة الجلالة.. ألستِ ملكة مصر؟.. هكذا استقبلناك»!]

....

....

رُحتُ أتَجَوَّل فى ممرات العرض، وأتوقف بين حينٍ وآخر، لكن السياسة كانت شاغلى، ولسوء الحظ فإنها طغت على الفن وعلى التاريخ كليهما.

عَبَرَت فى خواطرى قصة «البطالسة»، وأولهم «بطلَيموس» الكبير، وهو واحد من قُوَّاد «الإسكندر» الذين قَسَّم بينهم إمبراطوريته كأنما مقادير الشعوب إرثاً لفاتح لم يترك نَسلاً من صُلبه فقَرَّرَ تَوريث قُوَّاده (ما دام لم يستطع تَوريث أبنائه)!

«كليوباتره» نفسها («كليوباتره» السابعة)، صنعَت تَحَوُّلاً فى مَقادير مصر ما زالت تَداعياته واصلة إلى الزمَن المعاصر، ذلك أنه بعد تدمير الأسطول المصرى فى معركة «أكتيوم» (شرقى البحر الأبيض قرب «كريت») أمام أسطول روما، فإن القائد الرومانى لهذا الأسطول وهو نفسه العاشق المهزوم «مارك أنتونى»، تَرَك مراكبه تحترق وبَحَّارَته يَغرَقون، وهرَب إلى أحضان عشيقته الملكية («كليوباتره») للقاء أخير - ومن ذلك اليوم (يوم «أكتيوم») كَفَّت مصر لسوء الحظ عن أن تُصبح دولة بَحر، وتَحَوَّلَت إلى دولة بَر رغم إطلالها على شاطئين من أهم شواطئ الدنيا القديمة: البحر الأبيض والبحر الأحمر.

لم أبق فى قاعة «كليوباتره» أكثر من ساعة، ذلك أن شخصية «كليوباتره» كانت أهم من كل المعروضات رغم قيمة بعضها فنياً وتاريخياً - لكنى سألتُ نفسى لماذا لم يبدأ عرض الأسطورة الغارقة فى الميناء الشرقى للإسكندرية فى تلك المدينة قبل أن تجىء إلى «بلومسبرى»؟!

تَرَكتُ قاعة «كليوباتره» قاصداً إلى مدخل المكتبة الشهيرة للمتحف البريطانى، وتطلعتُ إلى دائرتها الواسعة، وقُبَّتها الشَهيرة، وأدوارها العامرة بالمعرفة صاعدة إلى أعلى نحو أشعَّة الشمس الواصلة إليها من الدائرة الشفافة لوَسَط القُبَّة - وبَقيتُ ساكناً أتأمَّل لعِدَّة دقائق كأنما هو مِحرابٌ للنور.

□

مساء نفس اليوم ذهبتُ إلى المسرح الملَكى «درورى لين» أحضر حفل الباليه الأول لفرقة «البولشوى» (المسرح الكبير) الشهيرة فى موسكو. فهذا المسرح العتيد جاء إلى لندن فى عيد ميلاده الخامس والعشرين بعد المائتين وكأنه يريد أن يُعلن على نحوٍ ما أن «روسيا» تُحاول استعادة عافيتها.

وكان بعض الأصدقاء من الروس، وبينهم آخر رئيس للدَولة السوفيتية الكُبرى - «أندريه جروميكو» - يَندَهشون حين يسمعونى أقول أن لدىَّ مقياساً لا يخيب فى حساب أحوال روسيا. ملخص رأيى أنه فى مجالات العلوم والاقتصاد والسياسة فإن تَقدير أحوال المجتمعات يحتاج إلى قواعد مُعَقَّدة وإجراءات طويلة. لكن من يهمه قياس أحوال روسيا (بالذات) يستطيع أن ينظر إلى ناحيتين: الوُجود الروسى فى بحار العالَم ومُحيطاته، فذلك دَليلٌ على مَدى استطاعة روسيا أن تَخرُج من حصار الثلج - ذلك من ناحية - ومن الناحية الأخرى راقصات باليه على مُستوى رفيع على مسرح «البولشوى» - فذلك مَعناه استطاعة روسيا أن تُحَلِّق بالفن مُتَحَرِّرة من أثقال التاريخ السلافى وعُقَده!

وعندما تقف على المسرح راقصة من مستوى «إيلينا إيلانوفا» أو «تمارا تومانوفا» أو «مايا بليستسكايا»، فذلك معناه أن هناك حيوية خلق جديد، وطاقة إبداع لا يصنعها غير مجتمع حَى.

وفى رُبع القرن الأخير كان مسرح «البولشوى» رُكناً مُهمَلاً. تَكَوَّمَت أطلال مَجد عفى عليه الزمَن وجار. وبالفعل لم يظهر أستاذ. ولم يخرج عرض. ولم يسطع نجم.

لكن «البولشوى» هذه الأيام تَجَرَّأ واستجمع شجاعته وقَرَّرَ أن يعود للعالم الخارجى، واختار مديره الفنى الجديد «بوريس أكيموف» أن يطلَّ بمسرحه على العالم مرة أخرى من نافذة لندن. ولعله أراد أن يثبت قدرته، فوضَعَ برنامجاً للعرض على المسرح الملَكى «درورى لين» يشتمل على مُختارات من أشهَر الباليهات. لم يقتصر على باليه واحد ليقول المتفرِّجون أنه رَكَّزَ عليه وأتقنه، وحفظه حركةً وموسيقى وضَوءاً ولوناً، ثم جاء إلى لندن «يرُصُّه رَصّاً» مثل قوالب مصبوبة بإتقان - وإنما اختار «أكيموف» أن يعرض فن مسرحه تحت إدارته، وبنجومه الجُدُد، بواسطة اختيارات مُتَنَوِّعة وعريضة.

وجلستُ فى مَسرح مُكتمل العَدَد تماماً، أتابع مع غيرى برنامجاً بادى الإحكام، رفيع المستوى، مُتألِّقٌ بنجومه وكواكبه.

وراوَدَنى إحساسٌ بان روسيا أمامى تُحاول استجماع قواها لتَخرُج من وسط حريق تَرَك رُكامَه ورَمادَه على كل أرجائها. وبدون أن أذهب إلى موسكو فإنى من المسرح الملَكى «درورى لين» ظنَنتُ أننى لَمَحتُ بَوادِر تُومِئ وتُشير إلى تغيير تَظهَر وَمَضاته مع إيقاع وخُطى راقصات وراقصى باليه جُدُد مثل «آنا أنتونيتشيفا» و«أناستاسيا جورياتشيفا» و«ديمترى جودانوف».

الفن يَسبق الصَحوة دائماً، ويُبَشِّر بالقوة عادة.

كذلك ظنى!

....

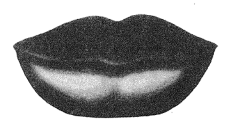
....

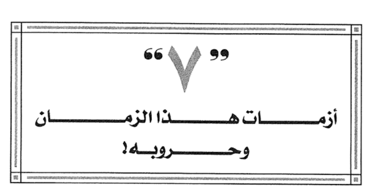
[فى لقاء طويل جرى بعد عَودَتى إلى القاهرة مع رئيس وزراء روسيا السابق «إيفجينى بريماكوف»، فى بيت السفير الروسى على شاطئ النيل، ذكَرتُ مُلاحَظتى عن بَوادر الصحوة فى روسيا، وكان رأيه أنه: «ربما .. لكننا ما زلنا عند البدايات، وأصعب مراحل الطُرُق بداياتها!»] ■

....

....

«كليوباتره»: هل كانت فادحة
الجمال كما تروى قصص التاريخ؟
أو كانت قصيرة كئيبة كما يظهر
من بعض تماثيلها التى وجدت فى بقايا قصرها
الذى كان راقدا تحت سطح البحر
فى الميناء الشرقى بالإسكندرية
حتى سنوات قليلة؟





«الخميس»

■ قضيتُ الصباح في دار «هاربر كولينز» - الناشر الدولي لكتُبي. ما زال الخلافُ بيننا مُعلَّقاً حول كتابي القادم لهم. فلا زال هناك من يَتَحمَّس لضرورة أن يكون موضوعه هو الموضوع الذي اتفقنا عليه من قبل ثم غيَّرتُ رأيي فيه وهو «الإسلام السياسي». لقد قضيتُ أكثر من سنة في الإعداد لهذا الكتاب (وكانت سَنَة دراسة مُفيدة بالنسبة لي)، لكني بعد هذه المدَّة الطويلة وَجَدتُ أن غيري قد يستطيع أن يَقوم على هذا الموضوع خيراً مني.

عندما بدأتُ العَمَل في هذا الكتاب كان هناك ظن شاعَ في الغرب بأن «الإسلام السياسي» هو شكل المستقبل في المنطقة. ولم يكن لديَّ رأي قاطع في الموضوع، ولذلك قبلتُ أن أوَقِّع عَقداً. وفي منتصف الطريق أصبحتُ على اقتناع كامل بأن «الإسلام السياسي» ليس شكل المستقبل في المنطقة.

وكان في عَزمي هذه الزيارة أن أجَرِّب إقناع «إيدي بل» رئيس مجلس إدارة «هاربر كولينز» بوجهة نظري، لكني وَجَدتُ مكتب «إيدي بل» شاغراً لأن صاحبه، ذلك الاسكتلندي القدير الذي يمضُغ سيجاره طول الوقت، ويَلمَح الكتُب وهي بَعد أفكاراً طائرة في الهواء و«يلقطها» بأصابعه - لم يَعُد هناك، فقد قرَّر برغبته أن يعتزل ويبحث لنفسه عن عَمَل جديد في سن السبعين.

وهكذا كانت مُؤسَّسة «هاربر كولينز» تَعيش فترة انتقالية من عصر «إيدي بل» الذي استمر ١٨ سنة - إلى عصر آخر سوف تتَوَلاه فيما يظهر مديرة فرع نيويورك، وهي أمريكية قيل أن «إيدي» اختارها بنفسه لتَحل محله.

مَرَرتُ بثلاثة أو أربعة مكاتب لأصدقاء قدامى من المحررين الرئيسيين. تحدثوا معي جميعاً، وأكَّدَت قوائم النشر الجديد حديثهم - بأن «الكتاب السياسي» يعود مرة أخرى إلى الصدارة. ففي السنوات الخمس الأخيرة كانت الأعمال الروائية صاحبة الغلبة بكل تأكيد، لكن هناك الآن تَحَوُّلاً يُحاول الجميع دراسة أسبابه. فخلال السنوات الخمس الماضية كان القارئ الإنجليزي - والأوروبي بصفة عامة - يَتَجَنَّب «الكتاب السياسي». والآن حَدَث تَغَيُّر واضح. وأمسكَ «لوي بريدجز» قائمة المنشورات الجديدة يقرأ لي ويكَرِّر ويعيد موضوعات الكتب الأكثر مبيعاً حتى الآن: «إنديرا غاندي: قصة حياتها» - «آلان بروك: مذكراته الأصلية» - «هيروهيتو: صُنع اليابان الجديدة» - وهكذا وهكذا..

حاولَ «لوي» أن يُعيدني إلى مشروع كتاب «الإسلام السياسي» فقال: «ألا تظن أن هناك مليون قارئ يريدون أن يعرفوا كل شيء عن «أسامة بن لادن»؟» - وقلتُ: «ربما، لكني أفضِّل أن يعرفوه من غيري».

اتفقنا على أن نواصل المناقشة بعد عودتي من الولايات المتحدة.

□

ذهبتُ إلى سينما «أوديون» (قرب رُكن «هايد بارك») أشاهد فيلماً جديداً عن سيناريو للكاتب الشهير «لو كاريه»، وهو الذي تَخَصَّصَ في كتابة قصَص الجاسوسية عن زمَن الحرب الباردة، وتَحَوَّل الكثير من تلك القصَص إلى أفلام سينما ناجحة .. لافتة في نجاحها.

بعد انتهاء الحرب الباردة كَتَبَ «لو كاريه» ثلاث أو أربع روايات تَحَوَّلَت إلى أفلام لكنها لم تَنجَح. وكان رأي النُّقَّاد أن «لو كاريه» أضاعَ مَوهبته مع نهاية الحرب الباردة، وأنه كان في الواقع سلاحاً من أسلحتها، فلما انتهت تَعَطَّل سلاحه - أي فَقَدَ مَوهبَته.

في هذا الفيلم الذي رأيته اليوم أحسَستُ أن «لو كاريه» يَرُدُّ على ناقديه. ذلك أن سيناريو الفيلم واسمه «خَيَّاط بناما» يَحكي قصَّة أزمة دولية تَحَوَّلَت إلى حَرب خاطفة شَنَّتها الولايات المتحدة على إحدى جاراتها في أمريكا الوسطى لأن «ترزياً» خَطَرَ له أن يجتَذِب عَميلاً أنيقاً (لم يكن يعرف أنه جاسوس) عَن طريق اختراع حكايات لا أصل لها في الحقيقة عن رئيس لبناما يستعد للاستيلاء على قناتها المشهورة وحرمان أمريكا من ميزاتها الإستراتيجية. وصَدَّقَ الجاسوس الأمريكي - وصَدَّقَت الحكومة الأمريكية: من البيت الأبيض إلى رئاسة أركان الحرب المشتركة إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية - وكان أن اتخذ الرئيس الأمريكي قراراً بالغزو دون انتظار، وبعد إتمام الغزو تَكَشَّفَ السرُّ الحقيقي الذي أدَّى إليه!

لعل «لو كاريه» وهو يُواجه نُقَّاده أراد أن يقول لهم أنه بعد انتهاء الحرب الباردة لم تَعُد هناك أسرار خطيرة تُؤدِّي إلى أزمات دولية - لكنها الآن أكاذيب صغيرة تُشعِل نيران الحروب.

□

السَهرة في مَسرَح «ليريك» مع رواية لـ«نويل كاورد» أشهر كُتَّاب الرواية الإنجليزية بعد «برنارد شو» طوال القرن العشرين، والرواية عنوانها «نصف دُنيا». وعلى نَحو ما أحسستُ طوال مُشاهَدتي لفصولها الثلاثة أنها مَوصولة بفيلم «لو كاريه». مَسرَحية «نصف دُنيا» تَجري في باريس منتصف الثلاثينات من القرن العشرين، وبالتحديد في فترة ما بين الحرب العالمية الأولى التي انتهت (١٩١٨)، ومَرَّت بالأزمة الاقتصادية الخانقة سنة ١٩٢٩ - وبين نشوب الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩، وما صاحَبَها من انفجار القنبلة الذرِّية التي أنهَت الحرب وأنهَت عصر الحروب العالمية - على الأقل حتى هذه اللحظة.

في فترة الرواية في الثلاثينات يبدو مُجتَمَع باريس في حالة انتظار - خَرَجَ من كارثة ويَشعُر أنه داخل إلى كارثة أكبر، وتلك الحالة ما بين كارثتين عالميتين: أولاهما وَقَعَت والثانية مُتَوَقَّعة - تُحدث تأثيراتها على الطبَقة «البورجوازية» في باريس وفرنسا وأوروبا، فإذا هذه الطبَقة تعيش يومها إلى آخره وتأخذ من مُتَع الحياة مُنتَهاها، وتَتَصَرَّف وكان كل الرواسي المُمسكة بالمجتمعات من الدين، والأخلاق، والتقاليد، وحتى القوانين - أعباء يَصح أن يَتَخَفَّف منها البَشر، ويَتَحَرَّروا، ويعيشوا كما يحلو لهم اليوم والليلة، وأما الغد وما بعده ففي الإمكان مواجَهة مَشاكلهما عندما تجيء إذا جاءت، وحَلها إذا كانت قابلة للحَل في وَقتها. أما الآن فهو يومٌ قد لا يَتَكَرَّر وليلةٌ قد لا تَعود.

كذلك كانت أحوال العالَم مُوَزَّعة بين رؤية كاتبين:

واحد على الشاشة يرى أن نصف العالَم يَكذب على نفسه هَرَباً من الواقع..

وواحد على المسرح يرى أن نصفه الآخر يَلهو غافلاً بالعَمد هَرَباً من الحقيقة.

....

....

بدا لي الاثنان - الشاشة والمسرَح - بَعيدَين عن دُنيا جديدة تَطرَح على التاريخ حياة تملك طاقات لم يَستَطع الأدَب والفن بَعد أن يَغوصا في أعماقها لاستجلاء دَلالاتها واحتمالاتها. بدا لي أن الخيال العلمي عادة «يَسبق» بالتَصَوُّر والتَجريب - وأما الخيال الأدَبي والفني فدَوره أن «يلحق» بالشرح والتحليل - لكن السؤال: هل نحن بالفعل أمام دُنيا جديدة؟ - وإذا كنا بالفعل أمام دُنيا جديدة، فالأسئلة القديمة كلها ما تزال واردة: متى؟ وكيف؟ ومَن؟ وأين؟ .. إلى آخره.

لم أجد جَواباً في العالم القديم (أوروبا) - وغداً سَفَري عبر المحيط غرباً - فهل لدى العالَم الجديد (أمريكا) جواب؟ - لا أعرف!! ■

كذلك كانت أحوال العالم موزعة بين رؤية كاتبين: واحد على الشاشة يرى أن نصف العالم يكذب على نفسه هربا من الواقع.. وواحد على المسرح يرى أن نصفه الآخر يلهو غافلا بالعمد هربا من الحقيقة





"إن توحيد مؤسسة عسكرية ضخمة وصناعة أسلحة عملاقة تعد تجربة جديدة على أمريكا. وبإمكاننا أن نلحظ النفوذ الكلى - اقتصاديا وسياسيا، وحتى روحيا - فى كل مدينة، وكل مجلس ولاية وكل مصلحة من مصالح الحكومة الفيدرالية ... علينا أن نتصدى لأى نفوذ غير شرعى للمجمع العسكرى - الصناعى فى مجالس الحكومة، سواء سعى إليه أو لم يسع."

الرئيس الأمريكى دوايت د. أيزنهاور
فى خطاب الوداع إلى الأمة. ١٧ يناير ١٩٦١

حروب قوم عند قوم فوائد!

ويليام د. هارتونج

على عكس التوقعات الأولية، لم يتقلص المجمع العسكري ـ الصناعي الأمريكي مع انتهاء الحرب الباردة. كل ما حدث هو أنه أعاد تنظيم نفسه. فعبر سلسلة من عمليات الاندماج العسكري الصناعي، بتشجيع ودعم من إدارة كلينتون، تلقت الأخوات الثلاث ـ لوكهيد مارتن، وبوينج، ورايثيون ـ خلال الأعوام الماضية، عقودا من البنتاجون تتراوح قيمتها ما بين ٢٥ـ٣٨ مليار دولار.

وإذا ما سارت الأمور سيرها الطبيعي، فإن الوحوش العسكرية ـ الصناعية الجديدة سوف تتلقى المزيد من المليارات خلال السنوات القادمة. فميزانية البنتاجون في الخطة الخمسية لإدارة الرئيس السابق كلينتون طالبت بزيادة مخصصات السلاح بنسبة ٥٠٪، من ٤٠ مليارا سنويا حاليا إلى ما يزيد على ٦٠ مليارا سنويا في عام ٢٠٠٣. ومن مسألة لأخرى ـ من توسيع الناتو، إلى نشر صواريخ حرب النجوم الدفاعية، إلى فرض حظر مبيعات السلاح على الأنظمة القمعية ـ تشن صناعة الأسلحة حملات الضغط من أجل زيادة الإنفاق العسكري وصادرات السلاح. وهذه المبادرات ليس دافعها السعي الإيجابي للتوصل إلى أفضل السبل للدفاع عن الولايات المتحدة في عهد ما بعد الحرب الباردة، بل تحقيق الأرباح والنفوذ السياسي.

وللوصول إلى نظام دفاعي فعال ومحتمل، فإن من الضروري الحد من سلطة وأرباح البنتاجون والموردين العسكريين. لكن قبل النظر في النشاطات الحالية للوبي العسكري، من المهم أن ندرك مدى تضليل الأولويات التي يضعها البنتاجون حاليا للإنفاق.

مهمة تستعصي على التصديق:

إن تحذير الرئيس ايزنهاور بشأن «النفوذ غير الشرعي» للمجمع العسكري ـ الصناعي ينطبق على الأوضاع الحالية مثلما كان ينطبق على الأوضاع في عام ١٩٦١. فعلى الرغم من حل حلف وارسو وتفكيك الاتحاد السوفيتي، فإن ميزانية الولايات المتحدة العسكرية اليوم أكبر مما كانت عليه يوم أن ألقى الرئيس ايزنهاور خطابه الخاص بالمجمع العسكري ـ الصناعي، في عام ١٩٦١، فالميزانية العسكرية للولايات المتحدة، التي تزيد على ٢٧٦ مليار دولار (بالأسعار الثابتة) سنويا، تظل قريبة من معدلاتها التي سادت خلال فترات السلم من عصر الحرب الباردة، التي شملت الفترة الأولى من التنافس الأمريكي ـ السوفيتي، فيما بين ١٩٥٠ ـ ١٩٨٩ تقريبا. وهذا أمر مثير للدهشة إذا أخذنا في الاعتبار أن روسيا قد خفضت ميزانية السلاح بنسبة ٧٧٪ منذ عام ١٩٩١، وأن القوات الروسية يمكنها أن تنتصر بالكاد على جيش متمرد في الشيشان (داخل حدودها) لا أن تدخل في مواجهة مع إحدى جاراتها.

وفي ظل غياب جيش روسي قوي، أين يكمن التهديد الذي يبرر إنفاق ما يزيد على الربع تريليون من الدولارات كل عام على الاستعدادات الحربية؟ وإجابة البنتاجون بسيطة: لم تعد هناك قوة عظمى قوية معادية تتحدانا، لكن القوات الأمريكية لا تزال بحاجة إلى التسليح لمواجهة اثنين من الصراعات الإقليمية الرئيسية في آن واحد ضد «الدول العنيدة» مثل العراق وكوريا الشمالية. وإرسال مئات الآلاف من القوات إلى هذه المناطق النائية يتطلب إنفاق ما أنفقته الولايات المتحدة تقريبا خلال الحرب الباردة ـ أو هكذا يدعي البنتاجون.



وسيناريو «الحربين» هذا يستحيل تصديقه بحال. فحسبما يعلن مايكل كلير بحق، في كتابه الدول العنيدة والحظر النووي، فإن كولين باول خطط لاستراتيجية الحربين بمجرد إدراكه أن الولايات المتحدة «افتقدت الأعداء» لتبرير إنفاق مئات المليارات على البنتاجون كل عام. كما يعلن كلير أن «الصراعين الإقليميين الرئيسيين» اللذين يشكلان صلب سيناريو الإنفاق الجديد للبنتاجون يحوي، كلاهما، خصوما إقليميين نظريين أفضل تسليحا وعتادا من قوى إقليمية قائمة مثل العراق وكوريا الشمالية.

وليس مايكل كلير الوحيد الذي يرى أن التهديدات الجديدة لأمن الولايات المتحدة تحمل قدرا كبيرا من المبالغة. فمحلل ميزانية البنتاجون، فرانكلين سبيني، يؤكد بشدة على أن «استراتيجية الحربين التي وضعها البنتاجون هي مجرد حيلة لتبرير الميزانية الضخمة». كما أن مريل ماكبيك، الذي كان رئيسا لأركان القوات الجوية أثناء وبعد حرب الخليج، يرى المسألة على النحو التالي:

«ينبغي ألا نقف كثيرا أمام استراتيجية الحربين. فلا خبرتنا التاريخية ولا الفطرة السليمة يمكن أن تقودنا إلى التفكير في ضرورة ذلك. فقد كان علينا أن ندخل ثلاث حروب إقليمية رئيسية خلال الأعوام الخمسة والأربعين الماضية ـ كوريا، وفيتنام، والعراق. وكان الفاصل بين كل حربين حوالي خمسة عشر عاما، ولم يحدث أبدا أن دخلنا حربين في وقت واحد».

وبالنسبة لأولئك الذين يتساءلون عما إذا كانت حروب مثل فيتنام أو الخليج ضرورية لأمن الولايات المتحدة، يرى ماكبيك أن المسافة الزمنية بين كل صراع رئيسي يمكن تمديدها إلى ٢٠ أو ٣٠ عاما، بدلا من ١٥. كما أن الميزانية العسكرية للولايات المتحدة، كما سنرى، يمكن خفضها بشدة إذا ما قامت حكومتنا بتحركات فعلية للحيلولة دون وقوع الصراع. فاستراتيجية الوقاية أرخص كثيرا وأكثر فاعلية من الطريقة الحالية التي تستوجب حشد قوات ضخمة ومكلفة تحسبا لاحتمالات لا تحدث غالبا. وقد ثبتت صحة هذه النقطة في حرب كوسوفو، حيث أصبح من الجلي الواضح أن استخدام القوات المسلحة المكلفة والعالية التقنية اختيار خاطئ في التعامل مع الصراعات العرقية والحروب الأهلية. فقد كان من شأن إجبار مراقبي حقوق الإنسان والمنظمات الإنسانية، التي كانت تعمل بالإقليم، على الانسحاب، تمهيدًا لبدء حملة القصف التي قام بها الناتو، بالفعل، أن يسهل مهمة قوات الصرب لطرد الألبان من كوسوفو بقوة السلاح. وعبر التدخل في صراع داخلي دون الحصول على موافقة مجلس الأمن، أصبحت الولايات المتحدة وحلفاؤها في الناتو تواجه استخداما غير شرعي للقوة ـ التطهير العرقي في كوسوفو ـ بطريقة غير شرعية ـ حملة غير مرخص بها من قبل الناتو. بينما استبعدت الوسائل الأرخص نسبيا والتي ربما كان بوسعها الإسراع بوضع حد للقتل ـ مثل الحضور الرقابي غير المرغوب فيه لمنظمة الأمن والتعاون الأوروبي المحدودة الموارد أو جهود الأمم المتحدة الجيدة التمويل لتحقيق السلام ـ لصالح حرب جوية سيئة التقدير.

ويرى لورانس كورب، أحد كبار المسئولين بالبنتاجون على عهد ريجان والذي يعمل حاليا مديرا للدراسات بمجلس العلاقات الخارجية، أنه حتى لو قبلنا بالقول بأن القوات الأمريكية بحاجة لأن تكون على استعداد للدخول في صراعين إقليميين في وقت واحد، فالإمكانية لا زالت متاحة لعمل تخفيضات كبيرة في الميزانية الحالية للبنتاجون. ويلاحظ كورب أن الولايات المتحدة تنفق حاليا على القوات المسلحة ١٩ ضعف ما تنفقه ما يطلق عليه البنتاجون «الدول العنيدة» ـ إيران، العراق، السودان، ليبيا، سوريا، كوبا، وكوريا الشمالية ـ مجتمعة. كما يؤكد كورب على أن البنتاجون يقلل من شأن القدرات العسكرية لحلفاء إقليميين للولايات المتحدة، مثل إسرائيل وكوريا الجنوبية، والتي تدعم القوة العسكرية الأمريكية في صراعاتها الإقليمية في الشرق الأوسط وآسيا. وإذا ما أخذنا في الاعتبار الضعف النسبي للدول الشريرة وقوة حلفائنا، فإن كروب يرى إمكانية تخفيض ٤٠ مليار دولار من الميزانية الحالية للبنتاجون، حتى في حال القبول بالسيناريو البعيد الاحتمال لنشوب صراعين إقليميين كبيرين في وقت واحد. كما أن التفوق النسبي للولايات المتحدة وحلفائها مسألة محسومة، حيث تبلغ نسبة الإنفاق العسكري للولايات المتحدة وحلفائها الرئيسيين (الناتو واليابان وكوريا الشمالية) الآن ٢٦٪ من إجمالي الإنفاق العسكري العالمي، وهو ضعف ما كان عليه الحال في منتصف الثمانينيات. وباختصار، فإنه بالرغم من الدعوات المتكررة لزيادة الإنفاق العسكري لعلاج «أزمة التأهب» المدعاة التي تواجه القوات الأمريكية، فإن نصيب الولايات المتحدة وحلفائها من الإنفاق العسكري العالمي أكبر كثيرا مما كان عليه الحال في ذروة التعزيز العسكري على عهد الرئيس ريجان، في منتصف الثمانينيات.



وعبر المبالغة في التهديدات التي يتعرض لها أمن الولايات المتحدة حاليا، ينتهج البنتاجون تقليدا قديما وغير مبدئي. فقد تبين، في أوائل التسعينيات، أن الولايات المتحدة ظلت لسنوات تبالغ كثيرا في تقدير القوة العسكرية السوفيتية، نتيجة تقارير مخابرات مضللة قدمها أمثال الدريش آمز، عميل المخابرات المركزية المسئول عن عمليات التجسس على الاتحاد السوفيتي.

وحدث الشيء نفسه في

السبعينيات، عندما ضغطت لجنة الخطر الراهن المحافظة على المخابرات المركزية لوضع تقرير مضلل عن القوة العسكرية السوفيتية، والذى كان سببا لتمهيد الطريق أمام رونالد ريجان للتعزيز العسكرى، فى الثمانينيات، الذى لا سابقة له فى أوقات السلم.

وجاءت التفجيرات الإرهابية ضد سفارات الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا (أغسطس ١٩٩٨)، واختبارات الصواريخ الإيرانية (يوليو ١٩٩٨) والكورية الشمالية (أغسطس ١٩٩٨)، وحرب الناتو الجوية على كوسوفو (بدأت فى ٢٤مارس١٩٩٩) لتقدم ذريعة للسياسيين والإعلام للمطالبة بتخصيص الأموال للبنتاجون لتطوير سياساته الأمنية. فمن الضرورى تقديم بديل إجبارى للتهديدات المبالغ فيها وأولويات الإنفاق المضللة التى يعززها صقور المؤسسة العسكرية، على أمل زيادة ميزانية البنتاجون زيادة كبيرة، وإعادتها إلى المعدلات التى كانت عليها فى عهد ريجان والتى سادت فى منتصف الثمانينيات.

وإذا لم تكن التهديدات الحالية لمصالح الولايات المتحدة كافية لتبرير إنفاق ما يزيد على ٢٧٦مليارا من الدولارات على البنتاجون سنويا، كما يقترح المحافظون، فما الدافع وراء هذه النفقات الضخمة؟ أول هذه الأشياء، وأكثرها وضوحا، هو أن المستفيدين الرئيسيين من مخصصات الحرب الباردة - بما فيهم البنتاجون، وكبار الموردين العسكريين، وكبار أعضاء الكونجرس الذين يحصلون، بشكل منتظم، على جزء من المخصصات العسكرية لمناطقهم - يعملون طوال الوقت فى سبيل استمرار تدفق هذه الأموال العسكرية غير المشروعة. وإلى جانب هذه الضغوط المؤسسية من أجل استمرار الإنفاق العسكرى الكبير، هناك أيضا الأساس الاستراتيجى، وفحواه أن الولايات المتحدة تحتفظ بالقدرة على أن تكون شيئا أشبه بـ «شرطى العالم»، المسئول عن فرض النظام، وتحقيق الاستقرار، وتأمين «الأسواق الحرة» فى حال تعرضها للتهديد من قبل قوى الشر والفوضى. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة، فى عدد من الحالات المهمة - مثل الصومال ورواندا - قد تخلت عن دورها فى التصدى للصراعات العنيفة خشية من رد فعل الرأى العام تجاه الخسائر فى الأرواح، فإن استراتيجية البنتاجون وميزانيته لا زالت تركز على ضرورة الاحتفاظ بقوة عالمية. وبالنسبة لتلك المناطق المعرضة لتهديد مواردها الحساسة أو الاستثمارات الأمريكية للخطر - مثل الخليج الفارسى وجمهوريات الاتحاد السوفيتى السابقة بآسيا الوسطى، الغنية بالنفط والغاز - فإن البنتاجون يعمل بدأب من أجل توفير السلاح والتدريب، وترتيب سبل الوصول إلى القواعد، و(فى حالة الخليج الفارسى) جعل القوات والعتاد فى حالة استعداد تحسبا لأى تدخل عسكرى محتمل فى المستقبل. وإذا ما نحينا القول بأن الولايات المتحدة بحاجة إلى الاحتفاظ بقدرتها على إرسال القوات لأى مكان من العالم، وركزنا بدلا من ذلك على تحسين العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية مع البلاد الأخرى، فسيكون بمقدورنا استقطاع عشرات المليارات من الدولارات من ميزانيتنا العسكرية المتضخمة.




وبخلاف الاتصال بكبار المشرعين لإدخال بنود بعينها على ميزانية البنتاجون، تشارك شركات مثل لوكهيد مارتن بهمة فى وضع سياسة الولايات المتحدة الخارجية والعسكرية بما يتفق واحتياجاتها. وهذا الشكل الأبشع من الضغط يمكن أن يصل إلى حد تعديل البنود المتعلقة بتعويضات كبار المتعهدين، مثل «تعويضات الأجور» التى قدمت لدعم شركات الدفاع المندمجة، والتى توصل إليها نورمان أوجستين قبل اندماج لوكهيد/مارتن مارييتا؛ أو إلغاء رسوم الاختراع التى كان زبائن السلاح الأجانب يدفعونها لتعويض الخزانة الأمريكية عن تكاليف أنظمة السلاح التى كان يجرى تطويرها على حساب دافعى الضرائب (وهو ما يكلف الخزانة حوالى ٥٠٠مليون دولار سنويا)؛ أو إتاحة مليارات الدولارات فى شكل منح جديدة وقروض بضمان الحكومة لدعم صادرات الأسلحة الأمريكية؛ أو رفع الحظر على تصدير السلاح، مثل ذلك الذى ظل مفروضا لسنوات طويلة على بيع الطائرات المقاتلة الحديثة لأمريكا اللاتينية. وفى حالات أخرى، يضغط الموردون بشدة لحسم برامج أو سياسات موضع خلاف لصالحهم. وأبرز الأمثلة القريبة لهذا النوع من الضغط هو برنامج حرب النجوم للصواريخ الدفاعية، الذى خصص له مليار دولار إضافية سنويا نتيجة ضغوط متعهدى البنتاجون وجماعات البحث والمؤيدين المحافظة، والاندفاع نحو توسيع الناتو، الذى حظى بقدر كبير من اهتمام وجهود وأموال شركات مثل لوكهيد مارتن وبوينج وتكسترون، التى ترى فى توسيع الناتو فرصة ذهبية لفتح سوق جديدة لحروبها، تحظى بموافقة الحكومة ودعم دافعى الضرائب. وقليل من الأمثلة لحملات ضغط بعينها توضح كيف يستخدم صناع السلاح الثلاثة الكبار نفوذهم السياسى المكتشف حديثا.

تسويق السلاح فى الخارج:

مع بداية خفوت الصخب المصاحب لشراء السلاح، الذى اتسمت به فترة حكم ريجان، خلال الثمانينيات، بدأ صناع السلاح الأمريكيون إعطاء المزيد من الاهتمام للأسواق الخارجية كوسيلة للإبقاء على أرباحهم عند معدلاتها. ولأن المبيعات الخارجية غالبا ما تتضمن نقلاً للمزيد من التقنيات «الناضجة»، التى جرى التغلب على أية عيوب فيها خلال عملية الإنتاج، ولأن الأبحاث والتطوير والتجارب الأولية من الإنتاج يمولها دافع الضرائب الأمريكى (على هيئة عقود البنتاجون) فإن صادرات السلاح عادة ما تكون أكثر ربحية من بيعها للبنتاجون. وهذا السعى وراء الأرباح السهلة دفع كل الشركات الكبرى المنتجة للسلاح فى العالم إلى تنسيق جهودها لزيادة صادراتها. وقد فازت الشركات الأمريكية بنصيب الأسد، حيث ارتفع نصيبها من ٤٠٪ إلى أكثر من ٥٠٪ من إجمالى سوق السلاح العالمية خلال التسعينيات. ونتيجة لهذه السيطرة المؤثرة على السوق، توصلت شركات مثل لوكهيد مارتن وبوينج إلى أن السبيل الوحيد لزيادة معدلات صادراتها هو تغيير سياسة الحكومة الأمريكية. وتشمل التغييرات المطلوبة فتح أسواق جديدة، عن طريق إلغاء القيود الحالية القائمة على الموقف من حقوق الإنسان أو تحديد النسل فى الدول المحتمل شرائها للسلاح، أو السعى إلى توفير إعانات حكومية جديدة لإتاحة المزيد من «الزبائن الذين يدفعون نقدا» (أى زبائن أجانب يستخدمون «أموال» دافع الضرائب الأمريكى فى شراء أسلحة أمريكية).

وتعد حملة صناع الأسلحة الناجحة لرفع الحظر، الذى استمر عشرين عاما، على تصدير المقاتلات الأمريكية المتقدمة إلى أمريكا اللاتينية مثالا ممتازا على كيفية عمل آلة الضغط التى تديرها هذه الصناعة. ففى البداية، أقنعوا وزير الدفاع، وليام بيرى، بالدفاع عن رفع الحظر فى مشاورات إدارة الرئيس كلينتون وإرسال طائرات ف١٦ التابعة لسلاح الطيران الأمريكى للمشاركة فى العرض الجوى، الذى أقيم فى سنتياجو بشيلى فى مارس ١٩٩٦. وقبل العرض، قام البنتاجون أيضا بترتيب طلعات اختبار لبعض الضباط البرازيليين، على طائرات ف١٦ المتمركزة مع الحرس الوطنى البورتوريكى. ثم قام لوبى الصناعات الفضائية بإرسال خطابات إلى وزير الخارجية آنذاك، وارين كريستوفر، موجهة من ٣٨ من أعضاء مجلس الشيوخ و٧٨ من مجلس النواب، يحثونه فيها على تأييد رفع الحظر.

ويطلق دوجلاس والر، محرر مجلة تايم، على خطابات الضغط هذه «خطابات بأكثر من مليون دولار»، لأن أعضاء المجلسين الذين وقعوا خطابات مناشدة كريستوفر تلقوا أكثر من مليون دولار من كبرى الشركات المصدرة للسلاح، على هيئة تبرع للجنة العمل السياسى. وقد تابع ممثلو الصناعة جهودهم بعقد اجتماعات بالبيت الأبيض مع مستشارى الرئيس وصديقه المقرب ماك ماكلارى وأحد مساعدى جور، نائب الرئيس.



وطبقا لرواية مريل جوزنر، محرر صحيفة شيكاغو تريبيون، فإن كتيبا صادرا عن لوكهيد مارتن يقدر حجم سوق السلاح فى أمريكا اللاتينية بـ«ما بين ٣ـ٥١٠مليار دولار على مدى السنوات العشر القادمة»، سُرب من أسفل باب غرفة أوسكار أرياس، رئيس كوستاريكا السابق والحاصل على جائزة نوبل للسلام، أثناء إحدى رحلات العمل. ود. أرياس يعمل مع مركز كارتر، ومجلس من أجل عالم ملائم للعيش، وائتلاف عدد من جماعات الصالح العام الساعية إلى تأجيل بيع الأسلحة المتطورة لأمريكا اللاتينية، كخطوة أولى لتشجيع المشاورات الإقليمية لمنع نشوب الحروب وخفض القوات. لكن حتى الآن، فإن قوة وأموال لوبى السلاح تصرف الاهتمام عن اقتراح كهذا، يمكن أن يقدم لأمن واستقرار أمريكا اللاتينية فى المستقبل أكثر مما يمكن أن تقدمه معدات القتال الباهظة التكاليف.

وبالنسبة لمسالة توسيع الناتو، فإن دور موردى الولايات المتحدة لم يكن تغيير سياسة الإدارة وإنما حسم قرار سياسى لايزال موضع جدل. فإدارة كلينتون قررت توسيع الناتو لأسباب مختلفة، مثل ترسيخ الإصلاحات الديموقراطية للسوق الحرة فى شرق ووسط أوروبا، واجتذاب حلفاء جدد للإسهام فى حفظ السلام فى البوسنة وغيرها من النقاط الساخنة. لكن بالنظر إلى العيوب الواضحة لتوسيع الحلف - مثل استبعاد روسيا، وتأخير أى جهود مقبلة لخفض الأسلحة النووية الأمريكية - الروسية، والتعهد، المكلف والمفتوح النهاية، بإعادة تسليح الدول الأعضاء الجدد - كانت إدارة كلينتون بحاجة إلى حلفاء يساعدونها فى تسويق فكرة توسيع الناتو للكونجرس والرأى العام. وإلى حد كبير، كان أكثر اللاعبين أهمية فى اللوبى المؤيد لتوسيع الناتو هى منظمات الأمريكيين ذوى الأصول البولندية والمجرية والتشيكية، إلى جانب كبرى شركات السلاح الأمريكية مثل لوكهيد مارتن وتكستون، التى اتخذت موقفا شرسا فى تأييدها لهذا التعهد الجديد المكلف.

وقد اتخذت عمليات الضغط المشتركة من أجل توسيع الناتو أكثر من شكل. كان أهمها إعارة لوكهيد مارتن أحد نواب رئيسها، بروس جاكسون، ليتولى رئاسة اللجنة الأمريكية لتوسيع الناتو، وهى جماعة للضغط والتوعية العامة تتخذ من مكاتب معهد



المشروعات الأمريكي المحافظ مقرا لها. وتشرف اللجنة على الحملات الدعائية، والمذكرات المقدمة للكونجرس، وإعداد الخطب والمقالات، والكتب البيضاء، التي تدعو إلى توسيع الحلف «إلى أقصى ما يمكن». ويدعي جاكسون أنه يلعب دوره في اللجنة من باب «الهواية»، لكن طبيعة عمله توحي بعكس ذلك. ففي صيف ١٩٩٧، على سبيل المثال، عندما دعت اللجنة الأمريكية إلى حفل غداء حضره ١٢ من أعضاء مجلس الشيوخ للاستماع لشرح لمسألة توسيع الناتو من وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت، قام جاكسون بدعوة برنارد شوارتز عضو مجلس إدارة لوكهيد مارتن، وهو، بالمصادفة، أكبر متبرع للحزب الديموقراطي لانتخابات ١٩٩٥/١٩٩٦، وكان حضور شوارتز إشارة واضحة للحضور من الشيوخ بأن تأييد توسيع الحلف وسيلة جيدة لضمان الأموال لحملتهم. ولتأكيد الرسالة، أرسل شوارتز، بعد أسابيع قليلة من حفل غداء الناتو، شيكا بمبلغ ٥٠ ألف دولار إلى لجنة حملة الحزب الديموقراطي بمجلس الشيوخ.

وتشمل الأنشطة المؤيدة لتوسيع حلف الناتو، التي تتولاها شركات السلاح الأمريكية، مساهمات مالية من لوكهيد مارتن وتكسترون ومكدونالد دوجلاس للمنظمات العرقية المؤيدة لتوسيع الناتو، مثل الأصدقاء الأمريكيين لجمهورية التشيك وعدة مؤسسات رومانية تؤيد ترشيح هذا البلد لعضوية الحلف؛ وتقديم تمويل سياسي لتسهيل تمرير الاستفتاء العام على توسيع الحلف الذي جرى في المجر عام ١٩٩٧؛ والتدخل بشتى الطرق، في شرق ووسط أوروبا، لإقناع القيادة العليا في بولندا والمجر وجمهورية التشيك ورومانيا وغيرها من الدول غير الأعضاء بالناتو بأن شراء السلاح الأمريكي هو أفضل السبل للتقرب من الحكومة الأمريكية والفوز بتأييدها لقبول عضويتها بالحلف. ومن المهم أن نلاحظ أن كثيرين في شرق ووسط أوروبا، بمن فيهم زعماء ديموقراطيون مثل فاتسلاف هافيل رئيس جمهورية التشيك وليش فاليسا رئيس بولندا، كانوا مؤيدين لتوسيع الحلف بسبب المخاوف القديمة من روسيا، والتي جعلتهم يصغون بإنصات لاقتراح توسيع الناتو.

وأخيرا، عندما اقترع مجلس الشيوخ على توسيع الحلف في أوائل ١٩٩٨، جاء التصويت بالموافقة بأغلبية ٨١/١٩. لكن نظرا لاعتبارات عامة تتعلق بالتوسيع المستقبلي للناتو - حسب أحد التقديرات - فإن التكلفة الإجمالية لجولات التوسيع المتعددة قد تصل إلى ٥٠٠ مليار دولار على مدى ١٢-١٥ عاما، أو ٢٥٠٠ دولار لكل رب أسرة أمريكي - فإن الأعضاء الجدد لن يدخلوا قبل عام ٢٠٠٠، وليس ١٩٩٩ كما كان مقررا في الأصل. وهذا التأجيل يجعل من الانتقادات التي وجهت لتوسيع الحلف فاتحة سياسية هامة لحشد القوى المطلوبة لمنع لوبي السلاح والفرع التنفيذي من المضي قدما في الطريق الخطر والمكلف بتوسيع حلف الحرب الباردة الذي ليس له غرض واضح في عالم ما بعد الحرب الباردة.

وفي الوقت الذي كان الناتو يحتفل فيه بالذكرى الخمسين لتأسيسه، في أبريل ١٩٩٩ بواشنطن، كانت تكاليف الحلف قد تجاوزت الحدود بسبب ما أنفق على الحرب الجوية ضد يوغوسلافيا، والتي بلغت حوالي المليار دولار شهريا. فقد كان من شأن إعادة تجهيز ترسانة الولايات المتحدة وحلفائها بصواريخ توماهوك كروز وذخائر بوينج وطائرات ف١٦ وف٢٢ من إنتاج لوكهيد مارتن، تمويل خزائن صناع السلاح الثلاثة الكبار بمليارات الدولارات على هيئة عقود جديدة. فصناع السلاح على دراية بـ«فوائد» الصراع في كوسوفو، والحقيقة أن بروس جاكسون، نائب رئيس شركة لوكهيد مارتن الذي تزعم جماعة الضغط من أجل توسيع الناتو، استغل دعوة صحيفة كابيتول هيل لحث الكونجرس على تمويل المجهود الحربي أقصى استغلال. أما بوينج ورايثيون ويونايتد تكنولوجيز، فقد قدمت كل منها مبلغ ٢٥٠ ألف دولار لـ«لجنة الاستضافة» الرسمية، المكلفة بالإشراف على اجتماعات الذكرى الخمسين لتأسيس الناتو في أبريل ١٩٩٩ بواشنطن، لتكون على علم بتفاصيل اجتماع مسئولي الشئون الخارجية ووزراء دفاع الناتو، الذين سيقررون ما إذا كان الحلف سيعتمد على العتاد الأمريكي خلال السنوات القادمة.

لوبي حروب النجوم:

من أكثر قصص الضغط القريبة العهد إثارة للدهشة ما قام به البنتاجون، وموردون مثل لوكهيد مارتن وبوينج، وشبه مؤسسة الأبحاث هريتاج ومركز السياسات الأمنية اليميني (الذي أسسه مسئول البنتاجون السابق بإدارة ريجان، فرانك جافني) للإبقاء على برنامج ريجان لحرب النجوم - بالرغم من التغيرات الجذرية التي طرأت على البيئة الأمنية في العالم، التي تخلت عن مهمتها الأصلية العتيقة، وحدوث سلسلة من الإخفاقات التكنولوجية المتواصلة. فقد ضاعت هباء ١٥ سنة و ٥٥ مليار دولار منذ ألقى ريجان خطابه عن حروب النجوم للمرة الأولى، في مارس ١٩٨٣، وبعد أن انتهى من الوجود الاتحاد السوفيتي، الذي كانت ترسانته النووية هي الهدف الرئيسي لنظام ريجان الدفاعي الصاروخي. ولما لم تلق التشجيع، كان على حرب النجوم أن تحدد مهمة جديدة لصواريخها: حمايتنا من هجمات «دول عنيدة» مثل العراق وكوريا الشمالية، التي لا تملك صواريخ يمكن أن تصل إلى الأراضي الأمريكية. وفي كل مرة يخفق فيها أحد مكونات المشروع الأساسية - مثلما حدث في مشروع لوكهيد لمسرح عمليات الجيش للدفاع العمودي، والذي حصل على صفر من خمس خلال الاختبارات التي أجريت على مدار هذا العقد - يتعالى صراخ لوبي حروب النجوم في الكونجرس مطالبا بالمزيد من الأموال.

والمركز العصبي للوبي حرب النجوم هو مركز فرانك جافني للسياسات الأمنية، وهو منظمة للأبحاث والدفاع، تصدر سنويا ما يقرب من ٢٠٠ نشرة صحفية (تحت اسم يوحي بالحيثية هو «ملخصات قرار الأمن القومي») تلتمس التأييد لصواريخ الدفاع، وزيادة الميزانية العسكرية، وغيرها من القضايا التي يتبناها الجناح اليميني. ومنذ تأسيسها في ١٩٨٨، تلقت مجموعة جافني ما يزيد على

المـــوردون الكبـــار للأســـلحة

يحقق «الثلاثة الكبار» من موردي السلاح - بوينج، ولوكهيد مارتن، ورايثيون - أرباحا سخية من أبحاث وتطوير حرب النجوم، ومن المتوقع أن تجني المزيد من المليارات في حال النشر الفعلي لنظام الصواريخ الدفاعي القومي.

بوينج: فازت بعقد ابتدائي مقداره ١,٦ مليار دولار لعمل «الأنظمة المندمجة» لمجمل مجهود الدفاع الصاروخي (وول ستريت جورنال، ٥/١/٩٨)، وقد تصل قيمة العقد إلى ٥,٢ مليار دولار خلال السنوات العشر القادمة. كما أن بوينج هي المورد الأساسي لليزر المنقول جوا، وهو ليزر كيماوي تزود به الطائرة ٧٤٧ وتفترض فيه القدرة على اعتراض صواريخ سكود عند «أقصى اندفاعها»؛ وتتوقع القوات الجوية أن تنفق ٢,١ مليار دولار على هذا البرنامج من الآن وحتى عام ٢٠٠٢، يذهب معظمها إلى شركة بوينج. كذلك فازت بوينج بعقد لتجميع محركات إطلاق الصواريخ لمعدات الإعاقة الأرضية، وهو أحد المكونات الرئيسية لحرب النجوم؛ وتقدر تكلفة المحركات بحوالي ٣ ملايين دولار لكل محرك.

لوكهيد مارتن: هي المورد الرئيسي لنظام «مسرح عمليات الجيش لدفاع المنطقة العمودي». وقد فشل النظام في آخر ستة اختبارات متتالية، ووافقت لوكهيد مارتن على دفع حتى مبلغ ٧٥ مليون دولار مقابل أية محاولة فاشلة في المستقبل. وقد أنفق الجيش على هذا النظام حتى الآن ٢,٣ مليار دولار.

رايثيون: هي المورد الرئيسي لمشروع «الصواريخ الدفاعية لمسرح العمليات البحرية»، الذي يفترض فيه إعاقة صواريخ العدو بعد قليل من إطلاقها عن طريق اكتشافها وتدميرها من سفن بحرية. وهو يعد رهان الجماعات المؤيدة لحرب النجوم، مثل مؤسسة هريتاج ومركز فرانك جافني للسياسات الأمنية، ومن المتوقع أن تصل التكلفة إلى ما بين ١٠٠-٢٠٠ مليون دولار سنويا على مدى السنوات الخمس القادمة. كما أن رايثيون هي مقاول الباطن لبوينج في مشروع الأنظمة المندمجة لصواريخ الدفاع القومي. ومن المتوقع أن يصل مجموع ما تتلقاه الشركة لمشروع المسرح المكشوف حوالي ١,٤ مليار دولار، فيما بين أعوام ١٩٩٧-٢٠٠٣.



رحلة ابن بطوطة

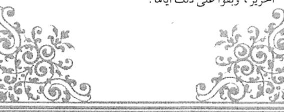
تحفة النظار فى غرائب الأمصار

ولد ابن بطوطة - وهو محمد بن عبدالله اللواتى الطنجى - عام ١٣٠٤م فى مدينة طنجة بالمغرب، ويعد أعظم رحالة فى القرون الوسطى. فقد كان عام ١٣٢٥م الذى بدأ فيه ابن بطوطة رحلته هو نفس العام الذى توفى فيه ماركو بولو، الرحالة الإيطالى الشهير الذى شكك المؤرخون فى حقيقة سفره إلى الصين. وقد أمضى ابن بطوطة فى رحلته حوالى ثلاثين عامًا، زار خلالها المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس وتركيا وآسيا الوسطى والهند والصين والسودان والأندلس، قاطعًا ثلاثة أضعاف المسافة التى اجتازها ماركو بولو. وقد ترجمت رحلة ابن بطوطة إلى عدة لغات منها الفرنسية والإنجليزية والألمانية والتركية والبرتغالية.

مدينة القاهرة

وصلت إلى مدينة مصر، وهى أم البلاد، وقرارة فرعون ذى الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة، المتناهية فى كثرة العمارة، المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر. وبها شئت من عالم، وجاهل، وجاد، وهازل، وحليم، وسفيه، ووضيع، ونبيه، وشريف، ومشروف، ومنكر، ومعروف. تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها. شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد. قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها نواصى العرب والعجم. ولها خصوصية النيل الذى أجلَّ خطرها، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها. وأرضها مسيرة شهر لمجدَّ السير، كريمة التربة مؤنسة لذى الغربة.

.. وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو. شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده. فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير، وبقوا على ذلك أيامًا.



٢ مليون دولار على هيئة هبات، معظمها من شركات مثل لوكهيد مارتن وبوينج، اللتين تعدان من كبار موردى أنظمة حرب النجوم. كما تضم المنظمة فى مجلس إدارتها ما لا يقل عن خمسة من مديرى لوكهيد مارتن، ناهيك عن زمرة حرب النجوم، مثل عالم الأسلحة إدوارد تيلر ومساعده جورج كيوورث، الذى عمل كمستشار علمى لرونالد ريجان فى فترة بدء التخطيط لمشروع حروب النجوم. كذلك يتمتع مركز سياسات الأمن بعلاقات وثيقة بالمراكز البحثية المحافظة الأخرى، مثل مؤسسة هريتاج ومساعدة أمريكا، وكلتاهما لهما ممثلون فى مجلس إدارة مركز سياسات الأمن. وخلال خريف ١٩٩٨، بذل لوبى حروب النجوم جهدا منظما للفوز بعضو آخر من أعضاء مجلس الشيوخ، هو تاد كوشران صاحب مرسوم حماية أمريكا الذى يهدف إلى نشر النظام القومى للدفاع الصاروخى. ولتحقيق هذه الغاية، قامت منظمة مساعدة أمريكا بحملة إذاعية مضللة فى ولاية نيفادا فى محاولة لإقناع سكانها بأن رفض نائبيهم الديموقراطيين، هارى رايد وريتشارد برايان، التصويت على نظام الدفاع الصاروخى الباهظ التكلفة يعنى أنهما يقفان فى وجه «حماية أسرتنا» من الهجوم النووى.

وعلى المدى القصير، فإن هذا الجهد غير العادى من جانب لوبى حرب النجوم ضاع هباء. فنتيجة لرد فعل الرأى العام تجاه الأساليب التى اتبعها المحقق الخاص كينث ستار والقيادات الجمهورية فى الكونجرس أثناء فضيحة لوينسكى، أخفق الجمهوريون فى الفوز بمقعد فى مجلس الشيوخ فى انتخابات ١٩٩٨، بينما أعيد انتخاب مرشحين ديموقراطيين مثل هارى رايد عن نيفادا وباربرا بوكسر عن كاليفورنيا، وكلاهما تعرض لنقد حاد بسبب معارضتهما لحروب النجوم.

وبرغم هذه النكسات الواضحة فى انتخابات ١٩٩٨، فإن لوبى حروب النجوم لم يستسلم؛ فبحلول ربيع ١٩٩٩ كان مجلسا الشيوخ والنواب قد اقتنعا بتمرير نسخة معدلة من قانون كوشران، الذى ينص على أن سياسة الحكومة الأمريكية هى نشر صواريخ للدفاع القومى بمجرد «إنجازها تكنولوجيا». وفى الوقت الذى يحاول فيه مؤيدو مراقبة التسلح، مثل السناتور كارل لفين، تخفيف اللطمة بمحاولة إدخال تعديلات تدعو الولايات المتحدة إلى مواصلة مساعيها مع روسيا للحد من الأسلحة، فإن قرارى حرب النجوم كانا انتصارا دعائيا كبيرا لأنصار نشر صواريخ الدفاع من المحافظين والشركات التى ترعاهم.

استراتيجية وقائية:

إن أفضل وسيلة للتصدى للدفعة الجديدة، التى حققها لوبى السلاح لزيادة الإنفاق العسكرى وإعانات تصدير السلاح، هى تشجيع انتهاج استراتيجية بديلة للحيلولة دون اندلاع الحروب والحد من مستويات العنف المسببة لها.

وتعد الحملة الدولية لتحريم استخدام الألغام الأرضية، التى فاز محركها الأساسى جودى وليامز بجائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٧، مثالا يحتذى لما يمكن أن تفعله المنظمات غير الحكومية لصياغة جدول أعمال الأمن الدولى فى اتجاه إيجابى. فعندما بدأت الحملة قبل أقل من عقد مضى، لم يكن كثيرون قد سمعوا، مجرد سمع، بمشكلة الألغام الأرضية. لكن فى غضون سنوات قليلة من الجهد الدءوب والتوعية العامة من جانب جماعات العمل التطوعى، ومنظمات المعاقين، ودعاة حقوق الإنسان، والأطباء، وجماعات مراقبة التسلح، بلغ عدد الدول المؤيدة لاتفاقية أوسلو لمنع الألغام المضادة للأفراد مائة دولة. (بحلول ربيع ١٩٩٩، بلغ عدد الدول التى صدقت فعليا على المعاهدة ٨١ دولة، وهو ما يكفى لمعاملتها كمعاهدة رسمية). وقد لاقت الحملة دعم وتأييد السناتور باتريك ليهى، الذى أقنع زملاءه فى مجلس الشيوخ بفرض حظر على تصدير الألغام الأرضية الأمريكية المضادة للأفراد. وقد نجحت هذه الحملة لأنها كانت قادرة على الإبلاغ المؤثر ببشاعة نتائج هذه الأسلحة، عديمة التمييز والتى تفتقد المعنى، على الإنسان. كما أن ملايين المدنيين الأبرياء الذين قتلوا وأصيبوا بسبب الألغام الأرضية وجدوا أخيرا معبرا عنهم من خلال الحملة، التى تولاها بالأساس منظمات المواطنين، بمساندة مهمة من جانب حكومات دول رئيسية مثل كندا والنرويج.



ونفس هذه المنظمات، التى جعلت مسألة الألغام الأرضية موضع اهتمام عالمى، تسعى الآن فى سبيل الحد مما يسمى بالأسلحة الصغيرة أو الخفيفة - البنادق والقنابل اليدوية، والمركبات الخفيفة التى تعد أداة الموت فى ميادين القتال العرقية فى العالم. ولأن الأسلحة الصغيرة مسألة أساسية بالنسبة لمعظم جيوش العالم، ولصلتها بالجدل الخاص بمراقبة السلاح داخل المجتمعات، فإن معركة الأسلحة الصغيرة ستكون أطول بلا شك وأكثر تعقيدا من حملة الألغام. لكن تقدم قضية السلام ونزع السلاح سيظل مرهونا بمدى التقدم فى تحديد اختيار المقاتلين لأسلحتهم. وفى مؤتمر السلام بلاهاى، فى مايو ١٩٩٩، أعلن رسميا عن بدء الحملة العالمية للحد من الأسلحة الصغيرة، تحت مظلة شبكة التحرك الدولى بخصوص الأسلحة الصغيرة. ■

ترجمة: بدر الرفاعى

إبراهيـــــــم شـــــــحاتة

ابن أى ملك من الملوك؟!



جـــــلال أمـــــين



لا أتصور أن دولة أخرى من دول العالم الثالث أنتجت خلال الخمسين عامًا الماضية، مثل ما أنتجته مصر من هذه الشخصيات البارزة من علماء القانون الدولى. فمن عبد الحليم بدوى وحامد سلطان، إلى طلعت الغنيمى وعبد الله العريان، إلى جورج أبى صعب وإبراهيم شحاتة، الذى فجعنا بفقده منذ أسابيع قليلة (٢٨ مايو ٢٠٠١)، دأبت مصر على إنتاج عقليات مضيئة فى هذا المجال من مجالات الفكر القانونى. ولكن إسهامات إبراهيم شحاتة الفكرية والعملية كان لها بعض السمات الخاصة التى تميز بها عن هؤلاء الأفذاذ، وتستحق منا بعض التأمل.

فمن ناحية، تزامنت فترة دراسة إبراهيم شحاتة وحياته العملية مع زيادة الاهتمام بقضية التنمية الاقتصادية فى العالم الثالث من جانب الساسة وعلماء الاجتماع على السواء، ومن ثم كان من الطبيعى أن يهتم إبراهيم شحاتة بجوانب القانون الدولى الخاصة بالعلاقات الاقتصادية والمالية الدولية. وبالفعل كانت معظم كتاباته وإسهاماته الفكرية والعملية فى هذا المجال: الجوانب القانونية لانتقال رءوس الأموال والموارد الاقتصادية بوجه عام بين دول وأخرى. وقد تطلب منه ذلك التعمق فى دراسة المشكلات الاقتصادية إلى جانب تعمقه فى القانون، فإذا بعقله الحاد كالسيف يجعله يمتاز عن أقرانه المهتمين بهذا النوع من المشكلات أو ذاك.

وقد اضطر إبراهيم شحاتة، شأنه فى ذلك شأن سائر أقرانه البارزين فى القانون الدولى، إلى أن يقضى الجزء الأكبر من حياته العملية خارج مصر. فهو مستشار فى الكويت للصندوق الكويتى للتنمية عدة سنوات (١٩٧٠ ـ ١٩٧٥). ثم مدير لصندوق الأوبك للتنمية فى فيينا (١٩٧٥ ـ ١٩٨٣)، ثم نائب لرئيس البنك الدولى ومستشار للبنك فى واشنطن لمدة خمسة عشر عامًا (١٩٨٣ ـ ١٩٩٨). ولكن علاقة إبراهيم شحاتة ببلده طوال هذه السنين ظلت من نوع متميز. كان يبدو لى وكأنه يشعر بمسئولية خاصة عنها، وأن كل ما بذله من جهد فى تحصيل العلم وزيادة خبراته يجب أن يصب فى نهاية الأمر فى دفع بلده بضع خطوات إلى الأمام.



كان ذلك أسهل نسبيًا عندما كان قريبًا من مصر وهو مستشار فى الكويت، فزياراته لمصر سهلة وكثيرة، والمصريون قادمون وغادون بين مصر والكويت، والندوات والمؤتمرات التى تعقد عن مشكلات التنمية العربية لا تكاد تنقطع، وهو مساهم شبه دائم فى هذه الندوات والمؤتمرات. ثم أصبح الأمر أكثر صعوبة فى فيينا أو واشنطن. صحيح أنه رئيس أو مسئول كبير عن مؤسسة لمنح المعونات الدولية ـ ومصر فى حاجة إلى هذه المعونات، ولكنه وهو فى هذا البلد أو ذاك مسئول عن مصالح العالم الثالث بأسره، وليس من المتصور فى مثل هذا المنصب أو ذاك أن يتحيز لبلده على حساب بلاد أخرى. اختار إبراهيم شحاتة إذن سبيل الكتابة عن مختلف مشكلات مصر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقانونية، متجاوزًا بكثير نطاق تخصصه، فكتب مجموعة من الكتب الصغيرة نشرت فى مصر، كان آخرها كتابًا من أربعة أجزاء بعنوان «وصيتى لبلادى»، كتبه بعد أن أصيب بمرض لا يمنعه من العمل أو الكتابة، ولا يقلل كثيرًا من نشاطه، ولكن ظل هذا المرض كالسيف المسلط عليه، لا يعرف فى أى وقت يمكن أن يفاجئه، والناس إذا وضعوا فى مثل هذا الموقف يمكن أن يتصرفوا بطرق مختلفة، ولكن الطريقة التى اختارها إبراهيم شحاتة كانت هى أن يكتب «وصيته لبلاده».



رأيت إبراهيم شحاتة رجلاً طويلاً، أسمر البشرة ذا ملامح مصرية صميمة مع وسامة واضحة، ولكنه كان يتميز أيضًا بمشية خاصة توحى على الفور بالثقة والاعتزاز بالنفس، كما تبعث على الفور على الاحترام. ذلك أنه كان منتصب القامة دائمًا، لا أثر فيها لأى انحناء فى الظهر، كما أنه يمشى بتؤدة دون أى ميل إلى الهرولة

للسيد جمال الدين الأفغانى عبارة جميلة فى وصف صفيّه وأقرب تلاميذه إلى قلبه، الشيخ محمد عبده، إذ خاطبه بقوله: «ابن أى ملك من الملوك أنت؟». لقد أدهش الأفغانى أن يرى محمد عبده، ذلك الفلاح ابن الفلاح، يتصرف ويتكلم ويبتسم ويضحك، ويخاطب العلماء والكبراء أو يكلم البسطاء من الناس، كما يتصرف ويتكلم ابن ملك من الملوك. من الصعب بالطبع أن نصف بالضبط كيف يتكلم أولاد الملوك، كما أنه ليس كل الأمراء يتصرفون كأولاد الملوك، ولكن من الممكن أن نتصور ما الذى كان يعنيه الأفغانى. وعندما رحت أستعيد ذكرياتى عن إبراهيم شحاتة، قفزت إلى ذهنى هذه العبارة فقلت: ما أشد ملاءمتها لإبراهيم شحاتة أيضًا!

قابلت إبراهيم شحاتة لأول مرة منذ نحو أربعين عامًا، وكنا مجموعة من الزملاء ثم تحولنا إلى أصدقاء، من العائدين حديثًا من بعثات الدراسة بالخارج فى القانون أو الاقتصاد. هذا عائد من باريس وهذا من لندن، وهذا من هارفارد أو معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا.. إلخ. وقد عاد معظمنا للتدريس إما فى حقوق عين شمس (وكان إبراهيم من هؤلاء) أو فى حقوق الإسكندرية. رأيت إبراهيم شحاتة رجلاً طويلاً، أسمر البشرة ذا ملامح مصرية صميمة مع وسامة واضحة، ولكنه كان يتميز أيضًا بمشية خاصة توحى على الفور بالثقة والاعتزاز بالنفس، كما تبعث على الفور على الاحترام. ذلك انه كان منتصب القامة دائمًا، لا أثر فيها لأى انحناء فى الظهر، كما أنه يمشى بتؤدة دون أى ميل إلى الهرولة. وهو أثناء ذلك ينظر إلى الأمام لا إلى الأرض، فلا يترك أى انطباع بأنه مشغول فى داخل نفسه بأية شكوك أو مخاوف مما قد يصرفه عن الإنصات إنصاتًا جيدًا لما تقوله والاستجابة له بالموافقة أو المعارضة على حسب ما تقتضيه الحال. وهو فى رده على ما تقول صريح تمامًا، ولكنه نادرًا ما يجرح، مقتضب القول آملاً أن يغنى قليل الكلام عن كثيره. وهو محب للحوار وتبادل الحديث لا يمل منه بسرعة، ويستطيع أن يضحك ضحكات صادقة وإن كانت مقتضبة بدورها، وهو أقدر على اكتشاف المسلى والشيق فيما يسمعه أو يراه منه على اكتشاف ما يبهج أو يثير الحماس. لا يميل إلى النميمة وذم الآخرين فى غيابهم، وإن كان على استعداد للاستماع إلى ما تقوله عنهم وأن يجد فى هذا بعض التسلية بشرط ألا تستغرق فى هذا أكثر من اللازم.

كنا كلنا من أفراد هذه المجموعة من الزملاء أو الأصدقاء، نحظى بالطبع بدرجة لا بأس بها من الذكاء ومن الطموح، وإلا ما كان لنا، على الأرجح، أن نصبح أعضاء فى هيئة التدريس

«وصيتى لبلادى» ـ جزءان
إبراهيم شحاتة
القاهرة: مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية ودار الأمين للنشر والتوزيع ١٩٩٥

فى الجـامـعـة، وهكذا كـان بالطبع إبراهيم شحاتة أيضًا، ولكنى مع مرور الأيام وازدياد معرفتى به بدأت ألاحظ فيه خصلتين أخريين، لا بد أن أعترف بأن أحدًا منا لم يكن يدانيه فى أى منهما.

الخصلة الأولى: هى قوة الشعور بالواجب. لا أقصد بالطبع أننا كنا فيما عداه، ضعيفى الشعور بالواجب، ولكنى أقصد أن قوة الشعور بالواجب لم تكن صفة مميزة لنا كما كانت مميزة له. ظهر هذا من البداية منذ تولينا كلنا مهمة التدريس بالجامعة، فقد رضخنا كلنا للتقليد الشائع وقتها، ولا يزال، بأن يقوم الأستاذ بتأليف كتاب جامعى فى مادته، يشتريه التلاميذ جميعًا ويعتمدون عليه اعتمادًا أساسيًا (أو كليًا)، ولكن إبراهيم شحاتة كان الوحيد من بيننا، فيما أذكر، الذى لم يرضخ لهذا التقليد، ولا أظن أنه كتب كتابًا مدرسيًا أو جامعيًا واحدًا فى حياته.



ثم ذهب إبراهيم شحاتة للعمل مستشارًا اقتصاديًا فى الصندوق الكويتى للتنمية الاقتصادية العربية (١٩٧٠) ولحقت أنا به بعد أربع سنوات، فإذا بى أجد تفانيه فى خدمة الصندوق مضرب الأمثال، ويكاد ألا يكون له مثيل من بين العاملين فيه. كان أداؤه فى مختلف الوظائف التى تولاها يذكرنى بالمثل الإنجليزى البليغ: (If it is worth doing, it is worth doing well) أى أنه «إذا كان العمل يستحق أن يؤدى على الإطلاق، فإنه يستحق أن يؤدى بكفاءة». سمعت نفس الشىء بعد ذلك عن أدائه فى فيينا، عندما تولى إدارة صندوق الأوبك لمعونة الدول النامية، ثم عن أدائه مستشارًا ونائبًا لمدير البنك الدولى، مما جلب له ثناء غير معهود من رئيس البنك الحالى عندما كتب يصف إبراهيم شحاتة، وهو يرثيه، بأنه: «كان ملتزمًا التزامًا لا شبهة فيه بقضية التخفيف من مشكلة الفقر، وبخدمة القضية التى يعمل البنك الدولى من أجلها، وكذلك بخدمة الدول الأعضاء فى البنك وشعوبها». وذلك بعد أن وصفه بأنه «كان رجلاً استثنائيًا، وواحدًا من أعظم فقهاء القانون الدولى فى القرن العشرين».

ولكن قوة الشعور بالواجب، متى توفرت، لابد أن تظهر فى الأمور الصغيرة كما تظهر فى الوظائف الخطيرة. وأشهد أنى فى علاقتى الشخصية بإبراهيم شحاتة لم أصادف قط ما يتنافى مع ما عرفته عنه فى أدائه لعمله. أهديته مرة فى ١٩٧٠ كتابًا جديدًا ظهر لى، وكان فى الكويت وكنت فى مصر، كما أهديت الكتاب لبعض الكتّاب والأصدقاء الآخرين، وكنت أشعر بالامتنان لمن تفضل علىّ بخطاب شكر أو تهنئة، وهو ما لم يحدث من كثيرين، ولكنى دهشت دهشة حقيقية عندما تسلمت من إبراهيم شحاتة ليس مجرد خطاب شكر أو تهنئة بل بضع صفحات من النقد المفصّل للكتاب، أوجه القوة فيه وأوجه الضعف.

هذا الشعور القوى بالواجب يتصل بالخصلة الثانية، (وقد يكون هذا الشعور بالواجب مجرد مظهر من مظاهرها) وهى الحب الفطرى لديه «للكمال». إنه يكره «النقص» فى أى شىء، ماديًا كان أو معنويًا، فى النظم الاجتماعية أو السياسية كما فى الأخلاق. حدث مرة فى أوائل معرفتى به، أن كنا جالسين فى مطعم وسأل إبراهيم عن السمك، فأخذ خادم المطعم يشرح له مختلف أطباق السمك التى يمكن تقديمها، فإذا به يرفض أى طبق للسمك لا ينبئ باحتوائه على السمكة الكاملة، وقال ضاحكًا إن السمكة التى تأتيه ناقصة، ولا تأتى بكل أجزائها، من الرأس إلى الذيل، لا يستطيع الاقتراب منها. واعتبرت هذا حينئذ مجرد نزوة عابرة لا دلالة لها، ولكن توالى علىّ بعد ذلك من تصرفاته وسلوكه ما رجّح لدىّ أن ذلك الموقف من السمك قد يكون مجرد مثال لنزعة دفينة وأكثر عمومية. فقد سمعت بعد هذا أنه عندما اختار زوجة له، اختار الفتاة المثالية فى الجامعة الأمريكية، واسمها كان بالمصادفة «سامية»، وعندما أراد أن يقدم لها هدية، قدم لها، بالإضافة إلى الهدايا التقليدية فى الزواج المصرى، كتاب شعر فى الحب، قام بترجمته من قصائد مصرية قديمة من العهد الفرعونى. وعندما رزقا بأول أطفالهما سمياه «شريف»، الذى لاحظت فى المرات القليلة التى رأيته فيها أنه ورث لحسن الحظ كثيرًا من خصال أبيه، ولكن الظريف أنك إذا سألت «شريف» عن اسمه نطقه صحيحًا بفتح الشين بدلاً من كسرها، بعكس ما يفعل سائر المصريين إذا نطقوا بهذا الاسم. وهكذا كان ينطقه إبراهيم وسامية، وقد ضممت هذا إلى سائر الأمثلة التى صادفتها عن نفور إبراهيم شحاتة من أى نقص.



مرت سنوات واقترن اسم إبراهيم شحاتة بالبنك الدولى؛ إذ أصبح واحدًا من كبار المسئولين فيه. ولابد أن أعترف أنه إذا كان إبراهيم شحاتة من الأصدقاء الأثيرين لدىّ، فإنى لا أعتبر البنك الدولى كذلك. بل لقد ظللت دائمًا، ولا أزال أنظر إلى هذه المؤسسة بارتياب لم تنجح فى التخفيف منه أية كمية من الأموال والقروض التى حصلت عليها مصر منه، وسواء كان سعر الفائدة الذى كان على مصر دفعه لهذه القروض منخفضًا أم مرتفعًا. ولكن إبراهيم شحاتة كان متحمسًا لهذه المؤسسة وخدمها كعادته بإخلاص منقطع النظير. كان على استعداد للاعتراف بأن البنك قد أخطأ فى هذا العمل أو ذاك، أو قصّر فى حمل هذه المسئولية أو تلك، ولكنه لم يشك قط فى سلامة فلسفة البنك الدولى فى التنمية بوجه عام. كنت (ولاأزال) أرى أن البنك الدولى وصندوق النقد الدولى (ويشاركنى فى هذا الرأى كثيرون) يمثلان فى التحليل الأخير مصالح رأس المال الدولى، وعلى الأخص، وفى العقود الأخيرة بالذات، مصالح الشركات متعددة الجنسيات، رغم كل ما ترفعه المؤسستان من شعارات توحى بغير ذلك. أما إبراهيم شحاتة فكان يراهما مؤسستين محايدتين فى الأساس، يعبران عن اهتمام الرأى العام الدولى بقضايا التنمية والاستقرار، ويهدفان بصدق إلى التخفيف من أعباء الفقراء فى العالم.

لا عجب إذن إن كنا كلما أثيرت قضية من قضايا التنمية؛ من قضية الاستثمارات الأجنبية الخاصة أو الاعتماد على النفس، إلى قضية الإحلال محل الواردات أو تشجيع الصادرات، إلى قضية القطاع العام أو القطاع الخاص، بل حتى قضايا السياسة التعليمية أو السكانية، نجد أننا نكاد أن نكون على طرفى نقيض.

كان كل منا يعرف بالطبع أن مستوى الادخار الضعيف فى بلادنا أعجز من أن يحقق المستوى المرغوب من الاستثمار، وأن المستوى الضعيف الراهن للاستثمار يجب تكملته بشكل أو بآخر من مصادر جديدة. ولكننا كنا نختلف بمجرد أن نحاول الإجابة عن السؤال: ما هذه المصادر الجديدة للاستثمار؟ كان إبراهيم شحاتة يضع آماله وثقته فى القطاع الخاص، الوطنى والأجنبى، وأنا أحمل شكًا عميقًا فى رأس المال الأجنبى ولا أثق فى استعداد رأس المال الوطنى لسد كل حاجات المجتمع فى مختلف مجالات الاستثمار، ومن ثم فإنى كنت دائمًا أعوّل على دور كبير تقوم به الدولة.

كان إبراهيم شحاتة على استعداد تام للتسليم بالحاجة إلى إخضاع الاستثمارات الأجنبية الخاصة واستثمارات رأس المال الوطنى إلى بعض القيود من جانب الدولة ولكنه لا يقبل أن تقوم الدولة بنفسها بدور أساسى فى التنمية، بينما أقبل أنا قيام الدولة بهذا الدور. كان إبراهيم شحاتة يحذّر بشدة مما لابد أن يؤدى إليه هذا بالضرورة من قيام دولة شمولية، بينما لا أشعر أنا بضرورة كل هذا الخوف من الدولة القوية. فأنا من ناحية على استعداد أكثر منه لقبول درجة من تقييد الحريات السياسية، وإذا كان من شأن هذا التغيير تحقيق درجة أعلى من العدالة الاجتماعية والاكتفاء الذاتى، كما أنى لا أثق على أية حال بإمكانية تحقق تلك الدرجة العالية من الحريات السياسية فى دولة متغيرة فى ظل اعتماد شديد على الاستثمارات الأجنبية الخاصة وعلى المعونات الأجنبية. كما أننى أعتقد أن أهم عوامل فقدان الحريات السياسية فى الدولة الفقيرة هى عوامل خارجية وليست هى الاستعداد الطبيعى لدى حكام هذه الدولة للاستبداد بالأمر وفرض الرأى بالقوة. كان إبراهيم شحاتة يقول إن هذا الاعتقاد هو من قبيل الاعتقاد فى «نظرية المؤامرة» وأنا لا أجد غضاضة فى الاعتقاد فى مثل هذه النظرية وإن كنت أعتقد أن تسميتها بـ«نظرية المؤامرة» فيها ظلم كبير لأصحابها.

كان إبراهيم شحاتة يميل إلى البحث عن العلل الأساسية فى الداخل، ويضع التوصيات المختلفة لعلاجها، وأنا أميل إلى رؤية الأصابع الخارجية وراء متاعبنا الأساسية، ولا أثق كثيرًا فى إمكانية الإصلاح دون التحرر من الإدارة الأجنبية أولاً. كلانا يتراوح بين التفاؤل والتشاؤم ولكن الدافع الأساسى لدى مختلف تمامًا عن الدافع لديه، سواء فيما يتعلق بالتفاؤل أو التشاؤم. إنه يتفاءل عندما يرى المصريين على استعداد للتجاوب مع ما يعتقد أنه توصيات ضرورية للإصلاح، وأنا أتفاءل عندما أرى أى دليل على أن القوى الخارجية اضطرت لسبب أو آخر، إلى تخفيض درجة الضغط علينا. وهو يتشاءم عندما تتخذ الدولة من الإجراءات ما تزيد به القيود المفروضة على الاستثمارات الأجنبية الخاصة، وأنا أتشاءم عندما أجد الاستثمارات الأجنبية الخاصة تتدفق علينا دون أن تمارس عليها أية رقابة أو تفرض عليها أية قيود تذكر.

كان إبراهيم شحاتة يرى الأمل ضعيفًا فى تحقيق معدل مرتفع للنمو إذا لم ننجح فى حل مشكلة التزايد السريع فى السكان، وأنا أعتقد أنه من الممكن إنجاز الكثير حتى مع استمرار هذا التزايد السريع فى السكان. كلانا يعتبر أن الانخفاض الكبير فى معدل المواليد سوف يحدث نتيجة لحدوث التنمية نفسها، ولكنه كان يعتقد أن من الممكن أن نصنع الكثير لتخفيض معدل المواليد حتى فى ظل انخفاض معدل التنمية، وأنا أقل ثقة منه بكثير فى إمكانية ذلك.

كلانا على استعداد للاعتراف بأن ما يسمى بمجانية التعليم فى مصر الآن قد أصبح أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة، مع التدنى الشنيع الحاصل فى مستوى التعليم وشيوع الاعتماد على الدروس الخصوصية، ولكنى لا أحب مع ذلك المساس بمجانية التعليم وإنما أرجو فقط تحويلها إلى مجانية حقيقية، بينما يرى هو قصر هذه المجانية على المتفوقين وتكليف غير المتفوقين بتحمل نفقات تعليمهم.



سرعان ما اكتشفنا حجم الفجوة التى تفصل بين آرائنا فى قضايا التنمية، بل وسرعان ما اكتشفنا أن نجاح أى منا فى تغيير موقف الآخر هو فى حكم المستحيل. ومع هذا لم يؤثر هذا فى صداقتنا قيد أنملة. لا أميل إلى تفسير هذا بذلك «الكليشيه» الشائع والخاطئ أيضًا فى نظرى، فإن «اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية» فما أكثر حالات الود التى أفسدها الاختلاف فى الرأى، بل ما أكثر الحالات التى يحسن فيها - فى رأيى - التخلى عن الود بسبب اختلاف الرأى، المهم هو نوع الاختلاف فى الرأى وسببه. إن السبب فى عدم فساد الود بينى وبين إبراهيم شحاتة، رغم اختلافنا الشديد فى الرأى، هو أنه كان من الواضح تمامًا فى نظرى ليس فقط الاتساق التام بين مواقفه وآرائه، وليس فقط إخلاصه الكامل فيما يعبر عنه من آراء، بل وشعورى الراسخ بأنه فيما يتخذ من آراء ومواقف مدفوع دائمًا بحرصه على الصالح العام ورغبة فى تحقيق الخير لأمته، وليس مدفوعًا بالرغبة فى تحقيق مصلحة شخصية، وبالميل إلى مسايرة المناخ السائد أو بغضب قديم لضرر ناله هو أو أسرته. ترتب على ذلك أن يأسى التام من إحداث أى تغيير فى آرائه لم يكن له أى أثر على تقديرى له وثقتى فيه.

وهكذا كنت أفرح دائمًا إذا عرفت بوجوده فى مجلس أدعى إليه أو



كان ملتزمًا التزامًا لا شبهة فيه بقضية التخفيف من مشكلة الفقر، وبخدمة القضية التى يعمل البنك الدولى من أجلها، وكذلك بخدمة الدول الأعضاء فى البنك وشعوبها.. وذلك بعد أن وصفه بأنه كان رجلاً استثنائيًا، وواحدًا من أعظم فقهاء القانون الدولى فى القرن العشرين





إبراهيم شحاتة

في ندوة أشارك فيها. وقد نشأ بيننا تفاهم خفي على ألا نخوض في نقاش موضوعات بعينها يعرف كل منا أنه لا جدوى من دخولنا فيها. فكان تعبير كل منا عن رأيه في مثل هذه الموضوعات مصحوبًا دائمًا بالابتسام، بسبب ما يعرفه كل منا مقدمًا عن رأي الآخر، وكان تعبير كل منا عن رأيه في هذه الحالات، كان أقرب إلى تبادل التحية منه إلى مقارعة الحجة بالحجة.




كانت ثقتي التامة برغبته في تحقيق الصالح العام تجعلني أقبل بصدر رحب من آرائه ما لم أكن أصبر عليه إذا صدر من غيره، وتجعلني أيضًا أثق ثقة تامة بأن رجلاً كإبراهيم شحاتة، لو تولى مسئولية من المسئوليات الكبيرة في مصر، ولم يخضع لأي ضغط من الضغوط التي قد تمنعه من تنفيذ ما يراه، لكان من شبه المؤكد أن يصل إلى نتائج قريبة جداً مما أطمح إليه. وقد يبدو هذا غريبًا مع اتساع الفجوة بين آرائنا، ولكني في الحقيقة كنت قد توصلت فيما يتعلق بقضايا التنمية والتقدم إلى النتيجة البسيطة الآتية: وهي أن مربط الفرس الحقيقي في تحقيق التقدم المنشود ليس هو ما إذا كانت الدولة تعتمد اعتمادًا أساسيًا على القطاع العام أم على القطاع الخاص، بل هو نوع العلاقة القائمة بينهما، أي بين القطاع الخاص من ناحية وبين الحكومة والقطاع العام من ناحية أخرى: هل هي علاقة صحية أم علاقة إفساد أحدهما للآخر؟ ليس مربط الفرس الحقيقي هو ما إذا كانت الدولة تسمح أو لا تسمح بالاستثمارات الأجنبية الخاصة، بقدر كبير منها أو صغير، بل هو ما إذا كانت الدولة تستطيع أن تمارس، وتمارس بالفعل سلطتها في توجيه هذه الاستثمارات إلى هذه الفروع أو تلك من فروع النشاط الاقتصادي، ونحو تشغيل الحجم الأمثل من العمال وتدريب العدد الكافي منهم ودفع ما عليهم دفعه من ضرائب.. إلخ. القضية ليست ما إذا كان من المرغوب فيه أو غير المرغوب فيه تخفيض معدل نمو السكان، فهو قطعًا أمر مرغوب فيه، وإنما القضية هي ما إذا كنت تفعل كل ما بوسعك أن تفعل، حتى قبل أن ينخفض المعدل، في سبيل تحقيق التنمية السريعة، أم تؤجل هذا حتى ينجح الناس في تخفيض نسلهم، وتلقي بالمسئولية خلال ذلك على الناس أنفسهم. والقضية ليست هي الاعتماد على النفس أم على الغير، بل هي الاعتماد على النفس حيث يجب الاعتماد عليها، والتعاون مع الغير دون الاعتماد عليهم.

هكذا تبدو قضية التنمية والتقدم في نظري، فإذا كان الأمر كذلك، فإن الخلاف في الرأي بيني وبين إبراهيم شحاتة لم يكن خلافًا خطيرًا في الحقيقة، مهما تصورنا أحيانًا غير ذلك.

إن مثل إبراهيم شحاتة لم يكن ليسمح، لو تولى مسئولية كبيرة في مصر، بإفساد العلاقة بين العام والخاص، ولا بالانفتاح «السداح مداح» ولا بالاعتماد على الغير حين يجب الاعتماد على النفس.. إلخ. بل إني أذهب إلى حد القول بأن هذا هو بالضبط أحد الأسباب الرئيسية في أن رجلاً مثل إبراهيم شحاتة لم يلعب في مصر الدور الذي كان يجدر بمثله أن يلعبه، وأنه «اضطر» بدلاً من ذلك إلى أن يوجّه مهاراته ومواهبه لخدمة المؤسسات الدولية.



سمعت منذ أشهر قليلة أن إبراهيم شحاتة سيعود إلى مصر بعد أن بلغ سن التقاعد في البنك الدولي. وكنت قد عرفت قبل ذلك أن مرضه، وإن كان خطيرًا، فهو تحت السيطرة التامة. ورأيته بعد عودته، فوجدت وجهه نحيلاً أكثر مما تعودت أن أراه، ولكنه كان مبتهجًا بالحياة كعادته، بل أكثر من المعتاد، ولم أجد عليه أي أثر يمكن أن يكون قد نتج من إقامته الطويلة في الخارج، وكأنه لم يترك مصر قط، وبدا وكان أمامه مستقبلاً جديداً من العمل الجديد في مصر. وعندما سألته عما ينوي أن يفعله في مصر قال بسرور: إن أسرة ساويرس قررت إنشاء مؤسسة خيرية جديدة لتقديم خدمات اجتماعية لا تستهدف الربح، وأنه قَبِلَ مسرورًا رئاسة هذه المؤسسة دون مرتب. قلت لنفسي: «هذا هو بالضبط ما كان يمكن أن أتوقع من إبراهيم شحاتة القيام به لدى عودته إلى مصر».

عمل جديد من نوعه، لكن مصر في أشد الحاجة إليه. يقوم به القطاع الخاص ولكن دون أن يستهدف الربح. ويتولى إبراهيم شحاتة أهم منصب فيه، ولكن دون مرتب. عمل أساسه المبادرة الفردية لكنه ينطوي على شعور قوي بالمسئولية الاجتماعية. وهاهو إبراهيم شحاتة يتطوع ليقوم بالعمل الملموس وليس بالكلام. إن القطاع الخاص وإن كان من الممكن أن يكون شريرًا، فإنه ليس بالضرورة كذلك ومن الممكن أن يلعب دورًا أساسيًا في نهضة الأمم كما لعب من قبل في تجارب الدول قديمة العهد بالتصنيع.

ولكن الموت لا يفرق بالطبع بين إبراهيم شحاتة وغيره. ففاجأه المرض في مكان آخر من جسمه دون مقدمات، وظهر بسرعة أن النهاية قريبة جدًا، وأخبرتني إحدى شقيقتيه الفاضلتين أنه عندما عرف بذلك كان تعليقه: «إني قابل لأي شيء». وقد وجدت في هذه العبارة أيضًا تأكيدًا جديدًا لما أعرفه عنه: إن رجلاً لديه مثل هذا الشعور القوي بالواجب، ويطمح دائمًا إلى الكمال، لا يمكن أن يظهر أمام الموت إلا بمثل هذه الرجولة وهذا الثبات. ■



معاً نسمو نحو غد أفضل
بأحدث ما أبدعته تكنولوجيا الطيران
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg
اهلاً بك معنا

رسالة لم تنشر .. عن ثورة يوليو

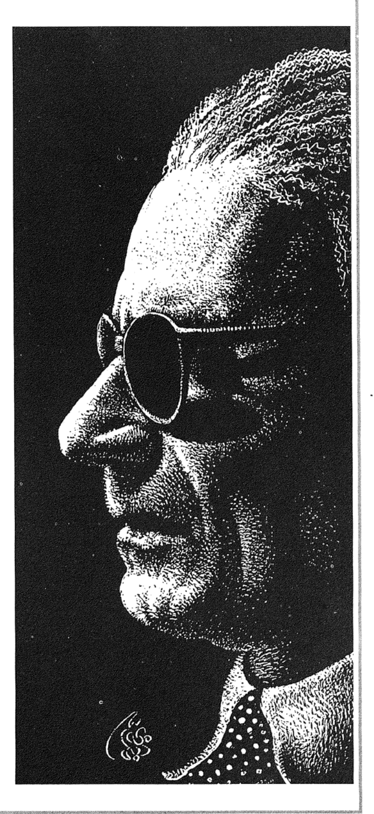
طــــه حســـين

حسب كثير من الكتاب والمؤرخين فإن العلاقة بين الدكتور طه حسين وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، كانت ملتبسة، بدأت كما جاء فى مذكرات زوجته السيدة سوزان بأن الدكتور طه أصيب بحالة إغماء لدى تلقيه نبأ قيام الثورة وانتهت بكلمة رثاء لعميد الأدب العربى فى الخامس من أكتوبر عام ١٩٧٠ لوفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر قال فيها: إن ناصر «حاول موفقًا إلى أبعد الحدود إلغاء الطبقات والأخذ بيد الضعفاء والفقراء وتحقيق المساواة الكاملة بين المواطنين».

فى أوراق طه حسين غير المنشورة رسالة تعود إلى ٩ يوليو ١٩٥٣ بعث بها إلى زوج ابنته الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية الراحل يتحدث فيها عميد الأدب العربى عن الثورة فى بداياتها وتطلعاته إلى ما ينبغى أن تكون عليه وأن تحققه. وقد كتب طه حسين هذه الرسالة من مصيفه فى باريس إلى الزيات الذى ارتبط قبل ذلك بسنوات بعلاقة مودة مع الدكتور طه وأسرته. وكان الزيات تلميذًا لطه حسين أُوقف عن الدراسة لتوجهاته الوطنية وتكفل طه حسين بمساعدته فى تحصيل ما فاته، ورحب به زوجًا لابنته. ويخاطب الدكتور طه حسين الدكتور الزيات فى هذه الرسالة باسم عطية. وهناك من يفسر سبب إطلاق هذا الاسم على الزيات بأنه كان كريمًا معطاءً لا يبخل بشىء على أسرته.

والرسالة التى تنشرها «وجهات نظر» أملاها الدكتور طه حسين فى أربع صفحات وهى إضافة إلى تناولها ثورة يوليو تتحدث عن أمور أخرى مثل دعوة طه حسين لزيارة الولايات المتحدة ورده على ذلك.

إبراهيم عبد العزيز



عزيزى عطية،

لم أرد على كتابك الذى تلقيته فى القاهرة قبل السفر لأن شئون هذا السفر قد شغلتنى عن الرد. فالخروج من مصر الآن معقد أشد التعقيد، فليس بد من إذن السلطات العسكرية وهى تأذن لمثلى فى غير مشقة. وليس بد من إذن وزارة المالية بإخراج ما يحتاج إليه المسافر من المال. وهى لا تأذن لمثلى ولا لغيرى إلا بالمشقة الشاقة والعسر العسير والبخل الذى تمجه النفوس. وقد أذنت لنا بعد جهد أى جهد بأقل جدًا مما كنا نريد، وأتيح لنا آخر الأمر أن نعبر البحر وأن نعيش وقتاً ما فى جو طلق لا تفسده الشائعات الكاذبة ولا تفسده الرقابة الخانقة، ولا يفسده التأفف المتصل، ولا يفسده آخر الأمر هذا السخف المصرى الذى لا أعرف له حدًا.

وليس معنى هذا أنى ضيق بالثورة فى نفسها، فالثورة فى نفسها خير لاشك فيه، وهى قد أراحت مصر لا من فاروق بل من نظام الملكية السخيف. وهى تفرض الآن على مصر نظامًا عسكريًا قد يثقل على بعض الناس ولكنه نظام موقوت لابد منه.

وأعترف بأنى لم أحس ثقله. والثورة بعد ذلك خير لأنها حركة ولأنها توقظ النيام ولأنها تشعر العالم بأن فى مصر حياة وطموحًا، ولأنها الغاية التى كنا نعمل لها منذ شبابنا الأول. أخفقت سنة ١٩١٩ ونرجو مخلصين أن يكتب لها النجاح الكامل فى هذه المرة.

كل هذا واضح، ولعلك تعرف رأيى فى هذا كله من الفصول التى نشرتها بعد الثورة، ولكن المصريين كما تعرفهم محدثون فى الثورة يجهلون من أمورها كل شىء، وهم بعد ذلك لا يحبون احتمال المشقات، وإنما يريدون أن ينقلوا ما يكرهون إلى ما يحبون فى غير جهد ولا عناء ولا تضحية، وهم يقولون كثيرًا ولا يعملون شيئًا، وهم عبء على حكامهم يتملقونهم بالقول ويثقلون عليهم بالعمل ويرهقونهم من أمرهم عسرًا دائماً. وأغرب ما فيهم أنهم يصدقون بألسنتهم كل ما يقول لهم



الثورة فى نفسها خير لا شك فيه، وهى قد أراحت مصر لا من فاروق بل من نظام الملكية السخيف. والثورة بعد ذلك خير لأنها حركة ولأنها توقظ النيام ولأنها تشعر العالم بأن فى مصر حياة وطموحًا، ولأنها الغاية التى كنا نعمل لها منذ شبابنا الأول

الحكام ويكذبون بقلوبهم كل ما يقول لهم الحكماء أيضًا. فهم راضون بألسنتهم. ساخطون بقلوبهم كأنهم خلقوا ليكونوا منافقين. والخطر كل الخطر فى أمرهم أنهم لا يريدون النفاق ولا يحبونه ولكنهم خلقوا ضعافًا يصانعون الحكام فى ظاهر أمرهم ليأمنوا بطشهم ويعيبون الحكام فيما بينهم وبين أنفسهم ليرضوا ضمائرهم.

هم فى حاجة إلى شىء من القوة، قوة الخلق، وإلى شىء من الشجاعة ليلائموا بين ما يظهرون وما يضمرون. ويصارحوا حكامهم بما يريدون، ويومئذ تستقيم أمورهم كلها، ولست يائسًا لأنى لم أعرف اليأس قط. لست يائسًا من أن هذا سيتحقق فى يوم قريب أو بعيد.

ولست أكتب إليك لأتحدث فى أمر الثورة فأنت تعرف من أمرها مثلما أعرف وإنما أتحدث إليك فى أمرها لأنى أحسست فى كتابك الثانى شيئًا من التردد والإشفاق، وأحب ألا تترددى وألا تشفقى، وأن تؤيد الثورة بكل ما تملك من قوة، فهى خليقة بالتأييد، ونجاحها غاية يجب أن يطمح إليها كل محب لمصر، وهى كغيرها من الثورات تخطىء كثيرًا وتصيب قليلاً. وصوابها القليل يرجح خطأها الكثير.

وهى قد تسىء إلى بعض الناس أو إلى كثير من الناس لكنها آخر الأمر تنقل مصر من طور إلى طور، وفى الحركة بركة كما يقال، وليس قليلاً أنها أعلنت الجمهورية وألغت الملكية وألغت الامتيازات التى كانت للأسرة المالكة ولبعض المتسلطين من أصحاب الثراء العريض. ونحن نستطيع إن أخلصنا ونصحنا وصدقت عزائمنا أن نوجهها إلى الخير، وسبيلنا إلى ذلك أن نؤيدها أولاً ونشير عليها ثانيًا، ونعارضها حين تخطىء أو حين تتعرض للخطأ ثالثًا.

ولست أشك فى إخلاصك ولا فى صدق نيتك ولكن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، والقريب يحس ما لا يحس البعيد، ومصر الثائرة خير من مصر الخاضعة. فامض فى خدمتها فى مستقبل أيامك كما مضيت فى خدمتها من قبل، ولا تبخل على السفير بمعونتك مهما تكن، ولا تبخل عليه بنصحك ومشورتك حتى تستيئس من القدرة على ذلك. وأنا أعلم أنه يريد استبقاءك، وأحس أنك لا تكره هذا البقاء، فابق على خيرة الله. وإن كنت أرى أنكم قد أسرفتم فى الغيبة عنا ، ولكنك تعرفنى فيما أعتقد حق المعرفة وتعلم أنى لا أوثر نفسى ولا أهلى على مصر، ولن ألح عليكم فى العودة لننعم بلقائكم ولا لنعرف أبناءنا الصغار. فهذا كله يخصنا نحن، وقد يجب علينا أن نضحى بكثير مما نحب أو بعض مما نحب أو بكل ما نحب إذا اقتضت ذلك مصلحة مصر أو اقتضت ذلك مصلحتكم. وأنتم لم تخلقوا لنا وإنما خلقتم لوطنكم وللإنسانية ولأنفسكم بعد ذلك، ونأتى نحن فى المرتبة الرابعة أو الخامسة لا أدرى. وقد نعتب عليكم فى أنكم لم تحاولوا جادين لقاءنا حين سنحت لكم الفرص. فاقبلوا هذا العتاب على أن مصدره الحرص على أن نراكم لا شىء آخر.

أما بعد..

فاستقبل أمرك شجاعًا جريئًا موفقًا إن شاء الله غير مفكر إلا فى مصر وفى أسرتك ومستقبلها. ودعنا نحن حيث أراد الله أن نكون. وأنا أعتقد أن السفير لن يجد مشقة فى استبقائك إذا كتب إلى الجامعة وإلى الوزارة، وسيزوركم العميد قريبًا فليقل له السفير كلمة، فسيبلغ منه ومن كليته ما يريد، ولا تنس أن الدكتور عوض هو مدير الجامعة، وأن إسماعيل القبانى هو وزير المعارف، وأن السفير أثير عند رجال الثورة. ولست أكره استبقاء السفير لك، فقد يدل ذلك على أنى لم أوثرك بأمريكا حين أرسلتك إليها، وإنما آثرت بك مصلحة مصر على حبنا لك ولابنتنا وأحفادنا، والله يتولى جزاء الذين يصدقون فى نياتهم وأعمالهم.

أما زيارتنا لأمريكا فأمر بعيد كل البعد أولاً لأن سوزان ليست راغبة فى هذه الزيارة بحال من الأحوال لبعد أمريكا ومشقة السفر إليها، وإشفاقها علىّ من عناء هذه الزيارة ومن الحياة الأمريكية المرهقة.

وثانيًا: لأنى أنا قد بلغت من السن ما يزهدنى فى مثل هذا النشاط وما يمكن أن يكون وراءه من ألوان الغرور. ولن أسعى إلى مثل هذه الزيارة لا عند السفير المصرى ولا عند الحكومة ولا عند الأمريكان، ولن أتكلف مثل هذه المشقة إلا أن أكره عليها إكراهًا وما أعرف أن أحدًا يحاول إكراهى على ما لا أحب فأرح نفسك إذن من التفكير فى زيارتنا لأمريكا، وأرح نفسك من التفكير فى الدكتوراة الفخرية إلا أن تفكر فيها لنفسك. أما أنا فقد زهدت فى هذه الأشياء كلها زهدًا أى زهد، وعسى أن أكون قد كرهتها، ومن يدرى لعلك تفكرنى حين تلقانى إن أتيح لنا أن نلتقى إن شاء الله.

وقد سألت كلود فرأيته زاهدًا فى زيارة أمريكا زهدًا شديدًا ولست أدرى لماذا؟ فأنا شخصيًا لا أحب شيئًا كما أحب السفر والاستكشاف، ولكن الشباب يفكرون على نحو غير النحو الذى أفكر أنا عليه. وأكبر الظن أن كلود (الاسم الذى اختارته سوزان لابنها مؤنس) لا يكره زيارة أمريكا إن استطاع أن يزورها حرًا على نفقته أو على نفقة أسرته لا على نفقة مصر أو أمريكا فهو شديد الحرص على حريته واستقلاله.

وأصل الآن إلى قصة الأستاذ أحمد أمين فلا أجد فيها غرابة فقد عرفته حريصًا على المال أشد الحرص، مؤمنًا أشد الإيمان، راغبًا فى الدنيا أكثر من رغبته فى أى شىء آخر، وقد كانت صحته تعينه على إخفاء ذلك، فلما أدركته العلة اضطر إلى الصراحة اضطرارًا، وأنت ترانى مسئولاً عن إكباركم معشر الشباب لأحمد أمين وزيادة وأمثالهم، ولست أنكر هذه التبعة ولا أمجدها. وقد اخترت لتعليمكم خير من وجدت فى مصر، ولو رأيت خيرًا منهم لأهديتهم إليكم. ولكن المثل الفرنسى يقول:

إن أجمل بائعة للتبغ لا تستطيع أن تعطى إلا ما عندها.

فاحمدوا الله على ما أتاكم واجتهدوا فى أن تكونوا خيرًا من الذين سبقوكم لتهدوا إلى الشباب أساتذة خيرًا من الأساتذة الذين أهدينا إليكم. وأنتقل إلى هذه السيدة الأمريكية التى لا أذكر اسمها والتى سأرد عليها قطعًا إن شاء الله، لأن كتابها قد وصل إلىّ أمس، فهى تريد فيما يظهر فصلاً يتصل بما تسمونه علم الثقافة فى لغتكم الأمريكية الجديدة. وليس يعنينى أن يكون ما تعرضه من المال مجزئًا أو غير مجزئ، لأن الله لم يخلقنى كالأستاذ أحمد أمين وإن جعل من ورائى قومًا يحرصون على ألا أبذل جهدًا غير منتج بعد الجهود الضائعة الكثيرة التى يظنون أنى بذلتها. سأرد على هذه السيدة إذن وسأجتهد فى أن أكتب لها شيئًا ما، وهى قد أعطتنى مهلة من الوقت لأنها تريد إن كنت قد فهمت عنها أن يصل إليها هذا الفصل قبل أبريل من العام المقبل. ومن حيث أنى قد ورطت نفسى مع مجلة أمريكية فوعدت بكتابة فصل عن الأدب العربى فى الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة. فلن أفكر فى الفصل الذى تطلبه هذه السيدة إلا بعد أن أفرغ من الفصل الذى طلبته هذه المجلة.

ولست أدرى ما للأمريكيين ومالى، فهم يضطهدوننى بالدعوات وطلب المقالات ويسمعوننى - كما يقول أبو العلاء - جعجعة ولا يروننى طحنًا. وأكبر الظن أنك أنت وزوجك مصدر هذه الدوشة الأمريكية التى لا طائل منها ولا غناء فيها. وأرانى قد كتبت إليك كتابًا يعدل كتبك الثلاثة طولاً، وأحسبنى قد كفّرت عن إبطائى فى الرد على هذه الكتب.

أما السيدة الجليلة أمينة هانم فقد ينبغى أن تذكرها وتذكر نفسك أيضًا معها بأن الناس يولدون من آباء وأمهات أو من أمهات وآباء، وأن لهؤلاء الوالدين حقًا لا ينبغى أن يُنسى مهما يكن ضئيلاً. وأن أيسر ما يجب لهؤلاء الوالدين أن يسعى أبناؤهم إلى لقائهم إن استطاعوا، وأن يكتبوا إليهم إن حيل بينهم وبين هذا اللقاء إلا أن تكون الحضارة الأمريكية الحديثة قد آثرت أن تجعل للأبناء حقوقًا وأن تهدر تلك الحقوق العتيقة التى قررتها الحضارات القديمة للوالدين.

وتقبل بعد هذا كله مودتى كأخلص ما تكون المودة، وحبى كأصدق ما يكون الحب، واستأثر بهما إن شئت أو أشرك زوجك فى بعضهما إن أحببت، وقبل هؤلاء الصبية الذين يعرفون من غير شك فى هذا الطور من حياتهم أن لهم أبًا وأمًا، ويجهلون من غير شك أيضًا أن لهم جدودًا وأعمامًا وأخوالاً، لأن الحضارة الأمريكية تريد كما كانت أمينة هانم تقول فيما مضى أن يحيا كل إنسان حياته.

ولكم جميعًا أصدق تحياتنا جميعًا.



هامش:

قرأت حديثكما إلى الراديو وما أشك فى أن الثورة ترضى عنه كل الرضا فهى لا تقول إلا مثلما قلت. واقرأ تحيتنا على الأستاذ روبنسون وزوجه، واقرأ تحية خاصة منى على السفير.

أزمة الاقتصاد المصرى .. بين العلاج

شريف لطفى

الحمد لله أن المسئولين أصبحوا يقرون بأن هناك أزمة اقتصادية فى مصر فى الوقت الحاضر. فأول خطوات العلاج لأى مريض هى أن يكون مقتنعًا بأنه مريض. ومن ثم يكون متقبلاً لوسائل العلاج مهما بلغت مرارتها ومهما ساء طعم الدواء اللازم لتحقيق الشفاء. وثانى خطوات العلاج هى التوصل إلى تشخيص صحيح ودقيق لأسباب الداء. فكل داء له دواء بذاته، ولا يفيد تعاطى أكثر الأدوية فاعلية إذا ما كانت غير مناسبة لطبيعة الداء. وتزخر الصحف بتصريحات حكومية وغير حكومية وبكتابات لعدد من الكتاب والاقتصاديين تشخص طبيعة الأزمة الاقتصادية وترجعها إلى أسباب تراها. ومن ثم تعددت الآراء عن وسائل العلاج وأدواته بتعدد هذه التشخيصات. وفى اعتقادى أن بعض هذه الآراء صحيح جزئيًا ولكنه لا يفسر تفسيرًا كاملاً أسباب الأزمة وبالتالى لا يتوصل إلى علاج ناجع وإنما يؤدى على أحسن الفروض إلى الأخذ بمسكنات محدودة المفعول وقصيرة الأجل فى تأثيرها. ومن هنا آثرت أن أستعرض محاولات التشخيص التى تناولتها الصحافة وفى سياق ذلك أحاول التوصل إلى تشخيص أطمئن إلى دقته ومن ثم إلى ما يستوجبه بطبيعته من علاج. وفيما يلى عرض مختصر لهذه المحاولات مع تعليق موجز على كل منها:



١- كانت أولى محاولات التشخيص تذهب إلى أن هذه مجرد دورة تجارية يجىء فيها الركود بعد الرواج، ثم يعود الرواج من جديد، إما من تلقاء نفسه نتيجة لعوامل ذاتية تنطوى عليها طبيعة الدورة التجارية أو بمساعدة محدودة من السلطات النقدية والمالية المختصة بغية تقصير مدى دورة الركود، وفعلاً ظهرت مقترحات بأن علاج الموقف يتمثل بناء على هذا التشخيص فى أن تقوم الحكومة بدفع المتأخرات المستحقة عليها قبل المقاولين والقطاع الخاص. وقدرت مبالغ هذه المتأخرات بأكثر من عشرة مليارات من الجنيهات. وفى تقديرات أخرى بأكثر من ١٥ مليار جنيه. ويبدو أن أصحاب هذا الرأى تصوروا أنه بمجرد سداد هذه المتأخرات ينتهى الركود ويعود الرواج من جديد، وهو تصور غير صحيح فى رأيى، وعلى أية حال فإن الحكومة لم تقم بدفع هذه المتأخرات على وجه السرعة كما أعلنت، والصحيح أن دفع هذه المتأخرات كان يساعد جزئيًا على مواجهة الموقف ولكنه لا يمثل العلاج الكامل للأزمة الاقتصادية. كما أنه من اللافت للنظر أيضًا أن الحكومة لم يكن مفروضًا أصلاً أن يتراكم عليها مثل هذه المبالغ الكبيرة من المتأخرات، وليس مفهومًا كيف عولجت هذه المتأخرات محاسبيًا فى بيان الحسابات الختامية للدولة فى السنوات السابقة، ويثير ذلك تساؤلاً عما إذا كان عدم دفع المستحقات المذكورة فى وقتها راجعًا إلى الرغبة فى تصوير العجز فى تلك الحسابات بأقل من حقيقته، وذلك بعدم إدراج تلك المطالبات فى الحسابات الختامية للسنوات الخاصة بها، الأمر الذى يشكك فى سلامة الإحصاءات المالية المنشورة، ولكن الأهم هو أن هذا التفسير للأزمة الاقتصادية لا تؤيده المؤشرات الإحصائية، فالركود السائد قد امتدت مدته فعلاً بأكثر مما هو معتاد فى الدورات التجارية العارضة، إذ بدأ الركود منذ أكثر من ثلاث سنوات ولازالت آثاره ممتدة لمستقبل قد يطول أمده ما لم تتخذ السياسات الصحيحة والفعالة لعلاج هذا الوضع. ومؤشرات الاقتصاد القومى تدل على أن هناك خللاً هيكليًا أكثر عمقًا فى الاقتصاد القومى وليس مجرد دورة تجارية عابرة سببها تأخر الحكومة فى سداد ما عليها من مستحقات.

٢- وثانى محاولات التشخيص ذهبت إلى توصيف الأزمة بأنها نقص فى السيولة. ومن ثم كانت مقترحات العلاج المنبثقة من هذا التشخيص هى أن تقوم الحكومة علاوة على سداد المتأخرات باتخاذ السياسات النقدية التوسعية المؤدية إلى زيادة السيولة، ومن ذلك تخفيض نسبة الاحتياطى التى تحتفظ بها البنوك لدى البنك المركزى من ١٥٪ حاليًا إلى ما هو أقل. وربما كذلك عمليات سوق مفتوحة يقوم بها البنك المركزى فى شكل إعادة شراء السندات الحكومية وأذون الخزانة وغير ذلك من الإجراءات المؤدية إلى توسع نقدى كالتوسع فى إصدار البنكنوت. والسيولة مصطلح اقتصادى مصرفى أصلاً يعنى سهولة تحويل أصل من الأصول إلى نقود، ومجال استخدامه فى المقام الأول فى تقييم ميزانيات البنوك بالجهاز المصرفى، فإذا ما رجعنا إلى إحصاءات المعروض النقدى التى ينشرها البنك المركزى المصرى، وكذلك إلى ميزانيات البنوك لا نجد عجزًا يذكر فى سيولتها، فإحصاءات البنك المركزى المصرى تظهر زيادة سنوية فى إصدار البنكنوت تدور حول ١٠٪ بنقص عن ذلك المعدل فى بعض السنوات وزيادة فى سنوات أخرى، وهى على كل حال نسبة نمو عالية، وكذلك بند نقود الاحتياطى وعرض النقود كلها تنمو بنسب تنفى وجود عجز فى السيولة بمستوى يهدد السيولة فى الجهاز المصرفى ككل. فيتبين من آخر تقرير سنوى للبنك المركزى المصرى عن السنة المالية ١٩٩٩/٢٠٠٠ أن رقم السيولة المحلية ارتفع بمعدل ٨,٥٥٪ فى آخر يونية ١٩٩٨ عنه فى آخر يونية ١٩٩٧، ثم ارتفع بمعدل ١١,٤٤٪ فى آخر يونية ١٩٩٩، ثم ارتفع بمعدل ٥,٨٢٪ فى آخر يونية ٢٠٠٠. وهى كلها معدلات تجاوز معدلات نمو الدخل القومى، مما يشير إلى أن معدلات نمو السيولة المحلية كان وافيًا باحتياجات نمو الدخل القومى. وكذلك يتبين من التقرير المذكور أن النقد المتداول خارج الجهاز المصرفى قد ازداد فى نفس السنوات المذكورة بمعدلات ١٤,٢٧٪ و١١,٣٧٪ و٦,٥٩٪ على التوالى، وكلها أيضًا معدلات تفوق معدل نمو الدخل القومى، مع ملاحظة أن اقتصار معدل نمو النقد المتداول خارج الجهاز المصرفى فى السنة الأخيرة على ٦,٥٩٪ إنما هو نتيجة للأزمة الاقتصادية وليس سببًا لها، حيث إنها قد بدأت فعلاً منذ ثلاث سنوات.

والواقع أن الظاهرة الوحيدة التى تعكس درجة بسيطة من عجز فى السيولة نجدها فى ارتفاع سعر الفائدة فيما بين البنوك. أى أن بعض البنوك تجد نفسها أحيانًا محتاجة إلى اقتراض مبالغ من بنوك أخرى لديها فائض سيولة. وهذه القروض هى عادة لمدد قصيرة جدًا تحسب بالأيام، وبناء على ذلك فإن أوجه العلاج بالتوسع النقدى عن طريق تخفيض نسبة الاحتياطى أو بعمليات السوق المفتوحة على ما سبقت الإشارة إليه لا يجدى فى علاج الأسباب الحقيقية للأزمة، وكل ما يمكن أن يحققه هو التخفيف فى حدود ضيقة من صعوبات بعض وحدات الجهاز المصرفى، وفى الواقع فإن القول بنقص السيولة فى بعض الكتابات لم يكن متفقًا مع المعنى الحقيقى والفنى لهذا المصطلح. ذلك أن المشكلة ليست عجزًا فى سيولة الجهاز المصرفى، وإنما عجز الشركات الإنتاجية عن بيع منتجاتها مما ترتب عليه عجزها أيضًا عن سداد فوائد وأصل قروضها من الجهاز المصرفى، وليس الأمر بهذه الصفة عجزًا فى السيولة وإنما هو عجز فيما أسماه الاقتصادى الكبير اللورد كينز فى نظريته العامة بانخفاض فى الطلب الفعال على السلع والخدمات، والطلب الفعال يعبر عنه حجم الإنفاق الفعلى الخاص والعام على الأغراض الجارية وعلى أغراض الاستثمار، وبناء عليه فإن مجرد زيادة النقود لا يعنى حتمًا زيادة الطلب الفعال والذى يتأثر بعناصر أخرى كثيرة وليس مجرد كمية النقود المتوافرة فى وقت ما. ودراسة العوامل التى أثرت فى حالتنا هذه على حجم الطلب الفعال ضرورى للوصول إلى تشخيص وعلاج صحيح للأزمة.



٣- الإنفاق الاستثنائى سواء من قبل القطاع الخاص أو العام، ويذهب هذا الرأى إلى أنه قد جرت خلال السنوات الأخيرة موجات من الإنفاق الخاص والعام أدت إلى سحب السيولة اللازمة للإنفاق على الأغراض الأخرى. وفى الواقع إن هذا الرأى بصورته

تصور البعض أنه بمجرد سداد المتأخرات على الحكومة ينتهى الركود ويعود الرواج من جديد، وهو تصور غير صحيح فى رأيى وعلى أية حال فإن الحكومة لم تقم بدفع هذه المتأخرات على وجه السرعة كما أعلنت، والصحيح أن دفع هذه المتأخرات كان يساعد جزئيًا على مواجهة الموقف ولكنه لا يمثل العلاج الكامل للأزمة الاقتصادية

بالمسكنات والإصلاح الشامل



المعروض بها يحمل بعض التناقضات التى تحتاج إلى تمحيص قبل الخروج برأى سليم بشأنها. فكما سبق أن أوضحت فى الفقرة السابقة أن الإنفاق الخاص والعام هو الذى يؤدى إلى زيادة حجم الطلب الفعال فى الاقتصاد القومى، ومن ثم فمن المفترض أن يؤدى ذلك إلى خلق حالة رواج وليس حالة كساد اللهم إلا إذا صاحبت ذلك ظروف معينة من شأنها خروج الأموال التى أنفقها القطاع الخاص أو العام من دائرة التداول فى الاقتصاد القومى. وبعض الأمثلة التى يقدمها هذا الرأى لأوجه الإنفاق الاستثنائى تحتمل هذا التشخيص جزئيًا، وعلى ذلك فهى مسئولة فعلاً فى حدود هذه الجزئية عن جانب من الكساد الملحوظ حاليًا، ويذكر أصحاب هذا الرأى من بين أوجه الإنفاق الاستثنائى إنفاق القطاع الخاص على الدروس الخصوصية وعلى التليفون المحمول، وإنفاق القطاع العام على المشروعات المسماة بالعملاقة وعلى مشروع نفق شارع الأزهر وعلى مشروعات مدينة الإنتاج الإعلامى والأقمار الصناعية، والإنفاق على المشروعات التى تتم بنظام Bot، ومشروعات Bot هى مشروعات عامة تمنحها الحكومة بعقد امتياز إلى شركات القطاع الخاص، فيتحمل القطاع الخاص تكلفتها الرأسمالية ويقوم بإدارتها مقابل حصوله على إيراداتها وأرباحها الصافية للمدة المحددة فى عقد الامتياز، ثم تعود ملكية المشروع إلى الدولة بعد انقضاء تلك المدة وبالشروط التى ينص عليها عقد الامتياز. ويوضح أصحاب هذا الرأى أن جانبًا من هذا الإنفاق الخاص والعام يخرج من دائرة التداول بمجرد إنفاقه لسببين، أولهما: أن أوجه الإنفاق هذه تؤدى بطبيعتها إلى تركز الثروة وانتقالها من يد الفئات الفقيرة إلى يد فئات غنية أكثر ميلاً إلى الاكتناز بطبيعتها، وثانى هذين السببين هو أن جزءًا كبيرًا من هذا الإنفاق الاستثنائى ينطوى على قدر كبير من الاستيراد من الخارج بالإضافة إلى ما قد يكون داخلاً فى حسابه من عمولات يجرى الاحتفاظ بها فى الخارج. وفى رأيى أنه لا توجد دلائل إحصائية تثبت صحة افتراض السبب الأول: فلا يوجد دليل على أن انتقال الأموال من جيوب أولياء أمور الطلبة إلى جيوب مدرسيهم من شأنه زيادة درجة الاكتناز فى الاقتصاد القومى. وتركز الثروة فى حد ذاته إذا افترضنا جدلاً حدوثه فعلاً قد يؤدى إلى ارتفاع معدل الادخار، وهو أمر مطلوب فى مصر نظرًا للانخفاض الشديد حاليًا فى معدل الادخار القومى الذى تظهره حسابات الدخل القومى، وأما السبب الثانى فهو صحيح فى جملته لأن المشروعات المذكورة كلها تنطوى على حجم كبير من الاستيراد ومن التحويل إلى الخارج، وأثر ذلك واضح على أرقام عجز الميزان التجارى وميزان المدفوعات كله، وبالنسبة للمشروعات التى تقام بنظام Bot فهى أيضًا تنطوى على عبء خارجى كبير، وعلى ذلك فإن اعتبارها وسيلة خالية من العيوب لتمويل المشروعات هو تصور غير صحيح لأن هذه المشروعات قد لا تؤدى إلى عجز فى ميزانية الدولة لأنها لا تتحمل نفقاتها، ولكنها تؤدى إلى عجز فى الميزان التجارى لاعتمادها على الاستيراد بدرجة كبيرة، كما تؤدى إلى أعباء إضافية على الجهاز المصرفى المصرى الذى يقوم حتمًا بعبء تمويل الجانب الأكبر من التكاليف الرأسمالية لهذه المشروعات، وبناء على ذلك فإننى أوصى بضرورة التأنى فى تنفيذ مشروعات بنظام Bot وألا تتم الموافقة على أى منها إلا بعد دراسة جدوى اقتصادية تشمل دراسة أعباء كل منها على الميزان التجارى وعلى وسائل تمويلها داخليًا وخارجيًا وعلى درجة أولويتها فيما بين الأغراض المختلفة التى يهدف إليها الاقتصاد القومى.

ويبدو لى من الاطلاع على ما تنشره الصحف أن الجهات الحكومية كلها تهرع دون تفكير إلى المشروعات المقترح تنفيذها بنظام Bot. ومثال ذلك ما نشرته صحيفة الأهرام فى عددها بتاريخ ٣ مارس ٢٠٠١ من أن إحدى وزارات الخدمات تبحث حاليًا مع شركات ألمانية تنفيذ مشروعات للوزارة تتكلف ٢٥ مليار دولار بنظام Bot. وللقارئ أن يتصور مدى أثر مثل هذا الحجم من المشروعات على ميزان المدفوعات وعلى الاقتصاد القومى.

٤- تمويل الاستثمار العقارى، شهدت السنوات الأولى من عقد



بدأ الركود منذ أكثر من ثلاث سنوات ولازالت آثاره ممتدة لمستقبل قد يطول أمده ما لم تتخذ السياسات الصحيحة والفعالة لعلاج هذا الوضع. ومؤشرات الاقتصاد القومي تدل على أن هناك خللاً هيكليا أكثر عمقا في الاقتصاد القومي وليس مجرد دورة تجارية عابرة



التسعينيات ارتفاعات كبيرة سنويًا في أسعار الأراضي والمباني، وقد أدى ذلك إلى الإقبال على الاستثمار العقاري بقصد تحقيق الربح السريع، واتخذ ذلك عدة صور كلها تتشابه في النتائج المؤثرة على الاقتصاد القومي. ومن ذلك شراء الأراضي بقصد إعادة بيعها بعد شهور قليلة، وشراء أو بناء الشقق لبيعها بأرباح محققة. وللأسف شاركت الحكومة في إشعال جذوة هذا النشاط بقيامها بتحريض رجال الأعمال المشتغلين أصلاً بأنشطة أخرى صناعية أو تجارية على الدخول في الأنشطة العقارية دون أن يكون لديهم التمويل المناسب لهذا النشاط ولا الخبرة الضرورية لممارسته، وبالتالي اتجهوا بتشجيع من الدولة إلى تمويل هذه التوسعات في أنشطتهم بقروض من البنوك التجارية هي قصيرة الأجل بطبيعتها. كما لجأت الحكومة أيضًا إلى زيادة أسعار أراضيها المعروضة للبيع على الجمهور في مختلف المناطق بصورة دورية ومتتالية، مما ساعد على تأكيد الشعور باستمرار موجة ارتفاع أسعار الأراضي والعقارات ومن ثم تأكيد الاطمئنان الموهوم لاستمرار أربحية الاستثمار العقاري عند مستوى عال، كما ساعدت كل هذه الاعتبارات على تشجيع الجهاز المصرفي على التوسع في تمويل هذه الأنشطة ولم تتخذ السلطات النقدية إجراءات حازمة للحد من تمويل أنشطة الاستثمار العقاري بمختلف صوره من الجهاز المصرفي. ولذلك كان من الطبيعي عند انتهاء موجة الرواج المؤقتة في قطاع الاستثمار العقاري أن تبدأ هذه الأنشطة في مكابدة الكساد وفي تعثر قدرات أصحابها على سداد قروضهم. وقد يساعد على حل هذه الجزئية من مشكلات الأزمة الاقتصادية أن تقوم الحكومة بتخفيض ملموس في أسعار ما باعته من أراض بأثر رجعي، أو بتقسيط ما قد يكون متبقيًا من ثمن هذه الأراضي على آجال طويلة تمتد إلى ٢٠ــ٣٠ سنة.



٥ـ تثبيت سعر الصرف لمدة عدة سنوات أدى إلى دعم واضح للاستيراد، كما أدى إلى خفض أربحية النشاط التصديري، وترتب على هذين التأثيرين معًا اتساع رقعة العجز في الميزان التجاري بصورة ملحوظة، ومعنى ذلك زيادة حجم الأموال التي خرجت من دائرة التداول داخل البلاد. كما امتد أثر هذا التثبيت إلى العناصر الرئيسية في ميزان الخدمات، فإنه بغير شك خفض من أربحية السياحة (مقومة بالجنيه المصري) كما خفض من حجم تحويلات العاملين المصريين بالخارج نظرًا لتثبيت قيمة ما يحصلون عليه مقابل دولاراتهم من جنيهات مصرية لم تعد تمثل في نظرهم القيمة الحقيقية التي تحددها قوى العرض والطلب، وزاد من أثر هذا العنصر تضارب الإجراءات التي اتخذت في مجال النقد الأجنبي وسعر صرف الجنيه المصري مقابل الدولار الأمريكي، واتجاه هذه الإجراءات إلى محاولة السيطرة على الموقف بإجراءات إدارية تحكمية، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى عودة الأسواق السوداء للتعامل في النقد الأجنبي وإلى إضعاف الإقبال على قدوم الاستثمارات الأجنبية وعلى قدوم تحويلات المصريين من الخارج.

٦ـ صغر حجم الاستثمار الأجنبي القادم إلى مصر بالمقارنة مع ما تحقق في الدول الأخرى. ويرجع ذلك إلى المعوقات البيروقراطية السائدة، وإلى تزايد وجود موجة من المعاداة لكل شيء أجنبي بما في ذلك الاستثمارات الأجنبية، وكذلك إلى تزايد حجم الفساد الإداري والمالي الذي يؤثر تأثيرًا بالغًا على حجم الاستثمار كله سواء في ذلك الاستثمار المصري أو الأجنبي. وفي الحقيقة أن هذا العنصر وحده يعتبر مسئولاً لدرجة كبيرة عن الأزمة الاقتصادية الحالية.



٧ـ المصاعب التي يواجهها الجهاز المصرفي المصري في السنوات الأخيرة لم يسبق لها مثيل من حيث الحجم والانتشار على مدى حياة الجهاز المصرفي منذ نشأته في مصر حتى الآن، وترجع هذه المصاعب أساسًا إلى عدة عوامل ناشئة عن كون قطاع الأعمال الخاص حديث النشأة في مصر بعد سنوات طويلة من الغياب أثناء العهود الاشتراكية. ولذلك فقط تورط لنقص خبرته في معظم الأحوال ولسوء نية البعض في عدد من الأحوال، في مشروعات أكبر من طاقته واعتمد في تمويلها على القروض المصرفية بأكثر من النسب التي تقضي بها الأصول الاقتصادية علاوة على تورطهم في الدخول في مشروعات عقارية طويلة الأجل بطبيعتها، وللأسف فإن الحكومة حرضتهم على ذلك توهمًا منها أنها تساعد بذلك على زيادة حجم الاستثمار، وللأسف أيضًا لم تقم السلطات النقدية بفرض الإجراءات اللازمة للحد من هذه الظاهرة وبوضع قواعد أكثر إحكامًا للسيطرة على حجم وشروط الائتمان المصرفي بحيث تضمن قيام التناسب السليم فنيًا بين التمويل الذاتي والتمويل بالاقتراض، كذلك فإن الجهاز المصرفي ذاته يتحمل جانبًا من هذه المسئولية المشتركة نظرًا لسوء الإدارة في بعض الأحوال أو لعدم الكفاءة في مجال الدراسات الائتمانية في أحوال أخرى، ولكل ذلك أرى أنه من الضروري معالجة الموقف في الجهاز المصرفي بكل حزم وسرعة، وأن يتم ذلك بوضع قواعد أكثر إحكامًا للسيطرة على الائتمان المصرفي، وبالعمل الجاد على رفع مستوى الإدارة في البنوك، وبإنشاء صندوق في البنك المركزي برأس مال ٥ــ١٠ مليارات جنيه يمول ابتداء من موارد البنك المركزي ويخصص للتأمين على الودائع الموجودة لدى الجهاز المصرفي. واقترح أن يتم ذلك بمنح فائدة على جزء من الاحتياطي النقدي الذي تودعه البنوك لدى البنك المركزي مع تخصيص حصيلة هذه الفائدة للصندوق المقترح، ففي الوقت الحاضر تودع البنوك ١٥٪ من ودائع الجمهور لدى البنك المركزي المصري مجانًا ودون أن تحصل على أية فوائد مالية مع أن البنك المركزي يستثمر هذه الأموال، ومن ثم تئول عوائد استثمارها في النهاية إلى الخزانة العامة للدولة ضمن أرباح البنك المركزي، ومن المنطقي أن نطلب تخصيص جزء من هذه العوائد لدعم الجهاز المصرفي في شكل صندوق التأمين على الودائع.

٨ـ وأخيرًا فإنه علاوة على وسائل التصحيح المذكورة في سياق العرض السابق، فإن أهم وأكبر أسباب الأزمة الاقتصادية الحالية هي تراجع الثقة في الكيان الاقتصادي. ولا نقصد بالثقة حالة نفسية وإنما هي ثقة المستثمر المصري والأجنبي في جدوى اقتحام المجال الاقتصادي، وثقة المستهلك المصري والأجنبي في سلامة وأمان وجودة البضائع والخدمات المصرية، وثقة المدخر في نماء مدخراته وعدم ضياع قوتها الشرائية بمرور الوقت، وثقة المتعاملين في عدالة القوانين السارية واستقرارها، وفي عدالة القضاء وسرعة البت في أحكامه، وفي عدم تعنت البيروقراطية الإدارية والحكومية، وفي عدالة وكفاءة النظام الضريبي والجمركي، وكل ذلك يقتضي حركة إصلاح شامل أي إصلاح سياسي ودستوري وإداري وتشريعي وقضائي ومالي واقتصادي ومصرفي، وبدون هذا الإصلاح تظل وسائل علاج الأزمة الاقتصادية المقترحة في الفقرات السابقة أو المقترحة من قبل خبراء آخرين، وسائل علاج جزئية هي بمثابة مسكنات فحسب. ■



السفير Saphir: إنه الحجر الإلهى بين كل الأحجار. لونه الأزرق يقارن بلون السماء، ويقال إنه يحمى حامله من الحسد والشرور. ولكن النصوص القديمة تخلط عادة بين السفير واللازورد، وتمنح الثانى صفات الأول.

الأزرق........

تاريخ الرسم شىء، وتاريخ الألوان شىء آخر تمامًا. ومن الخطأ حصر تاريخ الألوان فى الساحة الفنية أو الرسوم، أو حتى على الساحة العلمية، لأن تاريخ الألوان كله لا يمكن أن يكون إلا تاريخًا اجتماعيًا.

فاللون بالنسبة للمؤرخ، وأيضًا بالنسبة لخبراء الاجتماع وعلماء الأجناس، يفسر فى الأصل على أساس أنه حالة اجتماعية. المجتمع هو الذى يصنع اللون، وهو الذى يعطيه معناه وهويته، ويسن قوانينه ويفرض قيمته، وينظم ممارساته ويحدد ماهيته. المجتمع، وليس الفنان أو العالم، وليس التكوين البيولوجى للإنسان، أو حتى الطبيعة.

وفى كتاب «الأزرق، تاريخ لون» يقول المؤرخ الفرنسى ميشيل باستورو، أن هدفه ليس تأريخ الألوان منذ العصور الوسطى، أو وضع تاريخ حقيقى للألوان فى المجتمعات الغربية؛ ولكنه يطرح الأسس التى يستند إليها هذا التأريخ، ومن أجل أن يفعل ذلك، استغل الكاتب اللون الأزرق ليكون هو الخيط الذى يقوده إلى معرفة تاريخ الألوان وتطورها مع الزمن والمجتمعات المختلفة، لأن الأزرق هو أكثر الألوان تعرضا لكل أنواع التطور على مدى التاريخ الاجتماعى.

Blue: Histoire D'une Couleur
(الأزرق .. تاريخ لون)
Michel Pastoureau
Seuil, 2000, 215pp.

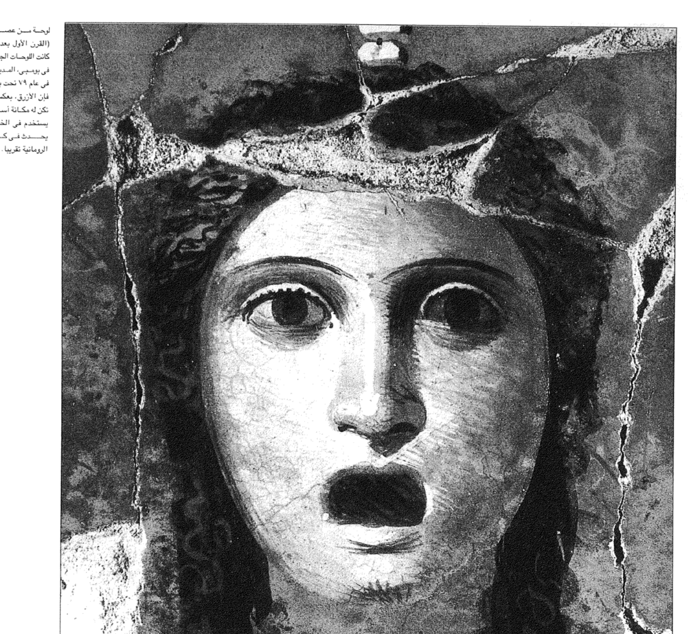
كتوم ورصين

رغم أن اللون الأزرق متواجد فى الطبيعة حولنا منذ بدء الخليقة، إلا أن الإنسان لم يصنعه ويستخدمه ويسيطر عليه إلا متأخرًا وبصعوبة شديدة. لهذا السبب ظل الأزرق فى المجتمعات الغربية ولمدة طويلة لونا ثانويا ليس له دور فى الحياة الاجتماعية أو الممارسات الدينية، أو حتى فى الإبداعات الفنية.

فى مصر الفرعونية، ظهر الأزرق فى استخدامات مختلفة، إذ استطاع المصريون القدماء أن يصنعوا صبغة زرقاء من برادة النحاس المخلوط بالرمال والبوتاس. واستطاعوا استخلاص طبقات رائعة من اللون الأزرق والأزرق ـ الأخضر؛ وهو ما نجده فى الأدوات والتماثيل الخاصة بالجنازات، وأحيانا تكون التماثيل مغطاة بالخزف وهو ما يضفى عليها هيئة زجاجية قيمة.

بالنسبة للمصريين كما هى الحال بالنسبة لشعوب عديدة فى الشرقين الأوسط والأدنى، فإن الأزرق كان يعتبر من الألوان التى تجلب الحظ ويبعد القوى الشريرة. وارتبط بالشعائر الجنائزية والموت من أجل حماية المتوفى فى الحياة الأخرى. وأحيانا كان يستخدم اللون الأصفر لنفس السبب وهنا يتوحد اللونان.

إلا أن اليونانيين اعتبروا الأزرق أقل قيمة رغم أنه استخدم فى الخلفية مع العمارة والنحت، مثل بعض النقوشات على مبنى البارتينون. ولكنه كان نادر الوجود إلى حد



لوحة من عصر بومبي (القرن الأول بعد الميلاد) إن كانت اللوحات الجدارية عديدة في بومبي، المدينة التي دفنت في عام ٧٩ تحت بركان فيزوف، فإن الأزرق، بعكس الأحمر، لم تكن له مكانة أساسية، وكان يستخدم في الخلفية كما كان يحدث في كل اللوحات الرومانية تقريبا.

تاريخ لون

ليلى حافظ

أن تساءل المؤرخون إن كان اليونانيون يرون اللون الأزرق.

أجاب بعض العلماء بالنفي عن هذا السؤال. وأوضح المؤرخون أنه منذ عصر الرومانيين القدماء كانت هناك مشكلة تحديد اللون الأزرق لغويًا. وذلك يرجع إلى حد كبير لعدم اهتمام الكتاب الرومانيين وبعدهم مسيحيي العصر الأوسط الأول، باللون الأزرق عموما. وفيما بعد بدأ استخدام كلمتين لغويتين في اللغة اللاتينية لإعطاء معنى للون الأزرق، الأولى جاءت من اللغات الجيرمانية، وهي كلمة «بلافوس» (blavus) والثانية من اللغة العربية «أزوروس» (azureus) أو اللازورد، وهما الكلمتان اللتان ستبقيان في اللغة لتعنيان اللون الأزرق.

وكان الرومانيون يرون في الأزرق لونًا داكنًا، شرقيًا وهمجيًا. ويستخدمونه بقلة ومع بداية المسيحية، كان الاهتمام الأساسي للون الأبيض في الأنسجة والملابس غير المصبوغة، ولم يتواجد الأزرق من بين الألوان التي تستخدم في الطقوس واللوحات الدينية في العصور الوسطى الحديثة.

لون السيدة مريم

إذا كان اللون بالنسبة للعلماء هو ضوء، فإنه بالنسبة لرجال الدين وحتى القرن الثاني عشر، يعتبر مادة، لذا فهي خسيسة بلا فائدة، ومكروهة.

ولكن منذ القرن الثاني عشر وبالأخص بين عامي ١١٣٠ـ١١٤٠ بدأت نظرة الكنيسة للألوان تتغير وبالأخص بالنسبة للأزرق. فاعتبر القديس دينيس أن كل ما يمكن أن يطلق عليه جميل سواء في الرسم أو الزجاج الملون أو النسيج أو الحجارة أو الفضة، يستحضر لكي يتزين بها بيت الله، وكل ذلك كان ينعكس أولا في الألوان. ومن بين الألوان أصبح للأزرق دور أساسي لأنه مثل الذهبي، فهو النور، النور الإلهي، النور السماوي، الذي من خلاله خلق كل شيء. وبالتالي أصبح حجر اللازورد أجمل أنواع الحجارة والأزرق المرتبط به أصبح يمثل كل ما هو مقدس، فهو يسمح بدخول نور الله إلى الكنيسة. وبدأت الكنائس تستخدم اللون الأزرق مثل كنيسة سانت شابل في باريس، التي شيدت في القرن الثالث عشر لتكون محرابا للنور والألوان.

بعد الألفية الأولى تحول الأزرق ليكون لون الطبقة الأرستقراطية، بل ليكون في نظر كثير من الكتاب أجمل الألوان. وخلال بضع عشرات من السنوات ارتفعت قيمته الاقتصادية أضعاف ما كانت عليه، وتغيرت مكانته.

فكان أكثر المجالات تأثرا باللون الأزرق هي مجالات الفن والتصوير منذ بدء القرن الحادي عشر والثاني عشر خاصة في اللوحات والأيقونات، كما زادت أهميته في الملابس أيضا. وأكبر مثال على ذلك التحول في ملابس السيدة العذراء والذي يمثل للمؤرخين نقطة الانطلاق التي تسمح بتتبع التحولات والتطورات التي مر بها هذا اللون.

فالسيدة العذراء لم ترتد اللون الأزرق إلا مع القرن الثاني عشر، عندما ظهرت في اللوحات الفنية الغربية، فأصبح للون الأزرق مكان في ملابسها



رأس ملكي لفتاة مصرية مصنوع من عجينة الزجاج (القرن الثالث عشر قبل الميلاد) في مصر، كما هو في سائر بلاد الشرق الأوسط، كان الأزرق يعتبر لونا خيرا، من شأنه إبعاد قوى الشر ونشر الرخاء. كما أنه ارتبط أيضا بشعائر الجنازات من أجل حماية المتوفى في الحياة الأخرى. (متحف اللوفر، باريس)

لوحة جنائزية مصرية (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) في الفترة ما بين عامي ١٥٠٠ و١١٠٠ قبل الميلاد، وهي الفترة التي شهدت العديد من اللوحات الجدارية المصرية. في تلك الفترة كانت درجات اللون الأزرق المختلفة تستخدم في الرسم ولكن كخلفية. وكانت المواد التي تستخدم في التلوين طبيعية مثل الازوريت والملاخيت، وأحيانا صناعية مثل ألوان الأزرق المستخرج من النحاس. هذه المواد كانت تستعمل لإظهار اللون الأزرق في مياه النيل ولتوضيح كيف تخرج جثة المتوفى من مدينة الأحياء، وتعبر النهر في مركبة لتصل إلى مدينة الأموات على الضفة الأخرى من النهر. (اللوحة قادمة من قبر الفرعون حاريم حاب (١٣٣٢ - ١٣٠٥) معروضة في لايدن، ريجكسميوزيوم فان أودهيدن).

الأزرق



سمكة مقدسة منذ العصر المصري القديم (القرن الأول قبل الميلاد): كان المصريون القدماء يعرفون صباغة الألوان الزرقاء الطبيعية مثل الأزوريت أو فحمات النحاس الطبيعية، واللازورد والتيركواز. ولكنهم كانوا يعرفون أيضا كيف يصنعون صباغة زرقاء رائعة من صوانات النحاس. كما كان المصريون القدماء يعرفون المبادئ التي يتم من خلالها صناعة الزجاج والخزف، وصنعوا أدوات كثيرة من تلك المواد الزرقاء أو الزرقاء - الخضراء. فكانت في معظمها أدوات جنائزية مثل التماثيل الصغيرة، لألوانها قيمة سحرية وللحماية. (حيفا، المتحف البحري القومي).

سواء في معطفها وهو الأكثر تكرارا، أو في ردائها أو - وهذا أكثر ندرة - في كل ملابسها. بعد أن كانت السيدة العذراء ترتدي دائما ألوانا غامقة مثل البني أو الرمادي أو البنفسجي، أو الأخضر والأزرق الغامقين، وهي كلها ألوان تدل على الآلام، ألوان الحداد. حداد السيدة العذراء على ابنها الذي صلب.

وبدأ اللون الأزرق يزحف إلى سائر مجالات الإبداعات الفنية بسرعة كبيرة. وفي عام ١١٤٠ قام صانعو الأواني الزجاجية بتصنيع ما عرف باسم «أزرق سان دينيس»، المرتبط ببناء كنيسة الدير. ثم توسع أكثر واندرج في العديد من الأعمال الفنية الزجاجية والخزفية خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر وحتى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر.

ثم انتقل اللون الأزرق إلى الاستخدامات الملكية، ففي القرن الثاني عشر كان الملك يستخدم العملات ذات خلفية زرقاء، وكان الملك الفرنسي هو الوحيد في أوروبا الذي يستخدم اللون الأزرق في شعاره. قد يكون السبب جاء تحية للسيدة العذراء حامية الملكية الفرنسية.

أسباب التطور

بالنسبة للمؤرخ فإن أهم سؤال يلح عليه هو معرفة الدافع لتلك التطورات المفاجئة للون الأزرق والسبب الأساسي للتحولات المختلفة التي شهدها ترتيب الأهمية بالنسبة للألوان. هل كان السبب هو التقدم التقني أم اكتشاف كيمياء التلوين التي ساعدت الصباغة الغربية على إنجاز في سنوات قليلة ما كان يصعب إنجازه في قرون، ليخرج لونا أزرق عميقا وقويا وباهرا؟ وهل كان انتشار درجات الأزرق المختلفة في النسيج هو السبب في انتشاره في مجالات أخرى وبتقنيات أخرى؟ أم لأن المجتمع هو الذي طلب من الصباغة التوجه إلى اللون الجديد لكي يتماشوا مع الظاهرة الجديدة؟ أي هل العرض هو الذي سبق الطلب؟ هل الكيمياء والتقنية هي التي سبقت الأيديولوجية والرمزية؟ أم بالعكس؟

أيا كانت الإجابات على تلك الأسئلة فمن المؤكد أن تطور اللون الأزرق بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر كان تعبيرا عن التغييرات المهمة في الطبقية الاجتماعية وفي نظم التفكير والتوجه الفني.

لون أخلاقي

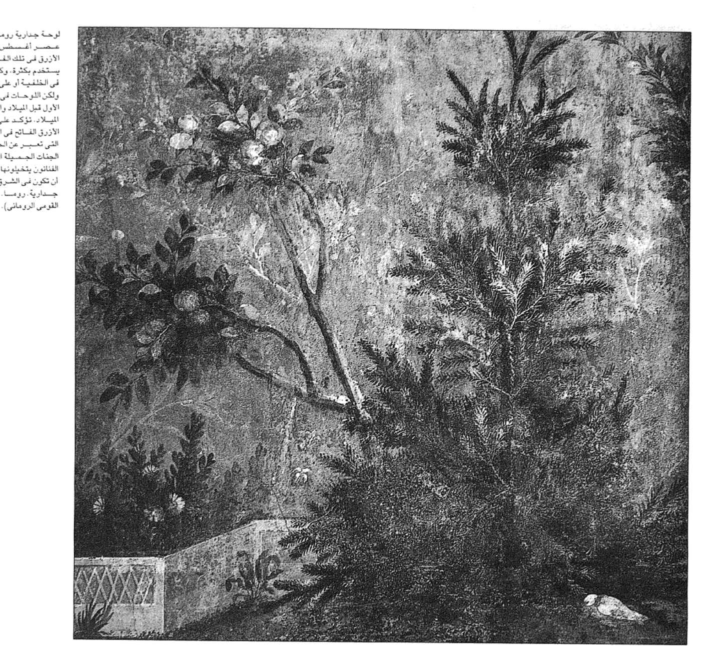
مع منتصف القرن الرابع عشر دخل اللون الأزرق في الغرب مرحلة جديدة من تاريخه. الأزرق الذي تطور وارتبط بالسيدة العذراء وارتبط بالملك، بات هو اللون الأخلاقي. ولقد جاء ذلك مواكبا للموجة العريضة التي دعت للأخلاقيات والتي شملت كل العصور الوسطى، وموقف المصلحين البروتستانت في القرن السادس عشر من الممارسات الاجتماعية والفنية والدينية للون الأزرق.

ثم تدخلت الأيديولوجية في اختيار الألوان، إذ فرض نوع من الفصل العنصري من خلال الملابس، وأصبح على كل فرد ارتداء ما يناسب جنسه، وحالته الاجتماعية والاقتصادية. وأصبحت الملابس هي العلامة الأولى التي تحدد التقسيم الاجتماعي الذي وضعه الله كما يقال في تلك الفترة، ومن يكسره يخالف تعاليم الله. ففي أوروبا كانت الألوان الباهرة ممنوعة على أشخاص معينين مثل رجال الدين والأرامل والقضاة وكل من يرتدي الأزياء الطويلة، على أساس أنها ألوان غير محترمة للشخص المسيحي الحقيقي.

وبالنسبة للفنانين فمنذ القرن السابع عشر، خاصة في سنوات ١٦٣٠ - ١٦٤٠ لم يعد الفنانون البروتستانت يحتكرون التزمت في الألوان، بل شاركهم فيه بعض الفنانين الكاثوليك. مثل الفنان فيليب دي شامباني Philippe de Champaigne (١٦٤٦) ورمبرانت Rembrandt الذي كان يستخدم الأزرق أيضا. ولكنه أزرق حاد، محافظ، يختفي بسرعة ومظلم، إنه الأزرق الأخلاقي.

انتصار لون

مع نهاية القرن الثامن عشر، لم يعد عالم الألوان هو نفسه كما بدأ. فلقد بدأت الألوان



لوحة جدارية رومانية من عصر أغسطس: لم يكن الأزرق فى تلك الفترة يستخدم بكثرة، وكان يوجد فى الخلفية أو على السطح. ولكن اللوحات فى القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد، تؤكد على وجود الأزرق الفاتح فى اللوحات التى تعبر عن الحدائق أو الجنات الجميلة التى كان الفنانون يتخيلونها كما يجب أن تكون فى الشرق. (لوحة جدارية. روما. المتحف القومى الرومانى).

تتكاثر وتتنوع، ومع اكتشافات نيوتن وإعادة تقييم ألوان الطيف، بدأت تتغير تدريجيا أهمية ترتيب الألوان: فلم يعد الأحمر يقع بين الأبيض والأسود، كما تأكد أن الأخضر هو خليط من الأزرق والأصفر؛ وثبتت فكرة الألوان الأساسية وتلك التكميلية، وأيضا الألوان الساخنة وتلك الباردة، كما نفهمها اليوم.

فمع تراجع اللون الأحمر فى الملابس وفى الحياة اليومية، تركت الساحة خالية للون الأزرق الذى أصبح ليس فقط لونا من الألوان المتواجدة بكثرة فى الملابس والأنسجة، ولكن أيضا اللون المفضل للشعوب الأوروبية. وظل إلى اليوم هو الأفضل بمراحل بالمقارنة مع جميع الألوان الأخرى.

لقد تم الإعداد لانتصار اللون الأزرق منذ القرن الثانى عشر. ولكن القرن الثامن عشر كان انتصار الأزرق قد اكتمل بالفعل؛ وذلك من خلال انتشار استخدام مادة طبيعية رائعة للتلوين هى مادة شجرة النيلة، indigo، والتى كانت معروفة منذ وقت طويل ولكنها لم تستخدم بكثرة؛ ثم من خلال اكتشاف مادة للصباغة صناعية تسمح بالحصول فى الصباغة والرسم على درجات جديدة من اللون، وهو اللون البروسى (bleu de prusse) ثم أخيرا من خلال وضع رموز متجددة للألوان، مما أعطى للأزرق المرتبة الأولى ليصبح هو لون التقدم والنور والأحلام والحريات. فى تلك المجالات كان للحركة الرومانسية والثورات الأمريكية والفرنسية دور كبير وأساسى وهى المكانة التى احتفظ بها الأزرق بل وتوسع فيها حتى بداية القرن الواحد والعشرين.

الأزرق الرومانسى

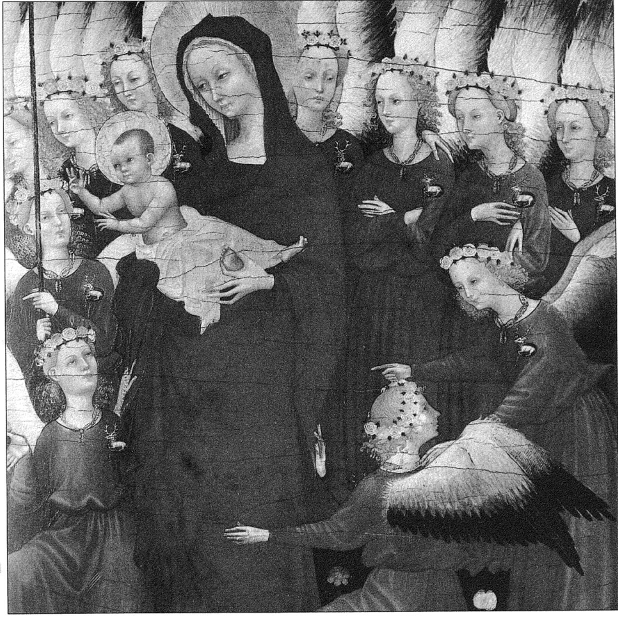
حتى القرن الثامن عشر كان من النادر أن يرتدى أحد أعضاء الطبقات الأرستقراطية اللون الفاتح أو السماوى؛ فقد كان هذا اللون يعتبر من ألوان الفلاحين. ولكن منذ هذا الوقت بدأ الأزرق الفاتح بكل درجاته، يغزو البلاط الملكى. وكانت البداية انتشاره بين السيدات، وبعدهن ارتداه الرجال. وفى النصف الثانى من القرن ساد الأزرق الفاتح سائر الطبقات الأرستقراطية والطبقات الغنية من البرجوازية، خاصة فى ألمانيا والسويد، واستمر كذلك حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر.

تلك الاستخدامات فى الملابس للون الأزرق، دعمها إثراء لغوى فى المرادفات الخاصة بتوصيف اللون الأزرق وخاصة الفاتح منه مع منتصف القرن الثامن عشر، وهو ما أثبتته القواميس والمعاجم التى ظهرت فى تلك الفترة. فعلى سبيل المثال، ظهر فى اللغة الفرنسية فى عام ١٧٦٥ نحو ٢٤ تعبيرا دارجا يصف الأزرق، منها ١٦ تعبيرا لغويا تصف الأزرق الفاتح.

وفى نفس الوقت جاء التوجه الرومانسى فى الرواية فى تلك الحقبة التى عرفت باسم «عصر النور» ليعكس اللون الأزرق ودرجاته المختلفة. وكان أكثر الأمثلة تميزا رواية جوته : «معاناة الشاب فيرتر»، التى نشرت فى لايبزيج عام ١٧٧٤، وفيها كان فيرتر يرتدى الأزرق واشتهرت كلمات جوته فى وصفه إياه قائلا: «كم كانت معاناتى عندما اضطررت إلى الاستغناء عن بزتى الزرقاء البسيطة التى كنت أرتديها فى رقصتى الأولى مع شارلوت». مما دفع كل شباب أوروبا إلى ارتداء البزات الزرقاء تيمما بالشاب فيرتر.

ومنذ عام ١٧٨٠ بدأ اللون الأزرق يظهر بكثرة فى الأعمال الأدبية والشعرية، وذلك لتنوعه واكتمال خواصه. وجعلت الرومانسية من اللون الأزرق أسطورة، خاصة الرومانسية الألمانية. لتصبح «الزهرة الزرقاء» فى رواية هينريك فون أوفتيردينجن، التى لم تكتمل فى عام ١٨٠٢، رمزا للرومانسية فى كل ألمانيا، وكل الشعراء الذين يكتبون بكل اللغات الأخرى فى سائر دول أوروبا. وأصبح الأزرق هو لون الحب والحزن والأحلام. وارتبطت الزهرة الزرقاء التى تدعى باللغة الفرنسية ancolie بالكلمة التى تعنى الحزن وهى melancolie. ثم ارتبط الأزرق بالتعبيرات والأمثلة الشائعة، فأطلق على الروايات الخيالية والأساطير تعبير «حكايات زرقاء»، أو أطلق على الإنسان المثالى النادر الذى لا يمكن الوصول إليه بتعبير «الطائر الأزرق».

أما «البلوز» blues فهى



لوحة مزدوجة لويلتون (نحو عام ١٣٩٥) منذ القرن الثاني عشر ميلاديا، عندما أصبح اللون الأزرق اللون الديني الأيقوني للسيدة العذراء، كان الفنانون يتبارون لإظهار هذا اللون الجديد في ملابس السيدة مريم. وكانت فرصة أيضا لكي يستخدموا نوعا من الصبغة، كما يطلب منهم المعنيون، باهظة الثمن وهي اللازورد، التي ارتبطت بالذهب في نهاية القرون الوسطى. هذه اللوحة رسمت في عام ١٣٩٥ تقريبا من أجل الملك ريتشارد الثاني ملك إنجلترا. (لندن، ناشيونال جاليري)

الأزرق

نغمات موسيقية، تقترب من معنى الأزرق في الرومانسية الألمانية. ولكنها من أصول أفريقية أمريكية، دخلت إلى عالم موسيقى المجتمع الشعبي الأمريكي نحو عام ١٨٧٠ وتميزت بإيقاع بطيء يعكس حزنا دفينا. ولقد جاء التعبير الإنجليزي «بلوز» من دمج الكلمتين blue devils أي الشياطين الزرقاء، والتي تعني الحزن واللهفة لحياة ماضية، والاكتئاب، وهو كل ما يصفه الفرنسيون بتعبير «الأفكار السوداء»، بينما يعبر الإنجليز عن تلك الحالة بقولهم: to be in the blue أو blue

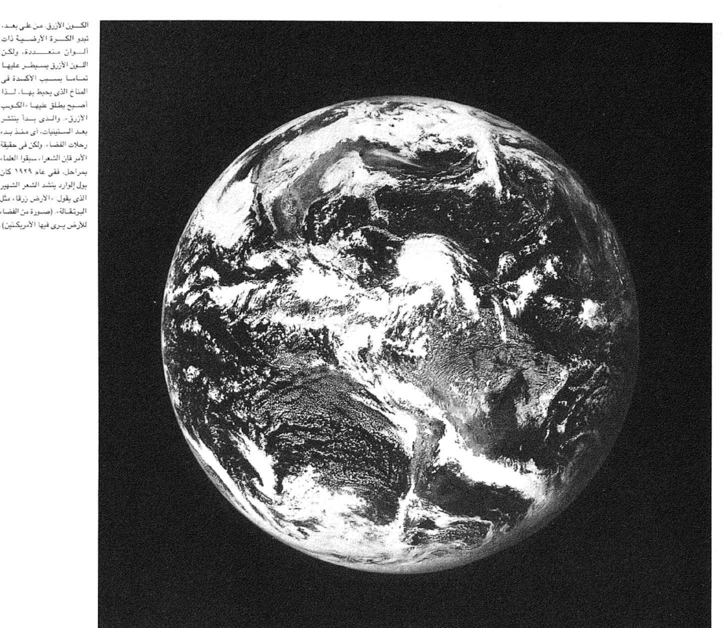
الأزرق الفرنسي

شهد القرن الثامن عشر ليس فقط الأزرق الرومانسي والحزين، ولكن أيضا مولد الأزرق الوطني والعسكري والسياسي في فرنسا، ليصبح هو اللون الفرنسي. فاليوم على سبيل المثال، ترتدي كل فرق كرة القدم الفرنسية اللون الأزرق في المباريات الدولية. والعلم الفرنسي يحمل اللون الأزرق، الذي يعتبر أهم لون فيه لأنه يقع ملازما للسارى، وعندما تسكن الرياح، يصبح الأزرق فقط هو الظاهر. ولهذا الاهتمام باللون الأزرق في فرنسا تاريخ طويل، فلقد جاء الأزرق ليكون اللون الوطني منذ الثورة الفرنسية، حين جعلت الأزرق هو لون الجنود المحاربين من أجل الجمهورية، ثم من أجل فرنسا. وهكذا أسهمت فرنسا في خلق الأزرق «السياسي»، لون المدافعين عن الجمهورية، ثم لون الجمهوريين المعتدلين، ثم بعد ذلك الليبراليين وحتى المحافظين.

فعشية الثورة الفرنسية كان جنود الحرس الفرنسي، وهي فرقة من الصفوة العسكريين التي تكونت منذ عام ١٥٦٤ وارتبطت بالبيت الملكي، وترتدي اللون الأزرق، هم الذين انتفضوا في يولية عام ١٧٨٩ وتآخوا مع الشعب واشتركوا في إسقاط سجن الباستيل. ثم انضم الكثيرون إلى الحرس الوطني الباريسي وارتدوا الزي الأزرق، ثم انتقل الأزرق إلى سائر الميليشيات المتواجدة في القرى والمدن الأخرى، وفي شهر يونية أعلن أنه «اللون الوطني». وبعد إعلان الجمهورية في خريف عام ١٧٩٢، أصبح الأزرق هو بالضرورة لون الزي العسكري، ولون جنوده. وفي عامي ١٧٩٢ و١٧٩٣ صدرت عدة قوانين تجعل اللون الأزرق إجباريا للمشاة، ثم لكل الجيش النظامي، وأخيرا للجيوش الثورية.

وأصبح الأزرق في مواجهة الأبيض (الملكي) له معنى أيديولوجي طوال القرن التاسع عشر في الحياة السياسية الفرنسية. ولكن بعد ثورة عام ١٨٤٨ (الكوميونة) فقد اللون الأزرق معناه الثوري وأصبح اللون الأحمر هو لون الثورة والتطرف الاشتراكي. وأصبح الأزرق هو لون الجمهوريين المعتدلين ثم الوسط، وأخيرا وفي الجمهورية الثالثة، أصبح هو لون اليمين الجمهوري. وأصبح الأزرق أقرب إلى اللون الأبيض في معناه خاصة بعدما انقضى أي أمل في عودة الملكية.

ومثلما حدث في فرنسا، كان تطور اللون الأزرق في سائر دول أوروبا باستثناء إسبانيا، فكان الأزرق هو لون الأحزاب الجمهورية التقدمية، ثم الوسط أو المعتدلين، ثم أخيرا المحافظين. فعلى اليسار كان الأحمر يمثل الاشتراكيين والشيوعيين، وإلى اليمين



الكـــون الأزرق. من على بعـد، تبدو الكـــرة الأرضـيـة ذات ألـــوان مـتـعـــددة، ولكن اللـون الأزرق يسيطـر عليها تمـامـا بسـبب الأكسدة فى المناخ الذى يحيط بهـا. لـــذا أصبح يطلق عليهـا «الكـوب الأزرق». والـذى بـدأ ينتشر بعـد الستينيات، أى منـذ بـدء رحلات الفضـاء. ولكن فى حقيقة الأمر فإن الشعراء سبقوا العلماء بمراحل. ففى عام ١٩٢٩ كان بول إلوارد ينشد الشعر الشهير الذى يقول: «الأرض زرقاء مثل البرتقـالة». (صـورة من الفضاء للأرض يـرى فيها الأمريكتين).

كـــان الأســـود والبنى والأبيض للأحـــزاب الدينية، والفاشية والملكية، ثم أخيرا أضيف اللون الأخضر ليمثل أنصار البيئة.

لذلك يمكن القـول أن الثـورة الفـرنسـيـة كـانت هى المحرك الأسـاسى فى مـولد الألوان السياسية الحديثة.

الجـــــــــينـز الأزرق

بالنسـبـة للمـلابس يعـتـبر التـحـول فى الموجـــات الجـديدة من الأســـود إلى الأزرق الغـامق أو الكحلى، أهم الأحـداث فى الملابس فى القرن العشرين خاصة فى الفترة ما بين الحـــربين (١٩١٩ و١٩٣٩)، وذلك بين كل الطبـقات وفى كل المنـاسبات. ولكن أيضا كـان هنـاك نوع آخـر من الملابس التى انتـشـــرت بسرعة كبيرة خـاصة منذ الخـمسينيات من القرن العشرين: هو «الجينز» الأزرق.

مما لا شك فيه أن الجينز يعتبر من الملابس التى ليس لها مثيل، ولكن تظل جذوره يغلفها بعض الغموض. وذلك جزئيا بسبب الحريق الذى شب فى سـان فرانسـيسكو عام ١٩٠٦ وأتى على الأرشـيف الخـاص بمصنع ليفـاى شتراوس، مخترع البنطلون الشهير قبل نصف قـرن من هذا التـاريخ. فـفى ربيع عـام ١٨٥٣ توجـه الشـاب ليفـاى شتـراوس، وهو شـاب يهودى من أصول ألمانيـة، عمل بائعا متجـولا فى نيـويورك، إلى سـان فرانسيسكو، حيث كـانت حمى الذهب فى سييرا نيفادا، تجذب العديد من الأفراد من مختلف أنحـاء العـالم. وأحضر معـه كمية كبيرة من قمـاش الخيـام بأمل أن يحقق أربـاحا معقولة. ولكن المبيعات لم تكن كبيرة، وأخبره أحد السكان أن فى تلك المنطقـة من كـاليفـورنيـا لا يحتـاج المرء إلى قماش لصنع الخيام، بقدر احتياجهم لبنطلون من قماش متين وعملى. لذا فكر شتـراوس فى صنع البنطلونات من قـمـاش الخـيـام، وكـان نجاحه أكيدا وفوريا. ولكن قماش الخيام لم يكن أزرق، وكـان ثقيلا صعب التعـامل مـعـه، فقـرر تغـيـيره بنسيـج الدنيم (denim)، وهو نسيج صوفى متـين قادم من أوروبا وصبغ بالأنديجو. وهكذا ولد الجينز الأزرق فيما بين عامى ١٨٦٠ـ١٨٦٥.

ومع الوقت تطور اســتـخـدام الجـيـنز، فـاصبح من مـلابس الطبـقـات الغـنيـة التى تعيش فى السـاحل الشرقى الأمريكى، ثم بدأ طلبـة الجـامـعـات يرتدونه. وبعـد الحـرب العـالمية الثانيـة وصل إلى أوروبا وفى الفترة مـا بين ١٩٥٠ و١٩٧٥ انتـشـر ارتداء الجـينز بين الشـبـاب الأوروبى، ليكون حـسب رأى علمـاء الاجتـمـاع، رمزا للتـمـرد، لينتـقل فى الثـمـانينيـات إلـى أوروبا الشـرقـيـة والدول الاشتـراكـيـة ودول العـالم الثـالث وحـتى فى الدول الإسلامية.

ولكن هل انتشـــار اللون الأزرق يـعنى أن الفرد يـفضل حـقـيقة اللون الأزرق عن سائر الألوان؟ ومـاذا تعنى كلمـة التـفـضـيل؟ وهل تفضيل لون عن لون يعنى تفضيل كل مـا ينم عنه من ممارسـات وقـيم ورمـوز سـيـاسـيـة ومشاعـر وتفضيلات فنيـة؟ أم يحاول الفرد أن ينتـمى إلى المجتمع الـذى يعيش فـيـه فكريا وثقـافـيـا؟ هل الـتـفـضـيل الفـردى، والذوق الشـخصى موجـود بالفعل؟ يقول المؤرخ: إن كل مـا نؤمن به ونفكر فيه ونعجب به ونحبه أو نستبعده، يمر بالضرورة عبر رؤية وحكم الآخرين. فالإنسان لا يعيش وحده بل يعيش فى المجتمع. وفى النهاية الدعاية تلعب دورا كبيرا فى توجيه الذوق العام.

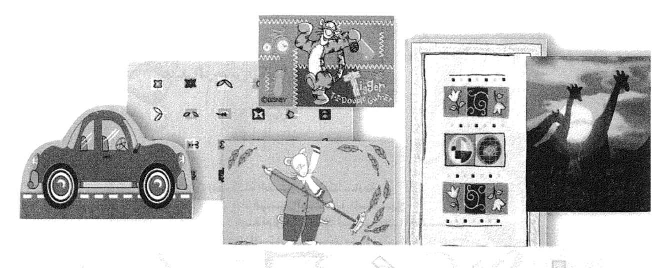


مراكز البيع:

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى . نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٣
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس . ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج . دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت: ٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان . محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥
القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
العاشر من رمضان: دوار العاشر . طريق الإسماعيلية
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل . محطة التعاون . الهرم ت: ٣٨٣٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية . خلف المحكمة
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى . مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع . السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣

العباسية: ١٥ ش العباسية . ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت: ٢٢٠٨٥٥٥
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية . فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
صفط اللبن: سنتر الصاوى . شارع التحرير
بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٢٢ ٥٧٦٥
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم . خلف المحكمة
دسوق: ش الجيش . أمام عمر أفندى
بورسعيد: ش الأمين وشارع ١٠٠ (باتا) سابقا ت: ٢٢٧٦٩٣
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة . طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com



امرأتان ومعركة

قراءة فرنسية للحروب الصليبية

عبد الرحمن الكواكبى «الحفيد»



هل كانت الحملة الصليبية السابعة فعلاً لإنقاذ قبر السيد المسيح وحماية العقيدة المسيحية أم أن هناك أسباباً أخرى لا علاقة لها بالدين الذى يؤمن به وبرسوله المسلمون أيضاً

لا يخفى على القارئ العربى أنّ المرأة العظيمة الملقّبة بـ«شجرة الدرّ» قد استطاعت، باقتدار، أن تخفى نبأ موت زوجها «نجم الدين الصالح أيوب» لأنّ الخطر الصليبى قد داهم مصر هذه المرّة، وقد استطاعت شجرة الدرّ أيضاً أن تشرف من قصرها على الاستعداد للمعركة الفاصلة، فقد كانت عامل التوازن بين كبار ضباط الجيش الإسلامى، وكانوا كلّهم من المماليك..

على الطرف الآخر كانت هناك امرأة أخرى، اتّخذت لها دوراً مهمّاً فى هذه الحملة، ولا سيّما فى معركة المنصورة، فمَن هى هذه المرأة، وماذا كان دورها ؟؟

الحملة الصليبية السابعة، التى قادها الملك لويس التاسع، والتى انتهت بمعركة «المنصورة» فى مصر كانت لها خلفيات تجدر معرفتها من مصدر فرنسى مفصّل، والاطلاع على وصف المعركة الحاسمة التى انتهت بهزيمة الصليبيين وأسر ملكهم، والتى تشمل الظروف التى دعت إلى تنظيم هذه الحملة وبيان ما إذا كانت فعلاً لإنقاذ قبر السيد المسيح وحماية العقيدة المسيحية أم لأسباب أخرى لا علاقة لها بالدين الذى يؤمن به وبرسوله المسلمون أيضاً.

فى قصر «كاستيل» فى إسبانيا كانت تعيش الفتاة الجميلة «بلانش» ابنة الملك ألفونس الثالث، حيث كانت الأميرة مع أختها تقومان مساء كلّ يوم بأداء الصلاة والدعاء لينقذ الله الأندلس من أيدى المسلمين.

وفى أحد الأيام جاءت جدّة الفتاتين ووالدة ملك إنكلترا إلى قصر الكاستيل لتدريس صهرها ألفونس سُبُل اتّحاد إسبانيا وفرنسا، وذلك بزواج إحدى الفتاتين من الأمير «لويس» الفرنسى ابن ملك فرنسا آنئذ «فيليب أوغوست»، وبهذا يتمّ السلام بين فرنسا وإنكلترا.

وقد لاقى هذا الاقتراح ترحيباً من والدى الفتاتين، وانتهت المفاوضات والزيارات باختيار «بلانش» لتكون ملكة فرنسا المقبلة. وتمّ حفل الزواج عام ١٢٠٠، ولمّا كان العروسان صغيرى السن، فقد تأخّر حفل العرس ثلاث سنوات بعد عقد الزواج، وكان الحب خلالها يربط بين الزوجين رباطاً شديداً. وفى عام ١٢١٤م ولدت «بلانش» طفلاً هو «لويس التاسع»، وفى عام ١٢٢٣ مات فيليب ملك فرنسا، وتولّى ابنه العرش، وأصبحت «بلانش» ملكة لفرنسا.

ثمّ أصبحت أرملة بعد موت زوجها الملك عام ١٢٢٦، وأضحت وصيّة على ولدها الملك الجديد لويس التاسع لصغر سنّه. وقد تعرّض الملك الجديد لعدّة حوادث عدائية قابلتها أمّه بحزم وبمساعدة صديقها الكونت «تيبو».

بعد فترة من الزمن بدأت الشائعات تتناول السلوك الأخلاقى لملك فرنسا الشاب، وهى شائعات كاذبة، جعلت الملكة تسرع فى تزويجه، وأخذت تفتّش له عن زوجة صالحة، وإن لم تكن فائقة الجمال. وكانت الملكة بلانش بسبب تديّنها لا ترغب فى أن يرتبط ابنها ارتباطاً شديداً بزوجته المقبلة، وأن لا يقع بسبب جمال وجهها فى فخّ الحب العاطفى، وبالتالى فى الخطيئة الجنسية، كما كانت تخشى أن تسيطر امرأة جميلة على ابنها لأنّها كانت تريد الاحتفاظ بقلبه وعقله تحت سيطرتها هى.

وهكذا كلفت الملكة عدداً من رجال الدين أن ينتشروا فى البلاد ويفتّشوا لها عن أميرة تنطبق عليها الشروط.

شاهد أحد رجال الدين فتاة ترضى بها الملكة، هى «مارجريت» ابنة «كونت دو بروفانس» (ريموند بيرانجى) وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها، أوفدت الملكة أحد رجال الدين إلى إقليم «إكس آن بروفانس» ليطلب يد ابنته، ولمّا أعطيت الموافقة لرجل الدين اصطحب معه فوراً الأميرة، وأرسل يخبر الملكة بقدومه.

زفّت الملكة بلانش البشرى لابنها، بأنّها وجدت له خطيبة وأنّه سيذهب معها لملاقاتها. ولما سألها عن أوصافها قالت له : إنّها شديدة التديّن ومطيعة.

تمّ اللقاء فى مدينة «سانس»، وعندما شاهدت الملكة الخطيبةَ مارجريت قطّبت حواجبها وحكمت على رجل الدين الذى أخبرها عن مارجريت أنّه جاهل بالنساء لأنها كانت رائعة الجمال، خلافاً لشروطها. وما أن تكلّمت معها حتى كرهتها. أمّا الملك فقد سُرَّ بها كثيراً إلاّ أنّ أمّه عبست فى وجهها، وجعلته يظهر عدم الإعجاب، وبقيت عابسة طوال يومها، ممّا أحزن الضيوف وعكّر صفو حفل العرس الذى أقيم بذات اليوم.

فى نهاية الحفل أخذت العروس إلى غرفتها، فاستلقت على السرير بصبر نافد منتظرة قدوم زوجها.

بعد ساعتين من الصبر أوفدت إحدى وصيفاتها لتراه ماذا يفعل. عادت الوصيفة لتنبئها أنّه فى الكنيسة يصلّى ! وعند الفجر لم يأتِ العريس، فنامت العروس وهى تبكى.

فى اليوم الثانى حدث الأمر نفسه، ممّا أثار العروس، وجعلها تمزّق أغطية الفراش بعنف، وفى اليوم الثالث تحطّمت أعصابها لأنّه كان كسابقَيه، وذلك عندما أخبرتها الوصيفة أنّ الملك كان فى الكنيسة عند منتصف الليل يصلّى!

وأخيراً، فى مساء اليوم الرابع، حصل الملك على إذن من أمّه بأن يقوم بواجباته

Histoire d'amour de l'hisoire de France.

(قصص الحب فى تاريخ فرنسا)

- Guy Breton

Broche´, 1991, 1117pp

الزوجية، وأن يفكّر بولي عهده. وبقيت هي في الدهليز تنتظر الحدث، وعندما قدّرت أنّ الأمر قد انتهى دخلت غرفة العروسين، وقالت لابنها: (هذا يكفي لهذا المساء، هيا انهض يا لويس). وبدون أن توجّه كلمة إلى العروس مارجريت أمرت الملك أن يذهب وينهي ليلته في غرفة مجاورة وحيداً.

عند عودتهم إلى «باريس» كان لويس ومارجريت يعيشان تحت المراقبة الدقيقة للملكة، التي كانت تغار من كنّتها غيرة شديدة. وفي قصر اللوفر كان الشابان يعيشان بشكل عجيب، فكان الملك يتحيّن الفرص ليلاقي زوجته في الظلام تحت الدرج أو في الدهليز، وإذا قبضت عليهما مختبئين في مكان ما تنهرهما قائلة: (ماذا تفعلان هنا؟ تضيعان وقتكما بشكل سيّئ! اخرجا).

وتترك مارجريت ترتجف من الخوف وتأخذ بيد ابنها قائلة له: (كلّ انشغال معها وانتما وحدكما يقودك إلى ملامسات ممنوعة، وبالتالي يقودك إلى الخطيئة). وقد عمد الملك إلى اقتناء كلب صغير يعوي عند قدوم الملكة، فيبتعد عن زوجته وتهرب إلى مكان آخر. وقد أفهمت ابنها أيضاً أنّ الاتّصال بين الزوجين يجب أن يكون من أجل إنجاب الأولاد فقط، وأنّ عليه عندما يجتمع بزوجته أن يؤدّي بعض الصلوات.

مرضت مرّة مارجريت، فجاء الملك إليها وهي معزولة في غرفتها عن جميع الناس، وجلس بجانب سريرها، وأمسك بيدها يواسيها، وعندما جاءت أمّه ورأته سحبته بعنف خارج الغرفة قائلة له: (ليس لديك أي عمل هنا)، ممّا جعل مارجريت تجهش بالبكاء قائلة لحماتها: (يا سيدتي ألا تسمحين لي برؤية سيدي ميتة أو حية).

في الحقيقة أنّ بلانش أمّ الملك كانت تخشى أن يخرج الملك من تحت وصايتها، ويمارس سلطته كملك، وبالتالي تقوم زوجته مارجريت بممارسة سلطتها السياسية كملكة. فهي تريد – على الأقل – أن يبقى ابنها وحيداً في مهمته كملك، فقد قالت له مرّة: (يا بنيّ.. أنتَ لم تتزوّج إلّا امرأة طموحة، تحلم بالسيطرة على الدولة)، فوعد والدته أن يكون حازماً مع زوجته، ورجاها أن تكون مطمئنّة إلى المستقبل.

الأميرة «اليونور» أخت مارجريت تزوّجت ملك إنكلترا «هنري الثالث»، وكانت ذكية وطموحة، ومارست على زوجها نفوذاً كبيراً، حيث كانت تتدخّل في أمور الدولة وتتّخذ قرارات مهمة.

وكانت تكتب إلى أختها مارجريت متحدّثة عن تصرّفها في أمور الدولة، مما جعل مارجريت هي أيضاً ترغب أن تلعب دوراً في السياسة. ولمّا كانت تعرف أنّ حماتها تعترض بشدّة على ذلك، فقد كانت تقوم بشكل سرّي تماماً باستقبال سفراء إنكلترا وتتدخّل بلباقة في مختلف الأعمال.

لكن الملكة عرفت بما تعمله كنّتها الملكة الصغيرة، وحذّرت ابنها منها، كما ذُكر آنفاً.

سبب الحرب:

تعب الملك من هذه الخصومة بين الكنّة وحماتها، ومن هذا الجوّ المشحون بالشجار الذي سمّم أجواء قصر اللوفر، فصارح زوجته مارجريت بقوله: (لو أمكننا الذهاب في حملة صليبية). وكان هو مسروراً من فكرته التي لمعت في رأسه، وأصاب السرور أيضاً زوجته بأمر الذهاب في حملة صليبية! وذلك لأنّها ستبتعد عن ضجّة المشاحنات والصراخ والمراقبة المستمرة، فلِمَ لا تفرح بتلك الفكرة؟!

وفي أحد الأيام جمع لويس التاسع كلّ شجاعته، وصارح أمّه بفكرته، فأجابته: (لا تفكّر في ذلك يا ولدي، فإنّ مكانك هو في قلب مملكتك وليس في طريق المغامرات).

أصرّ الملك قائلاً: إنّه يريد استرداد القبر المقدّس (قبر السيد المسيح) وعمل مذبحة عظيمة للكفّار (المسلمين)، ولكنّ الملكة بقيت على إصرارها.

في تلك الأثناء عاد الكونت «تيبو» عشيق الملكة من حرب خارج فرنسا بعد غياب سنتين انقطعت خلالها أخباره، ممّا أسعدها وأسعد ابنها لويس، الذي قال لها: (إنّ المسيح يحفظ يا سيّدتي الذين يحبّونه، اتركيني أذهب في حملة صليبية)، ولكنّها أصرّت ثانية على منعه.

في شهر حزيران/يونيو من عام ١٢٤١م جمع لويس التاسع في مدينة «سومور» النبلاء ورجال الكنيسة ليعرض عليهم اختصاصات أخيه «ألفونس» الذي بلغ رشده، فمنحه قيادة الفرسان وصلاحيات أخرى. وبعد ذلك حصلت اضطرابات وحرب داخلية، قمعها لويس بشدّة.

غير أنّه، عند عودته من المعركة، أصيب بحمّى شديدة، وأخذ الأطباء بمداواته، كما بدأت الصلوات تتلى من أجل شفائه في جميع كنائس المملكة. وبعد ثمانية أيام تقرّر أنّ الملك سيكون في حكم المفقودين. فوضعوه – حسب رغبته – على سرير خاص، وانتظروا نَفَسَهُ الأخير.

وفجأة أغلقت عيناه، وتراخت أطرافه، وسقط رأسه إلى جانب الوسادة، وقال الذين كانوا حوله: (لقد مات!)، وأشعلوا الشموع، ووضعوا فوقه غطاءً أبيض، وأخذ الرهبان يتلون الأناشيد الجنائزية.

وفجأة سمع القوم تنفساً، فرفعوا عنه الغطاء، وشاهدوا لويس حيّاً. وبعد أيام عاد إلى اللوفر، وكانت الملكة الوالدة منحنية على رأس سريره سمعته يقول لها: (في اللحظة التي ظننتُ فيها نفسي ميتاً تمنّيتُ أمنية). فسألته الملكة: (ما هي؟)، فأجابها: (وعدتُ الله أن أذهب بحملة صليبية إذا شفيتُ).





رحلة ابن بطوطة

من إيوالاتن(*) إلى مالى

بلدة إيوالاتن شديدة الحر، وفيها يسير نخيلات يزرعون فى ظلالها البطيخ. وماؤهم من أحساء بها، ولحم الضأن كثير بها. وثياب أهلها حسان مصرية. وأكثر السكان بها من مسوفة، ولنسائها الجمال الفائق، وهنّ أعظم شأناً من الرجال. وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب. فأما رجالهم فلا غيرة لديهم، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله. ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه، وذلك شيء ما رأيته فى الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود.

وأما هؤلاء فهم مسلمون، محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن.

.. وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن، مع مواظبتهن على الصلوات. والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات. ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها، فلا ينكر ذلك.

.. ولما عزمت على السفر إلى مالى، وبينها وبين إيوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوماً للمجد، اكتريت دليلاً من مسوفة، إذ لا حاجة إلى السفر فى رفقة لأمن تلك الطريق. وتلك الطريق كثيرة الأشجار، وأشجارها عادية ضخمة، تستظل القافلة بظل الشجرة منها. وبعضها لا أغصان لها ولا ورق، ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الإنسان، وبعض تلك الأشجار قد استأنس داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر، ويشرب الناس من الماء الذى فيها.

---

* إيوالاتن نسبة إلى ولاته وهو اسم قبيلة فى شرقى السنغال الحالية.



امرأتان ومعركة

شعرت الملكة بالإحباط، ورغم تديّنها، حاولت أن تثني الملك عن تحقيق أمنيته، وكان ردّه أن خاط على ثوبه شعار الصليبيين، فجاءته الملكة براهب حاول أن يثنيه عن تحقيق ما تمنّى قائلاً له: (إنّ نذرك لا يربطك بشيء). لكنّ لويس الذى كان ينتظر منذ زمن طويل هذه الفرصة ليسافر مع زوجته مارجريت أصرّ على رأيه، وقام بتحصين أحد الموانئ، وأمر بتسليح السفن، وجمع الأموال اللازمة لحملته.

وفى شهر حزيران/يونيو من عام ١٢٤٨، وبعد أن عهد إلى الملكة بلانش الوالدة بالوصاية على المملكة، ترك باريس بصحبة زوجته مارجريت وأخويه، وبصحبة الفرسان الذين يرافقونه فى حملته.

ورافقت الملكة الأم (الحجّاج) حتى ضواحى باريس، وودّعتهم باكية، وسار الموكب باتّجاه مدينة «ليون».

ويذكر مؤرّخو الحملة قول مارجريت: (وأخيراً وحدنا، كم سنكون سعداء!).

فى طريقهم عبروا إقليم «بروفانس» مسقط رأس الملكة مارجريت التى كانت فى غاية السعادة لاستعادة ذكريات طفولتها وللتخلّص من ممرّات اللوفر المظلمة. ويذكر المؤرّخون أنّ الملك ذاق لأوّل مرّة فى حياته طعم الحرية، وشعر أنّ قلبه ينبض بسعادة تمتع بها قرب مارجريت، وقد تبيّن أنّها حامل.

لم يحدّثنا مؤرّخ الحملة الفرنسى عمّا حصل قبل إبحار الحملة، فالمؤرّخ العربى «محمد قجّة» يذكر فى كتابه عن معركة المنصورة أنّ مؤتمراً كنسياً عُقد فى مدينة ليون الفرنسية عام ١٢٤٥ برئاسة «البابا أغنوست الرابع» الذى وجّه نداءً لإرسال هذه الحملة، وأنّ لويس التاسع لبّى هذا النداء، فنظّم هذه الحملة.

وهنا نلاحظ أنّ أهمّ أسباب هذه الحملة كان - كما ورد فى المراجع الفرنسية - هو رغبة الملك لويس بالتحرر من أمّه والانفراد بزوجته، يضاف إلى ذلك شعوره الدينى العميق الذى اكتسبه من تربيته على يد أمّه.

وصف مؤرّخ الحملة «جوانفيل Joinville» الذى كان مرافقاً للملك ومؤرّخاً له عملية الإبحار فى شهر آب/أغسطس، وكيف فتحت أبواب السفن لصعود الجياد، وتحميلها ببراميل النبيذ، وكيف قام القساوسة والرهبان بأداء الصلوات اللازمة، وكان عدد السفن خمسين سفينة.

وبعد مدّة وصلت السفن إلى «جزيرة قبرص»، حيث قام لويس بتخزين براميل النبيذ وأكياس القمح، وقبرص هى المحطة الأخيرة قبل الوصول إلى بلد (الكفّار) حسب وصف المؤرّخ للمسلمين. ولما كانت قبرص جميلة، فقد استقرّ الملك فيها أكثر من ستة أشهر، وكان وزوجته فى رحلة شهر عسل دائم، ومن وقت لآخر كان الملك يجتمع فى القصر مع كبار البارونات المرافقين له إلى الأرض المقدّسة، ويدرس وإياهم تفاصيل الرحلة.

وكانت الملكة مارجريت تحضر دائماً هذه الاجتماعات، وتعطى أحياناً رأيها بكلّ حرية، مما جعل السادة المجتمعين مدهوشين لذلك، وهم الذين اصطحب أكثرهم زوجاتهم لقضاء أوقات سعيدة معهنّ، لم يستطيعوا أن يفهموا سبب الاهتمام الزائد الذى كان يبديه الملك لزوجته عندما تتدخّل فى الحديث.

الإبحار إلى مصر:

بعد قضاء شتاء مريح فى قبرص، وانضمام عدد من الصليبيين المقيمين فيها إلى الحملة، ركب الجميع السفن باتّجاه مصر، وكان أسطولاً ضخماً، ممّا جعل المؤرخ «جوانفيل» يقول: إنّ البحر كان مغطّى باشرعة ألف وثمانمائة سفينة!!

بعد ثلاثة أسابيع من الإبحار وصلت السفن إلى دمياط عند مدخل النيل، حيث بدأت الأجراس النحاسية فى المدينة تقرع، وتجمّع جمهور من المواطنين على الشاطئ للدفاع.

هنا نادى الملك زوجته قائلاً: (تعالى وانظرى (الكفار) الذين ينظرون إلينا، وأخذ الملك بنصيحة من طلب منه الانتظار حتى صباح اليوم الثانى. وكانت المشاعل تضيء خلال الليل السفن والشاطئ. وعند الفجر نزل الملك وممثل البابا والمؤرّخ جوانفيل وألوف الفرسان إلى القوارب متّجهين إلى دمياط.

وعندما أصبحوا على بعد حوالى ستين متراً من الشاطئ أمطر الجنود المواطنين بالسهام، وردّ هؤلاء بالمثل وبحماسة جعلت الفرنسيين يؤخّرون النزول إلى البر.

رأى الملك أنّ أى تردّد قد يغيّر سير المعركة، فرمى بنفسه فى الماء، درعه على رقبته وسلاحه فى يده، وكان الماء يصل حتى كتفيه. وسار باتّجاه الشاطئ، فتبعه الفرسان كى لا يتركوا ملكهم معرضاً للهلاك.

عندما شاهد المصريون، (ولا أريد أن أستعمل بعد الآن تعبير الكفار الذى يكرّره المؤرّخ الفرنسى) الفرنسيين مدججين بالحديد أصابهم الرعب، فتراجعوا، وتبعهم الصليبيون، حيث نشبت معركة شرسة دامت كلّ النهار. وفى الليل لاحظ (المسلمون)، (وهذه أوّل مرّة يستعمل فيها المؤرّخ هذه الكلمة) أنهم سيبادون هربوا بكلّ اتّجاه.

ودخل الملك والملكة دمياط فى اليوم الثانى بشكل احتفالى، حيث قال الملك لزوجته: (سيدتى أهديك دمياط، لتقضى فيها الأشهر الأخيرة من انتظارك، وحيث ستعطينني فيها المولود الجديد).



خوفا من أن تضبطه أمه،
كان الملك لويس التاسع
لا يلتقى بزوجته إلا سرا
تحت الدرج
أو فى الدهاليز

تبادل الزوجات:

أقامت الملكة فى دار عربية رائعة، حيث كانت فسحتها مزدانة بالنوافير الجميلة، ممّا جعلها تعتقد أنها فى الجنّة.

ولما كانت تقضى أسعد أيّام حياتها، كان الصليبيون فى حالة فراغ وعطالة غاطسين فى الخطيئة (ils festoyaient) بشكل مخجل.. سكارى، يقضون أوقاتهم كلها فى تبادل زوجاتهم، مما جعل أحد المتحدّثين آنئذ يقول: (المسيحيون فى دمياط abusérent يسيئون ما منحهم الله إياه) !! ولم يتمكّن الملك بذاته خلال أسابيع كثيرة من إصلاح هذه الفوضى الأخلاقية المثيرة.

كان الملك لويس التاسع فى رحلة شهر عسل حقيقية، حيث كانت مارجريت شاغلة وقته كله، وكانا يشاهدان يتنزّهان بهدوء على شاطئ النيل، متشابكى الأيدى.

فى أحد الأيام أدرك الملك أن هذا الوضع خطير، فدعا البارونات (الأعيان) وأعلمهم أن الجيش سيسير غداً لاحتلال المنصورة، المدينة التى تقع على طريق القاهرة.

الملك الأسير:

لكن الصليبيين أوقفهم فيضان النيل من البداية، فأقام لويس معسكراً بجانب النهر، وقرّر إنشاء مجرى للماء، وقام هو والفرسان بخلع أسلحتهم وتحوّلوا عمّالاً لحفر التراب.

أخذ المسلمون يهاجمونهم ويستعملون سلاحاً مخيفاً لا يعرفه الفرنسيون، هو النار الإغريقية، وهو عبارة عن تركيب من الكبريت والإسفلت يُملأ فى أوان ترابية ويقذف بقاذفات تترك وراءها ناراً مشتعلة، ويصفها المؤرخ جوانفيل بأنها قصف ليلى يشابه التنين يطير فى الهواء ويلقى ضوءاً يجعل الليل نهاراً. مما أثار رعب الفرنسيين.

وقبل أن ينتهى المجرى الذى كانوا يحفرونه أخذت مياه النيل بالهبوط، واستطاع فريق من الجيش الهجوم على المصريين الذين هربوا، وتابعوهم حتى المنصورة حيث جرت معارك دموية قتل خلالها «الكونت دارتوا» أخو الملك.

فكر الملك بالعودة إلى دمياط حيث تنتظره الملكة، ألم يترك فرنسا من أجل أن يكون إلى جانبها ؟! حسب تعبير المؤرخ الفرنسى.

ولسوء الحظ وقع الصليبيون مرضى بسبب السمك الذى كانوا يأكلونه والذى كان يتغذى بلحوم الجثث التى تعوم فى مياه النيل. وهكذا توقف الانسحاب ووقع الملك مريضاً، وتوقّف الركب فى قرية صغيرة تدعى «كيارسة» حيث ظهر المصريون سريعاً فانسحب الفرنسيون، لكن الملك – حسب تعبير المؤرخ الفرنسى – الذى أراد أن يكون حراً فى حبّ زوجته وقع أسيراً بيد (الكفار) المسلمين.

فى تلك الظروف كانت الملكة فى دمياط، وقد اقترب موعد وضعها، تعيش فى رعب وتنتظر فى كل لحظة أن يدخل المسلمون المدينة. وكانت تصرخ فى الليل طالبة المساعدة عندما تسمع أى حركة أو صوت. فوضعوا بجانبها فارساً يسهر عليها، وكان يهدئها كلما صرخت: (المسلمون.. المسلمون..).

وصلها الخبر بأن زوجها الملك وقع أسيراً بيد المسلمين، فركعت أمام الفارس الحارس ورجته أن يقطع رأسها إذا دخل المسلمون عليها، فوعدها بان يفعل لأنه فكّر بذلك.

فى اليوم التالى وضعت الملكة مولوداً ذكراً أسمته «جان تريستان» إشارة إلى حالة الحزن التى كانوا يعيشونها، خاصة أنهم أخبروها أن الصليبيين الطليان الذين بقوا فى دمياط لحماية المدينة يتحدثون عن الانسحاب منها. وكانت المدينة كلها تعيش باضطراب.

لكن الملكة، التى كانت تفكر بأن تحتفظ بدمياط لتساوم بها، وتبادلها بحرية الملك، دعت الفرسان الطليان إلى غرفتها ورجتهم ألا يتركوها لأنهم الوحيدون المؤهلون للدفاع عنها، وإلا فإن الملك وجميع من معه سيفنون. ووعدها الطليان بأن يبقوا ويدافعوا عن المدينة حتى آخر رمق.

غادرت الملكة سريرها، وخلال عدة أسابيع استعادت صحتها وعافيتها. وبعد شهرين، وبسبب حيويتها وشجاعتها أعيدت دمياط الى المصريين مبادلة بالملك لويس.

وعندما تقابل الزوجان بعد فك أسر الملك تعانقا وهما يبكيان، وقال لها: (لقد أنقذتنى يا سيدتى من موت محقق، وبدونك كان (الكفار) سيقطعون رجلىّ ثم يقطعون رقبتى) فاغمى على الملكة.

لم يعد الملك بعد هذا إلى فرنسا مباشرة، بل ذهب إلى فلسطين، التى كانت تحت الاحتلال الصليبى، وأقام فى حيفا أربع سنوات، فلم يكن هناك موجب لسرعة العودة إلى باريس، خاصة أنه كان يفكر بوجود والدته بلانش فيها، التى كانت قد عقّدت له حياته.

وفى أحد الأيام جاء الخبر من فرنسا بأن أم الملك قد ماتت، حزن الملك عليها حزناً شديداً. أما الملكة مارجريت فقد ظهر عليها الحزن الشديد أيضاً، فقال لها جوانفيل المؤرخ فى أحد الأيام عندما رآها تبكى: (كيف تبكين يا سيدتى موت الملكة بلانش، وهى المرأة التى كانت تحتقرك؟).

فأجابت الملكة بكل صراحة: إنها لم تكن تبكى الملكة الأم، بل هى تبكى من أجل الحزن الذى ألمّ بزوجها. ■



فن التفاصيل الصغيرة عندما يعكس الواقع المعقد

و .. لو كان ضمن تقاليد مجلة «الكتب.. وجهات نظر» التي أكتب لها هذا المقال.. وهي مجلة تحاول إرساء عدد من التقاليد المهمة في الصحافة الثقافية المصرية والعربية والعالم الثالث، وربما العالم كله - أقول لو كان ضمن تقاليد هذه المجلة أن أهدي المقال لإنسان ما، لأهديته إلى روح المرحوم الدكتور إبراهيم دسوقي شتا. أقول له في الإهداء إن النبتة التي غرس بذورها. قد أوشكت أن تؤتي ثمارها. كان الدكتور إبراهيم شتا من أصحاب المشاريع الثقافية الكبرى. الكتاب الأول في مشروعه كان إقامة جسر من الترجمة بين الحضارتين الفارسية والعربية. ترجم شتا مثنوي مولانا جلال الدين الرومي. وأشرف على ترجمة بعض الروايات التي نعرض لها في هذا المقال.

قال لي أكثر من مرة أنه قبل أن تعرف أوروبا وأمريكا. لابد من معرفة الحضارات المجاورة لنا. خاصة حضارتي إيران وتركيا. ذلك أن «ريح الشرق» أكثر أهمية بالنسبة لنا من حضارات بعيدة. و لأن الموت اختطفه مبكراً. ترك الكتاب الثاني في مشروعه لم يكمله. وأتمنى أن يقوم عليه أحد تلاميذه. ألا وهو تتبع النتاج الأدبي والفكري المكتوب باللغة الفارسية في آسيا المسلمة، ابتداء من الدول التي انفرطت من عقد الاتحاد السوفيتي السابق في آسيا. التي وجدت في الإسلام ملاذها. ووصولا إلى أفغانستان وباكستان والهند والصين. تلك كانت مهمته التي كان يعد نفسه لها. في الوقت الذي سبقها الموت إليه. **"**

وبالرغم من غياب علم اجتماع الأدب من خطابنا النقدي. إلا أن الرواية كوثيقة اجتماعية. تسبق دراسات علم الاجتماع. لأنها تصور الانسان في حركته اليومية. ولأن الرواية هي فن التفاصيل الصغيرة. فهي تقدم مادة اجتماعية غزيرة عن الحياة. فإن كانت كتب التاريخ تحاول الإجابة عن سؤال: ما الذي جرى؟ فإن النص الروائي يقف في مواجهة السؤال الكبير: كيف جرى ما جرى؟! إنها قصة العقل والقلب والضمير. في تفاعلهم مع المجتمع. وهي رواية صراع الإنسان ضد نفسه وضد الآخرين. مع رصد الزمن والواقع الذي يحيط به. وهي أمور من المستحيل على المؤرخ ولا عالم الاجتماع أو عالم النفس أو المحلل السياسي الوصول إليها فإن كان هؤلاء جميعا يرصدون الحركة الخارجية للإنسان. فإن الرواية وحدها هي التي تحاول الجري وراء الدروب الداخلية للإنسان. لتقول: انه أقدم على هذا التصرف لأسباب متداخلة ومتشعبة لا بل معقدة أحيانا. كانت تدور في نفسه. سندرس

قــــراءات فــى خمــس روايــــات

... وانتهت الانتخابات الرئاسية الثامنة في إيران بعد الثورة الإسلامية. وأصبح الرئيس محمد خاتمي رئيسا لولاية ثانية، الرئيسان الأول والثاني لم يكونا معمين. الأول هو أبو الحسن بن صدر هرب تحت ظلام الليل إلى باريس التي مازال يعيش فيها منفيا حتى الآن، والثاني محمد علي رجائي قتل بعد أسابيع من انتخابه في أغسطس سنة ١٩٨٠. والرئيس الثالث: علي خامنئي أصبح مرشد الجمهورية ومصدر السلطات الأول فيها. والرابع كان هاشمي رافسنجاني.

محمد خاتمي هو الرئيس الخامس والسادس معا. في الانتخابات الأولى - منذ أربع سنوات مضت - انتصر في مواجهة

١ - «الأرضة» رواية.
بزرج علوي
ترجمة: د. علاء منصور.
مراجعة: دكتور إبراهيم دسوقي شتا
القاهرة، ٢٠٠٠

٢ - «قصة جاويد» رواية.
إسماعيل فصيح
ترجمة: د. سليم عبد الأمير حمدان
القاهرة، ٢٠٠٠

٣ - «ثريا في غيبوبة» رواية
إسماعيل فصيح
ترجمة: د. محمد علاء الدين منصور
مراجعة: د. إبراهيم دسوقي شتا
القاهرة، ١٩٩٥

٤ - «شتاء ٨٤» رواية.
إسماعيل فصيح
ترجمة: محمد علاء الدين منصور
القاهرة، ٢٠٠٠
والروايات الأربعة منشورة ضمن المشروع القومي للترجمة عن المجلس الأعلى للثقافة.

٥ - «حوض السلطان» رواية
محسن مخملباف
ترجمة: رجاء عبد المنعم جبر
القاهرة الكويت ١٩٩٣، دار سعاد الصباح

رافسنجاني أبرز رموز النظام. وحصل خاتمي على ٧٠٪ من الأصوات، وفي المرة الثانية انتصر في مواجهة مرشحين من كل ألوان الطيف الإيراني.

التحديات التي تنتظر خاتمي كثيرة. أخطرها حالة التوقعات الشعبية الناتجة عن الجو العام الذي ساد البلاد في فترة الانتخابات. والمطلوب من خاتمي كثير: توسيع الحريات، ومساحة العمل السياسي. إن خاتمي يعود إلى موقعه ليجد في انتظاره مساجين بعضهم من أنصاره و ٤٠ جريدة معطلة. والإعلام يعاني من مشاكل الانتقال من الثورة إلى الدولة.

يبقى المحافظون. البعض له مصالح. والبعض الآخر يدافع عن مواقف. وإن كان هذا الانتصار سيعطي خاتمي قوة في مواجهتهم جميعا. وعليهم إدراك أن الحرية السياسية وحرية الإعلام وإعادة صياغة الاقتصاد ليست ضد مصالح إيران.

قال خاتمي بعد فوزه إن الدين والأخلاق والديمقراطية والحرية ستكون من ثوابت العمل العام في المرحلة القادمة. لكن المهم الآن أنه على خاتمي والمحافظين أن يدركوا - بعد هذه الجولة - أن التعايش بين كل الفرقاء لا مفر منه. أما

محاولات محو الآخر ونفيه فقد أصبحت بدون جدوى.

ربما لا يظهر خاتمي في هذه الروايات الخمسة التي يحكي مؤلفوها عن إيران الشاة وإيران الخميني وإيران الثورة الإسلامية وإيران الحرب مع العراق. ولكن اسمه يرد لأنه كرم أحد أصحاب هذه الروايات.

خمس روايات إيرانية معاصرة. تحكي عن الماضي باعتباره تراثا. والحاضر على أنه إرث أما المستقبل فمازال يسكن الأحلام.

هذا ما جرى في حقول القيادات وميادين صناعة القرار، ولكن ماذا عن الإنسان الإيراني العادي؟ ماذا عن تجربة الحياة اليومية؟ إن هذا لانجده سوى في النص الروائي. لأن الروائي يكتب قصة حياة الناس، ورغم أنه لا يهدف عادة إلى الإجابة عن هذه الأسئلة الكبرى عندما يجلس للكتابة. ومع هذا لا نجد هذه الإجابات سوى في ثنايا النص الروائي. لا نجده في قصيدة شعر ولا نص مسرحي. ولا دراسة علمية ولكن في الرواية. هذا الكون الصغير الذي يسكنه بشر. نراهم وهم يفكرون ويتحركون. وهكذا تصبح الرواية صفحات السكوت عنه في كتب التاريخ، ودراسات علم النفس والاجتماع.

أنا أحد رجال السافاك. لست خجولا من أنني اخترت مثل هذا العمل. ولست فخورا بذلك. إنه عمل كسائر الأعمال الأخرى، أيكون موظفو وزارة المالية كلهم لصوصا؟ إن العمل في إدارة حكومية واحدة ليس في حد ذاته دليل جريمة، وهل يحدث أن تعيش في بلد خال من الحراسة؟ ألا يوجد في أمريكا الحرة جهاز الاستخبارات الأمريكية؟



واقع إيران الاجتماعي كما يتبدى في خمسة نصوص روائية. لثلاثة من الروائيين الإيرانيين. لم يقترب أحدهم من زمن خاتمي. ولكن الإشارات الموجودة في هذه النصوص تومئ إلى ما تحمله لنا وكالات الأنباء الآن عن أحوال إيران.

رواية السافاك

بزرج علوي أحد كتاب الجيل الجديد الذين أظهروا مقدرة فائقة في هضم تكنيكات الرواية الأوروبية وتطبيقها في إبداع الأعمال الفنية التي حافظت كذلك على محتواها «الإيراني». ولد سنة ١٩٠٧ ثم أوفد إلى ألمانيا للدراسة الجامعية «١٩٢٢» وحين عاد إلى إيران انضم إلى حزب ماركسي غير معترف به، فاعتقل عام ١٩٣٧. وظل بالسجن حتى احتلال الحلفاء لإيران في ١٩٤١، حين أعلن العفو العام. وأطلق سراح عدد كبير من السجناء السياسيين معه، وكانت هذه المجموعة الماركسية نواة حزب تودة الشيوعي بإيران. ويرتبط نشاطه الاجتماعي والأدبي منذ بدايته بسياسة هذا الحزب. وبعد سقوط مصدق هاجر علوي إلى أوروبا وعمل أستاذاً زائرا بجامعة هامبلرت بألمانيا الشرقية. وظل في ألمانيا حتى وفاته «١٩٩٧». وعلى الرغم من خلفيته اليسارية التي كانت ترشح الهم الاجتماعي والطبقي ليكونا موضوعا لكتاباته. إلا أنه توقف طويلا أمام تجربة السجن. وقدم أدب السجون. فله غير رواية الأرضة، جذاذات أوراق السجن ١٩٤١ وهي روايات عن المساجين مسجلة على صناديق السكر الفارغة وعلب السجائر. إنها عبارة عن أية أوراق وصلت الى المؤلف وهو في السجن. وفي هذه الرواية يقص ما جرى له ولرفاقه من أول يوم سجنوا فيه حتى العفو العام. وأبرز المعاملة القاسية التي لقوها من الحراس وكفاحهم من أجل أن يبقوا أحياء، وإن كانت رواية الأرضة عن جهاز السافاك. وهو اسم جهاز المخابرات الإيراني في زمن الشاه. فإن له رواية أخرى عن نفس الجهاز وهي: عيناها «١٩٥٢». والأرضة. والسافاك أو الساواك. كل حرف منه يدل على كلمة فارسية.

فالسين ملخص كلمة سارفان بمعنى جهاز، والألف الأولى بدل أمني أى الأفق، والواو واو العطف. والألف الثانية بداية كلمة إطلاعات أى استخبارات، والكاف بداية كلمة كشور أى البلاد. فمعنى حروف الكلمة جهاز أمن البلاد واستخباراتها. وعلى الرغم من أن الشاه أسس هذا الجهاز من أجل أمن نظامه، إلا أنه كان من العوامل التى عجلت بنهاية نظامه. تبدأ رواية الأرضة هكذا :

* أنا أحد رجال السافاك. لست خجولا من أننى اخترت مثل هذا العمل. ولست فخورا بذلك. إنه عمل كسائر الأعمال الأخرى، أيكون موظفو وزارة المالية كلهم لصوصا ؟ إن العمل فى إدارة حكومية واحدة ليس فى حد ذاته دليل جريمة وهل يحدث أن تعيش فى بلد خال من الحراسة»؟ ألا يوجد فى أمريكا الحرة جهاز الاستخبارات الأمريكية ؟ ألا توجد المخابرات البريطانية فى بريطانيا ؟ وفى فرنسا الركن الثانى ؟ وفى روسيا الـ كى. جى. بى ؟ لابد أن هذه الأجهزة توجد فى كل مكان آخر.

الراوى لأنه كان مسئولا عن طلاب الجامعات، ثم أصبح مسئولا عن الحياة الحزبية، ثم ينقل إلى أوروبا ليصبح مسئولا عن طلاب إيران الذين يسافرون إلى بعثات علمية، يبدأ البطل مجرد مرشد للسافاك، وعند نهاية الرواية يصبح رئيسا للسافاك ووزيرا. وعند بداية الرواية كان العدو الجوهرى للنظام هم الشيوعيون واليساريون، واستمر هذا الموقف حتى بعد أن أصبح الإسلاميون يشكلون العدو الجوهرى للنظام.

فى الرواية قدر كبير من التشويق ، والأحداث سريعة ومتلاحقة. والشخصيات مرسومة بعناية. فالبطل الذى يتواجد دائما فى عمله. يعانى من أمه المريضة التى تقف ضده لأنها ضد الجهاز الذى يعمل فيه. وقد استخدم الكاتب مرض الأم كرمز لمرض إيران كلها. ويبدو أن المرأة تستخدم كثيراً فى النصوص الروائية الإيرانية كرمز لإيران. ذلك أن إسماعيل فصيح يستخدم بطلته ثريا التى تعيش حالة من الغيبوبة كرمز لإيران. ولكن بعد سنوات من الثورة. رجل السافاك القوى يعانى من أزمة أخته رقية. التى اتجهت إلى الفدائيين الإسلاميين ووصلت إلى مركز قيادى فى أوساطهم. وطوال الرواية وهو يبحث عن أخته ولا ينجح فى الوصول إليها رغم مواقعه القوى فى السافاك، هى التى تصل إليه قبل انهيار النظام بلحظات، وتطلب منه أن ينجو بنفسه، وأن يهرب ولكن يكون الأوان قد فات.

يقول البطل فى بداية عمله : إن عملنا هو التحرى عن الشيوعيين. ومن لهم صلة بالروس. يجب أن نرعى أمور جلالة الشاه ورجال بلاطه وما خلا ذلك لا يهمنا فى شىء. نحن نستشير جهاز الاستخبارات الأمريكية والموساد الإسرائيلى. يظهر الشاه كثيرا فى الرواية مسبوقا بلقب صاحب الحضرة الهمايونية. أو الحضرة العلية. ويظهر الخمينى فى الرواية عندما يتكلم المؤلف عن قانون الامتيازات الأجنبية، لقد أصدر كبار رجال الدين. ومنهم آية الله الخمينى وآية الله شريعتمدارى، فى ذكرى ميلاد فاطمة الزهراء، بيانا ضد القانون وصل إلى الناس كالبرق. وفى اليوم التالى يكتب عن تهييج الجماهير فى الشوارع، اعتراضا على قانون الحصانة للعسكريين الأمريكيين المتواجدين فى إيران. واحتجاجا على نفى آية الله الخمينى وكان ذلك فى سنة ١٩٦٣. وبعد اجتماع مع رئيس السافاك. يقول البطل معلنا عن التحول فى أهداف الجهاز :

* الأمر اليوم فى منتهى السوء. فنحن نستجوب حتى اليوم بضعة أولاد شيوعيين مطيعين. أما الآن فرجال الدين الدهاة المحنكون يحفرون تحت أقدامنا.

وبعد نزوله إلى الشارع يلفت نظره لأول مرة وجود النساء المحجبات. ثم المنقبات. وتدخل فلسطين على الخط فى الرواية. يقول: كانت أهم نقطة فى التقرير المعروض علىّ. كان ذكر صاحب التقرير أن فتاة تدعى ملكة. ظهرت وسط الطلاب من ستة أشهر، ويقال إنها أتت من فلسطين، تذكرت ما سمعته من أن كل الساخطين لاجئون من فلسطين،

إيرانية معاصرة

يوسف القعيد



صاحب الصوت الواحد فى الرواية من رجال السافاك السابقين، وقد جلس ليكتب شهادته التى هى الرواية بعد قيام الثورة. والمؤلف ينبهنا على لسان بطله أن هذا البطل ليست له علاقة بحرفة الكتابة.

* لا أعرف التنميق فى اللفظ، ولم أتعلم توشية العبارة، لم أكتب طوال عمرى عشر رسائل لا لصديق ولا لواحد من المعارف، كتبت بدلا منها التقارير. الكتابة غدت الآن وسيلة لكسب لقمة العيش. لا تلزمنى الفصاحة والبلاغة، يكفينى وحسب قليلون يقرأون ويدركون أن عليهم أن يدفعوا لى.

إن هذا التحديد فى أول الرواية أصبح المأخذ عليها. لأن الرواية خلت من الكتابة الشعرية التى أصبحت جزءا من الكتابة فى الرواية الإيرانية.



رواية الأرضة هى رواية السافاك. بطلها أحد رجال السافاك فى زمن الشاه. تبدأ الأحداث فى منتصف الخمسينيات، وتنتهى عند اليوم الأخير من حكم الشاه. فى فبراير سنة ١٩٩٧. وترصد بذلك ربع القرن الأخير. والرواية مروية بضمير المتكلم «أنا» وهى قطعة واحدة. تخلو من التقسيم لفصول أو أبواب أو أقسام. آخر ما يكتبه البطل فى الرواية عندما يسمع من يقول له : لنر ماذا كتب على جبينك. فيقول: هذا هو مصيرى. يكون البطل قد أصيب بطلق نارى. عندما انطلق كل الإيرانيين ينتقمون من السافاكيين. والرصاصة أصابت قدمه بإصابة غير قابلة للشفاء وهكذا لن يتمكن من الهرب مثل كل الذين هربوا. قبل غرق سفينة الشاه أمام هدير الثورة الإسلامية. ربما كانت هذه الرواية أول نص روائى إيرانى يرد فيه اسم الامام الخمينى. وكذلك مدينة «قم». وآيات الله كلهم. من خلال رؤية السافاكيين. كما أننا نقرأ اسم فلسطين والعراق وكربلاء والنجف وكذلك أمريكا وإسرائيل باعتبارهما حليفتى الشاه الأساسيين. والخومينى تم نفيه من خلال أحداث الرواية إلى تركيا. أما نفيه الأخير إلى فرنسا. ونفيه السابق إلى العراق فلا يوردهما



وكيَّفوا أنفسهم على حياة العسكرية في ظل ظروف قاسية. ثم تبلغه حماته عن هتافات بضعة من المشايخ والطلبة داخل المساجد، واعتراضهم على قوانين الإصلاح الزراعي ويظهر اسم «قم». من خلال سؤال طرح على راوي الرواية: ألا تعلم ماذا جرى في قم ؟! ويظهر بعدها اسم كربلاء.

أما ممارسات السافاك فالحكايات تتطلب قراءة النص الكامل للرواية. لقد كانوا يستأجرون قتلة محترفين من أمريكا اللاتينية، واستأجروا النساء للإيقاع بالضحايا. كان الكل وحتى داخل السافاك. يتجسس على الكل. ويصف أدوات التعذيب: السوط الكهربائي، العصا الكهربائية، والكماشة الحديدية، والمخراز والكرسي الكهربي. ويقول: رأيت في دهاليز سجن أوين بنتًا عارية الجسد يسوطها جلاد بسوط في يده. وكنا نحن السافاكين واقفين في أطراف الدهليز ونرى مرة أحد الموظفين يركل بقدمه المرأة العارية. ويلقي بها على الأرض ثم يجرها أمام الضارب بالسوط وإعطاء المتهم حقنة شرجية بماء حارق، وادخالها فيه. ووضع براز الفتاة في فمها وتلويث رأسها به. وهناك متهم قطع لسانه بأسنانه من كثرة التعذيب حتى لايجيب عن أسئلتهم، وواحدة كانوا يضربونها بسوط معدني مكهرب ويحرقون أماكن حساسة من جسدها بالعصا الكهربائية، وكانوا يخزون لحمها ويشدونه بالكماشات. كانت عارية مكشوفة وقد حاول بعضهم أن يجامعها. وحين كان أخوها يستجوب ويعذب كانوا يسجلون صرخاته وسبابه ونواحه وأسمعوها لأخيها الأصغر وقت استجوابه. وكانت أدوات التعذيب تستورد من إسرائيل.

وبعد أن أصبح الراوي سافاكيا محترفا يقول: أعرف بالتجربة أن السمعة الطيبة ليست دليلا على الطهارة والعفة. بل هي إشارة إلى وجود الحيطة عند الإفادة من كل نعمة حتى لاتحترق رائحتها أنوف الحساد. وتصلهم التقارير. الناس في الشوارع تقول إن الشاه ووزراءه لا يشربون الماء بدون إذن من الأمريكيين. مع أن ملايين الدولارات من كد الشعب الإيراني. كانت تنفق في أمريكا. ثم ما معنى أن يبني رجال الشاه ورجال السافاك أحياء في أفريقيا. إنها الثورة. والمؤلف يصفها هكذا:

* كان الاضطراب يزيد مع كل يوم يمر. بحيث أرى أن من حولي يتناقصون، في كل يوم كان أحد قواد البلاد يضع ذيله على كاهله ويهرب. لم يبق أحد من الأسرة الملكية. كانت البلاد قد اصيبت بالشلل التام بسبب الاضطرابات. لم يعد الشاه يستطيع إصدار الأمر. بقي الوزراء والمديرون عاطلين بدون عمل. كان الفراغ يبتلع كل مسعى. وهكذا حتى النهاية.

بقي أن تعرف أن جهاز السافاك أنشئ سنة ١٩٥٣ بعد ثورة مصدق. وأن هذا الجهاز كان من الأسباب الرئيسية في الثورة ضد الشاه.

متى يدرك الإيرانيون أن الزمن لابد أن يمضي إلى الأمام، وتلك هي معادلة إيران الصعبة. فهل تستطيع أن تتجاوزها؟ ذلك هو سؤال اللحظة الراهنة، والزمن القادم لن يقدم الإجابة على السؤال سوى الإيرانيين أنفسهم



ويعد ضحايا السافاك أكثر عددا من شهداء حروب إيران كلها. فقد حرق ستمائة شخص وتفحموا مرة واحدة في حريق نشب في مبنى سينما ريكس بعبدان يوم ١٩/٨/١٩٧٨. وكان السافاك هو الذي أشعل النيران في المبنى. وقد حدثت مواجهة بين السافاك والمتظاهرين في يوم الجمعة الأسود ٨/٩/٧٨ كانت ضحاياها حوالي خمسة آلاف متظاهر قتلوا مرة واحدة. وفي أيام الشاه الأخيرة كان السافاك يستعين بقوات كوماندوز إسرائيليين. كانوا يحضرون في طائرات حربية لكي يحصدوا المتظاهرين من الجو.

الثورة والهجرة

إسماعيل فصيح من الجيل الثاني في الكتابة الروائية الإيرانية. بعد صادق هدايت وبرزج علوي. ولد في طهران في ٢١ فبراير سنة ١٩٣٤. ودرس في إيران ثم في الولايات المتحدة الأمريكية، ليعود إلى بلاده سنة ١٩٦٣. فيعمل في جامعة شركة النفط الوطنية الإيرانية. حتى صار أستاذاً مساعداً في جامعة نفط عبدان. حيث كان يدرس مادة التلخيص وكتابة تقارير العمل. الأمر الذي يبدو تأثيره واضحا في لغته المختصرة السريعة. التي تنفر من التوصيف السائد والسرد المتأنق. قامت الثورة الإسلامية. فأحالت إسماعيل فصيح إلى التقاعد. وذلك ضمن إجراءات الثورة الثقافية التي نفذتها في الجامعات والمؤسسات الثقافية. مما جعله ينصرف إلى الكتابة والترجمة. أصدر إسماعيل فصيح ثلاث عشرة رواية ترجمت منها إلى اللغة العربية ثلاث. أول رواياته كانت «التراب الخام» التي نشرت في إيران سنة ١٩٦٨، وآخرها رواية «اشتعلت الشقائق» سنة ١٩٩٨. وله أكثر من مجموعة من القصص القصيرة. وإن كان ميدان تميزه الأساسي هو كتابة النص الروائي. يقول. ثمة في حنجرتي دوماً قصة تريد الانطلاق.

ولم يكن هناك سبب معين لإحالته إلى التقاعد عام ١٩٨٠ لهذا الإجراء. فالرجل ليس صاحب موقف سياسي ولكن بسبب. مجمل توجهه الليبرالي. وتحرره الزائد في الكتابة حيث إن الراوي في جميع رواياته يصف تلذذه بشرب الخمر وعشرة النساء الجميلات، وإن كان لا يجرؤ على الاقتراب من تفاصيل هذه العشرة. ساءت علاقته بالنظام الإسلامي حالة من الفتور، وإن كان قد حاول عبور هذا الفتور في روايته : الخمر العتيق « ١٩٩٤» والتي نجد فيها الرئيس السابق هاشمي رافسنجاني، ورواية «أسير الزمان» التي أعطاها بعدا صوفيا. وإن كان قد جرى تكريمه في أوائل سنة ١٩٩٩ مع روائيين وقصاصين آخرين. وذلك في إطار الاحتفالات بمرور عشرين سنة على الثورة الإسلامية. في بادرة جديدة للحكومة تحت رئاسة الرئيس محمد خاتمي فمنح دبلوم افتخار عن مجمل أعماله. إسماعيل فصيح من الروائيين الإيرانيين الذين يركزون على القومية الإيرانية. ولذلك فهو شديد العداء للعروبة والعرب بصورة حادة. ويلقي اللوم كثيرا على الثقافة الإسلامية التي وصلت إلى إيران مع الإسلام ويرى أن الإسلام عكر صفو الثقافة الإيرانية وانسيابيتها.

وإسماعيل فصيح مشغول برصد المتغيرات التي تجري في الواقع الإيراني. ومحاولة التعبير عنها روائيا. وهو يرى أن هناك حالة من الخصوصية في الواقع السياسي والديني في إيران. الذي يتميز به عن سائر البلدان الإسلامية. وهذه الرؤية تذهب إلى أن إيران منذ بداياتها إلى اليوم. وحتى الزمن الآتي. تحكمها مؤسستان وفريقان من الرجال : المؤسسة السياسية. أو رجال الحكم والسياسة. والمؤسسة الدينية أو رجال الدين أو المذهب. وما تاريخ إيران القديم والوسيط والمعاصر إلا حلقات حول هاتين المؤسستين. فإن اتفقتا، بشكل أو بآخر، هدأت إيران وارتقت وعلت وظهرت. وإن تعارضتا ثارت البلاد ومن عليها. وضعفت وجمدت.

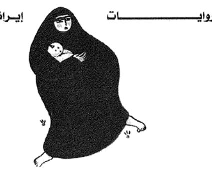
هذا الروائي أكثر الروائيين الإيرانيين المعاصرين حظا في الترجمة إلى العربية، إذ ترجمت له على مدى ست سنوات ١٩٩٥ - ٢٠٠١ ثلاث روايات إلى اللغة العربية. فحقق الرقم القياسي بذلك وهي : قصة جاويد. شتاء ٨٤، ثريا في غيبوبة. يمكن القول إنها ثلاثية إيران المعاصرة، تبدأ الأولى من سنة ١٩٢٢، وتنتهي الثالثة مع منتصف الثمانينيات. إذن فهذه الروايات الثلاثة تقدم ثلاثية إيران في القرن العشرين، الذي شهد أكبر انقلابين أساسيين في حياة إيران، الأول استيلاء أسرة الشاه على الحكم في العقد الثالث من القرن، ثم وصول الإسلاميين إلى السلطة في أواخر العقد الثامن من نفس القرن. بقي أن تعرف أن كلمة ثلاثية من عندي وليست من قصد المؤلف.

قصة جاويد هي ثالث نص أدبي كتبه إسماعيل فصيح. كتبها سنة ١٩٨٠، وهي جزء من توجه هذه المرحلة بالنسبة للكاتب. الذي قام على التأكيد على الشخصية القومية الإيرانية بصورة مبالغ فيها. في هذه الرواية يعتمد على الواقعية التاريخية. ويقدم النص كله على لسان راو واحد غائب ويتوحد الزمان الروائي مع الزمان الواقعي. ومثل روايتي إسماعيل فصيح الأخرين فالرواية قصة بحث. تبدأ لحظة انطلاق جاويد مع عمه من يزد إلى طهران. لابد أن يرد ذكر مدينة قم الشهيرة في هذا السياق، وذلك للبحث عن بقية العائلة، والد جاويد وأمه وأخته، التي كانت طفلة. ويبقى سنوات في رحلة البحث هذه. يشهد خلالها موت والده. وضرب أمه وإصابتها بالبُكم. وتصل إلى ما يشبه الجنون، ثم يعلم بموت أمه عندما كان مغمي عليه في أبعد مكان عنها، ويبقى الأمل في العثور على أخته. ليشكل السبب الوحيد في اقامته في طهران. وتجري تطورات بعد وصول جاويد. تسقط سلسلة آل قاجار المالكة عن الحكم، ويستولي على السلطة مكانها قائد الجيش. الذي تسلل من قيادة فوج قوزاق. وتمكن من الإطاحة بالحكومة. ليصير قائدا للجيش ووزيراً للدفاع ورئيساً للوزارة فملكا، ويؤسس حكم سلالة جديدة في تاريخ إيران تعرف بسلالة آل بهلوي. وهي نفس السلالة التي سنقابلها في روايتي إسماعيل فصيح الأخرين. ثريا في غيبوبة وشتاء ٨٤، نقابل بالتحديد نهاية حكمها ومجيء الإسلاميين إلى حكم إيران، من بعدهم، وهو الحدث الجوهري الذي يملأ فضاء هاتين الروايتين. ويسيطر على مشهديهما.

بطل الرواية. والذي تحمل الرواية اسمه جاويد، يتطور أيضًا. وذلك بعد التجارب الغريبة والحياة العجيبة التي مر بها في طهران. وأيضًا الكتب التي كان يحصل عليها من الدكتور نزهت سواء من مكتبته الخاصة، أو من مكتبة دار الفنون، أو من الصحف والمجلات التي كان يداوم على قراءتها. جاويد كان يخطط للانتقام لوالده، ثم بعد ذلك للانتقام لأمه. ثم يكتشف مقتل شقيقته أيضا. وذلك عندما يعثر على آثارها المدفونة. والكل يعلم أنه قرر البقاء في طهران من أجل العثور عليها، والعودة بها إلى بلده بعد ذلك. وهكذا لا يبقى أمامه سوى انتقامه الرهيب الذي يصفه الروائي بانه الانتقام العادل. ويعود إلى يزد ويسوى أوضاعه الخاصة لينطلق منها إلى خارج البلاد في هجرة يعيش بعدها في منفى اختياري.



إن أحداث الرواية تجري في الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٣١. إنها السنوات التسع التي



نحن أمام أكثر من إيران فى هذه الرواية، إيـران الأم. وإيـران الحضـارة. وإيران الثورة الإسلامية. ولأن إسـماعيل فصيح روائى صاحب مشروع. فبعض أبطال هذه الرواية سنقابله فى روايته الثانية التى تكمل الرحـلة التالية للمـرحـلة التى تصـورها هـذه الروايـة، وهـى «شـتـاء ٨٤»



شهدت استقرار العهد البهلوى. ومخاوف ومحاولات العودة من قبل عائلة آل قاجار، وحتى يصبح رضا خان ملكا الذى يسمى رضا شاه بعد ذلك. ولا يجب أن ننسى. أن الكاتب يكتب هذا النص بعد قيام الثورة الإسلامية فى إيران بسنة واحدة. وأن الحل الوحيد الذى يجده البطل أمامه هو الهجرة من إيران، وذلك بعد قتل كل من له فى إيران : الأب والأم والشقيقة، فماذا بقى له فى إيران ؟. وماذا بقى من إيران ؟ هل يقرأ الإنسان هذا النص كما جاء فى داخله؟ أو أن يقرأه من خارجه؟ ويستنطق النص، ويقرأ من خلاله أن إسماعيل فصيح كتب رواية ضد الإسلام وضد إيران. وحتى يوفر لنفسه التقية ذهب إلى التاريخ واستعمله كقناع يقول من خلاله ما يريد أن يقوله. ثم إن الشكل الفنى الذى نجده فى هذه الرواية هو نفس الشكل الذى يعتمده الكاتب فى أعماله الأخرى. وهو فن الرحلة، سواء الرحلة داخل إيران للبحث عن إنسان، ثم الرحلة خارج إيران بحثا عن منفى آمن بعيدا عن تطورات إيران.

هذه الرواية هى النص الوحيد ـ فى اطار رواياته المترجمة إلى العربية ـ التى كتب لها إسماعيل فصيح مقدمة. يقول فى هذه المقدمة : إن قصة جاويد رواية حقيقية لصبى زرادشتى وقعت فى أوائل هذا القرن «القرن العشرين». فضلا عن أن كلمة جاويد تعد صفة. وهى تعنى فى اللغة الفارسية الخالد. ولهذا فإن القصة يمكن أن تسمى الخالدة. كما يذهب إلى ذلك سليم عبد الأمير حمدان الذى ترجم هذه الرواية إلى اللغة العربية. إن الظلم ـ يقول إسماعيل فصيح فى مقدمته ـ والمصيبة الواردين على إنسان مؤمن، يشكلان نسيج الرواية الأصلى، ولكن الرواية ترصد أيضا المحافظة على ردود فعله الروحية وقوة إيمانه بسنن أسلافه القديمة. ويعترف الكاتب أنه تعرف على بطل روايته فى آخر أيام حياته، فى إحدى الجامعات خارج البلاد، فكانت تلك المعرفة ملهما لخلق هذه الرواية.

ويوجه الروائى خطابه مباشرة إلى القارئ. ويقول له إنه يمكنه قراءة هذا الأثر بوصفه رواية. ولكن فى الأبعاد الواسعة للاستخلاص من رواية ما. ينبغى رسم خط وهو يرسم فعلا. وأخيرا فالجواب على السؤال الثانى: هل الرسالة الأخيرة هنا هى انتصار الإيمان الطاهر الراسخ على فساد روح ضلال الأفراد. غلبة النور على الظلمة؟ تسيد الخير على الشر؟ أم أنها أمور كلية وواهية وسياسية أخرى؟ إنها وظيفة ملقاة على عهدة القارئ المنصف الخالى من الغرض والتعصب. إن الكاتب بعد أن كتب روايته بطريقة معينة. يريد أن يضمن قراءة معينة من قبل القارئ. لا تصل إلى الغرض الخفى الذى يوجد خلف النص.

صدرت رواية «ثريا فى غيبوبة» لأول مرة سنة ١٩٨٤، ونفدت طبعتها فورا. لدرجة أنه صدرت منها ثلاث طبعات خلال عامين، ثم ترجمها الكاتب بنفسه إلى اللغة الإنجليزية. ونشرت سنة ١٩٨٣/١٩٨٤، فحققت له شهرة مفاجئة فى الغرب. على الرغم من أن روائيين إيرانيين ترجموا قبله. أيضا فقد استقبلت الرواية فى العالم الثالث، بعد أن وصلت إليه عبر اللغة الإنجليزية المهيمنة بطريقة أكثر من جيدة. واعتبرت الرواية ظاهرة مهمة فى إيران الإسلامية فى السنوات الأولى بعد انتصار الثورة، وأشادت بجوها المتفتح إزاء الرد المحافظ المتجهم الذى كانت إيران تكشفه للعالم عن نفسها، ثم ترجمت إلى لغات العالم الأخرى بعد الإنجليزية. إنها الرواية التى صنعت شهرة صاحبها. يقول المرحوم الدكتور إبراهيم دسوقى شتا. الأب الروحى لمترجمى الأدب الإيرانى إلى اللغة العربية فى مقدمته الترجمة العربية للرواية:

لقد استحوذت علىّ هذه الرواية عندما قرأتها لأول مرة سنة ١٩٨٦. وقرأتها أكثر من مرة، وشدنى إليها ذلك الشجن المبثوث بين طياتها، وذلك الحب الجارف من المؤلف لوطنه وثقافته والبسطاء من مواطنيه، كما أحسست من خلالها بصيحة تحذير من بعض الممارسات داخل إيران نفسها. وبخاصة تلك التى تفرض التغيير على حساب الإنسان، ولعل تلك النبرة قد تصاعدت فى روايته التى صدرت أخيرا ـ ولم تصلنى بعد ـ كان ذلك فى النصف الأول من سنة ١٩٩٥ ـ والتى تسمى «خطاب إلى العالم». ويتناول فيها البحث المضنى لأم أمريكية كانت متزوجة من إيرانى، وغادرت إيران بعد الثورة. ثم عادت إليها فى معمعمة الحرب العراقية الإيرانية للبحث عن ولدها. الذى كانت قد تركته مع أسرة والده الذى فقد حياته فى أحداث الثورة.

أحداث هذه الرواية تدور فى نهايات سنة ١٩٨٠ وقد سبقتها قصة قصيرة للكاتبة الإيرانية «كلى ترقى» هى «مليكة روحى العظيمة». وتصور حاله الضياع والبلبلة التى عمت الشارع والبيت والمجتمع الإيرانى فى صيف ١٩٧٩. أى بعد شهور قليلة من استقرار السلطة فى يد الثوار وإعلان الجمهورية الإسلامية. أما رواية فصيح ففيها حالة من الحزن والقتامة والضياع. وكل الأحداث تستخدم الفعل المضارع. وتشيع فيها حالة من الحيوية والتواتر السريع. والوصف السردى يتداخل مع الحوار. والمشاهد المروية فى فرنسا تتداخل مع مشاهد الحرب التى كانت قد بدأت.

ثريا فى غيبوبة تدور أحداثها فى أكثر من مكان. تبدأ من إيران ثم باريس وذلك من خلال طريق الهجرة، والهروب من الداخل الإيرانى إلى الخارج. عن طريق أرضورم واستنابول بتركيا والراوى جلال أريان يخلط المشاهد التى عاشها فى إيران إبان الشهور الأولى للثورة الإسلامية. مع مقدمات وبدايات الحرب مع العراق بمشاهد رحلته. ما أن يصل إلى فندق صغير فى استانبول حتى تعود به الذاكرة إلى مستشفى فى عبدان. الذى وقع عليه القصف العراقى، إن المؤلف يخلط الأماكن والأزمنة حتى فى اللحظة الواحدة، حتى يتمكن من توصيل فكرته إلى القارئ. لأنه يريد الكلام فى ثلاثة أمور مرة واحدة. الثورة الإسلامية ، هجرة المثقفين إلى أوروبا هربا من إجراءات الثورة، ثم الحرب مع العراق. وهو الموضوع الذى يكرره المؤلف فى روايتين أخريين له : شتاء ١٩٨٤، وخطاب إلى العالم.

إيران ، فيها الكثير من الجنسيات التى تنطق لغات كثيرة. فيها عرب وفرس وأكراد وأرمن وأتراك. وأهلها متنوعون ـ كما يقول الدكتور محمد علاء منصور، مترجم رواية ثريا فى غيبوبة ـ على مذاهب دينية شتى من تشيع وسنة وبابية وبهائية ومن يهودية ومسيحية. والصفوة يعانون من كل شىء. منهم الذى يعانى فى محاولة توفيقه ومن يتسامح كثيرا. ومن يقف عند أقصى اليمين. ومن يذهب إلى أقصى اليسار، ومن يعشق اللذة، ويفرط فى حب الحياة والمجون والشبق، ومن يتطرف فى الزهد والتقشف. ويفرط فى حبه للشهادة، ومنهم من يموت حبا فى امرأة حسناء لا حد لجمالها، ومن يموت شهادة فى الحسين. وقل ـ فى خاصة هذا الشعب وعامته ـ من توسط واعتدل.

نحن أمام أكثر من إيران فى هذه الرواية، إيران الأم. وإيران الحضارة. وإيران الثورة الإسلامية. ولأن إسماعيل فصيح روائى صاحب مشروع. فبعض أبطال هذه الرواية سنقابله فى روايته الثانية التى تكمل الرحلة التالية للمرحلة التى تصورها هذه الرواية. وهى «شتاء ٨٤». تقابل إدريس ابن مطرود. والذى يتوه فى الجبهة ويبحث عنه البطل فى أكثر من مستشفى ونقابل والدة ثريا. فى الداخل الإيرانى تلتهم الحرب المشهد الروائى كله. تقابل أسرة أرمنية رفضت الهجرة من عبدان، وبقيت تحت قصف المدافع والطائرات العراقية. لا توجد كلمة واحدة عن تحرشات الشاه فى الخليج العربى. ولا استيلائه على الجزر الثلاث ولا تسميته بالخليج الفارسى. ولا إيمانه بأن والده حرر الجزء الشرقى من الخليج، وأن عليه تحرير الجزء الغربى منه. ورغم اختلاف المؤلف مع قادة الثورة الإسلامية. ورفضه للعديد من إجراءاتهم. بل وجعله يسفر بطله إلى أوروبا لينضم الى آلاف الإيرانيين الذين تركوا إيران هربا من إجراءات الثورة الإسلامية. ومع هذا لا نجد كلمة واحدة عن تصدير الثورة الإسلامية. فى حين أن هناك أوصافا للعراقيين جميعا من الصعب إعادة نشرها. لأن البعض منها يمكن أن يقع تحت طائلة القانون.



أنا لا أحب الرمز فى الكتابة الروائية. ومترجم الرواية يقسم بطلات الرواية إلى رموز لإيران. يقول آن فرنجيس ترمز لإيران الأم، وأن ليلى زاده ترمز لإيران الحضارة، وأن ثريا نقوى ترمز إلى إيران الثورة الإسلامية. ورغم موقفى من قضية الرمز إلا أنه من الصعب تجاهل أن ثريا ترمز إلى إيران. لقد أسبغ الكاتب عليها صفات النقاء والطهر والفداء وأخضع لها أعناق العقلاء والمعجبين من الشرقيين والغربيين. ثم أوقعها بعد ذلك فى حادث أليم لا تفيق منه حتى توشك على الموت. يصل المهاجر الإيرانى إلى فرنسا. يسأله الإيرانيون الذين سبقوه إلى الهجرة:

ـ ماذا يحدث فى إيران يا إلهى؟

ـ الثورة والحرب وأشياء أخرى كثيرة.

ويجرى الكلام كثيرا فى الرواية عن الغيبوبة.

ـ ما هى حالة ابنة أختك ؟

ـ فى غيبوبة. كما يذكرون.

ـ ألست أنت نفسك فى غيبوبة ؟!

ـ لست أنا وحدى فى غيبوبة. أجدادى وآبائى هم الآن فى غيبوبة.

إن هذا هو حوار الشعب الإيرانى المغترب الذي يجتمع فى ليل باريس. يتشاكون ويشرحون أحوال أنفسهم ووطنهم، ويشرح المؤلف حالة الغيبوبة : إنها حالة فقدان الوعى. تشبه النوم. تحدث أثر اختلال وظائفها المخ. يمكن أن تكون اغماء مؤقتاً، ويمكن أن تدوم وأن تميت. وليس بمقدور أحد أن يعلن كم من الوقت تطول. وحالة الغيبوبة التى تستغرق أكثر من يومين أو ثلاثة وتتسبب عن اختلال خلايا وفسادها، دليل صدمة شديدة واحتمالات قاتلة، وثريا فى حالة إغماء منذ ثلاثة وعشرين يوما. ويمكن أن تستقر الخلايا المختلفة بالقشرة المخية «السوبر ال كورتكس». أو فى أجزاء أعمق منه وهى محور المخ المركزى، مسكينة يا ثريا. ويسأل عن أهل إيران وتأتى الإجابة : نصفهم هرب من ثورة إيران. والباقى فر من الحرب.

الأبطال لا يعجبهم الحال فى إيران. تقول ليلى ازاده : أنا مستاءة من أحوال إيران وأوضاعها. لم يعد شىء فى إيران يحركنى. لم يعد هناك المجتمع الذى يجعل أبناءه يزدهرون. فعلا لابد أن ندخل فى شرنقة. ندخل غيبوبة. إن

إيران ، فيهـــا الكثيـــر من الجنسيـــات الذين ينطقـــون لغـــات كثيرة. فيهـــا عـــرب وفرس وأكراد وأرمن وأتــراك. وأهـــلها متنوعـون على مذاهب دينية شتى من تشيع وسنة وبابية وبهائية ومن يهـودية ومسـيحية. والصفـوة يعانون من كل شىء. منهم الذى يعانى فى محاولة توفيقه ومن يتسامح كثيرا. ومن يقـف عند أقصى اليميـن

المهاجرين فى باريس أشكال مختلفة، منهم من كان موجودا بفرنسا قبل الثورة، وبعضهم هرب وقت الثـورة وبعدها. آخرون هربوا بعد الحـرب. يتكاتف جـمـعـهم هنا وحـولهم مجموعتان أخريان من المحتالين، أما الداخل الإيرانى فهو بلاد الخراب وهكذا يقول الأبطال. أو الذين ليسـوا أبطالا - إن شئت الدقة فى الوصف - بلاد بلا خمر وحبيب من يعش فيها يبدد أحلى سنوات عمره. ويحكى أحد المغتربين فى باريس حكاية عن الآتى:

«جمع العمدة فى أحد الأيام سكان القرية حوله، وقال لهم أيها الناس عندى لكم خبر طيب وخبر سيئ. الخبر السيئ هو أن ليس لدينا هذا العام فى الشتاء، أى شىء، غير روث البقر والحمير. لكن الخبر الطيب، هو أن لدينا من الروث بالقدر الذى تحبون».

فى هذه الرواية سياحة مهمة فى تاريخ إيران. ثمة ذكر لناصرى خسرو والشيخ فريد الدين العطار والحكيم أبو القاسم الفردوسى وسعدى الشيرازى، يتكلم عن نفى الأدباء فى زمن الشاه لأن خارج إيران كان مجالا للتنفس وإبداع الآثار بصورة أفضل، أشهرهم المرحوم صادق هدايت ومحمد جمال زادة فى سويسرا، وبرزج علوى فى ألمانيا، وصادق جويده فى لندن، وعباس حكمت فى أكسفورد، والسيدة مشهيد أمير شاهى فى باريس. وعدد كثير آخرين رحلوا مع انتهاء الأسرة البهلوية.

«شتاء ٨٤» هى رواية عن الحرب العراقية الإيرانية. وذلك من وجهة نظر إيران. واسماعيل فصيح مغرم باسلوب الرحلة كوسيلة أصيلة للقصص الروائى. بطله عائد من الخارج ويذهب إلى عبدان ، فى سنة ١٩٨٤. وهى السنة التى وصلت فيها الحرب مع العراق إلى الذروة. التى يسميها الدكتور منصور فرجام البطل. الحرب المفروضة. ومنذ نزوله إلى إيران لا يرى فى الشوارع «سوى صورة لآية الله بهشتى معلقة على العمود المواجه للمنصة. وصورة كبيرة لآية الله الخمينى. التى يرى فيها واقفا ومادا يده. وخلفيتها زرقاء وعلقت على الحائط خلف المنصة. إن الصورة الكاملة لجسم الامام الخمينى تهز يدها لنا. والعائد حديثا من أمريكا. ليعمل فترة لدى شركة النفط الوطنية. فهو متخصص فى الكمبيوتر. وأول ما يكتشفه أن فى إيران قانونًا جديدًا للخدمة العسكرية. واحتياجات الجمهورية الإسلامية فى حربها مع العراق. حيث جرى منع سفر الأولاد الذكور من الأربعة عشر عامًا فصاعداً. وبناء عليه فإن بعض أولياء الأمور خاصة الأمهات يضعون أيديهم على قلوبهم. خوفا على أبنائهم وهم فى سن العاشرة أو الثانية عشرة من عمرهم، ويقدمون على فعل أى شىء لو كان بمقدورهم. والعائد من أمريكا جاء ليرى أوضاع أرض آبائه وأجداده. كيف صارت فى الجمهورية الإسلامية؟ هذا هو الهدف العام. ولكن لديه هدفًا خاصًا، وهو البحث عن شاب يقاتل فى صفوف الإيرانيين. وهو إدريس ابن عامل كان من أصدقاء الدكتور، وكان مع المتطوعين فى عبدان. ويبدو أنه جريح وأسكن فى مكان ما من عبدان. لايجب أن ننسى أن المؤلف نفسه عمل فترة فى شركة عبدان للنفط.

وأنه كان عائدا من أمريكا أيضا. هذا معناه أن المؤلف استفاد من تجربته الشخصية فى كتابته الروائية. أما البطل فقد عاد لأنهم طلبوا منه إنشاء وحدة لتعليم اللغة التكنولوجية. ويخطط لإنشاء مركز لتعليم الكمبيوتر. باللغة الإنجليزية. وليست بالعربية. والعربية تقال من باب السخرية طبعا. ويتعجب الناس من عودته. فهو معه دكتوراه فى الكمبيوتر، وأموال ومنصب فى أمريكا. فلماذا يعود وسط هذه الحروب ؟ حيث يكون السؤال : أى انسان لم يصبه الأذى مع وجود هذه الحرب ؟.

يقرأ شعارات الشوارع : ماكيت للمسجد الأقصى. صور للقيادات الدينية. ومكتوب تحتهما : سوف نطأ أمريكا بأقدامنا. الإسلام يرتوى من دم الشهداء. البلاد ملك للفقراء. السلام عليك يا أبا عبد الله الحسين. نحن صامدون ولو دامت هذه الحرب عشرين سنة. ويشاهد طوابير المتطوعين فى الشوارع يهتفون:

من أجل الحفاظ على الشرف
نتوجه إلى الجبهة
نبحث من الجبهة
عن ارتقائنا وعلائنا
الموت لأمريكا.. الموت لأسريكا
وهناك من يردون عليهم :
رغم أنف العدو الباغى
نلبى نداء الوطن
سعيا لفتح كربلاء
نتقدم إلى الجبهات
الموت لأمريكا.. الموت لأمريكا
الحرب.. الحرب.. حتى النصر.. الحرب حتى النصر

لا تقابل فى الرواية أى إنسان إيرانى إلا وله شهيد. ولكن المؤلف يقول عن الإيرانيين فى هذه الحرب : كلما تلقوا الضربات ازدادوا قوة. وان كان هناك من ينظرون للحرب نظرة أخرى : سيدى المهندس. حتى تنتهى هذه الحرب. لابد أن نفقد أنفسنا، أو أن نصاب بالجنون، فيرد عليه واحد من الذين يعيشون فى إيران : المسألة تتطلب وقتا. إذا مات أناس عاش آخرون. إن الثورة والحرب لهما دورة أيضا مثل الحياة والموت، ولابد من لف هذه الدورة حتى تنتهى.

والرواية فيها عداء للعراقيين وشتائم كبيرة لا أحب أن انقلها. والدعاء عليهم من قبل الناس العاديين بأدعية خطيرة. وتدور مناقشة عن إيرانى بين أبطال العمل :

إيران بلد تفتقد إلى الأمة المتحدة. والناس فيها يتبعون القومى، لا يظهر داخل إيران شعب محكم وثابت مثل اليابان أو إسبانيا وإلا ما ابتليت بمثل هذا اليوم.

إيران يا ساداتى تمتاز بخاصية مثل اليويو. تهبط يوما وتعلو يوما. يوما تصير ماء ينزل إلى أسفل.

ويرد عليه آخر بفكرة الصراع بين المؤسستين الدينية والسياسية، الذى يدور على البلاد. وينقل عن الشاعر الفردوسى قوله : نستسلم جميعا للموت. أفضل من أن نسلم بلادنا للعدو. ويصف إيران بقوله: فى البلد الذى يعيش الحرب المفروضة مع القوى العظمى. حتى طيور العشق لابد أن تتعلم وتكتفى ذاتيا. وعلى الرغم من أن الروائى لا يعجبه الداخل الإيرانى، ويصفه بالفوضى والعشوائية وعدم التخطيط. إلا أنه فى مسألة الحرب مع العراق، يقف مع كل ما هو إيرانى. ويعجب حتى بالتخلف. إن الأحداث تجرى فى سنة ١٩٨٤، سادس عام على انتصار الثورة الإسلامية فى إيران. إن كل مكان فى إيران هو كربلاء. وكل يوم فى إيران هو عاشوراء. ويشبه الذين ينتظرون صواريخ العراق بمن ينتظر جودو فى مسرحية بيكيت الشهيرة. إن البلاد فى مخلب الحرب ومشتبكة مع مشاكل ما بعد الثورة. الجمهورية الإسلامية. الحرب هى العلة والمعلول لأعداء الحكومة الإسلامية. امتزج هذان الاثنان بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. هزيمة إيران فى الحرب هى هزيمة للجمهورية الإسلامية. إن انتصار إيران فى الحرب أمر مصيرى بالنسبة للعالم، لأن جميع المنطقة تخضع للواء الجمهورية الإسلامية. وعليه فسوف يحارب العدو بكل ضراوة وسوف يضحى الشعب الإيرانى بدمه. إيران بلد عظيم وشعب لا يفنى ولا يجب التهاون فى أمر يخص إيران.

فى هذه الرواية عدد من الحيل الفنية حتى يقدم المؤلف رواية الحرب. وذلك بنشر النصوص الكاملة لوصايا الشهداء، وكذلك الموضوعات التى كتبها تلاميذ المدارس فى وصف الحرب وويلاتها. وما تقوله الإذاعات. وأيضا مذكرات الأبطال. وكل هذه النصوص كتبها المؤلف من خياله، بمعنى أنه لم يحصل على وثائق من الواقع. ثم أوردها فى النص. ولكنها كتابة متخيلة لوصايا الشهداء. أو موضوعات التلاميذ فى وصف الحرب، وكذلك ما يمكن أن تكون قد قالته الإذاعات. أو ما كتبه الذين خاضوا الحرب. إنها حيل فقيه حتى يخرج من رتابة السرد العادى. ولكى ينوع الكتابة والخطاب الروائى.

التـــــديـن الزائـف

محسن مخملباف روائى إيرانى معاصر. ظهرت كتاباته الأولى فى مطلع الثمانينات فلفتت اليه الأنظار. ودلت على مولد كاتب يعرف أساليب القص وتكتيكاته الحديثة. عميق الخبرة بحياة المجتمع الإيرانى. كتب الرواية والقصة والمسرحية والنقد الأدبى. ولد محسن سنة ١٩٥١. صدرت له أولا مجموعة مسرحيات قصيرة عنوانها : موت آخر سنة ١٩٨٢، تحتوى على ثلاث مسرحيات. أهمها مسرحية عنوانها : سجن داخل سجن. موضوعها سجين ماركسى فى عهد الشاه ويحدث أن تقوم الثورة. ويأتى الثوار ليطلقوا سراحه. ولكنه يرفض لأن الثورة لم تتهيأ بعد فى نظره. حيث إن إيران لم تشهد الثورة الصناعية. ولم تتوسع فيها الطبقة العمالية. «البروليتاريا» وهى وحدها المهياة تاريخيا للقيام بالثورة. ثم ظهرت له مجموعة قصصية بعنوان : كثبان بلا ضياء ١٩٨٤. تحوى ثلاث عشرة قصة. تستمد موضوعاتها من حياة البسطاء والفقراء من الناس. التى تعانى الكثير من أجل الاستمرار فى الحياة. كذلك هناك قصة عن حياة المعتقلين السياسيين التى يبدو أن الكاتب قد مر بها فى مرحلة ما من مراحل حياته. ذلك أن كتاباته عن السجون والمعتقلات تشع منها رائحة تجربة إنسانية نادرة.

بعد رواية حوض السلطان صدرت لمحسن رواية ثانية هى حديقة البللور. أهداها إلى : «المرأة.. المرأة المظلومة فى هذه الديار».. وعندما نعرف أن حوض السلطان رواية بطلتها امرأة. سندرك أن محسن صاحب عالم روائى يعبر عنه من نص إلى آخر. ذلك أنه يدرك أن المرأة تشكل أضعف حلقات المجتمع الإيرانى. وأنها تعرضت لظلم مضاعف. وقهر مضاعف. محسن مخملباف ليس روائيا وكاتباً للقصة والمسرحية والنقد الأدبى فقط. لقد اتجه أيضًا إلى السينما. أعد سيناريوهات أفلام. وأخرج بعضها بنفسه للسينما. منها فيلم المقاطعة ويتناول مفهوم الشهادة. وكيف أنه يفقد معناه خارج الدين. وذلك من خلال قصة سجين يقبض عليه. مع خلية ماركسية

- ما هى حالة ابنة أختك ؟
- فى غيبوبة. كما يذكرون.
- ألست انت نفسك فى غيبوبة ؟!
- لست أنا وحدى فى غيبوبة. أجدادى وآبائى هم الآن فى غيبوبة.

إن هذا هو حوار الشعب الإيرانى المغترب الذى يجتمع فى ليـــل باريس.



ويحكم عليه بالموت. وعرض فيلم له فى مهرجان كان الأخير عن أحوال أفغانستان. وسبق لإبنته سميرة أن عرض لها فى مهرجان كان الماضى.

حوض السلطان رواية تتميز عن سواها من الروايات الأربعة الأخرى بعدة علامات. أولاها : أن المسجد يشكل جزءا جوهريا من المشهد الروائى والقصصى. وكل ما يدور حوله. بل إن البطلة تعمل فترة من الوقت خادمة فى مسجد. وتقدم لنا كافة التفاصيل الحياتية اليومية الصغيرة لمن تعمل فى هذا المكان. ثانيها: أننا نلتقى فى هذا النص بامرأة تروى لنا الحكاية. من الكلمة الأولى وحتى الكلمة الأخيرة. وفضلا عن اللجوء لامرأة من قبل روائى رجل. فإنه قد اختارها امرأة فقيرة وحيدة. لا مكان ولا أهل لها. ووضعها الطبقى هو ما مكنها من رؤية الجانب الآخر من تجربة الحياة اليومية. وهو ما لانجده فى الروايات الأخرى التى تقدم شرائح من المثقفين. ثالثها: أن الرواية تقف عند تخوم آخر زمن الشاه. سنة ١٩٧٩ بالتحديد. وتقدم أمرين أساسيين: أهوال زمن الشاه من خلال زيارة المكان الذى كان الشاه يعذب ضحاياه فيه حتى الموت. الأمر الثانى: هو رفض مظاهر التدين الكاذب فى المجتمع الإيرانى. وقد كان التدين قضية من قضايا هذا المجتمع. حتى قبل الثورة الإسلامية.

بطلة الرواية فى الخامسة والعشرين من عمرها اسمها: عزت سادات. مات عنها زوجها طاهر. وترك لها ابنهما حسين. الذى ما يلبث أن يموت متأثرا بالحمى. فتصبح عزت امرأة وحيدة. تبحث عن مكان تعيش فيه. وعمل تعيش منه. عزت سادات امرأة أمية. ولذلك فالمؤلف حريص على الالتزام بوعى هذه الانسانة، ولا يقحم عليه نتاج معرفته وثقافته. وتلك مسألة مهمة فى الحكاية الروائية أقصد اخضاع وعى الكاتب لوعى البطلة. ولا مشكلة هناك عندما يكون وعى البطلة مدركا. والصعوبة عند تدنى هذا الوعى. ولهذا نجد عزت سادات على الرغم من أميتها وانعدام ثقافتها. فهى عندها الذكاء وصدق الإحساس العفوى. الذى يقدم معاناة الفقراء والمستضعفين، وكذلك بدايات التنظيم الإسلامى الذى قاد الثورة التى عصفت بالشاه بعد ذلك. ومواجهة الأمن لهذا النشاط بالطرق المعروفة من القمع والتعذيب والتنكيل. تبدأ الرواية بترمل عزت سادات. وإعالتها لطفلها اليتيم. تعمل عاملة تنظيف بالمصانع، ثم تتزوج مرة أخرى من قنبر بقال الحى، رغم أنه فى عمر أبيها. ولا يدوم الزواج. فتخرج للعمل من جديد. ولكن مدلكة للأجساد فى حمام للنساء. ويضطرها العمل لترك ابنها يعمل فى المجارى بالشوارع، ويمرض بالحمى ويموت. وتطردها صاحبة البيت الذى كانت تسكن فيه. بعد أن تستولى على أمتعتها وذلك مقابل الإيجار المتأخر. وفى أثناء بحثها عن عمل جديد. تجد نفسها فى مواجهة بين الشرطة والمتظاهرين. تصفها هكذا:

حين وصلت إلى ميدان ترة بار. كانت صور السيد نفسه قد وضعت على عدد من أعمدة النور. وكان هناك مجموعة من الشباب يلبسون الأكفان ويصبغون أنفسهم بالدماء وبأيديهم العصى. ثم جاءت عربات الشرطة. لم تعد الآن واحدة أو اثنتين. وقفت جميعها فى صف منتظم، بعدها بدأوا فى إطلاق النار. فر الجميع إلى نزل للقوافل على رأس الشارع وذهبت أيضا. فى الطريق خرج نعلى من قدمى مراراً وكدت أسقط على الأرض، وفى النهاية تأبطت نعلى. ودسست نفسى بين الناس. لا رأت عيناك السوء. نظرت فرأيتنى امرأة بين مائة من الرجال الأشداء. ماذا كان يمكننى أن افعل ؟ طاف برأسى حينئذ ألف خيال. ثم قلت الآن فى هذا الهياج المستعر. من الذى تتجه حواسه إلى؟ أغلق أحدهم الباب الحديدى، ووضع عليه قفلا من الداخل. نظرت من ثقب الباب. لم يكن فى الشارع غير أصحاب الرتب والجنود. جاء واحد منهم إلى أمام النزل. ركل الباب برجله مرات. ثم أطلق من بندقيته دون قصد، مقذوفاً فى الهواء وانصرف. لم يمض وقت حتى جاء الشبان يتسللون ناحية الباب، أطل أحدهم برأسه وقال «اذهبوا».

بعد انصراف المتظاهرين تبقى عزت سادات فى المسجد. وتحضر تسليم جثث شهداء المظاهرة إلى ذويهم. وتقنع القائمين على شئون المسجد أن تعمل خادمة فيه. ولأن أحدهم كان يعرف زوجها يقبلون هذا. تصف عملها فى المسجد بقولها :

فى أثناء الليل، كنست الرواق ومسحت المنبر بقطعة من القماش. ونظفت أرضية المسجد. وغسلت الزجاج بالماء والصابون ثم شطفته بالماء. وأنزلت الغبار عن المصاحف القديمة. وقد كان يكسوها غبار البحر. كنت أنفض الورق وأنفخ فيه بأنفاسى. وفى النهاية اغتسلت فى مكان الوضوء. الآن صار كل شىء نظيفا وطاهرا. وقمت للصلاة. فقد كان الصبح قد أسفر: الله أكبر. يا إلهى إنى معجبة برحمانيتك ورحيميتك. يا خالقى.. لك الشكر.



تتمكن عزت سادات من أن ترصد من مكانها ألوان التدين الكاذب، وتكشف أمر البهائى اللص الذى زعم رجوعه عن البهائية إلى الإسلام، ليستدر عطف المسلمين وكرمهم. وتتعرض لمضايقات تدفعها إلى مغادرة المسجد حيث تعمل مع أختها خادمة فى بيت أحد السادة الأغنياء. وهنا تقدم عزت سادات انطباعاتها عن حياة المترفين من خلال عملها فى بيت سودابة هانم. وزوجها. وتطردها صاحبة المنزل بعد أن تدبر لها ولأختها سرقة قرطها الثمين. تعود عزت إلى بيتها القديم. وتسدد بعض ما كان عليها لصاحبة البيت. مما ادخرته أثناء عملها خادمة. ويأتى اليها شيخ المسجد الذى كانت تخدم فيه. يقول لها أن العامل الذى حل مكانها واسمه خادمى. زوجته متوفاة ومعه ابن فى الثامنة. ويبحث عن زوجه وهو الزوج الصالح لها. ويحدثها خادمى عن بحيرة حوض السلطان، التى كانت طائرات الشاه. ترمى فيها المعارضين أحياء، ليموتوا أبشع ميتة. فتدرك أن زوجها له علاقة بالعمل السياسى ضد الشاه. ويقبض على خادمى. ويقوم الطفل هاشم بمهمة أبيه فى الآذان للصلاة، وتقوم عزت بتنظيف المسجد. وتعين السلطة شيخا للمسجد. ولكن الناس لا تشعر بميل نحوه وينصرفون عنه. ويفرج عن زوجها. ويطلب منها الأوراق التى أودعها شيخ المسجد السابق لديها. وتكتشف من خلال زوجها أن الأوراق عبارة عن سجل لمظالم الحكام ضد المحكومين، ويعلن خادمى أنه ذاهب فى مهمة إلى قم. فتصر عزت على اصطحابه. حتى ولو كان ذاهبا إلى السجن. وفى طريقهما إلى قم، تمر السيارة على حوض السلطان ويحرص خادمى أن ترى زوجته البحيرة الملعونة. ويترحم على شهداء الإسلام الذين ابتلعتهم مياه البحيرة. ويقرأ لهم الفاتحة بصوت عال. ويثير هذا السلوك حوله الشبهات، فيتبعه أحد المخبرين ويلازم الزوجين كظلهما. وفى قم يزوران المدرسة الفيضية، مركز النشاط الدينى والسياسى ويلتقيان بالشيخ عباس عضو التنظيم الدينى. وفى رحلة العودة تقبض عليهما أجهزة الأمن فى حملة تفتيشية على السيارة. تعثر خلالها على مسدس فى حقيبة خادمى. فى السجن تتجمع آلام التعذيب. مع آلام المخاض. ذلك أن عزت ستضع مولودها. فى السيارة العائدة بهما إلى طهران. خادمى يذهب إلى الموت حيث سيعدم، وعزت إلى السجن الذى تضع فيه مولودتها. يسألها خادمى إن كانت قد ذكرت اسم الشيخ عباس فى التحقيق؟ فتقول له أن ذلك قد حدث من شدة التعذيب الذى تعرضت له. ويأخذ الحراس خادمى ويغيبان به شيئا فشيئا. بينما هو يبكى ويطلب منها أن تسامحه، وتغيب عزت سادات مرة أخرى فى إغفاءة تنقذها من واقعها. تشاهد فيها حديقة جميلة وشمسًا حانية.

فى هذه الرواية العذبة يقوم المسجد بدور أساسى، لأن مفهوم المسجد فى البيئة الشيعية يختلف عنه إلى حد كبير عنه فى البيئة السنية. فهو عند الشيعة مؤسسة دينية واجتماعية كاملة. إن عزت سادات تأوى إلى المسجد وتسكن فى حجرة منه. عندما يضيق بها المجتمع. كما أن المتظاهرين يحتمون به. هربا من بطش وجبروت رجال الأمن. كما أنه قريب من الاستراحة التى يتناول فيها المصلون القهوة والشاى ويدخنون الشيشة والنارجيلة. ولا يرون أن ذلك ينال من قداسة المسجد. فى هذه الرواية قدرة فريدة على الحلم بالزمن الآتى. ورسم صورة المستقبل ببساطة مذهلة.. ويبدو أن كتاب إيران مغرمون بالرمز. ذلك أن الطفلة التى تلدها عزت سادات فى الفصل الأخير من الرواية. توشك أن تكون هى الثورة التى قامت.

الواقع الاجتماعى يقول لنا أن الإيرانيين شعب مقبل على الحياة. يستمتع بها. وأن الفقر لا يعوقه عن ذلك. والمتدينون لهم موقف إسلامى يقترب من حافة التشدد. فهو الموقف الشيعى الذى يشكل اليسار الاسلامى. وإن كنت قد بدأت المقال بالأسئلة ذات الطابع السياسى. فها أنذا أنهيه بأسئلة عن المواطن العادى وعن الحياة اليومية. كما تبدت لنا من خلال هذه النصوص الروائية. فإن كان الخيار السياسى يتمثل فى جدل الدولة والثورة. فإن الخيار الاجتماعى يتبدى بين المسجد. ومظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة التى بدأت تعبر عن نفسها. والتعبير الأدبى والفنى عنها. ها هى السينما الإيرانية تحاول، ومطربة إيران الأولى كوكوش غنت مؤخراً فى الخليج العربى. وظهرت بعد ربع قرن من الاختباء والاختفاء. وتمنت لو أن اهلها فى الناحية الاخرى يتمكنون من سماعها.

إن الفن الذى أوشكوا أن يعلقوه على أعواد المشانق. ها هو يعود مرة من الداخل. ومرة أخرى من المنافى البعيدة أو القريبة. وهذا معناه أنك لا تنزل النهر الإيرانى مرتين، ومعناه أنهم أدركوا فى إيران أن الزمن لابد وأن يمضى إلى الأمام، وتلك هى معادلة إيران الصعبة. فهل تستطيع أن تتجاوزها، ذلك هو سؤال اللحظة الراهنة، والزمن القادم، لن يقدم الإجابة على السؤال سوى الإيرانيين أنفسهم.

كيف حاول التوفيق بين طه حسين والعقاد وسلامة موسى



نسيم مجلي



كان بحكم نشأته وثقافته يؤمن بعلاقة الأدب بالأوضاع الاجتماعية كما يؤمن بأثر العوامل الطبقية فى إنتاج الأدب وكان يعمد إلى الكشف عن هذه العوامل وأثرها فى النصوص الأدبية، كما يعمد إلى إشاعة هذه المفاهيم فى طلبته أثناء شرحه للنصوص الأدبية



فى كتابه «المحاورات الجديدة» أطلق لويس عوض على نفسه لقب «المعلم العاشر» ونحن نعرف أن المعلم الأول كان أرسطو، أما المعلم الثانى فكان الفارابى واختياره لهذا الاسم يؤكد اعتزازه بدوره التعليمى وبمكانته الفكرية فى آن واحد، رغم أنه لم يقض فى التدريس بالجامعة إلا أربعة عشر عاما بين عودته من البعثة فى ١٩٤٠ وطرده منها مع خمسين أستاذاً آخرين بقرار من مجلس قيادة الثورة فى سبتمبر ١٩٥٤، ضمن حركة التطهير، ولكنه لم يكن أستاذًا عاديًا وإنما كان معلمًا بمعنى الكلمة: معلمًا من ذلك الطراز الذى لا يوجد إلا فى عصور الانتقال حيث تسقط الحواجز بين المعرفة والحياة.

كان لويس عوض إثر عودته من إنجلترا، متأثرًا بمعايشته للمثقفين الثوريين الأوروبيين، بل ومنحازا للاشتراكيين منهم بصفة خاصة، وكان مولعا بشيلى وشعره الثورى ويترنم بقوله الشهير «تلهبنى شهوة لإصلاح العالم» فكيف به وهو فى مجتمع استشرت فيه عوامل التآكل الاجتماعى الذى تجلى فى تصدع الفلسفة الديمقراطية الليبرالية التى تبلورت فى دستور ١٩٢٣، مما جعل نظام الحكم المتمثل نظريا فى ذلك الدستور هيكلا باليًا يحتاج إلى تجديد.

وكان لتجميد الحركة الوطنية والدستورية معا بتوقيع معاهدة ١٩٣٦، ثم نشوب الحرب العالمية الثانية أثره فى تعميق التناقضات الاجتماعية داخل المجتمع المصرى وكشفها على السطح فعجل بهذا الاستقطاب الشديد بين اليمين واليسار على حساب الوسط الوفدى. كانت أوضح صور اليمين متمثلة فى جماعة الإخوان المسلمين بينما كانت أوضح صور اليسار متمثلة فى الجماعات الشيوعية المتعددة، وكان التنافس بين الفريقين على أشده لتجنيد الشباب.



فى هذا المناخ العصيب وجد لويس عوض نفسه، وكان بحكم نشأته وثقافته يؤمن بعلاقة الأدب بالأوضاع الاجتماعية كما يؤمن بأثر العوامل الطبقية فى إنتاج الأدب وكان يعمد إلى الكشف عن هذه العوامل وأثرها فى النصوص الأدبية، كما يعمد إلى إشاعة هذه المفاهيم فى طلبته أثناء شرحه للنصوص الأدبية، وقد أشار الدكتور مجدى وهبة الذى أطلق على لويس عوض لقب «الشريك المخالف فى الثقافة المصرية» إلى هذه الطريقة فقال:

«كان (لويس عوض) يلجأ إلى أطر دلالة خارج النص الأدبى الذى كان يدرسه فإذا كان يقوم بتدريس مسرحية مثلا، تجده يبحث فيها عن الأساطير التى يمكن أن يتكلم عنها من وجهة نظر أنثروبولوجية أو أنثروبولوجية ثقافية، وإذا كانت قصة نثرية فإنه كان يفسرها تفسيرًا نفسيًا، واستطاع فى فترة قصيرة من تدريسه لغة أجنبية لطلاب قادمين إلى الجامعة وهم على درجة من البراءة الثقافية، غير متعمقين فى أى من الثقافتين، أن يجد لغة عامة فى خارج النص، واستطاع بذلك أن يثير خيالهم وأن يلهمهم فى الأدب والنقد».

ومن هذا يتضح أن اهتمامه كان بتكوين العقلية الشابة الماثلة أمامه على التفكير الحر. فهو يحاول أن يخرجها من عالم الأدب أو على الأصح من قيود النص الأدبى إلى علم الأنثروبولوجيا أو علم النفس أو الأدب المقارن كنوع من الصدمات الكهربائية.

كذلك جاءت كتاباته على شكل صدمات مفاجئة أقلقت الرجعيين والتقليديين فأخذوا يناصبونه العداء. لكن هذه الصدمات قد أثمرت ثماراً عظيمة وحركت مناخ الحياة الثقافية الراكد. فدعوته لتحطيم عمود الشعر والكتابة بالعامية فى الأربعينيات كانت ثورة أطلقت مواهب كثيرة، فكانت مدرسة الشعر الحديث. وكانت دعوته لأدب الحياة أو «الأدب فى سبيل الحياة» ثورة تجديدية أخرى، فجرت كل قضايا الحرية السياسية والحرية الاجتماعية فى بداية ثورة يوليو عام ٥٣/ ١٩٥٤. وقد احتضنت هذه الثورة كل سلالات الأدب الجديد فى القصة والشعر والمسرح التى ازدهرت فى أوائل الستينيات.

وكانت أبحاثه عن المعرى و«رسالة الغفران» فى عام ١٩٦٤ سببا فى تفجير معركة عنيفة من جانب الأستاذ محمود محمد شاكر... وهى من أشرس المعارك أو الهجمات التى شنت على لويس عوض فعلا. بل كانت أصلا لعدة معارك جانبية أعادت كل كتابات لويس عوض السابقة الى دائرة الضوء من جديد بدءا من ديوانه «بلوتولاند» الذى دعا فيه إلى الكتابة باللغة العامية سنة ١٩٤٧. المهم أن آراءه حول المعرى وأثر الثقافة الإغريقية فى «رسالة الغفران»، فسرت على أنها تشكيك فى أصالة المعرى وفى دينه، وتشكيك فى أصالة الثقافة العربية ككل.

وفى عام ١٩٧٨ دعا توفيق الحكيم إلى حياد مصر وطالب بأن تنفض يدها من مشاكل الأمة العربية وتعيش على الحياد كسويسرا وأيده فى هذه الدعوة الدكتور / حسين فوزى واختلف معهما الدكتور / لويس عوض، داعيا إلى مناقشة الأمر من خلال نظرة واقعية تضع فى حسابها أمن المنطقة كلها كوحدة جيوبوليتكية لاينفصل أمن دولة فيها عن الأخرى، ونشر مقالا بعنوان «الأساطير السياسية» يقول فيه إن أسطورة الدعوة الانعزالية لاتقل شططا عن الدعوة إلى الوحدة الاندماجية القائمة على العروبة أو العنصرية الملتهمة لكافة ما فى المنطقة من قوميات. وأغضب هذا الرأى بعض المتعصبين فكتبوا إليه يتهمونه بأنه يتكلم كالمبشرين الذين يسعون لنسف كياننا القومى والدينى. وكان رد لويس عوض «إن التفتيش فى ضمائر الناس عن دوافع خفية تدفعهم إلى اعتناق المبادئ والتعبير عنها بدلا من التركيز على الحوار العلمى الموضوعى يضعف الحجة ولايقويها، وهو خليق بمحاكم التفتيش التى انطوت فيما انطوى من تاريخ الإنسانية الحزين ثم سجل على هؤلاء أنهم تركوا الفاعل الأصلى فى دعوة العزلة المصرية عن العرب وهو ثنائى توفيق الحكيم وحسين فوزى وأمسكوا بتلابيب المتوسط المعتدل الذى يرفض الاعتزال والاندماج جميعا».

(معاتبات قومية - الأهرام - ٢٠/ ٤/ ١٩٧٨).

يدخل فى صلب هذا الموضوع أيضا كتاب «مقدمة فى فقه اللغة العربية» وفيه يحاول لويس عوض إثبات أن الأمة العربية حديثة الظهور نسبيا وأن اللغة العربية هى أحد فروع شجرة اللغات الهند - أوروبية. والكتاب يعد محاولة أصيلة وجريئة لوضع أساس علمى لدراسة فقه اللغة العربية، إلا أن الكتاب لم يتعرض لمناقشات علمية جادة. فقد تدخلت النيابة العامة بناء على مذكرة من لجنة البحوث بالأزهر وصادرت الكتاب.

المهم أن هذه المعارك قد أصبحت جزءًا من تراث حياتنا الفكرية والثقافية كما أنها ارتبطت بهذا المفكر ومواقفه الفكرية والسياسية، وأصبح من المستحيل إجراء أى دراسة موضوعية لإنتاج الرجل سواء فى مجال الفكر والنقد أو فى مجال الإبداع بالنسبة لمسرحية «الراهب» ١٩٦١ وقصة «العنقاء» سنة ١٩٦٦ أو ديوان شعره السالف الذكر.. دون دراسة هذه المعارك وتحليل هذه الانتقادات التى وجهت إليه.. والتى تطرق الأمر فيها إلى اتهامه بالعمالة لمراكز التبشير والاستعمار العالمية... وبالعمل ضد العروبة والاسلام على اعتبار أنه مسيحى لايؤمن إلا بالقومية الفرعونية لمصر.. أو على اعتبار أنه مستغرب يؤمن بالفكر الليبرالى العلمانى الغربى.. ويحتقر كل ما هو عربى وشرقى مثل أستاذه سلامه موسى.

الواقع أن لويس عوض مفكر من طراز فريد يستعصى على التصنيف وأى محاولة تضعه فى خانة غلاة اليسار أو غلاة اليمين لن تجد لها سندًا مؤكدًا وسوف تعبر عن قراءة ناقصة ومبتورة لإنتاج لويس عوض الغزير.



وبدأت يقظة لويس عوض مع يقظة الشعب الكبرى على نداءات الثورة عام ١٩١٩، كانت يقظته مبكرة إذ تنبه عقله وهو طفل فى الرابعة من عمره على هتافات الثورة «تحيا مصر»

---

١ - «أوراق العمر»
لويس عوض
القاهرة - مكتبة مدبولى ١٩٨٩.

٢ - «دراسات فى الحضارة»
لويس عوض
القاهرة - دار المستقبل ١٩٨٨.

.. أو «المعلم العاشر»

«يحيا سعد»، «يسقط الإنجليز»، «الاستقلال التام أو الموت الزؤام». فأخذ يسمع مايقوله أبوه وأقاربه عن أحداث الثورة وتطوراتها. ولم تكن مداركه تسمح له أن يفهم معناها بوضوح ولم يتهيأ له ذلك إلا في مرحلة النضوج حين عاد لدراسة هذه الأمور التى بقيت عالقة بذهنه، ومن هذه الذكريات أن طالبا قبطيا بكلية الطب اسمه عريان يوسف سعد حاول اغتيال رئيس الوزراء القبطي يوسف وهبه باشا في ١٥ ديسمبر ١٩١٩.

وكان يسمع عمه حبشي وابن عمه يحمدان الله أن هذا الطالب كان قبطيًا. فلو كان مسلما لتكررت مأساة رصاصات الوردانى التى قتلت بطرس باشا غالى فى ١٩١٠ فقسمت البلاد إلى قسمين وكادت أن تؤدى إلى فتنة طائفية. وكانا يشيدان بالوحدة الوطنية التى بناها سعد والوفد المصرى ـ كما كان يسمع أن بعض المتعصبين من المسلمين كانوا يضعون الصلبان على بيوت المسيحيين فى بعض أحياء المدينة تمهيدا للقيام بمذبحة طائفية يفتكون فيها بالأقباط.

وكان والده يرجع ذلك كله إلى مؤامرات الإنجليز، ويقول إن لهم ماضيًا عريقًا فى إثارة الفتن الطائفية بين الهندوس والمسلمين فى الهند، وأنهم يجربون سياسة «فرق تسد» التى نجحوا فيها فى الهند. لكن رقى المصريين جعل مؤامراتهم تفشل. فوعى عريان سعد هو الذى جعله يتطوع للتصدى لرئيس الوزراء القبطي. (أوراق العمر ص ١٢١).

سأل لويس عوض أباه حين نفى سعد زغلول فى المرة الثانية إلى سيشل سنة ١٩٢٢، بعد خطبته ضد عدلى التى قال فيها إن «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس»: مادامت الناس تحب سعد باشا، فلماذا لايعين الملك فؤاد سعد باشا رئيسا للوزراء فيتكلم سعد باشا مع الانجليز بدلا من عدلى باشا؟

وأجابه أبوه: «الملك تركى وعدلى يكن باشا تركى وعبدالخالق ثروت باشا تركى وتوفيق نسيم باشا تركى وأحمد زيور باشا تركى وحسين رشدى باشا تركى، ومحمود سعيد باشا تركى وأحمد مظلوم باشا تركى، الباشوات الأتراك وحدهم هم الذين يحكمون مصر، أما سعد باشا وزعماء الوفد فهم فلاحون وأبناء فلاحين، وأبناء الأتراك لن يسمحوا لأبناء الفلاحين بحكم بلادهم. وبعض هؤلاء الباشوات الأتراك وطنيون لأنهم لايعرفون لأنفسهم وطنا غير مصر، لكن بعضهم يكرهون المصريين ويحتقرونهم ويعتبرونهم من جنس آخر خلقوا ليكونوا عبيدًا وخدما عند الأتراك.

وهكذا انفتحت عينا الصبى على البعد الطبقى فى قضية النضال الوطنى، وعرف أن الفرق بين مايسمونه «التطرف الوطنى» «والاعتدال الوطنى» فى ثورة ١٩١٩ هو الفرق بين من كانوا يملكون ثلاثمائة فدان مثل سعد زغلول ومن كانوا يملكون ثلاثة آلاف فدان مثل عدلى يكن: تماما كما كان الأمر أيام عرابى (٥٠٠ فدان) وسلطان باشا (٥٠٠٠ فدان).

وعندما نضج لويس عوض عرف أن ثورة ١٩١٩ كانت فى حقيقتها استكمالا لثورة عرابى فى ١٨٨٢ ولم يكن مصادفة أن زعيمها العظيم سعد زغلول كان آخر العرابيين، وأن يوسف وهبه باشا الذى اختير فى ١٩١٩ رئيسا للوزراء ليقضى على ثورة ١٩١٩ كان قبل ذلك بستة وثلاثين سنة قد عين سكرتيرا للجنة التحقيق مع العرابيين فى ١٨٨٣ أى أن أعداء الثورة العرابية كانوا لايزالون يطاردون ثوار ١٩١٩.

هذا هو الاكتشاف الهام الذى توصل إليه لويس عوض من قراءته للتاريخ وكان له أكبر الأثر فى انتماءاته الفكرية والسياسية فيما بعد؛ إذ ثبت له من هذه القراءة أن الانتماء الطبقى والمصالح المشتركة هى التى تجمع يوسف وهبة باشا وعدلى يكن باشا وبقية الباشوات الأتراك والملك فى معسكر واحد ضد مصالح الشعب المصرى أو أبناء الفلاحين، حتى لو دفعهم ذلك إلى تبعية الاستعمار الأجنبى ممثلا فى الإنجليز. وأمام هذه المصلحة الطبقية تنمحى فروق كثيرة، وتتوارى خلفها اختلافات أخرى ومنها الاختلاف الدينى أو الطائفى. فالخط الطبقى يمثل خط القتال الأول وعنده تتم المواجهة الحقيقية. هذا هو الاكتشاف المهم وعلينا أن نتابع لويس عوض فى استقصائه حتى يربط بينه وبين الصراع الحقيقى من أجل استقلال مصر من الإنجليز والأتراك.



يقول لويس عوض:

«عندما قرأت كتاب» مصر الحديثة (١٩٠٨) للورد كرومر بعد عشرات السنين أدركت أن حكاية الترك والفلاحين حكاية قديمة وأن كرومر نفسه وكثير من الإنجليز كان يعتقد صراحة أن الباشوات المصريين غير صالحين لحكم بلادهم بسبب جهلهم وادعائهم وتعصبهم وفساد ذممهم واعتمادهم على المحسوبية فى كل الأمور كما قال فى كتابه.

وحين قرأ لويس كتاب كلوت بك «لمحة من تاريخ مصر» ١٨٤٠ وجده يردد رأى محمد على فى المصريين أنهم جنود ممتازون ولكنهم قادة أردياء. فقد كان محمد على يرى أن الضابط المصرى حين يبلغ رتبة البكباشى (المقدم) يسوء سلوكه فيجنح إلى الشغب من جهة ويتصرف تصرفات لاتليق بهيبة مركزه من جهة أخرى. ولهذا فقد قرر محمد على عدم ترقية الضباط المصريين إلى رتبة البكباشى إلا فى أضيق الحدود. ويعلق لويس عوض على هذا قائلا:

«والأغلب أن الميل إلى الشغب الذى يتحدث عنه محمد على كان الجنوح إلى الثورة على الأوضاع ورفض وصاية الضباط الأتراك على الضباط المصريين. وقد حققت الأيام ظن محمد على حين قامت ثورة الاميرالايات بقيادة أحمد عرابى فى ١٨٨٢ ثم ثورة البكباشية بقيادة عبدالناصر فى ١٩٥٢» (أوراق العمر ص ١٥٠).

هكذا كشف لويس عوض عن اتفاق الرأى بين اللورد كرومر وبين محمد على فيما يخص المصريين جميعا. ولابد أن نلتفت إلى أن هذا الاتفاق ليس نابعا من تقييم موضوعى للمواطن المصرى وإنما نابع من رؤية معادية تعمد إلى التقليل من شأن المواطن المصرى وتبرير احتقاره واستغلاله من حاكم أجنبى هو محمد على أو اللورد كرومر ممثل الاستعمار الإنجليزى فى مصر. لقد جمعت بينهم غاية واحدة هى قهر هذا

لـويس عـوض

الشعب واستغلاله كما وحدت إرادة الحرية بين أحمد عرابي وسعد زغلول وجمال عبدالناصر على طريق الثورة الوطنية لتخليص مصر من سطوة الأتراك والانجليز على السواء.

ومن خلال هذا الصراع المحتدم على مدى أجيال، بدأت تتكشف له حقائق التاريخ والواقع فراح يمعن النظر في خريطة القوى ويتعرف على مواقع الأصدقاء والأعداء: إن أعداءه هم أعداء وطنه من الأتراك والانجليز وأعوانهم من أسرة محمد على والمرتبطين بهم من الأتراك والمتمصرين.

ولويس عوض ذو عقلية تحليلية تبحث دائما عن السبب وعن العلة وراء كل ظاهرة. وقد استنتج من هذه الأحداث أن الأتراك هم علة العلل في كل مآسي مصر مع التخلف والانحطاط الثقافي والاجتماعي. وجريمة الاحتلال التركي العثماني باستنزافه لثروة مصر وقواها الطبيعية والإنتاجية هي سبب الانهيار الذي شجع الغرب على مهاجمة مصر والدول العربية واحتلالها.

وفي هذا يكمن السر في تعاطف لويس عوض مع الجنرال يعقوب قائد الفيلق القبطي أيام الحملة الفرنسية على مصر ١٨٠١.

ومن الخطأ أن يفسر هذا التعاطف على أنه انحياز طائفي من لويس خليل حنا عوض ليعقوب حنا لأنه قبطي مثله. فهذا قياس خاطئ؛ لأنه قائم على رؤية مشوشة للتاريخ ولموقف لويس عوض أيضا. فلو كان الأمر عند لويس عوض هو أمر ارتباط ديني أو طائفي لسوى في تعاطفه بين يعقوب حنا وبين يوسف وهبه باشا القبطي أيضا. لكنه أدان يوسف وهبه باشا وكشف مواقفه في معاداة الثورة العرابية وثورة سعد زغلول واعتبره خروجا حقيقيا على إجماع الأمة التي سارت خلف سعد زغلول بعكس ما كان عليه الحال في زمن المعلم يعقوب إذ كان الشعب جماعات ممزقة مسحوقة تحت إمرة المماليك والأتراك الذين يستنزفون طاقته فسعى يعقوب لتخليص مصر من شرورهم واستعان بالفرنسيين لبناء قوة عسكرية تؤمن استقلال مصر. والحقيقة أن لويس عوض لم يكن هو صاحب هذا الرأى وإنما هو الدكتور محمد شفيق غربال الذى قاله في كتابه (الجنرال يعقوب والفرس لاسكارس ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١م):




«كان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط يمكن رجلا من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر في أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فسادا. أراد يعقوب أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية فكان سباقا إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من سر انتصار الغربيين في جودة نظمهم العسكرية فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان».

هذا هو الرأى الذى ردده لويس عوض عن المعلم يعقوب، والذى جر عليه الكوارث لأنه كما يقول «فتح دمل التعصب الديني في بعض المثقفين المصريين فطفح كل ما فيه من قيح على السطح، وسوف يحاسب التاريخ الرجعية العربية حسابا عسيرا لأنها سجدت أمام التمثال الذى أقامه شفيق غربال للجنرال يعقوب ثم مزقتنى إربا لمجرد أنى رددت آراءه وترجمت وثائقه» ثم يضيف:

«ونقادى لايستطيعون ادعاء الجهل لأنى أصلت لهم كل شيء عن الجنرال يعقوب في شفيق غربال فإذا كانوا قد رجعوا إليه ومع ذلك تعمدوا تمزيقى لطرحى قضية «يعقوب اللعين» بهذه الحيدة أو بشيء من التعاطف فإن هذا يثبت سوء نيتهم. وإذا كانوا لم يهتموا بالرجوع فهذا يثبت انحطاطهم لإصرارهم على الإدانة رغم وجود شهود النفي» (أوراق العمر ص ٥٩٧).

إن هجوم الرجعية العربية كان ومازال موجها ضد رموز النهضة المصرية ورموز التنوير والعقلانية لكن التركيز على لويس عوض كان مقصوداً به تنشيط وتسخين الفتنة الطائفية. ومن هنا جاء التأكيد على هوية لويس عوض الطائفية باعتباره قبطيًا يكيد للإسلام والعروبة على السواء.

والواقع أن لويس عوض مفكر إنساني النزعة، صاحب منهج عقلاني في النظر إلى أمور الفكر ومشكلات الواقع والحياة. فلا أثر عنده للتعصب الديني أو التحيز الطائفي. فهو يعترف في أكثر من مكان بدور الإسلام في تحرير العقل البشرى من الكهانة ومن سلطة رجال الدين، وإسقاط أى وساطة بين الإنسان وربه، كما يشهد للفكر الإسلامي بأثره في حركة الإصلاح الديني وظهور البروتستانتية في أوروبا، كما يشهد للفكر الإسلامي بانفتاحه على الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية ومساواته لجميع البشر دون تفرقة بسبب الجنس أو اللون أو الدين مما أتاح للعرب المسلمين التفتح على الثقافات الأخرى؛ وبناء صرح الحضارة العربية الإسلامية. وفي تحليل لويس للخلفية التاريخية والثقافية لعصر المعرى، يقرر سبق العرب والمسلمين لأوروبا.

فلا مجال للقول بأن لويس عوض يعادى الإسلام أو المسلمين كما يروج دعاة الفتنة الطائفية في مصر. والأصح أن يقال إن لويس عوض يعادى الدولة الدينية سواء كانت باسم البابوية أو باسم الخلافة الإسلامية. فالدولة الدينية تقوم على نظام شمولي يجلس على قمته حاكم مطلق يجمع بين يديه سلطة الدين وسلطة الدنيا أو قل يتحكم في رقاب الخلق وأمور الدنيا بما يضفى على نفسه من سلطة دينية، أو كما وصف السلطان الظاهر نفسه في رسالته إلى سلطان تونس بأنه «ظل الله في أرضه القائم على سنته وفرضه». (ابن خلدون) وهذا معناه أنه يحكم بالحق الإلهي، وليس من حق المحكومين محاسبته.

وهذا هو سر كراهية لويس عوض لكل نظم الحكم المطلق والشمولية سواء كانت فاشية أو نازية أو شيوعية أو دينية. ومن هذا المنطلق نفسه يرفض لويس عوض فكرة القومية العربية لأنها تتضمن إقامة كيان سياسى موحد أو إمبراطورية عربية على حساب القوميات الأخرى. ووفقا لفكر لويس عوض فإن هذه فكرة خيالية مستحيلة التحقيق على أرض الواقع إلا بقوة قاهرة لأن «المنطقة من الخليج إلى المحيط لم تتوحد إلا في ظل الاستعمار الامبراطورى من داخلها أو من خارجها أو في ظل الدولة الدينية الجامعة وإذا كان التوحيد بالخلافة غير مطروح في زماننا، وإذا كان الاستعمار من الخارج مرفوضا رفضا باتا، لم يبق أمامنا إلا الاستعمار الامبراطورى من داخل العالم العربي. وأنا أسمى الأشياء بأسمائها: قوة عظمى من داخل العالم العربي لها قدرة الاحتياج والتوحيد تحقق «وحدة الإقليم» هذه يسمونها «الوطن العربي» بعبارة أخرى «تجربة محمد على وعبدالناصر» (دراسات في الحضارة ص ٢٣).

وأعتقد أنه بعد مغامرة صدام حسين واجتياح الكويت وما ترتب على ذلك من حروب وتدمير لم تبق هناك حجة لمن يريد أن يشكك في تحليل لويس عوض لهذه «الأسطورة التى ترتكز على خرافة» البعث العربي «وإحياء مجد الامبراطورية العربية أيام الفتوحات العربية العظمى».

إن إيمان لويس بمصر أو بالوطنية المصرية لم يدفع به إلى العزلة كما يزعم البعض. فحين دعا توفيق الحكيم إلى حياد مصر على الطريقة السويسرية وأيده في ذلك الدكتور حسين فوزى نجد أن لويس عوض يرفض هذه الدعوة الانعزالية الوهمية ويقول:

«فهذه الأسطورة الانعزالية لاتقل شططا عن أسطورة أخرى هي أسطورة الاندماجية المتمثلة في دعوة القومية العربية التى تفرض أن شعوب المنطقة أو أقوامها من الخليج إلى المحيط «أمة واحدة» ليس فقط ثقافيا وحضاريا ولكن عرقيا وعنصريا كذلك».

فاوهام الحياد السويسرى مرفوضة عند لويس عوض لأن «توفيق الحكيم ومن ذهب مذهبه يتجاوزون عن حقيقة من أهم حقائق الحياة والتاريخ ألا وهي الحقيقة الجيوبوليتيكية (الجغرافية السياسية) التى تربط مصر راضية أو كارهة بالمنطقة العربية وبالمنطقة الأفريقية وهي حقيقة الأمن القومي المصرى البحت. وبناء على هذا يدعو الجميع إلى الواقعية السياسية في الداخل والخارج حتى يدرك الجميع «أن هناك قضية واحدة تجمعهم غاية ماتكون من الخطورة والخطر، ألا وهي قضية أمنهم القومي فرادى ومجتمعين» ثم يزيد الأمر وضوحا فيقول:

«ولكن نحس بضرورة التضامن من أجل الأمن المشترك وأمن كل دولة عربية على حدة، ليس من اللازم أن يكون بيننا وبين بقية العرب بعضهم أو كلهم «جيش واحد وميزانية واحدة» بلغة توفيق الحكيم، أو وحدة اندماجية كوحدتنا التى قامت ثم فشلت مع سوريا، وليس من اللازم أن يعطينا السعوديون أو الليبيون بترولهم وأن يأخذوا نيلنا ورجالنا، وليس من اللازم أن نحكمهم من القاهرة كما فعل عبدالناصر مع سوريا أو أن يحكمونا من الرياض أو طرابلس، وإنما يكفى أن نتعامل بشرف وطنى وقومى وشخصى على إدراك تام بأن كل مانبذله من أجل الأمن هو في حقيقته من أجل أمن كل منا على حدة». (دراسات في الحضارة ص ١٤).

هذه رؤية مفكر واقعى صادق البصيرة استخلصها من تحليله لأحداث الماضى والحاضر وأعلنها بصراحة عارية دون لف أو دوران، وليت العرب قد قرأوه بروية واستخدموا عقولهم بدلا من حناجرهم وأدركوا أن قضية الأمن القومى لاتتجزأ ولكنها لاتتحقق بالغزو والاجتياح وإنما تتحقق حين يصبح لرجل الشارع دور في تحمل المسئولية والمشاركة الفعلية فيها.

فكرة الديمقراطية إذن فكرة أساسية عند لويس عوض تأصلت في عقله ووجدانه منذ نعومة أظافره، بفعل النشأة في جو أسرة علمانية الفكر ليبرالية السلوك، تؤمن إيمانا راسخا بمقولة سعد زغلول «الدين لله والوطن للجميع».

وكان جو التعليم عموما مهيئا لترسيخ أسس الاستنارة والعقلانية، وهذا مايكشفه من



لويس عوض

خلال مقارنته بين تجربتين فى التعليم حيث ألحقوه بين الخامسة والسابعة من عمره بمدرسة الفرير ورأى كيف يعاقب التلاميذ.

مرحلة التكوين العقلى والثقافى:

يقول لويس عوض:
«وقد تركت فىَّ هذه القسوة فى التربية الدينية عند الفرير ذكريات غير سعيدة، ولاسيما حين كنت أقيسها بالتربية المتمدنة فى مدرسة المنيا الابتدائية الأميرية ومدرسة المنيا الثانوية الأميرية، أما فى مدرسة المنيا الثانوية - فقد توقفت دراسة الدين وحلت محلها دراسة «التربية الوطنية». و «علم الأخلاق» منذ السنة الأولى وفقا لنظم التعليم فى فرنسا والولايات المتحدة وغيرهما من البلاد التى تحظر دساتيرها تعليم مادة الدين فى المدارس لأنها تعتبر أن التربية الدينية هى من اختصاص المؤسسة الدينية التى ينتمى إليها الفرد، وليست من اختصاص الدولة التى يتساوى أمامها جميع أبنائها أيا كانت أديانهم أو مذاهبهم الدينية أو اللادينية، إن التعليم الدينى فى المدارس، إن لم يعزز التعصب الدينى بين الصغار، فهو على الأقل يعمق الإحساس بالفوارق بين المواطنين» (ص ٢٥٦ - ٢٥٧).

والباحث فى نشأة لويس عوض وتكوينه الثقافى ليعجب أشد العجب، إذ يجد أن أفكاره الأساسية تستمد أصولها من جذور ممتدة فى أغوار التاريخ الثقافى لمصر، كما تستمد جذوتها المتقدة دوما من نبض حركة التنوير العقلانية التى بدأها الشيخ رفاعة الطهطاوى وتلاميذه فى حياة مصر عن طريق التعليم والترجمة والنشر، وكان أكثر الكتاب تأثيرًا فى تكوينه العقلى والأدبى هم العقاد وسلامة موسى وطه حسين.

واللافت للنظر هنا، أن مدخل لويس عوض إلى هؤلاء الكتاب الثلاثة كان القضية الوطنية ومدى مشاركة كل منهم فى الكفاح من أجل الاستقلال والديمقراطية.كان عقاديا بسبب ارتباطه بالوفد فقرأ العقاد السياسى قبل أن يقرأ العقاد الأديب. «فلما أقام محمد محمود ديكتاتورية «اليد الحديدية» عام ١٩٣٨ وعطل دستور ١٩٢٣ إلى أجل غير مسمى بلغ الشعور الوطنى مداه، «تجلى أمامى العقاد كهرقل الجبار الذى كان يسحق بهراوته الشهيرة الأفاعى والتنانين وكل عناصر الشر»، أما علاقته بطه حسين فقد تأخرت بعض الوقت لنفس السبب، وبعبارة أخرى لأن طه حسين كان منتسبا للأحرار الدستوريين وهم خصوم سعد زغلول والوفد، وكان هذا مظهرا بل سببا للأزمة التى واجهها جيل الشباب فى تلك الفترة.

أزمة المثقفين:

كانت مشكلة لويس عوض بل مشكلة جيله من الشباب فى أواخر العشرينيات أن قيادة المثقفين، لطفى السيد وطه حسين وحسين هيكل والمازنى ومنصور فهمى ومحمود عزمى وعبدالعزيز فهمى، بل وأحمد شوقى وخليل مطران ومصطفى عبدالرازق، كانت معادية للطبقات الشعبية فى ثورة ١٩١٩ أو بتعبير أدق، معادية لقيادتها الوفدية صراحة، وأن قيادة المثقفين بوجه عام ربطت مصيرها بأحزاب الأقلية من الأرستقراطيين «العقلاء» لاسيما الأحرار الدستوريين الذين ربطوا مصيرهم بالملكية المستبدة وبمهادنة الإنجليز واقترنت أسماؤهم فى تاريخ كفاحنا الوطنى والديمقراطى بتعطيل الدستور وإقرار حكم الصفوة بالحديد والنار. «وبهذا اقترنت الثقافة والعقل والعلم فى أذهاننا بالانعزالية عن المد الثورى التحررى سواء فى وجهه الوطنى، أو فى وجهه الديمقراطى، وكان هذا هو المأزق الذى دخلنا فيه ولم يخرجنا منه إلا عباس العقاد».

جمع العقاد بين إمامة المثقفين وإمامة الثوريين وعلم لويس وجيله أنه «لاتعارض بين الثقافة والثورة بل وعلمنا كيف يكون المثقفون هم طليعة الثوار. ومن هنا قد تجسم العقاد وحده فى وجداننا كعقل بطولى جسور ومعقل شامخ يلوذ به الأحرار. فلما انشق طه حسين عن الأحرار الدستوريين وانضم إلى صفوف الشعب فى أوائل الثلاثينيات وشارك العقاد فى تقويض ديكتاتورية إسماعيل صدقى، أصبح للكفاح قطبان شامخان وخرج المثقفون نهائيا من ذلك المأزق الذى أدخلهم فيه منطق الأحداث فى العشرينيات وتبلور فى مصر لأول مرة فى تاريخنا ذلك المعنى الرائع وهو أن مكان المثقفين ينبغى أن يكون دائما فى طليعة الكفاح الثورى» (ص ٢٥، ٢٦).

وهكذا بانضمام طه حسين لقيادة الكفاح الثورى، سقط الحجاب الذى كان يفصله عن لويس عوض وأصبح العقاد وسلامة موسى ثم طه حسين هم أساتذته الكبار فى الفكر والأدب.

فإذا كان العقاد قد علم لويس عوض وجيله «أن المثقفين هم طليعة الثورة وأنه لاتعارض بين الثقافة والثورة»، فإن سلامة موسى هو الذى وضع أمام ذلك الجيل أهم القضايا العلمية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التى «كانت مدار البحث الانسانى فى بلاد العالم المتحضر وربطنا بتيارات الفكر العالمى الحى فجعلنا نحس بأننا أحياء» (مقالات فى النقد والأدب ص ١٠٦).

لم تقف علاقة لويس عوض بهؤلاء عند القراءة بل امتدت عن طريق اللقاءات المباشرة حتى وصلت إلى درجة العلاقة الحميمة والتلقى المباشر على أيديهم والتردد المنتظم على صالوناتهم منذ حضوره للقاهرة للالتحاق بكلية الآداب سنة ١٩٣١.

الانتماء إلى نادى الثقافة الرفيع:

خرج لويس عوض من لقائه الأول بطه حسين والعقاد تملأه مشاعر قوية هى مزيج من الزهو والثقة بالنفس. إذ اكتشف فجأة أنه ينتمى بحق إلى هؤلاء العمالقة العظام حيث يقول «لقد أدركت رغم لجلجتى ولهجتى نصف الصعيدية أننى أنتمى بحق إلى هذا النادى الأدبى الرفيع، فدخلته آمنا فى سلام».

«وفى يناير ١٩٣٣ التقى صدفة فى شارع إبراهيم باشا بأحد أقاربه من أبناء شارونة يدعى يعقوب فام وكان يعمل سكرتيرا لجمعية الشبان المسيحية ؛ فأخذ لويس معه إلى مقر الجمعية وعرفه بسلامة موسى وهكذا شاء له حظه الحسن أن يلتقى بثالث العمالقة دون سابق موعد. وهو يصف انطباعاته قائلا:

«بقدر ماوجدت طه حسين مهيبا وعباس العقاد شامخا وجدت سلامة موسى متواضعا، كان غزير العلم فى غير تكلف...، ولم تكن هيئته تدل على شيء: كان يمكن أن يكون مدرسا بالمدارس الثانوية أو طبيبا أو رئيس مصلحة حكومية. ولكن ما إن يبدأ فى الكلام حتى يتدفق علمه الموسوعى ويتجلى ذكاؤه الحاد كالنصل القاطع» (أوراق العمر ص ٤٦٢).

كان سلامة موسى قد نذر نفسه لتربية الشباب وتنويره فتلقى لويس عوض بصورة أرحب وأعطاه من وقته وجهده الشيء الكثير. فلم يكتف بتوجيه تلميذه إلى قراءة مسرحيات برنارد شو، بل أخذ يناقشها معه كل أسبوع، ويشرح له العلاقة بين الأدب والمجتمع ومعنى الواقعية الاشتراكية ومعنى الغابية.

وكان هذا غالبا هو أسلوب سلامة موسى مع تلاميذه وحوارييه الذين لايزالون يذكرونه ويشيدون بفضله، وهو أسلوب أو تقليد مصرى عريق فى التربية والتعليم بدأه حكماء مصر القديمة فى العصر الفرعونى، وسار عليه آباء الكنيسة القبطية والمعلمون فيها، وسايرهم فى ذلك النهج علماء الأزهر الشريف وكانت العلاقة بين التلميذ ومعلمه أو شيخه علاقة مباشرة وقوية، ترقى بالأستاذ إلى مراتب الأبوة المسئولة. وبهذا صار سلامة موسى هو مرشده الفكرى الذى يوجه خطاه إلى طريق واضح المعالم.

وعلى هذا كان دور سلامة موسى له أبلغ الأثر ليس فقط فى تنظيم حياته وتوجيهه إلى الاشتراكية، ولكن أيضًا فى دفعه للتفوق فى اللغة الإنجليزية وآدابها التى تخصص فيها بالجامعة. وهو دور يتضاءل أمامه تأثير الأساتذة الإنجليز والأجانب عمومًا بقسم اللغة الإنجليزية الذين وجدوا أمامهم شابا مصريا نبغ فى لغتهم فأولوه اهتمامهم كل فى تخصصه فكانوا يزودونه بالتوجيه والنصح وبالمراجع المطلوبة، ولويس عوض يذكر منهم ثلاثة بالفضل ويقول إنهم كانوا أشد أساتذته الإنجليز تأثيرًا فى تفكيره ومعتقداته وثقافته وذوقه واهتماماته وهم: كريستوف سكيف وبرين ديفيز وأوين هولواى، وكان سكيف أكبرهم أثرًا.

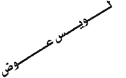
كان برين ديفيز BRYN DAVIES يعلم لويس عوض وزملاءه تاريخ انجلترا وتاريخ الفكر الانجليزى وكان اشتراكيا لا شبهة فى اشتراكيته، وكان من أبناء المدرسة التى تربط تطور الأفكار والمؤسسات بتطور اقتصاديات المجتمع ووسائل الإنتاج وأدواته. وكان ديفيز شديد الاهتمام فى محاضراته بأن يشرح لتلاميذه البطانة الدينية التى كانت تصاحب ظهور الطبقات وصراعاتها داخل المجتمع الإنجليزى.



أما المؤثر الكبير الآخر فى حياة لويس عوض العلمية والفكرية أيام الجامعة فكان الأستاذ أوين هولواى وكان متواضعا ودودا لكنه متحفظ فى مخالطة الطلاب. وكان علمه غزيرًا فياضا إذا بدأ بالكلام لايتوقف.

وأعتقد أن هولواى كان له دور مؤثر فى إسقاط تلك «التخوم بين الثقافات والحضارات وكل الحواجز بين الأزمنة والأمكنة» التى يتكلم عنها لويس عوض. وربما تم ذلك عن طريق تدريسه مبادئ النقد الأدبى وتحطيم نظرية القيم المطلقة وإحلال نظرية نسبية القيم محلها فى حديثه الطويل عن السيمانطيقا الجديدة. وكان الطريق الآخر هو تدريسه لمادة «المؤثرات الأجنبية فى الأدب الإنجليزى» فى قسم الامتياز. وهو الذى دل لويس وزملاءه على تأثير الأدب الفرنسى





الساحق على الأدب الإنجليزى فى كافة التحولات من مدرسة البلياد إلى تريستان كوربيه TRISTAN CORBIERE ولافورج ومارسيل بروست ومدرسة «المونلوج الداخلى» وتأثير الأدب الروسى على القصة الإنجليزية الجديدة.

ولاشك أن هذه الدراسة هى التى جذبت لويس عوض إلى الأدب المقارن فحاول تطبيق أسسه فى دراسة الأدب العربى والأدب المصرى على السواء وتحديدًا فى أبحاثه عن «المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث» وكتابه «على هامش الغفران» وكتابه «أسطورة أوريست والملاحم العربية» ثم كتابه «مقدمة فى فقه اللغة العربية» الذى قام الأزهر بمصادرته.

وهذه الدراسات والأبحاث هى التى أثارت على لويس عوض حملات شرسة وظالمة لم تتوقف حتى بعد رحيله عن هذا العالم.

وإذا كان ديفيز وهولواى قد أثرا فى شخصية الباحث والناقد عند لويس عوض، فإن سكيف كان له تأثير أكبر فى لويس عوض الفنان:

«وأعتقد أن سكيف كان أكبر مؤثر فى نموى الفنى خلال سنوات الطلب فى الجامعة».

كان سكيف كما يقول أقرب إلى الفنان منه إلى الأستاذ، وكان رخيم الصوت محبا لإلقاء الشعر وتمثيل المسرح، وكان مغنيا هاويا من طبقة الباريتون، وهو الذى علمه تذوق الشعر والنثر والمسرح. هذا بوضوح سر إعجاب لويس عوض وتقديره لأستاذه سكيف، والذى جعله يهدى ديوانه الأول والشهير «بلوتولاند وقصائد من شعر الخاصة» إلى سكيف، وليس هناك أى شىء آخر مما ذهب إليه الأستاذ محمود محمد شاكر وغيره عن علاقة سكيف بالمخابرات. وقد تعرض لويس عوض بصراحة لبقية الأساتذة الانجليز، وكان شديد الوطأة فى نقده لمثالبهم العلمية، وتناقضاتهم الأخلاقية ومنها العمل بالمخابرات. وليس أدل على ذلك من نقده اللاذع لمواقف أستاذه روبرت فيرنز رئيس قسم اللغة الانجليزية الذى اختار له موضوع «لغة الشعر فى النظرية والتطبيق فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى».

وكان فيرنز صاحب نفوذ كبير فى (كلية الملك) KING'S COLLEGE فى كامبريدج، فحجز له مكانا فى هذه الكلية التى كان يحجز فيها اللوردات أماكن لأولادهم عندما يولدون. ومع ذلك لم يسلم من نقده أو سخريته لأنه انتقل من رئاسة قسم اللغة الانجليزية إلى مكتب الرقيب العام فى وزارة الداخلية.

لكن هذا كله لايقلل من شان الدور الذى لعبه هؤلاء الأساتذة الإنجليز فى توسيع آفاقه وتعميق ثقافته وتربية حاسته التاريخية وإثراء أحاسيسه الفنية، باختصار فى إعداده كباحث وناقد وأستاذ فى الأدب. فقد التهم لويس عوض على أيديهم ـ كما يقرر ـ حضارة أوروبا وتاريخها وآدابها من الإغريق والرومان والعصور الوسطى حتى العصر الحديث، إلا أن الإطار الفكرى لرؤيته الثقافية والاجتماعية والسياسية قد تشكل أساسا من ارتباطه بثورة ١٩١٩ وكتابها ومفكريها كالعقاد وسلامة موسى وطه حسين.

وقد قرأنا أن أستاذه العلامة برين ديفيز كان اشتراكيا وهو الذى أعار لويس عوض كتاب «رأس المال» لكارل ماركس وقرأه وأن أستاذه أوين هولواى الشيوعى الغارق فى أدبيات المادية الجدلية هو الذى أعاره ثلاثة كتب لانجلز هى «ديالكتيك الطبيعة» و«الرد على دورنج ANTI DUHRING وكتاب «رسائل عن فيور باخ» وعرفه ببوكانين وبولخين وأعطاه كذلك كتاب جون ريد «عشرة أيام هزت العالم»، لكن ميله إلى الاشتراكية كان سابقا على دخوله الجامعة بتأثير سلامة موسى الذى نما فى لويس عوض ـ عقلية المفكر الاجتماعى بمؤلفاته وبـ «المجلة الجديدة».



وسلامة موسى هو الذى عرفه بتاريخ مصر القديمة ـ فقد كان على حد قوله من دراويش مصر الفرعونية، فأيقظ عنده الاعتزاز بهذه الحضارة العظيمة. ولويس عوض يقول إن قريته «شارونة» كانت عاصمة لمصر القديمة بل لعلها كانت مركز تجميع الثوار أيضا فى تلك الفترة البعيدة. وكان أهل شارونة يحسون بهذا الشعور الوطنى إحساسا قويا حتى أن بعض العوضية (أسرة لويس عوض) يتصورون أحيانا أنهم أحفاد الفراعين العظام، ويرتبط هذا بالتاريخ الحديث حين نعرف أن محمد عبدالصمد عمدة شارونة، كان من أبطال ثورة عرابى المطاردين.

فكل شىء فى حياته الفكرية يجرى على رقعة التاريخ الوطنى لمصر. فالفرعونية لم تكن ميتة، وأحياها سلامة موسى. كانت فقط مطمورة بفعل حكم أجنبى جائر لمئات السنين، لكنها كانت حية ضمن تقاليدنا الثقافية والاجتماعية، وجاء فك رموز حجر رشيد ومعرفة حروف اللغة الهيروغليفية بمثابة البداية لقراءة الآثار المكتشفة والتوثيق الصحيح لمنجزات هذه الحضارة التى لازالت تبهر العالم كل يوم.

وقد ثارت معركة الفن القومى فى الثلاثينيات بمناسبة بناء ضريح سعد زغلول فطالب البعض بأن يكون طرازه إسلاميا، ولكن الرأى الذى انتصر كان بناؤه على الطراز الفرعونى، وهذه هى الفترة التى بنيت فيها محطة الجيزة وفيلا عثمان محرم فى شارع الهرم.

وفتح باب الجدل حول شخصية مصر بين العروبة والفرعونية وحضارة البحر المتوسط. وقد شارك فى هذا الجدل أكبر أعلام الفترة. شارك فيه طه حسين وسلامة موسى وهيكل والعقاد. وقد كانت دعوة ساطع الحصرى للقومية العربية أحد مفجرات الجدل فى هذه القضية ـ والمعركة لاتزال مفتوحة إلى اليوم بعد عشرات السنين وبضراوة أشد.

مايهمنا فى ذلك كله هو هذا المناخ الثقافى والسياسى الذى تشكلت فى ظله الخطوط الأساسية لفكر لويس عوض، فى فترة دراسته بالجامعة بين ١٩٣٣ و١٩٣٧ قبل سفره لإنجلترا للحصول على الماجستير.

لم تكن الفرعونية إذن أفكارًا خيالية يروج لها سلامة موسى بل كانت واقعا ثقافيا وشعوريا حيا يترجم نفسه فى حياة الشعب وقواه الحية ويعبر من خلال الجماهير والقيادات الثقافية، ويفرض نفسه فى جو الحرية الليبرالية السائدة آنذاك.

وبالنسبة للأدب العربى فلم يكن لدى سلامة موسى مايعطيه لدارس مثل لويس عوض لأن سلامة موسى كان يرى أن الأدب العربى القديم فى معظمه نتاج عصور الانحطاط فهو أدب ملوكى كتب لتسلية الحكام والسلاطين وليس فيه اعتبار للإنسان الفرد ولا للشعب. وهو أدب يعادى الثورة والتقدم. لذلك ابتكر لويس عوض طريقة للتثقيف الذاتى اعتمد فيها على النقد الذى كان ينشره العقاد وطه حسين.

ومن الملاحظ أن علاقته بهذين العملاقين لم تستمر على مستوى واحد، ففى الوقت التى بدأت فيه هذه العلاقة تقوى وتتوثق بطه حسين، نجدها قد أخذت فى الذبول أو الضعف مع العقاد، وكان ذلك بسبب تعاظم دور طه حسين فى قيادة المثقفين ودفاعه القوى عن استقلال الجامعة.

فنحن نعرف أن لويس عوض تعلق بالعقاد فى شبابه لأنه كان أكبر مدافع عن مبادئ الحرية والاستقلال والديمقراطية كما كان رائداً من رواد التجديد فى الشعر الحديث. فقد أنشأ هو والمازنى وشكرى مدرسة الديوان التى دعت إلى هجر القصيدة التقليدية وشعر المناسبات الذى كان يمثله شوقى إلى شكل حديث للقصيدة يتيح للشاعر أن يعبر عن مشاعره وأفكاره بصدق. لكن الأمور تدهورت بين العقاد والوفد فطرد منه وانضم إلى خصومه تحت وطأة أزمة خطيرة جعلته يتنكر لكل شىء.

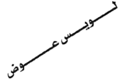


هكذا انفصمت العلاقة العاطفية والفكرية التى ربطت لويس عوض بالعقاد حين تنكر هذا الرائد لمبادئه، وإن كان لويس عوض يشهد للعقاد أنه ظل لآخر لحظة فى حياته ضد جميع النظم الشمولية كالشيوعية والنازية والفاشية الدينية على وجه الخصوص.

ومهما كان الأمر، فإننا نلاحظ من خلال ماكتبه لويس عوض، أنه فى مقابل التراجع الذى انحدر إليه موقف العقاد، نجد التصاعد السريع والفعال فى موقف طه حسين فى قيادة المثقفين. كان لإقصاء طه حسين عن الجامعة دوى عظيم فاضربت الجامعة شهرا أو يزيد. وتحول طه حسين إلى رمز لاستقلال الجامعة وصمودها أمام السلطة التنفيذية، ليس فقط بين المثقفين ولكن أيضا على المستوى الجماهيرى» (الحرية ونقد الحرية ص ١٠).

وكانت نقطة التحول المهمة فى حياة طه حسين وفى تحوله الروحى هى انتقاله من الأحرار الدستوريين معسكر الصفوة حيث كانت الحرية تعنى «العقل» المثقف لا حرية المجتمع بأشمل معانيه، كانت حرية الأستاذ فى أن يبحث وأن يفكر وأن يعبر وأن يتحدى كل قيد فرضته التقاليد المتحجرة أو عواطف الدهماء وجهلها. ولاشك أن طه حسين فى العشرينيات وماقبل العشرينيات، وجد فى مثقفى الأحرار الدستوريين من أمثال لطفى السيد وعبدالعزيز فهمى وعلى عبدالرازق ومحمد حسين هيكل، وهم مثقفو الأقلية المعزولة عن تيار الجماهير وربما فى بعض زعمائهم مثل عدلى يكن وعبدالخالق ثروت، وهم زعماء الأقلية المعزولة عن الجماهير، هذا الوفاء الذى يمكن أن يحمى العقلانية «المصرية





المتحررة»، بل وهذا العنصر الذي يمكن أن يتبنى مدرسة «التنوير» وقد أثبتت تجربة «الشعر الجاهلي» صدق اختياره كما أثبتت تلمذته ثم زمالته وصداقته للطفي السيد أن العقلانيين الأحرار في مصر كانوا قادرين بالفعل على إرساء التقاليد الجامعية الراقية وحماية البحث العلمي وتحرير المرأة بالعلم والتعليم. (الحرية ونقد الحرية ـ ص ١٢).

ولويس عوض كعادته لايترك شيئا دون دراسة أو تمحيص وهو يحاول أن يستقصى الأسباب الحقيقية لتحول طه حسين من معسكر الصفوة في حزب الأحرار الدستوريين إلى ماكانوا يسمونه بديمقراطية الرعاع في حزب الوفد ويقول إن أحدا لم يحاول أن يسبر أغوار هذه الفترة الغامضة في نمو طه حسين الروحي، والتي جعلت منه أكبر طاقة ثورية في كفاح مصر الثقافي الديموقراطي الليبرالي منذ ديكتاتورية صدقي الأولى عام ١٩٣٠. ويرفض أن يفسر تعاطف طه حسين مع الوفد في تلك المرحلة الدقيقة بأسباب شخصية، ويرى أن سبب هذا التحول في موقع طه حسين السياسي والاجتماعي هو إحساسه منذ آلت زعامة الأحرار الدستوريين إلى محمد محمود باشا ونظرائه بعد وفاة عدلي يكن وعبدالخالق ثروت أن هذا الحزب لم يبق منه إلا هيكله الخارجي، أما مضمونه الحقيقي فقد مضى وانقضى بذهاب جيل المستنيرين.

ثم يصل لويس عوض إلى لب الموضوع حين يقول:

«هكذا بموت عدلي يكن وعبدالخالق ثروت طار حلم الديمقراطيه الأثينية.. ذلك الحلم الذي طالما داعب خيال لطفي السيد وطه حسين وأرستقراطية مصر الفكرية، ولم يكن هناك بد من الاختيار المرير بين الملكية المطلقة المتعالية على حكم العقل والقانون وبين حكم الشعب. أما لطفي السيد وعلي عبدالرازق ومصطفى عبدالرازق فقد اعتزلوا السياسة بكل معنى حقيقي وعكفوا على العلم والتعليم وأما طه حسين فقد اختار جانب الشعب و «الدهماء» كما كان صدقي باشا يسمى رجل الشارع في مصر». (الحرية ونقد الحرية ص ١٤).



وباختصار أقول إن غرضي من الحديث ببعض التفصيل عن علاقة لويس عوض بالعمالقة الثلاثة العقاد وسلامة موسى وطه حسين هو البحث عن مراكز الاستقطاب أو بتعبير أبسط، جوانب الجاذبية الشخصية التي كانت تستهويه وتشده بقوة إلى هؤلاء الأقطاب، وما هي دلالة ذلك بالنسبة لشخصية لويس عوض.

فنحن نلاحظ مثلا أن هذه العلاقات قامت أساسا على أرضية الكفاح الوطني بما اكتنفه من مد وجزر في الفترة ما بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢. فنجد لويس عوض في وقت ما مهموما بمهمة التوفيق بين هؤلاء الثلاثة على المستوى الفكري ثم في وقت آخر، ومايمكن أن نسميه مرحلة الفرز والاختيار، نجده يفرق بينهم على المستوى الاجتماعي والفكري:

«كانت مشكلتي أن أوفق بين مثالية العقاد الجوانية المتعالية وأقانيمه المطلقة الشامخة، وبين مادية سلامة موسى العلمية الباردة، وبين عقلانية طه حسين المتاججة المركبة تركيبا غريبا من قوانين التوازن الكلاسيكي والاستقرار الكلاسيكي وقوانين الثورة على التوازن والاستقرار وكأنها جدلية عظمى متسقة ومضطربة ابتكرها فيلسوف مجهول تحول ظله في منطقة ما بين ديكارت وهيجل». (الحرية ونقد الحرية ص ٢٤).

لكنه وحد بينهم في الموقف من الدين. فهو يذكر أن سلامة موسى كان دائم الدعوة للاهتمام بدراسة حضارة مصر الفرعونية وكان عنده شموخ القبطي المتمسك بأصلابه الفرعونية حضارة وأمجادا. إلا أنه لايعتقد «أن سلامة موسى كان مسيحيا إلا بالميلاد. فقد كان يضع جميع أديان التوحيد في سلة واحدة، وكان يتكلم عن الثالوث الأوزيري كما يتكلم عن الثالوث المسيحي، وكان عاجزًا عجزًا تاما عن الميتافزيقا بسبب تكوينه العلمي فكان ينظر إلى كافة الأديان من وثنية وتوحيدية نظره إلى ظواهر أنثروبولوجية».

ويكاد يقول الشيء نفسه عن العقاد وطه حسين:

«وجدت سلامة موسى صريحا في اشتراكيته صريحا في زندقته، بينما وجدت العقاد زنديقا يغطي زندقته بمقولاته الفلسفية، فيؤله الشعراء ويسوي بين وحيهم ووحي الأنبياء ويجاهر بعدائه للاشتراكية وبدعوته للفردية، كان العمالقة الثلاثة زنادقة، كل على طريقته الخاصة. كانت زندقة العقاد من منطلق مثالي، وزندقة سلامة موسى من منطلق مادي، أما طه حسين فقد كانت آية زندقته كتابه «في الشعر الجاهلي» الذي قال فيه صراحة إن قصة إبراهيم وإسماعيل وبناء الكعبة ليست لها حقيقة تاريخية بل هي مناقضة للتاريخ. وكان رفضه وليدا للعقلانية والمنهج العلمي».

ويلاحظ هنا أن لويس عوض يستعمل كلمة «زنديق» كنوع من المعارضة الساخرة بقاموس الرجعية الدينية والمتطرفين منهم الذين ارتدوا مسوح كرادلة محاكم التفتيش وراحوا يفتشون في ضمائر الناس ويوزعون تهم الزندقة والكفر على كل من يخالفهم في الفكر. لكن لويس عوض وهو على النقيض تماما لا يدين أحدا من هؤلاء الأساتذة الأجلاء وإنما قصد إلى تصوير خروجهم على الفكر المعتاد أو التقليدي بالمصطلحات الشائعة ولذلك عاد إلى توضيح هذه النقطة فقال:

«فإذا كانت كلمة الزندقة جارحة فلنقل إن هؤلاء الثلاثة كان لهم فهم خاص للدين يختلف تماما عن المفهوم العام، فهو كإيمان الفلاسفة والعلماء بعد هتك الأقنعة الاجتماعية والفكرية» (أوراق العمر ص ٤٦٤).



ولانغالي إذا قلنا إن هذا التصوير يصدق على لويس عوض نفسه فيما يتعلق بالأديان، ولكن المهم في هذا السياق أن نادي المثقفين الكبار لم يكن يعرف للاختلافات الدينية أو التعصب أي أثر، بل كان يسوده جو الحرية الفكرية والتحرر العقلي والاستبسال في سبيل ترسيخ المناهج العلمية والتجريبية في التربة المصرية. وكان لجو الانفتاح العقلي تأثيره القوي على تكوين لويس عوض الفكري؛ فرسخ في وعيه هذه الليبرالية التي تشربها في وسطه العائلي في طفولته وصباه، وغرز فيه روح المحبة والتسامح لكل الشعوب والأجناس، وحماه من التطرف القومي والتعصب الديني. وكما يقول صديقه الدكتور شكري محمد عياد:

«لكن بكل تأكيد لويس عوض لم يكن إطلاقا متعصبا. وهو في رغبته الحميمة في التواصل تمنى أن تترك مسألة الدين جانبا وليكن لكل انسان اعتقاده الخاص وأظن أن هذا فهم راق جدا، وكان ينبغي أن يوافقه الجميع عليه حتى خصومه. لأن هذا شيء بين الإنسان وربه، فالذي يصلي متظاهرًا بالصلاة اسمه منافق عند المسلمين، فما قاله لويس عوض ليس فيه شيء يؤذي أحدا».

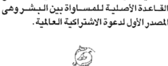
هذه إذن ساحة التوافق والتوفيق بين العمالقة الثلاثة كما صورها لويس عوض وكما انعكست على فكره ووجدانه.

كانت محاولة التوفيق ـ كما يقول ـ هي معاناة حياته في المرحلة الأولى لكن التطورات السياسية والاجتماعية على أرض الواقع وتبدل المواقع خصوصا بالنسبة للعقاد وطه حسين خفف من وطأة الحيرة عنده، ومكن له من الفصل بينهما على أساس سليم. باختصار انتقل العقاد إلى معسكر الرجعية فكريا وسياسيا، وبهذا خرج من دائرة اهتمام لويس عوض في الوقت نفسه تقدم طه حسين من بين الصفوة الفكرية إلى خضم العمل بين الجماهير، ووضع نفسه في جانب المقهورين والمعذبين في الأرض يعرض قضاياهم ويشير إلى الحلول وحين واتته الفرصة اتخذ أصعب القرارات وواجه أعتى قوى الانتهازية السياسية والرجعية الثقافية لكي يحقق مقولته ويجعل التعليم حقا لكل المواطنين شأنه شأن الماء والهواء.

في ظل هذا المناخ العام مال لويس عوض إلى رؤية تجمع بين العدل والحرية وتعطي الجانب الاجتماعي اهتماما خاصا وقد سماها بفلسفة الاشتراكية الديمقراطية. وهي رؤية تقوم على الالتزام بالإنسانية وحدها حيث يقول:

«نحن في حاجة إلى عقيدة جديدة هي عقيدة إنسانية أولا وقبل كل شيء، يكون فيها المفكر الإنساني والفنان الإنساني والسياسي الإنساني إلخ. ملتزمًا بالإنسانية وحدها التزامًا حرًا لا إكراه فيه هو التزام المحب بالشيء المحبوب». (المصر وللحرية ص ٥٥).

فإذا عرفنا أن محبوبة لويس عوض «السمراء» هي مصر... فمصر كانت وستظل هي قلب العالم وضميره (مسرحية الراهب) أدركنا أن هذه الرؤية تجمع بين الرومانسية والواقعية أي بين العالمية والقومية ومن ثم كان دأبه الدعوب تأكيد صحة هذه الرؤية عن طريق الأدب المقارن، فراح يبحث عناصر التأثر والتأثير بين الثقافات المختلفة ويكشف عن مظاهر هذا التأثر في الأعمال الأدبية مثل «رسالة الغفران» و«الكوميديا الإلهية» ليبرهن على وحدة الثقافة العالمية. فوحدة الثقافة العالمية عنده هي القاعدة الأصلية للمساواة بين البشر وهي المصدر الأول لدعوة الاشتراكية العالمية.



إنها رؤية تعتمد على الحب والتضحية والفداء، وترفض نزعات التفوق والاستعلاء أو التعصب القومي والديني. وهناك من يصف هذه الرؤية بالتوسط والاعتدال مثل الدكتور شكري محمد عياد (الهلال ـ أكتوبر سنة ١٩٩٠) حيث يقول:

«أما إذا أردنا أن نضع آراء لويس عوض في سياق الفكر العربي فأول ما يخطر ببالنا هو قربها الواضح من «تعادلية» توفيق الحكيم بل من تلك «الوسطية» أو التوفيقية التي يراها الكثيرون سمة مميزة. إن لم تكن السمة الأساسية، للفكر العربي الإسلامي. ولسنا نتوقع من هؤلاء أن يعدوا لويس عوض بين المفكرين الإسلاميين (ولو أنه في نظرنا قضية معقولة جدا) ولكننا نطلب منهم فقط أن ينصفوا الرجل وأن يقروا بأن أعماله النقدية تقع في منطقة القلب من ثقافتنا العربية الواحدة ولهم أن يصفوا هذه الثقافة بما يشاءون من الصفات». ■

كانت أبحاثه عن المعري «ورسالة الغفران» في عام ١٩٦٤ سببا في تفجير معركة عنيفة من جانب الأستاذ محمود محمد شاكر... وهي من أشرس المعارك أو الهجمات التي شنت على لويس عوض فعلا. بل كانت أصلا لعدة معارك جانبية أعادت كل كتابات لويس عوض السابقة إلى دائرة الضوء

الموسيقى العربية

سمحة الخولى

نشأ أغلب المطربين والملحنين فى أوائل القرن فى كنف الترتيل القرآنى والتواشيح الدينية والابتهالات التى ظلت المنبع الأصيل والحصين الذى حفظ للموسيقى العربية هويتها ومقاماتها. ومن هذا الأساس التقليدى الراسخ ينطلقون بعد أن يتمرسوا بقوام صنعتهم

تعرض العالم العربى فى القرن العشرين لتطورات وثورات تركت آثارها على الشعوب العربية التى يؤلف بينها جميعا ذلك الإطار العام للحضارة الإسلامية العربية. والعالم العربى يمتد جغرافيا من أقصى شمال أفريقيا غربا إلى غرب آسيا شرقًا، وتنضوى فى هذا الكيان الضخم - بجناحيه الشرقى والغربى - ثقافات محلية لكل منها سماتها وتاريخها ولهجاتها وتراثها، ونظمها الاجتماعية المتباينة. و لكنها مع ذلك تشترك جميعا فى تراثها الدينى وأهم ملامح تراثها الثقافى. وإن نظرة فاحصة لأمور العالم العربى فى نهاية القرن العشرين لتنطق بأبعاد ما تعرض له من تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية كبرى، أبرزها على الجانب الإيجابى اكتشاف النفط فى عدد من البلاد العربية، وما واكب ذلك من الطفرات الاقتصادية والاجتماعية والملابسات السياسية. فهو قد خلق فجوة ضخمة بين التراث والواقع المعاصر، ولازالت شعوب العالم العربى تجهد لاحتواء آثارها - بخيرها وشرها - وتسعى لتوجهها توجيها رشيدا.

وعلى الجانب السلبى كان إنشاء دولة إسرائيل فى قلب العالم العربى من أخطر تطورات ذلك القرن، إذ خلق أوضاعا سياسية ولدت حروبا متعاقبة واستنزافًا وانتفاضات، وكفاحًا مريرًا- تفاوتت أبعادها من قطر لآخر- وفى نفس الوقت عاشت المنطقة العربية عددا من الثورات وحروب التحرير والاستقلال والكفاح ضد الاستعمار فى ذلك القرن.

ولابد لنا أن نستقرئ شئون الموسيقى فى العالم العربى فى نهاية القرن العشرين لنرى هل حققت الموسيقى العربية نهوضا وازدهارا يتكافآن مع ما تحقق فى بعض مجالات الاقتصاد والعمران؟ وسنحاول هنا أن نلخص - قدر المستطاع - الإيجابيات والسلبيات فى الموسيقى العربية فى القرن المنتهى. لعل هذا التقييم يهدينا فى جهودنا للارتقاء بشتى مناحى الثقافة والفن، وفى سعينا للنهوض بالعالم العربى ليلاحق مسيرة تقدم متوازن رشيد يحفظ له هويته.



ومفهوم «الموسيقى العربية» يطلق على التقاليد الموسيقية المتوارثة عبر القرون فى هذه المنطقة العربية، وعلى الفن الموسيقى الراقى (وليس التلقائى الشعبى) الذى يمارسه فنانو الموسيقى ومحترفوها فى العالم العربى. وينبغى أن نشير هنا إلى أن صفة العروبة التى أصبحنا نؤكد عليها كثيرا فى السنوات الأخيرة - لا تلغى ما يضمه هذا التراث من عناصر موسيقية فارسية وتركية لها دورها فى تشكيله، وهذه العناصر الثلاثة قد انصهرت معا فيما يمكن أن يسمى «موسيقى الحضارة الإسلامية» فى جانبها العربى الشرقى.

وهذا التراث الموسيقى العربى التقليدى راسخ الجذور فى وعى الشعوب العربية التى تناقلته عبر سنوات (بل عبر قرون) عن طريق التواتر الشفوى، إذ إن التدوين الموسيقى لم يكن معروفا فى العصور الحديثة قبل بدايات القرن العشرين. وإن مما يدعو للعجب صمود هذا التراث الموسيقى الشفاهى على الزمن رغم غياب التدوين والتوثيق، كما أن مقطوعات التراث أصبحت غالبا مجهولة الملحن وهو ما يشير إلى أن هذا التراث قد أصبح ملكا مشاعا يجرى توارثه من جيل إلى جيل سمعيا وشفويا. أما كيف تناقلت الأجيال هذا التراث السمعى فإن الموسيقيين الناشئين ظلوا - حتى مستهل القرن العشرين - يأخذونه بالسماع والذاكرة عن شيوخ الفن، ومنهم كانوا يستمدون معرفتهم بأصول هذا الفن : أسماء وطوابع المقامات الهائلة العدد التى بلغت المائة أو كادت فى البلدان العربية، كما هو مسجل فى الكتاب المرجعى الكبير، كتاب مؤتمر الموسيقى العربية (الصادر فى القاهرة عام ١٩٣٣) (بلغ مجموع المقامات الشرقية ٩٥ مقامًا، منها ٥٢ مستعملة فى مصر وهى مستعملة أيضًا فى سوريا وحلب، وعدد المقامات المستعملة فى العراق وجزيرة العرب ٣٧، وفى المغرب العربى ٢٤)، وحتى هذا التعليم الموسيقى بالسماع والتواتر والشبيه بأساليب التعليم فى العصور الوسطى - لم تكن إمكاناته متاحة بسهولة فالمصدر الرئيسى للاستماع كان السهرات الغنائية فى بيوتات الأثرياء والتى كانت تتيح الفرص للناشئين لتكوين صنعتهم الموسيقية، وكان ذلك التعليم يعتمد فى المقام الأول على أريحية المعلم ورغبته فى الإفادة ثم على براعة الدارس وقدرته على التقليد والحفظ ثم الابتكار فيما بعد فى نفس ذلك الإطار الموسيقى التقليدى المستقر.

ومقامات الموسيقى العربية السائدة فى كل أنحاء العالم العربى- (وإن اختلفت أسماؤها)- توفر للملحن ظلالا مرهفة من الأجواء النفسية بفضل «لفتات لحنية» تميز طابع المقام، وهى لفتات لحنية مألوفة للمستمع العادى فهو يتعرف بسهولة على طابع مقام الصبا الشجى، وغيره من المقامات التى ترتبط فى أذهان المستمعين بلفتات لحنية مميزة، توحى بأجواء نفسية خاصة.

ومعروف أن هناك عددا من المقامات العربية يتكون من «البعد الكامل» (تون) و«نصف البعد» فقط، ولكن هناك عددا كبيرا آخر من المقامات العربية يتألف من هذين النوعين مع نوع ثالث هو «البعد الوسيط»، أى ما يعرف تجاوزًا بثلاثة أرباع الصوت وهو الذى يفرق بجلاء تام بين موسيقى الغرب والموسيقى «العربية» التى تتميز به. والعنصر الثانى الرئيسى فى الموسيقى العربية التقليدية هو الإيقاع، وهو كذلك يختلف عن الإيقاعات الغربية التى ظلت تعتمد على «الكم» التكرارى (ولم تتحرر من هذا الإيقاع الكمى الرتيب إلا فى القرن العشرين). أما الضروب الإيقاعية فى الموسيقى العربية فتعتمد أساسا على «الكيف»، كما أنها غالبا أحادية (عرجاء) ومنها ضروب بالغة الطول وتتراوح بين نبر قوى (دُمْ) ونبر ضعيف (تَكْ) وسكتات. فالموسيقى العربية إذن ذات عنصرين فقط (وليس ثلاثة كالموسيقى الغَرْبية).



وحصيلة الموسيقى العربية التقليدية - غنائية وعزفية - تتراوح إما بين تلحين «محدد الإيقاع»، كما فى الموشحات والطقاطيق والأدوار «الغنائية»، أو البشارف (جمع «بيشرو») وهى كلمة فارسية والسماعيات «المعزوفة - أو بين تلحين منساب «حر الإيقاع» (كما فى الموال والليالى والعتابا وما إليها فى الغناء، أو التقاسيم فى العزف).

وكانت فرق الموسيقى العربية التقليدية فى مطلع القرن «التخت» محدودة العدد فى آلاتها وهى العود والقانون والناى والكمان (بتسوية شرقية خاصة للكمان الغربى) مع آلة لضبط الإيقاع، وهذا التكوين المحدود هو الذى أضفى عليها بعض طابعها الحميم المرهف.

وقد نشأ أغلب المطربين والملحنين فى أوائل القرن فى كنف الترتيل القرآنى والتواشيح الدينية والابتهالات التى ظلت المنبع الأصيل والحصين الذى حفظ للموسيقى العربية هويتها ومقاماتها. ومن هذا الأساس التقليدى الراسخ ينطلقون بعد أن يتمرسوا بقوام صنعتهم، ثم يجتهد كل منهم ليبتكر بعد ذلك على نفس النسق التقليدى، بعد أن يدخل عليه ما تواتيه به موهبته وفنه من الابتكار اللحنى، أو يتوسع فيه مثلما فعل سيد درويش - فى أوبريتاته الستة والعشرين - والتى وفق فيها لبث شىء من الحيوية المقامية والإيقاعية والتعبيرية لتفى بمتطلبات العرض المسرحى، مع التزامه بالتعامل بنفس العنصرين الرئيسيين للتراث الموسيقى (اللحن والإيقاع). وظل «الغناء» الفن الموسيقى الوحيد الذى تعشقه الشعوب العربيه المحبة للشعر وللكلمة، وكان العزف ممهدًا ومكملاً له.

واحتفظ هذا التراث الموسيقى الفنى - بمكان الصَدارة فى المجتمعات العربيه بلا منافس، لأن الفنون الشعبية لم تكن موضع اهتمام، رغم دور الأغانى الشعبية فى الحفاظ على هوية كل قطر - فهى وسيلة للتواصل تحافظ على اللهجات - لغة وموسيقى - وعلى العادات والتقاليد والمناسبات الاجتماعية، كما تواكب دورة الحياة من الميلاد للموت.

ولم تنل الموسيقى الشعبية الاهتمام الجديرة به إلا بعد أن تهيأت لذلك ظروف وأحداث كبيرة كان أولها وأعمقها أثرا مؤتمر الموسيقى العربية.

المؤتمر الدولى لبحث أمور الموسيقى العربية:

كان انعقاد ذلك المؤتمر «الدولى فى مارس ١٩٣٢ حدثًا تاريخيًا بكل المقاييس (وكان د. محمود الحفنى سكرتيره العام) لأنه كان نقطة تحول حقيقية من الممارسة السماعية إلى محاولة الدراسة والتخطيط للمستقبل والتصدى للمشاكل المعقدة المحيطة بالنمو فى المستقبل، واشترك فى ذلك المؤتمر عدد كبير من أكبر الشخصيات الموسيقية فى الشرق والغرب ومُثلت فيه كل التخصصات العلمية من المؤرخين الموسيقيين وعلماء موسيقات الشعوب والمبدعين والمنظّرين من الشرق والغرب - وقامت لجانه السبعة بتقصى أمور الموسيقى العربية فى لجان هى: شئونها العامة - والمقامات والإيقاع (الأوزان) والتأليف (التلحين) - و«السلم الموسيقى» وهو فى صلب قضايا الموسيقى فكانت مهمة لجنة السلم «بحث مقادير الأبعاد السبعة (وانقسامها لأربعة وعشرين ربعًا) وتسهيل تسمية الأصوات والتوصل لأفضل طريقة لتدوين الموسيقى العربية» - ثم الآلات الموسيقية- وقامت لجنة «التسجيل» فيه بانتخاب أهم الموسيقات التراثية الفنية التى قدمتها الفرق الموسيقية المشاركة فيه من أنحاء العالم العربى، كما اهتمت للمرة الأولى بجمع «الموسيقى الريفية» الشعبية (بتعبير بارتوك)، بينما كرست «لجنة التعليم» أبحاثها للنظر فى أوضاعه وفى المعاهد والمناهج ووسائل إعداد المعلمين المؤهلين - أما اللجنة السابعة فكانت لجنة تاريخ الموسيقى والمخطوطات.

وبذلك المؤتمر بدأت خطوة حاسمة فى خروج الموسيقى العربية من إطار فكر العصور الوسطى إلى أعتاب القرن العشرين وإلى آفاق العلم والدرس والتخطيط، كما أنه ترك ذخرا ضخما من التسجيلات الموسيقية النقية للتراث التقليدى فى المشرق والمغرب قبل أن تمتد إليه عوامل التغيير، والمؤثرات الوافدة ونعرض فيما يلى لبعض من أهم التطورات التى أعقبت المؤتمر.

هذه الدراسة جزء من بحث طويل عن «حصاد الموسيقى فى القرن العشرين» ستنشره مؤسسة عبد الحميد شومان فى الأردن قريبًا.

الموسيقى تقوم بدورها في تكوين الطفل:

تزامن المؤتمر تقريبا مع نقطة تحول جذرية في أمور الموسيقى في البلاد العربية حين دخلت الموسيقى - أو على الأصح التربية الموسيقية - إلى رياض الأطفال لتسهم في إثراء وجدان الطفل وتكامل شخصيته ولتوفر له السعادة في مرحلة فطامه عن جو الأسرة، ولكي تهيئ الطفل لحسن تقبل الموسيقى والتمتع بها في المستقبل. ولم تكن هناك دراسات منظمة لتخريج معلمات الموسيقى واستعاض د. محمود الحفني عن ذلك في مصر بأصحاب الخبرة وبالتدريبات، إلى أن أنشئ في مصر معهد عال للبنات لتكوين مدرسات تربويات لتولى تعليم الموسيقى في مدارس الأطفال والمراحل التالية.



وبافتتاح ذلك المعهد تحولت دراسات الموسيقى من التعليم التلقيني بالتواتر السمعي، إلى مناهج ومقررات منظمة، جمعت بين عزف آلة غربية (هي البيانو كآلة للتربية الموسيقية) وآلة شرقية هي العود (للحفاظ على التقاليد الموسيقية المتوارثة) بالإضافة إلى عدد كبير من نظريات وعلوم الموسيقى والتربية وعلم النفس، وهي دراسة تمنح فيها شهادة عالية، في سابقة تاريخية ولكنها خلقت عددا من المشاكل التقنية، فعند تدريس هذه المقررات المزدوجة برزت قضية كيفية تدريس قواعد الموسيقى العربية بأساليب منهجية واضحة، بعيدا عن الحكم بالأذن والمزاج الشخصي اللذين ظلا حتى قبل مؤتمر سنة ١٩٣٢ معايير لتحديد البعد الوسيط (ثلاثة الأرباع المميز). وتمخضت هذه المشكلة عن اعتماد الأربعة وعشرين ربعا داخل الديوان الموسيقي كأبعاد متساوية القيمة، واستخدامها في التعليم وفي العزف، وإعداد كتب تعليمية تدون فيها الموسيقى العربية وقواعدها ومقطوعات تراثها بالنوتة الموسيقية، وإن ظل التدوين الموسيقي لهذا التراث مجرد هيكل عام بعيد عن الدقة المعروفة في التدوين الغربي، وذلك لطبيعة الدور الإيجابي الابتكاري المتجدد للمؤدي في الموسيقى العربية. وبهذا الحل التوفيقي (من توحيد قيمة أرباع الأصوات داخل الديوان) أمكن الجمع في ذلك التدوين «الهيكلي» لمقطوعات التراث بين فرصة التجدد الأساسية للتراث الشرقي، وبين شيء من دقة التدوين الموسيقي الغربي. وككل الحلول التوفيقية أدى هذا الحل فيما بعد إلى التضحية بما اعتبره المحافظون «النقاء المثالي» لأبعاد المقامات، كما ضحى التدوين نفسه بشيء غير قليل من حرية وابتكار المؤدي وخاصة في العزف الجمعي في الفرق والذي كان من السمات الأصيلة للموسيقى العربية وهو حل توفيقي مشابه لما سبق أن تبنته الموسيقى الأوروبية في النصف الأول من القرن الثامن عشر.





وسائل الاتصال الجماهيرى الغربية تأتى إلى الشرق :

من أهم سمات القرن العشرين سقوط حواجز الزمن والمسافات وتقارب أركان الأرض وسرعة انتقال وانتشار الاختراعات العلمية الجديدة فى أنحاء العالم. وعندما دخلت وسائل الاتصال الجماهيرى والنقل الميكانيكى للموسيقى إلى المنطقة العربية تغيرت أوضاع الموسيقى العربية تغيرات كبيرة، وذلك عن طريق الأسطوانات والراديو (والكاسيت وشريط التسجيل) والسينما والتليفزيون (والفيديو) وتوابعها، وصولا إلى الحاسب الآلى بآثاره على تدوين وتسجيل وسماع الموسيقى، إلى آخر هذه السلسلة المثيرة والمتعاقبة الحلقات بسرعة لاهثة.

قدمت شركات الأسطوانات الأوروبية للبلاد العربية منذ مطلع القرن العشرين. منذ حوالى ١٩٠٤ جاءت لمصر شركات جرامافون وبوليفون وأوديون وباثيه وغيرها، ثم امتد نشاطها لسوريا ولبنان والعراق، ووجدت لها سوقا رائجة فى تلك البلاد بأسطواناتها المعدنية الأسطوانية Cylinder (الكبابه). ولم تلبث شركات محلية أن دخلت حلبة المنافسة (مثل «سمع الملوك» و«بيضافون» وهى التى حققت نجاحًا عريضًا). ومن أهم ما حفظته تلك الأسطوانات المبكرة تسجيلات لكبار فنانى الموسيقى العربية التقليدية فى عصر من أزهى عصورها مثل : عبده الحامولى وزملائه وهى التى أعيد تسجيلها على المرحلة الأكثر تقدما وهى الأسطوانات ذات ٧٨ لفة، والملاحظ أن جل اهتمام شركات الأسطوانات انصب فى أول الأمر على الموسيقى العربية التقليدية الفنية وحدها وأبرز أعلامها. ولولا هذه الأسطوانات المبكرة لأُسدل الستار على فصل وعصر أصيل وقيم من تاريخ الموسيقى العربية ولاقتصر الأمر على تداول الأخبار الأدبية عنه دون أى توثيق مسموع!

غير أن التيارات الاجتماعية سرعان ما جرفت شركات الأسطوانات قرب العشرينيات (فى مصر على الأقل) فى اتجاه الأغانى المكشوفة المبتذلة والتى اتخذت الحكومة منها موقفا بفرض رقابة (أخلاقية) عليها، ولهذا يظن البعض أنه ربما كانت لتلك الشركات للأسطوانات أهداف سياسية خفية تسعى لتثبيط الهمم وصرف الجمهور عن شئون المجتمع الجادة، ومسايرة لمزاج اجتماعى ساد تلك الفترة وارتبط بنظرة دونية للموسيقى والغناء وأهدافهما ومع ذلك فالجانب الإيجابى للأسطوانات لا يمكن إنكاره...

فالموسيقى العربية التراثية مدينة لتلك الأسطوانات المبكرة (رغم رداءة المستوى الصوتى) بفضل حفظها التوثيقى المسموع والنادر لصورة أقرب ما تكون من النقاء للتراث الموسيقى وكبار فنانيه فى فترة زمنية مواتية وقبل أن تنهال عليه عوارض التحريف والتشويه فى العقود التالية.

ولم يكن بدء الإرسال الإذاعى بأقل أهمية بل كان مجالا لتطورات موسيقية بعيدة نذكر منها التخلى التدريجى عن الطابع البطئ فى سهرات الغناء المنزلية والتى كانت تستطيل بالتكرار والمد إلى ساعات - ومنها الالتزام بفترات زمنية محددة للغناء والموسيقى تحكمها «خريطة» البرامج، ومنها انفتاح الباب على مصراعيه لتقديم كبار فنانى الغناء والأصوات الجديدة واختيار النصوص وإسنادها للملحنين. ثم تكوين الفرق الموسيقية لمحطات الإذاعة. وإن جاءت غالبا بتكوينات أكبر عددا من «التخت» القديم، حيث أضيفت لها أعداد من الآلات الغربية الوترية (بغير هدف موسيقى محدد لأنها جميعا تعزف نفس الخط اللحنى المفرد، اللهم إلا إذا كان ذلك بهدف التقليد !).

وبرز للضوء، على استحياء قدر من الغناء الشعبى، ولو بصور محدودة الأصالة وفى برامج قصيرة متباعدة فى أول الأمر، وبذلك أسهمت الإذاعات بغرس بوادر الوعى بالغناء الشعبى.

وعندما اندثر المسرح الغنائى (بعد سيد درويش فى مصر) قدمت الإذاعة بديلا محدودا عنه هو «الصور الغنائية الدرامية» فى محاولة للربط بين فنون المسرح والغناء، فى محاكاة لما أنجزه سيد درويش (وغيره) من التعبير الموسيقى عن معانى الكلمات وأجواء المشاهد المسرحية، دون الخروج عن حدود اللغة الموسيقية التراثية بعنصريها، وإن لم تحقق تلك الصور نجاحًا يستحق الذكر.

وعُرفت الحفلات الغنائية العامة التى تواجه فيها المطربة (أو المطرب) الجماهير لأول مرة كما فى حفلات أم كلثوم الشهرية فى مصر والتى نظمتها لها الإذاعة فى البداية - وكان لتلك الحفلات العامة آثار إيجابية كبيرة على أساليب التلحين والأداء الغنائى ومستوى اختيار النصوص (بما فيها القصائد الرصينة) كما أثرت على أسلوب الاستماع وعلى مكانة الموسيقى فى المجتمع.

وكان بزوغ فن السينما من أخطر المؤثرات الخارجية على الموسيقى، وعندما أنشا طلعت حرب استديو مصر للسينما فى القاهرة أسهم بشكل غير مباشر فى وضع أساس لتطورات موسيقية جديدة إذ سمعت الجماهير الموسيقى التصويرية للأفلام، والتى بدأت بتجميع شذرات من الموسيقى الكلاسيكية الغربية، ولم يمض وقت طويل قبل أن يحاول بعض الموسيقيين المحليين، بخبرات محدودة فى التأليف الموسيقى حصلوها محليا - حاولوا أن يكتبوا موسيقات تصويرية مبتكرة للسينما وكان هذا إيذانًا بفتح مجال جديد للغة موسيقية محلية، لا تقتصر على اللحن والإيقاع وحدهما، بل تدخلها أفانين (ولو مبسطة) من تعدد التصويت (البوليفونى) والتلوين الأوركسترالى، ولقيت موسيقاهم التصويرية قبولا عند الجماهير العربية.



غير أن التأثير الإيجابى الخارجى المباشر على التلحين الغنائى جاء فى أواسط القرن مرتبطا بفن السينما، إذ أقبل المخرجون على مشاهير نجوم الغناء ليقدموهم فى أفلام صممت خصيصا لكى تبرز قدراتهم الغنائية (أما قدراتهم التمثيلية فكانت عادة محدودة) - ونجحت السينما بذلك فى اجتذاب جمهور الغناء العريض لأفلامها الغنائية التى حوّلت دفة التلحين الغنائى نحو مزيد من التحرر اللحنى والإيقاعى والتعبير العاطفى والتركيز الزمنى لطول الأغانى (حتى لا يتوقف التيار الدرامى)، مع مزيد من التأنق والتوسع فى التلوين الآلى حيث أضيفت للفرق العربية «ألوان» صوتية غريبة عليها وعلى الإطار الشرقى التقليدى، مثل آلات النفخ النحاسية الأوركسترالية أحيانا وآلات الأكورديون والكاستانيت من آلات الموسيقى الغربية الراقصة (كما فى «رومبا» جفنه علم الغزل). وبدا واضحا فى تلك الفترة أن الموسيقى العربية تتجه نحو مجالات جديدة بعضها قيِّم يمكن أن يزيدها ثراء والبعض الآخر يبدو وكأنه ينحدر بها إلى ما يقرب من جو موسيقى «الملاهى» الغربية! وفى إطار وسط بين الاثنين قدم «الرَحْبَانية» فى لبنان تطويرا دخلته بعض الهارمونية الغربية والآلات الأوركسترالية وأضفى عليه صوت فيروز صفاء وتأثيرا، وخاصة فى صرختهم البليغة للقدس والتى مازالت أبلغ ما سمع فى هذا المجال (ومع ذلك فإن بعض النقاد الغربيين يرون فى أسلوب هذا المزج بين اللغتين نوعًا من التهجين).

نظرة عامة على الموسيقى العربية عند منتصف القرن :

انتهت حالة الاستقرار والهدوء التى أقبلت بها الموسيقى العربية على القرن العشرين فقد تعرضت عند منتصفه لتحديات كبيرة، لم تكن بطبيعة الحال منعزلة عن تطورات اجتماعية وثقافية شاملة، ومن المفيد أن نوجزها هنا قبل أن نمضى لتناول التحولات الأعمق فى النصف الثانى من القرن :

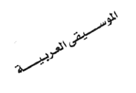
جاء التعليم المنهجى المدرسى للموسيقى بديلا عن التناقل بالتواتر الشفوى، وجلب معه أساليب فى التدوين وحلولا توفيقية تتصل بالأبعاد الربعية المميزة للطابع الشرقى العربى (السلم المعدل التسوية لأربعة وعشرين ربعًا) - ومزجت معاهد التعليم بين آلات غربية تتطلبها التربية الموسيقية وبين آلات عربية موروثة، وانحسر التخت والوصلة الغنائية الطويلة حتى اختفيا قرب الستينيات وما بعدها). وذبلت البدايات المبشرة للمسرح الغنائى، وربما قدمت السينما - بأوضاعها وتلحيناتها المتحررة وإطارها الفنى الجديد لأفلامها الغنائية - بديلا محببا أغنى عنه. وانتقل الغناء إلى قاعات الحفلات وتخلص من طابع الرتابة والتكرار القديم وقدم الراديو وشريط التسجيل والكاسيت بدائل عملية للاستماع الموسيقى الحى وتصاعدت تلك الاتجاهات بقدوم التليفزيون الذى اقتحم ببرامجه وأفلامه الغربية وأغانيه الجديدة عقر دار الأسر العربية وكاد يعفيها من مسئولية اختيار وسائل الترفيه الفنى والاستماع الموسيقى ! وإذا كنا قد أشرنا قبلا إلى زَخْم المؤثرات الخارجية، والغربية بصفة خاصة - وآثارها على الموسيقى العربية فى النصف الأول - فإننا فى النصف الثانى منه إزاء اجتياح حقيقى قلب معايير الفكر الموسيقى وأطاح بالقدر الأكبر من نقاء و«أصالة» التراث الموسيقى العربى.

الأصالة والمعاصرة :

كان طبيعيا أن تقع المجتمعات العربية فى حيرة حقيقية من جراء ما تعرضت له من تغيرات كبيرة وما طرأ عليها من مؤثرات وافدة متزايدة كانت لها تأثيرات عميقة على الممارسة الموسيقية وأماكنها وتمويلها وتنظيمها، أما المضمون الموسيقى نفسه فقد أشرنا قبلا إلى التحولات الكبيرة التى مسته فى الصميم.

ويستطيع المتأمل لشئون الموسيقى أن يستشعر انقسامات - وصلت إلى حد الفصام - فى صفوف الموسيقيين والمثقفين (من المتلقين لهذا الفن) فى مواجهتهم لرياح التغيير العاتية - فهناك طائفة تمسكت بتزمت بحَرْفِية التراث الموسيقى القديم، رافضة لسنة الحياة فى النمو والتجدد وخارج هذا التيار «السلفى» انقسم الموسيقيون والملحنون أنفسهم إلى فريقين : أحدهما يسعى لتوسيع إطار الموسيقى العربية «وتطويرها من الداخل» والثانى يسعى لتطويرها وتجديدها بعناصر مجلوبة ومستعارة من «الخارج». ووفق الفريق الأول للتطوير من الداخل بنفس المواد الموسيقية الموروثة وهى اللحن المفرد والإيقاع، ووسَّعوا أطُر تلحينهم وابتكروا أنماطا اتسمت بقدر ملموس من الثراء والتجدد مع تمسكهم بلغة الموسيقى الموروثة. وألمع ممثلى هذا الفريق هم القصبجى وزكريا أحمد والسنباطى وصدِقى والشريف ونظراؤهم فى البلاد العربية، وهم الذين أبدعوا أعمالا غنائية رفيعة المستوى وأصبح بعضها من كلاسيكيات الغناء العربى، وعاون صوت أم كلثوم وفنها الأدائى المتفرد على الحفاظ على غناء عربى فيه تجديد ورصانة ومسايرة للعصر، أما الفريق الثانى فيمثله الموسيقار الشهير محمد عبد الوهاب ومدرسته

كان بزوغ فن السينما من أخطر المؤثرات الخارجية على الموسيقى، وعندما أنشأ طلعت حرب استديو مصر للسينما فى القاهرة أسهم بشكل غير مباشر فى وضع أساس لتطورات موسيقية جديدة



ممن سعوا لتجديد الموسيقى العربية «من الخارج» بالاستعارة والاقتباس من الموسيقى الغربية والإكثار من مقاميْها (الكبير والصغير) على حساب المقامات العربية، وبإدخال آلات أوركسترالية غربية على الفرق ثم الاستعانة بموسيقى أجنبى (arranger) فى عملية «التوزيع» كما تباعدت المسافة بين ألحان ومعانى الكلمات فى حالات كثيرة عنده ـ وهكذا قفز هذا الفريق فوق الحواجز فى سياق هذا النوع من التجديد من الخارج، وابتعد بتراث الموسيقى العربية عن قدر من سماته الأصيلة، دون أن يوفق لابتكار منظومة متسقة للتجديد الصحى الرشيد للتراث. وقد فرضت معضلة الأصالة والمعاصرة نفسها على الحياة الثقافية كلها ولكنها كانت أكثر حدة فى الموسيقى. وفى اعتقادنا أن تيار «التجديد من الداخل» كان تيارا صحيا استطاع أن يساير تلك المرحلة من التطور، أما تيار «التجديد من الخارج»، فقد اتسم بالانبهار بالغرب مع ضعف التمكن من فنون الغرب، ولذلك لم يتوصل لحلول حقيقية للتجديد والمعاصرة تحمى الموسيقى العربية من «التهجين» وتحفظ لها هويتها. وجدير بالذكر أن الفريقين المشار إليهما كانت تجديداتهما محدودة ومنصبة على الغناء وحده؛ إذ اتسمت محاولاتهم الضئيلة لخلق موسيقى للآلات (أى ليس للغناء) بالسذاجة والزخرفية.

قضايا النقل عن الحضارة الغربية:

وجدير بالذكر هنا أن الأخذ عن الحضارة الغربية ممكن بل ومطلوب فى مجالات العلوم والتكنولوجيا لأنها قائمة على ثوابت عقلية (ومع ذلك فإن أساليب التناول البحثى والتطبيقى فى تلك المجالات تختلف من بيئة لأخرى) كما أن الأخذ أو النقل قليل الجدوى إذا لم يستطع الناقل تطويع ما ينقله لظروف بيئته، أما النقل عن حضارة الغرب فى مجال الإنسانيات، وخاصة الفنون اللصيقة بالوجدان، فهو غير ممكن بل يتعذر إذ لا يتأتى إخضاع الوجدان لعناصر مستجلبة من حضارات أخرى بغير تفاعل حيوى وصحى معها.

وقد يثار أن هناك فنونا جديدة مثل الفنون التشكيلية والمسرح كان تقبلها فى المجتمعات العربية أيْسَرْ، رغم أنها فنون مستحدثة وليست من موروثات الحضارة العربية، وقد تم تطويعها عبر السنين، بشكل أو بآخر، لقيم الحضارة العربية ورؤى مجتمعاتها وقضاياها. ولعل تقبل العرب لهذه الفنون كان أيسر لأنها لم تكن مستندة إلى مَرْجِعِيَّة عربية موروثة تقاس عليها، ولذلك انفتحت أمامها فرص النمو والتأقلم مع فكر وتطلعات العالم العربى المعاصر دون أن تعانى من الصراع والانقسام الذى عانت منه الموسيقى ولا تزال. وقد زاد من حدة ذلك الصراع، غياب النظرة العقلانية الناقدة وضعف التناول العلمى للتراث، واستمرار تناوله بنظرة عاطفية وحسية ساذجة.

حركات التحرر وبزوغ الوعى القومى :

كان القرن العشرون مسرحًا لحركات ثورية وتحررية واسعة فى أنحاء العالم العربى ليخلِّص نفسه من السيطرة السياسية والاقتصادية للاستعمار الغربى، وفى نفس الوقت اتجه العالم العربى كله للأخذ بأسباب العلم والتكنولوجيا والثقافة الغربية من أجل تحديث المجتمعات العربية والنهوض بها لتلاحق ركب التقدم. وقد كان هذا الموقف المتناقض كفيلا بخلق مزيد من الحيرة لولا التنبه إلى أن الوعى القومى والاعتداد بالهوية هما طوق الأمان الذى يمكن أن ينقذ العرب من الوقوع الكامل فى إسار التبعية الثقافية واسْتِلاب الهوية.

المأثورات الشعبية وتحقيق التوازن :

المأثورات الشعبية كما هو معروف، هى درع التواصل بين الأجيال والسجل الصادق المتجدد لإبداع الإنسان وثقافته وخلاصة حكمته وخبراته الفنية والجمالية، وقيمه وعاداته وتفاعله مع ما يحيط به من ظواهر مادية ومعنوية توارثها عبر الأجيال، فهى «السيرة الذاتية للمجتمع» (أحمد أبو زيد).

وقد ظهرت حركة الاهتمام بالمأثورات الشعبية مرتبطة بحركات التحرر، فرأينا البلاد العربية تولى اهتماما كبيرا ـ منذ الخمسينيات ـ لجمع المأثورات الشعبية بشتى صورها الفنية والحياتية وتهتم بتسجيلها وتصنيفها وتحليلها وتدوينها ودراستها علميا لتكون ركيزة روحية باقية، ومادة بين يدى الباحثين، ثم فى مرحلة أعلى لتكون متاحة لاستلهام المبدعين على اختلاف فنونهم ممن يتطلعون للتوصل لخلق تعبير فنى أصيل ومبتكر، دال على الوطن الذى نبع منه ليسمع صوته خارج حدوده الضيقة.

وجاءت بداية إنشاء مراكز الفنون الشعبية فى الكويت (١٩٥٥) «فى لجنة الفنون الشعبية» «ضمن جمعية الفنانين»، وهى التى تحولت بعد ذلك إلى «مركز رعاية الفنون الشعبية»، وبعد عامين أنشئ مركز الفنون الشعبية فى القاهرة، ثم أنشئ «مركز التراث الشعبى» التابع لمجلس التعاون لدول الخليج العربى، وغيرها.

وأصدرت هذه المراكز دوريات ومطبوعات علمية عن المأثورات الشعبية العربية، امتد إشعاعها للغرب ليطلع لأول مرة على هذا الجانب القيم من التراث العربى، وواكبت هذه الصحوة حركة تكوين فرق الرقص الشعبى (فرقة رضا فى مصر وفرقة السماح فى سوريا ولبنان) مستفيدة بتجارب بعض الدول الغربية. وجاءت بعد ذلك مرحلة إنشاء معاهد عليا فى مصر للدراسة الأكاديمية للمتخصصين فى المأثورات الشعبية (فى أكاديمية الفنون فى مصر) وهكذا بدأت حركة جادة رشيدة لتأكيد الهوية الثقافية مستندة إلى عمل علمى قادر على دعم النمو وترشيده فى فترة حرجة اتسمت بالتناقض والفصام (وبانحسار التراث التقليدى للموسيقى العربية فى بعض بلاد المنطقة). وهذا ما دفع ببعض وزارات الثقافة للتصدى لمواجهته بإنشاء فرق (رسمية) لإحياء التراث الموسيقى العربى مثل فرقة الموسيقى العربية التى قادها عبد الحليم نويرة فى مصر منذ أواخر الستينيات، وما تبعها من فرق مشابهة ومن فرق «للمألوف» وما إليه ـ وإن كان لابد من الإشارة إلى أن التراث التقليدى الموسيقى فى المغرب العربى كان أكثر رسوخا ولم يتعرض لذلك الانحسار الواضح.

بين التراث التقليدى والمأثورات الشعبية :

وقد أشرنا قبلا إلى بعض التوسعات والتجاوزات التى ظهرت فى التطبيق العملى لإحياء التراث الموسيقى التقليدى وهى التجاوزات التى ابتعدت ببعض تلك الفرق عن نقاء وأصالة التراث واتجهت بها نحو الخلط بينه وبين «الحديث» العابر من أغانى الاستهلاك اليومى، وإلى تقديمه بطرق محدَثة وبآلات وأساليب أداء تقترب من التحريف والسخرية أكثر منها للإحياء.

وفى هذه الاتجاهات المتضاربة التى أحاطت التراث الموسيقى التقليدى فى أواخر القرن بالبلبلة والتحريف أخذ الاهتمام يشتد بالمأثورات الشعبية منذ منتصف القرن فارتفعت مكانتها فى المجتمع ورسخت حتى أصبحت تضارع مكانة التراث الموسيقى التقليدى بل تفوقها أحيانا، لأن الفنون الشعبية تتمتع بتواصل حيوى قوى وبقدر كبير من المرونة وفر لها النمو جيلا بعد جيل، والثبات فى آن واحد، وهى صفات لم تعد تتوافر للتراث الموسيقى التقليدى، والذى ظل يعيش فى دائرة شبه مغلقة من المحافظة الجامدة، حيث اعتبره معتنقوه المعيار الوحيد والدائم لكل فن موسيقى عربى فى أى عصر وفى كل عصر! لذلك ظهرت فرق للآلات الشعبية مثل فرقة متقال للربابة لإحياء تقاليد كل قطر، وفرق للرقص الشعبى فى أنحاء شتى وقد عاونت على تأكيد الوعى بالمأثورات الشعبية كما قربتها للجماهير العريضة، سواء بأساليب أصيلة أو دخلها بعض التفنن (Stylized) وهكذا أصبح «التراث الموسيقى العربى» مكونا من شقين : التقليدى والشعبى، وكان للأخير فضل ملحوظ فى إخصاب الحياة الموسيقية إذ عاون على ظهور رافد موسيقى جديد أثرى التعبير الموسيقى العربى الجديد.

«التأليف الموسيقى» العربى المعاصر :

تفاعلت كل عوامل التحرر وبزوغ الوعى القومى والرغبة فى تأكيد الهوية الثقافية والإدراك لقيمة المأثورات الشعبية، فبلورت اتجاها موسيقيا جديدا تماما على الموسيقى العربية وهو «التأليف الموسيقى العربى المعاصر».

ويطلق «التأليف الموسيقى» على كل إبداع موسيقى يعتمد على عناصر اللحن والإيقاع و«التكثيف النغمى» أو تشابك الألحان (بالهارمونية أو الكنترابنط)، فالتأليف الموسيقى بهذا المفهوم الجديد يتعامل بلغة موسيقية ثلاثية الأبعاد (على خلاف التراث التقليدى الذى ابتكر ملحنوه الكبار فى القرنين الماضيين فهو موسيقى أحادية اللحن تعتمد على اللحن والإيقاع) وقد ظهرت بوادر التأليف الموسيقى نتيجة لعوامل موسيقية أخرى منها الاطلاع على روائع الموسيقى الغربية الكلاسيكية (سواء فى الإذاعة ـ بدأها الدكتور حسين فوزى فى الأربعينيات ـ أو فى السينما أو فى العروض الموسيقية) وهو ما حفز بعض المبدعين العرب لابتكار لغة موسيقية خاصة تستخدم بعض أفانين التأليف الغربى وبعض أدواته (مثل الأوركسترا) وصيغة (كالسيمفونية أو الكونشرتو)، وبهذه اللغة الموسيقية أخذوا يبدعون مؤلفات شرقية المضمون والروح، دالة على موطن مبدعها وشخصيته وهويته. وكانت هذه الفئة الصغيرة الرائدة من المؤلفين الموسيقيين العرب تصبو لتملك تقنيات التأليف الموسيقى الغربى لتفيد منها فى كتابة موسيقى عربية جديدة، تلبى احتياجات الإنسان العربى الجديد وتُسمع العالم الخارجى ـ فى الآن ذاته ـ صوتا موسيقيا عربيا يتخطى الحواجز الإقليمية. ولكن كيف تم هذا التحول وما هى تلك الاحتياجات الثقافية للإنسان العربى فى القرن العشرين ؟

لقد كان من الطبيعى للإنسان العربى ـ الذى قرأ الآداب الغربية وانفعل بها، واطلع على الفنون التشكيلية والمسرح، ودرس الفلسفة الغربية، وانبهر بمنجزات العلوم الغربية (سواء فى دراسات فى الخارج أو عبر مجالات ثقافية جديدة). كان من الطبيعى أن تتسع آفاق واحتياجات هذا الإنسان العربى الجديد، وأن يتجه الموهوبون فيه لإبداع فنون شعرية



وموسيقية جديدة تتميز بالثراء وتخاطب العقل والقلب معا وتساير العصر.



كانت البلاد العربية قد اطلعت لأول مرة على الموسيقى الغربية ثلاثية الأبعاد فى الموسيقى التصويرية للسينما فى مرحلة الإعداد الموسيقى ثم فى مرحلة بدايات كتابة موسيقات مبتكرة لخدمة العروض السينمائية بواسطة موسيقيين عرب، جاهدوا بوسائل محلية لتحصيل قدر من فنون التأليف الغربى ليكتبوا موسيقات تصويرية للسينما ثم للمسرح، ولا ننسى أن إنشاء دار الأوبرا فى قلب قاهرة المعز سنة ١٨٦٩ (ليحتفل فيها الخديوى إسماعيل بافتتاح قناة السويس) كان أبرز لقاء مادى مباشر مع الموسيقى الأوروبية، وإن كانت دار أوبرا القاهرة قد ظلت - بعروضها السنوية المنتظمة من الأوبرات الإيطالية (غالبا) - بعيدة عن اهتمامات المواطن العادى وقاصرة على طائفة محدودة من الأجانب والأثرياء، ولم تلعب دورا حقيقيا فى نشر الوعى والتذوق الموسيقى إلا منذ منتصف القرن العشرين مع ثورة سنة ١٩٥٢ (وإن قيل إنها أثرت بشكل غير مباشر على فكر سيد درويش فى أوائل القرن). وعندما تلاقى هذا التيار من معايشة بعض أنواع الموسيقى الغربية الفنية مع تيار الوعى القومى - بما أثمره من اهتمام بالفنون الشعبية - وجد أوائل المؤلفين الموسيقيين العرب مادة خصبة يستوحونها لبث الروح العربية فى مؤلفاتهم المكتوبة بأدوات وبوسائل غربية.

أعلام التأليف الموسيقى العربى (فى صيغ غربية):

وقد كانت لهذا الرافد الموسيقى الجديد إرهاصات مبكرة، إذ ظهر من لبنان مؤلفون عرفهم العالم العربى (واغترب بعضهم) نذكر منهم الرائد وديع صبرا (ت ١٩٥٢) وأنيس فليحان (ولد ١٩٠٠)، وبعدهما بقليل جاء جيل رائد من المؤلفين الموسيقيين فى مصر، من أشهرهم يوسف جريس (١٨٩٩-١٩٦١) وأبوبكر خيرت (١٩١٠-١٩٦٣) وحسن رشيد (١٨٩٦-١٩٦٩) واستمر مدُّ الجسور بين العالمين الموسيقيين، الشرقى والغربى، بعد ذلك عَبْر أجيال متعاقبة فانجبت لبنان (بعد رائديها) كوكبة من «المؤلفين» نذكر من أشهرهم توفيق سكر وعبد الغنى شعبان والأب يوسف خورى، وسلفاتور عرنيطه وتوفيق الباشا (ممثل لبنان فى المحافل الدولية والذى سجلت له أعمال فى بلجيكا وغيرها) ووليد غلميه (عميد معهد الكونسرفتوار بها ومؤلف عدد من القصائد والأعمال الأوركسترالية) وبوغوص جلاليان الأرمنى الأصل المقيم فى لبنان.

وقد كان لبعض هؤلاء الفنانين اللبنانيين تجارب هامة فى إبداع موسيقات متشابكة الألحان (بوليفونية) فى المقامات العربية ذات الأرباع (مثل الراست والبياتى) دلت على خصوبة الخيال واتساع الأفق ومنها رباعية وترية فى مقام البيات (توفيق سكر) وفوجة للأوركسترا الوترى (عبد الغنى شعبان) وعدد من مؤلفات توفيق الباشا للكورال والأوركسترا.

وفى مصر ظهر جيل ثان - بعد جيل الرواد - من المؤلفين المبدعين الأكثر رسوخا فى صنعتهم الموسيقية من جيل الرواد، لأن بعضهم تمتعوا بإمكانات فى التعليم (والأكاديمى منه بالذات) لم تكن متاحة قبلا. ونذكر من هؤلاء: عزيز الشوان (١٩١٦-١٩٩٣) وجمال عبد الرحيم (١٩٢٤-١٩٨٨) ورفعت جرانة (ولد ١٩٢٤) وعواطف عبد الكريم (وعطية شرارة وهناك جيلان من الأجيال الأحدث فى مصر نشير منهم إلى جمال سلامة (١٩٤٥) وأحمد الصعيدى وجهاد داود وراجح داود (١٩٥٩) ومونا غنيم (١٩٥٦) وغيرهم.

ومن فنانى الجيل الرابع فى مصر من المؤلفين الموهوبين والأكاديميين نذكر: خالد شكرى، وشريف محيى وعلى عثمان (سودانى مقيم فى مصر) ومحمد عبد الوهاب عبد الفتاح (الذى وجه اهتمامه للوسائل الإلكترونية وموسيقى شريط التسجيل..إلخ) وعلاء مصطفى، ونادر عباسى (المغترب فى سويسرا) ثم من بعدهم أمير نجيب وأحمد عبد الله وعمرو عقبة ومحمد سعد باشا وغيرهم، ورغم أنهم جميعا قد تكونوا موسيقيا فى رحاب قسم التأليف بالكونسرفتوار إلا أن لكل منهم شخصيته الموسيقيه واتجاهه المميز. ومما يذكر أن هناك دراسات للتأليف فى مصر وغيرها فى معاهد موسيقية أخرى الآن.

ومن الظواهر الإيجابية التى تبلورت فى العقود الأخيرة ظهور مبدعين عرب يعبرون عن أنفسهم بلغات موسيقية جديدة فى صيغ غربية، وأغلبهم من بلاد لم تطرق هذا المجال إلا مؤخرا، فمن سوريا عرفنا ضيا السكرى (المغترب فى فرنسا والذى يقوم بالتدريس فى باريس) وصلحى الوادى (عميد معهد دمشق الموسيقى) ووليد حجار وزيدون جبرى وغيرهم، ومن البحرين عرفنا مجيد مرهون وعصام الجودر ومبارك نجم ووحيد الخان، أما المملكة المغربية فقد برز منها المؤلف الكبير أحمد الصياد (من مواليد ١٩٣٨) وهو الذى نالت أعماله حفاوة أوروبية وفرنسية واسعة، وسجلت أوبراته ومؤلفاته على أسطوانات C.D ونالت إحدى أوبراته جائزة دولية، وكذلك مصطفى عايشة رحمانى - ومن الجزائر اطلعت على عدة مدونات أوركسترالية لكل من مرزاق بو جميعة وهارون رشيد ومن العراق فريد الله ويردى ومن الكويت ورشيدة إبراهيم وخالد الديكان وغيرهم.

ولاشك أن هذا التيار الموسيقى العربى الجديد لازال فى مرحلة مبكرة يتعذر الحكم عليها وعلى تطويرها الآن، ولكن أعلام المؤلفين العرب قد حققوا إنجازات فنية مهمة احْتُفِيَ بها بلادهم وكرمتهم عليها بالأوسمة والجوائز كما أثارت بعض إبداعاتهم اهتمام الغرب فافسحت لهم بعض المصادر الموسيقية (مثل قاموس جروف طبعة سنة ١٩٨٠ أو طبعة سنة ٢٠٠٠) صفحاتها لهم، كما سُجِلَت مؤلفاتهم على أسطوانات وأشرطة وأسطوانات ليزر، وكتبت عنهم كتب وأخرجت أفلام وثائقية (مثل جمال عبد الرحيم). ولازلنا ننتظر اليوم الذى ينظم فيه مهرجان للتأليف الموسيقى العربى فى الوطن العربى.

التأليف الموسيقى العربى فى الحياة الموسيقية اليوم:

من الطبيعى أن تحيط بهذا الفن الموسيقى الجديد سحابة من العتامة فهو ليس فنا ترفيهيا ميسور التقبل، ولا هو غنائى مطرب كما تعودت الجماهير التى تنهال عليها الأغانى العاطفية من كل المنافذ ليل نهار، بل هو فن يتطلب تذوقه ثقافة وفكرا شانه شان كل الفنون الرفيعة، ولذلك فهو لا زال حتى الآن يعيش فى شبه عزلة عن الجماهير العريضة اللهم إلا فى إبداعاته من الموسيقات التصويرية للسينما أو المسرح (والتليفزيون مؤخرا) فقد أقبل مخرجو السينما على هؤلاء المؤلفين ليستفيدوا بقدراتهم الفنية الجديدة فى تجسيد التعبير الدرامى والإنسانى فى الأعمال السينمائية أو المسرحية وفى العروض الكبيرة (فى المناسبات القومية وما إليها) أما الجماهير العريضة فإن اتصالها بهذه الفنون الموسيقية الجديدة وبإنجازاتها وفنانيها فلا زال محدودا، ولعل هذا راجع إلى ضآلة المساحة المتاحة للتأليف الموسيقى فى وسائل الإعلام وفى العروض الموسيقية، ولذلك فإن الألفة الضرورية مع هذه الموسيقات الجديدة ليست متاحة ولا هى منظمة وبدونها لن يستطيع الجمهور الاقتراب نفسيا من التأليف الموسيقى، وبغير الألفة فلا أمل فى ازدهار أى فن جديد وغير مألوف.



ورغم هذه الصعوبات التى تعوق الانتشار الواسع للتأليف الموسيقى العربى المعاصر، فإن هذا الرافد الجديد يمضى فى طريقه ببطء ولكن بخطوات مستمرة، وتشهد بذلك الأجيال الصاعدة من المؤلفين فى أنحاء العالم العربى، والذين بدأت فنونهم تجتذب بعض اهتمام العالم الموسيقى الخارجى كما أوضحنا بفضل فنانى الأداء العرب من العازفين والمغنين الذين درسوا فى المعاهد الموسيقية المتخصصة فى بلادهم ثم فى الخارج والذين حققوا نجاحات محلية وخارجية ملحوظة وأصبحوا يحرصون على إدراج «المؤلفات العربية» فى حفلات العزف (وخاصة حفلات الريستال) كما أن بعض الأوركسترات العربية أخذت فى العقد الأخير تلتفت إلى هذا الجانب من الإبداع الموسيقى العربى وتقدمه فى حفلاتها وكذلك الإذاعات الموسيقية المتخصصة (كالبرنامج الموسيقى فى مصر وما إليه). ويكفى أن نشير إلى جهود المؤلفين العرب فى الحفاظ على العناصر القيمة للتراث العربى (التقليدى والشعبى) فى الإيقاعات المركبة العرجاء وفى المقامات العربية، وخاصة ذات الأرباع، والتى تعد من أهم الملامح المميزة لطبيعة هذه الموسيقى والتى اختفت تدريجيا منذ النصف الثانى من القرن فى الأغلبية العظمى من التلحينات أحادية اللحن التى تزخر بها وسائل الإعلام العربية، وحاولوا تطوير الموسيقى العربية بإفساح المجال لعناصر غربية (خفيفة وسطحية وراقصة) على حساب المقامات والضروب الإيقاعية. وسندهش إذا لاحظنا أن تلك المقامات والإيقاعات قد بُعِثَتْ للحياة فى كتابات المؤلفين الموسيقيين العرب (الذين درسوا فى أوروبا ولكنهم حافظوا على هويتهم الثقافية العربية ولم ينساقوا وراء تقليد الغرب.

ومن المعاصرين منهم من يستخدمون المقامات العربية «ذات الأرباع» المميزة للطبيعة العربية مثل توفيق الباشا وتوفيق سكر وشعبان من لبنان وجمال عبد الرحيم وجمال سلامة وعلى عثمان ومحمد عبد الوهاب وشريف محيى من مصر.

بانوراما الحياة الموسيقية فى أواخر القرن العشرين:

بعد هذه الجولة الواسعة فى شئون الموسيقى العربية فإن صورة الحياة الموسيقية فى مطلع الألفية الثالثة تستحق وقفة تأمل ومحاولة للإلمام بأطرافها وتقييم لمساراتها.

مضت إلى غير رجعة أماكن أداء الموسيقى التقليدية وممارساتها وآلاتها وفرقها، التى أصابها التضخم غير المبرر (عددا ونوعا) والتكبير المشوش لأصوات آلاتها ومنشديها، وتوارت الرقة الحميمة لتجليات التقاسيم والليالى وما إليها. وأصبحت قاعات الموسيقى العامة المكان الوحيد للأداء الموسيقى العربى التقليدى والذى تخلى عن الكثير من أصالته فى غياب مفاهيم واضحة لمعنى «التراث» واختلطت حفلات التراث (التى أشرنا إلى بعض تجاوزاتها من قبل) بين القديم والعابر الحديث من أغانى

فى إطار وسط بين الاثنين قدم «الرحبانية» فى لبنان تطويرا دخلته بعض الهارمونية الغربية والآلات الأوركسترالية وأضفى عليه صوت فيروز صفاء وتأثيرا، وخاصة فى صرختهم البليغة للقدس والتى لازالت أبلغ ما سمع فى هذا المجال (ومع ذلك فإن بعض النقاد الغربيين يرون فى أسلوب هذا المزج بين اللغتين نوعا من التهجين)



الموسيقى العربية

الاستهلاك المحلى السريع الانطفاء، وارتفع شأن «الميكروفون» فى الموسيقى العربية(!!) فأغلب القائمين على غنائها اليوم لا تسمع لهم صوتا بغير الميكروفون الذى يطبقون عليه بقوة لعله يوصل أصواتا ضعيفة ومحدودة لجماهير القاعات الكبيرة وخارج هذه الحفلات الحية أخذت أجهزة الإعلام المسموع والمرئى بصفة خاصة تغرق الجمهور بسيل جارف بأنواع من الأغانى العجيبة التى برز فيها السينثسايزر (Synthesizer مخلِّق الأصوات الكهربائى) بإيقاعاته المسبقة التسجيل والتى تدق بلا هوادة، مع ألحان مبتسرة تريد أن تكون شرقية أو عاطفية ولكن بلا جدوى...



أما «أغانى الڤيديو كليب» التلفزيونية التى تزحم الشاشة بأجسام تتثنى وتتلوى بحركات رقص خالية من الفن، ولا صلة بينها وبين كلمات الغناء، وتزيدها أصوات «الأكورديون» الفَظَّة ترقيصا مبالغا فيه وتُهْدَرُ فيها الطاقات والأموال والفن على السواء، ولكنها تزدهر تحت وطأة الدعاية التجارية الواسعة لتؤكد نُجُوميَّة أصحابها فتجعلها تنتشر كالنار فى الهشيم فى أوساط المستمعين وخاصة الشباب. وهناك ما سمى فى وقت من الأوقات بأغانى «الفرانكوآراب» وهى غنية عن أى تعليق، وما سمى «بالأغانى الشبابية» وإن لم تكن لها ملامح فنية واضحة، فإنها تلبى حاجات نفسية لدى الشباب لعل الفنون الموسيقية الجادة فشلت فى تلبيتها فتركت المجال لهذه الأنواع المُهَجَّنة. وتزخر ساحات الفنادق والملاهى بفرق الشباب العربى التى تعزف موسيقى البوب والروك والجاز بحماس ودقة (كأنهم من مواليد ليفربول، بلد «البيتلز» أو نيوأورليانس موطن «الجاز» !) وعلى صعيد آخر تجد الأذكار والأناشيد الدينية وقد صاحبتها الفرق الموسيقية واختفت منها آيات الخشوع التى صاحبت الأداء الإنشادى البحت بغير مصاحبة من الآلات !

وحتى الموسيقى الشعبية التى حظيت بالاهتمام والدراسة وولّدت عروض الرقص وعزف الآلات الشعبية حتى هذه الموسيقى تَسَرَّبت إليها فى المدن عوامل التكلف والإفساد فى أساليب ممارستها وفى صنع آلاتها (كالدربكة المصنوعة من الألومنيوم بدلا من الفخار والرق من البلاستيك بدلا من رق الجلد الطبيعى!) واستعاض الناس فى حفلاتهم وأفراحهم عن الغناء الشعبى التلقائى الأصيل وعن الغناء العربى التقليدى، بفرق «مزيفة الشعبية» فى أفراح الأغنياء فى الفنادق، أو بالكاسيتات والمسجّلات فى أفراح عامة الناس، وهكذا تنحسر الموسيقى الشعبية والعربية عن واحد من أهم مجالاتها الاجتماعية، أمام الزحف الهائل للمدنية الموسيقية الزائفة... كما ضعفت حركة فِرَقِ الموسيقى النحاسية حتى كادت تتلاشى تماما من الحدائق والميادين.

وعلى الجانب الإيجابى فهناك الحفلات الموسيقية الرفيعة التى تقدمها الأوركسترات السيمفونية العربية (أوركسترا القاهرة السيمفونى من سنة ١٩٥٦ وأوركسترا الأوبرا منذ سنة ١٩٩٤ فى مصر، وأوركسترا سوريا ثم لبنان ثم سلطنة عُمان إلخ) وما يشبهها من أجهزة نشر الثقافة الموسيقية والتى تقدم عروضا موسيقية كلاسيكية غربية فمن حق المستمع أن يتذوقها وإن زاد الاهتمام فى السنوات الأخيرة بالمؤلفات السيمفونية العربية من الكويت والسودان وعمان وسوريا ولبنان ومصر.

وهُناك أصوات بارعة فى الغناء الأوبرالى من العرب وفرق للأوبرا جُلّ أعضائها من العرب تقدم عروضا طيبة لأوبرات عالمية وأخرى محلية أحيانا، وتكتظ المسارح وقاعات الموسيقى بحفلات العزف أو الغناء المنفرد (على النسق الغربى) أو عزف المجموعات الصغيرة لموسيقى الحجرة. وقد برز فيها جميعا فى الأعوام الأخيرة ظاهرة صحية من الاهتمام بتقديم المؤلفات العربية فى تلك الحفلات. وهناك عروض للباليه غربية ومحلية وهناك فرق كورال الأطفال والتى تتغنى بأغانى الطفولة المصاغة بتعدد الألحان والتى تضيف للطفل نفسيا وموسيقيا إضافة صحية حقيقية على خلاف بعض فرق «كورال الأطفال» التى تلقن الأطفال ألحانا مفردة (اى ليست كورالية) لأغان غرامية للكبار لا صلة لها مطلقا بعالم الطفل.



ولا نظننا - رغم هذا كله - قد أحصينا الأنواع الموسيقية السائدة فى العالم العربى عددا، فهى متضاربة ومتلاطمة ومتعارضة...

وإذا اعتبرنا التنوع والتعدد والكم من مقاييس التقدم فإننا نضطر للاعتراف بأن تقدما موسيقيا ضخما قد تحقق خلال القرن، ولكن بتضحيات كبرى... أما إذا حكمنا على الأوضاع السائدة بمقاييس «الكيف» و«التوجّه» ودلالاتهما فإننا سنضطر للاعتراف بعوارض من القصور والشطط والتشتت لا تتكافأ مع الجهود والأموال والطاقات المسخرة للموسيقى وهو ما يرجع - فى اعتقادنا - لغياب سياسة رشيدة شاملة لشئون الثقافة العربية عامة والفنون بشكل خاص - سياسة عملية قابلة للتطبيق الموحد (أو القريب من التوحد) توفق بين أصالة التراث وضرورة النمو والتجدد ولكن على أسس راسخة تتسم بالحكمة و التفتح. فالصورة العامة لهذه البانوراما للموسيقى العربية أشبه «ببرج بابل». موسيقى تتكلم فيه كل فئة بلغتها الموسيقية الخاصة حتى داخل البلد الواحد ولابد أن تعمل الحكومات العربية على رسم سياسات ثقافية مستنيرة ومعاصرة لكى تتبلور كل هذه اللغات و الألسن واللهجات الموسيقية فى كيانات جديدة لها هويتها المتميزة المسايرة للعصر والمحافظة فى الوقت نفسه على روح الأصالة، ولابد أن تكون البداية من الطفولة والطفولة أولا على أن تمتد لتشمل كل هيئات التعليم والتثقيف والإعلام، عبر طريق طويل شاق لاغنى عنه. ■

أهم المراجع

- كتاب مؤتمر الموسيقى العربية المنعقد فى القاهرة سنة ١٩٣٢ وزارة المعارف العمومية ١٩٣٣ (بإشراف محمود الحفنى).
- حلقتا بحث الموسيقى العربية سنة ١٩٥٩، ١٩٦٣. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب القاهرة.
- إبراهيم زكى خورشيد : الأغنية الشعبية والمسرح الغنائى (مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٠).
- سمحة الخولى : محمود الحفنى : ذكريات وخواطر ضمن ملف «شخصيات لا تنسى». مجلة آفاق الموسيقى والأوبرا والباليه. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة سنة ١٩٩٨.
- سمحة الخولى : «مسار الإبداع المصرى المتعدد التصويت فى مصر» مجلة آفاق. العدد الأول سنة ١٩٩٨.

هوامش:

هناك «ظواهر» غنائية شاردة فرضت نفسها على ساحة الموسيقى وانتشرت على نطاق خطير، يثير التساؤل حول الحاجات النفسية والاجتماعية التى تلبيها مثل تلك الأغانى لدى الجماهير (مثل أغانى عدوية وحكيم وشعبان عبد الرحيم وما إليها فى مصر) وهى «ظواهر» تقتضى التوفر على بحثها سوسيولوجيا وموسيقيًا واقتصاديًا لمحاولة التفسير العلمى لظهورها وانتشارها الواسع وما تدره من شهرة ومال على أصحابها ومنهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون!!



رحلة ابن بطوطة

من غزة إلى القدس

سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة، وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر، متسعة الأقطار، كثيرة العمارة، حسنة الأسواق، بها المساجد العديدة، والأسوار عليها.

.. ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل - صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما. وهى مدينة صغيرة الساحة، كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار، حسنة المنظر، عجيبة المخبر، فى بطن واد. ومسجدها أنيق الصنعة، محكم العمل، بديع الحسن سامى الارتفاع، مبنى بالصخر المنحوت، فى أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبراً.

ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس. فزرت فى طريقى إليه تربة يونس عليه السلام، وعليها أبنية كبيرة ومسجد.

وزرت أيضًا بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام. وبه أثر جذع النخلة. وعليه عمارة كثيرة. والنصارى يعظمونه أشد التعظيم، ويضيفون من نزل به.

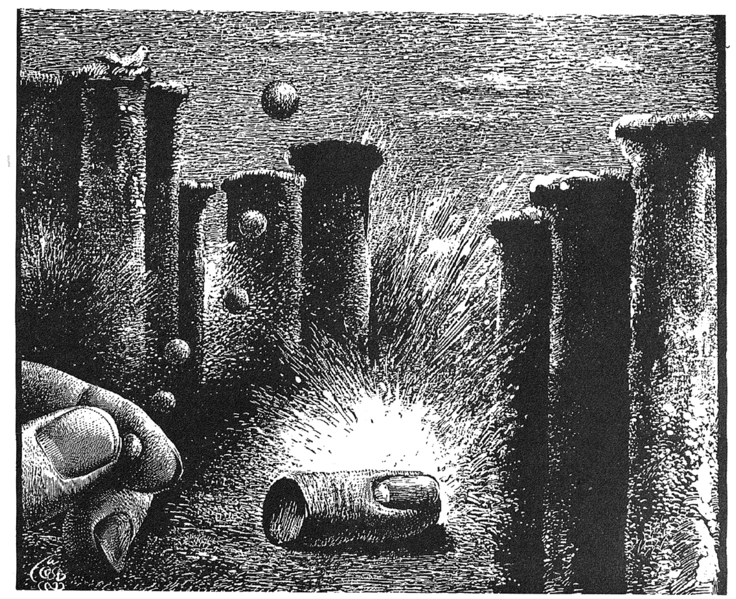
ثم وصلنا إلى بيت المقدس شرفه الله، ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل، ومصعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم تسليما، ومعرجه إلى السماء. والبلدة كبيرة، منيفة بالصخر المنحوت. وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين ابن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيراً لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها. ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفًا أن يقصدها الروم فيتمنعوا بها. ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم، وجلب لها الماء فى هذا العهد الأمير سيف الدين تنكز أمير دمشق. و(المسجد المقدس) هو من المساجد العجيبة الرائقة، الفائقة الحسن.



مدن تاريخية ومواقع مقدسة

سمير غريب

كان أحد أهم اهتمامات الحضارات التقليدية تأسيس صلات دائمة بين المرئى وغير المرئى، الكمى والكيفى، الزائل والسرمدى. والغريب أننا نجد المدن التاريخية تعانى أكثر فى المجتمعات ذات التقاليد الدينية القوية!



■■ قبل أن تدمر حركة طالبان الأفغانية تمثالي بوذا العملاقين الأثريين في أفغانستان، بشهرين فقط، أصدر البنك الدولي كتابًا مهمًا من ٤٢٠ صفحة من الحجم الكبير، شارك في كتابته وتحريره عشرات من الخبراء والكتاب منهم عدد من المسلمين والعرب. الكتاب كله مخصص للتحذير من المخاطر التي يتعرض لها التراث الإنساني.. أي الأماكن المقدسة والمدن التاريخية.. أي التراث المشيد. وشرح بالتفصيل هذه المخاطر، ومنها الحروب، والكوارث الطبيعية، غير عوامل الطبيعة والإهمال.. إلخ. لكن لم يتناول أحد في هذا الكتاب البحثي المسحي الضخم احتمال خطر التعصب الأعمى والجهل بالدين والأمية الفكرية، وهي الأسباب الصريحة التي دعت حركة طالبان إلى تدمير التمثالين، والتي دعت بدورها هنودًا لإحراق المصحف الشريف وتدمير أحد المساجد الأثرية، وهكذا يمكن أن يجر هؤلاء الجهلة البعض إلى حروب دينية جديدة في بداية القرن الواحد والعشرين.

لم يتناول أحد في كتاب البنك الدولي احتمال التعصب والجهل بالدين، لأنه على ما أعتقد لم يدر بخلد أحد من المشاركين في الكتاب. وكان يجب أن يتمتع أحدهم بقراءة جيدة لأحوال العالم المختلفة، لكي يتوقع مثل هذا الاحتمال، وبخاصة أنه سبق إحراق مساجد وكنائس من قبل متطرفين دينيين.

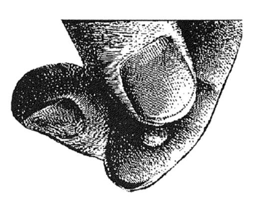
عنوان الكتاب هو «مدن تاريخية ومواقع مقدسة Historic Cities and Sacred Sites». شارك في تحريره الدكتور إسماعيل سراج الدين المصري نائب رئيس البنك الدولي السابق، و«أفرايم شلوجر» و«جون مارتن براون». كما شارك في كتابة أحد أبحاثه الدكتور سعد الدين إبراهيم أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ورغم الأهمية الكبيرة للكتاب كما ذكرت إلا أنه لا تفوت القارئ للكتاب الملاحظات الآتية:

١ـ الحجم الكبير الذي منحه للتراث اليهودي في العالم بما لا يتناسب إطلاقًا مع عدد اليهود والذين لا يتجاوزون في العالم كله ١٦ مليون نسمة بينما يصل عدد المسلمين في أحدث التقديرات إلى ١,٢ مليار وعدد المسيحيين إلى مليارين!! ولا اعتراض لي على الاهتمام بالتراث اليهودي كتراث إنساني، ولكن يجب أن يراعي البحث العلمي الموضوعية والحياد والتناسب، فلا علاقة على الإطلاق بين عدد اليهود وعدد المسلمين أو المسيحيين. وهذا يتعارض في حالة هذا الكتاب مع تخصيص جزء كامل تقريبًا من أجزائه الثمانية يضم ١٣ مقالة عن التراث اليهودي، فضلاً عن مقالات أخرى متناثرة في باقي أجزاء الكتاب تجري وراء اليهود من فلسطين إلى المغرب إلى أسبانيا وهولندا وحتى البرازيل!!

٢ـ وفي السياق نفسه يبرز هذا الإلحاح الملح على ضحايا الحكم النازي من اليهود فيما يعرف بالمحرقة أو الهولوكوست، وما تم تدميره من معابد يهودية أثناء ذلك، وكأنه لم يتم تدمير كنائس أو مساجد تاريخية أو أثرية أثناء الحربين العالميتين، وكان الأوروبيين لم يدمروا أماكن مقدسة للهنود الحمر وسكان الأمريكتين وأستراليا الأصليين.

٣ـ ولا أريد أن أدخل في سوء النوايا، ولكني لا أستطيع الدخول في الكتاب دون أن أشير إلى ملاحظة مقابلة، وهي أن الاهتمام بالتراث الإسلامي كان أقل بكثير مما يجب في مثل هذا الكتاب، ولا يتناسب أيضًا مع عدد المسلمين في العالم ولا مع الدور الحضاري الذي لعبه الإسلام ولا مع تراثه المشيد الباقي والمعرض للمخاطر. إذ ليست هناك سوى ثلاثة مدن إسلامية فقط يتحدث عنها الكتاب: مكة والقاهرة وفاس!!

Historic Cities and Sacred Sites: Cultural Roots for Urban Futures
(مدن تاريخية ومواقع مقدسة)
by Ismail Serageldin, Ephim Shluger (Editors).
World Bank, (January 2001).



بينما القدس مدينة عربية للديانات الثلاثة السماوية، يبدو أن المسئولين عن الكتاب اعتبروها يهودية فقط، ونشروا عددًا كبيرًا من المقالات لمختصين في مركز الفن اليهودي بالجامعة العبرية بالقدس

وبينما القدس مدينة عربية للديانات الثلاثة السماوية، يبدو أن المسئولين عن الكتاب اعتبروها يهودية فقط، ونشروا عددًا كبيرًا من المقالات لمختصين في مركز الفن اليهودي بالجامعة العبرية بالقدس.

٤ـ إن الكتاب يركز ويشرح البعد الاقتصادي لإنقاذ التراث وحمايته وترميمه، والاستثمار المادي لهذا التراث، لذلك فالتراث الذي يتحدث عنه الكتاب هو التراث المشيد فقط أو المعماري، بينما هناك تراث شفهي وتراث مكتوب. ومن الطبيعي أن يختار البنك الدولي البعد الذي يعنيه ويدخل في اهتماماته عندما يصدر كتابًا أو يجري بحثًا..

ومع كل ذلك فالكتاب مرجع مهم جدًا يجب قراءته والاستفادة منه، فهو يثير الاهتمام ويركز الانتباه على تراث البشرية، وأهمية هذا التراث المعنوية في إثراء التنوع الثقافي والاحتفاظ بالروح القومية، وأهميته المادية كشاهد على عصور الإنسان المختلفة ومسجل أمين لها، وكعنصر مهم من عناصر الاستثمار الاقتصادي والدخل القومي. والكتاب أيضًا يقدم ثروة معرفية يندر أن تجتمع في كتاب واحد ضمن إطار منهجي واحد عن المواقع المقدسة والأماكن التاريخية في العالم. وهو أخيرًا يقدم تجارب تجب دراستها والاستفادة منها في الحفاظ على التراث وترميمه وصيانته والتعامل معه. وفي كل الأحوال يؤكد الكتاب على ضرورة تكاتف وتعاون مثلث لا غنى عنه لنجاح عمليات المحافظة على التراث والاستفادة منه، هذا المثلث مكون من: الحكومة والقطاع الخاص والسكان المحليين. وإذا كان هذا الكتاب مهما للعامة، فهو أكثر أهمية للمسئولين عن الآثار والحكم المحلي في بلادنا.

يتناول الجزء الأول من الكتاب الأصول المعقدة والتراث الغني للرموز الدينية الملحقة ببنية المراكز التاريخية وبيوت العبادة والمواقع المقدسة. وتعالج الفصول الثلاثة الأولى في هذا الجزء مبادىء التصميم، وبها تحليلات مقارنة لتصميمات المعابد والكنائس والمساجد.

وفي هذا الجزء يستعرض «سيد حسين نصر»، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة جورج واشنطن، الفلسفات القديمة لتكوين المدن من ناحية أشكالها الفيزيقية وأهميتها الروحية. وطبقًا لتقاليد دينية معينة أساسية، فإن المدينة شبهت بالجسد، وتم تطوير نموذجها تبعًا لذلك. وبالتالي فإن المدينة كانت عبارة عن حشد للفيزيقي والنفسي والمعنوي والثقافي والروحي. على سبيل المثال:

مكة هي المدينة الروحية الأولى لدى المسلمين، في قلبها توجد الكعبة التي تتصل بالقلب الإنساني. وعلى الرغم من أن جزءًا كبيرًا من مكة تم هدمه لإنشاء مشاريع حضرية متجددة ومتعاقبة، فإن قلب المدينة بقي على حاله مؤسسًا علاقة مباشرة ـ كقلب روحي للعالم الإسلامي ـ مع القلب الإنساني.

في الغرب تقدم الفلاسفة المسيحيون الأوائل بمفهوم للمدينة على أساس أنها انعكاس للمملكة المقدسة. ووجدت أفكار مشابهة لذلك في تقاليد الشرق الأقصى. وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر كتب «إيمانويل سويدنبرج» عن النموذج الأصلي للمدن التي تجاوزت واقعها المادي. وشبهها بالشجرة التي تحمل السمات المعمارية الكامنة في بذورها.

مع ذلك فإنه منذ القرن السابع عشر كانت الرؤية المسيطرة في الغرب تذهب إلى أن المساحة هي واقع كمي خالص. هذه الرؤية تترك مكانًا صغيرًا للاعتبارات الكيفية والرمزية للمساحة. ويرى سويدنبرج أن الحدث التاريخي المقدس هو حياة استثنائية بمغزى روحي، أو أنه حدث أسطوري، مما يمكن استثماره في الفن والعمارة. المدن الكبرى التي بقيت كمراكز روحية مثل مكة والقدس مؤسسة على نموذج أصلي يقرر حالتها وواقعها الحضري المبدئي، ناهيك عن عوامل التحول والهدم والزمن.

ويوضح «بيزاليل ناركيس» الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس، التأثيرات العابرة للثقافات والتداخل بين أبنية دور العبادة في الديانات التوحيدية الثلاثة. ويأتي بأدلة من دراسة مقارنة بين أوائل المعابد اليهودية والكنائس والمساجد المعروفة. المباني كانت أساسًا عبارة عن نوافذ فوق أعمدة فيما عرف أثناء العصر الروماني بـ«البازيليكا». وقد وجد هذا النظام ليس فقط في كنيسة سان جيوفاني من القرن الرابع الميلادي، وبازيليكا سان بيتر سنة ٣٣٣، بل أيضًا في المعبد اليهودي من القرن السادس في ساردیس.

المسجد الأقصى الذي بني في القدس ما بين القرنين الثامن والعاشر له ملامح بازيليكية قريبة من تلك التي وجدت في المعابد اليهودية والكنائس المسيحية في تلك الفترة.. هذا التأثير المتبادل استمر حتى القرن العشرين، عندما بنيت المعابد عاكسة اتساع الكنائس الشبيهة بالمسارح والتي دمجت بين الطرز القوطية الجديدة والرومانية الجديدة، مع ذلك كان التداخل بين المعابد والكنائس والمساجد عبر السنين معقدًا جدًا.



حول وظيفة ومستقبل الأماكن المقدسة في العالم المعاصر، يشير «ستيفانو بيانكا» المهندس والكاتب ومدير برنامج دعم المدن التاريخية في مؤسسة أغاخان، إلى أن الثقافات التقليدية استوعبت تزامن طبقات متعددة من الواقع المادي والروحي. تعكس الواحدة الأخرى خلال سلسلة من المراجع والقياسات متضمنة في العلاقات بين العالم الكبير والعالم الصغير أو بين الكون والإنسان. ضمنيًا، مع القبول بهذا الرؤية المتكاملة للواقع، فإن ذلك يعني أنه لا يجب ولا يمكن أن تنفصل الأماكن المقدسة عن بيئتها الدنيوية. كان أحد أهم اهتمامات الحضارات التقليدية تأسيس صلات دائمة بين المرئي وغير المرئي، الكمي والكيفي، الزائل والسرمدي. والغريب أننا نجد المدن التاريخية تعاني أكثر في المجتمعات ذات التقاليد الدينية القوية!

يعتبر الضريح الخشبي الكبير في مدينة آيس أهم مكان مقدس في اليابان. ويصف «ايساوا توكورو» الأستاذ في معهد الثقافة اليابانية بجامعة كيوتو، الاحتفالات الدينية خلال العمليات المقدسة التي يتم فيها تجديد الضريح، بإعادة بنائه وتجديد كل ما بداخله مرة كل عشرين عامًا. هذا التجديد الدوري حتم الاحتفاظ بالخبرة والمهارة المطلوبة وانتقالها عبر الأجيال على مدى ١٣٠٠ سنة!



يتناول الجزء الثاني من الكتاب دور الحكومات وتخطيط وإدارة عمليات الحفاظ على التراث. إذ تعتبر الحكومة الجيدة شرطًا ضروريًا للحفاظ على التراث التاريخي وإدارته. ويعرض لنا الجزء الثاني من هذا الكتاب القيّم السياسات العامة والاستراتيجيات التي تبنتها البرازيل وهولندا والنرويج والولايات المتحدة الأمريكية ودول في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. جميعها تحاول بذل جهود خاصة تتمثل في تقوية الإطار المرجعي القانوني للحفاظ على التراث، وجذب القطاع الخاص للمشاركة في برامج الحفاظ على التراث، وكذلك تفعيل أجهزة الحكم المحلي لنفس الغرض.

يستعرض «فرانسيسكو ويفورت» وزير الثقافة وأستاذ العلوم السياسية في البرازيل، التحديات التي مرت بها البرازيل متعددة العرقيات والثقافات. ويثير التساؤلات حول صلاحية السياسات الثقافية في اقتصاد العولمة. ويقتبس من «روبرت رايخ» قوله: «العمالة هي فقط الوطنية في الاقتصاد العالمي المعولم». ويقول «ويفورت» إننا عندما نتكلم عن العمالة فإننا لا نتكلم فقط عن تعليم وثقافة مفهومة كمعرفة مكتسبة من الكتب، ولكن أيضًا كتدريب على الخلق والابتكار. فالإبداع هو الذي يغذي الخيال، وهو الوسيلة التي تحقق الخيال في الواقع.

ففي هولندا، هذا البلد الصغير، يوجد ٧٦ ألف مبنى وموقع تاريخي مسجلة!! مهمة الحفاظ عليها موزعة بين الدولة والمحليات. يتحدث «آل البيرز» عن ميكانيزم جديد متمثل في «صندوق الترميم القومي» الذي وجد ليشجع جهود الحفاظ الخاصة. تدير مؤسسة خاصة، هذا الصندوق الذي يوزع قروضًا بفوائد بسيطة على ملاك المباني التاريخية ليحافظوا عليها. وأثبتت دراسة مسحية قامت بها وزارة المالية الهولندية جدوى هذا الصندوق في تحقيق مهمته بالإضافة إلى خلق فرص عمل جديدة والمشاركة في التنمية الاقتصادية.

يأخذنا «سيرى ميرفول» مدير إدارة التراث في بلدية «برجن» إلى هذه المدينة وهى ثانى أكبر مدينة في النرويج، وواحدة من أقدم المدن التاريخية في أوروبا، والتي تم إدراجها في قائمة التراث العالمى. في قلب المدينة ميناء «برجن» الخشبى من العصور الوسطى، وتتم المحافظة عليه حاليًا ليس فقط كاثر، ولكن أيضًا كجزء حى من المدينة. كما تهدف الإدارة من عمليات المحافظة إلى حماية هذا القلب من مخاطر المرور الكثيف والمباني الجديدة.

في الفصل الخاص بحماية التراث المعمارى في المدن الكبيرة يعكس «مايكل سوركين» وهو مهندس وكاتب يعمل في نيويورك، مفهومًا عامًا عن الأصالة غالبًا ما يختلط بصورة زائفة في العمارة المعاصرة. ويرى «سوركين» أن أفضل خط للدفاع عن العمارة التاريخية الأصيلة هو العمارة المعاصرة الأصيلة. كما يستنتج أن الخطر الأساسى من قبول التقليد يكمن في أننا أصبحنا ممثلين أكثر منا مواطنين، نتظاهر بأننا جزء من بيئة تخدعنا بأنها حقيقية. وهناك حركة صاعدة في الولايات المتحدة الأمريكية تسمى «الحضرية الجديدة New Urbanism» تطرح بقوة نزعة محافظة جديدة: الحنين للعودة إلى نمط حياة مثالى من الماضى البعيد.

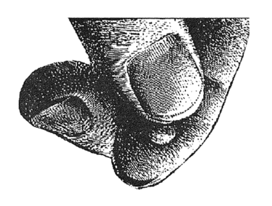
يناقش «مايكل سرنيا» عالم الاجتماع ومستشار البنك الدولى لسنوات طويلة موضوع حماية الموروث الثقافى من خلال مشروعات التنمية، ويشير إلى مشاكل ترجمة سياسات المحافظة على المدن التاريخية إلى برامج عملية. كما يشير إلى صعوبة تمويل هذه المشروعات. ويقرر «سرنيا» بعد دراسة عدد من المشروعات والقطاعات، أن أعمال البنية التحتية التي تصمم بحساسية ثقافية ووعى تراثى تستمر لزمن أطول حتى لو لم تتم الاستفادة بها في ترميم المباني التاريخية.



يتناول الجزء الثالث من الكتاب التراث المعرض للأخطار وخطط الإنقاذ والتمويل وإعادة البناء وإعادة الاستخدام. وعلى الرغم من أن معظم التدمير الذي يلحق بالآثار يحدث بسبب كوارث طبيعية، إلا أن معظم الخبراء يتفقون على أن الإهمال (و) أو الحماية غير الملائمة يمكن أن تدمر الآثار.

يصف الفصلان الأولان في هذا الجزء بنجاح عمليات إعادة البناء التي تمت في آسيا، وإيطاليا، وفى «ليجيانج» بالصين بعد سلسلة من الزلازل. والفصول الأخرى من هذا الجزء تغطى عمليات التحول وإعادة الاستخدام وإعادة التخصيص للبنية التاريخية في فينسيا بإيطاليا، وتلمبيكو وتلاكولتابان في المكسيك وريسيف في البرازيل.

يتحدث «جيورجيو كروشى» أستاذ الهندسة البنائية بكلية الهندسة في جامعة روما، عن القرارات المتعاقبة بإعادة بناء بازيليكا القديس فرانسيس الأسيسى. وهى تبدأ باختبار الأضرار البنائية والحلول الهندسية المفترضة. وبخاصة الإجراءات السريعة التي تتخذ عقب الزلزال لمنع الانهيار الكامل للعقود والقلب. وبتشويه البناء، فإنه يخشى من حدوث تدمير أكبر للسطح ولمكان الصلاة وللأعمال الفنية التي تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر. المرحلة الثانية للعمل تتضمن تدعيم وترميم ما بداخل البازيليكا باستخدام تكنولوجيا خاصة.



مكة هى المدينة الروحية الأولى لدى المسلمين، في قلبها توجد الكعبة التي تتصل بالقلب الإنسانى. وعلى الرغم من أن جزءا كبيرا من مكة تم هدمه لإنشاء مشاريع حضرية متجددة ومتعاقبة، فإن قلب المدينة بقى على حاله مؤسسا علاقة مباشرة ـ كقلب روحى للعالم الإسلامى ـ مع القلب الإنسانى



مدن تاريخية ..

«جيوفرى ريد» مهندس مسئول عن منطقة شرق آسيا والمحيط الباسفيكى و«كاترينكا إيبى» مستشارة عن التراث الثقافى بالبنك الدولى، يوثقان ويحللان عملية إعادة بناء مدينة «ليجيانج» القديمة بالصين بعد ان ضربها الزلزال، وهو المشروع الذي ساعد فيه البنك الدولى. مدينة «ليجيانج» عمرها ٨٠٠ سنة، وتخطيطها الحضرى يتكون من قنوات وطرق متعرجة، وهى الموطن الرئيسى لعشرة أقليات وطنية، بالإضافة إلى كونها مكانا تراثيا عالميا. على أثر تعرض المدينة لزلزال هائل مدمر، أصدرت الحكومة الصينية دليلاً عن كيفية تدعيم وتقوية المباني لتصبح أكثر قدرة على مقاومة الزلازل. وصدرت أيضًا تعليمات بتطوير المنازل الخشبية، واتخذت إجراءات لحماية الشخصية التاريخية لمجمع مبانى منطقة «ميوفيو». كان الهدف زيادة الموارد بسرعة، وإعادة بناء حياة طبيعية في المدينة، في الوقت الذي تتم فيه حماية تراثها الثقافى النادر. وقد أدى التعاون بين الهيئات المتنوعة إلى تقوية المجتمع المحلى وتشجيعه على المشاركة في التحديث وتشجيع السياحة.

ويهدد تدهور البيئة الطبيعية في بحيرات فينسيا مجمل الآثار في تلك المدينة الفريدة. لقد حدث فيها تدهور للبيئة البحرية، وارتفع مستوى المياه، فضلاً عن خسائر كبيرة في الوظائف الصناعية، وتناقص شديد في عدد السكان خلال الثلاثين عامًا الأخيرة، كل هذا أدى إلى حدوث أضرار في اقتصاد المدينة، وبالتالى أثر سلبًا على قدرتها على حماية تراثها النادر.

في هذا الصدد، يعرض المهندس «ماوريتسيو سابينى» لإعادة تأهيل الترسانة البحرية، وإعادة استخدام المخازن الحربية التاريخية في الصناعات المتقدمة تكنولوجيًا وكمركز لأبحاث تكنولوجيا المعلومات. ويتوقع من هذه الاستخدامات التجارية الجديدة أن تخلق فرص عمل وتمهد الطريق لإعادة كفاءة فينسيا الاقتصادية.

بينما يزودنا المهندس «الفونسو جوفيلا» بتقرير مفصل عن عمل فريقه من المعماريين في مدينتى «تامبيكو» و«تلاكولتابان» في المكسيك. في «تامبيكو» يعيدون بناء «منزل العادات» القديم، أو «أدوانا»، ومبنى «إديفيسيو دى لا لوز»، وكلا المبنيين يطوعانهما لاستخدامات جديدة. وقد ثبت من خلال هذه التجارب كيف أنه يمكن للقطاع الخاص أن يستفيد من المباني المهجورة في استخدامات جذابة ومفيدة. وثبت أيضًا أن للمبانى المحولة قيمة اقتصادية وأهمية سياسية كرموز على الاهتمام بمنطقة وسط المدينة. وفى المقابل، فإن خبرة إعادة بناء المركز التاريخى لـ«تلاكولتابان» جذبت اهتمام الخبراء والرسميين بشكل أكبر وذلك بسبب تسجيلها في قائمة التراث العالمى.. وثبت من ذلك أن تضافر الجهود الدولية والمحلية يمكن أن يؤثر بشكل أسرع وأفضل.



تتناول فصول الجزء الرابع التحول الاقتصادى والحفاظ على التراث الحضرى. وهنا يبقى أيضًا دور الحكومة ضروريًا في الحفاظ على التراث الثقافى والآثار التاريخية. فالحكومات هى فقط القادرة على خلق بيئة مناسبة للاستثمار الخاص والمبادرات الفردية ونشاط الجمعيات الأهلية.

يتناول «مايكل بونيتى» مدير منظمة مدن التراث العالمى في كويبك، الاستراتيجيات المهمة للحفاظ على التراث الحضرى. مؤكدًا أن الإدارة الناجحة للمدن التاريخية تتطلب مشاركة المواطنين في التخطيط وصنع القرارات، مثلما يصدر القادة السياسيون المحليون القرارات الأساسية المتعلقة بالحفاظ على المدن. يرى «بونيتى» أن المخططين والحافظين للتراث هم الأساس القوى لممارسة إدارة الحفاظ الفعالة. كما يرى أيضًا أن تقدير القيمة العالمية لموقع أو مدينة تاريخية يتجسد في وعى الناس بالتاريخ الدولى وتطابقهم معه، وتقديرهم للمزايا التاريخية والفنية لتراث المدينة أو الموقع.

في هذا الجزء من الكتاب تقيم ثلاثة فصول التطورات التي تمت في المركز التاريخى لمدينة سان بطرسبرج في روسيا. يقابل «بلير رويل» مدير معهد كينان للدراسات الروسية المتقدمة في واشنطن، بين سان بطرسبرج ولينينجراد، واضعًا العاصمة الإمبراطورية بمخططها الباروكى ومجموعة رائعة من عمارتها في مقابل الامتداد العشوائى العمرانى الذي تم خلال الفترة السوفيتية. يفرض التراجع عن اسم لينينجراد والعودة إلى اسم سان بطرسبرج تحديات أكبر على من يهتمون بالحفاظ على التراث التاريخى والثقافى، وكذلك على من يهتمون بمصير سكان المدينة واقتصادهم المنهار.

ويفحص المهندس «راحول ميهروترا» البنية المزدوجة لمدينة بومباى الهندية والتى أسسها البريطانيون كمركز تجارى، لكنها توسعت بشكل عشوائى مكثف. بذلت جهود في الجزء الغربى من المدينة للسيطرة على المباني، وشق شوارع مستقيمة، ووضع حد أعلى للارتفاعات، وإنشاء حدائق مفتوحة. ظلت هذه البنية الكلاسيكية المزدوجة للمدينة حتى سنوات الستينيات من القرن العشرين، عندما بدأ النمو العشوائى للبازارات التقليدية تؤثر سلبًا على البيئة الطبيعية لأحياء وسط المدينة. يصف «ميهروترا» دور جماعات المواطنين في الحفاظ على المباني التاريخية، والمناطق ذات المخططات الخاصة. ويرى أن التحدى في بومباى يتمثل في التغلب على مشكلات تحول المدينة، ليس عن طريق زيادة الازدواجية فيها، ولكن عن طريق محاولة عقد صلح بين جزءيها المتصارعين.

ونصل إلى العالم العربى: فنجد المهندس على الشعيبى رئيس الجمعية السعودية للمهندسين والمخططين، يفحص تأثير خمسين عامًا من التحضر والتحول على المواقع المقدسة في المدن التاريخية في المملكة العربية السعودية. ويحلل ظهور عوامل التحديث في المجتمع التقليدى من خلال مدن: مكة وجدة والرياض، وكل منها تعرضت لتحولات حضرية وسكانية سريعة وتحديث معمارى، كما تشهد تدفقًا بشريًا أجنبيًا وبخاصة خلال شهر رمضان وموسم الحج. كل هذا يفرض تحديات هائلة للحفاظ على تراث مكة وموقعها المقدس.

بينما يدرس الدكتور سعدالدين إبراهيم المحتوى الاجتماعى والتغيرات السكانية والتحولات التاريخية التي تؤثر على الحفاظ على مدينة القاهرة التاريخية. فقد تضاعف سكان القاهرة ثلاث مرات خلال القرن التاسع عشر ليتجاوزوا عشرة ملايين ساكن، بينما اتسعت مساحة المدينة من ميلين مربعين إلى ٦ أميال مربعة بسبب تبنى تخطيط حضرى أوروبى. وشهدت الخمسون عامًا الأخيرة من القرن العشرين زيادة كبيرة في عدد السكان والمناطق الحضرية وحركات هجرة داخلية أدت إلى ظهور أحياء عشوائية، بينما ظل الفقراء يسكنون الأحياء القديمة، وهم يشكلون ٤٢٪ من السكان. ويرى سعدالدين إبراهيم أن الأصولية الدينية تشكل خطرًا حقيقيًا على النسيج الطبيعى والاجتماعى للمدينة. وسوف يفشل الحفاظ على المناطق التاريخية بدون فهم النسيج الاجتماعى ودمج الناس في

عمليات الحفاظ. ذلك أن الاهتمام بالبعد الاجتماعي هو مفتاح النمو الحضرى الناجح والحفاظ على التراث.



يستعرض الجزء الخامس من الكتاب الحفاظ على التراث المبنى والمواقع الطبيعية الثقافية بناء على التجارب التى تمت فى الهند والبرازيل والمغرب والولايات المتحدة. فمن المعروف أن تدهور وتدمير آثار مهمة ومواقع حضرية يرجع إلى عدة عوامل منها: تدنى الحالة الاقتصادية، والآثار المدمرة لبرامج التجديد، ومنظومة من عدم كفاءة السياسات العامة والقدرة على التنفيذ.

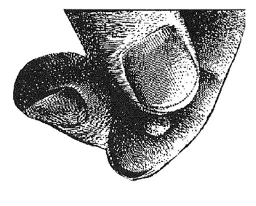
فى البرازيل ـ مثلما فى كثير من الدول لا تستطيع الحكومة بمفردها تحمل عبء المحافظة على التراث بالكامل. لذلك لابد لها أمام إمكانيات محدودة من التركيز على طرق لحفز شركاء من المجتمع المدنى والسكان ورجال الأعمال. وهنا يشرح «آرثر دارلينج» مدير برنامج الآثار فى بنك «التنمية عبر أمريكا»، هذا البرنامج الذى أطلقته وزارة الثقافة فى البرازيل بمساعدة البنك. كان الغرض هو تطوير استراتيجية تعتمد على تطوير هياكل مكونة من المجالس المحلية والقطاع الخاص للحفاظ على آثار ومواقع تاريخية. وقد ساعد برنامج الآثار فى إنتاج مواد تعليمية خاصة وأنشطة للارتقاء بالوعى. كما تأسست صناديق محلية للترميم فى كل مدينة لتمويل المشروعات المستقبلية.

فى الولايات المتحدة الأمريكية، يعتبر مرسوم الطريق السريع بين الولايات الذى صدر عام ١٩٥٦ بداية انهيار مناطق وسط المدينة أو «الشارع الرئيسى». فلقد قادت السيارات الناس لبناء المحلات والمجمعات التجارية بعيدًا عن المراكز التقليدية للمدن. وانتقل السكان والأعمال بعيدًا عن المراكز الحضرية آخذين معهم الإعفاءات الضريبية.

وفى منتصف السبعينيات من القرن العشرين، أطلق الصندوق الوطنى للحفاظ التاريخى بنجاح برنامجًا لإحياء مناطق وسط المدينة فى ٤٣ ولاية وأيضًا فى بورتو ريكو. يصف «كينيدى سميث» مدير برنامج «الشارع الرئيسى» فى صندوق الولايات المتحدة للصيانة التاريخية، النتائج الجيدة لهذا البرنامج بما فى ذلك خلق فرص عمل وعودة السكنى للعديد من المبانى والاستثمارات التى تمت.

أما مدينة «أحمد أباد» الهندية فهى ثرية من عدة أوجه، وفقيرة فى الوقت ذاته. حالة هذه المدينة تثبت أهمية توافر فريق إدارى فعال يستخدم طرق تمويل مبتكرة يتعاون مع البلدية لتحسين البنية التحتية وصيانة مركز المدينة التاريخى. ويشرح «كيشاف فارما» المسئول فى البنك الدولى وكان من قبل محافظًا لمدينة أحمد آباد، كيف أن الإدارة الجديدة قامت بتطوير طرق تحصيل الضرائب واكتسبت ثقة المستثمرين وأصحاب الأعمال التجارية بالمدينة، مما كان له أحسن الأثر. ومع تدفق الموارد أصبحت سلطات المدينة قادرة على القيام بعدد من المشروعات للمحافظة على التراث. ويخلص «فارما» إلى أن من أهم العوامل التى أدت إلى نجاح مدينة أحمد آباد هى: القيادة، والالتزام، وحب العمل، والمشاركة العامة..

ويقول الخبير السياحى «موريس ديستيوس فرانسيس» أن القطاع الخاص قام بحماية وصيانة معظم الأحياء التاريخية. وكان من نتائج ذلك أن نمت السياحة العالمية فى السنوات الأخيرة، بحيث تجاوزت عائداتها السنوية مبلغ الخمسمائة مليار دولار أمريكى. وقام البنك الدولى ووكالات دولية أخرى بالاستثمار فى عدة مدن عن طريق تمويل



على الرغم من أن معظم التدمير الذى يلحق بالآثار يحدث بسبب كوارث طبيعية، إلا أن معظم الخبراء يتفقون على أن الإهمال (و) أو الحماية غير الملائمة يمكن أن تدمر الآثار

.. ومواقع مقدسة

القطاع الخاص لتطوير صناعة السياحة، غالبًا بإنشاء فنادق فى المدن التاريخية أو قريبًا منها. ولم تعد معايير الاستثمار فى السياحة ترتبط فقط بزيادة عدد السائحين، فقد أخذت حماية البيئة أولوية حاليًا للتأكيد على أن السياحة تفيد السكان المحليين وتساعد فى حماية تراثهم الثقافى.

وتستعرض «منى سراج الدين» الأستاذ بمدرسة التصميم بجامعة هارفارد، الدراسات التى أجريت على مدينة «فاس» فى المغرب. وركزت هذه الدراسات على الظروف الاجتماعية والاقتصادية للسكان، والتآكل المادى الذى حدث للآثار، وكلها عوامل تؤثر سلبًا على التراث التاريخى والمستوى الحضرى للحياة فى المدينة. وقد بادرت الحكومة المغربية، بمساعدة قرض صغير من البنك الدولى، بمشروع يركز على ترميم بعض الأماكن، وتحسين طرق دخول المشاة وسيارات الإسعاف إلى المركز التاريخى والتجول فيه. كما يهدف المشروع كذلك إلى التخفيف من الفقر من خلال أنشطة تتعلق بالإسكان. وقد استخدمت مناظير مختلفة لتقييم التراث الثقافى فى مدينة فاس، مثل: القيمة الجوهرية، والقيمة السياحية، وقيمة المدينة بالنسبة للشخصية الثقافية للمغرب، والقيمة التجارية كما تعبر عنها الحالة الحقيقية والأصول الاقتصادية للموقع.

يتناول الجزء السادس من الكتاب التطبيقات التقنية فيما يتعلق بمسح وتقييم وتوثيق الأصول التراثية. إذ يؤثر التوثيق، والمسح، وعمل قوائم فى القرارات المتعلقة بالمبانى التراثية. فعمل القوائم والسجلات هو توثيق رسمى يصنف الآثار والمواقع طبقًا لإجراءات وقواعد معينة. ولقد سنت تشريعات وقوانين لحماية التراث المبنى عبر الزمن بالإضافة إلى إجراءات قوائم التسجيل، بما يسمح بإضافة آثار، أو إعادة تصنيفها، أو حتى حذفها من القوائم. هذه التغيرات تقوم على قرارات سياسات تعكس التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسكانية. وكمثال يصف «مارتن شيرى» مدير البرامج القومية فى مؤسسة التراث الإنجليزى والصيانة فى لندن، قوائم التراث فى إنجلترا بأنها أداة لإدارة التغيرات التى تحدث للأبنية التاريخية هناك. ويقول إن نظام القوائم الإنجليزى مرن وقوى للتكيف مع المتطلبات المعقدة.

وفى اليابان يعتبرون أن التعرية التى تصيب المبانى التاريخية جزئيًا أو كليًا فرصة فريدة لدراسة تاريخ البناء والتقنيات الإنشائية القديمة. ويستعرض «تاكيشى ناكاجاوا» أستاذ العمارة فى جامعة «واسيدا» باليابان، السجلات التفصيلية لترميم المبانى التراثية هناك.

وغالبًا ما تكون الميزانيات مشكلة تعترض مقدرة الدولة على حماية وصيانة الآثار القومية. ويشرح «لاورو لاج فيلو» و«آرثر دارلنج»، والاثنان من بنك التنمية عبر أمريكا، كيف يمكن للمسئولين وضع أولويات للآثار التى تجب حمايتها وترميمها اعتمادًا على تصور هرمى من الأهداف والمعايير والبدائل فيما يسمى بـ «عملية التحليل الهرمى»، وهى الطريقة التى استخدمت لاختيار المدن التاريخية لبرنامج الآثار فى البرازيل.

تتحدث فصول الجزء السابع من الكتاب عن الثقافة الفطرية لأمريكا الشمالية والطقوس التقليدية لـ «كوارب Kuarup» بيت سكان البرازيل الأصليين. وتعكس هذه الفصول وجهة نظر تقول بأن الطبيعة والمناظر الطبيعية جزء من الموهبة الروحية لهذه الشعوب. السكان الأصليون لـ «العالم الجديد» يرون أن كل الأرض مقدسة، ويعتقدون أنه يجب الاهتمام بقوى فى الأرض للحفاظ على التوازن بين الإنسان والطبيعة.

وقد تناولت «فيفيان مان» مؤرخة فن تعمل فى المتحف اليهودى بنيويورك، فن «الحياة معًا» فى إسبانيا، حيث صفت عناصر ثقافية متفاعلة عبر وعى جماعى للمسلمين واليهود والمسيحيين فى إسبانيا العصور الوسطى. وجدت أيضًا علاقات امتزاج ثقافى مشابهة بين المسلمين واليهود فى المغرب فى القرنين الثامن عشر والعشرين. استعرضت «فيفيان مان» السمات الجمالية ونمو فن صنع الأيقونات اليهودية وتكوين الجذور الثقافية. وذكرت أنها اعتمدت فى هذه الدراسة على التسجيلات المكتوبة من أرشيف حياة اليهود فى إسبانيا فى القرون الثلاثة الأخيرة، والتقارير المكتوبة عن نشاط اليهود تحت الحكم الإسلامى والمأخوذة من معبد «بن عزرا» فى الفسطاط بالقاهرة. انتهى هذا التعايش فى إسبانيا بسقوط غرناطة وطرد اليهود عام ١٤٩٢م. وتقول الكاتبة أنه منذ ذلك الوقت أثرى «اللاجئون» اليهود المهرة والمتعلمون جيدًا المجتمعات اليهودية فى الإمبراطورية العثمانية وشمال أفريقيا. فى هذا العالم عاش المسلمون واليهود معًا حتى منتصف القرن العشرين.

أما «لوران ليفى شتراوس» نائب مدير إدارة التراث الثقافى باليونسكو، فهو الوحيد فى هذا الكتاب الضخم الذى تحدث عن أهمية الأماكن المقدسة غير المشيدة. إذ تتضمن قائمة التراث العالمى مائة مدينة تاريخية وحوالى مائتى مدخل لأماكن مقدسة. يوضح هذا التمثيل واسع الانتشار أنها فى صميم مفهوم التراث الثقافى، تشكل جذورًا قوية لشخصيات الشعوب وقاعدة لتحديد أى ثقافة.

ويتحدث «ليفى شتراوس» عن حملات اليونسكو السابقة لإنقاذ وإعادة بناء وصيانة التراث الثقافى المهدد، مؤكدًا أن المبانى التاريخية مهددة بمشاكل خطيرة فى الصيانة، والتوازن الداخلى، والاستخدام. وكالعادة فإن المهام الرئيسية لهذه الحملات هى: التنمية الاجتماعية والاقتصادية للمدينة، وإدارة وحماية مستوى معيشة السكان، وصيانة هوية المبانى التاريخية. ومن الضرورى دراسة كل حالة على حدة بعناية لتحديد الطرق الخاصة والمميزة للتعامل معها. ويخلص «ليفى شتراوس إلى القول: «فى زمن التنوع الاجتماعى الذى يؤدى إلى التشرذم، فإنها وحدها الذاكرة الثقافية هى التى ستحافظ على الروابط الاجتماعية الأساسية والتى تمكن فسيفساء الناس ذوى الأصول والثقافات والأجيال المختلفة من العيش معًا».

يتناول الجزء الثامن والأخير من كتاب «مدن تاريخية ومواقع مقدسة» تجارب عملية لحماية مدن تاريخية وتراث، شاركت فيها أعداد كبيرة من الوكالات والهيئات غير الحكومية وحكومات مركزية ومحلية وتجمعات. كان الرابط بينها هو تحقيق تكامل بين المهارات والموارد فى عمل تعاونى لحماية التراث المشيد وخدمة التنوع الثقافى بطريقة مؤكدة.

استعرض «لورانس هانا» الخبير الاقتصادى فى البنك الدولى، الاستراتيجية الجديدة التى تعتمد على المشاركة والتى تم إقرارها لجهود السلام وتسوية الصراع فى البوسنة والهرسك. حيث تكاملت جهود إعادة بناء المدينة القديمة والجسر الذى بنى فى القرن الخامس عشر مع الاهتمام طويل المدى بالسلام الدائم وإدارة حماية التراث المشترك. يوضح «هانا» كيف تكونت المشاركة بين المجتمع المحلى والحكومات المركزية والإقليمية واليونسكو وصندوق أغاخان للثقافة، وصناديق الآثار العالمية، والبنك الدولى والمتبرعين المتنوعين. ومازالت «لجنة الخبراء الدولية» التى شكلتها اليونسكو تزود السلطات المحلية والمركزية هناك بالوسائل التقنية لإعادة البناء. ■

المحـــــــــاكاة والطـبـيـعـــــــــة عنـــــــــد

"ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى"

«المتنبي»

حســـين الســـواد

«ولقد كان أبو دبّوبة الزّنجي، مولى آل زياد، يقف بباب الكرخ، بحضرة المكارين، فينهق، فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير، ولا متعب بهير إلا نهق. وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة، فلا تنبعث لذلك، ولا يتحرك منها متحرك، حتى كان أبو دبّوبة يحركه. ولقد كان جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد».

«الجاحظ»



أجزني إذا أنشدت شعرا فإنّما بشعري أتاك المادحون مردّدا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكيّ والآخر الصدى

«أبو الطيب المتنبي»



«يعلن تغريد الطير عن الابتهاج بالوجود والانشراح، أو على الأقل هكذا نتأول الطبيعة سواء أكان ذلك مقصدها أم لا. ولكن الجمال الذي يستقطب اهتمامنا في هذا المقام يستوجب قطعا أن ينحصر في جمال الطبيعة، فهو يمحي امّحاء كليًا، حالما ندرك أننا قد خدعنا وأن الأمر لا يعدو أن يكون ضربا من ضروب الفن، لا يجد فيه الذوق ما يستحسن ولا البصر ما يشده إليه. وهل ألذّ لدى الشعراء من تغريد ساحر حسن ينبعث من عندليب في أجمة منعزلة ذات مساء صيفي هادئ تحت لطيف نور القمر؟ إلا أن ظريفا ماكرا، في بعض الأمثلة، قد عمد، عند تعذر مثل ذلك الطائر الغرّيد، أن يخدع ضيوفا وفدوا عليه للاستمتاع بنسيم الحقول، فسرّهم أيّما سرور بأن أخفى في أجمة شابا فارها حاذقا في محاكاة ذلك التغريد محاكاة تامة (بواسطة قصبة أو غصن من الأسل يضعه في فمه) وما أن تم الانتباه إلى أن الأمر إنما يتعلق بخدعة حتى لم يعد أحد يقوى على مزيد الاستماع إلى ذلك التغريد الذي كان من قبل يعدّ أخّاذا».

«..............»

■■ تلتقي هذه النصوص الثلاثة لهؤلاء الأعلام المشهورين في الالتفات إلى مسألة من أكثر المسائل في المباحث الجمالية استئثارا بالاهتمام وأشدها إثارة للجدل والنقاش، فالعلاقة بين الطبيعة والفن (وهي مسألة خلافية أيضا) علاقة معقدة عصية مستغلقة شديدة التشعب تكاد تشمل معظم ما يشغل الناس في الفن من قضايا ومشكلات تتصل بنشأته وخصائصه وتقويمه وبما يسند إليه من وظائف.

فالجاحظ يذهب، وفقا لطريقته في مزج الجد بالهزل في المحاجة وتصيد النوادر الدالة وطرق المواضيع التي قلما تحظى بالعناية والاهتمام، إلى إيراد هذا الخبر متمثلا به على القدرة التي خص بها بعض الموهوبين من الآدميين على التقليد والمحاكاة، وذلك في سياق البرهنة على أن الإنسان عالم صغير ميزه الله بالعقل وفتح له في مجال القدرة والاستطاعة أبواب التمكين المكين.

أما المتنبي فقد أصدر في هذا الشعر عما كان يعتقده ويعتد به معظم النقاد والعلماء، من تقابل وتنافر بين الحضارة والبداوة والصدق والكذب والمطبوع والمصنوع والجودة الحقيقية والبهرج الزائف، متجها، على طريقة الشعراء في إقامة أمثلة الموجودات والأشياء في النفوس، إلى الجزم بأن الطبيعي أولى بالتفضيل وأحق بالإيثار من المصنوع. وله في هذا المعنى أبيات كثيرة منها على سبيل المثال قوله في إحدى البائيات السائرة:

ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعر في الرأس مكذوب

وأما الفيلسوف الألماني كانط فقد نظر في العلاقة بين الطبيعة والفن وأفاض في تحليلها في أطروحاته الجمالية الشهيرة التي ظلت إلى أيامنا هذه مصدرا لا يستغنى عنه سواء لدى الذين يعتدون بالنظرة الحكمية إلى الجمال والفن أو الذين يعترضون عليها محترزين من استبداد الحكمة بموضوع ليس، عند التأمل الدقيق، من صريح اختصاصها.

ولسنا بالتقريب بين هذه النصوص الثلاثة نزعم أن أصحابها، مهما جمع بينهم الشغف بالحكمة وإيثار التأمل والغوص وراء المعاني البعيدة وتبين الفروق اللطيفة وتعميق النظر في الكائنات والموجودات، أو باعدت بينهم مجالات الإنتاج والمقاصد، قد تأثر بعضهم ببعض أو تجاوب معه، فالتوارد في العناية بأمهات المسائل المعرفية شديد التواتر ومسالك الفكر كثيرة الالتقاء والتقاطع.

ولكننا نود أن ننطلق من كلام هؤلاء الأعلام الثلاثة لإبداء بعض الملاحظات في العلاقة بين الطبيعة والفن وما ينتج عن فهمها من أحكام جمالية كثيرا ما نعتقد أنها تتأسس على الوظيفة التي نقدر أن الفن ينهض بها.

وغني عن البيان أن من هؤلاء الأعلام، مثلما هو معروف من سيرهم شائع في التصانيف التي وضعوا والأعمال التي أبدعوا، من كان عالما موسوعيا متكلما مهتما بالحيوان والأدب والمذاهب والفرق والبلاغة والبيان، أو شاعرا كبيرا مبدعا خلاقا أمضى العمر يجهد لاهثا وراء إمارة «في مملكة الأنام» وهو عليها دون منازع «في مملكة الكلام»، أو فيلسوفا مختصا في العقل وملكاته يجوّد فيها النظر على نحو جعل منه إماما «في الحكمة» ذائع الصيت راسخ الشهرة.

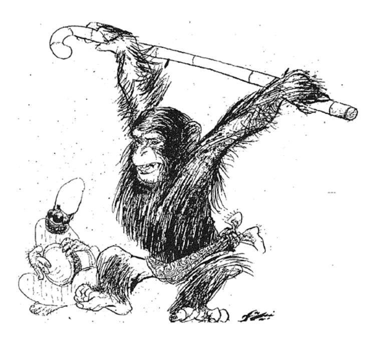
يتراءى الفن، أول ما يتراءى، وأكثر ما يتراءى أيضا، محاكاة للطبيعة. ففي الطبيعة أشياء وموجودات يرتاح لها النظر ويطرب لها

١- البيان والتبيين
الجاحظ
تحقيق: عبد السلام محمد هارون
بيروت: دار الجيل. د.ت

٢- Critique de la faculté de juger
(نقد ملكة الحكمة)
E. Kant
Paris, Vrin, 134pp., 1968

٣- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر
ابن الأثير
تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد
بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٠

الجاحظ والمتنبى وكانط



السمع وتسر بها النفس وتهتز متحركة بالإعجاب والاستحسان والاستملاح بما تبعثه فيها من روعة وبهجة واستلطاف. وفي المصنوعات التي ينتجها الإنسان أشياء تبعث في النفس المسرة والارتياح وتحركها بالتعجب والإعجاب بما فيها من جودة الحذق وقوة الإتقان ولطف المهارة. وفي الطبيعة أشياء وموجودات بيّنة النفع صالحة للاستعمال وأخرى لا وجه، في الظاهر، للانتفاع بها أو استعمالها. وفي المصنوعات أشياء نافعة وصالحة للاستعمال وأخرى لا غاية، في الظاهر دائما، نفعية أو استعمالية لها. وكما أن مجموعة كبيرة من الموجودات والأشياء الطبيعية مما لا نفع، في الظاهر، لها أو لا وجه لاستعمالها إنما تبدو، أكثر ما تبدو، قد وجدت لتروق وتستحسن وتلتذ بها الحواس وتطرب لها وتهش النفوس، كان مجموعة كبيرة من المصنوعات مما لا نفع لها، في الظاهر، ولا وجه لاستعمالها، إنما قد وجدت لتروق وتستحسن وتطرب لها النفس وتهتز بما تحدثه فيها من متعة والتذاذ.

ومع أنه يصعب التمييز بين الموجودات الطبيعية والمصنوعات التي وجدت لينتفع بها في الاستعمال وبين الموجودات الطبيعية والمصنوعات التي وجدت ولا غاية، في الظاهر، انتفاعية منها، كانت المصنوعات الجميلة قابلة لأن ينظر إليها في سياق شبيهها بالموجودات الطبيعية الجميلة.

يؤيد هذا أن إحدى النظريات الجمالية الكبيرة وأقدمها وأوسعها انتشارا وأشدها تأثيرا في الإجراء التطبيقي إنما هي نظرية «المحاكاة». فالمصنوعات الجميلة كأنما استنبطت بوحي من الموجودات والأشياء الطبيعية الجميلة. وللمشابهة والمشاكلة والمجانسة والمماثلة والمناظرة أبلغ الآثار في التعامل مع المصنوعات الجميلة. فأقرب ما يذهب إليه الذهن وأيسره وهو يتأملها إنما يتمثل في قياسها على الموجودات والأشياء الطبيعية الجميلة ومقارنتها بها.

ويؤيد هذا أيضا أن فنانين ومفكرين ومنظرين كثيرين ظلوا إلى زمن قريب يعتقدون أن الطبيعة هي الملهم الأول في إبداع الأعمال الفنية الجليلة، وأن منهم من ذهب إلى أن الإنسان نفسه كائن طبيعي يبدع، متى أبدع، بوحي من طبيعته ومن الطبيعة التي ينتمي إليها.



ويؤيد هذا كذلك أن الفنون ظلت ينظر إليها من خلال تضمنها سمات الموضوعات التي تتناولها وخاصياتها المميزة. وهذا مشاهد في الخطابات التي يتحدث فيها أصحابها عن الأعمال الفنية. وفي نقدنا الأدبي والبلاغي القديم مثلا، والفنون القولية من أعصى الفنون على تمييز جيدها من رديئها بحكم أن المادة الأولية التي تصاغ منها ليست من جنس موضوعاتها، تتواتر عبارات من قبيل «الإصابة في التشبيه» و«المقاربة» و«المشاكلة» و«المجانسة»... حتى إذا تهذبت الممارسة النقدية أعطت في التراث تلك العناية الفائقة بالتشبيه والاستعارة والتمثيل، وأعطت في استكناه أوجه التناسب بين الأقاويل الفنية والواقع ما يمكن أن نتمثل عليه بهذا القول لضياء الدين بن الأثير في شعر المتنبي: «وأنا أقول قولا لست فيه متأثما ولا منه متلثما، وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها (التشديد من عندنا) حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا».

ومهما كان النقد الذي وجّه ويوجّه إلى هذه النظرية صائبا وجيها وكانت مآخذه عليها مقنعة، فإنه لا بد من الإقرار بأن نظرية «المحاكاة» تظل، عند التأمل والإنصاف، من أمتن النظريات وأقدرها على تفسير الظواهر الفنية وتقويمها في مجال يغلب عليه التعقّد والتشعّب ويتسم التعامل معه بالعسر نظرًا لما فيه من ألوان التوعر والصعوبة.

إلى العلاقة بين الطبيعي والفني يتجه اهتمام هؤلاء الأعلام الثلاثة المستشهد بأقوالهم في بداية هذا الكلام. فالجاحظ يذكر أن أبا دبّوبة الزنجي قد أدرك في محاكاة نهيق الحمار درجة من الإتقان عالية جعلت الحمير نفسها تخالها منبعثة منها.

ويزعم المتنبي أن شعر الشعراء الذين كانوا يزاحمونه على الحظوة لدى سيف الدولة ليس سوى أصداء لشعره، ومثلما يستغني بالصوت عن الصدى يستغني بشعره عن سائر الشعر. فمثلما يفضل الصوت الصدى تفضل أشعاره سائر الأشعار.

ويذكر كانط أن مقلد تغريد العندليب قد بلغ من الإتقان والجودة المرتبة التي جعلت السامعين يعتقدون أنه تغريد صادر عن عندليب حقيقي، فاستحسنوه وأثنوا عليه تبعا لما أحدثه فيهم من طرب واعتقدوه من ظن.

ولكن هذه المواقف الثلاثة وهي تؤيد علاقة المحاكاة بين الطبيعة والفن تطرح من القضايا ما يبدو، عند التأمل، جديرا بتلطيف النظر أهلا لمزيد التدبر.

فالذي عند الجاحظ أن المحكى قابل لأن يفضل الطبيعي. يدل على هذا قوله: إن الحمير كانت «قبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك ولا يتحرك منها متحرك، حتى كان أبو دبوبة يحركه». ويعلل الجاحظ هذا بقوله: «ولقد كان جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد». فالمحاكاة تفضل الطبيعة عندما تجمع صورها المتنوعة وتصوغها في واحد يمثلها ويحوي خصائصها. فكان أبا دبّوبة قد جعل، في تقدير الجاحظ، من محاكاته نهيق الحمار «الجوهر» الذي تؤول إليه الأعراض وتشتق منه... وإذا اعتبرنا نهيق أبي دبّوبة مكتسبًا ونهيق الحمار غريزيًا أمكن القول إن الجاحظ يذهب إلى أن المكتسب (وهو ثقافي) قادر على أن يفضل الطبيعي، أو أن في الثقافي شيئًا ليس في الطبيعي. وهذا الشيء هو الذي يمكن الثقافي من الاضطلاع بوظائف لا يضطلع بها الطبيعي.

وأما الذي عند كانط فيبدو مفيدا في أكثر من اتجاه بما يفتح عليه من مسائل في علاقة المحكى بالطبيعي. فالضيوف الذين استمعوا إلى التغريد المنبعث من مقلد العندليب قد استحسنوه واستملحوه واستلطفوه وأعجبوا به وطربوا له عندما كانوا يعتقدون أنه ينبعث من عندليب حقيقي. وما أن عرفوا أنه ليس أكثر من تقليد محكم الإتقان ينبعث من إنسان ماهر في المحاكاة حتى انقلب استحسانهم استقباحا واستملاحهم استسماجا وإعجابهم اشمئزازا وارتياحهم استيحاشا وطربهم انزعاجا. فرغم أن المحكى في ذاته قد أحدث في النفوس الوقع ذاته الذي أحدثه الطبيعي فإن معلومة بسيطة لا علاقة لها بالفن قابلة لأن تفسد المتعة وتبطل الطرب والإعجاب وتحدث انقلابا في الحكم الجمالي.

أما المتنبي فإن الصوت في مثاله والصدى لا فرق بينهما إلا من حيث إن الصوت ينبعث من «الطبيعة» (سليقة الشاعر هنا) وأن الصدى امتداد للصوت لانبعاثه عنه. فكلما كان العمل الفني ألصق بالطبيعة كان أفضل وكلما كان أقرب للثقافي ولو شاكله تمام المشاكلة كان أقل قيمة من الطبيعي الصريح. غير أننا، مع مثال أبي الطيب، إنما نقف إزاء مصدر الإبداع ومنبعثه وإزاء المبدعات الفنية في علاقتها بعضها ببعض. فالمتنبي لا يتحدث عن المصنوع في علاقته بالطبيعة التي يحتذيها لأنه ركز مثاله على علاقة المصنوع بالصانع. فالقول الشعري ينبعث من طبع المرء، من الطينة التي جبل عليها والمعدن الذي صيغت منه مواهبه.



يسلم التأمل في هذه الأقوال الثلاثة إلى مجموعة من النتائج تتعلق بالأعمال الفنية وبالأحكام التي نصدرها في شأنها.

ولعل أولى هذه النتائج وأقربها إنما تتمثل في أن قيمة العمل الفني لا تتجسم في الموضوع الذي يتناوله بالمحاكاة. وهذا، في الحقيقة، رأي قديم متواتر شديد التواتر في الأعمال النظرية والتطبيقية القديمة. وهو يرد بيّنًا جليًا في الخبر الذي يذكره الجاحظ. فنهيق الحمار ليس من الأصوات التي تلتذ بها الأسماع أو تطرب لها النفوس، بل هو كثيرا ما تشبه به الأصوات المنكرة. وهذا يعني أن التعجب من نهيق أبي دبّوبة لا ينبعث من المحكى ذاته الذي هو نهيق الحمار إذ هو في ذاته

صوت كريه. ولأسلافنا الفلاسفة المسلمين كلام كثير في هذه الموضوع أدرجوه في الفصول التي خصّوا بها «المحاكاة» من تصانيفهم. من ذلك مثلا ما ذهب إليه الشيخ الرئيس ابن سينا في قوله: «إن النفوس تنشط وتلتذ بالمحاكاة، فيكون ذلك سببا لأن يقع عندها للأمر فضل موقع. والدليل على فرحهم بالمحاكاة أنهم يسرون بتأمل الصور المنقوشة للحيوانات الكريهة المتقزز منها، ولو شاهدوها في أنفسها لنطّوا عنها. فيكون المفرح ليس نفس تلك الصور ولا المنقوش بل كونها محاكاة لغيرها إذا كانت قد أتقنت». وعندما نظر حازم القرطاجني في «المحاكاة» قال: «فيكون موقعها في النفوس مستلذا، لا لأنها حسنة في أنفسها بل لأنها حسنة المحاكاة لما حوكي بها عند مقايستها به». وفي نقدنا الأدبي والبلاغي القديم أمثلة كثيرة تستوقف بقدرتها على الإقناع بأن العمل الفني ليس متجسما في الموضوع الذي يتناوله لعل من أبرزها قول عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة: «وقد علم أن ليس في الدنيا مثلة أخزى وأشنع، ونكال أبلغ وأفظع، ومنظر أحق بأن يملأ النفوس إنكارا، ويزعج القلوب استفظاعا له واستنكارا، ويغري الألسنة بالاستعاذة من سوء القضاء ودرك الشقاء، من أن يصلب المقتول ويشبح في الجذع، ثم قد ترى مرثية أبي الحسن الأنباري لابن بقية حين صلب وما صنع فيها من السحر حتى قلب جملة ما يستنكر من أحوال المصلوب إلى خلافها وتأول فيها تأويلات أراك فيها وبها ما تقضى منه العجب:

علوّ في الحياة وفي الممات
بحقّ أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا
وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا
وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء
كمدهما إليهم بالهبات».

والقصيدة طويلة.

وهذا يسلمنا إلى النتيجة الثانية، وهي تتمثل في أن «الأثر الجمالي» الذي تحدثه الأعمال الفنية في النفوس عندما تحركها بالإعجاب والتعجب و الاندهاش والاستحسان والروعة، لا ينتج عن أننا نشاهد في الأعمال الفنية الأشياء والموجودات الطبيعية التي تضطلع بمحاكاتها، فلو كان ذلك كذلك لكانت تلك الأشياء والموجودات الطبيعية كفيلة، في حد ذاتها، بأن تحدث في النفس الأثر الذي تحدثه نظائرها في النفوس. وهذا يعني أننا نعجب أكثر ما نعجب ونمتع أقوى ما نمتع ونستحسن أشد ما نستحسن في الأعمال الفنية قوة المهارة وجودة الإتقان وتلك القدرة العجيبة على البلوغ بفعل المحاكاة أقصى مراتب الجودة مجسمة في التماثل بين المحكي والطبيعي. إن إعجابنا يتولد إذن عن المهارة التي بلغت بإتقان المصنوع الإتقان الكامن في الطبيعي. ولما كانت الأشياء والموجودات الطبيعية قد أوجدتها قوة طبيعية في حين أوجدت المصنوعات قوة مكتسبة (ثقافية)، كان الموجودان (الطبيعي والصناعي) المتشابهان بالمحاكاة شيئين، في الحقيقة، مختلفين قامت بينهما علاقات التشابه والتماثل والتشاكل. وهذا فرق دقيق فطن له باحثون كثيرون منهم، على سبيل المثال، جيرار جنيت، واعتمدوه مدخلا للنظر في المصنوعات الفنية في زمن نفذت فيه التقنية إلى أدق أسرار المبدعات الفنية المتفردة فأنتجت منها الكثير المتشابه الذي يظل، مهما حاكى بعضه بعضا المحاكاة التامة، بعيدا دون مرتبة الفن الخالص.

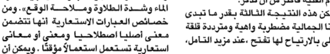


وفي الحقيقة فإن الأعمال الفنية قد ظلت، منذ نشأتها، تراوح بين السعي إلى المشاكلة والمشابهة والمناسبة والمطابقة في محاكاة الطبيعة وبين الإمعان في الابتعاد عنها. أليس أن أنهى ما وصلت له بعض النزعات الفنية قد تجسم في إحلال الطبيعي في الفن محل الطبيعي في الوجود بإقحام عنصر أو أكثر من عناصره فيه وتجليته كما هو في المصنوعات الفنية (نشير إلى جبن الكامنبير يدرج في اللوحة التي تمثله لإضفاء الرائحة، والمثال أشهر من أن يذكر). أليس أن الابتعاد عن المشاكلة الموضوعية تظل، مهما هوّمت في اللامعقول، مشاكلة لانعكاس الموجودات والأشياء الطبيعية في الذات الصانعة. فما نبصره من الموجودات والأشياء الطبيعية ليس الأشياء والموجودات الطبيعية ذاتها و إنما ما يظهر ويتراءى منها لا غير، وما يظهر ويتراءى منها لا يتطابق معها. وهذا كله يسلم إلى القول بأن المفاضلة بين الموجودين اللذين أوجدت أحدهما القوة الطبيعية وأوجدت الآخر القوة المكتسبة لا يستقيم ولا يمكن أن يقاس بمقياس الأصل والصورة أو الصوت والصدى، وليس بالتالي يستقيم أن نذهب إلى أن الفنان يكرر الطبيعة حتى تكون المقارنة بين الأصل (الطبيعي) والنسخة (الثقافي) في أساس التعامل مع الفن.

وأما النتيجة الثالثة فتتعلق بالأحكام الجمالية التي تطلق في الأعمال الفنية. والمتواتر في شأن طبيعة «الحكم الجمالي» أنه ليس حكما معرفيا. فقولنا مثلا «هذه زهرة جميلة»، عبارة تتضمن قسما معرفيا حكمنا فيه بأن ما نشاهده «زهرة» وليس شيئا آخر. وهذا الحكم يدرج الشيء في الجنس أو النوع الذي ينتمي إليه. ثم إن العبارة تتضمن حكما آخر يتجسم في لفظة «جميلة»، وهذا ليس من المعرفة إذ أن مردّه إنما هو إلى الوقع الذي أحدثه مرأى الزهرة في النفس. إنه حكم مشدود، في الظاهر من أمره، إلى الحواس. وإذا كان الحكم المعرفي غير قابل، في الغالب وبالنسبة إلى الملموسات المألوفة، لأن يختلف فيه الناس، وإذا اختلفوا فيه اختلفوا على أساس حظه من الصحة والخطأ، فإن الحكم الجمالي نسبي وقابل لأن يختلف الناس فيه كثيرا، إذ أن ما تراه جميلا ليس بالضرورة جميلا عند غيرك، بل إن ما تراه اليوم جميلا قد لا تراه كذلك غدا أو بعد لحظات.

ولكن المثال الذي وضعه كانط يخرج بالأحكام الجمالية من نطاق النسبية إلى نطاق آخر، فالضيوف استلطفوا التغريد الذي استلطفوه واستحسنوه وطربوا له عندما كانوا لا يعرفون أنه ينبعث من آدمي ماهر في محاكاة تغريد العنادل. وما عرفه الضيوف لا علاقة له لا بخصائص التغريد في حد ذاتها ولا بالأثر الذي أحدثه في النفوس، فعلاقته إنما هي بالمنبع الذي انبعث منه. فالذي أثر في حكم الضيوف في محاكاة تغريد العندليب محاكاة جيدة أمر من حيز الأخلاق لا من حيز الفن. إن إحساسهم بأنهم قد خدعوا هو الذي جعل حكمهم ينتقل من الاستحسان إلى الاستقباح. ولا نعتقد أن حكمهم في المحاكاة المتقنة متحول إلى الضد لو كانوا على سابق علم بأن الذي سيستمعون له إنما هو تقليد بشري لتغريد العندليب. ومع هذا فإن المثال يظل يعني أن الأحكام الجمالية، فضلا عن نسبيتها، قابلة لأن تتأثر عميق التأثر بعناصر وعوامل ومؤثرات لا صلة لها بالأعمال الفنية في حد ذاتها أو بالوقع الذي تحدثه في النفوس. وفي تواريخ الفنون أمثلة كثيرة جدا يتجلى فيها تدخل ما لا علاقة له بالفن في الحكم الجمالي في الأعمال الفنية. ويعرف المطلعون على التراث النقدي ما كان من استحسان ابن الأعرابي لإحدى القصائد حتى أمر بكتابتها وعندما أعلم أنها من الشعر المحدث قال: «خرق خرق». أما في زماننا هذا فالأمثلة الدالة على تدخل الأهواء والعصبيات السياسية والمذهبية والعقائدية والأخلاقية في الأحكام الفنية فاكثر من أن تذكر.

ولكن هذه النتيجة الثالثة بقدر ما تبدي أحكامنا الجمالية مضطربة واهية ومترددة قلقة لا تحظى بالارتياح لها تفتح، عند مزيد التأمل، مجالات أخرى لفهم الأعمال الفنية والتعامل معها. فالسر في أن أحكامنا الجمالية لا تستند، في الغالب، إلى مقاييس موضوعية صارمة إنما يبدو كامنًا في أن التشخيص الجمالي يظل منحصرا في نطاق الأعمال الفنية عملا عملا لا يتجاوزها إلى غيرها. ذلك أنه ليس للفن خصائص وسمات قارة ومميزات ثابتة وأمارات مستقرة يمكن أن نستدل بها عليه أو أن نعتمدها اعتمادا صارما في وضع تعريف جامع مانع له. فبإمكان المرء أن يتعرّف إلى الفن، أما أن يضع له التعريف الذي يحده حدا دقيقا فأمر لا إمكان له، إذ الفن حسب فتغنشتاين يعرف ولا يعرّف. ولكل عمل من الأعمال الفنية خصائص ومميزات ينتمي بها إلى الأعمال الفنية وتفرده دون أن تتعدّاه إلى الأعمال الفنية الأخرى. وإذا تعدت خصائص عمل فني نطاقه إلى أعمال أخرى فليس من الضروري أن يكون لها فيها الأثر الذي كان لها فيه. لهذا كثيرا ما تكون الخاصية الجمالية نفسها المستحسنة في عمل مستقبحة في عمل آخر. وهذا يسلم إلى أنه من الخطأ أن نستخرج من أي عمل فني الخصائص والسمات والمميزات التي تميزه وتفرده فنسحبها على سواه مقاييس نقيّمه بها. وهذا يحيل مرة أخرى إلى العلاقة بين الطبيعي والمحكي فهما تشاكلا يظلان شيئين مختلفين لكل منهما المقومات الذاتية التي تفرده. ومن العناصر الذاتية التي تفرد المحكي أنه مصنوع ثقافي لا يحمل بصمات الإنسان فحسب ففيه كثير من مقومات الكيان والوظيفة.



ولعل آخر ما تسلم إليه الأحكام الجمالية من نتائج أنها تصاغ في خطاب يطرح هو أيضا قضايا ومسائل كثيرة. فهو مثلا كثيرا ما يرد في صيغ مجازية استعارية. فنحن ننسب إلى المبدعات الفنية في الخطاب الجمالي صفات من قبيل «الرقة والمتانة والقوة والرشاقة والملاحة واللطافة» ونسند إليه عبارات من قبيل «كثرة الماء وشدة الطلاوة وملاحة الوقع». ومن خصائص العبارات الاستعارية أنها تتضمن معنى أصليا اصطلاحيا ومعنى أو معاني استعارية تستعمل استعمالاً مؤقتًا. ويمكن أن نرى في تلك الصيغ الاستعارية من حيث إنها تتجه إلى ما يعرف بـ«القياس الفني» تمييزا له عن «القياس المنطقي» لمخاطبته ما وراء العقل والحس من ملكات الإدراك التخييلي ومن حيث إنها مؤقتة أيضا، تطابقا مع الرأي الذي يذهب أصحابه إلى أن الفن يعرف ولا يعرّف إذ هو يدرك في الأعمال الفنية نفسها عملا عملا إدراكا اختباريا.

وهذا كله يسلم إلى أن التعثر المشاهد في المشغل النظري وهو يشهد سعيا متواصلا دءوبا إلى وضع النظرية الجمالية دون أن يحالفه في ذلك التوفيق، وأن التردد بين احتذاء الطبيعة بالمحاكاة والابتعاد عنها ومجانبتها للنفاذ إلى صميمها، وأن القلق الظاهر في الأحكام الجمالية واطّراد تأثرها بما لا علاقة له بالفن من متنوع العوامل، وجنوح العبارة في الخطاب الجمالي إلى المجاز وإفراطه في التعلق بالاستعارة، إنما هي، عند التأمل، أوجه لتجربة جمالية يثرى فيها التعامل مع الأعمال الفنية ويسهم أيما إسهام في إنارة مسالك العلاقة بها. ■



وإذا اعتبرنا نهيق أبي دبّوبة مكتسبا ونهيق الحمار غريزيا أمكن القول إن الجاحظ يذهب إلى أن المكتسب (وهو ثقافي) قادر على أن يفضل الطبيعي، أو أن في الثقافي شيئا ليس في الطبيعي. وهذا الشيء هو الذي يمكن الثقافي من الاضطلاع بوظائف لا يضطلع بها الطبيعي



عروض موجزة

كتب عربية

من النهضة إلى الردة
تمزقات الثقافة العربية في عصر العولمة

جورج طرابيشي

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠، ١٩٢ صفحة



يناقش المؤلف عددًا من مشاريع النهضة الدالة من وجهة نظره، يعرض لبعض «الرهانات الخاسرة» كما يسميها، التي تهاوت بفعل الصراع الذي ميَّز الثقافة العربية المعاصرة بين إرادة النهضة وإرادة الردة، ومادامت الرهانات خاسرة، فمن البديهي أن التي انتصرت في نهاية المطاف هي إرادة الردة.

يبدأ المؤلف من قاسم أمين ونزعته النسوية، ففي كتابه الأول «المصريون» يرد على الدوق «داركور» الذي عرض لنقائض المصريين كما رآها، وفي كتابه تحرير المرأة، يصبح تعدد الزوجات عنوانًا للمجتمعات التي تحتقر المرأة، ويصبح حجب النساء في البيوت إفسادا لصحتهن وتعبيرًا عن حال انحطاط مزر، ويصير من الضروري تقييد الطلاق كي لا يترك الحبل على غاربه للرجل، بعد ما كان حقًا منحه الشارع، انقلابه إلى حد رفض الحجاب كلية، والقول بصراحة إن «مصر لن تتقدم إلا إذا تغربت وتاوربت»، ويفسر المؤلف هذا التحول بأن الجرح النرجسي هو الذي أملى على قاسم أمين أفكار كتابه الأول، أما دافع النهضة فهو الحافز خلف كتابيه التاليين.

أما طه حسين فقد استبدل بالتماهي الجزئي المحفّز على التحديث والعصرنة التماهي الكلي حين أطلق قولته المشهورة: علينا أن نصبح أوروبيين في كل شيء، وهذا المنهج لا يرضي المؤلف، إذ يرى فيه تغريبًا لا تحديثًا، والأول سلب للهوية وإفقار إلى حد الإعدام، أما الثاني فتطوير للهوية وإغناء للشخصية.

وتحت عنوان الانفتاح والانغلاق في الثقافة العربية الإسلامية، يشير المؤلف إلى البون الشائع بين ما دعا إليه فلاسفة ومفكرو المسلمين في عصور خلت، وما ينادي به الأصوليون اليوم، فالأخيرون لم يرفضوا حلم المأمون بأن يكون «العقل أولاً ثم الشرع» بل يرفضون موقف الغزالي الذي رأى في العقل نورا والشرع نورا وإنهما معًا «نور على نور»، إنهم - وفق ما يرى المؤلف - يريدون أن يردوا المسلمين إلى عصور الانحطاط في الحضارة العربية الإسلامية، لا إلى عصور العطاء والتلاقح والانفتاح على الحضارات والثقافات الأخرى. وتلخيصًا لموقف الحضارة والثقافة الإسلامية من الآخر، وبعد استعراضه لمحطات أربعة: الجاحظ والتوحيدي وصاعد الأندلسي وابن خلدون، ينتهي إلى أن الحضارة العربية الإسلامية لم تعرف أبدًا لاهوت نفي الآخر، الذي هو «نتاج عصابي لتلك الشريحة من الانتلجنسيا العربية التي يصدق فيها الوصف بأنها مريضة بالآخر».

ويخصص المؤلف قسمًا لنجيب محفوظ، أديب نوبل الذي اعتبره المؤلف فيلسوفًا بالوكالة، إذ بعد توقف الفلاسفة عن الفلسفة، كان على محفوظ أن يحمِّل أدبه فلسفته الخاصة، ويستشهد المؤلف بنماذج روائية من المرحلة الواقعية الأولى ثم المرحلة الرمزية أو الميتافيزيقية التي تنتمي إليها أولاد حارتنا والطريق وملحمة الحرافيش، وقد سعى محفوظ فيها إلى «علمنة الدين» كما يقول المؤلف، الذي يناقش أيضًا خطاب محمد أركون وجلال أمين وزكي الأرسوزي وياسين الحافظ، كاشفًا عن دوافع النهضة ومظاهر الردة في مشاريعهم جميعًا.

□ □ □

للسياسة بالسياسة
في التشريح السياسي

محمد سبيلا

الرباط: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠، ١٨٠ صفحة



انخرط المجتمع المغربي منذ دخول الاستعمار تدريجيًا في الحداثة، وبعد الاستقلال، بدأ في التحول - حسب المؤلف - بقدر غير قليل من العنف نحو رأسمالية شرسة تخترق على كافة المستويات، وفي ظلها صارت كل الأشياء بما فيها القيم بضاعة قابلة للبيع والشراء، وقد عززت التقنيات هذا التوجه، وانعكس ذلك على السياسة والأحزاب والمشتغلين في إطارها، فلم يعد هدف النضال السياسي تحقيق مبدأ أو إنجاز فكرة، بل صار «في ظل تحول العديد من الأحزاب إلى ماكينات انتخابية موسمية ضخمة، طريقًا إلى اكتساب الثروة والنفوذ والوجاهة».

وإزاء هذا التحول يطالب المؤلف الهيئات السياسية وكل المشتغلين بالشأن العام بإعادة الاعتبار للأخلاق في العمل السياسي، بهدف تحسين صورة الفاعل السياسي في الوعي الشعبي، وهو ما يتطلب برأيه تطوير ثقافة سياسية ديمقراطية تسمح بالنقد والمحاسبة.. «بحيث تصبح المحاسبة حقًا للجميع وليست عقوقًا أو تمردًا أو شقًا لعصا الطاعة»، وفي دراسة تالية عن معالم الحداثة السياسية يشير المؤلف إلى أن الثقافة الديمقراطية القائمة على الحرية والتعاقد والنظام والمصلحة العامة، وثقافة حقوق الإنسان تتضافران معًا للحد من شطط السلطة واستبداد الساسة، وتشرِّع الحوار والنقاش بديلاً للعنف كحل لكافة معضلات المجتمع، وبتضافرها تنشأ دولة الحق والقانون.

ويدافع المؤلف في موضوع آخر عن اليوتوبيا في السياسة، ويراها ضرورية في البلدان النامية خصوصًا، حيث يستلزم عدم التوازن بين النمو الاقتصادي والنمو السكاني، تخلي الخطاب السياسي عن قسط من واقعيته لحساب اليوتوبيا.. «وهي وحدها القادرة بعملية سينمائية على إرجاء الإشباع أو تحويله من الواقع إلى المتخيل».

والحق أننا إذا كنا نتفق مع المؤلف على أهمية الخيال وتحفيز الأمل لدى الجماهير في الخطاب السياسي، فإننا نتحسب - وربما يشاركنا المؤلف - من أن تتحول اليوتوبيا في الخطاب السياسي إلى عملية تزييف للوعي الشعبي وخداع تضر أكثر مما تفيد.

ويؤكد المؤلف في موضع آخر على فكرة بالغة الأهمية، مفادها أن السياسة كلما كانت عقلانية وبالتالي ديمقراطية وتعددية، استطاعت أن تستجلب التصديق لدعاواها الأخلاقية والمثالية، وكلما كانت استبدادية اضطرت إلى اللجوء إلى المثل والقيم الأخلاقية لاستثمارها في تدعيم سيطرتها، «فالسياسة العقلانية والديمقراطية هي أقل أنواع السياسة احتياجًا للدعم والتبرير والتمويه الأخلاقي، لأنها في العمق أكثر ارتباطًا بالقيم الأخلاقية النبيلة كالخير والاحترام والعدل والحرية».

ولا يغفل أيضًا الإشارة إلى أوهام الساسة وأوهام المثقفين، فالنخب المثقفة تولِّد وتستهلك الأوهام والاستيهامات، والقاسم المشترك بين هذه النخب جميعًا هو عدة أوهام: وهم المركزية، إذ تعتقد كل نخبة أنها مركز المجتمع وجوهر نشاطه، ووهم الفاعلية؛ إذ تعتقد كل نخبة أنها دينامو المجتمع ومحرك التطور وبوصلة التاريخ، ثم وهم الصدق والمصداقية، فكل نخبة تعتقد أنها ضمير الأمة ورهان تطورها وتقدمها.

والسياسيون بدورهم - كما يقول المؤلف - ليسوا أقل استهلاكًا و«إنتاجًا» للوهم من كافة النخب الأخرى، إنه كرنفال أوهام يجعلهم يتصورون أنهم يقودون دفة التطور الاجتماعي ويصنعون التاريخ.

أفكار عديدة يضمها الكتاب الذي يميز مؤلفه بين المشتغلين للسياسة والمشتغلين بها أو عليها، فالأولون أصحاب مبادئ ودعاة إنجاز، أما الأخيرون فهم من يستثمرونها في الإثراء وتوسيع دوائر النفوذ.

□ □ □

صناعة الثقافة السوداء

إيليس كاشمور

ترجمة: أحمد محمود

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠، ٢٧٥ صفحة



يطرح المؤلف سؤالاً بالغ الأهمية: هل توجد ثقافة سوداء خالصة؟ وهو في سبيله للإجابة على السؤال يتناول صور هذه الثقافة في الولايات المتحدة الأمريكية أواخر القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين، والاستنتاج المهم الذي يؤكده هو أن هذه الثقافة «الهجين» تم استغلالها لصالح المستثمرين البيض أكثر منها لصالح الفنانين السود، وهذه الثقافة ليست ثقافة أفريقية خالصة، لكنها وليدة ظروف عاشها الأمريكيون المنحدرون من أصول أفريقية في سنوات الرق والعبودية والنضال ضد العنصرية، وكانت هذه الثقافة هي وسيلتهم لتأكيد هويتهم، لكن العقلية الرأسمالية للغالبية البيضاء، حوّلت هذه الثقافة الرائجة إلى سلعة، حقق منها البيض مليارات، وكي يسوّقوا سلعتهم بالغوا في وصف تلك الثقافة بالأصالة، وكذلك فعل السود من أنصار المركزية الأفريقية، وحين أثرى السود وصاروا بدورهم مستثمرين، سارعوا أيضًا إلى تسليع الثقافة السوداء وبيعها للأغلبية البيضاء الذين وضع المستثمرون السود بعضهم في مناصب إدارية عليا كي يسهِّل تجارته ومشاريعه واستثماراته في مجتمع قد لا يرغب مستثمروه من البيض في الدخول في مشاريع مع أشخاص سود.

ويشير المؤلف إلى دور أساسي للثقافة السوداء هو التخفيف من الإحساس بالذنب لدى البيض تجاه ما اقترفوه في حق السود.

ويجيب المؤلف على الادعاء بأن بعضًا من السود يحتلون مكانة مرموقة في المجتمع ويمارسون دورهم ضمن

ثقافة التيار العام فى الولايات المتحدة الأمريكية، بأن هذا البعض هو من وقع عليه الاختيار من البيض وفق شروط محددة، كما أن هؤلاء امتلكوا مواهب غريبة، وجاءت تصرفاتهم على حساب إنسانيتهم الكاملة والتكيف مع صورة الآخر التى رسمها البيض كى يسمح لهم بالاندماج فى التيار العام. وهكذا شاعت سينمائيًا صورة «سامبو» المسلى والزنجى المخيف، فإذا تعلق الأمر بالنساء برزت صورتان: المرأة المتاحة جنسيًا التى تتساوى مع العاهرة، والمربية السمينة التى لا توحى بأنوثة من أى نوع، ويشير المؤلف إلى ما عانته «بيلى هوليداى» مغنية الثلاثينيات الشهيرة فى الولايات المتحدة، التى كان يطلب منها رغم شهرتها، ألا تتحدث إلى الجمهور فى الملاهى التى تغنى فيها، وحين كانت تنزل فى أحد الفنادق لم يكن يسمح لها باستخدام مصاعد النزلاء وإنما تستخدم مصعد البضائع.

ويتناول المؤلف مفارقة أمريكية يراها فى التناقض بين الحرب البلاغية والقمع الفعلى الذى يمارس على الأمريكيين الأفارقة، فبرغم ما منحه الدستور للسود من حقوق، فقد ظلوا يعانون قهرًا وعنصرية، وكانت الثقافة هى مخرج السود للإفلات من دائرة المعاناة، وتأكيد شخصيتهم وهويتهم، وكانت الكنيسة هى الرحم الذى خرجت منه الثقافة السوداء، فى شكل قوالب موسيقية كالجوسبل والأغانى الروحية والبلوز، وقد قدم هذا الحل الثقافى تعويضًا للسود لكنه لم يرفع عنهم الظلم السياسى، وهو ما دفع مارتن لوثركنج إلى تبنى مطالب ذويه فى الستينيات، وكذلك فعل مالكولم إكس مع اختلاف بيِّن فى المنهج، وانتهى حلم السود باغتيال الاثنين حيث اغتيل كنج عام ١٩٦٨ وسبقه إكس بثلاث سنوات.

وجاءت ردود أفعال السود ارتدادا عن يوتوبيا كنج، وهو ما عكسته أغنية جيمس براون الشهيرة: قلها بأعلى صوتك أنا أسود وأنا فخور بذلك.

وظهرت «ديانا روسى» التى عملت بالسينما ونجم الروك هندريكسى، وأخيرًا «جاكسون فايف» الذى لمع منه أصغر أعضائه سنًا «مايكل» الذى صار معبودًا للجماهير وبدأ فى الانسلاخ تدريجيًا عن أصوله العرقية الأفريقية، وشاعت موسيقى الراب وهى تعبير عن شعر الشوارع بما يمثله من عنف وجنس ويأس واختلاف.

صناعة الثقافة السوداء، تعبير عن معضلة أمريكية ربما كانت أحداث لوس أنجلوس الأخيرة صورتها الفاضحة.

□ □ □

نهاية اليوتوبيا

السياسة والثقافة فى زمن اللامبالاة

راسل جاكوبى

ترجمة: فاروق عبدالقادر

الكويت ـ عالم المعرفة ٢٠٠١، ٢٧٠ صفحة



اليوتوبيا كما يشير إليها الكتاب هى الاشتراكية، الحلم الذى صارع الاشتراكيون كى يحولوه واقعًا يمشى على قدميه طيلة عقود طويلة، تهاوى الحلم، بل صار كابوسًا مزعجًا. سقطت الاشتراكية فى معاقلها وتسيدت الرأسمالية، ولم يعد حتى الاشتراكيون أنفسهم يأملون فى عودة أحلامهم القديمة فى «القضاء على الرأسمالية وإعادة بناء الاقتصاد على أسس اشتراكية كى تتخلص الإنسانية من آلامها»، صار أقصى الغايات هى تقليل الكلفة الاجتماعية الناجمة عن التطبيقات الرأسمالية ـ بحسب رأيهم ـ إلى أدنى الحدود الممكنة.

لكن بعكس الشائع، فإن المؤلف يؤرِّخ لنهاية يوتوبيا الاشتراكية ببدايات الخمسينيات، بالتحديد فى سبتمبر ١٩٥٥ حين التقى عشرات المفكرين والمثقفين فى متحف «ميلان الوطنى للعلوم والتكنولوجيا» ليناقشوا موضوع «مستقبل الحرية»، وانتهوا جميعًا إلى قناعة واحدة مؤدَّاها أن «الشيوعية خسرت معركة الأفكار مع الغرب».

المؤلف يلفت النظر إلى مسألة بالغة الأهمية، يمجدها البعض بوصفها واحدة من ميزات «الكوكبة» والعالم الجديد، فيما يراها هو خرافة ليس أكثر، إنها التعددية الثقافية، وهى الوصفة الملائمة لعصر بلا أيديولوجية، والمؤلف ليس ضد التعددية فى ذاتها، لكنه ضد تجلياتها ومضمونها المعاصر، إذ صارت أفكار التعددية والتنوع مقدسة.. «شيكات على بياض قابلة للدفع لأى شخص وبأى مبلغ». ولم تعد تعنى فى الواقع سوى «المطابقة»، والمطابقة هنا هى على النموذج الأمريكى بالذات، والتعددية الثقافية بهذا المعنى القاصر الحاد، هى ثمرة منطقية لنهاية اليوتوبيا.

ويفرد المؤلف فصلاً عن ثقافة النخبة وثقافة الجماهير، ويشير إلى كتابات تعاملت مع ثقافة الجماهير برؤية نقدية واعية، بالذات لدى «ماكدونالد» اليسارى الأمريكى الذى رأى فى هذه الثقافة هبوطًا واستغلالية، برغم أن كثيرين من نقاد عصره ومجايليه من الكتاب رأوا فى منهجه تناقضًا مع الديمقراطية، لكن «ماكدونالد» يقدم وعيًا مغايرًا مفاده: أن ثقافة الجماهير مفروضة من فوق، يضعها الفنيون المستأجرون لرجال الأعمال، وجمهورها مستهلك سلبى (...) إن السادة يستغلون الاحتياجات الثقافية للجماهير من أجل تحقيق الأرباح واستمرار سيطرة طبقتهم. أين المثقفون إذن من هذا كله؟

يشير المؤلف إلى كتاب «مانهايم» عن الأيديولوجيا واليوتوبيا، وبرغم اجتهاد المؤلف فى أن يثبت زيفهما، فقد ختم كتابه بعبارة تنسف رؤيته ذاتها، يقول: إن اختفاء اليوتوبيا سيؤدى إلى حالة من الثبات والجمود لا يصبح فيها الإنسان نفسه أكثر من شىء (...) وعندما يبلغ الوعى أعلى مراحله، وحين يتوقف التاريخ عن أن يصبح قدرًا أعمى ويصبح أكثر فأكثر من إبداع الإنسان، فإن التخلى عن اليوتوبيا يعنى أن الإنسان سيفقد إرادته فى تشكيل التاريخ ومن ثم قدرته على فهمه». فهل ستسعد الإنسانية حقًا حين تنتهى اليوتوبيا؟

□ □ □

الإسلام فى الألفية الثالثة

ديانة فى الصعود

مراد هوفمان

تعريب: عادل المعلم، يس إبراهيم

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠١، ٢٧٥ صفحة



هل يمكن التسليم تمامًا بمقولة «فوكوياما» عن نهاية التاريخ وسيادة الحضارة الغربية بقيمها الليبرالية، وكذا ادعاءات «صموئيل هنتنجتون» عن صراع الحضارات؟

مقولة «هنتنجتون» تم دحضها ببديل طرحه الرئيس الإيرانى محمد خاتمى يميز بين الحضارى والثقافى، ولا يعتبر انحدار أمة ما حضاريًا دليلاً دامغًا على انهيارها الثقافى، ويقدم صيغة مغايرة تقوم على حوار الثقافات، تنفى الصراعية وتشير إلى روح التعاون وتبادل المنفعة من أجل العمران كما نصت على ذلك شريعة الإسلام، أما مقولة «فوكوياما»، فيبدو أن السنوات القليلة المقبلة ستتكفل بتكذيبها.

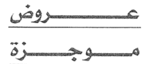
«مراد هوفمان» المفكر والدبلوماسى الألمانى الذى عاش خمسين عامًا كاثوليكيًا وعشرين عامًا مسلمًا، يطرح فى هذا الكتاب تصورًا مغايرًا لمن رأوا أن الإسلام سيتهاوى أمام صعود «الليبرالية المتوحشة» بحسب تعبير الاقتصادى المصرى الراحل رمزى زكى ـ أو أنه سيواجه تحديًا عاتيًا أمامها فى أحسن الظروف، لن ينتهى بانتصاره على أى حال، ويبشرنا «هوفمان» استنادًا إلى معاناة المجتمعات الغربية على الصعيد الأخلاقى والقيمى، والمآسى التى عاشتها البشرية خلال القرن المنقضى، بأن الإسلام سيصعد وتزداد الحاجة إلى قيمه التى تتحاور مع الآخر بالتى هى أحسن ولا تنفيه، وهو يبدأ من عصر التنوير الغربى ومسئولية آبائه «ديفيد هيوم» و«فولتير» و«جوته» و«نيتشه» و«ديكارت» و«لوك» وغيرهم فى إشاعة قيم الإلحاد وإبعاد كل ما هو دينى عن حياة الناس، وبالتالى تحلل الأسرة وانتشار الجريمة وتقنين الشذوذ والإباحية، باختصار تحول المجتمع الغربى إلى مجتمع مدمن، أيًا ما كان شكل هذا الإدمان.

لكن «هوفمان» لا يكتفى بنقد آباء التنوير الغربيين، بل ينتقد آباء التنوير من المسلمين، كذلك المسلمين المعاصرين الذين أساءوا إلى صورة الإسلام بتواكلهم وابتعادهم عن أسباب العلم والمعرفة وما حثهم عليه دينهم من العمل والاجتهاد، اكتفاءً بإقامة الشعائر، رافضين قيمًا كالديمقراطية هى من صلب الإسلام وإن اتخذت مسمى مختلفًا.

المؤلف يطرح قضايا عديدة للنقاش، يجيب عن بعضها مستفيدًا من خبرات مسلمى ألمانيا وأوروبا وأمريكا، ويترك بعضها مفتوحًا للجدل العام.

وينتقد الموقف الأوروبى المتعصب تجاه المسلمين بوصفهم جسمًا غريبًا فى حضارة الغرب، ويعرض لبعض الاستبيانات التى أجريت هناك والتى بيَّنت أن الأوروبيين ينقسمون فى نظرتهم للإسلام، بين كونه خطرًا على حضارة أوروبا أم لا. لكنه وإن حمَّل الأوروبيين شطرًا من المسئولية، فإنه لا ينفى عن المسلمين شطرها الآخر.

عماد الغزالى



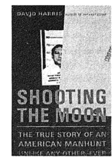
كتب أجنبية

Shooting the Moon: The True story of An American Manhunt Unlike any other, ever

(إطلاق النار على القمر: القصة الحقيقية لعملية مطاردة أمريكية مبتكرة)

David Harris

Little Brown, 2001, 394PP., $ 26.95



يكشف المؤلف في هذا الكتاب المثير، تفاصيل جديدة في العملية الأمريكية التي جرت في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب للقبض على الزعيم البنمي مانويل نورييجا بتهمة الاتجار بالمخدرات. وقد كانت عملية غير مسبوقة بالنظر إلى أنها كانت المرة الأولى التي تتهم دولة مثل الولايات المتحدة زعيم دولة أخرى بالاتجار بالمخدرات وتسعى لاعتقاله.

ويسرد المؤلف ما يقول إنه جهد غير عادي من جانب المدعي العام الفيدرالي الأمريكي ديك جريجوري ومسئول المخدرات ستيف جريللي اللذين تغلبا على كل الصعوبات التي كانت تعترض طريقهما لإقامة الدعوى ضد نورييجا وللمفارقة فإن هذه الصعوبات والاعتراضات كانت تأتي من جانب مسئولين أمريكيين خاصة في إدارة مكافحة المخدرات.

ويعدد المؤلف الأسباب التي ربما بسببها أراد «الرجال الأقوياء» في واشنطن أن يمضي نورييجا في طريقه دون أن تصطدم به واشنطن. فقد قدم زعيم بنما مساعدات كبيرة لإدارة مكافحة المخدرات الأمريكية جعلت مسئوليها يعلنون أنه أهم صديق للإدارة، كما أنه كان حليفًا للمخابرات المركزية الأمريكية ولوزارة الدفاع الأمريكية وربما يكون قد ساعد في العمليات السرية الأمريكية في أمريكا الوسطى وشارك في فضيحة «إيران كونترا».

وأيضًا فإن نورييجا تمتع بحماية القانون البنمي باعتباره كان يشغل قائد جيش بنما والرجل القوى فيها وكان يقود جيشًا قوامه ١٠ آلاف رجل. لكن نورييجا بالنسبة لديك جريجوري وستيف جريللي كان الشيطان مجسدًا على الأرض، وكان رمزًا لكل شيء سيئ من خلال تورطه في تجارة المخدرات.

ويتحدث المؤلف عن سير العملية العسكرية التي غزت بمقتضاها الولايات المتحدة بنما لاعتقال نورييجا ثم يتابع حياة جريجوري وجريللي بعد ذلك ويشير إلى أنه رغم نجاحهما في إقامة الدعوى على نورييجا إلا أنهما فشلا في متابعة حياتهما العملية بنجاح بعد ذلك.

□ □ □

When the State Kills: Capital Punishment and the American Conditions

(عندما تقتل الدولة)

Austin Sarat

Cloth, 2001, $ 29.95



قبل أسبوعين تقريبًا نفذت السلطات الفيدرالية الأمريكية حكم الإعدام في تيموثي مكفاي الأمريكي الذي أدين بتفجير مبنى «أوكلاهوما سيتي» قبل سنوات، والذي أسفر عن مصرع العشرات وإصابة المئات بجروح وأثارت عملية تنفيذ الإعدام ضجة واسعة النطاق أولاً: لأن هناك من يطالب بإلغاء عقوبة الإعدام كلية وقد زاد عدد من يتبنون هذه الرؤية في الولايات المتحدة. وثانيًا: لأن تنفيذ الإعدام تأجل عدة أسابيع بعد اكتشاف أن هناك آلاف الأوراق التي لم يتم اطلاع الدفاع عليها من جانب الادعاء العام.

وقد اعتبر مفكرون أوروبيون أن استمرار الولايات المتحدة في تنفيذ عقوبة الإعدام يمثل نوعًا من البربرية والوحشية ووضعت منظمة «العفو الدولية» الولايات المتحدة في قائمة الدول التي تنتهك حقوق الإنسان بسبب استمرارها في التمسك بتطبيق هذه العقوبات.

ويجادل مؤلف الكتاب بأن من الضروري إلغاء عقوبة الإعدام في الولايات المتحدة لأن هذه العقوبة تقوض أسس المجتمع الديمقراطي.

ومن خلال دفاع عقلاني وعاطفي في آن واحد يؤكد المؤلف أن حق الحياة مقدس وأنه لا يحق لأحد أن ينتزع هذا الحق مهما كانت الأسباب.

والمشكلة أن هناك نسبة معتبرة من الأمريكيين لازالت تؤيد عقوبة الإعدام وخاصة بعد الحادث غير المسبوق في التاريخ الأمريكي، وهو تفجير مبنى أوكلاهوما سيتي الأمر الذي يعني أن تنفيذ العقوبة سيستمر، كما أن الرئيس الأمريكي الحالي جورج بوش الابن يؤيد العقوبة، وقد أعطى موافقته عندما كان حاكمًا لولاية تكساس لتنفيذ أكبر عدد من أحكام الإعدام بالمقارنة مع الولايات الأخرى.

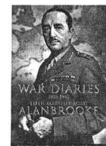
□ □ □

War Diaries 1939- 1945: Field Marshal Lord Alanbrooke

(يوميات الحرب ١٩٣٩-١٩٤٥: الماريشال اللورد آلان بروك)

ed by Alex Danchev and Daniel Todman

Weidenfeld, 2001, 763PP., £25.00



فجرت هذه اليوميات التي كتبها الماريشال آلان بروك رئيس أركان القوات البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية «لورد بروك فيما بعد» نقاشات واسعة النطاق داخل المجتمع البريطاني رغم أنها تتناول أحداثا جرت قبل أكثر من ٦٠ عامًا لكن صراحتها وجرأتها وطرافتها جعلتها تبدو كما لو كانت جديدة.

وتبدو الجرأة في اليوميات من خلال انتقادات شديدة وشرسة لاستعدادات الجيش البريطاني ومدى النقص وعدم الكفاءة والتساؤلات التي يسألها لنفسه، وهو رئيس أركان الجيش، كيف يمكن لهذا الجيش أن يفوز؟

ولأن بروك كان يكتب يومياته كل ليلة، فإن هذه اليوميات تبدو مثل خطاب طويل ملئ بالحب والشعور بالوحدة وقد وجهه بروك لزوجته الثانية.

ومن أطرف ما في اليوميات علاقته بونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية ويبدو ذلك من خلال ما كتبه عن لقائه بالجنرال الأمريكي مارشال الذي قال إنه نادرًا ما يلتقي بالرئيس روزفلت لأسابيع عديدة وعندها رد بروك قائلاً: «أما أنا فاكون محظوظًا لو لم أر تشرشل كل ٦ ساعات». وقد مرت العلاقة بين تشرشل وبروك بلحظات غضب ونقاش حاد للغاية وخاصة عندما يصر تشرشل على رأى لا يوافقه عليه أحد.

ولم يسلم جنرالات كثيرون من هجوم بروك خاصة الماريشال مونتجمري قائد القوات البريطانية في معركة العلمين والجنرال الأمريكي دوايت أيزنهاور قائد قوات الحلفاء.

وبالطبع فإن بروك يقول عن هؤلاء الجنرالات إنهم لا يفهمون ويعتقدون رغم ذلك أنهم عباقرة. وميزة اليوميات الكبيرة أنها انطباع شخصي صريح لواحد من أكبر قادة الحرب العالمية الثانية عن قوات بلاده وعن قادتها وعن الحلفاء بشكل عام وعن تعامل العسكريين مع السياسيين في تلك الأوقات العصيبة.

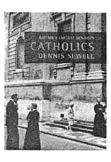
□ □ □

Catholics : Britain's largest Minority

(الكاثوليك: الأقلية الأكبر في بريطانيا)

Dennis Sewell

Viking, £ 20, PP 275, 2001



أصبحت الكاثوليكية خلال السنوات القليلة الماضية أقرب «للموضة» لدى بعض الشخصيات العامة والسياسية والفنية في بريطانيا، وتحدثت الصحف كثيرًا عن أن توني بلير رئيس الوزراء البريطاني يذهب إلى الكنيسة الكاثوليكية مع زوجته شيري وهي كاثوليكية. واعتبر البعض ذلك مقدمة لأن يتحول بلير الذي ينتمي للكنيسة الانجليكانية البريطانية، إلى الكاثوليكية. ومن حين لآخر تذكر الصحف ووسائل الإعلام أن هذا الفنان أو تلك الفنانة تحولت إلى الكاثوليكية.

ويتواجد الكاثوليك في بريطانيا وسط بيئة غير متوائمة بشكل كبير فالأغلبية التي تنتمي للكنيسة الأنجليكانية تنظر إلى الكاثوليكية نظرة غير مريحة وتحتفظ لها في الذاكرة بتاريخ من القيود الشديدة وربما الاضطهاد، كما أن الأمر لا يعدم أن تخرج أصوات متشددة من حين لآخر تتحدث بما لا يليق تمامًا عن الكاثوليكية مثلما تحدث القس البروتستانتي الأيرلندي الشمالي إيان بيزلي، وهو بالمناسبة زعيم حزب سياسي مؤيد لبقاء الإقليم ضمن التاج البريطاني، ليصف بابا الفاتيكان بانه شيطان.

ويبلغ عدد الكاثوليك ٤ ملايين (إجمالي عدد سكان بريطانيا ٥٨ مليون نسمة) وهم يتواجدون بشكل مؤثر في عديد من المؤسسات خاصة الإعلام والصحافة ولا يعتبرون أنفسهم فئة منعزلة عن بقية المجتمع البريطاني خاصة المسيحي منه. وقد لعب الكاردينال الراحل هيوم زعيم الطائفة الكاثوليكية دورًا مهمًا في إعطاء انطباع حسن عن الكاثوليك.

ويعتقد الكاثوليك أن بريطانيا بلد متسامح إلى درجة كبيرة، وإذا كانت هناك محاولة لتأكيد أن بريطانيا بلد متعدد الديانات والثقافات ويشمل ذلك الإسلام والبوذية، فمن باب أولى حسب رأى الكاثوليك أن يكون لهم مكان في ذلك البلد.

□ □ □

تـاريــــخ

الإنسان تجليات الأزمنة

تاريخ وحضارة بلاد الرافدين: الجزيرة السورية

تغريد الهاشمي - حسن حسين عكلا
سوريا: دار الطليعة الجديدة، ٢٠٠١

يبدأ الباحثان بتاريخ العصر السوري الوسيط، متناولين المهن والحرف التي عمل بها الناس في هذه الفترة، ثم يتناولان العصر السوري المتأخر والمعارك التي دارت فيه، وكيف سقطت دولة الحيثيين وغيرها من إمارات ساحل الشام، ثم يعرضان للسياسات التي سادت سوريا منذ ظهور الإسلام، وحتى قيام الدولة العباسية.

■■■

تاريخ عمان

صالح أحمد العلي
عمان: دار الحكمة، ٢٠٠١

دراسة عن حياة المجتمع العماني ونشاط سكانه عبر التاريخ، والطبيعة السكانية للعمانيين وتأثير جغرافية المكان عليها واشتغالهم بالصيد والملاحة وارتباط ذلك بسمات الشخصية العمانية.

■■■

مجموع الفضائل في فن النسب وتاريخ القبائل

راشد بن فاضل البنعلي
تحقيق: حسين بن محمد بن علي
بيروت: بدر للنشر، ٢٠٠١

مسح لأهم القبائل الخليجية وتاريخها ونشاطها وأنسابها، والمعارك التي دارت بين القبائل وأسبابها ونتائجها. وأهم ما ورد عن تلك القبائل في كتب التاريخ القديم.

■■■

تاريخ الديانة اليهودية

محمد خليفة حسن
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

يكشف تاريخ الديانة اليهودية عن الألاعيب والأكاذيب التي قامت عليها الصهيونية مستغلة بعض النصوص التوراتية المحرَّفة في صناعة الترويج لدولة إسرائيل الكبرى، وهو ما يكشفه المؤلف عبر استعراضه لتاريخ تلك الديانة.

■■■

The Rise of the Young Turks: Politics, The Military and Ottoman Collapse

(صعود تركيا الفتاة: السياسة والجيش والانهيار العثماني)

M. Naim Turfan
Tauris, 2001, 490PP., $45.00

المؤلف مفكر وعالم سياسة تركي تعلم في المعاهد والجامعات البريطانية، وهذا الكتاب هو خلاصة أطروحته للدكتوراه ويتناول دور الجيش في الحياة السياسية في تركيا، خاصة في عهد تركيا الفتاة، ويفحص بشكل خاص السنوات من ١٩٠٨ إلى ١٩١٣.

■■■

The Power of Gold: A History of An Obsession

(قوة الذهب)

Peter L. Bernstein
Wiley, 2001, 432pp., £17.99

الكتاب يروي قصة الذهب منذ ٢٠٠٠ عام قبل الميلاد، ويقوم خلال هذا باستعراض سريع للتاريخ النقدي للعالم.

■■■

Paris Between Empires: 1814 - 1852

(باريس بين امبراطوريتين: ١٨١٤ - ١٨٥٢)

Philip Mansel
J Murray, 2001, 522pp., £25.00

يتناول فترة حساسة وثرية في تاريخ فرنسا لم يكتب عنها الكثير، تلك الفترة التي تلت سقوط نابليون الأول عام ١٨١٤، والتي امتدت حتى قام ابن أخيه نابليون الثالث بإنشاء الإمبراطورية ثانية عام ١٨٥٢.

يتناول الكتاب الشخصيات التاريخية التي ظهرت على الساحة آنذاك مثل لويس الثامن عشر ولويس فيليب، كما يتناول ثورتي عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨.

تســـــويق

مقدمة في شعرية الإعلان

جميل عبدالمجيد
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

تبدو هذه الدراسة مختلفة عما يمكن أن يدرس عن موضوع الإعلان، فقد تعرضت دراسات سابقة لآداب الإعلان واقتصادياته وطرق ترويجه وتصميمه.. إلخ، لكن هذه الدراسة تحيل الإعلان الذي هو بطبيعته تجاري وربما ابتزازي إلى موضوع شعري، فتتحدث عن استفادة الإعلان من الأجناس الأدبية والفنية المختلفة مثل الدراما والقصيدة والنثر، أي أن للإعلان خطابًا أدبيًا خاصًا ومؤثرًا.

■■■

Advertising on the Internet

(الإعلان في شبكة الإنترنت)

Robbin Lee Zeff, Brad Aronson
John Wiley & Sons, 1999, 448PP., $29.99

الكتاب يقدم نصائح مفيدة للشركات التي تريد تسويق منتجاتها عن طريق الإعلان عنها على شبكة الإنترنت. ويقوم بتغطية المسائل الفنية التقنية إلى جانب القواعد القانونية الدولية الحاكمة الضرورية لإنجاح الإعلان وتحقيق الأرباح.

ثقافة شعبية

الآخر في الثقافة الشعبية.. الفلكلور وحقوق الإنسان

سيد إسماعيل
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠١

كما شغل الآخر المفكرين على مر العصور، يبدو أنه كان ضمن اهتمامات الفلكلور والتراث الشعبي كذلك، هذا ما يقوم به المؤلف، حيث يعرض لنماذج من الأدب الشعبي التي تعكس الرؤية للآخر والموقف منه رفضًا أو قبولاً.

■■■

Looking for the Perfect Beat : the Art and Culture of the DJ

(بحثًا عن الإيقاع الصحيح : ثقافة وفن الدي جاي)

Kurt B. Reighley
MTV Books, 2000, 176pp., $12.95

كلمة دي جاي هي اختصار ديسك جوكي، وهي وظيفة هامة جدًا في عالم الموسيقى الشعبية الحديثة. فالدي جاي هو الشخص الذي يقف خلف لوحة تشغيل الأسطوانات المسجل عليها مختلف أنواع الأغاني والموسيقى التي تذاع في الحفلات الراقصة وفي الأستوديوهات الإذاعية أيضًا. وهو لا يقوم فقط بتشغيل الأسطوانة ولكنه يقوم بعملية فرز واختيار ومزج، كما يستطيع التحكم في نوع وسرعة الإيقاع الذي تقدم به الموسيقى، لذلك يمكن اعتباره عازفًا للأسطوانات وليس فقط مشغلاً لها.

روايـــــــة

امرأة ما

هالة البدري
القاهرة: روايات الهلال، ٢٠٠١

رواية عن حب الإنسان للحياة ومحاولاته الدائمة التصدي للظروف القاسية واختبار قدراته وطاقاته الكامنة، والخروج من دوائر القهر والمحاصرة، والمؤلفة صوت فريد في الأدب النسائي قدمت أعمالاً روائية عديدة.

■■■

تل اللحم

نجم والي
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١

ترسم الرواية الواقع الدامي في العراق، وتكشف عن الوجه الحقيقي للحروب التي خاضها العراق وقادته إلى ما وصلت إليه الأمور، وقد كان الشعب هو الضحية في كل الأحوال، حيث عاني - ومازال - من الفقر والجوع والمرض.

■■■

حارة الشحاذين

حنا مينا
بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

تتناول الرواية حقبة بالغة الأهمية في حياة السوريين، وهي فترة الانتداب الفرنسي التي انتهت في الأربعينيات. والقهر الذي عاشه الشعب السوري خاصة الفقراء تحت الانتداب، وكيف توالت عليهم الأحكام الجائرة من الفرنسيين بالطرد والسجن والتعذيب دون سبب.

■■■

By the Sea

(بجوار البحر)

Abdulrazak Gurnah
Bloomsbury, 2001, 249PP., # 16.99

المؤلف أديب أفريقي مسلم من زنزيبار (أو تنزانيا حاليًا) وقد رشحت رواية سابقة له اسمها «باراديس» للفوز بجائزة بوكر.

تحكي هذه الرواية قصة رجلين من زنزيبار يتقابلان في إنجلترا بلد المهجر ويكتشفان وجود عداوة قديمة بينهما، ومن خلال هذا اللقاء يقوم المؤلف بإبراز المعاني المتداخلة لكل من الكبرياء والذاكرة والحقيقة.

■■■

I Spit on your Graves

(أنا أبصق على قبوركم)

Boris Vian
Translated by the Author and Milton Rosenthal
Canongale, 2001, 141PP., $ 17.00

صدرت هذه الرواية أول مرة في باريس عام ١٩٤٦، وبالرغم من أن مؤلفها هو بوريس فيان الفرنسي إلا أنه خدع الناشر والجمهور وقدمها باعتبارها ترجمة لرواية أمريكية محظورة في الولايات المتحدة كتبها أمريكي أسود يدعى فيرنون سوليفان.

كان هذا أثناء موجة من الولع الفرنسي بكل ما هو أمريكي، ولاقت الرواية نجاحًا كبيرًا لما تتضمنه من جراة وعنف ودموية صادمة، وأيضًا لهجومها على السياسات العنصرية في الولايات المتحدة. وقد منعت في باريس عام ١٩٤٧ بعد أن قام أحد الأشخاص بارتكاب جريمة قتل ووضع إلى جانب جثة قتيلته نسخة من الكتاب احتوت على علامات بجانب الفقرات التي تشرح كيفية قيام البطل بخنق ضحاياه من النساء.

■■■

Dictators

(دكتاتوريون)

Brian Glanville
Smaller Sky Books, 2001, 278PP., £8.99

تقوم الرواية على علاقة بين شخصيتين تاريخيتين في إيطاليا: موسوليني وتوسكانيني المؤلف الموسيقى الكبير. يرى المؤلف أن هناك تشابهًا في الشخصيتين بالرغم من الخلاف الذي نشب بينهما. تجري أحداث القصة في الثلاثينيات من القرن العشرين على لسان صحفي أمريكي من أصل إيطالي.

سـيـاســـــة

Citizinship and National Identity

(المواطنة والهوية القومية)

David Miller
Polity Press, 2000, 219PP., $29.95

يدافع المؤلف عن النموذج الجمهوري للمواطنة النشطة باعتباره الأكثر تحقيقًا للعدالة بالمقارنة بنموذج المواطنة الليبرالية التي أصبحت النغمة الحديثة في الديموقراطيات الغربية خاصة في أوروبا.

كذلك يدافع المؤلف عن مبدأ الهوية القومية باعتباره الدافع الأهم لتحريك المواطنين نحو العمل المشترك باسم العدالة، بينما يرى أن محاولات تشجيع المواطنة العابرة للقوميات كالتي تقوم بها أوروبا الآن لن تضمن الاستقرار والحقوق السياسية المرغوبة للمواطن.

■■■

American Patriots: The Story of Blacks in the Military From the Revolution to Desert Srorm

(قصة السود في الجيش الأمريكي من الثورة إلى عاصفة الصحراء)

Gail Lwmet Buckley

Random Houre, 2001, 534PP., $29.95

يتناول الكتاب تاريخ مشاركة السود الأمريكيين في الدفاع عن أمريكا بالرغم من التفرقة العنصرية الرسمية التي سادت في الجيش الأمريكي حتى الحرب العالمية الثانية. استغرق الإعداد البحثي للكتاب أربعة عشر عامًا، أجرت خلالها المؤلفة أيضًا مئات من المقابلات مع رجال ونساء من السود شاركوا في الحروب الأمريكية المختلفة والتي تنتهي في الكتاب بحرب الخليج الثانية.

ومن بين المؤشرات التي تدل على تطور مكانة السود في الجيش الأمريكي تزايد أعداد المقيدين في مختلف الرتب من السود، فمنذ شهر يونيو عام ٢٠٠٠ بلغت نسبة السود الذين يمثلون ١٢٪ من نسبة سكان الولايات المتحدة ٢٩٪ من أفراد الجيش، و٣٦٪ من الضباط، و٨٪ من الجنرالات.

■■■

Does America Need A Foreign Policy? Toward A Diplomacy for the 21st Century

(هل أمريكا في حاجة إلى سياسة خارجية؟ نحو دبلوماسية القرن والواحد والعشرين)

Henry Kissinger

Simon & Schuster, 2001, $ 30.00

يحتوي أحدث كتب هنري كيسنجر على مسح جيولوجي لعالم ما بعد الحرب الباردة. سبعة فصول يتناول كل منها مجموعة من الدول الرئيسية، سماتها الثابتة ومصالحها القومية وما يجب على واشنطون أن تنتهجه تجاهها، حتى تضمن في النهاية أن لا تصعد قوة في أي منطقة توحد الآخرين في مواجهة ضد الولايات المتحدة.

سير ومذكرات

ذكريات الفكر الجامعي العربي

علي زيعور

بيروت: المكتب العالمي للطباعة والنشر، ٢٠٠١

يمكن اعتبار الكتاب سيرة ذاتية يعرض فيها المؤلف لأفكاره وفلسفته وقراءاته أثناء دراسته في الجامعات الفرنسية، كما يعرض لمواقف أصدقائه المقربين والقضايا التي كانت محور اهتمامهم ونقاشهم خصوصًا ما يتصل منها بالفكر العربي المعاصر.

■■■

أيقونة الفن

جورج بهجوري

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠١

الجزء الثاني من سيرة بهجوري، كان الجزء الأول حمل عنوان «أيقونة فلتس» وفيه عرض بهجوري لنشأته وتربيته وطفولته الأولى وتوقف عند التحاقه بكلية التربية الفنية والقيم الفنية التي تربى عليها، وفي هذا الجزء يتناول بهجوري مسيرته الفنية والأساتذة الذين أثروا عليه وتربى عليهم فنيًا وبداياته في مجلتي «صباح الخير» و«روزاليوسف» وعلاقته بزملائه من الفنانين والشعراء والكتّاب وتاثير رحيل عبدالناصر عليه، وتاثير السنوات التي عاشها في باريس على توجهاته الفنية.

■■■

Life is a Menu: Reminiscences and Recipes from a Master Chef

(الحياة قائمة أكلات: مذكرات ووصفات من شيف معلم)

Michel Roux

Constable, 2001, 262pp., £18.99

أحد أشهر الطهاة الفرنسيين في بريطانيا، يكتب مذكراته منذ طفولته الفقيرة في باريس وحتى وصوله إلى قمة الشهرة. عمل ميشيل رو في السفارة البريطانية كما خدم في الجيش الفرنسي في الجزائر، أما أهم ما أثر في حياته فكان عمله طاهيًا لسيسل دي روتشايلد، الذي يحتل هو وزوجته على وجه الخصوص جانبًا كبيرًا من هذه المذكرات.

■■■

باطن الهواء

ياسمين زهران

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١

تحولت الحياة في الأراضي الفلسطينية إلى معاناة يومية، جحيم يحتاج إلى مقاومة مستمرة لإثبات القدرة على الاستمرار والبقاء، فالقرى الفلسطينية حوصرت بمستعمرات استيطانية يمارس سكانها من اليهود أقصى درجات الإرهاب والقسوة مستفيدين من بشاعة الآلة العسكرية الإسرائيلية وضراوتها في مواجهة مدنيين عُزّل، وكذلك من الصمت المطبق لمجتمع دولي تحكمه قواعد ظالمة.

ما الذي يمكن أن يفعله الحصار والقهر بهؤلاء الناس، وكيف يمكن أن نمد لهم يد المساعدة، هذا ما تناقشه المؤلفة في كتابها.

■■■

Hans Christian Anderson: The Life of a Storyteller

(هانز كريستيان أندرسون: حياة قصّاص)

Jackie Wallschlager

Alfred A. Knopf, 2001, 489 PP., $ 30

أحدث هانز كريستيان أندرسون الأديب الدنماركي ثورة في أدب الأطفال التي كانت مجرد دروس أخلاقية مكررة، حيث أدخل عليها مشاعر الأسى والفكاهة التي توجد في الأعمال الأدبية الكبيرة لكن في إطار من السيطرة الجمالية، وكانت النتيجة أن أعماله نافست إبداعات الرومانتيكيين من أبناء عصره. من أشهر أعمال أندرسون الخالدة «ملابس الإمبراطور الجديدة» و«ملكة الثلج» و«البطة القبيحة». وتلك الأخيرة هي مفتاح قصة حياته الشخصية، حيث كان في طفولته وشبابه قبيحًا منطويًا يسخر زملاؤه منه. وكان أبوه إسكافيًا فقيرا ولكنه إنسان ذكي، أما أمه فكانت جاهلة تؤمن بالخرافات ولكنها أثرت خياله بمعرفتها بالتراث الشعبي. يتناول هذا الكتاب حياة وكفاح هانز أندرسون وسمات شخصيته التي ظلت معذبة رغم الشهرة التي نالها في نهاية حياته.

فنــــون

العرض الأول.. نظرات في الفيلم العربي القصير وسينما الفيديو

زياد الخزاعي

قطر: منشورات مهرجان السينما العربية المستقلة، ٢٠٠١

يسعى المؤلف إلى اكتشاف قوالب جديدة ووضع أطر مختلفة لسينما الشباب والسينما التجريبية الواعدة، التي من خلالها فقط يمكن إنقاذ صناعة السينما العربية وتطوير أدائها من المستقبل لتواكب السينما العالمية.

■■■

مأزق البطل الوحيد.. سينما أوليفر ستون

نورمان كيجان

ترجمة: أمين العمري

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

حققت سينما أوليفرستون المعادلة الصعبة، نجاح جماهيري كبير وتقدير نقدي واضح ضمن لها عددًا من جوائز الأوسكار، هذا الكتاب يستعرض أفلام ستون وما كتب عنها نقدًا وتحليلاً، ليس فقط من جانب المتحمسين لها وإنما الرافضين لها كذلك، كما يستعرض الفيلم ظروف إنتاج كل فيلم، وموقع سينما ستون في إطار سينما المستقبل.

شـــــعـر

سياف الزهور

محمد الماغوط

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

يحاول الماغوط في هذه القصائد تعزية روحه بعد فقدانه رفيقة دربه، كما يرسم في قصائد أخرى أحزان الوطن وهمومه، مازجًا إياها بأحلام شعبه وطموحاته وحدود تحققها.

■■■

في صباح جميل كهذا

فريد أبوسعدة

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠١

يضم الديوان ٢١ قصيدة لشاعر ينتمي إلى جيل الستينيات الشعري، وهو صوت مميز بين أبناء جيله، من قصائد الديوان «موت الحصان الجميل»، وقد أصدر الشاعر قبل ديوانه الأخير عدة دواوين منها «الغزالة تقفز في النار»، «ذاكرة الوعل» ومسرحية شعرية «الليلة الأخيرة للسهروردي».

الجندي الذي رأى الطائر في نومه

سيف الرحبي

ألمانيا: دار الجمل، ٢٠٠١

يصنع الشاعر عالمه من مفردات بيئته الصحراوية حيث صراع الموت والحياة والجفاف والقسوة التي يفرضها مجتمع صحراوي على قاطنيه، لكنه ينهل من هذا المعين ما يعالج به قضايا عربية وهموما إنسانية عامة.

■■■

الديوان

وليم صعب

بيروت: دار النهار، ٢٠٠١

يضم الكتاب تسعة فصول، يتناول الأول القصائد التي ضمتها جريدة البلبل التي أنشاها المؤلف في فترة الحرب الأهلية اللبنانية، ثم أشعار النضال الوطني منذ عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٦٠، والقسم الثالث أشعار صوفية، والأقسام التالية أشعار متنوعة الموضوعات والمشارب.

■■■

Skeptical Music: Essays on Modern Poetry

(مقالات في الشعر الحديث)

David Bromwich

University of Chicago, 2001, $ 49

المؤلف يعمل أستاذًا للأدب الإنجليزي بجامعة يال الأمريكية. ويقوم في هذا الكتاب بمعالجة وظيفة النقد الشعري ويقدم نقدًا تطبيقيًا لعدد من الشعراء المعاصرين.

طب وصحة عامة

روماتيزم العظام ومتاعب الظهر والركبة

أحمد فؤاد الغباري

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

تقدم السلسلة العلمية في هذا الكتاب أكثر أمراض العظام شيوعًا وهو الروماتيزم. يتناول المؤلف أسبابه كالإصابات المختلفة في العظام وتناول عقاقير طبية على سبيل الخطأ وغيرها من الأسباب، كما يقدم نصائح لكيفية تفادي هذا المرض وتجنب مخاطره، كما يعرض لأمراض أخرى مثل تآكل الغضاريف والذئبة الحمراء والنقرس شارحًا أسبابها وأعراضها وطرق الوقاية منها وعلاجها.

■■■

Eat, Drink and be Healthy: The Harvard Medical School Guide to Healthy Eating

قــــــراءات جـــــــديدة

(كل واشرب وتمتع بصحة جيدة: دليل مدرسة الطب بهارفارد للأكل الصحى)
Walter C. Willeh M.D. (editor)
Simon & Schuster, 2001, 352PP., $25.00
يتضمن هذا الكتاب هجومًا عنيفًا على الهـرم الغـذائى الذى توصى به وزارة الزراعة الأمريكية والذى يؤمن به معظم المواطنين الأمريكيين، حيث يحدد لهم مقدار ما يجب أن يتناولوه يوميًا من أنواع الأغذية. يأتى هذا الكتاب ليعلن أن وزارة الزراعة تريد فى المقام الأول تسويق منتجاتها، وبالتالى فإن ظاهرة البدانة المرتفعة بين الأمريكيين سببها الجرعات الغذائية المبالغ فيها بسبب تلك التوصيات التى تدرس لتلاميذ المدارس الابتدائية.

■■■

Buried Alive: The Terrifying History of our Most Primal Fear
(الدفن حيًا: التاريخ المرعب لأكثر مخاوفنا بدائية)
Jan Bondeson
Norton, 2001, 320 PP., $ 24.95
إن الدفن المبكر له تاريخ أدبى طويل منذ روميو وجولييت وروايات إدجار آلن بو وغيرهم. وقد كان هذا الخوف مبعثًا لاهتمام وقلق شعبى عارم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما يظهر فى الأدب والصحافة الطبية والعامة المنشورة وقتذاك. يقوم المؤلف هنا وهو طبيب يحمل دكتوراه فى الطب التجريبى باستعراض تاريخ الجدل الطبى الذى ثار حول متى تنتهى الحياة، وما هى علامات الموت الأكثر يقينية من غيرها. وقد تباينت وتطورت الاجتهادات من وضع إصبع يد المتوفى فى أذن الطبيب وحتى الإعلان عن توقف المخ الشائع الآن. كما يستعرض المؤلف الابتكارات المختلفة التى أدخلت على المشارح والتوابيت للإنذار عن وجود أحياء ولتسلية الميتين الأحياء إلى أن يتم انتشالهم!

علـــوم

الوراثة والهندسة الوراثية بالكاريكاتير
ترجمة: أحمد مستجير
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١
لم تعد الهندسة الوراثية حكرًا على ذوى التخصص، صارت فرعًا من فروع المعرفة الإنسانية ينبغى أن يتاح لعامة الناس لتداخلها الشديد فى حياتهم وتأثيرها المؤكد على مستقبل البشرية مع اكتشاف الخريطة الجينية وسبل الإفادة منها فى الطب وتحسين السلالات البشرية وغيرها. المؤلف يحاول أن يبسط الهندسة الوراثية لقرائه فيقدمها بطريقة كاريكاتيرية ساخرة ومبسطة.

■■■

The Botany of Desire: A Plant's - Eye View of the World
(رؤية نباتية للعالم)
Michael Pollan
Random House, 2001, 271PP., $ 24.95
من خلال مصادر تاريخية وعلمية وأدبية يحاول المؤلف إعطاء صورة بارزة عن الدور الذى لعبه النبات فى تغيير حياة الإنسان. فالنبات ليس مجرد زينة أو كائن حى سلبى، إنما هو كائن متفاعل وإيجابى أكثر مما نظن.
ويركز المؤلف فى كتابه على تاريخ أربعة أنواع من النباتات التى نمت بفضل رعاية الإنسان لها، وهى التفاح وزهور التيوليب والحشيش والبطاطس. وكل من هذه النباتات لها علاقة بأربع رغبات إنسانية تقوم بإشباعها للإنسان فى المقابل، وهى بالترتيب: الحلاوة والجمال والتخدير والسيطرة.

فكـــــر

أوراق بدون ترتيب
عبدالقادر حميدة
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١
أكثر من ٤٥ مقالة كتبها الشاعر عبدالقادر حميدة على مدى سنوات، جمعها فى هذا الكتاب.. منها: الشعر مغتربًا، محمود أبوالوفا: شاعر كرّمه شوقى وأنكره طه حسين، أزمة الناقدين بين الغضب اللفظى والغضب الموضوعى، القرآن الكريم مترجمًا، وغيرها من المقالات التى ترسم ملامح أدبية ونقدية لمرحلة زمنية طويلة.

■■■

رهانات النهضة فى الفكر العربى
ماهر شريف
دمشق: دار المدى، ٢٠٠١
على طول التاريخ العربى ظل سؤال النهضة مؤرِّقًا، متأرجحًا بين ضرورات النهضة ومحاذيرها، وليس أدل على انتكاسة هذه النهضة من أن السؤال مازال مطروحًا فى الألفية الثالثة. المؤلف يناقش رهانات النهضة مستفيدًا من أعمال سلامة موسى والكواكبى وغيرهما.

■■■

المرأة السودانية.. ظلمات الماضى وإشراقاته
مختار عجوبة
القاهرة: مركز الدراسات السودانية، ٢٠٠١
تناول المؤلف المسكوت عنه فى تاريخ السودان الحديث، خصوصًا موقف المرأة فى المجتمع السودانى الذى تأزّم بشدة مع الحرب الأهلية السودانية والصراع المحتدم بين شمال السودان وجنوبه لأسباب عرقية ودينية. ويعرض بالتحليل لما كتبه المؤرخون عن تاريخ المرأة السودانية وصراعاتها، كما يقدم دراسة مستقلة عن أدب المرأة فى السودان.

■■■

قراءات فى الثقافة والسلطة والإعلام
خالد الكركى
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١
يواصل المؤلف ما بدأه فى كتابات سابقة عن علاقة المثقف بالسلطة، وكيف تبدو هذه العلاقة شائكة ومرتبكة، وكان المثقف والسلطة ضدان لا يلتقيان، وهو يحكى من معين تجربة شخصية خصبة حيث تولى رئاسة اتحاد الكتّاب الأردنيين وعمل بوزارة الثقافة ووزارة الإعلام ثم شغل منصب رئيس الديوان الملكى، والخلاصة التى يقدمها لنا فى كتابه هى أن لكل سلطة أساليبها وأدواتها فى كبح جماح المثقفين والتضييق عليهم.

■■■

البحث عن الحقيقة.. الوعى البشرى وحقائق الكون
عبدالله المعجل
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠١
يطرح المؤلف أسئلة عن المعرفة وإشكاليات البحث عن الحقيقة، ويقدم بأسلوب كيفية تغلب الإنسان على تلك المشكلات بهدف التواصل مع العالم بحضاراته وثقافاته المختلفة.

■■■

اليوتوبيا والجحيم
نبيل عبدالفتاح
القاهرة: المركز القبطى للدراسات الاجتماعية، ٢٠٠١
يناقش المؤلف فى تسعة فصول عددًا من الظواهر والتحولات الموضوعية فى عالمنا المعاصر، ويركز بالذات على التأثير المهم للعولمة على المشهد الاجتماعى فى مصر وانعكاساته على الخطاب السياسى والجدل العام بين المثقفين وفى وسائل الإعلام.

■■■

أمريكا جذور الغزو والعولمة
محمد أبوالأسعاد
القاهرة: سينا للنشر، ٢٠٠١
كتب جديد يضاف إلى عشرات الكتب التى ظهرت فى السنوات الأخيرة عن العولمة، حتى بات لدى الناس ما يمكن أن نسميه مكتبة العولمة، والمؤلف هنا يبحث فى الجذور التاريخية للظواهر التى تم تصويرها بوصفها طوق النجاة أحيانًا. وبوصفها مرحلة من مراحل تطور التاريخ البشرى فى أحيان أخرى، وهو يعالج عدة موضوعات بينها العولمة وعصر البارونات واللصوص والإمبريالية الأمريكية وغطرسة القوة والفردوس الموعود والمصير المحتوم.

فكـــــر دينى

النبى إبراهيم فى الثقافة العربية الإسلامية
تهامى العبدولى
دمشق: دار المدى، ٢٠٠١
يتعامل المؤلف هنا مع الدين بوصفه نسقًا ثقافيًا له بنى فكرية نظرية، ويعرض لسيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام فى الأديان الثلاثة، وهى التى يمكن أن تمثل نقطة لقاء بين الأديان الثلاثة، كما أنها يمكن أن تشكل - إذا أراد البعض - نقطة خلاف وافتراق.

■■■

السلطة السياسية عند أبى حامد الغزالى
محمد آيت على
القاهرة: وكالة الصحافة العربية، ٢٠٠١
عن حياة الغزالى ومواقفه من السلطة وتأثير السياسة على أفكاره ومؤلفاته، حيث يعرض المؤلف للفترة التى عاشها الغزالى فى بلاط الخلافة العباسية. وآرائه فى عديد من القضايا ومواقفه من الخلفاء ومواقف الخلفاء منه، مع التركيز على موضوع الإمامة بالذات.

■■■

تأجير الأرحام بين العلم والدين
طه حبيشى
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠١
هذا هو أول كتاب يصدر فى الموضوع الذى شغل الرأى العام المصرى طوال العام الفائت، وينتظر مناقشته فى البرلمان خلال أسابيع، وفيه يجمع المؤلف آراء العلماء على اختلافها محاولاً الإجابة على قضايا النسب والأمومة وغيرها مما اختلف حوله العلماء، كما يتضمن وثائق بينها منشورات صادرة عن المجمع الفقهى بمكة المكرمة ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف وغيرهما.

فلســـفة

ببليوغرافيا الفلسفة العربية
محمد حسين النجم
العراق: بيت الحكمة، ٢٠٠١
تتناول الموسوعة القوانين وفلسفة الحكمة منذ عهد حمورابى مرورًا بحضارة بابل والحضارة الإسلامية. كما تستعرض بعضًا مما قامت عليه الفلسفة العربية وارتباطها بأمور الفقه والشريعة الإسلامية، وفلسفة التصوف وعلم الكلام وغيرها من قضايا الفلسفة العربية قديمًا وحديثًا.

■■■

Knowledge and its Limits
(المعرفة وحدودها)
Timothy Williamson
Oxford University Press, 2001, 352 PP., £25.00
من السهل ملاحظة الفرق بين اعتقاد شيء ما ومعرفته، وهناك الكثير من الاعتقادات الخاطئة. بينما لا توجد معرفة خاطئة؛ لأن معرفة شيء ما تستتبع أن هذا الشيء حقيقى، لكن هل هذا يعنى أن المعرفة هى الاعتقاد الصحيح؟ هذا ما يجيب عنه أستاذ المنطق بجامعة أكسفورد فى كتابه الجديد.

فـــلك

قصة الأيام والشهور والأرقام وتسمياتها
شحادة الخورى
دمشق: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١
عن تاريخ الأيام ولأسباب اكتسابها الأسماء التى هى عليها، وأول من عمل بهذه التواريخ، ودور قدماء المصريين فى معرفة أيام الأسبوع خصوصًا أنهم أول من راقب

أوضاع الشمس والقمر وعدُّوا الأيام سبعة، وكيف استفادت الأمم الأخرى من هذه الإرهاصات.

■■■

An Intimate Look at the Night Sky
(نظرة مقربة لسماء الليل)
Chet Raymo
Walker & Co, 2001, 208 PP., $ 26.00

يخشى المؤلف وهو أستاذ للفيزياء في كلية ستوتهيل، من فقدان الناس لصلتها القديمة بسماء الليل، حيث لم نعد أصلاً نشاهدها بعد أن كانت تشكل في العصور ما قبل الصناعية جزءًا مهمًا من حياة الإنسان.

يقدم المؤلف بأسلوب مؤثر معلومات عديدة عما يسبح في السماء من كواكب وأجرام وشهب، كما يضم في كتابه أربعا وعشرين خريطة لنجوم الليل تبين التشكيلات المختلفة لحركة النجوم عبر الفصول.

فنون

Making Music Modern: New York in the 1920s
(تحديث الموسيقى: نيويورك في العشرينيات)
Carol J. Oja
Oxford UP, 2000, 512PP., $ 33.50

رؤية فاحصة للمشهد الموسيقي في نيويورك خلال العشرينيات من القرن العشرين. يبين الكتاب كيف حدث في نيويورك خلال تلك الفترة انفجار إبداعي جعل منها مركز الموسيقى الكلاسيكية الحديثة.

■■■

١٠٠ رسم وأكثر
محيي الدين اللباد
القاهرة: دار المستقبل العربي، ٢٠٠١

شغلت العولمة بوصفها مرحلة من مراحل تطور التاريخ الإنساني المفكرين والكتّاب، وقد شهدت السنوات الأخيرة سيلاً من الكتب والدراسات التي تتناول موضوع العولمة من جميع جوانبه وبكل اللغات. ولم يقف الكاريكاتير بعيدًا عما يجري، وفي هذا الكتاب يقدم الفنان أكثر من مائة رسم كاريكاتيري عن موضوع العولمة بالذات، مستفيدًا مما يمنحه فن الكاريكاتير من حرية نقدية للمبدع كما يقول في حيز محدود ما تعجز عن قوله مقالة من آلاف الكلمات.

■■■

The Wagners: The Dramas of A Musical Dynasty
(سلالة فاجنر: حكايات أسرة موسيقية)
Nike Wagner
Translated by Ewald Osers
Weiden Feld and Nicolson, 2001, 327PP., £25.00

صدر هذا الكتاب في ألمانيا قبل أن يترجم إلى الإنجليزية، وقد قامت بتأليفه حفيدة المؤلف الموسيقي رتشارد فاجنر، التي تعمل ناقدة موسيقية ومعلقة ثقافية في برلين.

يضم الكتاب تحليلاً نقديًا لموسيقى فاجنر الأوبرالية وأبطالها وحبكاتها ورموزها في ضوء ما تعرفه الحفيدة من الحياة العائلية لجدها. ويظهر تأثير أسرة فاجنر على موسيقاه بوضوح فما شرحته الحفيدة عن العلاقة السيكولوجية بين الأب والابن وأسباب تكرار نموذج النساء القويات في أوبرات فاجنر.

قانون

الألغام وحقول الشيطان
شعبان أحمد سليمان- منال مصطفى غانم
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١

دعوة يوجهها المؤلفان إلى أساتذة القانون الدولي وغيرهم من المعنيين في مراكز حقوق الإنسان وإنقاذ البيئة، للاهتمام بهذا الموضوع الشائك حيث راح مئات الأبرياء ضحايا الألغام التي وضعت في أزمة الحرب ولم يتم انتزاعها، فمن يعوض هؤلاء الضحايا، ومن ينقذ آخرين من الضحايا المحتملين.

■■■

Intellectual Property Rights in the Global Economy
(حقوق الملكية الفكرية في الاقتصاد العالمي)
Keith E. Maskus, C. Fred Bergsten
Inst. for Intl Econimics, 2000, 270pp., $18.95

الكتاب يحلل الآثار الاقتصادية التي تترتب على تطبيق الالتزامات الدولية بحقوق الملكية الفكرية.

للأطفال

المكتبة والطفل
محمد فتحي عبدالهادي
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

يتناول الكتاب في ١٢ فصلاً أنواع الخدمات المكتبية للأطفال وأهدافها وحق الطفل في التعليم والمعلومات والأنشطة التي يقوم بها أخصائي المكتبة وكيفية إعداده مهنيًا ويقدم صورًا من واقع مكتبات الطفل في الوطن العربي.

■■■

Open Wide: Tooth School Inside
(افتح: مدرسة الأسنان بالداخل)
Laruie Keller
Henry Holt & Co., 2000, 40PP., $ 16.95
(للأطفال من سن ٤ إلى ٨ سنوات)

قصة طريفة تقوم على فكرة تشخيص أسنان الفم، حيث تتخيل المؤلفة أن الفم عبارة عن فصل في مدرسة به اثنان وثلاثون تلميذًا ما بين الأنياب والضروس والأسنان كل له اسمه، يجلسون على مقاعد من اللثة، ومعلمهم هو خلة أسنان خشبية. القصة بمحاكاتها الخيالية تحتوي على أكثر من درس في تشريح الأسنان وأسلوب العناية بها مقدمة في قالب فكاهي محبب للأطفال.

نقد

محمود درويش.. شاعر الصمود والمقاومة
جمال بدران
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

يحتل محمود درويش مكانة بارزة على خريطة الشعر العربي، فقد استطاع أن ينقل الافتتان بشعره من خانة التعاطف مع قضية الشعب الفلسطيني وقد عبّر عنها باقتدار، إلى التقدير الكامل لشعرية معاصرة تمتلك قاموسها الخاص وغنائيتها الفريدة وتنشغل بهموم الإنسان العربي عمومًا، والإنسان الفلسطيني المحاصر داخل وطنه بشكل خاص.

المؤلف يقدم تحليلاً لشعرية محمود درويش وأسباب فرادته عبر قراءة نقدية لدواوينه وأيضًا كتاباته النثرية.

■■■

الإنسان المقهور في أدب صنع الله إبراهيم
فراس عبيد
فلسطين: مؤسسة الأسوار، ٢٠٠١

برغم قلة الأعمال التي قدمها صنع الله إبراهيم قياسًا إلى سنوات اشتغاله بالإبداع التي قاربت نصف القرن، فإن هذه الأعمال تركت آثارًا بالغة الأهمية في مسيرة الأدب العربي وخصوصًا الرؤية. إذ انشغلت جميعها بالإنسان المقهور وبالبعد القومي العربي وطرحت رؤى تتميز بوعي وإدراك حصيف للمخاطر المحدقة بالمنطقة داخليًا وخارجيًا. المؤلف يلقي أضواء على أعمال صنع الله إبراهيم. خصوصًا: تلك الرائحة ونجمة أغسطس وبيروت بيروت وذاتي.

■■■

تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش
سعيد جبرة أبوخضرة
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

تلعب اللغة ودلالاتها دورًا مهمًا في القصيدة، وتبين بدرجة ما، مراحل تطور الشاعر وكيفية تطويعه للغة واستخداماتها، وكيف تتطور دلالات اللفظ من مرحلة إلى أخرى في مسيرته، المؤلف يرصد بعضًا من الألفاظ الدالة في شعر محمود درويش منتهيًا إلى جداريته الأخيرة.

■■■

في بنية الشعر العربي
محمد لطفي اليوسفي
تونس: المطابع الموحدة، ٢٠٠١

دراسة مسهبة عن الشعر العربي الكلاسيكي والحديث، وآراء عديد من الشعراء والنقاد في فن الحداثة وقصيدة التفعيلة، بينهم إحسان عباس ونازك الملائكة وعزالدين إسماعيل، كما يقدم المؤلف نماذج من الشعر الحديث لبدر شاكر السياب وسعدي يوسف ومحمود درويش وأدونيس، مفسرًا كيف ساهم الخطاب الشعري الحديث في تكوين الوعي الشعبي، وكيف تأثر هذا الخطاب بمؤثرات غربية.

■■■

أدبيات الكرامة الصوفية
محمد أبوالفضل بدران
أبوظبي: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠١

دراسة في أدبيات الكرامات الصوفية المدونة والشفهية تسعى إلى وضع أساس لنظرية الكرامات؛ إذ يرى المؤلف أن الكرامات جنس أدبي مستقل بذاته يتشابه مع القصة وإن اختلف عنها في كون الكرامة تتمتع بقدسية لدى الصوفيين، ويتناول المؤلف موقف المذاهب والفرق الإسلامية من الكرامات وكيفية استفادة الأدب العربي منها نثرًا وشعرًا.

■■■

The Oxford Guide to Literature in Enghish Translation
(دليل أكسفورد للأدب المترجم إلى الإنجليزية)
Peter France (editor)
Oxford UP, 2001, 655PP., £ 60.00

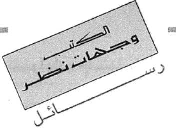
اشترك في هذا المرجع الكبير مجموعة خبراء من دول عديدة في محاولة لتجميع ومناقشة الأدب العالمي الذي ترجم إلى الإنجليزية.

يناقش الجزء الأول من الكتاب قضايا نظرية متعلقة بالترجمة وتاريخها وأسلوب ترجمة الأشكال المختلفة من الآداب بين الشعر والمسرح والرواية والأوبرا.. إلخ. أما الجزء الثاني والأساسي من الكتاب فيعرض ببليوغرافيا إلى جانب مناقشات نقدية للأعمال العالمية التي ترجمت إلى اللغة الإنجليزية مرتبة حسب لغة المنشأ، ويبدأ بالكتاب المقدس ثم الأدب اللاتيني واليوناني وأدب باقي اللغات الأوروبية الحية، ثم ينتقل للأدب الشرقي، الأفريقي والآسيوي والعربي والعبري والصيني والياباني.

■■■

The Literature of Al - Andalus
(الأدب الأندلسي)
Maria Rose Menocal, Raymend p. Scheindin and Michael Sells (editors)
Cambridge U.P, 2000, 507PP., £ 90.00

كتاب ضخم تصدره كامبردج كأحدث جزء في سلسلة تاريخ كامبردج للأدب العربي. تتناول فصوله كل من اللغة والموسيقى والمعرفة في العصر الأدبي الأدلسي، كما تتناول شخصيات أندلسية مثل ابن حزم، وابن طفيل، وابن زيدون، وابن العربي، وابن الخطيب. ويناقش الكتاب كذلك إسهامات ثقافة الأندلس والتجديدات التي أدخلتها على الثقافة العربية ومن ضمنها الموشح وقصيدة الزجل. الكتاب يعطي اهتمامًا خاصًا أيضًا باليهود الذين عاشوا في الأندلس والثقافة العبرية التي أنتجوها هناك في ذلك الوقت من شعر وأدب إلى آخره.



لغة الفيزياء ولغة الوراثة

بمناسبة نشر مقال «وراثة اللغة ولغة الوراثة» في عدد أبريل الماضي من المجلة أود أن أدلي بهذا التعقيب:

بانتهاء عصر الفلاسفة الأوائل السابقين على سقراط غاب السؤال عن الطبيعة.. عن العالم الفيزيقي.. من أفق الفكر الأوروبي. حتى كان اكتشاف العالم الجديد وكروية الأرض ومركزية الشمس.. إلخ، وانبثاقة العصر الحديث ليخبر الإنسان الحديث أن العالم الطبيعي أكثر رحابة وثراء من كل ما تصور الأقدمون. هكذا ألح السؤال عن الطبيعة، وتأتت الاستجابة العظمى بنشأة العلم الحديث ومنهجه التجريبي الموائم للبحث في الطبيعة.

وهذا ما عبر عنه الرائد فرنسيس بيكون في كتابه «الأورجانون الجديد - عام ١٦٢٠» الذي يعد «مانفستو» العلم الحديث. في الفقرة الأولى منه يتحدث بيكون عن الطبيعة بوصفها المملكة الكبرى للمعرفة البشرية التي يستطيع الإنسان غزوها والسيطرة عليها عن طريق التجريب، وينبغي الحيلولة دون أن يتجاوزها العقل وتكريس العزم لإقصاء أي بعد ميتافيزيقي. يصف بيكون الطبيعة بالأم الكبرى للعلوم وجذع شجرة المعرفة، ولا أمل في التقدم إلا بأن ترتد إليها العلوم جميعًا.

ذلك هو مشروع العلم الحديث الذي واصل نجاحه المشهور على أساس أن موضوع الطبيعة - أي موضوع الفيزياء - هو مجمل حلبة العلم، كل موضوعات العلوم الأخرى زوايا في عالم الفيزياء الذي هو إطار الكون ومجمل عالم الظواهر العلمية. ثم قامت ثورة الفيزياء العظمى منذ مطالع القرن العشرين، ثورة الكوانتم والنسبية، لتقلب مثاليات العلم ومنهجه رأسًا على عقب وتجعل القرن العشرين مرحلة مستجدة من الفكر العلمي تختلف عما سبق. بيد أن هذه الثورة - الفيزيائية - جعلت العلم وفلسفته أكثر تمحورًا حول الفيزياء وأكثر انضواءً تحت لوائها.

هكذا بدت هيمنة الفيزياء على عالم العلم مسلمة بديهية، تصاعدت وتعاظمت سطوتها، فجاء القرن العشرون تمثلها وتمثيلها، وفي أواسطه حمل الوضعيون المنطقيون - استمرارًا للمد الفيزيائي السابق لواء «العلم الموحد» الضام لسائر المباحث الطبيعية والحيوية والإنسانية على أساس أن الفيزياء هي علم العلوم والعلم الذي لا علم سواه، أو بالأحرى لا علم خارج حدوده وأطره، ويمكن اختزال كل العلوم الأخرى لترتد حدودها في النهاية إلى الحدود الفيزيائية.

وتأكيدًا لهذا عكف نفر من الوضعيين، على رأسهم رودلف كارناب (١٨٩١-١٩٧٠) على بناء نسق منطقي لما أسموه «باللغة الفيزيائية» ووضع قواعد الصياغة فيها والتحول إليها والاستنباط منها، فتكون لغة علمية واحدة، يقال فيها كل وأي تعبير علمي، وما لا يقال فيها لا يعد علمًا، يمكن أن نصوغ في إطارها مفاهيم وقوانين علم النفس ليغدو علم السلوك.

ربما كانت اللغة الفيزيائية تطرفًا قاصمًا، لكن تطرفها يوضح لنا كيف كان التفكير العلمي منضويًا تحت لواء الفيزياء؛ وبالتالي نتبين مدى الانقلاب الجوهري الذي تشهده فلسفة العلم في القرن الحادي والعشرين وهي تنتقل من هذا إلى وضع مستجد تمامًا، بمصطلحات فلسفة العلم هو وضع يمثل حالة قطيعة معرفية، أي قطع الصلة بمسلمات المعرفة الماضية، فلا يكون البتة استمرارًا أو تراكمًا لما سبق، بل شقًا لطريق جديد يقوم على مسلمات مختلفة. وتلك هي الآفاق الواعدة التي تقتحمها دراسة الدكتور نبيل على البالغة الأهمية «وراثة اللغة ولغة الوراثة».. إنها تعلن انتهاء عصر الفيزياء، وبداية عصر جديد نحاول أن نحدد: أي عصر هو؟ وأخطر ما تفصح عنه الدراسة انه ليس عصر المعلومات ولا عصر البيولوجيا ولا عصر اللغويات، بل هو عصر التفاعل بينها جميعًا، مما لا يعني مناهج وطرائق مستحدثة فقط، بل مستوى منهجيًا مغايرًا.

كشفت دراسة د. نبيل عن الانتهاء التام للتقسيم البسيط الأليف المعتاد للعلوم إلى طبيعية وحيوية وإنسانية، أو حتى إلى علوم صورية استنباطية وعلوم إجبارية تجريبية. وبعد أن كانت علوم اللغة الكلاسيكية في عصر العلوم الكلاسيكي خارج إطار النسق العلمي تمامًا، نجد آليات الرمز والمعنى والنحو التوليدي والاشتقاق.. إلخ، المأخوذة من اللغويات، تقتحم صلب المنهج العلمي لتفتح الباب على مصراعيه أمام فعاليات الرمزية ومنظوماتها استيعابًا وتجاوزًا لفعاليات التجريب. لقد بتنا في حاجة إلى تعريف جديد لمفهوم العلم والمنهج العلمي وتقسيم العلوم والعلاقات بينها وأيها يعتمد على الآخر.

على الإجمال تعلمنا لغة الوراثة أن المعنيين بأصول التفكير العلمي عليهم التخلي عن كل ما ألفوه واعتادوه، والبدء من جديد، بكل معاني الجدة المتمايزة عن القديم المعتاد. فهل نحن متأهبون؟!

د. يمنى طريف الخولي
أستاذ فلسفة العلوم بآداب القاهرة



مصطلح الأدب القبطي

تلقت «الكتب.. وجهات نظر» الرسالة التالية حول مقال يوسف القعيد «الأقباط يكتبون رواياتهم» في عدد مارس الماضي من المجلة. ونظرًا لضيق المساحة اضطررنا لاختصار الرسالة:

لا حرج على شركاء الوطن أن يعبروا عن هواجسهم وأحلامهم، وأن يمثلوا تيارًا أو مذهبًا يقوم على العقيدة أو الفلسفة التي يؤمنون بها، فالكتابة بصفة عامة لابد أن تنطلق من تصور ما تصنعه عقيدة ما أو فلسفة ما أو موقف ما.. حتى الإلحاد يعد موقفًا وفلسفة وعقيدة بالنسبة للكاتب الملحد.

لم يكن الكتاب الثلاثة الذين عرضت المجلة رواياتهم الثلاث، أول من كتب الرواية أو غيرها من الأجناس الأدبية من منظور نصراني، ولكن سبقهم عديدون على اختلاف المذاهب التي ينتمون إليها، ولعل أشهر من كتب من خلال هذا المنظور في أيامنا كاتبان: «إدوار الخراط» الذي أنتج مجموعة من الروايات والقصص التي تدور في إطار تعميق الفكرة النصرانية متأثرًا بالتصور الأوروبي، و«رءوف مسعد» الذي كتب رواية رديئة ركيكة بعنوان «بيض النعام» أفرغ فيها رؤيته للواقع المصري متأثرًا بالفلسفة الماركسية، وإن كانت روايته تفيض غلوًا وشططًا.

مقال «الأقباط يكتبون رواياتهم» يفرز عدة ملاحظات يمكن إيجازها فيما يلي:

١- مصطلح الأقباط ودلالته على فريق من المصريين.
٢- تقسيمات الأدب والموقف منها، والأساس الذي يميز الكتابات الأدبية.
٣- خطورة مصطلح الأدب القبطي والمناخ الذي يربط الدين بالحياة.
٤- تعبير الأدب الإسلامي ومفهومه وتطوره.

ولا ريب أن إطلاق مصطلح الأقباط على إخواننا النصارى يجافي الدقة، ويعبر عن رغبة ما في إقصاء الآخر الشريك في الوطن. وقد أصبح معروفًا الآن بما لا يدع مجالاً للشك أن القبط هم المصريون سواء كانوا وثنيين أو نصارى أو مسلمين، وبعد الفتح الإسلامي، فإن إطلاق لفظ «القبط» على المصريين جميعًا كان أمرًا طبيعيًا، بحكم أنه يميز السكان الأصليين عن السكان الفاتحين، ثم تغير الزمان، وتحول أغلب القبط من الوثنيين والنصارى إلى الإسلام، فصاروا قبطًا مسلمين، ولكن البعض في زماننا يسعى من خلال استخدام المصطلح إلى التعبير عن رؤية شعوبية، تجعل كل مسلم عربيًا طارئًا، وتجعل كل قبطي وطنيًا مقيمًا، مما يعضد بعض المقولات التي يطرحها متعصبون، فحواها أن الإسلام استعمار دخل مصر بالقوة، ويجب طرده بالقوة، فضلاً عن عدم تمكينه من التعبير عن نفسه من خلال ما عرف بتطبيق الشريعة الإسلامية، وقد ظهرت كتابات في الداخل والخارج تتحدث عن ذلك بوضوح وصراحة، وعبر بعضهم عن ذلك من خلال الرواية، كما فعل «رءوف مسعد» في «بيض النعام»، وقد انتهى به المطاف أن يكون في صف الكيان الاستعماري في فلسطين، ويسجل برنامجًا عن هذا الكيان للتليفزيون الهولندي، ويدعو إلى التصالح مع الغزاة في فلسطين والاستسلام لهم تمامًا.

ولا ريب أن استخدام المصطلح بهذه الطريقة يمثل دعوة خطيرة لا تخدم مصر، ولا النصارى، ولا المسلمين. إنها دعوة إلى تمزيق الوطن، وتأجيج الصراع بين الأغلبية المسلمة والأقلية النصرانية، وإني إذ أستخدم تعبير «النصارى» و«النصرانية»، فإنما أسعى إلى الدقة الدلالية، فضلاً عن الالتزام بالمصطلح القرآني، حيث ورد مصطلح «النصارى» في أربعة عشر موضعًا (آية)، ولفظة «نصرانيًا» في موضع واحد، للدلالة على اتباع المسيح عليه السلام، ولم يرد أبدًا في القرآن الكريم مصطلح «الأقباط» أو «القبطي»، فضلاً عن «المسيحية» أو «المسيحي».

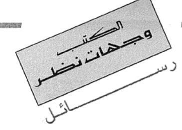
إننا جميعًا «مسلمين ونصارى» أقباط بمعنى مصريين، ولا أظن أن طرفًا يمكنه أن ينفي الطرف الآخر، بحجة أنه صاحب الوطن الأصلي، وأن الآخر غاز دخيل يجب أن يرحل، إنها بلا ريب أحلام شيطانية غريبة على الأقباط جميعًا، ولا تخدم المستقبل الذي يجب أن يتجاوز هذه الأحلام، ويعمل على وأدها، ليحل مكانها تفكير وطني أصيل، يعلم جيدًا أن الإسلام إذا كان دين الأغلبية وعقيدتها، فهو حضارة الأقلية وثقافتها، وهو وعاء يسع بإنسانيته ورحمته، جميع البشر، ماداموا يسعون إلى الخير والسلام.

إن «هاجر» القبطية (المصرية) زوج «إبراهيم» عليه السلام، هي أم «إسماعيل» عليه السلام، وهو أبو العرب المستعربة، أي أن العرب مصريون بالأمومة، وما النماذج والهجرات من مصر وإليها إلا تعبير دال على وحدة شعوب المنطقة، ووحدة الجذر الذي تنتمي إليه، مهما تعددت التسميات والانتماءات.. ثم إن «مارية» القبطية (المصرية) هي زوج «محمد»، نبي الإسلام، صلى الله عليه وسلم، وأم ولده «إبراهيم»، وإذا تأملت الوجوه، وخاصة في صعيد مصر، وجدت أن معظم المسلمين سمر الوجوه، مما يعني أن القوم ليسوا طارئين ولا غرباء.. وأنهم أقباط - أي مصريون - مثل أشقائهم النصارى في الوطن، ولسنا في حاجة إلى تتبع اسم مصر، كما ورد في المصرية القديمة أو اللغات المشتقة عن اللاتينية، فقد كثر الحديث في ذلك، وهو ينتهي عادة بإثبات أن القبط أو الأقباط تعني مصر أو المصريين.

***

مما سبق، فإن التسمية الدقيقة للأدب الذي يكتبه أشقاء الوطن هو «الأدب النصراني» وليس الأدب القبطي، لأن التسمية الأخيرة تشمل الأدب الإسلامي أيضًا، وهذا يقودنا إلى مناقشة التحفظ على تقسيم الأدب وفقًا للدين أو البيئة أو الجنس

د. حلمي محمد القاعود



اقتباس بعض الفقرات

السيد رئيس التحرير..
يسعدنى أن أؤكد المكالمة التليفونية، التى تمت بيننا صباح الاثنين ١٤ مايو ٢٠٠١، بهذه الكلمة لأعبر عن تقديرى ولزملاء معكم على ما تبذلونه فى إعداد وإصدار «وجهات نظر» والتى تتضمن وتنتهج الشفافية سلوكًا والموضوعية هدفًا فى انتقاء الموضوعات والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإنسانية والأخلاقية التى باتت، فى الوقت الحاضر، إلا القلة من المفكرين الذين يبدون اهتمامًا بالخوض فيها ودراستها والغوص فى أسبابها وفى سبل علاجها.

ذلك أن مقالات مجلتكم الموقرة تتميز بالنبض الذى يجيش فى صدر المواطن المصرى بصفة عامة وفى وجدان ذوى الثقافة منهم، إذ هى تختلف فى أسلوبها ومنهجيتها عما يجده القارىء من مقالات ودراسات فى العديد مما هو مطروح حاليًا، كما أنها مقالات ودراسات فى العديد مما هو مطروح حاليًا. كما أنها مقالات ودراسات تعتمد على كتاب ذوى ذخيرة عالية القيمة والاختيار والمصداقية، وتدعو القارىء إلى إعمال وانتفاض عقله وفكره من الركود الذى قد يفقده القدرة على الحركة الفكرية.

وفى هذا الصدد فإنى أتابع باهتمام ما تتضمنه «وجهات نظر»، منذ صدورها من موضوعات بذل فيها كتّابها القدر الكبير من الاقتدار والعمق بعد أن طال بنا الطريق الثقافى للتوصل إلى أسباب ومقومات النهضة والسبل التى تؤدى إلى تحقيقها خروجًا من الغيبوبة ـ أو شبه الغيبوبة ـ التى أصبحت، أو كادت أن تكون، من السمات الدخيلة علينا.

وفى إطار ذلك كله سمحت لنفسى أن أتصل بكم تليفونيًا وأن أؤكد هذا الاتصال بهذه الكلمات لأهنئكم وجميع المشاركين معكم فى مجلتكم الموقرة التى تناقش بأسلوب علمى وبموضوعية أمورنا الثقافية والسياسية والفكرية بالإضافة إلى أمور أخرى فى عالم العلوم والأفكار والابتكار.

وبعد هذه المقدمة التى أردت أن أعبر بها لكم عن فائق تقديرى لجهودكم فإنى سعدت أن أتلقى موافقتكم وترحيبكم على اقتباس فقرات من بعض المقالات وأيضًا بعض ما يأتى فى مجلتكم ضمن باب «عروض موجزة» الذى يتم فيه باقتدار تلخيص وعرض بعض الكتب المهمة وذلك لنشرها فى النشرات الاقتصادية الشهرية وربع السنوية التى يصدرها المصرف العربى الدولى والتى أتشرف بالإشراف على إعدادها وإصدارها، وذلك لتعميم المعرفة وأيضًا لأغراض البحث العلمى بين الزملاء معنا.

وفى هذا الصدد أرجو أن أؤكد لكم أننا سوف نراعى بدقة الإشارة إلى أن «وجهات نظر» هى المصدر مع ذكر رقم العدد والصفحة والتاريخ مع كل ما يتم نشره، ولا يسعنى إلا أن أقدم لكم الشكر والتقدير وأدعو الله لكم بدوام التوفيق.

فؤاد كمال حسين
نائب رئيس المجمع العلمى المصرى
وزير المالية الأسبق

** توافق المجلة على نشر فقرات من «عروض موجزة» عن بعض الكتب الاقتصادية لأغراض البحث العلمى مع الإشارة إلى «وجهات نظر» كمصدر، وذلك تعميمًا للفائدة، ودون إخلال بحقوق النشر.

(المحرر)



حول مقالة: «المؤامرة والسياسة والجريمة»

فى العدد التاسع والعشرين يونية ٢٠٠١ من «وجهات نظر» وردت بعض المعلومات فى هذه المقالة .. «حول ضابط بوليس مصرى عمل فى ليبيا، وأصبح بعد ذلك من كبار رجال الأعمال فى جنيف». وأحب هنا أن أضيف بعض المعلومات حوله، فهذا الضابط ليبى وكان ضابطًا بالبوليس الاتحادى الليبى أثناء حكم الملك إدريس، كما كان ضابط حراسة مع مصطفى بن حليم رئيس وزراء ليبيا الأسبق أثناء الملكية.

د. يوسف أمين شاكير



بين الفكرة والأسلوب

مع كثرة الإصدارات الحديثة وتعدد وسائل النشر من ورقى إلى إلكترونى أصبحت الكلمات المنشورة مع الزيادة والتنوع فى النشر، يظهر فيها الضعف والخلل فى بنية الجملة وجمال الأسلوب حيث أصبحت الفكرة وجمال اللغة كل منهما فى واد، فإذا كان هناك وضوح فى الفكرة كان ذلك على حساب اللغة، والعكس.

ومن هنا جاءت مجلة «وجهات نظر» وفقًا للرؤية الواعية لفريق العمل فيها لتنطلق وتعالج هذه النقطة، على أن يكون هناك اعتناء بالفكرة بنفس الاعتناء بالجملة وجمالها، من وجود إحكام متوازن بين الفكرة وبين بناء الجملة، مما جعل مادة المجلة محبوبة عند قراءتها مفيدة بأفكارها ومفرداتها.

عزمى محمود عاشور
باحث فى العلوم السياسية



رحلة ابن بطوطة

بلاد الصين

ببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهى المصرى بل يفضله، والأعناب والأجاص. وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها ما هو مثله وأحسن منه.

.. وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود. وملك الصين تترى من ذرية تنكيزخان. وفى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناها، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها، وهم معظمون محترمون. وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب، ويبيعونها فى أسواقهم. وهم أهل رفاهية وسعة عيش، إلا أنهم لا يحتفلون فى مطعم ولا ملبس، وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة. والحرير عندهم كثير جدًا، لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها، فلا تحتاج إلى كثير مؤنة، ولذلك كثر. وهو لباس الفقراء والمساكين بها.

.. وأهل الصين أعظم الأمم إحكامًا للصناعات، وأشدهم إتقانًا فيها. وذلك مشهور من حالهم، قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيه. وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى إحكامه من الروم ولا سواهم، فإن لهم فيه اقتدارًا عظيمًا. ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها، إلا ورأيت صورتى وصورة أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد، موضوعة فى الأسواق.

.. والجوارى رخيصات الأثمان، لأن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم، وليس ذلك عيبًا عندهم.





هل تنسحب أوروبا من إدارة العالم؟

انقضى القرن العشرون بخيره وشره. بكل ما شهده من حروب وسفك للدماء. وبكل ما فيه من تحيزات وتكتلات، وتحالفات وانقسامات، وامبراطوريات لا تغرب عنها الشمس إلى دولة عظمى واحدة تفرض هيمنتها على العالم. وبما شهده من حروب من أجل الاستقلال وانقلابات ضد الظلم والطغيان. وثورات علمية وصناعية قادتها الرأسمالية في صراعها ضد الشيوعية. حتى استقر العالم على الشاطئ الآخر من بداية قرن جديد.. اختلفت فيه الرؤى أو هي بسبيلها إلى الاختلاف.

ولأن ما يجرى في أوروبا هو الأكثر تأثيرًا فينا بحكم المشاركة الحضارية والجوار الجغرافي، فإن الرؤية الأوروبية لما يطرأ على العالم من تغيرات تظل هي الأقرب إلى رؤانا ومداركنا ونظرتنا إلى العالم. ونحن الآن بإزاء أجيال جديدة من الحكام الأوروبيين الذين وُلدوا بعد الحرب العالمية الثانية، واختلفت نظرتهم إلى العالم عن ذي قبل. ولم تعد النظرة إلى أمريكا هي نفس النظرة التي حكمت أوروبا في سني الحرب الباردة، ولا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي في العقد الماضي.

ومن هنا فحين يطرح أحد السياسيين الأوروبيين المخضرمين رؤيته لأوروبا ودورها، وهل تنسحب من إدارة العالم في القرن الحادي والعشرين، مسلِّمة زمام القيادة الكاملة لأمريكا، أم تتخذ موقفًا مستقلاً من أجل المحافظة على مصالحها؟ فلابد أن تفتح هذه الرؤية أمامنا أبوابًا للتفكير والتأمل. وليس هذا السياسي المخضرم غير المستشار الألماني الأسبق هيلموت شميت، الذي يقدم رؤيته حول مصير أوروبا والعالم خلال هذا القرن في كتاب صدر حديثًا باللغة الألمانية تحت عنوان: «هل تستطيع أوروبا أن تثبت وجودها؟».

والمخاوف الأوروبية من أن تنصرف الولايات المتحدة الأمريكية إلى مواجهة التحديات التي يحملها المستقبل، بحثًا عن الحلول الملائمة للمصالح الأمريكية وحدها دون اعتبار لمصالح حلفائها الأوروبيين، هي مخاوف حقيقية، عميقة وكامنة في الوعي الأوروبي؛ إذ لا يخفى على أحد في أوروبا أن أمريكا حريصة على أن تظل هي الدولة العظمى الوحيدة التي توجه مصائر العالم، ومن ثم فلابد أن ينشأ صراع مصالح قد تهدد فيه المصالح الأوروبية، وذلك على الرغم من كل مظاهر التقارب الحضاري، والتشابه الفكري والسياسي، والخلفية التاريخية والعرقية الواحدة.

يضاف إلى ذلك هاجس أوروبي دفين، يطفو على السطح بين الحين والحين، يدور حول نشوء الحضارات وازدهارها وأفولها في دورات متعاقبة.. تلك النظرية التي قال بها شبنجلر، وتنبأ فيها بقرب اضمحلال الحضارة الأوروبية وانهيارها. وأكثر الشعوب الأوروبية شعورًا بهذا الهاجس هم الشعب الألماني، الذي شهد على امتداد القرن العشرين موجات صعود وهبوط، وانتصارات وهزائم. وعانى من العزلة والحصار والتحقير ما لم تعانه شعوب أوروبية أخرى. ولهذه الأسباب يظل تعلق السياسيين الألمان بقطار الوحدة الأوروبية - أيا كان شكلها - هدفًا لا محيد عنه، كما يظل الحرص على تملق أمريكا ومسايرتها هو شبكة الأمان التي تحميها من تقلب المزاج الأوروبي، وصحوة العداوات القديمة والثارات البائتة التي ذاقت القارة الأوروبية لسعة خفيفة منها في حرب البلقان الأخيرة.

وما بين التعلق والتملق.. أي ما بين الاستمساك بالوحدة الأوروبية، والخوف من نزعة الانفراد والهيمنة الأمريكية، يأتي تصور المفكر السياسي الألماني هيلموت شميت للقرن الواحد والعشرين، لعالم تختلف فيه موازين القوى تمام الاختلاف عن القرن المنصرم. تتربع فيه أمريكا فوق القمة سعيًا لإثبات تفوقها الذي لا ينازعه أحد. ثم تبرز الصين في بواكير النصف الأول من هذا القرن قوة عظمى اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا. وتستعيد روسيا قوتها ومكانتها كقوة عالمية يحسب حسابها. وقد تفاجئ الهند العالم بظهورها على مسرح القوى العالمية معترفًا بها في نادي الدول الكبرى الجديد. أما اليابان فسوف تظل قوة اقتصادية ومالية لا أكثر.

وأما أوروبا فلن يكتب لأي دولة من دولها أن تتبوأ على حدة مقعد العضوية في هذا النادي. لا فرنسا بقوتها النووية.. ولا بريطانيا بعلاقاتها الخاصة بأمريكا.. الفرصة الوحيدة لأوروبا هي أن تبقى متماسكة في كيان سياسي واقتصادي وعسكري واحد لا تنفصم عراه، إذا أرادت لنفسها أن يعترف بها أحد كقوة عالمية.

وفي رأي شميت أن الحروب في هذا القرن لن تتوقف: حروب عرقية ودينية واقتصادية، صراع حضارات وثقافات؟ نعم.. ولكنها سوف تنشأ بالدرجة الأولى نتيجة تدفق ملايين المهاجرين واللاجئين من الدول الفقيرة، ونتيجة استخدام الدول الأقوى عسكريًا لقوتها في حل النزاعات الإقليمية، وتجاهلها لمواثيق الأمم المتحدة ومجلس الأمن.. كما حدث عندما تدخل حلف الأطلنطي لحل أزمة كوسوفا. ثم يضيف شميت عاملاً آخر من العوامل المسببة للصراعات المسلحة المحتملة هو احتمال أن تؤدي العولمة التكنولوجية والاقتصادية إلى تفجير حرب تجارية عالمية نتيجة «توحش الرأسمالية». وفي هذا السياق ينفرد شميت بموقف يبدو غريبًا وغير مألوف بين معظم السياسيين الأوروبيين، حين يقول إن الصراعات الناجمة عن التعصب الديني لن تكون أقل في الغرب المسيحي عنها في بعض أقطار العالم الإسلامي.. ومن ثم فقد تنبثق عنها منازعات دموية هنا وهناك بنفس الدرجة من العنف والتعصب.

وربما كان أكثر ما يهم سياسيًا أوروبيًا مثل شميت هو استمرار العلاقات الوثيقة بين أوروبا وأمريكا والمحافظة عليها من التآكل والخلافات. ولكنه يقدم للولايات المتحدة الأمريكية. ذلك الحليف القديم. صورة دولة عظمى تجمعت لديها على مر القرن الماضي كل أسباب القوة والتفوق، مقترنة بكل مظاهر الغرور والأنانية وغطرسة القوة، ليس فقط تجاه خصومها التقليديين مثل روسيا والصين ولكن أيضًا تجاه أوروبا.

ومن ثم فهو يتوقع نشوب أسباب للخلافات والتوتر بينها وبين روسيا والصين بل ومع أوروبا. ويُرجع ذلك التطور السلبي في علاقات أمريكا بالعالم، إلى عدم اكتراث معظم الجيل الحالي من السياسيين الأمريكيين بالسياسات الخارجية. ومنذ حققت أمريكا انتصارها على الاتحاد السوفيتي في الحرب الباردة، تنامى لدى الأمريكيين شعور بعدم الحاجة إلى الاهتمام بالعالم الخارجي. وساد نوع من الاكتفاء الذاتي والجهل بالسياسة الخارجية والتعالي بين شرائح المثقفين والمهنيين المرموقين من الكتاب وأساتذة الجامعة والمحامين ورجال الأعمال والبنوك والصناعيين. وقد عكس البيان الذي صدر عن قمة واشنطن في ربيع ١٩٩٩ عن «حلف الأطلنطي الجديد» تصور أمريكا لدورها في السيطرة على أوروبا وآسيا بعد الموافقة على توسيع حلف الأطلنطي حتى حدود روسيا.

ويتنبأ هيلموت شميت بنشوب صراعات في مناطق مثل الشرق الأوسط أو جنوبي آسيا أو أمريكا الوسطى، تتدخل أمريكا فيها عسكريًا وتسعى إلى توريط حلفائها الأوروبيين معها. وبالمثل في الحالات التي تطلق عليها أمريكا وصف الدول المارقة (العراق - كوريا الشمالية) والتي يلعب الإعلام الأمريكي دورًا خطيرًا في تسويقها.. وهو يرى أن الدول الأوروبية سوف تجد نفسها مضطرة حينئذ لوضع خط فاصل بين مصالحها الأمنية والدفاعية، وبين المصالح الأمريكية.. ولكن هذا لن يتحقق على المدى القصير.. إلا بعد أن يتولى المسئولية جيل جديد من السياسيين الأوروبيين يخلف هذا الجيل الذي قاد ثورة الطلبة في الستينيات والسبعينيات، أي بعد عام ٢٠٢٥، وبعد أن تنجح دول الاتحاد الأوروبي في تشكيل نظام دفاعي مستقل لا يعتمد على مظلة الدفاع الأمريكية.



غني عن البيان أن هيلموت شميت، لا يتوقع أن تستمر الهيمنة الأمريكية طويلاً بدون مقاومة من جانب الصين وروسيا، ولكنه يرى أن المشاكل والعوائق السياسية والتاريخية التي تتحدى الوحدة الأوروبية تبلغ درجة من التعقيد يصعب التنبؤ بها، وهو لا يتحمس كثيرًا للتوسع في قبول دول من أوروبا الشرقية بهذه السرعة. ويعارض معارضة قاطعة ضم تركيا، ولكنه يرى أن عنصر الثبات الوحيد في قيام واستمرار الوحدة الأوروبية سيظل رهنًا بوجود توافق عميق بين ألمانيا وفرنسا، بدونه قد ينهار البناء الأوروبي.

صورة العالم كما يراها شميت في القرن الواحد والعشرين، تختلف عما يتوقعه كثيرون. تتزحزح فيها مراكز القوة إلى آسيا بشكل خطير، حين تبرز على الجانب الآخر من المحيط الهادئ روسيا والصين والهند في مواجهة أمريكا، ويتضاءل الدور الأوروبي أو يبحث لنفسه عن مكان بين أمريكا وآسيا. أما نحن في الشرق الأوسط ودول العالم الثالث فسوف نظل مجرد ملعب خلفي لهذه القوى العظمى.. وربما لهذه الأسباب عمدت إسرائيل إلى تدعيم علاقاتها باللاعبين الثلاثة الجدد.. وتلك قصة أخرى!

سلامة أحمد سلامة

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 31 - August 2001

مجلة شهرية . العدد الواحد والثلاثون . السنة الثالثة . أغسطس ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات



محمد حسنين هيكل

إعادة أكتشاف أمريكا

الهوية : قضية جزائرية

محمد الميلى

رحلة مقدسة فى أرض مقدسة

هانى شكر الله

أضواء النجوم .. ونجوم الأضواء

محمود عوض

الجامعات المصرية إلى أين ؟

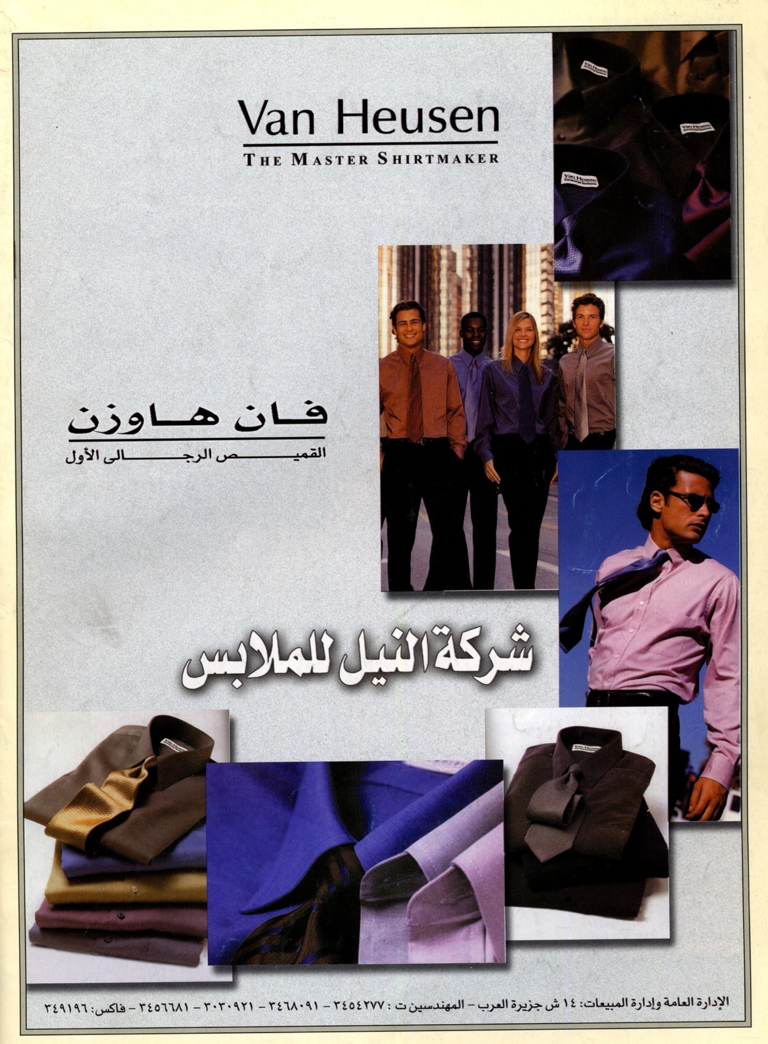
لبيب السباعى

سوبرمانات وماركات مسجلة!

محيى الدين اللباد

ليس بالمال ينهض الفكر العربى

سلامة أحمد سلامة


Van Heusen
THE MASTER SHIRTMAKER
فان هاوزن
القميص الرجالى الأول
شركة النيل للملابس
الإدارة العامة وإدارة المبيعات: ١٤ ش جزيرة العرب – المهندسين ت : ٣٤٥٤٢٧٧ – ٣٤٦٨٠٩١ – ٣٠٣٠٩٢١ – ٣٤٥٦٦٨١ – فاكس: ٣٤٩١٩٦

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد الواحد والثلاثون
أغسطس ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

❞ تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة ❝

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- الأنبا موسى.. الأسقف العام للشباب فى الكنيسة القبطية.
- ثائر معيطة.. كاتب سورى.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- سلمان أبوستة.. باحث فلسطينى.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- لبيب السباعى.. صحفى.
- محمد الميلى.. المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- محمد حسنين هيكل.. صحفى.
- محمود عوض.. صحفى.
- محيى الدين اللباد.. فنان ومصمم جرافيك.
- مصطفى إبراهيم فهمى.. أستاذ بالأكاديمية الطبية العسكرية.
- هانى شكرالله.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى ـ محمد حاكم ـ سعد الدين شحاتة

المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكياً ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهماً ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالاً ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهماً ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــة..

بن بركـــة..

نوفمــــبر ١٩٩٩

قبل حوالَى السنتين، وضمن سلسلة مقالات أثارت الكثيرَ من الجدلِ والقليلَ من الدهشة، كتب محمد حسنين هيكل فى «وجهات نظر» عن «المعلوم والمكتوم.. فى دور الملك الحسن وسياساته». يومها، ورغم المقابلة فى اللغة، بدا أن «المكتوم» وإن كان إعلانُه يُمَثِّلُ - بحكم طبائع الأشياء - خبرًا جديدًا، مهما كان تاريخ الواقعة، فإن النظرَ فى «المعلوم» قد يأتى - إذا صح اختيارُ الزاوية - بما هو أكثر من خبر. إذ إن «المعلومات» - بحكم المنطق وقواعد البيان - حين توضَعُ بجوار بعضها فى إطارٍ يجمعها.. وتحتَ ضوءٍ «كاشفٍ» لما بينها من علاقاتٍ وصِلاتٍ، وفى ترتيبٍ يكشفُ جوانبها، ويوضحُ ما تحتها وما بينها من مسافات تتباعد وتتقارب، تَحملُ بالضرورة وبهندسةِ ما بينها من خطوطٍ تتقاطعُ وتتواصلُ، «حقائقَ جديدة»، قد تبدو صادمةً أو «مفاجئة».



سلسلة المقالات التى نشرتها «وجهات نظر»، وتضمنها بعدَ ذلك الكتابُ الأول من إصدارات المجلة «كلام فى السياسة»، وضعت - ربما للمرة الأولى - أمام «القارئ العربى»؛ المتأنى والمهتم، مجموعةً من الحقائق والمعلومات الكفيلة باستكمالِ سطور ناقصة، وكشفِ أخرى مطموسة فى صفحات من التاريخ طوتها الأيامُ وتدافعُ الأحداث.. فضلا عن عدم الرغبة، وربما - القدرة - فى إمعان النظر.



فى مقال هيكل (نوفمبر ١٩٩٩) والذى كشف عن جوانب خافيةٍ ومثيرة فى علاقة الملك الراحل بإسرائيل واليهود، وعن محاولات الموساد الدءوب للوقيعة بين المغرب العربى ومشرقه الثائر.. وعن شخصية ولى العهد «الميكافيللى» الذى أصبح ملكًا و«أميرًا للمؤمنين».. وعن علاقاته بأفراد عائلته ورجال حكمه «موالين ومعارضة»، جاء الحديث عن «المهدى بن بركة» وكان وقتها معارضا يرأس التجمع الوطنى للقوى الشعبية فى المغرب. وحكى هيكل فى مقاله الكثيرَ مما سمعه «من بن بركة عن الحسن.. ومن الملك عن المُعارض، الذى كان يومًا مدرسًا له فى الرياضيات».

يحكى هيكل فى مقاله تفاصيل لقاء مع الحسن فى الدار البيضاء (سبتمبر ١٩٦٥) على هامش أول قمة عُقِدت فى المغرب. وكيف كان «بن بركة» الموضوع الرئيس لحديث الملك يومها. والذى حرص - محاولا انتقاء كلماته بعناية - على توضيح أن «المهدى كان شريكا فى مؤامرة انقلاب ضد النظام الملكى فى المغرب، وكانت أول خطوة فيه قتلى (الملك). زملاؤه فى المؤامرة هم البصرى (يقصد محمد البصرى قائد المقاومة المسلحة ضد القوات الفرنسية) واليوسفى (يقصد عبد الرحمن اليوسفى وهو آخر رئيس للوزراء اختاره المَلِك الحسن قبل وفاته).

والمثير - و تاريخ الحُكّام والملوكِ مليء بكثير من تلك «المصادفات» المثيرة - أنه لم تكد تمضى بعد هذا الحديث أسابيع إلا وكان المَلِك «الحسن» هو المُتَّهَم بقتل «المهدى بن بركة»، ولم يكن «المهدى بن بركة» هو المُتَّهَم بالتآمر على المَلِك «الحسن».



ويحكى هيكل فى مقاله هذا ماجرى وكيف كانت أول المفاجأة أن الذى قام بتوجيه أصبع الاتهام إلى المَلِك مباشرة هو رئيس الجمهورية الفرنسية، وقائد فرنسا الحرة، الجنرال «شارل ديجول». وقد وجد «ديجول» - والكلام لهيكل - أن اختطاف «المهدى بن بركة» من قلب باريس (شارع «سان جيرمان») وأمام واحد من أشهر معالمها (مطعم «ليب») وفى وضح النهار (فترة الغداء)، ثم استجوابه وتعذيبه وقتله بعد ذلك بحضور واشتراك وزير الداخلية المغربى «محمد أوفقير» - هو عدوان صارخ على هيبة الدولة فى فرنسا، وعلى القانون، فضلا عما فيه مما يتصل بالأخلاق وضوابط الممارسة السياسية فى عوالم مُتَحَضِّرة.

ثم إن الأمر إلى «أوفقير» كان مُباشِرًا من المَلِك. ثم إن المَلِك كان يتابع التنفيذ فى باريس خطوة بعد خطوة.

ويمضى هيكل فى روايته إلى التفاصيل. فيحكى كيف ثبت أن «المهدى بن بركة» استُدْرِج - أو أرْغِم - على ركوب سيارة .. تولى اثنان فيها تقييد حركة أسيرهم داخلها، ثم تحركت السيارة ذاهبة إلى بيت فى ضواحى باريس، وهناك وجد فى انتظاره وزير داخلية المغرب الرهيب وعددًا من أعوانه المغاربة والفرنسيين! وكانت بين «بن بركة» و«أوفقير» مواجهة بالكلام انتهت طعنا بحراب من حديد كان «أوفقير» يضعها فوق ألسنة النار فى مدفأة تتوسط الغرفة التى جرت فيها المواجهة، وحينما يُحمى الحديد ويحمر لونه باللهب المُتَوَهِّج على أطرافه كان «أوفقير» يبدأ فى توجيه طعناته إلى خصمه المُقَيد بالسلاسل تحت أقدامه.

ثم اختفت جثة المناضل القديم ولم يُعْثَر لها على أثر.(تقول آخر الروايات أنها نقلت إلى الرباط حيث أذيبت فى خزان من الحمض)

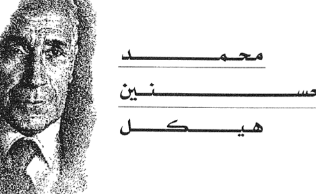
وأكثر من ذلك - يستطرد هيكل - فإن عميلا للبوليس - ضالعا فى العملية - اسمه «جورج فيجون» خاف (بعد اتضاح موقف الجنرال «ديجول») وطلب المثول أمام قاضى التحقيق فى باريس (القاضى «زولينجر») مُبْديا استعداده ليكون شاهد ملك يقول الحق، ولكن «جورج فيجون» قُتِل بالرصاص فى حَمّام بيته قبل أن يمْثُل أمام التحقيق، وتَبَيَّنَ أن الرجل سَجَّلَ سِرًا شهادته تَحَوُّطا. وكان أن آخرين من المشاركين فى عملية «بن بركة» آثروا أن يبدءوا بتسليم أنفسهم لقاضى التحقيق وهناك تدفقت اعترافاتهم بالتفصيل. وكان ذلك ما دعا «ديجول» إلى عقد اجتماع خاص لمجلس الوزراء الفرنسى برئاسته يوم ١٠ نوفمبر ١٩٦٥، ليعلن بعده وبنفسه أن فرنسا تعتبر مَلِك المغرب مسئولا مباشرةً عن انتهاك قانون الإنسانية، وقانون فرنسا، وحُرْمة الأراضى الفرنسية أيضًا - بالتحريض على جريمة قتل على ترابها وبالتواطؤ مع عناصر من الأمن الفرنسى باعت ضميرها وواجبها»!



انتهت رواية هيكل فى «وجهات نظر» (نوفمبر ١٩٩٩).. ولكن رواية «بن بركة» لم تنته. فقبل أسابيع، وفى تطور أثار ضجة إعلامية وسياسية.. وقانونية، نشرت «اللوموند» الفرنسية و«الجورنال» المغربية الرواية ذاتها. هذه المرة على لسان «شاهدٍ» قرر - لأسبابٍ يقدرها - أن يتكلم. وفى التاريخ.. مثلما فى القضايا؛ إذا تحدث شاهدُ إثباتٍ، جاء المتهمون بشهود نفى.. ولكن فى محكمةِ التاريخ.. لايصدرُ الحكم أبدًا.. خاصةً إذا كانت القضية.. عربية.

وجهات نظر





إعادة اكتشاف



١ أمريكا
عند النظرة الأولى عبر المحيط

■■ هذه هى المرة التاسعة والعشرون التى أعبُر فيها المحيط قاصداً العالَم الجديد، وهو لم يَعُد الآن جديداً، وإن ظلَّ - بعد ستَّة قرون - فى حاجة إلى الاكتشاف أو إعادة الاكتشاف حتى يُمكن فهمه، لأن أمريكا الآن لم تَعُد فقط تلك القارة المليئة بالفُرَص، أو المعَبَّأة بالقوة، أو المصَمِّمة على مشروع يَرث الإمبراطوريات القديمة - وإنما لأن الإمبراطورية الأمريكية أصبحت ظاهرة غير مَسبوقة فى قصة الإنسانية، فهى حاضرة فى كل قارة من قارات الدنيا - ضاغطة على كل إقليم - مَحشورة فى كل بَلَد - مُندَسَّة فى كل بيت - وتلك أحوال تَدعو بالتأكيد إلى القلق لأن العالَم لم يَعرف من قبل دَولة «مُتَداخلة» إلى هذا الحَدُ فى حياة ومُستَقبَل غيرها من الدُول. وقد عَرَف العالَم من قبل دُوَلاً «مُتَدَخِّلة»، لكن «التَداخُل» الأمريكى فى حياة البَشَريَّة مع بداية القرن الواحد والعشرين (الألفية الثالثة الميلادية) - تَجربة طارئة تَستَوجِب «القلق» - وتَستَدعى التَنَبُّهَ - فى مُحاوَلة للفهم هى الآن «ضرورية» وعاجلة!

....

....

Colossus: How the Corporation Changed America

العملاق.. كيف غيرت الشركة أمريكا

Jack Beatty (echtor) Bantam Doubleday Dell Pub, 2001, 506 pp.

ومن المصادَفات أن هذا العُبور التاسع والعشرين للمحيط إلى أمريكا تَوافقَ بالنسبة لى مع مَوعد العُبور الأول، وبفارق خمسين سنة بالضَبط - فقد كانت أول سَفرة قَصَدتُ فيها «العالَم الجديد» سنة ١٩٥١ - والآن ٢٠٠١ - نصف قرن بالضبط!

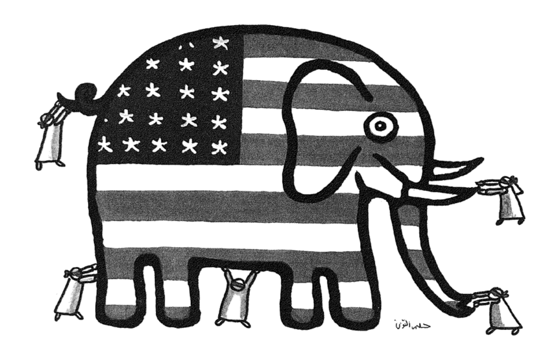
وفى ذَلك الزمَن قبل خمسين سنة - بَدَت لى الولايات المتحدة الأمريكية قوة طالعة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، تُوشك أن تَدخل الساحة الدَولية لاعباً كبيراً - لكَنه لم يَخطر ببالى فى ذلك الوقت أن الولايات المتحدة - بعد خمسين سنة - سوف تُصبح اللاعب الرئيسى - وربما الوحيد حتى إشعار لاحِقَ - وأن تأثيرها على الدُنيا، وعلى المنطقة الَتى تَعنينى أكثر من غيرها فى هذه الدُنيا، سوف يَبلغ هذا المدى الذى نراه، ونحِسُ به، ونتأثر منه إلى هذه الدَرَجة.

وعندما قَصَدتُ أول مرة إلى أمريكا كانت الرحلة من القاهرة إلى نيويورك تستغرق ستاً وثلاثين ساعة فى الجَو: من القاهرة إلى أثينا محطة - ومن أثينا إلى روما محطة ثانية - ومن روما إلى لندن محطة ثالثة - ومن لندن إلى مطار «جاندر» فى أيرلندا محطة رابعة - ومن «جاندر» إلى «ريكيجافيك» فى أيسلندا محطة خامسة - ومن «ريكيجافيك» يَنزِلق الخط الملاحى بالطائرة إلى «جرينلاند»، ومنها على شواطئ «ماينز» وحتى نيويورك - وكذلك كانت هناك دائماً ضرورة لقضاء ليلة مَبيت فى مُنتَصَف الطريق، والغالب فى باريس أو لندن.

أى أنها - بالطَيَران، ومحطات الوقوف، وليلة المبيت - ثلاثة أيام إلى نيويورك. ومع ذلك بَدَت تلك أيامها مُعجزة من المعجزات، قياساً على ما كان قبلها، وما ظَلَّ حتى الحرب العالمية الثانية، حين كان السَفر بالبواخر أربعة أسابيع - شهر كامل على أقل تقدير - من الإسكندرية إلى نيويورك!

وربما أن طول المسافات على هذا النحو - حتى بالطائرة ثلاثة أيام - كان يُوحى بأن أمريكا بعيدة، لكن الزمَن راحَ يَتَلاشى بإيقاع تضطرب له الحواس، فقد عَبَرتُ المحيط فى أوائل الثمانينات خمس مرات بطائرة «الكونكورد» فى وقت لا يزيد على ثلاث ساعات واثنتى عشرة دقيقة كل مرة، مُختَرقاً خمس مناطق زمنية فى هذه الساعات الثلاث وبضع دقائق، ثم تَوَقَّفتُ عن استعمال «الكونكورد» قانعاً بالنفاثات العادية تَعبُر المحيط فى ست ساعات: ساعة أو أكثر قليلاً لكل منطقة زَمَنية، وهو عبء وَجَدتُه أخَف على التَوازن البَدَنى والنَفسى!

وكنت منذ أواخر الثمانينات وحتى أواخر التسعينات قد امتنعت عن السفر إلى أمريكا، لأن زيارتها أصبَحَت بالنسبة لى - على الأقل - عبئاً على الأعصاب تَتَزايَد وَطأته، فضلاً عن أنه لم يَعُد هناك إلحاح على ضرورته. وفى وقت من الأوقات كان أى مصرى أو عَرَبى مُهتَم بالسياسة يَذهَب إلى واشنطن ووراءه سَنَد سياسى قوى - حتى ولو كان السَنَد نوعاً من الأساطير (والأساطير حقائق سياسية إذا قَبِلَها المعنيون بها، ومع ذلك فإن فكرة وحَرَكة القومية العَرَبية لم تكن أسطورة) - وكذلك فقد كان فى مَقدور أى مُهتَم بالسياسة - مصرياً أو عَرَبياً - أن يَقصد إلى نيويورك أو واشنطن مُعَزَّزاً بنوع من المصداقية فيما يقول به أو يُحاور أو حتى يَتَفاوَض عليه. لكن الصورة راحَت تَتَغَيَّر بما جرى للعالم العَرَبى وفيه، والنتيجة أن



أمـــــريكــــــا

الأوضاع العَرَبية فى الولايات المتحدة أصبَحَت مَكشوفة - بل وعارية. وكان المزعج أن السياسة العَرَبية نفسها هى التى تَكَفَّلَت أوَّلاً بنزع سلاحها، ثم تَطوَّعَت ثانياً بنزع مَلابسها - ثم إنها - ثالثاً - فرَّطَت فى ثقتها بنفسها وما يُلازم هذه الثقة من عِزَّة الكبرياء.

وهكذا أصبَحتُ أجد عبور المحيط فى ثلاثة أيام أو ثلاث ساعات عبئاً مَعنوياً ونفسياً لا حاجة لى به. وتَوَقَّفتُ عن السفر إلى أمريكا. ورغم أن «فرانك ويزنر» سفير الولايات المتحدة الأسبق فى مصر لم يَكُف عن تذكيرى بين وقت وآخر أن «الولايات المتحدة أكبر وأخطر من أن يُقاطعها أحد» - فقد ظللتُ لأكثر من عَشر سنوات مُكتفياً بالشاطئ الشرقى للمحيط الأطلسى - لا أفكر فى غربه!

ثم كان أن وَجَدتُ نفسى أخيراً - ولأسباب طارئة - عابراً للمحيط ثلاث مرات مُتوالية، عائداً مرة أخرى وأخرى وأخرى إلى أمريكا مُسَلِّماً مع «فرانك ويزنر» بأن «الولايات المتحدة أكبر وأخطر من أن يُقاطعها أحد».

□

وهذه المرة الأخيرة - وهى العُبور التاسع والعشرون إلى أمريكا - خَطَرَ ببالى أن ذلك البَلَد الذى لا يستطيع - لحُسن الحظ، أو لسوء الحظ - أن يُقاطِعَه أحد يَحتاج إلى استكشاف جديد بعد مرور خمسين سنة على أول عُبور إليه سنة ١٩٥١.

....

....

[والشاهد أن إعادة استكشاف الأشياء والأفكار والظروف - وحتى الأمزجة - عملية ضرورية لا بُد أن يقوم بها الناس ما بين الوقت والآخر - نوعاً من الحساب والمراجعة والتَّثبُّت بالحَذف والإضافة حيال أزمنة مُتَغَيِّرة - وإلا فإن هؤلاء قد يَتَنَبَّهون ذات يوم وإذا الحَقائق قد غافَلَتهم وسافرَت إلى المستقبل، وتَرَكَتهم حيث تَوَقَّفوا بظن - أو وَهم - أنهم «أدرَكوا» و«تَيَقَّنوا» بما لم تَعُد بَعده زيادة لمستزيد.]

....

....

وربما اعتَرَفتُ أننى فى ذلك العُبور الأوَّل للمحيط - السفرة الأولى للولايات المتحدة الأمريكية - سنة ١٩٥١ - لم أرَتِّب نفسى بما فيه الكفاية لإعادة اكتشاف العالَم الجديد!

● وعلى نحو ما فقد تأثرتُ بالصورة الشائعة وقتها عن الولايات المتحدة الأمريكية، وانطباعها أن أمريكا بَلَد فادح الغنى، وهو غنى مفاجئ لم تُرَوِّضه ثقافة مَتأصِّلة، ونَتيجة لذلك فإن هذا البَلَد قوة هائلة لكنها ساذجة - لم تَصل إليها خبرة وحكمة القارات القديمة. وكذلك فهو بَلَد سَهل وبلا عُقَد كما تُعَبِّر عنه أفلام «هوليوود» - على عهد براءتها الأولى، فهُم جميعاً رجال على رَسم النجوم أمثال «كلارك جيبل» و«روبرت تيلور» و«جارى كوبر»، وهُن نساء على رَسم «جريتا جاربو» و«نورما شيرر» و«بيتى دافيز»، وأما الأطفال فكلهم «ميكى رونى» (صَبى مَرح) - أو «شيرلى تِمبل» (طفلة جميلة).

وبرغم هذه الصورة البَرَّاقة فقد كان هناك كلام كثير خصوصاً فى أوروبا مُؤدَّاه أن المَخفى يَختلف عن المعلَن، وربما من هنا أننى فى تلك السفرة الأولى إلى الولايات المتحدة - قبل نصف قَرن - وَضَعتُ فى حقيبتى عدَّة مراجع لا بد أنها كانت تشير إلى شكوك ساوَرَتنى عن العلاقة بين المخفِى والمُعلَن فى الشأن الأمريكى.

وأتذكر أن المرجع الرئيسى الذى رُحتُ أطالع فيه طول سفرتى الأولى عبر المحيط - كتابٌ ذاعَ شانه وقتها للكاتب الإنجليزى الشهير «دوجلاس ريد» وكان عنوانه «بعيداً وواسعاً» Far and Wide. وما زلتُ أذكر فصل البداية فى الكتاب، ومُلَخَّصه ما لاحظه «ريد» من أن «كل الأمريكيين يَجرون أو يُهَرولون، واستنتاجه أن بعضهم يُحاول الهَرَب من ماضٍ يَخاف أن يَلحقه - وبعضهم الآخر يُحاولُ الإمساك بفُرصة يَخاف أن لا يَلحَقها!»

وعندما أراجع ما نَشرتُه عن تلك السفرة الأولى إلى أمريكا - فى مجلة «آخر ساعة» - وكنت أرأس تحريرها فى ذلك الوقت - فإنى أستطيع الآن أن أتَمَثل الصورة التى رأيتُ عليها أمريكا وَقتئذ:

● كتبت تحقيقاً عن الرأسمالية الكبيرة التى تَحكم أمريكا، تَكَرَّرَ فيه استشهادى بكتاب «ستين عائلة تَحكُم أمريكا»، وكان ذلك كتاباً أوصانى بقراءته الدكتور «محمود فوزى» مندوب مصر فى مجلس الأمن (وقد أصبح الدكتور «فوزى» فيما بعد وزيراً للخارجية، ورئيساً للوزراء، ونائباً لرئيس الجمهورية).

● وتحقيقا ثانيا عن «التمييز العُنصُرى» ضدَّ السود فى أمريكا، وقد بَنَيتُه على زيارة قُمتُ بها إلى الجنوب الأمريكى، وإلى ولاية «لويزيانا» حتى عاصمتها «نيو أورليانز».

● ثم تحقيقا ثالثا وأخيرا عن «الجريمة المنظمة فى أمريكا»، وكان مَوضوعه ذلك الدور الذى تقوم به عصابات «المافيا» فى الحياة الأمريكية: فى الاقتصاد والمال - وفى السياسة بما فيها انتخابات الرئاسة والكونجرس بمجلسيه - وحتى فى مَجالات الفنون بما فيها عاصمة السينما فى «هوليوود».

ومع أن تلك كانت - ولا زالت - عَناصر مُهِمَّة فى الحياة الأمريكية، فإننى فيما بعد أدرَكتُ أنها جُزءٌ من الحقيقة الأمريكية، وليست كلها، وأن التركيز عليها وحدها - فى تلك السفرة الأولى إلى أمريكا - كان قصوراً - لعل بعضه جُموح شباب!

□

وربما أن جزءاً من هذا الجموح فى ذلك الوقت - يَرجع فى بعض منه إلى تأثير صديق كبير كان بالنسبة لى أيامها مزيجاً من «مُرشد ومُعَلِّم»، وأقصد الدكتور «محمود عزمى»، وهو واحد من أهَمِّ العقول المصرية المفَكِّرة فى العشرينات والثلاثينات من ذلك القرن العشرين، وكان رائداً من رُوَّاد الكتابة الصحفية المتَعَمِّقة فى قضايا الشرعية والديمقراطية والتجديد. وكان منذ عاد من بعثته إلى «السوربون» (فى باريس) لتدريس القانون فى الجامعة المصرية الوليدة (ذلك الوقت) -



قد انجذب إلى الحياة العامة، وشارَك فى الحوار النشيط الذى دار طوال العشرينات حول الخلافة، والدستور، وحقوق المرأة .. وغيرها!

وكنت قد تَعَرَّفتُ على الدكتور «محمود عزمى» أواخر الأربعينات، وأصبَحتُ مَدعُواً كل يوم خميس إذا كنتُ فى مصر إلى بيته - فى حدائق القُبَّة - حيث كان يعيش مع زوجته الروسية. وكان بيتهما حافلاً بثلاثة مواضع للجَمال قريبة إلى العَقل والقلب: كُتُب التراث العالمى - والموسيقى الكلاسيكية - وتلك الساعات المليئة بالتأمُّل والسَكينة أمام مدفأة تَتَحاوَر فيها ألسنة النار فى ليالى الشتاء الباردة.

ثم كان أن لقيتُ الدكتور «محمود عَزمى» فى اليوم التالى لوصولى إلى نيويورك (سنة ١٩٥١) وهو وقتها عُضوٌ فى الوفد المصرى لدى الأمم المتحدة - ثم وَجَدتُه ناقداً إلى دَرَجة النقمة على أمريكا وكل ما فيها، والسبب (كذلك عَرَفتُ منه ثم فَهِمتُ أكثر فيما بعد) أنه رغم عُضويَّته فى الوفد المصرى إلى الأمم المتحدة - رَفَضَت السُلطات الأمريكية طَلَب تأشيرة دخول لزوجته (لأنها روسية - شيوعية - وكانت تلك - سنة ١٩٥١ - سَطوة السناتور «مكارثى» الشهير - الذى نُسبَت إليه فترة «المكارثية»، وهى اتهام ومُطاردة كل شبهة فى تَحَرُّر أو يَسار، واعتبارها انتماء للشيوعية يستَوجِب البَتر والتطهير).

ولم تكن «بوشكا» (كما كان الدكتور «عزمى» يُدَلِّل زوجته) شيوعية - بل على العكس فقد كانت فى الواقع روسيَّة بيضاء من أسرة هاجَرَت إلى باريس بعد «الثورة البلشفية»، والتقت بزَوجها وهى تَدرس القانون - مثله - فى «السوربون».

(والغريب أن القصر الملَكى - من أيام الملك «فؤاد» وحتى أيام ابنه الملك «فاروق» - كان يَعتَبر «بوشكا» شيوعية - وكذلك فإن الدكتور «عزمى» وَجَدَ سَقفاً على فُرَصه فى الحياة السياسية المصرية لم يَستَطع تَجاوزه.)

لكن «المكارثية» السائدة والحاكمة فى أمريكا وقتها (وكذلك قُصور الشرق الملَكية) لم تُفَرِّق بين أن تكون «بوشكا» روسيَّة أو «بلشفيَّة» - فقد كانت الواحدة مَوصولة بالأخرىَ زَمَن الاتحاد السوفيتى!

وعند وصولى إلى نيويورك عَرَفتُ أن الدكتور «محمود عزمى» يسكن فندق «الباربازون بلازا» المطل على «سنترال بارك». واتصلت به، والتقينا. وفى لقائنا مشينا من فندقه فى الشارع السابع إلى ميدان «التيمس» الشهير. وطوال الطريق كان الدكتور «عزمى» ساخطاً على كل ما يرى!

وأتذكر عند وصولنا إلى الميدان الشهير أن الدكتور «محمود عزمى» تَوَقَّف أمام محل لربطات العُنق وقال ما مُؤَدّاه «أن واجهة المحل وهى تَعرض العشرات من رَبَطات العُنق صورة ناطقة بالذوق الأمريكى - فى تَعبيره المباشر عن حال الثقافة الأمريكية».

وفى ذلك الوقت كانت ربطات العُنق الأمريكية صاخبة فى الألوان والأشكال والرسوم إلى دَرَجة تثير الاندهاش، وما هو أكثر منه أحياناً. وفى تلك الوَقفة أمام محل ربطات العُنق فى ميدان «التيمس» كان الدكتور «عزمى» يُشير إلى ربطة عُنق بالذات صفراء اللون، فى وسطها رسم عَين سوداء فقاها دَبُّوس حاد فسال بطولها نُقَطاً حمراء كأنها قَطرات دَم. ثم مَضى يقول بمزيج من السُخرية والاشمئزاز: «تَفَضَّل يا سَيِّدى - هذه هى القيَم الجَمالية للحَضارة الجديدة التى يَتَعَيَّن علينا أن نَتَعامَل معها». ثم يُضيف الدكتور «عَزمى» بلهجَته المشهورة وقتها: «ها الله ها الله يا سِيدى على الحضارة الجديدة»!

□

ومن الواضح لى - بعد زمَن طويل - أن الدكتور «محمود عزمى» كان له تأثير من نوع ما على نظرتى إلى الولايات المتحدة - ذلك أننى بعد أسبوع فى نيويورك قصدتُ إلى «ديترُويْت» لرؤية تلك القلعة الصناعية الكبرى (للسيارات)، وكان من حظى بتَوصية من الوفد المصرى الدائم إلى الأمم المتحدة - أننى وَجَدتُ نفسى ضيفاً على مائدة غداء مع «هنرى فورد» (الثانى)، وهو وقتها رئيس مجلس إدارة شركة «فورد» للسيارات. ويومها كنا خمسة ضيوف على مائدَته من جنسيات مُختلفة.

ومساء نفس اليوم كتبتُ من «ديترُويْت» خطاباً إلى الدكتور «عزمى» فى نيويورك» أصف له وَقائع الغداء مع «هنرى فورد» (الثانى) قائلاً له:

«أنت فى نيويورك تشكو مما تَراه حولك من تَعبيرات الثقافة الأمريكية - فما بالك بما هو مَوجود هنا فى الداخل الأمريكى وما عِشتُه بنفسى اليوم فى «ديترُويْت» على مائدة «هنرى فورد».

تَصَوَّر ثلاث مُلاحظات قالها الرجُل فى ظرف نصف ساعة - وتأمَّل معانيها (الحضارية!):

ــ جلسنا مع الرجُل بضع دقائق قبل الغداء، ثم دعانا إلى المائدة بقوله: «أظن أننا فى حاجة إلى التَزَوُّد بالوقود»!

ــ وكان الطبَق الأول على المائدة حساء («كونسومِيه») ساخناً جداً، وأراد مضيفنا أن يشرب بسَرعة، وكان لابد من تَبريد الحساء، وهكذا أخذ «فورد» من وعاء فى منتَصف المائدة قطعة ثلج وَضَعَها فى طَبَق الحِساء قائلاً: «هذا أحسَن». وراح يشرب.

ــ وحين فَرَغنا من الغداء والقَهوة، وحان وقت انصرافنا، أشار لنا أن الحَمَّام مَوجود إذا رأى أحدنا أن يَغسل يديه أو أراد شيئاً آخر، لكن إشارته إلى الحَمَّام وَرَدَت بأسلوب «جِلف» لأنه قال لنا: «إن عادم الطاقة لا بد أن يَجِدَ لنفسه مَخرَجاً»!»

ثم قلتُ للدكتور «عزمى» فى نفس الخطاب: «تَصَوَّر كل هذا الفساد فى الذوق والتعبير فى نصف ساعة»!

□

هكذا كانت نظرتى الأولى على الولايات المتحدة الأمريكية.

وأحسب - بأثر رَجعى - أنها كانت نظرة مشوبة إما بنوع من العَجَلة سارَعَت إلى اتخاذ موقف دون أن يكون لديها ما يكفى من المعرفة - أو أنها كانت مُنحازة مُبكِّراً مُتَأثرة فى ذلك بدَواع غير مَوضوعية. لكنه فى تلك الأيام كان يُطمئننى أن شعوراً من الحساسية إزاء الأمريكان يَتَّسع - حتى فى أوروبا - فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. وكان فى إنجلترا على سبيل المثال تَعبير ذائع يقول «إن العيب فى الأمريكان .. أن لديهم أكثر من اللازم فى الطعام - وأكثر من اللازم فى الملبَس - وأكثر من اللازم فى الجنس - وأكثر من اللازم فى وُجودِهم هنا» (أى فى إنجلترا، وفى أوروبا بعُموم).

وكان ذلك يُقال فى إنجلترا وفى أوروبا، وكان الرَدُّ الأمريكى عليه أنه الحقد والحَسَد لأن أوروبا التى ظَنَّت نفسها - بضرائب الدَم وتَكاليف الدَمار - صانعة النصر فى الحرب العالمية الثانية - عَرَفت بعد انتهاء المعارك أن الموارد الأمريكية هى صانعة النصر الحقيقى، ثم إن الولايات المتحدة خَرَجَت من وَسط العاصفة مالكة لأهم ثروات العالَم: نصف ذهَبه فى خزائنها دَخَلَ قلعة «فورث نوكس»، وثلاثة أرباع بتروله امتياز تمسك عُقوده فى يَدها، ومائة فى المائة من قوتَه النووية فى ترسانتها.

وكذلك فهو الحِقد والحَسَد من عالَم قديم - نحو عالَم جَديد.

ولم تكن أكثر المواقع حساسية تجاه الأمريكان أنهم الأغنى، أو الأقوى، أو الأوفر غذاء وكساء - وإنما كان مَوضع الوَجَع الحقيقى أن تَواجُدَهم وظهورهم «هنا» (فى أوروبا خصوصاً) - بَدا وُجوداً جاء ليُقيم ويَبقى!

وهنا كان الأمر يختلف هذه المرة فى المجىء الأمريكى الأول إلى أوروبا أثناء الحَرب العالمية الأولى.

فأمريكا التى شارَكَت فى تلك الحَرب - وادَّعت أيضاً أن مَواردها صَنَعَت النصر - لم تَلبَث أن سَحَبَت قواتها عبر المحيط من حيث أتَت، ولعله إحساسها أن الإمبراطوريات الأوروبية التقليدية (بريطانيا وفرنسا) ما زالت مُتَماسكة بما فيه الكفاية - وبالتالى فإزاحَتها صَعبة - وإرثها مؤجلا بَعد!

وأما هذه المرة، بعد الحرب العالمية الثانية - فإن القوات الأمريكية التى شارَكَت فى الحرب لم تَعُد من حيث أتت، بل بَقيَت فى أوروبا، وكانت الإشارات واضحة، وأوَّلها أن أمريكا أصبَحَت على يقين من أن الإمبراطوريات الأوروبية التقليدية لم تَعُد تستطيع أن تُحافظ على أمن دَولى أو استقرار.

وفوق ذلك، وهو الأخطر، فإن الإمبراطوريات الأوروبية التقليدية نفسها - ذلك الوقت - راوَدَها خَوفٌ من انسحاب أمريكى يَعود إلى الشاطئ الغربى للمحيط الأطلسى، ويَتركها وحيدة فى القارة الأوروبية أمام جحافل الجيوش الروسية التى زَحَفَت من الشرق إلى ألمانيا فى المعركة الأخيرة ضِدَّ «هتلر». وهذه الجَحافل الروسيَّة لم تجئ إلى الغرب إعصار نار فقط، وإنما هى تَحمل وراء إعصار النار نظرية اجتماعية لها تلك «اللحظة التاريخية» فِعل حريق - وهى الشيوعية!

هكذا كانت أمريكا تريد أن تَبقى فى أوروبا - ولم تَكُن تُدارى فيما تُريد.

ثم إن أوروبا بدَورها كانت تَخشى أن تَبتَعد أمريكا كما فَعَلَت مرة من قبل. وعلى أى حالَ فقد كانت لدى الأمبراطوريات الأوروبية بَقايا ثِقة بالنفس جَعَلتها تَتَصَوَّر أن زمانها فيه عمِر - وأنها ما زالَت قُوَى كبرى مهابة وليست إرثاً ضخماً يجرى حَصره استعدادا لإجراءات نقل ملكِيَّته!

....

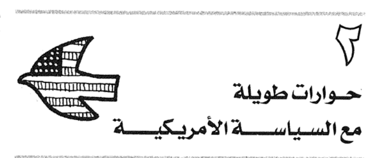
....

وهكذا فإن لقائى الأول السريع مع الولايات المتحدة أخَذه جُموح الشباب - وتأثرَ أيضاً بما شاع وقتها فى أوروبا - ومنها إلى غيرها فى العالَم - ثم إنه استعار فى بعض مَواقفه نَظَّارة صَديق!

على أن التجارب تُعَلِّم الناس أن الحقيقة أعقَد من نظرة أولى - وأكبر من انطباع يشيع فى زمَن بعينه، له أحواله ومناخه .. وأخطر من مأثورات تَنتَشر حتى وإن كان فيها الكثير من الصِدق، والحِكمة المختَزَلة.

الإمبراطورية الأمريكية أصبحت ظاهرة غير مسبوقة فى قصة الإنسانية، فهى حاضرة فى كل قارة من قارات الدنيا. ضاغطة على كل إقليم. محشورة فى كل بلد. مندسة فى كل بيت. وتلك أحوال تدعو بالتأكيد إلى القلق لأن العالم لم يعرف من قبل دولة «متداخلة» إلى هذا الحد فى حياة ومستقبل غيرها من الدول

إذا كان مطلوبا إخلاء الفضاء المفتوح
من أية عوائق. ومن أية دعاوى سابقة على الادعاء بملكيته
بصرف النظر عن أية حقوق سابقة تاريخية، أو إنسانية، أو أخلاقية،
أو قانونية. فإن السبيل إلى ذلك هو القوة،
وقوة السلاح، وقوة السلاح وحدها



٢ حوارات طويلة مع السياسة الأمريكية

■■ لم يَكد يَمُر عام واحد منذ عَبَرتُ المحيط غرباً لأول مرة - سائحاً أكثر منى دارساً، ومُتَفرِّجاً أكثر منى مَشغولاً - حتى وَجَدتُ نفسى طرفاً نشيطاً فى جَدَل سياسى طويل ومُعَقَّد مع السياسة الأمريكية.

ففى يوليو سنة ١٩٥٢ - بعد عام واحد بالضبط من النظرة الأولى على أمريكا - قامت الثورة فى مصر، وكان الخصم الخارجى الطبيعى لهذه الثورة هو بريطانيا (التى تَحتَل مصر)، وفرنسا (التى تَحتَل شمال أفريقيا). وفى عملية الفرز الضرورية للأوضاع الدولية - ذلك الوقت - فقد بَدا أنه إذا أرادَ النظام الجديد فى مصر طَرَفاً عالمياً كبيراً يُوازن القوى الإمبراطورية المتَمَسِّكة بمواقعها - فليس أمامه غير بَديلين: الولايات المتحدة الأمريكية وهى مُنافس ظاهر يَطلُب إرث الإمبراطوريات القديمة - والاتحاد السوفيتى وهو عَدُوٌّ زاحفٌ يَطلُب نفس الشىء وإن بوسائل مختلفة.

وكان البديل السوفيتى فى ذلك الوقت مُستَبعَداً لأسباب كثيرة - عقائدية وسياسية وثقافية وحتى جغرافية - ومن ثم كان البديل الأمريكى هو الخيار المعقول، وربما زَكَّاه أن حساسية الإمبراطوريات القديمة تجاه الولايات المتحدة بَدَت عاملاً مُساعداً، أو يمكن أن يكون مُساعداً.

وبصَداقة خاصَة مع «جمال عبد الناصر» نَشَأت وتَوَثقَت عُراها تلك الأيام (وما زالت) - وَجَدتُ نفسى فى صميم سياساته، خصوصاً وهى وقتها (وما زالت) شواغل الوَطن وهُمومه!

ثم كان أن حَضَرتُ مُحاولته الأولى فى مُقاربة أمريكا وتشجيعها على دور أقبَلَت هى أيضاً عليه بحقائق الأشياء فى الشرق الأوسط، وكان الأمَل - تُغَذيه تَصَوُّرات مثالية عن «دَولة كبرى» لم تَتَوَرَّط بعد فى سياسات إمبراطورية - أن الولايات المتحدة أقرب من غيرها إلى فهم تَطَلُّعات الشعوب العَرَبية (والآسيوية والأفريقية) - والإحساس بأشواقها المشروعة إلى الحُرِّية فى عالَم يجرى بناؤه الآن على أساس مبادئ وميثاق الأمم المتحدة.

وكذلك حَضَرتُ لقاءات «جمال عبد الناصر» (وعَدَد من أعضاء مجلس قيادة الثورة وقتها) مع السفير الأمريكى فى مصر تلك الأيام («جيفرسون كافرى»). وكان «كافرى» (الذى عَرَفتُه قبلها بظروف العَمَل الصَحَفى) - واجهة لا تُعَبِّر بدِقَّة عن الشخصية الأمريكية، فالرجُل أصلاً من عُنصر «أنجلوساكسونى» - تَمتَلك أسرته أرضاً شاسعة فى الجنوب الأمريكى من قبل الحرب الأهلية، وكان عَمَله الطويل سفيراً لبلاده فى باريس قد جَعَلَه - إلى جانب أصل «أنجلوساكسونى» - أقرب إلى «جنتلمان» من اسكتلندا منه إلى راعى بَقَر من تكساس - أو من لويزيانا!

وفى تلك الأيام (سبتمبر ١٩٥٢) زارَ مصر نائب وزير الدفاع الأمريكى «ويليام فوستر»، وكان ذلك أعلى مستوى بَعَثت به الولايات المتحدة إلى مصر فى حينه. وتصادف مَجيئه مع بداية المفاوضات المصرية - البريطانية فى طلب الجلاء عن مصر، وكان ذلك شاغِل الوطنية المصرية الأول والأكبر. ومع الرغبة المشتركة (مصرية وأمريكية) فى إقامة علاقات ود من نوع جديد ومُستوى أرقى - فإن مصر سَألَت، وكان السؤال على عَشاء أقيم لنائب وزير الدفاع الأمريكى عن إمكانية شِراء سلاح أمريكى للجيش المصرى. وبَدا الزائر فى رَدِّه مُستَعداً لقبول الطلب، وفى بعض تعليقاته مُتَحَمِّساً. ومع أن السفير «كافرى» الذى كان اللقاء على العَشاء فى بيته - بدا مُتَحَفِّظاً - فإن الحضور جميعاً، وأوَّلهم «جمال عبد الناصر»، اعتبروا أن «حماسة» نائب وزير الدفاع الأمريكى هى الجَواب، وأن ما بدا من تَحَفُّظ السفير الأمريكى هو جُملة اعتراضية داعيها التَحَوُّط الدبلوماسى الزائد لدى البيروقراطية فى أى بَلَد فى العالَم!

وكان «كافرى» - كما أظهَرَت التجارب - على حق. وكان على حق أكثر من مرة:

— مرة لأنه كان يعرف مسبقاً أن كلمة نائب وزير الدفاع لا تُمَثل ارتباطا أكيداً لحكومته (لأنه يتكلم اجتماعيا على عشاء فى بيت سفير لبلاده بعد أن احتسى كاساً من الويسكى، وشَدَّ أنفاساً من سيجار فاخر - كذلك كان تعبير «كافرى» بالنص فيما بعد).

— ومرة ثانية لأن فترة سبتمبر ١٩٥٢ والشهور التالية لها فترة انتخابات رئاسة أمريكية، والإدارة القائمة التى يُمَثلها «ويليام فوستر» الضيف الزائر - وهى إدارة الرئيس «هارى ترومان» - لم يَبق لها فى السُلطة غير ثلاثة شهور انتقالية، والكل واثِق مسبقاً أن الجنرال «دوايت أيزنهاور» هو الفائز - أى الرئيس القادم - بعد الانتخابات فى نوفمبر ١٩٥٢.

— ومرة ثالثة لأن «كافرى» كان يعلم أن الولايات المتحدة لن تَتَطوَّع لمصر بأى شىء مُقَدَّماً - دُفعة على الحساب - خصوصاً من السلاح. فهى فى تقديره (وهو صحيح) تُفَضِّل أن تَتَفاوَض وتُساوم مع حليفها البريطانى (بصَرف النظر عن الهواجس والشكوك) - ثم إن الولايات المتحدة إذا أعطت شيئاً لمصر فلن تُعطيها سلاحاً يُمكن أن يُستَخدَم ضِدَّ إسرائيل.

— ومرة رابعة لأن «كافرى» وهو يعرف سياسة بلاده مُتأكِّد أنها لن تُعطى إلا بقدر ما تاخذ أوَّلاً - فإذا كانت مصر تريد شيئاً فعليها أن تَدفع مُقَدَّم ثمَنه، ولأن أمريكا لا تبحث عن «عَربون» مالى من مصر وإنما تبحث عن «عربون» سياسى وإستراتيجى - إذن فليست هناك صفقة مُحتَمَلة فى القريب العاجل - وربما بَعده لأن مصر المطالِبة بجلاء الإنجليز (الإمبراطورية القديمة) عنها ليست على استعداد لأن تَدفع «عرابين» سياسية وإستراتيجية.

— وكان «كافرى» على حق - مرة خامسة وأخيرة (وذلك شىء لم أعرفه منه إلا بعد اعتزاله الخدمة بسنوات طويلة، وكان قد ذهَبَ ليعيش آخر أيامه ويموت ويُدفن فى فرنسا) - لأنه كان على يقين بأن الولايات المتحدة لن تساعد أى بَلَد عَرَبى إلا إذا وَقَّعَ اتفاقية صُلح نهائى مع إسرائيل!!

....

....

لكن «جمال عبد الناصر» أيامها - وبعد ثلاثة شهور من الثورة - كان أمْيَل إلى تَصديق «ويليام فوستر» نائب وزير الدفاع، ولعله حُسن النيَّة فى السياسة الأمريكية وقتها - أو لعلها أمانيه غَلَبَت دَلالة مَوقف «كافرى» - الذى بدا تَحَفُّظه دون شرح أسبابه - ثم آثر الصمت حتى انتهى اللقاء. ثم ظَهَرَ ذلك وكأنه الأدَب الدبلوماسى، بما مَعناه أن السفير الأمريكى كما تَقتَضى اللياقة ألزَمَ نفسه بالحدود الفاصلة بين السياسة والدبلوماسية!

ونتيجة لتصديق «ويليام فوستر» استجاب «جمال عبد الناصر» لدَعوة وَجَّهتها وزارة الدفاع الأمريكية إلى وفد مصرى يزور المنشآت العسكرية فى الولايات المتحدة الأمريكية - وقد اعتبرها «جمال عبد الناصر» مُقَدِّمة تُمَهِّد لمفاوضات. وكان أن سافَرَت بعثة مصرية لهذا الغَرَض رأسها «قائد الجناح» الطيار «على صبرى» (وكان وقتها مسئولاً فى المكتب العسكرى لـ«جمال عبد الناصر»).

ثم حَدَث أن «جمال عبد الناصر» طلب منى أن أسافر إلى الولايات المتحدة، بعيداً عن الوَفد العسكرى، وظنه أننى أستطيع المساعدة على إنجاح مُهِمَّة الوَفد بصداقات يعرف أنها قائمة بينى وبين عَدد من الصحفيين الأمريكيين البارزين وقتها، وكان معظمهم ممن عَرَفتُ وزاملتُ فى مهام عديدة عندما كنا جميعاً مراسلين لصُحُفنا فى حروب «البلقان» (الحرب الأهلية فى اليونان وما حولها) - وفى معارك فلسطين (قبل قيام الدَولة اليهودية وبَعده) - وفى أحداث الثورة الإيرانية (معركة «مُصَدِّق» وتأميم البترول الإيرانى) - وفى أزمة الشرق الأوسط (الانقلابات والاغتيالات فى سوريا وغيرها) - وفى صراعات الشرق الأقصى (كوريا - والهند الصينية - وفيتنام الأولى ضِدَّ فرنسا) - وفى غيرها من شواغِل تلك الأيام.

وهكذا عَبَرتُ المحيط غرباً للمرة الثانية إلى أمريكا، وفى هذه المرة لم أكن زائراً أو مُتَفَرِّجاً، وإنما كنت فى مُهِمَّة عَمَل تَداخَلَت فيها السياسة مع الصحافة. فقد وَجَدتُها - أيضاً - فرصة مناسبة لتغطية معركة الرئاسة فى مرحلتها النهائية الحاسمة بين الجنرال «دوايت أيزنهاور» عن الحِزب الجمهورى - وبين منافسه «أدلاى ستيفنسون» عن الحزب الديمقراطى.

ظهرت أخلاقيات
وقوانين وقواعد «نظرية المنفعة»
الأمريكية، ومشى فقهها من بداياته إلى نهاياته
على أساس أنه إذا كان ما هو نافع مطلوبا، فإن ما هو نافع
بدوره مشروع. مهما كانت وسائله.
وكذلك ينبغى أن يستقر
القانون وتصاغ مواده





وفى ذلك الوقت. وفى إطار هذه المهمَّة التى تَداخَلَت فيها السياسة مع الصحافة - اقتربت من بعض دوائر صُنع القرار الرسمى فى أمريكا، وضمنها قيادات الحزبين الكبيرين المتنافسَين فى انتخابات الرئاسة، وعَدَد من الرجال النافذين فى الإدارة القديمة («ترومان») ونُظرائهم القادمين مع الإدارة الجديدة («أيزنهاور» - السفراء الكبار فى وزارة الخارجية - وكذلك مع الجنرالات الأهم فى وزارة الدفاع).

ولم يَكن من المصادفات أننى وَجَدتُ موعداً تَحَدَّدَ لى مع مدير برامج المساعدات الأمريكية العسكرية (وهو وقتها الجنرال «أولمستيد») - فالذين قاموا على ترتيب جزء من برنامج اتصالاتى السياسية كانوا بغير شك يعرفون ما فيه الكفاية عن الأسباب المختلفة لقدومى إلى واشنطن.

....

....

وباختصار فقد كانت تلك الزيارة إطلالة أكثر تَدقيقاً وأشد تانياً فى النظر إلى القوة الأمريكية الخارجة إلى المسئولية العالمية الأوسع.

والحاصل أننى عُدتُ - عبر المحيط - اقل تفاؤلاً مما ذهَبتُ، وعلى شبه يقين بأن مُهِمَّة بعثة شراء السلاح فى واشنطن (قائد الجناح «على صبرى») - مُهِمَّة صَعبة - إن لم تكن مُستَحيلة - وكانت أسبابى وقد تَحَدَّثتُ بها مع «جمال عبد الناصر» مُضيفاً إلى رأيى شَواهِد ما استخلصته، ومنها:

١ - أن الولايات المتحدة لديها مشروع «حلف عسكرى» يقوم فى المنطقة بعد جلاء القوات الإمبراطورية (البريطانية والفرنسية) منها. وهناك تَلازُم بين العَمَليتين خطوة بخطوة - الخروج الأوروبى والدخول الأمريكى. (وذلك سمعتُه من الجنرال «أولمستيد» وهو يُحَدِّثنى عن خُطَّة لدى الولايات المتحدة لإقامة «حلف إسلامى» يملأ فراغ المنطقة العسكرى بعد جلاء الإمبراطوريات القديمة عنها - ثم يكون منه عُنصُر جَذب لعَشرات الملايين من المسلمين يعيشون وراء «الستار الحديدى» - داخل الاتحاد السوفيتى والصين.)

٢ - أن الولايات المتحدة لن تبيع لمصر سلاحاً تستطيع به مُحارَبة الإنجليز إذا تَعَطَّلَت مُفاوضات الجلاء من منطقة قناة السويس. (وذلك سمعته من الجنرال «جودباستر»، وهو من أركان حَرب الرئيس الجمهورى الجديد الجنرال «دوايت أيزنهاور»، وتَفصيله أن «رئيس الوزراء البريطانى «ونستون تشرشل» (وقتها) اتصل بـ«أيزنهاور» تليفونياً ليقول «إن الحكومة البريطانية تعرف بوجود وفد عسكرى مصرى فى أمريكا يَسعى لشراء سلاح، وأن هذا الوفد «يَظُن أنه يَستَنِد إلى وَعد رسمى أمريكى»، وأنه - أى «تشرشل» - لا يَتَصَوَّر أن صديقه الجنرال «أيزنهاور»، وهو القائد الأعلى لقوات الحلفاء فى معركة تحرير أوروبا، يرضى أن يُعطى للمصريين سلاحاً يقتلون به جنوداً حاربوا تحت إمرَته (إمرة «أيزنهاور») فى الحَرب المقَدَّسة ضدَّ النازية والفاشية.»

وختام ما سَمعتُه من الجنرال «جودباستر» أن «أيزنهاور» تأثر - وتَعَهَّد لـ«تشرشل» بأنه لن يُعطى المصريين طلقة رصاص (على فرض أنه كان فى النِيَّة أصلاً إعطاء شىء!)

٣ - أن الولايات المتحدة سوف تُحاول تحقيق صُلح بين العَرَب وإسرائيل كمقَدِّمة لمشروعاتها المقبلة فى الشرق الأوسط - وأنها إذا لم تستطع «بالإقناع» تحقيق هذا الصُلح، فسوف تُجازف لتحقيقه «بالفَرض» مهما اقتضى ذلك من زَمَن أو من جهد. (وذلك سَمعتُه من «جون أندرسون» - وهو واحد من أقرب المعاونين إلى «أيزنهاور» وقد أصبح وزير خزانته - ومُلَخَّصه «أن أيزنهاور قاد حلفاً كبيراً لكل المعسكر الغربى، وهو بتفكيره لا يَعرف علاقة مع بَلَد واحد، وإنما يَعرف علاقة مع أقاليم كاملة «لأننا فى عالَم جديد لا يَعتَرف بالحدود التقليدية للسيادات الوطنية». وإذا كنا ذلك «فإنك تستطيع أن تُدرك أننا لا نريد صراعات داخلية فى قلب هذه الأقاليم. وهذا يَعنى أن الصراعات الصغيرة يجب أن تُرَتِّب نفسها للصراع الأكبر مع الشيوعية الدولية، وتَنسى «خناقاتها» المحلية من نوع «الخناقة» بين العَرَب وإسرائيل - وهذا هو شَكل المستقبل!»

وقد رَوَيتُ ذلك كله وأكثر منه لـ«جمال عبد الناصر» عندما حَكَيتُ له قصة تجربتى الأمريكية الثانية. والحقيقة أنه لم يكن مُفاجَأً بما قُلتُه، فقد وَجَدتُه بعد أن غِبتُ عنه قرابة شهرين اقل تَفاؤلاً، والظاهر أن مُتابَعَته لمهِمَّة البعثة العسكرية («على صبرى») إلى الولايات المتحدة جَعَلَته أكثر حَذراً فى «تَوَقُّعاته» الأمريكية!

□

ومن أوائل الخمسينات وحتى أوائل الثمانينات من القرن العشرين عَبَرتُ المحيط غرباً إلى أمريكا أربعاً وعشرين مرة، وشارَكتُ فى حِوارات ومُناقشات بلا نهاية (وبلا نتيجة) مع إدارات أمريكية عديدة ومع رجالها من الساسة ومن العسكريين - فى البيت الأبيض وإداراته، وفى الكونجرس بمجلسَيه، وفى وزارتى الخارجية والدفاع، وفى هيئة أركان الحرب المشتَرَكة - بل وكذلك فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

وبسرعة واختصار فقد قابلتُ وتَحَدَّثتُ مع الرئيس «دوايت أيزنهاور» وأبرز أركان إدارته وهو وزير خارجيته «جون فوستر دالاس» - وفيما بعد قابلت وتَحَدَّثتُ مع الرئيس «جون كنيدى» وأبرز أركان إدارته، وكانوا مجموعة من أكفأ وألمع ما شَهَدَ البيت الأبيض، وبينهم وزير الخارجية «دين راسك»، ومستشار الأمن القومى «ماك جورج باندى»، ووزير الدفاع «روبرت ماكنمارا»، إلى جانب رجال أحاطوا بالرئيس زَمانها وأشهَرهم المؤرِّخ الكبير «آرثر شليزنجر» و«إدوارد سورنسون» و«بيير سالنجر» - ولم تُتَح لى الفرصة لمقابلة الرَجُل الذى خَلَفَ «جون كنيدى» بعد اغتياله، وهو الرئيس «ليندون جونسون»، لكنى قابلتُ أقرب الناس إليه، وبينهم «والت روستو» مستشاره للأمن القومى، وشقيقه «جين روستو» الذى بقى قوة مُحَرِّكة فى وزارة الخارجية الأمريكية مع «دين راسك» الذى واصَلَ مع «جونسون» ما بَدَأه مع «كنيدى» - ثم قابلتُ (واستضفت فى بَيتى فى القاهرة) الرئيس «ريتشارد نيكسون»، وتَحاوَرتُ طويلاً معه ومع أركان إدارته، وأهَمُّهم مستشاره للأمن القومى «هنرى كيسنجر»، ووزير خارجيته الأول «ويليام روجرز» - ولم تُتَح لى الفرصة أن أقابل الرئيس «فورد» الذى خَلَفَ «نيكسون» بعد فضيحة «ووترجيت»، لكن إدارته ظلَّت فى الواقع هى إدارة «نيكسون» حتى خَسَر معركة الانتخابات سنة ١٩٧٦ - وقابلتُ وتَحاوَرتُ مع الرئيس «جيمى كارتر»، وكبار مساعديه وبينهم مستشاره للأمن القومى «زبجنيو برجينسكى»، ووزير خارجيته «سايروس فانس» - ولم تُتَح لى الفرصة أن أقابل الرئيس «رونالد ريجان» - لكنى لقيتُ وحاوَرتُ أهَمَّ أقطاب إدارته وضمنهم «ألكسندر هيج» مستشاره للأمن القومى، و«جورج شولتز» وزير خارجيته.

وفى تلك الفترة كذلك (ما بين أوائل الخمسينات إلى أواخر الثمانينات) قابلتُ وتَحاوَرتُ مع غير هؤلاء كثيرين فى أمريكا من المفكرين والأدباء (من «كنيث جالبرايت» إلى «نورمان ميلر») - ومن رجال الأعمال إلى نجوم هوليوود (من «دافيد روكفللر» إلى «لانا تيرنر») - ومن مسئولى عوالِم الأسرار إلى ملوك الإعلام (من «آلان دالاس» أشهَر مُدير لوكالة المخابرات المركزية - إلى «كاترين جراهام» صاحبة مجموعة صُحُف «واشنطن بوست»).

ولقد أضفتُ إلى ذلك كله قراءات لها بداية وليست لها نهاية، ثم إنها تَشعَّبَت بعيداً وواسعاً (على حَدِّ تعبير «دوجلاس ريد» فى كتابه الشهير).

وبناءً عليه كله فقد أستطيع القول بأننى اقتربت وعايَنتُ وخالَطتُ بنفسى عقل القوة الأمريكية وقلبها، ومع ذلك فقد ظَلَّ يُراودنى إحساسٌ بأن ما عَرَفتُه عن الولايات المتحدة ليس كافياً - على الأقل ليس كافياً لكى يُفسِّر لى طبيعة السياسة الأمريكية، ومَطالبها، ودوافعها، وأساليبها.

ولقد ظننتُ أن التجربة المباشرة فى التعامُل مع القوة الأمريكية حَسَّنَت معرفتى بحقيقتها، لكنى مع ذلك ظللتُ على يقين بأن ما أعرفه ليس كافياً.

بمعنى أن عُبورى الأول للمحيط سنة ١٩٥١ تَرَك علىَّ انطباعا - جاء قاصِراً.

ثم إن عُبورى الثانى للمحيط سنة ١٩٥٢ - تَرَك لدىَّ إحساساً بخَيبَة الأمَل.

وتلى ذلك من سنة ١٩٥٣ إلى سنة ١٩٨٦ أربعة وعشرون عُبوراً للمحيط إلى الغرب - أضافت إلىَّ بغير شك حَصيلتها. لكنه بَقى يُراودنى على نحو أو آخر إحساسٌ بأن ما أعرفه عن أمريكا ما زال دون المطلوب.

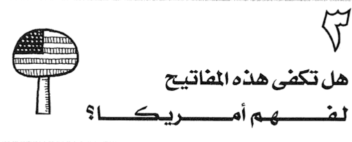
ولقد ظَنَنتُ فى بعض الأحيان أننى تَوَصَّلتُ بطول الدَرس وتَتابُع التَجارب إلى مجموعة من المفاتيح تَصَوَّرتها مُهِمَّة لفهم أمريكا!

وإلى حَدٍّ ما فقد يكون لهذا الظن بعض ما يُبَرِّره. ▪

عـــرفت الولايـــات المتحـــدة
ومارســـت مبكـــرا «حـــدود ســـــيادة»
على أرض القـــارة الأمريكيـــة، ثم رســـمت لنفســـها «حـــدود أمـــن»
وصـــلت إلى منتصـــف المحيـــط. وذلك ما أخذته
إســـرائيل فيما بعـــد ومارســـته



٣
هل تكفى هذه المفاتيح لفهـــم أمـــريكـــا؟



أظنني تَوَصَّلتُ بالتجربة والمعايَنة، وبالقراءة والدَرس، إلى «دَستَة» مفاتيح حَسَبتها مطلوبة لفتح بَوَّابات أمريكا، والدخول منها، والبَحث وراءها عن الأشياء والأحوال، بما قد يَسمَح بفهم أو برُؤية تُعَزِّز فعلاً أو تَسند رَدَّ الفعل!

ومع أن الظن قد يكون إثماً، فإنني أجازف بعَرض المفاتيح التي تَوَصَّلتُ إليها - تاركاً الحُكم لغيرى - أعلَم وأقدَر.

■ **المفتاح الأول:**

أن الولايات المتحدة بَلَد مَحظوظ: لديه كثير من الجغرافيا وقليل من التاريخ. ومعنى ذلك أن لديه غنى في الموارد بلا حدود، وخِفَّة في أثقال التارِيخ وحُمولاته لم يَتَمَتَّع بها غيَره، وذلك مَنَحَه اطمئنانا إلى وَفرة مادية طائلة - ثم إنه أعفاه من وَساوس تاريخية ينوء بها عَديد من الأوطان أو البلدان.

والذاكرة الوطنية للشعوب في بعض الأحيان عبء بمقدار ما هي حافز - لكن الهجرة إلَى أمريكا كانت مَشروطة بالتَخلِّي عن القديم والبدء من جديد لمن يَبغون الفُرَص الطموحة.

وإذا اعتبر هذا الحال فقراً في الإرث أو التراث - فإنه كان في نفس اللحظة عَوناً على مُواجَهَة المستقبل مُفرَّغاً من العُقَد والمسئوليات مما يُخَلِّفه الإرث أو التراث.

وفي حين أن شعوباً أخرى أرهقتها تجارب القرون (من أول التاريخ) فإن الشعب الأمريكي بدأ مسيرته في الواقع منذ القرن السابع عَشر الميلادى، وبالتالي فقد كان أكثر شَباباً وأكثر نشاطاً من غيره، فهو في بداية العُمر، وعُنفوان الصبا (في حين كان غيره في آسيا قُرب الشيخَوخة - وفي أوروبا قُرب الكهولة).

وفي حين أن كل الحقائق لها بدايات ومُقَدِّمات في فكر عامة الشعوب - فإنه فيما يَخُصُّ الشعب الأمريكي - كل الحقائق تَبدأ الآن. هنا والآن.

....

....

[وذلك يُذكِّرُني بليلة من الليالي (ليلة ٧ نوفمبر ١٩٧٣ - أي بعد أسبوعين اثنين من تَوَقُّف معارك حرب أكتوبر) - وتلك ليلة ظللتُ فيها مُؤرقاً حتى الصباح أفكر في وقائع لقاء تَمَّ في المساء بين «هنري كيسنجر» وبيني - وفيه بادَأني «كيسنجر» - بقوله:

- «أريد أن أسمع منك كل ما تريد قوله لي عن الأزمة الحالية في الشرق الأوسط، لكن لي شرطين:

أولاً - لا تُحَدِّثني عن التاريخ. حَدِّثني عن الواقع الراهن هذه اللحظة - لأننا من هنا نبدأ.

وثانياً - حَدِّثني عن مصر وَحدها، ولا تَقُل لي شيئاً عما تُسَمُّونه أنتم «الأمة العَرَبية» - أعرف أن هناك شعباً في مصر - هذه حقيقة - ولكن أن هناك أمَّة عَرَبية فذلك ادِّعاءٌ تقولون به، وهو لم يَثبُت لي، وبالتالي فلستُ مُستَعداً له!»

[وكان ذَلك سَبَب الأرَق - ومعه الدَهشة - لأن ذلك الرَجُل الذي كان دارساً وأستاذاً للتاريخ - لم يَعتَبر التاريخ بداية لأي شيء. وإنما اعتبر اللحظة الراهنة بداية كل شيء!]

ومع أن ذلك بدا لي مُستَغرَباً، فإنني كنت على يقين أن ذلك الطلب صَدَرَ منه عن قناعة لديه بأن «التاريخ بدأ اليوم»!

ومع أني حاولتُ أن أشرح له أن تلك البداية تلغي الحقوق - بل وتهدر القانون. فقد كان منطقه «إننا إذا كنا نريد التعامُل مع الماضي فسوف نَظَل في الماضي، وإذا أردنا المستقبل فأول المطلوب منا أن ننسى» - (وبالطبع فقد كان ذلك منطق التجربة الأمريكية أصلاً وأساساً!)]

....

....

■ **المفتاح الثاني:**

أن الولايات المتحدة لم تنشأ كوَطَن، وإنما نشأت كمَوطن. ولم تبدأ كدَولة، وإنما بدأت كملجَأ. أي أَن الولايات المتحدة في واقع الأمر بَدَأت ونشأت كفضاء مفتوح لكل من يَقدِر علي عُبور المحيط أو يَضطر لعُبوره وإن تَنَوَّعَت الأسباب: كان هناك المهاجرون الأُوَل من المغامرين - ثم لحقهم المنفيُّون ممن كانت دُوَل أوروبا راغبة في التخلُّص منهم لأسباب سياسية أو أمنية - ثم كان هناك الهاربون من الاضطهاد العُنصُري أو الديني - ثم كان هناك الباحثون عن الثروة في بَلَد تَكَشَّف أن مَوارده بلا حدود من الأرض إلى الماء - ومن الفضة إلى الذهَب!

ومنذ تَمَّت رحلة «كريستوفر كولمبس» الأولى - ثم الثانية - كانت الأخبار في العالَم القديم عن العالَم الجديد أسطورية. فتلك هي «أرض الميعاد» الحقيقية تَتَّسع لكل من يشاء، وفيها ما يَحتاج إليه وأكثر، ثم إنها أرضٌ بلا ملوك - ولا كنيسة - ولا إقطاع - ولا قانون - ولا بوليس. وإنما هي فضاء مفتوح لأي قادِر على عُبور المحيط، وعلى التعامل مع الحدود القابلة للاتساع والتَمَدُّد كل يوم.

....

....

[وربما أنه من هنا يمكن فهم استعداد السياسة الأمريكية في هذه اللحظة أن تتقدم لأي مشكلة بمقترحات غير محكومة بثوابت، وبمنطق أنه لا ملوك - ولا كنيسة - ولا إقطاع - ولا قانون - ولا بوليس - وإنما هو فضاء مفتوح!

وكذلك يَتَوَصَّل رئيس ذكي مثل «بيل كلينتون» إلى أنه من «صالح العَرَب» أن يَترُكوا القدس لإسرائيل - وإذا كان العَرَب والمسلمون على تَصميمهم بأن «القدس عَرَبية» فإنه في مَقدورهم تَغيير اسم قرية قريبة «وراء التَل» - هي «أبو ديس» - لتُسَمَّى «القدس» - وميزتها أنها على بُعد كيلومترات قليلة من القُدس الأصلية أمام التل. ثم يُضيف إنهم فَعَلوا ذلك كثيراً في أمريكا، فهناك مُدُن كثيرة في أمريكا اسمها «القدس»، وهناك مُدُن اسمها «القاهرة» - «والإسكندرية» - و«بيروت»!]

....

....

■ **المفتاح الثالث:**

أن الفضاء المفتوح لا يَقبل بأي عوائق من أي نوع، سواء في ذلك الطبيعة أو حتى سكانها الأصليون، ذلك أن الطبيعة لابد لها أن تَتَّسع بما يوافق طموح القادمين بحثاً عن الفرصة، ثم إن السكان الأصليين عليهم أن ينزاحوا وإلا فهُم تَذكرة دائمة للقادمين الجُدُد بأن هناك حقوقاً سابَقة تَعتَرض حقوقهم اللاحقة، وذلك خلط مادي ومعنوي كبير يجب تَسويَته - وبكل وسيلة مُتاحة!

هكذا أخذت أمريكا
من العالم القديم كل
ما أرادته دون معاناة
أو ألم - دون
حقوق أو رسوم



كذلك عرفت
التجربة السياسية
الأمريكية نفوذا يتوسع
بالبيع والشراء،
وبالخصم وبالتقسيط؛



وهكذا فإنه بعد النزول الأول على الشواطئ الشرقية للقارة - شواطئ الأطلسي عبر أوروبا - فإن النفاذ إلى الداخل أصبح مُعَلَّقاً بما يستطيع الجواد أن يَرمَح فيه ويَستَحوذ عليه ويَضُمُّه. ثم إن الأمن في الداخل أصبح مَرهوناً بما يستطيع المسَدَّس أن يُسَيطر عليه من الفضاء المفتوح، ويخليه ويَضمنه.

وكذلك فإنه إذا كانت الغابات والأحراش عائقاً، فإن الغابات والأحراش عليها أن تَزول - وإذا كان الهنود الحُمر وراء التلال والجبال مُلاكاً - على نحو ما - للأرض، فإن هؤلاء الهنود الحُمر يَتَعَيَّن أن يَختفوا - وجوداً وظِلاً.

....

....

[وهنا يمكن فهم الرؤية الأمريكية لقضية فلسطين، فالمستوطن اليهودي ليس فقط مُهاجراً إلى أرض جديدة، وإنما هو كذلك وبقوة الجواد والمسَدَّس (المجَنزَرَة والمدفع الرشاش هذه المرة) عائد إلى أرض يَملك عليها امتيازا من قديم (وهذه حُجَّة إضافية يزيد عليها أنه إذا كانت الغابات والأحراش في القارة الأمريكية قابلة للإزالة - فإن «الخَلاء» -! - الفلسطيني من باب أَوْلى لابد من تجهيزه للاستيطان، ثم إن «الفلسطيني» الأصلي (!) - شأنه شأن الهندي الأحمر - عليه أن يَختَفي وجوداً وظلاً - ولِم لا؟ - إذا لم يكن للحق الأزلي اعتبار قانوني، وإذا لم يكن للحقائق الحَيَّة على الأرض قبل المستَوطن اليهودي (وقبل المهاجر الأمريكي) اعتبار إنساني وأخلاقي!]

....

....

■ **المفتاح الرابع:**

أنه إذا كان مطلوباً إخلاء الفضاء المفتوح من أي عوائقٍ - ومن أي دعاوى سابقة على الادعاء بملكيَّته بصرف النظر عن أية حقوق سابقة تارِيخية، أو إنسانية، أو أخلاقية، أو قانونية - فإن السبيل إلى ذلك هو القوة، وقوة السلاح، وقوة السلاح وحدها.

وعندما تَتَجَرَّد قوة السلاح من كَوابح المبادئ والقيَم والثقافة - مع غياب كافة أنواع الشرعيَة - فإن السلاح يطيح - بدون مُقَدِّمات، وبغير ضَوابِط - وبالتالي تكون الكلمة الأولى في أي لقاء هي تَصويب المسَدَّس، والكلمة الأخيرة هي الضغط على الزناد، وكذلك تَتَحَوَّل القوة في حَدِّ ذاتها إلى مَصدَر للمشروعية، وبها وليس بغيرها يَتَحَوَّل «الاغتصاب» إلى «حيازة»، وتَتَحَوَّل «الحيازة» إلى «ملكيَّة» تَسنُّ لنفسها قوانين جديدة تتعامَل بها الأوضَاع المستَجَدَّة في تنظيم علاقات الغَلَبة والسيطرة.

وكان ذلك ما حَدَث طوال قرنين من الزمان، فقد كان على أرض أمريكا الشمالية - ووديانها وسهولها ومروجها وجبالها - ما يُقَدَّر عَدَده بخمسين مليونا من الهنود الحُمر عندما ظهَرَت «سانتا ماريا» - سفينة «كريستوفر كولمبس» - تَتَقَدَّم سفينتين وراءها. ثم ظلَّت أمريكا الشمالية تَسمَع طلقات



الرصاص، وتَلمَح من بعيد دُخانه، وترى على الأرض بُقَـع دَمـه. وحين هَـدأت الضـجَّـة تَبَـيَّن أن ذلك الشـعـب النبيل الذى رَفَـضَ أن يَستَسلِم للنازلين على شواطئه والزاحفين على أرضـه لم يَعُـد باقياً منه غير مليونين أو ثلاثة.

....

....

[وهنا يُمكن فـهـم المنطق الذى تَحاوَرَت به السيدة «مادلين أولبرايت» وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة في مقابلة تليفزيونية (مايو سنة ١٩٩٨):

سُئلَت «أولبرايت» عن استقالة اثنين من مُفوَّضى الأمم المتحدة مَسئولَين عن تنسيق برامجها فى العراق، وهما «دنيس هاليداى» و«هانز فون سبونيك» ـ كلاهُما قَدَّمَ استقالته لأنه لم يَستَطع أن يَحمل على ضميره وِزرَ وفاة نصف مليون طفل عراقى راحوا ضحيَّة نقص الغذاء والدَواء بسبب الحصار الذى تَفرضه الولايات المتحدة (باسم الأمم المتحدة!) على العراق ؟

ورَدَّت «أولبرايت» قائلة للسائل بالحَرف: «ربما أنه ثمَنٌ غال كما تقول، لكننا نرى أن الهَدَف الذى نطلبه يُساوى ذلك الثمَن وأكثر منه»!!]

....

....

■ **المفتاح الخامس:**

أن الضمير الأمريكى كان يَتَعَيَّن عليه أن يَجد مسوغات مَعنوية ونفسية تُبَرِّر له جوانب العُنف والقسوة فى مغامرته التى بَدَأها على الشواطئ الأمريكية، ومنها إلى الداخل والوسط، وحتى أقصى الغرب. وهنا تأسَّسَ فكر راحَ يَستَكمل ويَستوفى مطالبه وضروراته حتى تَحَوَّلَ إلى مَدرَسة بأكملها.

وكانت بداية التأسيس من عناصر المهاجرين بسبب الاضطهاد الدينى، ومن المفارقات أنه من عندهم ظهَرَت «نظرية المنفعة» فى طَبعَتها الأمريكية، وفى سياقها الأساسى وخلاصتها:

● أن اللـه لم يَخلق هذه الأرض وما عليها عبثاً، وإنما خَلَقَها لبَشَر سواهم على مثاله.

● وإذا كان ذلك فإن هؤلاء البَشَر ـ على مثال الإله ـ مُكلَّفون بما يَنفع الأرض ويُحَقِّق عليها كلمة خالقهم.

● وإذا كان نَفع الأرض هو هَدَف البَشَر فإن الأقدَر منهم على النَفع هو الأحَق بالقيام عليه.

● وإذا كانت هذه الأرض فى حَوزة الهنود الحُمر منذ نَشأة الحياة، ولم يقوموا بحَقِّها ـ فإن مَشيئة اللـه تَتحَقَّق بأن يَحِل محلهم من هو أقدَر منهم.

وكذلك ظهَرَت أخلاقيات وقوانين وقواعد «نظرية المنفعة» الأمريكية، ومَشى فقهُها مَن بداياته ـ! ـ إلى نِهاياته على أساس أنه إذا كان ما هو نافع مَطلوبا ـ فإن ما هو نافع بدَوره مشروع مهما كانت وسائله ـ وكذلك ينبغى أن يستقر القانون وتُصاغ مواده.

....

....

[وهنا يُمكن فهم ما يَراه العَرَب ويَنسبونه أحياناً إلى بَلادة فى شعور الرأى العام الغَربى تجاه اغتصاب فلسطين.

فقد نَجَحَت إسرائيل أن تُرَسِّخ لديهم ـ على عكس الحقيقة ـ صورة مُؤدَّاها أن فلسطين كانت صحراء جرداء قبل أن ينزل عليها الخصب الصهيونى.

ومالك الأرض الحقيقى ـ والقانونى ـ ليس مالِك صَكِّ الملكية، وإنما القادر على الأرض أكفأ ـ والممسك بها أقوى ـ ذلك أن الصَكُّ وَرَقة ـ وأما الحَق فهو القوة.

وهذه نُقطة مركزية تَستَحق فهما عَرَبياً أعمق، فالعَدل حُلم الضُعَفاء ـ لكن القانون يكتبه الأقوياء.

وغير ذلك هو الادِّعاء.]

....

....

■ **المفتاح السادس:**

أن كل شىء فى أمريكا سَهل ومُيَسَّر، فذلك الوَطَن الأمريكى الذى أعفى نفسه من أعباء التاريخ القديم، والشرائع السابقة، والتَقلُّصات والتَقلُّبات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والحروب والثورات التى صَهَرَت قارات العالَم القديم منذ فجر الوَعى الإنسانى ـ وَجَدَ نفسه فى وَضع لم يُتَح لوَطَن من قبل:

ـ قارة بكامل مَواردها فضاءً مفتوحاً، وقد استطاع المهاجرون أن يملئوا «فراغها»، وأن يَستَولوا على الأرض وما فوقها.

ـ وهؤلاء المهاجرون استطاعوا فى قرنين اثنين تأسيس مَوطن ـ تَحَوَّل إلى وَطَن ـ له ثروته المادية، وله فكره المتَحَرِّر من القيود، وله طرائقه فى الإنتاج والحياة، وله قوانينه ـ بل وله أخلاقه.

ـ ثم إن هذا الوَطَن التفت إلى يمينه من خريطة العالم فوَجَدَ أوروبا إلى الشرق من الأطلنطى وقد وَصَلَت إلى عَصر النهضة، وفاضَت فيها الفلسفات والعلوم، والآداب والفنون، والمعارف والثقافة، ومعها تكنولوجيا من نوعٍ مُذهل يَحل فيه البخار مَحَل عَضَلات الناس مِن الأحرار كانوا أو من العَبيد (وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك فى أوروبا نبوءات مُبَكِّرة عن طاقة الكهرباء (وهى سِحرٌ قادرٌ على كل شىء!)

ولم يُرهِق المجتمع الأمريكى نفسه فى إعادة إختراع الأشياء!

نظَرَ إلى أوروبا ونَقَل، وذهَبَ إلى أوروبا واشترى، وعايَن ما وَجَدَ أمامه واختار ما رَآه نافعاً ـ مفيداً ـ أو حلواً. وكان له ما أراد بغير مَوانع. ولم تكن هناك على الفن والفكر ـ من «شكسبير» و«دانتى» إلى «روسو» و«مونتيسكيو» ـ حقوق ملكية فكرية ـ ولا كانت هناك على موسيقى «بتهوفن» أو «موزار» أو «باخ» أو «فيفالدى» أو غيرهم حُقوق أداء علَنى ـ وكانت كل المختَرَعات من قوة البخار المحَرِّكة إلى قوة العَدَسات المبصرة، ومن المدافع بعيدة المدى إلى القطارات المسافرة فوق قضبانها حيث تمتَد ـ مَعروضة لمن يَشاء فى السوق دون شروط تَعجيزية من نوع ما تواجهه الدُوَل النامية الآن (وأوَّله أن تَدفع من اللحم الحَى ضرائب كل شىء تريد أن تأخذه من العالَم، حتى الكتاب، والفكرة، والنَغَم).

وهكذا أخَذت أمريكا من العالَم القديم كل ما أرادَته دون مُعاناة أو ألَم ـ دون حقوق أو رُسوم.

....

....

[وكذلك يُمكن فهم تَعَوُّد الأمريكان على طَلَب الأشياء ـ مادية ومعنوية، من حقوق الثروات الطبيعيَّة إلى حقوق السيادة الوَطَنيَّة ـ بلا عناء ـ مقابل ثمَن نقدى يُدفع، ثم يتم شحن البضاعة!

وذلك بالضبط ـ على سبيل المثال ـ ما جرى فى صفقة شراء الرئيس الصِربى السابق «سلوبودان ميلوسوفيتش»، وكانت الصفقة بَيعاً وشراء ـ تَسليماً وتَسَلُّماً ـ قيمتها بليون دولار. والغريب أن الولايات المتحدة رَتَّبَت دَفعَها قسمة مع آخرين:

٤٤٥ مليون دولار يَدفعها الاتحاد الأوروبى.

٢٠٠ مليون دولار يَدفعها أطراف دَوليون مُختلفون منهم سويسرا واليابان.

١٥٠ مليون دولار يَدفعها البنك الدَولى.

وأما الولايات المتحدة الأمريكية نفسها فقد كان نصيبها النَقدى فى الصفقة ١٨٢ مليون دولار ـ لكن الصفقة جَرَت تحت إشرافها وإدارتها!]

....

....

■ **المفتاح السابع:**

أن التجربة الأمريكية جاءت بسابقة مُغايِرة لما كان قبلها فى التاريخ. فالعادة أن الأوطان تَظهَر مع ظهور الدُوَل فيها، داخل رُقعة مُحَدَّدة من الأرض لها أطراف وحدود وتضاريس طبيعية تُحَوِّل مَوطن أى مُجتَمَع إنسانى إلى وعاء مُستَقل بذاته وصِفاته ـ ومن ثم تُمَهِّد لظهور سُلطَة فيه تَرسِم حدود الدَولة وتُشهِر قيامها.

فى أمريكا اختلف الأمر. تأخَّرَت الدَولة كثيراً عن الظهور، وإن تَناثرَت على سطح القارة بُؤر استيطان وعُمران مَكشوفة راحَت حتى عُصور مُتأخرة (القرن السابع عشر والثامن عشر) تُدافع عن نفسها بوسائل ابتدعتها من إنشاء شركات إلى إنشاء ميليشيات. ولما كانت الهجرة إلى أمريكا مُستَجَدَّة، والثروات وَفيرة، فإن الدُوَل الأوروبية تَدافَعَت، وراح ملوكها يَبسطون حمايتهم على مساحات تفوق حجم ممالكهم الأصلية، وكذلك كانت سيادتهم رمزية.

لكن المجتمعات الاستيطانية الجديدة فى أمريكا رأت لنفسها مَصالح مُختلفة عن مصالح هؤلاء الذين رأوا الفراغ الناشئ عن وجود «دَولة أمريكية» وتَقَدَّموا لملئه ـ وهنا ظَهَرَت حركة الاستقلال الأمريكية يقودها «جورج واشنطن»، وكانت بدَورها معركة سهلة، ذلك أن السيادات الملَكية الأوروبية كانت رمزية، ثم إن المجتَمَعات الاستيطانية الجديدة فى أمريكا كبرَت واتَّصلَت، واشتدت حاجتها إلى دَولة وَطَنية تَحفظ لها مَصالحها المتَمَيِّزة عن غيرها، وتَكفل للجميع أمناً مُشتركاً. وكذلك اتحدت الولايات، أو بعضها، فى حَرب لطَلَب الاستقلال ـ ثم تَقاتَلَت الولايات مع بعضها فى حَرب لطلب الوحدة ـ ثم تَوَصَّلَت التجربة إلى شكل الدَّولة الاتحادية ـ يَقوم عليها مركز قُوى يَملكه الجميع ـ وحقوق مُتَساوية تمارسها الولايات دون وصاية من المركَز. وفى ذلك كله كان الوَطَن الأمريكى يَتَوَسَّع من الشرق إلى الغرب، والمدهش أن «الفتح» لم يَجر بالسلاح فى بعض الأحيان، وإنما جرى بالشراء: جزيرة «مانهاتن» وعليها «نيويورك» جرى شراؤها مَرَّتين (زعيم هندى أحمر باعَها إلى شركة هولندية ـ وبعدها بعَشرات السنين باعَتها الشركة الهولندية إلى الولاية الأمريكية). ولاية «كاليفورنيا» ـ صفقة بالبيع والشراء من أسبانيا. «لويزيانا» صفقة مع فرنسا.

....

....

[كذلك عَرَفَت التجربة السياسية الأمريكية نفوذاً يَتَوَسَّع بالبيع والشراء، وبالخصم وبالتقسيط!

وربما هنا فإنه يُمكن فهم ذلك الشعور الجازم فى الكونجرس الأمريكى «باننا اشترينا السلام فى الشرق الأوسط بحزمة مُساعدات أمريكية مُلحَقة باتفاقية كامب دافيد بين مصر وإسرائيل، واسمها الرسمى هو «جائزة السلام» ـ وقيمتها خمسة بلايين دولار سنوياً ـ تُقَسَّم بنسبة أكثر من ثلاثة لإسرائيل وأقل من اثنين لمصر ـ ومُدة الجائزة عشرون سنة قابلة للتجديد «حتى يَستَقِر ويَتَرَسَّخ السلام«!»]

يمكن فهم مشروع
الدفاع الإستراتيجى بالصواريخ
المضادة فهما أعمق إذا جرى النظر إليه
على أساس أنه استمرار لإستراتيجية «عازل»
المحيطين (الأطلسى والهادئ).
وهو «العازل» الحامى
للأمن الأمريكى

كانت تلك أول إمبراطورية
في التاريخ لديها
«نظرية مصالح» - وليس «نظرية أمن» -
ذلك أنه في غياب «التهديد»
لا يوجد مطلب «أمن»

....

....

■ **المفتاح الثامن:**

أن الدولة الأمريكية ظهَرَت في وقت احتدمت فيه الصراعات والثورات في أوروبا. فقد كان ذلك زَمَن قَطع رقاب الملوك في إنجلترا وفي فرنسا - وزَمَن الحروب بين الإمبراطوريات التي اشتد غضَبها ونَقُص دَخلُها بعد أن فَقَدَت ممتلكاتها الأمريكية، وزادَت عليها تكاليف السباق الاستعماري إلى آسيا، وفيما بعد إلى أفريقيا.

وفي تلك اللحظة الحَرجة من تاريخ الإمبراطوريات فإن زعيم وقائد الاستقلال الأمريكي: «جورج واشنطن»، قَدَّمَ لوَطَنه وَصيَّته الأهَم وهي «الابتعاد تماماً عن صراعات القارة الأوروبية التي لا تَعنى أمريكا، ولا تَهمها، ولا يُصيبها منها إلا الضَرَر».

وكانت وجهَة نظر «جورج واشنطن» أن الصراعات الأوروبية بُحور دَم لها مَنابع دَم بَعيدة غائرة في الزَمَن، وذلك كله حَدَث قبل أن تُولَد أمريكا، لكن حُدوثه الآن يُعطي لأمريكا ميزة، لأن التهاء أوروبا في حروبها السياسية والدينية والاقتصادية والاستعمارية يَكفل للدَولة الأمريكية المستَقلة فترة كافية تدعم فيها وحدَتها بصَهر عناَصر الهجرة إليها (باللغة والثقافة الجديدة) حتى تَذوب وتَتَوَحَّد مصالحها، وذلك يُمَكِّنها من صُنع وَطَن ودَولة - بل وأمَّة إذا تَواصلَت عملية الصَهر دون تَدَخُّلات من الخارج.

وإذا كانت وَصيَّة «واشنطن» صحيحة، وقد كانت كذلك في زمانها، فإن ابتعاد أمريكا عن الصراعات الأوروبية كان لها مُلحق ضروري هو تَصفية بقايا الجيوب الأوروبية في أمريكا الشمالية، وتَخليص ولايات الاتحاد وما حَولها من قَبضة الإمبراطوريات البائدة - وهنا جاءت الحَرب مع البرتغال ومع أسبانيا.

....

....

[ومن غرائب التاريخ المصري أن آخر ملوك المكسيك وهو الإمبراطور «ماكسميليان» - طَلَبَ قوات تساعده على تمكين مُلكه، وتَطَوَّعَ لمساعدته خديو مصر «سعيد» باشا، ثم «إسماعيل» باشا، وكلاهما أرسَلَ لـ«ماكسميليان» حَملة عسكرية مصرية تفاوَتَت التقديرات في شانها - فمن تقدير يقول إنها عشرة آلاف جندي مصري، إلى تقدير يَصل بهذا الرقم إلى أضعافه - وبالفعل فقد ذهَبَ مُجَنَّدون مصريون - فلاحون بالسُخرة - بالألوف جيشاً مُهدَى بلا مُقابل من خديو مصر إلى إمبراطور المكسيك، ولم يَظهَر لهؤلاء الآلاف فيما بَعد عَدَدٌ - ولا أثر!]

....

....

وفي كل الأحوال فإن الدولة الأمريكية الناشئة تطبيقاً لوصيَّة «جورج واشنطن» قامت بتصفية كل الجيوب الأوروبية في أمريكا الشمالية.

وأكثر من ذلك فإنها انتهزت فرصة الفوضى الأوروبية طوال القرن التاسع عشر ثم أعلنَت أن خط المياه وسط المحيط هو حدود سلامتها وحمايَتها من صراعات العالَم القديم، وأصبح ذلك الخط وفقاً لـ«مَبدأ مونرو» (١٨٢٣) هو خط الأمن الأمريكي.

....

....

[هكذا عَرَفت الولايات المتحدة ومارَسَت مُبَكِّراً «حدود سيادة» على أرض القارة الأمريكية - ثم رَسَمَت لنفسها «حدود أمن» وَصلَت إلى منتَصَف المحيط - وذلك ما أخذته إسرائيل فيما بَعد ومارَسَته مُعتَبرة أنه إذا كان خط حدودها هو كل فلسطين، فإن خط أمنها واصل - طبقاً لـ«آرييل شارون» - إلى إيران وباكستان وجنوب السودان. وبالطبع فإن الولايات المتحدة تَتَفَهَّم - بوَعي التجربة، وحتى دون ضرورة الاعتراف العَلَني الآن!]

....

....

■ **المفتاح التاسع:**

أن الولايات المتحدة حين استكملت تَوَسُّعها إلى الغرب وتَمَلَّكت «كاليفورنيا» و«تكساس» - وَجَدَت نفسها في مَوقع فريد مُؤدَّاه أن المحيطات نفسها: الأطلسي شرقاً، والهادئ غرباً - هي بذاتها حَواجز الأمن الضامنة له.

فهذه المساحات الشاسعة من الماء، وهذه الجبال العالية من الموج، عَصيَّة على أي جيش غاز حتى بعد ظهور وتَقَدُّم الطيَران. وفي أسوأ الأحوال فإن أي جيش غاز لا يستطيع أن يَنقَضَّ على أمريكا مفاجأة، كما تفعل الجيوش الألمانية مع فرنسا مثلاً أو مع روسيا.

هكذا ظَهَرَ في التاريخ لأول مرة وَطَن تَضمَن الطبيعة ذاتها أمنَه وتَعفيه من أي تَهديد خارجي، وكان ذلك حَدَثاً في الفكر الإستراتيجي مُستَجَداً بالكامل، لم يَخطر على بال «فرعون» مثل «رمسيس» الثاني، ولا غازٍ مثل «الإسكندر»، ولا إمبراطور مثل «نابليون»، ولا مُفَكِّر عسكري مثل «كلاوزفيتز».

وَطَنٌ ضَخم غني بمواردِه، فادح في ثرواته - ومع ذلك فهو غير مُعَرَّض لتهديد من أي نوع (حتى ظهَرَ عَصر الصواريخ في أواخر القرن العشرين).

....

....

[وربما أنه يُمكن فهم مشروع الدفاع الإستراتيجي بالصواريخ المضادة - وهو المشروع الذي تقوم الدُنيا وتَقعُد الآن تَصَدِّياً له - فهماً أعمَق إذا جرى النظر إليه على أساس أنه استمرار لإستراتيجية «عازل» المحيطين (الأطلسي والهادئ) - وهو «العازل» الحامي للأمن الأمريكي. فمشروع الصواريخ المضادة للصواريخ يَكفل أن لا يَنفذ في سماء المحيطين تَهديد - صاروخي - يَصِل إلى الولايات المتحدة. وكان ذلك - من وجهَة نظر السياسة الأمريكية - أفضل، لأنه يَقفل الباب على سباق في الأسلحة النووية تَبارَت فيه دُوَل كثيرة وَفَّرَت لنفسها إمكانياته. ومن المنطقي أنه إذا استطاع طَرَف إلغاء سلاح طَرَف آخر فإنه يَضمَن النصر. وبما أن الولايات المتحدة سابقة - بتجربة النجوم أيام «ريجان» - فإن الصواريخ المضادة للصواريخ تَكفُل لها مَوقع القلعة المنيعة لا يَصل إليها تَهديد. هذا مع الأخذ في الحساب (وتلكَ نقطة جديرة بالاعتبار) أن الصواريخ المضادة للصواريخ كفيلة بإلغاء فاعلية كل الترسانات النووية التي تَملكها - ولا تملك غيرها الآن - روسيا - وتلك الترسانات التَي تَملكها بلاد كانت تَنتَمي إلى الاتحاد السوفيتي سابقاً مثل أوكرانيا - وفوق ذلك تلك الترسانات التي تَملكها دُوَل صديقة في الغرب الآن (بريطانيا وفرنسا) - وذلك من باب الاحتياط ليوم تَتَغَيَّر فيه الأجواء وتَختَلِف - وكله جائز!

وهكذا فإن الولايات المتحَدة في دِفاعها عن نفسها لا تَتَسابَق مع طَرَف، وإنما هَي تَمنَع كل الأطراف مرة واحدة!]

....

....

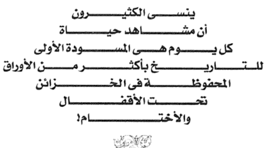
■ **المفتاح العاشر:**

أن قوة الولايات المتحدة - المجتمع والدَولة - عندما نَمَت وزادَت وتَراكَمَت، أصبح عليها أن تخرج من عُزلتها وأن تَتَوَسَّع بالمصالح والنفوذ إمبراطورياً، وتلك طبائع الأشياء بعد قوة الأشياء.

لكنه كان لافتاً أن أمريكا شارَكَت في الحربَين العالَمِيَّتين الأولى والثانية بغير نظرية أمن!

وكانت تلك أول إمبراطورية في التاريخ لديها نظرية مصالح - وليس نظرية أمن - ذلك أنه في غياب «التهديد» لا يُوجَد مَطلب «أمن».

وعلى سبيل المثال فإنه خلال حَربَين عالمِيَّتين، لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية في أي وَقت مُعَرَّضة لغزو، ولا كانت مدينة من مُدُنها مَكشوفة أمام طَيَران مُغير.



وفي أوروبا مثلاً ضُربَت كل العواصم، بل واحتل مُعظمها: باريس - روما - أثينا - فيينا - وارسو - براج - برلين - وفوقها نصف موسكو على الأقل. ونفس الشيء عَواصم آسيا، وفي مُقدمَتها طوكيو وبكين وسنغافورة!

لكن نيويورك وبوسطن وواشنطن وشيكاجو ولوس أنجلوس وسان فرانسسكو ونيو أورليانز ظَلَّت طوال سنوات الحرب تُمارس حياتها العادية، ولا يَشغلها خطر أو مَظنَّة خطر.

يُلفت النظر أكثر في غلبة «نظرية مَصلحة» وغياب «نظرية أمن» - أن الولايات المتحدة الأمريكية اتخذت قرارها بدخول الحربَين العالمِيَّتين بناء على حسابات هادئة باردة تجرى تقديراتها من بعيد، وتُدَقِّق وتَختار لحظتها المناسبة، وحين تكون الضرائب أقل والفوائد أكثر.

● ففي الحَرب العالمية الأولى ظلت الولايات المتحدة تُتابع ما يجرى على المسرح الأوروبي - ثم قَرَّرَت الدخول سنة ١٩١٧ - وكانت نهاية الحرب سنة ١٩١٨.

● وفي الحَرب العالمية الثانية ظلَّت الولايات المتحدة تنتظر حتى بَعثرَ «هتلر» جيوشه في القارة الأوروبية وشمال أفريقيا، وأكثر من ذلك تَوَرَّط في بحر الثلج الروسي بغَزوه للاتحاد السوفيتي أول أغسطس سنة ١٩٤١. وبعد خمسة شهور، وعلى استحياء بعد الغارة اليابانية الشهيرة على الأسطول الأمريكي في «بيرل هاربور» - دَخَلَت أمريكا الحَرب العالمية الثانية يوم ٧ ديسمبر ١٩٤١ - وكانت هزيمة جيوش المحوَر في ذلك الوقت مُحَقَّقة - شِبه مَضمونة تَقريباً.

....

....

[وكان دخول الولايات المتحدة إلى حَرب إرث الإمبراطوريات القديمة تَطبيقاً رائعاً لإستراتيجية كان يُمارسها القُرصان الشهير الكابتن «مورجان» (في القرن السابع عشر) - وكان الكابتن «مورجان» يرى أن «القُرصان العظيم» هو ذلك الذي يُهاجم «القراصنة الصغار» العائدين بغنائمهم من مُهاجَمة السُفُن المتَناثرة في البحار، أو الراجعين بعد الغارات على الموانئ المصَدِّرة للذهَب في البحر الكاريبي. كان رأيه تَرك «القراصنة الصغار» يقومون بالعَمَل القَذِر، ثم الاستفراد بهم وهُم مُحَمَّلون إلى الحافة بالغنائم. وكذلك فَعلَت الولايات المتحدة. فهي لم تَذهَب لتَستَولي على المستعمرات واحدة بعد واحدة، وإنما انتظرت لتَرث الإمبراطوريات. كذلك إستراتيجية الكابتن «مورجان» (وهو الأصل والأساس في عائلة «مورجان» المهاجرة من مُقاطَعة «ويلز» الإنجليزية، والتي مَلَكَت ولا تزال بعضاً من أكبر البنوك والمؤسَّسات المالية الأمريكية).]

....

....

■ **المفتاح الحادي عشر:**

أنه إذا لم تكن للولايات المتحدة «نظرية أمن قومي» لغياب تَهديد يمس الوَطَن حدوداً وعُمقاً - كما هو شأن أوطان العالَم ودُوَله - وإذا كانت



للولايات المتحدة «نظريـة مصالـح قومية» فقط - فإن هذه مُقدمة تترتب عليها نتيجة شديدة الأهميـة، بعيـدة الأثـر، وتلك هى غيـاب «الوَطَنيَّة» بالمعنى المتعارَف عليه فى أوطان أخرى وتواريخ مُختلفة. ذلك أن حَيَويَّة الوَطنيَّة فى بَلَـد من البلدان فى أى مكان وزمـان هـى نتيجة لتهديد مباشر يَمس هَويَّته أو أرضه أو استقلاله. أى أن التهديد أو احتمال التهديد هو الذى يَخلق ردَّة الفعل والمقاوَمة، وتلك شرارة الوَطنيَّة. وأما إذا كانت المشكلة طلَب المصلحة، وليس رَدُّ التهديد - فإن المصلحة لها دَواع وحوافز ومُحركات من نوع مُختلف لا يَعرف الصمود إلى النَفَس الأخير - ولا الاستعداد للتضحية - ولا القبول بالشهادة.

وربما أن ذلك هو التفسير المقنع للحقائق الظاهرة - والمؤثرة - على السياسة الأمريكية، خلافاً لدُوَل كبرى وإمبراطوريات سَبَقَت فى التاريخ:

ــ الشعور بالطمانينة، والرغبة فى مُتابَعة صراعات الآخرين أو حتى إدارتها من بُعد.

ــ الدخول فى المعارك عندما تميل الموازين إلى الرُجحان، ويفوت وقت التضحيات الكبرى، ويَحين وقت تقسيم الغنائم الكبيرة.

ــ التَرَدُّد فى مواجهة الموت لأن الدفاع عن المصالح - خلافاً للدفاع عن الأوطان - لا يَعرف الصمود والتَضحية والقبول بالشهادة - لأنه إذا كانت المسالة مصالـح فالكل يريد أن يَعيش حتى تَتَحَقَّق المصالح، وليس لديه استعداد دون حافز يُسابق به إلى الموت ثم يفوز غيره بالجائزة.

....

....

[ولعل ذلك يُفسِّر عُقدة فيتنام حتى الآن فى الولايات المتحدة. ومن المفارقات أنها الحَرب الوحيدة الفكرية، أو المبدئية، أو العقائدية - التى دَخَلَتها الولايات المتحدة الأمريكية فى تاريخها وخَسرَتها - لأنها نوعٌ من الحروب لا تعرفه أمريكا ولا تُمارسه، وهى من الأصل لم تُؤمن به لأن الظروف لم تُلجئها إلى هذا الإيمان!

ثم إن ذلك أيضاً هو التفسير المعقول لكَون شاب مُتَهَرِّب من خدمة العَلَم، وهو «بيل كلينتون»، أصبح رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية رغم أن تَهَرُّبَه من الخِدمة كان مَعروفاً ومَشهوداً!]

....

....

■ المفتاح الثانى عشر:

أنه إذا كان ذلك كله صحيحاً - وهو كذلك فى الغالب - إذن فإن «نظرية المصالح» لابُد أن تَجد لها فى ممارسة الصراعات وسائل أخرى لا تَحتاج إلى الصمود - ولا تنتظر التضحية - ولا تُلاقى الشهادة.

ومعنى ذلك أن عليها أن تُمارس صراعاتها أو حروبها بوسائل مُبتَكَرة، أهَمُّها أن تكون المَعارك عن بُعد، وأن يَتَحَقَّق النصر بغير دَم أمريكى، لأن الدَم الأمريكى قد يَسيل - إذا سالَ - دفاعاً عن وَطَن وليس دفاعاً عن مَصلحة! (وهنا فسوف يكون السؤال باستمرار: أى مصلحة ؟ ثم مصلحة مَن ؟ وأين الغنيمة فى النهاية ؟)

هكذا ظهَرَت ومُورسَت إستراتيجية «مصالح أمريكية» راحَت تَرسم خُطَطها، وتجرى تَحرُكاتها خُطوة بعد خُطوة!

● وكانت البداية الافتتاحية للإستراتيجية العالمية للولايات المتحدة سُفُناً تَستكشف الشواطئ حاملة مُنتَجات وسلعاً (عبر الأطلسى نحو شمال أفريقيا على طول شاطئها من الدار البيضاء إلى الإسكندرية من أواخر القرن الثامن عشر).

● والخطوة الثانية بعثات تبشيرية تنادى بنقاء دينى لا تُؤثر عليه صراعات الكنائس والملوك فى أوروبا (تَواصَلَت هذه البعثات التبشيرية الأمريكية طوال القرن التاسع عشر - من أعماق الصين إلى أعماق صعيد مصر).

● بعد البعثات التبشيرية، وامتدادا لها، بعثاتٌ تعليمية (وكذلك ظهَرَت طوال القرن العشرين جامعات أمريكية يَستَحق بعضها الاعتراف له - مهما كانت الأسباب الدَاعية إليه - بأن نتائجه ساعَدَت على كثير من التنوير - خصوصاً فى بيروت والقاهرة).

● بتَدبير - أو من غير تَدبير - إعلام قوى خصوصاً بالصُوَر، وبالذات بعد ظهور السينما، يَنقل إلى الدُنيا نوعاً آخر من الحياة الجَذابة، وأصبحت قَلعَته «هوليوود».

● نداء مُستَمر إلى أكبر عُقول العالَم فى كل التَخَصُّصات لكى تَذهَب إلى أمريكا، بغواية أنه هناك وليس هنا يُوجَد المجال الحقيقى لهذه العُقول لتَعمَل وتُبدع وتُطل على العالَم من أوسَع نوافذه، وتَعود إليه من أوسَع أبوابه (وتلك حَرب استنزاف تاخذ من بقية العالَم قُدراته الخَلاقة).

● مُخابرات لم يَعرف العالَم مثيلاً لوَسائلها ومَواردها، لأن المطلوب منها أن تَلمَح أى عائق يَعتَرض المصالح الأمريكية - ثم تَتَكَفَّل بالقضاء عليه (بالانقلاب من الداخل) قبل أن يَستَفحل ضَرَرُه. والمخابرات الأمريكية لا تَنشَط ضدَّ العَدُو فقط - بل ضدَّ الصَديق مع العَدُو (وكانت العَمَليَّة «إيشلون» - ولا تزال - تُركِّز هَمَّها للتَجَسُّس على أسواق لندن وباريس وبرلين - فأسرار الشركات فى هذه العَواصِم أكثر أهَميَّة من أسرار الحكومات).

● العَمَل على تَطوير أسلحة مُتَقَدِّمة تَدخل للقتال إذا فَرَضَته الظروف - على أن يكون القتال من بعيد - ثم يَدور ويُحَقِّق كامل أهدافه بغير دَم أمريكى قَدر ما هو مُمكن.

● وفى تَطوير هذه الأسلحة المتَقَدِّمة - بعيدة المدى - فإن الإمكانيات الأمريكية تَقدر على تحقيق سَبق تَنقَطع أنفاس الآخرين دونَه ثم لا يَبلغونه، ويَكتَشفون بعد فوات الأوان أنه كان سِباقاً إلى الإفلاس.

● وفى أثناء ذلك كله وخلاله - وقبله وبعده - سَيطرة على الموارد الرئيسية للعالَم كله عن طريق شبَكة مَصالح مُعَقَّدة تَتَوَلَّى حماية الموارد البحرية - وتامين الأجواء - وتَكفُل وجود محطات محَليَّة ومامونة لتَقوم على حماية المصالح (شُرطة إقليمية) وهى محطات يمكن تزويدها بالسلاح وبالمال وبالخِبرة دون داعٍ لوجود أمريكى مباشر فى ساحات الصراع (وإسرائيل هى النموذج الأشهَر).

● تَرويج لأسلوب حياة مُعَيَّن هو أسلوب الحياة الأمريكية، وإذا كانت أمريكا لم تُنتج ثقافة تُصاحِب القوة وتُثبِّتها، فإنها تستطيع أن تُغرى العالَم بأسلوبٍ ابتدعته، والمنطق فيه أنه «إذا تَصَرَّف الناس على مثالك فى حياتهم، واستعملوا مُفرَداتِك فى خطابهم - إذن فقد قَبِلوا رسالتَك طواعِية» - وذلك أكفا أنواع التأثير - وبعد ذلك فهى الحَرَكة السريعة، والطعام السريع، والصُوَر السريعة، وحتى الملابس السريعة تُوضَع وتُخلَع فى طرفة عَين!

□

وكانت تلك المفاتيح - دَستة مفاتيح - حَصيلة نِصف قرن تقريباً - تَكَرَّرَ فيه عُبور المحيط أربعًا وعشرين مَرة، ولعلها أفادَت من حقيقة أن العالَم العَرَبى كان الساحة الأهَم لمطالب الإستراتيجية الأمريكية - ومع ذلك ظَلَّ وحتى النهاية يَظهَر لى، وكان ما لدىَّ مَحصورٌ كله فى مجال التوصيف لم يَنفذ بعد إلى مجال التحليل.

فهى إذن مَعرفة ناقصة مهما كانت مساحة الزَّمَن الذى تَوَفَّر لها، ومهما بَلَغَت دَرَجَة الجُهد الذى بُذِلَ فيها، وضِمنه عُبور المحيط أربعا وعشرين مَرة، وكلام، وحِوارات، واتصالات (ومُفاوَضات فى بعض المرات). ■

٤

مشاهد الهجرة والإمبـــراطـــــوريـــة

■■ عُبوران للمحيط فى البداية للاستكشاف، وأربعة وعشرون فيما بَعد، ثم عُبور لثلاث مرات حَكَمَتها مقولة أنه «لا أحد يستطيع مُقاطَعة أمريكا» - والمجموع كله تِسعة وعشرون عبوراً.

وهذه المرة الأخيرة - نهاية الربيع وبداية الصيف من سنة ٢٠٠١ - وَقَعتُ بالمصُادفة البَحتة على كتاب لَفتَ نظرى عنوانه - وراجَعتُ فِهرسه، وأخَذتُه معى، ومَرَرتُ على فصوله فى ساعة، ثم تَوفرتُ على قراءته تفصيلاً وتدَقيقاً فى بضع ساعات، وكان شعورى أن الكتاب يَطرَح على قارئه طريقة مُعَيَّنة فى تحليل أمريكا - وليس مُجَرَّد تَوصيفها، مع وُجود تَداخُل بالطبع بين التَحليل والتَوصيف. وتَوافق وُصول الكتاب إلىَّ مع لحظة تَزايَدَ فيها إحساسى بأن هذا البَلَد يَحتاج إلَى مَن يَغوص فيه عُمقاً ليَبحَث عن البُذور والجُذور، ويَنظر فى التركيب النفسى لهذه القوة الجديدة التى نَمَت تحت سَمع الدُنيا وبَصَرها، ولم تَكن مثل غيرها من القوى التى نشأت فى أعماق الماضى، وقرونه الغابرة التى تَباعَد عنها الزَّمَن، بحيث شَحبَت الوقائع، وخَفَتَت الأصوات.

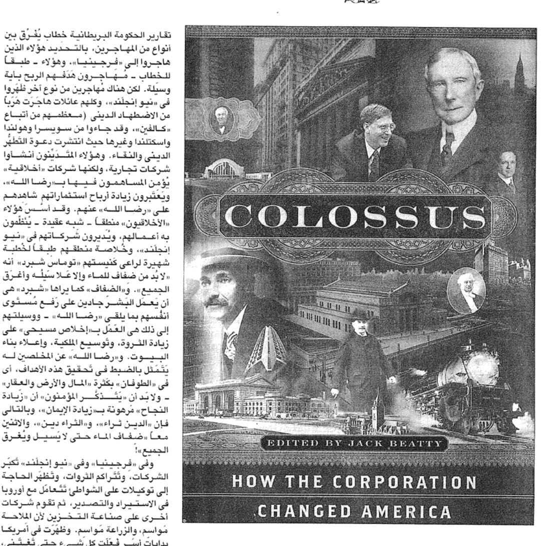
وكانت الإمبراطورية الأمريكية ظاهرة مُختلفة - فقد نَشأت تحت سَمع وبَصَر عالَم دَخَلَ عَصر النَهضة بكل وسائله وأدواته المعرفية، وتحت مُتابعة ورقابة القوى الإمبراطورية التى تَحَكَّمَت اقتصاديا وسياسياً من معقلها الأوروبى - فى قارات العالَم القديم، وخصوصاً آسيا وأفريقيا - ومع ذلك فإن المسعى الإمبراطورى الأمريكى استطاع أن يُغافِل الجميع ويَسبق، ويَاخذ من الإمبراطوريات القديمة ما عندها ويُضيف عليه، ويَتَمَلَّك ويَحتَكر فى سنواَت. وبينما كانت الإمبراطوريات القديمة ما زالت تَتَوَهَّم أن مَقادير العالَم فى يَدِها - إذا أمريكا فجأة وفى أقل من نصف قرن (وتلك طَرفة عَين فى التاريخ) تزيح الجميع وتُسَيطر، حتى وإن جاءت سَيطرتها قليلة الحكمة، ثقَيلة اليَد، لا تُدرك أن الإمبراطورية فَنٌ، وأن القوة وحدها حَماقة!

....

....

والشاهد أن الكتاب الذى أتحَدَّث عنه عنوانه يمكن تَرجَمَته بـ«العملاق»، أو بـ«المارد»، أو بـ«الطَوْد»، وأى وَصف غير ذلك يُفيد مَعنى زيادة الحجم، مُتَرافِقة مع زيادة القوة، والعُنوان هو Colossus - وقد صَدَرَ سنة ٢٠٠١ فى نيويورك، وهو فى ٥٠٦ صفحات على ٣٨ فصلاً، وشارَك فى وضعه أكثر من ثلاثين مُؤلِفاً، قام بعضهم على كتابة أكثر من فصل فيه، وقَصدُهُم أن يَكون نظرة بالعُمق على نشاة الدَولة والقوة الأمريكية. ومن جانبى فقد أحسَستُ طوال قراءة الكتاب أننى أمام عملية تحليل نفسى دَقيق - مُضىء وكاشف للتَجربة الأمريكية. واللافت للنظر فى فصول الكتاب أن مُؤلِّفيه علَى اختلاف مَواضع اهتمامهم تَوافقوا فيما بينهم على أسلوب يَستَخدم التَوثيق الاجتماعى الذى تَكمُن أهميَّته فى خُلُوِّه من الأسرار والخبايا، وفى أنه يَرجع إلى مصادر أتيحَت لكل الناس، ولم يَتَوَقَّفوا طويلاً عندها لأنها من مَشاهِد حياة كل يوم، وفى ذلك يَنسى الكثيرون أنَ مَشاهِد حياة كل يوم هى المسودَّة الأولى

ذهب أحد أصدقاء الرئيس الأمريكى الأسبق «تيودور روزفلت» يلفت نظره إلى ضرورة عمل شىء، وكان رد «الرئيس» بعبارة صارت مثلاً فى التاريخ الأمريكى الحديث: «أنت تريدنى أن أمارس الحب مع فيل»!



للتاريخ بأكثر من الأوراق المحفوظة فى الخزائن تحت الأقفال والأختام!

والمشاهد التى تَوَقَّف أمامها المؤلِّفون كثيرة، وكلها أشبَه ما تكون بطبَقات، فوقها طَبَقات، وتحتها طَبَقات، وتكاد كل واحدة منها أن تكون قناعاً يَنزاح فتُسفر وراءه لَمحة من وجه الحَقيقة التى صَنَعَت التركيبة النفسية للقوة الأهَم فى التاريخ وفى الدُنيا:

■ مَشهد:

أن المهاجرين الأوَل إلى أمريكا أذهلهم ما وَجَدوه من ثراء مُكَدَّس لا يَخطر على البال، وأبلغ تَصوير لذهول المهاجرين الأوَل يَرد فى حوار مَشهَد مَسرَحى لرواية عُرضَت - سنة ١٦٠٥ - فى لندن على «المسرح الشرقى»، وعنوانها «فرجينيا: فردوس العالَم الفريد» - والإشارة واضحة إلى أقاليم (ولاية) فرجينيا، وكانت من أول مَواطن الهجرة إلى أمريكا، وأصبَحَت أشهَرها، والسبب كما يَرد فى سياق المسرحية يَظهَر فى حوار بين اثنين من أبطالها، أحَدهما كان اسمه «سكابتريست» والثانى «سيجال» - والحِوار يَجرى على النَحو التالى:

«سكابتريست: ولكن قُل لى يا كابتن.. هل الكنوز وفيرة على هذا النحو هناك كما سَمعت؟

سيجال: اسمعنى أقول لك. الذهَب هناك أكثر من النحاس هنا. الذهَب بالأكوام حيثما نظرت. كل الأوانى من الذهَب. كل شىء.. كل شىء مَصنوع من الذهَب حتى سلاسل الأسرى. وأما المجَوهرات فهى مَنثورة حيثما أدرتَ البَصَر، حتى على ملابس الأطفال هناك: مُرَصَّعة بياقوت وزُمُرُّد يَخطف بَصَرَك إذا التفت إليهم!»

■ مَشهَد:

يكتشف المهاجرون الأوَل - حتى فى فيرجينيا - أن الموارد الطبيعية لها قيمة تَستطيع إنتاج ثراء يَفوق كل ما يَلمَع من ذهَب سلاسل الأسرى، وياقوت وزُمُرد ملابس الأطفال - ثم إن الجُهدَ المطلوب لتحقيق هذا الثراء بسيط، وإن كان يَحتاج بسرعة إلى رأس مال يَتَمَثل فى أدوات للزراعة، وللبناء، ولتَمهيد الطُرُق، وكلها لا بُد أن تَجىء من الشاطئ الآخر للمحيط. وذلك مُمكن لأن الذين سَمَعوا عن مَوارد العالَم الجديد مُستعدون للاستثمار فيها، لكنهم لبُعد المسافات يُريدون ضمانات، وأول الضمانات تنظيم مَضمون لحَرَكة أموالهم، يَصون لهم حَقَّهم فى الأصل وأرباحه - ويَضبط مَحدوديَّة خسائرهم إذا وَقَعَت. وهنا يَظهَر سنة ١٦٠٧ إطار الشركة المساهمة - شركة «فرجينيا» - يُديرها من بَعيد مُفوَّضون عن مُلاكها، ويكون عليهم نوع من نظام يُتابع، ويَتَأكد أن الأرباح واصلة، وأن الخسائر مَحدودة، لأن كل مُساهِم لا يَلتَزم بما هو أكثر من نصيبه فى رأس المال.

ويقول كاتب هذا الفصل من الكتاب: «إن من يريد أن يَفهَم أمريكا عليه أن يَدرس بعناية فكرة الشركة المساهمة المحدودة». ثم يضيف: «إن بداية الولايات المتحدة الحقيقية كانت شركات من نوع شركة «فرجينيا». وكان رأس مال شركة «فرجينيا» مائة ألف جنيه إسترلينى (بقيمَة نقود ذلك الزمان)، وكان أحد المساهمين البارزين فيها السير «فرانسيس بيكون» (الوزير الشهير فى عَصر الملكة «إليزابيث» الأولى، وخَلَفها الملك «جيمس»).

وكان أهَم ما قامَت به الشَركة شَق طُرُق واصلة إلى مُختَلَف أنحاء «فرجينيا»، وقد فَرَضَت الشركة رُسوم مُرور يَدفعها المسافرون عليها فى كل مَرة يَستَفيدون منها، وكان ذلك اختراعاً جديداً فى أداء الخَدَمات يَستَوفى ثمنها أوَّلاً بأوَّل من لحظة إنشائها.» (وكانت تلك بداية مشروعات الطُرُق الكبرى، يَدفَع تَكاليفها المستَفيدون منها كلما سافروا عليها!)»

وخلال مائة سنة كانت الشركة هى الولاية - والولاية هى الشركة: شركة «فيرجينيا».

■ مَشهَد:

يَتَنَبَّه الهنود الحُمر من سُكان أمريكا الأصليين إلى أن المهاجرين البيض الذين نَزَلوا على شواطئهم لم يَعُد يكفيهم ما امتدت إليه أيديهم من ذهَب وجَواهِر (وما خَطَفوه من بَنات ونساء!) - وإنما هُم الآن يَنصبُون خياماً على الأرض، ويَدُقُّون ويَحفُرون، وقد جاءوا بآلات وبُذور - وإذن فهى إقامة وليست زيارة. ويُورد «جاك بيتى»، وهو مُحَرِّر كِتاب «العملاق»، واحداً من تقارير شركة «فرجينيا» مَكتوباً سنة ١٦٢٤، ومُرسَلاً إلى جِمعية المساهمين بها فى لندن، وفيه بالنَص:

«إنَ الخلاص من الهنود الحُمر أرخَص بكثير من أية محاولة لتَمَدينهم. فهُم هَمَج، بَرابرة، عُراة، مُتَفَرِّقون جماعات فى مَواطن مختلفة، وهذا يَجعَل تَمَدينَهم صعباً، لكن النصر عليهم سَهل. وإذا كانت مُحاوَلة تَمَدينهم سوف تاخذ وقتاً طويلاً، فإن إبادَتَهم تَختَصره، ووَسائلنا إلى النصر عليهم كثيرة: بالقوَة، بالمفاجاة، بالتجويع، بحَرق المحاصيل، بتدمير القوارب والبيوت، بتَمزيق شباك الصَيد، وفى المرحلة الأخيرة المطارَدَة بالَجياد السريعة والكلاب المدَرَّبة التى تُخيفهم لانها تَنهَش جَسَدَهم العارى.»

■ مَشهَد:

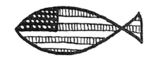
فى خِطاب بتاريخ سنة ١٦٣٣ يَظهَر فى تقارير الحكومة البريطانية خطاب يُفرِّق بين أنواع من المهاجرين، بالتحديد هؤلاء الذين هاجروا إلى «فرجينيا»، وهؤلاء - طبقاً للخطاب - مُهاجِرون هَدَفهم الربح بأية وسيلة. لكن هناك مُهاجرين من نوع آخر ظَهَروا فى «نيو إنجلند»، وكلهم عائلات هاجَرَت هَرَباً من الاضطهاد الدينى (معظمهم من أتباع «كالفين»، وقد جاءوا من سويسرا وهولندا واسكتلندا وغيرها حيث انتشرت دعوة التَطهُّر الدينى والنقاء. وهؤلاء المتَدَيِّنون أنشأوا شركات تجارية، ولكنها شركات «أخلاقية» يُؤمن المساهمون فيها بـ«رضا الله»، ويَعتَبرون زيادة أرباح استثماراتهم شاهدهم على «رضا الله» عنهم. وقد أسَّسَ هؤلاء «الأخلاقيون» منطقاً - شبه عقيدة - يُنظمون به أعمالهم، ويُديرون شَركاتهم فى «نيو إنجلَند»، وخُلاصة منطقهم طِبقاً لخُطبة شهيرة لراعى كَنيستهم «توماس شبرد» أنه «لا بُد من ضِفاف للماء وإلا عَلا سَيلُه وأغرَق الجميع». وَ«الضفاف» كما يراها «شبرد» هى أن يَعمَل البَشرَ جادين على رَفع مُستَوى أنفُسهم بما يلقى «رضا الله» - ووسيلتهم إلى ذلك هى العَمَل بـ«إخلاص مسيحى» على زيادة الثروة، وتوسيع الملكية، وإعلاء بناء البيوت. و«رضا الله» عن المخلصين له يَتَمَثل بالضبط فى تَحقيق هذه الأهداف، أى فى «الطوفان» بكَثرة «المال والأرض والعقار» - ولا بَد أن «يَتَذكَّر المؤمنون» أن «زيادة النجاح» مَرهونة بـ«زيادة الإيمان»، وبالتالى فإن «الدين ثراء»، و«الثراء دين»، والاثنين معاً «ضِفاف الماء حتى لا يَسيل ويُغرق الجميع»!

وفى «فرجينيا» وفى «نيو إنجلَند» تَكبَر الشركات، وتَتَراكم الثروات، وتَظهَر الحاجة إلى توكيلات على الشواطئ تَتَعامَل مع أوروبا فى الاستيراد والتصدير، ثم تقوم شركات أخرى على صناعة التخزين لأن الملاحة مَواسم، والزراعة مَواسم. وظهَرَت فى أمريكا بدايات أسَر فَعلَت كل شَىء حتى تَغتَنى، وفى حين أن بعض طالبى الغنى طارَدَ الثراء جهاراً نهاراً بالسلاح، فإن بَعضهم استدعاه جهاراً نهاراً -! - بالصَلاة!

■ مَشهَد:

لكن الشركات (الولايات) التى تَعمَل من الشاطئ الشرقى للولايات المتحدة حيث نَزَلَت أولى مَوجات الهجرة واستقرت، ومضت تَزرَع وتُتاجر، وتَغتَنى وتُراكم الثروة - راحَت تُواجِه مشكلة تُحَجِّم نشاطها بالرغم منها، وهى مشكلة اليَد العاملة. ذلك أنه حتى قرابة سنة ١٧٠٠ - لم يَزد عَدَد المهاجرين من أوروبا عبر المحيط عن رُبع مليون مُهاجر، وكلهم يُرِيد المال والأرض والعقار، وليس فيهم أحد يُريد أن يكون أجيراً، وإلا فلماذا رَكب جبال الموج وجاء إلى أرض الميعاد.

إلى جانب ذلك فإن سُكان البلاد الأصليين من الهنود الحُمر (وممن تَتم عملية إبادَتهم لأنهم هَمَج لا يَصلحون للتَمَدين ولا للتَدَيُّن) - ليسوا على استعداد للعَمَل، ولا لخدمة هؤلاء الذين انقضوا عليهم مع أمواج المحيط.



والحَلُّ العَمَلى الذى يَطرَح نفسه هو الإتيان عن أى طريق بيَد عاملة. تَشتَغل ولا تُشارك. وتَقبَل بالقليل ولا تَنتَظر زيادة. والحَلُّ هو «العبودية». أى عَضَلات تَعمَل بطعامها وليس أكثر، وطاعة تَقبَل الأمر لأنها لُقِّنَت تحت الأسر دَرس الطاعة بالسَلاسل والسياط. وكذلك قامت فى أمريكا شركات (شركات مُساهمة أيضاً) نشاطها «تجارة العَبيد». ويُورِد «جيمس هيدجز» الذى قام على كتابة الفصل الخاص بـ«التجارة فى الأرواح» كما سَمَّاها - مجموعة من أوراق إحدى الشركات المساهمة فى هذا المجال، وقد رَكَّزَ فيها على سِجِلات سفينة الشحن «سالى» وقُبطانها «أيسيك هوبكنز».

وفى سِجِلات السفينة «سالى» تَوجيه من المُلاك («نَيكولاس» و«براد» - شركة مُساهمة) يقول للقبطان: «إننا نثق فيك وفى إخلاصك لنا، وخدمَتك لمصالحنا، ونحن نُفَوِّضك بأن تَذهَب إلى شواطئ أفريقيا (شاطئ غينيا) وتشحن سفينتك بمن تستطيع أن تَجلبهم من العَبيد «بالوسائل» التى تراها، وأنتَ مُخَوَّل أن تبيع وتشترى منهم كما تشاء فى طريق رحلتك إلى أمريكا عندما تَتَوَقَّف فى جزيرة «باربادوس». ونُذكِّرك طبقاً للعَقد بأن حصتَّك هى ٤ عَبيد لك مقابل كل ١٠٠ عَبد للشركة، مُضافاً إلى هذا نسبة ٥ ٪ من ربح الحمولة عندما يتم بيعها. ونريد أن نُذكِّرك بأن السُرعة فى هذه التجارة مطلوبة لأن الحاجة إلى اليَد العاملة ماسة!»

وضمن سجِلات «سالى» يوميات قُبطانها «هوبكنز»، وهو يكتبها بالتفصيل لتكون فى علم المساهمين عندما يَتَحاسَب معهم على حَصيلة أرباح رحلته:

- «قَدَّمتُ لشيخ القبيلة «جالون» من (مَشروب) الروم مقابل «عَبدة - فتاة»!

- دَفَعتُ ٧ جنيهات لشراء صَبى.

- اشتريت ٥ عَبيد صالحين للعَمَل هذا اليوم بعد الظهر مقابل بَصَل وسُكَّر وروم للجَلاب.

- حُمولتنا الآن ١٩٦ عَبداً.

- واحدة من العَبيد شَنَقَت نفسها.

- ثلاثة عَبيد قفزوا إلى البحر ولم نستطع إنقاذهم من الغَرَق، وقَرَّرنا حَبس الباقين فى العَنبَر الأسفل للسفينة (وكنا نُخَصِّصه لبَقَرَتَين معنا) - ورَبَطنا الأسرى بالحبال.

- الحُمولة الآن كاملة العَدَد وزيادة -! - وسوف نَبدَأ رحلة العَودة نحو الكاريبى غداً.

[وفى سِجِلات «فرجينيا» و«نيو إنجلَند» و«ماساشوستس» فى ذلك الوقت (أول القرن الثامن عشر) أربعمائة شركة فى تجارة العَبيد تَملك حوالى ١٢٠٠ سفينة - غير مِئات الشركات ومِئات السُفُن تَعمَل من أوروبا.]

■ مَشهَد:

سنة ١٨٠٠، ومع بداية القرن التاسع عشر - أى بعد قرن كامل من تأسيس الشركات المساهمة المتاجِرة فى العَبيد - سواء تلك التى عَمَلَت من أمريكا - أو التى تَعامَلَت معها من أوروبا ومن شواطئ أفريقيا - وَصَلَ عَدَد العَبيد الذين حَمَلَتهم السُفُن عبر المحيط إلى ثلاثين مليونا من البَشَر - من الأرواح. هذا غير عَدَد غير معروف - بالملايين - ماتوا فى السُفُن وألقيَت جثثهم فى المحيط طعاماً للحيتان. ويَنقل كاتب الفصل الخاص بالعَبيد فى كتاب «العملاق» - عن كتاب آخر سَبَقَه - صفحة كاملة وَجَدها أكثر دقَّة وأمانة فى التعبير، والكتاب السابق عَنوانه «دور العُبودية فى نُمُو مُستَعمرة (ولاية) نيو إنجلَند: مُحَرِّكات النُمُو». وفى الصفحة (٢٥٤) يَرد ما يلى بالنص:

«سنة ١٧٧٠ كانت مُستَعمَرة (ولاية) نيو إنجلَند أغنى مناطق أمريكا. وقد كانت بالفعل قصَّة نجاح رائع، وطاقة فى الإنتاج لا مثيل لها. وكان مُحَرِّك النُمُو هو العَبيد الذين كانوا العُنصُر الفاعل على الأرض وفى المصانع، والتِرس الدَوَّار فى عَجَلة التجارة والتصدير إلى أوروبا وغيرها: كان العَبيد هُم أساس الزراعة، وعماد الصناعات القائمة عليها مثل السُكَّر والتَبغ، وغير ذلك من المنتجات الأخرى.»

وتَختم الصفحة المستعارة من كتاب سابق قائلة: «باختصار كانت العُبودية هى المولِّد الأكبر للثروة الزراعية والصناعية والتجارية. وبرغم أن عَدَد تُجار العَبيد فى «نيو إنجلَند» لم يكن كبيراً، فإن كل التجارة بعُموم اعتمدت إلى آخر حَد على عَبيدِهم (عَبيد هؤلاء التُجار).»

ثم بَدَأت الأصوات تَرتَفع بـ«لا إنسانية تجارة العَبيد» عندما ظَهَرَت قوة البُخار - بَعدها وليس قبلها - فتلك طاقة أقوى من عَضَلات العَبيد مئات المرات، ومُحَرِّكاتها لا تَحتاج إلى وَجبات طعام أو حَظائر نوم، أو حراسة ليل ونهار تَضمَن أن لا يَهرَب العَبد أو يَنتَحر (وكانت نِسبة الهَرَب أو الانتحار أعلى بين النساء منها بين الرجال).

ويبدو أنه فى تلك الفترة ظَهَرَت وانتشرت أدَبيات واسعة تُعارض تحرير العَبيد أو تَقييد «التجارة فى الأرواح». وكانت الحُجَج الأكثر تَرَدُّداً وتكراراً:

« - إن استعمال البُخار ليس له أن يُنهى دور العَبيد فى الإنتاج، فهذه وسيلة، وتلك وسيلة، وكلتا الوسيلتَين تُؤدِّى دَوراً يَتَكامَل - ولا يَتَعارَض - مع الأخرى.

- وإذا أوقف التُجار الأمريكيون تجارتهم فى العَبيد فإن غيرهم من جنسيات أخرى سوف يَحصُلون على الفائدة، والأرباح.

- والقيود على تجارة العَبيد سوف تكون وبالاً على هذه «الأرواح» التى لا تَعرف ماذا تفعَل أو كيف تَعيش إذا رَفَعَ «السَيِّد» يَدَه عن «التجارة» فيها.

- إن السُلطات لا يَصِح لها أن تَتَدَخَّل فى حرية التجارة بأى شكل من الأشكال، لأن ذلك يَتَعارَض مع الفكرة الرئيسية التى قامَت عليها أمريكا، وهى الحرية - حتى من القانون (وضِمن حُجَج المنطق أنه لا يَصِح لأحد أن يَنسى أن ضيق أفُق القانون كان مشكلة المشاكل فى العالَم القديم)».

■ مَشهَد:

وبرغم وَصيَّة «واشنطن» لأمريكا أن تَبتَعِد عن أوروبا - فإن أمريكا مع مَطلَع القرن التاسع عشر اقتربت لكى تكون أكبر مُستَفيد من مصائب أوروبا. وكانت تلك فترة الثورات الكبرى، وزَمَن حُروب «نابليون» الطاحنة، ومَسرَح عَمَليات المطاردة البحرية والحصار حول القارة الأوروبية. لكن السُفُن الأمريكية شراعية - وبُخارية فيما بعد - كانت لها ميزة «الحياد»، فهى بعيدة لا تَطولها المعارك ولا إجراءات الحصار، والسُفُن التى تَحمل الأعلام الأمريكية لا شأن لها بصراعات أوروبا التى كانت لدُوَلها وشركاتها وأفرادها استثمارات واسعة فى العالَم الجديد تَحرص عليها وتُحاول إخراجها من دائرة النزاع والخَطَر. وفى هذه الحقبة من الاضطراب فى أوروبا تَمَكَّنَت التجارة الأمريكية من السيطرة على الملاحة فى المحيط الأطلسى، وبَنَت لنفسها فوق الموج سعَة سُفُن تَزيد عما تملكه بريطانيا أو فَرنسا، وكان ذلك خروجاً كثيفاً إلى أعالى البحار - زادَت مُعَدَّلاته بعد شَقّ قناة «بناما» لأن السُفُن الأمريكية أصبحت قادرة على الانتشار فى المحيط الهادئ نفس قُدرَتها فى المحيط الأطلسى.

وبذلك فإن المحيطات الحامية لأمريكا لم تَعُد مساحات شاسعة فقط، وإنما أصبَحَت أيضاً مَناطق مأهولة - أمريكياً - لأن أساطيل أوروبا بَقيَت قريبة من شواطئها تُمارس الحصار أو مَحصورة هى نفسها - بينما أصبح العَلَم الأمريكى فى الأطلسى عَلَم الملاءمة، تَتَحَرَّك تَحته البضائع بحُرِّيَّة، وتَتَوَقَّاه أعمال المصادَرة، لأن الكل يَستفيد منه أو يُحاول أن يَستفيد!

■ مَشهَد:

وعندما جاءت قُوة البُخار - كان أول قادِم بَعدها هو القطار، وكان بناء السكك الحديديَة فى أمريكا. ويَكتب «جاك بيتى» مُحَرِّر كتاب «العملاق» أن مَدَّ خطوط السكك الحديدية كان هو «قاهر المسافات ومُوَحِّد الأرجاء» على اتساع قارة بأكملها.

كانت أمريكا منذ البداية كنزاً هائلاً - لكن حَجمه كان مشكلة لأن النفاذ إلى عُمقه كان يَمشى بسرعة الحَيوان، ومَداه الأسرَع هو سعَة رئة الحصان - فلما جاء القطار البُخارى على البَرّ ومعه السفينة البُخارية فى النَهر والبُحَيرة استسلمت القارة بأكملها للاستغلال والاستثمار، للإنتاج وللتَوزيع، وعندما لَحَقَ بَرقُ التلغراف بطاقة البُخار تَحَوَّلَت القارة إلى شَبَكة اقتصادية ومالية واحدة مع حَجم لم يُعرَف له فى العالَم مثيل، وذلك طبيعى لأنه لم يَحدُث من قبل أن انفتحت قارة كاملة بكل مَواردها وكل طاقاتها على هذا النحو. وشاعَت فى تلك الأيام مَقولة أن «صوت قطار السكَّة الحديد هو نبض القارة الأمريكية - يَدُق»!

وكان الفضاء الأمريكى أكبر مُشَجِّع ومُناد لقوة البخار - وكان أن الميكَنة بتفاعُلها مع هذا الفضاء الأمريكى تُمارس صُنع مُعجزة فى الإنتاج تَجاوَزَت كل التَوَقُّعات.

ثم كانت الحَرب الأهلية الأمريكية هى القبضة التى كَسَرَت آخر الحواجز على أرض القارة، لأن الحَرب الأهلية عَبَّأت قُوى، وخَلَقَت صناعات ضرورية - مَدَنيَّة وعَسكريَّة، وضمنها ثورة فى صناعة النسيج حتى يَلبس الجنود فى الصيف وفى الشتاء، وكانت الإضافة الأكبر فى صناعة النسيج أن الأطفال أصبحوا عُمَّالها - لأن الرجال كانوا فى الحَرب، والنساء فى المزارع - خصوصاً مَزارع القطن.

وحين سَقَطَت آخر الحَواجز فى القارة بين الشمال (الصناعى) والجنوب (الزراعى) - وعادَ الرجال من ميادين القتال - كانت الرأسمالية الأمريكية جاهِزة لأداء دَورها فى سوق اتسع بما فاق الخيال، وساعَدَتهُ ثروات راكَمَتها فُرصة التجارة أثناء انشغال أوروبا بصراعاتها - وفُرصة الصناعة التى اقتضتها ضغوط الحَرب الأهلية - وفُرصة الضرورات التى قَضَت أن يَعمَل كل السُكان - حتى الأطفال.

■ مَشهَد:

كانت الرأسمالية الأمريكية من طراز مختلف عما عَرَفتهُ أوروبا أو آسيا - فهذه رأسمالية جديدة، عاملة، ومقاتلة، بل وعُدوانية، وليست رأسمالية إقطاعية ووراثية وعلى مَشارف الانحلال. فالرأسمالية الأمريكية راكَمَت ثرواتها من أرض الهنود الحُمر التى صادَرَتها وزَرَعَتها، ومن جهد العَبيد الذين جَلَبَتهم ورَفَعَت سَوط الجَلاد فوق ظهورهم، ومن تجارة المحيط التى سَيطَرَت عليها فى غَفلة من أوروبا، ومن مَوارد قارة شاسعة وغَنيَّة وَصلَت خطوط السكك الحديدية إلى كل

السياسة الأمريكية
راحت تبشر وتدعو إلى
«اقتصاد السوق». ثم إن
«اقتصاد السوق» تحول إلى «مجتمع السوق».
ثم إن «مجتمع السوق»
تحول إلى
«عالم السوق»

العداء لأمريكا.
وهو أسهل المواقف.
فى هذه الأزمنة خطأ كبير لا تحتمل مخاطره،
والوقوع فى غرام أمريكا خطأ
أكبر لا تحتمل خسائره

أرجائها طولاً وعَرضاً، وجَعَلَتها سوقاً واحدة - ثم إنها كانت رأسمالية لها «قلب من حديد» لم تُؤثر عليه الثقافة - كما حَدَث فى أوروبا - فلم يَلِن لصَوت الموسيقى، ولم يَتأثر بَمسرَح النهضَة، ولم يُجَرِّب المتعَة إلى دَرَجة الانحلال فى قُصور أسَر أوروبا الحاكمة مثل آل «هابسبورج» وآل «رومانوف» وآل «بوربون».

وفى حين أن الرأسمالية الأوروبية الإقطاعية الوارثة قاوَمَت انتشار التعليم - فإن أول ذكاء الرأسمالية الأمريكية إدراكها لأهمية التعليم بمنطق أن «أى عامل يَتَعلَّم له قُدرة إنتاجية أكثر من عامِل جاهِل» - وكان المهم هو ماذا يَتَعلَّم ؟!

ويَنقل واحد من مُؤلِّفى كتاب «العملاق» صفحة من كتاب يَدرُسه تلاميذ المرحلة الابتدائية ضمن مَنهَج بدأ تَعميمه فى ولاية «نيو إنجلَند» سنة ١٨٣٣، والصَفحة على شكل أسئلة وأجوبة تجرى على النحو التالى:

«س: لنفرض أن الرأسمالى الذى يَستَثمر أمواله حَقَّق أرباحاً كبيرة، فهل هذا يضِر بالرَجُل العامل ؟

ج: بالعَكس .. ذلك يُساعده على أن يَدفع أجوراً أحسَن لعُمَّاله.

س: ما هو الأفضل.. أن يَدَّخِر رَجُل غَنى أمواله ليَستَثمرها، أو يَصرفها على هَواه ؟

ج: بالطبع يَدَّخر ويَستَثمر.

س: هل يُمكن أن تَشعُر بالأسف لأن رَجُلاً حَقَّقَ أرباحاً طائلة ؟

ج: بالعكس .. سوف أكون شديد السعادة.

س: ما الذى يُحَوِّل رَجُلاً من عامِل إلى رأسمالى ؟

ج: أن يَدَّخر».

وهكذا سُؤَال وجَواب ملء صَفحة، وملء كتاب بأكمله!

وهنَا كانت أمريكا تُقَدِّم نموذجاً جديداً فى «تَرويض الوَعى» يَبدَأه التعليم - ثم تَجربة العَمَل - (وفيما بَعد جاء دور الإعلام).

■ مَشهَد:

كانت الرأسمالية الأمريكية تَنمو وتَنمو، وكانت قُدرَتها على التنظيم خُرافية لأن المجال أمامها مفتوح للتجديد والنُمو، والاندماج فى وحدات لها قوة دُوَل. وهكذا ظهَرَت دَولة «روكفللر» تحت اسم «ستاندارد أويل»، وتَمتَلك النصيب الأكبر من بترول أمريكا الشمالية، ثم راحَت تَنزل على أمريكا الجنوبية وتَكاد تُحَوِّل فنزويلا إلى مُستَعمَرة لإمبراطورية «روكفللر» الذى كان شعاره «إن الله أعطانى ثروتى وليس من حَق بَشَر أن يَعتَرض على إرادة الله».

وفى فصل كَتَبَه المؤَرِّخ الإنجليزى الشهير «بول جونسون» - ضمن فصول كتاب «العملاق» - بَدَأ «جونسون» كلامه قائلاً:

«هناك فى تاريخ أمريكا نَوعان من الآباء المؤسِّسين للولايات المتحدة:

ـــ نَوع من صانعى الاستقلال وكاتبى وثائق الدستور، قادوا مُحاولة تَطوير «الشركة» إلى «دَولة» (رجال مثل «ألكسندر هاملتون» - و«صمويل جونسون» - و«جيمس ماديسون» - و«بنيامين فرانكلين» - وغيرهم).

ـــ ونوع ثان من «البارونات اللصوص»، قادوا الرأسمالية الأمريكية وحاولوا أن يَحموا «الشركة» من طُغيان «الدولة» («روكفللر»، ثم رجال مثل «فورد» و«فاندربيلت» و«ديللون» و«راند»).

ولم يكن تعبير «البارونات اللصوص» مَجازاً بَلاغياً، وإنما كان للتعبير أصلٌ فى الحقيقة. ذلك أن الرأسمالية الأمريكية بَنَت قوتها الطالعة على عصر جديد تَحَقَّقَت كل اكتشافاته فى أوروبا، وقد أخَذَت الرأسمالية الأمريكية هذه الاكتشافات وأخضَعَتها لفكرة التنظيم الذى لا يَحدُّه قَيدٌ من عُرف أو تَقليد.

وذلك حَدَث للسيارة، وللطائرة، وللكهرباء، وللطاقة النَوَوِيَّة، وللتليفون واللاسلكى، وللكومبيوتر، وللصواريخ - وحتى لمساحيق التجميل.

ومثلاً فإن أوروبا كانت هى التى بَدَأت صناعة السيارات، لكن تَدافُعَ العُمَّال فى وَرشة وانكفاءهم لإنهاء العَمَل كان يَستَغرق ثلاثة أيام لصُنع سيارة واحدة - ثم تَوَصَّل «هنرى فورد» فى التنظيم إلى فكرة خط التجميع: مَسار واحد لهَيكل السيارة يُضيف إليه كل عامل يَمُر أمامه مُسماراً واحداً أو صامولة واحدة - وتَمَّ اختصار مُدَّة صُنع سيارة واحدة من ثلاثة أيام إلى ثلاث ساعات، وخطوط التَجميع صُفوفاً - واحداً إلى جانب الآخر - والعُمَّال لا يَتَزاحَمون أو يَنتَظر بَعضهم بَعضاً، وإنما هُم واقفون فى أماكنِهم وخَط التَجميع يَمُرُّ أمامهم، ويُؤَدِّى كل واحد منهم حَرَكَتَه بسرعة. وكان ذلك فتحاً فى وسائل الإنتاج وَصَلَ بأمريكا إلى أن تُصبح الأقوى فى العالَم صناعياً وتُجارياً.

وكانت الرأسمالية الأمريكية قد وَضَعَت لنفسها هَدَفاً صاغه «جاك بيتى» فى سؤال واحد:

«كيف يُمكن تَحويل تَرَف الرَجُل الغَنى - إلى حاجة يومية للرَجُل العادى ؟»!

وقد كان: وذلك ما حَدَث للسيارة، وحَدَث للكهرباء، وحَدَث للتليفون، وحَدَث فيما بعد للتلفزيون، والغسَّالة الكهربائية، وجهاز تكييف الهواء، والكومبيوتر.

وكذلك أصبح التَرَف الذى خَطَرَ للأغنياء حُلماً - سلعاً جاهزة تحت تَصَرُّف الأجَراء.

وكان ذلك عالَماً جديداً واعداً - وقاسياً فى نفس الوقت - لأن السيطرة على هذه السوق المتَّسعة كل يوم تحتاج وسائل مُختلفة. ويَنقل «جاك بيتى» نص خطاب بَعَث به المليونير الشهير «كورنيليوس فاندربيلت» إلى مُنافس له، مُعتَبراً أن ذلك الخطاب أبلَغ تَصوير وَقَع عليه لروح الرأسمالية الأمريكية «المتَوَحِّشة» (كذلك تَعبيره).

والشاهد أن الخطاب نَصٌ شديد الاختصار مُوَجَّه إلى شريك لـ«فاندربيلت» تَحَوَّلَ إلى مُنافس له وأقام شركة مُستَقلَّة. والنصُ كما يلى مُوَجَّه إلى مجلس إدارة الشَركة المستَقلَّة:

«السادة:

إنكم حاولتُم خداعى. ولن أقاضيكم لأن إجراءات القانون تأخذ زَمَناً طويلاً، ولهذا فإنى سوف «أخرب بيوتكم» I' ll ruin you.

المخلص: كورنيليوس فاندربيلت »

■ مَشهَد:

ومع ذلك فقد كانت الرأسمالية الأمريكية التى أكَّدَت سَطوَتَها فى حاجة إلى تَرتيبات تَحمى الثروة: نظام سياسى قوى - ونظام قَضائى أقوى - وقانون يَسرى على كل الناس (باستثناء الهنود الحُمر الذين حوصِروا فى مُستَوطناتهم، وباستثناء العَبيد الذين سَقَطَت عنهم صكوك العُبودية وذلك يَكفيهم!)

كانت الحاجة إلى نوع من القانون ماسة فى أمريكا منذ نَشاتها، خصوصاً على الشواطئ الشرقية التى ظَهَرَت عليها مَوانئ التجارة عبر المحيط ومَخازن السلع (مُستَورَدة أو جاهِزة للتَصدير). ثم إن المستثمرين الأوروبيين الذين أنشأوا الشركات المساهمة الأولى للتجارة، واعتمدوا فيها على المسئولية المحدودة وعلى الثقة بالمفَوَّضين عبر المحيط - كانوا أيضاً فى حاجة إلى حماية قانون.

وحتى المغامرون الذين بدءوا بالدخول إلى عُمق القارة بحثاً عن الفُرَص الهائلة المعروضة فى انتظارهم - كانوا فى حاجة إلى وَسائط اتصال وتأمين وتمويل يعطونها ما لديهم فى مقابل أن تُزَوِّدهُم حيث كانوا بما يَحتاجون إليه فى حياتهم - حتى المسَدَّسات وطلقات النار - وتلك علاقات تَتَطَلَّب قَدراً هائلاً من الثقة. وذلك ما أعطى سُلطة غير مَحدودة لرَجُل الأمن الذى أطلقوا عليه لقب «شريف» (عن أصل عَرَبى انتقل إلى أمريكا أيام الإسلام فى الأندلس).

وفى الحقيقة فإن الحاجة قَضَت بإطارات مُتَعَدِّدة للقانون - فالشواطئ والموانئ والمخازن تَحتاج إلى أطر قانونية لها مُواصَفاتها - لكن الداخل الذى يَغزو الأرض الجديدة ويَتَّجه غرباً يَحتاج إلى أطر قانونية لها مواصَفات معقدة - ثم إن المساحات الشاسعة المفتوحة كانت لها حياة تَحتاج إلى أُطُر قانونية أوسَع، وذلك جَعَلَ القانون الأمريكى عَوالم مُتَداخلة وليس عالَماً واحداً كما هو الشأنَ فى بلاَد أخرى. وكان المكَلَّفون بوَضع أُطُر القوانين فى أمريكا أحسَن المشَرِّعين وَضعاً فى التاريخ. وفى حين أن القوانين فى أوروبا صاغتها احتكاكات طبَقات من النُبَلاء، وطَبَقات من الإقطاعيين، وطَبَقات من البورجوازيين الكبار والمتَوَسِّطين والصغار، وطَبقات من الفلاحين، وطَبَقات من العُمَّال - فإن عَمَلية وَضع القوانين الأمريكية كان أمامها أن تطلع على التراث السياسى والقانونى بكل غناه وخُصوبَته، وأن تَستَوعِب، وأن تَستَوحى ما تَشاء، وتَصوغه من جديد على أحوالها، وتُفَصِّله تَفصيلاً مُحكَماً على مصالح وعلاقات أمامها على مساحة قارة جديدة.

■ مَشهَد:

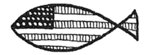
لكن «وحشيَة البارونات اللصوص» وَجَدَت آخرين غير «فاندربيلت» لا يَكفيهم القانون، ولا يَحتاجون إلى خَراب بيت خُصومهم!

وبالفعل فإن الشركة الأمريكية للتليفون والتلغراف AT & T وَجَدَت من يَرفع ضدَّها عشرات القضايا لأن احتكاراتها أصبحت عابرة لكل الولايات، وتُهمَتُها أنها لا تريد أن تَترُك «لُقمة لأحد». وأحَسَّت الشركة أن صورتها تتأثر، وقَرَّرَت أن تُحاول تغييرها «بمَسحة ملائكية» يمكن إشاعتها بين الناس. وكان أن لجأت الشركة إلى مُشتَغل بالإعلان اسمه «آير» طالبة منه «أن يفعل لها شيئاً» - وكانت تلك سنة ١٩٠٨ بداية فن العلاقات العامة (فى عُصور الصناعة). واكتشف «آير» أن شركة التليفون والتلغراف الأمريكية تَعرض خدَماتها على الناس تحت حَملة إعلانات تُناديهم أن يأخذوا خَدَماتها «لأنهم لا يستطيعون الاستغناء عنها»! - وقَرَّرَ أن البداية من هنا، فاختار لإعلانات الشركة شعارات جديدة تُخاطب المستهلكين: «هَدَفنا أن نَخدمك» - «روح الخدمة العامة دافعنا» - «ولاؤنا تحت تَصَرُّفِك» - «أنت شريك معنا».

وتَغَيَّرتْ صورة الشركة الأمريكية للتليفون والتلغراف.

وأصبحت العلاقات العامة من يومها «فناً قائماً بذاته»، وهو فنٌّ أمريكى. وبلغ طُغيان هذا الفن فى تأثيره على الرأى العام الأمريكى حَداً دعا كثيرين إلى التَخَوُّف من أن «البارونات اللصوص» سوف يَفلت عيارهم. وذهَبَ أحد أصدقاء الرئيس الأمريكى الأسبق «تيودور روزفلت» يُلفت نظره إلى ضرورة عَمَل شىء، وكان رَدُّ «الرَئيس» بعبارة صارت مَثلاً فى التاريخ الأمريكى الحديث: «أنت تريدنى أن أمارس الحُب مع فيل»!

ليس معقولا
أن تنتقل السياسة
فى العالم العربى
من مباراة فى العداء لأمريكا.
إلى مباراة
فى الولاء
لأمريكا



■ مشـهـد:

لم تكن وَحشيَّة الرأسمالية الأمريكية مُظلمة - كما كان إقطاع القرون الوُسطى فى أوروبا.

وكذلك فإن الرأسمالية التى أدرَكت فى بدايات القرن التاسع عشر أهميَّة التَّعليم على طريقة الاستثمار والأجور والادخار - وَصلَت إلى أواخر القرن التاسع عشر وهى على يقين من أنه إذا أرادَت أمريكا أن تَخرُج للعالَم وتَلعَب دَورها فيه فإنها فى حاجة إلى تَعليم من نوع جديد، وكان أن بَعضاً من أهَمّ مُؤسَّسات التعليم الحديث جَرى إنشاؤها، وأقيمَت جامعات فى الولايات المتحدة الأمريكية تَحمل أسماء مؤسِّسيها القادرين على التَّمويل والدَّعم: «هارفارد» - «ييل» - «ستانفورد».. وغيرها.

وإلى جانب التَّعليم أدرَكَت الرأسمالية حاجَتها إلى المعرفة، فإذا مُؤسَّسات الفكر والبَحث الكبرى تَلحق بالجامعات وَهى الأخرى تَحمل أسماء القادرين على التَّمويل والدَّعم: «روكفللر» - «فورد» - «راند».. وغيرها.

كانت أمريكا على وَشك أن تُنافس العالَم فى جامعات التعليم العالى - وكانت قد بَدَأت تَسبقه بمُؤسَّسات التفكير والبحث (وقد استطاعت هذه المؤسَّسات بالفعل أن تَستَوعب طاقة المثقَّفين الأمريكيين، وبَدَلاً من نُزوعهم إلى «التَّغيير» - وتلك طبيعة المثقَّف - تَمّ تَجنيد فكرهم لصالح التَّقدُّم وليس لصالح التغيير فى مَفهوم الرأسمالية الأمريكية).

■ مَشهَد:

عندما عادَت أمريكا خلال الحَرب العالمية الثانية إلى أوروبا، وبَقيَت على أرضها تَنتظر إرث إمبراطورياتها السابقة فى آسيا وأفريقيا - كانت واثقة أن هناك حُدوداً لمقاوَمة الآخرين، لأنهم جميعاً يَنتَظرون إشارتها - رغم حساسيتهم الشديدة من القوة الأمريكية التى بَدَت أمامهم طاغية - كانوا يَحتاجون مُساعَدَتها فى مُهمَّة إعادة تَعمير ما خَرَّبَته الحَرب.

وأصَرَّت أمريكا على أن تأخذ التنظيم الدولى الذى وَقَّعَ عليه عِبء إدارة العالَم بعد النصر. وهو الأمم المتحَدة، إلى عاصمتها المالية: نيويورك. وكان أن قام مَبنى ومَقَرّ الأمم المتحدة على أرض تَبَرَّعَت بها أسرة «روكفللر» أشهَر «البارونات اللصوص»!

ومع أن الاتحاد السوفيتى راح يُشاغب فى أروقة هذا التنظيم الدَولى الجديد - فإن أمريكا تَجَنَّبَت أن تحاربه - وإنما تَصَرَّف رؤساؤها من «روزفلت» إلى «ريجان» بنفس منطق «فاندربيلت»: «حضرات السادة .. «لن أحاربكم لأن الحَرب فى الأزمنة النووية مُخاطرة» - لكنى سوف أستنزف قواكُم بسباق سِلاح لا تستطيعون الخروج منه، ولا تستطيعون الوصول فيه إلى نهاية - وكذلك أخرب بيتكم!»

وكانت الفرصة مناسبة اقتصاديا لأمريكا - كما كانت مناسبة سياسياً. ويكتُب «جاك بيتى» أن السياسة الأمريكية راحت تُبَشّر وتَدعو إلى «اقتصاد السوق» - ثم إن «اقتصاد السوق» تَحَوَّلَ إلى «مجتمع السوق» - ثم إن «مجتمع السوق» تَحَوَّلَ إلى «عالَم السوق».

و«عالَم السوق» أو «سوق العالَم» فيه ألف شركة عابرة للقارات تَملك الرأسمالية الأمريكية الأغلبية فيها. وهذه الألف شركة تُسَيطر على أكثر من نصف اقتصاد العالَم إنتاجاً وتوزيعاً، خصوصاً فى قطاعات حاكمة أهمها: المال، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات والإعلام - وكلها مُتَرَبِّعة على عروشها فى أقمار صناعية سارية فى كل أرجاء الفضاء، مُطِلَّة على الدُنيا من عَلٍ ومن بُعد!

□

كذلك أصبَحَ القرن العشرون قرناً أمريكياً - وكذلك القرن الواحد والعشرون على الأرجَح. وهنا تجىء أهمية تحليل أمريكا - كما كانت من قبل أهمية تَوصيف أمريكا.

والشاهد أن العالَم عَرَف من قبل مستويات من الدُّوَل:

● فهناك الدُّوَل: القُوى Powers (بريطانيا - فرنسا - النمسا - روسيا - الدَولة العُثمانية - مثلاً - فى وقت من الأوقات قبل الحَرب العالمية الأولى).

● وهناك الدُّوَل: القُوى الكبرى Great Powers (بريطانيا - فرنسا - ألمانيا - إيطاليا - الاتحاد السوفيتى - مثلاً - فى وقت من الأوقات قبل الحَرب العالمية الثانية).

● وهناك الدُّوَل: القُوى الأعظم Super Powers (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وَحدهما فى وقت من الأوقات زَمَن الحَرب الباردة).

● وهناك بعد ذلك كله «الدَولة الكاسحة» - وتلك هى التَرجَمة الأقرب إلى مَعنى الوَصف الذى يُطلَق الآن على الولايات المتحدة فى تَفَرُّدها بالقوة العالمية، وهو وَصف Hyper Power.

والمشكلة الكبرى فى القوة الكاسحة - الأمريكية بالذات - أنها ما زالت تَجربة مفتوحة وكأن مَرحلة الخَلق الأولى لها لا تزال مُستَمرَّة، وهنا فإن وَصف القوة الكاسحة وما يَتَضَمَّنه من الشعور بفِعل مُستَمر - يَنطَبق بشكل مُدهش على القوة الأمريكية - الإمبراطورية.

لكن الإمبراطورية دائماً، وبقوانين الحياة، عُلُوٌّ ثم نُزول، وتَوَهُّجٌ ثم خُفوت - والسبب - طبقاً لنَظَريَّة المؤرِّخ الأمريكى الكبير «بول كنيدى» - أن أعباء الإمبراطورية - راسخة أو كاسحة - تَظَل تَتَزايَد حتى ينوء بحملَها مَن أقبَلَ عليها فى البداية - وقد صَدَقَت نَظَريَّة «كنيدى» على كل الإمبراطوريات فى التاريخ. وبالفعل فإن الإمبراطورية الأمريكية التى كانت تُعطى للاقتصاد العالمى ثلاثين فى المائة من مدخوله سنة ١٩٦٠ - تراجَعَت بعد ثلاثين سنة، وإذا هى تَنزل إلى ٢١٪ فقط - أى أن التَّفَوُّق المطلَق - أو النسبى - للإمبراطورية الأقوى لم يَعُد كما كَان، وإنما تَخَلَّف سواء بالإرهاق، أو بجَهد أكثر تَصميماً من آخرين.

على أن الإمبراطورية الأمريكية الكاسحة تُحاول هذه اللحظة أن تُعَوِّض الاقتصادى بالعسكرى، وإذا كان نصيبها فى القوة الاقتصادية العالمية قد تنازل ، فإن سَطوَتها العسكرية غالبة. وأكبر الظَن أن الخطر الحقيقى القادم على الدُنيا هو اللحظة التى تحس فيها الإمبراطورية الكاسحة أنها مُرغَمَة علىَ التراجُع - أمام قوة يُمكن أن تَسبق، أو تَحالُف قُوَى يستطيع أن يَتَصَدَّى، لأنه ساعَتها سوف تكون اللعبة الدولية شديدة الخُشونة، بالغة العُنف، لأن القوة الأمريكية - حتى هذه اللَحظة - تَعَلَّمَت كيف تَكسَب، ولم تَتَعَلَّم كيف تَخسَر.

وما لم يَحدُث غير المنتَظَر وغير المتَوَقَّع، فإن هذه اللحظة مَوعدها على الأرجَح بعد عشرين أو ثلاثين سنة، لكنه طوال هذه المدَّة وحتى هذا الموعِد سوف تَظَل الإمبراطورية الكاسحة تُمارس دَورها بكل ما عندها - ظاهراً يَراه الناس فى حياتها ويَقدِرون على تَوصيفه، أو باطناً يُدركه الناس من تحليل تَجربتها - طَبَقَة فى النفس وفى الوَعى، فوقها طَبَقة وتحتها طَبَقة - ويَقدِرون على تَحليله.

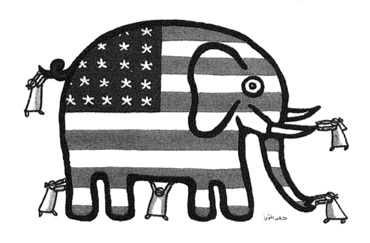
□

وأخيراً فلا أعرف إذا كان ما حَكيته عن الولايات المتحدة فى مجال «التوصيف» - أو إذا كان ما عَرَضتُه من خلال كتاب «العملاق» فى مجال «التحليل» - كلاهُما يكفى لفَهم الولايات المتحدة الأمريكية ؟ - لكنها فى كل الأحوال مُحاوَلة لاستثارة العُقول.

ذلك أن فَهم أمريكا، أو محاولة فهمها، ضرورة حيوية «للتَّعامُل» معها دون «خَوف» يَصنعه الجَهل، ودون «خِفَّة» يَصنَعها الوهم.

فالعَداء لأمريكا - وهو أسهل المواقف - فى هذه الأزمنة خطأ كبير لا تُحتَمَل مَخاطره، والوقوع فى غرام أمريكا خطأ أكبر لا تُحتَمَل خسائره.

ثم إنه ليس مَعقولاً أن تَنتَقل السياسة فى العالَم العَرَبى من مُباراة فى العَداء لأمريكا - إلى مُباراة فى الولاء لأمريكا، لأن حقائق الحياة أعقد من ذلك - وأيضاً ضَروراتها! ■

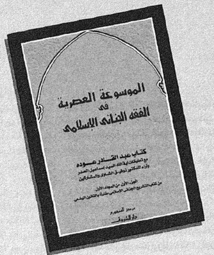


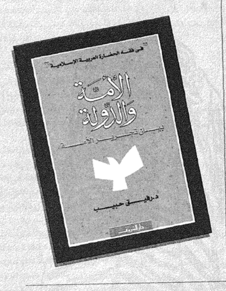
دار الشروق

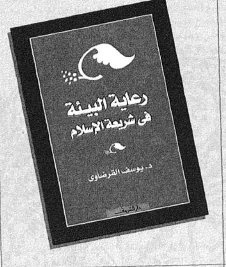
تقدم أحدث وأهم إصداراتها

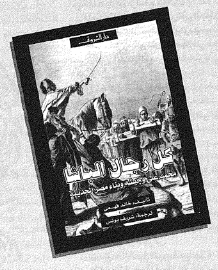


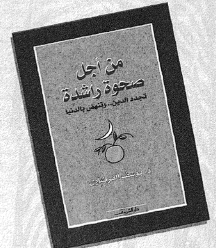


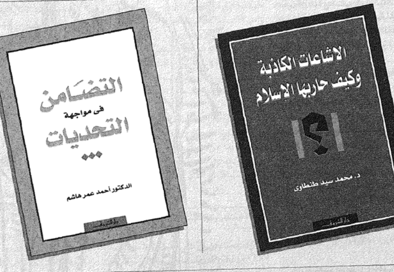












تطلب من دار الشروق ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية مدينة نصر ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق ١ ميدان طلعت حرب ت: ٣٩١٢٤٨٠
مبنى «فرست» - الجيزة - أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة مبنى فرست مول محل رقم ١٩ - ت - فاكس ٥٧٣٥٠٣٥ - ٥٦٨٥١٨٧
ومن والمكتبات الكبرى

الهوية: قضية جزائرية

محمـــد الميــلى

ظاهرتان تبرزان بقوة كلما جاء ذكر الشأن الجزائرى - (وكذلك الأمر فى بلدان عربية شقيقة) - وتعرضت الأحاديث لأزماته التى تزداد تأزمًا من زمن:

(اتهام جهات أجنبية بالتدخل فى الشأن الداخلى) و(بروز المسائل المرتبطة بالثقافة ومنظومة التربية والتكوين ولغات التعلم والتعليم).

وسواء تعلق الأمر بأحداث «الربيع البربرى» فى عام ١٩٨٠، أو بالأحداث التى عرفتها القبائل منذ أبريل ٢٠٠١، فإن بروز هاتين الظاهرتين يمثل قاسمًا مشتركًا جديرًا بالتسجيل، رغم أن الأوضاع الراهنة تختلف اختلافًا كليًا عن أوضاع ١٩٨٠.

فأحداث الربيع البربرى التى انطلقت منذ إحدى وعشرين سنة كانت بسبب منع محاضرة كان مقررًا أن يلقيها فى جامعة تيزى أوزو الكاتب المعروف المرحوم مولود معمرى.

وقد تطورت تلك الأحداث إلى درجة دفعت بعض المسئولين آنذاك إلى التفكير فى استعمال الجيش لقمع الحركة التى انطلقت إثر منع المحاضرة. لكن هذا الرأى لم يؤخذ به لحسن الحظ.

وقد قيل آنذاك، لو أن المحاضرة لم تمنع لما عرفت المنطقة تلك الحوادث.. كما قيل الآن إنه لو لم يتم مقتل الشاب ماصينيصا، أو لو عولجت الحادثة معالجة معقولة - إن صح هذا التعبير - لأمكن تجنب سلسلة الحوادث التى عرفتها منطقة القبائل وعرفتها بعدها مناطق أخرى من الجزائر.

إن مثل هذا القول تبسيط يحاول أن يعطى للصدفة دورًا أساسيًا فى توجيه التاريخ، فى حين أن ما يسمى صدفة أى «الحادث الصدفة» هو فقط المناسبة المباشرة التى حركت أحداثًا كانت مدعوة للانفجار لا محالة، سواء فى ضوء هذه الصدفة أو بعامل صدفة آخر.

إن بروز أحداث تبدو مباغتة، تجعل الناس يبحثون لها عن تفسير فى ظواهر طافية على السطح غافلين عن جذور المشكلة.

فى ربيع ١٩٨٠، تحدث ناطق باسم النظام عن وجود أيد أجنبية وراء أحداث الربيع البربرى. وقد انتقد آنذاك بعض أعضاء اللجنة المركزية لجبهة التحرير هذه الفكرة على أساس أن هناك عوامل موضوعية ساعدت على تهيئة المناخ داخليًا، لتفجر تلك الأحداث.



فى شهر يونيو الماضى اتهم الرئيس الجزائرى عبدالعزيز بوتفليقة فرنسا بتحريكها لأحداث هذا العام، وإن لم يسمها صراحة.

وأثناء النقاش حول الموضوع من طرف

الإشارة إلى التدخل الأجنبي في الجزائر كانت في الماضي تساعد على تعزيز الجبهة الداخلية حول النظام عندما كانت ذكريات الكفاح ضد المستعمر ما تزال حية في الأذهان ومؤثرة في النفوس

مجلس النواب الجزائرى تحدث رئيس الحكومة عن «حملات أجنبية» تسببت فى قلاقل هذا العام، وإن لم يفته أن يسجل بأن العوامل الداخلية التى تسببت فيها كانت موجودة قبل أن يظهر السبب المباشر الذى أضرم النار فى وضع كان قابلاً للاشتعال. وقد ذهب بعض نواب الائتلاف الحكومى إلى حد المطالبة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا.

والواقع أن ترديد هذه المقولة ليس بالأمر الجديد، لأن الإشارة إلى التدخل الأجنبى فى الجزائر كانت فى الماضى تساعد على تعزيز الجبهة الداخلية حول النظام عندما كانت ذكريات الكفاح ضد المستعمر ما تزال حية فى الأذهان ومؤثرة فى النفوس. أما الآن فهى لم تعد تثير من ردود الفعل ما كانت تثيره فى الماضى، أى أنها لم تعد مجدية.

على أن التهمة الموجهة لفرنسا تحتاج إلى شىء من التوضيح.

فلا يجادل أحد فى أن فرنسا ما فتئت تهتم بالشأن الجزائرى، سياسيًا وإعلاميًا، ليس فقط نظرًا لنوعية وطبيعة العلاقات التاريخية والحالية التى تربطها بالجزائر، وليس فقط نظرًا لوجود جالية جزائرية معتبرة بفرنسا بالإضافة إلى الفرنسيين من أصل جزائرى وخاصة الجيل الثانى والثالث الذين تشكل أصواتهم الانتخابية قوة لا يُستهان بها، ولكن أيضًا لأن تدهور الأوضاع فى الجزائر، ينعكس سلبًا على بلدان الجوار المتوسطى فى أوروبا، نظرًا لما يتسبب فيه من تدفق أمواج المهاجرين السرّيين.

لكن هل يعنى ذلك أن الاهتمام يتطور حتمًا إلى تدخل؟ وإذا افترضنا أن هناك تدخلاً ما بشكل من الأشكال، فهل يعفى ذلك الطرف الجزائرى من مسئوليته فيما حدث عام ١٩٨٠ وفيما يحدث عام ٢٠٠١؟ طبعًا لا.

أوجه شبه:

إذا حاولنا تجميع عوامل الشد والجذب هنا وهناك، أى العناوين التى استعملتها هذه الجهة أو تلك لتبرير موقفها فى الصراع الذى دار منذ أكثر من عشرين عامًا والذى يدور الآن، فإننا نجد قواسم مشتركة ومواطن اختلاف.

بالنسبة للقواسم المشتركة أى أوجه الشبه يمكن تلخيصها فيما يلى:

١ـ طابع العنف: فقد برز العنف ـ وإن بدرجات متفاوتة ـ فى أحداث مارس ١٩٨٠ وكذلك أثناء المناقشات التى دارت حول المشكل الثقافى فى عام ١٩٨١، كما برز فى أحداث هذا العام.

٢ـ ارتباط الصراع فى المرحلتين الزمنيتين كلتيهما بصراع أشخاص وإن كان عام ١٩٨٠ أقل وضوحًا وأشد خفاء.

٣ـ احتلت المنظومة التربوية ولغة التعليم مكانة رئيسية هنا وهناك أى أمس واليوم.

٤ـ وجود الدين فى قلب الصراع: المتمسكون به بوصفه من الثوابت المرتبطة بالهوية، يرى بعضهم أنه يجب أن يظل الدين الإسلامى هو محور المشاريع المجتمعية فى الوقت الذى ينادى آخرون بإبعاده عن حلبة الصراع السياسى.

٥ـ وجود التاريخ فى قلب الصراع: فهناك من يعتبر أن الفتح الإسلامى وما استتبعه من تعريب قد حسم الموقف وجعل الجزائر عربية مسلمة إلى أبد الآبدين، وهناك من يعتبر الأصل الأمازيجى هو المرجعية الأساسية، ومن هنا برزت الدعوة أمس واليوم إلى ضرورة أن تكون الأمازيجية لغة رسمية، تعليمها إجبارى.

وقد برزت بالأمس أصوات شاذة متطرفة، قليلة العدد، تعتبر الفتح الإسلامى «غزوًا عربيًا». وهناك من صرح اليوم بأنه لا يحتفل بالمولد النبوى. وعلى الرغم من أن الاحتفال بالمولد النبوى لا يعتبر فى نظر كثيرين من علماء السنة من صميم الدين (بل هناك من يعتبره بدعة) فإن العادة التى درجت عليها منطقة الشمال الأفريقى منذ قرون تجعل الاحتفال بالمولد النبوى فى نظر أغلبية الشعب من صميم الإسلام، وهذا ما يجعل تصريح بعضهم بأنه غير معنى بالمولد نوعًا من الاستفزاز.

وقد صدرت عن بعض رموز الحركة البربرية تصريحات فهمت على أنها دعوة إلى انفصال منطقة القبائل عن الجزائر. وقد تصدى للرد على ذلك عدد من الزعامات السياسية فى منطقة القبائل جعل صاحب التصريح يقول إن كلامه قد تم تحريفه.

ولعل مثل هذا التصريح هو الذى جعل بعض الصحف الفرنسية المحترمة، مثل مجلة «لوفيجارو ماجازين» الأسبوعية تجعل على رأس الأسباب التى فجرت الغضب فى بلاد القبائل هو «الغزو العربى»، لأن فرض الإسلام بالقوة وفرض اللغة العربية «تسبب فى اغتصاب الهوية، نتج عنه نزاع خفى بين العرب والبربر» حسب تعبير «آلان شوفاليرياس» فى العدد الصادر بتاريخ ٢٣ يونيو ٢٠٠١.

أما مواطن الاختلاف بين أحداث ١٩٨٠ و٢٠٠١ فهى عديدة، لا داعى لذكرها، لأنها قد تبتعد بنا عن الموضوع أى بعبارة أدق عن الطرح والتناول الذى نريد أن نستعرض من خلاله المشاكل الراهنة.

عن العرب والبربر:

ومهما يكن من شىء فإن كلا من أحداث ١٩٨٠ ووقائع هذه السنة ترجع إلى تراكمات يرجع بعضها إلى العهد الاستعمارى وبعضها الآخر إلى فترة الحكم الوطنى، أى بعد الاستقلال، فقد ظهرت منذ القرن التاسع عشر نظرية فرنسية تزعم أن البربر من أصل أوروبى.

أما الأبحاث الجادة فهى ـ على اختلافها ـ لا تجزم برأى قاطع لفائدة أطروحة معينة من الأطروحات التى تعرضت لأصول سكان الشمال الأفريقى. فهناك من لا يستبعد أن يكون التأثير قد جاء من المشرق إلى المغرب، دون أن يطعن فى الأطروحة التى لا تستبعد أن يكون التأثير فى عصور ما قبل التاريخ قد أخذ اتجاهًا معاكسًا أى من المغرب نحو المشرق. وهناك من المؤرخين العرب مثل ابن عبد الحكم من يقول إن البربر هاجروا من فلسطين بعد انتصار داود على جالوت. وهو نفس الرأى الذى يذهب إليه المؤرخ الفرنسى «هنرى لوت» عندما يلاحظ أن المؤرخ البيزنطى «بروكوب» كان قد كتب بأن البربر كانوا يُنعتون بـ «Philiatins» لأنهم قدموا من فلسطين بعد أن طردهم منها العبرانيون.

ويذهب المؤرخ المغربى المعروف «عبد الله العروى»، بعد أن يستعرض مختلف الآراء حول أصول البربر إلى أن معظم سكان المنطقة يتشكل من خليط استقر بعضه فى شمال أفريقيا منذ العصر الحجرى الحديث، وبعضه الآخر يتشكل من مجموعتين متوسطتين جاءت كلتاهما من آسيا، لكن إحداهما دخلت إلى المنطقة من جهة شمال شرق، والأخرى من جنوب شرق، وإن كان يرى أن الأبحاث عن لغة قدماء البربر ترجح الكفة فى جهة المشرق.

على أن المنظرين الاستعماريين لم يكتفوا بالقول إن البربر من أصل أوروبى. ولو اقتصروا على ذلك لما كان قد تسبب فى تراكمات شديدة التعقيد. لكن المشاكل التى اصطدم بها الاستعمار الفرنسى بعد فشل المقاومة المسلحة، سواء فى عهد دولة الأمير عبد القادر أو بعدها، إذ اتخذت المقاومة أشكالاً معنوية، جعلت أولئك المنظّرين يتصورون أن الإسلام هو الذى يقف حجر عثرة أمام مشروع الاحتلال الشامل المدعوم باستيطان أوروبى ضخم. ونتيجة لذلك ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أطروحة تحمل مسحة تاصيل تاريخى خلاصتها أن الجزائر كانت قبل الإسلام مسيحية فأصبحت بعد «الغزو العربى» مسلمة أى «بلد بدون روح» ولذلك يتعين إعادة الروح إليها عبر تمسيحها من جديد.

على هذا الأساس صدرت تعليمات تقول إن «البربر مسلمون سطحيون» فلا يجوز «السماح بتعميق إسلامهم كما لا يجوز السماح بتعريبهم عن طريق فرض الشريعة القرآنية عليهم. ومن ثم شددت التعليمات الرسمية على ضرورة الحفاظ على كل ما من شأنه «أن يضمن التمايز بين السهول العربية والجبال البربرية».

ولم يتردد الجنرال بريمون فى أن يلح على ضرورة فرنسة البربر وتجريدهم من الإسلام، كما تنص التعليمات الموجهة إلى المعلمين المشرفين على تعليم الجزائريين على ما يأتى: «علموهم كل شىء ماعدا العربية والإسلام».

وقد أقام الكاردينال لافيجرى مؤسسة سماها «جمعية الآباء البيض» أتبعها بعد عشرين سنة بجمعية «الأخوات البيض» عسى أن تؤثر على الأسرة الجزائرية من الداخل.

وإذا كان مسعى التبشير يمثل مسعى دينيًا بحتًا لا علاقة له بالاستعمار، فإن تصريحات الرجال الذين اضطلعوا بهذه المهمة تدل على أن المجهود المبذول لم يكن دينيًا صرفًا.

فقد كتب «دى جوركى دى لاسال» فى مجلة تاريخ الإرساليات يقول: «إن السماح للمسيحية بالتأثير فى الروح البربرية يعنى ولا شك المساعدة على تفتيت الكتلة العربية والقضاء عليها. وذلك يعنى بالتبعية القضاء على الإسلام فى أرضنا بشمال أفريقيا لفائدة حضارتنا وعرقنا».

وهناك كتابات أعربت فى نفس الفترة عن الأمل فى «أن يؤدى مجهود التمسيح إلى تعود البربر على شرب الخمر» وأن «يصبح الخمر شرابًا وطنيًا بوصفه شرابًا محليًا بهيجًا بدلاً من الشاى الأخضر بالنعناع ذلك الشراب المخنث».

وهذا على الرغم من أن عددًا من الكتابات الفرنسية الجادة تؤكد على أن الهجرات البشرية التى تعاقبت على المنطقة فى التاريخ القديم لم تدخل تغيير كبير على الوضع العرقى للسكان على فرض أن العرق يلعب دورًا أساسيًا فى مصير الشعوب.

ولذلك يذهب «ماكسيم رودانسون» إلى أن الوضعية العرقية ظلت مستقرة منذ القرن الأول الميلادى، ولم تتأثر إلا قليلاً بالموجات التى جاءت فى فترات مختلفة مع الرومان والجاليات اليونانية وغيرها. ويؤكد شارل اندرى جوليان أن مجموع الهجرات العربية التى تعاقبت على شمال أفريقيا فى العهد الإسلامى لم تتجاوز مائتى ألف نسمة أو ثلاثمائة ألف على أكثر تقدير.

ويرى عدد من المؤرخين، عربًا وفرنسيين، أن هناك عربًا تبربروا مثلما هناك بربر تعربوا. ويذهب هؤلاء إلى القول بأن التعريف الاجتماعى للبربر هو الأقرب لتصوير الواقع، لأنه ياخذ فى الاعتبار مجموع العوامل التى صهرها التطور التاريخى، وهو التعريف الذى يكشف عن «وجود وحدة بشرية منسجمة رغم اختلاف اللهجات وأنماط الحياة فى الماضى والحاضر» حسب تعبير شارل أندرى جوليان مؤرخ شمال أفريقيا.

لكن هذه اللوحة التاريخية تظل ناقصة إذا نحن لم نتعرض إلى توظيف للتاريخ مضاد للتوظيف الاستعمارى، ظهر بصورة خاصة بعد الاستقلال، يحاول أن يوجد نوعًا من التاصيل التاريخى الطابع للدعوة الإسلامية، وذلك عبر







الرسوم المصاحبة للمقال للفنان محمد حجى. رسمها من الطبيعة فى مناطق سكن قبائل الأمازيج

الإلحاح على أن البربر من أصل عربى، بحيث يكون انتشار الإسلام فى شمال أفريقيا قد تم فى مجال عربى لا يختلف عن المجال العربى الجاهلى فى الشرق.

فى هذا السياق لابد من الإشارة إلى أن ممارسات الحكم الوطنى بعد الاستقلال أو بعبارة أصح تعمده السكوت عن تناول الأصول التاريخية للمجتمع الجزائرى جعلت هذا الموضوع مشمولاً بنوع من «التحريم» أو التابو الفعلى.

عوامل التابو:

يستطيع من يتتبع كتابات الوطنيين الجزائريين أثناء العهد الاستعمارى أن يلاحظ غياب الأطروحات التى ظهرت بعد الاستقلال وخاصة فى نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات متصلة بما عرف فيما بعد بـ «الهوية الأمازيجية». وهذا لا يعنى أنها لم تكن مطروحة على الإطلاق، ولكنه يعنى أنها لم تطرح بنفس الحدة التى طرحت بها فيما بعد. وهو أمر معقول لأن متطلبات الكفاح ضد الاستعمار لم تكن تسمح بوجود مثل ذلك الجدل الذى يتنافى مع روح الوفاق الوطنى ضد المحتل، سواء فى عهد الكفاح السياسى السلمى أو فى فترة الكفاح المسلح.

إلا أن ما يمكن قوله فى هذا الصدد أنه لم تكن توجد قبل الاستقلال، مناقشات علمية أو عقد وتوترات حول البعد الأمازيجى للشخصية الوطنية. وكل ما كان موجودًا هو الخلافات والحزازات بين قبائل أو فروع قبائل تسودها الأمية، سواء كانت تتحدث البربرية أو تتحدث العربية، نتيجة تنظيم قبلى متخلف.

فمؤرخ معرب مثل مبارك الميلى الذى كان يعلن اعتزازه بأصوله العربية الهلالية كان يستعمل منذ عام ١٩٢٨ مصطلح «الأمة العربية» كما يستعمل مصطلح «الأمة البربرية» دون أية عقدة أو أى تمييز. وكان ـ وهو المعروف بتدينه الشديد ـ يعتبر الكاهنة التى حاربت المسلمين «درة فى جيد تاريخ المرأة، لما كانت عليه من حسن التدبير وشدة البأس وصدق الدفاع عن الوطن والثبات على المبدأ».



ولم يكن هناك فى أدبيات الأحزاب السياسية ما يبرز التفرقة بين العرب والبربر. وعندما تبلورت المطالب السياسية الوطنية من خلال عدة تنظيمات وأحزاب، لم تقم هذه على أساس عرقى أى جهوى بل على أساس اتجاهات سياسية وفكرية. فحركة النواب التى كانت تطالب فى وقت من الأوقات بالفرنسة والإدماج، كانت تضم عناصر من المناطق الناطقة بالأمازيجية وعناصر من الجهات التى تستعمل العربية. ونفس الشيء يقال عن الحركات الأخرى سواء منها المتشددة التى تطالب بالاستقلال التام مثل حزب الشعب الجزائرى وسليله حركة انتصار الحريات الديمقراطية، أو تلك التى تعتبر أكثر اعتدالاً مثل حركة الإصلاح الدينى وحزب الاتحاد الديمقراطى للبيان الجزائرى.

وعندما حاولت السلطات الفرنسية أن تغذى من جديد التفرقة بين العرب والبربر لضرب المطالب الوطنية، تصدت لها أقلام الوطنيين. وأبرز من تولى الرد على تلك المقولات الاستعمارية فى فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، هو الشيخ عبدالحميد بن باديس الذى استشهد بوجود لهجات محلية فى بروطانا بفرنسا وكذلك أخرى فى جنوبها، ومع ذلك لم تحل تلك اللهجات دون تكوين أمة فرنسية واحدة موحدة. وقال فى هذا الصدد «ليس تكون الأمة يتوقف على اتحاد دمها ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحادًا يظهر فى وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والآمال» (فهو يلتقى هنا بعض الشيء مع مقولة إرنيست رينان).

وقد كان الصراع الأساسى حول اللغة هو الذى يهدف إلى انتزاع الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية.

ولا شك أن مناخ الكفاح ضد الاستعمار ساعد على إسدال الستار على مشكل اللهجات المحلية وعلاقتها بالعربية. فى هذا الصدد أتذكر واقعة خلاصتها أن عددًا من الخطباء بمناسبة حملة انتخابية فى إحدى جهات المنطقة القبائلية، تداولوا على المنصة، فتحدث بعضهم بالفرنسية وتحدث بعض آخر، هو الشيخ صادق عيسات بالقبائلية على أساس أن المعروف عن سكان المنطقة خلال فترة ما قبل نوفمبر ١٩٥٤ أنهم لا يتقنون إلا الفرنسية، بالنسبة للنخبة وسلك الموظفين أو الأمازيجية بالنسبة للجماهير الأمية. (وهذا الوضع لم يعد قائمًا الآن).

وبعد انتهاء الشيخ صادق عيسات من خطابه بالأمازيجية ارتفع صوت من الجمهور محتجًا يقول ما معناه: لماذا اقتصرتم على الفرنسية والقبائلية ولم يتحدث أى منكم بالعربية، ألسنا مسلمين» (سمعت هذه الواقعة من المرحوم الغسيرى، وهو بربرى من الأوراس ومن تلاميذ عبدالحميد بن باديس، وممثل جبهة التحرير الوطنى فى دمشق خلال حرب التحرير).



وتجدر الإشارة إلى أن عبد الحميد بن باديس كان يستعمل كلمة «الأمازيج» أو «أبناء مازيج» عندما يتحدث عن البربر؛ إن لم يكن هو أول من استعملها فى الخطاب السياسى الجزائرى المعاصر.

فأين هى عوامل التابو أى التحريم الفعلى الذى كان ـ بعد الاستقلال ـ يحول دون نشوب نقاش مسؤول حول أصول السكان؟

يبدو أن المبالغة فى التأصيل العرقى التى ظهرت على الخصوص بعد الاستقلال سواء لدى الذين يقولون إن البربر عرب قدامى، أو الذين يؤكدون أن البربر ليسوا عربًا هى التى أوجدت حساسيات تتصل بمصطلح «البربر»، بعضها شكلى وبعضها غير شكلى.





فالحساسية الشكلية ترجع إلى الاشتباه الذى يحدث فى الاستعمال العربى عندما تطلق الكلمة على الأمازيج أو عندما تصف المتوحشين، على خلاف الاستعمال الفرنسى الذى تختلف فيه كتابة المعنيين بعضهما عن بعض، إذ إن كلمة «Berberes» تعنى الأمازيج، وكلمة «Barbores» نعت للمتوحشين؛ بينما لا يوجد أى فرق فى رسم الكلمتين بالعربية.

أما المؤرخون الإسلاميون فكانوا يستعملون مصطلح البربر دون أى تحفظ، سواء كانوا مشارقة أو مغاربة. وهو ما نلحظه فى كتابات المعربين من رجال الإصلاح الدينى بالجزائر فى سنوات العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

أما الجانب غير الشكلى فى تفسير الحساسية المتصلة بهذا المصطلح فهى أقل خفاء. فرغم أنه لم تصدر بعد الاستقلال أية تعليمات رسمية تغذى هذا التحريم، فالذى لا شك فيه أنه كانت توجد ممارسات تحركها اجتهادات شخصية لبعض من يحتلون مناصب مسؤولية سياسية أو ثقافية تسمح لمن هم أدنى مرتبة فى سلم الإدارة أو سلك الوظيفة أن يتصوروها معبرة عن خط سياسى محدد وإن لم يكن معلنا.

وقد ساعد على تغذية هذا التصور ظهور فكرة يجزم أصحابها أنها تحسم الموقف مفادها «أن البربر عرب قدامى» صيغت بصورة قطعية غير قابلة للنقاش؛ ولاشك أن إغلاق باب النقاش والاجتهاد حول المسألة من شأنه أن يساعد على تعزيز الشعور بوجود تحريم؛ إذ لا يستبعد أن يوجد - فى ظل ظروف معينة (وقد حدث ذلك فعلاً) من يستنتج من هذه الأطروحة أن أصحابها يعترفون بالبربر على شرط ألا يكونوا بربرًا!

ومما ضاعف انتشار هذا التصور تضافر عاملين:

الأول: أن هذه الأطروحة تعززت بصعود المد القومى العربى، من جهة وبعودة عدد من الطلبة الجزائريين حاملى الشهادات من جامعات البلدان العربية الذين أدوا دورًا معتبرًا فى سد الفراغ الثقافى الذى كانت تعانى منه الجزائر بداية الاستقلال.

أما العامل الثانى فيتمثل فى سيطرة لغة الحزب الواحد، فقد مُنعت كل الأحزاب ماعدا جبهة التحرير الوطنى؛ وهى لغة «اللسان الخشبى» التى لا تسمح بالنقاش الحر، إلا فى المجالس الخاصة. ومثل هذه اللغة تحرص على إعطاء انطباع بوجود وفاق وطنى حول المسألة، ولو كان وفاقًا مظهريًا وسطحيًا.

ولا يخفى أن غلق الاجتهاد والنقاش الحر حول المسألة المتصلة بالأصول التاريخية من شأنه أن يدفع الفئات التى لا تتعرف على نفسها فى الشعارات الرسمية، إلى أن تبحث - ولو عبر عمل سرى - عن صيغة تعتبرها أكثر تمثيلاً لها.

وهكذا ظهرت الأطروحات الاثنية التى تركز على الخصوصية البربرية، فى نفس الوقت الذى انصرفت فيه فئات أخرى إلى لغة الخطاب الدينى الذى ما لبث أن تطور منذ منتصف السبعينيات إلى خطاب أصولى.

ماذا عن المؤامرة الأجنبية؟

إن طبيعة العلاقات بين الجزائر وفرنسا تجعل من الصعب إقامة حدود واضحة بين «الاهتمام والتدخل». فالزيارات المتبادلة على المستوى السياسى والمستوى العسكرى، بين الجزائر وفرنسا وبلدان الاتحاد الأوروبى، إزاء الزيارات المتبادلة مع الحلف الأطلسى والولايات المتحدة الأمريكية، تدل على أن كلا من الاهتمام الفرنسى والأوروبى والأطلسى والأمريكى لم يخف بعد انتهاء الحرب الباردة ولم تنل منه المشاغل والأزمات الجزائرية الممتدة منذ سنوات عديدة. وهذا رغم أن الجزائر لم تحتفظ بالمكانة الدولية التى كانت تحتلها فى سنوات الستينيات والسبعينيات.

فى هذا السياق قد يكون من المفيد التذكير بأن فرنسا كانت إثر الحرب العالمية الثانية فكرت فى إقامة خمس قواعد عسكرية اقتصادية لحماية وصيانة مستعمراتها فى أفريقيا وآسيا. ولم يَكُنْ محض صدفة أن تكون ثلاث قواعد من بين تلك الخمسة فى الجزائر: واحدة فى بشار قرب الحدود مع المغرب وواحدة فى بئر العاتر قرب الحدود الجنوبية مع تونس، وثالثة بالهوقار المتاخمة للبلدان الأفريقية المجاورة وهى النيجر والسودان الغربى (الذى يعرف اليوم بمالى) .

وعندما تولى الجنرال ديجول الحكم فى مايو ١٩٥٨ بادر إلى تحييد الأقطار الأفريقية حتى لا تصيبها عدوى الثورة المسلحة، فنظم استفتاء ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ الذى يسمح للمستعمرات الأفريقية جنوب الصحراء أن تحكم نفسها حكمًا ذاتيًا فى إطار المجموعة الفرنسية.

وبعد التأكد من استقلال الجزائر سعى الجنرال ديجول من خلال اتفاقيات إيفيان التى تم التوقيع عليها يوم ١٨ مارس ١٩٦٢، لتكون نافذة من الغد، إلى الاحتفاظ بقاعدة مرسى الكبير مدة خمسة عشر عامًا قابلة للتجديد، إضافة للتسهيلات التى منحت للجيش الفرنسى فى عدد من المطارات الجزائرية.

ورغم أن الجنرال ديجول كان يعارض فى أن تظل فرنسا تابعة لأمريكا فى إطار الحلف الأطلسى الذى غادره فإنه لم يعاد الحلف الأطلسى، بل فكر فى استعمال بعض دوله الأوروبية لتأسيس تحالف يضم دول المغرب العربى وبعض دول أوروبا الغربية المتوسطية.

ولا بأس من أن نشير هنا إلى أن بعض حكومات الجمهورية الرابعة كانت فكرت عام ١٩٥٦ وعام ١٩٥٧ فى أن توجد حلاً لما كانت تسميه «المشكل الجزائرى»، عن طريق حلف عسكرى يكون متفرعًا عن الحلف الأطلسى على غرار حلف بغداد المتفرع عن حلف جنوب شرقى آسيا.

وبعد التوقيع على اتفاقيات إيفيان، بادر الجنرال ديجول إلى الاتصال برئيس الحكومة الإيطالية، السيد



فانفاني يعرض عليه مخططًا يستوعب الانعكاسات التي قد تترتب على استقلال الجزائر.

ورغم بعض تحفظات البروتوكول الفرنسي، فإن الجنرال ديجول قام بزيارة إلى رئيس الحكومة الإيطالية الذي كان موجودًا بمدينة «تورينو» وذلك يوم ٤ أبريل ١٩٦٢، أى بعد أسبوعين فقط من توقيع اتفاقية إيفيان، رغم أن السيد فانفاني كان رئيس حكومة ويصغره بعشرين سنة.

ومع ذلك ورغم أن مصطلح «حلف» لم يرد ذكره فى الخطة التى عرضها الجنرال ديجول على زعيم الديمقراطية المسيحية فى إيطاليا، فإن الأمر كان يتعلق بحلف يضم دول المغرب العربى الثلاث وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا واليونان ويوغوسلافيا.

صحيح أن المعلومات التى تسربت عن تلك الخطة قليلة لكن يبدو أنها كانت عبارة عن حلف عسكرى أكثر منها بناء سياسيا قانونيا.

لأن ما كان يهم الجنرال ديجول آنذاك هو الاحتفاظ بكل من قاعدة بنزرت فى تونس، وقاعدة مرسى الكبير فى الجزائر، وهذا ما أشار إليه فى تصريح له يوم ٥ سبتمبر ١٩٦٢ عندما قال: «إن فرنسا لا تريد ولا تستطيع فى الوضع الراهن للعالم، أن تعرض نفسها أو أوروبا أو العالم الحر لإمكانية سقوط بنزرت بين أيدى قوات عدوة» ولم يذكر الجنرال ديجول مرسى الكبير فى هذا التصريح، لأن النظام الجزائرى الوليد كان مشغولاً بصراعات داخلية، ولأنه يعرف حساسية الجزائريين، وبعد أن اطمأن إلى استقرار الأوضاع فى الجزائر قرر الانسحاب من مرسى الكبير عام ١٩٦٦.

قد يقال لكن ظروف الأربعينيات والستينيات تختلف كليًا عن الظروف الحالية. وذلك صحيح. لكن مؤشرات عديدة تدل الآن على أن خطط الاتحاد الأوروبى والحلف الأطلسى ما تزال تقرأ للموقع الجزائرى بعض الحساب.



ومهما يكن من شىء فإن طبيعة العلاقات التى تربط بين الجزائر وفرنسا وتعقيداتها وتنوعها تدفع إلى تناول مقولة «المؤامرة» الخارجية بشىء من الحذر.

وقد كنت كتبت تعليقًا على مقولة «المؤامرة» التى ظهرت عام ١٩٨٠ بمناسبة أحداث الربيع القبائلى ملخصها أن مثل هذا الطرح يبدو مشكوكًا فيه لعدة أسباب:

١ـ أن اللجوء لذلك يهدف عادة «لتبَرير رد فعل قمعى» وهذا ما يجعل مثل هذا الطرح «مبتذلاً فى نظر عديد من المثقفين، بل وحتى فى نظر الرجل العادى».

٢ـ خيبات الأمل التى تحدث بعد الاستقلال تدفع فى حالة عمليات قمع تمارسها أنظمة وطنية إلى «الترحم» على أيام زمان.

٣ـ ما يساعد على إضفاء مظاهر البراءة على الدول الاستعمارية بالأمس أن «تاريخ الاستعمار يلقن عادة فى شكل «معلومات جافة لا روح فيها، ومع مرور الوقت يطغى النسيان على الذاكرة حتى بالنسبة للذين عايشوا الاستعمار، فكيف إذا تعلق الأمر بجيل لاحق لم ير من الاستعمار إلا بعض ما قرأ عنه فى الكتب». ثم تساءلت عن العوامل الداخلية وجوانب القصور الذاتى التى تسمح بنجاح التدخل.

كان ذلك التعليق عام ١٩٨٢.

على أن هناك مؤشرات يمكن أن يستغلها أنصار أطروحة التدخل الأجنبى هذه المرة لم يكن يوجد لها نظير عام ١٩٨٠، وهى تتمثل فى البيان الصادر عن الاتحاد الأوروبى متصلاً بالأحداث الأخيرة، وتصريح وزير الخارجية الفرنسى.

فقد لاحظت الصحافة الجزائرية أن بيان الاتحاد الأوروبى يدعو كل المسؤولين (الجزائريين) إلى اتخاذ مبادرة سياسية لتجاوز الأزمة تسمح بالتحاور مع كل الجزائريين». كما تلاحظ الصحافة المذكورة أن هذا البيان تعمد إغفال ذكر رئيس الجمهورية كما أغفل ذكر الحكومة؛ وتساءلت بعض الصحف: «هل الأمر مجرد صياغة لفظية بيانية أم هو دعوة إلى اتخاذ موقف مسؤول داخل متاهات السلطة الجزائرية الحقيقية؟».

أما وزير الخارجية الفرنسى، فقد صرح أن «فرنسا مستعدة لتكون جنب هذا البلد الصديق فى تحركه على طريق الإصلاحات لأن فرنسا تعتبر مطالب المتظاهرين الجزائريين شرعية، وهى (أى فرنسا) جد حساسة لهذه المطالب وتلك الرغبة وهذا النداء الصاعد من أعماق الشعب الجزائرى من أجل إحداث تغييرات حقيقية واستئناف مسيرة التحديث السياسى والديمقراطى والاقتصادى والاجتماعى» ثم أضاف: «إننا اتفقنا فى الاتحاد الأوروبى على أن نعبر عن شعور الاهتمام والحيرة والانشغال».

وهناك ما هو أخطر من ذلك، ويتمثل فى بيان أصدره بعض نواب البرلمان الأوروبى يتصل بأحداث منطقة القبائل، تحدثوا فيه عن «الشعب القبائلى».

ولاشك أن مثل هذا التصريح هو الذى دفع كثيرين فى الجزائر إلى التأكيد على أطروحة «المؤامرة الخارجية»، لكن يجب تسجيل رد الفعل الذى صدر عن أبناء منطقة القبائل إذ رفضوا نعتهم بـ «الشعب القبائلى» وأكدوا جزائريتهم.

ومن هذا القبيل كانت الشعارات التى أعدت لتكون دالة على مغزى مظاهرة كجوبليه التى منعت، والتى تنص على شعب واحد موحد.

ومـــاذا بعـــد؟

من المشاهد السينمائية التى أثرت علىَّ زمن الطفولة مشهد لسيدة عجوز كانت تروى قصة بطل معركة «الطرف الأغر» التى حطم خلالها الأسطول الفرنسى ـ الإسبانى عام ١٨٠٥، وكانت السيدة العجوز وهى تروى قصتها مع الأميرال Nelson (١٧٥٨ـ١٨٠٥) بطل معركتى أبو قير والطرف الأغر (التى توفى فيها) تركز على حياتها الخاصة معه. وكانت مشاهد الفيلم عبارة عن تجسيم لروايتها. وعندما تنتهى من القصة، يسألها المستمع أو المستمعة وقد بدت عليها الشيخوخة «وماذا بعد»؟ فتجيب: «لا يوجد بعد».

تذكرت هذا الجواب وأنا أقرأ لبعض المتشائمين ما يدل على أنه لا يوجد أى أمل فى خروج الجزائر من أزمتها أو مأساتها كما يفضل بعضهم تسميتها. ولذلك طرحت هذا السؤال الذى يمكن أن ينتهى به جواب صديقة نيلسون، وفى هذه الحالة تكون «لا يوجد بعد» هى خاتمة هذا العرض.

لكنى لست متشائمًا، أو بعبارة أصح لست متشائمًا إلى هذا الحد.

إن العرض الذى تقدم إذا كان يلقى بعض الضوء على التطورات التى عرفتها الجزائر متصلة ببعض مقومات الهوية، فماذا عن احتمالات المستقبل قريبه والبعيد؟

إن ظواهر الأمور توحى بأن نقطة الضوء التى تؤذن بقرب الخروج من الأزمة لم تظهر بعد فى النفق المظلم.

فالمجال السياسى، رغم المتغيرات التى عرفتها سنوات العنف العشر الماضية التى جاءت فى أعقاب سنوات «الانفتاح الديمقراطى» بعد أحداث أكتوبر ١٩٨٨، ما تزال مطبوعة بتشرذم القوى السياسية المعارضة التى يفترض فيها أن تمثل كفة التعادل فى ميزان القوى كما هو الشأن فى كل بلد تحكمه ديمقراطية غير شكلية. والقوة الأساسية التى برزت إثر أكتوبر ١٩٨٨، وهى الجبهة الإسلامية للإنقاذ قد شوهت واقترن اسمها بالويلات التى انصبت على المدنيين منذ تفجير مطار الجزائر فى ١٩٩٢. وحزب «الوفا» الذى تشكل من أجل أن يكون ممثلاً لتيار إسلامى معتدل ومستعد لأن يتحاور مع النظام ويتعامل معه ديمقراطيًا، لم تعترف به السلطة. أما الأحزاب المعترف بها والممثلة فى البرلمان فهى فى نظر الرأى العام مدجنة، فقدت كل مصداقية، وأصبح دور ممثليها فى الهيئة التنفيذية يقتصر على تسيير الشؤون العادية.



ويبدو أن القوانين والتشريعات التى أدخلت تعديلات بهدف سد الثغرات الموجودة فى الميدان المؤسسى لم تؤد الدور المنتظر منها. لأن التنظيمات المؤسسية ليست هى الأساس، كما يقال فى بلدان العالم الثالث. فقد عرفت الجزائر وضعًا مستقرًا من غير وجود دستور من عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٧٦، أى بعد تعليق دستور ١٩٦٣. واستمر الاستقرار بعد غياب بو مدين فى ظل الحزب الواحد حتى عام ١٩٨٨.

وقد اتسمت السنوات العشر الماضية بنوع

من عدم استقرار الوضع المؤسسي، ضاعف من سلبياته عدم الاستقرار الذي عرفته قمة السلطة: ففي ظرف ثلاثين سنة، (١٩٦٨ - ١٩٩٨) عرفت الجزائر ثلاثة رؤساء؛ بينما توالى عليها خلال عشر سنوات كل من محمد بوضياف، وعلي كافي والأمين زروال (رئيسًا للدولة معينًا في يناير ١٩٩٤، ثم منتخبًا في نوفمبر ١٩٩٥) وعبد العزيز بوتفليقة في أبريل ١٩٩٩.

يضاف لذلك أن الجزائر في الفترة نفسها عرفت وقائع ما يسميه البعض «حربًا أهلية» وما يسميه آخرون صراعًا بين جماعات إرهابية وسلطة فعلية، وهي وقائع زيادة عما تسببت فيه من ضحايا، خلفت آثارًا سلبية ونتائج مدمرة في مجالات الاقتصاد والثقافة وأثرت على النفسيات، وضاعفت من تأزم الوضع الاجتماعي بفعل سحق الطبقة الوسطى. يضاف لذلك أن الدولة تقلص دورها الاقتصادي تحت ضغط المؤسسات النقدية العالمية، فكان انتقالها من الاقتصاد الموجه إلى اقتصاد سوق عبر سوق سوداء غير واضحة القواعد، مطبوعًا بنوع من الفوضى.

وها هي الأوضاع تشي بتطورات حبلى بعدد من المجاهيل منذ أبريل الماضي. فالمظاهرات والاضطرابات التي عرفتها منطقة القبائل، والتي امتدت إلى مناطق أخرى جردها من الطابع المحلي أو الجهوي أو الاثني، تكشف عن أن المرض عضال وأنه يتجاوز ما يسمى «المطلب الأمازيجي» الذي أريد حصرها فيه.

لقد فجرت مسيرة ١٤ يونيو الماضي مرحلة جديدة تشتمل على بذور تمرد أو انفجار اجتماعي غذّى الطموح لدى كثيرين وخاصة من الأجيال الجديدة، في إدخال تغييرات جذرية على الواقع السياسي وخريطة الحكم.

إلا أن مشاهد التخريب التي واكبت المسيرة المذكورة أضعفت القوى الاحتجاجية وأجهضت الحلم الذي بدا وشيك التحقيق، ومهما قيل عن المتسبب الحقيقي في تلك التخريبات - لأن النقاش حول ذلك يصبح ثانويًا - فإن النظام يكون قد كسب جولة واستعاد نفسًا. ويتأكد المكسب الذي حققه النظام خلال هذه الجولة في النتيجة التي تترتب على ذلك حتمًا وهي التشكيك في مصداقية نظام «العروش» أو «الجماعات المحلية» بالمفهوم التقليدي القديم، تلك الجماعات التي تولت تسيير المظاهرات وحاولت أن تنتزع من خلالها صفة المحاور الأساسي للنظام.

والواقع أن هذا النظام ليس خاصًا بمنطقة القبائل الكبرى، فهو نظام قديم كان موجودًا في عدة مناطق جزائرية، وكان يمثل زمن الاستعمار سلطة فعلية تتولى حل النزاعات والخصومات المحلية سواء كان محورها طلاقا أو أرضا أو إرثا. وكان المقصود بالحفاظ عليها زمن الاستعمار هو الحيلولة دون احتكام الناس إلى ممثلي السلطة السياسية والقضائية الفرنسية.

وقد أتيح لي أن أحضر طفلاً (كان عمري ثماني سنوات) مداولات جماعة محلية في بني قليلان، قرب الميلية، بالقبائل الصغرى، (وهي منطقة معربة). وتتسم مداولات هذه الهيئات الفعلية بنقاش يديره أعيان القبيلة أو القرية أو العرش، ويتم البت في النزاعات بالوفاق دون اللجوء إلى التصويت الذي لم يعرفه الناس آنذاك إلا في الانتخابات المحلية البلدية في نظام الأحواز غير الممتزجة - وغني عن القول أن النساء لم يكن يشاركن في مثل هذه المداولات.

وقد سجلت الصحافة الجزائرية أن نظام العروش هذا الذي أعيد إحياؤه انطلاقًا من ولاية تيزي وزو، يرفض هو الآخر الحضور النسوي، ويرفض التصويت. لذلك فهو يمثل انتكاسة وعودة إلى الوراء تحت شعار «العودة إلى الأصل».

فأية احتمالات يمكن التكهن بها في ظل وضع متأزم ضبابي المعالم، غير واضح القواعد؟

إن كل ما يمكن الجزم به حاليًا هو أن ما تقوله الصحف الجزائرية - وغيرها - عن وجود صراع في هرم السلطة بين مؤسسة الرئاسة ومؤسسة الجيش، على فرض صحته، ليس هو جوهر المشكل. إن مثل ذلك الطرح جعل الأمر يبدو كما لو كان «ماتش» أو مبارزة بين طرفين يفتقد كل منهما إلى جمهور متحمس: فالجمهور هنا لم يعد يتحمس لهذا أو ذاك.

إذن ما هو جوهر المشكل؟

إن جوهر المشكل يتمثل في رأينا في حقيقتين أساسيتين لا يمكن بدونهما فهم ما يجري والتكهن بما سوف يحدث.

الحقيقة الأولى تتلخص في أن صراع الأجيال قد برز هذه المرة بقوة لم يعرفها في الماضي. وقد تميز هذا الصراع بظهور عناصر تمثل جيلاً ثالثًا، يفكر بطريقة تختلف كلية عن الجيل الأول (جيل ١٩٥٤) والجيل الثاني (١٩٨٠ - ١٩٨٨).

الحقيقة الثانية تتمثل في أن الأحداث الأخيرة تختلف عن أحداث أكتوبر ١٩٨٨، لأن هذه كانت مبرمجة وإن كانت قد خرجت بعد ذلك عن الإطار الذي حدده المخططون لتفجيرها. أحداث هذا العام كانت تلقائية، (وهذا لا يعني أنه يستحيل استغلالها أو توظيفها من هذا الطرف أو تلك الكتلة.

خاصية أحداث هذا العام أنها تكشف عن وجود عوامل تمرد اجتماعي أو ثورة اجتماعية، لا يقتنع مفجروها بتحسين الأوضاع المادية كما يتصور كثيرون. إن هؤلاء يطمحون اليوم لأن يشاركوا فعليًا في تسيير دفة السياسة التي ينبثق عنها الانقلاب الاجتماعي القادم.

إن الجولة التي كسبها النظام ككل وليس ككتل، لم تنه الانقلاب الاجتماعي ولكنها أجّلته فقط. ■

كتاب الزاوية

الفلاح الفصيح

ترجع هذه القصة إلى العهد الإهناسى فى مصر القديمة فى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد، وهو عهد سادت فيه الفوضى وعم الاضطهاد. وهى من أبلغ وأروع ما كتب فى الأدب المصرى القديم، حتى إنها كانت تعد نموذجًا يحتذى ويقتبس منه فى عهد الدولة الحديثة.

والقصة تتكون من مرحلتين أساسيتين: الأولى مقدمة قصصية، والثانية خطب تسعة. أما المقدمة فإن طريقة عرضها أبدع ما فى الأدب المصرى. وأما المرحلة الثانية فتلك الخطب التسعة التى أشهر بها ذلك الفلاح الحرب على ما كان يرتكبه الموظفون من الفوضى والظلم والعبث بصغار الفلاحين.

ملخص القصة

بطل القصة فلاح كان يطلق عليه فى اللغة العربية المصرية ساكن الحقول، وهو أحد سكان حقل الملح «وادى النطرون» حاليًا. وكان هذا الفلاح يسكن فى مجاهل هذه البقعة، وكان يسافر من حين لآخر إلى مصر ليبيع محصول أرضه محملاً على حمير له، ولما وصل فى مرة إلى مصر اعترضه أحد الموظفين المسمى «تحوت نخت» واغتصب منه حميره وما عليها بحيلة دنيئة، فذهب الفلاح على أثر ذلك إلى عاصمة المقاطعة ليشكو أمره إلى «رنزى» رئيس «تحوت نخت» المغتصب، فجمع «رنزى» مجلس الأشراف ليفصل فى هذه القضية، غير أن أعضاءه لم يعلنوا حكمهم لأسباب لم تذكر فى القصة، فصاغ الفلاح شكايته لرنزى فى أسلوب فصيح بهره وأعجب به، فرأى أن الأمر جدير بأن يعرض على جلالة مولاه الملك، وأمر الملك ألا يبت فى أمر ذلك الفلاح الفصيح حتى يكرر الشكوى فيكون ذلك مصدر خطب بليغة أخرى.

أضواء النجوم ونجوم الأضواء

صـــــورة بالألــــــوان الطبيعيـــــة

محمـــــود عـــــوض

حاولت سعاد حسني أن تنسحب سعيًا إلى أن تعيد ضبط أوضاعها في مواجهة الخصمين الطارئين: الزمن والمرض، فواجهها خصم جديد هو: جماعة آكلي لحوم البشرية

حينما تلقيت هذه الدعوة للكتابة عن العلاقة المركبة بين النجوم والأضواء، تقاطع في عقلي مزيج من الإشارات الحمراء والخضراء. في الموضوع أيضًا مناسبة حزينة هي رحيل الفنانة سعاد حسني.. بما فجر لدى الجماهير العريضة بركانًا من الحزن لم يجربوه من سنوات طويلة. لكن هذا الرحيل بحد ذاته اختلطت فيه المأساة بالملهاة.

في المأساة فجيعة حقيقية لنجمة جمعت من الأضواء والفن وحب الناس الكثير. وبعد عشر سنوات من الغياب المتقطع والسفر وإعادة السفر والمرض والصحة.. ها هي تموت في الغربة وحيدة ومريضة ومكتئبة، بالسقوط من شرفة شقة بالطابق السادس من مبنى ضخم بمدينة لندن.. يوجد فيه ستة مصريين على الأقل، بعضهم يعرفون سعاد حسني من زمن. مع ذلك فلم يعرف أحد منهم بحياة سعاد حسني في نفس المبنى إلا مع ذيوع خبر موتها في نشرات الأخبار. فقط.. توجد في هذا المبنى أيضًا سيدة مصرية لم يعرف أحد بإقامتها الدائمة السابقة في نفس المبنى. والآن، بأثر رجعي، يتبين أن سعاد حسني كانت تقيم في شقة تلك السيدة تحديدًا باعتبارها المحطة الأخيرة في حياتها.

في المناسبة أيضًا شيء من الكوميديا السوداء. فمع حرص تلك السيدة المصرية على مصاحبة جثمان صديقتها سعاد حسني في الطائرة إلى القاهرة، وفاء لها وإصرارًا على أن تلازمها حتى النظرة الأخيرة، إذا بتلك السيدة تتحول في مطار القاهرة من صديقة وفية إلى مشتبه فيها. البعض أفتى ـ كبداية.. ومن غير علم ولا معلومات ـ بأن سعاد حسني لم تسقط من الطابق السادس وإنما جرى إسقاطها بفعل فاعل. من تلك المقدمة انطلقت الاتهامات في شتى الاتجاهات.

هناك ـ ولله في خلقه شئون ـ من أفتى بأن جهاز المخابرات الإسرائيلية «الموساد» له يد في موت سعاد حسني. والغريب أن الذين أفتوا بذلك هم من الذين يستسهلون إعطاء «الموساد» ما لا يستحقه.. وهو كثير.. بينما هم في نفس الوقت يغضون الطرف عما يقوم به «الموساد» فعلاً.. وهو خطير.

هناك من أفتى أيضًا بأن أصواتًا عالية من الخبط و«الرزع» قد سمعها السكان في الشقق المجاورة بذلك المبنى المحدد، وأن تلك الأصوات العالية استمرت لنحو خمس عشرة دقيقة وبعدها جرى سقوط (أو إسقاط) سعاد حسني من الطابق السادس. وأن لدى الشرطة البريطانية بلاغا من هؤلاء السكان الجيران هو بحد ذاته أحد أدلة الاحتمالات الجنائية في موت سعاد حسني. ولأن الكلام بغير جمرك فلم يذكر أحد أدلة الاحتمالات الجنائية في موت سعاد حسني. ولأن الكلام بغير جمرك فلم يذكر أحد اسما واحدا لأولئك الجيران الشاكين، ولا أرقام شققهم، ولا رد فعل الشرطة البريطانية بعد تلقي الشكاوى المزعومة. وبالتالي فالباب مفتوح لكي تصبح هذه الشرطة بدورها متواطئة في قتل سعاد حسني.

هناك من الأقرباء دمًا من استكثر على نفسه توجيه الشكر إلى تلك السيدة المصرية القادمة مع جثمان سعاد حسني من لندن. وبدلاً من ذلك حث الشرطة المصرية على إلقاء القبض عليها والتحقيق معها لأنها تخفي مجوهرات سعاد حسني ومذكراتها المكتوبة.


عبدالوهاب - أم كلثوم - عبدالحليم

كان هؤلاء الأقرباء دمًا لسعاد حسني يثبتون بذلك أنهم أبعد ما يمكن عن معرفتها. فهي لم تكن في أي وقت من هواة المجوهرات.. ولا كانت أيضًا ضليعة مع الورق والقلم والكتابة والتأملات الفلسفية. كما أن عشقها للحياة وثقتها بقدرتها على الاستمرار في العطاء الفني يتنافى أصلاً مع فكرة تسجيل مذكرات. كل المسألة أن السيدة المصرية الصديقة الأخيرة لسعاد حسني ومضيفتها في شقة لندن قد جاءت معها في الطائرة بكل متعلقات سعاد حسني وحقائبها. ولأنها رفضت تسليم تلك الحقائب إلى بعض هؤلاء الأقارب دون بعضهم الآخر.. وقررت من البداية تسليم الحقائب إلى سلطات مطار القاهرة للتصرف فيها قانونيا.. فقد أصبح التشهير بها هو الانتقام الفوري.

هناك بعد ذلك من هم أكثر شبقًا وتنافسًا على الأضواء مع سعاد حسني.. حية وميتة. هؤلاء ذهبوا إلى مطار القاهرة (وفاء وحزنًا؟ جائز). إنما بمجرد ظهور الكاميرات انهالت الدموع خصيصًا.. مصحوبة بفتاوى مؤكدة بأن في القصة جريمة قتل. ومن باب الاحتياط.. يصبح واجبًا القبض على نفس تلك السيدة المصرية القادمة من لندن مع جثمان سعاد حسني.

من هؤلاء أيضًا من بدأ دفاعه عن نفسه بالهجوم على الآخرين: نحن لم نقصر في حق سعاد حسني في أي وقت وإنما شملناها بالرعاية التليفونية والبريدية والمالية الدائمة. لكن.. ما الحل وسعاد حسني نفسها كانت تغير محال إقامتها وأرقام تليفوناتها؟

منهم كذلك من بدأ القول إن الدولة لم تقطع إنفاقها المالي على علاج سعاد حسني إلا بعد دفع مبلغ ٨٥ ألف جنيه إسترليني. ومع ظهور المزيد من الكاميرات رفع البعض الآخر الرقم إلى مليون ونصف مليون جنيه استرليني، قبل أن تطلب سعاد حسني من الحكومة ذات الحسب والنسب والأصول التوقف ـ سعاد التي تطلب التوقف ـ عن الصرف على علاجها في لندن.

وحتى لا يضيع هذا الكرم الدعائي مع الحكومة هباء أمام الكاميرات.. فقد ذكر هؤلاء البعض أنهم تحركوا فورًا لتكوين جمعية لأحباء سعاد حسني ـ سندريلا السينما المصرية ـ وتخليد ذكراها. جمعية باسم «جمعية السندريلا للاستثمار العقاري» بأموال خاصة وأسهم حين ميسرة.. إنما كل المطلوب من الحكومة هو توفير عشرة أفدنة أو عشرين فدانًا من الأرض المناسبة مجانًا لحساب أعضاء الجمعية، الذين سيصبحون محبين لسعاد حسني بخاتم النسر ـ حتى لا تضيع الدموع على رحيل سعاد حسني هدرًا. كلمات وأشياء تفلق الحجر.

وهكذا تحولت المأساة إلى ملهاة سوداء. والملهاة جوهرها ركوب الموجة أو بلغة السينما سرقة الكاميرا. سرقتها من الجمهور العريض المتاع، ومن سعاد حسني نفسها جوهر المأساة.

فقط نسي الجميع ـ تحت غلالات دموع الكاميرات ـ أن أهم ما لصق بسعاد حسني نفسها هو أنها في أي عمل فني كانت «تسرق الكاميرا». أما التعبير الدقيق الصحيح فهو أن الكاميرا هي التي كانت تسرق سعاد حسني. ففي الكيمياء الغريبة بين الفنان والكاميرا اعتادت الكاميرا ـ



الصماء أصلاً - على الانحياز إلى وجوه دون أخرى. وفى تاريخ السينما المصرية تحالفت كاميرا التصوير مع وجه سعاد حسنى منذ بدايتها الأولى فى فيلمها الأول سنة ١٩٥٩. هذا التحالف استمر يخدم سعاد حسنى ثلاثين سنة متواصلة. بعدها ترددت الكاميرا بعض الشىء فتحولت رحلة سعاد حسنى الفنية من السعادة إلى الشقاء.. ومن الإضافة إلى الخصم.. ومن النظر إلى الكاميرا كحليف مؤكد إلى التشكك فيها كخصم محتمل.

لقد بدأت رحلة العذاب.



فى الحديث عن الشهرة والأضواء والنجوم ينجذب قلمى - غصبًا - إلى أم كلثوم.. ثم إلى يوم محدد ضمن شريط معرفتى بها. لقد رفعت سماعة التليفون فى بيتى لأجد على الطرف الآخر الصديق الموسيقار بليغ حمدى. وبكل مودة وتفاؤل يتصل بليغ حمدى لينقل الرسالة: ثومة تريدك غدًا فى ستوديو ٤٧ بالإذاعة لتحضر التسجيل الأول للأغنية - أغنية «حكم علينا الهوى» (من كلمات عبدالوهاب محمد وألحان بليغ حمدى).

استغربت تمامًا من الدعوة. فلا أنا حضرت من قبل أى تسجيل لأم كلثوم.. ولا هى أصلاً من طبعها دعوة أى أحد - خارج نطاق الأغنية ذاتها - لحضور التسجيل. وفى ردهات الإذاعة كان محفوظًا عن ظهر قلب أنه فى المرات التى تحضر فيها أم كلثوم لتسجيل أغنية جديدة لها.. لا يمتنع الاقتراب من الأستوديو فقط.. وإنما من الطابق كله. فى نفس الوقت لم أكن أتصور أن بليغ حمدى سيخترع لى من خياله دعوة لا أساس لها. لكننى تصورت فقط أنه ربما حماس زائد من جانبه للحنه وموسيقاه، هكذا شكرته.. واعتذرت.

بعد أيام اتصلت أم كلثوم نفسها. لم تحكِ لى عن الأغنية أو التسجيل، ولا أنا أيضًا فتحتَ سيرة مكالمة بليغ حمدى. فقط هى اقترحت علىَّ أن أمر عليها فى «الفيللا» صباح غد بسيارتى. فى الغد ذهبت. وقبل أن أغادر السيارة كانت أم كلثوم قد دخلت إليها لتجلس على المقعد المجاور وتقول لى: هيا بنا إلى الإذاعة.. ثم بدأت، كعادتها، تتمتم بصوت خفيض بعض آيات القرآن الكريم.

فى الأستوديو جرت مفارقتان. فبينما الفرقة تضبط آلاتها فى قلب الأستوديو.. إذا بأم كلثوم تدخل مع بليغ حمدى ومعى فى مداعبات ومجاملات رقيقة وكريمة. أما حينما تغادر هى إلى داخل الأستوديو ليبدأ التسجيل فقد كان بليغ حمدى يفاجئنى هامسًا بتساؤلات قلقة: مالها أم كلثوم إنها لاتبدو فى كامل لياقتها. اللهم اجعله خير. بعدها أوقفت التسجيل لبعض الوقت وعادت إلينا حتى يأتوا لها بكوب من اليانسون. لا قلق. كلها دوخة بسيطة عابرة. الدردشة والمداعبات من جديد ثم محاولة استكمال التسجيل وإرهاق أم كلثوم من جديد.. وقرار منها: لينصرف الموسيقيون الآن.. وربما نكمل غدًا.

فى سيارتى عائدًا معها إلى منزلها بالزمالك راودتنى أفكار متقطعة أساسها التفاعل مع حالة الإرهاق غير المسبوقة التى شهدتها لتوى فى صحة أم كلثوم. هى لم تكن ظاهريا تشكو من شىء. لم تكن تشكو أيضًا من حالة نفسية تعانى منها مؤخرًا بمناسبة مشروعها الخيرى الذى تفكر فيه.. واختارتنى ضمن مجلس إدارته لأجد نفسى الأصغر سنا. هى أيضًا كان نبض عروقها عزة نفس وكبرياء.

بمجرد أن استدرت بسيارتى يسارًا إلى كوبرى «أبو العلا» كنت قد استجمعت شجاعتى وقلت لها أنصاف أفكار متقطعة: ياثومة.. هل الغناء المنتظم للجمهور نَص مكتوب وملزم فى علاقتك مع الناس و.. و.. و.. تاه الكلام.

ردت أم كلثوم بقفزة مفاجئة: أعتزل الغناء؟ سهل جدًا. سهل ومريح. إننى حتى أستطيع أن أجد عذرًا مناسبًا لذلك. مع هذا فإننى أعرف فى داخلى أننى لو قررت الاعتزال فهذا معناه نهايتى. لا أستطيع. لا أستطيع. إننى أحسب عمرى بعدد مرات وقوفى على المسرح.

بعدها حشر الصمت نفسه بيننا. السيارات والشوارع وإشارتان أو ثلاثة وصدق فظيع فى كلماتها. إن كلماتها الأخيرة عند بيتها كانت: هيه؟ هاتيجى التسجيل بكره؟

إننى لم أكن أعلم بعد أنه تسجيلها الغنائى الأخير. لهذا قلت: أكيد. لكن.. هل أنت بخير؟ نعم. كانت بخير. أو - لم تكن؟



كل الفنون ترتبط بالنسب. كلها أولاد خالة. الرسم والكتابة والغناء والموسيقى والتمثيل والإخراج والتصوير فيها من المشترك بأكثر مما فيها من المختلف. كل المبدعين أيضًا عجينة متقاربة. قد تختلف نسب المكونات وعناصر التفاعل. لكن الكيمياء فى النهاية هى نفسها: التفاعل بين المبدع وجمهوره. الانضباط والحزم والخيال والثقافة والمعرفة والخبرة والتطور كلها أساسيات. إنما فى نهاية المطاف: الفنان يعطى إبداعًا.. متوقعًا أن يأخذ حبًا. قد نجد من يبدع لإرضاء المؤرخين بعد جيل أو جيلين. لكن الإبداع الغالب هو المتجه إلى هؤلاء الناس.. فى هذا المجتمع.. ولهذه اللحظة.

مع ذلك فإن «لحظة» الكاتب تختلف عن لحظة نجم السينما مثلاً. قد يظل الكاتب فى عطائه سنة وعشرا قبل أن يتعرف عشرا أشخاص على صورته.. أو حتى يتعرفون عليه أصلاً. إنما السينما تحديدًا يحكمها قانون آخر.

فى السينما هناك «النجاح الفورى».. بفيلم واحد ناجح يصبح الممثل مشهورًا عند آلاف من الناس. وحينما يصبح الممثل نجمًا تتسع شهرته بامتداد الملايين.. وربما تؤلف من أجله القصص وتتحدد ميزانيات الأفلام.

فى السينما قانون السوق. فإذا ابتعدنا عن لغة الاقتصاد يصبح التعبير هو قانون شباك التذاكر، أو ثقة الموزعين وإقبال المولين توقعًا لمجئ الأرباح من شباك التذاكر. أملاً فى أن الطلب سيفوق العرض.. والإيرادات ستجئ بأضعاف المصروفات.

لكن هناك أيضًا وجها آخر لنفس العملة. فمقابل «النجاح الفورى» هناك «الفشل الفورى». فيلم واحد يكسب فيصبح النجم فى سابع سماء. فيلم آخر لنفس النجم يخسر فيصبح النجم فى سابع أرض. قانون السوق. لا مشاعر هنا. لا حب ولا كراهية. ولا رحمة أيضًا.

فى نجومية سعاد حسنى السينمائية اشتغل قانون السوق لصالحها طوال معظم مشوارها. فى نجومية أم كلثوم كانت السوق موجودة لكن مع بعض التحسينات. شهرة أم كلثوم ونجوميتها جاءت ببطء، ومن قرية إلى قرية، وبغير ميكروفون ولا حتى إذاعة فى بداية البداية. هذا يحافظ على توازن الفنان نفسيًا لأطول فترة ممكنة ويجعله أيضًا أكثر اطمئنانًا إلى الزمن وأكثر ثقة فى التعامل معه.

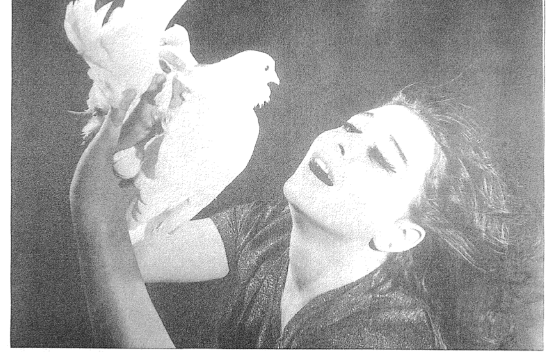


مع رحيل أم كلثوم توقف الزمن.. مؤقتًا.

ويوم الجنازة اتصل بى الموسيقار الصديق محمد عبد الوهاب لكى يرتب معى الذهاب سويًا لحضور الجنازة المنطلقة من مسجد عمر مكرم بميدان التحرير بالقاهرة. لكننى ذكرته بأن الزحام يصيبنى بضيق فى التنفس، وبالتالى فلن أذهب إلى الجنازة مكتفيًا بالتسمر فى البيت أمام جهاز التليفزيون لأتابع مسيرة الجنازة على الهواء.

وقال لى عبد الوهاب: معك حق. أنا أيضًا سأبقى فى المنزل وأحزن مع التليفزيون.

قلت له معترضًا: لا.. لا.. القياس هنا مختلف. أنت محمد عبد الوهاب ولابد من وجودك بشخصك فى الجنازة ليراك الناس جميعًا مشاركًا لهم فى أحزانهم. هذا وإلا



نظام النجوم هذا هو النوع العصرى من نظام الرق والعبودية. يتفرج عشرات الملايين على نجمهم المحبوب ويهيأ لهم أنه معبر عنهم وملك خاص لهم. لكن فى حقيقة الأمر هو لا يعبر عن نفسه. وإنما عما يقرره له الاستوديو



ستنشر جميع صحف العالم العربي غدًا في صفحاتها الأولى خبرًا متكررًا بأن محمد عبدالوهاب - شريك أم كلثوم الفني ورفيق مشوارها - لم يحضر الجنازة. هل أنت مستعد لمثل هذه الصدمة من الجمهور فيك؟

فكر عبد الوهاب لبعض لحظات قبل أن يغير رأيه من جديد متمتمًا: معك حق. أنا ذاهب إذن إلى «مسجد» عمر مكرم.

الجنازة تزاحم فيها مئات الآلاف من الناس الحزانى. لكن مع متابعتي لها في شاشة التليفزيون لم ألحظ عبد الوهاب في المقدمة. لم ألحظ حتى أن الجنازة بدأت في التحرك.

نصف ساعة على الأكثر ودق التليفون بجواري من جديد، إنه محمد عبد الوهاب.

في هذه المرة كلماته مرتعشة فعلاً: شفت شورتك؟ أنا سمعت كلامك وذهبت. وابتداء من فندق هيلتون، يعني من قبل ميدان التحرير بمسافة، وجدت بحارًا متلاطمة من البشر مما جعل السائق مضطرًا إلى المسير بالسيارة ببطء. منتهى البطء. يا دوب.. مترًا بمتر. وبدأ بعض الجمهور الحزين يتعرف عليَّ داخل السيارة. ومن نوافذ السيارة دخل الناس بأعناقهم ليحاصروني بأصواتهم الباكية الخانقة لي ولهم مرددين.. يا أستاذ عبد الوهاب.. أم كلثوم راحت.. فريد راح.. وأنت البركة فيك..

قلت له: والله شعور طيب.

قاطعتني كلماته المرتعشة: أنا عارف أنه طيب. لكن يجوز معناه أيضًا أنهم يعتبرون أنني أصبحت من العهد البائد. شكلها كده. لا يا عم. أنا لست محتاجًا لإثبات حزني على أم كلثوم لأي أحد. الله وحده يعلم بفجيعتي وفجيعة الغناء العربي كله من خسارتها. إنما.. الروح حلوة.. أنا كدت أموت اختناقًا من الزحام. زحام الناس والمشاعر.

فكرت بسرعة ثم قلت له: على العموم فاتت لحظة المشاركة في الجنازة. بالليل سيخف زحام الناس كثيرًا والنظام في سرادق العزاء سيكون أكثر انضباطًا. من هنا أقترح عليك الذهاب في المساء إلى سرادق العزاء.

سكت عبد الوهاب للحظات بدت كالدهر ثم قال لي بلهجة اشتراطية: طيب أنا موافق إنما بشرط.. رجلي على رجلك.. ونروح سوا في سيارتك أنت حتى نكون معًا وننصرف معًا.

في السرادق ليلاً دخل محمد عبد الوهاب متوكئًا على ذراعي، فقد كانت متاعب عينيه وقتها لا تسمح له بالرؤية لأبعد من أمتار قليلة. وفي صدر السرادق جلسنا. وبعد لحظات نهضت من مقعدي فسألني عبد الوهاب مخضوضًا: رايح فين؟

قلت له: أبدًا. إنما وجهاء الدولة الموجودين لازم نفسهم يجلسوا جنبك لزوم الكاميرات. وبعدين أنا لمحت أحمد فؤاد حسن من مسافة وأريد أن أسأله عما جرى ظهرًا في الجنازة. كلها خمس دقائق وأعود إليك أو قريبًا منك.

في أذن أحمد فؤاد حسن شرحت له الموقف همسًا وقلت له: إنني سوف أتسلل منصرفًا بعد قليل في الاستراحة بين مقرئين.

اعترض أحمد فؤاد حسن بدوره قائلاً لي: الأستاذ جاء معك بسيارتك وتتركه هنا بمفرده؟ كيف سيعود إلى بيته؟

قلت له: حينما يقف عبد الوهاب في انصرافه باحثًا عن سيارة توصله سيجد بدل السيارة ألفا. إنما المهم عندي هو أن يستمر موجودًا في السرادق لأطول فترة ممكنة.

وكما عرفت فيما بعد فإن هذا هو بالضبط ما حدث. كلما انتهى مقرئ من التلاوة وبدأ جزء من الجمهور في الانصراف ليحل محله جزء آخر كان الجميع يلمحون عبد الوهاب فورًا من بعيد. وبدل الانصراف يسارًا كانوا يتجهون يمينًا ليقولوا له تنويعات من نفس المعنى.. يا أستاذ عبد الوهاب البقية في حياتك.. أم كلثوم راحت.. وفريد راح.. وأنت البركة فيك.

في الواحدة صباحًا اتصل بي عبد الوهاب. وبرغم الإرهاق البادي في صوته ومبادرته بالشكوى من قيامي بالتخلي عنه.. إلا أنه كان مستريحًا نفسيًا تمامًا لما جرى. مستريحًا ومكلومًا أيضًا. وفي تلك اللحظات تأكد لي من جديد عمق الفجيعة الشخصية التي يعانيها عبد الوهاب من رحيل أم كلثوم. بالطبع هناك العمر والعشرة والتاريخ والمشاركة والذكريات.. وهناك أيضًا جانب آخر: إنه برحيل أم كلثوم فقد عبد الوهاب أكبر ناشر صوتي لموسيقاه باتساع العالم العربي.

لكن، بمعنى من المعاني، استمرت في العقل الباطن لعبد الوهاب فكرة الخوف من أنه ربما يكون قد أصبح «من العهد البائد». الخوف من الزمن.

والزمن في حياة الفنان هو مجده. وهو أيضًا شبح العجز عن المزيد من العطاء.



في سنوات سعاد حسني كان الزمن بخيلاً وسخيًا، حليفًا وعدوًا، دافعًا لها وسيفًا عليها. هي من أسرة رقيقة الحال ضمت ١٧ أخًا وأختًا. الأب خطاط موهوب لكن مزواج. البنت الصغيرة اللهلوبة تمثل على نفسها وتعيش في تقاطع من خلافات دائمة بين أبوين مطلقين. في السياق أصبحت شقيقة كبرى لها من الأب - هي نجاة - مطربة في الإذاعة.. وصغيرة. سعاد أيضًا شاركت أحيانًا في برامج «بابا شارو» للأطفال بالإذاعة المصرية.

إنما التحول الكبير الأول في حياة الصبية سعاد حسني جاء من مكتشفها: عبدالرحمن الخميسي.

لم أعاصر عبدالرحمن الخميسي. وبالدقة تقابلنا ثلاث أو أربع مرات في عصر ما قبل التاريخ. أقصد تاريخ بدايتي المتواضعة في الصحافة.. ومن موقع هو أبعد ما يمكن عن نموذج عبدالرحمن الخميسي. لكن فيما قرأته عنه وأعرفه كوقائع عامة.. فإنه كان شخصية استثنائية. لم يكن كاتبًا فقط.. وإنما كاتب وشاعر وقصاص ومترجم وموسيقي ووفدي وناصري ومسرحي وناشر ومنشور ودائن ومدين وعاشق ومعشوق ومستور ومفلس وعاطل وصاحب فرقة مسرحية وجائع ثم سبب اختفاء الكباب من بر مصر بين ليلة وأخرى. لم يبق فيما قرأته عنه سوى أن يكون عبدالرحمن الخميسي.. ضابط احتياط. وبجسمه فارع الطول، كان من الممكن أن تصدق عليه.

عبدالرحمن الخميسي إذن هو المكتشف الأول لسعاد حسني. عنده قصة طقت في دماغه اسمها «حسن ونعيمة». ليست ابتكارًا ولا اختراعًا ولا فتحًا مبينًا. إنما فكرة الإذاعة المصرية رحبت بها أولاً كمسلسل أصبحت بطلته السيدة كريمة مختار في دور «نعيمة» باعتبار الإذاعة تعتمد بالدرجة الأولى على الموهبة الصوتية. ومؤخرًا فقط سمعت حوارًا مذاعًا مع السيدة كريمة مختار قالت فيه، بكل محبة ورقة ومودة، إنها مع تطور الحلقات لاحظت أن الخميسي يجيء معه الاستوديو بفتاة شابة متقوقعة ومنكمشة في أحد أركان الاستوديو بغير أن تنطق بكلمة. مع الوقت عرفت كريمة مختار أن الخميسي يفكر في تحويل المسلسل الإذاعي فيما بعد إلى فيلم سينمائي، وأن تكون هذه الفتاة المنكمشة - اسمها سعاد حسني - هي «نعيمة» على الشاشة البيضاء، وأنه يجيء بها في كل تسجيل بتنبيه واحد: اجلسي هنا صامتة تمامًا لكي تتعلمي من كريمة مختار فن استخدام الصوت في التعبير عن مشاعرك الداخلية.

الخطوة التالية أصبحت مشروع فيلم، ليكون من إخراج هنري بركات المعروف عنه أنه مخرج أفلام فاتن حمامة والرومانسية المرتبطة في نفس الوقت بشباك التذاكر.

أما المفاجأة الحقيقية فهي أن يصبح محمد عبدالوهاب (ضمن شركته مع عبدالحليم) هو منتج الفيلم، وبتلك الصفقة يصبح محمد عبدالوهاب هو قانون السوق.. شخصيًا. قانون اللعب في المضمون والمغامرة فقط بأسماء لها رصيد مسبق عند الجمهور وفي شباك التذاكر. في هذه المرة أصبح لمحمد عبدالوهاب الفنان الصوت الأعلى من عبدالوهاب المنتج. إنه هنا لا يغامر بفلوسه فقط على وجه جديد مجهول لفتاة اسمها سعاد حسني، وإنما شريكها في البطولة هو أيضًا وجه جديد لمطرب ناشئ اسمه محرم فؤاد.

لكن الفتاة الشابة الطموحة سعاد حسني حينما طلب محمد عبدالوهاب مجيئها ليرى بنفسه أولاً صلاحيتها للشاشة البيضاء فوجئ بها تقول له بكل جرأة: والنبي ياأستاذ عبدالوهاب.. أنا في دور «نعيمة» نفسي كمان.. أغني.

سألها عبدالوهاب بكل وقار واهتمام: والله؟ لك في الغناء؟ وكمان جدًا جدًا؟ طيب سمعيني حاجة أنت حافظاها وتغنيها.

وبجرأة أكثر.. إذا بتلك الفتاة تغني لعبدالوهاب أغنيته الشهيرة «كل ده كان ليه». تنحنح عبدالوهاب بكل صبر وأدب قائلاً لها: صوتك فيه حاجة (جيدة؟ سيئة؟ لم يوضح) إنما يا شاطرة.. خبطتين في الراس توجع. كفاية دلوقت خبطة واحدة. كفاية نغامر بك أولاً. كممثلة. أما الغناء فله مشوار تاني لك مع نفسك وصوتك.

غامر عبدالوهاب إذن كفنان ضد قانون عبدالوهاب كمنتج. في زمن تفتح على المواهب. والسينما المصرية في ذروة عطائها الإنتاجي وكبار الفنانين يتحمسون للاكتشاف والاستكشاف. الزمن أيضًا صبور مع الموهبة.

فحتى اللحظة التي قامت فيها سعاد حسني ببطولة فيلمها الأول هذا في سن السابعة عشرة لم تكن أكثر من موهبة خام قابلة للانطفاء أو اللمعان. لم تكن حتى تعرف القراءة أو الكتابة.

رعاية عبدالرحمن الخميسي لسعاد حسني جعلته يصبح مع الزمن واحدًا من ثلاثة كشافين كبار لمواهب تلك الفتاة وصاحب فضل أساسي فيما ستصبح عليه عند الملايين من الجمهور.

كان إصرار سعاد حسني على التعلم هو الأساس وسباقها مع الزمن أتاح لها بطولة أفلام بعد أفلام.. بعضها عادي المستوى وبعضها أصبح علامات مميزة بحجم فيلم «القاهرة ٣٠» عن قصة لنجيب محفوظ وفيلم «الزوجة الثانية» عن قصة لرشدي صالح.. وكلاهما من إخراج صلاح أبوسيف.

ومع ذلك كان الزمن، الذي هو حليف سعاد حسني في تلك المرحلة، هو الذي يدخرها لدور عمرها. دورها في بطولة فيلم «خللي بالك من زوزو» عن قصة لصلاح جاهين وألحان لكمال الطويل وسيد مكاوي.



في نيويورك تقابلنا.. أنتوني كوين النجم السينمائي الأمريكي الكبير (ومن أصل مكسيكي).. وأنا، كانت المناسبة هي دعوة من صديق مشترك للبقاء في نيويورك أسبوعين أو ثلاثة ومتابعة التصوير الخارجي لفيلم جديد من بطولة أنتوني كوين. وبتلك الصفقة، وباستثناء مواعيد التصوير، فقد أصبحنا نحن الثلاثة نقضي معظم الوقت معًا.

في إحدى المرات قال لي أنتوني كوين مداعبًا: أنت تذكرني بشبابي.

وأردت أن أرد إليه المجاملة فقلت له: وأنت تذكرني بزوربا اليوناني.

انكمشت فجأة ابتسامة أنتوني كوين وقال لي: آه.. أنت تنكأ جرحي. فهذا الفيلم تحديدًا هو الأقرب إلى نفسي وقلبي من بين كل ما قمت بتمثيله. وفي نفس الوقت هو أيضًا معركتي الدائمة مع جمهوري.

كانت المفارقة كبيرة وموحية ولم ينجل غموضها إلا مع شرح أنتوني كوين. قال: تتذكر طبعًا أن «زوربا اليوناني» هي قصة من الأدب اليوناني بطلها هذا، باسم زوربا، إنسان بسيط وتلقائي وعفوي ومحب للحياة والناس والطبيعة ومتواضع في طلباته لكنه طموح في أحلامه وبداخله قدر كبير من براءة الأطفال.. الخ. المشكلة هي أن هذه هي تركيبتي النفسية فعلاً.. وما أطمح لأن أكونه فعلاً. لكن ترجمة هذا إلى دور على الشاشة تحتاج إلى مؤلف وسيناريست ومخرج ومنتج يكونون جميعًا بقدر الحماس نفسه.

ثم سكت أنتوني كوين قليلاً قبل أن يضيف: حينما قرأت تلك القصة اعتبرت أنني وجدت كنزًا. وبعد مشوار طويل نجحت في تحويل القصة إلى فيلم على الشاشة وبقدرة قادر اتسع جمهوري السينمائي حول العالم ليصبح بالملايين. وأينما ذهبت بدأ الناس ينادونني باسم زوربا. حتى الموسيقى الشهيرة في الفيلم أقوم بالرقص على نغماتها.. أصبح الناس يطلبونها مني حيثما ذهبت. بالطبع كان هذا يسعدني تمامًا ويوقظ إنسانيتي لأن هذا هو ما كافحت طوال النصف الأول من عمري لكي أكونه. لكن مع الزمن

اكتشفت بأن عليّ أن أكافح في النصف الثاني من عمري لكي أقنع جمهوري بأنني قادر على أداء شخصيات أخرى على الشاشة.. قد لا تكون بنفس الثراء الإنساني كما في حالة زوربا. لكنها قد لا تقل فنًا أيضًا.



شيء من هذا ربما يكون قد حدث أيضًا في حياة سعاد حسني السينمائية. لكن.. بينما في حالة زوربا اليوناني كانت الشخصية مطروحة من السابق في عمل أدبي متكامل وممتع في حد ذاته ويعرفه كل قراء الأدب اليوناني.. إلا أن فيلم «خللي بالك من زوزو» كان شيئًا مختلفًا.. من نبت ظروفه ومجتمعه وزمنه.. وبغير أصل أدبي.

في البلد نكسة كبرى منذ يونيو ١٩٦٧. وجراحة شاملة للحياة المصرية وإصرار متناه على أن تكون حرب يونيو فصلاً في قصة ولكنها ليست خاتمة القصة، وجيش جديد يجري بناؤه تحت القصف والقصف المضاد، ومليون شاب يشكلون هذا الجيش معظمهم من المتعلمين وخريجي الجامعات أتاحهم استثمار سابق في مجانية التعليم، وحرب استنزاف وزعيم يرحل ورئيس جديد يتولى السلطة وسؤال يفرض نفسه على الجميع: لماذا يتأخر انطلاق الجيش لتحرير الأرض؟

وسط هذا كله، بل ومع هذا كله، لابد أن تمضي الحياة ولا تتوقف. السينما لم تتوقف. لكن ماذا تقول السينما لملايين المعبأين المشتاقين ليوم الثأر؟ وفي حالة صلاح جاهين تحديدًا حينما يتحمس للكتابة للسينما.. ماذا يقول؟ إن قال جادًا راح في داهية. وإن قال هلسًا خان المليون جندي في الجبهة. إذن.. ما العمل؟

جاء العمل في هذا الفيلم «خللي بالك من زوزو» واحدًا من الإجابات على جمهور سنة ١٩٧٢. لا سياسة بالمرة وإنما قصة حب.. فقد تبدو ساذجة لأول وهلة ومجرد تسلية. إنما البطلة فتاة بسيطة شقية لهلوبة متعلمة من بين ملايين الفتيات في مصر الجديدة. فتاة لا تتبرأ من ماضيها ولكنها تثق بنفسها ومستقبلها وتستطيع القول في الضوء الساطع أنها تحب الحياة وتدرك خياراتها ومستعدة لتحمل النتائج.

وحينما اختار صلاح جاهين سعاد حسني لتكون فتاته هذه في الفيلم السينمائي فقد أصبح هو المكتشف الثاني لها بعد عبدالرحمن الخميسي. صلاح أيضًا يشترك مع الخميسي في كونه صاحب «سبع صنايع». شاعر ورسام وممثل وصحفي وزجال ومؤلف وسيناريست وقبل هذا وبعده ـ عجينة خالصة من الموهبة والرقة والرومانسية والأحلام الكبيرة.

من بين الأحلام أن يكون الفيلم غنائيًا، وسعاد حسني بطلته ترقص وتغني. حتى هنا: لا مشكلة. لسعاد صوت غنائي مقبول وهي غنت فعلاً في أفلام سابقة لكن من غير أن تترك بصمة صوتية غنائية. إلى أن تحركت كيمياء الفن والحظ عند إشارة مرور ذات يوم في قلب القاهرة.

في الإشارة لوحت سعاد حسني من سيارتها إلى الموسيقار كمال الطويل في سيارته: نفسي أغني.. ونفسي موت أغني من ألحانك بالذات.

وبأسلوب كمال الطويل المجامل رد عليها بقوله: إن شاء الله يا سوسو.. أنا كمان أحب إنك تغني..

بعدها ذهب كل في طريقه.. فإشارة المرور انفتحت. والإشارة خضراء.

في المساء تليفون من صلاح جاهين، وعشرته الفنية مع كمال الطويل عميقة وناجحة وسابقة: أنا عندي سعاد في البيت.. أنت صحيح وعدتها إنك تلحن لها؟

أسقط في يد كمال الطويل وجرجر قدميه إلى بيت صلاح جاهين ليجد سعاد حسني وآخرين والحكاية فيلم جديد والشغل فيه بمرحلته الأخيرة وسيد مكاوي انتهى من تلحين أغنية باسم الفيلم. والآن.. هذه هي الأغنية الرئيسية يا عم كمال حسب القصة. أغنية «يا واد يا تقيل». البطلة أمامك والمنتج وراءك ولا مفر. عايز بيانو؟ أنا جاهز به لليوم ده.. تفضل.

تمعن كمال الطويل في الكلمات. بسيطة وشعبية. وتملأ النافوخ خبط لزق. إنما القصة إيه؟ والبطلة من؟ خلاص يا كمال، حكينا لك القصة عشر مرات. وشخصية البطلة عشرين مرة. البيانو جاهز. ولا مفر.

بمجرد أن جلس كمال الطويل إلى البيانو في بيت صلاح جاهين تبخر نصف حماسه: يا صلاح.. هذا ليس بيانو.. هذا بوتاجاز متنكر في شكل بيانو.

سواء هي طبيعة كمال الطويل، أو حظ سعاد، أوشقاوة صلاح جاهين، أو كيمياء اللحظة، فإن ما جرى في نصف الساعة التالي شيء لا يصدق، لقد ترك كمال الطويل البيانو واتجه إلى باب الحجرة ووقف ينقر الإيقاع على خشب الباب ملحنا الكلمات كوبليه بعد كوبليه.. وصلاح جاهين واقف إلى جواره بجهاز تسجيل. في تلك الليلة لم يعرف أحد ـ بعد ـ أن لحنا يمكن أن يولد بهذه الطريقة ويتدفق به كمال الطويل بهذه السلاسة كما لو أنه مولود باللحن في داخله. لم يدرك أحد أيضا أن ما يجري سيصبح سريعاً قنبلة الموسم.

إنما الأكثر أهمية هو أن الجميع لم يتصور أن كمال الطويل يمكن أن يعود إلى التلحين بمثل تلك المصادفة. في تلك الفترة كان قد هجر التلحين من أصله.. وانسحب قبل سنوات في منتصف لحن وضعه لصديق عمره عبدالحليم وأغنية «بلاش عتاب». فيما اعتبره عبدالحليم مفاجأة عمره.. فمشواره الفني مع كمال الطويل سابق وناجح ومبهر.

وفي عشرات المرات، بعضها كنت شاهدا عليها في بيت عبدالحليم حافظ أو وسيطا عند كمال الطويل من طرف عبدالحليم، لم يتوقف أملي في أن يسترد كمال حماسه ويعود إلى التلحين مرة أخرى.. ولعبدالحليم. الصداقة موجودة والود مستمر وتهاني كمال لأغاني عبدالحليم الجديدة الناجحة من ألحان بليغ حمدي متكررة. إنما.. أين أنت يا كمال من الموسيقى؟ موجود. لكن بعيد عن الموسيقى.

الآن.. حتى بعد أن وضع كمال الطويل لحن أغنية «يا واد يا تقيل» في بيت صلاح جاهين، نسي الموضوع تماما وسافر مع أسرته إلى الإسكندرية. وبروايته هو فيما بعد.. فإنه لم يكن متأكدا بدرجة كافية من أن صوت سعاد حسني سيكون قادرًا على التعبير عن الروح التي وضعها في هذا اللحن الخفيف السريع.

بالإسكندرية قالت له زوجته ذات صباح: ألن تسافر إلى ستوديو مصر بالقاهرة اليوم؟ هل نسيت موعد تسجيل أغنية سعاد؟ ومنذ متى تترك ألحانك هكذا كما لو أنها بلا صاحب؟ على الأقل تتأكد من حسن التنفيذ.



في موقع التنفيذ والتسجيل باستوديو مصر بالقاهرة وجد كمال الطويل كل شيء تمام.. باستثناء لحنه وصوت سعاد حسني.. الفرقة الموسيقية مدهشة وعازفوها مقتدرون وقائدهم أوركسترالي بديع، واللحن ـ ظاهرا على الأقل ـ منضبط. إنما النتيجة صيني بدل العربي.. أو أوركسترالي بدل الشعبي.. أو فصاحة بدل الشقاوة. طيب. متشكرين يا أساتذة وتعالى هنا يا عمر يا خورشيد (عمر خورشيد عازف الجيتار).. يا محمود (محمود عفت عازف الناي البديع) ومعلهش يا صلاح (جاهين) ساشرح لك فيما بعد بيني وبينك.

كمال منه للموسيقيين وبالتبعية للمغنية والمؤلف: يا أساتذة.. يا إخواننا.. معايا لو سمحتم. فلنبدأ من أول وجديد. هذه سعاد حسني وليست سعاد محمد. القصة بطلتها بنت أمها عالمة في شارع محمد علي. بتقول لولد بتحبه: يا واد يا تقيل يا مشيبني.. ده أنا بالي طويل وانت عاجبني.. بس يا ابني.. بلاش تتعبني.. علشان عمرك ما هاتغلبني.. معايا يا أساتذة؟ الغناء هنا يكون كده.. الموسيقى تكون كده.. الآلات المهمة كده..



> هناك بعد ذلك من هم أكثر شبقًا وتنافسًا على الأضواء مع سعاد حسنى.. حية وميتة. هؤلاء ذهبوا إلى مطار القاهرة وانهالت الدموع خصيصًا.. مصحوبة بفتاوى مؤكدة بأن فى القصة جريمة قتل

السرعة كده.. الإيقاعات كده.. يا أساتذة.. نجرب مع بعض؟ كمان بروفة تانى.. وتالت.

بعد ساعات من الحفظ والتجربة والتسجيل وإعادة التسجيل وساعة بعد ساعة رضى كمال الطويل عن لحنه واستلقى على كرسيه بالغ الإرهاق، استعدادا للعودة بسيارته إلى الإسكندرية. لكن سيد مكاوى دخل عليه راجيا: يا أبوكمال.. إشرافك على شغلك نتيجته الشيء المدهش الذى سمعته. طيب أنا أعمل إيه؟ من يشرف لى على شغلى؟ أنا فى طولك وعرضك. لحنى أمانة تحت إشرافك.

فى الساعات المبكرة من الصباح التالى عاد كمال الطويل إلى الإسكندرية. بعد أسابيع خرج الفيلم إلى الأسواق مسويا الهوايل فى شباك التذاكر.. بأغانيه على ألسنة الملايين.

من تلك اللحظة تحولت سعاد حسنى عند جمهورها، بل وفى قرارة نفسها، إلى «زوزو» حتى فى التسجيل الموجود بصوتها على تليفونها المحمول كانت تقول: أهلاً وسهلاً.. هنا زوزو.. زوزو النوزو كونوزو». وفى مداعبات المصريين اليومية وغزلهم أحيانا أصبح مألوفا استخدام تعبيرات من نوع: يا واد يا تقيل.. ما تقولش أمين شرطة اسم الله.. ولا دبلوماسى.. هى عبرت وأعطت فأجادت، والنتيجة المدهشة من الناس: شلال من الحب.



بعدما مثّلت سعاد حسنى أفلاماً عديدة تالية. بعضها حتى تنويعات على تركيبة «خللى بالك من زوزو».. تغنى وترقص وتمثل.. كما فى فيلم «أميرة حبى أنا» الذى قام كمال الطويل بتلحين كل أغانيه. كلها أيضا دخلت فى قاموس الملايين حينما يريدون التحدث عن «الدنيا ربيع والجو بديع.. قفل لى على كل المواضيع».

إنما اللمسة السحرية فى علاقة سعاد حسنى مع نفسها، وعلاقتها مع جمهورها، استمرت مرجعيتها هى «زوزو». بالضبط كما عشق أنتونى كوين دوره فى زوربا.. وصارع بعده ليقنع جمهوره بأنه.. إلى جوار زوربا.. يمكن أن يعبر عن شخصيات أخرى.

مشكلة سعاد حسنى أكثر تعقيدا.. هى امرأة أصبحت نجمة شباك. هى أيضا سندريللا. هى ثالثا تمثل وتغنى وترقص.. وبالتالى يصبح عليها أن تحتفظ باستمرار.. ليس بجمالها فقط.. وإنما بكامل لياقتها البدنية والجسمانية. لقانون السوق هنا ـ أو شباك التذاكر ـ شرطان صارمان مع هذه الشريحة من النجوم: قوة الإرادة.. بالإضافة إلى تحويل الزمن إلى عنصر محايد. وبينما الإرادة ممكنة.. إلا أن حيادية الزمن لن تتجاوز التسامح لبعض الوقت.. إنما ليس طوال الوقت.

مع الزمن استجد خصم آخر: المرض. فمع إصابة سعاد حسنى بشرخ فى العمود الفقرى، وعلاج خاطىء فى البداية، أصبحت آلامها لا تطاق. بعدها أصبحت نفس الأدوية التى تسكن آلامها هى التى تسبب لها زيادة الوزن، وهو ما يؤدى بدوره إلى ابتعادها عن حالة اللياقة البدنية التى تريدها لنفسها. وكلما نظرت سعاد حسنى فى مرآتها بحثا عن «زوزو» تجد أن «زوزو» تصبح أبعد.. وأبعد.. وأبعد.. الحلم يهرب، وفى فراغه يجىء شىء آخر: الاكتئاب.



ذات يوم اتصل بى محمد عبدالوهاب. إنما الصوت غير الصوت. والتفاؤل انقلب إلى تشاؤم. وخفة الظل تحولت إلى مجرد أداء للواجب بالسؤال الروتينى عنى اعتمادا من عبدالوهاب على مداعبته المتكررة: أنت ابنى الشقى.

كتمت عن عبدالوهاب انطباعاتى وتظاهرت بعكسها محاولا العودة به إلى طبيعته فى المئات من مكالماته السابقة. أبدا. اكتئاب.

كنت أستطيع التخمين بمناسبة وسبب هذا الاكتئاب. إنه رحيل يوسف وهبى الذى هو من جيل وربما من عمر عبدالوهاب، الآن هو بالغ الحزن ولم يعد يجد للحياة معنى.

كانت الكلمات الأخيرة شذوذا كاملا فى قاموس عبدالوهاب. هو اعتاد محايلة الحياة.. وملاطفة الزمن.. حتى يلاطفاه.. من الأطباء يعرف الكثيرين. الانضباط.. هو نفسه نموذج له. النوم المبكر واليقظة المبكرة والمشى داخل شقته لمدد محددة والأكل المسلوق ولا سجائر أو منغصات؟ كله موجود. البعد عن الهم والغم والأنفلونزا والبرد والهواء الملوث كله تمام. إنما المشاعر والأحاسيس؟ وفراق الأحباب؟ والزمن.. والزمن.. الزمن.

قلت لعبدالوهاب: بصراحة أنت عملت كثيرا للخروج من أحزانك على أم كلثوم.. الآن.. لماذا لا تجرب تغيير نمط حياتك؟

بعد أن قلت تلك الكلمات تمنيت أن أسحبها من جديد. هذا عبدالوهاب شديد الخبرة بالناس والحياة وأنفق من وقته الكثير سابقا لكى ينصحنى ويشد من أزرى فى مواجهة منعى من الكتابة فى جريدتى وأزمات عابرة بعيدة تماما عن محيط اهتمامه ومصالحه. كيف أعكس الآية وأستبيح لنفسى الآن إسداء النصح له؟

وعبدالوهاب يسايرنى: يعنى أغير حياتى ازاى بعد هذا العمر؟ أروح أسهر فى كباريه؟ أبعد عن البيت؟ أنت أيضا تمر عليك الأسابيع لا تغادر منزلك..

قلت له: لم أقل لك غادر منزلك.. أقول فقط.. غير الجو.. جدد الهواء.. تفرج على مسرحيات. افتكر مثلاً أنك فى ليلة كنت زعلان فى بيت محمد التابعى ووجود زكريا أحمد ونجيب حنكش، ألفت ولحنت لك ليلى مراد أغنية فورية باسم «عبدالوهاب لابس قبقاب» وأنك ساعتها نسيت همومك كما حكيت لى بنفسك.. وضحكت كما لم يحدث فى حياتك. الآن أغمض عينيك.. وافتكر ليلى مراد.. وبالمناسبة.. جرب تلبس قبقاب.

فى تلك المكالمة ناكفنى عبدالوهاب وناكفته.. بلا جدوى.. الاكتئاب هو الاكتئاب.

فى عز النوم دق التليفون إلى جوارى فى السرير. يا خبر؟ تقريبا نحن فى منتصف الليل. لقد رفعت السماعة مهيا نفسيا إلى الشخط فى هذا المزعج المقلق للراحة فى وقت غير مناسب.

طلع إنه محمد عبدالوهاب. وبغير تمهيد قال لى بحماس بالغ: أنت نايم؟ يا راجل افتح التليفزيون.

لكن.. لماذا أقوم من السرير وأفتح التليفزيون فيطير من عينى النوم حتى الصباح؟ لأن فى التليفزيون مسرحية دمها خفيف.. وبطلها باين عليه إنه كوميديان مهم.. ها ها ها.. والنبى تسمع.. ها ها ها..

لم أضحك لأن محنتى الفورية هى أن النوم طار من عينى. قضى الأمر. إنما حب الاستطلاع جعلنى أسأله: هذا تغيير كبير منذ مكالمتنا ظهرا.. إنما لازم شىء خطير هذا الذى يحدث.. ماذا جرى؟

ـ أقول لك سمير غانم ده باين عليه كوميديان مهم.. والنبى تسمع.. هاها هاها.. لأول مرة اعتدلت فى السرير، فالمسألة جد. قلت له: سمير غانم باين عليه؟ كأنك تقول عنه أنه فنان ناشئ. هو كوميديان مهم وله جمهور عريض من زمان.. من أول ما طلع مع الضيف أحمد وجورج سيدهم فى سكتش «دكتور.. الحقنى» و«زمان.. زمان».

وعبدالوهاب يستدرك: تمام.. تمام.. إنما أنت لم تفهم قصدى. أنا قصدى أقول لك أنه فى العادة الكوميديان يستثمر شيئا غير عادى فى خلقته يحوله من ضعف إلى قوة. يعنى فمه أوسع من اللازم كإسماعيل ياسين مثلاً.. أو عيناه فيهما حَوَل أكثر من اللازم كعبدالفتاح القصرى مثلاً.. أو صوته أجش أكثر من اللازم كنجيب الريحانى مثلاً.. أو حركة شفايفه مع لسانه أقل انضباطا من اللازم كحسن فايق مثلا.. أو جسمه أقصر وشنبه مقصوص بشكل لافت كشارلى شابلن مثلا. إنما سمير غانم الذى أراه الآن كله مضبوط ووجهه وسيم.. وبعد كده.. كوميديان يبقى شىء مهم، سألته مستغرباً: هل هذا مدح أم ذم؟

ـ مدح طبعا.. اسمع والنبى بيقول.. ها ها ها.. شوف.. هنا لازم يعمل ايفيه.. أيوه أيوه عفارم عليك.. هاها هاها.. والنبى تفتح التليفزيون.

قلت له: بدل فتح التليفزيون أنا عندى فكرة. إذا كان قد أسعدك إلى هذا الحد واستخرج الضحكات من قلبك بكل هذه الجلجلة.. فأقل شىء تكلمه فى التليفون وتبلغه بنفسك شعورك كما تحكيه لى الآن بالضبط..

ـ لكننى لا أعرفه شخصيا..

ـ الآن عرفته.

ـ ولا أعرف تليفونه.

ـ سأعطيك من الذاكرة رقم تليفونه. المسألة لا تحتاج إلى أى معرفة شخصية. تحتاج فقط إلى أن تضع نفسك مكانه حينما يتلقى مكالمة من الموسيقار محمد عبدالوهاب ليقول له: «أشكرك.. فقد أضحكتنى من كل قلبى..».

أخذ عبدالوهاب نمرة التليفون لكن بغير حماس ظاهر وبلا تأكيد مسبق.. ناوى يطلب سمير غانم أو لن يطلبه.



عصر اليوم التالى تلقيت مكالمة من سمير غانم. لم يكن فى الأمر مفاجأة فهو يتحدث بين فترة وأخرى. فى هذه المرة يحكى عن أشياء وأشياء ثم وسط الحديث قال: على فكرة سأغير من جديد رقم تليفونى. أصله غير معقول تداخل الخطوط وتطفل الناس الفاضية يوصل إلى هذه الدرجة.. تخيل.. آخرتها بعد نص الليل واحد فاضى يطلبنى.. أقول له أهلا وسهلا مين حضرتك؟ فيرد يقول لى: أنا محمد عبدالوهاب يا أستاذ سمير.. وحياتك ركبنى العصبى ورديت عليه بما يستحقه لأنه إنسان فاضى يتسلى على خلق الله.. وقفلت السكة فى وجهه.

حاولت أن أستوعب الموقف فتساءلت: لكن يا سمير.. كيف جزمت بأنه ليس محمد عبدالوهاب؟ فى النهاية صوت عبدالوهاب معروف للملايين.

رد سمير غانم بغضب: هذا ما استفزنى أكثر.. واحد فاضى يتقمص حتى صوت محمد عبدالوهاب. طيب.. اعطينى عقلك.. الأستاذ الكبير الموسيقار بتاع الجندول والكرنك وأنت عمرى وأم كلثوم وجبل التوباد وياجارة الوادى وأخى جاوز الظالمون المدى والحبيب المجهول و... و... و... لما يكلمنى ـ جدلاً يعنى ـ يقول لى: يا أستاذ سمير؟ طيب إذا كانت البداية هى أنى أستاذ.. تبقى النهاية إيه؟ ناس فايقة ورايقة علاجها تغيير رقم التليفون.

قلت له: والله فكرة يا سمير.. طيب قبل ما تغير تليفونك هل أنت مرتبط غدا.. ظهرا؟ سأنتظرك ونذهب بسيارتك إلى أى مكان..

بعدها اتصلت بعبدالوهاب استكمالا للمكالمة الناقصة من ليلة أمس. الصوت عاد إلى رنينه. التفاؤل وخفة الدم استردا مكانهما. إنما لم يفتح مطلقا أى سيرة عن مكالمته مع سمير غانم. وبدورى لم أتطوع بالإضافة أو التعليق. بعدها سألنى: عايزين نقعد «نقر» سوا.. يعنى ندردش سوا.

قلت له: سوف أمر عليك ظهر غد لكن بعد استيفاء ثلاثة طلبات. أولاً ـ تكون فيه أم على، ثانياً ـ يكون عندك أكل ضار بالصحة، ثالثا ـ يكون الأكل لشخصين.

رد عبدالوهاب مقاطعا: الآن كل ما تقوله ضار بالصحة. ما له الأكل المسلوق أو الردَّة بالملعقة؟ والبعد عن كل ما هو حراق وفيه ملح وشطة؟ هذه خبرة عمر ودكاترة متخصصين. إنما معلهش.. خليك براحتك وفى يوم حتلاقى كلامى تمام. بالنسبة لبكره.. من الآن اعتبر أن أم على ذات نفسها موجودة.. وكل ما هو ضار بالصحة موجود. سعاد (مديرة المنزل) عارفة نظامك وأنت منك للطباخ.



فى الطابق الثانى من العمارة إياها ـ مسكن عبدالوهاب ـ سألنى سمير غانم عند الباب: ممكن أعرف، لمجرد العلم بالشىء ليس إلا، دى شقة مين؟

قلت له: يا أخى شقة واحد صاحبى.

لم يطلع صاحبى. طلعت سعاد. بعدها الصالون. بعدها جاء عبدالوهاب ولحظتها مفاجاءة سمير غانم. بعدها قلت لسمير غانم: دعنى أقدم إليك يا أستاذ سمير فنانا ناشئا ومستقبله غير مضمون.. اسمه محمد عبدالوهاب.

الكيمياء تحركت والصدفة تحولت إلى كوميديا ومحمد عبدالوهاب هذا - المكتئب بشدة قبل ٢٤ ساعة - تحول إلى طفل من جديد بضحكاته وتفاعله مع سمير غانم.

فى السياق سألت عبدالوهاب: أين أم على؟ وفى السياق يتعمد عبدالوهاب تأخيرها، بعكس انضباطه الصارم مع مواعيده للغداء. أخيرا، وعلى مائدة الطعام، جاء الطباخ بأم على. هى حلوى مطبوخة مشكلة أساسا من العيش واللبن. وبرغم اننى عموما لا أحب الحلوى إلا أن طاجن «أم على» بالذات يصبح بالنسبة لى الأحلى مذاقا وطعما فى بيت عبدالوهاب.

بينما جلستنا مستمرة على المائدة طرحت سؤالا بسيطا: لماذا يمارس الفنانون أحلامهم دائما.. فرادى؟ لماذا لا يخصصون جزءا من اهتمامهم ووقتهم للانشغال بالمستقبل؟ لماذا يتعلق كل فنان بماضيه، وهذا حقه، بينما لا يعطى فى نفس الوقت مساحة للتفكير فى استباق الزمن؟

النقاش بدأ. والأفكار توالدت. والوقت مضى.

فى نيويورك - وهذا يعيدنى إلى أنتونى كوين - كنت متوقفا خلال نقاشات متقطعة ومستمرة عند سؤال جوهرى: هذا أنت أمامى.. أنتونى كوين.. ناجح ومطلوب ومكسر الدنيا بمناسبة فيلم زوربا اليونانى. بعد هذا العمر وهذه النجومية وهذا التكيف مع «قانون السوق».. هل أنت مضطر للمشاركة بفلوسك الخاصة منتجا لفيلم كهذا الذى أتابعه؟

رد أنتونى كوين بما يلى: السينما هى صناعة الأحلام وتسويقها. جمهور بالملايين ومنتجون بالعشرات. من هنا ولدت هوليوود. ولدت صناعة السينما الأمريكية التى صدرت بضاعتها إلى كل أنحاء العالم. هوليوود اخترعت عقود الاحتكار ونظام النجوم. حسب هذا النظام تتعاقد معى مثلاً إحدى شركات الإنتاج أو الاستوديوهات أو أصحاب رأس المال. أنا فى تلك اللحظة ما أزال نكرة ومجهولا ولو قلت لى اعمل المستحيل ساعمل.. لأن الحلم فى داخلى. وإذا لم تعجبنى الشروط فهناك آلاف غيرى جاهزون.

.. فى البداية أوقع أوراقا وكل دافعى هو حلمى بأن أصبح نجما ويصفق لى الناس. وبعد أن رضيت بالقليل وتعبت صفق لى الناس وتفاعل معى الملايين وأدركت قيمتى. ثم ماذا؟

.. فى الجانب الأول من القصة هناك شركة تفكر لك.. هى التى تحدد لك من تصاحب وماذا تقول وأين تتواجد ونوع الملابس التى ترتديها وأى حفلات تقبل الدعوة إليها. هناك جيش من الاخصائيين وخبراء العلاقات العامة يقررون لك مسبقا ماذا تقول وأين تقيم وفى أى مكان تستريح ومع من تتواجد. يعنى، باختصار، نظام النجوم هذا هو النوع العصرى من نظام الرق والعبودية. يتفرج عشرات الملايين حول العالم على نجمهم المحبوب هذا. ويتوحدون معه ويهيأ لهم أنه معبر عنهم وملك خاص لهم. لكن فى حقيقة الأمر هو لا يعبر عن نفسه. وإنما عما يقرره له الاستوديو. وهو أيضا ملك لأصغر موظف مختص فى ادارة هذا الاستوديو.

.. عند أول فرصة للهرب من نظام الرق والعبودية هذا.. كل من فينا يهرب.. بل وفى بعض الأحيان يدفع الفلوس والتعويضات لكى يهرب. أنت الآن تستغرب لأننى أنتج بفلوسى فيلما من بطولتى.. استغراب معقول، لكننى أشترى حريتى واستقلاليتى وحقى فى أن أختار لنفسى ماذا أريد أن أقدمه إلى جمهورى أملاً فى أن يصدقنى لأن اللعبة فى هذه المرة تصبح أكثر إنصافًا وعدالة. فى فيلم سابق كان ممكنًا أن أدعوك إلى العشاء - كما نتعشى الآن - لكن هذا يحدث فقط لمجرد أن الأستوديو هو الذى قرر ذلك، وهو الذى اختارك وكلفنى بدعوتك وهو الذى يضيف فاتورة العشاء إلى تكاليف إنتاج الفيلم بغير أن يسألنى الاستوديو مسبقًا: هل مثل هذا الشخص يريحك أو يزعجك؟ أنا عبد المأمور والشركة التى تحتكرنى هى التى تقرر لى من يكون ضيفى وليس أمامى سوى الإذعان وإلا فهناك عقوبات.. لو تكررت وتصاعدت تؤدى إلى خراب بيوت وقضاء على مستقبل واحتكام إلى قانون الغابة. الأقوى يأكل الأضعف. فإذا فكر الأضعف فى التمرد يجرى سحقه ليصبح عبرة لغيره.

ثم انتهى أنتونى كوين إلى الخلاصة: السحق هنا لا يعنى القتل المادى. يكفى القتل المعنوى. يكفى ضرب المتمرد فى مقتل من خلال توصيله إلى حالة من انعدام الثقة بالنفس وبأنه لم يعد له مستقبل. عنده ماض فقط. فليعش فى هذا الماضى لأن هذا كل ما لديه. ماض. بلا مستقبل.

سعاد حسنى، ولأسباب وظروف مختلفة، ربما تكون قد عانت من شىء من هذا. شىء من الإلحاح على أنها ماض بلا مستقبل. إنما الأسوأ هو أنها تصرفت على هذا الأساس. لقد تلبست نوعًا خاصًا جدًا من النجومية.. والدور تلبسها. هى «زوزو» لأنها فى حينها كانت فى أكبر حالات لياقتها النفسية والبدنية. جمهورها تفاعل معها أيضًا لأنه محتاج إلى «زوزو». بعد قليل تحولت المسألة إلى أن كليهما أصبح سجين الآخر. هى سجينة لجمهورها - جمهور زوزو - والجمهور نفسه لم يستوعب أن «زوزو» نفسها فكرة وحلم.. قد تجسده سعاد حسنى فى فترة. لكن غيرها يجسده فى فترة تالية.

لم يكن أى منهما واقعيًا مع الآخر. لا الجمهور خفض توقعاته من سعاد حسنى. ولا هى أيضًا عدلت من توقعاتها من الجمهور. هناك حقيقة تعلوهما معًا عنوانها: الزمن. وربما يحسب لسعاد حسنى أنها جربت الخروج إلى جمهورها بشىء مختلف عن «زوزو» ففوجئت بالفشل. نريد زوزو والمزيد منها. حاولت أيضًا أن تنسحب سعيًا إلى أن تعيد ضبط أوضاعها فى مواجهة الخصمين الطارئين: الزمن والمرض. فواجهها خصم جديد. فى الحرب على جبهتين آلام كافية ويجوز التكيف مؤقتًا مع أى منهما. إنما الخصم الجديد أصبح هو: جماعة آكلى لحوم البشرية.

هذا جديد.





من بين ٨٢ فيلمًا سينمائيًا - يعنى مشوار معتبر - كان آخر أفلام سعاد حسنى السينمائية فى سنة ١٩٩١ بعنوان «المتوحشة» المقتبس أصلاً عن مسرحية لجان إينوى. والفيلم من إنتاج سعاد نفسها.

بعدها رحلات العلاج المتقطعة. فى البداية باريس وبعدها لندن. فى حالات من هذا النوع فإن القاعدة الأولى حسب «قانون السوق» هى أن يبتعد النجم عن الأضواء بالكامل، خصوصًا كاميرات المتطفلين. فى هوليوود مثلاً، وحتى من غير مرض، تلتزم نجمة الاغراء مثلاً فى عقدها مع الشركة المنتجة بعدم التقاط أى صور لها تهز من شكلها فى خيال الجمهور كأن يتم تصويرها بغير ماكياج.. مثلا.

سعاد حسنى لم تكن نجمة إغراء. هى جميلة.. لكنها ليست صارخة الجمال. لها قبول يحرك القلوب ولكن لا يحرك الغرائز. مع ذلك فالمرض هو المرض. وحينما يتلازم المرض مع زيادة الوزن تصبح الصور أول الممنوعات. ليلى مراد مثلاً مع آخر فيلم سينمائى لها لم تعد تسمح مطلقًا بالتقاط أى صور فوتوغرافية لها.

نتيجة رحلة العلاج هى التى تقرر الخيارات المتاحة أمام نجمة بهذه الشعبية. هناك خيار التغيير الآمن.. كان تتحول من سندريلا إلى أم مثلاً. هناك خيار الاعتزال النهائى وهذا يعنى حياة جديدة مختلفة تمامًا وبعيدة بالكامل عن أية أضواء. هناك خيار التمسك بنجومية السندريلا مع تعديلات طفيفة.. وهذا هو الأصعب على الإطلاق لأن الزمن هنا له سلطة الاعتراض. سعاد ليست

زوزو.. وزوزو ليست سعاد. لكن للزمن تعليقا على الأحداث.

فى جميع الحالات هى التى تقرر وتختار على ضوء نتائج العلاج. ولكى يحدث ذلك سافرت سعاد حسنى للعلاج.. والعزلة. فى حالتها.. العزلة جزء من الدواء. لكن العزلة شىء.. والوحدة شىء آخر مختلف.

وفى عزلتها وغربتها ثم وحدتها.. استجدت على سعاد، بعد جبهتى الزمن والمرض، نصف جبهة أخرى. إنهم المتطفلون من المحيط القريب.. فمع الأضواء يجئ الهاموش. بعده الذباب.

وفى أيام أم كلثوم كان يوجد «هاموش». إنما، ولأنها أم كلثوم، فقد كان علاجها باترًا، وأقامت حول حياتها الخاصة سور الصين العظيم.. فاحترم الغريب والقريب خيارها هذا. مع ذلك، وفى لحظات «فضفضة» إنسانية.. كانت أم كلثوم تحكى لى عن منغصات تتجاوز خيالى. منغصات لحرق الدم.

فى أيام عبد الحليم حافظ كان «الهاموش» قد استقر أرضًا وتحول إلى صراصير. وبرغم كل الرائج عن شعبية عبد الحليم ونفوذه إلا أننى عاصرت معه فى مرحلته الأخيرة حالات من حرق الدم التى كانت تدفعه إليها صراصير المدينة. أمام الكاميرات كان عبد الحليم يكابر متظاهرًا بأنه لا يهتم. أما فى داخل غرفته المغلقة فقد كان يجهش بالبكاء. صعب على نفس عبد الحليم بعد كل ذلك المشوار والكفاح والشعبية أن يتعرض لذلك النوع من الضغط والابتزاز والقرف والتلوث من صراصير المدينة.

مع أفلام سعاد حسنى الأخيرة كان الصراصير قد تحولت إلى فئران. ومع مشوارها الأخير للعلاج أصبحت الفئران أفيالاً.. والأفيال من نوع خاص مخلّق يجعلها أقرب إلى أكلة اللحوم البشرية.

أتوقف هنا عند نموذجين:

فى الواقعة الأولى وجدت سعاد حسنى نفسها، وهى فى الغربة والعزلة والوحدة، وسط ادعاء بكلمات تستنطقها بما لم تقله. ادعاء بأنها ارتبطت مع عبدالحليم حافظ فى حياته، ولمدة خمس سنوات كاملة، بعلاقة زواج بعقد عرفى. تلك كذبة مجلجلة لم تنطق بها سعاد. هناك ارتباط عاطفى جرى بين عبد الحليم حافظ وسعاد ذات فترة. هناك غرام. هناك توافق عاطفى كان يمكن أن ينتهى إلى زواج. لكنه لأسباب لا تقلل من أى منهما، زواج لم يحدث.. وأصبح كل يسير فى طريق.. مكتفيًا باعتزازه بالطرف الآخر.. من بعيد لبعيد.

واستنطاق سعاد حسنى كذبًا، وفى حالتها تلك بالغربة، بمثل ما جرى كان يعنى استدراجًا لها إلى كمين بالغ الخبث.. ويسئ إليها والى عبد الحليم حافظ.. معًا. المغزى ببساطة، وبأثر رجعى، هو أنه كانت لعبد الحليم حافظ وسعاد حسنى حياة سرية أخرى يخفيانها عن الناس. وطرح مثل تلك الأكذوبة، مع رحيل طرفها الأول وعزلة طرفها الثانى، كان أقصى درجات الحقد على كليهما معًا.. والغل الدفين منهما معًا.. ولأسباب لها سياق آخر ليس هذا مكانه. وأسوأ ما فى الواقعة هو أن سعاد لم تكن تستطيع الخروج أمام الكاميرات لكى ترد.. فذلك كان بالضبط هو الكمين المنصوب لها وسافرت إلى الغربة حتى لا تضطر إليه.

أما الواقعة الثانية فقد جرى نشرها قبل شهور قليلة من رحيل سعاد حسنى. الآن نحن أمام كذبة أخرى، وموجعة ومتوحشة بدرجة أكبر. الأكذوبة هى أن سعاد حسنى تعيش فى لندن هائمة على وجهها غير واعية بتصرفاتها، تلتهم فضلات الطعام والمشروبات، وتتصرف بطريقة مقززة حتى لمن يتعاطفون معها. وأيضًا.. تتسول. أما عنوان الأكذوبة، وببراءة الأطفال ودموع التماسيح، فهو: أنقذوا سعاد حسنى.

لكن العنوان مضلل، والمضمون متوحش. المضمون هو: دعوة للقبض على سعاد حسنى وإدخالها قسرًا إلى أقرب مستشفى للمجانين.

يا إلهى. تلك دعوة لا يقولها المرء.. حتى عن عدو. هو أيضًا كمين آخر مختلف.. استدراجًا لسعاد حسنى أمام الكاميرات.. فى أسوأ لحظاتها الصحية وقدرتها النفسية على مواجهة الكاميرات. فى الحالتين هى مدانة مقدمًا أمام جمهورها. مدانة إذا صمتت. ومدانة إذا تكلمت.

كان هذا التوحش شيئًا جديدًا فى هذه المدينة. جديدًا ومهينا وغير إنسانى بالمرة وفى لحظة دقيقة إنسانيًا يواجه فيها النجم أصعب معاركه.. وعلى جبهتين. بل إنه حتى بعد رحيل سعاد حسنى المأسوى فجعت فى أكلة اللحوم البشرية هؤلاء - وهو خيط واحد وإن اختلفت الدوافع والمصالح - بنشرهم أن سعاد حسنى كانت تعانى من.. من.. من: الشبق الجنسى.



مع خروج عشرات الآلاف من الشبان فى وداع سعاد حسنى بالقاهرة.. كان شلال الحب يحيط بها من جديد.. وإن تكن هى الآن قد أصبحت ذكرى. فى شلال الحب هذا كانت الرسالة واضحة بغير فذلكة ولا فلسفة. الرسالة هى: إن الفن ممتع.. ومبهج.. وهى فى حياتنا لكى نعتز به ونرعى مواهبه. الفن الجميل - ريشة وقلمًا ونغمة وصوتًا وصورة. وبما هو قليل من جمال الفن فى حياتنا نستطيع التصدى لما هو كثير من قبح.

لقد كانت الدموع فى عيون الجمهور صامتة.. وناطقة.. هى دموع عرفان بسعادة أعطتها لهم سعاد حسنى وكل من صنعوا مشوارها. وهى كذلك دموع حسرة على أن سعاد حسنى كانت تستطيع إعطاء المزيد.

.... وهى أيضًا كانت تتمنى ذلك. ■



الفلاح الفصيح

الشكوى الأولى

عندئذ أتى هذا الفلاح ليقدم ظلامته إلى المدير العظيم للبيت «رنزى» بن «مرو» فقال: «يا مدير البيت العظيم، يا سيدى، يا أعظم العظماء، يا حاكمًا على ما قد فنى وما لم يفن! وإذا ذهبت إلى بحر العدل وسحت عليه فى نسيم رخاء، فإن الهواء لن يمزق قلعك، وقاربك لن يتباطأ، ولن يحدث لصاريك أى ضرر، ومرساك لن تكسر، ولن يغوص قاربك حينما ترسو على الأرض. ولن يحملك التيار بعيدًا، ولن تذوق أضرار النهر، ولن ترى وجهًا مُرتاعًا. أقم العدل أنت يا أيها الممدوح الذى يمدح بهؤلاء الذين يمدحون، اقض على فقرى، انظر إنى مثقل بالحمل، جربنى، انظر إنى فى حيرة».

الشكوى الثانية

* «إن الإنصاف قصير، ولكن الضرر يمكث طويلاً، والعمل الطيب يعود ثانية إلى مكانه بالأمس. والواقع أن الحكمة تقول: «عامل الناس بما تحب أن تعامل به»، وذلك كشكر إنسان على ما يعمله. ليت لحظة تخرّب، فتجعل كرمك رأسًا على عقب، وتفتك بطيورك، وتودى بدواجنك المائية. فالمبصر قد غشى بصره، والمستمع قد صمّ، والحاكم أصبح متمردًا...».

* «لا تنطق كذبًا. واحترس من الحكام.. إن قول الكذب عشبهم، وعلى ذلك من المحتمل أن يكون خفيفًا على قلوبهم. وأنت يا أكثر الناس تعلمًا، هلا تريد أن تعرف شيئًا عن أحوالى، تأمل، فإنى أملك مجرى ماء من غير سفينة، وأنت يا مرشد كل غارق إلى البر، نجّ من غرقت سفينته نجنى...».



نَظَرْ!

سُوبرمانات وفلسطينيُّون وبُوشناق وماركات مُسجّلة!

محيى الدين اللبّـاد

سوبرمانات!

■■ وفقًا للسياق الذى يحكم صفحات من هذا النوع، كان من الأجدر بعرض الكتب هذا أن يبدأ بالتعليق على جائزة «پوليتزر» الأمريكية ٢٠٠١ للكاريكاتور، وليس جائزة «پوليتزر» الخاصة بالرواية لهذا العام كما هو حادث الآن. إلا أن هناك مبررًا قويًا للاستفتاح بالرواية الفائزة بـ«پوليتزر»؛ إذ هى رواية ضخمة (أكثر من ٦٠٠ صفحة) تجرى أحداثها فى عالم قصص الشرائط المرسومة Comic Strips الأمريكية: شخوصها من الأبطال الخارقين من شاكلة «سوبرمان»، ورساميهم، وكتّابهم، وناشريهم.

المادة الخام التى اعتمدت عليها الرواية هى التاريخ التفصيلى لنهوض صناعة الشرائط المرسومة للأبطال الخارقين الأمريكان، بدءًا من ميلاد تلك الصناعة الذى تزامن مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، ومع تهيؤ الولايات المتحدة الأمريكية لخوضها.

«خرطة» التاريخ التى تتناولها الرواية متخمة بالحكايات: حكايات الأفراد، وحكايات الشخصيات الخارقة المرسومة على صفحات الكتب، وحكايات مبدعيها من رسامين وكتّاب قصة وسيناريو، بالإضافة إلى حكاية أمريكا ذاتها (أو بمعنى أقرب: أسطورتها).

وتبدأ أحداث رواية «المغامرات المدهشة لكافالبير وكلاى» The Amazing Adventures of Kavalier & Clay فى مدينة «براغ» فى أواخر الثلاثينيات وقت الاحتلال النازى لتشيكوسلوفاكيا. وفى تلك العاصمة المحتلة، يعيش أحد بطلى الرواية الرسام الشاب الموهوب «جوزيف كافالبير». وبدأب وصبر، يدبر هذا البطل هروبًا موفقًا يلقى به خارج بلاده، إلى «ملجأ الأحرار» نيويورك، التى يصلها فى التوقيت الذى ينبلج فيه فجر الصناعة الأمريكية الوليدة وقتذاك: نشر قصص الشرائط المرسومة. (بدأ مدّها - فى الواقع - مع ظهور شخصية البطل الخارق «سوبرمان» الذى نشرته دار «ناشونال كوميكس» فى صيف ١٩٣٩).

يقصد الرسام التشيكى اللاجئ ابن عمه كاتب الحكايات الطموح «سام كلايمان» الذى كان قد سبقه فى الهرب إلى أمريكا، والذى سيصبح كاتب الحكايات والسيناريو والحوار لكتب المغامرات التى سيرسمها القادم الجديد. ولا يمر وقت طويل، حتى يطلق الثنائى الموهوب أول كتبهما المرسومة، التى تقوم ببطولتها الشخصية الخارقة التى اخترعاها وأسمياها «الهروبى Escapist».

ورغم أن الرواية لا تكرر قصة وتاريخ صناعة نشر مغامرات الأبطال الخارقين فى أمريكا، ولا تقدم بديلاً مباشرًا مقابلاً لكل شخصية واقعية، ورغم توفيق الروائى الشاب فى غزل تاريخ روائى لم يكرر رواية ما حدث بالفعل، ورغم أنه أعاد صياغة الأحداث الواقعية ورغم خياله السردى الغنى، إلا أن المتابع لتاريخ كتب الشرائط المرسومة الأمريكية لن يضطر إلى صرف جهد كبير ليكتشف أصولاً - فى التاريخ الواقعى - لكثير من شخصيات الرواية وأحداثها. وبيسر كبير ستستدعى ذاكرة القارئ المتابع «جوزيف شوستر» (١٩١٤ - ...) الرسام الذى خلق شخصية «سوبرمان» عام ١٩٣٩، ويطابقها مع شخصية الرسام فى الرواية. وغالبًا لن تتخلى ذاكرة ذلك القارئ عنه، وستمده بما تختزنه عن «جيروم سييجل» (١٩١٤ - ...) كاتب القصص والسيناريو والحوار الذى شارك فى خلق البطل الخارق، وأسر انتباه وإعجاب الملايين من القراء الشباب على مدى ستين عامًا. وسيجد فى سيرة ذلك الكاتب الموهوب كثيرًا مما يقرؤه فى الرواية عن شخصية الكاتب فيها.

كان البطل الخارق «سوبر مان» قد تملك قلوب قرائه وأثارهم بازدواجيته؛ فهو فى هيئته الظاهرية المتواضعة التى يتخفى وراءها، صحفى شاب خجول يضع نظارات طبية. وهو بهذا يموّه على حقيقته المثيرة، ككائن خارق غير أرضى، بل من كوكب «كريبتون» الذى تمتع سكانه بقدرات خارقة لا قبل لإنسان كوكبنا بها. وقد انفجر ذلك الكوكب، وهلك سكانه جميعًا عدا طفل واحد هبط إلى كوكب الأرض محتفظًا بكل الصفات الخارقة لأهل الكوكب الهالك، والتى لا تستطيع قوة فى الأرض أن تقف أمامها.

ويشب ذلك الطفل، ليصبح «سوبر مان» الخارق الكاره لهؤلاء الأشرار الذين فجروا وطنه «كريبتون» وتسببوا فى هلاك أهله. ويتفرغ لمطاردتهم -هم وأمثالهم- بلا هوادة ليبطل اختراعاتهم العلمية الشريرة التى يريدون بها الاستيلاء على كوكب الأرض. و«سوبر مان» يناضل وحده بلا عون من أحد، وبلا رفاق، وينزل العقاب بأعدائه منفردًا، غير ملزم بقانون أو شريعة إلا ما يقرره هواه.

يطير «سوبر مان» ويشق أجواز الفضاء، ويحط من قمم ارتفاعات شاهقة، وينط إلى ذرى لا يستطيع بلوغها أحد. ينفذ من الحوائط الصلدة، ويخترق بصره الحواجز السميكة ويرى ما وراءها. ويعبر الزمان قفزًا فوق السنوات والقرون، ويخوض حروبًا متصلة ومعارك شرسة ضد هؤلاء «الأشرار» الثابتين الملاعين.

وقد قدم الرسام «جوزيف شوستر» البطل الخارق «سوبرمان» على هيئة شاب هرقلى أشقر البشرة ناعم الشعر، يشبه نموذج البطل الرياضى الأمريكى فى الثلاثينيات، ونجم السينما الأمريكية فى ذلك الزمان، ويجعله فى ملابس رياضية زرقاء اللون، وبعباءة حمراء تنتشر حوله عندما يطير. وبهذا وببعض اللزمات الأخرى، أعطاه الرسام لفتات تذكرنا بآلهة الإغريق القدماء.

وفى رواية «ميكاييل شابون»، يرتدى بطل قصص المغامرات الذى تقدمه -هو الآخر- زيًا رياضيا أزرق اللون يلتصق بجسده. كما يجعل المؤلف على عينيه قناعًا أسود يخفى ملامحه، مثلما أخفى عينيه كل من «باتمان - الرجل الوطواط» و«الشبح» فى المغامرات الأمريكية المرسومة التى صدرت بالفعل لمنافسة «سوبرمان» ومقاسمته الأرباح الطائلة التى صبتها سوق النشر فى جيوب ناشريه (ظهر فى مواجهة «سوبرمان» أيضًا «كابتن أمريكا»، و«كابتن مارفل» و«الرجل العنكبوت»، وكثيرون غيرهم لفّوا لفّهم).

أما عن عدو البطل الخارق فى الرواية، فإن قارئها سيتعرف عليه قبل أن يبدأ القراءة. فعلى غلاف الكتاب هناك رسم للبطل المقنّع مُحلقًا فى الفضاء، ويهوى بقبضته على فك الفوهرر أدولف هتلر، الشيطان الأكبر بالنسبة للغرب فى أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات.

وإذا عدنا لأرض الواقع فى التاريخ الماضى القريب، سنجد وجهًا آخر دراماتيكيًا للنجاح المالى الكاسح الذى حققه ناشر «سوبرمان»، ومنافسوه من الناشرين المقلدين. إذ إن هناك قصة مأساوية محزنة، حدثت بالفعل، ووجدت صداها فى الرواية الفائزة بجائزة «پوليتزر»: كان الرسام «جوزيف شوستر» والكاتب «جيروم سييجل» قد باعا للناشر جميع حقوق النشر المتعلقة بشخصية «سوبرمان» عند بدء نشر كتبه، مقابل مبلغ مقطوع، ووقعا عقدًا لا يرتب لهما أى حقوق أخرى عن استغلال الشخصية التى اخترعاها فى مغامرات جديدة، أو عند إعادة نشر المغامرات السابقة.

وقبل أن يمر وقت طويل، طرد صاحب دار

«سوبرمان» ينتشل رسامه وكاتبه من وهدة الفقر التى بقيا طويلا فى قاعها!

The Amazing Adventures of Kavalier & Clay

(المغامرات المدهشة لكافالبير وكلاى)

By: Michael Chabon
Random House, New York, 2001.

النشر «ناشونال كوميكس» الرسام «شوستر» والكاتب «سييجل» من العمل لديه، واستأجر غيرهما ليقوما بمواصلة الكتابة والرسم لشخصية «سوبرمان». وترك الرسام والكاتب الأصليان مهنة الشرائط المرسومة مبكرًا، وانزويا بعيدًا فى ضائقة مالية خانقة. وظل هذان المبدعان طويلاً فى هذا الموقف المأساوى حتى بادر الناشر بلفتة دعائية ذكية، حين قام - طوعًا - بتخصيص راتب تقاعد شهرى مقداره ألف دولار لكل من الرسام والكاتب. وأذاع الخبر، ومعه نشر الرسم الذى يصور «سوبرمان» ينتشل رسامه وكاتب حكاياته من وهدة الفقر والضنك، ويحلق بهما عاليًا فى الفضاء المشرق!

وفى رواية «ميكاييل شاپون»، يرتكب بطلاها (الرسام والكاتب) نفس الغلطة القانونية القاتلة التى ارتكبها الرسام والكاتب الحقيقيان، إذ يوقعان مع ناشرهما عقدًا يتنازلان فيه عن كل حقوقهما القانونية لاستغلال شخصية «الهروبى» التى اخترعاها ويعيشان فى ضنك وويل، بينما يرفل ناشر «الهروبى» فى نعيم الملايين، بالضبط كما حدث مع ناشر «سوبرمان» فى الحقيقة!

عكف الروائى الأمريكى الشاب «ميكاييل شاپون» على روايته بدأب وصبر وبالتفصيل وباستمتاع آسر بغواية مغامرات الأشرطة المرسومة، التى لابد أنه غرق بين صفحاتها طوال طفولته وصباه، مما جعله يتملك تفاصيل تلك المهنة وخفايا صناعتها، وأسرار غرفها الخلفية. وبموهبته الروائية الفذة، وبقدرته الاستثنائية على الابتكار والحكى، وبجرأته الفريدة فى اختيار موضوع لروايته لم يسبقه إليه ولم يتوقعه أحد، أبدع رواية من الدرجة الأولى الممتازة.

وفى النهاية، قد يكون من اللازم أن نلفت النظر إلى أمرين:

أولهما: هو أن الرواية تجعل كلا من رسام الأشرطة المرسومة وكاتبها يهوديين، مثلما كان رسام «سوبر مان» وكاتبه من اليهود! والرواية تؤكد الحادثة الحقيقية لاستغلال الناشر الدنىء للرسام والكاتب، لكنها تلقى عليها ضوءًا جديدًا فى سياق الرواية الجديدة: مبدعان يبذلان الجهد ويتعرضان للموت خلال هروبهما من الاحتلال النازى، ويعبران الأطلسى ليصلا إلى أمريكا «بلاد الحرية»، ثم «يخلقان» بطلا أمريكيا «وطنيًا» ناجحًا، يغمر ناشريه بالمال ويجلب لهم الثروة والسعادة، ويسعد القراء الأمريكان، ويمجد قيم مجتمعهم المنتصر. وينتهى هذا كله بتناسى الجميع لجميل اليهوديين، وبإلقائهما فى غياهب الإنكار والجحود والظلم. ويبدو هذا إلحاحًا جديدًا على ضمير العالم وتذكيرًا بجحوده تجاه اليهود، وإنكاره لهم ولدورهم «العظيم» فى رفاهية البشرية ومقاومتهم للظلم.

أما الأمر الثانى الذى تلفت الرواية نظرنا إليه، فهو يتعلق بقيمة «صنعة» الشرائط المصورة ذاتها. التى لم تكن لتنال مثل هذا الاهتمام والتقدير منذ عقود قليلة، ولم تكن توصف بأكثر من كونها «صنعة صغرى» أو «وسيلة لأكل الخبز». لكن نظريات الفن والأدب الحديثة أسقطت مثل ذلك الموقف «الثقافى» المترفع من علياء برجه العاجى، وعلّمت أصحابه أن القيمة الاتصالية العالية فى مثل هذه الأعمال الجماهيرية، واتفاق الأعداد الهائلة من البشر على متابعتها، يفرض الاهتمام بذلك الإنتاج، ومتابعته، وتحليله، ونقده، والبحث عن مواطن الإبداع والإغواء فيه. كما تبقى - أيضًا - هذه الأعمال واسعة الانتشار جديرة بالاهتمام والمتابعة والبحث، لجسامة تأثيرها - إيجابًا أو حتى سلبًا - على وجدان المتلقين.

وقد كتب أحد نقاد «الشرائط المرسومة» (هل لاحظتم أن هذه «الصنعة» أصبح لها نقاد مثل باقى صنائع «الفن»؟) - كتب ذلك الناقد يومًا عن الرسام «جاك كيربى» الذى منحه جمهوره لقب «الملك» (مثل فريد شوقى عندنا) بعد أن سحرهم برسومه للشخصية الخارقة «كابتن مارڤل» - كتب يقارن بين شرائط «كيربى» المرسومة المزدحمة بالبشر والحافلة بالحركة والحيوية، وبين لوحات «بيتر بروجل».

لعل الإنجاز الرئيسى الذى حققه الروائى الشاب فى روايته هو إبداع «فن» اعتمادًا على مادة الشرائط المرسومة التى طالما اعتبرها بعض أهل الفن والثقافة «الرفيعين» (خاصة من أهل العالم الثالث) صنعة لا تتمتع بالاحترام ولا توصف بالسمو والرفعة، لأنها تتسم بالعادية «الأرضية»! ■

فلسطينيُّون وبوشناق!

■■ حمل إلينا البريد الكتاب المثير الحافل بالشرّ والقسوة والقبح والتشوه والضعف، والذى (الكتاب) يمثل بالمقابل إحدى المحاولات الدءوبة للتغلب على الشرّ والقسوة والقبح والتشوه والضعف. كتاب «غوراچده منطقة آمنة» للرسام والصحفى الأمريكى «جو زاكوّ Joe Sacco» هو استطلاع (أو عدة استطلاعات) بالرسوم، كما هى عادة هذا الرسام الطيب واللطيف فى كتبه. وهذا العمل هو حصيلة ٤ زيارات قام بها الرسام لمدينة «غوراچده» البوسنية التى عانت من حصار طويل وقاس، ومن حرب عرقية قذرة استمرت ثلاث سنوات ونصف، بينما لم يسمع بها العالم من الإعلام الكونى بشكل كاف خلال تلك الحرب التى جرت فى إقليم البوسنة.

وإلى أن تبرد النسخة التى خرجت لتوها ساخنة من المطبعة، نتركها مؤقتًا، ونتوجه إلى المكتبة لنستل كتابى «زاكو» السابقين، وهما «فلسطين: أمة محتلة Palestine: A Nation Occupied» و«فلسطين: فى قطاع غزة Palestine: In Gaza Strip»، وكلاهما صدر (فى ١٤٢ صفحة.

وكتب «زاكو» الثلاثة من جنس غير مسبوق، إذ أن مادتها الأساسية هى الرسوم التى تجمع بين السخرية وخفة الروح والمأساة والعنف وقساوة القلوب، وبين القدرة الفائقة على الحكى والتشويق والتعاطف، والتوثيق المخلص الدءوب. والنصوص فى هذه الكتب قد أدمجت مع الرسوم، وهى تتراوح بين التعليق الوصفى السردى، وبين الحوار الذى تنطق به الشخصيات المرسومة - أحيانًا - وقد كتب فى «بالونات» تخرج من أفواه المتحدثين، كما هو دارج فى أعمال الشرائط المرسومة القصصية.

ولكل من الكتب ثلاثة مستويات:

مستوى يسجل فيه المؤلف - بالرسم والكتابة - شهادته عن الناس وأحوالهم وما يجرى عليهم فى ديارهم كما عاين ذلك بنفسه.

والمستوى الثانى يقدمه المؤلف كمادة تسجيلية وتاريخية موثقة بالرسوم المستمدة من مصادر أرشيفية، وصور فوتوغرافية قديمة، وخرائط، وما إلى ذلك. وأيضًا رسوم متخيلة عن وقائع حدثت فى الماضى ورواها له الشهود من كبار السن الذين التقاهم.

أما المستوى الثالث، فيستعرض فيه الرسام نفسه خلال محاولته استطلاع الحقيقة وتحرى الصدق على أرض الواقع ووسط أهله. ويظهر الرسام بشخصه فى إطارات الرسوم كما لو أن مصورًا كان يصحبه ويصوره خلال قيامه بالاستطلاع.

وهكذا يحوّل المؤلف نفسه إلى ما يشبه الشخصية الكارتونية التى تربط الأحداث والأماكن وسياق الكتاب. نراه فى الرسوم رجلاً صغيرًا يميل إلى القصر ويبدو أقرب إلى الولد، بشعر قصير وشفاه غليظة. وفيه قدر محكم من قلة الحيلة وخفة الدم تسهل دخوله قلبك. وتذكرك ملامحه بالدكتور نبيل شعث عندما كان شابًا نحيلاً وخفيف الدم.

يرتدى «زاكو» ملابس السائحين

PALESTINE: A Nation Occupied,
(فلسطين: أمة محتلة)

by: Joe Sacco,
Fantagraphics, Seatle, 1994.

PALESTINE: In Gaza Strip,
(فلسطين: فى قطاع غزة)

by: Joe Sacco,
Fantagraphics, Seatle, 1994.

Safe Area Gorazde
(غوراچدة منطقة آمنة)

by: Joe Sacco,
Fantagraphics, Seatle, 2000.





[اليمين]
مشهد من «غوراجدة» بعد وقف إطلاق النار لحرب التطهير العرقى المجنونة.

[أعلى]
مشهد من ٢١ مشهدًا للرسام / يأكل فيها –بشهية– على موائد الفلسطينيين أو البوشناق فى كتبه الثلاثة.

[أسفل]
القبعات العسكرية الحمراء كما شاهدهم «جو زاكو» يطاردون صديقه «أبو أكرم» فى وسط مدينة «نابلس»

الفقراء: سترة جلدية، وحذاءً مطاطيًا، وسروالاً من نوع الچينز، ويميز نفسه بين باقى الشخصيات بقفاز من الصوف بلا أصابع لا يخلعه إلا عند تناول الطعام أو النوم. ويعلق على كتفه حقيبة صغيرة يحمل فيها آلة تصوير تبدو رخيصة ودفترًا لكتابة الملاحظات وتخطيط الرسوم السريعة. وفى «غوراجدة» يضيف «زاكو» إلى هيئته طاقية مضلعة من الصوف لاتقاء البرد الحالى ليوغسلافيا السابقة.

لا يسكن «زاكو» الفنادق، بل يغوص داخل حياة الناس فى البقاع التى يزورها. ويبدو بساطه أحمديًا، فهو ينام الليل فى بيوت الناس، ويتكرر منظر مشاركته أهل البلاد طعامهم كثيرًا فى كتبه الثلاثة (٢١ مشهدًا يتناول فيها الطعام بشهية ضيفًا على الناس فى بيوتهم!). وفى أحد المشاهد، يصرح «زاكو» لمضيفه «سامح» (من أهالى مخيم «جباليا») بضرورة أن يذهب لأنه لم يحضر معه ملابس داخلية، فيتقدم المضيف إلى ضيفه بطاقم من ملابسه الداخلية وزوج من الجوارب. يرفض «جو زاكو»، فيسأله «سامح» مندهشًا: «لماذا؟». ويرد الرسام من خارج الإطار متحدثًا إلى نفسه: «لابد من بعض الحدود. قد أشارك لاجئًا فلسطينيًا فى طعامه، أو أن أنام فى فراشه، وتجرى على سيقاننا فى الليل نفس الفئران.. لكن أن ألبس ملابسه الداخلية؟.. لا.. لابد من الاحتفاظ بمسافة بينى وبين الناس».

وفى كتابيه الفلسطينيين، ينتقل «زاكو» بين مخيم جباليا، غزة، نابلس، رام الله، الخليل، طولكرم، والقدس. ويزور المستشفيات، حيث يروى له المصابون ما جرى لهم على أيدى العسكر الإسرائيليين فى الشوارع، وكيف أنهم يتتبعون المصابين إلى داخل المستشفيات حيث يواصلون تكسير عظامهم.

يشاهد «زاكو» المظاهرات وكيف قمع الجنود مظاهرة للنساء على طريق نابلس ـ رام الله، ويروى كيف يواجه الإسرائيليون الأطفال قاذفى الحجارة بالرصاص الحى وقنابل الدخان، ويزور إحدى القرى شرقى الخط الأخضر (يصفها بأنها «منجم للبؤس»)، ذبح الجنود والمستوطنون أشجار الزيتون فيها. ويتصادف وجوده وسط سوق الخليل عند مهاجمة العسكر له وإغلاق السوق وضرب الباعة والمشترين والمارة.

ويرسم «زاكو» ما رواه له الناس عن قتل العسكر للمتظاهرين، وعن التعذيب البدنى الوحشى أثناء استجواب المعتقلين والمعتقلات. كما يرسم شهادات الشيوخ والعجائز الذين يروون له ما جرى لهم منذ النكبة والخروج من ديارهم. وفى صفحات أخرى، يسترجع الرسام الأحداث التاريخية الماضية، وفيها نرى رسومه تضم شخصيات مثل هرتزل وبلفور وبن جوريون وجولدا مائير، وخرائط متنوعة.

ورسامنا ليس رسام شرائط مصورة تقدم مغامرات لأبطال خارقين، ولا لأبطال هزليين. إنه من الجيل الجديد لمدرسة الرسامين الأمريكان المعارضين لسياسة حكومتهم، وهى مدرسة ظهرت فى منتصف الستينيات وقت حرب فيتنام. نقل هؤلاء الرسامون هموم المجتمع والسياسة والعالم، وناقشوا فى أعمالهم المسائل الكبرى، بحيث لم تعد ـ مثلما كانت من قبل ـ صفحات للتسلية وتزجية أوقات الفراغ. كان على رأس هذه المدرسة الأمريكية (التى اعتبرت نفسها «هامشية» أو «تحت الأرض») الرسام الشاب الموهوب «روبرت كرومب Robert Crumb»، الذى فتح باب هذا الاتجاه واسعًا.

لم يكترث جيل الرسامين «الهامشيين» هؤلاء بـ«الجمال» فى رسومهم، ولا بالأسلوب، لكنهم اهتموا بالأفكار والمواقف والدور الوظيفى للرسم كناقل للدعوة والتحريض والحقائق. وقد شكل هذا الاهتمام ذائقة جديدة فرضت نفسها بقوة، وحفرت لنفسها مجرى عميقًا فى فن الجرافيك الأمريكى الحديث.

ويندهش القارئ/ المتفرج من قدرة «زاكو» المذهلة على نقل تفاصيل دقيقة بيسر بالغ: فنرى فى رسومه الآثار الباهتة لإطارات السيارات على



الأرض الموحلة، ومشاهد لسيارة تتخبط فى ظلمة الليل وسط جو عاصف وعلى أرض موحلة غير مستوية (كل هذا فى عتمة السواد!)، كما نرى ريحًا سفوفًا خفيفة تقطع الطريق على السيارات حاملة الرمال من جانب من الطريق إلى آخر. ناهيك عن الدقة والدأب والتوفيق والحساسية الفائقة فى رسومه لملامح المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية والمناظر فيما بينها، وفى توثيقه لملابس الجنود ومعداتهم وطرز ناقلاتهم، والبيوت الملفقة فى المخيمات والتى بنيت بلا أسقف ثابتة. أما الذى يكاد يكون معجزًا، فهو رسمه للشخصيات الفلسطينية التى تناولها - بلا تكلف وبحميمية - وانشغل بتقديم تنوعها الجسدى والروحى، وكذا تعدد وتنوع ملابس تلك الشخصيات من جميع الأنماط الاجتماعية والأعمار والمناطق، فى واقعية حارة، وفى حلول تيبوغرافية نادرة التوفيق والجرأة.

وبتأمل رسوم الكتاب، يتأكد القارئ/ المتفرج أن الصور الفوتوغرافية، التى تلتقطها كاميرا «زاكو» فى مواقع زياراته، لا يمكنها أن تلبى الرسام فى حالات كثيرة، مثل: سعيه إلى توثيق الماضى من خلال الأحداث التى يرويها له شهودها من الشيوخ والعجائز، كما لا يمكن أن تفيده الصور فى الحركة الحية العنيفة للأشخاص فى كثير من المشاهد، ولا فى تكرار ظهور الشخصيات فى لقطات كثيرة مختلفة ومن زوايا ومناظير متنوعة. مما يؤكد تملكه لخيال خصب، ودأب حرفى، ومهارات واسعة وتواضع محمود.

يقدم «زاكو» كتبه على أنها «تحقيقات صحفية»، وهى - فى جانب منها بالفعل كذلك، وتوضح بجلاء أن مبدعها صحفى استطلاع بامتياز. وقد كانت دراسة «زاكو» الجامعية فى الصحافة وليست فى الفنون الجميلة أو الرسم. ولن ندخر - هنا أيضًا - فرصة التعبير عن غبطتنا له على عدم انتظامه فى دراسة أكاديمية للفن، ولعله بذلك أفلت من التشويه الذى تلحقه مثل تلك الدراسة برسام يشغله هذا النوع من الأعمال الجماهيرية.

***

وفى كتابه عن غزة، يفتتح الصحفى / الرسام كتابه - بعد وصوله إلى قطاع غزة عن طريق القاهرة - بلوحات بانورامية، كل منها صفحة مزدوجة تروى بؤس الأحوال فى مخيم النصيرات بقطاع غزة، حيث الفقر وتشوه الأحياء وعشوائيتها، والوحل، وفيضان مياه الصرف الصحى فى الشوارع، والماعز التى ترعى القمامة.

ينزل «زاكو» ضيفًا على «عمار» اللاجئ المتعطل ساكن المخيم، ويشاركه طعامه ومسكنه. وبعد يومين يتحدثان وهما يتمشيان، ويحكى له «عمار» عن حلمه بالعثور على عمل، ليستطيع ترميم بيته، وتبليط أرض غرفه، كما يحلم «باستكمال» مرحاض حقيقى. يثنى «زاكو» على حلم المرحاض، الذى استعمله فى الليلة الماضية، ووجد أن أشياء كثيرة تنقصه، وأولها: الجدران.

ورغم الضائقة التى يعيشها «عمار»، إلا أنه يودّع ضيفه الأمريكى فى موقف سيارات السيرفيس عند سفره لمدينة غزة، ويصرّ المضيف على أن يدفع أجر الرحلة مقدمًا لسائق السيرفيس.

ويعج الكتاب - مثل توأمه - بمشاهد ووقائع ضرب الأطفال رماة الحجارة بالرصاص الحى، وإغلاق الطرق والتفتيش المهين، واعتداء الجنود بالضرب على المصابين فى المستشفيات.

وفى نهاية كتاب غزة، يتقابل الرسام / المحقق بالمصادفة مع سيدتين إسرائيليتين من تل أبيب فى زيارة لمدينة القدس، ويتطوع ليكون دليلهما إلى

[أعلى]

«جو زاكو» بين أطفال «غوراجدة» الذين يحاولون الاحتيال عليه، بصفته سائحًا أمريكيًا !

[أسفل]

مشهد لإغلاق وسط مدينة «الخليل»، والعسكر الإسرائيليون يخلون السوق، ويمنعون المدنيين من عبور الطريق.

القدس العربية التى يعرفها، ويشجعهما على التجول بين الفلسطينيين المقدسيين فى السوق العربية ويهدئ من مخاوفهما منهم، ويثنيهما عن رفضهما دخول المدينة العربية. وتدعوه السيدتان لزيارتهما فى تل أبيب وتناول الغداء معهما فى أحد مطاعمها.

وفى المطعم المفتوح، يسرح «زاكو» بأفكاره، ويكتشف أن ما حكته السيدتان من تفاصيل حياتهما اليومية يماثل بالضبط السيدات اللاتى يعرفهن فى أمريكا. ويتذكر أنهما قالتا له إن واحدة منهما جاءت من أوروبا الشرقية والأخرى من ألمانيا. وكأنه يقول لنفسه: وما الذى أتى بهما إلى هنا؟

ويتناول ثلاثتهم - خلال التجوال فى القدس وفى تل أبيب وعلى مائدة الطعام - أمورًا شتى، لعله قصد بعرضها تقديم موقف المواطن الإسرائيلى العادى، ومدى نجاح الدولة الصهيونية فى إلصاق موقف المواطن بموقفها بشكل عام. وإجمالاً تتبدى إنسانية الفلسطينيين و«عاديتهم» فى مقابل تعقيدات الشخصية الإسرائيلية وضعف شعورها بالأمان مما يدفعها إلى العنف والقسوة.

وينهى «زاكو» كتابه «فلسطين: أمة محتلة» بصفحة طريفة تبدأ بصورة عريضة تجمعه وصديقه «سامح» فى زيارة رجل أعمى من أهالى مخيم جباليا، حيث يجلس ثلاثتهم على أرض غرفته. ويعتذر لهم مضيفهم الأعمى عن عدم تمكنه من تقديم الإفطار لهما، ولا حتى الشاى، لأن أولى زوجتيه مريضة، بينما تزور الثانية أهلها. ويضاحكهم قائلاً: «يبدو أنى مضطر للزواج من ثالثة!». ويرد «زاكو» النكتة سريعًا: «أظنك لو استطعت عقد هذا الزواج الجديد خلال ساعة، قد نحصل عندك على وجبة غداء!».

«هاق هاق هاق!».

الكتب الثلاثة مطبوعة باللون الأسود وحده، وبتقشف اقتصادى محمود ومقبول. وهذا يجعل التفكير فى ترجمة كتب «زاكو» إلى العربية ونشرها أمرًا واجبًا. فهى - إلى جانب التشويق والطرافة فيها - حافلة بالمعلومات الواجب إيصالها إلى كل عربى: معلومات ضرورية تتجاوز بكثير ما نحصّله من مشاهدة الأخبار والتحقيقات عن فلسطين على شاشة التليفزيون (سواء أكانت عربية أم فضائية). إنها معلومات ستهز مشاعر كل عربى تصله، وتقربه من فلسطين الحقيقية اليومية الحية.

كان لابد أن نبدأ بفلسطيننا رغم أن الكتابين عنها ليسا الأحدث، والآن نعود إلى الكتاب الثالث: «غوراجدة - منطقة آمنة». رأى «زاكو» أن الإعلام الغربى لحرب البوسنة والهرسك (١٩٩٢ - ١٩٩٥)، لم يكن متوازنًا ولا حقيقيًا، لذا اختار «زاكو» مدينة «غوراجدة» التى يسكنها ٥٧٠٠٠ مواطن من البوشناق (أهل البوسنة) المسلمين، وهى مدينة ظلت محاصرة طوال الحرب - اختار أن يقدم بها نموذجًا للمذابح الجماعية التى حفلت بها تلك الحرب الوحشية.

وصل الصحفى / الرسام المدينة بعد أن دخلتها قوات الأمم المتحدة إثر اتفاقية دايتون. ويفاجأ عند وصوله باستقبال حكومى، وبضيافة فى فندق فخم، كما يفاجأ بعشرات من الصحفيين التليفزيونيين يسددون ميكروفوناتهم وكاميراتهم - منذ اللحظة الأولى من وصولهم - إلى الأطفال والنساء. يقول «زاكو»:

[وجدت البلدة كلها «مبسبسة» (من «بى.بى.سى»)، و«مسننة» (من «سى.إن.إن»)، فآثرت الفرار!]. يفر رسامنا من فندق الضيافة ومن زملاء المهنة، و«يسرح» كعادته بين الناس، ليستطلع منهم، بالتفصيل وبحميمية، ما جرى لهم من مآس خلال ثلاث سنوات ونصف عاشوها تحت نيران الحرب وتهديد المذابح الجماعية.

يشارك أهل البلدة الجريحة احتفالاتهم المجنونة داخل البيوت والتى يحاولون بها نسيان الماضى البشع، ويتعرف فى إحداها على صديقه (الذى سيلازمه طوال الكتاب) المدرس المدعو «الدين»، والذى سيدور به فى أنحاء البلدة، ليطلعه على تفاصيلها وخفاياها وقاعها المستغلق، ولمقابلة أهلها الذين أغلق الرعب أفواههم.

حكوا له عن الماضى قبل اندلاع الحرب، وكيف شبوا أطفالاً يلعبون معًا ويصطادون السمك صحبة دون تمييز بين الصرب والكروات والبوشناق، ولم يكونوا قد خبروا بعد التعصب العرقى المجنون، الذى كان وراء ما رواه له أهل البلدة من فظائع الحرب ومجازر التطهير العرقى.

كالعادة، توغل «جو زاكو» فى حياة الناس، وفى تنقلاته الحرة - كصحافى أجنبى - بين المناطق المختلفة، نقل الرسائل الشخصية من هنا وهناك، وقضى للناس حاجاتهم، واشترى لأهل «غوراجدة» سراويل الجينز من «سراييفو».

عاش معهم، ونام فى بيوتهم، وأكل من صحونهم (كعادته فى كل كتبه). وتعلم التدخين هناك لأول مرة، ودخن سجائرهم السيئة من ماركة «درينا» التى تُصنع فى «سراييفو» عاصمة إقليم البوسنة. وينهى

«زاكو» كتابه بفصل بعنوان «درينا»: السجائر، والنهر الذى سميت باسمه.

لعبت سجائر «درينا» - كما لعب النهر - دورًا مهمًا خلال الحرب، فقد كان الجنود الذين دافعوا عن «غوراچدة» - طوال الحرب العرقية - يتقاضون رواتبهم عددًا من علب السجائر من تلك الماركة بدلاً من النقود: ٣٠ علبة كل شهر. كذلك كان حال أساتذة الجامعة الذين كانوا يجلسون فى غرفهم بالكليات فى نهاية الشهر يحملون أكياسًا من البلاستيك مملوءة بمرتباتهم (علب سجائر «درينا»).

ويعرف «زاكو» أن نهر درينا كانت تطل عليه ثلاث مدن من إقليم شرق البوسنة، وبعد أن تم «تطهير» اثنتين منها كلية من البوشناق المسلمين، بقيت المدينة البوسنية الوحيدة على ضفاف النهر هى «غوراچدة». لذا يختتم الرسام كتابه بإطار معبأ بفكاهة سوداء مريرة، رسم فيه نفسه يخاطب صديقه «الدين»، قائلاً له:

«إذا فُقد إقليم شرق البوسنة - يومًا ما - مدينتكم «غوراچدة» ووقعت فى أيدى الصرب، لن تكون للإقليم أية إطلالة على نهر درينا. وفى تلك الحال سيكون عليكم أن تجدوا لسجائركم اسمًا آخر!».

هاق هاق هاق! - بايخة! فبعد قراءتنا وفرجتنا على كتبك الثلاثة، أصبحنا نعرف حيلك التى صارت مكشوفة، والتى تحاول بها إخفاء ميلك الإنسانى الطيب ناحية أصحاب الحق. صحّ؟

ماركات مُسجَّلة !

«اللوجو» (بالجيم المصرية) هو الرمز (وأحيانًا المعنى)، وفى الاستعمال الدارج الحالى: هو العلامة التجارية المميزة، التى أصبحت إحدى سمات عالمنا واقتصادنا «الجديد» وزمننا الحاضر.

ومنذ عقدين، بدأ توحّش «اللوجو» (ولنتفق بدءًا من هذا السطر على تسميته بـ«الماركة»)، واستقوت «الماركة» على المستهلكين، وعملت - بلا كلل - على انكسارهم أمامها، حتى امتطت ظهورهم.

ولم تعد «الماركات» التجارية - فى كثير من السلع كالملابس والحقائب على سبيل المثال - تستحى وتختفى عن الأنظار فى ثنايا السلعة وأجزائها المستورة دون أن تفرض نفسها على الأبصار، ولم تعد تقنع بالتوارى الذكى والاكتفاء بالانكشاف لمن يبحث عنها. أصبحت «الماركة» التجارية الآن على ظهر القمصان من الخارج مكبرة فى مساحة الصحيفة، أو أصبحت تحتل كل صدارة قميص الـ«تى - شيرت» دون أن تدفع لمرتديها مقابلاً لهذا الاستخدام الدعائى. بل تجبر ذلك المستهلك على أن يدفع ثمنًا مرتفعًا للقميص الموسوم صاغرًا وقرير النفس. صار الفرد أضعف وأصغر من «الماركة»!

عندما قرأنا عنوان الكتاب «No Logo - لا للماركة!» فى بعض الإعلانات المختصرة عن الكتب، تسرعنا فى طلبه. وطاف بخيالنا تصور أنه كتاب عن الاتجاهات الجديدة فى تصميم العلامات البصرية المميزة، والتى ظهرت مؤخرًا ضد الاتجاه التقليدى فى تصميم تلك العلامات: الاتجاه الهندسى البارد القاسى عديم القلب (الذى يزهو أصحابه أحيانًا بـ«عدوانية» تصميماتهم!)، ويصل الأمر بتلك الاتجاهات الجديدة التى بزغت منذ سنوات قليلة إلى المناداة بعدم توحيد العلامة البصرية المميزة والكف عن تثبيت تصميمها، بل تدعو إلى تنوعها واختلافها وتعدد هيئتها، وإلى إكسابها بعدًا فرديًا، شخصيًا وعاطفيًا.

عندما وصل الكتاب، إذا به ليس كما توقعناه على الإطلاق، بل كتاب «صعب» فى الاقتصاد والسياسة، وإذا هو مظاهرة سياسية ضد التوسع الرأسمالى العدوانى الجديد والعنيف والكاسح، الذى تنجزه ماركات تجارية عملاقة (تزداد كل يوم عملقة) لتغطى به سطح كوكبنا كله. لم يكن للكتاب أى علاقة بالتهيؤات المذكورة آنفًا!

كتبت الدارسة الكندية «ناعومى كلاين» (٣١ سنة) كتابها فى ٤٩٠ صفحة، لتعرى الرأسمالية الجديدة وتفضح توحشها، ولتكشف أنها رأسمالية خرجت عن كل المعايير والقيم، حتى المعايير الرأسمالية السابقة. وترى «كلاين» أن الرأسمالية الجديدة قد تخلت عن الصناعة، واستبدلتها بالتسويق والدعاية. فلم تعد تلك الرأسمالية تهتم بإنتاج السلع، بل بخلق «ماركات عالمية عملاقة»، وأصبحت تلقى باستثمارات هائلة فى حملات لعولمة هذه الماركات، وجعل كل منها «بديهة كونية» تقتحم حياة الناس، وتتحكم فيها.

وتحدد سلطة «الماركة» أسعارًا مبالغًا فيها للسلع التى تحمل تلك الماركات، بغض النظر عن القيمة الفعلية للسلعة، وعن تكلفة إنتاجها، وعن فائدتها الوظيفية. لذا لم يكن مستغربًا أن يتلازم هذا الاتجاه الرأسمالى الجديد مع نزع الأهمية عن أمكنة إنتاج السلع، بحيث لم تعد تلك الرأسمالية ترتبط بوطن، ولم تعد تشغلها نسبة البطالة فى أى وطن.

وتعدد المؤلفة «ماركات» مثل «نايك Nike»، و«بيبسى Pepsi»، و«ماكدونالدز Mcdonald's»، و«ليفيز Levi's»، وتحكى تفاصيل وقصصًا عن مقدار ما استثمرته كل منها فى الدعاية. وتخص ماركة «نايك» برصد مبالغ دفعتها لأبطال الرياضة والشخصيات العامة مقابل مشاركتهم فى حملاتها الإعلانية المباشرة وغير المباشرة، بحيث تحولت كلمة «Nike» إلى بديل لكلمة «الرياضة».

صدرت الطبعة الأولى من الكتاب فى كندا قبل الاجتماع الوزارى لمنظمة التجارة العالمية الذى انعقد فى مدينة «سياتل» الأمريكية عام ١٩٩٩، والذى أفشله تظاهر ١٠٠٠٠ شاب وشابة تدفقوا من الولايات المتحدة وخارجها لمعارضة ذلك الاجتماع. وبعد هذه المواجهة الناجحة، اكتسب كتاب «No Logo» أهمية فائقة، وأصبح مرجعًا سياسيًا وفصلا مهمًا من الأدبيات السياسية للموجة اليسارية الجديدة التى نشأت مؤخرًا فى مواجهة «العولمة» والليبرالية الجديدة، والتى ترفض أن يتحول البشر من «مواطنين» إلى مجرد «مستهلكين».

وازدادت أهمية الكتاب بعد قمة «كويبيك» (مدينة الكاتبة)، والتى ارتفع عدد من تظاهروا فى مواجهتها إلى ٢٥٠٠٠ شاب وشابة. وبازدياد الضجيج المثار حول الكتاب، تحول إلى حركة سياسة نشطة متزايدة الأعضاء، لم تعد مقصورة على كندا والولايات المتحدة وحدهما، بل سرعان ما عبرت (تلك الحركة) المحيط الأطلسى إلى القارة الأوروبية التى صدرت فيها طبعة خاصة للكتاب باللغة الإنجليزية فى العام الماضى ٢٠٠٠.

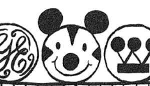
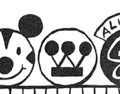
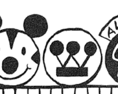
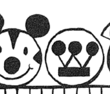
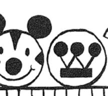
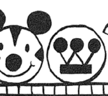
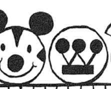
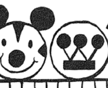
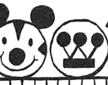
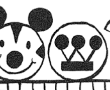
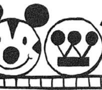
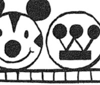
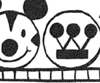
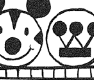
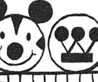
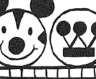
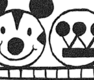
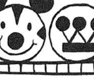
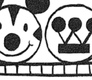
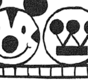
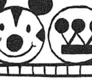
وأنشئ موقع على الإنترنت لهذا الكتاب الذى تحول إلى حركة (www.nologo.org). وينشر الموقع المقالات التى نشرت فى الصحافة والتى تتعرض للكتاب بالعرض والتقييم والنقد، وفيه أيضًا أخبار «الحركة» وأخبار القمع الحكومى والبوليسى المضاد. كما ينشر الموقع الأخبار الاقتصادية والحكايات التى تؤكد صدقية ما جاء بالكتاب، تكتب المؤلفة تعليقات شبه يومية، كما يكتب قراء الكتاب، والمتعاطفون مع أفكاره تعليقات أخرى.

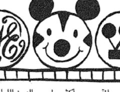
فى الموقع أيضًا بيانات يمكن لمن يدخله أن يضيف توقيعه إلى التوقيعات على البيان الذى يتفق مع آرائه. وهناك أيضًا صفحة لرسائل الأفراد تنشر ما يرد إليها من الرسائل.

وعلى تلك الصفحة نجد رسالة من قارئ يلفت نظر مؤلفة الكتاب إلى أن كتابها ذاته أصبح سلعة تجارية تباع بثمن يزيد كثيرًا على تكلفة إنتاجها. وتوجه قارئة أخرى سؤالاً إلى المؤلفة: كم قبضت من ناشرى كتابك؟ ولماذا لم تنشرى نص الكتاب على الإنترنت وتجعليه متاحًا لعدد أكبر من الناس يقرءونه بلا مقابل بدلاً من صياحك المتكرر: اشتروا الكتاب! اشتروا الكتاب!

ويسجل عليها قارئ آخر مطبًا وقعت فيه الكاتبة حين استعملت كلمة «زيروكس» كفعل بمعنى عملية نسخ النصوص!

أما القارئ الذى لم يوقع رسالته باسمه، وأسمى نفسه «لا أحد no body» فيكتب: [أليست مفارقة جديرة بالتسجيل أن يسوّق كتاب «No Logo» مغلفًا بالبلاستيك وبحملة إعلانية واسعة ككل السلع. والأنكى من هذا: ألا تلاحظ «كلاين» أن العلامة (اللوجو) على غلاف الكتاب (انظر العمود الأول من هذا النص)، قد جعلته مثل باقى السلع التى تهاجمها المؤلفة؟]



بالمناسبة: رسم من دفتر «مائة رسم وأكثر» لمحيى الدين اللباد، دار المستقبل العربى، القاهرة [صدر الشهر الماضى]

No Logo (لا للماركة)

By: Naomi Klein
Harper Collins/ Flamingo, London, 2000.

فلاسفة علماء.. أم

فض الاشتباك بين العلم والفلسفة

■■ من رحم الفلسفة، نشأت العلوم كلها، سواء كانت العلمية منها أو الإنسانية، ومنذ القدم كان هناك المفكر الموسوعي الذي يشتغل بالفلسفة والعلم معًا مثل أرسطو عند الإغريق وابن سينا عند العرب، وكان يطلق على العلوم الطبيعية اسم الفلسفة الطبيعية. إلا أن العلوم نمت على مر الزمن لتنفطم وتنفصم عن الفلسفة، وابتداء من القرن السادس عشر أخذ العلم بالمعنى الحديث «Science» والذي يختلف عن العلم أو «المعرفة» بالمعنى القديم، يستقل تدريجيًا عن الفلسفة. فانفصلت أولاً العلوم العملية كالفيزياء والفلك والكيمياء والبيولوجيا. وتلى ذلك انفصال العلوم الإنسانية أيضًا كالتاريخ والاجتماع وعلم النفس. بل وصل الأمر في منتصف القرن العشرين إلى أن نادت بعض المذاهب الفلسفية بنهاية الميتافيزيقا والتأملات الغيبية، وأن أهم دور للفلسفة هو خدمة العلم بتدقيق اللغة وألفاظها لتعبر بدقة عن العلوم. وما لبث أن حدث بعدها رد فعل عنيف لهذه النظرة. وعاد الفلاسفة إلى النظر فيما وراء العلم وما وراء الطبيعة، كما حاولوا تحليل المنهج العلمي منطقيًا واستخدامه في الإجابة عن أسئلة فلسفية. بل ظهر أيضًا علماء كثيرون يتفلسفون علميًا ويتخذون من المنهج والمنطق العلمي أساسًا لنظرتهم إلى الكون ووجوده وما وراءه. والحقيقة أننا نمر حاليًا بمرحلة فيها تداخل كثير بين الفيزياء أو الفيزيقا وبين الميتافيزيقا. وهناك أسئلة كانت تُعد منذ زمن قليل أسئلة ميتافيزيقية لا يسألها إلا الفلاسفة، لكنها الآن تدخل في الأبحاث والمناقشات العلمية البحتة، كالسؤال عن أصل الكون وكيف بدأ وما مصيره وما هو الزمان وغير ذلك. على أن هناك أيضًا من العلماء من يستنكرون تفاقم التداخل بين الفيزيقا والميتافيزيقا، وكما يقول جلاشو الفيزيائي الحاصل على جائزة نوبل: «لدينا الآن الكثير من النظريات الغامضة في الفيزياء تماثل لاهوت القرون الوسطى المظلمة، وسيؤدي هذا إلى أن تحل مكان العلم عقائد متجمدة»!

فلسفة العلم فى القرن العشرين

د. يمنى طريف الخولى

الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٠

هذا بعض من خواطر يثيرها ذكر العلاقة بين الفلسفة والعلم. على أن الدكتورة يمنى الخولي تتناول هذه العلاقة تفصيليًا في كتابها «فلسفة العلم في القرن العشرين»، وهو كتاب غزير في مادته ولا يمكن تلخيص كل ما ورد فيه، وربما تمكنًا من عرض ما نعتقد أنه أهم ملامحه. تعرض الدكتورة يمنى في كتابها تاريخًا موجزًا للفلسفة العلمية في العصور المختلفة تمهيدًا للوصول إلى القرن العشرين. وهي تتبع في ذلك نسقًا منهجيًا صارمًا تعلن عنه من السطور الأولى في كتابها وتكرره بعدها أكثر من مرة، وهو أنه لا فلسفة للعلم دون ذكر تاريخ وقائعه المهمة وتاريخها في سياقها، كما أنه لا تاريخ للعلم بدون فلسفة تضع العلم في إطار تطوره وتقدمه المستمر في تفاعل مع الهيكل الحضاري والاجتماعي. هكذا يبحث الكتاب تاريخ المفاهيم والمناهج العلمية المختلفة والمتضاربة على مر العصور. وتبدأ باستنباط أرسطو ومنطقه الذي ساد العلوم كلها لألفي عام. وأرجو ألا يجفل القارئ من ألفاظ كالاستنباط والقياس. فكلنا قد مارسنا ذلك في المدرسة الثانوية في صورة نظريات وتمارين الهندسة الإقليدية عن الخط المستقيم والمثلثات والزوايا.. إلخ. فالاستنباط إذن هو الانتقال بالتفكير من قضية أو عدة قضايا هي المقدمات للوصول إلى قضية أخرى هي النتيجة.

وعمومًا فإن أساس الاستنباط والقياس الأرسطي هو الانتقال من الكلي إلى الجزئي، وقد أسهم في سيطرة الاستنباط الأرسطي على فلسفة العلم لزمن طويل أنه أصبح على يد الراهب توما الإكويني من أهم أسس اللاهوت المسيحي، حيث نجح توما في أن يحل عن طريقه الكثير من المشكلات اللاهوتية. وصار كل من يخرج على فلسفة ومقولات أرسطو خارجًا على الدين نفسه، الأمر الذي اتُهم به جاليليو عندما قال أن الشمس هي مركز الكون وليست الأرض، في حين كان أرسطو يؤكد أن الشمس هي التي تدور حول الأرض مركز الكون. على أن طول هيمنة الاستنباط الأرسطي على العلم لا تنفي وجود إرهاصات لمنهج علمي آخر مضاد له هو المنهج التجريبي الاستقرائي. ومرة أخرى فقد مارسنا كلنا هذا المنهج في المدرسة الثانوية، فهو منهج ما أجريناه من تجارب علمية عن تمدد المعادن مثلاً وتجربة المنشور الثلاثي وانكسار الضوء. وكنا نسجل في كراساتنا العملية جدولاً للتجربة ثم الملاحظة وأخيرًا نصل إلى استقراء النتيجة. وقد ظهرت إرهاصات لهذا المنهج التجريبي الاستقرائي في تجارب مثل تجربة أرشميدس المشهورة عن قاعدة الطفو، وظهرت على نحو أكبر في تجارب بعض العلماء العرب مثل جابر بن حيان أبو علم الكيمياء. ولم تتحدث الدكتورة يمنى عن فلسفة العلم عند العرب وعند قدماء المصريين إلا حديثًا موجزًا لا يشفي غليلاً ويغلب عليه بعض نزعة قومية على غير منهج الكتاب عمومًا. ولعل سبب ذلك أن معظم مراجع الفلسفة العلمية هي أساسًا مراجع غربية ترى أن كل شأن حضاري يبدأ بالإغريق وتهمل ما قبلهم وما بعدهم لتقفز إلى النهضة الأوروبية.

هكذا سيطر القياس الأرسطي لألفي عام، حتى بدأت الثورة العلمية بالمعنى الحديث للعلم، ثورة تلتزم بالمنهج التجريبي الاستقرائي وهو منهج على عكس استنباط أرسطو، يبدأ من الجزئيات ليصل إلى الكليات، فإذا كان الحديد يتمدد بالحرارة وكذلك النحاس والرصاص و....إلخ، إذن فالمعادن كلها أو الفلزات تتمدد بالحرارة. وهذه الثورة الاستقرائية لم تطح بالمنهج الأرسطي بين يوم وليلة، وإنما تم ذلك تدريجيًا في دفعات متتالية على أيدي العديد من العلماء والفلاسفة، كان كل منهم علامة طريق. وبدأ تنظير هذه الثورة على يد فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦)، كما ساهم في الثورة على النظرة الأرسطية الاستاتيكية للكون علماء مثل كوبرنيكوس وجاليليو، حتى كانت قمة ثورة الاستقراء التجريبي بأبحاث نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) وبما نتج عنها من قوانينه عن الجاذبية والحركة. وقد أودعها نيوتن في كتابه «الأسس الرياضية للفلسفة الطبيعية» أي للعلوم الطبيعية بلغة ذلك القرن. ويعد هذا الكتاب بمثابة إعلان لانفصال العلوم الطبيعية عن الفلسفة حيث يضع نيوتن في الكتاب هيكلاً متكاملاً للفيزياء الكلاسيكية ومنهج العلم الحديث في القرن السابع عشر. وأصبحت ميكانيكا نيوتن وحتميتها العلمية تسود الأبحاث والأجواء العلمية حتى القرن التاسع عشر. وأصبح العلم هو اليقين الجديد، حيث الكون معتم بالكامل والعلم لديه القدرة على التنبؤ بما سيحدث في المستقبل وبما حدث في الماضي القريب والبعيد (في الجيولوجيا مثلاً) وذلك من خلال ما يحدث حاليًا.

إلا أنه مع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ظهرت أزمة حقيقية في علم الفيزياء، وهو علم في الأساس من العلوم العملية الأخرى. وسبب هذه الأزمة هو أن ميكانيكا نيوتن على الرغم من نجاحها هي ونسبية أينشتين بعدها في تفسير سلوك



علماء متفلسفون؟

مصطفى إبراهيم فهمى

الأجرام الكبيرة كالمجرات والنجوم والكواكب، إلا أنها فشلت تمامًا فى أن تفسر وتتنبأ بسلوك الجسيمات تحت الذرية الدقيقة الصغر كالالكترونات مثلاً. وتطلب الأمر ظهور نظرية جديدة للوصول إلى هذا الهدف وهى ميكانيكا الكم، التى ظهرت على أيدى عدة علماء، كان أولهم ماكس بلانك (١٨٥٨ ـ ١٩٤٧) حيث بيَّن بلانك فى أواخر عام ١٩٠٠ أن الضوء يُبث فى كمّات وليس متدفقًا. ثم تلى ذلك فى ١٩٢٦ أن أسهم هانزنبر (١٩١١ ـ ١٩٧٦) فى النظرية الكمية بطرحه لمبدأ عدم اليقين الذى يوضح أن العلم لا يتنبأ بنتيجة واحدة محددة لسلوك الجسيمات تحت الذرية. فإذا تحدد مكان الجسيم مثلاً بدقة لا يمكن تحديد سرعة حركته بنفس الدقة، وإنما يمكن التنبؤ بعدة نتائج لسرعة الحركة لكل منها درجة من الاحتمال، هكذا كانت ميكانيكا الكم ثورة حقيقية ضد الحتمية العلمية المطلقة، وحلت الكثير من المشاكل فى فيزياء الإشعاع والجسيمات وهى فى الأساس من الإنجازات الإلكترونية.



وترى الدكتورة يمنى أن نسبية أينشتين وميكانيكا الكم تعدان من أهم النظريات العلمية فى القرن العشرين وأنهما أساس ثورة هذا القرن الفيزيائية، وهذا حقيقى بصورة عامة. إلا أن بعض العلماء مثل هوكينج البريطانى يرون أن نسبية أينشتين مع كل ما فيها من أفكار جديدة قضت على فكرة الزمان المطلق وأدخلت بُعد الزمان كبُعد رابع لكون الزمان الذى يؤثر ويتأثر بالأحداث وليس مجرد مسرح لها، هذه النسبية مع كل إنجازاتها، إلا أن هوكينج يرى أنها مازالت تصنَّف كنظرية فيزيائية كلاسيكية فيها الكثير من حتمية نيوتن. وأينشتين نفسه كان معارضًا لمبدأ اللايقين فى ميكانيكا الكم وقال عنه قولته المشهورة: «إن الله لا يلعب النرد بالكون». أما النظرية الخالصة فى ثوريتها فهى ميكانيكا الكم وحدها حيث أنزلت ضربة قاصمة بالحتمية الميكانيكية ووضعت مكانها احتمالات إحصائية تسمى أحيانًا الحتمية الإحصائية.

وقد واكبت ثورة ميكانيكا الكم تغيرات موازية فى فلسفة العلم. فزاد دور المنطق عامة والمنطق الرياضى خاصة فى تحليل الفلسفة واللغة، وظهرت فئة الفيلسوف المنطقى ومن أبرز أفرادها برتراند راسل (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠)، وتبعه تلميذه النمساوى فتجنشتين (١٨٨٩ ـ ١٩٥١) الذى أكد أن نشاط الفلسفة يجب أن يقتصر على توضيح الأفكار بالتحليل المنطقى للغة، وبهذا فإنها تخدم الموضوع فى العلم. وكل ما لا يطابق الواقع التجريبى يعد لغوًا، ومن هنا فإن الميتافيزيقا لغو فى معظمها، فهى تتناول ما لا يمكن إخضاعه للتجربة والحس، ويسمى هذا المذهب الوضعية المنطقية أو التجريبية المنطقية. فهى وضعية بمعنى أنها ترفض ما يتجاوز العالم التجريبى وتتبع المنهج الاستقرائى الذى يميز العلم عن أى نشاط آخر. ثم هى منطقية من حيث إنها تمنطق النزعة الاستقرائية وتستخدم المنطق الرياضى لتحليل المفاهيم العلمية ولبناء لغة العلم. وبهذا فإن المنطق الرياضى ليس عصبًا للفلسفة فحسب بل هو هيكلها بأسره.

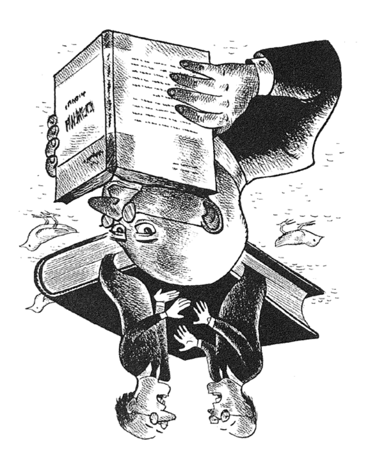
وقد بدأت الوضعية المنطقية فى فيينا، ثم انتقلت إلى انجلترا مع ظهور النازية، ونقلها إلى مصر وحمل لواءها فيها د. زكى نجيب محمود، وكانت له معارك مع علماء وفلاسفة فى دفاعه عنها. وتهاجم د. يمنى الوضعية المنطقية هجومًا عنيفًا لتطرفها التجريبى المنطقى ولها كل الحق فى ذلك. لكنها تذكر من أسباب نقدها لها أنها تحاول القضاء على الميتافيزيقا الابنة المدللة للفلسفة! على أن هذا ليس بسبب مهم لنقد الوضعية المنطقية، فهناك الكثير من الفلاسفة والعلماء يرون أن الميتافيزيقا ابنة فاسدة مخربة للفلسفة تجللها بعار الخرافة!

كما سبق القول كان أهم تجمع للوضعية المنطقية هو جماعة فيينا (١٩٢٢ ـ ١٩٣٨) وكان الكثير من أفرادها يعملون أصلاً كعلماء فيزياء أو رياضة ثم استغرقتهم الفلسفة أيضًا، ومن هؤلاء شليك (١٨٨٢ ـ ١٩٣٦) عالم الطبيعة الذى أخذ بتجريبية ماخ الحادة. وكان ماخ (١٨٣٨ ـ ١٩١٦) من رواد الوضعية المنطقية، لكنه تطرف فيها حتى أصبح يرى أن القوانين العلمية هى فحسب أحسن وصف ممكن للعالم التجريبى وليست تفسيرًا له، فالقوانين والنظريات العلمية مجرد «أدوات» للربط بين الظواهر والسيطرة عليها، ومن هنا سمى هذا الاتجاه «الأداتية»، والقانون العلمى يوصف بالصلاحية أو عدم الصلاحية حسب قدرته على أداء الوظيفة العلمية وبالتالى فهو ليس تقييمًا استقرائيًا. هكذا أطيح بالاستقراء وأصبحت معايير الملاءمة منطقية منهجية وليست تجريبية. وأهم هذه المعايير البساطة، بمعنى وجود أقل عدد ممكن من المفاهيم والعلاقات الأساسية وتبلور اتجاه الأداتية فى الفلسفة البراجماتية فى أمريكا (بيرس وليم جيمس وديوى) حيث لا توصف الفكرة بأنها صادقة أو كاذبة، وإنما هى مفيدة أو غير مفيدة، ظلت الوضعية المنطقية والأداتية هما الاتجاهان السائدان حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين. وهذان الاتجاهان فيهما بشكل عام محاولة لتبرير المعرفة العلمية وإيجاد مبررات لمصداقيتها ونجاحها فى مهمتها. وهكذا تصل بنا د. يمنى إلى نهاية الفصل الخامس فى كتابها، وعنوان هذا الفصل هو «التجريبية أصبحت منطقية»، وهذا الفصل بالذات يتطلب فيما نعتقد جهدًا كبيرًا فى قراءته، ولعله كان يتطلب تبسيطًا أكثر، أو لعل القراء لا يمارسون كثيرًا قراءات من هذا النوع مما يجعلنا فى حاجة إلى مران أكثر.



ثم يدخل بنا الكتاب فى فصليه الأخيرين إلى النصف الثانى من القرن العشرين حيث يبلغ ذروته إبداعًا وإمتاعًا، ويبدأ النصف الأخير من القرن بظهور الفلسفة العلمية لكارل بوبر (١٩٠٢ ـ ١٩٩٤) التى تنتقل بفلسفة العلم من منطق التبرير إلى منطق الكشف العلمى، ومعالجة هذا الكشف على أساس قابليته للاختبار التجريبى والتكذيب أو التفنيد، ليفسح مكانه لكشف أفضل وأكفأ. والعلم هكذا بناء، طبيعته الصيرورة والتقدم الدائم، وليس مجرد لبنات كشوف جديدة تضاف للبناء، وقدم بوبر صياغة دقيقة لمنطق الكشف العلمى تعتمد أكبر اعتماد على المنطق الرياضى. كما دافع عن الميتافيزيقا لأنها فى نظره مهمة لتقدم العلم بإلهامه بالفروض الخصبة. وأكد أن الاستقراء خرافة، وأن العلماء لا يبدأون بالملاحظة الخالصة وإنما يبدأون أولاً بالفرض الاستنباطى، والوقائع التجريبية لا تبرر الدعوى بصدق النظرية ولكنها تبرر الدعوى بكذبها. ومثال ذلك قضية أن كل البجع أبيض، فهذه لن يثبت صدقها وجود ملايين البجعات البيضاء. لأن وجود بجعة واحدة غير بيضاء كاف لإثبات كذب القضية. والعلماء يتمسكون بالفروض التى لم يتم تفنيدها بعد بوضعها حدًا للتقدم العلمى حتى اللحظة الراهنة، فإذا ظهر ما يفندها حاولوا الوصول إلى فروض أفضل يسلمون بها مؤقتًا، وهلم جرا، بحيث إن العلم لا يتوقف أبدًا ويواصل تقدمه باستمرار





والكشف العلمى ليس عملية آلية بل عملية خلق وإبداع أشبه بما يحدث فى الإبداع الفنى. وهذه نظرة فلسفية مازال لها وجود مؤثر إلى الآن.





أدى مذهب بوبر إلى أن أصبحت فلسفة العلم فى جوهرها فلسفة التقدم، وأصبحت التقدمية لا العقلانية هى صلب العلم. وظهرت الحاجة فى أواخر القرن العشرين إلى تحديد مفهوم جديد معاصر للعقلانية العلمية. وانصرفت جهود فلاسفة مثل فيرابند ولودان إلى تحديد هذا المفهوم، وحسب هذه النظرة فإن النظرية الجديدة تكون أكثر تقدمًا عندما تكون أكفأ فى حل المشاكل وليس عندما تكون أقرب إلى الصدق أو أكثر قابلية للتكذيب كما يقول بوبر. وعادت إلى الظهور من جديد جدلية هيجل وماركس، حيث يحدث تراكم كمى تدريجي لا يلبث أن يؤدى إلى قفزة كيفية أو ثورية تصبح نقطة بدء لتراكم جديد، وهلم جرا، ويعد بشلار (١٨٨٤ - ١٩٦٢) أشد فلاسفة العلم حرصًا على إبراز الطابع الثورى الجدلى للتقدم العلمى. وهذا التقدم ليس مجرد استمرار تراكمى لمسار الماضى، وإنما ينتهى إلى شق طريق جديد تمامًا، أى «قطيعة معرفية». واستخدم فوكيه (١٩٠٩ - ١٩٨٤) فكرة القطيعة المعرفية للفصل بين الحقب المعرفية، كما استخدمها التوسير فى محاولة لتجديد صياغة الماركسية. وأصبح مفهوم القطيعة المعرفية كما تقول د. يمنى «موضة» فى مجال العلم والفن.

كان ما يغلب على معظم هؤلاء المفكرين أنهم يتناولون العلم كما هو موجود عليه حاليًا بغض النظر عن تاريخه، أى أن فلسفتهم العلمية كانت غير تاريخية. وما لبث توماس كون (١٩٢٢-١٩٩٦) أن التقط مفهوم الثورة الذى بدأ به بوبر، ليقيم فلسفة تاريخية للعلم على أساس هذه الثورة. وهكذا بدأ «كون» مرحلة فلسفة العلم التاريخية، وأدخل فيها الوعى التاريخى، لأنه لا يمكن إدراك فلسفة العلم إلا من سجلات تاريخية، وتاريخ العلم سلسلة متعاقبة من النماذج الأساسية أو الإرشادية (البارادايم) كما شرح فى كتابه المهم «بنية الثورات العلمية»، وقد ترجمه للعربية الأستاذ شوقى جلال. وعندما يجرى البحث العلمى فى إطار النموذج الأساسى فإنه ينتج علمًا عاديًا تراكميًا، ثم لا يلبث النموذج الأساسى أن يعجز عن التنبؤ بظواهر جديدة أو تفسيرها، فيظهر علم ثورى ينتقل من النموذج الأساسى القديم إلى آخر جديد. والنموذج الأساسى يمثل المجتمع العلمى أيديولوجيًا ويتأثر بالعوامل الاجتماعية والنفسية والظواهر الحضارية الأخرى. وتتالى هذه النماذج يمثل الحقب التاريخية مثلما تمثلها الأنشطة الإنسانية الأخرى من أدب وفن وسياسة.

ثم يأتى إمرى لاكاتوش المجرى (١٩٢٢ - ١٩٧٤) الذى وصل بفلسفة العلم التاريخية إلى أوجها. وهو يرى أن تاريخ العلم يتم رسمه عبر انتقالات متوالية من برنامج أصابه التدهور إلى آخر واعد أكثر تقدمية. ويختلف لاكاتوش مع بوبر عندما يقول الأخير أن واقعة تجريبية واحدة نافية تكذب إحدى النظريات على نحو منفرد مستقل، فيتم رفضها فيرى لاكاتوش أنه ليست هناك تجربة تكون حاسمة بصورة قاطعة، فهذا تبسيط مخل بواقع العلم. فالنظريات العلمية العظيمة لا تكون فى شكل نظريات منفردة، وإنما هى برنامج متكامل للبحث والتقدم العلمى لا يتأتى من نظرية معينة، وإنما يتأتى كما سبق القول بالانتقال من برنامج بحث أصبح متدهورًا إلى آخر تقدمي واعد. وإذا كان «كون» يركز على دور تاريخ العلم فى فلسفته، فإن لاكاتوش يضيف إلى ذلك الاهتمام بدور فلسفة العلم فى تاريخه، أى أنه يهتم بالعلاقة التبادلية بين الطرفين.

ظهر بعد ذلك فلاسفة علميون عديدون استوعبوا الاتجاه التاريخى، ومن أبرزهم فيرابند (١٩٢٤ - ١٩٩٤). وفى رأيه أنه لا معنى للملاحظات فى حد ذاتها، كما أنه لا

معنى للفرض في حد ذاته، وإنما هما كل متكامل أو كيان واحد. وإذا كانت فلسفة العلم قد سادتها أولاً نظرية الاستقراء الذي يبدأ بالملاحظة، ثم سادها بعد ذلك اتجاه مناقض يبدأ بالفرض، فإننا مع نهايات القرن العشرين نجد أن نظرية المنهج العلمي تتخذ صورة المركب الجدلي حيث الفرض والملاحظة يتكاملان معًا. كما يؤكد فيرابند أن العلم لم يكن أبدًا أسير منهج واحد محدد، بل إن له مناهج عديدة بين استنباط واستقراء وتنظير وتجريب وحدس، وكل هذه المناهج مقبولة مادامت تلائم طبيعة المشكلة العلمية المطروحة وتؤدي إلى حلها.



هذا عرض لبعض مما في كتاب د. يمنى الخولي، والكتاب عمل ضخم في حجمه وقيمته بما لا يمكن تلخيصه تلخيصًا جديرًا به. ولاريب أن المؤلفة بذلت فيه جهدًا خارقًا بما ضمنته فيه من مادة غزيرة منسقة، الأمر الذي يجعل للدكتورة يمنى مكانتها «المكينة» بين كبار مؤلفينا في الفلسفة بوجه عام والفلسفة العلمية بوجه خاص، والمؤلفة لا تكتفي في كتابها بمجرد العرض، وإنما هي أيضًا تنقد وتؤيد وتفند حسب ما تعتنقه من فلسفة علمية. وبقدر ما يكون عمل كهذا كبيرًا خلاقًا، فإنه يكون في نفس الوقت عملاً يثور حوله الاختلاف. وقد أثار هذا العمل بالفعل أوجه اختلاف سواء بين الفلاسفة أو العلماء.

وقد ورد فيما سبق من هذا العرض بعض أوجه الاختلاف الفلسفية، على أن هناك أيضًا سؤالاً قد يلح على أي قارئ عند الانتهاء من هذا الكتاب الرائع: ترى هل يفكر العلماء حقًا حسب هذه المناهج؟ أذكر أنه حينما كان الدكتور زكي نجيب محمود يعمل على نشر الوضعية المنطقية في مصر، أن رد عليه د. عثمان أمين معارضًا واستشهد في ذلك بكتابات لعلماء غربيين يستنكرون تمامًا أنهم يفكرون في أبحاثهم العلمية على النحو الذي تسوقه الوضعية المنطقية، على أن د. فؤاد زكريا يستهل كتابه «التفكير العلمي» بقوله إن التفكير العلمي ليس هو تفكير العلماء بالضرورة، فالتفكير العلمي ليس ما ينصب على مشكلة تخصصية معينة مما يدرسه العلماء المتخصصون. وإنما هو ما نستخلصه ويتبقى في أذهاننا من حصيلة العمل الشاق الذي قام به العلماء، وذلك حتى نستخدمه في حياتنا اليومية كطريقة معينة للنظر في الأمور ومعالجة المشكلات بما يحرر الإنسان من مخلفات عصور الجهل والخرافة. وهذا فيما نعتقد يجعل فلسفة العلم مدخلاً مهمًا لنشر الثقافة العلمية والتفكير العلمي بين الجماهير.

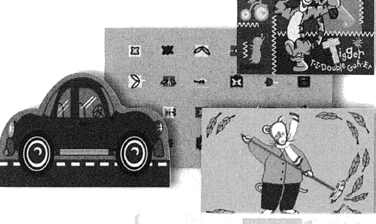
وقد يرى بعض أهل العلم أن هناك بعض هنات غير مقصودة في الكتاب، مثلما ورد في ص ١١٤ عن مادة الكون المظلمة، وهي مادة كما يدل اسمها لا تُرى، وتُعرف فحسب بتأثير جاذبيتها، كما أنها المادة الغالبة على الكون حيث تشكل ٩٠ ـ ٩٩٪ منه، أما ما نراه من مادة مضيئة من مجرات ونجوم وكواكب فلا تشكل إلا ١ ـ ١٠٪ من الكون. وقد عرف الكتاب المادة المظلمة بأنها تمارس جذبًا هائلاً يشد حتى الضوء فلا يصدر عنها، والحقيقة أن هذا تعريف للثقوب السوداء التي تنجم عن تقلص النجوم أو المجرات على نفسها. والمادة المظلمة قد تكون أو لا تكون في جزء منها ثقوبًا سوداء. وهناك نظريات كثيرة عن تعريف المادة المظلمة تبعد بها تمامًا عن أن تكون ثقوبًا سوداء، ثم هناك في ص ٣٦٥ تفسير للداروينية يرد فيه أن عملية الانتخاب الطبيعي تعني أن الأنواع الأقوى القادرة على الفتك بمنافسيها هي التي تبقى وتحكم بالفناء على الأضعف، وهذا تفسير استغله دعاة اليمين الرجعي والاستعمار في سياساتهم لتبرير الاضطهاد العرقي والطبقي. والأولى أن يقال إن الأنواع الأكثر تكيفًا هي التي تبقى على الرغم من أنها قد تكون الأضعف، مثلما بقيت الثدييات الضعيفة عند فناء الديناصورات الأقوى كثيرًا، وفي موضع آخر يرد في ص ٤٣٧ أن جسيمات زد ودبليو جسيمات ذرية وسيطة في حين أنها على وجه الدقة جسيمات تحت ذرية أي أصغر من الذرة وتعمل كوسيط في نقل القوى النووية الضعيفة التي لها دورها في التحليل الإشعاعي. والكتاب فيه أيضًا ترجمة لكلمة Effect على أنها «تأثير»، في حين أنه واضح من السياق أن الترجمة الأنسب هي «ظاهرة». ذلك أن كومبتون عالم الفيزياء لم يؤثر في الإشعاع، ولكنه وصف ظاهرة له فسميت ظاهرة كومبتون، كذلك فإن دوبلر لم يؤثر في موجات الصوت، وإنما وصف ظاهرة لها سميت ظاهرة دوبلر.

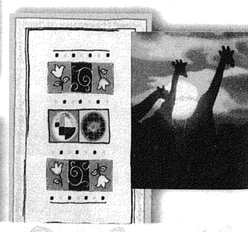
وتستخدم الدكتورة يمنى أيضًا كلمة «تكميم» للتعبير عن التقدير الكمي، ولعل الأفضل أن يكون التعبير عن ذلك بكلمة «تكمية»، وقانا الله وإياها شر التكميم والكمامات التي يضعها الأقوياء على أفواه الضعفاء. كما تستخدم د. يمنى كلمة «تقويم» لتقدير القيمة، وهي ولا شك صحيحة لغويًا، ولكن مجمعنا اللغوي أقر أيضًا في المعجم الوسيط استعمال كلمة «تقييم» لنفس الغرض، بل وفضلها عن التقويم ليصبح لتقدير القيمة كلمة واحدة مميزة ليست محملة بشحنات أخرى مثل الإصلاح والتأديب.

وأسلوب د. يمنى اللغوي فيه أحيانًا فخامة وطنطنة تؤدي إلى بعض شطحات و«حيودات» في هذا الأسلوب «المكين» لا تتمشى مع العلم ولا مع الفلسفة، وخاصة فلسفة الوضعيين المنطقيين الذين يدققون الكلمات، بينما تصفهم د. يمنى بأنهم «غضبوا غضبًا مضريًا لا يبقي ولا يذر»! فهل كل خواجات النمسا وإنجلترا على علاقة بمضر؟. ثم هناك «بهاء الفلسفة السرمدي»، وبوبر الذي «وضع السرج على فكره وامتطى صهوة جواده»، ولعل الجواد كان مكرًا مفرًا مقبلاً مدبرًا معًا. وإن لم يوضح لنا ذلك. وتتملك د. يمنى النشوة من أن علم الفلك خرج من أعطاف التنجيم، فتصبح في عجب، «سبحان من يخرج الحي من الميت»، ولعلها تقصد أنه سبحان من يخلق من الفسيخ شربات، لأن التنجيم لم يمت أبدًا بل هو في بلادنا أوسع انتشارًا بكثير من علم الفلك، وحتى عندما نصل عند خاتمة الكتاب إلى ذروة الاستمتاع به علميًا نفاجأ بعبارة عن فتح قوقعة اللؤلؤة التي لم تفتح من قبل، وهو قول يماثل التعبير الشهير لوصف لحظات الوصال في كتاب ألف ليلة.

على أن هذه كلها هنات كما سبق القول، خاصة أنها لا تنال من سياق الفكر في الكتاب ولا تنال من قيمته. وأي مؤلف يتصدى منفردًا لعمل فريد كهذا، يكون عرضة لمثل هذه الهنات وأكثر. فالكتاب مما لا يستغني عنه أي مثقف متخصص أو غير متخصص. ونحن نرجو أن يكون كتاب د. يمنى التالي عن فلسفة العلم في الحضارة العربية، وأن يكون بنفس المنظور العلمي الشامل وليس من منظور شوفيني أو سلفي. ■


ماك
بواقى
التصدير والرواكد


Tigger
T-I-Double Guh-Er





مـصـر..هى
الأرض «المقدسة»
الوحيدة فى العرف
المسـيـحى بخـلاف
فلسطين. إلى رحابها
لجأت «العائلة المقدسة»
طلبًـا للأمـان وفى
صـحـرائهـا السـاكنة
المسـيـجـة بالمهابة
والجـلال، ظهـرت
«الرهبنة»: طقـسًـا
مسيحيًا «قبطى» الطابع.
قـبطيـة الرحلـة
المقدسة.. وقبطية الدير،
بين المعتقد، والطقوس،
هما موضوع هذا الملف
المصور والذى يشارك
فـيـه بمعلومـات
أساسية عن «تاريخ
الرهبنة القـبطيـة»
الأنبـا مـوسى
أسـقف الشـبـاب
بالكنيسـة
المصـرية.

صورة بانورامية لدير السيدة العذراء فى درنكة والمنطقة المحيطة به

كونوا هناك

الرحلة المقدسة.. في الأرض المقدسة.. مصر

هاني شكرالله

الكتابة في أيٍّ من شئون الأقباط في مصر تحيطها الألغام من كل جانب.. ولعلي أستدرك موضحا أن المسألة نسبية، فالألغام تحيط كل كتابة هذه الأيام، تزيد بصورة مطردة حين يقترب الكاتب من الشأن الديني (إسلاميا كان أو مسيحيا)، ولكن أين الألغام في كتاب مصوَّر عن رحلة العائلة المقدسة إلى مصر، صادر باللغة الإنجليزية عن دار النشر التابعة للجامعة الأمريكية بالقاهرة (AUC Press) بالتعاون مع (الجمعية الوطنية لإحياء التراث المصري) ويحرره ويقدم له السيد جودت جبرا مدير المتحف القبطي بالقاهرة منذ ١٩٨٥؟ الكتاب ينتمي إلى نوع من الكتب يطلق عليه في الغرب «كتاب منضدة القهوة» (coffee-table book)، غالي الثمن، فاخر الطباعة، يقوم أساسا على التصوير، يلعب النص المكتوب فيه دورا مساعدا للصورة، ويفترض فيه السهولة في السرد، جمله قصيرة واضحة، تقدم المعلومات الأساسية وتبتعد قدر الإمكان عن مواطن الجدل وكل ما من شأنه أن يثير حساسية ما لدى القارئ. نحن إذن إزاء كتاب أبعد ما يكون عن حقول الألغام، قُرّاؤه من المصريين لا يجيدون اللغة الإنجليزية فحسب، ولكنهم على الأغلب على دراية بمفهوم «منضدة القهوة» وما يليق بها من كتب، وهي أمور مستغلقة على أكثرية الشعب المصري أقباطا ومسلمين. وهو فضلا عن ذلك كتاب مناسبات، صادر في إطار احتفالات الألفية الثانية لمولد المسيح، وهي التي رأت فيها الحكومة المصرية فرصة لتسويق مصر سياحيا سواء عن طريق حفل رأس السنة الشهير في سفح الأهرامات بالجيزة أو من خلال حملة استهدفت جذب الحجاج المسيحيين الراغبين في تتبع رحلة العائلة المقدسة في مصر في ذكراها الثانية بعد الألف. وليس في أي من هذا نقد للكتاب، أو استهانة به. فكيف يكون حال النشر إذا كان من بين شروطه أن يكون كل كتاب منشور في متناول الأكثرية، ذوقا أو محتوى أو مفهوما؟ وإذا كان لا يمكننا أن نطالب دور نشر مصرية وعربية بهذا فبالأحرى ألا نطالب به دار النشر التابعة للجامعة الأمريكية وهي التي تنشر باللغة الإنجليزية وتستهدف بصفة أساسية قارئا غير عربي، تكون له مرآة على الثقافة المصرية والعربية، وهو دور محمود في حد ذاته، لعبته دار نشر الجامعة الأمريكية في القاهرة بتميز كبير.

Be Thou There The Holy Family's Journey in Egypt

كونوا هناك

رحلة العائلة المقدسة في مصر

edited: Gawda Gabra
Photos: Norbert schiller
The Auc Press, Cairo, 2001

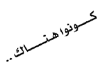


«كن هناك»، قالها ملاك الرب ليوسف النجار رجل مريم العذراء والدة يسوع المسيح، وفقا لرواية انفرد بها إنجيل متَّى وحده من بين أناجيل العهد الجديد الأربعة.. و«هناك» هي مصر، والرواية هي رواية لجوء العائلة المقدسة إلى مصر هربا من بطش هيرودس ملك اليهود تحت الحكم الروماني، وردت مقتضبة في الإصحاح الثاني من الإنجيل المذكور تنتهي بنهايته ولا تتضمن أية معلومات عن إقامة العائلة المقدسة في مصر أو عن مدة هذه الإقامة. فعند مولد يسوع في بيت لحم جاء إلى أورشليم مجوس من المشرق (الحكماء الثلاثة في الترجمات الغربية للإنجيل) يسألون «أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له». وتمضي رواية إنجيل متى: «فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه، فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح فقالوا له في بيت لحم اليهودية لأنه هكذا مكتوب بالنبي: وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا، لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي إسرائيل». يدعو هيرودس المجوس إليه ويطلب منهم الذهاب إلى بيت لحم والتأكد من الصبي ثم العودة إليه وإبلاغه بما وجدوا «لكي آتي أنا أيضا وأسجد له». يجد المجوس ضالتهم، يسجدون للصبي الوليد ويقدمون له هدايا ذهبا ولبانا ومرا ثم يوحى إليهم في حلم ألا يرجعوا إلى هيرودس فينصرفوا عائدين إلى موطنهم.

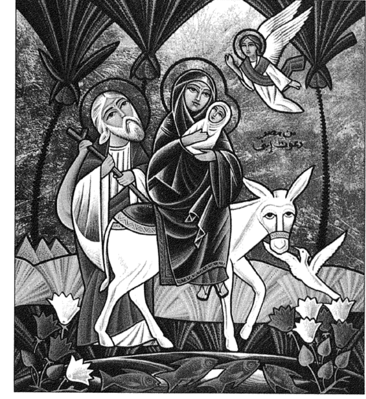
وهنا نأتي إلى المقطع/المفتاح: «وبعدما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلا قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك، لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف إلى مصر، وكان هناك إلى وفاة هيرودس لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني». ثم يخبرنا الإصحاح نفسه أنه «لما مات هيرودس إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلا قم

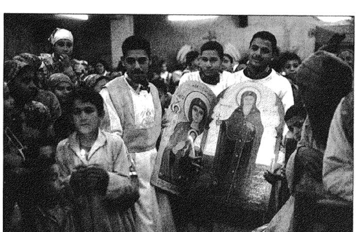


أيقونة قبطية من القرن التاسع عشر، وتظهر فيها الصورة التقليدية لرحلة العائلة المقدسة في مصر



«من مصر دعوت ابنى»: الأيقونة التقليدية لرحلة العائلة المقدسة فى مصر





موكب من الشمامسة والمصلين احتفاء بأيقونات جديدة حصلت عليها كنيسة أباهور جنوب المنيا

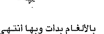
وخذ الصبى وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى، فقام وأخذ الصبى وأمه وجاء إلى أرض إسرائيل». هذان المقطعان المقتضبان هما كل ما ورد فى الكتاب المقدس بأسره بشأن رحلة العائلة المقدسة فى مصر. كل ما عدا ذلك - وهو جم - ينتمى إلى التقليد الكنسى، بعضه مسيحى بوجه عام وأكثره قبطى، بل ولعلنا لن نكون بعيدين كثيرا عن الحقيقة إذا تكهنا بأن المسيحيين المصريين الأول ربما لعبوا دورا بارزا فى إعطاء قصة «الهروب إلى مصر» الوزن الخاص الذى احتلته فى التقليد المسيحى فيما بعد. فقد لجأ المؤولون - اقتداء بالرسل - إلى النبوءات التى تحفل بها التوراة لإضفاء أبعاد قدسية كبرى على الرحلة، لتصير مصر بفضلها أرضا مقدسة - الأرض المقدسة الوحيدة فى التقليد المسيحى بخلاف فلسطين - ولتصبح زيارة العائلة المقدسة إلى مصر تحقيقا لنبوءة النبى أشعيا والتى ذهبت إلى أن الرب بعد أن يصب جام نقمته على مصر ويدمر أصنامها ويهلك كهنتها سيبعث إليها بمخلص عظيم، ويومها سيعرف الله فى مصر، ليقول الرب «مبارك شعبى مصر»، تلك العبارة التى تتردد كثيرا فى خطاب أقباطها وتتزين بها الكثير من كنائسهم.

«كن هناك» عنوان الكتاب، يذيله العنوان الفرعى «رحلة العائلة المقدسة فى مصر». ولا يسع القارئ وهو يتصفحه.. يتامل فيما يحفل به من صور فوتوغرافية ويقرأ فى سطوره وما بينها.. لا يسع القارئ إلا أن يشعر بان ضمير المخاطب فى العنوان يمكنه أن يشير إلى أقباط مصر ربما باكثر مما يشير إلى يوسف النجار. «كونوا هناك» تلح على ذهن القارئ مع كل صورة وكل جملة، فالرحلة هى رحلتهم والقصة هى قصة امتلاك المصريين للمسيحية، تمصيرها وزرعها زرعا فى أرض مصر من سيناء إلى الإسكندرية وعلى ضفتى النيل من الدلتا وحتى الصعيد. لم يبق آباء المسيحية فى مصر على نص من نصوص الكتاب المقدس يمكن تأويله ليضفى على المسيحية بعدا مصريا إلا وأولوه. يتتبع الكتاب بالصورة والكلمة رحلة العائلة المقدسة فى مصر وفقا للتقليد القبطى، فيكشف عن تاريخ حى نابض بالحياة. مواقع لمكوث العائلة المقدسة تظهر

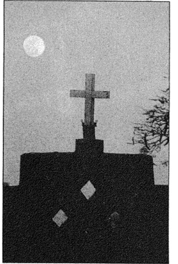
قبو كنيسة السيدة العذراء فى مسطرد، وفيه مكثت العائلة المقدسة وفقا للتقليد القبطى.

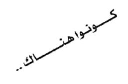
وأخرى تندثر، مواقع تشيد فيها الكنائس والأديرة وتصبح قبلة للحجاج، ومواقع أخرى تبقى مجرد بقع على خريطة مفترضة.. مواقع تقرها الكنيسة وأخرى يقررها أهاليها.. مواقع وآثار معجزات تحيط بكل منها قصص حافلة، البعض منها قديم قدم المسيحية فى مصر وبعضها الآخر مستحدث، مثل كنيسة الزيتون التى شاع بين الأهالى ظهور العذراء مريم بها عام ٦٨. صور نوربرت شيلر المصاحبة للنص تنطق بمصرية موضوعها، كل ما فيها مألوف. عين المصور ترى مصر والمصريين كما هم.. جمال الصور مستمد من الألفة والحب وليس من غربة وانبهار بغريب وغير مألوف.

هل حدث كل هذا؟ لم يهتم الباحثون الثلاثة المساهمون فى الكتاب كثيرا بالإجابة على هذا السؤال وإن كانوا قد عنوا باقتدار بتتبع مصادر وأصول الروايات المختلفة عن رحلة العائلة المقدسة فى مصر ومواقع إقامتها بها، وبينوا سياقها التاريخى الذى هو تاريخ المسيحية فى مصر قبل أن يكون تاريخا لرحلة لا سبيل للتأكد منها علميا، ولا نعرفها إلا من خلال التقليد القبطى. وبوجه عام السؤال غير مهم، ففى حالتنا هذه كما فى حالة أى تقليد دينى يصعب التوفيق بين التاريخ بوصفه علما يقوم على الشك والرواية الدينية التى تقوم أول ما تقوم على الإيمان. الحقيقة التاريخية الأساسية هنا تعنى بتاريخ الضمير، التاريخ الروحى لقوم ما وعلاقتهم هم بالزمان والمكان. القوم هم أقباط مصر والمكان هو مصر، يستحيل تصور أحدهما دون الآخر.



بالألغام بدأت وبها أنتهى. يذهب التقليد القبطى إلى أن العائلة المقدسة أمضت الستة شهور الأخيرة من رحلتها فى مصر ببيت مهجور على سفح جبل يسمى بجبل قسقام، وكانت هذه هى المدة الأطول لإقامتهم فى مكان واحد خلال وجودهم فى مصر.. وفى هذا البيت المهجور أيضا ظهر الملاك ليوسف يأمره بالعودة إلى أرض فلسطين «لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل من مصر دعوت ابنى». ويقال إن المسيحيين المصريين شيدوا كنيسة فى هذا المكان فى القرن الميلادى الأول، ويقال إنها أقدم كنائس العالم. الكنيسة اسمها كنيسة السيدة العذراء، يحيطها دير يسمى دير المحرق. ■


دير الأنبا حوابامون بديروط الشريف



الدير والراهب

الأنبا موسى

كانت الرهبنة قبل القرن الرابع الميلادى تقتصر على متوحدين يسكنون الصحراء فرادى، يعبدون الله آناء الليل وأطراف النهار، إلى أن جاء الأنبا (الأب) أنطونيوس المصرى وعاش مثلهم، إلا أن آلافًا اجتمعوا حوله، فأسس لهم ديرا، ووضع لهم أسس «الديرية»، والحياة الرهبانية.

ولما نفى بطريرك الكنيسة القبطية البابا أثناسيوس الرسولى إلى أوروبا، نشر سيرة الأنبا أنطونيوس فى كتاب ذاع صيته، فتأسست جماعات رهبانية مشابهة، فى أرجاء العالم المسيحى. ولهذا دعيت مصر «أم الرهبنة» ودعى الأنبا أنطونيوس «أب جميع الرهبان».



ويذكر التاريخ أن القديس أنطونيوس كان شابا قبطيا (مصريا) غنيا من قِمَن العروس (الواسطى - بنى سويف)، له أختٌ شقيقة، مات والداه، وتركا له مساحة شاسعة من الأرض الزراعية المثمرة، ولكنه فى يوم ممات والده، نظر إلى الجثمان المسجَّى على الأرض، وقال فى نفسه مخاطبًا أباه: «ها أنت يا أبى تخرج من هذا العالم بغير إرادتك، أما أنا فسوف أخرج منه بإرادتى». ووزع كل ماله على الفقراء، وأودع أخته فى بيت للعذارى، ومضى ليبدأ نسكياته (أصوامه وصلواته وسجداته) على شاطئ النيل، فى قرية دير الميمون. وبينما هو يصلى ويقرأ فى الكتاب المقدس، جاءت امرأة لتغسل قدميها فى النهر، فانتهرها قائلاً: «كيف تفعلين ذلك أمام راهب؟». فأجابته قائلة: «الراهب لا يسكن فى المدن، بل يذهب إلى عمق الصحراء». فاعتبر هذا صوتًا من الله، ودخل حتى شاطئ البحر الأحمر، حيث ديره المقدس القابع هناك.

ويذكر التاريخ القبطى أن أنطونيوس حينما بدأ حياة الصلاة الدائمة، شعر بالملل، فظهر له ملاك يلبس الرداء الأسود، والقلنسوة يصلى قليلاً، ثم يضفر الخوص بيديه قليلاً. وقال له الملاك: افعل هذا فتطرد الملل. ومن وقتها صار الرهبان يلتزمون بالحياتين معًا: التأمل والصلوات الكثيرة، وعمل اليدين، ليعيشوا منه، ويتصدقوا بالباقى على الفقراء. وقتها كان ضفر الخوص (سعف النخل) المتواجد فى البرية، وصنع السلال هو العمل المتاح وكان أحد العلمانيين (أى المدنيين) يتعهد بالمجئ إلى الدير كل أسبوع ليأخذ السلال، ويبيعها، ويشترى للرهبان حاجاتهم الأساسية من غذاء وكساء ودواء.

كيف يتم اختيار الرهبان الآن؟

حين يتم اتخاذ قرار دخول الدير، ويشترك فى ذلك الكاهن الذى يعترف لديه الشاب، ورئيس الدير ومسئول طالبى الرهبنة بالدير، والشاب نفسه.. يترك الشاب عمله وأسرته. ويأتى للإقامة فى الدير حيث يستمر ثلاث سنوات فى ملابس بيضاء، يمتحن فيها نفسه، ويمتحنه فيها الدير.. فإذا ما استراح هو، واستراح رئيس مجمع الدير له، تتم رهبنته ويلبس الملابس السوداء، والقلنسوة التى تحمل ١٣ صليبًا تمثل السيد المسيح والاثنى عشر تلميذًا، إشارة إلى أنه متشبع بفكر المسيح والرسل، وحياتهم المقدسة. وتتلى فى الصلوات طلبة الراقدين (أى الموتى)، علامة أن هذا الإنسان «مات» عن العالم والمادة والشهوات الأرضية، ليحيا لله والملكوت السماوى.

بعد الرهبنة يكون الراهب تحت ملاحظة مستمرة من إدارة الدير، سواء فى حياته الدينية أو فى المسئوليات التى تسند إليه، أو فى نزوله إلى المدينة بتكليف من رئاسة الدير لبعض المهام.. وتتم محاسبة الرهبان فى حال انحرافهم عن طريق لجنة شئون الرهبان، المنبثقة عن لجنة شئون الأديرة، وكلها من الآباء الأساقفة رؤساء الأديرة.. وذلك لاتخاذ اللازم من إجراءات روحية أو ربما تجريد كامل. وفى هذه الحالة تتم مراعاة ظروفه، ليستقر فى حياة جديدة مدنية.

جوهر الرهبنة:

الرهبنة فى جوهرها هى «الانحلال من الكل، للارتباط بالواحد».. أى الابتعاد عن البشر جميعًا، حبًا فى الله، واكتفاء به تعالى.

وتعتمد الرهبنة على أساسيات مهمة مثل:

١ - البتولية: أى عدم الزواج، ليس انتقاصًا من قدسيته وكرامته، فالزواج فى الكنيسة أحد الأسرار السبعة المقدسة، أما البتولية فهى دعوة إلهية يخص بها الرب بعض أبنائه وبناته، فيشعر الواحد منهم أنه لا يحتاج إلى زواج، بل يحس بالسعادة الغامرة فى التسامى بطاقته الجنسية، لتصير طاقة حب لله وللإنسان، وليتفرغ نهائيًا للصلوات والعبادات، طلبًا لحياة القداسة والكمال، متشبهًا بالملائكة، الذين لا يكفون عن العبادة والتسبيح.

٢ - الوحدة والانفراد: فالراهب الأمين، كثير الاختلاء والصلوات فى البرارى والجبال، قال بولس الرسول عن الرهبان: «وهم لم يكن العالم مستحقًا لهم تائهين فى برارى وجبال وشقوق الأرض» (عب ١١:٣٨). حيث كانت الرهبنة الانفرادية موجودة فى أيام يوحنا المعمدان (قبل ميلاد السيد المسيح مباشرة)، فى طائفة تدعى الإسينيين. فلما جاءت المسيحية، تم تعميد هذا الاتجاه، ليصير الرهبنة المسيحية.

٣ - العفة والتجرد: بمعنى أن يتعفف الراهب حتى عن المقبول، فينسى المال والمقتنيات والأرضيات، ويضع العالم وراء ظهره، رافعا قلبه إلى السماء، وممتدا ببصره إلى الخلود.

٤ - الطاعة: فالهدف الأساسى للرهبنة هو «قطع المشيئة» أى ألا يكون للإنسان مشيئة خاصة ذاتية، فهو لا يريد سوى الله.

لهذا يطيع الراهب تعليمات أبيه الروحى، وتكليفات وإرشادات ونظام الدير الإدارى، فى

دير الأنبا بيشوى فى وادى النطرون

روح التواضع الجميل، الذى يرى فى الطاعة كل البركة.

ويحكى التاريخ الكنسى أن الرهبنة تطورت عبر المراحل الآتية:

١ ـ نظام العزلة والتوحد: ونقصد به المبادرات الفردية فى القرن الثانى، ثم القديس الأنبا بولا أول السواح (الذى قضى سائحا فى الصحراء عشرات السنين) وعاش من ٢٢٨ ـ ٣٤١م. والذى لم نتعرف عليه إلا من خلال زيارة القديس أنطونيوس له، حيث سأله الأنبا بولا عن أمرين:

ـ هرطقة أريوس وهل انتهت؟ فأجابه بالإيجاب.

ـ فيضان النيل وهل هو مستمر؟ فطمأنه أنطونيوس.

وفى هذا نرى أن انعزال الراهب فى جوف الصحراء، لا يلغى لديه انتماءين: الانتماء الكنسى: حين سأل عن أحوال الكنيسة، والانتماء الاجتماعى: حين سأل عن فيضان النيل والحياة اليومية للناس.

٢ ـ نظام الجماعات الرهبانية: وقد شهدتها مصر منذ أسسها القديس أنطونيوس عام ٣٠٥م؛ إذ ترك عزلته ليقود جماعة ضخمة من الرهبان. وكذلك جماعات أخرى مثل تلك التى للقديس آمون الكبير (٢٧٥ ـ ٣٣٧م) فى نتريا بالصحراء الغربية، وتجمعات شيهيت فى وادى النطرون، التى أسسها القديس مكاريوس الكبير (٣٠٠ ـ ٣٩٠م) وفى مناطق أخرى مثل بسبير والبهنسا وملوى وأسيوط وقنا..

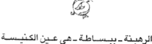
٣ ـ نظام الشركة الرهبانية: وهى المرحلة التى أصبح فيها الرهبان يعيشون داخل أسوار دير كبير، وفى حياة شركة يومية، فى الصلاة والعمل والإنتاج والحرف والصناعات. وهذا النظام أسسه القديس باخوميوس «أب الشركة» (٢٨٦ ـ ٣٤٦م).

ثم جاء القديس الأنبا شنودة رئيس المتوحدين (٣٣٣ ـ ٤٥١م) ـ الذى أحيا اللغة القبطية واستضاف الآلاف فى الدير وقت المجاعة ـ فربط بين نظامى: العزلة والشركة، فى ديره «الأبيض» فى سوهاج، ووضع قوانين ونظم وأساليب إدارة الدير، حيث يقضى الراهب فترة مناسبة فى الدير، ثم يتوحد فى البرية (الصحراء) الداخلية، فى مغارات يحفرها الرهبان بأنفسهم، ولا يأتى المتوحد إلى الدير إلا على فترات ليأخذ بعض المأكولات المناسبة.

الرهبنة الآن

كان دور الرهبان ولايزال أساسيًا فى حياة الكنيسة، ولذلك حرص قداسة البابا شنودة الثالث (الذى ترهب وعاش فى دير السريان لفترة طويلة) على تأسيس أديرة قبطية فى المهجر، إذ فضلاً عن أن الرهبنة تقدم للكنيسة الآباء البطاركة والأساقفة، فإن تركيز الرهبان فى الدراسة أنتج لنا الكثير من الدراسات اللاهوتية والطقوس والعقيدة والتاريخ الكنسى.

كما قام الرهبان بحفظ الإيمان والتقاليد والطقوس، فى مواجهة الهرطقات التى واجهتها الكنيسة، أو أيام الاضطهاد التى تشتت فيها المسيحيون.



الرهبنة ـ ببساطة ـ هى عين الكنيسة وعقلها وقلبها، والحارس الأمين على اللاهوتيات والنسكيات والعقيدة وأصول طريق الملكوت.. لهذا قيل عن الرهبان إنهم «بشر سمائيون أو ملائكة أرضيون».. هذا حينما نجاهد بأمانة، وننال نعمة من الرب. ■

الجامعات المصرية عند مفترق طرق!

لبيب السباعى

> أصبحت أغلبية الأبحاث العلمية تتم بصورة نمطية تقليدية معزولة عن مشاكل المجتمع، بل إن كثيرا منها يعد تقليدا حرفيا لأبحاث أجنبية لأن كل هم الباحثين هو الحصول على الدرجات العلمية، ونشر بعض الأبحاث بغرض الترقية بغرض تحسين الوضع المالى بصرف النظر عن صلاحية تلك الأبحاث أو فائدتها التطبيقية لحل مشاكل المجتمع

بعد نحو قرن كامل من إنشائها تقف الجامعة المصرية عند مفترق الطرق، عليها أن تختار بين طريق السلامة وطريق الندامة.. وقد يبدو مثيرا للأسى والحزن ــ وهو كذلك ــ أنه بعد هذا الزمن الطويل تتجه مسيرة الجامعة المصرية إلى الخلف، وأن تتحسرعلى ما وصلت إليه الأحوال فى الجامعات المصرية، مقارنا بما كانت عليه قبل ربع قرن من الزمان.. فعلى حين كان المفترض والمنطقى هو أن تشهد هذه السنوات تقدما ملموسا فى مسيرة الجامعة المصرية، إذ بها للأسف تتراجع وبانتظام إلى الوراء!! ولعل ما تعرضت له الجامعات المصرية خلال الشهور الماضية من أحداث تكشفت خلالها عشرات بل مئات الوقائع، يؤكد أن الأوضاع وصلت إلى الحد الذى لايحتمل المزيد، وأنه إذا ما أرادت الجامعة المصرية طريق السلامة اختيارا تسير فيه، فإن أمامها مهمة شاقة لمواجهة هذه الأوضاع برغبة حقيقية فى الإصلاح، لاتهدف إلى التبرير للوصول إلى نتائج زائفة تقول إن كل الأمور على ما يرام، وأنه ليس هناك أبدع ولا أجمل مما هو موجود!!

بعد هذه المقدمة يبقى تشخيص الأعراض الرئيسية التى تجسد مظاهر الخطر التى قد تؤدى إلى اندفاع الجامعات ــ لاقدر الله ــ إلى طريق الندامة أو طريق اللاعودة..

يمكن ــ اجتهادا ــ تحديد هذه الأعراض فيما يلى:

١ ــ مظاهر لفساد السياسة العامة لإدارة الجامعات.

٢ ــ عدم إدراك معنى ومفهوم استقلال الجامعة كمؤسسة.

٣ ــ فساد بعض القيادات الجامعية وتجاوزاتها فى ممارسة العمل الجامعى.

٤ ــ الفساد المالى وإهدار المال العام.

٥ ــ تدهور المستوى العلمى سواء للأستاذ أو الطالب.

٦ ــ تدنى المستوى العلمى للمناهج ومحتواها وتراجعها بصورة مزعجة عن المستويات المناظرة لها عالميا، وبالتالى هبوط مستوى الخريج المصرى..

٧ ــ قصور البحث العلمى وتفشى ظاهرة خيانة الأمانة العلمية وتحول سرقة الأبحاث العلمية من حالات معدودة إلى ظاهرة تفشت فى مختلف التخصصات وهروب المسئولين عن مواجهتها تحت ضغوط العلاقات العامة والشللية.

هذه الأعراض التى طفت أو طفحت على جسد الجامعات المصرية فى وقائع لم تعرفها أو تسمع بها طوال تاريخها... فى هذه الوقائع انهارت قدسية الانتخابات الجامعية وانتهكت سريتها وضاعت معها مبادئ العدالة وتكافؤ الفرص، فقام الأساتذة ليس فقط بمحاباة أو مجاملة أبنائهم وأبناء زملائهم بل امتدت أياديهم إلى التزوير، وإذا بهم أمام النيابة العامة ــ تحت ضغوط النشر الصحفى والرأى العام ــ وإذا بالنيابة العامة تحيلهم إلى محكمة أمن الدولة العليا باتهامات لم يكن أحد يتخيل أن توجه يوما ما إلى أستاذ الجامعة.. اتهامات «بالاستيلاء وبنية التملك على كراسات إجابة وكشوف النتائج من الفرقة الأولى وحتى الفرقة الرابعة والمملوكة لجهة عملهما وارتباط هذه الجريمة بجريمة التزوير فى محررات رسمية واستعمالها فيما زورت من أجله، والإضرار العمد بمصالح الجهة التى يعملان بها [كلية الطب بجامعة القاهرة] بأن اتفقا على تزوير المحررات الخاصة بنجليهما الطالبين بالكلية بزيادة درجاتهما، مهدرين بذلك الثقة الواجب توافرها فى المعاهد العلمية والعاملين بها فضلا عن مبدأ تكافؤ الفرص».

كلمات النائب العام المستشار ماهر عبدالواحد تجسد حجم المأساة حين قال تعقيبا على قرار الاتهام: «إن هذه القضية ــ قضية تزوير درجات طلاب كلية طب قصر العينى ـ تعتبر نموذجا صارخا للفساد فى أحد المعاقل العلمية التى نعتز بها والتى نربأ بأن ينتسب المتهمان ــ وهما أستاذان!! ــ إلى هذه الكلية التى لها تاريخ عريق.. إلا أنهما بدلا من أن يكونا قدوة بما يحتلانه من مكانة مرموقة انزلقا إلى الخطيئة وأعمتهما مصالحهما الخاصة التى أراداها لنجليهما بغير حق، فاقترفا من الجرم ما ينزلق إليه أعتى المجرمين!! من استيلاء وتزوير واستعمال المحررات المزورة!!».

وجاء قرار النائب العام باتهام الأساتذة فى قضية التزوير مصاحبا لقراره باتهامات لمن وصفوا بالشواذ وبالطعن فى براءة متهم بالتجسس لحساب إسرائيل!! فى إشارة لتعدد نماذج الفساد!!

وكان قرار النائب العام تعبيرا صادقا عن مدى ما وصلت إليه الأمور.. فسرية الامتحانات انكشفت وميزان العدالة اهتز، وقائمة الوقائع تنذر بالخطر وتهدد بكارثة، فعندما يفقد الطالب وأسرته الثقة فى أنه سوف ينال من الامتحان ما يستحقه تصبح العملية التعليمية كلها بلا معنى.. فى هذه الوقائع منحت الدرجات بدون حساب لأبناء الأساتذة وعقدت اللجان الخاصة جداً لأبناء وبنات الأثرياء من دول النفط، وسمح عميد الكلية لطالبة ابنة أحد رموز الثروة فى إحدى دول الخليج بأن تؤدى الامتحان فى غرفة خاصة ومعها مرافق ــ حارس خاص من خارج الجامعة ــ وعندما أمسك بها أحد الأساتذة فى حالة غش من نماذج معدة للإجابة سلفا، تم إبعاد الأستاذ المتشدد، واستكملت الابنة امتحانها بدعوى أن لوالدها ــ ثرى الخليج ــ استثمارات ضخمة فى مصر.. فى هذه الوقائع خرجت ورقة إجابة طالبة من كنترول كلية الآداب بجامعة القاهرة وسافرت ورقة الإجابة إلى الكويت!! ثم عادت مرة أخرى لتدخل الكنترول السرى!! وعلمت الجامعة العريقة بالواقعة ولم تحرك ساكنا!!



فى هذه الوقائع أصبح التفوق حكراً على أبناء الأساتذة وأبناء القادرين وأصحاب النفوذ أو أصحاب النقود!! وأصبحت وظائف أعضاء هيئة التدريس محجوزة لهم مقدما!!

فى هذه الوقائع أصبح شغل المناصب القيادية لأهل الثقة والرضى.. وأصبحت ملايين الجنيهات تنفق بدون ضوابط معروفة أو معلنة، فيحصل عميد كلية وزوجته الأستاذة على مليون جنيه مكافآت، ويحصل مراقب حسابات الكلية الذى يعتمد صرف هذه المكافآت ويتكتم أوراقها على عشرة آلاف جنيه مكافأة شهرية.. وفى هذه الوقائع يتستر المستشفى الجامعى الكبير والعريق على وفاة مرضى داخل المستشفى فى ظروف تصف هذه الوفاة بالقتل الخطأ أو على الأقل بالإهمال الجسيم.. ويتحايل المستشفى على المرضى وأسرهم فيقدم لهم طبيبا أجنبيا جاء إليه بالصدفة على أنه العالم والبروفيسور العالمى المشهور فيجرى جراحات لخمسة من المرضى يلقى اثنان منهم مصرعهما على طاولة غرفة العمليات، ويجرى التكتم على الوقائع!!

عشرات بل مئات من الوقائع على امتداد الجامعات المصرية كلها تنذر بأن الصمت والتجاهل هو طريق اللا عودة!!

إدارة الجامعة والكلية

تاتى بداية مرحلة التراجع فى مسيرة الجامعة المصرية من القيادات الجامعية سواء على مستويات رؤساء الجامعات أو عمداء الكليات.. ففى الوقت الذى كانت الآمال الجامعية تحلم بأن يتم شغل منصب رئيس الجامعة بالانتخاب من بين الأساتذة، إذا بالبرلمان يقر تشريعا بإلغاء أسلوب الانتخاب لمنصب عميد الكلية.. والمضحك أنه فى الجلسة نفسها التى قرر فيها مجلس الشعب أن يكون شغل منصب العميد بالتعيين، وافق على تشريع مماثل بأن يكون شغل منصب عمدة القرية بالتعيين أيضا، وبذلك تساوى عميد الكلية الجامعية مع عمدة القرية!!

والتشخيص فى هذه النقطة كما يطرحه الدكتور محمد عبدالرسول الأستاذ بجامعة عين شمس يكشف عن جذور عديدة ومتشعبة ومتداخلة تاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها يصعب حصرها، ويحتاج كل منها لمتخصصين. وأحد أهم هذه الأسباب التى أدت إلى الأزمة المستحكمة هو اللائحة الحالية المنظمة لعمل الجامعات. فقد صدرت هذه اللائحة عام ١٩٧٢ ولم تجر أية مناقشات لهذه اللائحة قبل إصدارها بل ولم تناقش فى مجلس الشعب وصدرت بقرار جمهورى. ولم يعترض عليها آنذاك الكثير بل قوبلت بالترحاب لعدة أسباب منها: أنها احتوت على جدول جديد للمرتبات والبدلات كان مجزيا نوعا ما فى تلك الحقبة. كما أن تلك اللائحة عالجت ولو بشكل مؤقت مشكلة الدرجات الشاغرة والتى كانت تؤرق كل من جاء ميعاد ترقيته وتوقفت لعدم وجود درجات خالية. ومع أن هذه اللائحة تضمنت الكثير من السلبيات، فإن هذه السلبيات كانت من النوع التراكمى التى لايظهر أثرها إلا بعد حين، فإنها احتوت على قليل من الإيجابيات أهمها اختيار عمداء الكليات عن طريق الانتخاب من قبل أساتذة كل كلية وإعطاء صلاحيات أكبر للمجالس الجامعية وهى مجالس الأقسام والكليات والجامعات والاستفادة بخبرة بعض الأساتذة المرموقين بتعيينهم كأساتذة متفرغين لعدد محدد من السنين يصبحون بعدها أساتذة غير متفرغين لحد معين أيضًا وبموافقة مجالس الأقسام ووضع لوائح منظمة لتعيين الهيئة المعاونة لهيئة التدريس وتنظيم إعادة أو عمل أعضاء هيئة التدريس خارج الجامعات علما بأن هذه اللائحة قد أدخلت عليها عدة تعديلات دعمت سلبياتها وطمست إيجابياتها القليلة، ولكن بعد ما يقرب من الثلاثين عاما من تطبيق هذه اللائحة!!



كانت الصورة أقل تفاؤلا وتراكمت المشكلات والتى يمكن إيجازها فيما يلى:

■ أعداد هائلة من أعضاء هيئة التدريس والهيئة المعاونة فاقت كل المعدلات العالمية بل اقتربت أحيانا من أعداد الطلاب فى بعض الكليات (مثل كلية الطب).

■ أصبح الهرم الوظيفى مقلوبا تماما قاعدته الضيقة وهى عبارة عن المعيدين والمدرسين ثم عدد قليل من الأساتذة المساعدين ثم عدد هائل من الأساتذة العاملين والمتفرغين يتزايد باطراد، غالبيتهم العظمى بدون عمل حقيقى وأصبح لاهم لأغلبهم إلا الصراع على بعض المقررات الدراسية وأماكن الجلوس والمكاتب والإشراف على طلبة الدراسات العليا، والكل.. من يعمل ومن لا يعمل يصرف مرتبات وبدلات كاملة بل وأجرا إضافيا غير منقوص، ورغم أن كل هذه الدخول لا تليق أصلا بأستاذ جامعى ولكن ما العمل فى أعداد هائلة تضيع معها ميزانيات الجامعات قلّت أو كثرت.

■ ظهور ما يعرف بأخلاقيات الزحام فى معاملات الزملاء مع بعضهم البعض. بما أدى إلى تحويل معامل البحوث ودورات المياه أحيانا إلى مكاتب لتستوعب أعضاء هيئة التدريس... الجدد... وتقسيم الأقسام العلمية إلى عدة أقسام أصغر مع زيادة التشعيب الدراسى لاستحداث مقررات دراسية جديدة لإيجاد فرص عمل للأعداد المتنامية من أعضاء هيئة التدريس وعدم ظهور أجيال جديدة من الأساتذة المرموقين بمدارسهم العلمية المشهود لها، بل وظهرت بوادر لصراع الأجيال بصورة واضحة.

■ أصبحت أغلبية الأبحاث العلمية تتم بصورة نمطية تقليدية معزولة عن مشاكل المجتمع بل إن كثيرًا منها يعد تقليدا حرفيا لأبحاث أجنبية لأن كل هم الباحثين هو الحصول على الدرجات العلمية، ونشر بعض الأبحاث بغرض الترقية لتحسين الوضع المالى بصرف النظر عن صلاحية تلك الأبحاث أو فائدتها التطبيقية لحل مشاكل المجتمع وهذا من الوظائف الأساسية للجامعات. مع قبول أعداد كبيرة من الطلاب تعودوا على النجاح بمساعدة الدروس الخصوصية ونقلوا هذا التعود إلى الحرم الجامعى، ومع تفاقم المشكلات الاقتصادية وزيادة النزعة المادية انجرف كثير من أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم لهاوية الدروس الخصوصية وما يتبعها من فساد وخراب للذمم أحيانًا فى عمليات التقويم والامتحان.

ومما زاد الطين بلة «كما يقولون» أنه عندما أرادت الحكومة إلغاء بند انتخاب عمداء الكليات (وهو أحد إيجابيات اللائحة) أرادت استرضاء أعضاء هيئة التدريس فجعلت تعيين الأساتذة المتفرغين بعد الستين آليا ومدى الحياة!!! وليست هناك دولة فى العالم تطبق مبدأ التعيين فى أى منصب مدى الحياة إلا فى مصرنا الحبيبة كما استحدثت اللائحة بعض المناصب القيادية الجديدة مثل تعيين نواب رؤساء الجامعات لشئون البيئة وكذلك وكيل مختص فى كل كلية أو معهد علمى.

كل هذا على سبيل المثال لا الحصر وغيره الكثير، لذلك فعندما تولى الدكتور مفيد شهاب وزارة التعليم العالى وبدأ فى خطوات جدية للإصلاح كان أول ما أعلن عنه هو ضرورة إصدار لائحة جديدة للجامعات تتواكب مع العصر وتحاول أن تتجنب السلبيات العديدة للائحة الحالية. وطبعا حدث ما حدث عند بدء ظهور ملامح تلك اللائحة والهجوم الضارى الذى تعرض له الوزير، وكان أكثره هجوما بغرض الدفاع عن المصالح الشخصية وليس دفاعا عن الجامعة ومصلحة المجتمع وتعرفون ما حدث بعد ذلك. والواقع أن للإصلاح خطوات أولاها إصدار لائحة حديثة لتنظيم الجامعات تناقش بدقة ديمقراطيا وعلى نطاق واسع تتجنب السلبيات وتركز وتزيد من الإيجابيات. وأهمها :

■ إعادة تنظيم الهيكل الوظيفى فى الأقسام الجامعية العلمية بحيث يكون التعيين فى مناصب فعلية حسب حاجة تلك الأقسام وليس لكل من قضى فترة معينة ويمكن التغلب على تأخير تعيين بعض الأعضاء بفصل الدرجات العلمية عن الدرجات المالية بحيث يحصل على مربوط الدرجة الأعلى من قضى فترة معينة وهذا لن يكلف الميزانية الكثير.

■ سينتج عن ذلك إعادة تنظيم الهرم الوظيفى مرة أخرى وتحديد أعضاء هيئة التدريس بشكل مناسب للعملية التعليمية.

■ تنظيم تعيين الأساتذة المتفرغين وغير المتفرغين مع تعويضهم بشكل لائق.

■ إعادة مبدأ انتخاب عمداء الكليات لأنه مهما كانت سلبيات هذا المبدأ وهى قليلة فإن فوائده كثيرة وعظيمة وهى التى أدت إلى ظهور مجموعة من القيادات الجامعية الواعدة ذات السمعة الطيبة تبوأت بعد ذلك كل المناصب القيادية الرفيعة فى الجامعات. كما أن التعيين له من المتاعب ما لا يعد ولا يحصى، فرئيس الجامعة المسئول عن هذا التعيين لا يعرف تقريبا إلا أساتذة الكلية التى أتى منها وبالتالى فتعيينه لعميد إحدى الكليات الأخرى يكون عن طريق المعرفة الشخصية أو الواسطة أو النفاق وغير ذلك وضرورة ربط الجامعات بالمجتمع عن طريق تنظيم البحث العلمى لكى يحاول حل مشاكل المجتمع ومشاكل الإنتاج وهى كثيرة..

■ إظهار مواد الثواب والعقاب بصورة واضحة لا لبس فيها وبنصوص قاطعة.

■ تحديد الأعداد والمناصب التى يسمح لها بحضور المجالس الجامعية المختلفة ذلك أن مجلسا يزيد عدد أعضائه على خمسين عضوا لا يستطيع مناقشة أى موضوع.

■ تحديد آلية مرنة واضحة لطرق التطوير الشامل للجامعات.

استقلال الجامعات موجود ومفقود!

من الشعارات المرفوعة، والتى نؤكد عليها باستمرار، مبدأ استقلال الجامعات طبقا لما كفله الدستور غير أن واقع الأمر يقتضى الاعتراف بأننا أمام استقلال موجود نظريا وغائب أو مفقود عمليا!! فرئيس الجامعة يتم تعيينه لاعتبارات

مجهولة تماما من أساتذة الجامعة... ويتولى رئيس الجامعة بدوره تعيين عمداء ووكلاء الكليات دون أن يعرف أساتذة الكلية الحيثيات التى تم على أساسها اختيار «زيد» بدلا من «عبيد» لتولى منصب العميد.. وبالتالى أصبح رئيس الجامعة مدينا بمنصبه لقرار التعيين وأصبح كل عميد كلية أو وكيل لها مدينا بمنصبه لرئيس الجامعة، وبالتالى ضاعت استقلالية كل واحد من هؤلاء.. ولعل غياب معايير أو حيثيات اختيار «فلان» عميدا هو الذى فجر حكاية تعيين شقيق وزير التعليم العالى عميدا لحقوق الإسكندرية لأنه لاتوجد معايير واضحة للتعيين!! ثم يبقى قبل ذلك أن الإنفاق على الجامعة يأتى من الموازنة العامة للدولة.. وبالتالى فإن ما يسرى على الدول يسرى على الجامعات، فالدولة التى لاتملك مقدراتها الاقتصادية لاتملك حريتها أو استقلالها والجامعة التى تفتقد مواردها المادية الذاتية يصعب تصور استقلالها..

والحقيقة أنه ترتب على هذا الاستقلال الغائب للجامعات نتيجة مفزعة وهى أن الاستقلال لم يعد للجامعات بل أصبح لرؤساء الجامعات.. لم يعد استقلال الجامعة كمؤسسة علمية هو ما نحرص عليه بل أصبح استقلال رئيس الجامعة.. يفعل ما يشاء.. كيف يشاء.. وبالصورة التى تتفق مع رؤيته ومفاهيمه الخاصة دون أى اعتبار للسياسة العامة أو للأبعاد السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية والأمثلة فى هذا المجال يصعب حصرها.. فإذا كان القانون لايسمح لرئيس الجامعة مثلا بأن يزاول نشاطا تجاريًا، فإن شعار استقلال رئيس الجامعة يجعله يتصور نفسه هو الآخر «سيد قراره»، وبالتالى لايجد مانعا أو حرجا من ممارسة العمل التجارى فى أى مجال حتى لو كان مجال تربية الفراخ أو تجارة «البيض»!! بل ويفخر بإنجازاته فى الفراخ والبيض.

ولأن رئيس الجامعة رجل أعمال فلا مانع إطلاقًا من أن يفتح أبواب الجامعة على مصراعيها أمام الزملاء من رجال الأعمال، وهى الصورة التى عبرت عنها صفحات إعلانية لمستثمر ورجل أعمال فى قاعة مجلس الجامعة العريقة وقد اصطف عن يمينه وشماله ٤٥ عميدا وأستاذا وعالما وفى مقدمتهم رئيس الجامعة شخصيا.. والصورة لم تكن لقاء عقده المستثمر رجل الأعمال مع العمداء فى قاعة بأحد الفنادق مثلا ولكنها كانت للقاء الذى عقد داخل الجامعة وتحت قبتها الشهيرة وفى قاعة أحمد لطفى السيد.. قاعة مجلس الجامعة.. والمجلس الأعلى للجامعات!!

وتصدر رجل الأعمال الاجتماع وتحلق حوله العمداء والأساتذة يتلقون نصائح سيادته فى مظاهرة انتخابية قد يصلح لها أى مكان ماعدا هذا المكان - خاصة ونحن نؤكد بشدة أنه لامجال للعمل الحزبى داخل الجامعات - حرم الجامعة وقاعة عمدائها.. وهو عمل لم يجرؤ عليه طلعت حرب شخصيا برغم ما قدمه للاقتصاد المصرى، وإذا افترضنا حسن النية وأن ما جرى لم يكن - لاسمح الله - مظاهرة انتخابية لرجل الأعمال.. وأنه يريد فعلا الاستفادة بجهود هؤلاء العلماء والعمداء فى حل مشكلات الدائرة الانتخابية.. ألم يكن المنطقى والمقبول هو أن يقدم للمحافظ أو للجامعة قائمة بهذه المشكلات ويطلب من الجامعة باعتبارها «بيت خبرة علميا» أن تضع حلولا لهذه المشكلات مع استعداده لتمويل نفقات هذه الحلول!!

أما أن تختلط الأوراق بهذه الصورة فهذا يعنى أن «الفلوس» أصبحت هى المحرك الأوحد لجميع الأمور!! وأن شلالات المال أصبحت قادرة على اكتساح كل من يقف فى طريقها وأنها قادرة على أن تفتح بقوة جميع الأبواب حتى لو كانت أبواب الحرم الجامعى الذى لم يعد «حرما»!!

ترتب على هذا الاستقلال الغائب للجامعات نتيجة مفزعة وهى أن الاستقلال لم يعد للجامعات بل أصبح لرؤساء الجامعات.. لم يعد استقلال الجامعة كمؤسسة علمية هو ما نحرص عليه بل أصبح استقلال رئيس الجامعة.. يفعل ما يشاء.. كيف يشاء.. وبالصورة التى تتفق مع رؤيته ومفاهيمه الخاصة



والحقيقة تقتضى أن نقول إن ما طرح خلال هذه الواقعة يدعو للدهشة، فالسادة أعضاء مجلس الجامعة وعلى رأسهم رئيس الجامعة يستمعون لنصائح وتوجيهات رجل أعمال يرسم لهم ما يفعلونه وكأن تاريخ الجامعة ومسيرة عطائها للمجتمع حولها سوف يبدأ فقط من اللحظة التى اختار فيها سيادته أن يجعل لجامعة القاهرة «دورا»!! وكأنه لم يكن للجامعة قبل ذلك أى «دور»!!

والحقيقة الأخيرة فى هذه الواقعة هى أن العديد من العمداء الذين وقفوا بين يدى رجل الأعمال يعرضون السيرة الذاتية لكل منهم وينتظرون تكليفه لهم.. لو أن هؤلاء العمداء الأفاضل جاءوا إلى مواقعهم بانتخاب الأساتذة زملائهم.. لما تورطوا فى هذا الاجتماع!!

وأثارت الواقعة ردود أفعال عديدة.. تناولها كثير من الصحفيين والكتاب بالتحليل.. ومع ذلك مضى رئيس الجامعة بعقلية رجل الأعمال فى الطريق لتتكرر الاجتماعات مع رجال الأعمال بصورة يغلب عليها الطابع الدعائى خاصة ورئيس الجامعة يؤكد من جانبه أن الجامعة لم تتلق حتى الآن قرشاً واحداً من رجال الأعمال.

ولأن الاستقلال تحول من استقلال للجامعات إلى استقلال لرؤساء الجامعات بدأ تيار الخصخصة يدخل الجامعات دون إعلان أو موافقة واضحة وصريحة من الدولة، بدا الأمر بصورة ترتدى ثياب الشرعية ثم تحول الأمر بعد ذلك وفقا لشطارة كل مسئول فى موقعه.

ومنذ سنوات ونحن نشهد ظاهرة بدأت تتسرب فى كل أنواع الخدمات والسلع... ظاهرة أن يكون لكل خدمة أو سلعة سعران وبالطبع مستويان، الخدمة أو السلعة المدفوعة «تساوى» والسلعة الأخرى بلا قيمة... الظاهرة منطقها أنه بجانب السوبر لابد من الترسو ومن حق من يملكون الثمن أن يحصلوا على كل ما هو «سوبر» وكل ما هو «متميز»!!

أما من لا يملك الثمن فليس أمامه سوى الترسو فى القطار والمرمطة الطبية فى المستشفيات المجانية ومساكن الإيواء كوخ مناسب!! وشاطئ عين الصيرة للفسحة!!

بنفس هذا المنطق وبهدوء شديد تسللت الظاهرة القاتلة إلى المنطقة المحرَّمة، منطقة التعليم... فى ظل هذا المنطق بدأ المسئولون — الذين يبدو والله أعلم أنهم غير مسئولين — فى التعامل مع التعليم.. فاعتبروا أن هناك تعليما «سوبر» للقادرين... وتعليما «ترسو» لغير القادرين وجامعات خمس نجوم وجامعات بمستوى لوكاندة العتبة للنوم!!

ثم تحولت الظاهرة إلى كارثة أغمضنا عيوننا عنها وكانت بدايتها بدعة إنشاء أقسام أو شعب للتدريس باللغات الأجنبية داخل الكليات الحكومية الموجودة فعلا... ويصبح داخل نفس الكلية تعليم مواز للتعليم الحكومى!! وأصبحت الكلية تقدِّم خدمة تعليمية من النوع «السوبر» مقابل كذا ألف جنيه ليس إلا... يدفعها أبناء القادرين حتى يتعلموا بعيدا عن زحام أبناء غير القادرين!! فأبناء القادرين يتعلمون فى قاعات مكيفة وأعدادهم محدودة والأساتذة الذين يعلمونهم يتم اختيارهم بعناية فائقة ويشترط فيهم أن يكونوا «وارد الخارج» ومن الذين حصلوا على الدكتوراه من أمريكا أو بلاد أوروبا!! وطبعا يتعامل هؤلاء الأساتذة بكل احترام مع الطلاب أبناء القادرين الذين يتعلمون بفلوسهم!! وفى الكلية نفسها يتعلم أبناء الحكومة فى ظروف مختلفة تماما... نعرفها جميعا!!

أولاد الناس الذين يتعلمون بفلوسهم يتسلمون الكتب الجامعية المستوردة من بلاد بره مع أول أيام الدراسة... أما أولاد «الإيه» فيتسلمونها قبل الامتحان بأيام فى صورة ملازم.... ملزمة بعد ملزمة!!

وللأسف انتشرت الظاهرة الكارثة بالتدريج... بدأت فى كلية التجارة بجامعة القاهرة رائدة الخصخصة ثم يوما بعد يوم أصبحت نظاما أساسيا فى جميع كليات التجارة وبعدها جاء الدور على كليات الحقوق ثم كلية الاقتصاد والعلوم السياسية!! وأصبح هناك نوعان من التعليم الجامعى... تعليم حكومى من الذى يقال عنه إنه «حاجة ببلاش كده» وفيه باختصار لا يتعلم الطالب شيئا.. وإلى جانبه التعليم الموازى وهو التعليم السوبر... الخمس نجوم وبالتكييف!!

وعلى طريق الخصخصة لم يكن هناك سوى القبول والاستسلام رغم خطورة ما يجرى على السلام الاجتماعى وعلى شعور «أولاد الإيه» بأن تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية أصبح مجرد «شعار»!!

ولم يكن مهما أن نقبل ما يجرى أو نرفضه.. فقد سار قطار الخصخصة بهمة يدهس كل ما يقف أمامه!! ولذلك رضينا مرغمين ما دامت الحكاية لم تتجاوز كليات التجارة والحقوق!! ولكن قطار الخصخصة لا يعرف حدودا أو محطة وصول يتوقف عندها. فالمؤكد أننا مقدمون على مرحلة يصل فيها القطار إلى محطة كليات الطب الحكومية — وكأنه لا يكفينا ما يجرى فى كليات الطب الخاصة.

فإذا برئيس جامعة القاهرة لا يكتفى بما أنجزته الجامعة العريقة فى مجال الخصخصة حتى فتحت الجامعة أبوابها على مصراعيها لرجال الأعمال والمال يعتبرون الجامعة من أملاكهم ويوجهون الدعوات لضيوفهم فيها!! بل يطرح سيادته مشروعا جديدا بإنشاء كلية طب «أهلية» «بفلوس» فى أحضان جامعة القاهرة وبأساتذتها وإمكانياتها... وهى كلية مصاريفها لن تتجاوز عشرة آلاف جنيه فقط فى العام الواحد كما بشرنا عميد كلية طب قصر العينى الذى سيشرف أيضا على الكلية الأهلية!! وهى كلية سيلتحق بها المحظوظون... أولاد المحظوظين من القادرين حيث يتعلمون الطب على أصوله السليمة.. بنفس المنطق... منطق السوبر والخمس نجوم فى ناحية مقابل الترسو و«لوكاندة العتبة للنوم» فى الناحية الأخرى!!

وبذلك سنكون بعون الله أمام نوعين من الأطباء، نوع أكرمه الله وتعلم بفلوسه تعليما

حقيقيا لعلاج القادرين أيضًا.. ونوع آخر من أطباء التعليم المجانى يعلم الله مدى درايتهم بالطب وهؤلاء سيتولون بالطبع علاج غير القادرين!!

ولأن جامعة القاهرة رمز للقدوة ــ أو كانت ــ فعلينا أن نتوقع أن تهرول باقى الجامعات لتكرار التجربة كما جرى من قبل فى كليات التجارة والحقوق!!

والخطورة هنا أنه لم يعد هناك للناس من أمل فى أن يكون أبناؤهم أكثر حظا منهم فى الحصول على حياة أفضل سوى أملهم فى التعليم الذى هو المصدر الأساسى لما يسمى «الحراك الاجتماعى» أى الذى يتيح للمواطن فرصة أن يتحرك من طبقة اجتماعية إلى طبقة أفضل استنادا إلى اجتهاده علميا فقط!! بحيث لا تكون هذه الفرصة متاحة فقط أمام أصحاب الثروات العشوائية والمجهولة من الذين ضاربوا على العقارات وهرّبوا الممنوعات وتزوجوا من الأجنبيات أصحاب الثروات!! فكانت كل هذه الطرق المشبوهة هى المنصة التى قفزوا منها إلى قمة المجتمع ومقاعد البرلمان وأصبحوا يملكون كل شىء!!

فرئيس جامعة القاهرة يؤمن بالخصخصة ولا يوجد ما يمنعه من تنفيذ ذلك فى جامعة القاهرة حتى، ولو لم يكن هناك ما يستند إليه فى سياسة الدولة... لأن الاستقلال لم يعد استقلال الجامعات.. بل استقلال رؤساء الجامعات!!!

تجاوزات الإدارة الجامعية

يرتبط ما سبق أو يؤدى ما سبق إلى شعور كل قيادة جامعية بسلطاتها التى هى بلا رقيب، ومن هنا وقعت حوادث الفساد والذى يشخصه الدكتور محمد أبو الغار الأستاذ بطب القاهرة بأنه تسلل إلى الحرم الجامعى نتيجة لغياب الديمقراطية لسنوات طويلة وسلسلة التعيينات للقيادات الجامعية التى قد لا تتوافر فيها الكفاءة والنقاء اللازمان... وقد نتج عن ذلك أن المجالس العليا برياسة الوزير أو مجالس الجامعات والكليات فى مجملها لا تناقش إلا الموضوعات الروتينية.. أما السياسات فتأتى من أعلى جاهزة للموافقة وهكذا كبلت الجامعات وخرجت عما نص عليه الدستور وهو استقلال الجامعة التى وحدتها الأساسية هو «مجلس القسم» والذى لم يصبح له أى دور فى الأوضاع الحالية.

والجامعة تختلف عن المعهد أو المدارس العليا بأنها تمارس إلى جانب التدريس وظيفة أساسية وهى البحث العلمى وبنظرة بسيطة على شبكة الإنترنت نجد أن البحث العلمى فى الجامعات المصرية ــ أو بمعنى أدق فى الكليات العملية ضعف مستواه وكاد يختفى من على خريطة البحث العلمى لولا أفراد معدودون يقومون بجهود فردية.. والمؤكد أن غياب البحث والروح العلمية هو مسئولية القيادات الجامعية التى لا تعطى اهتماما للبحث العلمى، ولم تقم بإجراء تقويم لموقف الأبحاث العلمية لتشخيص حجم الكارثة وهو أول خطوة للإصلاح وعلى الوزارات المعنية بتشجيع البحث العلمى أن تقوم بعملية فصل بين الجوائز التى تقدم فى مناسبات اجتماعية، وتلك التى تقدم لتشجيع البحث العلمى، والأخيرة يجب أن تخضع للتحكيم الدولى.

فى حين يرى الدكتور محمد على أبو العينين عميد كلية الهندسة ببورسعيد أنه إذا أردنا أن نصحح المسار للعملية التعليمية فلابد من قانون جديد ينظم العملية التعليمية الآن، لقد أعادت الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة النظر لمتطلبات التعليم العالى تحت ضرورة واضحة وصريحة هى إنقاذ هذه المجتمعات من خطر عدم التوافق مع التطور السريع جدا للتقدم التكنولوجى أو إضافة سبل جديدة للتعايش بين طبقات المجتمع.

والمجتمع المصرى يتمتع بهوية تمتد جذورها إلى آلاف السنين كان من نتائجها مجموعة ليست بالقليلة العدد من أصحاب الفكر المستقبلى التطويرى فى شتى مجالات العلوم المختلفة وليس الخطر الذى نتكلم عنه هو تزوير فى نتيجة طالب أو أكثر أو تعيين عميد مجاملة أو انحراف لعضو هيئة تدريس ولكن الخطر الأساسى هو الوضع القائم الفعلى للجامعات المصرية وما تقدمه إلى المجتمع من خريج جامعى على مستوى متدن من الفكر والأداء الوظيفى وعدم الاستمرارية فى رفع مستواه الإنتاجى مع عدم وجود القدوة والقيم والمثل المورثة لهذا المجتمع.

وإذا استطاعت الجامعة أن تعالج هذا الخريج فلن تكون هناك مشكلة من المشكلات المثارة الآن ولكى نصل إلى ذلك فلابد من قانون لتصحيح السلبيات الآتية:

● العمل الجاد على تنفيذ توصيات مؤتمرات تطوير التعليم الجامعى والتى تعقد سنويا فى الجامعات المصرية.

● استقلالية تامة للجامعات مع وجود هيئة مراقبة تعمل من خلال أسس تقويم لمسارات التعليم والبحث العلمى فى الجامعات وما قدمته إلى المجتمع من خدمات.

● زيادة المساحة لسلطات القيادات الإدارية فى الجامعة والكليات ومطالبتها بتقرير نصف سنوى من خلال الكلية والجامعة.

● تشديد الرقابة على أعضاء هيئة التدريس للوجود الفعلى فى كلياتهم حتى وإن اضطر إلى استخدام التوقيع الفعلى للحضور.

● الكتاب الجامعى لا وجود له إطلاقا فهناك كتاب مرجعى وكتاب بحثى أما الملازم فهى لشرح فكر المحاضر فقط من خلال الكتب العامة المنشورة والموجودة فى السوق وليس فى أكشاك الكتب.

● رفع ميزانية التعليم العالى فليس من المعقول أن يكون هناك تطور بحثى والميزانية السنوية المخصصة للطالب من الباب الثالث لا تزيد على ٣٠ جنيهًا فى السنة ونطالب بالبحث العلمى المتطور.

● إعادة النظر فى تعيين مدرس الجامعة بوضع فترة قبل التعيين للتقديم تحت مسمى مدرس تحت التمرين وهذه الفترة لا تقل عن عامين تحت مراقبة وملاحقة الأستاذ المتخصص ورئيس مجلس القسم.

● إنشاء الأسر العلمية من خلال طلبة القسم بريادة أحد أعضاء هيئة التدريس بالقسم ومعاونة الهيئة المعاونة لذلك.

السرقات العلمية تتحول لظاهرة

منذ سنوات وملف ما يسمى بالسرقات العلمية يتضخم يوما بعد يوم، ولم تتحرك جامعة من الجامعات لاتخاذ قرار واحد حاسم ومهما كانت الوقائع ثابتة والسارق متلبسا بالسرقة، فالعقوبة منعدمة أو شبه منعدمة ... ماذا كان مفروضا ــ على سبيل المثال ــ أن تفعل الجامعة بعد أن تتلقى تقريرا من لجنة ثلاثية تضم ستة من كبار الأساتذة بقسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة تقول فى ختام التقرير الذى يقع فى ٤٣ صفحة عن المقارنة بين رسالة ماجستير قدمها أحد الطلاب وبين بحث قدمه أستاذ مساعد بالقسم حتى يترقى إلى درجة أستاذ.. يقول تقرير الأساتذة إنه لا تخلو صفحة واحدة من الصفحات من بحث الأستاذ المساعد من نقل دون إشارة لفظا أو معنى من رسالة الباحث الحاصل على درجة الماجستير فضلا عن صفحات منقولة بالكامل من الرسالة وتنتهى من هذا كله ـ والكلام من تقرير اللجنة ـ إلى القول على سبيل القطع والتأكيد بأن بحث الدكتور أ.ع الأستاذ المساعد والمقدم للمناقشة فى الترقية لدرجة أستاذ فلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة إنما هو منقول من رسالة الماجستير المشار إليها سابقا وهذا يعد أمرا يدعو إلى الأسف الشديد خاصة أن هذا البحث جزء رئيسى من بحوث الترقية إلى درجة أستاذ!!

ولأن الجامعة لم تجد فيما سبق مبررا كافيا راحت تبحث عن ورقة توت تستر الفضيحة ولجأت إلى تشكيل لجنة ثلاثية أخرى من أساتذة جامعة أخرى هى جامعة عين شمس، فجاء تقريرها لا يختلف عن التقرير السابق وهو أن الأستاذ المساعد سرق عرق وجهد طالب الماجستير ونسبه إلى نفسه حتى يترقى فيصبح أستاذا!! ولكن لأن الجامعة لا تريد لأستاذها المساعد الفضيحة بحثت عن وسيلة ثالثة فلجأت إلى تكليف أستاذ من جامعة الإسكندرية لإعداد مايسمى «تقرير فاحص» لإنتاج الدكتور المتهم بالسرقة العلمية ولسوء حظ الجامعة جاء تقرير الأستاذ السكندرى الفاحص مؤيدا لارتكاب الأستاذ المساعد لجريمة خيانة الأمانة العلمية وكانت النتيجة أن اضطرت الجامعة إلى إحالة الدكتور الأستاذ المساعد أ.ع.ع إلى مجلس تأديب أعضاء هيئة التدريس لما نسب إليه ما يمس الأمانة العلمية وتقديمه بحثا منقولا من رسالة ماجستير مقدمة لقسم الفلسفة بآداب عين شمس.

وتسقط على الأرض من الضحك عندما تعلم أن قرار مجلس التأديب جاء بتوجيه عقوبة اللوم للأستاذ المساعد وبعد أسبوع واحد من هذا الحكم تقدم للترقية مرة ثانية فلم يجد أساتذة القسم أمامهم سوى التوجه إلى أمين المجلس الأعلى للجامعات لتقديم مذكرة تطالب بمنع ذلك.. ولأن قرار مجلس التأديب لم يكن رادعا بما يكفى فقد تقدم الأستاذ المساعد مرة أخرى ببحث ثبت أنه أيضا منقول بل وتقدم بنفس هذا البحث المنقول إلى المجلس الأعلى للثقافة لنيل جائزة الإبداع الفلسفى لعام ٢٠٠٠، وفوجئت لجنة الفحص بأن البحث المقدم منقول من عدة مصادر ومراجع قديمة وحافل بالأخطاء والسقطات العلمية التى لا تليق بأستاذ!! وهو الأمر الذى أدى إلى أن يقوم الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة بإرسال خطاب إلى الدكتور نجيب الهلالى جوهر رئيس جامعة القاهرة تضمن حرفيا ما يلى:

«أعلنت لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة عن مسابقة لجائزة أحسن كتاب فى الإبداع الفلسفى لعام ٢٠٠٠، وكان من بين المتقدمين للمسابقة السيد الدكتور/ .... الأستاذ المساعد بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة، وقد تقدم بكتاب يحمل عنوان:

«جالينوس فى الفكر القديم والمعاصر»

وقد انتهى رأى المحكمين للكتاب إلى أن الكتاب يتضمن فقرات كاملة نقلت حرفيا دون إشارة إلى مصادرها مما يدخل فى عدم الأمانة العلمية كما هو موضح فى التقارير المرفقة.

وقد رأيت أن أبعث إليكم بصورة من هذه التقارير لاتخاذ ما ترونه من إجراءات مناسبة تجاه هذا الوضع والتوقيع للدكتور جابر عصفور أمين المجلس الأعلى للثقافة الذى يبدو أنه ما زال يتوهم أن الجامعة كما كانت أيام كان هو أستاذا.. وكان متأكدا أن رئيس الجامعة سيتخذ من الإجراءات ما يردع كل من يفكر فى خيانة الأمانة العلمية.. ولكن مضى على الخطاب سبعة أشهر لم يحرك فيها رئيس الجامعة ساكنا فما الذى يمنعه.. وما الذى يمنع أى مدرس أو أستاذ مساعد أن يسطو على أبحاث الغير وينسبها إلى نفسه ما دام أنه لا عقاب ولا حساب؟ أو جاء العقاب من نوع ما اتخذه رئيس جامعة المنوفية الدكتور مغاورى دياب من عقوبات قاسية على عميد كلية السياحة والفنادق بالجامعة الذى اتهم بسرقة علمية ومخالفات أكاديمية فما كان من رئيس الجامعة إلا أن عاقبه «بالموافقة على قبول استقالته كعميد وعودته أستاذا للكلية المنتدب منها»!؟

والمؤكد أنه لم يعد خافيا على أحد كل أشكال الفساد التى تطرقت إلى الجامعات المصرية، والتى أصبحت موضوعا تنشره الصحف المعارضة منها والقومية، ومن أشكال هذا الفساد تفشى ظاهرة السرقات العلمية فى جامعاتنا العريقة ذات السمعة الطيبة والتقاليد العلمية الراسخة فيما مضى، ورغم كثرة وقائع السرقة العلمية التى يتم الكشف عنها، فإننا لا نرى إعمالا للجزاءات الرادعة التى تقضى بعقوبة الفصل لأى عضو هيئة تدريس يصدر عنه ما يمس شرف المهنة. وكان من شأن هذا أن أصبحنا نرى من يرتكبون السرقة العلمية ويفلتون من



إذا أردنا أن نصحح المسار للعملية التعليمية فلابد من قانون جديد ينظم العملية التعليمية الآن، لقد أعادت الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة النظر لمتطلبات التعليم العالى تحت ضرورة واضحة وصريحة هى إنقاذ هذه المجتمعات من خطر عدم التوافق مع التطور السريع جدا للتقدم التكنولوجى





الفلاح الفصيح

الشكوى الخامسة

ثم أتى هذا الفلاح يشكو للمرة الخامسة وقال: «يا أيها المدير العظيم للبيت، يا سيدى! تأمل؛ إنك فى حالة كهذه (فى كل ما سبق من الكلام الغامض قد شبه فيه «رنزى» بصيادى السمك)، لا تحرمن رجلاً رقيق الحال أملاكه، وهو رجل ضعيف أنت تعرفه، فإن أملاك الرجل الفقير بمثابة النَّفَس له، ومن يغتصبها يكتم أنفه، ولقد نصبت لتسمع الشكاوى وتفصل بين المتخاصمين، وتكبح جماح اللص، ولكن تأمل. فإن ما تفعله هو أنك تعاضد اللص. والإنسان يضع ثقته فيك ولكنك أصبحت معتديًا. لقد نصبت سدًا للفقير فاحترس خوفًا أن يغرق، ولكن تأمل. إنك تيار سريع له...».

الشكوى السادسة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح للمرة السادسة ليشكو فقال: «يا أيها المدير العظيم للبيت، إن حزنى يفضى إلى نزاع، واتهامى يؤدى إلى تحول، والإنسان لا يعرف ما فى القلب. لا تكن خاملاً بل اهتم بالتهمة. فإذا قطعت فمن الذى يصل؟ إن مجداف القلوب فى يدك كالعمود السهل المتناول عندما يوجد الماء العميق. فإذا ارتطم القارب فإنه يدفع ولكن حمولته تتلف وتضيع على كل شاطئ رملى».

«إنك متعلم وإنك ماهر وإنك عادل، ولكن ليس فى النهب. (والآن) فإن مثلك مثل كل بنى الإنسان كل أعمالك ملتوية، ومفسد الأرض كلها يمشى مستقيمًا إلى الأمام (لا يرى أمامه اعوجاجًا)...».



العقاب، بل ويكرمون أحيانا ويتولون مناصب قيادية فى التعليم الجامعى ويتحكمون فى أعمال لجان ترقية الأساتذة، ومن أشكال الفساد أيضا تفشى ظاهرة الدروس الخصوصية وتزوير نتائج الامتحانات فى بعض الكليات، ولم تكن واقعة التزوير فى كلية طب القاهرة هى الواقعة الأولى، ولانظن أنها ستكون الأخيرة إذا استمر الحال على ما هو عليه.

إن كثيرا من وقائع السرقة العلمية والدروس الخصوصية والتزوير يتم إبلاغها للمسئولين بالجامعات بمن فيهم أمين المجلس الأعلى للجامعات، فلا يحرك أحد ساكنا، وحتى إذا تحرك وأحال الموضوع إلى مجلس تاديب، فإن غاية مايتم توقيعه من جزاءات عادة هو عقوبة اللوم! وكأن الجامعة تكتفى بمعاتبة من يخل بشرف مهنته، وتناشده ألا يفعل ذلك مرة أخرى.

ولاشك أن أحد الأسباب الجوهرية لكثير من ظواهر الفساد الجامعى هو الترخص الشديد فى تطبيق لائحة الترقيات التى تقضى بإجازة البحوث المبتكرة فقط، لا البحوث المنقولة فضلا عن المسروقة. وليس بخاف على أحد المخالفات والتجاوزات المذهلة التى تحدث فى لجان ترقيات الأساتذة كمثال صارخ على الخلل الحادث فى اللجان العلمية، وهو ما يتطلب تغييرا جذريا فى تلك اللجان. وقد أدى هذا إلى تدنى المستوى العلمى لكثير من الأساتذة: فماذا ينتظر من لجان علمية تضم بين جنباتها أساتذة يتورطون فى السرقة العلمية، يمارسون حق الإشراف العلمى على تلاميذهم ويضمنون لهم الترقية عند التقدم لها؟ ماذا ينتظر من مثل هؤلاء سوى أن يقدموا للجامعة جيلا جديدا من أساتذة شديدى الضعف، يتفوقون على أساتذتهم فى فنون السرقة العلمية، ويتحولون إلى تجار لبيع المذكرات، ويحترفون الدروس الخصوصية!! وماذا ينتظر من مثل هؤلاء الأساتذة الذين ينتسبون إلى اللجان العلمية سوى أن يحاولوا فى الوقت نفسه التصدى إلى المتميزين من أعضاء هيئة التدريس والحيلولة دون ترقيتهم، فالقاعدة هى أن الشيء لايحب أن ياتى إلا بمن هو أسوأ منه.

وفى هذا الصدد يصبح ضروريا اتخاذ مايلى:

١ـ تاكيد استقلالية الجامعات، وأول شروطها أن تكون مناصبها القيادية بالانتخاب.

٢ـ صياغة مشروع قانون يعمل على إصلاح الأوضاع العلمية والمالية للجامعيين فى نفس الوقت الذى ياتى فيه متشددا فى صياغة لائحة جزاءات رادعة.

٣ـ أن يستبعد من لجان الترقيات أى عضو يدان بتهمة السرقة العلمية أو يتستر عليها.

٤ـ أن يستبعد من الإشراف العلمى على الرسائل الجامعية أو أنشطة الطلاب أى عضو هيئة تدريس يدان بالسرقة العلمية أو بما يمس أمانته وشرف مهنته.

٥ـ إجراء التحقيق الفورى فى كل ما ينشر بالصحف أو يبلغ للمسئولين بالجامعة عن السرقات العلمية وغيرها من صور الفساد الجامعى.

٦ـ صياغة لائحة جديدة للجان الترقيات تضمن حيدتها ونزاهتها، على أن تتضمن ما يلى:

(أ) ضرورة تحقيق توازن فى عدد أعضاء اللجنة الممثلين لفروع التخصص الدقيق، فلا يعقل أن يطغى فرع واحد من فروع التخصص على بقية الفروع، كما هو حاصل حاليا على سبيل المثال فى لجنة الفلسفة التى تضم سبعة أعضاء فى تخصص الفلسفة الإسلامية من مجموع أعضائها البالغ اثنى عشر عضوا.

(ب) وأن تشتمل بحوث المتقدمين للترقية على بحث واحد على الأقل منشور فى مجلة أجنبية محكَمة وأن يشارك فى تحكيم البحوث أستاذ من خارج مصر.

(ج) حضور الفاحصين من الأساتذة المصريين من خارج اللجنة عند عرض التقارير.

ماذا يتعلم الطالب المصرى؟ وماذا يتعلم طلاب العالم من حوله؟

هذا هو السؤال الذى تحدد إجابته مدى ما وصلنا إليه ففى ظل كل هذه السياسات الخاطئة كان منطقيا أن يتدهور المستوى العلمى لعضو هيئة التدريس «المشغول» فى سوق الدروس الخصوصية والتجارة ولايجد الوقت لملاحقة التطور العلمى فى تخصصه أو المشاركة فى المؤتمرات العلمية أو حتى مجرد الاطلاع على الدوريات العلمية الحديثة وبالتالى تجمد مستواه العلمى وتجمدت المناهج الدراسية، وأصبح محتواها العلمى متزامنا مع الألفية التى مضت بل إنه فى بعض التخصصات العلمية كالطب والهندسة ما زالت مناهجها العلمية لاتتجاوز ما كان يدرس للطالب قبل ثلاثين عاما!! وبالتالى أصبحت هناك هوة واسعة تفصل بين ما يدرسه الطالب فى جامعاتنا وما يدرسه الطالب ـ فى نفس التخصص فى جامعات العالم من حولنا .. لانتحدث عن الجامعات الأمريكية أو الأوروبية بل نتحدث عن جامعات دول مجاورة .. فى هذه الدول وفى جامعات باقى الدول يتعلم الطالب كيف يبحث عن المعلومة وفى جامعاتنا مازال أساتذتنا لايعرفون سوى تعليم الطالب ضرورة أن «يحفظ» المعلومة ويختزنها بمفهوم الصم!! ما زلنا فى مدارس التلقين بينما جامعات العالم انتقلت إلى مدارس التفكير والإبداع.

جامعاتنا اليوم تقف عند مفترق الطرق وعليها أن تختار بين طريق السلامة أو طريق الندامة أو طريق اللاعودة!! وللأسف فإن الوقت المتاح أمامها للاختيار قد وصل إلى نهايته وما لم تتحرك سريعا سوف يصبح الانحدار فى طريق اللاعودة هو الطريق الوحيد الذى ستنجرف إليه برضاها أو رغما عنها..

تقدم صناعى توسع جغرافى واستمرار فى العدوان

سلمان أبو ستة

اشترك فى هذه الدراسة أكثر من ٢٥٠ خبيراً فنيا من كبار المهنيين فى إسرائيل. واشترك فى العمل خبراء أجانب للإفادة من خبراتهم فى مواضيع مماثلة أو مطلوب دراستها

كيف ترى إسرائيل كبلد نفسها فى عام ٢٠٢٠؟ هذا سؤال شرعى يواجهه كل بلد، لأن إجابته تتطلب تخطيطاً لزيادة السكان والموارد الاقتصادية ورفاهية أهل البلد. ولكن ماذا عن إسرائيل ؟ كيف تخطط لأرض لا تملك ٩٢٪ من مساحتها بل هى أرض فلسطينية ؟ كيف تخطط وهى تحتل الضفة الغربية وقطاع غزة، ولا تعرف على وجه اليقين، هل ستبقى فى حوزتها أم ستصبح دولة فلسطينية ؟ كيف تخطط وهى لاتزال تحتل الجولان وتناوش على الجنوب اللبنانى وعلاقاتها مع سوريا ولبنان بين حرب وسلام ؟ كيف تخطط لبلد، أكثر من نصف اليهود فيه مهاجرون، والنصف الآخر جيل جديد ولد لتوه فى البلاد ؟ كيف تخطط لبلد يعتمد اقتصاده أساساً على التقنية العالية التى تستوردها إسرائيل من مصدر واحد هو أمريكا، ثم تعيد تصديرها إليها بعد التعديل ؟

هذه المواضيع والمشاكل كانت موضوع دراسة شاملة موسعة لعدد كبير من الخبراء بدأت فى عام ١٩٩٤ لتستشرف صورة إسرائيل بعد ربع قرن أى فى عام ٢٠٢٠، اشترك فى هذه الدراسة أكثر من ٢٥٠ خبيراً فنياً من كبار المهنيين من المكاتب والشركات الهندسية والمتخصصة والأكاديميين من كل الجامعات فى إسرائيل وممثلين لعشر وزارات، وممثلين عن الوكالة اليهودية وسلطة المياه ودائرة أراضى إسرائيل.

واشترك فى العمل خبراء أجانب للإفادة من خبراتهم فى مواضيع مماثلة أو مطلوب دراستها جاءوا من أيرلندة والدنمارك وهاواى وبريطانيا والسويد واليابان وهولندا وألمانيا، وبالطبع الولايات المتحدة.

تم العمل تحت إشراف صمويل نيمان (Neaman) فى معهد التخنيون (Technion) فى حيفا، وقام بتولى عمليات التنسيق والإدارة البروفيسور آدم مازور. وصدر العمل كاملاً عام ١٩٩٧ فى ١٨ مجلداً فى كل الاختصاصات مدعماً بالجداول والخرائط والرسوم.



تحت عنوان «لنحول الحلم إلى حقيقة»،

يصدر مركز الدراسات العربية فى بيروت قريبا الترجمة العربية لمشروع إسرائيل ٢٠٢٠ الذى أصدره معهد التخنيون فى حيفا عام ١٩٩٧

يسعى مخطط إسرائيل لعام ٢٠٢٠ إلى تحقيق أهداف عديدة بعضها متناقض. أولها يهدف المخطط إلى تخطيط بعيد المدى خلال ٢٥ سنة فى ظروف الشرق الأوسط التى لا يستطيع أحد التنبؤ بها، وكذلك يتعرض المخطط لضائقة محدودية الأرض التى تسيطر عليها إسرائيل ولا تكفيها للتوسع. ويسعى المخطط إلى إجراء التوازن بين المناطق العمرانية كثيفة السكان والمساحات الواسعة التى لاتزال خالية، وكذلك إلى كيفية الموافقة على المقترحات والقبول بها من كافة القطاعات الرسمية والشعبية. ويناقش المخطط احتمالات السلام وكيف يواجهها. كما يضع المخطط اقتراحات لآلية التنفيذ، لتحويل هذه الأفكار إلى واقع.

هذه الدراسات كلها تلخصت فى ثلاثة أسئلة رئيسة هى:

أولاً: ما الصورة المستقبلية لإسرائيل كدولة فى مصاف الدول الصناعية الأولى.

وثانياً: ما علاقة إسرائيل بما يسمى «بالشعب اليهودى» فى العالم، هل هى علاقة شراكة أم تبعية أم تعاون؟

وثالثاً: ما طبيعة إسرائيل فى أجواء «السلام»؟

وفى ضوء كل من هذه الأسئلة، يقدم المخطط تقديرات مدروسة للقدرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والجغرافية والسياسية والأمنية (العسكرية). ولكل من هذه الأسئلة ٤ درجات من التوقعات: أولها، استمرار الوضع الحالى كما هو عليه، والثلاثة الباقية: تقدير متفائل وآخر متشائم (أو أدنى) والثالث الأكثر احتمالاً.

على أن جميع المحاور تخضع لقاعدة أساس يتم العمل بموجبها وعليها وهى الأرض والناس، الأرض هنا هى الأرض الفلسطينية التى احتلتها إسرائيل عام ١٩٤٨ والأرض السورية التى احتلت فى الجولان وكلتاهما تدخل فى الحسابات الإسرائيلية، بينما لا تدخل الضفة وغزة فى هذه الحسابات. تبلغ مساحة إسرائيل التى بنيت عليها الدراسات ٢٢٥٠١كم٢. وهذه أكبر من مساحة إسرائيل عام ١٩٤٨، وهى ٢٠٢٥٥كم٢، منها ١٦٨٢كم٢ أرض تعتبر يهودية أثناء الانتداب البريطانى ومنها أيضا المناطق المنزوعة السلاح التى ضمتها إسرائيل بصورة غير شرعية فى العوجة جنوبا وعلى الحدود السورية شمالاً، ومنها أيضا ضم القدس الغربية خلافاً للقانون الدولى. والفرق بين مساحتى إسرائيل وهو ٢٢٤٦كم٢ هو عبارة عن مساحة الجولان البالغة ١١٥٤كم٢، والأراضى التى قضمتها إسرائيل من جراء التعدى على خط الهدنة فى الضفة وغزة وإضافة المناطق الحرام إلى إسرائيل بصورة غير شرعية مضافا إليها تعديلات على الحدود الأردنية بعد معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية وكلها تساوى ٩٢كم٢ على الأقل. ولم يرد ذكر هذا التعدى ولا مقداره فى أى مطبوعة عربية.

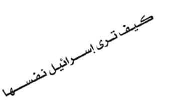
كيف تستعمل الأراضى فى إسرائيل ؟ لقد كتبنا كثيرا فى دحض الادعاءات الإسرائيلية حول عدم إمكانية تحقيق حق العودة للاجئين الفلسطينيين، ووجدنا أن حوالى ٨٠٪ من اليهود فى إسرائيل يعيشون فى ١٥٪ من مساحة إسرائيل وأن ١٨٪ من اليهود الباقين يعيشون فى مدن فلسطينية أصلاً، وتبقى حفنة ضئيلة من اليهود فى الكيبوتز يعيشون فى مساحات واسعة من الأراضى الفلسطينية بعد أن أصبح أهلها لاجئين. الآن يأتى مخطط إسرائيل ليؤكد هذه الأرقام ويستعملها كقاعدة للتخطيط بحيث يبقى ٨٠٪ من اليهود يعيشون على ٢٠٪ من إسرائيل.



ولا يرى المخططون أن هذا الوضع سيتغير فى المستقبل إلا قليلاً. والسبب، كما يرون، أنه من الأفضل تحسين البنية التحتية وتقويتها فى منطقة محدودة، بدلاً من انتشار البنية التحتية على رقعة كبيرة وضعفها. كما أن هناك حاجة كبيرة للحفاظ على البيئة - بما فيها الأماكن المفتوحة والغابات.

وبالتدقيق فى مساحة إسرائيل والجولان المشار إليها (٢١٥٠١ كم٢) واستعمالات الأراضى فيها، نجد أرقاماً فى غاية الغرابة. تستهلك المساحات العمرانية ٥٪ فقط من مساحة إسرائيل بما فى ذلك الأماكن الفضاء والشوارع بينها (الصافى ٢٪ فقط). وتستهلك الأراضى الزراعية ٤٤٠٠كم٢ أو ٢٠٪ من مساحة إسرائيل. أما الباقى وهو ٧٥٪ فهو خاضع لسيطرة الجيش، بالاستعمال العسكرى للمعسكرات والمطارات وتدريب المدفعية والمناورات والمصانع العسكرية، وهذا يستهلك ٣٣٪. والباقى احتياطى يستعمل حالياً كمناطق مفتوحة، أو خالية، أو مناجم أو غير ذلك. أى أن ثلاثة أرباع مساحة إسرائيل تستعمل لأغراض عسكرية أمنية، وأن الربع فقط هو المستعمل للاستعمالات الزراعية، وأن ربع هذا الربع يستعمل للسكن !

وهذا الوضع لن يتغير كثيرا فى عام ٢٠٢٠، حسب المخطط: إذ ستزيد مساحة المناطق العمرانية



بمقدار ٦٥١كم٢ فقط من ١١٤٨كم٢ إلى ١٧٩٩كم٢.

ويناقش المخطط عدد السكان بكثير من الحذر، لأنه يتعلق جذريًا بقدرة إسرائيل على جذب اليهود في العالم للهجرة إلى إسرائيل. ولذلك فإن تقديرات عدد السكان لعام ٢٠٢٠ المذكورة في المخطط لا تشمل الهجرة اليهودية إلا في أضيق نطاق. يتوقع المخطط أن يكون عدد السكان في إسرائيل كلها عام ٢٠٢٠، حوالي ٨١٠٠٠٠٠ من هؤلاء ٥٨٣٢٠٠٠ يهودي بزيادة سنوية ١٪ فقط و٢,٢٦٨,٠٠٠ فلسطيني بزيادة سنوية ٣٪. وهذا يعني أن نسبة الفلسطينيين (بمن فيهم سكان القدس) إلى اليهود ستزيد من ٢٣٪ عام ١٩٩٤ إلى حوالي ٤٠٪ عام ٢٠٢٠.

إن ما يسمى لديهم بالقنبلة الديموغرافية إنما هو تعبير عن عنصرية الصهيونية التي تسعى إلى إبقاء إسرائيل «نقية» من العرب. لا مناص لإسرائيل إلا أن تقبل بالواقع وهو أن تعيش في مجتمع مختلط تسوده الديموقراطية، وأنه لا يمكن أن تبقى إسرائيل يهودية خالصة، إلا إذا تقلصت المساحة التي يتركز فيها اليهود كلما قلت نسبتهم. وهذا يحوّلهم مع الزمن إلى غيتو يهودي خالص، وهو الثمن الذي يدفعونه لرفض التعايش مع محيطهم.

وإسرائيل لا تقبل الآن بهذا الواقع، فهي تحاول إيجاد وسائل أخرى لمطاردة وهم دوام الأكثرية اليهودية. وبدراسة متأنية لتوزيع الفلسطينيين واليهود في إسرائيل عامي ١٩٩٤ و ٢٠٢٠ حسب المخطط الإسرائيلي، نجد أن إسرائيل تنوي القيام بعملية تنظيف عرقي جديدة لتحقيق ذلك. ودون أن يذكر المخطط هذا صراحة، إلا أن مقارنة الأرقام وتوزيع السكان بين عامي ١٩٩٤و٢٠٢٠، يؤدي إلى استنتاج أن المخطط يهدف إلى الآتي: نقل الفلسطينيين من مراكز تجمعهم الحالية في الجليل والمثلث إلى وسط البلاد حيث الكثافة اليهودية، وحيث يفقدون قاعدتهم الزراعية والاقتصادية ويصبحون أجراء لدى اليهود. وبالمقابل يُشَجَّع اليهود على الانتقال من الوسط إلى الجليل والمثلث والنقب، بإغراءات الإعفاء من الضرائب وبالدعم الاقتصادي، لكي يقطعوا أوصال التواصل العربي السكاني الممتد من الشمال إلى الجنوب محاذياً لخط الهدنة. ويلاحظ أيضا أن إعادة التوزيع هذه تمنع الفلسطينيين من تكوين غالبية سكانية في أي مما يسمى «بالمناطق الطبيعية» - وهي أصغر تقسيم إداري للبلاد. وللسبب نفسه، وقبل إصدار المخطط، قامت إسرائيل بإنشاء طريق سريع واسع (رقم ٦) من الشمال إلى الجنوب يخترق المناطق الفلسطينية في إسرائيل ويستولي على بعضها ويقسمها إلى مناطق منعزلة دون أن يفيدها اقتصاديا أو يصلها بهذا الطريق.

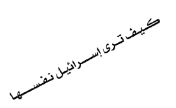
وكأنما كانت هذه الخطط للتنظيف العرقي غير كافية، فلا يزال الذعر مسيطراً في إسرائيل من إمكانية بعث الحياة في الوجود الفلسطيني من جديد داخل وطنه الأصلي. والدليل على ذلك أنه في يناير عام ٢٠٠١، اجتمع حوالي ٣٠٠ خبير من وزارة الدفاع والجامعات في هرزليا شمال تل أبيب في مؤتمر عنوانه «توازن القوة الوطنية والأمن». ترك هؤلاء أسلحتهم النووية والجرثومية وصواريخهم وطائراتهم لمناقشة الخطر الداهم على إسرائيل وهو الأم الفلسطينية؛ إذ هي تلد ٦ر٤ طفل في المتوسط مقابل ٦ر٢ طفل للمرأة اليهودية. وهذا يعني أن لدى الفلسطينيين سلاحا لا يقاوم هو القنبلة الديموغرافية، ولو كان النازيون لايزالون يحكمون ألمانيا لما خرجوا بتوصيات أفضل من هذه. قدم المؤتمر توصياته إلى رئيس الدولة وهي كالآتي: قطع المعونات الاجتماعية عن الأسر الفلسطينية، ترانسفير (ترحيل) العرب من الجليل والمثلث والنقب إلى أماكن أخرى، واستبدالهم باليهود، ضم المناطق العربية في إسرائيل إلى الكيان الفلسطيني مقابل ضم المستوطنات في الضفة إلى إسرائيل، منح الفلسطينيين في إسرائيل إقامات دائمة بدلاً من الجنسية الإسرائيلية ومنعهم من التصويت، زيادة الأصوات اليهودية في الانتخابات بالسماح للإسرائيليين في الخارج بالتصويت. وهناك أيضا اقتراح بمنح كل يهودي في العالم جنسية إسرائيلية حتى لو لم يطلبها ولو بقي في بلاده. هذا الذعر الهائل يشي بضعف المشروع الصهيوني، والإدراك بأنه لا محالة فاشل مهما طال الزمن، وأن الأرض المغتصبة لابد أن تعود لأصحابها.



ويبدو أن المبدأ الصهيوني في «عودة اليهودي إلى أرضه» خلال نظام الكيبوتز قد فشل من حيث المبدأ ومن حيث الجدوى الاقتصادية. وتوشك الحكومة على إعلان وفاته. وهذه الأرض التي يستغلها الكيبوتز هي الأرض التي طرد منها أهلها وأصبحوا لاجئين. وأصبح الآن ٨٦٠٠ شخص فقط من مزارعي الكيبوتز هم الذين يعيشون على الزراعة، مقابل ٥٢٥٠٠٠٠ لاجيء أصحاب هذه الأرض محرومون من العودة إليها. ولذلك عمدت إسرائيل إلى «بيع» أراضي اللاجئين لمقاولي العقارات وبناء شقق عليها وتوزيع الربح بين الحكومة وبين المزارعين المستأجرين لهذه الأرض. مما يمثل خرقا واضحا للقانون الدولي.

مخطط إسرائيل لعام ٢٠٢٠. المنسق العام: البروفسور آدم مازور. التخنيون. حيفا ١٩٩٧

ישראל 2020
תכנית אב לישראל בשנות האלפיים
צוות מחקר ותכנון
בראשות אדם מזור
ובהשתתפות
טובי אלפנדרי רחל אלתרמן
רפי בר-אל יונה ברגור
עמירם גונן ענת גונן
יהודה גור שלמה גזית
ראסם חמאיסי נעמי כרמון
יוברט לו-יון ארז סברדלוב
מיכל סופר אילן סלומון
ערן פייטלסון אלעד פלד
אמנון פרנקל מוטי קפלן
אריה רחמימוב דפנה שורץ
יהושע שורץ אריה שחר
1997
לשכת המהנדסים, האדריכלים והאקדמאים במקצועות הטכנולוגיים בישראל
אגודת האדריכלים ומתכנני הערים בישראל
הטכניון - מכון טכנולוגי לישראל
הפקולטה לארכיטקטורה ובינוי ערים
UriBit
בהפקת אורי ביט



إسرائيل في مصاف الدول الصناعية الكبرى

يهدف مخطط إسرائيل ٢٠٢٠ إلى وضع إسرائيل في مصاف الدول الثمانية الأولى في العالم حسب معايير اعتمدها المخطط. وهذا يعني أنها أرقى من هذه الرتبة في بعض النشاطات وأدنى منها في نشاطات أخرى. ويحاول المخطط ردم بعض الهوات التي تعيق وصول إسرائيل إلى هذه الرتبة، وهي رقعة إسرائيل الصغيرة والكثافة السكانية المحصورة جغرافيا، وما يتبع ذلك من مشاكل التلوث والازدحام وملوحة المياه. وبالمقابل يثمّن المخطط إنجازات إسرائيل ومنها كمية التطوير الهائلة في إسرائيل التي أدت إلى تقوية الاقتصاد ورفع مستوى جودة الحياة. وقد شكل التحديث التكنولوجي على الأخص قوة دافعة في الصناعة العسكرية والصناعات الأخرى.

ففي مجال الاقتصاد والخدمات، تتوقع إسرائيل أن يصل ناتجها القومي العام إلى ٢٢٠ مليار دولار عام ٢٠٢٠ (حوالي ٢٧٠٠٠ دولار للفرد في السنة أو ٣٧٠٠٠ دولار للفرد اليهودي في السنة)، أي بزيادة أكثر من ضعف الناتج القومي الحالي. والناتج الحالي هو أكبر من نظيره في مصر رغم أن عدد السكان ١٠ أضعاف عدد سكان إسرائيل. ويرى المخطط أن إسرائيل تقع في مصاف الدول الصناعية بالقياس إلى نسبة الحضر العالية وقلة عدد سكان الريف، وعدد العاملين في الخدمات (الدرجة السابعة بين ٢٤ دولة)، وحصة الخدمات في الناتج المحلي الخام (الدرجة الثامنة) والعدد المنخفض للعاملين في الزراعة (الدرجة السادسة) ونسبة رأس مال البشري الذي يتمتع بدرجة عالية من التعليم العالي.

وحسب مخطط ٢٠٢٠، سيتوزع العاملون في القطاعات الاقتصادية الرئيسة في البديل الخاص بالتركيز على الصناعة كالآتي:

صناعة ٢٨٪، خدمات عامة ٢٢٪، تجارة وفنادق ١٦٪، شئون مالية ١٣٪ بنية تحتية ١٠٪ خدمات شخصية ٩٪ زراعة (أقلها) ٢٪. ويبدو التركيز واضحاً على الصناعة والخدمات مع إهمال الزراعة. وهذا يحتاج إلى قوة عاملة عددها ٣٢٠٠٠٠٠ عامل. ونسبة مشاركة القوة العاملة بالنسبة لعدد السكان نسبة هائلة تصل إلى ٤٠٪. بينما تبلغ هذه النسبة في مناطق السلطة الفلسطينية ٢٠٪ وهي تشمل العاطلين عن العمل أيضاً، أي أن مشاركة القوة العاملة في المجتمع تبلغ في إسرائيل ضعف مثيلتها في بعض البلاد العربية وأكثر.

أما في المجالات الديموغرافية والطبيعية والبيئية، فتتأخر إسرائيل عن مثيلاتها في الدول الصناعية، خصوصا في مشكلة الكثافة السكانية وفي مستوى ملكية السيارات الخاصة ومستوى استهلاك الطاقة للفرد.

وللتغلب على هذه العقبات، يلجأ المخطط إلى ردم الهوة بالقياس إلى أربعة مسارات: مسار الدول الموجودة على هامش العالم الصناعي، مسار أوروبا الغربية، مسار أمريكا الشمالية، مسار اليابان.

يجد المخطط أن تقدم إسرائيل أكثر مقاربة لمسار أوروبا الغربية ويقتدي بهذا النموذج، وإن كان متأخراً عنه بعقد من السنين، ويتوقع اللحاق به خلال العشر سنوات القادمة. ويعترف المخطط بأن تخلف إسرائيل عن أوروبا ليس مرده خللا في التطور الصناعي، بل زيادة في السكان بسبب الهجرة ومعدلات في التنمية تفوق مثيلتها في أوروبا وتؤدي إلى زيادة في النفقات، فبينما يبلغ معدل السكان السنوي في أوروبا الغربية ٠,٤٪، يصل هذا المعدل إلى ٢,٢٪ (مع الهجرة) في إسرائيل. (لكن هذه الزيادة في السكان وإن أنقصت من حالة الرفاه الاجتماعي مؤقتا، فإنها في المدى البعيد سترفع الناتج القومي بسبب المساعدات المالية التي تتدفق على المهاجرين وبسبب القدرة على استيعابهم في الصناعة بعد ذلك). ويقارن المخطط بين هذا الوضع وقدرة ألمانيا واليابان على إعادة توظيف طاقاتها بعد دمار الحرب العالمية الثانية. ويتوقع المخطط أن تحقق إسرائيل مكانة عالية في مصاف الدول الصناعية بسبب «أحجام التنمية الضخمة المتوقعة في إسرائيل، والطاقات البشرية الرائعة الموجودة تحت تصرفها ومستقبلاً بفضل نظام التعليم المتطور وهجرة اليهود من الخارج إلى إسرائيل»، كما جاء في النص.

إسرائيل واليهود في العالم

يشغل هذا الموضوع المخططين كثيراً، وهم يتحدثون عن اليهود كشعب يهودي متجانس واحد ولكنه موزع جغرافيا. ويتساءلون أيهما أفضل لإسرائيل: أن يأتي كل اليهود إلى إسرائيل بحيث تصبح «بيت اليهود ومركز حضارتهم ومستودع ذاكرتهم الجماعية»، أو أن تبقى الجاليات اليهودية مسيطرة على زمام المال والسياسة في الغرب؟ ويبقى الموضوع سجالاً، إلا أن الاتجاه السائد هو زيادة الهجرة إلى إسرائيل من الجاليات التي لا تنفع إسرائيل كثيراً، والمحافظة على وجود اليهود في البلاد المهمة.

ولابد أن هذا كان دائماً ديدن اليهود، لأن ٩٨٪ من اليهود يعيشون في البلاد الغنية والصناعية، ولا يعيش في الأقطار الآسيوية والأفريقية إلا ٢٪. ويطمح المخطط إلى أن تزيد نسبة اليهود في إسرائيل من ٣٤٪ من يهود العالم اليوم إلى ٥٢٪ في عام ٢٠٢٠.

لقد صرح شارون بأنه يريد استجلاب يهود العالم إلى إسرائيل، لكن المخطط الإسرائيلي الذي يبين عدد اليهود وأوضاعهم في بلاد العالم وحاجة إسرائيل إليهم يبيّن أن هذا الهدف غير قابل للتحقيق بأكمله.

يقدر عدد اليهود في العالم عام ٢٠٢٠ بحوالي ١٢٨٥٠٠٠٠ كحد أدنى و١٣٨٢٠٠٠٠ كحد أقصى، سيكون منهم في إسرائيل ٥٦٣٤٠٠٠ (٤٢٪) كحد أدنى و٦٨٦٣٠٠٠ (٥٢٪) كحد أقصى. لكن عدد اليهود في العالم يتناقص بنسبة ٠,٥٪ في السنة بسبب التزاوج والتخلي عن الالتزام الديني في البلاد الغنية. ونسبة اليافعين من سن صفر إلى ١٤ سنة في إسرائيل تبلغ (٢٣-٢٥٪) وهي أعلى بكثير من نسبتهم بين اليهود في العالم (٩-١٤٪). وهذا معناه أن إسرائيل تستطيع صهر مجتمع جديد في قالبها، وحسب نظام تعليمها المتطور، رغم أن هذا يعني تكاليف أعلى من استحضار مهاجر كامل التعليم مثل حالة الروس.

ويؤكد المخطط على ضرورة بقاء الجالية اليهودية في أمريكا قوية متماسكة مع توثيق التعاون معها بواسطة برامج عديدة. بينما يرى المخطط في إنجلترا طائفة فاشلة عديمة القيمة(!). وباستثناء روسيا التي يرى المخطط ضرورة بقاء طائفة مهمة فيها، وفرنسا لأسباب تاريخية، يتوقع نزوح باقي الجاليات إلى إسرائيل. وهذا ما عناه شارون عندما دعا إلى هجرة كل اليهود إلى إسرائيل.

ويقدر عدد اليهود عام ١٩٩٣ في أهم بلاد العالم كالآتي بالترتيب: الولايات المتحدة ٥٦٥٠٠٠٠، إسرائيل ٤٣٣٥٢٠٠، فرنسا ٥٣٠٠٠٠، روسيا ٤١٠٠٠٠، كندا ٣٥٨٠٠٠، بريطانيا ٢٩٦٠٠٠، أوكرانيا ٢٤٥٠٠٠، الأرجنتين ٢١٠٠٠٠، البرازيل وجنوب أفريقيا ١٠٠٠٠٠ لكل منهما، والباقي أقل من ذلك.

وبتفحص هذه الأرقام وتقدير عدد المستهدفين من الهجرة، نجد أن أعلى تقدير لهجرة اليهود لن يتجاوز ١٦٠٠٠٠٠ وأدنى تقدير ٨٠٠٠٠٠، في حال بقيت الظروف في إسرائيل مواتية ومشجعة للجذب، أو كانت الظروف في الخارج مساعدة على طرد اليهود منها، (بسبب الأحوال الاقتصادية كما حدث في روسيا أوائل التسعينيات، وهو الوضع الذي تغير الآن).



هذا يعني أن لهجرة اليهود سقفاً أعلى مهما اختلف مكانه، وأنه سيأتي اليوم الذي يتجاوز فيه الفلسطينيون في إسرائيل عدد اليهود فيها بغض النظر عن الهجرة. وهذا ما نقدره في عام ٢٠٧٠ كحد أقصى. لكن نسبة الفلسطينيين الآن في فلسطين التاريخية، التي تشمل إسرائيل والضفة وغزة، تساوي ٤٧٪ من مجموع السكان، ونسبة اليهود ٥٣٪. ولو أخذنا في الاعتبار أن نسبة كبيرة من الروس هم من غير اليهود، لانعكست هذه النسبة لصالح الفلسطينيين. ولذلك فإن الغالبية العربية ستتحقق لاشك، وخطط إسرائيل في المحافظة على الأغلبية ما هي إلا وهم وسراب.

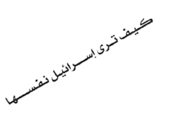
وترغب إسرائيل في أن تكون «مركز الذاكرة اليهودية والثقافية والملجأ» لكل اليهود، وعليها أن تطور قدراتها لكي تستطيع التدخل لإنقاذ اليهود في أي مكان في العالم سياسيا وإعلاميا وعسكريا أيضا. وبالمقابل فإن على «يهود الشتات» تعزيز جهودهم لتكريس تفوق إسرائيل في الاقتصاد والأمن. ولكي يتم هذا، فإنه يجب منع الذوبان اليهودي في مجتمعات الدول الأخرى، وذلك بالتأكيد على تفوق المبدأ الصهيوني وتعليمه للصغار وعلى مستويات مختلفة في المجتمعات. (على هذا الأساس، موّل بعض الصهاينة الأغنياء برنامج «حق مسقط الرأس»، لإحضار اليافعين من اليهود لزيارة إسرائيل وتشرب المبادئ الصهيونية في إجازة مجانية. آخر فوج أحضر ٥٠٠ روسي من الصبيان للتعرف على إسرائيل والإقامة في الكيبوتز).

ويأخذ المخطط في الاعتبار أن اليهود ليسوا نسيجاً متجانساً، وإنما هم عينات من شعوب العالم، كل يمثل حضارة بلده. ولكنه يحاول إيجاد خيط مشترك بينهم حول الدين اليهودي والعقيدة الصهيونية معاً. ويذكر أن هناك مشاكل اجتماعية بين اليهود أنفسهم في إسرائيل وهم يمثلون العالم كله، ثم هناك مشاكل بين يهود إسرائيل «ويهود الشتات»، وأيضا مشاكل بين يهود وغير يهود (يقصد الفلسطينيين) في إسرائيل نفسها.

ورغم أن المخطط يقدر كثيراً الإنجازات في إسرائيل خصوصا على الصعيد العسكري والاقتصادي، إلا أن الطموحات أكثر بكثير من الإمكانيات. ويبيّن أن تركيز القوة اليهودية في مكان صغير واحد له مساوئ، فوجودها مهدد، (مشيراً إلى أنه لا توجد لها ولا لأعمالها شرعية دولية)، ولذلك فإن الأمن الاستراتيجي هو أول وأهم الأولويات، بغرض الاحتفاظ بالمكاسب التي حصلت عليها من أرض اغتصبت ومياه سرقت ومهاجرين يهود يلزم إيواؤهم. وهذا الاكتظاظ أدى إلى مشاكل في البيئة. كما أن المجالات الصناعية التي يمكن تطويرها محدودة بسبب عدم وجود الحيز الجغرافي الكافي.

ويرى المخطط أن علاج هذه المشكلة يجب أن يتم على النحو

> تحت عنوان: «لنحول الحلم إلى حقيقة» يسعى مخطط إسرائيل لعام ٢٠٢٠ إلى تحقيق أهداف عديدة بعضها متناقض



الآتى: ضرورة الوصول إلى نظرية حرب مستحدثة غير مشروطة بالمكان ولا بمحدودية الجغرافيا. وذلك باستعمال RMA أى «الثورة فى الفنون العسكرية» وهذا ما فعلته إسرائيل بتطوير سلاحها الجوى والصواريخ والأقمار الصناعية ومعالجة المعلومات إلكترونيا فى تعاون لصيق مع الولايات المتحدة. ويقول الخبراء العسكريون إن الجيوش العربية ليست مؤهلة لما يمكن تسميته بالحرب الجوية الإلكترونية، وتركيا وإيران لاتزالان بعيدتين عن ذلك، وكان الخوف من العراق أن يطوّر هذا المفهوم قبل القضاء على قوته العسكرية، وأن إسرائيل أقرب تلك الدول إلى المستوى الأمريكى من حيث الفنون العسكرية. وإسرائيل بهذا الأسلوب تتغلب على حجمها الصغير، أرضاً وسكاناً، كما يقول المخطط.

والصعوبة الأخرى التى تواجهها إسرائيل أنها لا تستطيع أن تصبح دولة صناعية أولى دون أن يتسع حجمها الحالى. وتدلل على ذلك بأن سبب تفوق أمريكا هو الرقعة الجغرافية الكبيرة، وأن هذا سبب تجمع الدول الأوروبية فى كيان واحد ولو لم يتم تجانسه بعد. أما الأمثلة الناجحة لدولة صغيرة ذات اقتصاد قوى، مثل سويسرا وسنغافورة، فيقول المخطط إن هذا استثناء له ظروفه الخاصة.

إسرائيل فى أجواء السلام

لعل هذا السيناريو هو أهم وأخطر البدائل الممكنة، سواء بالنسبة لإسرائيل أو للعرب، ولذلك فإن المخطط يعترف بداية بالحدود الضيقة لهذا البديل، ويؤكد أنه لا مناص من التمسك بمبدأين: الأول «تعزيز الأمن القومى»، وبعبارة أخرى استمرار التفوق العسكرى الإسرائيلى على العرب وتطويره، والثانى «ضمان الملكية القومية على الأرض»، وبمعنى آخر استمرار احتلال الأرض العربية واستغلالها للاستعمالات اليهودية.

إذن فأجواء السلام بالنسبة لهذا المخطط لا تعنى إزالة النزعة العسكرية العدوانية فى إسرائيل التى أدت إلى كل الحروب السابقة، ولا تعنى الانصياع إلى القانون الدولى الذى يؤكد عدم جواز احتلال الأرض العربية أو مصادرتها عند بسط السيادة عليها. وعليه يتوقع المخطط زيادة المساحات المخصصة «للاحتياجات» الأمنية، وتحديد مناطق حدود جديدة، ويتنبأ بزيادة التوتر بين سكان إسرائيل اليهود والعرب.

بهذه المقدمة التى لا تبشر بخير، يفترض المخطط فى سيناريو السلام بتفاؤل لا مبرر له أن الوضع الجغرافى (أى الأرض والحدود) والسياسى (أى المعاهدات التى تعطى شرعية لها) سوف يستقر، وأن النزاع العربى الإسرائيلى سوف ينتهى فى كل القطاعات وأن إسرائيل ستقيم علاقات دبلوماسية مع كل الدول العربية والإسلامية. ويتوقع المخطط أنه خلال ٣٠ عاماً، سيكون فى فلسطين، بين البحر والنهر، دولة إسرائيل وكيان فلسطينى فى الضفة وغزة، له إدارة ذاتية، مع تقييد بارز فى مجال الجيش والأمن. مع احتمال أن يشترك الاثنان فى تركيبة فيدرالية أو كونفدرالية مع الأردن. وهذا معناه الرفض لدولة فلسطينية عاصمتها القدس وعدم عودة اللاجئين.

وتبلغ الجرأة بالمخططين أن يتصوروا أن هذا ممكن مع قيام علاقات عادية مع الدول العربية والإسلامية. بل إن الاستسلام العربى الذى يتخيلونه سيقابله على الجانب الإسرائيلى تقييد للحدود مع الكيان الفلسطينى والعرب بحيث تكون الحركة مفتوحة للأشخاص والبضائع اليهودية إلى خارج إسرائيل وتكون مغلقة أمام الأشخاص والبضائع العربية إلى داخل إسرائيل (!)، وتُمنع «الهجرة» العربية إلى إسرائيل، أى عودة اللاجئين.

ويتوقع المخطط أن عملية السلام ستتراجع عن اتفاقية أوسلو وتعود الأوضاع إلى حالة العداء السابقة، وقد تُلغى معاهدات السلام مع مصر والأردن. وستزداد الضغوط الدولية، ويتزايد الوعى فى المجتمع الإسرائيلى والعربى بمزايا السلام، مما يبرر «الثمن» المطلوب دفعه أى القبول بالواقع. وفى النهاية سيتحقق سيناريو السلام حسب الفرضيات الإسرائيلية الأولى.

وترى إسرائيل أن هذا «السلام» سيعود عليها بفوائد خارجية كثيرة منها زيادة الاستثمارات وجذب المهاجرين اليهود. ويتبع ذلك تغييرات هيكلية بحيث يتخصص الاقتصاد الإسرائيلى فى مشاريع تعتمد على العلم والتكنولوجيا، بينما يقوم الأرقاء العرب، بتوفير اليد العاملة الرخيصة. ويتوقع المخطط تقلصاً فى قطاع الزراعة أمام الإنتاج الفلسطينى (وهو الآن ينتج ٢٪ من الناتج القومى ويستغل جميع الأراضى الفلسطينية المصادرة وأكثر من ثلثى كمية المياه من أجل ٨٦٠٠ شخص من سكان الكيبوتز يعملون بالزراعة).

أما التعاون الإقليمى الاقتصادى الذى يروّج له شمعون بيريز، فلا يرى المخططون جدوى كبيرة من جهة إسرائيل للتعاون الإقليمى العربى الإسرائيلى؛ لأنهم لا يعتقدون أن السوق العربى مؤهل لاستقبال المنتجات الإسرائيلية المتطورة (أو بكلمات أبسط: العرب يشترون الكاميرات والتليفزيونات، ولكن لا يشترون أجهزة نقل المعلومات إلكترونيا). ومن منظور واقعى، لا يرى المخططون أن أصحاب رءوس الأموال العربية سيندفعون للاستثمار فى إسرائيل، وهذا النفور سيقف حائلاً أمام الأنشطة الأخرى التى تصل بين المورد والمستهلك، وبكلمات أخرى، يدرك المخططون أن الشعب العربى لن يقبل إسرائيل، ولو قبلت حكوماته بها. وأنها ستبقى جسماً غريباً شاذاً عدوانياً، قابلاً للتوسع باستمرار.

وأكثر من ذلك: ترى إسرائيل أن هذا التعاون قد يعود عليها بالمشاكل، أولا إن انعدام المساواة بين الاقتصاد الإسرائيلى والعربى سيؤدى إلى توترات سياسية ومخاوف عربية من «الامبريالية الاقتصادية» لإسرائيل. كما أن دخول قوة عاملة رخيصة قد تسبب مشاكل اجتماعية بالمنافسة مع الطبقات الفقيرة فى إسرائيل وقد تحدث تحولات سكانية «غير مرغوبة»، نتيجة لاستقرار عمال عرب فى إسرائيل. ولذلك من المتوقع أن تركز إسرائيل على النشاطات التى تهمها وهى مجالات البنية التحتية والمواصلات والسياحة، والمياه.

أما البنية التحتية فغرضها ربط إسرائيل بالبلاد العربية فى الاتجاهات التى تهم إسرائيل، دون تأثير سلبى عليها لو انقطع هذا الربط. ومن حيث المواصلات، فإن المخطط يقدم خرائط تفصيلية للطرق السريعة المزمع إنشاؤها مع بيروت ودمشق وعمان والعقبة والقاهرة عن طريق العريش والسويس. ويلاحظ أن تخطيط إسرائيل للطرق يمتد دائماً بشكل مواز للحدود وليس عمودياً عليها، بحيث تسهل الحركة داخل إسرائيل، وتصعب على العدو الخارجى الاستفادة منها إلا إذا اخترق الحدود. وهنا وضع المخططون نقاط حدود مركزة محدودة العدد، تعمل مثل صمامات الأمان، تسمح بالخروج من إسرائيل ولكن ليس بالدخول إليها. وقد تم اختيار ١٣ نقطة محصنة مجهزة بكل الاحتياطات الأمنية. وبوابات إسرائيل الرئيسة ستكون فى المستقبل: ٣ على حدود قطاع غزة، ١ فى طابا أو العقبة، ٢ شمال وجنوب القدس، ٢ على نهر الأردن، ٤ على حدود الضفة، ١ فى رأس الناقورة فى شمال فلسطين.

وعندئذ سيكون الطريق السريع، عابر إسرائيل، قد تم بناؤه بحيث يمتد من الشمال إلى الجنوب قريباً من خط الهدنة، مقطعاً بذلك أوصال القرى الفلسطينية فى إسرائيل، ويتفرع الطريق فى الشمال إلى فرع يتجه إلى دمشق والآخر إلى بيروت. أما فى الجنوب فيتجه إلى بئر السبع. ويدور حولها لكى يحتضن منطقة تطوير جديدة تصل إلى أكثر من عشرة أضعاف المساحة الحالية، بما فى ذلك إقامة خدمات صناعية واسعة ومطار كبير. وكذلك سيتم تطوير منطقة كبيرة فى الجليل شرق عكا وحيفا. والغرض من مشروعى التطوير هذين هو إقامة مناطق صناعية جديدة مع تفتيت الكثافة العربية فى الجليل والنقب، بحيث يصبح الوجود العربى فى مناطق متفرقة معزولة وضعيفة.



ويهدف مخطط إسرائيل فى «أجواء السلام» إلى تطوير المنطقة الساحلية الممتدة من قطاع غزة إلى العريش، والمنطقة الساحلية من حيفا إلى بيروت، ومنطقة العقبة وايلات وطابا، ومنطقة طبرية والجولان، كما يقترح المخطط منافذ متعددة من النقب إلى سيناء والأردن. ويلاحظ أن جميع هذه المناطق توسع مساحة إسرائيل فى أراض عربية، تحت اسم التعاون الإقليمى، كما أنها مخارج لإسرائيل وليست مداخل لها.

أما تأثيرات «السلام» فى المجال الاجتماعى، فسيؤدى إلى تغيرات ديموغرافية؛ إذ سيبلغ سكان فلسطين من النهر إلى البحر التى ستبقى سيادة إسرائيل عليها أحد عشر مليون نسمة بدون مسيرة السلام، وثلاثة عشر مليوناً إذا حل السلام. وهذه الزيادة تعود إلى تشجيع اليهود على الهجرة إلى إسرائيل عند حلول السلام، وعودة بعض اللاجئين إلى الكيان الفلسطينى بعد إسقاط الحقوق القانونية لجميع اللاجئين.

وفى ظل السلام ستزداد روابط إسرائيل بالمجتمع الغربى. وفى نفس الوقت سيهدد إسرائيل خطر ذوبان الهوية الإسرائيلية فى الثقافة العالمية، والخطر الناجم عن غياب التهديد الدائم لوجود إسرائيل، الذى يفتت الهوية الإسرائيلية (!). كذلك سيؤدى النمو الاقتصادى إلى توسيع الفجوات بين طبقات المجتمع وتتهمش المجموعات الضعيفة وتتركز فى أطراف البلاد، بعيداً عن مراكز الطاقة فى الوسط ويهدد هذه وجود قوة عمل فلسطينية رخيصة. وهذا ينسحب على الفلسطينيين فى إسرائيل، فسيزداد اغترابهم عن المجتمع الإسرائيلى ثقافة واقتصاداً، ويؤدى إلى المطالبة بالحريات وربما الانفصال. ولذلك فإن المخطط يسعى إلى ردم هذه الفجوات الاجتماعية والاقتصادية ولكن بالقدر الذى يمنع تحولها إلى أخطار تهدد الدولة.

ماذا يمكن أن نستخلص من هذا ؟

أولاً: لا فائدة من جلد الذات والشعور بالإحباط، لان هذه الخطط وأمثالها هى مجهود طبيعى يقوم به المخططون فى أوروبا وأمريكا بشكل روتينى. واستزراع بعض هؤلاء الخبراء فى إسرائيل لا يعنى أن هذا الجهد وليد إسرائيل، بل يعنى أن الصهيونية العالمية تستقطب إمكانياتها فى مقر عمل واحد، وهذا ما يسمح باستقدام هؤلاء الخبراء من كل مكان، وهذا ما حدث فى الخليج، خصوصاً فى الكويت، إذ تم وضع خطة هيكلية شاملة لمستقبل الكويت باشتراك خبراء وأجانب منذ منتصف الستينيات. ولاتزال الخطة سارية مع التعديلات اللازمة لمواجهة الظروف المتغيرة.

ثانياً: إن الخطط العربية للتطوير يجب ألا تقتصر على مشاكلها العادية من زيادة فى السكان وقلة فى الموارد وهبوط القيمة الإنتاجية للقوة العاملة، واعتماد الاقتصاد فى بعض البلاد على سلعة واحدة مثل البترول. بل يجب أن تتعدى ذلك إلى مواجهة التحديات التى يمثلها وجود إسرائيل فى المنطقة. أى أن الدفاع الساكن لا يكفى. يجب تفعيل المواجهة الديناميكية لكل التحديات التى تمثلها إسرائيل. وأضعف الإيمان أن تكون هناك خطط مضادة، خصوصاً أن مبادئ الصهيونية ثابتة، وأساليبها وخططها ووسائلها معروفة ومنشورة لمن يريد دراستها.

ثالثاً: إن خطط إسرائيل للمستقبل لم تتخل عن أى من ثوابتها القديمة. فالعقيدة الصهيونية لاتزال هى الوقود الذى يحرك إسرائيل، مع أنها قد تغيرت وتبدلت لتناسب الظروف المحيطة. ولا تزال إسرائيل إلى اليوم تستولى على الأرض العربية وتتوسع فى الاستيلاء كلما تمكنت من ذلك. ولاتزال إسرائيل تمنع عودة اللاجئين إلى ديارهم وتمنع قيام دولة فلسطينية، متحدية بذلك المجتمع الدولى كله. وهى كدولة فريدة فى العالم، تتمكن من إدامة هذا التحدى بقوة الولايات المتحدة. ولاتزال إسرائيل تزيد من تفوقها العسكرى على العرب، وتلجأ إلى وسائل جديدة لم تطورها إلا

أمريكا وهى بالتبعية، تلك هى فنون الحرب الجوية والإلكترونية. وهذا ما يساعدها على تحقيق هدفين مهمين: الأول بسط نفوذها على مساحات أكبر وأبعد من الدول العربية المجاورة، والثانى تقليل عدد الإصابات فى الحرب، الأمر الذى لا تستطيع قبوله، خصوصا بالمقارنة بما يقبله خصومها.

رابعاً: إن إسرائيل تريد أن تحقق نفس الأهداف القديمة فى التوسع والسيطرة، ولكن بطرق أخرى، غير عسكرية مباشرة. التعاون الإقليمى ما هو إلا شعار تحته يتم تحقيق هذه الأهداف. وذلك عن طريق الترغيب والترهيب، الترغيب بمزايا اقتصاد قوى، والترهيب بقوة عسكرية كامنة خلف الأفق. وهذا هو نفس الأسلوب الأمريكى الذى ينفذ أهدافه تحت مظلة دولية إن أمكن، عن طريق مجلس الأمن، أو عن طريق التحالف، أو عن طريق مؤتمر إقليمى، أو عن طريق تركيب تحالفات إقليمية تخدم الهدف، أو عن طريق تفكيك تحالفات إقليمية تراها معادية لها. هذا كله دون أن يقتل جندى واحد. ولكن الوعد بالدولار والتهديد بالقوة خياران معروضان باستمرار.

خامساً: إن إسرائيل تحتاج أكثر من العرب إلى نوع «السلام» الذى تعرّفه تعريفاً خاصّاً بها. فالواضح من مخطط إسرائيل لعام ٢٠٢٠ أن إسرائيل على وشك الانفجار إلى الخارج، لأنه لا الرقعة الجغرافية، ولا عدد السكان المنتظر، ولا الأهداف الاقتصادية، ولا الموارد الطبيعية مثل المياه والبترول، تكفيها أن تنكفئ على نفسها وتتقوقع. إسرائيل ترى أنها لابد أن تتوسع فعلاً ومجازاً، معنى ومبنى. تستبعد إسرائيل أن يتم انتشارها هذا باحتلال جديد، أو بحرب جديدة، ولو أن هذا وارد، ولم ينقص، بل زاد، من استعدادها العسكرى. ولكنها تريد أن يتم هذا الانتشار بطرق «سلمية»، لأن هذا له مزايا عديدة. أولها: أن يتم الاعتراف بشرعية وجود إسرائيل خصوصاً بتوقيع الضحية والمتضرر الأول: الفلسطينيين. إذ رغم ضعفهم العسكرى، يبقى خضوعهم واستسلامهم وتنازلهم عن حقوقهم غير القابلة للتصرف هو أهم هدف إسرائيلى. وحينئذ تسقط كل القرارات الدولية. وثانيها: أن سائر دول العالم، خصوصاً أوروبا والدول العربية الراغبة، ستهرع إلى التعاون مع إسرائيل بعد أن تم تطهيرها وإعلان براءتها، وثالثها: أن توسع إسرائيل فى ظروف السلام سيكون مطلقاً ليس له حدود، بعكس التوسع العسكرى الذى ستحده إمكانياتها العسكرية ومواصلاتها، وسيحده أيضا موقف المجتمع الدولى.



إذن فمخطط السلام هذا يعطى نتائج أكبر بثمن أقل. وهذا ما تسعى إليه إسرائيل الآن بكل قواها.

إلا أن خطط إسرائيل فى أن تنفذ أهدافها كلها ستبقى مجرد حلم. قطعاً ستنجح فى تحقيق كثير من أهدافها، ولكن هناك عللا فى تكوينها وقوة فى خصمها. نقاط الضعف فى إسرائيل أن قوتها الاقتصادية ليست مرتبطة بالأرض ولا علاقة للأرض بها. إن صناعة التقنية العالية يمكن إنتاجها فى مناطق حرة فى أى مكان من العالم أو على ظهر حاملة طائرات، فمساحتها محدودة، وعدد العاملين فيها لا يتجاوز ٥٠٠٠٠، وهى جزء من العولمة التى تحكمها قوى السوق، وليس قرارات حكومة إسرائيل.

صحيح أن جيش إسرائيل مصدر قوة لإسرائيل، ليس لأسباب عسكرية فقط، بل لأنه وسيلة لصهر الشباب من ١٠٢ دولة فى بوتقة صهيونية واحدة، وتعليمهم التحدث بلغة واحدة هى العبرية. ورغم أن التقنية العالية فى الجيش ستغنى عن الحاجة إلى قوات مشاة تقليدية بالملايين، كما هو الحال فى الجيوش العربية، إلا أن الجندى يبقى مهماً فى النهاية لأنه يلزم للسيطرة على الأرض. وهنا تكون الإصابات فى الجيش، خصوصاً إذا استمرت لفترة طويلة ولو على مستوى منخفض، مصدر قلق شديد للمؤسسة العسكرية والمجتمع الإسرائيلى.

ونقطة ضعف أخرى فى إسرائيل، أنه كلما زاد تطورها الاقتصادى، كلما اقتصرت فوائد ذلك على شريحة صغيرة هى الإشكناز. وسيخلق ذلك، كما هو حاصل الآن، توترات شديدة مع الحاريديم، الذين يتكاثرون بسرعة، والمزراحيم (الشرقيون) الذين لا يزالون فى أسفل السلم الاجتماعى اليهودى. هذا الوضع سيؤدى إلى قلاقل سياسية داخلية، خصوصاً إذا بطل مفعول الدعاية الصهيونية التى تضخم التهديد العربى لوجود إسرائيل. وهذه القلاقل ستؤدى إلى المطالبة بالمساواة وتحقيق العدالة، وربما تؤدى إلى حرب أهلية محدودة.

على أن شرارة هذه القلاقل قد تبدأ بمطالبة الفلسطينيين فى إسرائيل بحقوقهم الكاملة، ولا يمكن تجاهل ذلك إذ ستصل نسبة الفلسطينيين إلى اليهود فى فلسطين إلى ٤٠٪ عام ٢٠٢٠. وقد تؤدى سياسة إسرائيل فى استمرار احتلال الضفة وغزة إلى نتيجة عكسية، ذلك أنه يصبح كل اليهود فى إسرائيل وحوالى نصف الفلسطينيين فى العالم مشتبكين ومختلطين فى فلسطين التاريخية. أى أنه قد تتم إعادة تركيب فلسطين الممزقة إلى حدودها الجغرافية السابقة ولكن بزيادة عدد اليهود ونقص عدد الفلسطينيين عما كانوا عليه عام ١٩٤٨. ورغم زيادة هؤلاء بالهجرة ونقص أولئك بالتنظيف العرقى فإنهم متساوون فى العدد الآن. ومهما استمرت الهجرة اليهودية فإن لها حداً أقصى سيصلونه خلال سنوات قليلة، ويبقى تكاثر الفلسطينيين قائماً ومستمراً. وبالطبع ستستمر إسرائيل فى سياساتها العنصرية وتطبيق نظام الفصل العنصرى (الأبرتهايد)، ولكنها لن تنجح، لأن الفلسطينيين ليسوا نظيراً للأفريقيين ولأن القرن الواحد والعشرين ليس مماثلا للقرن التاسع عشر.

هذا كله يتعلق بما يجرى فى إسرائيل وحولها. لكن الحقيقة الساطعة هى أن العرب لن يحققوا شيئاً من آمالهم، بل سيخسرون ما لديهم، إذا استمروا فى انتظار أن يسقط عدوهم من التعب أو التخمة. لابد أن يكون للعرب دور فاعل فى تقرير مصيرهم وتطوير قدراتهم فى كل المجالات. وهذا لا يكون إلا بقيام كل فرد من الملايين الثلاثمائة بدوره كاملاً. هذا هو التحدى الحقيقى للمستقبل. ■

كتاب الزاوية

الفلاح الفصيح

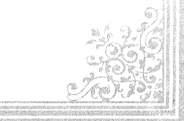
الشكوى الخامسة

ثم أتى هذا الفلاح يشكو للمرة الخامسة وقال: «يا أيها المدير العظيم للبيت، يا سيدى! تأمل؛ إنك فى حالة كهذه (فى كل ما سبق من الكلام الغامض قد شبه فيه «رنزى» بصيادى السمك)، لا تحرمن رجلاً رقيق الحال أملاكه، وهو رجل ضعيف أنت تعرفه، فإن أملاك الرجل الفقير بمثابة النَّفَس له، ومن يغتصبها يكتم أنفه، ولقد نصبت لتسمع الشكاوى وتفصل بين المتخاصمين، وتكبح جماح اللص، ولكن تأمل. فإن ما تفعله هو أنك تعاضد اللص. والإنسان يضع ثقته فيك ولكنك أصبحت معتديًا. لقد نصبت سداً للفقير فاحترس خوفًا أن يغرق، ولكن تأمل. إنك تيار سريع له...».

الشكوى السادسة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح للمرة السادسة ليشكو فقال: «يا أيها المدير العظيم للبيت، إن حزنى يفضى إلى نزاع، واتهامى يؤدى إلى تحول، والإنسان لا يعرف ما فى القلب. لا تكن خاملاً بل اهتم بالتهمة. فإذا قطعت فمن الذى يصل؟ إن مجداف القلوب فى يدك كالعمود السهل المتناول عندما يوجد الماء العميق. فإذا ارتطم القارب فإنه يدفع ولكن حمولته تتلف وتضيع على كل شاطئ رملى».

«إنك متعلم وإنك ماهر وإنك عادل، ولكن ليس فى النهب. (والآن) فإن مثلك مثل كل بنى الإنسان كل أعمالك ملتوية، ومفسد الأرض كلها يمشى مستقيمًا إلى الأمام (لا يرى أمامه اعوجاجًا)...».

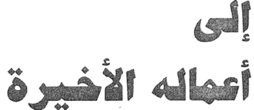


محمود دياب

من أيامه الأولى



إلى



أعماله الأخيرة

فاروق عبدالقادر

■■ حين يُذكر اسم محمود دياب (أغسطس ١٩٣٢ ـ أكتوبر ١٩٨٣) ينصرف ذهن السامع ـ عادة ـ إلى واحد من أعماله المسرحية الكبيرة: «الزوبعة» أو «ليالى الحصاد» أو «باب الفتوح» أو «أرض لا تنبت الزهور». تلك الأعمال التى وضعت اسم محمود دياب ـ مرة وللأبد ـ فى تاريخ المسرح المصرى والعربى. ورغم أنه قد رحل عن عالمنا منذ ما يقارب العشرين عامًا، إلا أنه مازال يحيا ـ على نحو من الأنحاء ـ فى حاضر المسرح العربى، فمازالت أعماله تُقدم ـ هنا وهناك ـ فى شتى أرجاء الأرض العربية.

والحقيقة أن «محمود» لم يتوقف، يومًا، عن الكتابة. اللهم إلا فى أيامه الأخيرة، حين أغلق كل الأبواب حول ذاته ساعيًا إلى النهاية، وأنه قد مارس كل أشكال الكتابة: القصة القصيرة والرواية والسيرة الذاتية، إلى جانب المسرح بطبيعة الحال: «المعجزة» هى أول أعماله التى نعرفها: مسرحية من فصل واحد، فازت بجائزة «مؤسسة المسرح» فى ١٩٦٢، لم تُنشر ولم تُقدم على المسرح، وفى العام التالى قدَّم عمله المسرحى الطويل الأول «البيت القديم» (فاز أيضًا بجائزة «مجمع اللغة العربية» لعام ٦٢ / ١٩٦٣)، قُدم بعدها على المسرح (من إخراج على الغندور)، ونُشر فى العام ذاته، فى الفترة نفسها نشر محمود مجموعة من القصص القصيرة هى «خطاب من قبلى وقصص أخرى» التى صدرت فى يونيو ١٩٦٢، ثم رواية «الظلال فى الجانب الآخر» التى نُشرت فى ١٩٦٤ (أخرجها للسينما المخرج الفلسطينى غالب شعث فى ١٩٧٢، ولعب أدوارها الأولى محمود ياسين وأحمد مرعى ومحمد حمام ونجلاء فتحى).

فلنبدأ حديثنا إذن، بالنظر فى هذه الأعمال الأولى.

١ السباحة فى مياه قريبة

* فى «المعجزة» بساطة. لا نقول سذاجة الأعمال الأولى: مصنع صغير للنسيج تريد صاحبته أن تُصفيه وتبيع آلاته، وهذا يعنى بطالة العمال. فماذا بوسعهم أن يفعلوا؟ من اللحظة الأولى يحدد الكاتب ملامح شخصياته: هم جميعًا مهددون بفقد مصادر أرزاقهم، لكنهم يختلفون فى مواقفهم إزاء هذا التهديد: أحدهم لا يدرى ما يفعل، ينوء بأعبائه العائلية، ويساوى بين جميع العاملين فى الإدارة. فكلهم أعداء. أما الثانى فلا يرى حلاً سوى إحراق المصنع إن صممت صاحبته على بيعه، والثالث ـ لا ينسى الكاتب أن يقول لنا إنه مولع بقراءة الكتب ـ فهو الأكثر وعيًا، والأكثر تفاؤلاً بما سيجئ به المستقبل. أما «المعجزة» التى تحدث ـ أو بالأحرى توشك أن تحدث ـ فهى الفكرة التى يقترحها واحد من العاملين بالإدارة: لماذا لا يقوم العمال أنفسهم بشراء مصنعهم؟ إن مكافآتهم تزيد على المبلغ الذى تطلبه صاحبة المصنع ثمنًا لآلاته، وفى وسعهم ـ بعد ذلك ـ أن يستأجروا المبانى وبقية الأدوات، ويذهب ممثلون عن العمال لمناقشة الأمر مع السيدة. صحيح أنها قد توافق أو لا توافق، لكن الأمر قد أصبح واضحًا:

سلامة: هو مافيش حل غير إن المصنع يكون ملكنا علشان نضمن قوتنا وقوت عيالنا.

العامل: لكن افرض زى ما قلت ماقدرناش نشتريه؟

سلامة: نستنى لبكرة.. ولبعده.. وكل شىء حوالينا بيتغير زى ما أنت شايف.. وعمر الفكرة ما هتضيع.. إن احنا نكون أصحاب المصنع.. وضرورى فى يوم من الأيام الجاية هنكون أصحابه..

تلك هى «المعجزة»: صدى من أصداء قرارات التأميم وإشراك العمال فى مجالس الإدارة التى جاءت بها أوائل الستينيات (١٩٦١ بوجه خاص).

وفى مياه قريبة تسبح مجموعة «خطاب من قبلى»: عشر قصص قصيرة، أبطالها جميعًا هم موضوع القصة القصيرة بامتياز: الإنسان الصغير وهو يواجه مشكلات حياته، ونلاحظ أن هذا هو العمل الوحيد الذى يضع له صاحبه إهداء وهو يهديه إلى «من أعلن ثورته على الحياة الخاملة، الحافلة بالمتناقضات، ونادى بحياة جديدة هى حق الجميع..». مرة ثانية: إنها مرحلة أوائل الستينيات، بكل ما سادها من شعارات «التحول إلى الاشتراكية»، ومن ثم يتناول القاص أشكالاً مختلفة من الظلم الاجتماعى الواقع على أبطاله: فى قصة المجموعة «خطاب من قبلى» مجموعة من العمال يعملون فى أحد مشروعات توسيع قناة السويس (القاص من أبناء الاسماعيلية، إحدى مدن القناة، وقد كتب جانبًا من سيرته الذاتية عن طفولته فيها بعنوان «أحزان مدنية ـ طفل فى الحى العربى، ١٩٧١». من الناحية الأخرى فالقصة مكتوبة بعد تأميم القناة والأحداث التى تلت هذا التأميم)، والخطاب الذى جاء من «قبلى» يحمل لأحد الرجال نبأ موت امرأته وأم ابنه الوحيد، لكنه لا يكاد يذكرها. لا يكاد يذكر عنها سوى تلك الساعات القلائل التى قضاها معها «خاصة فى حجرتهما المظلمة.. (..) غير أن هذه الذكرى نفسها لم يعد لها من أثر على ذاته سوى رعشة خفيفة..». لعله نفس العامل أو واحد من رفاقه هو ما نلتقى به فى «نص يومية»: رغم مرضه وتعبه فهو يواصل عمله الشاق صعودًا على السقالات وهبوطًا منها، فهو بحاجة إلى قروش هذا اليوم كى يسافر ليرى ابنه المريض. «وتم الأمر فى ثوان حتى أن الدهشة لم تبرح وجوه الناس الذين كانوا أسفل العمارة والذين تكتلوا حول الجثة وقد تلاشت صرخاتهم وانعقدت ألسنتهم جميعًا وخَيَّم عليهم هدوء قاتم رهيب..». سواء كان اسمه «محمدين» أو «عبد الصبور»، وسواء كان يعمل هنا أو هناك، فالمصير واحد: هو العمل الشاق، والموت يتربص بالبعيد والقريب.

والعمال ليسوا وحدهم. الموظفون الصغار كذلك. بعد أيام يُتم «ممدوح» عامه الأربعين، مات أبوه منذ عشر سنوات وخلَّف له إخوة وأخوات عليه أن يعولهم مرجئًا حقه الطبيعى فى أن يتزوج ويكون له طفل وبيت إلى يوم يبدو أنه لن يجئ، وهذه «السلفة» التى حصل عليها من أجل زواج أخته الكبرى كافية للبدء فى تنفيذ مشروعه هو، ولكن.. لا مفر: «وقال فى صوت هادئ لا ينم عن شىء: خذى الفلوس من جيب البنطلون..». وهذا رجل صغير آخر مطالَب بأن يشترى «فستانًا» لابنته، فيقرر الإقلاع عن متعته الوحيدة الباقية وهى التدخين، لكنه يلقى رجلاً أصغر، يُدينه بجنيهات قليلة، فيعطيه الجنيه الذى يملكه، ويعود للتدخين. فى ظل الفقر الشامل يستحيل تحقيق حتى الرغبات الصغيرة!

الأطفال كذلك يسحقهم هذا الواقع القاسى: «البائع الصغير» يقف أمام سور مدرسة ثانوية يبيع لتلاميذها أشياءه الصغيرة، لكنه فى ذكرى الاحتلال البريطانى يذوب فى مظاهرات الطلبة والعمال الهاتفين بسقوط الاحتلال حتى تضيع منه أشياؤه. وعلى الطفلين المُهرجيْن أن يلتقطا قروشهما القليلة من العبور ـ حرفيًا ـ فى دائرة النار. ولا يغفل القاص عن الإشارة إلى طريق الخروج من هذه الحياة القاسية: إنه التعليم وبذل الجهد فيه. وهذا ما يتضح فى قصتى: «حلم قديم» و«شيش يك..». الأولى عن فلاح فقير كان يحلم بأن يرى ابنه، يومًا، وكيلاً للنيابة، ويتحقق الحلم الذى كان يبدو عصيًا،

فانتابت الرجل فرحةٌ غامرة، لكن هذا لم يكن بلا ثمن، فهذه الحقيقة «سبقتها حقائق بيعه لفدانين من أرضه هما نصف ما كان يملك، وتضحية «أم فهيم» بكل ما كانت تعتز به من «مصاغ»، وحرمانه الطويل هو وبقية أولاده من الكثير خلال تلك السنوات..». والتعليم كذلك هو ما ميَّز «فتحي» عن أصحاب طفولته الذين لم يتموا هذا التعليم فبقوا عاطلين يعيشون على إيرادات قليلة مما تركه لهم الآباء. أما فتحي فقد أصبح طبيبًا وله عيادة في المدينة، فهل يستطيع «محسن» أن يرفض خطبته لأخته؟

تلك أهم «التيمات» المترددة في مجموعة محمود دياب الوحيدة. وبعد أن أنجز عددًا من أهم أعماله المسرحية، عاد إلى القصة القصيرة فنشر عددًا منها - فيما بين ١٩٧٠ و ١٩٧٢ - لم تجتمع في مجموعة. بين يديَّ أربع منها: «الزائدون عن الحاجة»، و«دنيا أخرى أو عشرة أيام»، و«الصيد الأخير»، وأهمها «رأس محموم في طائرة سوبر سونيك». والملاحظة الأولى حول هذه القصص أنها أكثر إحكامًا وتركيبًا من قصص مجموعته، فلا شك في أن صاحبها أصبح أكثر تمرسًا بفنية الكتابة على وجه العموم.



«البيت القديم» هو ذلك الذي هجرته العائلة لتقيم في حي جديد، فما الذي دفعها لهجرة بيتها القديم؟

هي دراما الحراك الاجتماعي والتطلع الطبقي: موزع بريد بسيط في بيته في حي شعبي، يتخرج ابنه الأكبر «أحمد» ويعمل مهندسًا، ويعمل الثاني «مصطفى» - الذي لم يكمل تعليمه - عاملاً في مطبعة، الثالث والابنة التي تصغره ما يزالان طالبين. يتعلق المهندس بفتاة جميلة بعد أن شاهدها مرات قليلة فيتقدم لخطبتها. أبوها كان «باشا» سابقًا وعضوًا في البرلمان القديم، المفاجأة أن العائلة ترحب به وتسهل أمر زواجه وتعجِّل بعقد القران، وتكون أولى نتائج هذه الزيجة إصرار المهندس على انتقال عائلته إلى عمارة حديثة في الحي الذي تقيم به عائلة زوجه.

التقابل بين هذين العالمين، إذن، هو موضوع الدراما: الأب والأم غير مرتاحين لهذا الانتقال الذي قاما به استرضاءً لابنهما، أما أكثر الجميع سخطًا وتململاً فهو الأخ العامل، وهو ذو حساسية خاصة لأنه لم يكمل تعليمه، وأنه ضحى بهذا - وما يزال يضحي - كي يوفر لبقية إخوته تعليمهم، وهو يقول لصاحبه بوضوح: «إنني لا أكاد أجد في نفسي انسجامًا مع هذا البيت أو هذا الحي بأجمعه.. الناس الذين يعيشون هنا لا يعيشون حياتهم، بل يصطنعون حياة مختلفة تمامًا..». وهو لا يخفي، كذلك حنينه للبيت القديم والحي القديم: «هناك الناس يحب بعضهم البعض، أما هنا فلا يهتم بكم أحد.. ومن يهتم بكم هنا وأنتم تسببون لهم الضيق وتشوهون أناقة الحي؟.. إنني لا أريد بيتًا نظيفًا إنما أريد أن أعيش حياة نظيفة..».

وتتطور الأحداث على نحو يناصر قضية مصطفى ويخذل مشروع أحمد في تحقيق الصعود الطبقي: إن الفتاة التي تعلق بها، ومن أجلها هجر الحي القديم والبيت القديم ليست سوى «بلهاء» عاجزة عن التفكير، تتصرف - رغم أنها في العشرين - تصرف طفلة لم تبلغ العاشرة، وكان هذا وراء تسهيل العائلة أمر زواجه منها، وتعجيلها بعقد القران دون أن تتيح له فرصة كافية للتعرف عليها. من الناحية الأخرى يحرز مصطفى نجاحًا ساحقًا في انتخابات النقابة، وهو لا يستطيع إخفاء فرحته، ويتوجه بحديثه إلى أحمد: «تسعون في المائة من الأصوات.. تصور.. هل جرَّبت في حياتك أن يحملك الناس على أكتافهم؟.. إنني لم يسعدني النجاح في ذاته إنما أسعدتني ثقة الزملاء.. حب الناس.. (..) عندما حملني هؤلاء الناس وراحوا يهتفون لي خطرت لي فكرة مفاجئة: إن هؤلاء الزملاء يهدفون إلى شيء ما كامن في نفوسهم.. لا يستطيعون التعبير عنه لأنهم لم يتعلموا.. ثم خطر لي أنهم لابد يريدون شيئًا أبعد من مصالحنا النقابية.. يريدون إحداث تغيير في شيء مهم وجوهري..».

كان ذلك همًا موجودًا في الواقع، وهاجسًا في ضمائر المبدعين، وبينهم المسرحيون بطبيعة الحال. ولعل التعبير عنه قد بلغ أوْجَه في مسرحية نعمان عاشور «عيلة الدوغري» التي عُرضت في الموسم المسرحي التالي (٦٣ / ١٩٦٤)، ووجدت شخصية أحمد تطويرًا وبلورة في شخصية «مصطفى الدوغري» الذي يتخلى عن طبقته وامرأته، مصعدًا نحو اللحاق بطبقة أخرى. وسوف نلتقي ببيت قديم آخر عند محمود دياب.. في واقع متغير - بعد أكثر من عشر سنوات، حين كتب «قصر الشهبندر».



في عوامة على النيل يقيم أصدقاء أربعة من طلبة كلية الفنون، لكل منهم حكاية. والرواية في فصول أربعة، يروي ثلاثة منهم حكاياتهم، تتخللها حكاية الفتاة «روز» التي دخلت حياتهم مع واحد منهم. ونلاحظ أن هذا الشكل كان سبيلاً ممهدًا في الرواية العربية منذ نشر فتحي غانم رباعيته الكبيرة «الرجل الذي فقد ظله» في ٦١ / ١٩٦٢.

«جميل» هو من يبدأ الرواية، وهو أوفى الشخصيات حظا من اهتمام الكاتب: جاء القاهرة يدرس الفنون، ووراءه أب هو صورة نموذجية لطاغية ريفي صغير، وجميل - بدوره - صورة نموذجية لأولئك الشباب القادمين من الريف يحملون عللاً في النفس والروح، يصدر عن رؤية «كلبية» للعالم والبشر، فهو يحتقر الناس ويستخدمهم أدوات لتحقيق رغبات ذاته المتضخمة دون مبالاة بهم أو اهتمام بمشاعرهم، وهذا ما يتجسد في علاقته بالفتاة الجميلة البريئة «روز»: كانت في الخامسة عشرة حين عرفها، أغواها فأحبته وتعلقت به حتى حملت منه، وحين وضعت بنتًا أهملها جميل وتجاهلها وراح ينصب شباكه حول زميلة له في الكلية. إنه ليس «الوغد التقليدي» لكنه محتقر للآخرين متعال عليهم يكاد يكون كارهًا للبشر، وحين تموت ابنته لا يعرف الشعور بالذنب، لكن الروائي أخلاقي ذو ضمير يقظ، وهو، من ثم، يعطيه جزاءه الحق: تنقطع عنه معونة أبيه فيعرف الفقر والإملاق، وتتكره صاحبته وأصدقاؤه «وازدادت حالة جميل سوءًا يومًا بعد يوم، وكانت عيناه قد فقدتا بريقهما، وجف عوده وذبل وجهه، وصار لا يعتني أقل عناية بمظهره..». إنهم هم - أعني أصدقاءه أولئك - هم الذين يقفون إلى جانب روز حين تموت ابنتها ثم حين تحاول الانتحار، ويسعى واحد منهم: «إسماعيل» الذي يبدو أكثرهم خشونة وإن كان باطنه يترقرق بإنسانية عذبة، حتى يجد لها عملاً في محل يبيع العطور في وسط المدينة، ومن ثم يهيئ لها سبيل بداية جديدة بعيدًا عن جميل وبلاياه. ولا شك في أن حرارة التجربة قد صهرتها وجعلت أقدامها أكثر ثباتًا على الطريق.

ولعل الاختلافات بين تكويناتهم النفسية والعقلية تتبدى في «المشروعات» التي يختارونها لإنجاز تخرجهم: اختار إسماعيل موضوع «عمال البناء»، وهو يتحدث عنه وعنهم: «إن الجهد الأسطوري الذي يقوم به هؤلاء الناس جدير بأن أسجله في مشروع.. (..) انظر إلى وجه الرجل فيهم، إلى التعبير القاسي الذي يطل من عينيه، إلى الظلال التي تبرز تقاطيع وجهه الفرعوني النحاسي المغبَّر، وعضلاته النافرة، انظر إليه وهو نائم كالميت، ثم وهو ينهض بانتفاضة ليتابع الشقاء من جديد.. ويُغني..». بالمقابل: اختار مصطفى أن يرسم «المعذبات» يعني بنات الليل اللائي كان بعضهن يتردد على العوامة مقابل قروش، يقول: «بدأت أنفذ مشروعي فتعاقدت مع اثنتين من الموديلات عرفت أن لهما نشاطًا في الظلام.. وهذا تؤكده ملامحهن ذات الطابع الخاص الذي لا تكتسبه إلا من تزاول هذا النشاط، وراء هذا المظهر الذي يبعث الاشمئزاز يكمن الألم في أقسى صوره، حيوانية بشعة تخفي وراءها أعمق معاني الإنسانية». غير أن مصطفى مزَّق ما أنجزه من مشروعه وتحول إلى آخر عن «الفلاحين» لعله يتمم مشروع إسماعيل. ولأن كلاً من الأبطال الأساسيين يروي الوقائع من وجهة نظره، وكما يراها، فلا يتوقع القارئ أن يجد الحقيقة كاملة، فإن كثيرًا من «الظلال تبقى «في الجانب الآخر».

قلت إن المخرج الفلسطيني غالب شعث اختار هذه الرواية وقام بإعداد السيناريو والحوار لها ثم أخرجها في ١٩٧٢، لكن الرقابة رفضت عرض الفيلم، ولم تُصرِّح به إلا في ١٩٧٤، أي بعد حرب أكتوبر، ولعل هذا المنع يتضح في ضوء التعديلات التي أجراها المخرج على نص العمل، وأهمها اثنان: الأول أنه جعل أحداثه تدور في ٦٧ - ١٩٦٨، والثاني أنه أضاف شخصية خامسة لطالب فلسطيني، يلتحق بالفدائيين بعد ١٩٦٧، ويغيِّر مشروعه أيضًا من تصوير «اللاجئين» إلى تصوير «الفدائيين».

٢ مسرحيات الستينيات: علاقة متوترة بين الفرد والجماعة

* على نحو من الأنحاء، يمكن القول إن بداية محمود دياب الرائعة كانت مسرحيته «الزوبعة»: فرغ من كتابتها في ١٩٦٤، وبدأ «المسرح الحديث» إخراجها في القاهرة في فبراير ١٩٦٦، ثم توقف العمل فيها وأُرجئت للموسم التالي، لكن عبد الرحيم الزرقاني أخرجها لفرقة إقليمية هي فرقة «البحيرة»، وتبعه حسين جمعة فأخرجها لفرقة إقليمية أخرى هي «كفر الشيخ»، وعرض الزرقاني هو الذي شهده الجمهور في القاهرة فلفت الأنظار - بقوة - إلى صاحبها، وكانت بدايته الرائعة كما أشرت.

كانت زوبعة حقيقية عصفت بالقرية الصغيرة وقوَّضت أمنها الزائف القائم على الجريمة والاغتصاب وشهادة الزور وتملق من يملكون وازدراء من لا يملكون. «حسين أبو شامة» - الذي يُفجِّر غيابه، لا حضوره، هذه الزوبعة - كان مظلومًا، لم يقتل ولم يسرق، لكنه أصبح هدف العدوان في القرية الظالمة، فاتُّهم بالقتل والسرقة وشهد عليه رجال من القرية بذلك، وحين حُكم عليه بعشرين عامًا يقضيها في السجن انتزع رجال القرية أرضه وبيته، وأحاطوا العائلة التي تركها وراءه - «صالح» و«صابحة» وأمه العجوز - بكل مظاهر الازدراء والاضطهاد - ثم يأتي ثرثاران من القرية إلى القاهرة ليعودوا ويعلنا النبأ: لقد أطلق سراح «أبو شامة» وهو قادم للقرية، متوعدًا هؤلاء الذين تسببوا في ضياع سنوات عمره وإذلال أسرته، كل سنة قضاها في السجن برجل من رجال القرية، وتندفع الزوبعة لتجتاح كل شيء، تهز أمن الجماعة الزائف فتهتز قلوب الجميع، وتتحرك مشاعر الذنب كالأفاعي في الصدور. حسين أبو شامة جَسَّد ضمير هذه القرية وإثمها في ذات الوقت، هو الضحية الذي سيصبح

يمكن القول إن بداية محمود دياب الرائعة كانت مسرحيته «الزوبعة»: فرغ من كتابتها في ١٩٦٤، وبدأ «المسرح الحديث» إخراجها في القاهرة في فبراير ١٩٦٦، ثم توقف العمل فيها وأرجئت للموسم التالي



التكفير، ومن خلال الزوبعة تنكشف الحقائق ويتعرى الزيف والكذب، فيصبح «صالح» و«صابحة» محط الأماني وموضوع التقرب والزلفى، ويحاول كل من اغتصب شيئًا من الأسرة البائسة رده إليها، عسى أن يكون فى هذا تكفيره وخلاصه، ومبرر نجاته من رصاصات القادم يتوعد الآثمين.

لسنا بحاجة إلى القول إن «حسين أبو شامة» لم يصل أبدًا إلى القرية، وكيف يصل رجل مات فى السجن قبل سنوات أربع كما يؤكد رفيقه الذى عاد؟ انزاح عن صدور الآثمين عبء ثقيل، لكن أشياء كثيرة قد تغيرت فى ذات الآن. أهم التغيرات تلك الخدوش فى مظهر الجماعة البراق الزائف. لم تعد الأمور بعد الزوبعة كما كانت قبلها: بدأت فى التمايز أصوات الأفراد التى كانت ضائعة فى ضجيج الجماعة، وقال شباب ورجال من القرية إنهم واقفون إلى جانب صالح وأسرته المظلومة، مات أبو شامة أو بقى على قيد الحياة. وصالح نفسه، بعد أن كان منطويًا على ذاته، يجتر ذلته وأساه، تطرده الجماعة دائمًا خارج أسوارها وتوصد أبوابها فى وجهه، أيقن أنه لا سبيل سوى العمل كى يفرض وجوده داخل الجماعة ومكانه بين أفرادها، سيزرع قطعة أرضه التى رُدت إليه، وسيضاعف من جهده فى خدمة أرض «الشيخ يونس» ـ فقيه القرية وصوت ضميرها الذى لا يستمع إليه أحد، وسيتزوج بالفتاة التى يهواها وتهواه، وأخته صابحة سوف تجد الرجل الذى يريدها، وسيعيشان داخل الجماعة لا خارج أسوارها.



وقد أُشبعت «الزوبعة» نقدًا وتفسيرًا، ومهما قيل تظل تحتمل مزيدًا من القول إنها ليست حكاية «قرية ظالمة» فقط، لكنها يمكن أن تكون حكاية النفس البشرية والمجتمع الكبير، ويمكن أن تكون حكاية الفرد فى مواجهة الجماعة، ويمكن أن تكون حكاية الجريمة التى تقع نتيجة تواطؤ أصحاب المصلحة وشهود الزور والسلبيين المنقادين لضغوط الجماعة، والعدالة التى لا يمكن أن تتحقق وحدها، بل لابد من الجهد والعمل لتحقيقها. قد تكون «الزوبعة» هذا كله وغيره معًا، وهذا سبب اعتبارها واحدًا من أفضل الأعمال التى قدمها المسرح المصرى فى تلك الفترة، ثم هى لا تقول ما تقوله بحوارها الذكى وحده، بل بنسيجها الدرامى كله، ببنائها البسيط والمحكم فى الوقت ذاته. قد يكون ثمة قدر من التطويل هنا أو هناك، أو خيط «ميلودرامى» يبرق ويختفى، لكن النص متماسك خلال فصوله التقليدية الثلاثة.

وقد نذكر هنا واقعة كانت لها آثارها على تقديم أعمال محمود دياب فيما بعد: بعد أن عُرضت «الزوبعة» على خشبة «المسرح الحديث» بشهور قليلة، عرض «المسرح القومى» المسرحية السادسة لسعد الدين وهبة «بير السلم» (من إخراج سعد أردش)، وهى تدور حول عائلة «الشبراوى» الكبير القابع فى «بير السلم»، لا نعرف أهو حىٌ فُيرجى أم ميت فيُنعى، ابنته «عزيزة» وحدها هى المؤمنة به، وهى الواثقة بأنه سيعود يومًا قريبًا، فيعطى لكل من حوله ثوابه أو عقابه، وحين يقوى اليقين بأنه سيخرج من مكمنه يتغير سلوك الشخصيات من النقيض للنقيض: الانتهازى يقلع عن انتهازيته، والمعتزل يخرج عن عزلته، والزوجة الخاطئة تصيبها نوبة قلبية تودى بها، والطفيلى الآخر يتهيأ للرحيل. قال محمود دياب إن «سعدًا» قد سطا على الفكرة الرئيسة فى مسرحيته: أليس «الشبراوى» مكافئًا «لأبى شامة» من حيث إن كليهما يفجِّر غيابه، لا حضوره، الأحداث فى العمل، وفى ضوئه

محمود دياب

أعمال
محمود دياب
تقدم
قرية
جنة
يعيش
فيها
بشر
أحياء،
يتفاعلون
ويفعلون
ويدخلون
فى علاقات
رفض
وقبول

تتحدد مصائر الشخصيات؟ تحدث محمود بهذا لأصدقائه، ونُشر على لسانه هنا وهناك، ووجد صداه بين المهتمين والمشتغلين (كتب محمود العالم ـ وكان من أكثر نقاد المسرح جدية ومتابعة آنذاك»: ولعلنا نجد لهذه المسرحية كذلك آثارًا فى مسرحية «بير السلم» للأستاذ سعد الدين وهبة.. التى كُتبت بعد مسرحية «الزوبعة». وقد تختلف المسرحيتان من حيث البناء والفلسفة، فمسرحية «بير السلم» مسرحية رمزية فلسفية، على حين أن مسرحية «الزوبعة» تتجه إلى التعبير الطبيعى المباشر، لكن المسرحيتين تلتقيان حول معنى واحد هو الأب الغائب..(..) ولكننا فى الحقيقة نجد فى مسرحية محمود دياب معانى أكثر عمقًا وأشد إيجابية وأكثر تفاؤلاً مما نجده فى مسرحية «بير السلم» ـ «المصور، ٦/١/١٩٦٧). كان سعد ـ آنذاك، ومنذ أن ترك العمل الصحفى فى جريدة «الجمهورية» فى ١٩٦٤ ـ أحد مراكز القوى فى مؤسسات الثقافة الرسمية، وقد بلغ فى وزارة الثقافة أرفع مناصبها أى وكيلها الأول. وكان محمود دياب يؤكد دائمًا أن «سعدًا» واقف لأعماله بالمرصاد، وأنه لم يكن بعيدًا عن المصادرات المتتالية التى تعرضت لها هذه الأعمال، وبعضها كان يوقف عرضه بعد أن تنتهى بروفاته (حدث هذا أكثر من مرة، والوقائع معروفة لمن عاش تلك الفترة). اليوم، وقد رحل الرجلان عن عالمنا، هل نستطيع أن نقطع برأى فى هذه الدعوى؟

يُخيل إلىَّ أن فى دعوى محمود دياب قدرًا كبيرًا من الصحة. وليست المسألة مقصورة على العلاقة بين «الزوبعة» و«بير السلم» فقط، لكنها قد تكون متعلقة كذلك باختلاف قرية محمود دياب عن قرية سعد الدين وهبة، بعبارة أخرى: إن شهرة سعد ـ فى أعماله الأربعة الأولى التى عُرضت على التوالى: «المحروسة، ١٩٦١»، «كفر البطيخ، ١٩٦٢»، «السبنسة، ١٩٦٣»، ثم «كوبرى الناموس، ١٩٦٤» ـ قامت على تقديمه للقرية المصرية، قبل ١٩٥٢ فى الغالب، وكلها تدور «حول» القرية، لا «فى» القرية، أى أنها ترى القرية بعينى ابن المدينة العامل فى البوليس أو الإدارة، ونحن لا نعرف أهلها إلا من حيث هم موضوع استغلال وتسلط من جانب إدارة فاسدة تبدأ بالعمدة الجشع، وتنتهى إلى الملك فى قصره، مرورًا بالمأمور وأعضاء المجالس النيابية وكبار ملاك الأرض جميعًا. أما أعمال محمود دياب فتقدم قرية حية يعيش فيها بشر أحياء، يتفاعلون ويفعلون ويدخلون فى علاقات رفض وقبول، إضافة للدلالات الإنسانية الشاملة التى تشير إليها الشخوص والأحداث. وإذا أضفنا إحكام البناء فى العمل المسرحى، رأينا أن مسرح دياب يمكن أن يكون تهديدًا قويًا للمسرح الذى قدمه سعد الدين وهبة، الذى لم تَخْلُ حياته أبدًا من معارك ضارية يكيل فيها الضربات ويتلقى الضربات، وتبقى ـ فى معظمها ـ كتيمة تدور تحت السطح، لكنها قد تنفجر أحيانًا فتشغل الناس، وهو يضع طاقته الضخمة، وشبكة علاقاته وقربه من صانعى القرار، وخبراته الواسعة فى خدمة مواصلة صعوده، فماذا بوسع محمود دياب ـ الذى لا يملك غير موهبته ـ أن يفعل؟



وفى ١٩٦٨ عُرضت المسرحية التالية التى أكدت رسوخ قدمى دياب على أرض المسرح: «ليالى الحصاد» (من إخراج أحمد عبد الحليم، لعب أدوارها الأولى محمود السباع وسهير المرشدى والمخرج نفسه). مرة ثانية: هى تلك العلاقة الجدلية المتوترة بين الفرد والجماعة، فى بناء أكثر إحكامًا وإمتاعًا وصعوبة. الحدث المسرحى فى «ليالى الحصاد» يتخلق أمامنا على ثلاثة مستويات متداخلة على المسرح، تبدأ بذرته على أحد المستويات لتنمو على المستويين الآخرين فى تداخل وتخارج متصاعدين على طول فصول المسرحية أو «أبوابها» الثلاثة: فى ليلة من ليالى «السامر» تبدأ القرية فى الكشف عن مأساتها الحقيقية. لم يكن هذا هو الهدف فى البداية كما يبدو، فحسَّان «الغاوى» منشد القرية وفنانها، يقول لنا إنها مجرد ليلة من ليالى الحصاد، يفرغ فيها الفلاحون إلى لهوهم وسمرهم، وأغانى الحصاد تترامى إلى أسماعهم من بعيد، ويبدأ السامر بأن يُقلِّد صغار القرية وشطارها هؤلاء الكبار فيها وما يفعلون من طرائف، ويتبادل الممثلون الأدوار فى سرعة وخفة ومرح، ثم تبدأ المسرحية فى الكشف عن الوجه المأساوى للقرية من وراء هذا القناع.

بصبر واقتدار، ينتقل الحوار على مستويات المسرح، وترسم كثير من التفاصيل حكاية «البكرى» و«سنيورة»: المحور الرئيس أو اللؤلؤة الدرامية داخل هذه المحارة الجميلة: سنيورة، حسناء القرية المشتهاة من الجميع والملعونة منهم فى الوقت ذاته، تقيم مع أبيها البكرى فى بيت يقع بين بيوت القرية ومقابرها، وبالضبط لم يكن البكرى أباها، لكنه عثر عليها طفلة ملقاة بين المقابر، فى نفس اليوم الذى دفن فيه امرأته الوادعة التى لم ينجب منها، وعاشا معًا من ذلك اليوم على أطراف القرية، يفرضان وجودهما على كل من فيها، فالبكرى مكروه لكنه ضرورى، هو صورة من عمله الذى يؤديه: يكوى بهائم القرية ورؤوس أطفالها بالنار كى يداويها، وهو مشهور بين أهل القرية ـ وأمامنا ـ بشىء آخر: إنه نَهِم دائمًا إلى المعرفة، ما من ورقة تقع فى يده يفلتها دون أن يقرأ له أحد ما فيها، ولا تحمل إليه هذه الأوراق عن العالم البعيد إلا أخبار الحرب والجريمة. والبكرى لا يستطيع الاستغناء عن سنيورة، هى نور ظلامه، والدفء فى قلبه المنعزل المرتجف، ليس هذا فقط، بل إن فى حرمانها كل الرجال الذين يتقدمون لها استئثارًا بها لنفسه، استئثارًا نلمح فيه طابعًا شهويًا لا يُخْطأ، إنما لهذا يرد عنها كل الطامعين. تُفتن القرية بسنيورة، ورجالها ـ حتى الكبار منهم، والحريصين على وقارهم ـ يغاز لونها، ويفتحون العينين الجميلتين البريئتين على الفساد والشرور. على رغمها، أسقطت الجماعة على سنيورة اشتهاءها، ومن ثم عدوانها، وعلى رغمها أيضًا تتسلل هذه الصورة إلى سنيورة فتصبح حقيقتها: مصدرًا لكل الشرور فى القرية: بسببها فقد «حسن أبو شرف» ذراعه، ونتيجة للمعركة التى تسببت فيها بين القريتين احترق «محجوب» وترك امرأته وأطفاله الثلاثة ينوحون وينتظرون عودته، وهجر «الشيخ نور الدين» إمام القرية وفقيهها ومعلمها المسجد، فلم تعد تقام فيه الصلوات، وقال للناس إن الشر فى قريتهم، وأنه لن يعود إليهم حتى يتطهروا. ليس كل هذا فقط ما تسببت فيه سنيورة، هناك أيضًا «على الكتف»: أمهر سواق فى المركز، من أجل سنيورة أضاع حقيقته وهجر عمله، وجاء ليقيم فى القرية ـ تحت أقدام سنيورة وقريبًا منها ـ بلا عمل ولا أمل، هُزأة للرجال فيها.

هذا كله يتكشف لنا على طول فصول المسرحية الثلاثة من خلال لعبة تبادل الأدوار وإخراج الانفعالات المكبوتة. وتستعرض محكمة القرية شرور سنيورة، وتحكم عليها، وعلى البكرى، بالخروج من القرية كى يعود إليها الخير والنور. إن الجماعة تنبذهما تمامًا بعد أن امتصا الصورة السوداء التى أسقطتها عليهما، ويخاف البكرى من الوحدة والارتجاف، ومن سنيورة التى يحملها بداخله، ويقرر أن

يتواءم مع الجماعة، فيُصدر - باسم القرية - حكمه على سنيورة بالموت، ويندفع على الكتف - أكثر الذين أضيروا بسببها، وبعد أن رفض هو وكل الرجال الزواج بها - لتنفيذ الحكم تندفع الصرخة من خارج المسرح وبعدها تندفع المفاجأة: إن سنيورة لم تمت، ليست هي التي قُتلت، بل فتاة بريئة لا شأن لها بالأمر كله، وينهار الخيط الرقيق الذي يفصل الحقيقة عن الخيال أمام عينيْ على الكتف (وكان يحرص دائمًا على إخفائهما وراء نظارة سوداء)، وينفتح أمامه باب الجنون على مصراعيه.

والمسرحية على هذا النحو تحتمل أكثر من تفسير واحد، وسنيورة ترتفع إلى شفافية الرمز من خلال تفردها، وفي المسرحية إشارات كثيرة يمكن أن تخدم هذا التفسير أو ذاك، لكن كل التفسيرات يمكن أن يشملها إطار عريض واحد هو العلاقة الجدلية المتوترة دائمًا بين الفرد والجماعة، بين الجزء المتميز والكل الذي ينتمي إليه، وهذا هو الاتجاه الذي مضت فيه أغلب الكتابات النقدية الجادة التي احتفت بالمسرحية احتفاء كبيرًا.

لقي العرض الأول لليالي الحصاد نجاحًا نقديًا أكثر مما لقي من النجاح الجماهيري. قُدم العرض على مسرح كان يُفتتح للمرة الأولى آنذاك (مسرح الزمالك) إضافة لصعوبة النص وغيبة النجوم. بعبارة ثانية: لم يلق العرض الإقبال الجماهيري الذي يستحقه، لكن النص نفسه بقي، وسيبقى طويلاً، درة من درر مسرح محمود دياب والمسرح العربي على الإطلاق. والدليل الذي لا ينقض أنه مازال يُقدم ويلقى الإقبال في فرق الهواة والمسرح الجامعي ومسارح الأقاليم والمسارح العربية بعد أكثر من ثلاثين عامًا من عرضه الأول.



بين عرضيْ «الزوبعة» و«ليالي الحصاد» قدم محمود مسرحية من فصل واحد هي «غريب» (من إخراج نبيل منيب، قدمت مع مسرحيتين قصيرتين أخريين على «المسرح القومي» في ٦٦/١٩٦٧)، وبعد «ليالي الحصاد» قدم مسرحيتين قصيرتين أيضًا هما «الضيوف» و«البيانو» (أخرجهما أحمد عبد الحليم «لمسرح الحكيم» أول ١٩٦٩).

«غريب» يصل إلى قرية صغيرة من قرى «الشرقية» في الأيام التي تلت انتهاء الحرب العالمية الثانية، مُجْهدًا يرتمي تحت شجرة في مدخل القرية، تكتشفه «حليمة» ابنة «الشيخ يونس» فقيه القرية الضرير (الذي أصبح من ثوابت قرية محمود دياب)، وتصحو القرية على خبر الغريب الذي وصل القرية بعد طواف طويل، ومن خلال حوار بالإشارات وأنصاف الكلمات نعرف أنه أسير ألماني جاء هاربًا من معسكر للأسرى في «التل الكبير». بين أهل القرية رجلان دمرت الطائرات الألمانية بيت قريب لهما في مدينة الإسماعيلية وقتلت أفراد أسرته، وهما يريدان أن يثأرا من هذا الأسير، ويرفض الشيخ يونس - فهو ضمير القرية أيضًا وصوت الحق فيها - ويعلن أن الأسير في حمايته، ثم يرسل في استدعاء فتى يذهب إلى المدرسة كي يستطيع التفاهم مع الغريب. وفي كلمات إنجليزية قليلة وعاجزة نفهم أن هذا الغريب ليس له مكان يستطيع الرجوع إليه، فالحرب نفسها قتلت زوجته وطفله في ألمانيا، ولم يبق أمامه سوى أن يقيم حيث هو، وهو يستطيع أن يكون مفيدًا لأهل القرية وأن يمد يد المساعدة لهم بإصلاح ماكينة المياه فيها، إن لديه خبرات ومعارف تحتاجها القرية، وعن طريق المشاركة والعمل يمكن أن يبقى بين أهلها ويساهم في حياتها. ويهبط الستار على مشاعر خفية وخجول تُنسج بينه وبين حليمة. نص بسيط يدين الحرب ومآسيها من ناحية، ويؤكد دور العمل في الانتماء للجماعة، من الناحية الأخرى.



ماذا يحدث حين يرسل أحد رجال القرية الذين غادروها صغارًا وعاشوا في المدينة رسالة إلى أهل قريته ينبئهم فيها أنه قادم ليقضي بينهم أيامه بعد أن أحيل إلى التقاعد؟

الذي يحدث أن رجال القرية ونساءها جميعًا يختلفون أشد الاختلاف حول قرابة «الضيوف» القادمين لكل منهم، كلهم يؤكد أنهم أقرباؤه ويبحث في شجرات العائلة عن الصلات التي تربطهم بالأعزاء القادمين من المدينة، وكلهم يتنازعون حق استضافتهم، وفي الظل تقف شخصية كانت بحاجة لمزيد من العناية. اسمه: «حسين أبو والي» وصناعته: من الأعيان. وبعد انتظار مرهق يأتي الضيوف: ثلاث شخصيات «كاريكاتورية»: البك وابنه وابنته. هكذا يحدث اللقاء بين المدينة والقرية: المدينة تهذي بكلام غير مفهوم، البك يستشهد بأبيات الشعر وبلاغة القدماء، الفتى والفتاة نافران من أهل القرية، متأففان ممن يقترب منهما، والفتاة تلبس ثيابًا قصيرة تستثير سخط النساء وتسيل لعاب الشباب، والترانزستور في يد الفتى يهذي بضجيج غير مفهوم كذلك. اتضح، إذن، أن المدينة والقرية عالمان منفصلان، لا يمكن أن يلتقيا، هنا يحدث التحول في نفوس أهل القرية جميعًا فيتملصون من وعودهم، وإلى بيت «حسين أبو والي: من الأعيان» ينتقل الضيوف، ليس مهمًا أن يكون قريبهم أو لا يكون، المهم أن في بيته حمامًا ومقاعد نظيفة وأسرَّة مريحة.

هؤلاء «ضيوف» محمود دياب وما فعلته بهم القرية: قرية بلا ملامح وشخوص بلا تمايز، والقادمون كاريكاتير مبالغ فيه كي تحدث المفارقة، والعمل لا يقدم سوى تلك الفكرة التي كانت بحاجة لمزيد من العناية: إنهم سيقبلون ضيافة واحد ليس قريبهم، لكنه «من الأعيان».



«البيانو» بطل المسرحية التالية، يمتلكه موسيقي فقير يسكن بيت واحد من تجار «الخردة». من البداية: الفن والحس الرقيق المرهف في مواجهة التجارة والسوقية والحس الغليظ، يضيق الفنان بظروفه المادية العسيرة فيقرر السفر، لكنه لا يقوى على بيع البيانو فيتركه رهينة لدى «المعلم» حتى يعود أو يصبح من حقه أن يبيعه وفاءً لديونه. الفنان حزين، لكنه لا يستطيع أن ينقل إلينا حزنه أو يقنعنا به أو يبرره لنا، إنه ليس أسى الفنان لكنه ضائقة مالية، هو حزن مسطح يعجز عن نقله إلينا لكنه ينقله إلى المعلم بعد أن عزف له لحنًا قصيرًا.

المهم الآن أن ملكية البيانو تؤول إلى المعلم، فماذا هو فاعل به؟ أفرد له حجرة خاصة حرَّم دخولها على امرأته وابنه «عنتر» وتملكته رغبة جارفة في أن يتعلم العزف عليه، ويتقارب مع ابنه الصغير الذي عرف أنه بيانو ولم يسخر منه، فطلب منه أن يأتيه بمدرِّسة الموسيقى في مدرسته كي تعلمه العزف، ويكشف المعلم عن عجز وغباء، وتبذل مُدرسة الموسيقى جهدًا ووقتًا طويلين دون أن يفلح في تعلم الحروف الأولى من السلم الموسيقي. فشل المعلِّم إذن، وهُزم. لا فائدة. لن يتعلم البيانو، ولابد أن يرجع عن غيِّه ويبقى البيانو قائمًا كضريح مهجور، رمزًا للعجز والفشل، لقد حاول أن يدخل عالم الفن والحزن فخرج بالحزن وحده، ويقرر المعلم أن يبيع البيانو، ابنه الصغير يدخل والتاجر يفحص البيانو كي يشتريه، يقترب الصبي ويوقِّع عليه لحنًا ساذجًا، فيقرر المعلم أنه لن يبيعه كي يبدأ ابنه من البداية.

لأن التحول في البداية غير مبرر فلابد أن يكون الحل في النهاية غير متوقع. ثم: لماذا يعجز المعلم عن تعلم البيانو؟ ليست المسألة هنا أن يكون فنانًا أو لا يكون، لكنها مسألة تعلُّم. فآلاف وآلاف يستطيعون أن يتعلموا السلم الموسيقي ولا يرتفعون إلى مستوى التأليف. عجز المعلم، إذن، عجز عن أن يكون متعلمًا لا أن يكون فنانًا، إنه عجز عن أن يكون إنسانًا، من حيث إن التعلم إمكانية إنسانية.

حين عُرضت هاتان المسرحيتان في ١٩٦٩، كتبتُ عنهما تحت عنوان أعتقد أنه ذو دلالة: «التقاط الأنفاس بعد شوط مجهد..»، وكنت أعني شوط «ليالي الحصاد» (روز اليوسف، ١٩٦٩/٣/١٠).



وفي ظل «ليالي الحصاد» أيضًا كتب محمود دياب آخر مسرحيات الستينيات «الهلافيت»، في ظلها نصًا وعرضًا: هي المسرح - داخل المسرح، وهي إخراج الانفعالات المكبوتة والأحزان التي لا تجرؤ على الظهور. والهلافيت - بالتعريف - هم هؤلاء «الذين لا يملكون شيئًا سوى أنفسهم إذا اختلوا بأنفسهم، أما إذا التقوا بالمجموعة المهمة فهم ملك لها.. إنهم هؤلاء الذين وُجدوا في القرية يعملون في خدمة الآخرين، في الأرض أو في البيت مقابل أجر، ثم هم في أوقات فراغهم يُضحكون الآخرين بغير أجر..»، والمكان هو ذات المكان.. «مكان ما فسيح بالقرية، ليكن الجرن مثلاً.. يبدو أساسًا كانما أعدته القرية لسهراتها..».

في أمسية ذات قمر، ذات صيف، تأخر الشاعر عن الوصول في موعده، ودفعًا للضجر أرادت «الجماعة المهمة» أن تتسلى. هذه الجماعة تضم «منصور أبو سعد» و«الحاج مبارك» وشيخ الخفر و«محمود أبو عامر»، ويقدمه المسرحي بأنه الذي يتولى الاهتمام بالشؤون القضائية المتعلقة بأهل القرية في المركز أو المحافظة..». هؤلاء سادة القرية ومستغلو أهلها. وفيما بين هذه الجماعة - من ناحية - وجماعة الهلافيت - من الناحية الأخرى - ثمة «المجموعة المتفرجة»، وهم الباقون من أهل القرية، هم «الأغلبية الصامتة» لو صح التعبير، هي صامتة لكنها ليست مصمتة، فحين تتصاعد الأحداث ستجدهم منحازين إلى جانب المسحوقين، فهم منهم في نهاية الأمر.

البذرة التي تنمو هي التي يطلقها «كبير القرية» منصور حين يقول لشحاتة: أكثر الهلافيت حيوية: «من الساعة دى.. ولغية ما ييجي حسان الشاعر.. انت عمدة الجعدة دى كلها.. (..) هو إللي هيترأس الجعدة بحالها.. يجول زي ما هو عايز.. يتصرف على مزاجه.. وطلباته كلها مجابة..». وبطبيعة الحال لا يصدق الهلفوت شحاتة ما يسمع، لكنه، تدريجًا، يتبين حقيقة الأمر: «ضروري هم عايزين يضحكوا.. طب وماله لما أضحكهم.. ما فيهاش حاجة.. أنا أتكلم وأعمل عمدة وهم يضحكوا.. يعني كل واحد ياخد حقه..»، وهو قد تلقى وعدًا بأن كل طلباته مجابة، ويريد أن يمتحن جدية الوعد، فيطلب أن يتعشى، ويفاجأ حين يلبي منصور طلبه ويأمر أحد أتباعه أن يأتيه بالعشاء من البيت، جمع شحاتة الهلافيت من حوله، وجعل من «الجحش» (لا يعرف لنفسه اسمًا آخر) نائبًا له، أو «شيخًا للبلد»، وثمة هلفوت كبير يقدمه المسرحي بأنه «شيخ الهلافيت، في الثمانين تقريبًا، مريض بالقلب، يمشي على عكاز ولا يتكلم إلا همسًا»، ومعه ابنه الذي يسمع همساته ويبلغها للناس، هذا الهلفوت الكبير سيتدخل ليوجه اللعبة من بعيد، ويشير على

ماذا يحدث حين يرسل أحد رجال القرية الذين غادروها صغارًا وعاشوا في المدينة رسالة إلى أهل قريته ينبئهم فيها أنه قادم ليقضي بينهم أيامه بعد أن أحيل إلى التقاعد؟







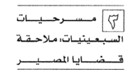
الهلافيت بما يفعلونه في اللحظات الحاسمة.

طيب. بعد أن شبع الهلافيت وملأوا بطونهم، ماذا سيفعلون؟ طالبوا، أولاً، بحق التعبير، الحق في أن يقولوا ما يشاؤون، ما يثقل عليهم. ومن ممارسة هذا الحق الأوّلي تجسدت تفاصيل المأساة التي يعيشونها: «إيصالات الأمانة» التي يوقّعونها لحساب منصور، ومواشيهم القليلة التي يشاركهم فيها، وحين يعجزون عن السداد يشتريها شريكه مبارك. انظر إلى الخدعة التي يمارسانها كما تجرأ واحد من الهلافيت وأفشى سرها: «أني عايز حد يفهمني.. إزاي جاموستي تتباع بسعرين.. الحاج مبارك جال اشتريها بخمسين.. جُلت له مش موافج.. رجع وجال لي كلم سي منصور.. سي منصور جال لي بيع له بخمسين.. وبعت بخمسين.. أخدت خمسة وعشرين وروّحت الدار.. أخويا إبراهيم إمبارح كان في السوج.. سمع سي منصور بيحاسب الحاج.. الحاج باع الجاموسة وإداله خمسة وتلاتين.. وجال له يبجى تمن الجاموسة كده مظبوط.. يعني بستين جنيه.. يبجى النص بتاعي بخمسة وعشرين.. والنص بتاعه بخمسة وتلاتين..». ليس هذا فقط وجه القهر الذي يتعرض له الهلافيت، ثمة وجه أكثر خطورة في مثل هذه القرية: إن منصور، الذي يعيش أعزب، يستغل حاجة الفقراء المكبلين بالديون كي تعمل بناتهم في بيته، والبقية معروفة، ويجرؤ شحاتة على فضح ما يحدث لهن حتى لو شمل هذا الفضح أخته والفتاة التي يتعلق بها قلبه، تهمس أخته في أذنه بما يحدث لهن فيرتفع صوته: «آدي سي منصور بتاع الشعر وجعدات الضحك.. دي مش جصة أختي بس.. دي جصة كل البنات إللي دخلو داره وإللي هيدخلوه.. بنات الناس المحتاجة.. الهلافيت إللي زينا..»، ويندفع إلى المكان رجل ممن لقيت بناتهم هذا المصير التعس يطارد المجرم «منصور أبو سعد».

«الهلافيت» عمل من أعمال الثأر والثورة، هؤلاء المسحوقون، بعد أن يملأوا بطونهم، ويتاح لهم أن يواجهوا قاهريهم ومستغليهم، فإنهم يستردون إنسانيتهم ويفتحون أبواب الأمل في أن يناضلوا من أجل حقوقهم في الحياة الكريمة. عُرضت «الهلافيت» ليلة واحدة في إحدى قرى محافظة «كفر الشيخ» (قرية «أريمون» من إخراج أحمد عبد الهادي، نهاية ١٩٦٩)، ورفضت الرقابة عرضها في القاهرة، ولم يسع محمود دياب لنشرها، وبعد رحيله بسنوات ثلاث قدمتْ نسخة منها لسلسلة «روايات الهلال» التي نشرتها للمرة الأولى (أكتوبر ١٩٨٦).



«الهلافيت» عمل من أعمال الثأر والثورة، هؤلاء المسحوقون، بعد أن يملأوا بطونهم، ويتاح لهم أن يواجهوا قاهريهم ومستغليهم، فإنهم يستردون إنسانيتهم ويفتحون أبواب الأمل في أن يناضلوا من أجل حقوقهم في الحياة الكريمة



٣ مسرحيات السبعينيات: ملاحقة قضايا المصير

* مع بداية السبعينيات أنجز محمود دياب عملين هامين: مسرحية طويلة هي «باب الفتوح» (تحمل تاريخ الانتهاء من كتابتها: ١٧ يوليو ١٩٧١) وثلاث مسرحيات قصيرة بعنوان «رجل طيب في ثلاث حكايات» (تحمل أيضًا تاريخ الانتهاء من كتابتها: ١٩٧٠/١/٣١).

ولنبدأ بالأولى: لأن التاريخ يكذب ويجبن وينافق، فهو يسقط بعض الأمور عن عمد وينساها، ولأنه تاريخ السادة فنحن لا نرى فيه صورة الثوار - أعداء السادة - إلا بعيونهم، ويبقى الحكام والانتهازيون وقادة الجند، وحدهم، هم الأبطال. لهذا قررت تلك الجماعة - في لحظة ضجر بواقعهم ويأس منه - أن تعيد صياغة التاريخ بأن تتخيله على هواها، فترد إليه بعض ما أُنقص منه وتستبعد منه ما أضيف إليه، وراحت تستعرض لحظات التاريخ العربي حتى وقفت عند صلاح الدين - يقول عنه واحد منهم إنه أكثر الحقن المخدرة انتشارًا. تلك لحظة موازية: سقطت فلسطين ومعظم أرض الشام في أيدي الفرنج، أصبح لهم أمراء في المدن وقوات في القلاع وملك في القدس، وسادة العرب مشغولون بدسائسهم ونزواتهم، وفي الأندلس يتهاوى الصرح العربي مدينة إثر مدينة، والفقراء في كل مكان يدعون الله أن يولّي من يصلح. في هذا العصر جاء صلاح الدين وحقق انتصارًا في حطين (١١٨٧م)، غير أن هذا لم يكن نهاية أي شيء، بل بداية كل الأسئلة.

هكذا تبدأ اللعبة التي أجادها محمود دياب: خلق الشباب ثائرًا من أشواقهم وأمنياتهم، شبيهًا بهم، يفعل ما يعجزون عن فعله، ولأن صلاح الدين كان سيفًا بلا فكر، جعلوا بطلهم مفكرًا، صاغ أفكاره في كتاب أسماه «باب الفتوح» وجاء يحمله من إشبيلية، مؤملاً أن يضعه بين يدي القائد المنتصر.. فيتزاوج السيف والفكر، فهل سينجح أسامة بن يعقوب؟

أمامنا مستويان وزمانان، يظلان منفصلين حينًا ثم يلتحمان. فلننظر إذن في الواقع الذي أحاط بصلاح الدين، ولننتبه، فهذا الواقع تجسيد صاغه المعاصرون لنا. حول صلاح الدين مؤرخه «العماد» (التقطه دياب من التاريخ: ابن العماد الأصفهاني، خدم «نور الدين» في دمشق، ورافق صلاح الدين في حملاته كلها، وكتب مؤلفًا أرّخ فيه لفتح القدس أسماه «الفيح القيسي في الفتح القدسي»، وعنه يقتبس دياب تلك السطور التي تصف معركة حطين، مثقلة بالسجع والزخرف الفارغ، لا يرى أبعد من سلطانه المظفر، حريص على مصالحه وقربه منه، يحكم على أسامة بالكفر بعد أن يلتقط سطورًا من كتابه) و«سيف الدين» قائد حرس السلطان: سيف بلا عقل، حريص على جاريته الحسناء، والضيعة التي سيمتلكها في القدس، يرى في أفكار أسامة ما يهدد مصالحه فيهم بقتله، ثم يأمر جنده بمطاردته، ويلفق لرفاقه التُهم، هو هو في كل عصر. من ورائهما التجار: تجار البشر والترف والقوت، ما أن تفتح القدس أبوابها حتى ينطلقوا إليها كالكلاب المدربة في أثر الفريسة، يقومون بدور في مطاردة الثائر حتى يحيطوا به في النهاية.



ذلك جانب السادة. على الجانب الآخر نرى أهل عكا أمام بوابتها بعد أن فتحها السلطان يحول جنده بينهم وبين دخولها، باسمهم يتحدث أسامة إلى قائد الجند: «هؤلاء الناس جميعًا، فقراء كل عصر، تجمعهم خانة واحدة تأتي في الذيل، فعليهم إن وصلوا أن يأتوا في الوقت الذي يتناسب مع خانتهم، عليهم أن يصلوا في الذيل فتتلقاهم خانتهم: خرائب المدينة وحظائرها وعراء مزارعكم ومراعيكم ومواقف كلاب الصدقة على أبواب بيوتكم»، ونرى «أبا الفضل» وعائلته: نموذج هؤلاء الذين نزحوا عن القدس بعد مذبحتها الشهيرة (١٠٩٩م)، قدم أبناءه وأحفاده للجهاد من أجل استردادها، وحين فُتحت وجد بيته - الذي عاش أعوامه المائة يحلم بالعودة إليه - تشغله امرأة يهودية، وتديره خانًا لأولئك التجار، وتضع نفسها وابنتها في خدمتهم وخدمة جند صلاح الدين. أبو الفضل هو حلم الانتقام الناري، فمن رأى الهول في طفولته كما رآه لن يحلم إلا بهول مقابل:

أبو الفضل: عشت حياتي كلها على أمل أن أشهد يوم الانتقام.. فإذا بصلاح الدين يقبل أن يوقف القتال ويملي شروطًا.. أية شروط؟ أن يدفعوا أموالاً يقيم بها قصورًا لقواد جنده؟ أين أنت يا زنكي لتقيم جبلاً من جماجمهم؟ (..) لن يمنع عنا مذابح جديدة إلا أن نجهز عليهم في مذبحة من ذرى مذابحهم. إن لم يكن صلاح الدين يدرك هذا.. فسأفهمه إياه..

غير أن أبا الفضل لا يُفهم أحدًا شيئًا، فتحت القدس أبوابها وضاع بيته، وجند السلطان يطاردون عجزه وضعفه حتى المكان اللائق به في إحدى خرائب المدينة، وبين المقاتلين أبناؤه وأحفاده!.

وفي لحظة من لحظات الدراما - وعلى نحو ما هو مألوف في عالم محمود دياب - يلتحم المستويان، وتقرر مجموعة الشباب أنها خلقت الثائر على غرارها: وسطًا فاترًا بين حَدين، وأنها وضعته في مأزق، فالثائر لا يسعى لإقناع السلطان بفكرته لكنه يفرضها فرضًا، ومن ثم ينضمون إليه ويصبحون أنصاره ويستمر الحدث: أسامة مايزال مُصرًا على أن يضع أفكاره بين يدي السلطان، لكن واحدًا من الشباب يرى رأيًا آخر: أن يفترقوا على موعد، ويرجع كلٌ إلى بلده، يجمع الناس حوله ويتلو عليهم كتابه.. «سنفجّر فيهم ينابيع الحكمة.. فربما أضافوا إلى «باب الفتوح» شيئًا يجعله أكثر عمقًا وأصلح للحياة.. ويصبح حلمنا ملكًا لجماهير الناس..»، غير أن رأي الأغلبية ينتصر، فيبدأون المحاولة، ويُقبض عليهم واحدًا بعد الآخر حتى لا يبقى غير أسامة، وحيدًا محاصرًا، يساومه التجار ويأبى، فيحيطون به ويقتلونه، وتبقى كلمات «باب الفتوح» في صدر «زياد» الفتى المصري الذي كان كاتبًا للعماد.

تلك الخطوط الأساسية في «باب الفتوح»، فماذا في «باب الفتوح»، أعني الكتاب ذاته؟ لنتأمل هذه الكلمات: «إني أمنح قلبي لله عن طيب خاطر، أما إرادتي فإني أحتفظ بها طالما أني مسؤول عما أفعل - عبيد الأمة صنفان: صنف يباع ويشترى في أسواق النخاسين، وعَبيد بالخوف والحاجة - لو أنَّا أعتقنا الناس جميعًا، ومنحنا كلاً منهم شبرًا من الأرض، وأزلنا أسباب الخوف، لحجبنا الشمس - إذا شئنا - بجنود يسعون إلى الموت.. ليذودوا عن أشياء امتلكوها واكتشفوا كل معانيها: الحرية، شبر الأرض وماء النبع، قبر الجد وأمل الغد، ضحكة طفلة تلهو في ظل البيت، وذكرى حب، وقبة جامع صلوا فيه يومًا صلاة الفجر، بأوجز كلمة: عظمة أمة..». وعن الحكم والحاكم جاء في «باب الفتوح»: «من حق الأمة أن تختار حاكمها بحرية، أن تعطي البيعة للأحكم والأعدل والأكثر إيمانًا بقضايا الناس - للأمة مجلس حكماء، يرعى بيت المال، ويراقب أعمال الحاكم ورجاله، يقوِّم ويهذّب ويقيم الحد - من ملك أرضًا يملكها باسم الأمة، فإن أهمل، فللأمة أن تعفيه منها..»، ويلخص مطالب المحكومين من الحاكم: «لكل فرد في الأمة حق معلوم في المأكل والملبس والمسكن والعلم..».

لكن هذه ليست كل أفكار أسامة. ثمة فكرتان هامتان، تتضح إحداهما في حديثه إلى زياد، والأخرى في حواره مع المجموعة، فأسامة يرى أن أمتنا قد شاخت وترهلت، وهي بحاجة إلى شيء يقلب مصيرها رأسًا على عقب، شيء كطوفان هادر أو بركان متفجر، يفرغ كل ما بجوفها من قبح وعفن، ويحرق كل شيء لا يصلح للبقاء: «سراديب الدسائس، والمشانق، وكل أدوات الرعب والتعذيب، وسُتُر المحظيات، ودواوين الكذابين من الشعراء، وكُتب العلماء الجهلة، وسياط جباة المال، وتجار العبيد والمرتشين والقوادين، ولصوص بيت المال..»،

وعلى أنقاض هذا كله تنهض أمة جديدة ونظيفة، شابة قادرة على مواجهة التحدى.

نعم، كالعنقاء أو الفينيق فى الأسطورة القديمة، لابد أن تشتعل النار كى يتخلق من الرماد طائر جديد.

وحين يرى أسامة أن ما فى كتابه أعجز من أن يجد حلاً لأبى الفضل الذى ضاع بيته وتبدد حلمه، يعترف لرفاقه - ولنا - على استحياء: «إنها مشكلة جديدة لم تكن تخطر لى ببال، وليس لها حل فى كتابى، كلما كشف الواقع عن نفسه بدا أشد تلوثًا وتعقيدًا مما كنت أتخيله وأنا أحلم هناك فوق التل الأخضر..».

نعم، الواقع قبل النظرية، والحياة قبل الفكر.

ذلك أسامة بن يعقوب صاحب «باب الفتوح» وتلك أفكاره كما بدت لمحمود دياب صيف ١٩٧١، وتهيأ سعد أردش لإخراج العمل، وتقدم حتى البروفات الأخيرة، ثم هبط سيف البطش كى يوقف كل شىء، اعترضت الرقابة على تقديم العمل فى «المسرح القومى» ولم يقيّض له أن يرى النور إلا بعد أكثر من خمس سنوات (نوفمبر ١٩٧٦) فبدا مثل ثمرة ناضجة بعد أوانها، وبدا لى أن الكاتب لو رجع لنصه لأضاف لبطله هموما جديدة متغيرة، لكن الحقيقة أنه استطاع أن يقدم نصًا مسرحيًا ممتازًا، وأن يمزج - على نحو دقيق ومتوازن - هموم الحاضر وحقائق الماضى. بعبارة أخرى: إن «دياب» لم يهدف لأن يقدم مسرحية «تاريخية» بأى معنى من المعانى، لكنه حمل همومنا المعاصرة وارتحل بها حتى وجد أنسب اللحظات التى تتيح لها أكبر قدر من التعبير والوضوح، وفى خلفية العمل - نصًا وعرضًا - القضية الرئيسة فى وجودنا المعاصر: فلسطين والتحدى الذى تواجهه الأمة العربية.

لا عجب أن ظلت «باب الفتوح» تقدم، حتى اليوم، على شتى المسارح العربية.



* ما ملامح هذا «الرجل الطيب» فى حكاياته الثلاث؟

نراه، فى الحكاية الأولى، يستمتع بلحظته الآمنة: جالسًا أمام بيته، يقرأ جريدته ويشرب قهوته ويتحدث إلى نفسه أو زوجته القابعة وراء النافذة، لا يزعجه سوى انقضاء الأيام الجميلة وانشغال الجيران كلٌ بهمومه الخاصة، ثم يفاجئه أول «الغرباء».. «أنيق الملبس، متين البنيان، جهم الخلقة، يتحرك بحساب وفى اعتداد مغالى فيه..»، إنه يتفحص البيت، ويدون الملاحظات فى مفكرته، يرفض يد الرجل الممدودة إليه، ويرفض الحديث إليه بأكثر من كلمات قاطعة تحمل معنى الاستخفاف، كما يرفض قهوته وصداقته. وما أن ينصرف حتى يُفاجأ الرجل بظهور غريبين مماثلين تمامًا للأول، يسلكان إزاءه نفس المسلك، ثم يصبحون ستة: ثلاثة يأتون من اليمين ومثلهم من اليسار، ثم أربعة آخرون، يتجمعون حوله، يوجهون له الإهانات المتتالية، وآخرها أنه ليس صاحب هذا البيت، يفزع الرجل فيأتيهم بأوراقه لكنهم يمزقون كل شىء: أوراقه ووثائقه وخطاباته وصوره ويتركونه وحيدًا ضائعًا.

لنقترب منه أكثر: إن له ابنًا واحدًا يعيش بالخارج، وهو قد اتخذ قرارًا: «غدًا.. مع أول شعاع للشمس سأبعث ببرقية إلى الولد أقول له فيها: عُد إلينا.. تعال عش معنا.. أنا وأمك والبيت بحاجة إليك. فالغرباء كثيرون.. (..) احضر حالًا.. ولا تنس وأنت قادم أن تحمل معك بندقية..» هذا من ناحية. من الناحية الأخرى فإن الرجل سيقاوم. «ستظل هناك وسيلتنا لنحتفظ ببيتنا.. سنتحصن بداخله أنا وأنت.. ستمسكين بسكين وأمسك أنا بساطور.. وسنقيم المتاريس.. ولن نسمح لغير الأصدقاء بالدخول..»، ثم إن هذا البيت يحمل آثار حياة كاملة عاشها الرجل طفلاً وصبيًا ورجلاً، كما عاشه ابنه من بعده، وهو باق فيه، مثله مثل الشجرة المعمرة الباقية فيه «أصيلة وراسخة.. جذورها ضاربة عشرات الأمتار فى الأرض..».

هل بقى شك فى أن المسرحى يقدم صياغة رمزية شفيفة للصراع العربى - الإسرائيلى؟ هؤلاء الغرباء الذين يتكاثرون، بعدوانيتهم السافرة واستهانتهم «بالرجل الطيب» وسعيهم إلى إفقاده كل ما يثبت وجوده وملكيته لبيته وأرضه، لهويته باختصار، بجمودهم وآليتهم ورفضهم أية مشاعر إنسانية.. هل يمكن أن يكونوا سوى هؤلاء الأعداء؟ ثم إن العمل يومئ إلى سبيل المقاومة: البقاء فى الأرض، والتسلح، والمقاومة، واستدعاء الابن الشاب البعيد للعودة، على أن يكون مسلحًا، لا أعزل.

فى الحكاية الثانية نرى الرجل الطيب فى سياق آخر: هو موظف منضبط: «أول من يدخل الشركة فى الصباح وآخر من يترك مكتبه.. لا أتغيب حتى وأنا مريض.. كل دقيقة من وقت العمل للعمل.. أخشى الخطأ مثلما أخشى الطاعون..»، ويرى الأخطاء الصغيرة والكبيرة وهو صامت، ولحظة المواجهة ينفجر فى امرأته: «أنا لست نبيًا يا فردوس.. هل أنا مكلف بإصلاح الكون؟ وأنا مالى..». لقد ظل أربعين سنة من الانضباط يعتقد أن أمنه الخاص منفصل عن أمن العالم من حوله، وأنه يستطيع أن يقبع فى ركن هادئ، لا ينتظر شيئًا سوى أن يأتى جاره ضابط الشرطة فيقضيا السهرة فى لعب الورق، وهو يعتمد على هذا الجار لفهم ما لا يفهم وتفسير ما لا يجد له تفسيرًا، لكن جاره لا يأتى هذه الليلة، يأتى بدلاً منه رجل يحمل طردًا ثقيلاً يحوى جثة رجل دون رأس. تُسقط هذه الجثة المرآة الصقيلة فتتناثر شظاياها، يروح الأمن الزائف وتأتى المواجهة: مواجهته لعجزه وتطامنه وعقمه، وتنبثق رغبته فى الفعل بعد أن يفشل فى خداع نفسه وزوجه معًا. حين يتمزق القناع يتبدد الوهم وتنبعث الصحوة: «أنا أعرف ماذا كنت تبغين أن أكون.. كنت تريديننى فارسًا.. وما أتعس ما تمنيت!.. فرسان هذا العصر ليسوا بالشجعان كما تتوهمين.. فى هذا العصر لا يكون الإنسان فارسًا إلا وبيده قنبلة.. منذ الساعة لن أمشى إلا وأنا أحمل القنابل فى كلتا يدىّ.. سأفجر قنبلة فى كل مكان أصير فيه..»، بعد الجثة تصل الرأس فى طرد آخر، معها ورقة كُتب عليها: «نأسف لتأخير الرأس، فقد وقع الأمر سهوًا عند التعبئة..»، ويرى الرجل فيها دليل براءته، لكن هذا لا ينفى مسئوليته عن الجثة: «الجثة تخصنا بلا ريب.. وقضيتها تخصنا أيضًا حتى نهايتها..» ويخرج الرجل لإبلاغ الشرطة.. هذه قنبلته الأولى، أما الثانية فسيفجرُها فى الصباح: «قنبلة رهيبة أدمر بها كل شىء.. (يسحب ملفًا ضخمًا متخمًا بالأوراق من إحدى قطع الأثاث).. ما من عبث بالشركة أو تلاعب أو مسخرة إلا وهو مرصود بها، كنت ألحظ كل شىء وأرصده فى صمت.. سيشهد الصباح مواقف عظيمة لى، فمتى يأتى الصباح؟..». بعد خروج الرجل تمد الزوجة يدها فى هدوء فترفع الصندوق بغير جهد، وتلقى به داخل الصندوق الكبير، ثم تحمل الصندوق الكبير أيضًا مما يوحى بأن الصندوقين فارغان، وتنحيه جانبًا كى تعيد تنظيم المكان.

تنتهى القطعة المسرحية ولا تنتهى الأسئلة: ترى.. هل تدوم الصحوة ويكف الرجل عن طيبته (اقرأ: خضوعه، خنوعه، مذلته) ويرفع صوته مطالبًا بحقوقه، منددًا بالفساد الذى يراه ويعرفه، أم تراه سيعود ليقبع لائذًا بأمنه الزائف وثرثرته العقيمة؟، يتخطونه فى الترقية فلا يحتج، قصارى ما يفعله أن يمضى فى خداع نفسه واللجوء إلى «ممثل السلطة» لحل مشاكله، إن الشك فى استمرار الصحوة أقوى من اليقين، وأربعون سنة من الحياة الخانعة ليس من السهل التخلى عنها، لكن الجثة تشبهه، والقضية قضيته، وامرأته قد واجهته بكل شىء، ألقت فى وجهه بالحقيقة فقوّضت أمنه الزائف، وعليه أن يبذل جهدًا كبيرًا كى يعيد للمرآة المهشمة وجهها الصقيل.

يقول محمود دياب بأفصح لسان: انظروا فى دواخلكم أولاً وانزعوا جذور الخوف والاستكانة، فهى التى تقف دون الفعل، وهى التى تؤدى للعجز والعقم، كفوا عن الاعتماد على السلطة كى تحل لكم مشاكلكم، تمسكوا بحقوقكم، عضوا عليها بالنواجذ، وطالبوا بها، وارفعوا أصواتكم منددين بالفساد، هذا هو السبيل، لا سبيل سواه لاسترداد ما ضاع، لا مهرب ولا مفر، فالأمن فى البيت الصغير مرتبط بالعدل فى البيت الكبير، هذا من ذاك، وعلى فرسان العصر أن يفجروا القنابل فى كل مكان.

أما الرجل الطيب فى الحكاية الثالثة فنراه وسط أسرته، قبل عشرين عامًا خُطبت ابنته الكبرى لكن خطيبها لم يأت فى اليوم المحدد «اختفى الرجل فجأة، ولم يعرف أحد أين ذهب، حتى أصحابه المقربين لم يعرفوا.. ولم يكن هذا عن جبن أو خداع.. فقد كان رجلاً مثاليًا..» هذا ما تقوله أمها، لكنهما التقيا بعد عشرين عامًا وقد أصبحت «عايدة» عانسًا على أبواب الأربعين. وسيأتى الليلة فى التاسعة، وزمن المسرحية قبل التاسعة، والرجل الطيب مستسلم تمامًا لكل ما يُطلب منه، يقول - أكثر من مرة - إنه لا جدوى من محاولة التمرد: يلبس قميصًا ذا ياقة منشاة رغم أنه يخنقه، وكرافت حمراء رغم أنه لا يحبها، ولا يملك تنفيسًا عن غضبه إلا أن يهمس لامرأته: «عشرون سنة من الصراخ والعصبية.. واستبداد البنت بالأب والأم وكل من بالبيت.. بصورة هى بعيدة تمامًا عن المثالية.. تجعل زواج البنت فى هذه الحالة ورحيلها عن البيت مع زوجها أمرًا أكثر روعة من أى شىء آخر.. (فى هدوء) لهذا فأنا فرحان الليلة.. غير أن صراخها لا يتيح لى أن أعبر عن فرحتى بالقدر الكافى..». إنه لون من الابتزاز العاطفى والاستبداد باسم الحب. اقترض الرجل المال من أجل الوليمة، وعايدة تصرخ وتصدر أوامرها للجميع، وفى أعماقها توجس أن تتكرر الخبرة المريرة القديمة، وقد كان بينها وبين اليأس شعرة كما تقول، إنها تريد أن يخضع لرغباتها كل شىء، بما فى ذلك موعد ولادة أختها الصغرى. ويهبط الستار والجميع يترقب وصول القادم، ونحن لا نعرف هل سيأتى أم سيتكرر ما حدث من قبل، وهل ستضع «ثريا» طفلها أم ستنتظر الصباح. وفى الخلفية ترتفع دقات الساعة.

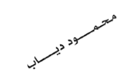
ثلاث قطع مسرحية محكمة، نماذج للصنعة المسرحية فى أعمال الفصل الواحد، ملائمة تمامًا للمسارح «الفقيرة»، لذا يتواتر تقديمها فى مسارح الهواة والمسرح الجامعى وفرق الأقاليم (شهدت عرضًا «للرجال لهم رؤوس» بعد رحيل محمود مباشرة، لعب الدور الأول فيها الممثل الممتاز حسن عبدالحميد، فكانت من أفضل ما قدم له بعد رحيله).



* قبل أن ينتهى عام ١٩٧٣ كان محمود قد فرغ من كتابة عمله الطويل «رسول من قرية تميرة للاستفهام عن مسألة الحرب والسلام» (نشر فى ١٩٧٥) والذى اعتبره من أفضل الأعمال المسرحية التى كُتبت

يقول محمود دياب بأفصح لسان: انظروا فى دواخلكم أولاً وانزعوا جذور الخوف والاستكانة، فهى التى تقف دون الفعل، وهى التى تؤدى للعجز والعقم، كفوا عن الاعتماد على السلطة كى تحل لكم مشاكلكم، تمسكوا بحقوقكم





هذا ما قاله محمود دياب قبل أن ينتهي عام ١٩٧٣: ثمة من يتربص ليسرق دم الشهداء وعرق المقاتلين وتضحيات الناس التي جعلت ما حدث في أكتوبر ممكن الحدوث: استشهد فكري على رمال سيناء، وهذا عمه القوى يأمر رجاله بالاستيلاء على أرضه

عن أكتوبر، إن لم يكن أفضلها على الإطلاق. وقرية «تميرة» (وهو اسم قديم لمصر) مثل أية قرية مصرية، يُعرِّفنا بها أهلها في مشهد افتتاحي: «تميرة» زي كل البلاد، مركز كان أو كَفْر، فيها الطيب وفيها الشين - بس الناس الشينة يتْعَدوا، فيها الناس اللي بتهلك على لقمة العيش، وفيها الناس المرتاحة، لكن المرتاحين حدانا يتعدوا، فيها ولاد فلَحْم وفاتوها، ولا عدناش بنشوفهم أبدًا، بس إحنا بنتشرف بيهم، برضه ولادنا، وتميرة ولَّادة، مهما فاتوها أو أخدوا منها، تولد وتطلَّع جدعان..»، هي - باختصار - قرية من آلاف القرى، لكنها قد تتميز بقربها من خط القتال، وقد تتميز كذلك بوجود «أحمد أبوعارف» فيها، يقدمه لنا المسرحي بأنه «رجل تشكلت شخصيته ولغته من قراءته لإحدى الصحف اليومية بإصرار ودأب خلال سنوات طوال..»، بعبارة أخرى: هو حريص على أن تصله الصحيفة اليومية كل صباح، ليقرأ كل سطر فيها، وحريص على أن يفهم ما يحدث في وطنه وفي العالم، وأن ينقل ما فهمه لمن حوله.

ولأن أحداث المسرحية تقع ما بين سبتمبر ونوفمبر ١٩٧٣ فطبيعي أن يهتم الجميع بما حدث في أكتوبر، خاصة أن خمسة من شباب القرية يحاربون بين الجنود، عرفنا منهم «فكري أبو إسماعين»: نشأ يتيم الأب، في وصاية عمه «الحاج دسوقي» وهو رجل جشع متسلط، وهو قد زوَّر وثيقة يدَّعي فيها أن أخاه باع له فدانا من الاثنين اللذين يملكهما قبل موته، وهو اليوم يريد أن يضع يده عليه كي يبني فوقه بيتًا. تلك بؤرة الصراع في أحداث المسرحية: يرفض فكري وأخوه «حامد» ومن حولهما فقراء القرية، وإلى جانب دسوقي أعوانه والمستفيدون منه، وهم قليلون لكنهم أقوياء. ونحن لا نرى «فكري» إلا خلال الساعات القليلة التي قضاها في القرية قبل أن يعود إلى موقعه على الجبهة، عرفنا ارتباطه «بعائشة» ابنة «أبي عارف» وتصديه لعمه، ثم إرجاء النظر في الأمر حتى يعود. الذي يحدث أن الحرب تندلع، وينعكس هذا الحدث الكبير على القرية: يتزايد الاهتمام بأخبارها وأخبار أبناء القرية الذين يحاربون، ومع تطور أحداث الحرب تزيد الحيرة وعدم الفهم خاصة مع ترامي الأخبار عما حدث في «الدفرسوار»، والموقف الأمريكي، وما يقوله دسوقي من أن الدول الكبرى قررت إنهاء الحرب، إنه يقول لأبي عارف: «أصلنا مش عايشين لوحدنا في الدنيا يا أحمد.. دي الدنيا مليانة دول.. والدول الكبيرة لها مصالح في كل حتة.. أمال هي دول كبيرة ليه؟ (..) المقابلات بين الدول شغالة على ودنه.. وبعد ساعة ولَّا اتنين هيقولوا بس لغاية كده.. شطَّب أنت وهو..».

إزاء هذه الحيرة تقرر القرية إيفاد رسولها أحمد أبي عارف إلى القاهرة، هناك صحفي كبير من أبناء القرية، عليه أن يقابله ويستفهم منه، وعليه أن يذهب للقيادة ليسأل عن أخبار فكري التي انقطعت.. يجمعون له قروشهم القليلة، ويقدم كلٌ له قطعة من الثياب اللائقة، ويأتي رسول قرية تميرة إلى القاهرة.. فماذا حدث له؟

ضاع الرسول في القاهرة اللاهية بإعلامها: في الصحيفة التي توجه إليها عرف أن الصحفي ابن قريته في رحلة إلى أوربا، ومن هناك التقطته صحفية نشطة وقررت أن تجعل منه موضوعًا: «الموضوع اللي عايزة أعمله معاك ده له أهمية خاصة وكبيرة عندي.. أنا من شهرين بادور على موضوع جديد يفرقع.. ويعمل دوشة.. وانت أحسن موضوع أعمله»، وتقول عنه لرئيسها في الصحيفة: «أنا لقيت موضوع إنما يهوس.. وعايزة أعمله دلوقت (هامسة) فلاح عنده شوية ثقافة على قده.. بلده بعتاه مصر علشان يستفهم عن الحرب ومسألة السلام والسياسة الدولية كلها.. تصور.. إيه رأيك؟ مش موضوع هايل؟.. دا ممكن ياخد الصفحة بحالها بكرة..»، وهي لا تكتفي بل تتصل بصديقة لها تعمل في الإذاعة كي تقدمه في أحد برامجها: «اسمعي.. أنا عندي مفاجأة ليكي.. إنما تستاهل الحلاوة.. (سكتة قصيرة).. أنتي كنتي قلتي لي إنك بتدوَّري على موضوع جديد للبرنامج.. وأنا لقيت لك لقية..».

هكذا.. تتقاذفه الصحفية والمذيعة، وأفلس أبوعارف وعاد إلى قريته في اليوم التالي، حتى دون خُفي حنين! ولم يجد أحدًا يوجِّه إليه الأسئلة التي تؤرقه، ولم يذهب إلى القيادة يسأل عن فكري ورفاقه، كل ما رجع به صورته المنشورة في الصحيفة:

المجموعة: يعني ما استفهمتش؟

أبوعارف (في شعور بالذنب): ما استفهمتش..

المجموعة: ولا رحت القيادة؟

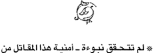
أبوعارف: ما ملكتش أروح.. (..)

المجموعة (في استياء): أمال كنت مسافر ليه؟

وفجأة تصل سيارة عسكرية يهبط منها ضابط شاب يسأل عن أحد من أقارب فكري.. «الجميع مطرقون.. وتمر برهة صمت وكأنما اكتشف الجميع الحقيقة في نفس اللحظة.. الوجوه تتلاقى في نظرة مروعة..» من استشهاد فكري تنبثق صحوة الباقين، يحملون فؤوسهم ويتوجهون نحو أرضه ليواجهوا «دسوقي» إن جاء رجال للاستيلاء عليها، وتنتهي المسرحية على صوت أحد أبناء القرية من المقاتلين في الرسالة التي أرسلها لأهله: «وأوعم تفتكروا إن الحرب خلصت.. هي ما خلصتش.. (..) وكل الأولاد اللي هنا بيقولوا إن احنا هنحارب تاني.. ياريت يابا.. ياريت..».

هذا ما قاله محمود دياب قبل أن ينتهي عام ١٩٧٣: ثمة من يتربص ليسرق دم الشهداء وعرق المقاتلين وتضحيات الناس التي جعلت ما حدث في أكتوبر ممكن الحدوث: استشهد فكري على رمال سيناء، وهذا عمه القوى يأمر رجاله بالاستيلاء على أرضه، والعاصمة القريبة - البعيدة لاهية بإعلامها الزائف. دائرة في دوامتها التي لا تهدأ. لكنه أبقى الأمل في تحفز الفقراء من أهل قريته للدفاع عن أرض الشهيد، ومقاتل من أبنائها يؤكد لهم العزم على مواصلة الحرب والتطلع للاستمرار.

رغم هذا النضج الفكري والإحكام الفني.. ربما بسببهما؟ منعت الرقابة عرض المسرحية، وكان أول عرض لها ما قدمته جامعة دمشق في «مهرجان دمشق للفنون المسرحية» في ١٩٧٧!



* لم تتحقق نبوءة - أمنية هذا المقاتل من تميرة. لم تتواصل الحرب لكنها أوقفت، وأخمدت طاقات النضال في دهاليز المفاوضات. وتدريجًا بدأت التوجهات الرئيسة تأخذ عكس مساراتها، وأبدل الأعداء بالأصدقاء، وبدأ هجوم ضار على المرحلة السابقة: سياساتها ورموزها، واستشعرت الأفاعي القديمة الدفء فأطلَّت برؤوسها، وراحت صورة المجتمع القديم، الذي أسقط في ١٩٥٢، تعاود الظهور، وتهدد بالاستيلاء على كل ما حققه نضال المصريين خلال عقدين من الزمان (نكتفي بذكر واقعة واحدة دالَّة: في ١٩٧٤ أُطلق سراح مصطفى أمين، واستُدعي توءمه من منفاه الاختياري، وسيطرا معًا على أهم مؤسستين صحفيتين في مصر!). وكتب محمود دياب «أهل الكهف ٧٤» ووصفها بأنها «كوميديا» لكنها تقطر مرارة وسوادًا، وقال إن العلاقة بينها وبين مسرحية توفيق الحكيم الشهيرة لا تتجاوز الاشتراك في الاسم.

أبطال «أهل الكهف» من البشر قليلون: «عم حسَّان» خفير المخزن و«شوقي» الكهربائي الذي يصلح الأسلاك، ثم مجموعة غير متجانسة من الناس العاديين «نموذج لمجموعة ركاب أحد أتوبيسات القاهرة»، أما الأبطال الأكثر عددًا وأهمية فهم التماثيل: تسعة تماثيل شمعية من الحجم الطبيعي، بينهم امرأتان، والرجال يلبسون الطرابيش.. «ولهذه التماثيل طبيعة غريبة، فانت إذا دققت النظر في الوجوه خُيِّل إليك أنك تعرف أصحابها، وسيدهشك هذا إذا لم تكن قد التقيت بهم بالفعل، غير أن دهشتك ستزول حتمًا حين تدرك أنك كنت تعرف هذه الوجوه من صورها التي كانت تمتلىء بها صحفنا ومجلاتنا، سواء في صفحاتها السياسية أو في صفحات المجتمع، وذلك حتى مطلع الخمسينيات، وجميع التماثيل بغير استثناء في ثياب السهرة..» لم يبق شك في أنهم حفنة من سادة المجتمع القديم، مجتمع ما قبل ١٩٥٢.

أليس معقولاً، إذن، أن تدب الحياة في هذه التماثيل التي بقيت في مخازنها أكثر من عشرين سنة؟ ما أن يقوم «عم حسَّان» بفتح نافذة المخزن التي لم تُفتح طوال هذه السنوات حتى بدأت الحياة تدب في التماثيل واحدًا بعد الآخر: إنهم يتمطون ويتثاءبون وينفضون عن أنفسهم غبار السنين، وحين يقدرون على الكلام يستعيدون عالمهم القديم، وقد تصوروا الأمر في البداية مؤامرة من جانب «ميم باشا» صاحب القصر الذي تحول إلى مخزن، والذي كان حسان يعمل في خدمته. هاهو أحدهم يهدِّد: «لن أنسى هذه الإهانة لميم باشا ما حييت.. ولسوف أرد له الصاع صاعين.. سأثير القضية في الحزب، وعلى صفحات الجرايد.. وعلى كل المنابر.. لسوف أدمره سياسيًا (لاحظ البلاغة الرثة التي يستخدمها)، وحين تدب الحياة في الثاني يشاركه هذا التصور، هي مؤامرة من جانب ميم باشا نفَّذها عن طريق خدمه، وهو - بدوره - يهدد: «أقسم لأرفعنَّ الأمر إلى السراية.. وإلى السفارة.. نحن نعيش في بلد له برلمان ودستور وحكومة.. (..) بشرفي، لأنشر عنه كتاب.. وهاختار لون الكتاب أشد سوادًا من الليل (لاشك أن العارفين بتاريخ مصر القريب قبل ١٩٥٢ يذكرون «الكتاب الأسود عن العهد الأسود»)، هافضح علاقته بالأمريكان، وبالرقاصة جورجيت، وبالشركة العالمية. وبكل شيء..».

وحين تدِّب الحياة فيهم جميعًا يعيدون صورة من صور حياتهم كما كانت قبل ١٩٥٢: الخلافات الناشبة بينهم رغم اتفاقهم جميعًا في العداء لجماهير الناس (الفلاحين والعمال، والخدم بشكل خاص، ويقول تمثال ميم باشا: «وإني لأعلنها صريحة مدوية: ليس من حق مخلوق أن يقتل خادمي غيري!) واستنادهم جميعًا إلى «السراية» و«السفارة». وحين يكتمل جمعهم يأتيهم الصحفي «كاف كاف» كان مخزونًا في مخزن آخر، وما أن فتحت نافذة المخزن حتى دبت فيه الحياة ولاذ بالفرار.. جاء يضع نفسه في خدمتهم ويعدِّد الخدمات التي أسداها لهم بدفاعه عنهم وعن مصالحهم، وهو ليس غريبًا عنهم على أي حال، كانت تربطه بهم أوثق العلاقات قبل ١٩٥٢. يقول التمثال الثاني: «عزيزي الأستاذ كاف أنا كنت دايمًا باقدر مواهبك.. وباعتز بيك.. وبارشحك لأن تكون في المستقبل القريب الناطق باسم الحزب..»، ويقف كاف خطيبًا بينهم: «سوف تعود أسماؤكم إلى الصفحات الأولى كأبطال.. ستزول كلمات وتعود كلمات.. ستعلو أصواتكم من جديد..». غير أن الأصوات التي تعلو بالفعل

هى أصوات الجماهير التى جاءت.. «مجموعة كبيرة من عامة الناس.. بينهم عمال وفلاحون وبائعون جائلون وأفندية.. يقودهم حسان..»، يحاصرون التماثيل ويقفون فى مواجهتها ولا يسمحون لها بالخروج، يتمايز من قلبهم «شاب جاد» يتوجه إليهم بالحديث: «فى التاريخ شواهد كثيرة على أن دا ممكن يحصل.. بعد كل انتصار تحققه الفئات الكادحة من الناس تظهر شوية تماثيل من دول، تحاول توقف عجلة الزمن وترجعها لورا.. (..) عشان كده أنا مصدق عم حسان.. وهاروح أقف على البوابة.. وهامنع أى تمثال من دول يخرج من هنا.. يستحيل أسيب عشرين سنة من أعمارنا تروح هدر..»، ينضم إليه الناس حتى لا يبقى رجل واحد لم ينضم إليهم.. «ثم ينزل الستار بحركة بطيئة جدًا.. كأنما كان يتمنى لو ينتظر نهاية أخرى..».

ما تلك النهاية الأخرى التى كان المسرحى يتمنى أن ينزل عليها الستار؟ واضح أنه يريد القول بأن الصراع مايزال مستمرًا، وأنه لم يحسم بعد، وأن تلك التماثيل التى تهدد بالقضاء على منجزات عشرين سنة مازالت تحاول، وأن «الأستاذ كاف» الذى لاذ بالفرار فى مواجهة الجماهير لابد سيعاود الظهور للعمل فى خدمتهم، وأن حسم هذا الصراع مايزال، خبيئًا فى رحم الغيب، ينتظر مزيدًا من العمل والجهد. غنى عن القول أن الرقابة قد اعترضت على تقديم «أهل الكهف ٧٤»، وأنها لم تقدم فى مصر - قدر ما أعرف - حتى اليوم. نشرها محمود فى مجلة «الشباب» فى ١٩٧٥، وأعادت مجلة «أدب ونقد» نشرها فى ١٩٨٤.



* العام التالى كان عام «الانفتاح». مازلنا نذكر الصخب الذى أحاط التوجه السياسى - الاقتصادى - الاجتماعى الذى حمل هذا الشعار، والذى فتح كل الأبواب أمام المشروعات الخاصة، ورفع كل القيود أمام الاستثمارات ورؤوس الأموال، فى محاولة للتخلص من التوجه نحو «الاشتراكية»، وقيادة «القطاع العام» لخطة «التنمية الاقتصادية» إلى آخر ما ساد المرحلة السابقة من توجهات. كتب محمود دياب «قصر الشهبندر»، ووصفها بأنها «كوميديا غنائية» وتحمس لها المخرج الراحل كرم مطاوع، وخاض معركة مريرة لتقديمها باسم «دنيا البيانولا» (لعب أدوارها الأولى عفاف راضى ومحرم فؤاد وجميل راتب وإحسان القلعاوى وسواهم)، لكن العرض انتهى إلى احتراق المسرح الذى يُقدم عليه (مسرح البالون) قبل أن يستوفى أيام عرضه، وبقيت «قصر الشهبندر» بين أعمال دياب غير المنشورة حتى اليوم.

فما هذا القصر، وما حكايته؟

هو «قصر عربى قديم فى القاهرة، يبلغ عمره ٤٠٠ سنة، وهو مايزال يحتفظ بأبهته رغم عمره الطويل.. فى مظهره الخارجى على الأقل..»، وتدور أحداث الفصول الثلاثة فى الساحة الرئيسية للقصر، هنا يعيش «آل الشهبندر»، على رأسهم «حكمت هانم» آخر من آل إليه القصر «تخطت الأربعين ولازالت تحتفظ بجمالها، شهدت فى مطلع حياتها أيام عز ورفاهية هذا القصر، غير أنها لم تعد تمتلك من الدنيا سواه، فهى متشبثة به رغم ظروفها العسيرة..»، وابنتها الطالبة الجامعية «كريمة» المرتبطة بعلاقة حب مع قريبها «رشاد» الذى يعيش ظروفًا قاسية، فهو كاتب فى مخبز ويدرس الحقوق فى نفس الوقت، وآخرون، يتمايز من بينهم «هلال» صاحب «البيانولا» وابنه «خيشة» الذى يلعب دور المهرج فى صحبة أبيه، و«أبوالعز» الموظف السكِّير الماجن، و«أحمد أفندى» المدمن لنوع من المخدرات، وزوجتاهما، والباقون «كلهم من آل الشهبندر.. تضم نماذج متعددة ومتباينة من الناس من أعمار مختلفة.. بينهم شباب الجامعات والمدارس.. فتيان وفتيات.. فيهم العامل والحرفى والموظف وبينهم أيضًا موظفات.. السمة التى تجمعهم جميعًا هى الفقر..».

وتعيش هذه الجماعة حياتها بحُلوها ومُرِّها، والمسرحى المتمرس يحدد ملامحها بلمسات قليلة: ثمة الأرملة المكبوتة، والزوجة التى يغلق زوجها الباب فلا يسمح لها بالخروج، والسكير الذى لا يصحو، والمدمن الذى لا يفيق، والفتاة المرحة اللعوب، وفى قلب الجماعة قصة الحب التى تنمو صحيحة رابية بين «كريمة» و«رشاد». حتى يأتى «بهجت» بملايينه ورجاله وأحلامه الجديدة وثاراته القديمة ليقلب كل شىء، ويلقى بأحجار كثيرة فى مجرى الحياة فى قصر الشهبندر: «بهجت بيه.. رجل فى حوالى الخمسين من عمره.. أنيق بصورة زاعقة. فارع الطول وعريض.. مظهره وإن دل على الثراء الفاحش إلا أنه يدل على العنجهية والصلف أيضًا.. (..) الهانم لم تتعرف على الرجل للوهلة الأولى.. وتمر برهة.. وفجاة انفجرت فى قلبها أغنية حب قديمة..». إنه هو. ما أبعد ذلك الزمن وما أجمله!



نعم.. إنه حب الزمان القديم، وإنه ذكرى الماضى المترف الذى ذهب لغير رجعة. من حوارهما معًا ينكشف الماضى: كان بهجت شابًا لاهيًا («فسدان» كما يقول «عم بشار» بواب قصر الشهبندر)، ورفضه صادق بك الشهبندر زوجًا لحكمت، فرَحل بهجت، وقضى ثلاثين عامًا لا هَمَّ له سوى جمع المال بكل الطرق.. «مفيش طريق يجيب فلوس مهما كان إلا ومشيت فيه..» وكان مقسمًا على أن يعود، لم ينس ثأره أبدًا «كنت ناوى أذل عيلة الشهبندر.. كنت ناوى أحرق القصر ده.. اشتريه وأحرقه.. وأجيب دماغ باباكى صادق بيه الشهبندر تحت رجلى.. كنت ناوى اشتريكى..»، لكنه، بعد أن جمع المال وعاد، اكتشف أن القصر قد أصبح خرابًا، وأن حكمت قد اكتهلت! غير أن أمثال هؤلاء لا يردعهم رادع عن تحقيق مآربهم. وهم قادرون دائمًا - بما يملكون من قوة المال - أن يُطَوِّعوا الواقع.. هكذا تبرق فى ذهن بهجت فكرة خاصة بالقصر، وأخرى خاصة بحكمت. عن القصر: يحلم ويدفع حكمت إلى مشاركته الحلم: «تصورى يا حكمت لو قصر الشهبندر بقى أوتيل.. أوتيل شرقى.. كل شىء فيه على الطراز الشرقى.. العربى بالتحديد.. البنيان زى ماهو يفضل بمعماره القديم.. المضايف.. المشربيات.. السراديب.. الدهاليز.. الحمام التركى والطاحونة.. كل حاجة تفضل زى ماهى.. نضيف اللى لازم ينضاف ونصلح اللى لازم ينصلح.. (..) والستاير تنزل ألوان، ألوان فى كل مكان.. (..) ع البوابة حرس فى الزى العسكرى العربى القديم وشايلين سيوف.. الجرسونات بنات حلوين لابسين لبس الجوارى.. القعدات دكك وشلت.. من كل الألوان.. (..) تصورى.. قد إيه الموسيقى العربية والأغانى العربية القديمة تبقى حلوة فى جو زى ده.. ليالى ألف ليلة ترجع تانى فى القرن العشرين.. قصر الشهبندر هيبقى قصر من قصور هارون الرشيد.. ويرَجَّع أحلام بغداد..».

هذا عن القصر.. فماذا عن حكمت نفسها؟

إنها تسأل بهجت - مباشرة - إن كان لازال يحبها، فيراوغ فى الجواب:

بهجت: هاغيِّر حياتك دى كلها.. هارجَّعلك العز القديم وأكتر منه.. هاعوَّضك سنين الحرمان اللى عشتيها كلها واخليكى تشوفى الدنيا بنظرة جديدة.. هارجعك حكمت هانم الشهبندر من جديد.

الهانم (بهدوء كئيب): والتمن إيه يابهجت؟

بهجت: ترجعيلى حكمت الشهبندر بتاعة زمان.. بعذرية قلبها.. وبشبابها.. بصورتها اللى كنت باحبها.. (..) فى الدقيقة اللى وصلت فيها وأنا لسه واقف هنا (يشير إلى البوابة) فكرت أمشى فعلاً.. (..) فجاة لقيت حكمت الشهبندر بتاعة زمان قدامى.. حكمت الحلم.. هى نفسها، بعينها، بنظراتها، بحلاوة روحها، بكبرياء بنت الشهبندر (اتضحت الأمور فجاة أمام الهانم، فَرُوِّعت وبدت كأنها تقاوم شعورًا بالإغماء..).

الهانم: تقصد إيه يا بهجت؟.. تقصد مين؟.. اتكلم.. (بهجت يبتسم ابتسامة خفيفة هى كل إجابته).. (صارخة).. إذا كنت تقصد كريمة.. هو دا المستحيل..

تحددت المسألة إذن: ليس القصر وحده هو المطروح للبيع والشراء، ولكن كريمة كذلك. قد تسأل - كما سألت حكمت - وأين يذهب كل هؤلاء الذين يعيشون فى القصر، الذين رأيناهم والذين لم نرهم، والذين تقول عنهم أنهم يعتبرون أنفسهم أصحاب القصر، لا ساكنيه فقط، ويكون رد بهجت جاهزًا: «ح نطلعهم طبعًا.. (..) فيه وسائل كثيرة لتطليع الناس.. وأهم وسيلة الفلوس.. (..) الفلوس بتسحر ياحكمت.. طول ما معاكى فلوس مفيش مستحيل..».

فهل تستطيع الفلوس - بالفعل - أن تحقق ما يشاء صاحبها؟ هذه حكمت هانم تحاول إقناع كريمة بقبول الصفقة: «مش ممكن واحدة ترفض ملايين.. ترفض كنز ينفتح فى بيتها ويغرقها دهب وتكون عارفة مصلحتها..». لكن كريمة قد اتخذت قرارها: «أنا بارفض بهجت بيه المليونير.. بارفض ملايينه كلها تمن لقلبى وكرامتى ومصير عيلة الشهبندر.. (..) أنا واحدة من سكان القصر ده.. هاقف فى صف السكان.. ومش هنسمح لمخلوق يدخل قصرنا علشان يحوله سوق للعبيد..».

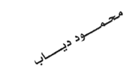
صحيح أن هناك البعض يضعف ويتردد ويسيل لعابه وبهجت يزيد من قيمة ما سيدفع (ولنلاحظ أن هؤلاء هم المدمنون والغائبون عن الوعى، وأن نساء القصر أكثر صلابة فى الرفض من بعض الرجال)، ويقود رشاد - ومعه كريمة - جبهة الرافضين، وينتهى المشهد - والعمل كله - بكلمات حكمت الشهبندر: «أنت عملت فينا خدمة نشكرك عليها.. فتحت عينينا على الكنز اللى فى إيدينا.. وأولاد الشهبندر أَوْلى بكنزهم.. هنحط إيد على إيد ونحاول سوا نطرد الفيران منه ونقويه علشان يعيش لأولادنا وولاد أولادنا.. زى ما عاش جيل بعد جيل».



عن عمد أطلت الوقوف عند «قصر الشهبندر» لاعتبارات عديدة: منها أنه كان العمل الأول الذى يُعرض لمحمود دياب بعد سلسلة متتالية الحلقات من المصادرات والإيقافات: «الهلافيت، ٦٩»، «باب الفتوح، ٧١»، «رجل طيب.. ٧٢»، «رسول.. ٧٣» ثم «أهل الكهف، ٧٤»، وأن العرض لقى إقبالاً جماهيريًا كبيرًا، كان عرضًا موسيقيًا غنائيًا جذابًا بنجومه ومغنيه، لكنه - فى ذات الوقت - كان لا يلقى القبول من

ما تلك النهاية الأخرى التى كان المسرحى يتمنى أن ينزل عليها الستار؟ واضح أنه يريد القول بأن الصراع مايزال مستمرًا، وأنه لم يحسم بعد، وأن تلك التماثيل التى تهدد بالقضاء على منجزات عشرين سنة مازالت تحاول





«المؤسسة الثقافية» والرسمية: آنذاك كان السادات في حمى عمله على تحويل التوجهات الرئيسة للواقع المصرى فى كل جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفيما يتعلق بالثقافة الرسمية فقد كان جنرال الثقافة والإعلام، «ماكارثى» أو «إيان سميث» الثقافة المصرية، أعنى يوسف السباعى، يقوم بدور فعَّال فى تنفيذ هذه التوجهات الجديدة: يستبعد الموهوبين ذوى الأصالة، يغلق مجلات ويُنشئ مجلات، ويسعى إلى إقامة «واجهة بديلة» للثقافة المصرية التى كانت ذات طابع تقدمى وإنسانى، وبلغت أوجها الرائع من منتصف الخمسينيات لنهاية الستينيات على وجه التقريب، يعاونه فى التنفيذ «وكيل أول» الوزارة: سعد الدين وهبة. وكان الاتهام الجاهز الذى يُوجه إلى كل صاحب فكر مختلف أو مخالف، أو كل صاحب فكر على وجه الإجمال، هو الاتهام «بالشيوعية»، خاصة بعد التوجه الكامل نحو القطب المعاكس فى السياسة الدولية آنذاك: الولايات المتحدة، والتى وصفها السادات ـ بوضوح نادر ـ أن بين يديها ٩٩٪ من أوراق اللعبة. وقد تم اتهام محمود دياب ـ بين مثقفين ومبدعين كثيرين اختار كثيرون منهم الخروج من مصر، وبقيت أقلية تشهد على ما يحدث ـ بالشيوعية، وما أبعد أعماله عن هذا الاتهام، أيًا ما كان التوسع فى دلالته ومعناه! حدَّثنى من أثق بصدقه أن عرض «دنيا البيانولا» شهد مشادات عديدة بين وزير الثقافة المسئول ـ من ناحية ـ ومؤلف العرض ومخرجه، من الناحية الأخرى. فى واحدة من هذه المشادات، التى شهدها مُحدثى. وجَّه السباعى الاتهام، صراحة، لكرم مطاوع بأن الشيوعيين قد خدعوه «وضحكوا عليه» بتعبير الوزير، ويؤكد محدثى أن احتراق «مسرح البالون» الذى كان العرض يُقدم على خشبته لم يكن بمحض الصدفة أو الخطأ، وأنه لم يكن بعيدًا عن الموقف الرسمى من العرض وأصحابه، واليوم، بعد انقضاء أكثر من خمسة وعشرين عامًا، لم يعرف أحد من حرق المسرح!

حمل محمود أحزانه وارتحل إلى الإسماعيلية، مدينته التى أحبَّها دائمًا وكان يلوذ بها، كان يملك قطعة أرض صغيرة هناك يحلم بأن يقيم عليها مسرحًا و«قرية فاضلة»، أطلق عليها الاسم الذى يحبه، والذى يعنى مصر: «تميرة». لكنه فوجئ بتحطيم السور الذى يُسوِّرها، واقتلاع الأشجار منها والاستيلاء عليها، بزعم أنها داخلة فى نطاق أحد مشروعات «المقاولين العرب» (يذكر الذين عاشوا هذه الفترة الكالحة من التاريخ المصرى القريب مدى النفوذ الذى بلغه عثمان أحمد عثمان، وقد أصبح وزيرًا للتعمير، وأصهر إلى السادات، وتولى تنفيذ كل مشروعات ومقاولات الدولة، وقد كانت وطأة هذا النفوذ ثقيلة، بوجه خاص، فى مدينة عثمان: الإسماعيلية، التى كان يعتبرها من أملاكه الخاصة. وقد أغلق أجمل شواطئها، وجعله وقفًا على السادات وصحبه)، المهم.. فى تلك الليلة من شتاء ١٩٧٦، وفى طريق عودته، اصطدم محمود دياب بسيارته، وأصيب إصابات بالغة.

إن هذه التفاصيل ذات دلالات بالغة فيما يتعلق بالسنوات الأخيرة من حياته.

حمل محمود أحزانه وارتحل إلى الإسماعيلية، كان يملك قطعة أرض صغيرة يحلم بأن يقيم عليها مسرحا و«قرية فاضلة»، أطلق عليها الاسم الذى يحبه، والذى يعنى مصر: «تميرة». لكنه فوجئ بتحطيم السور، واقتلاع الأشجار والاستيلاء عليها





* كما رأينا، لم تكن «باب الفتوح» مسرحية تاريخية، وكما سنرى لم تكن «أرض لا تنبت الزهور» مسرحية تعود إلى «التاريخ الأسطورى» لمملكة تدمر: ظل الواقع المصرى يضرب فى اتجاهه المحدد: إعلان أن «حرب أكتوبر هى آخر الحروب»، ثم المفاوضات التى تتقدم وتتعثر، وأخيرًا: قاصمة الظهر: رحلة القدس، لتتلوها «كامب ديفيد». وجاءت مسرحية محمود دياب استجابته الفكرية والفنية لهذين الحدثين الأخيرين بوجه خاص. هى عمله الأخير المكتمل، نشرت ـ للمرة الأولى ـ فى مجلة «المسرح» فى نوفمبر ١٩٧٩، وأعيد نشرها بعد رحيل صاحبها بثلاث سنوات «مختارات فصول، أكتوبر ١٩٨٦».

الحقائق التاريخية عن «مملكة تدمر» فى بادية الشام تؤكد أن هذه المملكة الصغيرة خاضت فى القرن الثالث الميلادى ـ ابتداء من عام ٢٦٠م ـ حروبًا ناجحة ضد دولة الفرس. حتى استطاع ملكها «أُذَيْنة» أن يبسط سلطانه على سوريا كلها، واعترف به الامبراطور الرومانى الضعيف «جيلنيس» ملكًا على المشرق، ومات أذينة فى ٢٦٨م، وتولت امرأته «زنوبيا» أو «الزباء» زمام الحكم من بعده، وظلت تدير شئون مملكتها حتى ٢٧٣م حين دمر الإمبراطور أورليانوس. مدينتها وقوَّض حكمها، لكن زنوبيا أو «الزباء» عاشت فى التاريخ الأسطورى أو «الميثولوجى» العربى أطول كثيرًا مما عاشت فى تاريخها الحقيقى.

لكن هذا كله ليس سوى «الإطار الخارجى» لما يريد المسرحى أن يقول، بعبارة ثانية: لسنا بصدد مسرحية «تاريخية» على أى نحو، نحن إزاء عمل فنى يتعلق بأستار التاريخ كى يقول ما يشاء.. فلننظر كيف صاغ محمود دياب «أسطورته» وماذا أراد منها: أبرز وجوه الزباء أنها منتقمة، تسعى للانتقام لأبيها الملك «عمر بن الظرب» من قاتله ملك الحيرة «جذيمة الوضاح» أو «جذيمة الأبرص» قبل سبع سنوات، وقد نجحت فى استدراج الملك العجوز، أرسلت له رسالة ومعها صورة لها، قالت فى رسالتها: «لننس الماضى.. إذا كان أبى قد مات فالموت قانون يخضع له كل البشر.. وأنا حية ولى قلب يخفق.. وأنا أنثى، والأنثى تحتاج إلى رجل، وقد اخترتك أنت رجلاً، فكن رجلى..»»، وهى تستعد «لعرس الدم» فى قاعة عرشها الجرداء من كل شىء سوى صورة للملك القتيل. قالت لها عرافتها أن تحذر، فلا تجعل شيئًا من دمه يسقط على الأرض، فلو سقطت قطرة واحدة لكانت نذير ثار نافذ، أما أختها «زبيبة» فترجوها ألا تقتله: «لا تقتليه.. أوقفى أنهار الدم.. فقد غصَّت الأرض بيننا وبين الحيرة بما شربت من دم»، لكن آلهة الانتقام لا تتوقف عن تحقيق حلمها الدموى، ويحدث فعل القتل على المسرح: أربعة نسوةٍ عجائز يقطعن شريانى يديه ويستصفين دمه، لكن بقعة منه تسقط على الأرض «هذا دمه على الأرض.. إن قطرة واحدة تكفى لتُحدث فيضانًا فى نهر الدم.. أى قدر صنعتُ لنفسى ولتدمر؟.. النهر جار وطافح ولا شاطئ ترسو عليه الزباء.. لا نجاة..»».



الدراما الحقيقية هى ما ستدور بين الزباء من ناحية، و«عمرو بن عدى» وريث جذيمة، ابن أخته وطالب ثأره. كان شاعرًا ينفر من إراقة الدم وطلب الثأر، لكن شيوخ الحيرة يحاصرونه ويرغمونه عليه، وعلى رأسهم «قصير بن سعيد» وزير الملك القتيل. إن لدى «قصير» خطة كاملة، يمهد بها للملك حتى يقتل الزباء بنفسه، والخطة هى أن يلجأ إليها زاعمًا أنه لقى من مولاه أهوال التعذيب والتنكيل والنفى. هل جازت خدعته عليها فعلاً أم أنها قَبلتها لأن بداخلها رغبة خفية فى أن تلقى جزاء ما فعلت؟ لعل ما يُرجِّح هذا الاحتمال أنها أرسلت رسَّامها «ابن الحكم» إلى الحيرة كى يعود إليها بعديد من صور عمرو.. «أريد لصورته أن تكون تحت عينى فى كل لحظة.. حتى إذا رأيته عرفته.. فهو لا سبيل له لقتلى إلا أن يتسلل إلى قصرى..»، وهذا ما يحدث فى النهاية: تنجح خطة «قصير» حتى أن الزباء ترسله ـ مفاوضًا باسمها ـ إلى «سابور» ملك الفرس، وبعد أن يعود برسالة منه تسمح له بالعودة كى يجلب تجارته ويستقر بتدمر، ويرجع بسرب من الجمال تحمل صناديق ضخمة فى أحدهما عمرو بن عدى.

إن اللقاء بين الزباء وعمرو فى المشهد الأخير هو جوهر الدراما، وهو ما تنتهى إليه كل الأحداث، بل هو ما صاغ المسرحى عمله كى يبلغه، وكى يدور بينهما هذا الحوار المثقل بالدلالات، انظر لهذا الذى جاء يقتلها ماذا يقول لها، إنه يعرض عليها الزواج:

عمرو: .. تزوجينى فننهى هذا العداء الموروث، ونعيش فى عالم نُنشئه معًا لأنفسنا ولمن يأتون بعدنا.. عالم ليس فى أعماقه تلك الأحقاد المدمرة القديمة.. (..).

الزباء: .. هل فكرت فى شعبى وشعبك؟.. (..) ما قولك فى شعبى وشعبك إذا نحن تزوجنا؟

عمرو (مصدومًا): شعبى لن يحب زواجًا كهذا.. فقد أرسلنى لقتلك.. ولا أظن أن شعبك يحبه.. لسوف يكرهونه هنا وهناك لكنهم لن يوقفوه.. فالزواج إرادة منا.. أنا وأنت.. وسنجد من الأيام متسعًا لأن نغيرهم.. هنا وهناك.

الزباء: كيف؟

عمرو: بأن نجعلهم يحبونه.

الزباء: أنت بالفعل شاعر ولست ملكًا.. فتراث توارثه الناس على مدى أجيال. لا يتلاشى بكلمة من ملك.. (..) خذها كلمة من الزباء يا عمرو ولا تنسها: إن أرضًا ارتوت بالحقد لا تنبت فيها زهرة حب.

تلك «الحكمة» التى تقولها الزباء تضاف إلى بقية «الحكم» التى تحفل بها قصة الزباء فى التاريخ الأسطورى العربى: «لأمرٍ ما جدع قصير أنفه»، «لو كان يطاع لقصير أمر..»، «بيدى.. لا بيد عمرو».. إلخ. لكنها هى الهدف الرئيسى من صياغتها المعاصرة، وهى ـ ببساطة ووضوح ـ رأى المسرحى فى السلام المصرى ـ الإسرائيلى. على أى حال: لا تجد الزباء أمامها سوى أن تتجرع السم، وتموت «بيدها لا بيد عمرو..»، ويأتى «قصير» ليُخرج سيده كما أدخله!

٤ دراما الحياة والموت..

* فى «أحزان مدينة ـ طفل فى الحى العربى، ١٩٧١» حدَّثنا محمود دياب عن طفولته وصباه فى مدينة الإسماعيلية، المدينة التى يحمل اسمها تاريخ نشأتها، التى ارتبطت ـ منذ هذه النشأة ـ بقناة السويس: المجرى المائى والشركة والقاعدة، والتحمت بالنضال الوطنى المتصل بها على طول تاريخنا الحديث. هو من مواليد ١٩٣٢، وهو يبدأ هذا الجزء من سيرته الذاتية ـ لم يتح له رحيله الباكر أن يكملها ـ ببداية الوعى، ونشأة الحى الذى أُطلق عليه ـ لا يدرى لماذا ـ «عرايشية مصر»، والذى يقع بين «الحى العربى» و«الحى الأفرنجى» من المدينة، وينتهى وقد وقف الصبى على أعتاب المراهقة، انتهت الحرب العالمية وبدأت ظواهر لم تعرفها المدينة من قبل تجتاح الحى الذى كان هادئًا وآمنًا. فى أسلوب بسيط وإيقاع هادئ يبدو محايدًا، يصور محمود المتغيرات التى اجتاحت المدينة والوطن خلال تلك السنوات من ثلاثينيات القرن الماضى وأربعينياته.

ونحن نعرف أنه كان واحدًا من أسرة كبيرة العدد (ست شقيقات وشقيقان)، نزح الأب من إحدى قرى «الصالحية» واستقر فى مدينة الإسماعيلية، موظفًا صغيرًا فى بنك «باركليز»، وحين حصل محمود على شهادة «الثقافة» فى ١٩٤٧ عمل فى فرع البنك نفسه فى مدينة السويس، لكنه لم يتخل عن حلم إكمال دراسته (فى كلية الحقوق على وجه التحديد). فحصل على «التوجيهية» فى ١٩٤٩، والتحق بالكلية التى تمناها فى ١٩٥١، إبَّان اشتداد الحركة الوطنية المعادية للإنجليز فى منطقة القناة، واصطدم محمود بمدير عمله فى السويس - وكان إنجليزيًا بطبيعة الحال - ففدَّم استقالته وتفرغ لدراسته التى أنهاها فى ١٩٥٥، عُيِّن بعدها مباشرة، محققًا فى «إدارة قضايا الحكومة»، وترقى فى عمله حتى أصبح «مستشارًا» قبل أن يهجره تمامًا فى سنواته الأخيرة، ولاشك فى أن هذه الصفة القضائية قد حَمَتْه من التعرض لمزيد من الاضطهاد فى سنوات السبعينيات بوجه خاص.




وعمل محمود فور تخرجه، فى مدينة أسيوط (ولعل إقامته فى هذه المدينة هى التى قدمت له المادة الضرورية للقصص التى تدور حول عناء العاملين فى مهنة البناء من أهل الصعيد، والتى صاغها فى عدد من قصص مجموعته «خطاب من قبلى»، على النحو نفسه، فقد أفادته هجرة الأسرة إلى قرية الأب فى محافظة الشرقية أثناء الحرب العالمية فى مزيد من التعرف على حياة القرية)، وفى أسيوط تعرَّف محمود إلى فتاة جميلة أصبحت زوجته الأولى، وأم ابنته «هالة» وابنه «هشام»، وجاءت معه إلى القاهرة حين نُقل إليها، لكنه تعرَّض إلى حادثة دامية فى ١٩٦١: انتحرت زوجته، واتهمه أهلها بقتلها، واثبت محمود براءته، لكن الحادثة كلها خَلَّفت فى عقله وقلبه آثارًا غائرة. (حدَّثنى شقيقه الرسام المعروف إسماعيل دياب أن فى مسرحيته «البيت القديم» الشىء الكثير عن تعرفه إلى زوجته الأولى وعلاقته بها)، كان من هذه الآثار اضطراب علاقته بالجنس الآخر، تزوج بعدها ثلاث مرات، وانتهت زيجاته كلها إلى الطلاق، وقد انجب من أخراهن - وهى فنانة ديكور سورية - ابنته «هبة».

كان محمود عصبيًا، حادًا، متوترًا، كأنه كتلة أعصاب عارية، وكان كذلك عنيدًا، ذا صلابة غير عادية إزاء ما يعتقد أنه الحق، لا يعرف المهادنة، أو المساومة أو أنصاف الحلول أو أنصاف الأفكار، عالمه محدد بصرامة قاطعة: أبيض أو أسود، لا منزلة بين المنزلتين، ولا مقعد بين المقعدين، ولا لون بين اللونين: إما رفض لا يحتمل شبهة القبول، أو قبول لا يحتمل الرفض.

ولاشك فى أن هذا التكوين العقلى والنفسى قد ضاعف من عنائه وعذابه، خاصة فى سنوات السبعينيات الكالحة، بما سادها من خلط متعمد للقيم، وتحويل للتوجهات الرئيسة فى السياسة والثقافة جميعًا.

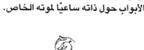
سبق القول أنه بدأ بكتابة القصة القصيرة (فهو الشكل الذى يبدو أكثر يسرًا وطواعية)، وحصل على واحدة من جوائز «نادى القصة» فى ١٩٥٩، ثم كتب الرواية، لكنه وجد فى الكتابة للمسرح أكثر الأشكال الفنية ملاءمة له ولما يود أن يقول، ومنذ نضبت أولى مسرحياته بالحياة على الخشبة (٦٢/١٩٦٣) وقع فى أسر هذه الغواية الساحرة، صحيح أنه مارس أشكالاً أخرى من الكتابة، لكنه يبقى «المسرحى» بالألف واللام، ويبقى بعض ما خلَّفه للمسرح من أثمن ما عرف المسرح العربى على وجه الإطلاق. (افتح هذا القوس لأشير إلى أنه كتب عدة أعمال للتليفزيون فى القاهرة ودمشق، أما علاقته بالسينما فتمثلت فى إعداد بعض أعمال دستويفسكى: «سونيا والمجنون» عن «الجريمة والعقاب» و«الإخوة الأعداء» عن «كرامازوف». ليخرجها حسام الدين مصطفى، لكن هذه الكتابات كلها، وإن أسهمت فى توفير احتياجاته المادية، إلا أنها أرهقته إرهاقًا شديدًا، فما يكتبه لا يتم تنفيذه على الوجه الذى يراه، والناتج النهائى لا يرضيه، ولاشك عندى فى أن علاقته بالسينما كانت بين عوامل اكتئابه فى سنواته الأخيرة، أما علاقته بالتليفزيون المصرى فانتهت إلى قرار بمنعه من دخول المبنى كله فى ١٩٧٦!).

ولعل أهم ما فى مسرحيات الستينيات (تلك الثلاثية الرائعة «الزوبعة»، «ليالى الحصاد» و«الهلافيت») تقديم صورة للقرية المصرية مختلفة عما هو سائد: شخوص حقيقية نابضة بالحياة يحملون همومًا حقيقية كذلك. وبقدر ما تطرح هذه الأعمال هموم الفلاحين ترتفع إلى طرح قضايا إنسانية شاملة، يتم هذا دون مباشرة أو افتعال، دون صوت مرتفع أو شعارات زاعقة، ولكن من خلال أبنية فنية بالغة الدقة والإحكام: فى يسر وسلاسة يتم الانتقال من الماضى للحاضر، من التشخيص للواقع، من الخارج للداخل. إنك لاتكاد تجد فى هذه الأعمال جملة زائدة أو فى غير مكانها، هو مسرحى قادر بكل المعانى، يعرف جيدًا متى يقول ومتى يصمت، لا يستدرج إلى «ميلودرامية» فاقعة، أو «سنتمنتالية» مائعة، لكنه يحدد - فى لمسات قليلة - ملامح شخوصه يُعيِّنها فلا تتماثل - إن تشابهت - حتى حين يستخدم الأصوات الجماعية فهو يمايز بينها، فيجعل لكل منها ما يمتاز به عن بقية الأصوات، إنها ليست جماعات مصمتة تردد صوتًا واحدًا لكنها ذات تنويعات وتلوينات.

أما فى سنوات السبعينيات فقد انتقل المسرحى من هموم القرية لهموم الوطن، وبقى على اتصال وثيق بالقضايا ذات الطابع المصيرى فى الواقع المصرى والعربى. إن سياقًا واحدًا ينتظم هذه الأعمال: فى ١٩٧١، حين كتب «باب الفتوح» كان مايزال يأمل فى أن يتزاوج الفكر والسيف، العقل والقوة، فجاء بأسامة بن يعقوب من إشبيلية. فى لحظة من التاريخ رآها موازية لما بعد ١٩٦٧ ورحيل عبدالناصر، وأبقى الأمل فى الشباب، هم الذين سيحفظون كتاب أسامة ويشيعونه بين الناس، وبعد أن اشتعلت النار فى أكتوبر ١٩٧٣، وقبل أن تنتهى السنة ذاتها، جاء برسوله من قرية تميرة، لكنه رجع خائبًا مفلسًا مدينًا، لكنه أبقى الأمل أيضًا فى أهل القرية الذين يتحفزون للدفاع عن أرض الشهيد، ومقاتل من أبنائهم يؤكد لهم العزم على مواصلة الحرب والتطلع إلى الاستمرار. وفى ١٩٧٥/٧٤ شهد محمود - كما شهدنا جميعًا - انبعاث رموز الماضى الكريه، خرج «أهل الكهف» من قبورهم يجرجرون الأكفان، ودبت الحياة فى التماثيل الميتة، فبدت لاستعادة ما فقدته زمنًا طويلاً، لكنه أبقى الأمل كذلك: الناس يتجمعون حول بوابة الكهف ليمنعوا أى تمثال من الخروج «مستحيل أسيب عشرين سنة من حياتنا يروحوا هدر..». ثم شهد محمود - كما شهدنا جميعًا - غزو لصوص الانفتاح، فجعل «بهجت بيه» يعود إلى «قصر الشهبندر» الذى طُرد منه قبل ثلاثين عامًا، يعود ولديه خطة جاهزة للاستيلاء على القصر، وشراء كل الذين يعيشون تحت سقفه. مرة أخيرة: أبقى محمود الأمل: يتجمع أهل الشهبندر ويقفون وراء حكمت التى كفت عن مطاردة سراب ماضيها الجميل، وهى تقول بوضوح إن أهل الشهبندر أولى بكنزهم.. «هنحط إيد على إيد ونحاول سوا نطرد الفيران ونقوى.. علشان يعيش لولادنا جيل بعد جيل..».

نعم. حتى حينذاك كان الأمل يمكن أن يوجد، غير أن السنوات من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٩ قضت على الأمل تمامًا: انفتحت أبواب الواقع - على كل مصاريعها - أمام المتربصين بدم الشهداء، وأمام رموز الماضى القبيح، وأمام ذئاب الانفتاح. وتم تغييب إرادة الناس وإبعادها، واختنق النضال الوطنى والقومى وحوصر فى دهاليز المفاوضات، ثم فُرض السلام الهش، الزائف والمصنوع، ومن ثم جاءت أغنيته الأخيرة كئيبة حزينة، مثقلة بالجدب والعقم والزيف والعنف والدم والجنون. مَدَّ محمود الخطوط لنهاياتها، ومرة أخيرة كان لرؤيته صدق النبوءة ومذاقها الجارح: لابد أن تموت زينب الزباء: حين استبدت برأيها ورفضت حب قائد جيشها والاستماع لنصحه، وفتحت أبواب تدمر للأعداء، وأرسلت عدوها يتفاوض باسمها، وأحاطت نفسها وجدران قصرها بصور العدو، وجعلت لعبتها المجنونة قانونًا أخضعت له كل شىء.

حين أغلقت كل أبواب الخلاص، مضت زينب الزباء لموتها، بعدها أغلق محمود دياب الأبواب حول ذاته ساعيًا لموته الخاص.



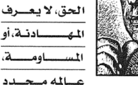
ومن المؤكد أن سنوات السبعينيات قد حملت لمحمود قدرًا كبيرًا من العنت والاضطهاد، كانت أعماله تُرفض حتى دون أن تُقرأ، حدث هذا فى «باب الفتوح» فى ١٩٧١، وتكرر الموقف فى الأعمال التالية: لم تقدم «رسول من قرية تميرة..» (هل كانت مصادفة أن تُمنع مسرحية محمود، وأن تُقدم - بالمقابل - على مسارح الدولة، فى الاحتفال بذكرى أكتوبر، مسرحيتان لسعدالدين وهبة معًا، هما «يا حبيبتى يا مصر» و«راس العش» إلى جانب مسرحية عن قصة قصيرة لوزير الثقافة يوسف السباعى، ورابعة لرشاد رشدى؟)، كذلك منع عرض «أهل الكهف»، وبعد أن خاض كرم مطاوع معركته التى انتهت بعرض «دنيا البيانولا» وحققت نجاحها الجماهيرى، فات عليك الموقف الرسمى وما أدى إليه من إحراق المسرح الذى يقدم عليه العرض!

فماذا بوسع محمود دياب، بأعصابه العارية وحساسياته الفائقة، أن يفعل؟

يعرف أصدقاؤه، والقريبون منه أنه راح يغلق حول نفسه الأبواب، وغاص - طوال السنوات الثلاث التى سبقت رحيله - فى وحدة كاملة: لا يزور ولا يُزار، اعتزل الأصدقاء والناس، وانقطع عن الصحف والإذاعات، ثم هجر عمله الرسمى، وراح يقضى أيامه ولياليه وحيدًا، تتراكم الصحف أمام بابه المغلق، لا يجيب طارقًا ولا يأبه بزائر. اكتفى بذاته تمامًا ووهنت علاقاته بالناس والأشياء، وغاص فى رؤاه القاتمة والمتشائمة التى تستند لمعطيات الواقع، وتحمل صدق النبوءة وقدرتها على النفاذ.

وصباح يوم من أكتوبر ١٩٨٣ أدار محمود دياب وجهه للجدار، ومات. وعلى الفور فهم أصدقاؤه وعارفوه دلالة موته: كان رفضًا واحتجاجًا على واقع رآه فاسدًا بلا أمل، معتلاً بلا بُرء.

يمكنك أن تُجْمل دراما حياته وموته فى جملة واحدة: هذا مُبدع عظيم، أحبَّ بقوة وضرب بقوة، حتى كَلَّت قواه.. فتهاوى! ■



كان محمود عصبيًا، حادًا، متوترًا، كأنه كتلة أعصاب عارية، وكان كذلك عنيدًا، ذا صلابة غير عادية إزاء ما يعتقد أنه الحق، لا يعرف المهادنة، أو المساومة، عالمه محدد بصرامة قاطعة: أبيض أو أسود، لا منزلة بين المنزلتين



موضوع الصراع بين الحزب القومي الاشتراكي الألماني وبين التنظيمات اليهودية الأوروبية منذ العام ١٩٣٣، تاريخ وصول هتلر إلى السلطة، إلى سقوط الرايخ الثالث، مازال بعد مرور نحو نصف قرن يُجند أقلاما كثيرة تحاول ترسيخ وجهة نظر وحيدة؛ لأن المنتصرين في ذلك الصراع يصرون على كتابة التاريخ من وجهة نظرهم، على عادة المنتصرين، فكيف إذا ما كان هؤلاء يتحكمون بأدوات التواصل من مقروءة ومسموعة ومرئية، الموجودة على أرض هذا الكوكب وفي فضائه؟!

ويدهش من يتابع هذا الموضوع، لا لفرط الإلحاح على إبراز الرواية اليهودية للحدث فحسب بل لهذا الطوفان من الكتب والمقالات والدراسات والأفلام التي تنحو هذا المنحى، مما يثير شكوكًا عميقة ويعطي انطباعًا بأن ما يراد إخفاؤه هو أكثر خطورة مما يراد إظهاره على الملأ. بالإضافة إلى أن إصرار ما ينشر ويذاع على إبراز سمة وحدانية «الهولوكوست» لا يخدم إلا مسألة التهوين من عذابات الآخرين، كي لا نقول الاستهانة بها.

سبيلبيرج يعيد كتابة التاريخ سينمائيا

الهولوكوست على الطريقة الأمريكية!

ثـــائر معيطـــة

■■ والكتاب الذي أود عرض بعض الأفكار التي تضمنها، في هذه السطور عنوانه: «عهد الشاهد» للمؤرخة الفرنسية آنيت فييفيوركا، وهي مديرة باحثة في مركز البحوث السياسية في جامعة السوربون، متخصصة في تاريخ يهود القرن العشرين.

تعالج المؤرخة في هذا الكتاب مسألة «أقوال الناجين اليهود» من النازيين أي شهاداتهم التي بقيت «غير مسموعة» زمنا طويلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. ولكنها أصبحت الآن ملء السمع والبصر بعد أن استولى عليها مخرجو المسلسلات المتلفزة والأفلام الهوليودية، وعلى رأسهم ستيفن سبيلبيرج (مخرج الروائع) برأي السينمائيين العرب.

تضمن الكتاب أفكارًا جديرة بالاهتمام، ولا غرو فالمؤلفة مؤرخة رصينة لا عيب في رصانتها إلا وقفها حصرًا على «عذابات اليهود» دون باقي البشر الآخرين. وسأركز على محور مهم من محاور «عهد الشاهد» احتل عشرات الصفحات منه، عالجت فيه المؤلفة تحول الشهادات المتعلقة بمعتقلات الحرب العالمية الثانية من «المذكرات» المكتوبة التي اكتسى أغلبها طابعا أدبيا (لأن العمل الأدبي وحده يدرك الخلود) إلى الشهادات المرئية المسموعة «الفيديوية» التي تكتفي بتسجيل أقوال كل من اعتقل.

شهدت نهاية السبعينيات انطلاقة زمن الحملة المنظمة لجمع الشهادات وتسجيلها، بعد أن أصبحت «إبادة اليهود» حاضرة بقوة في الحياة السياسية سواء في فرنسا أو في إسرائيل والولايات المتحدة.

ولعبت محاكمة رودولف أيشمان في ١٩٦١، حيث حوكمت الجريمة لا المتهم، كما كتبت حنة أرندت مما منع ترجمة كتابها الشهير عن «المحاكمة» إلى العبرية، لعبت دورًا كبيرًا في إبراز الشهود، «عندما أصر المدعي العام الإسرائيلي هاوزنر على استدعاء مائة وأحد عشر شاهدا من أجل إعطاء درس في التاريخ للأجيال الحاضرة والقادمة». وجاء بث مسلسل «هولوكوست» الأمريكي في نهاية السبعينيات ليُعَوْلِم الكلمة، وكان مخرجه مارفن شومسكي قد نال شهرة واسعة من مسلسل «الجذور» الشهير.

وركبت المنظمات اليهودية الأمريكية الموجة منذ ١٩٧٣، وأدرجت في برامج عملها «ضرورة حفظ ذكرى الهولوكوست»، وركزت جهودها على المعاهد والجامعات. حيث لم يكن فيها سنة ١٩٦٢ إلا برنامجًا واحدًا فقط لدراسة الموضوع، إلا أنها تجاوزت المائة برنامج اليوم.

اللافت للنظر أن الهولوكوست في الولايات المتحدة بلد الليبرالية القصوى والسوق، قد تأمْرك في القطاع العام أولا. ففي عام ١٩٧٧ أنشأت الحكومة مؤسسة لملاحقة الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة بصورة مشروعة بعد استسلام ألمانيا، بذريعة البحث عن مجرمي الحرب في صفوفهم. كما شُكِّلت لجنة رئاسية لشئون الهولوكوست في الولايات المتحدة، في الذكرى الثلاثين لقيام دولة إسرائيل. وفي السابع من أكتوبر عام ١٩٨٠ نشر قانون إقامة مجلس النُصب التذكاري الأمريكي للهولوكوست، وهكذا أصبحت ذكرى (الإبادة) موضوعًا متداولا بين الساسة الأمريكيين. وظهر ما يسمى «الاستعمال» السياسي للإبادة.



L'ERE DU TEMOIN

عهد الشـــاهد

ANNETTE WIEVIORKA

Plon - 1998 - 190pp

أما على صعيد القطاع الخاص، فلقد انطلقت فكرة المشروع السينمائى للناجين من الهولوكوست من مدينة نيوهيفن مقر جامعة ييل الشهيرة، وذلك بمبادرات فردية. وفى عام ١٩٨٢ تدخلت الجامعة نفسها لدعم المشروع. وفى ١٩٨٧ أطلق على المركز المحدث لذاكرة الهولوكوست اسم «محسن كبير» اسمه آلن فورتولوف. وبحلول العام ١٩٩٥ كان المركز يضم نحو ٣٦٠٠ شهادة أو عشرة آلاف ساعة من المقابلات الفيديوية، جُمعت من الولايات المتحدة ومن عشرات البلدان الأخرى.

وانتشرت الظاهرة وتكاثرت المراكز فى المتاحف والنُصب المخصصة للهولوكوست. إلا أن المركز الذى فاق كل ماعداه أحدثه المخرج المعروف سبيلبيرج فى ١٩٩٤، فلقد غير مقاييس جمع الشهادات بعد أن أنهى عمله فى فيلم «لائحة شندلر» الذى صوره فى بولونيا. وأعلن أن هدفه الحفاظ على التاريخ كما عرفه الذين نجوا بانفسهم منه. وهكذا أُحدث (مركز الوثائق المصورة لشهادات الناجين). ويلاحظ التماثل الواضح بين مشروع سبيلبيرج وبين مشروع جامعة ييل الذى سبقه، وولد المركزان من فيلمين «تخييلين» Fiction (الأول من مسلسل الهولوكوست والثانى من لائحة شندلر المستندين إلى عملين أدبيين متخيلين). ومع ذلك توجد فوارق بين المشروعين فمشروع الجامعة يعتبر «حرفيا» بالمقارنة مع مشروع سبيلبيرج «الصناعى»، ويرى هذا الأخير أن العمل يجب أن يتم باقصى سرعة لأن «الناجين» يتقدمون فى السن، ويجب تسجيل «شهاداتهم» جميعها، ويقدر عدد هؤلاء بثلاثمائة ألف. سجلت شهادات خمسين ألفًا منهم حتى نهاية ١٩٩٧ وستسجل شهادات مائة وخمسين ألفًا حتى عام ٢٠٠٠ فى أى مكان وجدوا.

يقول ميكائيل بيرنباوم مدير المركز، وهو يستعرض حالة الوثائق الراهنة: لدينا عشرات الآلاف من المقابلات فى ثلاثين لغة. ويقسم وقت كل مقابلة إلى ثلاثة أقسام يخصص ٢٠٪ لحياة الشاهد اليومية قبل الاعتقال و١٥٪ ليسرد حياته بعده، ويترك القسم الأكبر لفترة «الهولوكوست».

وبذلك تمكنا من تشكيل لوحة شاملة كاملة لحياة الجماعات اليهودية فى القرن العشرين. ويقوم المركز بتدريب «المحققين» الذين يسجلون الشهادات. والتحديد المهم بالمقارنة مع أسلوب جامعة ييل يعتمد على إلزام الشاهد بتقديم رسالة فى نهاية المقابلة تتضمن ما يتمنى أن يتركه إرثًا للأجيال القادمة. ويصر سبيلبيرج على أن تكون نهاية كل شهادة مماثلة لنهاية فيلمه لائحة شندلر (حيث وصل الناجون إلى الأرض الموعودة - فلسطين - ليرتاح ضمير الغرب المعذب الذى ساهم فى صنع الهولوكوست). لذلك يدعى إلى المقابلة أولاد الشاهد وأحفاده، كدليل على انتصار الحياة على الموت، ورغبة فى تحقيق الـ HAPPY END.

يعمل فى مركز سبيلبيرج نحو ٢٤٠ شخصًا بشكل دائم - ماعدا المتطوعين - وخلافًا للرأى السائد، فإن تمويل المركز، الذى وصلت موازنته إلى ستين مليون دولار فى السنوات الثلاث الماضية، لا ياتى من أرباح أفلامه، بل من مجموعة مؤسسات إعلامية وتجارية منها MCA يونيفرسال وشبكة NBC ومؤسسة تايم وارنر واسترمان.

وفى حين كانت المقابلات التى يجريها مركز جامعة ييل الهولوكوستى غير «توجيهية» وغير محدودة المدة، فإن مقابلات سبيلبيرج «موجهة ومحددة المدة» وتجرى طبقًا لبروتوكول يطبق فى سائر البلدان. ثم ترسل الأشرطة إلى المركز فى لوس أنجلوس، حيث تعالج بالثقافة الرقمية (ديجيتال) وتصنف. ويجرى تحضير التسجيلات لإدخالها على الحواسب (كمبيوتر) وبالألوان ليتمكن من يشاء من الاطلاع عليها بلغات متعددة، وستحتل مكانها قريبًا فى شبكات المعلوماتية المعروفة.

تتساءل المؤرخة فييفيوركا: ما الشكل الذى ستتخذه «دنيا الشهادات» بعد تعميم هذه التقانات الجديدة (جمع تقانة) وأى رؤية ستكونها الأجيال الشابة عن الهولوكوست؟ وقد ولدت بعد ثلاثة أجيال من الحدث. وتكتب: لا يوجد من يتمكن اليوم من الإجابة.



غير أن أمرًا واحدًا يبدو مؤكدًا، وهو أن سبيلبيرج وباقى المسئولين عن المراكز الجديدة لجميع الشهادات «الفيديوية» يتطلعون إلى



اللافت للنظر أن الهولوكوست فى الولايات المتحدة بلد الليبرالية القصوى والسوق، قد تأمْرك فى القطاع العام أولا. ففى عام ١٩٧٧ أنشأت الحكومة مؤسسة لملاحقة الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة بصورة مشروعة بعد استسلام ألمانيا، بذريعة البحث عن مجرمى الحرب فى صفوفهم



اعتبار ما يصورون ويسجلون (القصة الحقيقية) وبالتالى إلى إحلالها محل التاريخ. ويدعون إلى «ثورة» فى عمل المؤرخين وفى انتاجهم، لا بل يريدون قلب ميدان الوثائق التاريخية ذات الصلة بحدث ما. والمقصود فى الواقع الوصول إلى ما يسميه ميكائيل بيرنباوم - مدير مركز سبيلبرج - أمركة الهولوكوست - أى إلى استيعابه فى ثقافة الولايات المتحدة عبر تقديمه بشكل «ينقذ فكرة الإنسان» حيث تنتصر الحياة على الدمار.

يبقى أن نعرف موقف المؤرخين المحترفين من هذه الثورة المزعومة فى علم وثائق التاريخ. وهذا ما لم تستطع السيدة فييفيوركا تجنب الخوض فيه كونها مؤرخة رصينة، لايبدو عليها الاقتناع العميق بهذه «الألعاب الفيديوية» الأمريكية رغم اهتمامها بالظاهرة التى نجحت بلا شك فى غسل أدمغة الملايين وإقناعهم بصلاحية الرواية اليهودية وبوحدانيتها. لذلك أعطت الصفحات الأخيرة من الكتاب لموضوع: بين الشاهد والمؤرخ. حيث عالجت فيها العلاقة بين شاهد الحدث التاريخى وبين المؤرخ المتخصص، وطرحت مسألة التوتر السائد بينهما، لا التوتر فحسب، بل المنافسة. ولماذا لا نقول أيضًا الصراع من أجل «السلطة» هذا الصراع الحاضر اليوم فى قلب الجدل الدائر حول تاريخ الأزمنة المعاصرة، عندما يدخل التعبير الفردى فى صراع مع الخطاب العارف.

تستشهد المؤلفة بالكاتب الفرنسى Philippe LEJEUNE الذى يصنف حماة (الآداب الكبرى) الذين لا يحبذون السير الذاتية ويقول لهم: إنكم تتصرفون بالفعل كما يتصرف المحترف الذى يتهدده الهواة. وترى المؤلفة أن المؤرخ يجد نفسه فى موقف حرج أمام شهادة المعتقل الذى أبعد عن وطنه.

وتلجأ إلى كاتب فرنسى آخر هو Pierre LABORIE الذى عالج موضوع الشهود العيان فى كتاباته عن المقاومة الفرنسية (فى أثناء الحرب الثانية) وتقول: إن ملاحظاته يمكن تطبيقها وقبولها فى موضوع (ضحايا الهولوكوست والناجين منه) وتتفق مع (لابورى) فى أن المؤرخ يجب أن يلعب دور (منغص) الذاكرة لأن هذه هى مهنته. ومنغص الذاكرة هذا يجب أن يهتم بالتذكير بوجود خطوط فصل وتقسيم لا يمكن التقليل من شانها بين فضائل إحياء الذكرى وبين صرامه المنهج التاريخى.

وتتساءل المؤلفة: مع ذلك هل يستطيع المؤرخ، أخلاقيا ومعنويا، أن يكون منغص ذاكرة أمام شخص حى؟

وإذا كان المؤرخ يعلم أنه يملك المعرفة، وإذا أدرك تمامًا أن الشاهد يبتعد عن الحقيقة، فإنه يجد نفسه عاجزًا بشكل رهيب. وتضيف: لكل الحق المطلق بذاكرته التى هى هويته وكينونته. ولكن هذا الحق يمكن أن يدخل فى نزاع مع واحد من ضرورات مهلة المؤرخ وشروطها، ألا وهو البحث العنيد عن الحقيقة. وتنوه المؤلفة بأن بعض المؤرخين اليهود الذين عالجوا مسألة «الهولوكوست» ومنهم راورل هيلبرج يفضلون الابتعاد على رءوس أصابعهم عن هذه الشهادات ويتركونها إلى النسيان أو إلى علوم أخرى مثل النقد الأدبى وعلم النفس اللذين ليس لهما المفهوم نفسه عن الحقيقة. وبوسع المؤرخ التصرف بشكل آخر، فيقرأ الشهادات ويسمعها أو يشاهدها، دون أن يبحث أبدًا عما يعرف جديا أنه لن يجده فيها: أى إضاءات لحوادث محددة، وأماكن وتواريخ وأرقام تكون دائمًا غير صحيحة.



والخصام الذى نراه اليوم بين المؤرخين والشهود ناجم من التشويش الملحوظ فى «الأمكنة» أو مسارح عمل كل منهم. وكذلك فى الأدوار المعطاة إلى هؤلاء. فالشهود صاروا كالمؤرخين، يدعون إلى «المحاكم» وإلى وسائل الإعلام وإلى قاعات الدراسة فيجدون أنفسهم غالبًا فى حال خصام. والهدف المحدد للشهود بصراحة، كما تريده مؤسسة التاريخ المرئى (للناجين من الكارثة) هو استخدام هذه «الوثائق» كأداة تربوية شاملة لموضوع الهولوكوست. وهذا يعنى ببساطة إحلال الشاهد محل المعلمين. هذا الشاهد المفترض فيه حمل معرفة لا يملكها للأسف. ومن هنا نشأت لدى بعض الشهود البارزين ظاهرة السأم من الإدلاء بشهاداتهم. غير أن الشهود العاديين من غير ذوى الثقافة لا يقاومون الرغبة بالظهور والشهرة. فيتجاوزون دورهم ويعطون للحضور دروسًا فى التاريخ، دون أن يفطنوا إلى أن تجربة المعتقل لا تمنح صاحبها أى موهبة تنبؤية. وغالبًا ما يخرج الشاهد عن دوره، ويبدأ بشرح صعود النازية للطلاب والمستمعين ويحاول تعبئتهم لأهداف سياسية مرحلية. ولكنه كثيرًا ما يفعل ذلك بموافقة المدرسين الذين يتخلصون بواسطته من عبء جاف غير مشوق، هو تدريس تاريخ الهولوكوست.

ما المطلوب من هذا الإخراج التليفزيونى للشهادات؟ تكشف فييفيوركا عن الهدف قائلة: الهدف تحويل الشاب - شاب الجيل الثالث - الذى تابع الأحداث إلى شاهد لمصلحة الشاهد (الأول). وجعله حاملا لمعرفة مكتسبة عن (تدمير اليهود) لم يحصلها على مقاعد الدراسة، أو من خلال الكتب. ولكن ستقدم إليه عبر تجربة عاشها صاحبها فى نموذج يبدو كانه يعود إلى الأناجيل. سيكون هؤلاء الشباب «الحواريون» كما فى أيام المسيح. فإذا ما غاب الشهود يكون عليهم حمل أقوالهم إلى بعيد. وتتساءل المؤلفة: ولكن أى أقوال يحملون؟ وعن ماذا يحكى الشاهد؟ إنه يقول ما بقى فى ذاكرته، وهذه الذكرى لها قوة الواقع. (برأى الشاهد طبعًا). يتحدث الشهود جميعًا اليوم، فى فرنسا وفى غيرها عن الكفاح ضد إنكار «الكارثة» وضد انبعاث الفاشية. ويتداخل هذا الخطاب فى الخطاب السياسى الراهن، كأنه «مطبوع» فوق الشهادة لتصبح أداة لمصلحة الخطاب السياسى السائد.

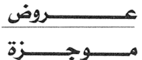


وبعد أن تستعرض المؤلفة شهود سنوات التسعينيات وشاهداتها، هذه السنوات التى رأت ازدهار حركة «الشهود العيان» وتحلل أوضاعهم ومواقفهم، تصل إلى أولئك الذين «رأوا» ولكنهم يرفضون الشهادة ويحتجون بالصمت، وتتساءل كيف نفسر هذا الازدهار العجيب للشهادات والشهود؟ وما دوافع هذا «الحصاد» الفيديوى الباهظ التكلفة ماليا وزمنيا؟ وتقول: يدعى بعضهم أن هذا العمل يتم من أجل إنشاء «وثائق» تاريخ شفهية، ويرى آخرون فى مشاريع جمع الشهادات جهدًا يائسًا لإنقاذ الفرد من القطيع! ومن أجل إعطاء حق الكلام للناس البسطاء الذين لا يعرفون تناول القلم للكتابة. وتضيف المؤلفة: تتوجه الشهادة إلى القلب لا إلى العقل وتولد الشفقة والعطف والنقمة والسخط والتمرد أيضًا. فالشاهد يوقع مع من يراه ويسمعه «جلفا عاطفيا» كالذى يوقعه من يكتب سيرته الذاتية مع القارئ؛ وبذلك أصبحت «النازية والكارثة» حاضرتين فى المجال العام، واكتسحتا حياة الأفراد الذين «انتصروا على الموت». وتخلق هذه الرؤية لدى المؤرخ نوعًا من القلق والضيق ليس لأنه لا يابه للألم - عندما يؤكد معتقلون أنهم لم يغادروا المعتقل إلى اليوم - بل لأنه يشعر بأن هذا التجميع والتقارب بين الشهادات لا يشكل وصفا تاريخيا، ولكنه يلغيه بشكل ما.

وهنا تطرح السيدة المؤرخة هذا السؤال الخطير والنهائى: كيف يبنى خطاب تاريخى متماسك إذا كان دائمًا فى تعارض مع حقيقة أخرى هى حقيقة الذاكرة الفردية؟ وكيف نحض على التفكير والتامل؟ وكيف نكون دقيقين صارمين عندما تجتاح العواطف والانفعالات المشهد العام؟

هل نفهم من هذه التساؤلات أن المؤرخة - وهى يهودية أيضًا - وضعت رصانتها كمؤرخة فى نواس يتأرجح بين القلب والعقل لتبقى منسجمة مع من يريدون استعمال الثقافة المتقدمة لترسيخ العواطف والانفعالات فى سبيل فرض رؤيتهم المنحازة على الدنيا كلها وإلى ما لا نهاية له؟

وقبل أن نغادر عالم المسلسلات والأفلام والفيديو الذى يعرف غيرنا الاستفادة من أدواته فى أمور تفيدهم وتعزز مواقفهم وتحفظ مصائرهم، خطر ببالى مطالبة «السينمائيين» العرب ممن يقلدون سبيلبيرج فى مسلسلاتهم ذات العناوين الطنانة التى تبثها الأقنية الفراغية العربية، بالالتفات إلى عشرات الآلاف من ضحايا «الهولوكوست العربى» الذى تقوم به إسرائيل فى وطننا. هؤلاء الضحايا الذين يقيمون فى ديار مخرجينا ومموليهم الأكارم. عفوًا لست أريد من سينمائيينا إنتاج شهادات مسموعة مرئية من أجل الضغط على الولايات المتحدة لاستيعاب «الكارثة الفلسطينية» فى ثقافتها .. كلا .. لست أريد منهم أى شىء.



كتب عربية

مدينة السياسة
فصول من تطور الفكر السياسي في الغرب
محمد خاتمي
بيروت: دار الجديد، ٢٠٠٠، ٣١٨ صفحة



قبل هذا الكتاب، أصدر الرئيس الإيراني محمد خاتمي كتابين: «بيم موج» ويعني بالعربية «في اللجة»، ويتناول فيه خاتمي المشهد الثقافي الإيراني وعلاقته بمشاهد ثقافية أخرى حوله عربية إسلامية وعالمية، وكان كتابه الثاني «مطالعات في الدين والإسلام والعصر» وهي مجموعة من المحاضرات ألقاها خاتمي في بيروت، والكتابان صدرا عامي ١٩٩٦ و١٩٩٧ على التوالي.

ويأتي كتابه هذا الذي يبدو تعليميًا أكثر منه تعبيرًا عن أنساق فكرية وتوجهات وآراء في الدنيا والدين كما هو حال كتابيه السابقين، كتب أساسًا بالفارسية وترجم إلى العربية مؤخرًا، وهو ليس ـ كما يقول خاتمي في مقدمته ـ بحثًا عن تاريخ السياسة ولا تقرير لوقائع سياسية جرت في التاريخ، وليس شرحًا للأنظمة السياسية وأسباب بزوغها وعوامل أفولها، إنما هو «نظرات فلسفية في تراث عدد من أبرز رواد الفكر السياسي وأفكارهم، لذا يدرس خاتمي مدينة أفلاطون الفاضلة، وعند أفلاطون فإن المدينة تكون فاضلة إذا اتصفت بفضائل طبيعية أربعة هي: الحكمة والشجاعة والاعتدال والعدالة.

والحكمة عند أفلاطون صفة يمتاز بها النخبة العامة، والنخبة التي تملك الحكمة هي المناط بها شئون الحكم، كما أن الشجاعة لا يحوزها أيضًا سوى جماعة محددة وتلك هي طبقة الجنود، أما الاعتدال فصيغة إنسانية يحوزها عامة الناس وخاصتهم، أما العدالة فهي أن يؤدي كل فرد في إطار الجماعة دوره كما ينبغي من أجل ذاته والمجموع، ثم يدرس خاتمي أرسطو في فصل تال موضحًا التمايزات بينه وبين أفلاطون، ويجمع بينهما وبين سقراط وأفلوطين وتوما الإكويني في دراسة جعل لها عنوان ملكوت الدين وملك السياسة، ويخصص فصلاً مستقلاً عن الفارابي كي يمايز بينه وبين فلاسفة الغرب، ويشير إلى غاية المجتمع عند الفارابي وهي السعادة، والتي تعني عنده الخير المطلق، ويضع الفارابي المدن الجاهلة والفاسقة والضالة في مقابل المدينة الفاضلة، كما يميز بين التعاليم التي بثها الإسلام في أتباعه وما غرسته المسيحية في نفوس أبنائها، ويشير إلى اهتمام القرآن الكريم بالإنسان والكون، لذا لم يكتف التشريع الإسلامي بالواجبات العبادية وإنما اهتم بالدرجة نفسها بإقامة نظام اجتماعي وسياسي متكامل، ولذا باشر الإسلام منذ مجيئه بناء حضارة وإقامة نظام، ويقول خاتمي إن السياسة في الإسلام لم تكن بحاجة إلى الفلسفة، لأن الدين والشريعة القائمين على الوحي كانا يحددان الواجب في مجال الحضارة الإسلامية، ولذا بقيت الفلسفة على الهامش.

ويدرس خاتمي بعد ذلك أوروبا العصور الوسطى، ويخصص مبحثًا مستقلاً لصاحب كتاب «الأمير» أكثر الكتب السياسية شهرة في أوروبا وصاحب المقولة التي مازالت أصداؤها تتردد إلى اليوم: الغاية تبرر الوسيلة، ويغوص خاتمي أعمق عند توماس هوبز وجون لوك وجان جاك روسو، وينتهي كتابه بفصل عن الليبرالية التي يراها أطول نظام سياسي عرفته الحضارة الجديدة، ويشير إلى جذورها في الحضارة الغربية، كما يشير إلى الآثار السلبية الناجمة عن هذه الحضارة الجديدة وأزماتها التي تحملها بين جنباتها، ويتساءل في الختام: بأي زاد تزودنا ونتزود على عتبة هذه التحولات الخطيرة؟

□ □ □

الأنفاق والأفاق.. رؤية مستقبلية للصراع العربي الاسرائيلي
عبد الإله بلقزيز
الرباط: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠، ١٨٢ صفحة





ينطلق المؤلف هنا من فرضية أساسية، ربما تبدو صارمة لدعاة الواقعية السياسية وهواة التعامل مع الأمر الواقع مهما كان كارثيًا، هؤلاء الذين صفقوا للمعاهدات لا تفعل سوى تكريس الوجود الصهيوني وتدعيم وجوده على الأرض، فرضية المؤلف تقول إن الصراع ممكن والقدرة على الانتصار فيه واردة بشرط التوقف عن التعاطي معه وفق حسابات موازين القوى ـ العسكرية أساسًا ـ والتي هي في صالح إسرائيل في الوقت الراهن، وإنما التعامل معه بمنظور تاريخي ينظر إلى قدرات العدو في شمولها ويسعى إلى مقاربة التوازن ليس فقط على الصعيد العسكري وإنما أساسًا السياسي والتكنولوجي، بما يعني أن الصراع تاريخي حضاري ممتد، يلعب فيه البعد الثقافي دورًا بالغ التأثير.

والمؤلف يؤكد ـ كما يذهب إلى ذلك أصحاب الرؤية الواقعية ـ أن حسم الصراع عسكريًا مستحيل، واستعادة الأراضي العربية التي احتلت منذ عام ١٩٦٧ على الأقل بالقوة المسلحة لن يكون ممكنًا، لكنه يؤكد على أهمية المقاومة المسلحة التي تستند أساسًا إلى تنظيمات وقوى شعبية وطنية مثل حماس والجهاد وحزب الله وغيرها، وهي مقاومة «لايمكن استصغار شأنها، بل ينبغي الرهان عليها للرد على الصلف الصهيوني واستنزاف قوى العدو، والتأكيد على حق مقاومة الاحتلال وإشاعة روح الصمود في المجتمع العربي، وجميعها ذات عائدات سياسية ونفسية بالغة الأهمية».

يرى المؤلف أن معنى أن يكون صراعنا مع إسرائيل حضاريًا، هو أن المجتمعات ومخزونها الثقافي سيكون له الدور الأكبر، وأن يكون هذا الصراع طويل الأمد، فإن ذلك يعني أنه لا يمكن القبول بحل منقوص، لأن هذا الحل إن فرض بقوة الأمر الواقع وميزان القوى فلن يكون أكثر من هدنة مؤقتة.

وعليه، فإن من يكسب هذا الصراع هو من يستطيع أن يعبئ موارده تعبئة جيدة وفعالة، وهي ليست الموارد المادية فقط، وإنما الروحية والرمزية، وينبهنا المؤلف إلى قدرة إسرائيل على استعادة نصوصها التوراتية عند اللزوم، لتتحول هذه الدولة التي تدعي العلمانية عند الضرورة إلى دولة دينية أو على الأقل ذات أساس ديني.

المجتمع العربي إذن يحتاج إلى كسب معركة الديمقراطية، وتفعيل «منشطاته» في الثقافة العربية الإسلامية والمسيحية الشرقية، وإدارة موارده المادية والبشرية بشكل أكثر كفاءة، كي يكسب الصراع من أمده الطويل، لأن الصراع في حقيقته ليس على أرض احتلتها إسرائيل بالقوة دون الحق ويريد أصحاب الحق الذين لا يمتلكون القوة استعادتها، إنما الصراع يدور حول سؤال أساسي: لمن المستقبل في هذه المنطقة للمشروع الصهيوني أم للمشروع القومي العربي؟

وبهذا المعنى فإن المؤلف يجر إلى دائرة الصراع ـ وأظن أنني أوافقه ـ قوى إسلامية ترى إسرائيل في حيازتها لأسلحة غير تقليدية وفي تقاربها مع العالم العربي ما يهدد أمنها واستقرارها بوصفها مناهضة للمشروع الصهيوني من الأساس.

ما الحل إذن؟ يطرح المؤلف عدة مهمات تسير في خط تصاعدي، تبدأ بوقف عملية التفاوض الجارية والعودة إلى الحد الأدنى المتمسك بقرارات الجامعة العربية والأمم المتحدة ومجلس الأمن، وتفعيل المقاطعة العربية، وبناء موقف عربي داعم للنضالات الشعبية السابق الإشارة إليها.

ويؤكد المؤلف أن هذه المهمات لن تقدم شيئًا جوهريًا في الصراع مع الإسرائيليين، لكنها ستفرمل الانحدار الحاصل اليوم، حتى يمكن أن نشيِّد حقائق سياسية واجتماعية وثقافية جديدة، تكون هي الحاسم في هذا الصراع التاريخي الممتد.

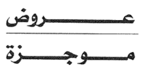
□ □ □

السلطان يستفتي شعبه
الطاهر أحمد مكي
القاهرة: دار الآداب، ٢٠٠٠، ٢٢٠ صفحة



تبدو مسألة الهوية في المغرب العربي مربكة إلى حد بعيد، والأحداث التي تفجرت أخيرًا في الجزائر وإن صنعتها بواعث اقتصادية في الأساس، إلا أن البعد الأمازيجي فيها يكشف عن خطر كامن، مرده التردد في حسم هذه الإشكالية برغم الإعلان الرسمي ـ دستوريا ـ في عهد الشاذلي بن جديد عن أن الأمازيجية إحدى مكونات الهوية الجزائرية، وهو إعلان لم يدخل حيز التطبيق وبقي دومًا في خانة جبر الخواطر.

هذا الكتاب يستقي مادته من «القوالون» أو «الحكاءون» في دولة المغرب، وهي كالجزائر فسيفساء يمكن أن يشكل تنوعها مصدر ثراء بالغ على الصعيد الثقافي والإنساني إذا أحسن صهره في بوتقة الدولة، والمؤلف الذي عاش حوالي ٧ سنوات في إسبانيا (١٩٥٧ ـ ١٩٦٤) ضمن بعثة تعليمية، تردد على المغرب في زيارات عديدة، خالط الناس وهام في الشوارع والأسواق الشعبية، يجمع الحكايات ويصنف النوادر في طنجة ومراكش، وقد رأى فيما جمعه تعبيرًا صادقًا عن الوجدان المغربي، وانعكاسًا صريحًا لاهتمامات الرجل المغربي البسيطة ومواقفه من الحياة والناس والسلطة، والأخيرة بالذات محور حكايات عديدة، حيث يبدو الحاكم في أغلبها، شخصًا أبلهًا ساذجًا، منفوشًا بلا سبب سوى أن بطانته والمحيطين به يمنحونه إحساسًا كاذبًا بالعظمة والقدرة الفائقة على تقييم الأمور بحكمة تزنها بميزان الذهب، وهو ما يجعله يرفض النصيحة إن جاءته من الحكماء الصادقين، ويصر على مواقفه مهما كانت خاطئة ومدمرة، كما يتبدى في حكاية «السلطان يستفتي شعبه»، لكن لا مانع من أن يبدو السلطان عادلاً في مواضع أخرى قادرًا على تتبع أثر الحكمة



والرشاد كما في حكاية «القاضي العادل»، وبعيدًا عن السلطان فإن بعض الحكايات تبين دهاء العامة وتحايلهم وقدرتهم التلقائية على استكناه جوهر الحقائق أو قلبها إن لزم الأمر كما في حكاية «وقد يغضب القاضي» أو الصراع الأبله بين السادة من الأثرياء والمفاخرة بما يملكون وقدرتهم على تحقيق أقصى درجات الرفاهية والإشباع كما في «من فتح لفتح تفرق كتير»، والتي يسخر فيها الحكاء من هذا التنافس المرضي، وبعض الحكايات تتناول دهاء رجال الدين وتحايلهم لبلوغ غاياتهم كي يضمنوا المتعة في الدنيا والجنة في الآخرة على نحو ما تبدى في حكاية «الطريق إلى الجنة».

المهم أن المؤلف يؤكد لنا عبر أكثر من عشرين حكاية، أن وحدة المغرب لا لبس فيها، وأن العصبيات القبلية والتناحر العرقي، هي أمور من صنع الاستعمار وباحثيه المغرضين، والمنافسة الوحيدة التي تتبدى في الحكايات هي بين الأندلسيين والوافدين والمغاربة المقيمين، بسبب التفاوت في الثقافة والحضارة، أما «هدر» القوالين - أي حديثهم باللغة المغربية - فمفهوم لعامة الناس وإن احتوى على ألفاظ فرنسية أو إسبانية أو إيطالية أو بربرية، وإن جاءت أصوله من مصادر شرقية أو غربية.

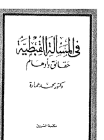
والخلاصة التي ينبهنا إليها المؤلف، أن المغرب وحدة واحدة، وأن التنوع اللغوي والثقافي هو مصدر غنى لا فقر، يثرى الهوية العربية الإسلامية ونغذيها من مصادر شتى.

□ □ □

في المسألة القبطية حقائق وأوهام

محمد عمارة

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠١، ١٥١ صفحة



عرف التاريخ المصري دومًا وحدة وانسجامًا بين عنصري الأمة من المسلمين والأقباط، الذين وحّدهم النضال ضد الاستعمار والكفاح من أجل وطن حر مستقل، وعلى الجانبين كان هناك إلى جانب الشرفاء الوطنيين المستعدين للتضحية بدمائهم وأرواحهم في سبيل وطنهم وسعادته، خونة عملاء جعلوا من أنفسهم مطايا في خدمة المستعمر، وفي كل الأحوال كان ثمة مخطط هدفه تفتيت وحدة الأمة المصرية، وإشاعة الفتنة بين عنصريها.

والمؤلف يعرض في فصل تمهيدي لمخطط التفتيت الغربي المعاصر حيث يشير إلى البحث الذي نشرته مجلة وزارة الدفاع الأمريكية للمستشرق الصهيوني برنارد لويس لتفتيت العالم الإسلامي من باكستان إلى المغرب على أسس عرقية ودينية وإثنية ومذهبية، وكان لمصر نصيب في مخطط لويس الذي طمح إلى تقسيمها إلى دولة إسلامية في الشمال وأخرى قبطية في الجنوب، وهكذا يتم خلق التوترات دائمًا وإشعال النار في كل حدث قد لا يكون له صلة على الإطلاق بما يتم تداوله والنفخ فيه بعد ذلك بوصفه فتنة، خصوصًا مع بروز مستجدات معاصرة مثل الصحوة الإسلامية التي يتم تصويرها بوصفها خطرًا جاثمًا على العقيدة المسيحية وعلى المسيحيين كذلك. وانتشار منظمات حقوق الإنسان ومراكز البحوث التي لا يمكن اعتبار بعضها بريئًا في أهدافه ومراميه، ثم تغلغل النفوذ الغربي واستفحال خطر التبعية مع انفراد أمريكا بزعامة العالم وتنامي الدور - أو السعي إلى ذلك - الذي يلعبه أقباط المهجر بوعي أو بدون.

المهم أن المؤلف يستعرض حقوق الأقباط في إطار الدولة الإسلامية، وما كفلته الشريعة الإسلامية من ضمانات تجعلهم يشعرون بالأمان التام داخل وطنهم ذي الأغلبية المسلمة، ثم يعرض في عجالة للخلفية السياسية التي قادت إلى ما عليه الأمور الآن، ومخاطر استدعاء «ملف مطالب الأقباط» عند كل خلاف، ثم يفنّد بعض الأوهام التي تتردد دون تمحيص أو إعمال فكر، ومنها أوهام الخط الهمايوني وهو أحد القوانين الإصلاحية التي أصدرها السلطان عبد المجيد خان لإنصاف الأقليات غير الإسلامية من رعايا الدولة المسلمة، والذي أكد على مساواة هذه الأقليات مع المسلمين في التعليم والعبادة والوظائف وكافة الحقوق، ثم يناقش ما يتردد عن اضطهاد الأقباط، ويضع بالأرقام حجم أنشطتهم الاقتصادية والوظائف التي يتقلدونها، لنجد أن ٢٠٪ من شركات المقاولات في مصر يمتلكها أقباط، وهم أيضًا يمتلكون ٥٠٪ من المكاتب الاستشارية و٦٠٪ من الصيدليات و٤٥٪ من العيادات الخاصة و٢٠٪ من حجم رجال الأعمال و٢٠٪ من وظائف المديرين، أي أن ٦٪ من سكان مصر وهم الأقباط يمتلكون بين ٣٥٪ و٤٥٪ من ثروة مصر وامتيازاتها.

والمؤلف لا يضن على الأقباط بأن تكون لهم هذه الحقوق في وطنهم، إنما فقط يرد على من يدعون أن الأقباط مضطهدون ويوجه المؤلف نداءه إلى أبناء الوطن الواحد: بالحكمة والعقل وبالحقائق الدامغة للأكاذيب، وبوجه أمتنا المشرف يجب أن نواجه مخططات الأعداء، وندحض مزاعم العملاء، ونرشد الجهلاء والدهماء.

□ □ □

مسرح بديع خيرى

نبيل بهجت

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١، ٤٠٠ صفحة



هذه هي الدراسة الأكاديمية الأولى التي تتناول بالنقد والتحليل عطاء واحد من أهم رواد المسرح المصري، حيث تدرس في ثلاثة فصول إنجاز بديع خيري في مجال المسرح.

يتعرض المؤلف في الفصل الأول لنشأة بديع خيري والعوامل التي أثرت في تكوينه الفكري والنفسي ومحاولاته الشعرية والزجلية الأولى، ثم يعرض في الفصل الثاني للروافد الشعبية في مسرح بديع خيري، ويخصص الفصل الأخير للبناء الدرامي عند بديع خيري.

نعرف من نشأة بديع خيري أنه ولد بحي المغربلين في أغسطس ١٨٩٣، لأب ينحدر من أصول تركية، لكن تأثير الأم عليه كان أكثر كثيرًا من تأثير الأب؛ إذ كان هو ابنها الوحيد فيما كان للأب أبناء آخرون من زوجة ثانية وقد برزت موهبته الشعرية منذ وقت مبكر. وقد أتم دراسته حتى تخرج في مدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤، لكن الحارات الشعبية والمقاهي كانت هي معلمه الأول الذي أثّر في توجهاته الفنية والمسرحية بشكل لافت، يقول بديع عن تأثير المقاهي عليه: هي مدرسته الأولى في التأليف المسرحي، حتى لهجات البلاد العربية عرفتها وحفظتها في هذه المقاهي، إذ كان يتردد عليها أبناء تلك البلاد الشقيقة الذين يدرسون أو يتاجرون أو يسيحون في القاهرة.

عمل بديع خيري في مهن عديدة منذ تخرجه وكتب في صحف مختلفة، وكتب مونولوجات يلقيها ممثلون هواة، كان بينهم يوسف وهبي، وحين تقدم بديع خيري ليعمل ممثلاً في مسرح جورج أبيض رفضه ونصحه بالبحث عن مهنة أخرى، وجاءت الفرصة الذهبية لبديع خيري، حين اختلف نجيب الريحاني مع مؤلفه أمين صدقي لأسباب مالية، فهجره صدقي وانضم إلى مسرح منافسه علي الكسّار، وبدأ الريحاني يبحث عن مؤلف آخر فوقع على بديع خيري الذي كان يكتب لمسرح الهواة باسم مستعار كي لا يفقد وظيفته الحكومية، لكن نجاحه مع مسرح الريحاني جعله يلقي بالوظيفة خلف ظهره ويكتشف مستقبله الحقيقي في مجال المسرح الذي شهد تنافسًا شديدًا بين فرقتي الكسار والريحاني. وبرغم الأسماء اللامعة التي ضمها أوبريت العشرة الطيبة: نجيب الريحاني وبديع خيري وسيد درويش، فقد سقط الأوبريت سقوطًا مدويًا، وواجه بديع خيري، وسيد درويش مأزقًا ماليًا. وبدأ يتعاونان في تلحين بعض الأزجال، ولحن بديع نفسه بعضًا آخر.

ولم يكن بديع خيري يكتب من فراغ، بل كان يتحسس الشعور المصري الوطني آنذاك ويستقي منه مادة أزجاله وأوبريتاته، كما ظهر في أوبريت البرنسيس الذي عرض في عام ١٩٢٣، وكتبه بعد إخراج السلطات البريطانية عن سعد زغلول تحت ضغط المقاومة الشعبية، ثم إعلان دستور ١٩٢٣ والمكاسب التي حققتها البرجوازية المصرية الصاعدة.

وقد كتب بديع لفرق منيرة المهدية وبديعة مصابني وعلي الكسار وآخرون.

المهم أن بديع خيري الذي لمع في المسرح مؤلفًا ومترجمًا وشاعرًا، أسس صحفًا وكتبًا تنتقد الأوضاع السياسية والاجتماعية بقوة، وكانت الروافد الشعبية لمسرحه وشخصياته مستقاة من البيئة المصرية ومنغمة فيها بطريقة رائعة، والمؤلف يقدم لنا بعضًا من هذه الروافد مثل جحا وقراقوش، وهارون الرشيد، والفشّار والدجال والفقيه المعمم وكشكش بيه، ويحلل البناء الدرامي لهذه الشخصيات في دراسة مستفيضة، تلقي أضواء مهمة على أحد رواد ورموز المسرح المصري.

□ □ □

إشكاليات الخطاب العربي المعاصر

كمال عبد اللطيف

نصر محمد عارف

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠١، ١٨٢ صفحة



مازالت موضوعات هذه السلسلة البديعة «حوارات لقرن جديد» تترى، وعنها تتوالى حتى لتكاد أن تشمل كافة القضايا المطروحة على الساحة العربية اليوم وانعكاساتها على المستقبل. عبر صيغة سجالية بين نقيضين أو متقابلين معًا بالشأن ذاته، لكن لكلٍّ اجتهاده الخاص، وبعد ما قدمت سجالات حول أزمة الفكر السياسي والعولمة والخصخصة والعلمانية

عروض موجزة

والمرأة والإيمان والنقد العلمي وتجديد الفقه الإسلامي وغيرها، تقدم لنا محاورة حول إشكاليات الخطاب العربي المعاصر، يبدأها الدكتور كمال عبد اللطيف أستاذ الفلسفة بجامعة محمد الخامس مستعيدًا اجتهادات فرح أنطون حول العلمانية، والتي يرى أنها برغم مرور قرن من الزمان عليه مازالت صالحة للاستدعاء ومانحة للاستلهام، بقدر ما كانت في وقتها استثناء ومميزة، ومتجاوزة إلى حد بعيد، سواء في المبنى أو المعنى، ما كتب في الفكر السياسي آنذاك، ويحيلنا المؤلف للبرهنة على وجهة نظره إلى ما كتبه محمد عبده والأفغاني والطهطاوي وخير الدين التونسي وسواهم، ثم يقارن اجتهادات أنطون بآخرين معاصرين يقفون معه على الضفة ذاتها من أمثال فؤاد زكريا وحسن حنفي ومحمد أركون وهشام جعيط، ويشير إلى نقطة بالغة الدلالة، حيث كانت اعتراضات محمد عبده مثلاً على اجتهادات أنطون أكثر تسامحًا من اعتراضات أصحاب تيار الإسلام السياسي المعاصرين على مفكري العلمنة. والخلاصة أن عبد اللطيف ينتقد المزج بين الديني والسياسي، ويدعو كما دعى أنطون إلى الفصل بينهما لتحقيق مشروع النهوض العربي.

وبعد تحليله للمنطلقات المعرفية للخطاب العربي المعاصر والتي تتمثل في الاستبداد الفكري وأدلجة المعرفة والعلاقة بين المعرفة والسلطة والثروة والمراوحة بين الثنائيات الجامدة، وبعد استعراضه لمحددات الخطاب العربي المعاصر، يبسط الدكتور نصر محمد عارف أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة تصوراته عن قضايا الخطاب العربي المعاصر ويضعها تحت عنوان دال: «نهاية قرنين وقضايا واحدة»، وهي: إشكالية الهوية وثنائيات التآكل الداخلي للأمة وصراع الدولة - الاستلاب في ثنائية الصديق - العدو والاستقلال والتبعية - العروبة والشرق أوسطية والعولمة، ويشير إلى أن الخطاب العربي المعاصر تعامل مع هذه القضايا بما لا تستحقه من موضوعية ومنهجية ورحابة. وأنه كان دائمًا أسير الأيديولوجيا وسطوة التاريخ وسكونية الرؤية للزمان والمكان والمتغيرات من حوله.

وفي فصل أخير يعقب كلا الباحثين على دراسة الآخر، فيرى عبد اللطيف في دراسة عارف إعادة اجترار للأزمة ذاتها التي طرحت قبل قرنين من الزمان وتجاوزها الزمن وتجاوزتها معطيات الحاضر، بينما يرى عارف في دراسة عبد اللطيف نموذجًا لبحث جاد محكوم بالتحزب والتعصب والدعائية ضد المخالفين.

□ □ □

سعيد فريحة

عصر الصحافة العملاقة

محمد عبدالمولى

بيروت: دار الصياد، ٢٠٠١ (طبعة ثانية)، ١٩٠ صفحة



لم يكن الصحافي اللبناني الكبير سعيد فريحة حدثًا عابرًا في سماء الصحافة العربية، كان صاحب قلم ورؤية وموقف، ومدافعًا صلدًا عن قضايا الحرية وحقوق الإنسان ومهمومًا بقضايا أمته ومنشغلاً بمعاركها، باعتراف مجايليه من الصحفيين في الوطن العربي كله.

أسس «فريحة» دار الصياد التي بدأت مجلة، ثم بالدأب والصبر والاجتهاد تحولت إلى دار صحافية تصدر عنها دوريات فنية وثقافية وسياسية واجتماعية.

بدأ سعيد فريحة حياته الصحفية في مدينة حلب السورية، حيث عمل محررًا في جريدة التقدم ثم راسل عدة صحف سورية ولبنانية.

اختار الأهل له أن يعمل «حلاقًا»، لكنه اختار الصحافة وغامر في دروبها الشائكة حتى أنشأ دار الصياد عام ١٩٤٣، وإنشاء دار الصياد ذاتها ملحمة يذكرها المؤلف تفصيلاً، ولم يتوقف فريحة عند مجلة الصياد، فأنشأ أسبوعية فنية «الشبكة» ويومية شاملة «الأنوار» التي عبرت عن التيار القومي العربي بكل صراعاته ومعاركه حتى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، وتوالت إصدارات الدار بين فنية وأدبية وعسكرية ومعلوماتية وغيرها من الإصدارات المتخصصة التي يشير إليها المؤلف، كما يشير أيضًا إلى أدب الرحلات عند سعيد فريحة، وكيف استطاع أن يحول رحلاته وأسفاره، ليس إلى مقالات سياسية فحسب، وإنما صور أدبية وأحيانًا ساخرة، تلقي أضواء كاشفة على البلد الذي يزوره في جميع مناحي حياته، ويقدم لنا نماذج على ذلك برحلته إلى الشرق الأقصى وحكاياته عنها.

ثم يختتم بفصل عن أبنائه بسام وعصام وإلهام الذين مارسوا الصحافة ضد رغبة أبيهم، وحملوا مسئولية الدار من بعده واستمرت إصداراتهم حتى في ظل الحرب الأهلية اللبنانية، وتحت قصف المدافع ودوي القنابل، وهي قصة تحد وحب للصحافة وإيمان عميق بدورها.

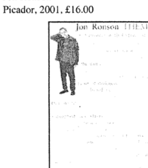
كتب أجنبية

Them: Adventures with Extremists

(هم.. مغامرات مع المتطرفين)

Jon Ronson

Picador, 2001, £16.00



عندما يتحدث البعض عن نظرية المؤامرة في حادث ما يبرز للأذهان أمران الأول أن من الصعب إثبات وجود مؤامرة ويكون الرد أن المتآمرين أذكياء لدرجة التغطية على ما فعلوه، والثاني يشير إلى أن هناك بعض الحقيقة في الحديث عن وجود مؤامرة ولكن ليس كل الحقيقة.

ومؤلف الكتاب جون رانسون قدم سلسلة مثيرة في القناة الرابعة بالتليفزيون البريطاني تحت عنوان «الحكام السريون للعالم» وقد تحدث رانسون خلال هذه الحلقات مع نوعية مختلفة من المتطرفين الذين يعتقدون أن العالم تديره جماعة قوية من اليهود تحت مسميات مختلفة.. مثل النظام العالمي الجديد أو حكومة الاحتلال الصهيونية وغيرها. وطرأت الفكرة لعمل هذه الحلقات التي جمعها المؤلف في كتاب حيث أجرى رانسون، وهو يهودي حوار مع الشيخ عمر بكري محمد أحد زعماء التطرف المقيمين في لندن وكذلك مع زعماء لجماعة «كوكلوكس كلان» الأمريكية التي تركز في نشاطها على كراهية السود واليهود.

ويشير المؤلف إلى أن هذه الجماعات تتمتع بعدم الكفاءة رغم الحديث عن قدراتها التنظيمية والعسكرية. ويقول إن أنصار عمر بكري أطلقوا آلاف البالونات السوداء في ميدان الطرف الأغر في قلب لندن وتحمل كل بالونة بطاقة تدعو للجهاد ولكن للأسف لم ترتفع البالونات إلى أعلى لأن البطاقات كانت ثقيلة للغاية، كما أن أعضاء جماعة الكوكلوكس كلان خططوا لتنظيم حشد جماهيري كبير أمام محكمة ميتشجان لكن المنظمين لم يعرفوا المكان بدقة وانتهى الأمر باجتماع هزيل لم يحضره سوى ٢٠ شخصًا في محطة سيارات خلف المحكمة.

لكن ليس كل متطرف غير كفء كما يقول المؤلف نتيموثي مكفاي، الذي أعدم قبل أسابيع استطاع أن يقتل ١٦٨ شخصًا في مبنى بمدينة أوكلاهوما بالولايات المتحدة.

ويتناول المؤلف قضية بالغة الخطورة وهي أن معظم جماعات المتطرفين مخترقة من البوليس وأجهزة المخابرات ويشير على سبيل المثال إلى أن ٢٥٪ من أعضاء كوكلوكس كلان عملاء سريون لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي.

ومن أطرف فصول الكتاب تلك التي تتبع فيها المؤلف أسس نظرية المؤامرة اليهودية ويلتقي مع زعماء المنظمات اليهودية التي يتهمها المتطرفون بأنها تسيطر على العالم. لكنه لا يستطيع إثبات مدى صحة هذا الاتهام بل إن زعماء المنظمات اليهودية يقابلون ذلك بالسخرية. ولعل من المفيد التساؤل هل شخصية المؤلف اليهودية هي التي أوصلته إلى هذا الاستنتاج أم أنها الحقيقة وأنه ليست هناك مؤامرة يهودية؟

□ □ □

Die Selbstbehauptung Europas

(هل تستطيع أوروبا أن تثبت وجودها؟)

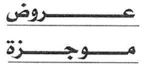
Helmut Schmidt

Berlin, DVA, 2001



يقدم المستشار الألماني الأسبق هيلموت شميت من خلال هذا الكتاب رؤيته لأوروبا والعالم في القرن الجديد. ولأنه أحد أبرز السياسيين المخضرمين على الساحة السياسية الألمانية والأوروبية بل والعالمية حاليًا، فإن رؤية شميت تكتسب أهمية كبيرة. ويتصور شميت عالم القرن الحادي والعشرين مختلفًا أشد الاختلاف عن عالم القرن العشرين.

إنه عالم تتربع فيه أمريكا فوق القمة سعيًا لإثبات تفوقها الذي لا ينازعه أحد. ثم تبرز الصين في بواكير النصف الأول من هذا القرن قوة عظمى اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا. وتستعيد روسيا قوتها ومكانتها كقوة عالمية بحسب حسابها. وقد تفاجئ الهند العالم بظهورها على مسرح القوى العالمية معترفًا بها في نادي الدول الكبرى الجديد. أما اليابان فسوف تظل قوة اقتصادية ومالية لا أكثر. وأما أوروبا فلن يكتب لأي دولة من دولها أن تتبوأ على حدة مقعد العضوية في هذا النادي، لا فرنسا بقوتها النووية.. ولا بريطانيا بعلاقاتها الخاصة بأمريكا.. الفرصة الوحيدة لأوروبا هي أن تبقى متماسكة



في كيان سياسي واقتصادي وعسكري واحد لا تنفصم عراه، إذا أرادت لنفسها أن يعترف بها أحد كقوة عالمية.

ويتنبأ هيلموت شميث بنشوب صراعات في مناطق مثل الشرق الأوسط أو جنوبي آسيا أو أمريكا الوسطى، تتدخل أمريكا فيها عسكريًا وتسعى إلى توريط حلفائها الأوروبيين معها. وبالمثل في الحالات التي تطلق عليها أمريكا وصف الدول المارقة (العراق - كوريا الشمالية) والتي يلعب الإعلام الأمريكي دورًا خطيرًا في تسويقها.. وهو يرى أن الدول الأوروبية سوف تجد نفسها مضطرة حينئذ لوضع خط فاصل بين مصالحها الأمنية والدفاعية، وبين المصالح الأمريكية.. ولكن هذا لن يتحقق على المدى القصير.. إلا بعد أن يتولى المسئولية جيل جديد من السياسيين الأوروبيين يخلف هذا الجيل الذي قاد ثورة الطلبة في الستينيات والسبعينيات، أي بعد عام ٢٠٢٥، وبعد أن تنجح دول الاتحاد الأوروبي في تشكيل نظام دفاعي مستقل لا يعتمد على مظلة الدفاع الأمريكية.

□ □ □

Ghost soldiers: The Forgotten Epic Story of World War Two's most Dramatic Mission

(جنود أشباح.. قصة الملحمة المنسية لأكثر المهام درامية في الحرب العالمية الثانية)

Hampton Sides
Dowoleday, 2001, 342PP., $24.95



يروي هذا الكتاب قصة واقعية حدثت في الحرب العالمية الثانية، وهي عملية إنقاذ سجناء الحرب الأمريكيين في الفلبين في يناير ١٩٤٥ والتي يعتبرها المؤلف أكثر المهام الملحمية التي قامت بها القوات الأمريكية في حربها ضد اليابان. ويتحدث المؤلف بشكل تفصيلي عن العملية، ولا يشغل نفسه تقريبًا بقضية أخرى، وفي سبيل ذلك يمتلئ الكتاب بأحاديث عن وحشية سلوك اليابانيين ولكنه يعتقد أن ذلك لم يكن سياسة رسمية لكنه يعود إلى شوفينية بعض القادة اليابانيين في الحرب.

ويتناول المؤلف سجل القائد الياباني في الفلبين الجنرال ماساهارو هوما، والذي جرى إعدامه لإدانته بارتكاب جرائم حرب بعد انتصار الحلفاء. وقد كان هوما مسئولاً من الناحية الفنية عن إجلاء ١٠٠ ألف عسكري أمريكي أصبحوا سجناء حرب بعد استسلام شبه جزيرة باتان في الفلبين عام ١٩٤٢. لقد حاول هوما إنقاذ الجنود الأمريكيين لكن خطته وأوامره بمعاملة الأسرى وقعتا ضحية عاملين الأول أن المخابرات اليابانية قللت على نطاق واسع من أعداد أسرى الحرب الأمريكيين في باتان لذلك كانت المواد التموينية التي يتم إرسالها إليهم قليلة وغير كافية، العامل الثاني أن الجنود اليابانيين تصديقًا منهم للدعاية اليابانية تصرفوا بوحشية ضد «العدو» الأمريكي.

ويقدم المؤلف تسلسلاً دراميًا لعملية الإنقاذ ولا ينسى أن ينتقل بين تفاصيل العملية وظروف الأسرى وأحوالهم. وعلى هامش ذلك لا ينسى المؤلف أيضًا أن يسرد قصصًا إضافية منها مثلاً جهود اليابانيين لإجلاء ١٦٠٠ من الأسرى الأمريكيين ونقلهم من «باتان» إلى داخل اليابان للعمل في السخرة وقد وصل هؤلاء الأسرى إلى اليابان ولكن بعد أن مات المئات منهم سواء بالاختناق في الحافلات التي كانت تقلهم أو نتيجة هجمات الأمريكيين عليهم.

الكتاب إجمالاً يتحدث عن البطولات الأمريكية في زمن الحرب العالمية الثانية وهو أمر لا يمل المؤلفون الأمريكيون من الحديث عنه سواء الكتب أو الأفلام أو المسلسلات.

□ □ □

The Conservative Party from Peel to Major

(حزب المحافظين من بيل حتى ميجور)

John Charmley
Palgrave,2001, £15.99

عندما يتعرض حزب عريق كحزب المحافظين في بريطانيا لهزة عنيفة تكاد تعصف بوجوده، فإن من المفيد الرجوع إلى تاريخ الحزب الحافل بالأحداث والانتصارات والإنجازات لعل في هذه العودة إلى الماضي ما يعطي دفعة للحزب لكي يخرج من عثرته الشديدة حاليًا أو ربما يخلص قادة الحزب إلى استراتيجية تكون نابعة من صميم مبادئ الحزب وتلبي في الوقت نفسه الحاجة للتغيير، وذلك لكي يعود الناخبون البريطانيون إلى النظر للمحافظين على أنهم جديرون مرة أخرى بحكم البلاد.

لقد تعرض الحزب لهزيمة تاريخية ساحقة في أول مايو ١٩٩٧ على أيدي حزب العمال الجديد بعد أن أمضى المحافظون ١٨ عامًا متتالية في الحكم، وبعد ٤ سنوات تقريبًا عاد المحافظون مرة ثانية وعلى التوالي ليتجرعوا كأس الهزيمة الساحقة أيضًا وكأن تلك السنوات لم تغير من الأمر شيئًا، وإذا كان زعيم الحزب ورئيس الوزراء السابق جون ميجور قد قدم استقالته من زعامة الحزب عقب الهزيمة الأولى فإن وليام هيج زعيم الحزب خلال الهزيمة الثانية قدم استقالته أيضًا وبدأ الحزب في اختيار زعيم جديد له وسط منافسة حادة بين عدد من زعمائه دون أن يكون هناك في الأفق أي مؤشر على الخروج من النفق.

ويتحدث المؤلف جون شارملي في هذا الكتاب عن تاريخ حزب المحافظين في الفترة من عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٩٦ وكيف سيطر الحزب تقريبًا على مجرى السياسة في بريطانيا خلال القرن العشرين حيث تولى الحكم ثلثي القرن تقريبًا وهي فترة كبيرة للغاية، ويتناول المؤلف التغيير الراديكالي الذي أحدثه المحافظون وأهم الزعماء في تاريخ الحزب وبريطانيا وعلى رأسهم ونستون تشرشل وماكميلان ومارجريت تاتشر رؤساء الوزارات الراحلين. ولم يكن غريبًا أن توني بلير رئيس الوزراء البريطاني الحالي وزعيم حزب العمال صرح مرارًا بأنه إذا كان القرن العشرين في بريطانيا هو قرن المحافظين، فإنه من الضروري أن يكون القرن الحادي والعشرون هو قرن الليبرالية، بمعنى أن يسيطر العمال في شراكة مع الأحرار الديمقراطيين على الحكم في البلاد. فهل تكون الهزيمتان المتتاليتان للمحافظين بداية النهاية للحزب أم أنها مجرد نكسة لن يلبث الحزب بعدها أن يعود للسيطرة على الساحة السياسية في بريطانيا من جديد.

□ □ □

This is Serbia Calling

(هنا صربيا)

Matthew Colin
Serpent's Tail, 2001, £ 9.99



شغلت يوجوسلافيا خلال الشهور القليلة الماضية العالم بأحداثها الدرامية التي اشتعلت بالثورة على نظام ميلوسيفيتش والإطاحة بحكمه ثم اعتقال الديكتاتور اليوجوسلافي السابق وبعد ذلك، وفي تطور غير مسبوق تسليمه إلى محكمة جرائم الحرب الدولية في لاهاي لمحاكمته بتهم عديدة تدور حول ارتكاب جرائم حرب ضد الإنسانية في كوسوفا والبوسنة وأنحاء أخرى من يوجوسلافيا.

والكتاب الذي نعرض له يتناول ناحية مثيرة للغاية من نواحي الحياة في عهد ميلوسيفيتش، وهي ناحية الإعلام. فالرئيس اليوجوسلافي الذي كان في نفس الوقت يقود جمهورية الصرب أكبر الجمهوريات في الاتحاد اليوجوسلافي، أقام نظامًا ذكيًا للغاية في مجال الإعلام.

وكما يقول المؤلف، فإنه في صرب ميلوسيفيتش كانت هناك سيطرة كاملة على الإعلام رغم أنه لم تكن هناك رقابة، ويستطرد قائلاً: كل شيء مسموح لكن في الواقع لا شيء مسموح به. كل شيء ممكن لكنه في الحقيقة مستحيل. كل شيء يبدو طبيعيًا وعلى الأرض لا شيء طبيعي.

لقد ركزت غالبية الكتب التي تناولت يوجوسلافيا حديثًا حول الكوارث التي أحدثها الصرب ضد غير الصرب في يوجوسلافيا، فمن وحشية الحروب في البوسنة وكوسوفا إلى التمييز العنصري إلى جرائم التطهير العرقي لكن القليل من الكتب أو ربما لا يوجد كتاب تحدث عن المقاومة التي أبداها الصرب ضد حكم ميلوسيفيتش، وقد اختار المؤلف عنوانًا فرعيًا لكتابه هو «راديو الروك آندرول والمقاومة السرية» وهو يتحدث عن أساليب المقاومة التي قام بها الإعلاميون والصحفيون ضد نظام ميلوسيفيتش. وكانت هناك إذاعة تبث على موجة الـ FM أكثر معارضتها لسياسات ميلوسيفيتش منذ سنوات طويلة واكتسبت شعبية كبيرة وكانت تبث موسيقى الروك آندرول التي اعتبرتها موسيقى الحياة مقابل الموسيقى التي تؤكد على النعرة الوطنية التي تبثها الإذاعة الرسمية.

ويركز الكتاب على حياة العاملين في تلك المحطة وتدعى «بي ٩٢» والذين عاشوا يبشرون الناس بإمكانية وجود بديل وبأن الأمور يمكن إصلاحها. وقد أعرب عديد من المستمعين الذين تابعوا المحطة عن سعادتهم قائلين إنها تقيم علاقة من الحب مع المستمع.

إن كتاب «هنا صربيا» يريد أن يقول إن هناك من هم داخل جمهورية الصرب من قاوموا حكم ميلوسيفيتش رغم الظروف الصعبة التي كانوا يواجهونها في ظل حكم شمولي بامتياز.

□ □ □

قـــــــراءات جـــــــديـدة

تاريـــــــخ

أطلس تاريخ الإسلام
حسين مؤنس
القاهرة: الزهراء للإعلام العربي
طبعة جديدة للموسوعة التي كتبها العالم الراحل، والتي يتناول فيها أحداث التاريخ الإسلامي وأبطاله ورموزه وأهم الشخصيات التي تركت أثرها في مسيرة الحضارة الإسلامية.

■■■

الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل
وجيه كوثراني
دمشق: دار الطليعة، ٢٠٠١
دراسة تاريخية اجتماعية عن الوطن العربي وأثر الحملات الصليبية عليه، وكذلك الحملة الفرنسية وما فعلته بمصر والصدمة الحضارية التي جعلتها تكتشف الجانب الآخر من العالم، كما لا يفوت المؤلف أن يقدم لمحات عن الصورة العربية الراهنة بكل ما فيها.

■■■

السلطان علي بن صالح القعيطي ١٨٩٨-١٩٤٨.. نصف قرن من الصراع السياسي في حضرموت
محمد سعيد القوال، عبد العزيز بن علي بن صالح القعيطي
لندن: دار الساقي، ٢٠٠١
كانت هذه الفترة، في النصف الأول من القرن العشرين مليئة بالصراعات السياسية والقبلية في حضرموت، المؤلف يتناولها مع التركيز على حياة السلطان علي بن صالح القعيطي وكفاحه ضد الإنجليز ثم نفيه وعودته مريضًا ليدفن في أرض أجداده.

■■■

محاضر مجلس شورى النواب
سعيد حسني
القاهرة: دار الكتب المصرية، ٢٠٠١
تتناول هذه المحاضر الأسس الأولى للديمقراطية التي شرع النواب في إرسالها منذ عهد الخديو إسماعيل الذي أنشئ في عصره أول مجلس لشورى النواب على النمط الغربي. وكان نواة للمجالس النيابية التي تشكلت فيما بعد، ومدرسة للتربية الديمقراطية الحقة.

■■■

نقود الشام
قتيبة الشهابي
دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠١
دراسة تاريخية عن العملات التي كانت متداولة في بلاد الشام على مر التاريخ، مسكوكات أو عملات رسمية، صنعها الشعب بنفسه أو فرضها الاحتلال أو وفدت إلى الشام مع دويلات إسلامية مختلفة.

■■■

The Mirror of Spain, 1500 - 1700 The Formation of a Myth
(مرآة إسبانيا، ١٥٠٠-١٧٠٠ صناعة خرافة)
J.N. Hillgarth
Michigan UP, 2001, 584pp.
يرجع المؤلف إلى عصر الأمبراطورية الإسبانية ليقف على رؤية الأوروبيين في ذلك الحين لإسبانيا وشعبها وثقافتها. ويخلص في نهاية استعراضه لكتابات السفراء والرحالة الأوروبيين إلى أن آراءهم كانت مضللة ومشوهة للحقيقة.

■■■

The Waning of Renaissance, 1550 - 1640
(أفول عصر النهضة، ١٥٥٠-١٦٤٠)
William J. Bouwsma
Yale University Press, 2001, 288pp.
يحاول المؤرخ أن يصف عملية التحول من ثقافة عصر النهضة إلى ثقافة عصر التنوير وبالتالي نستطيع التعرف على متى وكيف بدأ العالم الحديث.

تعـــــليم

مفاهيم جديدة لتطوير التعليم في الوطن العربي
حسن شحاتة
القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠١
عبر ثلاثة فصول يناقش المؤلف تعليم المستقبل ومستقبل التعليم، وتفعيل مسيرة تطوير التعليم، وتربية النشء في مجتمع معلم، ويعكس الكتاب اتجاهات تعليمية حديثة ومعالجة لتحديث التعليم وبعض المشكلات التعليمية.

■■■

Making the Most of College: Students Speak their Minds
(الاستفادة القصوى من الكلية: الطلبة يتحدثون عما يدور بعقلهم)
Richard J.Light
Harvard Univeristy Press, 2001, 256 PP.
المؤلف أستاذ في جامعة هارفارد ولديه ثلاثون عامًا من الخبرة في التدريس بالجامعة، وهو في هذا الكتاب يصف ويحدد العناصر المختلفة في الحياة الجامعية التي تجعل منها تجربة ثرية للطلبة. الكتاب قائم على بحث أعده ٦٠ باحثًا من ٢٠ جامعة إلى جانب مقابلات عديدة مع الطلبة.

دوريـــــــات

مجلة الدراسات الفلسطينية
صيف ٢٠٠١
صدر حديثا العدد السابع والأربعون من «مجلة الدراسات الفلسطينية» التي تصدر، فصليًا، عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت. وأبرز ما ورد في هذا العدد ندوة عن تطورات الانتفاضة وأهدافها شارك فيها كل من مصطفى البرغوثي، صالح عبدالجواد، ممدوح نوفل وجميل هلال. واحتوى العدد المقالات التالية: الحجارة والصواريخ: النتيجة الحتمية لاتفاق أوسلو (معين رباني)؛ البعد الأردني لانتفاضة الأقصى (ذياب مخادمة)؛ أبعاد انتشار الصواريخ الباليستية في الشرق الأوسط (رياض قهوجي)؛ معركة القدس في مذكرات أنور نسيبة (موسى البديري)؛ الفلسطينيون في إسرائيل (إيليا زريق)؛ موقف الكنائس المسيحية في القدس في مواجهة الاحتلال (مايكل دمبر)، وفي باب القراءات كتب كل من بلال الحسن ومسعود ضاهر وكمال عبدالملك ونبيل كنفاني. أما في باب التقارير فتضمن العدد وثائق تأليف الحكومة الإسرائيلية (ترجمة خالد عايد)؛ وتقرير عن تأثير الانتفاضة في الاقتصاد الإسرائيلي (سمير صراص)، وتقرير عن اعتداءات المستوطنين على الفلسطينيين (إعداد مركز «بتسليم»).

روايات وقصص

المنتصتون
أحمد والي
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١
مجموعة قصصية تتناول العالم الشعبي في ضواحي القاهرة وأطرافها ونجوع الصعيد، وتغوص في العلاقات الحميمة داخل الأسر، من خلال ٤٦ قصة منها: الحاوي وأبيع لأجلها عمري، وسعد أفندي.

■■■

الأناقة
الميلودي شغموم
الدار البيضاء، دار الثقافة، ٢٠٠١
رواية تجمع خيوط الحياة في المغرب وتنسج منها صورة عن المجتمع قديمًا وحديثًا، وتأثير التكنولوجيا والحداثة والعولمة على حياة المواطن المغربي.

■■■

الفراشة الزرقاء
ربيع جابر
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠١
تتوزع أماكن الرواية بين بيروت وجبل لبنان والقاهرة وتركيا، حيث ينتمي أبطال الرواية إلى عائلتين إحداهما تركية والأخرى لبنانية، ويستعرض المؤلف من خلالهما، الصراعات التي عصفت بمنطقتنا في نهاية القرن التاسع عشر وكيف تركت آثارها على العائلتين.

■■■

Racconti Dispersi (1928 - 1951)
Alberto Moravia
Edited by Simone Casini and Francesca Serra
Milan: Bompiani, 2001, 389pp., £30.00
اكتشف الدارسون أن الروائي الإيطالي الشهير ألبرتو مورافيا الذي توفي عام ١٩٩٠ ترك إنتاجًا أدبيًا غزيرًا متناثرًا على مدار ستين عامًا من العمل.
وقد جمعت دار نشر بومبيانتي هذه القصص «الضائعة» وأصدرت منها اثنتين وثلاثين قصة في كتاب عام ١٩٩٣. وقد أضيف لها هذا العام تسع وستون قصة تم العثور عليها مؤخرًا. ويتكون منها هذا الكتاب المنشور حديثا في إيطاليا.

سـيـاسـة

الديمقراطية المقيدة - حالة الأردن
علي محافظة
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١
يلقي الكتاب أضواءً على عملية التحول السلمي نحو الديمقراطية في الأردن، والظروف والأحداث التي سبقتها ورافقتها على الأصعدة المحلية والعربية والدولية، كما يتناول الكتاب تطور العلاقات بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية.

■■■

الهولوكوست الفلسطيني
علي سعادة
عمان: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١
يستعير المؤلف اللفظ الذي يتاجر به اليهود ويبتزون به العالم كله، كي يدللوا على ما لاقوه من قهر وتعذيب وإبادة في عصر النازي، كي يبين أن الفلسطينيين يذوقون على أيديهم ما ادعوا هم أنهم واجهوه.
وهو في سعيه هذا يعرض لعدد من الكتابات اليهودية المعاصرة المنصفة والمنتقدة للسياسة القمعية الإسرائيلية.

■■■

حجاب وحراب - الكمالية وأزمات الهوية في تركيا
محمد نور الدين
بيروت: رياض الريس، ٢٠٠١
منذ عام ١٩٢٤، خلعت تركيا ثوب الإسلام وارتدت ثياب العلمانية الغربية، وسارت في طريق الحداثة على الصيغة الأوروبية خطوات مرتبكة، وفي الوقت الذي ظن أبو الأتراك مصطفى كمال أتاتورك أنه قضى على الإسلام واقترب ببلاده من أوروبا، إذا بتركيا اليوم تعيش صراع هوية لا يمكن إنكاره.

■■■

صنع القرار في إيران
نيفين مسعد
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١
منذ ثورة إيران الإسلامية قبل ما يزيد على عقدين، والعالم مهتم بالتجربة الإيرانية التي بدت مستقلة وراسخة، وأضاف إليها الإصلاحيون كثيرًا مما منحها صبغة تنويرية حداثية، خصوصًا مع اهتمامها بالجانبين الديمقراطي والإصلاحي، والمؤلفة هنا تبحث في واحد من الموضوعات المهمة والمعقدة في نفس الوقت، وهو صنع القرار في إيران، وهي عملية تحكمها تراتبات وتوجهات واضحة.

■■■

محاكمة رئيس مؤقت
ماضي الخميسي
الكويت: دار الحدث، ٢٠٠١

حين وطأ العراقيون أرض الكويت أرادوا أن يرسخوا أقدامهم فيها، فأنشأوا حكومة موالية لهم جعلوا على قمتها علاء حسين، والمؤلف يتناول هنا محاكمة علاء حسين بوصفه رئيسًا للحكومة المؤقتة، ودفاعه عن نفسه وتبريره للمهمة التي اعتبرت بحق خيانة لوطنه.

■■■

من وحي نوفمبر
محمد الشريف عباس
الجزائر: المؤلف نفسه، ٢٠٠١

يتناول المؤلف الوجه الآخر لثورة التحرير الجزائرية، وكيف حاول البعض أن يزيّف الحقائق التاريخية ويستثمر مشاركته في التحرير ولو من بعيد كي يحقق مكاسب خاصة، المؤلف يسعى إلى تصحيح بعض المفاهيم عن ثورة المليون شهيد مبرزًا الأدوار العظيمة لأبطالها الحقيقيين.

■■■

قريبًا من الكرملين
سامي عمارة
القاهرة: دار الهلال ٢٠٠١

يرصد الكتاب حقبة مهمة في تاريخ ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي، مرحلة الانهيار منذ عهد جورباتشوف وحتى اليوم، يقيّمها المؤلف من واقع خبرته بالتاريخ والسياسة السوفيتية بوصفه صحفيًا ومحللاً سياسيًا، فضلاً عن كشفه لتناقضات المجتمع السوفيتي والتقلبات التي شهدها وآثارها على الشعب السوفيتي.

■■■

Fatal Attraction: Neighbors, Not Friends: Iraq and Iran after the Gulf Wars
(جيران لا أصدقاء: إيران والعراق بعد الحروب الخليجية)
Dilip Hiro
Routtedge, 2001, 388PP,£45

بهذا الكتاب يكون المؤلف الهندي الأصل ديليب هيرو قد أتم ثلاثيته التي بدأها بكتاب «أطول حرب: الصراع العسكري العراقي الإيراني» والذي تلاه كتاب «من درع الصحراء إلى عاصفة الصحراء: حرب الخليج الثانية». أما هذا الكتاب الأخير فيتناول تاريخ العراق وإيران منذ عام ١٩٩١ في علاقتهما تجاه بعضهما، وعلاقتهما تجاه الولايات المتحدة الأمريكية.

شـــعـر

اقتفاء الأثر
خليل صويلح
دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

تجربة شعرية شبه ذاتية، فيها كثير من الذكريات العابرة التي يقف عندها المؤلف ليصنع منها مواقف أكثر عمومية فيحيل تأثيرها من الخاص إلى العام، مستفيدًا مما تمنحه الطفولة من بكارة ونضارة للتجربة الشعرية والإنسانية على السواء.

■■■

الماء كله وافد إليّ
كاظم جهاد
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١

تتنوع قصائد الديوان بين السردي والتأملي، وتحمل الأبيات قضايا ومشاعر وعوالم متجددة ذاتية وإنسانية.

طب وصحة

التدخين والصحة
مصطفى عطري
الكويت: المركز العربي للوثائق الصحية، ٢٠٠١

كتاب جديد عن الأضرار البالغة للتدخين على الصحة العامة والأمراض التي يسببها بدءًا من الأسنان وحتى المعدة والجهاز التنفسي والعصبي والقلب، وكان نسب التلوث المرتفعة التي تغطي سماء الكون لا تكفي المدخنين كي يلوثوا صدورهم بأيديهم ويعجلوا بنهايتهم.

■■■

الطب النفسي العربي
عدنان حسب الله - حسين عبد الغفار - عادل عقل
بيروت: منشورات المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية، ٢٠٠١

مقارنة بين الطب النفسي في الغرب والطب النفسي في العالم العربي، وتستعرض الدراسات إنجازات وآراء سيجموند فرويد وابن سينا جنبًا إلى جنب مبينًا الفروق في الرؤية والتناول.

■■■

The Wisdom of Menopause: Creating Physical and Emotional Health During the Change
(حكمة سن اليأس: اكتساب الصحة البدنية والعاطفية أثناء التحول)
Christian Northrup (M.D)
Bantam Doubleday Dell Pub, 2001, 464PP, 27.95$

تعالج المؤلفة الطبيبة مسألة سن اليأس من خلال اقتراب طبي ونفسي واجتماعي، حيث لا تركز فقط على الهرمونات وخلافه وإنما تنظر لحياة المرأة بشكل عام في هذه السن، حين تكون المرأة قد تمردت وتعبت من التضحية والعطاء، ويكون الوقت ملائمًا لإعادة النظر في احتياجاتها وعلاقاتها بأسرتها وأصدقائها وزملائها.

الكتاب مليء بالنصائح العملية عن أفضل أنواع عقاقير الهرمونات والأنظمة الغذائية المستحبة، والوزن المثالي لهذه السن، بالإضافة إلى نصائح تجميلية أيضا.

عـــلوم

The Extended Organism: The Physiology of Animal - Built Structures
(الكائن العضوي الممتد: فسيولوجيا الكيانات التي تبنيها الحيوانات)
J. Scott Turner
Harvard UP, 2001, 228pp., £32.95

يفحص الكتاب الكائنات العضوية التي تغير في البيئة المحيطة بها. أي الكائنات التي تمد سيطرتها إلى خارج أجسامها لتشمل أجزاء من البيئة المحيطة بها. تمامًا مثل العنكبوت وشبكته، فشبكة العنكبوت تمثل أداة لجمع الطاقة من البيئة المحيطة بالعنكبوت وتمد نطاق سيطرته وقدرته، وبالتالي يتساءل الكاتب إن كان من الممكن اعتبارها جزءا من جسم العنكبوت.

عمـــارة

Architecture Now
(العمارة الآن)
Philip Jodido
Taschen, 2001, 192pp., $ 39.99

مع بداية القرن الواحد والعشرين، يتضح للمتابع أن إيقاع التطور والتغيير يجرى بشكل أسرع من أي وقت مضى. وفي هذا الكتاب يرصد المؤلف أحدث ستين عملاً معماريًا تم تشييدها في السنوات القليلة الماضية، ومن ضمنها تصميمات لاندو، وفوستر، وستارك، وماير، وجهري. إلى جانب بعض الأسماء الجديدة التي يتوقع لها المؤلف أن تصبح نجوم العمارة في المستقبل. الكتاب يحتوي على صور ملونة للأعمال المعمارية الحديثة التي يتناولها المؤلف.

■■■

The Look of Architecture
(مظهر العمارة)
Witold Rybczynski
Oxford UP, 2001, 208pp., $ 22.00

يتحدث المؤلف عن الأسباب التي تجعل الناس تحب العمارة وتجعل منها مزارات يحرص السائحون على مشاهدتها، ومن ضمن هذه الأسباب رغبة الإنسان في معرفة أو تخيل كيف كان من الممكن أن يكون في الماضي، وإلى أي مدى يفصله الزمن عن ذلك الماضي.

فكـــر

أصنام النظرية وأطياف الحرية
علي حرب
بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١

يقدم الكتاب تحليلاً نقديًا لحرية الإبداع عند الغرب، من خلال قراءة في اللغة والإبداع عند تشومسكي، ويرسم خريطة للعقول المعرفية التي يتحرك فيها مفكرو الغرب ومفكرونا لتأويل الواقع وفهم الحقائق الراهنة.

■■■

الأختام الأصولية والشعائر التقدمية
علي حرب
بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١

يقدم المؤلف عددًا من الإجابات عن أسئلة ملحة لم يحسمها مفكرونا إما بسبب قائمة المحظورات التي تحد من الإبداع وانطلاق المفكر نحو آفاق أرحب في التفكير والابتكار، أو بسبب عدم القدرة على احتمال الاختلاف، وهو لا يزعم امتلاكه الحقيقة المطلقة إنما يقدم تصوراته ويراها قابلة للجدل والنقاش.

■■■

المسيحية والإسلام والقومية
أنطون سعادة
بيروت: دار سعادة، ٢٠٠١

ينفي المؤلف أي تناقض بين المبادئ المسيحية والإسلامية ويراهما يجاهدان من أجل الدعوة ذاتها، إصلاح حال البلاد والعباد، أو العمران بمعنى أوسع، وأن هذا الفهم لمبادئ الديانتين العظيمتين من شأنه أن يقتل كل فتنة في مهدها ويقود إلى مزيد من التقدم.

■■■

المحاكمة والإرهاب.. عقلية التخوين في الخطاب العربي المعاصر
تركي علي الربيعو
بيروت: رياض الريس، ٢٠٠١

يشيع بين المثقفين منهج التخوين والنفي والإبعاد، وهي مسألة بالغة الخطورة في الحوار بين الأنداد وحول الأفكار، لكنها للأسف ظاهرة لافتة ولا يمكن إنكارها أو تجاهلها. المؤلف يؤصل تاريخيًا لعقلية التخوين في الخطاب العربي المعاصر وآثارها المدمرة.

■■■

العالم.. النص والناقد
إدوارد سعيد
ترجمة: عبدالكريم محفوض
دمشق: اتحاد الكتّاب العرب ٢٠٠١

مجموعة من المقالات التي كتبها إدوارد سعيد بين عامي ١٩٦٩ و١٩٨١، وهي موضوعات تدور حول ثلاثة محاور حسبما يشير المؤلف: فحص العالم الدنيوي الذي يشكل أرضية النصوص، اختبار هذا العالم أمام النظرية النقدية المعاصرة، الآثار الناجمة عن سيطرة ثقافة قوية على ثقافات أضعف منها.

■■■

Culture, Ambition, and the Transformation of Nature
(الثقافة، والطموح البشري، وتحول الطبيعة)
Felipe Fernandes - Armesto
The Free Press, 2001, 545pp., $ 35.00

يقدم المؤلف نظرية مختلفة عن الحضارة، فهو يعرف الحضارة بداية بأنها العلاقة بين البشر والبيئة الطبيعية



الفلاح الفصيح

الشكوى السابعة

* «إن منتهك حرمة القانون، وخارق المتبع من الأمور لا يستطيع رجل فقير أن يقاوم نهبه إذا لم تواجهه العدالة. حقًا إن جوفى لملآن وقلبى لمفعم وقد طفح من جوفى تقرير عن تلك الحالة. لقد كان صدع فى السد، فتدفق منه الماء، وقد انفتح فمى للكلام. وعندئذ قد أعملت مجدافى لسبر الغور، ونزحت مائى، ورَوحت عما فى جوفى، وغسلت كتانى (ملابسى) القذر.

إن خمولك سيضلل بك، وشراهتك ستغشك، وإن عدم اكتراثك سيولد لك أعداءً. ولكن هل يمكنك أن تجد فلاحًا آخر مثلى؟ وهل الشاكى يقف على باب بيت الخامل؟ على أنه لا يوجد إنسان صامت قد أنطقته، ولا نائم قد أيقظته...».

الشكوى الثامنة

* «أقم العدل لرب العدل، والذى عَدْلُ عدالته موجود. وأنت يا أيها القلم، وأنت يا أيتها البردية، ويا أيتها الدواة، ويا «تحوت» ابتعدوا عن عمل السوء. وعندما يكون الحسن حسنًا فالأمر إذن حسن غير أن العدل سيكون إلى الأبد ويذهب مع من يعمله إلى الجبانة، وسيدفن وتطويه الأرض. أما اسمه فلن يمحى من الأرض، بل سيذكر للخير.

* إنك لا تعطينى مكافأة على تلك الخطب التى تخرج من فم «رع» نفسه. انطق بالعدل وأقم العدل لأنه خطير، وعظيم، ويعيش طويلاً، والثقة به قد عرفت، فهو يؤدى إلى العمر الطويل المحترم...».



قـــــــراءات جــــــــديـــدة



وقدرتهم على تغييرها لتناسب حاجاتهم.

ويقوم بتصنيف حضارات العالم المختلفة حسب الطبيعة البيئية المحيطة بها، فهناك حضارة الجزر التى تجمع الحضارات التى سكنت جزر هاواى والمالديف ومالطة وكريت.. وحضارة الصحارى وحضارة الغابات والحضارة الساحلية والتى تضم حضارات الفايكنج والفينيقيين إلى آخره.

فكـــــر دينى

الإسلام الثابت الحضارة
الكسى مالا شينكو
دمشق: دار الحارث، ٢٠٠٠

انشغل الفكر المعاصر فى مرحلة من مراحله بالعلاقة بين الإسلام والشيوعية والصراع بينهما، حتى أن بعض الشيوعيين المسلمين رأى فى الشيوعية أفكارًا إسلامية وسعى إلى التقريب بينهما، لكن بقى الصراع مشتعلاً بسبب المادية المفرطة للأيديولوجيا الشيوعية والروحانية التى تشيعها شريعة الإسلام.

■■■

التسامح والعنف فى الإسلام
عطا الله مهاجرانى
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١

كتاب من جزءين، ويتضمن مقتطفات مختارة من أفكار مهاجرانى وكتاباته وخطاباته، ومناظراته مع المحافظين والتقليديين، ونقرأ فى الكتاب مرافعة طويلة لمهاجرانى عن الصراعات الخفية الدائرة فى إيران منذ ثورة الخمينى.

■■■

معانى القرآن
أبى الحسن بن مسعدة
تحقيق: هدى قراعة
القاهرة: مكتبة الخانجى ٢٠٠١

تحقيق جديد للكتاب الذى صدر له تحقيقان قبل أكثر من عشرين عامًا، والمحققة تقدم هنا نقدها ومآخذها على التحقيق الأول والثانى وتستفيد من أخطائهما.

فلســـــفة

القواعد الشرعية ودورها فى ترشيد العمل الإسلامى
محمد أبو الفتح البيانونى
قطر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ٢٠٠١

ثمة أطر أساسية للدعوة فى سبيل الله، كيف يمكن الاستفادة من التراث الفقهى وما تمنحه النصوص والأحاديث والمأثورات، من أجل تعديل مسار المجتمع ومساعدته على النهضة، هذا هو سؤال المؤلف الكبير.

■■■

الصيرورة فى الفكر الفلسفى
عصام عبد الله
القاهرة: دار كليوباترا، ٢٠٠١

يقدم المؤلف تحليلاً لظاهرة التحول فى الفكر الفلسفى عند الغرب فى النصف الأول من القرن الماضى، وطبيعة هذا التحول وأسبابه، ويربط بين هذا التحول وعلم اجتماع المعرفة وأثره على الفكر الغربى.

فنـــــون

طريقة النمل
هنرى زغيب
بيروت: الأوديسية، ٢٠٠١

دراسة عن المشوار الإبداعى والفنى للأخوين عاصى ومنصور الرحبانى، متناولاً أعمالهما الشعرية والمسرحية التى أدتها بصوتها الملائكى المطربة الكبيرة فيروز، وكيف أن هذه الأعمال مثلت طريقًا واسعًا ممهدًا ومتشعبًا فى نفس الوقت، ويعترف المؤلف بأنه يدين بالفضل إلى الأخوين رحبانى فى مشواره الشعرى.

■■■

Enduring Creation: Art, Pain and Fortitude
(احتمال الخلق: الفن والألم والصلابة)
Nigel Spivey
Thames & Hudson, 2001, 272pp.

حول الفن الذى يعبر عن الألم، والإبداع بالرغم من الألم والمعاناة، وكيف يعمل هذا النوع من الفن على مواجهة الألم.

يعتنى الكتاب بالألم الذى يظهر بشكل مباشر فى أعمال التصوير الفنى مثل تصوير الحرب والوباء والمظالم الإنسانية المختلفة، على سبيل المثال لوحات المسيح المصلوب والشهداء ومذبحة الأبرياء وغيرهما.

■■■

Music and Musicians in Reenaissance Cities and Towns
(الموسيقى والموسيقيين فى مدن عصر النهضة)
Fiona Kisby (editor)
Cqmbridge UP, 2001, 188pp., £40.00

تحاول محررة الكتاب أن تقدم لنا دراسة عن الموسيقى فى سياق حضرى. فمن خلال استعراض أشكال حضرية مختلفة وفى عصر النهضة من مدن دوقية وملكية مثل فيينا وبروكسل، ومراكز مستقلة مثل البندقية وآفينيون، ومدن كتدرائية وجامعية مثل أكسفورد، بالإضافة إلى غيرها من الأشكال الحضرية، تحاول الدراسات المقدمة فى الكتاب أن تصل إلى دور ووظيفة الموسيقى حسب السياق الحضرى الذى توجد فيه.

مـدن وتنمية

New Shanghai: The Rocky Re- Birth of China's Legendary City

(شانغهاى الجديدة: الولادة الجديدة المتعسرة لمدينة الصين الأسطورية)

Pamela Yatsko

Wiley, 2000, 298pp., £ 14.50

تعرف مدينة شانغهاى الواقعة على سواحل الصين الجنوبية بأنها أحد أكبر المدن فى العالم. وفى أوائل التسعينيات قررت الحكومة الصينية تحويل مدينة شانغهاى إلى مركز مالى وتجارى عالمى يقودها إلى الألفية الجديدة.

تفسر الصحفية ياتسكو مؤلفة الكتاب كيف فشلت هذه الخطة الطموحة فى جوهرها، حيث نجحت فى تصميم ناطحات السحاب الزجاجية بينما فشلت فى إرساء الضوابط القانونية والقيم الإبداعية اللازمة لإنجاح المناخ الرأسمالى.

■■■

Mozambique and The Great Flood of 2000

(موزمبيق وفيضان عام ٢٠٠٠ العظيم)

Frances Christie and Joseph Hanlon

International African Inst., 2001, 176pp.

تحلل هذه الدراسة كارثة الفيضان التى أصابت موزامبيق فى العام الماضى ومدى نجاح وفعالية جهود الإنقاذ الدولية فى الحد من الخسائر. وتخلص الدراسة إلى أن التجربة كانت ناجحة، حيث إنه فى الوقت الذى مات فيه سبعمائة شخص تم إنقاذ خمسة وأربعين ألف شخص آخر كذلك فإن المنظمات الأكثر فعالية كانت تلك التى كان لها قاعدة فى موزمبيق أصلاً، أو التى عملت من خلال الأطر الحكومية، أما المنظمات الفردية والمستقلة فكانت أحيانًا مصدرًا للإزعاج فقط.

مذكرات وسير

مانديلا.. السيرة الموثقة

انطونى سامبسون

الرياض: دار العبيكان ٢٠٠١

ليس أهم ولا أكثر إثارة من حياة هذا الثائر العظيم الذى قدَّم نموذجًا للتجرد والنضال والقدرة على الصمود والاستمساك بالمبدأ حتى نهاية العمر، والكتاب يقدم سيرة مانديلا من خلال شخص عرفه وعرف كثيرين من المحيطين به من السياسيين والثوريين الذين رافقوه فى رحلة نضاله.

■■■

Commies: A Lourney Through the Old Left, the New Left and the Left-over Left

(جولة بين اليسار القديم واليسار الجديد واليسار المتبقى)

Ronald Radosh

Encounter Books, 2001, 216pp., $ 24.95

مؤلف الكتاب يسارى أمريكى ورث اليسار عن أبيه، واستمر فى نشاطه إلى أن بلغ منتصف العمر، وبدأ تدريجيًا يشعر بالجوانب السلبية فى الفكر الذى اعتنقه، وفى أخلاق زملائه ومبادئ الجمعيات التى اشترك فيها. يقدم المؤلف من خلال تجربته الشخصية صورة عن اليسار الأمريكى فى مستوياته المختلفة الشعبية والمثقفة.

نقـــد أدبى

شعرية كفافى

جريجورى جوزدانيس

ترجمة: رفعت سلام

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

دراسة فى شعرية الشاعر اليونانى قسطنطين كفافيس، من خلال تحليل مجموعة من النصوص الشعرية المهمة له وإبراز ما فيها من أبعاد فلسفية ورؤى نقدية وتعبير عن توجهات الشاعر وآرائه فى الكون والحياة.

■■■

جماليات المكان فى روايات جبرا إبراهيم جبرا

أسماء شاهين

بيروت: عمان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠١

يشير المؤلف إلى أن اختياره لموضوع الكتاب يرجع إلى ما يمثله المكان فى روايات جبرا، وقد اهتمت دراسات سابقة بموضوع المكان لكن ليس بالإسهاب والاهتمام البالغ الذى يوليه المؤلف للموضوع، والمكان عند جبرا فى ثلاث صفات هى المكان المغلق (البيت، السجن، غرف التحقيق، المقهى) والمكان المفتوح (الصحراء، البحر، الشارع) والمدينة (المدينة الحلم، المدينة الواقعية).

■■■

ملامح عربية فى الأدب الألبانى

محمد الأرناؤوط

عمان: اتحاد الكتَّاب العرب ٢٠٠١

يكشف الكتاب عمق العلاقة بين الأدبين العربى والألبانى، ويتناول المؤلف بالدراسة ثلاثة شخصيات مشتركة بين تراث الأدبين: جحا، الشخصيات الكربلائية نسبة إلى ملحمة كربلاء، ثم شخصية أروى التى وردت فى ألف ليلة وليلة.

■■■

اليهود فى الأدب الأمريكى

رمسيس عوض

القاهرة: مكتبة الأنجلو ٢٠٠١

دراسة تغطى فترة أربعة قرون من القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين، وتشتمل على أربعة فصول، يتناول أولها صورة اليهودى فى الأدب الأمريكى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، والثانى أدب اليديش والثالث الأدب الأمريكى فى القرن التاسع عشر، أما الفصل الأخير فجاء تحت عنوان نقاد وروائيون يهود أمريكان معاصرون.

■■■



الفلاح الفصيح

الشكوى التاسعة

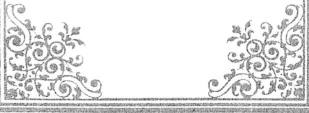
* «لا تكونن ثقيلاً يا من لست خفيفًا. ولا تتوانينَّ يا من لا تسرع. لا تكونن متحزبًا ولا تصغين لقلبك. ولا تسترن وجهك من إنسان تعرفه، ولا تتعامين عن إنسان قد رأيته، ولا تردنَّ إنسانًا يشكو إليك. واترك هذا الخمول حتى أن حكمتك (القائلة): «افعل الخير لمن يفعله لك» يمكن أن تروى إلى مسامع كل الناس، وحتى يرجع إليك الناس فيما يتعلق بمطالبهم الحقة. والخامل لا أمس له، والأصم عن العدل لا رفيق له. تأمل إنى أشكو إليك وأنت لا تسمع شكواى...».

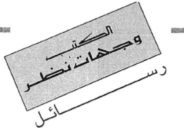
الخـــاتمـة

بعد ذلك أمر «رنزى» بن «مرو» المدير العظيم للبيت اثنين من الحجاب ليذهبا ويحضراه ثانية. وقد خاف هذا الفلاح ظنًا منه أن ذلك قد عمل لمعاقبته على الخطبة التى فاه بها.

فقال «رنزى» بن «مرو»: «لا بأس انتظر هنا حتى يمكنك أن تسمع شكاياتك». ثم أمر بقراءتها. ثم إن «رنزى» بن «مرو» أمر بإرسالها إلى الملك المرحوم «بنكاورع» وقد سر منها جلالته أكثر من أى شيء فى الأرض قاطبة. وقال جلالته: «اقض بنفسك يا بن «مرو» (فى هذا الأمر).

فأمر المدير العظيم للبيت اثنين من الحجاب ليذهبا ويحضرا «تحوت نخت» فأُحضر وأحصيت كل أملاكه.. ٦أشخاص.. قمح من الوجه القبلى وشعير وحمير.. وخنازيره وماشيته.. وقد أعطى بيت «تحوت نخت» لهذا الفلاح.





أفـــلام عـــبـــد الـوهـاب

أحسنت «وجهات نظر» بنشر الدراسة القيمة عن «عبد الوهاب أفلامه وأغانيه» للأستاذ سمير فريد في عدد يونيو ٢٠٠١، وإن كانت لدينا بعض الملاحظات حول الدراسة نوردها فيما يلي بقصد وضع الأمور في نصابها وليس بقصد التقليل من أهمية الجهد الذي بذل في إعدادها أو قيمته.

١ـ مادامت الدراسة لم تعتبر أفلام عبد الوهاب مقتصرة على أفلامه الروائية السبعة، فقد كان على الكاتب محاولة استكمال الصورة والتحري عن سائر الأغنيات التي تم تسجيلها كأفلام سينمائية قصيرة أو تليفزيونية، ويذكر منها على سبيل المثال نشيد الوادي من إخراج محمد كريم ودقت ساعة العمل من إخراج حسن الإمام والجيل الصاعد من أعمال التليفزيون.

٢ـ نرجو ألا تذهب دعوة الكاتب للمحافظة على أفلام عبد الوهاب وترميم أصولها كصيحة في واد، آملين أن يحصل التعاون اللازم فيما بين مختلف وكافة الأطراف المعنية في مصر وسائر الوطن العربي. فقد تكررت في الصحف الفنية المصرية الإشارة إلى فقدان النسخة الكاملة من فيلم «لست ملاكًا» مما حال دون عرضه في التليفزيون المصري، ولكن التليفزيون العراقي وجد لديه ـ على ما يبدو ـ نسخة كاملة غير منقوصة من هذا الفيلم، وقام بعرضها كاملة خلال عام ١٩٨٩ حسبما تسعفني الذاكرة، ولعل وزارتي الثقافة والإعلام في مصر تتعاونان مع التليفزيون العراقي لإنقاذ هذه النسخة الكاملة اليتيمة إن صح ما ذكر عن فقدان النسخة الأصلية للفيلم.

٣ـ نأمل ألا تقتصر الدعوة إلى ترميم أحاديث عبد الوهاب التليفزيونية على سلسلة الأحاديث التي عرضها التليفزيون المصري، فقد عرض التليفزيون السوري في الستينيات ثلاثة أحاديث قيمة أجراها معه الأستاذ خلدون المالح وتابعها محبو عبد الوهاب في حينه بشغف واهتمام.

٤ـ لم يوضح الكاتب ماذا يقصد بالملف الصحفي للفيلم وهل هو كتيب الفيلم الذي أشار إليه المحرر في تقديمه للدراسة (برنامج الفيلم كما يسميه المخرج محمد كريم في مذكراته) وهل يمكن أن يكون الكاتب في اعتماده على تلك الكتيبات قد أعفى نفسه من مشاهدة بعض الأفلام موضوع الدراسة كما يمكن أن يستدل من حديثه حول فيلم «دموع الحب» بالذات!

لقد بدا الكاتب في حديثه عن هذا الفيلم كما لو كان في غفلة عن أن بطلة الفيلم نجاة على مغنية فلم يذكر أنها غنت منفردة أغنيتي يا فرحة القلب وكل اللي بيننا أو أنها شاركت عبد الوهاب في أداء أغنيتي محلا الحبيب وصعبت عليك، ناهيك عن ظهور اسمها إزاء الصورة المنشورة من مشاهد الفيلم على أنها سميرة خلوصي، ولعل هذا خطأ مطبعي.

كما أن الكاتب قد سها عن ذكر موال «في البحر لم فتكم» الذي غناه عبدالوهاب في فيلم «دموع الحب» وكان آخر عهده بالموال كأغنية مستقلة قائمة بذاتها وإن لم يتخل عن الموال في بناء أعماله الغنائية اللاحقة.

٥ـ في حديثه عن فيلم «يحيا الحب» ذكر الكاتب أنه بخلاف الفيلمين الأولين اشتركت في تمثيل الدور النسائي الرئيسي مغنية هي ليلى مراد، وهذا خطأ ناجم عن خطأ إغفال حقيقة المغنية التي قامت بالدور النسائي في فيلم «دموع الحب» كما ذكرنا في ملاحظتنا أعلاه.

وحيث إن الدراسة هي عن «عبدالوهاب أفلامه وأغانيه» فقد تمنينا لو أن الكاتب أشار إلى الجزء من أغنية «ياوابور قوللي» الذي أعيد غناؤه من قبل عبدالوهاب وليلى مراد معًا في المشهد الختامي من فيلم «يحيا الحب» ليكون هذا المشهد وثيقة تاريخية بالنسبة لمحبي فن الغناء ودارسيه.

وقد كرس الكاتب في حديثه عن فيلم «يحيا الحب» معلومة افتتاح ستوديو مصر عام ١٩٣٥ وبهذا فإنه يحسم الالتباس الذي أحدثه مسلسل «أم كلثوم» الممتع في الأذهان حين أورد واقعة المحاولة التي قام بها مؤسس ستوديو مصر طلعت حرب للجمع بين عبد الوهاب وأم كلثوم سينمائيًا في غير إطارها الزمني الصحيح. إن المحاولة قد تمت بالفعل بعد النجاح الذي حققه عبدالوهاب في أول أفلامه «الوردة البيضاء» وليست سابقة له لأن ستوديو مصر لم يكن قد تم إنشاؤه بعد. وقد ظهر المخرج محمد كريم في المسلسل كأحد العاملين في ستوديو مصر وهو يعرض سيناريو «الوردة البيضاء» على أم كلثوم، بينما الواقع يقرر ومذكرات محمد كريم تؤكد أن كريم ترك العمل لدى شركة مصر للتمثيل والسينما قبل إنشاء ستوديو مصر والتحق بزميله الأستاذ يوسف وهبي وأخرج له فيلما روائيا مصريا ناطقا «أولاد الذوات» عام ١٩٣١ أي قبل فيلم «الوردة البيضاء» الذي بدأ معه تعاون كريم وعبد الوهاب ليدخلا ستوديو مصر لأول مرة عام ١٩٣٧ في «يحيا الحب».

٦ـ يعتبر ما ذكره الكاتب عن أغنية كده يا بلاش التي استبعدت من فيلم «يوم سعيد» قبل عرضه (دون ذكر من يغنيها) مكملاً لما ورد في مذكرات المخرج محمد كريم حول استبعاد أغنية لحنها عبد الوهاب للمطربة العراقية عفيفة إسكندر لتظهر في الفيلم (لم يذكر المخرج اسم الأغنية في مذكراته) وبهذا تكتمل الصورة بالنسبة للدارس المهتم بهذه التفاصيل.

كما أورد الكاتب في حديثه عن فيلم «يوم سعيد» وهو على صواب في ذلك أغنية واحدة من نظم أحمد رامي (طول عمري عايش لوحدي) وهو بهذا يصحح الخطأ الذي وقع به مسلسل «أم كلثوم» في المشهد الذي عاتبت فيه أم كلثوم بيرم التونسي على الأغنية التي كتبها لفيلم عبد الوهاب ويرد بيرم بأنها أغنية واحدة فما بالك برامي الذي نظم كل أغنيات الفيلم!

٧ـ أغفل الكاتب جانبًا يستحق الاهتمام في أية دراسة عن أفلام عبد الوهاب، فقد أعد عبد الوهاب الموسيقى التصويرية لأفلامه واختار بعضًا منها كمقطوعات موسيقية سجلها مستقلة على أسطوانات ونزلت إلى الأسواق جنبًا إلى جنب مع أسطوانات أغاني أفلامه وكانت من أشهرها في حينه مقطوعات شغل / عتاب من فيلم «دموع الحب» وحبي / ألف ليلة من فيلم «يحيا الحب» وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

وختامًا، فللأستاذ سمير فريد خالص الشكر والتقدير على ما بذله من جهد ولكل مجتهد نصيب والله ولي التوفيق.

وجدي قبلاوي
عمان ـ الأردن



مـوسـوعـة الأدب العـربي

أبدأ كلامي بإبداء إعجابي بمجلتكم خاصة أنه يتوجها دائمًا مقال الصحفي القدير «محمد حسنين هيكل» ـ علمًا بأنني أواظب على شرائها شهريًا وأتابع جميع ما يكتب فيها من مقالات قيمة بأقلام أساتذة أكفاء.

إلا أن لي ملحوظة أود أن أعرضها:

في العدد السابع والعشرين الصادر في أبريل ٢٠٠١م هناك مقال تحت عنوان «موسوعة الأدب العربي بين نبل الهدف وقصور الجهد» ـ للدكتور صبري حافظ ـ وقد ذكر في ص٦٨ أن (هناك مجموعة كبيرة من الأخطاء الفاضحة التي لا يمكن التعلل بأنها آراء أو وجهات نظر مثل تلك التي ترد في المدخل الذي تناول الشاعر «محمد عبدالمطلب» وأخبرنا أنه ولد في «باصونا» بمحافظة «جرجا» في صعيد مصر (كذا)، (ص١٠) لأن أي باحث عربي يعرف أنه ليست هناك محافظة باسم جرجا في صعيد مصر، وليست بها قرية باسم «باصونا» وينطوي هذا المدخل على العديد من الأخطاء مثل إشارته إلى أن عبدالمطلب عمل مدرسًا في المدارس الابتدائية ثم أستاذًا «بروفيسور» في مدرسة «القانون الديني» (كذا) ثم أصبح بعد ذلك أستاذًا في دار العلوم).

هذا ما ذكره الدكتور صبري في مقاله، وبصفتي أحد مواطني محافظة سوهاج وعلى دراية تقريبًا بكل مدنها وقراها أود أن أوضح أن هناك قرية باسم «باصونا» تابعة لمركز المراغة التابع لمحافظة سوهاج ـ بل إنه جاء ذكرها كثيرًا في الحادثة الشهيرة لاقتحام بعض المسلمين لأحد البنوك بالمراغة حيث ذكر أن المجرمين قد فروا إلى الناحية الغربية في طريق «باصونا» حيث إنها تقع غرب المراغة.

أما عن «محافظة جرجا» ـ ففي الوقت الذي كان يعيش فيه الشاعر «محمد عبدالمطلب» فإن محافظة سوهاج كانت تعرف باسم «مديرية جرجا»، حيث إن المملكة المصرية كانت في ذلك الوقت مقسمة إلى مديريات ولم يكن قد نشأ نظام المحافظات بعد. وكانت المحافظة تسمى «مديرية جرجا» وعاصمتها مدينة جرجا ـ ثم تحولت بعد نظام المحافظة إلى «محافظة سوهاج» وعاصمتها سوهاج ـ ولازال الزائر لمدينة جرجا يشاهد حتى الآن القصور الهائلة المقامة بواسطة الأسر العريقة التي كانت تقطن جرجا باعتبارها عاصمة المديرية، كما أن بها أسرا عريقة إسلامية ومسيحية.

لعل ملحوظتي تحوز قبولكم ـ ولازلت أكرر إعجابي الشديد بمجلتكم ـ ويزيد إعجابي أيضاً حين أطالع (نون) والتي يتحدث فيها رئيس التحرير بكل جراة عن قضايا الساعة.

يوسف عرابي



تـســاؤلات شـــاب

تعليقًا على سلسلة المقالات التي ينشرها الأستاذ هيكل في مجلة «وجهات نظر» أود أن أطرح بعض التساؤلات التي تختلج في نفسي.

المشكلة التي أطرحها على الأستاذ هيكل تتلخص في هذه الجملة البسيطة وهي: ماذا بعد؟ نعم ماذا بعد؟! إلى أين تتجه مصر؛ أنحو نمو ورخاء! أهناك أمل في إصلاح حقيقي لأحوال البلاد.

بالنسبة لي أعتقد أن لا خير قادم؛ وقد يتساءل البعض: لماذا كل هذا التشاؤم.

إجابتي هي العجز بعينه.

فالإصلاح إذا افترضنا أنه تدريجي فهل لي أن أستعير عبارات (أمل دنقل) البائسة:

يا إخوتي الذين يعبرون الميدان في انحناء.

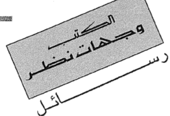
منحدرين في نهاية المساء

لا تحلموا بعالم سعيد

فكيف نأمل في إصلاح لا تطالب به إلا أقلية جهرًا؛ هذا بجانب تفككها بسبب الاستغراق في خلافات لا أحد يعلم متى تنتهي! إذن فلا تكفي الأماني الطيبة.

أما بالنسبة للتغيير الجذري فلا أعتقد أن تفعلها هذه الأمة وفي هذا الزمن، ولي أيضًا أسبابي.

أولاً: قدرة الدولة على السيطرة على الأفراد عن طريق القوة المادية المتمثلة في أدوات القهر المادي إلى جانب أدوات السيطرة على الثقافة والمعرفة.



وهنا لا أتمنى ألا يتحدث البعض عن سقوط الحواجز أمام الثورة التكنولوجية، فهل امتلك كل فرد جهاز دش يتابع به أحداث العالم أم يوجد داخل كل بيت جهاز كمبيوتر متصلاً بشبكة المعلومات، وحتى إن تم امتلاك تلك الوسائل أمتأكد أنت من استخدامها في البحث عن المعرفة أم من أجل الحصول على اللذة؟

كذلك لا أتمنى أن أسمع أن سلطة الدولة تضاءلت كثيرًا لأن هذا الأمر نسبي، نعم أتفق مع من يقول إن من يريد أن يوجه نقدًا فهو يستطيع أن يكتب مجلدات ولكن للأسف لا معنى لكل ذلك في بلد (٥٥٪) من مواطنيه أميون وأكثر من ذلك الرقم أميون أمية ثقافية وذلك أشد خطرًا إلى جانب ارتفاع سعر الكتاب الجاد.

ثانيًا: تزايد معدلات العلمنة الشاملة والتي تتمثل في تمركز الفرد حول ذاته، السعي الدائم نحو الحصول على اللذة والمتعة.

أتمنى هنا ألا يقوم البعض بذكر مزايا الشخصية المصرية المتفردة فتلك ظاهرة عالمية لا فكاك منها إلا بالرجوع إلى المطلق وإلا تآكل مفهوم الإنسان بما يحمله من قيمة.

ففي عالم تسوده العولمة أو القولبة أو التنميط الذي لمسته في دراساتي للتسويق الدولي.

في هذا العالم لا ننتظر أهدافا عليا ترتبط بمطلق أو سيادة أخلاق الضعفاء فهو عالم لا يعرف سوى لغة القوة، فالحديث عن القيمة هو نوع من الترف أو الدونكيشوتية في ظل سيادة سياسة الأمر الواقع المعادية للتاريخ.

وثق سيدي أنني لا أتكلم من برج عاجي بعيدًا عن الأرض، فأنا من طبقة متوسطة في طريقها للاندثار، درست في كلية حكومية جزءا قصيرا من حياتي ثم أكملت في كلية خاصة كما أن عملي يتيح لي الاتصال بكافة أصناف البشر، أي أنني لامست الواقع عن قرب.

أنا هنا لا أوجه نقدًا إلى المجتمع بقدر ما أعبِّر عن صدمتي، نعم صدمتي فعندما يحمل امرؤ قدرًا من المعرفة تعينه على فهم وإدراك الأمور من حوله، أي يحمل قدرًا من الفكر عاجزًا عن الفعل. والعجز ألم والفعل أمانة نحاسب عليها أمام الله العلي القدير.. فياله من عذاب.

إذن فما الحل؟

فكرت كثيرًا ولكنني لم أجده، ولن أجده واحدًا فرداً بل نجده جماعة تؤمن بهدف، جماعة تحمل قيمة بين ضلوعها، جماعة تؤمن بضرورة الإصلاح، إصلاح النفس أولاً والمساعدة في إصلاح الغير ثانيًا.

ولا أجد ما أختم به كلامي إلا قول الله الكريم: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» صدق الله العظيم

إسماعيل سليمان
اثنان وعشرون عامًا

الخديو الأول

اسمحوا لي أن أعبر - مع جماهير المثقفين العرب - عن إعجابي الشديد بالمجلة التي أتشوق إلى قراءتها كل شهر، وقد دعوت الكثير من الأصدقاء والزملاء والمعارف في الكويت وغيرها لشراء المجلة شهريا أو الاشتراك فيها.

ملحوظة بسيطة.. ورد في مقال (مدرسة الطب المصري.. من أبي زعبل إلي قصر العيني) للأستاذ محمد فؤاد الذاكري المنشور في عدد مايو ٢٠٠١ من المجلة إشارة إلي (الخديو) محمد علي باشا و(الخديو) سعيد باشا. وأود أن أصحح خطأ تاريخيًا هنا، وهو أن أول من حمل لقب (خديو) هو الخديو إسماعيل الذي تولى حكم مصر في ١٨٦٣ ومنحه السلطان العثماني هذا اللقب في ١٨٦٦.

دكتور شعبان عبدالعزيز عفيفي
كلية الدراسات التجارية - الكويت



طه حسين.. والثورة

أحسنت مجلة «وجهات نظر» صنعا حينما نشرت في عددها الماضي موضوعا بعنوان «طه حسين.. رسالة لم تنشر عن ثورة يوليو» للكاتب إبراهيم عبدالعزيز؛ لما لهذا الموضوع من أهمية.

وتأتي أهمية وقيمة الرسالة في أن موقف عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين من الثورة لم يكن معروفا إلى حد كبير - أو بصورة واضحة - لدى تلاميذه أو معاصريه وحتى في كتاباته.

والرسالة المنشورة بلا شك هي وثيقة نادرة مؤصلة، وشاهد خطي باقٍ تبرز موقف د.طه حسين من ثورة يوليو تأييدا واعترافا بإنجازاتها العديدة وما يرجوه لها وما يتطلع إليه من خلالها وما يطمح في تحقيقها له.

والفائدة الأخرى للرسالة أنها نشرت بعد ٤٩ عاما من ثورة يوليو التي أعادت للشعب كرامته وحقوقه وحريته وتوجت نجاحه المشرف.

ما أحوجنا إلى إخراج مثل تلك الوثائق والمذكرات المهمة التي يحتفظ بها البعض في مكتبته الخاصة أو تزخر بها دار الكتب والوثائق القومية لكي تتعرف الأجيال على تراث مفكري الأمة ومبدعيها.. فتاريخنا حافل بآلاف الوثائق والمخطوطات الثمينة التي تحتاج لجهد دءوب في البحث والتنقيب والتحقيق والتنقيح، وتلك مسئولية الباحثين والعلماء والمحققين، وتحية لكتيبة وجهات نظر التي أسهمت بحق في إثراء حياتنا الثقافية.

بدوي طه - القاهرة

نون

ليس بالمال وحده
ينهض الفكر العربى

سؤال الساعة الذى يؤرق الكثيرين من أبناء العالم العربى، ولا يفتأ معظمهم يردده بصيغ وعبارات متشابهة فى مبناها ومعناها هو: كيف يمكن إنقاذ الأمة من وهدة السقوط الذى يتهددها من جميع أقطارها؟ وكيف يمكن للقادرين من أبنائها سواء بالمال، أو بالفكر، أو بالسلطان أن يبعثوا نهضتها من جديد، وينفخوا الروح فى أطرافها الخامدة، وعقولها الراكدة، وإرادتها الغائبة؟ كيف يمكن بعد التجارب الخائبة التى امتزجت بوميض آمال ضائعة مرت بها على امتداد القرن العشرين، أن تجد الطريق إلى الخلاص من أسباب الضعف والتمزق، والنهوض من عثرتها التى طالت وامتدت حتى لتوشك أن تدفع بها إلى الهاوية؟

مناسبة هذا السؤال الذى شغل الكثيرين فى مصر وفى عدد من العواصم العربية، هو المشروع الذى طرحته قبل أسابيع نخبة من رجالات المال والأعمال، بدا أن المبادرة جاءت من جانبهم، وظاهرهم عليها عدد من المشتغلين بالأدب والشعر، ينتمون إلى عدد محدود من الدول العربية. اتفقوا فيما بينهم على أن «خلافات الرؤى الإقليمية المتصارعة، والانسياق وراء الدسائس التى تكيد للأمة وتمزق لحمتها هو السبب وراء هذه الأزمة». وانتهوا إلى أن غياب الفكر العربى ودوره فى توحيد الصفوف والنهوض بالأمة قد أدى إلى تكريس هذا الوضع الممزق. ومن ثم عقدوا العزم على إنشاء «مؤسسة للفكر العربى»، تعنى بمختلف جوانب الفكر من علوم واقتصاد وإدارة وفنون وآداب، توحد أفكار الأمة وتنبذ عوامل الفرقة فيها.. عن طريق رعاية وتشجيع الإبداع والبحث العلمى، واحتضان الموهوبين، واستعادة العقول العربية المهاجرة، وإعادة نشر الأمهات من الكتب.



أحدثت هذه المبادرة بكل ما أحاط بها من أضواء مبهرة، ووعود مبشرة.. هزة بين المثقفين والمفكرين. وما بين دعوات الغداء والعشاء، وما أعقب الاجتماعات المغلقة والمناقشات المفتوحة، تجدد الحديث عن العلاقة بين المثقف والمال، وبين المال والسلطة، وبين المثقف والسلطة. وفى عصر اقتربت فيه سطوة الثروة من نفوذ السلطان حتى لتبدو متوحدة أو فى أقل القليل متداخلة متشابكة، راح الكثيرون يبحثون عن الدوافع المحركة والأهداف المستترة وراء هذا الاهتمام المباغت لرجال المال والأعمال.

والذى لا شك فيه أن علاقة الثقافة أو الفكر بالمال والسلطان علاقة قديمة ملتبسة. لها جذورها فى التاريخ العربى منذ كان الشعراء يتخذون من مديح السلطان أو الأمير أو الخليفة بابًا للحصول على عطاياه ومكافآته السخية، يوم كان الشعر هو ديوان العرب ومرآة حياتهم الروحية والعقلية. وقد امتد هذا التقليد القديم إلى أيامنا هذه. وربما استفاد بعض العلماء والمفكرين العرب من هذا التقليد، ولكن الشعر والأدب وفنون الغناء وما إليها هى التى فازت بنصيب الأسد من أموال الأمراء والأثرياء ورعايتهم.

ولم يختلف الحال فى أوروبا كثيرًا عن ذلك. فقد التحق معظم الشعراء والموسيقيين والرسامين والنحاتين بالبلاط أو بقصور الأغنياء أو بالكنيسة. ولولا ما كانوا يجدونه فى كنف هؤلاء من الرعاية والتشجيع المادى والمعنوى، ما احتفظت النهضة الأوروبية بما تحقق لها من تراث فكرى وثقافى وحضارى.

وفى عصرنا الحديث، فإن كثيرًا من الجامعات والمستشفيات والمتاحف ومراكز البحوث ومؤسسات الرعاية الاجتماعية فى أوروبا وأمريكا، قامت على تبرعات أثرياء من رجال المال والصناعة، أو على ريع أموال خصصوها للإنفاق على أغراض خيرية. أو لأغراض البحث العلمى بإنشاء معاهد وكليات فى عديد من الجامعات المشهورة فى العالم: كمبردج وأكسفورد وهارفارد. ونسمع كثيرًا فى الآونة الأخيرة عن أثرياء عرب تبرعوا بأموالهم لإنشاء كراسى أو أقسام للدراسات الشرقية أو العربية فى الجامعات الأجنبية. وخلال السنوات الأخيرة حين استشرى مرض الإيدز، وجد كثير من أموال الأغنياء طريقه إلى مراكز الأبحاث العاملة لاكتشاف علاج لهذا المرض الفتاك.

ولم تتخلف مصر عن هذا التقليد الحميد، فقد أنشئت الجامعة الأهلية المصرية برعاية إحدى الأميرات قبل أن تتحول إلى الجامعة المصرية. وكان لكثير من الأثرياء فضل الريادة فى رعاية الفنون وجمع التحف واقتناء المواد الثقافية ورعاية الموهوبين خلال القرن الماضى.



ومن هنا فإن اجتماع هذه النخبة من رجال المال الذى تداعوا فيما بينهم للنهوض بالفكر العربى، سبيلاً للنهوض بالأمة العربية، ليس مما يثير الدهشة أو الاستغراب. بل يمكن القول بأنه امتداد لتقاليد عربية قديمة، ولسنن سارت عليها الأمم الحديثة التى يسهم أثرياؤها من رجال المال والصناعة فى تمويل أنشطتها العلمية والأدبية والإنسانية، وليس ما فعله بيل جيتس أخيرًا بغريب.

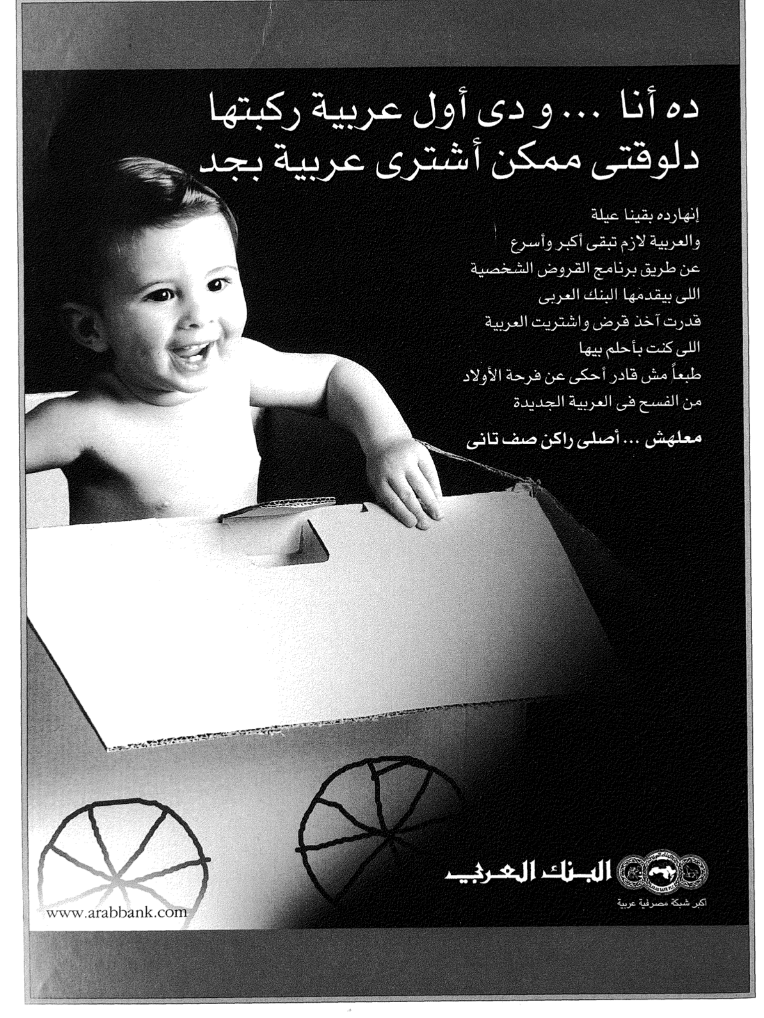
غير أن ما ينبغى أن يلتفت إليه هؤلاء الساعون إلى الخير من أبناء الأمة العربية، هو أن النهضة ـ أية نهضة فى أى مجال من المجالات ـ لا تتحقق بدون مناخ للحرية الفكرية والسياسية يسمح بإطلاق المواهب، وإشباع الحاجات الروحية والعقلية والوجدانية التى تغذى روافد الإبداع، وتفجر طاقات الابتكار، وتفتح نوافذ الفكر دون قيود أو سدود.

وبعبارة أخرى فإنه حتى لو توافر المال، وتهيأت الإمكانات المادية، والنيات الخالصة فى الرعاية والتشجيع والتمويل، دون أن يتحقق للعقول العربية ما ينقصها من مناخ الحرية، بعيدًا عن التعصب والجهل، وعن مطاردة الأدعياء والمذعورين، وملاحقة ذوى الأفكار البالية والعقول المغلقة، وتفتيش رجال السلطة فى الضمائر والأفكار، وتصيد المتعصبين والمتشنجين وأدعياء الدين، فلن تنجح مثل هذه المؤسسة إلا فى إقامة هيكل آخر يضاف إلى الهياكل المجوفة التى يمتلئ بها العالم العربى، والتى تتحول بمرور الوقت إلى ذراع للسلطة والسلطان، أو إلى أن تكون هى بذاتها سلطة للرقابة على الفكر والإبداع من حيث لا يحتسب. لأن مثل هذه المؤسسة سوف تجد نفسها مسوقة لأن تراعى فى اختياراتها ما يرضى عنه ولاة الأمور وما يسخطون عليه، ما يحبونه وما يكرهونه، ما يعتبرونه مواليًا لهم أو عدوًا لسلامتهم واستقرارهم.

ثم إن تشجيع الثقافة والبحث العلمى ورعاية الموهوبين شىء، والنهوض بالفكر العربى شىء آخر.. فالثقافة هى حركة الفرد الفكرية داخل مجتمعه وما يكتسبه من عادات ومفاهيم وأذواق فنية وتقاليد موروثة، ولكن الفكر يتولد من الحركة التبادلية بين الأفكار والثقافات المنبثقة عن المجتمعات القريبة والبعيدة، وما يعتريها من تقابل أو تصادم أو تلاقح. وهو أمر لا يتأتى إلا فى إطار القدرة على ممارسة النظرة التحليلية والنقدية وتطبيق مناهج الفكر العلمى. ومعظم الدول العربية لا ينقصها ذوو اليسار ولا الجمعيات والهيئات الحكومية التى تقدم الجوائز، وتطبع الكتب، وتنشر المجلات، وترسل المبعوثين للدراسة فى الخارج. وكل ذلك قد ينشط الحياة الثقافية ولكنه لا يصنع مناخًا يضمن للتيارات الفكرية أن تتحرك دون عوائق، ولا للمثقفين أن يقفزوا فوق حواجز المحلية والخوف من الجديد والركون إلى القديم. وبعبارة أخرى فهو لم ينجح حتى الآن فى صناعة نهضة عربية فكرية بالمعنى الحقيقى، ولا فى إنتاج فكرى يغزو العالم أو يشارك فى تشكيل صورته. فالمفكر هو مثقف بالضرورة ولكن المثقف قد لا يكون مفكرًا بالضرورة.

ومن أجل هذا كله، فليس المطلوب أن نعمل على توحيد الفكر العربى، وتنميط مقاييسه، وتحديد معاييره، وتأكيد أوجه الشبه وطمس أوجه الخلاف، بل العكس تمامًا هو المطلوب.. أى تحرير الفكر العربى من النمطية، والتوحد، والتقولب، والتشيع، والتمذهب وكل ما يحد الفكر ويقيده.. أى أن المطلوب هو إحداث ثورة فى المفاهيم السائدة إذا كان بمقدور أحد فى العالم العربى أن يثور. وكسر القيود إذا كان لابد أن تكسر. والانطلاق إلى آفاق جديدة إذا تمكنا من الانطلاق. والتطلع إلى المستقبل إذا لم نغرق فى ظلمات الماضى. وكل ذلك لن يتأتى بغير تحرير العقل العربى. وتحرير العقل العربى لن يتأتى بغير تحرير السلطة.. السلطة الدينية والسلطة الزمنية. وإلا فإن أموال قارون لن تكفى للنهوض بالفكر، والمشاركة فى صنع الحضارة، وتحقيق ما يصبو إليه أهل اليسار من النهوض بأمتهم. المال وحده لا ينشئ فكرًا ولا يبعث نهضة.. هذه حقيقة لا مراء فيها!

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخد قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com



مجلة شهرية . العدد الثانى والثلاثون . السنة الثالثة . سبتمبر ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 32 - September 2001

تقرير رئاسى أمريكى

"خَريف خَطِر"

محمد حسنين هيكل

احتفال السيدات بعيد...

محاكمة الطغاة .. بين القانون والسياسة
شريف بسيونى

... وسيناريوهات محاكمة شارون
دياب أبو جهجه

حسين حسنى .. شاهد عدل على عصر فاروق
طارق البشرى

عِلم اسمه الشيخوخة
أحمد مستجير

إيران .. من الرصاصة إلى صندوق الانتخابات
محمد الرميحى

روشتة البنك الدولى لتنمية حوض النيل
رشدى سعيد

الإسكندرية قبل ثمانية قرون
محمد فؤاد الذاكرى

مخطوطة عربية واثنى عشر عالما أوربيا
الطاهر مكى

الصحافة الصفراء وثقافة الخوف !
سلامة احمد سلامة

المناسبات الوطنية فى الرسوم الشعبية عصمت داوستاشى

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد الثاني والثلاثون
سبتمبر ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أحمد مستجير.. أستاذ بكلية الزراعة - جامعة القاهرة.
- دياب أبو جهجه.. رئيس الرابطة العربية الأوروبية في بلجيكا.
- رشدي سعيد.. أستاذ جيولوجيا مصري مقيم في الولايات المتحدة.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي.
- سيان ريز.. صحفي بريطاني.
- شريف بسيوني.. أستاذ القانون بجامعة «دي بول» بشيكاغو، ورئيس الجمعية الدولية لقانون العقوبات بفرنسا.
- طارق البشري.. كاتب ومؤرخ.
- الطاهر مكي.. أستاذ الأدب المقارن بجامعة القاهرة.
- عادل الألوسي.. كاتب عراقي.
- عصمت داوستاشي.. فنان تشكيلي مصري.
- محمد حسنين هيكل.. صحفي.
- محمد الرميحي.. كاتب - أمين عام المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت.
- محمد فؤاد الذاكري.. باحث سوري في التراث العلمي العربي.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي - نبيل تاج - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عددًا) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهمًا - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالاً - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.

Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

عـــولمة العـــــدالــــة

كيف يكون قتل فرد واحد جريمة تعاقب عليها التشريعات الوطنية كافة، بينما ليس هناك عقاب على قتل الآلاف، بل الملايين؟

السؤال الذى يبدو بدهياً، والذى يبدو أيضاً أنه لم يكن مطروحاً ـ لأسباب متعددة ـ على الفكر الإنسانى طوال عصور طويلة من التاريخ البشرى المعروف، وجد طريقه أخيراً ليحتل رقماً متقدماً على «الأجندة السياسية» لعالم جديد تُعاد صياغته، وتتعدد صائغوه: المنظورون.. و«الآخرون».

وبغض النظر عن الاختلاف «لغوياً أو سيكولوجياً» حول مصطلح «العولمة» الذى صار الأكثر شيوعاً فى التعبير عن «العالم الجديد»، فقد كان من الطبيعى أن يكون القانون «الدولى»، كما هى مسائل الحرب والسلام، غير بعيد عن جديد التشكلات.. والتحولات.

وكما تذكر أدبيات فلسفة القانون، فإن القوانين تصاغ دائماً فى مسافة «بين» مطلق العدالة، إذا جاز لنا تبنيها، وبين موازين قوى قائمة فعلاً.. تضمن توازناتها انتقال الصياغات المثالية الحالمة إلى واقع «على أرض تظلها سماء».

غير بعيد عن هذا كله تأتى ـ أولاً ـ محاكمة الرئيس اليوغسلافى السابق سلوبودان ميلوسوفيتش فى لاهاى. وتأتى ثانياً: «المحاولة الجادة» لجر رئيس الوزراء الإسرائيلى أرييل شارون إلى المحاكمة الجنائية فى بروكسل. كما تأتى ـ ثالثاً ـ الجهود المبذولة لإنشاء المحكمة الجنائية الدولية. والتى تنتظر استكمال إجراءات التصديق بعد أن أيَّدت إنشاءها ١٢٠ دولة فى روما قبل ثلاث سنوات.

وفضلاً عن الخلط الحادث عند الكثيرين بين الملفات الثلاثة، بالإضافة إلى محكمة العدل الدولية التى مقرها أيضاً فى لاهاى، فإن المسألة برمتها، رغم ما لإنشاء نظام ما للعدالة الدولية من تبعات سياسية وقانونية، لم تحظ عربياً بالاهتمام الذى تستحق.

كما يقول أحد قضاة محاكمة ميلوسوفيتش الأربعة عشر (المصرى: فؤاد رياض) والذى يعتقد أنها أهم طفرة فى تاريخ البشرية الحديث. لماذا؟ لأن المجتمع الدولى كان يبدو محكوماً بشريعة الغاب مقارنة بالمجتمعات المحلية. فمن يسرق رغيفاً أو يقتل شخصاً فيها يُحاكم ويُسجن، بينما لا يتعرض مرتكبو المجازر ضد شعبهم أو الشعوب الأخرى للمحاسبة. الآن.. أصبح الاعتداء على الشعوب الآمنة جريمة لا تغتفر أيضاً. إن القيمة الردعية للمحكمة تنبع من أنه ليس بوسع أحد مهما علت منزلته، سواء كان رئيساً لدولة أو قائداً لجيش، أن يبقى فوق المساءلة الدولية. كما أن التذرع بمفاهيم «السيادة» التقليدية للدولة، لم يعد لها مكان. لأن المحكمة الدولية ليست بلداً آخر، فهى تمثل المجتمع الدولى بأسره، ومرجعيتها تسبق المرجعية القانونية المحلية.



«وجهات نظر» اختارت لتغطية هذا الموضوع من جوانبه المختلفة د. شريف بسيونى القانونى الدولى الذى ترأس اللجنة القانونية المؤسِّسة للمحكمة الجنائية الدولية، بعد أن تولى التحقيق ـ بتكليف من الأمم المتحدة ـ فى انتهاكات القانون الإنسانى الدولى فى يوغسلافيا فى الفترة من ١٩٩٥ ـ ١٩٩٨. وهو أستاذ القانون بجامعة «دى بول» بشيكاغو ورئيس الجمعية الدولية لقانون العقوبات بفرنسا ورئيس المعهد الدولى للدراسات العليا فى العلوم الجنائية بإيطاليا. وله ٥٤ كتاباً و١٧٦ مقالاً فى القانون منشورة باللغات العربية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية.

ودكتور بسيونى الذى تم ترشيحه عام ١٩٩٩ لجائزة نوبل للسلام عن جهوده التى استهدفت تشكيل محكمة جنائية دولية، كانت الأمم المتحدة قد رشحته لشغل منصب المدعى العام فى المحكمة الجنائية الدولية لمجرمى الحرب فى يوغسلافيا السابقة، إلا أن بريطانيا اعترضت على ذلك. ويومها نسبت «نيويورك تايمز» إلى مصدر عال ببعثة المملكة المتحدة لدى المنظمة الدولية، أن سبب الاعتراض يعود إلى كونه «مسلم» الديانة. وهو أمر يستوجب التوقف عنده عندما يتعلق الأمر بمجتمع دولى لا يعترف بالتمييز على أساس من العرق أو الجنس أو الديانة أو اللون! وبالفعل أسفر التصويت فى مجلس الأمن يومها عن موافقة سبع دول واعتراض سبع أخرى وامتناع دولة واحدة عن التصويت. واحتاج الأمر إلى أربعة عشر شهرًا كاملة من المفاوضات قبل أن يتم الاتفاق على البديل.. ريتشارد جولد ستون.



على الناحية الأخرى، ومن واقع «التجربة الفعلية»، يكتب لـ«وجهات نظر» ـ أو بالأحرى ـ يحكى لقارئها «دياب أبو جهجه» رئيس الرابطة العربية الأوروبية التى نجحت عبر جهد شاق استمر لسنوات فى تحريك الدعوى القضائية لمحاكمة رئيس الوزراء الإسرائيلى أرييل شارون أمام المحاكم البلجيكية لدوره فى مذابح صابرا وشاتيلا.

ففى زمن تذوب فيه عمليًا الحدود أو تكاد. وتتنوع فيه الأعراق فى المجتمع الواحد نتيجة لموجات الهجرة البشرية المتتالية بعد الحرب الثانية. تأتى أهمية التوقف عند تجربة «أبو جهجه» وزملائه من الشباب الأوروبى ذى الأصول العربية. والذين أجادوا استخدام مفاهيم وآليات الغرب من احترام للمجتمع المدنى والاعتراف بالآخر، وإتاحة فرص التأثير والتفاعل والتحريك الاجتماعى أمام الشباب، لينجحوا ـ ربما للمرة الأولى ـ فى تكوين ما يمكن اعتباره «لوبى» عربيا مؤثرا.

يحكى (الباحث البلجيكى ذو الأصول العربية) كيف تمثل الأمر الأكثر صعوبة فى إقناع الأطراف «العربية الرسمية» التى لا مفر من التعاون معها لتجهيز مستندات القضية، إن القضية جدية «فمجرد التفكير بمقاضاة مسؤول إسرائيلى كان يستدعى الابتسامات الساخرة من الكثيرين لأن ذهنية المؤامرة التى تسيطر على العقل العربى، تصور له عدوه وكأنه يسيطر على العالم ويتحكم بمسار كل الأمور..»

ويحكى كيف أنهم نجحوا ـ عبر جهد متواصل ـ فى تحضير الرأى العام الأوروبى عامة والبلجيكى خاصة لتقبل فكرة مقاضاة مجرمى حرب إسرائيليين. حتى إن محاولة الحكومة البلجيكية تعديل القانون استجابة للضغوط الإسرائيلية فشلت أمام الرأى العام الذى كان قد تعاطف مع القضية ومع سعاد سرور المدعية الرئيسية فيها.

أيًا ما كان الأمر فإن التجربة (المحاولة) غير المسبوقة تظل تفاصيلها مثيرة. ويظل رصدها مهمًا فى مجتمع دولى تتغير ـ مثلما كل الأمور ـ آلياته الدبلوماسية.



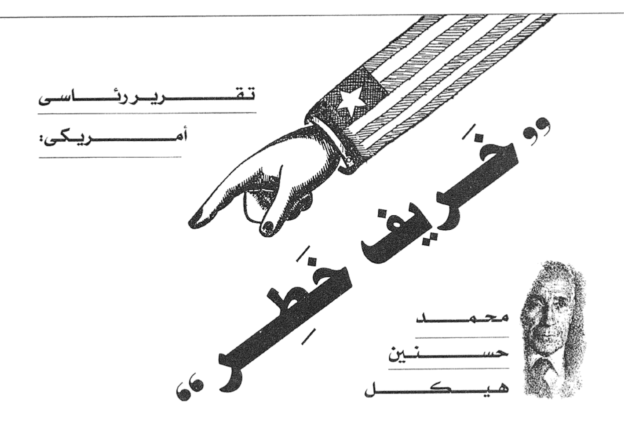
هل نحن أمام خطوة أو خطوات حقيقية على الطريق نحو عدالة «حقيقية» تتجاوز مفاهيم السيادة التقليدية وتقدم عليها حقوق الإنسان؟

أم أن «المعايير المزدوجة» وحقيقة موازين القوى التى لا يمكن تجاهلها، ستكون كفيلة بإجهاض أحلام الجميع: الشباب الآملين فى غد مختلف، والقانونيين الطامحين إلى نقل أفكارهم حول الحق والعدل من سطور كتبهم الفخمة الأنيقة إلى ساحات غمرتها الدماء والدموع؟!

قبل نصف قرن، وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، شعر الكثيرون ـ محقين ـ بأن الحلفاء يطبقون قانوناً خاصاً لأنفسهم وقانوناً خاصاً للمهزومين. ونظرياً فإن محكمة لاهاى تحاكم مجرمى الحرب فى يوغسلافيا طبقاً للقانون الدولى، وباسم المجتمع الدولى. وليس باسم الحلفاء المنتصرين، كما كان الحال فى محاكمات «نورمبرج».

رجال القانون يصرون ـ وهم محقون ـ على أن يقولوا هذا. ولكن رجال السياسة ـ فى الأغلب ـ لا ينظرون للأمر من الزاوية نفسها.

وجهات نظر



مقدمة

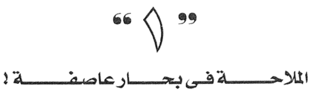
هذا الحديث ليس نتيجة جهد صحفي مقصود، وإنما هو محصلة لقاءات وحوارات جرت في إطار شخصي مع زملاء وأصدقاء أثناء زيارة للولايات المتحدة عدت منها أخيرًا. ولم يكن في نيتي أن أكتب عن هذه الزيارة شيئًا، لكنه خطر لي أثناء عبور المحيط ـ قرابة سبع ساعات في الطائرة ـ أن هذه الولايات المتحدة الأمريكية تستحق ـ أكثر من أي وقت مضى ـ نظرة على شخصيتها في محاولة لاستكشافها أو إعادة اكتشافها مرة أخرى. وبالفعل فقد حاولت إعادة النظر إلى أمريكا من جديد بعد نصف قرن على أول نظرة إليها عبر المحيط سنة ١٩٥١. وفي العدد الماضي من «وجهات نظر» عرضت بعض الملاحظات والاستنتاجات مما توصلت إليه في محاولة فهم الشخصية الأمريكية، ولم أكن أريد أن أزيد.

ثم كان أنني ـ وبمحض مصادفة ـ اطلعت على تقرير عن سياسة أمريكا في الشرق الأوسط عرفت أنه الآن ـ هذه الأيام ـ على مكتب الرئيس الأمريكي «جورج بوش» ينتظر من الرئيس أن يقرأه، وينتظر على الهوامش علامات مما يخطه هذا الرئيس الجديد لأمريكا من ملاحظات على ما يقرأ، وهو معظم الأحيان ـ كما سمعت ـ علامات استفهام أو علامات تعجب يفهمها معاونوه الأقربون، وأولهم السيدة كونداليزا رايس «مستشار شئون الأمن القومي في البيت الأبيض» وتترجمها إيضاحات أو شروحات لرئيسها ـ وتلميذها ـ (جورج بوش) ـ تيسيرا عليه، وتهوينا للمشقة .

وكان الاطلاع على هذا التقرير المعروض الآن على الرئيس هو الذي استدعى إلى ذاكرتي تلك الأحاديث التي اعتبرتها شخصية مع زملاء وأصدقاء، على امتداد أسبوعين في أمريكا.

وفي ذلك التفاعل بين عين تقرأ وذاكرة تسترجع، راودني الظن بأن تلك المحاولة التي سبقت لاستكشاف الشخصية الأمريكية قابلة لأن تلحق بها زيادة تجرب أن تطل على القرار الأمريكي في الشرق الأوسط وتوجهاته في المرحلة القادمة ـ وذلك ـ في هذا الحديث ـ قصدي .

هـ .



على مكتب الرئيس جورج بوش الآن تقرير مفصل عن الخيارات السياسية المتاحة له ولإدارته في شأن أزمة الشرق الأوسط. وتلك «أزمة منطقة» تدهورت أحوالها بشكل أصبحت فيه مثل «كتلة صخر مهولة انكسرت من الجبل وراحت تتدحرج ـ وما تزال ـ عشوائيا على سفوحه، وهي توشك أن تنقض على الوديان والشطآن المحيطة بالجبل مهددة بدمار وخراب إلى درجة الكارثة.

وهذا الوصف لمنطقة الشرق الأوسط وأزمتها الحالية ليس من عندي، ولكن صاحبه هو «هنري كيسنجر» الذي لم يشارك في أعمال اللجنة الرئاسية التي وضعت التقرير، وكان يود لو انضم إليها لكن مستشاري الرئيس الأقربين اعترضوا برغم أن عددا منهم سبق لهم العمل معه (وأولهم وزير الخارجية «كولين باول» الذي كان لعدة سنوات مساعدا خاصا لكيسنجر). وكانت أسباب الاعتراض متنوعة، بينها بداية (وذلك رأي «جورج بوش» الأب) أن «هنري سوف يظل باستمرار أسيرا لتجربته السابقة في المنطقة»، وتلك تجربة مضى زمنها لأن الظروف تغيرت. ثم (وذلك رأي «ديك تشيني» نائب الرئيس) فهناك خشية «أن هنري لن يعمل من أجل توسيع خيارات الرئيس، وإنما سوف يعمل لتوسيع نفوذه الشخصي، وتلك طبيعة «هنري» لا تتغير مهما تغيرت الظروف».

ولم تعتمد اللجنة الرئاسية توصيف «هنري كيسنجر» لأحوال الشرق الأوسط الراهنة بما فيها كتلة الصخر المهولة التي تهوي على سفوح الجبل وتهدد الوديان والشطآن، وإنما اختارت اللجنة وصفا آخر عنونت به تقريرها الرئاسي، وهو عنوان لم يبتعد كثيرا عن أوصاف «هنري كيسنجر» لأحوال المنطقة، بل تابعه في استلهام تقلبات الطبيعة ومفاجآتها. فقد كان العنوان الذي اختارته مجموعة العمل الرئاسية لتقريرها هو «الملاحة في بحور مضطربة» Navigating Through Turbulence.

وهكذا، ففي حين رأى كيسنجر أن المنطقة صخرة هاوية من قمة جبل فإن المجموعة الرئاسية رأتها بحورا مضطربة تتلاطم فيها العواصف !

□

والواقع أن تقرير «المجموعة الرئاسية» بشأن الشرق الأوسط وخيارات السياسة الأمريكية وسط هذه المنطقة «المضطربة» كان واحدا من خمسة تقارير تمثل قائمة أولويات السياسة الأمريكية من منظور الإدارة الحالية. والتقارير الخمسة تعالج خيارات القرار الأمريكي في: شرقي آسيا (الصين واليابان)ـ أوربا (حلف الأطلنطي والسوق الأوربية)ـ شبه القارة الهندية (الهند وباكستان وما حولهما)ـ الخليج (وهو في التقرير الأمريكي مواقع إنتاج

الإدارة الأمريكية الجديدة أقلقتها الأصداء التى وصلتها من المنطقة بما فيها الترحيب بنجاح «بوش» على أساس معرفة وصداقة قديمة تربط «آل بوش» بسياسيين وساسة فى الشرق الأوسط

النفط وضمنها العراق وإيران وشمالا حتى القوقاز) ـ وأخيرا منطقة الشرق الأوسط (والمقصود بها أساسا هى ساحة الصراع العربى الإسرائيلى).

□

ويستحق الملاحظة أن هذه التقارير الرئاسية الخمسة ـ الأولويات الرئيسية للسياسة الأمريكية ـ لم تكن أول ما عرض على الرئيس بوش من مقترحات، وإنما كانت هناك قبل ذلك أوراق عمل أعدت على عجل فى «فترة الريبة». التى لحقت بانتخابات الرئاسة الأمريكية الأخيرة! عندما ظهرت نتائجها تتارجح بين «جورج بوش» و«آل جور» لأيام طالت إلى شهر وزيادة.

كانت «فترة الريبة» تلك مسالة غير معتادة فى السياسة الأمريكية. فالمعتاد أن تظهر نتائج الانتخابات، ويتحدد المرشح الفائز بالرئاسة، وتكون لديه فترة انتقالية مدتها ثلاثة شهور تقريبا، يختار فيها طاقم إدارته ويعهد إليه بخطوط حملته الانتخابية حتى يحولها إلى سياسات. بحيث إنه ـ منذ الأسبوع الأول من شهر نوفمبر حين تجرى انتخابات الرئاسة وتعلن النتائج، وحتى الأسبوع الأخير من شهر يناير حين يؤدى الرئيس الجديد قسمه الدستورى بادئا عهده ـ تكون العجلة مستعدة للدوران خصوصا أن شخصية وكفاءة أى رئيس تقاس بإيقاع إدارته خلال المائة يوم الأولى من رئاسته، حتى تنتهى فترة السماح الممنوحة له فى ظرف عام، ومن ثم يبدأ الحساب عسيرا ويشتد!

لكنه فى حالة «جورج بوش» و«آل جور» وقع ما لم يكن معتادا، لأن نتيجة الانتخابات تحولت إلى جدل وصل إلى القضاء: من محكمة إدارية محلية فى ولاية فلوريدا وحتى المحكمة العليا فى واشنطن. ومع الانشغال بالمعارك القانونية والسياسية والإعلامية بين الحزبين (الجمهورى والديمقراطى) والمرشحين (بوش وجور)، بدا كل شىء مؤجلا بما فيه السياسات والخيارات والقرارات ـ وكذلك تشكيل طاقم الإدارة نفسه ـ فيما عدا قلة محددة من الأعوان الأقربين، ولم يكن فى مقدور أحد منهم أكثر من التفكير فى ترتيبات مؤقتة تسد ثغرة وتغطى فجوة ولا تزيد.

والحاصل أن المطلوب الأساسى فى هذه الفترة كان نفسيا، ومخافة أن يقع فى روع العالم ـ على حد تعبير تردد ساعتها ـ أن البيت الأبيض يوشك أن يصبح نوعا من جدران ليس وراءها سكان). وفى الحقيقة، فإن الاتجاه الذى ساد وقتها هو النزوع إلى تحركات «تشاغل» وليس خطى «شغل» حقيقى مدروس وقابل للاستمرار أكثر من أسابيع قليلة.

وكان هناك إدراك مبكر لدى مجموعة المعاونين الأقرب إلى الرئيس بوش أن العالم كله سوف يتفهم حاجة الإدارة الجديدة إلى فسحة وقت، إلا منطقة واحدة تتملكها العصبية باستمرار، وتحرج الجميع ونفسها أيضًا وهى منطقة الشرق الأوسط. والسبب عندهم ـ وعند غيرهم أيضًا ! ـ أن السياسات فى هذه المنطقة معظمها سياسات شخصية، والأعصاب السياسية للأفراد عادة أكثر حساسية من الأعصاب السياسية لبلاد تدير أمورها مؤسسات وتحركها إستراتيجيات لا تتعلق بـ«مخاوف وهواجس» أمراء ورؤساء يتصرفون مثل راكب دراجة عليه أن يتحرك طول الوقت، أو يسقط على الأرض إذا كف عن الحركة!

□

وكان من نتيجة ذلك أن إدارة بوش «القادمة» بعد فترة الريبة قررت مبكرا إرسال وزير الخارجية المرشح «كولين باول» بحيث تكون أولى مهامه فى منصبه الجديد رسالة إلى أمراء ورؤساء الشرق الأوسط من ثلاثة بنود:

ـ لا داعى الآن للانسياق لضغوط الرأى العام العربى والتعجل بالتورط فى مطالبات برفع الحصار عن العراق.

ـ لا داعى للانسياق لضغوط الرأى العام العربى وتصعيد الأزمة مع إسرائيل بما يؤدى إلى «تخريب مساعى السلام».

ـ لا داعى للإسراع فى زيارات عربية على مستوى القمة إلى واشنطن فى الفترة المبكرة من عمل الإدارة.

وهكذا، فإن الإشارات الثلاثة التى حملها «كولين باول» إلى المنطقة كانت طلبا صريحا لفسحة وقت تعوض ما ضاع أثناء فترة الريبة قبل أن تتاكد نتائج الانتخابات. وفيما يظهر، فإن أركان الإدارة الأمريكية الجديدة أقلقتهم بعض الأصداء التى وصلتهم من المنطقة بما فيها الترحيب بنجاح «جورج بوش» على أساس معرفة وصداقة قديمة تربط «آل بوش» ورجالهم بسياسيين وساسة فى الشرق الأوسط، وبالذات من أيام حرب الخليج والتحالف الذى جرت الحرب تحت أعلامه. وكانت تلك الأصداء موضع حرج للرئيس الأمريكى الجديد وفريقه، لأن الصحافة الأمريكية أو بعض كتابها وجدوها فرصة للإشارة إلى الفوائد الشخصية الهائلة التى عادت على «آل بوش» ومساعديهم وأولهم «ديك تشينى» (وزير الدفاع فى إدارة بوش الأب ـ ونائب الرئيس فى إدارة بوش الابن)، وهى فوائد زادت وفاضت ودارت حولها أقاويل لاضرورة لإعادة بعثها ونشرها الآن بعد أن كاد النسيان يطويها.

وهكذا، فإن الرسالة إلى المنطقة بطلب الانتظار كانت عاجلة لظروف طارئة ولدواع شخصية أيضا، وقد حملها وزير الخارجية بكل الرقة والكياسة المتاحة لجنرال سابق ـ مع أنه خدم سنين طويلة فى البيت الأبيض!

ومما يستلفت النظر أن نفس الرسالة عندما نقلت إلى السعودية وإلى بعض دول الخليج لم يكن المكلف بنقلها وزير الخارجية «كولين باول»، وإنما تركت المهمة لـ«بوش الأب» الذى شرح بنفسه فى أحاديث تليفونية متعددة وطويلة «ظروف إدارة الابن» ـ للأمير عبد الله ولى عهد السعودية ولاثنين أو ثلاثة غيره من أمراء الخليج، وقد تفهم الأمير عبد الله ظروف الأصدقاء وقدر حاجتهم إلى فسحة وقت.

وكان الاتصال بولى عهد السعودية وغيره من أمراء الخليج إشارة إلى «نية» و«قصد» كان مطلوبا من وقت مبكر صياغتهما كإستراتيجية وسياسة.

□

وعندما جاء وقت تحويل البرنامج الانتخابى للحزب الجمهورى، وتقديرات الرئيس المنتخب ومجموعة الرجال الأقوياء المقربين منه، انطلقت مجموعات العمل الرئاسية تسابق الوقت بتقاريرها حتى تلحق البيت الأبيض وساكنه الجديد.

وكان البيت الأبيض الجديد قد أعطى لكل مجموعات العمل الرئاسية توجيها عاما تلقاه الجميع، لكنه أعطى للمجموعة المختصة بكل أولوية مزيدا من التفاصيل عن رؤية الرئيس وإدارته لمجال عملها فى كل منطقة.

....

....

وكانت الخطوط الرئيسية فى التوجيه العام الذى تلقته مجموعات العمل الرئاسية تعطى للجميع تصورا متكاملا. وكان الرجل الذى قام بالمهمة والإيضاح هو نائب الرئيس «ديك تشينى». وكان مؤدى التوجيه العام للجميع:

(١) إن الولايات المتحدة تجد نفسها الآن فى وضع فريد لم يتح لأى قوة غالبة فى التاريخ، فقد تمكنت من النصر فى الحرب الباردة وانهار الاتحاد السوفيتى أمامها، كما أن الإمبراطورية السوفيتية تناثرت أجزاء وأشلاء متفرقة وأحيانا متخاصمة. وفى الوقت الحالى فإنه لم يعد هناك تحد للقوة الأمريكية، كما أن كل التحديات المحتملة مؤجلة الآن إلى سنين وحقب (الصين تحد محتمل لكن أمامه وقتاً طويلاً ـ واليابان تحد محتمل لكن الفرصة أفلتت منه، وسوف تظل فالتة إلا إذا استطاعت اليابان فى المستقبل إنشاء علاقة خاصة من نوع يصعب التنبؤ به الآن مع الصين ـ كما أن أوربا الغربية تحد محتمل شريطة أن تتمكن من تحقيق وحدتها كاملة، وذلك الآن فى مجال الأحلام).

يترتب عليه أن الولايات المتحدة الآن «متفوقة بمراحل»، وهذا التفوق مضمون فى المستقبل المرئى، ومسئوليتها الحقيقية أن تعمل بكل الوسائل على الاحتفاظ به وتدعيمه، وتلك هى المهمة الأولى للسياسة الأمريكية وللقدرة الأمريكية فى كل مجال.

والرأى السائد فى الإدارة الجديدة أن الولايات المتحدة حققت «قيادتها المطلقة» للعالم فى عهد «ريجان» و«بوش» لأنها استطاعت أن تمسك باللحظة التاريخية وتستعمل إمكاناتها المادية والمعنوية للحفاظ على مكاسبها وهو ما ينبغى للإدارة الجديدة أن تعود إليه وتحافظ عليه.

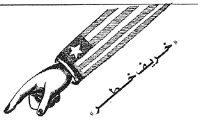
ويستعيد التوجيه إلى ذاكرة سامعيه أن الإمبراطورية البريطانية احتفظت بسيادتها على البحر الأبيض ـ وهو مركز الثقل فى الإستراتيجية العالمية طوال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ـ بمجرد «تعويد» الآخرين على فكرة سيطرتها على البحار، فى حين أنه على ساحة الواقع لم يكن لديها فى البحر الأبيض طول هذه «القرون» غير تواجد عسكرى محدود فى إمكانياته عند مداخل البحر الأبيض ومخارجه فى السويس وجبل طارق، ثم أسطول فوق مياه البحر يتكون من بارجة واحدة وست مدمرات فردت أعلامها ترفرف على الموج ما بين قبرص ومالطة. والولايات المتحدة فى وضع أقوى عشرات المرات مما كانت عليه الإمبراطورية البريطانية، وكل ما يلزمها هو ترسيخ «عادة» الإقرار بوجودها فى «كل مكان»، وتأكيد هذا الوجود بحيث يصبح عنصرا مؤثرا على القرار فى «أى مكان».

....

....

(٢) إن الاقتصاد الأمريكى ما زال الأكثر حيوية والأقدر على التجدد، وتلك حقيقة تعكسها سيادة الدولار على غيره من العملات فى أسواق العالم، ولا ينبغى أن يؤخذ ما حدث فى أسواق المال ـ خصوصا لشركات «التكنولوجيا الجديدة» التى انهارت قيمة أسهمها ـ دليلا على

حققت الولايات المتحدة «قيادتها المطلقة» للعالم فى عهد «ريجان» و«بوش» لأنها استطاعت أن تمسك باللحظة التاريخية وتستعمل إمكاناتها المادية والمعنوية للحفاظ على مكاسبها وهو ما ينبغى للإدارة الجديدة أن تعود إليه وتحافظ عليه



«هشاشة» في القوة الاقتصادية الأمريكية، ذلك أن الطفرة التي حملت أسهم شركات التكنولوجيا الجديدة إلى ذروة السوق هي نوع من «الصرعات» التي تحدث من جراء التوقعات المبالغ فيها في مراحل التحول البارزة في قوى الإنتاج. والحقيقة أن هذه الطفرة من توابع اختراقات في تكنولوجيا المعلومات جعلت كثيرين يتصورون أن مجرد «وجود فكرة» جاهزة لقبول المخاطرة يخلق حالة يستطيع فيها الاستثمار أن يستغني عن «رأس المال» وقد ثبت أن ذلك وهم مستحيل. والنتيجة أن «الطفرة» فرقعت مثل فقاعات الصابون وكانت عملية تصحيح لأوضاع السوق ضرورية وواجبة!

وفي حقيقة الأمر، فإن ما أخذته عملية «تصحيح الوهم» في الأسواق كان هو بالضبط ما جاء به «الاستسلام للوهم» من زيادات في حجم «التعاملات» خلقت إحساسا زائفا بالرخاء عندما تضخمت - وخلقت إحساسا مبالغا فيه بأزمة «الرأسمالية» عندما فرقعت. بينما الأكيد أن الرأسمالية الأمريكية هي «الآن» في أقصى درجات قوتها وكل ما يلزمها هو: ترك الأسواق مفتوحة ومنع أي طرف من التدخل في حركتها».

والإدارة الديمقراطية السابقة (إدارة كلينتون) مسئولة إلى حد كبير عن «تشجيع الأوهام»، وهي لم تفعل ذلك في مجالات «المال» وحدها وإنما فعلته في مجالات كثيرة، وأهمها مجال «الأمن».

وفي حين أن إدارة جمهورية (ريجان وبوش الأب) هي التي أدارت بنجاح معركة سقوط الشيوعية والاتحاد السوفيتي، فإن إدارة ديمقراطية «كلينتون» عجزت عن استغلال فرصة هذا السقوط وتهاونت في ضرورات التفوق الأمريكي.

....

....

(٣) إن الإدارة الجمهورية العائدة إلى موقع القرار عليها أن تستأنف خطط الدفاع الإستراتيجي كما تصورتها إدارات «ريجان» و«بوش» (الأب)، وأولها مواصلة برنامج حرب النجوم، والخطوة التالية فيها إنجاز شبكة الصواريخ المضادة للصواريخ لأن هذه الشبكة هي التي تعطي الولايات المتحدة درعا واقية ضد المخاطر مهما كان مصدرها.

وإذا كان هناك من يتصور أن إستراتيجية الردع المتبادل القائمة على توازن في القوة النووية بين الدول التي تملك إمكاناتها ماتزال كافية فهؤلاء على خطأ كبير. لأن الردع النووي المتبادل كان إستراتيجية صالحة لمرحلة الحرب الباردة بين قوتين تملك كل منهما إمكانية تدمير القوة الأخرى سواء بضربة أولى من منصات إطلاق ثابتة (على البر) أو بضربة ثانية من منصات إطلاق متحركة (في الغواصات)، لكن الظروف الآن مختلفة. ومرجع الاختلاف أن القوى النووية في العالم تعددت بدخول الصين والهند وباكستان وكوريا الشمالية بترسانات نووية مؤثرة، وذلك يفرض على الولايات المتحدة إستراتيجية جديدة لا تردع طرفا واحدا أو طرفين وإنما تواجه كل الأطراف (بما فيها أطراف هي اليوم صديقة). والسبيل إلى ذلك درع منيعة حول الولايات المتحدة (ثعبان يمنع ويبلع كل ثعابين الخصوم قبل الوصول إلى الشواطئ والمدن ومواقع القوة الأمريكية) وبعدها يصبح الآخرون تماما تحت رحمتها تتصرف إزاءهم كما تشاء. وذلك مهما كانت تكاليفه أرخص من أي سباق نووي يعتمد على الردع، خصوصًا وقد اتسع طابور الداخلين إلى مجال القوة النووية وهو طابور طويل يضم دولاً صغيرة و«مارقة» يرضيها أن تعتبر نفسها ندا للولايات المتحدة في إستراتيجية ردع متبادل!

....

....

(٤) إن الإدارة الجمهورية الجديدة عليها أن تمارس دورها في الدفاع والتمكين للمصالح الأمريكية «بغير قيود» لا تستوجبها «الضرورات». و«الإدارة الأمريكية» وحدها هي الطرف الوحيد الذي يحق له توصيف المصالح الأمريكية دون اعتبار لأي ضغوط. وفي مجال العمل السياسي، فإن الإدارة تستطيع أن تمارس «دورها» داخل الأمم المتحدة وفي الوقت نفسه تستطيع ممارسة «مسئوليتها» خارج الأمم المتحدة (بالذات في مناطق حساسة بالنسبة للمصالح الأمريكية ومنها منطقة الشرق الأوسط).

وما حدث هو أن إدارة كلينتون سبق لها أن ورطت الولايات المتحدة في تعهدات بدعوى المحافظة على البيئة (بروتوكول كيوتو)، أو بدعوى حرية المنافسة التجارية (اتفاقيات منظمة التجارة العالمية)، وتلك كلها وغيرها تنازلات أعطت العالم إشارات خاطئة مفادها أن الولايات المتحدة يمكن تطويعها أو يمكن ابتزازها. وقد سمحت إدارة كلينتون بذلك لأنها وضعت نفسها موضع الدفاع عندما فقدت «رئاستها» ذلك الأساس الضروري للمشروعية الأخلاقية نتيجة لفضائح كلينتون الجنسية وأشهرها فضيحة (مونيكا لوينسكي). لكن الإدارة الجمهورية الجديدة ليست مكشوفة بحالة «عري أخلاقي» من هذا النوع.

وهنا دخل على التوصية تحذير يطلب من الكل أن ينتبهوا إلى احتمال أن يتصور بعض الأطراف أن في مقدورهم ممارسة نوع من التطويع والابتزاز بظن أن الإدارة الجديدة وصلت إلى البيت الأبيض بأقل فارق في أصوات الناخبين في أي انتخابات سابقة (٣٠٠ صوت)، ووسط ضجة شديدة عن سلامة عملية الفرز (أعيدت عشرات المرات يدويا وآليا). وكذلك يمكن أن يحل التطويع والابتزاز السياسي محل التطويع والابتزاز الأخلاقي. وهنا فإن ضرورات القوة تفرض على الإدارة الجديدة أن تأخذ المبادرة في يدها، وأن تأخذها بشدة وبحزم لا يدع لأحد مجالا للشك في أن القرارات الأمريكية تصدر عن شرعية مجروحة أو يمكن تجريحها!

....

....

(٥) إن الإدارة الجديدة يتعين عليها أن تمارس سياساتها في العالم في إطار مناطق متصلة، وليس في إطار دول محددة. والحاصل أن أوضاع العالم كما برزت بعد الحرب العالمية الثانية وأثناء الحرب الباردة تكشف أن القضايا المطروحة على الساحة الدولية تكشف عن «آفاق» وليس عن «حدود»، حتى وإن كانت الحدود شاسعة (شبه قارات).

وهنا، فإن الصين هي منطقة شرقي آسيا وليست بلدا واحدًا عاصمته «بكين» - والهند هي شبه القارة الهندية وليست «دلهي» - ومنطقة البحيرات هي وسط أفريقيا وليست «كينشاسا».

وحتى في حساب الأزمات المحلية فإن أزمة «كوسوفو» مثلا هي أزمة منطقة «البلقان» كلها، وليست أزمة إقليم من بقايا يوجوسلافيا القديمة. ومشكلة العراق هي مستقبل منطقة الخليج العربي كله، وقضية الصراع العربي الإسرائيلي هي أمن شرق البحر الأبيض المتوسط، وليس السلطة الوطنية الضعيفة في غزة أو إسرائيل المستقوية في تل أبيب!

....

....

وهكذا، فإن السياسة الأمريكية عليها أن تتعامل مع «مناطق» وليس مع «مواقع»، لأن ذلك هو مدلول الخريطة السياسية ومقتضاها. وفي نفس الوقت، فإن التعامل مع مناطق يمكن السياسة الأمريكية من استيعاب وتفريغ ادعاءات «قوى محلية» تتصور نفسها قائمة على «أدوار إقليمية» في المناطق التي توجد فيها ومن ثم ترتب لنفسها امتيازات تطالب بها.

(٦) إن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تدعي لنفسها «رئاسة العالم» وإلا جلبت لنفسها مشكلات تستثير الحساسية أو تستدعي المنافسة أو تستفز الآخرين بغير لزوم لكن عليها في نفس الوقت أن تحتفظ لنفسها بالكلمة الأخيرة في أي موضوع.

وذلك يعني:

● أن الولايات المتحدة لا تقبل قسمة أو توزيعا في مسئولية القرار العالمي.

● ولا تقبل قيادة جماعية أو نوعا من مجلس الإدارة مسئولا بالتضامن حتى ولو كان لرئيسه صوتان أو حتى ثلاثة!

● ولحل هذه الإشكالية فإن المدخل إلى ما تريده واشنطن يكون التشاور مع الأطراف الدولية الكبيرة، كل على حدة، ومع كل طرف داخل المنطقة التي تتصل بأمنه المباشر أو مصالحه، دون ضرورة لإشراك كل الأطراف في كل المسائل، مع ملاحظة أن الوصول إلى توافق عام زيادة لا حاجة إليها وأفضل منها أن تحجز الولايات المتحدة لنفسها حق رؤية الأفق كاملا وسلطة الحركة عليه بمفردها.

واتساقا مع فكرة التشاور، تلاقى «بوش» مع «بوتين» وقرر «أنه نظر في عينه واكتشف أنه يستطيع الثقة به». وحتى بعد أن تكررت اللقاءات بين الرجلين في أكثر من مؤتمر (بينها مجموعة الثمانية في جنوا) كانت مستشارة الأمن للرئيس «بوش» وهي السيدة «كونداليزا رايس» في زيارة للكرملين قابلت فيها «بوتين» بعد عشرة أيام من اجتماعات جنوا وقالت «كونداليزا رايس» وهي على باب الكرملين: «إن الاتحاد السوفيتي (السابق) كان يمثل تهديدا للولايات المتحدة وأما روسيا فهي الآن صديق»!

وكانت تلك هي الخطوط العامة للتوجيهات التي أعطيت للمجموعات الرئاسية في كل المناطق - بما فيها المجموعة الرئاسية للشرق الأوسط!

□

وفيما يتعلق بالشرق الأوسط تدخلت السيدة «كونداليزا رايس» فطرحت نيابة عن رئيسها ثلاث ملاحظات:

● الأولى أن أزمة الشرق الأوسط تحتاج فيما ثبت بالتجربة إلى «معجزة».

● والثانية أن رؤساء أمريكيين سابقين اقتربوا من الأزمة ولم يأخذوا منها إلا «حرق أصابعهم».

● والثالثة أن «جورج دبليو» - رئيس لا يعتبر نفسه صانع معجزات «تحول قطعة الحجر إلى رغيف خبز»، كذلك فهو لا يريد أن يحرق أصابعه!!

خمس أولويات للسياسة الأمريكية:
الصين - حلف الأطلنطي والسوق -
شبه القارة الهندية - الخليج -
الشرق الأوسط



فصل شئون البترول
عن تفاعلات الصراع العربي الإسرائيلي
مطلب رئيسي لسياسة بوش!

«٢»

من «كلينتون» إلى «بوش»

لم يخرج تقرير اللجنة الرئاسية عن الخيارات السياسية المتاحة للرئيس بوش في الشرق الأوسط فجأة إلى النور، ولم يطبخ هذا التقرير على عجل ليقدم للإدارة الجديدة على صينية أو على طبق فور طلبه.

وإنما كان للتقرير الرئاسي أساس أبعد من ذلك وأعمق، لأن قسما كبيرا من أفراد المجموعة التي عكفت على إعداده كان لها سابق اهتمام بالمنطقة، ولذلك فإن معظم الجهد كان عملية تنسيق وتنظيم ومضاهاة وصقل. وفي الواقع، فإن الصورة النهائية للتقرير لم تكتمل إلا في شهر يونية الأخير (٢٠٠١) عندما قام اثنان من المشاركين في إعداده بزيارة «اللحظة الأخيرة» للمنطقة حتى يجرى تقديم التقرير وعليه «اللمسة الأخيرة».

كانت مجموعة العمل الأصلية تضم قرابة أربعين وزيرا وسفيرا وخبيرا سبقت لهم الخدمة في إدارات جمهورية من قبل. وكانت للمجموعة الكبيرة لجنة إدارة ضيقة ضمت وزراء خارجية (بينهم «الكسندر هيج» من إدارة ريجان الأولى مثلا)، ومستشاري أمن قومي (منهم «انتوني ليك» من إدارة ريجان الأولى أيضًا)، وسفراء عملوا في المنطقة (مثل «صمويل لويس» الذي خدم ثماني سنوات سفيرا في إسرائيل).

وقد تولت اللجنة ترتيب وتنسيق زيارات ولقاءات لأعضائها على اتساع عواصم الشرق الأوسط وذلك لإجراء حوارات «إستراتيجية معمقة» وهنا، فإن أحد عشر عضوا من أفراد مجموعة العمل قاموا بزيارة للمملكة العربية السعودية وللأردن ولإسرائيل وللضفة الغربية، وقابلوا مجتمعين أو فرادى كل من ظنوا أن لديه شيئا مهما يسمعونه منه.

وعندما فرغت المجموعة من إعداد تقريرها وقد ركزت عليه طوال شهور الربيع - قررت إرسال اثنين من أعضائها هما «دافيد بروك» و«روبرت ساتلوف» في أوائل الصيف (يونية) إلى المنطقة لمهمة «النظرة الأخيرة» وإضافة «اللمسة الأخيرة»!

وأخيرا أكملت اللجنة تقريرها في ثمانين صفحة، ثم إنها وضعت فوقه تلخيصا لمجمل ما فيه في حالة ما إذا لم يجد الرئيس وقتا كافيًا لقراءة ثمانين صفحة!

□

المدخل العام للتقرير يبدأ بعرض واسع يطرح على الرئيس بوش وكبار معاونيه صورة ما تغير في الأفق الإستراتيجي للمنطقة منذ ترك الجمهوريون رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية عند سقوط «بوش» (الأب) أمام كلينتون في انتخابات سنة ١٩٩٢.

ويحدد التقرير «أن آخر إدارة جمهورية - وهي إدارة «بوش» الأب - تركت منطقة الشرق الأوسط وقد تحققت فيها ثلاثة إنجازات كبيرة يمكن البناء فوقها:

■ الإنجاز الأول: هو فتح الطريق أمام سلام شامل في المنطقة، وذلك بمؤتمر مدريد سنة ١٩٩١ الذي قصدت إليه كل الدول العربية «راغبة وقادرة ومستعدة» لصنع السلام مع إسرائيل من خلال مفاوضات سياسية لها مساراتها المختلفة ومن خلال مؤتمرات للتعاون الإقليمي متنوعة في موضوعاتها لكن هدفها واحد - ! - وهو أن توفر للكل نصيبا في «جوائز السلام»! وتشرك دول المنطقة دون تمييز في أجواء من التعاون تساهم فيه «تركيا» بالتحديد وبالاسم لأن «ذلك يحقق توازنا في القوى محكما وفاعلا».

وقد لحقت بمدريد اتفاقيات سلام بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وبين إسرائيل والمملكة الأردنية، وتلى ذلك أن «نصف دستة» من الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية أقامت علاقات مع إسرائيل شملت السياسة والاقتصاد ومجالات أخرى في التعاون المشترك فيها الأمن وتبادل معلومات المخابرات!».

....

....

[لم يذكر التقرير أن التعاون في مجال تبادل معلومات المخابرات وصل إلى حد أن «الموساد» قدمت لبعض الدول العربية صور برقيات شفرية ملتقطة من شبكات دول عربية أخرى.. وقدمت لها أيضًا تسجيلات لمحادثات تليفونية جرت بين مسئولين عرب وفيها ما يهم مسئولين عربا آخرين تحرص عليهم إسرائيل - أكثر من ذلك فإن إسرائيل قدمت لإحدى الدول العربية محضرًا لوقائع لقاء سري جرى بين وزير الدفاع في دولة عربية ثانية ومدير المخابرات في دولة عربية ثالثة!].

....

....

■ الإنجاز الثاني: أن مطلبا إستراتيجيا شديد الأهمية تحقق بالكامل في الوقت الذي ترك فيه بوش الأب مكانه (بعد انتخابات الرئاسة ١٩٩٢) وذلك المطلب هو ضمان «أمن الخليج» وموارده البترولية الحيوية على نحو نموذجي حلم به كل رئيس أمريكي وعجز عن بلوغه - لكن «حرب الخليج الثانية» مكّنت منه.

كان المطلب النموذجي لتحقيق أمن الخليج هو إجراء فصل كامل بين الداخل والساحل في العالم العربي، أي عزل «الخليج العربي» عن «الشام» (وفيه سوريا وفلسطين)، وكذلك عن مصر. وذلك يعني أن «شئون» البترول تنفصل عن «قضايا» الصراع العربي الإسرائيلي (بما يعني عمليا فك الارتباط بين دول مجلس التعاون الخليجي وبين بقية العالم العربي من دول جامعة الدول العربية).

وكان المطلوب بالدرجة الأولى من أطراف التحالف الذي خاض حرب الخليج إخراج العراق من الكويت، لكن ذلك الهدف استعمل مقدمة لها ما وراءها.

● أوله أنه بهذا التحالف أصبح بعض العرب شركاء إستراتيجيين لإسرائيل حتى وإن لم يقصدوا، وكانت تلك الشراكة هي ما أقنع إسرائيل بالامتناع عن الرد على صواريخ عراقية طالت بعض مدنها (خلال ليالي القتال من منتصف يناير إلى أواخر فبراير ١٩٩١).

● وثانيه هو تحصين أمن الخليج بصورة حاسمة، والتأكد من فصل «شئون البترول» عن «قضايا الصراع العربي الإسرائيلي» عندما تم نزول القوات الأمريكية وتمركزها في كل دول مجلس التعاون الخليجي دون أي اعتراض.

● وثالثه وهو الأهم أن الرأي العام العربي «تعود» على وجود القوات الأمريكية على مياه الخليج وشطآنه وقواعده، ولم يعد في ذلك «بالعادة» ما يزعج أو يثير!

■ والإنجاز الثالث هو ما بدا من أن العالم العربي يقبل عموما بأهم ظواهر «العولمة»، فقد أصبحت صيحة اقتصاد السوق هي اللازمة المسموعة في كل محفل عربي، ومعها جرت «إعادة هيكلة اقتصادية ومالية» قامت بها معظم الحكومات العربية أو اتجهت إليها، كما انفتحت شهية المستهلكين العرب لأنواع من السلع الاستهلاكية الغربية طلبتها ودفعت ثمنها مقبلة عليها وسعيدة بها، وتم ذلك دون مقاومة تذكر.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الفضاء العربي وقع فيه كسر قبضة أي دولة عربية تتصور أنها تستطيع السيطرة أو التوجيه داخل بلد واحد. أو التأثير فيما هو أوسع. والسبب أن «الفضائيات العربية» الناطقة باللغة العربية فتحت الأجواء العربية لكل ريح من أي اتجاه.

....

....

[لم يتطرق التقرير الرئاسي إلى أكثر من ذلك في ذكر دور الفضائيات العربية في حساب القرار الأمريكي، لكني ناقشت وجهات نظر مختلفة عن هذا الدور أثناء زيارة أخيرة لأمريكا - وبينه:

● أن الفضائيات العربية أنهت قدرة أي حدث يقع في العالم العربي - مهما كانت درجة خطورته - على تعبئة رأي عام متماسك وقوي لأن هذه الفضائيات حولت الوعي العربي إلى ثقوب يتسرب منها بالليل ما يجئ به النهار.

● وأن هذه الفضائيات سببت حالة استغناء بمشاهدة الصور عن المشاركة بالفكر أو الفعل، والنتيجة أن «العربي» مدعو كل ليلة لكي يتفرج على «مسلسلات الأحوال العربية»، وعليه أن يجلس أمام الشاشة لأنه لا يستطيع القفز داخلها للمشاركة في هذه الأحوال.

● وأن هذه الفضائيات ربطت المشاهد العربي إلى حكايات الماضي فانشغل بها لأنها وافقت نزعة الموروث الشعبي عنده إلى القصص والحكايا.

● وأن هذه الفضائيات بتضارب القصص والحكايا استباحت بالأهواء ما وافق غرض كل قاص وحاك حتى فقد الرأي العام العربي على اختلاف توجهاته احترامه لأي مرجعية تلهم، وأهم من ذلك تصوره لأي رؤية مستقبلية تجمع!

وفي المحصلة النهائية، فإن هذا المناخ الذي اختلط فيه كل شيء بكل شيء هيأ فرصة سانحة ولعلها مثالية لعملية هدر عقلي ونفسي تغرق الإرادة العربية دائخة في دواماتها!

وذلك كان مطلبا عزيزا لقوى دولية عديدة وقد نالته أخيرا سواء بذكائها أو بغفلة غيرها!]

....

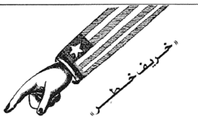
....

والمدهش أن التقرير بعد ذلك يلاحظ أنه «مع أن الاقتصاديات العربية على وجه العموم فشلت في الإفادة من الجانب الإيجابي للعولمة، لأنها عجزت عن زيادة نصيبها في التجارة العالمية - بل إن بعضها فقد شيئا مما كان لديه - فإن رياح العولمة أشاعت في المنطقة جوا من المرونة (أو من الرخاوة) مفتوحا للتأثير. وقد امتد بعض التأثير إلى مجالات الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان، لكن الحكومات العربية مع اختلاف «أشكالها وألوانها» استجمعت ما لديها من سلطة لتقاوم التيارات على هذه الجهة وتصدها!».

وكان ذلك هو المدخل العام لتقرير المجموعة الرئاسية الذي قرأه أو يقرؤه أو يوشك أن يقرأه الرئيس بوش الآن، أو على الأقل يطلع على ملخصه أو يسمع شرحا له تقوم به «الأستاذة» كونداليزا رايس مستشاره للأمن القومي.

□

وينتقل التقرير من هذه الإنجازات التي تحققت أيام آخر إدارة جمهورية (بوش الأب) وهي كبيرة بأي معيار، إلى ما حدث تحت إدارة كلينتون التي تهاونت وتراخت فإذا هو الانحراف والانحدار على منعطفات خطرة، تهوي إلى



البحور المضطربة. والتقرير يعد أربعة منعطفات حدث فيها الانحراف والسقوط:

«١ - إن مسيرة السلام تعطلت أمام عراقيل واجهتها، أهمها ذلك الانفجار الشعبى الفلسطينى الذى وقع فى سبتمبر سنة ٢٠٠٠ ووصل إلى درجة من العنف المتبادل بين الفلسطينيين والإسرائيليين تحول إلى نوع من حرب العصابات. وأدى ذلك إلى ضياع «فكرة المفاوضات» و«منطق الحل الوسط»، وكانت تلك الفكرة وهذا المنطق «دعامتين رئيسيتين» فى عملية بناء شرق أوسط جديد!».

«٢ - ترتب على ذلك أن موجة من المشاعر المعادية لأمريكا اجتاحت العالم العربى ومازالت أمواجها الداكنة بالكراهية تتدفق فى عواصمه حتى تلك العواصم التى تعتبر الأقرب من السياسة الأمريكية مثل القاهرة والرياض ومسقط.

وكان أن «السلام الأمريكى Paxa Americana الذى طلع على المنطقة وشاع الظن بأنه تمكن من تثبيت قواعده - راح يتعرض لضغوط من الرأى العام العربى حتى أن نظما صديقة للولايات المتحدة اضطرت أن تحتفظ لنفسها «بمسافة أمان» تحميها من المشاعر المعادية لأمريكا حتى لا تصل إليها تأثيراتها فى مواضع قاتلة!

ومثلا، فقد اضطر وزير الخارجية المصرى - فى ذلك الوقت - إلى كيل المديح لحزب الله، كما أن وزير الدفاع السعودى هدد بفرض عقوبات على الشركات الأمريكية، ثم إن رئيس وزراء الأردن قاد وفدا موسعا إلى بغداد فى محاولة لإظهار التمرد على الرغبات الأمريكية.

ومع أن الولايات المتحدة تعودت مؤخرا أن تعطى لبعض أصدقائها فى الشرق الأوسط «رخص سماح» إذا هاجموا سياستها خطابيا لإرضاء جماهيرهم - فإن هذه الازدواجية لها آثارها الخطرة، وأولها أن يتحول «التظاهر» بالعداء لأمريكا بكثرة تكراره إلى سياسة ولو باللاوعى. وثانيها أن «الشارع العربى» قد يستعيد قدرته فى الضغط على الحكومات المعتدلة مما يعرض هذه الحكومات لمخاطر حقيقية.»

«٣ - ولقد كان أخطر المنعطفات التى تعثرت عندها «المسيرة» - أيام «كلينتون» - أن تحالف حرب الخليج أخذ يترنح، وأظهر الأعراض أن شعورا عاما ساد فى العالم العربى مؤداه أن شعب العراق دفع ثمنا «لا يمكن قبوله أو الاستمرار فى قبوله»، وبالتالى فإن تحالف حرب الخليج فقد الهدف المشترك الذى قام عليه فى البداية. ثم إن السياسة الأمريكية حاولت أن تواصل التصرف تحت غطاء تفويضه حتى تتمكن من «احتواء النظام فى العراق وتطويقه وإسقاطه».

وفى اللحظة الحالية فإنه يتبدى أن الولايات المتحدة فى محاولتها لتحقيق مطلبها فى العراق لم تعد تجد نصيرا لها إلا داخل حدود الكويت، وهذا وضع بالغ الخطورة خصوصا إذا ترافقت معه - بسبب تدهور الأوضاع وتزايد العداء لأمريكا - عودة إلى نوع من الاتصال بين «شئون البترول» وقضايا الصراع العربى الإسرائيلى.»

«٤ - وفى تداعيات ذلك وغيره تسللت عائدة إلى المنطقة قوى كان الواضح - فى أواخر عهد الإدارة الجمهورية السابقة (بوش الأب) - أنها خرجت من المنطقة إلى غير رجعة.

● وأولى هذه القوى هى روسيا، وخطر عودتها إلى دور فاعل فى الشرق الأوسط ظاهر على ناحيتين:

- من ناحية: فهى قادمة مع توريد أسلحة محظورة لبعض بلدان المنطقة التى يزداد فيها العداء للولايات المتحدة وبينها إيران والعراق وسوريا.

- وعلى الناحية الثانية: فإن روسيا تعرقل فرض نظام جديد للعقوبات على العراق يحل محل نظام سبق لأن النظام الجديد أذكى وهو قادر على إنقاذ الشعب العراقى وتصفية نظام الحكم فى بغداد.

والمناخ السائد فى المنطقة يعزز عودة روسيا ويمكنها من تسويق حججها من ناحية توريد السلاح وناحية عرقلة العقوبات.»

«فمن ناحية توريد السلاح تدعى روسيا بأن لها علاقات وصداقات تقليدية فى المنطقة لعب فيها السلاح دورا كبيرا، مع إن واقع الأمر يقول إن الولايات المتحدة الأمريكية هى أكبر مورد سلاح فى المنطقة ونصيبها فى تجارته مقارنا بنصيب روسيا تسعة إلى واحد، مع العلم بأن الذين يشترون السلاح من أمريكا يدفعون مقدما ونقدا وأما الذين يشترونه من روسيا فدفعهم مؤجل وهو بالتقسيط المريح!

وفيما يتعلق بالعقوبات الجديدة فإن روسيا قادرة على القول بأن النظام المقترح ليس ذكيا، لأنه لا الحكم الحالى فى العراق ولا أى حكم غيره يحتمل أن تجىء به الظروف إلى ذلك البلد - يستطيع قبول الفكرة الرئيسية فى هذا النظام وهى تقوم على نزع وجود الدولة أصلا عن العراق لأن نظام العقوبات الذكية يبدأ من قرار يؤكد وضع كل عائدات العراق من النفط رهن تصرف الأمم المتحدة، هى تبيع وهى تحصل وهى تخصص وهى تعطى لمن تشاء بما فى ذلك أى نصيب تخصصه للعراق: شعبه أو حكومته!

● «وراء روسيا عادت الصين، بل هى الآن فى موقف أقوى لأنها على علاقة تقليدية مع العالم العربى وعلى علاقة مستجدة - تتسع - مع إسرائيل، وهذا يعطى للصين مصداقية القيام بدور لاعب مهم فى الشرق الأوسط يساعدها عليه أنها واحدة من الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن.

لكن الجزء الخطر فى نشاط الصين فى المنطقة هو تلك العلاقات النامية والمتمددة دون صخب بين الصين وإيران.»

● «والقادم الثالث على طريق العودة، بعد روسيا والصين، هو أوربا، ومع أن أوربا حليف طبيعى للولايات المتحدة إلا أن أوربا فى جزء من طموحها ومصالحها منافس للولايات المتحدة على موارد المنطقة وعلى أسواقها. فإذا أضيف إلى ذلك أن بعض الدول الأوربية وبالذات فرنسا لها مشروعات مستقلة ولها أغراض خاصة بها، فإن عودة أوربا على هذا النحو إلى المنطقة هى فى هذه الظروف - تفتح ثغرات يمكن للبعض استغلالها لتوسيع دائرة المناورة والحركة بما يساعد القوى المعادية للسياسة الأمريكية.»

□

ويصل التقرير إلى نقطة حساسة حين يشير إلى أن الإدارة الديمقراطية السابقة أساءت التقدير، وأساءت التصرف بالأسلوب الذى اتبعه «الرئيس كلينتون» شخصيا حين تصور لنفسه مقدرة التصدى لأزمة الشرق الأوسط وساعده على هذا التصور أنه كان يبحث لنفسه عن مجال يعوض فيه بنجاح غير مسبوق فضيحة هى الأخرى غير مسبوقة..

والحقيقة - كما يرى التقرير - أن «بيل كلينتون» رأى الصعوبات والعقبات ومهاوى الهلاك التى وصلت إليها أحوال المنطقة. لكن «كلينتون» وقع فى خطأ عمره عندما ظن أنه يستطيع تقليد رئيس ديمقراطى سبقه - «جيمى كارتر» (١٩٧٧) - بممارسة دبلوماسية شخصية على نحو ما قام به «كارتر» (مع «أنور السادات» و«مناحم بيجين») فى كامب ديفيد (سنة ١٩٧٨). وهنا يشير التقرير أن كلينتون نسى عدة فوارق كبيرة تتعلق بالحقائق وبالظروف وبالناس. بمعنى أن «چيمى كارتر» - فى تجربته - مارس الدبلوماسية الشخصية بين أهم دولتين فى المنطقة: أكبر دولة عربية تاريخيا وهى مصر، وأقوى دولة عسكريا فى اللحظة الحالية وهى إسرائيل. وكذلك فإن «كارتر» مارس دبلوماسيته مع رجلين كلاهما وراءه سند من نوع ما. «فأنور السادات» وراءه «أمل سلام» يعقبه رخاء للشعب المصرى - و«مناحم بيجين» وراءه «أمل أمن» يترتب عليه تحقيق شرعية قانونية لدولة إسرائيل. وترافق ذلك مع ظاهرة أن الدبلوماسية الشخصية كانت بدعة مثيرة جديدة وبراقة فى تلك الأيام قبل ربع قرن. أما الآن فإن الصورة مختلفة - وأسوأ من ذلك أن كل المقولات التى بنى الأطراف عليها مقولاتهم تمت تجربتها. لأن السلام الذى طلبه «أنور السادات» لم يتحقق - والأمن الذى طلبه «مناحم بيجين» لايزال معلقا فى الهواء.

لكن «بيل كلينتون» - على أيامه - لم يدرس «الأحوال» ومتغيراتها بالعمق الكافى، وهكذا فإنه وهو رئيس الولايات المتحدة - وجد نفسه يتفاوض مع رؤساء مليشيات ومسئولين أمنيين فى المخابرات والشرطة. وبالتالى فإنه على طريق طويل من «كامب دافيد» إلى «واى ريفر» إلى «شرم الشيخ» قام بعملية «بهدلة مهينة» لنفسه ولمنصبه ولبلاده ضيعت هيبة أكبر بلد فى التاريخ وفى الدنيا، ومع ذلك لم يتوصل إلى نتيجة لأن «مجرد تورطه مع نوعية الناس» الذين «تفاوض» معهم، «ومجرد تنازله إلى التفاصيل التى رضى بالبحث فيها» - حوّل رئيس الولايات المتحدة فى النهاية إلى رهينة يتحكم فى نجاحها أو فشلها رجال قادمون من الظلام وعائدون إليه، وكلهم ممن لم يكن يجوز من الأصل أن يلقاهم رئيس الولايات المتحدة مهما كانت الظروف.

وللتذكرة فقد استعاد كاتبو التقرير أن الولايات المتحدة كانت تجرى اتصالاتها مع منظمة التحرير الفلسطينية أيام كانت منفية فى تونس وذلك بواسطة سكرتير ثان فى سفارتها هناك. وعندما استجابت المنظمة لكافة الطلبات الأمريكية - كافأتها الولايات المتحدة بقرار من وزير الخارجية «جورج شولتز» يسمح للسفير الأمريكى فى تونس بلقاء مسئولين من المنظمة علنا وبصورة رسمية - واعتبرت المنظمة ذلك القرار فى وقته «حلما تحقق».

وفى عهد «كلينتون» تنازلت هيبة الولايات المتحدة إلى حد أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قاد بنفسه عملية الاتصال، والتقى وتحادث وتفاوض، ورفع الكلفة بينه

«شئون الخليج» اختصاص
البيت الأبيض ووزارة الدفاع
و«شئون الصراع العربى الإسرائيلى»
اختصاص وزارة الخارجية
والمخابرات المركزية





الولايـــــات المتحــــــــــدة
لا تطلب منصب رئيس العالم ولكنها تصــر على أن تكــون لهـــا
الكلمة الأخيرة فى كل موضــوع

وبين عشرات من الرجال لم يعرفهم وناداهم جميعا بأسماء الشهرة التى ظهروا بها فى العمل السرى «أبو كذا» و«أبو كذا»، وقد سهر مع بعضهم يتكلم حتى الصباح، ومع ذلك فقد خرجوا من أمامه دون أن يوقعوا على ما طلب منهم بل راوغوه ثم زاغوا منه.

ويرى واضعو التقرير الرئاسى - والأمر كذلك - أن الولايات المتحدة يجب أن تستعيد هيبتها، ثم إن أى مسئول فيها - وحتى تحت مستوى الرئيس - يجب أن يعود إلى سياسة التعامل عن بعد ومن علٍ.

....

....

[لم يتطرق التقرير الرئاسى إلى أسلوب كانت الولايات المتحدة الأمريكية وساساتها يتبعونه مع معارفهم وأصدقائهم من العرب - ولايزالون - باستثناء كلينتون الذى تعامل بأسلوب مختلف ولكن بمضمون لم يختلف.

ومؤدى ذلك الأسلوب أنه «لابد من وضع مسافة واضحة بين أى علاقات ألفة ومجاملة استدعتها ظروف وعلاقات سابقة، وبين أوضاع مستجدة لها اعتباراتها، لأن كثيرين من العرب لديهم الاستعداد - ولأسبابهم - كى يخلطوا بين العام والخاص».

وفى ذاكرتى واقعة معبرة عن فرط تخوف بعض الساسة الأمريكيين من معارفهم العرب إلى درجة الفظاظة، وقد تابعت الواقعة بنفسى حين أصبح «جورج شولتز» وزيرا للخارجية فى إدارة ريجان بعد خروج «ألكسندر هيج».

أيامها كان «جورج شولتز» عضوا فى مجلس إدارة شركة كونسوليدت العربية للمقاولات الذى يرأسه المليونير الفلسطينى «حسيب صباغ» وهو صاحب أكبر نصيب فى الشركة، وكانت مكافأة «شولتز» مائة ألف دولار سنويا عن ثلاثة اجتماعات يحضرها فى السنة.

وبعد عدة أسابيع كان «حسيب صباغ» يرتب زيارة لأمريكا و خطر له وهو يرتب برنامج سفره أن يطلب مقابلة صديقه وزميله السابق فى مجلس إدارة شركته «جورج شولتز» فبعث إليه برسالة شخصية، وفى اليوم التالى تلقى «حسيب صباغ» ردا من سكرتيرة الوزير« شولتز» تحيطه علما بأن الأوضاع تغيرت :

- صداقته الشخصية مع شولتز متوقفة طالما هو فى منصبه.
- المرجو منه أن لا يتصل مباشرة بالوزير أو بمكتبه، ولا يطلب مواعيد معه لأن مجال نشاطه مما لا يشمله اهتمام الوزير حاليا.
- وإذا كان لديه ما يقوله، فإنه يستطيع أن يبعث به إلى مكتب وزير الخارجية كما يفعل أى مواطن فى أى بلد فى العالم]. ▒

....

....

«٣»

افصــل مــا بين البـــترول وفلســـطين؟

▒ ▒ صلب التقرير الرئاسى كلام صريح موجه للرئيس «جورج بوش» يخاطبه مباشرة بـ: لا تفعل ذلك - وافعل ذاك، وتنبه هنا - وحاذر هناك.

وأول المنهى عنه بالتصريح والتلميح مسألتان:

- المسألة الأولى خطاب للرئيس: لا تخلط فى منطقة الشرق الأوسط - أو ما يسمى كذلك اصطلاحا - بين «نطاقين إستراتيجيين» لأنه لابد أن يظل كل منهما مستقلا بذاته وبعيدًا عن الآخر:

الخليج وما حوله ناحية - وفلسطين وما حولها ناحية أخرى (بمعنى ضرورة الفصل فى سياساته ما بين إسرائيل وبين البترول)، والاعتبار أن الخليج قضية وفلسطين قضية أخرى والمزج بين الاثنتين يخلق تفاعلات تنشأ عنها شحنات خطر يصعب تقديرها.

يضاف إلى ذلك أن الفصل بين النطاقين هو الضمان لإحكام السيطرة على إدارة كل واحد منهما فى حدوده المعينة وفى إطار المحسوب.

- والمسألة الثانية خطاب للرئيس أيضًا: لا تقع فى الأخطاء التى وقع فيها «كلينتون» قبلك.. بمعنى أن عليك أن تحتفظ لنفسك بمسافة كافية تبعدك عن التناول المباشر لأزمات الشرق الأوسط وتحميك من التفاصيل وتحفظ للرئاسة مهابتها.

لكنه فيما يتعلق بقضية الخليج تستطيع أن تقترب أكثر بحكم حجم المصالح وخصوصية الأطراف التى تتعامل معها الولايات المتحدة.

[وهنا يظهر معنى الاتصال - الذى سبقت الإشارة إليه - بين بوش الأب وبين الأمير عبد الله ولى عهد السعودية مباشرة، ومن أثره أن الأمير عبدالله عرف مبكرا وتفهم أن الرئيس الجديد (الابن) ليس مستعدا بعد لموسم زيارات الربيع التى يتسابق إليها أمراء ورؤساء المنطقة على طرق السفر إلى واشنطن.

....

....

[وهكذا فإنه لم يكن فى برنامج الأمير عبد الله زيارة لواشنطن تحدد موعدها ثم تأجل غضبا أو احتجاجا، وإنما كان هناك من البداية وعلى مستوى البيت الأبيض اتفاق على موعد متفق عليه يحل لاحقا إلى خريف قادم ٢٠٠١ أو ربيع ٢٠٠٢].

....

....

وتتضح هنا نتيجة واضحة لها مقدمات جلية ومؤداها أن التعامل مع النطاق الإستراتيجى للخليج وما حوله هو اختصاص يقوم عليه البيت الأبيض، لأن تفاعلات هذا النطاق - خصوصا إذا غاب عنها تأثير نطاق فلسطين وما حولها - تفاعلات محكومة ومضبوطة . وليس من المحتم أن يقوم الرئيس بنفسه بالتعامل مع نطاق الخليج - فالاحتفاظ له فى كل الأحوال بمسافة عازلة مطلب قائم ودائم - وإنما يمكن من البيت الأبيض - من البيت الأبيض باستمرار - أن يقوم بالاتصال «ديك تشينى» نائب الرئيس، كما يمكن أن يساعد فيه وزير الدفاع «دونالد رمسفيلد» لأن قوات الخليج - وهى الضامن الأول والأخير لأمن الخليج - فى دائرة اختصاصه وتحت سلطته المباشرة.

أما فيما يتعلق بالنطاق الإستراتيجى الآخر «وهو فلسطين وما حولها» فهو نطاق يستحسن التعامل معه من بعيد، وفى كل الأحوال من خارج البيت الأبيض أى من وزارة الخارجية أو إدارة المخابرات المركزية حسب ما تقتضيه الظروف. وعلى أرض الواقع فإن وزارة الخارجية لها سفير دائم مكلف بنقل الرسائل بين الأطراف، كما أن وكالة المخابرات المركزية قائمة على ترتيبات فاعلة ومؤثرة!

□

يدخل صلب التقرير بعد ذلك مباشرة مقترحا على الرئيس توصيات يأخذ بها فى سياساته وقراراته.

■ التوصية الأولى:

« عليك » أن تمنع نشوب حرب إقليمية فى الشرق الأوسط.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى :

- عليك أن تؤكد طول الوقت أهمية تحالفنا الإستراتيجى غير المكتوب مع إسرائيل وحتى يفهم الجميع بغير التباس أن القوة الأمريكية غالبة وأن إسرائيل «شريك» إستراتيجى لنا.
- عليك أن تستغل وتستعمل الدول العربية المعتدلة (خصوصا مصر والأردن والمغرب والسعودية) وذلك لتشجيع طرح مبادرات وعرض صيغ تُبقى عملية التسوية مفتوحة طول الوقت.
- عليك أن تواجه المعارضين لسياستنا - الحاليين والمحتملين - بسياسة رادعة . وهنا فعليك أن تتأكد أن سوريا - تحت قيادة بشار الأسد - تدرك أن تشجيعها لعمليات حزب الله سوف تستثير ردود فعل ضرورية تعرض سوريا لضربات إسرائيلية موجعة.

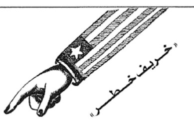
وفى هذا المجال فإن عليك أيضًا إفهام بغداد بأن اقترابها أو تدخلها فى الصراع العربى - الإسرائيلى لا يمكن السماح به. وأن الولايات المتحدة ترقب محاولات العراق لتخويف و ابتزاز الأردن، كما لا يستطيع العراق أن ينتهز فرصة زيادة التوتر فى فلسطين ويجرب القيام بعمليات تعزيز سلطته فى مناطق الأكراد.

- عليك أن تطلب وفورا توقف أعمال العنف بين الفلسطينيين وإسرائيل وعليك أن تجعل الطرفين (!) يدركان دون التباس أن «الالتزام بمسيرة السلام» هو وحده المبرر الذى يبقى الولايات المتحدة طرفا فيها وإذا لم يتأكد ذلك فإن كل طرف عليه أن يتحمل عواقب تهاونه (فى وقف العنف) وعقوبة تأخره فى العودة إلى مائدة المفاوضات (بغير تضييع للوقت).

■ التوصية الثانية:

« عليك » أن تعيد تقييم تجربة المفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين بما فى ذلك تجربة «أوسلو» حتى تتضح خطواتك نحو التسوية وتبين أمامك.. وسائلك إلى تحقيق ذلك على النحو التالى:

- عليك أن تقرر - بعد استكشاف مواقف الإسرائيليين والفلسطينيين - إذا كانت الجهود التى بذلت فى الأسابيع الأخيرة من إدارة كلينتون وتحت إشرافه تستطيع توفير أساس تقوم فوقه إضافات ترتفع به إلى المستوى اللازم - أم أن ذلك الجهد كان مضيعة للوقت وبالتالى تفض يدك منه ومن نتائجه.



● عليك أن تقرر هدفا لتدخل إدارتك فى هذه الأزمة فإما أن تختار البحث عن حل دائم - أو تكتفى بسياسة خطوة خطوة مرة أخرى.

● عليك أن تقوم بتحذير الطرفين من قيام أى منهما بعمل منفرد أو التهديد بعمل منفرد ولابد أن يعرف الفلسطينيون دون أدنى شك أنك لن تقبل إعلان قيام دولة فلسطينية من طرف واحد - كما أنه لابد أن يعرف الإسرائيليون أنك لن تقبل بعملية فصل كامل بين الشعبين.

● عليك أن توضح أمام كل من الطرفين أن الولايات المتحدة ليست لها مصالح ملحة تريد ضمانها من توصل الطرفين إلى تسوية - وإذا تم فصل نطاق الخليج عن النطاق الفلسطينى الإسرائيلى - فإن مصالح الولايات المتحدة فى التسوية النهائية بينهما محدودة وكل ما تريد الولايات المتحدة تحقيقه هو وضع نهاية للصراع تبقى الأماكن المقدسة هناك مفتوحة لأتباع كل الأديان. وليس لإدارتك أن تقدم أية «مقترحات أمريكية» لحل عقد مستعصية وإن كان بمقدورها أن تفعل ذلك بشرطين :

١- أن يطلب الطرفان تدخلها بتقديم صيغة حل .

٢- وأن يتعهد كلاهما بقبول الصيغة التى تقدمها.

● عليك إعلام الطرفين بكل الوسائل أن التفاوض هو مسئولية الاثنين وحدهما وأن إدارتك مع استعدادها لأن تتابع عملية التفاوض ليست مستعدة لأن تكون طرفا فيها.

وفى كل الأحوال فإنك بهيبة الرئاسة لا تستطيع أن تتدخل فى مثل هذه المفاوضات ومن الأفضل :

١- ترك المهمة لوزارة الخارجية.

٢- تفعيل دور وكالة المخابرات المركزية.

٣- موقفك بصفة عامة : اقترب من الأزمة عند الضرورة ولكن لا تأخذها فى أحضانك مهما كانت الظروف!

■ التوصية الثالثة:

تستطيع السماح لأطراف دولية غير الولايات المتحدة ببذل جهود لتخفيف حدة التوتر فى الإقليم.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى :

● عليك أن تتعاون فى هذا الصدد مع الأمم المتحدة والاتحاد الأوربى ويكون طلبك من الجميع أن يعملوا بجد على استعادة الهدوء فى الإقليم دون أن يتجاوز أى طرف من هذه الأطراف الدولية ويسمح لنفسه بالتدخل فى عملية التفاوض المباشر.

● عليك دفع الدول الإقليمية الموالية لك - وخصوصا مصر وتركيا - للوصول إلى العالم العربى والعالم الإسلامى وتخفيف أية احتقانات تحصل سواء لدى الشعوب أو لدى القادة.

● عليك أن تجعل مقاومة التحريض بين أولويات مطالبك، وهنا فإنه لابد من التأثير - بأى طرق تراها - فى الرأى العام العربى والإسلامى، ومن المهم تشجيع الحوار على كل المستويات بين الإسرائيليين وبين العرب والمسلمين.

● عليك أن تعمل على استئناف المفاوضات المتعددة الأطراف، فمثل هذه المؤتمرات تساعد عملية السلام أو تخفف التركيز عليها (أى تنتقل من السياسة إلى الاقتصاد ومن لغة الإثارة إلى لغة المصالح).

● عليك أن تتشاور مع الدول المنتجة للنفط لكى تقدم بعض المساعدات للاقتصاد الفلسطينى، ولفت نظرهم إلى أن ارتفاع أسعار البترول يجعل مثل هذه المساعدة بلا تكلفة زائدة ، ثم إن مثل هذه المساعدة تستطيع تغطية انسحاب دول النفط سياسيا من تعقيدات الأزمة (فى فلسطين).

■ التوصية الرابعة:

« عليك » أن تهتم بمثلث سوريا - لبنان - إسرائيل، وتشجيع عملية «تغيير» فى سوريا ولبنان تفتح الباب لمفاوضات قد ترى أنك تستطيع توجيهها.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى :

● عليك تقوية إمكانيات الردع الإسرائيلى لأن ذلك وحده هو ضمان تحجيم إمكانيات حزب الله فى شن هجمات صاروخية على شمال إسرائيل. ومن المهم إبلاغ كل الأطراف باعتقادك أن إسرائيل تملك مشروعية الدفاع عن نفسها بالوسائل التى تقدرها ومن الضرورى أن تدرك سوريا - نقلا عنك مباشرة - أنها سوف تصاب بأضرار جسيمة إذا سمحت بتحويل مواقع الحدود الإسرائيلية - اللبنانية إلى منطقة عمليات عسكرية. وهنا فلا تشجع إسرائيل على استهداف المدنيين عند قيامها بعمليات الردع العسكرى.

● عليك تأييد موقف السكرتير العام للأمم المتحدة فى اعتبار أن الانسحاب الإسرائيلى من جنوب لبنان هو وفاء من جانبها بشروط قرار مجلس الأمن ٤٢٥. ولابد للبنان أن يعرف أنك تربط بين أى مساعدات أو استثمارات لإعادة إعمار لبنان بشرط انتشار الجيش اللبنانى على الحدود مع إسرائيل والبدء فى نفس الوقت بنزع سلاح حزب الله.

● عليك استكشاف الفرص المتاحة فى سوريا . جرب إذا كان فى مقدور الرئيس السورى بشار الأسد أن يقوم بجهد فى تحسين علاقاته مع الولايات المتحدة. معيار قياسك لحسن نواياه هو الطريقة التى يتصرف بها إزاء لبنان وإزاء قضية الإرهاب (حزب الله!).

● عليك أن تتحرك بنشاط أكثر فى لبنان وذلك عن طريق تشجيع مطالبة اللبنانيين بحرية أكبر ، وذلك لفك القبضة السورية عن الشئون اللبنانية. وتستطيع أن تقنع الحكومة اللبنانية بأن تأخرها فى إرسال جيشها إلى حدودها الجنوبية - سوف يفرض عليك أن تعيد توجيه المساعدات الأمريكية للبنان.. لا تقدم مساعدات للجيش اللبنانى.. وجه مساعداتك إلى دعم النواحى الإنسانية ومنها منظمات حقوق الإنسان والهيئات العلمية والمدنية وأى نشاط لمؤسسات المجتمع المدنى فى لبنان!

■ التوصية الخامسة:

عليك أن تمنع تواجد أسلحة متقدمة بما فى ذلك أسلحة الدمار الشامل فى ترسانات دول المنطقة، وعليك أن تحول دون انتشار هذه الأسلحة وبالتأكيد دون استخدامها.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى:

● عليك إيجاد توافق دولى إقليمى على منع انتشار أسلحة الدمار الشامل، وليكن ذلك عن طريق التفاوض والتفتيش وغير ذلك من الوسائل الضرورية لبناء الثقة.

● عليك أن تكون متأهبا للرد بقوة على أية مخالفة، ولابد أن تكون مستعدا على سبيل المثال لاستخدام قوة عسكرية طاغية ضد العراق إذا حاول إعادة بناء ترسانته العسكرية. ومن الأفضل أن ترتب لمثل هذا الاحتمال عن طريق الأمم المتحدة - أو عن طريق تحالف حرب الخليج السابق، وإذا استحال ذلك فعليك أن تكون جاهزا للعمل مع عدد قليل من الأصدقاء يدركون الخطر العراقى، ويتابعون خططه فى مجالات الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية.

● عليك ردع إيران عن امتلاك أية أسلحة متقدمة، والمهم فى حالة إيران أن تكون اجراءاتك ضد القيادة الإيرانية وبدون تأثير على الشعب الإيرانى (لأن إيران حليف قوى إذا سقط نظام الثورة الإسلامية).

● عليك تشجيع فكرة إقامة نظام دفاعى صاروخى تقوم عليه الولايات المتحدة بالشراكة مع بعض الأطراف فى المنطقة، ولتكن البداية بمجموعة دول مجلس التعاون الخليجى، وبعد ذلك تنضم الأردن ومصر وتركيا، وعندما تتهيأ الظروف تنضم إسرائيل. ولذلك فمن المهم تشجيع تركيا والأردن وغيرهما من الدول الصديقة فى المنطقة على استعمال الصاروخ أرو (الذى تنتجه إسرائيل بالتعاون مع الولايات المتحدة).

■ التوصية السادسة:

عليك أن تبذل كل الجهود لمقاومة الإرهاب، فهذا هو الخطر الأكبر فى المنطقة ذاتها ومنها إلى غيرها.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى:

● عليك أن تدرس قصص النجاح التى شهدتها المنطقة فى مجال مقاومة الإرهاب، وأهمها تجربة تركيا فى التعامل مع حزب العمال الكردى، وتجربة مصر فى التعامل مع الجماعة الإسلامية.

● عليك أن تعمل على عزل ميدان العمليات الإرهابية وخطرها عن مجرى عملية السلام وتقلباتها، وعليك أن تجعل الأطراف - خصوصا الأردن والسلطة الفلسطينية - يدركون أن السماح بصلة بين عمليات الإرهاب وعملية السلام سوف يكلفهم غاليا، وأول التكلفة أن يخسروا صداقة الولايات المتحدة.

● عليك تشجيع أوسع لتعاون دولى وإقليمى ممكن لمواجهة خطر الإرهاب خصوصا من شبكات التطرف الإسلامى. تدّخل بدور نشيط فى مقاومة الإرهاب بواسطة التنسيق بين أجهزة المخابرات، وشجع على تبادل المعلومات سرا لأن هناك دوائر فى العالم العربى والإسلامى على استعداد للتعاون، لكنها لا تريد لأحد أن يسمع ما تقول أو يرى ما تفعل. لاحظ وجود مكامن للإرهاب فى إيران وباكستان واليمن وأفغانستان. ولك أن تتذكر أن فى أوربا دولا قادرة على مساعدتك فى هذا المجال.

● عليك تقدير وسائلك فى العمل المباشر ضد الإرهاب دون أن تتردد لأى اعتبار، وعلى سبيل المثال فنحن نعرف أن بعض مدبرى

سياسة
بوش فى
إطار «مناطق»
وليست فى
«حدود دول»

الشرق الأوسط انفتح لخيارات العولمة ولكن بلدانه لم تستطع الاستفادة من الجانب الإيجابي

انفجار الخبر (فى السعودية) موجودون فى إيران. لا تتردد فى إعلان عزمك على استخدام القوة ضد معاقل الإرهاب أينما كانت ـ وأعط لعزمك مصداقية فعلك!

■ التوصية السابعة:

عليك أن تكون مستعدا للقيام «بإجراءات نهائية» ضد القوى التى تهدد المصالح الأمريكية فى المنطقة، وأولها العراق وإيران.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى:

● عليك تشجيع التغيير فى إيران وفى العراق، وعليك أن تلاحظ أن التغيير فى إيران يمكن أن يتم بوسائل سياسية، وأما التغيير فى العراق فلا يمكن أن يتم بوسائل سياسية. ومعنى ذلك أن التغيير فى إيران يمكن أن يتم من الداخل، وأما التغيير فى العراق فيقتضى دعما من الخارج لثورة بالعنف أو انقلاب من الداخل. ولتسهيل التغيير فى العراق وتقليلا لتكاليف العنف الملازم له يستحسن إشغال صدام حسين وتشتيت انتباهه على أكثر من جبهة واحدة.

● عليك تقدير ردود فعلك العسكرى مبكرا إزاء أى تطور يحدث فى العراق:

ـ فى حالة قيام تمرد ضد النظام فى بغداد.

ـ فى حالة تعرض صدام حسين للكيانات ذات الاستقلال المحلى فى المناطق الكردية شمال العراق.

ـ فى حالة رفض صدام حسين نهائيا محاولات إعادة الرقابة والتفتيش على برامج تسليح العراق.

وفى كافة هذه الحالات ليس هناك ما يمنع من أن يكون صدام حسين على علم برد فعل الولايات المتحدة وتصرفها إزاء كل حالة ، ويجرى ذلك بالتوازى مع إعادة بناء إمكانية مالية وعسكرية وتكنولوجية لقوى المعارضة العراقية، على أن تكون هذه القوى على علم أكيد بحجم الدعم الذى يمكن أن تقدمه لها الولايات المتحدة فى كل ما تقوم به من أجل نظام ديمقراطى فى عراق ما بعد صدام حسين.

● عليك أن تشجع المعتدلين فى إيران ضد المتطرفين، وأن تصل من وراء الاثنين مباشرة إلى الشعب الإيرانى: شجع السياحة بين إيران والغرب ـ شجع القطاع الخاص فى إيران ـ ابحث عن قنوات لحوار مع القوى الديمقراطية فى إيران.

■ التوصية الثامنة:

بصرف النظر عن الموجة المعادية لأمريكا ـ وهى تجتاح المنطقة الآن ـ فإن عليك أن تعزز التيارات والمواقع الموالية للسياسة الأمريكية.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى:

● عليك أن تتأكد باستمرار من أنه ليس هناك «تآكل» ـ حتى بالتواكل ـ فى علاقاتك فى المنطقة.

● عليك أن تشجع عملية واسعة للتعريف بالقيم الأمريكية والديمقراطية الأمريكية والممارسة السياسية فى أمريكا.

● عليك أن تعمل على ظهور قيادات جديدة صديقة لأمريكا وقادرة على إجراء إصلاحات توفر لها (لهذه القيادات) شرعية مقبولة.

● عليك تشجيع الاتجاه نحو الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان، وفى هذا الميدان فإن عليك أن «تفكر بجرأة وتتصرف فى حذر» لأن عملك فى هذه المجالات يمكن أن يخلق حساسيات تعطل جهودك. ركز على مصر باعتبارها أكبر دولة عربية. ركز على السلطة الفلسطينية لأن قضية فلسطين موجودة فى كل بلد عربى، وهناك احتمالات واسعة لتطورات ديمقراطية مهمة فى «عصر ما بعد عرفات»!

....

....

[تلفت النظر فى هذا الموقع من تقرير المجموعة الرئاسية للشرق الأوسط عبارة «عصر ما بعد عرفات».

وتلك إشارة مبكرة أو متأخرة إلى نقاش طويل دار فى واشنطن أثناء الزيارة الأخيرة التى قام بها رئيس الوزراء الإسرائيلى «آرييل شارون» إلى واشنطن. وكانت هذه الزيارة فى أعقاب التفجير الكبير فى ملهى ليلى إسرائيلى قرب تل أبيب (قتل فيه ١٦ وجرح ٤٩ إسرائيليا)، وأبدى «شارون» عزمه على توجيه ضربة قاصمة للسلطة الفلسطينية تكسر أو تنهى وجودها فى غزة.

وطرح «شارون» ـ ضمن ما طرح ـ اقتراحا بتصفية «ياسر عرفات» أو طرده من غزة وكان رأى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ـ وكان مديرها «جورج تنيت» يشارك فى النقاش «إن التفكير فى تصفية «عرفات» ـ على الأقل فى الظروف الراهنة ـ خطر مؤكد ذلك أنه إذا تمت تصفيته جسديا فذلك يحوله إلى شهيد تحارب أعلامه حتى بعد موته، وإذا جرى طرده من غزة بالقوة فذلك سوف يحوله إلى بطل يلتف حوله الجميع حتى فى المنفى. وكان تقدير «تنيت» أن «عرفات» ما زال له دور يؤديه ولا داعى «لحرق المراحل» بتصرفات متسرعة وغير مضمونة.

وكان تقدير «تنيت» بعد ذلك أنه عندما تنشأ ضرورة «عصر ما بعد عرفات» فإنه من الأفضل إزاحة الرجل دون عنف مع إبقاء السلطة الفلسطينية كجهة يمكن التعامل معها ولو فى مطالب ضبط الأمن. وبالتالى فلابد من إيجاد «بديل لعرفات» يقبل بالمهمة ويستعد لها وبحيث يبدو «عصر ما بعد عرفات» نوعا من التغيير الطوعى الفلسطينى وليس نوعا من التغيير القسرى الإسرائيلى (طرح أحد مسئولى المخابرات المركزية ثلاثة أسماء يمكن اختيار أحدهم مرشحا لمسئولية «عصر ما بعد عرفات») ثم عادت المناقشة إلى سياقها باقتراح أنه عندما تجىء ساعة «عصر ما بعد عرفات» فإن هذا العصر يمكن أن يبدأ بقدر معقول من حسن السياسة وحسن الإدارة وذلك أمر له سابقة فى السياسة العربية من قبل وهى سابقة يمكن تقليدها حتى مع اختلاف الظروف.

وكانت السابقة التى وقعت الإشارة إليها فى هذا النقاش فى واشنطن ـ أثناء زيارة «شارون» ـ هى ما جرى مع الرئيس «جعفر نميرى» عندما قام فى السودان انقلاب عسكرى عليه أثناء غيابه عن الخرطوم ما بين أمريكا وأوربا، تاركا مسئولية الأمن معلقة بثقته فى ولاء الفريق «سوار الذهب» . وعندما علم «جعفر نميرى» بأمر الانقلاب سارع بطائرته عائدا إلى بلاده ، ثم عرف عند وصوله إلى القاهرة أن نائبه الفريق «سوار الذهب» انضم إلى الانقلابيين، وبدا أن ذلك زاده إصرارا على مواصلة السفر إلى الخرطوم لينتقم من الجميع: الانقلابيين و«سوار الذهب»، لكن جعفر نميرى تلقى فى مطار القاهرة من الرئيس «حسنى مبارك» وعلى امتداد ساعتين فى استراحة الرئيس «نصيحة ودية» تطرح عليه «أفضلية البقاء فى القاهرة » وتجنيب السودان وجيشه محنة انقسام مؤكد إذا أصر على مواصلة السفر إلى الخرطوم بطلب الانتقام.

وكان الرأى فى مناقشات واشنطن أن هذه السابقة يمكن «تقليدها» مع «عرفات» كما سبق مع «نميرى». وبالتالى فإن عصر «ما بعدعرفات» له أن يبدأ من «نصيحة ودية» بدلا من عنف قد يكون دمويا وقد ينتج عنه دون مبرر شهيد أو بطل فى حين أن «نميرى» تحول بعد سنوات من المنفى فى القاهرة من «مُطالب بالانتقام» إلى «مُطالب بالعفو»!].

....

....

وتتوالى توصيات المجموعة الرئاسية موجهة نصائحها للرئيس «جورج بوش» (الابن).

■ التوصية التاسعة:

«عليك» أن تهتم بتقوية قواعد ووسائل عملك فى الشرق الأوسط لمواجهة أية احتمالات تنشأ دون أن يفاجئك منها شىء.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى:

● عليك أن تعرف أن إسرائيل هى الركيزة الأولى لضمان أمن الإقليم، والتحالف الأمريكى مع إسرائيل بالفعل وبالقول هو القاعدة المتينة لكل الخطط والسياسات، والحقيقة فإن قوة الشراكة بين البلدين هى أداة الفعل الرئيسية فى المنطقة، ولابد أن تكون العلاقة بين الطرفين (الأمريكى والإسرائيلى) نظيفة من أى سبب للتوتر.

● عليك ـ للاستفادة القصوى من هذه الحقيقة الاستراتيجية ـ أن تكفل لإسرائيل «تفوقا نوعيا» متجددا طول الوقت على كل الأطراف العربية، وهنا فإن عليك أن تقاوم وترفض بشدة كل محاولة من جانب أى طرف عربى يطلب أو يسعى للتساوى مع إسرائيل.

● عليك أن تساعد مصر حتى تقوم بمسئوليتها القيادية فى إطار سياستك، لكن إذا ترددت مصر فى القيام بهذه المسئوليات ـ بما فى ذلك المبادرات الإقليمية الاقتصادية التى تشمل إسرائيل ـ ثم تذرعت فى ذلك بتعثر عملية السلام، فإن عليك أن تتخذ ما تراه لازما. وعليك أن تُذكر كل من يعنيه الأمر أن مصر وإسرائيل تحصلان على أكبر قدر من المساعدات الخارجية الأمريكية.

● عليك أن تبذل جهدك لتأييد وتسريع عملية التطبيع بين الأردن وإسرائيل، وإقناع الأردن أن ذلك أفضل ضمان له سياسيا واقتصاديا، وحذر الأردن من غواية تصورها أنها تستطيع مغازلة أو مهادنة صدام حسين ـ ذلك سوف يضر بسلامة الأردن واعتداله.

● عليك أن تشجع تركيا على القيام بدور رئيسى فى المنطقة مع إفهامها بطريقة واضحة أنها لا تستطيع أن تمارس هذا الدور، ولا أن تحقق نتائجه السياسية والاقتصادية إلا بالتعاون مع إسرائيل. ■

الولايات المتحدة تعودت أن تعطى «رخص سماح» لبعض أصدقائها تمكنهم من مهاجمة سياستها خطابيا لإرضاء جماهيرهم وهذه ازدواجية لها عواقب خطيرة





«٤»

فى انتظار حمامة!

■■ بقى ملحق مختصر أضيف إلى توصيات اللجنة الرئاسية، وقد جاء نتيجة لزيارة اللحظة الأخيرة (يونية ٢٠٠١) - وإضافة اللمسة الأخيرة للتقرير قبل وضعه على مكتب الرئيس.

وملخص الملحق يقول لبوش:

- ليست هناك على الأفق فى الظروف الراهنة فرصة لحل دائم.

- ليس هناك أى سبب للقلق على أمن إسرائيل.

- ليس هناك أمل كبير يمكن تعليقه على مقترحات تتردد هذه الأيام عن وقف إطلاق نار، وعن مراقبين على مواقع مراقبة، وعن ترتيبات من نوع وقف الاستيطان لأنه ليس بين المسئولين فى إسرائيل من يريد أن يسمع عن مثل هذه الترتيبات أو يكررها قولا - مجرد قول - على لسانه.

- الممكن هو «إدارة» أزمة الصراع العربى الإسرائيلى وليس حله.

- إدارة الأزمة مهمة ثقيلة لكنها ليست خطرة طالما أمكن تحقيق المطالب الرئيسية فى صلب تقرير اللجنة الرئاسية (الفصل فى منطقة الشرق الأوسط بين نطاق البترول «سريع الاشتعال»، ونطاق الصراع العربى الإسرائيلى «القابل للانفجار» - ثم التركيز على الدول المعتدلة «الموالية للغرب» على حافة الصراع العربى الإسرائيلى «مصر والأردن»).

- من الممكن أيضًا اتخاذ مجموعة من الإجراءات تكفل تخفيض درجة العنف وبينها تخفيض عدد قوات الأمن الفلسطينى من مستواها الحالى، وهو ٤٠ ألفا إلى أقل من النصف ١٨ ألفا طبقا لما جرت مناقشته أثناء اجتماعات «واى ريفر» - ونزع كل سلاح غير مرخص به فى مناطق السلطة الفلسطينية - وأخيرا ترك القوة الإسرائيلية تكسر «القاعدة الأساسية» التى يستند إليها نشاط منظمات الإرهاب الفلسطينى.

....

....

[كانت اتفاقية «أوسلو» بالفعل تحدد عدد قوات الأمن الفلسطينى بما لا يزيد على ١٨ ألف فرد، لكنه عندما دخلت السلطة الفلسطينية إلى قطاع غزة بدا أن هناك توترات بين القادمين من المنفى فى تونس وبين الذين أقاموا فى قطاع غزة طول الوقت تحت الاحتلال وفى مقاومته.

وفى لحظة من اللحظات ظهرت إمكانية صدام مسلح بين حركة «فتح» وبين حركة «حماس»، ووقتها قامت إسرائيل بإبلاغ السلطة أنها لن تمانع إذا هى تجاوزت حد المسموح به فى أفراد الأمن.. وعلى هذا الأساس ارتفع سقف قوات الأمن الفلسطينى من ١٨ ألفا إلى ٢٥ ألفا، ثم ارتفع مرة ثانية إلى ٣٦ ألفا، ثم وصل فى النهاية إلى ٤٢ ألفا.

وعندما لم تحدث الحرب الأهلية المنتظرة والمطلوبة بين الفلسطينيين وبالتحديد بالاقتتال بين «فتح» و«حماس» - راحت إسرائيل تطلب تخفيض قوات الأمن الفلسطينى إلى الحد المتفق عليه. وراحت تدعى أنه تحت رخصة السماح بزيادة أفراد الأمن فى ظرف معين - فإن السلطة الفلسطينية انتهزت الفرصة وأدخلت سلاحا أكثر من المسموح به لأفراد زاد عددهم عدة مرات عن السقف المقرر.

وربما أن استهداف قوات الأمن الفلسطينى لضربات إسرائيلية مستمرة فى الأسابيع الأخيرة - يكشف أن إسرائيل تحاول الآن - بقتل المحاربين الفلسطينيين - أن تعوض ما فاتها بالاقتتال بين «فتح» و«حماس».]

....

....

ثم تجىء ملاحظة هامة قرب نهاية ملحق التقرير الرئاسى - يونية ٢٠٠١ - تقول:

«لقد لمسنا لدى المصريين اهتماما يعلق أملا على انتخابات رئاسة حزب العمل المقرر لها ٤ سبتمبر ٢٠٠١ - وأملهم أن هذه الانتخابات قد تأتى برجل معتدل يرأس حزب العمل مثل: «يوسى بيلين» أو «حاييم رامون»، لأنه إذا عاد «الحمائم» إلى قيادة حزب العمل فربما أمكن البدء فى المفاوضات، ورفع الحطام والركام مما عوّق وسد مسيرة السلام.

□

فى النهاية يظهر أن سبتمبر - هذا الشهر - وما يليه - سوف يكون موعدا مشهودا - ذلك أن الرئيس «بوش» قبل أن يتوجه إلى ولاية تكساس - لإجازة شهر كامل - طول أغسطس - حضر فى الأسبوع الأخير من يوليو اجتماعا لمجلس الأمن القومى الأمريكى جرت فيه مناقشات مستفيضة لتقرير المجموعة الرئاسية عن أزمة الشرق الأوسط.

وفى هذا الاجتماع - وطبقا لما أورده «جيم هوجلاند» فى «الواشنطن بوست» (عدد ٩ أغسطس) - فإن الرئيس «چورچ بوش» أبدى فى الاجتماع عدة ملاحظات مجملها:

- أنه فى فترة إجازته سوف يأخذ كل ما لديه من تقارير وتوصيات عن أزمة الشرق الأوسط وسوف يبت فيها ويعود جاهزا بقرار.

- أنه يرفض قبول «تلك الصلة» التى يزعم بعض موظفى الخارجية الأمريكية بوجودها بين قضايا الخليج وبين تعقيدات الصراع العربى الإسرائيلى «بوهم» «وحدة الشارع العربى» - ولذلك فإنه عند عودته من الإجازة فى «تكساس» سوف يعطى نفسه حرية التصرف.

- أنه فى اتصالاته بمن اتصل بهم - من ساسة العالم العربى - سأل الجميع عن تصوراتهم لحل الأزمات المستعصية فى منطقتهم، وقد أثار دهشته أنهم فى أزمة الخليج: طلبوا منه أن ينتظر ويترك للزمن أن يفعل فعله - لكنهم فى أزمة الصراع العربى الإسرائيلى طلبوا منه وألحوا عليه فى استعمال سلطته للضغط على إسرائيل وذلك منطق عجز عن فهمه.

- وهكذا - أخيرا - فإنه سوف يعود فى سبتمبر ليتصرف دون انتظار رأى أو توقع تعاون من ناس لايعرفون كيف يساعدون أنفسهم ثم يطلبون من الآخرين أن يساعدوهم وذلك فى تقديره «ضعف وعجز» لا يسمح لنفسه أن يسايره!

....

....

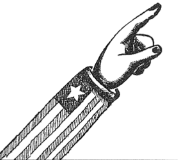
وكذلك فإن المنطقة التى كان صيفها هذا العام حارا - تمشى مرهقة الخطى نحو خريف ملتهب.

ذلك أنه مهما كانت نتائج انتخابات حزب العمل الإسرائيلى - فى سبتمبر الحالى - فإن الأفق الإسرائيلى لايظهر عليه جناح حمامة بيضاء - ثم إن الرئيس الأمريكى العائد من إجازة فى تكساس - اليوم أو غدا - يرجع إلى مكتبه البيضاوى بجناح «صقر» أغبر!

وأما فى العالم العربى فلا أعرف!

على أنه من الإنصاف أن أقول إنه ربما كان أصحاب القرار فى العالم العربى يعرفون - لأن ذلك الدم الذى يسيل على أرض فلسطين فداءً وشهادة يحتاج وراءه إلى ما هو أعز وأكرم من عرقٍ يتصبب خجلاً نتيجة ضعف وعجز رآهما «جورج بوش» قبل إجازته وأثناء إجازته وبعد الإجازة - ثم قرر التصرف كما يشاء دون انتظار ودون اعتبار ■

الخاص والعام فى علاقة الساسة العرب بمن يظنونهم أصدقاءهم فى أمريكا



محاكمة الطغاة

بين عدالة القانون واعتبارات السياسة

شريف بسيونى

بدأ ظهور نظام التنفيذ المباشر للعدالة الجنائية الدولية عن طريق اللجان والمحاكم الدولية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حينما نصت اتفاقية فرساى Versailles على إنشاء محكمة جنائية دولية لمحاكمة قيصر ألمانيا لارتكابه ما يوصف اليوم بجريمة العدوان، كما نصت الاتفاقية على محاكمة من ارتكبوا جرائم حرب وفقا للمفهوم السائد وقتئذ فى العرف الدولى

فكرة إيجاد نظام عدالة جنائية دولية بدأت فى أواسط القرن السابع عشر حينما أثرت القرصنة سلبا على مصالح الدول الملاحية وأمن الملاحة الدولية، وعلى وجه الخصوص بالنسبة لدول أوروبا، إذ كانت الخطوط الملاحية التى تربطها بالقارة الأمريكية شمالا وجنوبا ومجموعة الجزر التى يطلق عليها الآن جزر البحر الكاريبى تمثل أهمية اقتصادية بالنسبة لها.

ومن هنا، انطلق مبدأ الاختصاص الجنائى العالمى الذى يكفل لكل دولة ملاحية الحق فى ملاحقة ومحاكمة ومعاقبة قراصنة البحر على غرار ذات المفهوم السائد فى ذلك الوقت بالنسبة لمرتكبى جرائم قطع الطرق والسرقة فى كل الأنظمة القانونية، إلا أن ذلك المفهوم طبق وقتئذ على القرصنة البحرية فى أعالى البحار فقط، ومن ثم لم يتعرض لسيادة أى دولة، إذ أن أعالى البحار ليست خاضعة لسيادة دولة ما.

وبمرور الوقت، بدأ مفهوم مبدأ الاختصاص الجنائى العالمى فى التوسع، وبصفة خاصة فى أواسط القرن التاسع عشر حينما طبق على تجارة الرقيق، إذ كان الرأى العام قد استقر فى تلك الآونة على أن تجارة الرقيق تعد انتهاكا للقيم الإنسانية المستقرة لدى دول العالم، ومن ثم، كان على المجتمع الدولى أن يتعاون فى مكافحة مثل تلك الأنماط من الجرائم الدولية إما عن طريق سن تشريعات جنائية وطنية ينفذها القضاء الوطنى إذا ما توافرت له شروط الاختصاص الجنائى على الأشخاص، أو عن طريق إنشاء آليات دولية تقوم بذلك الدور.

بناء على ما تقدم، هناك ثلاث نقاط تتناولها هذه المقالة بالشرح، أولاها تحديد ماهية الأفعال التى تعتبر جرائم دولية، ثانيا: دور الدول فى تنفيذ الالتزامات الدولية لمكافحة هذه الجرائم عن طريق النظم القانونية الوطنية بما فى ذلك الاستناد إلى مبدأ الاختصاص العالمى، وأخيرا، تطبيق العدالة الجنائية الدولية عن طريق اللجان والمحاكم الدولية.

١ـ الجرائم الدولية

تتصف الجرائم الدولية بصفتين، أولاهما: أن الفعل يخالف القيم الإنسانية المستقر عليها لدى المجتمع الدولى، أو يسبب ضررا لمصلحة مشتركة للمجتمع الدولى، ثانيا: أن ارتكاب هذه الأفعال قد يسبب خطرا على المجتمع الدولى، أو يخل بالأمن أو السلام الدوليين.

أما عن مصدر الجرائم الدولية، فهى ترد فى اتفاقيات دولية، كما يتضمنها ما يسمى بالعرف الدولى، أى ما استقرت عليه الدول فى معاملاتها، ومن ثم فإن هنالك اتفاقيات دولية تقنن الجرائم الدولية، وهى : القرصنة، والرق وتجارة الرقيق والأعمال الشبيهة، الاتجار بالمخدرات، جرائم الحرب، الجرائم ضد الإنسانية، إبادة الجنس البشرى، اختطاف الطائرات «القرصنة الجوية»، أعمال العنف ضد الطيران المدنى، أعمال العنف ضد رؤساء الدول والأشخاص المحميين دوليا مثل الدبلوماسيين وموظفى المؤسسات والهيئات الدولية مثل الأمم المتحدة، الجرائم ضد سلامة الملاحة المدنية الدولية، احتجاز الرهائن المدنيين لأغراض إرهابية، قطع الكابلات التليفونية عبر البحار، استخدام البريد الدولى لإرسال متفجرات أو مواد مخدرة أو أية أشياء مخلة بالآداب العامة، وأخيرا سرقة الآثار القومية والتراث القومى والاتجار الدولى فيهما. أما عن العرف الدولى، فهو يتضمن جريمة العدوان، وبعض أنماط جرائم الحرب وحظر استخدام بعض الأسلحة المسببة للآلام الجسيمة.

هذه الأنماط من الجرائم مدونة فى أكثر من ٢٧٤ اتفاقية دولية أبرمت خلال الفترة ما بين عام ١٨١٥ وعام ٢٠٠١ حيث عنيت جميعا بالمسئولية الجنائية الفردية، وليس بمسئولية الدولة. فعلى سبيل المثال، هناك أربع اتفاقيات معنية بجرائم الحرب هى اتفاقيات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩. أضيف إليها ملحقان إضافيان عام ١٩٧٧، وفى مجال تجريم المخدرات هناك ١٣ اتفاقية دولية أبرمت خلال الفترة ما بين عام ١٩١٢ وعام ١٩٨٨، بينما هناك ١٩ اتفاقية فى مجال الإرهاب أبرمت ما بين عامى ١٩٦٩ و٢٠٠٠. ويجرى الآن التفاوض حول اتفاقية أخرى خاصة بالعمليات الإرهابية التى قد تستخدم أسلحة نووية. من الملاحظ أن لكل من هذه الجرائم عنصرًا دوليًا، وهو ما يجعلها موضع اهتمام دولى، بيد أنه يتعين ملاحظة أنها نابعة من إرادة الدول وليس من مشرع دولى.



من ناحية أخرى، من الضرورى إدراك أن هذه الاتفاقيات تختلف فيما بينها لكونها نتاج مفاوضات سياسية، فتختلف كل منها عن الأخرى فيما تمنحه للدول المنضمة إليها من اختصاص جنائى تستطيع الدول أن تستند إليه فى قوانينها الوطنية. فنجد على سبيل المثال أن الاتفاقيات الخاصة بتجارة المخدرات تسمح بامتداد الاختصاص الجنائى الوطنى للدولة المنضمة إليها على شخص غير موجود على إقليمها، إذا كانت الجريمة المنسوبة إليه قد بدأ الإعداد لها فى الخارج بقصد تنفيذها داخل إقليم الدولة.

علاوة على ذلك، تتضمن بعض الاتفاقيات الخاصة بالجرائم الدولية، مثل تلك المعنية بجرائم الحرب، حق الدول المنضمة إليها فى تبنى نظرية الاختصاص العالمى، والذى يبيح لتلك الدول مباشرة اختصاصها الجنائى الوطنى على أى شخص موجود على إقليمها، بغض النظر عن مكان ارتكاب الجريمة أو جنسية مرتكبها أو المجنى عليه. بيد أنه يتعين مراعاة اختلاف ذلك عن نظريات أخرى تسمح للدول بمد اختصاصها الجنائى خارج إقليمها، كما هو الحال فيما أوردته المادة الثالثة من قانون العقوبات المصرى من معاقبة المصرى على الجرائم التى يرتكبها خارج مصر، إذا كانت تلك الجرائم معاقبًا عليها فى الداخل.

علاوة على ما تقدم، تستطيع بعض الدول مباشرة اختصاصها الجنائى الوطنى على جريمة ارتكبت خارج إقليمها فى حالة ما إذا كان المجنى عليه من بين رعاياها، إذ إنه فى هذه الحالة يكون للدولة الأولوية فى محاكمة مرتكبى تلك الجرائم ضد مواطنيها، بيد أن هذا النوع من الاختصاص الجنائى لا يعد جزءا من مبدأ الاختصاص العالمى الذى يعطى للدولة الحق فى مباشرة اختصاصها الجنائى على واقعة حدثت خارج إقليمها دونما أية علاقة تربطها بمرتكب الواقعة أو المجنى عليهم، إذ إن منبع ذلك الحق هو واجب التعاون الدولى فى مكافحة بعض الجرائم الدولية بموجب اتفاقيات تعقدها الدول أو وفقا للعرف الدولى.

٢ـ تطبيق العدالة الجنائية الدولية من خلال النظم الوطنية

يتم تطبيق العدالة الجنائية الدولية أولا عن طريق النظم الوطنية التى تعمل على إنفاذ التشريعات الداخلية بما احتوت عليه من جرائم دولية، إذ بذلك تصبح الجريمة الدولية جزءا من القانون الوطنى، وبالتالى تخضع لوسائل التنفيذ الموجودة فى النظام الداخلى، بما فى ذلك العقوبة. خير مثال على ذلك فى مصر ما نص عليه قانون الأحكام العسكرية رقم ٢٥ لسنة ١٩٦٦ من تأثيم جرائم الحرب الواردة فى اتفاقيات جنيف الأربعة باعتبار مصر هى إحدى الدول المصدقة عليها جميعا، فضلا عن تأثيم قانون العقوبات المصرى للعديد من الجرائم الدولية مثل زراعة المخدرات والاتجار فيها، والإرهاب. هذا هو ما يطلق عليه نظام التنفيذ غير المباشر، إذ إن القانون الدولى لا يطبق مباشرة على الأفراد ولكنه يطبق عن طريق الأنظمة القانونية الوطنية، وبالتالى يختلف ذلك عن نظام التنفيذ المباشر والذى يعتمد على إنشاء لجان ومحاكم جنائية دولية

للتحقيق والمحاكمة والمعاقبة، مثل المحكمة الدولية بنورمبرج، والمحكمة الدولية بطوكيو، والمحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة ICTY، والمحكمة الجنائية الدولية لرواندا ICTR، والمحكمة الجنائية الدولية ICC والتى سيرد الحديث عنها تفصيلا لاحقا.

هنا، من الجدير بالذكر أيضا أن النظام الجنائى الوطنى يعتمد على نظريات عديدة تسمح بامتداد الاختصاص الجنائى إلى خارج إقليم الدولة، ومنها نظرية الاختصاص العالمى التى تطبق فقط على بعض الجرائم الدولية المنصوص عليها فى الاتفاقيات الدولية أو العرف الدولى.

٣- اللجان والمحاكم الجنائية الدولية عبر التاريخ الحديث

(أ) مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى: بدأ ظهور نظام التنفيذ المباشر للعدالة الجنائية الدولية عن طريق اللجان والمحاكم الدولية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حينما نصت اتفاقية فرساى Versailles على إنشاء محكمة جنائية دولية لمحاكمة قيصر ألمانيا لارتكابه ما يوصف اليوم بجريمة العدوان، كما نصت الاتفاقية على محاكمة من ارتكبوا جرائم حرب وفقا للمفهوم السائد وقتئذ فى العرف الدولى. بيد أن تلك النصوص لم تطبق، وفشلت المحاولة لأسباب سياسية، إذ لجأ القيصر إلى هولندا فمنحته حق اللجوء السياسى، وتزايد الشعور بالسخط لدى الشعب الألمانى من جراء الاتهامات التى وجهت إلى الضباط الألمان بوصفهم مجرمى حرب دون غيرهم من الحلفاء. ونتيجة لذلك، تغاضى الحلفاء عن إنشاء محكمة جنائية دولية لمحاكمة مجرمى الحرب، وأسندوا محاكمة المتهمين إلى القضاء الألمانى فى ليبزج، مع إسناد مهمة الاتهام إلى النائب العام الألمانى، إلا أنه رفض اعتماد قائمة المتهمين التى أعدها الحلفاء متضمنة أسماء ٨٩٥ من الضباط الألمان واكتفى بمحاكمة ثلاثة وعشرين ضابطا منهم فقط. وفى نهاية المحاكمات، أصدرت المحكمة أحكاما جنائية بالإدانة ضد اثنى عشر ضابطا فقط من هؤلاء، بلغ أقصاها السجن ثلاث سنوات لقائد غواصة ألمانية أمر بتدمير وإغراق باخرة أسترالية كانت تحمل شعار الصليب الأحمر وعلى متنها ستمائة من جرحى الحرب الأستراليين والنيوزيلنديين، ولم يكتف بذلك، بل صعد إلى سطح البحر وأمر بإطلاق نيران المدافع الرشاشة على الناجين منهم فى عرض البحر مما جعل من هذه الجريمة أبشع الصور لجرائم الحرب فى المفهوم البحرى.

وعلى سياق ما تقدم، لعبت المصالح السياسية دورا آخر فى عدم إنشاء محكمة جنائية دولية لمعاقبة الأتراك الذين اتهموا فى عام ١٩١٥ بقتل ما يقرب من مليون أرمنى، إذ كانت تركيا حليفة لألمانيا فى الحرب العالمية الأولى. إن ما نسب للأتراك كان على سند من جريمة دولية جديدة أطلق عليها مصطلح «الجرائم ضد الإنسانية»، أخذا عن ديباجة اتفاقية لاهاى لعام ١٩٠٧ المعنية بتقنين العرف الدولى فى النزاعات المسلحة. استخدم هذا المصطلح لوصف الجرائم التى ارتكبت من قبل مواطنين أتراك ضد مواطنين أتراك أيضا داخل تركيا، إذ إنها كانت تشبه جرائم الحرب، إلا أن العرف الدولى المتفق عليه وقتئذ لم يتضمن ذلك حيث إن جرائم الحرب ترتكب من مقاتلى دولة ضد مقاتلى أو مواطنى دولة أخرى فى حين أن الجرائم ضد الإنسانية تشمل مواطنى الدولة. إلا أن هذه الجريمة المقترحة لم تحز رضاء كل دول الحلفاء، إذ اعترضت الولايات المتحدة الأمريكية واليابان عليها. هنا يتعين إدراك أن حقيقة الأمر تكمن فى أن الحلفاء تغاضوا عن محاكمة الأتراك رغبة فى احتواء الحكومة التركية الجديدة وقتئذ إلى جانب الدول الغربية فى مواجهة الاتحاد السوفيتى الذى تكون فى أعقاب الثورة البلشفية عام ١٩١٧.



مما تقدم يبين أنه لم تنشأ محاكم جنائية دولية بعد الحرب العالمية الأولى خلافا لما ورد فى نصوص اتفاقية Versailles، وبالتالى لم تطبق جريمة العدوان والجرائم ضد الإنسانية، أما عن جرائم الحرب، فلم تشكل لها أية محاكم جنائية دولية، وإنما محاكم وطنية لم تسهم فى تحقيق العدالة شكلا أو موضوعا.

من جماع ما تقدم، يبين بجلاء أن خبرات مرحلة فيما بعد الحرب العالمية الأولى أبرزت التصادم بين العدالة الجنائية الدولية والمصالح السياسية الدولية التى تتمثل فى مصالح الدول العظمى، بيد أن ذلك الصراع امتد فى أعقاب تلك الحرب وحتى يومنا هذا كما سيرد ذلك تفصيلا.

(ب) مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية: سارع الحلفاء الأربعة الكبار إلى توقيع اتفاقية لندن فى الثامن من أغسطس عام ١٩٤٥، والتى انضم إليها فيما بعد تسع عشرة دولة من الحلفاء والدول التى احتلتها ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية. وبموجب تلك الاتفاقية، أنشئت محكمة نورمبرج لمحاكمة كبار المسؤولين، وشكلت من أربعة قضاة وأربعة فرق ادعاء يمثلون الحلفاء الأربعة الكبار.

أما عن الجرائم التى اختصت محكمة نورمبرج بنظرها، فقد نص ميثاق نورمبرج على المعاقبة على ارتكاب الجرائم ضد السلام «العدوان»، جرائم الحرب، والجرائم ضد الإنسانية، وذلك على الرغم من عدم محاكمة أى من مرتكبى العدوان والجرائم ضد الإنسانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى.

أما عن قرار الاتهام، فقد تضمن أربعة وعشرين متهما فقط، حكم على اثنين وعشرين منهم، إذ انتحر أحدهم قبيل بدء المحاكمة وثبت أن آخر مختل عقليا،

محـــاكمة الطغـــاة

اليابان لم تحاكم أيًا من مواطنيها على ارتكاب جـرائم حـرب مثلما فعلت ألمانيا طوال الخمسين عاما التالية على انتهاء الحـرب؛ إذ رفضت تحمل أية مسئولية فى الوقت الذى مازالت فيه ألمانيا تدفع ملايين الدولارات لضحايا الهولوكوست، فبلغ حجم التعويضات الألمانية فى الخمسينيات ثمانمائة مليـون دولار

وتراوحت العقوبات فيما بين الإعدام والسجن خمسة عشر عاما.

أعقبت نورمبرج محاكمات أخرى فى المناطق الأربعة التى كانت تحت سيطرة الحلفاء الأربعة الكبار الذين قسموا ألمانيا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، فحاكمت الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وفرنسا والاتحاد السوفيتى ما يزيد على عشرين ألفا من المتهمين بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، بيد أنه من الجدير بالذكر أن الغالبية العظمى تمت محاكمتهم من قبل الاتحاد السوفيتى، فبلغ عدد من حكم عليهم بالإعدام قرابة العشرة آلاف. وفيما بعد، حاكمت الحكومة الفيدرالية الألمانية أكثر من مائة ألف متهم خلال السنوات الخمسين التالية على الحرب، ولم تزد عقوبات من أدينوا على السجن عشرين عاما.



أما على صعيد الميدان العسكرى الآسيوى، فقد أنشأ الجنرال Mac Arthur القائد العام لقوات الحلفاء فى ذلك الميدان محكمة طوكيو الدولية على غرار محكمة نورمبرج لمعاقبة المتهمين بارتكاب ذات الجرائم المنصوص عليها بميثاق نورمبرج، فضمت المحكمة تسع عشرة دولة من حلفاء الميدان العسكرى الآسيوى، وبلغ عدد قضاتها تسعة عشر قاضيا، بينما تولت هيئة اتهام واحدة مهمة الادعاء أمام هذه المحكمة ضمت فى عضويتها ممثلى الحلفاء جميعا تمكنت من إصدار قرار اتهام ضد ثمانية وعشرين متهما حوكموا جميعا.

أما عن الفارق فى الأسلوب القانونى لإنشاء محكمتى نورمبرج وطوكيو، فيكمن فى أن الجنرال Mac Arthur أراد التحكم فى إنشاء محكمة طوكيو وإجراءاتها لعدم إعطاء الاتحاد السوفيتى فرصة أن يكون له دور فعال فيها، سيما أن الاتحاد السوفيتى لم ينضم للحلفاء فى الميدان العسكرى الآسيوى إلا قبيل نهاية الحرب فى الميدان الآسيوى بثلاثة أسابيع.

وفيما بعد، وعلى غرار ما حدث فى أعقاب محاكمات نورمبرج، قامت دول الحلفاء، مثل الصين واستراليا ونيوزيلندا وفرنسا وهولندا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى بمحاكمة من ألقى القبض عليهم من اليابانيين فى المناطق الواقعة تحت سيطرتها فى آسيا فبلغ عدد الذين تمت محاكمتهم أكثر من خمسة عشر ألف متهم.

هنا، من الجدير بالذكر أن اليابان لم تحاكم أيًا من مواطنيها على ارتكاب جرائم حرب مثلما فعلت ألمانيا طوال الخمسين عاما التالية على انتهاء الحرب، إذ رفضت اليابان تحمل أية مسئولية فى الوقت الذى مازالت فيه ألمانيا تدفع ملايين الدولارات لضحايا الهولوكوست، فبلغ حجم التعويضات الألمانية فى الخمسينيات ثمانمائة مليون دولار، وأخيرا، ونتيجة لضغوط من الولايات المتحدة الأمريكية والمنظمة الصهيونية العالمية، وافقت الصناعات الألمانية فى عام ١٩٩٩ على دفع أكبر تعويض فى تاريخ البشرية، إذ بلغ خمسة مليارات وأربعمائة مليون دولار نتيجة استخدام الرقيق فى الصناعة الألمانية إبان الحرب العالمية الثانية، علما بأن جزءا كبيرا من هذه التعويضات تتحصل عليه إسرائيل بزعم أنها وريثة المجنى عليهم عديمى الورثة.

أما عن اليابان، فعلاوة على عدم قيَامها بمحاكمة أى من مواطنيها المتهمين بارتكاب جرائم حرب، فقد أصرت لدى توقيع اتفاقية السلام مع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٣ بسان فرانسيسكو على عودة أسرى الحرب اليابانيين كافة، وجميع من حوكموا من الأسرى بتهمة ارتكاب جرائم حرب لاستكمال تنفيذ المتبقى من مدة العقوبة فى سجن بمدينة طوكيو، ومن ثم عاد جميع من صدرت ضدهم أحكام جنائية إلى اليابان فى عام ١٩٥٣، فما كان من الحكومة اليابانية إلا أن أطلقت سراحهم فى العام التالى مباشرة، بل الأدهى من ذلك أن عينت الحكومة اليابانية أحد من أدانتهم محكمة طوكيو الدولية وزيرا للخارجية وآخر رئيسا للوزراء فى عام ١٩٥٤. علاوة على ما تقدم، مازالت الحكومة اليابانية ترفض تعويض الباقين على قيد الحياة من ثلاثمائة ألف من النساء من كوريا الجنوبية أجبرتهن القوات اليابانية إبان الحرب العالمية الثانية على العمل فى الدعارة لصالح القوات اليابانية.

من الضرورى إدراك أن من أهم الانتقادات التى وجهت إلى محاكمات نورمبرج وطوكيو أنها كانت محاكمات المنتصرين للمهزومين، إذ لم يحاكم أى من الحلفاء المنتصرين الذين ارتكبوا جرائم حرب، فعلى سبيل المثال، دمر الطيران الأمريكى والبريطانى مدينة دريزدين الألمانية متسببا فى مقتل أكثر من خمسة وثلاثين ألفا من سكانها المدنيين فى ليلة واحدة من جراء قصفها بالقنابل الحارقة. كما أن التاريخ مازال، وسيظل، يذكر مقتل أكثر من مائتى ألف من المدنيين اليابانيين من جراء إلقاء الطيران الأمريكى للقنابل النووية على مدينتى هيروشيما ونجازاكى، إلا أن ذلك لا ينفى أن محاكمات جميع من أدانتهم محكمتا نورمبرج وطوكيو قد اتسمت بنوع من العدالة، إذ إنهم جميعا ارتكبوا ما نسب إليهم من جرائم، ومن ثم فلا ينتقص من شرعية محاكمتهم عدم محاكمة الآخرين ممن ارتكبوا ذات الأفعال، وإن كان ذلك نقصا فى تطبيق مبدأ المساواة أمام العدالة يكمن علاجه فى وجود محكمة جنائية دولية دائمة تتسم بالاستقلال السياسى والمساواة أمام القانون.

(ج) فترة الحرب الباردة وإنشاء محكمتى يوغوسلافيا ورواندا:

بنهاية الحرب العالمية الثانية بدأت هيئة الأمم المتحدة فى محاولة تقنين القانون الجنائى الدولى وتبنى مقترح الجمعية الدولية للقانون الجنائى فى عام ١٩٢٤ بإنشاء محكمة جنائية دولية، إذ طرحت هذه المشروعات أمام لجان خاصة بهيئة الأمم فى السنوات ما بين ١٩٤٦ و١٩٥٤، إلا أن هذه الفترة شهدت بداية الحرب الباردة فتوقفت كل الجهود المعنية بتقنين القانون الجنائى الدولى وإنشاء محكمة جنائية دولية إلى أن انتهت الحرب الباردة بسقوط الاتحاد السوفيتى وحائط برلين عام ١٩٨٩.



تلاحقت الأحداث وشهد المجتمع الدولى ما يزيد على ٢٥١ نزاعا، إما دوليا أو داخليا، ارتكبت خلال الفترة من ١٩٤٥ وحتى عام ٢٠٠٠ فاسفر عن مقتل أكثر من سبعين مليون نسمة، وهو ضعف العدد الذى قتل فى الحربين العالميتين، ومع ذلك فإن معظم من ارتكبوا تلك الفظائع فروا من العدالة دون عقاب. ويرجع السبب فى ذلك إلى أسباب سياسية، ففى بعض الحالات كان من الضرورى لإيقاف الحرب التفاوض مع الزعماء الذين ارتكبوا جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية وإبادة الجنس البشرى، وبالتالى كان من الضرورى إعطاؤهم حصانة ـ إما قانونية أو فعلية ـ من المحاكمة فيما بعد. وفى حالات أخرى، كانت العلة وراء ذلك هى ضرورة التوفيق بين الأطراف المتصارعة لإعادة السلام. ونتيجة لتلك الاعتبارات، وعلى الرغم من تأثيم تلك الجرائم فى القانون الجنائى الدولى والقوانين الداخلية للدول التى ارتكبت فيها، فقد تمكن من تسببوا فى تلك الفظائع من تفادى أية مسؤولية جنائية، دولية كانت أم وطنية، إذ حالت تلك الاعتبارات السياسية بين تحمل هؤلاء للمسئولية الجنائية والعقاب. فعلى سبيل المثال، قامت فئة سياسية فى كمبوديا تتبنى نظرية شيوعية متطرفة بقتل مليون نسمة فى الفترة ما بين عامى ١٩٧٥ و١٩٨٥، وفى باكستان، قتلت القوات الباكستانية ما يربو على المليون نسمة من مواطنى بنجلاديش حينما طالبوا بالاستقلال عام ١٩٧٣، وفى الخمسينيات، قتل الاتحاد السوفيتى أكثر من عشرين مليون نسمة كجزء من حملة التطهير السياسى الذى أمر به ستالين، فضلا عن العديد



من النزاعات الأخرى التى أسفرت عن وقوع عدد أقل من الضحايا مثل النزاعات التى حدثت فى كل من السلفادور وجواتيمالا ولبنان، والأمثلة كثيرة، بيد أن الضحايا وعائلاتهم يتساءلون عن سبب عدم محاكمة مرتكبى تلك الفظائع؟

ومن هنا عادت فكرة إنشاء محكمة جنائية دولية إلى الظهور مرة ثانية، لاسيما فى ظل الانتهاكات الجسيمة والتطور الخطير للأحداث التى شهدتها يوغوسلافيا السابقة بدءا منذ عام ١٩٩١، ونتيجة لما حدث فى هذا النزاع، أصدر مجلس الأمن فى ٦ أكتوبر عام ١٩٩٢ القرار رقم ٧٨٠ بإنشاء لجنة خبراء خاصة كان لى شرف رئاستها ـ بصفتى مصريا ـ عنيت بالتحقيق وجمع الأدلة حول المخالفات الجسيمة لمعاهدات جنيف والانتهاكات الأخرى للقانون الدولى الإنسانى فى الصراع الدائر آنذاك بيوغوسلافيا السابقة. وبمطالعة تاريخ اللجنة وأعمالها يتبين بوضوح أنها كانت مفعمة بتأثير إنسانى وقانونى، فقد عرف القرار ٧٨٠ ما كلفت به لجنة الخبراء بما يلى:

«طلب مجلس الأمن من الأمين العام وبصفة عاجلة تشكيل لجنة محايدة من الخبراء تكون مهمتها تقييم وتحليل المعلومات المقدمة على أثر القرار ٧٧١ لسنة ١٩٩٢ والقرار الماثل، وللجنة الخبراء تنفيذاً للقرار ٧٧١ لسنة ١٩٩٢ جمع معلومات أخرى من خلال تحرياتها أو غيرها من الأشخاص أو الكيانات من أجل تقديم تقرير نهائى للسكرتير العام حول المخالفات الجسيمة لمعاهدات جنيف والانتهاكات الأخرى للقانون الدولى الإنسانى والتى ارتكبت فى أراضى يوغوسلافيا السابقة».

وعلى الرغم من ذلك القرار الشامل، فقد واجهت اللجنة صعوبات شديدة نتيجة لعدم تلقيها دعمًا ماليًا من هيئة الأمم المتحدة للقيام بمهامها، إذ كانت المحاولات السياسية المستمرة لإيجاد حل سياسى لإنهاء النزاع تتعارض مع مهمة اللجنة فى الكشف عن حقيقة النزاع والانتهاكات الجسيمة التى شهدتها. ونتيجة لذلك، وضعت المصاعب الإدارية والمالية فى طريق اللجنة بهدف إعاقة أعمالها، وعدم إتاحة الفرصة لى ـ كرئيس للجنة ـ للقيام بما أسند إلى من مجلس الأمن، إلا أن يد العدالة كانت الأقوى إذ استطعت التغلب على تلك المصاعب، وتحصلت على الموارد المالية اللازمة لعمل اللجنة، وجمعت ما يزيد على ٣٠٠ متطوع ومنتدب من بعض الحكومات من ضباط القضاء العسكرى والقضاة المدنيين والأطباء وأخصائيى الطب الشرعى والمحامين وغيرهم. ونتيجة لذلك، قامت اللجنة بخمس وثلاثين حملة ميدانية تضمنت الكشف عن مائة وإحدى وخمسين مقبرة جماعية تراوح عدد الجثث فى كل منها ما بين الخمس جثث والثلاثة آلاف، فبلغ إجمالى عدد القتلى ما يقرب من المائتى ألف، كما قامت اللجنة بإجراء أكبر تحقيق دولى حول جريمة الاغتصاب أسفر عن الكشف عما يقرب من العشرين ألف حالة اغتصاب لامرأة وفتاة أغلبهن من مسلمى البوسنة.

وبنهاية عمل اللجنة، توافرت أدلة دامغة على أن الجرائم التى ارتكبت ما كان يتسنى لها أن تتم بدون ضلوع بعض القيادات السياسية والعسكرية فيها، وعلى رأسهم ميلوسوفيتش وكاراديتش رئيس جمهورية بوسنا الصربية، ومالديتش قائد القوات الصربية فى البوسنة، الأمر الذى بدت من خلاله أعمال اللجنة وكأنها تهديد للمفاوضات السياسية حيث إنه من الممكن تجاهل الاتهامات الواردة بالتقارير الإعلامية حيال مسئولية مرتكبى جرائم «التطهير العرقى» و«الاغتصاب المنظم»

وغيرهما من الانتهاكات المنظمة للقانون الإنساني الدولي، إلا أن إقامة الدليل على تلك الاتهامات كان هو الخطر السياسي الحقيقي، مما أدى إلى ضرورة إنهاء أعمال تلك اللجنة مع محاولة تفادى تلك النتائج.

وبعد عامين كاملين من التحقيقات وجمع الأدلة، أعدت اللجنة تقريرا ختاميا بلغ عدد صفحاته ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة، أرفق بها خمسة وستون ألف مستند، بالإضافة إلى ثلاثمائة ساعة تصوير فيديو، وثلاثة آلاف صورة فوتوغرافية، مما جعله الأطول فى تاريخ مجلس الأمن.



كان من أهم ما انتهت إليه اللجنة فى تقريرها هو التأكيد على استخدام القوات الصربية لسياسة التطهير العرقى والاغتصاب المنظم فى جميع أنحاء البوسنة وكرواتيا خلال فترة زمنية تجاوزت العام ونصف العام فى كرواتيا بينما قاربت على العامين ونصف العام فى البوسنة، وذلك باتباع خطة وضعت سلفا طبقت من خلال سياسة واسعة النطاق وعلى أسس منهجية فى أكثر من ثلاثة آلاف مدينة وقرية ونجع. وقد تم تسليم كل هذه المعلومات والأدلة إلى المدعى العام للمحكمة فى أغسطس ١٩٩٤.

وبناء على ذلك التقرير، وعملا بتوصية لجنة الخبراء، أصدر مجلس الأمن فى ٢٢ فبراير ١٩٩٣ قراره رقم ٨٠٨ بإنشاء محكمة جنائية دولية لمحاكمة الأشخاص المسئولين عن الانتهاكات الجسيمة للقانون الإنسانى الدولى التى ارتكبت فى أراضى يوغوسلافيا السابقة منذ عام ١٩٩١، وقد تطلب القرار ٨٠٨ أن يعد الأمين العام تقريراً حول إنشاء المحكمة الجنائية الدولية الخاصة خلال ستين يوماً. وتنفيذاً لذلك القرار قدم الأمين العام تقريراً تضمن مشروع النظام الأساسى للمحكمة وتعليقات على مواد النظام الأساسى.

وعلى اثر ذلك، وإعمالا لسلطات مجلس الأمن المخولة له بموجب الباب السابع من ميثاق هيئة الأمم المتحدة، والتى لم يسبق تفسيرها سلفا وفقا لذلك المفهوم، أصدر المجلس القرار رقم ٨٢٧ بإنشاء المحكمة مقرا لمشروع الأمين العام بدون تعديل، ومن ثم دخلت المحكمة حيز التنفيذ فى ٢٥ مايو ١٩٩٣ بمقرها فى لاهاى بهولندا.

وقد نصت المادة الأولى من النظام الأساسى للمحكمة على أن من سلطاتها محاكمة الأشخاص المسئولين عن الانتهاكات الجسيمة للقانون الإنسانى الدولى والتى ارتكبت فى يوغوسلافيا السابقة منذ عام ١٩٩١، بما يتلاءم مع نصوص النظام الأساسى الحالى، ومن ثم اختصت المحكمة بنظر الجرائم ضد الإنسانية وجرائم إبادة الجنس البشرى وجرائم الحرب، كما نص النظام الأساسى أيضاً على المسئولية الجنائية الفردية بما فى ذلك مسؤولية رئيس الدولة بالنسبة لبعض الانتهاكات المحددة والتى ارتكبت خلال الاختصاص المؤقت للمحكمة وتلك الجرائم هى الانتهاكات الجسيمة لمعاهدات جنيف عام ١٩٤٩، وانتهاك قوانين أو أعراف الحرب، الإبادة الجماعية، والجرائم ضد الإنسانية.

أما من حيث اختصاص المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة، فقد جاء على خلاف اختصاص محكمتى نورمبرج وطوكيو، واللتين اقتصر اختصاصهما على بعض مجرمى الحرب، إذ امتد اختصاص محكمة يوغوسلافيا لمعاقبة كل من ينتهك القانون الإنسانى الدولى بغض النظر عن انتمائه لأى من أطراف النزاع.

هنا يتعين الإشارة إلى أن تبعية محكمة يوغوسلافيا لمجلس الأمن لاينال فى حد ذاته

محاكمة الطغاة

من أهم الانتقادات التى وجهت إلى محاكمات نورمبرج وطوكيو أنها كانت محاكمات المنتصرين للمهزومين، إذ لم يحاكم أى من الحلفاء المنتصرين الذين ارتكبوا جرائم حرب

من استقلال المحكمة، إذ نصت المادة ١٦ من النظام الأساسى على استقلالية الادعاء فى هذه المحكمة على الرغم من كونه معيناً من قبل مجلس الأمن، وفى الواقع فقد ابتعدت المحكمة عن مجلس الأمن من خلال إدارتها التابعة لمكتب الشئون القانونية لسكرتارية الأمم المتحدة، بينما خضعت أعمالها الداخلية لقواعد العمل الإدارى والمالى بالأمم المتحدة، ومن ثم، لم يقم مجلس الأمن بتمويل المحكمة وإنما تقوم الجمعية العامة بذلك من خلال ميزانيتها العادية.

كان التراخى فى تعيين المدعى العام للمحكمة مؤشرا سياسيا آخر، إذ كان الأمين العام للأمم المتحدة قد رشحنى فى عام ١٩٩٣ لشغل منصب المدعى العام نظرا لإلمامى بكافة جوانب النزاع، إلا أن بريطانيا اعترضت على ذلك، وصدر مقال افتتاحى بصحيفة New York Times الأمريكية نسبت فيه إلى مصدر عال ببعثة المملكة المتحدة لدى هيئة الأمم أن سبب الاعتراض على ترشيحى هو أننى مسلم. وبالطبع، لا يمكن التصور أن يقال ذلك عن أى مرشح من ديانة أخرى دون أن تترتب على ذلك احتجاجات صارخة، بيد أن الأمر اقتصر فى هذه الحالة على احتجاج قدمه السيد عمرو موسى وزير خارجية مصر آنذاك فى اجتماع دول المؤتمر الإسلامى، وانضم إليه فيه العديد من ممثلى الدول الإسلامية. وبعرض الترشيح على مجلس الأمن، أسفر التصويت على ذلك القرار عن موافقة سبع دول واعتراض سبع أخرى وامتناع دولة واحدة فلم تتم الموافقة على الترشيح واستمرت المفاوضات أربعة عشر شهرًا إلى أن رشحت الولايات المتحدة الأمريكية ريتشارد جولدستون، فوافقت الدول الأعضاء بمجلس الأمن عليه. من ناحية أخرى، فعلى الرغم من أن القرار رقم ٨٢٧ كان قد نص على أن تقوم لجنة الخبراء بمواصلة عملها حتى يتم تعيين مدع عام، إلا أنه تم إنهاء أعمال لجنة الخبراء مبكراً بموجب قرار إدارى صدر فى ٣٠ أبريل ١٩٩٤، بينما لم يتم تعيين المدعى العام إلا فى ١٥ يوليو ١٩٩٤ على الرغم مما قد يسببه التباطؤ البيروقراطى من قطع الصلات بين لجنة الخبراء والمدعى العام الذى كان

مطالباً بالبدء فوراً فى تحقيقاته مع تأجيل أى قرارات اتهام، إلا أنه نتيجة لما قدمته من تعاون - بصفتى رئيسا للجنة - للمدعى العام، استطاع الأخير فى خلال أشهر قليلة من توليه منصبه أن يباشر مهامه عمله.

هنا، من الجدير بالذكر أن ميلوسوفيتش لم يقدم إلى محكمة يوغوسلافيا إلا مؤخرا، إذ كان من الضرورى الإبقاء عليه لتوقيع اتفاق السلام الذى وقع فى Dayton، واستمر الحال على ما هو عليه حتى أعاد ميلوسوفيتش الكرة مرة أخرى بأن كرر ما فعله فى البوسنة فى كوسفو، بيد أنه اتهم هذه المرة بارتكاب جرائم التطهير العرقى فى كوسفو فقط، واستمر فى الحكم ضاربا بهذا الاتهام عرض الحائط حتى تم تغيير نظام الحكم فى صربيا، فتم تسليمه إلى المحكمة، وحتى الآن لم تصدر المحكمة قرار الاتهام ضده. وهنا يتساءل البعض عما إذا كان عدم معاقبته على ما ارتكبه فى كرواتيا والبوسنة هو مقابل توقيعه على اتفاق السلام فى Dayton؟



أما عن الأحداث فى رواندا، فقد اتبع مجلس الأمن ذات الأسلوب الذى اتبعه فى معالجة الأحداث التى ارتكبت فى يوغوسلافيا السابقة، إذ إن صراع التوتسى والهوتو أسفر عن مصرع مئات الآلاف فى غضون أشهر قلائل مما دفع مجلس الأمن إلى تبنى القرار رقم ٩٣٥ فى يوليو ١٩٩٤، والمعنى بإنشاء لجنة الخبراء للتحقيق فى الانتهاكات الخطيرة للقانون الدولى الإنسانى إبان الحرب الأهلية فى رواندا، بما فى ذلك جرائم الإبادة الجماعية والإبلاغ عنها للسكرتير العام للأمم المتحدة، بيد أن هذه اللجنة باشرت أعمالها لمدة ثلاثة أشهر فقط، فكانت تلك المدة غير كافية لكى تقوم اللجنة بالمهام المسندة إليها على الوجه الأكمل.

وقد عمل مجلس الأمن جاهداً على ألا تتبع لجنة رواندا ذات النهج الذى سارت عليه لجنة خبراء يوغوسلافيا، فتم تكليف لجنة رواندا بمهام محددة عليها أن تنتهى منها خلال ثلاثة أشهر فقط، وبدون التحقيق فى أية ادعاءات محددة، ومن ثم أمضت لجنة الثلاثة أشهر أسبوعا واحدا فى موقع الأحداث دونما تحقيقات، وفى النهاية جاء تقريرها النهائى، والذى قدم فى ٩ ديسمبر ١٩٩٤، مكونا من سبع وثلاثين ورقة فقط حرر على غرار التقرير النهائى للجنة خبراء يوغوسلافيا، إلا أنه افتقد دقة وعمق الأخير، إذ جاء مبنياً على تقارير أصدرتها آليات أخرى وتقارير الصحف ووسائل الإعلام.

وبناء على ذلك التقرير، أصدر مجلس الأمن قراره رقم ٩٥٥ متضمنا النظام الأساسى لمحكمة رواندا، والذى جاء على غرار النظام الأساسى للمحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة، فنص على أن تكون مدينة أروشا بتنزانيا مقرا للمحكمة نظرا لصعوبة إقامتها برواندا، كما نص على اختصاصها بنظر المخالفات التى وقعت خلال الفترة من ١ يناير ١٩٩٤ وحتى ٣١ ديسمبر ١٩٩٤.

هنا، من الجدير بالذكر أن محكمتى رواندا ويوغوسلافيا تقاسمتا ذات المدعى العام وذات الدائرة الاستئنافية، وهو ما يعتبر تركيبة غريبة لمحكمتين منفصلتين تم إنشاؤهما كل على حدة بمعرفة مجلس الأمن من خلال قرارين منفصلين، إذ إن الولايات المتحدة - والتى كانت وراء تلك التركيبة - أرادت أن تتفادى التأخر فى اختيار المدعى العام كما كان عليه الحال فى المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة، كما كان السبب الوحيد وراء اشتراك المحكمتين فى دائرة استئناف واحدة هو توفير النفقات، بيد أن اختيار مدع عام واحد لكلتا المحكمتين كان اختياراً غير موفق، نظراً لأنه من غير الممكن لأى شخص - بغض النظر عن مدى كفاءته - مراقبة عمل مكتبى ادعاء رئيسيين يفصل بينهما ١٠,٠٠٠ ميل، حيث إن مجرد فكرة انتقاله فيما بين لاهاى فى هولندا وأروشا فى تنزانيا لأداء عمله المعتاد يعتبر أمرا غير منطقى.

أما من حيث مكان انعقاد المحكمة، فلقد كان قرار إنشاء المحكمة فى دولة أخرى حدثاً غير مسبوق تطلب عقد اتفاق بين الأمم المتحدة وتنزانيا، تستضيف الأخيرة بموجبه المحكمة، وهو الأمر الذى استغرق وقتاً للوصول إلى قرار بات فيه، إذ إن أغلب المدعى عليهم والشهود كان يتعين عليهم الحضور من رواندا، علاوة على أن مدينة أروشا Arusha لم تكن بالمكان المثالى لإقامة المحكمة، ومن ثم اضطرت الأمم المتحدة إلى إنشاء البنية اللازمة للمحكمة بدءاً من لا شيء فى ظل ظروف قاسية.

هنا، يتعين إدراك أن محكمة يوغوسلافيا كانت أسعد حظا وحالا بصفة عامة من محكمة رواندا، إذ حازت الأولى درجة كبيرة من الاهتمام والعناية، كما خصص لها ضعف الموارد المالية التى خصصت لمحكمة رواندا. وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن بسياسة تتبعها هيئة الأمم المتحدة، إلا أن ازدواجية المعايير لعبت دورا هاما بالنسبة لهاتين المحكمتين حيث إن إحداهما أوروبية والأخرى أفريقية، وهو الأمر الذى يبين بجلاء لمن يتتبع ما يحدث فى المحكمتين، وما ينتج من عملهما، وما تراقبه وسائل الإعلام الدولية.

٤ـ النزاعات الأخرى

هناك العديد من النزاعات التى أسفرت عن وقوع الكثير من الضحايا على أيدى مرتكبى جرائم دولية، إلا أنه لم يشكل لأى منها لجان تقص للحقائق أو محاكم دولية خاصة. ففى نزاع ليبيريا خلال العقد الماضى لقى أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة حتفهم، كما لقى ثلاثمائة ألف آخرين حتفهم فى نزاع سيراليون، واستخدمت سياسة

محاكمة الطغاة

أصدر مجلس الأمن في ٦ أكتوبر عام ١٩٩٢ القرار رقم ٧٨٠ بإنشاء لجنة خبراء خاصة كان لي شرف رئاستها - بصفتي مصريا - عنيت بالتحقيق وجمع الأدلة حول المخالفات الجسيمة لمعاهدات جنيف والانتهاكات الأخرى للقانون الدولي الإنساني في الصراع الدائر آنذاك بيوغوسلافيا السابقة

الاغتصاب وقطع أيدي وأرجل الأطفال بهدف منعهم من المشاركة في أعمال القتال في المستقبل. أما في كمبوديا، فقد قتل فيها مليون نسمة خلال الأعوام ما بين ١٩٧٥ و ١٩٨٥، فأنشئت محكمة وطنية في الشهر الماضي من المقرر أن يشارك فيها بعض القضاة الأجانب، وسيقتصر اختصاصها على بعض الحالات معظمها ممن عارضوا الحكومة الحالية. أما في الأرجنتين، ففي محاولة لإظهار الاهتمام بالعدالة عقب مقتل ثلاثين ألف نسمة، حوكم سبعة ضباط في أعقاب تغيير النظام العسكري فيها، بيد أن قانونا بالعفو على غيرهم صدر عقب ذلك. أما في شيلي، فقد أصر الجنرال أوجستو بينوشيه قبل قبوله التنحي عن الحكم العسكري على إصدار قانون بالعفو، فما كان من أسبانيا إلا أن طلبت من بريطانيا تسليمه لها في عام ١٩٩٩ عملا بمبدأ الاختصاص العالمي، بيد أن الأخيرة رفضت وأعادته إلى شيلي حيث وجد نفسه أمام قرار اتهام لم يؤخذ فيه بقانون العفو.

هنا، لابد من إدراك أن تلك القوانين الخاصة بالعفو لا شرعية لها، إذ أنها مخالفة للقانون الجنائي الدولي الذي لا يعترف بالعفو والتقادم بالنسبة لجرائم الحرب وإبادة الجنس البشري والجرائم ضد الإنسانية والتعذيب، كما أنها تخالف مفهوم العدالة في الأنظمة القانونية الوطنية كافة.




وهكذا تسير العدالة الجنائية الدولية، انتقائية وخاضعة للاعتبارات والمواءمات السياسية، إذ لم يحاكم أحد في إسرائيل عن الانتهاكات اليومية ضد الشعب الفلسطيني منذ عام ١٩٤٨، ولم يحاكم شارون عما ارتكبه من جرائم في صابرا وشاتيلا، أو قتل المصريين أسرى الحرب في حرب ١٩٥٦ وغيرها، بيد أن ذلك الصراع بين العدالة الجنائية الدولية والاعتبارات السياسية مازال قائما، وسيستمر سنوات طوالا إلى أن تتحقق العدالة وتصل إلى مسارها الطبيعي.

الحاجة إلى محكمة جنائية دولية

أبرزت الخبرات السابقة لمحاكم أو لجان دولية خاصة حاجة المجتمع الدولي إلى نظام دائم للعدالة الجنائية الدولية. إذ إن تلك المحاكم كانت مخصصة لمتهمين محددين في نزاعات محددة، ومن ثم أثارت تلك المحاكم وقوانينها وعقوباتها تساؤلات جوهرية حول مدى اتفاقها مع مبادئ الشرعية والاعتبارات العامة الأخرى للعدالة، إذ شعر البعض عقب الحرب العالمية الثانية بان الحلفاء يطبقون قانوناً خاصاً لأنفسهم وقانوناً آخر للمهزومين، فاطلق على محاكمات أوروبا والشرق الأقصى «انتقام المنتصرين». علاوة على ذلك، فإن إنشاء مجلس الأمن لمحكمتي يوغوسلافيا ورواندا قد أثار بعض علامات الاستفهام حول الدوافع السياسية لإنشاء مثل تلك المحاكم لتلك النزاعات في الوقت الذي كان العالم يشهد فيه نزاعات عديدة أخرى في مختلف أنحاء العالم لم تنشأ لها لجان تحقيق أو محاكم، وهو ما وصف عقب ذلك بالانتقائية في إنشاء محاكم خاصة لنزاعات دون نزاعات أخرى.

أما عن أهمية وجود آلية جنائية دولية، فمثل هذه الآلية الدائمة من شأنها أن تغني عن إنشاء محاكم خاصة كلما اقتضت الحاجة إلى ذلك، إذ إن قرار إنشاء تلك المحاكم يستغرق وقتاً طويلاً لإقراره، مما يؤدي إلى صعوبة الحصول على أدلة الجرائم وتبدد الرغبة السياسية لإجراء تلك المحاكمات، فضلا عما يكتنف قرار إنشاء المحكمة واختيار المدعي العام والقضاة من اعتبارات سياسية قد لا تخدم العدالة.

ومن هنا، بدأ الرأي العام العالمي ينادي بضرورة إنشاء نظام عدالة جنائية دولية عادلة وناجزة إذ إنه لم يعد من المقبول بعد ذلك أن تكون الحصانة هي المكافأة التي ينالها أولئك الذين يرتكبون أفظع الجرائم الدولية وانتهاكات حقوق الإنسان، فبالإضافة إلى العديد من أولئك الذين أفلتوا من المحاكم الخاصة والتي أنشئت عقب بعض النزاعات الدولية فإن هناك مجرمين آخرين لم يمثلوا أمام العدالة لما ارتكبوه من جرائم في منازعات داخلية عديدة.

وإدراكا لما تقدم، قامت لجنة القانون الدولي بتطوير تفويض الجمعية العامة لها في عام ١٩٨٩ بالنظر في تشكيل محكمة جنائية دولية خاصة بالتجارة غير المشروعة في المخدرات إلى ما أطلق عليه «مشروع النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية»، والذي تضمن جرائم أخرى، إذ كان مقتبسا من مشروع نظام أساسي للمحكمة الجنائية الدولية لمحاكمة مرتكبي جريمة التمييز العنصري في جنوب أفريقيا قمت بوضعه في عام ١٩٨٠ بتكليف من لجنة حقوق الإنسان بهيئة الأمم. وبناء على ذلك المشروع، وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على أن تقوم اللجنة الخاصة بالنظر في إنشاء المحكمة الجنائية الدولية عام ١٩٩٥، ثم تلتها اللجنة التحضيرية لإنشاء المحكمة الجنائية الدولية، وقد انتخبت نائبا للرئيس فيهما بصفتي ممثلا لمصر.

وفي أبريل ١٩٩٨ انتهت بالفعل اللجنة التحضيرية من أعمالها، وتم إقرار مشروع إنشاء المحكمة الجنائية الدولية تمهيداً لمناقشته في المؤتمر الدبلوماسي بروما الذي تقرر انعقاده بروما في الفترة ما بين ١٥ يونيو إلى ١٧ يوليو ١٩٩٨.

في ١٥ يونيو ١٩٩٨ قام الأمين العام للأمم المتحدة ورئيس جمهورية إيطاليا بافتتاح أعمال المؤتمر بمقر منظمة الزراعة العالمية بروما، والذي حضره ممثلو ١٦٠ دولة و١٧ منظمة حكومية و٢٣٨ منظمة غير حكومية، وفي تلك الجلسة تم انتخاب وزير العدل الإيطالي السابق جوفاني كونسو رئيساً للمؤتمر، والسفير فيليب كيرش مدير الإدارة القانونية بوزارة الخارجية الكندية رئيساً للجنة الجامعة، كما تم انتخابي رئيساً للجنة الصياغة.

ضمت لجنة الصياغة في عضويتها خمسا وعشرين دولة كان من بينهما سوريا ولبنان والسودان بالإضافة إلى الدول الخمسة الأعضاء الدائمين بمجلس الأمن، وقد استطاعت اللجنة من خلال عمل متواصل لمدة خمسة أسابيع كاملة استمر حتى اللحظات الأخيرة من عمر المؤتمر أن تتوصل إلى مائة وعشر مواد تتضمن تلك التي تنص على إنشاء المحكمة والجزء العام والأجزاء الإجرائية وضوابط التعاون الدولي والنظامين الداخلي والقضائي للمحكمة، فضلاً عن علاقة المحكمة بهيئة الأمم المتحدة والنصوص النهائية التي تتضمنها تقليديا المعاهدات الدولية متعددة الأطراف، بيد أن أروع لحظات المؤتمر، وما سبقه من إعداد وتحضير، تلك التي أعلن فيها في ١٧ يوليو آخر أيام المؤتمر نتيجة التصويت لصالح إنشاء المحكمة إذ أيدت ١٢٠ دولة إنشاء المحكمة بينما امتنعت ٢١ دولة عن التصويت، واعترضت سبع دول فقط على إنشائها من بينها الولايات المتحدة الأمريكية.

استمر ذلك التأييد الدولي للمحكمة حتى اليوم التالي ١٨ يوليو إذ سارعت ٢٦ دولة (من بينهما فرنسا وكندا وألمانيا وهولندا وإسبانيا) في اليوم الأول لافتتاح الاتفاقية للتوقيع عليها من قبل الحكومات بالتوقيع عليها معلنين تأييدهم المباشر وانضمامهم لها، وحتى كتابة هذه السطور، أصبح عدد الدول التي صدقت على نظام روما الأساسي سبعا وثلاثين دولة بعد أن قامت هولندا بالتصديق في السابع عشر من يوليو ٢٠٠١، فضلا عن أن هناك أكثر من ثلاثين دولة بصدد اتخاذ إجراءات التصديق.

من الضروري إدراك أن هذه المحكمة قائمة على خمسة مبادئ أساسية، أولها: أنها نظام قضائي دولي نشأ بعزيمة الدول الأطراف المنضمة إلى الاتفاقية المنشئة للمحكمة، ثانيا : أن اختصاص المحكمة سيكون اختصاصا مستقبليا فقط، وليس من الوارد إعماله بأثر رجعي. ثالثا : أن اختصاص المحكمة مكمل للاختصاص القضائي الوطني. رابعا: أن ذلك الاختصاص يقتصر على ثلاث جرائم فقط هي إبادة الجنس البشري، الجرائم ضد الإنسانية، وجرائم الحرب. خامسا: أن المسئولية المعاقب عليها هي المسئولية الفردية فقط.

ولقد كانت مسألة علاقة المحكمة بهيئة الأمم المتحدة من النقاط الحيوية التي أثارت بعض الخلافات. إلا أنه قد بات جلياً أن هذه المحكمة منشأة بموجب تلك الاتفاقية الدولية وليست جزءا من هيئة الأمم ولكنها سوف ترتبط بها باتفاقية خاصة ستبرم بعد أن تدخل الاتفاقية المنشئة للمحكمة حيز التنفيذ، وسيكون ذلك بعد التصديق على الاتفاقية من قبل ٦٠ دولة، وهو الأمر المتوقع حدوثه قبل حلول عام ٢٠٠٣.

كان من ضمن المقترحات المصرية التي انضمت إليها دول عدم الانحياز ودول المجموعة العربية ألا يكون لمجلس الأمن سيطرة على المحكمة، وقد أحرز ذلك الموقف نجاحاً حينما استقر الرأي على أن يكون لمجلس الأمن مجرد صلاحيتين، الأولى : أن يكون له حق تقديم حالة إلى المحكمة مثله مثل أية دولة أخرى منضمة للاتفاقية، على ألا تكون هذه الإحالة ضد أشخاص معينين أو مقصورة على ظروف خاصة، ولكن يكتفي بالإشارة إلى حالة ما أو ما قد يحدث في أية منطقة. والصلاحية الثانية : أنه لمجلس الأمن أن يطلب إرجاء نظر دعوى ما لمدة اثني عشر شهرًا إذا كان المجلس ينظر في موضوع يعتبر مخلاً بالسلام والأمن الدولي بموجب البند السابع من ميثاق هيئة الأمم الذي يعطي للمجلس هذه الصلاحية.

أما من حيث الطبيعة القانونية للمحكمة، فهي نظام قضائي مكمل للاختصاص الجنائي الوطني، إذ إن الأولوية دائما تكون للنظم القضائية الوطنية، ولا ينتقل الاختصاص للمحكمة الجنائية الدولية إلا في حالتين فقط وردتا على سبيل الحصر، أولاهما: إذا ما تسبب النزاع في انهيار النظام القضائي الداخلي كما كان الوضع في يوغوسلافيا ورواندا، وثانيتهما: حينما يرفض أي نظام وطني القيام بدوره القضائي، أو يعجز عن القيام به نتيجة لظروف غير عادية، مثل عدم وجود استقلال قضائي أو وجود تدخل من السلطة التنفيذية قد يمنع القضاء من القيام بدوره. ومع ذلك يتحتم بموجب الاتفاقية أن يقدم المدعي العام طلب التحويل إلى غرفة الشؤون الإدارية ويعلن الدولة المعنية به حتى يتسنى لها الاعتراض على ذلك، ثم تنظر الغرفة الطلب وتصدر قرارها. وللدولة المعنية أن تستأنف ذلك القرار أمام غرفة الاستئناف التي تنظره ثم تصدر قرارها.

كان من بين النقاط أيضا التي أثارت خلافا تلك المتعلقة بصلاحيات المدعي العام، فهل له أن يبدأ التحقيق من تلقاء نفسه كما هو الأمر في النظم القانونية الداخلية؟ اعترض العديد من الدول على ذلك خوفاً من سوء استغلال تلك الصلاحية، أو استخدامها من قبل المنظمات غير الحكومية التي ترغب في إحراج بعض الدول. إلا أن الرأي استقر في النهاية على إعطاء هذه الصلاحية للمدعي العام مع وجود رقابة قضائية على سلطته في ذلك تتمثل في نوعين الأول : أنه على المدعي العام الحصول على إذن من غرفة الشئون الابتدائية التي تتكون من

محاكمة الطغاة

ثلاثة قضاة قبل البدء فى التحقيق، وتحدد الغرفة مهلة زمنية لذلك الإذن، أما الثانى: فهو أنه لا يستطيع أن يصدر قرار الاتهام، وإنما تصدره غرفة الشئون الابتدائية التى تعمل فى هذا الصدد بمثابة غرفة الاتهام، وذلك بناء على طلب يقدمه المدعى العام مصحوبا بالأدلة المتوافرة لديه. ومن ثم يتضح أن هذين النوعين من الرقابة القضائية يضمنان عدم تعسف المدعى العام فى سلطاته بما يؤكد نزاهة الادعاء الجنائى فى المحكمة. وفى كل الأحوال، للشخص استئناف قرار الاتهام أمام غرفة مكونة من خمسة قضاة.

أما عن الجرائم التى دخلت فى اختصاص المحكمة حتى الآن فهى ثلاث جرائم: جريمة إبادة الجنس البشرى، الجرائم ضد الإنسانية، وجرائم الحرب. هنا، من الجدير بالذكر أن عددا من الدول بينها ألمانيا، إيطاليا، ومصر قد طالبوا بإدراج جريمة العدوان ضمن الجرائم الواردة فى اختصاص المحكمة، وأيدهم فى ذلك العديد من الدول الأخرى، بيد أنه نظراً لمطالبة غالبية الدول بأن لا يكون لمجلس الأمن دور فى تقرير وجود حالة عدوان من عدمه - على خلاف ما ورد بالبند السابع من ميثاق هيئة الأمم من حق المجلس فى تقرير وجود حالة عدوان - فلم يكن من الممكن التوفيق بين الدول الراغبة فى عدم إيجاد دور لمجلس الأمن فى تقرير حدوث حالة عدوان والدول التى كانت تؤكد دور مجلس الأمن فى هذا التقدير. وفى النهاية أدرج بالنظام الأساسى نص خاص جاء به أن تعريف جريمة العدوان سيتم الاتفاق عليه لاحقاً فى مؤتمر لمراجعة هذا الموضوع تنص عليه الاتفاقية بعد ٧ سنوات من دخولها حيز التنفيذ، وبالتالى سيعلق تطبيق جريمة العدوان إلى حين تعريفها. وبهذا الحل التوفيقى أنصفت الدول التى كانت ترغب فى إدراجها ضمن الجرائم المعاقب عليها بموجب اختصاص المحكمة ولكن علق التعريف والتطبيق إلى فترة زمنية مقبلة.

أما عن جرائم الحرب فتندرج فى اختصاص المحكمة سواء ارتكبت فى نزاعات دولية أم غير إقليمية وفقا لما أوردته اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ والملحقان الإضافيان لعام ١٩٧٧، والتى صدقت عليها جميعا معظم الدول ومن بينها مصر.



أما عن الجرائم ضد الإنسانية، فهى تتكون من ثلاثة عناصر، الأول: أنها ترتكب من قبل الدولة كسياسة تتبعها، الثانى : أن تمارس الدولة أفعالاً تكون مبنية على اضطهاد فئة معينة من المجتمع، والثالث : أن تكون تلك الممارسات تتم بصفة مستمرة ومنظمة وعلى نطاق واسع من قبل الدولة.

أما جريمة إبادة الجنس البشرى فقد تبنى نظام روما الأساسى التعريف الخاص بها فى اتفاقية الأمم المتحدة لمنع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها لعام ١٩٤٨، والتى صدقت مصر عليها عام ١٩٥٢، ومن ثم لم يثر بشأنها أى خلاف.

أما عن التعاون القضائى فيما بين المحكمة والدول الأطراف، فقد كانت المحكمة الجنائية الدولية مكملة للنظم الجنائية الوطنية إذ إنها أنشئت بموجب اتفاقية دولية تصدق عليها الدول الأطراف، ومن ثم يصبح النظام الأساسى للمحكمة جزءا من القانون الوطنى، وتنفذ أحكامها فى الإقليم الداخلى من خلاله، كما أن لكل دولة الحرية فى إبرام اتفاقية ثنائية خاصة مع المحكمة لقبول المحكوم عليهم فى سجونها. العلاقة بين المحكمة والدول ليست علاقة دولة أجنبية ذات سيادة وإنما علاقة منظمة دولية نشأت بعزيمة الدول الأطراف فى المعاهدة. أما فى حالة إذا ما رفضت دولة ما

كان الأمين العام للأمم المتحدة قد رشحنى عام ١٩٩٣ لشغل المنصب، إلا أن بريطانيا اعترضت، وذكر مصدر عال ببعثتها لدى هيئة الأمم أن سبب الاعتراض هو أننى مسلم. ولا يمكن تصور أن يقال ذلك عن أى مرشح من ديانة أخرى دون أن تترتب على ذلك احتجاجات صارخة

التعاون مع المحكمة بأن رفضت تسليم متهم، فمن حق مجلس الدول الأطراف أن يتخذ قرارا بتجميد عضوية تلك الدولة فى المحكمة.

أما عن الجزء الخاص بالإجراءات الجنائية أمام المحكمة، فقد جمع نظام روما الأساسى بين الأنظمة القانونية المختلفة فى العالم مراعاة لما ورد فى الاتفاقيات الدولية الخاصة بحماية حقوق المتهم وحقوق الضحايا. ومن الجدير بالذكر أن مصر كانت من بين الدول التى اقترحت منح المجنى عليهم الحق فى التعويض، وتم إدراج ذلك فى النظام الأساسى. أما فيما يختص بالعقوبات فإن أقصى عقوبة هى السجن مدى الحياة، وتترك الاتفاقية لكل دولة حق تطبيق عقوبة الإعدام بموجب أنظمتها القانونية الداخلية فى حالة ما إذا حاكمت أى شخص متهم بارتكاب جريمة من الجرائم التى تدخل فى اختصاص المحكمة.

أما عن ميزانية المحكمة فقد تقرر أن يتم تمويلها لمدة خمس سنوات من ميزانية الجمعية العامة ثم تتحمل الدول الأطراف عقب ذلك عبء تمويل المحكمة التى سوف تتخذ من لاهاى بهولندا مقراً لها.

أما عن التشكيل القضائى للمحكمة فتتكون من سبعة عشر قاضيا يتم انتخابهم بواسطة مجلس الدول الأطراف من بين من ترشحهم الدول الأطراف فى المحكمة، ويشترط أن يكون المرشح من أعلى الدرجات القضائية ولا تقل خبرته فى ذلك المجال عن خمسة عشر عاماً، أو أن يكون أستاذا جامعيا ذا خبرة عالية فى مجال القانون الجنائى الدولى.

تتكون المحكمة من غرفتين للشئون الابتدائية لكل منهما ثلاثة قضاة، وغرفتى محاكمة لكل منهما ثلاثة قضاة وغرفة استئناف مكونة من خمسة قضاة، ويقوم مجلس الدول الأطراف بإجراء قرعة بين القضاة لتحديد مدة خدمة كل منهم حيث تستمر خدمة ثلثهم تسع سنوات والثلث الآخر ست سنوات والثلث الأخير ثلاث سنوات.

أما عن المدعى العام والمسئول عن إدارة المحكمة «المسجل»، فيتم انتخابهم بواسطة مجلس الدول الأطراف لدى اجتماعها أول مرة عقب دخول المحكمة حيز التنفيذ.



أما عن الاختصاص الزمنى للمحكمة، فقد تقرر أن تختص بنظر الجرائم المستقبلية التى تحدث عقب دخول المحكمة حيز التنفيذ. كما يجب أن يمثل كافة المتهمين أمام المحكمة حيث تكون الأحكام حضورية وللمتهم حق استئنافها أمام غرفة الاستئناف.

من المهم إدراك أن الغرض من هذه المحكمة ليس سوى ترسيخ الشرعية الدولية إذ عليها أن تقوم بدور الردع تجاه من يرتكبون هذه الجرائم البشعة درءاً للأضرار الجسيمة التى تصيب البشرية، ولابد لهذه المحكمة أن تكون إحدى دعائم العدالة الجنائية الدولية لكى لا يفر مرتكبو الجرائم والانتهاكات الجسيمة ضد البشرية من العقاب.

خاتمة

نحن نعيش فى عصر العالمية (العولمة)، فقد أصبح العالم مثل القرية الصغيرة تقاربت أطرافه، كما ساعدت ثورة الاتصالات التكنولوجية على سهولة الاتصالات بين الأفراد وسرعة نقل المعلومات بين مشارق الأرض ومغاربها فى ثوان معدودة، وباتت الأسواق الاقتصادية العالمية وأسواق المال متصلة ببعضها البعض فإن هبط مؤشر إحداها تأثرت اقتصاديات باقى دول العالم. كيف إذن نستطيع أمام كل ذلك وغيره أن نقول أن العالمية قد شملت كل شىء عدا العدالة؟

من الضرورى أن ننظر إلى الماضى كى نتعلم من الحضارات البشرية القديمة، فلقد شهدت البشرية على مر العصور أكثر من أربعين حضارة، مثل الحضارة الفرعونية والبابلية واليونانية والرومانية وحضارتى الصين والهند، وكان لكل منها، على اختلاف نظم حكمها، نظام قانونياً خاصاً يضمن العدالة الجنائية. علاوة على ذلك، كان هناك نظام قانونى وعدالة جنائية لدى القبائل والشعوب التى عاشت خارج تلك الحضارات آنفة البيان، ومن ثم، نرى أن كل مجتمع بشرى يحتاج إلى نظام قانونى وعدالة جنائية، وربما خير دليل على ذلك أن الأديان السماوية الثلاثة تنادى بالعدالة بين الناس، فنجد أن المولى عز وجل قد وصف نفسه فى القرآن الحكيم بالعادل، ونادى فيه مرارا بالعدالة بين الناس أجمعين، كما أتت الشريعة الإسلامية الغراء بنظام قانونى متكامل اشتمل على نظام للعدالة الجنائية نص فيه على جرائم الحدود والقصاص والتعزير، ووضع ضوابط للمحاكمة تكفل حقوق المتهم والمجنى عليه وما أوردته نظم العدالة الجنائية كافة. كيف نستطيع إذاً أن نحول بين ما أوصى به المولى عز وجل وهذه الخبرة البشرية على طوال سبعة آلاف سنة من خبرات مختلفة وبين تطبيقها على الصعيد الدولى؟

كيف يكون قتل فرد واحد جريمة تعاقب عليها التشريعات الوطنية كافة، بينما ليس هناك عقاب على قتل الآلاف، بل والملايين؟ ولاسيما أن الجرائم الدولية لم تأت بجديد لما تضمنته الأنظمة القانونية الجنائية فى العالم، بل أضافت إليها مفهوما لا تحده نظرية الإقليم الوطنى ولا تبيحه القوانين الخاصة التى يصدرها الدكتاتوريون.

من الضرورى إدراك أن القانون الجنائى الدولى يطبق عن طريق التعاون بين الأنظمة الجنائية الوطنية وفقا لمبدأ وجوب المحاكمة أو التسليم، أو عن طريق محكمة جنائية دولية دائمة، وبهذه الطريقة يمكن تفادى سياسة الانتقائية وتسييس العدالة، ولكن حتى نصل إلى هذه المرحلة، هناك مراحل عديدة يتعين تجاوزها. أولاها: أن تصدق ستون دولة على النظام الأساسى للمحكمة الجنائية الدولية حتى تدخل المحكمة حيز التنفيذ فى أقرب وقت، وللأسف، فلم تصدق حتى الآن أية دولة عربية على النظام الأساسى، فى ذات الوقت الذى كان متوقعا فيه أن تتبنى الدول العربية موقفا موحدا تجاه التصديق على النظام الأساسى كى لا تفوت عليها فرصة الانضمام إلى جمعية الدول الأطراف، ومن ثم المشاركة فى اختيار القضاة والمدعى العام والمسجل فى أول اجتماع تعقده الجمعية.

العدالة الجنائية هى مؤشر لسمو القيم الدينية والإنسانية والاجتماعية، وربما نستطيع القول بأنها معيار لقياس المستوى الحضارى للأمم، فما من حضارة أهدرت هذه القيم إلا وصارت هى نفسها حضارة مهدرة، ومن ثم أتساءل ختاما كيف سيحكم التاريخ على الحضارة العربية الحديثة إذا كان أحد المعايير هو العدالة الجنائية التى تتطلب أن يحاكم كل من ارتكب جريمة بالعدل والقسطاس، وخصوصا تلك الجرائم التى تخالف القيم الدينية والإنسانية والاجتماعية مثل جرائم الحرب. وهنا، لا يسعنى إلا أن أذكر - كأحد من ذادوا عن الوطن فى حرب ١٩٥٦ - أنه يجب محاكمة الذين قتلوا الأسرى المصريين فى حربى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ إذ إن ذلك واجب قومى وإنسانى وقانونى. كيف لا يحاكم شارون عن إصدار الأمر بقتل ثلاثة وأربعين جنديا وضابطا مصريا على أرض سيناء، فضلا عن مسئوليته الجنائية عن مجزرتى صابرا وشاتيلا فى لبنان عام ١٩٨٢ وغيرهما من الانتهاكات الجسيمة لاتفاقيات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩.

ان العدالة الجنائية مازالت تتقدم فى مسيرتها الجنائية خطوة بعد خطوة، ومازال الأمل قائما طالما استمر العمل الدءوب المتواصل، وفى النهاية، سوف تسود العدالة الجنائية الدولية لما تتضمنه من قيم دينية وإنسانية واجتماعية، ولما تحققه من مصلحة دولية فلا يوجد سلام بدون عدالة، وهذه هى سنة حياة المجتمع الدولى، ومن يتجاهلها يتجاهل ما يشهد به التاريخ. ■

و .. محاكمة شـــارون ليسـت قضيـة خاسـرة!

ديـــاب أبو جهجـــه (*)



لم يكن بإمكان أحد من العرب أن يتصور أنه يوما ما قد تؤدى تداعيات الاستعمار الغربى لأفريقيا إلى تزويدهم بسلاح فتاك للنيل من مجرمى الحرب الإسرائيليين.

ولكن هذا ما حصل فعلا عندما أقدمت بلجيكا عام ١٩٩٩ على تعديل قانون ملاحقة مجرمى الحرب ومرتكبى الجرائم ضد الإنسانية الذى صدر عام ١٩٩٣ وذلك بشكل يتيح للمحاكم الداخلية البلجيكية إمكانية ملاحقة أى فرد كان بتهمة جرائم الحرب أو جرائم ضد الإنسانية بغض النظر عن جنسية المدعى أو المدعَى عليه ومكان وقوع الجرم ومن دون إعطاء أية حصانة لأىٍّ كان.

هذا القانون بالتعديل الذى طرأ عليه وإن كان من الممكن تماما وضعهما فى إطار الالتزام بتعهدات بلجيكا الدولية المنصوص عليها باتفاقية منع جرائم الإبادة الجماعية الموقعة عام ١٩٤٨ واتفاقية عدم تقادم جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية الموقعة عام ١٩٧٠ إلا أن السؤال الذى يطرح نفسه هو: لماذا كانت بلجيكا هى الدولة الوحيدة فى العالم التى أدخلت بقانونها الداخلى التزاماتها الدولية المذكورة أعلاه وذلك بشكل قد يكون كاملا.

الجواب عن هذا السؤال نجده فى ملفات جرائم الإبادة الجماعية التى وقعت فى رواندا وذهب ضحيتها مئات الألوف من الروانديين. فبلجيكا وبصفتها القوة الاستعمارية السابقة فى وسط أفريقيا (كونغو، رواندا، بوروندى) لعبت دورا أساسيا فى خلق الشرخ التاريخى بين قبائل الهوتو وقبائل التوتسى، هذا الشرخ الذى عبر عن نفسه بصورة بالغة الدموية عبر إبادة الهوتو للتوتسى فى رواندا.



إن عقدة الذنب الرواندية هذه كانت هى العامل الرئيسى الذى دفع ببلجيكا إلى توسيع قانونها بشكل يتيح لها ملاحقة بعض مجرمى الحرب الروانديين. وفعلا تمت ملاحقة أربعة من هؤلاء المجرمين وأدينوا فى بلجيكا وحكم عليهم بالسجن لفترات متفاوتة.

ولكن القانون لم ينته مع انتهاء محاكمة رواندا ولا مع إدانة المتهمين فيها. إن تعديل القانون عام ١٩٩٩ فتح أعيننا فى الرابطة العربية الأوروبية على الإمكانية المتاحة لملاحقة مجرمى الحرب الإسرائيليين فى بلجيكا، وعندما بدأنا فى دراسة الإمكانية الموضوعية لرفع دعوى ما أمام القضاء البلجيكى وقع اختيارنا على ملف صبرا وشاتيلا. الاختيار لم يكن سهلا فالمجازر التى ارتكبتها إسرائيل بحق الشعب العربى أكثر من أن تعد وتحصى، وكلها قد تشكل مادة جنائية خصبة لإدانة الكيان الصهيونى المغتصب إلا أن مجزرة صبرا وشاتيلا تتمتع بخصائص عدة تجعلها أكثر نموذجية من غيرها للتعبير عن الأسلوب الإجرامى الدموى للعمل الصهيونى.

فهى إضافة إلى أنها تعتبر إحدى أفظع المجازر فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقد صنفتها الأمم المتحدة بقرارها الصادر بالجمعية العمومية يوم ١٦ سبتمبر ١٩٨٢ الذى يحمل رقم ٣٧/١٢٣د، استنادا إلى معاهدة ١٩٤٨ لمنع الإبادة الجماعية ومعاهدة ١٩٤٩ لحماية المدنيين فى وقت الحرب كعمل إبادة جماعية (act of genocide).

هذا القرار اتخذ بعد أن صوتت لصالحه ١٢٤ دولة ولم تصوت ضده أية دولة، وامتنعت ٢٢ دولة عن التصويت.

إن وجود هذا القرار يسهل مهمة إقناع القاضى البلجيكى بطبيعة المجزرة كجريمة ضد الإنسانية. أما وجود تقرير لجنة كاهان الإسرائيلية وبرغم طبيعته المجتزأة والانتقائية فإنه يضع أمام القاضى البلجيكى وثيقة إدانة لأرييل شارون وللمؤسسة العسكرية الإسرائيلية فتقرير كاهان يشكل حداً أدنى لا يمكن لأى محقق فى وقائع المجزرة أن ينخفض دونه بل ومن المؤكد أن ما سيكشفه التحقيق فى بلجيكا سيتخطاه على مستويات عدة.

ولكن حتى لو افترضنا جدلا بأن القاضى البلجيكى وصل إلى نفس النتيجة التى وصل إليها المحقق الإسرائيلى واعتبر أن أرييل شارون يتحمل (مسئولية شخصية غير مباشرة) بالمجزرة، فإن ذلك سيكون كفيلا بإدانة شارون وسجنه.

ففى جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية لا يلعب الطابع المباشر أوغير المباشر للمسئولية دورا مهما طالما أن المسئولية بحد ذاتها مثبتة. لكل هذه الأسباب أصبح من الواضح لدينا بأن ملف صبرا وشاتيلا هو الملف الأقوى بين جملة الملفات التى درسناها واتخذ القرار فى أواخر عام ١٩٩٩ ببدء الخطوات العملية لرفع الدعوى.

المسألة الأكثر صعوبة كانت إقناع الأطراف التى لابد من أن نتعاون معها أن القضية جدية، فمجرد التفكير بمقاضاة مسئول إسرائيلى ولو سابق كان يستدعى الابتسامات الساخرة من وجوه عديدة. لأن ذهنية المؤامرة التى تسيطر على العقل العربى والتى تصور له عدوه وكأنه الطرف الذى يسيطر على العالم ويتحكم بمسار كل الأمور على الساحة العالمية والذى لا يمكن قهره. هذه الذهنية هى من أهم وأنجح الأسلحة التى يستعملها الصهاينة ضدنا.

فإذا كنا لا نؤمن بفرص نجاح ولو ضئيلة فى معركة، النتيجة ستكون أننا لن نباشر بأى تحرك و سوف نكتفى بالنواح وتكرار أسطوانة جبروت اللوبى الصهيونى وغياب أى لوبى عربى.

إن كسر هذه الحلقة المفرغة لا يكون إلا عبر قناعة بأن النجاح و الفشل بأى تحرك مردهما إلى الظروف الموضوعية التى تتحكم بالواقع وأنه إذا ما تمت دراسة هذه الظروف بشكل دقيق وتبين توافر الإمكانية الموضوعية لنجاح تحرك ما و تم العمل فى إطار علمى بعيد عن الاندفاع العاطفى فإن فرص النجاح لعمل كهذا متوافرة.

انطلاقا من هذه القناعة لم نكترث للسخرية بل اعتبرنا أنه من صالحنا ألا يأخذنا الناس على محمل الجد فلو أخذنا اللوبى الصهيونى على محمل الجد فى فترة بدء تحركنا فلربما كانوا استطاعوا إفشاله بطريقة أو بأخرى إلا أن الاستخفاف بنا سواء من قبل الطرف العربى أو الإسرائيلى أتاح لنا إمكانية التحرك والعمل بسلام.

ما بين نهاية عام ١٩٩٩ ومنتصف عام ٢٠٠١ انصب عملنا على جبهتين الجبهة الأولى تركز على تحضير الرأى العام الأوروبى عامة والبلجيكى خاصة لتقبل فكرة مقاضاة مجرمى حرب إسرائيليين و الجبهة الثانية تتمثل بالعمل التحضيرى للملف وما يتطلبه من توثيق ودراسة.

قبيل رفع الدعوى فى يونيو ٢٠٠١ كنا قد وصلنا إلى تمرير الرسالة إلى الشعب البلجيكى وعندما أعلن شارون عن نيته بزيارة بلجيكا أطلقنا مسيرة فى قلب بروكسل لاقت نجاحا جماهيريا وإعلاميا وعكست وجها حضاريًا للجالية العربية موجهة رسالة واضحة (إن مجرمى حرب كأرييل شارون لا يجب استقبالهم فى زيارات رسمية بل اعتقالهم ووضعهم وراء القضبان).



الحملات التى خضناها أوصلت الشارع البلجيكى إلى حالة إدراك لواقع الصراع وأدت إلى جملة مواقف لسياسيين بلجيكيين ولعدة تحركات شعبية اعتبرها الصهاينة (حملة معادية للسامية فى بلجيكا) وعندما وصلت الأخبار أن هنالك دعوة قضائية جدية قيد التحضير فقد اللوبى الإسرائيلى اتزانه، والأهم من ذلك أن عميد الدبلوماسية الإسرائيلية بيريز ارتكب خطأ فادحاً بأن وجه كلاماً مهيناً إلى بلجيكا مدافعاً عن دور شارون فى مجزرة صبرا وشاتيلا وداعيا إلى لجم القضاء البلجيكى وذلك فى تصريح للتليفزيون البلجيكى عاطفى الطابع وانفعالى النبرة من النوع الذى اعتدنا عليه من الدبلوماسيين العرب.

إلا أن بكائيات بيريز وتخبط اللوبى الصهيونى لم تحل دون قيام الدعوة يوم ١٨ يونيو ٢٠٠١ ودون قبولها شكلا ومباشرة التحقيق فيها.

وعندما رضخت الحكومة البلجيكية للضغوط الإسرائيلية، محاولة تعديل القانون وإعطاء حصانة لرؤوس الدول، أفشل الرأى العام المتعاطف مع القضية ومع سعاد سرور المدعية الرئيسية فيها هذه المحاولة.

الضربة التى تلقتها إسرائيل كانت قاصمة فالحياد المؤلم للرأى العام الأوروبى بدأ يتحول إلى تعاطف مع الحق العربى وإن كان مدخله يحمل طابعا إنسانيا عاطفياً (صورة سعاد الضحية وشارون السفاح) وهذه الحالة كانت لها تداعيات سواء داخل الكيان الصهيونى الذى أصبح أقل غرورا وثقة بمكانته بأوروبا وبات يطلب من ضباطه وجنوده توخى الحذر فى سفرهم الى أوروبا خوفا من إلقاء القبض عليهم. أو خارج هذا الكيان بدءا ببلجيكا وليس انتهاء بما جرى فى الدنمارك من جدل حول السفير الإسرائيلى الجديد.

لأول مرة فى تاريخ صراعنا مع العدو وصلنا إلى الإمساك بالصدارة الأخلاقية (moral high ground) وهذا قد يمكننا من تحويل مسار الصراع بأسره.

إلا أن المازوشية العربية تأبى الانتصار وتصر على تحويله إلى هزيمة، كلما لاحت بوادره كما فعلت بأكثر من حالة تاريخية خلنا أنفسنا فيها منتصرين فإذ بهم يكبلون أقدامنا وهم ساجدون فلا يطول بنا الأمر حتى نقع تحت رحمتهم من جديد.

إن زلة القدم التى ارتكبناها فى الرابطة العربية الأوروبية هى إدخال أطراف لبنانية إلى ملف الدعوى وإن كانت قانونية، حيث إنه لم نكن نتصور فى لحظة من اللحظات أن هذا كفيل بإدخال كل الحساسيات اللبنانية إلى هذا الملف، وها نحن الآن نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه وحماية الملف من التسييس والتجيير وكلها كفيلة بإنقاذ الإسرائيليين من ورطتهم.

لو أن العرب يفهمون أن هذه القضية خاسرة إذا ما تابعوا هذا الكرنفال السوداوى من التناحر على حسابها ومن التسابق إلى خلق نسخ هجينة منها فى كل دارة عربية تؤدى إلى ابتذالها وتشتيت زخم الرأى العام المؤيد لها وقد تؤدى حتى إلى خلق مخارج شكلية للمجرمين الإسرائيليين.

هذه القضية امتداد لتجربة المقاومة فى لبنان والانتفاضة فى فلسطين ومثلهما أثبتت أنه بالإمكان إلحاق هزيمة بالعدو على أرض الواقع إذا ما تم التعامل مع هذا الواقع بعلمية وأثبتت أيضاً أن العدو ليس ذلك الكامل المعصوم من الخطأ، بل بشر يترنح إذا ما وجهت إليه ضربة مركزة ويكشف عن نقاط ضعفه.

الرابطة العربية الأوروبية تحاول أن تحمى هذا الجهد من الضياع عسانا ننجح لأننا لا ننتمى إلى جيل ولد مع النكبة و شب مع النكسة وأعطى قمة ما عنده فى أوسلو بل إلى جيل رضع من ثدى المقاومة فى لبنان واشتدت عزيمته مع الانتفاضة ولا يخاف من الانتصار.

(*) كاتب هذا المقال رئيس لجنة صبرا وشاتيلا، غير الحكومية. التى تتولى تحريك الدعوى القضائية أمام المحاكم البلجيكية ضد رئيس الوزراء الإسرائيلى آرييل شارون.

فاروق

من بداية حكمه .. إلى نهاية عصره
كمـــا رآه ســــكرتيره الخــاص

تعـددت المذكرات والكتب والوثائق التى تعـرضت لحـقـبـة الملك فـاروق ورجـال القـصـر الملكى الذين صنعوا مـلامح النظام الملكى، بكل مـا له ومـا عليـه، والذين بقـوا معـه وحـوله حـتى سـقـوط النظام على يد ثورة يوليـو ١٩٥٢.. وترددت الوقـائـع والروايات عن الأدوار التى لعبـهـا رجـال القـصـر الملكى فى التأثير على الملك وإفساده أو توجيـهه، ابتداء من أحمد حسنين إلى كريم ثابت وعدلى اندراوس وغيرهم من شمـاشرجية القصر وحاشيته.. ولكن اسم الدكتور حسين حسنى الذى عمل سكرتيراً خاصاً للملك طوال فترة ولايتـه لا يكاد يذكر أو يتـردد فـيـمـا تناولته الوثائق المنشورة.

ومن هنا تأتى أهمية المذكرات التى حررها الدكتور حسين حسنى بعنوان «شهادة للحقيقة والتاريخ» والتى تنشر لأول مرة، لتلقى الضوء على كثير من جوانب هذه الحقبة الحافلة. وتزداد هذه الأهمية من خلال المقدمة التى قدم بها للكتاب المؤرخ الرصين والكاتب الكبير المستشار طارق البشرى، الذى سبق وقدم دراسات جادة وعميقة عن تاريخ مـصـر فى هذه الفـتـرة ومـا قـبلها ومـا بعدها. فأبان فى هذه المقدمة الموجزة موضع صاحب المذكرات بين رجالات القصر، ومدى مـا تميز به من تمسك بالمبـادئ والقـيـم، ألزمـتـه بقـدر من الموضـوعـيـة يصل إلى درجـة الورع والترفع وخلعت عليه من الأمانة الفعلية والنزاهة الخلقية مـا يعلى قـدره بين المؤرخين، وينزل أحكامه على الأحداث والشخصيات منزلة الاحترام والتقدير.

(المحـــرر)

سنوات مع الملك فاروق.. شهادة للحقيقة والتاريخ
حســين حســنى
يصدر قريبا عن دار الشروق

طـــــارق البشـــــرى



الملك فـاروق وخلفه حسين حسنى وأحد الضباط

[١]

أكـاد أقـول إن ثمـة رابطا يربطنى بالدكتور حسين حسنى، ويتعلق بالتنشئة الفكرية الأولى، وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى عندما كنت فى الثانوية العامة، أو ما كنا نسميه وقتها «الشهادة التوجيهية» أو شـهـادة إتمام الدراسة الثـانوية، القـسـم الخاص، وذلك فى السنة الدراسية ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩.

كنا فى شـعـبـة الآداب، ومـادة التـاريخ عندنا ندرس لها كتاب «تاريخ القرن التاسع عشر: ومـا يليـه من الحوادث حـتى نهـاية الحـرب العظمى». وكـان من تأليف «محـمـد قاسم وحسين حسنى» وهمـا أخوان شقيقان، فكان درس التاريخ هو أكثر الدروس تشويقا، وكانت ساعات الاستذكار فى كتاب التاريخ هى أسـعـد أوقـات المذاكـرة، لا بالنسـبـة لى وحدى، ولكن بالنسبة لكل الأصدقاء الذين كان لهم تفتح للاهتمام الثقافى.

إن الكتب المدرسـيـة وقـتـهـا كـانت على مستوى عال من حيث التأليف ومن حيث المؤلفين. فـمواد المطالعـة العـربيـة والأدب العربى، يكتبها ويختارها طه حسين، وأحمد أمين وعبـد العزيز البشرى، وعلى الجارم، وأحـمـد السكندرى. وكـتـاب تاريخ مـصـر الحديثة المقرر على السنة الرابعة الثانوية (ما قبل التوجيهـيـة بسنة) كتـبـه المؤرخ الدكتور محمد رفعت، والفلسفة يكتبها د. إبراهيم بيومى مدكور وأبو العلا عفيفى... إلخ وهكذا. ويأتى كتاب محمد قاسم وحسين حسنى فى هذا السياق.

وهذا الكتـاب الأخـيـر كـان أعـجـوبـة فى وقته. يبدأ بالثورة الفرنسية وعن نابليون والدول الأوروبية حتى عام ١٨٣٠، ثم يتكلم من عهد النهوض القومى من عام ١٨٣٠ إلى عـام ١٨٤٨ فى فـرنسـا وإيطاليـا وألمانيـا والنمسا ومصر، ثم عـهد انتصار الحريات من عـــام ١٨٤٨ إلى عـــام ١٨٧٨، والوحـــدة الإيطالية والاتحاد الألمانى، ثم روسيا والقرم ونشأة دول البلقان والمسألة الشرقية، ثم إنجلترا والولايات المتحدة وحركة استقلال الولايات المتـحـدة .. وهكذا حـتى الحـرب العالمية الأولى من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨ وانتهائها والصلح بعدها.

أول مـا عرفنا عن الثـورات كـان من هذا الكتاب، وأول ما عرفنا عن حركات التحرر الأوروبية كان منه أيضًا، وأول ما عرفنا عن حركات النهوض القومى وحركات الوحدة فى أوروبا كـان منه، وكـذلك الكفاح من أجل الحرية. والكتاب غزير فى مادته، دقيق فى تحـاليله عـمـيق فى تتـبـع الروابط بين الأحداث.

وهو شـيـق فى عـرض مـادته، رغم الصعوبة الآتية من اتساع المدة المؤرخة وهى تزيد على قرن، واتساع المجال المدروس وهو يشمل أوروبا والمسألة الشرقية والأمريكية، ورغم التنوع الكبير بين مراحل تاريخيـة متـعددة وبين حركات شعـوب وقـوميات متعددة أيضًا. ويزيد الصعـوبة ويضاعفها أنه يتوجه لشباب هم حديثو عهد بالتاريخ وأحداث الأمم وبالفكر السياسى والاجتماعى. فكان من أعاجيب هذا الكتاب أن يكون شيقا لدى هؤلاء الطلبة.

وصيغ العرض التاريخى بلغة عربية، لا أقول فقط إنها صحيحة، ولا أقول فقط إنها دقيقة، إنما هى أيضًا لغة أدبية فيها جمال وفيـهـا اتسـاق، والأسلوب ناصع البيـان والعـبـارة جـزلة، إلى حـد أننا كنا نحـفـظ عبارات منه كما نحفظ الشعر والنثر الفنى. ولازلت بعد أكثر من نصف قرن أجد جملا منه عالقة بذاكرتى إلى الآن. ونحن نجد عبارات منقولة منه فى برامج جمعية مصر الفتاة عـام ١٩٣٠، فجـاءت مصـر الفـتـاة مـثـيـلا لإيطاليـا الفـتـاة فى عـبـارات الإنشـاء، مع استبدال مصر بإيطاليا والأزهر بالفاتيكان. وقد عرضت لهذه النقطة فى بعض كتاباتى عن مصر الفتاة وأكثر من ذلك. فإن الكتاب كـان، من حيث الدراسة ومن حيث الصيـاغـة محـررًا من عقل مقـتنع وبقلب محب، الثورة من أجل العدالة والديمقراطية وضد الظلم،

والتشكل القومى للأمم والشعوب وأن تحكم نفسها بنفسها، والوحدات السياسية وحركات التوحد، والزعامات التاريخية التى قادت شعوبها لتحقيق الآمال والنظام. كل ذلك يعرض بروح وَوَجْد وعاطفة مشبوبة، ترتوى بمائها براعم القلوب الغضة.

لذلك لم أنس هذا الكتاب قط، وكنت فقدت نسخته المدرسية وظللت أبحث عن نسخة منه حتى وجدتها «بسور الأزبكية» طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر فى عام ١٩٢٢. وإن كتابًا يدرس لكل طلبة الثانوية العامة لأكثر من ربع قرن من العشرينيات حتى بدايات الخمسينيات، علينا أن ندرك مدى الأثر الكبير الذى تأسست به عقول شباب المصريين وقلوبهم عبر هذه الأجيال.



[٢]

عرفت من هذه المذكرات التى بين أيدينا شيئًا أظنه مهما بالنسبة للدكتور حسين حسنى. وسيلحظ القارئ من مطالعة الفصل الثانى أن التنشئة السياسية الأولى له كانت فى الحزب الوطنى على عهده الأول، عهد زعامتيه التأسيسيتين، مصطفى كامل ومحمد فريد، وأنه عرف وقتها بصلابة التمسك بمبادئ الحزب، وأنه كان بين من اعتقل من شباب الحزب شهورا وأفرج عنه فى يناير عام ١٩١٧.

ولا أستطرد فى ذكر تفاصيل ما أثبت المؤلف عن هذه النشأة، ولكننى ألتقط هذا الخيط لأضع أمام القارئ ما يعنيه أن تكون التربية السياسية للشاب فى الحزب الوطنى، وخاصة هؤلاء الذين حضروا العهد التأسيسى الأول قبل بداية الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤. فإن الحزب الوطنى هو مدرسة فى السياسة المصرية تدرب أبناءها على أن قضية القضايا (أو أم القضايا) هى القضية الوطنية، وإجلاء المستعمر البريطانى عن مصر. يكفى أن نتابع زعامات هذا الحزب من مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨) إلى فتحى رضوان (١٩١١ - ١٩٨٨)، ويكفى أن ننظر فيمن اقترنت بهم التنشئة الأولى للمؤلف من شباب هذا الحزب، مثل أمين الرافعى، وعبد الرحمن الرافعى، وعبد المقصود متولى وغيرهم، يكفى ذلك لنعرف من أى مذهب ومدرسة وطنية صيغت توجهات المؤلف.

ومدرسة الفتاة كانت تقرن بين الوطنية وأهدافها السياسية المتعلقة فى الأساس بهدف جلاء قوات الاحتلال العسكرى الأجنبية، وبين الثقافة الإسلامية أو الثقافة الموروثة بعامة، كانت متفتحة على الثقافات الغربية ونظمها، مثل نظم الدولة ونظم الجمعيات والتعاونيات وغير ذلك، ولكنها كانت متمسكة بالجوانب العقيدية ومعايير الآداب والسلوك. وكانت ذات توجه للجامعة الإسلامية وذات قابلية للاندراج فى الخلافة الإسلامية، فلما ألغيت الخلافة الإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية، ظلت هذه المدرسة ذات توجه للشعوب الإسلامية.

والحزب الوطنى، فقد شعبيته مع ثورة عام ١٩١٩، لأسباب تاريخية وسياسية وقيادية لا أجد مجالا للاستطراد فى شرحها الآن، وورث حزب الوفد شعبية الحزب الوطنى، ولكن التيار السياسى الثقافى الذى خرج الحزب الوطنى من أحشائه، ولّد من بعده شجرة أحزاب، منها الإخوان المسلمون ومصر الفتاة والضباط الأحرار فى اتجاههم الغالب، ثم مجموعة الحزب الوطنى الجديد التى جمعها فتحى رضوان. وذلك رغم قدر من التباين فى الخصائص السياسية والتنظيمية ورغم قدر من التنوع فى الصبغة الثقافية والحضارية. من حيث المحافظة والتجديد ومن حيث الديمقراطية والشمولية، ومن حيث اتساع الشعبية وضيقها. وبقى الوعاء الأساسى يرتبط بأن الوطن أولا .. وثانيا .. وثالثا، وأن الوطنية ليست استقلالا سياسيا فقط، ولكنها تميز ثقافى أيضًا.

إن ضعف شعبية الحزب الوطنى من بعد، وأيلولة النشاط السياسى العملى إلى غير أبنائه المنتمين إليه تنظيما، قد ميز هذا الشباب من أبنائه إلى الاندفاع بطاقاتهم وذكائهم إلى الاهتمام بالعلوم النظرية والفنون التطبيقية والمهن العملية. فعرفنا منهم مؤرخين مثل عبد الرحمن الرافعى، والمؤلف كاتب هذه المذكرات. وصحافيين سياسيين شبه مستقلين مثل أمين الرافعى، ومحامين مثل مصطفى الشوربجى. أتقنوا علومهم ومهنهم، وأعطتهم تربيتهم فى الحزب الوطنى «الجانب الرسالى» لعملهم والهدف الأعلى الذى يهدفون إلى تحقيقه بممارساتهم العلمية والمهنية.

ونحن نعرف مثلا أن مصطفى مرعى، المحامى والقاضى والوزير من بعد، كان من شباب الحزب الوطنى واشتغل بالمحاماة ثم اندرج فى سلك القضاء. كما نعرف من شباب الحزب ذاته سليمان حافظ الذى آل إلى الاندراج فى القضاء بعد المحاماة وكان فى نهاية حياته وكيلا لمجلس الدولة ثم نائبا لرئيس الوزراء فى أول عهد ثورة ٢٣ يوليو. كما نعرف أن وزارة الخارجية التى بعث نشاطها من جديد بعد إعلان استقلال مصر فى عهد دستور ١٩٢٣ جذبت إليها عددا من الشباب النابه الذين سبق أن تنشئوا فى الحزب الوطنى، مثل عوض البحراوى، وعبد المقصود متولى ومؤلف هذه المذكرات. وكان ممن فطن إلى وجود النفع للوزارات من هذا الشباب، ساسة مثل على ماهر عندما تولى وزارة العدل مدة محدودة، وحافظ عفيفى عندما تولى الخارجية مدة محدودة أيضا. وكان حافظ عفيفى فى شبابه من شباب الحزب الوطنى، والحاصل أننى عندما قرأت الفصل الثانى من المذكرات، استقام لى فهم هذه المذكرات، وعرفت من أين جاء هذا العنصر الذى تأثرت به سياسة القصر الملكى فى بعض سنى عهد الملك فاروق من حيث المظهر الإسلامى ووضع الاعتبار بمكانة مصر الإسلامية، وعرفت أن الدكتور حسين حسنى كان يسعى لبذل الجهد والمحاولة ليؤثر فى سياسات الملك بما يراه منسجما مع آرائه وتوجهاته السياسية الأصلية، ويرى فيه عملا وطنيًا طبقا لمفاهيمه، وهو العمل الإسلامى والعمل المتعلق بالسودان وأحزابه وزعاماته وطلبته، وليته - رحمه الله - أفاض فى ذكر تفاصيل ما كان يعمل ومن كان يتصل بهم وما كانت المسائل المثارة والمشكلات التى تطرأ وكيف كانت تعالج.

وفهمت أيضا أن كراهة المؤلف لحزب الوفد وازوراره عنه، لم تكن أمرًا ترتب فقط عن وجوده بالقصر الملكى وقربه من الملك فاروق، ولكنه أمر نتج عما تحمله الغالبية ممن تربوا فى الحزب الوطنى تجاه الوفد، سواء أكانوا من شباب جيل ما قبل الحرب العالمية الأولى مثل المؤرخ عبد الرحمن الرافعى، أم من شباب

يندر أن نجد من بين رجال السياسة بالقصر الملكى من استطاع أن يحتفظ فى تصرفاته وسلوكياته ونصائحه بالقدر الذى ينسجم ولا يتعارض مع ما يتمسك به من مبادئ وقيم سياسية

جيل الثلاثينيات مثل فتحى رضوان، أم من شباب جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية.

كانوا جميعا يعتبرون أنفسهم هم الوطنيون الأصول، ذوو الوطنية غير القابلة للمساومة، بعكس ما يتصورونه فى الوفد من قابلية للمساومة والمفاوضة وقبول أنصاف الحلول. كما يرون أحيانا ما عبر عنه فتحى رضوان من أنه لا فرق فى النوع بين الوفد والأحرار الدستوريين وهم ينتمون أصلا إلى حزب الأمة الذى كان مواجها للحزب الوطنى. وأساغ هذا النظر لدى البعض بالحزب الوطنى أن يتحالف مع أحزاب الأقلية الموالية للملك ضد الوفد، وأن يتحالف مع الملك ضد الوفد. ولم يكن موضوع الديمقراطية ذا أولوية وغلبة لدى الحزب الوطنى. ونحن نلحظ أن الحزب الوحيد الذى تعاون وتشارك مع حكومات ثورة ٢٣ يولية من بدايتها كان هو الحزب الوطنى.

ونحن يندر أن نجد من بين رجال السياسة بالقصر الملكى من استطاع أن يحتفظ فى تصرفاته وسلوكياته ونصائحه بالقدر الذى ينسجم ولا يتعارض مع ما يتمسك به من مبادئ وقيم سياسية. ويكون ذلك على حساب نفسه وأن تضيع منه فرص ظهور وتألق ومزيد من الاشتهار، لا نجد من ذلك مثل ما نجد لدى الدكتور حسين حسنى، حسبما تعى الذاكرة من الوثائق المعيشة لتلك الفترة البعيدة، وحسبما تسفر المتابعة الدراسية لوقائع تلك المرحلة أيضا، وحسبما ورد بهذه المذكرات.

ولا شك أنه من هنا، جاء هذا الاحترام والتوقير لرجل كان هو السكرتير الخاص للملك فاروق، وجاء من الثورة التى خلعت هذا الملك وأجبرته على التنازل عن عرشه بعد قيام الثورة بأربعة أيام فقط، ثم ألغت النظام الملكى كله. هؤلاء أنفسهم تعاملوا مع المؤلف حسبما يصف هنا فى نهاية مذكراته بما لم يتعاملوا به قط مع غيره من رجال القصر الملكى.

ولعل عاملا من عوامل هذا التعامل هذه الوشيجة الخفية المندسة فى أعماق التاريخ الحديث لمصر، وشيجة القربى والصلة بين الحزب الوطنى وبين العديد من الأحزاب والتنظيمات التى عرفتها مصر فى الثلاثينيات والأربعينيات ومنها «تنظيم الضباط الأحرار».

[٢]

عاد المؤلف إلى مصر فى عام ١٩٢٣ حاملا درجة الدكتوراه فى التاريخ عن قناة السويس من جامعة مونبلييه بفرنسا. وعمل بالمدارس ثم بدار المحفوظات بالقصر الملكى، ثم عين بوزارة الخارجية فى عام ١٩٢٥، ثم نقل إلى القصر الملكى ليعمل مع كبير الأمناء منذ يونية عام ١٩٣٠، فى عهد الملك فؤاد. وبقى بالقصر الملكى حتى تنازل الملك فاروق عن العرش فى عام ١٩٥٢. ومن ثم فهو شاهد عيان على ما يجرى فى القصر الملكى مدة اثنتين وعشرين سنة، منها مدة تولى الملك فاروق كلها من عام ١٩٣٧ حتى عام ١٩٥٢، وكان فى كل هذه المدة الأخيرة هو السكرتير الخاص للملك، وأنعم عليه أثناءها بالبكوية ثم الباشوية. وكتب هذه المذكرات أو أتمها فى عام ١٩٨٥.

هذه المدة الطويلة من وجوده بالقصر الملكى متصلا بالملك، تجعله ينطوى على كنز من كنوز التاريخ، من حيث الوقائع والأحداث وتصوير الملك. وهو ألزم نفسه كما ذكر فى صدر كتابه ألا يحكى إلا بوصفه شاهدا لما وقع تحت حسه من أحداث، رآها بعينيه أو سمعها بأذنيه.. وهنا نلمح فيه دقة المؤرخ الذى يعرف مسبقا أنه فيما يكتب هنا لا يؤرخ ولا يقيم الأحداث ويحللها للبلد كله أو للمجتمع، ولكنه يشهد فقط ويروى، فهو يضع كتابا هو من المصادر التاريخية وليس التاريخ ذاته. وكان فى هذا ورعًا وأمينا، وقد التزم بما ألزم به نفسه على طول الكتاب.

إلا أن عفته أضاعت علينا فيضا من الأحداث فيما أظن، فهو لا يحكى وقائع تشين المحكى عنه، وهو يؤثر رواية الحادثة باللفظ العفيف، ينقد ولا يجرح ويضرب ولا يسيل دما، وهو يستخدم المعايير الموضوعية فى النقد والعبارات العامة المجملة دون الأوصاف التفصيلية.

مع قراءتى لهذه المذكرات، أعدت قراءة مذكرات كريم ثابت المستشار الصحفى للملك فاروق بين عامى ١٩٤٢ و١٩٥٢، لأتبين الفروق بين أسلوبين وبين رجلين. وزادنى شوقا لهذا الأمر أن كريم ثابت أفرد عددا من الصفحات يهاجم فيها د. حسين حسنى بغير أن يذكر واقعة تدينه أو حدثا يشينه، وانحصر الهجوم جله عما صنع السكرتير الخاص للملك ليصلح شأنه، وكانت شهادة حسين حسنى عن كريم ثابت أمام محكمة الغدر مما لا يريح كريم ثابت. كما أنه زودنا فى هذه المذكرات بأن اعترض أمام الملك على تعيين كريم ثابت مستشارا صحفيًا.

وكريم ثابت كان من رجال الإنجليز فى مصر، وهو من أبناء مؤسسى صحيفة المقطم التى قامت لتدعم الاحتلال الإنجليزى منذ قام. وهو كان من أسباب فساد الملك وهوان النظام الملكى، وكان حسبما يحكى فى كتابيه يقابل الملك فى الكباريهات وعلى موائد القمار ومع الغانيات. وهو يحكى كل ذلك ويصور الملك فاروق بعد عزله بأقبح أوصاف وأسوأ مظهر، ويحكى ما يشين من الخبايا.

د. حسين حسنى على العكس فى كل شىء، هو من أبناء الحزب الوطنى الذى كان معاديا للإنجليز منذ نشوء هذا الحزب حتى ألغيت الأحزاب. فهو نقيض كريم ثابت، وهو فى روايته للأحداث بالمذكرات يصرح بأنه كان لا يرى الملك شهورا وراء شهور، والقارئ يشعر أنه كلما كان حبل الملك فاروق ينفلت على غاربه، كان يبتعد عن سكرتيره الخاص ويقترب من مستشاره الصحفى. ومع ذلك نجد د. حسين حسنى مع ذكر عيوب فاروق لا يذكرها إلا بالمجمل من العبارات، بينما كريم ثابت يصف سوءات هو من أسبابها بغير ورع ولا مراعاة لحرمة ملك قربه ووثق به.

وأنا هنا لا أدافع عن الملك بطبيعة الحال، وقد تحدثت عنه فى سياق البحوث التاريخية التى حررتها عن فترات من حكمه، ولكنى أقارن بين رجلين لا على المستوى السياسى فقط، ولكن على المستوى الذاتى والإنسانى أيضا. ليعرف القارئ من منهما الذى يطمئن أكثر إلى صحة روايته وإلى صدق شهادته.

ورغم أن ذكر تفاصيل الأحداث من شهودها، أمر يفيد المؤرخين كثيرا، عندما يجمعون مادتهم التاريخية ويحققونها ويصوغون منها روابط العلة والمعلول التى تكون عملية التاريخ، رغم ذلك، فإننى أحيانا أجد لدى هذا الوازع الذى يحاول أن يجنب العملية التاريخية ذكر تفاصيل السلوكيات الشخصية وخاصة المشين منها، وبوجه أخص ما لا يفيد فى ترتيب روابط العلل والمعلولات التاريخية. وأرى أنه إن كانت غزارة المادة مما قد ينفع المؤرخ - حتى الشخصى والذاتى منها - وذلك لتبين الحقائق وللاجتهاد فى تحليل الأحداث، إلا أن ثمة أصلا هاما آخر، إن الإنسان الفرد بموجب إنسانيته وفرديته ينبغى أن تستر عوراته، أو بالأقل يستر الحد الأدنى منها وما لا يفيد تكراره فى فهم الأحداث العامة.

ومن هنا أجدنى منجذبا إلى طريقة صاحب هذه المذكرات فى الإجمال غير المخل بالموضوعية، وغير المعوق فى تكشف الأسباب والمسببات. وهذا ما نصنعه فى تحريرنا للأحكام القضائية فى عملنا القضائى، لانكاد نذكر من تفاصيل أحداث الأشخاص التى أمامنا إلا ما يلزم منها للفصل فى الحقوق وفض الأنزعة دون كشف ما لا يلزم كشفه من السوءات والعورات.



[٤]

تكشف المذكرات فيما تكشف عن دور أحمد حسنين بالنسبة للملك فاروق. وكان دورا سيئا ومفسدا. إننا عندما ننظر فى أمر الملك فاروق فى صباه وشبابه الأول، نلحظ أن أحدا لم يهتم بتعليمه وتربيته مما يلزم لمن يؤهل سريعا لحكم بلد ما. لقد ولد فى عام ١٩٢٠ لأبيه السلطان فؤاد وهو فى الحادية والخمسين، فكان من المتوقع طبعا أن احتمال تولى فاروق الحكم صغيرا احتمال ينبغى أن يعمل حسابه، وهو ذكر وحيد لأخوات من الإناث. ومع ذلك لا نجد دلائل لاهتمام كبير بتعليمه اهتماما يتناسب مع إلحاح العجلة المتوقعة. وذهب إلى إنجلترا ليعلمه الإنجليز ويصوغوه. فلم يلبث شهورا حتى توفى والده الملك، فعاد ولم يكمل تعليمه، وتولى الحكم وهو فى نحو السابعة عشرة من عمره. وكان أحمد حسنين أمينا بالقصر الملكى وسمى رائد الملك، منذ كانوا فى إنجلترا وبعد عودتهم، وهو الذى أغوى فاروق بإنجلترا بارتياد النوادى الليلية وحسّن

إفطار الأمة ورجال الطرق والطلبة الشرقيون (رمضان ١٣٦٦هـ)



له حياة الليل، وفعل معه ذلك بمصر، وتهتم هذه المذكرات ببيان هذه الأمور مما يشير إليه المؤلف لئلا تغيب دلالتها على فطنة القارئ.

ويبين من متابعة وقائع أحمد حسنين أنه كان شخصا عابثا لا هيا، وأنه كان مسرفا مقترضا، ينشغل بحسيّاته، ولا يعبأ بمُثل ولا بأصول مما ينبغي أن يعبأ بها من يحيون في مناخ قيادة الأمم أو الحكومات، صوابا كانت مُثلهم أو خطأ، وأن قصته مع الملكة نازلى أم فاروق وزوجة الملك السابق فؤاد، تثير الازدراء على المستوى الخلقى والإنسانى والسياسى، لرائد مؤتمن على صبى صار ملكا بغير أن يكمل تعليمه.

إن أحمد حسنين (١٨٨٩-١٩٤٦) ولد بالقاهرة لعالم أزهرى وأكمل دراسته فى أكسفورد، وتكشف المذكرات أنه كان على صلة باللورد ملنر وزير المستعمرات البريطانى فى ذلك الوقت وهو من ألحقه بالجامعة هناك. وأنه كان يدعى أحيانا لقضاء نهاية الأسبوع فى القصر الريفى للورد ملنر. كما تكشف أنه أثناء الحرب تطوع فى الجيش البريطانى، ثم لما عاد إلى مصر عين سكرتيرا خاصا للجنرال مكسويل قائد جيش الاحتلال، وكان يرتدى ملابس الجيش البريطانى، وأنه اختير مفتشا بوزارة الداخلية المصرية ليعمل تحت إمرة «هورنبلور» كبير المفتشين الإنجليز بالوزارة. وأنه نيط به مفاوضة الثوار الليبيين السنوسيين باسم الإنجليز.

كما أننا نعرف مما لم يرد بالمذكرات أنه عمل سكرتيرا سياسيا للقوات البريطانية التى سافرت إلى صعيد مصر لقمع الحركة الشعبية هناك أثناء ثورة ١٩١٩. وأنه عين فى ١٩٢٤ سكرتيرا بالمفوضية المصرية بواشنطن ثم نقل إلى لندن، ثم عين أمينا بالقصر الملكى فى ١٩٢٥، وأن سفره مع فاروق فى رحلته التعليمية سبب ترك عزيز المصرى لفاروق، وكان موكولا إليه إعداده ومراقبته ليتربى تربية سياسية عسكرية مناسبة.

أحمد حسنين بهذا التاريخ، هو عنصر مرتبط بالسياسة الإنجليزية بمصر، وعلاقته بالإنجليز علاقة سافرة. وهو من أفسد الملك فاروق فى سنى التنشئة الأولى، وساهم فى صرف الصبى عن التعليم وزين له المفاسد.

ويبقى - بعد ذلك - السؤال قائما: لماذا أراد الإنجليز أن يفسدوا فاروقا؟ ولماذا لم يهتموا أن يُنشِّئوه التنشئة الذكية التى تمكنه من السيطرة على البلاد وضمان حكمها لصالحهم؟ ولماذا لم ينشغلوا بتربيته تربية تمكنهم من ضمان استبقاء نفوذهم فى مصر؟ مثلما فعلوا وفعل الفرنسيون فى عدد من ملوك العرب والعجم وأمرائهم، فكانوا مع موالاتهم للمستعمرين على قدر من المعارف والثقافات والإحاطة بفنون الحكم وأساليب الساسة والدهاء بما لا تخفى أمثلته فى بلادنا وبلاد آسيا وأفريقيا.

إن هذا السؤال لا يزال عالقا بذهنى لم يجد جوابا وافيا بعد.

[٥]

فى خضم ما نشر وما ينشر عن الملك فاروق وسياسات القصر الملكى، وعن حياته من مساوئ وسلبيات، تجيء هذه المذكرات لتكشف للقارئ أن القصر الملكى فى ذلك العهد، لم يكن كل رجاله من أمثال أحمد حسنين، ولا من أمثال كريم ثابت وعدلى أندراوس، ولا من أمثال الشماشرجية وأنطون بوللى وغيرهم، ولكن كان فيه رجال وطنيون وشرفاء وعلماء، كانوا قلة ولم يتح لهم التأثير الفعال، ولكن كانوا موجودين وحافظوا على نقائهم حتى النهاية.

ونحن لا نجد فى هذه المذكرات صورة مخالفة لما نعرفه عن الملك فاروق وعن القصر فى عهده، ولكن يتبين لنا من هذه المذكرات - بوضوح - الدور المدمر الذى قام به أحمد حسنين، على المستوى السياسى وعلى المستوى الشخصى الذاتى بالنسبة للملك فاروق. ومنافذ الإنجليز إلى السراى عن طريق أحمد حسنين ثم كريم ثابت وأندراوس. كما نعرف أن حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢، وتدخل الإنجليز لفرض وزارة معينة على الملك، وقد حدثت له «بروفات» فى تعيين وزارة حسن صبرى ثم وزارة حسين سرى فى ١٩٤٠. فعرف ذلك من خلال الوقائع المرواة بهدوء وبسرد شبه محايد.

لا أريد أن أستطرد ولا أن أحول بين القارئ وبين كتابه أكثر من ذلك. ولكننى لا أستطيع أن أترك هذه المقدمة دون أن أشير إلى ملاحظة أجدها مما ينبئ عن سجية فى صاحب المذكرات، فإن كتابة المذكرات تميل بكاتبها عادة إلى أن يتحدث عن نفسه كثيرا، وقد يغلو البعض فى ذلك فيسلط الضوء على نفسه دون غيره، ويضع صورته فى بؤرة ما يكتب عنه، ويصوغ الأحداث منبئا بمآثره، ومدافعا عن مواقفه ومهاجمًا منتقمًا ممن خاصمه أو أضره.

ولكن د. حسين حسنى لا نجد شيئا من ذلك فى مذكراته، ينبئ أسلوبه فى الحديث إن كان لديه من الورع ما جعله يضن بذاته أن تكون محورا أو مركزا، أو أن يكون طرفًا فى وقائع. ونحن لا نعرفه فى هذه المذكرات من خلال حديث جهير له عن نفسه أو عما فعل، ولكننا من خلال التمعن فى وجهته فى سرد الحدث ورؤيته للأفعال، ونحن لا نرى مشاعره ولكننا نتحسسها من نظراته إلى الأمور، وما صنعه إنما يذكره بغير أن يؤكد على جهوده فى صناعته. ولم يذكر عن نفسه إلا بأقل قدر يكون لازمًا للتعرف على شهادته، وكأنه يقف أمام محكمة يقدم شهادته.

كنت وأنا أقرأه أقول لنفسى (أحيانا): ليته استطرد وليته توسع فى ذكر التفاصيل. ولكنه كان ورعًا فيما ألزم نفسه به، على خلاف ما يشد الإنسان من هوى النفوس. فصار شاهدًا عدلاً، لا يطمأن إلى صدق روايته فقط، ولكن يطمأن أيضا إلى سلامة تقريره الموضوعى.

والحمد لله.

الأغانى الشعبية فى صعيد مصر

تكاد مصر أن تكون أحد البلاد القليلة التى لم يجد تراثها الشعبى ما هو جدير به من اهتمام ورعاية فمازالت حركة الجمع والتسجيل تسير على غير هدى وفى استحياء شديد. ويصبح الأمر شاقا على النفس عندما نجد باحثين أوروبيين وأمريكيين يقومون بمثل هذه المهمة التى كان من الضرورى أن يقوم بها الباحثون المصريون.

ومن أوائل الجهود التى بذلها الأجانب فى هذا الصدد ما جمعه الفرنسى «جاستون ماسبيرو» من تراث الصعيد الشعبى فيما بين عامى ١٩١٠ - ١٩١٤ وضمنه كتابه الذى نشره المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة وذلك إبان عمله فى مصلحة الآثار المصرية والكتاب عنوانه «أغانى شعبية مصرية جمعت من مصر العليا بين عامى ١٩١٠ - ١٩١٤» ويتألف من مقدمة بالفرنسية وعدة فصول جمع فيها الأغانى التى سمعها كما قدم لبعضها بمقدمات صغيرة بالفرنسية أيضًا طبعًا.

ويشير ماسبيرو فى مقدمته إلى أنه حاول أن يجمع بعض أغانى المصريين الخاصة وفى الحقول وعلى ضفاف نهر النيل والاحتفالات العامة خلال فترة إقامته الأولى فى مصر ما بين ١٨٨١ و١٨٨٦ إلا أنه أخفق لعدم فهم كلمات الأغانى، وعانى ماسبيرو كثيرًا فى الحصول على مساعد يتحدث اللغة العربية يمكنه أن يدوِّن كل ما يسمعه من أغان إلا أنه تعرف على مواطن سورى أظهر استعدادًا للقيام بهذه المهمة، وساعده اثنان من المفتشين المصريين فى جمع الأغانى من المناطق المختلفة.

وجاستون ماسبيرو (١٨٤٦ - ١٩١٦) عالم أثرى درس علم المصريات فى معاهد فرنسا وعمل مديرًا لمتحف بولاق ١٨٨٠ ثم مديرًا للمتحف المصرى ١٨٩٩ ومديرًا لمصلحة الآثار المصرية وله مؤلفات عديدة عن الآثار والتاريخ المصرى القديم.

ويتألف الكتاب من قسمين يضمان عدة فصول عن أغانى الزواج والختان وأغانى الموت والمآتم وأغانى الحقل والحياة بشكل عام. وقد بذل الدكتور أحمد مرسى والأستاذ محمود الهندى مجهودًا هائلاً للوصول إلى الكتاب وترجمته ثم تقديمه للقراء.



«روشتة» البنك الدولى لتنمية حوض

تحت ستار العولمة

رشدى سعيد

> هذه المبادرة التى كثر الحديث عنها لعدد من السنوات دون أن يعلن عن تفاصيلها التى أخفيت تمامًا عن الناس، بل وعن المختصين من غير ثقاة البنك الدولى ومستشاريه، على الرغم من أن هذه المبادرة ستؤدى، كما سنبين فى هذا المقال، إلى تغيير شامل فى النظام القائم لدول الحوض وستضع الأساس لنظام نيلى جديد يدخل هذه الدول فى النظام العالمى الذى يتم بناؤه اليوم تحت ستار العولمة

صدر فى شهر مايو سنة ٢٠٠١ كتاب صغير بعنوان «مبادرة حوض النيل»، احتوى على بعض تفصيلات هذه المبادرة التى تناقلت الأخبار أن دول حوض النيل قد وافقت على القيام بها بغرض الاستفادة الكاملة لهذا النهر الغنى بثرواته الطبيعية. وصدر الكتاب قبل شهر واحد من اجتماع «الكونزوريتوم الدولى للتعاون من أجل النيل» الذى عقد بمدينة جنيف بسويسره تحت رعاية البنك الدولى وحضور وزراء الموارد المائية لدول حوض النيل وممثلين عن الكثير من المؤسسات الدولية المانحة بغرض الإعلان عن موافقة دول الحوض للدخول فيها والتعاون من أجل تنفيذ برامجها ومشروعاتها وعن استعداد المؤسسات الدولية المانحة لتمويلها. وتقع أهمية الكتاب فى أنه يعد أول وثيقة منشورة بها بعض التفاصيل عن هذه المبادرة التى كثر الحديث عنها لعدد من السنوات دون أن يعلن عن تفاصيلها التى أخفيت تمامًا عن الناس، بل وعن المختصين من غير ثقاة البنك الدولى ومستشاريه، على الرغم من أن هذه المبادرة ستؤدى، كما سنبين فى هذا المقال، إلى تغيير شامل فى النظام القائم لدول الحوض وستضع الأساس لنظام نيلى جديد يدخل هذه الدول فى النظام العالمى الذى يتم بناؤه اليوم تحت ستار العولمة.

ويقع الكتاب فى أربع وخمسين صفحة فهو صغير بكافة المقاييس، ومع ذلك فقد كانت قراءته وفهم محتواه واستخلاص الجزء المفيد وذى الدلالة منه صعبة تحتاج إلى العودة إلى سطوره لمرات عديدة وذلك بسبب الأسلوب الذى استخدم فى صياغته واللغة المعتمدة التى كتب بها والتى امتلأت بالكلمات الجاذبة قليلة المعنى وإن بدت على غير ذلك. وفى الحقيقة فإن هذا الأسلوب الجديد قد أصبح إحدى سمات الكتابة «الأممية» والتى أعتقد أن المؤسسات الدولية قصدت إدخاله واستخدامه بعد أن وجدت أن أفكارها وبرامجها غير مقبولة وتلقى المعارضة على مستوى الشارع مما دفعها إلى التفكير فى أن تجعل هذه الأفكار مبهمة وغير واضحة وصعبة الفهم على عامة الناس حتى يبتعدوا عن الكلام عنها أو حتى الاهتمام بها. وقد بلغ إبهام هذا الأسلوب بل هذه اللغة الجديدة لدرجة أنى وجدت أكبر الصعوبة فى ترجمة صفحة من صفحات هذا الكتاب إلى اللغة العربية بسبب جدة الكثير من الكلمات ووعورة وتعقيد تركيب الجمل. وقد فهمت فى أثر هذه التجربة السبب فى ركاكة ترجمات الوثائق الدولية إلى اللغة العربية وهى التى كلما قرأتها اضطررت للعودة لأصلها الإنجليزى.

المبادرة

يصف الكتاب الذى صدر باللغتين الإنجليزية والفرنسية وأعدته سكرتارية مبادرة حوض النيل أغراض هذه المبادرة بأنها «لمكافحة الفقر ولدفع عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية لحوض النيل من خلال الاستخدام المنصف للمياه المشاعة بين دوله». ويبرز الكتاب ومن أول سطر فيه ضخامة حجم الثروات الطبيعية التى يتمتع بها هذا الحوض الشاسع وأهمية تنميتها لصالح سكانه الذين يزيدون على ٣٠٠ مليون نسمة يعيشون اليوم فى فقر مدقع ومن بين دول حوضه أربع هى فى ذيل قائمة الأمم من حيث الدخل سواء على مستوى الفرد أوالدولة.

ويحتوى الكتاب على تفصيلات برنامج العمل الذى وضع لتنمية هذه الثروات والذى كان نتاج عمل طويل امتد لأكثر من ثمانى سنوات شارك فيه فنيون من دول الحوض وخبراء من البنك الدولى وعدد من المؤسسات الدولية المانحة تبادلوا الآراء حتى وصلوا إلى «رؤية مشتركة» (Shared Vision) وبرنامج استراتيجى للعمل اندرجت تحته سبعة برامج أربعة: منها أساسية تتعلق بالعمل البيئى عبر الحدود والتجارة الإقليمية للكهرباء، وتخطيط وإدارة مصادر المياه، والاستخدام الكفء للمياه فى الزراعة، وثلاثة أخرى مساعدة تتعلق ببناء الثقة وتوطيد الاتصال بين دول الحوض وبالتدريب العملى وطرق توصيل فوائد برامج التنمية الاقتصادية الاجتماعية للناس.

وستتكلف هذه البرامج السبعة خلال مرحلة إعداد مشروعاتها الأولى مبلغ ١٢٢ مليون دولار وستدوم بين ثلاث سنوات وست تبعًا لطبيعة كل برنامج وفيما يلى نبذة عن كل من هذه البرامج:

* العمل البيئى عبر الحدود: يهدف إلى وضع إطار للتنمية المستدامة لحوض النيل ومساندة العمل البيئى الجماعى عبر الحدود. وقدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ٣٩ مليون دولار تنفق على مدى ثلاث سنوات سيقوم بتمويل الجزء الأكبر منها صندوق البيئة العالمى GLObal Environmental Fund (GEF).

* التجارة الإقليمية للكهرباء: بهدف بناء نظام مؤسسى كفيل بالتنسيق بين دول الحوض لنشوء سوق متكامل للكهرباء على مستوى الحوض وقدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ١٢ مليون دولار تنفق على مدى ثلاث سنوات.

* تخطيط وإدارة مصادر المياه: بهدف تقوية قدرة دول الحوض على القيام بمهمة تنمية وإدارة مصادر المياه من منظور إقليمى حتى يأتى استخدامها منصفًا وحديًا ومستدامًا قدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ٢٨,٢ مليون دولار منها ٢١ مليون دولار لبناء ما يسمى «بنظام مساندة اتخاذ القرار» Decision Support System (DSS) بغرض تسهيل التفاهم وإيصال المعلومات بين متخذى القرار فى دول الحوض، وكذلك لتحسين قدرتهم على تحليل بيانات هذه المعلومات واستخراج النماذج منها.

* الاستخدام الكفء للمياه فى الزراعة: بهدف وضع القواعد السليمة والعملية لتيسير وصول الماء واستخدامه الكفء فى عمليات الزراعة. ولهذا البرنامج أهمية خاصة بالنسبة لمعظم دول الحوض التى لازالت تعتبر الزراعة من أهم مصادر دخلها القومى التى تعطيها ميزة نسبية فى التصدير وتتيح لها إيجاد فرص أكثر للعمل، وقدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ٥ ملايين دولار تنفق على مدى ثلاث سنوات.

* بناء الثقة وتوطيد الاتصال بين دول الحوض: بهدف تشجيع التعاون بينها لتنفيذ برامج ومشروعات المبادرة والقيام بحملة دعائية لتبين فوائدها فى وسائل الإعلام المتاحة أو التى يقترح إنشاؤها أو يرى دعمها ماديًا أو بتدريب العاملين فيها. وقدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ٢٠ مليون دولار تنفق على مدى ٥ سنوات.

* التدريب العملى: بهدف بناء الكوادر القادرة على إدارة وتخطيط مصادر المياه وذلك بدعم المعاهد القائمة الخاصة والعامة والمختصة بشئون المياه. وتشجيع الاتصال بين المشتغلين بعلوم المياه فى مختلف دول الحوض وقدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ٢٠ مليون دولار تنفق على مدى أربع سنوات.

* توصيل فوائد برامج التنمية الاقتصادية الاجتماعية للناس وذلك بدعم التعاون بين دول الحوض والتخفيف من أثر التوترات التى يمكن أن تأتى مع شبح المياه أو النزاع عليها. وقدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ١١ مليون دولار تنفق على مدى ست سنوات.



وتحتوى المبادرة أيضًا وفى نفس الوقت على برنامجين فرعيين أولهما يخص دول شرق النيل (مصر والسودان وإثيوبيا) وثانيهما يخص الدول البحيرية الاستوائية (بوروندى والكونجو وكينيا ورواندا وتنزانيا وأوغندة) بالإضافة إلى مصر والسودان. وهددت دول شرق النيل خمس مشروعات تحت برنامجها الفرعى من أجل «التنمية الإقليمية المتكاملة ومتعددة الأغراض لدولها». وحتى يتبين للناس فائدة هذا العمل المشترك فقد تضمنت المشروعات عددًا منها ذات عائد ملموس وسريع يكسب فيه كل طرف مشارك للبدء مباشرة وعلى الفور. أما مشروعات البرنامج الخمس فهى بناء نموذج لتخطيط مشروعات شرق النيل ـ مشروع تنمية حوض نهرى بارو وأكدبو متعدد الأغراض ـ مجابهة أخطار الفيضان ـ ربط السودان وإثيوبيا بخطوط الكهرباء ـ الاستثمار فى تجارة كهرباء شرق النيل ـ الرى والصرف ـ إدارة المياه فى بعض أحواض التصريف.

بناء نموذج لتخطيط مشروعات شرق النيل: وهو على خطوتين، الأولى: سريعة تهدف إلى التعرف على مشروعات مصر والسودان وإثيوبيا لتنمية مصادر مياهها والثانية لتقوية إمكانيات هذه الدول لبناء نموذج يدخل أنسب هذه المشروعات من أجل التخطيط للاستخدام الأمثل لمصادر المياه فيها للصالح المشترك، وقدرت تكاليف الخطوة الأولى بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ دولار والثانية بين ٥ ـ ٦ ملايين دولار.

مشروع تنمية حوض نهرى بارو وأكدبو متعدد الأغراض: وهو مشروع يمكن البدء فيه مباشرة لحفز التنمية الاجتماعية الاقتصادية للإقليم بتكلفة قدرت بمبلغ ٣ ملايين دولار والانطلاق بعد ذلك للقيام بمشروع للتنمية الشاملة لمصادر المياه والثروات الطبيعية وخطوط الملاحة فى إطار من التعاون الإقليمى وفى بيئة مستدامة ومخطوطة وقدرت تكاليف هذا المشروع بأكثر من ٤٠٠ مليون دولار.

مجابهة أخطار الفيضان: وذلك بتقوية التعاون بين دول الحوض وتحسين قدراتها لمجابهة أخطار الفيضان عن طريق إنشاء شبكات الرصد والإنذار المبكر فيها ـ وكذلك رسم الخطط للإقلال أوالتعويض من الخسائر فى

Nile Basin Initiative, Strategic Action Program: An Overview
Prepared by the Nile Basin Initiative Secretareat in Cooperation with the World Bank May 2001.

الأرواح أو الممتلكات التي يمكن أن تأتي مع الفيضانات العالية - والاستفادة من المياه الزائدة فى دول شرق النيل وقدرت تكاليف الخطوات الأولى والخاصة بتقوية التعاون بين دول الحوض بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ دولار أما بناء أجهزة الإنذار المبكر ومشروعات الاستفادة من المياه الزائدة، فقد قدرت تكاليفها بمبلغ يتراوح بين ٧ - ١٤ مليون دولار.

ربط السودان وإثيوبيا بخطوط الكهرباء: كخطوة أولى فى إطار خطة لتشجيع التجارة الإقليمية للكهرباء بين البلدين وتضمين مشروعات توليد الكهرباء فى مشروعات تنمية مصادر المياه متعددة الأغراض - وقدرت التكاليف الأولية لربط السودان وإثيوبيا بمبلغ ١٠ ملايين دولار أما المشروعات بعيدة المدى فقد قدرت تكاليفها بمبلغ ١٥٠ مليون دولار.

الاستثمار فى تجارة الكهرباء بشرق النيل: وذلك بالبدء فى تنفيذ برنامج لتشجيع تجارة الكهرباء وجذب القطاع الخاص للاستثمار فى بناء محطات توليد الكهرباء كجزء متمم لمشروعات ضبط المياه.. وقدرت تكاليف وضع وتوحيد مواصفات هذه التجارة وتحريك الاستثمار فيها بمبلغ ٢,٦ مليون دولار كما قدرت تكاليف عمل الرسوم الهندسية لبعض المشروعات التى ستعرض على المستثمرين بمبلغ ١٠ ملايين دولار قابلة للزيادة - أما التكاليف النهائية لبناء هذه المشروعات فقد تركت دون تحديد أية مبالغ لها بسبب أن بناءها سيتم بواسطة رأس المال الخاص.

الرى والصرف: بهدف تحسينهما لزيادة



إنتاجية الأرض وتوسيع رقعة الزراعة لإيجاد فرص جديدة للعمل وتقوية الجمعيات الزراعية وتحسين البنى التحتية وقدرت تكاليف هذه العمليات بمبلغ ٢ مليون دولار كما قدرت تكاليف إعداد رسوم بعض المشروعات الزراعية التى يخطط لعرضها للاستثمار الخاص بمبلغ ١٠ ملايين دولار قابلة للزيادة.

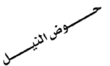
إدارة المياه فى بعض أحواض التصريف: بغرض تحسين مستوى العيش لسكان بعض المناطق المختارة وتعظيم عائد القطاع الزراعى فيها ودراسة عوامل التعرية والترسيب التى تؤثر على خصوبة أراضيها والبحث فى تخفيف الضغط السكانى عليها وإيجاد طرق بديلة تمد السكان بعيش أفضل.. وقدرت تكاليف هذه الدراسات بمبلغ ٢ مليون دولار أما المشروعات التى يمكن أن تتفرع عن هذه الدراسات فقدرت تكاليفها بمبلغ ٤٠٠ مليون دولار.

وبذلك تكون التكاليف المقدرة للإعداد لمشروعات برنامج دول شرق النيل ٤٩ مليون دولار فى الوقت الذى قدرت فيه التكاليف النهائية لبناء هذه المشروعات بحوالى ٥٦٥ مليون دولار بخلاف الاستثمار الذى يؤمل أن يأتى به القطاع الخاص لتنفيذ مشروعات تجارة الكهرباء والزراعة.



أما الدول البحيرية فقد حددت ستة مشروعات مشتركة بعضها جاهز للتنفيذ على الفور هى:

زيادة إنتاجية أراضى الزراعة المطرية وأراضى الزراعة المروية الصغيرة وتحسين تربية المواشى، مشروع التنمية السمكية لبحيرة



إدمارد وألبرت، إدارة أحواض تصريف أنهار مارا والكاجيرا والملاكيزي مالابا، مكافحة ورد النيل، تنمية القوى الكهرومائية وتشجيع التجارة فيها بين الدول.

وقدرت تكاليف الدراسات الأولية لهذه المشروعات التسعة بمبلغ ٣٠ مليون دولار قابلة للزيادة فى الوقت الذى قدرت فيه تكاليف تنفيذ ما يتفرع عن المشروعات بحوالى المليار دولار قابلة للزيادة هذا غير المشروعات التى ينتظر أن يقوم بتمويلها القطاع الخاص.

وبذا تكون جملة ما ينتظر إنفاقه لتنفيذ جميع برامج الرؤية المشتركة لدول حوض النيل فى مرحلتها الأولى والتى قد يمتد بعضها إلى ست سنوات بمبلغ ٢١١ مليون دولار، أما مراحل بناء المشروعات اللاحقة والناجمة عن هذه المرحلة فسيكون للقطاع الخاص دور فى تمويلها وإن كان الأمر سيحتاج إلى إيجاد تمويل بمبلغ يقارب من ١,٦ مليار دولار لاستكمال دراساتها والقيام بتنفيذ بعضها.

وتتولى شئون هذه المبادرة أجهزة متعددة يقف على قمتها مجلس وزراء الموارد المائية لدول حوض النيل وسكرتارية دائمة اتخذت من مدينة عنتيبي بأوغندة مقرًا لها وهيئة فنية لإعداد ودراسة مشروعاتها كما يقف وراء المبادرة «الكونزورتيوم الدولى للتعاون من أجل النيل ICCON» والمكون أساسًا من البنك الدولى وبعض المؤسسات الدولية المانحة مثل الولايات الكندية للتنمية الدولية والبرنامج الإنمائى للأمم المتحدة وغيرها من المؤسسات الراغبة فى المساهمة فى تمويل مشروعات المبادرة والتى يؤمل جذبها للانضمام إليه.. وللكونزورتيوم مجموعة من الخبراء مهمتهم متابعة تنفيذ خطط ومشروعات المبادرة وتقييمها لإبلاغها للمانحين والممولين فى صورة تقارير دورية وكذلك المشاركة فى وضع المشروعات وعرضها على المستثمرين العالميين.

البنك الدولى والمبادرة

أول ما يلفت النظر فى هذه المبادرة الدور الكبير الذى لعبه البنك الدولى فيها واهتمامه فوق العادى بها حتى ليمكن القول وبحق أنها من صناعته، فقد جاءت بإيحاء منه وتوطدت أركانها بفضل مساعدته الفعالة ودفعه لكل دول الحوض للانضمام إليها وقبوله تمويل مشروعاتها والدعوة لها. ويعتبر جمع جميع دول الحوض على طاولة واحدة للعمل المشترك إنجازاً كبيرًا كما يعتبر قبول مصر بالذات دخول البنك الدولى كطرف ثالث فى قضية تنمية حوض النيل أمرًا جديداً وتغيراً فى سياستها التى درجت على إبعاد هذه القضية عن تدخل أى طرف خارجى فيها ويعتبر هذا القبول مؤشرًا واضحًا مع المناخ الجديد الذى تعيشه مصر منذ نهاية الحرب الباردة وظهور النظام العالمى الجديد الذى أقبلت مصر على الدخول فيه وقبول شروطه والتزاماته.. ويمكن القول إن مبادرة حوض النيل هى وليدة هذا النظام وأنها ما كان لها أن توجد إلا فى ظله عندما انفتحت أسواق العالم على اتساعه أمام الشركات عابرة القارات ومؤسسات التمويل الدولية للاستثمار مما فتح الباب للتفكير الجاد فى تنمية حوض النيل وسبر إمكاناته وفرص بناء المناخ المناسب للاستثمار فيه.

ويؤكد تاريخ بدء التفكير فى المبادرة على ارتباطها بنهاية الحرب الباردة فقد وضعت أولى لبناتها فى سنة ١٩٩٢ بعد أقل من سنتين من هذه النهاية.. ففى هذه السنة اجتمع وزراء الموارد المائية لست من دول الحوض (مصر والسودان والكونجو ورواندا وتنزانيا وأوغندة) وبحضور مراقبين من دول الحوض الأخرى تحت رعاية البنك الدولى وقرروا إنشاء لجنة للتعاون الفنى (تكونيل) تكون مهمتها التقدم بمقترحات لإدارة مياه النيل لصالح كل دولة.. وتقدمت اللجنة بمشروع متكامل موّلته الوكالة الكندية والبرنامج الإنمائى للأمم المتحدة وحوّله مجلس وزراء الموارد المائية لدول الحوض إلى البنك الدولى للنظر فى تمويله والذى وافق على ذلك بعد أن فحص المشروع بلجنة من خبرائه قامت بتعديله تعديلاً وافقت عليه دول الحوض فى شهر مارس سنة ١٩٩٨.. ويعتبر هذا المشروع بمثابة الأساس الذى انبنت عليه «الرؤية المشتركة» لمبادرة حوض النيل التى أعلن مجلس وزراء الموارد المائية لدول حوض النيل عن قيامها فى شهر فبراير سنة ١٩٩٩ فى اجتماع عقد بمدينة أروشا بتنزانيا.. وقد تواصلت منذ ذلك التاريخ اجتماعات مجلس وزراء الموارد المائية لدول الحوض واللجنة الفنية المنبثقة عنه على فترات متقاربة حتى أصبحت المبادرة حقيقة واقعة فى فترة قياسية لا تزيد على السنتين إلا قليلاً.

وليس لدىّ شك فى أن اهتمام البنك الدولى بقيام المبادرة وفتح جبهة جديدة للاستثمار العالمى فى أفريقيا إنما يعود إلى قناعته بأنها جبهة واعدة وأن فى تنميتها ما يمكن أن يرفع من مستوى عيش شعوبها فيصبح لها من القدرة الشرائية ما يمكن أن يفتحها أمام سوق التجارة العالمية.. وإنى أخشى أن تكون هذه القناعة مبنية على غير أساس فالمتمعن فى المبادرة سيجد هذه الجبهة على عكس ما تبدو ولأول وهلة كبيرة وبلا نهاية.

إلا أنها فى الحقيقة صغيرة وقليلة الفرص ولا تتناسب مع ما يمكن أن يستنتجه الناظر إلى مساحاتها الشاسعة والبكر والحاملة للكثير من المصادر الطبيعية.. فالاستثمار الذى تتيحه المبادرة فى دول الحوض هو فى مجال الزراعة والكهرباء وهما مجالان يصعب تصور أن تأتى تنميتهما فى بلاد الحوض بعائد مجز يمكن أن يجذب كبار المستثمرين.. فالزراعة على وجه العموم والمروية منها على وجه الخصوص أصبحت من الأنشطة الاقتصادية التى يستحيل تصور أن تكون لها قدرة تنافسية فى الأسواق أمام الزراعة المطرية السائدة فى معظم بلاد العالم والتى لا يحتاج إيصال المياه إلى أراضيها لنفقات بناء السدود وشق القنوات ورفع المياه.. أما فى مجال الكهرباء فعلى الرغم من أن فرص تنميتها كبيرة جداً وعلى الأخص فى دول المنبع إلا أن تسويقها سيكون صعباً بسبب أن سوقها المحلية صغيرة جداً لا يمكنه استيعابها وبسبب صعوبة تصديرها لارتفاع تكلفة نقلها للمراكز الصناعية المستهلكة للطاقة والتى توجد على بُعد آلاف الكيلو مترات من مصادر توليدها.

وإذا كان الإنفاق على المبادرة لن يؤدى إلى فتح أبواب كثيرة لرأس المال العالمى للدخول فى أفريقيا فلعله يفتح الباب أمام رأس المال المحلى والذى قد يجد فيما تم بناؤه من بنى تحتية حافزاً للاستثمار ورفع مستوى عيش أهل الحوض. وهذا أمر لو تم تحقيقه فسيكون بالإضافة إلى نبله وفائدته لأهل الحوض مفيدًا أيضًا لرأس المال العالمى الذى اكتتب فى بناء هذه البنى التحتية والذى سيجد فى القدرة الشرائية الجديدة للمصريين من سكان الحوض مجالاً لفتح أسواق جديدة لتصريف بضائعه.. مع أن تحقيق هذا الأمل لن يكون ممكناً إلا فى إطار فلسفة جديدة للتنمية تأخذ فى اعتبارها الظروف المحلية للمنطقة وحجم سوقها ومستوى تدريب أهلها وهى فلسفة لا يبدو أن وضعها ينال اهتمام أحد.. فكل عمليات التنمية التى تتم فى بلاد العالم النامى مبنية فى الأساس على نقل التقنيات العالية وتطبيقها فيها على نفس مقاييس العالم الصناعى وهى عمليات أثبتت التجربة فشلها وأنها كثيرا ما أدت إلى تشريد وإفقار السكان المحليين.. ولا يستطيع القارئ لما نشر حتى اليوم عن المبادرة أن يعرف بالضبط نوع التنمية التى ستأتى بها إلى بلاد الحوض، فإذا كانت حسب ما تشير كل الدلائل وما يستشفه المتمعن فيها، ستقوم حول بناء السدود وتوليد الكهرباء على مقاييس واسعة وبناء المزارع الشاسعة والممكينة فإنها لن تحل مشكلة أحد ولن تفتح سوقا جديدة وأغلب الظن أنها ستؤدى إلى المزيد من الفقر.



وإذا صح استنتاجنا من أن هذه المبادرة لن تتيح فرصًا كثيرة أمام رأس المال العالمى للاستثمار أو لفتح أسواق جديدة فكيف يمكن تبرير هذا الإنفاق الكبير الذى أجزلته مؤسساته عليها وهذا الجهد الفائق الذى أعطاه البنك الدولى لتمريرها؟ وللرد على هذا السؤال فى نظرى هو أن هذه المبادرة حسنة فى ذاتها وبغض النظر عن نتائجها ففى القيام بدراساتها خير وفير للمكاتب الاستشارية العالمية. وفى استمرارها خلق لوظائف دولية جديدة تزيد من أهمية وقوة المؤسسات عابرة الدول. وينبغى أن نبين هنا أن هذه المؤسسات الدولية التى أنشئت لخدمة رأس المال العالمى قد أصبحت اليوم قوة فى ذاتها لها جدول أعمالها الخاص والمستقل وموظفوها الكثيرون والمنتشرون فى كل أرجاء الأرض. وتقع مصالح المكاتب الاستشارية وشركات المقاولات فى إبداء المشورة وتصميم وبناء المشروعات العملاقة من حيث هى ودون اعتبار لجدواها أو لفائدتها أو لما سوف تأتى به من آثار فأرباحها تجنى وقت بنائها.. وأفضل المشروعات فى هذا الميدان ما تتبناه الدول أو ترعاه المؤسسات الدولية فالحساب فيها قليل والأرباح فيها وفيرة والأمثلة فى هذا المجال كثيرة إذ لا يكاد المرء أن يتلفت فى أى مكان دون أن يجد مثالاً عليها.. أما المؤسسات الدولية فقد أصبحت ذات قوة ومصالح ذاتية بعد أن زاد عدد موظفيها الذين ينالون المهايا العالية ويحظون بامتيازات كثيرة زيادة ضخمة. ومع الأخص خلال العقدين الأخيرين بنشوء أو تعظيم دور مئات المؤسسات والصناديق والبرامج والمنظمات والهيئات والوكالات الدولية وبظهور خدمات ومهام عابرة للدول كعمليات حفظ السلام ومراقبة خطوط الهدنة وإدارة العقوبات الدولية ورعاية اللاجئين ومكافحة الإيدز وغير ذلك من العديد من المهام الجديدة.. ولاشك أن مبادرة حوض النيل ستزيد من أهمية هذه المؤسسات وستضيف موظفين جددًا لدعم البيروقراطية الأممية بكل ما تأتى به من عقد الاجتماعات والندوات والمؤتمرات وورش العمل والسفر الدائم والتنقل بين البلاد وتشغيل الخبراء.

أثر المبادرة على دول الحوض وعلى مصر

ثانى ما يلفت النظر فى هذه المبادرة هو شمولها واحتواؤها على برامج متعددة تتعدى حدود الدول ذات أهداف بعيدة المدى ولو تم تنفيذها وبناء مشروعاتها فإنها ستؤدى إلى بناء نظام نيلى جديد يعيد تشكيل دول الحوض ودور كل منها فى الاقتصاد الإقليمى والعالمى.. وإذا نحينا جانبا ذلك الجزء المتعلق بتسويق هذه المبادرة والقيام بحملات الدعاية عنها والتى ترد تحت شعارات «بناء الثقة» و«مد جسور التعاون» بين دول الحوض أو «توطيد وسائل الاتصال» بينها أو تحت بندى «التدريب» أو

يقف وراء المبادرة «الكونزورتيوم الدولى للتعاون من أجل النيل ICCON» والمكون أساساً من البنك الدولى وبعض المؤسسات الدولية المانحة مثل الولايات الكندية للتنمية الدولية والبرنامج الإنمائى للأمم المتحدة وغيرها من المؤسسات الراغبة فى المساهمة فى تمويل مشروعات المبادرة والتى يؤمل جذبها للانضمام إليه



«تقوية الأجهزة للعمل المشترك» وذلك الجزء الآخر والخاص بالمشروعات الصغيرة ذات الطابع الإنسانى والتى تهدف إلى تخفيف المعاناة عن العاملين فى مجال الزراعة وتربية الحيوان فى بعض أحواض تصريف النهر المزدحمة بالسكان والفقيرة فى الموارد فإننا نجد أن عصب المبادرة يقع فى مجالين أساسيين هما التجارة فى الكهرباء وتنمية مصادر المياه للاستخدام المشترك بين دول الحوض.. وهما مجالان لا يمكن تصور قيام مشروعاتهما دون ضبط مياه النهر وإقامة السدود الكبيرة عليه.. ومع ذلك فإنك لا تجد هاتين الكلمتين (السدود والضبط) تردان فى أى سطر من سطور الكتاب فقد تفادى كاتبوه الكلام عنهما أو إبداء أى ذكر لهما بسبب الحساسية الشديدة الخاصة بموضوعهما، وتعود هذه الحساسية فى الأساس إلى أن عمليتى ضبط المياه وبناء السدود لابد أن تتناولا موضوع إعادة توزيع حصص المياه بين الدول وموضوعها بمس المصالح الأساسية لكل دول الحوض وعلى الأخص دولتى المصب ومصر بالذات والتى تتعلق حياتها بل ووجودها ذاته به. وفى رأيى أن من أهم أسباب تطويل مدة المرحلة الأولى من المبادرة إلى ما بين ثلاث وست سنوات والتركيز على حملات الدعاية فيها هو لإعداد الرأى العام بل والحكومات ذاتها لقبول القيام بهذه المشروعات وما يستتبع ذلك من العيش فى نظام نهرى جديد تكون فيه المياه منضبطة والحصول عليها مقننًا وبسعر يحكمه السوق.

وكما سبق القول فإن تفصيلات مشروعات المبادرة التى ينوى القيام بها لتحقيق أهدافية برامجها لم تنتشر بعد، لذا فمن الصعب التنبؤ بأى نوع من الدقة مع ما يمكن أن يطول دول الحوض أو سكانها من هذه المبادرة ـ ومع ذلك ودون الدخول فى التفصيلات وبغض النظر عن فوائد أو آثار ما يمكن أن يأتى منها فإن من الممكن للمرء أن يستشف من روح المبادرة وأهدافها ومحاسبتها من دراسات قام بها خبراء البنك الدولى أن مشروعات هذه المبادرة لابد أنها ستكون كبيرة ومؤثرة فليس هناك من طريق آخر لتوليد الكهرباء على مقاييس تسمح بالإتجار فيها عبر الحدود أو بناء المزارع الشاسعة التى يمكن أن تجذب المستثمرين إلا ببناء السدود الكبيرة ـ وإذا تم بناء هذه السدود على منابع النهر وأصبح التخزين يتم فيها فسينال مصر أكبر الضرر وستروح منها مفاتيح النهر وتفقد مركزها المتميز ويتهدد أمنها المائى وكلها هواجس تثير أشد الإزعاج للمسئولين فى مصر والذين يحاولون إبعاد شبحها عنهم بالإيهام بأن لديهم مشروعات بديلة تحمى مركز مصر ومصالحها وصفها أحد خبراء المياه ممن يكثرون التردد على البنك الدولى وورش عمله ومكررًا ما جاء على لسان وزير الموارد المائية المصرى بأنها «جذابة توفر الاستهلاك وتقلل خسارة المياه بالتبخر والنتح». وحتى تستبين لنا طبيعة هذه المشروعات «الجذابة» فإننا لن ننزلق فى طريق الأوهام وسنبنى استنتاجنا على ما تمليه ظواهر الأمور وتاريخ العلاقات الدولية واستقراؤنا لواقع الحال.



وهناك مشروع سبق أن قدمه إلى البنك الدولى أحد الخبراء الدوليين ممن يستعين بهم البنك الدولى ويعمل اليوم ضمن مجموعة خبراء الكونزورتيوم الدولى للتعاون من أجل النيل أعتقد أنه سيكون محل نظر منفذى المبادرة لتوافق أهدافه معها.. ويتلخص المشروع فى بناء سد لحجز المياه فى إثيوبيا وتنظيم خروجها من الخزان الذى سيتكون أمامه بانتظام وعلى مدار السنة بدلاً من النمط الحالى الذى يأتى بمعظمها فى موسم واحد.. ويتارجح تصرف النهر فى الوقت الحاضر حول المليار متر مكعب شهريا فى الشهور بين يناير ويونية ثم يرتفع فجأة حتى يصل إلى ١٦ مليار متر مكعب فى شهر أغسطس ثم يعود إلى أقل من ٢ مليار متر مكعب فى شهر ديسمبر. ويأتى لذلك أكثر من ٨٥٪ من الماء فى الأشهر الأربعة يولية إلى أكتوبر. ولو أن إثيوبيا بنت السد المقترح على النيل الأزرق وحجزت لنفسها ٦,٥ مليار متر مكعب فى السنة فإنها ستطلق الباقى بمعدل ٣,٦ مليار متر مكعب فى الشهر (بعد حجز ٣٪ من الماء سيضيع فى البخر فى هذا الخزان) لاستخدامات مصر والسودان.. وإطلاق الماء بانتظام من إثيوبيا سينهى ظاهرة الفيضان والذبذبات التى تأتى معها مما سيحمى السودان من غوائل الفيضانات العالية ومما سيقلل من ارتفاع الماء ببحيرة ناصر إلى الحد الذى سيقلل البخر منها إلى أقل قليلاً مما ستأخذه إثيوبيا من مياه، وبالإضافة إلى ذلك فإنه سيمنع وصول الطمى إلى كل من مصر والسودان مما سيرفع من كفاءة سدود السودان على النيل الأزرق والتى يتجمع فيها الطمى فى الوقت الحاضر ويقلل من سعتها كما سيساعد مصر على الحفاظ على بحيرة ناصر من الإطماء. ومن المعروف أن الطمى الذى يحمله الفيضان فى الوقت الحاضر يتجمع عند الشلال الثانى على حدود مصر والسودان بكميات قد تعيق سريان النهر.

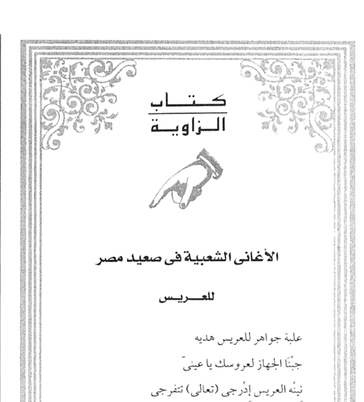
وعلى الرغم من كل هذه الفوائد التى ذكرت فإن بناء السد لن يكون مجدياً بسبب صعوبة بنائه على النيل الأزرق العميق وذى الانحدار الكبير مما سيجعل تكلفة بنائه كبيرة لا تبرر الفوائد التى يمكن أن تجنيها إثيوبيا منه فلم يعد عائد الزراعة المروية كافياً لتبرير مثل هذه التكلفة كما أن توليد الكهرباء بكميات تفوق بكثير القدرة الاستيعابية للدولة سيؤدى إلى تصديرها لخارج الحدود وهو أمر قليل الفائدة بل لعله أمر ضار لما يتركه تصدير الطاقة من أثر سيئ على مستقبل الأمة لأنه سيحرمها ولأجيال قادمة من استخدام أحد أهم مصادرها الطبيعية فى عملية التنمية. وبالإضافة إلى ذلك فإن مثل هذه السدود التى تقام عند منابع النهر عادة ما تكون لها آثار جانبية ضارة فمنع وصول الطمى إلى مصر والسودان سيتسبب فى تعرضهما لأخطاء كبرى ستفوق بكثير ما يمكن أن يجنياه من فوائد لأن حجز الطمى سيغير من نظام النهر وسيطلق جزءا من طاقته التى كان يصرفها فى حمله فتزيد قدرته على النحر سواء على جانبيه أو لتعميق مجراه مما سيجعله نهرا صعب المراس ستحتاج حماية جسوره والأراضى التى تحفه والمنشآت المقامة عليه إلى أكبر الجهد وأعظم التكلفة.

أما أكبر البلاء الذى يمكن أن يحمله بناء مثل هذا السد فسيحل بمصر التى ستروح بعد بنائه أهمية السد العالى فى تخزين المياه وتوليد الكهرباء وستخسر بذلك أحد أهم رموز إرادتها الوطنية التى دخلت الحرب ووقفت شامخة أمام عتاة المستعمرين من أجل بنائه وأحد أهم أدواتها لتثبيت أمنها القومى. فبناء سد بإثيوبيا سينقل عملية التخزين للمياه إليها وسيجعل مصر رهينة لهذه الدولة، وهو المصير الذى كانت مصر وعلى طول تاريخها الحديث وحتى ظهور المبادرة تسعى جاهدة لكى تتفاداه بالحفاظ على الوضع القائم، ومنع تدخل أى طرف ثالث فى أمور النهر إن أمكنها ذلك أو احتواء آثار هذا التدخل إن لم تستطع منعه. وللحق فإن دول أعلى الحوض لم تكن راضية عن الوضع القائم الذى كانت تنظر إليه على أنه فى صالح مصر، وأنه يعطيها نصيباً أكبر من مياه النهر ـ وكانت إثيوبيا أكثر دول المنبع شكوى بسبب أن هذا الوضع كان يحرمها من أن تكون لها حصة من المياه التى تنبع منها والتى كانت مصر والسودان قد اقتسمتاها دون استشارتها فى اتفاقية سنة ١٩٥٩ ـ وكانت مصر وحتى ظهور المبادرة تواجه هذه الشكوى فى اتجاهين: الاتجاه الأول هو فى تبرير حصولها على حصتها الكبيرة من المياه بسبب أن النيل هو مصدرها الوحيد منها وأنه إذا أريد فتح ملف إعادة توزيع مياه النيل فينبغى اعتبار جميع مصادر المياه المتاحة لكل دولة.. ومن المعروف أن للسودان وإثيوبيا مصادر كثيرة للمياه بل وأنهارا أخرى غير النيل بعضها يصب فى البحر الأحمر وبعضها يصب فى المحيط الهندى والكثير من هذه الأنهار غير مُستغَل وربما كان النظر فى تنمية أحواضها أعظم فائدة وأقل كُلفة فسهول الكثير منها خاصة تلك التى تصب فى المحيط الهندى أكثر انبساطاً مما يجعل ضبط مياهها سهلاً بالمقارنة بروافد النيل التى تنبع من المرتفعات الإثيوبية وتمر فى حدائق عميقة ذات انحدار كبير وحاملة للكثير من الرواسب.

أما الاتجاه الثانى الذى كانت مصر تسلكه من أجل الاحتفاظ بالوضع القائم فقد كان فى احتواء أى تجمع لدول الحوض وتبنيه وإبعاده عن تدخل أى طرف ثالث إن أمكن ذلك وأخذ زمام المبادرة فيه على أمل أن تجعله متوائماً مع الوضع القائم.. وكانت مصر تأخذ زمام المبادرة للاشتراك فى كل لجنة أو نشاط مشترك لدول الحوض ولعبت دوراً هاماً فى إقامة عدد من التجمعات لدول الحوض حول مشروعات بعينها وأفلحت فى عزل إثيوبيا التى كانت ترفض من حيث المبدأ الدخول فيها.



على أن هذا التوجه قد تغير كما سبق أن بينت مع نهاية الحرب الباردة عندما قررت مصر الدخول فى النظام العالمى الجديد الذى جاء مع هذه النهاية وقررت مصر فى إطار هذه السياسة الجديدة أن تترك زمام المبادرة فى شئون النهر إلى المؤسسات الدولية لكى تعيد تنظيمها يتواءم وأحوال هذا النظام الجديد.. والمبادرة التى لخصت أهم عناصرها ومشروعاتها فى هذا المقال هى تجسيد لهذه المواءمة والتى لابد أن القارئ قد لاحظ أنه ليس فيها ما يمكن لمصر أن تكون سعيدة به.. فكلها موجهة لإنهاء الوضع القائم للنهر والذى كان فيه لمصر وضع متميز والذى كانت مصر تعمل جاهدة للحفاظ عليه. أما الوضع الجديد الذى سيحل محله، لو قدر أن يقام، فليس فيه لمصر دور يذكر بما فى ذلك سلطتها على تخزين مياهها لأعوام قادمة فقد سحب منها هذا الحق وأعطى لإثيوبيا وبذا تحقق للنظام العالمى الجديد أن يمحو كل أثر يمكن أن يذكر المصريين بفترة المد الوطنى التى أمكن فيها للدول النامية الوقوف شامخة أمام الاستعمار وأمكن لمصر أن تبنى سدها العالى وصناعاتها الوطنية. كما أنه لايبدو أن الوضع الجديد الذى ستجيئ به المبادرة سيأتى لمصر بأى من الفوائد فليس فيها ما يمكن أن تضيفه إلى اقتصادها فالطريق يكاد أن يكون مسدوداً بالكامل أمام الاستفادة منها فى مجاليها الأساسيين ففرصها فى زيادة مياهها معدومة بل وعلى العكس من ذلك فكل الدلائل تشير إلى أنها ستقل كما أن إمكانيات توليد الكهرباء



الأغانى الشعبية فى صعيد مصر

للعريس

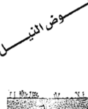
علبة جواهر للعريس هديه
جبْنَا الجهاز لعروسك يا عينىّ
نِينْه العريس إدْرجى (تعالى) تتفرجى
تلقى العروسه فى المدينه جايه

* * *

عريسنا من دَلَعُه دخل الحمّام
العبد شايل له البَدْلَه واسمه مرجان
افرشوله الأوده . . دا العريس موده
يلقى العروسه حاجه حلوه بعيون غزلان
يلقى العروسه حاجه حلوه بنهود رمان

* * *

وقابلنى العريس العايق
لبَاس الفروز (من الأحجار الكريمة) الرايق
وخطبنا العروسه الحلوه
أفرَّحه وأنا قلبى رَايق
يا رب تحفظ شبابه
وتْفرَجها ع المتضايقْ
يا من مشيته تعجبنى
وكلامه يلدّ عليّه
وجهاز عروسه جابهله
متّمن يا رب تتم عليّه
دا كله شرَايْة ماله
ولا جبَا (ضريبة) وهديه





بداخل حدودها تكاد أن تكون معدومة. وأنى أخشى أن يكون غاية ما سيصيبها من هذا الوضع الجديد هو بعض الوظائف الأممية عالية المرتبات والامتيازات والتى غالباً ما ستكون من نصيب بعض كبار المشاركين فيها بعد أن يحالوا إلى المعاش أو يتركوا مناصبهم فى مصر.

دول الحوض والنظام العالمى الجديد

ثالث ما يلفت النظر فى هذه المبادرة هو الدور السلبى الذى لعبته دول الحوض فيها والتى يبدو وكأنها تركت أمور تنظيم النهر الذى تشاطئه لخبراء البنك الدولى دون اكتئاب يذكر منها. فالمتأمل لبرامج المبادرة يجد أنها تكاد أن تكون خلواً حتى ولو من شبهة بصمة خبراء دول الحوض عليها فهى تكاد أن تكون منقولة من صورة نموذجية وضعها خبراء البنك الدولى للأنهار الدولية دون تصرف كبير فجاءت خلواً من البرامج التى تعالج المشاكل الخاصة بالنهر أو بدوله كتلك التى تتعلق بمستقبل الزراعة المروية والملايين من الأنفس التى تتعايش منها أو تلك التى تعالج طرق الاستخدام المحلى للطاقة بدلاً من الإتجار فيها أو تصديرها.. كما جاءت ببرامج ليس لها موضع بالنسبة لظروف النهر كبرنامج دراسة البيئة عبر الحدود والذى أعطيه على سبيل المثال لا الحصر كبرنامج منقول قد تكون له أهميته فى أحواض الأنهار الدولية التى تشق بلاداً صناعية أو كثيفة الزراعة مما قد يتسبب فى الإضرار بها ومما يجعل من مشاكل التلوث عبر الحدود أمراً ملحاً ومحتاجاً إلى الدراسة والرصد والعلاج. أما فى حوض النيل حيث لا توجد فى أى من دول المنبع صناعة تذكر أو نشاط يمكن أن يسبب التلوث عبر الحدود فإن دراسة هذا الموضوع تكون سابقة لأوانها ولن تكون لتوصياتها أو نتائجها أية فائدة حتى فى المستقبل البعيد.

وفى الحقيقة فإنه ليس هناك من سبب مقنع يبرر هذا الموقف السلبى لدول الحوض لأن المبادرة كانت ستكون أكثر فائدة لجميع المشاركين فيها بما فى ذلك البنك الدولى والمؤسسات الدولية نفسها لو أن حواراً بين أنداد قد حدث بين أطرافها. وإذا كان مفهوماً ألا يكون لأمر المشاركة الفعالة فى صياغة المبادرة أسبقية أو إلحاح عند دول المنبع بسبب أن أى تنمية فيها ومهما كان شكلها ستكون ذات فائدة أو على الأقل غير ضارة فإن الأمر يصبح عسير الفهم فى حالة دول المصب وعلى الأخص فى حالة مصر لأن مثل هذه التنمية سيكون لها أكبر الأثر عليها - ولمصر من التاريخ والخبرات فى مجال العلاقات الخارجية ودراسات النيل ما كان حرياً أن يعطيها الثقة فى النفس لكى تشارك بندية كاملة فى صياغة المبادرة بل وأن تكون رائدة فى المساهمة فى تكييف مسار البنك الدولى وسياساته لصالحها - فهذه السياسات هى فى النهاية من وضع قلة من الخبراء وهى ليست بأى حال من الأحوال نهائية وقدرية كما يظن الكثيرون.



لقد دخلت مصر النظام العالمى الجديد واشتبكت مصالحها مع العالم على اتساعه وقبلت قواعد هذا النظام والتزاماته ودخلت مع أوروبا فى شراكة ومع الولايات المتحدة فى تحالف استراتيجى ومع دول الحوض فى مبادرة وهذا الاشتباك لو أُدير إدارة حسنة وشاركت فيه بدلاً من أن تكون متلقية له وقامت بنفسها بتنفيذ برامجه لجَنَت منه أكبر الفوائد.. وإذا كان لنا أن نأخذ العبرة من تجارب الأمم التى نجحت فى الاستفادة من انفتاحها على العالم لوجدناها تلك التى تفاعلت مع ما أتى به هذا الانفتاح والتى قامت بنفسها بتنفيذ برامجها المشتركة كما حدث فى حالتى أوروبا واليابان اللتين استطاعتا تعمير بلادهما والانطلاق باقتصادهما فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بفضل اتخاذهما زمام المبادرة فى تشكيل وتنفيذ برنامج المعونة الكبير الذى قدمته الولايات المتحدة لهما.. وبنفس التوجه استطاعت بعض بلاد الشرق الأقصى أن تدخل عالم الانفتاح الفسيح الذى أتاحته لها استثمارات الدول الغربية التى أسستها فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين.. أما الدول التى تلقت المعونات وتركت زمام المبادرة فيها لمن منحوها فقد بددت فرحها وراحت أموالها دون أن يظهر لها أثر.

قدر مصر أنها واحدة من دول حوض نهر تشاركها فيه دول كثيرة ليس لأى منها نفس حاجة مصر إلى مياهه وليس لأى منها نفس محورية الدور الذى يلعبه فى حياتها وليس لدى أى منها أزمة فى المياه يمكن أن تدفعها لإثارة أية مشكلة مع مصر.. ومع ذلك فقد كانت قضية مياه النيل مثارة وعلى الدوام فهى إحدى أدوات الضغط على مصر التى كانت تحركها اعتبارات سياسية خلال فترة الحرب الباردة واعتبارات اقتصادية فى الفترة التى تلت نهاية هذه الحرب والتى تميزت بعولمة الاقتصاد والرغبة فى فتح جبهات جديدة للاستثمار.. وقد استطاعت مصر خلال فترة الحرب الباردة أن تجابه هذه الضغوط باقتدار وأن تحافظ على أمنها المائى بفضل تبنيها لسياسة مائية رشيدة بنتها على أسس فنية راسخة ودعمتها بسياسة خارجية ديناميكية.. أما فى فترة ما بعد الحرب الباردة فإن مصر لا يبدو أنها قد وجدت طريقها بعد مجابهة ما جاءت به هذه الفترة من تحديات أو التزامات. ■

من الرصاصة إلى صندوق الانتخابات

محمد الرميحي



تبدأ الدورة الثانية للرئيس الإيراني حجة الإسلام محمد خاتمي فيما سمي بالجمهورية الثالثة في إيران، في جو أهدأ من سابقتها التي بدأت قبل أربع سنوات، في السابق كان هناك حماس للتغيير، أما اليوم فإن هناك حماسًا لإبقاء الحال على ما هو عليه تحت تأثير الوضع القائم بين إقدام على التغيير و إحجام عنه في جمهورية إيران الإسلامية التي يمتد عمرها اليوم لتدخل في بداية عقدها الثالث.

إلا أن الثورة الإيرانية لقربنا منها لا نستبين أهميتها وصيرورتها التاريخية رغم قصر المدة التي مضت على اندلاعها، و قد لا نتبين قدرتها على الفعل التاريخي في منطقتنا، فهي تكاد تكون قد غدت حدثا يوميا عاديا للبعض بينما تأثيرها على المدى الطويل ليس كذلك، فهي ربما تكون تاريخيا آخر ثورة كبرى في عصرنا، ولم يسبقها في تاريخ الشرق الأوسط الحديث من أحداث كبار غير سقوط الدولة العثمانية، وقيام إسرائيل، وقد تكون في صيرورتها واجتهادها السياسي والاقتصادي قدوة للكثير من حركات التغيير القادمة.

وتعتقد السيدة روبن رايت، وهي صحفية أمريكية، زارت إيران قبل وبعد الثورة وعرفت البلد والناس عن قرب، وراقبت عن كثب التغيرات التي مرت بها، والعنف الذي صاحبها، وقدرتها على التواؤم مع الظروف السياسية، تعتقد أن الثورة الإيرانية هي كما قالت في عنوان كتابها (آخر الثورات الكبرى: الاضطراب والتغيير في إيران)، والذي صدر في العام الماضي، بعد أن أصدرت في السابق كتابها الأول حول إيران وكان بعنوان(باسم الله: عشرية الخميني في إيران). والسيدة رايت صحفية غطت أحداث الشرق الأوسط لثلاثين عاما لصحف كبرى أمريكية وبريطانية، وحازت مجموعة من الجوائز الصحفية، بسبب عملها ذاك عاشت في بيروت وطهران ومرت على القاهرة و عمان وعواصم عربية وشرق أوسطية أخرى، وهي قريبة إلى التعاطف مع الثورة الإيرانية، ولكنها ناقدة لها مبينة أماكن ضعفها وأيضا قوتها.

ترى رايت أن إيران في العشرين سنة الماضية منذ الثورة قد حدث لها تغيير جذري، وثوري بالمعنى الفني للكلمة، وليس المجازي الذي تعود عليه العقل العربي في تسمية الانقلابات العسكرية المختلفة بـ(ثورة)، كما أن تأثير ما حدث لإيران لم يبق حبيس حدودها، إلا أننا حتى الآن لم نستبين تأثيرها العميق في مسيرة التحولات في الشرق العربي و الإسلامي، فهي في صيرورتها تقدم نفسها على أنها ثورة حقيقية كما عرفنا التاريخ لمسيرة الثورات، أي أنها تقدم أيديولوجيا وطريقة حكم يعتمد في شكل ما على التجربة و الخطأ، وتبحث في الأصول عن مواءمة مع الحديث والمعاصر.

فهي كثورة ربما تضاهي ثورتين قدمتا أيديولوجية ما وأثرتا في محيط كبير من البشرية، الأولى هي الثورة الفرنسية التي أطاحت بحكم البوربون، والثانية هي الروسية (البلشفية) التي أطاحت بحكم آل رومانوف.

اليعاقبة الذين أتوا إلى الحكم في أعقاب الثورة الفرنسية، قدموا إلى العالم فكرتي المساواة والحرية اللتين أصبحتا منطلقا لقاعدة الديمقراطية الحديثة، أما البلاشفة الذين أطاحوا بحكم آل رومانوف في روسيا القيصرية، فقد قدموا للعالم فكرتي المجتمع اللاطبقي العلماني والعدالة الاقتصادية، هذه الأفكار سرت في مناطق كثيرة من العالم سير النار في الهشيم، وتبنتها شعوب ودول من أقصى الأرض إلى أقصاها، وكذلك تأتي الثورة الإيرانية، لتقدم تجربة في محيطها العربي والإسلامي، تتجه إلى النضج والتأثير الذي يفوق العاطفة كي يتمكن من العقل، ويتجاوز الحدث ليصل إلى الأمثولة.

الأفكار التي جاءت بها الثورتان الفرنسية و الروسية ساعدت في وقت لاحق للإطاحة بديكتاتوريات صغيرة وكبيرة في كثير من مناطق العالم، كما مثلت هذه الأفكار للأنظمة التي جاءت على غرارها الأمثولة الطوباوية التي تسعى إلى تحقيقها، بعضها القليل نجح، والكثير منها فشل، وتسارعت الأمور بنمو الطلب على المشاركة في الحكم من الشعوب المختلفة، خاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وعلى الرغم من الفشل في التطبيق لبعض التجارب (الثورية) التي انطلقت في طلب الديمقراطية والاشتراكية على الشكل الليبرالي أو الاشتراكي في بعض مناطق العالم، ولكن على الرغم من ذلك انغمست شعوب العالم في ممارسة الثورات الشعبية، من الصين إلى كوبا في الأربعينيات والخمسينيات، ومن الجزائر إلى زامبيا في الستينيات و السبعينيات، وأخيرا تخللت الديمقراطية الليبرالية نسيج دول وشعوب الاتحاد السوفيتي السابق، فتحولت من نظام شمولي إلى تعددي أو هي تحاول ذلك، ووصلت الديمقراطية إلى جنوب أفريقيا التي حكمتها أقلية بيضاء بالحديد والنار لفترة طويلة. كل ذلك هو نتيجة أن التجربة الإنسانية تقود إلى ترجيح انتشار تأثير شحنات الأفكار التي أطلقت في الفضاء السياسي العالمي وأمثولة الممارسات التي نضجت، على طلقات الرصاص و العنف والقمع و الشمولية، وبالمثل فإن التطور الذي قد يقود إلى نظام يقدم للشعب الحرية و الخبز تحت مظلة إسلامية، هو مثال يمكن أن يحتذى، لذا فإن الاجتهادات الموائمة هي التحدي الأكبر لمسيرة الثورة الإيرانية.

إيران كمثال

تقدم إيران اليوم أمثولة أخرى، فلقد أطاحت الثورة الإيرانية بحكم ملكي استمر حوالي ألفين وخمسمائة سنة (كما يعتقد المؤرخون) وألّفت بين مفهومين لم يكن متصورا أن ينصهرا في السابق، هما (الجمهورية) و (الإسلامية) في بوتقة واحدة. وفي مسيرتها السابقة بادرت وعملت، مثل غيرها من الثورات الكبيرة، برغبة عارمة في أن تقوم بـ (تصدير) هذه الثورة. نجحت قليلا وفشلت كثيرا، في الوقت الذي خاضت فيه في الداخل صراعًا طويلاً للاستقرار ولكن التجربة تفرز أيضا بعض الاجتهادات الجديدة في الممارسة و في التفكير في السنوات العشر السابقة، منها الالتفات إلى تطوير الخطاب الإسلامي في الداخل وعلى وجه الخصوص الممارسة والتعامل مع الخارج بروح إيجابية.

إيران في السنوات التي سبقت الثورة، كانت محط تأثير غربي بالغ وعميق، أمريكي خاصة، ففي الوقت الذي كان يخوض جيرانها العرب صراعا مع إسرائيل، كانت هي تحتضن تحت قيادة الشاه السابق محمد رضا بهلوي، كل مظاهر العصر الغربي المشوّه، من مشاركة ملكة جمال إيران في مسابقة ملكة جمال العالم(سنة ١٩٧٣) إلى تصور بسط امبراطورية شاهنشاهية على الجيران الأقرب، لقد كانت أكبر شوارع إيران تسمى بشارع روزفلت أو تشرشل، وتحاك السجاجيد الإيرانية الجميلة وعليها صورة الشاه أو صورة زعيم غربي، كما أن حكومة الشاه تحكم عن طرق العنف و الأجهزة السرية، على قاعدة أنها تعرف أكثر من الجمهور العام مصالح الشعب الإيراني.



الأمر تغير إلى العكس تماما، فبعد الثورة وكردة فعل طبيعية، تغيرت أسماء الشوارع إلى القدس وحتى الاسلامبولي بل وشارع بوبي ساند القائد الأيرلندي الذي صام حتى الموت في سجون بلفاست في أيرلندا الشمالية احتجاجا على الحكم البريطاني المباشر لذلك الإقليم، وفي تواصل قد لا يكون صحيا وقتها مع الجيران العرب المسلمين أو مع العالم، وفي المرحلة الأولى من الثورة، وقبل الجمهورية الأولى(العشر سنوات الأولى)، دخلت الثورة الإيرانية في صراع عسكري قاس ومرير، سمي لاحقا في تاريخنا الحديث بحرب الخليج الأولى، والبعض يرى أنه صراع خارجي فرض عليها، وفي الوقت نفسه نظرت إيران إلى جيرانها على أنهم مصدر للعداء، فقابلتهم بالمثل، واستفادت ما استطاعت أن تستفيد منه من تأجيج القوى المحلية داخل هذه الدول، و التي كان بعض قواها الاجتماعية و السياسية رافضا للوضع القائم أو بعض السياسات المتبعة، ولكن ذلك كان لفترة قصيرة، سرعان ما تبين لأهل الرأي في الثورة الإيرانية أن ذاك الطريق (تصدير الثورة) قد لا يؤدي إلى نتيجة تخدم الثورة الإيرانية، بل قد يشوّه مسيرة الثورة تاريخيا. وكان يمكن أن تأخذ الثورة الإيرانية هذا المنحى لفترة طويلة، فتخرج عن كونها ثورة بالمعنى الفني و التاريخي، لتصبح قوة مشاغبة في المنطقة على أكبر تقدير، ولكنها بسبب ريادتها لم تفعل، بل سرعان ما تمت المراجعة، وهي مراجعة لم تكن خالية من (مزايدات).

إيران الثورة فيما بعد تبينت الفرق بين الثورة و المشاغبة، فالثورة تقدم الأفكار وتصنع النموذج، فكان أن قدمت على الأقل منذ انتهاء حرب الخليج الأولى، وبداية ربما الدورة الثانية لرئاسة السيد هاشمي رافسنجاني، طريقا آخر تعمق وتعبد بوصول محمد خاتمي إلى

THE LAST GREAT
REVOLUTION
TURMOIL AND TRANSFORMATION IN IRAN
ROBIN WRIGHT

لم نستبين حتى الآن تأثير الثورة الإيرانية العميق في مسيرة التحولات في الشرق العربي والإسلامي، فهي في صيرورتها تقدم نفسها على أنها ثورة حقيقية كما عرفنا التاريخ لمسيرة الثورات، أي أنها تقدم أيديولوجيا وطريقة حكم يعتمد في شكل ما على التجربة والخطأ، وتبحث في الأصول عن مواءمة مع الحديث والمعاصر

The Last Great Revolution
(آخر الثورات العظيمة)
Robin Wright
knoph N.Y, 2001

سدة الرئاسة فى سنة ١٩٩٧، ثم تأكد من جديد بعد أن قرر الشعب الإيرانى الإتيان به مجددا رئيسا للمرة الثانية قبل أسابيع خلت.

إيران منذ الثورة تضاعف عدد سكانها تقريبا، فقد كانوا حوالى أربعة وثلاثين مليونا من البشر عند اندلاعها، أصبحوا اليوم حوالى خمسة وستين مليونا، وهى الدولة الثالثة فى العالم المصدِّرة للنفط، وتملك ثانى احتياطى للغاز بعد روسيا، ويسكنها بشر قدموا مساهمة مشهودة فى الحضارة الإنسانية والإسلامية، وبها تعددية عرقية ولُغوية، وهى فى مكان الوسط بين الشرق البعيد و الشرق القريب وأوروبا.

الثـــورة الإيرانيـــة والعـــالم الإســـلامى:

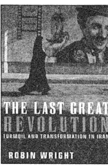
وفى الوقت الذى ضربت رياح التغيير أنحاء العالم الأربعة إبان سنوات القرن العشرين، كانت هناك منطقة واسعة لم تشهد التغيير الموازى و المجارى لما حدث فى العالم، هذه المنطقة هى المنطقة الإسلامية، و التى تشكل دولها حوالى ربع دول العالم، وتمتد من إندونيسيا على المحيط الهادئ إلى المغرب على الأطلنطى، ومن كازاخستان الباردة فى أواسط آسيا إلى الخليج الدافئ، من مناطق الجفاف فى الصومال إلى نيجيريا فى الهلال الأفريقى الخصيب، كما أن العالم يحتوى على مسلم واحد من بين كل خمسة من البشر على هذه الأرض، عدد ضخم من هؤلاء مهمَّشون خارج المشاركة السياسية التى تجرى حثيثة لدى شعوب وفى مناطق كثيرة فى العصر الحديث، و يعيش هؤلاء فى بلاد موبوءة بالدكتاتوريات و التسلط الفج.




بهذا المعنى فإن الثورة الإيرانية بما حققته حتى الآن تعتبر آخر الثورات الكبرى فى هذا العصر، فهى فى النتيجة تحقق عمليا ما أطلقته أيديولوجيات سابقة فى الغرب التى تبنتها أو قبلتها شعوب كثيرة.

مثل غيرها من الثورات الكبرى، الثورة الإيرانية قدمت أيديولوجية جديدة للساحة السياسية العالمية، فى منطقة من تراثها أن يسجن المعارض أو يطرد من بلاده أو يقتل بالسر، لقد قدمت الإسلام الذى تؤمن به وتمارسه شعوب المنطقة كوسيلة سياسية من أجل الدفع للمشاركة الأوسع فى تسيير الدولة، لقد قدمت تصورًا ممكنًا، إن لم يكن طريقة محددة وواضحة، وهى تقدم هذه الأمثولة إلى آخر مجموعة من البشر لم تدخل عصر المشاركة الواسعة هم المسلمون، أن تفعل ذلك فهو إنجاز، وعلى الرغم مما أطلق فى الغرب من ادعاءات مفادها أن إيران ترجع بمجتمعها إلى قرون عديدة سابقة، وكان لهذا الرأى مريدوه فى مناطق مختلفة من العالم من بينها بعض بلدان العالم الإسلامى، إلا أنه أصبح هناك من يعترف وعلى نطاق أوسع، بعد كل هذه الدورات الانتخابية و التغيرات السلمية و المؤسسية، أن هناك إمكانية تنظيم معارضة من الناحية التكتيكية ومن ناحية الأهداف المحققة فى بلاد إسلامية، دون أن يراق على جوانبها الدم، أو يزج نشطاؤها فى السجون ويطاردوا حتى الموت، وكلما نضج قبول المعارضة فى إيران وتقننت الدولة، كلما أصبحت الأمثولة أقرب أن تحتذى وتحترم.

الثـــورة الإســلاميـــة



على الرغم مما أطلق فى الغرب
من ادعاءات مفادها أن إيران ترجع بمجتمعها
إلى قرون عديدة سابقة، إلا أنه أصبح هناك
من يعترف وعلى نطاق أوسع، أن هناك إمكانية تنظيم
معارضة من الناحية التكتيكية ومن ناحية
الأهداف المحققة فى بلاد إسلامية،
دون أن يراق على جوانبها الدم



لقد أصبحت إيران اليوم توليفة مبتكرة من القواعد الإسلامية و القانون الغربى الحديث، كما أصبحت هناك انتخابات لكل أو لمعظم القيادات فى الأعمال العامة على المستوى القومى و المحلى، وأصبح من حق كل الإيرانيين التصويت نساء و رجالا وكل من هم فوق الخامسة عشرة من عمرهم، لقد حدد زمن معروف للرئاسة لا يتعدى ثمانى سنوات، لا يحق للرئيس بعدها أن يعاود ترشيح نفسه، وفرغت مقاعد فى برلمانها للمسيحيين واليهود و الزرادشت، فى اعتراف لحقوق الأقليات، بل أصبح للمرأة الإيرانية مكان مرموق فى العمل السياسى، بعد أن تمت (ثورة صامتة فى تعليمها).

لقد أعطت الثورة الإيرانية المثال، بعض من تبعها كان ناجحاً وبعضها فشل فى استيعاب الفكرة الرئيسة فى الثورة الإيرانية، وهى المزج المبتكر والشجاع بين الفكر الإنسانى و القواعد الإسلامية، الاهتمام بالكليات وتجاوز التفاصيل، لقد أثرت فى منطقة كبرى فى العالم الإسلامى، من السودان إلى أفغانستان، ومن حزب الله فى لبنان إلى حماس و الجهاد فى فلسطين، بعض التأثير كان ناجحًا وأدى غرضاً وطنياً، وبعضه لا زال يراوح فى تخبط دون أن يعى الأفكار الرئيسة و الممارسة المبتكرة التى أتت بها الثورة الإيرانية.

التغيير طويل الأمد:

أهم ما يجعل الثورة الإيرانية ثورة كبرى هو التغيير الذى تحدثه بتؤدة وبعيدًا عن الأنظار، أى تقديم خيار إسلامى فشلت فيه كثير من مؤسسات الدولة التقليدية الحديثة فى الشرق الأوسط. فمن المدارس إلى المستشفيات إلى التعاونيات إلى ما يعرف اليوم بمؤسسات المجتمع المدنى، كلها تخضع للتسيير الشعبى المنتخب، إنها جهود لخلق مجتمع مدنى جديد، شبكة الاتحادات والنوادى، واتحادات المعلمين والمهندسين والأطباء، والطلاب والقطاعات الأخرى المختلفة، هى التى أصبحت تدرس وتعالج المشكلات الحياتية التى تواجه المجتمع الإيرانى، لقد تحولت الثورة الإيرانية فى تكتيكاتها من الرصاصة إلى صندوق الانتخاب، من رفض الآخر إلى القبول به والحوار معه، وعلى نجاح سياسة خاتمى التصالحية و العقلانية مع الجيران وأيضا مع الغرب، سيكون الطريق فى القرن الواحد والعشرين الذى تتبناه الثورة الإيرانية فى تعاملها مع النفس والآخر هو الطريق المقبول والمحتذى فى منطقة كبرى هى المنطقة الإسلامية، أو كما قال لى أحد الثقاة من الإيرانيين: نحن نبتكر و الآخرون تقليديون.

قد لا تتكرر التجربة الإيرانية فى أى من البلاد الإسلامية الأخرى، لعدد من الأسباب؛ أولها: خصوصية التجربة الشيعية معجونة بالتراث الإيرانى، وثانيها: النقص الخطير فى التنظير الإسلامى الآخر و السنى بوجه الخصوص فى شئون الدولة و الحكم الحديث، الذى ما فتئ يجتر من الماضى دون محاولة جادة، إلا فيما ندر، أن يزاوج بين المبادئ التراثية من جهة، والفكر الحديث من جهة أخرى.

التركيبية السياسية التى توصلت إليها إيران الإسلامية تركيبية لم تكن مقصودة منذ البداية، فقد نُقل عن الإمام الخمينى أنه لا يريد أن يرى رجال الدين يتسلمون السلطة السياسية ويديرون البلاد، بل يراهم مرشدين ومراقبين، وهكذا كان أول من انتُخب كرئيس للجمهورية الإسلامية رجلا مدنيا هو أبوالحسن بنى صدر، ولكن الصراع حوله ومعه، جعله يفر من إيران فى ثياب امرأة، أما من أتى بعده محمد رجائى وهو مدنى أيضا ومعلم مدرسة، فقد قتل فى تفجير أودى بحياته ومن معه، كان بعض رجال الدين وعلى رأسهم رجل قوى هو محمد حسين بهشتى وراء تصفية (الخط الليبرالى) المتمثل فى الرجال المدنيين من حول الخمينى، وهو الرجل الذى كان قد عرف الغرب وألمانيا بالذات، فقد كان رئيس جامع هامبورج وهو فى المنفى، وقتها كان دافعه الرئيس هو الحفاظ على الثورة من الانحراف أو الاختطاف، وكان يرى أن أفضل وسيلة للحفاظ على الثورة هى أن يكون رجال الدين فى سدة الحكم.. نتيجة هذا الصراع الذى أفرز عدم الاستقرار تقلبت عصبية (الملالى) فكان أن انتُخب رئيسا وأكمل دورتين فى الجمهورية الأولى، رجل دين، وهو غير مرشد الثورة الآن آية الله على خامنئى ذى العلاقة الواسعة مع رجال الدين وتلميذ الإمام الخمينى المخلص، والذى خرج من الرئاسة ليتولى أعلى منصب بعد ذلك فى الدولة وهو المرشد الفقيه (ولاية الفقيه) التى كانت للخمينى نفسه، حقيقة الأمر لم يكن رجال الدين ليمكنوا حتى الإمام الخمينى نفسه من أن يحقق رغبته بأن يكون رئيس الجمهورية الإسلامية شخصًا من خارج هذه العصبية، ولكن ليس بالضرورة أن جميعهم من المتشددين، فقد كان بهشتى رجلا ليبراليا، بدليل أنه خلف بعده فى جامع هامبورج رجلاً دمثًا ورجل دين، أصبح فيما بعد رئيس جمهورية هو حجة الإسلام محمد خاتمى.

فى التركيب السياسى الإيرانى بجانب المرشد، هناك رئيس الجمهورية، وهناك أيضا مجلس الشورى المنتخب، ثم هناك أيضا مجلس صيانة الدستور، ثم أخيرا وبعد خلاف بين المجلسين الأخيرين، أصبح هناك مجلس تشخيص مصلحة النظام للحكم فى خلافات المجلسين، كما أن الدستور الإيرانى عُدِّل أكثر من مرة، دليل على فكرة التجربة و الخطأ، والتنقيب عن أفضل الطرق للوصول إلى حلول مرضية هى السائدة، وليست أحكاما قطعية ومنتهية.

يعتقد البعض أن فكرة الإمام الخمينى الأساسية فى ولاية الفقيه مأخوذة من الفيلسوف اليونانى أفلاطون الذى تحدث عن الجمهورية الفاضلة التى يحكمها الفلاسفة، كما أن إصرار مشرع الثورة الإيرانية على سقف زمنى لخدمة رئيس الفرع التنفيذى (رئيس الجمهورية) كى لا يتكرر ما فعلته أسرة بهلوى، بأن تحول رضا شاه - والد محمد الذى خُلع - من ثائر وضابط فى الجيش

إلى ملك بعد أن سقطت السلالة القاجارية، التي كانت تحكم فارس في العشرية الثانية من القرن العشرين، وقام رضا شاه بجملة من عمليات التحديث التي نظر إليها كثير من المؤرخين على أنها قسرية وقاومتها قطاعات كثيرة من الشعب الإيراني، بل غير اسم فارس إلى إيران الذي تعرف به اليوم، لقد أبعدت أسرة آل بهلوي محمد ومن قبله والده إيران عن تاريخها الإسلامي وتراثها الشعبي على أساس تطوير وتحديث الدولة، فكان أن مرت بأزمات متكررة، منها الأزمة مع الوطنيين القوميين (محمد مصدق في بداية الخمسينيات) ومنها الأزمة مع الملالي (نفي الخميني نفسه في بداية الستينيات) وبداية رحلته إلى المنفى وإلى المعارضة.

بين الأيديولوجيا والاقتصاد

تعتقد المؤلفة أن الخاصرة الضعيفة في الثورة الإيرانية هي عدم قدرتها على النهوض بالاقتصاد، والذي تدهورت أوضاعه بشكل لافت، ورغم أن رافسنجاني الذي أصبح رئيسا للجمهورية بين ١٩٨٩ و ١٩٩٦، قد قام بتغيير الكثير من الكوادر الثورية وغير الخبيرة بتكنوقراط من حملة الدكتوراه المتخرجين من الغرب، إلا أن جزءًا كبيرًا من هذه الفترة الأولى التي شهدت الحرب مع العراق قد استنزفت طاقة إيران الاقتصادية، كما شهدت الفترة ذاتها مقاطعة اقتصادية غربية بسبب موقف إيران الخارجي المعادي، وفي أغسطس ١٩٨٨ وافقت إيران على شروط الأمم المتحدة لوقف إطلاق النار، وقال الخميني قوله المشهور (قبول وقف إطلاق النار كشربي زجاجة من السم)، بعد الحرب وبوفاة الخميني ووصول رافسنجاني إلى الرئاسة أعاد الكثير من الممارسات الاقتصادية التي كانت قد هجرت في السنوات الأولى من الثورة، فأعاد تشغيل سوق الأوراق المالية، وسمح باليانصيب، وبدأت فكرة المناطق الحرة تأخذ لها مكانا في الممارسة، مثل هذه الخطوات الاقتصادية تبعتها خطوات سياسية، مثل تحسين العلاقات مع الخارج خاصة بعض دول أوروبا، وبدا للبعض أن مجمل هذه الإصلاحات تصادر حق (المستضعفين) التي بدأت الثورة نظريا باسمهم إلى (الإسلام الرأسمالي) كما كان يصفه المعارضون، ولم تكن هذه الفترة دون مقاومة من رجال اليمين الذين اضطروا رافسنجاني للتخلي عن وزير ماليته الذي كان يفكر حسب رأيهم بالتفكير الاقتصادي الغربي، و أيضا وزير الإرشاد الإسلامي المنفتح، وكان وقتها رجلا دمثا ومفكرا من رجال الدين هو محمد خاتمي الذي ذهب لعشر سنوات قادمة إلى المكتبة العامة كأمين لها يقرأ ويفكر وينظر إلى أمور الثورة وتقلباتها.

في نهاية فترة رافسنجاني كانت كل الدلائل تقود إلى إنهاك الفكرة الثورية، فلا الاقتصاد قد استطاع أن ينهض، و لا الفساد قد خف، بل زاد، وفي انتخابات الفترة الثانية لرفسنجاني في سنة بدا واضحا انصراف الشعب الإيراني عن الثورة، فقد ذهب إلى صناديق الانتخاب فقط ٧٥٪ ممن يحق لهم التصويت، متوسط الدخل القومي سقط إلى النصف أثناء فترة الجمهورية الأولى، وغرق أكثر بنهاية الجمهورية الثانية وقد قدر أن ٤٠٪ من الإيرانيين يرزحون تحت خط الفقر، وضعفت الطبقة الوسطى والتي هي لكل ثورة العامود الفقري، فبدأ البعض من هذه الطبقة يبحث عن وظيفة ثانية يؤمن بها عيشه، وراجت خلافات سياسية شرذمت القوى الحية في المجتمع الإيراني، وراجت نكتة تنقلها المؤلفة عن الوضع مفادها أن أحد الشهداء قابل الخميني في الحياة الثانية، فسأله عن الجنة، قال الخميني إنها جميلة وارفة الظلال، ثم ماذا؟ سأل الشهيد قال إن بها من الأكل و الشرب الكثير، ثم ماذا؟ سأل الشهيد قال الخميني إن من بها من الناس لا يعملون إلا بوظيفة واحدة، قال الشهيد: أوجز لي مزاياها، فقال الخميني: إنها باختصار مثل إيران أيام الشاه!

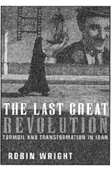
بالتأكيد مثل هذه النكت وغيرها مما يمكن أن تسمعه في طهران، لا تتعدى أن تكون نكتا فقط، لأن الجمهور الإيراني العام يعرف أن الأمر أصبح بيده، لا بيد القوى الأجنبية التي كانت تسيطر عبر الشاه على مقدرات إيران في الزمن السابق، وسعد أباد شاهد على ذلك فهناك في تلك الضاحية الشمالية والجميلة من طهران، يقف أحد قصور الشاه، قصر سعد أباد، وهو قصر ليس له علاقة بالتراث الإيراني في المعمار، فقد بني وأثث على الطريقة الأوروبية، حتى اللوحات هي نسخة طبق الأصل من لوحات لفنانين غربيين، أما سرير الشاه فهو نسخة من سرير نابليون، وسرير الشهبانو فرح ديبا نسخة طبق الأصل من سرير جوز فين!

إلا أن ما يجعل مثل هذه النكت سائدة هو الوضع الاقتصادي الذي يعاني منه المواطن الإيراني والذي لم تجد الثورة له حلولا ناجحة، تستطيع أن تخلق ثروة للوطن، والاقتصاد هو عامود أية ثورة، تنجح أو يصيبها الفشل نتيجة السياسة الاقتصادية.

احتكار الحقيقة

عشية انتهاء حكم رافسنجاني في نهاية الجمهورية الثانية، كانت كل الدلائل متوجهة إلى التشدد أكثر، فقد وقف اليمين المتشدد إمام إصلاحات رافسنجاني المتواضعة، وزاد في موقفهم فشله النسبي في إنقاذ الاقتصاد الإيراني من جهة، وازدياد رائحة الفساد من جهة أخرى، وكان الحصان الرابح هو ناطق نوري المتشدد و القريب من المدرسة المحافظة، إلا أن الشعب الإيراني قرر وبصورة غير مسبوقة أن ينتخب ذلك الرجل الطيب والإصلاحي المستنير الذي لم يكن أحد يتوقع له الفوز، ولكنه فاز وباغلبية ساحقة، وثبت للعالم و للشعب الإيراني أيضا أنه سيد قراره، تنقل الكاتبة عن ناصر هاديان أستاذ العلوم السياسية في جامعة طهران قوله (إن التصويت لخاتمي مثل الوقوع في الحب، لا تعرف كيف حدث ولا لماذا؟).

الثورة الإسلامية



تحولت الثورة الإيرانية في تكتيكاتها من الرصاصة إلى صندوق الانتخاب، من رفض الآخر إلى القبول به وحواره، بنجاح سياسة خاتمي مع الجيران وأيضا مع الغرب، سيكون الطريق الذي تتبناه الثورة الإيرانية في تعاملها مع النفس والآخر، هو الطريق المقبول و المحتذى في منطقة كبرى هي المنطقة الإسلامية



وبدأ رئيس الجمهورية الجديد في تقديم إصلاحات هي من وحي الشعب الإيراني، صحف جديدة وحرة نسبيا، إصلاح العلاقات مع الجيران و العالم، إطلاق فكرة الحوار الثقافي مع الولايات المتحدة، بل وتبادل فريق للمصارعة (على طريقة فريق البنج بونج مع الصين عشية الانفتاح الأمريكي عليها) وفي لقاء مع شبكة السي. إن. إن الأمريكية، وكرستيانا منبور، ذات الأب الإيراني، والمذيعة الشهيرة، طالب محمد خاتمي رئيس الجمهورية الإيرانية بحوار ثقافي مع الولايات المتحدة!

ليس للرئيس محمد خاتمي الفضل الأكبر للانفتاح ولكنه استجاب بشكل مباشر لرأي عام شعبي، وهو دليل على أن القيادة قد جاءت من الشارع، وليس من المكاتب السياسية، دخول الجمهورية الثالثة رفعت حماس الناس بأن هناك تحسنًا وتطورًا ممكنًا، ولم يعد (الدين) خاضعا للعمائم وتفسيرها، وظهرت أصوات تقول إن الدين الإسلامي دين رفيع جرح بسبب ممارسة الملالي الضيقة الأفق تجاه الشئون العامة للناس، ولا يجب تحميل الإسلام فشل الملالي، وحمل خاتمي و مدرسته الدعوة إلى الانفتاح والتسامح وإشاعة الحريات العامة والشخصية والحوار مع الآخر، ليس دون مقاومة من قوى محافظة لها مصلحة في إبقاء الأمر كما كان، ولكن هذه المدرسة الإصلاحية والتطويرية هي التي أعطت الثورة الإيرانية نكهة جديدة وأيضا قدرة جديدة، وهي القدرة على التطور، والنظر إلى الكل بدلا من الجزء، والقضايا الكبرى بدلا من الصغائر، وهو ما يشكل قدرة الثورات على التطور.



وظهرت أصوات تقول إنه لا أحد يحتكر الحقيقة، ولا أحد يملك التفسير القطعي والنهائي للنصوص، فهي نصوص يمكن أن تحمل في طياتها ما تعارفت عليه الإنسانية اليوم، فالحرية، والديمقراطية لا يعاديها الإسلام الحقيقي، وهي تتطلب الشفافية، وفلسفتها أن لا أحد منزّه عن الخطأ، ولا يوجد شخص فوق مُساءَلة القانون.

لقد بدأت تحول قرارات الحكومة الإيرانية في السنوات الأخيرة نحو (البرجماتية) في تنظيم النسل و الطلاق (أو ما يعرف بإعادة التفسير الخلاق أو المبدع للنصوص)، وضد التطرف للفئات المحافظة، كما بدأت بتبني برنامج تقشف مالي لإطفاء الديون الخارجية المتراكمة منذ منتصف الثمانينيات في محاولة موازنة بين الأيديولوجي و الواقعي.

وتسرى اليوم في إيران وبين نخبتها الكثير من المناقشات نحو إيجاد توازن بين ما للسماء و ما للأرض، بين ما لله و ما للناس.

وسوف تبقى إيران الأكثر سكنا على ضفاف الخليج، والمسيطرة على أكثر من نصف سواحله، وهي إلى جانب ذلك تملك مداخل على ثلاثة بحار، ولها ثقافتها ولغتها المتميزتان، والتي تلعب دورا مميزا في التاريخ منذ سيروس الأكبر، و النقطة البارزة في المثلث الصلب الذي يحدد الخطوط الثقافية و التاريخية الدائمة في الشرق الحديث، مثلها مثل مصر وتركيا لاعبا مهمًا في تطور منطقة الشرق الأوسط، وبالتالي فإن ما يجرى فيها يهم شعوب هذه المنطقة ويعنيهم. ■

ثورة ١٩١٩ واحتفال سيدات مصر فى مراكب على النيل والشعب المصرى (الأفندية) بالطرابيش يلوحون بأعلام مصر وصورة سعد باشا زغلول وصاحب العزة سينوت بك حنا عضو الوفد المصرى رمز الوحدة الوطنية

لوحات فنية بقروش قليلة

المناسبات الوطنية والدينية فى الرسوم الشعبية

عصمت داوستاشى

انتشرت الرسوم الشعبية المنفذة بالطباعة الملونة الحجرية على كرتون أو ورق فى مقاسات لا تتعدى ٤٠×٥٠سم فى النصف الأول من القرن العشرين ونجدها منتشرة فى الموالد الشعبية، وبجوار الأضرحة الدينية حتى نهاية الستينيات، ثم تلاشت واختفت، وكانت هذه الرسوم الشعبية تعبر عن موضوعين أساسيين..

الموضوع الأول: دينى يصور قصص القرآن الكريم، وبعض الأحداث المهمة والشخصية الدينية الشعبية، وكانت تعبر عن أحداث الدين الإسلامى، وكانت هناك فنون قبطية ثرية بالرسوم المختلفة للقديسين، والأحداث الدينية.

أما الموضوع الثانى: والذى عثرت على بعض رسوماته حديثاً لدى صديق وكانت مفاجأة لى، فهو الموضوع الوطنى أو السياسى، وكان عميد الباحثين فى الفنون الشعبية الراحل سعد الخادم، قد ذكرها فى مؤلفه «تصويرنا الشعبى خلال العصور» صفحة ١٢٧ على أنها «تصوير بعض أحداث ثورة سنة ١٩١٩، ومناظر أخرى من الحرب العالمية الأولى والدور الذى قامت به بعض الشعوب الشرقية فى سبيل تحررها».

كانت هذه الرسوم الشعبية على مختلف موضوعاتها واتجاهاتها تطبع وتوزع على نطاق واسع وتباع بقروش زهيدة للطبقات الشعبية الفقيرة ومتوسطة الحال، كنا نراها معلقة فى البيوت، أو الدكاكين داخل الإطارات، والمجموعة التى لدىَّ اشتريتها فى منتصف الستينيات من مولد السيد أحمد البدوى بطنطا بقروش قليلة وأعتقد أنها آخر ما طبع من هذه الرسوم.



ويوضح سعد الخادم فى مؤلفه السابق ذكره بأن هذه الرسوم الشعبية المطبوعة قد استبدلت ببعض الرسوم التى كانت تصور باليد على المخطوطات وغيرها ويوضح ذلك: «بأن هذه الطائفة من الرسوم تركزت فى تصوير الأساطير الشعبية مثل قصص «عنترة» وسيف بن ذى يزن وسيرة الظاهر بيبرس، تلك القصص والنوادر التى كان يرددها الرواة فى المقاهى الشعبية وتحوم حولها مناقشات حادة بين مناصرى كل بطل من أبطال القصة الشعبية، فمن بين النماذج القديمة التى صورت تطاحن فرسان العرب فى منازعاتهم القديمة مجموعة من الصور المطبوعة كانت ضمن شريط قديم للعبة صندوق الدنيا، يرجع تاريخها إلى حوالى ١٩١٧ أو سنة ١٩١٩ أو لعلها أقدم من ذلك، ولعل هذه الصناعة قد نشأت عند بداية دخول

من أشهر الرسوم الشعبية فى العالم كله.. التى تجمع رأس إنسان وجسد حيوان والبراق النبوى الشريف مرسوم وهو طائر منطلق من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى

فنون الطباعة فى مصر، ولاسيما طبع الصور الملونة على الحجر، ومن المرجح أن يكون جماعة من الصناع الأجانب كالأرمن مثلا قد قاموا بطبع تلك الصور القديمة إذ تتضح بين الموضوعات التى رسموها موضوعات مثل مارى جرجس وغيرها من قصص الإنجيل والتوراة كمشهد آدم وحواء وسليمان الحكيم وسفينة نوح ويمكن أن تستشف من تلك الرسوم جملة أساليب يرجع بعضها إلى رسوم الأيقونات الدينية وتستشف من بعضها الآخر طابعاً أكثر شعبية ربما ارتبط ببعض أساليب التصوير الإسلامى فى المخطوطات العربية التى نسخت وصورت بمصر.

ويواصل سعد الخادم بحثه فى أصول هذه الرسوم فيؤكد بأنه: «كان هناك أسلوب نراه فى تلك الصور الشعبية لا يمت بأى صلة لتقاليدنا العربية القديمة ولا للطرز البيزنطية والمسيحية، وإنما نراه يشبه بعض الرسوم الإيضاحية التى ترد فى الصحف لتوضيح بعض موضوعات وأحداث تاريخية معينة فكانت تلك الصور الشعبية التى تميزت بهذا الطابع الأخير تصور بعض أحداث ثورة ١٩١٩».

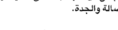
ويؤكد سعد الخادم بأن الفن الشعبى فى مجال الطباعة كان موقوفاً على جماعة من الأجانب لهم بعض الدراية بأصول الرسم والحذق فى تصوير بعض الآدميين والمناظر الطبيعية: «فكانوا يتجهون فى إنتاجهم هذا إلى نزعة فنية تناسب موضوعاتهم، إما عن طريق المخطوطات المحلية، وإما نقلاً عن بعض المراجع التركية والفارسية.

- وبالنسبة لأساليب رسم هذه اللوحات الشعبية فيقسِّمها سعد الخادم إلى قسمين:

فمنذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى اليوم والرسوم الشعبية تنتهج فى أساليبها النهج الشعبى القديم ولكن مع فقدانها بعض النواحى من أصالتها، فالنماذج التى تباع فى الأحياء الشعبية تنقسم إلى قسمين:

* قسم تظهر فى أسلوبه الفطرة، فيصور معارك الفرسان فى شىء من السذاجة الممزوجة بشىء من الطرافة، وعلى الرغم من التطاحن الشديد الذى توضحه فهى لا تلبث أن تثير فى الناظر الضحك كأنها تمس فى تعبيراتها الجانب الهزلى برغم جدية الموضوعات التى تعبر عنها.

* أما القسم الثانى من الرسوم الشعبية الملونة فهو أحدث من تلك الرسوم التى تحدثت عنها الآن، ويبدو أن الذين قاموا برسمها هم جماعة ممن درسوا الفنون وفقاً للمدارس الأوروبية، فنجد فيها محاولات للإيحاء بتجسيم الأشكال مما يجعل تلك الرسوم أو المطبوعات مفتقرة إلى الطابع الشعبى فهى أقرب إلى الرسوم الإيضاحية التى تنتشر فى بعض المجلات والتى لولا شعبية موضوعاتها لما تبقى من طابعها الفنى ما يذكر من حيث الأصالة والجدة.



وهنا ينتهى كلام سعد الخادم الذى كان لابد من سرده لأهميته ولأنه من القلائل الذين تعرضوا لهذه الرسوم بالدراسة والبحث، ورغم إطلاعى على أرشيف ومقتنيات سعد الخادم بعد وفاته عام ١٩٨٧ فلم أعثر على لوحات أو رسوم أصلية مطبوعة من تلك الرسوم الشعبية، رغم أنه كان من أكبر جامعى التحف الشعبية القديمة، وإنما عثرت على بعض الصور الفوتوغرافية وأصولها السالبة وهى غالباً من تصويره لبعض من هذه الرسوم والمنشورة فى كتابه «تصويرنا الشعبى خلال العصور»، ولا أدرى هل هناك جهة ما معنية بالبحث عن هذه الرسوم وحفظها وتوثيقها كتراث شعبى من ناحية وكتقنية فى مجال الطباعة الفنية انتشرت فى أوائل القرن العشرين من ناحية أخرى وهى الطباعة الحجرية، التى انتشرت بعد ذلك فى طباعة الإعلانات الكبيرة للأفلام السينمائية وغيرها من الإعلانات؟ وهل يمكن العثور على كل أو معظم هذه الرسوم الشعبية بتنوعاتها المختلفة فى متحف ما كالمتحف الشعبى الذى ذكره سعد الخادم والذى تلاشى واختفى الآن مثل كل ما تلاشى واختفى من حياتنا متعلق بالتراث والتقاليد والشعبيات؟

وأستخلص الآن مجموعة ملاحظات عامة حول مجموعة الرسوم الشعبية المنشورة مع هذا النص متفقاً مع كل ما ذكره سعد الخادم فى بحثه القيِّم عن الرسوم الشعبية المطبوعة.

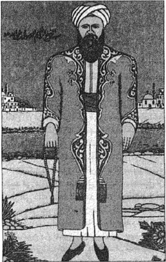
١ - هذا النمط من الرسوم الشعبية عرف فى أوروبا خاصة بعد معرفتهم بالطباعة.. والرسوم الشعبية المطبوعة عرفت أيضاً فى آسيا فى بلاد كالصين واليابان اشتهرت بالطباعة الخشبية، فالرسوم الشعبية موروث حضارى يمثل امتداداً لرسوم المخطوطات والرسوم الجدارية المختلفة وقد دخلت الرسوم المطبوعة فى مصر مع دخول الطباعة على يد الأجانب (إيطاليين - فرنسيين - أرمن وغيرهم) وكان الأرمن الأكثر شهرة فى مجال الطباعة الحجرية وعمل الأكلشيهات المختلفة وكانت لهم دكاكين وورش كثيرة خاصة فى الإسكندرية بعضها مازال قائما حتى الآن.

٢ - كانت أصول بعض هذه الرسوم ترسم باليد فى مشاهد صندوق الدنيا كما سبق أن أشار إلى ذلك سعد الخادم وكان بعضها الآخر يرسم على جدران المنازل مقترناً بالمناسبات المختلفة دينية أو اجتماعية أو وطنية وكان الرسامون من المصريين يرسمون بفطرتهم ومهارتهم الشخصية.

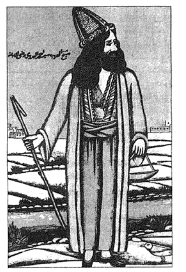
رسم «للحادثة الفظيعة»: إطلاق الرصاص على صاحب العزة محمد بك بدر الدين مراقب الأمن العام
وكعادة الرسام الشعبى لا يوقع على رسومه

الرســـــــــــوم الشـــــــــعبية

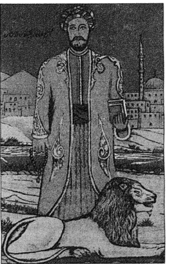
رسم لسيدنا الشيخ إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه والملامح والملابس اجتهادية من الفنان الشعبى وهذا النمط من الرسوم متشابه فى عناصره وفى أسلوب تشكيل الرسم



شيخ العرب سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ممسكا بعصاه وبقنديل يتأمله عصفور.. الرسم يعبر عن شخصية كثيرة التجوال حتى استقر فى طنطا حيث ضريحه المشهور.. القلادة التى يرتديها تخص إحدى طوائف الدراويش وكذلك العمامة



من لوحات المشاهير من رجال الدين تمثل الشيخ عبدالقادر الكيلانى (قدس سره) ممسكا بكتب الدين المسبحة والأسد استكان بين قدميه وخلفه النهر والمسجد والجبل وهو ما يتكرر فى هذه الرسوم التى تصور شخصيات دينية شعبية



وعندما بدأ صناع الطباعة فى تنفيذ مشروعهم هذا استعانوا بهذه الرسوم، إلا أنهم فى الغالب قاموا هم أنفسهم برسمها وإضافة بعض الملامح والمشاهد من ذاكرتهم وبيئتهم بعيداً عن الجو المصرى الخالص، والرسوم على كل الأحوال غير موقعة وليس لدينا ما يكشف عن راسمها غير أسلوبه وحلوله للأشخاص وللملابس وبقية عناصر الرسم كالمنازل والعمارة والنباتات وطريقة تكوين الصورة ولكنها ذات طابع عربى متوارث والملابس العربية ذات طابع نمطى معروف.

٣ ـ تضم الرسوم الشعبية عناصر الموضوع الأساسية التى تحتل معظم اللوحة وتحيط بها عناصر مساعدة لإبراز الموضوع مع الطبيعة والبيئة المكانية بالإضافة إلى بعض الكلمات التى تشير إلى شخصية الناس المرسومة أو طبيعة الحدث المرسوم، ويحاط كل هذا بإطار بسيط أو إطار مزخرف حسب طبيعة الموضوع.

٤ ـ الرسوم الشعبية تعتمد على التحديد الأساسى باللون الأسود لكل تفاصيل الموضوع ثم تملأ المساحات بألوان أساسية واضحة بدون أى درجات لونية أو مزج لونى فالأحمر أحمر والأصفر أصفر وهكذا.

٥ ـ للموضع الواحد أكثر من رسم وتتميز الرسوم التى طبعت فى أوائل القرن العشرين بالسذاجة، أما الرسوم التى نفذت بعد ذلك

رسم يعود إلى عام ١٩٢٧ محاط بالآية الكريمة وفي إطار الرسم اسم الناشر عبدالحميد زكي وأحمد الشبكي بالدرب الجديد بالموسكي بمصر - وسجل صندوق البريد أو البوسته نمرة ١١٤٦ مع توضيح للرسم بالإنجليزية

فكانت بريشة رسامين أكثر براعة ودقة وإن التزموا بالرسم الأول مع إضافات زخرفية وخطية لإكساب الرسم ثراء أكثر ولكى يظل الرسم الأول بفطرته البسيطة وعناصره المباشرة أكثر قوة وتأثيراً فى المشاهد من الرسم الثانى الذى حشد بالزخارف والخطوط ففقد الموضوع وضوحه ومباشرته وقوة تعبيره.

فنماذج الرسوم فى الغالب واحدة وتستخدم مع بعض التحوير فى موضوعات متعددة ويختلف الرسم حسب براعة كل رسام عن الآخر وتدخل نوعية الطباعة كعامل تميز لهذه الرسوم.

٦ - فى الرسوم التى ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى وبعد ثورة ١٩١٩ على وجه التحديد.. بدأ ناشرو هذه الرسوم فى وضع أسمائهم وعناوينهم. ولم يهمهم بطبيعة الحال وضع أى تاريخ يوثق لطبع هذه الرسوم أو اسم الرسام الذى قام بها.



وقد ظهرت هذه البيانات بالأخص فى الرسوم الوطنية التى واكبت ثورة ١٩١٩ فكان يطبع أسفل الرسم موضوع اللوحة واسم الناشر وعنوانه ومن أمثلة ذلك:

* رسم يمثل إطلاق الرصاص على صاحب العزة محمد بك بدرالدين وكان مراقب الأمن العام وأطلق على الموضوع «الحادثة الفظيعة» وهو حادث شهير فيه تعاطف كبير مع صاحب العزة محمد بك الذى توسط الرسم فى حين لم نروجه القاتل والرسم كله ساذج أشبه برسوم الأولاد فى المدارس. أو أشبه بالرسوم التوضيحية المرافقة للموضوعات الصحفية.

* رسم فخم احتشد بالعناصر المختلفة يمثل احتفال الأمة بتشييع جنازة الشهداء فى مصر (القاهرة) والإسكندرية وطنطا والمنصورة وواضح أن الراسم أجنبى وقد اهتم برسم وجوه الشهداء مع أسمائهم فى صفين أعلى الرسم وهم بالترتيب التالى:

* المرحوم/ فريد فتحى رزق الله، المرحوم/ على حسن البكرى، المرحوم/ عبدالوهاب أحمد، المرحوم/ شفيق سعيد، المرحوم/ حسين أحمد، المرحوم/ رزق يعقوب، المرحوم/ عبدالرحمن سالم، المرحوم/ محمد إبراهيم زويل، المرحوم/ إبراهيم السيد العبد، المرحوم/ عبدالحليم حلمى، المرحوم/ أحمد طلعت السعد والمرحوم/ رمضان محمود هداية.

* ومن المؤكد أن هؤلاء بعض شهداء ثورة ١٩١٩ وإن كان الرسم لا يشير إلى ذلك ويقود هذه الاحتفالية كشافة الحزب الوطنى وخلفهم رجال وشيوخ «الأظهر الشريف» كما كتب على اليافطة المحمولة وليس «الأزهر الشريف» وهو خطأ لا يقع فيه إلا أجنبى يجتهد فى نسخ الخط العربى.

ونرى فى الرسم جمهور المشاهدين يضم أفندية بالطرابيش وشيوخا بالعمائم وأجانب بالبرانيط وقد امتلات النوافذ بالمشاهدين أغلبهم من النساء ويحدد الرسم مكان هذا الموكب المهيب بميدان الأوبرا حيث يمر بجوار تمثال إبراهيم باشا.

* وفى رسم لتحية عموم فرق الكشافة كتب الناشر عنوانه على النحو التالى: «شركة الصور الوطنية لصاحبها إبراهيم وحافظ وأحمد بالعتبة الخضراء» وهذه أسماء لشخصيات مصرية عربية تمتلك شركة لطبع مثل هذه الصور الوطنية أو الدينية الملونة وهى شركة ضمن مجموعة شركات توزعت بين القاهرة والإسكندرية، كانت تملك مطابع أو تطبع على نفقتها فى مطابع الأرمن أو الإيطاليين مثل رسم لزعماء مصر يتوسطه تمثال نهضة مصر لمحمود مختار «طبع على نفقة إبراهيم عكريشة وشركاه بمصر بالعتبة الخضرة» وإبراهيم عكريشة هذا شارك بعد ذلك أحمد زعزوع فى شركة جديدة لطبع الصور الوطنية ومكانها درب الجنية بغيط النوبى بجوار الشاومة بمصر أى (بالقاهرة) وهذا واضح فى الرسم الذى يسجل عودة سعد زغلول للوطن، فقد كان أحمد زعزوع هذا يطبع الرسوم على نفقته الخاصة بالإسكندرية عند مطبعة محمد السباعى بالمنشية ويقوم بتوزيعها من مقره بالعتبة الخضرة التى كانت مقر توزيع هذه الرسوم.

* قامت بعض الصحف التى كانت تصدر فى ذلك الوقت مع ثورة ١٩١٩ وبعدها بنشر بعض الرسوم الوطنية الشعبية وتوزيعها مع أعدادها أو عرضها للبيع مع موزعى الصحف كالرسم الذى يؤكد وحدة وادى النيل «مصر والسودان ليحيى الاستقلال التام لوادى النيل» وهو رسم فخم نلاحظ فيه (السيمترية) أى التماثل بين نصفى اللوحة وهى سمة مشتركة فى معظم هذه الرسوم ويتوسط اللوحة وجه سعد باشا زغلول زعيم الأمة وكتب الناشرون (كافة الحقوق محفوظة لجريدة السياسة المصورة العدد ٢١٩).

وذكر عنوان الإدارة: «رقم ٢ بميدان البيدق بشارع عبدالعزيز بمصر» أى بجوار العتبة الخضرة التى كانت تمثل وسط البلد وتتجمع فيها شركات طباعة هذه الرسوم ودور الصحف والمطابع ويؤكد هذا الرسم على أن احتمال سرقته وتنفيذه فى مطبعة أخرى قائم وأنه أمر شائع الحدوث لذلك أكد على أن حقوق النشر محفوظة لصاحبها.

لم أجد أجانب أو شركات أجنبية تقوم بإصدار ونشر هذه الرسوم التى اقتصرت على الوطنيين كأصحاب رأس المال والموزعين وأغلب الذين اشتغلوا

احتفال الجمهور بسعد باشا و لسترسوان حين خروجهما من محطة مصر بعد عودة سعد من المفاوضات فى عربة حنطور تطوف شوارع القاهرة المحروسة، فى الرسم مصريون وأجانب يحيون الموكب بالأعلام والزهور والناشر شركة الصور الوطنية لأصحابها أحمد زعزوع وإبراهيم عكريشة بدرب الجنيه بغيط النوبى بمصر



تمثال نهضة مصر وصورة سعد باشا زغلول تتوسط زعماء الأمة مصطفى باشا كامل ومحمد بك فريد وعمر باشا طوسن والأستاذ عبدالعزيز جاويش والناشر المعلم إبراهيم عكريشة وشركاه بمصر بالعتبة الخضراء

فى هذا المجال هم من أصحاب مكاتب توزيع الصحف والمجلات لارتباط هذا المجال بالترويج لهذه الرسوم الوطنية بالذات التى دخلت حياتنا مع ثورة ١٩١٩ واستمرت مواكبة لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى نهاية الستينيات وعبرت عنها وعن زعمائها.

هذه الدراسة السريعة تسلط الضوء على مجال إبداعى فى فن الرسوم الشعبية الذى كان سائداً طوال النصف الأول من القرن العشرين واختفى ليحل محله نمط آخر من المطبوعات والرسوم والصورة (البوستر) التى تمثل عصراً آخر وهموماً أخرى وأبطالا آخرين يختلفون تماماً عن أبوزيد الهلالى وسعد باشا زغلول ورسوم هذه الفترة المبكرة والتى تحتاج إلى مزيد من الدراسات والبحوث الأكاديمية والتوثيق والجمع والحفظ.

وفى نفس الوقت تقديم هذه الرسوم بما تمثله من طرافة لموروث شعبى كان له مكانته الحميمة فى حياة أهلنا فى النصف الأول من القرن العشرين، وكثير منا مازال يتذكر هذه الرسوم معلقة فى أماكن عديدة خاصة فى ريف مصر والأحياء الشعبية بالمدن الكبيرة والصغيرة فى ربوع مصر وبعضها كان معلقاً فى منزل جدى وأحتفظ به، وقبل أن أنهى هذه السطور أتعجب من أن كثيراً من المطبوعات والرسوم واللوحات التى تعلق الآن فى بيوتنا ويقبل عليها الشباب لمناظر وموضوعات غريبة تماماً والقليل منها يمثل الحرم المكى والحرم النبوى والقدس الشريف وحتى الآيات القرآنية قد صدرتها لنا الصين فى إطارات فاخرة وبأسعار زهيدة وكأنه لم يعد لدينا خطاطون ومطابع قادرة على ابتكار رسوم ولوحات مستمدة من البيئة والتراث المصرى.. وقد كان «الأجنبى» قاسماً مشتركاً فى الرسوم الشعبية القديمة التى قام بطباعتها ورسمها وبين المطبوعات الحديثة التى تمثل البيئة والتقاليد الغربية.. وأتمنى أن أرى لوحات الفنانين المصريين المستمدة من حياتنا وتعبر عن الشخصية المصرية وجماليات البيئة عندنا تطبع فى لوحات كثيرة (بوستر) لتحل محل صور المناظر الطبيعية للغابات والثلوج أو صور مطربى وممثلى الغرب التى

رسم شعبى يمثل اتحاد مصر والسودان وتحية للاستقلال التام لوادى النيل وصورة سعد زغلول تتوسط الرسم وأسد وفهد فى لمحة رمزية للوحدة
وكافة الحقوق محفوظة لجريدة السياسة المصورة العدد ١٩، وكان الرسم يوزع معها هدية

تنتشر الآن خاصة أن عدداً من كبار فنانينا استلهموا أعمالهم من الرسوم الشعبية.



* وأخيراً أنقل لكم ما كتبه الفنان القدير محيى الدين اللباد فى كتابه «نظر» صفحة ١٠٠ عن معاناته فى البحث عن إحدى الرسوم الشعبية المنشورة مع هذا الموضوع يمثل أبوزيد الهلالى. واللباد يعتبر من القلائل فى العالم الذين يملكون أرشيفاً بصرياً نادراً قدمه فى سلسلة كتبه «نظر» ورغم ذلك لم تتوفر لديه أى رسوم شعبية مطبوعة يستعين بها فى عمله كما يقول:

«أثناء إعداد كتاب للأطفال يقدم لهم - بطريقة وثائقية - تراث القصص والأساطير والسير والحكايات الشعبية والكلاسيكية، العربية والعالمية كان لابد من العثور على صورة لرسم شعبى لأبى زيد الهلالى بطل سيرة بنى هلال.

كانت السمة التى أُختيرت للكتاب أن تكون صورة كلها وثائقية تنقل روح وأجواء القصص والحكايات القديمة، لذلك نزلت أبحث عن صورة ملونة لرسم شعبى قديم لأبى زيد الهلالى سلامة لتنشر مع التعريف بسيرته، فمع صور من مخطوطات عربية قديمة مصورة، ومع رسوم شعبية على الزجاج لعنتر وعبلة، ومع محفورات فرنسية وإنجليزية وروسية من القرن الماضى، كان لابد - أيضاً - أن تكون صورة أبى زيد قديمة، من تلك الصور التى استقرت فى ذاكرة ووجدان الأجداد والآباء، والتى علينا - الآن تسليمها بدورنا إلى الأبناء.

فكرتُ فى مركز الفنون الشعبية، وذهبت إلى هناك حيث قوبلت بالاندهاش لأنه لا يوجد عندهم مكتبة للصور، ولا توجد خدمة للأفراد من هذا النوع!

وذهبت إلى دار الكتب، متوهماً أنى سأجد المساعدة من أمنائها، بأن يبحثوا لى فى المحفوظ لديهم عن صورة لرسوم من رسوم أبى زيد.

- «عارف عنوان كتاب معين»؟

- «.. لا..».

- «يبقى مش ممكن طبعاً»! ثم إننا ما عندناش تصوير ملون للجمهور ولا لغير الجمهور».

- «شكراً».

وذهبت إلى مؤسستين صحفيتين من أكبر المؤسسات ولكنى لم أجد فى أرشيفهما - بعد التعب - أى صور من هذا النوع!

* أخيراً تذكرت أن ناشراً من دمشق سبق له أن نشر بطاقات بريد عليها بعض الرسوم الشعبية العربية سعيت حتى حصلت على عنوانه من صديق رسام لبنانى، وكتبت إليه سائلاً صورة، بعد عدة أسابيع وصلنى منه رد باللغة الإنجليزية، فهمت منه أنه قد أصبح من رجال الانفتاح السورى وأنه لم يعد يلعب فى هذه المسائل الصغيرة، لكنه تكرم - مشكوراً - وأرسل لى اسم وعنوان المطبعة التى كانت قد طبعت له تلك البطاقات منذ سنين، وأخبرنى أن من بينها كانت هناك صورة لأبى زيد، وكان عنوان تلك المطبعة فى اليابان!

كتبت رسالة أخرى إلى المطبعة اليابانية أطلب منها صورة ملونة لأبى زيد من الصور التى اغتصبتها من الناشر السورى وضمتها إلى أرشيفها، وبعد مراسلات، «وعاوزين تطبعوا عندنا كام ألف نسخة من الصور؟» وخلافه.. رضيت المطبعة أن ترسل لى - مقابل ثمن معلوم - صورة لرسم شعبى عربى لأبى زيد الهلالى.

* ويختتم اللباد كلامه وأنا معه بالسطور التالية:

«يا ترى كم «أرشيفجى» سيقوم بقص الصورة المنشورة هنا ليحتفظ بها.. فلربما سأل عنها أحد المحتاجين لها فى يوم من الأيام»؟!

المراجـــع

(*) «تصويرنا الشعبى خلال العصور» للأستاذ/ سعد الخادم من المكتبة الثقافية - رقم ٩٥ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣.

(*) «نظر» للفنان/ محيى الدين اللباد - الناشر العربى للنشر والتوزيع.

(*) مجموعة رسوم شعبية مطبوعة ذات طابع دينى أصلية طرف الكاتب ومجموعة رسوم شعبية مطبوعة ذات طابع وطنى أصلية طرف الفنان/ رضا خليل.

علم اسمه الشيخوخة

أحمد مستجير



إننا نشهد مولد علم ثورى جديد - علم الشيخوخة - علم يتحدى الثوابت، يبحث فى حلم الشباب الدائم، وقد يفرض علينا مواجهات مع التقاليد لم يشهدها البشر على طول تاريخهم



الزمن! يا له من بُعْد غامض عجيب. شَغَل الفلاسفة وأرَّق الشعراءَ والكتَّاب، وأجهد المفكرين والعلماء.. ولايزال! صامت هو، يغيِّر فى طريقه كلَّ شىء، بلا تغيُّر. يموتُ الزمنُ ويحلُّ العدم. كالعاصفة هو، لايُرى ويُخلِّف حطاماً يُرى. عندما تجلس فى الشيخوخة تَذْكُرُ من بعيد عهد الشباب وتذْكر قولَ المتنبى:

آلةُ العيش صحةٌ وشبابٌ
فإذا وَلَّيَا عن المرء وَلَّى

فإنك إنما تعود تنبش فى خلايا مخك حيث تبلَّر الزمانُ القديم وَرَقَد. ما الذى يفعله هذا الزمان بنا وبأجسادنا ؟ يخاطب وليام شكسبير رجلاً عجوزاً ويسأله: «ألم تَعُد عينُك مُخْضَلَّةً بالدموع، وكفُّك يابسةً، ووجنتك صفراء، ولحيتك بيضاء، وساقك واهية، وبطنك مترهلاً ؟ ألَمْ يصبح صوتُك موهَناً، وأنفاسُك قصيرة، وذقنك مزدوجة (ذات لُغْد)، وعقلك شارداً، وكلُّ ما فيك يفوح بالقِدَم ؟». يأخذ الزمان بيدنا - فى البَدء - فى رِفق بهيج نحو الشباب، ويُنْضِجُنا، ثم فى صمت يجول بداخلنا يعملُ، وفى صمت يأخذ منا مَا أعطاه، ويصنع بنا هذا الذى وَصَفَه شكسبير. آه لو كان الأمر مثل ما تمناه مارك توين، فنولد فى الثمانين، ثم نقترب رويداً رويداً من سن الثامنة عشرة!

لماذا يفزع المرءُ - كما يقول ويندل هولمز - عندما يَسمع، أولَ مرة، مَنْ يصفُه بأنه عجوز ؟ لماذا يحس الفرد منا إذا ما أُحيل إلى التقاعد، حتى وهو فى كامل صحته، بأن عليه أن ينزوى، وهو يَعْلَم أن سنَّ التقاعد أمرٌ يقرره غيرُه ؟ لماذا يقول على محمود طه عندما يُلِحُّ عليه الشعرُ فى كهولته:

عُدْتَ يا شعرُ، فيمَ عدتَ، ربيعُ الـ
ـعُمْرِ وَلَّى، فهل تعيدُ الربيعا ؟

لو بقىَ الشباب! لو أمكننا أن نخدعَ الزمن! أن يتقدم بنا العُمر وبنا حيوية الشباب! أن نبلغ المائة دون أن نتعرَّض «لأمراض الشيخوخة»! إن هذا هو ما يتحدث عنه الكتاب الذى نعرضه. الكتاب يعلمنا كيف نسرق الزمن، كيف نحيا شيخوخة سعيدة. يؤكد لنا أن الشيخوخة ليست عورةً، ليست مرضاً، ينقل لنا الجديد فى العلم الجديد: علم الشيخوخة - هذا العلم الذى تجرى فيه البحوث الآن بسرعة مذهلة.

إننا نشهد مولدَ علمٍ ثورى جديد - علم الشيخوخة - علم يتحدى الثوابت، يبحث فى حلم الشباب الدائم، وقد يفرضُ علينا مواجهات مع التقاليد لم يشهدها البشر على طولَ تاريخهم. قد يمنحنا هذا العلم قوةً لا قِبَلَ لنا بها: مضاعفةَ طول فترة الحياة، وإمكانية تحوير الخريطة الوراثية للأفراد، والتخلص من الكثير من أمراض الشيخوخة التى ابتُلى بها الإنسان منذ فجر التاريخ. ستتغير بالضرورة نوعيةُ الحياة، للكبار وللصغار، فى الألفية الجديدة، وستتحدى فترةُ الحياة المضاعفة خيالاتنا وتتحدى كلَّ تراثنا عن الحياة الاجتماعيَة للبشر. كيف سنستجيب يا تُرَى لما ستثيره هذه الثورةُ من تحديات اجتماعية وأخلاقية ؟

Stealing Time : The New Science of Aging
(سرقة الزمن: علم جديد اسمه الشيخوخة)
Fred Warshofsky
T.V. Books, New York
Sept. 1999, 246 pp., $ 26.00

الثورة الديموغرافية

من المتوقع أن يصبح متوسطُ عمر الإنسان ضعفَ المتوسط الحالى خلال خمسين عاماً، وتضمينات مثل هذا التوقع تثير الرهبة والذعر حتى بين الباحثين أنفسهم. إن فكرة إطالة عمر الإنسان إلى ١٥٠ عاماً تخلق فجوةً واسعة بيننا وبين تاريخنا كله - لن تعود صالحةً كلُّ حكمتنا عن طريقة الحياة. والفكرةُ المُضَمَّنة هنا هى بالطبع أن الشيخوخة لا يلزم بالضرورة أن تصطحب الأمراض، ستكون الشيخوخة أفضل، سنشيخ ببطء ونتجنب الأمراض المرتبطة بالشيخوخة، حتى نهاية العمر.

من المتوقع أن يصل عدد من بلغ الستين أو أكثر، بليونَ فرد عام ٢٠٢٠، أكثر من ثلثيهم فى العالم الثالث. سَيغزو الشَّعر الأشيبُ العالم. ستتغير الخريطة الديموغرافية فى كل البلاد. فى بداية القرن الحادى والعشرين كانت أمريكا تحمل ٥٢ ألف شخص بلغوا من السن مائة عام أو أكثر. ويقدِّر العلماءُ أن عددَ أمثال هؤلاء سيتضاعف حتى يصل إلى أربعة ملايين بعد أربعين عاماً. إن أكبر المسنين سناً - أى مَنْ بلغوا عمر الخامسة والثمانين أو أكثر - هم أكثر قطاعات العشيرة البشرية نمواً. ففيما بين عامى ١٩٦٠ و ١٩٩٠ ازداد تعداد الأمريكيين بنسبة ٣٩٪. أما أكبر المسنين سناً فقد انفجر عددهم وتزايد بنسبة ٢٣٢ ٪! وهذه ظاهرة تشترك فيها كلُّ الدول الصناعية المتقدمة. لم يعد بلوغ المائة مجرد احتمال للجيل الذى يقترب عمره الآن من الخمسين! وتضميناتُ هذا مذهلة، ليس فقط بالنسبة لهؤلاء، وإنما بالنسبة للمجتمع ككل.

يقول العلماء إن معظم نساء ما قبل التاريخ لم يكنَّ يبلغن سن الثلاثين، ولم يكن يبلغ منهن الخمسين سوى نسبة جد ضئيلة، وأن هذه النسبة الضئيلة قد لعِبت دوراً رئيسياً فى ازدهار الجنس البشرى. يورد جاريد دياموند ما يعضد هذه الفكرة فى حياة القبائل البدائية فى غينيا الجديدة. فمعظم الناس فى هذه القبائل يموتون قبل سن الخمسين. لكن البعض قد يحيا حتى سن الثمانين، بل وحتى أوائل تسعينيات العمر. يصبح هؤلاء مكفوفى النظر غيرَ قادرين على الحركة، لكن المجتمع يعتبرهم دُرَرًا، حتى ليبذل أقاربُهم والأصدقاءُ كلَّ ما فى وسعهم لإبقائهم أحياء. من بين الصور التى تتكرر هناك كثيراً، أن تجد عجوزاً من هؤلاء، وقد فَقَدَ كلَّ أسنانه، ليقوم أقاربه بمضغ الطعام له - قطعة لحم مثلاً، أو زر بطاطا - ثم يبصقون ما مضغوه فى كوب، ليزدرده العجوز دون مضغ! يقارن دياموند بين معاملة كبار السن فى غينيا الجديدة وبين معاملتهم فى الولايات المتحدة أو أوروبا فيقول: «المشكلة الأساسية هى أن كبار السن قد فقدوا كلَّ وظيفتهم فى المجتمع، ومن ثم فلم يعد هناك من يقدرهم. نعم، قد يحبهم البعض، لكنهم وقد بلغوا ثمانينيات العمر أو تسعينياته، لم

ما نتوقعه ليس فقط إطالة الحياة، وإنما أيضاً إطالة فترة الشباب. بدأ الناس يدركون أن الحياة لا تتوقف عند عمر الخامسة والسبعين، وأن لهم أن يتوقعوا عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً من حياة طيبة نشطة تنتظرهم

يعودوا هم دعامات المجتمع». والأمر ليس كذلك في غينيا الجديدة، لم يكن الأهالي هناك يعرفون الكتابة حتى وصل الأوروبيون. وبدون الكتابة كانت ذاكرة الناس - لاسيما كبار السن منهم - هي مستودعات المعلومات، فيها ترقد خبرةُ الشعب وحكمته. كان المسنُّون هم موسوعةَ مجتمعات ما قبل الكتابة.

إن ما يثير القَلق في أذهان الكثيرين هو المستقبل القريب: حشود كبار السن الضعفاء المرتعشين المرضى العاجزين يملئون المصحات والمستشفيات وبيوت الرعاية الصحية، ويصبحون عبئاً اقتصادياً ثقيلاً على أبنائهم وأحفادهم بل وربما أيضاً على أبناء أحفادهم. أمر كهذا لم يسبق للبشر أن واجهوه. كان متوسط عمر الإنسان في القرن السابع عشر نحو ٢٥ عاماً. من بين كل مائة طفل يولد كان يموت ٢٥ قبل مرور عام، ثم ٢٥ قبل عمر ٥ سنوات، ثم ٢٥ ما بين عمر ٢٠ و ٤٠ سنة، ولم يكن ليصل من المائة مولود إلى عمر الستين إلا عشرة. وفي القرن الثامن عشر بدأ معدل موت الأطفال ينخفض، وتزايدت نسبة الشباب في العشيرة البشرية، وانخفضت نسبةُ المسنين، ومعها أيضاً أهميتُهم في المجتمع. وعلى بداية القرن التاسع عشر أصبح الشباب هم بؤرة المجتمع، اعتُبروا هُم الأكثر حيوية وهُم الأنصح مقارنةً بكبار السن المحافظين.

ونحن نواجه الآن نقلةً ثقافية جديدة. فما نتوقعه ليس فقط إطالة الحياة، وإنما أيضاً إطالةَ فترة الشباب. بدأ الناس يدركون أن الحياة لا تتوقف عند عمر الخامسة والسبعين، وأن لهم أن يتوقعوا عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً من حياة طيبة نشطة تنتظرهم، وهذا تغير غير مسبوق، مذهل وعجيب بالنسبة للمجتمع.

سنُّ التقاعد

إذا كان الأمر هكذا، فلماذا تظل سن التقاعد هي الستون، أو الخامسة والستون ؟ لتحديد هذه السن حكايةٌ تستحق أن تُروى، فما الذي يا ترى قد اكتُشف أنه يَحْدُثُ فجاة للإنسان فيستحيل معه أن يُنْتِجَ مثلما كان يُنتِجُ عبر الثلاثين أو الأربعين عاماً التي تسبق التَقاعد ؟ يقولون إن من ابتكر هذه الخرافة هو أوتُّو بسمارك في ألمانيا القرن التاسع عشر. لاحظ بسمارك عندما كان يطمح إلى منصب مستشار بروسيا أنَّ كلَّ منافسيه في الحكومة كانوا في سن الخامسة والستين أو أكثر. تمضي الرواية لتقول إن بسمارك نجح في تمرير تشريع ينص على إحالة موظفي الحكومة إلى التقاعد في سن الخامسة والستين، بدلاً من السبعين. كان متوسط العمر المتوقع للإنسان آنذاك هو ٥٦ عاماً، فإذا استخدمنا العمرَ المتوقَّعَ في عصرنا هذا لوجب أن يكون سنُّ التقاعد الآن تسعين عاما!!

المكتوب الوراثي

الطفل الذي يولد اليوم، أو حتى من وُلِدَ نحو عام ١٩٦٠ سيجد عالماً أقلَّ تهديداً وأكثر ترحيباً، ومن ثم فسيمكنه أن يحقق« المكتوب» الوراثيَّ المُدَوَّنَ في أضابير مادته الوراثية: إذا كان لديه الاستعداد الوراثي لبلوغ المائة، فسيبلغها! وهناك مثل هذا الاستعداد الوراثي. قام بيرليز، أحد كبار علماء الشيخوخة، بدراسة شجرة العائلة لمائة واثنين من المئويين، فوجد أن لهم جميعاً أشقةً وشقيقات من المعمرين. ولقد أصبح من المهم أن نحاول تحديد الجينات المرتبطة بعملية الشيخوخة بحثاً عن وسيلة لإطالة فترة حياة الإنسان.

لماذا الأمراض في نهاية العمر ؟

نتصور الشيخوخة دائماً على أنها رحلة هبوط نحو السفح، تتزايد سرعتها مع مرور كل يوم. لكن العلماء الآن يَتَحَدُّون هذا الاعتقاد. إذا كان لابد لنا أن نموت، فهل يلزم أيضاً أن نتدهور ونضعف ونذبل بهذه الصورة الحزينة المثيرة للشفقة ؟ نعم، لقد كان الأمر هكذا دائماً. هكذا كان آباؤنا، هكذا كان أجدادنا. الشيخوخة ومعها المرض والذبول هي الخبرة الحتمية للبشر.

لكن الشيخوخة لا يلزم أن ترتبط بالمرض. من الممكن أن نشيخ ببطء، وأن نتجنب الأمراض التي ارتبطت بالشيخوخة، حتى نهاية العمر. من الممكن أن« يُخْتَزَلَ» المرضُ فَتَحْيَا معظمَ حياتك في صحة وعافية ولا يهاجمك المرض إلا في الذيل الأخير جداً من الحياة.

تضاعف متوسط العمر المتوقع للإنسان في القرن العشرين بسبب التقدم في علوم الصحة والطب والصيدلة. لكن الطريق لا يزال مفتوحاً بلوغ عمر المائة وخمسة عشر عاماً التي يُظَن أن جيناتنا تَعِدُ به. « كنا نظن أن هناك حداً أقصى للحياة لا يَستطيع أحد أن يتعدَّاه، لكنَّ هذه ليست سوى أسطورة. نعم، لا يمكن أن نحيا إلى الأبد، لكنا لم نعثر بعد على حد يتعذر أن يتخطاه الإنسان». فمع كل بحث جديد يتضح أكثر وأكثر أن الله قد هَنْدَس جسم الإنسان ليحيا فترة أطول كثيراً مما يحياد الآن.

لكن، لماذا الأمراض في نهاية العمر ؟ تنتخب الطبيعةُ لبقاء النوع، لا الفرد. تهيَّأ الأمرُ كي يعيشَ من الأفراد عَدَدٌ كاف حتى العمر الذي يمكِّنهم من تمرير جيناتهم إلىَ الجيل التالي. الحياة الطويلة للفرد إذن لا تعني الكثير من وجهة النظر هذه. يجري الانتخاب أساساً للجينات التي تشجع تكاثراً سريعاً خصباً، قَبْل الجينات التي تزكِّي طول الحياة. التكاثر هو المهم. ومن هنا فإن الطبيعة ستحابي الأنثى. والنساء في الواقع يشكِّلْن ٩٠٪ ممَّن بلغوا المائة من البشر. هنَّ يشخن ببطء حتى تطول الفترة التي يمكنهن فيها الولادة.

للتكاثر ثمن، لذا نلحظ أن طول الحياة يصطحب ظواهر لا تسر. ارفع قدرة التكاثر مبكراً في الحياة وستدفع الثمن من طول فترة الحياة. تطورت الجيناتُ التي تضفي مزايا واضحةً على الكائن في مراحل مبكرة من الحياة، ليُدفع الثمن في مراحل تالية. يرى البعض أن هناك تعارضاً وراثياً ما بين الخصب وطول العمر: مَنْ بُرْمجتْ وراثياً للحياة الأطول تكون أقل خصباً.

تطول الحياة بقدرة الجسم على إصلاح نفسه. نتصور أنفسنا عادةً آلات لابد أن يصيبها البلى مع طول «الاستعمال». لكنا لسنا آلات، إننا نصلح أنفسنا بأنفسنا: الجروحُ تلتئم، العظام تلتحم، المرض مثلما يجيء يروح، فلماذا إذن «نبلى» مع الزمن. إن مدى قدرة الجسم على إصلاح نفسه يحدد المعدلَ الذي به نشيخ. الشيخوخة تحدث عندما يعجز الجسم عن إصلاح نفسه.

لكنا نشيخ بمعدل أبطأ من الشمبانزي الذي يفوقنا قوة وسرعة وله نفس حجمنا تقريباً. غير أن الشمبانزي لا يَبْرِي سهماً ولا يصنع قوساً. ومن ثم يقع فريسةً سهلة للنمر والأسد. وليس هكذا الإنسان الذي يستطيع أن يهرب من أعدائه حتى عمر الثمانين. الإنسان قد طوَّر أدوات معقدةً، ومهارات اجتماعية تساعده على حمايةِ نفسه. ولكي يكتَسب الطفل هذه المهارات فإنه يحتاج فترةً رعاية أطول، الأمر الذي يقدم سبباً وجيهاً لإطالة عمر الوالدين: يلزم أن يعيش الأبوان زمناً أطول لينقلا فيه ما جمعاه من خبرة وحكمة إلى نسلهما. يلزم أن تطول حياتهما لأبعد من سن الإنجاب. لكن الحياة الإنجابية للمرأة تنتهي ببلوغها سن اليأس. وليس الأمر هكذا مع الرجال. فلماذا تكون سن اليأس من نصيب المرأة وحدها ؟ من بين الأسباب أن الولادة أمر خطر، وتوقُّفُ الإنجاب بعد سنٍ معينة يرفع كثيراً من فرصة النساء على ترَبية أطفالهن حتى سن البلوغ؛ حتى بدايات القرن العشرين، كانت الوفاة عند الولادة تشكل خطورة حقيقية على حياة الأم، وبالتالي على حياة وليدها.

إلا قلب الإنسان!

جُرَذُ المعمل، إذا ما تمتع بالغذاء الطيب والرعاية المثلى، ولم تهاجمه المفترسات، أصبح عجوزاً خَرِفاً إذا بلغ عمره سنتين: يصاب بإعتام عدسة العين (الكاتاراكت) والمشاكل التناسلية وفقدان الذاكرة، ثم يموت. يحدث هذا مع معظم الكائنات الحية إنما بمعدلات مختلفة. الكلب يعيش خمسة عشر عاماً، والشمبانزي أربعين عاماً، والفيل الأفريقي سبعين عاماً. يبدو في الثدييات أن الأكبر حجماً هو الأطول عمراً.

حاول العالم الألماني ماكس روبنر أن يبحث في العلاقة بين معدل الأيض، أي السرعة التي يحرق بها الجسمُ الطاقةَ، وحجم الجسم وطول العمر، باستخدام خمسة أنواع من الثدييات: خنازير غينيا، والقطط، والكلاب، والأبقار، والخيل - وهذه أنواع تتباين كثيراً في الحجم: أصغرها خنزير غينيا (رطل واحد) وأثقلها الخيل (ألف رطل)، كما تتباين في طول العمر: أقصرها خنزير غينيا (٦ سنوات) وأطولها الخيل (٥٠ سنة). اكتشف روبنر أنه كلما انخفضت سرعة استهلاك الطاقة طالت الحياة. «الكسالى يعيشون أطول» كما قال رايموند بيرل عام ١٩٢٧. ذاعت نظرية روبنر حتى ليقاس العمر المتوقع لأنواع الحيوانات بقدر ما تستهلكه من الأكسجين، وبعدد الأنفاس، وعدد ضربات القلب! ينبض قلب الفأر بليون نبضة في السنين الثلاث أو الأربع التي يحياها، ويحتاج الفيل ٧٠ عاماً لتحقيق هذا العدد من النبضات. لكن النظرية لم تصمد أمام قلب الإنسان: قلب الإنسان ينبض ثلاثة بلايين نبضة عبر الخمسة وسبعين عاماً التي يحياها، أي ثلاثة أضعاف ما تقول به النظرية!

الوراثة والشيخوخة

منذ ٣٠ مليون سنة طارت نحلة وحطت على شجرة. سالت مادة الراتينج اللزجة من قلف الشجرة وغمرت النحلة فقتلتها. تصلب الراتينج ليتحول مع الزمن إلى كهرمان. عثر العالِم رول كانو على الكهرمانة. عَقَّمَ سطحها، ثم كَسرها وأخرج النحلة. وتحت تدابير تجريبية صارمة للتعقيم فتح بطنها فوجد أبواغَ بكتريا باسيلَص سفيركَصْ. أخرج البكتريا من أبواغها وقارن دَنَاها (مادتها الوراثية) DNA بدنا بكتريا معاصرة من نفس النوع فوجد من الاختلافات ما أقنعه بأن بكتريا الأبواغ قديمة حقاً. بقيت هذه البكتريا على قيد الحياة ثلاثين مليون عام، دون هواء، دون غذاء. الكثير من البكتريا يغلف نفسَه في الظروف البيئية المعاكسة بغلاف متين من البروتين (يُسمى بوغ) ويخفض من عملياته الحيوية إلى أدنى حد يبقيه حياً، فإذا تحسنت الظروف عاد إلى الحياة من جديد. أعلن كانو أنه قد بعث إلى الحياة من بطن هذه النحلة أكثر من ألفي نوع هاجع من البكتريا.

لو كان عمر هذه البكتريا بالفعل هو ٣٠ مليون سنة، فإن هذا يعني أن الخلود أمر ممكن، على الأقل بالنسبة للبكتريا. والعمر الطويل أمر معروف في الكائنات وحيدة الخلية - وطريقة التكاثر لابد أن تكون هي الآلية المسئولة. هناك في الكائنات الحية وسيلتان للتكاثر. الكائنات العليا كالإنسان أو القمح تتكاثر بلقاء الدنا المنقول في الخلايا الجرثومية (أي البويضات والحيوانات المنوية أو حبوب اللقاح). أما البكتريا والخميرة وغيرهما من وحيدات الخلية فتتكاثر بالانشطار. تحمل الخليتان الناجمتان عن الانشطار إذن نفس الجينات: سيكون لهما نفسُ العمر، لن تكون واحدةٌ عجوزاً والأخرى طفلة. الكائنات التي تتكاثر بالانشطار لا تشيخ!

حاول بعض العلماء أن يقارن بين دورة حياة دودة دقيقة من ديدان المياه العذبة تتكاثر بالانشطار، وبين دورة حياة برغوث المياه العذبة الذي يتكاثر جنسياً ولا يختلف عن الدودة حجماً، فوجد أن براغيث المياه تشيخ وتموت حتى تحت الظروف البيئية المثلى، أما ديدان المياه فكانت تموت ما بين الحين والحين، لكن معدل الموت لم يكن يتزايد مع العمر: «يبدو أن هناك كائنات تشيخ ببطء بالغ، بل وحتى لا تشيخ». التكاثر بالانشطار هو الوسيلة لبلوغ ما يشبه الخلود - حيث يختفي التمييز بين الآباء والأبناء.

لكن مثل هذه النتائج لا تشير إلى وجود جينات معينة تسبب

علم الشيخوخة

الشيخوخة. ولقد عُثر على مثل هذه الجينات في كائن بسيط للغاية هو الخميرة. تنقسم خلايا الخميرة طبيعياً نحو ٢١ انقساماً، أو جيلاً. وقد اتضح أن هناك جينات تَنْشَط أو ينخفض نشاطُها مع تقدم الخلايا في العمر، عُثِر منها على ١٤ جيناً، من بينها جين (اسمه لاج - ١) (lag-1) إذا استمر نشاطه انقسمت الخلايا ٢٧ أو ٢٨ مرة. ولقد عُثر على جين نظير في دنا خلايا الإنسان أطلق عليه اسم بى ٢١ p 21 .

عند استزراع الخلايا البشرية في المعمل فإنها تنقسم عدداً من المرات، ثم «تشيخ» وتموت. نُزِع الجين «بى ٢١» من بعض الخلايا فاستمرت في الانقسام ٣٠ مرة إضافية قبل أن تموت. هناك برنامج وراثي داخل خلايا كل فرد يحدد فترة الحياة. الشيخوخة حتمية. علينا أن ندرس ونفهم الآلية الجزيئية التي تحدد الشيخوخة.

وفي ديسمبر ٢٠٠٠ أُعلن عن اكتشاف الجين إندى Indy (I am not dead yet) على أحد كروموزومات ذبابة الدروسوفيلا (وبين هذه الذبابة وبين البشر تماثل جيني يبلغ نحو ٨٠٪). ظهر أن تحوير هذا الجين يمد حياة الحشرة إلى ٧٠ يوماً بدلاً من ٣٧ - بل ولقد وصل عُمْرُ بعض هذه الحشرات المحورة الجين إلى ١١٠ أيام. تعيش الحشرة ضعف عمرها الطبيعي. يبدو أن الجين يعمل بأن يحدَّ من امتصاص الطاقة على المستوى الخلوي، هو «ريجيم» قسري يقوم به الجهاز الوراثي. لكن المهم أن هذا الجين لا يطيل العمر فقط وإنما يحفظ الحيوية والشباب للحشرة، ويعطل حلول الشيخوخة، إذ تستمر الحشرات في التكاثر طيلة العمر، وتبيض خلال حياتها ما يصل إلى ألفي بيضة بدلاً من ١٣٠٠ بيضة تضعها الحشرة الطبيعية. يقول فرانس كافكا: «أنْ تكون ذبابة، هذا أمر سيئ. أما الأسوأ فهو أن تكون ذبابة تعيش ضعف العمر الطبيعي!». وها قد توصل العلماء إلى الذبابة «الأسوأ». لكن هناك في الإنسان جيناً شبيهًا بالجين إندى، وقد تؤدي دراسته إلى التمكن من إطالة فترة حياة الإنسان إلى ١٥٠ عاماً. فقد نستطيع به يوما تطويرَ «حبة» تطيل الحياة وتحكم الجسم فلا يترهل مع العمر - حبة تقلل الأيض في جسم الإنسان!

تخيل نفسك وأنت تُنجب وسنك ٧٠ عاماً، وجسمُك لا يزال عفياً وعقلُك، حتى نهاية عمرك في سن المائة وخمسين! لقد أصبح هذا التغير البيولوجي الهائل هدفاً محتملاً. نقترب الآن خطوة نحو عُمْر مَتُوشَالَح (جَدُّ نوح) الذي عاش ٩٦٩ عاماً (كما يقول سفْر التكوين) يسعى العلماء يبحثون عن جينات مَتُوشَالَح التي تتحكم في شيخوختنا، وهي بعض ما سيكشف عنه مشروع الجينوم البشري الذي أوشك على الانتهاء.

مع زيادة تفهمنا للجينوم البشري سنتمكن من منع أو إصلاح العطب الذي يصيب المادة الوراثية على المستوى الخلوي - العطب الذي يُعْتَقَد أنه السبب الرئيسي للشيخوخة. وقد يمكّننا العلاج بالجينات من التحكم في بعض الأمراض التي تبدو عنيدة، وقد يكشف عن آليات الأمراض التي يسببها التفاعل بين الجينات والبيئة. وتحديد هوية هذه الجينات والبروتينات التي تأتي عنها قد يمهد الطريق إلى علاجات أو طرق للوقاية أكثر فعالية، كما سيمكّننا من فهم التغيرات التي تحدثُ مع تقدم العمر.

الطفل العجوز

ربما كان هناك مئات من الجينات تؤثر في شيخوخة البشر، هناك من بين هذه جين مسئول عن «متلازمة فيرنر»، وهذا مرض يُسرع من عملية الشيخوخة في الأطفال، إذ يحبس ضحاياه الصغار في أجساد هَرِمَة للغاية. توجد من هذه المتلازمة صورتان: صورة تسمى بروجيريا progeria تصيب الأطفال: يصبح الطفلُ صغيرَ الحجم، أصلعَ، ذابلاً، ومدركاً - باللقسوة - لمأساته، تتصلب شرايينه بسرعة ويموت عادة في عمر الثالثة عشرة. أما الصورة الأخرى فتظهر بعد البلوغ وفيها تبدأ الشيخوخة في الضحية بصورة مأساوية، وعلى عمر العشرين يكون وقد طوَّرَ الكثير من أمراض كبر السن: الشَّعر الأبيض، الكاتاراكت، الجلد المجعد، تخلخل العظام، ليموت على عُمْر الأربعين بأزمة قلبية أو بالسرطان.

اكتشف الطبيب الألماني أوتو فيرنر هذه الظاهرة ونشَر عنها عام ١٩٠٤، واقترح أنها ظاهرة وراثية. وفي عام ١٩٩٦ عُثر على الجين المسبب على الذراع القصيرة للكروموزوم رقم ٨ وهذا الجين مسئول عن إنزيم أساسي لعمل الدنا اسمه هيليكيز وظيفته فَرْدُ جدائل الدنا المُحَلْزَنَة لتصبح مستقيمة - الخَطوة الحرجة الأولى لكي يقوم الدنا بوظائفه في إصلاح نفسه أو نَسْخ ذاته أو ترجمة شفرته إلى بروتين لتخليق خلايا جديدة. فإذا كان الجين معطوباً تزايدت سرعة عمليات الشيخوخة. إذا استزرعنا خليةً طفل طبيعي في مستنبت فإنها تنقسم نحو ٦٠ مرة قبل أن تتوقف، فإذا كانت الخلية لعجوز انقسمت ١٠ - ٢٠ مرة فقط، وإذا ما كانت لمريض بمتلازمة فيرنر عمره ٣٠ سنة فإنها تنقسم وكأنها لعجوز في الثمانين. هذا جين مسئول عن الشيخوخة، وكشفه ومعرفة طريقة عمله تعتبر خطوة هائلة إلى الأمام.

السيدة الأعجوبة

هيلين بولى سيدة فوق الستين تتميز بصفة هي العجب العجاب! في كل يوم يسحب الأطباء من دمها عينةً تُرْسَل إلى معهد طبي في ماريلاند. في كل ستة أشهر تذهب بشخصها إلى المعهد ليَفحصَ دَمَها سبعةٌ من الباحثين. والسبب: مستوى الكولسترول «الطيب» في دمها يخرج تماماً عن المستوى الطبيعي، هو أعلى مستوى سَجَّلَهُ إنسان: ٢٣٠ - أكثر من أربعة أضعاف ونصف المستوى الطبيعي. هي تحمل - بمعنى ما - جيناً مضاداً للشيخوخة، إذا تمكن العلماء من كشف سر الطريقة التي يعمل بها هذا الجين، فإنهم يفتحون بذلك لاشك طريقاً جديدة تماماً لحماية الناس من تصلب الشرايين وغيره من أمراض القلب المرتبطة بالكولسترول.

حكاية الكولسترول

والكولسترول مادة شمعية طرية لا رائحة لها يحتاجها الجسم لأداء وظائفه: فهو أحد مكونات أغشية الخلايا، وهو ضروري لإنتاج عدد من الهرمونات، وفيتامين د، وأحماض الصفراء. يوجد الكولسترول في كل أجزاء الجسم بما فيها المخ والجهاز العصبي والعضلات والجلد والكبد والأمعاء والقلب. يتأثر مستوى الكولسترول في الجسم ليس فقط بما يتعاطاه الفرد منه في الغذاء، وإنما أيضاً بما يصنعه الجسم بنفسه. فإذا كان الجسم ينتج كلَّ حاجته من الكولسترول، فإن ما يصله في الغذاء سيرفع مستواه في الدم.

يتحرك الكولسترول في الدم في عبوات تسمى ليبوبروتينات، تُصنَع كلُّها في الكبد لتَنْقلَ الكولسترول عبر الجسم كله. ومن هذه الليبوبروتينات نوعان: نوع منخفض الكثافة (ل.م.ك LDL) وينقل الكولسترول من الكبد، في الدم، إلى أعضاء الجسم حيث يُستخدم. يحمل ل م ك هذا معظم الكولسترول الموجود بالدم، فإذا لم تتم إزالته فإنه يتراكم مع الدهون في الشرايين مما يؤدي إلى تصلبها - وبذا فهو نوع «خبيث». أما النوع الثاني من العبوات فهو الليبوبروتين عالي الكثافة (ل.ع.ك HDL) الذي يحمل الكولسترول مرة أخرى من الدم ويعيده إلى الكبد لمعالجته أو إزالته من الجسم - هو يمنع تراكم الكولسترول على جدران الشرايين، هو إذن النوع «الطيب». المستوى المرتفع من ل م ك والمنخفض من ل ع ك يرفع احتمال الإصابة بأمراض القلب. ومرض القلب في عالمنا اليوم هو القاتل الأول للرجال والنساء.

يختلف الناس في السرعة التي يتخلص بها الجسم من كولسترول الدم، وفي مقدار ما يصنعه الكبد منه. لكن شيئاً واحداً يحدث في الناس جميعاً: يتزايد الكولسترول مع تقدم العمر. والهبة الوراثية التي وهبها الله لهيلين بولى هي أنها تنتج كميات مذهلة من ل ع ك تُمَكِّنها من حماية جسمها، فشرايينُها تبدو نظيفة للغاية. لكن احتمال أن يرث أيٌّ منا برنامجاً وراثياً رائعاً كهذا يضمن له طول العمر، هو احتمال بالفعل جد ضئيل. غير أن مراقبة الغذاء قد تقلل من خطر مرض القلب والسكتة الدماغية والسرطان. والحقيقة أن الغذاء عند بعض علماء الشيخوخة هو السبيل الأول لإطالة الحياة.

كلْ قليلا تعش طويلا

يرى بعض العلماء أننا نستطيع إطالة عمر الحيوان بتقليل مقدار ما يأكله من الطعام، أي من السعرات الحرارية. في عام ١٩٣٥ وجد كلايف ماكْكَاي أن حياة فئران المعمل تطول بنحو ٥٠٪ إذا خفَّضنا ما تتعاطاه من سعرات إلى مستوى يصل بها إلى ما يقرب من الموت جوعاً. وعندما كَرَّرَ روى وولفورد التجربة في أوائل السبعينيات، واختبر آلاف الفئران عبر خمسة وعشرين عاماً، ظهر بالفعل أن الفئران التي تعيش على ٦٠٪ فقط من السعرات، تحيا فترة أطول بمقدار الثُّلُث مقارنة بفئران تأكل كل ما تشاء. وقد اتضح أن هذا يسري على كل الأنواع التي دُرِست عبر المملكة الحيوانية. غير أن الآلية التي تسبب هذا الأثر لا زالت غير مفهومة: هل هي ترفع كفاءة إصلاح الدنا ؟ هل هي تمنع تكوين الشوارد الحرة، وتُحَسِّن الأجهزة المضادة للأكسدة ؟ هل تمنع تدهورَ الجهاز المناعي المصاحب للشيخوخة ؟ هل تقلل سكر الدم ؟ أم أنها - كما يظن الكثيرون - تفعل كل هذا؟

الكثيرون من أهالي أوكيناوا باليابان يتعاطون غذاءً منخفضَ السعرات، وإنْ كان يحمل كل المغذيات المطلوبة. وهم يتميزون أيضاً بارتفاع نسبة المئويين فيهم: نسبتهم تعادل أربعين ضعف نسبتهم في أية جزيرة يابانية أخرى! الأبحاث تقول إن سرطانات الثدى والقولون والمعدة تحدث بنسبة أقل فيمن يتعاطون غذاءً منخفض السعرات. التجارب على قِرَدَةِ الريزوس تقول إن معدلات أيضها تنخفض مع الغذاء قليل السعرات - الأمر الذي يعني كفاءةً أعلى في استخدام الطاقة، ومعدلاً أقل كثيراً من سكر الدم. تصاب هذه القِرَدَةُ كالإنسان بمرض السكر، فالجسم مع تقدم السن ينتج إنسولينا أقل، ومن ثَم تصل إلى الخلايا كميةٌ من الجلوكوز أقل، فتقل كفاءتها، مما قد يُسرع من عملية الشيخوخة. وقلة الغذاء تسبب أيضاً تغيرات مرغوبة في دهون الدم والكولسترول وتقلل ضغط الدم، وكلُّ هذه من دلالات الصحة الحسنة.

الزمن - في هدوء - يَطبُخنا

مع تقدم العمر يتزايد السكر في الدم، وتتزايد التفاعلات بينه وبين الهيموجلوبين. وتزايد سكر الجلوكوز المشتبك بالهيموجلوبين يقلل قدرتَه على حمل الأكسجين. وتفاعل الجلوكوز مع بروتينات الطعام وبروتينات الجسم يحيل لون العظام إلى الأصفر البني (لون جلْد دجاجة أُنضجت بالفرن). يحدث هذا في أجسادنا طوَل الوقت: عظام المسنين صفراء. أنت تُطْبَخ في هدوء ما دمت حياً!

مع تقدم العمر تتراكم في الأنسجة هذه الصبغاتُ الصفراء البُنِّيَّة. أُخذت عينات من عدسة العين مِمَّن يُقتلون في حوادث الطرق، وفُحصت ميكروسكوبياً. كانت عدسة الأطفال في سن الثانية رائقةً كالزجاج، أما من هم في العشرين فكانت مصبوغةً بعض الشيء، وتصبح العدسةُ أكثرَ وأكثر دكنةً مع تقدم العمر، فإذا ما بلغ الفرد الثمانين كانت العدسة بالفعل بُنِّية! أنت ترى نفس الشيء في الأسنان. الشاب أسنانه بيضاء وتتحول بالتدريج إلى الأصفر مع العمر بسبب هذا التفاعل: السكر يتفاعل مع البروتين. تتشابك البروتينات بعضها ببعض وتصبح أكثر خشونة. تَتَيَبَّسُ مفاصلنا وتفقد مرونتها. المشكلة مع الجلوكوز ليست في أنه يجعل البروتينات بُنِّية، وإنما في أن ذلك يتسبب في أن يصبح كلُّ شيء مُتَيَبِّساً.

ينتج عن تشابك البروتينات مع الجلوكوز مادة غروية تقلل كثيراً من مرونة البروتين. وقد اتضح أن هذا التشابك واحد من الأسباب الرئيسية للشيخوخة - في الجلد، في الرئة، في العظام. تجرى البحوث الآن على مركب اكتُشف مؤخراً يمكنه أن يكسر تشابكات الجلوكوز المسئولة عن مضاعفات الشيخوخة. تصور الباحثون أنه من المستحيل أن تُفْسَخَ هذه التشابكات، إنها دائمة. ثم اتضح الآن أنه من

الممكن فسخها: مادة تيماجيدين timagedine تفك الاشتباك: إذا ما تشابك بروتينان بجزىء سكر جلوكوز، فمن الممكن بهذه المادة تحطيم الرابطة وفصل البروتينين عن بعضهما البعض. المتيبس يصبح مرناً. جُرِّب هذا العقار بنجاح على حيوانات المعمل، وبدأ تجريبه على البشر. إذا نُجِحَ فسيخفف من تيبس المفاصل ويعيد الشباب إلى القلب والأوعية الدموية. هناك الآن أكثر من ١٢٠٠ أمريكى بالولايات المتحدة وكندا يشتركون فى تجارب إكلينيكية على التيماجيدين، والنتائج حتى الآن مشجعة.

الجلوكوز، الوقود الذى نحتاجه للبقاء، يقتلنا ببطء. هو شفرة ذات حدين. يمنح الحياةَ ويسلبها.

الرياضة البدنية والشيخوخة

أكل الفاكهة والخضروات واحد من أبسط الحلول التكنولوجية لإطالة العمر والبقاء فى صحة جيدة. والرياضة البدنية حل بسيط آخر. هى ليست مجرد مفتاح للصحة الجيدة، إنها تستطيع أن تعكس مَسَارَ جُزْء هام مما يحدث بالجسم من عمليات الشيخوخة.

مع تقدم العمر يتزايد تَرَسُّب الدهن فى الجسم، وتَضْمَحل العضلات. بدءاً من سن الأربعين يفقد الإنسان من عضلاته كل عام ١٥٠ جراماً، فتضعف، ويضيف فى نفس الوقت قدراً مساوياً من الدهن ـ كما يفقد الجسم أيضاً من وزن عظامه. بأجسام النساء دهنٌ أكثر من أجسام الرجال، وعضلاتٌ أقل. وهن يفقدن من العضلات بنفس معدل الرجال، ومن ثَمَّ تصبح أجسادهن مع تقدم العمر أضعف من الرجال. والكثير من أنشطتنا اليومية تتطلب قوة العضلات. فهل من الممكن أن نستعيد ما نفقده مع السن من العضلات ؟

فى تجربة رائدة حاولتْ ماريان نيلسون أن تعرف ما إذا كان ذلك ممكناً، فبدأت برنامجاً رياضياً لكبيرات السن لترى ما إذا كانت التدريبات الرياضية ستدمر العضلات العجوز المترهلة وتفسد العظام الرهيفة. ولقد تمكنت هؤلاء النسوة من بناء ما فقدْنه من عضلات، فبعد نحو شهرين لا أكثر من التدريبات اكتسبت النسوة ما يصل إلى ٣ ـ ٤ أرطال من العضلات، وفقَدْن نفس القدر تقريباً من الدهن. اكتشفت نيلسون أنك تستطيع إعادة بناء العضلات فى أى عمر! بل ويبدو أن التدريبات تخدم أيضاً فى بناء عظام أقوى. تقول البحوث إنك إذا مشيت ولو ساعة واحدة كلَّ يوم، زاد عمرك سنتين. الرياضة البدنية تؤثر فى العضلات وفى العظام وفى حِدَّة الذهن!

الهرمونات والشيخوخة

الهرمونات رسائل كيماوية صغيرة تفرزها الغدد الصَّمَّاء فى مجرى الدم طول الوقت بغرض تنظيم أنشطة الأعضاء الحيوية. لكن مستويات معظم الهرمونات تتناقص طبيعياً مع تقدم العمر. من بين هذه الهرمونات هرمونُ النمو الآدمى الذى تفرزه الغدة النخامية، والذى يُعْتَقَد أن انخفاضَ إفرازه هو واحد من بين أسباب الشيخوخة. يُفْرَزُ هذا الهرمون بوفرة فى فترة المراهقة ليُسْهِمَ فى نمو الجسم وترميم الأنسجة واستبدال الخلايا وتقوية العظام وعمل المخ وسلامة الشَّعر والأظافر والجلد، لكنه يتناقص بعد سن العشرين بمعدل يبلغ ١٤٪ كل عشر سنوات. يرتبط التدهور الجسدى فى أداء كل الأعضاء الحيوية بالجسم، ارتباطاً مباشراً بمعدل انخفاض هذا الهرمون. يعتمد التعلم والذاكرة والذكاء على وجود القدر الكافى من هرمون النمو هذا.

خلايا المخ تعمل كثيراً، تقوم بأعمال تفوق بكثير ما نطلبه من أية خلية أخرى بالجسم. خلية الكبد مثلاً لا يمكنها أن تحل مسائل فى الحساب أو الجبر، ولا أن تؤلف موسيقى أو تكتب قصيدة أو ترسم لوحة

تمكنت شركات البيوتكنولوجيا بالهندسة الوراثية من تصنيع جزىء الهرمون فى أواخر الثمانينيات، وفتحت بذلك الطريق أمام دراسة آثاره على الشيخوخة، وكان قبلاً مغلقاً لأن الهرمون كان يستخرج من الغدد النخامية للموتى، وبكميات ضئيلة للغاية. فى عام ١٩٩٠ نشرت نتائج دراسة أجريت على رجال، فى أعمار تتراوح ما بين ٦١ عاماً و ٨٠ عاماً، كان مستوى هرمون النمو فى أجسادهم منخفضا جداً. حُقنت مجموعة منهم بالهرمون ثلاث مرات أسبوعياً لمدة ستة أشهر. كانت النتيجة مذهلة: ازدادت كتلة الجسم (الخالى من الدهن) بنسبة ٨,٨٠٪ وانخفضت كتلة الأنسجة الدهنية بنسبة ١٤,٤٪ وازدادت كثافة العظام ١,٦٠٪. استعاد الكثيرون نشاطَهم الجنسى، رجعوا إلى ما كانوا عليه «من شباب» قبل عشرين عاماً. انخفاض نشاط هرمون النمو يعلل بعض مظاهر الشيخوخة. ومثله أيضاً هرمون آخر يشجع على إفراز هرمون النمو، وهرمون ثالث اسمه (DHEA) تفرزه غدة فوق الكلية.

متى وأين تبدأ الشيخوخة ؟

إذا استُزرعتْ، فى مستنبت، خلايا أجِنَّة، فإنها تنقسم وتنقسم ثم تتوقف بعد نحو ٥٠ انقساماً، بعد أن يتغير سلوكها، فتستهلك غذاءً أقل ولا تُصلح ما فسد منها إلا قليلاً ـ تظهر عليها علامات الشيخوخة. فإذا استزرعنا خلايا عجوز فى سن السبعين، فإنها هى الأخرى تنقسم وتنقسم، ولكنها تتوقف بعد ٢٠ أو ٣٠ انقساماً. تبدأ شيخوخة الخلايا فى المستنبت مبكراً. الخلايا إذن تشيخ، تضعف، تتداعى. والناس لا يشيخون لأن خلاياهم تتوقف عن الانقسام، غير أن ما يحدث من تغيرات فى الخلايا، قبل أن تفقد قدرتها على الانقسام والعمل، يؤثر فى الجسم كله بطريقة تجعله أكثر عرضة لأمراض الشيخوخة.

الخلايا العجوز لا تتوقف عن الانقسام ثم تموت، وإنما يبقى الكثير منها حَيًّا تعتريه الشيخوخة. شيخوخة الخلايا تعنى توقفها عن الانقسام. بالخلايا برنامج وراثى أساسى يخبرها بموعد موتها، برنامج وراثى للانتحار يسمح لها بالموت فى هدوء. لكن الخلايا الشائخة تفقد هذه القدرة وتصبح أكثر مقاومة للإشارات التى تبلغها بضرورة الموت. وما يحدث مع طول العمر هو أن تتكاثر نسبة الخلايا الشائخة التى ترفض أن تموت والتى لا تعمل كما يجب، فتنهار أنسجة الجسم وأعضاؤه ـ تلتئم الجروح ببطء، يتجعد الجلد، تنخفض القدرة على مقاومة الأمراض.

يبدو من المنطقى إذن أن نفترض أن الخلايا تشيخ داخل الجسم، وأنها تُقَرِّبُ الجسم رويداً رويداً نحو نهايته، هناك ساعة تدق بداخلنا تنبئ بالرحيل.

قلنسوة إطالة الحياة

يبدو أن الساعة الدقَّاقة بداخلنا ليست سوى خيط من الدنا يشكل قلنسوةً على كلّ نهايات أطراف الكروموزومات ـ تسمى التيلومير. تَفْقِدُ هذه القلنسوة على كل طرف كروموزومى جَزءاً من طولها مع كل انقسام للخلية، حتى أن يصل طولها إلى حد لا تتمكن الخلية معه من الانقسام، فتشيخ وتموت.

ثم اتضح أن التيلوميرات فى بعض الخلايا تبقى، لا تبلى، وظهر أن السببَ جينٌ يشفر لإنزيم اسمه التيلوميريز يعيد التيلومير بعد الانقسام إلى ما كان عليه. كل خلايا الإنسان تحمل هذا الجين، لكنه يكون مغلقاً بصفة دائمة، اللهم إلا فى خلايا البويضات والحيوانات المنوية، وكذا فى الخلايا السرطانية. عندما اكتُشف الإنزيم فى أوائل التسعينيات اعتبره البعض وسيلةً يمكن بها التحايل على الشيخوخة والموت. طُعِّم هذا الجين فى خلايا بشرية، من كهول، جينها الأصلى صامت، واستزرعت فى مَسْتَنْبَت لتُقارَن بأخرى لم تُطَعَّم. وكانت النتيجةُ مذهلة. استمرت الخلايا غير المطعومة فى الانقسام لفترة ثم توقفت وماتت جميعها، أما الخلايا المطعومة فقد ظلت تنقسم وتنقسم دون أية دلائل على توقف! وبعد عام من التطعيم كانت هذه الخلايا قد انقسمت مائتى مرة. ثمة تجربة أخرى انقسمت فيها الخلايا المطعومة ٢٨٠ مرة!

علينا أن نتذكر أن الخلايا قد تشيخ فى المستنبت بصورة تختلف عنها فى أجسام الناس. لا تنقسم كلُّ خلايا جسم الإنسان عبر حياته، فما أن يكتمل النمو الجينى حتى تتوقف معظم الخلايا عن الانقسام، ولا يستمر إلا خلايا الأنسجة والسوائل التى تتعرض للبلى أثناء الحياة، كالجلد والدم وبطانة المعدة والأمعاء. ثم إن أحداً لا يعرف بالتأكيد ما إذا كانت خلايا هذه الأنسجة الأخيرة تشيخ وتتوقف عن الانقسام عندما تنتهى تيلوميراتها. إذا كان هذا هو ما يحدث، ففى مقدور التيلوميريز أن يمكّنها من البقاء شابة. وهنا علينا أن نتذكر أن تقصير التيلوميرات هو الوسيلة التى يمنع بها الجسمُ تحولَ الخلايا إلى السرطانية، اللهم إلا إذا أمكننا التحكم فى الجين فنفتحه ليُنتج ما يكفى من التيلوميرات لإعادة الشباب إلى الخلية، ثم نغلقه قبل أن تتحول وتصبح سرطانية. تفكر الشركات فى تطوير عقاقير تفتح الجين فى الخلايا لفترة محدودة تسمح ببناء التيلوميرات وتعيدها إلى وضعها الشاب، ثم تقفله. هل يؤدى هذا إلى إطالة العمر؟ من يدرى!

فى صباىَ البعيد

فى صباى البعيد، أيام كنتُ طالباً بالمدرسة الثانوية، تَملَّكتنى فكرة غريبة أرهقتنى كثيراً كثيراً: إذا كانت كلُّ خلايا جسمى قد انقسمتُ واستُبدل بالقديم منها جديدٌ، فكيف أكون أنا نَفْسَ الشخص الذى وُلد منذ عشرة أعوام ونيِّف وقد تَغَيَّرتْ خلاياىَ جميعاً ؟ دوَّختنى هذه الفكرة الساذجة فى الحقيقة طويلاً أحاول أن أجِدَ لها حلاً. كنت أخجل أن أناقشها مع الأصدقاء، فقد كان لدىَّ شعورٌ داخلىٌّ بأن شيئاً فى القضية فاسد، ولم أكن أعرف ماهيَّته. إلى أن اكتشفتُ أن خلايا المخ لا تُستبدل ولا تنقسم. هى الخلايا «الثابتة» طول العمر. هى إذن «أنا» الذى يرتدى كلَّ يوم خلايا جديدة. الإنسان هو مخُّه. قد يستبدل قلبَهُ أو كُلْيَتَه، قد يفقد ساقَه أو يَدَه، لكنه يظل «هو». فإذا كنا نتحدث عن الشيخوخة، فإن ما يهم حقاً هو شيخوخة المخ!

وخلايا المخ تعمل كثيراً، تقوم بأعمال تفوق بكثير ما نطلبه من أية خلية أخرى بالجسم. خلية الكبد مثلاً لا يمكنها أن تحل مسائل فى الحساب أو الجبر، ولا أن تحاول تنظيم التوافق بين عضلات الجسم جميعاً، ولا أن تؤلف موسيقى أو تكتب قصيدة أو ترسم لوحة. خلية الكبد لا تحاول أن تكتب مقالاً كهذا، ولا هى تسعفك بذكريات وتجارب تواجه بها مشاكلَك. إنها لا تؤدى كل هذه الأعمال دون أن تدفع ثمناً. والثمن أخطاء تتراكم بداخلها مع الزمن. الثمن هو شيخوخة المخ.

شيخوخة المخ

نولد ونحن نحمل بالمخ طاقم الخلايا العصبية (النيورونات) الذى سيخدمنا طول العمر. والخلايا العصبية لا تتجدد، وإلا فقدنا ذكرياتنا. تنضج هذه الخلايا بتنمية تفرعات شجرية فى المنطقة من حولها. وعلى هذه التفرعات تتم «اقترانات عصبية»، عن طريقها يجرى «الحديث» بين خلايا المخ. يمكن للخلية الواحدة أن تتصل بمئات الآلاف من الخلايا العصبية الأخرى لتشكِّلَ شبكةَ تفرعات معقدةً لتخزين الأفكار ومعالجتها. وكلما ازدادتَ كثافةُ الاقترانات ازدادت القدرةُ على التعلم. تتوافق أفضلُ مراحل التعلم مع وجود أكبر كثافة من الاقترانات فى وحدة الحجم من المخ ـ فى الفَترة ما بين عُمُر ثلاث سَنوات وأربع سنوات، وربما ست أو حتى عشر سنوات. يمكن للطفل أن يتعلم لغةً جديدةً فى شهور قلائل. ثم يبدأ عدد الاقترانات بعد العاشرة فى التناقص التدريجى.

كانت الفكرة السائدة تقول إن القدرات الذهنية تتدهور باطراد مع تقدم السن باستثناءات بالطبع: آينشتين، بيكاسو، فيردى، برتراند راسل). وكانت الوسيلةُ الوحيدةُ للتأكد من هذا هى تَعَقُّب عدد من الأفراد عبر حياتهم. تَمَّت مثلُ هذه التجربة على مجموعة كبيرة من المتطوعين دُرِسَ فيها عددٌ من الاختبارات المعرفية: بدءاً من المهارات الحسابية العتيقة التى يكتسبها الفرد فى المدرسة الابتدائية والثانوية، مروراً بالقدرات المستخدمة عبر الحياة كمثل إدراك معانى الألفاظ والتعبيرات، وحتى مهارة التوجيه الفراغى والقدرة على

علم اسمه الشيخوخة

اكتشاف القواعد والاطراد. اتضح أن القدرات الذهنية لا تتدهور بعد العشرين كما كان يُظن. وُجد أن معظم الناس يُسجِّلون في عمر الستين نفسَ الدرجات تقريباً التي سجلوها في سن العشرين. لم يحدث أيُّ تغيير ذي معنى في معظم القدرات حتى ستينيات العمر، بل وحتى السبعينيات في بعض المهارات (مثل إدراك معاني الألفاظ).

بعد عمر الستين تصبح الفروقُ بين الأفراد في القدرات ملحوظةً بوضوح. الفترة من الستينيات وحتى الثمانينيات من العمر هي الفترة التي يظهر بها أكبر قدر من التباين بين الناس. فإذا بلغنا الثمانينيات فسيكون كلُّ فرد وقد أصابه بعضُ التدهور وفقد - بصورةٍ صريحة - واحدةً أو أكثر من قدراته - معَ تباينات واسعة بين الأفراد. ولقد اتضح أن الاحتفاظَ بالمهارات الذهنية يكون أفضلَ ما يكون بين المتعلمين، والطبقة الوسطى، ومَنْ تمتعوا بالصحة الجيدة عبر حياتهم، ومَنْ كان تناولُهم للحياة مرناً. والمرونة أمر هام لأن الحياةَ مليئةٌ بالتغيرات، وقبولك التغير، أو رفضُه ومحاربتُه، سيؤثر في حياتك الذهنية. عليك أن تقبل حقيقة أن العالم يتغير وأن عليك أن تعالج الأمور بشكل مختلف. فإذا رفضْتَ هذه الحقيقة وأصبحت أكثرَ تزمتاً مع العمر، فستفقد مهارتك العقلية.

عليك أن تستخدم مخك وإلا ضاع! يتغير المخ تغيراً إيجابياً مع تجارب الحياة - وهذا التغير الإيجابي ضروري إذا كان لك أن تشيخ بنجاح. لا يجب أن تفقد اهتمامك بالعالم من حولك، لا يجوز أن تهمل رغبتَك في التعلم. الإثارة ضرورية: أن تظل تسأل الأسئلة وتتطلع إلى التعلم طول عمرك. وإدراكك - ذاتُه - بأن مخَّك يتغير بذلك تغيراً إيجابياً سيساعدك كثيراً.

لكن، ما الذي يحدث في مخ المسنين ويسبب تدهوره ؟

التغيرات في المخ المسنّ

أمكن كشفُ تغيرات في المخ المُسنّ قد تفسر فقدان التوقد الذهني: تغيرات تسمى «الضمور». كان من المظنون أن المخَّ ينكمش. لكنا نعرف الآن أن معظم الضمور يَحْدُثُ فيما يُسَمَّى «المادة البيضاء»، لا في «المادة الرمادية» - يحدث في غابة التفرعات الشجرية والألياف العصبية التي تتفرع عن الخلايا العصبية، لا في الخلايا العصبية ذاتها.

كان من المظنون أن المخ يبدأ في فقد خلاياه العصبية من لحظة الولادة - وفَقْدُ الخلية العصبية، كما نعرف، لا يُعَوَّض. أُجريتْ في خمسينيات القرن العشرين بحوث على مخاخ موتى في سن التسعين وأكثر، فاتضح أن قشرة المخ - المختصة بالتفكير العميق - قد فَقَدَتْ خُمْسَيْ خلاياها العصبية! يصبح العجوزُ - بتفكير الصَّبِيِّ - ثلاثة أخماس الشاب الذي كانَهُ!

أعيدت التجربة ثانيةً في التسعينيات بعد أن اتضح أن العينات التي فُحصت كانت تضم مخاخ أناس ماتوا بمرض الزهايمر الذي يسبب نقصاً خطيراً في الخلايا العصبية. استُبْعدت مخاخ موتى الزهايمر وغيره مما يؤثر في المخ من أمراض، فاتضح أن معدل الفقد من الخلايا العصبية بمخ الأصحاء قليل للغاية، لا يتعدى ١٪ في العام. تَتَبَّع العلماء جماعة من المسنين من ذوي الذكاء الحاد والصحة الجيدة، وظهر أن طويلي العمر الذين ظلوا يحافظون على حالتهم الذهنية والجسدية كانوا يتميزون بصفات أربع: كان مستواهم التعليمي مرتفعاً، كانوا نَشيطين جسدياً، كانت رئاتهم تعمل بصورة أفضل، أما الصفة الرابعة فهي ما يمكن أن تُسَمَّى بالرِّضا عن الذات. ثمة بحثٌ نُشر مؤخراً (مايو ٢٠٠١) يقول إن مَنْ يحصل مِنَ الممثلين على جائزة الأوسكار يعيش في المتوسط أربعة أعوام أكثر ممن لم يحصل عليها. يعيش حاملو الأوسكار في المتوسط ٧٩,٧ عام بينما يعيش زملاؤهم الآخرون ٧٥,٨ عام. بل إن مَنْ يحصل على هذه الجائزة أكثر من مرة يعيش في المتوسط ست سنين أكثر. مِنْ بين مَنْ فازوا بالأوسكار: عاشت جرير جارسون ٩٢ عاماً، وعُمْر كاترين هيبورن الآن ٩٤ عاماً (وقد حصلت على ٤ جوائز أوسكار)، أما أنتوني كوين (وحصل على الأوسكار مرتين) فقد كان يأمل في أن يعيش حتى يبلغ الرابعة والتسعين، لكنه مات مؤخراً على عمر ٨٦ عاماً. يقول واحد من مؤلفيّ البحث «إذا ما حصلتَ على الأوسكار سرى فيك إحساسٌ بالسلام الداخلي والرضا، إحساس، يمكن أن يستمر العمر كله، يغير الطريقة التي يواجه بها جسمُك كلَّ الكروب الحياتية اليومية».

التعليمُ يطيلُ العمر

ثمة بحث بدأ في السنين الأولى من القرن العشرين، وشمل ٣٥٠٠ راهبة كنَّ يشكِّلن عينة نموذجية للدراسة: هُنَّ من خلفيات اجتماعية متقاربة، عشْنَ تقريباً نفس النمط من الحياة من سن العشرين، يأكلْن من نفس المطبخ، يشتركْن في نفس المسكن، يخضعن لنفس الرعاية الصحية. وعندما نُشر البحث عام ١٩٩٣ كان ثُلثُهن لا يزال على قيد الحياة في أعمار تتراوح ما بين ٧٥ و ١٠٣ أعوام. اتضح بجلاء من نتائج البحث أن مستوى التعليم يرتبط بطول العمر والصحة الذهنية والبدنية. وفي بحث آخر وُجِّه لدراسة أثر الحياة المبكرة للراهبة على عمل المخ مع تقدم السن، ظهر أن الراهبات الأكثر تعليماً يَعِشْنَ في المتوسط أربع سنوات أكثر، في صحة جسدية وذهنية أفضل ممن لم يحصلْنَ على الشهادة الجامعية الأولى. في كل عمر، من سن العشرين وحتى الخامسة والتسعين كانت نسبة الوفاة بين الأقل تعليماً تعادل ضعف نسبتها في الراهبات الأعلى تعليماً.



عليك أن تستخدم مخك وإلا ضاع! يتغير المخ تغيراً إيجابياً مع تجارب الحياة. وهذا التغيير الإيجابى ضرورى إذا كان لك أن تشيخ بنجاح. لا يجب أن تفقد اهتمامك بالعالم من حولك، لا يجوز أن تهمل رغبتكَ فى التعلم. الإثارة ضرورية



مرض الزهايمر

قسوة الحياة تولِّد قدراً هائلاً من هُرمونات تؤثر فى مراكز الذاكرة بالمخ - هُرمونات مثل الجلوكوكورتيكويدات التى تُفْرَزُ عند التعرض للضغوط اليومية فتسمح للشخص بأن «يضرب أو يهرب»، تَرْفَع من استعداد العضلات، وتُغْلِقُ الأجهزة غير الأساسية فى الجسم استعداداً للمواجهة، ثم تنسحب بعد زوال الخطر، لكنها إذا استمرت طويلاً أفسدت الخلايا العصبية فى أجزاءٍ وثيقةِ الارتباط بالتعلم والذاكرة.

وإذا كانت بعض الهُرمونات تؤذى الخلايا العصبيةَ، فإن البعضَ منها يحميها وينعشها. من بين هذه الهرمونات الأخيرة هُرمونُ الإستروجين: الهرمونُ الأنثوى الذى يفرزه المبيضُ. تقول الشواهدُ العلمية إن هذا الهرمونَ يلعبُ بالفعل دوراً مهماً فى الذاكرة، فهو يُنَظِّم الموادَ الكيماوية التى تستخدمها الخلايا العصبية فى الاتصال، إذ تزداد كثافة تفرعاتها الشجرية زيادةً هائلة إذا تَعَرَّضَتْ لقدر كبير من الإستروجين. هذا الهرمون يشجع «الحديث» بين الخلايا العصبية، وهذا أمر ضروريٌّ للعمل الأمثل للمخ.

يتعرض مخُّ الإنسان للإستروجين بعد البلوغ، ثم يستمر بناءُ هذا الهرمون الحيوى فى الرجال (بتمثيله من الهرمون الذكرى) طيلةَ حياتهم، بينما ينقطع إنتاجُه فى النساء إذا بَلَغْن سنَّ اليأس. وقد ثَبَتَ بالتجربة أن النساءَ يعانين من تدهور الذاكرة ونقص المهارة الذهنية إذا أُزيل المبيض جراحياً، لكن هذه المهارةَ تعود إذا حُقِنَّ بالهرمون. فهل يمكن أن يحمى هذا الهرمونُ النساءَ من مرض الزهايمر أيضاً ؟

تبلغ نسبةُ النساء اللوائى يُصَبْن بمرض الزهايمر ضِعْفَ نسبة الرجال، وقد يكون الانخفاض الحاد فى الإستروجين بعد سن اليأس واحداً من الأسباب. ومرضُ الزهايمر هو أفظعُ أمراض الخَرَف التى تصيب المخَّ فى كبار السن. والخَرَف مصطلح عريض يُطْلَق على مجموعة من الأعراض تتميز بتدهور الوظيفة الذهنية بدرجة حادة بحيث تؤثر فى أنشطة الشخص الطبيعية وعلاقاته الاجتماعية. يصيب مرض الزهايمر أربعة ملايين شخص على الأقل بالولايات المتحدة، ويموت بسببه هناك سنوياً نحو مائة ألف شخص. وهو مرض قد يستمر عشرين عاماً، لكنه يقتل عادة بعد ٤ - ٨ سنوات من بداية ظهور أعراضه. ولقد قَدَّرَ البعضُ أن النسبةَ ممَّن بلغوا الخامسة والثمانين أو أكثر، المصابين بأمراض الخَرَف (ومن بينها الزهايمر) تبلغ ٢٥ - ٣٥٪، بل وهناك دراسةٌ أُجريت فى بوسطون نُشرت عام ١٩٩٥ تقول إن نسبة المصابين بمرض الزهايمر وحده تبلغ نحو ٤٧٪ بين مَنْ بلغوا أو تَعَدُّوا الثمانين.

كان من المعتقد أن الإستروجينات لا تؤثر إلا فى السلوك الجنسى، لكننا أصبحنا نعرف الآن أنها تؤثر فى التعلم والذاكرة. ولقد ظهر من تجربة اشتركت فيها ٤٧٢ امرأة مسنة، لمدة ستة عشر عاماً، أن استخدام الإستروجين كجرعات تعويضية للوقاية يقلل بنسبة ٥٠٪ من خطر ظهور مرض الزهايمر. للإستروجين أثره المباشر على تركيب المخ ووظيفته، لاسيما فى النساء. ويجرى الآن ببعض شركات الأدوية العملُ لإنتاج إستروجين «مُحَوَّر» يُقَلِّلُ فيه الأثرُ المؤنث، بحيث يوصف للرجال وللنساء، لتأخير أو تقليل نسبة الموت بمرض الزهايمر فى قطاع عريض من عشيرة كبار السن.



إن طريقَك إلى الشيخوخة السليمة يمر خلال حياة ذهنية نشطة، وعيشة صحية، والكثير من التريُّض، وتجنبِ الضغوط الحياتية الطويلة الأمد. كن متفائلاً دائماً فأنت سيد مصيرك. تنتصر على الشيخوخة إذا أنت أبقيتَ قلبَك بلا تجاعيد، وظللتَ مفعماً بالأمل، عطوفاً، مبتهجاً - كما يقول توماس ألدريتش.

الختام

ماتت العجوز فيليس ماكورماك فى عنبر المسنِّين بأحد مستشفيات إنجلترا، وعندما دخلت الممرضة تجمع القليلَ الذى خَلَّفته، وَجَدَتْ قصيدةً كتبتْها المريضةُ قبل أن تموت. كانت قصيدةً حزينة، أثَّرت فى الممرضة كثيراً، فقامت بنسْخها وتوزيعها على كل الممرضات، ثم وجدتْ طريقها لتُنْشر بإحدى المجلات. القصيدةُ طويلة، من ٨٨ سطراً، تبدأ هكذا:

ماذا ترين أيتها الممرضة ؟ ماذا ترين ؟
فيم تفكرين عندما تنظرين إلىّ ؟
عجوز عبوس حمقاء، طَبْعها الشك، عيناها شاردتان؟

ثم تحكى تاريخ حياتها فى بساطة وسذاجة تملك قلبك، قصة طفولتها، شبابها، زواجها وموت زوجها، ولكن:

فى داخل هذا الجسد العجوز
تسكن لا تزال تلك الفتاة الشابة
.. وما بين الآونة والأخرى... ينبض قلبى بعنف
أتذكر الأفراح، أتذكر الأتراح، فأعشق الحياة وأحياها مرة أخرى
أتذكر سنى العمر، آهٍ.. كم كانت قصيرة، مضت سريعةً سريعةً
وأَقْبَلُ الحقيقةَ القاسية
أنْ لا شىء يدومْ
فلتفتحوا إذنْ أعينكم جميعاً
افتحوها لترونى
أنا لستُ عجوزاً سيئة الطبع..
دققوا النظر... اعرفونى!

هكذا تنتهى القصيدة.

تعيد هذه القصيدةُ الحزينة إلى الذاكرة قول أنتونى بُوويل: إن الشيخوخةَ عقابٌ على جريمةٍ لم نرتكبها! ■



الأغانى الشعبية فى صعيد مصر

الحصيد

طيب يا قمح خلِّينا نحْصُد
طَيب يا قمح حنلِّم اَلكرَاوَه (الأجر)
طيب يا قمح خلِّى الكَراوه تاجى (تأتى)
حتى الكراوه بقيوا قلعانينى
وفيه الكراوه بيشْبَعُوا عيشى
شوف الكراوهَ يتْقَلُوا كيفى
شوف الكراوه يَلمُّوها لَمْ
وفى الحصيد يهمُّوا هم
شوف الكراوه ما كترينى
عند الحصيد هايلينى
لم القمح واحصد زينى
سبل قمحك يسدّ الدينى
جينا احنا نلمّ القمح
احنا والكْرَاويّه (المأجورون عن العمل) نرمحوا رمح
يا ربَّاط هَاتْلِى حبَال
لَحسْن الطَيَاب (اَلريح) أهو قام
الزرع اللى فَاتتُو اصْحَابُو
تبْقَى المناجل بَس وارقابه
يَاما دبدب (صوت الطبل) ياما هاش (فرح)
ياما كتف الأوحاش (الوحوش)
لم القمح يا خلو مساعد
لم القمح وانت قاعد
لم القمح الجرناوى
خللى يجيب التقاوى
أنا قمحى زَرْعه ارمنتى
ديما تلقى الغَلاَّ (الغلة) عندى
شدّ حيلك يا حصّادى
دى الغله غلَّه بَيَاضى

ديوان ابن قزمان

والتواصل الحضارى

بين العرب وأوروبا

عبر الأندلس

مخطوطة عربية واثنا

الطاهر أحمد مكى

في القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى، عرفت شوارع قرطبة شاعرًا من نوع فريد، لم يكن مجال شهرته قصور الأغنياء، ولا بلاطات ملوك الطوائف الذين تقاسموا الخلافة، وإنما الشعب العامل البسيط، عامة الناس في الأسواق والحوانيت وحيث يتجمعون، في قرطبة وإشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية.

كانت لغته العربية، وفيها نظم الشعر أحيانًا، ولكنه حزم أمره، واستجمع رأيه، واختار أن يكتب في عامية وطنه، فجاءت أزجاله من أرق وأدق ما كتب في بابها. لقد جاء بعد أن استقر أمر الموشحات في الأندلس، وكانت هذه ثورة على القصيدة العربية التقليدية، ومخالفة لها في بنائها، قافية على الدوام، وفي عروضها أحيانًا. ولما كانت التقاليد الأدبية مراعاة، والمصطلح محترمًا، فإن أصحابها لم يطلقوا عليها اسم الشعر الحر، أو شعر التفعيلة، أو الشعر الحديث، أو الجديد، أو ما شئت من أسماء تتمسح في كلمة شعر، وإنما اختاروا لها اسمًا مستقلاً يميزها عن غيرها، وينصرف إليها دون سواها: الموشحات!

جاءت الموشحات وليدة أسباب دافعة أهمها الموسيقا، في مجتمع يعشق الغناء ويطرب للنغم، وكلاهما يتطلب تنوعا في إيقاع الكلمة، فارتبطت بهما منذ البدء، وصيغت في العربية الفصحى، لأنها كانت تغنى لعلية القوم ومن يلوذ بهم من المثقفين.

ولكن العامة ومن في قاع المجتمع يطربون أيضًا، فجاء من يكتب لهم باللغة التي يفهمونها: عامية أهل الأندلس، وهي تختلف عن العاميات العربية الأخرى، لأنها مزيج من العربية والرومانثية التي تخلفت في الأندلس عن اللاتينية، وهي المنطقة الوحيدة - إلى جانب صقلية - التي التقت فيها العربية باللاتينية لغة وثقافة وحضارة، وانتشرت بين سكان ينحدرون في جملتهم من أصول لاتينية، وأخذ هذا اللون الجديد من الموشحات المكتوبة بالعامية اسم الزجل وكان أبرز رجاله ابن قزمان.

أبوبكر محمد بن قزمان الأصغر. توفى في قرطبة باتفاق المؤرخين في رمضان ٥٥٥هـ/ أكتوبر ١١٦٠م، وولد على التأكيد بعد عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م.

وأخباره نادرة، لأن كتب التراجم أعرضت عن ذكره، كما أعرضت عن ذكر الزجالين قبله ومن بعد، وثمة إشارات قليلة عنه في المصادر الأندلسية المتأخرة، عندما بدأ الأندلس يتهاوى، وعراه تنفك، وولاء أهله له يبهت، ولم تعد المحافظة على الفصحى أو التعصب لها يعنى عامة المثقفين. فقد أشار إليه ابن الأبار (ت٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) في كتابه «تحفة القادم»، وأورد له أبياتًا من الشعر، ورغم إشارته إليه بانه «المتفرد بالإبداع في طريقة الأزجال»، لم يورد من أزجاله شيئًا.

وأورد له ابن سعيد (ت ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م) في كتابه «المغرب في حلى المغرب»، نصًا مقتضبًا ومهمًا نقله عن الحجارى (ت ٥٤٩هـ/ ١١٥٥م) في كتابه «المسهب»، يذكر فيه: «كان ابن قزمان في أول شانه مشتغلاً بالنظم المعرب (يعني الشعر) فرأى نفسه يقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار «إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس»، ثم أورد له بيتين من الشعر قالهما:

يا أهل ذا المجلس السامي سرارته
ما ملتُ لكنني مالتْ بي الراحْ
فإن اكن مطفئًا مصباح بيتكم
فكل من قد حواه البيت مصباح

وثلاثة أبيات أخرى في مدح يحيى بن غانية عامل المرابطين على الأندلس.

غير أن ابن سعيد عاد في الكتاب نفسه، في فصل «الأهداب»، وهو القسم الذي يورده في آخر كل باب من كتابه، ويخصصه لفني الموشحات والزجل، فتحدث مرة أخرى عن ابن قزمان، وقال عنه في إيجاز: إنه «إمام الزجالين بالأندلس، وشهرته تغني عن الإطناب في ذكره. وقد جمع أزجاله، وديوانه مشهور بالمشرق والمغرب. وذكر في خطبته أن الإعراب في الزجل لحن». ثم أورد بعض مختارات من أزجاله.

وعرض لابن قزمان في كتابه «المقتطف من أزاهر الطرف»، في «الخميلة الثانية عشرة» التي أوقفها على «ملح الموشحات والأزجال»، وذكر أن الأزجال قيلت بالأندلس قبل أبي بكر بن قزمان، ولكن لم تظهر حلاها، ولا انسكبت معانيها، ولا اشتهرت رشاقتها إلا في زمانه، وهو« إمام الزجالين على الإطلاق وأزجاله المدوّنة رأيتها ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب». وأنه «كثيراً ما يتردد على إشبيلية وينتاب نهرها». وهو نص نقله عنه ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، ثم المقّرى (١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م) من بعده في كتابه «نفح الطيب».

وكان ابن الخطيب (ت ٧٧٥هـ/ ١٣٧٤م) آخر من ترجم له من الأندلسيين في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»، ولكنه خلط بينه وبين ابن عمه أبو بكر محمد الأكبر، وهو خلط وقع فيه صاحب النفح أيضًا.

ولا تقدم المصادر المشرقية شيئاً جديدًا عن حياة ابن قزمان، ولكن صفي الدين الحلّي (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٨٨م) في كتابه «العاطل الحالي»، وخصصه للشعر الملحون من الزجل والمواليا وغيرهما، أورد بعض أزجاله، ومنها ما لا يوجد في الديوان الذي بين أيدينا، وألقى بعض الضوء على الديوان نفسه، وحركته في العواصم العربية المشرقية.



أهمل المؤرخون الكتابة عن ابن قزمان، ولم يوردوا عنه غير القليل، ولكن الديوان، عن طريق أزجاله، يمدنا بمعلومات لا بأس بها، وتلقى على حياته ضوءًا كاشفًا.

أول ما نلتقي به في السطر الأول من الديوان قوله: «قال الشيخ الوزير الأجل...»، ولكن لقب الوزير هنا لا يعني شيئًا كثيرًا، ففي بعض عصور الأندلس كان الأمير، أو الخليفة، أو الحاكم، مهما كانت رتبته، يمنحه لمن يحب، وجاهة اجتماعية، كل ما تعنيه، في أحسن الأحوال، أنه يمكن أن يتردد على مجلسه دون أن تكون له مسئولية إدارية أو سياسية محددة، ويبدو أن اللقب نفسه تدهورت قيمته كثيراً خلال عصر الطوائف، وأيام الفتنة، وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن قزمان منحه لنفسه وراثة، جريًا على تقليد سار بينهم، فقد أثنى عليه الحجارى (ت ٥٤٩هـ/ ١١٥٥م) وذكر عنهم «أنهم لم يزالوا ما بين وزير وعالم ورئيس»، وذلك دون أن يعترف له أحد بهذا اللقب وما يتطلبه، لأن ما يقدمه عن شخصه عبر أزجاله يتناقض مع هذه التسمية.

وصف ابن قزمان نفسه بأنه مديد القامة، أشقر اللون، أزرق العينين، وفي ضوء اسمه وصفاته هذه رأى المستشرق الإسباني سيمونيت (ت ١٨٩٧) أن ابن قزمان يرجع إلى أصول قوطية، أسلم أسلافه في سنوات الفتح الأولى، للشبه الشديد بين كلمة قزمان في العربية والإسبانية، فهي تجيء في الحروف



عشر عالمًا أوروبيًّا

اللاتينية على صورة واحدة Guzaman، والكلمة الإسبانية ذات أصول قوطية، وما أسرع ما ناقض نفسه وردّه إلى أصول عبرية. ولسنا فى حاجة للرد عليه، فقد تكفل بذلك مواطنه ومعاصره المستشرق الكبير فرانسيسكو قديرة، واعتبر ذلك وهما من سيمونيت وغيره ممن هم على شاكلته واحتذوا طريقه، موضحا أن أصول الاسم عربية أصيلة،ضاربة فى القِدم، وأن أحد المسلمين الذين شاركوا فى غزوة أُحد كان يحمل اسم قزمان.

ومع ذلك كان الرجل نفسه فقيرا، واشتغل فى شبابه بكتابة الوثائق، والعمل بها يتطلب معرفة الفقه والشروط الصحيحة والفاسدة، والدقة فى ضبط الصيغ، واستخدام الكلمات. وعمل إلى جانبها بالأدب، ينظم الشعر والموشحات والأزجال ليكسب قوته، ويجد ما ينفقه، إلى جانب أنه نديم مسامر، وجليس مؤنس، ينثر البهجة، ويشيع الرضا والبسمة، بين من يسهرون معه. ولكن هذه المهن كلها لم تغنه شيئًا، فظل فقيرًا ضائعًا.

وفيما يبدو هجر كتابة الوثائق، ولم يبرز فى نظم الشعر فأهمله ولم يبلغ فى الموشحات شأو معاصريه فتخلى عنها، ولكنه برع فى الزجل، وبذل فيه جهده، وتمكن منه، وجعله طريقة إلى جيوب الممدوحين، متخذًا فى ذلك أساليب شتى، فقد يستدر العطف متحدثًا عما وصل إليه حاله من فقر وبؤس وحرمان، وما يلقاه من جوع وعرى، وتصور النحس قردًا لازمه، واستقر فى بيته، وأدار معه فى أحد أزجاله حوارًا طويلاً. وهو يرضى بأيسر الأشياء وأهونها، فلا ينبغى أن يتأخر الممدوح أو يتعلل، لأن مطالبه متواضعة: كراء البيت، أو ثوبًا، أو قليل من دقيق وفحم وزيت، أو بضع دريهمات. وهو تواضع اختص به الزجالون، ولا نجده عند الشعراء، مما يشى بأن مرتبة الزجال أمام الممدوح كانت أدنى مرتبة من الشاعر.

ونعرف من أزجاله أنه سجن مرتين بتهمة الخلاف والنفاق، واحتج ابن قزمان على القاضى بأنه لا يفرق بين مستويات الناس فى المجتمع، ولم يعرف له قدره فنانًا فسجنه مع اللصوص والقتلة، وأن السجان وضع قيودًا ثقيلة فى يديه ورجليه، ومنع زيارته، وأنهم كانوا يبحثون له عن وثائق تدينه، وشهود زور مرتشين يشهدون عليه، لو أفلحوا فى مسعاهم لانتهى الأمر برجمه، وما يصح أن يعامل الشعراء هكذا.

غايات ثلاث كانت تحرك ابن قزمان فى حياته: المال. الشراب والعشق، ويرى الحياة بغير هذه لا معنى لها، وظلت هذه الفلسفة ملازمة له أيام شبابه، وفى شيخوخته وهرمه أيضًا.

فيما يتصل بالمال كان ابن قزمان مدّاحاً، طلب العطاء ممن يستحق، وممن لا يستحق، ونحن نعرف أن جانبًا من شعراء العرب عاشوا على العطاء ولكنه عطاء مذهب وخجول، يستثير فى مدائح فخيمة أمطار الفضائل، تهبط كسحابة من يد القوى القادر، «وعلى النقيض منهم فإن هذا الوزير الطيب(!) ابن قزمان طلب العطاء فى الشارع، وبلا حياء.. قليلة هى الأزجال التى لا يحدثنا فيها عن بضائع محدّدة، يبادلها الزجال بأبيات من مدائحه، فى بعضها يطلب مثاقيل شقراء

ومدورة نضيدة ورنَّانة وفى ثانية نبيذا، وفى أخرى أحقر الأشياء وأكثرها تفاهة: عباءات وقمصانًا وصدارة، والملابس بعامة، والحطب والدقيق، وكراء البيت، ونقوداً يقص بها شعره، وعلفًا يطعم منه فرسه، وجواهر لصديقاته، وغيرها».

وهو مسرف لا يفكر فى غير يومه، مثقوب اليد، كما يقول مثلنا العامى، والكيس الذى: يحفظ فيه النقود يبدو كأنه منفاخ كير، ووجد نفسه مضطرًا لأن يضحى برأس من البصل، ويذبحه بدل كبش، وتركه الجوع كما لو كان نسيج عنكبوت، خبزه يابس، والشياطين تزوره فى الليل، وقطط السطوح أسعد منه حظًا، منطفئ الوجه، خائب الأمل، كشاطر فى البادية، يعيش أحيانًا فى فندق عام من خيرات الأوقاف، فإذا امتدت له يد سخية تساعده بالنبيذ والحب والمجد غنّى:

فلا مُلكًا إلا مُلكى، بعد ملكك يا سليمان
فبنى العباس بحالى كانوا، أو بنى أميّة

وديوان ابن قزمان حافل بالخمريات، وهى فن شائع فى الشعر العربى منذ الجاهلية حتى وقتنا هذا، ونحا فى وصفها منحى أندلسيًا خاصًا ومتميزًا، فهو يستخدم الكلمات الرومانثية، ويعبر عن النبيذ بكلمة «بينو Vino» وهى مستخدمة فى الإسبانية إلى يومنا، وحين يصف أنواعه يأتى بمصطلحات مما يطلق على ألوان النبيذ ودرجاته فى إسبانيا قديمًا وحديثًا، أمثال: رحيق وأصفر وخمرى وشمول وصهباء وإغريقى وعقار:

شراب اصفر هو، حبيبى، مولاى
سرورى، فرحى طبيبى، من داى
عقارى، خمرى، شمولى، صهباى
مدامى، راحى، خندريس، جريالى

وكان الشراب يستنفد كل ماله، ويراه يجعل الجبان شجاعًا، والبخيل كريمًا، ويزيل الهموم، ويجدد الحياة، ويجلب السرور.

وملأ ديوانه بالتغزل فى نساء وصبيان، محتشمًا تارة، وغير محتشم أخرى، وهو فى عشقه حسى لا يؤمن بالهوى العذرى، ويسخر من إيمان شعراء بغداد وقرطبة به، ويفضل الحب الماجن والداعر، متغنيًا بالوقاحة نفسها.

وكما تاب أبونواس فى المشرق وزهد، عندما تقدمت به السن، كذلك صنع ابن قزمان، فدعا الله أن يطيل فى عمره، وعبّر عن ندمه وتوبته فى زجل وحيد رقيق:

قد تاب ابن قزمانْ: طوبى له إنْ دامْ
قد كانت أيامُه أعياد فى الأيام
بعد الطّبل والدفّ وفتل الأكمام
من صمع الأذان يهبط ويطلع
إمامْ فى مسجدْ صارْ، يسجد ويركع

نعرف أن جل المخطوطات العربية فى الأندلس ذهبت بها الفتن والثورات أولاً، ثم أتى الإسبان على بقيتها حرقًا فى ميدان الرملة، فى غرناطة، بعد أن سقطت هذه فى يد الإسبان فى ٢ يناير ١٤٩٢ بأمر الكاردينال ثيسنيروس، وبلغ ما أحرق حوالى نصف مليون مخطوطة، لم يبق مما وُجد فى الأندلس من تراث فكرى، علمى أو أدبى، غير مجموعة محدودة من كتب الطب والفلسفة والفلك، ولكن ديوان أزجال ابن قزمان وصلنا كاملا، فهناك، فى مدينة صفد فى فلسطين قام شخص عربى بعد مائة سنة من موت ابن قزمان، وقبل ثلاثة قرون ونصف تقريبا من سقوط الأندلس بنسخ هذه الأزجال لنفسه، وربما كان ذلك تجارة منه ووراقة أيضا، فى دقة وعناية، ولأنه كان يجهل عامية الأندلس تماما، خاصة ألفاظها الرومانثية، فقد تسربت إلى نسخته أخطاء كثيرة، لاسيما فى الألفاظ الرومانثية، وهى مكتوبة بحروف عربية، نسخها بطريقة آلية على التأكيد، دون أن يعرف شيئا من معناها، وكانت هذه هى النسخة الوحيدة فى العالم التى نملكها من هذا الديوان، وقد استقرت فى المتحف الأسيوى فى مدينة بطرسبرج، بعد أن تعاورتها الأحداث والأيدى والمكتبات، فى رحلة مثيرة، من فلسطين إلى روسيا، وهى رحلة تستحق أن تروى:

فى نهاية القرن الحادى عشر الهجرى، نهاية السابع عشر الميلادى، هبط سوريا مغامر مجهول، يدعى روسو، ينتمى - ربما - إلى العائلة التى منها جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨ م) الأديب والفيلسوف الشهير، قادما من جنيف، تركها ليقيم فى سوريا بحثا عن الثراء، واستطاع أن يجمع مع الزمن ثروة لعلها ليست كبيرة، ولكنها يسرت له أن يعيش فى مهبطه الجديد حياة أفضل من تلك التى كان يحياها فى وطنه.

وعشية الثورة الفرنسية، ١٧٨٩ - ١٧٩٩ م، عمل ابنه قنصلا لحكومته فى حلب وبغداد، وابن هذا، حفيد روسو صاحبنا، استقر فى المشرق أيضا، وجمع إلى ثقافته الفرنسية الأم، عددًا من اللغات الشرقية: العربية والفارسية والتركية، وكانت إجادته لهذه اللغات كاملة، واقتفى الحفيد خطوات أبيه تاجرًا، وقنصلاً، ومكنته ثقافته أن يكون أفضل من أبيه فى الأمرين، وأقام فى حلب زمناً طويلا، وكانت - منذ أيام الحمدانيين - مركزًا ثقافيًا مهمًا وأصيلاً، فطورت ذوقه نحو الأدب، ونمت فيه الرغبة فى جمع المخطوطات، فاشترى منها قدرًا كبيرًا، اختاره بمهارة، ولم تكن مخطوطة ديوان ابن قزمان الوحيدة بين فرائدها، وحصل عليها ربما فى حلب أو بغداد.

غير أن جوائح الزمن لفت النصف الثانى من حياة الحفيد، فغادر سوريا واستقر به المطاف فى طرابلس الغرب، وفيها ساءت حالته المالية، ففكر فى بيع مخطوطاته عام ١٨١٥م، وعرض المجموعة على الحكومة الفرنسية أولاً، بالسعر الذى رأى أنها تستحقه، لكن حالتها المالية كانت سيئة بعد حروب نابليون، فرأت أن المبلغ الذى طلبه روسو بحق كبير نسبيًا، ومغالى فيه. ولكن الفرنسى سلفستر دى ساسى (١٧٥٨ - ١٨٣٨) أشهر مستشرق فى عصره، عرف أمر المجموعة، وأدرك قيمة ما تضمه من ذخائر، وكان على صلة بوزير المعارف الروسى أوفاروف UVAROV، ويعرف اهتمامه بمثل هذه المخطوطات، إذ كان يخطط لإنشاء الأكاديمية الأسيوية، فأبلغه بالأمر عن طريق بعض تلاميذه الذين كانوا يعملون أساتذة زائرين فى بطرسبرج، ولم يكد هذا يعلم بخبرها حتى قرر شراءها على دفعتين، الأولى فى ١٨١٩، والثانية فى ١٨٢٥، وكوّنا بداية مكتبة المتحف الآسيوى فى المدينة، التى سرعان ما جذبت كثيرا من الطلاب الراغبين فى الاستشراق، وكان هذا «مودة» شائعة فى أوروبا على امتداد القرن التاسع عشر، وعندما عُيّن المستشرق الألمانى فرين Fraehn. C.M (١٧٨٢ - ١٨٥٥م) أول أمين لهذا المتحف، قدّر قيمة هذه المخطوطات، وأعد لها فهرسًا، وقدّم أول وصف لمادتها، وهكذا أنقذت، وإلى الأبد، أزجال بن قزمان من الضياع.

كان البارون فيكتور روزن، أول من التفت إلى مخطوطة ديوان ابن قزمان دارسًا، عندما انتخب عضوا مشاركا فى أكاديمية العلوم الروسية، عام ١٨٧٩، وله من العمر ثلاثون عاما، ومع أنه ألمانى الأب، روسى الأم، يعد مؤسس مدرسة الاستشراق الروسية الحديثة، ومنذ البدء جعل رأس اهتماماته كتابة فهرس علمى للمخطوطات العربية التى فى حوزة المتحف الأسيوى، يتضمن وصفها والتاريخ لها، وكتب ذلك باللغة الفرنسية فى أسلوب متميز جذاب، ونشره عام ١٨٨١ بعنوان:

Notices Soumaires des Manuscrit Arabes du Muss'ee Asiatique.

وهكذا وضع تحت أنظار علماء الاستشراق الأوروبى قرابة ثلاث مائة مخطوط عربى، بالغة الأهمية، تضم بصفة أساسية مجموعة روسو التى أشرنا إليها من قبل. ومن بينها كتب نادرة، وأندرها ديوان ابن قزمان. وقد توقف روزن عنده طويلا، وشعر بأهميته، فمنحه عناية خاصة، ولفت نظره الشكل الذى جاءت فيه الأزجال، ووزنها، ولغتها، فدرسه بإيجاز: كتب لابن قزمان ترجمة مختصرة، وأورد بعض هذه الأزجال، وطبعها باللغة العربية، وكان هذا يحدث لها لأول مرة. ولكنه وهو العالم الفذ المتمكن، أدرك صعوبة أن يتصدى لهذا العمل وحده، مع وفرة مشكلاته وتنوع قضاياه، وأن الضرورة تقتضى أن تعكف عليه جماعة من العلماء المتخصصين والباحثين، وحاول أن يجذب إليه بعضهم ليشاركه هذا العمل، أو ينفرد بجانب منه، إذا كان متخصصا فى هذا الجانب ومؤهلا للقيام به وحده، ورأى أن خير من يتجه إليه هو رينهارت دوزى، شيخ المستشرقين الهولنديين، وأعظم العلماء الأوروبيين معرفة بالأندلس، تاريخا وحضارة، فى ذلك الوقت، فكتب إليه يغريه أن ينهض بهذا المشروع الجليل، ويقترح عليه أن يقوم بتحقيق هذا الديوان ونشره، ولكن دوزى كان الكبر قد بلغ منه عتيا (توفى بعد ذلك بعامين، أى فى ١٨٨٣) اعتذر عن القيام بهذه المهمة، وأشار على روزن أن يتجه برغبته هذه إلى المستشرق الإسبانى فرانسيسكو خابيير سيمونيت، وهكذا قامت المخطوطة برحلة خاصة إلى غرناطة فى إسبانيا، ونزلت فى ضيافة المستشرق الإسبانى، ولهذا تاريخ فى عالم الاستشراق يستحق أن يروى.

كان سيمونيت (ت ١٨٩٧) أندلسيًا من مالقة ينتمى فى أسرة فقيرة، درس أبوه الرهبنة ثمانى سنوات دون أن ينتهى به الحال راهبا، فأرادها لابنه، ولكن الابن أيضا بعد أن درس اللاهوت ثلاث سنوات، والفلسفة ثلاث سنوات أخرى، واللغة اللاتينية معهما، ترك الرهبنة بدوره، وهكذا أضاع من عمره ست سنوات لم يحقق فيها غير أمرين: التمكن من اللغة اللاتينية، والكراهية الشديدة لكل ما هو غير كاثوليكى، ثم انتهى به المطاف فى مدريد مهاجرا، جاءها ماشيا يمتطى قدميه، دون شئ يعينه على الحياة، فلجأ إلى مواطنه سرافين إستبنيث Serafin Estabanez (ت ١٨٦٧)، وهو من مالقة أيضا، أكمل تعليمه فى جامعة غرناطة، فتركت بجوها وآثارها فى نفسه تأثيرا عميقا: أعجب بالأدب العربى والحضارة الإسلامية إعجابا رومانسيا، ويراهما فى أسمى مكان من الجلال والروعة، وكان فى أوج مجده الأدبى، وله نفوذ ملحوظ فى المحيط الاجتماعى، ومع ذلك لم يكن لديه ما يقدمه لسيمونيت فى مجال العمل، وبخاصة أن هذا محدود التجربة والخبرة العملية، ومراعاة لدراساته السابقة، وما بينهما من مواطنة

جل المخطوطات العربية
فى الأندلس ذهبت بها الفتن والثورات أولاً،
ثم أتى الإسبان على بقيتها حرقًا فى ميدان الرملة،
فى غرناطة، بعد أن سقطت هذه فى يد الإسبان
فى ٢ يناير ١٤٩٢ بأمر الكاردينال ثيسنيروس،
وبلغ ما أحرق حوالى
نصف مليون مخطوطة

قريبة، عهد إليه بتنظيم مكتبته، وكانت بالغة الثراء، تضم أقدم الطبعات وأندرها، وأفضل المخطوطات وأثمنها، من التراث العربي والشرقي، في الأدب والتاريخ واللغة والفلسفة، ولكن الفتى لا يعرف شيئا من اللغة التي كتبت فيها معظم هذه الكتب فتولى صاحبها تعليمه اللغة العربية فأجادها على نحو فاق فيه أستاذه. وفي عام ١٨٨١ أرسله إلى الإسكوريال ليجمع له بعض النصوص الخاصة بكتاب يعده عن «المشاة في الجيش الإسباني»، وبذلك استطاع أن يحصل على إذن بالاطلاع على المخطوطات العربية.



عن طريق إستبنيث تعرف سيمونيت إلى المستشرق الهولندي دوزي، حول عام ١٨٥٠، وكان استبنيث على صلة وثيقة به ويتبادلان الرسائل حول قضايا علمية وأدبية تتصل بالأندلس، فلما فقد إستبنيث بصره في أواخر حياته، كان سيمونيت هو الذي يحرر له رسائله، وما لبثت عرى الصداقة أن قويت بين الاثنين، المرسل والمتلقي، لأنهما في هذا الوقت كانا ـ دوزي وسيمونيت ـ يعملان في مؤلفين متقاربين، دوزي يؤلف « ملحق المعاجم العربية»، وفيه جمع الكلمات العربية التي أخذت في الأندلس دلالات محلية خاصة، وسيمونيت في «معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستخدمة بين المستعربين» فبدآ يتراسلان،وفي مراسلاتهما يناقشان قضايا مشتركة، ذات طابع لغوي، وحتى كانا يتبادلان تجارب «المطبعة» ليشتركا في تصحيحها. وفي الأعوام الأخيرة من حياة دوزي كان يشغلهما قضايا جغرافية فقد كان هذه يعد الطبعة الثالثة لكتابه « أبحاث في تاريخ إسبانيا في العصر الوسيط»، وكان سيمونيت مهتما بجغرافية غرناطة،في ضوء ما أورده عنها المؤرخ الأندلسي لسان الدين بن الخطيب، في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة».

عندما تلقى سيمونيت مخطوطة ديوان ابن قزمان مرسلة إليه من بطرسبرج كان مشغولا بدراسة أحوال المستعربين في الأندلس،وهم المسيحيون الذين احتفظوا بدينهم، ولكنهم تعرّبوا فيما عدا ذلك، لغة وثقافة وعادات وتقاليد، عني بدراسة دورهم وحياتهم وتأثيرهم في الحياة الأندلسية، وقبل ذلك كله باللغة التي كانوا يتكلمونها، وبذل في ذلك جهدًا مضنيًا. ولكن التعصب الأعمى، والحقد الأسود، والكراهية البشعة، والأفكار المسبقة، وتأثير دراساته الأولى عليه أيام أن كان يطلب العلم راهبًا، ذهبت بجل ثمار هذه الدراسة، وانتهت بها إلى نتائج خاطئة، لا يقره عليها أحد، ولا حتى المتعصبون من مواطنيه.

وقد أبقى الديوان في حوزته عدة شهور، واستخدمه مصدرا أساسيا وموثوقا به في رسم اللغة الرومانثية، وهي اللغة التي كان يتكلمها طوائف من المستغربين وأهل الشمال المسيحيين، ويعرفها بعض المسلمين، ولأن أزجال ابن قزمان صيغت في عامية أهل الأندلس،وتضمنت عددا من الألفاظ الرومانثية، جاءت في حروف عربية، كما كان ينطقها الأندلسيون، وجد فيها سيمونيت بغيته، وشغل بالتقاط هذه الكلمات، ذات الأصول اللاتينية، عن تحقيق الديوان أو دراسته، وربما أيضا لأن هذا العمل جد لا هزل فيه، ويتطلب جهدا وصبرا ومثابرة، فانصرف عنه إلى كتابه «معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستخدمة بين المستغربين» ونشره في مدريد عام ١٨٨١م. وبعد أن نزلت المخطوطة ضيفا عليه عدة شهور عادت إلى مقرها الأول في بطرسبرج.



كان من بين الذين سمعوا بالمخطوطة واهتموا بأمرها البارون دافيد جينتسبورج Le Barom David Gunntz bourg، وهو يهودي واسع الثراء، يعمل في الصناعة، ويملك مصانع لتكرير السكر، وعددًا من التوكيلات التجارية، ولكنه قبل ذلك كله مغرم بالحضارات الشرقية، ومحب للمخطوطات، وجمّاع شهير لها، ودارس لأشعار العرب واليهود، ومتخصص في علم العروض العربي، ومهتم بالتراث الأندلسي خاصة، وكان تلميذًا لروزن الروسي، وجويار Guyard الفرنسي، فاهتم في الحال بمخطوطة الديوان، وقام بتصويرها في برلين على نفقته الخاصة، لتكون في متناول الدارسين، وأراد أن يكتب بحثا عنها، ودارت بذهنه فكرة رومانسية طموح، أن يقوم بنشر نص الديوان والتعليق عليه، وإثراء أزجاله بالملاحظات التاريخية واللغوية والأدبية، وأن يدرس عروضه، ولغته، وهي التي كانت تتكلم في الأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي، السادس الهجري، وصلتها باللهجات العربية المعاصرة، وبلغات شبه جزيرة إيبيريا في ذلك الزمن، وتقديم صورة واضحة ومفصلة لحياة ابن قزمان نفسه، تساعد على فهم ما في الديوان وتفسيره.

ومن نافلة القول طبعا الإشارة إلى أن الخطة كانت خيالية، لمّا يتحقق منها شيء.



إحدى هذه المصوّرات انتهت إلى يدي المستشرق الإسباني الجليل خوليان ريبيرا Julian Ribera (١٨٥٨ - ١٩٣٤)، ولم يكن مجرد مستشرق عادي، وإنما كان أمة وحده، باحثا عظيما، ومؤرخا جليلا، ومفكرا موضوعيا، ومحبا عظيما للثقافة الأندلسية، وأستاذا بكل ما تحمله الكلمة من جلال، ورأس المدرسة الإسبانية التي تؤمن بإسبانية التراث الأندلسي، وأن الإسبان يجب أن يشاركوا العرب في الزهو به. فقد أبدعه أسلافهم، وولد على أرضهم،فهو إسباني بقدر ما هو عربي، تراث إسباني، وإن كان جدوده يتكلمون العربية ويدينون بالإسلام، ورغم قسوة الرقابة الكنسية على أيامه، والتي واصل في ظلها أبحاثه، استطاع أن يكون موضوعيا إلى حد كبير.

كان ريبيرا أول من أقدم على دراسة المخطوطة دراسة علمية مستوعبة، تقدم بها إلى الأكاديمية الملكية حين قبلته عضوا بها في ٢٠ مايو ١٩١٢، وهي دراسة بالغة الجدة والعمق،لمّا تفقد شيئا من بريقها رغم مرور قرابة قرن من الزمان على كتابتها. وقد اتخذ من محتواها متكأ لقضايا كثيرة كانت مطروحة على بساط البحث الأدبي العالمي، قدّم لبعضها حلاً في ضوء أزجال ابن قزمان،ورأى الزمن كفيلاً بحل البقية، وأوضح هذه القضايا، وعنها تفرّع الكثير:

* تفسير نشأة الشعر الغنائي الأوروبي في مقاطعة بروفانس، جنوبي فرنسا في القرن الثاني عشر الميلادي، وقد اتخذ من بناء الموشحة أو الزجل (وهما شيء واحد في البناء) نهجا يحتذيه. هناك من يرفض هذا التأثير رفضا قاطعا، يقول المستشرق الفرنسي إرنست رينان E.Rena'n (١٨٢٣ـ١٨٩٢) : لا يدين الشعر البروفنسال بأي شيء للمسلمين، فثمة فجوة عميقة تفصل بين شكله وروحه وبين الشعر العربي، وكان الشعراء المسيحيون عاجزين عن فهم الشعر العربي، لأنهم يجهلون اللغة العربية نفسها «ودوزي» العظيم (والعظيم صفة أضفاها ريبيرا على زميله الهولندي) انتهى إلى رأي حاسم فحواه: «القول بأن الشعر العربي مارس تأثيرا على القصيدة الإسبانية ضلال، والقضية برمتها باطلة».

ويرى ريبيرا أن دوزي أخطأ لأنه لم يدرس ابن قزمان على نحو جاد عميق مثلما درس عصور الإمارة والخلافة والطوائف في تاريخ الأندلس، ولعله احتقر مخطوطة ديوانه. وكان يعرف مقرها. وفي ضوء هذه المخطوطة بدأ المستشرق الإسباني يخطط للقضية بمنهج جديد، وبطريقة تحليلية أكثر دقة، وقدم لنا براهين جديدة لم تقدم من قبل، يقول:

إن الباحث المعاصر يرى الأزمان الماضية كأشياء غائمة، تتراءى متفرقة في الأفق البعيد، والبحث الصابر الدءوب هو الذي يستطيع، حين يقترب منها، أن يميز بينها، وأن يتعرف إلى حقيقتها، وفترة الحكم الإسلامي في شبه جزيرة إيبيريا، إحدى هذه المناطق الغائمة، يلفها ضباب شديد الكثافة. كان وراء الغموض والأخطاء التي لفت تاريخها، ومارسا تأثيرا بالغا وضارا على كل من تصدى له، لصعوبة اللغة التي كُتبت فيها الوثائق والمدوّنات التاريخية، ونتيجة الأهواء التي شابت أعمال الباحثين.

وانتهى ريبيرا في دراسته لديوان قزمان إلى أنه كانت توجد في إسبانيا الإسلامية لغتان أدبيتان: العربية الفصحى واللاتينية الكلاسية، ولهجتان عاميتان، واحدة عربية وأخرى لاتينية حملت اسم الرومانثية، وأن اللاتينية الكلاسية ظلت لغة الدين، وفي بعض العصور، في بعض المقاطعات، لغة أدبية للمسيحيين الذين ظلوا في الأندلس خلال الحكم الإسلامي، بين رجال الدين منهم خاصة: إذ كان عليهم أن يقوموا بطقوسهم، وأن يلقوا عظاتهم ودروسهم باللغة اللاتينية.

ويقرر: لم تكن العربية الفصحى لغة أدبية وقفًا على المسلمين وحدهم، فقد استخدمها المسيحيون الأندلسيون أيضًا، ونبغوا فيها.

إن العامية العربية والعامية اللاتينية، أو الرومانثية، كانتا تستخدمان من الشخص الواحد بلا تمييز بينهما، سواء كان من المسلمين أم المسيحيين، وهو قول يبدو للوهلة الأولى غريبا، ويصعب فهمه على غير الإسباني، أما نحن في إسبانيا فنرى الحديث بلغتين واقعا عاديا للغاية، على نحو ما يحدث في أيامنا هذه في مقاطعات بلنسية وقطلونية وجيليقية والباسك وأشتورياس. فلا يدهشنا إذن أن المسلمين واليهود في الأندلس كانوا يتكلمون الرومانثية لغة عائلية. وبدون إدراك هذا الواقع، لا يمكن فهم ديوان ابن قزمان ولا تفسيره.

ومضى ريبيرا يؤكد مقالته هذه بشواهد من كتب التاريخ والرحالة والأنساب والواقع، ويجد ديوان ابن قزمان أوضحها دليلا، ففيه عدد غير قليل من اللهجتين العاميتين اللتين أشرت إليهما، تجيئان مختلطتين بلا فاصل، كأنهما لهجة واحدة، وبعض الجمل الرومانثية تجيء وحدها

إن الباحث المعاصر يرى الأزمان الماضية كأشياء غائمة، تتراءى متفرقة في الأفق البعيد، والبحث الصابر الدءوب هو الذي يستطيع، حين يقترب منها، أن يميز بينها، وأن يتعرف إلى حقيقتها، وفترة الحكم الإسلامي في شبه جزيرة إيبيريا، إحدى هذه المناطق الغائمة



أحيانا، مكونة أبياتا كاملة، وهو وحده كاف ليؤكد لنا أن الرومانثية كانت مستخدمة في قرطبة، من النساء بخاصة، ومن عامة الناس الذين يمارسون مهنا واطية.

ولم يقف ريبيرا عند هذا الحد، فمضى يحلل الديوان في أستاذية ماهرة: محتواه وأفكاره ولغته وعروضه وبناؤه، وانتهى إلى نتائج مقبولة في مجملها. أقول في مجملها لأن جانبا منها يحتاج إلى إعادة تحرير في ضوء ما جد على امتداد قرن من الزمان، فحديثه عن الدماء الإسبانية التي مازجت عروق الشخصيات العربية فيه من الرومانسية والخيال أكثر مما فيه من العلم والتحقيق.

وفي دراسته للغة ألقى ضوءا كاشفا ما في ذلك شك، وفتح الطريق أمام احتمالات لم تكن قائمة قبل بحثه، ولكنه نسي أن لحركة اللغات قوانينها المستقلة التي تحكم حركة تطورها، اندماجا واستقلالا وازدهارا وفناء، إلى جانب أن اللغة ليست المفردات مستقلة مهما كثرت عددا، ولكنها الجملة وبناؤها!



كان أ. ر. نيكل A. R. Nykl أول من التقط الخيط بعد ريبيرا، وهو عالم تشيكي الأصل، هاجر إلى الولايات المتحدة، وعمل في عدد من جامعاتها أستاذًا للغات الرومانية، وأدرك بثاقب نظره أن تعمقه في تخصصه، وتميزه في دراساته، يقتضيه أن يدرس اللغة العربية وآدابها بعامة، والأدب الأندلسي منها بخاصة، حتى يستطيع أن يلقي الضوء على المناطق المظلمة في تاريخ الآداب الأوروبية، وحركة سيرها، طول العصر الوسيط، ومطلع عصر النهضة.

فدرس اللغة العربية، وترجم منها إلى اللغة الإنجليزية كتاب «طوق الحمامة في الألفة والألآف» لابن حزم القرطبي، ونشره في باريس عام ١٩٣١، وقدّم له بدراسة ضافية عن «الشعر على جانبي جبال البرانس حول عام ١١٠٠م»، درس فيه الشعر البروفنسالي شمالها، والشعر العربي جنوبها، ونقاط اللقاء بينهما. كما نشر القسم الأول من كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني بالاشتراك مع إبراهيم طوقان عام ١٩٣١. وحمله تخصصه واهتمامه إلى ديوان ابن قزمان، ولم يقنع بما وقف عنده ريبيرا من الدرس والتحليل، وأراد أن يتقدم بالأمر خطوات أوسع، وأصعب في الوقت نفسه، فيضع نص الديوان كاملاً بين يدي العلماء، لكي ينطلقوا في أبحاثهم واستنتاجاتهم من النص ذاته، إذ كان الوصول إلى المخطوطة نفسها، أو إلى مصورتها، دونه عقبات بالغة الصعوبة، فقرر أن يقوم بما لم يستطع أحد قبله أن يفكر فيه أو يقدم عليه: أن يضبط النص في حدود قدراته وإمكاناته، وأن ينشره كاملاً، في حروف لاتينية، لكي يتاح لعلماء الدراسات الرومانية، ممن لا يعرفون العربية أن يفيدوا منه في دراسة عِروض الشعر الأوروبي الوسيط، وبناء قصائده، أما الموضوعات والأفكار التي تتضمنها الأزجال فقد تكلفت بها الترجمة إلى الإسبانية التي قام بها لعدد كبير منها، إلى جانب دراسته لغة هذه الأزجال.

وقامت مدرسة الدراسات العربية في مدريد وغرناطة بنشر الديوان عام ١٩٣٣.

كان هذا الجهد، في جوانبه المتعددة، الشديدة التعقيد والصعوبة، فوق طاقة نيكل فردا، فجاءت الترجمة غير دقيقة في بعضها، وفي بعضها الآخر ترجم ما فهمه فحسب، أو ما لخصه له الآخرون، وأحيانا كان: يحوم حول المعنى دون أن يقع عليه، وفي قليل منها وقع في أغلاط فاحشة، بالغة السوء، أدت إلى نتائج خاطئة. مثلا:

في الزجل رقم ٣٨، يتحدث ابن قزمان عن معركة الزلاّقة التي جرت بين الجيوش المسيحية بقيادة ألفونسو السادس ملك قشتالة والجيوش الإسلامية، المرابطية والأندلسية بقيادة يوسف بن تاشُفين، وجرت يوم الجمعة ١٠ رجب ٤٧٩ هـ = ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م، وفيها كان النصر ساحقاً للمسلمين، يقول في الدور التاسع منه:

أي نهار كان، حُشدْ إليه الورى
وجرى للنصارى فَيه ما جرى
في حُشَي وِلْدى كنت انا لم نرى
إنما اخبرني بالقصة خبير.

في البيت الثالث منه قرأ كلمة حُشَي خُصَ، وهو البيت من الشجر أو النبات، وترجمها Casa، أي بيت. حين نقرأ الكلمة حُشيٍ فذلك يعني أن ابن قزمان لم يكن قد جاء إلى الحياة حين وقعت المعركة، أما إذا قرئت خُصَ فتعني أنه كان في البيت في السادسة أو الثامنة من عمره، حين جرت أحداثها، وذلك يتناقض تماما مع ما نعرفه عن عمر ابن قزمان وأنه ولد بعد معركة الزلاّقة لا قبلها، والنص صريح في أن خبيرا قص عليه أحداثها.

وقد استدرك عليه هذا الخطأ المستشرق الفرنسي كولان Colin .G. S. عند تعقيبه على عمل نيكل في مجلة هسبيرس Hespéris عام ١٩٣٣، ومثله صنع مواطنه ليفي بروفنسال في مجلة الأندلس عام ١٩٤٤.

مع كل ما يؤخذ على نيكل من أخطاء، نحمد له إقدامه على نشر النص، مع كل ما يحيط به من صعوبات، وترجمة الكثير من أزجاله، فقد دفع به خطوات واسعة إلى الأمام، ومهد الطريق لمن بعده، ممن أعادوا تحقيق النص، أو تناولوه بالدرس والتحليل، ومعها تتبعوا سقطاته وهفواته، وهي سقطات وأخطاء لها ما يبررها، فقد كان في عمله رائدا، ولا يدرك صعوبات الريادة إلا من مارسها، وقدر له يوما أن يسلك طريقا ما للمرة الأولى.

كان نشر ديوان ابن قزمان سببا آخر لرواجه في أوروبا وأمريكا، فما من عالم فيهما يتصدى لدراسة الشعر الأوروبي في العصر الوسيط إلاّ كان عليه أن يلقى نظرة فاحصة دارسة على ديوان ابن قزمان، وأن ينطلق منه إلى المقارنة بينه وبين لاحقيه، معللا التشابه والاختلاف، معترفا بالتأثير العربي أو منكرا له. وكان نيكل نفسه من أنصار التأثير العربي، من أنصار تأثير الموشحات والأزجال في الشعر البروفنسالي، وهو أصل كل شعر أوروبي غنائي، تأثير يبدو واضحا وشديدا في شكل القصائد وبنائها، وإلى حد كبير في توجيه محتواها وموضوعاتها وصورها، وكان البحث في هذه القضية، وتأكيد نظريته، وراء عنايته بديوان ابن قزمان.

جاءت الخطوة التالية لنيكل في أوج الحرب العالمية الثانية، ١٩٣٩–١٩٤٥، من مستشرق مغمور في بلد أوروبي صغير، من الفنلندي أو. ج توليو O. D. Tulio، وليس لفنلندا اهتمامات كبيرة بما يجري خارج حدودها، ولم يكن لها مطامع استعمارية ولا طموحات سياسية، ولا تملك مؤسسات غنية تمول معاهد غايتها البحث الخالص، أو تنفق على رحلات استكشافية في بلاد أخرى، بغية الاحتلال أو الاتجار أو الاستغلال أو التنصير، ومن ثم كان حظها من الاستشراق رغم ازدهاره ورواجه في القرون الثلاثة، السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر جد محدود، وكل ما نعرفه عن إسهاماتها في هذا المجال أن أحد علمائها ذهب إلى الجزيرة العربية بحثا عن النباتات، وآخر ذهب إلى المغرب يدرس طقوسه وأمثاله وعاداته، وكانت فنلندا يومها مستعمرة سويدية، وللسويد اهتمام لا بأس به بالدراسات العربية، وفي جامعة أوبسالا بخاصة كرسي للغة العربية حتى يومنا، فلما استقلت فنلندا لم تعد تذكر في هذا الجانب إلا نادرا، والفضل في هذا يعود إلى توليو، وكان متخصصا في الدراسات الرومانية، فقد قرأ ما نشره نيكل عن ابن قزمان، وأدرك واعيا أهمية ديوانه للمعنيين بالبحث في الآداب اللاتينية في العصر الوسيط، ورآه جسرًا قويًا يربط بين الشرق والغرب، بين أوروبا والعرب.

عكف توليو على دراسة ديوان ابن قزمان الذي نشره نيكل، وتعليقاته عليه، وقدم جهده في دراسة قال عنها إنها « دراسة نقدية جزئية مؤقتة»، نشرتها مجلة «دراسات المستشرقين Studia Orientalia، التي تصدرها جمعية المستشرقين الفنلنديين في هلسنكي أولاً، وفي كتاب مستقل ثانيا عام ١٩٤١، وفيها درس سبعة أزجال هي الأزجال رقم ١٠و١٩و٢٠ و٧٩و ٨٤ و٨٧ و٩٠، من مجموع أزجال الديوان التي تبلغ ١٤٩ زجلا، وقدم لها بتمهيد أوجز فيه حياة ابن قزمان مع إلماحات إلى مخطوطة الديوان، كما أوجز فيها الصعاب التي تواجه الباحث الأوروبي بعامة حين يحاول أن يفيد من الديوان في التأصيل للكلمات العامية اللاتينية المكتوبة في حروف عربية، إذ لا تحكمها قاعدة، ولأن الحروف العربية لا تفي بحاجتها، فهي تسقط الصوائت دائما، ولا تعني بالشكل وهو ضروري في اللاتينية وما تفرع عنها، لمعرفة معنى الكلمة.

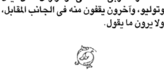
وفي تواضع يحمد له أشار إلى ضعف إمكاناته في اللغة العربية، وأنه ما كان له أن يصل إلى شيء لولا جهود الذين سبقوه من جانب، ومعاونة المستشرقين المعاصرين له من جانب آخر، أما زملاؤه في الدراسات الرومانية فليس عندهم شيء يقدمونه لأنهم كانوا في بداية تعرّفهم إلى الديوان، وقد قام بضبط نص الأزجال السبعة التي أشرنا إليها، في حدود إمكاناته العلمية ومعرفته باللغة العربية، كتبها في حروف لاتينية، وحلّلها عروضيا ولغويا، ثم ترجمها إلى اللغة الفرنسية، وألحق بهامش الزجل العاشر ترجمة إسبانية له نقلها عن ريبيرا، وبهامش الزجل رقم ٢٠ ترجمة إسبانية له نقلها عن نيكل، وألحق بالدراسة معجما بالكلمات الرومانثية التي وردت خلال النصوص العربية التي نشرها. وانتهى من دراسته إلى تأييد نيكل فيما ذهب إليه، من أن الموشحات والأزجال كانت وراء نشأة الشعر البروفنسالي.

رغم تواضع دراسة توليو بالنسبة لما قام به نيكل، وجدت في أوروبا رواجا لم تحظ به دراسة هذا الأخير، ومردّ هذا فيما أرى، أن علماء أوروبا ليسوا ملائكة، وأنهم شأن الآخرين يعرفون أيضا التنافس والكراهية والأحقاد والوقيعة والضيق بالآراء التي لا تسير في الاتجاه الذي يسلكونه، ولو أنهم يغلّفون هذا بشيء من الدهاء ويقدمونه في صورة علمية، تأخذ شكلا موضوعيا. لقد نشر نيكل دراسته في إسبانيا حين كانت تحكمها دكتاتورية عسكرية، وتسيطر على مقاليدها رجعية دينية، وأوروبا ـ ما عدا ألمانيا ـ تكن لها البغضاء والازدراء، ثم تلت نشر الديوان الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ـ١٩٣٩)، فالحرب العالمية الثانية، وحصار أوروبا لإسبانيا



كان نشر ديوان ابن قزمان سببا آخر لرواجه في أوروبا وأمريكا، فما من عالم فيهما يتصدى لدراسة الشعر الأوروبي في العصر الوسيط إلا كان عليه أن يلقى نظرة فاحصة دارسة على ديوان ابن قزمان، وأن ينطلق منه إلى المقارنة بينه وبين لاحقيه، معللا التشابه والاختلاف، معترفا بالتأثير العربي أو منكرا له

اقتصادياً وثقافياً وسياسياً حتى أواخر الستينيات، وكل هذا ذهب بدور نيكل وكتابه، وأفقده الرواج والأهمية، على حين أن دراسة توليو، وهي لا تبلغ أن تكون كتاباً، محتوى وشكلا، طبعت في هلسنكي، والعالم الثقافي الأوروبي مفتوح أمامها على مصراعيه، فطافت بكل أركانه، شرّقت وغرّبت دون أي عائق مادي أو معنوي. وكانت جهدا لا بأس به، وخطوة إلى الأمام على أية حال، ولو أن إميليو غرسية غومث شيخ المستشرقين الإسبان، وبعض دارسي ابن قزمان، يرى « أن دراسة توليو جمعت من الأخطاء والسيئات ما لا يتأتى لأي كتاب أن يضمها بين دفتيه»، وهذا التعبير لغرسية غومث نفسه، وأحسب أن وراء هذه القسوة في النقد معه، ومع نيكل قبله، وتتبع ما في عملهما من أخطاء دون أية إشادة بجهودهما أن غومث كان يتحامل بعنف يبلغ حد الكراهية على كل من يخالفه الرأي الذي انتهى إليه وآمن به، وهو: «إن الموشحات والأزجال وليدة أغاني المستعربين الرومانثية، وليست تطورا طبيعياً للشعر العربي الكلاسي» وهو رأي كان نيكل وتوليو، وآخرون يقفون منه في الجانب المقابل، ولا يرون ما يقول.



لم يكن بوسع الاستشراق الفرنسي أن يدير ظهره لظاهرة ابن قزمان، وأن يشغلهم باحثين وعلماء، ووراء ذلك دوافع ثلاثة:

* تأكيد مكانة فرنسا الثقافية في أوروبا والعالم أجمع، وهو أمر تحرص عليه فرنسا دائماً، وتجعله مناط اهتمامها واعتزازها. ولا أظن طالبا يدرس في غير وطنه، يجد من الرعاية والتسهيلات المادية والمعنوية في بلد أجنبي مثل ما يجده الطلاب الأجانب في فرنسا.

* إنها تستعمر إذ ذاك دول المغرب الثلاث، وغاياتها أبعد من مجرد الاحتلال العسكري المؤقت واقعا، والفوائد الاقتصادية العاجلة، وإنما تستهدف جعله، في الجانب الذي يطل على البحر الأبيض على الأقل، جزءا من فرنسا، وأدى هذا إلى أن تزدهر فيها الدراسات المتصلة بدول المغرب، تاريخا وحضارة ولغة وأعراقا، وكان إسهامها في هذا الجانب واسعا وباهرا.

* إثارة عوامل الفرقة، وإشاعة روح البغضاء بين طوائف شعوبه، في لغاتهم وأصولهم، والتأكيد إعلاميا بمناهج علمية على العنصر البربري، وإبراز دوره، وإثارة الفرقة والتعصب.

وهكذا وجد ابن قزمان في فرنسا قارئين ودارسين، يهمنا من بينهم اثنان، كانا من أبرز العلماء الذين عنوا به في تلك الأيام، تعاصرا وتزاملا، في مدرسة اللغات الحية في باريس، وفي معهد الدراسات العليا في الرباط فيما بعد، وهما: جورج كولان (١٨٩١ ـ ١٩٧٧) وليفي بروفنسال (توفي ١٩٥٦).

درس كولان اللغة العربية في مدرسة اللغات الحية في باريس، وبعدها جاء إلى القاهرة في أوائل العشرينيات لتعميق معرفته، كعادة معظم المستشرقين الأوروبيين وعمل خلال إقامته في المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القائم في حي المنيرة في القاهرة منذ الحملة الفرنسية، ولا يزال فيها حتى يومنا. ثم عاد إلى باريس ليشغل كرسي اللغة العربية في المدرسة التي تخرج فيها، ومنها انتقل إلى الرباط أستاذا في معهد الدراسات العليا، ومهمته الأولى التنسيق بين المستشرقين الفرنسيين المهتمين بالمغرب في المجالات المختلفة، وتوجيه أبحاثهم الوجهة التي تخدم مصالح فرنسا أولا، وبداهة لم يكن به باحثون ولا دارسون مغاربة، وإنما علماء فرنسيون فحسب، وعنه كانت تصدر مجلة Hes peris، وظلت تصدر قرابة نصف قرن، وتضم أعمق الأبحاث في كل ما يتصل بالمنطقة، حتى أن مكتبة الكونجرس الأمريكية، ولم تكن تضم نسخة منها، قامت في السبعينيات بتصويرها كاملة لحسابها.

تخصص كولان منذ البدء في اللهجات العامية، (وهو تخصص محبب إلى أجهزة المخابرات في العالم كله، وأعظم معجم في العامية المصرية قامت به الجامعة الأمريكية في القاهرة) واهتم حين كان في القاهرة بالمصطلحات البحرية التي يستخدمها ربابنة السفن الشراعية في وادي النيل، وحين انتقل إلى المغرب اهتم باللهجات المستخدمة بين الحرفيين والمهنيين، وأسماء ما يستخدمونه من آلات وأجزائها، والفرق بين الفصحى واللغة المستخدمة عند الصحفيين في عصرنا، وحقق كتابا موجزا في لحن العامة لابن خاتمة الأندلسي، وبعض المصادر المتعلقة بالمصطلحات الطبية، وبعض كتب التاريخ المتصلة بتاريخ المغرب والأندلس، كما اهتم بالتأريخ للعلاقات السياسية بين المغرب وإسبانيا والقاهرة، وعلاقات مصر باليمن.

كانت العامية المغربية الاهتمام الأول والرئيس لكولان، أما بقية الاهتمامات الأخرى فتجيء لتكون في خدمتها أو ساترا لها، وكان أعظم إنجازاته العلمية «معجمه الكبير» وحمل اسمه، وفيه أمضى زهرة عمرد، وحمّله خلاصة تجاربه، وفيه درس اللهجات المغربية من كل جوانبها، فجاء خريطة لغوية تركز على السماع والمشاهدة، وقد نشر بعد وفاته بعناية باحثة مغربية (الدكتورة زكية العراقي).

من يعنى بالعامية المغربية الحالية أو المعاصرة، لابد أن يدرس ابن قزمان، فقد استخدم عامية الأندلس، وكان زجالا فنانا، ووشائح القربى بين العاميتين قوية، وتجلى اهتمامه في عدة أمور:

* صحح بعض القراءات الخاطئة لكل من نيكل وتوليو، على نحو ما ألمحنا قبلا، وكان الحق معه فيما صوّب، وانتقدهما نقدا صارما مقبولا في تفسيرهما لعدد من الكلمات.

* فكرَ جادا في تحقيق الديوان بدوره، على نحو أفضل، وهيّأ نفسه لذلك بالبحث عن مخطوطة أخرى تعينه في مهمته هذه. ويذكر توليو في مقدمة كتابه الذي ألمحنا إليه فيما سبق، أنه تلقى رسالة من كولان في ١٣ سبتمبر ١٩٣٧ يعلمه فيها أنه وقع على خبر يشير إلى أن المكتبة الظاهرية في دمشق(مكتبة حافظ الأسد الآن!) تتضمن مخطوطة أخرى للديوان، وأنه يبذل جهده لكي يصل إليها. ويذكر ليفي بروفنسال في محاضرة ألقاها في القاهرة، سوف نشير إليها فيما بعد، أن « كولان هيأ للنشر منذ بضع سنين مخطوطة الديوان». ولكن أياً من الأمرين لم يتحقق، فلم ينشر كولان الديوان، ولا أحد يعرف شيئا عن جهده في هذا المجال، ولم يتوصل أحد إلى مخطوطة دمشق التي تحدث عنها، وأقرب الظن أن الأمر كان مجرد إشاعة، وهكذا وقف كولان بجهده عند تصحيح أخطاء الآخرين في مجال قراءة المفردات.

كان إرنست ليفي بروفنسال الفرنسي الثاني الذي عنى بابن قزمان، وهو يهودي سفردي، أندلسي الأصول، أسلافه من أولئك اليهود الذين لاحقتهم محاكم التفتيش الإسبانية بعد سقوط دولة الإسلام هناك، فلجأ كثير منهم إلى جنوب فرنسا، بعد جهد مضن، ورشاوى كبيرة دفعوها، وقد بدأ ليفي حياته الاستشراقية مبكرا، منذ عام ١٩١٧، وأهلته يهوديته، وتمكنه من اللغة العربية، أن يكون من بين عيون فرنسا وأدواتها ورجالها في المغرب العربي بأقطاره الثلاثة: المغرب والجزائر وتونس، وكان أحد كبار المستشرقين الذين تجمعوا في معهد الدراسات المغربية العليا في الرباط، واضطلعوا بإصدار مجلة هيسبيرس Hésperis عام ١٩٢١، لتكون ملتقى الأبحاث والدراسات التي تهتم بالمغرب، من وجهة نظر فرنسية، وهم: هنري تراس الأثري، وجورج كولان اللغوي، واختص ليفي بالتاريخ وما يتعلق به.

من يعنى بالعامية المغربية الحالية أو المعاصرة، لابد أن يدرس ابن قزمان، فقد استخدم عامية الأندلس، وكان زجالا فنانا، ووشائح القربى بين العاميتين قوية

بدأ خطاه الأولى بعمل منهجي: أن يتعرف إلى مصادر تاريخ المنطقة التي سوف يعنى بها، وطريقه إلى ذلك أن يقوم بفهرسة المخطوطات الموجودة في خزانة الرباط (المغاربة يسمون المكتبة خزانة)، وتتبعها في بقية المدن، وبدأ ينشر المقالات عن نوادرها، ويعرف بالمجهول منها، وكان تراث المغرب في جملته مخطوطا، ولعله أول من أشار إلى وجود مخطوطة لتاريخ ابن خلدون، أهداها المؤلف نفسه إلى خزانة القرويين في فاس.

وبعد وفاة هنري باسيه، مدير المعهد تولى إدارته، ومد نشاطه إلى بقية البلاد المغربية التي تحت الاستعمار الفرنسي، وكان دائم الترحال بين أقطاره الثلاثة، يرى ويدرس ويتأمل ويكتب التقارير، ويوجه الدولة المستعمرة في باريس، ويبحث عن المخطوطات، في مكتبات الجوامع والأربطة والزوايا والمكتبات الخاصة، يستهديها أو يشتريها، ويقتبسها إن لم تفلح هذه أو تلك، وهكذا أتيح له أن يعرف عنها ما لم يتح لغيره، ولم يفته أن يلحظ أنها في جانب كبير منها تتصل بالأندلس، فهداه تفكيره أن يعبر إلى إسبانيا أيضا، حيث دير الإسكوريال، وبه مجموعة قيمة من المخطوطات العربية، هي في الجانب الأكبر منها مغربية المصدر، استولت عليها البحرية الإسبانية قرصنة، أثناء نقلها بحرا. وكان الراهب ميخائيل غزيري الحلبي قد اضطلع بفهرستها بأمر من الملك الإسباني كارلوس الثالث، ونشر عمله باللغة اللاتينية، عدا أسماء الكتب والمؤلفين فكانت بالحرف العربي، في جزءين، في مدريد عام ١٧٦٠و١٧٧٠م.

ولكنه لم يعد صالحا مع تطور الزمن، فقد ضاع جانب من هذه المخطوطات بفعل الإهمال والحرائق، وأضيفت إليها مخطوطات جديدة عن طريق الشراء والهدايا، فتقدم للاضطلاع بمهمة تجديد الفهرس المستشرق الفرنسي هـ. ديرنبورج، ونشر ما أنجزه في مجلدين في باريس باللغة الفرنسية عام ١٨٨٤ و ١٩٠٣، ولكنه رحل عن الدنيا قبل أن يكمل مهمته، فتولاها ليفي بروفنسال، وأكمل الفهرس بجزء ثالث صدر في باريس عام ١٩٢٨.

وكان هذا أول اتصال علمي له بالأندلس، وأول خطاه إلى إسبانيا باحثا، ومن هذه اللحظة أصبح الأندلس مناط اهتمامه الأول ومنحه كل وقته وجهده وعقله، وأصبح مؤرخه الأكبر، ومكنته إقامته في المغرب، وسلطان الدولة المستعمرة، أن يرى من المخطوطات ما لم ينشر منها، وما لم يره غيره، فتميزت أبحاثه بالجدة والأصالة والعمق، وبقدر كبير من الموضوعية والعلمية. وأحسب أن وراء هذا الجهد الخلاق إحساس داخلي يتخفى في طيات ضميره، ولكنه يبدو مواربا فيما كتب، دون أن يفصح عنه صراحة: أن يجلو إسهام اليهود في الحضارة العالمية في العصر الوسيط، من خلال ما قاموا به في الأندلس، حيث تمتعوا بمساحة واسعة من حرية الحركة، أتاحت لهم أن يكونوا ثروات واسعة، وأن يقوموا بجهد

فكرى مرموق فأحيوا لغتهم العبرية، وقعّدوا لها، وأبدعوا فيها شعرا ومقامات وموشحات، وقاموا بدور بالغ الأهمية فى نقل الحضارة العربية إلى أوروبا، فأيقظتها من غفوة العصور الوسطى، واستشرفت معها نهضة لما تكن معالمها قد اتضحت.

ويلفت النظر فى دراساته التى تتصل بالمغرب أنه اتكأ على ما يتصل بالبربر، فأعطى أولوية لنشر ما وجد من مخطوطات تتصل بهم، فحقق كتاب « مفاخر البربر» لمؤلف مجهول، ونشره معهد الدراسات المغربية العليا فى الرباط عام ١٩٢٤.

شغل بروفنسال أصلا بالتاريخ والحضارة، والأدب ليس بمعزل عنهما، وحديث ابن قزمان ومخطوطة ديوانه يشغل الأوساط العلمية فى مراكز الأبحاث الأوروبية، وما كان بوسعه أن يتجاهل أمره، أو يغفل المشاركة فى كل ما يتصل به، وأدرك واعيا، منذ اللحظة الأولى، أن الاقتراب من نص الديوان أمر بالغ الصعوبة، وأن إمكاناته فى اللغة العربية الفصحى والعامية لا تسمح له بأن يضيف إليه جديدا فى تحقيق النص، أو تفسير ما غمض من ألفاظه، ومع ذلك رآه معيبا أن يعاصر هذا الصخب العلمى دون أن يشارك فيه، وأن يأخذ بحظ منه، فتحسس طريقه إلى الديوان من الباب الذى يعرف الطريق إليه جيدا، وكان لقاؤه معه عند أطول زجل فيه، رقم ٣٨، وأصله فى مدح أسرة بنى حمدين القرطبية الشهيرة، وتولى عدد من أبنائها قضاء الجماعة فى قرطبة، وحفل بالإشارة إلى عدد من الأحداث التاريخية، أبرزها موقعة الزلاقة عام ١٠٨٦، وفيها انتصر المسلمون من مرابطين وأندلسيين بقيادة يوسف بن تاشفين، على ألفونسو السادس ملك قشتالة وحلفائه، وثانيها قيام ألفونسو الأول ملك أرغون، الملقب ردمير المحارب، وحليفه ملك البرتغال، بحصار مدينة المرية حول عام ١١٢٥، وعرض ابن قزمان للأولى راويا، لأنه لم يشهدها، وعاصر الثانية، وفى زجله مدح إلى جانب أسرة بنى حمدين ودورها، وأمراء المرابطين الذين قادوا المعركة وحققوا النصر، وأمراء الموحدين الذين صدوا الهجوم وفكوا الحصار فى الثانية، وحث المسلمين على الجهاد، ودعا لهم بالنصر، وحقّر من شأن الأعداء، وقد درس بروفنسال الزجل جيدا، من الوجهة التاريخية، ونشر الدراسة مع الزجل فى مجلة « الأندلس» (عدد ٦ سنة ١٩٤١).

أما فى الجانب الأدبى من الديوان فآثر منه ما يلقى ضوءا على الشعر الفرنسى فى بداياته، بأن يدرس دور الفن الذى يحتويه هذا الديوان على حركة شعراء التروبادور التى ازدهرت فى مقاطعة بروفانس فى جنوبى فرنسا، بدءا من نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، وتناول الديوان بالدرس إجمالا للمرة الأولى فى مقال نشره فى مجلة «الأندلس»، التى تصدرها مدرسة الدراسات العربية فى مدريد وغرناطة بعنوان: « من جديد حول ابن قزمان» عام ١٩٤٤، وفيه علّق، وصوّبَ بعض الأخطاء التى وقع فيها سابقوه من الدارسين، مع إضافات جديدة عن حياة ابن قزمان وسلفه وخلفه.

وكانت المرة الثانية، وتناوله فيها تفصيلا، حين دعته جامعة فاروق الأول (الإسكندرية الآن) أستاذا زائرا لكلية الآداب فى عامين دراسيين متتابعين، ١٩٤٧ و ١٩٤٨، وألقى إلى جانب التدريس فى الكلية ست محاضرات عامة باللغة الفرنسية، تناول فى الثلاث الأولى منها الشعر فى الأندلس بفنونه الثلاثة: القصيد والموشح والزجل، وتوقف طويلا عند ابن قزمان أمير الزجّالين، فيما يرى، وأفاض القول فى مدى تأثير الشعر الأندلسى فى الشعر الأوروبى.

وكانت المحاضرات الثلاث الباقية عن غرناطة والحمراء ومدن المغرب والأندلس، ونظمها المالية والإدارية.

لم يتعرض بروفنسال للمشكلات اللغوية فى الديوان، واكتفى بإبراز قيمته الشعرية، ودراسة معانيه الكلية، ولحظ أن ابن قزمان يلقى بها فى عفوية بالغة، تتجلى فيها ملكته المبتكرة، وفيض أخيلته الحارة، حين يشرب أو يعربد، أو يتافق أو يتملق، وحين يبدو فى صورة سيد عظيم، أو متفنن ظريف، أو محب رقيق، أو رجل بحث، أو مؤمن تقى ورع يؤدى الفرائض فى أوقاتها. ثم درس شكل الأزجال وبناءها وموضوعاتها من مديح وخمريات وغزل، وأن الديوان يعكس حياة ابن قزمان الشعرية والمادية والعاطفية، فى تفاوت حظوظها، سموًا وتدينًا، واغتناءً وفقرًا، واستقامة وتحللاً، وقبل أن تدركه الشيخوخة فينزع إلى الندم والتوبة والتقوى.

ويوجز بروفنسال رأيه: «لست أعرف فى الأدب العربى والغربى شعرًا أكثر استرسالاً مع الطبع، وأكثر أخيلة وحياة وطرافة من أزجال ابن قزمان. فإن كان لابد من مقارنته بشاعر من شعراء العصر الكلاسى، فإنه لا يقرن إلا بأبى نواس، وطريقته أن يدخل كل معانى الشعر الأندلسى الكلاسى فى أزجاله، سواء أكان الموضوع فى الوصف أم الخمر أم الهجاء أم الحرب أم اللذة، ولكنه يطبع كل هذه المعانى بطابعه الخاص، وهو طابع عصى على التقليد».

كانت بريطانيا أقل دول أوروبا اهتماما بالأندلس، تاريخه وحضارته، وليس بين مستشرقيها من تخصص فى هذا الجانب، وإن كان بينهم من قدم لأدب الأندلس تعريفا موجزا، ليس بذى أهمية، ومع ذلك لم يفتها أن تشارك فى الحوار حول مخطوطة ديوان ابن قزمان،فى دراسات مست الزجل والزجّالين مسًا عميقا، على يد يهودى سفردى، مجرى الأصل، من اليهود الذين تدفقوا على ولايات الخلافة العثمانية بعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس، فى أخريات القرن الخامس عشر الميلادى، هربا من محاكم التفتيش، وهو صمويل ميكلوس شتيرن Sannuel Mikklos Stern (١٩٢٠-١٩٦٩). ولا نعرف كثيرا عن طفولته وصباه، ولكننا نلتقى به فى عام ١٩٣٩ طالبا فى الجامعة العبرية فى القدس، يهيم على وجهه فى شوارع المدينة المقدسة، مهموما بقضايا الموشحات العربية والعبرية، وخاصة بعض أجزائها التى جاءت مزيجا من لغات مختلفة، عربية ورومانثية وعبرية،وربما من لغات أخرى كالبربرية والصقليبية، لغة المماليك المجلوبين من أواسط أوروبا، يقلب ظنونا مختلفة تدور برأسه، فى محاولة منه لتفسير هذه المفردات.

كان وراء اهتمام شتيرن بابن قزمان اهتمامه بدراسة الأدب العبرى، إذ كان يرى أن الموشح العبرى خرج من عباءة الموشح الأندلسى، شأن النشاطات الأدبية العبرية الأخرى التى ولدت وترعرعت على أرض الأندلس، ففيه انتعشت الدراسات العبرية فى ظل ازدهار الحضارة العربية، فترجم اليهود «المقامات» إلى لغتهم، ثم احتذوها، وترجموها إلى اللاتينية، وساروا على خطى الشعر العربى جملة وتفصيلاً، فى شتى أنواعه: القصيد والمسمط والموشح، عروضًا وقوافى وبناء، وكانت الموشحات العبرية غير الدينية التى وصلتنا أكثر عددًا من العربية، أبدعها اليهود فى مصر، من أهلها أو وافدين عليها، وعثر عليها فى جنيزة معبد الفسطاط فى القاهرة، ولو أن قيمتها لا تكمن فى كثرتها، وإنما فى احتفاظها بسمات لم تحتفظ بها نصوص الموشحات العربية التى وصلتنا بصورة واضحة وافية، ولأن الموشحة العبرية تعتمد اعتمادًا كبيرًا على النموذج العربى فهى تلقى ضوءًا كاشفًا عليه حين نفتقد بعض أجزائه، أو يصعب علينا تفسير بعض مشكلاته.



كان بحث خوليان ريبيرا بالنسبة للمستشرقين الإسبان خاصة، الخطوة الأولى فى طريق طويل محفوف بالمشقات والمصاعب، ويتطلب إنجازه علماً وذكاء وصبرا، ومكثوا يترقبون الكفاءة الواعدة القادرة على تحقيق ما يطمحون إليه فى الوصول بمخطوطة الديوان إلى بر الأمان، بتحقيقها ونشرها كاملة بمنهج علمى، يثبت مكانتهم العلمية، فى هذا الجانب على الأقل بين تيارات الاستشراق المتدافعة عبر أوروبا، وشغلت بابن قزمان تعليقا وتحليلا، ونقدا وتصويبا.

ولم يطل بهم الانتظار.

جاءهم فى شخص شاب تجمعت فيه مواهب متعددة تشى بأنه الرجل المأمول المنتظَر: إميليو غرسية غومث Emilio Garcia Gómz (١٩٠٥-١٩٩٥م).

نشأ فى بيئة أحاطته بالرعاية، وأعدته فى سن باكرة ليكون فى قادم حياته مثقفا مرموقا.

فى الرابعة من عمره ألحقته أمه بمدرسة فرنسية، أظهر فيها نجابة جعلته يتمكن من اللغة الفرنسية أصواتا وإملاء وحديثا. وصبيا بدأ يختلف إلى مسارح مدريد، وفى الخامسة عشرة من عمره أصبح عضوا فى منتداها الثقافى Ateneo، يفيد من المكتبة الهائلة التى به، ويستمع إلى المحاضرات التى تلقى فيه، ويحضر الحوارات التى تجرى بين كبار أعضائه. وفى هذه السن قبلته جامعة مدريد استثناء، لأنه لماّ يكمل السن القانونية لدخولها، وفيها جمع بين الدراسة فى كليتى الآداب والحقوق. ولماّ يزل طالبا فى الجامعة بدأ يكتب فى الصحف انطباعاته عن لوحات كبار الفنانين الإسبان فى متحف الباردو.

فى كلية الآداب التقى بأستاذين مستشرقين عظيمين، احتفيا به ورعياه، وكان لهما أبلغ الأثر فى حياته، واحتفظ لهما على الدوام بود وإجلال عميقين: خوليان ريبيرا ومجيل أسين بلاثيوس، والأول منهما عرضنا له من قريب، وكان الثانى راهبا يسوعيا، تخصص فى الفلسفة الإسلامية والطرق الصوفية، وأصبح فيهما مرجعا، وعرّف العالم بأندلسى عظيم: ابن حزم القرطبى .

وفى عام ١٩٢٥ حصل غومث على الليسانس فى الآداب بتقدير ممتاز، وبعدها قدم رسالته التمهيدية للدكتوراه، وكان موضوعها: «حكاية عربية الأصل المشترك لقصة حى بن يقظان لابن طفيل والفصول الأولى لكتاب «الناقد El Criti on» وللإسبانى جراثيان بلتسار Graci?n Baltsar (١٦٠١-١٦٥٨م).

وكان لاكتشافه هذا صدى طيب فى عالم الاستشراق.

وفى أواخر عام ١٩٢٦ عُيّن مدرسا مساعدا فى كلية الآداب، وبعد ذلك بعام حصل على منحة من جمعية تشجيع البحث العلمى للدراسة فى مصر، وحمّله أستاذاه، ريبيرا وبلاثيوس، رسالة توصية لصديقهما فى القاهرة، أحمد زكى باشا شيخ العروبة، وكانت تربطه بهما، وبمفكرى إسبانيا وعلمائها

كانت بريطانيا أقل دول أوروبا اهتماما بالأندلس، تاريخه وحضارته، وليس بين مستشرقيها من تخصص فى هذا الجانب، وإن كان بينهم من قدم لأدب الأندلس تعريفا موجزا، ليس بذى أهمية، ومع ذلك لم يفتها أن تشارك فى الحوار حول مخطوطة ديوان ابن قزمان



علاقات وثيقة، وفى القاهرة أمضى عامين، كان يقطن خلالهما فى «بنسيون» فى ميدان الأوبرا، ويقص علينا أنه كان أصيل كل يوم يسلك طريقه إلى بيت أحمد زكى باشا فى الجيزة على النيل، يأخذ الترام من العتبة الخضراء أحيانا، ويقطع المسافة راجلا أحيانا أخرى، ليحضر المنتدى العلمى والأدبى الذى ينعقد فى قصره كل ليلة، وبعده يبقى مع صفوة من أصدقاء صاحب البيت لتناول العشاء بدعوة منه. وفى تلك الفترة أهداه أحمد زكى باشا مخطوطة كتاب «رايات المبرزين وغايات المميّزين» لابن سعيد المغربى، ويضم مختارات من روائع الشعر الأندلسى، فى مختلف بلدانه ومتنوع عصوره، فحقق الكتاب، وقدم له، وترجم كل أشعاره إلى اللغة الإسبانية، وأهداه إلى «ذكرى أحمد زكى باشا (١٨٦٧-١٩٣٤)» ونشره فى مدريد عام ١٩٤٢ معهد دون خوان فى بلنسية، بالتعاون مع الجمعية الإسبانية الأمريكية فى نيويورك.

وكان لهذه القصائد أثر كبير فى توجيه غومث إلى الشعر الأندلسى، والاهتمام به، وجانب منها سوف يصبح نواة كتابه الشهير «الشعر الأندلسى»، وهو كتاب لقى إقبالا شديدا، وطبع مرات عديدة، وترك أثرا عميقا فى طبقة واسعة من شعراء إسبانيا، وأيقظ فى عقول الأدباء الإسبان من غير المستشرقين اهتماما بالشعر الأندلسى، والوقوف على ما فيه من روائع، لحسن اختيار قصائده، وروعة جمالها، ودقة ترجمتها، وقربها من الذوق الإسبانى، حتى أن القارئ الإسبانى لا يشعر معها أنه يقرأ شعرًا مترجمًا.

وإلى جانب دوره مفكرًا وعالمًا وأستاذًا جامعيًا، هيأته مكانته العلمية أن يكون المستشار الأول لوزارة الخارجية الإسبانية فى علاقاتها مع العالم العربى والإسلامى، ولتكون خطى الوزارة فى هذا الجانب مبنية على العلم، جعلها تنشئ «المعهد العربى الإسبانى للثقافة»، يضم مكتبة حديثة، تلبى حاجات الباحثين فى شئون العالم العربى السياسية والاقتصادية، ويكون أداتها فى رسم خططها والمشاركة فى تنفيذها، وأصبح أول مدير له بدرجة سفير، إلى أن فارقه سفيرًا لوطنه فى بغداد، ثم بيروت، وأنقرة أخيرًا، وكان يأمل أن ينتهى به المطاف فى القاهرة. يختم حياته كما بدأها، على ضفاف النيل، لكن خروج فرناندو كاستيا وزير الخارجية فى تغيير وزارى عام ١٩٦٩، جعله يقدم استقالته فى الحال، لأنه لم يكن مجرد موظف يتلقى أوامر ينفذها، وإنما مفكر يتحرك فى نطاق مبادئ يؤمن بها، لن يتاح له تنفيذها مع الوزير الجديد، وعاد إلى مدريد يحمل مئات المخطوطات، أصلية أو مصورة، وما كان له أن يتوصل إليها بسهولة، لولا سفاراته هذه.

وتمكن قوى من لغته الإسبانية وآدابها وأساليبها، وقدرة عالية على التعبير فيها على نحو أصبح معه أديبًا إسبانيًا كبيرًا، تعرفه أعمدة كبريات الصحف اليومية والمجلات فى وطنه وخارجه، كاتبًا وناقدًا ومعلقًا وتقلبت عليه مع امتداد عمره عصور سياسية متباينة فى وطنه: ملكية فى الظل، إلى جوارها حاكم عسكرى دكتاتور هو الحاكم الفعلى، ثم جمهورية ذات ظلال اشتراكية فى البدء، شيوعية خالصة فى النهاية، فحرب أهلية امتدت أربع سنوات (١٩٣٦-١٩٣٩)، فدكتاتورية فاشية صارمة، وأخيرًا ملكية دستورية، وكل فترة وجهت تفكيره، وتركت فيه أثرًا، أراد أم لم يرد، ولا يمكن القول إنه تلون مع كل واحدة منها، ولكنه أكيدًا استجاب لمتطلبات الواقع الذى عاشه، وربما كان معتقدًا أنه الصواب.

لم يكن غومث عجلاً من أمره وهو يقترب من نص ديوان ابن قزمان. أدرك واعيًا ومبكرًا صعوبة الأمر، وفداحة المسئولية، فبدأ يتحسس طريقه إلى شخصه وأزجاله على مهل، ولم يقل ما رآه الكلمة الفاصلة فى أمره إلا بعد أن عايشه قرابة نصف قرن من الزمان، جمع خلالها فى مكتبته الخاصة كل ما اتصل به، وما كتبه الآخرون عنه، فى أى لغة، ومهما كان حظه من السمو أو التدنى.

كانت بداية الالتقاء به عبر مقال نشره فى مجلة «أبدًا Cruzy Raya»، التى كانت تصدر فى مدريد، العدد الثالث، ١٥ يونيه ١٩٣٣، وأوضح فيه أن ما شده إلى الديوان هو «العفوية البالغة التى اتسمت بها أزجال ابن قزمان وتصويره الدقيق للحياة الاجتماعية عند الطبقة الدنيا على أيامه»، وأعطاه عنوانا: «ابن قزمان صوت فى الشارع!» ودرس فى إيجاز وعمق مضمونها وبناءها، وما جدّد ابن قزمان فى معانى سابقيه، ووقف عند الصدى الإسبانى فى محتوى الأزجال ولغتها وصورها، وما وفّق فيه منها، وألقى نظرة عجلى على حركة سير الديوان.

لم يكد غومث يقترب من ابن قزمان حتى اندلعت الحرب الأهلية الإسبانية، ثم تلتها الحرب العالمية الثانية، وأيامها كان يصعب على الإسبان الحصول على أقلام الرصاص أو الورق للكتابة، فضلا عن إصدار الكتب أو الصحف، فتوقف كل شىء. ولكن ما إن بدأت الحياة تعاود حركتها حتى عاد غومث إلى ابن قزمان من جديد، يتناول فن الموشحات والأزجال بالدرس والتحليل، ويقرأ ديوان ابن قزمان، يفك طلاسمه، ويحل ألغازه، ويضبط كلماته، ويترجم أزجاله، وينشر خلاصة أبحاثه تباعا فى مجلة الأندلس، والمجلات العلمية الأخرى، إسبانية أو أوروبية، ويتابع صدى ما ينشر، وكيف يتلقاه الآخرون.

وبعد أربعين عاما أمضاها فى رفقة ابن قزمان والموشحات والأزجال استجمع رأيه وحزم أمره، ونشر ديوان ابن قزمان كاملا فى ثلاثة مجلدات، ضمت أكثر من ألف ونصف ألف من الصفحات، فى عمل غير مسبوق علميا، عمقا ودقة وإخراجا، ونشرها فى مدريد عام ١٩٧٢.

أوضح غومث منهجه فى التناول، وهو يختلف تماما عن مناهج كل الذين سبقوه، ربما أفاد منهم، وقد يلتقى مع هذا العالم أو ذاك قليلا، ولكنه فى النهاية اختط لنفسه منهجا فذا فريدا، ودراسته فيما يقول هو:

ليست تاريخا ولا سيرة، وإن تضمنت شيئا منهما، ولا ترجمة لابن قزمان، وإن ألقت بعض الضوء على حياته، ولا كتاب تقنية أدبية، وإن كتب عن هذا صفحات طويلة على امتداد حياته، ولا كتاب نقد. هل هو كتاب فقه لغة؟

الإجابة فيما يرى يمكن أن تكون بنعم أو لا.

ما الذى خطط له غومث فى هذا الكتاب؟

إنه فى جوهره دراسة موسيقا أزجال ابن قزمان، أو عروضها بلغة القدامى والغاية منه التدليل على فكرة آمن بها غومث عن بناء الزجل عروضيا، وأن ذلك يرتبط بعروض الشعر الرومانثى الإسبانى، وتطلب هذا منه أن يقوم بترجمة جميع أزجال ابن قزمان إلى اللغة الإسبانية فى عروض إسبانى معترف به، ويبرر اتجاهه هذا:

« شجعنى على ما صنعت أنه لا يوجد لديوان ابن قزمان نص واضح مضبوط ملزم، وإنما هو مخطوط سيئ النسخ يحتاج إلى تصويب متواصل، وهو خال من الشكل تقريبا، فإن وجد شىء من هذا فليس فى مكانه، ويجىء الإعجام من موضعه فى صورة تقريبية. إن ضبط نص عربى كلاسى أمر بالغ الصعوبة، ولكنه ممكن، أما النص العامى، والذى يختلط أحيانا بكلمات رومانثية، وقام بكتابته ناسخ مشرقى لا يعرف الأولى ولا الثانية، فأمر يكاد يكون مستحيلا، وأدى ذلك إلى أن القارئ، إذا كان مثقفا وعروضيا، يستطيع أن يقوِّم النص حسب البحر العروضى الذى يراد، وخاصة أن ابن قزمان يؤثر تسكين الكلمات فى الغالب، ما كان ذلك متاحا له، ومعها يجىء الزجل فى بحر معين، فإذا ضبطت الكلمة بحركة، فى آخرها أو وسطها حسب ما يتطلبه علم النحو أو الصرف، لم يضطرب الوزن، ولا المعنى، وإنما تغير البحر فحسب. وهكذا سمح غومث لنفسه أن يضبط النص مطبقا نظريته فى وزن أزجال ابن قزمان، دون أن يعير آراء الآخرين اهتماما، وأوضح المنهج الذى التزمه فى هذه القراءة. كان غومث الوحيد الذى قدّم لكل زجل باللغة الإسبانية، موضحا موضوعه، وقيمته الجمالية، وجوانبه الفنية، والمشكلات التى يثيرها، إن وجدت، وموثقا كل زجل، مبينا المصادر التى ورد فيها سواء أكان الديوان أم كتبا ودراسات أخرى، وترجم مقدمة ابن قزمان لديوانه، وشرحها فى إفاضة، وناقشها، وبسط نظريته فى الزجل، وما أورد من تاريخ له.

أورد نص الديوان باللغة العربية كاملاً، واستخدم فى ذلك الحرف اللاتينى، بعد أن بسط منهجه فى طريقة استخدامها، وهدف من وراء ذلك إلى تيسير القضية أمام العلماء المتخصصين فى الدراسات الرومانية، من غير المستشرقين، فهم بهذه الطريقة يدركون بناء الزجل فى قافيته وخرجاته، أما المعانى فقد تكفلت بها الترجمة الإسبانية التى قام بها لكل زجل فى الصفحة المقابلة للنص العربى، وجاءت شعرًا إسبانيًا مقاربًا لبناء أزجال ابن قزمان، وبأسفل الصفحة فى الجانب العربى التصويبات التى ارتآها لقراءة من سبقوه، أو للكلمات موضع الشك والخلاف، كما أن كتابة النص بالحرف اللاتينى جعلت الخطأ فى ضبطه يكاد يكون مستحيلاً، ولو أن ابتداع النص بالحرف اللاتينى تعبر عن الحروف العربية التى ليس لها مقابل مثل الصاد والظاء والذال والعين والطاء وغيرها، عن طريق النقط فوق الحرف المقارب لها أو تحتها، جعل مهمة المطبعة صعبة ومرهقة، ومع ذلك ليس فى الكتاب على امتداده خطأ مطبعى واحد.

تناولت دراسة غومث، كما رأينا، ابن قزمان من كل جوانبه، ومن هنا كان عنوان الكتاب «إلى ابن قزمان To do Ben Quzman»، وأرسلت بالدراسات التى سبقتها إلى زوايا التاريخ. ومع ذلك كله، يعترف الرجل فى تواضع وقور بأنه أفاد من قراءة ودراسة كل الذين سبقوه، فى كل اللغات، ويعتذر سلفا عما يكون شاب الدراسة من نقص: «لا أحد يجب عليه أن يذكرنى بما يتضمنه عملى من أخطاء، لأنها موجودة، ولكنى لا أعرف أين، ولو عرفت لصححتها. ويختتم مؤلفه: لقد كتبت هذه

انتعشت الدراسات العبرية
فى ظل ازدهار الحضارة العربية،
فترجم اليهود «المقامات»
إلى لغتهم، ثم احتذوها، وترجموها إلى اللاتينية،
وساروا على خطى الشعر
العربى جملة وتفصيلاً،
فى شتى أنواعه

التقت فى شخصية غرسية غومث صفات متعددة عالية، جعلت منه قمة الاستشراق فى وطنه، وفى العالم الغربى أجمع: موهبة فطرية، وذكاء حاد، وتمكن قوى من اللغة العربية، ومعرفة لا بأس بها ببعض اللغات السامية، وإجادة كاملة للغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية، وإلمام بالألمانية واليونانية، ومعرفة واسعة بآداب هذه اللغات،

كتاب الزاوية

الأغانى الشعبية فى صعيد مصر

غناء السواقى - من دندرة

يا ساقيه دورى يمين وشمال
واسقى العنب والخوخ والرمان
يالويلى يالولها يالويلى (نوع من التغزل)
سلامة الحمره من السكين
معايشه الفقرى والمسكين
يالولها يا لويلى
يا ورق الريحان مالَك دابلى
والعين سوده والحواجب سابلى
يالويلى يا لويلى
صاحبى جبار مارشَالى (لم ينحاز لى)
حمِّل عليَّه حمول ماتنشالى
يالويلى يا لويلى
الحلْس (نوع من السروج للبغال) قال للتور مالك ومالى
اسحَب على باطك بلا جمالى
يالويلى يا لويلى
الزين على المعادى (الميعاد)
لابس قميص وفى إيده عاجى
لويلى يا لويلى
يا شايله البلاص دلّى اسقينى
يا حارده القصه علَى الجبينى
لويلى
ياما بكيت عليك يا رفيقى
كيف ما بكى الأعمى على الطريقى
لويلى يا لويلى
يا مطرزه الجبَّه (الزعبوط) لحدّ الديل
يا محرمه العَشاق نوم الليل
لويلى يا لويلى



لم يكن غومث عجلاً من أمره وهو يقترب من نص ديوان ابن قزمان. أدرك واعيًا ومبكرًا صعوبة الأمر، وفداحة المسئولية، فبدأ يتحسس طريقه إلى شخصه وأزجاله على مهل، ولم يقل ما رآه الكلمة الفاصلة فى أمره إلا بعد أن عايشه قرابة نصف قرن من الزمان

الدراسة مخلصا، وفى إخلاص أرجو أن يتقبلها القراء».

وبإخلاص أقرر أن الدراسة رائعة، شيء لا يعلى عليه حتى يومنا، ومع ذلك فإن خطا منهجيا شابها منذ البداية: لقد بدأها الباحث بفكرة مسبقة، هى أن ابن قزمان صاغ أزجاله فى عروض رومانثى، وأن فكرة الموشحات والأزجال استلهمت فى بدايتها شعراً رومانثيا، دون أن يقدم نموذجا واحدا لقصيدة رومانثية جاءت فى هذا الشكل سبقت ابن قزمان أو مبتدع الموشحات، كما أنه تعامل بضراوة مع كل من اختلف معه فى هذا الرأى، ومن جانب آخر بالغ فى الإطراء والثناء على كل من التقى معه فى هذا الاتجاه، وهم قلة على أى حال.



لم يكد غرسية غومث ينشر ديوان ابن قزمان فى صورته هذه حتى أثار اهتماما واسعا وجدلا مستفيضا فى دوائر المستشرقين والباحثين فى الدراسات الرومانثية خاصة، وكان الحوار بينه وبينهم يبلغ حد العنف أحيانا. فى عام ١٩٧٥ نشر ت.ج. جورتون T.g Gorton . بحثا فى مجلة الأدب العربى التى تصدر باللغة الإنجليزية فى لندن (المجلد ٦)، قدم فيه آراءه حول «عروض أزجال ابن قزمان: دراسة كلاسية»، وأقام دراسة على أن أزجال ابن قزمان تلتزم العروض العربى الكلاسى، وهو ما ينكره غومث بشدة.

وبعد عام تقدم جورتون إلى جامعة أكسفورد برسالته للدكتوراه، وكان موضوعها: « ديوان ابن قزمان القرطبى دراسة عروضية وتحقيق الديوان كاملاً».

Diwan of Ibn Quzman of Cordob: A Metrical Study and Complete Critical Edition, 1976

وبعدها نشر مقالاً فى مجلة Arabica الفرنسية، لسان حال المستشرقين الفرنسيين (المجلد ٢٤، ١٩٧٧) بعنوان: «مشكلات نصية فى ديوان ابن قزمان»، اعترض فيه على قراءة غومث لكثير من نصوص الديوان وتأويلها، فى ثمانية وأربعين موضعًا، ورد عليه غومث فى مجلة الأندلس الإسبانية (المجلد ٤٣ عام ١٩٧٨) فى أسلوب لاذع ساخر، كما هو شأنه مع معارضيه دائمًا، مبررًا فيه قراءاته، وهو تبرير لا يثبت أمام الدقة العلمية المحايدة.



ولم تهدأ الحركة: فبعد ثمانية أعوام من نشر تحقيق غومث، قام فيديريكو كورينتى القرطبى Fedrico Cortiente de Cordovba، بنشر نص الديوان مرة أخرى، كاملاً ومحققًا، بمنهج مختلف، وعلى أسس علمية لا صلة لها بالسابقين ويعد كورينتى عمدة الاستشراق الإسبانى الآن ومع أنه ولد فى كناريس (فى العربية الجزر الخالدات أو جزائر السعادة) إلا أنه من أصل قرطبى، كما يهدى إلى ذلك لقبه، وقد تزاملنا، هو وأنا، فى كلية الآداب فى جامعة مدريد المركزية، كان هو يدرس فى قسم اللغة العربية فى مرحلة الليسانس، وكنت أعد رسالتى للدكتوراه، وحصل على الليسانس فى اللغة العربية واللغات السامية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، وبعيدًا عن هذه التقديرات الرسمية، وهى ليست مصيبة دائمًا، كان متميزًا حقًا، ينفرد بأنه بين كل المستشرقين على أيامه وفى وطنه، يتكلم العربية بطلاقة، على حين يكتفى الباقون بالقراءة والترجمة فحسب، وكان ينظم الشعر فى اللغة العربية، فى الوقت الذى لا يحسن فيه أنداده كتابة رسالة عربية الرونق والطلاء، وإن جاءت صحيحة فى إعرابها وبنائها.

وبعد تخرجه جاء إلى القاهرة وهو فى نضارة الشباب مديرًا للمركز الثقافى الإسبانى ١٩٦٢ - ١٩٦٥، فازدادت معرفته بالعربية اتساعًا وعمقًا وصقلاً، وإن كانت مصر بعامة، والقاهرة بخاصة، تعيش فى تلك الفترة أسوأ سنى حياتها، ومسه وهو الأجنبى، شيء من لفح لهيبها، فبارح مصر إلى وطنه غير راغب فى مزيد من البقاء، فنقلته وزارة الخارجية الإسبانية مديرًا للمركز الثقافى الإسبانى فى تطوان عاصمة شمال المغرب، وفى عام ١٩٧٠ حصل على درجة الدكتوراه من جامعة مدريد المركزية، وفى العام نفسه اختارته جامعة بنسلفانيا فى الولايات المتحدة ليشغل فيها كرسى اللغة العربية واللغات السامية، وشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٧٦، وفى هذه السنة عاد إلى وطنه وشغل عن طريق المسابقة كرسى اللغة العربية فى جامعة سرقسطة، وظل بها حتى عام ١٩٨٢.

ولما كان يحس أن فى قسم اللغة العربية فى الجامعة المركزية فى مدريد من يدفعه عنها، ولا يتمنى رؤيته بين أساتذتها، دخل مسابقة شغل كرسى اللغة العربية فيها، إثباتا لكفاءته، وفاز به، ولما حقق غايته آثر أن يعود إلى جامعة سرقسطة من جديد، أستاذا ورئيسا لقسم اللغة العربية، ويشغل هذا المنصب حتى الآن.

يتميز كورينتى (ويكتب التاء اللاتينية فى لقبه طاء، على طريقة الأندلسيين قديما وشعب المغرب حديثا) بتمكنه العميق من اللغة العربية واللغات السامية، وقام بعمل أول معجم إسبانى عربى فى عصرنا الحديث، نشره المعهد الإسبانى العربى للثقافة عام ١٩٧٠،

إن كل نشرة لنص أدبى تثير من المشـــكلات ما يثيـــره مثـــل ديوان ابـن قزمـــان، تحتـــاج إلى المراجعـــــة من وقت لآخر، بحســب التقـــدم الذى تحـــرزه الدراسات النقـــدية حـــــوله، دون أن يعنـى ذلك انتقاصـــــا مـــن جهـــــود المحققـــين الســـابقين

أدخل عليـه كثيـرا من الزيادات فى الطبـعـات التالية إلى أن بلغ حجمه ١٢٠٠ صفحة،ألحقه بمعجم عـربى إسبانى نشره عام ١٩٧٧ فى ١٤٠٠ صفحة، نشره المعهد الإسبانى العربى أيضا.

فى المجال الأدبى كانت فاتحة إنتاجه شيئا اقرب إلى التحدى وإثبات الذات، فقد قام وهو لما يزل فى العـشـرين من عـمـره بأول تـرجـمـة إسبانية كامله لشعر المعلقات، ونشرها عام ١٩٦٦، ونوهت يومها بدقة هذه الترجمة فى إحدى المجلات العربيـة، وأسهم فى تحـقيق بعض ذخائر التراث الأندلسى، ولكنه ما لبث أن صرف جهده كله إلى الجانب اللغوى فى تاريخ الأندلس، يتتبع لهجاته العربية فى خصائصها وتفرعها وتطور دلالاتها.

ولكوريينطى فى المجال اللغوى إسهامات أخرى مهمة، فقد حقق المعجم العربى اللاتينى الذى أُلف فى القرن العاشر الميلادى، والمعجم العربى الإسبـانى الذى ألف فى القرن الثـالث عشر الميلادى، ومعجم بدرو القلعى الذى ألف فى القرن الخـامس عشر، وبين هذه المؤلفات أعطى الأزجال والموشحات شيئا من عنايته: محقِّقًا أو معلِّقًا أو دارسًا، إذ ليس من الممكن أن يتجه باحث إلى الدراسـات اللغـوية بعـامـة، وعامية الأندلس بخاصة، دون أن يعرض لابن قزمان، إنه ديوان الزجل الأندلسى الوحيد الذى وصلنا كاملا، ودفعه إلى هذا ان تحـقيق غرسية غومث. وفـر عليـه كـثـيـرا من الجـهـد، وذلل له العـديد من الصـعـاب، فـرأى أن يحـقق نص الديوان من جديد، مستدركا ما فات غومث، وان يدرسه موسيقيا أيضا، متخذا، منذ البدء طريقا مضادا له:

* أن ينشـر النص فى حـروفـه العـربيـة، مـتـجـهـا بـه إلى القـارئ العـربى أصـلا، وإلى المستشرقين الذين يعرفون العربية، وكلاهما أحق بـه من المتـخـصـصـين فى الدراسـات الرومانية، ولا يعرفون من العربية شيئا.

* أن يدرس الأزجـال موسـيـقـيـا فى ضـوء العـروض العـربـى، وأن يبـرهـن علـى أنـهـا فى بنائها هذا، ذات بناء عروضى عربى خالص.

ومـوضـوعـيـا ومنهـجـيـا الحق مـعـه، وبذلك ألقى بنظرية غومث أرضا، وأتى عليـهـا تماما، وجعل منهـا مـجـرد فـرض ألقى بـه صـاحـبـه، وافـتـعل له الوقـائع والأحـداث ليـبـرهن على صحته، وهيهات...

*عبر التحقيق صوّب أخطاء الذين سبقوه فى قراءة النص، بما فيهم غومث نفسه،وكان فى شرحه معانى المفردات أكثر توفيقا،فقد أفاد من كل الذين سبقوه، وهو يعترف بهذا، وأورد فى المقدمة الإسبانية منهجه فى عمله:

«إن كل نشرة لنص أدبى تثير من المشكلات مـا يثيره مثل ديوان ابن قزمان، تحـتـاج إلى المراجـعـة من وقت لآخر، بحسب التقدم الذى تحرزه الدراسات النقدية حوله، دون أن يعنى ذلك انتقاصا من جهود المحققين السابقين، وبذلك تكون تلك المراجـعـات المتـواصلة، بالإضافة إلى قيمتها الذاتية، اعترافا مجددا بفضل الرواد السابقين، لأنها تأكيد لفضلهم، وثمرة لجهودهم، وقد انبثقت عن تحقيق غرسية غومث للديوان دراسات كثيرة، على امتداد العالم كله، وهى التى حفزتنى إلى تأليف كتابى دراسات نحوية صرفية لمجموعة اللهـجـات الأندلسيـة،لأنه يقدم أول دراسة وصـفـيـة لتلك اللـهـجـات، فى صـورة مـخطط هيكلى، ورأيت بناء على هذا التصور الجديد، إلى جانب ما وجه إلى التحقيق من ملاحظات، أن أعيد النظر فى عمل غرسية غومث الرائد، وان أقوم بمراجـعـة دقيـقـة له، انتـهيت منـهـا إلى الملاحظات التالية:

* وجدت أن هناك عشرات من المواضع فى قراءته لنص الديوان تحتاج إلى تصويبات، فى ضوء دراساتنا للهجات الأندلسية، وما قدمه دارسـون آخـرون من نقاد على هذا التـحـقـيق، فصوبتها.

* نشـر الديوان فى حـروف عـربيـة على أساس أصله المخطوط، مما يسمح بمناقشة المشكلة الشائكة المعقدة المتعلقة بعروض الزجل... وكـانت النشـرتان السـابقـتـان مطبوعتين بحروف لاتينية، يصعب على القارئ العـربى مـتـابعـتـهـا، ونحن نرى من حق هذا القارئ أن يكون بين يديه نص الديوان كما ألفه صاحبه، وكما كتبه ناسخه.

* لم أر حاجة لترجمة إسبانية جديدة للديوان خدمـة للقارئ غيـر العـربى، لأن الاستدراكات والتصويبات التى يقوم عليها تحقيقى الجديد تنصب على النص نفسه، وعلى تصورى لعروض الأزجال أما فـيـمـا يتـعلق بمحتواها فلا يختلف فهمى للأزجال كثيرا عن فهم غومث الذى أقام عليـه ترجمتـه لأزجال الديوان، وقد ذيلت صفحات الديوان بتعليقات تسمح للقارئ العربى أو الأجنبى المتمكن من العربية بفهم النصوص الغامضة أو الصعبة لكونها جاءت فى لهجة عامية.

جدير بالملاحظة أن كوريينطى لـم يتـوقف عن إعادة النظر فيما انتهى إليه خاصا بعروض الأزجال والموشحـات، ولم يتـوقف عن الدرس والاستقصاء ونشر أبحاثه المتصلة بها فى المجلات المتخصصة المختلفة، وهى قضية لما ينته العلم فيها إلى رأى فاصل حاسم، ومطلوب من الباحثين العرب، وخاصة العروضيين منهم ان يأخذوا بحظهم فى هذا المجال وأن يقولوا كلمتهم فى هذه القضية، وأن يجعلوا منهـا، فى البداية على الأقل، مـادة لأبحاث الماجستير والدكتوراه. ■

كتـــاب الـــزاويـــة

الأغانى الشعبية فى صعيد مصر

غناء للعروسة

يا بت ياللى حجْلك (خلخالك) رنّ على الساق
رنِّه فى المدينه سَمَعتُه بولاق
لا ادعى على صَّايغُه بقلِّة الأرزاق
دا اللى عمله شلاشل هيج العشاق
يا بت ياللى حجلك رنّه رنّه
رنته فى المدينه سمعته جرجا
لا ادعى على صايغه بقله الرِّزْقَه
دا اللى عمل له شلاشل هيِّم الْوَلْهَه

* * *

يا بتْ يَا مْبَنَّه يا عاشقه هلُّول
تحت من حردة قصتك طرح العنب بلُّول (ذو خير كثير)
يا بتْ يَا مْبَنَّه يا عاشقه القاضى
تحت من قُصِّتك قُلَلْ وبرادى
يا بتْ يَا مْبَنَّه يا عاشقه مرسى
تحت من قُصِّتك قُلَلْ على الكرسى
يا بتْ يَا مْبَنَّه يا عاشقه اسماعيل
تحت من قُصِّتك طرح العنب والتين

حكى عنها طبيب صلاح الدين:

الإسكندرية قبل ثمانية قرون

محمد فؤاد الذاكرى



الإسكندرية أخيرًا. الإسكندرية قطر الندى، نفثة السحابة البيضاء، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع.. اللسان المغروس فى البحر الأبيض يجلل جنباته النخيل وأشجار البلح ثم يمتد حتى طرف قصى حيث تفرقع فى المواسم بنادق الصيد.. فتحت شراعة الباب فى بنسيون (ميرامار) وماريانا العجوز ذات الشعر الذهبى المصبوغ والبشرة البيضاء الناصعة تدعونا للدخول إلى عالم ذكرياتها الواسع العامر الذى يموج بالحياة والانطلاق والذكريات السياسية.. الأنفوشى.. التأمل الطويل من الحجرات المطلة على البحر.. العجوز الذى يخفى جسده المحنط تحت بدلة سوداء من عهد نوح.. المتهم وهو يقبض بشدة على قضبان قفص الاتهام صارخًا فى المحكمة: يا فرحتك يا دنف، يا فرحتك فىّ يانعيمة يا ضباطى.

رحلة الإسكندرية

لم يكن نجيب محفوظ وحده الذى طرق باب المدينة الساحلية ذات التاريخ العريق، كما لم يكن إدوارد الخراط صاحب الاهتمام الأكبر بالثغر المتوسطى ولا أولئك اليونانيون، فقبل ثمانية قرون وبالتحديد فى عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) كان السلطان صلاح الدين الأيوبى يقوم بزيارة مدينة الإسكندرية بصحبة وفد كبير بعد أن استتب له حكم مصر عقب وفاة آخر خليفة فاطمى وهو العاضد لدين الله فى نفس العام، والذى قطعت الخطبة له فى المساجد - بإيعاز من صلاح الدين - وأزيلت عنه بالتالى آخر مظاهر التكريم الصورية، وأقيمت للخليفة العباسي المستضىء بالله، لقد بذل صلاح الدين جهودًا ضخمة فى سبيل استقرار الأحوال فى مصر وضرب خصومه خاصة أنصار الدولة الفاطمية البائدة، فأخمد العديد من الحركات المناوئة التى قامت تهدد حكمه وتوحيد الجبهة المصرية مع الجبهة الشامية ضد الصليبيين وكان ذلك منطلقًا نحو تحرير القدس من براثنهم.

١ - طبع الإسكندرية
ابن جميع
تحقيق د. مريزن عسيرى، د. سعد البشرى.
مطابع جامعة أم القرى. مكة المكرمة.
١٤١٧هـ/١٩٩٧.

٢ - تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى
السيد عبد العزيز سالم
مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية، ١٩٨٢.

كانت مصر قد شهدت فى تلك الفترة العصيبة صراعًا مريرًا بين وزراء الخلفاء الفاطميين الضعفاء، وطمعهم فى تولى الوزارة وتلاعبهم بمقاليد الحكم. مما أدى إلى إصابة مصر بالوباء وغلاء الأسعار وطمع الفرنجة فى الاستيلاء عليها، كما حدث العديد من الاضطرابات السياسية والحوادث المهمة، ومن أبرزها قرار الوزير شاور السعدى بإحراق مدينة الفسطاط خوفًا من استيلاء الفرنجة عليها.. يقول المؤرخ ابن الأثير:

وأمر شاور بإحراق مدينة الفسطاط تاسع صفر (٥٦٤هـ/١١٦٨م) وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد. فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر أهلها، وذهبت أموالهم ونعمتهم، قبل نزول الفرنجة عليهم بيوم خوفًا أن يملكها الفرنجة فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يومًا.



كان بين البطانة التى رافقت صلاح الدين فى رحلته إلى مصر شخص لا تكاد تخطئه العين، طويل شديد السمرة ذو نظرة نفاذة، تنفرج شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة باردة، يتكلم بأناة وتمهل ويختار ألفاظه وعباراته بعناية، ربط شعر رأسه الأسود الغزير على شكل ضفائر مجدولة، تكاد لا تظهر تحت الغطاء السميك الذى لا يستر رأسه، ولو سألت أحد العارفين ببواطن الأمور لأخبرك أنه من الأشخاص القلائل المخضرمين الذين حافظوا على مواقعهم فى أواخر الخلافة الفاطمية وحكم صلاح الدين، بل ازداد حظوة ونفاذًا، إنه الشيخ الموفق شمس الرئاسة أبوالعشائر هبة الله بن زين بن حسن بن افرائيم بن يعقوب بن إسماعيل بن جميع الإسرائيلى، ويعرف بلقبه المختصر ابن جَمِّيع، من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين، كان متفننًا فى العلوم، جيد المعرفة بها، كثير الاجتهاد فى صناعة الطب، حسن المعالجة جيد التصنيف كما وصفه المؤرخون، ولد فى الربع الأول من القرن السادس الهجرى فى مدينة الفسطاط وبها نشأ. وكانت تتصف بكثرة العمران وازدحام السكان والنشاط التجارى الواسع، وقد بدأ تحصيله العلمى وتكوينه الشخصى بها، لكن طموحه دفعه للسفر إلى القاهرة حاضرة الفاطميين، ليلتقى علماءها وأطباءها وينهل منهم العلوم والمعارف، وأبرزهم الطبيب الموفق أبى نصر عدنان بن العين زربى المتوفى (٥٤٨هـ/١١٥٣م) حتى إذا آنس من نفسه النضج العلمى اتجه للممارسة العملية فعاد إلى مسقط رأسه (الفسطاط) حيث اتخذ له (دكانًا) فى سوق القناديل يستقبل فيه المرضى ويعالجهم. ولكن حادثة عرضت له، صدق فيها حدسه وبراعته فى معرفة العلل غيَّرت مجرى حياته وأصابته الشهرة وبدأت الأنظار تلتفت إليه، رواها المؤرخ ابن أبى اصيبعة نقلاً عن بعض المصريين، مفادها أن ابن جَمِّيع كان يومًا جالسًا فى دكانه بالفسطاط فمرت عليه جنازة، فلما نظرها صاح بأهل الميت أن يقفوا وذكر لهم أن صاحبهم لم يمت وإن هم دفنوه فسيدفنوه حيًا. فتعجب أهل الميت وبهتوا لقوله وبعد مداولة بينهم قرروا أن يعالج المتوفى على سبيل الامتحان، فذهبوا به إلى المنزل وخلعوا عنه أكفانه، فغسله ابن جَمِّيع بالماء الحار وعالجه ببعض العلاجات التى أسخنت جسده ثم غطسه فى المياه، فإذا به يتحرك ببطء فبشرهم بعافيته وأتم علاجه حتى أفاق وسُئل بعد ذلك: كيف عرف أن ذلك الرجل لم يمت عندما مرت به الجنازة؟ فقال: إنى نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين وأقدام الذين قد ماتوا منبسطة فحدست أنه حى، وكان حدسى صائبًا. كانت ضربة حظ موفقة ظهرت عنه كالمعجزة، وإن لم يكن لها أى أساس علمى.

أطباء صلاح الدين

شعر صلاح الدين بحنكته السياسية بأنه لن يستقر له حكم مصر إلا إذا تعرف بشكل وثيق على طبيعة البلد وأحواله، وكقائد عسكرى مجرب كان عامل الوقت لديه مهمًا، وأخذ زمام المبادرة سيكسبه أكثر ولاء عامة الناس الذين راقبوا ببساطة خلع الفاطميين (الشيعة) وإعادتها إلى الأغلبية (السنية)، وانحسار نفوذهم وقوتهم التى امتدت خارج حدود مصر الطبيعية وصولاً إلى بلاد الشام، نزولاً إلى اليمن وانتشارهم على الساحل المتوسطى، كان دعاتهم فى كل مكان يبثون الدعاية الفاطمية يساندون الولاة والحكام المحليين ومن لا يتعامل معهم كان مصيره الغياب والسقوط.

أدرك صلاح الدين حجم التحدى الذى يواجهه فقرر الاستعانة بخبراء على درجة من الكفاءة والأهمية يكتبون له عن الأحوال ويشخصون له العلل والمصاعب ويقترحون عليه التصورات المطلوبة للتغيير والإصلاح، وقد أحاط نفسه بعديد من العلماء وما يهمنا منهم الأطباء البارزون ومنهم: هبة الله بن جميع والطبيب أبوالبيان المدور وأبوالفضائل ابن الناقد وأبوالمعالى بن تمام.. موفق الدين بن المطران.. ولم تكن مهمة هؤلاء بطبيعة الحال تقتصر على المعالجة والطبابة، بل كان عملهم أعمق من ذلك، كانوا مكلفين بالكتابة أى تقديم تصوراتهم الفنية بحكم اختصاصاتهم للنهوض بالصناعة الطبية فى الديار المصرية، وكانت العلاقة بين صلاح الدين وأطبائه غامضة إلى حد ما. فقد كان يستفيد من خدماتهم وقدراتهم ويوجهها نحو الصالح العام، ولكن بعض المستشارين استفادوا من تلك المزية واستغلوها لحسابهم، فبدأت تظهر عليهم بعض مظاهر الفساد واستغلال السلطة يشرحها (ابن أبى اصيبعة) فى سياق حديثه عن الطبيب (ابن المطران): «كان له حُسن اعتقاد فى ابن المطران لا يفارقه فى سفر أو حضر، ولهذا فإنه غمره بإحسانه وأترفه بامتنانه، وكان يغلب على ابن المطران الزهو والتكبر حتى على الملوك وكان صلاح الدين قد عرف ذلك ويحترمه ويجله لما قد تحققه من علمه وأسلم ابن المطران أيام صلاح الدين).



وقد بلغ من نفوذ (ابن المطران) حدًا، جعله يتنافس مع (صلاح الدين) فى اللباس والفرش، ومن المعروف أنه من عادة صلاح الدين فى وقت حروبه أن ينفرد بنصب خيمة حمراء ويذكر أنه كان يستعرض الجيش والخيام المنصوبة فى إحدى الغزوات لاحظ وجود خيمة أخرى حمراء اللون، ولما استفسر عنها تبين بأنها عائدة لابن المطران (طبيبه الخاص)، فقال متعجبًا: ما بنا ألا يعبر أحد من الرسل فيعتقد بأنها لأحد الملوك.. وأمر بتغيير لونها، فصعب الأمر على (ابن المطران) وغضب حتى استرضاه السلطان ووهب له مالاً، ولابن المطران من الكتب: «المقالة الناصرية فى حفظ الأمور الصحية» قصد فيها الإيجاز والبلاغ، وقد رتبها أحسن ترتيب وجعلها باسم السلطان الملك الناصر صلاح الدين، و«المقالة النجمية فى التدابير الصحية» وصنفها لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وكتاب «آداب طب الملوك»، كتاب «بستان الأطباء»، كتاب «الأدوية المفردة» كما كتب (ابن جَمِّيع) المقالة (الصلاحية فى إحياء الصناعة الطبية) بناء على طلب السلطان صلاح الدين، كما شرح فى مقدمة مقالته: «أن السيد الأجَل، الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان.. فحين فرغ من وجود السياسة وحياطة أرجاء المملكة ورأى أن النظر فى صناعة الطب من أهم الأمور النافعة وأعمها وأعظم المصالح وأتمها، وحركته سجيته الفائضة بالجود ورغبته التامة فى الخير إلى النظر فيها والالتفات إليها.. قد أجرى مع المملوك الناشئ فى أيامه، المتقلب فى حال وجوده وإنعامه، هبة الله بن زين الدين بن جميع كلامًا فيما قد آلت إليه فى هذا الوقت من الدثور والدروس وامتحاء المحاسن والطموس واستيلاء الجهل والتقصير على جُلِّ المتوسمين بها والمنتسبين إليها، ألف المملوك هذه الرسالة وجعلها مشتملة على الإشارة إلى طريق إحياء هذه الصناعة ونشورها وتجديدها بعد دثورها مع ما يليق أن يقدم لذلك ويوطأ له».

ولا ريب بأن (ابن جَمِّيع) كان يحظى بأهمية فى بلاط (صلاح الدين) حتى يوجه الخطاب إلى السلطان شخصيًا ويقترح عليه جملة أمور لإصلاح الصناعة الطبية وتنظيمها وتخليصها من العوائق التى تعيق أداء خدمات الطبيب بشكل صحيح ومنتظم، والظاهر أن الموضوع كان حاضرًا فى ذهنه، فمقالته أشبه بتقرير رسمى رفعه إلى السلطان حيث يتحاشى الإطناب ويستخدم عبارات واضحة مختصرة لا لبس فيها، يتظاهر (ابن جَمِّيع) بأن الثقافة الطبية يونانية المذهب، ويكشف جوانب من تحصيله العلمى حيث أتقن علوم الفلسفة والطبيعة والفلك والرياضيات ويدين بالفضل لأبقراط وجالينوس ويعتبرهم المصادر الأصلية الذين لا يستغنى عنهم بالرغم من الاعتراضات التى ظهرت حول آرائهم فى زمنه وشارك فيها بتتبع بعض أعمال جالينوس بالنقد خاصة فيما يتصل بحديثه عن النبض الخاص بحميات العفن فلم يستكمل ويستوف الشرح الكافى، ولم يلتزم القانون أو القاعدة الطبية المتبعة حينها فى تدبير غذاء أصحاب الحميات.



إن موقف (ابن جَمِّيع) يثير الاستغراب والتساؤل، فهو يدافع عن جالينوس دفاعًا مستميتًا برغم أخطائه وعثراته، ويزدرى فى الوقت عينه الأطباء المحدثين، أى أطباء الحضارة الإسلامية من مسلمين ونصارى ويغفل دورهم المهم، بل وصل انتقاده لكتاب أستاذه فى تعليمه الطبى أبونصر العين زربى المتوفى (٥٤٨هـ/١١٥٣م) وهو (الكافى فى الطب) كما ذكر فى معرض تعريضه بالأطباء المحدثين كتاب: «المسائل فى الطب» لحنين بن إسحق (ت ٢٦٠هـ/٨٧٣م) وهو من أهم المصادر الطبية والمدخل إلى صناعة الطب، وكتاب (كامل الصناعة الطبية) لعلى بن العباس (ت ٤٠٠هـ/١٠٠٩م) وكتاب «المنصورى» لأبى بكر الرازى، وكتاب (المغنى فى الطب) لسعيد بن هبة الله بن الحسين (ت ٤٩٥هـ/١١٠١م) ويصفهم قائلاً: «فأما من أتى من بعد هؤلاء من المحدثين الذين وضعوا الكنانيش ونحوها فإن أكثرهم توهموا وأوهموا الاستغناء بما وضعوه فيها من كتب القدماء ومنهم من صرح بذلك كالذى سمى كتابه (كامل الصناعة الطبية) والذى سمى كتابه المغنى أو الكافى وهم فى هذه التسميات كالذى يسمى الغراب أبا البيضاء واللديغ سليمًا). وهذا يدل

كانت العلاقة بين
صلاح الدين وأطبائه غامضة
إلى حد ما، فقد كان يستفيد من خدماتهم وقدراتهم
ويوجهها نحو الصالح العام، ولكن بعض المستشارين استفادوا
من تلك المزية واستغلوها لحسابهم فبدأت تظهر
عليهم بعض مظاهر الفساد
واستغلال السلطة



على (ازدواجية) تتحكم في تفكيره ومزاجه، فهذا الطبيب اللامع بعد أن بلغ درجة عالية من الشهرة تنكر لهؤلاء الأعلام الأفذاذ في التاريخ الطبي بحجة أن قراءتهم لا تفيد شيئًا ولا تعود على الطبيب بأي نفع، وأعلن انحيازه الكامل لمصادر الطب اليوناني القديم، مع أن أعلام الأطباء العرب ورثة الإغريق في العلوم الطبية تحديدًا، وهو بذلك يكشف عن جانب عنصري فهو من خلال وجوده في بطانة (صلاح الدين) لم يكن في قرارة نفسه مخلصًا للحضارة الإسلامية التي يدين بالفضل الكبير لها، فقد ترعرع في حماها وتلقى علومه الطبية واكتسب مهاراته العلمية من خلال جو التسامح والتآلف الذي كان سمة مميزة لأغلب حكام المسلمين.

لقد واصل الهجوم على أكثر أطباء العراق والشام في ذلك الوقت بدون تحديد أو تسمية واعتبر أنهم مخطئون في أصل عظيم من أصول الطب، وهذا يدل على نزعته الاستعلائية وتفرده، والواقع أنه لم يقدم اقتراحات نافعة مفيدة ومحددة تؤخذ بالحسبان أو تفيد في إصلاح وتنظيم وصنع الأطباء، بل كان هجومه منصبًا على فئة الأغنياء من القوم وفئة العامة واعتبارهم سبب المشاكل والصعوبات التي تعترى عمل الأطباء، وقد يكون في كلامه جانب من الحقيقة، ولكنها ليست كل الحقيقة فهو يرى أحد وجهيها ويغيب عنه الوجه الآخر متعمدًا، فجهود السلطان صلاح الدين في إنشاء البيمارستانات (المشافي) الطبية لا تخفى على أحد بشهادة مؤرخي العصر، فالسلطة الحاكمة في ذلك الوقت لم تقصر في تأمين الخدمات الطبية المجانية لأفراد الشعب كما ذكر ابن جبير في رحلته المعروفة والواقع أن ابن جمّيع كان همه في مقالته (الصلاحية) التهجم على الوضع الاجتماعي القائم الموجود في مصر حينذاك من خلال انتقاد تصرفات بعض الأطباء وكشف بعض العيوب الاجتماعية الموجودة والتي لا تنفرد بزمان ومكان واحد، ويتميز بيانه في الكلام وسرعة خاطره وفصاحته اللغوية وهو الحريص على صحبة كتاب (الصُحاح) للجوهري، جعلت منه حاضرًا فصيحًا في العربية وتحقيق ألفاظها والتستر وراء معانيها المتشعبة، هذه المواقف أسفرت عن مساجلات وخصومات شديدة مع أبناء عصره ولا يفوت ابن أبي اصيبعة إيراد هجاء مقذع في حقه أنشده الشاعر ابن المنجم المصري:

كذبت وصَحّفتَ فيما ادعيت
وقلت أباك جَمّيع اليهودي
وليس جَمّيع اليهودي أباك
ولكن أباك جميع اليهود

رسالة في طبع الإسكندرية

أصبح ابن جَمّيع شخصية متميزة بفضل معرفته القوية بالطب والنباتات والأغذية، ولعل ذلك من أقوى الأسباب التي دفعت صلاح الدين لأن يطلب منه البقاء في الإسكندرية لتقديم تقرير واف عنها ولأحوال أهلها الصحية وأمراضهم، وقد بقي فيها مدة كافية، درس أحوالها دراسة متقصية وخالط أهلها وطبيبهم وتعرف على عللهم وأسبابها، وسجل مجمل مشاهداته واقتراحاته في كتاب دعاه (رسالة في طبع الإسكندرية وحال هوائها ونحو ذلك من أحوالها) وكونه خبيرًا محنكًا حرص على جمع معلومات كافية عن مدينة الإسكندرية قبل زيارتها من خلال روادها وزوارها وقراءة ما كتب عنها.

لقد اعتمد على مصادر متنوعة منها الخطية والمسموعة والمرئية، وفي مقدمتها ما رواه واستملاه عن شيخه أبوالحسن علي بن سليمان المعروف بابن البواب، ومصادره المكتوبة تعود إلى أبقراط وجالينوس وابن سينا في كتابه (القانون في الطب) الذي أصبح منذ القرن الخامس الهجري من أشهر الكتب الطبية لدى الأطباء جميعًا وكتاب (دفع مضار الأغذية) لأبي بكر الرازي، أما المشاهدات الشخصية والتجارب فهي أهم مصادر ابن جَمّيع لما تحويه من معلومات وإشارات مهمة عن الإسكندرية وجغرافيتها وهوائها ومياهها وحياة أهلها في معاشهم وعاداتهم وتقاليدهم وطباعهم وغذائهم وأعمالهم، وما يتعلق بذلك بالنواحي الصحية وما استخرجه من ممارسته من آراء وأفكار حول أنجح الطرق والوسائل لتطبيبهم وإصلاح أمورهم.



يبتدئ ابن جَمّيع رسالته (في طبع الإسكندرية) بإقرار قاعدة أساسية تتعلق بضرورة معرفة الطبيب لطبيعة وأحوال البلد الذي يباشر فيه عمله معرفة تامة فيقول: (إن الطبيب لا يمكنه أن يعالج أحدًا من أهل بلد من البلاد كان علاجًا صوابًا دون أن يكون عارفًا بطبيعة ذلك البلد وحال هوائه ومائه وتدبير أهله ونحو ذلك من أحواله وما يوجبه وتقتضيه من الأمراض وقوانين المعالجات، اللهم إلا أن يكون ممن يقنع بالطب من التسمية دون المعنى وبالشبيه دون الحقيقة). وقد قسم رسالته إلى أحد عشر بابًا، استهله بوصف لمدينة الإسكندرية في القرن السادس الهجري فيما يخص طبوغرافية المدينة وتحديد موقعها من خطوط الطول والعرض وحدودها الجغرافية وموقعها من البحر ومن النيل، وما يجاورها من الملاحات والمزارع والأراضي المخصصة لزراعة البقول ومقابرها (أكثرها داخل المدينة يحويها سورها وبعضها خارجة عنه إلا أنها تحته قريبة جدًا منه) كما يقول وتلالها وروابيها مثل (كوم الدكة) وكوم (عمرو بن العاص) ويقع من غربيها إلى جنوبها، ومدينة الإسكندرية مكشوفة لسائر الرياح غير محجوبة عن شيء منها بجبل أو نحوه بل سائر الرياح تهب عليها وتخرقها وتتسرب فيها، وأبنيتها غير مرتفعة كثيرًا وشوارعها متسعة جدًا وليست بمسقوفة أو مغطاة من الشمس والأمطار، ثم يعطي وصفًا كاملاً لأرض المدينة ومدى صلاحيتها لنشأة المدن وما هو المعمور منها وأقسامها وصورة واضحة عن جغرافيتها وأزقتها وميادينها ومزارعها ويتحدث عن أرباض الإسكندرية فيذكر أن أفضلها هو منطقة الجزيرة، والسبب هو قلة العمارة بها، فإن ذلك أقل لاجتماع الأقذار والأوساخ والعفونات المفسدة للهواء فيها التي تكثر في المدينة بالمواضع الكثيرة العمارة ويتلوها في الجودة الموضع المعروف بكروم الرمل، وذلك لاستيلاء الشمس عليه وبقلة العمارة الموجبة لقلة العفونات، وثمرته في غاية الجودة على مياه المدينة لأن فيها عيونًا عذبة طيبة شروبة صافية، أما الجانب الشرقي من المدينة فتسكنه قبيلتا (لخم وجذام) فهو أجود هواء من الجانب الغربي لأن هواءه أقل رطوبة وألطف لبعده عن البحر ولأنه أقل عمارة أيضًا من الجانب الغربي وأفسح أبنية وأقل ارتفاعًا وانعكس ذلك برأيه على صحة سكانه وأشكالها فهم أحسن بشرة وأجسامًا وأشد سمرة وألوانًا وأكثر بدوًا وأقل أمراضًا، وصار سكان الجانب الغربي أنعم بشرة وأخصب أجسامًا وأقرب ألوانًا إلى البياض والسمرة الرقيقة وأكثر تحضرًا وتهذبًا وأمراضًا.



من الواضح أن المؤلف يجمع عدة موضوعات (الهواء، المياه، المكان) ودراستها في حد ذاتها جغرافيًا وطبيعيًا وعلاقتها بحياة الإنسان، وفي النهاية علاقة ذلك كله بالناحية الصحية، ففي الباب الثاني يتحدث عن هواء الإسكندرية ومناخها وتأثيرها على حياة أهلها فيذكر أن المناخ يميل إلى الحرارة والرطوبة لمسامتة أشعة الشمس لرؤوس سكانها وطول مقارنتها لها، ويربط تأثير ذلك على الصفات الشكلية الشخصية لأهلها وأخلاقهم فيقول: «ولهذا غلب على أهلها الاحتراق وسواد اللون والشعور وجعودتها ومخالفة الوجوه وفضاضة الأبدان ووحشة الأخلاق»، والمؤلف متأثر بتقسيم المعمور من الأرض إلى سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب وتسمية كل قسم إقليمًا، وهو ما اتفق عليه الحكماء والعلماء القدامى ابتداء من بطليموس مرورًا بالجغرافيين العرب أمثال: المسعودي وابن خرداذبة وابن حوقل والإدريسي، فتكون الإسكندرية واقعة في (الجزء الخامس) من الإقليم (الثالث)، وكما ربط القدماء تأثير الهواء في ألوان البشر فيقول ابن سينا في أرجوزته في الطب:

بالزنج حر غيّر الأجسادا
حتى كسا جلودها سوادًا
والصقلب اكتسبت البياضا
حتى غدت جلودها بضاضا

أما ابن خلدون فيذكر (طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء) ويشرح أن الزنوج اختصوا بلونهم لأن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ عليهم وتسود جلودهم لإفراط الحر. أما البلاد التي يضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور (الشعور الشقراء)، وأثر الهواء في أخلاق البشر واضح فالزنوج (أسرع فرحًا وسرورًا وأكثر انبساطًا) ويلحق بهم أهل البلاد البحرية فتكون حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة، أما أهل المناطق الباردة فترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئًا من مدخره.

فالإسكندرية تقع ضمن الأقاليم الثلاثة المتوسطة وأهلها كما وصفهم ابن خلدون أهل الاعتدال في خَلْقهم وخُلُقهم وسيَرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرئاسات والملك، فكانت فيهم النبوات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصار والمباني والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الأحوال المعتدلة. وتشمل هذه الأقاليم العرب والروم وفارس واليونان وأهل الهند والصين. في الباب الثالث يستكمل المؤلف تأثير الهواء الرطب الحار للإسكندرية على الأطعمة والأشربة، فيذكر أن الحرارة مع الرطوبة إذا اشتدت لها تأثير كبير على الأطعمة والأشربة، لذلك يعمد الأهالي للحفاظ على أنواع الحبوب مثل القمح الذي يعتمدون عليه كثيرًا في غذائهم والشعير والباقلاء والعدس بتخزينها في الخوابي والجرار بعد سد فوهاتها سدًا محكمًا حماية لها من التسوس، كما كان القدماء يعتقدون أن الأوبئة والأمراض الوافدة تأتي وتستقر مع الرياح العفنة وركودة الهواء الذي يكون الأبخرة الفاسدة، ويلاحظ أن قلة ارتفاع أبنية الإسكندرية واتساع شوارعها وأزقتها وانكشافها لشعاع الشمس جعل الأبخرة الرديئة في هوائها أقل وأبرد، وسبب آخر هو هبوب الرياح عليها وتمزقها لها يفرق شمل ما يجتمع في جوها من تلك الأبخرة ويبدده، فيجتمع بذلك من تكاثفه وتراكمه المفسد للهواء الجالب للعفن، ويفصّل حالة الرياح التي تهب على الإسكندرية فيعتبر أن الرياح الشمالية المعروفة بـ (الملابن) الأفضل لأنها تكسر سورة القيظ وتعدل الحر لأنها تجتاز البحر وتترقرق على الماء فيبردها



فتكون لذلك طيبة مستلذة مصلحة أما الرياح الجنوبية فتأتي حارة شعثة رديئة لما يخالطها من أبخرة الريف والبطائح والمزارع والسباخ.. وإذا هبت اشتد الحر وتوهج وهذا حال الرياح البلدية بها.



والباب الرابع من أهم الأبواب يتضمن أمر المياه ومصادرها وأنواعها، حيث إن أهل الإسكندرية يعتمدون مياه الأمطار ومياه الآبار في شربهم، وماء المطر أفضل لرقته وعذوبته ولطافته وخفته، إلا أنه سريع التغير إلى الفساد وقبول العفن. والسبب هو طريقة تخزين مياه الأمطار الساقطة على أسطح المنازل حيث تسير ضمن قنوات لتصب بعد ذلك في صهاريج مصنعة أو أحواض تجمع فيها، لتستخدم بعد ذلك في الشرب وأغراض أخرى. وينتقد ابن جميع العيوب الفنية لهذه الطريقة لأن أسطحة المنازل مصنوعة من الجير والرمل الرقيق والحشيش وهي غير محكمة الصنعة ومعرضة لتأثير أشعة الشمس وهبوب الرياح وهبوط الأمطار بشدة، مما يؤدي إلى تحات الطبقة السطحية وانفصال بقايا منها، تختلط مع مياه الأمطار التي تحمله بالإضافة إلى ما تسحبه المياه في طريقها من فضلات الطيور والسنانير وما يتولد على الأسطحة من الأعشاب والطحالب والعفن، أضف إلى أن المياه المجمعة في الصهاريج قد يطول خزنها لفترات طويلة مما يؤدي لتغير رائحتها وطعمها وفسادها وتسبب الأمراض مثل: الحصى والقروح في المثانة والكلى وعسر البول وحرقته وبول الدم.

أما مياه الآبار فهي لا تصلح للشرب لأنها في الأصل غير عذبة تغلب عليها الملوحة إلا إذا داخلها ماء النيل، الذي يعتدي عليه السكان فيغتسلون فيه ويغسلون دوابهم والثياب والكتان والصوف والبقول ثم يدخل إلى القنى المتصلة بالآبار مما يؤدي إلى تلوث مياهه، ولاحظ المؤلف أن أكثر شوارع مدينة الإسكندرية مبسوطة بالحجارة الصوان السوداء الصلبة بسطًا محكمًا ومع تقادم الزمن عليها، فإن أكثرها قد قلع وانتزع فصارت المياه الملوثة تتسرب عبر التربة إلى الأقنية والآبار، ويذكر تجربة شخصية حدثت معه حيث تغير طعم ورائحة ماء البئر في منزله بعد نزول المطر بيومين، ولما استفسر فوجئ بأن جميع أهل الحارة يعانون مثله، ويشرح مضارها على الصحة العامة ليستدرك أن طول الاعتياد يقلل مضارها وما هي عليه من الفساد.



في الباب الخامس يتعرض المؤلف للأغذية والأشربة التي يتناولها أهل الإسكندرية وفي مقدمتها الحنطة (القمح) ولها أنواع ثلاثة، الرومية (رزينة صلبة عسرة الطحن محتاجة قوة هضم) الريفية (خفيفة هشة هينة الطحن سهلة الهضم)، أما المصرية فمجلوبة من صعيد مصر، والحيوانات من أهمها الأغنام وهي مستوردة وتعرف (بالأغنام البرقية) والبلدية (المحلية) ويفضلها ابن جميع أكثر لأنها أخصب أبدانًا وأرخص لحومًا وألذ طعمًا وأسهل هضمًا لاسيما الصغار منها، أما الأسماك فمنها النهرية (الراي والابسارية والبلطي) لكن لا يحمدها لأنها تصاد من الخليج والترع المتفرعة عنه، وقد ذكر حال مياهها وتلوثها مما ينعكس سلبًا على الأسماك، ويفضل الأسماك البحرية وتبقى مشكلة سوء تخزينها حتى تصل إلى المستهلك، وأنواع الخضروات التي تشتهر الإسكندرية بإنتاجها فمنها: الكرنب والقنبيط والجزر واللفت والقرع والسلق والكراث والبصل وأجودها ما يجلب من (اتكو) وهي بليدة قديمة قرب رشيد، والباذنجان أجوده ما جلب من (فوة) وهي بليدة على النيل قرب رشيد، أما الفواكه فأشهرها: التين التوني (نسبة إلى جزيرة تونة قرب تنيس ودمياط) والعنب الشنقاري أو (الشنراقي) والتفاح الشتوي واللوز الرميلي والكمثرى (البلدي) أما الرطب (ثمر النخل) فلا يحبه ابن جميع، يصفه (صغير الحجم عظيم العجم هش ملتف اللحم قليل غير لذيذ الطعم).



في الباب السادس مخصص لتدبير أهل الإسكندرية والمقصود (بالتدبير) هو (التصرف في الأغذية والأشربة والحركة والسكون والنوم واليقظة والاستفراغ والاحتقان والأعراض النفسانية)، ويقدم رأيه الشخصي بعين نقادة فاحصة ويذكر بداية أن حكمه مبني وقائم على ملاحظة حال الأكثرية والأغلبية، فيقرر أن سوء التدبير في شؤون الحياة اليومية هو الغالب على المجتمع وارتباط ذلك بشؤون الصحة العامة، ويلاحظ أن الغالبية يميلون إلى تعدد ألوان الطعام وأصنافه والاستكثار منها، مما يؤدي إلى التخمة وسوء الهضم وكثرة (الفضول) في البدن، فهم يستخدمون الحنطة الفاسدة في صنع الخبز، أو يخلطون النوع الجيد بأنواع مخزنة لفترات طويلة فتغيرت وفسدت وذلك لقلة اهتمامهم أو تدني الوعي الصحي، كما لا يعيرون أهمية للقيمة الغذائية لبعض الأغذية التي يتناولونها، مثل نبات (المستعجلة) Sa-tyrium وهو مشهور وينبت بظاهر المدينة ويخرج إليه الأهالي في يوم الموسم المعروف (بيوم اللحات) ويكون لهم فيه مقام مشهود فيأكلون منه شيئًا كثيرًا في ذلك اليوم، ومن الشقاقل الشامي Shekakul (شجر من جنس اليقطين) والمعروف عندهم (بجزر الصحراء) ويتناول البعض لحوم الحيوانات التي يجلبها الصيادون (بقر الوحش والغزلان) وربما أكل البعض أيضًا لحوم الضباع والذئاب والثعالب، ولا يذكر المؤلف الأسباب أو الدواعي ويكتفي فقط بالمشاهدة والعرض ويحاول إظهار حياده في استعراضه للعادات الغذائية ويبين رأيه فيما يتعلق بالجانب الصحي، والآثار السلبية على جسم الإنسان وصحته، ومما يجدر ذكره أن لحوم الحيوانات المذكورة كانت تدخل في المكونات التركيبية لبعض الأدوية المستخدمة سابقًا، ولم يكن هناك أي حرج في استخدامها.

وبالنسبة لأنواع الأطعمة فهي: بيض السمك المعروف (بالبطارخ) والعصافير الطرية المملحة واللبن والجبن الطري والعتيق والحلوى والناطف المصنوعان من عسل النحل الرومي وعسل القصب الشامي والعسل نفسه.

وترد فقرة تلفت الانتباه حيث يذكر أن جمهور أهل الخلاعة والمجون يشربون الخمور المجلوبة من بلاد الروم وعن طريق تجارهم وينبه إلى أن باعة هذه الخمور من (الروم) كثيرًا ما يغشونها بماء طبيخ الجزر أو التمر بغية زيادة الربح المادي بطبيعة الحال، وضررها معروف فهي تولد الحصى في الكلى و(السدد) في الطحال والكبد. ويعلق الدكتور عبد العزيز سالم حول الموضوع أن السواد الأعظم من أهل الإسكندرية ممن يشرب الخمور هم من غير المسلمين وقد كثروا في تلك الفترة وأغلبهم من تجار الروم وكذلك اليهود وكان لهم حارات مخصصة، ويذكر (المقريزي) خبر التجار الإفرنج عندما ثاروا بالإسكندرية سنة (٦١٢ هـ/١٢١٥م) وكان عددهم ثلاثة آلاف، وكان صلاح الدين الأيوبي قد أمر بغلق حانات الخمر وهدم بيوت صناعتها وهدم فيها مائة وعشرين بيتًا.

وقد اعتاد أهل الإسكندرية السفر في البحر لجلب رزقهم ومعيشتهم لعدم وجود فرص عمل كافية تستوعب إمكانياتهم وطاقاتهم الكبيرة، وهم كثيرو الرياضة، بل التعب والنصب في الأعمال، كثيرو الارتكاض والأسفار في البر والبحر والتنقل في البلاد، صبورون على طول التغرب عن الأهل والأوطان لقلة مكانتهم وضيق معايشهم وخاصة في المدينة وحرصهم على الغنى وجمع المال، وأكثريتهم معتادة على الخروج ليلاً بصحبة أولادهم ونسائهم للمشي في شوارع المدينة الفسيحة والنزهة في الليالي المقمرة وخاصة في المحجة العظمى، وهو طريق فسيح كان يمتد من باب رشيد شرقًا إلى الباب الغربي، كما يكثرون من السهر وبالتالي عدم انتظام نومهم أو قلته ومع تأكيد المؤلف بأن هذا النهج له آثار صحية سيئة، فهو يقرر أن اعتيادهم لذلك واقترانه بالانبساط والتفرج يقلل مضاره، وفي ذلك تعبير لمحاولات الإسكندرانيين التخفيف عن نفوسهم وصدورهم من ضغط العمل اليومي والتفكير في المستقبل فهم سريعو الغضب.. يعسر زوال الانفعال الحاصل فيهم عند الغضب.. كثيرو الاهتمام متعوبو الفكر والروية بأمر الأموال. وينبه المؤلف أن أحكامه لا تشمل الجميع، هو يتجنب الوقوع في مزالق التعميم ويذكر أنه إنما يذكر حال الجمهور والأكثر ويعطي جانب الشهادة والحس اهتمامًا كبيرًا فلا يكتفي بسماع الأقاويل والدراسة النظرية، فمن المعروف أن مصر قد خضعت قبل الفتح الإسلامي لسيطرة الدولة الرومانية منذ (٣١ ق.م) حتى (٢٨٤م) وكان الطبيب اليوناني جالينوس قد عاصر قسمًا من هذه الفترة وقام برحلات علمية إلى أثينا وروما والإسكندرية مرورًا بجزيرة قبرص وكريت حتى وصل إلى مدينة أسيوط في صعيد مصر، وقام بتدوين ملاحظاته الكثيرة حول عادات الشعوب التي قابلها وصادفها ومن بينهم سكان الإسكندرية، حيث يذكر أنهم يأكلون العصائد والعدس والأصداف والسمك المالح، وكثير منهم يأكلون لحم الحمير، ويتوقف ابن جميع عند هذه الملاحظة ويقرر أن هذه العادة الرومانية زالت بزوال حكمهم وسيطرتهم، أما الأمراض البلدية المستوطنة التي صادفها عندما خالط أهلها وطببهم وتعرف عللهم وأسبابها فمن ضمنها: الحميات الحادة، الجدري، الحصبة، السعال، أوجاع المفاصل، القولنج، القروح، عسر البول وحرقته.



بعد عرض دراسته الشاملة المتقصية للمدينة وأحوال أهلها الصحية يقدم نصائح طبية في أمر الهواء والمناخ عامة لدفع الضرر وتلافي الأمراض، فينصح أن تكون أبواب السكن ونوافذه إلى المشرق والشمال مستورة عن الغرب والجنوب وأن تكون دور السكن بعيدة عن المزابل والمدابغ ومعامل النشاء لعدم التعرض للأبخرة والأدخنة الغريبة الفاسدة وأن يبخر المنزل دائمًا بأي من أنواع العطور والأبخرة، وأن يجعل به من أنواع الرياحين والأطياب ما يلطف رائحته ويطرد منه الهوام، وغلي المياه وتركها حتى تصفو تجعل في أواني الخزف لتصفيتها، ويؤخذ ما يرشح منها ويشرب ولخطورة هذا الموضوع وأهميته عقد المؤلف فصلاً كاملاً سماه (في إصلاح مياهها ودفع ضررها) اعتبر فيه أن مياه الأمطار أجود من مياه الآبار إذا كانت

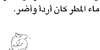


إن الطبيب لا يمكنه أن يعالج أحدًا من أهل بلد من البلاد علاجًا صوابًا دون أن يكون عارفًا بطبيعة ذلك البلد وحال هوائه ومائه وتدبير أهله ونحو ذلك من أحواله وما يوجبه وتقتضيه من الأمراض وقوانين المعالجات، اللهم إلا أن يكون ممن يقنع بالطب من التسمية دون المعنى وبالشبيه دون الحقيقة





سليمة، ولتأمين سلامتها يجب التعهد بالتنظيف والغسيل الدورى لأسطح المنازل والصهاريج وإتقان صنعتها وإزالة ما قد تجمع بأرضياتها وجدرانها من الأوساخ والعفونات فى كل سنة قبل نزول الأمطار وتبخيرها بالعود والمصطكى وتركها مفتوحة حتى تجف ويمكن تناول بعض السوائل المطهرة (الخل) مع المياه التى نشك بصلاحيتها. وفى ذلك إشارة ذكية لمزج المطهرات والمعقمات مع المياه ويذكر أن أكل البصل المخلل والثوم، واللوز والسكر يدفع ضرر المياه الرديئة، والمؤلف كثيرًا ما يسأل ويستفسر عن مصادر المياه وتوصل إلى ملاحظات دقيقة عن طريق الاستنباط إلى معرفة أسباب فساد مياه الآبار وما تجلبه من أمراض عديدة، فيقول: إن الأراضى التى يطلق عليها ماء النيل من مواضع أعلى ما يلى الإسكندرية فى الخليج، إذا رويت فتحت لها مواضع ينصب فيها ما فضل عنها من ذلك الماء إلى الخليج، وذلك بعد أخذ النيل فى النقص فيكثر ماء الخليج ويصب فى القنى المتصلة بالآبار، وأهلها يسمون هذا الماء، الماء الثانى ويختارون ملء صهاريجهم فى هذا الوقت، فماء النيل يدخل إلى الآبار الآن وهو بهذه الحال من الفساد والاختلاط والأقذار فيخالط مياهها المالحة التى تقدم ذكر أحوالها ومضارها، ويستقى منها فيودع الصهاريج ويحل لطيفه وتزداد بالخزن رداءته وفساده، وتتضاعف مضاره وظاهراته وإذا جمع معه ماء المطر كان أردأ وأضر.



ولا ينسى المؤلف الوافدين إلى الإسكندرية فينصحهم بتجنب الأغذية الدسمة الثقيلة (اللحوم، الأسماك المالحة، الجبن العتيق....) والاقتصار على تناول الخبز والفواكه الناضجة الطرية وألبان الحيوانات الصحيحة والحسنة المرعى وأن يكون الغرض من الأكل (الاغتذاء لا التلذذ) وعدم الإفراط والخلط بين أنواع مختلفة من الأطعمة وهو ما ينبه عليه دائمًا كما لا يفوته تقديم نصائحه المبنية على الخبرة والممارسة والتجربة لزملائه الأطباء الذين يباشرون المعالجة والطبابة وهو لا يقصد القوانين العامة للمعالجة، بل يركز على المعالجات العملية الخاصة بأهل الإسكندرية والملائمة لأحوالهم فيوصى باستخدام شراب السكنجبين (خل مخلوط مع عسل) لأنه من أعيان أدويتهم وجياد أشربتهم، والأغذية التى يدخل فى عمادها الخضروات ذوات الألياف (البقلة اليمانية والسلق) والسبانخ ينبغى تناوله بعد خلطه بماء الليمون أو الخل، وتناول شراب التمر هندى محلى بالسكر، ويشير إلى ظاهرة انتشار استخدام الأدوية المسهلة بكثرة وموقف بعض الجهلة من الأطباء فى المساهمة والتشجيع لأنهم لا يشعرون ولا يبالون بما فى ذلك من عظيم الخطر.. لينفق سوقهم ويكثر زبونهم، لأن عامتهم إنما يعتبرون نفع الدواء بكثرة إسهاله، فكلما زاد وأفرط حمدوه وأثنوا على معطيه واعتقدوا فيه الحذق والكمال فى صناعة الطب، ومهما قصر ذموه ونسبوه إلى قلة المعرفة، ولم يعاودوا إلى استفتائه ولا ابتياع دوائه.

ويختم المؤلف كلامه بقانون مهم يتعلق بنظافة البيئة وسلامتها، فالاحتراس من الوقوع فى الأمراض يكون بإصلاح الهواء والماء والتدبير وعلى الأطباء واجب التوعية والإرشاد إلى الطرق السليمة والعادات الصحية وليس علاج الأمراض والعلل فحسب، بل التثقيف والتوعية، وقد قام أطباء الحضارة الإسلامية بواجبهم خير قيام، فأغلبية المصادر لا تهمل شأن البيئة وسلامتها.

لقد قدم ابن جمّيع لوحة بانورامية كاملة عن الإسكندرية وحياة سكانها وعاداتهم الغذائية والصحية وتصوراته وتصدى لمناقشة مشاكلهم الصحية بذكاء وفصاحة، وهل يصبح الماضى نقطة انطلاق للحاضر (وعند ذلك فقط يجلو الصفاء ويطيب.. إذا انقشعت الظلمات وأسفرت الإسكندرية عن وجه مغسول.. وخضرة يانعة.. وطرقات متألقة.. ونسائم نقية.. وشعاع دافئ.. وصحوة ناعمة.. شىء حدثنى بأن تلك الدراما إنما تحكى أسطورة مطمورة فى قلبى.. وتخط طريقًا مازال غامض الهدف.. أو تضرب موعدًا فى غمغمة لم تفهم بعد).

ويمد المبدع يده نحوك وأنت لا تملك سوى المحبة تبادله. تحرسه أحداق العيون، وتمضى مسيرة الحياة اليومية تكون فيها فى مقدمة النسق تسبق الجميع تعلوك الندوب وآثار الجراحات وبعظام مكدودة وقلب مثقل، تواصل بحثك عن هذا الشىء الذى لم تستطع العثور عليه بعد. ■

بالشعر والموسيقى والألوان والعطور



عادل الآلوسى

منذ العهود القديمة يحاول الفلاسفة والناس عامة فهم الأسباب الكامنة وراء تصرفات البشر والكائنات الحية الأخرى، كما حاول الأطباء منذ أقدم العصور اكتشاف النفس الإنسانية ونزعاتها وميولها وطبائعها وحالاتها المختلفة، وتوصلوا إلى أن للنفس أمراضًا تصاب بها كما يصاب الجسد، ولذا بذل الحكماء الأقدمون، وأهل الطب جهودًا لمعالجة النفس الإنسانية وفقًا لمعالجات بدائية.

وكان المصريون والعراقيون القدماء (البابليون والآشوريون) قد تمكنوا من تسجيل ملاحظاتهم وأفكارهم الطبية وممارساتهم العلاجية على أوراق البردى والفخار والحجارة، وقد احتوت إحدى تلك البرديات القديمة على ثلاثين وصفة لأمراض مختلفة مرتبطة بتغيرات فى الرَحم. ومن هنا يرى الباحثون أن الحضارات المصرية والعراقية، كلتاهما قد سبقت تعاليم بقراط وخاصة فى تشخيص بعض الأمراض بنحو عشرة قرون.

ومن الطرق العلاجية النفسية القديمة العلاج من خلال زيارة المعابد والنوم فيها سواء فى مصر القديمة أو بابل، وكانت المعالجات النفسية تمارس بطرق أخرى سناتى على ذكرها تعكس قوة الارتباط بين العلاج والدين وهو ما عرف بـ «الطب الكهنوتى» Priesthood Medicine.




وإذا كنا لا نعرف الكثير من الأمراض النفسية عند العرب قبل الإسلام، فإن بعض الأخبار المتعلقة بطبهم وفراستهم تدل على معرفتهم بأمور النفس، والأمراض النفسية، ومحاولتهم علاجها كما كان يفعل الحارث بن كلدة، وضماد بن ثعلبة الأزدى وغيرهما.

بعد بزوغ شمس الحضارة الإسلامية أخذ الطب النفسى وكذلك أساليب العلاج تخطو ثابتة متقدمة على عصرها، وقد مهد لذلك علماء كالطبرى (ت ٢٤٧هـ) صاحب كتاب «فردوس الحكمة فى الطب» إذ وصف عددًا من الأمراض النفسية التى تظهر على الإنسان وتعكس آثارها على جسده، وكذلك إسحاق بن عمران (ت٢٩٥هـ) الطبيب البغدادى الأصل القيروانى المهجر الذى استعصى الأمراض النفسية ووصف عددًا منها فى رسالته المهمة «مقالة فى الميناخوليا» حيث وصف وعالج حالات «الاكتئاب».

وقد بنى الأطباء المسلمون معرفتهم الواسعة بخفايا النفس على أساس فكرى نظرى وعملى مثل الأشعرى (ت ٣٢٤هـ) ومسكويه (٤٢١هـ) وابن سينا (ت ٤٢٨هـ) والغزالى (ت٥٠٥هـ) والرازى (ت٦٠٦هـ). وكان ابن سينا قد صور النفس الإنسانية أجمل تصوير ضمنه فيضا من المشاعر، كالألفة والفراق والدمع والديار، كما شبه النفس بالحمامة، تشبيهًا شاعريًا جميلاً باعتبارها رمز الوداعة والجمال، والحمامة أشد الطيور نزوعًا للشوق والحنين، وذلك فى قصيدته العينية المشهورة:

هبطت إليك من المحلُ الأرفع
ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف
وهى التى سَفرت ولم تتبرقع
وأظنها نسيت عهودًا بالحمى
بمدافع تهمى ولما تقطع

وربط ابن طفيل (٥٨١هـ) بين النفس ومشاعر المحبة والألفة فى روايته الجميلة «حى ابن يقظان»، وهى من روائع الأدب الفلسفى عند العرب، ومن المفكرين المسلمين الذين عنوا بالنفس «ابن الجوزى» الذى تعرض لذكر أسباب نشوء المشاعر، وانعكاساتها على النفس، ودَرَس حالات النفس المختلفة. وكذلك «الديلمى» الذى يرى بعض الباحثين أنه كان يقلّد أفلاطون لكنه خرج عن خطه وأضاف وابتكر، ومن آراء الديلمى «إن الله خلق الأفعى على هيئة الكرة، ثم قسمها بين الخلائق كلها» وقال: «إن الأفعى تتجاذب بعضها إلى بعض، وإن الله يقرب أو يبعد بينها وإن فى النفس الإنسانية صراعا أبديا دائما يقوم على طرفى الخير والشر».

ويُعَد الطبيب الأندلسى عبد الملك بن زهر (ت٥٥٧هـ) من أشهر الأطباء الأندلسيين وله كتاب: «التيسير فى المداواة والتدبير» ومثله فعل ابن داود الأنطاكى فى كتابه «تزيين الأسواق».

وكانت لتعاليم الرازى آثارها البعيدة فى النهوض بالطب، وانتشارها بين العرب فى المشرق والمغرب، وكذلك ذيوعها فى أوروبا.

أما ابن سينا فقد كان له دور فعال فى علاج الأمراض النفسية وقد ضمَّن تجاربه فى كتابه المعروف: «القانون فى الطب» وطرح فيه مقولته أو نظريته المعروفة «عملية التأثير المتبادل بين النفس والبدن».

وقد أبدى العلماء المسلمون اهتمامًا بالغًا بعلاج المرضى النفسيين، وقام بعض الخلفاء العباسيين ببغداد بإنشاء المستشفيات أو «البيمارستانات» إذ أنشأ الخليفة المكتفى بالله العباسى مستشفى لذوى الإعاقة النفسية وخاصة أولئك الذين يعانون الوحدة والاكتئاب، وأوكل إدارة شؤونه للطبيب العالم أبى بكر الرازى، كما شيدت مستشفيات خاصة بالأمراض النفسية فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين فى كل من القاهرة وبغداد ودمشق.

وكان أول مستشفى للطب النفسى فى العالم (بمعناه الصحيح) فى بغداد سنة (٧٠٥م)، ولم تعرف أوروبا المستشفيات النفسية إلا من خلال إسبانيا، وذلك بتأثير الفتح الإسلامى وإنشاء المستشفيات فى إسبانيا، كما عرف مستشفى قلاوون بالقاهرة وكان يضم أربعة أقسام للجراحة والباطنية والرمد (طب العيون) أما أكبر الأقسام فكان قسم الأمراض النفسية، وكان يضم صيدلية كبيرة تشتمل على أنواع الأدوية والأشربة تقدم إلى المرضى النفسيين بغية إراحتهم وإزالة ما يعلق فى نفوسهم من مرض وألم واكتئاب.



وعالج الأطباء العرب المرضى النفسيين بالموسيقى بعد توصلهم إلى الأثر الفعال الذى تحدثه النغمات فى النفس. وإن كان السبق لليونان (فيثاغورس مثلاً) فى اكتشاف الأثر الموسيقى فى العلاج النفسى إلا أن العرب جعلوا فى ذلك نظرية قائمة بذاتها، والواقع يؤكد أن الإنسان العربى ذو حساسية عالية على استلهام واستيعاب المؤثرات الطبيعية التى تحيط به، منذ عصر مبكر من حياته، فأدرك قابلية النغم فى التاثير على النفس، وبذلك قال الشاعر:

إن كنتَ تنكر أن فى الألحان فائدة ونفعًا
فانظر إلى الإبل التى هى أغلظ منك طبعًا
تصغى لأصوات الحداة فتقطع الفلوات قطعًا

والتقى الفلاسفة والأطباء العرب على اصطلاحات علمية موحدة بشأن العلاج النفسى بالموسيقى منها أنهم كانوا يسمون الخاطر المحمود إلهامًا، والخاطر المذموم وسواسًا، كما استعملوا ألفاظ العلاج بالأنغام والتناسب، والتناغم، والتبادل، وغيرها.

وراح المفكرون العرب يبحثون عن أثر الألحان فى الخُلق الإنسانى، كيف تزداد النفس قدرة بتأثير بعض الصيغ اللحنية، بينما تزداد ضعفًا بتأثير بعضها الآخر، وتوصلوا إلى أن أنغامًا معينة تقرأ عند الصباح، فتزيد النفس بهجة وأخرى غيرها لا تؤدى إلا فى المساء، وثالثة يخصص وقتها لليل، وهكذا عملوا تركيبة عجيبة ساحرة بين الألحان والأنغام من جهة والزمن من جهة أخرى، إذن فلكل وقت ألحانه ولكل لحن وقته المعين.. وهذا أمر لم تتوصل إليه حضارة من الحضارات كما توصلت إليه حضارة العرب.

لقد وضع ابن سينا فى موسوعته المسماة «الشفاء» أوقاتًا مخصصة للعلاج النفسى بالموسيقى فقال مثلاً: «للصبح مقام وللنهار مقام وللمساء مقام» و«إن الرست يقرأ عند طلوع الشمس، وبعد الظهر مقام الحجاز، وفى المغرب يستحسن سماع النوى...». وبذلك توصل ابن سينا إلى مطابقة اللحون على مزاجية الإنسان، بل تعدى ابن سينا هذا الرأى إلى رأى آخر قال فيه إن للموسيقى أثرا فى بقاء النوع. وهو على هذا سبق دارون الذى عَدَّ الموسيقى وسيلة من وسائل حفظ النوع، وما ذهب إليه هربرت سيفسر وروسو وغيرهم!

كما عرف العرب مداواة النفس وآلامها وأحزانها بالكلمة المؤثرة وبيت الشعر الجميل، إذ أدرك العرب أن الشعر وسيلة من وسائل التعبير عن الذات، وانعكاس للعواطف والمشاعر، والشعر، كما قالوا، حوار مع النفس وحديث الروح للروح، ولذا كان بعض الفلاسفة والأطباء يوصون بأن تقرأ أبيات من الشعر بمفردها أو تصاحبها النغمات أمام مريض معتل، وذكرت حكايات وأخبار كثيرة لمرضى نفسيين أدركهم الشفاء بفضل ما سمعوا من قصائد أو سمعوا من ألحان.

وفى أكثر كتب الأطباء العرب وخاصة الرازى والكندى إشارات واضحة إلى أثر الشعر فى النفس، وشبهوه بالأحلام، وتوارد الأفكار، فالأحلام فى رأيهم وسائل غير واعية أو غير خاضعة لسلطة الوعى، لا يتذكرها صاحبها، أو قد يحجم عن البوح بمحتواها، غير أن الشعر عكس ذلك، ففيه تتكاثف الأفكار وتتجمع ويجرى متابعتها.

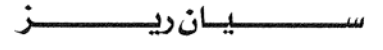
ومن أساليب العلاج النفسى عند العرب، العطور فقد بحث الكندى ولأول مرة فى تاريخ الفكر العربى، وربما الإنسانى، أثر العطور بالنفس، فقد عمد أطباء مستشفيات العلاج النفسى فى العصر العباسى على أن تكون غرف وعنابر المرضى مطلة على حدائق مزروعة بالفل والياسمين والورد الجورى، وأمر رئيس مستشفى بيت الحكمة ببغداد أن يجلب أهل المريض باقة ورد يشمها المريض أو يستنشق رائحتها مرات حتى يتحسن حاله.

وقال الكندى: إنه ليس لرائحة الزهور أثر فى العلاج النفسى وحسب، بل لون الزهور ذاتها، فللون أثر فى العلاج. وذكر الكندى أن الرائحة الزكية واللون البهيج يشفيان أكثر مما تشفى الأدوية والعقاقير.

وعلى نهج الكندى سار إخوان الصفا الذين ظهر تاثرهم بعلاج النفس بالعطور والألوان بما كتبه الكندى وأضافوا إلى أن الروائح الحسنة والألوان الباهرة تخمد من سَورة الغضب، وتذهب بالأحقاد، وعلى نهج الكندى وإخوان الصفا ردد الأرموى الذى عاش فى عصر متأخر ببغداد نظرية العلاج بالموسيقى والشعر والعطر واللون.. وهكذا أصبح تقديم الزهور للمرضى تقليدا قائما حتى اليوم.

حكاية الماخور العائم إلى أستراليا:





السجينات: ماري كافينور ابنة الثالثة عشرة حاولت خطف قطعة قماش من على باب أحد القماشين. وأغارت ماري هوك على مكتب مخدومتها وسرقت أجور خدم المنزل، في الوقت الذي كان عليها أن تسلق فيه الإستاكوزا في المطبخ، وسرقت بت فاريل الغسيل من منزل في ايست سميثفيلد. لأنها لم تكن ترغب في أن تعمل بغيًا. أما اليزابيث جونز فقد تعرفت على أحد البحارة وسرقت جوربه في الليل



في أيام شتوية أوائل عام ١٧٩٨، كان تجارو السفن يجهزون سفينة تجارية فاخرة ذات ثلاثة صوار تحمل اسم «الليدي جوليان»، للقيام بمهمة جديدة. فقد كانوا يحولون السفينة الراسية في جاليونز ريتش عند مصب نهر التيمز إلى سجن.

كانت «الليدي جوليان» سفينة لها تاريخ: فقد استولى عليها الأمريكيون في عرض البحر إبان حرب الاستقلال، إلا أن سفينة حربية بريطانية استردتها وأعادتها إلى إنجلترا. والآن عليها أن تنقل حمولة تضم ما يزيد على المائتين من المذنبين كي يقضوا فترة العقوبة في المستعمرة البريطانية الوليدة على الجانب الآخر من العالم، وهي نيو ساوث ويلز.

وفي تلك الأونة كانت إنجلترا تعاني من موجة جرائم، وكانت السجون مكتظة إلى حد كبير - رغم كثرة تنفيذ أحكام الإعدام - وقد رؤي أن الحل هو «النفي إلى ما وراء البحار».

والأمر غير العادي فيما يتعلق بالمساجين الذين سيرسلون على متن الليدي جوليان أنهم كانوا جميعاً من النساء. إذ كانت نيو ساوث ويلز بحاجة إليهن، تماماً كحاجتها إلى البذور والماشية والقرميد. فقد كان عليهن استنفاد طاقة المستعمرين الجنسية وأن يكنّ بمثابة سلالة توالد بشرية.

وفي أوائل شهر مارس، وصلت إلى لندن عربة من لنكون. كان مقيداً على جانبيها الخارجيين أربع عشرة امرأة، أخذ منهن الإعياء كل مأخذ، وقد لفت الأصفاد الحديدية حول وسط كل منهن. وكن قد جلسن على هذه الحالة طيلة ست وثلاثين ساعة، معرضات لتقلبات الجو وفضول كل خادم وسائس أثارته الأنوثة المكبلة بالسلاسل. وعلى ما كن عليه من قذارة وبلل ووهن نتيجة للبرد والجوع، أخذوهن إلى ضفة النهر ونقلوهن إلى مركب سارت بهن عبر التيمز إلى الليدي جوليان.

وكان في انتظار سحبهن هن ومتاعهن إلى ظهر السفينة رجل سكوتلندي في الرابعة والثلاثين من عمره اسمه جون نيكول، وهو قهرمان السفينة وصانع البراميل فيها. وكان أول ما فعله هو فك القيود البغيضة. وبعد ذلك اصطفت النسوة المرهقات طائعات أمام سندانه وقد مددن أيديهن.

ورغم هذه الظروف المقيتة، كان لإحداهن تأثير فوري عليه. ويقول نيكول وقد تذكر ما حدث بعد مرور ثلاثين سنة: «تعلق فكري بها أول ما تعلق في اللحظة التي كسرت فيها البرشامة التي في أصفادها على سنداني».

كان اسم تلك المرأة «سارة وايتلام»، وكانت فتاة ريفية من لنكونشاير في السابعة عشرة من عمرها، وقد أدانتها المحاكم الفصلية بتهمة سرقة حمولة ملابس ضخمة «بالقوة والسلاح». ولم يعثر على سجلات رسمية تلقى الضوء على هذا الجرم، إلا أنه يشي بملمح أساسي من ملامح القرن الثامن عشر، وهو سرقة إحدى المخدومات أو اقتحام غرفة في أحد المساكن.

وبعد أن استراحت سارة من عناء رحلتها في دفء السفينة ورفاهيتها النسبيين، روت قصتها بالتفصيل للقهرمان الذي طار صوابه أكثر وأكثر.

كان ما روته له إحدى قصص الخيانة وسوء الحظ. فقد كانت تعمل لدى إحدى العائلات وكانت تشترك في المسكن مع غيرها من الشابات. وكما هي عادة الفتيات الصديقات، كن كثيراً ما تستخدم الواحدة منهن ملابس الأخرى ومتعلقاتها، حيث لم يكن لدى أي منهن ما يكفي من المال لارتداء ما ترغبه من ملابس متنوعة.

وكانت سارة تعيش عيشة بسيطة وتستمتع بحياة بسيطة، إلى أن اتهمتها إحدى الفتيات زوراً بسرقة عباءة. وبعد ثبوت التهمة، حكموا عليها بالسجن سبع سنوات في أنحاء فيما وراء البحار. وبعد أن كانت فتاة لها آمالها الطيبة، باتت مجرمة محكوماً عليها بالنفي.

وبعد أن أفزعت مأساة سارة القهرمان، وسحره جمالها، وعزم على أن يخفف عنها كربها، وقع في غرام «هذه الفتاة ذات الطابع البسيط المتحفظ، باعتبارها مخلوقاً طيباً وصادقاً». وكان هو أول رجل تقابله سارة منذ القبض عليها لا يُكذّب ما تقوله ولا يحتقرها - أو يعرف حقيقة أمرها. وقابلت هي ذلك بمزيد من الثقة والحب.

ويقول نيكول: «ظللت أطارحها الغرام ما يربو على الأسبوع». وكان من الواضح أن ذلك كان زمناً أطول مما يجب في خطته لمطارحتها الغرام.

وسرعان ما غادرت سارة عنبر المحكوم عليهن في بطن السفينة الليدي جوليان - وهو المعروف بالعنبر الأسفل - وكانت تنام في راحة وخصوصية قمرة نيكول في الطابق الأوسط. وما إن حل آخر أبريل، وقبل أن تبدأ الرحلة إلى الجانب الآخر من العالم بكثير، حتى كانت حاملاً.



جيء بالنسوة الأخريات من سجن نيوجيت. فذات صباح، أخذ من السجن ١٠٨ مذنبات ورضيعان عند الفجر ووضعوا على الصنادل عند بلاكفريرز بريدج، حيث سارت بهم في نهر التيمز المزدحم إلى جاليونز ريتش.

مرت النسوة في طريقهن على الضفة الشمالية للنهر، حيث عاشت كثيرات منهن وألقي القبض عليهن هناك. ففي فيش ستريت هيل، حاولت ماري كافينور ابنة الثالثة عشرة خطف قطعة قماش من على باب أحد القماشين. وفي الجانب الآخر من النصب التذكاري، في لومبارد كورت، أغارت ماري هوك على مكتب مخدومتها وسرقت أجور خدم المنزل، في الوقت الذي كان عليها أن تسلق فيه الإستاكوزا في المطبخ.

وسرقت بت فاريل الغسيل من منزل في ايست سميثفيلد. وسرقت ماري أندرسون منزلاً في فرجينيا ستريت، لأنها لم تكن ترغب في أن تعمل بغيًا. وخلف المنزل ذاته، استدرجت ماري بتلر وبول راندال رجلاً وسرقتا ٤٠ جنيهاً من جيوبه. واستدرجت ماري بيتمان واليزابيث صالي رجلاً آخر إلى أحد المساكن وسرقتا ساعته الفضية.

وإلى الشرق قليلاً، في وايتشابل هاي ستريت، تعرفت اليزابيث جونز على أحد البحارة وسرقت جوربه في الليل. وفي راتكليف هاي واي، قالت آن مورجان لبواب أحد الفنادق الصغيرة: «تعال معي يا ند». ونشلت من جيبه نصف جنيه ذهبي مع أول حضن، ثم هددته عندما حاول استعادته.

ومضوا بالمذنبات أمام السفن السجون، وهي السفن القديمة التي قدمت كحل لازدحام السجون، عندما انقطع نفي المجرمين إلى المستعمرات الأمريكية بسبب حرب الاستقلال. وبقي البعض فيها عشر سنوات، حيث يعيش مئات الرجال مكبلين بالحديد بجوار بعضهم.

وكان نيوجيت نفسه يضم أكثر من ٧٠٠ نزيل مزعج، وكانت حالة زنزاناته تعكس الأزمة التي في الشوارع خارجه.

كانت البلاد قد ابتليت بالشلل الملكي في القمة - بسبب جنون جورج الثالث - وبالتغيير شديد السرعة في القاع. وكانت هناك زيادة ضخمة في عدد السكان على مدار جيلين، وزيادة في الانتقال من لندن وإليها، وزيادة مفاجئة في البطالة.

وبعد أن هزمت المستعمرات الأمريكية قوات الملك جورج البريطانية والألمانية، عاد ١٣٠ ألف رجل من الحرب. فكانت لندن تعج بالشحاذين المعوقين. كما قام الرجال بأعمال النساء، وانضمت العاملات في المحال التجارية وبائعات الحليب والخادمات إلى مبتوري الأطراف في الشوارع، وقد بتن فتيات متمردات

يعشن على الاحتيال وعلى البنسات التي يسرقنها ممن لا يكاد يكون أفضل منهن حالاً، وقدرت صحيفة «التايمز» عدد العاهرات في لندن وما جاورها بخمسين ألفاً.

وجرى التوسع في وسائل فرض القانون والنظام، وكذلك في المحابس. وفي الوقت الذي كانت تجهز فيه «الليدي جوليان» لرحلتها إلى أستراليا، كانت ١٥١ مذنبة يعشن في ثلاث زنزانات في نيوجيت بنيت في الأصل لإيواء ٧٠ وكان يصرف لكل منهن ما قيمته بنس ونصف من الخبز في كل يوم، ولم تكن هناك أسرَّة للنوم. وكانت الأحوال من السوء بحيث كان السجانون يتناول الواحد منهم كوباً من المشروبات الروحية قبل فتح الزنزانات كل صباح، لكي لا يغشى عليه. وكان التمرد متفشياً بتأثير من اللورد جورج جوردون، الذي كان تجسيداً للمتأنق الراديكالي في نهاية القرن، وكان قد سُجن بتهمة التمرد على السلطات ونصَّب نفسه صديقاً للمساجين.

وطوال سنوات عديدة كانت تعد الخطط لمعالجة تكدس المجرمين في السجون، بعدما لم يعد في الإمكان إرسالهم إلى أمريكا. فقد فشلت محاولات المستوطنات التأديبية في غرب أفريقيا؛ وفي سنة ١٧٨٧ اتجه أسطول إلى نيو ساوث ويلز البعيدة حاملاً عدة مئات من المذنبين، بينهم بعض النساء.

وكان إعداد الأسطول الأول هذا الذي يقوده الكومودور آرثر فيليب سيئاً ولم يزود بالمعدات الكافية، ولم يعرف أحد في إنجلترا طيلة عامين إن كان وصل إلى مقصده أم لا. إلا أنه كان مقرراً لليدي جوليان أن تلحق به. وكان اللورد سيدني وزير الدولة للداخلية وشئون المستعمرات يأمل في أن «يحول هذا دون تفشي الفوضى البغيضة» في نيوجيت.

أما الحاكم فيليب فكانت له أسبابه الخاصة في الحصول على النساء. فقد كن ضروريات لزيادة الأعداد والحيلولة دون الرغبات الخطيرة لمستعمرته، التي في أغلبها من الشباب. وفكر فيليب في إرسال كل من يضبط وهو يمارس اللواط إلى ماوريي نيوزيلندا (السكان الأصليين) ليأكلوه، وكتب في إحدى البرقيات التي بعث بها إلى الوطن: «النسبة الضئيلة جداً من الإناث تجعل إرسال عدد إضافي على قدر كبير من الأهمية». وكان دورهن واضحاً؛ إذ كان عليهن توفير أثر الأنوثة المهم الباعث على الاستقرار كزوجات ومحظيات.

وقبل إقلاع الأسطول الأول، كان اللورد سيدني والحاكم فيليب قد اقترحا جلب ٢٠٠ من السمراوات الجميلات من جزر المحيط الهادئ ليكن «رفيقات» لمائتين أو نحو ذلك من جنود البحرية والضباط في الحملة. إلا أن فيليب كتب إلى الوطن بأن هذا «قد لا يحقق أي غرض سوى ذبول أجسادهن حسرة وأسى من البؤس»، ذلك أن الظروف كانت شديدة الصعوبة في المستعمرة الجديدة. وكان لا بد من العثور على مصدر بديل للنساء اللائي يسرين عن الرجال.

وما يعد في وقتنا هذا ضرباً مثيراً للاستغراب من ضروب النفاق الجورجي كان أمراً عادياً تماماً بالنسبة لمن هم على علم بأمر المستعمرات الوليدة. فقد كان دور النسوة اللائي يسرين عن الرجال في المستعمرات معترفاً به. وكان خور سيدني، تلك المستوطنة التي أنشأها فيليب، قد اتبع النموذج الاجتماعي الخاص بالمدن الاستعمارية التي بها حاميات عسكرية في أماكن أخرى من العالم. حيث كان كل زوجين يشكلان معاً اتحاداً لا ينتظر أي منهما أن يدوم.

وكان فيليب يعتقد كذلك أن تشجيع المذنبين على الزواج فيما بينهم سيؤدي إلى حسن الخلق واستتباب النظام في أدنى قطاع من قطاعات المجتمع. إلا أنه كان يعلم أن الزواج لن يأتي على كل الطاقة الجنسية في المستعمرة، وأن الشبان لديهم حاجات لا سبيل إلى إنكارها. وكان من بين الاقتراحات التي تقدم بها إلى سيدني قبل الإقلاع هو إنشاء جيتو للبغايا توضع فيه «الأكثر فحشاً» من السجينات اللائي «يسمح لهن باستقبال زيارات المذنبين في الحدود التي تخصص لهم وفي ظل قيود معينة».

أما سائر النساء فيبقين في السر زوجات للمذنبين أو خليلات لأفراد الجيش.



في الأسبوع الأول من يوليو ١٧٨٩، غادرت الليدي جوليان جاليونز ريتش بعد أن صعد الأقارب والأحبة على متنها كي يودعوا الباكيات من البنات والأخوات والزوجات والأمهات وربما الجدات. سارت السفينة في التيمز مع الجَزْر متجهة إلى القنال الإنجليزي.

لاحظ نيكول من بين النساء فتاة سكوتلندية صغيرة «جميلة حتى وهي في ملابس السجن، ولكن على وجهها صفرة الموت وقد احمرت عيناها من البكاء. لم تكن تتكلم مع غيرها من النساء ولم تكن تصعد إلى السطح». ماتت هذه الفتاة قبل أن تغادر السفينة المياه البريطانية ودفنت في البحر.

وكان على متن السفينة ما بين ٢٢٥ و٢٤٠ امرأة، أصغرهن في الحادية عشرة - وكان اسمها ماري ويد، التي لم تفلت من تهمة القتل الخطأ - وأكبرهن في الثامنة والستين. وكان ٢٠٠ منهن تقريباً ينمن في العنبر الأسفل؛ أما الباقيات فكن ينمن من حين لآخر أو بشكل دائم مع الضباط وطاقم السفينة.

وكانت رفيقة البحار جزءاً من القرصنة الجنسية التي أودعت بعمق في فكرة البحار الأمين عن حقوقه. ولم تكن تلك العلاقات مجرد جزء من السلوك الفوضوي في الطابق الأسفل الذي كان الضباط يغمضون أعينهم عنه؛ بل كان مصرحاً بها إلى حد كبير.

وكان الضباط يمارسون كذلك عادة انتقاء رفيقة من بين المذنبات. وقد نقلت فتاة في الثامنة عشرة سجنت بسبب سرقة القمح سراً إلى كابينة الطبيب في نهاية عنبر المرضى.

ويقول نيكول: «كان كل رجل على السفينة يتخذ زوجة من بين المذنبات، ولم يكونوا يعافون شيئاً».

وعبارة «لم يكونوا يعافون شيئاً» لها وقعها السيئ على القارئ الحديث. فالمرء لا يفكر سوى في موقف النساء. إلا أنه إلى جانب كونه من المستحيل تقريباً أن يقلن لا، فهناك من الأسباب ما كان يجعل بعض النسوة لا يقبلن وحسب، بل يتنافسن على وضع عشيقة البحار.

كانت الحماية أهم ما في الأمر. فقد عاشت كل امرأة على متن السفينة جزءاً من حياتها وهي تتنافس على ضروريات الوجود. وجاء معظمهن من أقصى درجات الشدة والبؤس، وكن بالضرورة أنانيات وماكرات. وكل امرأة أمضت بعض الوقت في السجن، كانت تكتنفها بيئة عليها فيها أن ترشو السجان أو تموت من الجوع، وأن ترشو البلطجية وإلا تعرضت للسرقة بالإكراه، وأن ترشو من هم موضع ثقة وإلا اغتصبت. ولا بد أن كثيرات منهن كن ينمن مع أحد البحارة كسبيل لرشوته، كي يرعى «امرأته» على حساب الأخريات.



كانت معظم النساء اللائي على متن الليدي جوليان في أواخر العقد الثاني أو في العشرينيات. وكان البحارة في نفس السن، بينما الضباط أكبر قليلاً. ورغم ما تتسم به المعاشرة مع الإكراه من وحشية، فهي لم تكن غير طريقة منطقية لمنع الإحباط الجنسي لدى الشبان والشابات العزاب الذين يعيشون بجوار بعضهم. وعلى السفن التي يفصل فيها بين المذنبات والذكور كسياسة متبعة - مثل أسطول فيليب الأول



إلى نيو ساوث ويلز ـ كانت أعمال الشغب تحدث حينما يدخلون الميناء. فكان الرجال يسكرون ويحاولون الإغارة على عنابر النساء.

ولا تشير سجلات الليدى جوليان إلى أية وحشية تجاه النساء. فبما أن النساء أتين من الشوارع والمحابس وكن فى سبيلهن إلى الأشغال الشاقة فى خور سيدنى، فقد كانت تلك هى فترة الهدوء والرعاية.

ونحن نعرف أسماء بعض «الزوجات» الصغيرات، لأنهن لم يكن على علم النساء الأكبر سنًا فيما يتعلق بمنع الحمل، وسرعان ما حملن. فكانت آن بريانت من ميدستون فى السادسة عشرة وحسب عندما أدينت ووضعوها على الفور على متن الليدى جوليان، حيث اتخذها أحد البحارة واسمه وليام هيوز شريكة له. بل كانت جين فوربس أصغر سنًا. إذ كانت فى الثانية عشرة عندما حوكمت بتهمة النشل وأدينت بسرقة ثمانية شلنات. وكانت فى الرابعة عشرة عندما أخذها البحار ويليام كارلو إلى مخدعه. ويبدو الأمر وكأنه اختطاف طفلة، وربما كان كذلك بالفعل. إلا أنه ربما كان ويليام كارلو فى نفس سن جين فوربس ـ فكثير من البحارة كانوا فى هذه السن.

حملت اثنتا عشرة امرأة على متن الليدى جوليان. وأكثر من هذا العدد بكثير مارس الجنس على متنها، ويبدو أن وسيلة ما من وسائل منع الحمل كانت تستخدم. وأكثر تلك الوسائل شيوعاً هو الدش. وكان الواقى الذكرى موجودًا ولكن كان المقصود به حماية الرجال من الأمراض التناسلية أكثر منه منع حمل المرأة. وكان يعرف باسم English over-coat ويصنع من الأنسجة الحيوانية وكان غالى الثمن، بحيث لا يشتريه إلا البحار شديد الحرص على الصحة.

وفى بداية القرن التاسع عشر كان الضابط البحرى تلو الآخر يروى للجان التى عينت للتحقيق فى سوء المعاملة أن اتخاذ «الزوجات» كان ممارسة شائعة منذ عشرات السنين، سواء كان المقصد هو أمريكا أو جزر الهند الغربية أو نيو ساوث ويلز. وكانت هناك فجوة بين الرجال العمليين أصحاب الآراء المتفائلة، مثل فيليب واقتراحه الخاص بجيتو البغايا، والإصلاحيين الذين كانوا يشكون من التلوث الأخلاقى.

وكان الرجال العمليون الذين يديرون سفن النقل يرون أن التلوث الأخلاقى ثمن مقبول لاستتباب النظام. ورأيهم هو أن القلوب المنفطرة فى المقاطعات الإنجليزية لا تفهم الظروف التى على أرض الواقع.

وربما تميل وجهة النظر الحديثة إلى رأى القلوب المنفطرة، بسبب الامتهان الذى كان النظام يفرضه على الإناث، أكثر منه بسبب التلوث الأخلاقى الخاص بالجنس غير المرخص به. إلا أن المنتقدين المحدثين بعيدون من حيث الزمن عن عالم بحارة ثمانينيات وتسعينيات القرن الثامن عشر ومذنبيه وبحريته بُعد المنتقدين المعاصرين لذلك عن تلك الطبقة وظروفها. وربما كان الرجال العمليون أدرى.



لم تكن العلاقات على متن الليدى جوليان جنسية وحسب. فقد كانت المذنبات من ثلاثة أجيال. ومع أن قلة قليلة منهن سمح لها بإحضار الأطفال الرضع معها، فالكثيرات ممن حملتهن السفينة اضطررن لأن يتركن وراءهن أطفالاً كباراً. وهؤلاء كُنّ مرشحات طبيعيات لأن يأخذن المراهقات والفتيات الصغيرات تحت أجنحتهن. ومع أن هؤلاء الفتيات كن فى عمر يسمح لهن بارتكاب الجرائم العنيفة، فقد كن صغيرات بالقدر الذى يجعلهن يفتقدن أمهاتهن وجداتهن.

وكان البحارة على متن السفينة كذلك من الصغر بما يجعلهم أبناء لبعض مذنبات الليدى جوليان. وكان صف الضباط البحريين وصبية السفن يرسلون فى العادة إلى البحر فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وبغض النظر عن الوجه الرجولى الذى قد يتظاهر به أى فتى صغير على السفينة، فقد كان وهو بعيد عن بيته لأول مرة يفتقد أمه وإخوته، ولا بد أن علاقات الأم البديلة بالابن والأخت البديلة بالأخ كانت موجودة بين هذا الخليط المثير للانتباه الذى تكون على متن الليدى جوليان، حيث أمضى الضباط والطاقم والمذنبات الشهر تلو الآخر وهم لصيقون ببعضهم البعض.

والسفينة التى تشق سبيلها فى البحر حيوان مختلف عن ذلك القابع فى أحد الموانئ؛ حيث الأرض أجنبية والقوانين واللغة لا يفهمها الأغراب. وأصبح البحارة مخلوقات ذات قدرة قابضة يمكنها التجمع فوق السطح بخمسين قدمًا وقضاء الساعات بأعلى الصارى لا يحميها سوى إحساس بالتوازن. ولم يعد ضباط الصف وصبية السفينة فتيانًا أغرارًا تحمر وجوههم خجلاً من تهكم المذنبات.

وكان أكثر التحولات إثارة للانتباه هو تحول الملازم توماس إدجار، الذى كان يقوم بدور مزدوج كربان للسفينة ووكيل للحكومة مسئول عن رعاية المذنبات. فقد تحول من سكير لا تفارقه زجاجة الخمر إلى ملاح كان عليه أن يقود السفينة خلال شهور من الأفق الخالى إلى مصب أحد الأنهار الواقع على بعد ١٣ ألف ميل لم يسبق له أن رآه.



وكان على إدجار والطبيب ريتشارد آلى كذلك أن يجعلا الليدى كوين مكاناً أنظف وأكثر راحة للنوم مما كانت تتحمله أية امرأة قبل الصعود على متن السفينة. وكان النظام والقواعد الصحية الصارمة تضمن نظافة عنابر النساء وجفاف فراشهم، بالقدر الذى يسمح به الطقس.

فبالنهار، كانت ترتيبات الذهاب إلى المرحاض فى عرض البحر تتسم بالنظافة والكفاءة. وكانت «الرؤوس» عبارة عن منصة مفتوحة شقت فيها ثقوب وشدت إلى أبعد جزء من مؤخرة السفينة. وفى الليل، كان العنبر السفلى أقل مراعاة لقواعد الصحة إلى حد ما. فقد كان مزوداً بـ«كراسى الراحة» أو مقاعد بها قصارى، وكانت المضاجع الأكثر تميزاً بعيدة جداً عنها. وضمن إدجار وآلى رفع ألواح أرضية عنابر النوم إلى سطح السفينة مرتين فى الأسبوع، حيث تدعكها النسوة بالفرشاة، وكشط جوانب العنبر السفلى وكنس الأرضية.

وكان هناك غرض آخر مما لا نهاية له من الدعك والتنظيف والتعطير والتهوية، وهو جعل النسوة مشغولات على الدوام. فقد كانت الغالبية كتلة من الوداعة تتكور على رفوف النوم بالليل وتجلس فى جماعات فى أنحاء السطح بالنهار، إلا أن بعضهن كن مشاغبات. وكان القتال على ما هو عليه قتال المذنبين الرجال من قسوة وكثرة. كما أن السرقة والترهيب كانا منتشرين.

أما الراحة من روتين الحياة على متن السفينة فكانت فى أول ميناء تدخله، وهو سانتا كروز دى تينيريفه فى جزر الكنارى. وكانت هناك كمية ضخمة من الغسيل على السفينة، وكان أول استحمام بالماء العذب منذ مغادرة إنجلترا. ومع حلول المساء كانت الحبال والسلاسل تزدان بالملابس المنشورة، وتحول الغسيل إلى لهو مزعج. كانت الصرخات النسائية الواهنة تنساب إلى السفن الأخرى الراسية. وكانت الخيالات عبارة عن أشكال تتمايل ترش بعضها بالماء، وكانت تلك الأطقم التى لا تعلم بوجود سفينة مليئة بالعاهرات الإنجليزيات فى الميناء تتساءل عما يجرى.

سمح لبعض المذنبات بالنزول على الشاطئ. وكانت مجموعة من المساجين اليهود الذين ارتدوا السواد ورفعوا صلباناً كبيرة عليها صور المسيح صنعوها بأنفسهم وكانوا يسيرون فى خشوع من أحد طرفى الطريق الرئيسى إلى طرفه الآخر. وبعد أن انحنى «التائبون» تحت صلبانهم قاموا بحركة مثيرة، وقدم لهم سكان سانتا كروز النقود والإحسان.

ولم يكن خداع سكان سانتا كروز هو أسهل طريقة للحصول على المال، إذ كان البحارة من السفن الأخرى والباحثون عن الإثارة من الشاطئ يذهبون بالقوارب الصغيرة إلى السفينة المليئة بالعاهرات، وإلى بعض رفوف النوم فى بطنها، وتحولت الكبائن التى على سطحها وشبكات النوم التى فى مقدمتها إلى تجارة. ولم يكن هناك شىء غير عادى فى تجارة الجنس، ولكن كان المعتاد هو أن المومسات هن اللائى يذهبن بالقوارب إلى الرجال.

وحيثما توجد المومس يكون هناك القواد. ومن يدرى ما هى الصفقات التى عقدها أحد البحارة الذى لم يكن يرى شريكته الجميلة فى مخدعه وصديقاتها الصغيرات على أنهن نوع من الترويح وحسب، بل مصادر للدخل كذلك؟ ولا بد أنه كان للقوادات دور كذلك. وكانت إليزابيث صالى صاحبة ماخور فى كيبل ستريت فى ويست إند وكانت هناك ثلاث من فتياتها السابقات معها على متن السفينة. ولا بد أنها وغيرها من النساء شديدات الحيطة والحذر كن يعقدن صفقات خاصة بهن.

ومهما كانت الترتيبات التى تتم، يبدو أنهم كانوا يتسامحون معهن على أعلى المستويات. وكانت لدى الملازم إدجار فكرة أفضل من كل ما كانت النساء تنتظره. فقد كان يعلم أن الأموال التى يحصلن عليها فى سان كروز سوف تخدمهم خدمة جيدة فى خور سيدنى. وكان السماح للمومسات بالعمل نوعاً من الشفقة بقدر ما هو ضرب من الإهمال.

وكان أكثر الزبائن إخلاصاً، حسبما يذكر

طوال سنوات عديدة كانت تقدم الخطط لمعالجة تكدس المجرمين فى السجون، بعد أن لم يعد فى الإمكان إرسالهم إلى أمريكا فقد فشلت محاولات المستوطنات التأديبية فى غرب أفريقيا؛ وفى سنة ١٧٨٧ اتجه أسطول إلى نيو ساوث ويلز البعيدة حاملاً عدة مئات من المذنبين، بينهم بعض النساء

نيكول، هما طاقما سفينتين لنقل العبيد تبعتاهم من تينيريفه «من أجل السيدات». فقد نامت بعض النساء مع أحد النخاسين فترة من الزمن جعلت الصلات تتوطد فيما بينهم.

وفى النهاية اتجهت سفينتا العبيد إلى جامبيا واتجهت الليدى جوليان نحو خط الاستواء، حيث هدأت الرياح فى نطاق الرهو الاستوائى. وكانت الحرارة شديدة والرطوبة مرعبة. وعندما نشطت الرياح من جديد، كان الاسقربوط قد انتشر، وكان ٦٠ من النساء على قائمة المرضى وكانت المياه تتسرب إلى السفينة بصورة كبيرة. وهنا اتخذ قرار طوارئ: إذ كان لا بد من الرسو فى ريو دى جانيرو.



فى ذلك الحين كانت سارة وايتلام قد أمضت ثمانية أشهر فى النوم مع نيكول. كما أن حملها بلغ سبعة شهور ونصف. وكانت هناك ثمانى شابات أخريات قد أوشكن على الوضع. وكن جميعاً يشعرن بالقلق. بينما كانت هناك حالة إجهاض واحدة على الأقل على متن السفينة، وكان موت المواليد أكثر شيوعاً مما هو عليه الآن.

كان عمل نيكول يبعده عن سارة بالنهار، ولكنه كان يقضى معظم الأمسيات والليالى معها، وكان هو أكثر العاشقين البحارة إخلاصاً لمن أحبها ورعاية لها. ولم تكن لسارة دراية بالعالم: فقد تعلمت من نيكول كيف تسير الأمور. وكان يحكى لها عن مغامراته فى قتال جنود سفن المجهود الحربى الأمريكية بسيفه فى البحر الكاريبى، وعن الرعب الذى يشعر به الإنسان الذى حجزته الثلوج فى نيوفاوندلاند وقد أحاط به الهنود المعادون.

كما حكى لها كذلك عن اعتزامه الاستيطان. ووعدها ألا يهجرها وأن يتزوجها ويعيدها إلى سكوتلندا بمجرد انتهاء فترة عقوبتها.

وعند وصول نسوة الليدى جوليان إلى ريو، كانت تلك هى المرة الأولى التى يرين فيها عاصمة البرتغال الاستعمارية. وكان ما رأينه جزراً صغيرة كستها الخضرة، وميناء أحاطت به التحصينات، وقوارب الحراسة التى يسيرها العبيد السود، ومدينة متلألئة امتدت أعلى التل قبالتهن. وكانت الكنائس فى كل مكان.

ويسجل جون نيكول أن «السيدات نصبن لأنفسهن ما يشبه الخيمة» على سطح السفينة مستخدمات فى ذلك أحد الأشرعة القديمة. وحسبما يذكر، تولت الأمر امرأة قوية ورشيقة اسمها اليزابيث بارنزلى. كانت الملكة بين لصوص المحال التجارية - حيث كانت تفضل محال بوند ستريت - وأسرتها من قطاع الطرق، وكانت تعرف القراءة والكتابة. وكان الكل ينظر إليها على أنها سيدة محترمة، ولكنها كانت تعرف التوليد كذلك.

كان الربيع قد أقبل على ريو. وكانت سارة وايتلام والمذنبات اللائى فى أواخر حملهن ناعسات بسبب الحر وثقل أجسامهن وهن راقدات فى خيمة الولادة. وكانت الحياة تدب



من حولهن فى السفينة. ولا يتذكر نيكول شيئاً عن مخاض سارة، ولكنه يتذكر أنه فى ريو، شأنها شأن تينيريفه، «لم ينقطع وصول الزوار» القادمين من أجل الجنس على متن السفينة.

كان طفله سيولد فى ظروف من الغرابة الشديدة. فنيكول وغيره من الآباء لم يكن لهم يد فى القرارات الخاصة بإرسال «زوجاتهم» إلى المنفى. فقد كانوا مرتزقة السفن التجارية الذين قبلوا العمل بأفضل الشروط المعروضة عليهم. وإذا كان يتم من خلال عملهم نقل النساء بالقوة من بلد إلى آخر، فإن عليهم السمع والطاعة. وإذا اتخذ أحدهم فتاة فى الرابعة عشرة «زوجة»، فإنه يفعل ما كان سيقوم به أى إنسان آخر ليست له زوجة. فهل هذه هى الطريقة التى تنظر بها الحوامل إلى آباء أطفالهن؟

والقياسات التى فيها حرس يتغاضون عن الممارسات الشبيهة فى معسكرات الاعتقال فى القرن العشرين، أو لا يدينونها على أقل تقدير، غير صحيحة. فأى قياس يفترض وجود ما للقرن العشرين من وجهة نظر أخلاقية واختيار شخصى فى عقلية القرن الثامن عشر لهو قياس لا يعتد به.

وبغض النظر عن العلاقة بين أطفال سفينة ريو وآبائهم، فإنهم سيولدون فى الأسر. وقد نفيت أمهاتهم من إحدى الدول. وكن فى طريقهن إلى دولة أخرى لم تبلغ العامين بعد. إنها لم تكن قد صارت أمة. وكان اسمها غير مؤكد. فهل سيكونون بريطانيين؟ أم إنجليزا؟ أم نيو ساوث ويلزيين؟ من المؤكد أنهم ليسوا أستراليين بعد.

بل سيبقون هم وآباؤهم على قيد الحياة؟

السجن والعواصف والموت جوعاً

الخليج الصغير الواقع بين أشهر معالم سيدنى الحديثة، وهما دار الأوبرا وكوبرى الميناء، هو الآن القلب النابض لهذه المدينة الساحلية المدهشة. إلا أنه كان منذ ٢١٠ سنوات منظراً موحشاً.

ففى سنة ١٧٨٨ أقام هناك «أول أسطول» من السفن القادمة من إنجلترا أكثر المستعمرات عزلة فى العالم. وقد أطلق عليها خور سيدنى نسبة إلى اللورد سيدنى وزير الدولة للداخلية وشئون المستعمرات، وكانت معسكر عمل يعمل فيه المذنبون - حوالى ٦٠٠ رجل وما يقرب من ٢٠٠ امرأة.

وبحلول منتصف ١٧٩٠، كان المستعمرون يترنحون فى شتائهم الجنوبى الثانى. فقد انتشر مرض الإسقربوط. وكذلك انتشرت الدوسنتاريا، وفى شهر مايو بدأ الجدرى فى الانتشار بلا تمييز بين المذنبين وجنود البحرية والضباط. وكان السكان الأصليون من الأبورجين يموتون بالعشرات. وكانت القوارب الصغيرة تخرج يوميًا لجمع جثثهم من على الشواطئ لدفنها. وكانت الرائحة تزكم الأنوف: وكان الدنجو يغزون الشواطئ بعد حلول الظلام ويأكلون من ماتوا حديثاً. وكانت تلك هى أسوأ لحظات المستعمرة.

كانت التربة المحيطة بالأكواخ الصغيرة تفتقر إلى الخصوبة. وكان الحاكم آرثر فيليب قد بعث برسالة إلى الوطن يطلب فيها معدات زراعية وعمالا زراعيين مهرة. كما أنه أرسل فى طلب النساء كذلك، ليكن بنك توليد من ناحية، ويلبين الحاجات الطبيعية للكثير من الرجال من ناحية أخرى. ووصلت سفينة إغاثة متأخرة عن موعدها.



كان يوم الثانى من يونيو ١٧٩٠ يوماً عاصفاً دنت فيه السحب واشتدت الريح الجنوبية. وعلى المرقب الواقع عند ساوث هيد - وهو موقع لا يحظى بالقبول موجود داخل جبانة للأبورجين - تحلق ثلاثة من الجنود حول النار. وفجأة رأى أحدهم شراعاً على مسافة بعيدة داخل البحر. وأرخى الليل سدوله دون أن يظهر شيء آخر. إلا أن الأمر بات جليًا فى اليوم التالى: فقد كانت إحدى السفن تقترب منهم. وعمت الفوضى والاضطراب عندما بلغ الخبر خور سيدنى.

بدأ ضباط الحامية الذين أصابتهم حالة من الهستيريا رحلة الأميال السبعة بالقوارب من خور سيدنى إلى اللسان الممتد فى البحر. لقد حان الوقت كى يروا سفينة تجارية ذات ثلاثة صوار، هى الليدى جوليان، تكاد تتحطم على صخور نورث هيد. وكانت تلك نهاية ينخلع لها القلب لرحلة دامت عشرة أشهر عبر العالم.

كان الطاقم لا يزال ينزل من على الصوارى عندما تجمهرت حفنة من الجنود على جوانب السفينة يضربون البحارة على ظهورهم سائلين عن عدد المواشى وبراميل الدقيق التى لديهم. وأدهشهم الرد. فقد كانت هناك مؤن على متن الليدى جوليان، إلا أن حمولتها الرئيسية كانت من المذنبات، إلى جانب الأطفال الرضع الذين وضعتهم بعضهن أثناء الرحلة نتيجة لاتصالهن بالطاقم.

كانت المستعمرة تتوقع وصول سفينة مؤن على متنها رجال مهرة يتولون أمر المشروعات المعمارية والزراعية. ولكن ما حصلوا عليه هو ٢٢٢ أنثى وأطفالهن لا بد من توفير المآكل والمأوى لهم. وكتب أحد كبار ضباط المستعمرة، وهو رئيس المجلس العسكرى كولينز، يقول: «لم يكن مخجلاً بعض الشيء أن نجد حمولة بهذا القدر من عدم اللزوم وعدم الربحية مثل ٢٢٢ أنثى، بدلاً من حمولة المؤن».

وكان هناك كذلك خبر كئيب، وهو أن سفينة أخرى اسمها الجارديان كانت آتية بالإمدادات ولكنها اصطدمت بجبل جليدى جنوبى المحيط.

أصاب الإعياء النسوة اللائى على الليدى جوليان ونال منهن القلق والخوف. وكان الضباط الذين خرجوا بالقوارب لملاقاتهم يرتدون الأسمال، وكانت أطرافهم عجفاء وقد ترك الجدرى حفراً فى وجوههم وشوه الجوع ملامحهم. وكانت ترقد على اللسان كتلة من الخضرة المبتلة القصيرة. فكانت تلك صدمة شديدة لأى إنسان سبق



كان على متن السفينة ما بين ٢٢٥ و٢٤٠ امرأة، أصغرهن فى الحادية عشرة، وكان ٢٠٠ منهن تقريباً ينمن فى العنبر الأسفل؛ أما الباقيات فكن ينمن من حين لآخر أو بشكل دائم مع الضباط وطاقم السفينة



له سماع حكايات البحارة عن جزر البحر الجنوبي وكان يتوقع رؤية النخيل والوطنيين المبتسمين في القوارب.



وفي صباح اليوم التالي، أخذت القوارب الطويلة في الظهور وعلى متنها المذنبون، حيث أرسلوا لتفريغ المؤن. إذ كان الجوع أشد من أن ينتظر حتى ترسو السفينة على المرسى في خور سيدني.

وحتى السادس من يونيو لم تكن الريح قد هدأت بالقدر الذي يسمح بقطر الليدى جوليان إلى داخل النهر. وعندما دارت السفينة حول بينيلونج بوينت، حيث تقوم دار الأوبرا حالياً، رأت النسوة خور سيدني لأول مرة. وكانت المياه عند رأس الميناء تضيق لتصبح حية فضية تنساب أسفل جسر منصبي. وكان يقوم على أحد الجانبين عنبر للنوم كان به رجال أكثر نحافة يشاهدون ويصيحون. وكان بجواره مخزن غلال مسقوف بالقش كان بمثابة المخزن العام. أما على يمينهما فكان المستشفى والمطبخ وجنود يرتدون الأسمال يقومون على حراسة قطع متباعدة مزروعة بالكرنب. وإلى الخلف كانت هناك صفوف من الأكواخ المبتلة وقد تدلت أعواد السمار التي على أسقفها تحت وطأة المطر.

وعلى الجانب الآخر من الجسر كان المنزل الوحيد ذو الشكل اللطيف، وكان من طابقين وله مدخل مزدوج، في محاولة لعمل مدخل مسقوف، وكانت له حديقة خلفية غريبة تمتد من الدرج إلى حافة المياه ويحرسها حراس حفاة يحملون البنادق.

وكانت النساء على متن الليدى جوليان في معظمهن أصح مما كن عندما غادرن إنجلترا. فقد كان نظامهن الغذائي في مجمله طيباً، وكان محظوراً عليهن شرب الخمر. كما أن الهواء النقي والملابس الداخلية النظيفة قد حسنت الجلد والشعر والنفس. وبينما كانت النساء في انتظار أن ترسو السفينة، أحضرن سحاراتهن من المحبس وأخرجن منها أفضل فساتينهن. وكانت الواحدة منهن قد قامت بإعداد شعر الأخرى بالشكل الذي تسنى لها، ونظفن أظافرهن وأسنانهن، وأزلن الشعر الزائد، وهذبن حواجبهن بالملقاط، واغتسلن بالماء المتدفق.

وكانت آمال النساء الحكيمات وتوقعاتهن تقوم على المعلومات التي وفرها قضاء فترة العقوبة والعمل في أمريكا وجزر الهند الغربية. فقد كان ذلك تحكمه القواعد الصارمة، ولكنه كان بعيداً عن كونه على وتيرة واحدة من السلبية. فكانت هناك فرص في ذلك العالم الجديد، وسوف تكون هناك فرص في هذا العالم. كما كانت هناك طقوس قاسية كذلك، أعقب أحدها وصول الدم النسائي الجديد إلى المستعمرات الجديدة. وسوف يقوم القبطان بعمل ترتيباته مع التجار في الميناء، وسوف تعرض النساء للبيع، وفي بعض الأحيان من خلال المزاد المفتوح.

احتل توزيع النساء المرتبة الثانية بعد



تفريغ المؤن من على الليدى جوليان. وبعد معرفة إجمالي الكمية، حسب أن حصة الفرد الذكر في المستعمرة يمكن أن تزيد من أربعة أرطال إلى خمسة أرطال ونصف في الأسبوع لمدة ثلاثة أشهر. ولا تكاد الإغاثة التي جاءت بها الليدى جوليان تحدث أي فرق بالمرة.

وأخيراً وطأت أقدام النسوة أرض الميناء يوم الجمعة الحادي عشر من يونيو وشاهدهن البحارة والحمالون الذين فرغوا الإمدادات، وأي إنسان في المستعمرة لم يخرج مع جماعات إعداد مواد البناء. وهنا بدأت واحدة من مآسي الرحلة الكبيرة.

سحبت الليدى جوليان إلى الشاطئ الشمالي لإجراء عمليات الصيانة. ولم تنظر أي من النسوة اللائي لم تكن لهن أية صلة عاطفية على متنها إلى الوراء. أما الأخريات، فقد كان ذلك أول فراق لهن عن رجال الطاقم الذين شغفن بهم أثناء الرحلة. وعلى أحد جانبي النهر كان هناك العديد من الآباء الجدد وزوجاتهم وأطفالهم في أكواخ خور سيدني وخيامه.

ومن بين الآباء كان جون نيكول قهرمان الليدى جوليان وصانع البراميل عليها الذي وقع في غرام سارة وايتلام ابنة العشرين. وكان قد حكم عليها في لنكونشاير بالنفي لمدة سبع سنوات بتهمة سرقة الملابس. وقد شاركته كابينته معظم الرحلة، ولم تبعدهما عن بعضهما سوى ولادة ابنهما جون في ريو دي جانيرو. وكان نيكول ابن الرابعة والثلاثين قد وعدها ألا يتركها.

وها هو الوقت قد حان لبيان حقيقة القسم الذي أقسمه كل منهما للآخر. فمنذ الوقت الذي غادرت فيه النسوة السفينة لم يعدن ينتمين إلى الليدى جوليان؛ فقد صرن ينتمين إلى حكومة خور سيدني الاستعمارية. وبينما كانت الليدى جوليان على الساحل الشمالي، تم استيعاب سارة وايتلام والطفل في أكواخ المستعمرة وخيامها. ومن ناحية أخرى كان نيكول متعاقداً على السفر بالليدى جوليان إلى الصين ومنها إلى إنجلترا.

وعندما أنزل مذنبو الأسطول الأول في يناير ١٧٨٧، كان يتم التخلص من إحباطات الرحلة الجنسية في حفلات ماجنة بين الصخور، حيث كانت تتم بما يشبه علم المسئولين ويقترب من تواطؤهم ويكاد يكون إدانة لها. وكان الضباط يعطون البحارة «مشروب الروم كي يمرحوا مع النساء». ولا تسجل مذكرات أي ضابط مثل هذه الحفلات بعد نزول نسوة الليدى جوليان، إلا أنه من المؤكد أن عدداً من البحارة كان يدق بعض الأبواب. بل إن رئيس المجلس العسكري كولنز كان يستمتع بأحضان مذنبة اسمها نانسي ييتس.



وبغض النظر عن الحرية الممنوحة، فقد كان يعاد تقديم النساء إلى عالم الكفارة القديم المنهك - العصا أولاً، ثم الكتاب المقدس. وقد

معظم النساء اللائى على متن الليدى جوليان كن فى أواخر العقد الثانى أو فى العشرينيات، وكان البحارة فى نفس السن، بينما الضباط أكبر قليلاً. ورغم ما تتسم به المعاشرة مع الإكراه من وحشية، فهى لم تكن غير طريقة منطقية لمنع الإحباط الجنسى لدى الشبان والشابات العزاب الذين يعيشون بجوار بعضهم



اقتيد رجلان يوم السبت إلى شجرة الجَلد وكان نصيب كل منهما ٢٠٠ جلدة لسرقتهما السكر. ويوم الأحد جمعت كل النسوة عند الشجرة وسمعن موعظة من القس ريتشارد جونسون، الذي سجل أن العديد منهن تأثر إلى حد البكاء.

وكان جونسون قد جاء مع أول أسطول وله خبرة في تعميد الأطفال غير الشرعيين ومباركة الاتحادات غير المعتادة. إلا أن ما لم يكن يمكنه عمله هو مباركة التزاوج الذي تم على متن الليدى جوليان.

وكان بعض البحارة يرى في مفارقة الخليلة والطفل مجرد جزء من حياة البحر، إلا أن نيكول كان يريد الزواج من سارة وايتلام، وأخيراً وجد القس المفوض من الرب والملك جورج كي يعلنهما زوجاً وزوجة.

طلب نيكول السماح له بالبقاء في نيو ساوث ويلز كي يعمل كرجل حر إلى أن تنتهي فترة عقوبة سارة وبعدها يعود بها إلى الوطن. وكانت هناك حاجة شديدة إلى العمال المهرة هناك. ولكن «ايتكن» قبطان الليدى جوليان ما كان ليحله من تعاقده. فقد كان نيكول قد وقع في لندن على رحلة لجلب الشاي. وإذا سمح له بالبقاء، فكم غيره سيرغبون في الشيء نفسه؟ وكان عقد الشاي الذي وقعه القبطان يشترط وصوله كانتون بحلول الخامس عشر من يناير ١٧٩١، وإذا نقص عدد رجاله فسيتعرض لخسارة عمولة مجزية.

وفي الوقت الذي كان نيكول يتشاجر فيه، تحسن الموقف تحسناً كبيراً في خور سيدني. ففي الحادي والعشرين من يونيو قطرت سفينة المؤن جوستنيان إلى خور سيدني. وكانت قد قطعت المسافة من لندن في خمسة أشهر وأنقذ وصولها المستعمرة. وفي نهاية الشهر جاءت إشارة تدل على رؤية شراع آخر. ولا يمكن أن يكون سوى شراع نبتون أو سكاربره أو سربرايز، وهي سفن سجون كانت تحمل بعض المساجين والعشاق والقوادين وأزواج شحنة الليدى جوليان.

وقضت النساء في خور سيدني الليلة في إعداد أنفسهن قبل قطر السفن التي وصلت حديثاً إلى داخل النهر. إلا أن آمالهن السعيدة سرعان ما تحولت إلى رعب. فقد أمضت أطقم السفن شطراً كبيراً من الليل في رفع جثث المذنبين الذين ماتوا في محبسهم وإلقائها من عليها. وظل البحر عدة أيام يلقي بالجثث في المناطق المحيطة بخور سيدني، وكانت الأيدي لا تزال مقيدة.

ومن بين المذنبين الذين كانوا على متن نبتون وسكاربره وسربرايز نجا ٧٥٩؛ ودفن ٢٧٣ في البحر أو ألقيت جثثهم من عليها بعد وصولها، وها هم ٤٨٦ من الناجين الذين تم إنزالهم في حالة من المرض الشديد، بحيث لا يمكنهم رعاية أنفسهم.

كانوا يدلون بالأجسام المحتضرة كريهة الرائحة من على الأسطح إلى القوارب المنتظرة أسفلها. وكانت الصنادل تسير إلى مسافة قريبة من الشاطئ يمكن عندها خوض الماء، وكان المجدفون يقفون ويرفعون المذنبين فوق الجوانب ويعودون لأخذ المزيد. وغرق عدد منهم. وسقط الذين أمكنهم الزحف حتى الشاطئ أكواماً تئن.

دفع الحاكم بفرق الإنقاذ. ونزل الناس إلى الماء لسحب رفاقهم إلى الشاطئ، وقام الحدادون بكسر القيود على الشاطئ، إلا أن كثيراً من الناجين عجز عن المشي على عضلات ضمرت نتيجة لشهور فى الأصفاد. وحمل الأصحاء المرضى على ظهورهم إلى المستشفى. ويبدو أن الأمر استمر ساعات ـ فقد تلت حمولة القارب من الرجال والنساء الأخرى وكانوا لا يقوون على النظر إلى الضوء وكانوا على قدر كبير من القذارة والتشويه بحيث لم يمكن التعرف حتى على الأحبة والإخوان.

اندفعت نسوة الليدى جوليان إلى الشاطئ وقلبن الجثث وطلبن معلومات ممن لم يمكنهم الرد عليهن. بل إن المذنبين أنفسهم لم يكونوا يعرفون من خرج من المحابس حيّا ومن ألقى به من على جوانب السفن داخل كيس. وكان لا بد من مرور أيام ليتضح من الذى نجا.

لم يتمكن مستشفى المعسكر من التغلب على الأمر. وأشعلت النيران ووضعت فيها الأسمال التى تجلدت بفعل القاذورات البشرية. ولف المرضى العرايا بالبطاطين لحين صنع ملابس لهم. وأرسل الرجال إلى داخل الأحراش، يحرسهم جنود البحرية من السود المعادين، للتزود من جديد بإمدادات من نبات الآس ضد الدوسنتاريا التى اكتسحت المعسكر.

فى خضم هذه الفوضى، كانت بعض النسوة من الليدى جوليان يحددن مستقبلهن بهدوء. فقد بدأت الروابط التى بينهن وبين صحبة السفينة تضعف، وبدأت روابط جديدة فى الظهور بين النساء ورجال المستعمرة.

وسرت شائعة مفادها أن معظمهن سيرسل إلى جزيرة نورفولك، وهى مستعمرة تبعد ألف ميل وأكثر انعزالاً من تلك التى وصلن إليها للتو. واللائى سيبقين على البر الرئيسى هن من لهن أحد يدافع عنهن، كان يكون مخدوماً أو سيداً، أو زوجاً يقتضى عمله بقاءه فى سيدنى، أو جندى بحرية يتعاطف ضباطه مع طلبه للاحتفاظ بعشيقة.

وكانت للمسئولين نظرة نفعية تجاه نساء المعسكر، وإن كانت فى الغالب نظرة مشوبة بالتعاطف: فقد كن فى الأساس كتلة لا فرق بينها من الأفواه والأرحام. ذلك أنه جيء بهن من إنجلترا للنوم مع حراس المعسكر وحمل أطفال للمستوطنين الذكور.

ومن الممكن أن نستنتج من خلفية ومهن الرجال الذين تزوجوا عرائس المرسى فى شهرى يونيو ويوليو أن الحاكم جاد على الرجال الذين أراد إبقاءهم فى المستعمرة بشىء من حمولة الليدى جوليان. ونجد أن من بين النساء اللائى تزوجن فى نهاية شهر سبتمبر من تزوجن مذنبين ارتقوا مناصب على قدر من المسئولية، بينما تزوج البعض الآخر رجالاً على علم بالزراعة.

وبحلول أواخر شهر يوليو، كانت الصيانة قد أجريت لليدى جوليان تمهيداً لرحلتها شمالاً إلى كانتون. وها هى تخرج من النهر لتقضى أيامها الأخيرة فى المستعمرة حيث يجتمع شمل البحارة و«زوجاتهم» على متنها.

ولم يكد نيكول يغادر أكواخ خور سيدنى. وهو يقول بعد ذلك بثلاثين سنة: «أية لحظات يمكننى توفيرها كنت أهبها لسارة. فقد كانت الأيام تجرى على عجل، وكنا نمقت ساعة الفراق».



ويبدو أنه سُمح للزوجات بالعودة إلى متن السفينة فى الليالى القليلة الأخيرة فى الميناء، كما سمح للرجال بالنزول على الشاطئ بالنهار. وربما ظن الضباط أن هذا سيخفف من حدة الموقف، إلا أن الأمر لم يكن كذلك. فقد كان على متن الليدى جوليان أزواج عاشوا مع بعضهم ما يربو على السنة، وأصبح منهم الآباء؛ كما بات الذين يربطهم الجنس عشاقاً. وإذا كانت نية القبطان ايتكن عند الرحيل هى إرضاء رجاله بالسماح لهم بالنوم مع المذنبات، فقد كانت لتلك الاستراتيجية نتيجة عكسية، حيث كان لا بد من ترك النساء فى خور سيدنى.

وكان ايتكن قد سمع عند التوقف فى كيب تاون من أحد ضباط السفينة باونتى ـ وهو الربان فراير ـ رواية تتعلق بالتمرد الذى وقع على متنها. فقد تمرد رجال فراير لكى يبقوا مع نسائهم فى تاهيتى. وكانت أعمالهم البطولية معروفة لرجال الليدى جوليان الذين أخذت التماساتهم تتحول إلى مطالب. ووضعت خطط جنونية فى الأيام الأخيرة لليدى جوليان فى خور سيدنى لإخفاء النساء فى السفينة، إلى أن يبحروا شمالاً مسافة يستحيل معها الرجوع.

وفى حديث غاضب من العنبر الأمامى بالسفينة، ناشد ايتكن الحاكم فيليب تقديم العون. وفى ليلة الرابع والعشرين من يوليو، لم تكن النسوة راغبات فى مغادرة السفينة، ولم يكن الرجال موافقين على النزول إلى الشاطئ، وأرسل جنود البحرية إلى السفينة، ووسط دفع جنود البحرية وشتائمهم وصراخ الأطفال، ودع نيكول زوجته وابنه. «تبادلنا القسم فقد أقسمت هى أن تظل على إخلاصها، ووعدتها أنا بالعودة عند انتهاء فترة عقوبتها، وإحضارها إلى إنجلترا». أعطاها كتابه المقدس. وكتب اسمه واسمها واسم الطفل على الصفحة الأولى، ثم دفعوا به إلى الصندل وفرق بينهم الزحام عند خط منسوب المياه.

وفى الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٧٩٠، ترك نيكول سارة وايتلام وأبحر بعيداً. وفى اليوم التالى تزوجت رجلاً غيره. ولكى تحقق الدور المرسوم لها عندما حُكم عليها بالنفى إلى مستعمرة اعتقال، أصبحت زوجة مذنب ناجح كان يقضى فترة عقوبته.

لم يعرف نيكول قط بهذا الأمر. فقد أمضى عشر سنوات محاولاً العثور عليها من جديد، وظل يتحدث وهو بحار عجوز، بعد الحرب والمغامرات فى أنحاء العالم، عن حبيبته المذنبة فى خور سيدنى التى يصعب عليه إدراكها. ■

ترجمة: أحمد محمود

من كتاب The Floating Brothel (الماخور العائم)
Sian Rees
London: Headline, 2001, 248PP.



كتاب الزاوية

الأغانى الشعبية فى صعيد مصر

غناء العرب ـ البدو

مالك ومال الهوى يا ابو خَلَقْ (ثياب مهترئة) دايب
تعشق بنات العرب وانْتَ كبير شايب
وانْ هَبْت الريح قلت لَمِرْكبى سيرى
وانا اصْبر صَبْر الخشب تحت المناشيرى
ناديت يا طير يا طير بحقّ السمّا العالى
تلمّ شملى وتجمعنى على الغالى
يا حارس الكرم يكفيك النُوم فى ضلّه
أكلت الرُّطَب وبقّيت الحنش (البلح الذى لا يؤكل) كلّه

* * *

لو كنت يا حلو تربُط على الرِّفَقْ وتدوم
لانصب لك روايه ومن تلا الروايه رقوم (أهداف)
لو كنت يا حلو بالمقسوم تقسم لى
لاذبح جمال صاحْبى واتنين من زُمَلى (الزملاء)
قالوا السلام بالأيادى قلت أنا بعينى
من يوم ماشفتك عرفت انك غريب بلادى
ماشى مطّاطى ولا لكْ فى الفريق أحباب
وصَّل سلام صاحبى يا عارفين داره
سلّم عليه بالنسيم لِتَلاّ يسمعك جاره
لو كان ودَّك بنات البدو يهْوَنَّك
جُرْ المناسم (مصاحن البن) وشيل البُن فى كُمّك
أربع غزالات والقانص غَلَبْتَه
ما ترك الصّيد غير اللى شبع منّه

عــــــــروض مــــــوجــــــزة

كتب عربية

الحق يخاطب القوة

المحرر: بول بوفيه

ترجمة: فاطمة نصر

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠١، ٣٦٠ صفحة



خاض إدوارد سعيد حربه على جبهتين، عدو رئيس اغتصب أرضًا وادعى امتلاكه حقوقًا تاريخية فيها، وسلطة وطنية قنعت بالقليل في اتفاقيات جائرة ومجحفة، ومارست قدرًا غير قليل من الاستبداد والفساد السياسي فور استوائها على سدة الحكم.

ومنذ اتفاقيات أوسلو ومدريد، أعلن سعيد رأيه بصراحة: لا حل وفق هذه الاتفاقيات، ولا نجاح لصيغة دولتين فوق أرض واحدة، إحداهما تمتلك عمليًا مقومات الدولة ونفوذها، والأخرى تفتقد كافة تلك المقومات.

وكان صوت سعيد الذى يطل على الجمهور الغربي - خصوصًا الأمريكي - عبر وسائط إعلامية مقروءة ومسموعة ومرئية، هو المكافئ لحالة الكذب الدائمة التى يمارسها اللوبى اليهودى عبر هذه الوسائط، ونجح فى أن يوجه النظر إلى زاوية أخرى فى المأساة، هى ما يعانيه الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال، وقد اعتاد هذا الجمهور أن يتعامل مع القضية من زاوية عرجاء بائسة: ثمة دولة إسرائيلية تعانى إرهابًا وقلاقل بسبب «حفنة» من المقيمين على أرض هذه الدولة، يدّعون أن لهم حقوقًا فيها، تصل إلى حد إقامة دولة مستقلة.

يقول سعيد بوضوح - كما يبدو فى مواضع عدة من الكتاب الذى يشتمل على لقاءات تمت معه أو ندوات أُقيمت له أو كتابات تحليلية لآرائه - إن تاريخ الفلسطينيين مرتبط بتاريخ اليهود بشكل لا فكاك منه.. «لدرجة أن فكرة الفصل برمتها والتى تتمحور حولها عملية السلام، أى أنه يوجد شىء فلسطيني وآخر يهودى محكوم عليه بالفشل، فلا يمكن أبدًا أن تنجح».

ينتقد سعيد نظام العزل العنصرى الذى تسعى إسرائيل إلى ترسيخه فى فلسطين، ومحاولات الإبادة التى تحاكى بها ما فعله الأمريكان بسكان أمريكا الأصليين، وبدا الأمر بسيطًا إلى حد السذاجة.. «ضعوهم فى محميات أو أبيدوهم وستنتهى المشكلة».

الجانب المهم أيضًا فى محاورات إدوارد سعيد التى يتضمنها الكتاب هو تحليله المجال الأمريكي العام ودور اللوبى اليهودى داخله، حيث يتم إقصاء أى ناقد للترتيبات المفروضة على الفلسطينيين بوصفه عدوًا للسلام أو فى أقصى الحالات، بوصفه متعاطفًا مع «الإرهاب الإسلامي البشع». لكن الكتاب يتضمن أيضًا بعضًا من اهتمامات إدوارد سعيد خارج المجال السياسي، ويكشف عن ولعه الشديد بالفنان الإسباني جويا الذى جُذب إليه لعدائه المستمر للسلطة والاستعداد للوقوف منها دومًا باعتبارها شيئا يغلفه التظاهر (...) تكسو نفسها بأفضل الثياب ولا يهمها سوى مصلحتها الشخصية».

وكذلك شغفه بـ«الجريكو» خصوصًا مشاهده الساكنة. وتلقى المحاورات أضواءً على عشقه التاريخي للموسيقى عازفًا ومؤرخًا، كيف بدأ اهتمامه بالموسيقى فى سني حياته الأولى، وكيف انعكست على كتاباته النقدية فى الأدب المقارن والسياسة والثقافة عمومًا، باختصار.. ثمة رؤية شاملة عن إدوارد سعيد الشخص والناقد والمفكر تقدمها محاورات الكتاب.

□ □ □

الفلسطينيون.. صيرورة شعب

باروخ كمرلنغ ويوئل شموئيل مغدال

ترجمة: محمد حمزة غنايم

رام الله: مدار، ٢٠٠١، ٤٥٠ صفحة



يقدم هذا الكتاب رواية مختلفة عن الصراع العربي الإسرائيلي، وقد صدرت طبعته الإنجليزية عام ١٩٩٣، ومؤلفاه معروفان فى مجالهما باعتبارهما من أبرز الباحثين، وهما يبحثان فى هذا الكتاب تاريخ الفلسطينيين منذ ما قبل وجود هوية وطنية فلسطينية وحتى اليوم، ويضيفان إلى الطبعة العبرية التى تمت ترجمتها إلى العربية فصلاً جديدًا عن الشعب الفلسطيني بعد اتفاقات أوسلو، ويتوقف المؤلفان عند خطوط التماس بين المشروع الوطني الفلسطيني ومشروعات الاستيطان الصهيوني فى فلسطين قبل عام ١٩٤٨ وبعد إقامة دولة إسرائيل.

يطرح المؤلفان سؤالاً بالغ الأهمية يجيبان عليه بالإيجاب وهو أنه لا يمكن فهم المجتمع الإسرائيلي دون معرفة تاريخ الفلسطينيين، ويحلل الكتاب المحن التى مر بها الشعب الفلسطيني على مدار ١٥٠ عامًا، ويفسر أسباب نجاحه أو فشله فى الخيارات التى طُرحت أمامه مشيرًا إلى بعض الانعطافات المهمة فى تاريخه، كما يبحث فى حياة ساكن السهل الفلسطيني وسيرة الفلاح الفلسطيني ويحكى كذلك عن المثقفين والكتاب. ويرى المترجم أن أهم ما عالجه الكتاب هو ما جاء فى فصله الخامس تحت عنوان أبعاد النكبة، حيث يحلل المؤلفان أسباب نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ونتائجها، حيث تحولت أكثر من ٣٥٠ قرية وحيًا إلى أثر بعد عين، وهجر السكان مدنهم وقراهم، وسيطر على الفلسطينيين شعور حقيقي بأنهم ضحايا مؤامرة كبيرة وظلم تاريخي مازال يهز النظام العالمي، ويؤكد المؤلفان أن النظام الأخلاقى العالمي كله لن يعود إلى سابق عهده، إلا إذا عادت الأمور فى فلسطين إلى ما كانت عليه قبل نكبة ١٩٤٨.

ويشير المؤلفان إلى انهيار المجتمع الفلسطيني ككيان سياسى واجتماعى عندما بدأت العصابات اليهودية المسلحة عملية طرد جماعي للسكان العرب من داخل حدود ما صار فيما بعد دولة إسرائيل: إذ تم طرد نحو ١٠٠ ألف فلسطيني خلال عشرة أيام فقط إلى خارجها.

المهم أن الكتاب يطرح رؤية مغايرة، بل متعارضة مع الروايات الصهيونية الرسمية التى بحثت فى تاريخ الصراع منذ الاحتلال وحتى اليوم.

□ □ □

كيف نحمى دارنا؟

سميرة نعيم خورى

رسوم: حلمى التونى

بيروت: دار الحدائق بالتعاون مع المنظمة الفلسطينية لحقوق الإنسان، ٢٠٠١



فى مواجهة احتلال فاشى وآلة عسكرية باطشة لا تعرف الرحمة، يمسك أطفال فلسطين بالحجارة، يقذفونها بعزم أياديهم الصغيرة ذودًا عن ديارهم وطيورهم وبساتينهم ومستقبلهم على هذه القطعة من الأرض التى لم يعرفوا لهم وطنًا غيرها.

فيما يشبه التحية والنصيحة فى آن معًا يأتى هذا الكتيب للأطفال ليخاطبهم بكلمات بسيطة ورسوم تحمل بصمات فنان كبير عن معنى الوطن، عن ضرورة الدفاع عنه والاستبسال فى سبيله، عن مقاومة الظلم والاستمساك بالحقوق مهما كان البون شاسعًا بين أسلحتنا وأسلحة العدو، تقول القصة فى جمل بسيطة تلغرافية: القطة لها مخالب لتدافع عن حالها، النسر عنده منقار ليدافع عن حاله، الكلب عنده أسنان ليدافع عن حاله، النحلة لها لسعة لتدافع عن حالها، والوردة عندها أشواك حتى تحمى حالها، الفيل عنده خرطوم ليدافع عن حاله، الحية عندها سم لتدافع عن حالها، وأنا وأنت والأطفال كيف نحمى حالنا.. وندافع عن دارنا؟

وتعطى رسوم حلمى التونى الإجابة: بالمقاومة.. بالمقاومة.

□ □ □

الثقافة العلمية والقيم الإنسانية

سمير حنا صادق

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠١، ١٣٠ صفحة



فى مجتمعات نامية كمجتمعاتنا، تجد الخرافة أسانيدها عند مرافئ شتى، وتسبح وحوش الغيبيات فى أنهار كالحة، يختلط فيها الديني بالأسطوري بالقيمي بالموروث فى مزيج عصى على التآلف، تلزمه عملية «قسطرة» وتنقية تعيد الموارد إلى مكوناتها الأولى وتفرز من بينها الصالح والطالح. والثقافة العلمية، هى الأقدر على مقاومة ثقافة الخرافة، والتفكير العلمى هو المناهض للتفكير الغيبي الذى يقصى العقل ويقزم طاقاته، وينحى جانبًا مقولة الإمام الغزالي: العقل نور والشرع النوع وكلاهما معًا نور على نور.

والمؤلف هو مقرر لجنة الثقافة العلمية بالمجلس الأعلى للثقافة فى مصر، له نحو خمسة عشر كتابًا كلها فى العلم والثقافة العلمية، وجمع فى كتابه هذا عددًا من الدراسات التى نشرت فى المجلات والصحف فى محاولة منه لتعميق التوجه نحو الثقافة العلمية فى عالم يجتاز ثورة المعلوماتية نحو ثورة جديدة فى المعلومات البيولوجية، وقد بات مؤكدًا الأدوار بالغة الخطورة التى ستلعبها الخريطة الجينية فى مستقبل البشرية، وهدفه هو تهيئة مناخ مجتمعى مستعد للتعاطى مع تلك المتغيرات المهمة والانقلابية فى آن معًا.

ويعطى المؤلف اهتمامًا خاصًا باللغة بوصفها الوعاء الذى تصب فيه الفكرة، فاللغة عنده هى وسيلة التفكير الراقى، وهى كذلك كائن حى متطور تعبر عن الفكر السائد فى مرحلة زمنية معينة، فإذا عرفنا - يقول المؤلف - إن المعرفة تتضاعف مرة كل ٨ أشهر، وأننا متخلفون

عـــــروض موجـــــزة

بحوالى ٤٠٠ عام عن ركب العلم، وعلينا أن نقطع هذه القرون الأربعة فى عقد واحد وإلا سقطنا من التاريخ، .. «إذا عرفنا ذلك كله قدرنا مسئوليتنا نحو التفكير العلمى ونحو اللغة».

ويشير المؤلف فى دراسة أخرى إلى المخاطر التى تواجهها العلوم الحقيقية من العلوم الزائفة، حيث يقابل علم الفلك بعلم التنجيم ويواجه علم الأحياء بأحاديث عن الوحوش الغريبة، وتواجه الجيولوجيا بحكايات عن القارات المختفية وعلوم الفضاء بقصص الأطباق الطائرة وزوار الفضاء.

فكيف يميز إذن الشخص العادى بين العلم النافع والعلم الزائف؟

يقدم المؤلف وصفة مهمة أو مجموعة من الأسلحة للمواجهة، أولها: إخضاع الزعم لتجارب التكذيب، أى أن ينشر ما يُظن أنه علم فى دوريات علمية محكَّمة ليرد عليه العلماء المتخصصون ويثبتوا صحته أو كذبه، وثانيها: إخضاع هذا العلم للتطبيق ومتابعة تطوره التطبيقى، وثالثها: هو المنطق وكى لا يصور العلم بوصفه معاديًا للقيم والدين، يطالب المؤلف عند اتخاذ خطوات مهمة فى تطبيق العلم بالاستعانة إلى جَانب العلماء المتخصصين بالمخلصين المستنيرين من علماء القانون والاجتماع ورجال الدين، كى لا يحرم بعض الناس من ثمرات العلم تحت شعارات زائفة تتمسح بالدين والتقاليد.

□ □ □

مهرجان الحيوانات

نزيه جرجس

رسوم: سلمى كمال

القاهرة: الناشر، نزيه جرجس، ٢٠٠١

فكرة الكتاب الذى تقدمه الدكتورة نادية مكرم عبيد وزيرة الدولة لشئون البيئة تستحق الإشادة، فهى تحيل الآلات الموسيقية إلى ما يناظرها من أصوات الحيوانات اعتمادًا على تلخيص لأربعة عشر عملا موسيقيا للموسيقار الفرنسى تشارلز كاميل سانت سون لمصاحبة النص الذى يقدم ثقافة موسيقية رفيعة، وثقافة بيئية تعلِّم الطفل كيفية الحفاظ على بيئته وأهمية هذا السلوك.

وقد اختار الموسيقار الفرنسى آلات الفيولا والكمان والتشيلو والكونترباص والفلوت والكلارنييت والإكسيليفون والبيانو.

وقد أخذت كل آلة دورًا داخل مهرجان الحيوانات، فالكمان بوصفها أصغر الآلات الوترية وأعلاها صوتًا تقوم بدور الدجاج ونهيق الحمار والفيولا تمثِّل الأسماك، والتشيللو البجعة والكونترباص يلعب دور الفيل، ويقدم لنا الفلوت الطيور وهى تنادى على بعضها والكلارنيت صياح الديك العالى وصوت الطاووس، أما البيانو فتجرى على أنغامه النعامة بسرعة وكذلك يعبر عن حركات الزراف وزئير الأسد، ويعبر الإكسيليفون عن قفزات القرود.

أما تفاصيل الحكاية داخل مهرجان الحيوانات، فتقوم على توزيع الأدوار بينها جميعًا المخلفات من الغابة وكيفية إعادة تدوير وإعادة تصنيع بعضها، وكيفية دفن الباقى فى حفر عميقة تحت الأرض تسمى «مدافن محكومة»، وكيف يمكن أن تساهم كل الحيوانات والطيور، وكيف صارت الحديقة بعد تنظيفها وتنسيقها، مكاناً جاذبًا لكل الحيوانات والطيور التى آثرت العيش فى بيئة نظيفة خالية من كل أشكال التلوث السمعى والبصرى والتنفسى.

□ □ □

الماضى الخرافى.. التوراة والتاريخ

توماس طمسن

ترجمة: عدنان حسن

دمشق: قدس للنشر والتوزيع ٢٠٠١، ٦٢٠ صفحة



منذ البداية، اختلق اليهود الأكاذيب كى يمنحوا الصهيونية بوصفها أيديولوجية سياسية عنصرية قدسية من نوع ما، عبثوا بالتاريخ وبعلوم الآثار وبالكتب المقدسة، كى يؤكدوا تلك الأكاذيب من نوعية «الأرض الموعودة» و«شعب الله المختار» و«الأغيار» وغيرها. ووجدوا قوى عالمية لديها استعداد لتصديق تلك الأكاذيب وربما تروجها لأسباب مصلحية خاصة، وللتخلص من «مشكلة يهودية» تؤرقهم بتصديرها إلى منطقتنا، ومنطقى أن يفند

الأمة والدولة

بيان تحرير الأمة

رفيق حبيب

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ٢٢٠ صفحة



يواصل المؤلف فى هذا الكتاب ما بدأه فى كتاباته السابقة: التى يمكن النظر إليها إجمالاً بوصفها مشروعًا متكاملاً عنوانه الكبير «تحرير الأمة»، وهو المشروع الذى صاغ خطوطه العريضة فى المؤلف الذى حمل عنوان «أوراق حزب الوسط».

وكانت دلالة الوسط واضحة ومباشرة: موقع حضارى للأمة يرفض الاستلاب والانسحاق التام أمام النموذج الحضارى الغربى، بالدرجة ذاتها التى يبعد بها عن صيغ التطرف والإرهاب الفكرى باسم الدين.

ويجنح إلى ما يمنح هذه الأمة خصوصيتها وتميزها وتحقق نهضتها، استنادًا إلى المنابع النقية الأصيلة فى الحضارة العربية الإسلامية فقهًا وتشريعًا ومعاملات.

والمؤلف أكد فى كتاباته السابقة - كما فى هذا الكتاب - أن «النهضة لا تبدأ إلا بالأصالة ولا تبقى إلا بالتجديد».

المؤلف هنا لا يستعير موقف «التماهى الكلى» المنبهر بالغرب كما كانت حالة سلامة موسى مثلاً أو طه حسين فى مرحلة أولى، رأى فيها أن الأمة لن تتقدم - كما عبر عن ذلك فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» - إلا إذا احتذت النموذج الغربى تمامًا وصرنا غربيين فى كل شىء.

كما لا يتعاطف مع مواقف الرافضين للنموذج الحضارى الغربى برمته بوصفه شرًا مستطيرًا: هو يحاول أن يتخير موقعًا وسطًا يتواصل فيه مع جذوره الحضارية الإسلامية بحيث تصبح هى المرجع عند كل قياس، مميزًا.. ما يمكن أن نطلق عليه «نقل نموذج» و«استلهام تجربة»، فالنقل أيًا كان مصدره هو عملية تقليد، أما التعلم من تجربة فهو عملية نهوض وابتكار بحسب قوله.

ويبدأ المؤلف مما يمكن أن يميز النية الاجتماعية للأمة العربية الإسلامية، والتى تحتل فيها الأسرة موقع النواة، وهى فى المفهوم الإسلامى كيان مترابط يجعل البناء الاجتماعى للأمة كله وحدة غير قابلة للانفصال، وهو مفهوم لا يتوفر بالدرجة ذاتها فى البناء الاجتماعى الغربى، ولذلك فهو يرى أن للأسرة دورا مهماً فى هذه المرحلة الانعطافية، إذ تعيد إنتاج هوية الأمة وقيمتها.

«فالنهضة الحقيقية تحتاج إلى دور الأسرة لتكون هى الحاضنة للتجديد الحضارى»، ويعطى المؤلف أهمية كبيرة لحالة الجماعة وقدرة التكوينات الجماعية سواء كانت جمعيات أو حركات سياسية أو دينية أو مؤسسات أهلية على تحقيق النهضة المنشودة.

ويميز بوضوح بين الجماعة والطبقة والحزب وحالات الصراع داخل كل منها، وينتهى إلى أن الأولى فقط هى الأقدر على تمثيل النهضة وتحقيقها. إذ لا يعد الصراع الطبقى وعمليات الصعود والهبوط فى إطاره شرطًا للنهضة أو من دلائلها، كما أن الطرح السياسى الذى تقدمه الأحزاب لا يحظى باهتمام شعبى يحيله إلى واقع يمشى على قدمين.

وما يدعو إليه المؤلف هو «تطوير البناءات الفاعلة فى حياة الناس لتاتى معبرة عن نمط الحركة الجماهيرية وسببًا فى تقوية الحراك الاجتماعى المحقق للنهوض»، وفى هذا الإطار يسهب فى تناول المؤسسات والجماعات، وحدود التقاطع والتوازى بينها سواء فى صيغتها الرسمية أو الأهلية.

ويقود هذا كله إلى المفارقات بين الدولة والأمة، والأولى تسعى إلى تسييد توجهاتها التى ربما كانت مستوردة بالكامل، بقوة أجهزتها وسلطاتها الأمنية والعسكرية وقوانينها الإدارية، أما الثانية: فتوجهاتها نابعة من إجماع الناس واتفاقها سواء كان ذلك حول قيم دينية أو عرف اجتماعى، وهو ما يفسر رغبة الناس فى التمرد على الأولى، وقبولهم الراضى لقيود الثانية، ويناقش المؤلف فى هذا الإطار فكرة الشرعية والشورى والبيعة والانتخاب والاختيار والاتفاق والإجماع وغيرها، وينتهى إلى أن التراجع الحضارى كان سببًا رئيسيًا فى ظهور الدولة القابضة، ومع التطور والازدهار الحضارى ستختص الدولة القابضة أو سيتقلص دورها لحساب الأمة التى تحمل ضمن مكوناتها الأصلية موروث النهضة.

عماد الغزالى

عروض موجزة

بعض المنصفين من المؤرخين والكتاب السياسيين هذه الأكاذيب، ويفضحوا زيفها. وهو ما يفعله المؤلف الذى يرى أن الاهتمامات الأثرية التى أيقظتها غزو جيوش نابليون للشرق. أعادت النظر فى مكانة التوراة ضمن تاريخ الشرق الأدنى القديم، وشهد القرن العشرون تطورات نقدية لكيفية فهمها باعتبارها شكلاً من الواقعية الساذجة كما يسميها المؤلف، ويقترح المؤلف بديلاً لهذه الرؤية، رؤية أخرى تمنح مكانة أكبر للصفة التاريخية والأسطورة لما يرد فى التوراة. إنه يحاول أن يقرأ «الكتاب» بناء على لغته الخاصة، وهى رؤية تمنحه قدرة على التمييز بين الأسطورى والتاريخى، وتضع الخرافى والميثولوجى فى موضعه الطبيعى، كى لا يتحول.. وهو ما فعله اليهود دوماً - إلى تاريخى ودينى.

وفى القسم الثانى من الكتاب يقدم المؤلف فكرته عن نوع المعرفة التاريخية التى تعامل بها الأكاديميون مع موضوع فلسطين القديمة، ويقارن هذه الفكرة بما قدمه الأثاريون الكتابيون عن موضوع إسرائيل، وحقيقة الدور الذى لعبه الإله «يهوه» واختلاف هذا الدور كما توضحه نقوش الشرق الأدنى وكما يسرده الأحبار فى قصة النبى موسى وبدايات دولة إسرائيل.

إن القصة كما يحكيها «الكتاب» تدور حول إله بلا وطن أو شعب اختار شعباً مثله بلا وطن أو إله، وبدا أن ثمة قدرا من التوحد بين هذا الإله وهذا الشعب الشريد، وهكذا نشأت إسرائيل ووجود شعب إسرائيل، ويرى المؤلف فى حكايات الكتاب تشابهاً مع حكايات تراثية قديمة جمعت من مصر وبلاد ما بين النهرين وفينيقيا، ما يجعل المعرفة التاريخية التى تقدمها التوراة متشظية ومفككة ولا تقيم بنياناً، وهو ما يقوّض دعاوى الصهيونية القائلة بالحقوق التاريخية وتميز اليهود الساميين من أساسها.

□ □ □

قريبًا من الكرملين

سامى عمارة

القاهرة: دار الهلال ٢٠٠١، ٢٦٠ صفحة



أكثر من ثلاثين عامًا قضاها المؤلف قريبًا من الكرملين ودوائر صنع القرار فيه، وهى فترة كافية كى يضع يده على مواطن الجرح الذى مازال ينزف، فى جسد ما كان يعرف سابقًا بالاتحاد السوفيتى، والذى ضم بين ضلوعه أكثر من ١٥٠ قومية عاشت على ما يقارب سدس مساحة اليابسة.

وقد اختزنت ذاكرة المؤلف الذى حصل على درجة الدكتوراة فى اللغة الروسية من موسكو، وعمل مراسلاً صحفيًا وإعلاميًا لعديد من الصحف والقنوات التليفزيونية، كثيرًا مما يمكن أن يقال سواء عبر متابعته المهنية ولقاءاته بمسئولين كبار فى الحزب الشيوعى السوفيتى الذى يعتبره مسئولاً عما جرى فى روسيا خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة، أو من خلال علاقات شخصية غلب فيها أكثر الطابع الإنسانى بحكم إقامته الطويلة هناك للدراسة ثم العمل.

وقد مكنته تلك العلاقات من الاطلاع على خفايا وكواليس السياسة السوفيتية، وهى الخفايا التى تكشف حقيقة ما جرى هناك ودوافعه، وهل جاءت تحولات «البريسترويكا» و«الجلاسنوست» مطابقة لمقدمات ما جرى على قمة السلطة هناك أم مغايرة لها. وكيف قاد الخلاف بين «جورباتشوف» وخليفته «بوريس يلتسن» إلى تفكيك الدولة، وخصوصًا الجدل حول المادة السادسة من الدستور التى كفلت دومًا للحزب الشيوعى احتكار السلطة، وحين ألغيت، فتح الباب لظهور تيارات وقوى سياسية وشعبية متباينة، شجعتها أطياف الديمقراطية التى أطلت على استحياء من خلف باب التغيير، على المطالبة بالانفصال، وتأججت الصراعات القومية والإثنية والدينية - ومازالت - بما أدى فى النهاية إلى انفراط عقد الامبراطورية واختفاء الاتحاد السوفيتى.

ويلقى المؤلف أضواء مهمة على الدور الذى لعبه المثقفون فيما آلت إليه الأمور، فقد سارعوا منذ البداية إلى تأييد جورباتشوف ودعموا توجهاته، وفعلوا الشىء نفسه مع غريمه التاريخى يلتسن، وكان هذا السقوط المدوى للمثقفين كما يراه المؤلف.. «مقدمة طبيعية للتحولات التى طرأت على مسيرة الصحافة التى ما كادت تحصل على حريتها بعد التخلص من براثن الدولة وأجهزتها الرقابية والحزبية، حتى سقطت فى شرك أساطين المال والأعمال ومعظمهم من ممثلى الطائفة اليهودية الذين نجحوا فى تحويل أجهزة الإعلام إلى سلعة تباع وتشترى بأبخس الأثمان».

وإلى ذلك يتناول المؤلف بعضًا من نوادر الرئيس يلتسن الذى اشتهر عنه عشقه «للفودكا» وإدمانه للمسكرات، كما يخصص قسمًا للحرب الشيشانية ويتناولها من منظور سياسى لا دينى، أما الفصل الأخير فهو عن قيصر روسيا الجديد الغامض «فلاديمير بوتن» ومواجهاته مع اللوبى اليهودى وأولوياته الخارجية والداخلية.

□ □ □

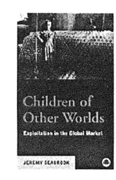
كتب أجنبية

Children of other Worlds: exploitation in the Global Market

(أطفال العوالم الأخرى)

Jeremy Seabrook

Pluto Press, 2001, £10.99



أخذ مؤلف هذا الكتاب على عاتقه الاهتمام بأطفال العالم الثالث خاصة فى الدول الفقيرة. هؤلاء الأطفال الذين يتعرضون لأبشع أنواع الاستغلال من أبناء أوطانهم ومن بعض أثرياء الغرب. وقد سبق للمؤلف جيرمى سيبروك أن أصدر كتابًا بعنوان «أسفار فى تجارة البشرة» تناول سياحة الجنس تلك التى ابتكرها بعض السياح الغربيين الذين يقومون بزيارة دول من العالم الثالث لممارسة الرذيلة مع الأطفال. وقد أمضى المؤلف شهورًا فى تايلاند أكثر دول العالم تعرضًا لهذه الظاهرة، وناقش هذه الفضيحة المشينة التى يحاول العالم التخلص منها دون جدوى.

ويناقش ذلك الكتاب أيضًا قضية البنات وربما أيضًا الأولاد الذين يتم نقلهم من دول العالم الثالث إلى الغرب لكى يستمتع بعض الشواذ الغربيين بهم.

أما الكتاب الجديد «أطفال العوالم الأخرى» فهو ليس فقط دراسة عن عمل الأطفال واستغلالهم خاصة فى بنجلاديش التى أجرى فيه الباحث معظم دراساته عن الموضوع لكنه أيضًا تذكير بالمناقشات التى دارت حول عمل الأطفال فى الغرب خاصة فى بريطانيا سنوات سابقة.

ويقارن سيبردك بين عمل الأطفال فى بريطانيا فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وبين عمل الأطفال فى بنجلاديش من خلال الأبحاث التى أجراها هناك. ويشير إلى ملحوظة مهمة، وهى أن الإسلام الذى يدين به أطفال بنجلاديش يعمل ككابح فعال ضد انتشار الجريمة والعنف على نطاق واسع بينهم أكثر مما قامت به المسيحية لدى أطفال بريطانيا الذين اضطروا للعمل فى القرن ١٩.

ويناقش الكتاب عمالة الأطفال من وجهة نظر اقتصادية بحتة، فهناك من يقول: إنه لكى تحقق دولة ما التنمية، فلابد من تشغيل جميع السكان إن أمكن ولذلك من المهم جعل عمل الأطفال شرعيا لكن المؤلف لا يوافق على ذلك مطلقًا، ثم إن دولاً مثل الهند وبنجلاديش وإندونيسيا، حيث تنتشر عمالة الأطفال، لم تستخدم العمالة البالغة لديها لكى تتوجه إلى الأطفال.

□ □ □

Spain Betrayed: The Soviet Union in the Spanish Civil War

(خيانة إسبانيا.. الاتحاد السوفيتى فى الحرب الأهلية الإسبانية)

Edited by Ronald Radosh and Mary R.Habeck and Grigory Sevostianov

Yale University Press, 2001, 537PP, $ 35.00

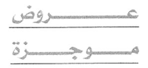


أصبح الأرشيف السوفيتى كنزاً لا يقدر بثمن بالنسبة للباحثين خاصة الغربيين منهم لمعرفة أسرار سنوات الحكم الشيوعى السوفيتى منذ قيام الثورة البلشفية ١٩١٧ وحتى انهيار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١.

وقد صدرت عشرات الكتب عن قضايا مختلفة كان للاتحاد السوفيتى السابق مواقف مهمة فيها، لكن التفاصيل التى أحاطت بهذه المواقف، والجدل الذى تفجر داخل القيادة السوفيتية لم تكن معروفة وجاءت هذه الكتب التى تعتمد أساساً على وثائق الأرشيف السوفيتى بعد فتحه للباحثين فى المعهد الروسى الجديد لتميط اللثام عن ذلك كله.

واستمراراً لهذا الاطار نشرت جامعة «ييل» الأمريكية ترجمة لحوالى ٨٠ دقيقة سرية سوفيتية تحلل الموقف السوفيتى من الحرب الأهلية الإسبانية. وكما يقول الباحثون الثلاثة الذين حرروا الكتاب فإن هذه الوثائق لا تكشف أسراراً جديدة عما هو معروف بالفعل لكنها تعطى تفهماً أكثر شمولية لمشاركة الكومنترن وهو المنظمة الشيوعية الدولية التى كانت تديرها موسكو لمساعدة الأحزاب الشيوعية فى العالم.

وتظهر الوثائق على سبيل المثال أنه منذ تفجر الحرب الأهلية فى إسبانيا عام ١٩٣٦ كانت السياسة السوفيتية تضع قناعاً على هدفها النهائى وهو إقامة ديكتاتورية بروليتارية فى إسبانيا أو بمعنى آخر القيام بما كانت موسكو قد استكملته فى وقت لاحق فى دول أوروبا الشرقية من إقامة نظم شيوعية فى هذه الدول.



ولكن في العلن كانت موسكو تطلب من الحزب الشيوعي الإسباني دعم برنامج اجتماعي معتدل إلى أن تحين الظروف المناسبة لاستيلاء الحزب الشيوعي على الحكم في إسبانيا.

ويشير تقرير رسمي سوفيتي خلال الحرب كشفت عنه الوثائق إلى أن الإعلان عن هدف خلق نظام بروليتاري في إسبانيا سيكون خطا فادحاً إلا أن التقرير يضيف: عندما تقوى مواقعنا فإننا يمكننا أن نمضي قدماً في تحقيق هذا الهدف».

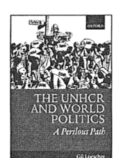
□ □ □

The Unher and world Politics: A Perilous Path

(المفوضية العليا للاجئين والسياسات العالمية طريق محفوف بالمخاطر)

Gil Loescher

OxFord University Press, 2001, £ 14.99



يمثل هذا الكتاب أول دراسة تاريخية مستقلة عن المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة. ومؤلف الكتاب واحد من أهم خبراء العالم في شئون اللاجئين، وهو يعتمد في تأليفه لهذا الكتاب على خبرة شخصية تمتد لعشرات السنين ودراسات أجراها حول جذور المفوضية العليا لشئون اللاجئين وتطورها.

ولا يكتفي المؤلف بالحديث عن ماضي المفوضية والأعمال التي قامت بها منذ إنشائها والمشاكل التي واجهتها، بل إنه يحاول استشراف التحديات التي ستواجهها خلال السنوات القليلة المقبلة والإسهام الأساسي الذي يقدمه المؤلف في كتابه هو إلى أي مدى تقاطع تطور المفوضية العليا للاجئين مع الأحداث الحاسمة التي مر بها العالم خلال الخمسين عاماً الماضية، وهل ساعدت تلك الأحداث المفوضية أم أنها كانت عائقاً أمام أداء مهمتها.

ويتحدث الكتاب كذلك عن الأشخاص الذين تولوا رئاسة المفوضية والذين يطلق عليهم اسم مفوضون وعددهم ثمانية حتى الآن، ويشير إلى أن أعمال المفوضية تضخمت خلال الفترة الماضية، بحيث تجاوزت مهمتها الأساسية وهي حماية حقوق الإنسان. ويمكن أن نعزو تضخم مهام المفوضية إلى تزايد أعداد اللاجئين الهائل إضافة إلى اللاجئين الذين بقوا لاجئين منذ عشرات السنين دون أن يتم حل مشاكلهم. ومع ذلك فإن تضخم هذه المهام لم يساعد سوى بنسبة قليلة في تسوية مشكلة تعد من أعقد المشاكل التي تواجه عالمنا المعاصر.

□ □ □

Wanderlust: Ahistory of Walking

(شهوة التجول.. تاريخ المشي)

Rebecca Solnit

Verso, £ 17, 326PP, 2001



تتناول مؤلفة هذا الكتاب موضوعاً طريفاً للغاية وهو تاريخ المشي وهو موضوع قد لا يخطر على بال كثيرين رغم أن الكل يمارسه دون أن يكون هناك تفكير حوله أو ما يحيط به. وهي تتناول أموراً كثيرة ذات علاقة بالمشي تبدأ بتاريخ المشي ولا تنتهي بالمطالبات في عديد من مدن العالم الكبرى بجعل وسط تلك المدن منطقة للمشي فقط ومحظور على السيارات دخولها. ويتحدث الكتاب عن الحجاج الذين كانوا يزورون الأراضي المقدسة في العصور الوسطى سيراً على الأقدام، وكذلك عن مسيرات ومظاهرات الاجتماع ورحلات السفر التي كان يقوم بها الاستعماريون قبل احتلال بلد معين والكتابات التي كانت بمثابة دليل لجيوش الاحتلال فيما بعد، وتحاول المؤلفة أن تربط بين الأنواع المختلفة للمشي وبين عقلية الذين يقومون بالمشي.

إن فيلسوف المشي، كما تقول المؤلفة، هو رمز بارز لعصر التنوير الأوروبي. إنه جان جاك روسو الذي اعترف في مؤلفه «اعترافات» بأنه لا يستطيع أن يفكر إلا وهو يمشي أما إذا توقف عن المشي فإنه يتوقف عن التفكير. ويستطرد قائلاً: عقلي يعمل فقط مع رجلي.

وتفرد المؤلفة مساحة كبيرة من الكتاب لما يمكن تسميته بالمشي في عصر السيارة ويقول خبير مرور إن المشاة يبقون عقبة أمام حركة مرورية سليمة.

والحق أنه في الحرب بين السيارة والمشاة فإن السيارة حققت الفوز في تلك الحرب. لكن المشاة أو دعاة حقوق المشاة كما يمكن أن يسموا يدافعون عن حقوقهم أمام هجمة السيارة وهناك من يقول إن المشي بحرية في المدن حق أساسي من حقوق الإنسان.

□ □ □

The Third Reich:A New History

(الرايخ الثالث: تاريخ جديد)

Michael Burleigh

Macmillan, £9.99, 900PP, 2001



بعد آلاف وربما عشرات الآلاف من الكتب التي تحدثت عن ألمانيا التاريخ يثور تساؤل: هل يمكن أن يكون هناك شيء لم يكتب بعد عن هذا الموضوع. الإجابة على الأرجح ستكون بلا لكن هذا الكتاب الذي أشاد به النقاد كثيراً وفاز بجوائز عدة يلقي شكوكاً كبيرة على تلك الإجابة.

إن المؤلف يضع عنواناً فرعياً هو تاريخ جديد للعنوان الرئيسي للكتاب وهو الرايخ الثالث وهو يعيد التذكير بحقائق وأفكار عن النازية غالباً ما يتم نسيانها في زحمة النقاش الأكاديمي الذي يدور في الغرب كثيراً عن تلك الفترة.

إن من بين أهم الأفكار الممتازة التي يركز عليها الكتاب أن النازية أصبحت مثل دين سياسي انتعش في ظل الفراغ الأخلاقي الذي ساد ألمانيا عقب الهزيمة في الحرب العالمية الأولى وما تلاها من عقوبات قاسية. لقد كانت النازية كارثة القرن العشرين الأشد فظاعة. ويستخدم المؤلف ألفاظه بحدة وهو لا يتورع عن القول بأن الرايخ الثالث كان نظاماً عنصرياً وإجرامياً مناهضاً للحضارة ولم يترك شيئاً للعالم يمكن الاستفادة منه. ويقول إن النازية اخترقت ألمانيا مثل السرطان.

ويطيل المؤلف في كتابه الذي يبلغ ٩٠٠ صفحة، الحديث عن الفئات التي وقفت ضد هتلر، ويشير إلى أن هناك أوهاماً تحولت بمرور الوقت إلى ما يشبه الحقائق حول دور الطبقة العاملة أو الشيوعيين الألمان في مقاومة نظام هتلر، ويرى أن ذلك لم يكن بالدرجة التي حاول الشيوعيون بعد ذلك تصويرها.

إن التاريخ حسب المؤلف ليس ماضيا فحسب بل هو حاضر أيضاً وأحداثه تتكرر مع بعض التعديلات.

وقصة الرايخ الثالث تذكر العالم بما يمكن أن يترتب على إحباط شعب وتنامي روح العنصرية ومعاداة الأجانب لديه. وأحدث مثال لذلك حكم ميلوسيفيتش في يوجوسلافيا.

□ □ □

Servants of the People
The Inside Story of New Labour

(خدام الشعب ..قصة حزب العمال الجديد)

Andrew Rawnsley

Penguin, £7.99, 2001

ما الذي يحرك الوزراء عند أداء وظائفهم؟ ما هي دوافعهم؟ هل المصلحة الوطنية كما يقولون دائماً أم المصلحة الذاتية أم كلاهما؟

في هذا الكتاب يحاول الكاتب السياسي البريطاني أندرو رونزلي أن يقدم مجموعة من الإجابات الممتعة والجريئة وأيضاً الأقرب للدقة لما يحدث داخل حكومة حزب العمال البريطاني الحاكم، والذي فاز بالانتخابات البرلمانية في يونيو الماضي للمرة الثانية على التوالي. لقد تحدث المؤلف مع اللاعبين الرئيسيين في الحكومة. وكان له عدة لقاءات مطولة مع رئيسها توني بلير. وقد تمكن رونزلي من استخدام المعلومات التي حصل عليها بشكل جيد وممتع وفعال، واستطاع أن يعيد تركيب ما حدث داخل حكومة بلير عند اتخاذ قرارات هامة اعتماداً على المعلومات التي حصل عليها.

ورغم أن المؤلف يبدو متعاطفاً مع الأهداف التي سعت الحكومة إلى تحقيقها إلا أنه يهاجم بضراوة الغرور الشديد وتصاعد «الأنا» عند بعض الوزراء. كما أنه ينتقد بعمق وقوة عدم تعامل بلير بشكل كفء وكاف مع فضائح الفساد المالي التي تورط فيها بعض وزرائه مع العلم أن بلير عندما جاء إلى الحكم عام ١٩٩٧ أكد أن حكومته ستكون أنصع من البياض نفسه وذلك رداً على الفساد الواسع النطاق الذي استشرى بين صفوف حكومة المحافظين.

ويشير الكتاب إلى أن الأحداث الكبيرة المفاجئة هي التي تكشف قدرة أي حكومة وأي رئيس للحكومة. وفي هذا يتناول تعامل بلير مع أزمة خارجية مثل حرب كوسوفا عندما اتخذ رئيس الوزراء البريطاني موقفاً متشدداً للغاية لصالح شن الحرب على يوجوسلافيا لدرجة أن البعض قال إنه تصرف كما لو كان رئيس وزراء الامبراطورية البريطانية.

□ □ □

آثــــار

Palestine Twilight: The Murder of Dr. Albert Glock and the Archaeology of the Holy Land

(الفجر الفلسطيني: مقتل الدكتور ألبرت جلوك وعلم الآثار في الأرض المقدسة)

Edward Fox

Harper Collins, 2001, 227pp, £ 19.99

في التاسع عشر من يناير عام ١٩٩٢ أغتيل الدكتور ألبرت جلوك عالم الآثار الأمريكي أمام منزل في الضفة الغربية المحتلة. ثم تبادل الجانبان الفلسطيني والإسرائيلي تهمة ارتكاب هذه الجريمة.

في هذا الكتاب يقوم الصحفي الأمريكي إدوارد فوكس بنشر تفاصيل البحث التحقيقي الذي قام به حول الظروف المثيرة لهذه الحادثة. ويبين لنا كيف اكتشف أن خيوطها متشابكة مع كل من سياسات الانتفاضة وتاريخ الأرض المقدسة الذي يثبته علم الآثار، والذي قد يؤيد حقوق الطرف الفلسطيني.

فقد كان الدكتور جلوك يعمل مديراً لقسم الآثار بجامعة بير زيت الفلسطينية وكان قد بدأ في نشر أوراق بحثية عن الآثار التي كشف عنها، والتي تؤيد ماضيا فلسطينيا قديما في الأراضي المقدسة، مما أدى إلى عدم ارتياح في الدوائر الإسرائيلية تجاه هذا العالِم الأمريكي.

اقتصاد

الغذاء والزراعة في مصر

محمود منصور عبد الفتاح ـ نصر القزاز ـ باسم سليمان فياض

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

سلسلة جديدة تصدرها الدار ضمن منتدى العالم الثالث، ويناقش هذا الكتاب آفاق تطور الزراعة وهي أقدم حرفة عرفها المصريون منذ عاشوا واستقروا حول وادي النيل، ما الذي يمكن أن تكون عليه الزراعة المصرية بعد عقدين من الآن، هل يسير المنحنى البياني في الاتجاه الصحيح مع الزيادة السكانية المستمرة وعمليات تجريف الأرض الزراعية وفقدان مئات الأفدنة وفق هذه السلوكيات الخاطئة، هذا بعض ما يجيب عنه الكتاب.

■■■

موارد الثروة المعدنية وإمكانية التنمية في مصر

أحمد عاطف دردير

القاهرة: الجمعية الجغرافية المصرية، ٢٠٠١

تتميز مصر بوجود ثروة معدنية هائلة في صحرائها الشاسعة وهي صالحة للاستخدام والتنمية والاستغلال في الصناعة بما يسهم في تنمية الثروة القومية ومصادر الدخل القومي. والمؤلف يبحث في هذه الموارد وكيفية استثمارها ودورها في عملية التنمية.

تــاريــخ

القدس.. أصالة الهوية ومحاولة التخريب

علاء الجوادي

لندن: معهد الدراسات العربية والإسلامية، ٢٠٠١

دراسة في هوية مدينة القدس وتاريخها، تنفي الأكاذيب الإسرائيلية حول يهودية المدينة المقدسة، وتؤكد عروبتها، من خلال ثمانية فصول تنتهي عند واقعنا الراهن.

■■■

كل رجال الباشا.. محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة

خالد فهمي

ترجمة: شريف يونس

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

يتناول الكتاب فترة من أهم وأخصب فترات تاريخ مصر الحديث، وهي الفترة التي تولى فيها الحكم محمد علي باشا من (١٨٠٥-١٨٤٨)، وتلك الفترة التي وضعت مصر على أعتاب العصرنة والمدنية، والمؤلف يركز بالذات على الدور الذي لعبه جيش محمد علي الذي جال شرقًا وجنوبًا وشمالاً، وهو يتناول هذا الدور من وجهة نظر التاريخ الاجتماعي معتمدًا على مادة وثائقية نادرًا ما اعتمد عليها الباحثون وهي مكاتبات هذا الجيش والأوامر الصادرة إليه والتكليفات الصادرة عنه، والتي تشمل ليس فقط كتابات محمد علي إلى قائد جيشه ابنه إبراهيم باشا، وإنما أيضًا تفاصيل مهمة عن المعارك الحربية التي خاضها الجيش.

■■■

ملحمة دجلة والفرات

أفرام عيسى يوسف

ترجمة: علي نجيب إبراهيم

اللاذقية: دار الحوار، ٢٠٠١

أثار هذا الكتاب حين صدوره بالفرنسية اهتمام القراء والدارسين، وقد اعتبره عدد غير قليل من النقاد الفرنسيين من أهم الكتب التي صدرت عن حضارة الرافدين، وما مثلته من فتح للتاريخ نهضت به المدن السومرية والأكادية والآشورية والبابلية، وها هي ترجمته العربية تصدر بعد عامين تقريبًا متيحة للقارئ العربي هذا الجهد البحثي المهم.

■■■

محمد علي

حسين كفافي

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١

محمد علي هو مؤسس مصر الحديثة وباعث نهضتها في أعقاب الحملة الفرنسية، المؤلف يتناول سيرة محمد علي ومعاركه وخططه التي وضعها لتجديد شباب مصر وتحسين أوضاع شعبها وبعثاته العلمية والتعليمية التي تركت آثارًا طويلة المدى ودخلت بمصر إلى العصر الحديث.

■■■

Warriors of God: Richard the Lionheart and Saladin in the Third Crusade

(محاربو الإله: ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين في الحملة الصليبية الثالثة)

James Reston Jr.

Doubleday, 2001, $ 27.50

يؤكد المؤلف أن أهم حملة صليبية على الإطلاق كانت الحملة الثالثة التي استغرقت السنوات من عام ١١٨٧ إلى عام ١١٩٢، وكانت أيضًا الأكثر إثارة في أحداثها وشخوصها.

يتناول الكتاب أثر توحد الجيوش العربية في رجحان كفة صلاح الدين واستعادته للقدس، وأثر الخلافات الداخلية بين القادة الأوروبيين في خسائر الصليبيين وخاصة الخلاف بين ملك فرنسا فيليب أوغسطس وريتشارد، إلى جانب المشاكل التي كان يسببها لريتشارد أخوه جون في إنجلترا.

ويلمح المؤلف إلى أن نهاية الحملة احتوت على نوع من اللغز الذي استعصى على كثير من المؤرخين، حيث إن ريتشارد ترك القتال وزهد في القدس بعد أن كان على وشك الاستيلاء عليها مرة أخرى من المسلمين.

تــراث

الجنس في أعمال الإمام جلال الدين السيوطي

تحقيق ودراسة: حسن أحمد جغام

تونس: دار المعارف، ٢٠٠١

يطرح المؤلف علاقة الرجل بالمرأة وبالذات الجنس بوصفه واحدة من أهم خصوصيات هذه العلاقة، كيف تناولها هذا الإمام العلامة وكيف صاغها في إطار الشريعة والأحاديث النبوية الشريفة.

■■■

المقامات أصالة وفنا وتراثا

عبد الأمير مهدي الطائي

بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ٢٠٠١

فن المقامة أحد الأجناس الأدبية المهمة في الأدب العربي، المؤلف يبحث في كيفية ظهور هذا الجنس والعوامل التي وقفت وراءه وبعضها اقتصادي ومعيش، ويبحث المؤلف عن صاحب الريادة في فن المقامة، هل هو السعدي أم بديع الزمان الهمذاني، ويقدم تحليلات لعديد من نصوصهم.

■■■

لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة

ابن مماتي

تحقيق وتقديم: نسيم مجلي

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١

دراسة لعدد من النصوص الشعرية والنثرية تعكس أحوال الخلافة العربية الأموية في الأندلس وأسباب سقوطها، والتاريخ السياسي والاجتماعي لتلك المرحلة، والحضارة التي شيدوها هناك.

رحــلات

The Arabian Diaries: 1913 - 1914

(يوميات عربية: ١٩١٣ - ١٩١٤)

Gertrude Bell

Edited by Rosemary O'Brien

Syracuse UP, 2001, 258pp.

تعد جيرترود بل أحيانًا النموذج النسائي للورانس العرب. فقد قامت برحلات طويلة في بلاد العرب وفارس. وبالرغم من أنها لم تكن موظفة رسمية في المخابرات البريطانية إلا أنها في رحلتها إلى الحائل قامت بجمع أكثر من مجرد معلومات عابرة، استفادت بها الحكومة البريطانية بعد ذلك أثناء حربها مع الأمبراطورية العثمانية عام ١٩١٤.

ومن ضمن ما دوَّنته جيرترود بل عن رحلاتها هذه اليوميات التي كتبتها أثناء رحلتها من «نجد» إلى «الحائل» عاصمة أسرة رشيد الحاكمة لقبيلة «شمر».

■■■

Inside Notting Hill

(في نوتنج هيل)

Miranda Davies and Sarah Anderson

Portobello, 2000, 251pp, £ 9.99

يستثمر هذا الكتاب النجاح الكبير الذي حققه الفيلم السينمائي «نوتنج هيل» الذي أنتجته هوليوود عام ١٩٩٩، والذي أدى إلى مضاعفة عدد السائحين الزائرين لهذا الركن من منطقة غرب لندن.

يقدم الكتاب معلومات غزيرة عن تاريخ نوتنج هيل منذ الساكسونيين الذين استقروا هناك عام ٧٠٠ ميلادية، وكذلك عرضاً لمختلف الكتابات الأدبية التي ذكرت فيها نوتنج هيل. وإلى جانب هذا يتناول الكتاب الأحياء المختلفة داخل نوتنج هيل والشوارع الرئيسية فيها وأصول الأسماء التي سُميت بها، إلى جانب الحانات والحدائق والمحلات التي تميز هذه المنطقة وترتبط بها قصص أو شخصيات مثيرة.

■■■

Neutral Buoyancy: Adventures in a Liquid World

(القدرة التعادلية على الطفو: مغامرات في عالم سائل)

Tim Ecott

Michael Joseph, 2001, 345pp, £ 12.99

هذا كتاب عن الغوص تحت الماء، تلك الرياضة التي أصبح لها عشاق من محبي المغامرة والمخاطرة، ومن محبي الآثار الغارقة تحت الماء. مؤلف الكتاب في الأصل مراسل أجنبي بمحطة الـ«بي.بي.سي»، ولكنه منذ أن تعلم الغوص تغيَّرت حياته وذهب ليعيش في جزيرة سيشلز حيث يعمل الآن في وظيفة قائد غوص. وفي هذا الكتاب يقدم «تم إيكوت» مزيجًا من المعلومات العلمية والعملية عن الغوص والطفو والتوازن والتنفس وأفضل الأماكن للغوص، إلى جانب معلومات تاريخية عن الغوص في تاريخ الشعوب القديمة، وحكايات عن التجارب الشخصية التي مر بها أثناء حياته المائية.

■■■

Free Flight: Airline Hell to a New Age of Travel

(الطيران الحر: من جحيم الخطوط الجوية إلى عصر جديد من السفر)

James Fallows

Public Affairs, 2001, 272pp, $ 25.00

يتساءل المؤلف، وهو صحفي مرموق في الولايات المتحدة وطيَّار هاو، كيف يمكن لنظام النقل الجوي المعاصر أن يبلغ هذا القدر من التقدم التقني وفي نفس الوقت يؤدي إلى هذا القدر من التجارب غير السارة بالنسبة لمعظم الناس؟

فبالرغم من السرعة الهائلة للطائرات، إلا أن الوصول إلى المطارات القليلة في كل بلد يمثل رحلة طويلة وشاقة لكثير من الناس، بالإضافة إلى أن الانتظار لساعات طويلة في الطوابير والصالات داخل المطار أمر سخيف ومرهق.

يحلل جيمز فالوز هذه المشاكل وغيرها كما يقترح بعض الحلول من ضمنها إنتاج طائرات صغيرة تنقل أعدادا قليلة من الركاب بين المدن الداخلية فيما يشبه تاكسي ـ الجو.

■■■

The Healing Island: A Kalahari Journey

(جزيرة الاستشفاء: رحلة في كلهاري)

Rupert Isaacson

Fourth Estate, 2001, 272pp, $ 16.99

زار المؤلف أفريقيا لأول مرة عام ١٩٨٥، ثم تكررت رحلاته وزياراته إليها كل عام، ونجح في مقابلة آخر مجموعة من قبائل البوشمان تعيش بنفس الطريقة التقليدية. في هذا الكتاب يروي المؤلف تفاصيل رحلاته، كما يتناول تاريخ قبائل البوشمان.

رواية وقصص

سفن قديمة

إبراهيم عبد المجيد

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١

مجموعة قصصية جديدة لصاحب «لا أحد ينام في الإسكندرية» و«المسافات» و«بيت الياسمين» بعضها ينتمي إلى ما قبل هذه الأعمال وبعضها لما بعدها، وفي إحداها يحاكي المؤلف قصة نجيب محفوظ «تحت المظلة» فيكتب «تحت المظلة ٢٠٠٠»، راصدًا التغيرات التي طالت المجتمع المصري طوال هذه الفترة الزمنية الفاصلة.

■■■

الأعمال القصصية

عبد الإله عبد القادر

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

مجلدان يجمعان الأعمال القصصية الكاملة للمؤلف الذي لم تكن القصة همه الأول، بل كان المسرح، والقصص في مجملها تدور حول علاقة الإنسان بذاته وعلاقة هذه الذات بالآخرين، وبالقطع لا يغيب الوطن (العراق) وهمومه عن المجموعة، بل يحضر حتى بين السطور.

■■■

العايقة بنت الزين

محمد ناجي

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

قدَّم المؤلف من قبل تجارب روائية مهمة على قلتها، تمثل تجريبًا هادئًا في الشكل والمضمون، وهو هنا يقدم تجربة جديدة، الخيط الرئيسي فيها جريمة تعقبها مطاردات، والرواية إضافة إلى مسيرة صاحبها وعنوان على تطوره ورغبته في التجديد.

■■■

بابا سارتر

علي بدر

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١

تنازعت الأفكار الفلسفية الجو الثقافي العراقي في الستينيات، والتف المفكرون حول «عبد الرحمن» الفيلسوف الوجودي المتميز في العراق، وفي رواية يسرد المؤلف حياة ذلك الفيلسوف وتناقضاته ويقارنه برائد الفلسفة الوجودية جان بول سارتر.

■■■

جروح الذاكرة

تركي الحمد

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١

عُرف المؤلف بوصفه كاتبا سياسيا وأستاذا في العلوم السياسية، لكنه هنا يكشف عن جانب آخر من إبداعه فيكتب رواية تحكي عن أسرة سعودية انتقلت من عالم القرية إلى عالم الثروة وسكنت العاصمة، ويتابع المؤلف تحولات هذه الأسرة التي يمكن اعتبارها نموذجًا لعشرات الأسر الأخرى التي شهدت ذات التحولات، وانتقلت من عوالمها البسيطة الساذجة إلى علاقات المال والأعمال أو ما بات يعرف بالطفرة النفطية.

■■■

The Wind Done Gone

(الريح التي ذهبت)

Alice Randall

Houghton Mifflin, 2001, 224pp., $22.00

تتحدى أليس راندال في روايتها «الريح التي ذهبت» الرواية الأمريكية الكلاسيكية «ذهب مع الريح» التي قدمت من خلالها مارجريت ميتشيل صورة أسطورية للجنوب الأمريكي إبان الحرب الأهلية، تضم رجالاً اتسموا بأخلاق الفرسان وسيدات جميلات وراقيات.

لذلك فإن «الريح التي ذهبت» تسعى لتقديم نفس شخوص الرواية وأحداثها ومكانها وزمانها، ولكن من وجهة نظر العبيد الذين تم تهميشهم في الرواية الأولى التي احتوت على نبرة عنصرية واضحة.

تضم الرواية الجديدة (التي أثارت دعاوى قضائية من جانب أسرة مارجريت ميتشيل) شخصية «سينارا» الملونة وهي أخت غير شقيقة «لسكارليت» من الأب فقط، حيث إن أمها هي الخادمة السوداء «مامي». وفي هذه الرواية يقع ريت تبلر في غرام سينارا التي تفوق سكارليت جمالاً ولكن سكارليت تغار منها وتحاربها.

سياسة

الدولة والقوى الاجتماعية في الوطن العربي

ثناء فؤاد عبد الله

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

عن حالات التردي السياسي والاقتصادي في المجتمع العربي وأسبابه، ودور القوى السياسية المناهضة والسلطة الاستبدادية في غلق أبواب التفاعل الحقيقي الخلاق في المجتمعات العربية.

■■■

نحو جمهورية ثالثة

كريم مروة

بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠١

فشل لبنان في الماضي في إقامة دولة مستقلة ذات سيادة بسبب النزاعات القبلية والحروب الأهلية والاستقطابات الدولية، والعبء كما يراه المؤلف لم يكن كله على الساسة، بل أيضًا على المثقفين والمنتمين إلى التيار السياسي اليساري منهم على وجه الخصوص، وهو هنا يطالبهم باستيعاب ما جرى من تغييرات حتى يمكن التعامل مع الوقائع الجديدة نحو النهوض بجمهورية ثالثة.

■■■

Goodbye America: Globalization, Debt and the Dollar Empire

(وداعا أمريكا: العولمة والديون وامبراطورية الدولار)

Michael Rowbotham

Carpenter, 2001, 209pp

يرى راوبوثام أن ديون العالم الثالث ديون اصطناعية أنتجها النظام المالي العالمي الذي وضعته أمريكا بعد انتصارها في الحرب العالمية الثانية.. هذا النظام المالي يحول دون تكوين الثروة الحقيقية من السلع والخدمات، وإنما يقوم على الانتقال الإلكتروني للعملات المخفضة كل يوم ـ وفي تلك الأثناء يتم سحب معظم الموارد والصناعات والمنتجات المختلفة من الدول الفقيرة إلى الشركات الكبيرة متعددة الجنسيات في العالم الأول وخاصة أمريكا.

أما التناقض الرئيسي فيكمن في كون هذه الدول الكبيرة أيضاً مدينة، فالولايات المتحدة الأمريكية هي أكبر دولة مدينة في تاريخ العالم. أما عن سبب حصانتها من إشهار الإفلاس أو زيادة صادراتها لموازنة ميزانها التجاري فيرجع لكونها مسيطرة على البنوك وعلى النظام المالي حيث تصر على أن تكون كل المدفوعات والديون بالدولار مما يؤدي إلى نقص مصطنع في كمية الدولار وبالتالي يرفع من قيمته، فتستمر في الاستيراد واستغلال شركائها في التجارة خاصة الدول الفقيرة في العالم الثالث.

سير ومذكرات

العارف بالله سيدي أبو العباس المرسي

سعد القاضي

القاهرة: دار غريب، ٢٠٠١

يعرف أهل التصوف سيدي أبو العباس المرسي ويعرفه أهل الثغر، حيث صار أحد المعالم الشهيرة بمدينة الإسكندرية، والمؤلف يتناول سيرة حياته وكراماته ورؤيته للنصوص القرآنية وأسفاره وأهم القضايا التي شارك فيها وكراماته التي شغلت الناس في حينها.

■■■

سعيد بن جودي السعدي الألبيدي الأندلسي

محمد رضوان الداية

بيروت: جمعية الماجد للثقافة والتراث، دار الفكر، ٢٠٠١

عن حياة السعدي وأشعاره وأفكاره ومواقفه السياسية خصوصًا موقفه من الدعوة العربية في الأندلس. ويلحق المؤلف دراسته بآراء عديد من الشعراء في السعدي ورثائه.

■■■

مذكرات طبيب شرعي

عماد الديب

القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠١

سيرة ذاتية عما يعانيه الطبيب الشرعي في عمله وكيف يسير هذا العمل الذي يبدو غامضًا لأغلب الناس إلا من خلال ما تقدمه الدراما السينمائية والتليفزيونية، وتتخلل السيرة حكايات واقعية صيغت بصورة أدبية.

■■■

واصف كمال.. شاهد على قضية فلسطين وقضايا عربية

هالة سليمان الأسعد

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

ينتمي واصف كامل إلى الرعيل الأول من القوميين العرب الذين قاوموا الاحتلال الأجنبي في فلسطين وغيرها من البلدان العربية، والكتاب سيرة ذاتية لكن يمتزج فيها الهم العربي العام ويبدو بوضوح، حيث يتناول المؤلف الأحداث الجسام التي أوصلت الأمور إلى ما آلت إليه الآن، محللاً أسبابها وتداعياتها.

■■■

Natasha: The Biography of Natalie Wood

(ناتاشا: سيرة حياة ناتالي وود)

Suzanne Finstad

Crown, 2001, 400pp., $ 25.00

قصة حياة إحدى نجمات هوليوود وصلت إلى قمة مجدها في الخمسينيات وأوائل الستينيات. اسمها الحقيقي ناتاشا زخارنكو، جاءت من أسرة روسية مهاجرة إلى الولايات المتحدة، وبدأت تمثل في السينما منذ أن كانت طفلة. تتعمق المؤلفة

في شخصية ناتالي وود وأحلامها وإحباطاتها، وتستعين في كثير من الأحيان بابنتيها اللتين قدمتا الكثير من المعلومات عن شخصية والدتها للمؤلفة.

■■■

Marie Antoinette: The Journey

(ماري أنطوانيت: الرحلة)

Antonia Fraser

Weiden Field and Nicolson, 488pp. £ 25.00

تكتب أنتونيا فرايزر كاتبة السير الشهيرة سيرة حياة ماري أنطوانيت بكثير من التعاطف، حيث تظهرها في صورة ضحية منذ أن أرسلتها أمها الإمبراطورة النمساوية ماريا تيريزا وهي في الرابعة عشرة من فيينا إلى فرساي عام ١٧٧٠ لتتزوج من لويس السادس عشر زيجة غير سعيدة، لم تثمر أطفالا إلا بعد سبع سنوات من الزواج.

وعندما انتهى التحالف بين فرنسا والنمسا وأعلنت فرنسا الحرب على النمسا عام ١٧٩٢ اعتبرت ماري أنطوانيت خائنة، وأخيراً اعتبرتها حكومة الثورة الفرنسية عدوة للشعب وحاكمتها بقسوة وإذلال.

■■■

Loving Picasso: The Private Journal of Fernande Olivier

(محبوبة بيكاسو: اليوميات الخاصة لفرناند أوليفييه)

Translated by Christine Baker

NewYork: Harry N. Abrams, 2001, 296pp. $ 35

فرناند أوليفييه هي أول عشيقة للفنان المعروف بابلو بيكاسو، وصورها تزين لوحات بيكاسو في المرحلة الوردية والمرحلة الزرقاء وتجاربه الأولى في التكعيبية، والتي تختلف كثيراً عن لوحاته المتأخرة التي تضم صور بقية عشيقاته حيث تتسم بالتجريد والتجريب.

هذا الكتاب يضم ترجمة ليوميات فرناند التي نشرتها في الثلاثينيات بعنوان «بيكاسو وأصدقاؤه» وأخرى بعنوان «ذكريات حميمة» حاولت نشرها في الخمسينيات ولكنها قوبلت باعتراضات بيكاسو الذي حاول منع نشر جميع كتبها. تروي فرناند قصة حياتها منذ الطفولة وتفاصيل حياتها مع بيكاسو.. كما تنقل للقارئ أجواء الدوائر الفنية في مونمارتر و«باتو لافوار» وما يدور من أحاديث ونميمة وسخرية بين مشاهير الفنانين عندما يجلسون معاً.

■■■

The Immortal Class: Bike Messengers and the Cult of Human Power

(الطبقة الخالدة: سعاة الدراجات وديانة القوة الإنسانية)

Travis Hugh Culley

Viland, 352pp. £ 19.95

في الوقت الذي يحتل فيه الساسة والأدباء ورجال الأعمال الكبار أغلبية ما ينشر من كتب المذكرات الشخصية، تأتي هذه المذكرات لساعي بريد عمل في شوارع شيكاغو لبعض الوقت كنوع من التغيير.

شعر

جنة مضيئة

عزت العزاوي

فلسطين: الزاهرة للدراسات والنشر، ٢٠٠١

ديوان تدور قصائده حول الوضع المتفجر اللا إنساني في الأراضي المحتلة، صرخة تشير إلى معاناة شعب يتم اقتلاعه أو إقلاعه عن أرضه، لكنه يقاوم ببسالة ممسكاً بحجر في مواجهة آلة عسكرية جبارة.

■■■

شرير في السيارة

شارل شهوان

بيروت: رياض الريس، ٢٠٠١

بورتريه يحمل تفاصيل هائلة للحياة اليومية، يشتغل عليها الشاعر ويصوغ من جزئياتها الصغيرة حياة جديدة وتطلعات وأحلاما.

■■■

أمة في المنفى

شعر: محمود درويش

خطوط: حسن المسعودي

تشكيل: رشيد القريشي

عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان، ٢٠٠١

إلى جانب هذا التمازج بين شعر درويش الفلسطيني وخطوط المسعودي العراقي وتشكيلات القريشي المغربي، يأتي نص للمفكر المغربي عبد الكبير الخطيب يتأمل فيه التجربة ويطرح سؤالاً عن كيفية إنشاء أمة في المنفى على الصعيدين الشعري والفني متتبعاً مسارات بناء الخطوط والأشكال.

علوم

الفيزياء الحديثة وميكانيكا الكم

حافظ محمد عبدالراضي

القاهرة: مكتبة النهضة، ٢٠٠١

قدَّم علم الفيزياء إسهامات هائلة في نهضة العلم في العصر الحديث، وكان له أثره الفعال في عصر الثورة الصناعية وما بعدها، المؤلف يشير إلى هذه الإسهامات شارحاً النظرية النسبية في عدة فصول ومبيناً من ناحية أخرى مخاطر الإشعاعات وتأثيراتها الضارة على الطبيعة والبشر.

■■■

صبي الساحر.. نماذج من العلم الرديء

سمير حنا صادق

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠١

ثمة علم نافع وعلم رديء، العلم النافع يستند إلى المنطق والعقل وقدرة التفكير العلمي على النهوض بالمجتمع، أما العلم الرديء فهو ذاك الذي تختلط فيه الأساطير والأباطيل بحقائق العلم أو بنصوص مقدسة، والمؤلف يكشف زيف هذه الادعاءات خصوصاً أن بعضها يزعم لنفسه قدرة النظرية العلمية وقوتها.

■■■

Voodoo Science: The Road From Foolishness to Fraud

(علم الفودو: الطريق من البلاهة إلى الغش)

Robert L. Park

Oxford UP, 2000, 230pp., £18.99

الفودو ديانة أفريقية تعتمد على السحر والشعوذة وقد اختار مؤلف الكتاب أن يصف بها الحالة التي وصل إليها العلم والعلماء في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. يصف روبرت بارك وهو أستاذ في الفيزياء، أشكال العلم التي ظهرت مؤخراً والتي يعتبرها «علوما سيئة» ما بين علم يخدع به العلماء أنفسهم والذي يستند إلى نظريات غير مثبتة ويعمد إلى إرباك الناس مثل نظريات الـ UFOS والأشخاص الذين يرون المستقبل وما إلى ذلك.

كذلك يوجه المؤلف اتهاماته لما يسمى «بالطب البديل» و«العلاج البيو - مغناطيسي» والفلك. ويذهب إلى أن مثل هذه العلوم أحيانا ما يكون أصحابها على علم بأنهم يبيعون نفايات، وبالتالي يصل الأمر إلى مرتبة الغش. يبين بارك بعد ذلك كيف يكون «العلم الجيد» مذكراً بأسسه وقواعده ووظائفه.

فكر

الحلم المكسيكي

ترجمة: وفاء شوكت

دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠١

ربما حتى الآن، يعد المكسيكيون أنفسهم جزءاً من الولايات المتحدة الأمريكية أو بمعنى أدق أرضاً تم اغتصابها لحسابهم، الكتاب يعود إلى بدايات القرن السادس عشر ويستلهم أحلام الجندي برنال دیازدی كاستيلو، لينسج هذه الدراما في القتل والتشريد لحساب عالم جديد.

■■■

اليوتوبيا المفقودة

محمد كامل الخطيب

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

لوحة كاملة يرسمها الناقد السوري لحقيقة الوضع العربي بعد كل التحولات التي شهدتها المنطقة في السنوات الأخيرة، والتي أدت كثيراً من المشاريع تحت وطأة الاستبداد والانهيار الثقافي والاقتصادي، ولكن المؤلف يرى حلماً بازغاً في الأفق لغد عربي جديد شريطة أن نأخذ بأسباب التقدم والارتقاء.

■■■

حقيقة الغرب

مصطفى عبد الغني

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١

للغرب وجوه كثيرة طالعناها منذ بداية الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر، هل الغرب هو صنو التقدم والازدهار وصانعه، أم هو الجزار الذي يتفنن في قتل ضحاياه من أبرياء عالمنا الثالث، مستعيراً دور مصاص الدماء الذي لا يرتوي، الكتاب ينحاز إلى وجهة النظر الثانية ويقدم أسانيده عليها.

■■■

في فقه النهضة

جمال سلطان

أمريكا الشمالية: كتاب التجمع الإسلامي، ٢٠٠١

مجموعة من الدراسات عن موضوع مهم بات أثيراً الآن في ظل الكلام عن التغريب والعولمة ونعني به مسألة النهضة، ما هي شروط تلك النهضة وكيف يمكن تحقيقها من داخل الوعي بالذات لا بالانفصال عنها.

■■■

نحن والحضارة والشهود

نعمان السامرائي

قطر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ٢٠٠١

فرضت العولمة بوصفها مرحلة من تطور المجتمعات البشرية على جميع الشعوب والحضارات أن تفكر في الحفاظ على هويتها وتأكيد ثقافتها وقيمها، والكتاب يدور حول هذا المعنى موضحاً أسباب قوة الحضارة الإسلامية وكيفية استعادتها بالعودة إلى عوامل التطور الكامنة فيها.

فكر ديني

الإسلام والذوق العام

فؤاد شاكر

القاهرة: مكتبة الدار العربية، ٢٠٠١

الحُسن من الصفات التي حببها القرآن وشريعة الإسلام للناس، فالإنسان بطبعه يحب الحسن في الشكل والخلق والملبس والمسكن وهذه المعاني وردت في نصوص قرآنية عدة، وكذلك في الأحاديث النبوية الشريفة، والمؤلف إلى جانب ما يقدمه من نصوص يقدم إحصائية بعدد المرات التي وردت فيها لفظة حسن في آيات القرآن الكريم.

■■■

التصوف.. حكمه وأركانه وخصال أهله

عثمان السعيد الشرقاوي

القاهرة: المؤلف نفسه

يتناول الكتاب التصوف من حيث منهجه ومبادئه والأسس التي يقوم عليها، موضحاً أن التصوف من صميم الإسلام؛ بل هو الإسلام في أرقى مدارجه وهو ضرورة لا غنى للمسلم عنها، وهو حقيقة العبادات وجوهرها، المؤلف يتكلم عن هذه المعاني موضحاً للقارئ السبل التي عليه سلوكها ليدخل هذا الميدان.

■■■

بنو إسرائيل لم يدخلوا فلسطين.. قراءة جديدة في القرآن الكريم والتوراة

الحاج زكي علي الغول

عمان: دار الكرمل، ٢٠٠١

يفند المؤلف الدعاوى الإسرائيلية التي

تدعى حقوقًا فى الأراضى الفلسطينية، ومن القرآن والتوراة يثبت المؤلف أنه لم يقصد أبدًا حضارة يهودية فى فلسطين، فقد خرج اليهود من مصر عن طريق البحر وليس البر، فلم يصلوا إلى سيناء ثم فلسطين، بل عبروا البحر الأحمر إلى شبه الجزيرة العربية، أما حكاية هيكل سليمان فلا أساس لها فى أى نص.

■■■

صور من تسبيح الكائنات
زغلول النجار
القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠١

اشتهر المؤلف بتفسير آيات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم مستفيدًا من خبراته العلمية واطلاعه على أحدث نظريات العلم الحديث، وهكذا يبدو الكون صورة من إعجاز الخالق التى تؤكد قدرته سبحانه وتحث الناس على مزيد من الإيمان والعبادة.

■■■

The Muslim Jesus: Sayings and Stories in Islamic Literature
(المسيح المسلم: أحاديث وقصص من الأدبيات الإسلامية)
Edited and Translated by: Tarif Khalidi
Harvard UP, 2001, 256pp, $ 22.95

يقدم هذا العمل ترجمة إنجليزية لأكبر مجموعة من الأحاديث والنصوص القرآنية والأدبيات الإسلامية المختلفة التى تصف السيد المسيح، وتبين مكانته فى الإسلام. وبالتالى يعد إسهامًا مهمًا فى تعميق التفاهم بين الأديان السماوية، خاصة للجمهور غير المسلم والذى لا يعرف اللغة العربية.. هذه المجموعة اختارها وحررها وترجمها الدكتور طريف الخالدى مدير مركز الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية بكامبردج.

"فلسفة"

العرب وعودة الفلسفة
أحمد برقاوى
دمشق: دار طلاس، ٢٠٠١

يرى المؤلف فى بعض النماذج التى يقدمها من مفكرى المشرق العربى والمغرب، إنجازات مهمة تعيد الفلسفة إلى الفكر العربى بعد أن غابت عنه لقرون طويلة، ويشير إلى بعض هذه الاجتهادات وأهم القضايا التى يثيرها الفلاسفة أو المشتغلون بالفلسفة الجدد.

■■■

ديكارت
ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

يصدر الكتاب ضمن سلسلة «أقدم لك» التى تصدر عن المجلس والتى قدمت من قبل: الفلسفة وأفلاطون، وهى سلسلة تحاول أن تفك غموض الفلسفة وتبسطها للقارئ العادى، ويكشف المؤلف فى هذا الكتاب عن الدور المهم الذى لعبه ديكارت وتأثيره على الحداثة وما بعدها، وعلى الفكر الإنسانى عمومًا.

■■■

ابن رشد الحفيد.. سيرة وثائقية
محمد بن شريفة
تونس: دار النجاح، ٢٠٠١

بمناسبة مرور ٨٠٠ عام على رحيل قاضى قرطبة وفيلسوف العرب والمسلمين، يأتى هذا الكتاب الذى يتضمن شهادات لكبار المفكرين المجايلين له من أمثال صفوان بن إدريس والمؤرخ الحجاج يوسف ابن عمرو، ودراسات حول تلاميذ ابن رشد وكيف حملوا أفكاره من بعده.

"فنون"

العمران والذاكرة.. العمران والوهم
رهيف فياض
بيروت: دار الفارابى، ٢٠٠١

يصدر الكتاب ضمن سلسلة تصدرها الدار عن العمارة والعمران، ويركز بالذات على عمارة مدينة بيروت وتخطيطاتها الهندسية والفنية، ولا يفوت المؤلف أن يرصد التفاعل بين العمارة والناس، فثمة حوار ضرورى بين الأشكال المعمارية والطرز التى يتم اختيارها لتمنح المدينة خصوصياتها والبشر الذين يقطنون هذه المساحة من الأرض.

■■■

Revolt of the Filmmakers: the Struggle for Artistic Autonomy and the Fall of the Soviet Film Industry
(ثورة صنّاع السينما: الصراع من أجل الاستقلالية الفنية وسقوط صناعة السينما السوفيتية)
George Faraday
Pennsylvania State University Press, 2001, 252pp.

فى عقد الثمانينيات كان الاتحاد السوفيتى ينتج مائة وخمسين فيلمًا سنويًا، ثم حدث ازدهار قصير الأجل عام ١٩٩١ عندما تم إنتاج ثلاثمائة وسبعين فيلمًا. ولكن فى عام ١٩٩٦ هبط الرقم إلى عشرين فيلمًا. يقدم مؤلف الكتاب جورج فارادى تفسيرًا وتحليلاً لما أصاب السينما فى روسيا.

■■■

Mande Music: Traditional and Modern Music of the Maninka and the Mondinka of Western Africa
(موسيقى الماندى: الموسيقى التقليدية والحديثة لمانينكا وماندنكا فى غرب أفريقيا)
Eric Charry
Chicago UP, 2001, 500pp

تشتهر موسيقى الماندى الأفريقية لعدة أسباب، من ضمنها تاريخها القبلى القديم حيث من السهل تتبع أصولها التى تصل إلى أمبراطورية مالى فى العصور الوسطى. كذلك انتشارها الواسع فى غرب أفريقيا فى كل من مالى والسنغال وغينيا وساحل العاج وبوركينا فاسو. وأخيراً لقدرتها على الاستمرار والتحول والاندماج فى الموسيقى العالمية الشعبية التى تستلهمها والتى تتمثل فى موسيقى نجوم كبار مثل «فانتا دامبا» و«ساليف كيتا».

وهذا الكتاب يقدم أول معالجة علمية شاملة لموسيقى الماندى: تقاليدها وأنواعها وآلاتها وأساليب عزفها ونظمها اللحنية وأشهر الذين يؤدونها فى غرب أفريقيا وفى الموسيقى العالمية.

"نقد أدبى"

الإنسان المقهور فى أدب صنع الله إبراهيم
فراس عبيد
عكا: مؤسسة الأسوار، ٢٠٠١

اقتراب نقدى مميز لصاحب «تلك الرائحة» و«اللجنة» و«ذات» و«نجمة أغسطس» و«بيروت بيروت»، يركز بالذات على إنسان صنع الله الذى يبدو مقهورًا بفعل السلطة السياسية والاجتماعية وأسباب أخرى، ومنذ البداية يقر المؤلف أن أعمال صنع الله لا يمكن أن تقرأ إلا من داخلها ولا بأس من الاستعانة بالأطر التاريخية التى تحيط بالنص حال كتابته.

■■■

القصة ديوان العرب
طه وادى
القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ٢٠٠١

رؤية للمشهد القصصى فى العالم العربى، حيث يقدم المؤلف دراسة نقدية لنماذج قصصية من التراث ويعرض لنماذج قصصية معاصرة، ويجول فى مختارات من خمسين كاتبًا ينتمون إلى دول عربية عدة، ويستنتج المؤلف من سياحته تلك أن القصة هى ديوان العرب.

■■■

ثياب الامبراطورية.. الشعر ومرايا الحداثة الخادعة
فوزى كريم
دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

وجهة نظر فى شعر الحداثة والمؤلف نفسه ينتمى إلى هذا الجيل شاعرًا وناقدًا، وهو يعتمد هنا مقارنة بين هذا الجيل من الحداثيين وسابقيه القدماء مثل أبى تمام والبحترى وأبى نواس وما هى الخطوط التى تجمع شعر الأقدمين بشعراء الحداثة الجدد من حيث الدلالات الإيحائية والتعابير اللفظية وتراكيب الجمل والصيغ الجمالية.

■■■

عالم محمد صدقى بين شهوة الإبداع وضرورة الواقع
مجموعة من الكتاب
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١

مجموعة من الشهادات عن أحد رواد كتابة القصة القصيرة الذى أسهم بتجربته الإبداعية فى مسيرتها، وهو يجمع هذه الشهادات بعد تجربة مرض ألمت به، وبين الشهادات مقالات نقدية شارك فيها محمود أمين العالم وفخرى لبيب وأحمد خميس وعلاء الديب وسلامة موسى وآخرون.

■■■

لغة الأدب والشعر فى كتابات المرأة العربية
لوسى يعقوب
القاهرة: مكتبة الدار العربية، ٢٠٠١

دراسة لعديد من التجارب النسائية النثرية والشعرية تستعرضها المؤلفة التى تراعى انتماء هذه التجارب إلى أجيال مختلفة وبلدان مختلفة، وبين من تدرس: عائشة عبد الرحمن من مصر، وفاطمة عبد المحمود من السودان، وسحر خليفة من السودان، ونازك الملائكة من العراق.

■■■

من المشهد الشعرى نهاية القرن العشرين فى حمص
محمد علاء الدين عبد المولى
دمشق: دار الذاكرة، ٢٠٠١

تقييم نقدى للنتاج الشعرى لعدد كبير من الشعراء بينهم نزيه أبو عفش وعبد الكريم الناعم وعبد النبى التلاوى وآخرون، حيث يحلل نصوصهم ويجول فى عوالمهم الشعرية ومفرداتهم وسماتهم الجمالية والتعبيرية.

■■■

تجليات الشعر الصوفى
أمين يوسف عودة
عمان: بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠١

دراسة ثانية للمؤلف تأتى بعد دراسته الأولى عن تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، وهو هنا يواصل ما بدأه محاولاً سبر أغوار الفكر الصوفى من خلال شعر ابن عربى وآخرين، وفى هذا الجزء يبحث فى الخصائص الأسلوبية والفنية للشعر الصوفى.

■■■

قراءة جديدة لقضية الشك فى أدب الجاهلية
مصطفى الجوزو
بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠١

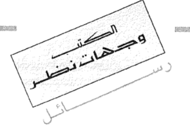
بعد ما يزيد على ثلاثة أرباع القرن من كتاب طه حسين «فى الشعر الجاهلى» يعيد المؤلف طرح قضية الشك فى أدب الجاهلية من جديد، لأسباب بعضها دينى وبعضها تاريخى وأكثرها أدبى ولغوى.

■■■

إخوانيات الصكار ومجالسه الأدبية
محمد سعيد الصكار
دمشق: دار الهدى، ٢٠٠١

أكثر من ٢٠٠ نص عن أكثر من ١٥٠ شخصية كتبها المؤلف بطريقة سمَّاها الإخوانيات - وهى بحسب قوله - فن من الفنون الشعرية شديدة الخصوصية التى تدور بين الشعراء بتلقائية وحميمية وحرية، بما يكشف عن الموقف الشخصى للشاعر وعلاقاته بالناس والبيئة من حوله.

■■■



سينما عبد الوهاب

نشرت «وجهات نظر» في عدد يوليو ٢٠٠١ دراسة قيمة عن «الموسيقى العربية في مواجهة العصر» بقلم الأستاذة سمحة الخولي وقد استوقفتني للتأمل العبارة التي اقتطفها المحرر لإبرازها بالبنط الأسود في ذيل الصفحة ٦٢ من العدد والتي نصها كما يلي:

(كان بزوغ السينما من أخطر المؤثرات الخارجية على الموسيقى وعندما أنشأ طلعت حرب ستوديو مصر للسينما في القاهرة أسهم بشكل غير مباشر في وضع أساس لتطورات موسيقية جديدة).

لذا قمت بإعادة قراءة متأنية للمقال علّني أخرج بنتيجة موضوعية عن دور غير مباشر لطلعت حرب في وضع أساس لتطورات موسيقية جديدة فوق دوره كرجل اقتصاد وطني ومؤسس لبنك مصر وشركاته الرائدة ومن بينها شركة مصر للتمثيل والسينما التي قامت بإنشاء ستوديو مصر.

لقد تم وضع حجر الأساس لأستوديو مصر في ٧ مارس ١٩٣٤ كما أنه في يوم ١٢ أكتوبر ١٩٣٥ أقيم حفل الافتتاح الرسمي للأستوديو (مرجع «معجم الفن السينمائي» للأستاذين أحمد كامل مرسي ومجدي وهبة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٣).

فإذا علمنا أن أول أفلام الموسيقار محمد عبد الوهاب «الوردة البيضاء» قد تم عرضه بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩٣٣ (المرجع ذاته) أي قبل افتتاح ستوديو مصر بحوالي عامين فإنه طبقًا لفرضية أن بزوغ السينما كان من أخطر المؤثرات الخارجية على الموسيقى، فسوف يكون صحيحًا حذف الإشارة إلى طلعت حرب واستبدالها بعبارة (وعندما قدم عبد الوهاب أول أفلامه «الوردة البيضاء» أسهم بشكل غير مباشر - بل مباشر - في وضع أساس لتطورات موسيقية جديدة).

ولعل الاعتراف بهذا الدور لعبد الوهاب أمر لا يروق للكاتبة بالنظر لتوجهاتها التي نحترمها ولكن تجيير هذا الدور لطلعت حرب لا يخلو من التجني على الحقيقة والبعد عن الموضوعية مما اقتضى التنويه.

وجدي قبلاوي
عمان - الأردن



إعادة اكتشاف أمريكا

ليسمح لي الأستاذ الفاضل محمد حسنين هيكل أن أعبِّر عن إعجابي وتقديري العميق بكل ما تكتبونه خاصة مقالتكم الأخيرة أو المحاضرة الشيقة المتعمقة في تاريخ فكر أمريكا.

لقد أشرتم تحت «المفتاح السابع» عن المناطق أو الولايات التي اشترتها الولايات المتحدة.. وليسمح لي أن أضيف عليها «ألالسكا» التي اشترتها من روسيا عام ١٩٦٧ بمبلغ ٧٫٢ مليون دولار والتي كما هو معروف تزيد مساحتها عن كل الولايات الأخرى. أكرر إعجابي وتقديري.. وتفضلوا السلام.

محمد السمنودي
أثينا - اليونان



السوبرمان الأمريكي الجديد.. يهودي دائمًا

عرض الأستاذ محمد حسنين هيكل تحت عنوان «المؤامرة والسياسة والجريمة» المنشورة في عدد وجهات نظر رقم ٢٩ لشهر يونيه ٢٠٠١ لرواية «العملية هبرون» والتي كتبها أريك جوردون، وقد أشار الأستاذ هيكل في معرض حديثه عن أهمية هذه الرواية وما دعاه إلى الكتابة عنها هو أن كاتبها كان مسئولاً بارزًا في المخابرات المركزية الأمريكية وعمل في الشرق الأوسط وفي العالم العربي تحديدًا وهي أول مرة يكتب فيها مسئول عن تجربته في العمل السري.

وما دفعني إلى الكتابة بعض ملاحظات، وهي ملاحظات عامة تتبدى للقارئ والمتابع للروايات والأفلام الأمريكية بصفة خاصة وهي الولع الدائم بشخصية السوبر مان أو بفكرة البطل الأوحد الذي يعزى إليه حل جميع أنواع الصراع وتتدرج هذه التيمة أو النمط السائد أو الكليشيه من الصورة المباشرة (فيلم سوبرمان وفيه تعود قوته الخارقة إلى عنصر غير موجود على كوكب الأرض) مرورًا بالبطل الذي يحمل صفات إنسانية، ولكنها صفات خارقة (أرنولد شوارتزنيجر في فيلم المدمر ومثله سيلفستر ستالوني في مجموعة أفلام روكي) وانتهاء إلى السوبرمان المودرن أو العصري الذي يملك مواهب وقدرات خارقة تتنوع بين قدرته الفائقة على استخدام التكنولوجيا الحديثة وامتلاكه لبصيرة نفاذة تمكنه من معرفة نوايا أعدائه ومخططاتهم وهي مازالت في أدمغتهم وقدرته على حل أصعب المشاكل في أقل وقت وبكفاءة نادرة وبدون أي نسبة خطأ (سلسلة جيمس بوند).

الملاحظة المهمة التي تشد انتباهنا وتستحق التسجيل الآن هي أنه في معظم الروايات والأفلام الأمريكية التي ظهرت في الثلاثين سنة الأخيرة ظهر فيها هذا الربط الخبيث بين السوبرمان الأمريكي الجديد (البطل المحبب إلى الجماهير) وكونه ينتمي إلى الجماعة اليهودية.

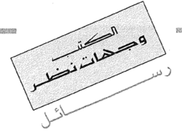
وهذا الربط يرمي دائمًا إلى ترسيخ بعض المفاهيم في وجدان المتلقي وهي نفس المفاهيم التي تروجها الصهيونية من أجل التأثير في الرأي العام العالمي ويمكن تلخيصها في المفاهيم التالية:

١- ترسيخ مفهوم أن اليهود يمثلون جنسًا مختلفًا (لا يوجد ما يدل على أن هناك صفات مشتركة تجمع بين اليهود في أمريكا ويهود الفلاشا في أثيوبيا مثلاً) وأكثر سموًا بين سائر الأجناس الأخرى في كثير من الصفات (انظر إلى بعض الأسماء اليهودية وتعني الرجل الذهب، سيلفرمان Goldman المتداولة كثيرًا في أمريكا جولدمان وتعني النوع الجيد وكذلك Goodkind وتعني الرجل الفضة، وجودكيند Silverman وتعني الراعي الجيد إلى آخر هذه الأسماء التي توحي بالتميز Goodcare جودكير والتفرد أو التعالي على الآخرين).

وفي قصة «العملية هبرون» كما يعرضها الأستاذ هيكل تكون المنقذة هي «بريندا شتراوس» المحققة الأنشط والأكفأ في مكتب التحقيقات الفيدرالي والتي يصفها الكاتب بأنها يهودية ولكن غير صهيونية!! لأنها استاءت عندما عرفت أن والدها على اتصال سري بسفارة إسرائيل وتأكدت من عدم ولائه لوطنه الجديد (لاحظ أنها استاءت فقط رغم أنها بحكم موقعها الحساس في مكتب التحقيقات الفيدرالي كان (الأجدر أن تتخذ إجراء ما تجاه والدها لإيقاف نشاطه في الاتصال بإسرائيل وبريندا هي التي أقنعت رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي بالرقابة المباشرة على مكتب السفير الإسرائيلي في واشنطن باستخدام وسائل جديدة مذهلة في دقتها وتعقيدها (لاحظ ما يوحي به ذلك من قدرة على استعمال أجهزة تكنولوجية معقدة ومتقدمة كنتيجة لقدرات عقلية فائقة).. وهي أيضًا التي اقترحت على رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي زيارة المرشحين الثلاثة للرئاسة الأمريكية والإشارة بطرف خفي لكل منهم بإيماء بـ «تدخل أجنبي في الانتخابات الأمريكية» ويرصدان في هذه الأثناء رد الفعل على جهاز تسجيل لا يعرف سره أحد سوف تخفيه بريندا في حقيبة يدها (لاحظ أن فكرتها الذكية هي التي هيأت الحل لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي بكامل أجهزته وأشخاصه ومسئوليه) ثم تأتي نهاية القصة والتي توضح أن بريندا وبريندا فقط هي التي تابعت القاتلة المحترفة التي اغتالت رئيس أمريكا المنتخب ومدير الموساد بواشنطن (لاحظ أن القاتلة المحترفة صربية واغتالت رئيس أمريكا المنتخب وبدون مقاومة من حراسه) وطاردتها إلى أركان الأرض وفجرتها بقنبلة رتبت وضعها في القارب الذي خرجت به القاتلة المحترفة إلى أحد خلجان مايوركا الأسبانية تحسب نفسها آمنة في فضاء البحر وتقيد الحادثة ضد مجهول (لاحظ القدرات السوبر والولاء السوبر للوطن الجديد كما لاحظ الربط بين السوبرمان أو قل «السوبرومن»، ثم أضف إلى ذلك فكرة كونها يهودية «فهي من الأقلية ذات الصفات المتميزة»، وكونها امرأة «فهي من الأقلية الضعيفة التي تطالب بحقوقها وتعتبر من جماعات الضغط في أمريكا». إذن هي توليفة كاملة تحتوي على كل التوابل والمشهيات المحببة إلى المتلقي جرى خلطها بدقة شديدة وبذكاء من أجل توصيل رسالة مهمة له تستقر في وجدانه وتؤثر في قدرته على الرؤية الصحيحة لحقائق الأمور.

٢- النقاء: تجنح الدعاية الصهيونية إلى إظهار اليهود بمظهر النقاء الخالص والروحانية والبعد عن المادية الغربية ويشار دائمًا إلى اليهود على أنهم المتدينون في وسط المجتمع الغربي العلماني والذي ينظر إلى التدين وكأنه موضة قديمة. وقد ظهر هذا التوجه في الكتابات الروائية والأفلام الجديدة كمحاولة لتغيير الصورة المستقرة في وجدان العالم تجاه اليهود منذ القرون الوسطى والتي تصورهم كشياطين وأن الشر لصيق بطبيعتهم. إذا تابعنا مثلاً شخصية «فاجين» في فيلم أوليفر تويست المأخوذ عن رائعة تشارلز ديكنز نجد الفيلم يقدم لنا اليهودي «فاجين» زعيم النشالين الصغار الذي يعشق المال ويدربهم على النشل والسرقة.

٣- الاضطهاد: يؤدي تركز اليهود في حقل الإعلام خصوصًا في الصحافة والإذاعة والسينما (٢٥٫٨٪ من العاملين في الإعلام الأمريكي من اليهود حسب إحصائيات الثمانينيات) وهذا التركيز الكبير يهيئ لهم تسليط الأضواء وتكريس بعض المفاهيم في وجدان المتلقي وإعطاءها أكثر مما تستحق. ولعل ظاهرة الهولوكوست أو تعرض اليهود للإبادة في معسكرات التعذيب إبان حكم النازي في ألمانيا من أكثر الظواهر التي سلط عليها الإعلام الصهيوني نشاطه وجعلها من المسلَّمات التي لا يمكن الاقتراب منها (انظر محاكمة المفكر الفرنسي الشهير «رجاء جارودي» لمجرد تشكيكه في أعداد من فقدوا الهولوكوست وليس في الهولوكوست نفسه). ويسعى الإعلام الصهيوني دائمًا إلى تكريس الشعور بالذنب جراء ما عاناه اليهود فقط، ولكنه شمل جميع الأقليات الأخرى وكل ما هو غير ألماني مثل الغجر والزنوج والأتراك المسلمين وغيرهم. وأن تظل هذه الفكرة قائمة في أذهان البشر لا تهدأ ولا تنام وتظل البشرية كلها في حالة استنفار مستمر للتعويض ودفع الفاتورة لليهود ولامانع من أن يصبح لهم وطن في فلسطين حتى يأمنوا الاضطهاد مرة أخرى. وتظهر هذه التيمة في غالبية الأفلام الأمريكية سواء بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة تستشعرها في مشهد أو تسمعها في جملة حوار. وليس



أدل على ذلك من أن المخرج اليهودي «ستيفن سبيلبرج» الذي أخرج أفلاماً تعد من علامات السينما الأمريكية مثل «الفك المفترس» و«أي تي» و«لقاءات وثيقة من النوع الثالث» لم يحصل على الأوسكار إلا عندما قدم فيلم «قائمة شندلر» والذي اعتبره النقاد من أقل أفلامه قيمة.

لو تابعنا مثلاً القصة الحائزة على جائزة بوليتزر الخاصة بالرواية لعام ٢٠٠١ (من أرقى الجوائز الأمريكية في الأدب والصحافة) لوجدنا أن الرواية الفائزة هذا العام هي رواية من الرسوم تحت عنوان «المغامرات المدهشة لكافالير وكلاي التي كتبها «مايكل شابون» وهي تحكي القصة الحقيقية لهروب المؤلفين اليهوديين لشخصية «سوبرمان» من تشيكوسلوفاكيا إلى أمريكا هرباً من الاضطهاد ويرتكب بطلاها نفس الغلطة القانونية القاتلة التي ارتكبها الرسام والكاتب الحقيقيان، إذ يوقعان مع ناشرهما عقداً يتنازلان فيه عن «كل حقوقهما القانونية لاستغلال شخصية» الهروبي التي اخترعاها ويعيشان في ضنك بينما يرفل ناشر «الهروبي» في نعيم الملايين بالضبط كما حدث مع ناشر «سوبرمان» في الحقيقة!! والرواية تجعل كلا من الرسام وكاتب القصة يهوديين مثلما كان رسام «سوبرمان» وكاتبه من اليهود، والرواية تؤكد الحادثة الحقيقية لاستغلال الناشر الدنيء للرسام والكاتب لكنها تلقي ضوءاً جديداً في سياق الرواية الجديدة. مبدعان يبذلان الجهد ويتعرضان للموت خلال هروبهما من الاحتلال النازي ويعبران الأطلسي ليصلا إلى أمريكا «بلاد الحرية»، ثم يخلقان بطلاً أمريكيا وطنياً «ناجحاً» يغمر ناشريه بالمال والسعادة ويسعد الفقراء الأمريكيين ويمجد قيم مجتمعهم المنتصر. وينتهي هذا كله بتناسي الجميع لجميل اليهوديين وبإلقائهما في غياهب الجحود والظلم ويبدو في هذه الرواية الإلحاح التقليدي من جانب صانعي الأدب الأمريكي الحديث على ضمير العالم وتذكيره الدائم بجحوده تجاه اليهود وإنكاره لهم ودورهم: «العظيم» في رفاهية البشر ومقاومتهم للظلم.

لكي نفهم طبيعة عمل اللوبي الصهيوني الأمريكي (مجموعة من المنظمات الأمريكية مثل مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية واللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة أيباك وغيرهم كثير، فهو يسعى إلي كسب تعاطي الرأي العام الأمريكي والتأثير فيه وقد ظهرت هذه المنظمات في بداية الأمر من أجل السعي لإنشاء دولة إسرائيل ثم تأييدها بعد ذلك وتعمل هذه الجماعات في عدة محاور تتراوح بين إنشاء المدارس والمستشفيات وإنتاج الأفلام السينمائية وإصدار الصحف والبرامج التليفزيونية وتمويل رحلات الباحثين الأمريكيين إلى إسرائيل. وهناك رأي يرى أن اللوبي الصهيوني في أمريكا نجح في جعل الرأي العام الأمريكي مواليا لإسرائيل كما نجح أيضاً في تغيير صورة اليهود في أمريكا وقلب الحقائق عن ممارسات إسرائيل في فلسطين ونستطيع أن نستشعر ذلك من مجموعة الأعمال التي عرضناها في هذا السياق والتي تؤكد النية لصرف انتباه الضمير العالمي عما يحدث بالفعل وإلهائه في التذكير المستمر لمعاناة اليهود. وهو يعمل بطريقة مركبة فهو في بعض الأحيان يجنح إلى الدعاية المنظمة وعقد المؤتمرات وفي أحيان أخرى يسعى لعقد تحالفات دائمة مع جماعات المصالح الأخرى مثل العمال والمرأة والمنظمات الدينية وتلك التي تمثل الأقليات الأخرى وجمعيات حقوق الإنسان وفي بعض الأحيان جمعيات الحفاظ على البيئة واستخدام هذه الجماعات للتأثير على الرأي العام.

د. حسين الشرقاوي
أستاذ طب الأسنان - جامعة القاهرة



آفة التكرار

أعبر - أولاً - عن شكري لإعطائي الفرصة من أجل إبداء هذه الملاحظة في عدد «وجهات نظر» لشهر أغسطس الماضي.. وقع خطأ تمثل في إعادة إحدى زوايا كتاب الزاوية «شكاوى الفلاح الفصيح» حيث تكرر نشرها في صفحتي ٥٤ و٥٩. وكم كنت أتمنى بدلاً من تلك المساحة الضائعة أن تنشروا خريطة ضمن موضوع «مخطط إسرائيل ٢٠٢٠» أو صورة أخرى في الموضوع الرائع «رحلة العائلة المقدسة إلى مصر» أو حتى كان يمكنكم نشر إعلان لعله يساعدكم مالياً، بالرغم من أن الإعلانات في مجلتكم بدأت تتجاوز الحدود المقبولة في مساحتها.

ندى باسل حيدر
فرنسا



تنويه

وقع خطأ في العدد الماضي في مقال الأستاذ فاروق عبد القادر عن الكاتب المسرحي محمود دياب.. والعنوان الصحيح هو: «من أعماله الأولى إلى أيامه الأخيرة». كما تكرر سهواً نشر زاوية من كتاب الزاوية «شكاوى الفلاح الفصيح» في صفحتي ٥٤ و٥٩.

المحرر

كتاب الزاوية

الأغاني الشعبية في صعيد مصر

في غناء الحجاج

وابور السفر (الباخرة) لا احَنّي قلوعك
سيد المرسلين يكتب رجوعك

* * *

قايم من النوم يبكي دموعه بَليلَه
عاشق المصطفى ومعاه الدليله
قايم من النوم يبكي مشرَّك (ممزق) هدومه
عاشق المصطفى ما حدِّش يلومه
قايم من النوم يبكي مشرَّك عزَاله (حاجياته)
عاشق ابو ابراهيم ما حدَّ لأمَه
قايم من النوم يبكي مشرَّك خُلُقُه (ملابسه)
عاشق المصطفى حتى العيش حَاربُه

* * *

حجّ من عندنا صغيَّر بشوشه
السَّنه حجتَّك ومن عاش عروسه
حجّ من عَندنا صغيَّر بشَمَلَه
السَّنه حجتَّك ومن عاش مُجامله

* * *

طريق الحجاز جنينه نَشُوها
زيَّنوها الملوك لفاطمه (بنت النبي ص) وابوها
طريق الحجاز جنينه وجَنَّه
زينوها الملوك لمن صام وصلى
يا نجوم السما وكونوا حناين
ما تبخُوش ندا تبلُّوا العمايم
يا نجوم السما وكَونوا دراويش
ما تبخوش ندا تبلوا الطرابيش



الصحافة الصفراء وثقافة الخوف

لم يحدث من قبل أن شاع استخدام مفهوم الصحافة الصفراء في مصر والوطن العربي، كما هو شائع الآن، تعبيرًا عن القدح والاستنكار لنوع الكتابات الصحفية التي تخاطب الغرائز، وتتوسع في نشر الفضائح، ولا تعتمد الدقة والأمانة فيما تنشره من أحداث وقصص، ولا تضع حدودًا على ما يمثل اجتراءً على الأخلاق والآداب، وما يمكن أن ينطوي عليه ذلك من تشهير لا يخفى رائحة الابتزاز.

وقريب منها تلك الأعمال الفنية السافرة، والكتابات الأدبية المكشوفة التي يرى بعض الأدباء والروائيين أن حرية الإبداع لا تكتمل إذا فرضت القيود على ما تجود به أحلامهم ورؤاهم سواء في الفنون التشكيلية أو الفنون الأدبية.

وبالمنطق نفسه ينسحب الاعتراض على المؤلفات والمصنفات التي تخالف الرأي السائد في شئون الدين والعقيدة والفكر، وما يمكن أن يفتح الباب للشكوك والشبهات التي يمكن أن تزلزل العقائد لدى العامة وتولد الفتن. فكلها كتابات صفراء لا يطيقها المجتمع ولا يتسامح فيها.

هذه هي الحالة السائدة في المجتمع العربي اليوم. تتساوى فيها المجتمعات الليبرالية والمحافظة، الغنية والفقيرة. أهل الحضر وأهل الدر.. لا فرق. ولا يكاد يمر أسبوع دون أن تنفجر أزمة ثقافية هنا أو هناك، سرعان ما تنقلب إلى أزمة سياسية، يفرضها منطق الخوف أو ثقافة الخوف. حيث تسعى السلطة إلى فرض معاييرها بوسائل تتراوح بين التعسف في استخدام القانون في أفضل الأحوال، أو اللجوء إلى البطش والعنف والتخويف، الذي ينتهي إلى المنع والحظر وإبادة الفكر في أسوئها.

هناك إذن علاقة مباشرة ومطردة بين أجواء الخوف وبين انتشار الكتابات الصفراء.. تقود إلى وقوع ما نراه في حياتنا الفكرية والثقافية من التباس في المعايير، تجعل التمييز بين الغث والسمين أمرًا واردًا في كل الأحوال. ويؤدي غياب القدرة على التفكير النقدي لدى أفراد المجتمع إلى البحث دائماً عما يسميه البعض «الخطوط الحمراء»، وهي خطوط وهمية هلامية يفرضها مناخ الخوف وتستغلها السلطة بحسب الحاجة، للدفاع عن نفسها وعن المستفيدين بها. وهذه الخطوط الوهمية تخلع نوعًا من القداسة على أفكار الزعماء والقادة المستأثرين بالحكم، أو على الذين يجعلون من التراث نصوصًا مقدسة تعلو على التفكير والتساؤل. والتمترس خلف هذه «الخطوط الحمراء» هو أسهل الطرق التي تسلكها الأجهزة البيروقراطية لالتماس الأمان، والإذعان للأوضاع السائدة، والترقي في سلم النفاق بلوغًا للمراتب الأعلى في المجتمع.



ولا حاجة بنا إلى البحث عن الأسباب التي تقود إلى غياب التفكير النقدي وشيوع القلق والاضطراب مع كل أزمة كهذه في المجتمعات العربية. فنظام التعليم، والأسرة، والعلاقات الاجتماعية بين الكبير والصغير تخلق كلها نسقًا تقليديًا.. يحجب القدرة على التفكير المستقل، والاعتماد على الذات وعدم الخوف من الكبار والرغبة في الانطلاق والتحرر واستكشاف البيئة المحيطة. وهذه النظرة النقدية للحياة والفكر والمجتمع هي التي تمكن المواطن في المجتمعات المتقدمة من تمثل القديم وتجاوزه بحثًا عن الجديد، ومن تجربة أساليب مستحدثة وطرائق مختلفة في التفكير والتطبيق هي مصدر الإبداع والابتكار في الفنون والعلوم والتكنولوجيا وفي كل صور التفكير الإنساني، بشرط أن يتم ذلك في أجواء تحررت من الخوف والحذر والتوجس، والتزام الخطوط الحمراء والمحاذير التي توقع صاحبها ضحية لغضب السلطان واتهاماته بالتآمر والخيانة والعمل لصالح الأجنبي، أو بالكفر والخروج عن الدين.. وهي اتهامات سهلة وجاهزة في معظم الأحيان.

والنتيجة الطبيعية لذلك هي ما نراه اليوم، من لجوء مستمر غير مرغوب إلى سلطة أعلى، طلبًا للفتوى والمشورة في صغائر الأمور وكبائرها، في الجاد والتافه من شئون الحياة، مع استبعاد للفطرة والعقل وتنازل عما أمر به الدين كل مسلم من تشغيل فكره واستنطاق بصيرته والاهتداء بعقله. وهي تعكس الاتجاه العميق إلى عدم تحمل المسئولية وإلقائها على الآخرين. وعدم الرغبة في المجاهرة بالرأي وتقديم النصح لصاحب السلطة حتى يظل الفرد آمنًا على نفسه من العقاب والمؤاخذة والنقد.

إلى هذه الدرجة من الجبن الاجتماعي والشلل العقلي والفكري، بلغت حالة معظم المجتمعات العربية. فرأينا أخيرًا في مصر كيف سعى بعض المتعصبين الذين نخر سوس الجمود والتعفن في عقولهم إلى مصادرة كتب عدد من فلاسفة الصوفية ومن بينها كتب محيي الدين بن عربي سلطان العارفين، الشيخ الأكبر وصاحب الفتوحات المكية الذي انتقلت أفكاره وشاعت بين مفكري الغرب منذ عصور النهضة لمجرد أن كتاباته انطوت على نظرية في التصوف تقوم على وحدة الوجود.

ولولا نفر قليل من المثقفين المستنيرين مازالوا في صفوف الأزهر لكنا اليوم أمام فضيحة ثقافية عالمية لا تضاهيها غير الفضيحة التي تفجرت عندما تقرر حذف بعض الفصول والعبارات من «ألف ليلة وليلة»، وإعادة طبعها منقحة خالية مما ألمَّ بها من عبارات مكشوفة. أو حين ثارت ضجة مشابهة حول ديوان أبي نواس في الغزليات وجرت مصادرته بحجة أنه تضمن أشعارًا إباحية. ومازالت محاولات المصادرة لرسائل علمية أو دراسات فلسفية وأدبية تقع كل يوم في الخفاء وقليل منها ما تناهى إلى أسماع الرأي العام. وهو ما يحق لنا أن نتساءل بشأنه كيف احتملت مجتمعات المسلمين وأمراؤهم وسلاطينهم في عصور سبقت مثل هذا الإنتاج العقلي والفكري المتفتح، دون خوف من غضب الخاصة أو جهل العامة؟



في مرحلة التصدع الفكري والثقافي التي نعانيها حاليًا ذهب البعض إلى القول بأن انتشار الكتابات الصفراء وغياب الثقافات الرصينة مرجعه إلى أن الدولة في عديد من المجتمعات العربية رفعت يدها أو انسحبت تدريجيًا من إدارة المجتمع اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا. وأنه في ظل التعددية السياسية والديمقراطية المظهرية لم تعد الدولة تمارس سلطانها على العقول والأذواق والسلوكيات، وهي كذبة كبيرة لأن غياب ثقة المجتمعات العربية في مؤسساتها - وعلى رأسها المؤسسة الإعلامية - هو الذي فتح الطريق أمام الصحافة الصفراء لملء الفراغ الإعلامي.

ويرى «نبيل علي» خبير المعلومات المعروف أن الصحافة الصفراء: «نجحت في أن تقيم اتفاق عدم اعتداء غير معلن مع السلطة الحاكمة وهو الذي مكَّنها من أن تختلي بقرائها، فراحت تملأ الفراغ الإعلامي بكل ما هو رخيص وتافه من حديث الفضائح والخرافة ونفاق العواطف».

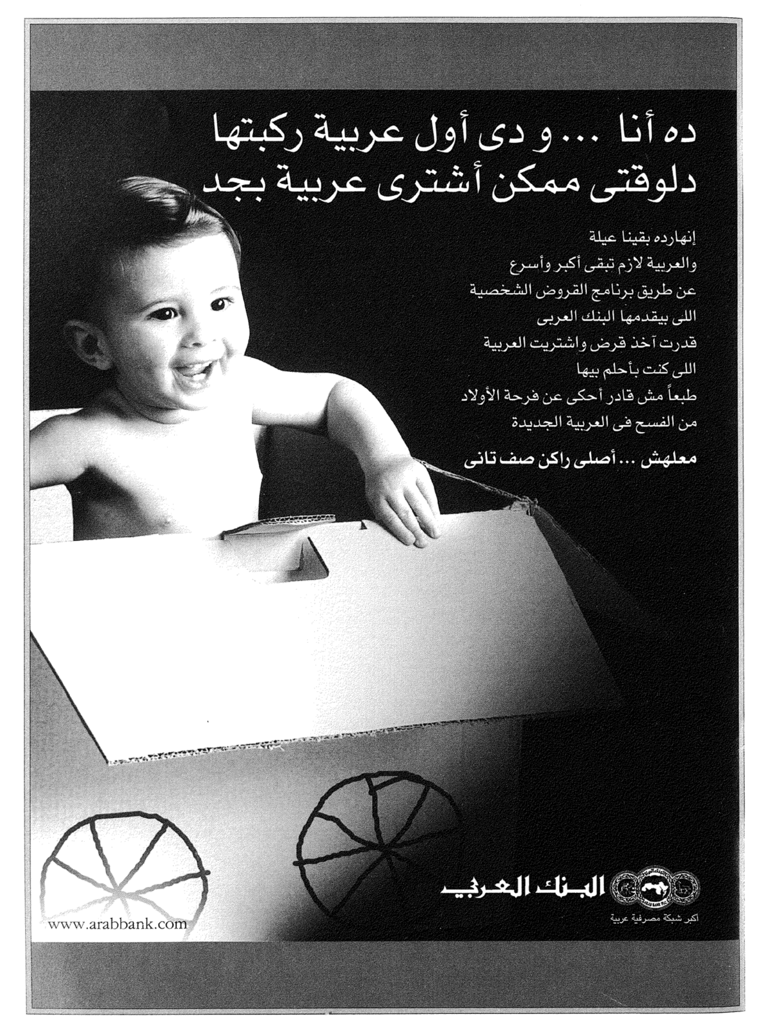
وبعبارة أخرى فإن علاقة السلطة الحاكمة بالقوى الرمزية في المجتمع جعل الطابع الدعائي المباشر هو السائد في علاقتها بالإعلام الرسمي وهو الذي روَّج لنوع من التفكير المزدوج يسمح لك بأن تؤمن من ناحية بالتقدم العلمي، ولكنه يشجع من ناحية أخرى على الهروب منه وتجنب التفكير في تحمل تبعاته. فالمجتمع يرحب بالسلع الغربية وبالإنتاج الغربي من علوم وتكنولوجيا وفنون وثقافة، ولكنه لا يقبل النتيجة المنطقية لذلك: وهي أن هذا التقدم ما كان ليتحقق بدون ذات حرة فاعلة مستقلة، مالكة لحياتها وقدراتها العقلية والجسمية.

وفي مثل هذه الأجواء التي تتحدد فيها مهمة الإعلام إما بإضفاء المشروعية والتقديس على السلطة أو بكونه أداة للترفيه والترويح عن النفس.. تنمو الصحافة الصفراء نموًا عشوائيًا غير محكوم وغير خاضع لأية معايير، فتتحول دون أن يدري أحد إلى أداة لإشاعة التعصب والعصبية والعنصرية ونزعات الكراهية ومخاطبة الغرائز ونشر الفضائح والعبث بالعقول والأفهام، مستخدمة في ذلك أحدث تقنيات الطباعة والتصوير وأساليب الصحافة الحديثة التي تميزت منذ منتصف القرن الماضي بالمانشيتات الفاقعة المثيرة، والقصص الصحفية المفبركة، والمبالغات الفجَّة، واللغة السهلة الرخيصة، والاستسهال الشديد في تناول الموضوعات الجارية بأساليب ساذجة مسطحة مزوقة بالقفشات والنوادر والحكايات الغريبة.

وهكذا تكتمل الدائرة: فراغ إعلامي ناجم عن سيطرة ثقافة الخوف وارتعاش العقول والأقلام نتيجة علاقة مريضة معتلة بين السلطة الحاكمة والإعلام، يؤدي إلى ضمور فكري وهزال إعلامي وازدواج فكري.. تقفز الصحافة الصفراء إلى ملئه بالغث التافه من الأمور وبالترفيه الساذج الرخيص، حتى إذا انفجر الموقف واختلطت الأمور.. أصبح المنع الشامل والتفتيش في العقول والضمائر هو أسهل الطرق لاستعادة زمام الموقف. وضاعت في الزحمة كل الحدود الفاصلة بين الإبداع الحقيقي والإباحية، بين الابتكار والتجديد وبين التبذل والإثارة، ويصبح الصمت هو الطريق الآمن الوحيد في روشتة العلاج التي كتبها صلاح عبدالصبور في قصيدته على لسان بشر الحافي:

احرص ألا تتكلم
قف
وتعلق في حبل الصمت المبرم
اللفظ حجر
اللفظ منية
فإذا ركَّبت كلاماً فوق كلام
من بينهما استولدت كلام
لرأيت الدنيا مولوداً بشعاً
وتمنيت الموت
أرجوك.. الصمت.. الصمت!

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com



Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 34 - November 2001 مجلة شهرية . العدد الرابع والثلاثون . السنة الثالثة . نوفمبر ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات

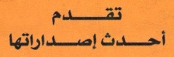
السياسة بين الحلم والإرادة ؟
محمد حسنين هيكل

الإرهاب والإسلام
كمال أبو المجد

.. وماذا بعد طالبان؟
فهمى هويدى

ومقالات :
- محمد الميلى ♦ جلال أمين
- يوسف القعيد ♦ سيمور هيرش
- أمينة رشيد ♦ حسين عبد الله
- ناصر الأنصارى ♦ عادل أبو زهرة
- سلامة أحمد سلامة ♦ أحمد توفيق

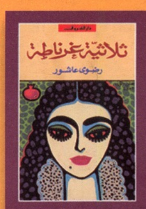
نوبل "نايبول" .. ومكافأة التهجم على الإسلام / صبرى حافظ

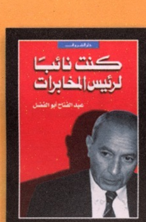


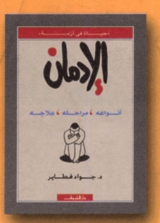
تقدم
أحدث إصداراتها

في فقه الأقليات المسلمة
حياة المسلمين وسط المجتمعات الأخرى
د. يوسف القرضاوى



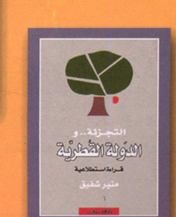












تطلب من :

دار الشروق: ٨ شارع سيبويه المصري ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق: ١ ميدان طلعت حرب تليفون: ٣٩١٢٤٨٠
ومكتبة الشروق: مبنى "فرست" أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون: ٥٧٣٥٠٣٥

ومن المكتبات الكبرى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد الرابع والثلاثون
نوفمبر ٢٠٠١

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كتَّاب العدد:

- أحمد توفيق... مدرس طب المناطق الحارة بجامعة طنطا.
- أحمد كمال أبوالمجد... أستاذ القانون الدستورى بجامعة القاهرة.
- أمينة رشيد... أستاذ الأدب الفرنسى والمقارن بجامعة القاهرة.
- تارون ج. تيجبال... محرر بمجلة *Outlook* الهندية.
- جلال أمين... أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- حسين عبدالله... أستاذ اقتصاديات البترول ووكيل سابق لوزارة البترول المصرية.
- حلمى التونى.. فنان تشكيلى ومصمم جرافيك.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- سيمور هيرش... صحفى أمريكى.
- صبرى حافظ.. أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة لندن.
- عادل أبوزهرة... أستاذ العلوم السلوكية بجامعة الإسكندرية.
- محمد حسنين هيكل.. صحفى.
- محمد الميلى... المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- ناصر الأنصارى... مدير معهد العالم العربى بباريس.
- يوسف القعيد... صحفى وروائى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٢ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

ظـــــلال أفغانســـــتان

فى تتابع لاهثٍ متلاحقٍ لما بعد الزلزال.. ورغم سحابةٍ داكنةٍ من عدم اليقين. وأمواج متلاطمةٍ من علاماتِ الاستفهام، أصبحت افغانستان - البلد الأكثر فقراً ووعورةً.. وعناداً - مانشيت الصفحة الأولى، رغم ندرة التفاصيل. وخبر النشرة الأول، رغم صعوبة النطق .. والشاشة الخضراء المبهمة.. وملل التقارير المكررة.

افغانستان التى قُدر لها أن تكون «خشبة» للمشهد «الحالى» من مسرحية تبدو للكثيرين «عبثية»، فرضت نفسها.. أو بالأحرى فرضتها الأحداث، موضوعاً وعنواناً لهذا العدد من «وجهات نظر».

«ماذا بعد طالبان؟» السؤال احتل الصفحة الأولى فى كتاب الألغاز الضخم الذى بدأ تحريره صبيحة الحادى عشر من سبتمبر (بتوقيت نيويورك) بعد أن تم - ربما عمداً - ورغم عدم اليقين، تنحية السؤال الأهم جانباً: من فعلها..؟ وكيف..؟ ولماذا..؟!



مـحـاولاً الإجابة عن السـؤال - الذى يعمل الكثيرون على التدخل بالقوة والدبلوماسية فى إجابته - يرسم فهمى هويدى بخبرته «المباشرة» الخريطة المعقدة لتضاريس الأعراق والإثنيات والتحالفات والتاريخ فى هذا البلد البائس (٦٤٧ الف كيلو متر مربع، و٢٧ مليون نسمة، وأكثر من سبع جماعات عرقية وما يزيد على ثلاثين لغة محلية).

يرى هويدى أن إسقاط حكومة طالبان لم يكن بحاجة إلى كل تلك العمليات العسكرية والغارات التى - على العكس - مدت من عمر الحركة التى كان عمرها الافتراضى قد قارب الانتهاء، بعد أن فشلت فعليا فى إدارة البلاد رغم نجاحها فى إنهاء عقد من الدماء والفساد. فالغارات «الاستعراضية» كان من شأنها، وهذا من طبائع الحياة والبشر، أن تزيد من تماسك صفوف الحركة (امام جبروت غاشم واحد). ثم إنها وضعت فصائل المعارضة فى موقف حرج من شأنه أن يفقدها أى تعاطف من شعب جبلى يتميز بالكبرياء والعناد.

أكثر من ذلك يذهب هويدى إلى أن سقوط النظام لن يعنى نهاية طالبان والتى ستتحول إلى حركة مقاومة جهادية. ويقول بأنه علم أن قرار التحول من سلطة حاكمة إلى حركة مقاومة اتخذ بالفعل.. وأن التعليمات صدرت بهذا الخصوص إلى حكام الاقاليم بالعمل كقادة ميدانيين لمواجهة الواقع الجديد. وأنه فى ظل انقطاع الاتصالات فإن لأولئك القادة المحليين حق التصرف واتخاذ ما يرونه مناسباً دون الرجوع لقيادة مركزية. الأمر الذى - إلى جانب بقية العوامل المتداخلة - يفتح الباب لاحتمالات تظل لانهائية.



أيا ما كان أمر مشهد أفغانستان «التى ستكون»، يرسم لنا جمال الدين الأفغانى مشهد أفغانستان «التى كانت». وتخصص «وجهات نظر» كتاب الزاوية لفصول من كتاب «تتمة البيان فى تاريخ الأفغان» الذى طبع عام ١٩٠١ وهو الكتاب الوحيد الذى الفه جمال الدين الأفغانى (١٢٤٥ - ١٣١٤ هجرية) ويعرض فيه لأصول الأفغان وطباعهم ومعتقداتهم وصناعاتهم ونظامهم السياسى.

والواقع أنه رغم الكتاب، ورغم شهرة الأفغانى عربياً، فقد ظل العرب لايعرفون إلا القليل عن أفغانستان والأفغان - كما يقول يوسف القعيد فى مقاله «لوجهات نظر» والذى يقرأ فيه روايتين لكاتبة افغانية «ميرال معروف».. بعد أن ادهشته الندرة الشديدة للأدب الأفغانى فى الكتابات المصرية والعربية: دراسة وتحليلاً وترجمة.. الأمر الذى يعكس حالة عدم اهتمام عربية شاملة بأدب هذا البلد «البعيد القريب».



ظلال افغانستان.. ودعاوى «التجييش».. والضجيج الهائل حول أبعاد ماجرى، يبدو أنها طالت ماكان مفترضاً الا تصل إليه. فبغض النظر عما أثير بقوة حول «أجواء» قرار الأكاديمية السويدية بمنح نوبل فى الآداب للكاتب الهندى الأصل الإنجليزى اللغة «فيديادار سوراجيراساد نايبول». يقدم صبرى حافظ فى مقاله عن «الأدب والسياسة فى عصر مابعد الحداثة» قراءة تحليلية، ليس فقط لكتابات صاحب نوبل المختلف عليه، بل - وربما كان ذلك مثيراً للاهتمام - لنص إعلان الأكاديمية «بجمله العامة الملتبسة».. والتى تشير بوضوح لا يخفى على أحد - وعكس العادة - إلى أعماله غير الروائية..».

يطرح صبرى حافظ فى مقاله مسألة تسرب معايير السياسة وأحكامها إلى ماينبغى أن يظل فى خانة الأدب.. والأدب وحده. فيعرض لما حدث هذه الأيام ايضا لجائزة «بوكر» وهى أرقى الجوائز البريطانية فى فن الرواية وكيف أن الاختيار خالف ما كان متوقعاً «ليتماشى مع المزاج السياسى السائد فى مناخ هذه المواجهة المتصورة بين الإسلام والغرب..».

والواقع أن كل من شهد معرض فرانكفورت الدولى للكتاب قبل أيام لابد أن استوقفه حديث (أو بالأحرى سكوت) الفيلسوف الألمانى يورغن هابيرماس *Jurgen Habermas* فى حفل استلامه لجائزة السلام التى يمنحها سنويا معرض فرانكفورت للكتاب. فالذين تجمعوا فى كنيسة القديس باول العريقة حيث أقيم الحفل توقعوا - كما هى العادة - الا يغيب عن «حفل السلام» صدى الحرب الدائرة هناك، إلا أن ذلك لم يحدث أبداً. بل كان الاكثر إثارة ما لاحظه البعض من اختلاف - متعمد - بين الكلمة المطبوعة التى وزعت على الحاضرين وبين تلك التى القاها فعلاً الفيلسوف اليسارى المحتفى به. فبين فقرات أخرى اختفت قرأ الحاضرون فى الوثيقة الأصلية تحذير هابيرماس من «الضغط المنفلت الذى ينتجه الأخذ بالثأر..»، إلا أن هذا الجزء - مع أجزاء أخرى - تم حذفه فى كلمته أمام الحضور.

هل نحن أمام إرهاب فكرى يذكرُ بما يفضله الكثيرون من تجنب الحديث عن «المحرقة». وهل تصرف الفيلسوف الألمانى وفى باله ماتعرض له مواطنه الكاتب الروائى مارتن فالسير الذى أثار قبل سنتين عند تسلمه الجائزة ذاتها الكثير من اللغط، عندما قال فى كلمته بأنه شخصياً غير معنى بعد بالشعور بالذنب إزاء ما ارتكبه هتلر، لأنه يعتقد إن الألمان عليهم التطلع إلى المستقبل، وأن الشعور الدائم بالذنب، يجعلهم محبطين دائماً بصورة عامة.

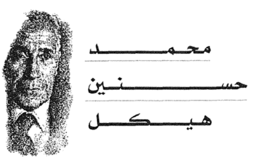
أين نحن الآن؟

وإلى أى مدى ستصل جهود صياغة العدو البديل؟

وإلى أى أين سيذهب بنا كل هذا الصخب والضوضاء والضجيج.. ومحاولات النفخ فى مقولات « صموئيل هنتنغتون» القديمة..؟

وجهات نظر





مقدمة

كان هذا الحديث مكتوبا فى الأصل للعدد السابق من «وجهات نظر» وعندما وقع ما وقع فى نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر الأخير، واندلع الحريق فى «أمريكا والعالم». وجدت مناسبا أن أقف مع الواقفين على ناصية دنيا تتغير أحوالها تحت بصر أهلها جميعا من خلال صور ومشاهد لا يستغرق زمنها أكثر من ثوان. لكنها تستولى على الحس والعقل والخيال.

وظننت أن ذلك الحديث الذى كتبته قبل ١١ سبتمبر فات أوانه بانتمائه إلى عصر ما قبل الحريق، وألقيت نظرة أخرى عليه قبل أن أودعه سجل المحفوظات، ثم خطر لى - والصفحات مازالت أمامى - أن موضوعه مازال موصولا بما هو جار من الأحداث خصوصا مع كلام يتردد عن «تعاون» أو «ائتلاف» أو «تحالف» يدخل فيه العرب مع الولايات المتحدة فى حرب يسمونها: «الحرب الأولى فى القرن الواحد والعشرين».

ومر بخاطرى أن السياسة العربية المعاصرة قد يفيدها أن تقرأ - إذا كان يهمها - تجربة عن فكر وفلسفة وشروط «التعاون» أو «الائتلاف» أو «التحالف» بين أطراف تتفاوت بينها عوامل القوة والضعف بما يميل بالموازين «نظريا» إلى ناحية الأقوياء - إلا إذا أدرك الضعفاء أن ما هو «نظرى» له جانب آخر «عملى»!

ذلك أنه عندما يحتاج القوى إلى الضعيف فى درجة من درجات «التعاون» أو «الائتلاف» أو «التحالف» - فمعنى ذلك أن القوى يستشعر «الحاجة» إلى الضعيف، لأن ذلك الضعيف يملك شيئا مرغوبا فيه ومطلوبا، وفى الغالب فإن هذا المرغوب فيه والمطلوب يكون من الموارد المعنوية أو الأخلاقية أو القانونية يراد لها أن تضفى صفة المشروعية على نوايا الأقوياء وخططهم وأفعالهم، وذلك هو المبرر المنطقى الذى يخلق لدى الأقوياء حاجتهم إلى الضعفاء!

أى أن «حاجة» الأقوياء إلى الضعفاء قادرة على تعويض النقص فى القوة وتحقيق قدر من المساواة بين الأطراف، بمعنى أنه إذا كانت القوة المادية تصب فى حساب طرف، فإن القوة «المعنوية» و«الأخلاقية» و«القانونية» تضيف إلى أرصدة الطرف الآخر، وبالتالى فإن ذلك التعويض يصنع تكافؤا سياسيا يحفظ العلاقة بين الطرفين أن تتحول إلى تبعية (وربما عبودية !).

لكن هذه العملية - تعويض المادى بالمعنوى - لا تحدث تلقائيا وإنما هى تحتاج إلى فهم للحقائق بدقة ، وإلى استعمال للإرادة بحساب لأنها عملية شديدة التعقيد.

□

وعندما مالت بى الظنون إلى إمكانية نشر هذا الحديث فقد آثرت أن أتركه على حاله كما كتبته باعتقاد أن كل حديث وحدة كاملة متوازنة فى الموضوع والمناخ والتأثير. وبرغم إحساسى أن الواقع الراهن بعيد عن كلام البحر والموج والرمل - فقد تصورت أننى خلال الشهور الأخيرة وفيما كتبته فى هذه المجلة وقفت طويلا أمام مقدمات الواقع الراهن وعرضت مبكرا لاحتمالاته، وكذلك جازفت - وأملى ألا أكون أخطأت - وشردت قريبا أو بعيدا.

هـ

١ عن البحر والحرب والزمان الجديد

في الطريق إلى الساحل الشمالى لإجازة صيف على شاطئ البحر، صحبت معى عدة كتب. وإجازات الصيف عادة فرصة حرة للقراءة. والقراءة فى هذه الأوقات متانية، لأنها ليست محصورة ولا محاصرة، وكذلك فهى فسحة مفتوحة للتأمل والتحليق فى سماء عريضة، بشراع عال، على موج وريح كلاهما يحمل الشاطئ ومن فيه إلى سفر بغير قيد نحو أفق بغير حد.

وكان «صحابى» من الكتب هذا الصيف مجموعة من منشورات ربيع سنة ٢٠٠١، ومعظمها مما أستبقيه عادة لقراءات الصيف المسترخية. وبالطبع، فإن أول هذا النوع من الكتب هو «السّير» كتبها أصحابها بأنفسهم (سيرة ذاتية)، أو كتبها آخرون غير أصحابها بعد أن تقابلوا مع قصص (حياة) تستحق التسجيل لرجال ونساء تركوا فى الدنيا ذكرا وأثرا.

بعد كتب السّير - ذاتية وغير ذاتية - أحمل معى فى العادة ضمن قراءات الصيف أعمالا فى التاريخ والسياسة والحرب، فتلك - إلى جانب أسباب المهنة - هواية مبهورة دائما بحكاية الصراع الإنسانى ودخائلها.

ثم يجىء بعد ذلك نوع ثالث من الكتب يتصل بالفلسفة والفكر. وعادة ما تكون الكتب من هذا النوع آخر قراءات الصيف فى دورها، وعادة ما ينتهى الموسم بتأجيل قراءتها - مع غيرها - إلى فصل الشتاء حيث تصح قراءتها أكثر داخل جدران غرفة، وأمام مكتب، وفى اليد قلم بالقرب منه ورق، وتلك حوافظ تمكن من التركيز فلا تشرد نظرة أو خاطر وراء شعاع شمس أو حبة رمل أو طائر نورس ينزلق بجناحيه مع الريح!

وكان «صحابى» من الكتب هذا الصيف عشرة:

- «صنع اليابان الحديثة» لـ: «هربرت بيكس».
- «حياة أنديرا غاندى» لـ: «كاترين فرانك».
- «بيت الأسرار» (عن وكالة الأمن القومى الأمريكى) لـ«جيمس بامفورد».
- «شخصية الملكة فيكتوريا» لـ: «كريستوفر هيبرت».
- «صليب الفارس» (عن الماريشال الألمانى إروين روميل) لـ: «دافيد فريزر».
- «يوميات الحرب الكاملة» لـ: «الماريشال آلان بروك».
- «فرنسا سنوات الظلام (١٩٤٠ - ١٩٤٤)» لـ: «جوليان جاكسون».
- «تكوين العقل الحديث» لـ: «بيتر واطسون».
- «الطلسم» (السباق إلى حل الشفرات السرية للدول الكبرى) لـ: «سيباج مونتفيورى».
- «ميزان القوى العسكرية فى الشرق الأوسط ٢٠٠١» لـ: «أنتونى كوردسمان».

....

....

فى الصباح الباكر من أول يوم على الساحل، مشيت فوق الرمل نصف ساعة، ثم سبحت وسط الموج نصف ساعة أخرى، ثم ذهبت أجىء بواحد من «صحابى» أقضى معه بقية الصباح حتى الظهر إذا لم يطرأ ما يلفت أو يشغل!

وألقيت نظرة عابرة على كتبى العشرة وقد اتخذت مكانا منفردا وسط رفوف كتب سبقتها إلى الساحل وبقيت هناك، لأن عودتها إلى القاهرة لم تكن ضرورية. وبدا لى أن تلك النظرة العابرة على صف الكتب تريد أن تستوثق أن ما جئت به من «صحابى» كان اختيارا معقولا لم تفرضه عجلة السفر.

بين الحلم والإرادة!

بدت لى قائمة «صحابى» من الكتب مقبولة، وإن لاحظت أننى مازلت مفتونا بالحرب العالمية الثانية؛ فأربعة ضمن عشرة كتب ـ جئت بها معى ـ كانت عن تلك الحرب أو متصلة بوقائعها، ولم أجد فى ذلك ما أستغربه، بل وجدته بالنسبة لى طبيعيا ومنطقيا، لأسباب يطول شرحها وإن حاولت الإجمال والاختصار:

■ إن تلك الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) كانت آخر مواقع الصراع الكبرى على مسرح التاريخ الإنسانى. كانت بالفعل آخر حرب إنسانية: بشر أمام بشر، وجيوش أمام جيوش، وسلاح يستعمله رجال أمام سلاح يستعمله رجال، ومواقع القتال ظاهرة، فيها نار ودم ولحم وعظم، وأهم من ذلك كله عواطف ومشاعر وغرائز وهواجس حية ويقظى ومؤثرة.

فى حروب السلاح فيما بعد شحبت صورة البشر، بل ولم تعد للقتال ميادين ولا ساحات ولا مواقع، فإمكانية الحرب النووية حياة تتحول فى لمحة بصر إلى رماد، وإمكانية الحرب الإلكترونية صور أمام المشاهد تلهيه، وإمكانية الحرب الكيماوية أو البيولوجية موت مهين لا شجاعة أو بطولة، ولا شهيد أو نشيد!

■ وتلك الحرب العالمية الثانية كانت مختبرا هائلا لكل العلوم الحديثة، من الفضاء والذرة إلى الطبيعة والكيمياء إلى المعلومات والذكاء الصناعى إلى التخطيط والتنظيم والإدارة والمتابعة. والحروب باستمرار هى أكبر دافع لاختراقات العلم فى كل المجالات. ففى غمار مخاطرها تتحفز العقول، وتنفتح الخزائن، وتنطلق روح المغامرة خارجة عن المألوف والمعروف باحثة عن مكامن التقدم حيث تكون.

وكانت اختراقات العلم التى جرت فى الحرب العالمية الثانية وتحت إلحاح ضروراتها هى التى فتحت الأبواب لثورة اجتماعية غير مسبوقة فى التاريخ الإنسانى، أتاحت السلع والخدمات من كل الأنواع وكل المستويات لمن يطلبها. ثم إنها أحدثت نقلة تشبه الخيال فى مجال تلاقى الناس والثقافات والفنون، وكان مثل ذلك التلاقى من قبل ضروبا من أوهام الخيال. والحقيقة أنه خلال نيران تلك الحرب العالمية الثانية جرى صهر وسبك العالم كما نعرفه الآن ماشيا من القرن العشرين إلى القرن الواحد والعشرين، وهى رحلة وصلت من سطح الأرض إلى سطح النجوم.

■ وتلك الحرب العالمية الثانية كانت البيئة التى ظهرت فيها القوى الغالبة فى هذا العصر لأنها القادرة عليه. كان ذلك العصر هو الذى صنع تلك القوى، وقد حاولت بما اكتسبته أن تصنع العصر كما صنعها.

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هى القوة التى انتصرت فى تلك الحرب، وكان شريكها الأكبر فى تحقيق النصر هو الاتحاد السوفيتى، لكن وسيلة النصر لدى كل منهما حددت وحسمت أيهما يملك الزمان الجديد أو على الأقل يسيطر عليه.

فالاتحاد السوفيتى حقق نصيبه فى النصر بعطاء من الدم غزير (كان ضحايا الحرب العالمية الثانية فى كل ميادينها ٦٨ مليون إنسان ـ لكنه كان بينهم ٢٥ مليونا من السوفييت ـ أى أكثر من ثلث شلال الدم.

وأما الولايات المتحدة فقد حققت نصيبها من النصر بعطاء مختلف: وفرة فى الموارد مهولة، ومعها ثروة طائلة تستطيع أن تمنح وهى أيضا تستطيع أن تستحوذ وتلك طبيعة الأشياء. وهكذا فإن وفرة الموارد ومعها الثروة الهائلة لم تأخذ فقط كل منجزات العلم، لكنها أخذت أيضا كل غنائم النصر.

وكانت النتيجة فى نهاية الحرب الباردة أن الذى أعطى الروح والدم أخذ بعدهما الشعر، وأن الذى أعطى الموارد والثروة أخذ بعدهما القوة ووجد فيها ما يغنيه عن القصائد والعقائد!

وتلك هى الحقيقة العارية فى شأن هذه الحقبة من التاريخ الإنسانى التى نعيشها الآن، وذلك هو واقعها الراهن بصرف النظر عن معانٍ وقيم وحقوق تطالب للحياة بكرامتها، بعيدا عن أوهام البطولة والشعر والقصائد، وبعيدا عن هيمنة القوة وغرورها وجنونها فى بعض الأحيان!

■ وتلك الحرب العالمية الثانية كانت نوعا من العودة إلى مجرى التاريخ الإنسانى بالنسبة لشعوب وأمم وأوطان ودول فيما أصبح يسمى بالعالم الثالث فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. والشاهد أن مجرى التاريخ تلازم مع مجرى الحضارة كأنهما صفان من العجلات على شريط للسكة الحديد، وكذلك تذهب مراكز الحضارة إلى حيث تذهب مراحل التاريخ. أى أنه حين تغيب شمس الحضارة تنام حركة التاريخ.

وكان هدير مدافع الحرب العالمية الثانية هو الصوت الذى وصلت أصداؤه إلى العالم الثالث وأيقظته. ثم إن الذين لم يوقظهم الصدى هزتهم حركة الجيوش المتحاربة فوق أرض أوطانهم أو بالقرب منها، وقد هبوا ليجدوا النار من حولهم وكان عليهم أن يهموا بسرعة. وذلك بالضبط ما حدث لشعوب الأمة العربية التى راحت تفتش وسط الحرب العالمية الثانية ـ وفى أعقابها ـ وما زالت تفتش لنفسها عن شكل يناسبها وهيئة تشارك بها فى مجرى التاريخ ومجرى الحضارة معا.

■ ونتيجة لذلك، وتواصلا طبيعيا معه، فإن تلك الحرب العالمية الثانية أصبحت بالنسبة لذلك الجيل الذى أنتسب إليه بداية للوعى بالعالم والتنبه للعصر. فقد كانت أجواء تلك الحرب ـ قرب ميادين القتال أو بعيداعنها ـ صراع معارف وثقافات وخبرات ألهمت ووجّهت وحرّكت وفتّحت، على حد تعبير أشهر مؤرخى القرن العشرين، وهو «أرنولد توينبى»: «مائة عام من المستقبل على الأقل».

ويظهر الآن بعد أكثر من نصف قرن من سكوت مدافع تلك الحرب العالمية الثانية أن نبوءة «توينبى» صحيحة، وأكثر من ذلك، فإن أعقاب تلك الحرب كانت بالنسبة لى ـ شخصيا ـ بداية طريق. ذلك أنه حين شاءت لى الظروف والحظوظ أن أبدأ رحلة الحياة، كان الأفق الذى سرت نحوه هو وهج تلك الحرب. ثم كان أن دواعى المهنة وضعتنى ـ حتى بعد أن شحب الوهج ـ وسط عواقب تلك الحرب وتداعياتها وتوابعها مما لا يزال يجرى حتى الآن وإلى أى مدى يمكن استشرافه من هنا!



لم يكن غريبا إذن ـ وتلك خواطرى ـ أن تمتد أصابعى لتدعو واحدا من «الصحاب» معى إلى شاطئ البحر، ثم يكون هذا «الصاحب» الأول ـ من بين العشرة ـ هو كتاب: «فرنسا (١٩٤٠ ـ ١٩٤٤): سنوات الظلام» ومؤلفه هو «جوليان جاكسون»، أبرز أساتذة التاريخ فى جامعة «ويلز» البريطانية، وتخصصه هو التاريخ الفرنسى الحديث، وله فيه خمسة مؤلفات كل منها مرجع لا يستغنى عنه فى موضوعه!

و«سنوات الظلام» التى قصدها الأستاذ «جوليان جاكسون» بعنوان كتابه هى تلك السنوات التى عاشتها فرنسا تحت الاحتلال الألمانى من ساعة دخلتها قوات الاحتلال فى يونية سنة ١٩٤٠.

ثقافات البحر الأبيض
حصة الأغلبية فى
شراكة الحضارة
العالمية

إلى ساعة تحررت باريس في سبتمبر سنة ١٩٤٤ بعاصفة من قوات الحلفاء نزلت على شواطئ «نورماندي» تحت قيادة «أيزنهاور»، وشقت طريقها إلى المدينة التي اعتبرها العالم - قبل الحرب العالمية الثانية - عاصمة للنور!

وقصدت بالكتاب إلى مقعدي فوق الرمل وقرب حافة الماء وعلى مسمع من صوت حكايا الموج للشاطئ. وفتحت كتاب «فرنسا: سنوات الظلام» واجتزت عدة صفحات من الكتاب فيها المقدمة والفهرس والخرائط، ثم توقفت.

راودني على نحو ما شعور بأن ما أقرؤه ليس غريبا عني. ربما قرأت شيئا مشابها له من قبل لكن شعوري كان أنني عشت ما فيه على نحو ما وعرفته بتجربة الحياة وليس بمعرفة المطالعة مما سبق!

ساءلت نفسي: كيف؟ ولم أجد سببا قاطعا، لكني كنت على شبه يقين بأن ما أقرؤه الآن، عشته، رأيته وسمعته وتفاعلت وانفعلت مع مشاهده وحواراته وأجوائه وأحاسيسه.

طرأ على بالي - ونظري يمتد إلى مدى البصر حيث لقاء البحر والأفق - أنه تأثير البحر الأبيض وذلك التواصل بين شمال هذا البحر (جنوب أوربا وفيه فرنسا) وبين جنوبه وشرقه (المشرق العربي وفيه مصر).

وعاد إلى ذاكرتي وصف سمعته يوما من «كوف دى مورفيل» - وكان وزير الخارجية المستديم للجنرال «ديجول» ورئيس وزرائه أواخر عهده - وفي ذلك الوصف كان «دى مورفيل» يرسم صورة حية لحوار التاريخ والحضارة والسياسة حول البحر الأبيض.

وبشكل عام كان «دى مورفيل» يقول: «إن الناس يتصورون أحيانا أن البحر الأبيض عازل لكني أتصوره واصلا، بمعنى أنه ليس فضاء خاليا وإنما هو أشبه ما يكون بسطح مائدة أحاطت بها مقاعد تجلس عليها ثقافات متنوعة تمثل حصة الأغلبية في شراكة الحضارة العالمية».

ويمضي «كوف دى مورفيل» إلى أبعد ويقول: «البحر الأبيض مائدة مستطيلة حولها من الشمال و الجنوب ومن الشرق والغرب مواقع ظهرت واستقرت عليها ثقافات المصريين والآشوريين واليونان والرومان واللاتين والعرب من دمشق حتى قرطبة».

ويستطرد «كوف دى مورفيل»: «من مواقعنا حول البحر الأبيض تحاورنا، ومن هذه المواقع تأثر كل منا بالآخر، مع ملاحظة أن البحر الأبيض مستطيل شبه مغلق، يبدأ المسافر من أي بقعة فيه ويمشي على شاطئه فيجد نفسه حيث بدأ بدورة كاملة».

ومع أن بين الشعوب فوارق في مراحل التطور، ومع أن الظروف تتفاوت بين شمال وجنوب وشرق وغرب - إلا أن هناك سمات مشتركة لأن البحر الأبيض بالفعل دائرة واحدة متصلة: سماء صافية وشمس طالعة ومناخ معتدل، وكل ذلك يغري بالحياة وبالفكر وبالذوق وبالأدب، وبالفن وحتى بالأكل. وكل ذلك حي على شواطئ البحر الأبيض متداخل ومتفاعل، مما يجعل لكل موقع فيه نسمة وعطرا ولونا لا تخطئه الحواس.

....

....

[والمدهش أن محيط البحر الأبيض كله حزام من شجرتين اثنتين: واحدة مثمرة هي شجرة الزيتون الوقورة، والثانية مزهرة هي شجرة «البوجينفيليا» اللعوب (التي يسميها المصريون «الجهنمية» بسبب لونها الشائع (أحمر متوهج) وهو ظلم لأن أوراق هذه الشجرة في الواقع عيد من الألوان).

وكان فيلسوف الألمان الأكبر «هيجل» هو أول من قرأت له تعبير «إن التاريخ ظل الإنسان على الجغرافيا»، وربما إنه على نفس المنوال يمكن القول: «إن خصوصية أي شعب بصمة الطبيعة على طبعه».

وهنا فإنه إذا كان البحر الأبيض «طبيعة» فهو في الوقت نفسه «طبع»، وكذلك فإنه يمكن لما حدث ذات يوم في فرنسا أن يتشابه على نحو ما مع أيام في العالم العربي مع الاعتراف بمساحات للاختلاف هي من قوانين الحياة.]

....

....

وقفت مع الصفحات الأولى لكتاب «سنوات الظلام» ثم ذهبت معه مرتحلا فوق موج البحر، وعبر مساحة الزمن! ■

«٢» سنوات الظلام: بدايتها ونهايتها؟!

■ يبدأ كتاب «فرنسا: سنوات الظلام» بمشهد يحترم «المعنى» دون أن يتوقف كثيرا أمام «الشكل»!

والمشهد اجتماع لهيئة الوزارة الفرنسية المؤقتة التي دخلت باريس بعد تحريرها من قبضة الاحتلال الألماني، والاجتماع برئاسة قائد «فرنسا الحرة» الجنرال «شارل ديجول».

كان جو باريس حارا في شهر أغسطس سنة ١٩٤٤، وكذلك قلقا لأن المعارك ما تزال دائرة على ساعات من الأرض الفرنسية، وكان الموضوع المطروح على هيئة الوزارة المؤقتة، وبأحكام الواقع، محفوفا بتعقيدات شائكة ومعبأ بمشكلات صعبة، لأن جدول أعمال الاجتماع حوى بندا واحدا تقدم به الجنرال «ديجول» ملخصه: «ضرورة صدور إعلان رسمي بأن كافة التشريعات والتنظيمات التي أقرت أو وضعت طوال السنوات الأربع التي تولت المسئولية فيها تلك الحكومة التي رأسها الماريشال «بيتان» بعد استسلام فرنسا ودخول الجيش الألماني إلى باريس - كلها ملغاة ومعدومة الأثر null and void».

وكان ذلك إجراء كاسحا. ذلك، أن الماريشال «بيتان» كان قد وقع اتفاقية صلح مع ألمانيا سمحت باحتلال نصف فرنسا - وفيها باريس - وسمحت في الوقت نفسه ببقاء نصف فرنسا الآخر بغير احتلال تتولى أموره حكومة فرنسية برئاسة «بيتان» تباشر سلطتها من مدينة «فيشي» (جنوب غربي فرنسا). وهذه الحكومة قامت خلال سنوات ولايتها الأربع بإعادة بناء دستوري وقانوني وإداري واسع قيل في تبريره إنه «الاستفادة من درس الهزيمة التي منيت بها فرنسا من جانب ألمانيا».

وكانت عملية إعادة البناء الدستوري والقانوني والإداري استيعابا للدرس - كما قيل في تبريرها - قد طالت كل مرافق الحياة في فرنسا، لكن «ديجول» جاء الآن في لحظة التحرير ليسقط هذا البناء كله.

كان منطق «ديجول» أن حكومة «فيشي» ورئيسها الماريشال «بيتان» (وهو أبرز أبطال فرنسا في الحرب العالمية الأولى) لم تكن حكومة شرعية لأنها رضيت أن تتعامل مع الاحتلال وتتفاوض تحت ظل مدافعه.

وافقت هيئة الوزارة المؤقتة بالإجماع على مطلب «ديجول»، مع أن كل أعضائها كانوا يعرفون ويقدرون حجم التعقيدات والمشكلات التي سوف تطرأ فور صدور هذا الإعلان.

وبرغم ذلك فإن كل أعضاء الوزارة كانوا في الوقت نفسه يدركون أهمية تلك اللحظة الفارقة في «المعنى» على مسار التاريخ الفرنسي.

وفي أثناء المناقشة، اقترح أحد الوزراء: «أن يعلن قائد فرنسا الحرة عودة الجمهورية الفرنسية».

ورد «ديجول»: «إن الجمهورية الفرنسية لم تغب عن الوجود قط، حتى وإن كان بعض الأفراد قد انتحلوا سلطتها واستعملوها في توقيع ورقة بإملاء السلاح».

وتساءل وزير آخر: «عما إذا كان مناسبا إسقاط فترة الاستسلام (السنوات الأربع ما بين يونيه ١٩٤٠ إلى أغسطس ١٩٤٤) من تاريخ فرنسا باعتبارها زمنا خارج الشرعية».

ومرة ثانية رفض «ديجول»، ورأيه «أن الشرعية الفرنسية تلك السنوات تمثلت في المقاومة (حركة فرنسا الحرة) بصرف النظر عن وجود حكومة على بقعة من أرض فرنسا في فيشي». وتقديره أن «الشرعية» أساسها «الإرادة الوطنية»، وفي غياب الإرادة الوطنية فليست هناك شرعية خصوصا وأن تلك الحكومة في «فيشي» وقعت «ورقة» الاستسلام دون معرفة رأي فرنسا ودون سند من إرادة شعبها.

وكان قرار «ديجول» أن تلك السنوات التي لا يمكن إسقاطها من التاريخ الفرنسي يمكن اعتبارها سنوات «ظلام نزل على فرنسا»!

وبرز سؤال طرح نفسه هنا، «ما هو حساب سنوات الظلام؟ ومن أين تبدأ؟ وأين تنتهي»؟

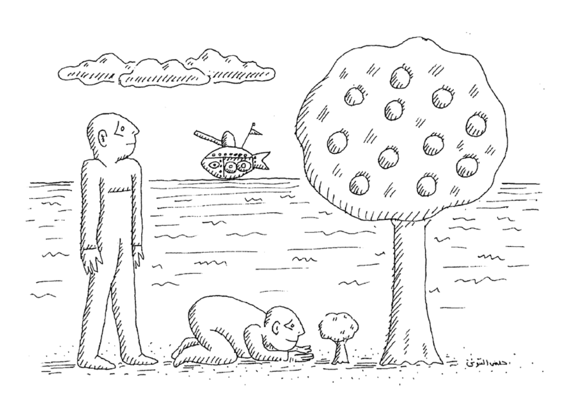
وكانت إجابة «ديجول»: «من ساعة وضع «بيتان» توقيعه على «ورقة الاستسلام» وحتى ساعة إعلان دخول حكومة فرنسا الحرة إلى باريس».

وتولى «هنري فريناي»، وهو أحد زعماء المقاومة البارزين، مهمة تفصيل ما أجمله «ديجول»، فأعلن بالنص: «إن حكومة «بيتان» كانت ظرفا ساد فيه الجنون. لقد هزمنا عسكريا أمام الألمان، إن ذلك صحيح لسوء الحظ، لكنه ليس سببا كافيا يدعونا لأن نقبل كحقيقة ثابتة ما هو حادثة عارضة. لقد كان قبول التعامل مع ألمانيا هو الهزيمة ذاتها. السلاح ينهزم، وهنا «الحادثة»، لكنه إذا انهزمت الإرادة فهناك «النهاية»».

وهكذا اعتبر انكسار الجيوش حادثة هي من طبائع صراعات التاريخ، وأما القبول والتوقيع على ورقة تنازل بإملاء السلاح، فتلك هي الكارثة!



كان انكسار الجيوش الفرنسية مذهلا. فالهجوم الألماني على فرنسا بدأ يوم ٩ من مايو سنة ١٩٤٠، وكان تقدمه من الجهة غير المتوقعة أو على الأقل الجهة التي لم يحسب حسابها بالقدر الكافي. والحاصل أن فرنسا كانت تنتظر الهجوم القادم من الشرق على أي بقعة من خط حدودها مع ألمانيا. وقد تصورت أنها استعدت لهذا الاحتمال، وكانت واثقة إن الخط الدفاعي الأسطوري الذي بنته أمام ألمانيا والذي اشتهر باسم خط «ماجينو» - على اسم وزير الدفاع الفرنسي الذي أعد له وأشرف على



بنائه - سدا لا يقهر من التحصينات المنيعة وأبراج المدافع ومرابض الدبابات ومراكز القيادة ومخزونات من الأسلحة والذخائر والمؤن يمكن أن تعين المدافعين عن الخط وعن تراب الوطن الفرنسي لشهور بل لسنوات. لكن الهجوم الألماني عندما جاء أتى من الشمال، لأن خطة «هتلر» لغزو فرنسا كررت مرة أخرى خطة قديمة وضعها الماريشال «فون شليفن» من أيام حرب السبعين (١٨٧٠)، ومقتضى الخطة ترك الحدود الفرنسية وخطوطها وتحصيناتها والدوران حولها عن طريق بلجيكا وهولندا وعبور نهر «الموس» والنفاذ في مناطق «الأردين»، ثم عبور نهر «اللوار» والاندفاع نحو «باريس» وتحقيق الفصل الكامل بين الجيوش الفرنسية على خطوط الحدود في الجنوب وبين الجبهة الأكثر حساسية والأشد خطرا في الشمال والغرب.

وفي ظرف أيام قليلة كانت مدرعات الجنرالات «جودريان» و«روميل» و«فون بيك» تسابق بعضها بعضا في شمال فرنسا، وغربها، مندفعة إلى قلبها.

ومن المصادفات صباح يوم بدء الهجوم الألماني على فرنسا (فجر ٩ من مايو) - أن القيادة العليا الفرنسية كانت معطلة، لأن رئيس الوزراء الفرنسي «بول رينو» لم يعجبه أداء القائد العام للجيش الفرنسي الماريشال «موريس جاملان» فيما سبق من معارك - فقرر إحالته إلى الاستيداع مساء يوم ٨ مايو - لكنه فجر اليوم التالي (٩ من مايو) ومع بدء الهجوم الألماني الشامل عبر هولندا وبلجيكا، والالتفاف حول خط «ماجينو» لم يكن أمام «بول رينو» إلا العدول عن قراره بإحالة قائده العام إلى الاستيداع، وهكذا فإن الماريشال «جاملان» الذي وقع طرده في المساء أعيد تثبيته على منصبه عند الصباح. والواقع أن الجبهة الفرنسية كانت قد انهارت تماما في حضور الماريشال «جاملان»، ثم في غيبته بالطرد في المساء، وكذلك بعد عودته بالتثبيت في الصباح!

وكان حلفاء فرنسا البريطانيون الذين جاءوا إليها بجيوشهم في «نورماندى» (شمالى فرنسا) قد رأوا الانهيار مبكرا وقرروا الانسحاب من المعركة وترك فرنسا تواجه العاصفة وتقرر لنفسها ماترى وعندما عبرت القوات الألمانية نهر «اللوار» والطريق إلى باريس مفتوح كان مجموع خسائر فرنسا من البشر:

● مليون وربع مليون قتيل.
● مليون ونصف مليون أسير.
● ثمانية ملايين مواطن فرنسي تحولوا إلى لاجئين (إلى درجة أن مدينة مثل «شارتر» لم يعد فيها غير ٨٠٠ مواطن في حين أن تعدادها الأصلى ثلاثة وعشرون ألفا، ثم إن قرية مثل «بوسيلانج» هرب سكانها ولم يتبق منهم غير عائلة واحدة ما لبث أفرادها جميعا - وعددهم خمسة - أن قرروا الانتحار جماعيا قبل أن تدهمهم القوات الألمانية.

ومساء يوم «٢٥ من مايو» قام الماريشال «موريس جاملان» (القائد العام للجيش الفرنسي) بإبلاغ الحكومة في باريس رسميا بأن عليها «أن تجد وسيلة لوقف القتال والتوصل إلى هدنة مع الألمان. لكن الحكومة قامت بعزل الماريشال «جاملان» وعينت بدله الماريشال «ماكسيم ويجاند» وحاول القائد العام الجديد أن ينقذ الموقف لكنه يوم «١٢ يونيه» حل عليه الدور لكي يطلب من الحكومة أن تجد وسيلة لوقف القتال والتوصل إلى هدنة مع الألمان.

وأكثر من ذلك، فإن الماريشال «ويجاند» وجه إلى رئيس الوزراء تحذيرا قال فيه، «إن التوصل إلى اتفاق بأى شكل مع الألمان لابد أن يتم بسرعة وقبل أن تنفرط الجيوش الفرنسية وتذوب في فوضى الهزيمة، ثم لا تجد الحكومة في باريس أى قوات تحمى بها الداخل الفرنسي من «حركة شيوعية» تحاول استغلال الكارثة وتستولى على السلطة»!

كانت باريس تعيش أقسى الساعات في تاريخها الحافل، لكن العاصمة كانت منقسمة بين الذين يرون استمرار مقاومة فرنسا حتى من خارج التراب الفرنسي كله إذا أدى الأمر - وبالتحديد من المستعمرات في شمالى أفريقيا (تونس والجزائر ومراكش) - وبين الذين يرون أن «الواقعية» لابد لها الآن أن تسود وأنه ليس أمام فرنسا غير أن تسأل الألمان عن شروطهم لوقف القتال، فالحرب انتهت عمليا بانتصار الألمان ليس على فرنسا فقط، وإنما على بريطانيا أيضا، لأن فلول الجيوش البريطانية التي انسحبت من فرنسا تحت النار في «دنكرك» أفلتت محطمة الأعصاب تاركة أسلحتها الثقيلة غنيمة لقوات الجنرال «جوردريان» التي طاردتها وطردتها من «نورماندى»، والنتيجة - وذلك هو القدر المحتوم - أن الجزر البريطانية نفسها سوف تصبح مكشوفة أمام غزو ألماني عبر بحر الشمال، لأن بريطانيا ببساطة لا تستطيع في أيام ولا أسابيع ولا شهور أن تعد دفاعات عن شواطئها تقدر على الصمود.

كان الشعب الفرنسي في حالة ذهول مما حل به، فقد انقضت عليه عاصفة الحرب وهو يعيش أزمة سياسية ضاعت فيها ثقته بمؤسساته السياسية والفكرية والثقافية، والشك في النفس أخطر ما يصيب الشعوب لأنه ينزع مناعتها ويضرب إرادتها بنوع من الحيرة تصل بها إلى الضياع.

وفي تلك اللحظات المثقلة بالهم تقرر دعوة الماريشال «بيتان» (الذى كان يعمل سفيرا لدى إسبانيا) كي يعود بسرعة لعل لديه دواء لعلل فرنسا، وهو البطل الذى حقق لها النصر في الحرب العالمية السابقة (١٩١٤-١٩١٨).

لكن الماريشال - الذى استدعى على عجل - كان قد ترك آخر جذوة في أسطورته تنطفئ بدعوى أن ساسة فرنسا تخلوا عن «القيم والأخلاق والمثل العليا التي قام عليها تماسك فرنسا».

وهكذا فإن «بيتان» «بطل الحرب» كان هو الرجل الذى طلب من الألمان «شروط السلم»!

ويوم «٢١ يونيه» قدم الألمان شروطهم لمبعوث خاص بعث به الماريشال «بيتان» الذى تسلم رئاسة الوزارة من «بول رينو» قبلها بأيام. والغريب أن القائد الألماني الماريشال «فون رونشتد» قدم تلك الشروط لمبعوث «بيتان»، وهو الجنرال «هونتزيجر» في عربة قطار سحبت إلى محطة «كومبين»، وكانت نفس العربة إلى نفس المحطة التي وقعت فيها ألمانيا شروط الاستسلام في الحرب العالمية الأولى قبل ٢٢ سنة!

وكانت شروط الألمان كما يلي:

١ - يتم تقسيم فرنسا بالعرض إلى منطقتين: في الشمال منطقة احتلال ألماني، فيها باريس، ومنطقة في الجنوب تقوم فيها دولة فرنسية «مستقلة» تختار لنفسها عاصمة حسبما ترى سلطاتها.

٢ - الدولة الفرنسية تباشر تسريح جيشها وتحتفظ بقوة أمن لا يزيد تعداد أفرادها على مائة ألف رجل.

٣ - الأسرى الفرنسيون لدى الجيش الألماني (مليون ونصف المليون) يبقون في الأسر حتى تنتهي الحرب العالمية وتوقع معاهدة للصلح بين جميع الأطراف (وبعد شهور قليلة كان نصف هؤلاء الأسرى (٨٠٠ ألف) عمال سخرة في خدمة الإنتاج الحربي الألماني).

٤ - تتكفل الحكومة الفرنسية بدفع تكاليف وتتحمل نفقات الجيش الألماني في منطقة الاحتلال (شمالى فرنسا وفيها باريس).

وحين قام الجنرال «هونتزيجر» بنقل هذه الشروط الألمانية إلى الماريشال «بيتان» طلب الماريشال في مقابل قبوله بها ثلاثة شروط:

١ - أن تتعهد ألمانيا بعدم احتلال أرض الدولة الفرنسية المستقلة (جنوب فرنسا).

٢ - ألا تحتل ألمانيا أيا من مستعمرات فرنسا الإمبراطورية، وإنما تترك هذه المستعمرات تابعة لهذه الحكومة الفرنسية المستقلة التى اتخذت من مدينة فيشى عاصمة لها، وذلك حتى تجرى تسوية عامة فى مؤتمر الصلح بعد نهاية الحرب.

٣ - أن تتعهد ألمانيا بالا تستولى، ولا تحاول الاستيلاء على الأسطول الفرنسى فى موانئ «مارسيليا» و«طولون»، لأن البحرية الفرنسية سوف يقع عليها وحدها عبء الدفاع عن المستعمرات الفرنسية إزاء أطراف محتملة (بريطانيا).

ووافقت ألمانيا على هذه الشروط، وكان البند الوحيد المعلق قبل وقف القتال هو الاتفاق على المبلغ المقدر لتكاليف ونفقات جيش الاحتلال الفرنسى.

ولساعات دارت مساومات، وعرض المفاوض الفرنسى دفع مبلغ عشرين مليون فرنك يوميا، لكن المفاوض الألمانى لم يكن لديه وقت لطول الجدل، كما أن المفاوض الفرنسى كان يشعر دقيقة بعد دقيقة أن الأرض تقع من تحته والسقف يهوى منقضا عليه. وهكذا تم الاتفاق على أن «تتعهد فرنسا بأن تدفع تكاليف ونفقات جيش الاحتلال الألمانى وتقدر بمبلغ ٤٠٠ مليون فرنك كل يوم مع احتساب قيمة الفرنك الفرنسى إلى المارك الألمانى بنسبة ٢٠ : ١ أى أن عشرين فرنكا تساوى ماركا ألمانيا واحدا»!

ووضع الماريشال «بيتان» إمضاءه على اتفاق سلام ينهى الحرب ويبدأ تجربة جديدة للتوافق مع «الآخر» الألمانى، مع العلم بأن هذا «الآخر» كان «جارا» لفرنسا طول التاريخ وليس «آخر» انقض من الفراغ على التاريخ وعلى الجغرافيا معا!

وقد رأى «بيتان» من باب استيفاء الإجراءات أن يعرض الاتفاق على الجمعية الوطنية، وكان الجيش الألمانى على أبواب باريس فعلا ووافقت الجمعية الوطنية على الاتفاق بأغلبية ٦٢٤ صوتا ضد أربعة أصوات.

وتستوقف النظر وتستدعى التأمل مجموعة الإجراءات التى بدأ بها الماريشال «بيتان» حكمه لفرنسا. ومؤلف كتاب سنوات الظلام يوردها فى صفحة ١٥٤ من كتابه:

١ - طلب وحصل على تفويض دستورى جعل سلطته فى فرنسا أقوى من السلطة التى كانت فى يد الملك «لويس الرابع عشر» عندما كان يلقب بـ«الملك الشمس»، وعندما قال قولته المأثورة يوما: «أنا الدولة».

٢ - قرر تغيير النشيد الوطنى إلى نشيد آخر مختلف عن نشيد «إلى السلاح أيها المواطنون»، لأن النشيد القديم فيه تحريض على الحرب.

٣ - وجه نداء إلى الأمة الفرنسية لتعود إلى أيام كانت العائلة فيها أساس المجتمع وروابط علاقاته ومحدد قيمه.

٤ - أشار أو أشير عليه بوضع رسم يوضح صورة جانبية له محل وجه «ماريان» التى كانت بشبابها ترمز إلى حيوية الثورة الفرنسية.

٥ - وافق على كتابة شعارات الثورة عن: «الحرية والإخاء والمساواة» فوق كل المراسيم والقوانين والتنظيمات التى وضعتها حكومة فيشى، مع أن الإجراءات كلها تكاد توحى بأنه «نظام ملكى يتخفى وراء شارات ثورية»!



لكن رجلا واحدا رفع صوته ورفض هذا الاتفاق من باريس، وكان ذلك الرجل هو الجنرال «شارل ديجول» نائب وزير الدفاع فى وزارة «بول رينو».

وأمر الماريشال الأسطورى بالقبض على الجنرال المغمور، لكن «ديجول» الذى كان بين مهامه أن ينسق العمليات على جبهة «نورماندى» بين الجيوش الفرنسية والجيوش البريطانية قرر أن يتوجه إلى «لندن» ليقود من هناك حركة مقاومة باسم «فرنسا الحرة».

وكان يقينه الذى لم يتزعزع أن كل دعاوى «الواقعية» هى استسلام لضغوط لحظة تنسى التاريخ، وتتنازل عن الحقيقة، وتتهاون فى المستقبل.

ويقينه أن الثلاثة: التاريخ والحقيقة والمستقبل أهم وأبقى من صدمة حادثة ومن «لحظة ضعف» لا يجوز التأسيس عليها ثم البداية منها ونسيان ما عداها!

وفى لندن بدأ «ديجول» يتصرف على أنه الممثل لإرادة فرنسا، ومن ثم الشرعية الفرنسية، وفى رأيه كانت حكومة «بيتان» «الواقعية» حكومة غير شرعية - ليل من الظلام نزل على فرنسا!

«٣» الخيال - الحلم - الواقعية!

كان «شارل ديجول» - الذى ترك باريس قبل سقوطها - رافضا استسلام فرنسا وداعيا إلى استمرار الحرب ضد ألمانيا حتى من خارج التراب الفرنسى كله إذا اقتضى الأمر - رجلا يملك «حلما»، لكنه لم يكن رجلا «خياليًا».

....

....

[والفارق شاسع بين «الحلم» (الأمل) وبين «الخيال»، كما أن الفارق شاسع بنفس المقدار بين «الحلم» وبين «الواقعية».

والحقيقة أن تلك كلها: «الخيال»، و«الحلم»، و«الواقعية» ظلال لمواقف من الضرورى توضيحها بإضاءة معانيها وليس بمجرد النظر إلى سطحها، وإذا وقعت تلك الإضاءة الضرورية ونزلت على مكانها فسوف تنسحب الظلال وتتضح المشاهد بما تعنيه:

■ مشهد «الخيال» هو الجموح فى طلب «المستحيل» بصرف النظر عن حدود الطاقة الحالية والمحتملة للطالب، لأن الجموح إلى الخيال رغبة أقرب إلى الغريزة مستغنية عن الحساب، والمشهد على هذا النحو نوع من المقامرة خطرة العواقب على طالبها قبل غيره من الأطراف.

■ ومشهد «الحلم» هو «المشروع» القادر على تصور المستقبل وهو بالتالى طلب «الممكن كله» إذا وضعت «الإرادة كلها» فى خدمته، وذلك جوهر «المشروع السياسى» وبالتالى فإن «الحلم» مشروع سياسى يحقق كل المقدور عليه فكرا وفعلا إذا استعملت الإرادة كل وسائلها بقوة وذكاء.

■ وأما مشهد «الواقعية» فهو القبول «بالمتاح»، أى المأذون والمسموح به كما هو ظاهر فى لحظة معينة، واعتبار أن صورة هذه اللحظة هى الحقيقة الراهنة والدائمة، وهنا فإن «الواقعية» تصبح أبعد ما تكون عن «السياسة» بمعناها وأقرب ما تكون إلى الوظيفة بحدودها، فالسياسة تصوغ مطالبها مهما كانت صعبة وبعيدة، والواقعية تنفذ لوائحها كارهة لها أو سعيدة.

والسياسة ملزمة بإطار من دستور وقانون لكن «الواقعية» لا تسائل نفسها عن شرعية ما تلتزم بتنفيذه، فهى تنفذ فقط ما تجده مكتوبا فى لوائحها (واللوائح - بل وحتى الدساتير والقوانين - يمكن أن تكتب بواسطة قوة غير شرعية، لأن سلطة هذه القوة تفرض تنفيذها قسرا، وذلك ما فعله الاحتلال الألمانى لفرنسا فى المنطقة التى دخلتها جيوشه، وذلك أيضا ما فعلته حكومة الماريشال «بيتان» فى الدولة الفرنسية المستقلة - ! - التى سمحت بها اتفاقية السلام بين ألمانيا وفرنسا!).]

....

....

[وعلى سبيل الاستدلال بنماذج من الحرب العالمية الثانية، فإن «هتلر» كان رجلا خياليا جمح خياله إلى حد تصور معه أنه يستطيع السيطرة على العالم بالسلاح، وكان ذلك منزلقه حتى فى ذروة قوته، وقد بنى حساباته على أساس قدرته على هزيمة الإمبراطوريتين الكبيرتين فى أوربا - فرنسا إلى جواره، وبريطانيا أمامه عبر القنال الإنجليزى (المانش).

وفى ذلك نسى «هتلر» قوتين صاعدتين:

- قوة اقتصادية مالية هى «الولايات المتحدة الأمريكية» تنتظره عبر المحيط حتى يستنزف قواه فى أوربا ثم تقرر كيف تواجهه.

- والقوة الثانية كتلة إنسانية ضخمة، إلى جانب أنها فكرة عقائدية نشطة تتحرك فى فضاء عالمى واسع. وهى تعتبر نفسها موقع اليسار. وتعتقد أن نازية «هتلر» أقصى اليمين والصراع بين الاثنين مهما تأخر «حتمية تاريخية».

وربما كان فى مقدور السلاح الألمانى أن يتحدى إمبراطوريات قديمة (بريطانيا وفرنسا)، أو يتحدى طاقة اقتصادية مالية هائلة (الولايات المتحدة)، أو يتحدى كتلة إنسانية وعقائدية ضخمة (الاتحاد السوفيتى) - لكنه كان من المستحيل ومن ضروب الخيال، أن يتحدى الثلاثة معا وفى وقت واحد.]

....

....

[وعندما استسلمت فرنسا ورفضت بريطانيا بقيادة «تشرشل» أن تستسلم برغم أنها فقدت حليفها الكبير فى القارة الأوربية (أى فرنسا)، وبرغم أن الجزء الأكبر من جيشها انسحب من القارة عن طريق «دنكرك» عاريا من سلاحه وشبه عار من معنوياته، ورغم أن ما بقى تحت تصرف تشرشل من جيوش الإمبراطورية البريطانية كان شتاتاً لا يقدر أن يصد هجوما ألمانيا إذا أمر «هتلر» بعبور القنال الإنجليزى (وكانت تلك نيته فعلا بالخطة التى عرفت بالاسم الرمزى «سبع البحر») - إلا أن «تشرشل» «الحالم» قرر أن بريطانيا تستطيع الصمود وكان واثقا إن ذلك فى مقدوره وأنه فى حدود الممكن إذا استطاع أن يحشد كل طاقة الإرادة المتوافرة لدى الأمة البريطانية وراءه.

ولم يكن «تشرشل» فى ذلك «خياليا» برغم أن بعضا من أركان وزارته وأولهم وزير خارجيته اللورد «هاليفاكس» وجدوا أن «الواقعية» تقتضى جس نبض هتلر عن طريق حليفه موسولينى لمعرفة شروطه لوقف الحرب، ولكن «تشرشل» تصدى لـ«هاليفاكس» وللآخرين. وكان «تشرشل» فى ذلك «حالما» وليس «خياليا» بمعنى أنه صاغ لنفسه ولبريطانيا مشروعا سياسيا

(إستراتيجية) رآه ممكنا، واستطاع - وهذا هو جوهر العمل السياسى - أن يقنع به وزارة الحرب وشريكه فيها «كليمنت آتلى» زعيم حزب العمال، كما استطاع أن يقنع بها رئاسة أركان حرب الإمبراطورية وعليها فى ذلك الوقت الفيلد مارشال «آلان بروك».

وأهم من ذلك فقد استطاع تشرشل أن يقنع الشعب البريطانى فى الجزيرة الأم ووراء البحار.

وكان - حلم - مشروع - تشرشل مؤسسا على حساب القوة والإرادة وليس مجرد اندفاع وراء الوطنية والكرامة وحدهما. وكان الحساب - وهنا المشروع السياسى - حساب المستقبل الآتى وليس حساب اللحظة الراهنة.

كان كل تفصيل فى صورة «الواقع» يدعو «تشرشل» إلى اللحاق ببيتان فى طلب شروط هتلر بمنطق الواقعية، ولكن الحلم - وبحساب المستقبل - كان هو الذى تجاوز الواقع إلى ما وراءه، وترك المتاح المأذون به وتوجه إلى الممكن إذا وضعت الإرادة فى خدمته.]

....

....



وكان حساب «تشرشل» أنه بالنظر إلى خريطة العالم فإن «هتلر» غير قادر على النصر النهائى فى الحرب بالتحديد بسبب الولايات المتحدة - وبسبب الاتحاد السوفيتى:

كان تقدير «تشرشل» أن سقوط فرنسا هو المشهد الأخير فى الكابوس الألمانى الذى نزل على أوربا لأن ذلك المشهد سوف يستثير الولايات المتحدة.

والداعى أن سقوط فرنسا يعنى أن بريطانيا إذا ظلت وحيدة فهى مهددة بالسقوط، وإذا لحقت لندن بباريس فى طلب شروط «هتلر» فإن ذلك معناه أن ألمانيا هى الوريثة القادمة للإمبراطوريتين والمسيطرة على البحر الأبيض المتوسط وهو قلب العالم، والمالك الجديد للمستعمرات الفرنسية والبريطانية فى آسيا وأفريقيا، وذلك شىء لا تستطيع الولايات المتحدة قبوله، وإذا قبلته فلن تكون آمنة وراء الأطلنطى وإنما هى معزولة وراء هذا المحيط.

وعلى وجه اليقين فإن تعامل «هتلر» معها لن يخرج عن أحد احتمالين لا ثالث لهما:

- إما أن يعبر المحيط ليطولها.
- وإما أن يحوّل المحيط إلى سجن يحبسها وراء أسواره.

وكان تقدير «تشرشل» - أيضا - أن سقوط فرنسا سوف يهز الاتحاد السوفيتى، ويقنعه بسطحية التحليل الذى أغراه بـ«تجنب الحرب وترك الرأسماليات الكبرى تطحن بعضها»، لأن سقوط فرنسا (واحتمال غزو الجزر البريطانية) معناه انفراد «هتلر» (أقصى اليمين فى أوربا) بالسيطرة على القارة كلها، ونتيجته أن الهدف القادم لأقصى اليمين الأوربى (ألمانيا النازية) هو الهجوم على روسيا (موطن البلشفية) والحصول على ثرواتها الطبيعية الهائلة وتصفية معقل الثورة العالمية.

ومن النظر إلى خريطة المستقبل، كان «تشرشل» على يقين بأن «هتلر» لا يستطيع أن ينتصر فى الحرب.

والخلاصة التى توصل إليها هى: «إنه والأمر كذلك، فإن بريطانيا لابد أن تظل واقفة، ولابد أن تظل مشتبكة بالحرب مع ألمانيا، ولابد أن تكسب وقتا حتى تتنبه أمريكا وتتحرك، أو تتنبه روسيا وتتحرك، أو يقوم «هتلر» بحركة خاطئة يتعثر بها، خصوصا وقد احتل غربى القارة الأوربية كله وعليه أن يتقدم وراء ذلك وإلا وجد نفسه مقطوعا عن هدفه النهائى ووجد جيشه عاطلا فى نصف حرب لم تكتمل لأن أمريكا تراقب من وراء المحيط، كما أن الاتحاد السوفيتى يتربص على شرقى القارة نفسها لا يحجزه محيط!

وكان «تشرشل» سياسيا صاحب مشروع - صاحب حلم - حينما نادى على بريطانيا بأنه «ليس عندى غير العرق والدم والدموع، وبأنه علينا أن نقاتل على الشواطئ، ونقاتل فى الحقول، ونقاتل فى المدن، ونقاتل من بيت إلى بيت».

....

....

[ويكاد موقف إسرائيل فى الشرق الأوسط أن يكون صورة مكررة (بالاستنساخ وليس بالخلق!) لحالة ألمانيا النازية. بمعنى أن إسرائيل هى الأخرى تستطيع بتفوق السلاح أن تكسب المعارك والحروب، وتستطيع أن تحتل الأقاليم وتضم بعضا من أرضها، لكنها لا تستطيع ولا تملك إمكانية النصر النهائى لأنه أبعد من حدود التفوق فى السلاح. والواقع أمل إسرائيل الحقيقى فى انتصار نهائى معلق بتواضع الإرادة العربية إلى حد يقبل المأذون والمسموح به والمتاح - باسم «الواقعية» وهى ظاهرة متفشية فى دهاليز وأروقة السياسة العربية المعاصرة.

والحقيقة أن ظاهرة «الواقعية» الراهنة تحتاج إلى تفسير، ويمكن على الفور عرض ثلاثة أسباب رئيسية لها:

■ السبب الأول: أن مواقع القرار العربى لا تعرف كثيرين وصلوا إليها من وسط معمعان التاريخ أو من البوابات العريضة للاختيار الديمقراطى الحر وإنما تعرف كثيرين وصلوا إليها بحكم الوظيفة (حتى وظيفة الإرث)، و«الوظيفة» لا تعرف لنفسها مشروعا تحلم به وإنما تعرف لنفسها لائحة تطبقها دون أن تسائل النصوص عن شرعيتها أو مشروعيتها.

■ والسبب الثانى أن ظروف الثراء العربى «الجارى» الآن فى العالم العربى وضع هواجس «الحرص» سابقة على طموحات «الحلم».

وتلك حالة: أشار إليها «ابن خلدون» فى مقدمته الشهيرة لأحوال الممالك عندما «يترهل» الأمراء بتخمة العز ومن ثم تتواضع «العزة» (وهى التى يسميها مؤسس علم الاجتماع بـ«العصبية»).

■ والسبب الثالث، (وتلك محاولة فى الإنصاف) أن مواقع القرار العربى ضاعت منها الخرائط الملاحية القديمة بسبب تغير المناخ العالمى على نحو لم يتحسب له أحد. ثم إنها لم تستطع - فى ظروف مستجدة - أن تتوصل إلى رسم خرائط ملاحية جديدة للبحور العميقة والرياح العاصفة والصخور الغارقة تحت السطح وعندها آثرت مواقع القرار العربى أن يكون خط سيرها قريبا من الشواطئ حيث المياه ضحلة تمكن من رؤية القاع، وحيث الشاطئ القريب ساتر من عصف الرياح، وحيث النجاة ممكنة بالسباحة إلى اليابسة، لو وقع ما لم يكن منتظرا، أو تمرد «بحارة» السفن إذا اكتشفوا أن القباطنة ليسوا على ما ظنوه فيهم علما وخبرة ومقدرة على خوض العقبات والصعوبات إلى حيث الحلم المطلوب والممكن.

والراجح أن هناك أسبابا أخرى لزيادة جرعة «الواقعية» فى تركيبة القرار السياسى العربى المعاصر، لكن ذلك على أى حال موضوع آخر مستقل بذاته.]

....

....



كان الجنرال «شارل ديجول»، الذى هبط من آخر طائرة غادرت مطار «بوردو» الحربى قبل أن تشق القوات الألمانية طريقها إلى باريس، رجلا يمسك فى يده «بحلم»، ويرى لنفسه مشروعا سياسيا تصوغه حقائق مستقبل لا تقعدها «واقعية» اللحظة الراهنة.

والشاهد أنه بالشكل العام للصورة كان يمكن أن يبدو «ديجول» خياليا أكثر منه حالما.

فالدولة الفرنسية، والحكومة ضاعت منهما إرادة المقاومة، والشعب الفرنسى فى حالة ذهول يتابع مأخوذا حركة جيوش العدو الألمانى تنفذ إلى قلب الوطن، وجيوش فرنسا تنكسر شظايا، و«عاصمة النور» تنطفئ فيها الأضواء حيا بعد حى وشارعا بعد شارع وبيتا بعد بيت:

لكن ديجول كان قادرا على تجاوز «الواقعية» والنظر بالرؤيا إلى تخوم المستقبل. وقد اعتبر نفسه - ولو حتى وحيدا - رمزا لمستقبل فرنسا الحرة.

ولم يكن «تشرشل» الذى أذن لـ«ديجول» بأن يوجه نداءً بمواصلة المقاومة للشعب الفرنسى فوق موجات الإذاعة البريطانية مقتنعا بأن ديجول هو مستقبل فرنسا، إلا أنه فى تلك اللحظة كان «الفرنسى الأرفع رتبة» الذى ينادى بمواصلة الحرب ولو من خارج فرنسا.

وفى البداية، كان «تشرشل» يتصور أن نداء ديجول سوف يدعو كثيرين أكبر منه وأهم - على الأقل أشهر - كى يفعلوا مثله ويجيئوا إلى لندن وعزمهم مواصلة الحرب، لكن «تشرشل» فقد رجاءه من الانتظار وأدرك أن فرنسا سوف تظل ممثلة برجل واحد هو «شارل ديجول» حتى تتغير الظروف.

وكذلك طلب «تشرشل» إلى وزارة الخارجية البريطانية وإلى رئاسة أركان حرب الإمبراطورية أن تنظم اتصالاتها مع الجنرال «ديجول» وأن تتعاون معه.

وفى أول تقرير كتبه السير «ألكسندر كادوجان» الوكيل الدائم للخارجية البريطانية كانت صورة «ديجول» كما بدت لعميد الدبلوماسية البريطانية هى: «رجل له رأس فى شكل فاكهة الأناناس الخشنة، وله جسم على هيئة خضار «الباذنجان» الطويلة، وإلى جانب ذلك فإن لديه شعورا متضخما دون سبب بدوره التاريخى!».

وفى أول تقرير كتبه الفيلد مارشال «آلان بروك» رئيس أركان حرب الإمبراطورية كتب لـ«تشرشل» فى تلخيص لقائه مع «ديجول»: «هذا رجل لا يريد أن يحارب، ولا يريد أن يلم شراذم الجيش الفرنسى التى خرجت مع قواتنا من «دنكرك» ويصنع منها فرقة مقاتلة تثبت نفسها فى الحرب مع الألمان.

لقد حاورته طويلا، لكنه بدا لى وكأنه يريدنا أن نحارب، وأما هو فدوره أن يحكم ويقود. والمزعج أنه ليس

إسرائيل صورة مكررة
بالاستنساخ وليس بالخلق
من ألمانيا النازية. تستطيع
أن تكسب المعارك، لكنها
لا تستطيع أن تكسب السلام!

لديه شيء يحكمه، لا دولة، ولا مدينة، ولا قرية، وليس لديه شيء يقوده لا فرقة ولا كتيبة ولا سرية من الرجال!».

لكن «شارل ديجول» كان «بالحلم» يعرف أكثر من موظف وصل بكفاءته الوظيفية إلى وكالة الخارجية البريطانية ولم ير في اللاجئ الفرنسي غير رأس «الأناناس» وجسم «الباذنجان». وكان يعرف أكثر من موظف آخر وصل بعلمه العسكري إلى رئاسة أركان حرب الإمبراطورية - استغرب منه «ادعاء» الحكم ودعوى القيادة.

كان «ديجول» يعرف بالرؤية الإستراتيجية كيف يفكر «تشرشل» وكيف يخطط للنصر، وظل متنبها إلى أن العنصر الأهم في خطة «تشرشل» هو كسب الوقت حتى تفيق روسيا من وهم الرأسمالية التي تحارب بعضها بعضا، ثم تتحرك أمريكا قبل أن يتحول المحيط إلى عازل ويتحول العازل إلى سجن!.. ومن ثم ينفرد «هتلر» بكل الإرث الإمبراطوري الذي تفتحت الطرق إليه بعد سقوط فرنسا، وعزلة بريطانيا في الجزيرة التي تحولت إلى قلعة موحشة تنتظر الغزو أي يوم.

وعلى أساس المعرفة بهذه الرؤية الإستراتيجية لـ«تشرشل»، قدر «ديجول» ورسم.

هو الآخر سوف يلعب على الوقت ولن يجره سوء ظن الدبلوماسية البريطانية في قدراته ولا إلحاح العسكرية البريطانية عليه ليجمع شراذم قوة عسكرية تستأنف حرب ألمانيا إلى جانب بريطانيا.

كان «ديجول» واثقا بأن معركة القتال محسومة دون أن يشارك فيها، ولم يكن متعجلا لتنظيم حركة مقاومة في الداخل تجعل مهمة الاحتلال الألماني صعبة (لأنه كان يقدر أن لحظة الذهول السائدة في فرنسا ليست هي بالضبط لحظة الدعوة إلى المقاومة خصوصا وهناك في «فيشي» رجل مثل «بيتان» بتاريخه المجيد يدعو إلى «واقعية» يعطي لها في خطابه مسحة من الحكمة تغطي بالرنين على الجوهر! - كذلك كان «ديجول» بالتوازي مع ذلك يدرك أنه لا يستطيع الآن يلملم من الشتات المبعثر للجيوش الفرنسية إلا قوة صغيرة تتنازل قياسا عليها - ولا تكبر - قيمة المشروع السياسي «الحلم» الذي يحمله).



ومع ثقة «ديجول» - اعتمادا على الزمن حسابه وفعله - بأن معركة تحرير أوربا قادمة بعد سنة.. سنتين.. ثلاث - لكنها «حتمية»..

ومع ثقة «ديجول» بأن الانتصار النهائي في الحرب لن يكون من نصيب «الخيال» - مهما عاند «هتلر»...

ومع ثقة «ديجول» بأن هناك جيوشا لمعركة تحرير أوربا سوف تتدفق من الشرق (من الاتحاد السوفيتي) وسوف تتدافع فوق أمواج المحيط من الغرب (من الولايات المتحدة) - فإن «فرنسا الحرة» ينبغي أن يكون لديها جدول أولويات يتسق مع «حلمه» - مشروعه السياسي.

وهنا يمكن فهم الإستراتيجية التي اعتمدها «ديجول» في تلك الأيام المبكرة من يوليو وأغسطس سنة ١٩٤٠.

في تلك الأوقات التي بدت فيها الصورة أشد كآبة من أي وقت مضى. وأشد ظلاما على فرنسا من أي وقت في تاريخها كان «ديجول» يرسم لسياسته خطين:

الخط الأول: أن التراب الفرنسي سوف يتحرر بحقائق الأشياء.

الخط الثاني: أن الإمبراطورية الفرنسية - وليس التراب الفرنسي - هي المكشوفة الآن وغدا.

وهنا كانت صيحة:

فرنسا ليست في خطر.

الإمبراطورية في خطر.

إذا كان وجود فرنسا هو الوطن - فإن عظمة فرنسا هي الإمبراطورية!



والمدهش أن رؤية «ديجول» كانت واضحة فيما يتعلق بالخطر القادم على عظمة فرنسا - إمبراطوريتها القديمة - وقد رأى الخطر من مصدرين:

- «ألمانيا» كابوس وقع - و«أمريكا» كابوس يتشكل.

أي أن «ألمانيا» وريث يطالب الآن - بينما «أمريكا» وريث يهيئ المستندات الداعمة للمطالبة!

وكذلك فإن الحلم - المشروع السياسي لديجول - نظر إلى المستقبل في عينيه وتمكن من تحديد مصادر الخطر على هذا المستقبل.

ولم تكن تلك قراءة في الغيب وإنما نظر إلى الخريطة واطلاع على التاريخ. فألمانيا في أوربا جار ومنافس وخصم وعدو في فترات مختلفة من الجوار، ثم إن الولايات المتحدة هي الدولة التي أنشأت نفسها بطرد «الإمبراطوريات» من أمريكا بادئة بطرد بريطانيا مستعينة في لحظة من اللحظات بفرنسا، ولما انتهت حرب الاستقلال عن بريطانيا ودخلت العلاقة بين المستعمرات القديمة والإمبراطورية المهزومة إلى مرحلة جديدة بحكم وحدة اللغة الإنجليزية - جاء الدور على الإمبراطورية الأخرى، فإذا الولايات المتحدة تطارد فرنسا إلى أقاصي القارة شمالا وجنوبا تخرجها من الجنوب حتى خليج المكسيك (نيو أورليانز) وتحصرها في الشمال داخل جيب في «كندا» تراجعت إليه كل المواريث الثقافية التي تركتها فرنسا في العالم الجديد!

"الثابت والمتغير في أحوال الأمم"

عندما طرح الجنرال «شارل ديجول» «إستراتيجية» فرنسا الحرة على أساس أن التراب الوطني الفرنسي سوف يتحرر بضرورة الأشياء، وأن الإمبراطورية الفرنسية (عظمة فرنسا) - هي التي سوف تصبح عرضة للخطر بسبب المطامع المتنافسة سابقا ولاحقا لم يكن يبتدع شيئا لم يُعرف قبله، ولا كان يخترع جديدا ليس له أصل قديم. والحقيقة أن إستراتيجيات الدول التي تحترم نفسها - وعالمها - لا تعرف سياسيا يستيقظ من نومه بوحي تنزّل عليه يطلب إليه أن يفاجئ الكل بما لم يخطر لهم على بال، والسبب أن إستراتيجيات الدول مطالب جغرافيا وتاريخ نشأت وترتبت عليها دواعي مصلحة وضرورات أمن، وتلك مسائل لا دخل لها بالوحي ولا علاقة لها بالمفاجآت المثيرة مسرحية أو سينمائية.

والدول مطالبة بالتعبير عن نفسها مع تطورات الظروف في كل عصر بما يناسب مقتضياته، لكن التجديد يكون في الأسلوب وليس في الهدف لأن أحدا لا يستطيع بأثر رجعي أن يعيد تركيب الطبيعة أو ينقل بلدا من موقعه على الخريطة المعروفة إلى موقع آخر يختاره. ثم إن أحدا لا يستطيع أن يغير مجرى التاريخ كما تدفق عبر القرون والعصور أو يعيد ترتيب سياقه كما يوافق هواه وروده. ثم إن مصالح الدول وأمنها ليست قصصا يكون للمؤلف فيها حق رسم الشخصيات، وإجراء الحوار على ألسنتها معبرا عنه وشارحا لفكره!

ويكاد «جوليان جاكسون» أن يقول في كتابه «فرنسا سنوات الظلام»: إن ديجول استأنف بحكومته في المنفى نفس المناقشات التي قاطعتها أصوات المدافع الألمانية في باريس وإن استراتيجية «فرنسا الحرة» تحت قيادته كانت اتصالا مباشرا بالخيارات الإستراتيجية التي كانت مطروحة في فرنسا قبل دخول الحرب العالمية الثانية في سبتمبر سنة ١٩٣٩ - وقبل الاستسلام «لهتلر» في يونية سنة ١٩٤٠.

كان الزمن لم يتوقف.. وبالفعل فإن الزمن لا يتوقف.. وإن توقف بعض الساسة في لحظة من اللحظات أو شردوا خارجين من ساعته يجربون معجزة خلق زمان جديد ناسين أن هناك فارقا بين حق البشر في توجيه مقاديرهم وبين تجاسر البشر على توهم صنع الكون!



وقبل هبوب إعصار الحرب العالمية الثانية عاشت فرنسا حالة حيرة شاملة وعنيفة.

كانت فرنسا تشك في الجمهورية الثالثة كلها من دستورها إلى مؤسساتها إلى رجالها.

وكانت فرنسا تعاني من انقسام داخلي بين اليمين واليسار وكلاهما يطرح نفسه بإلحاح باعتباره اليقين المؤدي إلى القوة.

وكانت فرنسا تتابع ما يجري في القارة حولها وتخشى سطوة ألمانيا النازية وهي تزيد كل يوم وتنتزع لنفسها مساحات من الأرض والنفوذ تمكن لها في قلب أوربا:

- المنطقة المنزوعة السلاح على الحدود بين ألمانيا وفرنسا بمقتضى «معاهدة فرساي» - وهي منطقة «السار» - دخلتها قوات «هتلر» بلا إنذار.

- النمسا جرى ضمها إلى ألمانيا بدون طلقة رصاص واحدة وأصبح الرايخ الثالث متحققا بـ«وحدة الأمة من وحدة اللغة».

- إقليم «السوديت» في تشيكوسلوفاكيا جرى إلحاقه بألمانيا.

- والآن يطالب «هتلر» باستعادة منطقة «دانزيج» - بدعوى عرقية - من بولندا لتكتمل حدود الرايخ الثالث.

وكانت فرنسا ترى الخطر الألماني يستشري ويتفاقم لكنها لم تكن واثقة بقدرتها على إيقافه ورده، وفوق ذلك فهي تشعر أن بريطانيا تحرضها على التصدي لألمانيا وأن السياسة البريطانية هي لم تتغير تبغي تحقيق انتصارها بجنود غيرها ودمهم، أي أنها تريد محاربة «هتلر» إلى آخر قطرة دم فرنسي!

وفي ذلك المناخ ظهرت وانتشرت مقولة قابلة للتصديق مؤداها «أنه ليست هناك قضية تساوي من أجلها أن تنتحر فرنسا»!

....

....

وعندما ذهب رئيس الوزراء «إدوارد دالادييه» للمشاركة مع نظيره البريطاني

«نيفل شمبرلين» في مؤتمر دعى إليه «أدولف هتلر» على عجل في ميونيخ - رجع «دالادييه» رافعا - مثل نظيره البريطاني - شعار أن «السلام تحقق في زماننا» - لكن «دالادييه» في أعماقه كان يشعر أن الاتفاق فسحة وقت لا تزيد على شهور لأن «هتلر» مصمم على خطته بأن تكون «ألمانيا فوق الجميع» داخل القارة الأوربية وخارجها. وأن الحرب قادمة بلا شك لكن الكارثة أن فرنسا غير مستعدة وغير جاهزة لمقابلة العاصفة.

ورأى «دالادييه» أنه من الضروري إعداد فرنسا للحرب وتهيئة فكرها لأن الحرب بالدرجة الأولى حالة «نفسية وعقلية».

لكن فرنسا ظلت حتى اللحظة الأخيرة مترددة. تدخل أو لا تدخل؟

● «نفسيا» كانت فرنسا لا تريد لأنها مازالت تتذكر خنادق الحرب السابقة والمجازر التي شهدتها خنادق «السوم» والخسائر الهائلة التي ألحقتها الحرب بالاقتصاد الفرنسي ثم العبء النفسي المخيف لسنوات من القلق والضنى - والمقامرة على المجهول.

● و«عقليا» كانت فرنسا لا تريد لأنها تخشى أن تخرج من الحرب خاسرة حتى ولو انهزم الألمان، وكانت الخشية أشد ما تكون على الإمبراطورية الفرنسية في أفريقيا:

- الشاطئ الجنوبي الغربي للقارة («تونس»، و«الجزائر»، و«مراكش»).
- ووراء هذه المواجهة بالعمق - جنوب الصحراء حتى الكونجو.
- وعلى الشاطئ الشرقي العربي (سوريا ولبنان وحصة الثلث في بترول العراق).
- وفي آسيا: شبه جزيرة الهند الصينية وفيها «فيتنام» و«كمبوديا» و«لاوس».

....

إلى جانب ذلك فقد كان هناك في فرنسا «وطن الثورة الفرنسية»، إعجاب مكتوم بالنازية والفاشية، وقد ظهرت وسط الفوضى وساوس وشكوك بأن «الديمقراطية» فكت تماسك المجتمع الفرنسي (بموجة انحلال يستهولها اليمين) وبعجز في السلطة (تآليف واسقاط الوزارات) أدى إلى تردي الحكم، وفساد للنخبة أقعدها إلى درجة العفن! (رشوة في جيب كل وزير وعشيقة «رسمية» معترف بها له) - وبدا للجميع أن «النازية» في ألمانيا تحت زعامة «هتلر» و«الفاشية» في إيطاليا تحت زعامة «موسوليني» تحقق معجزات في الأداء الاقتصادي والإداري وفي استقرار السلطة ونزاهة الحكم، وفوق ذلك في إعادة تنظيم وحشد عناصر القوة.

وتحت السطح فقد كان محسوسا أن المانع الأساسي الذي يرغم فرنسا على استمرار تحالفها الاضطراري مع «بريطانيا» ويبعدها رغم الاعجاب عن ألمانيا وإيطاليا هو الخوف على الإمبراطورية، فثمن التقارب مع الدولتين الداخلتين بقوة إلى دائرة السيطرة العالمية هو صفقة جديدة لإعادة تقسيم المستعمرات، ولم يكن في ذلك سر، فقد كانت ألمانيا تطالب بما كان لها في أفريقيا (وفيه تانزانيا والكاميرون) قبل أن تتخلى عنه بمقتضى شروط معاهدة فرساي التي اضطرت لتوقيعها اعترافا بالهزيمة في الحرب العالمية الأولى.

ولم يكن «هتلر» هو وحده الذي يطالب بإعادة تقسيم المستعمرات وإنما كانت «إيطاليا» تطالب أيضا، وكانت «إيطاليا» تضع عينها بالفعل على «تونس» لتكون دفعة أولى ترضى بها وتكون امتدادا لوجودها في «ليبيا» - وتسكت. والمدهش أن الحكومة الفرنسية تلقت نصيحة بريطانية تزكي التنازل عن تونس لإيطاليا لأن ذلك يمكن أن «يشتري موسوليني» ويبعده عن حلفه مع «هتلر»!

وكانت باريس مستفزة وردها «لماذا لا تعطونه «مصر» وهي على الناحية الأخرى امتداد لليبيا؟»

....

....

[وقد يتذكر البعض أن بريطانيا أشارت على مصر (سنة ١٩٣٥) بإعطاء جزء من الصحراء الغربية ملاصق لليبيا - وهي واحة «جغبوب» وما حولها - لكن شهية «موسوليني» للمستعمرات لم تكن تكفيها واحة وإنما كانت تطلب بلدانا وأقاليم.]

وهكذا كانت كل المناقشات حول دور فرنسا في الحرب العالمية الثانية: وهل تدخلها أو لا تدخلها؟ يبدأ وينتهي «بالمستعمرات»، أو «بالامبراطورية» كما تسميها باريس.

ولعله من المفيد لبعض الناس في العالم العربي أن يقرءوا فصلا بالذات من كتاب «جوليان جاكسون» «سنوات الظلام» وهو الفصل الذي يبدأ من صفحة ٨١ وعنوانه «المشكلة الألمانية». وهذا الفصل في الواقع عرض للبدائل المتاحة لمستقبل فرنسا.

ملخص الفصل مجموعة واضحة من «شبه المسلمات»:

١ - فرنسا لا تستطيع أن تكون قوة عظمى في أوربا وحدها والأسباب أنها في أوربا تواجه ثلاث دول تتفوق عليها:

- ألمانيا: أكبر
- بريطانيا: أقوى
- روسيا: أضخم

٢ - إذا كان على فرنسا أن تكون قوة يحسب لها حساب، فعليها أن تبحث عن ذلك خارج أوربا، وفي اتجاه الجنوب بالذات لأن المتفوقين عليها يسدون كل اتجاه حولها: فوقها على الخريطة هناك بريطانيا - في وسط أوربا بجوارها هناك ألمانيا - على الشرق خطوة واحدة هناك روسيا - وإذن طريق الجنوب وحده مفتوح وهو نفسه البحر الأبيض.

٣ - لكن بريطانيا تظل القوة البحرية المتنفذة في البحر الأبيض بامتلاكها لقاعدتي السويس وجبل طارق على مداخل البحر - ولجزيرتي قبرص ومالطة وهما مواقع السيطرة على الخطوط الملاحية.

٤ - وإذن فإن الجزء الأهم من الإمبراطورية هو الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض حيث تونس والجزائر ومراكش ثم العمق الأفريقي وراء ساحل البحر حتى نهر الكونجو.




وعندما انزلقت فرنسا إلى الحرب العالمية الثانية وشاركت فيها فإنها أقبلت مترددة، وقد حاربت بعض معاركها بنصف اقتناع ونصف عزم ونصف جهود - وهنا كانت الهزيمة نتيجة بعد مقدمة، ولحظتها تنبهت فرنسا وأفاقت، وكذلك ظهر الرأي الذي يرفض الاستسلام ويطالب بمواصلة القتال من فرنسا وراء البحر - من الإمبراطورية - بالتحديد من شمال أفريقيا.

كانت الإمبراطورية في خيال فرنسا الرافضة للهزيمة هي الميدان الذي يتعين على حكومة باريس أن تنتقل إليه وأن تواصل الحرب منه وإلا فهي نهاية فرنسا حتى في أوربا. بمعنى أن قوة فرنسا ليست تراب الوطن الفرنسي - وإنما هي الإمبراطورية التي تضيف للتراب تلك العظمة التي تنشأ للدول من نفوذها وهيبتها خارج حدود ولايتها. فما هو داخل الدولة تصنعه سلطتها، وأما الخارج فإن التواجد فيه هو المعيار الذي تقاس به القوة ويقوم على أساسه المجد!

وكانت تلك بالضبط هي النقطة التي بدأ منها «ديجول» مهمته في حركة «فرنسا الحرة» عندما ذهب بها لاجئا إلى بريطانيا.

وقد وجه حديثا واحدا إلى الأمة الفرنسية من الإذاعة البريطانية، وأصدر بيانا وحيدا دعا فيه «الأمة الفرنسية» إلى رفض الاستسلام.

ولم يتأثر بضغوط الخارجية البريطانية حتى وإن وصفه كبار موظفيها برأس الأناناس وجسم الباذنجان، ولم يضعف أمام رئاسة الأركان الإمبراطورية البريطانية تحرضه على لم شتات جيش يحارب، وإنما كان همه هو «الإمبراطورية».

وفي الواقع فإن أول عمل حقيقي مارسه «ديجول»، وبعد شهر على خروجه من فرنسا (أغسطس ١٩٤٠) كان توجيه نداء إلى كل حكام المستعمرات الفرنسية يدعوهم - باسم فرنسا الحرة - إلى قبول حركة «فرنسا الحرة» تجسيدا لشرعية فرنسا بدلا من الحكومة التي استسلمت للألمان ووقعت معهم اتفاق سلام ثم «تكومت» على نفسها في «فيشي».

وكان «ديجول» في ذلك مدركا لحقيقة أن عددا من حكام المستعمرات الفرنسية ضباط من الجيش هو يعرفهم أو هم يعرفونه. وقد استجاب له بالفعل منهم ثلاثة هم: الحاكم العسكري لـ«تشاد»، والحاكم العسكري لـ«الكونجو» الفرنسية (برازافيل) والحاكم العسكري لـ«الكاميرون».

وهكذا وجد ديجول لحركته موضع قدم فرنسي: في نطاق الإمبراطورية، ثم توجه لزيارة هذه المستعمرات الثلاث بعد أن تأكد من حكامها العسكريين أنهم سوف يرتبون له هناك استقبالا يليق بعظمة فرنسا. وذهب ديجول إلى الإمبراطورية الفرنسية في أفريقيا وعاد ليعلن تكوين «لجنة الدفاع الإمبراطوري» ومعها «حكومة مؤقتة لفرنسا الحرة».

وكان «ونستون تشرشل» رئيس الوزراء البريطاني - وبتأثير البيروقراطية الدبلوماسية والعسكرية البريطانية - غير مرتاح لما يفعله «ديجول»، وتصوره أن «فرنسا الحرة» تحارب معركة التحرير بعيدا عن الميدان - لكن «ديجول» كان على يقين مما يفعل.

وفي مناقشة جرت تلك الأيام - أكتوبر ١٩٤٠ - ولم تكد تمضي شهور على استسلام فرنسا وقع حوار له معنى بين «تشرشل» وبين «ديجول».

قال «تشرشل» أثناء الحوار موجها كلامه لـ«ديجول»:

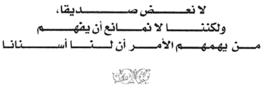
- أنت تترك ميدان الحرب الحقيقي في أوربا - في فرنسا - وتذهب إلى أفريقيا.

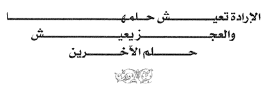
ورد «ديجول»:

- الذهاب إلى أفريقيا رسالة سوف تفهمها فرنسا.

وقال «تشرشل»:







- ولكن مؤسساتنا هنا وأنت تتعامل معها في الخارجية وفي رئاسة الأركان لا يفهمونها وأخشى أن يتهموك يوما بأنك تعض اليد التي أطعمت حركتك - حركة «فرنسا الحرة».

ورد «ديجول»:

- إن «فرنسا الحرة» لا تعض صديقا لكنها لا تمانع أن يفهم من يهمهم الأمر أن فرنسا مازالت لها أسنان!».



ثم مضى «ديجول» يجرى تصرفاته وفق حلمه وبإملاء مطالب هذا الحلم بمنطق أن «مجد فرنسا» قبل «ترابها الوطني» في هذه اللحظة، وهكذا فإنه بعد انشاء الحكومة المؤقتة لفرنسا الحرة سنة ١٩٤٠ - واصل طريقه:

● سنة ١٩٤١ حاول الألمان - وبسكوت يعني الرضا من جانب حكومة «فيشي» - أن يدخلوا إلى سوريا ولبنان لمساعدة جيش «روميل» المتقدم إلى مصر من الغرب، ورأت بريطانيا في الدخول الألماني إلى سوريا ولبنان خطرا طارئا من الشرق فقررت القتال في ظروف صعبة رآها «ديجول» مبكرا وتقدم لاستغلالها في اللحظة المناسبة، فاجرى اتصالات مع كبار الحكام العسكريين الفرنسيين لأملاك الإمبراطورية الفرنسية في المشرق وقد حدث، وأمكن حصر القتال وحصل «ديجول» على جائزته بأن رفع علم «فرنسا الحرة» على دمشق وبيروت.

● وسنة ١٩٤٢ كانت استراتيجية الحلفاء بعد اشتراك الولايات المتحدة في الحرب أن يقوم الجيش الأمريكي بالنزول في شمال أفريقيا - المغرب والجزائر - لكي يقوموا بحصر جيش «روميل» في ليبيا، وبذلك يتم طرد ألمانيا وإيطاليا من أفريقيا ومن ثم تتركز الجهود على أوربا. وأحس «ديجول» أن الأمريكيين يخشون أول مخاطر عملية عسكرية لهم في الحرب بعد ضربة «بيرل هاربور» (التي دمرت فيها الأساطيل اليابانية بقيادة الأميرال «ياماموتو» - كل أسطول أمريكا في المحيط الهادى كله بضربة واحدة مفاجئة في ديسمبر عام ١٩٤١).

ومرة ثانية، وفي إمبراطورية فرنسا المغربية (المغرب - الجزائر - تونس)، كما وقع من قبل في إمبراطورية فرنسا المشرقية (سوريا - لبنان) تقدم «ديجول» يعرض تسهيل نزول القوات الأمريكية دون معارك - وقام بترتيب الأمور مع الحكام الفرنسيين في شمال أفريقيا، وكان شرطه أن يرتفع علم «فرنسا الحرة» على أعلى الساريات في «الرباط» و«الجزائر» و«تونس» لكي تكون اعلانا عن عودة كل الإمبراطورية الفرنسية (المجد الفرنسي) حول البحر الأبيض.

● وفي سنة ١٩٤٣ - أي بعد ثلاث سنوات تقريبا - من استسلام فرنسا التفت «ديجول» إلى تنظيم المقاومة السرية ضد الاحتلال الألماني على التراب الفرنسي وبدأ ينشئ الخلايا ويقيم التنظيمات ويرتب لعمليات «تخريبية!» ضد الاحتلال الألماني: قواته - ثكناته - مواصلاته - تسهيلاته الإدارية - أفراده - وكذلك الفرنسيين المتعاونين مع الاحتلال وحتى «البغايا»!

وكان اهتمام القيادة المتحالفة بالمقاومة الفرنسية أكيدا لأنها اعتبرت نشاطها ضد الاحتلال الألماني إزعاجا بالنهار، وأرقا بالليل - وتهديدا لمؤخرته في كل الأوقات.

● وسنة ١٩٤٤ كانت خطة تحرير أوربا بالنزول شمال فرنسا والتقدم منها لتوجيه ضربة قاضية إلى ألمانيا وفق عملية «أوفر لورد» Over lord - قد تم إعدادها وبدأ الترتيب لتنفيذها وتحدد بالفعل يوم اقتحام الشواطئ الفرنسية وعليها الخط الدفاعي المنيع الذي بناه «هتلر» للدفاع عن أوروبا وأسماه «حائط الأطلنطي».

وكانت قيادة الحلفاء تحتاج إلى المقاومة الفرنسية في الداخل تراقب لها تحركات الألمان وتعرقل جهدهم وتثير الفوضى خلف الجبهة، وعلى طريق تقدم الجيوش المتحالفة إلى عمق فرنسا وعمق أوربا.

وطلبت قيادة «إيزنهاور» القائد العام لقوات الحلفاء والمسئول عن «أوفر لورد» من الجنرال «ديجول» طلبين:

- تنشيط عمليات المقاومة الفرنسية إلى أقصى حد ممكن في توقيتات معينة تتناسب مع الخطط العسكرية.

- تسجيل بيان بصوت ديجول يذاع لحظة إنزال القوات ويحمل نداء منه إلى الشعب الفرنسي أن يقوم ضد الألمان بكل جهد يستطيعه وإلى المقاومة الفرنسية في كل مكان لكي تخرج من مكامنها وتضرب بشجاعة.

وقبل ديجول لكنه إزاء طلبين من قيادة الحلفاء قدم إلى هذه القيادة ثلاثة طلبات:

- أن يطلع - وأركان قيادته - على الخطة العسكرية للحلفاء بالذات فيما يتعلق بالأرض الفرنسية.

- أن يتضمن الأمر اليومي للقائد العام للقوات المتحالفة القائمة وهو الجنرال «إيزنهاور» - ساعة بدء العملية - إشارة واضحة إلى دور فرنسا حليفة بين الحلفاء المشاركين في الحرب.

- وأخيرا أن تكون أول قوات تدخل باريس عند تحريرها مجموعة لواء فرنسي مدرع يقوده مساعده الجنرال «ليكليرك».

وعندما علم الرئيس الأمريكي «روزفلت» بهذه الطلبات الثلاثة التي تقدم بها «ديجول» بعث برقية إلى رئيس الوزراء البريطاني يقول فيها «هذا الرجل أصابه مس من الجنون على وجه اليقين وتعليقي على طلباته هو إبلاغه فورا بطرده من الحركة التي يرأسها والبحث عن جنرال آخر «عاقل» (واقعي) يحل محله.

وعندما اطلع وزير الخارجية البريطاني - «أنتوني إيدن» - على هذه البرقية كتب إلى «تشرشل» يقول:

«من سوء الحظ أن الفرصة قد فاتت لمثل هذا الإجراء لأن الفرنسيين في الداخل لا يعرفون غير «ديجول» وأي تغيير في تركيبة «فرنسا الحرة» في هذه الساعة المتأخرة سوف يحدث ارتباكا في خطط التحرير. ولذلك فإنه من الأفضل الآن أن تسير الأمور كما هو مرسوم لها، وبعدها نرى ما يمكن عمله.

وعندما تحررت باريس هرع «ديجول» (أغسطس ١٩٤٤) يسعى في موكب حاشد من ميدان «الكونكورد» عبر شارع «الشانزليزيه» قاصدا إلى «قوس النصر» وسط تقاطع ميدان «الاتيوال»، وكان الآن قد دخل ومعه الإمبراطورية إلى موقع القلب من التراب الفرنسي.

كان ديجول ساعتها رجلا حقق حلمه الصعب بأن وضع وراءه كل إرادة فرنسا وإرادته، ولم يجنح إلى المستحيل وخياله بغير حسابات، ولم يسقط في «الواقعية» وهي بئر بغير قاع.



ومن مفارقات التاريخ أن الجنرال «شارل ديجول» وهو رئيس للجمهورية الفرنسية للمرة الثانية (١٩٥٨ - ١٩٦٥) - كان هو بذاته الرجل الذي تعين عليه أن يشرف على فك الإمبراطورية الأفريقية لفرنسا عبر البحر!

كان رئيس الوزراء الفرنسي «بيير منديس فرانس» قد سبق إلى فك الإمبراطورية في آسيا بعد هزيمة فيتنام الأولى (معركة ديان بيان فو).

لكن ديجول - وبعد الهزيمة في الجزائر سنة ١٩٦٠ - كان هو الرجل الذي تعين عليه فك الإمبراطورية في أفريقيا.

والأهم أن ديجول كان لا يزال الرجل الذي يحمل معه الحلم - المشروع. وفي الوقت نفسه كان لديه ذلك القدر الضروري من فهم متغيرات العصور بحيث فهم أن فرنسا تستطيع أن تستعيض عن الإمبراطورية في صورتها التقليدية - بإمبراطورية من نوع جديد على نحو ما فعلت بريطانيا بإنشاء الكومنولث (والأساس فيه اقتصادي يعتمد على الإسترليني).

ولم تكن لدى فرنسا قوة اقتصادية (إزاء بريطانيا والإسترليني - ولا قوة مالية إزاء المارك الألماني) وكان أن تحولت الإمبراطورية من دودة إلى شرنقة حرير على أساس من اللغة الفرنسية وحمولاتها الثقافية - وهكذا طرحت ونشأت فكرة «الفرانكفونية»، وهي فكرة سياسية وليست ثقافية لأنه فيما يتعلق بالجانب الثقافي قام العالم بتكريم الثقافة الفرنسية حين اتخذ من باريس عاصمة لليونسكو (المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة).

والحقيقة أن «الفرانكفونية» كانت الطبعة الأخيرة للحلم الإمبراطوري الفرنسي وهو حلم له مشروع.



وطويت صفحات كتاب «فرنسا: سنوات الظلام» وفي خواطري وأمام عيني «أن الإرادة تقدر أن تعيش حلمها (وتجدد وسائله)، وأما العجز فليس لديه غير أن يعيش حلم الآخرين (ويذوب فيه).

وقمت من مقعدي أمشي على الشاطئ وعليه الخطوط مما يرسم الموج على الرمل أو ما يلقي عليه من شظا حجر وبقايا صدف، متفكرا في شأن هذا البحر الأبيض الذي تحلقت الحضارات حوله، وارتكز التاريخ على صخوره، وكتبت الإنسانية واقفة أمامه بعضا من أشهر الصفحات في قصتها، تلك الأرفع قيمة - وتلك الأدنى تواضعا! ■



حقق ديجول حلمه الصعب
بأن وضع وراءه كل إرادة فرنسا وإرادته، ولم يجنح إلى المستحيل وخياله بغير حسابات، ولم يسقط
في «الواقعية» وهي بئر بغير قاع

الإرهاب .. والإسلام

.. ومستقبل النظام الدولى

أحمد كمال أبو المجد

> **لم تفلح جهود الساسة ورجال القانون في الوصول إلى اتفاق على تعريف الإرهاب.. وكان هذا الفشل تعبيرا واضحا عن تعارض المصالح واختلاف المواقف السياسية كما كان تعبيرا واضحا عن الخلاف حول الاعتراف بشرعية حركات التحرير الوطنى ومقاومة الاحتلال الأجنبى**

في يوم الحادى عشر من سبتمبر الماضى، كنا، نحن شعوب العالم، حكامًا ومحكومين.. نعيش أحلامًا وردية عن مستقبل العلاقات بين الدول والشعوب، متطلعين إلى غد قريب تختفى منه الصراعات والمواجهات، ليحَل محلها الحوار والجدال بالتى هى أحسن، كما تختفى من ساحته فكرة «العدو» التى وضعت الناس جميعًا فى خنادق متقابلة، يتربص القابعون فيها للقابعين فى الخنادق الأخرى.. لتحل محلها فكرة الشريك المنافس. والمنافسة بين الشركاء أو الأطراف تؤدى - فى التصور السائد - إلى تحسين مستوى الأداء (فى الإنتاج وتقديم الخدمات).. وهو تحسين تنتفع به القلة أولاً، ومن بعدها الكثرة الغالبة من الناس.

وما إن وقع ما وقع صبيحة الحادى عشر من سبتمبر حتى استيقظ الناس جميعًا على واقع مخيف أخذهم بغتة قبل أن يمسحوا عن عيونهم آثار الحلم الجميل الذى كانوا فيه إلى صور مفزعة من العنف والخوف والشك فى كل أحد وكل شىء بحيث لم يبق فى نفوس الناس إلا يقَين واحد، هو اليقين بأن حياة الناس بعد الحادى عشر من سبتمبر لن تكون أبدًا كما كانت قبل صباح ذلك اليوم المفزع المخيف.. وأن الأمن النسبى الذى تمتعوا به قرونًا طويلة قد تبدد فجأة وقد لا يعود أبدًا، وأن القوانين التى ظنوا أنها تحكم التاريخ وتضبط مسيرته وتسمح باستشراف مستقبل الناس فيه، لا ضمان لاستمرارها ونفاذها، بل إن توازنها قد يختل فجأة، فتقلب الأمور رأسًا على عقب.. لأن أمر تلك القوانين وزمام حركتها تمسك به يد قديرة تتدخل حين تشاء كيف تشاء، وأمرها، إذا أرادت شيئًا، أن تقول للتاريخ «كن فيكون».

وقبل مضى ساعات على انهيار البرجين الكبيرين اللذين كانا يرتفعان فى سماء نيويورك معبرين عن «القوة الأمريكية» فى جانبيها المادى والاقتصادى، وانهيار جزء غير صغير من مبنى البنتاجون الشهير رمز القوة العسكرية الأمريكية التى لم تعد تماثلها قوة عسكرية أخرى فوق هذا الكوكب.. والذى كان مصدر «الإحساس بالأمان المطلق» لكل أمريكى وأمريكية.. يصور لهم أن حياتهم المعيشية ومؤسساتهم الاقتصادية والسياسية وثقافتهم بكل عناصرها ومكوناتها.. وأسلوبهم الخاص فى الحياة الذى عرفوا به بين الناس والشعوب The American way of life .. كل ذلك لا يمكن أن يطال أو يصل إليه عدو معروف أو متربص غير معروف.

بعد ساعات على وقوع «الانهيار العظيم» كان الجو قد امتلأ بمفردات جديدة لا يكاد يعدوها.. يعبر أكثرها عن الهلع بحثًا عن المواقع التى يمكن أن تكون قاعدة انطلق منها ذلك العدو المجهول.. الذى خطط لذلك الهجوم أو شارك فى تنفيذه.. امتلأ الجو على الفور بكلمات «الحرب على أمريكا» وضرورة شن حرب شاملة على «الإرهاب والإرهابيين».. واستخرجت - على عجل - قوائم قديمة لأسماء مشتبه فيها وهى أسماء كانت - منذ شهور - أو سنوات، قابعة فى أدراج المخابرات المركزية، وعند مكتب التحقيق الفيدرالى F.B.I.. وإذا بأكثر هذه الأسماء لأفراد من العرب والمسلمين، ولعل جانبًا كبيرًا منها كانت هى الأسماء التى زودت الأمريكيين بها حكومات عربية وإسلامية.. تطلب تسليم أصحابها لاتهامهم فى جرائم وقعت فى بلاد تلك الحكومات.. وهو طلب امتنعت عن الاستجابة إليه الحكومات الأمريكية، معتقدة أو متوهمة أن أصحاب هذه الأسماء ليسوا إلا خصومًا ومعارضين للأنظمة والحكومات التى طلبت تسليمهم.. وأن فى هذا التسليم ما يتعارض مع ما تعلنه الحكومة الأمريكية فى كل مناسبة من حماية مطلقة لحقوق الأفراد وحرياتهم.. ومن اتهام لكثير من الحكومات، خصوصًا فى دول العالم الثالث.. بالقمع والاستبداد والاعتداء المستمر على حقوق الإنسان.

وفى لهفة الوصول إلى معرفة «العدو» الذى دبر مؤامرة يوم الثلاثاء الأسود؛ استعدادًا «للانقضاض السريع» عليه، والثأر منه ثأرًا يتجاوز حدود عدوانه وجريمته.. ظهر «العرب والمسلمون» مشتبها فيهم، بحكم قوائم الأسماء التى استخرجت من الأدراج، وبحكم شبهات قوية بلغ بعضها عند الحكومة الأمريكية - كما تقول - مبلغ الأدلة على الإدانة فى حوادث «إرهابية» سابقة.. وبحكم ما كان قد تجمع لدى أجهزة الاستخبارات من معلومات واسعة عن تنظيم «القاعدة» فى أفغانستان، وعن أسامة بن لادن، الذى يوجه ذلك التنظيم.. مجندًا له مئات من شباب العرب والمسلمين. وهكذا، وقبل أن ينجلى الغبار عن موقع البرجين فى وسط نيويورك وعن مكان الانهيار فى مبنى البنتاجون.. كان الاتهام قد «علُق» برقبة العرب والمسلمين.. وكان على كل عربى وكل مسلم أن يقيم هو الدليل على براءته.. هذا إذا سُمح له بإقامة مثل ذلك الدليل.. ووقعت فى توجيه الاتهام تجاوزات عديدة، بعضها أفرزه الغضب، والغضب جمرة تُذهب العقل وتسد منافذ المنطق، وبعضها ولَده الجهل وقلة العناية بمعرفة الآخر وثقافته، خصوصًا إذا لم يكن ذلك الآخر أمريكيا، أو غربيًا على أقل تقدير، وبعضها - أخيرًا - ولدته الرغبة السيئة فى اهتبال الفرصة السانحة لتشويه صورة العرب والمسلمين.. ولخلق فجوة بين المسلمين والغرب قد يصعب عبورها، حتى بعد أن يهدأ

الغبار ويستعيد الناس توازنهم، ويفيئوا إلى العقل والمنطق والعدل. وأسوأ هذه التجاوزات وأبعدها أثرًا، تلك الإشارات المتكررة إلى «الإسلام» وثقافته، باعتباره «الفاعل الأصلي» الذي أفرز موجات العنف والإرهاب.. وعلى قمتها الموجة التي أصابت الولايات المتحدة يوم الحادي عشر من سبتمبر.



هذه هي الصورة التي تحددت قسماتها وملامحها بعد أيام قليلة، بل بعد ساعات من وقوع «الانهيار العظيم» في نيويورك وواشنطن.

ولقد ترددت طويلاً قبل أن استجيب لرغبة «وجهات نظر» في أن أكون أحد الذين يسعون لتسليط الأضواء على ما وقع يوم ١١ سبتمبر، وما أعقبه بعد أسابيع قليلة من تثبيت الاتهام وتوجيهه رسميًا من خلال خطب وبيانات الرئيس جورج بوش الابن ومعاونيه وتصريحاتهم، من بدء ما سموه جميعًا «الحرب ضد الإرهاب» واستهلال معارك تلك الحرب بحملة عسكرية احتشدت لها القوة العسكرية الأمريكية بكل فروعها وأسلحتها وتقنياتها المتقدمة.

وكان مبعث ترددي أننا - في الحقيقة - إزاء حدث لم يكتمل بعد ولازالت حلقاته الأساسية تتعاقب، وهي أشبه بزلزال عظيم.. له توابع قد يكون بعضها أشد هولا وأبعد أثرًا من هزته الأصلية الأولى.. ومن ثم فإن ادعاء المعرفة اليقينية في شأنه ومحاولة التوكيد والقطع حول صورة المستقبل في ظله أمور لا يجوز التورط فيها.. وعلى الكاتب والقارئ أن يدركا جميعًا أن كل ما يكتب في هذه المرحلة المبكرة لا يمكن أن يكون أكثر من محاولة للفهم، والتحليل، والإمساك بأطراف خيوط واقع شديد التعقيد والتركيب.

وهذا الحدث الذي صدم الدنيا كلها قد فتح للبحث والرصد والتحليل ملفات عديدة نختار منها لحديثنا هذا ملفات ثلاثة هي:

١- ملف الإرهاب.

٢- ملف الإسلام والصلة المزعومة بينه وبين الإرهاب.

٣- ملف النظام الدولي الذي لابد أن يتأثر بالحدث الذي وقع، وما أعقبه من تداعيات لازال أكثرها يتجلى يومًا بعد يوم.

الإرهاب

يتجدد الحديث عن الإرهاب، تحذيرًا منه، وإدانة له، وبحثًا عن الوسائل الفعالة لمحاربته والقضاء عليه، كلما وقع حادث من حوادثه.. يهدد أمن الناس، أو يضر بمصالحهم الاقتصادية، أو يهدد استقرار النظام السياسي القائم بينهم.

ثم لا يلبث هذا الحديث أن يخفت، ويتصور الناس، حكومات وشعوبا أنهم نجحوا في استئصال الإرهاب والقضاء عليه.. فيسترد المجتمع إحساسه بالأمن فترة تطول أو تقصر، إلى أن يقع حادث إرهابي جديد.

ولا أريد أن تكون هذه السطور تكرارًا لما قيل وما يقال كلما وقع حادث إرهابي، وإنما أتعرض لأمور ثلاثة تتعلق بتعريف الإرهاب، وأسبابه، والأساليب الفعالة لمقاومته.

١- الإرهاب، بعيدًا عن الوقوف عند المعنى اللغوي للكلمة، هو كل اعتداء على الأرواح والأموال والمنشآت تستخدم فيه القوة بقصد إكراه المعتدى عليه، أو المجتمع، أو مؤسساته على اتخاذ إجراء أو قرار معين، أو اتباع سياسة يراها ممارسو ذلك الإرهاب.

وحين تجاوزت الحوادث الإرهابية حدود الدولة.. وامتدت إلى دول أخرى، وتزايد عددها على نحو غير مسبوق، فقد كان طبيعيًا أن تبدأ الجهود الدولية لمقاومة الإرهاب بمحاولة وضع تعريف له يتفق عليه المجتمع الدولي.. أو تتفق عليه الدول التي تريد الدخول في اتفاقيات ثنائية أو جماعية لمقاومته.. ومع ذلك لم تفلح جهود الساسة ورجال القانون في الوصول إلى اتفاق على تعريف الإرهاب.. وكان هذا الفشل تعبيرًا واضحًا عن تعارض المصالح واختلاف المواقف السياسية.. فيما حرصت أكثر الدولة النامية وتلك التي تتعرض للاحتلال الأجنبي على التمييز بين جرائم الإرهاب التي تمارس داخل الدولة، أوتمتد إلى دولة أخرى تعبيرًا عن موقف سياسي أو أيديولوجي.. وبين العنف الذي تضطر الشعوب إلى ممارسته مقاومة للاحتلال، ودفاعًا عن الاستقلال الوطني.. والذي هو في جوهره استعمال لحق الدفاع الشرعي في مواجهة الاحتلال.. وهي مقاومة تجد سندها القانوني فيما يقرره ميثاق الأمم المتحدة، بينما اتخذت الدول النامية هذا الموقف فإن أكثر الدول التي حققت النمو قد ظلت حريصة على تجنب وضع تعريف للإرهاب. حتى لا تمنح الشرعية لحركات التحرير الوطني التي تقاوم الاستعمار والاحتلال.

وظهر هذا الخلاف من جديد فور إعلان الرئيس الأمريكي بوش أن الولايات المتحدة ستخوض حربا شاملة ضد الإرهاب، داعيًا سائر الدول إلى الانضمام للولايات المتحدة في تلك الحرب.. دون أن يحدد على الإطلاق معنى هذا العدو الذي تحشد لمحاربته الجيوش والطائرات والأساطيل.

وتأكد استمرار هذا الخلاف حين أصدر مجلس الأمن يوم ٢٨ سبتمبر ٢٠٠١ قراره رقم ١٣٧٣ الذي دعا فيه الدول إلى الالتزام بمحاربة الإرهاب.. عن طريق قطع الموارد المالية عن الأفراد والمنظمات الإرهابية.. والالتزام بعدم قبول أولئك الأفراد كلاجئين سياسيين.. وإلى تعديل التشريعات الداخلية بما يتفق وبنود ذلك القرار.. إذ رغم التفصيل الكبير الذي تميز به القرار (خمسة بنود أساسية ينقسم كل منها إلى ثلاثة أو أربعة أجزاء) رغم ذلك كله.. فقد بقي «الإرهاب» مُجهلاً.. وبقي باب الخلاف حوله مفتوحًا على مصراعيه..

والعرب والمسلمون ومعهم المدافعون عن حقوق الشعوب في تقرير مصيرها حريصون أشد الحرص على أن ينحسر أي تعريف للإرهاب عن حركات التحرر الوطني والمشاركين فيها، الذين يضطرون إلى استخدام العنف لمقاومة عنف آخر يتمثل في فرض الاحتلال، وما تمارسه سلطات الاحتلال من عدوان على حقوق أبناء الأقاليم الواقعة تحت ذلك الاحتلال.. ومن تضييق عليهم، وفرض الوصاية على حياتهم كلها.

وحرص الحكومات والشعوب العربية على هذه التفرقة يكتسب هذه المرة أهمية كبرى بسبب تكرار الإعلان من جانب الحكومة الأمريكية والرئيس الأمريكي على احتمال توجيه ضربات عسكرية إلى أية دولة عربية أو مسلمة، أو غير عربية ولا مسلمة تتورط في إيواء الإرهابيين أو تمتنع عن تسليمهم.. ورغم تناقض التصريحات الصادرة من المسئولين الأمريكيين في هذا الشأن.. فلازال بعضها يشير تصريحًا أو تلميحًا إلى احتمال ضرب بعض الدول العربية أو الإسلامية.. التي لا تنصاع لقرار مجلس الأمن رقم ١٣٧٣ أو ترفض تسليم «الإرهابيين» الذين يطلب إليها تسليمهم.. وآخر ما سمعناه من ذلك في هذا الشأن تصريح السيدة كونداليزا رايس مستشارة الأمن القومي للرئيس بوش في حديث لها مع إحدى الشبكات الفضائية العربية يوم ١٥ أكتوبر ٢٠٠١، حيث أشارت إلى أمرين يستحقان التأمل في سياق هذا العرض، أولهما: قولها إن الولايات المتحدة لاتزال قلقة إزاء العراق وأنها تشك في أن النظام العراقي لايزال حريصًا على الاحتفاظ بأسلحة كيماوية وعضوية مما يكشف - من جديد - عما هو معروف من تحريض الحكومة الأمريكية على توجيه ضربة عسكرية للعراق. وثانيهما: قولها إنه لا يوجد إرهاب حسن وإرهاب سيئ.. وهو تعبير مغرق في السطحية والمبالغة في التبسيط، ولكنه على أي حال - يكشف عن رفض مبدأ التمييز بين جرائم الإرهاب وبين الحق الشرعي في مقاومة الاحتلال. ومن عجب أن السيدة رايس لم تكتف بهذا، وإنما عادت فذكرت ضرورة أن يقوم الرئيس عرفات بجهد يضمن مائة في المائة وقف كل صور العنف ومنها العنف ضد الإسرائيليين.

وهكذا تظل قضية «الحرب ضد الإرهاب» محملة - في إطارها الناشئ بعد يوم ١١ سبتمبر بمخاطر كبيرة، وصراعات محتملة بين موقفين متناقضين في تعريف الإرهاب، حين تصل تلك الحرب إلى التهديد بضرب دول لا تقبل منع مواطنيها من الانخراط في «حركات التحرير» ومقاومة الاحتلال الواقع على أجزاء من أراضيها.

ويبقى أن ننبه إلى أن العمليات التي تمت يوم ١١ سبتمبر قد مثلت درجة من الإرهاب بمعناه الحرفي لا سابقة لها في التاريخ وأن «الخوف» من عمليات إرهابية جديدة قد أحال حياة الناس جميعا.. إلى قلق وخوف لا حدود لهما وهو خوف صار تعقبهم في أسفارهم وتنقلهم وإقامتهم وفيما يتلقونه كل يوم من رسائل بريدية تعاظم الخوف من احتوائها على بكتيريا مرض الأنثراكس Anthrax أو الجمرة الخبيثة وهو مرض شديد الفتك إذا لم يكتشف مبكرًا ويلاحق بالعلاج السريع.

إننا - لذلك كله - لا نبالغ إذا قلنا إن أبواب الخوف والشك، وما يترتب عليهما من آثار قد فتحت يوم ١١ سبتمبر على مصراعيها ويعلم الله وحده، متى يعود الأمن إلى النفوس، ومتى يزول كابوس الشك والخوف الذي تحول إلى هلع هستيري جماهيري، تؤججه وسائل الإعلام حين تصك أسماع الناس وأبصارهم ساعة بعد ساعة بتحذيرات لا آخر لها عن احتمالات التعرض لهذا النوع الخطير من أنواع الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية.

إن جسامة الخطر الذي تواجهه الإنسانية كلها نتيجة استشراء الإرهاب والتطور المخيف للأسلحة التي تستعملها الجماعات الإرهابية يدعونا إلى نقل بؤرة الاهتمام من تحليل أساليب الإرهاب وصوره المختلفة.. إلى الاهتمام بالتعرف على أسبابه ومحركاته والعمل على إزالة هذه الأسباب والمحركات.. حتى نستأنف معًا مسيرة الخير والتواصل والتعاون على البر وما ينفع كل الناس.

وحسبي أن أوجه النظر إلى أن الدراسات السياسية والاجتماعية تشير كلها إلى أن البيئة التي تنمو فيها حركات العنف والإرهاب تتميز عادة بأمور ثلاثة:

أولها: ضيق المنافذ المتاحة للمشاركة الديموقراطية وهو ضيق يغري بالعمل خارج القنوات الشرعية. وثانيها: غياب العدل الاجتماعي على نحو تتسع في ظله الهوة بين الأغنياء الأقوياء بسلطان الثروة، والفقراء الضعفاء بذل الحاجة والعجز عن تحقيق القدر الأدنى من التطلعات المشروعة. والثالث: غياب «سلطان القانون» والتخلي عن القدر الأدنى من احترام الحقوق الأساسية للأفراد خصوصا عند توجيه الاتهام وإنزال العقاب وما يصاحب ذلك في أحيان كثيرة من ممارسات للقهر والتعذيب تخلق رغبة جامحة للتمرد على المجتمع





هكذا تظل قضية «الحرب ضد الإرهاب» محمّلة - في إطارها الناشئ بعد يوم ١١ سبتمبر بمخاطر كبيرة، وصراعات محتملة بين موقفين متناقضين في تعريف الإرهاب، حين تصل تلك الحرب إلى التهديد بضرب دول لا تقبل منع مواطنيها من الانخراط في «حركات التحرير» ومقاومة الاحتلال الواقع على أجزاء من أراضيها





الإرهـــــاب والإســـــلام

إن هذه الجماعات إذا وصل أعضاؤها إلى حمل السلاح واستخدامه، فإنهم لا يتركونه أبدا.. والغالب أن يبدأ استخدامهم له فى قضايا عامة مشروعة كمقاومة الاحتلال الأجنبى مقاومة تشاركهم فيها جماعات وطنية أخرى.. فإذا فرغوا من هذه القضايا، أو أدركوا العجز عن تحقيق أهدافهم منها، توجهوا إلى قضايا أخرى قد لا تتوفر لها الشرعية الإسلامية والقانونية

كله والخروج على القانون، وتفتح للشر الذى لا آخر له أبوابا أعلم أنه يضيق عنها خيال القائمين بهذه الممارسات، كما أنها ـ شئنا أم أبينا ـ تصيب روح الولاء والانتماء عند كثير من الشباب فى مقتل، إذ الأمر فى الولاء أنه أخذ وعطاء، والأمر فيه كما يقول الشاعر:

لا أذود الطير عن شجر
قد بلوت المر من ثمره

فإذا ذكرنا أن هذه الأسباب هى المسئولة فى النهاية عن نمو «فقه العزلة» و«فقه العمل السرى» خارج الإطار الشرعى، أدركنا أن للقضية جانبها الثقافى والفكرى الأساسى، وأن منح السلطات الأمنية وحدها مسئولية القضاء على الإرهاب ظلم لأجهزة الأمن وتفويت للفرص الحقيقية لمقاومة الإرهاب وجذوره التى يكمن بعضها فى الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية.

الإســــلام.. والإرهـاب

من مفارقات التاريخ وغرائبه أن يرتبط الإسلام فى أذهان غير قليلة بالعنف والإرهاب.. وأن يختزل الإسلام العظيم الذى جاء به الأنبياء والمرسلون رحمةً للناس وأمنًا ليتحول إلى «مشكلة أمنية».. وفى تقديرنا أن هذا الارتباط الموهوم بين الإسلام والإرهاب قد شاركت فى صنعه عوامل ثلاثة: الأول: بقايا صراع تاريخى قديم بين «المسلمين» ودول أخرى عديدة فى الغرب.. وهو صراع حركته فى مراحله الأولى المنافسة الحادة التى دارت بين الدعاة المسلمين والمبشرين المسيحيين والتى كان نشوؤها أمرًا طبيعيًا فى ظل دينين عالميين.. يسعيان إلى «دعوة الآخرين» للخلاص باعتناق العقيدة الصحيحة كما يراها كل من الدعاة المسلمين والمبشرين المسيحيين.

ثم حركت هذا الصراع فى مرحلة تالية الحروب الصليبية التى حاول الغرب الأوروبى من خلالها أن يستولى على بلاد المسلمين، وأن يدخلهم فى طاعته وسلطانه.. وخلال هاتين المرحلتين غرس المستشرقون والساسة الغربيون فى عقول وقلوب أتباعهم وتلامذتهم صورة للإسلام بالغة النقص والسوء والسلبية، ركزوا فيها حملتهم الثقافية على بعض معالم العقيدة والثقافة الإسلامية.. وعلى رأسها فكرة «الجهاد» الذى رأوا فيه صورة من صور الإكراه والقسر» وفرض الرأى على الآخرين.

وحين انحسر المد الإسلامى سياسيًا وعسكريًا عن أوروبا، وتحول التاريخ تحولاً جذريًا إلى الاتجاه المقابل.. وبدأت الجيوش الأوروبية غزوها للغالبية العظمى من الدول العربية والإسلامية.. كان طبيعيًا أن تظهر حركات وطنية تحارب المستعمرين وتعمل على إجلائهم عن أراضيها.. ولعب الإسلام دورًا بارزًا فى تزويد تلك الحركات بحافز روحى عظيم الأثر، تمثل فى الطابع الدينى الذى اكتسبته حركات تحرير عديدة فى العالم العربى والإسلامى.. وحسبنا أن نشير إلى الطابع الإسلامى الذى طبع الثورة الجزائرية على الاستعمار الفرنسى.. فإلى جانب «جبهة» التحرير الجزائرية التى لم يخل خطابها من «نبرة دينية» كانت هناك جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التى أسسها العالم الفذ عبد الحميد بن باديس.. وانتمى إليها من بعده الشيخ البشير الإبراهيمى.



وفى تونس كانت لحزب الاستقلال الذى أسسه علال الفاسى توجهاته الإسلامية الواضحة.. وفى مصر شاركت حركة الإخوان المسلمين مشاركة فعالة فى كتائب الفدائيين التى بدأت بها المواجهات العسكرية بين العرب وإسرائيل عام ١٩٤٨.. وتزامن هذا الدور الذى لعبه «الإسلام» فى تأجيج حركات المقاومة الوطنية للاستعمار.. مع دعوة أخرى للمحافظة على الاستقلال الثقافى، وإذكاء الوعى بالخصوصية الثقافية للأمة. وهكذا بدا للعقل الأوروبى وللوجدان الغربى بصفة عامة أن الإسلام هو الخصم العنيد الذى يحرك روح العداوة للغرب.. وأن المسلمين مصدر خطر على الحضارة الغربية كلها.. ولذلك بقى «العقل» الغربى إلى يومنا هذا مستعدًا لتصديق كل نقد يوجه للإسلام والمسلمين، وقبول كل تصوير سلبى لهما، ثم جاءت قاصمة الظهر عام ١٩٤٨ حين أقيمت فى قلب العالم العربى والإسلامى دولة صهيونية كان الظن أن تكون ملجأ يلوذ به اليهود المضطهدون فى دول أوروبا، فإذا بها تجسيد لمشروع صهيونى استيطانى واسع الأطماع يقوم على نفى الآخر «الفلسطينى» ومحاولة استئصاله وفرض هيمنة الدولة العسكرية التوسعية على جميع العرب والمسلمين، وإذا كانت إنجلترا تحمل أمام الله والتاريخ مسئولية ارتكاب الخطيئة الأولى فى هذه القضية الشائكة حين مهدت لقيام تلك الدولة «النازية» بمنحها وعد بلفور الشهير عام ١٩١٧.. فإن الولايات المتحدة هى التى أعلنت قيامها عام ١٩٤٨ بجهد غير مسبوق داخل أروقة الأمم المتحدة، استعملت فيه الضغط والوعيد والتهديد.. وظلت إلى يومنا هذا، تسكت عن جرائمها، وتبارك عدوانها.. وترفض أن يصدر عن الأمم المتحدة قرار يشير من قريب أو بعيد إلى تلك الجرائم أو يسميها بأسمائها فضلاً عن أن يعاقب عليها.. وعبر هذه المسيرة المؤسفة تعقدت علاقة العرب والمسلمين بالولايات المتحدة تعقيدًا شديدًا تسأل عنه الحكومات الأمريكية المتعاقبة ولا يسأل عنه العرب والمسلمون.

أما العامل الثانى التى ساهمت فى خلق هذا الوهم الكبير فهو ظهور بعض الحركات والأحزاب التى تحمل أسماء وشعارات إسلامية.. والتى مارس بعضها السياسة بوسائل انقلابية تنقض على المجتمع، وتعمل خارج قنواته الشرعية، وتستحل تصفية خصومها السياسيين أو العقائديين تصفية جسمانية تقوم على العنف ويستباح فيها القتل وإراقة الدماء.. إن الأثر السلبى الذى يتركه مثل هذا السلوك على مجمل «الصورة الإسلامية» يفوق كثيرًا كل ما تتركه الحملات الإعلامية التى تصدر عن الآخرين. والذى نؤكده هنا، أن هذه الجماعات على تشعبها وتعدد فروعها وتنظيماتها خلال النصف الأخير من القرن الماضى لازالت تشكل هامشًا صغيرًا على جانبى «التيار الواسع العريض» للمسلمين.. ولازالت جماهير المسلمين تراقب سلوكها بكثير من الحذر والارتياب.. ومع ذلك فإن وجود هذه الجماعات والتنظيمات حقيقة لا تجوز فيها المكابرة ولا يجدى معها الإنكار.. والأولى أن يتصدى العلماء لمناقشة أفكارها ومواقفها، وإعلان كلمة الإسلام فيما يقول به أعضاؤها وما يفعلونه.. بغير مجاملة ولا مواربة، كل ذلك بنبرة عالية واضحة يبرأ بها الإسلام والمسلمون من شبهات العنف والإرهاب.

إن واجب العلماء الذين تفرضه عليهم أمانة العلم أن يبينوا للناس، وألا يكتموا الحق.. وأن يدركوا جميعًا أن مجاملة المنحرفين عن روح الإسلام ومبادئه وأحكامه الثابتة والسكوت عما يمارسه بعضهم من تجاوز وعدوان لمجرد أنهم يرفعون رايات إسلامية، هذه المجاملة تسىء إلى الإسلام أبلغ إساءة.. وتصد عنه أصحاب العقول النيرة والقلوب الطاهرة السليمة.. وتفتح على العقول والنفوس باب الخلط بين التدين الصحيح الذى يسعد به صاحبه وتنتفع به الأمة كلها وبين التدين المنحرف عن الجادة، الذى لا يورث صاحبه إلا ابتعادًا عن الناس.. ولا يفىء على الأمة إلا حرجًا ومشقة وفتحًا لأبواب شر لا آخر لها.

وإذا لم يكن من أهداف هذا البحث أن نستقصى أسباب ومظاهر العوج فى منهج التفكير الذى قد يقود أصحابه إلى التطرف فى الفكر والسلوك أو إلى ممارسة الإرهاب، فإننا نرى من المفيد ـ مع ذلك ـ أن نلفت الأنظار إلى ظاهرتين هامتين تربطهما بالإرهاب رابطة وثقى:

الظاهرة الأولى: أن العزلة عن التيار العام للحياة، ومفارقة المجتمع شعوريًا أو فعليًا، والانحصار داخل «حوزة» مغلقة لا تتواصل مع الآخرين.. هذه العزلة تصنع لأصحابها «فقها» خاصًا يراه أصحابه منتسبًا للإسلام، ويعتقدون أن مفرداته وأجزاءه مستمدة من نصوصه، ولكنه عند التامل فقه خاص تمامًا.. صنعته أجواء العزلة والانفصال عن التيار العام ولذلك أجزت لنفسى أن أسميه «فقه العزلة»، وهو ينطوى على مخالفات جسيمة لروح الإسلام العامة ولكثير من مبادئه الثابتة ونصوصه القطعية.

وأهم عناصر هذا النوع من الفقه المنحرف:

١ـ تفسير النصوص تفسيرًا حرفيًا يجزئها، ويعزلها عن سياقها، ولا يحاول التعرف على مقاصدها الكبرى.

٢ـ شدة الإنكار على المجتمع وأوضاعه كلها، ورفض تفهم القوانين الاجتماعية التى يخضع لها المسلمون كما يخضع غيرهم.. وممارسة «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» ممارسة لا تعرف الضوابط ولا الحدود.. وتسعى للتغيير بأى ثمن على نحو يجعل من أصحابها «وصاة» على الأفراد وعلى المجتمع كله.. وهو موقف يكشف عن استعلاء ونظرة فوقية تخالف روح الإسلام وآدابه مخالفة أساسية.

الظاهرة الثانية: أن التجاء بعض حمله هذا الفقه الانعزالى إلى تكوين «جماعات أو مجموعات عمل» سرية وغير معلنة.. يفضى بدوره إلى نمو «فقه» مكمل لفقه العزلة نستطيع أن نسميه «فقه العمل السرى».

وهذا الفقه هو المسئول فى النهاية عن الانحراف السلوكى والتوجه العدوانى والعنف العشوائى الذى يسير فيه بعض أعضاء تلك الجماعات.



وقد لا تكون عناصر هذا الفقه واضحة ولا محددة عند نقطة «البداية» فى حياة هذه الجماعات السرية وحياة أفرادها فيها، ولكنها لا تلبث أن تظهر وتنمو على نحو يوشك أن يكون حتميًا وتكشف متابعة «فكر» هذا النوع من «الجماعات» المستترة عن ثلاثة عناصر أساسية لعلها أهم مشخصات هذا الفكر:

العنصر الأول: عنصر «التقية» أى إظهار صورة تخالف الصورة الحقيقية لنشاط هذه الجماعات وأهدافها القريبة والبعيدة.. ونظرًا لتداخل عناصر «الخطاب السياسى» المعلن من جانب هذه الجماعات.. واختلاط ما هو تعبير حقيقى عن الموقف من القضايا العامة بما هو تستر «بالتقية»، فقد آل الأمر إلى غياب الثقة غيابًا كاملاً بهذه الجماعات من جانب النظم السياسية الحاكمة، كما أدى إلى وقوع اختلاط

خطير فى عقول الكثيرين من المنخرطين فى هذه الجماعات.. بين ما هو موقف أصيل مستمد من الإطار المرجعى للأمة وما هو «تكتيك» من قبيل التقية» تسنده أو تبرره عند أصحابه ملاءمات سياسية خالصة.

أما العنصر الثانى: فهو قبول الالتجاء إلى الوسائل الانقلابية والإعداد لممارسة تلك الوسائل، ويقترن هذا القبول عادة باستحلال الالتجاء إلى العنف والإكراه استعجالاً للوصول إلى مقاليد الحكم ومقاعد السلطة كما يصاحبه ترخص وتساهل فى الالتزام بالضوابط الأخلاقية للعمل العام والسياسى، وهى ضوابط أكثرها مستمد من مبادئ الإسلام العامة التى تجد أصولها فى القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة النبى ﷺ.. وهكذا ينتهى الأمر ـ عمليا ـ بكثير من أعضاء تلك الجماعات إلى التورط فى تبرير الوسائل غير المشروعة، بالغاية النهائية المشروعة، ناسين قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ (النساء ٩٤)، وقول النبى ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا».

العنصر الثالث: إن هذه الجماعات إذا وصل أعضاؤها إلى حمل السلاح واستخدامه، فإنهم لا يتركونه أبدًا.. والغالب أن يبدأ استخدامهم له فى قضايا عامة مشروعة كمقاومة الاحتلال الأجنبى مقاومة تشاركهم فيها جماعات وطنية أخرى.. فإذا فرغوا من هذه القضايا، أو أدركوا العجز عن تحقيق أهدافهم منها، توجهوا إلى قضايا أخرى قد لا تتوفر لها الشرعية الإسلامية والقانونية.. وقد يكون استخدام القوة المسلحة فى التعامل معها مشكوكًا فى جوازه من الناحية الشرعية، كما قد يؤدى هذا الاستخدام فى شأنها إلى وقوع مفاسد وأضرار تجاوز المفاسد والأضرار التى تم استخدام القوة المسلحة لدفعها وإزالتها ناسين ـ مرة أخرى ـ أن من قواعد الإسلام المحكمة قبول المفسدة الصغيرة درءا لمفسدة أكبر منها، وأنه «يرتكب أخف الضررين» إذا تعين اختيار واحد منهما.

ويبقى أن ننبه القارئ فى نهاية هذا الجزء من حديثنا إلى أننا لا نناقش الإسلام فى مبادئه الثابتة ونصوصه القاطعة، وموقفه الواضح من القضايا المبدئية التى تعرضنا لها، وإنما نتوجه بالتحليل والمناقشة إلى «ثقافة» جانبية أو تحتية Subculture نشأت تاريخيًا كما تنشأ كل الثقافات الجانبية والتحتية، ترفع لواء العقيدة أو الثقافة العامة التى يعبر عنها التيار الواسع العريض لتلك الثقافة.. ولكنها تتوجه فى رؤيتها وفكرتها، وفى سلوكها العملى المعتاد توجهًا يناقض روح ذلك التيار الواسع، ويخرج على الحدود المبدئية والأخلاقية لتلك الثقافة.



ولسنا بحاجة أبدًا ـ فى مقامنا هذا ـ إلى أن نعرض من جديد لموقف الإسلام.. من القضايا الكبرى التى تشغلنا جميعًا هذه الأيام.. ونعنى قضايا الإرهاب.. والسلام.. والحرية.. والعلاقة مع «الآخر».. وقضية العدل الذى هو ركن الأركان فى الرؤية الثقافية للإسلام.. وقبل ذلك كله «قضية الإنسان» وحرمة دمه وعرضه وماله، ذلك أن موقف الإسلام المستمد فى وضوح وبغير تكلف ولا تعسف من مصادره الأساسية وإطاره المرجعى المعتمد، هذا الموقف ثابت ومدون ومعلوم للكافة.. قديمًا وحديثًا.

وليت المقام كان متسعًا لنصحب القارئ فى جولة سريعة بين عدد من النصوص والمبادئ التى قدم الإسلام بها للإنسانية منظومة كاملة لضوابط التعامل بين الناس والناس.. حين يتفقون وحين يختلفون.. فى أوقات السلم وأوقات الحرب على السواء.. إذن لازداد وضوح المفارقة الهائلة بين «الإسلام» الذى عليه الكثرة الغالبة من المسلمين، وهى الكثرة التى لا تجتمع على ضلالة، وبين السلوك الناشز لبعض من يستظلون بلوائه، وينتحلون لأنفسهم حق التحدث باسمه عن سائر المسلمين.. وإذن لأدرك الناس جميعًا.. هنا فى المشرق.. وهناك فى المغرب.. أن الإسلام ليس فى حرب مع كل ثقافة معاصرة.. وأن المسلمين شركاء لسائر الناس والشعوب.. فى مواجهة أخطار مشتركة جديدة.. وفى السعى لإنشاء نظام جديد للعلاقات الإنسانية يقوم على التعاون والتكامل وتبادل العطاء.. والخبرات.. بدلاً من نظام قديم يقوم على «الواحدية» و«الأنانية» والهيمنة والظلم واستبعاد الآخرين.

إن مساهمة الإسلام الكبرى فى إقامة نظام عالمى جديد للعلاقات الإنسانية يقوم على التواصل والتعاون ويحارب العنف والإرهاب وروح القطيعة بين الناس تتمثل فى أمور عديدة على رأسها المبادئ الكبرى الآتية:

١ ـ أن الإنسان أيا كان لونه وأصله وجنسه وعقيدته الدينية، هو فى نظر الإسلام مخلوق مكرم ومفضل على سائر الكائنات:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الاسراء ٧٠)

٢ ـ أن التنوع الإنسانى والاختلاف نعمة وليس نقمة ولا هو خطر على أحد، و«الآخر» فى منطق الإسلام ليس «جحيما» كما يقول مفكر وجودى معروف، وإنما هو «نعيم آخر» ينبغى التعرف عليه والاقتراب منه والتعاون معه ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات١٧).

٣ ـ إن دم الإنسان معصوم، وماله معصوم، وعرضه معصوم، مسلما كان أو غير مسلم. وهذه العصمة هى وصية النبى ﷺ للإنسانية كلها فى حجة الوداع «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم».

٤ ـ إن العهود واجبة الإحترام فى السلم والحرب على السواء ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (الرعد ٢٠)، وهذا الاحترام الواجب يشمل العهود مع غير المسلمين فلا يجوز نقضها حتى بقصد مناصرة المسلمين ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ (الأنفال ٧٢).

٥ ـ أن الحرب ضرورة خارجة على أصل المودة والسلام بين الناس جميعا وخروجها هذا لا يخرجها من دائرة القانون وإنما يظل السلوك الإنسانى فيها محكوما بذات القيود والضوابط الأخلاقية التى تحكم علاقات الأفراد والشعوب وقت السلم.. وهكذا صار «قانون الحرب» جزءا من الشريعة، ولم تعد الحرب نظاما همجيا يستعصى على كل الضوابط الأخلاقية أو يفلت من قاعدة القانون.. ولا يملك أى دارس للقانون الدولى أو للقانون المقارن إلا أن يرى فى دخول قانون الحرب داخل دائرة الشريعة إلا بداية حقيقية وواضحة لنشأة القانون الدولى بمعناه الحديث.

ولكن لهذا كله مقاما غير هذا المقام، وحديثا يتجاوز نطاق هذا الحديث. وأسجل مع ذلك أن الحاجة إلى مثل هذا الحديث تزداد يومًا بعد يوم مع تصاعد الحملة ضد الإسلام والمسلمين واتساع دائرتها يومًا بعد يوم.. وهو اتساع لا يجوز أن تلفت الأنظار عنه بعض التصريحات «الودية» و«العاقلة» الصادرة من الرئيس بوش أو رئيس الوزراء البريطانى أو بعض المثقفين المنصفين فى أوروبا والولايات المتحدة، لقد كشفت هذه الحملة عن موقف ثقافى وسياسى بالغ الخطورة.. يهدد بوقوع تصدع هائل فى علاقة المسلمين بالغرب المسيحى فى أوروبا والولايات المتحدة وهو تصدع لا يمكن تصور آثاره المدمرة على مستقبل الإنسان.. وجدير بحكومات الدول العربية والإسلامية، وبمنظمة المؤتمر الإسلامى.. وبجميع المثقفين ورجال الإعلام فى العالمين العربى والإسلامى أن ينهضوا لاحتوائه قبل أن يتعذر التدارك ويقع المحظور الكبير الذى تستفيد منه سياسياً «جهة واحدة» يفزعها كل تقارب بين العرب والمسلمين.. وبين أبناء الحضارة الغربية فى أوروبا وأمريكا.

الإسلام ليس فى حرب مع كل ثقافة معاصرة.. والمسلمون شركاء لسائر الناس والشعوب.. فى مواجهة أخطار مشتركة جديدة.. وفى السعى لإنشاء نظام جديد للعلاقات الإنسانية يقوم على التعاون والتكامل وتبادل العطاء.. والخبرات.. بدلاً من نظام قديم يقوم على «الواحدية» و«الأنانية» والهيمنة والظلم واستبعاد الآخرين



مستقبل النظام الدولى..

منذ سقط الاتحاد السوفيتي سقوطا مفاجئاً ومدويا فى نهاية الثمانينيات ومنذ سقطت معه، فجاة كذلك، الدول والأنظمة التى كان يطلق عليها اسم «المعسكر الاشتراكى». منذ ذلك التاريخ أدرك المفكرون والساسة، بل أدرك جميع الناس أن العلاقات بين الدول والشعوب تدخل مرحلة جديدة تماماً لم تتشكل معالمها بعد على نحو محدد.. ولكن المؤكد فى شأنها أنها فقدت عنصراً أساسياً كان أحد عناصر المرحلة السابقة على «الانهيار الكبير» فى النظام الدولى، وهو عنصر التعددية» Pluralism التى تخلق حالة من حالات التوازن Checks and balances بين القوى صاحبة التأثير الأكبر داخل النظام الدولى.. ذلك أن الاتحاد السوفيتى بقوته ووزنه الذاتى وبمن يقفون معه وخلفه داخل معسكر واحد كان أحد قطبين كبيرين، أو قوتين عظميين، وكان القطب الآخر يتبنى الحرية السياسية والاقتصادية ويطلق عليه فى الاصطلاح السائد «المعسكر الحر» أو «المعسكر الغربى».. فلما اختفى القطب الاشتراكى كقوة عظمى مؤثرة وانفرد المعسكر الغربى الذى تقوده الولايات المتحدة بوصف «القوة العظمى» صار القول النهائى فى جميع القضايا الدولية لهذا القطب الواحد وطرأ تغير جوهرى على دور الأمم المتحدة فى إدارة العلاقات بين الدول والشعوب.. فصارت قراراتها ـ فى واقع الأمر وحقيقته ـ تابعة إلى حد كبير للقرار الأمريكى وللرؤية الأمريكية.



وهكذا أصبح النظام الدولى أسير ما يتاح للقرار الأمريكى من احتمالات النظرة الصائبة، والقدر الأدنى من الموضوعية والتوفيق الضرورى بين المصالح الأمريكية ومصالح الأطراف الأخرى، أى أن النظام العالمى فى ظل «القطبية الواحدة» قد صار باكمله مرهوناً بالرؤية الأمريكية والقرار الأمريكى..

وقد حرصت الإدارات الأمريكية المتعاقبة فى كثير من المواقف على الالتزام ـ بدرجات متفاوتة ـ بالشرعية الدولية التى تمثلها الأمم المتحدة وما يصدر عنها من قرارات.. كما حرصت فى مناسبات محدودة على أن تاخذ زمام المبادرة وأن تبحث لقراراتها عن غطاء جماعى.. على النحو

الذى حدث فى حرب الخليج عام ١٩٩٠ حين تدخلت عسكرياً لإنهاء الاحتلال العراقى للكويت، مستعينة فى ذلك بغطاء جماعى تمثل فيما سمى حينذاك دول التحالف Coalition.

ولكن النظام الدولى قد امتحن امتحاناً عسيراً لازال قائماً فى أعقاب الاعتداء الإرهابى على مدينتى واشنطن ونيويورك إذ اندفعت الولايات المتحدة فى ظل ما أسمته «التعاون الدولى لمحاربة الإرهاب» إلى طلب موافقة الدول جميعاً على تدخلها العسكرى فى أفغانستان، لتصفية بؤرة الإرهاب التى يقودها «أسامة بن لادن».. بعد أن قررت هى - وحدها - أن تحت يديها أدلة تشير إليه باعتباره ومعه تنظيم القاعدة مسئولاً عن عمليات التخريب والقتل الجماعى التى وقعت يوم الحادى عشر من سبتمبر.. وطرح الرئيس بوش مقولة غريبة تصعب الموافقة عليها وهى: على الدول جميعا أن تحدد موقفها بلا تردد أو مواربة.. هل هى مع الولايات المتحدة أم مع الإرهاب؟.. وألمحت التصريحات العديدة الصادرة من واشنطن ومن بعض العواصم التى تابعتها فى تعاملها مع حادث يوم الحادى عشر من سبتمبر إلى احتمال توسيع الأعمال العسكرية لتشمل كل دولة وأى دولة لا تتعاون مع الولايات المتحدة ودول التحالف!! فى مقاومة الإرهاب.. وتسليم الأفراد الذين تطلب الولايات المتحدة تسليمهم إليها بعد قيام الدليل لديها - أى لدى الولايات المتحدة - على تورطهم فى أعمال إرهابية.



وهذا الذى تطلبه الولايات المتحدة يكشف عن عمق الأزمة التى يعيشها النظام الدولى المعاصر.. كما يكشف عن استمرار الولايات المتحدة فى ممارسة أساليب العمل التى أدى تكرارها وتراكمها إلى خلق موقف يوشك أن يكون إجماعياً من سياساتها ومواقفها فى العديد من القضايا الدولية الشائكة.. ويكفى أن نشير إلى موقفها من المجتمع الدولى بشأن اتفاقية كيوتو للتغيرات المناخية، وموقفها المبالغ أشد المبالغة فى الدفاع عن إسرائيل وسياسة حكومتها والذى وصل إلى حد انسحابها مع إسرائيل من مؤتمر مكافحة العنصرية الذى انعقد فى ديربان بجنوب أفريقيا.. والتصريحات المستفزة التى صدرت - ولا تزال تصدر - فى شأن «العنف المتبادل» فى الأراضى الفلسطينية المحتلة والتسوية غير المقبولة عدلاً ومنطقاً بين القاتل والقتيل.. وبين عنف يلجأ إليه المقهورون المطاردون بترسانة السلاح الأمريكية التى تملكها إسرائيل.. وعنف تلجأ إليه الدولة الغازية المحتلة، وتعلن فى ظله عن عزمها وقرارها «باغتيال» مسئولين فى السلطة الوطنية والتنظيمات السياسية الفلسطينية.. لقد أدى تكرار هذه المواقف غير العادلة وغير المقبولة إلى نشوء موقف يكاد يكون إجماعياً فى العالم، غاضب على السياسة الأمريكية، ومتحفظ أشد التحفظ على كثير من القرارات الأمريكية.. وإذا كانت دول العالم كله، وفى مقدمتها الدول العربية والإسلامية قد أعلنت بنبرة عالية إدانتها للاعتداء الذى وقع يوم ١١ سبتمبر، وعزمها الصادق على التعاون مع سائر دول العالم للقضاء على الإرهاب.. وإذا كانت أكثر الدول الأوروبية قد اتخذت - هى الأخرى - مواقف مشابهة وشارك بعضها فى الأعمال العسكرية فى أفغانستان.. فإن لهذه المشاركة - فيما نرى - حدوداً لا يمكن تجاوزها، وإذا تصور راسمو السياسة وأصحاب القرار فى الولايات المتحدة غير ذلك.. فقد يفاجأون بتصدع فى التحالف الذى بدأت العمليات العسكرية فى أفغانستان باسمه وتحت مظلته، وهو تصدع نراه أكثر قربا مما يتوقع كثير من المحللين وإن كان مرهونا بطبيعة الحال بتطور الموقف الأمريكى نفسه.

إن جوهر الأزمة الحالية التى يمر بها النظام الدولى، أن القوة الكبرى التى تتحرك فيه قد صارت فى ظل القطبية الواحدة أكبر من كل إطار قانونى يحكم حركتها، كما صارت تتمتع بحرية فى الحركة لم يسبق أن تمتعت بها قوة كبرى فى التاريخ. ولازال هناك أمد بعيد قبل أن يعود التوازن من جديد إلى النظام الدولى بنمو الدور الأوروبى، أو نمو القوة السياسية والاقتصادية للصين. وإلى أن يتحقق هذا التوازن لابد من عمل شىء يقلل من الآثار السلبية لانفراد قوة واحدة بإدارة شئون العالم والتدخل المباشر فى جميع قضاياه. وهو عمل لابد أن يتعاون فيه العرب والمسلمون مع سائر القوى العالمية التى تحرص على أن يظل العدل فوق القوة فى النظام الدولى، وأن تظل علاقات الدول والشعوب محكومة طول الوقت بمنظومة قانونية ملزمة للقوى العظمى والصغرى على السواء.. ولابد أن تشارك فى هذا العمل كذلك جميع مؤسسات المجتمع المدنى فى تلك الدول بعد أن أخذ دورها يتعاظم يوما بعد يوم فى التأثير على صورة العلاقات بين الشعوب وحكامها وصورة العلاقات بين الدول والحكومات.



إن المشكلة الحقيقية فى النظام الدولى القائم أن التاريخ لم يعرف حلا جذريا لما يطرأ على النظام الدولى من خلل جوهرى إلا عبر حروب عالمية تنتهى - بعد تضحيات هائلة - إلى هدم النظام القديم واقتلاعه من جذوره وإقامة تنظيم جديد تعبر عنه وثائق دولية جديدة. حدث هذا بعد الحرب العالمية الأولى وترتب عليه إنشاء نظام عصبة الأمم، كما حدث بعد الحرب العالمية الثانية وأسفر عن وضع ميثاق الأمم المتحدة وإقامة بنيانها القانونى الذى لا نزال نعيش فى ظله، ولذلك فإن التحدى الذى تواجهه شعوب العالم فى ظل ما طرأ على النظام القائم من خلل هائل فى التوازن فهو السعى لإقامة نظام جديد أكثر عدلا وأكثر توازنا وأدعى لإقرار السلام يولد من باطن النظام القائم دون حاجة إلى حرب عالمية جديدة بين الدول أو بين الحضارات.

هذا هو السؤال الذى نطرحه ويطرحه كثير من الباحثين ولكنه يظل حتى يومنا هذا قائما بغير جواب. فهل تكون الصدمة «الكبرى» التى تعرضت لها القوة «الكبرى» مدخلا لإعادة النظر فى النظام الدولى القائم دون حاجة إلى حروب جديدة يعلم الله وحده فداحة ثمنها من دماء الأبرياء وثمرات حضارة عالمية أنفقت البشرية فى إقامتها مئات السنين وما لا آخر له من جهود العلماء والزعماء والمبدعين من صناع الحضارة والمصلحين؟ ■



تتمة البيان فى تاريخ الأفغان

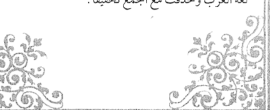
الشائع أن جمال الدين الأفغانى ولد فى قرية أسعد أباد فى أفغانستان عام ١٢٥٤هـ، وتوفى فى الأستانة عام ١٣١٤هـ.

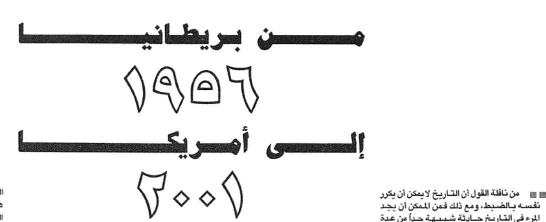
وربما كان كتابه هذا «تتمة البيان فى تاريخ الأفغان» الذى طبع عام ١٩٠١ هو الكتاب الوحيد الذى ألّفه، إذ أن رسالته «فى الرد على الدهريين». هى فى حقيقتها ردود عن استفسارات تلاميذه.

وفى «تتمة البيان» يعرض الأفغانى لأصول الأفغان وطبائعهم ومعتقداتهم وصنائعهم ونظامهم السياسى.

فى أصل التسمية

إن الفارسيين يسمونهم بأفغان ويعللون ذلك بأنهم حينما أسرهم (بخت نصر) كان لهم أنين وحنين والأنين يسمى بالفارسية «أفغان» فأطلق عليهم هذا الاسم من ذلك الوقت. وقيل إن أفغان اسم لحفيد (شاؤول) وهو جدّ الأفغانيين فسموا باسم جدّهم. وعوام الفرس يطلقون عليهم اسم «أوغان» وهو قريب من الأول والهنود يسمونهم «بتان» وبعض قبائل الأفغانيين كالمقيمين «بقندهار» و«قزن» يسمون أنفسهم (بشتو) و(بشتان) بالباء الفارسية فيهما. وبعضهم كاكنى «خوست» و«كورم» و«باجور» يسمون أنفسهم (بغتو) و(بغتان) بالباء الفارسية فيهما. ومن دقق النظر فى تقارب هذه الألفاظ يعلم أنها من أصل واحد وأن لفظ «أفغان» و«أوغان» و«بتان» محرّف عن (بغتان). و«بغتان» و«بشتان» يصح أن يكونا مأخوذين من «باشتان» وهى قرية من قرى (نيسابور). والواو فى (بشتو) و(بغتو) المحرّف عنه للدلالة على النسبة كالياء فى لغة العرب وحذفت مع الجمع تخفيفاً.





جلال أمين

إن قراءة التاريخ تعلمنا درسا كان يبدو - حتى الآن على الأقل - غير قابل للشك أو المناقشة، وهو أن المركز النسبى فى القوة العسكرية يتمشى دائمًا مع المركز النسبى فى القوة الاقتصادية

من نافلة القول أن التاريخ لا يمكن أن يكرر نفسه بالضبط، ومع ذلك فمن الممكن أن يجد المرء فى التاريخ حادثة شبيهة جداً من عدة نواح بما يجرى اليوم مما يمكن أن نستخلص منه العبر، ويزيد من فهمنا لما يحدث، بل وقد يجعلنا أقدر على التكهن بالمستقبل.

إذًا فلننظر مثلاً إلى ما حدث لبريطانيا فى ١٩٥٦، أى منذ أقل قليلاً من نصف قرن، ومقارنة بما حدث لأمريكا منذ أسابيع قليلة.

فى يوليو ١٩٥٦ استيقظت بريطانيا يوماً لتسمع ذلك الخبر الفظيع - الفظيع بالنسبة لها طبعاً - فإن جمال عبدالناصر أمَّم قناة السويس وكانت الخسارة الاقتصادية كبيرة ولكن الإهانة كانت أعظم. إذ كيف يجرؤ رئيس دولة صغيرة من دول العالم الثالث ظلت تحت الاحتلال البريطانى لمدة ثلاثة أرباع قرن، ولم يكن قد مضى على مغادرة آخر جندى بريطانى لها أكثر من أسابيع قليلة، كيف يجرؤ على اغتصاب هذه الدرّة الثمينة من درر التاج البريطانى؟ كان رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت، أنتونى إيدن، رئيساً لحزب المحافظين، وأرستقراطياً حتى النخاع، ولم يكن على استعداد بالمرة، مثلما كان من الممكن أن نتصور من رئيس حزب العمال مثلاً، أن يقبل أن توجه إلى بريطانيا العظمى مثل هذه الإهانة من دولة لابد أن إيدن كان يعتبرها، ليست فقط موغلة فى الفقر، بل وأيضاً موغلة فى «عدم التحضر».

لا يسع المرء إلا أن يلاحظ أوجه الشبه بين الغضب الذى عبَّر عنه أنتونى إيدن والحكومة الإنجليزية فى ١٩٥٦، والغضب الذى عبَّر عنه جورج بوش والإدارة الأمريكية فى سبتمبر الماضى، نفس العصبية وعدم القدرة على التصديق، والشعور بالإهانة أكبر من أى شعور بالحزن على الخسارة البشرية أو المادية، ونفس التصميم على الانتقام الفورى والعقاب الرادع، ونفس التعبئة «للعالم المتحضر» كله، ونفس الإثارة للنزعة العنصرية والتعالى عن التحضر والتخلف، بل ونفس التذكير بهتلر (وإن كان هذا قد جاء من إسرائيل) والتحذير من السكوت عن الإرهاب (أو عبدالناصر) كما سبق أن سكتت بريطانيا على هتلر فازداد همجية.

كانت بريطانيا فى ١٩٥٦ فى موقف لا تحسد عليه، وكذلك أمريكا الآن، من عدة نواح. كانت بريطانيا قد خرجت قبل سنوات قليلة منتصرة فى الحرب العالمية الثانية، ولكن انتصارها كان منهكًا ومرهقًا وديونها ثقيلة، وكان من الواضح للجميع أن مركزها النسبى فى الاقتصاد العالمى، سواء إذا قيس بنصيبها فى إجمالى الإنتاج العالمى، أو إجمالى الإنتاج الصناعى، أو بنصيب صادراتها فى مجمل التجارة الدولية، أو نصيب استثماراتها الخارجية إلى حركة رؤوس الأموال فى العالم، آخذًا فى الانخفاض بسرعة. كانت كل الدلائل فى منتصف الخمسينيات تدل على أنه لن يمضى وقت طويل حتى تتحول بريطانيا العظمى، التى حكمت حتى وقت قريب امبراطورية لا تغرب عنها الشمس، إلى دولة كبقية الدول. قد تظل لفترة ما أهم وأقوى من دولة كالسويد أو النرويج، ولكنها لن تكون لها مكانة أو قوة الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى. كان من الصعب على أنتونى أندريه أن يقبل هذه الحقيقة القاسية، ومن ثم أخطأ خطأ جسيمًا، وارتكب غلطة العمر بالهجوم على مصر فى أكتوبر ١٩٥٦. وعندما اضطرت بريطانيا إلى الانسحاب مكسورة الجناح من بورسعيد فى ١٩٥٧، كانت قد أصبحت شيئًا مختلفًا تمامًا عما كانت عليه قبل يوليو ١٩٥٦.

هناك أوجه اختلاف مهمة بالطبع بين حالة الاقتصاد الأمريكى اليوم، وحالة الاقتصاد البريطانى فى ١٩٥٦، ولكن هناك أيضًا أوجه شبه مهمة. إن من الواضح للجميع منذ فترة لا تقل عن ربع قرن أن الاقتصاد الأمريكى يتراجع بالتدريج فى مركزه النسبى فى الاقتصاد العالمى باستخدام كل المؤشرات التى سبق ذكرها: نسبة الإنتاج الأمريكى إلى إجمالى الإنتاج العالمى، أو نسبة الإنتاج الصناعى، أو حجم الصادرات فى مجمل التجارة الدولية، أو نسبة الاستثمارات الأمريكية الخارجية إلى إجمالى الحركة الدولية لرؤوس الأموال. وهذا التدهور فى المركز النسبى مستمر ولا يبدو أن هناك أى سبب قوى للاعتقاد بإمكانية وقفه، فأسبابه ليست طارئة بل تتعلق بظروف عميقة تدور حول أهم محددات القدرة التنافسية.

ولكن أمريكا ترفض قبول هذه الحقيقة، وتتصرف كما لو كان من الممكن وقفها وقلبها إلى عكسها، وهى تأمر وتنهى حلفاءها وأصدقاءها وكأنها لاتزال هى وحدها المتربعة على عرش العالم، والقادرة على وضع رغباتها موضع التنفيذ، وإن كانت تصر دائمًا على أن يساهم هؤلاء الحلفاء والأصدقاء فى دفع أنصبتهم التى تحددها أمريكا دون استئذانهم فى تكاليف ما تقرر القيام به من أعمال.

شىء واحد مهم يميز بين الحالين، حال بريطانيا فى ١٩٥٦، وحال الولايات المتحدة فى ٢٠٠١، وهو بالطبع القوة العسكرية.



إن قراءة التاريخ تعلمنا درسًا كان يبدو - حتى الآن على الأقل - غير قابل للشك أو المناقشة، وهو أن المركز النسبى فى القوة العسكرية يتمشى دائمًا مع المركز النسبى فى القوة الاقتصادية، وأن الدولة التى يعتريها ضعف جذرى فى الاقتصاد لابد أن يعتريها، إن آجلاً أو عاجلاً، ضعف جذرى فى قدرتها على شن الحروب والانتصار فيها. وقد كان هذا واضحًا تمامًا عندما هاجمت بريطانيا مصر فى ١٩٥٦. لم يكن هناك شك فى أنها قادرة على أن تهزم مصر فى الحرب، ولكن كان من الواضح أيضًا أنها غير قادرة على الصمود أمام تهديد عسكرى من الاتحاد السوفيتى، ولا أن تستمر فى العناد إزاء الموقف الذى اتخذته الولايات المتحدة الذى كان أقل ما يمكن أن يوصف به هو «الميوعة»، الأمر يبدو الآن مختلفًا تمامًا فيما يتعلق بالقدرة العسكرية للولايات المتحدة، إنها رغم ما أصاب مركزها النسبى فى الاقتصاد العالمى من تدهور، لازالت بلا منازع صاحبة أقوى قدرة عسكرية. فإذا كان التاريخ يكرر نفسه حقًا، فإن علينا أن نتوقع أن التفوق العسكرى للولايات المتحدة لابد إن عاجلاً أو آجلاً أن يذوى ويزول مع التدهور النسبى لقوتها الاقتصادية. ولكننا هنا قد نفاجأ بظاهرة جديدة تلقى بالشك على استمرار صحة ما سبق أن تعلمناه من التاريخ، وهو اعتماد القوة العسكرية فى نهاية الأمر على القوة الاقتصادية. وقد نتبين أن ما كان صحيحًا فى عصور سابقة، أو ما يمكن تسميته بعصر «الدولة القومية»، قد لا يكون صحيحًا تمامًا فى عصر «العولمة».

ذلك أن من الممكن جدًا أن تكون القوة الاقتصادية هى العامل الحاسم فى نهاية الأمر مادامت المصالح الاقتصادية الأساسية للدولة منحصرة داخل حدودها القومية، أما فى عصر العولمة، حيث تعتمد الدولة أكثر فأكثر على مصادر للثروة والدخل تقع خارج حدودها، فقد تكتسب القوة العسكرية درجة أكبر من الاستقلال، وتصبح أكثر قدرة على حسم المركز النسبى للدول فى العلاقات الدولية. بعبارة أخرى، قد يكون الأمر فى عصر العولمة أشبه بحالة ينتقل فيها مصدر ضخ الدم فى الجسم إلى مركز أو مراكز تقع خارج الجسم نفسه، وفى هذه الحالة تصبح القدرة على التحكم والسيطرة على هذه المراكز الخارجية «عن طريق القوة العسكرية» أكثر حسمًا من ذى قبل. وإذا بالانتصار النهائى يكون من نصيب من استطاع السيطرة على الأطراف، مهما كانت القوة النسبية للطلب القابع داخل الجسم.

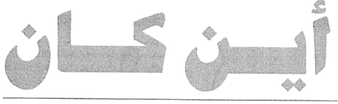
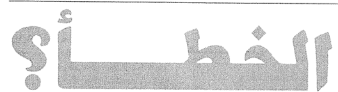
إن هناك دلائل عديدة على أن الولايات المتحدة تحاول منذ أن أدركت ما بدأ يصيب مركزها الاقتصادى النسبى فى العالم من تدهور، أن تستخدم تفوقها العسكرى كوسيلة لإيقاف هذا التدهور وتحويل المسار إلى الاتجاه المعاكس، وذلك عن طريق التحكم فى بعض مراكز ضخ الدم الأساسية فى اقتصاديات الدول المنافسة، وعلى الأخص أوروبا واليابان، والواقعة خارج حدود هذه الدول. فهى تستخدم تفوقها العسكرى «وما ترتب عليه من علاقات خاصة مع الدول العربية المنتجة للبترول» فى التأثير على حجم إنتاج البترول وأسعاره، بل وفى الجلوس على منابعه، كما حدث نتيجة لحرب الخليج فى أعقاب هجوم صدام حسين على الكويت، كما تستخدم هذا التفوق العسكرى للحصول على تنازلات اقتصادية مهمة من منافسيها، كلما دارت جولة من جولات التفاوض حول الترتيبات الاقتصادية للعالم.



إن هذا الاستخدام للقوة العسكرية لتحقيق مكاسب اقتصادية ليس شيئًا جديدًا بالطبع، فالحروب الاستعمارية كانت دائمًا صورة من صور هذا الاستخدام، ولكن الراجح أنه فى عصر العولمة يصبح هذا الاستخدام ممكنًا بل وضروريًا بدرجة أكبر بكثير مما كان فى الماضى. حيث يصبح اقتصاد كل دولة من الدول الكبرى أكثر اعتمادًا من أى وقت مضى على مراكز تقع خارج حدودها.

لم يكن الحال كذلك فى ١٩٥٦، ومن ثم اضطرت بريطانيا للانكماش عسكريًا بمجرد أن انكمشت اقتصاديًا، أما الولايات المتحدة الآن فهى تحاول أن تستخدم التوسع العسكرى كوسيلة لوقف انكماشها الاقتصادى، وقد جربت هذا عدة مرات خلال الثلاثين عامًا الماضية ونجحت فيه بدرجة ملحوظة. وهى لا تفعل هذا لمجرد صد الهجوم الاقتصادى الذى تمارسه دول عريقة فى التصنيع وأثبتت قدرتها المتزايدة على منافسة الاقتصاد الأمريكى، كأوروبا واليابان، بل تفعله أيضًا لصدٍ أى هجوم اقتصادى متوقع فى المستقبل من جانب دول تشير كل الدلائل على سرعة تحوّلها إلى مصدر خطر حقيقى على الولايات المتحدة، وعلى الأخص الصين.

لابد إذن أن نقول إنه على الرغم من أوجه الشبه المهمة بين حالة الولايات المتحدة الآن وحالة بريطانيا فى ١٩٥٦، فلا يجوز أن نستنتج بسهولة أن القصة الحالية سوف تنتهى بالولايات المتحدة إلى مثل ما انتهت به قصة ١٩٥٦ من انحسار لقوة عظمى. فحتى لو كانت هذه هى بداية أفول عصر الهيمنة الأمريكية، فالأرجح أن هذه القصة، بعكس القصة البريطانية، لازال فيها فصول كثيرة لم نقرأها بعد، بل ولا يمكن حتى التكهن بما فيها. ■

أين كان الخطأ؟

الـ «سي آي إيه» وفشل الاستخبارات الأمريكية

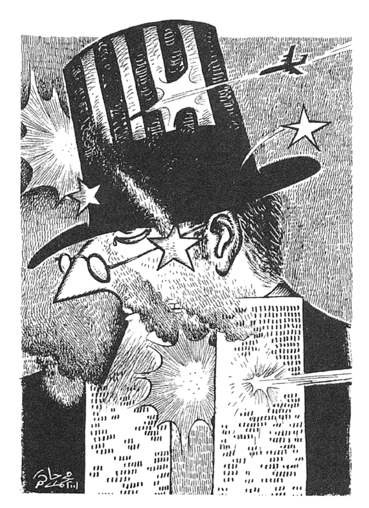
سيمور هيرش

بعد أسابيع من التحقيقات التي تجرى على مدار الساعة بشأن الهجمات التي وقعت على مركز التجارة العالمي والبنتاجون، لا يزال مجتمع الاستخبارات الأمريكي يعاني من الارتباك والانقسام وعدم اليقين بخصوص الطريقة التي نفذ بها الإرهابيون عملهم، وكم كان عددهم، وما قد يقومون به مستقبلاً. وذكر مسئولون حكوميون أن عدم وجود هذه المعلومات الوثيقة كان العامل الأساسي وراء قرار حكومة بوش بتأخير إصدار الكتاب الأبيض الموعود الذي يتضمن الأدلة التي تربط تنظيم أسامة بن لادن بالهجمات.

وهناك إجماع داخل الحكومة بشأن قضيتين: فقد خُططت الهجمات الإرهابية ونُفذت بقدر كبير من الذكاء والترتيب، ولم يكن مجتمع الاستخبارات مستعداً بأية صورة من الصور لمنعها. وذكر المسئولون أن أحد الضحايا البيروقراطيين قد يكون جورج تينيت مدير وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه)، الذي يعتبر كثيرون في الحكومة استقالته أمراً محتوماً. وقال لي مسئول رفيع المستوى: «إن النظام يلاحق تينيت. فهو يريد التخلص منه».

والمحققون منقسمون في الوقت الراهن إلى فريقين. فالفريق الذي يتركز في مكتب التحقيقات الفيدرالي (إف بي آي) يعتقد أنه ربما لم يكن الإرهابيون «مجموعة متماسكة» - كما وصفهم أحد المشاركين في التحقيقات - قبل أن يبدأوا التدريب والعمل معاً من أجل هذه العملية. كما قال إن «هؤلاء الرجال يشبهون فريق كرة سلة جرى تجميع أفراده قبل المباراة. فهم حفنة من الرجال تلاقوا معاً». ومازال مكتب التحقيقات الفيدرالي يحاول تحديد هويات المختطفين وخلفياتهم. والحقيقة كما يعترف بها هذا المسئول هي: «إننا لا نعرف الكثير عنهم».





ويشك هؤلاء المحققون أن يكون الفريق الانتحاري محظوظاً وحسب. وتساءل ذلك المسئول قائلاً: «في أكثر أحلامك غرابة، هل تعتقد أنهم كانوا يظنون أنهم قادرون على إنجاز أربع عمليات اختطاف؟» وأضاف قائلاً: «إن الاستيلاء على طائرة واحدة والهبوط بها على الأرض يعد نجاحاً. ولا وجود للإنسان الخارق (السوبرمان)». وأوضح المسئول أن أهم ميزة تمتع بها المختطفون، إلى جانب عنصر المفاجأة، هي التاريخ: ففي الماضي كان الحال ينتهي بالمختطفين سالمين على الأرض في أحد مطارات العالم الثالث، ولذلك دُرّب الطيارون على أن يتعاونوا.

أما الرأي الآخر الذي يتركز في البنتاجون ووكالة الاستخبارات المركزية فيرى أن المختطفين أمضوا سنوات في التخطيط والتدريب قبل العملية، على أن تعقب ذلك حملة تضليل متعمدة. وقال أحد المسئولين إن «هؤلاء الرجال كانوا فوق مستوى أجهزة رادار الجميع - إنهم محترفون. لم يكن هناك أكثر من خمسة أو ستة أفراد في الخلية الواحدة. ثلاثة يعرفون الخطة، والثلاثة الآخرون لا يعرفونها. لقد كانوا نائمين هناك منذ سنين وسنين». وذكر لي مخطط عسكري أن كثيرين من زملائه يعتقدون أن الإرهابيين «هبطوا إلى الأرض وقطعوا أسلاك التليفون» قبل الحادي عشر من سبتمبر بكثير - وهو ما يعني أنهم أخفوا آثار أنشطتهم. وهناك اعتقاد على نطاق واسع بأن الإرهابيين كان لهم فريق مساعد، ويُنظر إلى عدم تمكن مكتب التحقيقات الفيدرالي من تتبع آثار المتآمرين الذين خُلّفوا في الولايات المتحدة على أنه دليل آخر على التخطيط المحكم. وقال شخص على صلة بالتحقيقات إنه «لو كان الأمر من البساطة والوضوح بحيث يمكن اعتباره عملية غريبة لن تتكرر، لما نثرت بذور الارتباك بالصورة التي نثرت بها».

ويعتقد الكثير من المحققين أن العثور على بعض الأدلة المبدئية التي جرى الكشف عنها بخصوص هويات الإرهابيين واستعداداتهم، مثل كتب الطيران، كان متعمداً. وأبلغني مسئول سابق رفيع المستوى في الاستخبارات أنه «أياً ما كان الدليل الذي تُرك فقد تُرك عمداً - لكي يجري وراءه مكتب التحقيقات الفيدرالي».

وفي مقابلات أجريت على مدى الأسبوعين الماضيين، أثار عدد من مسئولي الاستخبارات أسئلة حول قدرات بن لادن. فقد قال أحدهم بوكالة الاستخبارات المركزية: «أيجلس هذا الرجل في كهف من كهوف أفغانستان ويدير هذه العملية؟ إنه أمر شديد الضخامة، وما كان له أن يقوم به بمفرده». وأخبرني ضابط كبير بالجيش أنه بما أن تاشيرات الدخول وغيرها من الوثائق لازمة لتسريب أفراد الفريق إلى داخل الولايات المتحدة، فقد يكون هناك جهاز استخبارات أجنبي كبير شارك كذلك في العملية. وأضاف المسئول قائلاً إنه «لكي تجعل شخصاً ما يقود طائرة - لكي يقتل نفسه - فلا بد أن إنساناً ما دفع لعائلته مبلغاً ضخماً جداً من المال».

وقال لي مسئول بوزارة العدل إنه «ليس بالضرورة أن يكون هؤلاء الناس جميعاً من طرف بن لادن». وأضاف أن مكتب التحقيقات الفيدرالي لا يزال غارقاً في بحر من المعلومات، ثم قال: «ما زلنا نستخلص الكثير من الأشياء». وفي الثالث والعشرين من سبتمبر قال وزير الخارجية كولين باول في مقابلة أجريت معه: «سوف نضع أمام العالم والشعب الأمريكي قضية مقنعة». كما أوضح أن بن لادن مسئول عن الهجمات. إلا أن المسئول بوزارة العدل ذكر أن الكتاب الأبيض المنتظر قد لا ينشر، لعدم وجود حقائق قوية، وقال: «ليس هناك ما يكفي لإتمام الأمر».

وبررت الحكومة التأخير بما أبلغته للصحافة من أن معظم المعلومات محظورة ولا يمكن نشرها. إلا أن مسئولاً كبيراً بوكالة

يعتقد الكثير من المحققين أن العثور على بعض الأدلة المبدئية التى جرى الكشف عنها بخصوص هويات الإرهابيين واستعداداتهم، مثل كتب الطيران، كان متعمداً. وأبلغنى مسئول سابق رفيع المستوى فى الاستخبارات أنه «أياً ما كان الدليل الذى ترك فقد ترك عمداً ـ لكى يجرى وراءه مكتب التحقيقات الفيدرالى»

الاستخبارات المركزية أكد فى الأسبوع الماضى أن مجتمع الاستخبارات لم تتكون لديه بعد كمية كبيرة من المعلومات الوثيقة بشأن عمليات الإرهابيين وتمويلهم وتخطيطهم. وأضاف المسئول: «سوف نعلم فى يوم من الأيام، ولكننا لا نعلم شيئاً فى الوقت الراهن».

وأضاف هذا المسئول: «بالنسبة لى فإن أفظع شىء هو أن هؤلاء الرجال» ـ الإرهابيين ـ «حصلوا على الأولى مجاناً، فقد كانوا يعرفون أن أسلوب التشغيل المعيارى فى خطف الطائرات هو اللعب من أجل الحصول على الوقت. وكانوا متأكدين من أنه بعد ذلك سيتحسن الأمن على الطائرات إلى حد كبير. ولذلك فمهما كان ما خططوه من أجل الدورة التالية، فقد كان كل شىء أمامهم فى موضعه الصحيح».

والتخوف من وقوع هجوم ثان أمر ردده آخرون يشاركون فى التحقيقات. وفى الوقت الراهن يشك البعض فى مكتب التحقيقات الفيدرالى فى أن الإرهابيين يتبعون خطة حربية وضعها المتآمر المدان رمزى أحمد يوسف، الذى يعتقد أنه كان العقل المدبر لتفجير مركز التجارة العالمى سنة ١٩٩٣ وكان يوسف مشاركاً فى الخطط التى كانت تطالب، ضمن ما طالبت به، بإطلاق السموم فى الجو وتفجير الأنفاق التى تربط نيويورك بنيوجيرسى. وكانت قضية يوسف وراء زيادة مخاوف الحكومة من التهديد المحتمل من شاحنات نقل النفايات الخطرة.

وطرح جنرال كبير سؤالاً استنكارياً هو: «هل سيقومون بعمليات كيماوية بيولوجية خلال عام أو عامين أو ثلاثة أعوام؟ يجب علينا الآن إجراء تحول صعب من الاعتماد على فرض القانون إلى شن هجوم وقائى. وهذا أمر صعب. إذ هل يمكننا تجنيد ما يكفى من الأشخاص الأكفاء؟» كما قال: «فى السنوات الأخيرة كنا نوظف أولاداً من خريجى الجامعات العباقرة فى استخدامات الكمبيوتر. أما هذا الأمر فيقتضى العودة إلى العمل القذر الصعب، مع وجود أشخاص أقوياء يغوصون فى أعماق الحوارى المظلمة ويتمتعون بقدرات جيدة».

إن وكالة الاستخبارات الحالية لا يمكنها القيام بهذا العمل. فمنذ انهيار الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٩١ والوكالة تزداد بيروقراطية وعدم استعداد للمخاطرة، وهى ترقى الضباط الذين يشاركونها هذه القيم. (ويقول ضابط سابق إنه «الوعى بالنوع».) وهى تقلل باطراد اعتمادها على الاستخبارات التى يقوم بها بشر فى الخارج وخفضت أعداد ضباط الحالات فى الخارج ـ وهم أعضاء الجهاز السرى الذى يعرف رسمياً الآن بإدارة العمليات ومهمتهم تجنيد الجواسيس. (وكان يسمى من قبل إدارة «الحيل القذرة».) وبدلاً من ذلك تعتمد الوكالة على علاقات الاتصال ـ وهى التقارير التى ترد إليها من أجهزة الاستخبارات وإدارات الشرطة الصديقة فى أنحاء العالم ـ وعلى أنظمة جمع المعلومات الفنية.

وليس من السهل إعادة العملاء من جديد إلى الميدان. فخلال الحرب الباردة، كانت أهم مهام وكالة الاستخبارات المركزية هى تجنيد جواسيس من داخل السلكين العسكرى والدبلوماسى فى الاتحاد السوفيتى. وكان عملاء الوكالة يكلفون بالعمل باعتبارهم موظفين دبلوماسيين أو ثقافيين فى السفارات الأمريكية فى المدن الكبرى، وكان الكثير من عملهم يمكن أداؤه فى الحفلات الدبلوماسية وغيرها من المناسبات الاجتماعية. وبالنسبة للعميل الذى يعمل تحت ذلك الغطاء، لم تكن عاقبة انكشاف أمره تزيد فى العادة على طرده من الدولة المضيفة وإعادة تكليفه مؤقتاً بالعمل المكتبى فى واشنطن. أما اليوم ففى أفغانستان أو أى مكان من الشرق الأوسط أو جنوب آسيا، فإن عميل وكالة الاستخبارات المركزية لا بد أن يتحدث اللغة المحلية ويكون قادراً على الاختلاط بالناس. وينبغى ألا يبدو على العميل أن له علاقة بالأمريكيين أو بالسفارة الأمريكية، إن كانت هناك سفارة. ويعرف هذا الوضع داخل الوكالة باسم «الغطاء غير الرسمى». وانكشاف أمر العميل قد يعنى الموت.

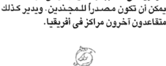
ومن المحتمل أنه لا وجود لمثل هذا الضابط المفرد الذى يعمل اليوم داخل الدوائر الأصولية الإسلامية. وفى مقال نشر العام الماضى فى «أطلانتك منثلى»، نقل رول مارك جيريشت، الذى عمل لمدة عشر سنوات تقريباً ضابط حالات بقسم الشرق الأدنى بوكالة الاستخبارات المركزية، عن أحد رجال الوكالة قوله «إن معظم ضباط الحالات بوكالة الاستخبارات المركزية يقيمون فى ضواحى فيرجينيا. إننا لا نقوم بهذا النوع من العمل». وقال ضابط آخر لجيريشت إن «العمليات التى تنطوى على الإسهال كأسلوب حياة لا تحدث».

وفى الوقت ذاته أضيرت إدارة العملية ضرراً بالغاً من جراء سلسلة من الاستقالات والتقاعدات بين أصحاب المناصب الكبيرة، بمن فيهم أربعة رجال أسماؤهم غير معروفة كثيراً للجمهور، ولكنهم كانوا يلقون احتراماً كبيراً داخل الوكالة: وهم دوجلاس سميث، الذى أمضى واحداً وثلاثين عاماً فى الجهاز السرى؛ وويليام لوفجرين، الذى كان عند تقاعده سنة ١٩٩٦ رئيساً لقسم وسط أوروبا؛ وديفيد مانرز، الذى كان رئيس مركز فى عمان بالأردن عندما ترك الوكالة سنة ١٩٩٨؛ وروبرت بير، الذى يتحدث العربية وربما كان يعد أفضل ضابط ميدانى فى الشرق الأوسط. وقد غادروا جميعاً الوكالة ولديهم إحساس بالمرارة بسبب أساليبها فى إدارة العمليات السرية.

وقال لى ضابط سرى كبير سابق: «لن نحل قضية الإرهاب إلا بعد أن نعيد تشكيل إدارة العمليات. وخط الدفاع الأول وأهم خطوط الدفاع هو الاستخبارات التى يقوم بها بشر».

وقال بير الحاصل على وسام العمل الاستخباراتى بعد استقالته فى أواخر ١٩٩٧: «قد لا تصدق مدى سوء الحال. الذى أنقذ البيت الأبيض من الرحلة ٩٣» ـ الطائرة التى سقطت فى بنسلفانيا ـ «مجموعة من لاعبى الرجبى. هل هذا ما تدفع ثلاثين مليار دولار من أجله؟» وكان يشير بذلك إلى الميزانية الفيدرالية الخاصة بالاستخبارات. ولم يندهش هو وزملاؤه من أن مكتب التحقيقات الفيدرالى لم يتلق تحذيراً من الهجوم. وقال أحد رجال الوكالة: «المكتب رائع فى حل الجرائم بعد أن ترتكب. ولكنه لا يجيد الاختراق. ولا بد أن نقوم نحن به».

واليوم ليس لدى وكالة الاستخبارات المركزية ضباط الحالات المؤهلون كى يديروا مراكزها وقواعدها الكثيرة فى أنحاء العالم. وقد أعيد اثنان من عملائها المتقاعدين على أساس تناوبى كى يتوليا مسئولية قاعدة صغيرة فى كراتشى بباكستان، وهى نقطة محورية بالنسبة للنشاط الإرهابى. (كانت كراتشى المكان الذى قتل فيه سنة ١٩٩٥ أمريكيان أحدهما موظف فى وكالة الاستخبارات المركزية، بزعم الانتقام من إلقاء القبض على رمزى أحمد يوسف فى باكستان.) كما يدير عميل متقاعد مركزاً أكبر لوكالة الاستخبارات المركزية فى دكا ببنجلاديش، وهى دولة مسلمة يمكن أن تكون مصدراً للمجندين. ويدير كذلك متقاعدون آخرون مراكز فى أفريقيا.



والسؤال الصعب هو ما المدى الذى ينبغى أن تصل إليه وكالة الاستخبارات المركزية. وفى مقابلة مع اثنين من ضباط العمليات السابقين ذكرا التكتيكات التى استخدمها جهاز الأمن الأردنى فى مسعاه الناجح للإيقاع بأبى نضال، الذى كان يقود ما كانت تعرف وقتها بأنها «أخطر منظمة إرهابية فى الوجود»، حسبما قالته وزارة الخارجية. وكانت جماعة أبى نضال معروفة بدورها فى هجومين دمويين بالمدافع الرشاشة والقنابل على مكاتب مراجعة الركاب التابعة لشركة الطيران الإسرائيلية العال فى مطارى روما وفيينا فى ديسمبر ١٩٨٥. وكان أبو نضال يهدد حياة عاهل الأردن الملك حسين ـ الذى كان يطلق عليه «الملك القزم» ـ وكان رد الملك عليه، طبقاً لما ذكره ضابطا الاستخبارات السابقان، هو أن قال لجهازه الأمنى: «هاتوه».

ولم يتحرك الأردنيون مباشرة فى اتجاه المتهم أبى نضال، وإنما ألقوا القبض على أفراد عائلته المقربين ـ الأمهات والأخوات. وأمكن التوصل إلى المتهم أبى نضال وأعطى تليفوناً وطلب منه أن يتصل بأمه التى قالت له، حسب ما رواه أحد رجال وكالة الاستخبارات المركزية: «يا بنى، سوف يهتمون به ما لم تفعل ما يطلبونه منك». (وأضاف المسئول بدقة إن كل المتهمين، حسب معلوماته، وافقوا على الكلام قبل أن يصاب أى من أفراد عائلاتهم بأذى). وفى بداية التسعينيات، أصيبت الجماعة بالشلل بسبب الانشقاق الداخلى ولم تعد منظمة إرهابية ذات أهمية. (ويعتقد أن أبى نضال، وهو الآن فى العقد السابع من عمره ويعانى من اعتلال صحته، يعيش عيشة هادئة فى مصر). وأضاف المسئول أن «الأردن هى الدولة التى نجحت نجاحاً تاماً فى اختراق الجماعة. فعليك أن تسيطر على عائلات أفرادها».

وهذه الإجراءات تتعارض مع القاعدة القانونية الأمريكية، وأساليب وكالة الاستخبارات المركزية، ولكن المسئول أصر أنه عندما يتعلق الأمر بأسامة بن لادن والمتواطئين معه فما من بديل سوى ذلك. كما قال: «نحن مضطرون لذلك ـ أن نوقعهم الواحد تلو الآخر. فهل نحن جادون بشأن القضاء على المشكلة ـ وليس قضاء الوقت فيما لا طائل من ورائه؟»

وبعد بضعة أيام من الهجمات، دافع نائب الرئيس ديك تشينى عن مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت على شاشة التليفزيون قائلاً: إن الأمر سيصبح «مأساة» إن نحن بحثنا عن «كباش فداء». وأضاف الرئيس بوش بعد ذلك بادرة تأييد بزيارته مقر وكالة الاستخبارات المركزية. وفى مقابلة أجريت مع أحد كبار المسئولين بالوكالة فى الأسبوع الماضى دافع كذلك عن تينيت. فقد قال لى: «نعرف أن هناك انتقادات كثيرة بعد ما جرى، إلا أن الناس لا يفهمون الظروف التى ورثها جورج. فإنك لا يمكن أن تخترق خلية تضم ستة رجال عندما يكونون إخوة وأولاد عم. ـ مهما كان مقدار ما تعرفه من أوردو». ورغم اعتراف المسئول بعدم الرضا الشديد عن أداء وكالة الاستخبارات المركزية، فقد قال إن «جورج لم يتلق أى كلام خلاف ثقة الرئيس التامة فيه. ولا يمكن أن يستقيل جورج فى وضع كهذا».

ومع ذلك فقد أبلغنى مسئولون آخرون أن أيام تينيت معدودة. إذ قال لى أحد المسئولين إنهم «أبلغوه أنه فى سبيله إلى الخروج. وهو يحاول أن يحسب المسألة ـ إما الخروج بهدوء أو جعل الأمر يبدو وكأنهم فصلوه». وفسر أحد مستشارى البيت الأبيض تأييد تشينى العلنى لتينيت بقوله: «فى واشنطن يطعنك أصدقاؤك دائما فى الصدر. فلا بد أن يلقى اللوم فى ذلك على شخص ما». وأضاف أنه يدرك أنه «بعد فترة مناسبة ـ أى حينما يحصلون على بعض النفوذ بشأن المشكلة ـ سوف يرحل. وسمعت أن هذه الفترة تتراوح بين ثلاثة وستة أشهر». بل إن أحد أصدقاء تينيت المقربين قال لى إنه «بات فى خبر كان».

وقد أضر موقف تينيت أكثر، بعد الحادى عشر من سبتمبر، ما ثبت أنه سلسلة من الادعاءات المتفائلة بشأن فاعلية مركز مناهضة الإرهاب التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، الذى أنشئ سنة ١٩٨٦ فى أعقاب موجة من

أيـن كـــان الخطـــأ؟

التفجيرات واختطاف الطائرات وخطف الأفراد في أنحاء العالم. وكانت الفكرة وراء ذلك هي تجميع الخبراء من كل هيئة شرطة أمريكية، بما في ذلك المباحث، في «مركز اندماجي» يقوم بتنسيق المعلومات الاستخبارية الخاصة بالإرهاب. وفي أكتوبر ١٩٩٨، وبعد الإشارة إلى أربعة رجال على صلة ببن لادن على أن لهم دوراً في التفجيرات التي وقعت في السفارتين الأمريكيتين في تنزانيا وكينيا، قام صحفيون تابعون لمجلة «نيوزويك» بجولة في المركز. وذكرت «نيوزويك» أن الاتهامات «كان يقصد بها أن تكون رسالة واضحة إلى بن لادن وأتباعه الهاربين: وهي أن الولايات المتحدة تعرف حقيقتهم وأين هم. ...وقصة الطريقة التي تعاونت بها وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي - وكانا في يوم من الأيام خصمين بيروقراطيين لدودين - للإيقاع بشبكة بن لادن المراوغة حكاية من حكايات أحدث ما توصل إليه فن تعقب الجناة، وليست سوى مجرد ضربة حظ».



ولكن الواقع أن مركز مناهضة الإرهاب لم يكن مصرحاً له بتجنيد العملاء في الخارج أو التعامل معهم - فقد كانت تلك مهمة إدارة العمليات ومراكزها في الشرق الأوسط التي كانت لها أولوياتها. وجرى تدعيم مركز مناهضة الإرهاب بالمزيد من الأموال والمزيد من الطاقة البشرية بعد تفجير مركز التجارة العالمي سنة ١٩٩٣، ولكنه ظل وحدة خلط أوراق ليس مطلوباً من ضباطها أن يكونوا خبراء في اللغات الأجنبية. وأبلغني الكثير من رجال وكالة الاستخبارات المركزية القدامى أنه رغم كبر مكانة مركز مناهضة الإرهاب فلم يكن العمل فيه يتم بناء على اختيار أي ضابط صغير أو طموح من ضباط إدارة العمليات. فقد كان مركز مناهضة الإرهاب ومركزان آخران من مراكز الاستخبارات الكبيرة - التي تتناول قضايا المخدرات ومنع انتشار الأسلحة النووية - تستنفد طاقاتها إلى حد كبير للحرب التي يرى المحللون المهنيون أنها تحول دون أدائها لوظائفها. وذكر مدير كبير تقاعد مبكراً وكانت مهمته الأخيرة هي إدارة أحد هذه المراكز أنها «جميعاً تتحارب فيما بينها. وليس هناك تركيز على القضايا».

وفي سنة ١٩٨٦ اختير روبرت بير، وكان ضابط حالات وصل للتو من الخرطوم، ليعمل في مركز مناهضة الإرهاب، بعد شهور قليلة من إنشائه. وكان صاحب الاختيار مديره دوان (ديوي) كلاريدج. وتصور مسودة مذكرات كتبها بير وتنشرها دار كراون هذا الخريف ما حدث بعد ذلك:

كانت الشهور القليلة الأولى أشد ما تكون إثارة بالنسبة للدخول في عالم الجاسوسية. وكانت لدى ديوي السلطة لكي يفعل ما يشاء بالإرهابيين. وكان لديه ما يريد من المال. ...ولكن لم يمض وقت طويل حتى أتت سياسة الاستخبارات على كل ما أراد ديوي أن يفعله. ...كان الأمر ينطوي على قدر كبير من المخاطر. وكانت العملية الفاشلة - أو حتى الناجحة - تغضب إحدى الحكومات الأجنبية الصديقة، وكان البعض يطرد من منصبه المريح. بل كان البعض مصيره القتل. ...

قد تطلب من مركز وكالة الاستخبارات المركزية في بون تجنيد عدد قليل من العرب أو الإيرانيين لتعقب الجالية المهاجرة الشرق أوسطية في ألمانيا الغربية، فيأتي الرد بأن ليس لديه ما يكفي من الضباط. وقد تطلب من بيروت أن تقابل عميلاً معيناً مسافراً إلى لندن، فترفض بسبب مشكلة أمنية ما. لم يكن الأمر سوى إخفاق روتيني، ولكنه خرَّب كل ما سعى ديوي إلى تحقيقه. وبعد ستة أشهر، استطاع ديوي أن يضع يده على اثنين فقط يتحدثان العربية - أنا وضابط آخر.

واشتكى كثيرون من مجتمع الاستخبارات، أثناء محادثاتهم معي، مر الشكوى من مدى صعوبة العمل مع إدارة العمليات، حتى في وقت الأزمة. فقد قال لي عالم كبير سابق إنه «لكي تعكف على مشكلة ما مع إدارة العمليات، لا بد أن تكون داخل إدارة العمليات». وبالمثل تمكن مراقب برلماني لوكالة الاستخبارات المركزية من إدراك سلطة إدارة العمليات البيروقراطية. فقد قال إنه «لكي تنجح كمدير للاستخبارات المركزية، لا بد أن تتقرب لإدارة العمليات».

وذكرت لي مصادر استخبارية أخرى أن مؤامرات إدارة العمليات أدت في وقت من الأوقات إلى صراع مع وكالة الأمن القومي بشأن من الذي يسيطر على جهاز جمع المعلومات الخاص، وهو مشروع مشترك للوكالتين ينشر فرق المتخصصين الالكترونيين في أنحاء العالم لرصد الاتصالات الدبلوماسية وغيرها من الاتصالات في أوقات الأزمات. وعادة ما تدار عمليات جهاز جمع المعلومات الخاص شديدة السرية، التي أفرزت بعض أقيَم معلومات الحرب الباردة، من مواقع مأمونة داخل السفارات الأمريكية. وكانت الكفاءة والتقدم يعوقهما قدر كبير من التشاجر. وأبلغني رجل عسكري شارك عام ١٩٩٨ في عملية جمع معلومات استخبارية من خلال الإشارات اللاسلكية في الشرق الأوسط أنه لم يكن يمكنه مناقشة النشاط مع ممثلي وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة الأمن القومي في وقت واحد. وقال ذلك الضابط: «كنت ألتقي بأحدهما في منزل مأمون في فرجينيا، وآخذ فترة راحة للغداء، ثم ألتقي بالآخر. فما كانا ليتواجدان في غرفة واحدة».

وإذا لم تؤد الأزمة الحالية إلى إصلاح الوكالة، فإنه من غير المحتمل أن تقدم لجنتا الاستخبارات في مجلسي النواب والشيوخ أي عون. وقد التقى لوفيجرن وسميث ومانرز وبير وغيرهم مراراً مع أعضاء المجلسين ومع العاملين معهم وقدموا شهاداتهم أمام الكونجرس في مسعى منهم لإحداث تغييرات. ولكن شيئاً لم يحدث.

وليس مستغرباً أن كلاً من الديمقراطيين والجمهوريين لديهم تفسيرات مختلفة للخطأ الذي وقع. فقد ذكر أحد العاملين الجمهوريين باللجنة أن السناتور ريتشارد شيلبي من ألاباما، الذي كان رئيساً للجنة حتى أوائل العام الحالي، أدرك أن المشكلة تكمن في قيادة الوكالة. كما قال إن «لدينا رجالاً في الميدان لديهم أفكار عظيمة لا يلقون دعماً من المؤسسة». وأضاف أن أحداً من كبار الديمقراطيين لا يرغب في إحراج المدير جورج تينيت عن طريق إجراء بحث أو عقد جلسات استماع للتحقيق في الشكاوى العديدة. (وكان تينيت قد أمضى سنوات في العمل مع الديمقراطيين ضمن العاملين باللجنة، وخدم كعضو في مجلس الأمن القومي وفي حكومة كلينتون قبل أن ينضم إلى فريق إدارة وكالة الاستخبارات المركزية.)

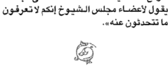
إلا أن أحد الديمقراطيين يلقي باللوم على سير العمل داخل لجنة مجلس الشيوخ، التي قال إنها تهمل الإرهاب لمصلحة القضايا الأكثر شحناً من الناحية السياسية. «كان تينيت يبلغ عن بن لادن منذ سنوات، ولكننا لم نكن من التنظيم بحيث نضع في اعتبارنا التهديدات التي تتعرض لها الولايات المتحدة. إننا نجري وراء ما تذيعه نشرات الأخبار في الوقت الراهن».

والسناتور السابق بوب كيري من نبراسكا، الذي خدم أربع سنوات كبيراً للأعضاء الديمقراطيين في اللجنة ويعمل حالياً رئيساً للمدرسة الجديدة بنيويورك، هو أحد المدافعين عن تينيت. إلا أن كيري يعترف كذلك بأنه لم يعد يعرف «مدى إجادتنا لعملنا» الخاص بالقصور التشريعي. «ولا يمكن لأحد أياً ما كان أن ينجو من هذا. لقد فاتنا هنا شيء ما».

ومازال كيري غاضباً بشأن سياسة الولايات المتحدة تجاه أفغانستان في السنوات التي تلت هزيمتها للاتحاد السوفيتي. فقد قال كيري: «لقد انتهت الحرب الباردة وأغلقنا أفغانستان» - أي أوقفنا كل العمليات الاستخبارية فيها. «وما حدث منذ بوش إلى كلينتون واحد من أكثر قرارات السياسة الخارجية الأمريكية إثارة للارتباك، وهو مثل فيتنام في سوئه». وقد تحدث عن مؤامرة فاشلة قامت بها وكالة الاستخبارات المركزية سنة ١٩٩٦ للإطاحة بالرئيس العراقي صدام حسين: «وقمنا كذلك بعملية عراقية غير مكتملة النضج، فكانت بذلك إشارة إلى أننا لسنا جادين».

وفي شهر يونيو الماضي، أبلغ شيلبي مندوب الواشنطن بوست، بعد جولة في الخليج الفارسي وسلسلة من الإفادات الاستخبارية، أن بن لادن «هارب، وأظن أنه سيظل هارباً، لأننا لن نكل ولن نمل». ومضى يقول: «لا أظن أنه يمكنك القول بأنه غل أيدينا. فأنا أعتقد أن يديه مغلولتان أكثر». إلا أن شيلبي كان بعد التفجيرات بين أول من رأوا علناً أن الوقت قد حان لكي يرحل تينيت. فقد قال لصحيفة يو إس إيه توداي: «أظن أنه رجل طيب، وأنه فعل بعض الأشياء الطيبة، إلا أنه كانت هناك مرات كثيرة أخفق فيها خلال الفترة التي أمضاها في منصبه». كما قال إن تينيت تنقصه «المكانة التي تجعله يسيطر على كل الوكالات. فهو من ناحية يتحمل المسئولية، ولكنه في واقع الأمر ليس مسئولاً».

ويقول صديق قديم وزميل لتينيت إن رفضه دفع قيادات مجلس الشيوخ إلى التعامل مع القضايا الصعبة كان عرضاً لمشاكله كمدير لوكالة الاستخبارات المركزية. وقال ذلك الشخص عن تينيت إنه «سياسي كذلك. وهذا هو السبب في أنه لا ينبغي له أن يكون في هذا الموقع، لأنه ليست له تلك المكانة التي تجعله يقول لأعضاء مجلس الشيوخ إنكم لا تعرفون ما تتحدثون عنه».



ويصف روبرت بير في مذكراته «الوعكة القاتلة» التي ألمت بمركز باريس التابع لوكالة الاستخبارات المركزية في أوائل التسعينيات قائلاً إنه «لم يكن ضباط الحالات يجندون عملاء جددا. وكان العملاء المسجلون بالفعل متقدمين في العمر. وكانوا قد فقدوا اتصالاتهم. ولم يكن يبدو أن هناك من يهتم». وصدم كثيرون في الوكالة في أوائل ١٩٩٢ عندما أبلغ ملتون بيردن رئيس قسم شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي - وقام كذلك بدور كبير في دعم وكالة الاستخبارات المركزية للمتمردين الأفغان في الحرب الوحشية ضد الاتحاد السوفيتي - مراكزه في الخارج أن روسيا سوف تعامل الآن كأي دولة صديقة أخرى مثل ألمانيا وفرنسا. ولم تعد وكالة الاستخبارات المركزية تقوم بتجنيد عملاء للتجسس على الروس. كما أغلقت إدارات المراقبة بوكالة الاستخبارات المركزية ورفعت أجهزة التنصت من أنحاء الشرق الأوسط وأوروبا. وقال مسئول متقاعد:



قال أحدهم بوكالة الاستخبارات المركزية:
«أيجلس هذا الرجل في كهف من كهوف أفغانستان ويدير هذه العملية؟
إنه أمر شديد الضخامة،
وما كان له أن يقوم به
بمفرده»



«لن نعرف أبداً الخسائر التى تعرضنا لها فيما يتصل بعدم الاستفادة من انهيار الاتحاد السوفيتى». كما رُد ضباط سوفييت سابقون رفيعو المستوى لديهم معلومات استخبارية أو غيرها من المعلومات. «لقد رد جواسيس متبرعون على أعقابهم. وكان ذلك أمراً يدعو للدهشة، وحسبما أعلم فلم يقاومه أحد».



وتغير الموقف بعض الشىء عندما تولى كلينتون السلطة سنة ١٩٩٣ وفى ذلك الوقت كان بير مكلفاً بالعمل بناء على طلبه فى موقع صغير متقدم لوكالة الاستخبارات المركزية فى دوشنبه بطاجيكستان القريبة من الحدود الأفغانية، وكان يراقب عاجزاً الأصوليين الإسلاميين الذين تدعمهم السعودية ـ وهم طلائع طالبان ـ وهم يعززون قواعد التدريب ويجندون المؤيدين ويجرون العمليات داخل حدود الاتحاد السوفيتى السابق.

وفى سنة ١٩٩٥ انتُقدت الوكالة انتقاداً كبيراً بعد الأخبار التى قالت إن مصدراً يتقاضى أجراً فى جواتيمالا تورط فى مقتل صاحب فندق أمريكى وزوج محامية أمريكية جواتيمالاى. وكان اسم ذلك المصدر قد ظل ضمن كشوف رواتب وكالة الاستخبارات المركزية رغم معرفة إدارة العمليات لأنشطته. ورد جون دويتش، ثالث مدير لوكالة الاستخبارات المركزية خلال ثلاث سنوات، على تلك الانتهاكات وعلى الغضب العام بإصداره توجيها يدعو فيه إلى الحصول على موافقة مبدئية من القيادة قبل تجنيد أى شخص له مشاكل جنائية أو متعلقة بحقوق الإنسان. وأوضح دويتش فيما بعد أن الموافقة تقوم على اختبار توازن بسيط: «هل المكسب المحتمل فى الاستخبارات يستحق الثمن الذى قد يرتبط بالتعامل مع شخص ربما يكون قاتلاً؟»

وأعلن دويتش وزملاؤه «أمر التطهير»، كما بات يعرف، مصحوباً بأفضل النوايا، وكان يتضمن شروطاً لمراجعة كل حالة على حدة. إلا أنه من الناحية العملية شطب مئات «الأصول» الجواسيس من كشوف رواتب وكالة الاستخبارات المركزية بلا تمييز، مما كان له أثره المدمر على عمليات مناهضة الإرهاب فى الشرق الأوسط.

وأدى أمر التطهير إلى خلق سلسلة من لجان الفحص فى مقر وكالة الاستخبارات المركزية. فقبل تجنيد أى جاسوس جديد، كان على ضابط الحالات الحصول على موافقة من لجنة المراجعة الكبرى. ويتذكر ضابط سابق ذلك فيقول: «كان الأمر أشبه باختصاصى أمراض قلب فى كاليفورنيا يقرر إذا ما كان بإمكان جراح فى مدينة نيويورك فتح صدر مريض أم لا». وكان تقييم الجواسيس المحتملين يقوم به موظفون ليست لهم خبرة مباشرة بالعمليات السرية. (ويتذكر روبرت بير ذلك قائلاً: «الأمريكيون يكرهون الاستخبارات ـ يكرهونها وحسب»). وفى رأى ضباط العمليات، فإن أهم أسلحة فى الحرب ضد الإرهاب العالمى كان يقيِّمها رجال ونساء وصفهم ضابط متقاعد بأنهم «لم يكونوا يقودون سياراتهم إلى أحد مطاعم مدينة واشنطن ليلاً لخوفهم من مشكلة الجريمة».

وأخذت لجان بيروقراطية أخرى «تتكاثر كالأرانب، الواحدة من الأخرى» كما قال رئيس مركز سابق. أما الضباط المتمرسون الذين كانوا متشددين بشأن الاستمرار فى تعيين الجواسيس فقد وجدوا أن الحصول على موافقة قبل اتخاذ أية خطوة مسألة انتقال من لجنة إلى أخرى. وقال الضابط المتقاعد إنهم «فى الأيام الخوالى كانوا يقولون اذهب وائت بهم». ومع ذلك كانت هناك عملية مراجعة أخرى تعرف باسم «نظام إعطاء صلاحية الجاسوس». وقال لى ضابط متقاعد آخر: «كان لا بد أن تكتب الكثير من الأوراق كى يقضى الرجال بالمركز فى كتابة التقارير وقتاً يزيد على ذلك الذى يقضونه فى الشارع».

وقال ضابط ثالث: «كان أمراً لا معنى له انظر، لقد كنا نجد أشخاصاً كريهين، وكنت أتعامل مع رجال سيئين. فنحن لم نكن نجد أناساً يتسمون بالبراءة». ومضى قائلاً: «ما فعلناه بأنفسنا جرم فى حقنا. وهناك ستة أشخاص طيبين يحاولون إصلاح الأمر».

وقال روبرت بير عن الإعلان: «لقد جعل يوم العمل أسهل بكثير. كنت أشاهد السى إن إن وحسب. ولم يكن هناك من يبالى». ولم يكن لدى المجموعة الجنوبية الحيوية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية المكونة من ثمانية مراكز فى وسط آسيا ـ وكانت جميعها مهددة من قبل المنظمات الأصولية، وخاصة فى أوزبكستان وطاجيكستان وتربطها صلات بطالبان وبن لادن ـ أى عملاء، بحلول منتصف التسعينيات «كانت الوكالة ترحل».

وعلى عكس الكثير من كبار المسئولين فى وكالة الاستخبارات المركزية، أقام بير سراً فى بيروت وغيرها من مناطق الشرق الأوسط، وكان يدرك جيداً قدرة المنظمات الإرهابية على إخفاء آثارها. وذكر لى أنه عندما بدأت وكالة الاستخبارات المركزية فى ملاحقة منظمة الجهاد الإسلامى، وهى جماعة لبنانية متشددة لها صلة بسلسلة من أعمال الاختطاف فى عهد ريجان، «قام رجالها بالاطلاع بشكل منظم على الوثائق فى أنحاء بيروت، بل وتدمير كل سجلات الطلاب. كما وضعوا أجهزة تنصت فى مطار بيروت واستطاعوا تمييز الأمريكيين. كانوا يعرفون من يريدون خطفه قبل أن تهبط طائرته». وتغلب الإرهابيون على قدرة الأمريكيين على التقاط المحادثات فى أنحاء العالم عن طريق تغيير شفراتهم باستمرار ـ وكثيراً ما كانوا يقومون بما هو أكثر من مجرد تغيير لمعانى الجمل التى تستخدم عادة. وقال بير: «هناك كادر محترف بينهم». وفى إشارة إلى الإرهابيين الذين وجهوا ضربة الحادى عشر من سبتمبر قال: «هؤلاء الناس بارعون إلى حد كبير جداً». ■

بترتيب خاص مع مجلة:

The New Yorker

٨ أكتوبر ٢٠٠١

ترجمة: أحمد محمود

كتاب الزاوية

مذهبهم ومعتقداتهم

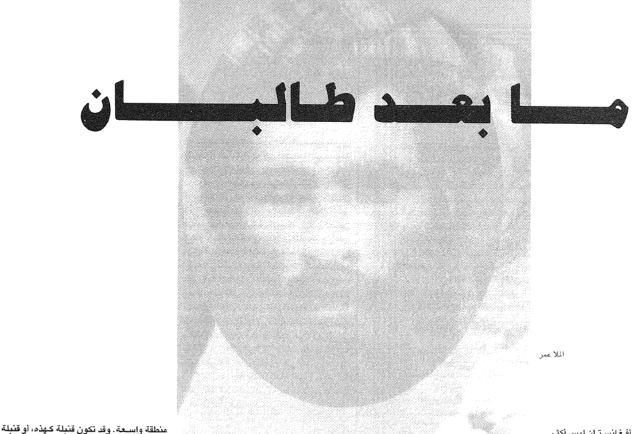
وجمع الأفغانيين سنّيون متمذهبون بمذهب أبى حنيفة لا يتساهلون رجالاً ونساءً وحضريين وبدويين فى الصلاة والصوم سوى طائفة (نورى) فإنهم متوغلون فى التشيع ولهم محاربات شديدة مع جيرانهم السنيين ولا يبالون بالصلاة والصوم وإنما يهتمون بأمر مأتم الحسين (رضى الله عنه) فى العشرة الأولى من المحرَّم ويضربون ظهورهم وأكتافهم بسلاسل مكشوفة.

والأفغانيون مع شدّة تعصبهم للدين والمذهب والجنس لا يعارضون غيرهم فى حقوقهم ولا يتحاشون عن أن يروا شيعياً أو غير مسلم يقيم مراسم دينه ويلا يمنعون المستحقين منهما من نيل المراتب العالية فى حكومتهم. فإنك ترى أرباب المناصب فى البلاد الأفغانية من الشيعيين (القزل باش). وكل أفغانى يزعم أنه أشرف الناس لكونه أفغانياً ولو كان فقيراً وأنه لا يوجد الإيمان الكامل والإسلام الخالص إلا فى جنس الأفغان والعرب. وكل قبيلة إذا أرادت أن تبرم أمراً فلابد أن يجتمع أمراؤها للمشورة وتسمى هذه الجمعية عندهم بجركه. وإذا قتل أحدٌ من قبيلة أحداً من قبيلة أخرى فكل فرد من أفراد قبيلة المقتول يرى أنه من الواجب عليه أن يجتهد لأخذ الثأر بقتل رجل من قبيلة القاتل ولا يقتنعون بقصاص الحاكم ولا يتجاوزون عن ذلك ولو مضت عليه أعوام إلاّ أن يستجير بهم القاتل. وهكذا تكون الحال إذا قتل أحدٌ من عائلة أحداً من أخرى.

وقد وقع كثيراً أن الابن قتل أباه والأخ قتل أخاه ولا ينعقد الصلح بين القبيلتين المتحاربتين إلا بالمصاهرة.



مـــا بعـــد طـالبـــان



الملا عمر

فـــهـــمـى هـــويـــدى

سـقوط النظـام لـن يعنـى نهاية طالبان، التى لن تختفى من الساحة، وإنما ستتحول إلى حركة مقاومة جهادية، مستفيدة من كـوادرها الملتـزمة التى يقـدر عـددها بما يتـراوح بين ٤٠ و ٥٠ ألف مقـاتل، ومسـتفيدة أيضـا من أجـواء الغضـب التـى تسـود السـاحة الأفغانيـة من جـراء القصف

الذى يجرى فى أفغانستان ليس أكثر من مشاهد من فيلم سينمائى، أعد له السيناريو منذ بدايات العام، ويقوم ببطولته الرباعى الفتَّاك: بوش - تشينى - باول - رامسفيلد. ومعهم فى أدوار البطولة الثانية كوكبة من الضباط العظام من أساطين أسلحة البر والبحر والجو، الذين يقبعون فى غرف العمليات وراء الأجهزة الإلكترونية الجبارة، وتناط بهم مهمة توفير أكبر قدر من الإبهار والإثارة، أما دول التحالف فهى تؤدى دور «الكومبارس» الذى لا يطلب منه أكثر من الظهور فى خلفية المشاهد لتصوير عمقها وجلالها.

الفرق بين هذا الفيلم وغيره مما أنتجته هوليوود أنه من تأليف السياسيين وإخراج العسكريين، وأن نهايته مفتوحة، فى انتظار الحقيقة الأفغانية التى تتشكل على الأرض، ولم تكن بحاجة إلى ذلك الاحتشاد المهول أو القصف المجنون. وهى بغير ذلك كانت ستصبح فى وضع أفضل لا ريب، لكن مخرج الفيلم أراد أن يوفر له أعلى درجات الإثارة، لأن عينه مركزة على الجمهور الأمريكى الذى لايزال أسير الانفعال بما جرى فى الحادى عشر من سبتمبر، الأمر الذى جعله متعطشًا للانتقام، ولم يكن السياسيون أقل منه انفعالاً، لأنهم بدورهم متعطشون لاستعادة الهيبة ورد المهانة، لذلك فلم يكن هناك مفر من إخراج الفيلم على نحو يلبى رغبات الجميع. وهؤلاء يريدون أن يروا بأعينهم مشهد سحق «الأشرار» وتدمير مملكتهم، وانتصار الرباعى الأمريكى الفتاك.

[١]

السيناريو قديم حقًا، وأقدم منه فكرة الفيلم، فأسامة بن لادن وجماعته من قيادات تنظيم «القاعدة» متهمون فى كل العمليات التى وجهت ضد المنشآت والمصالح الأمريكية، من تفجير «الخبر» بالسعودية (يونيو ٩٦) إلى تفجير سفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا (أغسطس ٩٨) إلى تفجير المدمرة «كول» فى عدن (أكتوبر ٢٠٠٠). بعد هذه العمليات أصبح اسم بن لادن يوضع على الطاولة كلما وقع حادث فى أى مكان بالكرة الأرضية، حتى كان أول من اشتبه فيه حين سقطت الطائرة البوينج المصرية عام ١٩٩٩ قرب نيويورك، ثم استبعد بعد ذلك، وأصبح الاسم والتنظيم التابع له فى العناوين الثابتة للإرهاب الدولى، وهو ما عبرت عنه مجلة «نيوز ويك» فى عددها الصادر فى ٢٠/٢/٢٠٠١، حيث نشرت تحقيقًا مطولاً وموسعًا عن الإرهاب العالمى استغرق ١٢ صفحة، كان محوره «بن لادن» و«القاعدة».

فى هذا التحقيق، الذى تضمن أكثر من موضوع، إشارة إلى بن لادن بحسبانه «التهديد الأكثر مباشرة وخطورة على الأمن القومى الأمريكى» - وأنه زعيم لشبكة إرهابية «سبقت الجهود الدولية المصممة لتدميرها» - وهى تعمل «بصورة مكشوفة لشن حرب مقدسة ضد الولايات المتحدة وحلفائها»!

ليس ذلك فحسب، وإنما نسبت المجلة إلى مسئول أمريكى - لم تذكر اسمه - قوله إن بن لادن يريد برنامجا تخريبيا مدته مائة عام (!). وأن أصابعه ممتدة إلى الشيشان والفلبين وإندونيسيا والولايات المتحدة والأرض المحتلة فى فلسطين. ولأنه بهذه الخطورة، فإن مخططاته استهدفت الحصول على أسلحة الدمار الشامل. فى هذا الصدد ذكرت المجلة أن أحد المقبوض عليهم فى تفجير سفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا ذكر أن بن لادن وجماعته حاولوا شراء كمية من اليورانيوم بقيمة مليون ونصف مليون دولار من تجار سودانيين فى السوق السوداء. كما ذكر المدَّعون الأمريكيون أن بن لادن وأحد كبار معاونيه حاولا فى مرات عديدة، منذ عام ١٩٩٢ شراء مكونات لتصنيع قنبلة نووية!. وأضافت «نيوز ويك» أن «الخبراء يحذرون» من أن الزعيم «الإرهابى» قادر بسهولة على صنع ما يسمى بالقنبلة القذرة، التى هى متفجرة تقليدية، ويمكنها نشر مواد مشعة قاتلة فوق منطقة واسعة. وقد تكون قنبلة كهذه، أو قنبلة أخرى بيولوجية أو كيميائية توازيها فى خطورتها، موجودة لمن يريد شراءها فى السوق الدولية السوداء».

أيا كان قدر المبالغة أو الاختلاف فى تلك المعلومات، فإن المجلة قدمت بن لادن باعتباره أخطر رجل فى العالم، الذى يهدد الكرة الأرضية من أقصاها إلى أقصاها، وخططه التدميرية موضوعة لكى تشيع الخراب فى الكون لمائة سنة مقبلة!

كان واضحًا فى تقرير «نيوز ويك» وفى إشارات أخرى عديدة، إن إدارة الرئيس بوش الابن - الذى تسلم منصبه فى شهر يناير - أدرجت ضمن اهتماماتها موضوع بن لادن وجماعته ونظام طالبان الذى يؤويه. ولم يكن مصادفة بطبيعة الحال أن تسلط الأضواء على بن لادن وتصوره على ذلك النحو المرعب بعد شهر واحد من تولى الرئيس بوش للسلطة.

تكمل الصورة وتختصر علينا جهود البحث معلومات أخرى مهمة نشرتها المجلة ذاتها فى عدد ١٩/٦/٢٠٠١، فى تقرير تحت عنوان: إعادة التفكير فى بن لادن. وفيه ورد النص التالى: شرعت وكالة الأمن القومى (الأمريكى) فى الإعلان عن توظيف خبراء فى اللغة الأوزبكية، لإضافتهم إلى مجموعة المتحدثين بلغة الباشتو، وهى اللغة السائدة فى أفغانستان. فضلاً عن اللغة العربية التى هى لغة بن لادن الأم. كذلك تشرف الولايات المتحدة على مناورات كتيبة «حفظ السلام» فى آسيا الوسطى (سنترا لاسبات)، التى ضمت مئات من المظليين، من الولايات المتحدة وأوزبكستان وقازاقستان وقرغيزستان وتركيا. وهؤلاء يتدربون على القفز من مروحيات وطائرات تحلق على ارتفاع منخفض فى الجمهوريات (السوفيتية سابقًا)، المجاورة لأفغانستان.

أضاف التقرير يقول: لقد قام الجيش (الأمريكى) أيضًا بإرسال طائرة النقل الحربية (سى ١٧) المتقدمة من الناحية التكنولوجية، فى رحلة دون توقف، من الولايات المتحدة إلى

آسيا الوسطى ـ وهي مسافة قياسية لطائرة نقل ـ لإقناع حكومات دول آسيا الوسطى بالسرعة التي يمكن أن تستجيب بها واشنطن في حالة وقوع «أزمة».

هذه الترتيبات كانت جارية وأذيعت أخبارها، على الأقل قبل ٨٣ يومًا من الهجوم على نيويورك وواشنطن، وقبل ١٠ أيام من القصف الأمريكي لأفغانستان. وهو ما يعني أن «سيناريو» ضرب بن لادن وجماعته وإسقاط نظام طالبان كان مُعدًا وجاهزًا للتنفيذ، سواء وقع ذلك الهجوم أم لم يقع.

[٢]

على عكس ما يتصور كثيرون، فالأمر ليس كله شرًا، لأن الولايات المتحدة بالهجوم المكثف الذي شنته، وبالاحتشاد الدولي الذي أقامته، أسدت من حيث لا تحتسب خدمة جليلة لنظام حركة طالبان، لأنها أنهت عمره الافتراضي في السلطة بعد خمس سنوات من تبوئهم لها (سقطت كابول العاصمة في أيديهم خلال شهر سبتمبر ١٩٩٦). ذلك أن حكومة طالبان بعدما تخلت عن دعمها باكستان، وبعد أن سحبت اعترافها بها كل من المملكة السعودية ودولة الإمارات، فقدت شرعيتها من الناحية العملية على المستوى الإقليمي، وهي التي لم يعترف بشرعيتها أصلاً على المستوى الدولي، وبعدما أغلقت الدول الست المحيطة بها حدودها معها، فقد سدت أمامها كل المنافذ البرية، وهي مقطوعة الصلة أصلاً بأية منافذ بحرية. وحصارها على هذا النحو، سياسيًا واقتصاديًا، لن يمكن النظام المنهك من الاستمرار مهما كانت قدرته على الصمود (خلال أسابيع قليلة سينضب مخزونه من الوقود مثلاً وستصاب الحركة في البلاد بالشلل) وإذا أضفت إلى ذلك أن قوات التحالف الشمالية تحولت إلى رأس حربة لإسقاط النظام، وهي المدعومة بكل إمكانيات الحملة الأمريكية، والمؤيدة بالدول المجاورة، التي فتح بعضها حدودها لها، خصوصًا أوزبكستان التي تبين أنها أصبحت قاعدة عسكرية أمريكية مهمة في وسط آسيا، فسوف نجد أن وصول تلك القوات إلى العاصمة واستيلاءها على مقاليد الحكم ليس أمرًا مستبعدًا، وإنما هو مسألة وقت فقط.

هذه الضغوط من شأنها إسقاط الحكومة، دون تكلفة بشرية عالية الثمن كتلك التي يدفعها الشعب الأفغاني حاليا من جراء القصف الذي لا تعرف أرقام ضحاياه بالضبط، لأن هناك تعتيما إعلاميًا من جانب الأمريكيين والبريطانيين على نتائج العمليات العسكرية، وإن كانت المصادر الأفغانية قد قدرت الضحايا من المدنيين خلال الأسابيع الثلاثة الأولى بما يتراوح بين ٦٠٠ و٨٠٠ شخص، ذلك بخلاف عمليات التدمير المفترضة للمباني السكنية والمرافق العامة.

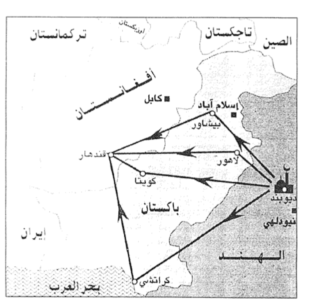
لم يكن إسقاط الحكومة بحاجة إلى كل تلك العمليات العسكرية والغارات المتتالية، التي أضرت بأهداف الحملة من ناحيتين، أولاً: لأنها زادت من تماسك صفوف حركة طالبان، وأجّلت ظهور التمايزات بين أجنحتها، بعدما أدرك الجميع أن القصف وضعهم في كفة واحدة، وأن مصيرهم صار واحدًا، بالإضافة أنها زادت من التفاف قبائل البشتون حول الحركة ـ ثانيًا: لأنها وضعت فصائل المعارضة في موقف حرج من شأنه أن يغلق باب التعاطف الشعبي معها، حيث بدا في هذه الحالة أن البدائل المرشحة لخلافة نظام طالبان قادمة على أجنحة الطائرات الأمريكية النفاثة، الأمر الذي يستثير غضب الأفغان ويجرح كبرياءهم.



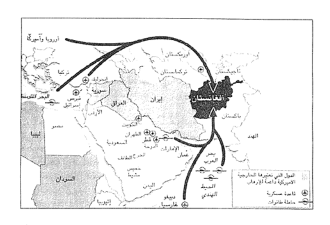
لقد آثرت الإدارة الأمريكية أن تستعرض قوتها وعضلاتها في سماء أفغانستان، وأن







المصدر: كتاب طالبان ـ من حلم الملا إلى إمارة المؤمنين ـ مولوي حفيظ الله حقاني ـ من إصدارات معهد الدراسات السياسية بإسلام أباد ـ عام ١٩٩٧.



تقوم بتمثيل الفيلم المثير لا لإسقاط نظام طالبان، ولكن لإشباع غرائز الانفعال والغضب والانتقام لدى الجمهور الأمريكي. وهي تفعل ذلك فإنها على إدراك تام بأن ثمة جهودًا أخرى تبذل على الأرض ـ تقوم المخابرات الباكستانية بدور رئيسي فيها ـ لترتيب أوضاع المستقبل الأفغاني، فيما بعد سقوط نظام طالبان.

سقوط النظام لن يعني نهاية طالبان، التي لن تختفي من الساحة، وإنما ستتحول إلى حركة مقاومة جهادية، مستفيدة من كوادرها الملتزمة التي يقدر عددها بما يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ ألف مقاتل، ومستفيدة أيضًا من أجواء الغضب التي تسود الساحة الأفغانية من جراء القصف. والشبهات التي يمكن أن تثار إزاء أي وضع مستجد، مدعوم من الولايات المتحدة. ومستفيدة كذلك من انتشارها في أنحاء البلاد التي ظلت مسيطرة على ٩٥٪ من أراضيها خلال السنوات الخمس الماضية. ثم لا تنس أن طالبان تمثل عرق البشتون وهم النسبة الأكبر بين سكان أفغانستان، وأن قيادتها تتمركز في قندهار التي تعتبر أصل الأفغان، ومحيطها البشري والقبائلي يمتد إلى داخل حدود باكستان.

هذا التحول من سلطة حاكمة إلى حركة مقاومة جهادية مطروح الآن بقوة في محيط طالبان. وفيما علمت فإنه قرارًا اتخذ بهذا الصدد في قيادة الحركة، وأن التعليمات صدرت لحكام الأقاليم بالاستعداد للعمل كقادة ميدانيين لمواجهة أي وضع مستجد، وفي ظل انقطاع وسائل الاتصال، فإن أولئك القادة أعطوا حق التصرف واتخاذ ما يرونه مناسبا من إجراءات وخطط للمقاومة، دون الرجوع إلى القيادة.

من هذه الزاوية، فلعلي أزعم أن الحملة العسكرية الأمريكية أدت من حيث لا تحتسب خدمة لطالبان، بسعيها لإسقاط نظامها، ودفعها للانتقال من مقاعد السلطة إلى خنادق المقاومة ـ كيف ولماذا؟

[٣]

لأن حكومة طالبان بعدما أمضت خمس سنوات في السلطة، أصبحت تواجه مأزقًا سياسيًا كبيرًا، لم تكن ترى مخرجا منه، فقد جلبت الأمن والسلام للبلاد منذ فتحت كابول عام ٩٦ واستقام لها الأمر في البلاد، لكنها بعد ذلك فشلت في أن تقدم للشعب الأفغاني أي شيء آخر. نعم، خلصت المجتمع من تحكم وفساد ممثلي الأحزاب الجهادية الذين أساءوا استخدام سلطاتهم بعد خروج السوفييت في عام ٩٢، وهو ما أراح الناس كثيرًا، لكن الناس لهم مطالب حياتية أخرى فشلت الحركة في تلبيتها.

ومن الناحية العملية، فإنها خلال السنوات الخمس الماضية اقامت كيانا سياسيا مبسطا ومشوها باسم إمارة أفغانستان الإسلامية، ونصبت على رأسه «أميرا للمؤمنين» في استرجاع لأحد عناوين العصر الإسلامي الأول، وشغلت نفسها بمظاهر الناس وأشكالهم وسلوكياتهم، ولم تعن بشيء له قيمته في البلد، وإنما غاية ما نهضت به هو دور الحراسة للمدن والحدود، ورد هجوم قوات التحالف الشمالي، التي لم تكن تشكل في السابق خطرًا يذكر. وقد انكشف موقف حكومة طالبان تماماً حين شحت الأمطار واشتدت المجاعة في شتاء العام الماضي (٢٠٠٠)، الأمر الذي أدى إلى نزوح حوالي ٨٠٠ ألف شخص من القرى إلى المدن، ووفاة أعداد من الأطفال لم يتم حصرها، ولم تستطع حكومة الحركة أن تفعل شيئًا إزاء تلك الكارثة.

بسبب قلة الخبرة وسوء التصرف من جانب عناصرها، ومن جراء الحصار الدولي النسبي الذي فرض عليها، فإن الحركة أصبحت في النهاية عاجزة عن أن تقدم شيئا للمجتمع الذي ظل يعاني من شح الموارد وتعطل المرافق وبؤس الخدمات. فتضاعف فقراؤه ومعذبوه، وصار

النزوح واللجوء إلى الدول المجاورة حلاً لمشكلات السلم، بقدر ما كان حلاً لمشكلات الحرب.



هذا الانسداد جسد المازق الذى عانى منه نظام طالبان، الذى ظل يراوح مكانه خلال السنوات الثلاث الأخيرة، حيث لم يكن قادراً على التقدم إلى الأمام، ولم يكن واردا فى حسبان قادته أن يتراجعوا إلى الخلف. من ثم فإن الحملة العسكرية الراهنة حلت لهم الإشكال (هل نقول إن القصف فى هذه الحالة كان هبة من السماء؟!) ـ إذ إنها بذلك أعفتهم من تكاليف الحكومة إزاء رعاية المجتمع وتنميته. ودفعتهم إلى الانتقال إلى ساحة الجهاد التى قد يكونون أقدر على الأداء والإنجاز فيها. هذا إذا افترضنا أن قيادتها الراهنة ظلت كما هى، ولم تختف من المسرح لسبب أو آخر، وهو ما سنتطرق إليه بعد قليل، حين نحاول الإطلال على «سيناريوهات» المستقبل.

فشلهم فى السياسة والحكم ليس مفاجئاً، وهو ما أشرت إليه فيما كتبت عنهم قبل أكثر من عام، حيث أدركت من لقاءاتى مع عناصر الحركة وبعض قياداتها أن «النظام» لا تتوفر له مقومات الاستمرار، وأن ظروفاً تاريخية استدعتهم لأداء دور «الاطفائى»، بعدما ظل قادة المقاومة الذين قبضوا على السلطة بعد جلاء السوفييت (بوجه أخص قلب الدين حكمتيار وبرهان الدين ربانى ومعه أحمد شاه مسعود)، هؤلاء ظلوا يتقاتلون فيما بينهم طيلة الفترة بين عامى ٩٢ و٩٤. وللإطفائى دور يؤديه ثم يعود إلى مواقعه، لكنهم غامروا بالمهمة ولم يغادروا، فحملوا أنفسهم بما لم يكونوا مؤهلين له، الأمر الذى أوصلهم إلى مأزقهم الذى أنقذتهم منه الحملة العسكرية.

ما كان لنا أن نتوقع الكثير فى الحكم من جماعات مقطوعة الصلة بالدنيا، ومحدودة المعرفة بالدين، انتقلت من المدارس الدينية إلى جبهات القتال، ثم وجدت نفسها فجأة قابضة على السلطة فى البلاد. نعم لمست فيهم براءة وإخلاصاً شديدين، وغيرة على الدين لا حدود لها، لكن ذلك كله كان من قبيل النوايا الحسنة التى تقود المرء إلى جهنم أحياناً، من جراء قصور إدراكه وسوء تصرفه.

جميعهم خرجوا من عباءة المدارس الدينية، أكثرهم تلقوا تعليماً متوسطاً وصاروا «ملالى» وأقلهم أكملوا الشوط إلى نهايته وأصبحوا «مولوية» وهى شهادة أعلى أقرب إلى «العالمية» عند الأزهريين. (قرأت أن «أمير المؤمنين» محمد عمر خرج إلى الجهاد، قبل أن يحصل على شهادة «الملا»، ولكن لسعة اطلاعه النسبى على العلوم الدينية أعلى شهادة فخرية تعرف باسم «الملا الإعزازية»).

تلك المدارس الدينية كانت من طراز خاص، فهى امتداد وفروع للمدارس «الديوبنديه»، نسبة إلى مدينة «ديوبند» بالهند، التى تاسست قبل أكثر من ١٥٠ سنة، وتبنت فكراً موغلاً فى التشدد والمحافظة، وحصرت نفسها فى حدود المذهب الحنفى السائد فى شبه القارة الهندية، مع التقليل من شأن المذاهب الأخرى، واتهامها بالانحراف فى التعاليم والتقاليد.

جميعهم خرجوا من عباءة المدارس الدينية، أكثرهم تلقوا تعليماً متوسطاً وصاروا «ملالى» وأقلهم أكملوا الشوط إلى نهايته وأصبحوا «مولوية» وهى شهادة أعلى أقرب إلى «العالمية» عند الأزهريين

وهو اتهام يصل إلى حد التكفير بالنسبة للسلفيين المعروفين باسم «الوهابيين»، وبسبب تعصبهم للمذهب الحنفى اعتبروه هو السُنة (ينطقونها سنات)، وماعداه مسكون بالبدع (بدعات).

انتشرت هذه المدارس فى أوساط اللاجئين الأفغان، خصوصاً أنها كانت تتكفل بتغطية نفقات إقامة طلابها، وعادة ما تتولى إدارتها شخصيات دينية معروفة، وتمول عن طريق التبرعات من داخل وخارج باكستان، بالإضافة إلى ما كانت تتلقاه من دعم من قبل الحكومة الباكستانية، خصوصاً فى عهد الرئيس الأسبق ضياء الحق.

[٤]

بعدما برز دور الجهاد الأفغانى ابتداء من منتصف الثمانينيات ازداد الإقبال على الأحزاب والمنظمات الجهادية، من قبل كل فئات الشعب الأفغانى، غير أن تلك الأحزاب خصصت مراكز خاصة لطلاب المدارس الدينية، التى عرفت باسم «مراكز طالبان» (فى اللغة الفارسية تجمع كلمة طالب بهذا الشكل) ـ فقد كان أولئك الطلاب أفضل تعليماً من غيرهم وأكثر انسجاماً مع بعضهم البعض ـ الأمر الذى يعنى أن شباب الحركة كانت لهم قدم فى الجهاد منذ وقت مبكر نسبياً، وقادتهم كانوا بدورهم قادة ميدانيين عملوا ضمن الأحزاب الجهادية الأخرى.

من بين الأحزاب الجهادية العشرة التى اشتركت فى القتال ضد السوفييت، كان إقبال طلاب المدارس الدينية أكبر على اثنين منها، لسبب جوهرى هو أن قيادة هذين الحزبين كانت معقودة على اثنين من العلماء «المولوية».. والحزبان هما: الحزب الإسلامى الذى قاده مولوى محمد يونس (من مواليد عام ١٩١٩) وحزب الانقلاب الإسلامى (الانقلاب هنا فى معناه الفارسى معادل لكلمة الثورة) الذى تزعمه المولوى محمد نبى محمدى (مولود فى سنة ١٩٢٥)، والحزب الأخير تمتع بجاذبية خاصة من جانب طلاب المدارس الدينية لكثرة أعداد المولوية والملالى فيه، الذين كانت معهم أعداد من أتباع الطريقة النقشبندية، ثم لأن حزب المولوى محمد نبى كان يدير عدة مدارس دينية فى داخل أفغانستان، وفى مدينتى بيشاور وكويتا الباكستانيتين الحدوديتين. وكان الملا محمد عمر زعيم حركة طالبان من طلاب تلك المدارس.



من هذه البيئة الثقافية خرجت عناصر طالبان، لكن البيئة الجغرافية والاجتماعية التى خرجوا منها كانت لها تاثيراتها التى تقل أهمية على مسار الحركة ومواقفها. فقادة الحركة ليسوا أفغاناً فحسب ولا من قبائل البشتون فقط، ولكنهم من منطقة قندهار بالدرجة الأولى وغير القندهاريين لم يبتعدوا كثيراً عن المقاطعة، وإنما ظلوا ينتمون إلى مقاطعتين مجاورتين فى الجنوب الغربى هما: زابل وهيلمند أو مقاطعة أوزوزجان الملاصقة لقندهار.

وقندهار الولاية هى أصل الأفغان، وعاصمة دولتهم، التى أسسها فى عام ١٧٤٧ أحمد خان الإبدالى، المعروف باسم أحمد شاه بابا، وأهلها لهم سمات خاصة فى هيئاتهم وثيابهم وطبائعهم، وفى لسانهم أيضاً، حيث لغتهم هى البشتو الفصحى، أما بقية البشتون فيتخاطبون بعاميتها. القندهاريون قاماتهم متينة وحواجبهم كثيفة الشعر وشواربهم غزيرة ولحاهم ضخمة، يميزهم أيضاً أن سراويلهم واسعة جداً، وعمائمهم من قماش أسود بطول سبعة أمتار، بذيل طوله خمسة أشبار، وهو ما يتمسكون به ويعتبرونه من «السنات».

وإذا كان مسلمو أفغانستان محافظين بطبيعتهم فمسلمو قندهار من الغلاة الأشداء فى كل شىء. وفى الحرب ضد السوفييت كانوا الأكثر إقداماً وثباتاً. حتى أنهم كانوا يستنكفون الانبطاح على الأرض أثناء الغارات، ويعتبرون ذلك عاراً لا يليق بكرامة وكبرياء المحاربين. لذلك فإنهم كانوا يظلون وقوفاً فى تحد كلفهم الكثير. من ثم فلا غرابة فى أن كان بين القندهاريين أكبر عدد من الشهداء والمعوقين والأرامل. وبسبب كبريائهم وأنفتهم كانوا يعفون من الخدمة العسكرية فى ظل الحكومات السابقة، وحين كان السوفييت يريدون معاقبة أحد من جنودهم فإنهم كانوا يرسلونه إلى جبهة قندهار، التى حظيت منهم باكبر قسط من الدمار، حيث قيل لى أنه ما من غرفة فى بيت بالمدينة إلا وأصابتها نيران القاذفات السوفيتية. وبسبب شدة القتال الذى أرهق السوفييت فى تلك الولاية، فإنها كانت أول ما سارعوا إلى الانسحاب منه، حين قرروا الخروج من المستنقع الأفغانى.

[٥]

يروى البلاذرى فى «فتوح البلدان» أنه حين فتح المسلمون قندهار فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (سنة ٢٢ هجرية) أرسل قائد المسلمين فى تلك الحملة، الحكم بن عمرو التغلبى مبعوثاً يحمل البشارة إلى أمير المؤمنين. وحين سأله سيدنا عمر أن يحدثه عن تلك البقعة التى تم فتحها، رد المبعوث ـ واسمه سمار العبرى ـ قائلاً: سهلها جبل، وماؤها وشل (قليل وشحيح)، وتمرها دَقَل (ردىء) ونصفها بطل (من الأشقياء وللكلمة فى لسان العرب معنيان متناقضان)، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وما وراءها شر منها.

لما سمع عمر بن الخطاب هذه الأوصاف سأل المبعوث: أسجَاع أنت أم مخبر؟ فقال بل مخبر، فاطرق ابن الخطاب لحظة ثم أمر بالكف عن التقدم فى الفتح إلى أبعد من قندهار.

هذه الخلفية تسلط الضوء على جذور وطبيعة الشخصية القندهارية التى تشكلت ونمت فى أجواء اتسمت بالخشونة والقسوة وشظف العيش، الأمر الذى أورثها الصلابة والعناد والقدرة الفائقة على تحمل المشاق. تجلى ذلك فى نمط حياتهم وفى سلوكهم، وفى ألعابهم أيضاً، فمن بين الألعاب مسابقة يقيمونها تختبر صلابة المرء وقدرته على الاحتمال، فيقف نفر من الشبان فى حلقة، ويضع كل واحد منهم جمرة مشتعلة على ساعده، ويفترض أن يبقيها هكذا إلى أن تنطفىء وتصبح رماداً. اللعبة تستغرق وقتاً ليس بالقصير، وتتطلب من المشاركين فيها قدرة غير عادية على احتمال الألم والعناء. لأن من يتحرك من مكانه أو يتاوه، يستبعد من الحلقة، ويخرج مهزومًا وكسير النفس. والفائز من بقى ثابتًا فى مكانه بغير حراك حتى تخمد النار فى الجمرة!

من يدرك هذه الأبعاد فى الشخصية القندهارية التى تطبع بها القندهاريون من قادة

وكوادر طالبان، يجد فيها تفسيرًا لكل ما صدر عن الحركة من سلوك وممارسات بدءًا من الغيرة التي حركت الملا محمد عمر وبعض أصحابه في عام ٩٤، الذين قرروا تحدي ومقاومة مفاسد ومظالم ممثلي الأحزاب الجهادية حين بسطوا نفوذهم على الولاية وأداروها لحسابهم الخاص، وإلى أن تحدوا الأحزاب الإسلامية المحاربة وشقوا طريقهم إلى كابول في سنة ٩٦، وانتهاء بتحديهم للإدارة الأمريكية، ورفضهم الانصياع لمطلب تسليم أسامة بن لادن.

لست من أنصار الادعاء الذي يردده كثيرون مروجين فيه لفكرة أن طالبان صناعة باكستانية أو أمريكية، وهو ما أعتبره نوعًا من التبسيط المخل، الذي يتجاهل خرائط الواقع بمقتضياتها واستجاباتها، التي فرضت ظهور فئة ثالثة تخلص البلاد من الاقتتال بين حزبي حكمتيار ورباني، لكنني أفهم وأعلم أن طالبان حين ظهرت في الأفق، وخرجت من رحم الواقع الأفغاني البائس، تحركت المخابرات الباكستانية بسرعة ومدت جسورها معها. حتى شجعتها على مواصلة مسيرتها إلى كابول، بعدما أدركت أن الحكومة المهيمنة آنذاك التي رجحت فيها كفة «الطاجيك» لا تكن لها ودًا، الأمرالذي يتعارض مع مصالحها ويعوق تطلعاتها إلى وسط آسيا، من ثم فإنها وجدت في طالبان طرفًا بشتونيًا مقبولاً من الرأي العام، الذي يجل كثيرًا المولويين والملالي، واعتبرته مؤهلاً أكثر من غيره - في ظروف ذلك الوقت - للتحالف معه، ومن ثم لتأمين المصالح الاستراتيجية الباكستانية.

وإذا كانت المخابرات الباكستانية في ذلك على اتصال مع المخابرات الأمريكية، وهو الاتصال الوثيق تاريخيًا، والذي تعزز أكثر أثناء مقاومة الاحتلال السوفيتي لأفغانستان: فهو عنصر يحسب على الطرف الباكستاني وينبغي ألا يحمل على مواقف حركة طالبان أو يحسب عليها.

[٦]

يوشك ذلك كله أن يتحول إلى تاريخ الآن، ذلك أننا نعيش هذه الأيام لحظات إنزال الستار على حكم طالبان ونظامها، وهناك إعداد في عواصم عدة، أوروبية وآسيوية، إعدادًا لرفع الستار على فصل جديد في «الدراما» الأفغانية، تغيب فيه طالبان عن المسرح، كليًا أو جزئيًا، وأحسب أننا لن نستبق كثيرًا إذا قلنا أن العنوان المقرر حتى الآن لفصل جديد هو: ما بعد طالبان.

لا يستقيم الحديث عن ذلك الفصل قبل أن نستكشف «جغرافية» الساحات والأطراف المرشحة للمساهمة في تشكيل ذلك الطور الجديد، بدءاً بتركيبة المجتمع الأفغاني وقواه الفاعلة، ومروراً بالخريطة الداخلية لحركة طالبان ذاتها، وانتهاء بمواقف القوى الإقليمية والدولية المعنية بمستقبل أفغانستان.

مسرح الحدث هو الساحة الأفغانية بتركيبتها البشرية الفريدة والمعقدة، التي أسهم الموقع الجغرافي للبلد في تشكيلها، فموقع أفغانستان في وسط آسيا حولها من الناحية العملية إلى معبر يمر به القادمون من شرق القارة إلى غربها، أو من شمالها إلى جنوبها (والعكس)، وأولى بذلك الجيران بطبيعة الحال. لذلك تعددت بصمات هؤلاء جميعاً في

الهيكل البشرى الجغرافى للمجتمع الأفغانى

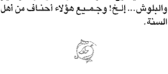
م	العرقية	حجم التواجد وأماكنه	الديانة	اللغة	معلومات أخرى
١	البشتون «الباتان»	٤٠٪ ـ ٦٠٪ من السكان يتركزون في الجنوب الشرقي على الحدود مع باكستان التي يوجد بها النصف الأخر للبشتون.	مسلمون سنة وأحناف عدا قبيلة «توري» فهم شيعة.	البشتو.	أكبر وأقوى تجمع عرقي في أفغانستان. وهم يسيطرون على معظم المناصب العليا في الحكومة والجيش منذ نشأة أفغانستان وحتى الآن.
٢	التاجيك	٢٥٪ ـ ٣٠٪ من السكان يتركزون في الشمال الشرقي.	مسلمون سنة أحناف. وبعضهم إسماعيلية في الشمال خاصة.	الداري (لهجة فارسية).	التجمع العرقي الثاني في أفغانستان ويعيش الكثير منهم في المدن. وهم تجار وحرفيون مهرة.
٣	الفارسوان	٥.٢٪ من السكان يعيشون بالقرب من الحدود الإيرانية وفي قندهار وغزني ومدن أخرى في الجنوب والغرب.	شيعة إمامية.	الداري.	زراعيون بالدرجة الأولى. ويقدمون خطأ على أنهم تاجيك.
٤	القزلباش	١.٣٪ من السكان مبعثرون في مدن أفغانستان.	شيعة إمامية.	الداري.	من أكثر الجماعات ثقافة في أفغانستان ويشغلون مناصب بيروقراطية وعلمية هامة. ويستخدمون التقية للوصول إلى ذلك.
٥	الهزارا	٣.٢٪ ـ ٦.٦٪ من السكان يتركزون في قلب المنطقة الوسطى.	شيعة إمامية وإسماعيلية، وقليل من السنة.	الداري.	يتحكمون في ممرات هامة عبر جبال الهندوكوش.
٦	الايماق	٥.٣٪ من السكان يتركزون في الجزء الغربي من المرتفعات الوسطى.	سنيون أحناف.	الداري مع كثير من التركية.	ــــــ
٧	المغول	بضعة آلاف يتركزون في ولاية غور، وينتشر بعضهم في وسط وشمال أفغانستان.	سنيون أحناف.	الداري مع كثير من المنغولية.	ــــــ
٨	الأوزبك	٦.٦ من السكان، يتركزون في شمال أفغانستان.	سنيون أحناف	الأوزبكية والتركية.	معظمهم زراعيون.
٩	التركمان	١.٣٪ من السكان، يتركزون في شمال أفغانستان.	سنيون أحناف.	التركية.	ــــــ
١٠	القرغيز	عدة آلاف، يتركزون في جبال البامير الافغانية.	سنيون أحناف.	التركية الكبشاكية.	لهم امتداد في الاتحاد السوفيتي والصين.
١١	الباميرى	عدة آلاف يعيشون أساسا في واخان بولاية بدخشان.	سنيون أحناف، إسماعيلية.	باميرية متنوعة، ولغة شرق إيران.	فلاحون جبليون.
١٢	البلوش	٠.٦٪ من السكان، يتركزون في الجنوب الغربي حول منخفض «سستان».	سنيون أحناف.	البلوشية	أغلبهم رعاة، وهم امتداد لبلوش باكستان.
١٣	البراهي	١.٣٪ من السكان، يتركزون في الجنوب الغربي.	سنيون أحناف.	البراهية، البلوشية، البشتو.	أجراء زراعيون ورعويون.
١٤	النورستانيون	٠.٦٪ من السكان، يتجمعون في أقصى الشرق الأوسط لافغانستان وتعرف منطقتهم بنورستان.	سنيون أحناف، وأهل الحديث.	النورستانية.	دخلوا الإسلام بعد أن فتح بلادهم الأمير عبد الرحمن خان في عام ١٨٩٦م.
١٥	الكوهستانيون	مجموعة لغوية متميزة تعيش على الحواف الجنوبية لنورستان	سنيون أحناف.	الداري، والبشتو.	ــــــ
١٦	الكوجار	يعيشون على الحواف الشرقية لنور ستان.	سنيون أحناف.	الهندوستانية والبشتو.	رعاة ماشية وفلاحون.
١٧	الجات	ــــــ	سنيون أحناف.	الهندوستانية والبشتو والفارسي.	يدعى الكثيرون منهم النسب العربي.
١٨	العرب	موزعون في أنحاء أفغانستان لا سيما في الشمال، وهم قليلون جدا.	سنيون أحناف.	الدارية والبشتو وبعض العربية.	يشتهرون باسم «السيد» لنسبهم القرشي.
١٩	الهنود	٠.١٪ من السكان، مبعثرون في المدن كتجار ومرابين.	الهندوسية.	هندوستانية، بنجابي، بشتو، داري.	ــــــ
٢٠	السيخ	٠.٦٪ من السكان، مبعثرون في المدن كتجار ومرابين.	السيخية.	بنجابي، لاهندا، بشتو، داري.	ــــــ
٢١	اليهود	عدة آلاف يعيشون في كابول وقندهار وهيرات.	اليهودية.	بشتو، داري، عبري.	تجار ومرابون. ذهب عدة مئات منهم إلى «إسرائيل» ولكن معظمهم عاد ثانية.

المصدر: كتاب طالبان. من حلم الملا إلى إمارة المؤمنين. مولوي حفيظ الله حقاني. من إصدارات معهد الدراسات السياسية بإسلام أباد. باكستان.

أفغانستان، حتى اجتمعت فيها حوالي ٢٠ مجموعة عرقية أهمها: البشتون والطاجيك الذين يشكلون ٧٠٪ من السكان، والبشتون (٤٥٪) يتركزون في النصف الجنوبي والجنوبي الشرقي المتاخم لباكستان، التي يوجد على حدودها النصف الآخر للبشتون المعروفين بقبائل «الباتان». والطاجيك يتركزون في الجزء الشمالي الشرقي، وإلى حد كبير فإنهم يعدون امتداداً لقبائل جمهورية طاجسكتان المجاورة. ولغة الأولين هي «البشتو»، والآخرين هي «الداري»، التي تعد إحدى اللهجات الفارسية، والاثنتان تكتبان بالحروف العربية.

البشتون والطاجيك من أهل السنة الأحناف، ويعد الشيعة الفئة الثالثة في البلاد حيث يمثلون حوالي ١٣٪ من السكان، ولغتهم هي «الداري»، ويتوزعون على أعراق ثلاثة هي: «الهزارا»، و«القزلباشي» و«الفارسوان»، وهم منتشرون في المناطق الحدودية المتاخمة لإيران.

بعد الشيعة الاثنى عشرية. يأتي الأوزبك (٦,٦٪) الذين يتمركزون في المناطق الشمالية، بجوار الحدود على أوزبكستان. وفي بقية القائمة يندرج التركمان والمغول والقرغيز والبلوش... إلخ! وجميع هؤلاء أحناف من أهل السنة.

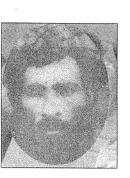


ورغم أن حركة طالبان عملت على تطعيم قيادتها بعناصر من الأقليات الأخرى، فعينت في الحكومة وزيرين من الطاجيك والأوزبك، إلا أنها ظلت حركة بشتونية في سَمْتها العام، وقندهارية إن شئت الدقة. أما التحالف الشمالي الذي وقف في صف المعارضة، وتشكل في أعقاب دخول طالبان إلى كابول في عام ٩٦، فيبدو وكأنه تحالف للأقليات الرئيسية، رغم وجود بعض عناصر من البشتون على هامشه (في المقدمة منهم قلب الدين حكمتيار وعبدالرسول سياف)، إذ أنه يتكون أساساً من عناصر وقيادات طاجيكية وأوزبكية وشيعية، ومؤيدو الدول المجاورة، التي تعتبر أن تلك القيادات تمثل امتدادات لها، عرقية أو مذهبية، لذلك فربما جاز لنا أن نقول أن التحالف يستند في قوته واستمراره إلى الدعم الخارجي بأكثر من اعتماده على التأييد والدعم الداخليين.

[٧]

حركة طالبان لها واقع مغاير، فهي متجانسة عرقياً وفكرياً،، وقاعدتها العريضة في الداخل، حيث يمثل البشتون الأغلبية التي سبقت الإشارة إليها، فضلاً عن أن لهم عمقهم الممتد إلى قبائل «الباتان» في شمال باكستان، غير أن القندهاريين - من دون كل البشتون - يمثلون العمود الفقري للحركة، على مستوى القيادة والقاعدة. وبذلك فإنهم يحظون - نسبياً - بالتفاف وتأييد في ولايات الجنوب الغربي أكبر من الجنوب الشرقي، رغم أنها جميعاً ولايات بشتونية.

وإذا ما اقترب المرء أكثر من تضاريس وقسمات الحركة، يجد في داخلها مستويين من التمايز، الأول تمايز قبائلي، لأن القندهاريين موزعون على قبيلتين



لن تغـيـيب طالبــان عـن الســاحة إلا فى حالة واحدة، إذا أختفى الملا محمد عمر من المسرح، (قتل فى غارة مثلاً)، لأنه الآن يمثل الخيط الوحيــد الذى يربط بين حبات الحركة. وبعد وفاة الملا محمد ربانى. لم يعــد وراءه رجــل ثان يلتف عليــه الإجمـــاع. وأغلب أعوانه الحاليين كانوا ـ كما أشرنا قبـلاً ـ ناشطين وقادة ميدانيين فى أحزاب أخرى

رئيسيتين كانتا متنافستين ومتصارعتين تاريخياً، هما: «غلزائى» التى ينتمى إليها الملا محمد عمر، وقبيلة «إبدالى» التى كان ينتمى إليها رئيس وزرائه المتوفى الملا محمد ربانى، وهذا التنافس بين القبيلتين، يمكن إحياؤه من جانب أى طرف له مصلحة فى ذلك.

الثانى تمايز فكرى، بين تيار متشدد يمثله الملا محمد عمر والملا أمير خان متقى وزير التعليم، وتيار آخر منفتح ومعتدل يمثله اثنان من رجال الصف الأول هما مولوى جلال الدين حقانى القائد العسكرى المعروف، الذى عين مؤخراً قائداً عاماً لجيش طالبان، إضافة إلى كونه وزيراً لشئون القبائل، وله دوره المهم فى حشد تأييد القبائل البشتونية وراء الحركة. ثم مولوى عبدالكبير حاكم مدينة جلال آباد، وهو شخصية مستقلة نسبياً عن الملا عمر، وله علاقاته الخاصة مع الحكومة الباكستانية وجهاز مخابراتها، وهو الذى اقترح من قبل تسليم بن لادن ومحاكمته فى دولة ثالثة. فى حين كان الرأى الرسمى يدعو إلى محاكمته داخل أفغانستان طبقاً للشريعة الإسلامية فى حالة تقديم أدلة اتهامه.

فى هذا الصدد، لا تفوتنا ملاحظة أن الرجلين حقانى وعبدالكبير، ينتميان إلى ولايات الجنوب الشرقى، التى تستشعر أن حصتها فى حكومة طالبان أقل مما استأثر به أبناء ولايات الجنوب الغربى، من القندهاريين وأحزابهم.

يتردد اسم وزير الخارجية الملا وكيل أحمد متوكل بين العناصر المعتدلة. وهو مالا أستبعده خصوصاً أن موقعه الراهن يوفر له فرصة أفضل للاطلاع على العالم الخارجى وتطوير موقفه، وهو الذى كان مقرباً من «أمير المؤمنين» ومسئولاً عن مكتبه، ومستشاراً له فى ذات الوقت، وقد ساعده على الاقتراب من الدائرة الخاصة للملا عمر، كونه قندهارى الأصل، وأنه ابن أحد العلماء الذين استشهدوا إبان الاحتلال السوفيتى وهو الشيخ المحدث عبدالغفار.



[٨]

لا تكتمل صورة خلفية المشهد، مالم نطل أيضاً على مواقف لأطراف أخرى معنية بالشأن الأفغانى، الذى أصبح يهم عدة دول أخرى فى المنطقة وخارجها، وتلك الدول حريصة على أن يكون لها دور فى وضع خرائط ما بعد طالبان، لأن الوضع المستجد من شأنه أن يؤثر على مصالحها، بدرجة أو أخرى، هذه الدول هى:

* باكستان، وهى الجارة صاحبة المصلحة الأولى، التى تشترك مع أفغانستان فى حدود ومصالح تتجاوز حصة أية دولة أخرى، إذ تمتد تلك الحدود بطول ٢٤٦٦ كيلومترا، وبسبب الجوار، والتداخل الجغرافى والعرقى، والأهمية الاستراتيجية التى تمثلها أفغانستان كبداية لباكستان إلى وسط آسيا، فإنه يصعب ترتيب أى وضع سياسى لمستقبل أفغانستان دون أن تكون باكستان شريكة فيه، أو راضية عنه.

* إيران، التى لها حدود مشتركة مع أفغانستان بطول ٨٤٩ كيلومترا، فضلاً عن وجود نسبة معتبرة من الشيعة فى الولايات الأفغانية الممتدة على الحدود، ثم إنها الدولة التى تدفع منذ عشرين عامًا ـ مع باكستان ـ ثمن عدم الاستقرار فى أفغانستان حيث يتدفق عليها اللاجئون مع كل أزمة تمر بها البلاد، ولديها الآن أكثر من مليون لاجئ أفغانى، لذلك فإنها تطالب بأن يكون لها دور فى رسم مستقبل أفغانستان، وقد أعلنت على لسان وزير خارجيتها كمال خرازى رفضها مشاركة حركة طالبان فى أية حكومة مستجدة فى كابول، كما أنها عبرت عن قلقها من الوجود الأمريكى فى وسط آسيا وراء ظهرها، وبالقرب من الاحتمالات النفطية الكبيرة فى بحر قزوين.

* روسيا الاتحادية، التى تعتبر أن ما يجرى فى أفغانستان يمكن أن يؤثر على أوضاع المسلمين فى داخلها، وكثيراً ما اتهمت حركة طالبان بأنها على صلة بالتمرد ودعوات الانفصال فى الشيشان، ثم إنها تعتبر أن الوضع فى أفغانستان له تأثيره المباشر على أوضاع الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى، التى لاتزال موسكو تعتبرها مجالها الحيوى و«حديقتها الخلفية». ومعروف أن الروس لا يزالون يحتفظون بقوات عسكرية لهم فى تلك الجمهوريات.

* الهند، هى إحدى الدول التى دعمت قوات التحالف الشمالى المعارض، وكان لها يدفى تأييد وتقوية موقف الجناح الممثل للطاجيك، ويمثله الرئيس السابق برهان الدين ربانى، الذى لم يكن ـ ومعه القائد الراحل أحمد شاه مسعود ـ على وفاق مع باكستان. ويهمها الوضع الأفغانى من حيث إنه يمكن أن يكون مصدرًا للضغط على باكستان، بمثل ما أن باكستان تستخدم كشمير كورقة للضغط على الهند.

* الصين، لها حدودها المتواضعة مع أفغانستان (٧١ كم)، وربما اهتمت بالوضع الأفغانى من زاوية احتمال تأثيره بالإيجاب أو السلب على موقف مسلمى تركستان الشرقية (مقاطعة ـ سينكيانج الصينية حاليًا) البالغ عددهم حوالى ١٣ مليون نسمة، يتطلعون إلى الاستقلال، ويتحينون كل فرصة مواتية للتعبير عن مشاعرهم.

* الولايات المتحدة الأمريكية، التى غاية مايهمها فى أى وضع أفغانى أمران: ألا يكون مصدرًا للإضرار بمصالحها، وأن يوقف زراعة الأفيون الذى يصل بعضه إلى الولايات المتحدة فى نهاية المطاف. ولا يستبعد أن تتخذ واشنطون من الوضع الأفغانى ذريعة للبقاء فى وسط آسيا، قريبًا من الثروات الكبيرة فى المنطقة، ومن بينها نفط بحر قزوين وحقوق الغاز فى تركستان والمعلومات المتاحة تشير إلى أن الولايات المتحدة عازمة على البقاء لفترة غير قصيرة فى أوزبكستان.

الهند لها تحفظاتها على أن يكون لباكستان اليد الطولى فى تقرير مستقبل أفغانستان، ثم إن إيران ترى لنفسها حقا مساويًا لباكستان فى هذا الصدد، علمًا بأن البلدين كانا يقفان على طرفى نقيض، من حيث إن باكستان ظلت مؤيدة لطالبان، بينما وقفت إيران فى صف دعم المعارضة الشمالية. فى الوقت ذاته فإن باكستان ليست على علاقات ود مع الرموز الطاجيكية والأوزبكية التى تقود التحالف الشمالى فضلاً عن ذلك فلها هواجسها إزاء عودة الملك ظاهر شاه الذى اعتبر أثناء حكمه أن باكستان مغتصبة لأرض بشتونستان، ورفض الاعتراف بها.

وإذا كانت الولايات المتحدة تراهن على دور رئيسى لباكستان فى ترتيب مستقبل أفغانستان، كما تراهن على قوات التحالف الشمالى، لكى تكون القوة الضاربة على الأرض ـ أو واجهة تلك القوة إن شئت ـ فإن ظروف هذا التحالف ليست أقل تعقيدًا من ملابسات الدور الباكستانى، كيف؟ «لأن شيئا واحدا يجمع بين عناصر ذلك التحالف، هو معارضتهم لحكم طالبان وانفرادهم بالسلطة. فيما عدا ذلك فهم مختلفون فى كل شيء تقريبًا. مختلفون عرقيًا، فبينهم البشتون الطاجيك والأوزبك والشيعة الهزارة، ومختلفون كأحناف متعصبين وشيعة اثنى عشرية. ومختلفون فى الموقف من باكستان. فربانى متحفظ إزاءها، وحكمتيار وسياف مقبولان لديها، والأوزبك والشيعة يعارضون دورها. ومختلفون حول الموقف من الملك ظاهر شاه. بين محبذين لعودته ومعارضين لدوره. كما أنهم مختلفون إزاء التدخل الأمريكى بين مؤيد له ومعارض (حكمتيار قال إنه إذا دخلت القوات الأمريكية أفغانستان، فسوف يحارب فى صف طالبان، وربانى وسياف لا يثقان فى نوايا الإدارة الأمريكية).

من ناحية أخرى، فإن قوات الراحل أحمد شاه مسعود، (١٥ ألف مقاتل أغلبهم من الطاجيك، وتمثل العمود الفقرى للمعارضة) هذه القوات التى يقودها الآن الجنرال «فهيم»، ومعهم قيادات حزب الرئيس السابق ربانى، يتخوفون من أن تكون أوزبكستان بتعاونها مع واشنطن فى الحملة العسكرية لها هدف آخر أبعد. إذ يشك فى أنها تريد أن يبسط الجنرال الأمريكى عبد الرشيد دوستم على المعادلة الأفغانية. كما أنهم يتخوفون من أن يكون قادة ميدانيين مثل إسماعيل خان فى الغرب، والقائد عبد الحق فى الشرق، وغيرهما من القادة، قد يقومون بصفقات جانبية بعيدًا عنهم لصالح آخرين، مثل الملك ظاهر شاه. وبوجه عام، فإن القوى الإسلامية فى تحالف الشمال تنظر بعين الشك إلى «دوستم»، وتعتبره رجلاً انتهازيا ومتقلبا، صنعه السوفييت ونعتبره على رأس ميليشيا أوزبكية لضرب المجاهدين، ثم دخل بعد ذلك فى تحالفات ومعارك عديدة معهم.

هذه الملابسات تشكل نموذجًا للخلفية التى تكمن وراء المساحة التى تبذل لترتيب المستقبل فى أفغانستان، وتسلط الضوء على مدى وعورة الطريق إلى ذلك المستقبل.

[٩]

لن تغيب طالبان عن الساحة إلا فى حالة واحدة، إذا أختفى الملا محمد عمر من المسرح، (قتل فى غارة مثلاً)، لأنه الآن يمثل الخيط الوحيد الذى يربط بين حبات الحركة. وبعد وفاة الملا محمد ربانى. لم يعد وراءه رجل ثان يلتف عليه الإجماع. وأغلب أعوانه الحاليين كانوا ـ كما أشرنا قبلاً ـ ناشطين وقادة ميدانيين فى أحزاب أخرى مازالت قائمة (الحزب الإسلامى الذى يقوده المولوى محمد يونس خالص، وحركة الانقلاب الإسلامى بقيادة المولوى محمد نبى). إذا أختفى الملا عمر، فسوف ينفرط العقد، وسيشحب دور طالبان على نحو تدريجى، الأمر الذى سيخرجها فى الوقت نفسه من المعادلة الأفغانية.

أما إذا كتبت له النجاة، فقد ذكرت أن طالبان ستتحول فى الأغلب إلى حركة جهادية، مستفيدة من كوادرها وفى الالتفاف المتوقع حولها، سواء من جانب الذين استفزتهم

الغارات الأمريكية، أو من جانب القبائل البشتونية التى تعتبر أن الانتصار لطالبان هو تثبيت لقدم البشتون «الحكام التاريخيون لأفغانستان» فى مواجهة الأعراق الأخرى القادمة من الشمال مدعومة بالقوى الأجنبية [لاحظ أن عشرات الآلاف من البشتونن المقيمين فى باكستان احتشدوا على الحدود وقرروا العبور عنوة للحرب مع طالبان].

أغلب الظن أن قادة طالبان الذين يفكرون على ذلك النحو، لايزالون متأثرين بتجربة الجهاد الأفغانى ضد الاحتلال السوفيتى فى الثمانينيات، أو على الأقل فهذا ما فهمته من الدوائر الباكستانية المتصلة بهم، واستدعاء هذه التجربة ينم عن خلل فى القياس، لا يضع فى الاعتبار جملة المتغيرات الدولية التى حدثت فى العقدين الأخيرين، فهو يلغى مثلاً أن العالم انتقل من المرحلة ثنائية القطبية إلى مرحلة القطب الواحد. وإذا كانت الولايات المتحدة قد شجعت الجهاد ضد السوفييت فى الثمانينيات، فإن الكل ضدهم الآن، وإذا كانت باكستان آنذاك عمقا لهم ومصدرًا للإمداد والتموين والتسليح ومركزًا لتجميع الأنصار، فإن ذلك الباب أغلق الآن تماماً، ثم إن القتال ضد السوفييت إذا كان قد لقى إجماعًا بحسبانه «جهاداً»، فإن التكييف الشرعى للقتال ضد أى حكومة أفغانية أخرى لن يحظى بغطاء من ذلك القبيل.

فى كل الأحوال فإن حركة طالبان، فى حالة استمرار وجود الملا عمر، ستظل طرفًا لا يمكن تجاهله لضمان الاستقرار فى أفغانستان. وإذا استثنينا موقف إيران الرافض لأى دور للحركة فى الحكومة المقبلة، فإن أغلب الأطراف الأخرى تميل إلى إشراك بعض رموز الحركة فى تلك الحكومة، باستخدام ورقة التنافس بين القبيلتين الكبيرتين فى قندهار (غلزائى وإبدالى)، أو ورقة المعتدلين والمتشددين، أو بشتون الجنوب الشرقى المهمشين نسبيًا فى مواجهة بشتون القندهاريين فى الجنوب الغربى.

هذا اللعب على التمايزات يفترض أنه يستهدف شق الحركة وإقصاء الملا محمد عمر، وهو الدور الذى يمكن أن تقوم به ـ دون غيرها ـ المخابرات الباكستانية وثيقة الصلة ببعض قيادات طالبان، ولا نستبعد أن تستخدم الولايات المتحدة أو باكستان الإغراءات المالية لإحداث ذلك الشق، عن طريق استقطاب بعض زعماء القبائل، وربما أيضاً بعض عناصر الحركة ذاتها.

[١٠]

الفرض الأساسى الذى نحن بصدده أن ثمة حكومة أخرى غير طالبان سوف تتشكل فى كابول، لكى تملأ الفراغ الناشئ عن غيابها ولو بصفة مؤقتة، والخيارات المطروحة لتشكيل تلك الحكومة ثلاثة: أن تكون برئاسة الملك ظاهر شاه، وبمشاركة قادة التحالف الشمالى ـ أو أن تكون من قادة ذلك التحالف يتقدمهم الرئيس السابق برهان الدين ربانى، مستبعداً منها الملك ظاهر شاه ـ أو أن تكون بمشاركة الجميع الملك والتحالف وجناح من طالبان.

عودة الملك مرغوب فيها أمريكياً وأوروبياً بالدرجة الأولى. لكن الطريق ليس مفتوحاً ولا ممهداً أمامها تماماً، فالملك سيعود رمزاً وواجهة فقط، ولن يحكم بسبب ضعف صحته (عمره ٨٦ عاماً) وإنما الذى سيدير الأمور هو ابنه ومستشاروه، ثم إن باكستان ليست متحمسة له للسبب الذى ذكرناه، كما أن ربانى وفريقه ليسوا مرحبين به، وحجتهم فى ذلك أنهم لم يناضلوا ويصمدوا طيلة السنوات التى خلت، لكى يسلموا السلطة فى النهاية إلى الملك القابع فى المنفى منذ عام ٧٣.




تشكيل حكومة من قادة التحالف لا يخلو بدوره من محاذير، فالتناقضات شديدة بين فصائل التحالف، ثم إن الدور البارز للطاجيك فيه لابد أن يثير قلق البشتون، الذين سيكونون أقلية فى ذلك الوضع الجديد. ثم إن هناك حساسية لا يمكن تجاهلها من جانب باكستان إزاء وجود الطاجيك فى حكومة كابول، وليس معروفاً فى هذه الحالة كيف سيتصرف الأوزبك الذين ظلوا يعملون مستقلين عن قوات التحالف التى أنشأها القائد الراحل أحمد شاه مسعود.

يبدو الخيار الثالث أكثر قبولاً، من حيث إنه يضمن على رأس الدولة حاكما بشتونيا وإلى جواره حكومة من قادة التحالف وعناصر من طالبان. وهو حل قد يرتضيه الجميع، باستثناء إيران المعترضة على اشتراك طالبان، والهند التى لن تخفى امتعاضها من تشكيل حكومة تلقى قبولا من باكستان.

فى التقاليد الأفغانية المستقرة منذ ٢٥٠ سنة على الأقل أن أموراً مصيرية من هذا القبيل يحسمها «اللويا جيركا» وهو أشبه بالبرلمان الذى يجتمع فيه ممثلو الأمة، من زعماء القبائل والأعراق والعلماء، وثمة جهود تبذل الآن بين الأطراف الأفغانية المختلفة لتوفير قدر من الإجماع حول تصورات المستقبل وصيغة «مابعد طالبان»، أبرزها ذلك المؤتمر الذى عقد فى بيشاور فى الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر تحت عنوان «السلام والوحدة الوطنية». ولوحظ أن الوفد الذى يمثل الملك لم يشترك فيه، ربما لأن المؤتمر كان تحت رعاية باكستانية. وهناك مؤتمر آخر مماثل يعد له فى أنقرة، قيل إن ممثلى التحالف وممثلى الملك سيشاركون فيه. وقد رحبت به تركيا، المعنية بالموضوع، باعتبار أنها تصنف جمهوريات وسط آسيا ضمن «العالم التركى». ولأن الأمر ليس يسيرا، بسبب التناقضات التى ذكرناها، فأغلب الظن أن ذلك الإجماع المنشود لن يتحقق فى وقت قريب، وأن الظروف ليست مهيأة بعد لانعقاد «اللويا جيركا». الأمر الذى لا يستبعد معه أن تغرق أفغانستان فى بحر من الفوضى لبعض الوقت، وهو المصير الذى ستحاول تجنبه أطراف عدة، باكستان فى مقدمتها.

ولأننا تعلمنا أنه لا توجد فى السياسة عامة كلمة «أخيرة» أو «وحيدة»، فينبغى ألا نسقط من الاعتبار مسار الحملة العسكرية الأمريكية الراهنة ونتائجها، وضغوط الرأى العام العالمى التى تتزايد بمضى الوقت رافضة لاستمرارها، لأن ذلك المسار سوف يؤثر بالضرورة على مواقف وحسابات مختلف الأطراف.

لننتظر إذن لكى نقف على نهاية الفيلم. ونعرف ما مصير الملا عمر وطالبان وأسامة بن لادن ومنظمة القاعدة، ثم ما الذى تبقى من أفغانستان ومن الأمريكان على الأرض. ■

كتاب الزاوية

الزراعة فى بلاد الأفغان

إن البلاد الأفغانية لاختلاف أبعادها عن خط الاستواء ووجود الجبال العالية والأودية المنخفضة فيها تختلف أهويتها حرارة وبرودة على حسب المواقع ولتغير بتغير الفصول والأزمان ولكنها جيدة للصحة خلوها عن العفونة والفساد وقلَّ ما تقع فيها الأمراض الناشئة عن فساد الهواء كالأمراض الوبائية . وبيوت المدن والقرى طبقة واحدة مبنية غالباً باللَّبِن خالية عن الزخرفة والزينة إلا مدينة كابل فإن جل أبنيتها بالأخشاب والأحجار وقد يوجد فى بعضها حدائق وجداول وحياض . وشوارعها وأزقتها ضيقة معوجة خلا شوارع مدينة قندهار فإنها واسعة مستقيمة . والجوامع المشيدة المزخرفة التى كانت فى تلك البلاد فى الأزمنة السالفة صارت بسبب توالى هجمات الأعداء ودوام المحاربات خاوية على عروشها إلا القليل منها .

وأراضى الأفغان قابلة لأنواع المزروعات ترويها أنهر ونهيرات ولكن لكثرة الفتن وعدم مهارة الأهالى فى فنون الزراعة وإحكام الجسور وحفر الترع وبناء القناطر تكون غالب الأراضى المرملة بلا انتفاع تعتدُّ به . ومع ذلك فالأهالى يزرعون البر والشعير والأرز والذرة والدخن والباقلة والحمص والبقول والخضروات وغيرها مما تقوم به معيشتهم ولا يهملون زرع قليل من القطن والتنباك والأفيون والحشيشة للتجارة ويسعون بقدر طاقتهم إلى غرس الأشجار وتربيتها كالكرم والخوخ والمشمش والكمثرى والتفاح والسفرجل والرومّان والجوز واللوز والعناب والفستق والتوت وغيرها ، وأهالى هرات يربون دود القز . ويزرع فى جلال آباد قصب السكر .





يوسف القعيد

السؤال قادني إلى رحلة، عرفت نقطة البدء فيها ولم أتمكن حتى الآن من الوصول إلى كلمة ختامها. تساءلت عن الأدب الأفغاني وموقعه من الكتابات المصرية والعربية. دراسة وتحليلاً وترجمة. كنت أتصور أنني ساجد نفسي إزاء زحام كتابات. توفر لي إمكانية الاختيار. فإذا بي إزاء حالة من الندرة الشديدة. وأنها تعكس حالة عدم اهتمام عربية شاملة بأدب هذا البلد، البعيد القريب.

كيف مارسنا هذا الإهمال الشديد، الذي يصل إلى حدود الجريمة مع بلد أتى منه جمال الدين الأفغاني؟ ولد في قرية أسعد أباد من قرى كنر التي تبعد ثلاثة أيام عن كابول. في رواية أنه ولد سنة ١٨٣٨ وفي رواية أخرى ولد في السنة التالية. وفي ٩ مارس ١٨٩٧ توفي الأفغاني على أثر عملية جراحية لإزالة سرطان في الفم. ودفن في نفس اليوم. دون أي مراسم في مقبرة عادية بالأستانة. وكنت أتصور أنه بلد ابن تيمية أيضاً. ولكن اتضح لي أنه ينتمي إلى بلدة اسمها حران تقع شمال غرب أفغانستان وإيران. وجنوب شرق تركيا. وشمال العراق وسوريا. وأنه ربما كان من الأكراد. هذه الفئة التي قدمت للأمة الإسلامية والعربية أفضل إبداعاتها في الأدب والشعر والعسكرية والزعامة ابتداء من العصر الوسيط وحتى الآن. ولكن تلك قضية أخرى.

كانت حالة من الشك إن جمال الدين الأفغاني خرج من أفغانستان. والدكتور محمد عمارة يصر على أنه أفغاني اسماً وفعلاً. وفهمي هويدي يذكر في كتابه «طالبان جند الله في المعركة الغلط» أن ضريح السيد جمال الدين الأفغاني في حرم جامعة كابول لم يدمر تماماً وإنما أصابته قذيفة أطاحت بجزء منه.

ومهما كان الخلاف والاختلاف المثير حول الرجل ودوره. وشخصيته وتاريخه ومولده ونشأته ومذهبه ومراحل حياته. وظروف وفاته وأفكاره الدينية وعقيدته وإيمانه. إلا أن أثره في العالم الإسلامي من أفغانستان إلى إيران ومصر والامبراطورية العثمانية. لا يمكن إنكاره أو التقليل من قيمته.

إلا أن البلد الذي انحدر منه لم يقابل منا سوى بالإهمال. قال لي الدكتور حسين مجيب المصري. أن السبب في ذلك هو حداثة الدولة الأفغانية. وأن أدبها المكتوب موزع بين أكثر من لغة. فهناك كتابات أدبية أفغانية ولكنها مكتوبة بالفارسية مثلاً. وكثير من المؤرخين تعاملوا مع تراث البلد الفكري باعتباره جزءاً من التراث الفارسي، أو جزءاً من تراث شبه القارة الهندية. ولهذا - أكد لي - لن تجد ما تبحث عنه أبداً.

الموسوعة الإسلامية تقول إن البلاد المعروفة الآن باسم أفغانستان لم تحمل هذا الاسم إلا منذ أواسط القرن الثامن عشر عندما تدعم الجنس الأفغاني. وكانت المقاطعات المختلفة تحمل قبل ذلك أسماء مختلفة. ولم تكن للمملكة وحدة سياسية محددة. ولا الأقسام التي تتألف منها مربوطاً بعضها ببعض بأي رباط جنسي أو لغوي. وكان معنى اسمها قديماً بلاد الأفغان. وبعد أبواب عن التكوين الجيولوجي، ووصف الجبال. والأنهار والتكوين العام. والمناخ. والتقسيم السياسي والسكان والشعوب التي من أصل فارسي. والجنس التركي والمغولي. الشعوب الآرية غير الإيرانية التي تقطن جبال هندوكش. وقبل الوصول إلى ما جاء في الموسوعة عن اللغة والأدب في أفغانستان. أتوقف أمام المعلومات السابقة لأستخلص منها بعض الحقائق..

أولها: أن موقع أفغانستان أكثر من استراتيجي وأكبر من مهم. فهي مفصل بين حضارات ودول. وأن هذا الموقع بقدر ما أعطاها أهمية من نوع خاص. فقد كان لعنة طاردتها عبر سنوات عمرها القليلة.

ثانيتها: أن هذه الدولة أسسها أحمد خان الأبيرالي «أحمد شاه بابا» سنة ١٧٤٧ أي أن عمرها الآن بالحساب الدقيق مائتان وأربع وخمسون سنة. وفي أعمار الشعوب فإنها سنوات قصيرة جداً. لا تمكن سكان البلد من الانصهار. لأن هذه عملية تتم عبر قرون طويلة. إن الأجناس التي تؤلف سكان أفغانستان أربعة: الأفغان. الفرس. الترك. والمغل. سكان هندوكش الآريون. وبالتالي فإن مشكلة هذا البلد تتمثل في حداثة التاريخ التي تتناقض مع صخب الجغرافيا.

ثالثتها: أن للدولة الأفغانية حدوداً مع ست دول هي: إيران وتركمانستان وطاجكستان وأوزوبكستان والصين وباكستان وإن كانت ليس لها ميناء بحري. ولا تطل على أي بحر أو محيط.

رابعتها: أن طبيعة المكان وعرة. الجبال هي العلامة الأولى. فيها جبال عالية لدرجة أنه يقال عنها سقف الكون والعالم. وجميلة لحد القول عنها سويسرا الشرق. كما قالت لي الدكتورة عفاف زيدان رئيس قسم اللغة الفارسية وآدابها بكلية بنات الأزهر. وأنها بلد يخلو من البنية التحتية التي تعتبرها في العالم الثالث من علامات الحضارة في العصر الحديث.

خامستها: أنه رغم قصر عمر الدولة فقد تعرضت لغزوتين: الأولى إنجليزية ١٨٤٠ والثانية سوفيتية ١٩٧٩ - ١٩٨٩. وكان الفشل نصيب كل منهما. فقد ذهب الغزاة وبقيت أفغانستان.

عن اللغة والأدب في أفغانستان تقول الموسوعة الإسلامية:

- إن اللغة التي يتم الكلام بها في أفغانستان هي من الشعبة الفارسية. ما عدا التركية التي تتكلم بها في إقليم جيجون قبائل «جهارايماق» ولغات الكامر في كافرستان ومن هذه اللغات الفارسية ويتكلم بها التاجيك في ولايتي كابل وهراه، وفي مدنهم الخاصة بهم في بنخشان وقوهستان. ويتكلم الفارسية أيضاً الهزارة المغل وقزل باش كابل وهراه الذين هاجروا إليها في القرن الثامن عشر وهم من القبائل التركية في شمال فارس. واللغة الفارسية المستعملة في أفغانستان قديمة وقد حافظت على خاصية المجهول والمعروف القديمة. ورغم اختفائها من الفارسية الحديثة.

واللغات الإيرانية الأخرى تنسب إلى الشعبة الإيرانية الشرقية. وتشمل الشتوت مجموعة غلجة وبركست التي تتكلم بها قبائل أرمري. والبشتو أو الأفغاني وهي لغة الأفغان وتنتشر في كل بلادهم. داخل الدولة الأفغانية الحالية وخارجها. محدودة من الشمال بلغتي كافرودرد ومن الشرق بالبنجابية الغربية أو الهندا. ومن الجنوب بالـ«بلوخي» ومن الغرب بالفارسية.

وأدب البشتو الذي استمر إلى وقتنا هذا بدأ في القرن السادس عشر وغالبه شعر وفيه بعض مؤلفات نثرية هامة ولاسيما في التاريخ مثل مخزن بشتو. ومخزن إسلام لآخون دوريزه. وتاريخ مرصع لأفضل خان خطك. وأهم الشعراء خوشحال خان زعيم الـ خطك الذي سجن مدة من الزمن في بلاط الامبراطور أورنك زيب. وميرزا خان الأنصاري الشاعر الصوفي. ومن الشعراء الشعبيين عبد الرحمن وعبد الحميد. وقد ترك كل واحد منهما ديواناً له طابع صوفي ثم عبد القادر خطك وأحمد شاه الملك الدراني الكبير. ويعتبر الأفغان عبد الرحمن أحسن شعرائهم. ولكن الرأي الأوروبي يفضل شعر خوشمال لبساطته وقوته. ويمكن القول إن الأدب الأفغاني تظهر فيه الصنعة والتقليد وما هو إلا ترديد للنماذج الفارسية.

وإلى جانب هذا الأدب هناك شعر شعبي حقيقي. لم يسترع الأنظار إلا مؤخراً. وقد جمع دار مستتر هذا الشعر فدفع عنه عادية النسيان. وهذا الشعر يعبر تعبيراً صادقاً عن عواطف الشعب الحقيقية في الحرب وفي أمور السياسة والحب. وجمع توربيرن أيضاً بعض الأغاني والأحاجي والأمثال كما نشر هول بعض أغان جياشة. وليس لواحد من هذه الأشعار الشعبية تاريخ قديم. ولا توجد أشعار حماسية عن الهجرات الكبرى وفتوحات الجنس الأفغاني. ما عدا قصيدة خاصة بأحمد شاه. وأغلب هذه القصائد يرجع تاريخها إلى القرن التاسع عشر. وليس فيها ما يوازن بالقصائد الحماسية الجميلة التي لقبائل بلوخستان. وفي لغة بشتو مؤلفات دينية كثيرة. نظماً ونثراً. وقد طبع عدد كبير من هذه المؤلفات على الحجر في بيشاور ولاهور. وليس لأغلبها قيمة أدبية كبيرة ويمكن أن يذكر منها «مير حمزة» وهي قصيدة طويلة أنشأها ميان محمد الصحاف.

بعد رحلة بحث مضنية في مكتبات القاهرة سواء العامة منها أو مكتبات الأصدقاء. عثرت على رواية منشورة من الأدب الأفغاني الحديث. ورواية أخرى مخطوطة. ومقابلة طويلة مع كاتبة أفغانية. وقد استغربت أن من يكتب الرواية في أفغانستان هن النساء برغم القيود المفروضة على المرأة الأفغانية. وقد قالت لي الدكتورة ماجدة مخلوف الأستاذ المساعد بقسم لغات الأمم الإسلامية في كلية الآداب جامعة عين شمس: إن هذا من الأمور الطبيعية أن تكتب المرأة النص الروائي. لأن الرجل متفرغ طوال سنوات طويلة للجهاد والكفاح ضد أعداء البلاد. وكتابة النص الروائي تتطلب تفرغاً شبه تام. لا يحدث للرجل وإن كان يتوفر للمرأة.

---

١ - الهجرة من أفغانستان
رواية أفغانية
تأليف: مرال معروف
ترجمة: د. محمد حرب
دمشق: دار القلم

٢ - معسكر الأرامل
رواية أفغانية
تأليف: مرال معروف
ترجمة: د. ماجدة مخلوف
مخطوط تحت النشر

مـــــــــرال مـــــــــعـــــــــروف

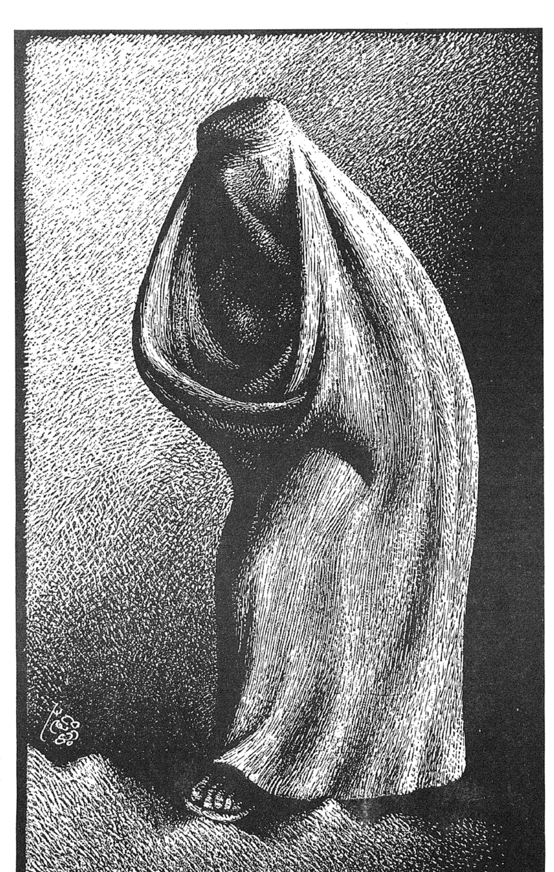
وهي مؤلفة الروايتين. ومرال معروف كما يقول الدكتور محمد حرب مترجم رواية «الهجرة من أفغانستان». ولدت في كابول عاصمة أفغانستان عام ١٩٦٠، ودرست المرحلتين الابتدائية والإعدادية في أنقرة عاصمة تركيا. عندما اشتغل والدها في الإذاعة التركية قسم الباشتو الموجه إلى أفغانستان. وتخرجت في مدرسة مستور الغوري الثانوية للبنات في ولاية لاغمان الأفغانية «وهي الولاية التي تجري فيها أحداث روايتيها» وكان تخرجها عام ١٩٧٨، وفي ذلك العام قبض النظام الشيوعي في أفغانستان على والدها، وألقى به في السجن. فكان لزاماً أن تعود أسرته إلى جارباغ موطنها الأصلي. واضطرت مرال إلى العمل في تدريس اللغة الإنجليزية للبنات في المدرسة الثانوية. وفي عام ١٩٧٩ احتل الاتحاد السوفيتي أفغانستان احتلالاً مباشراً بواسطة القوات المسلحة السوفيتية. ومع هذا الاحتلال قامت السلطات في كابول بإطلاق سراح عشرات الآلاف من المسجونين المعادين لها والذين لم تتم عملية تصفيتهم وقتلهم بعد. وذلك كنوع من الدعاية وحتى تخف معاداة الشيوعية في داخل أفغانستان. وكان من بين المطلق سراحهم والد الكاتبة مرال. أسندت الحكومة الأفغانية لوالدها منصباً. لكنه كان مراقباً في كل حركاته وسكناته بواسطة مندوب المخابرات الأفغانية. وعلى ذلك استقرت الأسرة مرة أخرى في كابول. وعملت مرال معروف معلمة للغة الإنجليزية في مدرسة فالاجا الإعدادية للبنات في كابول. وكانت في نفس الوقت تدرس كطالبة في أكاديمية المعلمين. ومن جانب آخر تستعد خفية مع أسرتها في ترتيب استعداداتهم للهجرة إلى مدينة الأنصار بيشاور. وكانت هجرة مرال معروف مع والدتها وأختها في ٢٠ ديسمبر ١٩٨٠ إلى بيشاور وهذه الهجرة تشكل التجربة الأولى التي خرجت منها الرواية.

وفي رسالة كتبتها الروائية إلى أحد معارفها سنة ١٩٨١ تقول: إن أخاها الكبير يجاهد في الداخل - أي داخل أفغانستان - وأخاها الأوسط يتدرب على أعمال الجهاد العسكرية في أحد المعسكرات على الحدود الأفغانية. وأخاها الأصغر بائع متجول في الشوارع. ورغم صغر سنه إلا أنه يقوم بدوره في الكسب من أجل الإنفاق على أسرته. ووالدها يعمل في شئون المهاجرين الأفغان. في مكتب حزب إسلامي في باكستان. وهي تعمل معلمة في المرحلة الإعدادية للبنات وعضو اتحاد النساء في حزب إسلامي لرعاية أسر المهاجرين الأفغان.

الهـجـرة من أفـغـانـسـتـان

وتحت عنوان الرواية تعريف بها على طريقة جرجي زيدان: رواية واقعية تصور هجرة النساء الأفغانيات والمسنين من أفغانستان إلى باكستان. وما عانوه في الطريق من ظلم الروس وقسوة الكفار وفظائع المرتدين وأحوال الصحراء ووعورة الجبال ومعاناة الخوف والاضطراب.

الهجرة من أفغانستان ثلاثية. الجزء الأول



المـــــرأة الأفـــــغـــــانية المعـــــاصـــــرة؟

منها عنوانه: هجرتي. والثاني: الفرار من بخارى. والثالث: هجرة منور. والراوية تستخدم في هذه الروايات الثلاثة القصيرة ضمير المتكلم «أنا» ومن الواضح أن الكاتبة تكتب نصوصها الثلاثة وهي مستندة إلى معرفة واسعة بالنص الروائي الغربي الذي اكتملت أدواته في النصف الأول من القرن العشرين. هذا رغم المحتوى الشرقي الذي تحاول أن تقدمه.

في النص الأول هجرتي: تصور الكاتبة أسرتها. اسم البطلة داخل النص مرال أيضاً. تصف هجرة أسرتها والظروف التي أحاطت بهذه الهجرة ودوافعها ومشاق الطرق وظروفها القاسية والخوف من الطريق. والإيمان بالنصر الذي سيأتي من عند الله. وهي هجرة من أفغانستان إلى بيشاور مدينة الأنصار. أما الأب والإخوة الذكور فقد بقوا لانشغالهم بالحرب الجهادية. هذه المرحلة توشك أن تكون ترجمة ذاتية للمؤلفة. فهي تتكلم في رسالة إلى أحد معارفها عن هجرتها مع أمها وأختها. ومرال بطلة الرواية تهاجر مع أمها وأختها. إذن هناك حالة من التطابق بين واقع المؤلفة. وواقع البطلة.

وهذا القسم يبدأ هكذا..

ـ كانت هذه ليلتنا الأخيرة في مدينتنا الحبيبة لاغمان كما كانت ليلتنا الأخيرة أيضاً في جارباغ قريتنا العزيزة. التي أحبها الشعب الأفغاني في أفغانستان. وكان قد جاء اليوم إلى منزلنا مجموعة من الأشخاص. لعلهم خمسة وقد يكونون ستة. كانوا من البدو الرُحّل. جاءوا لأخذنا. ذلك لأننا سنعبر الحدود متخفين في أزياء وملابس أفراد القبائل البدوية الرحل. أحضر لنا جيراننا ـ لي ولأمي ولعائشة ـ ملابس بدوية استأجروها لنا من العائلات البدوية الرحل التي يعرفونها.

وسبب الهجرة أن السلطة كانت تبحث عن عبد الحق الذي يقاومها. أعلنوا عن ستة ملايين أفغاني ـ وهي العملة الأفغانية ـ لمن يقبض عليه. وعندما فشلت المحاولة. جاء من يخبرهم أن الروس سيقبضون على عائلة عبد الحق ليجبروه على تسليم نفسه. لذلك سافرت النساء. تصف لحظة الوداع:

ـ ومع امتداد الحديث وأثناءه. كنا نجمع احتياجاتنا من ناحية. ونبكي من ناحية أخرى. ونتحدث من ناحية ثالثة. أصوات الرجال تأتي من الخارج. نعم فقد وصلت الجمال. كانت جارباغ في قبضة المجاهدين تماماً. وكان الروس ينوون الاعتداء عليها من أجل تدمير بيت عبد الحق وأخذ أسرته بجميع أفرادها أسرى لديهم. لذلك كنا مجبرين على الهجرة.

تصف عملية ركوب الجمل بالنسبة لها كامرأة. وتقرأ شعارات الكفاح ضد الاحتلال السوفيتي لأن الليلة كانت مقمرة. كانت النساء راكبات فوق الجمال والرجال يمشون فوق الجبال. يسيرون فوق الصخور الصعبة. وبعد الصخور جاء الطريق الرملي الناعم. وبعده الطريق الأسفلتي. كانوا يخافون جنود بابراك كارمل. وفي هذا دلالة على الزمان الواقعي الذي تدور فيه الأحداث. ذلك أن المؤلفة حريصة على أن تحدد الزمان والمكان الذي تجري فيه الأحداث بكل دقة. وتصل القبيلة المهاجرة إلى الجسر. حيث يوجد الروس، ومن الممكن انكشاف أمرهن. كان مع الروس ضابط أفغاني. تصفه بالعبودية للروس والأمريكان وإنجلترا والصين. العملاء مستعدون لكي يبيعوا وطنهم نظير الدولارات الأمريكية.

أحضروا لهن فتاة روسية من أجل التفتيش. ترفض البطلة وأمها وأختها أن يتم التفتيش أمام الرجال. ويذهبن إلى مكان

استغربت أن من يكتب الرواية في أفغانستان هن النساء برغم القيود المفروضة على المرأة الأفغانية. وقد قالت لي الدكتورة ماجدة مخلوف. الأستاذ المساعد بجامعة عين شمس: أن هذا من الأمور الطبيعية. لأن الرجل متفرغ طوال سنوات طويلة للجهاد.



خلف الحامية. حتى يتم التفتيش هناك. بعد أن ينتهي التفتيش. تقول الفتاة لهن: هيا اعبروا. وتصف الكاتبة عملية العبور:

ـ عبر ثلاثتنا في انفعال. أخذنا نغذ السير لكي نلحق بعمنا الذي ينتظرنا في مفترق الطريق الأسفلتي. كنا ننظر إلى الجبال المريبة التي تلف «قاما السفلي» من أربع جهات ها هو ذا مربض المجاهدين.

وتقابل في الطريق كل فئات الشعب الأفغاني:

ـ الشعب الأفغاني كله كريم مضياف. لكن البدو بالذات أكثر كرماً وضيافة.

ثم تتكلم عن النساء الأفغانيات.

ـ ملابس النسوة والفتيات تبدو جميلة. ملابس من قماش مختلف ألوانه. الوسط منها مطرز مستطيل. ملابس طويلة تمتد حتى أقدامهن. ويلبسون شالوارات من نفس القماش. أغطية رءوسهن كبيرة واسعة جداً. ومن لون الملابس نفسها. وإذا كانت الملابس منقوشة فلابد أن يكون الحجاب غير منقوش.

النساء ـ تكتب المؤلفة ـ يتعبن دائماً والرجال يرتاحون دوماً. كل الأعمال تقوم بها النساء في الدار. وجمال البدويات الأفغانيات جمال مشهور. وكم من الملاحم كتبت عن جمالهن. ويصلون إلى باكستان التي كانت البطلة تفكر فيها منذ شهور. وتتساءل: ترى هل شعبها طيب مثلها؟ وعندما تسمع اسم مدينة شينوار تصاب بالرعب. يقف شعر رأسها. كانت شينوار هي المدينة الوحيدة التي يشمئز منها كل شعب أفغانستان. فكل أهلها أعداء للمجاهدين. وتكون كندو أول مدينة باكستانية تراها. ومنها تحركت إلى بيشاور. وتختم قصتها:

ـ ها هي ذي هجرتي. لا أدري إن كانت مرة أو لطيفة. لكنها هجرة. هاجرتها وأنا أشعر بألف اضطراب واضطراب. سأصل إلى بيشاور على أن أبقى في باكستان قليلاً. وسأعرف هناك آلاف الأنصار الحقيقيين. الجماعة الإسلامية. هذا الامتداد الحقيقي لأنصار المدينة. هذه الجماعة لم تدخر وسعاً في محاولة التخفيف عنا بُعدنا عن أفغانستان.

ها هو عمي. لا أحس بالألم من أجل أنفسنا، ثقوا أننا في بعض الأيام نعيش على الطوى جوعى. لكننا نفكر فيهم. في هؤلاء المحاربين في الجبال وهم جياع وعطشى ويحاربون: هؤلاء المجاهدون الأبطال. لا يهم أن أجوع أنا. لكن المجاهد لا يبقى جائعاً. ذلك لأنه هو الذي يعمل على إحياء الإسلام. إنه هو الذي يحافظ على الأرض التي سيرفرف عليها علم الإسلام. بإذن الله عز وجل.

الفرار من بخارى

الراوي في هذه القصة هو عم مرال والكلمة الأولى في هذه القصة. هي نفسها الكلمة الأخيرة في القصة السابقة. تقول: عاد إلى أفغانستان. عمي الذي رافقنا من أفغانستان إلى باكستان عندما هاجرنا إليها. كان عمي قد اتفق وهو هناك مع مجموعة من المجاهدين تذهب إلى باكستان للحصول على السلاح.

إن هذه القصة تصور حالة المسلمين في تركستان عندما لم تتح لهم الفرصة لأن يقوموا قومة رجل واحد ضد الاحتلال الروسي. وكانت النتيجة واحدة وهي إبادة القوات الروسية للمسلمين في تركستان إبادة جماعية. مذلة. وكانت هذه الصورة يمكن أن تتغير لو كان للمسلمين هناك إمكانيات الأفغان المادية والمعنوية. فالموت في النهاية واحد لابد أن يحدث لكل البشر. لكن طريقة الإقبال على الموت تكتب الحياة لشعب واحد موحد. الحياة الكريمة في الدنيا. والخلود في الجنة الآخرة.

والمؤلفة تطبق مبادئ للقص الشرقي. وهي أنك يمكنك أن تتكلم عن واقعك بصورة أفضل عندما تدرك حال غيرك من الناس الآخرين. فإن كان أهل مرال قد قاوموا ووقفوا وقفة رجل واحد ضد الروس. فإن أهل تركستان لم يقدموا نفس الجهد في الكفاح ضد المحتلين. وأيضاً الحكاية التي تقوم على حكاية تخرج من رحم حكاية. ذلك أن عم مرال يحكي ثم يبدأ بعده مباشرة ابن إحدى القرى؛ وهو الشكل الفني الذي ستطوره الروائية في روايتها التالية لذلك. بل وتعتمد عليه بصورة جوهرية في الكتابة الروائية. إن هذه القصة التي تعد أقصر الحكايات الثلاثة تقع في أربع عشرة صفحة. في حين أن الأولى تقع في ٧٤ صفحة. والثالثة في ثمان وسبعين صفحة. وفي هذه القصة يقدم الراوي سبباً جديداً للغزو الروسي. لأن الراوي كان سعيداً في حياته. وعندما علم الدب الروسي بهذه السعادة فاعتدى على بلاده حتى يحرمه منها.

ـ وقد جعلناه من اليوم الأول يتقيأ دماً. وهانذا هنا كما ترون. أذهب إلى باكستان لكي أحصل على السلاح لشباب القرية. إنني واثق من أنني سأرى تحرير أفغانستان. وسأربي أحفادي من أجل تحرير بخارى. وستكون أفغانستان قبراً للروس ولكل شيوعيي الدنيا.

ثم تكمل الراوية.. الحكاية:

ـ نعم هذه هي الحكاية التي تمزق القلوب تمزيقاً. هذه هي الحكاية التي رواها عمي. هذه قصة هجرة أحد الذين فروا من بخارى. ترى كيف هاجر الآخرون من هناك؟ طوبى لهم. إنهم الآن يربون أولادهم على الجهاد. ويقولون. نحن هربنا دون جهاد. وكان هذا درساً لنا ولغيرنا. وإن شاء الله سيحرر أولادنا وأحفادنا بخارى والبلاد المسلمة الأخرى.

هجرة منور

ومنور هي صديقة مرال. وإن كانت مرال لم تر في حكايتها سوى كل ما هو خاص. فإن منور امتدت ببصرها إلى المشهد كله. هجرتها كانت في الشهور الأولى من سنة ١٩٨١ ميلادية. ومن مدينة جلال أباد الشهيرة. وتصف بابراك كارمل بالدمية. ومنور إحدى فتيات عائلات المجاهدين التي كان لها فضل السبق في حركة إمداد المجاهدين المحاربين في الجبال بالطعام. إن الهجرة ـ مثل الهجرات السابقة معاناة واضطراب وأمل ـ وهجرة منور قصة هجرة عائلتها أيضاً. بعد أن عرفت السلطات المحتلة أمر إقدام منور وأختها وعائلتها على خدمة المجاهدين. كانت هجرة النساء والأطفال والمسنين في هذه الأسرة. لأن الرجال مازالوا قادرين على حمل السلاح. وكانوا في الجبال يحاربون من أجل طرد الشيوعية وإحلال الإسلام في أفغانستان.

ومنور تصف مشهد الكفاح الرجالي في الجبال والطرقات ولا تنسى أن تقدم المشهد المنزلي. حيث المرأة تلعب دورها في الحرب:

ـ عدد النساء والبنات في بيتنا ـ كما هو معلوم ـ كبير للغاية. وكنا نسير على تنظيم العمل بيننا. بعضنا يغسل الغسيل. ولو كان ذلك في منتصف الليل. وبعضنا يكوي الملابس. وبعضنا يتولى شئون الأكل. ألم أتحدث عن كي الملابس؟ إنها مسألة أساسية عندنا. لأن من الضروري تجفيف الملابس حتى الصباح. حتى يمكن إعطاؤها سريعاً لهم ليرتدوها. لذلك فكي الملابس وتجفيفها يعد تنفيذاً لرغبة المجاهدين. إن الرغبة الوحيدة هي أن يستشهد الواحد منهم وملابسه نظيفة. أما أنا فقد كنت آخذ فضيلة معي ونمر على البيوت بيتاً بيتاً نطرق الأبواب لكي نجمع للمجاهدين خبزاً ونضعه في كيس كبير. ونضعه على ظهر طفل في التاسعة أو العاشرة من عمره ليذهب به إلى المجاهدين.

وتصل قوات روسيا إلى القرية. ولا يصبح هناك من مفر أمام النساء سوى السفر إلى باكستان. ولن يعدن إلا بعد تحرير أفغانستان. ويتقرر سفرهن عبر طوزخوم. وبدأن التحرك في ١٣ مايو. يرتدين ملابس البدو مثلما فعلت مرال وأختها وأمها من قبل. كانت مع منور أمها وكانت في الخامسة والأربعين. ومنور في الثالثة والعشرين وأختها فضيلة في العشرين. وكول جيهان في الثامنة والعشرين. وولدها خورشيد في السادسة من عمره ووليس في الرابعة من عمره. وباسو في السابعة والعشرين من عمرها. وابنها لم يتجاوز عشرة شهور من عمره. باسو مات والدها وهي مازالت صغيرة فأخذها والد منور وتكفل بتربيتها ثم زوجها لشاب في الخامسة والثلاثين من عمره اسمه: كولدين. وكان معهن رجل في الخامسة والستين من عمره هو دليلهن في السفر. خرجن من البيت في الصباح الباكر. واستقللن سيارات كان المجاهدون قد غنموها وإن كانت مرال قد هربت من خلال قوافل البدو فإن صديقتها تهرب بالسيارات. لأن القوافل كانت قد منعت من السير. لأنها تستخدم في التهريب وتسلك طرقاً ليست عليها عمليات حراسة وإجراءات التفتيش.

ويتعرضن للتفتيش ومنور تصف الفتاة الروسية التي قامت بتفتيشهن هكذا:

ـ فتاة شابة في العشرين من عمرها. في يدها كلاشينكوف روسي. رأسها مكشوف وعلى كتفيها غطاء منقوش. رباه. كيف لطخت هذه الفتاة نفسها بالأصباغ. وهي مازالت قد الساق. حتى أصبحت كالمهرج في السيرك؟ فاحت مع صعود الفتاة إلى السيارة رائحة العطور الأوروبية وأحمر الشفاه. كانت تفتشنا من

ناحية وتضحك مع الرجل الذى صعد معها إلى السيارة من ناحية أخرى. وهما يراقباننا. فمى مفتوح على سعته من الدهشة. وأنا أنظر إلى هذه الفتاة التى حرمت من نعمة الحياء. وإن كان الرجل الذى مع الروسية يطلب من البطلة النزول. ولكن ينقذها ضابط أفغانى مهذب ويعيدها إلى السيارة. وعندما توقفهن دورية من جديد. تهتف: يا أهل الأرض! هل تنامون؟ تعالوا وانظروا ماذا يحدث لمسلمى أفغانستان من مصائب! وما أن تنتهى من حكايتها حتى تبدأ رفيقة من رفيقات الرحلة حكايتها. وهذه مجرد حيلة فنية حتى تواصل الحكى.

وتصل إلى باكستان:

ـ والآن.. نعيش ونحيا على الخبز الجاف الذى قد لا نجده ولا نشكو من شىء قط. العكس تماماً. نفضل الموت على الحياة فى أسر الكفر. وننتظر برغبة أكثر جموحاً. ذلك اليوم الذى ترتفع فيه أصوات الانتصار وتنهى الرواية هكذا:

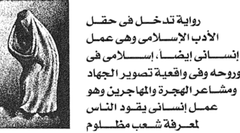
ـ والله متم نوره ولو كره الكافرون.

يقول الدكتور محمد حرب فى باب تصنيفه لهذه الرواية:

ـ رواية تدخل فى حقل الأدب الإسلامى وهى عمل إنسانى أيضاً، إسلامى فى أسلوبه وروحه وفى واقعية تصوير الجهاد ومشاعر الهجرة والمهاجرين وهو عمل إنسانى يقود الناس لمعرفة شعب مظلوم ومعرفة سمو هذا الشعب ورفعته بمحافظته على دينه وعقيدته ونظرته للكون والحياة. فأعلت العقيدة من شأن هذا الشعب الذى حارب ـ وما يزال ـ فى سبيل الله أولاً وأخيراً. ولم تقتصر هذه الحرب الجهادية على الرجال فقط. بل شارك فيها وبفعالية واضحة: النساء والفتيات الأفغانيات من البدو ومن الحضر. وكذلك الأطفال أيضاً. وشارك فيها من لم تساعده صحته وكبر سنه من الرجال والنساء بنياتهم فى الهجرة والجهاد.



وفضلاً عن أننى لا أميل إلى تعبير الأدب الإسلامى رغم وجود رابطة فى المملكة العربية السعودية تحمل هذا الاسم بل وتصدر مجلة أيضاً. يمكن أن يقال إن هناك أدبا كتبه مسلم. أو أدبا يطرح قضية إسلامية. أما منحه صفة دينية فهذا يدفعنا إلى ضرورة الاعتراف بوجود أدب مسيحى وأدب يهودى. وكان المرحوم الدكتور نجيب الكيلانى أول من استخدم تعبير الأدب الإسلامى وذلك فى كتابه: مدخل إلى الأدب الإسلامى. الصادر عن سلسلة كتاب الأمة التى تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية فى قطر. جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م. ولم يكتف الدكتور نجيب الكيلانى بهذا الكتاب التنظيرى. ولكنه كتب عدداً من الروايات الإسلامية كنماذج للأدب الإسلامى منها ليالى تركستان ـ عمالقة الشمال ـ عذراء جاكرتا. عمر يظهر فى القدس. رحلة إلى الله. ويعتبر نفسه من أول الداعين إلى الأدب الإسلامى. ربما كانت هذه التسمية هى المسئولة عن منهج المؤلفة فى الكتابة. فالشخصيات لها بعد واحد. ليس فيها ما فى البشر العاديين من تناقض وتمزق وارتباك وحيرة وتردد. لقد قسمت أبطال الرواية إما إلى مجاهدين وهؤلاء شخصيات كاملة مكتملة فاضلة. يشع الإيمان منهم. وروس وأفغان يتعاونون معهم وهؤلاء أشرار. تمنحهم المؤلفة كل الصفات السيئة التى تخطر أو لا تخطر على بال أى إنسان على الأرض. والحياة فى الواقع



رواية تدخل فى حقل الأدب الإسلامى وهى عمل إنسانى أيضاً، إسلامى فى أسلوبه وروحه وفى واقعية تصوير الجهاد ومشاعر الهجرة والمهاجرين وهو عمل إنسانى يقود الناس لمعرفة شعب مظلوم

تخلو من هذه التقسيمة الفريدة. ذلك أن الطبيعة تخلو من اللون الأبيض فقط واللون الأسود فقط. الأبيض فيه ألف درجة من الأبيض. والأسود هناك كثير من درجاته. إن اختصار الطبيعة البشرية داخل النص الروائى إلى أشرار وأخيار تحرم النص من الدراما الإنسانية فى غناها وتنوعها وتفردها.

معسكر الأرامل

رواية معسكر الأرامل مثل سابقتها مكتوبة بالتركية. وتعتمد على ضمير المتكلم. وترجمتها الدكتورة ماجدة مخلوف تلميذة الدكتور محمد حرب. ومعسكرات الأرامل لا تعيش فيها إلا النساء والفتيات ومعهن الأولاد الذكور الذى لم تتجاوز أعمارهم الثانية أو الثالثة عشرة. كما تعيش فيها النساء والأطفال الذين فقدوا أهليهم. ومع هؤلاء تعيش أمهات وزوجات الشهداء. لا حول لهن ولا قوة. ولا ملجأ لهن سوى الله العلى العظيم. وتقدم إحدى الجماعات الإسلامية فى ناصرباغ المعونات إلى كل أولئك الموجودين فى معسكرات الأرامل منذ عام ١٩٨١، وهو العام الذى تنتهى فيه أحداث رواية الهجرة من أفغانستان. وذلك قبل قيام اتحاد الجماعات الإسلامية الأفغانية. كما أن دولة باكستان توليهم بدورها اهتماما خاصاً. وكل من يعملن فى المعسكر من النساء ممرضات أو حارسات. والرجال الذين يحضرون يكلمون من يريدون فى خيمة منصوبة على باب المعسكر لمدة أربع ساعات كل يوم. هو وقت الزيارة. والرجال يمنعون من دخول المعسكر. وكذلك النساء الغريبات يمنعن من الدخول ما لم يكن هناك سبب يبرر الزيارة.

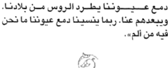
المعسكر الذى تدور فيه أحداث الرواية اسمه: ناصرباغ وهو واحد من عدة معسكرات موجودة فى أنحاء بيشاور. والبطلة واسمها أيضاً مرال. وهو اسم المؤلفة واسم بطلة الرواية السابقة: «الهجرة من أفغانستان» ومرال تطلب من شقيقها عبد الرازق الذهاب إلى المعسكر لأنها تريد كتابة قصته:

ـ كنت مشتاقة إلى التعرف على أمهات شهدائنا. وزوجاتهم الضعيفات وأطفالهم الأبرياء المساكين. كنت أريد معرفة كل شىء عنهم. ترى كيف استشهد أقاربهم؟ كيف لقى الأخ والأخت والزوج والطفل والعم والأم. كيف لقوا حتفهم فى سبيل الله؟ وكيف ظُلموا؟ وكيف عذّبوا؟ ثم كيف استشهدوا؟ من الواضح أنها تستخدم ضمير المتكلم «أنا» فى هذه الرواية أيضاً.

تحصل مرال على رسالة من صيدلانية تعرفها موجهة إلى طبيبة فى المعسكر اسمها: أسفر. والراوية منقبة. وتكتب ذلك بمناسبة أنها تعانى من الحر الشديد خلال رحلة الطريق مع شقيقها.

عندما تصل إلى المعسكر تكتب:

ـ أجدنى عاجزة عن وصف حقيقة ما رأيته من النافذة الخلفية للعربة التى كنت أركبها. كل الخيام متشابهة. لا تختلف عن بعضها فى شىء. خيام لا نهاية لها. خيام لا تحصى. وبيوت متواضعة مبنية من الطين. كلها تتكون من غرفة واحدة. وأطفال مثل الزهور الأفغانية. أقدامهم حافية ووجوههم ملطخة بالطين. والأرامل أرامل رجال استشهدوا فى الكفاح ضد السوفييت. والبطلة ومن معها يبكين. «لعل دمع عيوننا يطرد الروس من بلادنا. ويبعدهم عنا. ربما ينسينا دمع عيوننا ما نحن فيه من ألم».



وتبدأ مرال فى الاستماع إلى قصص أرامل الشهداء. لأنها عندما وصلت إلى المعسكر اكتشفت أن اليوم هو الجمعة. وهو يوم عطلة. ولذلك فإن الطبيبة التى جاءت إليها لم تكن فى العمل. ولا تجد طبيبة أخرى مكانها. لأنه لا يوجد عمل كثير فى المعسكر. وهكذا جلست تتكلم مع الأرامل اللاتى وجدتهن ورحبن بها. دون معرفة سابقة. وإن كانت مرال قد تركناها فى الرواية السابقة. بعد أن استقرت فى بيشاور بباكستان. فإننا نلقاها وقد عادت إلى البلاد من أجل المشاركة فى الكفاح. صحيح أن السوفييت كانوا ما يزالون فى أفغانستان. ولكنها كانت تتحرك بصورة أفضل من الجزء الأول.

وتبدأ فى الاستماع إلى قصة أرملة الشهيد عماد الدين، ولكن امرأة عجوزا تقول إن لها ثلاثة أبناء يحاربون السوفييت. وعلينا أن نتحمل كل ما يحدث لنا إلى أن تنقشع الغمة ويرحل الروس عن بلادنا. إنها تتجول وسط مائتى خيمة تسكنها الأرامل واليتامى. وكل خيمة مكتوب عليها: «لا إله إلا الله». والنساء يعشن فى جو متقلب يجعن مرة ويأكلن مرة أخرى. وتجلس فى خيمة مع مجموعة من النساء. بينهن فتاة شديدة الجمال اسمها نازلى. وهى وحيدة بلا أسرة تبكى حالها. فتقول لها المؤلفة: لنا ثواب المعاناة إن شاء الله. واحدة من الحاضرات جدة تروى قصتها. وحكاية أفغانستان الأخيرة التى تبدأ باحتلال الكفار لبلادهم. وهى تقصد بهم السوفييت. والخوف أن يتمكنوا من تحويل سكان البلاد عن دينهم. وإن لم يفلحوا مع الجيل الحالى. سيحاولون ذلك ولكن مع الأبناء. ولا حل سوى الجهاد ضدهم. وإن كان الأعداء فى الرواية السابقة هم الشيوعيون فقط. ففى هذه الرواية أعداء آخرون. منهم البرشميون وهم أعضاء حزب برشم، وهو أحد الأحزاب الشيوعية فى أفغانستان. والنساء يصدقن حكايات رجالهن. ومن هذه الحكايات قصة هداية الله. الذى

يقبض عليه وسجن فى سجن بجلال أباد وتتمكن أمه من زيارته وتقص وتحكى هذه الزيارات.

ولأن النساء يهربن من أفغانستان. فالرواية الثانية توشك أن تصبح من روايات الطرق والسفر:

ـ الطرق. الطرق. أيتها الطرق التى لا تعرف النهاية أبداً. أيتها الجبال المنحدرة التى يصعب اختبارها. من يدرى هجرة كم ألف من البشر شاهدتها. لابد أنك ستشهدين عودتهم ذات يوم يملؤهم شوق العودة إلى بلادهم. وقد تم الله نوره إن شاء الله. نحن أمام قصة تخرج من داخل قصة. إنه شكل معروف فى تراث الحكى الشرقى. تقرأه فى ألف ليلة وليلة. بالذات فى التراث الهندى حيث يجمع الملك ـ فى سالف العصر والأوان ـ مجموعة من البشر. ويطلب منهم أن يتناوبوا على حكى قصة طويلة له. كل واحد يقدم فصلاً منها.

فى هذه الرواية نقابل الرشوة. من يريد الهروب من أفغانستان لابد أن يدفع رشوة. ومن يريد الحصول على جثة شهيد لابد من دفع رشوة. وإن كان المرتشون وجوههم كالحة. فإن الذين يدفعون الرشوة مضطرون وجوههم تضىء بنور الإيمان. والصغار فى المدرسة تمتلئ قلوبهم بنور الإيمان. فى رواية معسكر الأرامل جرأة أكبر فى مناقشة قضايا كثيرة. إننا نجد واحدة تقول فيها:

ـ لقد حدثنى أخى الأكبر أن اللحية لم تكن مناسبة للعصر. وأن الناس فى كابول يتحدثون عمن يرتدى الشادور.

ترد عليها من تستمع إليها:

ـ إن هؤلاء الشيوخ هم سبب تخلفنا. إن بنات العائلات الغنية كلهن سافرات ومتعلمات والشيوخ يتساهلون معهن. ويغضون الطرف عن أخطائهن. فى حين يجعلون من سفورنا نحن وذهابنا إلى السينما وتدخيننا السجائر إثماً كبيراً. ويقولون إن نار جهنم فى انتظارنا.

وإن كانت هذه تعد مناقشة وليست أفعالاً نراها أمامنا فى رحابة النص الروائى، وتتم قبل وصول طالبان إلى الحكم. وإن كان هذا حال النساء. فماذا عن الشباب؟ تقول الروائية:

ـ أما الأبناء فقد انقسموا بدورهم إلى ثلاث مجموعات: منهم من يتبع حزب الشعب. ومنه البرشمى. ومنهم من ينتمى إلى حزب الشعلة الخالدة. وهو حزب الصين الشيوعية. وكلهم يحلمون بالثراء. فإذا دب بينهم الخلاف. دبروا المكائد وأوقعوا ببعضهم البعض.

تختلف هذه الرواية عن الأولى أن فيها هوامش تحكى خلفيات الأحداث. ولو جمعت هذه الهوامش وحدها. يمكن أن تقدم موجزاً لتاريخ أفغانستان الحديث. فى ربع القرن الأخير. وإن كان ليس واضحاً إن كانت هذه الهوامش من صنع الكاتبة أم أن المترجمة هى التى أضافتها. حتى تساعد القارئ على الفهم والاستيعاب. وإدراك خلفيات الأحداث. وإن كان بابراك كارميل يحصل على أكبر قدر من الاتهامات فى صلب الرواية. وليس فى هوامشها اتهام له بأنه يهودى. والمطلوب هو إقصاؤه عن الحكم. وطرد الروس من البلاد فى نفس الوقت. ومن يطلب من أى امرأة خلع حجابها. تقول له لسنا نصرانيات. أعيدوا إلينا حجابنا. نريد السمو من جديد.

تعتبر صاحبات الحكايات أن تدخل الله سبحانه وتعالى يمكن أن يحقق لهم النصر فى حكاية قمركول عن بطولة إخوتها. بعد أن يقوم إخوتها ببطولة ويستشهدوا. يدخل الروس بحثاً عن الشهداء:

ـ فتش الروس كل أرجاء القلعة تفتيشاً دقيقاً فتشوا



الصناعة والتجارة

والصنائع فى تلك البلاد قليلة جداً وهى ما ورثوه عن أبائهم من غير اهتمام بإجادته وإتقانه . فمنها نسيج الأقمشة الحريرية وعمل صنف من الكشمير غير الملون المسمى عندهم «بتو» بالباء الفارسية والفراء «السكرك» من جلود الحمل فى مدينة كابل . ومنها عمل الأبسطة الملونة الجيدة فى هرات . ومنها الجوخ المسمى ببرك كما أشرنا إليه سابقاً فى قبيلة هزاره . ويوجد فى كابل وقندهار معامل صغيرة لاصطناع المدافع والبنادق والسيوف .

ومعاملات بلاد الأفغان التجارية لم تكن غالباً إلا بينها وبنى الهند وبخارى وإيران . فالصادر منها إلى الهند هو الصوف والقطن والفواكه والنقل بأنواعه تحمل على ظهور الإبل . وإلى إيران البرك والفراء وصنف من النعال وشيلان الكشمير المجلوبة إليها من بلاد كشمير «وعنبر سر» ويجلب إليها من بخارى والهند الجوخ وأقمشة الكتان والقطن والشاى والسكر والزجاج والخزف الصينى والقرطاس والفولاذ والحديد والنحاس والزئبق ودود القز والعقاقير وغير ذلك من إيران الأقمشة والأسلحة . ويوجد فيها معادن كثيرة ولكن الأهالى غير قادرين على استخراجها والانتفاع بها . ومنها معدن الذهب فى قندهار ومعدن الحديد فى بلاد «خست وكرم» ومعدن الياقوت فى كابل ومعدن الحديد والكبريت والياقوت واللازورد فى بدخشان . وغير هذه توجد معادن كثيرة معطلة وهذا ما أردنا بيانه فى كيفية سلطنة الأفغانيين ووضع بلادهم وطرق تعايشهم وسرد قبائلهم والله ولى التوفيق .



قسمت أبطال الرواية إما إلى مجاهدين وهؤلاء شخصيات كاملة مكتملة فاضلة. يشع الإيمان منهم. وروس وأفغان يتعاونون معهم وهؤلاء أشرار. تمنحهم المؤلفة كل الصفات السيئة التى تخطر أو لا تخطر على بال أى إنسان على الأرض

الحديقة. والحجرات والأسقف. فتشوا فى كل مكان بحثاً عن جسد أى واحد من إخوتى الشهداء. لكن ذهب بحثهم سدى. فالله تعالى العظيم الذى سخر النملة لحماية أولئك الذين استشهدوا فى سبيله فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. هو الذى أعمى أعين الكفار عن أجساد أخوتى الذين استشهدوا فى سبيله حتى لا يتفاخر الكفار بأفعالهم ولا يسخروا أو يمثلوا بأجساد الشهداء.

وتنتهى الرواية بنبوءة.

- ستتحرر أفغانستان. وعندئذ سننتشر نحن الصغار فى كل أنحاء الدنيا. ونسارع للجهاد ونكافح إلى أن يرتفع لواء الإسلام خفاقاً فوق الدنيا كلها. الحق معنا. والنصر قريب بإذن الله والسلام. ثم تكتب: تمت بحمد الله وتوفيقه.

من الواضح أن الرواية الثانية أكثر نضجاً من الأولى. وهى رواية أحداث. ولكنها ليست رواية للأصوات التى تقدم أكثر من وجهة نظر واحدة للحدث الواحد. ولكن الصوت فى هذه الرواية الذى يكمل ما حكاه الصوت الذى قبله. حتى تكتمل الرواية فى النهاية.



والآن نلتقى بكاتبة أفغانية ثانية لديها جرأة فى طرح ما تريد قوله. تكتب القصة القصيرة. وهاجرت هى الأخرى من أفغانستان ولكن إلى مكان بعيد هو جنوب فرنسا. وواجهت جماعة طالبان. وإن كنا لن نلتقى بنص لها. ولكن بحديث طويل أجرى معها تتكلم فيه عن قصصها وبلدها وما جرى فيه. بل وتدعو زوجها إلى اللحاق بها فى المنفى. كلامها سابق على المحنة الأخيرة فى بلادها. وربما غيرت التطورات اللاحقة من موقفها. ولكن تبقى شهادتها فى حدود الزمن الذى قيلت فيه.

بدر التمام

التعريف بها والتعرف عليها أولاً: اسمها سبوجماى زارياب مولودة فى كابول سنة ١٩٤٩ بدأت نشر القصص القصيرة وهى فى السابعة عشرة من عمرها. تقول عن تلك الأيام البعيدة:

- ورثت عن أبى حب الأدب. كان أبى رجلاً من طراز خاص. لم يشعرنى أبداً أننى مجرد فتاة. ولم يمنعنى من فعل أى شىء. ولم يجبرنى على ترك شىء. كان فى منزلنا تليفزيون عندما كنت طفلة. ولكن أبى كان يقرأ لنا الشعر فى الأمسيات. وقد حفظت هذا الشعر. نقش على قلبى من يومها. كان إذا بدأ أبى فى إلقاء قصيدة. أكملتها أنا حتى آخرها. كنت فى الثالثة أو الرابعة من عمرى فى ذلك الوقت. بعد ذلك كان للشعر الكلاسيكى الفارسى أثر كبير فى رحلتى الأدبية، ومن يومها كانت القصة القصيرة هى النوع الأدبى المفضل عندى. وهى اختراع غربى أدين بحبه للكتاب الأجانب، وخاصة كتاب أوروبا وأمريكا.

التحقت سبوجماى بكلية الآداب ومدرسة الفنون الجميلة بكابول. قضت عاماً كاملاً فى دراسة الأدب فى فرنسا. وعندما عادت لبلادها سنة ١٩٧٣ وقع انقلاب محمد داود العسكرى على ابن عمه الملك. وأنهى الملكية. وكان ذلك بداية لسلسلة من الصراعات. بعد ذلك بخمس سنوات قتل داود فى انقلاب عسكرى آخر. وفى سبتمبر سنة ١٩٧٩ قتل الرئيس نور محمد تراقى على يد نائبه حفيظ الله أمين. الذى اغتالته القوات السوفيتية بعد ذلك بشهرين. ثم نصبوا بابراك كارميل على البلاد.

خلال سنوات الحكم السوفيتى العشرة لأفغانستان عملت سبوجماى مترجمة فى السفارة الفرنسية بكابول. ونشرت بعض أعمالها فى كابول رغم الرقابة. وذلك من خلال الناشر الأفغانى الوحيد فى البلاد كلها وهو اتحاد الكتاب الأفغان. وبعد أن تدهورت الأوضاع فى بلادها بسرعة شديدة سنة ١٩٩١ انتقلت زارياب إلى مونبلييه بفرنسا مع ابنتيها. وبعد أن استولت طالبان على كابول سنة ١٩٩٤ لحق بها زوجها الكاتب الأفغانى المشهور راهنورد زارياب. سبوجماى تكتب باللغة الدارية أحد أشكال الفارسية والتى تشكل مع الباشتون اللغتين الرسميتين فى أفغانستان. واسمها يعنى بدر التمام.

تقول «بدر التمام» فى حديث طويل معها نشر فى مجلة رسالة اليونسكو. التى تصدرها المنظمة الدولية. وتطبع بـ٢٨ لغة من لغات العالم الحية، وأجرت هذه المقابلة معها جاسمينا سوبوفا. وهى صحفية فى مجلة رسالة اليونسكو. تقول فى هذا الحديث:

- لقد كنت محظوظة لأننى عشت فى وطنى عندما كان فى بداية تذوق طعم الديمقراطية والتحديث والإصلاحات. وعندما كان يحارب النظام الإقطاعى الذى كان ما يزال قائماً فى بعض المناطق. وفى سنة ١٩٥٤ ألغيت قواعد الزى. ونادراً ما كنت ترى امرأة ترتدى الشادور «الحجاب» فى أى مدينة. واقتحمت المرأة بسرعة كل مجالات الحياة. فأصبحت طبيبة وعضواً فى البرلمان وجندية ومظلية وسائقة حافلة. ربما لم تكن نسبتهن كبيرة. ولكنهن كن متواجدات فى العديد من أوجه النشاط. وكان نظام التعليم فى الجامعة مشتركاً. ضم الشبان والشابات وظهرت أول مدرسة ابتدائية مشتركة. وكنت تستطيع أن تجد فى كابول كل أصناف الكتب من جميع أنحاء العالم مترجمة للفارسية نحن نعيش حياة حرة وراضية. ونحن نعقد الاجتماعات العامة. ونتحدث بانفتاح وننشئ الأحزاب السياسية.

ثم تقفز بدر التمام حتى الآن، تقول عن الوضع الراهن فى بلادها:




ما الذى بقى من وطنى؟! الأرض الزراعية دمرت وزرعت ألغاماً. آلاف الأرامل والأيتام والمشوهين. عاشت فى بلادى الحرب والبرد والجدب والمجاعة

- والآن ابتلينا بطالبان الذين لا يعرفون شيئاً عن أفغانستان إنهم طلبة علم دينى. تعلموا فى كتاتيب أفغانستان منذ الصغر. وجاءوا بثورة تدميرية. تدمر كل شىء. لقد سمعت أنهم أحرقوا بساتين الكروم كلها. واقتلعوا كل أشجار الفستق، وقد كان الفستق من أهم صادرات أفغانستان. وكل تصرفات طالبان تحكمها فكرة واحدة: جعل البلد تابعة تبعية تامة. القضاء على الزراعة وعلى نظم الرى. وعلى الاقتصاد لتصبح بلداً مدمراً تدميراً تاماً. كان خراب الروس من الدبابات. وخراب طالبان من الحرق. كنا مبتلين بالتعصب السياسى. والآن أصبح لدينا تعصب دينى. والتعصب أيا كانت طبيعته يعمى البصيرة.



وتقول عن حالة الهجرة من أفغانستان..

- إننا شعب شديد الارتباط بأرضه وأسرته. والآن نحن مبعثرون حول العالم. فى أوروبا والولايات المتحدة وكندا واستراليا وآسيا. ومعظم اللاجئين لا يعرفون لغات البلاد التى لجأوا إليها. وقد يستغرق الأمر خمس أو ست سنوات حتى يستطيعوا التأقلم. إنه لأمر شديد الصعوبة أن تجبر على البحث عن ملجأ فى مكان آخر فى العالم. لقد استمرت الحرب عشرين سنة. جيل كامل ضاع وستة ملايين لاجئ أفغانى. إنها صورة مرعبة. إن تشتيت أمة هو أفضل وسيلة لمحوها.

علينا أن نتحرك بسرعة. فسيف الوقت ماض فينا. إن وطنى يفقد جيلاً آخر. لأن الأطفال لا يتعلمون. التعليم حق أساسى لأطفال العالم. لماذا لا يمكن أن يكون حلماً ممكناً لصبايا أفغانستان؟ فلا يسمح لهن سوى بالذهاب إلى الكتاتيب حتى سن العاشرة أو الثانية عشرة. وماذا يتعلمن؟ يحفظن الشعر العربى. والعربية لغة لا يفهمنها والحال ليس بأفضل بالنسبة للصبية. لقد أدى عدم وجود المدرسين والإداريين والتجهيزات إلى تحويل المدارس إلى دور رعاية بلا خدمات تعليمية. هذا دفع الناس إلى وجود مدارس سرية فى كابول. الأمهات تعلمن الفتيات فى البيوت. إنه نوع من المقاومة. ولكن يجب أن تتحلى المرأة الأفغانية بالكثير من الشجاعة حتى تقدم على مثل هذا العمل. لأنه غير قانونى.

إن طالبان - تقول بدر التمام - تسيطر على ٩٠ بالمائة من البلاد. والأمر لم يتوقف عند استئصال الأقليات العرقية واضطهادها. ولكن الشعب كله أصبح يعيش تحت التهديد المستمر بكل أنواع العقاب والإذلال ومعظم الذين بقوا فى كابول. لم يكن بقاؤهم إلا ضيق ذات اليد فهم يطيعون القوانين ليعيشوا قوانين عبثية بشكل يفوق الخيال.

ولأن المتحدثة قصاصة. فهى تفكر ولكن على شكل حكايات. وتحكى الحكاية التالية:

- سمعت أن أحد الأفغان الذى كان يعيش فى باكستان. ثم مات وكانت وصيته أن يدفن فى كابول. فقررت أسرته أن تأخذه فى نعشه إلى هناك. ولكن عندما وصلوا إلى الحدود الأفغانية. أوقف طالبان الجنازة وأرادوا التحقق من محتويات النعش. حيث إن التهريب كان يجرى على أشده وعندما رأوا جثة الرجل الميت. وجدوه غير ملتح وهو أمر غير إجبارى فى باكستان. فما كان منهم إلا أنهم قاموا بجلد الجثة ثمانين جلدة عقاباً لصاحبها على أنه كان حليقاً. إنه جنون بلا حدود. جنون مطبق.

ولأنها تعتبر نفسها امرأة أفغانية قبل أن تكون كاتبة. فهى تحلم بإنقاذ المرأة الأفغانية من قبضة هؤلاء الممسوسين. ذلك أنه قبل مجىء طالبان إلى حكم أفغانستان كانت المرأة تشكل ٤٠٪ من عدد المدرسين وهو دليل واضح على مستواها الفكرى. أما الآن فهى مستبعدة من المجتمع. إنها فى أزمة شديدة جسدياً وفكرياً ونفسياً. فالمرأة لا يسمح لها بالذهاب إلى طبيب رجل والأسوأ أنها مازالت تباع كرقيق أبيض فى باكستان.

وتنهى بدر التمام هذه المعزوفة الحزينة بتساؤل:

- ما الذى بقى من وطنى؟! الأرض الزراعية دمرت وزرعت ألغاماً. آلاف الأرامل والأيتام والمشوهين. عاشت فى بلادى الحرب والبرد والجدب والمجاعة. ملايين اللاجئين يعيشون فى خيام. معظمهم فى باكستان وإيران بدون طعام ولا ماء وفى ظروف معيشية غير إنسانية. وتعود لتتساءل: ما الذى بقى من وطنى؟

هناك أيضاً الكاتبة الأفغانية شكيبة هاشمى المنفية فى باريس التى أعلنت عن رغبتها فى العودة إلى بلادها. هذا فى الوقت الذى يهاجر فيه الجميع ويهربون من البلاد خوفاً من الضربات الأمريكية القادمة. وهى ترغب فى العودة حتى تشد من أزر بلادها فى هذه المحنة. شكيبة هاشمى فى السابعة والعشرين من عمرها. وقد تم نفيها إلى منفاها الباريسى بعد نشرها رواية تدور حول فتاة أفغانية تعانى من الانكسار. وفى الرواية تعارض حركة طالبان وكافة ممارساتها وقد قامت هذه الكاتبة بإنشاء منظمة دولية: أفغانستان الحرة تضم حوالى ١٥ ألف فرنسى و٥ مليون إنسان من العالم. وتقدم هذه المنظمة خدمات تعليمية ومالية لدولتها تشمل إنشاء المدارس والمستشفيات. الغريب أنها رغم كونها منفية فى باريس بسبب معارضتها الشديدة لحركة طالبان إلا أنها تستنكر وبشدة أن يكون لأسامة بن لادن أى يد فى الاعتداءات الأمريكية الأخيرة.

أفغانستان

هل كان لقعقعات هذه الأحداث المزلزلة التى لاتــزال انفجـــارات قنـابلها، تسـقط على رؤوس أفقر شعب فى العالم فى أفغانستان، دورها فى منح جائزة نوبـل لكاتب يعد أكثر كتاب العـالم المعاصرين الكبار غطرسـة ورعونة؟

لا يملك المرء إزاء إعلان فوز الكاتب الهندى الأصل، الترينيدادى المولد، البريطانى الجنسية والثقافة، الإنجليزى اللغة، فيديادار سوراجبراساد نايبول Vidiadhar Surajprasad Naipaul، أو V.S. Naipaul إلا أن يتساءل عن مدى براءة التوقيت، ومدى تاثير الأحداث الدامية التى تدور فى عالمنا المعاصر منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر المزلزلة لكثير من الرواسى والتصورات، على قرار الأكاديمية السويدية بمنحه الجائزة. فأحداث الحادى عشر من سبتمبر، وكما ستكشف لنا الأيام التالية، هى بلاشك علامة تاريخية فارقة على نهاية المرحلة التى بدأت بسقوط حائط برلين، وانتهت بسقوط برجى مركز التجارة العالمى واجتياح البنتاجون. فقد كانت المرحلة التى بدأت عقب سقوط حائط برلين هى مرحلة غطرسة انفراد الولايات المتحدة بمركز القوة العظمى وتحكمها فى مقدرات عالمنا المنكوب. وهاهى صدمة تلك الانفجارات المدوية تجعلها تفيق من سمادير الانتشاء بقوتها على عالم تضطر بالتدريج للاعتراف بانها لا تفهمه، ولا تستطيع الانفراد بقيادته. فهل كان لقعقعات هذه الأحداث المزلزلة التى لاتزال انفجارات قنابلها، أو بالأحرى قنابل أغنى دولة فى العالم، تسقط على رؤوس أفقر شعب فى العالم فى أفغانستان، دورها فى التاثير على قرار الأكاديمية السويدية، بمنح الجائزة لكاتب يعد أكثر كتاب العالم المعاصرين الكبار غطرسة ورعونة، ويوشك أن يكون المعادل الموضوعى فى مملكة الكتاب للولايات المتحدة فى مملكة الأمم؟ أهى مفارقة ماكرة تريد بها الأكاديمية السويدية أن تلفت النظر إلى ما تنطوى عليه الغطرسة من دروس علينا استيعابها وتاملها؟ أم أنها، كما قال بعض المعلقين الأدبيين العرب، نوع من المشاركة السويدية فى المجهود الحربى الغربى فى معركته، أو بالأحرى حملته الصليبية حسب زلة لسان جورج بوش، ضد الإسلام والثقافات الإسلامية؟

تحتمل الإجابة عن أى من هذه الأسئلة النفى والإثبات. فطالما اتهمت جائزة نوبل بان اختياراتها ليست أدبية محض. وهل ثمة شىء يمكن أن نصفه بانه أدبى محض فى عالم كل شىء فيه مضمخ بالثقافة وموروثاتها، وبالسياسة وأهوائها؟ خاصة فى مطلع القرن الحادى والعشرين، لأن جائزة نايبول هى أولى جوائز نوبل للقرن الجديد، التى جاء الإعلان عنها، لغرابة المفارقة وسط قعقعات أولى حروب هذا القرن الجديد وأكثرها عبثية وغرابة. إذ تحارب فيها الولايات المتحدة، من سبق أن جندتهم وسلحتهم ودربتهم لمحاربة عدوها القديم، ولمساعدتها فى كسب الحرب الباردة. وهل من المناسب لجائزة بحجم نوبل وتاريخها أن تنزلق إلى مثل هذا المنزلق؟ وأن تختار كاتبا يؤكد ما يسعى الغرب أن ينفيه، وهو عداء الغرب المتاصل للإسلام، وللثقافات غير الغربية. ولا يمكن أن تجد الأكاديمية على قوائم المرشحين لها من هو أكثر عداء للإسلام، أو أكثر شراسة فى الهجوم على كل الصبوات والأحلام التحررية لما كان يعرف باسم العالم الثالث من نايبول. لكن نايبول، والحق يقال، كان على قوائم المرشحين للجائزة منذ سنوات. وهو باعتراف عدد كبير من الكتاب والمثقفين الإنجليز أنفسهم من أعذب كتاب اللغة الإنجليزية نثرا وأرقاهم أسلوبا. ويعتبره الكثيرون أفضل ناثر إنجليزى معاصر، ويبالغ البعض فى اعتباره أفضل من كتب النثر الإنجليزى فى القرن العشرين. وقد لفتت النظر إلى أعماله لغته الصافية، وموهبته الأدبية التى لا مماراة فيها منذ زمن مبكر. فقد أشاد الروائى الإنجليزى الشهير إيفلين ووه Evelyn Waugh بأول كتبه غير الروائية، وهو (الممر الأوسط The Middle Passage) عام ١٩٦٣، قائلاً: «إن السيد نايبول وهو هندى شرقى من ترينيداد يسيطر على اللغة الإنجليزية سيطرة مدهشة، يندى لها جبين الكثيرين من معاصريه الإنجليز الذين لم يبلغوا شأوه فى التمكن من لغتهم».

والواقع أننى أعرف منذ زمن غير قصير أن لغة نايبول الإنجليزية هى نموذج لأرقى ما وصلت إليه البلاغة الإنجليزية المعاصرة من صفاء وعذوبة. فقد وجهنى أستاذى الاسكتلندى، أثناء فترة الطلب فى جامعة لندن فى السبعينيات، إلى قراءته عندما لاحظ رغبتى فى التمكن من البلاغة الإنجليزية، وعانى من إسباغى معايير البلاغة العربية على الجملة الإنجليزية التى تعتمد جمالياتها على معايير مناقضة للبلاغة العربية، مؤكدا لى أنه أبرع من يجسد جماليات اللغة الإنجليزية المعاصرة. لذلك فإننى أعرف من زمن غير قصير أنه جدير بحق بالجائزة، لولا رجعيته وتحيزاته الغريبة. فقد فاز باهم الجوائز الأدبية الإنجليزية بما فى ذلك جائزة «البوكر» الشهيرة عن روايته (فى دولة حرة) عام ١٩٧١. بل حصل على لقب «سير» عام ١٩٩٣ تقديرا لخدماته للأدب وللغة الإنجليزية. وترجع مقدرته اللغوية الفذة، وهى أهم إنجازاته الأدبية بلاشك، إلا أنه وبفضل وعى أبيه باللغة، وتوجيهه إلى الاهتمام بدقتها منذ وقت مبكر فى حياته، كان يمارس تمرينات التذكر لإرهاف ذاكرته اللغوية بشكل يومى منذ كان طالبا فى الجامعة وحتى اليوم. فقد كان يعود إلى مكتبه كل يوم، ويتذكر الكلمات والتعبيرات التى صادفته فى هذا اليوم ويبحث عن المفردات المناسبة لوصفها بدقة وبنفس ترتيب ورودها أو حدوثها. حتى يصل إلى فهم دقيق للناس ولما حدث، ولمعنى ما صادفه، أو ما شارك فيه من لقاءات وحوارات. إنه نوع من التمرين على التذكر والتحليل معا. وقد تابعت مؤخرا شكواه من أنه لم يعد باستطاعته أن يفعل ذلك فى السنوات الأخيرة وأن هذا عنده هو دليل التقدم فى العمر. فإنجاز نايبول الأدبى إذن هو إنجاز ينهض على المثابرة اليومية التى لا أعرف لها مثيلا إلا تلك التى يجسدها أديبنا الكبير نجيب محفوظ فى مثابرته على الكتابة بانتظام لأعوام وعقود. لكننى أعرف فى الوقت نفسه عداء نايبول الشديد للإسلام، ورجعيته المتأصلة.

ومع هذا كله، وربما بسببه، فقد حاولت ألا أسارع باتهام الأكاديمية السويدية بتمكين السياسة من توجيه اختياراتها الأدبية، وأن أتعامل مع نايبول من الناحية الأدبية وحدها، بصرف النظر عن ملابسات الفوز، حتى جاءتنى وأنا أكتب هذا المقال نتيجة جائزة البوكر الأدبية. وجائزة بوكر - وقد سبق أن كتبت عنها للقراء فى العام الماضى - هى أرقى الجوائز الأدبية البريطانية لفن الرواية. تمنح كل عام لأفضل رواية مكتوبة باللغة الإنجليزية. فقد كنت أتابع، طوال الشهرين الماضيين، تعليقات الواقع الأدبى فى انجلترا بعد نشر قائمة الأعمال التى وصلت إلى التصفية النهائية، وجدل النقاد حول الروايات الست التى بقيت بعد التصفية، وتوقع أغلبهم بان تفوز بها رواية الكاتب الأيرلندى المرموق إيان ماكوين Ian McEwan (كفارة Atonement) لأنها أفضل الروايات الست من الناحية الأدبية. أما إذا ما حاولت اللجنة منح جائزتها لكاتب لم يفز بالجائزة من قبل، لأن ماكوين فاز بها قبل أعوام ثلاثة عن روايته (أمستردام)، فإن الفوز سيكون من نصيب رواية (أوكسوجين Oxygen) لدافيد ميلر David Miller. ولكن إعلان الجائزة جاء لصالح رواية (التاريخ الحقيقى لعصابة كيلى The True Story of Kelly Gang) للكاتب الأسترالى المقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية بيتر كيرى Peter Carey. وأكد إعلان الجائزة، وتعليقات لجنة التحكيم أن موضوع الرواية المثير للنزعة القومية، والمشيد ببطولات الإنجليز فى هزيمة من يتمرد على سلطتهم فى استراليا وأمجادهم العسكرية الغابرة، هو الذى رجح كفتها، ودفع المحكمين لاختيارها. فالسياق السياسى إذن، وباعتراف المشاركين فى التحكيم لهذه الجائزة المرموقة، يرجح كفة كاتب على آخر. بل ويتيح لرواية أقل براعة من الناحية الأدبية أن تفوز على رواية أكثر منها حذقا وأغنى كشوفا، لأنها تتواءم مع موقف سياسى بعينه.

بعد تصريحات محكمى لجنة البوكر، واعترافهم بأن موضوع رواية كيرى هو الذى رجح كفتها للفوز، ولتذهب المعايير الأدبية الخالصة إلى الجحيم، لم أعد قادرا على تجاهل دور المناخ السياسى السائد فى الغرب فى ترجيح كفة نايبول على غيره من كتاب آخرين كانوا على قائمة الجائزة. وانتابنى الشعور بأن هذا الفوز غير مفصول عن رؤى نايبول العنصرية، وإن كانت لغته الأدبية الراقية هى التى تكسب هذه العنصرية حدتها الجارحة، وتجعلها عنصرية فعالة. وحتى أشفى غليلى، عدت إلى نص إعلان الأكاديمية علنى أعثر فيه على ما يؤكد هذا الشعور أو ينفيه. فوجدت فى الإعلان عددا من المؤشرات التى ترجح كفة الشك ولا تنفيه. لأنه يبدأ أولا بتلك الجملة الموجزة التى تعلن فوزه بالجائزة «لقدرته على توحيد السرد الشيق الحساس بالتمحيص المنزه عن الغرض فى أعمال تدفعنا إلى إدراك حضور التواريخ المقموعة.» إذن فهذه الجملة العامة الملتبسة، تشير فيما تشير إلى أعماله غير الروائية، وهى الأعمال التى تنطوى على



نايبول، لمرارة المفارقة، يعتقد أنه ضحية أكثر منه معتديا، وأنه دفع ثمن شق دروب جديدة، وأن الكثيرين لم يفهموه، وهاجموه بلا مبرر، وقالوا عنه أقاويل حمقاء. وكل جريرته أنه لم يشأ أن يكرر نفسه، أو ينتهج الدروب المطروقة. ويشكو من أن الكثيرين ذوو عقليات محدودة، وإدراك قاصر

Half a Life

(نصف حياة)

V.s. Naipaul
Picador 2001, 224 pp, £ 15.99

In a Free State

(فى دولة حرة)

V.s. Naipaul
Picador 1971, 208 pp, £ 6.9

A House For M.r Biswas

(بيت للسيد بيسواس)

V.s. Naipaul
Penguin Books, 1969, 592pp, £ 7.99

نايبول: الكاتب.. والجائزة

صبرى حافظ

حملاته القاسية على الإسلام والمسلمين، وعلى أفريقيا والأفارقة، وعلى الهند والهنود. ولا تكتفى بالتركيز على أعماله الروائية أو القصصية وحدها. ثم يواصل إعلان الأكاديمية تاكيده على الأعمال غير القصصية: «نايبول جوّاب أدبى للآفاق، لايشعر بانه فى بيته إلا مع نفسه، ومع صوته الفريد الذى لايضارع، ولا يتاثر بالموضات أو الأنماط الأدبية. وصاغ من الأجناس الأدبية المعروفة جنسه الأدبى الخاص، الذى لم تعد معه التفرقة المعهودة بين السردى أو القصصى وغير السردى بذات بال. فقد امتد عالم نايبول الأدبى إلى ما وراء جزيرة ترينيداد وهى من جزر الهند الغربية، واستوعب الهند، وأفريقيا، وأمريكا من الجنوب إلى الشمال، والبلدان الإسلامية الآسيوية، فضلا عن انجلترا. فنايبول هو خليفة كونراد فى متابعة مصائر الإمبراطوريات من الناحية الأخلاقية، وتاثيراتها على البشر. وتنبع سلطة سرده من أنه متجذر فى ذاكرة ما نسيه الآخرون، وتواريخ المندثرين».

إذن فالإعلان نفسه يشير وبشكل واضح، بعد أن ضمن ذلك بشكل غامض وملتبس فى الجملة التمهيدية القصيرة، لا إلى كتابات نايبول الروائية والتى كان من الضرورى فى إعلان جائزة بهذا الحجم أن تقتصر عليها، وهى كثيرة، وإنما إلى كتاباته غير الأدبية التى يمزج فيها الوثائقى بالسردى بأدب الرحلات وأدب المقال، والتى تناول فيها الهند وأفريقيا والعالم الإسلامى الأسيوى. وعندما يستعرض بقية الإعلان عددا من أعماله الأدبية فيشير إلى أعماله القصصية الأولى، وإلى القفزة العملاقة التى حققها بروايته المهمة (بيت للسيد بيسواس) وإلى رائعته (أحجية الوصول) فإنه لا ينسى أن يذكر بالاسم كتابه الأخير الذى كرسه لمهاجمة الإسلام بعنوان مثير Beyond Belief وهو عنوان يمكن ترجمته على انه (مابعد الإيمان) وهى الترجمة الظاهرة أو البريئة، ولكنه يعنى فى الوقت نفسه صرخة الاستهجان الشهيرة عن شىء لايصدق، ولايمكن تصوره لمنافاته للعقل والمنطق، وهذا الشىء المستهجن الذى لايصدق هو الإسلام نفسه، أو بالأحرى اعتناق البعض له. بل إن الإشارة إلى هذا الكتاب فى نص إعلان الأكاديمية تعنى لعب العنوان على المعنيين وتستخدمه فى سياق يبرزهما معا. وذكر هذا الكتاب الأخير بالذات، واللعب على دلالات العنوان المتراكبة فى إعلان الأكاديمية ذاته، هو الذى قطع عندى الشك باليقين، وهو الذى دفعنى بعد تمحيص المسألة برمتها إلى بدء هذا المقال بالطريقة التى بدأته بها. وهو الذى أرهف وعيى باننا فى عالم ما بعد الحداثة نعيش دوما على حافة التناقضات والمفارقات الحرجة. فبينما تسعى العولمة لإزالة الحواجز القومية، تستثير الرغبة فى الحفاظ على هيمنتها أشد النزعات القومية تعصبا وبدائية.

والواقع أن اختيار نايبول نفسه هو اختيار مابعد حداثى بكل معنى الكلمة، فهو اختيار مترع بالتناقضات والمفارقات. فنحن بإزاء كاتب يوشك أن يكون التجسيد الحى للقاء هذه التناقضات كلها بشكل صارخ. فهو كاتب نشأ فى أسرة معوزة فقيرة، فى جزيرة معوزة فقيرة، ولكنها أسرة تربت على مشاعر فئة اجتماعية عليا، هى فئة البراهمة الهندية. وهو كاتب ينحدر من العالم الثالث، ولكنه كاره له، شديد الانتقاد لسلبياته، ويتبنى رؤى مستعمريه، ويردد عن أبناء العالم وثقافاته أبشع المقولات الاستشراقية والاستعمارية القديمة عنه، وبثقة تبلغ درجة التبجح. وهو كاتب كبير من حيث قدرته اللغوية وبراعته الأسلوبية من ناحية، ولكنه يتسم بضيق الأفق والغطرسة والافتقار للكياسة والتسامح من ناحية أخرى. وهو بارع فى السيطرة على اللغة، ولكنه لايستطيع السيطرة على مشاعره، إذ يتسم بضيق الخلق وسلاطة اللسان. لا يتورع عن الإساءة لآخرين بدم بارد، ويحب إثارة الاهتمام بآرائه الصادمة. فقد وصف تونى بلير - رئيس وزراء حكومة العمال الحالية فى بريطانيا - بانه «قرصان يرأس حكومة مسؤولة عن تفشى ثقافة العامة والأجلاف، التى تفرض نفسها بشكل فج، وتتباهى بأنها ثقافة العامة والرعاع» ويستطرد قائلا: «إننى أشعر لأول مرة، منذ خمسين عاما عشتها هنا، بالغم والإحباط من الحكومة، إذ يحزننى استعمالها ألفاظ اللغة الفارغة، وإساءة استخدامهم المستمرة لها». كما هاجم عددا من كبار الكتاب الإنجليز، من جين أوستين إلى إ. م. فورستر - صاحب «الطريق إلى الهند» و«موريس» و«غرفة تطل على مشهد» و«الإسكندرية» وغيرها من الأعمال الأدبية المرموقة - إذ قال عنه إنه شاذ جنسيا ومثير للغثيان، وإنه كتب أدبا رديئا «زبالة» وعاش هو وصديقه الشاذ أيضا مينارد كينز - الاقتصادى الإنجليزى الأشهر - على افتراس الهنود الضعفاء.



لكن نايبول، لمرارة المفارقة، يعتقد أنه ضحية أكثر منه معتديا، وأنه دفع ثمن شق دروب جديدة، وأن الكثيرين لم يفهموه، وهاجموه بلا مبرر، وقالوا عنه أقاويل حمقاء. وكل جريرته أنه لم يشأ أن يكرر نفسه، أو ينتهج الدروب المطروقة. ويشكو من أن الكثيرين ذوو عقليات محدودة، وإدراك قاصر. ولكن على المرء أن يعيش بينهم. ويشكو كذلك من انتشار الاعتقاد بأن أعماله غير السردية أقل أهمية من أعماله القصصية والروائية، التى يخترعها الكاتب اختراعا. مع أنه يعتقد أن لكل استقصاءاته نفس الثقل ونفس الوزن والأهمية. ويقول إن كانت كتبى قوية فإنها ستبقى، أما إذا كانت ضعيفة فسوف تندثر. ويزعم نايبول أن الرواية انتهت كجنس أدبى، وأن هذا الزمن ليس زمن الرواية. ومع ذلك فإنه نشر هذا العام رواية جديدة هى (نصف حياة Half a Life) بعد سبع سنوات من الانقطاع عن كتابة الرواية. والواقع أن آراء نايبول المتناقضة، وكتاباته غير الروائية التى تتسم بقدر كبير من الرجعية والتحامل هى التى تدفع الآخرين إلى مهاجمته. فقد قال عنه ديريك والكوت - الشاعر الكاريبى الذى فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٢ وهو مواطن لنايبول من جزر الهند الغربية هو الآخر - «إن نايبول لا يحب الزنوج، وقد أعلن أكثر من مرة أن أفريقيا قارة لا مستقبل لها». لذلك يدعوه الكاتب الهندى الشهير سلمان رشدى بالاستعمارى الأدبى الجديد Literary neo-colonialist.

وقبل أن نتناول دلالات أخذ السياسى بعين الاعتبار فى اختيار نايبول للفوز بجائزة نوبل هذا العام، علينا أن نقدم للقارئ العربى أولا هذا الكاتب الذى لانعرف عنه الكثير. فقد ولد فيدادار سوراجبراساد نايبول، والمعروف الآن بالسير فيديا، فى ١٧ أغسطس ١٩٣٢ فى مدينة شاجواناس بجزيرة ترينيداد من جزر الهند الغربية الواقعة فى البحر الكاريبى. لأسرة من الهنود جاء مؤسسها الأول، وهو الجد، فى صباه من منطقة شرق Uttar Pradesh بالهند فى ثمانينيات القرن التاسع عشر إلى ترينيداد، وتلقى تعليما إنجليزيا بالطريقة الهندوسية، حيث ينحدر من أسرة من البراهمة، وهم طبقة رجال الكهنوت الهندوسى، وهى من الطبقات العليا ضمن نظام الطوائف الهندية الاجتماعية المنغلقة على ذاتها، والتى تعرف بنظام caste. وكان الجد قد أرسل صبيا إلى ترينيداد، ليصبح كاهنا براهمين Brahmin وليتدرب كى يصبح فقيها هندوسيا Pundit أى معلما دينيا، كشيوخ الأزهر عندنا. وبالإضافة إلى دوره الدينى هذا عمل الجد كذلك بالتجارة، وخاصة التجارة فى الأشياء اللازمة لممارسة الطقوس الهندوسية. وتزوج فى مدينة الدورادو، وهى مدينة هندية خالصة، تعمرها جالية هندية جلبها الانجليز من الهند للعمل فى مزارع القصب مع الزنوج الذين جلبوا إلى هذه الجزر. وأنجب الجد



ثلاثة أبناء، ومات شابا. فعانت أسرته من العوز، واضطر الابن الأكبر للعمل في الحقول لرعاية أمه وإخوته، أما الابن الأصغر، وهو سيبرساد نايبول Seepersad Naipaul المولود عام ١٩٠٦ - والد كاتبنا - فارسل للتعليم حتى يصبح فقيها هندوسيا كأبيه. ولما أتم الأب تعليمه، لم يعمل بالفقه الديني. وإنما عمل منذ بداية حياته العملية بالصحافة، في جريدة «راعي ترينيداد Trinidad Guardian»، وتزوج في مطلع العشرينيات من عمره، وأنجب سبعة من الأبناء (ولدين وخمس بنات) كان كاتبنا هو الابن الثاني للأسرة، بعد شقيقته الكبرى «كاملا»، وإن كان الذكر الأول بينهم، أما الأخ الثاني «شيفا» Shiva Naipaul (١٩٤٥-١٩٨٥) فقد أصبح هو الآخر كاتبا، وإن اختطفه الموت وهو في الأربعين من عمره. وبعد أربعة عشر عاما من العمل بهذه الجريدة، وكان وقتها في السادسة والثلاثين من عمره، نشر مجموعته القصصية الأولى عام ١٩٤٣ بعنوان (جوروديفا وحكايات هندية أخرى Gurudeva and Other Indian Tales).

ويذكر الابن فيديا، أو فيدو كما كان أبوه يدعوه في رسائله له، وكان في الحادية عشرة من عمره في ذلك الوقت، بشغف قصة هذا الكتاب الذي عاش تفاصيل صناعته وطقوس ولادته داخل بيتهم في «ميناء أسبانيا». يذكر جلب الأب لبروفاته التي كانت تجمع باللينوتيب إلى البيت، وإشراك الابن في عملية تصحيحها. ثم المجيء بنسخ الكتاب الألف إلى البيت، ورص أكوامها في زاوية غرفة المعيشة، ونجاح الأب في توزيع الكتاب الذي بيعت نسخه عن آخرها. ولكنه يذكر في الوقت نفسه أن أباه تلقى كثيرا من الخطابات الغاضبة والمهينة بسببه. اتهمه أصحابها بتشويه صورة الهنود، والإساءة إلى سمعتهم من خلال تصويره لهم في كتابه. وكان أكثر هذه الخطابات إيذاء لمشاعر أبيه خطابا من مسلم مهووس دينيا، أزعج الأب كثيرا. خاصة أن هذا المهووس الديني كما يقول لنا فيديا نفسه فيما بعد حينما أعاد نشر هذه المجموعة، وبقية القصص التي كتبها والده بمقدمة منه في طبعة لندنية عام ١٩٧٦، استأجر مساحة في صحيفة «راعي ترينيداد» ونشر فيها نقده لأبيه، وحلى هذا النقد بصورته. وقد أثر هذا الأمر على الأب كثيرا، وترك بعدها العمل بالصحافة، والتحق بوظيفة حكومية عمل فيها في مسح الأراضي الزراعية والمناطق الريفية. ويبدو أن الابن الذي كان ولايزال شديد الغرام بأبيه، قد أسر في نفسه من هذا الوقت ضرورة الانتقام من كل المسلمين فيما بعد. لأن فيديا قد أعاد طبع مجموعة أبيه القصصية القصيرة، بعد أن ضم لها بقية القصص التي كتبها بعدها في كتاب بعنوان (مغامرات جوروديفا The Adventures of Gurudeva) ونشرها لدى ناشره اللندني المرموق، وهو الحلم الذي حلم به أبوه طويلا، وهو أن ينشر كتابه في لندن، ولكنه مات دون أن يحققه.

هذا هو الأب الذي لعب دورا مهما في حياة ابنه فيديا الشخصية والأدبية على السواء. لأن فيديا يعترف في مقدمته لمجموعة أبيه أنه سطا على قسم كبير من قصة أبيه الشخصية، أو بالأحرى من سرده السرداتي الذي دعاه، (لقد سموه موهون)، وبدأ بها إحدى رواياته، وزوده هذا السطو على عمل أبيه بأولى نجاحاته الأدبية الكبيرة. لكن علينا ألا نستبق الأحداث.

فقد انتقلت أسرة فيديا وهو في السادسة من عمره من مدينة مدينة شاجواناس ذات الأغلبية الهندية، إلى مدينة «ميناء أسبانيا Port of Spain» وهي النقلة التي أثرت سلبيا عليه، ونزعته من قلب الهند المصغرة والثقافة الهندوسية، إلى عالم خلاسي غريب يعمره مزيج من البيض والزنوج، وتسيطر عليه ثقافة هجينة. ولذلك ركز فيديا الصغير في هذا العالم الغريب عليه همه في الدراسة والقراءة. وما أن بلغ الثامنة عشرة حتى كان قد تفوق في دراسته بشكل مكنه من الفوز بمنحة الحكومة الترينيدادية للدراسة الجامعية في بريطانيا عام ١٩٤٩. وفي عام ١٩٥٠، أي منذ نصف قرن بالتحديد جاء إلى بريطانيا التي بقي بها حتى الآن، والتحق بجامعة أكسفورد، ودرس بها الأدب الإنجليزي. وكان أبوه يكتب له مرة أو مرتين في الأسبوع، ويرد عليه بالطبع، في سلسلة من الرسائل التي نشرت قبل عامين بعنوان (خطابات بين أب وابنه Letters between A Father and Son) عام ١٩٩٩. وهي خطابات تزودنا بالكثير من الاستبصارات الدالة لا حول علاقة الابن بأبيه فحسب، ولكن حول الكثير من المؤثرات التي كان لها دور مهم في تكوين نايبول الكاتب، وفي صياغة مواقفه وتصوراته.



وتكشف لنا هذه الرسائل عن رغبة فيديا الباكرة في الهرب من عالم ترينيداد الضيق والمحدود. وعزمه على ألا يعود مرة أخرى إلى هذا العالم الخانق الذي تركه خلفه. لأنه كان يعي منذ وقت مبكر أن طبيعة المجتمع الذي تعيش فيه تصوغ نوعية التجارب التي تكتب عنها، وأن هناك بعض المجتمعات التي تتسم فيها المغامرة العقلية والمغامرة الاجتماعية معا بالمحدودية، وأن هذا هو حال المجتمع الترينيدادي. ولهذا كان يريد أن يهرب من هذه المحدودية منذ وقت مبكر. فقد كان شديد الشغف بأبيه الذي يشعر أن طموحه الأدبي قد انطمر تحت عبء مطالب الحياة اليومية لأسرة كبيرة العدد. وربما كان هذا هو السبب في إحجامه عن الإنجاب بالرغم من أنه تزوج مرتين. فقد أصر على ألا يتحمل مسئوليات أسرة تؤثر على طموحه الأدبي، كما قتلت مطالب الحياة الأسرية طموح أبيه. كما تكشف لنا هذه الرسائل عن طبيعة عالم المغتربين الهنود، وتقدم لنا سجلا حيا لحركية الأسرة الهندية من الداخل، ومدى حرصها على تعليم أبنائها وتربية مطامحهم ورعايتها حتى تتحقق. فالأسرة الهندية التي تطلع من هذه الرسائل بعلاقات أفرادها بعضهم بالبعض، أسرة شديدة التماسك، يحب أفرادها بعضهم البعض ويحرصون على بعضهم البعض. فالكتاب لا يتضمن رسائل الابن لأبيه، والأب لابنه فحسب، ولكنه يتضمن عددا من رسائل الابن لشقيقته الكبرى «كاملا» التي كانت قد تركت بيت الأسرة هي الأخرى، وذهبت للدراسة بجامعة بنارس الهندوسية.

كما تكشف الرسائل عن الشخصية الثانية التي يعدها مع الأب أهم وأعمق من أثرا في حياته، ألا وهي «باتريشيا هيل Patricia Hale» التي التقاها في أكسفورد، بعد عامين من وصوله إليها. وأقام علاقة وطيدة معها منذ عام ١٩٥٢. وكان يقرأ لها بين ١٩٥٢ و١٩٥٥ كل ما يكتبه، وكان أغلب ما يكتبه في هذه الفترة رديئا، كما يقول لنا. ويستمع بإخلاص إلى ردود فعلها ونصائحها، ويقدر لها صبرها، وقدرتها على اكتشاف الجيد فيما يقرأه عليها وفرزه من الخبيث الذي لا قيمة له. وقد تزوجها بعد ذلك. وظل يقرأ لها كل ما يكتبه حتى أيام من وفاتها عام ١٩٩٥. والواقع أن «فيديا» كان قد بدأ الكتابة منذ وصل إلى أكسفورد. وأنجز في العام الأول بها روايته الأولى (The Shadow'd Livery) التي سار فيها على نهج روايات إيفلين ووه واستقى منه أسلوب السرد والبناء فيها، وإن كانت الفكرة له، ورفض الناشر الرواية فرماها «فيديا»، وأصيب بالاكتئاب والإحباط لعام كامل. ثم كتب روايته الثانية التي لم تكن أفضل حظا من الأولى. ثم التقى بعد ذلك بباتريشيا التي أخذت تنبهه إلى مواطن القوة في نثره حتى ينميها، ومواطن الضعف حتى يتخلص منها.

وبعد ثلاث سنوات من الكتابة والقراءة المستمرة لباتريشيا، وبعد أن حصل على عمل في القسم الكاريبي بهيئة الإذاعة البريطانية، وأخذت بعض أعماله القصيرة في الظهور بها، قبل أول كتابين له للنشر دفعة واحدة، وهما رواية (المدلك الصوفي The Mystic Masseur) التي صدرت عام ١٩٥٧، ورواية (انتخابات ألفيرا The Suffrage of Alvira) التي صدرت عام ١٩٥٨. وما أن قبلت الروايتان، وإن لم تنشرا بعد، حتى عاد لأول مرة إلى ترينيداد عام ١٩٥٦. ولكنها لم تكن عودة سعيدة، بل تجربة مرة من المعاناة والعذاب. فقد أرجعته تلك العودة من جديد لمواجهة الفاقة والحرمان، وهو يلمس فقر الأسرة ومشاكلها الاقتصادية. وما أن عاد إلى بريطانيا بعد هذه الرحلة غير الموفقة حتى شرع في كتابة أهم روايات هذه المرحلة الباكرة في حياته الأدبية، وهي رواية (بيت للسيد بيسواس) التي تشكل نقلة جوهرية من هذا العالم المشغول بوطأة السياسي على الفرد والجماعة، وبعلاقات الهيمنة المتوترة بين البلدان المستقلة حديثا وبين المراكز الاستعمارية التي كانت خاضعة لها من قبل من ناحية، وبين الفرد والجماعة المحبطة في هذه البلدان من ناحية أخرى. وهي النقلة التي احتاجت إلى درس وتأمل طويلين من الكاتب. لأنه بعد أن عاد من زيارته لترينيداد بعد غيبة ست سنوات عنها، وبعد رحيل أبيه عن الحياة كذلك، لم يشرع في كتابة هذه الرواية المهمة على الفور، وإنما كتب قبلها كتابه (شارع ميجيل Miguel Street) عام ١٩٥٩. ويمكن اعتبار هذا الكتاب، و(علم على الجزيرة A Flag on the Island) عام ١٩٦٧ العملين اللذين ينطويان على المادة السردية التي ينهض منها عالمه كله. تفاصيل الحياة اليومية المألوفة في هذا العالم الكاريبي الرتيب الذي كان يعمر ذاكرة الشاب اليافع عندما غادر ترينيداد في الثامنة عشرة من عمره، والذي أعاد خلقه على الورق من الذاكرة. لأن بنية هذين العملين، اللذين ينطويان على أعماله السردية القصيرة، هي بنية ومضات الذاكرة التي تسعى الكلمات لاقتناص توهجاتها، وأسرها في شبكة الكلمات الدقيقة. وهي بنية سردية تجريبية تتغير فيها المنظور، وتتحول فيها المشاهد من خلال دقتها المشهدية ذاتها إلى استعارات مثقلة بالدلالات. إن نصوص هذين الكتابين القصيرة هي تجارب في اختبار دور الذاكرة، والخيال، والتاريخ، والميراث الثقافي، والوعي الفردي، وكيف يمتزج هذا كله في رؤية فردية ومتميزة. وهي تجارب في الكشف عن معضلة الإنسان الذي تدفعه مقادير الحياة إلى الافتقار إلى الرواسي والجذور في الآن نفسه، وهي التجربة الفلسفية والوجودية العميقة التي تنطوي عليها معظم أعمال نايبول السردية. وكان (شارع ميجيل) كان التدريب الأساسي الذي لابد منه للعمل على روايته الكبيرة (بيت للسيد بيسواس).

وتنهض هذه الرواية الكبيرة التي تقع في ستمائة صفحة، ويعتبرها كثير من دارسي نايبول أهم رواياته، بل واحدة من أهم روايات القرن العشرين، على مادة حياة أبيه الشخصية، وعلى شخصيته التي طالب ابنه يوما باستلهامها في عمل روائي. وهي رواية تتسم ببنية سردية متميزة حيث يلعب فيها الاستهلال والخاتمة دورا مفارقا للسرد ومرافقا له في آن. وتسعى أحداثها السردية الغنية، وراويها المتميز إلى تقديم عالم جنوب ترينيداد

قال عنه ديريك والكوت - الشاعر الكاريبي الذي فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٢ وهو مواطن لنايبول من جزر الهند الغربية هو الآخر - «إن نايبول لا يحب الزنوج، وقد أعلن أكثر من مرة أن أفريقيا قارة لا مستقبل لها». لذلك يدعوه الكاتب الهندي الشهير سلمان رشدي بالاستعماري الأدبي الجديد Literary neo-colonialist



وكأنه عالم رحب يمتد بامتداد قارة بأكملها، وليس مجرد جزء صغير من جزيرة صغيرة. لأن ثراء هذا العالم السردى يتيح له هذا العمق والنضج والاتساع معا.



بعد هذه الرواية الكبيرة كتب نايبول رواية أخرى تدور أحداثها فى لندن هى (السيد ستون وتابع الفارس Mr Stone and the Knight's Campanion) عام ١٩٦٣ يسعى فيها إلى تجسيد إنسانية السيد ستون، وهو رجل أعزب فى الثانية والستين من عمره، فى مجتمع يزرى بإنسانيته. ويعيش السيد ستون وحده فى بيت يقع بأحد أحياء لندن المحترمة، حياة تتسم بالدقة والصرامة، واحترام الوقت. تخضع حياته لروتين صارم لا يتغير، على مدار الأسبوع، بل وعلى مدار السنة. فأيام الأسبوع عنده تحددها فساتين الآنسة «مينزيس» التى ترتدى فستانا بعينه كل يوم من أيام الأسبوع، ولا تغير عاداتها فى ذلك أبدا. أما طقوسه السنوية فإنها لاتتغير هى الأخرى، فهو يقضى عطلاته الصيفية فى أوروبا، ويقضى عطلة عيد الميلاد مع أخته «أوليف»، وحفلة الكريسماس لدى عائلة «توملينسون». بصورة يبدو معها وكأنه يعيش فى عالم قد توقف فيه الزمن. وأخذت العادات والطقوس فيه تقوم بدور عقارب ساعة كونية لا تتغير دورتها. وتتحقق إنسانية السيد «ستون» من خلال اخضاع كل شىء للتساؤل المستمر، ومراقبة السلوك والاتجاهات، والتحرر من ربقة العادات الآسرة، والوعى بالنظام وأهمية الحياد فى الحكم على الأشياء. وتقيم الرواية مقابلتها بين عالم المكتب الصاخب الذى يعمل فى «ستون» وعالم البيت الهادئ الرخى الحميم المعزول. فالرواية توشك من حيث بنائها أن تكون قصيدة روائية بالغة العذوبة والإيقاع. بقدر ما يتقدم فيها السرد بقدر ما تتخلق دلالاته الرمزية والاستعارية، بحيث يتحول السيد «ستون» إلى استعادة قادرة على بلورة جوهر الإنسان الغربى المعاصر ومحنته فى آن.

وفى نفس العام الذى صدرت فيه هذه الرواية نشر نايبول كذلك أولى كتبه المغايرة، وهى تلك التى تمتزج فيها الرحلة، بالسرد شبه القصصى، بالمواد الوثائقية والتاريخية. فقد طلب منه إيرك وليامز، رئيس وزراء ترينيداد فى ذلك الوقت، أن يكتب كتابا عن منطقة البحر الكاريبى. وكان نتيجة هذا الطلب أن كتب (الممر الأوسط: انطباعات عن خمسة مجتمعات: بريطانية وفرنسية وهولندية فى جزر الهند الشرقية وأمريكا الجنوبية) عام ١٩٦٣. وهو كتاب أعقبته كتب عديدة من هذا النوع الذى يمكن تسميته بانه نص أدبى مابعد حداثى تمتزج فيه الأجناس الأدبية، حيث يكتب فيه التاريخ بمقدرة القصصى وبصيرته، وتكتب فيها الاسكتشات القصصية ببراعة الصحفى المولع بالتوثيق والمفارقات، وتكتب فيه التعليقات السياسية بلغة الأديب التهكمية اللاذعة، ويتحول فيه أدب الرحلة إلى نوع من السرد الأدبى الراقى الذى تبلغ فيه اللغة درجة عالية من الصفاء والبلاغة، ويمتزج هذا كله فى خليط بعد حداثى لايعرف الحدود بين أجناس الكتابة المختلفة، ويتعمد خلط الأوراق الأدبية جميعها. ويوشك صدور هذا الكتاب أن يكون بمثابة مفترق الطرق فى مسيرة نايبول الأدبية. لأن إنتاجه بعد ذلك توزع بين كتابة هذا النوع الجديد من الكتب، وبين كتابة بعض الروايات والمجموعات القصصية على فترات متباعدة. وقبل أن أنتقل إلى هذا القسم المغاير من إنتاجه الأدبى، سأستعرض بإيجاز بقية أعماله القصصية والروائية. وأهم هذه الأعمال هى (فى دولة حرة In a Free State) ١٩٧١، و(فدائيون Guerrillas) عام ١٩٧٥ و(منحنى النهر A Bend in the River) ١٩٧٩، و(العثور على المركز Finding the Centre) ١٩٨٤ و(أحجية الوصول) ١٩٨٧، و(طريق فى العالم A Way in the World) ١٩٩٤، و(نصف حياة Half a Life) ٢٠٠١.



وإذا كانت الأعمال الروائية الأولى تسعى إلى استقصاء الجدل بين وعى الذات بانها واقعة فى شرك عالم مشدود بين الواقع السياسى وبين استحالة تحقق الذات الباحثة عن خلاص يحفظ لها كبرياءها وكرامتها، فإن (فدائيون) و(منحنى النهر) تستوعبان العالم السياسى والاجتماعى ضمن سعى الفرد الوجودى لتحقيق كينونته الفردية. وتمحيان فى سبيل ذلك الخط الفاصل بين الذاتى والموضوعى، بين الفردى والجمعى، بين السياسى والفلسفى. فى محاولة «للعثور على المركز» الذى طالما طالبه أبوه بالبحث عنه فى داخل الذات وليس خارجها. لذلك يتكون (العثور على المركز) من نصين سرديين متوازيين ومتكاملين معا. أولهما هو «مقدمة لسيرة ذاتية» وهو كما يؤكد العنوان سجل لسيرة غير مكتملة بالطبع، فكل سعى إنسانى ناقص بسبب نقص القدرة البشرية وإدراكها لمحدودية إمكانياتها، وهو إدراك لا يتحقق إلا مع نضج انتهاء الكهولة والاقتراب من عتبات الشيخوخة. وثانيهما هو «تماسيح ياموسوكرو» يجسد لنا بحث الكاتب عن المعنى من خلال الترحال وجوب الآفاق وتوسيع مداركه وإحساسه ومعرفته بالعالم المحيط به، وهو ترحال يعرض الذات أو بالأحرى يدخلها فى التجربة بالمعنى المسيحى لهذا التعبير، أو بالأحرى بالنقيض المسيحى الذى يتضرع للرب الا يدخلنا فى التجربة. وتدور التجربة هذه المرة فى عالم غريب نسبيا على عوالم نايبول، وهو «ساحل العاج» فى قلب القارة الأفريقية. وهى موقع تجربة (فى دولة حرة) كذلك التى تدور أحداثها هى الأخرى فى افريقيا، وتقع بعض وقائعها فى القاهرة والأقصر. ولابد أن وقوع الكثير من أحداث هذه الرواية فى مصر سيرشحها للترجمة للعربية فى موجة ترجمات أعمال الفائزين بنوبل للعربية كالعادة. حيث تجد الذات أنها ليست مشدودة إلى مماثليها، وإنما إلى نقائضها. ومع ذلك فإن هذه النقائض البادية تسعى هى الأخرى لمعرفة منطق هذا العالم الخالى من المنطق. والواقع أن تجربة (العثور على المركز) الشيقة هى تجربة تفكيك الذات الكاتبة نفسها. وهى تجربة ما بعد حداثية بكل معنى الكلمة.

لذلك كان من الطبيعى أن تكون رواية نايبول الكبيرة التالية هى رواية (أحجية الوصول) وهى أكثر رواياته التصاقا بسيرته الذاتية. أو هى الرواية التى تنمحى فيها الفواصل بين الرواية والسيرة الذاتية، لأنها فى حقيقة الأمر رواية بكل معانى الكلمة وإن اعتمدت على الكثير من تفاصيل سيرته الذاتية. أو بالأحرى هى الرواية التى تختبر حدود التجربة الروائية ذاتها، وتوسع هذه الحدود إلى أقصى درجة، وتستخدم هذا كله لمساءلة العالم وطرح قضايا الموت والكمال والفن والتحقق. وراوى هذه الرواية الكبيرة وبطلها هو بالطبع كاتب من ترينيداد يعيش فى بيت ريفى كبير فى انجلترا. ولكنه فى حقيقة الأمر شخصية مزدوجة، تلعب دور الكاتب والمراقب لعملية الكتابة معا. وتتأمل معنى البداية والنهاية فى الكتابة الروائية، بقدر ما تجسد أحداثها طبيعتهما فى الحياة والكون. لأن الكاتب يقترح عدة بدايات محتملة لروايته، ويطرحها للجدل داخل الرواية نفسها، ولكنه مدرك فى الوقت نفسه، أنه ما أن يختار البداية حتى يهرع السرد بعدها إلى نهايته الحتمية. فليس لدى الكاتب ترف اختيار النهايات، كما هو الأمر مع البدايات. وتتجاوز أسئلة الرواية عن العملية الإبداعية حدود البداية والنهاية. لأن الراوى فيها لا يروى عن البطل، بقدر ما يسعى لاستكناه حقيقة الكاتب، وطبيعة العملية الإبداعية ذاتها. فالرواية فى مستوى من مستويات الدلالة فيها هى رواية كاتب يجعل نفسه شخصية روايته الأساسية للتغلغل فى أعماق الشخصية، وأعماق ذاته فى آن. حتى يحل من خلال هذه العملية معضلة الشخصية وحيرة الكاتب معا، فى إدراك معنى الحياة ومعنى الفن ومعنى الوجود. ولا يتساءل الإنسان عادة عن هذه المعانى الكبيرة إلا عندما يفاجأ بصدمة الموت القاسية. والواقع أن صدمة موت «ساتى» ـ شقيقة نايبول الأصغر منه مباشرة ـــ عام ١٩٨٤ هى التى دفعته إلى كتابة هذه الرواية، وكأنه يدرأ بالكتابة عن نفسه الموت، كما فعلت شهرزاد بقصها. وقبل أن ينتهى منها يختطف الموت شقيقه الوحيد «شيفا» عام ١٩٨٥، والذى كان هو الآخر كاتبا نشر سبعة كتب.

آخر روايات نايبول، والتى كتبها بعد انقطاع عن الرواية لسبع سنوات، ونشرت قبل شهرين، هى رواية (نصف حياة). تدور داخل عالمه العقلى والروائى الأثير، عن عالم البشر الذين يعيشون حياة غير متحققة، كما يوحى العنوان.وعن الحياة التى نتوق إليها، ولا نتمكن أبدا من أن نحياها برغم شدة توقنا إليها وإخلاصنا فى هذا التوق. وتدور فى إحدى ولايات الهند المستقلة التى كان يسوسها مهراجا حرم نشاطات حركة الاستقلال، ثم تنتقل بأحداثها إلى الخمسينيات، ومرحلة ما بعد الاستقلال، ثم إلى أفريقيا البرتغالية بعد ذلك. ويهفو بطل الرواية إلى تحقيق التفرد والتميز فى عالم كئيب، وينحدر من أسرة من طبقة الكهنة الهندوسيين، ولكن أباه اعتنق تعاليم غاندى، وتزوج امرأة من طائفة اجتماعية أدنى، فينعزلان معا عن طبقتيهما، فلا طبقته الأعلى تقبل زوجته، ولا طبقة الزوجة الأدنى تقبل زواجها من خارج طائفتها. أما الابن «ويلى» وهو بطل الرواية فإنه مشحون بنوع من الغضب التاريخى للإهانات التى عانت منها أمه بسبب رفض طائفة أبيه لها. ويتوجه «ويلى» إلى انجلترا للدراسة، ويعمل فيها فى هيئة الإذاعة البريطانية، ويندمج فى مجتمع المهاجرين الهنود بلندن. وتجسد الرواية حياة منطقة «نوتينج هيل» البوهيمية فى الخمسينيات بباراتها وملاهيها وبداية مرحلة الانطلاقة الجنسية فيها. وتشكل هذه المغامرات عصب الرواية لأنها تكتشف أهمية الجنس فى حياة الإنسان، وتكشف فى الوقت نفسه عن غربة الإنسان حتى فى أكثر لحظاته الحميمة. وحينما تندلع أحداث الشغب العنصرية الشهيرة فى «نوتينج هيل» يقرر ترك لندن، ويذهب مع «أنا» التى تعرف عليها فى هذه المرحلة إلى أفريقيا البرتغالية التى جاءت منها، وإلى المزرعة التى تركها لها جدها الاستعمارى فيها. وهناك يكتشف «ويلى» الجنس من جديد ويغوص فى عوالمه، لا مع «أنا» فحسب، وإنما مع زوجة مدير مزرعتها، ثم مع العاهرات الأفريقيات الصبايا اللواتى لم يتجاوزن الرابعة عشرة من العمر. وتوشك هذه الرواية أن تكون دراسة نايبول الحميمة للجنس، وأن تكشف لنا فى الوقت نفسه عن سر تعلقه بزوجته الجديدة «نظيرة» التى تزوجها بعد عام واحد من رحيل زوجته الأولى «باتريشيا». وهذه مسألة سأعود إليها بعد قليل.

لكننى أود أن ألتفت الآن، وبعدما أكملت تناولى الموجز، بأى معيار من المعايير، لروايات نايبول التى

منذ نصف قرن بالتحديد
جاء إلى بريطانيا التى بقى بها حتى الآن،
والتحق بجامعة أكسفورد، ودرس بها الأدب الإنجليزى.
وكان أبوه يكتب له مرة أو مرتين فى الأسبوع، فى سلسلة
من الرسائل التى نشرت قبل عامين بعنوان (خطابات
بين أب وابنه وقد لعبت دورا مهما فى تكوين
نايبول وفى صياغة مواقفه وتصوراته



تشكل إنجازه الأدبى الجديد بالتقدير والاهتمام، إلى تناول الجانب الآخر من نشاطه الأدبى، والذى استأثر بما يقرب من نصف كتبه الخمسة والعشرين. ألا وهى تلك الكتب التى يمزج فيها بين صيغ الكتابة المختلفة والتى تقترب من الاستقصاءات التى تدور حول الرحلات واكتشاف الثقافات، والبحث فى الوقت نفسه عن هويته وماهيته وجذوره. والواقع أن هناك ثلاث مناطق أساسية خصها نايبول باستقصاءاته، ويمكن أن نقول إنها كلها تتمحور حول بحثه عن جذوره الهندية، أو هويته الأنجلوهندية إن شئنا الدقة. هذه المناطق الثلاثة هى منطقة البحر الكاريبى، أو جزر الهند الغربية التى انحدر منها، والهند، وعالم آسيا الإسلامى الذى يمتد من أندونيسيا حتى إيران. وقد كتب أكثر من عمل عن كل منطقة من هذه المناطق الثلاثة. بدأ أولا بمنطقة الكاريبى حيث كتب (الممر الأوسط: انطباعات عن خمسة مجتمعات: بريطانية وفرنسية وهولندية فى جزر الهند الشرقية وأمريكا الجنوبية The Middle Passage: Impressions of Five Societies: British, French and Duch in the West Indies and South America) ثم (فقدان الدورادو The Loss of Aldorado) عام ١٩٦٩، وأخيرا (زيارة منطقة الكاريبى من جديد The Caribbean Revisited) عام ١٩٩٥ ثم انتقل للهند حيث كتب عنها ثلاثة أعمال هى: (منطقة من الظلمة An Area of Darkness) عام ١٩٦٤، و(الهند: حضارة جريحة India: A Wounded Civilisation) عام ١٩٧٧، و(الهند: ألف عصيان لحد الآن India: A Million Mutinies Now) وبعد ذلك العالم الإسلامى الآسيوى الذى خصه بعملين أولهما (بين المؤمنين: رحلة إسلامية Among Believers: An Islamic Journey) عام ١٩٨١، وثانيهما (ما وراء الإيمان: رحلات بين من اعتنقوا الإسلام Beyond Belief: Islamic Excursions among Converted People) عام ١٩٩٨. هذا فضلا عن عدد من الكتب التى ضم فيها مقالاته المختلفة والتى تتناول الكثير من جوانب هذه المناطق الثلاثة إلى جانب أفريقيا وعدد من بلدانها المختلفة.

وإذا كان من العسير علينا هنا أن نتوقف عند هذه الكتب العديدة التى تناول فيها كل هذه المجتمعات المختلفة بشكل تفصيلى، والتى تكشف عن رؤاه الفكرية وتصوراته المثيرة للخلاف حولها، فلابد من استعراض بعض آرائه المثيرة للجدل بشأنها بصورة موجزة. لأن هذا الجانب الخلافى من نشاط نايبول الأدبى يحتاج إلى أكثر من وقفة متريثة إزاءه.

والواقع أن نايبول لم يتخل فى تناوله للهند عن طرح العديد من آرائه المتخلفة والمستهجنة عن نظام الطوائف الاجتماعية الهندى، ورغبته فى الحفاظ عليه، برغم وعيه بقسوته الجارحة. لأنه يعتقد أن الهند لا يصلح فيها الوعى الغربى بالفردية. ولا تحب أن تسمح للفرد بحرية الحراك الاجتماعى، فلابد أن يتحرك الفرد فيها مع قبيلته أو طائفته برمتها. لأن القبيلة هى التى تحمى الفرد فى هذا العالم الصعب. ويؤكد فى هذا المجال على أن كارثة الهند الكبرى لم تكن الاستعمار البريطانى، وإنما خمسمائة عام من الغزو الإسلامى والدمار. وأن محاولة تجميل هذا الغزو الدامى، وإضفاء أى صيغة إيجابية عليه تؤدى إلى فقدان الهند لتاريخها. وأن من الزيف أن نقول بأن المسلمين علموا الهنود فن الطهى أو أهمية النظافة، بدلا من الكشف عن حقيقة الدمار الفادح الذى ألحقوه بها، ولاتزال آثاره الدامية فاعلة فيها حتى الآن. فقد دمروا الحضارة الهندية تدميرا ماحقا. دمروا كل شىء، وحكموا الهند بالحديد والنار، وساموا أهلها العذاب، واستعبدوا القرويين وباعوهم فى أسواق النخاسة. وإذا لم يجئ الانجليز إلى الهند، فإن الهند كانت خربت تماما، وتحولت إلى أطلال دارسة. ويعتقد نايبول أن تدمير الإسلام للهند كان تدميرا كاملا، بحيث إنها، وبعد مائتى سنة من إنقاذ بريطانيا لها من براثن الإسلام لاتزال مضعضعة وجريحة، أو بالأحرى «حضارة جريحة» كما يقول عنوان كتابه الثانى عنها.

أما إذا ما انتقلنا إلى العملين اللذين كتبهما عن البلدان الإسلامية الآسيوية، فإن القارئ المسلم ما يلبث أن يشعر بالغم والغيظ عندما يقرأ أيا من هذين الكتابين. ليس فقط لأن نايبول كاتب ذكى حاذق يوظف قدرته اللغوية الراقية، وموهبته فى سرد الوقائع وتصوير الشخصيات، وقدرته على التهكم وبلورة المفارقات، للزراية بكل ما يراه فى العالم الإسلامى، ولكشف ما تنطوى عليه الشخصيات والمواقف من نفاق وتناقض، ولكن أيضا لأنه يعى أنه يكتب لقارئ غربى مستنير، يشاركه الكاتب منظومة معتقداته العقلية وتصوراته الإنسانية التى ترسخت منذ مسيرة النهضة الأوروبية، ويكشف له مدى تناقض كل ما هو إسلامى، من خلال أقوال المسلمين وتصرفاتهم، مع الأسس العقلية والفكرية للحداثة الغربية. ومما يزيد غيظ المسلم وحنقه على كتاباته أن كثيرا مما يطرحه عن واقع المجتمعات المسلمة وتخلفها فيه قدر كبير من الصدق، ومقدار لابأس به من التجنى. ولكن القارئ الغربى لايستطيع التمييز بين الاثنين. ويتصور بسبب

نايبول: لا أنتقد الدين

■■ جاء فوز نايبول بجائزة نوبل لعام ٢٠٠١ ليكون حلقة أخرى فى سلسلة الكُتَّاب الذين أثار فوزهم بالجائزة جدلاً سياسياً مثل الصينى جاو كسينجيان والإيطالى داريوفو والألمانى جونترجراس. بل يثير فوز نايبول بالجائزة ـ وقد رُشح لنيلها منذ سنوات عديدة ـ حساسية سياسية خاصة بالتحديد لما يحمله كتاباه «ما وراء الإيمان» و«بين المؤمنين» من آراء عنصرية ومواقفه الناقدة للأصولية الإسلامية.

فى عام ١٩٩٨ نشرت دار نشر Random house فى لندن كتاب نايبول الشهير «ما وراء الإيمان: رحلة إسلامية بين المتحولين لدين جديد» وهو كتابه الثالث والعشرين ويعد تكملة لكتابه «بين المؤمنين: رحلة إسلامية» الذى نشره عام ١٩٨١ وأجرت مجلة random@ وهى مجلة تصدر على شبكة الإنترنت وتابعة لدار النشر المذكورة مع الكاتب الشهير، هذا الحديث فى شهر يونيو من العام ذاته. وهذه فقرات من هذا الحديث الطويل تعكس اتجاهاته العرقية وتحلل موقفه من الإسلام كما جاء فى كتابيه، أجرى الحديث فى دلهى الكاتب الهندى تارون ج.تيجبال محرر مجلة Outlook الهندية.

* لقد زرت الهند لأول مرة منذ خمسة وثلاثين عاماً. وعدت بعد ذلك مراراً سواء للكتابة أو لقضاء الإجازة. ما هو مصدر ولعك المستمر بالهند؟

ـ إنها فى الحقيقة تمثل جذورى. إن أسلافى قد ولدوا هنا. ورغم ذلك فقد ولدت لا أعلم شيئاً عنهم خارج حدود أجدادى لأبى وأمى. لم أستطع أن أتطلع لما وراء ذلك. لقد أتيح لى فقط الرجوع قليلاً إلى عائلة جدى لأمى. وبالنسبة لباقى العائلة كان الأمر مجرد ظلام مطلق. إننى حقيقة أحاول أن أكتشف ما أسميه بمنطقة الظلام.

* هلا رجعت بذاكرتك للوراء، ولننقل لعام ١٩٥٠، وهو العام الذى انتقلت فيه للندن، خبرنا ماذا كان عليه ف.س.نايبول حينذاك. لابد أنك كنت صبياً عصابياً يرتحل عبر البحار إلى بلاد غريبة تماماً ساعياً لتحقيق طموحه. أعطنا لمحة عما كان يبحث عنه ذلك الصبى ذو الثمانية عشر عاماً؟

ـ حسناً، نعم، لقد أردت أن أكون مشهوراً للغاية. لقد أردت أيضاً أن أكون كاتباً: أن أكون مشهوراً بسبب كتابتى. ولكن لغرابة الأمر، لم يكن فى ذلك الوقت لدى أية فكرة عما أريد أن أكتب عنه، لقد كانت أسرتى فقيرة للغاية، ولهذا فقد سعيت بجهد للفوز بمنحة دراسية لانجلترا. وكان ذلك أمرا صعبا للغاية، فالحكومة البريطانية المستعمرة لترينداد هى المسئولة عن المنحة، وكان يفوز بها عدد قليل للغاية، ربما فاز بها ثلاثة أو أربعة بعد حصولى عليها. لقد أردت دراسة الانجليزية فى أكسفورد، ليس بسبب الانجليزية أو بسبب أكسفورد، ولكن لأنها كانت بعيدة عن ترينداد، ولأننى ظننت أننى قد أعرف شيئاً ما عن ذاتى، وأن أجد مادة لكتابتى. لقد جئت انجلترا يملؤنى الطموح والجهل، وهناك أمر آخر هام للغاية. لقد كنت مضطهدًا بفكرة حقارة حياتى فى بلد مستعمر. لقد كنت مضطهداً أيضاً لسبب آخر يتعلق بشكل خاص بأسرتى الهندية الهندوسية، وهى المنازعات الأسرية. لقد كان الناس هناك يحكمون ويدينون بعضهم الآخر بناء على أسس أخلاقية. لم يكن مجتمعاً متسامحاً ـ لا العالم الاستعمارى ولا العالم المحدود الذى نشأت فيه، العالم الهندوسى. ولهذا فقد أردت الذهاب بعيداً. لقد كان لدى تصور بأن الناس فى العالم الخارجى الأوسع يقدّرون بسبب كينونتهم. لقد عانيت لسنوات من الفقر الشديد، وعانيت كثيراً لكى أجد عملاً، أو مكاناً لأعيش فيه، أو حتى لكى أجد صوتى الخاص.

* أنجزت ثلاثة كتب عن الهند فى الخمس والثلاثين سنة الماضية. منطقة مظلمة ١٩٦٤، الهند: حضارة مجروحة ١٩٧٧، والهند: مليون متمرد الآن ١٩٩٠، وكلها تحمل ردود فعل متباينة أغلبها غاضبة تجاه الهند، كيف تعلق على ذلك فى ضوء رؤيتك لانبعاث جديد للهندوسية فى الهند، خاصة بعد وصول حزب أصولى للحكم.

ـ حسناً الانبعاث الهندوسى والأصولية، إن أفكارى حول هذا الموضوع معقدة للغاية. لابد أن نعود إلى حضارة مجروحة، حيث كانت رؤيتى أن الهند القديمة قد تدمرت تقريباً بسبب الغزو الإسلامى، وما يحدث الآن منذ مجىء البريطانيين والاستقلال الذى حدث لاحقاً، كان فقط مجرد نوع من الحياة الهندوسية، ولا يمكن أن نسميه انبعاثاً جديداً. والنهضة ليست فى الحقيقة نهضة بسبب الهندوسية ومعتقداتها، لقد جاءتنا النهضة بشكل غير مباشر من أوروبا. نحن مجرد مظهر للنهضة الأوروبية. لقد مات العالم القديم. ليس معنى هذا أنى لا أهتم به. ولكنى أعنى أنى أريده أن

مهارة السرد وحشد التفاصيل الحسية التي يوظف فيها الكاتب مهاراته السردية، أن كل ما يقدمه له نايبول هو تصوير محايد للواقع الذى يتجول فى فيافيه، وللشخصيات والأحداث التى صادفها فى رحلاته.

والواقع أن براعة نايبول الأسلوبية، واستخدامه لبلاغة اللغة الإنجليزية التى تعتمد على المفارقات والالتفات والتهكم وازدواجية الدلالات هى التى تجعل هجومه على الإسلام فعالا. لأن هذه البراعة الأسلوبية هى أداته لدس السم فى العسل، عسل الوصف الشيق الذى يتالق فيه المشهد وتنبض الشخصية بالحياة من فوق الورق. لنكتشف كيف يخدعه المسلم كأى نصاب محترف، ثم يدير له ظهره ويتوجه للمسجد للصلاة، وكيف يكذب عليه فى وضح النهار، ثم يرفض أن يتناول الطعام لأنه صائم. ويخلص من هذه الملاحظات التى تملأ كتابيه، إلى أنه «ليس ثمة دين أكثر اهتماما بالحياة الدنيوية من الإسلام، وليس ثمة دين آخر يفتح أعين الإنسان على كيف تدور الأمور فى الواقع والمجتمع.... وقد حاولت أن أكتشف كيف يمكن للإسلام أن يتجاوز أمور العبادات والطقوس، وأن يصبح خلاقا وثوريا، وأن يتجاوز المعتقدات الدينية، ويمهد لنهضة حقيقية تنفتح على الجديد وتثرى به، كما كان الحال مع المسلمين فى أيام مجدهم الغابرة.... لكن الإسلاميين بتصورهم غير التاريخى يخافون من التلوث بأفكار الآخرين دون أن يقدموا البديل. وهم يكتفون بدفع البشر لدين ينهض على الإذعان وينتهك الأساسيات الإنسانية البسيطة، ولايستطيع أن يحمى المسلمين من بقية العالم أو يقيم سورا بينهم وبينه» (بين المؤمنين ص ١٦٧).

إن الرد الحقيقى على نايبول فى هذا المجال لابد أن يتم باللغة الإنجليزية التى يؤثر فيها وبها أولا، وعلى أرض العقل والمنطق التى يقيم عليها محاجاته ثانيا. لأن نايبول كاتب يتسم بحدة الذكاء والعجرفة معا. ولم تهزه حقا إلا تلك الحملة التى شنها عليه واحد من أخلص أتباعه له ألا وهو الكاتب الأمريكى المرموق بول ثورو Paul Theroux الذى كتب عنه كتابا مثيرا، فيما يقرب من أربعمائة صفحة، بعنوان (ظل السير ڤيديا: صداقة عبر خمس قارات Sir Vidia's Shadow: A Friendship in Five Continents) عام ١٩٩٨. وكان بول ثورو قد التقى نايبول لأول مرة فى أوغندا فى الستينيات، وكان من أشد المعجبين به، واستطاع أن يستأثر باهتمام نايبول وأن يصبح أحد أصدقائه المقربين. وكتب عنه بعد صداقة وطيدة وطويلة كتابا جميلا بعنوان (ڤ.س. نايبول: مقدمة لأعماله V. S. Naipaul: An Introduction to His Work) عام ١٩٧٢ حلل فيها أعماله الروائية بشكل يتسم بالعمق والحساسية. لكنه وبعد وفاة زوجة نايبول الأولى، ولقائه عام ١٩٩٦ بالصحفية الباكستانية نظيرة هانم علوى Nadira Khannum Alvi وزواجه منها بعد ذلك بوقت قصير، حدثت الفرقة بينهم. لأنه ما أن جاءت نظيرة إلى بيت نايبول فى مقاطعة ويلتشاير حتى أخذت - كأى امرأة تريد التخلص من آثار المرأة السابقة وأشباحها التى لاتزال تعمر البيت - فى الاستغناء عن كثير مما فى المنزل، بما فى ذلك عدد من الكتب التى كانت به، والتى أهداها أصدقاؤه له. ولما اكتشف بول ثورو أحد كتبه التى أهداها فى طبعتها الأولى لنايبول يباع فى مزاد علنى فى نيويورك، وقد بدأت المزايدة عليه بألف وخمسمائة دولار بسبب أهمية الإهداء، حتى ثارت ثائرته. وانقلب على أستاذه السابق، خاصة عندما انحاز الأستاذ إلى صف زوجته الجديدة ضد تلميذه الوفى، ورفض الإنصات لشكواه.

ويكشف لنا هذا الكتاب الشيق الذى كتبه ثورو، والذى يذكرنا بفصول من «ديوان» العقاد والمازنى، أو «على السفود» للرافعى وغير ذلك من كتب المعارك الأدبية الحامية الوطيس، صفحات مطوية من تاريخ الأستاذ وتصرفاته. ومدى شعوره الداخلى بالمرارة والغرور معا، وتصرفاته التى تتسم بالعجرفة إلى حد أنه رفض أن يخلع حذاءه قبل أن يدخل أحد المعابد فى الهند، لأنه دائما يشكو من قذارة الهند وتفشى الأمراض فيها. فهو إنسان يتسم بضيق الخلق وعدم التسامح.

والواقع أنه إذا كانت كتابات نايبول غير الروائية خاصة كتابات مترعة بالعنف الرمزى الناجم عن التحيز والتعصب وضيق الأفق المدعوم بقدرة خارقة على توظيف اللغة ببراعة لخدمة هذه التحيزات وتبريرها. فإن هذا الكتاب هو نوع من الرد عليها بلغتها وأسلوبها معا. وهو كتاب يستحق أن نتوقف عنده هو الآخر لأنه يكشف لنا عن حقيقة كل من نايبول وبول ثورو معا. والغريب أن تمكن نايبول الشديد من اللغة والقدرة الخارقة على التحكم فيها، وهى كما رأينا بنت تاريخ طويل من المراس والدأب، لم توفر له تلك الطمأنينة وراحة النفس التى يمكن أن ترتوى من القدرة على امتلاك اللغة ومطاوعتها له، وإنما زادت من حدة مزاجه، وضيق أفقه، وإحساسه بالغرور والغطرسة. وهذا هو ما جعل فوزه بالجائزة إشكاليا، وما نال من قيمة إنجازه الأدبى الكبير. ■

بـل الـظـروف والمـؤثـرات!

تارون ج. تيجبال

يدرس، أن نقترب منه بكثير من الرهبة، بكثير من التوقير.

* ما الذى أطلق شرارة كتابك الجديد حول الإسلام (ما وراء الإيمان)، وهو كتابك الثانى حول هذا الموضوع، بعد سبعة عشر عاماً؟

- حسناً، إن كل أعمالى تحمل علاقة ما، كل كتاب له علاقة بما يليه. كل شىء يبدأ بمرجعيتى الخاصة. إنى أستكشف لكى أحاول أن أكتشف كل أوجه تلك الخلفية تاريخ العالم الجديد، أفريقيا، إنجلترا، الكثير عن الهند، ثم العالم الإسلامى: العالم الإسلامى خارج حدوده العربية. لقد حفزنى أمران لتأليف هذا الكتاب، الأول: هو أن أنظر مرة ثانية للدول التى ذكرتها فى «بين المؤمنين». الأمر الثانى: هو أن أنقل شيئًا ما من الهند حضارة مجروحة، لأن الجرح الذى وصفته فى هذا الكتاب كان جرح الغزو الإسلامى، الذى لم تشف منه الهند حتى الآن، كما أشعر، ولقد قادنى هذا الدافع فى هذا الكتاب، خلال أسفارى، إلى فهم الحالة العصابية المصاحبة للتحول لدين آخر. إن الإسلام فى جذوره دين عربى بالضرورة. هؤلاء الذين ليسوا عربًا وأصبحوا مسلمين ينظر إليهم العرب بوصفهم متحولين، و الحالة العصابية الملازمة لذلك تجىء من حقيقة أن الإسلام ليس دينا يتمتع الفرد فيه بالوعى الشخصى. إنه ليس فقط مسالة تأمل، إنه دين إعلان و تصريح، إنه دين القوانين، بالالتزام الصارم برسول يعد رسولاً خاتمًا. إنه أمر لا يشابهه أى شىء آخر، دعنا نقول، فى الهند ودياناتها القديمة. حينما يصبح شخص ما خارج العالم العربى مسلماً، فإن إيمانه يتطلب منه أن ينبذ كل ماضيه. وبطريقة مشوقة، إذن، فإن ذلك يعد معارضاً للأفكار الحديثة عن التراث، الأفكار الحديثة عن التاريخ والبحث. إن الماضى منفى، وعينى المتحول مثبتتان على مكة: إن ذلك كل ما يشغله. إن البقايا-ليس البقايا، أعنى الأماكن المقدسة فى مكة تصبح هى أماكنه المقدسة، وليس هناك أماكن مقدسة خارجها. إن هذا منتهى الاضطراب العصابى، نبذ كل ما يمثله المرء، كل ما يناضل من أجله. إنه نوع عميق من الكولونيالية، يجب على المرء القول، بل وأعمق لأنه ينطوى على عقوبة دينية.

* هل هذا أمر لصيق بالإسلام، أم أنه الاضطراب العصابى لكل المتحولين من دين لآخر؟

- حسنا، لقد تسنى لى فقط دراسة نوعين من التحولات. واحد وهو أهم التحولات فى العالم القديم-و هو تحول العالم من الأديان الكلاسيكية إلى المسيحية، حينما تحول ما يسمون بالوثنيين إلى المسيحية، لقد كان عليهم أن يتخلوا عن معتقداتهم القديمة، ولقد فعلوا ذلك بسهولة تماماً، لأن الأديان الجديدة-سواء الإسلام أو المسيحية كانت مليئة بالأفكار الاجتماعية التى لم تحظ بها الأديان القديمة أبداً. إن أفكاراً مثل الإخاء و فعل الخير و السماحة، فى الحقيقة لم توجد فى ديانة مثل الهندوسية. ولهذا فإن هناك شيئًا ما راديكاليا حول التحول إلى الدين المكتشف بقواعده الجديدة. إن الأمر لا يتعلق بالإسلام وحده. ما أفترض أنه أمر متعلق بالإسلام هو هذا الرفض للتاريخ، التاريخ الشخصى للفرد. هذا الإصرار على أن تكون اللغة المقدسة هى اللغة العربية.

فى ماليزيا هناك الآن جماعة متعصبة تريد أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى ماليزيا. إنها جماعة صغيرة ولكنها تمثل الطريقة التى يمكن أن يتحرك بها المتحولون.

* وهذا النوع من الانفصال، هل يخلق كل أشكال التصدع فى المجتمع؟

- نعم، أعتقد أنك بمجرد أن تبدأ، بمجرد أن تفكر أن تكون متحولاً مثل ذلك، لا يمكن أن تكون مواطناً جيداً أو نقياً بدرجة كافية. ولقد وجدت ذلك أمراً مستحيلاً، حتى فى ماليزيا عام ١٩٧٩، حينما كان الناس يحاولون أن يتخلصوا من ماضيهم الشخصى لأن الأمر عندئذ يبدو وكأنك تحاول أن تجعل نفسك مجوفاً من الداخل مثل كوب فارغ. لقد أرادوا التخلص من عاداتهم العتيقة، مثل عادات الزواج وهى مراسم هندوسية. وأعتقد أنه لو أن علىَّ أن أفكر فى استخدام كلمة للدين فى مكان مثل باكستان، فإنها سترتبط فى الحال بعلاقتها بالسلطة، إنها تستخدم أيضاً كصيغة تهديد.

* لقد سمعتك ذات مرة تقول أن الإسلام الآن بحاجة إلى نهضة. بأية طريقة تعتقد أن ذلك يمكن أن يحدث، إن كان ذلك ضرورياً، ولماذا هو ضرورى؟

إن هذا ما يوقعنا فى مشاكل فى الحال مع الأصوليين الذين يعتقدون أن ما قاله الرسول يجب أن يبقى ملزماً طوال الوقت، بغض النظر عن آلية التغير التى تحكم الحياة. إننا بشكل واضح بحاجة إلى أن ننظر إلى وضع المرأة، وفكرة التسامح مع الأديان الأخرى، التى يجب أن تكون جزءاً من الإسلام المنبعث من جديد. إن النمو والحياة الفكرية يمكن أن يحدثا فقط حينما يكون العقل متفتحاً. ولكن هنا، الأجوبة كلها قد منحت لك. ليس هناك مجال لمزيد من المناقشة، مما يجعل منها ثقافة مغايرة لأية ثقافة أخرى حية و لها القدرة على التكيف مع هذا أو ذاك.

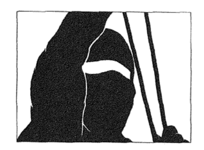
* هل تتوقع مع صدور هذا الكتاب الجديد أية مضايقات من المدافعين عن الإسلام؟

- لا أعتقد ذلك. أعتقد أن الناس قد ينتقدوننى، ولكننى حريص جداً ألا انتقد ديناً أو مبادئ دينية أبداً. إننى أتحدث الآن فقط عن المؤثرات الاجتماعية والتاريخية. كل الكتب معرضة للنقد، وهذا ما ينبغى أن يكون. ولكن هذا الكتاب، تذكر، ليس كتاب رأى. فى كتب الاكتشاف التى قمت بتأليفها، كنت أطور أو أعمل باتجاه صيغة أدبية جديدة، فبدلاً من أن يكون المسافر هو أكثر أهمية من الناس الذين يرتحل بينهم، فإن للناس أهميتهم أيضاً. إننى أكتب عن الناس الذين أقابلهم، أكتب عن تجاربهم. ولهذا، فإن هذا كتاب يعبر عن تجربة شخصية.

وسيكون من الصعب جداً أن تجد فيه نقيصة إذا ما قرأته بهذه الطريقة. لا يمكنك أن تقول أنه يسيء لأى شىء. إننى أختبر التجارب الإنسانية و أصنع نموذجاً للتجربة الشخصية. بطريقة ما، يمكنك ببساطة أن تقول أن هذا كتاب قصص، كتاب حكايات. ■

عن مجلة:
@ Random

ترجمة: رانية خلاّف



البـراءة والبسـاطة .. فن المقـاومـة

عندما تتضح الأمور وتسطع الحقائق يختفى اللون الرمادى، تختفى المساومة والمناورة والمداورة، وتسمية الأشياء بغير أسمائها، فى محاولة لتزييف الوعى وتجميل القبيح بإطلاق أسماء مراوغة على المواقف المائعة.

كل هذه الصفات هى العدو الأكبر للفن الحقيقى الصادق.. الفن البسيط.. البرىء.. البليغ.

والبساطة والبراءة هى حلم ومسعى كل الفنون وكل الفنانين، منذ «خَربَش» الإنسان الأول ولوَّن على جدران الكهوف، وحتى آخر محاولات الفنان الحديث لتجريد الأشكال وصولاً إلى جوهرها الإنسانى الذى يلمس الوجدان فيوقظه ويحركه.

ونحن هنا نشاهد حالة من «الصدق الفنى» تجلّت فى «بساطة» لوحات على شكل ملصقات كبيرة (٢٠٠سم × ١٤٠سم) نُفِّذَت بأسلوب القص واللصق (الكولاّج)، أنجزها طالبات وطلبة السنة الأولى فى كلية الهندسة بجامعة «بيرزيت» الفلسطينية، من خلال عمل جماعى استوحاه الطلبة من الصور التى تنشرها الصحافة اليومية لأحداث الانتفاضة الأخيرة.

عُرضت اللوحات فى الحرم الجامعى لجامعة «بيرزيت» فى نهاية شهر نوفمبر عام ٢٠٠٠، أى بعد شهرين فقط من اشتعال الانتفاضة.

تعالوا ننسى كل هذا الكلام ونشاهد اللوحات، ففيها درس وعبرة لكل فنان يسعى إلى التعبير بصدق عن الحقيقة.

حـلمى التـونى

تصميم: حنان عمار

تصميم إبراهيم الجندى، إياد أبو السعود، علا كراكرة، وفاء سعادة

تصميم: ريم أبو لطيفة، ملك أبو خلف، أنس خضر، طلعت عواد

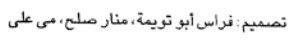
تصميم: خـــلود جـــرار

تصميم: رجاء شبيطة، منى العشى، إبراهيم غيطان، غادة تنورة، شهد الوعرى

تصميم: مؤيد إسماعيل، عرفات أبو دهمش، براء زيد

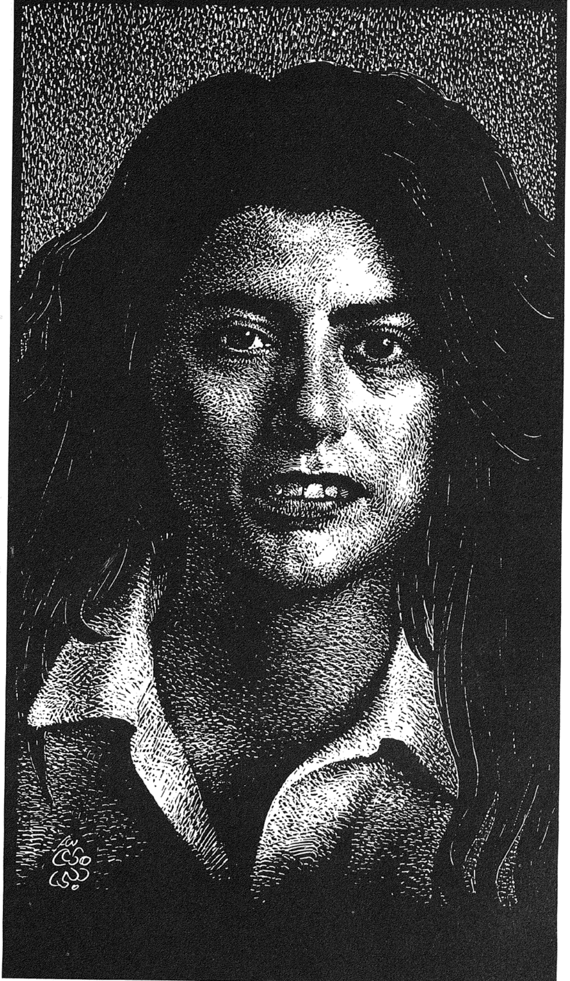
تصميم: رنا الغول، محمد مريش، مراد العتيبي، عمر دهمان

تصميم: حنان عمار، خلود جرار، منال ظاهر، عاصم قاسم، بلال ديب


تصميم: فراس أبو تويمة، منار صلح، مي علي

تصميم: إبراهيم جاد الله، إيهاب دراغن، علاء الدودة، أمجد سعيد، رأفت صفرى

تصميم: نادر النجار، توفيق الاحمد، مها الصليبى



«عـام ٢٠٠٠
بعد تحرير الجنوب
اللبنانى من الاحتلال
الإسـرائيلى. عـودة
المؤلفة بطلة هذه القصة
إلى معتقل الخيام، خيام،
جحيم بلا اسم ولا وجود،
الذى تحـول إلى مكان
سـياحى، حيث يتجـول
السـائحـون بين قـاعـات
التعذيب والاستجوابات،
والخلايا الحقيرة. مفرطة فى
صغرها، قضت فيها البطلة
عشرة أعوام من حياتها:
ثلث أيامى، ثلث ليالى. وفى
طريقهم استطاع الزائرون
أن يلمحـوا رجـلاً جاء
لمشاهدة الكارثة، عاد بعد
الأوان: أنطوان لحـد.
وتضيف الراوية: منذ
اثنى عشر عاماً، كان
مصيرانا، مصيره
ومصيرى، قد
تقاطعا».

سهى بشارة

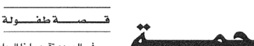
ملحمة من ملاحم المقاومة الوطنية

أمينة رشيد

هذه هي مقدمة القصة، قصة أسرة، تروي محاولة سهى لاغتيال أنطوان لحد في عملية انتحارية اعتقلت بعدها في سجن الخيام لمدة عشرة أعوام، قضت ستة منها في اعتقال انفرادي لرفضها المستمر التعاون مع سلطات السجن وأسيادهم. والقصة كتبتها بعد خروجها من المعتقل، في فرنسا حيث أعطيت لها منحة دراسية. كتبتها لتحرر الكلمات المخنوقة بداخلها وتقص مقاومتها ومقاومة شعبها للاحتلال، مرحلة دامية من تاريخ وطنها، وساعدها في تحرير الكتاب بالفرنسية «جيل باريس» الصحفي الفرنسي في جريدة «لوموند».

هذه أيضًا قصة مكان - الخيام، الجنوب اللبناني، لبنان - وقصة زمان - سنوات الحرب الأهلية في لبنان ومقاومة الجنوب للاحتلال، والصراع العربي الإسرائيلي. وتؤكد الرواية ثقل التاريخ على مصيرها الخاص: هل يؤثر يوم مولدنا على حياتنا كلها؟

أستطيع أن أطرح لنفسي السؤال، إذ إنني ولدت في يوم الخامس عشر من يونية ١٩٦٧ أي في أعقاب هزيمة حزيران ووقوع جزء جديد من العالم العربي تحت احتلال الجيوش الصهيونية وسقوط أحلام - أوهام؟ - الشعب العربي أجمعه. في أسلوب حي، بسيط ومؤثر، استطاعت الرواية أن تقدم لنا إحدى ملاحم زمننا وترفع من معنوياتنا المفعمة بالإحباط، وتضيف شهادتها التاريخية إلى سلسلة البطولات الحية التي نعيشها الآن بكل قلبنا ووجداننا مع الانتفاضة الفلسطينية الحالية.



قصة طفولة

في البدء تقدم لنا الرواية بطاقتها الشخصية:

«طالبة شيوعية: نشأت في أسرة مسيحية - أرثوذوكسية، لكن لبنانية قبل كل شيء. كنت مراهقة عندما دخلت في حرب ضد ما كان يمثله (أنطوان لحد)، ضد هذا الوجود الغريب على أرضي، لذلك دفعت الثمن بحريتي، فقد ألقيت في المعتقل، بلا حكم ودون علم لكم من الوقت».

لكن كيف تكونت هذه الهوية؟ هذا ما ترويه قصة طفولة عادية من ناحية، مليئة باللعب والمرح في أسرة ريفية نشأت في الجنوب، في قرية «دير ميماس»، في بيت الجد «حنا» الذي بناه بنفسه، وبه غرفة لكل أسرة من أسر أطفاله تجمعهم في الإجازات الصيفية، وقصة مختلفة من ناحية أخرى، إذ أن الأب الشيوعي فرض نموذجًا آخر على سلوك معيشة الأسرة.

في كتابة حية وماكرة، لكن أيضًا مليئة بالدفء والحنان، تجيد الرواية فن رسم بورتريه كل فرد من أفراد هذه الأسرة. الجد التقليدي والصارم في تعامله مع أفراد الأسرة ومع كل من حوله. الجدة الساخرة التي تتهكم من عدم اهتمام الجد بالأمور العامة، ثم أسرة سهى الصغيرة، زواج الأب والأم الذي تم في ١٩٥٨ - ونراها دائمًا حريصة على تحديد الجيل الذي تنتمي إليه - ثم إنجاب عدنان وحنان وعمر وسهى، آخر العنقود.

وتتساءل الراوية: هل سموني سهى (نجمة) كبشارة أمل؟ في دفء فياض، تعبر الراوية عن حبها لكل فرد من أفراد هذه الأسرة، بإيجابياته وسلبياته، وتأثرها بهم جميعًا. عن أبيها، هذا الرجل الذي تقول عنه إنه الرجل السياسي الذي أفضله في لبنان وعن أخيها

عدنان، أخذت الاهتمام بالسياسة وبالأمور العامة، وعن أختها حنان، الاستمتاع بالرياضة البدنية وممارستها (مما أفادها في الاقتراب من «مينرفا» زوجة أنطوان لحد، ثم في صراع البقاء بداخل السجن)، وعن أخيها عمر، حب الحياة أما عن أمها، فأخذت في الغالب قوة الشخصية وطاقة العطاء.

رغم اختلاف الآراء بينهن، فلأم وجود آسر في القصة. كانت دائمًا تشاغب الأب على التزامه السياسي، ترفض وجود هذا الالتزام في البيت وفي الحياة الأسرية، كما كانت شديدة الجدية والصرامة في تربيتها لأطفالها. ترفض الكذب وإفشاء أسرار الآخرين والإبلاغ عنها - مما درب الفتاة على ممارسة المهام السرية التي تقتضي الصمت - كما لا تقبل الضعف والميوعة في إدارة الحياة. وهكذا كانت تعيش، قوية ومرحة، متقبلة لكل ضغوط الحرب في لبنان: انقطاع الكهرباء والمياه، وصعوبة المواصلات، تحولات الحياة تحت الاحتلال. ورغم رفضها لممارسة السياسة، نراها صلبة في مساندة ابنتها المعتقلة، سجنت معها لمدة شهر، وبعد ذلك، عندما اتسعت حركة التضامن العالمي مع سهى، تجوب العالم للمساهمة في الحملة، هي التي لم تكن تعرف إلا الطريق من «دير ميماس» الجنوبية إلى بيروت، وكانت دمشق أكثر البلاد التي زارتها ابتعادًا.

مع الأب عاشت الطفلة علاقة حب وتفاهم صامت، إذ كان الرجل قليل الكلام، ومواظب النشاط، محبًا لعمله، صلبًا في مواصلة نضاله السياسي. ترسم عنه صورة مؤثرة لرجل يترك مسئولية إدارة الحياة اليومية لزوجته ولم يفرط أبدًا في مهامه النقابية والحزبية. كان موظفًا في مطابع الحزب الشيوعي اللبناني، وتقص الرواية كيف استطاع بعد تدمير مطبعة الحدث في بداية الحرب الأهلية، أن يعمل في مطبعة أخرى وأن يساهم في استمرار نشر جريدة النداء طول مدة الحرب.

طفولة ريفية مثل غيرها. ومختلفة مع ذلك، إذ أن الهم العام تسلل إليها مبكرًا. كانت تلميذة مجتهدة، تحب دروسها، تعمل في الحقل مع أمها، تذهب إلى الحفلات الدينية كطقس جماعي، إذ لم تكن أسرتها متدينة. كانت قرية دير ميماس بعيدة عما يحدث في العالم، لكن فرض العالم نفسه على هذه الأسرة ذات الأب الملتزم، المشارك في الأحداث، والأم الريفية التي لم تكف أبدًا عن معايشة أقاربها. كما هزت الأحداث سكون الجنوب اللبناني بتحوله إلى أرض محتلة، ووجدت المراهقة نفسها تدريجيًا مشدودة إلى قلب التاريخ وسيرورته المتعرجة.

ولدت سهى في عز الهزيمة العربية أمام الجيوش الإسرائيلية واتساع الدولة الصهيونية إلى الجولان والضفة الغربية وسيناء. لم تكن قرية دير ميماس تشير إلى إسرائيل قبل ذلك، رغم اقترابها الجغرافي من الحدود الإسرائيلية وابتعادها عن بيروت. وأيضًا رغم بداية تاريخ الاستيطان الصهيوني القريب من حدود القرية. وتعود بنا سهى إلى بداية القرن العشرين عندما استقر أول المستوطنين اليهود على أراض اشتروها من العرب، بأمانة مشكوك في أمرها، ومساعدة إدمون دي روتشيلد. لم تعرف الراوية، وهي مازالت طفلة، أن في أول قرية إسرائيلية وراء الحدود، توجد صور شاحبة لمن سموا بالرواد. لكن ما كانت تعرفه جيدًا هو حسرة جدتها على الماضي والأراضي المفقودة والقرى التي انتزعت من قاطنيها عند نشأة دولة إسرائيل: كم مرة سوف أسمعها تذكر الجرائم التي ارتكبتها الجيوش الإسرائيلية في زمن أول حرب إسرائيلية - عربية.

لم تتحول إسرائيل إلى واقع ملموس إلا في ١٩٧٨ عندما تحتل جيوش تساحال جنوب لبنان، قاذفة عرض الحائط بالقانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة. وتروي كيف ذهب بعد ذلك الكثيرون الذين كانوا يعملون في بيروت لكسب قوتهم هناك عند عدونا، لأجر أفضل لكن في ظروف مهينة من التفتيش على نقاط الحدود وفي ظروف عمل منهكة. لكنها تضيف:

«في السنوات الأولى لطفولتي، في بداية السبعينيات، لم يكن أحد يجرؤ على تصور هذا المصير لدير ميماس: الغزو ثم الاحتلال في أقل من عشرة أعوام بعد ذلك».

تذكرنا سهى بالإحباط الذي أصاب العرب في هذه الفترة. بعد هزيمة ١٩٤٨، كانت الجيوش العربية تنتظر الجولة التالية بشغف، متصورة الانتصار وإعادة فلسطين. مما يفسر ضخامة إحباطهم. تصف أيضًا بهاء بيروت بعد انطفاء صوت جمال عبدالناصر في القاهرة:

«كزموبوليتانية، ثقافية، غنية، كانت بيروت منارة الشرق الأوسط. لكنها كانت أيضًا المدينة التي تتسرب منها أصوات زجر مكتوم. كانت الانقسامات تهدد الوفاق الوطني، وكانت القضية الفلسطينية تثير الجدل، بينما كانت حركة التحرير الوطني في غاية الحضور بلبنان بعد طردها من الأردن، خلال أزمة سبتمبر الأسود، في ١٩٧٠. وكانت الخلافات تتصاعد بين اليسار واليمين اللبناني في المدارس الثانوية، في الجامعات، في الشارع، تتكون المنظمات وتنمو تجارة الأسلحة. كان الوضع قابلاً للانفجار».



منذ ذلك الزمن تغيرت الأحوال وهددت الطفولة السعيدة في دير ميماس، هذه القرية التي تقول عنها سهى: لمدة طويلة، كانت لي دير ميماس جنة. لتكتشف الحرب مبكرًا: «اكتشفت الحرب وأنا في السادسة من عمري».



١٥ سبتمبر ١٩٧٣. يوم عيد في القرية. المرح سائد في بيت الجد: خمس نساء وخمسة وعشرون طفلاً يملأون الدار بضحكاتهم وأغانيهم. الآباء يعملون في بيروت. سوف يلتحقون بهم في الغد، لكن في الليل اشتدت القذائف واستمرت الحرب. لن تكون هذه الليلة إلا صخبًا وقصفًا. لمدة اثنتي عشرة ساعة اعتدت الطائرات الإسرائيلية على المخيمات الفلسطينية الموجودة في المنطقة. تتعاقب موجات الطائرات قريبًا من القرية، لا ينام أحد في البيت وانشغلت النساء بالخبيز لينسين ما يحدث بينما الأطفال يفترسون الخبز المجهز للعودة إلى بيروت.

سنتان بعد ذلك تلتقي سهى بالحرب من جديد. تضاف إلى معارك الفلسطينيين والإسرائيليين التي أصبحت عادية، المعارك الأهلية بين اللبنانيين، بداية الحرب الأهلية:

«١٣ أبريل ١٩٧٥. ليلة مرعبة من القصف والضوضاء. الكبار يقولون للأطفال لا يخافوا، ولا يستطيعون إخفاء قلقهم. يتكلمون للحفاظ على معنوياتهم. يقولون لبعضهم البعض إن غدًا سوف يكون كل شيء على مايرام، إن كل شيء سيعود إلى طبيعته، وينتهي ذلك. لا يعرفون أن هذا الليل سوف يدوم خمسة عشر عامًا».

وتستقر الحرب في الحياة

Résistante

مقاومة

Soha Bechara
écrit avec Gilles Paris, ed. Jc
Latés, Paris 2000



سهى بشارة

فى أسلوب حى، بسيط ومؤثر، استطاعت الراوية أن تقدم لنا إحدى ملامح زمننا وترفع من معنوياتنا المفعمة بالإحباط، وتضيف شهادتها التاريخية إلى سلسلة البطولات الحية التى نعيشها الآن بكل قلبنا ووجداننا مع الانتفاضة الفلسطينية الحالية

بوحشيتها وجنونها. وتكتشف سهى لامبالاة قصف المدن بالمدنيين. يتعلم السكان ألا يقتربوا من الأشياء الملقاة فى الشوارع والأراضى البور الطائرات تمزق السماء وتنفجر القاذفات فى الشوارع. يضيع نهائيًا الاستقرار فى حياة المدرسة. يتفتت الزمن. يأتى الآباء لأخذ أطفالهم فى غير المواعيد المعتادة. لا يعرف أحد فى الصباح ماذا سيحدث بعد ذلك. وتحكى سهى الحرب فى الحياة اليومية.

«يوم بعد الظهر، نحن فى طريق العودة، فى السيارة مثل كل يوم خمسة ركاب. فى وسط السير نؤخذ فى تبادل نيران على حافة مخيم صبرا الفلسطينى، اعتاد السائق أن يترك هنا تلميذين. يمتلئ الشارع بالضوضاء والغبار. من حولنا ينتشر الذعر. تنفجر قذيفة وراءنا وقذيفة أخرى أمامنا. فى السيارة يصرخ الجميع. تهتز الأرض. هناك مصابون وربما موتى. يصيح الناس، يهرولون فى كل اتجاه..».

مشهد يومى لعودة الأطفال من المدرسة!

منذ هذه الفترة استقرت قوانين الحرب. تعلم الناس كيف يحمون أنفسهم، يستخدمون المخابئ، يعيشون بلا كهرباء وبلا ماء، يكتشفون الأماكن الآمنة فى داخل البيوت. وحتى فى هذه الظروف القاسية تلاحظ الراوية الاختلاف بين الأغنياء والفقراء:

«يستطيع دائمًا الأكثر ثراء ألا ينقصهم شىء، بمضخاتهم القوية ومحولاتهم. أما الفقراء، فهم بالعكس، مجبرون على سرقة الكهرباء من الخطوط التى لاتزال فى الخدمة وتتضاعف التوصيلات الهجينة، مثل شبكات العنكبوت العملاقة، فى شوارع بيروت..».

تمتلئ الشوارع بمواكب اللاجئين الفارين من مناطق المعارك:

«عندما نترك بيتنا الأول، نحمل معنا مبردنا ومغسلتنا وبعض الأثاث، سريرين وفوتيلات، وسوف تسقط هذه الممتلكات الضئيلة فى دير ميماس حيث تحجز فى انتظار عودتنا. سوف تتبعنا فى الواقع فى جميع منافينا، منهكة وضائعة مثلنا».



فى البدء عادت الأسرة إلى دير ميماس، مثل الكثير من أسر البلدة: نقضى فى القرية هدنة سنة، الأخيرة قبل مدة طويلة. ثم بيروت من جديد فى ١٩٧٦، قبل أن يتحول الجنوب بدوره إلى منطقة محتلة فى ١٩٧٨. مع العمر تكتشف سهى تدريجيًا خفايا السياسة التى تصاحب هول الحرب، الانقسامات اللبنانية، المواقف من الفلسطينيين، المذابح والاغتيالات، وتعى أيضًا أنه رغم مولدها فى أسرة مسيحية وانتمائها لأب شيوعى، إنها لبنانية قبل كل شىء، مستعدة للتعاون مع كل مقاوم أيًا كانت ملته.

خطوات الالتزام

يبدأ الالتزام فى سن المراهقة فى حركات الإغاثة الشبابية: «فى الحرب الأهلية، لا يبحث المرء عن الفعل. فالفعل يلحق به».

تنشط سهى فى البداية مع اتحاد الديمقراطيين الشباب. مع الهلال الأحمر والصليب الأحمر، تساهم فى إعانة المصابين وإيجاد المأوى للاجئين. تساعد أيضًا فى العيادات الخارجية التى كان ينظمها الحزب فى الأحياء التى يحصل فيها على الأغلبية. تقوم بالغسيل وبعلاج الجروح الطفيفة. ومن خلال هذه الأعمال البسيطة تتعلم القيام بمهام أكثر خطورة: المرور السريع فى عربة إسعاف بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية - إذ أن اسم بيروت لم يعد يقال بدون هذه التصنيفات - استخدام جهاز إذاعة مشفر، السهر فى أماكن مهددة، إلخ.

ثم تكتشف الفلسطينيين الذين لم تكن تعرفهم حقًا. كان أحد أقاربها قد مات شهيدًا فى إحدى معارك الفدائيين ونظمت له حركة التحرير مظاهرة كبيرة شهدتها سهى وتأثرت بها:

«إن المشهد الذى أراه ،آسر للغاية. يمشى الفلسطينيون فى خطوات موزونة. يحملون صورًا كبيرة، وجوه شهدائهم، يلقون زهورًا على ميدان مزين بأعلام تحمل ألوان فلسطين الأربعة: الأسود، الأبيض، الأحمر والأخضر».. أكتشف علما، قضية وشعبًا.

يتزامن هذا الوعى مع تكوين بذور جيش لبنان الجنوبى. تحت إشراف الدولة العبرية يحاول سعد حداد السيطرة على رقع من الأراضى الحدودية.. «فى القرية، تتدهور الأمور. ثم فى النهاية تجد دير ميماس نفسها مدرجة فى منطقة «الأمن» التى اقتطعها تساحال على أرضنا. خطوة جديدة نحو الالتزام بتحرير الأرض».

وتزداد الأمور تركيبًا، منذ ربيع ١٩٧٥، تختلط المعارك بين الإسرائيليين والفلسطينيين بالحرب الأهلية اللبنانية. فى الغرب تصور الناس الأمور على أنها معركة بين الإسلاميين والمسيحيين. لكن فى أسرة سهى كما فى غيرها من الأسر اللبنانية لا ينظر للأشياء من هذه الزاوية. وسهى أيضًا تناقش الوضع مع أصدقائها فى اتحاد الشباب الديمقراطى (القريب من الحزب الشيوعى اللبنانى). تدرك منذ البداية كم أن الحرب كارثة وأن الموت لا يفرق بين مسلم ومسيحى، وأن الأحزاب السياسية تركز على معارك وتفاصيل هينة وتترك الأمور الأهم. قريبة من الحزب الشيوعى، انتماءً لجزء أساسى من أسرة والدها، وإعجابًا لا يهتز بهذا الأب وبمثله الأعلى، ولكنها تحدد بدقة ما يربطها بالشيوعيين، ليس شعار صراع الطبقات، بل الفكرة القومية، فكرة الوطن الواحد، المتجاوز الملل والطوائف، فرغم الصراعات المختلفة:

«يستمر الحزب فى الحديث عن وطن للجميع ومواطنين متساوين فى الحقوق والواجبات، ويستقر فى وجدان سهى هذا الخطاب الوطنى: أنا لبنانية قبل كل شىء، ثم هذه الحقيقة الأخرى التى سوف تحدد فعلها المستقبلى، فى نهاية السبعينيات، بعد خمسة أعوام من المعارك، تستقر قناعة بداخلى، أن للبنان عدوا واحدًا، ومحتلاً واحدًا: إسرائيل».

فى هذه الفترة تنتمى أيضًا بشغف لأغانى مارسيل خليفة ومسرحيات زياد رحبانى:

«دون أن يميز أبدًا بين فلسطينيين ولبنانيين، يغنى مارسيل خليفة ألم من فقد أرضه وبيته، ويغرق يأسًا. يغنى حنين حقول التبغ فى جنوب لبنان، المهجورة بسبب الحرب. يغنى تاريخ الخيام التى قذفتها فى ١٩٧٨ الطائرات الإسرائيلية ونهبتها الميليشيات. فى ذاكرتى لم أنشد أبدًا لطائفة أيا كانت. ليست لى ذكريات إلا عن قصائد تغنى لبنان، بلدنا، أرضنا».



١٩٨٢. عملية «السلام فى الجليل» الغزو الإسرائيلى لبيروت، رحيل الفلسطينيين، مذابح صبرا وشاتيلا. مرة أخرى اللجوء إلى دير ميماس، لكن دير ميماس تغيرت. ترى سهى جيشًا يبدو لها لبنانيًا (لم تفهم إلا بعد ذلك أنه فى خدمة الدولة العبرية). تغزو القرية المنتجات الإسرائيلية: تلقائيًا تقرر مقاطعتها. انقسمت دير ميماس إلى نصفين: حلفاء إسرائيل وأعداؤها، بعد شهور قليلة تعود الأسرة إلى بيروت. تشترك سهى فى مظاهرتين احتجاجًا على الوجود الإسرائيلى وتقول:

«قد تضاعف تدريبى السياسى فى هذه السنة الرهيبة، ١٩٨٢، وأكدت لى قناعاتى بقسوة.

عمرى خمسة عشر عامًا ومن الآن فصاعدًا مستعدة للانتقال إلى الفعل».

استكمال المسيرة. تشترك فى بعض المظاهرات وتنظم البعض الآخر. تظهر حماسًا فى إلقاء الشعارات يجعل مارا يعلن: «هذه الفتاة ستقوم يومًا بالتأكيد بعملية انتحارية!». لم ترض بنتائج هذه المظاهرات: فمنذ سبتمبر ١٩٨٢، بداخلها شعلة وطاقة للفعل غير مشبعة وتنتظر فرصة للانطلاق. وكما يحدث فى الحياة عندما تتملكنا رغبة قوية فتتجمع حولها كل الانفعالات والأحاسيس وحتى صدف الطريق، ترى سهى تعبئة جميع قواها نحو هذا الهدف الواحد: الانضمام إلى المقاومة السرية ضد الوجود الإسرائيلى فى جنوب لبنان. فتتراكم نماذج النضال، من أول عملية انتحارية تقوم بها شابة لم تتجاوز الثمانى عشرة سنة (سناء محيدلى) إلى استشهاد ابنة خالتها «لولا» (لولا عبود). مثل كل بنات سنها كان بود سهى أن يكون لها محب، يشتركان فى الحياة، ينجبان الأطفال، يكون لهما بيتهما وأفراحهما. لكن الأمثلة التى حولها من علاقات غرامية تعوق الالتزام والفعل جعلتها تستغنى بيسر ما عن هذا الاحتياج.



وأخيرًا يحدث ما سعت إليه طويلاً وكادت تفقد الأمل فيه: موعد مع شخص ما سوف يقود أول خطواتها فى العمل السرى.

ظنت فى البداية أن الدخول فى العمل السرى سيكون سهلاً. أنها سوف تحصل على قنبلة وهدف وينتهى الأمر! لكن سرعان ما أدركت أن الأشياء أكثر تعقيدًا وتحتاج إلى فترة طويلة من التدريب والاختبار. قراءات، تدريب على اللقاءات السرية، إعادة تشكيل الحياة والسلوك اليومى بين ظاهر معلن ووجود فى الخفاء. تضطر حتى أن تخترع قصة حب مزيفة مع شاب من الجنوب لتبرر سفرياتها الكثيرة إلى قريتها.

وربما كان الأصعب التعرف على هذا المجتمع الآخر، هذا المجتمع الذى تغير بفعل الاحتلال، هذا «البلد الغريب فى بلدى نفسها» كما قال الشاعر الفرنسى لويس آراجون عن فرنسا تحت الاحتلال الألمانى. فقد تغيرت أنماط الحياة وسلوك الناس، أيام الأجازات والأفراح (التى انتقلت من أيام الأحد إلى أيام السبت حسب الـ«شباط» العبرى!). على الموائد حل الـ«جونى ووكر» مكان العرق، الارتفاع الفاحش للأجور لمن يعمل عند الإسرائيليين، تحول الجنوب إلى منطقة مجردة من القانون تمر بها كل السلع والصفقات وكل الأفراد غير المرغوب فيهم فى بلدهم، مأوى مثالى، إذ أن جيش لبنان الجنوبى الذى أصبح تحت قيادة أنطوان لحد كان يجند بلا تمييز ولا حرج.

طبعًا لا يتحدث أحد عن المقاومة فى مجتمع

واقع تحت حصار كل أنواع المراقبة والمخابرات. وتحاول سهى في البداية أن تذوب في المشهد لمحاولة فهمه. وتتساءل عن علاقة الناس الغريبة بإسرائيل وبالجيش الجنوبي. لا تظن أن الناس يحبون الإسرائيليين. لكنهم يحاولون أيضًا وأساسًا الاستفادة من الوضع. فقد هزهم التاريخ. ومصير السلاح، في مواجهة مجتمع فقد اتزانه هو الآخر بسبب الحرب الأهلية، يحاولون الانسحاب، وإدارة مصالحهم دون الإفراط في طرح الأسئلة عن درجة التنازل أو التعاون مع القوى المحتلة التي يتضمنها هذا الموقف.

لم يكن مشروع فعلها قد تحدد بعد. فقط أن تستقر في الجنوب وتفهم واقعه الجديد وتحمي نفسها قدر المستطاع كابنة لمناضل شيوعي معروف، أصله في قرية استقرت سمعتها، مناهضة ويسارية. كل ما عليها أن تنقل معلومات إلى بيروت عبر مسئول اتصالها المجهول الهوية الذي لم تنطق أبدًا إلا باسمه المستعار: م. أ. في البداية ثم رابح. مع رابح تتعلم كيف تجمع المعلومات، وتقيم حركة الوحدات القتالية، تدون أرقامها وترسم مواقعها. فيما بعد عندما يتحدد دورها في قتل أنطوان لحد سوف يعطي لها السلاح ويعلمها كيف تستخدمه على أرض بور.

في يوليو ١٩٨٧، سوف تتحدد ثلاثة أهداف: رجال أمن جيش لبنان الجنوبي، الإسرائيليون، أنطوان لحد نفسه. كانت في هذه الفترة فكرة انفصال الجنوب رائجة، ولذلك راق لمناضلي المقاومة مشروع التخلص من عميل إسرائيل الموالي للفكرة.

تدريجيًا إذن اتضحت ملامح المشروع واهتمت سهى بالبحث عن عمل في الجنوب. وبفضل الصدفة، وجدت وظيفة مدربة رياضية في النادي الثقافي الرياضي لمرجعيون البلدة التي كان يعيش فيها أنطوان لحد مع أسرته. ثم علمت أن مينرفا زوجة لحد نفسها كانت تبحث عن مدربة للـ «أيروبيك»، أي الرياضة البدنية على أنغام موسيقية. زوجة قائد الميليشيا في المنطقة المحتلة! اعتبرتها سهى بحق ضربة حظ، ملأتها بالرضى. فتحدد نهائيًا المشروع: اغتيال أنطوان لحد.

حكاية اغتيال

عندما استقر القرار، تكثفت الأحداث حول هذا الهدف، لقاءات مع رابح، تشكيكه في البداية بأنها أفضل من يستطيع القيام بالفعل، نجاحها في إقناعه، موافقته على أن يعطي لها السلاح، ثم يقوم هو نفسه بتدريبها. ولم تكن هذه العقبات أصعبها!

كانت العودة إلى الجنوب والمسدس لصيق جسدها، وإخفاؤه في جهاز تلفاز قديم. الدخول في مرحلة صعبة من المراقبة ومن الشكوك. تراقبها الأجهزة المختلفة للجيش وللمخابرات، يشك فيها الجميع، وحتى أنطوان لحد نفسه، بينما تتوطد علاقتها بـ «مينرفا»، وتزداد معاناتها بسبب اضطرارها خوض طريقين في آن: الطريق الظاهر لشابة ناجحة في عملها كمدربة للأيروبيك وتعيش نمطًا سطحيًا من حياة المرح واللهو والطريق السري لمقاومة تحضر نفسها عبرها للقيام باغتيال قائد جيش الجنوب وربما الأصعب من ذلك نفسه شكوك أصدقائها وأسرتها. إذ شوهدت ترقص في حفل أمام أفراد من الجيش الجنوبي ومن الإسرائيليين. تأتيها نصائح أخوية بالاحتراس في سلوكها وسمعتها، بينما تعيش هي بسر لا تستطيع أن تفصح به لأقرب الناس.

عاشت هذه اللحظات المفعمة بالمخاطر من ناحية، من الشكوك والتوحد من ناحية أخرى، شاعرة بأن أوان الفعل قد اقترب، ولا يمكن تأجيله أكثر من ذلك. تنتقل دائمًا بالمسدس في انتظار الفرصة المناسبة. وفي إحدى زياراتها لبيت لحد لم تجرؤ على تنفيذ العملية لأنه كان يأكل معطيًا لها ظهره! وحينئذ تمر بأصعب الامتحانات: امتحانها مع ذاتها، هل هي بالفعل قادرة على تجاوز رفضها الداخلي الأصيل للعنف، وهذا منذ طفولتها، وتدرك مدى صعوبة الاغتيال على النفس، مهما كانت شرعيته في نظري. ويلح عليها السؤال: هل هي مؤهلة نفسيًا للقيام بهذه العملية؟

لكن مر أوان التساؤلات وفرض نفسه وقت الفعل. وكانت آخر زيارة لرابح الذي نصحها بكتابة رسالة إلى ذويها. فتكتب الرسالة مع رابح، مفسرة أسباب فعلها: أذكر الحرب الأهلية، الغزو الإسرائيلي، موت أبطالنا، إعجابي في هذه اللحظة بالانتفاضة التي انفجرت توا في الأراضي الفلسطينية المحتلة وهذه بالنسبة لي أجمل مثل للمقاومة وهدف أعلى للثورة. وفي صباح رحيلها من بيروت عائدة إلى الجنوب تودع أباها «دون أن أعرف إذا كنت سوف أراه مرة أخرى».



تعيش بعد ذلك بعض الأسابيع من التوتر العالي حتى يوم «العملية». تصف كل تفاصيل هذا اليوم: ملبسها، وصولها إلى بيت لحد، مرورها بأمن المنزل بلا مشاكل، الالتقاء بمينرفا وصديقة أسبانية لها في الحديقة، ثم في صالة المعيشة زوج الأسبانية ويلحق بهم جميعًا أنطوان لحد. تصف الجو الاجتماعي المرح، الحديث بالفرنسية، توزيع المشروبات، الأنباء في التلفاز، مشهد من الانتفاضة، شاب يرمي حجر، مكالمة تليفونية تبدو مزعجة للحد، نظرة غريبة لها. وفي هذه اللحظة، وهي تشعر بهدوء غير عادي، تخرج المسدس من حقيبتها، وتوجه رصاصة أولى نحو لحد الذي يقذف .. يشتمها «يا بنت الكلب». ومع الرصاصة الثانية يقع على الأرض!

«تقف الحياة لحظة في صالة المعيشة. مندهشة في البدء، تقطع مينرفا الصمت بالصراخ. تطالب بأعلى الصوت بسلاح لتصفية الحساب معي ومروحية لنقل زوجها. ألقي نظرة دائرية حولي. الصديقة الأسبانية شاحبة وتثبت نظرها عليّ كأني مجنونة. زوجها، وقد شله الرعب، يبحلق في وجهي كأن الدور الآن عليه. أنتهز الفرصة لأرمي المسدس في غرفة النوم المطلة على صالة المعيشة. أريد أن أكسب بعض الوقت. سوف يبحث الحراس عن السلاح تو دخولهم في الغرفة، وهذا لن يطول. على بعد مترين مني، انبطح جسد رجل الميليشيا على الأرض وتوقف. انتهيت. نجحت في تنفيذ العملية».

المقاومة الأخرى

بعد «العملية» شعرت الراوية على حسب قولها بسكينة كبيرة. وعرفت فيما بعد أن المحقق سيزار سوف يركز على ذلك في تقريره بطريقة صعبة التصديق، منذ أن وجدها كانت هادئة، شبه مبتسمة. كيف تم ذلك؟ تفسر الراوية:

«.. حدث لي توا شيء أساسي. تخلصت نهائيًا من قناعي كطالبة لا مبالية وسطحية. كنت قد عشت مدة طويلة في حالة سكيزوفرينيا، لا أكشف عن نفسي ولا أبوح لأحد بشيء، باستثناء م. أ. ورابح. استمررت شهورًا أكذب، أراوغ، أخدع. منذ أن أطلقت النار على أنطوان لحد، أستطيع أخيرًا أن أقول من أنا وما أفكر فيه».

كانت مع ذلك بداية المحنة الأخرى والمقاومة الأخرى، كانت الاستجوابات اللانهائية ليلاً ونهارًا. وكان التعذيب بالكهرباء والمياه المثلجة والإيماءات الجنسية، وجحيم المكان نفسه، الخيام، فوق التلال، كان معزولاً، مثلجًا في الشتاء، خانقًا في الصيف. يظل المعتقلون بلا بطانيات، ملقين على أرض تصعد منها الرطوبة إلى الأجساد المنهكة. هذا السجن اللاإنساني (وهل من سجن إنساني؟ أليست السجون الحديثة التي تتميز بوسائل كثيرة للراحة من أكثر السجون التي يحدث فيها الانتحار؟) الخيام، المحصن والمستحيل الهروب منه، الذي كان يديره في الظاهر جيش لبنان الجنوبي، وتشرف عليه في الخفاء إسرائيل، متفادية كذلك المساس بصورتها «الديمقراطية» وإزعاج بعض الأصوات الشريفة مثل صوت المحامية «ليا تسيمل». الخيام سجن مثالي للإسرائيليين، بلا عدالة ولا قضاة ولا محامين. في الخيام يكون المعتقلون منفيين، مخفيين، مشطوبين بسهولة من عالم الأحياء.

تصف سهى بشارة ليس فقط الظروف المادية الصعبة، بل أيضًا الشروط المعنوية المقصود بها كسر الإرادة وحصار شخصية المقاوم. فكان يوجد في الخيام مقاومون ضد الاحتلال الإسرائيلي للجنوب وأناس آخرون لا علاقة لهم بالعمليات ويوجدون هنا فقط لاستخراج المعلومات من الفئة الأولى. والحراس أيضًا، كانت من ضمن أعمال حراستهم التجسس على المسجونين والمسجونات. ففهمت سهى منذ البداية ضرورة مقاومة هذه الظروف القاسية من أجل البقاء، وتقرر: ينبغي عليّ الآن أن أركز على الأساس. البقاء.

قررت منذ البداية أن تواجه أصعب تحديات الاعتقال: السيطرة على الوقت ورفض الانتظار الذي يقرض الإرادة. قررت أن تواجه الزمن وألا يضيع منها الوقت وأن تستفيد من كل فرص التعلم: هذا هو الهدف الذي حددته لنفسي عندما دخلت السجن. أحاول أن أستفيد من كل الظروف للتعلم.. أريد أن أستمر مسيطرة على وقتي.

لكن كيف في ظروف الحرمان من كل شيء السائدة في المعتقل؟

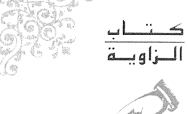
لا يوجد من كتب إلا الكتب المقدسة فاستفادت من قراءة القرآن واستمتعت بها. لا صحف ولا إذاعة، فقد عرفت بالصدفة في إحدى جلسات الاستجواب أن أنطوان لحد لم يمت، بل نقل إلى إسرائيل. لكنها لم تشعر بالإحباط عند سماع الخبر، بل بنجاح العملية رغم ذلك، إذ استطاعت أن تظهر: هشاشة النظام الذي أقامه الإسرائيليون، وأن أشهد بأن لا هم ولا حلفاءهم يستطيعون الاستقرار في أي مكان من المناطق المحتلة.

تستطيع المعتقلات الاستماع إلى مقطوعات من المسلسلات (المصرية!) التي تشاهدها الحارسات ويعدن ابتكار الحبكة المفقودة! وكانت هذه إحدى المهارات المكتسبة. تحكي سهى باستفاضة الكثير مما تعلمته في السجن ويشبه قصص أدب السجون المعتادة: الاستفادة من كل شيء، كيس من البلاستيك، قطع من ورق ومن أقلام، خيوط سلكية، الشريط الألومنيوم الذي يغلف الجبن، تعلم التواصل مع





في إحدى زياراتها لبيت لحد لم تجرؤ على تنفيذ العملية لأنه كان يأكل معطيًا لها ظهره! وحينئذ تمر بأصعب الامتحانات: امتحانها مع ذاتها، هل هي بالفعل قادرة على تجاوز رفضها الداخلي الأصيل للعنف، وهذا منذ طفولتها، وتدرك مدى صعوبة الاغتيال على النفس، مهما كانت شرعيته في نظري.

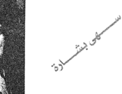


نظامهم السياسى

. . وأما كيفية حكومة الأفغانيين : فالحكومة الأفغانية حكومة استبدادية مطلقة ولكن لها نوع مشابه بالحكومة الثورية لأنها لا يمكن إبرام أمر مهم فيها إلا بمشاورة رؤساء القبائل . وهى مؤلفة من أمير وهو سلطان البلاد : ووزير وهو بمنزلة الصدر الأعظم : و«مستوفى الممالك» وهو بمثابة ناظر المالية والداخلية معاً فى سائر الحكومات : و«خازندار» وهو الذى يناط به حفظ النقود الأميرية : و«ايشيك أغاسى باشى» وهو الذى ترفع إليه عرائض المشتكين ويفصل الدعاوى بين المتخاصمين بأمر الأمير : وولاة : وغالب هؤلاء الولاة من العائلة السلطانية ويلقبون بالسردار : وجنرالات وهم رؤساء العساكر وبعض هؤلاء من السردارين : وكتوالين وهم الشحنة أى ضباط البلد . ويوجد فى كل بلد مستوفى نائب عن «مستوفى الممالك» وهو لضرب الضرائب وجمع الأموال الأميرية : ومأمورون وجباة .

وأمير الأفغان ليست له أبهة ملوك الشرقيين وجلالتهم بل يجلس فى ديوان الحكومة المسمى عندهم «دربار» على النمارق الفارسية مع أعيان الحكومة ولا يتميز عنهم إلا بمتكأ يوضع بجانبه ولا يمنع الحاجب والبواب أحداً من الدخول عليه حتى أسافل الناس . ولكل واحد من أهالى البلدان أن يرفع شكواه إليه مكلماً إياه مشافهة رافعاً صوته بدون خجل ولا مبالاة، وهكذا سائر الولاة مع الرعية فى الولايات، ولا يوجد للحكومة الأفغانية قانون سياسى وإنما الحل والعقد وفصل القضايا وتعيين الجزاء وتحديد العقاب وضرب الجزية (أى الجزاء النقدى) والحبس والضرب والطرد . موكول برأى الأمير . وسائر الولاة يفعلون على حسب ما يتراءى لهم .







كان التعذيب بالكهرباء والمياه المثلجة والإيماءات الجنسية، وجحيم المكان نفسه، الخيام، فوق التلال، كان معزولاً، مثلجًا فى الشتاء، خانقًا فى الصيف. يظل المعتقلون بلا بطانيات، ملقين على أرض تصعد منها الرطوبة إلى الأجساد المنهكة

المعتقلات الأخريات، ممارسة الحياكة بإبرة استخرجت من مسمار، إعادة صنع أحجية عوضًا عن التى تؤخذ من المسلمات الملتزمات لإهانتهن فى إيمانهن.

تجيد أيضًا سهى فن استخراج النقاط المضيئة فى عتمة حياة المعتقل وقسوتها. وهذه تشع من بعض وجوه الصداقات التى أقامتها فى الخيام. كفاح المناضلة التى اختلفت والسلاح فى يدها فى عز عملية ضد إسرائيل، كفاح الشابة الفلسطينية التى نشأت فى معسكرات صبرا وشاتيلا، كان عمرها إحدى عشرة سنة أيام المذبحة واستطاعت البقاء بعد قتل ثلاث من إخوتها. وحنان، المناضلة فى حزب الله، جمال حنان، إصرارها وقوة شخصيتها. وتظهر سهى كيف تكون الصداقة ممكنة رغم اختلاف الديانة والأيديولوجيا، وكيف تجمع المقاومة من التزم بشرف الفعل وتحرير الوطن.

وأجمل كلمات هذه الشهادة المؤثرة هى تلك التى تظهر سهى من خلالها معنى الإبداع فى السجن، وربما معنى كل إبداع! فالإبداع فى السجن لا يكون قتلاً للوقت أو شيئًا من اللهو. يرتبط الإبداع هنا بصنع الحرية، عبر تحرير القول، هو قول فكرنا، بينما كل شىء من حولنا يدعونا للصمت ولنسيان من نحن. وتتحول الأشياء المصنوعة خلسة إلى رسائل وكلمات حب للأقارب وللأصدقاء، لكن أيضًا رسائل سياسية وشعارات لوطننا لقضيتنا. صنعت هكذا سبحة بنواة زيتون سجلت عليها الحروف الأولى لحركة التحرير الفلسطينية وبخبز جاف صنعت جداول للحساب. أما فى فترات السجن الانفرادى حيث تلاشت جميع إمكانيات اكتشاف مواهب الأشياء، تعيش سهى خبرة التجريد التى جعلتها تكتشف الشعر، الشعر الذى لم يكن يهمها فيما قبل، إبداعه، تاليف كتاب ثم كتاب آخر، هنا أيضًا مجرد البقاء.



تبدو حكاية سهى بشارة وكأن الظروف الاستثنائية تخلق المواقف والشخصيات الاستثنائية. وبالفعل رأينا كيف نشأت سهى فى بيئة ريفية، نشأت نشأة الألوف مثلها فى لبنان وفلسطين والعالم العربى والعالم أجمع. وحتى إخوتها الذين نشأوا فى نفس الظروف، فى إطار أسرة أب شيوعية ومناضلة، لم ينتهجوا نفس الطريق. فهل سهى شخصية استثنائية؟ نعم وبلا شك. فما قامت به هو بلا شك فوق الطاقة الإنسانية العادية. خلقتها ظروف تاريخية محددة من الاحتلال والمهانة، لكنها استطاعت بدورها أن تسيطر على شرط وجودها الخاص وتشترك فى مجرى تغيير التاريخ فى وطنها: لبنان.

تعطينا سهى عبر قصتها نموذجًا على الكثير من المستويات. وهذه ليست استثنائية، بل تنادى فينا الحاجة إلى القيمة وإلى الانتماء، إلى الوفاء وإلى الإيمان بقضية، وكل هذا نحتاج إليه فى زمن خلط الأمور وفقدان الوضوح وفوضى المعايير. تجدد سهى معنى الوطن والانتماء إلى الأرض. فتعلمنا قصتها أن الدفاع عن الوطن يعبر اختلاف الديانة والأيديولوجيا، ويحتاج إلى الجرأة والأمانة. تعلمنا أيضًا كيف يستطيع الإنسان السيطرة على جسده ومقاومة الحرمان، كيف تحولت طفلة هادئة، ترفض العنف، إلى قاتلة من أجل قضيتها. تعلمنا كيف يستطيع الإنسان أن يكتشف نقاط النور فى أبشع الظروف قتامة.

والقصة أيضًا شهادة تاريخية مهمة، تذكرنا بعلامات أساسية على طريق الصراع العربى / الإسرائيلى. وهذا الطريق لم ينته بعد، فتتجدد أمامنا كل يوم صوره الدامية وبطولاته الشابة. وهذا يذكرنى بمقال قرأته توا عن كتاب بالفرنسية لإلياس صنبر، المناضل الفلسطينى المقيم فى باريس. يحكى لنا الراوى فى ملك الغائبين، وهذه أيضًا سيرة ذاتية، أن أباه قال له قبل موته فى ١٩٦٧، ستبقى إسرائيل دائمًا شوكة فى حلق العالم. لن يستطيع أحد ابتلاعها، فلا تقلق. نعم، وميراثا ينبغى علينا جميعًا أن نصونه حتى النصر.

وهذه المعانى نجدها فى نضال سهى بشارة. نتحدث كثيرًا فى عالمنا عن الحداثة وما بعدها. وننسى أحيانًا أن الحداثة هى قبل كل شىء رفض الاستبداد والدفاع عن حرية لا تتجزأ، فحريتنا الخاصة وحقوق جسدنا تبدأ بمسئولية وطننا والانتماء إلى أرضنا وناس بلادنا. ■

فى الكتاب والمكتبة والكاتب

وجهة نظر من فرنسا

ناصر الأنصارى

فى مصر عدد الكتب الذى ينشر كلّ عام، يصل إلى حوالى عشرة آلاف عنوان. نصف هذا العدد إما إعادة طبع كتب قديمة أو هى لكتب مدرسية، بينما دولة مثل فرنسا يقترب عدد سكانها من عدد سكان مصر. فإنّ أرقام الإيداع تصل إلى خمسين ألفا كل عام

عند وصولى إلى العمل فى باريس، بدأت أرتاد المكتبات العامة مرة أخرى، فلاحظت التطور السريع والمتلاحق فى المكتبات العامة الفرنسية نفسها من الثمانينيات إلى بداية الألفية الثالثة يصعب تصديقه. فالمكتبة العامة أصبحت تشبه المعارض والمتاحف من حيث مجال الشكل والاهتمام به حتى يكون جاذباً للجمهور من القراء والباحثين. والتسهيلات المتاحة أصبحت لا تقع تحت حصر وتتطور مع التطور السريع فى مجال المعلوماتية وأدواتها، فأصبح الباحث الذى يعدّ أطروحة الدكتوراه والذى كان يقضى عدة أشهر فى أول عمل فى إعداد قائمة لمراجعه يقوم بهذا العمل بفضل نظم المعلومات فى عدة أيام كما أتاحت له شبكة الإنترنت أن يطلع على كل جديد فى مجال بحثه فى جميع أركان العالم. ولتسهيل هذا العمل، أصبحت قاعات الاطلاع مزوّدة بأعداد كبيرة من الحواسب الآلية المتاحة للباحثين والقراء، بل أصبح من حقه أن يعمل على الجهاز الخاص به. ولكل مقعد التوصيلة الخاصة به، أما الإنترنت فهو PC الحاسب الآلى المحمول أو الشخصى متاح داخل المكتبات العامة وإن كانت الأجهزة لا تعمل جميعها على كلّ أوجه البحث، فبعضها وهو الأغلب يتمّ توصيله على المواقع المتخصصة، بمعنى أن الدارس فى كلية الحقوق من حقه الدخول على الأغلب يتمّ توصيله على المواقع المتخصصة، بمعنى أن الدارس فى كلية الحقوق من حقه الدخول على كل مواقع وبنوك المعلومات المتعلقة بالدراسات القانونية وكذلك مكتبات كليات الطب، تجدها تتيح مواقع الإنترنت المتخصصة فى الدراسات الطبية وهكذا..

وبذلك أصبحت جميع الخدمات المكتبية تتطور يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة، وأغلبها متاح مجاناً للطلاب وبعض المكتبات العامة تشترط سداد رسوم سنوية تصل أعلاها إلى حوالى ستين جنيها مصرياً سنوياً، أى خمسة جنيهات شهرياً، وهو مبلغ إذا قورن بمستوى المعيشة يصبح ضئيلاً جداً (ثمن فنجان القهوة فى المقهى يصل إلى خمسة جنيهات)، ولعلّ الغرض منه غرض تنظيمى وليس إدرار دخل للمكتبة لأن هذا الدخل لا يمكن أن يتجاوز خمسة أو ستة بالمائة من ميزانية هذه المكتبة العامة.

وأصبح الاهتمام بتشكيل أمناء المكتبات هو الشغل الشاغل للمسئولين فى مجال البحث العلمى.

لقد أيقنت الدول المتقدمة منذ زمن طويل أن القراءة هى أهم وسائل المعرفة وأكثرها تأثيراً وفائدة، فعملت ولاتزال تعمل على تشجيع القراءة عامة والقراءة فى المكتبات العامة بصفة خاصة. ناهيكم عن تشجيع البحث العلمى سواء فى مراكز البحث والجامعات أو فى مجالات العمل الأخرى.

وقد أتاحت لى ظروف عملى الحالية زيارة المكتبات القومية فى بعض البلاد العربية من المكتبة الوطنية فى الكويت إلى دار الكتب فى «أبوظبى» إلى مكتبة الملك عبدالعزيز فى الرياض إلى المكتبة الوطنية فى الجزائر ومكتبة الخزانة العامة فى الرباط. وجميعها تحاول اللحاق بركب المكتبات العامة العالمية ولكن لازالت المسافة كبيرة بل وشاسعة بعضها من حيث الشكل وبعضها من حيث الموضوع والبعض الآخر الذى استطاع أن يحسن الشكل والموضوع من حيث كمية الكتب الحديثة والأجهزة المتطورة؛ فهى لازالت فى أغلب الأوقات تتصارع من أجل الحصول على القراء والمترددين على المكتبة.

ومن الأمور المتعلقة بالمكتبات أيضاً حركة النشر. ففى مصر عدد الكتب الذى ينشر كلّ عام، ومن خلال أرقام الإيداع التى تصدرها دار الكتب المصرية، يصل العدد إلى حوالى عشرة آلاف عنوان. نصف هذا العدد إما إعادة طبع كتب قديمة أو هى لكتب مدرسية، بينما دولة مثل فرنسا يقترب عدد سكانها من عدد سكان مصر. فإنّ أرقام الإيداع تصل إلى خمسين ألفا كل عام علماً بأنّ الكتب المدرسية لها نظام خاص فى الإيداع ولا تندرج فى هذا الرقم.

وحركة النشر فى فرنسا كبيرة جداً وحركة القراءة أيضاً كبيرة، ذلك أنّ الكاتب يكتب لأنّ هذا عمله والناشر ينشر لأنّ هذا مصدر دخله ولا يتعلل أيهما بقلة الدخل أو عدم كفايته. ومن بعض الأرقام الإحصائية المنشورة هذا العام عن عدد الكتّاب، نجد ١٦٢٧ كاتباً يعيشون ممّا يكتبون، أى أنّ مصدر الدخل الرئيسى لهم هو من الكتابة والنشر، وهؤلاء موزّعون كالآتى:

* ثلثا هؤلاء يصل دخلهم إلى ثلاثة عشر ألف فرنك فى الشهر، أى حوالى سبعة آلاف جنيه مصرى. وهو دخل أىّ موظف متوسط له أقدمية عشر سنوات.

* حوالى الربع يصل دخلهم إلى أربعة آلاف فرنك فرنسى شهرياً، وهو أقلّ من إعانة البطالة التى تعطيها الشئون الاجتماعية للمتعطلين عن العمل.

وبالطبع يوجد فى أعلى السلم ستون كاتباً يصل دخلهم ما بين سبعمائة ألف ومليون وثلاثمائة ألف فرنك فى السنة.

أما القمة، فهى لعشرة كتّاب أحياء، يزيد دخلهم السنوى عن ثلاثة ملايين فرنك سنوياً، وعدد النسخ من كل كتاب أكثر من مائة ألف نسخة. وعلى رأس هؤلاء، أو صاحب العرش، هو من يطلقون عليه «الفرعون» أى كريستيان جاك Christian Jacq كان عالماً للمصريات ثم تفرّغ للرواية التى يستوحيها من التاريخ المصرى القديم. ويصل دخله من الطبعة الأولى لأىّ كتاب إلى حوالى مليونى فرنك، أما الطبعة الشعبية فتصل إلى مليون ونصف المليون فرنك ومترجم إلى ٣٤ لغة، ومجموعة رواياته عن الرعامسة باعت ١٢ مليون كتاب فى العالم. ووصل دخله إلى أربعين مليون فرنك فى خمس سنوات؛ يليه فى الترتيب فيليب دلرم philippe Delerm خمسة عشر مليون فرنك فى السنوات الخمس الماضية، ثم تأتى أميلى نوثوب Amelie Nothomb بنفس الدخل السابق مع توزيع وصل إلى أربعمائة ألف نسخة من أحدث كتبها مع مليون فرنك من الطبعة الشعبية فى كتاب فى المرتبة التالية، وهو Max Gallo الجيب؛ ويأتى كاتب السير الشهير ماكس جالو متخصصا فى كتابة تاريخ وسيرة المشاهير فى التاريخ الفرنسى مثل ديجول ونابليون، ومتوسط توزيع كتبه ربع مليون نسخة؛ ويقف فى المركز التالى فريدريك بايجدير Frederic Beigheder الذى تترجم كتبه إلى عشر لغات أخرى بخلاف الطبعات الفرنسية.

ولكن فى الجانب المظلم من الطرف النقيض، نجد كاتبا شهيرا حائزا على جائزة Jacques وهى من كبرى الجوائز فى مجال الأدب وهو الكاتب جاك برينر Renaudot Brenner، وكان عضواً بارزاً فى كثير من لجان التحكيم الأدبية وقد توفى العام الماضى منسيا من الجميع، حتى ناشريه الذين تكسّبوا من ورائه ساعدوه فى حدود ضئيلة جداً.

وبين النقيضين، نجد أمثلة صارخة مثل كتاب النجمة الشهيرة بريجيت باردو، باع فى العام الماضى أكثر من نصف مليون نسخة، وهو عدد يفوق عشرة أمثال النسخ التى يبيعها كتاب لمؤلف شهير. ومع هؤلاء وأولئك نجد مجموعة أخرى من الكتّاب والروائيين ذوى القيمة الذين استطاعوا أن يجدوا جمهوراً خاصاً بهم ومخلصاً لهم.

ونجد فى فرنسا أيضاً بعض شباب الكتّاب يصيبهم فقدان الأمل أن ينشروا أعمالهم، وفى نفس الوقت يجدون أجهزة الإعلام والقراء يتهافتون على كتّاب آخرين. وتتساءل المجموعة الأولى فى خبث عن السبب: هل هى الموهبة أو هى الصدفة أم أنّ هناك دورا للمجاملات فى ذلك؟

ونجدهم فى فرنسا أيضاً يندبون حظهم عندما يقارنون أنفسهم بالولايات المتحدة الأمريكية أو بريطانيا أو حتى ألمانيا، فعمالقة الكتّاب الفرنسيين يصبحون أقزاماً بالنسبة للكتّاب الأمريكيين حيث إن حقوق المؤلف مرتفعة جداً والمقدمات التى يعطيها الناشر للكتاب لا تقف عند حد. وأبرز مثال هو كتاب السيدة الأولى الأمريكية السابقة هيلارى كلينتون، فقد بلغ المقدم ثمانية ملايين دولار من كتاب غير معروف محتواه بعد. ومثال آخر للكاتب الأمريكى ستيفن كينج Stephen King الذى أقدم على فسخ عقده مع دار نشر اعتاد التعامل معها، وهى فايكينج Viking لأنها رفضت طلبه فى مبلغ مقدم سبعة وثلاثين مليون دولار.

ويندبون حظهم فى فرنسا التى تضع الكتابة فى مقام التقديس ويدّعون أنّ حالة الكتابة سيئة لأن هناك مليونين إمّا يكتبون أو يحلمون بأن يكتبوا، وقد لا تكون الكتابة أى مصدر رزق لهم، وفى المقابل يوجد حوالى ألف ناشر فقط وعدد محدود من القراء(!)، ويقارنون بين رقم الأعمال فى مجال النشر مع رقم الأعمال فى مجال رغيف الخبز الذى يتجاوز عشرين مرة رقم الأعمال فى الكتب والذى هو أربعة عشر مليار فرنك.

أما المؤلف فهو أقل من يحصل على فائدة مادية من كتاب رغم أنه الخطوة الأولى الأساسية فى عملية النشر. وتعرض الإحصائية التالية الردّ على سؤال: أين تذهب نقود الكتاب؟ من سعر الغلاف مضروباً بعدد النسخ المباعة:

* المؤلف ما بين ٨٪ و١٠٪
* الموزع ٢٢٪
* المكتبات (المتاجر) ٣٣٪
* الضرائب ٥٪
* دار الطباعة ١٢٪
* الناشر ما بين ١٨٪ إلى ٢٠٪

وكما نلاحظ، فإنّ الكاتب الذى هو صاحب المعرفة وصاحب الجهد الذهنى المضنى والذى بدونه لا يمكن أن توجد الحياة الثقافية والأدبية هو أقلّ من يحصل على دخل من عمله. والكاتب غير المعروف قد يحصل على مقدم حوالى عشرة آلاف فرنك. أما كتاب الكتب ذات المبيعات الكبيرة فيزيد دخله على ١٠٪ ما زاد على العشرين ألفا. ومع ذلك ١٤٪ عن العشرة آلاف الأولى وتصل إلى ١٠٪ مع التوزيع، ونجد كتّابا ذوى شهرة يحصلون على ٢٠٪.

ونصيب الأسد فى هذه السلسلة هو لذوى الصبغة التجارية، أى المتاجر، والتوزيع ٥٥٪ وهو بالطبع يتحمل نفقة الطباعة التى لا تتجاوز ثلث دخله حتى مع زيادة سعر الورق وأدوات الصناعة الحديثة.

وحتى تكتمل الصورة للقارئ نعرض بعض السلبيات فى مجال نشر الكتب فى فرنسا، حيث إنه وحتى وقت قريب، اشتهرت ثلاث من أكبر دور النشر الفرنسية وهى Gallimard, Grasse, Seuil بأنها تعطى مبالغ كبيرة لأعضاء هيئة التحكيم فى الجوائز الأدبية فى شكل مقدّمات لكتب لم تكتب أصلا ولن تنشر. وذلك حتى تحصل هذه الدور على جوائز لكتبها المنشورة، وهو الأمر الذى يضاعف رقم المبيعات عدة مرات. فالقارئ الفرنسى يقبل بشكل كبير على الكتب التى تحصل على الجوائز الأدبية.. وقد تنبّهت السلطات لهذا الأمر وعالجته بالطريقة التى تمنع أعضاء لجان التحكيم من تقاضى أى أموال من الناشرين.

ومع ذلك، فمازال النقد يوجّه إلى أصحاب دور النشر الكبيرة من جانب الكتّاب، وتتبادل دور النشر التهمة مع الكتاب فتتهمهم والصحفيين منهم بصفة خاصة بأنهم يتقاضون مقدمات كبيرة لكتب تعدّ للنشر ثم لا يقدمون الكتاب ولا يعيدون هذه الأموال، وتضطر دور النشر أحياناً للتغاضى عن ذلك خوفاً من بطشهم إذا ما تمّت مقاضاتهم.

لذلك وصل الأمر ببعض الكتّاب الذين ينشدون الفضيلة والحرية معاً ألا يتقاضوا أى مقدمات، ولكن هؤلاء يحصلون على ١٨٪ إلى ٢٠٪ من المبيعات. بل وصل الأمر بالبعض إلى الاكتفاء بالكتابة والنشر دون البحث عن الوجه المادى، وهؤلاء يجدون فى الكتابة فى حد ذاتها متعة، فأن يقرأ لك الآخرون وأن تصبح معروفاً هى متعة لا مقابل لها.

فرانز فانون

محمد الميلي

صورة مناضل عاش أفكاره

فرانز فانون! من هو؟ عندما تطرح هذا السؤال اليوم في الجزائر، على أحد الشبان قد يجيبك: لا أدرى، وقد يقول هو اسم شارع أو اسم مدرسة ثانوية للبنات! عندما سألت تلميذة من تلميذات ثانوية «فرانز فانون» عمن يكون هذا الذى سميت به هذه المدرسة الثانوية، أجابت: لعله اسم ضابط فرنسي!

في حين أن اسم فانون كان يتردد، منذ أربعين سنة في كل محفل سياسي وكل تجمع ثورى، بالجزائر وفي البلدان الأفريقية وفي أوساط الزنوج بالولايات المتحدة الأمريكية، وفي عدد من البلدان الأوروبية وفي كامل أمريكا اللاتينية، وفي إيران.. أفلام عديدة خُصصت لحياته أشرف عليها مخرجون انجلو- ساكسون: كما خصص له أكثر من كاتب وفيلسوف دراسات صدرت عند حياته وفكره، أكثرها بالإنجليزية وأقلها بالفرنسية.

وقد استمر اسمه يشغل المثقفين في مختلف أنحاء العالم منذ نهاية الخمسينيات وحتى نهاية الستينيات من القرن الماضي. أما الآن فقليل هم الذين يذكرون اسمه فضلاً عن معرفة فكره والمسار الذى اتخذه، بينما كان اسمه يساوى اسم شي غيفارا شهرة وتألقاً.

أن يُنسى اسم فانون بعد أن كان ذائع الصيت، ليس بالمستغرب، فهو ليس أول ولن يكون آخر من شاع اسمه ثم اختفى، لكن أن يُنسى في الجزائر بالذات، فهذا ما يصعب تفسيره. لقد اقترن اسمه بالثورة الجزائرية التى انضم إليها في وقت مبكر من اندلاعها. التحق بالجزائر قادماً من مدينة ليون عام ١٩٥٣ ليشرف على أحد أقسام مستشفى الأمراض العقلية بمدينة «البليدة»، وهى مدينة تقع في قلب سهول المتيجة الخصبة، على سفح جبل «الشريعة» الذى تغطيه غابات أشجار «الأرْز»، التى تمثل ملجأ آمنا للثوار.

كان يساهم في معالجة الجرحى من جنود جيش التحرير، وبعض المصابين منهم بأمراض عقلية. وما لبث أن قدم استقالته إلى الوزير- المقيم العام بالجزائر- وتفرغ للعمل في صفوف جبهة التحرير التى خدمها بفكره وقلمه، حتى اعتبره كثيرون- ولم يكونوا مخطئين- منظر الثورة الجزائرية. وقد كان دوره فريدًا في

Frantz Fanon

(فرانز فانون)

Alice Cherki

Ed. Seuil. Paris 2000 314 PP.

الكشف عن بُعدها الأفريقى، وفي الرد على الذين يعتبرون نشاط الفدائيين إرهاباً. فقد كان الجدل قوياً بين الاستعماريين الذين ينعتون العمل الفدائى بأنه إرهاب، والوطنيين الذين يعتبرونه وسيلة من وسائل الدفاع عن حق مشروع. وهو جدل شغل حيزاً معتبراً من اهتمامات المثقفين منتصف القرن الماضى في الجزائر، مثل الجدل الدائر منذ عقود حول كفاح الشعب الفلسطيني.

ولعل المثقفين العرب، أو بعضهم على الأقل ما زالوا يذكرون الضجة التى أثارها، منذ أربعين سنة، كتاب «فرانز فانون» «Le domries de la tene» الذى خصص أهم فصل من فصوله للحديث عن «العنف» و«العنف في المجال الدولي» وهى ضجة هزت أوساط اليسار في فرنسا وفي أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، كما شغلت المثقفين في عدد من البلدان الآسيوية خاصة اليابان وإيران.

فهل تسمح قراءة جديدة الآن في هذا الكتاب، بتقديم إجابات ملائمة عن الأسئلة المطروحة على عوالم اليوم، فيما يتصل بالعنف؟

ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال.. لكن رأيت أن الظرف العالمي الراهن يتطلب التعريف بفرانز فانون، عبر آخر ما كتب عنه من ترجمات. وتعتبر الترجمة التى قدمتها عنه «أليس شركى» «Alice Cherki» التى عرفته عن قرب، أحسن ما أتيح لى أن أقرأه من كتب تناولت سيرته الذاتية ومساره النضالي وطريقته في التفكير وأسلوبه في الحياة.. ظهر هذا الكتاب أواخر العام الماضى بالفرنسية.

ولدت مؤلفة هذا الكتاب، بالجزائر في أسرة يهودية. وقد ساهمت في حرب التحرير الجزائرية. وهى طبيبة نفسانية عرفت فانون عندما التحق بالجزائر، واشتغلت معه في تونس أيضاً. بهذه الصفة المزدوجة تعتبر أحسن من يكتب عن فانون.

والواقع أن هناك أكثر من عامل يجعل الحديث عن هذا الكتاب مناسباً.. الأول: أن التطورات التى عرفتها الجزائر بعد الاستقلال خاصة أحداث العشرية الماضية تؤكد صحة بعض الاستنتاجات التى استخلصها فانون من دراسته للحالة الجزائرية وعدد من الحالات الأفريقية. الثاني: دقة تشخيصه للأمراض التى تهدد الحركات الوطنية، قائدة المعركة من أجل الاستقلال، خاصة بعد أن تتولى الحكم فقد حذر من الإبان من الأخطار التى تتهددها، ونبه إلى ما يترتب عليها من أوضاع متردية.

ذلك أن تكهنات فانون لم تكن نتيجة تحليل مخبرى، لكنها كانت خلاصة دراسة ميدانية وملاحظات دقيقة، حللها بعين المفكر وخبرة المحلل النفساني.

وهذا هو ما يفسر الصدى الواسع الذى لقيه آخر كتبه في جميع أنحاء العالم، عندما صدر في الثلث الأخير من عام ١٩٦١. بل إن تعبير الصدى الواسع لا يعطى صورة دقيقة عن الأثر الذى أحدثه: فقد كان له مفعول قنبلة. بيعت منه مئات الآلاف من النسخ، سواء في الطبعة الفرنسية التى كتب بها أو في الترجمة الإنجليزية، زيادة عن مبيعات ترجماته إلى خمس عشرة لغة. وقد نسب بعضهم ذلك الصدى الواسع إلى المقدمة التى كتبها جان بول سارتر الذى كان في ذروة تأثيره. لكن الحقيقة أن العامل الأساسى الذى جعل كتاب «معذبو الأرض» يلقى ذلك الاستقبال، هو أنه صدر في وقت «ملائم» ليسد فراغاً ويستجيب لتطلعات ضخمة، ويرد في الوقت نفسه عن أسئلة كانت موضوع جدل بين مثقفي العالم الثالث.

فقد صدرت طبعته الأولى بعد أن انتصرت كوبا في كفاح طويل ضد باتيستا، وبرز للعالم اسم فيدال كاسترو وشى غيفارا. وكانت مصر بقيادة جمال عبدالناصر تَحُثُّ المسير لتصنع مشروعها التحرري النهضوى، على طريقة ثورة اجتماعية تستخلص العبرة من درس الانفصال الذى هز الجمهورية العربية المتحدة؛ بينما كانت شعوب أمريكا اللاتينية تتطلع للتحرر من قبضة الاحتكارات الكبرى كما فعلت كوبا.



إذن كان الوقت ملائماً لاستقبال كتاب فانون. ويتمثل أحد عوامل نجاحه في اللغة التى اعتمدها لتبليغ أفكاره إلى المعذبين في الأرض. وذلك ما جعل عدداً من المعلقين يعتبرونه دعوة إلى أممية جديدة على مستوى العالم الثالث. فقد توجه بخطابه إلى الشعوب المضطهدة، ولم يتوجه به إلى الغرب، فهو يطلق في ختام خطابه صرخة هى: «يجب أن نهاجر أحلامنا، أن نتخلى عن معتقداتنا وصداقاتنا التى سبقت. لا يجوز أن نضيع وقتنا في دعوات عقيمة ومحاكاة تبعث على الغثيان. لنغادر أوروبا هذه التى تتحدث دوماً عن الإنسان في نفس الوقت الذى تقتله فيه تقتيلاً، كلما اعترضها في أى مكان من أنحاء العالم.

لقد مرت قرون عرقلت خلالها أوروبا تقدم الناس الآخرين، واستعبدتهم وسخرتهم في خدمة أغراضها وتشييد أمجادها؛ قرون أخذت فيها بمخانق الإنسانية كلها تقريباً، بعنوان مغامرة حضارية روحية.. انظروا لها الآن: إنها تتأرجح بين التفكك النووى والانحلال الروحى».

بهذه الصرخة يطبع فانون خاتمة كتابه.. لغة القطيعة هذه ترفض منطق «اللحاق بالغرب».

١٨ سنة يقطع المحيط الأطلسى ليقاوم الألمان

لكن ما المسار الذى أفضى بفانون إلى هذه النهاية؟

ولد فرانز فانون، فرنسي الجنسية بالمارتينيك يوم ٢٠ يوليه ١٩٢٥. يعتبر بورجوازى المنشأ، لأن أباه كان مفتش جمارك. رغم وضعيته الاجتماعية الممتازة قياساً لأبناء جلدته، فقد كان «كازيمير فانون» والد فرانز، لا يفوته تذكير أمثاله، في ذكرى سقوط الباستيل التى يحتفى بها رسمياً كل عام كما هو الشأن في كل المستعمرات الفرنسية، بأن الرق كان ما يزال معمولاً في المارتينيك وقت أن تخلصت فرنسا من النظام الملكي.

بعض هذا الإحساس المرهف ورثه فرانز عن أبيه: فكان يتعاطف مع كل مضطهد، ويثور ضد كل معتد. من يقرأ كتاباته النارية في خضم حرب التحرير الجزائرية، دون أن يعرفه عن قرب، يتصوره عاطفيا، شديد المبالغة عندما يطالب شعوب العالم الثالث بأن تمارس قطيعة تامة مع الغرب. مواقفه تبدو مثالية، طوباوية غير قابلة للتطبيق. في حين إنه كان، منذ صغره الباكر، يرفض أنصاف الحلول، فلا يمكن أن يُتهم بالديماغوجية.

كان المحيط الأطلسى كله يفصل بين بلده وفرنسا «الوطن الأم»، ومع ذلك قرر أن يقطعه ليلتحق بالمقاومة الفرنسية ويحارب النازية، ولما تجاوز الثامنة عشرة.. لم يخبر أحدا من أقاربه بما استقر عليه عزمه.. اختار يوم احتفال الأسرة بعرس أخيه الأكبر، ليختفى عن الأنظار بعد أن اختلس من خزانة أبيه قطعتين من القماش الفاخر، حتى يتحصل من بيعهما على الثمن المطلوب دفعه لمن يحمله سراً في قارب يوصله إلى الدومنيك حيث كان يوجد بعض الديغوليين.

كانت الحرب العالمية الثانية، والنزاع بين الجنرال ديجول والمارشال بيتان موضوع نقاش بين التلاميذ الملونين. كان هناك من يرى أنه غير معنى بهذه الحرب التى تهم البيض فقط، لكن فانون كان له رأى آخر، حسبما سجله بعض رفاقه، فقد رد على المقولة السابقة، بقوله: «كلما تعرضت كرامة وحرية الإنسان للخطر، فنحن معنيون بها، كلنا بيضاً وسوداً وصفراً، كلما كانت الحرية والكرامة مهددة في أى مكان فأنا ملتزم بالدفاع عنها، دفاعاً لا رجعة فيه».

هكذا ارتبط فانون منذ الثامنة عشرة بتواريخ عالمية، وقضايا عالمية، فعَبَر المحيط الأطلسى مغامراً ليحارب ضد الألمان، وأصيب بجروح في جبهة القتال.

لم يتمتع كثيراً بالسلم حين عاد إلى جزيرته سالماً بعد أن كان يتصور أنه سوف يقضى في الحرب، ويبدو أن تجربته تلك جعلته يعزف عن الإقامة بالمارتينيك، التى وجد فيها «عدد السراويل أكثر من عدد الرجال» حسب تعبيره.

التحق بمدينة ليون حيث درس الفلسفة وعلم النفس، نَهَمُهُ إلى المعرفة ولهفته للتعرف على العالم دفعاه إلى عدم الاكتفاء بدراسة الطب الذى هو موضوع منحته.

في ليون تعرَّف على الأستاذ Tosquelles الأسباني الذى كان من المعارضين لنظام فرانكو، نعرف من خلاله وجهاً آخر من وجوه الديكتاتورية. لم يكن قد تجاوز آنذاك اثنين وعشرين عاماً.. وما أن ينهى دراسته، ويتخرج، ثم يلتحق بمدينة «البليدة» من الجزائر، مشرفاً على قسم بمستشفاها الخاص بالأمراض العقلية حتى يكتشف وجهاً آخر من وجوه الاستعمار الاستيطاني.

لذلك لم يتردد في أن يتعاطف مع كفاح الشعب الجزائرى في وقت مبكر من عمر الثورة المسلحة، خصوصاً وقد اكتشف من خلال معالجته المرضى الجزائريين وبفضل تطبيقه أسلوب الأستاذ Tosquelles الأسبانى، أن

بعض عوامل الجنون في الجزائر مرتبط بالاستعمار.

هذا المسار من الحرب العالمية الثانية إلى حرب الجزائر مروراً بفترة الإقامة في «ليون» الفرنسية، يكشف عن تسلسل «منطقي» في حياة فانون النضالية، تسلسل يؤكد أن الرجل ظل وفياً لنفسه، ملتزماً بقناعاته. فهو قد حارب في صفوف الجيش الفرنسي المقاوم، دون أن يكون مؤمناً بوجاهة الحرب التي شارك فيها. عندما توفيت أمه، عام ١٩٨١، أي بعد مرور عشرين سنة على وفاته، عثرت أسرته على رسالة كان وجهها لها تدل على ما كان يشعر به آنذاك. فقد جاء فيها:

«.. مر عام على مغادرتي لمدينة (فوردي فرانس ـ عاصمة المارتينيك ـ) لماذا؟ فعلت ذلك من أجل الدفاع عن مثّل أعلى ميت.. أصبحت أشك في كل شيء حتىّ في نفسي. فيما إذا استحالت عودتي وجاءكم نبأ موتي في مواجهة العدو، لا تقولوا إنه مات من أجل قضية نبيلة.. هذه الأيديولوجية المزيفة التي يختفي وراءها اللائيكيون والسياسيون البلداء، لا يجوز أن تخدعنا. لقد أخطأت. لم يكن هناك ما يبرر قراري المفاجئ في أن أدافع عن الفرنسي المعمر في الوقت الذي لا يهتم فيه هو بالأمر. غداً سوف أذهب متطوعاً في مهمة خطرة.. أعرف أنني سوف أموت».

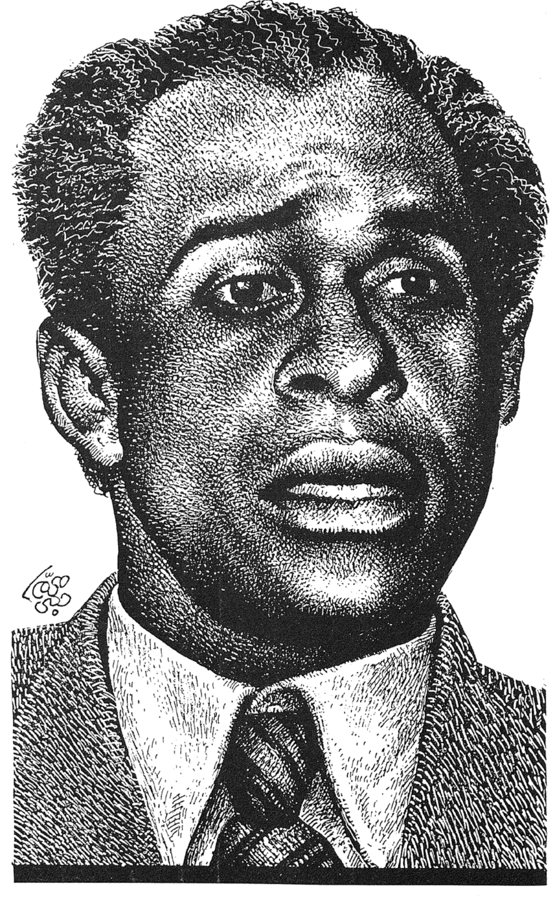
كان في إمكانه ألا يتطوع في مهمة يعرف أن فيها حتفه: لكنه تطوع وفاء لالتزامه بمبدأ كان يؤمن به وهو الدفاع عن حرية وكرامة الإنسان. هذه الرسالة التي كتبها وهو لم يتخط عتبة العشرين عاماً، تكشف عن واحد من أهم الخطوط التي تبلور شخصيته وعن الهاجس الذي ما فتىء يسيطر على حياته القصيرة: التمزق بين خيبة الأمل في الإنسان والإيمان به وحبه قبل كل شيء وبعد كل شيء.

ولاشك أن بعض المعاملة التي لقيها بعد التحاقه بالمقاومة ضد الألمان قد جعلته يلمس أن البيض الذي يحارب في صفوفهم، كانوا يدافعون عن مصالحهم قبل أن يدافعوا ـ مثله ـ عن كرامة وحرية الإنسان.

بعد أن شارك في تحرير «الألزاس» الفرنسية، أرسلته قيادته إلى ميناء «طولون» الحربي الذي وصله قبل إعلان النصر بأسبوع تقريباً. كانت احتفالات الانتصار شديدة الوقع على نفسه الحساسة. كان سكان المدينة، خاصة بناتها، يهتفون للجنود الأمريكان، وكانت البنات والنساء يتهافتن على الرقص معهم، وكن يرفضن الرقص مع الملون ولو كان بطل حرب تحريرهم.

يمكن أن نتصور مدى الألم الذي عصف به أمام هذا اللون من التمييز العنصري، هو الذي حارب النازية التي قامت على مقولة تفوق عرقي. تجربته الأليمة هذه بالإضافة إلى بعض معاناته في مدينة «ليون» التي التحق بها طالبا وعمل بها، أنضجته وأهّلته لأن يصدر عام ١٩٥٢ كتاب «بشرة سوداء.. أقنعة بيضاء» (Peau noire mes ques bloues) فهو كان يرفض الاحتماء بالأقلية الزنجية في مدينة «ليون»، كما فعل زملاؤه: كان يقول لزملائه: «كلما قلّت لقاءاتنا، كلما كان ذلك أفضل». كان يريد أن يزول التمييز القائم على اللون من الوجود.

عندما وجه مخطوط كتابه السابق الذكر إلى دار نشر «لوسوى» طلب منه أحد المشرفين ـ وهو «فرانسيس جانسون» (Francis Jeanson) أن يقابله في مكتبه بباريس. عندما دخل فانون مكتبه

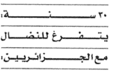


من المراهقة حتى الموت



بادره «جانسون» بامتداح كتابه. فما كان من فانون إلا أن قال له: «تقصد أنه كتاب لا بأس به مادام قد كتبه زنجي»!

جاء رد فعل الناشر سريعاً وحاداً وبليغاً: أشار إلى الباب، بمعنى «اطلع بره». أدرك فانون حينئذ أن مخاطبه كان جاداً في قوله، بل وتأكد أنه لا يحتمل بأنه يتهم باحتقارد للزنوج. وأسفر هذا اللقاء العاصف عن تفاهم وود وصداقة.



٣٠ سنة: يتفرغ للنضال مع الجزائريين:

كان فانون مثل كل مرهف حس، شاعري العاطفة، سريع الانفعال، عنيف ردود الفعل، حالماً يندفع بحماس للدفاع عما يؤمن به، متفائلاً بانتصار قضيته، وقد يخيب أمله من جراء سلوك أو تصرف أو عبارة، فينقلب متشائماً، سوداوي المزاج، كافراً بكل شيء، دون أن يتخلى عن التمرد في كل الحالات.

وقد يكون من المناسب هنا تصحيح عبارة وردت في الرسالة الموجهة لأسرته عام ١٩٤٥ من جبهة القتال، والتي يندد فيها بـ«اللائيكيين»، فقد يفهمها بعض من يقرؤونها ممن لا يعرفون «فانون» أنه ضد «اللائيكية» التي تعني عند كثيرين في المجتمعات الإسلامية اليوم، «الإلحاد». كلا.. لأن فانون كان يشير بذلك إلى الأوضاع الفرنسية خلال الجمهورية الثالثة التي عاشها وقرأ عنها طفلاً ومراهقاً، والتي تميزت بالصراع بين الكنيسة واللائيكية. ثم إن فانون رغم نشأته في وسط مسيحي، تأثر ببعض قيمه، كان يجهر بأنه ملحد ولا يؤمن إلا بالإنسان.



ما زلت أذكر أول يوم رأيته فيه. كان ذلك خلال مارس ١٩٥٧، كنا مجتمعين في قاعة التحرير حول «عبدالرزاق شنتوف» المسئول عن صحيفة «المقاومة الجزائرية»، فجأة دخل علينا القاعة شاب بالغ الأناقة، رياضي الجسم، في عينيه تساؤل، وعلى شفتيه ابتسامة، بشوش الوجه، تنتقل عيناه بسرعة من واحد لآخر، بينما كان يشد على يد كل منا بحرارة مصافحاً، تطفح من هيئته جاذبية تجعلك تتعلق به قبل أن تعرفه، سألت عبدالرزاق: من يكون؟ أجاب: ألم تعرفه؟ هذا هو فانون.

انضم إلى هيئة التحرير..

تلك هي بداية تعرفي على أحد الرجال الذين طبعوا عصرهم وتركوا رسالة لمن يأتي بعدهم. وهي نفس الفترة تقريباً التي تعرفت بها على بعض الفرنسيين الذين التحقوا بجبهة التحرير الوطني، مثل الدكتور بيير شولي، وسيرج ميشال الذي أصبح فيما بعد مستشار لومومبا السياسي.

وهكذا جمعتنا الصدف حيناً من الزمن، منذ مارس ١٩٥٧، وتعززت الصلة بعد ذلك، خاصة منذ شهر يونية من نفس العام.

عملنا معاً ضمن هيئة تحرير «المقاومة الجزائرية» في ربيع ١٩٥٧ لم يستمر طويلاً. ذلك أن القيادة التنفيذية لجبهة التحرير واجهت مشاكل معقدة في بداية تلك السنة، أثناء ما عُرف بـ«معركة الجزائر العاصمة»، التي اغتيل أثناءها أبرز عناصرها وهو العربي بن مهيدي. قرر الأعضاء الباقون على قيد الحياة، أن يلتحقوا بالخارج لإعادة ترتيب الأوضاع على ضوء المستجدات، في هذه الفترة قررت قيادة الجبهة توحيد الصحف الناطقة باسم جبهة التحرير في صحيفة واحدة هي «المجاهد». وتقرر أن يكون مقرها في مدينة تيطوان، شمال المملكة المغربية. صدر الأمر إلى الذين عينوا أعضاء في أسرة التحرير لأن يلتحقوا بتيطوان. تنفيذاً لهذا القرار التحق من تونس كل من فرانز فانون ومحمد الميلي، غادرنا تونس معاً إلى روما ثم مدريد ثم تيطوان.

كانت تلك الرحلة هي بداية التعرف الحقيقي على فانون إنساناً ومفكراً. قضينا بروما يومين بمعية المرحوم آيت حسن وهو محام تعرفت عليه بالعاصمة الجزائرية عام ١٩٥٦، قبل أن يلتحق بالخارج. (أصيب في انفجار قنبلة بألمانيا الغربية، وجهتها له المخابرات الفرنسية. وقد توفي متأثراً بالجراح التي خلفتها).

ثم مكثنا في مدريد خمسة أيام. وفي تيطوان كنا، فانون وأنا نشترك في غرفة واحدة خصصت لنا في الفيللا التي كانت أسرة التحرير تقيم بها، والتي تتشكل من رضا مالك، محيي الدين موساوي، علي مارن، علي عسول، سليم، بوعبدالله، زهير إيحدادن، بالإضافة إلى اللذين قدما من تونس. كان فانون في هذه الفترة شديد التفاؤل بالمستقبل.

في تيطوان أتيح لي أن أعرف عنه ما لم أكن عرفته: كان كثير المطالعة، قليل النوم، صارماً مع نفسه، ودوداً مع زملائه، يخاطبك كند، فلم أشعر منه بذرة تعال، ولم ألمس لمعَيّه أي أثر للاعتداد بنفسه والتباهي بمؤهلاته أو الزهو بأفكاره.

كان قليل الخروج من مقر إقامتنا، مثله في ذلك مثل سائر زملائه، (ماعدا اثنين كانا ممنوعين من الخروج لأسباب لم نحاول معرفتها).

طيلة فترة تيطوان ظل فانون متساوياً مع نفسه، شديد الحماس، كبير التفاؤل: ألم يصبح جزائرياً قلباً وقالباً؟ ألم يتحدث باسم جبهة التحرير عندما عقد ندوة صحفية في تونس بمناسبة واقعة مللوزة البشعة، التي نسبها الفرنسيون لجيش التحرير ونسبتها جبهة التحرير للجيش الفرنسي. (لكن تبين فيما بعد أنها لم تكن من عمل الفرنسيين، وقد أثر [على] فانون، عندما اطلع على الحقيقة تأثراً بالغاً).

إن فانون إذ أصبح ضمن فريق «المجاهد» الصحيفة التي تشرف عليها مباشرة أعلى هيئة في جبهة التحرير، كان يشارك في توجيه الثورة. ألم يكن عبان رمضان، تلك الشخصية العملاقة، يناقشه كند دون أن يشعره بأنه هو المسئول وفانون تابع؟ (والواقع أن سلوك عبان رمضان ذاك مع فانون كان هو نفس سلوكه مع أفراد أسرة التحرير).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن فانون قد فوجئ عندما التحق بمستشفى «البليدة» في الجزائر، عندما تبين أنه لا يوجد لدى الجزائريين أي تمييز ضد الملونين. اعتبره الجزائريون واحداً منهم حتى من قبل أن ينضم إلى جبهة التحرير ويصير وجهاً من أبرز وجوهها. يؤكد ذلك مثالان: المثال الأول رواه لي فانون بنفسه في تيطوان: حدث أول التحاقه بالجزائر -وقبل اندلاع ثورة نوفمبر ١٩٥٤- وكان مساعده يترجم له ما تقوله مريضة جزائرية لا تعرف الفرنسية؛ اندهشت الجزائرية وقالت لمساعده: ماذا يحسب نفسه؟ لماذا يتظاهر بعدم معرفة العربية لأنه تعلم لغتهم وتردد على مدارسهم؟ لم يخطر على بالها إطلاقاً أنه غير جزائري. المثال الثاني ترويه «أليس شركي» في كتابها عن فانون. كان يجلس في سيارته مع زميل له، يدخن سيجارة. كان الزمن رمضان. مر بهما جزائري بادره قائلاً: عيب. المطلوب منك ألا تدخن في نهار رمضان -لم يخطر على باله أنه غير مسلم.



لكننا نظلم فانون إذا نحن تصورنا أن تقبل الجزائريين له بصورة عفوية، واحتضانهم له بوصفه واحداً منهم هو السر الأساسي في انجذابه إلى حركة التحرر الوطني. فقد شاهد قبل اندلاع الثورة المسلحة من مظاهر التمييز العنصري ضد الجزائريين ما جعله يتبين مدى تطابق معركتهم من أجل التحرر والاستقلال مع المعركة التي ما فتئ يخوضها منذ سن الثامنة عشرة من أجل انتزاع حرية الإنسان وصيانة كرامته.

وقد قاده المسعى الخاص الذي اعتمده في معالجة المرضى النفسيين الجزائريين إلى التعرف على البيئة التي نشأوا فيها والتقاليد التي شبوا عليها فاكتشف وجود هوية ثقافية جزائرية تختلف كلية عن المزاعم الاستعمارية بأن الجزائر فرنسية.

من هنا كان انخراطه في النضال الجزائري مبكراً، نابعاً من مجموعة تلك العوامل، ولم يكن يخضع لأي حساب شخصي. وهذا ما يفسر أيضاً فهمه المبكر لآليات النضال ضد الاستعمار، وإدراكه المعمق لطبيعة الثقافة الوطنية ودورها في صناعة رفض الاحتلال. وقد ساعدته مهنته وتخصصه من جهة، وتأثره بمدرسة أستاذه Tosquelles في الطب النفسي من جهة أخرى على فهم المسار الذي أخذه الكفاح الجزائري. وقد ظهر ذلك على الأخص في المقالات والدراسات التي كان يكتبها لصحيفة «المجاهد» كما ظهر في كتابه (L'an v de la Zevolution elgenieure) (الثورة الجزائرية في عامها الخامس) الذي نشر في طبعات لاحقة تحت عنوان: (Socialogie d'une Zevolution) (سوسيولوجية ثورة)، ومن هنا فقد استحق وصف «منظمو الثورة الجزائرية».

لكن لنرجع إلى الوراء قليلاً، إلى الفترة الفاصلة بين مرحلة تيطوان، (صيف ١٩٥٧) ومرحلة تونس التي بدأت مع انتقال مقر المجاهد إلى تونس منذ ٩ أكتوبر ١٩٥٧.

في ٢٠ أغسطس ١٩٥٧ اجتمع المجلس الوطني للثورة الجزائرية بالقاهرة. وكان متوقعاً أن يكون ذلك الاجتماع مناسبة لضم عناصر أخرى لعضوية ذلك المجلس. وكان هناك من يتوقع أن يكون فرانز فانون ضمن الأعضاء الجدد في مجلس الثورة.

اتخذ ذلك الاجتماع عدة قرارات كان لها تأثير كبير على الاتجاه الذي أخذته جبهة التحرير بعد ذلك، مثل إلغاء مبدأ «أولوية السياسي على العسكري» وإلغاء مبدأ «أولوية الداخل على الخارج».

عندما غادرنا تيطوان لم تكن قرارات مجلس الثورة قد بلغتنا.

في مدريد التي مكثنا بها بضعة أيام في طريقنا لتونس، تسربت بعض الأخبار عن اجتماع القاهرة عن طريق بعض القادة الذين كانوا موجودين في مدريد. كانت مدريد من أهم القواعد الخلفية لجبهة التحرير في أوروبا: من خلال أسبانيا كانت تمر الأسلحة التي توجه إلى المناطق الغربية من الجزائر. كانت أسبانيا فرانكو تمنح تسهيلات معتبرة لجبهة التحرير، نظراً للعداوة المستحكمة بين فرنسا «الجمهورية» وأسبانيا الفاشية». وكان نظام فرانكو معروفاً بأنه نظام بوليسي صارم. وكنت قد لاحظت، أول مرة وصلنا إلى مدريد قادمين من تونس (يونيو ٥٧) وجود مصورين في المطار يلتقطون صور كل الذين يغادرون الطائرة. عندما سألت ممثل جبهة التحرير في أسبانيا الأخ بوقادوم عن معنى ذلك أفهمني أن ذلك هو النظام المتبع هنا. وذلك يعني أن نظام فرانكو لم تكن تخفى عليه أية تحركات عبر التراب الأسباني فكيف إذا تعلق الأمر بانتقال الأسلحة إلى شمال المملكة المغربية.

خلال مكوثنا بمدريد في الطريق لتونس هذه المرة، (سبتمبر ١٩٥٧) اجتمع بعض قادة الجبهة مع بعض ممثلي الثورة في أوروبا يتقدمهم الأخ عمر بوداود الذي كان مسئول اتحادية جبهة التحرير في أوروبا، يرافقه «فرانسيس جانسون» الذي كان يتولى تهريب الأموال التي يجمعها المناضلون بفرنسا إلى بنوك أوروبية. وجانسون هذا هو نفسه الذي تولى نشر أول كتب فانون عام ١٩٥٢ كما سبقت الإشارة لذلك. وكان قد تعاطف مع الكفاح الجزائري وساهم في التعريف بشرعيته لدى الرأي العام الفرنسي إذ كان قد نشر في العام الثاني للثورة كتاباً ألّفه بمعية زوجته عنوانه: «L'Algerie hiro la lir» (الجزائر الخارجة على القانون) تعرض فيه للفظائع التي ارتكبها الجيش الفرنسي أثناء حرب الاحتلال في القرن التاسع عشر.

أذكر جيداً ذلك اليوم، أو بعبارة أدق تلك الليلة. كان الجو حاراً، وكنا نتمشى فانون وأنا، في أحد شوارع مدريد الواسعة. كان فانون يتحدث كعادته بطلاقة وانفعال. لم يصدر عنه تعليق صريح على قرارات اجتماع القاهرة، أو ما يدل على تذمره من قيادة الجبهة؛ لكن التشاؤم كان يطبع بعض المقاطع من حديثه،

كان فانون مثل كل مرهف حس، شاعري العاطفة،
سريع الانفعال، عنيف ردود الفعل، حالماً يندفع بحماس للدفاع عما يؤمن به،
متفائلاً بانتصار قضيته



دليل خيبة أمل، ذلك لا يعني أنه كان يعلق أهمية كبرى على انضمامه للقيادة، لكنه يعني ـ فيما أتصور وحسبما استخلصته من حديثه آنذاك ـ أنه أَحَسَّ بنوع من التمييز الذي عانى منه قبلاً، سواء عندما كان جندياً أو بعد أن استقر به المقام في مدينة «ليون»: ألا يكون السبب الحقيقي لاستبعاده هو كونه ليس جزائرياً بالأصالة.



كان فانون يثق ثقة مطلقة بعبان رمضان وكان معجباً به أشد الإعجاب؛ لكن عدم حصول هذا الأخير على الأغلبية عند التصويت على اقتراح إلغاء المبادئ التي اعتمدت في مؤتمر الصومام، أغسطس ١٩٥٦، وهي المبادئ التي كان يدافع عنها عبان ويتمسك بها، جعل فانون يشك في القيادة، إذ لم يؤيد موقف عبان في اجتماع القاهرة إلا شخص واحد. ولعل هذا ما دفع فانون إلى أن يتساءل ذلك المساء، عما إذا كان هناك قائد خفي، هو القائد الحقيقي الذي يمسك بكل الخيوط دون أن يظهر للعيان، ولم يخطر بباله أن تكون الحقيقة أبسط مما تصور، لأن الحقيقة لم يتبينها إلا بعد ذلك، ويمكن تلخيصها في أن التكتل الذي حدث ضد عبان رمضان كان نتيجة التقاء مصالح بعض القادة العسكريين الذين وجدوا الفرصة سانحة لأن يحتكروا السلطة دون الآخرين من جهة، زيادة على تدني المستوى الثقافي لعدد من العناصر القيادية من جهة ثانية، وغياب قادة من وزن العربي بن مهيدي ومصطفى بن بولعيد من جهة ثالثة.

بعد أن أبدى فانون شكه ذلك، راح يتحدث عن تجربته الفكرية بإسهاب، خاصة ما استفاده من أستاذه الأسباني Tos quelles الذي كان قد آراني، في تيطوان كتاباً له، كان يقرأ فيه دائماً قبل أن ينام؛ واستطرد في شرح نظرياته، ثم صارحني بأن نشأته المسيحية لم تقنعه بوجود الله، وأنه لا يؤمن إلا بالإنسان.. وإذا خاب الأمل في الإنسان ماذا يبقى؟ إلا أنه لم يلبث أن يتدارك: الإنسان هو القيمة الأساسية، القيمة القصوى.

إن عدم وقوع فانون في فخ اليأس المطلق يرجع في تقديري إلى عاملين: حيويته المتدفقة التي لا تجد متنفساً لها إلا في الحركة والعمل والجهد من ناحية، ورهانه على أفضل ما لدى الإنسان من ناحية أخرى. كان دائم التطلع لفهم ما يجري في العالم، كان شديد النهم لمعرفة آخر ما صدر من كتب والاطلاع على أحدث الإبداعات، سريع الحركة كأنه يريد أن يسابق الزمن، وكان لديه إحساساً بأن الزمن لن يمهله حتى يقول كل ما لديه. وليس من محض الصدفة أن يكون ضمن آخر ما كتب قبل وفاته: «آخر دعائي هو: اجعل مني يا جسمي إنساناً دائم التساؤل».



بعد العودة إلى تونس رحت أستعرض ما قاله لي في مدريد، محاولاً تأويله على ضوء كتاباته وسلوكه بعد أن تغيرت ظروف عملنا: فقد أصبح كل منا يعيش مع أهله، ولم نعد منقطعين عن الزوجة والولد كما كنا في تيطوان. لاحظت أن سلوك فانون لم يتغير، بل لقد كان من رأيه أن يظل أعضاء أسرة التحرير منقطعين عن أسرهم، متفرغين للعمل في نفس المكان الذي يقيمون به، تماماً كما كنا في تيطوان. إلا أن فكرته هذه لم ترق لمعظمنا، ولما شاهد عبان رمضان أن الأغلبية ضد رأي فانون، سايرنا وترك كلاً منا يعيش في سكن خاص مع أسرته.

ظل فانون في تونس متمسكاً بأسلوب العمل الذي درج عليه: يحاول إنجاز أكثر ما يمكن من عمل في أقل ما يمكن من الوقت. أدركت على ضوء ذلك كله أن عضويته في مجلس الثورة لم تكن تهمه، لما تضفيه عليه من وجاهة أو تمنحه من سلطة، فهو لا يحب المظاهر ويكره التسلط ويعتبر التواضع أساس التعامل مع من يعملون معه؛ كانت علاقته مع رفاقه قائمة على الإقناع والاقتناع، فلم يكن يعمل شيئاً لا يقتنع به، ولم يكن يلزم غيره بعمل شيء لمجرد أنه هو الذي أصدر الأمر به: كان يفضل الحوار والجدل بالتي هي أحسن، كل ما كان يهمه في عضوية المجلس الوطني للثورة الجزائرية، هو أن الموقع القيادي يتيح له فرصة أكبر لتحقيق ما يؤمن به من مُثُل، ويعطي مسعاه مزيداً من الفعالية لتغيير الأفكار والارتقاء بالنفسيات وتهذيب الممارسات.

صرخة المعذبين في الأرض

لم يتجاوز حضور فانون داخل الثورة الجزائرية الأربع سنوات، لكن عطاءه الفكري كان من العمق والوفرة، وتأثيره كان من السعة والانتشار ما جعله يبدو في نظر كثيرين هو المنظر الوحيد للثورة الجزائرية أولاً وللثورة على مستوى العالم الثالث بعد ذلك.

فقد عرفنا استعداد فانون، وهو وشيك الخروج من المراهقة، للتفاعل مع قضايا الإنسان وأبعادها العالمية، عبر تطوعه للحرب في صفوف «فرنسا الحرة». إلا أن مظاهر التمييز العنصري جعلته يبحث عن مجال آخر لخدمة قضايا الإنسان. بعد مرور أقل من عامين على التحاقه بالجزائر، وجد ضالته في الثورة الجزائرية الوليدة يؤوي جرحى جيش التحرير، ويعالج بعض من أصيب منهم بأمراض نفسية. كانت سن فانون آنذاك ثلاثين سنة، هو عام باندونغ، وقد مرت سنة على سقوط ديان بيان فو وانتصار الجنرال جياب الفيتنامي في تلك المعركة الحاسمة ضد الجيش الفرنسي، يوم ٨ مارس ١٩٥٤، الذي هو الذكرى التاسعة لمجزرة ٨ مارس ١٩٤٥ التي ذهب ضحيتها خمسة وأربعون ألف قتيل من الجزائريين.

وما إن اندلعت المعركة المسلحة في نوفمبر ١٩٥٤ حتى التحق عدد من الجزائريين الذين حاربوا في فيتنام بجيش التحرير الجزائري. فيمكن القول بأن فانون كان، من خلال ذلك كله، على صلة بمظاهر عالمية لصراعات كانت تبدو محلية. فإذا أخذنا في الاعتبار حساسيته المرهفة وذكاءه الحاد أدركنا مدى سرعة استيعابه لمعطيات عالمية لم تكن قد اتضحت بعد لكثيرين من أمثاله. ولهذا لا نستغرب عندما نعرف أن فرانز فانون كان قد فكر آنذاك في أن يؤلف كتاباً عنوانه: «الجزائر ـ جنوب أفريقيا» لأنه أدرك ما بين النظامين من أوجه شبه، من حيث الاستيطان والتمييز العنصري. وفي الوقت الذي كان يعقد فيه فانون هذه المقارنة، كان عبان رمضان ـ أحد أبرز الوجوه الثورية الجزائرية ـ يحلم بواقعة يكون لها صدى ديان بيان فو، على أن يكون ميدانها شارع إيزلي (وهو شارع أوروبي ضخم يقع في قلب عاصمة الجزائر)، كما كان يحلم بإقامة مناطق محررة في الأرياف على غرار ما فعله الماريشال تيتو في يوغسلافيا أثناء الحرب العالمية الثانية. لذلك يمكن القول بأن بذور تفكير «عالمثالثة» ظهرت بالجزائر خلال السنتين الأوليين للثورة المسلحة، وليس من المستبعد أن تكون بدايات التفكير في حركة ثورية على مستوى العالم الثالث قد ظهرت عند فانون أول احتكاكه بالكفاح المسلح في الجزائر، نظراً لاستعداده منذ سن الثامنة عشرة للدفاع عن حرية الإنسان في أي مكان من العالم؛ وكل ما هناك أن تجربته الجزائرية جعلت هذا الالتزام يخرج من نطاق المشروع الفردي إلى مشروع عالمي يسع العالم الثالث كله، وهو المشروع الذي تبلور عام ١٩٦١ في كتاب (Les demnis de la tene)، الذي وضعه في فراش مرضه ومات دون أن يشهد تأثيره عالمياً.

كان فانون حريصاً على أن يَتَوَلَّى جان بول سارتر كتابة المقدمة لكتاب يعرف أن لغته سوف تصدم، لأنه يعتبر مثل تلك اللغة ضرورية وأمراً مستعجلاً، «بل لعل الأوان قد فات» حسبما سجلته المؤلفة التي تشرح المقصود بذلك: «إنه يقصد بأن الأوان قد فات سياسياً، لكنه يومئ أيضاً إلى أنه يعرف بأنه سوف يموت عما قريب». وفعلاً فقد اختطفه الموت فور صدور الكتاب، ولما يتجاوز ستة وثلاثين عاماً.

أما فوات الأوان سياسياً فلعله إشارة إلى أن ما لاحظه في بلدان أفريقية استقلت، وما شاهده من صراعات داخلية بين قادة جبهة التحرير أقنعه بأن كتابه جاء متأخراً وأنه لن ينجح في تصحيح الانحراف الذي ذر قرنه منذ ١٩٥٧.



أحدث الكتاب ضجة كبرى؛ فهو يختلف عن كتاباته السابقة التي كان يتوجه بها إلى اليسار الفرنسي؛ فهو في كتابه الأخير يتوجه إلى رفاقه في الجزائر وفي أفريقيا وفي عموم العالم الثالث. وفي ذلك تقول «أليس شركي» صاحبة الكتاب عن سيرة فانون الذاتية، ما يلي: «يتوجه فانون في هذا الكتاب إلى المستعمَرين «بفتح الميم» الذين يكافحون ضد الاستعمار، والذين عاش معهم منذ أن انضم لجبهة التحرير. كتبه لرفاقه الجزائريين والأفارقة. كان يريد تحذيرهم من أخطار تهدد كل حركة وطنية يَقْتَصِرُ مشروعها على تحرير التراب الوطني دون أن يتناول الأوضاع الاجتماعية.. كان يريد أن ينقل لهم ما عاشه وما فهمه من خلال النشاط الثوري. إنه يتحدث انطلاقاً من التاريخ الراهن عن انغماسه في هذا التاريخ الذي أكسبه تجربة كان لزاماً عليه أن يبلورها.. إن مجموع الكتاب تحليل دقيق لتصفية الاستعمار، وتساؤل عن مستقبل العالم الثالث وخاصة في القارة الأفريقية، مع توجيه الانتباه إلى أمريكا اللاتينية وكوبا على الخصوص». لعل هذا ما جعل الكتاب يحظى بالاهتمام الواسع على اختلاف ردود الفعل التي أثارها: فهناك من مجّده، وهناك من انتقده، وهناك من رفضه جملة وتفصيلاً، لكن لم يوجد هناك من لم يهتم به.

إن الصرخة التي وجهها في خاتمة الكتاب والتي ترجمنا أهم فقرة منها في مطلع هذا العرض، تعتبر إنذاراً لكل المضطهدين، يرسم لهم طريق الخلاص حسب رؤيته التي هي مزيج من المثالية المسيحية والاندفاع العنيف من أجل قلب كل الأوضاع لفائدة الفئات المحرومة.

إن تلك الصرخة بالإضافة إلى تحليله للمأزق الذي يصطدم به البلد المستعمَر، والذي لا يمكنه أن يخرج منه إلا بالعنف، فهمها كثيرون على أنها تمجيد للعنف المطلق. وهذا ما دفع بعض المعجبين به من تلامذته، مثل «أزولاي» إلى الابتعاد عنه، إذ قال هذا الأخير: «لم أعد أفهم مواقفه». في حين أن فانون كان يشع حبًّا وسخاء نفس، حسب كل الذين عرفوه، فكيف يمكن أن يكون داعية عنف مدمر. إن فرانز فانون يحلل الحالة الاستعمارية من داخل الكائن الذي استلبه الاستعمار. وهذا ما تحاول أن تقوله «أليس شركي» عندما تكتب توضيح ذلك: «إن تصفية الاستعمار بوصفها زمناً لفوضى مطلقة مدعوة لأن تسفر عن ميلاد إنسان جديد. إن الكائن المستعمَر الذي أصبح «شيئاً»، وتحول أداة وصار مجبوراً على أن يصبح حيواناً في بعض الأحيان وشراً مطلقاً، صار بصدد استعادة إنسانيته من خلال ممارسته للنشاط التحرري».

وفعلاً فإن البغضاء التي يولدها الاستعمار لدى المضطهدين، لا تستطيع أن تشكل بمفردها برنامجاً لثورة أو مشروعاً مجتمعياً لحركة تحرير. لأن المضطهدين الساخطين الحاقدين على المحتل إذا كانوا يشكلون قوة انقلابية، فإنهم لا يستطيعون وحدهم أن يتحولوا إلى حركة تحرر حقيقية. إذ أن هذه لا تتم إلا من خلال اللقاء بين الطلائع الثورية القادمة من المدينة والجماهير الريفية التي تشكل خامة عذراء قابلة للثورة لأنها لم تتلوث بالثقافة الاستعمارية.

مثل هذا اللقاء في نظر فانون هو الذي يضمن تجنب المطبات في تسيير أمور الدولة بعد الاستقلال: إذ أن التجربة «تدل على أن المهم في بلد متخلف ليس هو أن يكون هناك ثلاثمائة شخص (يقصد ربما برلمان أي لجنة مركزية) يبحثون ويقررون، لكن المهم هو أن يفهم المجموع أسباب القرارات ويتخذوها عن وعي، ولو أدى الأمر إلى أن يستغرق ضعفي أو ثلاثة أضعاف الوقت الذي تستلزمه الحالة الأولى». حسب تعبير فانون. ولم



يغب عنه أن مثل هذا الأسلوب يؤدى إلى مناقشات خلافية حادة وإلى البطء فى تحقيق التغييرات المطلوبة، إلا أنه يرى ذلك ضروريًا لأنه يمثل جزءًا لا يتجزأ من عملية التحرر، ويساعد على توسيع آفاق العقل وجعله أكثر قابلية لفهم الإنسان، فى نفس الوقت الذى يؤدى فيه إلى الخروج من التصور البدائى فى تقييم الأشياء والحكم عليها وتقسيمها إلى «خير» مطلق و«شر» خالص. مثل هذا الأسلوب يسمح فى التصور الفانونى بأن يشترك كل أحد جماعيًا فى اتخاذ القرار دون أن يكون ساذجًا أى سريع التأثر بما يقوله الآخرون.

انطلاقًا من هذا «التصور المثالى» الذى يأخذه عليه بعض منتقديه، يطالب بالفصل التام بين الشأن السياسى والمسئوليات الإدارية. ونفس هذا المنطق هو الذى يدفعه إلى أن يعارض فى إنشاء جيش محترف، ويجعله يطالب بهجرة المدينة إلى الريف؛ إذ أن الفكر الوطنى ينتهى إلى مأزق إن هو لم يكن موضوع شرح معمق ونقاش يُثرى بحيث يتحول إلى ضمير سياسى واجتماعى. فإذا كان بناء جسر مثلاً لايفضى إلى توسيع مُدارك الذين يعملون فيه وتعميق وعيهم، فلا كان الجسر، وليستمر الناس فى عبور النهر على القوارب أى فوق ظهر الدواب، كما كانوا يفعلون قبلاً.

بناء على ذلك يندد ببورجوازية البلدان الأفريقية التى تحاول محاكاة البورجوازية الغربية ليس فى مسارها العام الذى بنت به بلدانها، ولكن تقتصر على محاكاتها فى الاستهلاك والأنشطة الطفيلية، ومن ثم فهى لا تضيف شيئًا ولا تحقق إبداعًا فى مجالات الاقتصاد والصناعة والزراعة.

فلسفة العنف: رد فعل ضد عنف المجتمعات أمس واليوم

إن اللهجة التى اعتمدها فرانز فانون مضافة إلى مثاليته وحديثه عن العنف كعنصر تطهير وعامل تحرر، ألَّبت عليه جهات وعناصر كان يفترض فيها أن تؤيده. فهناك أكثر من مفكر يسارى أخذ عليه هجومه على الغرب، وانتقد نظريته فى «ثورية الطبقة الفلاحية». مثلما فعل «جان لاكوتور» الذى اعتبر أن فانون يريد أن يقيم حضارة جديدة على العنف والعرق واحتقار تاريخ الشعوب الأوروبية. وكذلك «جان دانيال» الذى أشاد بإنسانية فانون لكن أخذ عليه سعيه لتطبيق تحليل نفسى للعنف على المجال السياسى، وإن كان يعترف بأن مثل هذا المسعى لا يخلو من صحة. كما تعرض فانون لنقد عنيف من طرف بعض الماركسيين الفيتناميين.

تدافع المؤلفة عن فانون مستعملة نوعين من الحجج: أولهما أن الذين انتقدوه لم يفهموا قصده، وثانيهما: أن منتقديه قرأوا فانون ونظروا إليه من خلال المقدمة التى كتبها جان بول سارتر والتى حرفت العنف الفانونى ونقلته من دائرة الشعب والمجتمع، إلى دائرة الفرد الوجودى. بالنسبة لعدم فهم المنتقدين لما قصده فانون، ترى بأن هذا الأخير لم يطالب بإعادة النظر فى مكاسب الحداثة التى تحققت فى إطار الثقافة الغربية. كما ترى أن فانون لم يتوجه بالخطاب إلى أوروبا فى هذا الكتاب، وإن كانت هذه غير غائبة، فهو لا يطالب بأوروبا مثالية، ولا يرى بأن الثورة فى الغرب تمر بالعالم الثالث كما كان يرى عدد من الأوروبيين الذين تبنوا قضايا العالم الثالث والمفاهيم التى انطلقت من بندونغ.



وعن ثورية الطبقة الفلاحية ترى «أليس» أن فانون استخلص نظريته من تجربته الجزائرية: فالحركات الوطنية بالمدن، فشلت بصيغها المختلفة وتعرضت للانقسامات؛ ومرجع ذلك إلى أن تلك الحركات تمثل البورجوازية الصغيرة فى المدن والطبقة العاملة الناشئة. والفرق بين هذه والطبقة الفلاحية فى الريف أن الأولى كان من الممكن أن تندمج فى المنظومة الكولونيالية بخلاف الثانية، أى الفلاحية فهى لا يمكن أن تندمج فى نظام قائم على إقصائها. وإذ يشيد فانون بالطبقة الفلاحية فهو يرى أنها يمكن أن تخدم الثورية كما يمكن لها أن تناصر الرجعية.

الواقع أن ملاحظة المؤلفة لا تخلو من وجاهة. لكن غاب عنها عامل مهم يفسر الخطأ الذى وقع فيه فانون عند تقييمه للطبقة الفلاحية، يتمثل فى أن فانون كان يفتقد إلى أداة تاريخية ضرورية لفهم مسار الحركة الوطنية فى مجموعها. فسكان الأرياف - مثل سكان المدن - كانوا موضوع عمل دعائى هو مزيج، فى آن واحد، من: العمل التنويرى والتوعية السياسية أولاً، وإثارة الحنين إلى الماضى والتاريخ العربى - الإسلامى وأمجاده ثانيًا، مع استعمال لغة لا تخلو من التهريج والغوغائية والديماغوجية ثالثًا.

أما بالنسبة للمقدمة التى كتبها سارتر والتى أدت إلى تحريف العنف الذى يقصده فانون، فالمؤلفة تستشهد على ذلك بالفقرة التالية من فقرات المقدمة:

«إن قتل أوروبى يعنى إصابة هدفين بحجر واحد: لأنه يؤدى إلى التخلص فى نفس الوقت من ظالم ومظلوم، فلا يبقى إلا رجل ميت ورجل حر» ثم تعقب على ذلك قائلة: «إن هذه الصيغة تقلص المواقف الفانونية لأنها تظهرها كما لو كانت تبرز القتل الفعلى الفردى»، وليس العنف الذى يقصده فانون، لأن ما يقصده فانون هو عنف المجتمعات المسلط على الأفراد الذى يمنع الاعتراف بوجودهم، ويمحو مستقبلهم. فالعنف الثورى والحالة هذه تعبير عن الرغبة فى التغيير ودعوة إلى التحرر على مستوى الأمة، فهو يتحدث عن عنف المجتمع بصفة عامة، أى كل مجتمع يعانى من العنف، وليس المجتمع الواقع تحت نير الاستعمار فقط. فهو يرى أن أى مجتمع، ولو كان مستقلاً، عندما لا يعترف لأفراده، وخاصة فئاته المحرومة، بحرية التعبير وحرية الرأى، يعتبر مجتمع عنف؛ هذا العنف الذى يهمشهم يولد لديهم العنف الذى يمكنهم من امتلاك القدرة على التعبير الحر.

صودر الكتاب فى فرنسا بمجرد صدوره مما جعل الناشر الفرنسى يكتب محتجًا: «إن هذا الكتاب تحليل تاريخى وسوسيولوجى على المستوى العالمى، فأى شىء فيه يعتبر مسًا بأمن البلاد».

ومع ذلك فقد انتشر خبره وذاع صيته ولقى اهتمامًا كبيرًا فى أفريقيا وفى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، وفى اليابان وفى إيران.

فقد كتب Takeshi Ebisake عام ١٩٨٢ ما يلى: «كان فانون له وزن كبير فى اليابان بفعل الجو الاجتماعى والمناخ السياسى خلال سنوات الستين. فقد عرف اليابان نفس التيارات التى عرفتها الحركات الطلابية فى الولايات المتحدة وفى ألمانيا الغربية، وخلال ربيع براغ، والكفاح الصعب الذى قاده شى غيفارا فى أمريكا اللاتينية. لقد كانت تلك الفترة حساسة ومتجاوبة مع المقولة الفانونية».

إلا أن الازدهار الاقتصادى الكبير الذى عرفه اليابان والذى احتوى أحزاب اليسار، أدى إلى التعتيم على فانون الذى اختفى اسمه بعد الستينيات، أى عندما أصبح اليابان يستغل البلدان الآسيوية حسب نمط الاستعمار الحديث.

على أن اليابان بعد ذلك عرف تطورًا جعل مجتمعه يعانى هو الآخر من الشرخ الاجتماعى بفعل قانون المنافسة الذى لا يرحم. وفجأة انبعث من جديد اسم فانون فى المجتمع اليابانى. ذلك أن تحكم التكنولوجيا العليا فى الاقتصاد حَوَّل الإنسان هناك إلى أداة صماء فى آلة ضخمة، وأصبح حتى الأطفال والمراهقون يخضعون لوتيرة شرسة فى التعليم وفى التربصات، حتى يواجهوا حمى المنافسة التى لا تعترف إلا بالإنتاجية والفعالية التى تقدر بنوعية وكمية السلع دون أى اعتبار للإنسان بوصفه مشاعر وأحاسيس. وقد أسفر هذا الوضع عن عنف خارق، بلغت معه نسبة انتحار الشباب وقتل الآباء مستوى يبعث على الحيرة.

فى ظل مثل هذا الوضع تكتسى قراءة فانون من جديد أهمية خاصة، بل تقدم إنارة كبيرة لمن يرفض أن يكون جسم الإنسان وعقله خاضعًا لقوانين البيروقراطية ومنطق الإنتاجية ونداء الموت.

ونفس القراءة الجديدة لفانون تسمح بإنارة الطريق لعدد من المجتمعات الأوروبية وغير الأوروبية. صحيح أن الاستعمار التقليدى لم يعد له وجود. لكن ظاهرة التهميش التى حللها فانون فى الإطار الاستعمارى، تواجهنا اليوم عندما نشاهد وجود عالمين داخل المجتمع الواحد، يهمش أحدهما الآخر. إن مجتمعاتنا اليوم تجمع على إدانة العنف، لكنها تفرزه باستمرار وعلى عدة مستويات.



أما فى إيران فقد انتشر فكر فانون بواسطة مؤرخ وعالم اجتماع إيرانى، هو على شريعاتى الذى تتلمذ على جاك بيرك فى نهاية الخمسينيات، ودخل السجن عدة مرات فى عهد الشاه. وقد سعى هذا العالم الاجتماعى والمؤرخ إلى أن يجعل من الإسلام الشيعى قوة رقى وتقدم، بما يغرس قيم الإسلام فى قلب الحداثة. وقد وجد فى كتابات فانون - على الرغم من أنها ملحدة - مادة للحوار، كانت موضوع مراسلة بين الرجلين. فقد كتب له فانون ردًا على مراسلة سبقت من على شريعاتى، يقول: «.. حتى وإن كنت لا أشاطرك مشاعرك فيما يتصل بالإسلام، فإنى أقدر فكرتك القائلة بأن الإسلام يملك أكثر من أية قوة اجتماعية أو أيديولوجية أخرى، القدرة على مناهضة الاستعمار ويَتَمتَّع بطبيعة مناهضة للغرب. إنى أتمنى أن يتمكن مثقفوكم من أن ينفخوا الحياة فى الجسم الجامد والمخدر للشرق الإسلامى حتى يستعيد شعبه الوعى ويؤسس إنسانًا آخر لحضارة أخرى. إنى لأخشى أن يؤدى العمل على إحياء روح التعصب الدينى إلى أن تبتعد الأمة فى صيرورتها عن مستقبلها، وتنكفئ على ماضيها». أليست تلك إشارة إلى عوامل تفضى إلى نفق العنف الأعمى.

وإذا كان على شريعاتى قد توفى عام ١٩٧٧، فإنه عرَّف إيران بأفكار فانون وخاصة فيما يتصل بحجاب المرأة فى الجزائر. حتى إذا قامت الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩، ظهرت ملصقات ضخمة تقول: «الشادور فى عين الاستعمار»، وتحت ذلك اسم فرانز فانون بمثابة توقيع. وعندما سئل رجل الشارع فى إيران: من يكون فرانز فانون؟ كان الجواب: لست أدرى، لكنه أحد رجالنا ولا شك!

تغييب متعمد

إذا كان ذلك هو مدى تأثير فانون على مستوى العالم، فما هو تفسير النسيان الذى لفه فى جزائر اليوم؟ الجزائر التى تبنته وارتضته أحد الناطقين باسمها حيًا، وواراه ترابها ميتًا.

مثل هذا النسيان لا يمكن أن يكون إلا نتيجة تغييب متعمد. لاحظت ذلك Jrene Gendzier، وهى أمريكية فى كتابها عن فانون الذى صدر عام ١٩٧٣ بعنوان (Franty Fanon, a critical Srudy) عندما كانت تجمع مواد كتابها هذا، زارت الجزائر فى صيف ١٩٧١، والتقت مع مسئولين وكوادر جزائريين، خرجت من لقاءاتها تلك بانطباع واضح يتلخص فى أن الذين التقت معهم يتفقون على تجنب الحديث عن آراء فانون وأفكاره السياسية، فى نفس الوقت الذى ينكرون فيه أى تأثير لفانون على قادة الثورة الجزائرية، وخاصة ابن بلة وبومدين، ما هو تفسير هذا التغييب المتعمد لفانون فى الجزائر؟

يفسر ذلك أمران يكمل أحدهما الآخر:

الأول: أن فانون فى كتابه الأخير «المعذبون فى الأرض» ندد بالبورجوازية الوطنية فى البلدان الأفريقية، وفضح سلوكها وطبيعة المطالب التى ترفعها: فالمطالبة بتأميم الاقتصاد والتجارة الخارجية، لا يعنى - فى نظره - أنها تريد تسخير الاقتصاد لخدمة مجموع الشعب، ولكنه يعنى أن تحل محل الأوروبى الذى كان يحكم. وبما أنها لا تملك إمكانيات الأوروبى الفكرية، فإنها تقصر نشاطها الاقتصادى على استغلال موقعها لاشتراط عمولات على الصفقات المبرمة مع الأجنبى. وهى لا تفكر فى استثمار «أرباحها» داخل الوطن، بل تهربها إلى بنوك الخارج. ثم إن فانون تكهن بمصير الأحزاب التى قادت معركة التحرير فى أفريقيا (بما فيها الجزائر) عندما صور تداخلها وتشابك مصالحها مع الأجهزة الحكومية والإدارية، وعندما حذَّر من أن تقتصر مهمتها على تعبئة المناضلين فى المناسبات الرسمية والأعياد الوطنية والمهرجانات الفلكلورية.

ثانيًا: كان العام الذى زارت فيه «إيرين جنزبيى» الجزائر للاتصال بمن عرفوا فانون، هو عام تأميم المحروقات والشروع فى وضع أسس النهضة الاقتصادية التى كان الرئيس بومدين أعلن عن محاورها الكبرى فى حديث مطول إلى «المجاهد»، عام ١٩٦٨.

وذلك يعنى أن الرئيس بومدين، الذى عرف فانون، لم يكن فى حاجة إلى مرجعية فكرية، فانونية أو غيرها، تمنحه نوعًا من الشرعية، فقد أصبح يعتبر نفسه وبرنامجه هو المرجعية.

ذلك هو الإطار الذى برز فيه الاتجاه إلى التقليل من أهمية الفكر الفانونى على أساس أن الثورة الجزائرية هى التى خدمت فانون، «فهو المدين لها، وليست هى المدينة له».

ويمكن أن نضيف لذلك بأن فانون كان يمثل آنذاك، قيمة انقرضت وشعلة فكرية ثورية انطفأت. لقد هاجم من يمثلون الغرب وقيمه كما هاجم ممثلى الأنظمة المستقلة، حيًا، فانتقموا منه بعد أن أفقده الموت إمكانية الدفاع. ■





كتاب
الزاوية

ثياب الأفغان وملابسهم

جميعهم سواء كانوا من سكان الأخبية أو البوادى يلبسون من الألبسة خشنها فأرباب البادية يصنعون ثيابهم من نوع اللباد على هيئة غريبة بكمين طويلين يشبهان خرطوم الفيل يصلان إلى الأرض ويسمى عندهم «كوسى» ولهم أيضاً ثوب آخر من هذا النوع يصل إلى الفخذين بكمين قصيرين يسمى «صدرية» وهؤلاء قلما يبدلون ثيابهم قبل البلاء . وسكان المدن يصنعون ثيابهم من الجوخ الغليظ المعروف عندهم ببركر فيتخذون منه جبباً ضيقة الأكمام قصيرتها ويتقبّون بأقبية من القماش الملوّن المعروف بالشيت . وغالب الأفغانيين يعتمون بعمامة زرقاء وأما السردارون والعظماء فغالباً يعتمون بشيلان الكشمير ألواناً . وسكان البلاد الحارّة يحتذون النعال ويتخذون صدريات ويلبسون أقمصة تنتهى إلى نصف الساق واسعة الأكمام . وغالبهم يتحزم بأحزمة عريضة تشغل ما تحت الصدر إلى الفخذين . وغالب القبائل لا يحلقون رؤوسهم وبعضهم يتخذون ضفيرة طويلة من شعورهم .

أما نساؤهم فإنهنّ يلبسن ألبسة طويلة ويتمنطقن بمناطق تقرب من الثدى حتى يرى بارزاً . وغالب نساء القبائل الساكنة فى الجبال يقطعنَ شعور أذناب الخيول ويصلنها بشعورهنَّ . ونساء قبيلة الغلجائى يحبكن شعور نواصيهنَّ ويشكلنها بشكل قرص ثـم يسدلنه على الجبهة فيمتدّ إلى الصدغين فى العرض ويستر الأنف طولاً كأنما هو بُرقع مستدير ويعلقن فى آذانهنَّ حلقات غليظة ثقيلة من الفضة والحديد والنحاس والبللور .

وأمراء الأفغان لا يجلسون على المنصات والكراسى وليس لهم من الأبهة والعظمة ما لغيرهم من الأمراء .







بعد اعتداءات نيويورك وواشنطن

مفهوم جديد "للأمن الإنسانى"

عادل أبو زهرة

يبدو أن حادثة تدمير مركز التجارة العالمي وجانب من وزارة الدفاع الأمريكية باستخدام طائرات مدنية ومن خلال عملية انتحارية يضع دول العالم جميعًا أمام معضلة شديدة التعقيد فيما يتعلق بمفهوم الأمن على المستوى الدولي وعلى المستوى المحلي، كما يجعلنا ننظر إلى مبلغ المائة مليار دولار الذى رصدته الحكومة الأمريكية لمحاربة الإرهاب أو للانتقام من هؤلاء الذين جرحوا كبرياء الدولة الأعظم نظرة مشوبة بالدهشة، لذا سعيت من جانبي للبحث فيما لدى وبين يدى من أبحاث عن مفهوم جديد للأمن الإنساني.

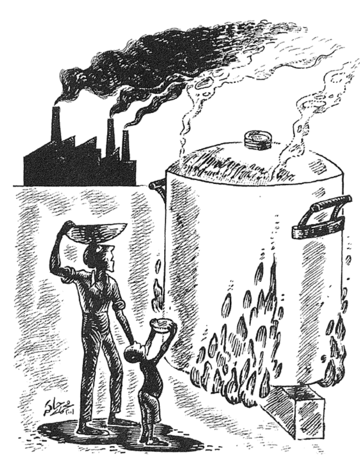
لقد شاركت بأنصبة متفاوتة من الجهد في الإعداد لبعض المؤتمرات الدولية المهمة التى نظمتها الأمم المتحدة خلال السنوات العشر الماضية مثل: مؤتمر حقوق الطفل، ومؤتمر حقوق الإنسان، ومؤتمر البيئة والتنمية، ومؤتمر السكان والتنمية، ومؤتمر التنمية الاجتماعية، ومؤتمر المرأة والتنمية، ومؤتمر المستوطنات البشرية، ولقد أتاح لى ذلك الاطلاع على أوراق بحثية ووثائق وتقارير وتوصيات صدرت عن هيئات مختلفة وكان على رأس هذه الهيئات منظمات الأمم المتحدة مثل اليونسكو واليونيسيف وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومنظمة الصحة العالمية، ومنظمة الأغذية والزراعة وغيرها من الهيئات ذات الطبيعة العالمية وكان من أكثر ما أثار اهتمامي في هذه الوثائق وتلك التقارير هو ترابط وتعقد الهم الإنساني وتكامل الرؤية لكل ما يواجه الإنسانية من مشكلات، كما لفت انتباهي تبلور مفهوم جديد للأمن الإنساني.



ظل مفهوم الأمن لفترة طويلة للغاية تفسيرًا ضيقًا بأنه أمن حدود الوطن من العدوان الخارجي، أو بأنه حماية المصالح القومية في السياسة الخارجية، أو بأنه الأمن العالمي من حدوث حرب نووية وفي إطار هذا التفسير الضيق ضاعت الشواغل المشروعة للناس العاديين الذين كانوا يلتمسون الأمن في حياتهم اليومية، وبالنسبة لكثيرين منهم كان الأمن يرمز إلى الحماية من خطر المرض والجوع والبطالة والجريمة والصراع الاجتماعي والقمع السياسي والمخاطر البيئية، وبانحسار الحرب الباردة يستطيع المرء أن يرى الآن أن هناك صراعات كثيرة موجودة داخل الأمم وليس بينها، وبالنسبة لمعظم الناس ينشأ الشعور بانعدام الأمن نتيجة للمشكلات المتعلقة بالحياة اليومية أكثر مما ينشأ نتيجة للخوف من حدوث مشكلات عالمية.

هل سيكون لديهم ولدى أسرهم ما يكفي لإطعامهم؟ هل سيفقدون أعمالهم؟ هل ستكون شوارعهم وأحياؤهم آمنة من الجريمة؟ هل سيعذبون على يد حكومة قمعية؟ هل سيكونون ضحية للعنف والاضطهاد بسبب جنسهم أو ديانتهم أو لونهم أو أصلهم العرقي؟

وفي التحليل الأخير الأمن البشرى هو طفل لم يمت، ومرض لم ينتشر، ووظيفة لم تلغ، وتوتر عرقي لم ينفجر في شكل عنف، ومنشق لم يتم إسكاته، الأمن البشرى ليس انشغالاً بالأسلحة بل هو انشغال بحياة الإنسان وكرامته، إن الأمن البشرى قضية ذات طبيعة عالمية وهو مهم للناس في كل مكان الأغنياء والفقراء على السواء، حيث هناك تهديدات مشتركة بالنسبة لجميع الناس مثل البطالة والمخدرات والجريمة والتلوث وانتهاكات حقوق الإنسان، قد تختلف حدة



هذه المشكلات من بلد إلى بلد، لكن جميع هذه التهديدات ظاهرة متنامية.

الأمن البشرى محوره الناس، حيث يتعلق بالكيفية التى يحيا بها الناس في مجتمع من المجتمعات وبمدى حريتهم في ممارستهم خبراتهم الكثيرة وبمدى وصولهم إلى الفرص الاجتماعية والفرص الاقتصادية، وبما إذا كانوا يعيشون في صراع أم في سلام، ومن الممكن القول بأن الأمن البشرى له جانبان رئيسيان فهو يعنى أولاً السلامة من التهديدات المزمنة مثل الجوع والمرض والاضطهاد، وهو يعنى ثانيًا الحماية من الاختلالات المفاجئة والمؤلمة في أنماط الحياة اليومية سواء في البيوت أو في الأعمال أو في المجتمعات المحلية، وفقدان الأمن البشرى يمكن أن يكون عملية بطيئة أو يكون حالة فجائية، ويمكن أن يكون من صنع الإنسان نتيجة لاختيارات سياسية خاطئة أو يمكن أن ينبع من قوى الطبيعة أو قد يكون مزيجا من هذين معًا، مثلما يحدث عادة عندما يؤدى تدنى البيئة إلى كارثة طبيعية تعقبها مأساة بشرية، لكن من المهم عند تعريف الأمن عدم معادلة الأمن البشرى بالتنمية البشرية، فالتنمية البشرية مفهوم أوسع نطاقًا حيث تعنى عملية توسيع نطاق خيارات الناس، أما الأمن البشرى فمعناه أن يكون باستطاعة الناس أن يمارسوا اختياراتهم في مأمن وبحرية، وأن يكون بوسعهم أن يثقوا نسبيًا في أن الفرص المتاحة لهم اليوم لن تضيع تمامًا في الغد، وهناك صلة بين الأمن البشرى والتنمية البشرية، فالتقدم في مجال من هذين المجالين يعزز إحراز تقدم في المجال الآخر ولكن الفشل في أى مجال منهما يزيد أيضًا من حدة خطر الفشل في المجال الآخر.

وفشل التنمية البشرية أو محدوديتها يؤديان إلى تراكمات من الحرمان البشرى تأخذ شكل الفقر أو الجوع أو المرض أو تفاوتات مستمرة في الوصول إلى القوة وإلى الفرص الاقتصادية، وهذا بدوره يمكن أن يفضى إلى العنف، وعندما يتصور الناس أن أمنهم المباشر مهدد فإنهم يصبحون عادة أقل تسامحًا مثلما يتضح من المشاعر المناهضة للأجانب والعنف الموجه ضدهم في أوروبا، أو عندما يرى الناس تآكل مصدر رزقهم أو في حالة التعرض للقمع وللظلم التى قد تؤدى إلى الاحتجاج العنيف على الاستبداد، فالأمن البشرى كما هو واضح ليس مفهومًا دفاعيًا كما هو الحال بالنسبة لأمن الحدود أو الأمن العسكرى، بل إنه مفهوم تكاملي يعترف بشمولية مطالب الحياة.

لقد كان هناك دائمًا مكونان رئيسيان للأمن البشرى: التحرر من الخوف والتحرر من الحاجة، ولكن المفهوم يميل الآن ناحية المكون الأول، لذا فقد آن الأوان للتحول من المفهوم الضيق للأمن القومي إلى المفهوم الأعم والأشمل للأمن البشرى، فالناس في الأمم الغنية يلتمسون الأمن من خطر الجريمة ومن حرب المخدرات ومن انتشار مرض مثل نقص المناعة «الإيدز» ومن تدنى التربة وارتفاع مستويات التلوث ومن الخوف من فقدان أعمالهم، ومن دواعي قلق كثيرة تظهر عندما يتفكك النسيج الاجتماعي، أما في الأمم الفقيرة فيحتاج الناس إلى التحرر من التهديد المستمر الذى يمثله الجوع والمرض والفقر وعدم وجود المأوى تضاف إليها نفس التهديدات التى تتعرض لها البلدان الصناعية.

إن الشعور بالأمن الاقتصادى يتطلب وجود دخل أساسي مضمون من عمل منتج ومجزٍ أو من شبكة للضمان الاجتماعي تؤسسها الدولة، لكن طبقًا لهذا المفهوم لا يوجد غير ربع سكان العالم هم الآمنون اقتصاديًا، ففي بداية ١٩٩٣

كان أكثر من ٣٥ مليون شخص في البلدان الصناعية الغنية يبحثون عن عمل وكانت نسبة عالية منهم من النساء، والشباب هم الذين يكونون على الأرجح عاطلين عن العمل، ففي الولايات المتحدة في عام ١٩٩٢ بلغ معدل بطالة الشبان ١٥٪ وفي المملكة المتحدة ١٤٪ وفي إيطاليا ٢٣٪ وفي إسبانيا ٣٤٪ وكثيرًا ما يتفاوت معدل البطالة أيضًا حسب الأصل العرقي، ففي كندا يبلغ معدل البطالة بين السكان الأصليين حوالي ٢٠٪ وهو ضعف النسبة بين الكنديين الآخرين، وفي الولايات المتحدة يبلغ معدل البطالة بالنسبة للسود ضعف المعدل بالنسبة للبيض وحتى أولئك الذين لديهم عمل قد يشعرون بعدم الأمان إذا كان عملهم مؤقتًا فحسب، ففي عام ١٩٩١ في فنلندا كان ١٣٪ من المستخدمين عمالاً مؤقتين، وكانوا ١٥٪ في اليونان و١٧٪ في البرتغال و٢٠٪ في استراليا و٣٢٪ في إسبانيا.

والمشاكل أكبر وأكثر حدة بالطبع في البلدان النامية حيث معدل البطالة العلنية المسجلة يتجاوز ١٠٪ وحيث معدل البطالة الإجمالي ربما يكون أكثر من ذلك بكثير، أما بالنسبة للشباب في أفريقيا في الثمانينيات فكان معدل البطالة المعلنة أعلى من ٢٠٪ وهو أحد العوامل الرئيسية وراء التطرف الديني في بلدان مثل الجزائر، أو وراء التوترات العرقية في بلدان مثل كينيا.

كما تتزايد أعداد الفقراء أيضًا في الدول الغنية والدول الفقيرة ففي كل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي يعيش حوالي ١٥٪ من الناس تحت خط الفقر ويتفاوت الفقر أيضًا حسب الأصل العرقي، ففي ألمانيا بينما قدر متوسط نسبة الفقر على الصعيد الوطني بما يبلغ ١١٪ تبلغ نسبة الفقر بين المقيمين في البلد المولودين في الخارج ٢٤٪، ولكن أشد المشاكل حدة موجودة في البلدان النامية حيث يعيش أكثر من ثلث الناس تحت خط الفقر، بينما يعيش أكثر من بليون على دخل يومي يقل عن دولار واحد.

ومن أشد آثار انعدام الأمن الاقتصادي في مدينة مثل نيويورك الذين لا بيوت لهم، فزهاء ربع مليون شخص من سكان المدينة وأكثر من ٨٪ من الأطفال السود عاشوا في مأوٍ مؤقتة على مدى السنوات الخمس الماضية، ولندن لديها حوالي ٤٠٠ ألف شخص مسجلين على أنهم لابيوت لهم، وفرنسا لديها أكثر من نصف مليون شخص، ١٠ آلاف منهم في باريس، والوضع أسوأ بكثير في البلدان النامية، ففي كلكتا وداكا ومكسيكو يشكل أكثر من ٢٥٪ من السكان ما يسمى أحيانًا بالسكان الطوّافين.

أما الأمن الغذائي فيعني لدى جميع الناس في جميع الأوقات إمكانية الحصول ماديًا واقتصاديًا على الغذاء الأساسي، وتوافر الأغذية عمومًا في العالم ليس مشكلة فحتى في البلدان النامية زاد نصيب الفرد من إنتاج الأغذية بنسبة ١٨٪ في المتوسط خلال عقد الثمانينيات، ويوجد ما يكفي من الأغذية لتزويد كل شخص في العالم بحوالي ٢٥٠٠ سعر حراري يوميًا وهو قدر يتجاوز الحد الأدنى الضروري بمقدار ٢٠٠ سعر حراري، لكن المشكلة تكمن في سوء توزيع الأغذية وفي نقص القدرة الشرائية، فهناك حوالي ٨٠٠ مليون نسمة في العالم يعانون من الجوع، وفي أفريقيا جنوب الصحراء يعاني حوالي ٢٤٠ مليون شخص من سوء التغذية، وفي جنوب آسيا يولد ٣٠٪ من الأطفال وهم ناقصون في الوزن وهذه نسبة عالية جدًا ودليل محزن على عدم كفاية إمكانية الحصول على الغذاء لاسيما بالنسبة للمرأة التي كثيرًا ما تكون آخر فرد يأكل في الأسرة.

أما عن الحديث عن الأمن الصحي، فلابد أن نشير إلى أن الأسباب الرئيسية للوفاة في البلدان النامية هي الأمراض المعدية والطفيلية التي تقتل حوالي ١٧ مليون شخص سنويًا من بينهم ٦,٥ مليون يموتون نتيجة لالتهابات الجهاز التنفسي الحادة، ٤,٥ مليون يموتون نتيجة لأمراض الإسهال، ٣,٥ مليون يموتون نتيجة للسل، ومعظم هذه الوفيات مرتبطة بسوء التغذية وبالعيش في بيئات غير سليمة لاسيما شرب مياه ملوثة تتسبب في حدوث حوالي بليون حالة إسهال كل عام.

الأمن البشري
هو طفل
لم يمت، ومرض
لم ينتشر،
ووظيفة لم تلغ،
وتوتر عرقى
لم ينفجر فى شكل
عنف، ومنشق
لم يتم إسكاته،
الأمن البشرى
ليس انشغالا
بالأسلحة بل
هو انشغال
بحياة الإنسان
وكرامته

أما أهم عناصر الأمن البشري فهو ما نسميه بالأمن الشخصي، ففي الأمم الفقيرة والأمم الغنية على حد سواء تتعرض حياة الإنسان بدرجة متزايدة لتهديدات وتأخذ هذه التهديدات أشكالاً عديدة مثل:

* تهديدات من الدولة (التعذيب البدني والملاحقة نتيجة اعتناق آراء مخالفة للرأي السائد).
* تهديدات من جماعات أخرى من المواطنين (التوتر العرقي).
* تهديدات من أفراد أو عصابات ضد أفراد آخرين أو ضد مجموعات أخرى (الجريمة والعنف في الشوارع).
* تهديدات موجهة ضد المرأة (الاغتصاب والعنف المنزلي).
* تهديدات موجهة إلى الأطفال (إساءة معاملة الأطفال).
* تهديدات موجهة إلى النفس (الانتحار وإدمان المخدرات).

في كثير من المجتمعات أصبحت أرواح البشر أكثر تعرضًا للخطر مما كانت عليه في أي وقت مضى، ويتمثل أحد أهم مصادر القلق في الجريمة، لاسيما الجريمة التي تتسم بالعنف، ففي عام ١٩٩٢ تم إبلاغ الشرطة في الولايات المتحدة عن ١٨ مليون جريمة، وهذه الجرائم تسفر عن خسائر اقتصادية كبيرة قدرت قيمتها بمبلغ ٤٢٥ بليون دولار سنويًا، وقد ارتفع عدد الجرائم المبلغ عنها في ألمانيا في العام نفسه بنسبة ١٠٪. وفي النصف الثاني من الثمانينيات تضاعف معدل جرائم القتل في إيطاليا والبرتغال، وفي ألمانيا أصبح ثلاثة أمثال ما كان عليه.

وكثيرًا ما ترتبط الزيادة في الجريمة بالاتجار في المخدرات، ففي كندا يعاني سنويًا ٢٢٥ شخصًا من بين ١٠٠ ألف شخص من جرائم مرتبطة بالمخدرات، وفي أستراليا يعاني ٤٠٠ شخص من تلك الجرائم.

وفي النصف الثاني من الثمانينيات تضاعفت تقريبًا الجرائم المرتبطة بالمخدرات في الدانمارك والنرويج وزادت أكثر من ٣٠ مرة في اليابان.

والجريمة والعنف من حقائق الحياة أيضًا في البلدان النامية، إذ يقتل أربعة أطفال كل يوم في البرازيل، حيث زادت جرائم قتل القصر بنسبة ٤٠٪ في العام الماضي، وفي كينيا أبلغ عن ٣٣٠٠ جريمة سرقة سيارات في عام ١٩٩٣، وذلك بزيادة قدرها ٢٠٠٪ بالقياس إلى عام ١٩٩١، وحتى في الصين نجد أن الجريمة المتسمة بالعنف والاغتصاب آخذة في التزايد.

وتمثل حوادث الصناعة وحوادث المرور مخاطر شديدة أيضًا، ففي البلدان الصناعية تعتبر حوادث المرور السبب الرئيسي لوفاة من تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٣٠ عامًا، مع وجود بعض أعلى معدلات الإصابة في بلجيكا وكندا والنمسا والولايات المتحدة، أما في البلدان النامية فإن حوادث المرور هي السبب في ٥٠٪ على الأقل من مجموع الوفيات الناجمة عن الحوادث، وقد كان معدل الوفيات على الطرق السريعة في جنوب أفريقيا يبلغ ١٠٠ ألف حالة في عام ١٩٩٣، وهو ثلاثة أمثال عدد الوفيات الناجمة عن العنف السياسي هناك.

وقد زاد أيضًا العنف في مكان العمل، ففي عام ١٩٩٢ تعرض أكثر من مليوني عامل في الولايات المتحدة لاعتداء جسماني في أماكن عملهم، بينما تعرض حوالي ٦,٥ مليون آخرين للتهديد بالعنف، وتعرض ١٦ مليونًا للمضايقة بشكل ما، وقد بلغت قيمة تكلفة كل ذلك من حيث العمل الضائع والمصروفات القانونية أكثر من ٤ ملايين دولار. وكان حوالي سدس الوفيات التي حدثت أثناء العمل نتيجة للقتل، ومن أسوأ التهديدات الشخصية تلك التهديدات التي تتعرض لها المرأة، فالمرأة ليست آمنة ولا تعامل معاملة مساوية للرجل في أي مجتمع من المجتمعات، فانعدام أمن المرأة الشخصي يتبعها من المهد إلى اللحد. فهي في الأسرة آخر من يأكل، وهي في المدرسة آخر من يتعلم، وهي في العمل آخر من يعين وأول من يفصل، وهي تتعرض لإساءة المعاملة بسبب جنسها من طفولتها وحتى بلوغها مرحلة النضج، صحيح أن المرأة تحصل الآن على تعليم أفضل وتدخل سوق العمل، وكثيرًا ما تكون الطرف الرئيسي في الأسرة الذي يكسب دخلاً، وملايين من النساء أصبحن الآن يعلن أسرهن، بحيث يمثلن الثلث في العالم ككل، وما يصل إلى النصف في بعض البلدان الأفريقية، حيث تنتج المرأة حوالي ٩٠٪ من الأغذية ولكن مازالت هناك مؤثرات كثيرة مذهلة لانعدام أمن المرأة وللعنف البدني الذي يمارس ضدها، فقد قدر مؤخرًا أن ثلث الزوجات في البلدان النامية يتعرضن للضرب، وذكر أن امرأة من بين كل ٢٠٠٠ امرأة في العالم اغتصبت، وفي الولايات المتحدة أبلغ عن أكثر من ١٥٠ ألف حالة اغتصاب في عام ١٩٩٣ وحده، والتحرش الجنسي في العمل شائع، وفي الهند طبقًا للجمعيات النسائية فإن هناك حوالي ٩ آلاف حالة وفاة تحدث سنويًا بسبب المهر، وتقدر الحكومة أن الرقم كان ٥٠٠٠ حالة في عام ١٩٩٢.

ويتعرض الأطفال لإساءة المعاملة بأشكال كثيرة، ففي الولايات المتحدة ذكر مؤخرًا أن حوالي ثلاثة ملايين طفل يتعرضون لإساءة المعاملة والإهمال، وفي عام ١٩٩٢ لقي حوالي ٧٠٠٠ طفل في الولايات المتحدة (بمعدل ٢٠ يوميًا) حتفهم نتيجة لإصابتهم بطلقات نارية.

وفي البلدان النامية يجبر الفقر أطفالاً كثيرين على تولي أعمال شاقة في سن صغيرة للغاية، وكثيرًا ما يكون ذلك على حساب صحتهم، وفي البرازيل يقضي أكثر من ٢٠٠ ألف طفل حياتهم في الشوارع. وحتى التقديرات المتحفظة تقدر العدد الإجمالي للمومسات من الأطفال في تايلاند وسريلانكا والفلبين بما يبلغ ٥٠٠ ألف مومس.

غاية التنمية واستدامتها

يولد الناس جميعًا ولديهم قدرات وإمكانيات كامنة، وما الغرض من عملية التنمية إلا تهيئة بيئة يستطيع الناس فيها أن يوسعوا من نطاق قدراتهم، ويمكن فيها زيادة حجم الفرص للأجيال الحاضرة والأجيال المقبلة على حد سواء.

إن نموذج التنمية المستدامة يقدر الحياة البشرية في حد ذاتها، فهو لا يقدر الحياة لمجرد أن الناس يمكنهم إنتاج سلع مادية مهما كان ذلك أمرًا مهمًا، ولا يقدر حياة شخص ما أكثر من تقديره لحياة شخص آخر، فلا ينبغي أن يكون مصير طفل حديث الولادة أن يحيا حياة قصيرة أو بائسة لمجرد أنه

ولد في الطبقة الخطأ أو البلد الخطأ، أو قدر له أن ينتمى إلى الجنس الخطأ. فالتنمية يجب أن تمكن جميع الأفراد من توسيع نطاق قدراتهم إلى أقصى درجة، وتوظيف تلك القدرات أفضل توظيف ممكن فى جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

والحفاظ على البيئة هوأقوى حجة كى تكون التنمية مستدامة أو قابلة للاستمرار وحماية البيئة هى التى تضمن فرصًا للأجيال المقبلة تماثل تلك التى نعمت بها الأجيال السابقة، وهذا الضمان هو أساس الاستدامة. لكن هذه الاستدامة لا يكون لها أى معنى إذا كانت تعنى استدامة فرص الحياة البائسة والمعوزة، إذ لا يمكن أن يكون الهدف هو العمل على استدامة البؤس والحرمان. ولا ينبغى لنا أيضًا أن نحرم من هم أقل حظًا اليوم من الاهتمام الذى نحن على استعداد لمنحه للأجيال المقبلة.



مفهـــــوم جــــديد للأمـــن الإنســـانى

إن النموذج التنموى الذى يجب الترويج له هو الذى يفسح مكان الصدارة لتلبية احتياجات البشرية جمعاء ويرفض الاستغلال والتبذير وتمجيد الإنتاجية كغاية فى حد ذاتها. لكن هناك من جهة أخرى كرد فعل لنموذج التنمية الصناعية الشوهاء من تطرف وأنكر تمامًا فائدة النمو الاقتصادى. لكن التحليل المتزن للأمور يرفض التطرف فى الجانبين، حيث يبدو واضحًا أن النمو وفقًا لنمط محدد أمر ضرورى مادامت أنه توجد فى العالم مستويات معيشية منخفضة جدًا. لكن يبقى الشرط الجوهرى هو عدم القبول بأى نمو عشوائى لمجرد كونه نموًا. فلا يوجد ما يبرز أى تقدم اقتصادى إذا لم يكن ذلك التقدم مؤديًا إلى تحسين نوعية الحياة أوالرفاهية الاجتماعية. ومن الممكن التخطيط لتنمية تفى بالاحتياجات الحيوية والضرورية للناس وتحسن ظروف معيشتهم. وفى نفس الوقت تتعامل مع الموارد بحكمة ومع مكونات البيئة باحترام، أى الترويج لتنمية تحترم قدرات المحيط الحيوى على الاستيعاب. إن التنمية المستدامة تعنى أن يكون لدينا التزام أخلاقى بأن نفعل من أجل الأجيال التى ستخلفنا ما نفعله لأنفسنا وهذا معناه أنه يجب استخدام الموارد على نحو لا يتسبب فى ديون أيكولوجية عن طريق استغلال ما يوجد فى الأرض بإفراط. فكل الديون المؤجلة ترهن الاستدامة سواء كانت ديونًا اقتصادية أو ديونًا اجتماعية أو ديونًا أيكولوجية، لأن هذه الديون هى اقتراض من المستقبل، فهى تسرق من الأجيال المقبلة خياراتها المشروعة، والأمم الفقيرة لا تستطيع - ولا ينبغى لها - أن تقلد أنماط الإنتاج والاستهلاك الموجودة لدى الدول الغنية، وهذا قد لا يكون بأى حال ممكنًا أو مستصوبًا بالرغم من أوجه التقدم فى مجال التكنولوجيا. فتكرار أنماط الشمال فى الجنوب سيتطلب عشرة أمثال القدر الحالى من الوقود الحفرى، ويتطلب ثروة معدنية تعادل ما هو موجود حاليًا ٢٠٠ مرة، وفى غضون أربعين عامًا ستتضاعف مرة أخرى هذه المتطلبات مع تضاعف سكان العالم، ومن الواضح أن أساليب حياة الأمم الغنية يجب أن تتغير، فالشمال لديه حوالى خمس سكان العالم وأربعة أخماس دخله، وهو يستهلك ٧٠٪ من مصادر الطاقة الموجودة فى العالم، ويستهلك ٧٥٪ من معادنه، و٨٥٪ من أخشابه، فإذا كان المجال الأيكولوجى يسعر تسعيرًا كاملاً ولم يكن مجانيًا لما استطاعت أنماط الاستهلاك هذه أن تستمر. والتنمية المستدامة معنية بنماذج الإنتاج والاستهلاك الماديين التى يمكن تكرارها، وهذه النماذج لا تعتبر الموارد الطبيعية سلعًا مجانية تنتهب بالإرادة الحرة لأى فرد أو لأى جيل أو لأى أمة، فهى تفرض سعرًا على هذه الموارد يعكس شحتها النسبية اليوم وغدًا، ومن ثم فهى تعامل الموارد البيئية القابلة للنفاد مثلما تعامل أى أصول شحيحة أخرى، وتعنى بسياسة الإدارة الرشيدة للأصول، وكذلك تفعل فى إدارة أصول مصادر الطاقة غير المتجددة، ويثير مفهوم التنمية المستدامة مسألة ما إذا كانت أساليب الحياة الحالية مقبولة، وما إذا كان هناك أى سبب يدعو إلى انتقالها إلى الأجيال المقبلة، فنظرًا إلى أن الإنصاف فيما بين الأجيال يجب أن يسير جنبًا إلى جنب مع الإنصاف داخل الجيل الواحد فقد يكون إجراء عملية تشكيل كبرى لأنماط دخل العالم وأنماط استهلاكه شرطًا مسبقًا وضروريًا لأى استراتيجية صالحة، والصلة الوثيقة بين الفقر العالمى واستدامة تنمية العالم يتعين أيضًا تحليلها بعناية إذا كان المراد لمفهوم التنمية المستدامة أن يكون له أى معنى حقيقى. فالفقراء للغاية الذين يكافحون فى سبيل البقاء اليومى كثيرًا ما يفتقرون إلى الموارد اللازمة لتجنب انحطاط بيئتهم، وفى المجتمعات الفقيرة ما يكون معرضًا للخطر ليس هو نوعية الحياة بل الحياة نفسها، والفقراء ليسوا منشغلين بحالات الطوارئ المدوية مثل تغير مناخ الأرض أو استنزاف طبقة الأوزون، بل هم مشغولون بحالات الطوارئ الصامتة مثل المياه الملوثة والأرض المتدنية النوعية التى تعرض رزقهم وحياتهم للخطر، وما لم تعالج مشاكل الفقر لا يمكن ضمان الاستدامة البيئية، وإذا كانت الاستدامة تعنى أن يدوم الغنى للأغنياء ويدوم الفقر للفقراء فهى استدامة غير منصفة وغير عادلة ولا معنى لها. ■


KARNAK
الكرنك
مصر للطيران
يسر الكرنك للخدمات السياحية
ان تعلن عن اسعار خاصه لرحلاتها الداخلية
على خطوط مصر للطيران المنتظمه
الاقامة ٤ ايام خلال شهرى اكتوبر و نوفمبر ٢٠٠١
شرم الشيخ جم
شيراتون بالافطار ٥١٠
سوفتيل بالافطار ٦١٠
هوليداى ان نصف اقامة ٥٧٥
عايدة (٤ نجوم) نصف اقامة ٤٦٥
الغردقة جم
موفنبيك الجونا بالافطار ٥٤٠
سوفتيل نصف اقامة ٥٨٠
بالم بيتش نصف اقامة (٤ نجوم) ٥٢٠
الاقصر جم
موفنبيك بالافطار ٦٥٠
ميركير ان بالافطار (٤نجوم) ٤٣٠
اسوان جم
سارة بالافطار (٤ نجوم) ٤٩٥
اسوان و الاقصر نيو كتاركت + ميركير ان الاقصر بالافطار جم ٥٤٠
برامج متميزة للعمرات و الحج الى جانب رحلاتنا الخارجية
الحجز و الاستعلام :
الفرع الرئيسى / ش قصر النيل ٥٧٩٠٤٦٥ / ٥٧٥٠٨٦٨ / ٥٧٥٠٧٣٩
الكرنك مدينه نصر (امام الحديقة الدولية) ٢٧١٨٠٣٨
الكرنك موفنبيك المطار ٤١٨٣٧٣٠
مكتب مصر للطيران . جليم . الاسكندرية ٥٨٣٦٩٩٤
ومكاتب الكرنك بكل من : الزقازيق / شبين الكوم / بورسعيد / الغردقة / الأقصر / اسوان

الرعب البيولوجي!

القصة حقيقية

أحمد توفيق

عقب أحداث ١١ سبتمبر الماضي في نيويورك وواشنطن وما تلاها من هجوم أمريكي على مواقع حركة طالبان ومعسكرات أسامة بن لادن في أفغانستان، اجتاح الولايات المتحدة وأوروبا «رعب» التعرض لهجوم بيولوجي غامض بعد اكتشاف حالات عديدة من الإصابة بمرض «الإنثراكس» أو «الجمرة الخبيثة»، وعادت وسائل الإعلام إلى استخدام مصطلحات كانت منسية مثل الحرب البيولوجية والإرهاب البيولوجي وغيرها.

والكتاب «الرواية» الذي نعرض له ليس جديدًا، فقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٤، لكنه تناول قصة حقيقية يقول مؤلفها إنه لم يغير شيئًا من وقائعها عدا الأسماء.

وتدور القصة، التي اختار لها المؤلف الأمريكي ريتشارد بريستون عنوان «المنطقة الساخنة» في معامل الجيش الأمريكي، حيث تتم دراسة الأوبئة وأساليب الحرب البيولوجية. وفي هذا الإطار فإن الكتاب يبدو متواكبًا مع الأحداث والتطورات الراهنة.

كهف الوطاويط

بداية الكتاب قوية مفزعة. رجل فرنسي اسمه شارل مونيه يعيش في قرية غربي كينيا، حيث يعمل خبيراً في أحد معامل السكر. ومن البداية نعرف أن الرجل سيموت ميتة شنيعة.. المهم هو كيف يحدث هذا. إن الأطباء يذكرون أقل القليل عن المريض لكنهم لم ينسوا مرضه قط، لأنه ما من طبيب يرى علامات أمراض (مستوى الأمان الحيوي الرابع)، ويستطيع نسيانها..كان هذا عام ١٩٧٩ حين بدأ مرض الإيدز يشق طريقه إلى أمريكا عبر ما يعرف بطريق كينشاسا.. وهنا يذكرنا المؤلف بأن مرض الإيدز مميت لكنه ليس سريع العدوى، وقد وضعه الأطباء ضمن ما يسمى بأمراض (مستوى الأمان الحيوي الثاني)؛ بمعنى أنه يمكنك أن تعيش مع مريض إيدز وتأكل معه دون أن يصيبك شيء.

يقرر مونيه يوم الكريسماس أن يذهب مع إحدى صديقاته إلى «ماونت إلجون»، وهو بركان خامد على حدود كينيا وأوغندا، غير بعيد عن السودان. هناك وسط غابات الأمطار يوجد متنزه عام يمكن للمرء أن يخيم فيه، وربما يتسلى باللعب مع القردة. في تلك الليلة أمطرت السماء، فقضيا الليل في الخيمة، إلا أنهما في الصباح تسلقا الجبل إلى حيث كهف كيتوم. كان الكهف مظلماً بالطبع، لكنهما على ضوء الكشافات استطاعا أن يريا أن أرضه مغطاة بفضلات الوطاويط. وكانت بالداخل مفاجآت سارة لا بأس بها: الكثير من الوطاويط وفضلاتها.. جثث أفيال متحللة.. صخور مدببة تتدلى من السقف.. ترى هل لامس مونيه براز الوطاويط أو أدمى يده بالصخور؟.. من الصعب على المرء أن يعرف هذا الآن.

بدأ الصداع في اليوم السابع من هذه الجولة.. كان أسوأ صداع يمكن وصفه، وبدا كأنما يمرح خلف محجري عينيه، ولم يستجب لأي مسكن من أي نوع، ثم بدأت آلام الظهر والقيء العنيف. وأثار ذعر مديرة المنزل أن شخصيته ذاتها تغيرت.. بدا أكثر غضباً وخمولاً لكنه لم يهلوس قط..وظل يعرف أي يوم هذا وأين هو.. كان على رفاقه أن ينقلوه إلى (نيروبي) حيث العناية الطبية أفضل.

The Hot Zone
(المنطقة الساخنة)
Richard Preston
Anchor Books, 1995, 422pp.

وهكذا ـ على متن الطائرة الصغيرة ـ يجلس ذلك الرجل الوحيد ممسكاً بكيس للقيء.. من الواضح أنه مريض لكن بأي شيء؟.. إنه يبعد الكيس عن فمه فترى على شفتيه سائلاً لزجاً أحمر مع مسحة سواد كأنما كان يمضغ البن.. عيناه بلون الياقوت، ووجهه كله يتدلى من جمجمته كأنما سيسقط بعد قليل..رائحة الدم تملأ الطائرة سيئة التهوية، والكيس يمتلئ فيناوله للمضيف ويفتح كيساً آخر.. إن القيء الأسود علامة على أن الفيروس الآن في أعلى درجات التكاثر.. إنه يحاول أن يحول مونيه إلى فيروس كبير، وفي هذه اللحظة تعج قطرة واحدة من دم مونيه بمائة مليون فيروس. ثم بدأ نزف الأنف وبدا كأنه سيستمر للأبد.. المناديل الورقية تتلطخ على الفور، فيتخلص منها ويستعمل مناديل أخرى. الآن يفقد الرجل شخصيته لأن خلايا مخه تتحلل.. لم يعد السؤال من هو، ولكن السؤال ماذا هو.. لقد صار صموتاً متوتراً غير راغب في الإجابة عن الأسئلة..

يستقل سيارة أجرة إلى المستشفى.. قسم الطوارئ.. إن القنبلة الفيروسية بداخله بلغت التمام وعلى وشك الانفجار في أية لحظة.. فجأة ينهار ويسقط على الأرض، ومن حوله بركة من الدم تخرج من كل فتحات جسده.. ثم سمع الجميع صوت الغشاء المخاطي المبطن لأمعائه وهو ينفصل بالكامل ليغادر جسده. لقد أتى الفيروس على عائله، وصار عليه أن يجد عائلاً جديداً.

وجاء دكتور موزوك الطبيب الشاب، وحاول أن يدخل منظار الحنجرة في حلق الرجل.. استنشق الكثير من الدماء، وتلوثت يداه وثيابه، ثم جاءت ممرضة بكيس من الدم.. حاولوا أن يجدوا وريداً في ذراع المريض لكن كان هناك شيء ما خطأ.. إن الدم يخرج من حول الثقب الذي تصنعه الإبرة في كل مرة. وكف موزوك عن المحاولة كي لا ينزف الرجل ما بقي من دمه من ثقوب الذراع. وفي الساعات الأولى من الصباح توفي مونيه.. قاموا بتشريحه فأثار دهشتهم أن أحشاءه تبدو كأحشاء جثة مرت عليها أيام، وكأن الرجل مات من الداخل قبل أن يموت فعلاً. كتبوا في التقرير أنه توفي بـ(فشل كبدي متفاقم) لأنهم لم يجدوا كلمات تصف الهول الذي رأوه بداخله، وتم دفن الرجل في قبر لم يعد أحد يذكر أين هو.



بعد تسعة أيام من هذا بدأ ظهر الدكتور موزوك يؤلمه.. ثم بدأ التدهور السريع كما حدث لمونيه. قام أحد أطباء المستشفى ـ سيلفرشتاين ـ بفصل مصل الدكتور الشاب وأرسل عينة منه إلى السي دي سي ـ مركز مكافحة الأمراض ـ في أطلنطا بالولايات المتحدة، وعينة إلى معامل جنوب أفريقيا.

وجاءت المكالمة الأولى من جنوب أفريقيا: إن دم الطبيب الشاب يعج بفيروس ماربورج. لم يكن سيلفرشتاين قد سمع عن ماربورج قط، لذا فتح مرجعاً طبياً ليعرف ما هو. ماربورج مدينة في ألمانيا شهدت هذا الوباء عام ١٩٦٧ وقد بدأ من مصنع للأمصال يستخدم كلى القرود الخضراء المستوردة من أوغندا. لقد تفشى الوباء إلى حد أن كثيرا من الأطباء حسبوا هذه نهاية العالم.

إن ماربورج فرد من عائلة فيروسات تعرف باسم فيلوفيروس Filovirus أي الفيروسات الخيطية، ويبدو منظرها كحفنة من المكرونة الاسباجيتي التي سقطت على الأرض، ولهذا السبب حسبه الألمان أولاً فيروس الكلب الذي يبدو كرصاصة، فكأنما هو فيروس كلب استطال قليلاً، ثم عرف العلم فيما بعد أننا نتحدث عن عائلة مستقلة تماماً من الفيروسات. وإلى نفس العائلة ينتمي فيروسان آخران هما إيبولا زائير وإيبولا سودان، والأول أخطر فيروس معروف لأنه يقتل تسعة من كل عشرة يصابون به.

حاول رجال منظمة الصحة العالمية طويلاً معرفة من أين جاءت هذه القرود من أفريقيا بالضبط، لكن السؤال ظل بلا جواب حتى عام ١٩٨٢، حين عرف أحد الأطباء البيطريين أن مصدر هذه القرود هو متعهد كان يجلب القرود من أوغندا، وكان البيطري يستبعد القرود التي لا تبدو على ما يرام، على أساس أنها ستقتل فيما بعد، لكن المتعهد ـ عديم الضمير ـ كان يحتفظ بهذه القرود في جزيرة صغيرة ببحيرة (فكتوريا) على أمل أن يعيد تصديرها ثانية.. أي أن الجزيرة صارت معملاً حراً يمارس فيه الفيروس تجاربه، ويتطفر ويطور من قدراته.. من الغريب أن هذه المنطقة بالذات هي التي نشأ فيها داء الإيدز، وانتقل ـ بشكل ما ـ من القرود إلى الإنسان، وهناك قرى في تلك المنطقة أزالها الإيدز من الخارطة تماماً. لم يهتم أحد بما يعرفه البيطري لأن المسألة كانت ذات صبغة سياسية، فأوغندا لا ترغب في فقد دخلها من تصدير القرود، وهو مبلغ لا بأس به.

نتيجة لهذه القراءات ـ وبناء على طلب سيلفرشتاين ـ أغلقت الحكومة الكينية المستشفى، وقامت بعزل الحالات الموجودة فيه فعلاً. لكن الدكتور موزوك تماثل للشفاء.. لقد استعاد وعيه ببطء ولكن بثبات، ويبدو أن فترة المرض مرت به كنوم طويل بلا أحلام.

في الفترة التالية تشير أصابع الاتهام إلى كهف كيتوم، لأن هناك حالة أخرى من داء ماربورج دخلت ذات المكان. ويذهب فريق من الباحثين هناك بحثاً عن مصدر الفيروس لكنهم يبوءون بالفشل. إن الطبيعة معقدة جداً ولا تتصرف ببساطة أبداً، ولسوف نكتشف هذه الحقيقة أكثر من مرة في هذا الكتاب.

إن القنبلة الفيروسية بداخله بلغت التمام وعلى وشك الانفجار في أية لحظة.. فجأة ينهار ويسقط على الأرض، ومن حوله بركة من الدم تخرج من كل فتحات جسده.. ثم سمع الجميع صوت الغشاء المخاطي المبطن لأمعائه وهو ينفصل بالكامل ليغادر جسده



جيش يحارب الفيروسات

ينتقل الكتاب إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨٣.بالتحديد إلى ثورمونت ـ ميريلاند، حيث نتعرف على الميجور نانسى جاكس، الطبيبة البيطرية العسكرية. إنها تعد الإفطار لأطفالها قبل الذهاب لعملها، لكنها تجرح يدها بسكين المطبخ، فتضمد اليد وتنسى الأمر.

ندخل معها القاعدة التى يتوسطها مبنى من الخرسانة بلا نوافذ تقريباً. هناك أنابيب تهوية على السطح تخرج الهواء المرشح من المعامل المعزولة. هذا هو معهد جيش الولايات المتحدة لبحوث الأمراض المعدية أو ما يطلقون عليه اختصاراً اسم USAMRIID وهو اختصار طويل بدوره. ومهمة المعهد أن يطور أبحاث الحرب البيولوجية.. لقد كان المعهد قبل عام ١٩٦٩ يصنع تلك الأسلحة، حتى أصدر نيكسون أمراً يمنع تطوير الأسلحة البيولوجية داخل الولايات المتحدة ـ أو هذا ما يقوله الكتاب ـ من ثم صارت مهمة المعهد تطوير اللقاحات والأمصال والمضادات الحيوية. تمشى نانسى عبر ردهة مستوى الأمان الحيوى صفر.. ثم مستوى الأمان الحيوى ٢.. ثم ٣.. ثم ٤. ولسبب ما لا يوجد مستوى رقم ١.. لقد بدأت العمل فى المستوى رقم ٢ وكان عليها أن تتلقى الكثير جداً من اللقاحات ضد الحمى الصفراء والتولاريميا والجمرة وحمى الوادى المتصدع.. إلخ.. لذا طلبت رسمياً أن تترقى إلى المستوى الرابع مباشرة لأن اللقاحات أتعبتها جداً، والمستوى الرابع يعتمد على البذلات الواقية لا اللقاحات، لأن كل أمراضه لا لقاحات ولا علاجات لها..

كانت تعمل فى مشروع الإيبولا حالياً.. وهو فيروس نزفى خيطى تمت نسبته إلى نهر الإيبولا.. أحد روافد نهر الكونغو. كان أول اندلاع لوباء إيبولا عام ١٩٧٦ فى خمسين قرية، وقتل تسعة من كل عشرة مصابين. إن المرض شبيه بمرض ماربورج وإن كان أعتى منه بمراحل.وكان الإيبولا هو أخشى ما يخشاه العاملون فى المعهد، وكانوا يعتبرون المتعاطين معه مجانين. المشكلة أنه ما من واحد يعرف أين يعيش الإيبولا فى الطبيعة.. ولا يعرفون كيف ينتقل من شخص لآخر.. على الأقل كانت نانسى تعرف من ملاحظاتها على القردة أنه ينتقل عبر الدم والهواء. والغريب أن هذا الفيروس المخيف الذى لا لقاح ضده، لم يحدث أى وباء شامل، برغم أنه يستطيع السفر جواً وأن يغطى الكرة الأرضية، ولربما أباد الحياة بسهولة.. إنه ينجز فى عشرة أيام ما يحتاج الإيدز إلى عشرة أعوام كى ينجزه.. كلما عرف المرء أكثر عن الفيروسات الخيطية، كلما بدأ يراها لا كطفيليات ولكن كحيوانات مفترسة، تتوارى هنالك بين السافانا ووراء الأشجار منتظرة لحظة الهجوم.

الآن نرى عملية الاستعداد لدخول قسم الإيبولا التى تمر بها نانسى مع رئيسها.. تنزع ثيابها كلها حتى الداخلية منها.. ترتدى بذلة شبيهة ببذلات الجراحين.. تلصق شرائط لاصقة حول فتحات الأكمام والأرجل وحول خصرها.. إن الشرائط اللاصقة مهمة جداً فى هذه المهنة ولولاها ما وجدت. تمر بغرفة تغمرها الأشعة فوق البنفسجية، ثم بمجموعة طقوس شبه دينية من التعقيم، حتى تصل للمرحلة الأخيرة التى تدخل فيها بذلة فضاء كاملة، وتضع القناع. المشكلة فى هذه البذلات وكعب أخيل الخاص بها هو وقاية اليدين.. لأن القفازات من المطاط وتتعامل مع أجسام قاطعة كالإبر والمباضع..وبرغم أنها تلبس ثلاث طبقات من القفازات فالخطر ما زال داهماً. يمكن اعتبار هذه البذلات ـ كما تصفها نانسى للمستجدين ـ شرنقة تحوى العالم الطبيعى داخلها، فإن تمزقت تسرب العالم الساخن إلى الداخل، والضغط داخل البذلة عال لمنع تسلل شىء، فإن حدث تمزق تساوى الضغط الخارجى والداخلى، عندها يجب تثبيت شريط لاصق على مكان التمزق بسرعة..ويتم لف الشريط اللاصق حول الكاحلين كأنه بكرة للاستعمال عند اللزوم.

أخيراً تدخل إلى المستوى الرابع ذاته الذى يحمل بابه علامة إنذار (الخطر الحيوى).

ويفصله عن العالم الخارجى قفل هوائى وباب فولاذى. كما أن الهواء بالداخل سالب الضغط حتى لا يخرج منه شىء وإنما يدخل. تتحرك مع رئيسها حركة خاصة ينظر فيها الطرفان إلى بعضهما متحفزين.. العينان فى العينين.. كأنهما يتأهبان لمباراة مصارعة. هذه هى طريقة الحركة فى المستوى الرابع، لأنك يجب أن تعرف أين زميلك بالضبط.. ماذا يفعل.. وماذا يحمل فى يده.

الآن نرى أقفاص القرود التى تم حقنها بالفيروس المميت. إن السلالة التى تحقن بها القرود، قد قتلت ممرضة تلوثت بالدم أثناء عنايتها براهبة كاثوليكية عام ١٩٧٦. وعلى القرود التى هلكت يمكنك أن ترى علامة الموت بالإيبولا: الوجه الخالى من التعبير والعينين الحمراوين والأنف الدامى. أخطر جزء هنا هو حمل قرد حى تحسبه ميتاً، لأن هذه القرود قوية شرسة وتعض، وعضة قرد مصاب بالإيبولا معناها الموت بلا نقاش. كذلك يتم التشريح بالمقص فقط، دون استعمال المبضع أو أية أداة حادة لأن المبضع يمكنه تمزيق القفاز فى يدك، قبل أن تشعر بأى ألم. تبدأ التشريح وتجد المنظر المألوف: إن القرد ملىء من الداخل بالدماء.. هنا تشعر بشىء بارد يلمس جلدها.. تنظر لتكتشف أن القفاز مثقوب.. تتنحى وتنزعه لتجد أن قفاز البذلة ذاته مثقوب !.. تغادر الغرفة وتخضع فى صبر لإجراءات التعقيم البطيئة توطئة لأن تخرج إلى العالم الخارجى.. فى سرها تدعو الله ألا يكون القفاز الداخلى كذلك مثقوباً.. خاصة مع الجرح فى يدها !. أخيراً تنزع القفاز الأخير لتجد أن يدها غارقة فى الدم.. لقد لوث دم الإيبولا يدى ! لن يلبثوا أن يحملونى إلى الغواصة، والغواصة هنا هى اسم التدليل للمشرحة، لأن بابها المعدنى المحكم يذكر الرجال بأبواب الغواصات. ثم تكتشف أن مصدر الدم هو الجرح فى يدها..وبرغم هذا تملأ القفاز بالماء فقط لتتأكد من أنه ليس مثقوباً.. لو كان كذلك فهى نهايتها. لحسن حظها كان القفاز سليماً.

ماذا أصاب القردة؟

تنتقل الأحداث إلى رستون ـ فيرجينيا، حيث نرى وحدة الحجر الصحى للأوليات. إن الولايات المتحدة يصلها سنوياً ستة عشر ألفاً من القردة لمختلف الأغراض، وعلى عاتق هذه الوحدة تقع مسئولية الحجر الصحى لكل هذه القردة قبل توزيعها. تلقت الوحدة يوم ٤ أكتوبر عام ١٩٨٩ شحنة من الفليبين تتكون من مائة قرد، وقد جاءت من مزرعة قرب العاصمة مانيلا. إنها قردة ضخمة تدعى باسم (كرا) لأنها تصدر عند الصراخ صيحة كأنها: كرا.. كرا.

تم وضع القردة فى أقفاص لكن لوحظ أن عدداً كبيراً منها ـ نحو تسعة وعشرين ـ بدأ يموت فى الأسبوعين التاليين، كانت جفونها تتهدل وتصاب بفقدان شهية تام ثم تتدهور بسرعة. ويقدر مدير المستعمرة فى البداية أن السبب هو خلل فى جهاز التكييف. ثم يثبت التشريح أن القردة ماتت بنزيف داخلى وأن طحالها متضخم.. لكن ما السبب؟. وكى لا ينتقل المرض إلى باقى القرود يتم إعدام قاطنى القاعة F التى ظهرت فيها الوفيات بجرعة عالية سامة من الغاز المنوم. لكن المرض يظهر فى وحدات أخرى بعيدة.

يحمل المدير عيناته إلى USAMRIID فى فورت دتريك. ويخبرهم هناك بأنه يشك فى أن القردة تعانى نوعاً من حمى القرود النزفية SHF وهو مرض لا ينتقل للبشر لكنه يفتك بالقرود فتكاً. يأخذ الرجال العينات إلى المستوى الثالث، وهو مستوى أمان لا يتطلب منك ارتداء ثياب فضاء، بل يلبس الأطباء هناك ما يشبه ثياب الجراحين. ويتم زرع العينات فى أنابيب خاصة تحوى خلايا كلية القرد، وتترك كى تتخمر. هنا

الجزيرة صارت معملا حرا
يمارس فيه الفيروس تجاربه،
ويتطفر ويطور من قدراته..
من الغريب أن هذه المنطقة بالذات هى التى نشأ فيها
داء الإيدز، وانتقل ـ بشكل ما ـ من القرود
إلى الإنسان، وهناك قرى فى تلك المنطقة
أزالها الإيدز من الخارطة تماما



الرعــب
البيولــوجى

يلاحظ الفنى توماس جيسبرت مشهداً غريباً: إن الأنابيب لم تعد تحوى خلايا بل سائلاً عكراً أبيض. يستدعى رئيسه فيعتقد هذا أن المزارع تلوثت بالبكتريا وفسدت.. لكن رائحة المزرعة لا تدل على التخمر.. يفتح الأنبوب ويشمه جيداً.. لا شىء..! .. لا شىء.. يوصيه الرئيس بأن يفحص المزارع تحت المجهر الإلكترونى، الذى هو أحد بصراً وأقدر على اختلاس النظر إلى الكون الداخلى الرهيب..

لم يكن جيسبرت يفكر إلا فى انتهاء ساعات العمل، كى ينطلق لصيد الوعول، ولم يكن يعرف أن الفيروسات الخيطية تتناسخ لفترة تتراوح بين ثلاثة إلى ثمانية عشر يوماً.. بعدها يبدأ الصداع..




وحيداً فى معمله بعد عودته من العطلة، جلس جيسبرت يقطع العينة باستعمال السكين الماسية الحادة، وهى سكين قادرة على أن تشطر خلايا الدم إلى شطرين بل وتقسم الفيروسات نفسها.. حين فرغ من تقطيع العينات راح يلتقط بعضها من الماء باستعمال عصا صغيرة ألصق بطرفها هدب عين.. هدب عين امرأة من العاملات بالمعمل، وكانت أهدابها لزجة تسهل التقاط العينات من الماء. الآن يدخل إلى المجهر الإلكترونى المهيب فى الحجرة.. يجلس ويضيء الأنوار فيتحول المكان إلى غرفة قيادة سفينة فضاء. تظهر له الخلايا على الشاشة، والدرس الذى تعلمه من عمله هنا هو أنه مهما صغر مجال الفحص فالأمور معقدة بما يكفى.. لا يوجد شىء واضح أو سهل فى الطبيعة.. كل شىء مختلط مربك..

ولكن.. لحظة.. ثمة شىء خطأ فى هذه الخلية.. إنها ليست مريضة بل هى مدمرة بالكامل.. إنها مليئة بكل أنواع الخيوط وكأنها كيس ممزق امتلأ بالحبال.. وتقلصت معدته، وهو ما يعرفه علماء الفيروسات هنا باسم عامل الغثيان Puke factor، ويدل على الذعر الوحشى حين يكتشف المرء فجأة أنه يتعامل مع فيروس من المستوى الرابع.. إنه رأى هذا المشهد من قبل.. رآه فى الخلايا التى دمرها فيروس ماربورج.. رباه !.. لو لم يكن هذا ماربورج فهو - بلا شك - فيروس خيطى.. وأنا شممت الأنبوب عدة مرات !.. كم فترة حضانة الفيروس؟.. لقد شممت الأنبوب من عشرة أيام فهل أشعر الآن بصداع؟.. لا صداع.. لكن ليس معنى أنه لا صداع فى اليوم العاشر أننى لن أشعر به فى اليوم الحادى عشر..

وبرغم الوضع المثير للهلع، فإنه لم يستطع إلا أن يحبس أنفاسه انبهاراً بجمال هذا القاتل الشبيه بثعبان الكوبرا.. هذا وجه الطبيعة ذاته.. ميدوسا الإلهة اليونانية المخيفة مجردة عارية أمامه.

بدأ القلق يغمر القيادات فى المركز. لو كان هذا (ماربورج) فمن المؤكد أن الوباء سينتشر فى فرجينيا ما لم يتم حصاره. كل الأطباء الذين شرّحوا القرود وكل من شموا الأنبوب مرشحون للإصابة بالفيروس المخيف. وقال الكولونيل - رئيسه المباشر - إن عليهم التأكد من أن هذا ماربورج حقاً. لو كان عليهم إحداث حالة هلع فى الولاية؛ فمن الخير أن يتأكدوا مما يقولون.

فى الظلام وفى أعمق أعماق المستوى الرابع، مرتدياً بذلة رواد الفضاء، جلس د. جارلنج يجرى تجاربه. إن المكان غير محبب للمصابين برهاب الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا)، لكن الرجل كان قد اعتاد الظلام والوحدة من زمن. كان عليه أن يعمل فى الظلام لأن التجربة تتضمن ظهور تألق خافت فى الشريحة التى وضع عليها خلايا القردة الميتة، إذ يتم خلطها بثلاث عينات مصلية: العينة الأولى أخذت من د. موزوك.. الثانية من مريض قتله الإيبولا سودان.. الثالثة من ممرضة قتلها إيبولا زائير. لم تتوهج العينة الأولى ولا الثانية.. لكن الثالثة توهجت.. إذن لم يكن هذا ماربورج.. القردة التى جاءت من الفليبين مصابة بإيبولا زائير.. أخطر حمى نزفية عرفها العلم. ولم ينتظر جارلنج حتى يغادر المستوى الرابع بل أبلغ النتائج لرئيسه بهاتف الطوارئ، بل وكتب النتائج على قطعة من الورق الذى لا يتخلله البلل ووضعها فى درج مُلئ بمحلول مطهر، وهذا الدرج يمكنه الخروج من المستوى الرابع إلى العالم الخارجى بعد ما يتم تطهير محتواه.

بسرعــة وسريــة

الآن حان وقت إبلاغ الجنرال فيليب راسل قائد الوحدة بالكارثة، طبعاً مع إغفال تفاصيل بسيطة مثل الرجلين اللذين شما الأنبوب، لأن هذا سيدفعه إلى الانفجار فى سيل من السباب ينتهى بقذف المخطئين إلى ما يشبه الحجز الانفرادى لمدة أربعين يوماً، وهى ليست بالضبط تجربة سهلة لأن كثيرين يدنون من الجنون بسبب خبرة كهذه.

وفى مكتبه ميز الرجل الصور الرهيبة على الفور، وطلب خبراءه. وهنا نقابل من جديد وسط المجتمعين مع الجنرال، نانسى جاكس الطبيبة البيطرية العسكرية، التى ترقت فى عملها، وصارت من الخبراء المرموقين فى فيروس إيبولا والقادرين على العمل ببراعة فى المستوى الرابع. إن السؤال الأخطر الذى يطرح نفسه هو: ماذا لو لم يكن هذا الفيروس الخيطى هو الإيبولا؟.. ماذا لو كان نوعاً جديداً غير معروف أشد فتكاً وأسرع انتقالاً؟. لم يكن هناك أكثر من خيارين: محاصرة القرود والانتظار حتى تموت من تلقاء نفسها، أو الإسراع بإعدامها وتطهير المكان وحرق الجثث. وكالعادة - كما يحدث فى الولايات المتحدة دائماً - كانت هناك مشكلة تضارب اختصاص الإدارات.. إن الـ CDC (مركز السيطرة على الأمراض) يتلقى تمويلاً من الكونجرس، وهو المؤهل شرعياً لتولى هذا الأمر، بينما الجيش لا حق له فى مكافحة الإيبولا على أرض أمريكية، لكنه القادر على ذلك.. هذا التضارب بين المؤهل والقادر قد يجلب الوبال، ويحتاج إلى رأى المحامين، لكن الجنرال قال إنه سيتبع سياسة محددة: «سنفعل كل شىء ثم نطلب الصفح فيما بعد.. هذا أفضل من طلب الإذن ومنعه عنا.. لا تسأل محامياً أبداً عما إذا كان بوسعك عمل شىء.. سنفعل ما هو ضرورى، وعلى المحامين بعد هذا أن يقولوا لماذا هو قانونى».

وكان عليهم بعد هذا إجراء مكالمات لا حصر لها مع وزارة الدفاع والزراعة والسلطات الصحية لفرجينيا، واستدعاء كل شخص فى البلاد يعرف معنى كلمة (إيبولا). عليهم أن يمسكوا العصا من منتصفها؛ فلا يحدثوا ذعراً لا داعى له، وإلا امتلأت الشوارع بسيارات المهاجرين الفارين من رستون، ولظهرت أمهات يصرخن أمام عدسات التليفزيون: أين أطفالى؟. كما أنه من أهم الأمور ألا تعرف الصحافة شيئاً عن بذلات رواد الفضاء الواقية. على فريق العمل - من ناحية أخرى - ألا يجازف بأن تتسرب العدوى خاصة وهم على مقربة من واشنطن نفسها. وكانت الأولويات - على طريقة الكلام العسكرية المختصرة - كما يلى:

١- سلامة الجمهور.

٢- القتل الرحيم Euthanasia للحيوانات قدر الإمكان.

٣- جمع العينات العلمية.

الهدف: تحديد السلالة ومعرفة كيفية انتقالها.

وفى عملية سرية تشبه الاختطاف يقومون بنقل بعض جثث القردة - فى أكياس بلاستيكية مزدوجة تم رش خارجها بالكلوراكس - من وحدة الحجر الصحى للأوليات إلى المعهد.

المشكلة الآن هى نقل بيئة المستوى الرابع إلى حجر القردة، حيث تبدأ عمليات القتل الرحيم Euthanasia للقردة كلها، والتى صار عددها فى الوحدة لا يقل الآن عن خمسمائة. إنها تشبه قلب مفاعل نووى وزنه ثلاثة أطنان، وعندما يحترق الوقود كله فى قلب المفاعل، فإن المرض سيبحث عن وقود آخر. وكانت رائحة الوحدة الآن قد صارت كأنها من جهنم لأن العاملين كفوا عن غسيل الأقفاص، ولم يعد أحد يجسر على الدخول.. لقد تحولت البناية برمتها إلى منطقة ساخنة، وكان عليهم أن يزودوها بقفل هوائى وممر تتم فيه مراحل التعقيم التدريجية.. كل هذا دون أن يلاحظ الجمهور العادى - والصحافة طبعاً - شيئاً !.

وهكذا تقف نانسى تصدر تعليماتها للرجال الذين سيدخلون معها إلى المنطقة الساخنة:

«لا تترك الدم على قفازك.. يجب أن تغسله فوراً، لأنه فى وجود الدم لن تميز أبداً أى تمزق فى القفاز.. القردة شرسة وسريعة الحركة، ويمكنها أن تثب إلى وجهك متشبثة بأطرافها الأربع والذيل حول عنقك، فلو عضتك لكانت نهايتك مؤكدة.. خذ الحذر منها.. لابد من عشر دقائق راحة كل ساعة لأن الشخص المتعب لا يتوخى الحذر.. لابد من أن تتوقف كل عشر دقائق لتتفحص بذلة زميلك.. هل تمزقت فى مكان ما؟.. البطارية التى تنظم الضغط داخل البذلة تعمل ست ساعات، وعليك المغادرة قبل أن تنتهى وإلا صرت فى مأزق مخيف.. ملحوظة أخيرة: أنتم ستظلون داخل البذلة طويلاً فلا تفرطوا فى شرب السوائل والقهوة قبل العمل».

بدأ القلق يغمر القيادات فى المركز.
لو كان هذا (ماربورج) فمن المؤكد أن الوباء سينتشر فى فرجينيا ما لم يتم حصاره.
كل الأطباء الذين شرّحوا القرود وكل من شموا الأنبوب مرشحون للإصابة بالفيروس المخيف.
وقال الكولونيل - رئيسه المباشر - إن عليهم التأكد من أن هذا ماربورج حقاً !



في الداخل كانت الفوضى في كل مكان، وقطع البسكويت ملقاة على الأرض.. إن القرود الثائرة الغضبى ألقت بالبسكويت في كل مكان، ورسمت ببرازها على الجدران رسالة غامضة للجنس البشرى. وبدأ الرجال يطعمون الحيوانات الجوعى لأنه لا داعى لتعذيبها أكثر من هذا قبل الموت، وكما قال أحد القادة لرجاله:

-«هذه الحيوانات منحت حياتها للعلم، ثم تورطت في هذا الشيء، ولم يكن ما حدث خطأها.. لا أريد أن تتعاطفوا مع القردة، لكنى لا أريد أن تسخروا منها، وتذكروا أننى أستطيع أن أكون قاسياً».

ولاحظوا - في هلع - أن أنوف أكثر القردة كانت تنزف، وأن الدم كان يتجمع تحت بعض الأقفاص. لقد ضرب الوباء المبنى بأسره.

شرع الرجال يمرون على الأقفاص.. يثبتون كل قرد بعصا معدنية طويلة، ثم يفرغ أحدهم طلقة من الكيتامين في جسده، وهذا يكفي لجعله يغرق في نوم عميق، بعد هذا يتم إخراج القرد من القفص وحقنه في القلب بمادة T-61 السامة التي تستعمل للقتل الرحيم.. لابد من إصابة القلب بالإبرة من أول مرة، وإلا صحا القرد وأتى بحركات هائجة مؤذية. لا يمكن بدء تشريح قرد أمام القردة الأخرى أبداً لأن هذا يؤدى لحالة شغب عامة. بعد هذا يتم أخذ عينات من الدم والكبد والطحال، توضع في أنابيب خاصة، ويتم وضع الجثة في أكياس واقية.. بعد قليل ستتحول الجثة إلى عصيدة من الدم والهلام والفيروس الذى انتهى من الفتك بكل الخلايا. ومن حين لآخر كان أحد الرجال ينزع شريطاً لاصقاً ويثبته على تمزق أو ثقب في بذلة زميله.

أثناء عملها تتعرض نانسى جاكس لحادث رهيب، إذ تغرس الإبرة في عروق قرد فينهض من سباته، ويتشبث بيدها بقوة ويقرب اليد إلى فمه.. إنه يحاول أن يعض !.. صرخت وطلبت العون فهرع أحد الرجال ليقيد القرد جيداً، بينما يغرس فيه أحد الرجال محقناً يحوى المزيد من الكيتامين.

لا ينسى الرجال كذلك هروب قرد شرس من قفصه، وكيف بحثوا عنه في الغرفة مراراً وحسب البعض أنهم رأوه يفر من الباب.. لكن الحقيقة أن الذعر بلغ منهم مبلغه حتى تخيلوا هذا. كان القرد داخل الغرفة متوارياً خلف الأقفاص، وفر من كل محاولات اصطياده بشبكة، فكانت أحكم سياسة هي سجنه في الغرفة، لأن التعامل معه معناه الموت الأكيد.

التطهير

لم يمرض جسبيرت ولا رئيسه، وهما الرجلان اللذان وجدا الفيروس أول مرة، وبدا أنهما سيعيشان إلى أن يطلقا عليه اسماً. وتم القبض على القرد الهارب وقتله، وهكذا انتهت المهمة.. صار الآن على فريق التطهير أن ينظف المبنى ويرشه بالمطهرات، وأن يزيل القاذورات التي خطتها القردة على الجدران. بعد هذا يأتون ببكتريا غير ضارة لكنها صعبة التدمير اسمها باسيلس سبتيليس نيجر.. هذه البكتريا تستخدم كمقياس على جودة التعقيم: فلو لم تمت كان العمل ناقصاً. ثم يأتي الجنود بأوعية كهربية ينثرونها في أرجاء البناية، ويسخنونها جميعاً، ثم يلقون في كل وعاء ببلورات تحدث مع الحرارة سحباً كثيفة من الفورمالدهايد. ويتصاعد الغاز ليتخلل كل شيء.. يدخل الأدراج والخزانات، ويتسرب إلى أجهزة الكمبيوتر. إنهم يعرفون أنه لا يوجد شيء اسمه التعقيم الكامل في الطبيعة لأن الحياة تجد مهرباً دائماً، لكن فناء البكتريا باسيلس سبتيليس يعنى - إلى حد ما - أن المهمة تمت. وفي هذا اليوم صارت وحدة حجر الرئيسيات في رستون، المكان الوحيد في العالم الذى ليس به أثر للحياة.. لا شيء على الإطلاق.

وهنا يتساءل الأطباء: لقد جاءت كل القردة المريضة في رستون من الفليبين، فلو كان الفيروس أفريقياً فما الذى يفعله في الفليبين؟. لماذا لم يصب أى متعامل مع القردة بالمرض هناك؟. ولماذا لم يصب أى واحد بالمرض في فريقنا؟. كأن الطبيعة جاءتنا مكشرة عن أنيابها عازمة على قتلنا، وفي اللحظة الأخيرة ابتسمت ابتسامة غامضة وابتعدت. إنها ابتسامة الموناليزا التي لا يفهم أحد معناها بالضبط.

لقد أوقفت الـ CDC استيراد القردة إلى الولايات المتحدة لفترة طويلة. ومبنى الحجر الرهيب خال حتى لحظة نشر الكتاب. لقد انضم إيبولا رستون غريب الأطوار الى إخوانه ماربورج وإيبولا زائير وإيبولا سودان. وبرغم أنه لا يقتل الناس إلا أنه من الواضح أن إيبولا رستون أخطر أفراد المجموعة بسبب سهولة انتقاله، ولربما يبدل خواصه يوماً ما ليصير قادراً على عدوى البشر وقتلهم، عندها سيكون هو وباء النهاية للجنس البشرى. ويعتقد العلماء أنه جاء من غابات الأمطار الأفريقية إلى الفليبين مع حيوانات استوردها بعض أثرياء الفليبين، أو ربما هو قرد واحد حمل عدداً محدوداً من الفيروسات من أفريقيا إلى تلك المزرعة قرب مانيلا.

ويرى الكاتب أن الفيروسات النزفية التي عاشت طويلاً في غابات الأمطار ثم قررت الخروج لنا، هي انتقام تلك الغابات من الإهانة البيئية التي لحقت بها في عصرنا هذا. فمن هذه المناطق خرج الإيدز ومعه تلك الفيروسات الخيطية المفزعة.

لقد ازدهر إيبولا هنا.. تغذى.. كشر عن أنيابه...ثم عاد ليغفو في غابات الأمطار، لكنه سوف يعود.

ومن جديد تتكاثر علامات الاستفهام حول الحرب البيولوجية التي يبدو أن الولايات المتحدة ظلت تراها في كوابيسها طويلاً، واستعدت لها بعناية. لكن الكتاب يصارحنا بحقيقة مفزعة هي أن ثماني ساعات تفصلنا عن أخطر فيروسات غابات الأمطار، لأن الطائرات تحمل الناس إلى كل مكان بأسرع ما يمكن، ولا يمكن تصور ما قد يحدث من دمار لو أن انتحارياً في فترة حضانة الإيبولا - مرحلة آلام الظهر والرشح - تنقل في المدن الأمريكية، ودخل عدة بارات وأكل في عدة مطاعم ودخل أكثر من دار سينما. إن نهاية العالم ليست بالصعوبة التي نتخيلها أحياناً. ■

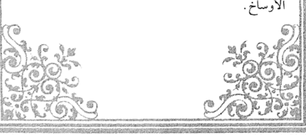


في أخلاق الأفغان وطبائعهم

إن معظم الشعوب المستوطنة لتلك الأقطار وأكثرها عدداً هو الجنس الأفغاني ومقرّه جنوب البلاد والشرق الجنوبي منها .

والخُلُق الغالب في هذا الجنس هو الحقد والضغينة والتشوق للانتقام واقتحام المحاربات والتهوّر في المخاصمات والمنازعات لأدنى الأسباب وأن صورهم الظاهرة تحكى خليقتهم هذه وتنبئ عنها فإن وجوههم على الدوام عابسة . وقلما يوجد بينهم البشوش وإن كان يظهر في بعض معاملتهم الحلم والتؤدة وكذلك خشونة لغتهم وغلظ أصواتهم يدلان على هذه الخليقة وعلى الفظاظة وغلظ الطباع . ولهم ميلٌ عظيمٌ للنهب والسلب وشنّ الغارات وإثارة الفتن . وبما ارتكز في طباعهم من الشجاعة والإقدام والميل الطبيعي إلى المحاربة أرشدتهم الطبيعة من قرون إلى ترتيب نظامهم العسكرى على هيئة تقرُب من النظام الموجود في هذه الأزمان .

وأن كثيراً منهم كانوا وإن كانوا قد مالوا إلى الإقامة في المدن والقرى كأهالي قندهار وقزنه وجلال آباد وغيرها إلا أنهم كبقية إخوانهم الذين لم يزالوا في الخشونة حيث لم يأخذوا جانب الترف والرفاهية بل يسلكون في تعيشهم طرق التخشن والتقشف ويقنعون من اللذات باليسير حتى أنهم يأكلون الضأن بجلده . فإنهم بعدما يذبحونه يحرقون صوفه ثم يجففونه ويدخّرونه للأكل ولا يتناولون الأطعمة بالملاعق ولا يضعون أواني الطعام على الخوان بل يأكلون على الأرض بأيديهم . وليس لهم عناية بتنظيف ألبستهم وأبدانهم ولا يهتمون بنظافة مساكنهم وحجراتهم وتطهير مدنهم من الأوساخ .



أزمة الطاقة في الولايات المتحدة

وهل ينتقل إلى دول أوبك جانب من أعبائها؟

حسين عبدالله

تدفع الولايات المتحدة كل عام نحو ١٠٠ مليار دولار سدادا لفاتورة وارداتها من البترول. فقد بلغ استهلاكها من المنتجات البترولية عام ٢٠٠٠ نحو ١٩,٥ مليون برميل يوميا (ب/ى) بينما لم يتجاوز إنتاجها المحلى منه ٩ ملايين ب/ى، وبذلك ارتفع اعتمادها على الاستيراد إلى نحو ٥٤٪ من احتياجاتها البترولية. وإذ يتوقع أن يرتفع استهلاكها بحلول عام ٢٠٢٠ إلى نحو ٢٥,٨ مليون ب/ى بينما لا يتجاوز إنتاجها المحلى منه ٩,٣ مليون ب/ى في العام المذكور، فإن اعتمادها على الاستيراد يمكن أن يرتفع من نحو ١٠,٥ إلى نحو ١٦,٥ مليون ب/ى، وكنسبة مئوية من نحو ٥٤٪ إلى ٦٤٪ من إجمالى الاحتياجات المحلية.

وإذ يتوقع أن يقترن بذلك العجز في المصادر المحلية للبترول ارتفاع أسعاره العالمية، فإن فاتورة الاستيراد يمكن أن ترتفع إلى مستويات شاهقة. ومن هنا يبدو أن الولايات المتحدة قد عكفت على تدبير وسائل تمكنها من تامين احتياجاتها المتزايدة من البترول وبأسعار مناسبة، وهذا ما ينطوى بالضرورة على الضغط على الدول المصدِّرة للبترول بقصد توفير الكميات اللازمة والإبقاء على سعر منخفض مساندة لاقتصادها وللاقتصادات الغربية التى تستورد ثلاثة أرباع الواردات البترولية العالمية. وبلغة أكثر صراحة فإن الولايات المتحدة أخذت تبحث عن كيفية نقل جانب من عبء الفاتورة المتصاعدة لوارداتها البترولية، ولواردات المجموعة الصناعية الغربية بالتبعية، إلى الدول المصدرة للبترول وأغلبها دول نامية تعتبر عائداتها البترولية العمود الفقرى في تمويل احتياجاتها الجارية وبرامجها التنموية.

وقد بدأت مؤشرات ذلك الاتجاه في الظهور أولا بالجولات التى قام بها وزير الطاقة الأمريكى وطاف خلالها باهم الدول المصدِّرة للبترول في مستهل عام ٢٠٠٠ وذلك بهدف الضغط عليها لزيادة الإنتاج وخفض الأسعار. ثم وهذا هو الأخطر، بحادثين لم يمض عليهما أكثر من شهرين ويستهدفان محاكمة دول أوبك طبقا للتشريعات الأمريكية وإخضاعها لقوانين العقوبات الأمريكية. وكان أول الحادثين صدور قرار من قاض فدرالى في ولاية الباما ضد أوبك مدعيا أنها تتواطأ بهدف تقييد حرية التجارة في البترول وذلك بالمخالفة لقوانين مكافحة الاحتكار الأمريكية. والثانى قيام عضوين من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى بالتقدم بمشروع قانون يستهدف تمكين وزارة العدل الأمريكية ووكالة التجارة الأمريكية من إقامة الدعوى القضائية ضد أية دولة أجنبية، بما في ذلك الدول أعضاء أوبك، وذلك في حالة وجود اتفاق ينطوى على تواطؤ Collusion لتحديد أسعار البترول أو حجم إنتاجه.

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يصدر فيها الادعاء الذى تضمنه قرار القاضى الفدرالى في ولاية الباما. فقد صدر قرار مماثل في عام ١٩٧٩ ولكن محكمة الاستئناف في سان فرانسيسكو رفضت تاييده عام ١٩٨١ على أساس أنه ليس من اختصاصها النظر في مشروعية التصرفات السيادية لدول أجنبية ذات سيادة. كما تاكد هذا الاتجاه بحكم لاحق للمحكمة الأمريكية العليا. وقد استندت محكمة الاستئناف في قرارها المذكور إلى أن «السيادة الدائمة للشعوب والأمم على ثرواتها الطبيعية يعطيها الحق في أن تمارس استغلالها بما يحقق مصالح شعوبها.. وأن مساندة الولايات المتحدة لهذا المبدأ تنبع من قيامها بتنمية أراضيها ومواردها باعتبارها دولة ذات سيادة». وبناء على ذلك تسقط حجية القرار الذى أصدره قاضى الباما لمخالفته لأحكام قضائية أمريكية ذات مستوى أرفع.

أما مشروع القانون الذى تقدم به عضوا مجلس الشيوخ الأمريكى (السناتور هيرب كوهل والسناتور مايك دوين) فلا تخفى طبيعته السياسية، كما تكمن دوافعه الحقيقية في المشاكل السياسية المحلية. كذلك لا يخفى أن مثل هذا الاتجاه يناقض أبسط المبادئ القانونية المعترف بها والتى تضمنتها العديد من قرارات الأمم المتحدة وأقرت فيها حقوق السيادة التى تتمتع بها الدول بالنسبة لمواردها الطبيعية. وليس من حق دولة، كبر شانها أم صغر، أن تقاضى منظمة دولية تجارية تدافع عن المصالح المشتركة للدول التى أنشاتها. ومن الغريب أن يخرج السناتور كوهل لكى يحرض ضد أوبك بقوله إن الشعب الأمريكى يعانى كل يوم من مصاعب حقيقية نتيجة لتصرفات أوبك. كذلك يتابع السناتور دوين نفس النغمة التحريضية بقوله إنه طالما تركت أوبك لكى تتحكم في العرض العالمى للطاقة فإن علينا أن نتوقع المزيد من الصدمات والمزيد من المشاكل التى يعانى منها المستهلك الأمريكى.

والواقع أن الارتفاع الذى شهدته أسعار المنتجات البترولية في الأسواق الأمريكية خلال عام ٢٠٠٠ لم يكن مرجعه شحة أو نقص في العرض العالمى للبترول الخام. فقد كان البترول الخام المعروض في الأسواق الأمريكية يزيد على الاحتياجات، وإنما كان مرده أساسا، وكما سنبين فيما بعد، إلى قصور البنية الأساسية لقطاع الطاقة الأمريكى، وهو ما أدى إلى وجود أعناق زجاجات في بعض المنتجات المكررة مثل البنزين وغيره من مصادر الوقود. ويأتى في مقدمة أسباب القصور ما اتسمت به قوانين ونظم حماية البيئة الأمريكية من صرامة، وهو ما أدى إلى إلحاق الضرر بصناعة تكرير البترول التى فقدت نحو ٢,٧ مليون ب/ى من طاقتها على مدى السنوات العشرين الماضية. كذلك زاد من حدة المشكلة ما أصاب شبكات التوزيع المحلية من قصور وعجز عن مجاراة الاستهلاك المحلى المتزايد. وقد يتكرر الارتفاع الحاد في أسعار البنزين في الأسواق الأمريكية خلال صيف ٢٠٠١ لنفس الأسباب التى ذكرناها وليس لقصور في العرض المتاح من البترول الخام، ومع ذلك يلقى اللوم على أوبك.

فجوة الطاقة الأمريكية

من إجمالى الاستهلاك العالمى للطاقة بكافة مصادرها في عام ٢٠٠٠ والذى بلغ نحو ٨٧٥٣ مليون طن بترول معادل Ton of oil equivalent (Toe) انفردت الولايات المتحدة باستهلاك نحو ٢٢٧٩ مليون طن وهو ما يعادل نحو ٢٦٪ من الاستهلاك العالمى. وبعبارة أخرى فإن استهلاك الولايات المتحدة من الطاقة بكافة



مصادرها في العام المذكور كان يزيد على إجمالي إنتاج البترول وسوائل الغاز الطبيعي في دول أوبك مجتمعة بنحو ٥٠٪. وبوحدات قياس مختلفة، فقد ارتفع استهلاك الولايات المتحدة من الطاقة خلال الفترة ١٩٨٠-٢٠٠٠ من نحو ٧٨ إلى نحو ٩٨ كوادرليون (Quadrlion= Quad) وحدة حرارية بريطانية (British thermal unit=Btu كوادرليون= واحد صحيح وعلى يمينه ١٥ صفرا)، وهو ما يعادل نحو ٤٨ مليون ب/ي، أو ربع الاستهلاك العالمي من الطاقة عام ٢٠٠٠.

وفي مقابل هذا النمو السريع في استهلاك الطاقة ارتفع الإنتاج الأمريكي خلال الفترة ١٩٨٠-٢٠٠٠ من نحو ٦٧ Quad إلى ٧٢ Quad لكي تعاني الولايات المتحدة من فجوة عجز بين الإنتاج والاستهلاك تزايد اتساعها من نحو ١١ Quad إلى نحو ٢٧ (Quad أو ما يعادل نحو ١٣ مليون ب/ي) خلال الفترة المذكورة. بل إن الزيادة التي حققتها بعض مصادر الطاقة المحلية كالفحم والطاقة النووية لم تستطع تعويض الانخفاض المطرد في الإنتاج المحلي من الزيت الخام الذي تراجع من ١٠,٩ مليون ب/ي إلى ٩ ملايين ب/ي خلال الفترة ١٩٨٠-٢٠٠٠، لكي تتسع فجوة العجز البترولي من ٦,٢ مليون ب/ي إلى نحو ١٠,٥ مليون ب/ي، ولكي تقترب قيمة فاتورة الواردات البترولية من ١٠٠ مليار دولار كما ذكرنا.

وكانت كفاءة الطاقة في الولايات المتحدة قد تحسنت بفضل ما قامت بوضعه وتنفيذه من برامج صارمة لترشيد الطاقة وتحسين معاييرها، إنتاجا واستهلاكا، عقب حركة تصحيح أسعار البترول التي تحققت بفضل حرب أكتوبر ١٩٧٣ كذلك اقترن بتلك البرامج اتجاه الاقتصاد الأمريكي، شأنه شأن باقي الاقتصادات الصناعية الغربية، إلى إحلال الصناعات ذات الكثافة الخفيفة في استهلاك الطاقة محل الصناعات الكثيفة في استخدامها. وبذلك انخفض حجم الطاقة المستخدمة لإنتاج ما قيمته دولار واحد (بقيمة ثابتة) من الناتج المحلي الإجمالي GDP من نحو ١٨ ألف وحدة حرارية بريطانية (Btu) عام ١٩٧٣ إلى نحو ١٠ آلاف وحدة عام ١٩٩٩. ومع ذلك لاتزال الولايات المتحدة الأكثر إسرافا في استهلاك الطاقة بين نظائرها في المجموعة الصناعية الغربية، إذ لا يتجاوز حجم الطاقة المستهلكة في الاتحاد الأوروبي لإنتاج ما قيمته دولار نحو ٧٨٠٠ Btu. وبالنسبة للبترول بصفة خاصة لا يتجاوز استهلاك الاتحاد الأوروبي ثلثي ما تستهلكه الولايات المتحدة بالنسبة لكل وحدة من وحدات الناتج المحلي الإجمالي.

وإذ لا يتوقع أن تتحسن كفاءة الطاقة في الولايات المتحدة خلال المستقبل المنظور بنفس المعدلات التي تحققت إثر صدمة الأسعار خلال عقد السبعينيات، فإن استهلاك الولايات المتحدة من الطاقة بمختلف مصادرها يمكن أن يرتفع من نحو ٩٨ Quad وحدة حرارية بريطانية عام ٢٠٠٠ إلى نحو ١١٤ Quad عام ٢٠١٠ (وهو ما يعادل نحو ٥٧ مليون ب/ي بترول معادل) بمعدل نمو ١,٥٪ سنويا في المتوسط. وتشير الدراسات المتاحة إلى أنه ما لم يرتفع الإنتاج المحلي من البترول خلال السنوات العشر المقبلة، وهو احتمال ضعيف حتى على فرض فتح المناطق المغلقة للاستكشاف البترولي كما سنوضح فيما بعد، فإن الولايات المتحدة سوف تحتاج لاستيراد نحو ٣٨ (Quad كلها تقريبا بترول وغاز طبيعي) وهو ما يعادل نحو ١٨,٥ مليون ب/ي بترول معادل، أو ثلث استهلاكها الكلي من الطاقة بحلول عام ٢٠١٠.

أما إذا امتد أفق المستقبل إلى عام ٢٠٢٠ فيتوقع أن يرتفع استهلاك الولايات المتحدة من الطاقة بكافة مصادرها إلى نحو ١٢٧ Quad أو ما يعادل ٦٢ مليون ب/ي بترول معادل، بمعدل نمو ١,١٪ سنويا في المتوسط خلال الفترة ٢٠١٠-٢٠٢٠ وبذلك تزداد فجوة العجز الكلي في الطاقة، وبصفة خاصة في البترول الذي تشير أغلب الدراسات المتاحة إلى أن الإنتاج الأمريكي منه سوف ينخفض من نحو ٩ ملايين ب/ي عام ٢٠٠٠ إلى نحو ٨,٧ مليون عام ٢٠١٠ ثم يتعافى قليلا عند مستوى ٩,٣ مليون ب/ي بحلول ٢٠٢٠. بينما يتوقع أن يرتفع الاستهلاك الأمريكي من نحو ١٩,٥ مليون ب/ي عام ٢٠٠٠ لكي يبلغ نحو ٢٢,٦ مليون ب/ي عام ٢٠١٠ ونحو ٢٥,٨ مليون ب/ي عام ٢٠٢٠ وبذلك تتسع فجوة العجز البترولي من ١٠,٥ مليون ب/ي إلى نحو ١٦,٥ مليون ب/ي خلال الفترة ٢٠٠٠-٢٠٢٠.

كذلك تعاني الولايات المتحدة من عجز في الغاز الطبيعي، وإن كان أخف مما هو عليه الحال في البترول. ولعل مما يطمئن الولايات المتحدة أن جارتها كندا تتمتع بوفرة في احتياطات وإنتاج الغاز الطبيعي وإن تكلفته فيها أقل منها في الولايات المتحدة مما يؤمن احتياجاتها المستقبلية منه، كما سنوضح فيما بعد.

بلغة أكثر صراحة فإن الولايات المتحدة أخذت تبحث عن كيفية نقل جانب من عبء الفاتورة المتصاعدة لوارداتها البترولية، ولواردات المجموعة الصناعية الغربية بالتبعية، إلى الدول المصدرة للبترول وأغلبها دول نامية تعتبر عائداتها البترولية العمود الفقري في تمويل احتياجاتها

ولا تحقق الولايات المتحدة فائضا في غير الفحم الذي ارتفع إنتاجه المحلي خلال الفترة ١٩٨٠-٢٠٠٠ من ٨٣٠ مليون طن إلى ١١١١ مليون طن. غير أن استهلاكه المحلي قد شهد نموا أسرع إذ قفز خلال الفترة المذكورة من ٧٠٣ ملايين طن إلى ١٠٨٠ مليون طن، وبذلك تقلص الفائض القابل للتصدير من ١٢٧ مليون طن إلى ٣١ مليون طن خلال الفترة المذكورة.

وتثير الفجوة البترولية المتزايدة مخاوف الولايات المتحدة، إذ ترغمها على الاعتماد على مناطق غير مستقرة سياسيا مثل منطقة الشرق الأوسط التي تعتمد عليها لتوفير نحو ٢٢٪ من وارداتها البترولية، ويتوقع أن تتزايد تلك النسبة مستقبلا. وبالطبع تتناسى الولايات المتحدة أن سياستها المؤيدة تأييدا مطلقا للعدوان الإسرائيلي تعتبر من أهم أسباب عدم الاستقرار في المنطقة.

قصور البنية الأساسية للطاقة

ولا تنتهي مشاكل الولايات المتحدة عند حدود اتساع فجوة استيراد الطاقة، بل تعاني بنية الطاقة الأساسية من تهالك أجزاء مهمة فيها ومن قصور في الاستثمار اللازم لتجديدها وتوسيع إمكانياتها بما يجعلها تواكب الزيادة المطردة في الاستهلاك المحلي. ومن ذلك ما تبين أثناء أزمة الطاقة الأخيرة في ولاية كاليفورنيا من أوجه القصور في محطات توليد الكهرباء وخطوط نقلها وتوزيعها وأيضا في خطوط أنابيب نقل الغاز الطبيعي. فقد اتضح أنه على الرغم من وجود فوائض للطاقة في بعض الولايات الآن إمكانيات نقلها إلى الولايات التي تعاني من عجز فيها يصطدم بعجز في خطوط النقل. كذلك تعاني صناعة البترول الأمريكية من قصور مماثل في تدبير الاستثمار اللازم لرفع كفاءتها. فمعامل التكرير، فضلا عن تقادم الكثير منها، صارت تعمل بكامل طاقتها معظم أيام السنة مما أدى إلى إرهاقها وتوقف الكثير منها توقفا غير مخطط. كذلك الحال بالنسبة لخطوط أنابيب نقل البترول التي تعمل بكامل طاقتها لدرجة تعذر معها نقل البترول المتوفر في الخليج الأمريكي إلى الولايات الواقعة في وسط القارة نتيجة لامتلاء تلك الخطوط.

وسوف نحاول فيما يلي إلقاء الضوء على بعض ما تعانيه الولايات المتحدة من مشاكل في قطاعات الطاقة الأساسية وهي البترول والغاز الطبيعي والكهرباء، وإن كانت القطاعات الثلاثة تشترك في مشاكل رئيسية وهي عدم توفر الاستثمار الكافي لتوسيع إمكانياتها ورفع كفاءتها.

مشاكل قطاع الكهرباء

يبلغ استهلاك الولايات المتحدة نحو ٣,٦ تريليون كيلووات ساعة سنويا، وهو ما يعادل نحو ٦ ملايين ب/ي بترول معادل. وعلى حين كان ذلك الاستهلاك ينمو بمعدل ٣٪ سنويا في المتوسط خلال السنوات العشر الأخيرة، فإن معدل نمو إمكانيات توليد الكهرباء لم يتجاوز ١,٥٪ سنويا في المتوسط مما ألجأ الولايات المتحدة إلى استيراد جانب من احتياجاتها من جارتها كندا. لذلك وأخذا في الاعتبار أن الكثير من محطات توليد الكهرباء في الولايات المتحدة قد تجاوز عمره الافتراضي، فإن ما يعمل منها يشغل بما يتجاوز الأحمال المقبولة فنيا، وهو ما يؤدي إلى توقف غير مخطط وبالتالي توزيع انقطاع الكهرباء بالدور على مختلف الأحياء مما يعرف اصطلاحا ب Rolling black-out. ذلك لأن الكهرباء على خلاف البترول لا يمكن تخزينها في وقت انخفاض الطلب لكي تستخدم في أوقات ارتفاع الطلب. ومن هنا ينبغي الاحتفاظ بوحدات لتوليد الكهرباء تكفي لمواجهة حمل الذروة الذي يتمثل في أعلى مستوى يبلغه الاستهلاك الكهربائي في أية لحظة ليلا أو نهارا طوال العام. وفي الولايات المتحدة تقع تلك اللحظة في العادة خلال أشهر الصيف نتيجة لكثافة استخدام أجهزة تكييف الهواء. ففي العام الماضي بلغ التفاوت في الذروة الشهرية للطلب على الكهرباء نحو ٣٠٪ إذ بلغت تلك الذروة ٢٤٥ مليار كيلووات ساعة في أبريل بينما ارتفعت إلى ٣٣٠ مليار كيلووات ساعة خلال أغسطس. ومعنى ذلك أنه يلزم لمواجهة تلك الفجوة إقامة محطات لتوليد الكهرباء تبلغ طاقتها نحو ٧٠ مليار وات Gigawatt أو ما يعادل ١٠٪ من إجمالي القدرة المركبة في الولايات المتحدة. ومع أن بعض المناطق تحتفظ بوحدات لتوليد الكهرباء تزيد على احتياجاتها إلا أن وجود اختناقات في شبكة نقل الكهرباء يعوق نقل الفائض إلى ولايات مجاورة تعاني من انقطاع التيار في أوقات الذروة. ومن أمثلة ذلك عدم إمكانية نقل فائض الكهرباء من شرق كندا إلى ولاية نيويورك التي اضطرت إلى الاعتماد على إمكانياتها المحلية لمواجهة نحو ٨٠٪ من احتياجاتها بدلا من الربط الكهربائي مع مناطق الفائض. وقد فتح الترخيص بتجارة الجملة في التيار الكهربائي المجال لنقل الفوائض عبر مسافات طويلة بين الولايات والمدن بحيث ارتفع حجم تلك التجارة من لا شيء تقريبا عام ١٩٩٤ إلى نحو ٨٠٠ مليار كيلووات ساعة عام ١٩٩٩. وإذ تقدر الاحتياجات الجديدة من الخطوط اللازمة لمواجهة الطلب المتزايد على الكهرباء في الولايات المتحدة على مدى السنوات العشر القادمة بنحو ٣٠ ألف ميل، إلا أن ما تم التخطيط لإقامته بالفعل لا يتجاوز ربع تلك المسافة. كذلك تعاني الشبكة القومية لخطوط الكهرباء من انقسامها إلى ثلاث شبكات إقليمية كبرى وهي الشرق والغرب والجنوب. ومع أن شبكتي الشرق والغرب ترتبطان كل على حدة بالشبكة الكندية كما ترتبط الشبكة الجنوبية بالمكسيك، إلا أنه لا يوجد من خطوط الضغط العالي ما يربط بين الشبكات الأمريكية الثلاث، وهذا ما يضعف قدرتها على تبادل الفوائض وتغطية العجز فيما بينها. ويرجع هذا الانقسام إلى أن شبكات الكهرباء بدأت تاريخيا على أسس محلية بحيث تخدم كل شبكة احتياجات الولاية أو المدينة التي أنفقت على إقامتها. أما الآن، وإدراكا لأهمية الربط بين مناطق الفائض ومناطق العجز فإن السياسة القومية للطاقة National Energy Policy تستهدف إخضاع إقامة خطوط الضغط العالي لإشراف الحكومة الفدرالية.

وتعتمد الولايات المتحدة في الوقت الحاضر على الفحم لتوليد ما يقرب من نصف احتياجاتها من الكهرباء (ومع ذلك ترفض الانضمام لبروتوكول كيوتو الذي يستهدف تحجيم المبتعثات الكربونية الملوثة وتلقي اللوم على الصين والهند لكثافة استخدامهما للفحم كما تطالبهما بالتزامات كيوتو رغم أنهما معفيان منها باعتبارهما دولتين ناميتين).

مشاكل الغاز الطبيعي

بلغ استهلاك الولايات المتحدة من الغاز الطبيعي عام ٢٠٠٠ نحو ٦٤٠ مليار متر مكعب bcm بينما لم يتجاوز إنتاجها المحلي منه نحو ٥٤٧ bcm. وبذلك بلغ صافي وارداتها من الغاز الطبيعي في العام المذكور نحو ٩٦ bcm عبرت كلها تقريبا حدود كندا التي تتمتع باحتياطات تبلغ نحو ١٨٠٠ bcm يمكن استخلاصها بتكلفة تقل عن نظيرتها في الولايات المتحدة. وقد ظلت فجوة الاستيراد في الولايات المتحدة تتسع بحيث ارتفعت خلال الفترة ١٩٨٠-٢٠٠٠ من نحو ٨,٥ bcm إلى ٩٦ bcm. كما يتوقع أن تستمر في الاتساع خلال المستقبل المنظور. فوفقا للدراسات المتاحة، ونظرا لما يتمتع به الغاز الطبيعي من مزايا بيئية وكفاءة في توليد الكهرباء وغيرها من الاستخدامات، يتوقع أن يبلغ استهلاك الولايات المتحدة بحلول عام ٢٠٢٠ نحو



٩٨٠ bcm وهو ما يزيد بنحو ٥٠٪ فوق استهلاكها الحالى، بينما لا يتوقع أن يتجاوز إنتاجها المحلى منه نحو ٨٠٠ bcm وبذلك تتسع فجوة الاستيراد إلى نحو ١٨٠ bcm أو ما يقرب من مثلى حجمها الحالى.

ويتوقع أن يتجه نحو ثلثى الزيادة المتوقعة فى استهلاك الغاز الطبيعى خلال الفترة المذكورة إلى قطاع الكهرباء بحيث يرتفع نصيب الغاز فى توليد الكهرباء خلال الفترة ٢٠٠٠-٢٠٢٠ من نحو ١٨٠ bcm إلى نحو ٣٠٠ bcm . ويرجع هذا النمو السريع فى التوليد باستخدام الغاز الطبيعى إلى ما يتمتع به الغاز من صفات بيئية حميدة، وأيضا نتيجة للثورة التكنولوجية التى طورت نظام الدورة المركبة المعتمدة على الغاز وارتفعت بفضلها كفاءة التوليد بنحو ٥٠٪ منذ عام ١٩٩٠.



ومع أن السياسة القومية للطاقة تستهدف، فى الأجل البعيد، تنشيط الاعتماد على الطاقة النووية والتوليد باستخدام الفحم بعد تنقيته من المبتعثات الملوثة، إلا أن معارضة أنصار البيئة سوف تشتد صلابة، وهو ما ينطوى على مساندة قوية لاستخدام الغاز الطبيعى كبديل آمن وأنظف بيئيا. والواقع أن الغاز الطبيعى سوف يحتاج لمثل هذه المساندة، إذ تتأثر تنمية حقوله وحجم إنتاجه بمستوى السعر السائد فى الأسواق. وعلى سبيل المثال فقد ظل سعره عند رأس البئر فى الولايات المتحدة يتراوح بين ١,٥-٢ دولار لكل مليون وحدة حرارية بريطانية منذ عام ١٩٨٦ ومن ثم لم يتجاوز عدد الآبار التى تم استكمالها نحو ٩٠٠٠ بئر سنويا فى المتوسط. فلما قفز السعر عام ٢٠٠٠ إلى نحو ٣,٦٠ دولار قفز معه عدد الآبار التى استكملت فى العام المذكور من نحو ١٠ إلى ١٥ ألف بئر. ولا تقتصر تلك الحالة على الولايات المتحدة وحدها، بل ينبغى أن يرتفع سعر الغاز الطبيعى فى أسواق تصديره فى المناطق الأخرى بحيث يضمن تحقيق ربح يناظر على الأقل ما يحققه إنتاج وتصدير البترول والذى تتخذ أسعاره فى العادة مؤشرا لأسعار الغاز ولكن الأرباح الصافية للغاز تقل كثيرا عنها فى حالة البترول نتيجة لعوامل فنية واقتصادية لا مجال لشرحها.

وفى الوقت الحاضر، يعانى قطاع الغاز الطبيعى فى الولايات المتحدة من التقلب الشديد فى مستوى الاستهلاك تبعا لاختلاف فصول العام، إذ يستخدم جانبا كبيرا منه فى القطاع المنزلى وبصفة خاصة فى التدفئة المنزلية. ومن ذلك أن استهلاك الغاز الذى بلغت ذروته فى هذا القطاع خلال يناير من العام الماضى عند ٢٦ bcm لم يتجاوز ٣,٤ bcm خلال شهر يوليو من العام المذكور. ومن هنا يلزم لمواجهة أوقات الذروة الاحتفاظ بمخزون كاف وذلك بالإضافة إلى تشغيل الحقول بمعدلات مرتفعة. وفى العام الماضى تزامنت موجة قارسة البرودة مع تشغيل خطوط نقل الغاز من حقوله إلى مراكز استهلاكه بكامل طاقتها فى دفع أسعار الغاز إلى مستويات عالية. وهذا ما تسبب أيضا فى تقاعس تجار الغاز عن الاحتفاظ بمخزون كاف لارتفاع السعر، مما أدى بدوره إلى تصعيد السعر للمستهلك النهائى وارتفاع الشكوى حول وجود أزمة للطاقة فى الولايات المتحدة.

هل ينتقل إلى دول أوبك جانب من أعباء الأزمة الأمريكية؟

شرحنا فيما تقدم عينة من المشاكل الناتجة عن قصور البنية الأساسية لقطاع الطاقة فى الولايات المتحدة. ومن الواضح أن تلك المشاكل ترجع إلى عوامل داخلية وليست راجعة إلى الدول التى تستورد منها الولايات المتحدة احتياجاتها من الطاقة كما تدعى الأصوات المنادية بإخضاع دول أوبك للقضاء الأمريكى بحجة مخالفتها لقوانين مكافحة الاحتكار.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : ما الذى يمكن أن ينعكس من تلك الأزمة على الدول المصدرة للبترول وبالأخص الدول العربية عموما ودول الخليج بصفة خاصة؟

يخضع العرض العالمى للبترول الخام لعدد من المحددات يأتى فى مقدمتها الطلب على البترول وسعره. كذلك يتحدد العرض بالإمكانيات الإنتاجية المتاحة فى الحقول فى وقت معين. وليس معنى توافر احتياطات بترولية كبيرة أن يصبح من السهل زيادة الإنتاج فور ارتفاع الطلب، إذ يلزم تنمية الحقول المكتشفة وتزويدها بالوسائل القادرة على استخلاص البترول من باطن الأرض ومعالجته وتخزينه وضخه حتى سطح الناقلة أو موقع المصفاة. وحتى إذا توفرت الامكانيات الإنتاجية فإن معدل الإنتاج لا يصح أن يتجاوز المستوى الذى تحدده الاعتبارات الفنية، وهو ما يعرف بالحد الأعلى لمعدل الإنتاج الرشيد Maximum efficient rate (MER) . ومن شأن المبالغة فى الإنتاج فوق هذا المستوى الإضرار بالخزان الأرضى والتأثير سلبيا على حجم ما يمكن استخلاصه من البترول على مدى عمر الحقل وهو ما يعرف بمعامل الاستخلاص Recovery Factor . كذلك يتحدد العرض بسياسة الدولة المنتجة للبترول ومدى حاجتها إلى البترول لمواجهة استهلاكها المحلى، أو لتصديره تحقيقا لمورد نقدى يلبى احتياجاتها المالية، أو للاحتفاظ به لمواجهة احتياجات أجيال المستقبل. ويدخل فى هذا الإطار السياسة الجماعية التى تقررها أوبك بالنسبة لتحديد سقف الإنتاج وتوزيع الحصص بين الأعضاء تبعا لمستوى الأسعار السائدة فى الأسواق العالمية.



وفى ظل السيطرة شبه المطلقة لشركات البترول العالمية خلال الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية وحتى مطلع السبعينيات كان حجم الإنتاج يتحدد بما تقرره تلك الشركات استجابة للطلب العالمى المتسارع بقصد إعادة بناء اقتصادات الدول الصناعية التى دمرتها الحرب. وكانت احتياطات الشرق الأوسط جاهزة، خاصة بعد أن تدنت أسعار البترول خلال تلك الفترة فى صورتها الحقيقية إلى نحو ٧٠ سنتا للبرميل بدولارات عام ١٩٤٧، ومن ثم ارتفع إنتاج البترول العربى من نحو مليون ب/ى عام ١٩٥٠ إلى نحو ٢٢,٥ مليون ب/ى عام ١٩٧٩ وهو عام الذروة. ومن هنا يمكن اعتبار البترول العربى شريكا فعليا فى النهضة الصناعية التى تحققت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية.

فهل تتكرر التجربة مرة أخرى خلال المستقبل المنظور بحيث تمارس المجموعة الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة الضغط على الدول المصدرة للبترول لضخ احتياجاتها من البترول مع الإبقاء على أسعاره عند مستوى منخفض مساندة لاقتصادات الدول الصناعية؟

تستهدف توجهات الهيئات البحثية الغربية أن تقوم أوبك بدور المنتج المكمل Residual producer، بمعنى توسيع طاقتها الإنتاجية، وخاصة فى منطقة الخليج العربى، بحيث تقوم بسد الفجوة بين الإنتاج خارجها وبين الاحتياجات العالمية المتزايدة من البترول، وبالأسعار التى تلائم مصالح الدول الغربية التى تستورد نحو ثلاثة أرباع الواردات البترولية العالمية.

وكما يتضح من الدراسات المتاحة، يتوقع أن ترتفع الطاقة العالمية لإنتاج البترول من نحو ٧٩ مليون ب/ى عام ١٩٩٨ (مقارنة بإنتاج فعلى ٧٥ مليون ب/ى) إلى نحو ١١٥ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠. ووفقا لتلك التوقعات ينبغى أن ترتفع طاقة أوبك الإنتاجية من نحو ٣٤ مليون ب/ى عام ١٩٩٨ إلى نحو ٥٩ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠ . وبذلك يرتفع نصيب بترول أوبك الموجه لسد احتياجات العالم من نحو ٤٤٪ عام ١٩٩٨ إلى ٥١٪ عام ٢٠٢٠.

وفى داخل أوبك توجد ست دول فقط ممن سيكون لديها القدرة على توسيع وتنمية طاقتها الإنتاجية بحيث ترتفع من نحو ٢٧ مليون ب/ى عام ١٩٩٨ إلى نحو ٥٠ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠ . وهذه الدول الست هى السعودية والإمارات والكويت والعراق وإيران، ثم فنزويلا. أما باقى أعضاء أوبك، فلا يتوقع أن تتجاوز طاقتها الإنتاجية مجتمعة نحو ٩ ملايين ب/ى خلال الفترة ٢٠١٠-٢٠٢٠، وإن تغير نصيب كل دولة فى ذلك المجموع.

وإذا أضيف إلى الدول الأربع العربية داخل مجموعة الستة الكبار من سوف تسعفه احتياطياته من البترول للمساهمة فى الإمدادات العالمية مثل عمان والجزائر وليبيا، فإن إنتاج البترول العربى يمكن أن يرتفع من نحو ٢٠ مليون ب/ى فى الوقت الحاضر إلى نحو ٤٠ مليون ب/ى بحلول ٢٠٢٠ . وبإضافة إنتاج إيران المقدر بنحو ٥,٥ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠، فإن المنطقة العربية، ومعها إيران، يمكن أن تمد العالم بنحو ٤٠٪ من احتياجاته، أو ما يعادل ٦٠٪ من الصادرات البترولية العالمية خلال العام المذكور.

هذه هى توجهات أغلب الهيئات البحثية الغربية والتى تفترض أن أوبك سوف تلعب دور المنتج المكمل، وأن إمكانياتها البترولية سوف تتسع لكى تفى باحتياجات العالم المتزايدة عند الأسعار المتدنية التى تبنتها افتراضات تلك الهيئات.

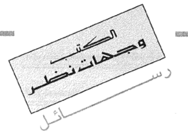
غير أن وكالة الطاقة الدولية IEA التى تضم وتخدم مصالح الدول الصناعية الغربية، تتبنى توجها مختلفا، وهو فى نظرنا الأقرب للواقع. إذ تفرق الوكالة بين ما تطلق عليه البترول التقليدى والبترول غير التقليدى Unconventional Oil. وتتوقع الوكالة أن يبلغ إنتاج البترول التقليدى ذروته فى منتصف العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين (أى حوالى ٢٠١٥) ليبدأ بعد ذلك مرحلة النضوب الطبيعى تدريجيا. وتصنف الوكالة تحت تعريف البترول غير التقليدى ما يمكن تقديره فى الوقت الحاضر مثل السوائل التى تستخلص من الغاز الطبيعى بغير الطرق الصناعية المعقدة NGLs ومثل فوائض التكرير Processing gains والبترول المستخلص من الطفل البترولى Oil shale ومن رمال القار Tar sands ومن الفحم والكتلة الحيوية..إلخ، وتتوقع الوكالة أن يرتفع إنتاج البترول غير التقليدى، والذى يمكن تقديره فى ضوء الظروف السائدة فى الوقت الحاضر، من نحو ٩,٣ مليون ب/ى عام ١٩٩٦ إلى نحو ٢٠ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠.

فى ضوء هذا التعريف يبلغ إجمالى العرض العالمى من البترول بنوعيه نحو ٧٢ مليون ب/ى عام ١٩٩٦، موزعا بين ٦٢,٧ مليون ب/ى بترولا تقليديا، ونحو ٩,٣ مليون ب/ى بترولا غير تقليدى.

أما ما يحتاجه العالم لكى يفى باحتياجاته البترولية عام ٢٠٢٠ فتقدره وكالة الطاقة الدولية بنحو ١١١ مليون ب/ى يفى البترول التقليدى منه بنحو ٧٢ مليون ب/ى، كما يفى البترول غير التقليدى، والمعروفة مصادره حاليا، بنحو ٢٠ مليون ب/ى، ويبقى بعد ذلك نحو ١٩ مليون ب/ى وهو ما ينبغى توفيره من مصادر غير تقليدية وغير معلومة فى الوقت الحاضر Unidentified unconventional oil.

وإذ يتركز اهتمام الهيئات البحثية الغربية بمصالح الدول الصناعية الغربية، فإنها تتوقع أن يرتفع استهلاكها البترولى بحلول عام ٢٠٢٠ إلى نحو ٥٥ مليون ب/ى، وأن تبلغ فجوة العجز فى ذلك الاستهلاك نحو ٣١ مليون ب/ى (منها نحو ١٦,٥ مليون ب/ى فى الولايات المتحدة). وإذ ترى تلك الهيئات أيضا أن المجموعة الصناعية الغربية سوف تعتمد على دول أوبك الواقعة فى منطقة الشرق الأوسط لتوفير نحو ٧٦٪ من وارداتها البترولية بحلول ٢٠٢٠، وأن المنافسة قد تحتدم للحصول على البترول من جانب الدول النامية، فإنها تدعو الدول الصناعية الغربية لاتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة مثل هذا الموقف.

ولا يبقى بعد ذلك إلا أن تستعد الدول المصدرة للبترول، وبصفة خاصة دول الخليج العربى ومعها باقى الدول العربية، لكى تقاوم الضغط الذى قد تمارسه عليها المجموعة الصناعية الغربية بقيادة الولايات المتحدة، سواء بقصد تحميل حقولها ما لا تحتمله من الإنتاج فوق طاقتها مما ينطوى على الإضرار بمعامل الاستخلاص، أو بقصد الإبقاء على أسعار البترول عند مستويات منخفضة خدمة للاقتصادات الغربية التى تستوعب ثلاثة أرباع الواردات البترولية العالمية. ■



من الغلاف إلى الغلاف

قرأت (من الغلاف إلى الغلاف) عدد الشهر الماضي من مجلة وجهات نظر. وأود أن أهنئكم بالتوفيق الذي يحالفكم دائمًا في الإشراف على إصدار هذه المجلة الراقية. وهو جهد كبير أعرف قدره، وأعهد فيكم الموهبة والكفاءة والقدرة على القيام به.

مقال هيكل رائع جدًا، عميق وشامل ودقيق ومفيد للغاية. كذلك مقال (الصياد) بالغ الأهمية ويحتوى على معلومات قيمة. أعانكم الله.

مع أطيب التحيات ووافر الاحترام والتقدير.

عبد القادر الإدريسي
المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة
الربـاط



أفضل مقال

أعتبر نفسي أحد القراء «العاشقين» لمجلة «وجهات نظر» منذ صدور عددها الأول في فبراير ١٩٩٩، وحتى الآن ودائمًا ما تحظى المقالات المنشورة فيها بإعجابي الشديد.

وقد قرأت في عدد أكتوبر الماضي من المجلة مقال الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل بعنوان «حريق أمريكي وعالمي» الذي أعتقد أنه أفضل مقال على الإطلاق تناول ما حدث في ١١ سبتمبر الماضي في واشنطن ونيويورك والملابسات المحيطة بذلك. وقد أبدى عديد من معارفي الأجانب إعجابهم بالمقال بعد أن أبلغتهم بمحتوياته. وأتساءل هل أطمع في ترجمة إنجليزية لهذا المقال القيم؟

عمرو السالم
القاهرة



السفارة البريطانية وعبد الناصر

باعتباري قارئًا مستديمًا لمجلتكم الرائدة التي تخاطب قطاعًا من صفوة المثقفين ويهمني كما يهم باقي القراء الحفاظ على المستوى المتميز لما ينشر بها، أرجو استرعاء النظر إلى الأخطاء الآتية والتي جاءت في مقال السيد/ خالد الحروب عن «دور السفارة البريطانية في زعزعة نظام عبدالناصر» والمنشور بالعدد ٣٣ الصادر في أكتوبر الماضي:

أولاً: جاء بالفقرة الأخيرة من صفحة ٥٠ «وقد استطاع إيدن إقناع روزفلت أيزنهاور الرئيس الأمريكي. وصحة الاسم كما تعلمون هو دوايت أيزنهاور.

ثانياً: جاء بالفقرة الأخيرة من العمود الثالث بصفحة ٥٢ «يروى دونالد لوجان أنه غادر لندن صبيحة يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ برفقة.....» ولا يمكن أن يكون هذا التاريخ صحيحاً لأن الاعتداء الثلاثي قد بدأ في ٢٨/١٠/١٩٥٦ وأن اتفاق سيفر لابد أن يكون قد تم في وقت سابق.

ثالثاً: جاء في الفقرة الأولى في نهاية العمود الأول من صفحة ٥٣ «لكنه كان مضطراً لأن ينفذ تعليمات مرؤوسيه في الخارجية في لندن، وأعتقد أن المقصود هو رؤسائه وليس مرؤوسيه.

رابعاً: الجملة الأخيرة من العمود الرابع بصفحة ٥٣ «مستشاراً سياسياً لقائد قوات الحلفاء» تكرر ورودها في أول العمود الأول من صفحة ٥٤.

إنني على قدر سروري لصدور هذه المجلة التي ملأت فراغاً ثقافياً في وقت راجت فيه الصحف والمجلات الصفراء، يجيء حرصي على دقة المعلومات والبيانات التي تنشر بها.

علي دبوس
عضو مجلس الإدارة المنتدب
المصرف العربي الدولي

بين ثقافة المقاومة وأزمة السويس

لدى ملاحظات على بعض أخطاء تاريخية وردت في مقالين في عدد أكتوبر ٢٠٠١ من المجلة، أوجزها فيما يلي:-

- المقال الأول هو: «ثقافة المقاومة» للدكتور حسن حنفي:

* أشار الكاتب إلى «قوانين يوليو الاشتراكية ١٩٦٢-١٩٦٣»، والواقع أن أول هذه القوانين (أو على الأصح القرارات) صدر في يوليو ١٩٦١.
* ذكر أن الثورة اليمنية قامت في ١٩٦٤، وهذا خطأ، فثورة اليمن قامت في ١٩٦٢، وبالتحديد في ٢٦ سبتمبر من العام المذكور.
* مؤتمر باندونج عقد في ١٩٥٥ وليس ١٩٠٥ كما ورد بالمقال (وأعتقد أن هذا خطأ مطبعي).
* أشار إلى «حرب الاستنزاف ١٩٦٩-١٩٧٠»، والواقع أن حرب الاستنزاف بدأت بعد فترة قصيرة من وقوع النكسة في ١٩٦٧ أو في أوائل ١٩٦٨ على أقصى تقدير.
* أشار الكاتب إلى «قرارات سبتمبر ١٩٨٠ والتي أدت إلى تصفية رأس النظام في أكتوبر ١٩٨٠» على حد قوله - والسنة التي يقصدها الكاتب هنا هي ١٩٨١ وليست ١٩٨٠.

- المقال الثاني بعنوان: «دور السفارة البريطانية في زعزعة نظام عبد الناصر» للأستاذ خالد الحروب:

* ذكر الكاتب أن الرئيس عبد الناصر أعلن تأميم «شركة» قناة السويس في ٢٦ يونيه «حزيران» ١٩٥٦، وهذا خطأ طبعًا، والتاريخ الصحيح هو ٢٦ يوليو «تموز» ١٩٥٦.
* أشار إلى السفير البريطاني في تلك الفترة مرة على أنه «مايكل تريفلين»، ومرة أخرى على أنه «همفرى تريفليان»، والاسم الأخير هو الصحيح. وبالمناسبة كانت الصحف تكتب اسمه هكذا: تريفليان (Tre-velyan).
* يقول الكاتب: «استطاع إيدن إقناع روزفلت أيزنهاور الرئيس الأمريكي..»، وهذا خطأ آخر، فالرئيس المقصود كان اسمه دوايت أيزنهاور.
* أشار الكاتب إلى موشيه ديان على أنه وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك، وفي موضع آخر من المقال يقول إنه كان رئيس الأركان الإسرائيلي. وديان كان بالفعل رئيس الأركان في ١٩٥٦، كما كان وزير الدفاع أثناء حرب ١٩٦٧.
* وزير الخارجية الفرنسي في تلك الحقبة كان اسمه «كريستيان بينو» (Pineau) وليس «بينيو»، كما جاء بالمقال.
* يشير الكاتب إلى «غزو الاتحاد السوفيتي لتشيكوسلوفاكيا في أوج أيام حرب السويس..»، وهذا خطأ، فالدولة التي كان المفروض أن يذكرها الكاتب هنا هي المجر وليس تشيكوسلوفاكيا، وشكرًا.

د. شعبان عبد العزيز عفيفي
كلية الدراسات التجارية - الكويت

التجربة الإيرانية

طالعت بشغف واهتمام مقال «إيران.. من الرصاصة إلى صندوق الانتخابات» بمجلتكم «وجهات نظر» للدكتور محمد الرميحي، في عدد شهر سبتمبر الماضي، حيث برهن من جديد على النظرة الثاقبة للكاتب وسعة الأفق والفهم المعمّق الذي يمتاز به قلمه من خلال إسهامه وإثرائه للفكر العربي المعاصر مدعمًا بمنهجية ثقافية رائدة وصفاء ورقة تكتنز العِبَر وتختزن الفكر.

إن قراءة كل حرف من المقال تساهم في استجلاء الغامض والإفصاح عنه بشفافية تنتشل الحقيقة من بئرها العميقة كي تغدو نبعًا مشاعًا.

ولقد أرسلنا نسخة من المقال إلى إيران لتطلع عليه النخب الفكرية والأدبية.

علي جنتي
سفير الجمهورية الإسلامية
الإيرانية في الكويت

الطريق الصحيح للنهضة

في البداية أحب أن أوجه شكري الخاص للأستاذ الفاضل محمد حسنين هيكل الذي يمتعنا بمقالاته التي نستكشف بها الواقع ونستشف بها المستقبل، كما أوجه الشكر لكل العاملين على إخراج وردة القراء «وجهات نظر».

لقد قرأت بشغف مقال الأستاذ: سلامة أحمد سلامة (ليس بالمال وحده ينهض الفكر العربي) ولي تعليق على المقال لأن الموضوع يحتل اهتمام كل عربي. الكل يتفق على أن النقطة الفاصلة في عملية النهضة العربية هي الديمقراطية وليست بالطبع الديمقراطية الشكلية ولا ديمقراطية النباح، ولكن ديمقراطية التغيير وتداول السلطة. فقد تتصور بعض الأنظمة أنها تمنح شعوبها الديمقراطية عن طريق النقد على صفحات الصحف ولكن ذلك لا يعدو كونه ديكورًا زائفًا لمولد أسيادى من رعاة الديمقراطية المعهودة في وطننا العربي الشقي.

نحن في حاجة إلى ديمقراطية تحترم حقوق الإنسان، حقه في الحياة، حقه في التعبير عن رأيه بأي صورة كانت سواء كان بالإضراب أو الاجتماع أو الكتابة والنشر.

وحين تتوافر الديمقراطية بشقيها السياسي والاجتماعي «العدالة الاجتماعية» نستطيع أن نتخلص من عيون المجتمع العربي وخاصة ونحن نعاني من عدة مشكلات أهمها:

١- الأمية الأبجدية والثقافية: حيث تعاني من ارتفاع نسبة الأمية الأبجدية، فمصر على سبيل المثال بها ٤٩٪ غير متعلمين ناهيك عن الأمية الثقافية بين المتعلمين أنفسهم.

٢- تنامي الفكر الرجعي - الذي تتبناه تيارات متعصبة باسم الدين وزادت تلك المشكلة حين اعتمدت السلطة في بداية السبعينيات عليها للقضاء على تيار اليسار وكافة العقول المستنيرة من مختلف التيارات وتجلت خطورة تلك التيارات بهجومها على نجيب محفوظ، واغتيال فرج فودة، وإقامة دعاوى الحسبة، والتفريق بين الأزواج، وآخرها كانت قضية د. نوال السعداوى وشريف حتاتة، وقبلهما كانت قضية د. نصر أبوزيد ود/ إبتهال يونس، وغيرها من حملات التكفير والتشهير ضد كل مفكر تجاسر بعرض فكره.

٣- التخلف العلمي والتكنولوجي

المشكلة الثالثة والتي تحتاج منا جهود عملاقة، عملية البحث العلمي وضع التكنولوجيا لا استيرادها، فإذا أخذنا على سبيل المثال مصر تجد أن ميزانية البحث العلمي فيها أقل من ٢٪ وفي المقابل ميزانية إسرائيل في نفس المجال ٣٪ من الدخل القومي، والمؤسف أن ٨٠٪ من ميزانية البحث العلمي بمصر مخصص للمرتبات والبدلات رغم وجود ثروة بشرية هائلة في مصر.

فهل سنحقق نهضتنا المرجوة بالحرية والعدالة والتكنولوجيا أم سنبقى على منطق الطبلة والربابة؟!

عصام شعبان حسن تريك
كلية الخدمة الاجتماعية - الفرقة الثالثة
جامعة أسيوط

عــــــــروض مــــوجــــزة

كتب عربية

المرأة الكويتية والمشاركة السياسية

محمد منيف محمد العجمي

بيروت: دار الجديد، ٢٠٠١، ٢١٥ صفحة



أصل الكتاب دراسة أكاديمية حصل بها صاحبها على درجة الماجستير في العلوم السياسية، ولذا فهو يبدأ بباب نظري يدرس مفهوم المشاركة الشعبية والمشاركة السياسية ودوافعها وأشكالها ومعوقاتها، ثم يدرس في فصل تال مكانة المرأة عبر العصور وموقف الإسلام من المشاركة السياسية، ثم يقدم نماذج تطبيقية للمشاركة السياسية للمرأة في مصر واليمن ولبنان والمغرب، وفيما يتصل بالكويت يشير المؤلف إلى أن أول وجود حقيقي للديمقراطية فيها كان في أبريل ١٩٢١ حين تشكل أول مجلس للشورى وضم ١٢ شخصًا، لكن هذه التجربة لم يكتب لها الاستمرار، وبعد سنوات قليلة تم انتخاب مجلس لبلدية الكويت عام ١٩٣٤، ثم مجلس للمعارف عام ١٩٣٦، وتم حل المجلسين عام ١٩٣٧، وفي عام ١٩٣٨ تم انتخاب مجلس تشريعي استمر عامًا ونصفا ثم تم حله ليتشكل مجلس للشورى من ٤١ عضوًا. وفي عام ١٩٦١ وضع الدستور الكويتي في عهد الشيخ عبد الله السالم الصباح جاء في المادة السادسة منه أن نظام الحكم في الكويت ديمقراطي وأن السيادة للأمة التي هي مصدر السلطات جميعًا، وفي عام ١٩٦٣ تمت انتخابات أول مجلس للأمة في تاريخ الكويت، ثم كان ثاني مجلس عام ١٩٦٧، والثالث عام ١٩٧١، والرابع عام ١٩٧٥، واستمرت المسيرة الديمقراطية الكويتية التي شهدت عديدًا من الأزمات الدستورية، وشهدت الحياة السياسية الكويتية مناقشات مستمرة حول دور المرأة في المشاركة السياسية وأهمية هذه المشاركة، وكانت هناك عدة اتجاهات: اتجاه إسلامي مناوئ لحق المرأة في الانتخابات والتشريع واتجاه وسط يدعو إلى تلافي الصدامات وتأجيل مناقشة المسألة، واتجاه متردد تراوح بين التأييد والرفض والشرعية وعدم الشرعية، واتجاه مؤيد مضاد للاتجاه الإسلامي، وكانت أول مناقشة داخل مجلس الأمة للحقوق السياسية للمرأة في الفصل التشريعي الثالث من عام ١٩٧٣.

ويرصد المؤلف من دراسات سابقة معوقات مشاركة المرأة الكويتية في الحياة السياسية، وهي: معوقات تتصل بنقص الوعي لدى المرأة الكويتية والحركة النسائية هناك، ومعوقات اجتماعية تتصل بطبيعة المجتمع الكويتي التي تغلب عليها القبلية والتقليدية والتدين، ومعوقات قانونية حيث لا يجيز القانون الكويتي للمرأة حق الانتخاب والتشريع.

وعبر دراسة ميدانية وتطبيقية على عينات مختارة ينتهي الباحث إلى ضرورة أن تأخذ المرأة الكويتية حقها كمواطن في التصويت في الانتخابات البرلمانية والبلدية، وتعزيز دور المرأة في الجمعيات الأهلية والنقابات المهنية مما سيكون له أثره في تهيئة المناخ الاجتماعي لقبول فكرة إشراك المرأة في الحياة السياسية. ويوحي الباحث بضرورة أن تسلط أجهزة الإعلام الأضواء على قضايا المرأة، وأن تتضمن مناهج التربية موضوعات تساهم في تنمية الوعي السياسي لدى النشء.

□ □ □

تاريخ المسرح عبر العصور

مجيد صالح بك

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠١، ٢٨٥ صفحة



يرد البعض بدايات المسرح إلى المصريين القدماء، إلى حوالي ٣٢٠٠ق.م، أي قبل المسرح الإغريقي بوقت طويل، وإن كان آخرون يرون أن هذا الشكل من الدراما التي كانت تقدم في هيئة طقوس بالمعابد تميزت بسذاجة وبساطة لا تؤهلها لأن تندرج ضمن فنون الدراما المسرحية.

المؤلف يرى أن أقدم ما عرفه الغربيون هو المسرحيات اليونانية وكانت موادها الأساطير اليونانية القديمة، كما نجدها في الإلياذة والأوديسة اللتين كانتا المصدر الأول لمعظم الآداب المسرحية في مراحل لاحقة، وإن كان بعض الباحثين لاحظ تشابهًا كبيرًا بين الأوديسة وإحدى قصص الأدب المصري القديم بما يعني أن «هوميروس» تأثر بالأدب الفرعوني.

ومثل الفراعنة، فإن العروض المسرحية اليونانية ظلت حبيسة بين جدران المعابد وكان هدفها التقرب للآلهة بعرض الأساطير الدينية، ولم توجد صور واضحة للتطور الدرامي إلا مع الخطوات الجسورة التي بدأها إيسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس الذين عنوا بالتراجيديا حتى جاء «أريستوفانس» حوالي عام ٤٤٥ ق.م، وبدأ كوميدياته الساخرة التي وصلت إلى نحو ٤٤ مسرحية عالج فيها شتى الموضوعات بالملهاة، وقد قلده كثيرون ممن جاءوا بعده في المسرح الروماني.

ويشير المؤلف بعد ذلك إلى المسرح الغربي في العصر الوسيط وتأثره بانتشار المسيحية التي حرَّم معتنقوها في البداية فن المسرح واعتبروه من التقاليد الوثنية وأنه يفسد الشباب ويؤدي إلى انحلال أخلاقهم مما أدى إلى تدهور فن المسرح، لكن المسرح شهد تطورًا سريعًا اضطلع به القساوسة الذين بدأوا يقربون المعتقدات المسيحية للناس عبر دراما دينية سرعان ما تضافرت معها مشاهد لا دينية ليصبح المسرح نصف ديني ولينتشر في أوروبا جميعًا، ولم يعد الممثلون من رجال الدين وخدام الكنيسة، بل صاروا ممثلين محترفين، واستمرت المسرحية الأخلاقية حتى القرن السابع عشر حين بدأ الناس يملون النصائح والمواعظ ويطلبون معالجات لمشكلات حياتهم، وتطور المسرح تدريجيًا في هذا الاتجاه حتى ظهر شكسبير في النصف الثاني من القرن السادس عشر ليشهد المسرح نهضته العظيمة على يديه ويستمر تطوره بظهور هنريك إبسن واليوت وتشيكوف وسينج وبيرانديللو وبرنارد شو وغيرهم.

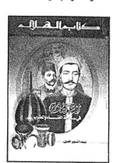
وبعد استعراضه للمسرح وتطوره في العالم، يقدم لنا المؤلف دراسة نقدية وتاريخية للمسرح المصري ورواده واتجاهاته، عارضًا لإنجازات مارون نقاش ويعقوب صنوع وسليم نقاش ويوسف خياط وسليمان قرداحي وعثمان جلال وأبو خليل القباني وإسكندر فرح وسلامة حجازي وجورج أبيض وفرح أنطون ومحمد تيمور وغيرهم، ويعرض لنماذج من الأعمال التي قدمها هؤلاء واضعًا إياها تحت منظار النقد سواء في التيار الدرامي أو الشخصيات أو لغة الحوار أو فنون الحركة والأداء، حتى وصلنا إلى الطور الثاني من تطور المسرح المصري والذي تبرز فيه أسماء مثل توفيق الحكيم ويوسف وهبي وعلي أحمد باكثير وترجمات طه حسين وخليل مطران والمسرح الشعري عند أمير الشعراء أحمد شوقي ثم مسرح محمود تيمور وعزيز أباظة ثم مرحلة تالية شهدت أعمال عبدالرحمن الشرقاوي وصلاح عبد الصبور وسعد الدين وهبة، وإن كان فات المؤلف في دراسته القيمة أن يعرج على أعمال محمود دياب وميخائيل رومان ويوسف إدريس وعلي سالم، وهم أيضًا من العلامات المهمة في مسيرة المسرح المصري المعاصر.

□ □ □

المعممون في ساحة الغناء والطرب

عبدالنور خليل

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١، ٢٩٥ صفحة



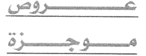
المعممون الذين يدور حولهم موضوع الكتاب، هم المطربون الذين درسوا في الأزهر الشريف أو تتلمذوا على مشايخه وعلمائه الأفاضل، وكانت دراستهم وتخطيطهم لمستقبلهم يشير إلى أنهم سيعتلون منابر الوعظ والخطابة في ساحات المساجد، أو حلقات الإنشاد وقراءة القرآن الكريم في الموالد والمناسبات الدينية، فإذا بهم يصيرون نجوماً في ساحات الغناء والطرب.

المؤلف يتناول حياة هؤلاء وتأثيرهم في مجال الموسيقى والغناء، بدءاً بـ«أمير الغناء المصري» عبده الحامولي وانتهاءً بالموسيقار الراحل الشيخ سيد مكاوي.. مروراً بسيد درويش وسلامة حجازي والقصبجي وزكريا أحمد وحامد مرسي وصالح عبدالحي.

لا يفوت المؤلف وهو يتناول سيرة عبده الحامولي الذي ساد ساحة الغناء والطرب طيلة النصف الأخير من القرن التاسع عشر وتجديده لفن «الدور»، أن يشير إلى العلاقة التي جمعته بالمطربة «ألمظ» أو سكينة سليم، وكانت أشهر قصص الحب في تلك الآونة وقد ظهرت على الشاشة الفضية في فيلم خالد.

أما الشيخ سلامة حجازي فقد بدأ منشداً في المناسبات الدينية وحلقات الذكر في ليالي الإسكندرية، وصدح صوته البديع من فوق مئذنة جامع الأباصيري والمرسي أبوالعباس. ثم انتقل إلى الغناء في الأفراح وبين فصول الروايات التي عرضتها فرقة يوسف خياط بالإسكندرية، وحين عرض عليه خياط أن ينضم إلى الفرقة رفض معتبراً «أن التشخيص مكروه عند الأئمة ورجال الدين». وتعددت مسارات الشيخ سلامة حتى صار صاحب فرقة ورائداً للمسرح الغنائي المصري.

ومن عباءة الشيخ سلامة حجازي خرج سيد درويش. فنان الشعب وثورة المصريين في عام ١٩١٩، الذي غنى معه بسطاء الناس في الأزقة والحواري، والذي فصله الأزهر لأنه يغني في الأفراح، لكنه بقي يحمل لقب الشيخ حتى بعد أن خلع الجبة والعمامة وارتدى البدلة والطربوش، وبقي الأثر الذي تركه سيد درويش في الموسيقى المصرية خالداً إلى اليوم شاهداً على عبقريته الفذة ورغبته الدائمة في التجديد والابتكار، ورؤيته



للفن وكيف يمكن أن يصوغ وجدان الجماهير ويشاركها أفراحها وأحزانها.

ويستمر المؤلف في سرد السيرة والأثر للسلسلة الذهبية منتهياً بملحن «الليلة الكبيرة» و«يا مسهرني» و«الأرض بتتكلم عربي» الشيخ سيد مكاوي.

□ □ □

الدين والسلام عند كانط

فريال حسن خليفة

القاهرة: مصر العربية للنشر، ٢٠٠١، ١٦٢ صفحة



ما يستحق البحث هو أن نرى كيف يمكن للعقل الإنساني أن يستمر في معرفة الله؟

هذا ما شغل «كانط» في إطار بحثه في علم اللاهوت وتصنيفاته، ويميز «كانط» بين اللاهوت العقلي واللاهوت التاريخي والأول معرفة مؤسسة على العقل، أما الثاني فمعرفة مؤسسة على الوحي، وينحاز بشكل واضح للنوع الأول إذ يرى أن اللاهوت التاريخي - المستند إلى الوحي - يمزق وحدة الجنس البشري في أشكال إيمانية متعارضة.. «ولا يمكن أن تتوحد هذه العقائد التاريخية لأن توحدها معناه أن تنشأ عقيدة تاريخية جديدة تميز ذاتها عن العقائد التاريخية السابقة».

ربما يوحي هذا الذي قاله «كانط» بعدم إيمانه المطلق بالوحي، لكن «كانط» ينفي عن نفسه هذا الاتهام معززًا دفاعه بتصورات نظرية عن الإيمان العقلي، وتشير المؤلفة إلى فروق أساسية بين رؤية كانط ورؤية جان جاك روسو، إذ لم يكن روسو ناقدًا للنقل والتقليد فحسب، بل انتقد الوحي والرسالات التي جوهرها الحقيقي هو الشعور، والشعور طبيعي وفطري عند البشر.. «فالموجود الأسمى (الله) وقانون الطبيعة فطريان في كل قلب».

لهذا يقف روسو موقفًا سلبيًا من كل الأديان السماوية والمعتقدات غير السماوية، رافضًا أي وسائط بين الله والإنسان.

أما «كانط» فيرى في الإيمان التاريخي، إيمان الوحي المسبق، خضوعًا وسلبية، إيمان يرى الوحي والأوامر الإلهية دليلاً للتعامل مع الله وليس الإنسان، فيحول الدين إلى خدمات وعبادات وطقوس وشعائر، وهو إيمان يرتبط بقاؤه بالتقليد والنقل، ويعتمد في ثبوت صدقه على المعجزات والأسرار، وجميعها - حسبما يقول «كانط» - نوافل لا لزوم لها في الدين الأخلاقي.. «لأنه إيمان يقوم على استعداد القلب ليحقق الإنسان كل واجباته الإنسانية نحو البشر بوصفها أوامر إلهية».

والإيمان التاريخي عند «كانط» يغرق البشر في طوفان من الطقوس الجوفاء التي تخلق روح التعصب عند الشعوب بحيث لا تتنفس إلا القتل والمذابح، «وتضع الشعوب في حالة حرب مع جميع الشعوب الأخرى». إذ تسعى كل عقيدة لتوسيع دائرتها الخاصة واجتذاب أتباع جدد إليها وهو ما يسميه «الانفتاح السلبي للعقيدة»، وهو سلبي إذ لا يقوم على الحرية والعقل والاختيار، وإنما يشجع التعصب الذي يغيب العقل. والمؤلفة تشير إلى أحداث معاصرة ألهبت نيرانها روح التعصب الديني والعقائدي مثل الحروب في البوسنة والهرسك والشيشان والحرب الأفغانية والعراق وإيران وشمال السودان وجنوبه والهند وباكستان والصراع بين اليهود والمسلمين.. إلخ.

والإيمان الأخلاقي كما يسميه «كانط» مجرد من دواعي الصراع والحروب لأنه لا يقوم على تعصب لعقيدة بعينها، بل يقوم أساسًا على الإرادة الحرة في الاختيار التي تسعى إلى تحقيق الخير الأقصى الذي يفترض وبشكل مبدئي وجود الله وخلود النفس، والدين الأخلاقي عملي يقدس الله ويحبه، ليس بالاحتفالات والطقوس والشعائر - كما يقول كانط - وإنما بعمل ما يريده نحو إسعاد ذواتنا والبشرية وتحقيق الخير لها، أما البشر فبواعثه مردها أيضًا الإنسان الذي يفتقر إلى الإيمان الأخلاقي الذي تربطه بالعقل علاقة قوية، ولذا فإن السلام الذي يقيمه الدين الأخلاقي بين البشر سلام دائم تسنده أسس أخلاقية.

□ □ □

معجم الأساطير المصرية

إيزابيل فرانكو

ترجمة: ماهر جويجاتي

القاهرة: دار المستقبل العربي، ٢٠٠١، ٣٦٤ صفحة



يشرح هذا المعجم عديداً من الألفاظ والمصطلحات التي يتكرر ذكرها في كل دراسة عن مصر القديمة، فلا يكتفي بذكر المعنى وإنما يضعه في سياقه التاريخي والعقائدي فتتضح الصورة بجلاء، وهو حين يحدثنا مثلاً عن متون الأهرام لا يكتفي بالإشارة إلى أنها أولى الكتابات الدينية التي وصلت إلينا والتي كانت تتلى أثناء مراسم دفن الملك وتعود أصولها إلى أزمنة سحيقة، إنما يشير إلى مضمونها الذي اكتنفه أحياناً بعض الغموض، وهو يشير إجمالاً إلى الأدوار التي تضطلع بها الحجرات التي يمر بها المتوفى، حيث يرتقي الملك من حجرة الدفن إلى الحجرات الجنائزية عبر عديد من الممرات تشمل السرداب أو مملكة أوزيريس حيث يولد من جديد بانتقاله إلى الحجرة التي ترمز إلى الأفق في انتظار لحظات البعث.

أما أوزيريس فقد كان إله الخصوبة ونمو النبات وصار أحد الآلهة الرئيسية في مجمع الآلهة المصرية، وقد تزوج من أخته إيزيس وكانت مصر من نصيبهما، أما الصحراء فكانت لـ«ست» و«نفتيس» مما أثار حسد أخيه «ست» فقتله وقطع جسده ١٤ قطعة ألقى بها في مواضع شتى من النيل، لكن زوجته الوفية إيزيس جمعت أشلاءه ووهبته الحياة من جديد ليهب لها حورس الابن الذي ورث ملك أبيه وحارب لاسترداد عرشه، وهي واحدة من أشهر الأساطير المصرية القديمة، والمعجم لا يكتفي بسرد القصة وإنما يقدم دلالاتها ودوافع المشاركين فيها، وارتباطها بالمعتقد المصري القديم.

ونلاحظ مثلاً: أن فكرة الثالوث وهي أساسية في المسيحية وجدت عند المصريين القدماء إذ عرفت «شراكة» تجمع بين ثلاثة كيانات إلهية تمثل أسرة تضم الأب والأم والابن، وكان لذلك دلالته الرمزية، إذ مثل الإله الأب الجانب الذكوري الممثل للقوة والخصوبة، ومثلت الأم الجانب الأنثوي برقته وحنانه ومثل الابن النتاج الشاب المنبثق منهما والذي يمثل تجديد قوى الحياة تجديداً أبدياً.

كما عرف الفراعنة أيضاً «الثامون» وهي جماعة من ثمانية كيانات إلهية تضم أربعة ضفادع مذكرة وأربعة ثعابين مؤنثة وهي تجسد كل إمكانات الخلق، وقد بجّل المصريون القدماء عديداً من الحيوانات والطيور منها القرد والتمساح والبقرة وأبوقردان والثور والصقر وغيرها، وبعضها تمثله الآلهة واتخذت هيئته.

أما «مصر» فكانت انعكاساً في عالم البشر للنظام الكوني كما أسسته الآلهة، كانت هي أرض القطرين مرادفة للحضارة وهي نقيض الصحراء التي تأتي منها الاضطرابات والمخاطر، وقد أدرك أهل مصر منذ البداية أن النظام لا يمكن أن يسود إلا إذا توحدت الدلتا والوادي بزعامة ملك واحد.

وإلى جانب مئات الألفاظ والأسماء والمصطلحات يضم المعجم ملحقاً بأسماء الآلهة والأماكن ورسماً لعلاماتها الأكثر شيوعاً.

□ □ □

النهايات: الهوس القيامي الألفي

ديتر تسمرلنج

ترجمة: ميشيل كيلو

دمشق: دار قدمس

٢٢٤ صفحة، ٢٠٠٠



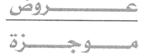
يعني اندثار العالم نهاية التاريخ، ومنذ الطفولة البشرية كانت الأسطورة تتحدث عن نهاية العالم وفنائه ثم انبعاثه من جديد، كيف بدأت الأمور وكيف ستنتهي، وما منبع الرؤى حول تلك النهاية، وكيف تشكلت تلك المقولات التي تمس المصير الإنساني.

كتاب «النهايات.. الهوس القيامي الألفي» يحاول أن يجيب عن تلك التساؤلات عبر أحد عشر فصلاً تتناول جذور هذه الرؤى منذ السبي البابلي مروراً برؤى العصور الوسطى ثم رؤى عصر التنوير وانتهاء برؤى العصر العلمي والآمال الخائبة التي تمخضت عنها.

ينطلق الكاتب من فلسطين وما حدث فيها خلال العصر ما قبل المسيحي عند منعطف القرن السابع قبل الميلاد، أي منذ انهيار المملكة الأشورية على يد بابل، واستيلاء نبوخذ نصر الثاني على مملكة يهوذا والقضاء عليهم تماماً.

يستمر المؤلف في سرده التاريخي مروراً إلى اختراع الطباعة وهو الاكتشاف الذي أدى إلى انتشار الكتابات الدينية، فكان بين المطبوعات نبوءات وتنجيمات وتخيلات عن زوال العالم مستقاة من علم الفلك، وأشعل ذلك الاحتقانات الاجتماعية والسياسية ذات الصلة بالأفكار الدينية، وحدد كثيرون موعداً لنهاية العالم، ومع بدء القرن الثامن عشر حدث تحول أساسي في فهم العالم والحياة أضعف التوجه الديني نحو العالم الآخر وأحل محله توجهاً جديداً موضوعه العالم الدنيوي استناداً إلى اكتشافات كوبرنيكوس وجاليليو وفلسفات ديكارت وسبينوزا ولوك وهوبز. ووجدت الكنيسة نفسها مجبرة على الدفاع عن معتقداتها التي فقدت كثيراً من قيمتها بفضل المجهودات الفلسفية.

ويواصل المؤلف سرده وصولاً إلى العصر العلمي حيث يصور لنا الكارثة الرهيبة التي تهدد الأرض بفعل الانفجارات النووية والنفايات السامة والنمو السكاني الانفجاري وتدمير البيئة وأخيراً موجات الاستنساخ التي لن تقف القوانين التي تفرضها الدول للحد من الاستمرار في تجاربها، وهي صرخة

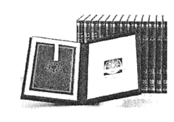


تحذير يطلقها المؤلف في مواجهة ضياع الماهية الروحية إذا ما واصل الإنسان سيره على درب القيم النفعية للعلم، والتي ستفضي به حتماً إلى الهلاك.

□ □ □

موسوعة الحديث الشريف
جمع جوامع الأحاديث والأسانيد
ومكنز الصحاح والسنن والمسانيد

إشراف: علي جمعة محمد وأحمد معبد عبدالكريم
لندن: جمعية المكنز الإسلامي
١٩ جزءاً، ٢٠٠١



تشمل الموسوعة صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وجامع الترمذي وسنن النسائي وسنن ابن ماجه وموطأ الإمام مالك. وسيتضمن إصدارها الثاني كما يأمل الناشرون جميع الكتب والأجزاء الحديثية المسندة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محققة تحقيقاً علمياً ومصححة ومضبوطة.

وتشتمل الموسوعة على فهرس للمحتوى يشرح الألفاظ الغريبة ومجموعة من الفهارس الفنية تصل إلى عشرين فهرساً حول الأسانيد والمتون، ولأول مرة يتم الجمع بين الطباعة والقرص المدمج بهذه الصورة لاستغلال الإمكانات الهائلة للحاسب الآلي في مجال سرعة البحث وتخزين المعلومات.

وتمثل موسوعة الحديث أحد أنشطة جمعية المكنز الإسلامي التي أنشئت كوقف علمي بهدف تشجيع التراث الإسلامي ومساندته ونشره بكافة الوسائل.

وهي أدق وأصح نظام لترتيب واسترجاع البيانات الواردة في كتب الحديث النبوي جعلها مصدراً ومرجعاً للبحث العلمي الرصين الذي من شأنه فتح الأبواب لعصر جديد في علوم الحديث في ثلاثة مجالات:

في مجال النص حيث يتم مقابلة أهم الطبعات المعتمدة لكل كتاب، وما أمكن الحصول عليه من المخطوطات خصوصاً ما كان قبل القرن السابع لأهميتها، وإثبات جميع الفروق والاختلافات بين هذه النسخ، ثم تتم تصفية هذه الاختلافات والترجيح بينها بالدليل وصولاً إلى أقرب نص كتبه المصنف، ثم يتم ضبط النص بالشكل وتصحيحه للوصول إلى نص دقيق خال من الأخطاء قدر الطاقة.

وفي مجال الفهارس، فإن فهارس الموسوعة مميزة إذ تم تصنيفها نوعياً بحيث يمكن للباحث أن يقف على مادته بدقة وسرعة. إذ تم تخصيص فهرس لكل من الآيات والأطراف العامة للأحاديث والأحاديث القدسية والأحاديث المسماة بحيث يمكن الوقوف على جميع مواطن المعلومة في جميع الكتب بدقة. وفهارس أخرى تعتمد على البحث الدقيق ومنها فهرس الرواة وفهرس الغريب الذي يحدد جذر الكلمة ثم يقف على المعنى الملائم في استخدام الكلمة.

وفي مجال الطباعة تم طبع النصوص بشكل أنيق لتكون بداية العودة بالطباعة الإسلامية إلى عهدها السابق مستخدمة أفضل الحروف المطبعية ومضاهية أجمل المخطوطات والكتب القديمة، وبذلك جاءت مجموعة الحروف المطبعية متضمنة أشكالاً وهيئات لم توجد قط في الكتب المطبوعة قام بتطويرها وترقيمها طاقم من خبراء الخط العربي.

□ □ □

أضواء على الثقافة العلمية

تحرير: عصام الحناوي
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١، ٢٤٠ صفحة



يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات لعدد من المهتمين بالدراسات العلمية بينهم الدكاترة سمير حنا صادق وأسامة أمين الخولي ومصطفى إبراهيم فهمي ومحمد رءوف حامد ويحيى الرخاوي وأحمد شوقي وآخرون.

وحافز الدراسات أن أعضاء اللجنة العلمية بالمجلس الأعلى للثقافة رأوا أن الوقت قد حان لإلقاء أضواء على الثقافة العلمية ودورها في تشكيل مجتمع مصر المستقبل ووضعها في ظل المتغيرات الدولية الحديثة، وبين موضوعاته ما يحلل الثورات العلمية والتكنولوجية التي بزغت في القرن العشرين، ومدى الاهتمام الذي توليه أجهزة الإعلام للثقافة العلمية، إن مفهوم الثقافة العلمية وإشاعة منهج التفكير العلمي بين الأطفال وفي ثنايا برامج التعليم المدرسي كما يشير الكتاب دعامة أساسية لنهوض مصر المستقبل وتفاعلها مع عصرها.

□ □ □

كتب أجنبية

The Soul of Latin America The Cultural and Political Tradition

(روح أمريكا اللاتينية.. التراث السياسي والثقافي)

Yale University Press, 2001, 417PP, £ 27.50



إذا كان لأمريكا اللاتينية أو لأي مكان روح فأين تكون هذه الروح؟ إنها على الأرجح ستكون في الثقافة والإبداع الخاص بهذه القارة. لقد تغيرت أمريكا اللاتينية كثيراً في خلال عقود قليلة من الزمن فبعد حكم عسكري وديكتاتوري ساد القارة كلها تقريباً لفترات طويلة، تعرضت دول القارة لموجة ديمقراطية عاتية بحيث أصبحت هناك ١٩ دولة ديمقراطية من إجمالي ٢٠ دولة. أما الدول غير الديمقراطية حتى الآن فهي كوبا بينما كان الوضع في عام ١٩٧٩ هي: ٤ دول ديمقراطية والباقي ديكتاتوريات.

يتناول المؤلف في هذا الكتاب الإسهامات الثقافية والسياسية للقارة ويتوقف كثيراً عند كتابها الكبار في الماضي ويتناول لماذا فشلت أمريكا اللاتينية في تبني الحداثة بنفس الطريقة التي يتبناها الغرب. ويرد بأنه ربما كانت للحداثة طرق أخرى. ويقول إن أمريكا اللاتينية لم تفقد قطار الحداثة إلا أنها ربما أبحرت في طريق مختلف.

ولكن الكتاب لا يُحدث القارئ عن ذلك. إن تعريف الحداثة أمر ملتبس فهناك من يعتقد أن الطريقة الأمريكية هي النموذج الأولى بالاحتذاء في الحداثة لكن هناك من يسأل هل تطبيق عقوبة الإعدام وعدم وجود نظام حكومي للرعاية الصحية في أمريكا من دلائل الحداثة!

ويتابع المؤلف التطور الثقافي والسياسي في أمريكا اللاتينية منذ استقلال دولها عن إسبانيا والبرتغال والمسيرة الطويلة تجاه الديمقراطية ومحاولة القارة التميز عن الغرب خاصة الولايات المتحدة.

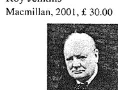
ويخلص إلى أن الديمقراطية حطت رحالها أخيراً في أمريكا اللاتينية ولكن لابد من دعم الولايات المتحدة لهذه التجربة ومساعدتها على النمو والنضج اقتصاديًا وسياسيًا.

□ □ □

Churchill

(تشرشل)

Roy Jenkins
Macmillan, 2001, £ 30.00



حسبما قاله مؤلف هذا الكتاب روى جنكنز الوزير العمالي البريطاني السابق، فإن هناك ما لا يقل عن ١٠٠ كتاب تتناول سيرة حياة ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني الراحل، والذي قاد بلاده في أحلك سنواتها خلال الحرب العالمية الثانية. وقد تحول تشرشل إلى أسطورة أكثر منه سياسيا في التاريخ البريطاني وحسب المؤلف فإن مقارنة تشرشل بأي رئيس وزراء بريطاني تلاه تبدو كما لو كانت المقارنة بين رجل دولة «تشرشل» وتلاميذ في المدرسة «رؤساء الوزراء الآخرون».

ورغم أن الكتاب يتناول نواحي كثيرة من حياة تشرشل الشخصية وانغماسه في الشرب والمراهنات، إلا أنه يركز بشكل رئيسي على التحديات التي واجهته خاصة خلال الحرب. ويفرد المؤلف صفحات عديدة للحديث عن اجتماع الحكومة البريطانية الحاسم في شهر مايو عام ١٩٤٠ لاتخاذ قرار بشأن إمكانية التفاوض مع هتلر. وكانت الحكومة منقسمة على نفسها، وبينما أيد بعض الوزراء الفكرة، فإن تشرشل رفضها بعنف وانفلات أعصاب معتبرًا إياها مهادنة للنازي وبيعا للمبادئ الديمقراطية. وهو الموقف الذي سيجر عليه فيما بعد اتهامات من جانب مؤرخين بريطانيين اعتبروا أن موقف تشرشل هذا أدى إلى استمرار الحرب سنوات في حين أنه كان من الممكن أن تنتهي بسرعة دون أن تخسر بريطانيا الآلاف من أبنائها.

لكن روى جنكنز يعتبر موقف تشرشل مسألة مبدأ ويقول إن الزعيم البريطاني أثبت مرة أخرى رفضه لسياسة المهادنة التي اتبعها سلفه نيفيل تشمبرلين. ويشير إلى أن تشرشل كان يستخدم عواطفه لإقناع الناس بمواقفه «وهو في هذا مثل الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون»

وبالنسبة للمؤلف، فإن تشرشل هو أعظم رئيس وزراء بريطاني إنه في رأيه يتفوق على جلاد ستون الذي كان جنكنز قد كتب سيرة ذاتية له من قبل، ويشير إلى أن تشرشل نموذج يجب احتذاؤه بالنسبة لأي زعيم يواجه حربًا.

□ □ □

عـــروض مـــوجـــزة

Peace Makers: The Paris Conference of 1919 and its Attempt to end War

(صناع السلام.. مؤتمر باريس ١٩١٩ ومحاولة إنهاء الحرب)

Margaret Macmillan

J. Murray, 2001, 574PP., £ 25.00

ربما لم يحظ مؤتمر عالمي بالاهتمام والدراسة من جانب المؤرخين كما حظى مؤتمر فرساى في باريس عام ١٩١٩ الذى انعقد بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تحت شعار صنع السلام في العالم.

وأهمية هذا الكتاب أنه يسرد ربما بتفاصيل أكثر من اللازم الطموحات شديدة التفاؤل التى سبقت انعقاد المؤتمر، ثم النتائج التى خرج بها والتى يعتبرها بعض المؤرخين من بين الأسباب غير المباشرة لاندلاع الحرب العالمية الثانية، بل هناك من يقول إن ما يحدث في الشرق الأوسط حاليًا وما حدث في جنوب أوروبا خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي يعتبر من نتائج ذلك المؤتمر.

قدم الرئيس الأمريكي ودرو ويلسون إلى المؤتمر برؤية طوباوية لعالم جديد يسوده السلام ويجرى من خلال إعطاء الشعوب المقهورة حق تقرير المصير.

لكن مداولات المؤتمر كانت مختلفة تمامًا عن تلك الأحلام، فقد أصرت فرنسا على روح الانتقام من ألمانيا والتى اعتبرت بدورها أن ما يحاول المؤتمر فرضه عليها لن يؤدى إلى السلام، بل سيكون مجرد هدنة ستعمل من خلالها أن تستعيد ما فقدته من أراض وكرامة لفرنسا. ورغم محاولات البريطانيين والأمريكيين إقناع فرنسا بالتراجع عن بعض شروطها التعجيزية ضد ألمانيا إلا أنها أصرت لينتهى المؤتمر، وقد خسرت فيه ألمانيا كرامتها، بل جزءا من سيادتها. وفى الوقت نفسه لم يعر المؤتمر اهتمامًا كبيرًا لمطالب الدول المقهورة الواقعة تحت الحماية البريطانية والحماية الفرنسية، بل إن الرئيس الأمريكي نفسه اقتنع بوجهة نظر بريطانيا مثلا فيما يتعلق باحتلالها لمصر.

وحتى الفكرة الطموحة لويلسون بإنشاء عصبة الأمم لم تحظ بموافقة الكونجرس الأمريكى، كما أنها حملت منذ بدايتها بذور فنائها، فقد كانت منتدى للدول القوية، ولذلك لم تستطع أن تفعل شيئًا عندما غزت إيطاليا الحبشة وظل العالم يتفرج على وحشية جيش موسولينى ضد الأحباش.

□ □ □

Muhammed Ali's Greatest Fight: Cassius Clay vs the United States of America

(أعظم معارك محمد على: كاسيوس كلاى ضد الولايات المتحدة الأمريكية)

Howard L Bingham and Max wallace

Robsons Books, 2001, £16.95



يتحدث الكتاب عن معركة واحدة من معارك الملاكم الأسطورى محمد على كلاى. هذه المعركة لم تكن داخل حلبة الملاكمة مثل معاركه الأخرى، لكنها كانت أمام ساحات المحاكم وضد السلطات الأمريكية ذاتها. فقد رفض محمد على في عام ١٩٦٦ أن ينضم للخدمة العسكرية للقتال في فيتنام قائلاً إن ضميره لا يسمح له بقتال أناس لا يعرفهم ولم يتعرضوا له بأى أذى، ثم إنه لا يعرف حتى أين تقع فيتنام.

هذا الموقف غير العادى من جانب ملاكم أسود اعتنق الإسلام وكان قد بدأ يسير على طريق النجومية والشهرة حرك الجميع ضد كلاى. ووجد محمد على نفسه معزولاً، حيث لم تقف أى وسيلة إعلام تقريبًا معه.

وكما كتب محمد على بعد ذلك بسنوات، فإنه لم يكن يعرف كيف يواجه الموقف الذى أصبح من خلاله عدوًا للمؤسستين السياسية والرياضية في أمريكا. لكن النصر المعنوى لمحمد على جاء عن طريق داعية الحقوق المدنية الأمريكية مارتن لوثركنج الذى امتدح شجاعة محمد على قائلاً: لقد أقلع عن الشهرة وتخلى عن ملايين الدولارات من أجل أن يقف الموقف الذى يحتمه عليه ضميره.

وفى ٨ مايو ١٩٦٦ تم توجيه الاتهام إلى محمد على من جانب هيئة محلفين في هيوستن وكان عددهم ٢١ محلفًا بينهم أسود واحد فقط، وخلال فترة محاكمته التى استمرت طيلة شهر يونيو مورست ضغوط شديدة على الملاكم الشهير الذى رد على ذلك قائلاً: في حلبة الملاكمة أتطلع للفوز في معركة نظيفة، أما في الحرب فإن الهدف هو القتل واستمرار قتل الناس الأبرياء، لقد قيل إن أمامى بديلين السجن أو الذهاب للجيش، لكننى أقول إن هناك بديلاً ثالثًا وهو العدالة التى لو سادت فلن يكون هناك سجن أو انضمام للجيش.

وكان محمد على في أعماق نفسه يتوقع أن يصدر ضده حكم بالسجن وأعد نفسه لذلك. وبالفعل لم يخب ظنه؛ فقد صدر ضده حكم بالسجن لمدة ٥ سنوات وغرامة عشرة آلاف دولار، ثم كان القرار الأشد قسوة والذى اعتبره كثيرون أسوأ من السجن، وهو مصادرة جواز سفر محمد على كلاى. لقد كان على محمد على أن يستأنف ضد الحكم بالسجن لكن نزع جواز سفره كان يعنى منعه من السفر وتحطيم مستقبله في الملاكمة بعد أن كان قد تم منعه من ممارستها داخل الولايات المتحدة.

وكان رد محمد على على كل ذلك هو.. لقد تخليت عن لقبى كبطل للعالم في الملاكمة وعن ثروتى وربما عن مستقبلى.. إن هناك رجالا عظماء كثيرين مروا بمثل هذه الاختبارات من أجل معتقداتهم الدينية وأنا واثق أننى سأنجح في هذا الاختبار. وهو بالفعل ما تحقق بعد ذلك.

□ □ □

Mo Mowlam: The Biography

(مومولام: سيرة ذاتية)

Julia Langdon

Warner, 2001, 322PP, £ 7.99



تمثل الوزيرة العمالية البريطانية السابقة مومولام التى شغلت منصبى وزيرة شئون أيرلندا ثم وزيرة شئون مجلس الوزراء في حكومة رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير الأولى حالة خاصة للغاية بين السياسيين البريطانيين خاصة من حزب العمال.

فمومولام كانت لديها شعبية كاسحة بين صفوف أعضاء حزب العمال وبين المواطنين العاديين لكنها لم تكن تتمتع بمثل تلك الشعبية بين موظفى الحكومة خاصة الكبار منهم الذين يظلون في مواقعهم بينما تتغير الحكومات وتتعاقب. وهذا كان أحد أسباب مأزق مومولام. الأمر الآخر أنها لم تكن سياسية أو دبلوماسية فقد ظلت سنوات طويلة من حياتها السياسية في المعارضة، لذلك عندما وصلت للوزارة عام ١٩٩٧ مع وصول العمال للحكم لأول مرة منذ ١٩ عاماً وقعت في مشاكل كثيرة بسبب صراحتها وجرأتها غير العادية، الأمر الذى جلب عليها انتقادات شديدة خاصة من العاملين داخل وزارتها. واتهمها البروتستانت في أيرلندا الشمالية بأنها تتحيز للكاثوليك ضدهم وقاطعها كثير من الزعماء البروتستانت لمجرد أنها تجرأت وانتقدت سلوكهم ومواقفهم السياسية. وعندها لم يجد بلير مفراً من نقلها إلى وزارة شئون مجلس الوزراء التى لم تجد نفسها فيها على الإطلاق، فهى سيدة تحب الحركة والتعامل مع الجماهير، لذلك قررت أنها سوف تعتزل السياسة مع الانتخابات البرلمانية في يونيو الماضي وهو بالفعل ما حدث.

□ □ □

Egypt: Civilization in the Sands

(مصر.. حضارة في الرمال)

Pauline and Philippe de Flers

Distributed by the AUC Press, 460PP., LE. 150

منذ ما قبل التاريخ، امتدت حضارة مصر الفرعونية إلى خارج نطاق وادى النيل ووصلت إلى المناطق التى تحيط بالوادى سواء كان يقطنها البدو أو المزارعون أو جماعات الصيد والقنص. وترك المصريون في هذه المناطق آثارا عظيمة مازال الباحثون وعلماء المصريات يتسابقون لاكتشافها.

وهذا الكتاب يطرق بابًا جديدًا نوعًا ما، فهو يتحدث عن أصول غير معروفة للحضارة المصرية، وهى أصول موجودة على حافة الصحراء. والجزء الأول من الكتاب يأخذنا في رحلة عبر عديد من الواحات تمتد من الشمال للجنوب، فمن سيوة البعيدة ذات الملامح الأسطورية إلى الواحات البحرية بمومياواتها الذهبية إلى الفرافرة على حدود الصحراء إلى الداخلة التى تعتبر البوابة المؤدية للصحراء وأخيرًا الخارجة التى يقول الكتاب إنها كانت منفى، كما أنها البوابة الثانية إلى الصحراء.

أما الجزء الثانى من الكتاب، فإنه يتناول ما يصفه ببيئة معادية ومخيفة، وهى الصحراء ذاتها التى تتألف من خليط من الرمال والصخور، لكن من خلال صور رائعة التقطها المؤلفان لهذه الصحراء المصرية، وحديثهما عن علاقتها بالحضارة الفرعونية، تتحول هذه الصحراء إلى شيء محبب للقارئ.

□ □ □

"تاريــــــخ"

تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني

عادل مناع

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

يعالج هذا الكتاب تاريخ فلسطين خلال المرحلة الانتقالية منذ وفاة السلطان العثماني سليم الثاني حتى أواخر القرن السابع عشر ثم في مراحل التوسع الأوروبي والاندماج في النظام الاقتصادي العالمي، ويتابع الكتاب في تلك المراحل التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي لفلسطين.

■■■

جماعة الأهالي.. منشؤها، عقيدتها، ودورها في السياسة العراقية

مظفر عبد الله الأمين

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

هذا الكتاب في الأصل دراسة جامعية نال بها المؤلف درجة الماجستير عام ١٩٧٩ من جامعة درهام البريطانية، وهي تبحث في نشأة جماعة الأهالي بين عامي ١٩٣٢ و١٩٤٦. وهذه الجماعة لم تكن حزبًا سياسيًا بالمعنى الدقيق وإنما تجمعًا لأفراد ذوي آراء وميول واتجاهات متشابهة يجمعهم ما اتفقوا على تسميته بالديمقراطية الاجتماعية أو الشعبية ولعبوا دورًا فاعلاً في النضال ضد المحتل البريطاني وسلطة الانتداب.

■■■

بروتوس مازال حيًا

بدر عبد الملك

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

يحلل المؤلف ظاهرة الاغتيالات السياسية تاريخيًا ويقدم أمثلة على وجودها منذ بدء الخليقة وشهدتها جميع الحضارات من يونانية وبابلية وفرعونية وغيرها مفسرًا أسبابها الفكرية والاجتماعية، ويقدم أشهر عمليات الاغتيال في العالم.

■■■

دستور في صندوق القمامة

صلاح عيسى

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠١

يشرح المؤلف قصة دستور ١٩٥٤ الذي أهملته ثورة يوليو ١٩٥٢ والظروف السياسية التي أدت إلى تجاهله بعد إعداده، ويتضمن الكتاب وثيقة مسودة للدستور عثر عليها المؤلف في سلال وثائق مهملة، وهو ما يركز عليه المستشار عوض المر رئيس المحكمة الدستورية العليا السابق في تقديمه للكتاب.

■■■

Christians and Jews in the Ottoman Arab World.. The Roots of Sectarianism

(المسيحيون واليهود في العالم العربي العثماني: جذور المذهبية)

Bruce Masters

Combridge UP, 2001, 240PP, £ 35.55

يبحث المؤلف تاريخ المسيحيين واليهود في الأقاليم العربية من الإمبراطورية العثمانية، وكيفية تطور هويتهم كغير مسلمين عبر أربعمائة عام. ففي بداية هذه الحقبة في القرن السادس عشر كان المجتمع تحكمه الهوية الدينية بحيث عاش غير المسلمين داخل هيراركية تقيمها الشريعة الإسلامية. أما في القرن التاسع عشر وتجاوباً مع التأثيرات الغربية فقد حدث تحول جذري، إذ قام صراع بين المسلمين والمسيحيين في مختلف أرجاء الامبراطورية متحديًا للهيراركية التقليدية، ذلك الصراع هو الذي حدد مظاهر التوتر في الخطاب القومي والديني الذي ساد في الدول العربية التي تأسست على أنقاض الامبراطورية بعد الاستقلال.

■■■

A History of Inner Asia

(تاريخ آسيا الداخلية)

Svat Soucek

Cambridge, 2000, 384PP., £ 16.95 (pb)

مقدمة قصيرة ويسيرة في تاريخ آسيا الداخلية أو آسيا الوسطى. فمنذ سقوط الاتحاد السوفيتي وتفككه عام ١٩٩١ تجدد الاهتمام بتلك الجمهوريات التي انبثقت عنه، والتي تثير قضايا سياسية ودينية واقتصادية وثقافية مختلفة.

هذا الكتاب يروي تاريخ السبع دول التي تُعرف اليوم بأوزبكستان وكازاخستان وكيرجيستان وطاجيكستان وتركمانستان ومنغوليا وستيكانج، وذلك منذ أن دخلها الإسلام عبر مختلف سلالات الحكم التي تعاقبت عليها، وإلى أن تعرضت للغزو الروسي. الكتاب يحتوي على خرائط وجداول زمنية توضيحية.

■■■

The War for Palestine: Rewriting the History of 1948

(الحرب من أجل فلسطين: إعادة كتابة تاريخ ١٩٤٨)

Avi Shlaim, Eugen Rogan (editors)

Edward Said (aferword)

Cambridge, 2001, 256PP., £13.95

مجموعة من كبار المحللين ينتمون لتوجهات متباينة يقدم كل منهم إعادة نظر في تاريخ حرب ١٩٤٨، معتمدين على مصادر تاريخية أولية في محاولة لتقديم رؤى وتعبيرات مغايرة لهذه اللحظة المهمة من تاريخ المنطقة. فعلى سبيل المثال يشارك رشيد خالدي بفصل عن أسباب فشل الفلسطينيين في عام ١٩٤٨، ويكتب بني موريس عن الخروج الفلسطيني عام ٤٨، ثم تكتب ليلا بارسونز عن علاقة الدروز بمولد إسرائيل، ويشارك تشارلز تريب بفصل عن العراق وحرب ٤٨.. كيف كانت مرآة عاكسة لاضطراب النظام العراقي في ذلك الوقت. ويكتب فواز جرجس عن موقف مصر من حرب ١٩٤٨ بين الصراع الداخلي وطموحاتها الإقليمية.

وفي ختام الكتاب يقدم إدوارد سعيد مقالاً عن نتائج تلك الحرب الفاصلة.

■■■

A Broken Trust : Herbert Samuel, Zionism and the Palestinians

(هيربرت صموئيل والصهيونية والفلسطينيون)

Sahar Huneidi

Foreword by Walid Khalidi

I.B. Tauris, 2001, 348PP

شغل هيربرت صموئيل منصب أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين في الفترة بين ١٩٢٠ و١٩٢٥ أثناء وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وهو يعتبر أيضاً ثاني يهودي بعد دزرائيلي يشغل مثل هذا المنصب الرفيع في تاريخ الحكومة البريطانية.

وفي خصوصية الصراع الصهيوني الفلسطيني اعتبر المؤرخون البريطانيون التقليديون أن موقف هربرت صموئيل كان حيادياً وغير منحاز في إدارة هذا الصراع. ولكن في هذه الدراسة الوثائقية تؤكد سحر هنيدي عكس هذا المفهوم، وتبين أن كل الإجراءات السياسية والاقتصادية والإدارية التي اتخذها صموئيل أثناء حكمه لفلسطين كانت مصممة على تهيئة الوضع لقيام دولة يهودية كاملة في أرض فلسطين.

"تـــــراث"

الطبقات الكبير لابن سعد

تحقيق: علي عمر

القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠١

أول طبعة كاملة للكتاب في ١١ جزءاً لواحد من أبرز مؤرخي القرن الثالث الهجري الذي جاب حواضر عديدة يطلب العلم من شيوخها فزار الكوفة ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وألف الطبقات الكبير والطبقات الصغير وكتاب التاريخ وكتاب الحيل وهو يخصص قسمين من كتابه لسيرة الرسول ﷺ وقسمه الأخير للنساء أما باقي الأجزاء فللصحابة والتابعين.

■■■

المسعودي

عزيز العظمة

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١

يضم الكتاب ستة أقسام تدور جميعها حول حياة هذا العالم العراقي الذي درس على بعض كبار عصره كالطبري وابن دريد وأبو بكر الرازي، وقد ترك كتابين شهيرين هما «مروج الذهب» و«معادن الجوهر» و«كتاب التنبيه والإشراف»، والمؤلف يقدمه بوصفه ممثلاً لمعارف عصره وقرنه العاشر.

"تربية وتعليم"

The Art of Teaching Reading

(فن تعليم القراءة)

Lucy McCormick Calkins

Peter Cunningham (Photographer)

Longman, 2000, 580, $ 36.00

مرجع مفيد للمدرسين والمعلمين، يقدم مجموعة كبيرة من مبادئ وطرق تدريس القراءة في الفصول الدراسية، ويستعين بأمثلة عملية عديدة. مؤلفة الكتاب أستاذ المقررات والتدريس في كلية المعلمين بجامعة كولومبيا، ولها سلسلة من الكتب الشهيرة في هذا المجال.

■■■

Thinking Skills and Early Childhood Education

(مهارات التفكير والتعلم في الطفولة المبكرة)

Patrick Costello

David Fulton Pub., 2000, 160pp., £16.00

يقيم المؤلف أهداف التعليم في الطفولة المبكرة ويركز على تنمية المهارات الفكرية، وخاصة التفكير النقدي والقدرة على المناقشة. ثم يتحدث عن الطرق التي يمكن للمدرسين أن يستخدموها لتربية هذه المهارات في الأطفال من خلال تدريس قضايا شخصية واجتماعية وأخلاقية للأطفال الصغار.

"خـــــرائط"

Cairo Maps 2002: The Practical Guide

(خرائط القاهرة ٢٠٠٢: الدليل العملي)

The American Univercity in Cairo Press, 2001, 52PP., L.E 20

الطبعة الثالثة بعد المراجعة من الكتيب الذي تنشره الجامعة الأمريكية في القاهرة والذي يحتوي على مجموعة من الخرائط التي توضح أهم أحياء وشوارع القاهرة. تحتوي هذه الطبعة على سبع وثلاثين خريطة وفهرس بأسماء الشوارع ومواقعها وفهرس بمواقع بعض الوزارات والمكاتب الحكومية ومحطات مترو الأنفاق وقاعات الفنون والمراكز الثقافية والسفارات وبعض الأندية الرياضية والمستشفيات والفنادق.

أما الخرائط نفسها فمقسمة حسب الأحياء ومبين عليها أسماء الشوارع وتضم أحياء وسط المدينة والعتبة والقاهرة الإسلامية والزمالك والمهندسين والدقي وجاردن سيتي والمنيل والجيزة والمعادي ومصر الجديدة ومدينة نصر وشبرا والعباسية ورمسيس.

"رواية وأدب"

أجملهن

عبد السلام العجيلي

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١

رواية جديدة تحكي قصة شاب عربي يزور النمسا للمرة الأولى ويلتقي بالفتاة التي يراها أجملهن، ومن خلالها يتعرف على عقلية المرأة الأوروبية واهتماماتها وطرائقها في التعبير عن ذاتها، ويقارن بين موروثه الثقافي والمعرفي والإنساني، وما تعبر عنه هذه الفتاة.

■■■

الخلوة الملكية
أنطوان الدويهي
بيروت: دار النهار، ٢٠٠١
نص جديد لمؤلفه بعد أربعة نصوص سابقة هي كتاب الحالة وحديقة العجز ورتبة الغياب، وهو في معظمه يسبح في أجواء الحنين إلى الجذور والأصول رافضًا مفردات الهجر والغياب والغربة.

■■■

براري الخراب
علي عبد الله سعيد
دمشق: دار آرام، ٢٠٠١
يسعى المؤلف إلى تفكيك اللحظة الراهنة والانتقال بمسارها متابعًا اضطرابه الذي يشي باضطراب العصر كله، ويبقى هو مجرد شاهد ومراقب لحياة تتهاوى منذ موت الأب في واحدة من الحروب الخاسرة.

■■■

حياة (٩٩ قصة قصيرة جدًا)
حياة أبو فاضل
بيروت: رياض الريس للنشر
مجموعة قصصية ترصد حياة امرأة منذ الطفولة وحتى النضج عبر ٩٩ قصة قصيرة جدًا لا تتجاوز أكبرها العشرة أسطر، وهي قصص تشبه المذكرات تبدأ من طفولة المؤلفة ببراءتها وسذاجتها إلى المراهقة فالنضج وانعكاس الأحداث الجسام مثل الحرب الأهلية في لبنان على الصبية في كل مرحلة.

■■■

متواليات باب ستة
سعيد بكر
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١
اعتمد المؤلف البطل أو الحادثة محورًا لإبداع مشاهده أو متوالياته، ليرسم عالمًا قصصيًا ثريًا بالتضاريس النفسية والاجتماعية، وأبطاله منطلقين يتصرفون بحرية وجراة والمؤلف يتتبعهم ويرصد سلوكهم بحيادية أقرب إلى التسجيلية التي هي من صنعه في نهاية المطاف.

■■■

نصف عين
نجلاء علام
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١
رواية قصيرة تعتمد على جملة سردية قصيرة تعتمد أساسًا على أسلوب استعادة الماضي أو الفلاش باك، وتجري بنا في أجواء معاصرة لأحداث سياسية عربية مؤثرة مثل الغزو العراقي للكويت وآثاره الانعطافية الهائلة على الأوضاع في المنطقة.

■■■

Half a Life
(نصف حياة)
V.S. Naipaul
Picador, 2001, 224PP, £15.99
أحدث رواية صدرت للكاتب الهندي الأصل فيديا نايبول الحاصل على جائزة نوبل للآداب للعام الحالي، وهي تعد نموذجًا للطابع الذي ميز معظم أعمال نايبول السابقة. فهي تحتوي على مزيج من السيرة الذاتية والقصصية في مجال البحث داخل العوالم المنصفة والشخصيات المحطمة لهؤلاء الأفراد الذين نشأوا في مستعمرات بريطانيا نائية ثم سافروا لتلقي العلم في العاصمة البريطانية في مرحلة ما بعد التحرر من الاستعمار.

" سـيـاسـة "

استراتيجية العولمة
روبرت غروس
تعريب: إبراهيم يحيى الشهابي
الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠١
يقدم الكاتب سبلاً للتعاطي مع العولمة بوصفها تعبيرًا عن مرحلة تاريخية من تطور البشرية، محاولاً إظهار النتائج الإيجابية والسلبية وما تواجهه الشركات العالمية من تحديات تنافسية كبرى، ويعرض كتاب ضمن سياقه العام للتداعيات الاقتصادية في المنطقة الآسيوية وآثارها على العالم وارتباط ما جرى بالعولمة.

■■■

الأسطورة والصهيونية والانتفاضة الفلسطينية
السيد ياسين
القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠١
يهدف الكتاب إلى تحليل أشكال الخطاب الصهيوني ونقده لكشف ما يتضمنه من أكاذيب وتلفيق، وهو يحلل ضمن فصول الكتاب شهادات لمثقفين عرب حول رؤيتهم لمستقبل الصراع، وبين هؤلاء عبد الوهاب المسيري، وأحمد صدقي الدجاني، ومحمود عباس، وقدري حفني، ومحمد السيد سعيد، وعلي أومليل، ومحمد الرميحي، والصادق المهدي، وآخرين.

■■■

الخيار النووي في الشرق الأوسط
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١
يضم الكتاب أعمال الندوة التي نظمها مركز دراسات المستقبل بجامعة أسيوط، وهو يتضمن مساهمات علماء باحثين وخبراء في هذا المجال، وقد انصبت الجهود أساسًا على دعم مبادرات لإخلاء منطقة الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل، وفرض عقوبات على الدول التي ترفض الانضمام إلى معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية وإخضاع منشآتها للتفتيش.

■■■

عشية الانتفاضة
قيس عبد الكريم
تيسير خالد
صالح زيدان
بيروت: شركة التقدم العربي للصحافة والنشر، ٢٠٠١
دراسة تحليلية للمثلث الشرق أوسطي وأزمته الكبرى «القضية الفلسطينية» والصراع على الأرض المحتلة وموقع الانتفاضة الباسلة داخل هذا الصراع، لكن الرؤية الأشمل كما تقدمها الدراسات تعطي أهمية أكبر للمشكلات السكانية والتنموية في الوطن العربي، وتختص إحدى الدراسات بسكان فلسطين وإمكانيات تطوير الانتفاضة وتعزيز مكاسبها، فيما تركز دراسة ثالثة على المجتمع الإسرائيلي بتكوينه الديموجرافي ومواقفه العدائية وأهدافه التوسعية.

■■■

Globalization and the Politics of Development in the Middle East
(العولمة وسياسات التنمية في الشرق الأوسط)
Clement M. Henry and Robert Springborg
Cambridge Up, 2001, 246PP, £12.95
يبحث المؤلفان موقف الدول المختلفة في الشرق الأوسط من التهديدات والفرص التي تقدمها قوى العولمة في العالم المعاصر. ويتم التناول من خلال تحليل الهياكل الحكومية وهياكل المجتمع المدني والنظم المالية في البلاد التي يتم دراستها. ويتوصل المؤلفان إلى حكم عام مضمونه أن هناك علاقة ارتباط إيجابية بين الأداء الاقتصادي وعملية التحول نحو الديمقراطية، بمعنى أنه كلما كانت سياسة الدولة ليبرالية، كلما كان اقتصادها أكثر فعالية في تجاوبه مع العولمة.

" سـيـرة "

في الخيمة الأخرى.. صفحات من الذاكرة
طلال ناجي
بيروت: دار الرواد، ٢٠٠١
فصول من مذكرات نائب الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يبدؤها من الطفولة حيث شهد الإرهاصات الأولى لاغتصاب الأرض وانتهاك الحقوق الفلسطينية وتخريب الديار وتحويل الشعب الفلسطيني إلى لاجئ خارج أرضه أو غريب فوقها، ثم يواصلها بالانعطافات المهمة من أيلول الأسود في الأردن والحرب الأهلية اللبنانية وعملية اجتياح بيروت، عارضًا للعلاقات مع الأنظمة العربية والخلافات بين التنظيمات الثورية ذاتها.

■■■

ماري عجمي
ميشال جحا
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١
كتاب عن الرائدة النسائية التي ساهمت في المطالبة بحقوق المرأة في التعليم والعمل ضمن قواعد الأخلاق الفاضلة. يتناول الكتاب سيرة حياتها ومعاركها ونجاحاتها ونضالها ضمن كوكبة أخرى من المناضلات السوريات وإن بزتهن ماري بوصفها أديبة صاحبة أسلوب رفيع.

■■■

Frantz Fanon: A Biography
(فرانتز فانون: سيرة حياة)
David Macey
New York: Picador, 2001, 640pp., $ 40.00
شكلت كتابات فرانتز فانون نبض الثوار من أبناء العالم الثالث في صراعهم ضد الاستعمار الأوروبي، والسود في مقاومتهم للاضطهاد العنصري في عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. ولم يكن كتاب فانون الأشهر «البائسون في الأرض» مرجعًا للشعارات الثورية فحسب، ولكنه كان بمثابة دليل عملي لكل ثائر، يعينه على التخلص من العجز إزاء المستبدين الأقوياء ويزوده بالشجاعة والثقة بالقدرة على التحرر من خلال استخدام العنف المسلح.
وهذا الكتاب يقدم ترجمة لحياة فانون القصيرة ـ حيث توفي بمرض اللوكيميا، وهو بعد في السادسة والثلاثين فيركز على طفولته وتعليمه وعمله كطبيب نفسي ثم الفترة الكبيرة التي أمضاها في الجزائر وتونس، حيث لعب دورًا بارزًا في المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي وكان تقريبًا المتحدث باسم الثورة الجزائرية.

" شـعـر "

تأبط منفى
عدنان الصائغ
السويد: دار المنفى، ٢٠٠١
ديوان يضم ٧٦ قصيدة تعتمد على التكثيف واقتناص اللحظات الشعرية الخاطفة هاجسها المنفى والوطن والعزف على أوتار الغربة وهمومها والحنين الدائم للوطن.

■■■

تحته كنز لهما
حسين وحسن خليفة
بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١
ديوان واحد لأخوين توأمين وهي التجربة الثانية لهما بعد ديوانهما الأول لأخوين يكتبان الشعر برؤية ولغة ومشاعر متطابقة، تستند في مجملها إلى معرفة فقهية أساسية وإبحار في علوم القرآن والتراث البلاغي والشعبي.

" صـحـافـة "

صحافة وسياسة: سورية في القرن العشرين
نصوح بابيل
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١
يسرد المؤلف أحداثًا عايشها ـ بوصفه صحافيًا وكاتبًا سياسيًا ـ كانت لها آثارها في التاريخ السوري المعاصر، بعضها مثلت انعطافات مهمة في مسار سورية مثل الانقلابات العسكرية، برؤية مراقب ومتابع للحدث من داخله.

■■■

مدخل إلى الإخراج الصحفى
سعيد الغريب النجار
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١
يدرس المؤلف الشخصية الإخراجية للصحف الصادرة في مصر واستخدامها للعناصر الطبوغرافية لتأكيد أسلوبها المميز خصوصًا بعد ما دخلت الصحف المصرية عصر التكنولوجيا الرقمية مما أتاح أمام المخرجين الصحفيين معالجات عديدة ومتنوعة للعناصر الجرافيكية، ويسد الكتاب ثغرة مهمة في مجال الدراسات الإعلامية.

"طب وعلوم"

الحجامة الحديثة
ميلينا عبد الله
ترجمة: محمد فكرى أنور
القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠١
يعرف الناس في منطقة الخليج طريقة الحجامة في العلاج، والتي تعتمد على شفط الدم الفاسد من مواضع معينة في الجسم لتخليص الجسم منه، لكن المؤلفة تنصح في «حجامتها الحديثة» بضرورة التعرف على نقاط الوخز وعلى الخطوط العصبية، ومواضع مرور هذه الخطوط في كل أجزاء جسمنا.

القولون العصبى مرض العصر
حسن فكرى منصور
القاهرة: دار القرآن
٢٥ نصيحة يقدمها المؤلف للوقاية من أمراض القولون التي يشكو منها ملايين البشر والتي تعود في معظمها إلى أسباب نفسية وعصبية، والمؤلف طبيب متخصص يقدم نصائحه ليس فقط لكيفية المقاومة والوقاية التي هي خير من العلاج، ولكن أيضًا لطرق العلاج وأهم الوصفات الطبيعية، وكذلك الأعشاب التي تفيد في علاج أمراض القولون والبلهارسيا والأميبا وغيرها.

تكنولوجيا السكر والحلوى
إبراهيم محمد حسن
القاهرة: دار الفجر، ٢٠٠١
يتناول المؤلف عبر أربعة أبواب موضوعات تتصل جميعًا بصناعة السكر وإنتاج الشيكولاتة والمواد الخام المستخدمة في صناعة الحلوى وأحدث التكنولوجيات التي دخلت إلى هذه الصناعة التي تبلغ استثماراتها في مصر أكثر من ٤,٥ مليار جنيه ويعمل بها أكثر من ٣٠٠ ألف مواطن.

The Mysteries Within: A Surgeon Reflects on Medical Myths
(الألغاز التي في الداخل: أفكار جراح عن الخرافات الطبية)
Sherwin Nuland
Simon & Schuster, 2000,286PP., $ 24.00
المؤلف جراح مخضرم وصاحب مؤلفات عديدة تمزج ما بين الطب والعلم والثقافة والتاريخ. وفي هذا الكتاب يروى لنا نيولاند كيف أن الخيال الشعبي في القدم كان يشخص أعضاء الجسم مثل القلب والمعدة والطحال والكبد، وكأن لكل عضو من هذه الأعضاء شخصية مستقلة. ومن خلال قراءته للتاريخ الطبي الغربي يبين لنا نيولاند كيف أثرت هذه الخرافات على النظريات الطبية لمدة طويلة من الزمن.

"فكر"

الشعر والفكر.. أدونيس نموذجا
وائل غالى
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١
يقدم المؤلف إعادة قراءة لإنتاج أدونيس الشعرى الذي تميز بارتباطه الواضح بالسياحات الفكرية والفلسفية، وهذه هي أول دراسة فلسفية عن تجربة أدونيس الفكرية وإنجازه الشعرى.

الغرب والإسلام
رسول محمد رسول
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١
عن نظرة الغرب العدائية للإسلام وهي النظرة التي بدأت تشيع مع انتشار مقولة صمويل هنتنجتون عن صراع الحضارات، المؤلف يحلل هذه العلاقة وجذورها التاريخية وكيفية تعديلها لخدمة الإنسانية والإنسان.

عمائم وطرابيش
سعيد اللاوندى
القاهرة: دار إنجى مصر، ٢٠٠١
يلقى المؤلف أضواء على عدد من كبار المفكرين والأدباء المصريين الذين عاشوا في باريس، حيث التقى بعدد من أصدقائهم ومعارفهم وكثيرين ممن اقتربوا منهم وتعرف على الأماكن التي كانوا يرتادونها، وكيف كان وقع الحضارة الغربية عليهم، من هؤلاء الإمام محمد عبده، والفقيه الدستورى عبد الرزاق السنهورى، وتوفيق الحكيم، وسلامة موسى، وطلعت حرب، ومصطفى كامل، وآخرون.

فلسفة الثقافة
مصطفى النشار
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١
لا تنفصل الثقافة السائدة في مجتمع ما عن أنماطه الإنتاجية والتوجهات السائدة فيه ذات الطبيعة التقدمية أو الأصولية، وهو ما يمنح هذه الثقافة فلسفة ما، تقود المجتمع نحو مزيد من التقدم والرفاهية والتعاطي مع معطيات العصر أو تنزلق به القهقرى، هذا بعض ما يناقشه المؤلف في كتابه.

معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية
محمد أركون
تعريب: هاشم صالح
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠١
يتحدث الكتاب عن أسباب ضمور الفكر الفلسفي العقلاني في الساحة الإسلامية منذ انهيار الحضارة الإسلامية في القرن الثالث عشر، ويسلط المؤلف الضوء على وجود تيار تنويرى ذى حس إنسانى في القرنين الثالث والرابع للهجرة بشكل خاص تفاعل بقوة مع التيارات الفلسفية فافاد منها وأضاف إليها.

يا قلبى لا تحزن
صبرى العسكرى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١
مجموعة من الكتابات التي نشرها المؤلف في عدة صحف ودوريات مصرية وبعضها يتناول أعمالاً نقدية لأعمال عدد من الأدباء مثل ماركيز وطاهر بن جلون ومحمد أبو دومة وأندريه شديد والطاهر وطار وآخرين.

"فكر ديني"

أحكام المرأة بين الاجتهاد والتقليد
شيماء الصراف
باريس: دار القلم، ٢٠٠١
تقارن المؤلفة بين الشريعة والفقه والقانون والاجتماع في تناول كل منها لقضية المرأة، وهي تنتهى إلى أن على المرأة دورا بالغ الأهمية في تأكيد ذاتها بحثًا عن حقوقها بين اجتهادات هؤلاء جميعًا.

أصول الصابئة «المندائيين» ومعتقداتهم الدينية
عزيز سباهى
دمشق: دار المدى، ٢٠٠١
هذه هي الدراسة الأولى باللغة العربية عن هذه الجماعة (الطائفة) التي نشأت في وادى الرافدين قبل ظهور المسيحية، والمؤلف يبحث في أصول هذه الجماعة وآثارها وعلاقاتها بجيرانها في فترة وجودها.

الدور التربوى والاجتماعى للمسجد
أساتذة من جامعة الأزهر
الرباط: منظمة الأيسيسكو، ٢٠٠١
يتناول الكتاب في خمسة فصول مكانة المسجد والأسس التربوية للدعوة الإسلامية في المسجد والأدوار الاجتماعية للمسجد وآثرها في تنمية المجتمع ويتبعها بعرض لنماذج من المساجد التي لعبت هذا الدور ويختتم بسبل الإفادة من المسجد في وقتنا الحاضر لتنمية المجتمع.

حواء من الخلق إلى البعث
حسن حامد عطية
القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠١
دراسة في النصوص الدينية المقدسة عن الإنسان وتطوره وقصة خلق حواء والاختلافات بين المحكى والمتوارث من ناحية والنص الديني من ناحية ثانية، والفروق كذلك في المفاهيم حول المرأة في الديانات السماوية الكبرى.

خالد وعمر
كلاوس كلير
ترجمة: محمد جديد
دمشق: دار قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠١
رسالة دكتوراه حصل بها الباحث على الدرجة من جامعة برلين الحرة عام ١٩٩٨، ويضم ثمانية فصول تقدم سيرة موجزة لخالد بن الوليد والعلاقة بينه وبين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومواقف النزاع بينهما، والكتاب سعى أو إعادة فهم لبعض الكتابات التي تناولت العلاقة بين الصحابيين الجليلين.

Rebellion and Violence in Islamic Law
(التمرد والعنف في الشريعة الإسلامية)
Khaled Abou El Fadl
Cambridge Up. 2001, 400PP, £45.00
دراسة منظمة تعالج قضية المقاومة السياسية والثورة في الشريعة الإسلامية منذ القرن الثامن الميلادى وحتى القرن الثامن الميلادى.
تتناول الدراسة أيضًا الأحكام القضائية والشرعية التي عارضت أو أيدت الأساليب التي استخدمها الثوار من اغتيال إلى سرقة واغتصاب.. إلخ.

Commanding Right and Forbidding Wrong in Islamic Thought
(الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في الفكر الإسلامى)
Michael Cook
Cambridge Up, 2001,720PP, £55.00
يعد مايكل كوك أحد أبرز المتخصصين في الدراسات الإسلامية في الغرب، وفي هذا الكتاب الطويل يتصدى كوك للتركيز في مسألة واحدة فقط هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فيبحث تطور هذا المفهوم عبر التاريخ الإسلامي وعبر الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة. كما يسعى أيضًا إلى كشف العلاقة بين هذا المفهوم وبين الأيديولوجيات الإسلامية المعاصرة والتي تحكم سياسات الجماعات الإسلامية المختلفة.

"فنون"

ألعاب الدراما السينمائية
مدكور ثابت
القاهرة: هيئة الكتاب- مكتبة الأسرة
دروس تطبيقية في فن كتابة السيناريو،

وكذلك صناعة التأثير الدرامى فى الفيلم مثل التشويق والإثارة والمفاجأة، وجميعها ألعاب يصوغها المؤلف والمخرج ويتحكمان فيها، ويضم الكتاب ملحقًا يشتمل على نماذج امتحانات القبول لطلاب معهد السينما خلال العقد الأخير فى جميع التخصصات.

■■■

Art, Not Chance: Nine Artist's Diaries

(فن وليس صدفة: تسعة فنانين ويومياتهم)

Paul Allen (editor)

Calouste Gulbenkian Foundation, 2001, 120pp., £ 8.50

قام الناشر ومعه محرر الكتاب بول آلن بتجربة فريدة فى هذا الكتاب، حيث وجها الدعوة لتسعة من الفنانين (ست نساء وثلاثة رجال) لكى يكتبوا يوميات أو مذكرات على مدى عدة أشهر تسجل مراحل إنجازهم لعمل إبداعى ما. من ضمن هؤلاء الفنانين النحات ريتشارد ونتوورت الذى سجل لحظات يوم واحد، والكاتب المسرحى شيلاج ستيفنسون الذى كتب مقاطع طويلة حول عدم قدرته على الكتابة، فيقول: «كيف يكتب المرء مسرحية؟ وكيف كتبت المسرحيات الأخرى؟ أنا لا أتذكر». والمؤلفة الموسيقية ايرولين فالن وغيرهم. ويقول المحرر فى مقدمته إن الفنانين لم يتعمقوا كثيرًا فى البحث أو فى التنظير للعملية الإبداعية نفسها، حيث إنهم منشغلون بصناعة هذا الإبداع أكثر من التفكير فيه أو حوله.

■■■

تاريخ دراسة الدراما

أ. نيكست

ترجمة: ضيف الله مراد

دمشق: وزارة الثقافة السورية، ٢٠٠١

عرض لتاريخ دراسة الدراما عن أهم الفلاسفة الألمان فى القرن التاسع عشر وآرائهم فى المسرح والنظريات التى وضعوها لدراسة الدراما والكوميديا ومواقفهم المتباينة وخلافاتهم مع النقاد فى قضايا الإبداع.

«نقــــد»

أصنام النظرية وأطياف الحرية

على حرب

بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١

ينتقد المؤلف فى هذا الكتاب ظاهرتى بيار بورديو عالم الاجتماع الفرنسى ونقوم تشومسكى عالم الألسنيات الأمريكى، ولا يخلو نقد المؤلف من اتهامات واضحة لكليهما بالنرجسية والأصولية والرجعية، كاشفًا عن أوجه خلل رهيبة فى منهجيهما من وجهة نظره بطبيعة الحال.

■■■

آفاق لأدب أفريقيا فيما وراء الصحراء

الهادى المبروك الدالى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

دراسة لأكاديمى ليبى رأى أنه لا فرق كبيرًا بين الأدب الشعبى الليبى والمغربى عن نظيره الموجود فى جنوب الصحراء،

حيث يتشابه الإيقاع والكلمات ربما حملت المضمون نفسه وإن اختلفت الألفاظ والتعابير، والمؤلف يعرض لنماذج شعرية ونثرية قديمة وحديثة كتبها أدباء أفارقة باللغة العربية.

■■■

التاريخ والتجربة فى الكتاب لأدونيس

زهيدة درويش جبور

بيروت: دار النهار، ٢٠٠١

مقاربة نقدية توازى إبداع النص الأدونيسى موفقة بين المنهج الأكاديمى والعلمى والحس الأدبى محققة ما يسميه رولان بارت «لذة النص» الذى ينتقى فيه أدونيس الأحداث الدامية فى التاريخ العربى ليكشف ظلامية السلطة وسطوتها الباحثة فى علاقتها بالإنسان العربى.

■■■

القيمة والمعيار.. مساهمة فى نظرية الشعر

يوسف سامى اليوسف

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠١

يحاول المؤلف أن يحيى رؤى نقاد الشعر والأدب الأقدمين فى تراثنا العربى من أمثال الجرجانى والباقلانى وابن طباطبا، والذين كان لمساهماتهم دور مهم فى إثراء تراثنا الأدبى وتطويره، فيما بعدت مدارس النقد الحديث عن تناغم الكلمات وجمال البيان.

■■■

سيكولوجية الشعر

محمد طه عصر

القاهرة: عالم الكتاب، ٢٠٠١

دراسة نقدية فى كيفية الاستفادة من علوم الغرب ومصطلحاته فى التحليل النفسى وغيره من المدارس النقدية، مع التركيز أساسًا على المدرسة الفرويدية، ثم كارل يونج الذى انشق عليه، ويقدم ذلك كله للشاعر والدارس والقارئ، كيف يصبح الشعر أكثر إمتاعًا.

■■■

مائة عام من الفكر النقدى

سعيد الخاتمى

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

يقرأ المؤلف مجموعة من الدراسات النقدية التى كتبها معروف الرصافى والزهاوى والبصير ونازك الملائكة وفاضل تامر، وهى أعمال أقرب إلى الفلسفى والفكرى منها إلى النقدى، لكنها فى كل الأحوال ترصد تطور مسار هذا الفكر عبر مدى زمنى طويل يقارب القرن، وتعكس صورة لجدل المائة العام.

■■■

مراودة النص

نبيه القاسم

فلسطين: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١

يدرس المؤلف عددًا من الروايات والمجموعات القصصية الفلسطينية متتبعًا التطور الفنى الذى طرأ على الإبداع الفلسطينى فى السنوات الأخيرة، وموقع هذا الإبداع فى مسيرة الأدب العربى عمومًا.

■■■

«السلاح البيولوجى»

The Biology of Doom: The History of America's Secret Germ Warfare Progect

(تاريخ البرنامج الأمريكى السرى للحرب الجرثومية)

Ed Regis

Owl Books, 2000, 259PP., $ 15.00

استطاع المؤلف أن يحصل على ألفى نسخة من وثائق حكومية سرية متعلقة بالمحاولات الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية فى تطوير أساليب الحرب البيولوجية. ويتتبع المؤلف برنامج الأسلحة البيولوجية الأمريكية تاريخيًا منذ أن بدأ عام ١٩٤٢ وحتى أنهاه الرئيس نكسون عام ١٩٦٩.

بدأ البرنامج الجرثومى فى ولاية ماريلاند الأمريكية تطويرًا لتجارب البريطانيين على الأنثراكس وقد واجهوا صعوبات تقنية كبيرة فى تحويلها إلى أسلحة. البرنامج كان يوظف حوالى ٥ آلاف باحث وموظف وضابط، وقد اكتشف المؤلف أن البرنامج كان من ضمن مموليه رجل الأعمال صاموئيل برونفمان رئيس شركة سيجرام. ومن الحقائق المفزعة التى تكشف عنها أيضًا الوثائق أن البرنامج تضمن إجراء اختبارات باثولوجية على ألفين من المتطوعين البشر، بالإضافة إلى إجراء تجارب على الأراضى الأمريكية وفى الهواء الطلق.

■■■

Anthrax: The Investigation of a Deadly Outbreak

(أنثراكس: التحقيق فى تفشى وباء مميت)

Jeanne Guillemen

University of California Press, 1999, 339PP., $ 40.00

يفحص هذا الكتاب ملابسات الحادث الذى وقع فى شهر أبريل من عام ١٩٧٩ فى مدينة سفردلوفسك السوفيتية التى تقع فى جبال الأورال والذى أدى إلى وفاة أربعة وستين مواطنًا. وقد ألقت السلطات وقتها اللوم على بيع لحوم مصابة بالأنثراكس فى المدينة، ولكن يثبت المؤلف فى هذا الكتاب أن السبب وراء الإصابات والوفيات كان إطلاق جراثيم الأنثراكس من موقع عسكرى مجاور للمدينة.

ففى عام ١٩٩٢ اشترك المؤلف مع فريق بحث روسى - أمريكى لتقصى المعلومات عن هذا الحادث. وقد بدأ التحقيق من المدافن المحلية فى المدينة للوقوف على هويات الضحايا التى كانت قد أخفتها الكى. جى. بى، ثم قادهم البحث إلى القاعدة العسكرية «كومباوند ١٩». فما الذى كانت تقوم به هذه القاعدة العسكرية باستخدام الأنثراكس؟ هذا هو ما يحاول الكتاب أن يجيب عنه. ويقوم المؤلف بالإضافة إلى هذا بإجراء مقابلات مع الناجين وأقارب الذين أصيبوا وأوماتوا لإظهار الأثر الذى يتركه الأنثراكس على ضحاياه.

■■■

Biohazard: The Chilling Story of The Largest Covert Biological Weapons Program in the World-Told from Inside by the Man who Ran it

(القصة المفزعة لأكبر برنامج تسليح بيولوجى سرى فى العالم - يرويها الرجل الذى يديره)

Ken Albick

Stephen Handelmon (Contributor)

Delta, 2000, 320PP., $13.95

كين أليك المولود فى كازخستان هو أحد أهم العلماء السوفييت وكان قد تولى قيادة البرنامج السوفيتى للأسلحة البيولوجية من عام ١٩٨٨ وحتى عام ١٩٩٢. وفى عام ١٩٩٢ فر أليك إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبدأ فى إفشاء المعلومات للمخابرات العسكرية الأمريكية عن برنامج السلاح البيولوجى السوفيتى. وهو الآن يعمل فى إدارة الدفاع البيولوجى فى الولايات المتحدة.

يصف أليك فى مذكراته هذه كيف يكون السلاح البيولوجى أشد فتكًا من القنبلة الهيدروجينية خاصة مع تطبيق الهندسة الوراثية وهندسة الميكروبات فى تطويرها. وهو يكشف عن محاولات روسيا لتطوير نوع معين من السلاح البيولوجى يصلح للاغتيالات السياسية وأيضًا محاولاتها لتحويل عينة من مرض «الإيدز» إلى سلاح بيولوجى، بالإضافة إلى القصص التى يرويها عن الكى. جى. بى التى قامت بقتل الشهود الذين كانوا يقتربون من عمل هذا البرنامج السرى.

■■■

Underground

(تحت الأرض)

Haruki Murakami

Alfred Binnaub, Philip Gabriel (Translators)

Vintage Books, 2001, 366PP., $ 14.00

فى مدينة طوكيو وفى يوم ٢٠ مارس من عام ١٩٩٥ قام عدد من أتباع طائفة الأوم سترنكو بإطلاق غاز السارين السام داخل إحدى محطات قطار الأنفاق، فأصابت ركاب خمس عربات. استوقف هذا الحادث المرعب الأديب اليابانى المعروف هاروكى موراكامى فقرر أن يقدم عملاً غير روائى حول هذه الواقعة وما خلفته من آثار نفسية وما تثيره من أفكار وتساؤلات. قام موراكامى بإجراء المقابلات مع الذين نجت أعمارهم من آثار الحادث ولكنهم مازالوا يعانون متاعب صحية ونفسية بسببه. وقد وجد صعوبة كبيرة فى إقناع اليابانيين من أبناء وطنه بالتحدث والتخلى عن العادة اليابانية التقليدية التى ترفض الشكوى والنقد.

كذلك قام موراكامى بمقابلة أعضاء الطائفة الدينية واكتشف كيف أن أفرادها على درجة عالية من الذكاء والتعلم ولكنهم عانوا أنواعا مختلفة من الفراغ فى حياتهم ونفوسهم مما جعلهم يتبعون قائدهم شوكو أساهارا الذى وعدهم بالخلاص إذا ما خضعوا لإرادته.

■■■





لماذا أصبح المسلمون صيداً حلالاً؟!

فور وقوع الهجوم الانتحاري الذي تعرضت له واشنطن ونيويورك، فأشعل حريق حرب شهد العالم بدايتها ولم يشهد بعد نهايتها، اتجهت الأنظار إلى الشرق الأوسط، وعلى وجه التحديد إلى الشعوب العربية والإسلامية، تبحث في ثنايا الشوارع الضيقة، والفسيفساء الملونة، والتاريخ الحافل بالصراعات.. وربما تحت العباءات السابغة، أو وراء اللحى المرسلة والعيون الساهمة، عن أسماء وعلامات وتواريخ تدل على الطريق إلى مرتكبي الهجوم ومدبريه ومخططيه. فهنا وهناك. كما اكتشف بعضهم أخيراً. تكمن مستودعات كراهية دفينة. ونفوس مترعة بمشاعر الظلم والمرارة، وضحايا حروب ومعاناة مثقلة بالمهانة، عميت عنها عيون الغرب، وتعامت عنها النظم الحاكمة.

وها هي أمريكا التي جلست طوال عشرة أعوام منذ نهاية الحرب الباردة، متربعة على عرش من الرخاء والهيمنة والقوة العسكرية المطلقة التي لا ينازعها أحد، متحصنة وراء أسوار من العظمة والتفرد، تجد نفسها في موقف غريب، تبحث فيه عن الجذور التي أنبتت هذا العنف الموجه ضدها هي بالذات، وتطرح على نفسها وعلى مفكريها وخبرائها سؤالا مُلحّاً لخصته إحدى المجلات في عبارة واحدة هي: لماذا يكرهون أمريكا؟ هل هو صراع بين الحضارات كما تنبأ هنتنجتون؟ أم أن له أسباباً غائرة في أعماق الحضارة الإسلامية كفكر ودين؟ أم أنها بعض تجليات العجز الذي مُنيت به النظم العربية الحاكمة بإخفاقها في تطبيق الديمقراطية وتحقيق التقدم لدى شعوبها؟

وكان طبيعياً في ضوء هذه التساؤلات أن تتردد. على لسان بيرلسكوني مثلاً. أصداء أفكار عنصرية قابعة في تلافيف العقل الأوروبي والغربي بصفة عامة منذ عصور الاستعمار، تضع شعوب الشرق في مرتبة أدنى، تجعلها غير قادرة على الانفتاح والإنتاج والتطور، وتظل بحكم قيمها المتخلفة، تدور في صراعات عابثة غير عقلانية تفضي بها إلى التآكل والانتحار، وذهبت تفسيرات أخرى إلى أن ما ينعم به الغرب. وأمريكا في المقدمة. من رخاء وتقدم ورفاهية، هو الذي يثير حقد وكراهية شعوب فقيرة مطحونة ومحرومة من كل شيء.. وشخصية مثل بن لادن وتنظيم القاعدة، وجماعات مثل طالبان، هي التعبير الكامل عن مشاعر الغيرة والحسد والكراهية المدمرة الموجهة ضد الحضارة الغربية، هذه الصورة هي الصورة التي سعت وسائل الإعلام الغربية إلى تجسيدها للعالم الإسلامي، الذي يتربع بن لادن في القلب منه، علامة على وضع حضاري، ومستوى فكري، وعداء ديني يختزل فيه العرب كل الأسباب التي أدت إلى الأحداث الأخيرة.



وبغض النظر عن الأسباب الحقيقية التي صنعت ظاهرة الإرهاب وكانت مسئولة عن ولادة طالبان وبن لادن، وعن الأساليب الإرهابية التي استخدمتها الدول الكبرى في بسط نفوذها الاستعماري تارة والاقتصادي والسياسي تارة أخرى، فإن الحديث عن العنف الأعمى والإرهاب الوحشي الذي أدى إلى سقوط عدة آلاف من الضحايا الأبرياء، فتح الباب أمام جدل واسع النطاق، أُعيد فيه إنتاج واستحضار الصور النمطية للإنسان العربي والمسلم في العقل الغربي والأمريكي. وكانت هذه الصورة هي عريضة الاتهام التي وجهت إلى مئات من العرب والمسلمين الذين يعيشون في الغرب، والذين كان عليهم أن يواجهوا أسباب الريبة والشك، ويدفعوا عن أنفسهم أصابع الاتهام وملاحقات الشرطة في الشوارع والمطارات.

فالعربي بملامحه الشرقية العربية، وأسمائه وعاداته وأسلوب حياته وجذوره الثقافية وأزيائه؛ بنسائه ورجاله وأطفاله، إما أن يظهر في صورة بدوي جاهل حملته ثروة النفط التي لا يد له فيها على ظهرها، فلا يعرف في الحياة شيئاً غير بعثرة أمواله في صالات القمار ومخادع النساء، أو يظهر في صورة عصابية متعصبة، تتسم بالجلافة والغلظة وانعدام الذوق والسلوك، مرشح دائماً لكي يلعب دور الإرهابي الذي يخطف الطائرات، ويلقي القنابل على الأبرياء، ويفجر المباني والسفارات، لأنه يعادي المعرفة والتقدم، ويكره حضارة الغرب ولا يجد نفسه فيها.



هم يسألون أنفسهم في الغرب: لماذا يكرهوننا؟ ونحن لابد أن نسأل أنفسنا في الشرق نفس السؤال.. هل هذه الصورة النمطية الناطقة بالاحتقار والاستعلاء هي التي تولِّد لديهم تلقائياً مشاعر الغرائبية والخوف من الآخر؟ أم أن هناك تياراً معادياً. لأسباب سياسية. هو الذي يغذي هذه المشاعر ويضخمها ويلح عليها في البيئة الثقافية التي يعيش فيها المواطن العادي في الغرب؟ أم أن لدينا بالفعل من جوانب النقص والقصور والممارسات السلبية ما يشجع على تثبيت هذه الصورة النمطية، وتعميقها، وتحويلها في أي لحظة من اللحظات إلى أداة للهجوم، أو سلاح للضغط، أو مبرر للعداء؟

لقد آن الأوان. وباب الجدل حول هذا الموضوع مفتوح على مصراعيه في العالم كله. أن ننظر نحن داخل ذواتنا، ونعيد تقييم أوضاعنا، ونفتش عن جوانب القصور التي تولد لدى الآخرين تجاهنا. وفي الغرب بالذات. نظرة الاستخفاف أحياناً، والاتهام وإساءة الظن أحياناً أخرى، والعداء والاستعداء والاستبعاد في كثير من الأحيان.

هناك إجابات كثيرة قد يضيق المقام عن ذكرها..

ولكن أول ما يتبادر إلى الذهن، هو وجود حاجز ثقافي حال دون تعريف الغرب بمنجزات الحضارة العربية والإسلامية، وغيّب عن الفكر الأمريكي. والأوروبي بدرجة أقل. الإسهام الثقافي والحضاري للشعوب العربية والإسلامية، فلا يكاد يهتم بها أو يطلع عليها غير دائرة محدودة من المثقفين والأكاديميين، أو الدبلوماسيين ورجال الأعمال الذين تقودهم ظروفهم إلى هذه الأصقاع، وحيث تغيرت وتبدلت المعايير التي يقاس بها التقدم الحضاري والإبداع الثقافي، فإن غياب الإسهامات العربية عن الحضور العالمي في الفن والموسيقى والأدب والسينما من ناحية، وفي مجال العلوم والتكنولوجيا من ناحية أخرى، لم يدع لشعوب الغرب فرصة للتعرف على الحياة العقلية والفكرية المعاصرة، وإذا أتيح له أن يطلع عليها جاءته مشوهة باهتة. ونحن من جانبنا لم نصنع شيئاً للتغلب على هذا القصور. ويكفي للدلالة على ذلك أن يكون فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب هو أول احتكاك حقيقي بيننا وبين الغرب. وأن يكون فوز زويل بنوبل في العلوم هو أول اقتحام عربي حضاري لعلوم الغرب وتقنياته المعاصرة.

يأتي بعد ذلك عامل آخر نتحمل نحن مسئوليته بالدرجة الأولى، يعود إلى إخفاقنا كمسلمين في تقديم الإسلام وفكره ومبادئه الحقيقية إلى العالم المعاصر.. مستنيراً متحرراً من الجمود والتخلف. قادراً على مواكبة التجديد والتقدم والقيم الإنسانية التي تحكم العصر. فبينما نجحت المسيحية في تجديد نفسها خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، أخفق مشروع التجديد في الفكر الإسلامي الذي قاده محمد عبده، وسيطرت على الفكر الديني تيارات الجمود والمحافظة وتغليب النقل على العقل. فإذا العالم الخارجي لا يرى من الإسلام غير أكثر وجوهه جموداً وتخلفاً وتطرفاً. ليصبح نموذج «طالبان» هو النموذج الذي يراه العالم ويحاكم الإسلام والمسلمين به.. وحين وقعت أزمة تماثيل بوذا، لم تفلح أكبر المراجع الإسلامية في إقناع «طالبان» بالتراجع. ولم ير الغرب من الإسلام غير هذا الوجه القبيح الذي يحرِّم خروج النساء وتعليمهن. ويمنع الموسيقى والتليفزيون. ويمنع حلق اللحى.. إلى آخر قائمة طويلة يصعب حصرها. ودلني على دولة ترفع شعار الإسلام وتتدثر به، استطاعت أن تقتحم أبواب العصر وأن ترتفع بمستوى شعبها علماً وعملاً إلى مستوى معقول يضاهي دولاً أوروبية متوسطة القيمة لم يكن لها في التاريخ الإنساني إسهام يُعتَدُّ به.

يتصل بذلك من قريب، غياب الشرعية السياسية التي تقوم عليها الدولة الحديثة في عالمنا المعاصر.. شرعية السلطة، وشرعية الحكم، وشرعية العدالة، الأمر الذي وضع الشعوب العربية على هامش المسرح الدولي. فلم يعد أحد يأخذ الشعوب العربية مأخذ الجد، إلا بقدر ما تفرضه المصالح العاجلة، والانفجارات السياسية المفاجئة.. والنظرة السائدة إلى ظاهرة الإرهاب في هذا الجزء من العالم، هي أنها نتاج طبيعي لنظم الحكم القائمة، أو هي جزء من تكوين شعوبها التي. بالفطرة والغريزة. لا تعرف معنى الحرية والمدنية والديمقراطية، بل تحكمها ثقافة الخوف والقهر، وهي ثقافة لابد أن تفضي بالضرورة إلى ثقافة الإرهاب.

هذه أسباب وعلل لا يحق لنا أن نعلقها على صدام الحضارات، أو على إرث تاريخي من الكراهية والحروب الدينية والخلافات الثقافية. بل يجب أن نتحمل نحن مسئوليتها. ونبحث لها عن حلول من داخلنا وليس من خارجنا.. فالله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم!

سلامة أحمد سلامة



مجلة شهرية . العدد الخامس والثلاثون . السنة الثالثة . ديسمبر ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 35 - December 2001

محمد حسنين هيكل

من نيويورك إلى كابول وبالعكس!

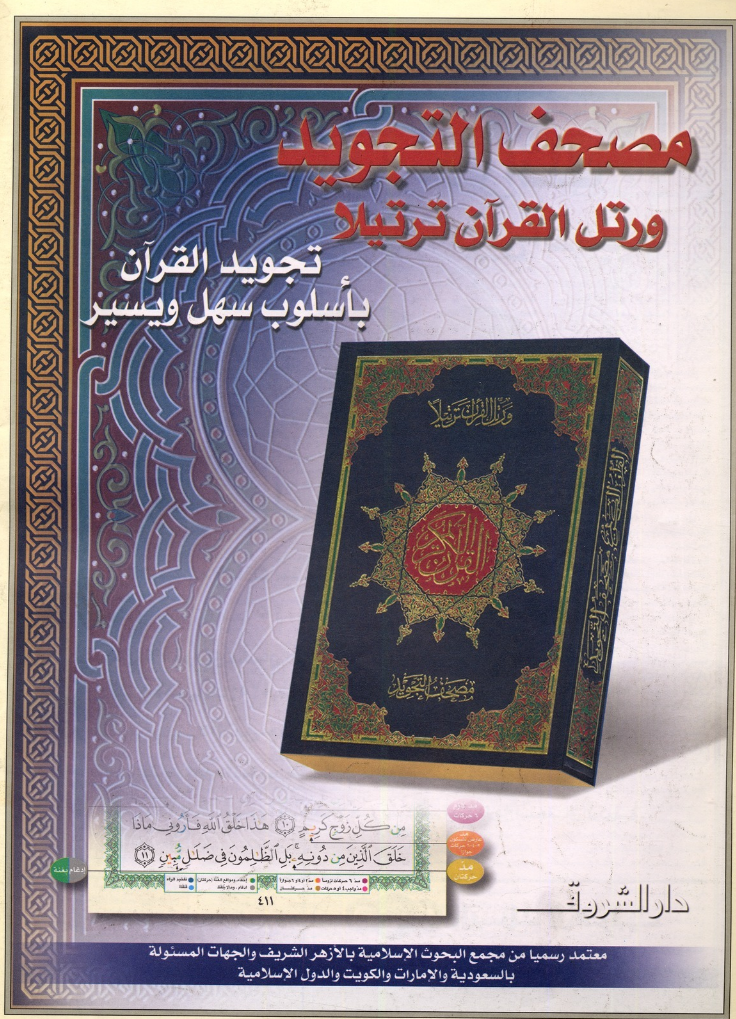
عن الأزمة والحرب!

و...

الحروب القذرة / نفط القوقاز / حركات الإسلام فى الغرب / عطر نجيب محفوظ / فن الكتاب العربى فى باريس / البنك الدولى والفقر / صراعات القرن الجديد / مصر فى عيون جمال حمدان / مسلمو الغرب وعزلة الإسلام

أم هاشم ملاذ الفقراء والعاجزين

يوسف القعيد



مصحف التجويد
ورتل القرآن ترتيلا
تجويد القرآن
بأسلوب سهل ويسير
ورتل القرآن ترتيلا
القرآن الكريم
مصحف التجويد
مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا
خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١
مد لازم ٦ حركات
مد عارض للسكون ٢-٤-٦ حركات جوازا
مد حركتان
إدغام بغنة
مد ٦ حركات لزوماً
مد ٢ أو ٤ أو ٦ جوازاً
مد واجب ٤ أو ٥ حركات
مد حركتان
إخفاء، ومواقع الغنة (حركتان)
ادغام، وما لا يلفظ
تفخيم الراء
قلقلة
٤١١
دار الشروق
معتمد رسميا من مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف والجهات المسئولة
بالسعودية والإمارات والكويت والدول الإسلامية

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد الخامس والثلاثون
ديسمبر ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

❞ تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة ❝

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- حسن أبو طالب .. مساعد مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
- ستيفن كوتكن .. كاتب بمجلة لندن ريفيو أوف بوكس.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- كامل زهيرى .. صحفى.
- مايكل فريشكوف.. باحث فى الفولكلور الشعبى.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد السماك .. كاتب لبنانى.
- محمد فخرى الوصيف.. أستاذ فى التاريخ الأندلسى.
- محمود عبد الفضيل .. أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.
- محيى الدين اللباد .. فنان ومصمم جرافيك.
- يوسف القعيد .. صحفى وروائى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة



المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٢٠٤٩٠/ ٣٩٢٠٤٩٢/ ٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

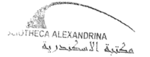
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..



رقعة الشطرنج

تكشفُ «بى نظير بوتو»، وهى رئيسة وزراء سابقة لباكستان فى مقال لها عن تقرير قدمته شركة «أونوكال» للغاز قبل حوالى عامين إلى لجنة الشئون الدولية فى مجلس النواب الأمريكى يؤكد «جوهرية» مصادر النفط والغاز فى آسيا الوسطى وبحر قزوين بالنسبة إلى الاقتصاد الأمريكى. وكيف ان اللجنة الأمريكية خَلُصت يومها إلى أن «اهتمامَ الكثيرين بالمنطقةِ ومواردها بات متزايدًا.. وأن من مصلحة الجميع توفيرَ ما يكفى من الطاقةِ للاحتياجاتِ المتزايدة.. لأن عدم تلبيةِ الاحتياجات سيحدث ضغوطاً فى كل أسواق العالم تؤدى إلى رفع الأسعار».

ورغم أنه قد يبدو من باب المبالغةِ النظر إلى كل ما يجرى بعد الحادى عشر من سبتمبر، سواء على الأرض الوعرةِ فى وسط آسيا، أو فى مكاتبِ البيتِ الأبيضِ الوثيرة، على أنه «حرب الخليج الثانية» التى تضع ضمن أهدافها: الحفاظ - أو السيطرة إن شئتَ القول - على منابع النفط هناك، إلا ان حديثَ «النيوزويك» الأمريكية عن «يالطا» جديدة، فضلاً عن العلاقةِ الحتميةِ بين السياسةِ والاقتصاد.. والحرب، تجعلُ من المفيد النظر إلى «صراع النفط والسياسة فى القوقاز» على انه مهما يكن من أمر، يظل احد عناصر المشهدِ المتشابكِ التفصيلات شديد التعقيد.. وذى الأبعادِ المتعددةِ دينيًا وثقافيًا وسياسياً واقتصادياً.. والمظلل بسحابات البارود والدخان.

«صراع النفط والسياسة فى القوقاز» هو موضوع وعنوان مقال كتبه محمد السماك لـ«وجهات نظر».. والتى يقارن فيها بين بحر قزوين فى وسط آسيا و الخليج العربى فى غربها.. موضحًا بالأرقام والخرائط كيف أن الثروة النفطية فى كليهما جعلت التنافس الدولى على الحصول على امتيازات الاستثمار حول بحر قزوين، وعلى تحديد جغرافية امتداد الأنابيب إلى أوروبا أشبه ما تكون بالوجه الآخر لما حدث فى منطقة الخليج العربى من قبل. وكيف طرح الاختلاف الجغرافى والديموجرافى بين المنطقتين سياسةً مختلفةً فى التعامل مع واقع كل منهما: فالناقلات تربطُ بين الدول المنتجة فى الخليج والدول المستهلكة مباشرة عبر طرق بحرية مفتوحة.. بعكس الحال بالنسبة لبحر قزوين «المغلق». كما أن العلاقات بين دول الخليج الصحراوية ذات العرق الواحد والثقافة الواحدة والأراضى المنبسطة. تختلف مترتباتها بالضرورة عما يترتب على وعورة التضاريس الطبيعية والإثنية فى وسط آسيا. والتى تشهد صراعات تاريخية يعود بعضها إلى مطلع القرن الماضى (اتهام تركيا العثمانية بارتكاب مجازر ضد الأرمن).



التضاريسُ العرقيةُ الوعرة لوسطِ آسيا، زادتها أصابعُ اللاعبين الكبار ذوى المصلحة صعوبةً وقسوةً.. وملأتها - عبر التاريخ - بالدماء. الأمر الذى يتضحُ من قراءة «ستيفن كوتكن» لكتاب «أمم صغيرة وقوى كبيرة: دراسة للصراع السياسى الاثنى فى القوقاز» والتى تنشرها «وجهات نظر» فى هذا العدد بترتيب خاص مع مجلة «لندن ريفيو أوف بوكس» ويدلل فيها على رأى «كورنيل» مؤلف الكتاب الذاهب الى أن «السياسة وتقلباتها.. وليس اختلاف الحضارات والثقافات»، هى مفتاح كل مايجرى .. وسوف يجرى فى تلك الأرض البائسة. فروسيا التى تغلب فيها العقيدة الأرثوذكسية الشرقية تؤيد الآجار المسلمين داخل جورجيا الأرثوذكسية الشرقية، والعلاقات بين أرمينيا وجورجيا المسيحيتين متوترة، والعلاقات بين أذربيجان المسلمة وجورجيا علاقات حارة.

مقالة «كوتكن» والتى عرض فيها أيضًا لكتاب عن «الحرب القذرة.. صحفى روسى فى الشيشان»، توضح كيف أنه وعلى امتداد العمود الفقرى الصخرى لأوراسيا دارت اللعبة الكبرى للحرب الباردة، «بلا ضمير من الجانبين»، ولكن بأسلحة فتاكة وآثار بعيدة المدى. فالحرب الروسية فى أفغانستان مثلاً، والتى أودت بحياة ١٫٢ مليون أفغانى (خسائر السوفييت لم تتجاوز ١٥ ألفًا على مدى السنوات العشر للحرب) ورغم أنها وحدت الأفغان فى مقاومتها الا أنها فى الواقع أثارت منذ البداية شعورًا أعمق بالكيان العرقى وانقسامًا أشد بين الأفغان التركستانيين فى الشمال والبشتون الميالين للباكستان فى الجنوب. وشجع ذلك على قيام نزعة إسلامية متشددة وزعامات حزبية متطرفة بدلاً من الحكومة. وساهمت واشنطن فى هذا الصدد بسخاء. فبدلاً من أن تساند مساعى جورباتشوف وقتها لإنشاء حكومة ائتلافية ،فضلت التأكد من أن موسكو سوف تنزف بغزارة وأن «عميلها» فى كابول سيلقى هزيمة كاملة. والمفارقة أنه فى الوقت الذى كانت فيه واشنطن تشجع على العنف الإسلامى فى أفغانستان، كانت تنفق من ناحية أخرى أموالاً طائلة لمحاربة الإسلام فى إيران وذلك بتسليح عراق صدام حسين على سبيل المثال. وحسب «كوتكن» فإن ذلك كان مثالاً واحداً من التصرفات المربكة العديدة التى قامت بها دولة عظمى . والآن يبدو أن الولايات المتحدة تغازل السلطات الاستبدادية فى آسيا الوسطى - وهى تنويعات من الأنظمة الشبيهة بالنظام السوفيتى التى عملت على إسقاطه - ذات يوم - فى أفغانستان .

أما جماعة طالبان فقد كانت وليدة الأخطاء السوفييتية القاتلة والخداع الأمريكى، والتمويل الخليجى، والمخطط الباكستانى والإحباط العربى .. إلى جانب سيل من مدافع الكلاشينكوف والألغام الأرضية، وزراعة الهيروين، والأمية، والفوضى، والورع الإسلامى. والحاصل أنها ذهبت كما جاءت . ككل المصادفات العفوية الناجمة عن تحريك قطع الشطرنج على الرقعة الكبيرة.



ورغم أن الحرب الأفغانية، التى أدت إليها - ربما - أحداث سبتمبر، دفعت بالـ«الموضوع الإسلامى» إلى أغلفة الكتب، ومانشتات الصحف ، وبرامج الحوار التليفزيونية، إلا أن الحقيقة أن الإسلام شغل على الدوام مكاناً هاماً فى الاهتمام الغربى، ليس فقط لكونه هدفا لدراسات دينية وأنثروبولوجية وسياسية فيما يعرف بـ«الاستشراق»، ولكن أيضا باعتباره قضية «آنية» ذات أبعاد سوسيوثقافية وسياسية وأمنية . إذ أصبحت هذه المجتمعات تضم - واقعياً - أجيالاً عديدة من المهاجرين المسلمين (يبلغ عدد المسلمين فى دول الاتحاد الأوروبى عشرة ملايين نسمة)

كما أن هناك فى هذه الدول حركات إسلامية، تعنى بالدرجة الأولى مواطنين ينتمون إلى هذه الدول بحكم السياق القانونى ومعايير المواطنة السائدة فيها، ولكنهم يدينون بالإسلام وفقا لتجربتهم الخاصة تاريخيا واجتماعيا ودينيا أيضا.

المسألة كانت موضوعًا لمقالين أحدهما لفخرى الوصيف. ويعرض فيه لكتاب يتناول تاريخ الجماعات المسلمة فى أوروبا، مركزًا على إسبانيا / الأندلس، نقطة التماس المفعمة بالمعانى والذكرى لدى الطرفين. والثانى لـحسن أبو طالب» الذى يعرض فيه للحركات الإسلامية «غير الوافدة» فى الغرب. وماهو الاختلاف بين نموذج «اليجا محمد» و «لويس فراخان» من ناحية، والنموذج البريطانى والفرنسى من ناحية أخرى.

المقالان اللذان كُتبا لـ«وجهات نظر» قبل أحداث سبتمبر، تظل لقراءتهما فى ضوء ما تلى تلك الأحداث أهمية خاصة.



سطور

ستون عددًا.. وخمسُ سنوات، هى عمرُ محاولة مجلة «سطور» الثقافية المحترمة. ولأسبابٍ تظلّ فى التحليل النهائى «غير ذاتِ صلة» يبدو أنها مضطرة الآن للتوقف عن الصدور. كما ذكر ناشروها فى عددها الأخير.

وفى بلدٍ مثل مصر. وعالم مثل عالمنا العربى أحوجُ ما يكون إلى تعددِ الأصوات والمنابر.. والثقافة.. يظلّ خبر اختفاءِ مثل تلك المطبوعة الرصينة خبرًا حزينًا. وتظل الحاجة إلى معالجةِ الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى ذلك.. ضرورية.

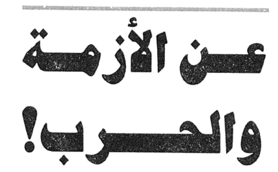
وجهات نظر

محمد حسنين هيكل



من نيويورك إلى كابول وبالعكس!

عن الأزمة والحرب!



■■ كان ترتيبى قبل أن تقع الواقعة فى نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر الأخير، أن أقصد إلى بعض عواصم أوربا، ومنها إلى الولايات المتحدة: واشنطن ونيويورك. وجرى تجهيز إجراءات السفر وتحدد موعده فى الصباح الباكر من يوم ١٧ سبتمبر وهو يوم أربعاء، وخط سيرى المرسوم أن أتوجه إلى لندن لأيام معدودة، ومنها عبر المحيط إلى نيويورك فى عطلة نهاية الأسبوع، وبحيث أكون يوم الاثنين التالى (١٦ سبتمبر) فى واشنطن، بادئا اليوم من أوّله، باحثا عن الأحوال والاحتمالات كما تبدو فى العاصمة الأمريكية التى أصبحت - أعجبنا أو لم يعجبنا - عاصمة القوة فى العالم ومركز القرار فى مصائره...

وكنت على معرفة بأن هناك «نوايا» و«خططا»، فرغت الإدارة الحالية فى الولايات المتحدة، مع ربيع هذا العام (٢٠٠١)، من بلورتها - وهى على وشك أن تطرحها للتنفيذ على اتساع قارات العالم وفيها المنطقة التى تعنينا أكثر من غيرها وهى منطقة الشرق الأوسط.

وبالفعل فقد كنت اطلعت على نصوص تقرير رئاسى أمريكى بشأن استراتيجية جديدة جرى اعتمادها من جانب الإدارة الأمريكية لمستقبل العمل فى هذه المنطقة، وشغلنى التقرير، حتى أننى عرضته على صفحات هذه «المجلة» (فى عدد أول سبتمبر) - ثم رأيت الارتحال عبر البحر وعبر المحيط باعتقاد أن هناك الكثير مما يمكن استجلاؤه والبحث فى تفاصيله: سؤالا، وجوابا، وحوارا وفهما بقدر ما هو ممكن.

وعصر يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر، كانت الترتيبات فى مواضعها، بما فى ذلك مواعيد اجتماعات حرصت أن أضمن لها وقتا يكفينى، ولقاءات على الإفطار والغداء والشاى والعشاء متواصلة، وهى مناسبات للكلام أكثر منها مناسبات للطعام.

وفجأة وكنت أطل على قناة CNN فوق شاشة التليفزيون - توافقت نظرتى الأولى بمحض مصادفة مع إشارة تقطع البرامج بخبر طارئ، يفيد أن طائرة مدنية اصطدمت بأحد برجى التجارة الشهيرين فى نيويورك، ولدقائق تصورت أنها حادثة وقعت بسبب طيار ضل مساره أو أخطأ ارتفاعه، فارتطم بناطحة سحاب، تمثل هى وتوأم لها، أظهر العلامات على خط الأفق الشهير لمدينة نيويورك.

ورحت أتابع ما بدا لى - رغم مأساويته - حدثا عاديا يقع مثله كل يوم مع اختلاف الظروف والمواقع. ثم استجد بعد دقائق ما ظللت لبعض الوقت غير قادر على تصديقه، فقد ظهرت على حافة شاشة التليفزيون طائرة ثانية، اخترقت الصورة بسرعة، ثم نفذت فى البرج الثانى، ومع أنه كان من العسير على أى عقل أن يستوعب معنى ما جرى، فإن الحقيقة كانت أمام العيون تفرض يقينها، حتى وإن كانت هذه الحقيقة عصية على التصديق، متفوقة على الخيال، داعية إلى الانبهار قبل إدراك أن الصور وراءها - بالضرورة - مصائب ومآس إنسانية.

ثم يزداد عمق الفجوة بين الصورة المبهرة والحقيقة الدامية، عندما يبدأ البرجان التوأمان - العملاقان - فى الانهيار - من الداخل كأنهما صرح يسقط راكعا على ركبتيه مكوما على الأرض ومن حوله جبال من ركام الحديد والحجر، فوقها كتل اللهب المتهاوية تسحق أجسادا وأرواحا ولحما ودما وآمالا وطموحات دهمها الموت، وهو موت رهيب بآلامه وعذابه، وخصوصا أن زمان المأساة طال ما بين اصطدام الطائرة الأولى ببرج التجارة الأول، والثانية بالبرج الثانى، وتهاوى التوأمان العملاقان بثقلهما المخيف على ما بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف من البشر - وهو زمان طال مداه قرابة الساعتين، يعلم الله ما جرى فيهما.. وكيف؟

ولبعض الوقت دار فى خلدى أن ما وقع أمام عينى وأمام عيون مئات الملايين من الناس، يحرض على السفر أكثر مما ينهى عنه، فما جرى هو بالنسبة للصحفى حدث مهول - لكن صوت النهى كان مسموعا من حولى وأسبابه متنوعة.

وعندما دخل الليل، كانت الأنباء تقول أن عاصفة النار والدمار فوق نيويورك وواشنطن فجرت بعدها إعصار غضب وجنون، اجتاح الولايات المتحدة الأمريكية من الشرق إلى الغرب، ووصلت آثاره بعيدا وعميقا، وأن كل ما هو عربى ومسلم أصبح معرضا ومكشوفا، ولم يكن ذلك فى حد ذاته ما جعلنى أغير رأيى، وإنما غيرت رأيى لإدراكى أنه بعد كل ما جرى فلن أكون حيث أذهب سائلا، وإنما سوف أكون مسئولا، ولن أكون زائرا يرغب فى السماع، وإنما «صاحب بيت» - مفروض عليه أن يتكلم، ولم أكن على استعداد لأكثر من سبب:

■ فيها أننى فى شأن ما جرى متابع مهتم، وليس طرفا ضليعا فى الموضوع وخباياه.

■ وفيها أن ما لدى من الأسئلة، كان كثيرا قبل الواقعة، ثم أضيف إليه الأكثر بعد الواقعة.

■ وفيها أنه ليست عندى إزاء ما رأته الدنيا بأسرها إجابات، وحتى إذا كانت عندى اجتهادات - وليس إجابات - فليس يعنينى الآن طرحها بقدر ما يعنينى أن أسمع غيرى إذا توصل لشىء. مع أن الإشارات الأولى كشفت أن الكل مذهول بالمفاجأة، مأخوذ بصورها، مروع بالمأساة بعد المفاجأة ووراء الصور، ثم إن المزاج العام ساخن وكذلك منفلت!

وهكذا - وفى اللحظة الأخيرة - قررت إلغاء ترتيبات السفر، بترجيح أن المتابعة الآن أفضل عن طريق سيل من الرسائل لا ينقطع على الإنترنت، وصور لا تتوقف على شاشات التليفزيون، إلى جانب ما تحمله صحافة العالم وكلها واصلة إلى القاهرة فى ساعات، ثم إن المتابعة من مسافة - كذلك قدرت - أدعى إلى فهم أقل توترا، وبالتالى أكثر تأنيا (إذا كان ذلك ممكنا).



ومضى أسبوع وثان وثالث، ثم عاد الصحفى داخلى يُذكّر بنفسه ويُلح، فسيل الرسائل على الإنترنت مفيد، وشرائط الصور على شاشات التليفزيون معبرة، وصحافة العالم الواصلة تعطى تغطية عريضة وشاملة. لكن الصحفى يحتاج أكثر، يحتاج أن يرى بعينيه، وأن يسمع بأذنيه، وأن يلمس بأصابعه، وأن يجلس مع ناس يعرفون، فى مواقع تسمح لهم بأن يعرفوا، وأن يسأل ويستجوب ويجادل ويسعى بالحق الطبيعى لمهنته كى يوفر لنفسه رؤية واضحة، على الأقل كافية - إذا جاء عليه الدور ليقول ما عنده، بعضه أو كله، وبقدر ما تسمح له الظروف!

وهكذا بعد انتظار ثلاثة أسابيع، عدت أحرك وأستعجل إجراءات السفر. ومن باب الاحتياط، فقد تصورت أن أبدأ ببعض العواصم الأوربية، وبعدها أفكر إذا كان عبور المحيط إلى أمريكا مفيدا، أو أن مناخ الهستيريا الذى تملك الجميع - ولهم العذر فيه - مازال مستحكما، وإذا كان «ذلك كذلك» (كما يقول الفقهاء تجنبا لتكرار الحيثيات فى أية فتوى) - إذن فإن السفر يمكن اختصاره، ويكون اقتصاره على أوربا وحدها.

وهكذا كان. والحقيقة أننى لم أندم على الاختصار والاقتصار على أوربا، فما يصلنى من الولايات المتحدة كان مزعجا، ثم إن تجربة شخصية مباشرة - ولو أنها واحدة لم تتكرر - فى لندن زادت من إقناعى، بأننى لم أخسر كثيرا حين بقيت فى أوربا ولم أقارب شواطئ المحيط!

ملخص التجربة، أننى دعوت على العشاء ذات ليلة فى لندن صديقا قديما هو «السير مايكل وير»، الذى كان لسنوات طويلة سفيرا لبريطانيا فى القاهرة، ومعه قرينته «الليدى وير» وقد وصلنا جميعا إلى مطعم «سانتينى» متأخرين وعبرنا بسرعة إلى مائدة تنتظرنا.

وبدا لى ونحن نمر بالموائد فى طريقنا إلى مكاننا أن الجالسين على مائدة قريبة منا يتطلعون نحونا ويدققون، ولم يكن صعبا أن أشعر أنهم تعرفوا علىّ من صورة كبيرة وسط

حديث طويل أجراه معي الصحفي اللامع «ستيفن موس»، ونشرد بعرض صفحتين في «الجارديان» أمس، ثم إن «الايفننج ستاندارد» أعادت نشر الحديث بالكامل، ومعه نفس الصورة وبذات الحجم هذا المساء. وفي ذلك الحديث (مكررا يومين متتاليين) فإنني - إلى جانب كثير قلته - انتقدت بعض ممارسات السياسة الأمريكية في المنطقة.

ولم ألتفت إلى أن الذين تعرفوا عليّ لهم - كما ظهر فيما بعد - رأى بشأن ما قلته. وعلى أية حال فقد اتخذنا مقاعدنا حول المائدة المحجوزة لنا، وجاءت قائمة العشاء وطلبنا ثم جرى بنا الحديث مجراه ووصلنا إلى ما وقع في أمريكا وهو وقتها وحتى الآن شاغل الدنيا بأسرها وليس مائدتنا وحدها. وانقضى نصف الساعة تقريبا وكنت منهمكا في حوار مع «مايكل»، حتى لفتت قرينته هيلارى (ليدى وير) انتباهي لسيدة أقبلت تقف إلى جوارى، ويبدو أنها تريد أن تتحدث معي، والْتَفَتُّ وإذا سيدة طويلة القامة حسنة الهندام تقول بعصبية: «مهما كان ما تقول أو تقولون، فالله يبارك أمريكا». وقلت لها بصدق: «إنني أرحب أن يبارك الله أمريكا ويبارك أوطان الناس كلهم».

وردت وهى تدير ظهرها: «لا .. فليبارك الله أمريكا وحدها وليذهب الآخرون جميعا إلى الجحيم».

ولم أغضب، ولكن «هيلارى» (ليدى وير) غضبت، وهَمَّتْ بالرد تقول للسيدة الأمريكية: «إنها لا تملك حق أن تفقد أعصابها مع الناس».

وجاء صاحب المطعم السنيور «سانتيني» نفسه (وهو فنان له مؤلفات عديدة عن المطبخ الإيطالي، ومطبخ فينيسيا بالتحديد، كما أنه رجل تربطه صداقات ودودة مع كثيرين من رواد مطعمه الأنيق، (وكانت ضمنهم الأميرة ديانا وكوكبة لامعة من أصدقائها، والملك حسين وقرينته الملكة نور، والسيدة مارجريت تاتشر وقرينها دنيس). وقد جاء السنيور «سانتيني» محرجا، يحاول أن يعتذر، وهو يستغرب أن السيدة الأمريكية - وهي زوجة مليونير أمريكي يزور لندن مرتين أوثلاثا في السنة، ويملك بيتا كبيرا في ميدان «تشستر» القريب وهو من أرقى المواقع في حي «بلجرافيا» - خرجت عن الأصول. وكان رأيي أن ما فعلته الأمريكية (المليونيرة) ليس فيه ما يستوجب حرجه أو اعتذاره، لأنه أمر «وارد» في ظل هذه الأجواء، لكن «ليدى وير» كان لها رأى آخر.

وعلى أية حال، فقد زاد اقتناعي - بعدما سمعت في لندن تفاصيل مستفيضة عما جرى لكثيرين من العرب والمسلمين في الولايات المتحدة - بأنني فعلت صوابا باختصار رحلتي واقتصارها على شرق المحيط، وكذلك ظللت مدة الثلاثة أسابيع التي قدرتها لسفرتي، ملازما للشاطئ الأوربي للأطلنطي مستغنيا عن عبور المحيط إلى الغرب الأمريكي، وربما أن ذلك كان أكثر توافقا مع ميلي وحواسي وبظن أن الامبراطوريات القديمة مهما كان خلافنا معا، لديها حكمة التجربة وتوازنها بينما «الامبراطوريات الجديدة» لديها غرور القوة إلى جانب وحشية الإعلام وطغيان الغنى!



وطوال ثلاثة أسابيع من البحث في عواصم أوربية متعددة - ملاحظا، ومتابعا أكثر المرات، متكلما في أقلها - كان في ذاكرتي قول شهير للرئيس الأمريكي الأسبق «دوايت أيزنهاور» - جمع خلاصة خبرته قائدا أعلى لجيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، ورئيسا للولايات المتحدة الأمريكية ثماني سنوات - وفيه يقول: «إن السياسات الطيبة لا تضمن النجاح أكيدا، ولكن السياسات السيئة تضمن الفشل محققا».

وذلك هو محور حديثي اليوم - لكنني قبل الخوض فيه أقترح الالتفات بسرعة إلى عدد من الإشارات ■

«الحرب» .. تمثال من الحديد للفنان الإيطالي العالمي «أنطونيو كانيڤارى».

عن الأزمة والحرب!

الإشارة الأولى

الإمبراطوريات الحائرة والطرق المسدودة!

باريس:

في باريس تفهم عميق لحق الشعب الأمريكي في الغضب وحق الإدارة الأمريكية في العقاب، لكن.. هناك نوعان من الفهم:

نوع يرق بالتعاطف أحيانا - ونوع يقسو بالنقد أحيانا أخرى. وفي الحالتين فإن المنطق القانوني الفرنسي يعرض نفسه - بالرقة أو بالقسوة - متكاملا: وخلاصته: أن هناك فيما وقع يوم ١١ سبتمبر جريمة شنيعة... وذلك أمر لا يجادل فيه، ولا يستطيع أحد. لكن كل جريمة تحتاج إلى تحقيق يطرح عدة أسئلة:

١ - كيف وقعت الجريمة؟

٢- وبالتالي من ارتكبها؟

(ومن الواضح أن الإجابة عن السؤال الأول هي الأساس الذي تقوم عليه إجابة السؤال الثاني).

٣- يلي ذلك أن الجرائم لا تحاكم بنيران الجيوش، وإنما بنصوص القانون، والاختصاص فيها للبوليس والمحاكم، وليس للطائرات والصواريخ.

٤ - وعند المحاكمة وقبل الحكم، فإنه يتحتم أن تكون الفرصة متاحة للاطلاع على الأدلة، والقرائن، وسماع الشهود، والتثبت من وقوع المسئولية، بحيث تكون للحكم مشروعيته (لأن الجريمة تستغني عن المشروعية، لكن القضاء لا يستطيع)!

....

....

[وحين سمعت أن باريس تتفهم الدواعي التي حدت بالإدارة الأمريكية، إلى أن تتصرف بسرعة وإلى أن يكون تصرفها سريعا وقويا، حتى وإن لم تكن لديها خطة مدروسة ومتكاملة - فقد تذكرت مرة سنة ١٩٨٢، قابلت فيها الرئيس «فرانسوا ميتران»، وأيامها كانت الحرب الأهلية في لبنان على أشدها - وكان حادث خروج قوات مشاة البحرية الأمريكية من بيروت بعد عملية فدائية لحزب الله راح فيها أكثر من ١٧٠ قتيلا - ماثلا في الأذهان، ومعه حادث مشابه أقل حجما في خسائره ضد القوات الفرنسية. ويومها سألت الرئيس الفرنسي عن السبب الذي دعا فرنسا في ذلك الوقت إلى تحريك أسطولها في البحر الأبيض، ثم إن إحدى بوارجه وهي البارجة «جان دارك» راحت تقترب من الشاطئ اللبناني، حتى تكاد تلامسه، لكنها تستدير عائدة إلى عرض البحر، ثم تقترب ثانية وتعود ثانية، ويتكرر المشهد مرات ومرات بطريقة بدت غير منطقية.

وسألت الرئيس ميتران أثناء لقائنا، وأنا ساعتها ضيفه على الإفطار:

«عما كانت تفعله البارجة «جان دارك» قاصدة عائدة أمام شواطئ لبنان، وما كان القصد منه والحكمة»؟

ورد الرئيس الفرنسي قائلا: «إن ذلك كان طبيعيا» بل و« ضروريا».

ولم أقتنع، وواصلت سؤالي عن وجه الطبيعة والضرورة فيما فعلته «جان دارك» (البارجة!)، وتردد الرئيس ميتران (وأكاد أقول تلعثم!)، وإحساسي بينما كنت أتامله أن المثقف فيه يُغالب رئيس الدولة وكذلك قال:

«لك أن تعتبرها نوعا من الحركة العصبية. التشويح بأطراف الجسم (استعمل الرئيس ميتران تعبير «Gesticulation Politique»)».

ثم أضاف:

«إنه يحدث للدول ما يحدث للأفراد حين يواجهون مواقف تقتضي منهم أن يتحركوا، - ثم يكتشفون أن الخيارات المطروحة أمامهم لم تنضج بعد، وللحظة فإنهم بدلا من الكلام «يشوحون»، أي تتحرك أعضاء جسمهم تعبيرا عما يريدون فعله. وهم لحظتها لا يقدرون».

ويستطرد الرئيس ميتران: «لك أن تعتبر أن «جان دارك» وقتها كانت في ذلك الموقف، تعبيرا عن قوة فرنسية تفرض عليها الدواعي أن تفعل شيئا، لكن الحقائق على الأرض تمنعها منه: «لنقل أننا لحظتها كنا «نشوح» بالصوت والحركة».

وقلت: إنني الآن فهمت]

....

....

وبعد قرابة عشرين سنة (أكتوبر ٢٠٠١)، كانت القوة الأمريكية في وضع مشابه، فالدواعي الملحة تفرض عليها أن تتصرف، وترد بكل الوسائل كي تخفف من ثورة الشعب الأمريكي، وتهيئ له أنه «أخذ بثاره وانتقم». لكنه في تلك اللحظة كانت الحقيقة غائبة، والمشهد فوضى، والخطط لمواجهة هذا الذي حدث في نيويورك وواشنطن غير جاهزة أو غير كاملة (رغم أن هذا النوع من الخطر في عصر الحروب غير المتوازية، وهي حروب القرن الحادي والعشرين كانت واردة بالتقدير المسبق على الفكر)، لأنه كان صعبا على العقل استيعاب هذا النوع من الخطر حين وقع بالفعل. وكذلك لم تكن الخطط جاهزة أو لم تكن كافية!

وفي الحالة الأمريكية، فإن رئيس الولايات المتحدة لم يكن يقدر على التصرف كما تصرف الرئيس الفرنسي في موقف مشابه. مع وجود أوجه توافق بين الحالتين وأوجه خلاف:

● أوجه التوافق: أن هناك حدثا يطلب ردا، لكنه في غموض الوقائع وفوضى الشواهد وغياب الخطط، فإن هدف التصرف لم يكن واضحا، وهكذا بدأ التشويح والتعبير بلغة حركة اليدين والقدمين، وأعضاء البدن (بما فيها ملامح الوجوه ونظرات العيون وطلوع الحواجب ونزولها!).

● وأما أوجه الخلاف فهي أن «عقل» القوة الفرنسية فرض عليها أن تتوقف بعدما أسماه ميتران بـ: التشويح السياسي (Gesticulation Politique) - لكنه في حالة أمريكا فإن جموح القوة الأمريكية دفع بالرئيس الأمريكي إلى ما هو أبعد، مع تزايد الضغوط عليه.

وكذلك اختار رأس القائمة الجاهزة للمشتبه فيهم (وهو تنظيم القاعدة)، وقرر أن يضرب، عارفا أنه لا يملك فرصة - أو ترف - الانتظار.

....

....

[والحاصل أنني عرفت أن جورج بوش الأب كان أكثر من ألحوا على «جورج بوش» أن يتصرف بسرعة، وسمعت أنه قال له بعد عشاء عطلة نهاية الأسبوع في كامب دافيد ما مؤداه أنه: «ليس أمامه غير أن يضرب بسرعة لأن «العجز» هو الخطيئة التي لا تغتفر لأية سياسي، وتلك خلاصة تجربة عمره في العمل السياسي. وأن الناس يغفرون للرئيس إذا بان خطؤه، لكنهم لن يغفروا إذا تبدى عجزه»!]

....

....

الإشارة الثانية

١١٠٠ تسجيل تليفزيوني لـ بن لادن!

لندن:

وفي باريس وفي روما وفي لندن (وفي غيرها من العواصم الأوروبية)، إحساس بأن الولايات المتحدة استعملت قواتها العسكرية بسرعة ضد أسامة بن لادن - الموجود وسط حركة طالبان الحاكمة (ساعتها) في معظم أفغانستان - دون أن يكون لديها اليقين الكامل بأنه يتحمل مسئولية ١١ سبتمبر - أو على الأقل يتحملها وحده.

والشاهد أن أبرز ساسة أوربا سألوا نظراءهم الأمريكيين عما لديهم من أدلة على مسئولية «بن لادن»، ولم يحصل أيهم على رد يغنيه أو يكفيه. على أن ثقتهم بالولايات المتحدة أغنت وكفت.

وفي لندن وباريس وروما - وربما في غيرها من عواصم أوربا - وكما يحدث في بلدان متقدمة، يدعى إلى «اجتماعات تشاور» تطلب الرأى من خارج الإدارة القائمة في أية أزمة تطرأ، وفي العادة فإن هذه الاجتماعات يحضرها خبراء فيهم أساتذة جامعات ووزراء وسفراء سابقون يعرفون أطراف الصراع أو مناطق الحوادث التي تطرح نفسها مفاجأة على الاهتمام العام. ولكي يكون التشاور نافعا وليس صوريا، فإنه توضع أمام هذه الاجتماعات صراحة كل ما لدى حكوماتها من معلومات، لكي تنضم الخبرة السابقة إلى التجربة اللاحقة.

وحدث في عدد من هذه الاجتماعات - وليس من الضروري أن أحدد تفصيلا كي لا أحرج أحدا - أن المشاركين في أكثر من عاصمة وجهوا إلى رؤسائهم الحاليين سؤالين:

■ السؤال الأول: هل هناك دليل يمكن البناء عليه في الإقناع السياسي بمسئولية بن لادن - ومن ثم طالبان - ومن ثم أفغانستان (ومن ثم الإسلام) بمسئولية ما جرى يوم ١١ سبتمبر؟

■ والسؤال الثاني: ما هي اتجاهات العمل العسكري الأمريكي الحالي، وما هو الهدف الإستراتيجي منه؟

وبالنسبة للسؤال الأول، كان الرد على المستوى الوزاري أنه:

«ليس لدينا دليل قاطع على مسئولية بن لادن - طالبان - أفغانستان - فيما حدث يوم ١١ سبتمبر - (ثم يتواصل الرد) - على أنه لا بد أن

الجرائم لا تحاكم بنيران الجيوش وإنما بنصوص القانون، والاختصاص فيها للبوليس والقضاء وليس للصواريخ والطائرات

يكون لدى الأمريكان شيء يستندون عليه، لكنهم لم يقولوه لنا. ومما قالوه أن لديهم معلومات بأن بن لادن أو وكلاء مفوضين عنه أصدروا من بنك فى الإمارات العربية المتحدة عدة حوالات قيمتها نصف مليون دولار، فيها مائة ألف دولار لـ: محمد عطا، وهو المتهم بقيادة عملية ١١ سبتمبر، وفيها مائة ألف دولار أخرى باسم زميله: مروان الشيحى.

ثم إن المخابرات الأمريكية حصلت على صور من هذه الحوالات بتصريح من محافظ البنك المركزى للإمارات العربية المتحدة بعد طلب تقدمت به «مارسيل وهبة» سفيرة أمريكا فى الإمارات العربية المتحدة.

ورأيهم كما قالوه لنا صراحةً: «إن هذه الحوالات تقطع بالصلة بين بن لادن وبين المسئولين عن عملية ١١ سبتمبر».

ظنهم أيضا ـ كما عبروا عنه ضمنا ـ: «أنهم لا يستبعدون أن بن لادن ربما كان صادقا عندما قال إنه لم يخطط ولم يوجه عملية ١١ سبتمبر، فهو يعطى الأموال «يمينا ويسارا وفى الوسط» ـ لكن الهدف العام لما يعطيه معروف بصرف النظر عن تفاصيل كل عملية»!

«وفوق ذلك فقد أكدوا لنا (فى واشنطن) أنهم أجروا تسجيلات لاتصالات تليفونية قام بها بن لادن طول السنوات الخمس الماضية من جهاز تليفون جوال متصل بالأقمار الصناعية. وأن لديهم أكثر من ألف ومائة تسجيل لمحادثات تليفونية، وقد أرسلوا إلينا عينات منها، لعلها ترشد أو تدل على شيء!».

كذلك قيل فى «اجتماعات التشاور» فى أكثر من عاصمة أوربية فى الإجابة عن السؤال الأول.

....

....

[وسألنى أحد وزراء الدولة الأوربيين (ومرة أخرى لا أريد أن أحدد لأنى لا أريد أن أحرج): لماذا قلت (قبل ثلاثة أسابيع) «إن بن لادن لا يستطيع ولا يقدر على عملية مثل عملية ١١ سبتمبر»؟ وكررت على سائلى ما نشرته عن ظنى بأن بن لادن وحده لا يستطيع، وأن عمليات ١١ سبتمبر، سواء بمقتضياتها المعقدة فى التخطيط والإدارة والتنفيذ تتعدى قدراته، ثم إن ظروفه بما فيها المراقبة المستمرة عليه واختراق تنظيمه بالعمق ـ إلى جانب بُعد أمريكا عن مواقعه تخطيطًا وإدارةً وتنفيذًا ـ تجعل المسألة برمتها خارج طاقته.

وسألنى وزير الدولة الأوروبى المعنى: إذا لم يكن بن لادن فمن؟ وقلت: «إن ذلك يتجاوز اختصاصى، لكنى سمعت حوله ظنا عرضته كاملا».

«وأضفت أن ما طرحته من شكوك حول ضلوع عناصر من البلقان ليس رأيى، لكنى نقلته عن أصدقاء فى بروكسل، وفى مقر حلف الأطلنطى، ثم إننى لم أطرحه كحقيقة نهائية، وإنما طرحته كاحتمال تسانده شواهد عرضتها، ثم إننى فيما نشرت قبلت بضلوع عناصر عربية بدور أو أدوار فيما حدث، لكنى أشرت إلى غياب دليل، وإلى غياب تحقيق يعطى للناس ولو شبه دليل يطمئنهم إزاء الطريقة التى تتصرف بها القوة الأمريكية!

وسألنى محدثى عن: الصلة وكيف يمكن أن تكون بين عناصر من العرب وعناصر من الصرب أو ـ البلقان عموما، والطرفان بعيدان لا رابط بينهما؟

وذكرته بأنه كان بين «المجاهدين» ـ أو من أسموا كذلك ـ فى «البوسنة» أكثر من ألفين من الشباب العرب: ربعهم من مصر وربعهم من السعودية والباقون من بلدان عربية أخرى، وبعضهم لم «يجاهد» فى البوسنة فقط، ولكنه وصل «بالجهاد» إلى ألبانيا أيضا، وبعدهما حتى «الشيشان».

وقلت: «إنه كانت هناك كتائب من قوات مسلحة عربية تعمل ضمن القوات الدولية التى شاركت فيما سمى بعملية «حفظ السلام فى يوجوسلافيا السابقة». وأننى أعرف عن جنود من العرب تزوجوا من بلقانيات ـ وصربيات أيضا».

وأضفت: «أنه فيما يتصل بحادث على مستوى ١١ سبتمبر، فإن أحدا منا لا يستطيع أن يستبعد شيئا من حسابه دون ترو، أو يدخل شيئا فى حسابه دون أساس»!]

....

....



وفيما يتعلق بالسؤال الثانى الذى طرحته «اجتماعات التشاور» الأوربية، وهو السؤال عن اتجاهات العمل العسكرى الأمريكى، وعن الهدف الاستراتيجى منه، فقد كان الجواب الذى أتاهم يعرض السياق التالى:

«أن الإدارة الأمريكية كانت واقعة تحت «ضغط رهيب»، يدفعها إلى الحركة بسرعة، وإلى الحركة نحو نوع من «العقاب» يصل إلى أقصى درجات القسوة، بحيث تكون مشاهد الدم والحريق ظاهرة أمام الشعب الأمريكى «تطفئ ناره» و«تشفى غليله»، وإلا واجهت الإدارة الأمريكية أزمة يصعب تقدير عواقبها ـ لكن الإدارة وهذه نقطة لصالحها (كذلك قيل لـ«مجموعات التشاور» فى أكثر من عاصمة أوربية) ـ انتظرت وفكرت ووازنت بين خيارات وبدائل:

ـ فكروا فى خطة لخطف بن لادن من منطقة جبلية فى «قندهار» رصدوا وجوده فيها، لكنهم تذكروا ما حدث (٢٤ أبريل ١٩٨٠)، فى محاولة إنقاذ الرهائن الأمريكيين الذين احتجزهم الشباب الثورى الإيرانى فى مبنى السفارة الأمريكية فى طهران.

....

....

[وأيامها سنة ١٩٨٠ وضعت قيادة القوات الخاصة الأمريكية خطة لإنقاذ الرهائن من قلب طهران، وكان المطار العسكرى فى المنيا (صعيد مصر)، إلى جانب القاعدة الأمريكية فى «مصيرة» (سلطنة عمان) قيادة تنفيذ تلك الخطة التى عرفت باسم «الصحراء رقم ١». وكان الرئيس «أنور السادات» قد صرح «لصديقه» الرئيس «جيمى كارتر» باستعمال الأراضى المصرية وتسهيلاتها العسكرية فى تنفيذ هذه الخطة، وبالفعل كان المكلف بالتنفيذ وقتها هو الجنرال «بكويث» قائد القوات الخاصة، وقد تولى من مطار المنيا توجيه العملية. ومن نفس القاعدة بعث الجنرال «ريتشارد بكويث» إلى الرئيس كارتر يخطره بأن العملية فشلت، بسبب تعطل وتصادم اثنتين من طائرات الهليوكوبتر، ورد عليه الرئيس كارتر بأن «يجهض» الخطة ويعود بقواته، وكذلك فعل الجنرال «ريتشارد بكويث» مع علمه بأن قواته على الموقع قرب مدينة «يزد» الإيرانية ـ على طريق طهران ـ تركت وراءها جثث ثمانية جنود قتلوا عندما اصطدمت طائرات الهليوكوبتر ببعضها]

....

....

وقيل أمام «مجموعات التشاور» الأوربية ضمن ما قيل: إن الذكرى المريرة لتلك التجربة دعت الإدارة الأمريكية فى الظروف المستجدة إلى استبعاد مغامرة خطف بن لادن، لأن احتمال الفشل فيها (بعد الفشل فى توقع ضربة ١١ سبتمبر) مما لا يقدر الرئيس «بوش» على تحمله الآن، وهو لا يستطيع أن يفعل مثلما فعل الرئيس «كارتر» مع الجنرال «بكويث» سنة ١٩٨٠، ويأمر بإجهاض الخطة لأن مقتضى ذلك يفرض عليه فى نفس اللحظة، تخليه عن منصبه، وإلا بدأت إجراءات عزله، لأن الفشل سوف يفتح الباب لتحقيقات مكبوتة بصعوبة ولكنها مؤجلة، وكلها تريد أن تعرف كيف جرى ما جرى؟ وأين كانت المخابرات الأمريكية وماذا فعلت بميزانيتها وهى تزيد على ثلاثين بليون دولار؟! ثم أين كان الدفاع الجوى عن عاصمة القوة الأعظم الوحيدة فى العالم؟!

وفى ذلك الصدد قيل أيضا «لمجموعات التشاور»: إن الولايات المتحدة اعتذرت لرئيس وزراء إسرائيل عندما عرض استعداد القوات الإسرائيلية الخاصة «لخطف بن لادن» نيابة عن الإدارة الأمريكية (والمعنى المقصود من العرض أن تدخل إسرائيل عضوا معترفا به شرعيا وعلنيا فى الحلف الدولى الذى تقيمه أمريكا للحرب ضد الإرهاب). وقد أبدى رئيس وزراء إسرائيل أن «الموساد» لديه خبرة فى هذا النوع من العمليات أشهرها خطف ومحاكمة وإعدام «الجنرال» «إيخمان» (المسئول الأول عن «الهولوكوست» ـ الجحيم ـ الذى تعرض لـ«اليهود» تحت حكم النازى أيام هتلر). وقد اعتذرت الإدارة الأمريكية عن هذا العرض رغم ثقة إسرائيل فى فرص نجاحه، لأن لديها بالفعل وعلى الأرض وفى عمق «قندهار» «عناصر» جاهزة. وكان رأى الإدارة الأمريكية أن ظهور إسرائيل على المسرح فى هذا الدور وفى هذا التوقيت، وحتى إذا نجحت فى المهمة ـ سوف يسبب إحراجا سياسيا واستراتيجيا فى العالمين العربى والإسلامى.

....

....

[وكان اعتذار الولايات المتحدة عن هذا «الخيار الإسرائيلى» أهم الأسباب التى دعت «آرييل شارون» رئيس وزراء إسرائيل إلى إلغاء زيارته المقررة للولايات المتحدة واجتماعه المحدد مع الرئيس جورج بوش ـ فى شهر أكتوبر ـ ذلك أن «شارون» اعتبر الاعتذار الأمريكى (عن توكيل إسرائيل بمهمة خطف بن لادن)، دليلا على عدم رغبة الولايات المتحدة فى الاعتراف بوجود إسرائيل كطرف أصيل فى التحالف الدولى الذى يتجمع لمقاومة الإرهاب. وكان رأى شارون أن الحقائق عفت على زمن كانت واشنطن فيه تخفى شواهد علاقتها الخاصة بتل أبيب عن عيون العواصم العربية، لكن حكومته الآن مصممة على أداء دورها فى العلن، وإذا لم تكن واشنطن تريد إشهار وتوثيق هذه العلاقة فذلك حقها، لكن إسرائيل لن تضع نفسها فى موضع تراه أقل مما تستحق بصرف النظر عن قوة العلاقة بين البلدين.

ثم إن شارون يضايقه أن يكون سبب الاعتذار الأمريكى هو «مجرد مساعدة عدد من القادة العرب يريدون «ستر» علاقتهم بالولايات المتحدة، وتسايرهم واشنطن فى ذلك بمقولة عدم إحراجهم أمام شعوبهم.]

....

....



وطبقا لما عرض فى «اجتماعات التشاور» الأوربية فقد كان الخيار والبديل الآخر الذى فكرت فيه واشنطن، هو «تكليف تحالف الشمال الأفغانى بالمهمة»، لأن ذلك التحالف المعارض لطالبان ـ والذى كان

عن الأزمة والحرب!

يخوض الحرب ضدها فعلا من مواقعه التي تراجع إليها في شمال البلاد تحت قيادة أحمد شاه مسعود - جاهز على الأرض ولديه حوافزه القوية للقتال إذا تلقى ما هو متاخر من طلبات سبق وتقدم بها للإدارة الأمريكية. لكن ذلك الخيار البديل استبعد (وقتها)، لأن هذا التحالف «مهزوم في أعماقه» و«ممزق» - ولو كان قادرا على النصر لانتصر لحساب نفسه مع كل المساعدات التي تلقاها من قبل. ثم إن شعور «المهزوم الممزق» لدى هذا التحالف زاد وتكرس، عندما وقع اغتيال قائده العسكري اللامع أحمد شاه مسعود، (وكان اغتياله يوم ٨ سبتمبر الأخير - أي قبل ١١ سبتمبر بيومين أو ثلاثة - مما دعا كثيرين إلى الربط بين اغتيال أسد بنشير (مسعود) وبين العمليات ضد نيويورك وواشنطن).

ثم إن زعماء التحالف الشمالي حينما أحسوا أن هناك اتجاها للاعتماد عليهم، بدءوا يزايدون في طلباتهم، ويسابقون بعضهم في الانفراد بما يمكن أن تعطيه الولايات المتحدة الأمريكية لمن تعهد إليه بالعملية.



وكان هناك خيار وبديل رابع ورد ذكره في «اجتماعات التشاور» الأوربية مؤداه: «أنه يمكن الاتفاق مع بعض، أو أحد زعماء القبائل الأفغانية، وضمنها قبائل علمتها الحروب أن تبيع ولاءاتها - لكي تتولى هي خطف بن لادن، وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تروج لهذا الحل بعدما قالت إنها استكشفت السبل والوسائل لتحقيقه. ولكن الوكالة تقدمت تطلب اعتمادات خرافية، واستأذنت في أَجَلْ للتنفيذ غير محدود بتاريخ معين، ولم يجد الرئيس الأمريكي نفسه قادرا على الصبر، فهو يستطيع توفير الاعتمادات العاجلة، لكنه لا يملك الوقت المفتوح، خصوصا أن الوكالة سبق لها أن خدعته في «زعماء أفغان»، طلبوا الغالي وحصلوا عليه، لكنهم عند التنفيذ تملصوا، وادعوا صعوبة المهمة، وتقدموا بمطالب مالية إضافية، لعل «فرج الله يجيء».

والشاهد - كذلك قيل - إن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تورطت «حتى الركب» في أفغانستان وشطحت وشردت إلى درجة أن «فريق عمل» من رجالها قضى ستة شهور في وضع تقرير عن «الشذوذ الجنسي» لدى الزعماء الأفغان، وأهمية استخدامه في تطويعهم! وكنموذج «ميداني» أشارت الوكالة إلى معركة عنيفة - طالت شهورا - بين زعيمين حول «غرام» كليهما بصبي «اكتشفه» أولهما، ثم «خطفه» الثاني، وانشغل مكتب وكالة المخابرات الأمريكية في «بيشاور» بهذه المعركة أسابيع حتى استطاع تهدئة الخواطر والسيطرة على العواطف.

وعلى أية حال، فإن الرئيس الأمريكي الذي يعتزم الاستغناء عن خدمات رئيس الوكالة الحالي «جورج تينيت» في أول فرصة تسنح له - أراد فيما يظهر إبطال أية حجة للوكالة، فصرح لها باعتماد قدره مليار دولار تصرفها (تحت رقابة نائبه ديك تشيني)، على أن تأتيه في النهاية بأسامة بن لادن حيا أو ميتا.

وكذلك فإن هذا الخيار الرابع وُضع تحت الطلب دون عجلة.

وكان هناك فيما قيل لعلم «اجتماعات التشاور» الأوربية خيار خامس جرى استبعاده بعد ساعات ومؤداه: «أنه ليس عسيرا تكليف وحدة خاصة من المخابرات الباكستانية لتنفيذ عملية خطف أو قتل بن لادن دون خوف أن يؤدي ذلك إلى حرج للجنرال «برفيز مشرف» رئيس باكستان، ذلك أنه مع معلومات متوافرة تقول أن شعب أفغانستان - وحتى جماهير طالبان - ضاق صدرهم بالمخاطر والمهالك التي سبَّبَها وجود بن لادن على أرضهم - لن يمانعوا إذا خلصهم أحد من «هذه المصيبة». ثم إنه إذا اقتصرت العملية على «بن لادن وحده»، وإذا لم تقترب من زعماء طالبان، فإن العملية قد تبدو خدمة باكستانية للأمة الأفغانية، وعندئذ يمكن قبولها في باكستان، خصوصا إذا توافقت مع حزمة مساعدات اقتصادية لإسلام آباد، يرافقها ضمان بسلامة المنشآت النووية الباكستانية من ضربة مفاجئة ضدها (من الهند أو من إسرائيل مع اختلاف النوايا والمقاصد بين البلدين)، لكن عرض الفكرة توافق مع قلاقل داخل القيادة العليا الباكستانية اضطر فيها «برفيز مشرف» إلى إعفاء صديقه ونائبه الجنرال «محمد عزيز خان»، وهو الرجل الذي دبر وقاد الانقلاب العسكري الذي جاء به إلى الحكم، بينما هو مازال في طائرة معلقة به في الأجواء لا تعرف لنفسها مطارا تهبط فيه.

وكذلك لم يبق بديل غير العمل العسكري الأمريكي... ومباشرة!

....

....

وكان ختام مناقشات «اجتماعات التشاور» الأوربية، إعلان رئيس الوزراء توني بلير أمام مجلس العموم البريطاني بـ: «إن الولايات المتحدة الأمريكية لها حق العمل العسكري ضد بن لادن، وحتى إذا لم تقدم أدلة كافية لإدانته «أمام محكمة»، فإن عقابه إجراء عادل في أي وقت قصاصا من أعمال سابقة، دبر لها من قبل مثل تفجير «قاعدة الخُبر» في السعودية، وتفجير المدمرة الأمريكية كول في ميناء عدن اليمني! - وغيرها.

....

....

[وكان سماعي بذلك في جلسة مجلس العموم، داعيا إلى ما قلته بعد ذلك في حديث مع الجارديان (نقلته عنها الايفننج ستاندارد)، استشهدت فيه بالمثل الصيني الذي يقول «اضرب زوجتك كل يوم علقة، وإذا كنت لا تعرف لذلك سببا، فهي تعرف» - مضيفا أن تلك فيما يظهر استراتيجية الحروب الجديدة في القرن الحادي والعشرين!].

....

....

وفي باريس كان ملخص ما توصلت إليه مجموعة من مستشاري الرئيس شيراك في «قصر الاليزيه»، أن على فرنسا مهما كان اختلاف تصوراتها - السياسية والعسكرية - أن تقف مع الولايات المتحدة، وأن تشعرها بالمودة والتكافل، لأن ما حدث «ولو أنه لا يمثل تهديدا حيويا للولايات المتحدة، إلا أنه يواجهها لأول مرة بشعور لا تحب المجتمعات أن تعيش معه وهو الشعور بـ«عدم الاطمئنان». والرأي أن المجتمعات يمكنها أن تواجه تفاقم الأزمات قادرة، وأن تخوض غمار الحروب واثقة، تساندها عوامل قوتها الحقيقية، لكن الخطر - وإن لم يرق إلى مستوى التهديد - أن تشعر المجتمعات بـ«عدم الطمأنينة»، وذلك الشعور هو «نصف عصبية الولايات المتحدة الآن».

وكان تقدير الخبراء الفرنسيين أن موقف التفهم المتعاطف يتيح لفرنسا في اللحظة المناسبة أن تضع بعض «الفرامل» على الاندفاع الأمريكي إلى المجهول.

....

....

[وكان ذلك هو الدور الذي يقال في مقر رئاسة الوزارة البريطانية - ١٠ داوننج ستريت - أن توني بلير يحتفظ به لنفسه. وتقدير معاونيه أن هذا الموقف يبني لرئيس الوزراء شعبية واسعة تتكفل بها «الأضواء الساطعة للإعلام الأمريكي». وهذه الشعبية تستطيع أن تساعده على الدخول بالاسترليني إلى محيط العملة الأوربية الموحدة، وهي خطوة ملحة أوائل ٢٠٠٢، عندما يصبح اليورو وحده عملة أوربا الرسمية كلها. كما أن هذه الشعبية أيضا - في تقدير معاوني توني بلير - يمكن أن تكون رصيدا مدخرا لحزب العمال في أية انتخابات قادمة. وكل ذلك مطلوب حتى وإن كان طلب «بلير» المباشر - الآن - هو دور «الفرملة» على الاندفاع الأمريكي.

لكن الخبراء الفرنسيين ظل رأيهم أن «توني بلير» لن يستطيع أداء دور الفرملة على الاندفاع الأمريكي، لأنه التصق أكثر من اللازم بالسياسة الأمريكية، بحيث أصبح امتدادا لها يدور في فلكها ولا ينفصل عنها، فقد تصور أن اقترابه أكثر من اللازم ينفع دوره، ونسي أن الحركة في مدار القوة الأمريكية سوف تستوعبه مهما حاول، وبالتالي يصعب عليه أن ينفصل ليكون له موقف مستقل، وإذا فعل فإن محاولة الانفصال بعد زيادة الاتصال إلى حد الالتصاق، لا تتم إلا بدرجة من الخلاف يستحيل عليه قبولها.

وإذن فذلك الدور (الفرامل) محجوز لفرنسا في اللحظة المناسبة. ■

....

....

انتهى الوقت
الذى كانت إسرائيل
ترضى فيه بزواج عرفي مع أمريكا،
وهى الآن تريده اعترافا
رسميا وزواجا شرعيا

الإشارة الثالثة

مناقشات عن الحرب في أفغانستان وحولها

لندن:

■■ كان هناك سؤال طرحته على كثيرين، وفي لندن أكثر من غيرها بسبب قربها الزائد من القرار الأمريكي وموجباته. مؤدى السؤال أنه: إذا كان «التشويح السياسي» قد تحول في الحالة الأمريكية إلى عمل عسكري بالسلاح، فما هو شكل هذا العمل العسكري؟ وما توصيفه؟ وما هدفه؟

وقد ضغطت على هذا السؤال أثناء غداء في بيت الصحفي البريطاني الأشهر «أنتوني سامبسون» (وهو مؤلف عدد كبير من المراجع السياسية المهمة منها «الأخوات السبعة»: عن شركات البترول العالمية الكبرى - و«سوق السلاح»: عن تجارة السلاح في العالم - و«لمسة آلهة الذهب»: عن كيف تكونت أكبر الثروات في العالم - وأخيرا سيرة حياة «مانديلا» لأن أنتوني سامبسون هو مؤرخه المختار لكتابة قصة حياته).

وكان ضيوف الغداء جميعا صفوة من العارفين بمكامن السياسة وميادين الحرب.

ولم تتوقف المناقشات من الساعة الثانية عشرة ظهرا حتى الثالثة بعد الظهر، وخلاصة المناقشات كما تداعت:

١ـ إن هدف التحركات العسكرية الأمريكية الأولى ـ قبل بدء العمليات ـ هو التواجد في قواعد الخليج والسعودية وغيرها بشكل «فاعل على الأرض» يرفع درجة الاستعداد فيها «دون إذن من أحد»، لأن ما حدث في نيويورك وواشنطن يعطى في حد ذاته شرعية تغنى واشنطن عن «طلب إذن» من أى طرف.

وذلك حال يختلف عما كان في حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، ففي حال حرب الخليج كان نزول القوات الأمريكية والبريطانية (وغيرها) في السعودية والخليج، يحتاج إذنا من الدول المعنية، ويحتاج غطاءً شرعيا عربيا عاما يسند الأطراف المعنية، لكن الظروف تختلف هذه المرة، فليس هناك من يستطيع أن يعترض، وليس هناك من له حق «أن يأذن أو لا يأذن». وفي الواقع العملي، فإن الإذن السابق مازال ساريا وبمقتضاه فإن التواجد العسكري الأمريكي في قواعد شبه الجزيرة العربية مازال فاعلا، وكل ما استجد هو أن الحاجة تدعو الآن إلى رفع درجة الاستعداد في هذه القواعد بما يناسب «حالة حرب فعلية».

إلى جانب مطلب رفع درجة الاستعداد في القواعد الأمريكية في السعودية والخليج ـ فقد كانت هناك حاجة إلى انتشار أوسع من شبه الجزيرة العربية، وبحيث يكون في مقدور هذا الانتشار أن يطال أى هدف يراد الوصول إليه، ومرة أخرى فإن هذا الانتشار لم يكن يحتاج إلى استئذان، فالسوابق قائمة، والغضب الأمريكي لما جرى في نيويورك وواشنطن يصيب الكل بالفزع، بحيث لا يجرؤ طرف على مجرد السؤال، حتى إذا خطر السؤال على باله.



فداه الله بذبح عظيم)، وكان لدى بعض هؤلاء العلماء بالفعل شعور بأن المعجزة قد تتكرر، لأن بن لادن من أول لحظة يدفع ببراءته مما حدث في نيويورك وواشنطن، وإذا كان صادقا فإن الصدق قادر على أن يثبت نفسه أمام محكمة إسلامية ودولية في الوقت نفسه، وكذلك تتحقق معجزة الفداء!.

٣ـ وإذا لم يتحقق شيء من ذلك كله، فإن الفعل العسكري يستطيع أن يبدأ بضربات من الطيران كاسحة بصواريخ كروز وغيرها من ناقلات الدمار.

وذلك أيضا يمكن أن يحقق الهدف نفسيا، إذا اقتنع الملا عمر وقيادة طالبان، أن الخطر جد لا هزل فيه، وأن أبواب جهنم التي انفتحت في أجواء أفغانستان ضرر عظيم، يفرض الشرع توقيه ودرأه بكل سبيل، خصوصا إذا كان من يتعرض له لا يملك وسيلة لدفعه عن نفسه أو الرد عليه بمثله، وحينئذ يمكن تسليم بن لادن بمنطق «سد الذرائع» ـ سواء للولايات المتحدة الأمريكية أو لدولة إسلامية صديقة (ترى في الأمر رأيها).

إضافة إلى ذلك، فإن نار الجحيم الموجهة إلى الشعب الأفغاني، يمكن أن تدفعه للتمرد على حكومة «طالبان»، خصوصا إذا وصل الضرب إلى الطرق والجسور القليلة، ومحطات الماء والكهرباء المتهالكة، ومستودعات الغذاء والمؤن الشحيحة، وأيضا إلى المزارع المملوكة لزعماء القبائل في المناطق التي لا تزال بها شواهد خضرة من شجر وثمر في الشمال والجنوب وحول العاصمة كابول.

٤ـ إن بدء الضرب الجوى واشتداده نافع للرأى العام الأمريكي على عدة مستويات لأنه:

ـ يريحه نفسيا ويشفى غليله.

ـ ويقنعه بأنه أخذ حقه بيده وتصرف.

ـ ويشغله عن حساب المسئولية فيما جرى فوق نيويورك وواشنطن على الأقل بالتأجيل إلى ما بعد الحرب (لأن الوطن في الميدان الآن وعلم النجوم يرفرف).

وذلك بالفعل تحقق ولو للأجل القصير لأن صيحة «الوطنية» دوت زئيرا بدائيا تردد في الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب حتى لم يعد في مقدور أحد أن يرفع صوته مطالبا «بالمراجعة» ـ كضرورة للتثبت قبل الضرب وكذلك لضمان استمرار التعبئة على المدى الطويل.

وكان أن الإعلام الأمريكي سمح وقبل أثقل قيود رقابية وضعت عليه إلى درجة أن السيدة «كونداليزا رايس» مستشار الرئيس للأمن القومي تمكنت من إقناع كل رؤساء تحرير الصحف وقنوات التليفزيون الأمريكية في الإرسال الداخلي والخارجي على السواء ـ بالامتناع عن نشر بيانات بن لادن وطالبان، لأنها تحوى إشارات سرية موجهة إلى عملاء كامنين في الولايات المتحدة، تأمرهم بالرموز أن ينفذوا عمليات معينة في أوقات معينة عند سماعهم لألفاظ معينة!

بل إن الرقابة عبرت المحيط إلى بريطانيا، فإذا بمكتب «الستير كامبل» مستشار رئيس الوزراء «تونى بلير»، يستدعى كبار محررى الصحف والإذاعة والتليفزيون، ويطلب إليهم أن «لا يكونوا أدوات في يد بن لادن، يستعملهم لخططه وهم لا يعرفون»، لأن ما ينقلونه ويذيعونه بحماسة هو في الواقع أوامر منه لأنصاره بالرموز، ومن المزعج أنه حين ارتفعت بعض الأصوات، في «الجارديان» و«الإندبندنت» مثلا، تطرح الأسئلة الضرورية، فإن جريدة مثل «التيمس» شنت عليهم هجوما ضاريا تحت عنوان «أنبياء الشؤم»!

٥ـ بعد هذه الأهداف العسكرية والنفسية، فقد كان أول تقدير لما يستطيع الضرب الكثيف أن يصنعه على أرض العمليات يقدِّر أن استهداف المواقع الموجودة وفيها مخابئ وملاجئ بن لادن وزعماء طالبان سوف يرغمهم جميعا على الخروج من المخابئ والملاجئ في طلب الأمان، فإذا خرجوا إلى الفضاء المكشوف، أمكن لطائرات الاستطلاع من «شكل القوافل» أن تعثر عليهم وتنقَضّ!

وكان أول أمر من الجنرال «تومى فرانك» قائد القيادة المركزية الأمريكية المسئولة عن العمليات من مقر قيادته في «تامبا» فلوريدا، هو:

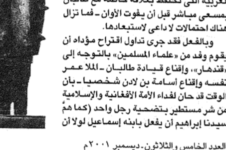
«أن علينا أن نجعل مخابئهم تضيق عليهم، فإما أن «نفعصهم» داخلها وإما أن يضطروا للخروج إلى حيث نستطيع اصطيادهم. علينا كذلك أن نعزل قياداتهم أن يتصلوا للتشاور بينهم والتنسيق، وأن نقطع الاتصال بين القيادة والوحدات، وبين الوحدات وبعضها، وأن ندمر الطرق وشبكات الاتصال حتى يتحول ميدان القتال إلى جيوب محاصرة تتم تصفيتها واحدا بعد واحد»!

وكان الهدف التالي المباشر للضرب الكثيف هو «ردع آخرين» (لا أحد يعرف أين هم؟) عن القيام بـ: هجمات انتحارية جديدة أو التفكير في محاولات أخرى من نفس النوع، إذا توهموا أن الأضرار التي لحقت بالولايات المتحدة نفسيا وسياسيا واقتصاديا كبيرة إلى درجة تبرر لهم تكرار الهجمات بقصد الابتزاز، وهو أسلوب مستعمل على الساحة الدولية.

والمنطق هنا أن ضراوة عقاب «الجريمة الأصلية» كفيل بأن يرد آخرين عن ارتكاب مثلها مهما بلغت أوهام هؤلاء الآخرين!

وبالطبع فقد كان للضرب الكثيف قصد نهائي هو تحقيق النصر، وهنا فإن هناك أسئلة كثيرة طرحت نفسها: عن معنى النصر؟ وهل يكفي لتحقيقه إسقاط نظام طالبان وهو ممكن بل وسهل بسبب تفاوت القوة أو أسر بن لادن وقتله، وذلك وارد بل ومحتمل في أجواء أفغانستان، وماذا عن البلد نفسه وهو من عشرات السنين مسرح حروب خاضتها الامبراطوريات من قبل، رغبة في السيطرة على الموقع الحاكم في وسط جنوب آسيا؟ ثم ماذا عن الشعب الأفغاني وهو منذ أكثر من ربع قرن يعيش في مستنقع دم؟ ثم ماذا؟ وماذا.. أسئلة لا حصر لها!





وكان التقدير في تلك الساعات، أن الانتشار ورفع درجة الاستعداد إلى مستوى حالة الحرب، يعطى السلاح الأمريكي إمكانية التدخل وفق ما يرى صانع القرار الأمريكي، سواء لدواعي العمليات على المسرح الأفغاني أو أى مسرح غيره!

وأثناء ذلك الوقت فإن تلك الأوضاع في حد ذاتها تحدث أثرا نفسيا يمكن أن تجيء نتائجه أكبر من أى تقدير.

٢ـ إذا لم تحقق مشاهد الانتشار العسكري هدفها النفسي، وضمنه احتمال أن تقوم طالبان بتسليم بن لادن توقيا لضربة عسكرية أمريكية، أو احتمال قيام بعض الحكومات العربية التي تحتفظ بعلاقة خاصة مع طالبان بمسعى مباشر قبل أن يفوت الأوان ـ فما تزال هناك احتمالات لا داعي لاستبعادها.

وبالفعل فقد جرى تداول اقتراح مؤداه أن يقوم وفد من «علماء المسلمين» بالتوجه إلى «قندهار»، وإقناع قيادة طالبان ـ الملا عمر نفسه وإقناع أسامة بن لادن شخصيا ـ بأن الوقت قد حان لفداء الأمة الأفغانية والإسلامية من شر مستطير بتضحية رجل واحد (كما همّ سيدنا إبراهيم أن يفعل بابنه إسماعيل لولا أن

وفيما بدا مع مجرى الحوار (على مائدة «أنتونى سامبسون»)، فإن العمل العسكري الأمريكي ـ بعد ابتدائه بالضرب الكثيف ـ حدد لنفسه خططا للأجل القصير وبعده للأجل المتوسط، وعلى ضوء ما يجرى على الأجلين يمتد البصر إلى أبعد!

● وفي الأجل القصير، فإن مقتضى الخطة يكرر ما جرى من قبل في معارك البلقان الأخيرة في البوسنة وكوسوفو، وملخصها الاعتماد على القوات الجوية تغلق الطرق من حول قوات «العدو»، وتحاصر منافذه بدائرة من النار، ليست فيها غير فتحة واحدة تدخلها قوات صديقة على الأرض تطارد وتطهر وتحتل وتحقق النصر.

وجرى وضع المنطقة الشمالية بالفعل ومركزها «مزار شريف» هدفا للعمليات الافتتاحية، فهذه المنطقة جغرافيا وعرقيا ومصلحة واتصالا في النطاق «الأوزبكي»، وهو «عرق إنساني» يعيش ما بين «جمهورية أوزبكستان» وبين شمال أفغانستان.

عن الأزمة والحرب!

والظن أنه إذا ما زحف جيش يقوده جنرال «أوزبكى» مثل الجنرال «عبد الرشيد دوستم» من الشمال إلى الشمال، فإن منطقة «مزار شريف» سوف تستسلم راضية، ومهما فعلت طالبان (وكذلك كان).

● وفى الأجل المتوسط فإنه سواء بالقصد أو بمصادفات الظروف، بدأت فى الولايات المتحدة حكاية جرثومة «الإنثراكس» والحرب البيولوجية التى تشن على الشعب الأمريكى داخل وطنه، وكانت المبالغات الإعلامية فى هذه «الحكاية» متجاوزة للواقع وحتى للخيال.

وشاع أن ذلك هو التمهيد لنزول قوات أمريكية برية على الأرض فى أفغانستان، يسقط فيها ضحايا وتعود جثثهم إلى وطنهم فى حقائب البلاستيك، وذلك هو الموقف الذى يكرهه الشعب الأمريكى، ويخشاه كل رئيس أمريكى ـ لكنه إذا تبدى أن أمريكا نفسها أصبحت معرضة لحرب بيولوجية داخل أرضها، إذن فإن المواجهة على الأرض بمثابة قدر مفروض لا مهرب منه أو مفر.

لكن الشائع راح يتحول إلى اتهام بأن حكايات الحرب البيولوجية جاءت تمهيدا للمرحلة المتوسطة من الحرب إذا حان وقتها، وهى تعطى للقيادة السياسية الأمريكية خيار توسيع أهداف الحرب، وفى مقدمتها: ضرب العراق.

والذى يتابع المناقشات الدائرة فى دهاليز البيت الأبيض ووزارة الدفاع والكونجرس، والذى يتابع ما ينشره نجوم الإعلام الأمريكى، يلفت نظره ذلك التحريض المستميت على ضرب العراق حتى ليبدو فى بعض اللحظات، كأن العراق هدف الحرب الرئيسى، فى حين أن أفغانستان مجرد مسرح ثانوى يقتصر دوره على التمهيد والتهيئة.

٦ ـ وكان رأى عدد من الجالسين حول مائدة الغداء فى بيت «أنتونى سامبسون»، أن العمل العسكرى الأمريكى له فوق أهدافه الإقليمية ـ هدف استراتيجى عالمى هو التأكيد لكل الأطراف فى العالم أن الولايات المتحدة تأخذ دورها المهيمن الذى تفردت به بعد انتهاء الحرب الباردة جدًا، وأنها إذا كانت «القوة الأكبر» فى القرن العشرين، فإنها مصممة على أن تكون «القوة الأوحد» فى القرن الواحد والعشرين.

وهذه رسالة موجهة إلى الجميع: الأصدقاء من قبل الأعداء (إذا كان هناك أعداء على مستوى الدول).

٧ ـ نحق بذلك رأى يعتقد أن الولايات المتحدة تقوم ـ فى ذات الوقت ـ «بتأكيد وتطوير وامتحان» نظرية الحرب الجديدة (الحرب غير المتوازية) ضد أنواع من التهديدات تواجهها، أخطرها «الإرهاب»، ومع أن هذه الحرب الجديدة لا تحتاج إلى السلاح وحده، وإنما تحتاج إلى أسلحة أخرى بجواره أهمها «نظام مخابرات هائل للداخل والخارج»، تشارك فيه الأطراف والقوى فى العالم ـ إلا أن هذا النظام العالمى للمخابرات ـ يصعب بناؤه إلا بضغوط على الجميع ـ ولابد أن تكون الضغوط «مبررة»، حتى إذا تم إنشاء النظام ونجح فى امتحانه، أصبحت «آليته المستقلة» خارج إرادة أية دولة بعينها.

٨ ـ أضاف أحد الخبراء المشاركين فى الحوار إلى ذلك قوله:

«إن كل رئيس أمريكى يحتاج إلى حرب يثبت فيها للكل وللتاريخ أنه زعيم حقيقى على مستوى الخلود (Posterity).

وهكذا فإنه فى حين أن «بوش» يحلم بأن يكون «جورج واشنطن» «عائدا إلى الحياة» ـ فإن «تونى بلير» يأمل أن يبدو وكأنه «تشرشل القرن الحادى والعشرين».

زيادة على ذلك فإن كل دولة عظمى تحتاج إلى إثبات قدرتها، كما أن كل قوة تحتاج إلى تجربة أسلحتها فى ميدان حقيقى، ثم إن كل نظرية جديدة فى استعمال القوة تحتاج إلى إثبات».

ومع التسليم ـ مرة أخرى ـ بأن الولايات المتحدة الأمريكية لا تواجه تهديدا حقيقيا ـ تكون بعده أو لا تكون ـ كما كان الحال مع بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية ـ إلا أن الولايات المتحدة فى حالة عصبية تجعلها تشعر بعض اللحظات بأنها أمام تهديد حقيقى.

ويمكن ملاحظة أن هناك مدرسة فى التفكير ترى أن التهديد هو كل حدث يختلف عن الأمر الواقع، وكل مفاجأة تجىء على غير انتظار، أى أن الأمر الواقع المألوف والمتوقع هو داعى الطمأنينة، فإذا اختلفت الأمور وإذا وقعت مفاجآت، فالشعور بالتهديد تلقائى (وكان ما حدث فى أمريكا يوم ١١ سبتمبر الأخير أكثر من «أمر مختلف» وأخطر من «مفاجأة وقعت»)!

وذكرنا واحد من الجالسين حول مائدة الغداء والمشاركين فى حوارها، أنه سمع نقلاً عن الجنرال «ريتشارد ماير» رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة للجيش الأمريكى قوله: «إن أمريكا التى انتصرت فى الحرب الباردة عليها أن تجعل الوضع الذى جاء بعدها «سلاما ساخنا» حتى لا تُنسى حقائق القوة فى أوقات الصفاء والاسترخاء!»



وسألنى أحد الحاضرين حول مائدة «أنتونى سامبسون»، وهو «ويليام شوكروس» الذى يعتبر من أبرز الخبراء المتخصصين فى صراعات آسيا، عن رؤية العالم العربى لما جرى (١١ سبتمبر)، وقلت: إنها لا تختلف كثيرا عن رؤية العالم كله: انبهار بجسارة المغامرة، واستنكار لعواقبها الإنسانية، وتعاطف ـ ربما لأول مرة ـ مع الولايات المتحدة، على أن السياسة الأمريكية لسوء الحظ لم تترك لهذا الشعور بالتعاطف، فرصة أن يتنامى، وإنما طردته مسرعة بصور الخراب فى أفغانستان، والعذاب الذى يعانيه رجالها ونساؤها وأطفالها وبذلك غطت الصور على الصور، بمعنى أن صورة أبراج التجارة فى نيويورك وهى تتهاوى تباعدت عن موقع النظر وموضع العاطفة، مع ملاحظة أن الإعلام الأمريكى فى حالة نيويورك وواشنطن ركز على مشهد اقتحام الطائرات لبرجى التجارة التوأمين، ولم يركز على صور البشر، وأما فى أفغانستان فلم تكن هناك ناطحات سحاب تتهاوى كأنها مشاهد أفلام سينمائية مثيرة، وإنما كانت الصور الأظهر والأكبر والأكثر تعبيرا عن المأساة الإنسانية ـ هى صور الجراح والدماء والدموع والموت قتلا لمدنيين عزل لم يحملوا السلاح فى حياتهم، ولم يقرأوا طول عمرهم كلمة عن صراعات العقائد والدول فى الأزمنة الحديثة.

ثم عاد «شوكروس» يسألنى عن بن لادن، وكان رأيى دون مواربة أن بن لادن «ليس رجلنا»، فلا هو وجه قضايا العرب والإسلام المعاصرة، ولا هو اللسان المعبر عن ضمير الاثنين.

وفى الواقع فإن كثيرين بين العرب والمسلمين ساورتهم الشكوك من سنين عديدة حول هذا الذى يجرى فى باكستان باسم «الجهاد» وضد «الإلحاد».

وهم فى كل الأحوال لم يصنعوا «بن لادن»، أو يكتشفوه وإنما سمعوا باسمه لأول مرة على لسان الرئيس «بيل كلينتون»، حين وجه إلى مواقعه فى جبال أفغانستان دفعة من صواريخ كروز صيف ١٩٩٨، (عقابا على تفجير سفارتين للولايات المتحدة فى عاصمتين أفريقيتين).

ثم عاد اسم «بن لادن» يتردد على لسان الرئيس «جورج بوش» منذ ارتفع صوت الرئيس الأمريكى لأول مرة مساء ١١ سبتمبر، وهو يعلن الحرب عليه!!

عندما تجرب القوى نظرياتها فى الحرب وخططها، وأسلحتها، وأصدقائها، وحلفائها

ومن أيامها والإعلام الأمريكى والسياسة الأمريكية لا تنطق إلا باسم «بن لادن»، وكأن ذلك الرجل الذى قضى صباه وشبابه مقاولا لبناء الطرق، ثم عاش ذلك النوع من الحياة التى يعيشها أقرانه من أبناء الغنى السريع فى المملكة العربية السعودية، ثم حملته المصادفات إلى أفغانستان فى ظروف شديدة الالتباس ـ قد حلت فيه فجأة روح «هولاكو» و«هتلر» و«جنكيز خان» و«ستالين» وفى الوقت نفسه!

ومن أكبر الأخطاء ـ ولعله خطأ متعمد ـ أن يقع الخلط بين الاستنكار العربى للسياسة الأمريكية، وبين ترجمة هذا الاستنكار على أنه الإعجاب ببن لادن. وربما ساعد على الترويج لهذا الخطأ المتعمد، أن الأمة العربية لا تجد فى هذه اللحظة قيادة معترفا بها تتوافر لها المصداقية ولا فكرة جامعة لها طاقة وحيوية أن تلهم وتحرك!

وهكذا فإنه إذا كان ظهور بن لادن ـ إعلاميا قد بلغ هذه الدرجة ـ فدلالته الحقيقية أن الأزمة العربية وصلت إلى القاع، لأن الرجل فى جميع أحواله لا يقدر على دور «البطل» ولا يصلح لدور «الشهيد»!

....

....

زدت على ذلك أننى فى كل ما جرى فوق «نيويورك» و«واشنطن»، أستشعر ما تعرض له الشعب الأمريكى، خصوصا أنه جاء قاسيا ومدمرا، لكننى أعرف أنه مثل كل الأحزان الإنسانية سوف يبهت من الذاكرة الحية مع الأسابيع والشهور والسنين، لكن قلقى الكبير «الآن» وخوفى الحقيقى على شىء آخر، أخشى أنه سوف يظل معنا طويلا ـ فى الواقع الحى وليس فى الذكريات الحزينة ـ وأعنى بذلك «فكرة الطيران» ذاتها. فقد كان القرن العشرون «قرن الطيران» بحق، وكانت «الطائرة»، التى ربطت الدنيا هى نجم العصر ومحركه ودافعه ووسيلته للتقريب ما بين القارات والأمم والثقافات، وخشيتى الآن هى على «فكرة الطيران»، لأن الفكرة تعرضت لعدوان صارخ يتعدى ما تعرضت له نيويورك وواشنطن ويتعداه بكثير.

أضفت أننى أعرف (ولا أوافق) أنه حدث من قبل أن «عربا» (وغير عرب) خطفوا طائرات، واحتجزوا من ركابها رهائن فى مقابل طلبات أعلنوها، وكان ذلك خطرا على الطيران، لكن الخطر كان محصورا.

وأما هذه المرة، فإن أربع طائرات فيها مئات من الركاب وقع خطفها، ثم قرر الخاطفون تحويلها بما فيها الركاب من البشر ـ رجالا ونساء وأطفالا ـ إلى قذائف من النار، وهنا فإن الخطر غير محصور. بمعنى أن الخطف واحتجاز الرهائن وتقديم الطلبات كان خطرا على الطائرات، وأما الذى جرى فوق نيويورك وواشنطن، فقد أصاب فكرة الطيران فى القلب.

وعندها فإن «الإرهاب» جاوز فلسفته التى يتعلل بها، فلم يعد «الإرهاب» شخصا مستعدا للتضحية بحياته فداءً لمعتقداته، وإنما أصبح «جريمة» تضحى بحياة آخرين لا شأن لهم بمعتقداته ولا بحياته!

الإشــارة الرابعة

مســألة الإرهـــاب: الأصـــول والفـــروع

أوكسفورد:

■■ لكننا في هذا الموضع عند ضرورة تستحق إشارة مستقلة بذاتها، وأعني بذلك مسألة «الإرهاب»، والحقيقة أن الكلام كثير عن «الإرهاب» إلى درجة زاد فيها الخلط حتى تحمل «المصطلح» بأكثر مما يحتمل معناه. وقد وقع في زمن الحرب الباردة وبعدها، أن أساليب تلك الحرب أمسكت بالكثير من المعاني وعبأتها بمقاصد لم تخطر على بال «النحاة» ثم حولتها إلى قذائف يعاد صهرها بعد كل استعمال، لتتشكل بالسبك من جديد ويُعاد استعمالها، حتى فقد اللفظ في النهاية صلته بالمعنى الأول الذي جرى صكه للتعبير عن دلالته.

وفي السنوات الأخيرة، فإن ذلك حدث لتعبير: «الإرهاب» - الذي يعتبرونه أهم «الأشكال» الجديدة للصراع على المستويات المحلية والإقليمية والدولية.

وربما قلت هنا - ودون مقدمات - أنني من المعجبين باجتهادات السير «مايكل هوارد» أستاذ علم «الصراع» وما يتصل به من استعمالات القوة - في جامعة أوكسفورد، وقد وجدتني زائرا لمكتبه عدة مرات، أسأله وأصغي إليه، وأنقل بصري من حيث يجلس واثقا على مقعده، إلى المنظر الذي تطل عليه غرفة مكتبه، وهو الساحة الداخلية المفروشة بالعشب الأخضر، تحيط بها مساكن الطلبة القدامى في الجامعة العريقة، وهذه الساحة تبدو من نافذة مكتبه مهيبة بأعمدتها وعقودها من الطراز القوطي - بينما المساكن المحيطة تتمدد حول مربع واسع، وفي وسط كل عقد من عقودها، يظهر بين الأعمدة باب قديم لمسكن عتيق عاش فيه طلاب العلم قرنا بعد قرن، وأضافوا به إلى المعرفة الإنسانية طبقة فوق طبقة - وصنعوا به ما صنعوه من قيمة لجامعة أوكسفورد، ودورها في بناء الامبراطورية البريطانية، وما بعدها.

وضمن منهجه في شرح علم الصراع فإن السير «مايكل هوارد» لديه اجتهاد في توصيف الإرهاب يختلف عن النداء الذي يتردد بين وقت وآخر في بعض العواصم العربية باقتراح مؤتمر عالمي على مستوى القمة لبحث قضية الإرهاب كما يختلف عما يتردد في عواصم عربية أخرى بما يعني: أنه لا يصح أن يوصف بالإرهاب، نضال الفلسطينيين من أجل استعادة حقوقهم في وطنهم».

....

....

[والواقع أنه بالنسبة لفكرة مؤتمر عالمي لبحث قضية الإرهاب، فإن الموضوع فات أوانه، لأنه قبل عشرين سنة وأكثر دخل الرئيس «رونالد ريجان» إلى البيت الأبيض على أساس برنامج، تحتل قضية الإرهاب رأس أولوياته، وبالفعل فإن «رونالد ريجان» بعد أن أصبح رئيسا للولايات المتحدة أنشأ لجنة عليا يشرف عليها نائبه «جورج بوش» (الأب) وكان تكليف اللجنة هو قضية الإرهاب، ثم إن هذه اللجنة (سنة ١٩٨١) انتهت إلى توصيات وقرارات تم اعتمادها، وبالتوازي مع ذلك قامت الأمم المتحدة على عهد أمينها العام الأسبق «بيريز دي كويلار» بإحالة موضوع الإرهاب إلى اللجنة السياسية التي خصصت لها مجموعة دولية رفيعة المستوى توصلت إلى صياغة نصوص لحزمة اتفاقيات دولية معروضة الآن أمام مجلس الأمن لإقرارها واعتمادها بواسطة مجتمع الدول.

يُضاف إلى ذلك إن فكرة مؤتمر دولي للإرهاب طرحت نفسها مرات، وانعقدت بالفعل لهذا الغرض قمة دولية التأمت في «شرم الشيخ» في مصر (مارس سنة ١٩٩٦)، ومن سوء الحظ أنه تبين فيما بعد أن تلك القمة قُصد منها إنقاذ الفرص الانتخابية لـ «شيمون بيريز»، حتى تتأكد له رئاسة الوزارة في إسرائيل، لأنه «حمامة السلام» المرجوة والمهددة بمخالب الصقور المتشددين من كتلة الليكود وغيرها، لكن القمة فشلت في تحقيق غرضها، وسقط «بيريز» ونجح «بنيامين نتانياهو».

وأما بالنسبة لما يتردد من أنه لا يصح اعتبار نضال الفلسطينيين من أجل استعادة حقوقهم في وطنهم إرهابا - فإن أي توصيف للإرهاب لا يجب حصره في قضية فلسطين أو اقتصاره عليها أو تمييزها به، وإلا أصبح ما يسمونه بالإرهاب حكرا على قضايا العرب وحدها.]

....

....

المهم هنا أن ما يذهب إليه مايكل هوارد - أستاذ علوم الصراع في جامعة أوكسفورد - أبعد وأعمق، والأهم فيه أن الرجل يطرح ما عنده مستنداً إلى «علم»، ثم إنه يقوله واعيا بالتوقيت السياسي الذي يتكلم في إطاره، مدركا لمحاذيره (ثم إن الرجل لم يتحدث به فقط في مجلس خاص، وإنما - وكما عرفت بعد عودتي إلى القاهرة - فقد تحدث عنه في اجتماع مغلق في كلية الدفاع العليا التابعة لهيئة أركان الحرب البريطانية في لندن) وبالتالي فإن رأي السير «مايكل هوارد» لا يستحق الاحترام فقط لأنه يصدر عن خبير، وإنما استحقاقه للاحترام يتأتى أيضا من أن العلم قادر على احترام نفسه والترفع على هوى السياسة.

وكذلك رحت أصغي لما يقوله أستاذ أوكسفورد العتيد.

بدأ السير «مايكل هوارد» بملاحظة ملخصها، أنه قرأ تعليقا عن حوادث اقتحام العمارات بالطائرات، جاء فيه وصف العمل بأنه «كان جبانا»، وهو يرى أن ذلك الوصف أبعد ما يكون عن الحقيقة، «فما حدث يصعب أن يكون فاعله جبانا»، ولو أن التعليق وصف الفاعل «بأنه مجنون، لوافق على الوصف».

أي أن ما جرى يوم ١١ سبتمبر لم يقم به «الجبن» وإنما قام به «الجنون»!

ثم يقول السير «مايكل هوارد»: «إن الجنون يمكن أن يكون من أعمال الإرهاب، وهنا فإنه لابد من توصيف «الإرهاب»».

ورأى السير «مايكل هوارد» أن «الإرهاب» ليس «جريمة» بالمعنى العادي للجريمة، لأنه لا توجد علاقة معرفة «شخصية» بين الجاني والمجني عليه، كما أنه لا توجد مصلحة «مباشرة» بين فاعل الإرهاب وضحيته، وعليه فإن الإرهاب «فعل عام» وليس «فعلا خاصا»، وهنا اختلافه عن الجريمة.

و«الإرهاب» لم ينشأ الآن فقط مع نشاط الفلسطينيين أو الأيرلنديين (تلك أمثلته)، وإنما نشأ من زمن طويل، ثم أصبح ظاهرة «سياسية» بشكل واضح في القرن الماضي، حين أصبح نوعا من أنواع الثورة (A sort of Revolution)، لجأت إليه شعوب أو جماعات مقهورة - كانت الحرب مستحيلة عليها بسبب ضعف وسائلها، وكانت الثورة غير ممكنة لها بسبب جبروت حكامها، والنتيجة أن هذه الشعوب والجماعات أقدمت على «أعمال يأس» لم تجد أمامها غيرها، وقد لجأت إليها قابلة بدفع ثمنها وهو حياة منفذيها في كل المرات وأمن تنظيماتهم في بعضها».

وكذلك فإن الروس مارسوا الإرهاب ضد الدولة القيصرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

والأرمن مارسوا «الإرهاب» ضد الدولة العثمانية بعد ذلك.

والمصريون والأيرلنديون والهنود مارسوا «الإرهاب» ضد الامبراطورية البريطانية في النصف الأول من القرن العشرين.

واليهود مارسوا الإرهاب ضد الإنجليز.

والفلسطينيون مارسوا الإرهاب ضد إسرائيل.

يستطرد السير مايكل هوارد:

«ليس الموضوع أنني أوافق أو لا أوافق على ما فعله هؤلاء الناس في سبيل ما تصوروا - من وجهة نظرهم - أنه المتاح أمامهم للتعبير عن مطالب اجتماعية أو سياسية أو وطنية. ومهما كانت تكاليفها عليهم وعلى غيرهم - وإنما الموضوع أن نحاول فهم ما يقصده هؤلاء الناس بأفعالهم:

■ هؤلاء الناس أولا يريدون الإعلان عن أنفسهم أو عن قضايا يريدون إشهارها بقوة الفعل الذي أقدموا عليه.

■ وهم ثانيا يريدون تأكيد تصميمهم على القتال في سبيل ما يريدون مهما كانت التضحية.

■ وهم ثالثا وبعنف الفعل يظنون أنهم يوجهون إلى الخصم القوي ضربة الخصم الضعيف تأتيه مفاجأة على غير توقع وتجعله يعيش بعد ذلك رهينة لوساوس القلق!

■ وهم رابعا - وهذه هي النقطة الأهم - يقصدون إلى دفع الطرف الآخر (دولة أو نظام) إلى اتخاذ إجراءات قمع قاسية واسعة النطاق تثير جماهير شعوبهم ضدهم لأن إجراءات القمع والقسوة تضغط على ضمائر جماهير هذه الشعوب!

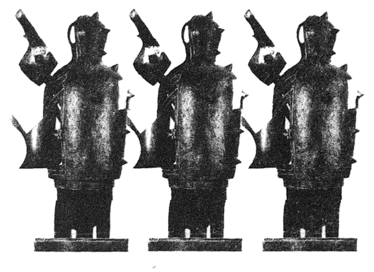
يستطرد السير «مايكل هوارد»:

في المحصلة فإن الإرهاب معركة تقصد إلى إعلان التحدي لوضع قائم عن طريق استفزازه، بحيث يندفع هذا الوضع القائم بكل سلطته للضرب والقمع إلى ما لا نهاية، وتكون زيادة عنف السلطة مؤدية في العادة إلى النفور منها، وحينئذ يشعر القائم بالعمل «الإرهابي» أنه حقق غرضه، لأن الناس تعاطفوا معه، حتى وإن لم يتعاطفوا مع قضيته.

....

....

[بدا لي رأي «مايكل هوارد» معقولا، وبدا لي أن ما نراه الآن تصديق عليه، فليس هناك - كما أظن - تعاطف «عربي» أو «إسلامي» - عام - مع طالبان أو مع «أسامة بن لادن»، لكني أظن أن قوة العنف الأمريكي: بحملة من الكراهية أولادون دليل - ثم



عن الأزمة والحرب!

بالسلاح - بعدها - دون مشروعية - ثم بالضرب فورا - دون تمييز، خلقت ردة فعل مناهضة - على نحو ما - للولايات المتحدة، متعاطفة - على نحو ما - مع شعب أفغانستان، ثم تداخلت الصور فوق الأرض المخضبة بالدم!

ومع أنه لا يصح لأحد أن يخالجه شك في أن القوة الأمريكية قادرة على أن تهدم كل حائط في أفغانستان، وأن تحرق كل كهف في جبالها، وأن تمزق حركة طالبان إربا، وأن تأسر بن لادن في النهاية أو تقتله، فإن «الإرهاب» لسوء الحظ فاز في المعركة وفقا لمقاييس السير «مايكل هوارد»: ذلك أن الإرهاب حقق أهدافه المطلوبة: فهو قد أعلن عن نفسه - وأكد تصميمه - ووجه ضربة بالمفاجأة (إذا كان حقا أنه هو الذي وجهها - أو هو وحده!)، والنتيجة أن الولايات المتحدة وقعت في فخ الاستفزاز واستعملت عنف القوة بأكثر مما هو لازم.

وكذلك فإن «بن لادن» قد يصبح بطلا بالرغم عنه، وشهيدا بمحض مصادفة].

....

[وربما أضفت إلى كلام السير مايكل هوارد أنه إذا كان الإرهاب ثورة اليأس ضد القوة، فإن عصر العولمة نقل الظاهرة من حدود الأوطان إلى اتساع القارات، بحيث يمكن القول بأن معظم أزمات زمننا الراهن وعقده الفكرية والنفسية، وكذلك معظم حركات التمرد فيه والعصيان، هي بمثابة نوع من الحرب أو نوع من الثورة يقوم بها قاع العالم ضد قمته].

....

[خطر لي أيضا أنه إذا كان «الإرهاب» يفوز عندما ينجح في دفع الأقوياء إلى الاستفزاز، ويكون ردهم عليه بأقصى درجات العنف - فإن الإرهاب يخسر إذا استطاعت القوة أن تضبط أعصابها وتواجه الاستفزاز بحكمة العقل متمثلة في حكم القانون، ونموذج «حكمة العقل» مشهور في التجربة الأمريكية نفسها، حين أقدم «تيموثي ماكفي» وهو يميني مجنون على نسف عمارة ضخمة في مدينة «أوكلاهوما»، ضاع فيها من أرواح الأمريكيين أكثر مما ضاع في حرب الخليج!

ففي حالة أوكلاهوما جرى تجنب الاستفزاز، ورغم أن «ماكفي» ثبتت عليه التهمة واعترف - على عكس «بن لادن» الذي لم يثبت عليه شيء ولم يعترف - فإن المحاكمة استمرت خمس سنوات كاملة، حتى دفع «ماكفي» حياته ثمنا لفعلته الإرهابية، ومد يده أولا لحقنة مخدرة تهدئ أعصابه، وبعدها لحقنة ثانية حملته إلى الموت بالسم المميت!

والظن أن الشعب الأمريكي حين رفض الاستفزاز في حالة «ماكفي»، هزم الإرهاب الداخلي الأمريكي، لأنه حجب عن الإرهاب مطلبه الأساسي. أي أن المجتمع الأمريكي قَبِلَ التحدي ورفض الاستفزاز، ولم يندفع إلى عُنف القوة، وإنما أخذ بيده حكمة القوة: أي القانون.

وفي المحصلة، فإن حكم القانون يقدر على تحجيم الإرهاب وحصره. في حين أن عنف القوة يخلط ما بين الإرهاب وقضيته، ويجعل «النموذج» ملتبسا «بالفعل»، ومن ثم يصبح الإرهاب والإرهابي تيارا يجدد نفسه وفعله زمانا بعد زمان وصفا بعد صف. ■

الإشارة الخامسة

التحالف الدولي الجديد: أنواعه ودرجاته

روما:

■ من العالم العربي لا تظهر صورة التحالف الدولي الذي يخوض الحرب الجديدة جلية أو محددة، لكن الصورة تختلف إذا وقع النظر إليها من إحدى العواصم الأوروبية المطلعة، خصوصا تلك التي تعرف دورها بذكاء وتتصرف إزاءه بحذر، وذلك هو الحال في العاصمة الإيطالية «روما»، ولعله تأثير قراءة ودراسة أستاذ علوم السياسة الأكبر «نيكولو ماكيافيللي».

والحاصل أن صورة التحالف الدولي الجديد ظهرت - من العالم العربي - مهزوزة ومشوشة، لأن الخطوط والمساحات لم تتطابق في الواقع مع ما تهيأت له التوقعات، وكان الذي جرى - لبعض الأطراف - أن مجرد الكلام عن تحالف دولي جديد في أفغانستان سنة ٢٠٠١، استدعى إلى ذاكرتهم تحالفا دوليا سبقه إلى إدارة الحرب في الخليج قبل عشر سنوات (١٩٩١).

لكن التاريخ (مرة أخرى) لا يكرر نفسه ولا تتدفق أمواجه في ذات المجرى مرتين.

■ وكان التحالف الدولي الذي خاض حرب الخليج سنة ١٩٩١ - تحالفا غربيا عربيا بالدرجة الأولى، وكانت العلاقة التي تربط الطرفين فيه: الغربي والعربي - أو الأمريكي والعربي بالتحديد - علاقة متوازنة على نحو معين، وفي حين أن الطرف الغربي - بحكم الحقائق - كان يملك وسائل القوة، فإن الطرف العربي - بحكم الظروف - كان يملك غطاء المشروعية، خصوصا أن مطالب الحرب اقتضت نزول قوات أمريكية على نطاق واسع ومكشوف فوق أرض يعتبرها المسلمون مقدسة، وكانت الأسرة الحاكمة في السعودية هي التي طلبت الغطاء العربي الإسلامي حتى تتحمل بنزول قوات أجنبية على ثرى هذه الأرض المقدسة، وكان الغطاء المطلوب مصريا - سوريا وزيادة على ذلك عربيا وإسلاميا بأوسع ما هو ممكن. وذلك تحقق وبه توازنت عناصر القوة مع مطالب المشروعية. وبدا أن هناك نوعا من التكافؤ بين الطرفين، وكذلك نوعا من التوافق، ظهر تأثيرهما على قرار وقف العمليات البرية ضد العراق، والداعي أن بعض الأطراف العربية المشاركة في الحرب وجدت أنه وقد تم إخراج القوات العراقية من الكويت، فإنها لم تعد راغبة ولا قادرة على تحمل الضغوط الشعبية وإلا بان وانكشف أمام الكل أن الهدف هو تدمير العراق وليس تحرير الكويت.

وبالفعل فإن الرئيس «جورج بوش» الأب اتصل أيامها بالجنرال «كولين باول» رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة يستطلع رأيه، وكان رأي «باول» وراي غيره من أقطاب الإدارة أن «القتال يمكن أن يتوقف الآن»، وذلك ما حصل - وإن تكشف بعده أن القتال توقف لكن الحرب على العراق استمرت بوسائل أخرى تعمل على تدمير البلد وشعبه بغير أن تسبب حرجا يحسب على أطراف التحالف من العرب. ثم كان أن الولايات المتحدة قدمت أو ساعدت على تقديم بعض المكافآت إلى هذه الأطراف العربية، لكنها أحالت بقية الحساب يصفيه العرب بينهم وبين بعضهم، وهنا ظهرت الفكرة «التعيسة» لما سمي بـ: «ميثاق دمشق» والقصد منه أن يدفع الخليج - بقية «فاتورة المشروعية» التي وفرتها الأطراف العربية للقوة الأمريكية وكان الميثاق تجارة في الحماية!

أزمات زماننا الراهن وعقده هي نوع من الحرب أو الثورة يقوم بها قاع العالم ضد قمته

ولسوء الحظ - هذه المرة - فإن بعض العواصم العربية عندما سمعت كلمة «التحالف» تتردد مرة أخرى بعد أكثر من عشر سنوات، قاست اللاحق على السابق.

ولم يكن القياس سليما وكذلك لم تتطابق الخطوط والمساحات بين المنتظر والمتحقق، والنتيجة أن الصورة الجديدة بدت للناظرين إليها من بعض العرب مستغربة، وربما أن ذلك هو الذي أوجد أسبابا لسوء الفهم في المرحلة الأولى من حرب أفغانستان، وأوقع مظاهر للارتباك في التصرفات مازالت بقاياها محسوسة إلى الآن.

وفي الغالب أنه غاب عن بعض الأطراف العربية وهي تتابع المجرى الجديد للحوادث، أن التيار هذه المرة مختلف، بل إن حساب جميع العناصر هذه المرة بعيد عن حساب المرة السابقة:

■ فليس هناك إذن مطلوب من أحد (لأن الولايات المتحدة موجودة بالفعل حيث يهمها).

■ وليست هناك مشروعية يستطيع طرف أن يمنحها (لأن ما جرى في نيويورك وواشنطن يعطي للقوة الأمريكية حق أن ترد بالعقاب دون أن يعترض أحد).

■ وبالتالي فإن الإذن غير مطلوب عربيا والمشروعية هذه المرة أمريكية (وإذن فليست هناك مساواة بين الأطراف).

■ وبالتالي ليست هناك فوائد يحصل عليها أحد - بل العكس فهناك ضرائب مستحقة على الجميع (وهذه الضرائب تدفع حين تطلب - وليس هناك «تراض» يمكن التوصل إليه بين الممول وبين المحصل)!

وكانت تلك «مداخل» التحالف الدولي الجديد - هذه المرة - ومفاتيحه!

وفي روما وفي غيرها من العواصم الأوروبية شمال البحر الأبيض تبين صورة التحالف الدولي الجديد دون تناقض بين الخطوط والمساحات. وفي هذه الصورة تظهر معالم رئيسية يُستحسن فهمها وإلا استمر خطأ الحساب وتراكمت عواقبه.

وأهم ما يتكشف بمطالعة الصورة من الموقع الأوروبي أنه ليس هناك تحالف واحد، وإنما هناك جملة تحالفات، ثم إن التحالفات أصناف:

■ فهناك تحالف دول - وهناك تحالف مهام - وهناك تحالف توقيت.



يترتب على ذلك أن داخل كل نوع من هذه الأنواع من التحالف درجات واحدة بعد الأخرى.

■ ففي الدرجة الأولى - من تحالف الدول - توجد: بريطانيا وحدها، والذي وضع بريطانيا في هذه الدرجة بمفردها هو إحساسها برباط المصلحة، وإيمانها بالعلاقة التي تربط مجتمع الناطقين باللغة الإنجليزية مما يجعل هذه العلاقة شراكة قوة ونفوذ، وكان ظن رئيس وزراء بريطانيا «توني بلير» أنه حين يعطي للولايات المتحدة بغير شروط، فإن الولايات المتحدة سوف تعطي بريطانيا بغير حدود، خصوصا في الوزن السياسي.

■ وفى الدرجة الثانية من تحالف الدول توجد روسيا والصين، وتلك حقيقة أوضاع دولية تفرض على الولايات المتحدة وعلى روسيا والصين أن يكون بينها حجم من التفاهم يكفى ليصنع أرضية مأمونة للحركة. ذلك أنه حين تقدم قوة ـ عظمى ـ حتى ولو كانت القوة الأمريكية ـ على العمل المسلح بالقرب من حدود أو تخوم قوة ـ عظمى ـ ثانية، فإن كل نقطة يجب أن تكون فى مكانها، لأن الأوضاع لا تحتمل أن يدوس طرف على قدم طرف آخر، أى أن أى عمل أمريكى مسلح فى أفغانستان لابد له من رضا روسى وصينى حتى ولو كان الرضا بالسكوت.

ـ ثم إن روسيا كانت متشوقة لتحصيل ديون قديمة وجديدة، بينها أن لها ثأرا مع «المجاهدين الأفغان القدامى» ومع «ثوار طالبان المحدثين»، فكلاهما اعتبر الحرب مع الاتحاد السوفيتى السابق (روسيا) واجبا مقدسا، يجاهد فى سبيله (بتوجيه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وتمويلها)، والآن وقد وقعت الواقعة بين «المجاهدين» «قديما وحديثا»، وبين السياسة الأمريكية، فإن روسيا يسعدها أن تحل لحظة الحساب، وأن يكون عقاب الأفغان بسلاح الأمريكان!

ـ إلى جانب ذلك فإن «روسيا» يهمها أن تفهم الجمهوريات السوفيتية السابقة فى الجنوب (أوزبكستان ـ وتركمانستان ـ وطاجكستان وغيرها) أن مسارعتها إلى إعلان الاستقلال عن الاتحاد السوفيتى (روسيا) بمقولة أن لهذه الجمهوريات هوية ـ إسلامية ـ خاصة ـ تجذبها دائما نحو الجنوب ـ مغامرة ثبت فشلها، والآن لعل هذه الجمهوريات تتعلم وتفهم أن مستقبلها الحقيقى فى الشمال (مع روسيا) وليس فى الجنوب (مع وسط آسيا المحاصر بالتخلف وبالجيوش الغازية أيضا!).

ـ وأخيرا فإن روسيا ترى أن الضرب فى أفغانستان رسالة للتمرد فى الشيشان، وهو تمرد تسللت إليه ولازالت تتسلل ـ عناصر من «المجاهدين»! ـ العرب والمسلمين تطوعوا للقتال فى معركة لا يعرفون دخائلها على أرض لا يعرفون معالمها.

وكذلك أصبحت روسيا ـ بقدر من الشراكة قابل للاتساع ـ حليفا لأمريكا شرطه الرئيسى أن لا يتم فى المستقبل إجراء سياسى أو اقتصادى (بشأن موارد وسط آسيا من النفط وغيره)، إلا بعد التشاور معه والاتفاق.

■ وبالنسبة للصين كانت المصلحة واضحة: فهى لا تريد أن تترك أمريكا لروسيا وحدها ـ ولا تريد تسوية أمور وسط آسيا فى غيبتها، ولا تريد للهند أن تصبح القوة الغالبة فى شبه القارة الهندية، إذا سقطت باكستان فى بحور الفوضى بسبب ضغوط العمليات العسكرية على التركيبة الباكستانية (عرقية ـ دينية ـ ثقافية ـ سياسية ـ واقتصادية).

ـ مضافًا إلى ذلك، فإن الصين كانت فى دهشة من نشاط «جهادى» إسلامى موجه من أفغانستان إلى منطقة «جيانج جانج» وهى على السفح الآخر من جبال الهملايا، وفيها قرابة مائة مليون مسلم فى المقاطعات الغربية للصين ـ لديهم مشكلات اجتماعية واقتصادية مع الحكومة المركزية فى «بكين»، ويريد «المجاهدون» لهم نظاما إسلاميا على طريقة «طالبان»!

■ فى الدرجة الثالثة من تحالف الدول تجىء باكستان ومجموعة دول الخليج، وأهمية هذه الدول ترجع إلى أن أراضيها هى ذاتها القواعد التى تشن منها الحرب، وكان يمكن أن تكون هذه المجموعة من الدول فى مكان الدرجة الأولى، لكن الدرجات لا تقاس على أساس «الحاجة عند الاستعمال»، ولكن على أساس «القدرة الذاتية للأطراف فى المنح وفى المنع».

ـ ذلك أن باكستان ولو أنها المسرح المتقدم فى قيادة وتوجيه العمليات، وقاعدة ارتكازها الضرورية ـ إلا أنها جاءت إلى دورها مجبرة، ممزقة بين مشاعر أهلها وبين ضرورات أمنها الوطنى وهى كثيرة، وأولها سلامة النظام الحاكم ـ وثانيها المحافظة على الإمكانية النووية لباكستان وهى حتى الآن إمكانية وليدة معرضة للإجهاض أكثر مما هى قادرة على الردع (وتلك أخطر مراحل أى مشروع نووى إذ تكون أعباؤه وتكاليفه قد دفعت لكن قدرته على الردع لم تكتمل بعد، وبالتالى يصبح المشروع فى هذه الفترة من عمره نقطة ضعف أكثر منه عامل قوة).

ـ ونفس الحساب إلى حد ما ينطبق على مجموعة الخليج، ذلك أن القوات الأمريكية موجودة على الأرض، والقواعد على هذه الأرض تعمل، وليس هناك من يستطيع أن يعترض، وإذا اعترض بالكلام، فحرية العمل لا تحجر عليها الكلمات ما دام فعل الاعتراض معطلا ـ بالعجز على الأقل.

....

....

[وفى هذا المجال ظهر أن هناك فعلا واحدا يقتضى إذنا، لأنه طلب يوفر لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ـ «إمكانيات» و«تسهيلات خاصة» تتيح لها مراقبة موسم الحج هذا العام.

ذلك أن الوكالة عرفت من مصادرها (هكذا قالت!) أن عددا من القادة غير الظاهرين للإرهاب وأعوانا لهم من مختلف المراكز تواعدوا على لقاء فى مواقع الحج ووسط مناسكه ليبحثوا سياساتهم وخططهم فى المرحلة القادمة، ووكالة المخابرات المركزية تظن أن تلك فرصة لا يصح أن تفوت عليها لترصد وتتابع، خصوصا أن زعماء الإرهاب ومساعديهم سوف يخلعون ستائر الحذر عندما يخلعون ملابسهم ويستبدلونها بملابس الإحرام، وهنا يمكن التقاطهم جماعة وبالجملة. والواضح أن واشنطن طلبت، لكنه ليس واضحا ـ بعد ـ أى رد تلقَّتْ]

....

....

إلى جانب ذلك فإن مجموعة الخليج فى وسعها أن تدفع بعض التكاليف، وسوف تدفع رغم الأزمة الاقتصادية الناشئة عن انخفاض أسعار البترول من قبل الحرب وبعدها.

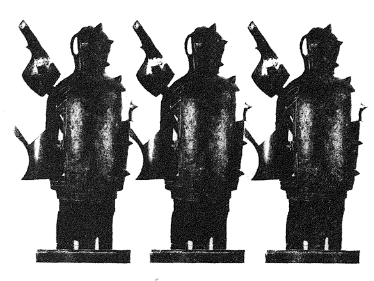
وأخيرا بصدد تحالف الدول فإن البقية بعد ذلك حبات عقد لا ينتظمها حبل، ولكن كل واحدة منها يجرى التقاطها حين يجىء دورها!



هناك بعد ذلك تحالف المهام، والمهام بالطبيعة موكلة بدول، لكن المقصود فى هذا السياق أن التحالف مع هذه الدول يجىء فى إطار عمل محدد فى مرحلة محددة من هذه المواجهة الدائرة الآن، وحتى إذا كانت علاقة الولايات المتحدة السابقة بهذه الدول ببعضها علاقة أوسع من المواجهة الحالية، فإن التحالف مع «هذه الدول» هو فى هذه اللحظة مهام مطلوبة ـ هنا والآن.

ولعل ذلك ما عبر عنه وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفيلد حين قام بتحديد الفوارق بين تحالف حرب الخليج سنة ١٩٩١ وبين تحالف حرب أفغانستان، وكذلك قال رامسفيلد:

«فى المرة الماضية كان «أطراف التحالف» هم الذين يحددون «مهام الحرب»، وأما هذه المرة فإن «مهام الحرب» هى التى تحدد «أطراف التحالف»»!



■ وفى «تحالف المهام» فإن الدولة التى تتصدر القائمة هى «تركيا»، وتركيا تمارس المهام الموكولة إليها الآن فعلا على ساحة الأزمة:

ـ وفيها أن تركيا قريبة من وسط آسيا، كما أن لها صلات وثيقة مع أفغانستان، أهمها القرب الجغرافى وأظهرها تأثر محاولة الإصلاح الأفغانى فى العصر الحديث بحركة «كمال أتاتورك»، إلى درجة أن أحد ملوك أفغانستان وهو «أمان الله خان» جرب فى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات، تقليد أتاتورك فى فرض لبس القبعة على الرؤوس بدلا من العمامة، لكن التجربة كانت متجاوزة للحقائق الأفغانية وأولها الحقيقة الثقافية.

ـ يلى ذلك أن تركيا قاعدة عسكرية قريبة من الجوار، وأن هيئة أركان حرب الجيش التركى تعتبر أن أفغانستان واقعة فى نطاق الأمن الإقليمى التركى، ومع جوار أفغانستان لجمهوريات جنوب الاتحاد السوفيتى السابق (تركمانستان وطاجكستان وأوزباكستان ـ وحتى كازاخستان) وهى فى الطموح التركى منطقة نفوذ يتعين حجزها لها ـ فإن تركيا ترى لنفسها دورا ومجالا، وبالفعل فإن تركيا تحركت فى هذا الاتجاه عقب سقوط الاتحاد السوفيتى ثم واصلت الحركة حتى الآن، (ولسوء الحظ بتعاون وتنسيق ـ فى معظم الأحيان ـ مع إسرائيل)!

ـ هناك أيضا أن تركيا لديها تجربة فى محاولات إقامة دول تنفك من رباط دول قديمة بدعاوى عرقية ودينية، ومن ذلك فقد تمكن القادة العسكريون من الأتراك من إقناع «حليفهم» الأمريكى بأن تجربتهم فى ضرب وحصر حزب العمال الكردستانى تصلح درسا يستحق النظر والاعتبار، وقد وجدوا أوجه شبه بين الرفيق «عبد الله أوجلان» الكردى والملا «محمد عمر» الطالبانى، وكذلك فإن هناك الآن مع القوات الأمريكية العاملة ضد قوات تحالف الشمال الأفغانى وحدات تركية تقدم الخبرة فى التدريب وتشارك عمليا على الأرض!

والمطلب مقابل ذلك أن تركيا لديها حلم «نائم» أو فى الحقيقة حلمان آن لهما أن يستيقظا:

ـ أولهما «حلم» أن تعترف سوريا تحت «ضغوط ما» بأن قضاء الاسكندرونة (الذى تنازلت عنه فرنسا لتركيا أيام الامبراطورية) ـ قد أصبح شرعيا ونهائيا ولاية تركية.

ـ والثانى حلم ولاية «الموصل» التى تأمل تركيا فى سلخها عن العراق العربى لكى تصبح ـ هى الأخرى ـ ولاية تركية، لأن أنقرة مازالت تتهم الحكومة البريطانية بالعمل على ضم الموصل إلى العراق الخاضع لها ساعة تصفية دولة الخلافة العثمانية تلك الأيام. وتشير تلك الدعاوى التركية إلى أنه كان هناك بند فى الميزانية التركية تحت عنوان «الموصل» ظل مطبوعا فى كل مشروع ميزانية حتى عهد إدارة الرئيس «تورجوت أوزال».

■ إلى جانب تركيا يجىء الدور «فى تحالف المهام» على مصر ومعها عدد آخر من الدول العربية (ضمنها السلطة الوطنية الفلسطينية)، وأول المطلوب من هؤلاء على المشاع معلومات مخابرات، فهذه الدول كلها اقتربت على نحو أو آخر مما جرى فى أفغانستان وبعضها شارك مشاركة فعلية فى إنشاء ما يسمى بـ «الجهاد الأفغانى»، وبعضها الآخر كان الداعم الرئيسى لحركة «طالبان».

عـن الأزمــة والحـــرب!

وقد كـان الجميع على استعداد لتقديم معلومات المخابرات بما فى ذلك بعض الدول التى كان يصعب تصورها فى إطار مثل هذه المهام (وبينها سوريا والسودان وليبيا وغيرها).

لكنه إذا كانت معلومات المخابرات هى البند الأول فى مهام هذه المجموعة، فإن المهمة الأكثر حساسية هى «إبعاد» القضية الفلسطينية وتفاعلاتها عن الحرب فى أفغانستان وتطوراتها، وهنا فإن الدول العربية ـ خصوصا مصر والأردن ـ مطالبة بالعمل على وقف العنف فى فلسطين (دون تحديد لمصدر العنف وسببه)! كما أنها مطالبة بالعمل على استئناف المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين (دون أن يكون هناك مشروع معقول يمكن التفاوض عليه) وهى أيضا مطالبة بضبط التصعيد الإعلامى وما يثيره من أجواء نفسية معادية لإسرائيل وللولايات المتحدة وللسلام (دون مراعاة لأسباب الاستفزاز الداعية إلى هذا التصعيد).

وأخيرا فإن هذه المجموعة من الدول مطلوب منها أن تقدم خدمات وتسهيلات لصالح العمل العسكرى الأمريكى، وقد حاول الكثيرون إخفاء ما سمحوا به أو سكتوا عليه وأغمضوا عيونهم.

لكن الحقائق لا تقبل غطاء الشادور الأسود الذى فرضته طالبان على نساء أفغانستان، وبالتالى فإن الحقائق تفضل السفور، وسفورها يسبب الكثير من أسباب الحرج.

وبرغم ذلك فإن العرب ليست لهم قوائم طلبات «غالية» فى مقابل ما يقدمونه متحمسين أو ما يفرض عليهم ويسبب لهم الحرج، والأغلب أن الطلب العربى الأساسى: هو السلامة أولا.

■ وفى تحالف «المهام» أيضا فإن هناك دورا للهند، و«مهمة الهند» ثنائية: إزاء الصين من ناحية وإزاء باكستان من ناحية أخرى، فظهور الهند فى التحالف من شأنه المساعدة على تثبيت موقف الصين، وعلى الناحية الأخرى فإن مجرد ظل الهند يفرض على النظام فى باكستان كبت مشاعره وقمع جماهيره، كما أن شبح الهند قادر على تحديد وضبط حركة الجيش الباكستانى، ومنع وقوع انقلاب مفاجئ فى إسلام آباد يؤثر على مسرح العمليات فى أفغانستان!

وتنتظر الهند من ظهورها بمهمة فى التحالف مكاسب تسعى لها:

ـ أولها تحجيم قدرة باكستان العسكرية والنووية بالذات، وكانت باكستان من قبل مستنزفة بأحوالها السياسية والاقتصادية، والآن زاد على هذه الأحوال عبء جديد يضاف إلى أثقال قديمة.

ـ والمكسب الثانى للهند هو أن باكستان المنهكة سوف تكون أبعد عن «كشمير» بمسافة أو مسافتين عما كانت.

ـ والمكسب الثالث أن ضرب «منهج طالبان» ومدارسها سوف يضعف عناصر تنتمى إلى المنهج والمدرسة تطوعت لـ «الجهاد» فوق قمم الهمالايا (منطقة كارجيل) ضد الهند (التى تعبد الأصنام فى رأيهم)!



وأخيرا فى أنواع التحالفات ـ وبعد تحالف الدول ـ وبعد تحالف المهام ـ يجىء «تحالف التوقيت»، وهو تحالف لحظة معينة حتى وإن طالت عليها الأسابيع والشهور، وضمن هذا التحالف فى التوقيت فقد لا يكون مطلوبا من الأطراف ـ أحيانا ـ ما هو أكثر من مجرد تحييد نفسها، أى اتخاذ موقف الانتظار وترك الأمور تجرى فى مساراتها.

وربما أن «إيران» هى أهم الأطراف فى هذا التحالف السلبى فى أدائه والإيجابى فى تأثيره، ذلك أن إيران حتى بالسكوت عنصر ضاغط إلى أبعد الحدود على حركة طالبان بحكم حدود مشتركة تملك فيها إيران بالتداخل السكانى وبوحدة المذهب الشيعى نفاذا عميقا فى منطقة وسط أفغانستان.

والشاهد أنه إذا كان يمكن تقسيم أفغانستان إلى ثلاث مناطق إثنية، فإن المنطقة الشمالية أزبكية طاجكية، والمنطقة الوسطى فارسية شيعية، والمنطقة الجنوبية باشتونية ممتدة إلى عمق باكستان.

....

[وأتذكر أن صديقا عزيزا بادرنى عندما قابلنى فى لندن قبل سنوات بقوله:

«لماذا لا تذهب لكى ترى طالبان، إنك رأيت وكتبت عن قيام الثورة الإسلامية «الشيعية»، والآن واجبك أن ترى وتكتب عن الثورة الإسلامية السنية فى أفغانستان (يقصد حركة طالبان)».

ولم أتحمس، وكان يكفينى أن أسمع بما جرى للتعليم وقد تحول كله إلى كتاتيب للحفظ والترديد ـ والرجال وقد فُرِضَ عليهم طول اللحى مع العمائم والجلابيب ـ والنساء وقد دخلن سجن الشادور الأسود ـ والفنون وقد صودرت كلها كلمةً ورسمًا وصوتًا وصورةً ـ والأطفال وقد حُرِّمَ عليهم حتى اللعب بطائرات الورق، كأنه يُراد إقعاد أحلامهم على الأرض لا تفارقها.

مع ملاحظة أن أعداء طالبان ليسوا أفضل منها ولا أكثر استنارة ولا أوسع عقلا!. والحقيقة أن انتقال أفغانستان من حكم طالبان إلى حكم التحالف الشمالى هو رحلة من كابوس إلى كابوس!]

....

....

على أن الطرف الأهم فى تحالف التوقيت هو أوربا ـ ألمانيا وفرنسا وإيطاليا أساسا ـ ثم بعيدا عن أوربا: كندا وأستراليا.

والشاهد أن هذه الدول بدرجات متفاوتة هى فى الواقع نصف شريك، لكن استدعاء دولة بقضها وقضيضها إلى كل موقف تفريط فى القوة لا تدعو إليه ضرورة، وأفضل منه توزيع الأدوار على المواقع المناسبة من مجرى الصراع.

وتقدر الولايات المتحدة وهى تدير عملية التحالف، دولا ـ أو مهام ـ أو توقيتات، أن بعض أصدقائها لهم رؤى ومصالح وحتى ثقافة، يمكن أن تكون مغايرة. وأنه من العقل والعدل معا أن تترك لكل منهم هامش حركة يشغله كما يختار، ثم يقع استدعاء كل منهم لمهام التوقيت حين يكون الدور عليه.

(وذلك هو موضع دول أوربية كبرى مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا).

ويلاحظ أن هذا الهامش من المرونة يتسع ويضيق حسب تطورات الحوادث، ومن الملحوظ أن واشنطن تريده أقرب إلى الضيق منه إلى الاتساع، فهى بالنسبة لأوربا تريد حلفاء ولا تريد شركاء، وهى تعتقد أن فرنسا ـ على وجه التحديد ـ تبحث لنفسها عن ساحة أوسع تتحرك فيها.

وفى لقاء «بوش» و«شيراك» فى واشنطن كان الاحتكاك بين دور الحليف ودور الشريك ملحوظا، وعلى سبيل المثال فإنه حين قال الرئيس «جورج بوش»: «إن التحالف مع الولايات المتحدة هو البديل الوحيد للتحالف على الإرهاب» ـ لم يستطع «شيراك» أن يمنع نفسه عن الرد بقوله: «نحن نحارب الإرهاب بمقتضى قرار من مجلس الأمن يمثل إرادة مجتمع الدول».

وحين حاول الرئيس «شيراك» أن يلفت نظر الرئيس «بوش» إلى أهمية تحريك قضية السلام فى الشرق الأوسط، حتى يرفع العالم العربى والإسلامى تحفظه على الحرب ضد الإرهاب فى أفغانستان، كان رد «بوش» بحدة: «إنه سوف يواصل معركة أفغانستان ضمن حربه على الإرهاب سواء تحركت قضية السلام فى الشرق الأوسط أو توقفت»!

وأضاف الرئيس الأمريكى: «إنه إذا تصور بعضهم أنهم يستطيعون المقايضة «واحدة بواحدة» هنا فإن تصورهم سوف يخيب».

وحين ألح «شيراك» ـ تنازل الرئيس الأمريكى خطوة بقوله: «إن أسلافه من رؤساء أمريكا كانوا يتحفظونَ على قيام أوربا بدور فى أزمة الشرق الأوسط، وأما هو فليست لديه الآن تحفظات وهو لا يمانع أن تقوم أوربا ببعض الجهود لـ «تليين» مواقف الأطراف العربية!».

....

....

[وفى هذا السياق فإن الرئيس «بوش» رفض أن يتضمن خطابه أمام الجمعية العامة شيئا عن أزمة الشرق الأوسط فيما خلا عبارة وردت فيها إشارة إلى «دولة فلسطينية» وإزاء رجاء وإلحاح عربى ودولى وعد «بوش» أن وزير خارجيته «كولين باول» «سيعرض بالتفصيل أمام الجمعية العامة ما اختصره الرئيس فى خطابه»!

ثم قيل بعد أيام أن كولين باول لن يتحدث أمام الجمعية العامة (لأن خطاب الرئيس يكفى) ولذلك فإن حديثه سوف تكون له مناسبة أخرى قريبة. وبعد أيام أعلن أن وزير الخارجية الأمريكى سوف يتحدث باستفاضة عن أزمة الشرق الأوسط وأن حديثه سوف يكون فى جامعة «لويفيل» (وهى الجامعة المحلية لولاية «كنتكى» الشهيرة بمزارع الدواجن).

ثم تواردت من واشنطن معلومات «رسمية»:

● أن كولين باول لن يتقدم فى خطابه بمقترحات أو صياغات أو أفكار جديدة «لأن تلك مسئولية أطراف النزاع أنفسهم»!

● أن السيدة «كونداليزا رايس» أبلغت وزير الخارجية أثناء إعداد مشروع خطابه أن «الرئيس» لا يرغب فى كتابة عبارات «تثير غضب الإسرائيليين أو تثير شكوكهم».

● أن على وزير الخارجية «أن يأخذ فى علمه» أن الرئيس سوف يبعث بنسخة من خطاب وزير خارجيته إلى رئيس وزراء إسرائيل مسبقا، ولهذا فإن الأفضل توخى الحذر من البداية.

● أنه بما أن الحكومة الإسرائيلية سوف تقوم بتسريب خبر اطلاعها مسبقا على الخطاب فقد يكون ملائما إطلاع بعض أعضاء وفد التفاوض الفلسطينى على نص خطاب «باول» مع إبلاغهم أنها «للاطلاع» فقط!

● أن نسخة الخطاب التى وصلت إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى عادت وعليها ستة تحفظات واقتراحات بتعديلات أخذ بها جميعا ـ حذفا وإضافة!

وعندما ألقى «كولين باول» خطابه فى النهاية كان المزعج ـ وبحق! ـ أن عددا من العواصم الأوروبية تحفظت عليه لكن عددا من العواصم العربية رحبت به!]

....

....

ولم تكن واشنطن سعيدة بما ترامى إليها من اجتماع عدد من كبار قادة أوربا (وفيهم شيراك وشرودر وبلير وبرلسكونى)، وقد

الأحلام التركية النائمة:
اعتراف سورى بضم لواء الإسكندرية إلى تركيا وقبول دولى وعراقى بسلخ ولاية الموصل عن العراق

جلسوا على عشاء في بيت رئيس الوزراء البريطاني، وتحول حديث السهرة بينهم إلى «شيء» من نميمة تهمس بأن الولايات المتحدة تحاول «الهيمنة على الحاضر لكي تتسلط على المستقبل».

لكن النميمة محصورة، لأن أوربا وأمريكا في النهاية مصلحة متقاربة، وإلى سنوات طويلة قادمة، ومع ذلك وتحسبا لمستقبل بعيد، فإن الولايات المتحدة تفضل أن تكون مع الدول الأوربية الكبرى ضمن «تحالف توقيت» ـ تلك حدودها الآن!

والغالب أن أهمية التحالف الأوربي سوف تزيد في المراحل القادمة من الصراع، وخصوصا إذا تقرر توسيع مسرح العمليات في أفغانستان إلى ما وراءه وإلى ما حوله، ثم امتدت ألسنة النار إلى مواقع لها في الأوضاع الراهنة حساسية خاصة مثل العراق، (يتبعه جنوب لبنان، والسودان، واليمن، وليبيا، والصومال، وربما غيرها).

والمشكلة أن التوجيه الاستراتيجي الموجه من البيت الأبيض إلى القيادة المركزية الأمريكية التي يتولاها الجنرال «تومي فرانكس» وهو القائد المسئول عن العمليات في الشرق الأوسط! ـ وضمنها أفغانستان ـ توجيه مفتوح كأنه تفويض على بياض.

وقد استمعت بنفسي إلى الجنرال «فرانكس» وهو يقول:

«ليس هناك موقع مقصود بذاته، وليس هناك موقع مستبعد من الأصل، لأن التوجيه الرئاسي الصادر إليَّ بتحديد الهدف الاستراتيجي للعمليات هو بالنص:

«عليك أن تعثر على ـ وتقوم بتدمير ـ قواعد ومواقع وخطوط شبكة الإرهاب العالمي والقوى التي تساعده على أن تكون البداية بـ: «تنظيم القاعدة ونظام طالبان»».

والتوجيه بهذا النص مطلق في الطول والعرض وممتد في الزمن إلى بعيد، ومع الزمن مواقع ونتائج، لها تداعياتها وبعد التداعيات مسئوليات وترتيبات.

وفي هذه الأنواع والمستويات من التحالفات (الدول ـ والمهام ـ والتوقيتات)، فإن البيت الأبيض في واشنطن هو مقر القيادة العليا.

ـ هناك أولا يجرى «الفرز» لكي يتحدد «من يصلح» ومن «لا يصلح»، ومن «المستعد» ومن «المتردد»، ومن «الجاهز» ومن الذي «يستحق التجهيز»؟

ومن هناك يكون القطع النهائي بـ: «من»؟ ـ و«كيف»؟ و«متى»؟

ومن هناك تتقرر مستويات التعامل مع كل طرف طبقا لما يستحق.

وفي هذا الصدد قام نائب الرئيس «ديك تشيني» بعملية تقييم للأحجام والأوزان، فقال لزائر عربي كبير المقام ما معناه:

«بعض الناس يكبرون في الأزمات وبعضهم يصغرون: الجنرال «برفيز مشرف» (رئيس باكستان) كبر في هذه الأزمة وطالت قامته، كذلك «أجاويد» (رئيس وزراء تركيا) ـ وإلى حد ما فإن «خاتمي» (رئيس الجمهورية الإسلامية في إيران) ـ أصبح أكبر». ■

الإشارة السادسة

أين العرب؟ وأين إسرائيل؟

لندن:

■ وهناك سؤالان هما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة:

● السؤال الأول: أين إسرائيل في خريطة هذه التحالفات متعددة الأنواع والمستويات: من «تحالفات الدول» ـ إلى «تحالفات المهام» ـ إلى «تحالفات التوقيت»؟!

● والسؤال الثاني: لماذا تلوح الآن في العلاقات العربية الأمريكية ـ بغير مقتضى حقيقي أو واضح ـ علامات على سوء فهم تسري فيه «برودة شتاء» قبل أن يجيء موسم الشتاء الطبيعي في الإقليم؟

والإجابة عن السؤال الأول هي أن: «إسرائيل حليف مشارك بنصيب في جميع أنواع التحالفات التي توظفها الولايات المتحدة الأمريكية في الأزمة الحالية أي: تحالف الدول ـ وتحالف المهام ـ وتحالف التوقيت.

وقد سمعت ـ وسمع معي الصديق الأخضر الإبراهيمي (وزير خارجية الجزائر الأسبق، ومساعد وممثل السكرتير العام للأمم المتحدة في أزمة أفغانستان حاليا) ـ سمعنا نحن الاثنين معا في نفس «المقام» في ذات العاصمة الأوربية من يقول:

«لتكن الأمور واضحة:

إسرائيل صديق وحليف، ونحن نسلم أنها حليف متعب ومشاكس ـ لكنها حليف، وهي حليف قادر، يستطيع أن يعتمد على نفسه في تحقيق مطالبه (ومطالب أصدقائه)».

وعلى الناحية الأخرى:

«فإن العرب أصدقاء، لكنهم ليسوا حلفاء ـ ونحن نسلم أنهم صديق طيب ومريح ـ لكنه صديق، لا يستطيع أن يعتمد على نفسه في تحقيق مطالبه (ويطلب من غيره أن يحققها له)»!

....

....

[وبهذه الإجابة الصريحة يظهر وجها العملة في السؤالين: وجه عليه نقش يحدد قيمته وقوته ظاهرة وواضحة بحيث لا يقع عليها خلاف ـ والوجه الآخر عليه صورة تذكارية لا تستطيع وحدها أن تشتري شيئا، ثم إنها مثل كل الصور تحتمل النظر إليها من كل الزوايا، ومن كل زاوية موقع نظر].

....

....

ويستطرد القائل: «لا يعرف العرب أن الولايات المتحدة لها سياسة هي التي ترسمها، وأن لهذه السياسة أولويات لا يحددها الآخرون!

وسألت القائل ـ ولم يسأله غيري ـ: «إذا كانت الأطراف العربية صديقا، وصديقا له قيمته ولو بالرمز بصرف النظر عن أي شيء آخر، فما هو السبب في برودة الشتاء ـ تسابق الفصول ـ في التأثير على أجواء العلاقات بين الولايات المتحدة وأصدقائها العرب»، وكان ملخص الرد على هذا السؤال:

«في واشنطن وبصفة عامة وفي الظروف العادية قدروا موقف أصدقائهم العرب. لكن طلبات هؤلاء الأصدقاء زادت عن حدها: معظمهم لهم طلب مستمر طول الوقت من الولايات المتحدة بأن تضغط على إسرائيل ولا تفعل شيئا آخر. وكان السياسة الأمريكية في المنطقة وظيفة يمكن اختزالها في: «مواصلة الضغط على إسرائيل»».

«وفي الأزمة الراهنة: أضاف الأصدقاء العرب إلى طلباتهم من واشنطن نداءات إضافية: نداء بعدم توسيع نطاق العمليات خارج أفغانستان، ونداء بتقصير مدة الضرب في أفغانستان، وأخيرا نداء بوقف الضرب في شهر رمضان». (ولعلها رحمة للجميع أن نظام طالبان تبعثر فعلا مع رؤية هلال رمضان)!

أضاف القائل: «وأسوأ من ذلك فإن النداءات العلنية إلى الولايات المتحدة تمثل نصف الحقيقة: فلم يكن كل أصدقائنا العرب يطالبون بقصر نطاق العمليات على أفغانستان، لأن بعضهم كان ومازال يلمح إلى أنها فرصة متاحة لإنهاء ما بقي معلقا بعد حرب الخليج، محرضا على «أن نظام صدام حسين أخطر من نظام طالبان»!. ثم إن الذين نادوا بتقصير مدة الضرب، كانت نصيحتهم تكثيف الضرب بحيث تنتهي المهمة بسرعة. وأما عن وقف الضرب في شهر رمضان، فإن واشنطن أبلغت الجميع عندكم «أنهم شنوا حربا في شهر رمضان، بل وأسموها في أدبياتهم حرب رمضان».

....

....

[ولحسن الحظ فإن التطورات رفعت الحرج عن الكل وأوقفت الإلحاح على وقف الضرب في الشهر الفضيل!]

....

....

ويواصل القائل كلامه:

«لقد سمحت واشنطن لبعض الأطراف العربية بأن يعلنوا على الملأ آراء ومواقف مخالفة لما تسمعه منهم في الاجتماعات المغلقة، وكان ذلك عن تقدير لعلاقة هؤلاء الأطراف مع شعوبهم. لكننا الآن في ظرف لا يحتمل هذه الدرجة من المرونة، وهي في رأيهم ميوعة.

وربما تتذكر «أنهم» في إسرائيل يقولون للناس كل شيء وهذا يطمئن، لكنه على الجانب العربي لا يعرف الناس عما يجري إلا أقل القليل».

والخاتمة في قول القائل:

«إنه لا يستطيع أن يكون صادقا مع الآخرين من لا يستطيع أن يكون صادقا مع أهله، ولعلم الجميع فإن الحكومة الأمريكية لم تطلب من أي طرف عربي شيئا إلا واستجاب للطلب بالكامل.

ومع ذلك راح بعض العرب يقولون أنهم «تحفظوا»

عن الأزمة والحرب!

و«رفضوا» و«منعوا»، وكل ذلك يَخصم من أرصدة الصديق العربى، ويخصم من بند مهم فيه، وهو بند الثقة بالنفس والاستناد عند التصرف إلى شرعية معترف بها من الكل، مقبولة فى تعبيرها عنهم، بما لا يضطرهم إلى التغطية على «التصرف» بالإخفاء أو بالتمويه!».

والكلمة الأخيرة فى القول:

«هناك نقطة لا يعطيها الساسة العرب قدرها من الاهتمام مع أنها ظاهرة أمام كل زائر للبيت الأبيض أو راصد للأجواء فيه، هذه النقطة هى أن «الرئيس» يستعد من الآن لانتخابات المدة الثانية لرئاسته».

والمسألة شديدة التعقيد:

من الأصل كان الرئيس «بوش» ومعه كبار مساعديه ومستشاريه يأملون فى تحقيق إنجاز كبير يتأكد لهم به رصيد من الأصوات أعلى، بحيث يوفر للرئاسة الثانية أغلبية واضحة، ولا يكرر ما جرى فى انتخابات المدة الأولى، حين تعلق النجاح والفشل بمئات من الأصوات تفرز ويعاد فرزها بالطعون لستة أسابيع كاملة.



لكن حوادث ١١ سبتمبر قذفت إلى البيت الأبيض بكارثة يشق الرئيس وكذلك معاونوه أنها سوف تكون المحور الذى تدور عليه معركة سنة ٢٠٠٤ التى تبدأ عمليا سنة ٢٠٠٢ بانتخابات التجديد النصفى للكونجرس وبعدها مباشرة حملة الرئاسة.

و«التقصير» فى توقع ما جرى يوم ١١ سبتمبر ـ والفشل الأمنى والعسكرى فى توقيه، سوف يطرح نفسه. والحزب الديمقراطى الآن بالفعل تسبقه المراكز التابعة له يسعى إلى جمع البيانات، ويسجل، ويحلل لمعركة انتخابية سوف تدور على «صياغة جديدة» للسياسة وللدفاع للسنوات المقبلة من هذا القرن.

فى مواجهة مثل هذه الأخطار الانتخابية على المدة الرئاسية الثانية للرئيس «بوش» فإن استراتيجيته واضحة الآن:

١ـ الخط الأول فيها هو التغطية على يوم ١١ سبتمبر بانتصارات ضخمة يصعب على المعارضة إنكارها.

٢ـ وذلك يعنى أن تكون أفغانستان التى وقعت عليها مسئولية «تنظيم القاعدة» عن ١١ سبتمبر ـ دواءً أو شفاءً لما أحست به الولايات المتحدة فى ذلك اليوم.

٣ـ وذلك يعنى تسوية حساب أفغانستان بما يجعل الميزان متعادلا: ضربة إزاء ضربة ـ لكن الرئيس «بوش» يتطلع إلى ما هو أكثر ـ يريد ما يكفى من الانتصارات حتى يميل الميزان لصالحه على نحو لا يقبل تشكيكا أو «إعادة فرز» للأوراق.

٤ـ ومن حسن الحظ أن المواقع التى تركزت عليها حملات الكراهية الأمريكية كلها «مرهقة ومنهكة» ـ ولذلك فإن الانتصار عليها بأقل التكاليف يعطى «بوش» أمام الرأى العام الأمريكى صورة «السوبر مان» القادر على المعجزات ـ وهو ذاهب إليها لا ينتظر أحدا.

وهنا فإن أمام الساسة العرب فى علاقتهم مع البيت الأبيض مرحلة صعبة: لا تحاسب أحدا على ما فعله أو لم يفعله ـ ما قاله أو لم يقله فى معركة أفغانستان، ولكن التعامل مع كل طرف سوف يكون على أساس ما فعله أو لم يفعله ـ ما قاله أو لم يقله ـ مما يساعد على زيادة فرص الرئيس الأمريكى فى انتخابات المدة الرئاسية الثانية.

وأسرة بوش باختصار لا تريد لابنها أن يدخل التاريخ مثل والده «رئيس ولاية واحدة»، وإنما تريده الأسرة رئيس ولايتين ـ على الأقل مثل «بيل كلينتون»!

وهذا هو مأزق أمريكا وأصدقائها العرب «هذا الشتاء» (الملتهب).



ومع ذلك فإن مناخ العلاقات العربية الأمريكية ينزل فى برودته أحيانا درجة الصقيع.

....

....

[وقد حدث مع السيد ياسر عرفات أنه كان مطروحا من عدة شهور احتمال عقد لقاء بينه وبين الرئيس جورج بوش فى البيت الأبيض بمناسبة زيارة «عرفات» للولايات المتحدة لحضور الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكان المفروض أن يكون اللقاء تعبيرا عن معنى التزام الرئيس الأمريكى بما أعلن عنه من اهتمام بالصراع العربى ـ الإسرائيلى، حتى وصل (كما قال) إلى التفكير فى تقديم مشروع تسوية أمريكى ـ كان ينوى إعلانه ـ قبل ١١ سبتمبر.

لكن الرئيس الأمريكى فى لحظة صقيع سياسى، رأى إلغاء اجتماعه فى البيت الأبيض مع رئيس السلطة الوطنية، وحين بدا أن بعض الدول العربية محرجة ـ من إلغاء اجتماع البيت الأبيض المقترح بين بوش وعرفات، وأنها كانت تتمناه ولو كمجاملة تشيع بعض الدفء فى الأجواء ـ أشار المندوب الأمريكى الدائم إلى أنه يمكن للرئيس بوش أن يلتقى بالرئيس عرفات لقاء «مصادفات» فى ممرات الأمم المتحدة حين دخول وخروج الرئيس الأمريكى ووقوفه لبضع دقائق مع عدد من رؤساء الوفود.

و«لقاءات المصادفات» أسلوب يمارس بالتمهيد والتوافق، والغرض منه أن يكون حلا وسطا بين لقاء «بالشكل» وبين اجتماع «للموضوع».

وكان أن أحد رؤساء الوفود العربية أراد أن يتأكد أن «لقاء المصادفات» ـ بين بوش وعرفات ـ له مناسبة على خريطة زيارة الرئيس الأمريكى للأمم المتحدة، حتى لا يحدث خطأ يمكن حسبانه إهانة مقصودة، لكن الوفد الأمريكى رفض أن يعطى التأكيد المطلوب، وكان رد رئيسه: «إن التحديد بالتأكيد على خريطة تواجد الرئيس بوش فى مبنى الأمم المتحدة يرقى إلى مرتبة تحديد موعد، وهذا غير مطروح، ولذلك فإن المصادفات يستحسن تركها للمصادفات».] ■

....

....

انتخابات الرئاسة الأمريكية القادمة تطارد بوش من الآن وهو يرى فيها انتصارا كاسحا لا يكرر مهزلة الانتخابات الأخيرة ولا يعرض الفوز للطعن وإعادة الفرز مرات ومرات

الإشارة السابعة

ظلام فوق ظلام فى أفغانستان

لندن:

■ إن ما سموه بـ: «الحرب فى أفغانستان» قارب نهايته، لكن البركان سوف يواصل الفوران، وصحيح أن طالبان تبعثرت، لكن طالبان ماتزال حية، وماتزال طرفا فى الاقتتال الأهلى والتناحر الطائفى والقبلى، الذى نزل ظلاما فوق ظلام على أفغانستان، على أن مشكلة طالبان فى كل أحوالها أنها طرف لا يمكن رؤية حساباته، لأن كل حساب لابد له من قواعد يقاس عليها فى زمنه. وقد عاشت طالبان حتى الآن خارج الزمن وليس مؤكدا إذا كانت الكارثة التى حلت بها سوف تعلمها حسابه، وإذا حدث فأمام طالبان أربعة احتمالات:

■ احتمال أن يرى أصحابها أن فرصتهم ضاعت ومن ثم فإنه الوقوع فى الأسر أو الانعطاف إلى النسيان.

■ أو احتمال مواصلة المقاومة عن طريق حرب عصابات تساعد عليها طبيعة أفغانستان الوعرة، وميزة حرب العصابات أنها تحرر طالبان، من مسئولية «المدن» وهى حصار للحركة وارتهان لمطالب كتل ضخمة من السكان فى مدن مثل «مزار شريف» و«كابول» و«جلال أباد»، على أن المتفق عليه أن حرب العصابات لا تؤثر إذا لم يكن وراءها حجم واسع من التأييد الشعبى وفى الغالب فإن ذلك ليس متوفرا لطالبان ولا حتى فى مركز قوتها الرئيسى وهو إقليم «قندهار» وسكانه من «البشتون».

■ والاحتمال الثالث أن تعاود طالبان تأهيل نفسها للاشتراك فى ائتلاف حزبى أفغانى، والمأزق أن الأطراف المرشحين لهذا التحالف الحزبى، غاصوا جميعا فى مستنقع الوحل والدم ـ بحيث لا يستطيع أحد منهم إنقاذ نفسه أو إنقاذ أفغانستان.

■ والاحتمال الرابع أمام طالبان هو «الكمون» فى انتظار أن يتورط غيرهم من أطراف التحالف الشمالى فى تدمير بعضهم البعض فيقوم «ربانى» (الطاجيكى) بمحاولة تصفية «حكمتيار» (البشتونى)، أو يقوم الجنرال «عبد الرشيد دوستم» (الأوزبكى) بالانقضاض على غيره من أمراء الحرب والعلماء والمشايخ، أو أن ينجح الملك

السابق «ظاهر شاه» في إزاحة الجميع ليجد نفسه أمام أفغانستان لم يعرفها من قبل رغم أنه جلس على عرشها أكثر من أربعين سنة!!

وكانت مرحلة ما بعد طالبان هي سؤالي طوال أربع ساعات متواصلة قضيتها في حوار مع الصديق «الأخضر الإبراهيمي» وهو المكلف - باعتباره مساعد الأمين العام للأمم المتحدة والمفوض بقرار من مجلس الأمن - بترتيب مستقبل أفغانستان في مرحلة ما بعد طالبان.

كان الأخضر قادما من باريس ليوم واحد في لندن (قضى صباحه في مقر رئاسة الوزارة البريطانية)، وكان على الطريق إلى نيويورك يقدم أول تقرير إلى السكرتير العام للأمم المتحدة ليعرضه على مجلس الأمن.



وتقابلنا في الساعة السابعة بعد الظهر وافترقنا في الحادية عشرة قبل منتصف الليل.

وكان الأخضر - وهو رجل بطبيعته متفائل - مثقلا طوال ذلك النهار مهموما يتحسب للعمل الذي ينتظره في أفغانستان في مناخ وخضم أزمة خبرها قبل خمس سنوات حين سقطت «حكومة المجاهدين» في كابول، وزحفت «قوات طالبان» تقيم دولتها - إمارة المؤمنين - هناك!

وقال الأخضر في سياق كلامنا الطويل، إنه عندما كُلِّف بالمهمة بادئ الأمر كان تكليفه: «تامين المعونة الإنسانية للسكان الأفغان - ثم محاولة إنشاء ائتلاف داخلي بين القوى والزعماء يحكم أفغانستان ولو لمرحلة انتقالية».

وكان تقديره من أول لحظة أن التكليف شبه مستحيل، فهو - في الجانب الإنساني - من مهمته يعرف حجم «الشُحّ» في الإمدادات مقابل «وفرة» في عدد المحتاجين - وبينهم ستة ملايين لاجئ - ومع أنه شديد الثقة في فريقه الذي يعمل معه في هذا المجال على الأرض فعلا، فإن الأمر يحتاج إلى تخصيص مائتي باخرة، ومائة طائرة، وخمسة آلاف شاحنة تعمل كلها ليل نهار حتى يمكن تجنب «حالة مجاعة» حقيقية وليست مجازية.

وهو يدرك مقدما أن مجتمع الدول غير مستعد لمثل ذلك الجهد الكثيف مع وجود احتياجات إنسانية كبيرة للمعونة في مناطق أخرى من العالم غير أفغانستان.

وعلى الجانب السياسي من هذه المهمة فهو يعرف زعماء أفغانستان، ويدرك عمق ما بينهم من أحقاد وثارات، لكنه يصلي عسى أن تكون سنوات طالبان قد علمتهم شيئا.

وبرغم أثقال هذين التكليفين الإنساني والسياسي، فإنه (الأخضر) وجد أن هناك مهمة أخرى مطلوبة منه وهي:

«العمل على بناء نوع من نظام الدولة في أفغانستان».

وهنا يقول الأخضر: «وجدت أن ما هو مطلوب مني ليس «شبه مستحيل» وإنما هو «المعجزة وزيادة»».

والمعجزة أمامها فرصة - فقط - إذا أمكن التزام بعض المبادئ:

أولها: أن أي حل للأزمة لابد أن يكون أفغانيا، حتى يُكتب له الاستمرار بعد توقف النيران.

وثانيها: تقدير أن الدمار الذي حل بأفغانستان دمار ليس له شبيه نعرفه في التاريخ الحديث، فالبلد من الأصل فقير ومعزول، والحرب الأهلية ربع قرن دون توقف لم تترك له شيئا يبنى عليه.

وثالثها: أن مشكلة حفظ الأمن حتى يمكن البدء في أي بناء مشكلة مخيفة، لأن البلد ألف نار السلاح في يده - وتعود سيل الدم أمام عينيه.

ورابعها: أن إقامة نظام دولة أو شبه نظام ليس مسألة كتابة تقارير، وإنما مسألة إرادة أفغانية تعمل بتجرد - ! - وإرادة دولية تساعد بسخاء.

وخامسها: تعاون صادق من دول الجوار الأفغاني وأولها باكستان وإيران.

ويستطرد الأخضر:

«اتفقنا السكرتير العام للأمم المتحدة وأنا على أن أهم ضمانة للنجاح - إذا كانت هناك فرصة - أن يظل دور الأمم المتحدة في أفغانستان مدعوما بتأييد القوى العظمى وخصوصا الولايات المتحدة - ودون تردد أو فتور».

وهو يتذكر أنه في الأزمة الأفغانية الماضية قبل خمس سنوات وحين تعثرت الأزمة على الأرض - تفرقت القوى العظمى واختفت سريعا وراء الأفق الأفغاني.

وهذه المرة لا يجب أن يتكرر ما جرى قبلها.

هناك أيضا أننا نريد أن نضع مسافة بين دور الأمم المتحدة في أفغانستان وبين الأدوار السياسية للقوى العظمى وحتى لغيرها!

سألت الأخضر: هل ذلك ممكن؟

وجاء رده: «لابد أن يكون ممكنا، والحقيقة أنني قبل أيام كنت في البيت الأبيض مع أحد المستشارين الكبار فيه ودخل علينا نائب الرئيس «ديك تشيني» وجلس معنا لنصف ساعة، وطرحت أمامه مخاوفي، وقد أبدى تفهما لضرورة أن يكون عمل الأمم المتحدة في أفغانستان متجاوزا للمطالب السريعة والمناورات السياسية «للدول»».

....

....

وقاربت الساعة منتصف الليل وخرجنا من حيث كنا في حديثنا الطويل إلى رصيف شارع «ابيوري»، ووقفنا وكل منا ينتظر سيارته تحمله إلى حيث يقيم. وكان مطر لندن حفيا بزوارها حتى في هذه الساعة من الليل، وفجاة سالني الأخضر بلهجته الجزائرية: «جول لي يا خوي»؟ ورددت نفس كلماته باللهجة المصرية بصفة الجواب: «قل لي يا أخي» - واستكمل الأخضر سؤاله:

«ماذا فعلنا بالأمة العربية، وقضاياها، وحاضرها ومستقبلها؟!».

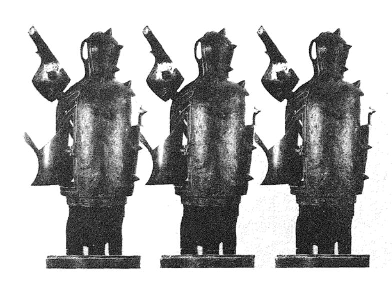
وقلت وكانت سياراتنا قد وصلت إلى حافة رصيف شارع «ابيوري»:

«هل تريد السهر هذه الليلة حتى الفجر؟!».



وأجدني استغرقت كل المساحة المخصصة لهذا الحديث، وتعطلت أمام الإشارات، لم أصل بعد إلى الموضوع الذي قصدته من البداية، وهو القول المأثور عن الرئيس «دوايت أيزنهاور» والذي لخص فيه تجربة حياته بقوله «إن السياسات الطيبة لا تضمن النجاح أكيدا، ولكن السياسات السيئة تضمن الفشل محققا»!

وذلك يعني أن للحديث بقية.



حروب قذرة: أمم صغيرة ودول كبرى

وهناك صدامات أخرى متوقعة، على
الحدود بين أرمينيا وجورجيا، وكذلك بين أذربيجان وإيران.
وفي كل أنحاء القوقاز، هناك أدلة على الجريمة المنظمة وغير المنظمة، والحكام المرتشون
المحليون والوطنيون، واستخدام القانون سلاحاً للاضطهاد،
وبيع كل شيء يتصل بالمنصب العام

ظهرت أفغانستان كمملكة مستقلة في القرن الثامن عشر، وإن كانت حدودها قد تغيرت عدة مرات، كما أنها كانت دائمًا اتحاد القبائل والخانات أكثر مما هي دولة مركزية. وفي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ورغبة من بريطانيا في إيقاف تقدم روسيا في قلب آسيا ولحماية حدود الهند الشمالية، خاضت ثلاث حروب مع الأفغان. وقد فشلت في إخضاعهم ولكنها اكتسبت نفوذًا قويًا على سياستهم الخارجية. وكذلك سعت بريطانيا إلى مواجهة روسيا باستعمار إيران الغنية بالبترول - وهي جائزة أكبر بكثير - ولكنها لم تحقق غير نجاح محدود. وبعد الحرب العالمية الثانية حلت الولايات المتحدة محلها باعتبارها «حاجزًا» ضد تغلغل موسكو في إيران. وبعد خروج بريطانيا من شبه الجزيرة الهندية في ١٩٤٧ أصبح الاتحاد السوفيتي المصدر الرئيسي لحصول أفغانستان على المعدات العسكرية والمعونة الاقتصادية، وكذلك بناء المستشفيات والخزانات المائية المولدة للكهرباء وكذلك بناء المطارات العسكرية وأحد الأنفاق

1- A Dirty War: A Russian Reporter in Chechnya

(حرب قذرة: صحفي روسي في الشيشان)

Anna Politkovskaya
Translated by: John Growfoot
Harvill, 2001, 336PP., £ 12.00

2- Small Nations and Great Powers: A Srudy of Ethnopolitical Conflict in the Caucasus

(أمم صغيرة وقوى كبيرة: دراسة للصراع السياسي الإثني في القوقاز)

Srante Cornell
Curzon, 2001, 480PP., £ 57.88

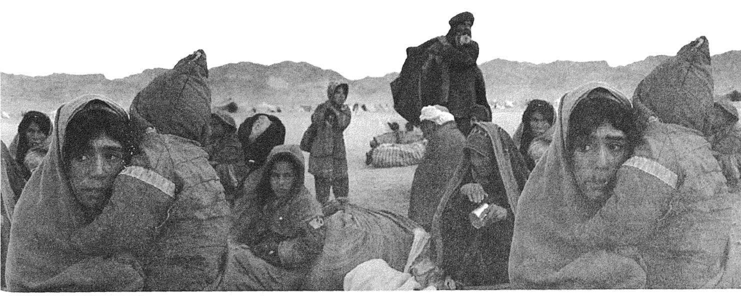
الاستراتيجية. وفي منتصف الستينيات ظهر حزب لينيني أفغاني - ولا شك في أنه كان واحدًا من آخر الأحزاب التي أنشئت في أي مكان - وفي سنة ١٩٧٨ أدهش هذا الحزب موسكو باستيلائه على السلطة في كابول. واعترفت المؤسسة السوفيتية بالنظام الثوري الضعيف الذي لم تنشئه ولم تسيطر عليه، ولكن بعد وقوع عدد من عمليات القتل والاضطراب، واجه الكرملين قلقلة متزايدة في بلد على حدوده وانتابه القلق الشديد من احتمال التغلغل الأمريكي في تلك الأصقاع. وفي أواخر ١٩٧٩ - وهي سنة الثورة الإسلامية في إيران التي أسقطت الشاه الذي كانت الـ CIA قد أعادته إلى السلطة في انقلاب كاد يفشل في ١٩٥٣ - نظمت المخابرات الروسية حركة بين الجماعات اللينينية الأفغانية، وساندتها بقوة عسكرية كان المقرر أن تبقى في أفغانستان أشهرًا قليلة أو ربما عامًا، أو عامين على الأكثر. وانقضى عقد كامل من السنين قبل أن تنسحب بقايا هذه القوة عبر ما سمي «كسر الصداقة» إلى طاچيكستان السوفيتية. وبعد ما يزيد قليلاً على عامين انهارت الدولة السوفيتية نفسها.

وسقطت طاچيكستان في براثن الحرب الأهلية بعد ١٩٩١، وذلك تحت تأثير الصراع عبر هندوكوش، الذي تفاقم بمحاولة الإبقاء على هياكل العصر السوفيتي المحلية، وبدأت الحرب في أفغانستان تتخذ مكانًا رئيسيًا في تفسير الانهيار السوفيتي. ولكن كما يقول مارك جاليوتي في كتابه «أفغانستان: حرب الاتحاد السوفيتي الأخيرة» (١٩٩٥) فإن الاتحاد السوفيتي لم يخسر الحرب، بل يمكن أن يقال إنه لم يخضها. وبينما أرسلت الولايات المتحدة ما يقرب من ٥٥٠ ألف مقاتل إلى فيتنام، لم يرسل الاتحاد السوفيتي في أي وقت أكثر من ١٢٠ ألف مقاتل في بلد يبلغ حجمه خمسة أضعاف حجم فيتنام. وكانت القوة التي أرسلها الاتحاد السوفيتي إلى أفغانستان تمثل واحدًا من خمسين من إجمالي القوات المسلحة للكرملين والتي كانت تبلغ ٥,٣ مليون جندي. ولم يشارك في القتال بالفعل غير ٤٠ في المائة من القوة السوفيتية، وفقدت عددًا أقل من ١٥ ألف جندي خلال السنوات العشر من الحرب - بالمقارنة بما بين ٣٥ ألفًا و٦٥ ألفًا ماتوا داخل بلدهم في ظروف تتراوح بين الانتحار والحوادث الخطرة. بل إن عددًا يزيد عن ذلك خمسة أضعاف ماتوا في عصر برچنيف في الاتحاد السوفيتي في حوادث سيارات كل سنة أكثر ممن ماتوا في القتال في الحملة الأفغانية بكاملها. ومثلت الحرب أقل من ٢ في المائة من ميزانية الدفاع السنوية، وبلغ إجمالي تكلفتها على امتداد العقد بكامله ما يساوي دعم سنة واحدة للزراعة السوفيتية (وتلك حرب من نوع آخر).

وبمثل هذه الإحصاءات يقول جاليوتي إن حرب أفغانستان كانت بالنسبة للاتحاد السوفيتي «حربًا صغيرة»، وكانت سندًا سياسيًا للبعض وسوء حظ للآخرين، وأنها كانت في نهاية الأمر «مجرد رمز آخر لفشل النظام، ينضم إلى مأساة تشرنوبيل، والمحلات الخالية من البضائع، ومليونيرات المافيا». وهو يفند الأسطورة القائلة بأن كل الجنود انغمسوا في تجارة المخدرات (وأن نسبة ضئيلة فقط هي التي أصابها الإدمان). وبعد أن أكد جاليوتي على دور الفساد السياسي الذي سمح للمحظوظين وذوي الاتصالات بالهرب من واجب الحرب - وأورد المثل الشعبي الروسي الذي يقول «الحياة كتاب، والحرب صفحتان ممزقتان منه» يصب جام غضبه على النظام السوفيتي لأنه أخفى الحقائق الأساسية للصراع حتى عمن كُتب عليهم خوض المعركة.

ويتبين من مذكرات المخابرات السوفيتية التي لم تترجم أن السلطات كانت ضحية لأكاذيبها. وفي كتاب «روكامسكوفسكي» (١٩٩٢) يقول ليونيد سيبارسين وهو من كبار خبراء المخابرات الأمريكية بشأن وسط آسيا، إنه بعد حدوث الانقلاب الشيوعي في ١٩٧٨ لم يكن في وسع أحد في موسكو أن يحصل على معلومات دقيقة عن أفغانستان، وأن يوري أندروبوف رئيس المخابرات السوفيتية في ذلك الحين وجد نفسه مضطرًا للقيام بزيارات سرية لكابول لجمع المعلومات. وتمكن نيكولاي ليونوف، كبير الباحثين في المخابرات السوفيتية، من أن يرى بنفسه في أفغانستان حقيقة الأكاذيب التي كانت ترد في البرقيات الرسمية والتقارير المرسلة إلى البوليت بيرو «المكتب السياسي»، ويبين في كتابه «ليخوليتي» (١٩٩٥) كيف أن الجهات السوفيتية المتعددة كانت تتصادم إحداها مع الأخرى، مما خلق فراغًا في المسئولية استغله المتعاملون معهم من الأفغان الذين كانوا يكذبون طوال الوقت بدورهم. وأضاف أن كثيرًا من السوفييت كانوا يتحدثون عن أفغانستان على أنها «أفغاف نستان» (آف... ستان).

وبالنسبة للشعب الأفغاني لم يكن التدخل السوفيتي مجرد فاترينة تبين التدهور الإمبريالي. فالمقدر أن عددًا يبلغ ١,٣ مليون أفغاني قد قتلوا - أي بمعدل مائة قتيل مقابل القتيل الواحد من الجنود السوفييت. وأن عددًا مماثلاً فقد أحد أطرافه. وأن حوالي خمسة ملايين أفغاني - أي ثلث السكان قبل سنة ١٩٧٩ - دفعوا للإقامة في مخيمات اللاجئين في باكستان وإيران المجاورتين. وأن عدة ملايين غيرهم نزحوا في داخل أفغانستان، واضطروا للنزوح أكثر من مرة. فكيف أمكن لحرب شنت بمثل هذه القوة المحدودة في بلد بهذا الاتساع أن تحدث هذا القدر الهائل من



أفغانســــتان .. والشـــــيشان .. والقـــوقـــاز

ســتـيـفن كـوتكــن

الدمار؟ يمكن العثور على إجابة هذا السؤال فى كتاب فرانك كاس المعنون «الدب يعبر الجبل» وهو ترجمة لتقدير عسكرى فنى أعد من أجل الاستهلاك المحلى وبه تعليقات كتبها «ليستر جراو» وهو ضابط متقاعد فى الجيش الأمريكى. وقد ألقى جراو الضوء على أسلوب «المسح» العشوائى الذى قام به السوفييت فى المناطق التى كان يشك فى أنها تؤوى المجاهدين. وكان معظم هذه العمليات يبدأ بحملة واسعة من المدفعية ـ والتى كانت قذائفها تتساقط على المدنيين، وأصبحت على غير رغبة القائمين بها أداة لتجنيد المؤيدين للقرار. وعندما تصلبت مقاومة المجاهدين لم تواصل القوات السوفيتية حملتها وتفقد أعدادًا كبيرة من الجنود كما فعلت فى الحرب العالمية الثانية بل استعانت برشاشات طائرات الهليكوبتر للقيام بهجمات أخرى عشوائية. وبعبارة أخرى فقد استعاضوا بقوة النيران الهائلة عن القتال المتلاحم. ولم يكن ذلك لأن الضباط كانوا حريصين على سلامة جهودهم، بل لأنهم نادرًا ما كانوا يجدون خيارا آخر، نظرًا لأن المجندين غير المدربين، والذين لا يحصلون على غذاء كاف، والذين انتشرت بينهم الأمراض، كانوا يحجمون عن «الالتحام» مع المقاتلين حسنى التدريب فوق الأرض التى يعرفونها (وإن كانت شجاعة المجاهدين قد بولغ فيها كثيرًا). وليس من الواضح من الكتابات السوفيتية ولا من تعليقات «جراو» أن أفغانستان شهدت حربها الأهلية الخاصة، وأن مجموعات المجاهدين المتضاربة حصلت على أسلحة تبلغ قيمتها مليارات الدولارات وعلى غير ذلك من الدعم من المملكة العربية السعودية ومصر وباكستان والولايات المتحدة. وكان الجميع يمارسون نهب ذلك البلد وسكانه، وتحقق لهم جميعًا نجاح مرموق فى هذا الصدد، ولم تكن أفغانستان ـ كما تقول الأساطير ـ مقبرة للامبراطوريات، بل كانت ساحة المآسى المرعبة للمتدخلين من الخارج (ومقبرة لها أيضًا).

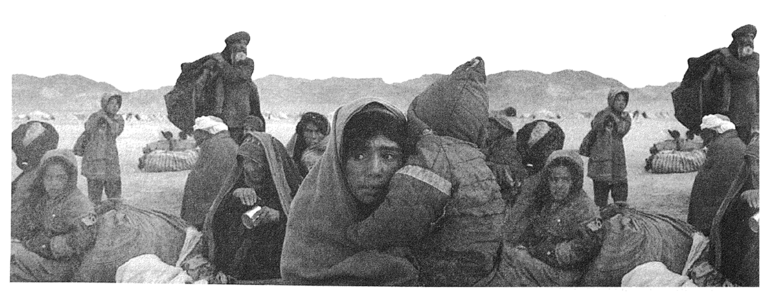


وعلى امتداد العمود الفقرى الصخرى لأوراسيا دارت اللعبة الكبرى للحرب الباردة، بلا ضمير من الجانبين، ولكن بأسلحة فتاكة وآثار بعيدة المدى. ولم يمض وقت طويل بعد انهيار النظام السوفيتى حتى تخلت الدكتاتورية الشيوعية، التى كان لها العديد من المتعاونين معها والمستفيدين من وجودها (على غرار النظام العسكرى الباكستانى الحالى المدجج بالأسلحة) أمام المجاهدين فى ١٩٩٢ الذين كانوا مقاتلين طوال حياتهم ولهم تأييد واسع النطاق، والذين سرعان ما حولوا معاركهم البرية إلى مذابح متبادلة. ويبدو أن الحرب السوفيتية قد وحدت أفغانستان فى مقاومتها ولكن فى الواقع أثارت منذ البداية شعورًا أعمق بالكيان العرقى وانقسامًا أشد بين الأفغان التركستانيين فى الشمال والبشتون الميالين للباكستان فى الجنوب. وشجع ذلك على قيام نزعة إسلامية متطرفة وزعامات حربية متطرفة بدلاً من الحكومة. وساهمت واشنطن فى هذا الصدد بسخاء. فبدلاً من أن تساند مساعى جورباتشوف لإنشاء حكومة ائتلافية وتحرم كل الأطراف من «نصر» وهمى رأى ريجان ومن بعده بوش، بالتواطؤ مع باكستان، منح التأييد لأشد الإسلاميين المتطرفين دموية، للتأكد من أن موسكو سوف تنزف بغزارة وأن «عميلها» فى كابول سيلقى هزيمة كاملة. وفى سبيل ذلك لم تتجاهل الولايات المتحدة فقط مصلحتها الخاصة (الاستقرار الإقليمى) بل تجاهلت أيضًا اتفاقيات جنيف التى وقعتها فى سنة ١٩٨٨. بل بمجرد أن عرض السوفييت الانسحاب وشرعوا فيه شجعت واشنطن على العنف الإسلامى فى أفغانستان، بينما كانت تنفق أموالاً طائلة فى نفس الوقت لمحاربة الإسلام فى إيران وذلك بتسليح عراق صدام حسين مثلاً. وكان ذلك مثالاً واحدًا من التصرفات المحيرة العديدة التى قامت بها دولة عظمى بدون أن يكون لها سياسة شاملة وطويلة الأمد فى الشرق الأوسط. والآن يبدو أن الولايات المتحدة تغازل السلطات الاستبدادية فى آسيا الوسطى ـ وهى تنويعات من الأنظمة الشبيهة بالنظام السوفيتى التى عملت على إسقاطها فى أفغانستان ـ كما تغازل موسكو.

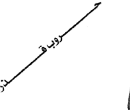
أما جماعة طالبان المفككة، فإنها وليدة الأخطاء السوفيتية القاتلة والخداع الأمريكى، والتمويل السعودى ذى الوجهين، وما يسمى المخابرات الباكستانية والإحباط العربى المنتشر إلى جانب سيل من مدافع الكلاشينكوف والألغام الأرضية، وزراعة الهيروين، والأمية، والفوضى، والورع الإسلامى.



وقد دارت المعركة الكبرى الروسية البريطانية الأمريكية بعنف أقل إلى الغرب من بحر قزوين، ولكن هذا الوضع قد يتغير تمامًا كما تتحول الحسابات اليوم فى شرقى ذلك البحر. وكثيرًا ما يشير الباحثون الآن إلى أوجه التشابه بين الشيشان وأفغانستان، سواء فى دوائر الأمن لدى الكرملين وبين الساخطين فى جنوب القوقاز ـ حيث تظهر آراء متماثلة، قادمة من مواقف متعارضة على خط مستقيم. وقد بدأت حرب روسيا فى الشيشان فى ديسمبر ١٩٩٤ على يد قادة فقدوا أسنانهم فى افغانستان. وانتهت تلك الحرب بنتيجة ليست قاطعة بعد ٢٠ شهرًا، ولكنها استؤنفت فى أغسطس ١٩٩٩، ومازالت دائرة. وبطبيعة الحال هناك من سيقولون، وأولهم الشيشانيون إن الحرب بدأت فعلاً فى أيام بطرس الأكبر فى سنة ١٧٢٢ عندما قام بمسيرته نحو الجنوب فى القوقاز، بل وعندما قام إيڤان الرهيب فى ١٥٥٩ ببناء قلعة تاركى على ضفة نهر سونجا القريب، وأن النزاع استمر منذ ذلك الحين من خلال الثورات وإبعاد المعارضين وحروب الفدائيين التى امتدت من جيل إلى جيل. وهناك آخرون فى مقدمتهم الروس، سيقولون إن «الحرب» بدأت فى الأساس بتهريب الأسلحة والإتجار فى المخدرات وسرقة البترول وانتشار روح العصابات فى السياسة الشيشانية وأراضى شيشانيا فى أوائل تسعينيات القرن الماضى (١٩٩٠). وكلا الرأيين صحيح جزئيًا ولكنه خطأ فى الغالب. فالتاريخ المقرب للعلاقات بين الروس والشيشان لم يجعل من الحتمى وجود «حركة» انفصالية عنيفة، يقودها رجال مجرمون غير مسئولين بل حتى تقودها الجريمة المنظمة الشيشانية (المرتبطة بموسكو) والتى قامت بـ «عملية» عسكرية شنها «قادة» دمويون غير مسئولين. وحتى لو كان الوضع كذلك، ينبغى أن تكون نقطة بدايتنا أن «شيشينيا»، على غير الحال فى أفغانستان، تدخل فى حدود روسيا وفقًا للقانون الدولى المعترف به. والذين يزورون البقايا المحزنة لجروزنى نادرًا ما يواصلون الرحلة إلى ڤازان التى قهرها إيڤان الرهيب وضمها لسلطانه فى ١٥٥٠ والتى أصبحت الآن عاصمة جمهورية تتارستان الروسية. وقد أعلنت تتارستان، شأن شيشنيا، الاستقلال ولكنها بعد التفاوض مع موسكو فضلت بدلاً من ذلك استقلالا ذاتيًا واسعًا، ونتيجة لذلك أصبحت الصفوة فى تتارستان قادرة على نهب الخزانة العامة







وممارسة الديماجوجية الوطنية التي تحولت إلى فن سياسي رفيع في كل أنحاء المملكة السوفيتية السابقة، ولكن سكانها ينعمون على الأقل بالسلام، أما في الشيشان فقط أدت الحرب إلى ازدياد أعمال تربح الصفوة ودمرت كلا من الأرض وحياة الناس. وعندما جاءت فترة السنوات الثلاثة من الهدوء النسبي في أواخر التسعينيات، والتي بدأت خلالها شيشنيا تشبه أفغانستان فيما بعد التدخل السوفيتي، تبين كيف أن النزعة الانفصالية العسكرية، حتى في حالة «النصر» هي في الواقع شكل من أشكال الهزيمة.

وليس من الصعب، إذا حكمنا على أساس الغالبية الساحقة من كتابات المراسلين، تصور أن حرب الشيشان هي نضال من أجل «التحرر الوطني» من قيود امبراطورية، بالرغم من أن نضال الشيشان هو في الأساس بين قادة عسكريين يتنافسون على الظهور والسيطرة على معامل تكرير البترول الصغيرة التي يسمونها في الداخل «وحدات الساموفار» (وقد دمرت كل معامل التكرير القديمة). ومن ناحية أخرى فمن السهل أيضاً، بالاعتماد على تبريرات موسكو، وصف الحرب بأنها موقف ضد الإرهاب «الإسلامي» وضد الإضرار بالاتحاد الروسي، بالرغم من أن دموية موسكو ساعدت على انتشار التطرف الإسلامي في القوقاز وأضر بالوحدة الوطنية بأكثر مما كان يمكن لانفصال الشيشان أن يحدثه. فكلا الجانبين يؤيد نفس الأيديولوجيا. وقد كتبت آنا بولتكوفسكايا، مؤلفة كتاب «حرب قذرة: مذكرات مراسلة روسية في «شيشنيا» وجمعت في مقالاتها التي نشرتها في جريدة قليلة الانتشار في موسكو تقول إنه «ليس لدى هذا الجانب أو ذاك أية شفقة على السكان المدنيين، وتقول إن هذا الجانب الثالث المنسي يتوق إلى أبسط شروط الأمن، والعمل، والحياة العائلية، والتوافق العرقي. وتقول إن معظم الشيشانيين يحتقرون دعاة الحرب من بينهم ويحتقرون الروس أيضاً. وهم غير قادرين على فهم ما يدعو لأن تكون النساء والأطفال وكبار السن هم الأهداف الرئيسية للعسكريين الروس ومما يلفت النظر - وكأنما الكرملين لم يقرأ كتاب «الدب يعبر الجبل» - أن «العملية المعادية للإرهاب، أصبحت مرة أخرى حرباً ليست ضد مقاتلين، يصعب الوصول إليهم، بل ضد المواطنين العاديين، مع استخدام قوة النيران بلا تمييز. لقد طلب أحد الضباط الروس من المراسلة الروسية أن تبلغ هذه الرسالة إلى موسكو: إن هذه حرب بلا معنى. وهذه هي الرسالة التي أبلغتها بالفعل في ريبورتاجها. وبالرغم من أنها لم تصل إلى ما وراء خطوط الشيشان فإنها توضح أنهم هناك أيضاً يحتاجون لأن يستمعوا إلى تلك الرسالة. فرسائلها التي يبرز فيها التفكير المدني (والتي تمتد من يوليو ١٩٩٩ إلى يناير ٢٠٠١) وهي رسالة لها أهميتها ليس فقط لأنها روسية تسجل الفظائع الروسية - وقد سجنت لفترة (قصيرة) ولكن أيضاً لأنها تعامل المتسلطين والضحايا بنفس الدعوة إلى الرحمة.

وبدلاً من إلقاء اللوم على الجنود الروس غير المنضبطين فإنها تنظر إليهم كبشر، فتقول إنهم يعيشون كالكلاب الضالة - جائعين، قذرين، مرضى ومهجورين - وهم يعيشون عن طريق تهريب الفودكا والأدوية بل وبيع أسلحتهم، أو بقبول الرشاوى في «نقاط التفتيش» من الأهالي الذين يفترض أنهم يفحصون أمتعتهم. فهؤلاء الجنود المعرضون للقتل، يعيشون على اللحم المحفوظ في مخازن تنتشر فيها الروائح الكريهة بينما تحاول أمهاتهم سرقة تلك العلب مرة أخرى من القاعدة (تنجح بعض الأمهات في إخفاء أبنائهن - من وراء القانون - لمنع تجنيدهم في الجيش منذ البداية). وفي موضع آخر تنتقد الكاتبة دعاية الكرملين، فموسكو تقول إنها تعيد بناء جروزني، ولكنها لا تفعل. وموسكو تقول إنها نشرت الهدوء والأمن في تلك المناطق، وهي لم تفعل. وعندما تلمح الكاتبة إلى التشبيه بأعمال النازي، والتي تحدث صدمة لدى قرائها الروس فإنها تصف مستوطنة للاجئين الشيشانيين المعذبين في انجوشيتيا فتقول «إن كل ما ينقص هذا المعسكر الآن هو الشروع في إنشاء غرف القتل بالغاز». وهي بهذه العبارات القاسية تحاول أن تحرك مشاعر أبناء وطنها الذين يؤسفهم الوضع ولكنهم غير راغبين في عمل شيء للتخفيف من معاناة الضحايا، كما أنها توجه النقد لجمعيات حقوق الإنسان في الغرب التي تصدر بيانات لا نهاية لها ضد الروس ولكنها لا تستجيب للجهود الرامية إلى مساعدة الأشخاص الذين يحتفظ بهم الشيشان كرهائن. وهي توجه انتقاداتها أيضاً إلى المسئولين الروس المرتشين والممتلئين بروح الانتقام. وتقول «إن المغزى المستخلص من هذه القصة أنه ليس للدولة وجود في روسيا. إن الاتحاد الروسي هو دراسة حالة من العجز المطلق والذي لا رجعة فيه». وفي ردها على ادعاءات بوتين بشأن سحق العصابات وبناء دولة قوية فإنها تدعو إلى وجود رئيس «يحمي الضعفاء - لأن الدولة وفقاً لدستورنا موجودة قبل كل شيء لمصلحة الشعب، وهذا قول ساذج بغير شك، ولكنه صواب.

إن كل مناطق الحرب في الأراضي السوفيتية السابقة (وهي بالترتيب التصاعدي للعمليات الدموية، أوسينيا الشمالية، وأوسينيا الجنوبية، وانجوسينيا، ومولدوفا، وأبخازيا، وكرباخ، وطاجيكستان، والشيشان) أنتجت في مجموعها ٢٠٠ ألف وفاة وبين مليونين وثلاثة ملايين من اللاجئين. وهذه أرقام مخيفة ولكنها لا تصل إلى حجم ما شهدته أفغانستان (فضلاً عن الكونغو). وكانت خمس من هذه المنازعات فيما تلى العصر السوفيتي قد وقعت في القوقاز. ولم يحل أي واحد منها. والحالة الوحيدة التي أسفرت عن معاهدة للسلام - شيشنيا في ١٩٩٦ - هي الحالة التي تجددت على أوسع نطاق. وهناك صدامات أخرى متوقعة، على الحدود بين أرمينيا وجورجيا، وكذلك بين أذربيجان وإيران. وفي كل أنحاء القوقاز، هناك أدلة على الجريمة المنظمة وغير المنظمة، والحكام المرتشون المحليون والوطنيون، واستخدام القانون سلاحاً للاضطهاد، وبيع كل شيء يتصل بالمنصب العام. فالانتخابات تزيف، إذا أجريت أصلاً، وغالباً تمارس السياسة عن طريق القتل. ويمكن العثور على جيوب للسلام النسبي - في ظل أنظمة فاسدة - ولكن الأهالي العاديين يعانون حرماناً قاسياً ولا يتمتعون بحقوق المواطنة إلا بصورة اسمية. وأكثر من المناطق السوفيتية السابقة الأخرى، بما في ذلك المناطق الواقعة في آسيا الوسطى، يطرح القوقاز لوحة لوجود العصابات في السلطة، ومعسكرات اللاجئين، وعدم الاعتراف بسلطة الدولة وشلل الاقتصاد.

وهذا الوضع نادراً ما تناوله البحث الجاد، ولكن هذا ما فعله مؤخراً ڤانتي كورنيل في كتابه «أمم صغيرة ودول عظمى» وهو يستبعد عن حق السخافات المتعلقة بـ«خط الانفصال الحضاري» فروسيا التي تغلب فيها العقيدة الأرثوذكسية الشرقية تؤيد الآچار المسلمين داخل جورجيا الأرثوذكسية الشرقية، والعلاقات بين أرمينيا وجورجيا المسيحيتين متوترة، والعلاقات بين أذربيجان المسلمة وجورجيا علاقات حارة. ويقول إن المفتاح ليس «الحضارات» بل السياسة - المحلية والدولية - وهذا هو السبب في أن المؤلف يكتب فصولاً مستقلة عن كل من تركيا وإيران وروسيا والولايات المتحدة.

ويشرح المؤلف الصراعات العنصرية التي نتجت عن تصرفات الاتحاد السوفيتي، فبدلاً من تشجيع الاندماج بين الكبرديين والشركس (وكلاهما من الشركسيين) والكاراشاي مع البلكار (الذين يشتركون في لغة واحدة) أنشأت السلطات السوفيتية جمهوريات مستقلة ذاتياً لكاراشاي والشركس من ناحية والكبرديين والبلكار من ناحية أخرى داخل جمهورية روسيا الاتحادية السوفيتية. كما حرصوا على رسم حدود هذين الكيانين بحيث يضمان الكثيرين من العناصر الروسية في المناطق المنخفضة. وفي حالة أخرى كانت ابخازيا في البداية جمهورية اتحادية، ثم انخفض وضعها إلى جمهورية «مستقلة ذاتياً» داخل جورجيا. وكانت بالتحديد هذه الجماعات ذات «الاستقلال الذاتي» التي ألحت في طلب الاستقلال بما يتعارض مع ما تدعيه العلوم الاجتماعية السائدة من أن منح «الاستقلال الذاتي» يعتبر حلاً لمواجهة الحركات الانفصالية. ولكن المؤلف يرد على هذا الفرض ويطرح رؤيته للامبريالية الروسية بحديثه عن الهوية السوفيتية التي يرى أنها «كانت بالغة الأثر في تخفيف حدة المنازعات بين شعوب الاتحاد السوفيتي، والحديث الرسمي عن الإخاء والوحدة، وإن لم يزد في أحيان كثيرة على العبارات الجوفاء، يبدو أنه كان له أثره في تفكير المواطنين السوفييت.. وقد خفت التوترات ليس بمجرد قمعها بل أيضاً نتيجة لشعور حقيقي بالهوية السوفيتية المشتركة والانتماء على المستوى الشعبي».

ومن الصحيح أن الأبخازيين قبلوا على مضض أن يكونوا كياناً «له استقلاله الذاتي» داخل جورجيا عندما كانت جورجيا داخل الاتحاد السوفيتي، ولكنهم لم يعودوا يقبلون بذلك عندما اختفى الاتحاد. وربما يندهش المراقب الخارجي أيضاً بمدى العمق «السوفيتي» للقوميات القوقازية المختلفة. فقد كان لهم، بعد كل شيء، كيان واضح من خلال الاتحاد السوفيتي وفي داخله.

ويعرض المؤلف بحذر مبادلة تبدو منطقية ولكنها متعذرة سياسياً في الغالب، بين أرمينيا وأذربيجان بأن يقوم اتحاد فيدرالي غير متماثل في جورجيا (باعتباره السبيل الوحيد لإعادة سلامتها البرية) وإعادة استقلال الشيشان بوسائل أقل عنفاً. وهو يعترف بأن مشروعية جمهورية الشيشان التي ظهرت سنة ١٩٩١ هي محل اعتراض في الواقع على أسس سليمة «وإن مصرع أربع نساء بريطانيات في أواخر ١٩٩٨ كان نكسة خطيرة في سعي شيشينيا لتحسين صورتها». وهو يرى أن الإسلام «قد يصبح قوة التوحيد» عبر شمال القوقاز (بافتراض أنه لم يعد من الأراضي الروسية) ويضيف «إن كون هذا التطور إيجابياً أو سلبياً يتوقف بطبيعة الحال على نظرة المرء إلى الإسلام السياسي» أو على حقائق الإسلام السياسي. وعلى أي حال فإن الفكرة الأخيرة للمؤلف هي أن «الحق أن تدخل القوى العظمى في القوقاز من المتوقع أن يستمر وأن يزداد مع ازدياد الأهمية الاستراتيجية للمنطقة.. فالديناميكيات الجيوبوليتكية لا يسهل استبعادها وفي عصر ما بعد الحرب الباردة لم تزدد المعركة الكبرى إلا تعقيداً». ■



كانت القوة التي أرسلها الاتحاد السوفيتي إلى أفغانستان تمثل واحداً من خمسين من إجمالي القوات المسلحة للكرملين والتي كانت تبلغ ٥٫٣ مليون جندي. ولم يشارك في القتال بالفعل غير ٤٠ في المائة من القوة السوفيتية، وفقدت عدداً أقل من ١٥ ألف جندي خلال السنوات العشر من الحرب



بترتيب خاص مع:

ترجمة: أسعد حليم

.. وصراع النفط والسياسة فى القوقاز

محمد السماك

حكم الروس هذه المناطق حوالى ٣٠٠ سنة، طوال العهدين القيصرى والسوفيتى، وأدى حكمهم الذى تميز بالاستبداد وبالاستغلال معًا إلى تراكم ثقافة عدائية عند شعوب المنطقتين



منذ أن بدأت الولايات المتحدة عملياتها العسكرية ضد أفغانستان، ارتفعت علامة استفهام كبيرة حول ما إذا كانت لهذه المبادرة الأمريكية علاقة بالثروة النفطية الضخمة التى تمّ اكتشافها فى دول آسيا الوسطى الإسلامية، خاصة فى بحر قزوين. فإذا لم تكن أفغانستان منتجة للنفط، فهى يمكن أن تكون ممراً استراتيجياً للنفط القزوينى الذى يُعتقد أنه يفوق نفط الخليج حجماً.

تصف الولايات المتحدة منطقة بحر قزوين بأنها «الخليج العربى رقم ٢». وهى كذلك بالفعل. ليس فقط من حيث اكتشاف ثروة ضخمة من النفط والغاز، ولكن من حيث تعقيداتها السياسية الإقليمية وارتباطاتها الدولية المعقدة أيضاً. ودخلت إسرائيل إلى الخليج العربى من بوابة التسويات السياسية العربية ـ الإسرائيلية. فكانت زيارات شمعون بيريز إلى سلطنة عُمان وقطر عندما كان رئيساً للحكومة. وكان الإعلان عن اتفاق أولى لتصدير الغاز القطرى إلى إسرائيل. ودخلت إسرائيل القوقاز من خلال عقد أبرمته مع حكومة كازاخستان يقضى ببناء مصفاة لتكرير النفط تبلغ قيمتها ٤٥ مليون دولار.

العقود التى تبرمها الشركات الغربية سواء لجهة استخراج النفط (من البر والبحر) أو لجهة مدّ خطوط الأنابيب، أو حتى لجهة بناء المصافى تبلغ قيمتها العشرات من مليارات الدولارات. والتنافس الدولى على الحصول على امتيازات الاستثمار وعلى تحديد جغرافية امتداد الأنابيب إلى أوروبا أشبه ما يكون بالوجه الآخر لما حدث فى منطقة الخليج العربى من قبل.

كثير من الاضطرابات السياسية التى تشهدها الدول القوقازية يعود إلى الثروة النفطية المكتشفة. وكثير من الاضطرابات فى العلاقات بين روسيا والغرب (أوروبا والولايات المتحدة) يعود أيضاً إلى هذه الثروة التى تبدو مثل قرص من العسل تتسارع الأيدى لقطفه. ففى حسابات شركتين غربيتين فقط هما بريتش بتروليوم (البريطانية) وستاتويل (النرويجية) أنهما ستحققان فى الثلاثين سنة المقبلة أرباحاً تصل إلى ٨٠ مليار دولار. ويحتاج هذا الربح إلى توظيف ٧,٥ مليار دولار فقط لاستثمار ثلاثة من حقول النفط الأذرية الغنية فى بحر قزوين وهى حقول شيراغ وغيوتشلى وأزيرى. وقد أبرم عقد بين حكومة أذربيجان وهذه الشركات الغربية فى شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٥ بقيمة ٤ مليارات دولار لاستثمار النفط فى الحقول الثلاثة.



إضافة إلى ذلك تقدر الشركات الغربية أن أرباحها من استثمار حقل النفط والغاز التابع لمنطقة ناكورنى كاراباخ (التى أعلنت استقلالها بعد حرب أذرية ـ أرمنية طويلة بسبب الاختلاف حول السيادة عليها) قد تصل إلى ١٢ مليار دولار مقابل استثمار ٤ مليارات دولار فقط. ذلك أن هذا الحقل يحتوى على مخزون يقدر بحوالى ٨٥ مليون طن من النفط وأكثر من ١٠ مليارات متر مكعب من الغاز، يضاف إلى ذلك حقل شاه دنيز الذى يقدر مخزونه بحوالى ١٠٠ مليون طن من النفط و٤٠٠ مليار متر مكعب من الغاز.

يمتاز الخليج العربى عن القوقاز بموقعه الجغرافى. فالناقلات تربط بين الدول المنتجة فى الخليج والدول المستهلكة فى أوروبا والولايات المتحدة واليابان وغيرها مباشرة عبر الطرق البحرية المفتوحة. كذلك يمتاز الخليج العربى بأن العلاقات بين دول مجلس التعاون تتسم بروح أخوية (قومية ودينية) أمكن معها بناء سياسة نفطية مشتركة أدت إلى الاستقرار الذى تتمتع به المنطقة، وبالتالى إلى نموّها وازدهارها.

أما فى القوقاز (الخليج العربى رقم ٢) فإن الوضع مختلف جغرافياً كما أن بنية العلاقات بين دوله مختلفة أيضاً. فعلى الصعيد الجغرافى فإن بحر قزوين هو بحر أو بحيرة مغلقة وبالتالى يستحيل نقل ثروته من النفط والغاز بواسطة الناقلات عبر الطرق البحرية. ثم إن المنطقة المحيطة به منطقة جبلية مرتفعة ووعرة. وهى أشد وعورة سياسياً. ذلك أن العلاقات بين دولها تتسم بالعداء الذى تضرب جذوره فى أعماق التاريخ. من مظاهر هذا العداء:

ـ الحرب بين أذربيجان وأرمينيا (حول السيادة على إقليم ناكورنى كاراباخ).

ـ الصراع بين أذربيجان وإيران (أذربيجان دولة شيعية فى معظمها ولكن قوميتها تركية).

ـ الصراع بين أرمينيا وتركيا (اتهام تركيا ـ العثمانية ـ بارتكاب مجازر ضد الأرمن فى مطلع القرن الماضى).

ـ الصراع بين روسيا وجورجيا (المحاولات المتكررة لاغتيال الرئيس الجورجى إدوارد شيفرنادزه آخر وزير للخارجية فى الاتحاد السوفيتى المنهار).

ـ حرب الشيشان ضد الهيمنة الروسية.

تعنى هذه الوقائع أنه إذا كان من السهولة تصدير نفط الخليج العربى إلى أسواقه الاستهلاكية فى العالم، فإن النفط القوقازى يواجه مصاعب سياسية وجغرافية طبيعية بالغة التعقيد. ذلك أنه لابد من أن يتم النقل عبر الأنابيب. ولابد لهذه الأنابيب من أن تمر عبر عدة دول تواجه أنواعاً مختلفة من الصراعات القومية أو الدينية أو الاثنتين معاً.

ولولا إغراءات الربح لما تزاحمت الشركات الغربية على توظيف عشرات من مليارات الدولارات فى استثمار نفط القوقاز.

وكما هو الوضع فى الخليج العربى كذلك، توجد عدة دول حول بحر قزوين هى تركمانستان وكازاخستان وأذربيجان و«ناكورنى كاراباخ» إضافة إلى روسيا.

وتشاء الأقدار أن تتجمع الثروة النفطية فى القسم الجنوبى من البحر بعيداً جداً عن الشاطئ الروسى. ولكن إذا كانت الطبيعة حرمت روسيا من نفط بحر قزوين فإن السياسة المدعومة بالقوة العسكرية عوضت عليها (لابد هنا من الإشارة إلى أن ثروة روسيا من النفط والغاز متجمعة فى سيبيريا فى أقصى الشمال). وبحكم هذه القوة السياسية ـ العسكرية تحاول روسيا أن تملى سير خط أنابيب النفط. فأثناء زيارة رسمية سريعة قام بها الرئيس الروسى السابق بوريس يلتسين إلى الماتا ـ عاصمة كازاخستان ـ تم التوقيع على بروتوكول لتمويل مد خط أنابيب من بحر قزوين إلى البحر الأسود. وقع على الاتفاق ثلاث دول هى روسيا وكازاخستان وعُمان، إضافة إلى ست شركات نفط غربية وشركتين روسيتين. تبلغ نفقات الخط ما بين ١,٢ و١,٥ مليار دولار، ويستغرق إنشاؤه مدة عامين ونصف العام تقريباً. وعندما يصبح جاهزا سوف يستخدم أساساً لنقل نفط حقل «تانجيز» فى كازاخستان إلى الشاطئ الروسى على البحر الأسود. ويقدر احتياطى حقل «تانجيز» ما بين ٦ و٩ مليارات برميل!!

بموجب البروتوكول الجديد تحتفظ روسيا بـ٢٤ بالمائة من الأسهم بينما تحتفظ كازاخستان بـ١٩ بالمائة، وعُمان بـ٧ بالمائة (المجموعة ٥٠ بالمائة). أما النصف الثانى من الأسهم فتتوزعه الشركات الثمانى مقابل تمويل تكاليف مد خط الأنابيب.

أما استثمار حقل تانجيز فتتولاه عدة شركات بكلفة قد تصل إلى ٢٠ مليار دولار. وتحتفظ شركة شيفرون الأمريكية وحدها بخمسين بالمائة من عقد الاستثمار، وموبيل بخمسة وعشرين بالمائة.

جاء بروتوكول الماتا ليحسم جدلاً سياسياً طويلاً حول أى اتجاه يمكن أن يسلكه خط الأنابيب المزمع إنشاؤه فى ضوء الحروب والصراعات الحادة المتأججة فى المنطقة. فالخط الذى أقر فى البروتوكول ينطلق من تانجيز (شمال شرق قزوين) إلى كومسومولسك الروسية (شمال غرب قزوين) ومنها إلى نوفوروسيسك الروسية على البحر الأسود. وبموجب البروتوكول أيضاً سيتم مد خط يربط بين «تانجيز» وكراسنوفوسك التركمانية (جنوب شرق قزوين) وبذلك يمكن ضخ نفط تركمانستان وكازاخستان إلى البحر الأسود ومن ثم تحمله الشاحنات بحراً إلى العالم عبر البوسفور والدردنيل فإيجه والمتوسط إلى أوروبا وأمريكا وبقية الأسواق العالمية.

ولكن هذا الخط إذا كان يحل مشكلة تصدير نفط هاتين الدولتين القوقازيتين فإنه يبقى بعيداً عن معالجة مشاكل حقول النفط الأخرى خاصة تلك التى تملكها أذربيجان.

كانت تركيا تامل فى أن تصبح الممر الوحيد للنفط القوقازى وذلك اعتماداً على علاقاتها القومية واللغوية وحتى الدينية بدول المنطقة. وكذلك اعتماداً على ثقة الغرب بها باعتبارها عضواً فى حلف شمال الأطلسى. وفوق ذلك كله، اعتماداً على أن الطرق الأخرى المكنة، وإن كانت أقل كلفة، فهى سياسياً أشد خطراً. أدت هذه الطموحات التركية إلى اضطراب حاد فى العلاقات بين أنقرة وموسكو. وأدت إلى الانقلاب العسكرى الدموى فى أذربيجان الذى أطاح برجل تركيا (أتاتورك الصغير كما كان يلقب نفسه)، ووصول حيدر علييف الرئيس الحالى إلى السلطة. كما أدت إلى الحرب الأذرية ـ الأرمنية حول ناكورنى كاراباخ ووقوف روسيا إلى جانب أرمينيا إلى أن تمكنت ـ موسكو ـ من إعادة السيطرة على باكو ـ عاصمة أذربيجان ـ وأدت كذلك إلى تفاهم تركى ـ جورجى دفع ثمنه الرئيس إدوارد شيفرنادزه محاولة اغتيال كادت تقطعه إرباً.

يبلغ طول مشروع خط الأنابيب الذى يربط باكو فى أذربيجان بمدينة باتومى الجيورجية على البحر الأسود ٩٢٠ كيلومترا (منها ٤٤٠ كيلومترا داخل أراضى جورجيا) وتبلغ نفقاته ٢٥٠ مليون دولار فقط. وتعارض روسيا هذا المشروع رغم دعوة شركة «لوكيل» الروسية للمساهمة فيه بنسبة عشرة بالمائة. ذلك أن وراء المعارضة الروسية أسباباً سياسية وليست استثمارية. فالكرملين يريد أن يمر كل نفط بحر قزوين والقوقاز عبر أراضيه، وأن يصدر هذا النفط من المرفأ الروسى على البحر الأسود، حتى تبقى لروسيا هالتها ودالتها على دول المنطقة المنتجة.

تعنى المعارضة الروسية هذه استمرار تشغيل خط الأنابيب الروسى القائم حالياً (منذ العهد السوفياتى) والممتد من باكو إلى نوفوروسيسك على البحر الأسود. ويمر هذا الخط عبر جمهورية الشيشان التى تناضل من أجل الاستقلال عن روسيا. وربما يكون العنف الروسى ضد الثورة الاستقلالية الشيشانية سببه الحرص على إخضاع الشيشانيين لإبقاء هذا

الخط ساكنا وآمنا. وتوجه روسيا الاتهامات إلى تركيا بأنها ترسل الأسلحة والذخيرة والمتطوعين المسلمين إلى الشيشان ليس حباً بهم وباستقلالهم بل رداً على معارضة موسكو مد خط أنابيب النفط من باكو إلى سيهان التركية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط (شمال لواء الإسكندرون حيث يصل خط الأنابيب القادم من العراق).

لذلك تخطط روسيا لمد خط فرعي للأنابيب يجنّبها حتمية المرور داخل الأراضي الشيشانية يربط بين باكو وكومسومولسك (في محاذاة الحدود الشرقية للشيشان) ومنها إلى نوفوروسيسك على البحر الأسود. غير أن تحقيق هذا المشروع لا يعني فقط الاستغناء عن الشيشان بل ربما يعني التخلي عنها أيضاً. ولاشك في أن حصول الشيشان على الاستقلال يشكل حافزاً مشجعاً لبقية شعوب المنطقة في القوقاز التي تتطلع للتحرر من السيطرة الروسية.

بالمقابل، توجه تركيا الاتهامات إلى روسيا بأنها تحرّض الأكراد الأتراك على التمرد وعلى العصيان المسلّح للإيحاء إلى شركة النفط الغربية بأن طريق الأنابيب عبر تركيا غير آمن، وأن مستقبل تركيا كلها غير مستقر، لحث الولايات المتحدة وأوروبا على عدم اختيار الطريق الغربي لخط الأنابيب. وتصل الاتهامات التركية حتى إلى سورية نفسها بأنها متحالفة مع روسيا في مساعدة الأكراد مقابل مصالح روسية - سورية ثنائية. وإذا كان بروتوكول الماتا يعني شيئاً فهو يشير إلى تغليب وجهة النظر الروسية حتى الآن على الأقل.

يبقى هناك احتمالان آخران لمد خط للأنابيب من القوقاز: الأول جنوباً باتجاه إيران. وهنا توفر روسيا على نفسها عبء معارضته، تاركة مسئولية ذلك على عاتق الولايات المتحدة وشركات النفط الغربية التي لا تبدي أي ثقة بإيران وبمستقبل العلاقات معها. أما الاحتمال الثاني فهو التوجه شرقاً أي إلى شرق آسيا المتعطشة للنفط. ويبلغ طول المسافة من القوقاز إلى هذه المناطق حوالي ١١ ألف كيلومتر (٦٨٠٠ ميل). وهي مسافة طويلة جداً. وتمرّ عبر مناطق جغرافية ذات تضاريس صعبة مما يجعل النفقات باهظة وبالتالي يجرد المشروع من جدواه الاقتصادية.

من الشيشان، إلى ناكورني كاراباخ، ومن ديار بكر (حيث التمرد الكردي) إلى جورجيا تتفجر الصراعات مثل قنابل موقوتة على طول طرق الأنابيب وحقول الإنتاج. لقد أنعم الله بالنفط على دول القوقاز، وهي دول فقيرة امتصّ خيراتها الاستعمار القيصري الروسي ثم الشيوعي حوالي ٣٠٠ سنة، فهل ستَمنح الفرصة لاستثمار هذه النعمة؟



والقوقاز تتركز أنظار العالم أكثر وأكثر على خطوط أنابيب النفط. فالخطوط، وليس الحدود، هي التي ترسم مستقبل هاتين المنطقتين من العالم الإسلامي، وتحدد الإطار العام للعلاقات بين دولهما، ولعلاقاتهما مع كل من الاتحاد الروسي والاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة الأمريكية.

تلعب عدة عوامل في رسم خريطة أنابيب النفط:

العامل الأول: هو التوجه الروسي لإعادة إحياء أمجاد الاتحاد السوفيتي المنقرض: الحزب الشيوعي يسعى إلى إعادة عقارب الساعة السوفيتية إلى ما قبل عام ١٩٨٩، وحتى إلى ما قبل تسلم غورباتشوف السلطة في الكرملين. أما الرئيس الحالي بوتين ومعه جنرالات الجيش الروسي، فإنه تبنى شعار إعادة احتواء «الخارج القريب»، بمعنى إعادة ربط الدول التي استقلت عن الكرملين بالأمن الاستراتيجي للكرملين سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا ونفطيًا أيضًا.

ولكن بعد الحرب الأمريكية على أفغانستان في أعقاب العمل الإرهابي الذي استهدف الولايات المتحدة يوم الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، وبعد هيمنة الشركات الأمريكية على امتيازات استثمار النفط في القوقاز، فإن من المشكوك فيه أن يتمكن الرئيس بوتين من تحقيق أهدافه، فقد رفض مبدأ السماح للقوات الأمريكية بالعمل ضد أفغانستان انطلاقًا من دول آسيا الوسطى، ولكنه اضطر إلى التراجع عن هذا الموقف تحت الضغط الأمريكي. فأصبحت القوات الأمريكية متواجدة في غرب روسيا (من خلال توسع حلف شمال الأطلسي) وفي شرقها (من خلال تواجد قواتها في طاجكستان وأوزبكستان).

العامل الثاني: هو التنوع الإثني في كل من آسيا الوسطى والقوقاز، صحيح أن الأكثرية المطلقة للسكان من المسلمين، إلا أن ثمة قوميات عديدة. حكم الروس هذه المناطق حوالي ٣٠٠ سنة، طوال العهدين القيصري والسوفيتي، وأدى حكمهم الذي تميز بالاستبداد وبالاستغلال معًا إلى تراكم ثقافة عدائية عند شعوب المنطقتين. الآن أصبح الروس أقلية إثنية ودينية، الأمر الذي يثير فيهم المخاوف من المستقبل. ضاعفت من هذه المخاوف الحرب في الشيشان وما رافقها من عمليات عسكرية لقمع الثورة الاستقلالية ارتُكبت فيها انتهاكات واسعة لحقوق الإنسان، كما ضاعف منها الموقف الروسي المتعاطف مع الصرب في البوسنة وكوسوفو حيث جرت أبشع جرائم في القرن العشرين ضد المسلمين البوسنيين والكوسوفار الذين احتموا في المناطق التي أعلنتها الأمم المتحدة مناطق آمنة فحولتها القوات الصربية إلى مقابر جماعية.

اتخذ الكرملين في العهد القيصري، وفي العهد الشيوعي، والآن في عهد ما بعد الشيوعية مواقف ضد الشعوب الإسلامية في تاتاريا والشيشان، وفي أذربيجان وتركمانستان وحتى شمال منغوليا، إن الذاكرة الإسلامية حافلة بسجل طويل من الصراعات الدامية التي نكأتها من جديد مواقف الكرملين في القوقاز والبلقان.

أما العامل الثالث: فهو الصراعات الإقليمية التي تفيد منها روسيا بشكل غير مباشر، كالصراع بين أذربيجان وأرمينيا وبين إيران وأذربيجان. والانقسام الدموي الذي تحول إلى حرب أهلية في طاجكستان، والخلاف الذي لا يزال جمرًا تحت الرماد بين طاجكستان وكازاخستان حول إقليم سمرقند!!

إن اكتشاف ثروة ضخمة من النفط كاف وحده لإثارة صراعات حول عائدات هذه الثروة وكيفية استثمارها، فالدول الثلاث المحيطة ببحر قزوين وهي كازاخستان وتركمانستان وأذربيجان تملك الآن مخزونًا ثابتًا من النفط يقدر بحوالي ٤٠ مليار برميل، ويُعتقد أن المنطقة أكثر غنى، حتى أن خبراء النفط الغربيين يعتقدون بإمكانية اكتشاف المزيد من المخزون المؤكد بحيث يصل إلى حوالي ٢٠٠ مليار برميل.

أشرنا في الحلقة السابقة إلى أن بحر أو بحيرة قزوين يقع وسط منطقة جغرافية تحيط بها سلسلة من الجبال المرتفعة والوعرة، الأمر الذي يجعل من عملية مد أنابيب النفط عملية معقدة فنيًا، ومكلفة ماليًا فوق صعوباتها السياسية.

يحتاج العالم إلى المزيد من النفط تبعًا لزيادة نسبة الاستهلاك. فالصين وحدها التي يزيد عدد سكانها على مليار و٢٠٠ مليون نسمة يرتفع استهلاكها من النفط بنسبة خمسة بالمائة سنويًا، وكذلك الأمر بالنسبة للعديد من دول جنوب شرق آسيا التي تُلقّب بالنمور الآسيوية وهي كوريا الجنوبية وأندونيسيا وماليزيا وسنغافورة إضافة إلى اليابان، كذلك فإن الإنتاج الأمريكي من النفط في تراجع، وتتجه الولايات المتحدة إلى زيادة كميات احتياطيها الاستراتيجي ليس فقط بتخفيض الإنتاج، إنما بزيادة الاستيراد أيضًا، ولذلك تبدى اهتمامًا متزايدًا بنفط الخليج العربي حيث يقدر حجم المخزون الطبيعي في الكويت وحدها بحوالي ٩٧ مليار برميل، وتحرص الولايات المتحدة على إبقاء الحصار على العراق - وحتى على إيران ولو بنسبة أقل - إلى أن تتمكن من بسط سيطرتها على ثرواته النفطية الضخمة (حقول الرميلة في الجنوب، وحقول كركوك في الشمال). من أجل ذلك تتوجه الشركات الأمريكية بدعم سياسي من البيت الأبيض للاستثمار في دول آسيا الوسطى والقوقاز.



التنافس الدولي على الحصول على امتيازات الاستثمار وعلى تحديد جغرافية امتداد الأنابيب إلى أوروبا أشبه ما يكون بالوجه الآخر لما حدث في منطقة الخليج العربي من قبل.. كثير من الاضطرابات السياسية التي تشهدها الدول القوقازية يعود إلى الثروة النفطية المكتشفة

ليس اكتشاف النفط في هذه المنطقة من العالم الإسلامي بأمر جديد، فأثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) جرى صراع على نفط أذربيجان بين ألمانيا وتركيا من جهة، وبريطانيا وروسيا من جهة ثانية. وأثناء الحرب العالمية الثانية حاولت ألمانيا الهتلرية احتلال أذربيجان والسيطرة على منابع النفط في قزوين الغربية من العاصمة باكو، ولكن الروس وحلفاءهم كمنوا للألمان في جبال القوقاز الوعرة وأفسدوا عليهم خطتهم، ولو تمكن هتلر من السيطرة على أذربيجان ومن مد خط للأنابيب إلى المصافي الألمانية في المناطق المحتلة من أوروبا الشرقية لتغير بالتأكيد مجرى الحرب، ولتغير بالتالي تاريخ العالم!!

ولهذا السبب يشكل الاتفاق الروسي - الكازاخستاني (الذي وقعه الرئيسان بوريس يلتسين ونور سلطان ناظر بايف) عنوانًا جديداً للصراع حول النفط القوقازي الشهي، فالاتفاق يعيد ربط كازاخستان



قبل أن تاخذ حدود الجغرافيا السياسية مواقعها الثابتة على خريطة آسيا الوسطى

من الشيشان، إلى ناكورنى كاراباخ، ومن ديار بكر (حيث التمرد الكردى) إلى جورجيا تتفجر الصراعات مثل قنابل موقوتة على طول طرق الأنابيب وحقول الإنتـــاج.

لقد أنعم الله بالنفط على دول القوقاز، وهى دول فقيرة امتص خيراتها الاستعمار القيصرى الروسى ثم الشيوعى حوالى ٣٠٠ سنة، فهل ستمنح الفرصة لاستثمار هذه النعمة؟

وتركمانستان، وهما من أكبر الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى، بالاتحاد الروسى من جديد، ذلك أن من يملك أنابيب النفط يملك مفتاح ضخ النفط أو وقفه، وهو مفتاح سياسى من شأنه تطويع الدول المنتجة.. كما أنه مفتاح مالى من شأنه ابتزاز الدول المنتجة والمستهلكة معًا.

ثم إن حصر ضخّ النفط القوقازى عبر أنابيب روسية تمر عبر الأراضى الروسية كما أشرنا فى الحلقة السابقة، يجعل الكرملين وحده صاحب القرار لتحديد كميات النفط التى يسمح بضخها. فروسيا هى دولة منتجة للنفط وللغاز (من حقول سيبيريا)، فإذا وجدت أن مصلحتها فى زيادة إنتاجها فإنها لن تتردد فى تقليل حجم الصادرات القوقازية (الأذرية - الكازاخستانية - التركمانية).

وفى الواقع فإن مشروع خط الأنابيب الجديد الذى سيتم بناؤه وفقًا لاتفاق ٢٧ أبريل - نيسان ١٩٩٦، يلحظ بناء خط داخل روسيا يخصص لنقل النفط الروسى، ويمتد من بنكهورتسك إلى نوفوروسيسك، مما يساعد روسيا على تصدير نفطها. وليس باستطاعة روسيا تمويل هذا المشروع دون مساهمة دولية تم توفيرها من خلال المشروع الذى يستهدف تأمين وصول النفط الكازاخستانى من حقل «تانجيز» فى الدرجة الأولى!!

ومن المؤسف أن هذه الدول الإسلامية مغلوبة على أمرها. فهى لاتزال تعتمد حتى الآن على روسيا مباشرة وغير مباشرة فى الاستيراد والتصدير التجاريين، ثم إنها تتعرض باستمرار للابتزاز من خلال تخويفها باعتبار بحر قزوين بحيرة (لأنه بحر مغلق). وبموجب ذلك تصبح الثروة النفطية ملكًا مشتركًا لكل الدول التى لها حدود مع «البحيرة»، وليس فقط للدول التى يُكتَشف النفط فى مياهها الإقليمية، إذا كان بحرًا. وتدرك هذه الدول الإسلامية كذلك من خلال تجاربها الصراعية التاريخية مع روسيا القديمة والحديثة - إن الكرملين لن يتردد فى استخدام تفوقه العسكرى لإملاء شروطه، كما يجرى فى الشيشان مثلاً أو كما يحدث فى طاجكستان من عمليات عسكرية لقمع الثورة الأهلية ضد الحكومة المحلية المرتبطة بموسكو.

وهكذا تراجعت تركمانستان عن مشروع بكلفة ٨ مليارات دولار لاستثمار نفطها وغازها ولمد خط أنابيب يتجه جنوبًا عبر إيران وتركيا، وبدلاً من ذلك عقدت اتفاقًا مع شركة «غاز بروم» الروسية. وبموجب ذلك سيتم مد خط فرعى يربط بين الحقول التركمانية ومحطة الضخ فى «تانجيز» فى كازاخستان، ومن ثم يضخ النفط عبر الخط الجديد المتفق عليه مع كازاخستان والذى يمر عبر الأراضى الروسية كليًا إلى مرفأ نوفوروسيسك الروسى على البحر الأسود.

وبموجب ذلك أيضًا، وافقت أذربيجان - التى عقدت فى أيلول - سبتمبر ١٩٩٤ - اتفاقًا بقيمة ٨ مليارات دولار مع كونسورتيوم من عدة شركات غربية لاستثمار ثلاثة حقول قرب باكو - العاصمة - على ضخ نفطها عبر خطين للأنابيب، الأول شمالاً عبر روسيا فالبحر الأسود. والثانى غربًا عبر جورجيا فالبحر الأسود (مرفأ سوبا). ورغم سوء العلاقات بين جورجيا وروسيا، فإن الكرملين لايزال يتمتع بنفوذ عسكرى ومعنوى قوى فى تبليسى، ثم إن جورجيا بلغت درجة من الفقر بحيث إنها لا تستطيع أن تساهم بنفقات مد خط الأنابيب عبر أراضيها.

وكانت تركيا، اعتمادًا على علاقاتها القومية والدينية بدول آسيا الوسطى والقوقاز، تمنى النفس بان تحصل على حصة الأسد من عائدات النفط هذه، ولكن منذ الإطاحة فى نيسان - أبريل١٩٩٣، بالرئيس السابق أبو الفضل الشيبى فى انقلاب عسكرى، لا يبدو أنها ستحصل حتى على خط أنابيب ينقل نفط أذربيجان إلى مدينة جيهان التركية على البحر الأبيض المتوسط (رغم تعاطف الولايات المتحدة مع هذا المشروع).

وكل ما تخشى تركيا أن تحصل عليه هو الكابوس اليومى باحتمال تسرب النفط الخام فى مضيق البوسفور والدردنيل والذى تحمله الشاحنات من المرفأ الروسى فى البحر الأسود عبر المضيق إلى البحر المتوسط فالأسواق العالمية. ذلك أن زيادة الإنتاج تعنى حكمًا زيادة عدد الشاحنات، وبالتالى زيادة احتمالات التسرب على النحو المأساوى الخطير الذى حدث فى آذار - مارس - من عام ١٩٩٤.

وهكذا تتضافر عوامل الجغرافيا (الطبيعية) وعوامل التاريخ (الإنسانى) فى خلق ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد تنتصب بين النفط القوقازى وأسواقه المتعطشة إليه، ومهما يكن من أمر فإن استثمار هذا النفط سيبدل المعادلات التسويقية والتسعيرية والإنتاجية التى فرضتها منظمة أوبيك منذ أواسط السبعينيات (١٩٧٣) حتى الآن، بل ربما أدى إلى إيجاد أوبيك أكثر شمولية.. أو أقل تحررًا من هيمنة شركات النفط الكبرى!

هل قزوين بحر أم بحيرة؟

الجواب عن هذا السؤال يقرر مستقبل الملايين من الناس، فقد تنشب بسببه حرب أو حروب.. أو قد يعم السلام والرخاء.

فى قزوين ثروة نفطية تقدر بحوالى ٢٠٠ مليار برميل، فإذا كان قزوين بحيرة فإن الدول المشاطئة له تتمتع بحقوق متساوية فى هذه الثروة أيًا كان موقعها من الآبار المكتشفة. بمعنى أن الثروة النفطية تصبح ملكًا مشتركًا بين هذه الدول، وهى إيران، أذربيجان، روسيا، كازاخستان وتركمانستان.. أما إذا كان قزوين بحرًا، عند ذلك تُرسم الحدود البحرية للدول المشاطئة بموجب القانون الدولى، وكل ثروة نفطية يعثر عليها فى المياه الإقليمية التابعة لكل دولة تصبح بكاملها حقًا وطنيًا لها وحدها.

فى نظر إيران وروسيا (وهما الدولتان الوحيدتان اللتان تملكان قوة بحرية فى قزوين) وتركمانستان، أن قزوين بحيرة. ولذلك تدعو هذه الدول الثلاث إلى استثمار مشترك لثروته من النفط والغاز، أما أذربيجان وكازاخستان فتعتبرانه بحرًا، لذلك اتفقتا على رسم حدودهما البحرية المتقابلة. وعقدت كل منهما اتفاقات مع شركات نفط دولية للتنقيب والاستثمار داخل هذه الحدود. وبموجب هذا التخطيط يقع حقل النفط «الوف» الغنى جدًا فى القسم الجنوبى من المياه الإقليمية لأذربيجان، أى قريبًا من مياه إيران الإقليمية. وتتولى شركة بريطانية استثماره بموجب اتفاق عقدته مع حكومة باكو.

انتقلت المعارضة الإيرانية لهذا الاتفاق من الاحتجاج الدبلوماسى (سحب السفير) إلى القيام بمظاهرة مسلحة فى منطقة عمل الشركة البريطانية مما حملها على التوقف.

لا يقتصر الخلاف الإيرانى - الأذرى على حقل «الوف»، ولكنه يتجاوز قضية تحديد الحدود فى قزوين بحرًا أو بحيرة إلى رسم الحدود على اليابسة. فإيران تعتبر كل أذربيجان تاريخيًا جزءًا منها. وبالفعل فإن الأذريين يعتنقون المذهب الشيعى، إلا أنهم فى الوقت نفسه يتحدثون بلغة تركية ويعتبرون أنفسهم من أصول تركية. وبالتالى فإن الأذريين يتطلعون إلى شمال إيران المتاخم لقزوين على أنه جزء من بلادهم.

من هنا خطورة الحركة الانفصالية (؟) التى ظهرت فجأة فى هذه المناطق من إيران حيث ارتفعت مطالب محلية تطالب بالاعتراف باللغة الأذرية لغة رسمية فيها إلى جانب اللغة الفارسية.

وتشعر أذربيجان أنها واقعة تحت ضغط كماشة تفاهم روسى (من الشمال) إيرانى (من الجنوب)، فروسيا تتهم أذربيجان بأنها توفر للثوار الشيشانيين الدعم والملجأ. وتتهمها إيران بأنها وراء التحريض على الانفصال اللغوى - القومى.

وتعتقد أذربيجان أن هذا التفاهم الروسى - الإيرانى كان السبب المباشر وراء خسارتها معركة ناكورنى كاراباخ - وهو جيب أرمنى فى وسطها - لمصلحة أرمينيا. ومن الواضح أن العلاقات الإيرانية - الأرمنية تتسم بالصداقة الحارة وبالتعاون فى كافة المجالات، بينما تخضع العلاقات الإيرانية - الأذرية إلى اتهامات متبادلة بالتآمر والتخريب.

ويقف الغرب (أوروبا والولايات المتحدة) إلى جانب المحور الأذرى - الكازاخستانى. ليس فقط لأن للغرب مصالح استثمارية كبيرة فى الدولتين، ولكن لأن مصالحه الاستراتيجية تقتضى من جهة أولى الضغط على روسيا بحرمانها من ثروة قزوين ومن الهيمنة على الدول المنتجة للنفط والغاز فى آسيا الوسطى، وتقتضى من جهة ثانية، عزل إيران بإثارة الخلافات مع جيرانها من الخليج إلى قزوين، وبتوجيه مد خطوط النفط والغاز من قزوين شرقًا إلى تركيا بدلاً من توجيهها جنوبًا إلى الخليج عبر إيران، حتى ولو كان ذلك أكثر كلفة وأعقد تنفيذًا.

من أجل ذلك تضطهد حكومة باكو الحركات الإسلامية الوطنية وتعتبرها مجرد أدوات بيد إيران. وفى الوقت نفسه تضطهد إيران الحركات القومية فى شمال البلاد وتعتبرها مجرد أدوات بيد أذربيجان.

ومن خلال عمليات الاضطهاد هنا وهناك تنمو الأحقاد والضغائن بانتظار ساعة التفجير التى غالبًا ما يحددها طرف ثالث لأهداف لا تمت بصلة إلى مصالح أى من إيران أو أذربيجان.

هكذا كان الوضع فى الخليج العربى قبل قيام مجلس التعاون، فلماذا لا تشجع منظمة المؤتمر الإسلامى الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى وفى القوقاز على الاقتداء بالتجربة الخليجية الناجحة؟

اتخذ الكرملين فى العهد القيصرى، وفى العهد الشيوعى، والآن فى عهد ما بعد الشيوعية مواقف ضد الشعوب الإسلامية فى تاتاريا والشيشان، وفى أذربيجان وتركمانستان وحتى شمال منغوليا، إن الذاكرة الإسلامية حافلة بسجل طويل من الصراعات الدامية





حين يذكر تعبير الحركات الإسلامية، تتجه الأذهان غالبا إلى حيث دول العالم الإسلامي، أو بعض بؤر توصف بالإرهاب موجودة في دول غير إسلامية. ولكن هذه المرة سوف نكسر القاعدة. فالحركات الإسلامية المعنية هنا ليست في عالم الإسلام ولا في دولة من دوله، كما أنها ليست المعنية مباشرة بما يعرف بالبؤر الإرهابية أو جماعات توظف العنف من أجل إقامة حكم الشرع كما تراه هي. فالحركات التي يعنيها هذا الكتاب تقوم على شرح وتحليل السياق التاريخي/الاجتماعي معا في ثلاث من أكبر دول الغرب في عالم اليوم، وهي الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وأثر تلك العوامل في استنهاض الروح الدينية الإسلامية. وهي حركات إسلامية تعنى بالدرجة الأولى مواطنين ينتمون إلى هذه الدول بحكم السياق القانوني ومعايير المواطنة السائدة فيها، ولكنهم يدينون بالإسلام وفقا لتجربتهم الخاصة تاريخيا واجتماعيا ودينيا أيضا، فهم جزء من

نشأت حركة أمة الإسلام في وادي الفردوس، وهو الاسم الذي أطلق على الحي المغلق الذي عاش فيه الأمريكيون السود في ديترويت، وذلك في عقد الثلاثينيات حيث الكساد العظيم الذي أصاب الحياة الأمريكية، وأضاف بالتالي أعباء لا تطاق على الفقراء الأمريكيين عامة

حسن أبو طالب

للسود، والتي سرقها الرجل الأبيض. وكان جزء من هذه المهمة يكمن في إقناع الأنصار بتغيير أسمائهم إلى أسماء إسلامية، وإلى رفض تعبير «نجرو»، وهو اللقب الذي اعتاد الرجل الأبيض إطلاقه على الأمريكيين ذوي البشرة السوداء. ورافق ذلك إصرار على أن أصولهم السوداء تعود إلى قبيلة شاباز Shabaz، وأن دينهم الحقيقي هو الإسلام ولغتهم الأم هي العربية.

وفي الولايات المتحدة بات أنصار فارد ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم يمثلون أمة الإسلام المفقودة في البيداء الأمريكية القاسية الموحشة. وفي السياق ذاته نُظر إلى فارد كرسول أو كمبشر أعاد لهذه الأمة هويتها المفقودة أو المخفية عن عمد. وهكذا بدأت عملية تغيير كبرى للأسماء، فجون صار كريم، وريتشارد تحول إلى محمد، وهكذا.

وصار التنظيم محكما، ولعب فارد دورا رئيسيا في تقوية دعائمه، حيث بنى معبدا للحركة وأرسل الأطفال إلى مدارس إعدادية

الله في الغرب .. الحركات الإسلامية

تاريخ تلك الدول وليسوا مجرد وافدين عليها، حتى بالرغم من كون أصول بعضهم تعود إلى مجتمعات أخرى، حيث جاءوا كمهاجرين من مناطق مختلفة كانت تنتمي يوما إلى الإمبراطورية البريطانية أو إلى الأقاليم الفرنسية عبر البحار قبل عدة عقود، أو في صورة جماعات من العبيد السود كما في حالة الولايات المتحدة، نقلوا إليها قبل ثلاثة قرون أو أقل قليلا.

ومسعى الكتاب وهدفه الرئيسي يكمن في محاولة تفسير ظهور تلك الحركات كل في بلدها، سواء من المنظور التاريخي أو الاجتماعي، والمقارنة بينها من حيث النشأة والتطور والاتجاه العام والمؤثرات الخاصة والعامة لكل حالة على حدة. وينقسم الكتاب إجمالا إلى ثلاثة أقسام رئيسية، كل منها يناقش حالة على حدة. فقسمه الأول يعني بدراسة حركة «أمة الإسلام» في الولايات المتحدة، وقسمه الثاني يناقش الحالة البريطانية، والقسم الثالث والأخير يناقش حالة الإسلام في فرنسا. والعنوان الأصلي الذي نشر به الكتاب باللغة الفرنسية هو «البحث عن الله» A L'Quest d'Allah.



والكاتب، جيليس كيبيل، ليس غريبا على هذا الحقل من الدراسات التي تعنى بشئون الجماعات والحركات الإسلامية في الغرب وفي بلدان المغرب العربي، فهو أحد مراجع تلك الدراسات في فرنسا وأوروبا، ويعمل حاليا مديرا للمجلس القومي الفرنسي للبحث العلمي. وللكاتب عدة كتب هامة منها «النبي والفرعون» The Prophet and the Pharaoh، و«انتقام الله» The Revenge of God.

ومن هنا تأتي أهمية الكتاب، جنبا إلى جنب مجموعة الأفكار التي يتضمنها لا سيما ما يتعلق بالتحليل الاجتماعي لنشأة أو تطور الحركات الإسلامية في البلدان الغربية، والتي تصل إلى حد ربط وجود الإسلام وانتشاره إلى أسباب اجتماعية وحسب، دون النظر إلى العوامل الجاذبة في العقيدة الإسلامية نفسها. ولا ينقص ذلك من قيمة الجهد الذي بذله المؤلف أو قيمة الكتاب نفسه، وإنما يعكس أسلوبا تحليليا يعلي من شأن ما هو مادي يمكن لمسه واكتشافه، على ما هو روحي يصعب إدراكه لدى كثيرين من الباحثين الغربيين.

أمة الإسلام.
الطبعة الأمريكية للإسلام

نشأت حركة أمة الإسلام في وادي الفردوس، وهو الاسم الذي أطلق على الحي المغلق الذي عاش فيه الأمريكيون السود في ديترويت، وذلك في عقد الثلاثينيات حيث الكساد العظيم الذي أصاب الحياة الأمريكية، وأضاف بالتالي أعباء لا تطاق على الفقراء الأمريكيين عامة، والعمال السود منهم خاصة، والذين تجمعوا منذ سنوات سابقة في مراكز التصنيع الكبرى، ومن أهمها في ذلك الوقت منطقة ديترويت التي اشتهرت بصناعة السيارات.

لم تكن معاناة الأمريكيين السود ذات بعد اقتصادي وحسب، ولكنها كانت معاناة مركبة، تعود في جذرها الأول إلى ميراث العنصرية الذي طبع الحياة الأمريكية، والعلاقة المتوترة بين ما سمي بالرجل الأبيض والمجتمع الأسود، وهو ما ولّد شعورا ساد بين الأمريكيين السود بأنهم مستبعدون ومهمشون وخارج الإطار الاجتماعي العام الذي يسيطر عليه الرجل الأبيض.

في هذا السياق العام، كان الباعة الجائلون يقومون بدور كبير في حياة الفقراء من السود، إذ يقومون بإمدادهم بما يحتاجونه من خلال تسهيلات في السداد، وكان معظم هؤلاء إما من لبنان أو سورية أو من الشرق عموما.

ومن بين هؤلاء ظهر بائع متجول عرف بفارد Fard، وربما جاء الاسم تحويرا من فرّاد أو فورد، أما اسمه الأول فكان والاس، الذي ينظر إليه كتحوير للاسم العربي «والي». وقد استطاع فارد بحكم مهنته أن يدخل بيوت الأمريكيين السود، وأن يتجاذب معهم أطراف الحديث عن أحوالهم، وعما اعتبره أرض الأجداد، أي أفريقيا بعاداتها وتقاليدها في الملبس والمأكل، وكيف أن تلك العادات تختلف جذريا عن العادات التي اكتسبوها من الاختلاط مع الرجل الأبيض. وقد شكل هذا الحديث غذاء روحيا، انجذب إليه الأمريكيون السود، بعد أن انجذبوا إلى صاحبه، الذي استطاع أيضا أن يقنع محدثيه بأن الحرير - الذي يقوم ببيعه - هو نفس لباس أجدادهم في أفريقيا، ومن ثم أقبلوا على بضاعته كما أقبلوا على حديثه الروحي.



كانت البداية المتمثلة في الانقطاع عن تقاليد الرجل الأبيض في الغذاء، مجرد خطوة أولى في تشكيل الشعور العام بالانقطاع عن العادات والتقاليد للمجتمع غير القانوني وغير العادل المحيط بهم. وخطوة أولى أيضا لتشكيل جماعة أو مجتمع متميز يدين بالولاء لفارد. وفي الفترة من يوليه ١٩٣٠، التي شهدت ظهوره الأول، وحتى ٣٠ يونيه ١٩٣٤ حين اختفى، أي أربعة أعوام كاملة، اتسم فارد بسمة المبشر لمجتمع جديد، واستطاع بحكم سماته الشخصية والقيادية أن ينظم مجتمعا روحيا قوامه ٨٠٠٠ أمريكي أسود من ديترويت.

تمثل الهدف الأول للعقيدة الجديدة في استعادة الهوية المفقودة، أو الهوية الحقيقية

وثانوية خاصة سميت بـ «جامعة الإسلام»، وذلك من أجل تعليمهم «المعرفة التي يستحقونها»، والتي تختلف عن «معرفة وحضارة القوقازيين الأشرار». وهو ما مثل عملية انفصال حقيقية عن كل القيم والمعايير الشائعة في المجتمع المحيط بهم. ورفضت الحركة مفهوم المواطنة الأمريكي، وأوجدت لنفسها علما خاصا عبارة عن هلال أبيض ونجمة في خلفية حمراء، ومحاطة بكلمات أربعة وهي المساواة والعدالة والحرية والإسلام.

ولعب الانضباط الشديد الذي ميز أنصار الحركة دورا في الابتعاد عن الفساد العام الذي ساد في الحي المغلق للسود، وساعدهم على أن يكونوا عمالا أكثر كفاءة وانضباطا وقابلية للاعتماد عليهم مقارنة بغير أعضاء الحركة من المجتمع الأسود نفسه، من ثم باتوا أكثر حصولا على فرص العمل، وساهموا في زيادة موارد الحركة المالية.

وفي تلك الفترة كانت السلطات الفيدرالية تراقب أنشطة «أمة الإسلام» عن قرب، وزادت وتيرة الاهتمام بها بعد أن حول الأنصار أبناءهم وأطفالهم من المدارس التي كانت تشرف عليها السلطات المحلية إلى المدارس الخاصة بالحركة.

إن السنوات الأولى لنشأة الجماعة، تمثل المفتاح لفهم كيفية بناء النموذج، ولماذا استمر ٦٠ عاما رغم الضربات التي وجهت إليه والإخفاقات التي تعرض لها. فمع نهاية القرن العشرين ازدهرت حركات بناء الكوميونات، أو المجتمعات المحلية التضامنية الخاصة بفئة اجتماعية معينة، في المجتمعات ما بعد الصناعية.

الملك.. إليجا محمد

مع اختفاء فارد في ١٩٣٤، حيث يعتقد أتباعه أنه ذهب إلى مكة، تولى أحد مساعديه قيادة الحركة، ومن ثم بدأت حقبة إليجا محمد، والتي استمرت حتى نهاية الستينيات.

Allah in the West.. Islamic Movements in America and Europe.
الله في الغرب.
الحركات الإسلامية في أمريكا وأوروبا.
Gilles Kepel.
Translated by Susan Milner, Polity Press, Cambridge, UK, 1997. (274 Pages)

في أمريكا وأوربا

ومن بين الأزمات التي واجهتها الحركة، تلك المعلومات التي سربها مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI، وادعت أنها تخص نشأة فارد، وهي معلومات جمعت أساسا في فترة ١٩٥٧ و١٩٥٨، ونشرت في نهاية ١٩٥٨ و١٩٦٣، وخلاصتها أن فارد ليس أمريكيا أسود، وإنما هو مولود لأب إنجليزي وأم من أصول مختلطة، وأن اسمه الأصلي فورد، وأنه أدين بعدة تهم منها نقل المخدرات وشرب الخمر إبان فترة الحظر. وقد اعتبر أنصار الحركة أن تلك المعلومات تستهدف السخرية من مؤسس أمة الإسلام وإهانة أعضائها، ولم يلتفتوا إليها كثيرا.

لقد تضمنت كتابات فارد دعوة صريحة للانفصال الجماعي والفوري عن كل الأشكال التي اعتبرها شيطانية، وهو الانفصال الذي سيعمق وبشكل حاسم بناء دولة مستقلة للأمريكيين السود، الذين هم في حقيقة الأمر «أنصار الله». وكم أشار فارد إلى ما اعتبره مشابهة مع خروج اليهود من مصر، إذ سيخرج الأمريكيون السود مثلهم من الصحراء الأمريكية. لكن الأرض الموعودة هنا تظل داخل أمريكا نفسها وليست أرضا غيرها.

تشهد السنوات الأولى للحركة غلبة الطابع الاجتماعي / السياسي عليها، ويشار هنا إلى أن أمة الإسلام لا تعني بالضرورة دعوة إلى الارتباط بالعقيدة الإسلامية التي نعرفها نحن العرب والمسلمون في الشرق، وإنما الارتباط بعقيدة خاصة، عكست في جزء منها قيم المجتمع الأمريكي ولغته وتنظيمه أيضا. فلما لم يكن هناك علماء دينيون في ديترويت يقومون بشرح القرآن، فضلا عن الافتقار إلى معرفة اللغة العربية، الأمر الذي أدى إلى إعادة استخدام مفردات الإنجيل لدى المسيحيين، والتي كانت معروفة لدى الأمريكيين السود، في شرح معاناتهم. ومن هنا بدأت تدخل حركة «أمة الإسلام» شروحات غير إسلامية.

وكان التركيز الأكبر لحركة أمة الإسلام على معنى الانفصال عن المجتمع الأمريكي، من خلال هجر عاداته في شرب الخمر والطعام وكسر القانون، وهو ما حمل أيضا معنى الانفصال عن الفساد الذي يسود المجتمع الأسود ذاته. كما وظّف هذا الانفصال لتحقيق مزيد من الترابط والتماسك بين أعضاء الجماعة. وخلال فترة قيادة فارد ثم إليجا محمد حتى عام ١٩٧٥، كانت أمة الإسلام تنتشر بين عامة السود، وليس بين البورجوازية السوداء التي رفضوا تعاليمها وقيودها.

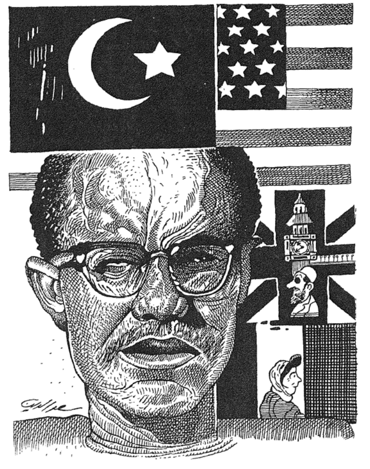
مالكولم إكس.. نحو حركة جماهيرية

لقد منحت أمة الإسلام هؤلاء العامة هوية اجتماعية ودينية واضحة، وقد انتشرت أولا بين صفوف العمال في مصانع السيارات، ثم في السجون التي اكتظت بالسود، ومثلت معينا لتجنيد مزيد من الأنصار، ومن أبرز من جندوا في السجن مالكولم إكس، الذي صار أحد قيادات الجماعة ورموزها البارزين. فقد كانت قسوة الحياة في تلك السجون عاملا أساسيا في تسهيل عمليات التجنيد والانضمام إلى الجماعة بكل ما تحمله من أمل في تغيير أسلوب الحياة، وما تقدمه من مساعدات وإطار جماعي يمثل حماية روحية ومادية في آن واحد. وما عبر عنه مالكولم إكس في إحدى رسائله التي كتبها أثناء سجنه قائلا: «إن السجين الأسود يرمز إلى جريمة المجتمع الأبيض الذي يحرص على أن يكون الأمريكي الأسود جاهلا ومحبطا ومجردا من المعرفة التي تؤهله للحصول على وظيفة مناسبة تمنعه من الانزلاق إلى الجريمة».

وخلال تاريخ حركة المسلمين السود في أمريكا، بدأ عدد كبير من قادتها متأثرين بثقافة الشوارع وعالم الجريمة، لاسيما نقل وتوزيع المخدرات، وكثير منهم قضى سنوات من عمره وراء القضبان. وقد مثلت لهم حركة «أمة الإسلام» نوعا من الخلاص من عالم الماضي، وتطلعا إلى عالم أفضل. ولعبت القيادة المنضبطة للحركة دورا حاسما في إقناع الكثيرين بأن « أمة الإسلام» هي مصيرهم الذي يتطلعون إليه. وساهمت آليات مراقبة السلوك الفردي، والالتزام بزي موحد استجابة مخططة لنقد الأخلاقيات التي كانت سائدة في أحياء السود المغلقة. وتعد حياة مالكولم إكس دليلا واضحا على نجاح هذه العملية، والتي نقلت حركة «أمة الإسلام» من جماعة صغيرة ذات تأثير محدود في نطاق الأمريكيين السود، إلى حركة جماهيرية، جذبت آلاف الأنصار الجدد، واستقطبت اهتمام وسائل الإعلام.

وثمة تشابه في حياة إكس مع حياة الداعية الإخواني سيد قطب، فكلاهما عاش فترة وراء القضبان - وإن اختلف السبب في كل حالة - مما شكل باعثا على بلورة فكرة البحث عن مجتمع جديد لا يتسم بالظلم، أو بالسمات الجاهلية وفقا للتعبير الذي استخدمه سيد قطب، ويوفر الفرصة لحياة مختلفة عن السابق. ونقطة الخلاف أن إكس، وجد بعد خروجه من السجن الفرصة العملية للتعبير عن هذا التحول، وهو ما لم يحدث في حالة سيد قطب، وإن ظلت أفكاره باعثة لحركة كثيرين اقتنعوا بها وعملوا على تجسيدها في مجتمعاتهم المحلية.

ومن التأثيرات إلى حملها مالكولم إكس على حركة الجماعة، إعادة التفكير في الهدف الرئيسي للحركة، هل هو الانفصال عن المجتمع الأكبر، كما كان الحال لدى المؤسس فارد وإليجا محمد، أم إعادة توجيه الدعوة نحو بناء جماعة متماسكة في ظل مجتمع أكبر لا يمكن الانفصال عنه أو تجاهل تأثيراته، مع مد الدعوة إلى هذا المجتمع نفسه، والسعي إلى تغييره. وكم ساعد نجاح حركة الحقوق المدنية بقيادة مارتن لوثر كنج في ١٩٦٤ بعد نضال طويل وتضحيات كثيرة في حسم الجدل الذي ساد داخل أروقة «أمة الإسلام» لصالح مبدأ بناء الجماعة / التنظيم وتدعيمها، والتخلي عن مبدأ الانفصال وبناء دولة أو كيان مستقل للمسلمين الأمريكيين السود. فحركة الحقوق المدنية أظهرت أنه يمكن تغيير أمريكا، حتى ولو حدث الأمر ببطء. لكن المشكلة الأساسية في أسلوب إكس أن خطاباته اتسمت بكثير من العنف اللفظي والحدة في وصف الخصوم، وهو ما أثار الخلافات داخل الأجهزة القيادية لأمة الإسلام، كما تصاعد الخوف بين الأعضاء أن يؤدي هذا الأسلوب إلى الدخول في مواجهات مع أجهزة البوليس التي كانت متحفزة وتراقب أعمال التنظيم عن كثب.


مالكولم إكس

ولكن يبقى لإكس أنه رفض الفكر الانفصالي لإليجا محمد، الذي اعتبره إكس محافظا ويعمل على فقد الجماعة / التنظيم لروح التعددية الإيجابية. وجاء اغتيال إكس في يوليه ١٩٦٥ أثناء إلقائه خطابا في إحدى قاعات حي هارلم على يد اثنين ادعيا انتماءهما للحركة، ليثير الكثير حول أساليب العمل الداخلي لأمة الإسلام، ومدى التأييد الذي كانت تحصل عليه أفكاره بين الأعضاء. في الوقت نفسه الذي أنكر فيه إليجا محمد أية مسئولية شخصية أو تنظيمية في عملية الاغتيال هذه، والتي قادت إلى تكثيف جهود الأجهزة الأمنية الأمريكية لمعرفة ماذا يجري بالضبط داخل مستويات الجماعة / التنظيم المختلفة. ومن المفارقات أنه بعد شهر واحد من الاغتيال، أقر الرئيس جونسون مرسوما قانونيا أقر حقوق التصويت للسود، وأنهى الاستخدام الرسمي لتعبير «نجرو» في الحياة السياسية والاجتماعية الأمريكية.

لقد كانت حياة إكس مليئة بالتناقضات والأدوار المختلفة، وإن كان أبرزها أنه طور مفهوم الهوية المنفصلة للسود، على أن يعبر عنها في جماعة مسيرة ذاتيا، وهو ما لا يتحقق إلا بالانتماء لأمة الإسلام. وخلال العام الأخير من حياته دعا إلى ثورية عالمية تجمع بين العالم ثالثية والأصولية الإسلامية، وحسب تعبير المؤلف، تجمع بين ناصر وأمراء المملكة السعودية. وبغض النظر عن هذا الغموض في تقدير ميراثه السياسي، فإن حياته المهنية والشخصية تبقى نموذجا لمعنى تشكيل صيغة وطنية / محلية للإسلام في أمريكا.



الإسلام في أمريكا يخص السود الذين يرجع أجدادهم إلى بلدان خارجية زمن العبودية، الأمر الذي فصلهم عن أصولهم الثقافية. وفي بريطانيا الإسلام ينتمي إلى السكان الهنود والباكستانيين الأوائل الذين هاجروا، وما زال البعض منهم أحياء يرزقون

معركة خلافة إليجا محمد

بعد موت إليجا محمد دخلت الحركة في معركة خلافة القائد الذي سيطر على أعمال الحركة ومصيرها لمدة أربعة عقود متصلة، منذ منتصف الثلاثينيات وحتى منتصف السبعينيات. وتبلورت المعركة في ثلاثة شخصيات، اثنان منهما أبناء لإليجا محمد نفسه، وهما أكبر، الذي درس في جامعة الأزهر، وكان الأكبر سنا، والثاني والاس محمد، أو والي محمد، والذي كان قد انفصل عن الحركة لمدة ١١ عاما، وعاد إليها عام ١٩٧٥، قبل وفاة والده بفترة قصيرة. ومن غير الأبناء كان هناك لويس ويلكوت، والذي عرف فيما بعد بـ فراخان عبد الحليم، أو لويس فراخان.

ونظرا لتأييد باقي الإخوة، فقد دانت القيادة لوالاس محمد، والذي عمل جاهدا على إعادة النظر في كثير من المفاهيم والشعارات التي ميزت الحركة طوال عهد والده. فلم يعد والاس يصف الرجل الأبيض بأنه شر ولم يفرق بين المسلم الأبيض والمسلم الأسود فكلاهما مسلم بغض النظر عن اللون أو الشكل. كما تجنب المواجهة مع أي مؤسسة أمريكية، لاسيما بعد اللغط الذي أصاب الجماعة / التنظيم من جراء الطريقة التي اغتيل بها مالكوم إكس. وأعاد تنظيم الأمور المالية للجماعة، ومهد لإدخال اللغة العربية في الصلاة، وغيّر التقليد الذي استنه والده، وكان يقضي بصوم شهر رمضان في شهر ديسمبر من كل عام، واستخدم في ذلك التقويم القمري الذي يستخدمه المسلمون في كل مكان. وغيّر أيضا الوصف المستخدم لأماكن العبادة من معابد إلى مساجد. وعرب اسمه إلى «وريث الدين محمد»، واعتبر نفسه المجدد لعقيدة الجماعة. وعمد إلى حل التنظيم شبه العسكري لأمة الإسلام والمسمى باسم «فاكهة الإسلام» Fruit of Islam، ومنظمة تدريب الفتيات المسلمات، وهما التنظيمان اللذان عارضا إصلاحاته بشدة. واستبدل وريث الدين علم الجماعة بعلم الولايات المتحدة الرسمي، واعتبر نفسه معنيا بتطهير فكر الجماعة مما شابها من هرطقة وبدع، ولكنه مع ذلك لم يسع إلى تثوير كامل لفكر الجماعة. وأقام روابط وعلاقات قوية مع الأشكال والمنظمات الإسلامية المحافظة عبر أنحاء العالم المختلفة، لاسيما مع بعض الأمراء السعوديين.

فراخان ومهمة البعث والتجديد

بعد أن نجح فراخان في الانقلاب على قيادة والاس محمد أو وريث الدين في فبراير ١٩٨١، تمثل أول تغييراته النظامية للجماعة في الاعتراف بأن التغييرات الاجتماعية التي شهدتها الولايات المتحدة في السبعينيات لابد أن تفرض نفسها على استراتيجية الجماعة. ومن بين هذه التغييرات ما جرى للمجتمع الأمريكي الأسود نفسه، ومن بينهم أعضاء الجماعة وأنصارها، حيث أتيح لأبناء البعض منهم فرص التعلم وشغل وظائف مناسبة وتحقيق دخول عالية نسبيا، أو بعبارة أخرى الانتماء إلى طبقة البورجوازية، وذلك على عكس ما كانوا عليه قبل نشأة الجماعة قبل أربعة عقود مضت.

ومن بين أبرز تحولات الجماعة تحت قيادة فراخان، انخراطها في الحياة السياسية، وتمثلت البداية في تأييد ترشيح القس الأسود جيسي جاكسون عن الحزب الديمقراطي لانتخابات الرئاسة الامريكية عام ١٩٨٤ وقد أدت الملاسنات بين فراخان والمنظمات اليهودية إلى أن يلاحق الإعلام أنشطة الجماعة، الأمر الذي ساهم في إبرازها أمام الرأي العام الأمريكي. ومثل هذه الاستراتيجية كانت تستهدف من وجهة نظر فراخان أمرين:

أولهما الإعلام عن الجماعة في صورتها الجديدة، المنخرطة في الشئون العامة للمجتمع الأمريكي.

وثانيهما التوافق والتكيف مع التغيرات الاجتماعية التي حدثت لأنصار الجماعة منذ موت إليجا محمد، والتعبير عن مصالحهم الجديدة.

ولكن الأهم من ذلك أن تزايد تجزؤ المجتمع الأمريكي من خلال التداخل ما بين الخطوط العرقية / الإثنية والدينية شجع انتشار الأشكال والآليات المختلفة للتعبير عن ذلك التجزؤ من جانب، والتعبير عن المصالح المتعارضة للجماعات المختلفة من جانب آخر.

ورغم أن بداية فراخان كزعيم لجماعة أمة الإسلام في علاقاته العربية كانت سيئة إجمالا، حيث اعتاد على وصف النظم العربية بصفات سلبية، إلا أنه أعاد النظر في هذا التوجه في منتصف الثمانينيات وصاعدا. وتمثلت نقطة التحول في علاقاته الجديدة مع الزعيم الليبي العقيد القذافي، الذي منح جماعة أمة الإسلام قرضا حسنا بدون فوائد قيمته ٥ ملايين دولار، وأتاح لها معسكرات في داخل ليبيا لتدريب أنصارها. ثم قام لاحقا بالحج إلى مكة المكرمة.

ومن المفارقات أن الملاسنة السياسية بين فراخان والجماعات اليهودية الأمريكية، والتي استقطبت اهتمام الإعلام الأمريكي، لم تكن تعني قطع كل الصلات، ويرجع ذلك إلى وجود ما أسماه البعض رابطة سرية بين أمة الإسلام وهذه الجماعات، وهي رابطة تعود إلى سنوات الكفاح من أجل الحقوق المدنية، حيث تضامن كل من السود واليهود معا وعملوا سويا لمواجهة واقع العنصرية الذي ميز المجتمع الأمريكي. ومع بداية فترة رئاسة كلينتون الأولى ١٩٩٢، سعى فراخان إلى مزيد من ربط أمة الإسلام بالحياة السياسية الأمريكية، ووظف استراتيجية جديدة قوامها التوجه نحو أكبر عدد ممكن من المتلقين، وهو ما عبر عنه صراحة في كتابه الشهير «طاقة نور لأمريكا»، A Torchlight For America، والذي ناقش فيه ما اعتبره أزمة أمريكية عامة تمس كل أعراقها وأديانها، ووضع حلا لها تمثل في الدعوة بأن تطبق الجماعات العرقية والدينية المختلفة في المجتمع الأمريكي «النموذج الناجح» الذي طبقته جماعة أمة الاسلام في تجديد الجماعة الأمريكية السوداء.

وعلى صعيد الجماعة نفسها تمثلت استراتيجية فراخان في مزيد من الانضباط للمدارس التابعة للجماعة، والتركيز مرة أخرى على مبادئ الانضباط الأخلاقي الفردي وقيم الأسرة وأهمية الحياة الأسرية المتجانسة، ورفض ممارسات الارتباط قبل الزواج، أو تحدي القانون وتجاوزه. وهو ما مثل تحولا كبيرا في أسلوب فراخان مقارنة بالأسلوب الذي بدأ به سنواته الأولى في قيادة الجماعة.

لقد ساهمت هذه الاستراتيجية الجديدة في تعميق ارتباط أمة الإسلام بهموم المجتمع الأوسع، ولم تعد تقتصر همومها على المجتمع الأمريكي الأسود أو المسلمين منهم فحسب. وهكذا وجدت الجماعة نفسها في قلب المعضلات الكبرى التي تواجه أية حركة اجتماعية، حيث تحاول أن تحسن مواقعها الاجتماعية والسياسية، ولكن دون أن تكون قادرة على الوصول إلى مواقع السلطة والقرار. إنها معضلة المنظمات الاجتماعية الساعية إلى إصلاح النظام الاجتماعي من أزمات عالم ما بعد الصناعي.

النموذج البريطاني

يأخذنا الكاتب في محطته الثانية إلى بريطانيا، والتي شهدت واحدة من أكثر الوقائع شهرة، حيث قام مجموعة من مسلمي بريطانيا في برافورد غرب يوركشاير، بحرق كتاب الروائي الإنجليزي الهندي الأصل سلمان رشدي «آيات شيطانية»، احتجاجا على ما اعتبروه المضمون المسيئ للنبي محمد ﷺ وأصحابه.

لقد كان مشهد حرق الكتاب مثيرا لذكريات أليمة عاشتها أوروبا في عصورها المظلمة، مما دعا كثيرين إلى وصف مسلمي براد فورد بأنهم الأكثر تعصبا دينيا. وهنا يشير المؤلف إلى أن أحدا من المسلمين الذين قاموا بأعمال الاحتجاج ضد سلمان رشدي، لم يقرأ الكتاب، الذي يجمع بين الحقيقة التاريخية والخيال المستمد من روايات شعبية، ولكن المحتجين استقطعوا بعض فقرات وقاموا بترجمتها إلى الأوردية، وأرسلوها بالفاكس إلى الهند وباكستان، مما أثار الروابط الإسلامية عبر العالم، إلى أن وصل الأمر إلى الإمام الخوميني في إيران، والذي أصدر فتواه الشهيرة في ١٤ فبراير ١٩٨٩ بجواز قتل سلمان لتطاوله على النبي والصحابة، أي بعد شهر كامل من مظاهرة مسلمي برادفورد.



وهكذا أصبحت قضية سلمان رشدي أشهر قضية «حرية تعبير» في أوروبا والعالم في نهاية القرن العشرين، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو «لماذا تصرف مسلمو بريطانيا بمثل هذا الشكل العنيف؟».

يجيب الكاتب بأن الإجابة عن هذا التساؤل تستدعي الفهم والاستيعاب الكامل للأبعاد السياسية والتاريخية لنشأة الجماعات المحلية التضامنية Communalism داخل المملكة المتحدة، سواء على أسس دينية أو عرقية. وهو الأمر الذي يمكن إعادته إلى حقبة الأمبراطورية البريطانية في الهند، وإلى أحوال المدن البريطانية المتواضعة في الوقت الراهن. والمؤكد أن «الإسلام» كحركة اجتماعية يعمل بطريقة مختلفة عن عمليات الأسلمة التي شهدها مجتمع الأمريكيين السود. ومع ذلك فهناك بعض أوجه للشبه. فالإسلام في أمريكا يخص السود الذين يرجع أجدادهم إلى بلدان خارجية زمن العبودية، الأمر الذي فصلهم عن أصولهم الثقافية. أما في بريطانيا فالإسلام ينتمي إلى السكان الهنود والباكستانيين الأوائل الذين هاجروا، وما زال البعض منهم أحياء يرزقون، ويمثلون قناة اتصال مع ثقافتهم الأصلية. ونقطة الشبه هنا تعود إلى وجود مصدر خارجي للجماعة ولثقافتها الخاصة.

بيد أن الإسلام في أمريكا وفقا للنموذج الذي عبرت عنه حركة «أمة الإسلام»، يمكن وصفه بأنه إسلام محلي بكل أشكاله وصفاته المتميزة، والتي عبر عنها فارد وإليجا محمد ووالاس وفراخان. فهذا النوع من الإسلام بدأ من الصفر تقريبا، دون أن تسبقه تقاليد إسلامية قبل زمن العبودية، ولذلك فهو يختلف تماما عن الإسلام الذي يعرفه أهل الشرق، حيث نبع فيهم ومنهم الإسلام السني أو غير السني.

أما في الحالة البريطانية، فهو إسلام مختلف، إذ إنه تأكيد لهوية إسلامية ذات جذور وأصول قوية في شبه القارة الهندية. ففي إبان حقبة الاستعمار البريطاني، جاء معظم المهاجرين إلى بريطانيا من هذه المنطقة، مستغلين ظروف الحياة فيها لإيجاد التعبيرات النظامية المختلفة للتعبير عن هويتهم الدينية التي حملوها معهم من بلدانهم ومناطقهم الأم.

وثمة خلافات كثيرة بين حالة « أمة الإسلام» الأمريكية، وبين مجلس مساجد

برادفورد، سواء فيما يتعلق بالعلاقة بالإسلام نفسه كعقيدة، أو في تعريف أو تحديد النطاق الديني لتصرفات الأفراد والجماعة على السواء. وفي براد فورد هناك نظرة شك وريبة للأفكار التي يحملها فراخان عن الإسلام والعقيدة. وربما يكون الجامع بين الحالتين هو أن العقيدة الإسلامية هي التي ساعدت على تجسيد هوية متميزة للجماعة المحلية مقارنة بالهوية السائدة في المجتمع الأكبر المحيط بها في أمريكا أو في بريطانيا.

ففي السياق البريطاني العام، سعى المسلمون إلى إبراز هويتهم الدينية من خلال آليات مختلفة بعض الشيء عن الآليات التي وظفها السود الأمريكيون. وكان من أهم تلك الآليات التدخل في العملية التعليمية السائدة في المدارس الحكومية من أجل فرض «ما يجب تعليمه» للأطفال المسلمين في هذه المدارس، كما تم تشكيل جماعات ضغط إسلامية تمارس نفوذا على المرشحين سواء للانتخابات البلدية أو التشريعية، بهدف وضع مصالح جماعة المسلمين في الحسبان، كما تم توظيف القانون البريطاني الذي ينظر إلى الجماعات العرقية أو الدينية نظرة إيجابية، ويسمح بقدر من التمييز الإيجابي، الذي يحقق بعضا من مصالح تلك الجماعات المحلية. فالعرق من الناحية القانونية يشير إلى وضع قانوني وليس إلى شيء مذموم، كما أن التفرقة بين الجنسية والمواطنة ليست سلبية في السياق القانوني البريطاني، بل إنها تسمح ببعض الحقوق للجماعات المختلفة.

وذلك على عكس الأمر في فرنسا، التي لا تميز بين الأمرين، ويقوم منهجها التاريخي على إدماج المهاجرين في بنية الثقافة السائدة للدولة الفرنسية. ومثل هذا الاختلاف يعود بالطبع إلى اختلاف الخبرة التاريخية لعمليات إدماج المهاجرين في كل بلد على حدة.

ووفقا لإحصاءات ١٩٨٦، فقد بلغ السكان المسلمون، أو ذوو الأصول الإسلامية في بريطانيا ٩٣٦ ألف نسمة. منهم ٣٥٧ ألفا من باكستان، و٨٤ ألفا من الهند، و٦٤ ألفا من بنجلاديش، وحوالي ٩٩ ألفا يعودون إلى أصول من منطقة شرق أفريقيا. وهكذا فإن حوالي الثلثين ينحدرون إلى أصول تعود إلى شبه القارة الهندية، جالبين معهم التقاليد الإسلامية التي تسود في تلك المنطقة من العالم.



إن فهم هوية جماعة المسلمين في بريطانيا لا ينفصل عن تاريخ هذه المنطقة، وما عرفته من نظم حكم إسلامية تقليدية سادت لعدة قرون، ثم حقبة الاستعمار البريطاني، واستقلال الدول بعد الحرب العالمية الثانية، والانقسام الدموي الذي حدث بين باكستان والهند. فقبل الاحتلال البريطاني كانت هناك ممالك إسلامية وصلت إلى ذروتها في منتصف القرن السادس عشر، كامبراطورية المغول في منطقة دلهي، والتي تأثر تاريخها بتقاليد الغزو والفتح والتفرقة بين أهل الكتاب وأهل الإسلام، وحقوق الفاتحين والتزامات البلاد المفتوحة.

كما لعبت العلاقة المتوترة تاريخيا بين المسلمين والهندوس في هذه المناطق دورا في تشكيل التعبيرات النظامية للمسلمين في بريطانيا عن أنفسهم وهويتهم، والتي تأثرت بدورها بأفكار بعض العلماء البارزين مثل أبو الأعلى المودودي، وبكفاح المسلمين إبان حقبة الاحتلال البريطاني لشبه القارة الهندية لمدة

رغم أصول المسلمين في فرنسا والتي تعود إلى حقبة الاستعمار الفرنسي لشمال وغرب أفريقيا، واعتبارهم مواطنين بحكم القانون، فإن الأجيال الجديدة التي تعلمت في المدارس والجامعات الفرنسية، كانت لها رؤية مختلفة للموقع العام لجماعة المسلمين وأوضاعهم التي وصلوا إليها، عن رؤية المسلمين الأوائل



خمسة قرون، ثم بنشأة دولة باكستان الإسلامية.

إلى جانب هذه العوامل التاريخية والثقافية التي حملها معهم المهاجرون الأوائل إلى داخل بريطانيا، فإن المجتمع البريطاني نفسه وخصائصه التاريخية والبنيوية كان لها دور آخر في طبيعة ومسار تكوين الهوية الإسلامية فيه. ففي داخل المملكة المتحدة، لا تعد الجنسية البريطانية بمثابة مفهوم متجانس التكوين، فهناك جنسيات مختلفة: إنجليزية واسكوتلندية وويلزية وأيرلندية وهكذا. فالدولة البريطانية بحق دولة متعددة القوميات.

وفي ظل هذا المفهوم للمواطنة البريطانية، حيث الهوية السياسية يعبر عنها بعوامل مختلفة تعيش بجوار بعضها البعض، وجدت الظروف المناسبة التي استطاع خلالها المهاجرون المسلمون أن يعبروا عن أنفسهم داخل النظام السياسي نفسه. ولم تكن الاستجابة من قبيل المحاكاة مع المجتمع السائد، ولكن السعي إلى اكتساب وضعية موازية للوضعية التي تحظى بها «الأمم» الأخرى والموجودة بالفعل في الدولة البريطانية مثل الأسكوتلنديين أو الأيرلنديين أو غيرهم. ومن ثم تشكيل «أمة محتملة» تحت حماية مفهوم المواطنة البريطاني نفسه، والذي يحتوي في داخله كل الوافدين الجدد تحت مسمى العرق أو الدين أو كليهما معا.

ومع ذلك فلم تكن رحلة تشكيل الأمة الإسلامية، أو بالأحرى الجماعة الإسلامية خالية من المصاعب أو النضالات المختلفة. فقد وجدت عدة جولات، كانت أولاها في صورة النضال من أجل تعليم إسلامي. ففي نهاية الستينيات ثار القلق لدى أبناء المجتمع الإسلامي البريطاني من أن خلو المناهج التعليمية من أية إشارة إلى الدين قد تؤثر على النشأة الصحيحة لأبنائهم، ومن ثم على هويتهم. ومن ثم بدأ السعي إلى إدخال محتوى ديني إسلامي لأبناء المسلمين في المناهج التعليمية للمدارس الحكومية العامة.

وتطور الأمر إلى منح مزايا خاصة بالزي بالنسبة للتلميذات المسلمات.

ثم تطور الأمر إلى تشكيل جماعات ضغط في المناطق التي يتجمع فيها المسلمون، لاسيما في برادفورد وبرمنجهام، من أجل التأثير على المرشحين للانتخابات البلدية أو التشريعية لكي يأخذوا في اعتبارهم مصالح المسلمين في حملاتهم الانتخابية. ونشأ لذلك مجلس علاقات الأقليات ووحدة الفرص المتساوية، واللذان هدفا بدورهما إلى الاتصال بكل الجماعات من غير الأصول البريطانية، من أجل وضع مجموعة من المعايير التي تهدف إلى توفير فرص للعمل والتدريب والتعليم لأبناء الأقليات من خلال تطبيق مبادئ التمييز الإيجابي التي تعترف بها التقاليد الدستورية و القانونية البريطانية.

كما نشأت روابط اجتماعية وقومية عديدة لخدمة أبناء الجماعات المسلمة، وكان لها دور كبير في إثارة أزمة كتاب سلمان رشدي على النحو الذي أثيرت عليه، وذلك حتى قبل الفتوى الشهيرة للإمام الخوميني. ومن أبرز هذه المنظمات الإسلامية مؤسسة ليستر الإسلامية والبعثة الإسلامية في المملكة المتحدة ومجلس مساجد برادفورد وغيرها.

إن تلك الخصوصية في النشأة والميراث التاريخي لجماعة المسلمين في بريطانيا، لم تمنع من وجود تأثيرات أخرى «وافدة حديثا»، من قبل دول ومصادر عربية، لاسيما خليجية، وتحديدا سعودية.

إن بناء المجتمع المدني من خلال الجماعات المحلية التضامنية Communalism على أسس عرقية أو دينية يظل هو العنصر الأساسي في الثقافة السياسية البريطانية. فبرلمان المسلمين رفض التشبه بالحضارة الغربية، وجماعة أخرى مثل البعثة الإسلامية للمملكة المتحدة، وفرعها المؤسسة الإسلامية، كان هدفها إنشاء نظام اجتماعي إسلامي في بريطانيا. والنقطة الأساسية لمثل هذه الجماعات أنها تمثل بصورة أو بأخرى استجابة للنظام السياسي السائد، والذي تبرز فيه حالة عدم مساواة أمام القانون، الذي يجسد بدوره تشريعات لصالح الكنيسة الإنجيلية، ولكنها تجد تعويضها في المقاييس الخاصة بالتمييز الإيجابي في بعض المجالات مثل التعليم. وتظل أزمة كتاب سلمان رشدي وظيفة أخرى، وهي أنها أضرمت الجدل من جديد حول معنى الاندماج في المجتمع البريطاني، وما هي الأسس الأفضل لمثل هذا الاندماج المرغوب. في حين أن الدولة البريطانية لم يكن بمقدورها أن تغير الاتجاه العام، الذي يعكس ميراث الامبراطورية، رغم حقيقة أن الشمس قد غربت عنها منذ فترة طويلة.

فرنسا أرض الإسلام

رغم أصول المسلمين في فرنسا والتي تعود إلى حقبة الاستعمار الفرنسي لشمال وغرب أفريقيا، واعتبارهم مواطنين بحكم القانون، فإن الأجيال الجديدة التي تعلمت في المدارس والجامعات الفرنسية، كانت لها رؤية مختلفة للموقع العام لجماعة المسلمين وأوضاعهم التي وصلوا إليها، عن رؤية المسلمين الأوائل.

وبتعبيرات الإسلام نفسه، فإن فرنسا بالنسبة لهؤلاء لم تكن دار حرب، كما لم تكن دار إسلام، فهي منطقة وسط بين المعنيين، تجسدها عبارة دار العهد. وهذه الأجيال الجديدة تنظر لفرنسا باعتبارها دولة غير نقية من الناحية الإسلامية، ولكنها ليست في موقف عدائي مباشر منهم أو معهم.

ومنذ منتصف الثمانينيات بدأت ظاهرة ارتياد المساجد من قبل تلك الأجيال الجديدة، لاسيما في ضواحي ليون. وفي البداية كان لجماعة التبليغ النفوذ الأكبر على هؤلاء الأنصار الجدد، خاصة في مناطق شاس وجيفورس (خارج ليون)، وحيث ظهرت بقوة مشكلات عدم الاندماج وقلة التوظف وتحلل وحدة الأسرة، وأزمات المجتمع الأكبر.



ولم يمض سوى أقل من عامين، وفي عام ١٩٨٩، وإذا بالاتجاه نفسه يتزايد داخل المدن الكبرى، لاسيما باريس، التي شهدت مساجدها زيادة ملحوظة في أعداد المترددين عليها. وهو ما لم يكن موجودا قبل ٣ سنوات فقط.

إن هذا العام له دلالته الكبرى، فقد ظهرت فيه بقوة على الساحة الجزائرية الجماعة الإسلامية للإنقاذ. وهو ظهور ساهم في تغيير وعي المسلمين الفرنسيين من ذوي الأصول الجزائرية بشأن علاقتهم ببلدهم الأم، وأيضا علاقتهم بالإسلام نفسه. بالإضافة إلى ذلك فهو العام الذي شهد ما بات يعرف بأزمة الحجاب، والتي قسمت البلد وأثارت جدلا كبيرا حول طبيعة ومسار الفكرة العلمانية التي تمثل جوهر النظام السياسي الفرنسي. حيث منعت إحدى المدارس الثانوية ٣ فتيات مسلمات من دخول المدرسة لأنهن رفضن نزع غطاء الرأس أثناء إحدى الحصص المخصصة للرياضة.

وهي الواقعة التي مثلت بداية تغيير استراتيجية الناشطين الإسلاميين في فرنسا. إذ اعتبرت فرنسا دار إسلام، حسب وصف راشد الغنوشي، الزعيم والمثقف البارز في حركة النهضة الإسلامية التونسية، والتي كانت لها امتدادات نظامية داخل فرنسا نفسها، وذلك في إحدى محاضراته التي ينظمها مجلس اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا. وكان إعلانه هذا دليلاً على بلورة هدف جديد للحركة الإسلامية في فرنسا، تمثل في إعادة أسلمة السكان الفرنسيين المسلمين، الذين ينحدرون من أصول غير فرنسية. ولم تكن هذه الاستراتيجية تعني بأي حال أسلمة المجتمع الفرنسي نفسه.

وضح جليا أن صيغ الانتشار والتوسع في التعبير عن الهوية الذاتية، قد اعتمدت على ما يتيحه السياق العام من فرص قانونية أو اجتماعية أو ثقافية، جنبا إلى جنب الأنماط المفاهيمية التي أمكن استنباطها من قبل الناشطين لكي تكون موجها للحركة في جذبها للأنصار والتعبير عن هوية جديدة



لقد أظهرت حادثة الحجاب أن شباب المسلمين، ورغم نشأتهم في فرنسا وتعلمهم في مدارسها، إلا أنهم لم يفقدوا صلاتهم بالإسلام، أو أنهم قبلوا نموذج الجمهورية العلمانية التي تحصر الدين في النطاق الفردي وحسب. ومنذ ذلك الوقت ظهر أن هناك ما يمكن وصفه بإسلام فرنسا والذي يعلي من شأن الدين في النطاقين الخاص والعام معا، سواء في امتداداته المحلية الداخلية، أو الخارجية الدولية. وهو ما جرى التعبير عنه إبان حرب الخليج الثانية، حيث تعددت مظاهر تضامن المسلمين الفرنسيين مع من اعتبروهم إخوانا لهم في الدين، كان الإعلام الغربي يعمد إلى التقليل من شأنهم.

لقد لعبت أزمة الهوية الفرنسية والأزمة الاجتماعية لاسيما واقع البطالة المتزايد، دورا متكاملا في تشكيل بيئة مناسبة لازدهار حركة إعادة الأسلمة بين الجيل الشاب من مسلمي فرنسا. وتطورت هذه الاستراتيجية الجديدة حول اهتمامين رئيسيين :

الأول: ما رآه الشباب المسلم من حق الفتاة المسلمة ارتداء الحجاب في المدرسة، من أجل إبراز الهوية الخاصة بها في مواجهة الهوية العلمانية العامة.

الثاني: سعي النشطاء الإسلاميين لتشكيل وتأسيس روابط وشبكات للضمان الاجتماعي مُسيرة ذاتيا، لمواجهة المشكلات الاجتماعية في حياة المدينة، ولاستبدال الهياكل والأبنية القديمة من نوادي الشباب ومراكز الترفيه وغيرها، والتي عكست تقاليد الكنيسة الكاثوليكية واتحادات العمال والأحزاب اليسارية، بمراكز إسلامية.

وفي هذه الأنشطة الجديدة فقد غطى الإسلاميون مساحة واسعة من الوظائف الاجتماعية، بداية من التعليم ونهاية بالحرب ضد المخدرات. وهو ما جعلهم محاورين بارعين ومتحدثين هامين بالنسبة للسلطات المحلية، التي سعت بدورها إلى التعاون معهم من أجل التعامل المناسب مع قضايا ومتطلبات الأجيال الإسلامية الجديدة. ولقد عكس هذا الاتجاه عملية مشابهة جرت في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا.

وحتى قبل تشكيل الجبهة الإسلامية للإنقاذ لروابطها ومؤسساتها الفرعية داخل فرنسا، كان لها تأثير كبير على عملية تنظيم الإسلام في فرنسا. حيث أقامت نموذجها على مزيج من القوة السياسية والعقيدة الإسلامية ومشروعات العمل الاجتماعي لمواجهة الفقر وإحباطات الشباب، ومواجهة القيم الثقافية الفرنسية. بعبارة أخرى أنها فرضت بديلا إسلاميا جماهيريا، وأسست لهوية إسلامية تقوم في شق منها على رفض الغرب.

ولكم غيّر هذا التحول، وربما بصورة جذرية، تلك العلاقة الوثيقة التي كانت قائمة بين فرنسا وشمال أفريقيا، وأعاد تأسيسها بناء على تلك الحقائق الجديدة. فلقد صار هناك إسلام فرنسي له مؤسساته وقيمه وتقاليده وجماهيره التي تعمل على إبراز وتأكيد هويتها الخاصة بها داخل السياق الفرنسي نفسه. ومن هنا كان هناك قلق حقيقي لدى السلطات الفرنسية إبان حرب الخليج الثانية، إذ تزايدت المخاوف من انتقال عدوى تأييد الرئيس صدام حسين التي كانت موجودة داخل بلدان شمال أفريقيا إلى داخل المجتمع المسلم في فرنسا ذاتها.



وفي مرحلة لاحقة، عمدت السلطات الفرنسية إلى تفكيك الروابط السرية التي أقامتها الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وطبقت من خلالها استراتيجيتها الخاصة بإعادة أسلمة مسلمي فرنسا من ذوي الأصول الجزائرية خاصة والشمال أفريقية عامة. وجرى هذا التفكيك بالتنسيق بين السلطات الفرنسية والجزائرية، التي كانت تواجه بدورها طوال التسعينيات حركة تمرد إسلامية مسلحة كبرى، مازالت ذيولها قائمة حتى هذه اللحظة.

ويظل القول الحق إن الدولة الفرنسية، وبالرغم من أن مسلميها هم مواطنون فرنسيون بحكم القانون، فهي لم تفعل لهم شيئا من أجل إدماجهم اجتماعيا أو من خلال منحهم فرصا للدخول في سوق العمل، وبذلك تركت الساحة خالية للروابط والمنظمات الإسلامية لتحل محلها بقوة وتأثير كبيرين.

ومع ذلك فمن المبكر جدا الحكم بأن هذه الحركة الجديدة لإعادة الأسلمة تمثل مجرد مرحلة عارضة، أم أنها ستؤدي إلى بلورة اتجاه له جذوره القوية في المجتمع الفرنسي ككل. وفي كل الأحوال وبغض النظر عن مدى تدخل الدولة أو ابتعادها عن مواجهة هذه القضية الشائكة، فإن الحاجة لبلورة هوية جماعية، كان لها دور بارز في تجميع القوى والأنصار لمواجهة ما يمثل بحق معضلات الاستبعاد من قبل المجتمع ما بعد الصناعي.

نظرة كلية

ماذا تعني هذه النماذج من نشوء جماعات محلية تضامنية في المجتمعات الغربية؟ حول هذا السؤال يجيب الكاتب مشيرا إلى أن النماذج الثلاثة تكشف عن عدة أمور مشتركة، يرى أنها تعكس تحليله الكلي الذي اعتمد عليه، وقام بالأساس على فكرة الدور الحاسم للأبعاد الاجتماعية والثقافية في تشكيل جماعات محلية ذات طابع تضامني، تعمل على إبراز هوية محددة لأنصار تلك الجماعة وأعضائها. ومن الأمور المشتركة أن سعي تلك الجماعات إلى بلورة هوية تختلف عن هوية المجتمع الأكبر الذي تعيش فيه قد أثار تعقيدات غير متوقعة وانشقاقات داخل الجماعة المحلية نفسها وداخل المجتمع الأكبر أيضا وبنفس الحدة والدرجة معا.

وفي كل حالة على حدة وضح جليا أن صيغ الانتشار والتوسع في التعبير عن الهوية الذاتية، قد اعتمدت على ما يتيحه السياق العام من فرص قانونية أو اجتماعية أو ثقافية، جنبا إلى جنب الأنماط المفاهيمية التي أمكن استنباطها من قبل الناشطين لكي تكون موجها للحركة في جذبها للأنصار والتعبير عن هوية جديدة. وهو أمر لم يكن يسيرا بالمرة، وعكس أشكالا وإشكالات حركية وفكرية مركبة.

وثانيا فإن نشأة تلك الحركات قد ساهمت في إعادة اختبار مفهوم المواطنة، الذي كان في قلب التفكير السياسي الغربي منذ عصر التنوير، إذ إن هذه الحركات تفاعلت مع ما أدركته بأنه إنكار للمواطنة وليس تجسيدا لها، حتى ولو كان الأمر مرعيا في نصوص القانون، كما هو الحال في بريطانيا وفرنسا. وهو إدراك ربط بين ما هو ديني، أو وظف ما هو ديني لجلب ما هو سياسي، وهو ما تبرزه حالة «أمة الإسلام» الأمريكية. والتي عبرت في مراحلها الأولى عن عملية نفي أو إنكار مخطط ومدروس للهوية السلبية ـ التي كان يشير إليها تعبير نجرو ـ التي كان يحملها السود بفعل هيمنة وسيطرة الرجل الأبيض. ولذلك كان من أحد مظاهر الانتماء للهوية الجديدة تغيير الأسماء الفردية لتتوافق مع متطلبات الهوية الجديدة. وهكذا حدث الانفصال المرغوب عن البيئة الأكبر الظالمة، أو المنكرة للحقوق الطبيعية. ونفس النتيجة تقود إليها مظاهر الانضباط السلوكي الفردي والجماعي التي التزم بها أنصار الجماعة تعبيرا عن هويتهم الجديدة، وانسلاخهم عن الهوية المرفوضة.

وربما أظهرت الحالة البريطانية سياقا مختلفا بعض الشيء. فحق المواطنة مكفول قانونا للأقليات العرقية والدينية، ولكنه من حيث السلوك الفعلي غير محسوس، إذ هناك حقوق أكبر لمن يعتبرون أبناء البلاد الأصليين مقارنة بالحقوق الممنوحة لهؤلاء المهاجرين الآتين من مناطق أخرى. وهنا فإن التعبير عن الهوية الجماعية لا يمثل ـ كما في الحالة الأمريكية ـ انفصالا عن المجتمع الأكبر أو رفضا للعنصرية فيه، وإنما استجابة للنظام القانوني الذي يبيح للجماعات التعبير عن نفسها في صور وأشكال نظامية مختلفة، كاحد أساليب تحقيق السلام الاجتماعي بين أقليات وهويات مختلفة تنضوي جميعها تحت التاج البريطاني. ومن هنا كانت الحكومات البريطانية في موقف التشجيع لبناء المساجد والروابط التضامنية المختلفة لأبناء الأقليات الإسلامية القادمة من شبه القارة الهندية.

لكن الوضع التسامحي تغير منذ منتصف السبعينيات وصاعدا، حيث تصاعدت البطالة واهتز استقرار الأسر، وبرزت الحاجات التعليمية والثقافية الخاصة للأبناء، ومن هنا بدأ البحث مرة أخرى عن هوية خاصة تعكس المضمون الديني والثقافي الخاص، في مواجهة المجتمع الأكبر، ولكن عبر توظيف آلياته القانونية التي تسمح بذلك سلميا.



الحالة الفرنسية تعطي مؤشرات أخرى، فالدولة الفرنسية حاولت استيعاب التعبير النظامي الديني من خلال الإطار القانوني الحاكم للعبادة، ورفضت أية صيغة خاصة للتعامل مع الجماعات الإسلامية الباحثة عن هويتها معاملة خاصة. ذلك ان رؤية الدولة الفرنسية أن هؤلاء مواطنون فرنسيون، لهم ـ نظريا ـ كل الحقوق، ومن ثم فليس هناك مبرر لتوفير مساحة من التميز لهم بناء على أسس ومعايير ثقافية أو دينية. ومن هنا تختلف الحالة الفرنسية عن الحالة البريطانية بوضوح شديد.

لكن التطورات التي شهدها المجتمع الفرنسي الأكبر، ومجتمعات المسلمين فيه، والتأثيرات الواردة من الخارج عبر الحدود، حتمت قدرا من الجدل حول هذه الرؤية الرسمية. وهو ما تجلى في حادثة الحجاب الذي عبر بدرجة أو بأخرى عن أن صغار السن يعدون الضحايا الحقيقيين لعدم الاندماج الاجتماعي، وأيضا في الانتشار الكثيف للمساجد ونشأة الروابط التضامنية، وتأثيرات الجبهة القومية للإنقاذ ومجريات المواجهة بين السلطات الجزائرية والجماعات الإسلامية المسلحة. إلا أن إصرار الدولة الفرنسية على أن الجميع، بغض النظر عن الدين، مواطنون فرنسيون، ساهم في الإحساس العام بالرضا والتضامن، وبالتالي خفف من النقص الفعلي لحقوق المواطنة.

وفي النهاية تبقى كلمة، ذلك أن المبدأ العام الذي حرص عليه الباحث تمثل في أولوية إن لم يكن كلية العامل الاجتماعي في مسألة البحث عن هوية ذاتية لجماعة ما، وهو الأمر الذي برز في اعتبار عامل الفشل في الاندماج في المجتمع الأكبر، الذي هو ما بعد صناعي، المحرك الرئيسي في البحث عن هوية جديدة والتمسك بها. ودون التقليل من شأن العامل الاجتماعي، والاعتبارات السياسية السائدة والميراث التاريخي ودور القيادة الكاريزمية في تشكيل الجماعات المحلية التضامنية سواء على أسس دينية أو عرقية أو كليهما معا، فهل يمكن تجاهل قيمة العوامل الجاذبة في العقيدة الإسلامية نفسها؟. في يقيني أن الإجابة ليست حاسمة.■



العودة إلى أرض الأندلس

محمد فخري الوصيف

إسبانيا ليست بلدا أوروبيا عاديا، إنها وتوأمتها البرتغال - بخلاف كل دول أوروبا الغربية - لهما تاريخ طويل مع الإسلام والثقافة الإسلامية. إنهما معا أرض الأندلس. صقع من أصقاع الإسلام على امتداد قرون ثمانية، وأرض امتد بها الحضور الإسلامي إلى تسعمائة عام (٧١١ - ١٦١٤م)، وحضارة نهلت من قطوفها البشرية وأسهمت في نهضة أوروبا

يشغل الإسلام اليوم مكاناً هاماً في الفضاء الأوروبي، ليس فقط لكونه هدفاً لدراسات دينية وأنثروبولوجية وسياسية فيما يعرف بـ «الاستشراق»، ولكن أيضا باعتباره قضية حيوية ذات أبعاد سوسيوثقافية وسياسية وأمنية عظيمة التأثير على المجتمعات الأوروبية. السبب الأساسي لذلك يكمن في أن هذه المجتمعات أصبحت تحتوي بين جنباتها على جماعات عديدة من المهاجرين القادمين من مناطق جغرافية حيث يسود فيها الإسلام والثقافة الإسلامية.

يبلغ عدد المسلمين في دول الاتحاد الأوروبي الخمس عشرة حسب الأرقام الأكثر دقة حتى أوائل هذا العام (٢٠٠١) عشرة ملايين نسمة موزعين بشكل أساسي على النحو التالي: فرنسا (ثلاثة ملايين)، ألمانيا (ثلاثة ملايين ونصف المليون)، انجلترا (أكثر من مليون)، هولندا (سبعمائة ألف)، بالإضافة إلى مليون ونصف المليون موزعا بين بلجيكا وإيطاليا وإسبانيا واليونان وبلدان أخرى. إجمالي هذا العدد يمثل ٣٪ من عدد سكان الاتحاد الأوروبي (٧٣٣ مليون نسمة)، وهو رقم متواضع نسبيًا من حيث الكم خاصة إذا قارناه بعدد المهاجرين بمناطق أخرى في العالم. فعلى سبيل المثال، حتى الأمس القريب كانت إيران تضمُّ ثلاثة ملايين نازح من أفغانستان والعراق، أي بنسبة ٥٪ من عدد السكان الإيرانيين (٦٠ مليون نسمة). ورغم تواضع رقم المهاجرين المسلمين في أوروبا، فإنه يحمل دلالات اجتماعية ثقافية بالغة الأهمية، وكاف لإثارة العديد من المشاكل؛ ولهذا فالفحص الميكروسكوبي للأقليات المسلمة في الاتحاد الأوروبي يمثل جوهر وهدف الكثير من الدراسات السوسيوثقافية في أوروبا الراهنة.

وإسبانيا، مثل غيرها من دول أوروبا الغربية، نالت حصتها من المسلمين، ونصيبها يبلغ — في حده الأقصى — حوالي ٣٠٠ ألف شخص، أي ٣٪ من عدد المسلمين في الاتحاد الأوروبي، وتقريبا ١٪ من عدد سكان إسبانيا (٤٠ مليون نسمة).

1- Comunidades islamicas en Europa

(الجماعات المسلمة في أوروبا)

Montserrat Abumalham

Editorial Trotta, 1995

2- La inmigración en Espan

(الهجرة في إسبانيا)

Miguel Pajares

Lcaria & Antrazyt, 1999

رقم متواضع أيضا لماذا؟

من جهة، لأن الهجرة، وهي المغذّي الأول والأساسي للمسلمين في إسبانيا شأن باقي دول أوروبا، لم تصبح ظاهرة إلا مؤخراً، منذ أواخر السبعينيات، وخاصة بعد انضمام إسبانيا للسوق الأوروبية المشتركة سنة ١٩٨٦. ومن جهة أخرى، لعدم وجود ماض استعماري عريق لإسبانيا يربطها بالعالم الإسلامي تاريخياً وبشرياً، باستثناء الحماية الإسبانية على شمال المغرب (حوالي ٢٠٠٠ كم مربع) من ١٩١٢ إلى ١٩٥٦ والسيطرة الإسبانية على الصحراء المغربية قليلة السكان (٢٠٠ ألف كم مربع) حتى سنة ١٩٧٥.

ولكن لعل أكثر ما يثير الدهشة أن إسبانيا ليست بلداً أوروبيا عادياً، إنها وتوأمتها البرتغال — بخلاف كل دول أوروبا الغربية — لهما تاريخ طويل مع الإسلام والثقافة الإسلامية. إنهما معا أرض الأندلس. صقع من أصقاع الإسلام على امتداد قرون ثمانية، وأرض امتد بها الحضور الإسلامي إلى تسعمائة عام (٧١١ — ١٦١٤م)، وحضارة نهلت من قطوفها البشرية وأسهمت في نهضة أوروبا. الأندلس فردوس خالد لم تزل شواهده تثير الإعجاب، وحسنه دائم الحضور. والبيّنات راسخة: محراب مسجد قرطبة لا يزال يخطف الأبصار، قصر الحمراء لؤلؤة لأي السياحة الإسبانية، المفردات والأسماء العربية لا تخطئها الأذن، ابن حزم وابن طفيل وابن رشد وابن عربي، نجوم أندلسية خالدة لا تزال ساطعة في سماء الفكر العالمي. ولهذا فرغم حسرات المسلمين على الفقد والخسران وزفرات الضياع ولوعة الحرمان من «الفردوس»، فقد صدق أستاذنا الدكتور حسين مؤنس القول بأن «الفردوس» ظلّ باقياً حيّاً لأنه شعَّ ولا يزال على العالم علماً وفنّاً وفكراً. ولكن الوجه الآخر من الحقيقة الأندلسية أن الوجود البشري الإسلامي قد انعدم من أرض الأندلس بسبب سياسة الاستئصال والأسبنة المتعصبة التي بلغت ذروتها بالطرد الجائر للمسلمين من الفردوس فيما بين سنتي ١٦٠٩ و١٦١٤. هكذا وطبقاً للتاريخ الرسمي لم يبق بالأراضي الإسبانية مسلم واحد بعد سنة ١٦١٤، باستثناء الرعايا المغاربة المسلمين سكان مدينتي سبتة ومليلة اللتين دخلتا تحت السيادة الإسبانية منذ حوالي أربعة قرون، الأولى في سنة ١٥٨٠ والثانية في ١٥٥٦.

ومع ذلك تكرُّ الأيام والشهور، وتمضي السنون، بل وتمرُّ القرون، ويدور الزمان دورته ليعطي مغزىً من مغازه المثيرة؛ فقد عاد المسلمون إلى أرض الأندلس عودة سلمية، دون سيوف وطبول، أو دروع وتروس. عودة مدنية في مناخ إسباني ديموقراطي، ولكنها ليست عودة سهلة لأنها تواجه مشاكل عدّة على ما سنذكر لاحقاً.

الآن لا تخفى أمام عين الزائر للعاصمة الإسبانية السحنة السمراء للمهاجرين المغاربة والحجاب النسائي الإسلامي، وإذا ما تجوّل في أحياء حيث يكثر المهاجرون، فإنه سيلمح لافتات مكتوبة بالعربية تشير إلى «مجزرة حلال» أو إلى مصرف أو مركز خدمة هاتفية، وإذا ما صادف يوم تجواله يوم جمعة في وقت الظهيرة فإنه سيلاحظ اكتظاظاً في محطّات المترو التي توصّل إلى المسجدين الكبيرين اللذين تضمهما مدريد. ويتكرر هذا المشهد بشكل أو آخر في كثير من المدن، بل وفي القرى الإسبانية.



وكما كان للخروج تاريخ، فإن للعودة أيضا تاريخها.

في منتصف السبعينيات من القرن العشرين كانت أزمة البترول العالمية، والتي كان من نتائجها بطء النمو الاقتصادي لدول شمال ووسط أوروبا، مما أجبر حكومات هذه الدول مثل ألمانيا وهولندا وفرنسا على غلق حدودها أمام تيار الهجرة الاقتصادية القادم من العالم الثالث والعالم الإسلامي. مع ذلك لم تتوقف الهجرة، وأنّى لها أن تتوقف؟ فثمة أزمة اقتصادية طاحنة كانت تعصف بدول العالم الثالث منذ أوائل السبعينيات وطوال حقبة الثمانينيات، بالإضافة إلى زيادة سكانية كانت تضغط على الشباب العاطل أو المحبط للبحث عن الرزق في أراضين أخرى. زد على هذه الهجرة الاقتصادية هجرة سياسية من جراء الحروب والاضطرابات والنزاعات السياسية مثل الثورة الإسلامية في إيران في ١٩٧٩ وأحداث لبنان في الثمانينيات وحربي الخليج

الأولى والثانية ومؤخراً أحداث الجزائر فى التسعينيات.

بيد أن الجديد هو أن تيار الهجرة فى مجمله غيَّر وجهته إلى بلدان أوروبية أخرى كانت حتى منتصف السبعينيات مناطق طرد، بالتحديد إلى جنوب أوروبا، وعلى وجه الدقة إلى إيطاليا وإسبانيا. سببان لذلك التوجُّه الجديد. الأول أن هاتين الدولتين كانتا عمليّاً مفتوحتين أمام الهجرة، فلم تكن هناك ثمة موانع قانونية تحول دون دخول المهاجرين. إيطاليا وضعت أول قانون ينظم دخول ووجود المهاجرين فى أراضيها سنة ١٩٨٦، وخمس سنوات بعد ذلك التاريخ اشترطت إسبانيا (بداية من مايو سنة ١٩٩١) تاشيرة الدخول المُسبقة إلى أراضيها على رعايا دول المغرب العربى. أما السبب الثانى، فهو أن هاتين الدولتين منذ منتصف السبعينيات وخلال الثمانينيات شهدتا نمواً اقتصادياً مرتفعاً، مما حوّلهما إلى دولتين جاذبتين للمهاجرين، وخاصة من دول الجوار المتوسطى العربى الإسلامى، لاسيما من بلاد المغرب العربى.

وكما أوضحنا من قبل تمثل الهجرة المصدر الأول والمغذّى الأساسى للوجود البشرى الإسلامى فى إسبانيا. ويشكّل الإخوة المغاربة الغالبية العظمى من المسلمين المهاجرين فى إسبانيا، وإلى جانبهم توجد أعداد أخرى من شمال إفريقيا والشرق الأوسط ومناطق أخرى. وهؤلاء المسلمون ـــ خاصة المغاربة ـــ موزَّعون فى غالبية الجغرافية الإسبانية، ولكنهم يتركزون أكثر فى مقاطعات مدريد وقطَلونية واندلوثيا.

أمّا عن عدد المهاجرين المسلمين فى إسبانيا، فيشوبه المبالغة أحيانا من مصادر متنوعة. فحيناً تاتى المبالغة من جانب المسلمين بقصد تضخيم وزنهم العددى، وحيناً تصدر عن المنظمات الإنسانية غير الحكومية بدافع حث الحكومة والشعب على إعطاء المزيد من العناية للمهاجرين، وفى حين آخر تكون المبالغة بسوء نية من جهة القطاع الإسبانى الرافض للمهاجرين المسلمين بهدف تضخيم ما يسمى بـ«الخطر الإسلامى» و«الزحف الأسود». وعلى كل حال، فعدد المهاجرين القادمين من بلاد ذات غالبية مسلمة والحاصلين على إقامة شرعية فى البلاد حتى سنة ١٩٩٩، طبقا لبيانات وزارة الداخلية هو ١٦٦ و١٧٩ شخصاً على النحو التالى:

شمال أفريقيا		أفريقيا جنوب الصحراء		الشرق الأوسط الآسيوى	
المغرب	٨٩٦و١٤٠	غانا	٧٥٥	تركيا	٤٥٤
موريتانيا	١,١٤٧	مالى	١,١٨٩	إيران	٢,٠٥١
الجزائر	٧,٠٤٣	نيجيريا	١,٤٦٤	العراق	٤٣٥
تونس	٥٣٦	السنغال	٦,٦٥٧	الأردن	٦٥٤
ليبيا	١٨١	غينيا	٦٨٠	لبنان	١,١٦٥
مصر	٩١٩	غامبيا	٦,٩٦٩	سوريا	١,٠٠١
				باكستان	٤,٢٣٨
				بنجالاديش	٧٣٢
الجملة	١٥٠,٧٢٢١٥	الجملة	١٧,٧١٤	الجملة	١٠,٧٣٠

وإلى جانب هؤلاء المهاجرين الشرعيين، يوجد عدد معتبر من المهاجرين غير الشرعيين، وهم الذين دخلوا البلاد بطريق غير قانونى. وهو عدد خارج عن الإحصاء الدقيق، ولكن الخبراء يحسبونه بنسبة ٢٥ - ٣٠ ٪ من عدد المهاجرين الشرعيين. وبالتالى فى حالتنا هذه يكون عدد غير الشرعيين حوالى ٥٤,٠٠٠ (٣٠٪)، فيصبح لدينا حوالى ٢٣٤,٠٠٠ مهاجر قانونى وغير قانونى فى إسبانيا. ولكن يجب التنويه إلى أن الرقم المذكور لايمثل بالضبط عدد المهاجرين المسلمين، بل عدد القادمين من بلاد إسلامية أو ذات غالبية إسلامية، إذ يضم الرقم المذكور عددا من غير المسلمين، بيد أنه فى الغالب عدد ضئيل نسبياً بين ٣٪ و ٥٪ (بين ٧,٠٢٠ و ١١,٧٠٠).

المسلمون المتجنسون (البلديون)

هم جماعة المهاجرين المسلمين الذين تجنّسوا بالجنسية الإسبانية، فاصبحوا من أهل «البلد»، أى «بلديين» فى الاصطلاح الأندلسى. بدأت نواة هذه الجماعة فى التكوين فى أواخر الخمسينيات وخلال الستينيات من القرن العشرين باستقرار أعداد محدودة من بلاد عربية ذات علاقة طيبة بنظام الجنرال فرانكو، أغلبهم من الطلاب السوريين واللبنانيين والأردنيين والفلسطينيين، ثم نالوا الجنسية الإسبانية. وإلى هؤلاء يجب إضافة الرعايا المغاربة، سكان مدينتى سبتة ومليلة، الذين حصلوا على الجنسية الإسبانية. ومن جُماع هاتين المجموعتين تشكلت نواة الأقلية المسلمة الإسبانية المعاصرة، لكن دون اعتراف قانونى بوضعيتها الدينية، وذلك بحكم طبيعة النظام السياسى القائم حينئذ المناهض للتعددية السياسية والدينية.

بتكاثف واستمرار تيار الهجرة، أخذ عدد الأقلية المسلمة المتجنِّسة (البلدية) فى التزايد حتى بلغ فى عام ١٩٩٠م حوالى ٢٣,١٣١، وهو رقم تقديرى محسوب على أساس أن نسبة المسلمين تصل إلى ٩٤,٥٪ من عدد المتجنسين من إفريقيا وآسيا، وهو ٢٤,٤٧٨ حسب البيانات الرسمية. وبإضافة حوالى عشرة آلاف متجنس فى حقبة التسعينيات، يمكننا القول إن عدد المسلمين المتجنسين أو «البلديين» فى إسبانيا يصل على وجه التقريب إلى ٣٣ ألفاً.

المسلمون الجدد (الأسالمة)

هم جماعة الإسبان الذين تركوا الكاثوليكية واعتنقوا الإسلام فى الربع الأخير من القرن العشرين. ولا يوجد إحصاء رسمى أو تعداد دقيق لهذه الجماعة، وإن تحصيهم دراسات صحفية بحوالى خمسة آلاف شخص. والغالبية العظمى من هذه الجماعة من سكان مقاطعة أندلوثيا، وهى تشمل مساحات كبيرة من الأندلس التاريخية مثل: إشبيلية وقرطبة وغرناطة وجيان والمرية ومالقة وقادش وولبة هؤلاء «الأسالمة»، إن جاز اقتباس هذا المصطلح الأندلسى، يتميزون بالنشاط السياسى والاجتماعى والدينى من خلال إنشائهم للعديد من الجمعيات، مثل: «الجماعة الإسلامية الأندلس» (إشبيلية ١٩٨٠)، و«جمعية التحرير الأندلوثية» (إشبيلية ١٩٨٦)، و«جبهة التحرير الأندلوثية» (١٩٨٩)، و«الجماعة الإسلامية بإشبيلية - الأمة» (١٩٨٢)، و«الجمعية المسلمة المستقلة بقرطبة» (١٩٨١)، و«حركة المسلمين الأوروبيين - المرابطون»،

فى الفضـــــاء الأوروبـــى



و«الجماعة الإسلامية بإسبانيا» (غرناطة). وغالبية هذه الجمعيات تؤكد على الانتماء إلى الإسلام كدين وإلى الأندلس كوطن.

أسأسة وتقنين الوجود الإسلامي

في ٢٣ أبريل سنة ١٩٧١ أسست في مدريد «الجمعية المسلمة بإسبانيا»، وهي أول جمعية إسلامية ذات صفة جامعة تتوجه بنشاطها إلى سائر المسلمين بإسبانيا، مختلفة بذلك عن جمعيتين أخريين ذاتي طابع محلي. الأولى سابقة على جمعية مدريد وهي «الجمعية المسلمة بمليلة» في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٦٨، والثانية لاحقة وهي «الزاوية المحمدية المسلمة بسبتة» في ٩ أكتوبر سنة ١٩٧١. وجدير بالذكر أن «الجمعية المسلمة» بمدريد كانت أول هيئة إسلامية تنجح في تأسيس أول مسجد جامع في العاصمة الإسبانية. وقد ظل هذا الجامع لسنوات عديدة المسجد الجامع الوحيد في مدريد حتى سنة ١٩٩٢، وهو العام الذي شهد افتتاح المسجد الجامع التابع للمركز الإسلامي بمدريد الذي أنشأه الملك فهد بن عبد العزيز.



مع هذا فحتى ذلك الوقت لم يكن للمسلمين بإسبانيا وضعية قانونية خاصة بهم تحدد حقوقهم وعلاقتهم بأجهزة الدولة. بيد أن التغيير الديموقراطي الذي حدث في إسبانيا بعد موت الجنرال فرانكو في نوفمبر سنة ١٩٧٥ أدى إلى تغيير إيجابي في أحوال المسلمين. كانت أول درجات التغيير صدور دستور ١٩٧٨، الذي ينصّ في مادته السادسة عشرة على ضمان «الحرية الدينية وحرية العبادة للأفراد والجماعات»، ثم تلى ذلك صدور القانون المنظم للأديان سنة ١٩٨٠. وفي ١٤ يوليه سنة ١٩٨٩ أفتت اللجنة الاستشارية للحرية الدينية التابعة لوزارة العدل بأن الإسلام «دين متأصل الجذور» في التراب الإسباني. ومن أجل متابعة خطوات المفاوضات مع ممثلي الإسلام، أخذت الهيئات الإسلامية الإسبانية في توحيد صفوفها في مجموعتين، الأولى: «الفيدرالية الإسبانية للهيئات الدينية الإسلامية» (FEERI في ١٧ سبتمبر من سنة ١٩٨٩، والثانية: «اتحاد الجماعات الإسلامية بإسبانيا» (UCIE في ١٠ أبريل سنة ١٩٩١، ثم بعد مرور عام، وفي أبريل سنة ١٩٩٢ دخلت المجموعتان في فيدرالية واحدة باسم «اللجنة الإسلامية بإسبانيا»، والتي معها وقّعت الحكومة الإسبانية «اتفاق التعاون مع الدولة» في ٢٨ أبريل سنة ١٩٩٢، والذي بمقتضاه تم الاعتراف بالإسلام كدين رسمي من أديان الدولة وتحديد الوضعية القانونية للمسلمين وحقوقهم بالدولة الإسبانية.

المعضلة السوسيوثقافية.

يواجه المهاجرون المسلمون في إسبانيا مشاكل كثيرة، وهي تتشابه في خطوطها العامة مع تلك التي يتعرض لها المهاجر المسلم في دول الاتحاد الأوروبي. من هذه المشاكل فيما يخص إسبانيا: تعلّم اللغة الإسبانية، والحصول على عمل، وإيجاد مسكن ومدارس للأولاد، إلى جانب الصعوبات الرسمية مثل تصريح العمل وتصريح الإقامة، وما إلى ذلك. هذه المشاكل على ثقلها وما تسببه من صداع، فإنها ذات طابع إجرائي ووقتي، بمعنى أنها تجد طريقها إلى الحل بمرور الوقت وتطور الظروف واكتساب المهاجر الخبرة اللازمة للتعامل مع هذه الصعوبات. بيد أن الصعوبة الحقيقية عميقة الأبعاد، والتي تستغرق وقتاً طويلاً، ربما تمتد إلى أجيال، حتى تلقى الحل المناسب، إنما تكمن في التحدي السوسيوثقافي، والذي يتمحور في علاقة المهاجر المسلم بالمجتمع المستقبل (بكسر الباء).

فالمهاجر المسلم ينتمي إلى عرق مختلف، ولغة وديانة أخريين، وثقافة متباينة، هي بُنى تشكل ماهية المهاجر وتطبعه بطابع خاص، تعطيه رؤية مائزة للحياة، وفكر خاص، وسلوك معين، بل وطريقة لصيقة به في الأكل والشراب واللّباس والتعبير. كل هذا يجعل من المهاجر المسلم عنصراً بشرياً مختلفاً، مُشكلًا مع أقرانه جماعة سوسيوثقافية مختلفة عن المجتمع الذي هاجر إليه. وذلك بدوره له بُناه الخاصة، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ويؤدي اللقاء ـ أو قل إن شئت الصدام ـ بين الطرفين إلى معضلة سوسيوثقافية ذات طابع جدلي، قطباها «الأنا» و«الآخر» على مستويين متبادلين.

المجتمع المستقبل / الجماعة المهاجرة (= «الآخر» الأجنبي)

أنوية المجتمع المستقبل واعية بتفوقها وثقلها وقوتها وتحضرها وغناها، ومدركة لدونية «الآخر» الأجنبي (القادم من العالم الثالث) وضآلته وضعفه وتخلفه وفقره. ومن هنا تولد الأفكار النمطية العامة التي تحكم عقلية المجتمع وتملي عليه سلوكياته في أغلب الأحيان. من تلك الأفكار أن المهاجر فرد محتاج إلى المساعدة والحماية والرعاية الاجتماعية، ورغم العطف الإنساني الظاهر في هذه الفكرة، فإن باطنها يعني في الحقيقة أن المهاجر ليس مواطناً يتمتع بحقوق المواطنة التي يأتي في أولها الحق في تغطية احتياجاته الأساسية، بل إنسان يستحق الصدقة والإحسان. وثمة فكرة أخرى عملية مؤداها أن المهاجر «ضيف» يؤدي عملاً، وبالتالي له الحق في التمتع بمزايا معينة، ولكن لا يجب أن يتجاوز هذا الدور، وإذا حدث هذا وسبّب مشاكل من نوع ما، فإن جزاءه «الحرمان» من هذه المزايا. وكما أن «الأنا» تعني بانتمائها إلى «السُرّة» الأوروبية: عنصراً وديناً وحضارةً وثقافةً، فإنها ترى «الآخر» منتمياً إلى جنس أو أجناس مغايرة ومتخلّفة، وإن وجوده مدعاة لانتقال عاداته المتخلفة وقيمه الفاسدة، ومجلبة لفساد الإشراق الأوروبي وتلوث البهاء الغربي.



زيادة على ما سبق، يعاني المهاجر المسلم، أو بالأحرى المهاجر المسلم العربي، من فكرة نمطية تحكم المجتمع الإسباني وتحدد علاقته، وهي ليست فقط الكراهية الأوروبية التقليدية للمسلم، ولكنها أيضا العداوة التاريخية المستحكمة للمسلم العربي، عداوة يتعلمها الإسباني منذ طفولته في المدرسة، فهو يدرس أن المورو (Los Moros)، أي المسلمين، احتلوا بلده قرابة قرون ثمانية، مما تسبب في حرب طويلة المدى لاسترداد الوطن والشرف السليبين عرفت بحرب الاسترداد (لا ريكونكستا La (Reconquista) والتي انتهت بانتصار الكاثوليكية بسقوط مملكة غرناطة سنة ٨٩٧هـ (= ١٤٩٢م)، ثم بطرد الموريسكيين (المسلمين المتنصرين) سنة ١٦١٤م. خلال كل هذا الوقت تربّت الأنا على أحادية: الإسباني / الكاثوليكي المنتصر وعلى كراهية «الآخر» (المسلم) المهزوم. ولهذا ليس بمستغرب أن يحتل العرب والمسلمون دائما في استطلاعات الرأي الإسبانية الموقع الثاني في الرفض والكراهية بعد الغجر.

كما تسود هذه الأفكار النمطية العامة المجتمع الإسباني، فإنها أيضا تحكم سلوك الفرد الإسباني العادي تجاه مهاجر العالم الثالث بوجه عام والمسلم بوجه خاص. وهو سلوك يتسم لحد كبير بالرفض، ويتراوح في حده الأدنى بين الرفض الصامت المتوجّس، وحده الأقصى المتمثل في السلوكيات العنصرية المتطرفة مثل القتل والضرب البدني والطرد، وهي ـ حمداً لله ـ أفعال محدودة، مرورا بالسلوكيات العنصرية النمطية مثل رفض تأجير المساكن للمهاجرين أو تأجيرها بأسعار مبالغ فيها، والتمييز العنصري في الأماكن العامة، وغير ذلك من أشكال الرفض العنصري والثقافي.

وإلى جانب ذلك توجد أفكار إيجابية تتردد بين فريق من الإسبان المستنيرين، من ذلك أن المهاجر عنصراً إيجابياً، فهو بعمله وثقافته يساهم في بناء وتقدم وثراء المجتمع مادياً وثقافياً. وأن قبول المهاجر هو الاختبار الحقيقي للتعددية، لأنها في جوهرها قبول «الآخر» المختلف سياسياً أو اجتماعياً أو فكرياً أو ثقافياً أو دينًيا، واحترام الأقلية، وإيمان بحق الاختلاف وقيمة التسامح، وذلك في ظل مجتمع مدني شامل للجميع ومن أجل الكل. ولهذا يرى هذا الفريق أن «الاندماج» الاجتماعي الذي تنادي به الدولة الإسبانية لا يجب أن يكون جهداً أحادياً من طرف الجماعة المهاجرة بحيث تقوم بنبذ عاداتها وقيمها وهويتها ليتحقق «الاندماج» المنشود حسبما يرى الفريق المحافظ. فهذه عملية «دمج» في رأي المستنيرين؛ لأن «الاندماج» الصحيح عملية متبادلة بين المجتمع المستقبل والجماعة المهاجرة، وأن الاتصال بين ثقافتين يقتضي المكسب والخسارة، ويكون اتصالاً ناجحاً لو توزّع المكسب والخسارة بين الجماعتين.

ولتحقيق هذا «الاندماج» الإيجابي يطالب هذا الفريق المستنير، بالتعاون مع الهيئات الإسلامية الإسبانية، بالبدء في المجال التربوي بإدخال اللغة العربية كلغة ثانية اختيارية، وإدخال مواد عن الثقافة والحضارة الإسلامية في مناهج العلوم الاجتماعية، وإضفاء النظرة الموضوعية على المواد الدراسية التي تتناول التاريخ والحضارة الإسلامية. وقد بدأ هذا الاتجاه المستنير يحقق بعض التقدم، فعلى سبيل المثال تُراعى الثقافة الإسلامية في قوائم الطعام في كثير من المطاعم المدرسية، ويُظهر بعض أعضاء هيئات التدريس في عدد من المدارس الاحترام لبعض فروض الإسلام مثل الصيام ويحتفون بالطالب الصائم، كما يقدمون التهاني بالعيدَين للطلاب المسلمين.

وجدير بالذكر أن هذا الاتجاه المستنير ينبه إلى أن عدم تحقيق مثل هذا «الاندماج» الإيجابي يؤدي إلى تهميش وإقصاء الجماعة المهاجرة المسلمة مما يجعلها مرتعا للأفكار المتطرفة والسلوك العدواني المضاد، وهذا مآله بطبيعة الحال إلى حدوث توترات اجتماعية ذات أبعاد أمنية خطيرة، وهو ما جرى بالفعل في أحداث إل إخيدو (El Egido) إحدى مدن محافظة المرية، في فبراير سنة ٢٠٠٠.

الجماعة المهاجرة / المجتمع المستقبل (= «الآخر» المهيمن)

الجماعة المهاجرة أقلية ضئيلة العدد لاتسعى إلى فرض ثقافتها على الأغلبية الساحقة (الآخر)، على العكس، إنها ـ أي الأقلية ـ تسعى في عمومها، باستثناء أعداد

مشاكل المسلمين

يعاني المهاجر المسلم، أو بالأحرى المهاجر المسلم العربي، من فكرة نمطية تحكم المجتمع الإسباني وتحدد علاقته، وهي ليست فقط الكراهية الأوروبية التقليدية للمسلم، ولكنها أيضا العداوة التاريخية المستحكمة للمسلم العربي، عداوة يتعلمها الإسباني منذ طفولته في المدرسة

قليلة، إلى «الاندماج» في المجتمع. وفي نظر الدارسين الاجتماعيين أن الأسرة في الجماعة المهاجرة تمثل العنصر الأساس في الاتصال بالمجتمع الجديد؛ لأنها ــ وليس الفرد ــ أكثر احتفاظاً بقيم وعادات المجتمع الأصلي. كما أنهم يرون أن «الاندماج» متعدد الأشكال، ومتشابك الحدود، ولكن على أي الأحوال يمكن التمييز بين ثلاثة أشكال من «الاندماج»: الجزئي والجذري والمتوازن.

«للاندماج» الجزئي وجهان، الأوّل يحدث خارج البيت؛ حيث يقتصر اتصال أعضاء الأسرة المهاجرة المسلمة بالمجتمع الإسباني على مجالات العمل والبيع والشراء والمدرسة، فما أن ينتهي العمل وتغلق المدرسة أبوابها ويعود الجميع إلى البيت، حتى تستأنف الأسرة حياتها كما لو كانت تعيش في بلدها الأصلي. المغاربة، على سبيل المثال، «يهدرون» بالعامية المغربية أو الشلحة البربرية، يقرأون باللغة العربية، يأكلون «الكسكسي» أو «الحريرة»، يسمعون موسيقاهم وأغانيهم، يتبعون بشكل عام نمط حياتهم الخاص بكل ما يتضمنه من عادات وتقاليد وقيم وسلوكيات. وعلاقاتهم الاجتماعية تكاد تقتصر على أقربائهم وأهل بلدهم. ومع ذلك فثمة عنصران غريبان داخل البيت، ولا فكاك منهما. أولهما: الكتاب المدرسي الإسباني وما يتعلمه الأطفال المهاجرون في المدرسة، وثانيهما: التلفزة وما تحمله من لغة وقيم وعادات جديدة. وهذان العنصران بمرور الوقت يؤثّران تأثيراً كبيراً في الأسرة خاصة الأبناء الذين يأخذون في تقليد وتبنّي نمط الحياة الإسباني. وهنا إما أن يواجهون برفض الآباء وتستمر الأسرة في مواصلة حياتها بنفس الطريقة المذكورة مع ما يؤدي إليه ذلك من مشاكل بين الأبناء والآباء. وإما أن يقبل الآباء فيما يمكن تسميته بالوجه الثاني من «الاندماج» الجزئي.

القبول مع ذلك ليس مطلقاً، فالآباء يضعون خطوطاً حمراء على قواعد سلوك الأبناء ولا يسمح لهم بتجاوزها، فعلى سبيل المثال يسمح الآباء لأبنائهم بعمل ما يروق لهم خارج البيت أو لا يجبرونهم على أداء الفروض الدينية مثل الصلاة والصوم، وهو ما يطلق عليه «التسامح السلبي»، لأن الأب في داخله غير موافق على السلوكيات الجديدة لأبنائه ويظلّ هو وفيّا لنمط حياته الأصلي وثقافته ودينه.

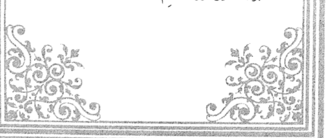


مع هذا، فهؤلاء الأبناء المتأسبنون هم مثار انتقاد أبناء بلدهم من جهة، ومن جهة ثانية، لا يصبحون أقل «أجنبية» في أعين الإسبان ولا يحوزون على كامل رضاهم، ومن جهة ثالثة، قد يؤدي هذا الشكل من «الاندماج» الجزئي إلى صراع عائلي بسبب الحدود المفروضة، فما دام قد سمح للأبناء بأشياء فلماذا لا يسمح لهم بأشياء أخرى؟ وهذا يفضي إلى صراعات نفسية، وتبقى معضلة «الاندماج» دون حلّ.

وقد يكون الحل في «الاندماج» الجذري، وهو يقوم على البحث على القبول في المجتمع الإسباني وحيازة رضاه مهما كان الثمن، لهذا تكون الوسيلة الوحيدة هي نبذ الهوية الثقافية الخاصة: اللغة والدين وقواعد السلوك والعادات والتقاليد، والتبنّي الكامل للهوية الثقافية الإسبانية، أو في عبارة واحدة استبدال «الآخر» بالأنا، بقصد الرغبة العارمة في أن يكونوا إسباناً وليسوا «أجانب». والمتبنون لهذا النموذج، بطبيعة الحال، يقطعون صلاتهم بأبناء جلدتهم المهاجرين وبعوائلهم في بلدهم الأصلي، وهم بالفعل قد يحققون «الاندماج» المنشود ولكن على مذبح القطيعة الثقافية مع أصولهم، ويصبحون على مدى جيل أو جيلين «أنوات» شائهة كاذبة وذوات منبتّة الجذور.

أما «الاندماج» المتوازن، فإنه يقوم على تحقيق توازن سوسيوثقافي بين الثقافتين: الأصلية والجديدة، والجماعتين: المهاجرة والمستقبلة، وإنجاز نوع من التماهي المحسوب بين أسلوبين للحياة. وهذا الأمر يتطلب مرونة في الفهم وكياسة في السلوك، كما أنه يقتضي النظر إلى ما يوحّد وليس إلى ما يفرّق، ويلزم البحث عن جوهر الأشياء لا مظاهرها. فعلى سبيل المثال يؤخذ بالجمع بين الديانتين: الإسلام والمسيحية مثل الإيمان بالله والقيم الإنسانية كحب الآخر والتسامح وغير ذلك من فضائل.

ومع ذلك يظل «الاندماج» بكل أشكاله المذكورة عملية سوسيوثقافية قاصرة ناقصة، وغير ناضجة، وذات بعد فردي؛ لأنها بمثابة ردود أفعال للجماعة المهاجرة المسلمة في مقابل ضغوط «الآخر» المهيمن عدديّا وثقافيّا واقتصاديّا. ولهذا لن يتحقق «الاندماج» الصحيح والصحي، الكامل والناضج، إلاّ إذا أصبح سياسة قومية تتبناها الدولة ويؤمن بها المجتمع الإسباني والجماعة المهاجرة المسلمة معاً، مسترشدين بآراء المستنيرين سابقة الذكر أعلاه. ولعل هذا ما نأمل أن نراه قريباً ممثلاً في الجيل الثاني من المهاجرين، والذي يحدونا الأمل أن يكون بمثابة جيل «المولّدين» الجدد حسب المصطلح الأندلسي بمعناه السوسيوثقافي، أي العنصر البشري الجديد الحامل لثقافتين صديقتين، والممثل لتعددية إيجابية، والرامز لتسامح إنساني حقيقي، والمجدّد لحضارة الأندلس الزاهرة. ■





رياض الصالحين

الإمام أبو زكريا النووي

محيي الدين أبوزكريا يحيى بن شرف الحوراني الشافعي (٦٣١ - ٦٧٦هـ) (١٢٣٤ - ١٢٧٨م). كان إماماً بارعاً حافظاً أمّاراً بالمعروف وناهياً عن المنكر تاركاً للملذات ولم يتزوج. أتقن علوماً شتى. وَلِي مشيخة دار الحديث الأشرفية. أفردت ترجمته في رسائل عديدة، وقد عدد ابن العطار - أحد تلامذته - تصانيفه واستوعبها ومن هذه التصانيف: تهذيب الأسماء واللغات، والمنهاج في شرح مسلم، التقريب والتيسير في مصطلح الحديث والأربعون النووية ومختصر أسد الغابة في معرفة الصحابة، وهو كتاب جامع ومشهور.

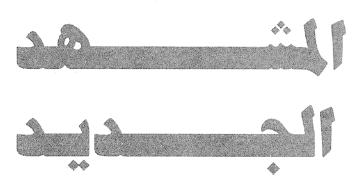
باب استحباب طيب الكلام وطلاقة الوجه عند اللقاء:

قال اللّه تعالى (الحجر ٨٨): ﴿ واخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقال تعالى (آل عمران ١٥٩): ﴿ ولَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾.

وعن عدى بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال، قال رَسُول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» مُتَّفَقٌ عَلَيه.

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال، قال لي رَسُول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم: «لا تحقِّرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق» رَوَاهُ مُسلِمٌ.



محمود عبد الفضيل

مطلوب إعمال «العقل الاستراتيجي» الأمريكي المستنير، وليس الاحتكام إلى مجرد القوة والعضلات. فعندما يكون «الجسد» أكبر من «العقل» تحدث كوارث كثيرة

[١]

يكاد يتفق معظم المحللين على أن القرن الجديد (الحادى والعشرين) قد بدأ حكماً يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بمعنى أننا بدأنا نشهد منذ ذلك التاريخ بداية لمقومات عالم جديد يزخر بنسيج جديد من التناقضات والصراعات. ولعل أحداث نيويورك وواشنطن، التى جرت فى عقر دار أكبر قوة عظمى تشير إلى بداية خلل كبير فى التوازنات والمعادلات الأساسية التى حكمت العالم منذ انفراد الولايات المتحدة بقيادة النظام العالمى الجديد، غداة انهيار الاتحاد السوفيتى وحائط برلين.

وبهذا الصدد، يشير «توماس فريدمان» - المحلل السياسى الذى يعكس رؤية دوائر المال وصنع القرار فى الولايات المتحدة - إلى أن ما نشهده منذ «الحادى عشر من سبتمبر» هو بداية «حرب عالمية ثالثة»، تجرى إدارتها، من الطرفين، بأشكال وأدوات جديدة غير معهودة من قبل. ويضيف أن الضربة التى حدثت فى «الحادى عشر من سبتمبر» كانت موجهة فى الأساس إلى هيبة أمريكا «القوة العظمى». إذ يشكل مركز «التجارة العالمى» الرمز الرئيسى لاقتصاد السوق والليبرالية وعصب نشاط الرأسمالية الأمريكية، من ناحية، كما يمثل البنتاجون رمز تفوق العسكرية الأمريكية، من ناحية أخرى.

ويستطرد «فريدمان» قائلاً: «إذا كانت هذه هى الطلقة الأولى فى الحرب العالمية الثالثة، فربما تكون الأخيرة من حيث استخدامها للأسلحة التقليدية (وليس الأسلحة النووية)».

إذن هى حرب من نوع جديد تقع فى مساحة وسيطة ما بين الحرب «الباردة» و الحرب «الساخنة»، ويُستخدم فيها «الذكاء» و«الذكاء المضاد»، والتكنولوجيا الأمريكية المتطورة والتكنولوجيا المضادة المبتكرة. ذلك أن ثورة التكنولوجيا الحديثة فى مجال المعلومات والاتصالات قامت بفتوح هامة دخلت إلى كافة الساحات، بما فى ذلك عالم «التمرد»، الذى استفاد هو الآخر من خلال «المنظومات الشبكية» التى تصل بين «الكتل المتمردة» عبر الأوطان والقارات وتجمع المطحونين والناقمين والساخطين والتائهين (راجع: مقال محمد حسنين هيكل، مجلة وجهات نظر، العدد ٣٣، أكتوبر ٢٠٠١، ص٧).

ويشير الأستاذ «محمد حسنين هيكل» فى مقاله الهام المنشور إلى أن تقارير أمريكية تحدثت عن ضرورة التحوط ضد بدايات نوع جديد من الحرب، أطلق عليها «الحرب غير المتماثلة». (Asymmetrical War) تلك الحروب التى سوف يستخدم فيها وسائل مستحدثة وتكتيكات غير تقليدية مبتكرة، تخرج تماماً عن «دائرة المعهود»، بدءاً من الاستراتيجية - إلى التخطيط - إلى العمليات. وبأساليب تفوق ما تزخر به أعمال «الخيال العلمى» (Science fiction) بمعنى أنه أصبح ممكناً ما كان يعتبر إلى عهد قريب من المستحيلات أو ضرباً من الجنون!

ولعل أهم ما يميز هذا النوع من الحروب، هو أن الذين يشنون هذا النوع من الحرب مستعدون لأعلى درجة من المخاطرة «لأن الخسارة بالنسبة إليهم فى الحالتين واحدة. وبالتالى فإن أعلى المخاطر تتساوى عندهم مع أقلها». (هيكل: ص ٨).

ويشير «ألفريد توفلر» فى مؤلفه الهام The Power Shift (1990)، إلى أن هناك مصادر ثلاثة للتغير فى السلطة، هى:

١ - العنف المسلح: وفقاً للمقولة الشهيرة أن «السلطة تنبع من فوهة البندقية»، بدءاً من الكاوبوى (رعاة البقر فى أمريكا) وانتهاء بأعلى أنواع «العنف» التى عرفتها «الحروب» و«الثروات».

٢ - المال: حيث إن سطوة المال تنتج فى شراء النفوذ والمواقع.

٣ - المعرفة: لأن «المعرفة هى ذاتها سلطة»، وفقاً لمقولة شهيرة للعالم الكبير «فرانسيس بيكون».

ولكى تنتصر «المعرفة» لابد لها أن تتحالف مع «العنف» أو «المال»، أو كليهما. إذ إن هناك علاقات «تغذية عكسية» بين العناصر الثلاثة. بيد أن ارتفاع مكون «المعرفة والمعلومات» فى خطط قوى التمرد الجديدة، يعتبر عنصراً جديداً هاماً وفاعلاً، يضاف إلى ذلك عنصر «الاستشهاد» أو «الانتحار». وعندئذ تصبح المعادلة الجديدة:

[المعرفة والتكنولوجيا العالية + العنف المسلح + الاستعداد للاستشهاد (أو الانتحار)] معادلة جديدة صعبة الكسر.

وهكذا سوف نجد تدريجياً أن «طلقات الذكاء التكنولوجى» تحل تدريجياً محل «طلقات الرصاص والمدافع والصواريخ». فالأسلحة الجديدة، وفقاً للمعادلة السابقة، هى أخف حملاً وأسهل فى المناورة والتمويه والتكتيك، وأكثر قدرة على المباغتة. ولذا فقد تكون أكثر فاعلية من «قوة النيران التقليدية» المنطلقة من فوهات المدافع وقاذفات القنابل.

ولا غرو أن إحدى جلسات «مؤتمر دافوس»، منذ عامين، كان عنوانها: «طلقات الرصاص» (Bullets) مقابل «طلقات المعلوماتية» و«البرمجيات» (Bites).

[٢]

يشير «ويليام بيرى» فى مؤلفه الهام: «الدفاع الوقائى: استراتيجية أمريكية جديدة للأمن» (١٩٩٩) إلى أن «الإرهاب» تحول بصورة مطردة إلى شاغل رئيسى من شواغل الأمن فى الولايات المتحدة. وهذا الكتاب له أهمية بالغة لأنه يعرض للمعالم العامة لاستراتيجية دفاعية وقائية جديدة ترمى إلى تحديد مخاطر «ما بعد الحرب الباردة»، التى قد تتحول إلى تهديدات واسعة للأمن الأمريكى، وكذا وسائل تجنبها فى القرن الحادى والعشرين. ولعل أهم ما يتعرض له الكتاب:

أ - كيفية السيطرة على التركة النووية للكتلة الاشتراكية السابقة.

ب - وسائل الحيلولة دون نمو الصين فى اتجاه العداء بدلاً من التعاون.

ج - الطريقة المثلى لمنع انتشار وسائل الدمار الشامل.

د - التصدى لأعمال «الإرهاب المدمر».

ومؤلفا الكتاب هما «ويليام بيرى»، وزير الدفاع الأمريكى الأسبق، وأستاذ بكلية الهندسة بجامعة ستانفورد وزميل بمعهد الدراسات الدولية بها، و«أشترون كارتر» مساعد وزير الدفاع الأسبق لسياسات الأمن الدولى، وأستاذ

الدفاع الوقائى: استراتيجية أمريكية جديدة للأمن
تأليف: ويليام بيرى
ترجمة: أسعد حليم
القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر ٢٠٠١

ومدير سابق لمركز العلوم والشئون الدولية بمدرسة جون كيندى بجامعة هارفرد. وقد ألفا عدداً كبيراً من الكتب، وهما يشتركان فى إدارة «مشروع ستانفورد ـ هارفرد للدفاع الوقائى».

ويرجع المؤلفان بداية الاهتمام الجاد بما يسمى «الإرهاب المدمر» إلى يوم ٢٦ يونية ١٩٩٦، حين قامت مجموعة إرهابية بتفجير سيارة كبيرة الحجم على بعد بضع مئات الأقدام من ثكنات أبراج الخُبر فى المقاطعة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، التى كان يقيم بها رجال الطيران الأمريكى الذين يقومون بتنفيذ منطقة حظر الطيران فى جنوبى العراق. وقد قتل فى هذا الهجوم ١٩ عسكرياً أمريكياً (ص ١٣٧ من الترجمة العربية).



ويشير «ويليام بيرى» فى مؤلفه الصادر فى نهاية التسعينيات: (إذا كانت استراتيجية الإرهابيين هى القيام بهجمات تزداد خطورة باستمرار، فإن الهجمات المقبلة يمكن أن تكون أشد خطورة لو تمكن الإرهابيون من الحصول على «غاز الأعصاب» أو «ميكروب الجمرة الخبيثة» أو على «سلاح نووى»). (ص ١٣٧ - ص١٣٨ من الترجمة العربية).

ويضيف فى موقع آخر إلى أن هناك مكامن للخطر من داخل الولايات المتحدة، إذ يقول: «كما أن «الميليشيات» الأمريكية وغيرها من الجماعات «المجاهدة» قد تطمح إلى استخدام العنف على نطاق واسع. وفى نفس الوقت أخذت أدوات الدمار الشامل تسقط تدريجياً فى يد جماعات أصغر فأصغر، مما جعل رصدها أصعب فأصعب» (ص ١٣٨، من الترجمة العربية).

وفى محاولة هامة للاقتراب من جوهر القضية، يقول «ويليام بيرى» إن: «الإرهاب المدمر يختلف عن تفجير القنابل، وأخذ الرهائن، واختطاف الطائرات. فهذا «الإرهاب الجديد» ينقل إلى مستوى مرتفع، درجة التدمير الناشئة عن تفجيرات أوكلاهوما سيتى، أو تفجيرات مركز التجارة العالمى (عام ١٩٩٣)، أو ما فعلته فئة «أوم شينريكيو» التى نشرت «غاز الأعصاب» فى مترو طوكيو، أو الهجوم على «أبراج الخُبر» التى كان يقيم بها الطيارون الأمريكيون فى المملكة العربية السعودية. فالإرهاب المدمر ينطوى على إتلاف للأرواح والممتلكات لأحجام أشد قسوة لم تعرف من قبل خارج نطاق العمليات الحربية» (ص ١٤٢ من الترجمة العربية).

ويكاد يتنبأ «ويليام بيرى» بما حدث يوم «الحادى عشر» من سبتمبر عام ٢٠٠١، إذ يقول: «نحن لا نعرف أين سيقع الهجوم الأول من هذا النوع فوق الأراضى الأمريكية، ولا نعرف متى يقع؟ ولكن ما نعرفه هو أننا نريد أن نصيب هذه المحاولة بالفشل، إذا أمكن، وإذا لم نتمكن من ذلك نريد أن تكون الخسائر فى الأرواح الناتجة عن الهجوم أقل ما يمكن». (ص ١٤١ من الترجمة العربية).

ويعترف «بيرى»، فى موقع آخر، أن «مرتكبى الأحداث يمكن أن يكونوا أمريكيين أو أجانب، يعملون فى نطاق الولاية أو النطاق المحلى، أو أن يكونوا مزيجاً معقداً من هؤلاء وهؤلاء. وقد تكون الدوافع داخلية أو دولية، أو كليهما فى وقت واحد. ولذا فإن هذا الخطر له طابع عابر للقوميات حقاً، وذلك عنصر آخر يجعل الإرهاب المدمر شكلاً جديداً ومختلفاً من أشكال مخاطر الأمن القومية والدولية» (ص ١٤٣ من الترجمة العربية).

وتصل النبوءة إلى كامل مداها، عندما يقول «وليم بيرى» بالحرف الواحد: «وكما حدث فى حالة الهجوم على «بيرل هاربر»، فإن حادثة من أحداث الإرهاب المدمر سوف تفصل بين ماضينا ومستقبلنا حيث نقول «قبل» و«بعد». والجهد والموارد التى خصصناها حتى الآن لتجنب هذا الخطر أو احتوائه فى الوقت الحالى، فى فترة «ما قبل» لن تكون كافية على الإطلاق عندما ننظر إليها بعد وقوع حادثة من حوادث الإرهاب المدمر!» (ص ١٤٤ من الترجمة العربية).

ويوصى «بيرى» ببذل جهد متزايد لمقاومة أساليب «الإرهاب المدمر»، على غرار ما جرى فى سنوات الخمسينيات، عندما أنشئت مؤسسات مثل راند (Rand corporation) للتعامل مع القضايا الفكرية التى أثارها الخطر الجديد المتمثل فى تصاعد القوة العسكرية السوفيتية وما رافقها من انفجار فى التكنولوجيا العسكرية الجديدة (ص١٤٦ من الترجمة العربية).

ولكن مما يزيد من صعوبة الأمر وتعقيد الموقف فى حالة ما يسميه «الإرهاب المدمر»، هو أن «مهمة المخابرات المناظرة بشأن الإرهاب المدمر تزداد صعوبة بسبب احتمال مشاركة عناصر ليست دولاً (بما فى ذلك عناصر داخلية) وصنع أسلحة بصورة مستترة، ونشر الأسلحة بصورة غير تقليدية. إذ إنه فى الهجمات الحديثة يجرى نقل الأسلحة وإطلاقها بوسائل إلكترونية بالكامل، مما يزيد من صعوبة مهمتى جمع المعلومات والإنذار» (ص ١٥٠ من الترجمة العربية).

ففى عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات كانت وزارة الدفاع الأمريكية هى الداعم الرئيسى للبحوث والتنمية لصناعات الكمبيوتر، والاتصالات وأشباه الموصِّلات. بل إن بعض أهم أشكال التفوق التقنى الرئيسية فى هذه المجالات تم تطويرها أولاً من أجل المنظومات العسكرية: أجهزة الكمبيوتر فائقة السرعة، والأقمار الصناعية ذات الوضع الثابت بالنسبة للأرض، وشبكات الكمبيوتر، والدوائر المتكاملة، تم تطويرها كلها أولاً من أجل البرامج العسكرية. ولذا فإن جانباً كبيراً من تطور وتوسع الصناعة التجارية فى الولايات المتحدة كان يركب على أكتاف وزارة الدفاع (ص ١٨١ من الترجمة العربية).

كما يفصح «ويليام بيرى» عن تشكيل ما يسمى «القوة ٢١»، التى تعمل فى مجال المعارك الرقمية (Digital Battles) فى القرن الحادى والعشرين.

[٣]

يرى «ويليام بيرى» أن الرد على هذا الخطر الجديد والمفزع الذى يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية، يضع صانع القرار الأمريكى فى مأزق؛ إذ كيف يمكن مقاومة هذا الخطر، دون المساس «بالحقوق المدنية» التى أقرها فى البداية «قانون الحقوق» Bill of Rights، التى تأكدت واتسع نطاقها على امتداد أكثر من قرنين من الزمان. إذ «لا يجوز لنا أن نسمح لتكنولوجيا التدمير أن تقضى عليها» (ص ١٤١ من الترجمة العربية).

وتلك نقطة هامة تشير إلى طبيعة الأزمة الراهنة التى يعيشها «صانع القرار» فى الولايات المتحدة، حول التناقض القائم بين التوسع فى إجراءات مقاومة الإرهاب، من ناحية، ومحاولة الحفاظ فى نفس الوقت على التوازن الأمريكى التقليدى بين حماية الحرية والخصوصية، من ناحية أخرى. فقد بدأنا نشهد أن الإجراءات الوقائية والأمنية الأخيرة فى الولايات المتحدة وأوروبا تتضمن الاعتداء على كثير من الحريات والحقوق المدنية.

فعلى صعيد الحريات العامة

والمدنيـــــة. يلـوح فى الأفق طيف من أطيـــــاف «المكارثيـة الجديدة»، حـيث تتـحكم أجهزة الأمن فى كل صـغيرة وكبيرة، ولن تكتفى أجـهزة الأمن بمجـرد تـفـتيش الملابس والحـقـائب، بل سـوف تـعمل على تفـتيش العـقول والضـمـائر، ومـا هو داخل «السرائر».



ومن نـاحـيـة أخـرى، فـإن أدوات الـهـيـمنة الأمريكيـة الحـاليـة، على الصـعيدين الاقتصادى والتكنـولوجى، سـوف تتـآكل تدريجـيـاً، خـلال الأعـوام القـادمـة. وسيكون ذلك نتيجـة تعـرض الولايات المتـحدة لتراجع فى الأداء التكنولوجى، وانكسار موجة الإنفاق المفرط على «تكنولوجيا المعلومـات» (IT)، التى سـادت خـلال حـقـبـة التـسعـينيـات، وكـانت وراء الرواج والازدهار فى الاقتصاد والمجتمع الأمريكى خلال الفترة: ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، وهناك تقارير تشير إلى أنه بحلول عام ٢٠٠٥، لن يتـعـدى تأثير الإنترنت على الأداء الاقتصادى العالمى ما أحدثه تأثير استخدام «آلة الفاكس» فى الماضى.

وفى مقال هام كتبه «فرانسيس فوكوياما» ـ صـاحب نظرية «نهايـة التاريخ»، المأسوف على شبابها ـ فى أعقاب أحداث «الحـادى عشر من سبتمبر» أشار إلى أن هناك تناقضاً هاماً يحكم المجـتـمع الأمريكى ازدادت حـدته خـلال حـقـبـة التسعينيات. إذ يقول: «شهد عقد التسعينيات اتساع الهوة الاقتصادية والاجتماعية بين كبار المسـتـثمرين المتعلمين فى جـامعـتى هارفرد وسـتـانفـورد والمحـامـين ومـهندسى برامج الكمبيوتر ـ الذين كـانوا يعملون فى البرجين ـ وبين أصحـاب اليـاقات الزرقـاء الذين توجـهوا لإنقاذهم» (راجع: جريدة «الفاينانشيال تايمز» بتاريخ ١٩/٩/٢٠٠١).



كـذلك أشـار فى نفس المقـال إلى أن «أعـداء أمـريكا قـد طوروا ولأول مـرة من قـدراتهم التى تمكنهم من الوصول إلى الأمريكيين مباشرة كرد فعل للسياسة الأمريكيـة. وهذا يعنى بالطبع أن الانعزالية لم تعد اختياراً، لكنها أوجدت نوعاً من الردع سيـجعل الولايات المتحدة ولأول مرة تفكر فى الخسائر المباشرة الناجمة عن سياساتها وإن كـان هذا لن يقيـد تحـركـات الولايات المتـحـدة فى النهاية، لكنه سيفرض عليها سياسة واقعية فى تعاملها مع العالم الخارجى».

ويختـتم «فـوكوياما» مقاله الهـام بقوله: «وربما تصبح الولايات المتحدة دولة عـادية من حيث وجود مصالح مـحددة لها، وبأن تصبح معرضة شانها شأن أى دولة أخرى للاعتداء بدلاً من أن تظل تعتقد أنها تستطيع بمقدرتها المنفردة أن تشكل طبيـعـة العـالـم الذى تعـيش فيـه». وبالتـالى سـوف نشـهـد «نهـاية الاسـتـثـناء الأمريكى».

ولعل «المأزق الحقيقى» الذى يواجه العـالم اليوم، يتـمثل بانفراد الولايات المتـحـدة بقيـادة النظام العـالمى بشقيـه السيـاسى والعـسكرى. وتلك مسئولية تاريخية كبرى تضع الولايات المتحدة فى امتحان عسير. إذ إن الإدارة الأمريكية وهى تمسك بعـجلة القـيـادة، عليـهـا أيضـاً أن تعرف كيف تستخدم «الفرامل»، وأن تعرف كيف يمكن التهدئة فى المنحدرات والمنعطفات، حـفاظاً على الأمن والسلم العـالميين. وذلك لأن شـئون العالم يجب أن تُدار بأسلوب يراعى التوازن بين مصـالح وطموحـات كل شعوب ومناطق العالم، وليس فقط من منظور الرؤية الضيـقة والأنانية لمصالح المركب «المالى ـ العسكرى» فى الولايات المتحـدة الأمريكية! وبعيداً عن «سياسة الإملاء» والغطرسـة، التى بلـغت ذروتهـا فى مــؤتمر ديربان المناهض للعنصرية.

ولهذا فإن كل التداعيات المستقبلية، خلال الحقبة الافتتاحيـة للقرن الواحد والعشرين، سـوف تتـوقف على مـدى الحكمـة (أو مـدى الحـمـاقـة) التى سـوف تتـصـرف بهـا الإدارة الأمريكيـة الراهنة، فى التـعـامل مع تعـقـيدات الموقف العالمى الراهن. إذ إن اختصار واختزال كل مشاكل العالم إلى «مشكلة الإرهاب» (بتعريفاته المطاطة)، وإلى تأديب ما يطلق عليهم فى العرف الأمريكى تعـبير «الدول المارقة»، سـوف يجر دول العـالـم إلى طريق مـسـدود. إذ إنه بدون طرح حلول جادة وفعـالة لإصلاح النظام الاقتصادى والمالى الجـديد المعـوْلم، وجعلـه أكـثـر عـدالة وتوازناً، فإن جذور العنف ستظل قائمة.

المطلوب إذن هو إعمال «العقل الاستراتيجى» الأمريكى المسـتنير، وليس الاحـتكام إلى مـجرد القوة والعضـلات. فـعندما يكون «الجـسد» أكبر من «العقل»، تحدث كوارث كثـيرة. ولعل الكل يتذكر أنه أثناء «الحرب الكورية» كـان هناك أمام القيادة الأمريكيـة خيارات صعبة، وعلى رأسـها اسـتـخـدام القـوة العـسكرية الأمـريكيـة لغـزو «الصين الشيوعية» للقضاء على مصادر التهديد الرئيسـيـة للقوات الأمريكية، من حيث التسليح والإمدادات وقـواعـد التدريب، كمـا أوصى بذلك بعض كـبـار الجنرالات العـسكريين. وتغلبت الحكمة السياسية للرئيس الأمريكى آنذاك بعدم الخـضـوع لهـذا المنطق، حـتـى لا تقع الولايات المتحـدة الخارجة منتصرة من الحرب العـالمية الثـانيـة فى «مـستنقع جديد»، مثلما وقـعت جيوش نابليون فى المستنقع «الروسى».

إن الأمـر إذن يحـتـاج لمراجـعـة واسـعـة للسياسة الخارجيـة الأمريكية وممارساتها خلال التسعينيات، حتى نستطيع أن نحقق توازناً فى المصالح لكل دول العالم (المتقدم والنامى)، وبين عنصـرى الإنتـاج: رأس المال والـعـمل فـى إطار مـسـيرة العـولمة. إذ إن ازدهار ونمو الاقـتـصـاد الأمريكى، لـن يتم من خـلال سـيـاسـات «العـصـا الغليظة». إذ إن المطلوب هو إيقاف العـمل بمبدأ «القـوة فـوق الحـق» الذى تمـارسـه الإدارة الأمريكيـة، واستبداله بمبدأ «الحق فوق القوة»، حفاظاً على السلم والاستقرار العالميين. ■


جهينه
وحوى يا وحوى
جهينه
زبادى
طبيعى
١٢٥ جرام
أحلى زبادى
وحوى يا وحوى
جهينه
زبادى
لايت
١٢٥ جرام
جهينة لايت ... خفيييف
أحلى زبادى
Linea Art & Production™

مصر
فى عيون جمال حمدان

كامل زهيرى

أول مرة بدا لى جمال حمدان يشبه عوداً من أعواد البَرْدى. ممتداً فى استقامة وطموح إلى أعلى. رشيقاً بلطف. فوق رأسه تاج من الزهر المتوهج من شدة الذكاء.

واستوقفتنى جبهته العريضة. المفرطة.. كأنها جبهة عبدالوهاب. أو جبهة الموسيقار النمساوى جوستاف ماهلر صاحب أغنية «الأرض».. ولم أكن قد اكتشفت بعد أن جمال حمدان من عشاق الموسيقى والطرب. وكان يدندن بينه وبين نفسه، أو مع حلفائه المقربين ألحان عبد الوهاب القديمة منذ الثلاثينيات، وعبد الحليم الجديدة فى الستينيات. ولكننى أحسست موهبة جمال حمدان الموسيقية فى موسيقى أسلوبه.

وليس غريبًا بعد ذلك أن تجد فى كتاباته الجغرافية العلمية الرصينة تعبيرات موسيقية مثل: «ضبط إيقاع النهر».

ولست أظن أن عالمًا أو أديبًا أو فنانًا اجتمعت له مثل هذه المواهب السمعية والبصرية كما اجتمعت عند هذا العالم الأديب الفنان: جمال حمدان.

ونحن فى عالم الصحافة، اعتدنا على «ورق الدشت» الذى يميل إلى السمرة والخشونة، حتى يتشرب بسرعة حبر المطابع. لكننى فوجئت عام ١٩٦٤ وأنا فى مجلة الهلال بخطاب لازلت أذكر لونه حتى الآن وكأنى أراه الآن. كان فيه مقال مكتوب على ورق أزرق مثل خطابات الغرام أيام الصبا والشباب.

توقفت عند الخطاب والمقال. وكان الموضوع سياسيًا عن مشكلة قبرص. ولكنى وجدت أديبًا. واكتشفت أن صاحب المقال له أسلوب مسبوك محبوك. ينسجم فيه المعنى مع المبنى. وخطر لى أول الأمر أن صاحبه أديبنا الكبير يحيى حقى، أستاذ البلاغة البحتة، ومنقذ الأسلوب الأدبى من المبالغة والفضفضة والطرطشة. ولكن ما لحقى وقبرص. فقد كان التوقيع: جمال حمدان. نفَسٌ هادئ عميق.

رصانة فكرية. جمال فصيح أخاذ. استوقفنى كل ذلك. ولكن استهوانى أيضًا شىء قد يبدو غريبًا فى عالم الصحافة المتعجِّلة، وهو الخط الجميل الذى كتب به جمال حمدان مقاله عن قبرص. ولم أكن قد اكتشفت أيامها أن جمال حمدان من تلك السلالة النادرة بين المثقفين التى نجت من «أمية العين».. وتعشق أيضًا الرسم والفنون التشكيلية. ولم أكن قد اكتشفت بعدها أنه يعلق فى بيته الصغير المعتزل فى شارع أمين الرافعى بعض لوحات الرسام «ماتيس». قطعها على طريقته من أوراق المجلات. ثم علقها على طريقته أيضًا بدبابيس كان يعود إلى إعادة رشقها كلما تساقطت.

وعلى كثرة الأوراق التى قرأتها، أو كتبتها، أو دُفِعَتْ إلىّ أو دفعتها إلى المطبعة لازلت أذكر ذلك الخطاب الأزرق وذلك الخط الجميل الذى كتب به جمال حمدان مقاله عام ٦٤.

ولم أكن قد اكتشفت بعدُ أن جمال حمدان يرسم أيضًا أغلفة كتبه، ويرسم خرائطه، ويكتب عناوين فصوله بخط يده.

وعندى أن مصر عرفت بين المثقفين والمفكرين والفنانين عائلات بصرية وعائلات سمعية. وقد عرفت على سبيل المثال فى مطلع الشباب كامل التلمسانى الرسام الذى أصبح مخرجًا سينمائيًا، وأخرج رائعته «السوق السوداء». وبين الرسم والسينما علاقة الصورة الثابتة والصورة المتحركة. كما عرفت شقيقه الرسام حسن التلمسانى الذى أصبح مصورًا سينمائيًا، وصور فيلم «النيل» لفينى، وعرفت شقيقهما عبد القادر المخرج التسجيلى المعروف. ويمكن التنبيه أيضًا إلى موهبة الشاب المصور السينمائى طارق حسن التلمسانى. كما يمكن القول بالمقابل إن من العائلات السمعية عبد الوهاب الكبير، وسعد عبد الوهاب الصغير، وليلى مراد ووالدها زكى، وشقيقها منير، ثم القصبجى، والموجى، والحجار، والصفتى، ومن قبلهم عكاشة،والشوا وغيرهم وغيرهم.

وقد أحسست أن جمال حمدان لم يكن منذ البداية أستاذًا عالمًا فى الجغرافيا. ولكن من أصحاب الموهبة البصرية والذاكرة البصرية إلى جوار موهبته السمعية، وقد منحت له هذه المواهب المجتمعة آفاق رؤيته وجعلت منه جمال حمدان.



وكانت عينا جمال حمدان هى عينا الرسام الذكية. «تحدق وتحلق»، كما كان يقول بنفسه كأنه يتحدث عن نفسه.

وكان جمال حمدان بحارًا فى أعالى البحار، بعيون مثقفة ذكية لم تتوفر كثيرًا لغيره من علماء الجغرافيا المرموقين أو المغمورين على حد سواء.

وعيون الرسام التشكيلى شىء آخر، لأن الفن التشكيلى هو حرب الفنان على الفراغ. والنقطة عند الرسام قد تصبح خطًا، أو تصبح نهرًا أو أفقًا.

وليست اللوحة الفنية مساحة محددة، كما قد يُظَن، وإن بدت أول الأمر كذلك. لأن اللوحة لاتصبح فنًا إلا إذا خرجت عن إطارها. لتصبح اللوحة نافذة. نطل منها على المكان. ونرى فيها معنى ما نرى. حين ينجح الفنان التشكيلى فى تحويل اللامرئى إلى المرئى. وحين يعزف الرسام بالخط والظل والشكل واللون عزفًا بموسيقى الألوان، أو ما سميته «تلحين الألوان» حتى ينقلنا معه إلى «معنى المكان».

بل إن الخط العربى نفسه عند شيوخ الخطاطين له معنى آخر. وكثيرًا ما توقفت عند الخطاطين الأوائل، وعند تقليد قديم حين يرسِمون بالذات «ثمرة الكمثرى»، وفى داخلها «بسم الله الرحمن الرحيم».

ولا عجب من تعجبى لاختيار ثمرة الكمثرى بالذات. لأننى أحس أن خطوط الكمثرى أقرب إلى مرونة الخطوط العربية فى الانحناء اللين، والامتلاء المحبب، وبزوغ الغصن من قمة الثمر!

وهكذا تصبح النقطة والخط والأفق عند الرسام التشكيلى هى رؤية الرسام للمكان، وعند جمال حمدان صاحب العين العلمية والعالمة والفنية هى التى تحدِّق وتحلِّق فى المكان أو هى الجغرافيا الحمدانية إن جاز هذا التعبير.

لأن المكان يُدرَك حسيًا. والزمان يُدرَك إدراكًا غير مباشر. والإنسان يحاول أن يقرِّب المجردات فى ملموسات مكانية. وهناك فى المكان: القرب والبعد، الارتفاع والانخفاض، ثم ينقلها الإنسان إلى عالم الوجدان بين «العالى» و«الواطى»، و«الدون» و«كبير القلب»، و«واسع الصدر» و«واسع الحيلة». وتقول تلك التعبيرات المكانية: أمام. خلف. جنب. فوق. تحت، بل تقول فى تعبيراتنا الشائعة: «البعيد»، ثم «بعيد عنك» عند الحديث عن المكروه والمرض.

وكل إنسان يمثل جلده الحدود الفاصلة بينه وبين الآخرين. وحوله ثيابه، ثم يأتى بعد ذلك المكان بمضاعفاته: من الحجرة إلى الفناء. ومن النهر إلى الشاطئ. وعبر النهر حتى الجبل. وهكذا.. إلى المدينة ثم إلى الإقليم.

وقد كان تفوق العالم جمال حمدان فى أسلوبه العلمى الأدبى المتفرد فى قدرته الفائقة على تحويل المجردات إلى محسوسات. وتلك روعة البلاغة وقمتها حين يصف «موقع» القاهرة عند «ملتقى الدلتا بالوادى» فيقول: عند خاصرة النهر.

وإذا كانت الجغرافيا عند حمدان هى التعرف على الاختلافات الرئيسية للأرض على مختلف المستويات فالشخصية الإقليمية أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص أى إقليم وتوزيعاته.

لأنها هنا ـ كما يقول حَمْدان وبحق ـ تتساءل عن الانفراد والتفرد والتميز. ولذلك «تريد أن تنفذ إلى روح المكان» ليستشف عبقريته الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة.

ومثل هذه النظرية الحمدانية ليست تحليلية فقط، بل تركيبية.

أو كما يقول جمال حمدان فى كتابه الأول عن «شخصية مصر» ـ يونيو ١٩٦٧، كتاب «الهلال»:

ـ «ربما تكون الجغرافيا صماء. ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها. فالتاريخ ظل الإنسان على الأرض. كما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان».

أحسست أن جمال حمدان لم يكن منذ البداية أستاذا عالمًا فى الجغرافيا. ولكن من أصحاب الموهبة البصرية والذاكرة البصرية إلى جوار موهبته السمعية، وقد منحت له هذه المواهب المجتمعة آفاق رؤيته وجعلت منه جمال حمدان







ولهذا يعتبر حمدان طريق الجغرافيا أكثر غنى فى المناهج لأنها تجمع بين الزمان والمكان، ابتداء من الجيولوجيا حتى الأركيولوجيا، ومن الفلك حتى الأنثربولوجيا.

ولهذا بحث كبار الجغرافيين العلماء عن الشخصية الإقليمية مثل لابلاش فى «مقدمته عن تاريخ فرنسا»، وأندريه سيجفريد فى «سيكلوجية الشعوب»، وستامب فى «وجه بريطانيا» وإلى سليمان حزين حين تحدث عن البيئة والموقع فى مصر عبر التاريخ.

ـ ليست الشخصية الإقليمية تقرير حقيقة علمية مطلقة رغم أنها تعتمد أساسًا على مادة علمية موضوعية بحتة؛ إنها عمل فنى بقدر ما هى عمل علمى.

... والجغرافيا هى فن التعرف على شخصيات الأقاليم، ووصفها وتفسيرها وهى ـ لذلك ـ ليست علمًا فقط ولا فنًا أيضًا، بل هى فلسفة.

كما يقول جمال حمدان:

ـ «إنها فلسفة المكان. وهى فلسفة عملية واقعية قد ترفع برأسها فوق التاريخ. ولكن تظل أقدامها راسخة». كما يقول «إنها فلسفة تحلّق بقدر ما تحدّق».

والجغرافيا ـ عند حمدان ـ «علم بمادتها، وفن بمعالجتها، وفلسفة بنظراتها».

«وهذا المنهج المثلث ينقلنا بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير. ومن جغرافية الحقائق المرصوصة إلى جغرافية الأفكار الرصينة».

وأكاد أظن أن جمال حمدان الجغرافى العالم ما كان يستطيع أن يكتب «شخصية مصر» لولا موهبته فى الرسم والموسيقى، وإحساسه الفطرى بتكامل الفنون. لأن الشعر أول الفنون هو فن الخلاصة وخلاصة الفن. ولأن العمارة فيها الموسيقى، كما أن الرواية فيها المعمار، والصوت له لون، وفى الألوان ألحان.

وأقول أيضًا إن مواهب حمدان السمعية البصرية أهّلته عن جدارة ليستشف روح المكان ـ وهو المادة الخام عند الجغرافى والرسام معًا. وقد أهلته هذه المواهب مجتمعة لتصبح الجغرافيا عنده «علمًا بمادتها، وفنًا بمعالجتها، وفكرًا أو فلسفة بنظراتها».

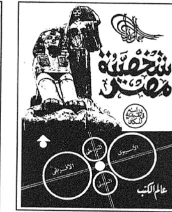
ولازلت أذكر عام ١٩٦٧، حين دفع إلى جمال حمدان بكتابه الأول عن «شخصية مصر» ونشرته فى «كتاب الهلال» ـ عدد يونيو من ذلك العام، وظننت الكتاب فتحًا جديدًا فى دراسة عبقرية المكان، أو كشفًا لرؤية باحث معتكف عاكف لا أظن أنه أغفل سطرًا كتبه نابهٌ عن مصر، أو كتبه المؤرخون والجغرافيون فى «شخصية الإقليم». وقد أشار حمدان بعرفان الباحث النزيه إلى «سندباد مصرى» لحسين فوزى، و«مصر ورسالتها» لحسين مؤنس، و«تكوين مصر» لشفيق غربال، لكنى وجدت فى حمدان هذه الميزة الفريدة التى نسميها الآن «تكامل مناهج البحث فى العلوم الإنسانية». ففيه المؤرخ والجغرافى والديمغرافى وعالم الآثار والجيولوجى والزراعى والأنثربولوجى. وفيه فوق ذلك القدرة على تكثيف الفكرة واستخلاصها، ثم صياغتها بأسلوب أدبى ناصع فيه إيقاع.

إذ يقول جمال حمدان عن مصر مثلاً: «هى بالجغرافيا تقع فى أفريقيا، وتمت بالتاريخ إلى آسيا. متوسطة بعروضها، موسمية مياهها وأصولها. هى فى الصحراء وليست منها، إنها واحة «ضد صحراوية»، بل ليست بواحة، وإنما شبه واحة.

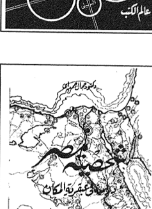
إنها فرعونية بالجد، عربية بالأب، بجسمها النهرى قوة بر، وبسواحلها قوة بحر، أى تضع قدمًا فى الأرض، وقدمًا فى الماء. بجسمها النحيل تبدو مخلوقًا أقل من قوى، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسًا أكثر من ضخم.

تقع فى الشرق، وتواجه الغرب، وتكاد تراه عبر المتوسط، تمد يدًا نحو الشمال، وأخرى نحو الجنوب.

ولهذا، هى قلب العالم العربى، وواسطة العالم الإسلامى وحجر الزاوية فى العالم الأفريقى، إنها سيدة الحلول الوسطى والوسط الذهبى».








للمناضل الوطنى الحر
الصديق الأخ العزيز
الأستاذ الكبير كامل زهيرى
تهنئة وإعزازا وتعزيزا
مع أطيب التمنيات

كان تفوق العالم جمال حمدان فى أسلوبه العلمى الأدبى المتفرد فى قدرته الفائقة على تحويل المجردات إلى محسوسات. وتلك روعة البلاغة وقمتها حين يصف «موقع» القاهرة عند «ملتقى الدلتا بالوادى» فيقول: عند خاصرة النهر

وقد أحسست عند جمال حمدان، كأبرز مفكرى جيله، بهذه الثنائية أو الجدلية بين المكان والزمان، وبين الموضع والموقع، والمكان والمكانة، والأصفر والأخضر، والنهر والبحر. وهو لا يخفى مبكرًا هذه الثنائية الجدلية الهيجلية منذ كتابه الأول عن «شخصية مصر» ـ عام ١٩٦٧، حين يشرح ويوضح ما بين «التقرير والنقيض والتركيب».

ويقول حمدان: «وإلاّ إلى من يتوجه المواطن العادى والمثقف العام لمعرفة وطنه؟! إلى من سوى ذلك الذى يتخصص فى عدم التخصص!».

يضرب بحرية فى كل العلوم، يربط الأرض بالناس، والحاضر بالماضى، والمادى باللامادى، والعضوى بغير العضوى. ويكاد يتعامل مع كل ما تحت الشمس، وفوق الأرض.

وفى هذا الوقت، لأنه يضطرب فيه الفكر فى مصر، ويضطرم بحثًا عن شخصيتها العربية، تحديدًا لمعدنها القومى الأصيل، ولدورها الإنسانى والحضارى، لا شك تبرز فى المقدمة مسئولية الجغرافى الملتزم الذى يضع عمله فى خدمة مجتمعه».

وهكذا أحسست أن جمال حمدان قدر أن يقصّر خطوطه مع الحياة اليومية الدارجة، وقرر أن يعتكف ليعكف على عمله وفنه. ووجد موقعه وموقعته فى مصر والقاهرة، ليقدمها لنا برؤية جديدة تمامًا. وأحسست أنه قرر أن يصبح من أغنى الأغنياء بالاستغناء عن كل شىء. وقرر ألا يطلب مالاً، أو منصبًا، أو زوجًا، أو وسامًا لأنه قرر أن يهب أعوام حياته كلها للعلم.

فكان هذا الاستغناء المطلق سر قوته المطلقة، بل ظننت أن جمال حَمْدان حين قرر الاستقالة من كلية الآداب بجامعة القاهرة، لم يكن ذلك لمجرد ضيق من بعض دسائس الجامعة. ولكن كان ضيقًا بالجامعة نفسها: «المكان لا الرسالة». فقد كان يحس أن بداخله رسالة أكبر من رسالة أستاذ الجامعة رغم المكانة والقيمة. لأن كادر الجامعات الإدارى على الأقل يرتب مراتب الجامعيين.. من المعيد إلى المدرس ثم الأستاذ المساعد إلى أستاذ الكرسى.. ومثل هذا السلم الإدارى لا يضع فى حسابه أو يضع فى مراتبه مرتبة «المفكر الفذ». وقد أدرك حمدان ذلك، فأخذ نفسه بالشدة

قبل أن يأخذ الآخرين. وأخذ نفسه بالشدة الحمدانية، وهى أكثر من الشدة التى أخذ بها طه حسين نفسه فى بداية حياته بين الأزهر والسوربون.

وهكذا أمضى حمدان عشرة أعوام فى الجامعة وربع قرن فى عزلته الاختيارية، معتكفًا عاكفًا، وخلال خمسة وثلاثين عامًا قدم للمكتبة العربية أكثر من ثلاثين كتابًا، حتى ظننت أنه لا يؤلف الكتب، ولا يصنفها، ولكن كان يزرع الكتب. لأنه كان يحتضن الفكرة ويعتنى بها حتى يصبح الكتاب شجرة، فقد رأيت كتابه البذرة «شخصية مصر» عام ١٩٦٧، فاصبح هذا الكتاب «وسيطًا» عام ٧٠، ثم أصبح أربعة مجلدات ضخمة فى الثمانينيات.

وهكذا كنت أظن - بيقين المتفائلين - أنه سيعود إلى بذرته عن «القاهرة» والتى أحضرها لى أستاذنا يحيى حقى لنشرها فى كتاب «الهلال»، كمقدمة لترجمة حقى لكتاب دزموند ستيوارت. وكانت المفاجأة أن صديقه الحميم جمال حمدان قد انطلق فى مقدمته حتى احتلت ١١١ صفحة. وكادت المقدمة تعادل حجم الكتاب. وظننت أن حمدان سيعود حتمًا إلى كتابه القاهرة - ١٩٦٩ - لأن مقدمات هذا الكتاب أو بذوره فى كتابه «جغرافية المدن» الذى نشره عام ٦٠، بل لم أشك أنه عائد إلى «اليهود أنثربولوجيا» - ١٩٦٧ - ليضيف ما نما فى داخله من تاملات المفكر الفنان وعلوم العالم العاكف المعتكف.



وليس بدعًا أن يعكف حمدان على كتابه «شخصية مصر» لنجد فى فصل واحد من المجلد الواحد، والأول، خمسين مرجعًا علميًا من العيون والأصول، يعود إليها فى المقدمة وحدها، وهى لاتقع فى أكثر من ثلاثين صفحة.

وليس بدعًا أن من يقرأ تلك المقدمة الرائعة التى قدمها هدية للهلال ويحيى حقى - ولم يحصل عنها على مليم واحد - عام ٦٩، سوف يجد عيون المؤلفات عن القاهرة من لويس ممفورد صاحب السفر الثمين عن المدينة إلى مارسيل كليرجيه صاحب أهم كتاب عن القاهرة فى مجلدين عام ١٩٣٤، إلى جانب عيون مؤلفات المؤرخين العرب القدامى.

ولم تكن مثل هذه الإحاطة الشاملة، ومثل هذا التكامل فى مناهج البحث مجرد رافعة تَرفع جمال حمدان إلى مرتبة «المفكر الفنان العالم» فقط، بل جعله منهجه الجدلى فى التحليل وإعادة التركيب لكل ظاهرة يبحثها، صاحب رؤية وبصيرة.

ولهذا كان قادرًا أيضًا على التنبؤ بما يحدث لمصر وما يحدث من المصريين. وما سيحدث لها ولهم.

فقد دق جمال حمدان - يونيو ٦٧ - نواقيس الخطر من زيادة السكان فى القاهرة، وكانت لاتزال خمسة ملايين وقال فى كتابه «البذرة» ص ١١٤:

- لعل من أبرز ملامح الشخصية المصرية المركزية الصارخة، طبيعيًا وإداريًا . وهى صفة متوطنة، قديمة قدم الأهرام، مزمنة حتى اليوم».

«وانطلاقًا من المنطق، فإن دارس مصر لا يملك إلا أن يرى أنه قد آن الأوان لكى تعلن مدينة القاهرة الكبرى، وربما الإسكندرية الكبرى كذلك «مدينة مغلقة» للتنمية لمدة عشر أو حتى خمس سنوات مؤقتًا. فلا يضاف إلى وظائفها الراهنة جديد، سوى ما تحتمه الصيانة والتعويض. وذلك تجميدًا لحجمها الراهن بعد أن فات أوان تخفيضه. لا بد أن تتحول العاصمة الطاغية بالتدريج، ولمدة موقوتة، إلى نهر قليل الروافد كثير المصابّ، تحويلاً لشرايين الحياة إلى الأقاليم والمدن الإقليمية والريف العريض».

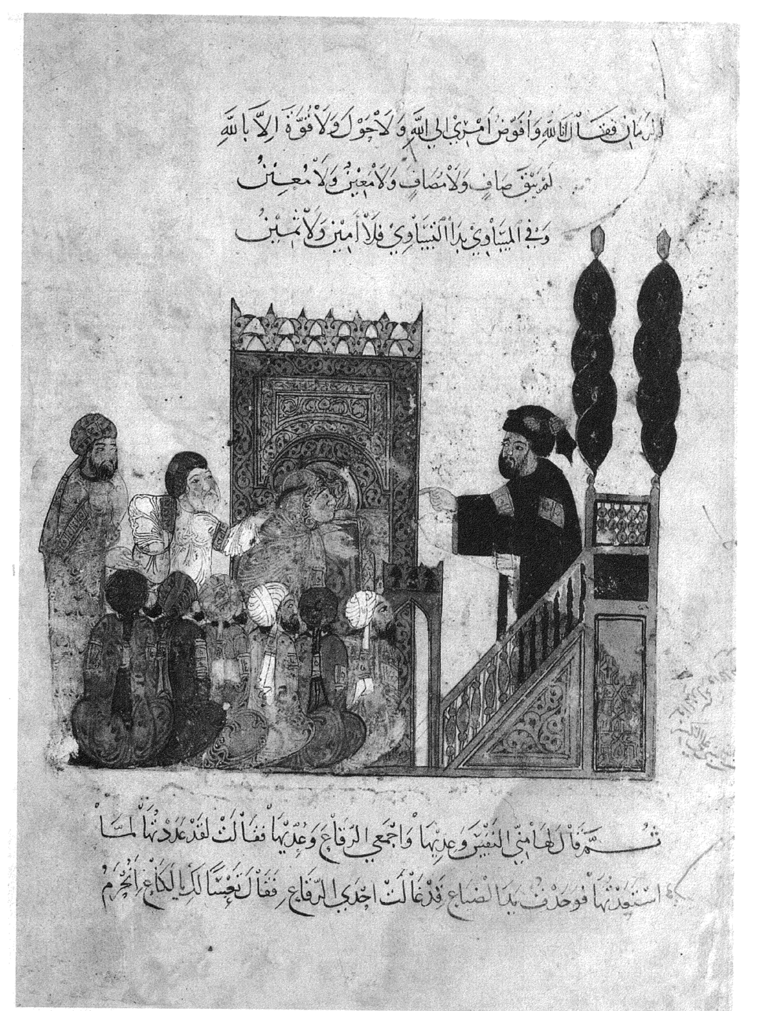
«ويترتب على هذا أن تحقق «سقفًا» أعلى لنمو العاصمة، و«أرضية» لنمو المراكز الإقليمية. وبديهى أن تحقيق هذا لا بد أن يشمل كل وظيفة من حزمة وظائف العاصمة، لاسيما الصناعة بقوة عمالها، والإدارة بجيش موظفيها. أما منع الهجرة بقانون فليس حلاً، ولا محل له، لا ديمقراطيًا ولا عمليًا، إنما الحل فى الضبط غير المباشر، والتخطيط بالإقناع، وذلك بأن تنقل العاصمة - أعنى وظائفها وخدماتها ومرافقها ومزاياها إلى الريف. لا أن يمنع الريف أن ينتقل إلى العاصمة».

وقد كتب جمال حمدان هذا الرأى مبكرًا ولم تكن القاهرة تلك العاصمة الطاغية قد زادت على خمسة ملايين.

ومثل هذا الاستبصار والقدرة على التنبؤ بالمخاطر تجدها أيضًا فى مقال نشره حمدان فى مجلة «الهلال» - عدد يونيو ١٩٦٥ بعنوان: «هل تملك إسرائيل سلاحًا ذريًا؟» وقد ناقش فيه حمدان احتمالات العدوان على مصر ودور أمريكا، وتنبأ أن أمريكا لن تخطئ الخطأ الذى وقعت فيه بريطانيا وفرنسا حين شاركتا فى عدوان ٥٦ مع إسرائيل. وقال إن أمريكا لن تكرر خطأ الاستعمار المغادر، وسوف تقوى إسرائيل للقيام بالعدوان القادم. وقد كتب حمدان هذا المقال فى يونيو ٦٥ قبل عامين من حرب ٦٧ . وقد أعدت نشر خلاصة هذا المقال المهم عند الاحتفال بالعيد الماسى لمرور ٧٥ عامًا على صدور المجلة. وانتقيت هذا المقال مع عيون المقالات التى أصدرتها الهلال.

وقدرة جمال حمدان على البصر والاستبصار جعلته يحدق ويحلق ويستبصر أيضًا. وهى موهبة أخرى عند حمدان وتحتاج إلى بحث جمال حمدان كمفكر سياسى درس مصر والعروبة، والاستعمار والصهيونية، والحرب والسلام، وكشف عن قدرة نادرة على الرؤية والاستبصار. وهو ما نحاول الحديث عنه فى مقال قريب.

https://t.me/megallat https://www.facebook.com/books4all.net oldbookz@gmail.com


الزمان فقال انا لله وافوض امري الى الله ولا حول ولا قوة الا بالله
لم يبق صاف ولا مصاف ولا معين ولا معين
وفي المساوي بدا التساوي فلا امين ولا ثمين
ثم قال لها هاتي النفيس وعديها واجمعي الرقاع وعديها فقالت لقد عددتها لما
استنفدتها فوجدت يد الضياع قد غالت احدى الرقاع فقال تعسا لك يا لكاع



كنوز على ورق

معرض فن الكتاب العربي في باريس

محيي الدين اللبّاد


«كليلة ودمنة» سورية أو مصر، (١٢٠٠-١٢٢٠م)

في الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر / تشرين الأول الفائت، شهدت باريس افتتاح المعرض الاستثنائي الهام والبديع الذي أقامته دار الكتب الوطنية الفرنسية، في مقرها القديم بوسط باريس، تحت عنوان: «فن الكتاب العربي».

فتحت دار الكتب خزائن كنوزها، وأخرجت بدائع المخطوطات المصورة العربية لتضعها نهبًا للأعين المشتاقة. ولم تكتف الدار بالنفائس التي أخرجتها من خزائنها، بل استعارت للمعرض عددًا من المخطوطات المصورة النادرة من نظيراتها في الرباط وهايدلبرج والفاتيكان، ودور كتب أخرى في باريس.

ازدحمت إحدى قاعات الدار بمائة وستة وثلاثين عملاً، تنوعت بين المصاحف وكتب الحديث والفقه والأدعية والأطالس، والكتب العلمية المصورة في الطب والفلك والحيوان والنبات والميكانيكا والصيدلة والفروسية والجغرافيا، وكتب السرد، وقواعد اللغة والقواميس.

يحدد المعرض مسار زائره، ويستهل هذا المسار بعرض نماذج من تراث فن الكتاب في بعض البلاد العربية قبل الفتح الإسلامي، موضحًا الأساس العريق الذي استندت إليه الثقافة العربية الإسلامية في قيامها، ومبينًا المكونات القديمة التي تمثلتها الحضارة الإسلامية الطالعة، وطورتها بالقيم الإنسانية الجديدة التي حملتها إلى العالم. يعرض هذا الاستهلال مخطوطة مكتوبة باللغة اليونانية أنجزت في القرن السادس الميلادي، بنجع حمادي المصرية، على ورق البردي المجلد في شكل كتاب متعدد الصفحات (وليس لفافة)، ومجلد بغلاف من الجلد. ويسترعي الانتباه إخراج صفحات الكتاب الذي صبّ النص في نهرين عموديين بكل صفحة، وكتبه بخط منتظم يكاد يتشابه في انتظامه مع حروف المطبعة التي ستظهر بعد ثمانية قرون.

وإلى جوار مخطوطة نجع حمادي، يرى الزائر مخطوطة من العراق للعهد القديم باللغة السيريانية، جاء نصها - هذه المرة - في ثلاثة أنهر رأسية لكل صفحة من الصفحات التي يحمل بعضها رسومًا ملونة بديعة. وتعود هذه المخطوطة المكتوبة على الرق إلى الفترة ما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين. ويتفاوت عرض هوامش الصفحة في كل من المخطوطتين في حذق جمالي ووظيفي راق، تفتقده بعض كتب أيامنا الحالية.

وبعد المخطوطتين الاستهلاليتين، ينفتح المسار على جنة فسيحة من مصاحف القرآن الكريم خُطت بأساليب متنوعة من خط الكتابة العربية، يعود أقدمها إلى القرن الثامن الميلادي، حين كان الخط السائد هو أسلوب «كوفي المصاحف»، وهو الأسلوب الأول الذي كُتب به الخط العربي بعد تولده عن الكتابات السابقة عليه. ولا يزال هذا الخط الكوفي (الذي اكتفينا بتحنيطه في المتاحف) يحمل قيمًا جرافيكية رفيعة، وقرائية ممتازة ووضوحا نادرا، وقدرة على التطور إلى الحداثة غير محدودة.

ويلاحظ الزائر أن المصاحف من الجيل الأول، كانت في أغلبها من قطْع المستطيل الأفقي، الذي ظل سائدًا حتى أوائل القرن العاشر، حين انتقل المصحف إلى قطع المستطيل الرأسي في تزامن مع التحول إلى استخدام الورق بدلاً من الرق. وعند هذه الملاحظة، سيستعيد الزائر اكتشاف بديهة أن القرار باختيار الشكل ارتبط على الدوام بالوظيفة، وبخصائص المواد والتقنيات المستخدمة.

ومن بين المصاحف المعروضة، يهل عليك المصحف الذي كتبه ياقوت المستعصمي عام ١٢٨٩م (أغلب الظن في العراق)، وهو مصحف تتأكد نسبته لياقوت بخلاف كثير من المصاحف التي نسخها تلاميذه بعد وفاته ونسبوها إليه. ويعدّ هذا المصحف الصغير القطع (١٩ X ١٥,٥ سنتيمتر)، وكثير السطور (١٦ سطرًا في الصفحة الواحدة)، نموذجًا للمستوى الرفيع الذي بلغه الخط العربي في تلك الفترة.

وغير بعيد عن تحفة المستعصمي الدقيقة القياس، ينبسط واحد من المصاحف العملاقة التي اعتاد السلاطين المماليك (في القرنين الرابع عشر والخامس عشر) وقفها للاستعمال العام في المساجد والمدارس وأضرحة الأسلاف. وقد بلغ قياس الصفحة الواحدة في هذا المصحف العملاق حوالي ٥٠ X ٧٠ سنتيمترا، وتتبدى في صفحتيه المبسوطتين مفاتن مدرسة الخط المصرية المتميزة التي بلغت أوجها في العصر المملوكي، قبل أن يختطفها سلاطين بني عثمان بعد فتحهم لمصر. ويسطع المداد الأسود المصري الذي كتب بدن النص القرآني بخط «المحقّق»، وأسماء السور بخط «الثلث». وتشرح آثار المداد المصري على الورق الذوق الرهيف الذي تمتعت به المصاحف المصرية في العصر المملوكي، و«تقشف الأثرياء» الذي تبديه، مترفعةً على البهرجة والثرثرة والمبالغة في الزخرفة والإسراف في التذهيب الذي ستتسم به المصاحف التركية فيما بعد.

ويتوجه المسار إلى مصحف آخر تكاد مساحة صفحته لا تتجاوز ربع مساحة صفحة المصحف العملاق، ولا تحمل الصفحة منه سوى خمسة أسطر من خط «المحقّق» الواضح الذي تفتحت مغاليق حروفه، وانفرجت نهاياتها في كرم انبساطي وصراحة، تفصح عن الذائقة الفردية لفنان الخط. هذا المصحف هو أحد مصاحف السلطان المملوكي برقوق، أنجز في مصر بين عامي ١٣٨٢ و ١٣٩٩ في ثلاثين جزءًا.

وتلفت بطاقة المعلومات إلى جوار هذا المصحف الأنظار إلى تشابه الوحدات الزخرفية الملونة والمذهبة في هامش صفحاته مع الوحدات الزخرفية المماثلة في بعض الأناجيل المعروضة بالمتحف القبطي بالقاهرة. وبالفعل سيجد من يحمل الكتاب المصور للمعرض ويذهب به إلى المتحف القبطي في مصر القديمة، حيث قاعة المخطوطات - هناك سيجد مخطوطة «الأناجيل الأربعة» المؤرخة عام ١٣٣٤، شاهدة على تطابق الزخارف في المصحف المملوكي و«مواطنه» الإنجيل القبطي، وكأنهما قد خرجا من محترف واحد، ومن تحت يد «أسطى» مصري واحد!

نجح المعرض الباريسي في إبراز التنوع الثري في الفن العربي الإسلامي، فعرض في إحدى قاعاته أساليب مختلفة من تصميمات المصاحف وأساليب كتابتها، من دول المشرق العربي ومن دول مغربه. وقد تكون زيارة مثل هذه القاعة ضرورية لكثير من عرب المشرق ممن لم يحصلوا على القدر الضروري من التعرف على الخط المغربي، وأساليب تصميم المصاحف والمخطوطات وزخرفتها في بلاد المغرب والأندلس. فبحلول القرن العاشر الميلادي، تمايز الخط المغربي عن نظيره المشرقي، وتفرع طريق الخط العربي إلى طريقين، سلك أحدهما الخط المشرقي، وسلك الآخر الخط المغربي/الأندلسي. ويعود تميز الخط المغربي الجميل إلى صموده ورفضه الامتثال للقواعد الكلاسيكية للخط العربي والمعايير الثابتة التي استقرت على يد الوزير الخطاط «ابن مقلة»

«مقامات الحريري»، رسوم يحيى بن محمود الواسطي، بغداد، (١٢٣٧م).



«دلائل الخيرات»، بخط فنان الخط المغربي محمد بن أبي القاسم القندوسي الفاسي المتوفى ١٨٦٢م، المغرب، (١٨٢٨-١٨٢٩م).

في القرن التاسع الميلادي. واحتفظ الخط المغربي باستقلاله، وترك لخطاطه حرية الأداء، والتعبير والغنائية، بحيث أصبح بعض خطاطيه فنانين مبدعين غير مسبوقين بالمعنى العصري الحديث، وليس مجرد مقلدين يكررون إنتاج ما سبق إبداعه وتقنينه من قبل.

وعلى عرب المشرق بذل الجهد لتفهم هذا الخط واحترامه، ولإدراك تذوق جماله. ويتوجب على بعض مؤرخي فن الخط من المشارقة تقديم الاعتذار العلني لهذا الفن المغربي الجميل الذي منعتهم أذواقهم المحدودة (بامتثالهم لقواعد التذوق الكلاسيكية) من إدراك جمال هذا الفاتن المغربي المتنوع، الجهير والهامس في آنٍ معًا.

وقبل أن يأخذ المسار زائر المعرض إلى قاعة الكنز، يجعله يمر بقاعة فياضة الحسن تعرض فنون تذهيب الكتب وتزويقها وزخرفتها، في نماذج من المشرق والمغرب والأندلس. عرضت المصاحف وكتاب «الصحيح» للبخاري، و«دلائل الخيرات»، و«البردة» للبوصيري، والأناجيل. وكلها تشهد على ذوق رفيع، وتقاليد كلاسيكية لم يقمع رسوخها مَن حرية الإبداع، ولم تحجب القدرة على التجريد، ولم تمنع تنوع النغمات (التي عزفتها الصفحات) بتنوع العصر والفنان والأرض التي أنجز عليها كل من الأعمال.

وبعبور قاعة النقش والتذهيب والزواق، يصل المتفرج إلى القاعة التالية، ليقف بمجرد دخولها مبهوتًا ومفاجأً معقود اللسان مسلوب الجنان، أمام ما تحويه من كنوز المخطوطات العربية المصورة التي لم يرها جمهور المعارض - من قبل - مجتمعة في مثل هذا الحشد، إلا على صفحات كتب الفن الأجنبية، أو النادر منها الذي تُرجم إلى العربية.

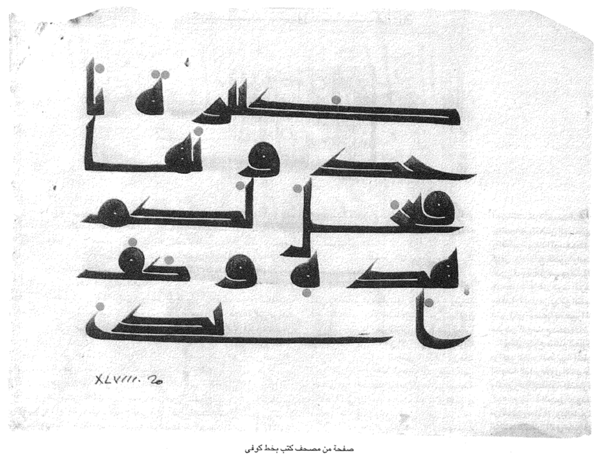
تزخر واجهات العرض الزجاجية باثنتين وعشرين من أشهر المخطوطات العربية المصورة التي كنا نهرول وراء صورها من صفحات كتاب إلى آخر. ها نحن أمام مخطوطة يحيى بن محمود الواسطي لمقامات الحريري مفتوحة على مصراعيها، ومخطوطة «كليلة ودمنة» الأيوبية والأخرى المملوكية، و«كتاب الترياق»، وأطلس الشريف الإدريسي، و«صور الكتاب الثابتة» لعبد الرحمن الصوفي، و«كتاب الفلك» لأبي معشر البلخي، و«المخزون جامع الفنون» لابن أخي خزام، و«حديث بياض ورياض»، و«كتاب البيطرة»، وكتاب ديسقوريدس «علاج الأمراض». ولم يكن ناقصًا على اكتمال هذا التجمع النادر لأهم المخطوطات العربية المصورة (وعلى اكتمال معروف دار الكتب الوطنية الفرنسية) سوى الصفحات الرائعة من المخطوطة المصورة لكتاب «الحيوان» للجاحظ، التي أفلتت من تصاريف الدهر القاسية، وبقيت سليمة ومحفوظة في «دار كتب الأمبروزيانا» بميلانو. فلو تمت استعارتها وعرضت مع نظيراتها، لكان العقد قد اكتمل.

طمئن خفقات قلبك أيها المتفرج الولهان، وهدئ من روعك، والتقط أنفاسك ونظمها، ومن الأفضل أن تبحث عن مقعد ترتاح عليه، لتسكن روحك استعدادًا للدخول إلى هذه الجنة. ها هو الواسطي مفروشًا أمامك مفتوحًا على ظهر الورقة رقم ١٨ ووجه الورقة رقم ١٩. وتحمل كل من الصفحتين المتقابلتين رسمًا يملأ أغلبهما، ولا يترك منها فضاءً للنص سوى ثلاثة أسطر من أعلاهما، وسطرين من أسفلهما.

وتعوَّد المتفرج المبهور الأنفاس على أن تطلعه كتب الفن على رسوم الواسطي مجتزأة عن باقي صفحة المخطوطة، وبالتالي مفصولة عن النص، ومقصوصة الحواف وكأنها لوحات معلقة في متحف وليست رسومًا في سياق كتاب ونص، وسيستطيع زائر معرض باريس - ربما للمرة الأولى - أن يتفرج على الرسم ويقرأ نص المقامة التي يصورّها هذا الرسم، ويتعرف على المشهد أو الموقف الذي يصاحبه الرسم. وتوضح السطور على الصفحتين اللتين فُتحت المخطوطة عليهما أننا نتفرج على صفحتين من «المقامة البرقعيدية» التي تجري وقائعها في صبيحة يوم عيد الفطر في مدينة «برقعيد».

وهكذا سيعرف من يريد أن يعرف أن ثلة الفرسان المعروفة إياها (الذين طالعناهم مرارًا في هذا الرسم على صفحات كتب الفن العربي)، والذين يرفعون الأعلام والبيارق، وينفخ بعضهم في المزمار ويقرع أحدهم (يمتطي بغلاً وحيدًا بين الخيول) طبلاً - سيعرف أن نص المقامة لا يذكر شيئًا عن هذا المشهد الفخم للفرسان. وسيكتشف أن الأمر ما هو إلا فرصة انتهزها الرسام ليرسم شيئًا يعجبه. فأحداث المقامة يُفهم منها أنها تبدأ في المسجد خلال صلاة عيد الفطر، وهكذا تحجج الواسطي بالتفصيلة ليرسم هذا الموكب البهي للفرسان الذين يعلنون انتهاء شهر الصوم رغم غياب أي ذكر لهم في النص. وفي الصفحة المقابلة يصور الواسطي بطل مقامات الحريري المحتال الحكيم «أبو زيد السروجي» متخفيًا في هيئة امرأة تتسول من المصلين، بينما خطيب المسجد على المنبر يلقي خطبة العيد. ويقف بطل المقامات الآخر «الحارث بن همام» متأملاً المتسولة بكثير من التشكك والارتياب في أمرها، كما عهدناه على طول المقامات الخمسين.

وقد تكون مخطوطة الواسطي هذه أهم المخطوطات العربية المصورة، فهي تمثل الذروة التي بلغتها مدرسة بغداد في المخطوطات العربية المصورة. وهي المخطوطة التي «نفذت بجلدتها» من مذبحة الكتب التي سفك الغزاة المغول حبرها وألوانها حتى أنها لونت ماء دجلة يوم استولوا على عاصمة العباسيين ونهبوها، وألقوا بكنوز مكتباتها في النهر. ولابد أن تلك المكتبات البغدادية كانت ملأى



صفحة من مصحف كتب بخط كوفى
المصاحف على الرق، (القرن ٩-١٠م).

بالمخطوطات الجميلة من تلك المدرسة الثرية، التى يذكّرنا بها هذا الوحيد العزيز الغالى الذى حفظ لنا بعض الرائحة العطرة من تلك الفترة الثرية.

تناول الواسطى فى رسومه لمقامات الحريرى شتى مظاهر الحياة وأنشطتها، سواء فى بغداد أو فى باقى أنحاء العراق، أو فى بلاد العرب والمسلمين عامة. فمثلما تتنقل مشاهده المرسومة بين المسجد والحانة ودواخل البيوت والكتاتيب ودكاكين الحرفيين وسوق العبيد، وبين الحقول والصحراء والنهر والبحر، فهى تتنقل مع أحداث المقامات وطرائفها بين بقاع بلاد العرب وفارس. ولذا تعدّ رسوم الواسطى مرجعًا حقيقيًا للمعلومات عن الحياة الاجتماعية الاقتصادية، وعن طرز العمارة والأثاث والملابس فى تلك الحقبة.

وتصور رسوم الفنان البغدادى روح المقامات وطرافتها، وتحفل بالملاحظات الذكية واللفتات المرحة، وكذا بتعبيرات الوجوه وإيماءات القدود، فى صور مترابطة التكوين، غنية بشخوصها من الإنس والحيوان والطير، وبمرونة حركاتها وبثراء ألوانها.

وبرع الواسطى فى استخدام فضاء الصفحة كمجال حيوى لشخوص رسومه وعناصرها وأشكالها، دون أن يضع لمسة واحدة من فرشاته على هذا الفراغ المحايد الذى أغنى به الرسم والموقف وجعله جزءًا لا يتجزأ عنهما. ويكتفى الواسطى بخط أفقى يرمز به إلى الأفق أو الأرض إن كانت قفرًا أو صحراء، أو بشريط أخضر إن كانت أرضًا مزروعة. وفى بعض رسومه، يصور الواسطى - فى رسم واحد - عددًا من المواقف الزمنية التى يفرض المنطق أن تترتب فى صور متتالية حسب تسلسل حدوثها. فالرسام يرسم فى منظر خلوى واحد جزارًا يهمّ بذبح جمل، وفتًى يشعل النار تحت القدر الذى سيطهى فيه اللحم، وطباخًا يغرف من ذات القدر الموضوع فوق النار ويصب فى صحنان مغطيان فى يده، بينما تمضى امرأة إلى طرف الصورة وبين يديها صينية عليها صحنان مغطيان، لابد أنهما مليئان بوجبة مطهية من لحم الجمل الذى لم يبدأ ذبحه بعد!

وتجمع رسوم الواسطى بين الواقع والخيال والرمز والتجريد، فهو أكثر رسامى الكتب العرب تصويرًا للواقع الذى عاشه: أشخاصًا، وحيوانات، وعمائر، وملابس، ومناظر. واستطاع هذا الرسام بناء نظام شخصى خاص متماسك ومتسق للتعبير عن الحالة والتجسيم والفراغ والضوء، لم يحقق مثله رسام عربى من قبله. وفى الآن ذاته، يعيد الواسطى تنظيم وتنسيق عناصر رسومه «الواقعية»، على أسس تصميمية وتجريدية بالغة الذكاء والحساسية والحداثة.

وفى بعض الرسوم تكاد تراه وكأنه قد قصّ أشخاصه الواقعيين وخيوله ثم ألصقهم متجاورين. ويكتشف متأمل هذه الرسوم - بيسر - حيل الواسطى لكسر الرتابة والتكرار الذى يختاره أحيانا متعمدًا لخلق مساحات تبدو وكأنها مجردة. فسيقان الخيل العمودية المتجاورة الكثيرة، لابد أن تتخللها بعض السيقان المتململة التى تتحرك لنفض التراب عن الحوافر كى تكسر النظام إن جنح إلى الإملال. وشريط الوجوه المصفوفة أفقيًا لابد أن يتفاوت انتظامه قليلاً، ولابد من تنوع زوايا نظرات الرجال. أما عن دقة توثيقه للتفاصيل المعمارية وزخارف المبانى والأثاث فحدث بلا حرج، وعن القيمة الجرافيكية الرفيعة لرسوم الواسطى لا تسل. ولنتذكر أن يحيى بن محمود الواسطى، بالإضافة إلى كونه رسام الكتاب، هو أيضًا مصممه وكاتب خطوط نصوصه!

وستكون مهمة غير هينة أن يتمكن الزائر من مفارقة تحفة يحيى بن محمود الواسطى، وأن ينتزع نفسه منها ليجول فى البساتين الأخرى الممتدة تحت بصره، ويتنزه بين صفحات مخطوطتى «كليلة ودمنة» الرائعتين (كل منهما فى قطع أكبر قليلا من قطع مجلة «روزاليوسف»). وتتميز المخطوطة الأيوبية الأقدم (١٢٠٠-١٢٢٠م، سورية أو مصر) بالحيوية واليسر وحسن التعبير، بينما يبدو فى الأخرى المملوكية (ق ١٤م، مصر) بعض التكلف والجهد الزائد.

وإذا صرف الزائر وقتًا يليق بالكنز المطروح تحت ناظريه، واستطاع التأمل وعقد المقارنات، فإنه سوف يلحظ تشابهًا بين الرسوم فى مخطوطتين أنجزتا فى مصر خلال الفترة ذاتها، وتعرضهما القاعة ذاتها: مخطوطة «كليلة ودمنة» الأيوبية (١٢٠٠-١٢٢٠)، وإنجيل تم خطه ورسمه فى دمياط (١١٧٨-١١٨٠م). وسيجد من يقارن، تماثلا كبيرًا بين رسوم المخطوطتين فى أسلوب رسم الشخوص وطريقة تحريكهم، وفى اعتماد حل الخط الأفقى الذى يرمز إلى الأرض، وفى طريقة رسم الصخور الناتئة، وفى قوسى النبات على جانبى المشهد المرسوم.

وبعد الواسطى والكليلتين والدمنتين، يستطيع المحظوظ زائر هذا المعرض أن يرتع بين صفحات ١٩ مخطوطة مصورة أخرى، من أشهر المخطوطات العربية، فى حيز واحد. وستكون أمام هذا المحظوظ فرصة لتأمل مخطوطات كثيرة، منها: مخطوطة «صور الكواكب الثابتة» لعبد الرحمن الصوفى (١٢٦٦-١٢٦٧م) التى نُسخت بعد أكثر من ٣٠٠ عام من وفاة مؤلفها، وقد رسمت بالحبر الأسود والريشة، مع بقع حمراء قليلة العدد وأنيقة، وعناوين للصور كتبت أيضًا بالحبر الأحمر. و«كتاب الترياق» (١١٩٩م)، فى واحدة من أقدم المخطوطات المصورة العربية الباقية، وتزخر بالنقوش والرسوم الزخرفية البديعة. ويبرز الجمال المغربى فى التصميم والتلوين ورسم الخرائط وكتابة الخطوط على صفحات أطلس



الشريف الإدريسي (١٣٠٠م) الذي يبهر المتفرج برسوم لليابسة بأنهارها ومهادها، وبالمدن التي تنقشها وتُنثر فوقها زهور ذهبية، وبالجبال التي تتعرج فوقها في شكل أقواس معقوصة تتعدد ألوانها. أما البحار الزرقاء التي تحرك الأمواج المتكسرة سطحها دومًا، فهي لعبة جرافيكية طريفة تدغدغ البصر.

ثم يتأمل الزائر مخطوطة «حديث بياض ورياض» (ق ١٣م) التي تحكي قصة العاشقين الملتاعين اللذين لم تسمح الأعراف بجمع شملهما، ولذا يهيمان (على صفحات المخطوطة المصورة الأندلسية الوحيدة الباقية بعد سقوط دولة الأندلس) في ظل أشجار قرطبة، وتحت أبراج قصورها، وعلى ضفاف نوافيرها، وبجوار نواعيرها، يدقان العود، ويغنيان اللوعة والحرقة والضنى أسفًا على وصال مستحيل. وفوق وأسفل مشاهد يحتشد فيها العاطفون وغلاظ القلوب وحملة رسائل الغرام والعذّال، تغرد سطور النص التي خُطت بالخط الأندلسي/المغربي ذي الحسن الخاص.

ويأتي دور «المخزون جامع الفنون» لابن أخي خزام (١٤٧٠م)، وهو كتاب لتعليم الفروسية وألعابها، ينتشر فرسانه في الصفحات على صهوات خيولهم التي تسير برشاقة على حافة إطارات الرسوم، ويتسلق بعضها الآخر صاعدًا ضد جاذبية الأرض. ويتبادل أولئك الفرسان الشبان لمسات حراب التدريب برقة وببعض الرخاوة، وبنظرات هادئة هانئة لا أثر فيها للتوتر أو الانتباه لما يفعلونه، بينما يرفلون في أثواب وعمائم وسروج لُونت بكل أشكال البهجة والفرح والذوق الرفيع.



ثم يعبر الزائر إلى «خرائط الشرفي الصفاقسي» (١٥٥١م) بتصميمها الجرافيكي المغاربي الفريد، ونقوشها وألوانها ذات الروح الأفريقية الساخنة، والتي تذكّرنا، بجمعها بين اللونين الأحمر والأخضر، برايات الفرق الصوفية في مصر. وفي واجهة عرض قريبة، يضيء «كتاب الفلك» لأبي معشر البلخي (ق ١٥م) بألوانه الجواهر، وبشخوصه الخرافية التي تمثل كواكب السماء وأبراج الفلك، وهي مخطوطة أخرى أنجزت بعد وفاة صاحبها بزمن طويل (٦٠٠ عام أو يزيد). وتتميز المخطوطة بفرادة تصميم صفحاتها، وتتسم، رغم جنسيها العربية ونصها العربي السليم، بفارسية أسلوب الرسم وبملامح مغولية وتركية في الوجوه. ولا عجب، فتوقيع رسامها يحمل على القطع بأصوله الفارسية: قنبر على نقاش شيرازي.

لقد انكسرت المدرسة العربية الرائدة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول (١٢٥٨م)، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك. لكن ظلت الملامح العربية لفن المخطوطات حية في مصر وسورية المملوكيتين طوال القرنين ١٤ و ١٥م، وإن شابتها أعمال تأثرت برسوم المخطوطات غير العربية.

وقبل أن يترك الزائر قاعة المخطوطات المصورة، يكون قد حصل، بالإضافة إلى البهجة والمتعة، على قدر من المعارف، وعدد من التصحيحات لكثير من الالتباسات والخلط والأخطاء الشائعة. قد يكون من أهم تلك التصحيحات التي يمدك بها المعرض هو تحديد [فن الكتاب الإسلامي «العربي»]، وتمييزه عن غيره من فنون الكتب في العصر الإسلامي، والتي برزت في بلاد فارس والمغول والهند وتركيا وغيرها. ورغم بديهية ووضوح الفارق في المعنى، إلا أننا كثيرًا ما نصطدم بهذا الخلط في بعض الكتب والدوريات الثقافية والمصنفات، التي تنشر نماذج من الفن الإسلامي في بلاد غير عربية، على أنها من «الفن العربي الإسلامي». وقد دقق معرض دار الكتب الوطنية في معروضاته من المخطوطات المصورة، فجاءت كلها عربية، عدا استثناءات قليلة مقصودة من تركيا والهند والأندلس، قُدمت للتعريف بأساليب خط الكتابة، أو الزخرفة، أو التجليد.

من أهم الأخطاء الشائعة، التي استقرت طويلاً في الأذهان عن غير حق، تعبير «المنمنمات» miniatures، الذي كثيرًا ما ألصقه المستشرقون والأجانب بالمخطوطات المصورة العربية، فيقال «المنمنمات العربية»، ونصدق نحن ذلك. والنمنمة هي إنجاز الرسم أو النقش على مساحات صغيرة القياس، مع توخي المبالغة في الدقة والإحكام وإظهار المهارة، وذلك بإنجاز الرسم تحت عدسة مكبرة، أو باستخدام فرشاة دقيقة ذات شعرات قليلة (بالغ البعض فذكر أن الرسام الفارسي «بهزاد» كان يرسم بفرشاة ذات شعرة واحدة!). سيجد زائر هذا المعرض أغلب المخطوطات المعروضة في قطع وافر القياس، بل إنه يجد بعضها في قطع بالغ الضخامة. وسيندهش هذا الزائر الذي استسلم طويلاً وصدّق تعبير «المنمنمات» حينما يقف أمام مخطوطة الرسام البغدادي العبقري يحيى الواسطي «مقامات الحريري»، ليجد الصفحة الواحدة منها في قياس ٢٨ X ٣٧ سنتيمترًا، أي أن الصفحتين المتقابلتين في هذه المخطوطة واللتين تحملان مشهدين من «المقامة البرقعيدية» يبلغ مجموع قياسهما ٣٧ X ٥٦ سنتيمترًا، وهو قياس صفحة جريدة يومية من القطع النمطي السائد حاليًا في أغلب البلدان العربية. وسيجد الزائر أن مخطوطة «كتاب الفلك لأبي معشر الفلكي» المعروضة جاءت في قطع مقارب (٢٦,٥X٣٦ سنتيمترًا)، وأن مخطوطة «كتاب الترياق» في قياس أكبر (٢٩ X ٣٧ سنتيمترًا)، وكذلك كانت «معرفة الحيل الهندسية للجزري» (٢٨ X ٤٠ سنتيمترًا !). فأي نمنمة تلك في رسوم رسمت بهذه القياسات العملاقة؟

وفي رسوم المخطوطات المصورة العربية، يتبدى كرم الرسام في مساحات الرسوم، والبحبحة في تصميم أشكال عناصرها. وهو فنان لا يتباهى بإظهار مهاراته التقنية وبراعة صنعته، مثل أولئك الخطاطين الذين يتباهون بكتابة سور كاملة من القرآن الكريم على قشرة بيضة، أو على حبة من الأرز. وليس في تراث المخطوطات العربية المصورة أمثلة من ذلك النوع الذي نراه في المخطوطات الفارسية التي تنكمش فيها مساحة الرسم المؤطر في صفحة المخطوط إلى عرض ٦ سنتيمترات أو أقل (!)، استعراضًا للإتقان والمهارة.

لا يستعرض الرسام العربي وسوسته المرضية ولا يتباهى بها، بل يهتم بنجاحه في التعبير عن ذاته، ويقيس إنجازه بمدى ما تحمله الرسوم من عاطفة وروح وبهجة وصحة.



وقد أدى هذا الالتباس والخلط بين رسوم الكتب العربية ونظيراتها في دول العالم الإسلامي الأخرى إلى تكريس ظن خاطئ آخر بأن هناك تقليدًا ثابتًا في المخطوطات العربية المصورة يحتم تأطير صفحاتها بإطار مزدوج يحشى بالذهبي وينغلق على الرسوم والنصوص معًا. بينما الصحيح أن الصفحة الحرة المفتوحة هي إحدى سمات المخطوط العربي المصور، حيث لا نجد إطارات تحدد صفحات مخطوطة «الواسطي»، ولا مخطوطتي «كليلة ودمنة»، ولا «صور الكواكب الثابتة للصوفي»، ولا «حديث بياض ورياض»، بل إننا نجد صفحات هذه المخطوطات، مثل كثير غيرها، وقد شطّت انفعالات رساميها - أحيانًا - وبلغت رسومهم حواف الكتب، حتى أن الرسم كثيرًا ما ينسكب إلى خارج الصفحة في اندفاع عاطفي أخاذ.

لا يجد زائر المعرض كثيرًا من الكتب المصورة ذات الصفحات المؤطرة، سوى في قليل من المصاحف والمخطوطات المملوكية القليلة بدءًا من القرن ١٥م، وغالبًا ما كان ذلك بسبب التأثيرات الفارسية والمغولية والتركية في عصور الخضوع للحكم الأجنبي والضعف والتأثر. تلك التأثيرات السلبية التي ظلت تتفاقم حتى أجهزت آلات الطباعة على فن المخطوطات عامة.

بعد اختتام الجولة في قاعة المخطوطات المصورة، ينتقل المتفرج إلى قاعة تجليد الكتب، التي ضمت ٢٤ قطعة من تحف التجليد العربي يعود أقدمها إلى القرن الثاني عشر الميلادي (من مصر)، حيث نرى تنوعًا ثريًا يبرز الملامح الخاصة لكل منطقة ولكل عصر، من حيث المواد المستخدمة والتصميمات والصبغات والنقوش المطبوعة بالمعدن الساخن في اللونين الذهبي والفضي، وتلك المضغوطة على الجلد في غير ألوان. وتسطع الفنون والصنائع المختلفة في تنوع ثري، من سورية والعراق والمغرب وبعض سواحل غرب أفريقيا، وتنفرد مصر بحصة الأسد من بدائع التجليد في هذه القاعة، التي تفرد قسمًا صغيرًا للتجليد العثماني تعرض فيه سبع مجلدات تركية قديمة.

وقبل بلوغ ختام العرض، نصل إلى قاعة بواكير الكتب العربية المطبوعة، حيث نطالع الطبعة النادرة لأول كتاب طُبع باللغة العربية بالحروف المعدنية المتحركة في إيطاليا عام ١٥١٤م (بعد إنجيل جوتنبرج المطبوع بأقل من ستين عامًا). وبالطبع لا نرى في المعرض الكتاب الثاني الذي طبع في مدينة البندقية عام ١٥٣٨م بأحرف عربية معدنية متحركة، وهو القرآن الكريم، لأن هذا الكتاب لم يكد يرى النور حتى أمرت سلطات الفاتيكان بإتلاف كل نسخه المطبوعة، عدا نسخة فريدة هُرّبت واكتشفت عام ١٩٨٠ مخبأة في أحد الأديرة بمدينة البندقية. وتظهر في القاعة كتب أخرى طُبعت في إيطاليا باللغة العربية، فنرى طبعة أنيقة محكمة، تعود إلى عام ١٥٩٢، من كتاب الشريف الإدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

وتعرض القاعة ذاتها نسخة نادرة من أول كتاب طبع داخل حدود العالم العربي، وهو «مزمور» مطبوع باللغة السيريانية، وباللونين الأسود والأحمر، عام ١٦١٠م في مطبعة دير سانت أنطونيوس ببلدة قزحيا في جبل لبنان، على آلة الطباعة الأولى التي دخلت العالم العربي عام ١٥٨٥م (تأتي المطبعة التي جاءت مع حملة نابليون على مصر في الترتيب الرابع!). أما آلة الطباعة الثانية فقد أسسها البطريرك إثناسيوس دباس في دير بحلب الشهباء ١٧٠٦م، وتعرض القاعة أحد الكتب التي طبعتها بعنوان «الإنجيل الشريف الطاهر والمصباح الزاهر». وتأتي المطبعة الثالثة، التي أقامها البطريرك نفسه في دير شوير بجبل كسروان عام ١٧٣٤، بمعاونة الطبّاع الحلبي عبد الله زاهر، الذي قام أيضًا بسبك الحروف العربية المعدنية اللازمة لتشغيل المطبعتين الأخيرتين، والذي يظهر اسمه - أيضًا - كمترجم مشارك للكتاب المعروض «ميزان الزمان وقسطاس أبدية الإنسان» من الإيطالية إلى العربية، الذي طبعته المطبعة الكسروانية!

ثم تأتي مطبوعات درة الطباعة العربية في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، من مطبعة بولاق القاهرية التي أنشأها محمد على عام ١٨٢١، وجعل منها دارًا كبرى للنشر، نشرت ٢٤٣ كتابًا من أمهات الكتب خلال العقدين الأولين من تأسيسها، كما نشرت الصحيفة العربية الأولى: «الوقائع المصرية».

بالإضافة إلى العنوان الرئيسي للمعرض: «فن الكتاب العربي»، كان له عنوان فرعي آخر

تحتـه، هو: «من المخطوط إلى كتـاب الفنان».
وتمثل القاعة الأخيرة، التي يختتم بها مسار الزيارة، ذلك العنوان الفرعي. خصصت تلك القاعة لما سمي بـ «كتاب الفنان»، وهو مجموعة من الكتب أنجزها فنانون عرب محدثون، بالطباعة في نسخ محددة مرقمة تحمل كل منها توقيع فنانها. وتحمل بعض تلك الكتب نصوصًا أو مقاطع مختارة من نصوص، ويقتصر البعض الآخر منها على الأعمال البصرية. وكان الفنانون العرب العارضون: عبد الغني العاني، حسن المسعودي، بهنام كيرو، مهدي متشو، صالح جميعي، ضياء العزاوي (العراق) - كمال بلاطة (فلسطين) - مهدي قطبي، نور الدين أبو ريشة (المغرب) - ايتيل عدنان (لبنان) - زياد دلول (سورية) - رشيد قريشي، كمال يحياوي، طيبوشي (الجزائر) - نجا مهداوي (تونس) - أنا بوغجيان (مصر).

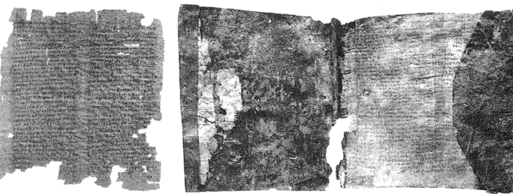
لم يتضح بجلاء الغرض والفكرة من عرض هذه المجموعة من «كتب الفنانين» العرب، حيث لا يجد الزائر المدقّق علاقة مقنعة بين تلك «الكتب» التي أنجزها فنانون عرب محدثون، وبين المخطوطات المصورة وغير المصورة والمصاحف القديمة التي ضمتها قاعات العرض المتتالية. في كثير من تلك الكتب الحديثة يتبدى قدر من الاستشراق، وشيء من محاولة بيع الطرافة و«الغموض» الشرقيين. ولا تحقق تجارب تحرير الخط العربي الواردة ضمن الأعمال العربية الحديثة نجاحًا يذكر، فلم تطلق الخط العربي من قواعده ومعاييره التي تبقيه في الأسر الشكلي المكرر في حدود الحرفة البسيطة، كما لم تمثل التجارب التي ما تزال تحافظ على هيئة الحرف العربي التقليدية تجاوزًا لأعمال الخطاطين التقليديين الذين لا يدعون لأنفسهم غير كونهم خطاطين.

ينوء عدد من الأعمال المعروضة بعبء إثقال الفنان على الصفحة بالنمنمة، وبالصبر على مكاره التكرار وشغل مساحات كبيرة بنقشات دقيقة مكررة ورتيبة بينما يفخر عدد آخر بشغور الصفحات وخلائها، وبمحاولة الإيهام بأن الإشارة المقتضبة الفقيرة التي تحملها الصفحة هي ضرب من البلاغة والإيجاز والحكمة العميقة. وبينما كانت بضاعة البعض هي شغل مساحة الصفحة بخط مكتوب مثل خط التلاميذ في دفتر مدرسي لا يقدم خبرة أو تجربة، لكنه خُطّ بألوان مائية ثمينة على ورق نادر صنع بالطريقة اليدوية - كانت بضاعة البعض الآخر أعمالا منفذة بطريقة زخرفية هندسية خليقة بأن تنفذ بخامات الرخام أو المعادن أو الخزف. ويشعر المتفرج بثقل وزن تلك الأشكال الهندسية الزائد والخطر الذي تشكله زواياها الحادة على خامة الورق الهشة.

لا نظن أن قاعة الأعمال العربية الحديثة قد حملت إضافة إلى المعرض التاريخي الفذ، ولا نظن أنها كانت ضرورية. فلننسها، لنظل نحتفظ بما شاهدناه في المعرض الأساسي بكل حرص وعناية واعتزاز ■

«كتاب الموالد» لأبي معشر البلخي، مصر، (القرن ١٥م).


مخطوطة كتبت باللغة اليونانية على البردي. أنجزت في نجع حمادي (مصر)، (القرن ٦م).







قرأت مرة عبارة طريفة في وصف ما يصدر عن البنك الدولي من تقارير وكتب، قالها الاقتصادي المصري الشهير سمير أمين، وهي: أن الحسنة الوحيدة في هذه التقارير والكتب أنك تستطيع أن تُخمِّن محتواها حتى قبل أن تقرأها!

والعبارة ما كان يمكن أن تكون طريفة على الإطلاق لولا أنها تحتوي على جزء مهم من الحقيقة. فأنت بالفعل تستغرب عندما تقرأ مختلف منشورات البنك الدولي، هذا القدر الكبير من التكرار، وهذا المعين الذي لا ينضب من التأكيد على نفس الأفكار ونفس الفلسفة ونفس التفسيرات لنجاح الدول أو فشلها، ونفس التوصيات الواجبة الاتباع لتحقيق النجاح الاقتصادي وتجنب الفشل. حتى إنه يحق للمرء أن يتساءل: كيف يتحمل هؤلاء الخبراء المرموقون، العاملون في البنك الدولي، والمتميزون بذكائهم ومستوى تعليمهم، بل وفي بعض الأحيان باتساع ثقافتهم أيضاً، كيف يتحملون أن يكتبوا أو يقرأوا أو يقولوا أو يسمعوا نفس الكلام يتكرر على مدى الخمسين عاماً الماضية؟

هذا الاستغراب ربما يزول إذا أدركنا الحقيقة الآتية، وهي أن منشورات البنك الدولي وتقاريره وكتبه ليست ككتب أي مؤلف آخر يكتب ليعبِّر عن رأيه ومعتقداته، فيُسَرُّ إذا صادف من الناس قبولاً، وقد يهمه أن يعرف آراء وحجج مخالفه، وقد يكون على استعداد لتغيير رأيه إذا وُوجه بحجج معارضة قوية. ليس هذا هو حال البنك، بل البنك في نشره وتأكيده المستمر على مجموعة من الأفكار والتوصيات، أقرب إلى صاحب المنشور الانتخابي أو الدعائي، يهمه الترويج لأفكار معيَّنة أكثر مما يهمه الوصول إلى الحقيقة. قد يستخدم أسلوب الإقناع، ولكنه هو نفسه ليس على استعداد لتغيير رأيه. بل إنه في محاولة الإقناع أو الترويج هذه لا يتورع أحياناً عن استخدام بعض الأساليب التي قد يعتبرها كثير من المؤلفين أساليب غير مشروعة. فهو قد يستخدم عناوين وشعارات برَّاقة وغير محايدة تماماً، وقد يستخدم الصور إلى جانب الكلام في محاولة التأثير على القارئ. والأهم من ذلك أنه كثيراً ما يمتنع عن التصدي لقضايا أساسية تتعلق بالموضوع الذي يتكلم فيه، كالبطالة مثلاً أو توزيع الدخل، إذا كان الكلام عنها من شأنه أن يعطل من الأثر العام الذي يريد إحداثه. كما قد يمتنع عن نشر إحصاءات تتعارض مع الهدف الذي يرمي إليه، رغم توافر هذه الإحصاءات وأهميتها.

لا عجب، إذا كان الأمر كذلك، أن منشورات البنك وتقاريره نادراً ما تحتوي على اسم المؤلف، إذن من هو المؤلف؟ إنه قد يكون مجموعة من الأشخاص، كتب كل منهم جزءاً ثم ضُمت الأجزاء في تقرير واحد بعد أن أُجري عليها ما لزم من تغييرات وحذف وإضافة. ولا أظن أن مؤلفاً يحب أن يظهر اسمه على عمل جرى عليه كل هذا التغيير دون استشارته.

كما أن البنك لا يحب بدوره أن يذكر اسم المؤلف على نحو يحمِّل هذا المؤلف المسئولية عما كتب، إذ إن هذا يحرم البنك من حرية التغيير والحذف والإضافة. لا بأس من ذكر اسم المؤلف أو أسماء المؤلفين مقترنة بتوجيه الشكر إليهم، ولكن دون أن يتضح قط ما هو الجزء الذي كتبه هذا المؤلف أو ذاك، وما هي إضافات البنك والمحررين المجهولين.

كانت نتيجة هذا أن أصبحت تقارير البنك الدولي، على الرغم من ثباتها على فلسفة واحدة لا تتغير، لا شخصية لها ولا لون ولا طعم ولا رائحة. إنها كالمرأة ذات الملامح المتسقة اتساقاً تاماً، وكأن أحجام الأنف والفم والأذنين والعينين قد تم اختيارها بالرجوع إلى مقاييس معروفة ومتفق عليها في تعريف الملامح الجميلة، كما أنها رائعة الثياب وكاملة الهندام، ومع ذلك فهي ثقيلة الظل بدرجة منقطعة النظير، بل ولا تحمل ملامحها وتقاطيع وجهها أية جاذبية تثير لديك أية رغبة في إطالة المكوث معها. إنها مؤدبة قطعاً، ولا تستخدم قط أي تعبير بذيء، كما أنها لا تبالغ في التعبير عن مشاعرها، ولكنها تخلق لديك انطباعاً بأنها قد لا تكون لديها أية مشاعر على الإطلاق.



كل هذا يجعل عبارة سمير أمين، التي اقتطفتها في بداية المقال، قريبة جداً من الصحة. ومع ذلك فإني أريد أن أورد عليها التحفظين الآتيين:

التحفظ الأول: يتعلق بأن هذه «الميزة» التي أشار إليها سمير أمين ليست هي «الميزة الوحيدة» في مطبوعات البنك، فهناك ميزة أخرى، حقيقية هذه المرة. فأنا مثلاً - وأعتقد أن هذا ينطبق أيضاً على كثيرين غيري - لا أقرأ مطبوعات البنك من أجل اكتساب أفكار أو من أجل اكتشاف موقف البنك أو لمعرفة التفسير الحقيقي للنجاح الاقتصادي الذي حققته دولة ما أو فشل دولة أخرى، ولا للاطلاع على ما يعتقد البنك أنه سياسات واجبة الاتباع. فكل هذا معروف بالفعل ومشهور.

وإنما أقرأ هذه المطبوعات في الأساس للحصول على بيانات إحصائية، فهذه في نظري هي الخدمة العظمى التي قدمها البنك الدولي لقضية التنمية خلال الخمسين عاماً الماضية. إني أعرف جيداً، كما يعرف كثيرون، أن معظم الأرقام التي ينشرها البنك مستمدة من الدول التي تتعلق بها هذه الأرقام، ومن ثم فإنها تعاني من مختلف النقائص المعروفة في الإحصاءات القومية. ولكن هذا الجمع والاستقصاء والشمول والتبويب والتحقق من إمكانية المقارنة بين بيانات دولة وأخرى، واستكمال الثغرات، بل وحث الدول على جمع ونشر بيانات لم تكن متوافرة من قبل، فضلاً عن تحليل هذه الإحصاءات واستخراج مدلولاتها المباشرة واتجاهاتها.. إلخ، كل هذا يمثل في رأيي ورأي كثيرين، أهم ما تحتويه منشورات البنك الدولي.

بل أصارح القارئ أنني، فيما عدا هذا، لا أنفق وقتاً طويلاً على مطبوعات البنك (وكذلك مطبوعات صندوق النقد الدولي)، وأظن أن هذا هو حال كثيرين من الاقتصاديين، فالباقي، كما أشرت وأشار سمير أمين، هو في أغلب الأحيان تكرار لأشياء سبق قولها.

أما التحفظ الثاني: فيتعلق ببعض التغيرات التي تطرأ على شعارات البنك من حين لآخر، مما قد يوحي أحياناً بأن الموقف قد طرأ عليه تغير، أو أن البنك هجر فلسفة لاعتناق أخرى، أو أدرك أنه كان على خطأ في إحدى توصياته فعاد إلى الصواب. حدث هذا مثلاً عندما رفع روبرت ماكنمارا في أوائل السبعينيات، أثناء رئاسته للبنك، شعار «إن المعونات التي يقدمها البنك لن تفيد الفقراء إلا إذا وصلت بالفعل إلى «هؤلاء الفقراء»، قاصداً أن المشروعات التي يموِّلها البنك يجب أن يُتأكد أن ثمارها تعود على الفقراء أنفسهم، وكذلك عندما نشر البنك في نفس ذلك الوقت كتاباً شهيراً بعنوان «إعادة التوزيع مع النمو» (Redistribution with Growtn) الذي يؤكد على ضرورة الاهتمام بقضية توزيع الدخل إلى جانب التنمية، ثم عندما تبنى البنك شعار إشباع الحاجات الأساسية في منتصف السبعينيات، وعندما بدأ ينظر بعين العطف في بداية التسعينيات إلى شعار «التنمية البشرية» (Human Development)، وعندما أقر منذ أعوام قليلة بأن تشجيع القطاع الخاص ودعمه لا يعني بالضرورة أن الدولة ليس لها مسئوليات مهمة في تنمية الاقتصاد.

وأخيراً طلع علينا منذ شهور قليلة تقرير



تقارير البنك الدولي، على الرغم من ثباتها على فلسفة واحدة لا تتغير، لا شخصية لها ولا لون ولا طعم ولا رائحة. إنها كالمرأة ذات الملامح المتسقة اتساقاً تاماً، ومع ذلك فهي ثقيلة الظل بدرجة منقطعة النظير، بل ولا تحمل ملامحها وتقاطيع وجهها أي جاذبية تثير لديك أي رغبة في إطالة المكوث معها



كان تعبير «الفقر والجهل والمرض» هو أكثر التعبيرات شيوعاً في ذلك الوقت لتحديد مشاكل مصر الاقتصادية الأساسية. وقد يبدو هذا التحديد شبيهاً أو قريباً جداً من تحديد المشكلة بأنها «مشكلة انخفاض متوسط الدخل للدولة المصرية» ولكن الحقيقة ليست كذلك



1- World development report
2000/2001 Attacking Poverty,
(تقرير التنمية الدولية ٢٠٠٠-٢٠٠١ الهجوم على الفقر)
World Bank
Oxford Universty press, 2001, pp, VVI.

2 - Development as Freedom,
(التنمية كرمز للحرية)
Amartya Sen
Oxford Universty press, 1999

البنك الذى يصدره سنوياً تحت عنوان «تقرير التنمية فى العالم» (World Development Report) عن سنة ٢٠٠٠ / ٢٠٠١، فإذا بالبنك يتكلم وكأنه قد اكتشف لأول مرة وجود فقراء فى العالم، بعد فترة طويلة ظن فيها أن المشكلة هى مجرد مشكلة «تنمية»، فإذا بعنوان هذا التقرير الأخير هو «الهجوم على الفقر» (Attacking Pventy) وإذا بالتقرير يعرض المشكلة التى يريد التصدى لها بقوله إنه لا يكفى مجرد العمل على زيادة متوسط الدخل للدولة ككل، بالرغم من أهمية ذلك، ولكن لابد من التصدى مباشرة لتحسين حال الفقراء.. يقول التقرير:

«إن هذا التقرير يقبل الرأى المستقر الآن: فإن الفقر لا يشمل فقط انخفاض مستوى الدخل والاستهلاك ولكنه يشمل أيضاً انخفاض مستوى التعليم والصحة والتغذية وغير ذلك من عناصر التنمية البشرية. كما أن هذا التقرير، استناداً إلى ما يقوله الفقراء عن معنى الفقر بالنسبة لهم، يوسّع تعريف الفقر بحيث يشمل الافتقار إلى المساهمة فى السلطة وإلى حرية التعبير، كما يشمل شدة المخاطر والمخاوف التى يتعرض لها المرء فى حياته. هذه الأبعاد المختلفة «للحرمان» برزت لنا بوضوح من دراستنا المعنونة «أصوات الفقراء» (Voices of the Poor) التى أجريت كعمل تمهيدى لهذا التقرير، وهى دراسة عملية لآراء وأقوال أكثر من ٦٠٠٠٠ رجل وامرأة ممن يعانون من الفقر فى ٦٠ دولة.. إن القرن العشرين قد شهد تقدماً كبيراً فى التخفيف من مشكلة الفقر فى العالم وتحسين مستويات المعيشة، وفى العقود الأربعة الأخيرة ارتفع متوسط العمر المتوقع لدى الميلاد فى البلاد النامية بمقدار عشرين عاماً فى المتوسط.. وفى الفترة ١٩٦٥ - ١٩٩٨ زاد متوسط الدخل فى البلاد النامية بأكثر من الضعف، وفى السنوات ١٩٩٠ - ١٩٩٨ وحدها انخفض عدد الذين يعانون من الفقر المدقع (Extreme Poverty) بمقدار ٧٨ مليونا.

ومع ذلك فلازال الفقر، فى مطلع القرن الجديد، ظاهرة شائعة ومتعددة الأبعاد. فمن بين سكان العالم البالغ عددهم ٦ بلايين نسمة، لازال ٢,٨ بليون شخص يعيشون على أقل من دولارين فى اليوم، و١,٢ بليون شخص يعيشون على أقل من دولار واحد فى اليوم. ولازال ستة من بين مائة طفل يموتون قبل أن يبلغ عمرهم سنة واحدة، وثمانية من كل مائة لا يبلغون سن الخامسة. ومن بين من يبلغون سن دخول المدارس يعجز ٩ من الذكور و١٤ من الإناث عن الالتحاق بالمدرسة...» ويستطرد التقرير فيقول:

«لقد تعلمنا فى السنوات السابقة أن الاستراتيجيات المعروفة لرفع معدلات النمو (والتى تشمل السياسات الاقتصادية الكلية وإجراءات الإصلاح التى تزيد من الاعتماد على قوى السوق الحرة) هى عناصر ضرورية لتخفيض ظاهرة الفقر. ولكننا الآن نعرف أيضاً مدى الحاجة إلى وضع تأكيد أكبر على الأسس المؤسسية (institutunil) والاجتماعية لعملية التنمية وضرورة التأكيد على مواجهة ظاهرة الضعف التى تواجهها شرائح من السكان أمام مختلف الأخطار التى يخلقها الفقر (Vulnerability) وعلى زيادة درجة مساهماتهم فى هذه العملية بما يضمن أن يجعل النمو شاملاً أو مستوعباً للجميع (Inclusuie growtn)».

هكذا يقدم البنك الدولى تقريره الأخير عن التنمية فى العالم، ثم يشرع بعد هذا فى فصل بعد آخر فى مناقشة «طبيعة وتطور مشكلة الفقر» ثم «أسباب الفقر وطرق علاجه» سواء على مستوى الدولة الواحدة أو على المستوى العالمى.

والجهد يبدو لأول وهلة مشكوراً، إذ إنه يقدم بحثاً تفصيلياً مدعماً بالأرقام لقضية لاشك فى أهميتها على المستوى الاجتماعى والسياسى والإنسانى، ولكنى لا أكتم عن القارئ ما شعرت به من دهشة شديدة، وأنا أطالع هذا الجزء أو ذاك من التقرير، وتساءلت باستغراب: «هل كان البنك الدولى فى حاجة حقاً لمرور خمسين عاماً على إنشائه وعلى بداية اهتمامه بمشاكل الدول الفقيرة، حتى يصل إلى هذه النتائج التى وردت فيما اقتطفته حالاً من التقرير؟ لقد كان المفروض أن يكون كل هذا واضحاً تمام الوضوح منذ خمسين عاماً على الأقل، فإذا أعيد طرحه الآن بهذه الطريقة، وكأن الأمر يمثل اكتشافاً للبنك وعودة إلى الحق بعد ضلال طويل، فلابد أن يثير الأمر ليس مجرد الدهشة بل وأيضاً الكثير من الشك، فى حسن نية البنك وصدق اهتمامه بقضية فقر الفقراء تمييزاً لها عن قضية توسيع دائرة العمل أمام قوى السوق الحرة. هذا الشك هو ما سأحاول أن أوضحه فى هذا المقال ببعض التفصيل.

إذا سألت أى شخص يتمتع بفطرة سليمة عن ماهية مشكلة الفقر، فلابد أنه سيقول لك إنها مشكلة وجود أعداد من الناس العاجزين عن إشباع بعض الحاجات الإنسانية الأساسية، كالغذاء والملبس والمسكن المناسب. وربما أضاف إلى ذلك المستوى اللائق من بعض الخدمات الأساسية كالتعليم والصحة ووسائل الانتقال من مكان لآخر.. إلخ. لابد أن مثل هذا الشخص يدرك أيضاً بوضوح تام أن شعار التنمية لا يمكن أن يعنى إلا محاولة القضاء على هذه المشكلة، وأن أى شعار يدور حول رفع مستوى رفاهية الأمة لابد أن يقصد به فى النهاية هذا الهدف بالذات: وهو القضاء على فقر الفقراء أو التخفيف منه. إذا صادف مثل هذا الشخص من يقول له: إن الهدف هو التنمية، وأن التنمية معناها رفع متوسط الدخل للدولة ككل، فالأرجح أنه سوف يقول لنفسه: «إن هذا طريق ملتو بعض الشىء للتعبير عن الهدف الأساسى والنهائى وهو



القضاء على فقر الفقراء. إنه أشبه بإجابة جحا على سؤال عن مكان أذنه البعيدة بينما كان في استطاعته بسهولة أن يلمس أذنه الأقرب. ومع ذلك فلا بأس من هذا التعريف الملتوى للتنمية بشرط أن نظل نتذكر دائماً أن مقصدنا الأساسى وهدفنا الحقيقى هو القضاء على فقر الفقراء».

الفقر والجهل والمرض:

هذا هو فيما أظن موقف الشخص ذى الفطرة السليمة. وقد كان هذا على ما أذكر موقفنا جميعاً من قضية الفقر والفقراء منذ نحو خمسين عاماً، أى قبل أن تشيع شعارات التنمية وتعبيرات من نوع «الدول المتقدمة والدول النامية» لازلت أذكر جيداً، على سبيل المثال كيف كانت الصحف والمجلات والخطب المصرية تشير إلى المشكلة الاقتصادية الأساسية فى مصر، خلال الأربعينيات. كان تعبير «الفقر والجهل والمرض» هو أكثر التعبيرات شيوعاً فى ذلك الوقت لتحديد مشاكل مصر الاقتصادية الأساسية. وقد يبدو هذا التحديد شبيهاً أو قريباً جداً من تحديد المشكلة بأنها «مشكلة انخفاض متوسط الدخل للدولة المصرية» ولكن الحقيقة ليست كذلك. كان الذين يتكلمون عن «الفقر والجهل والمرض» يقصدون أن هناك شرائح كبيرة من سكان مصر يتركزون أساساً فى الريف المصرى، ويعانون من انخفاض دخلهم أو بالأحرى عجزهم عن إشباع بعض الحاجات الأساسية، وكانوا يقصدون بذلك على الأخص ماء الشرب النقى، والمسكن الصالح للآدميين، والكمية اللازمة من البروتينات للوقاية من بعض الأمراض، والتخلص من مرض البلهارسيا الشائع، إلى جانب الخدمات الصحية الأساسية فى القرى ومحو الأمية. كان النهوض أو التقدم الاقتصادى يعنى التقدم فى هذه الميادين، ولم يكن ليتبادر إلى الذهن بسهولة أن النهوض الاقتصادى معناه فى الأساس رفع متوسط الدخل للدولة المصرية أو رفع معدل النمو لهذا المتوسط.

كان تقدير متوسط الدخل فى ذلك الوقت، أى فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين، بنحو مائة دولار فى السنة تقديراً جزافياً بحتاً، يعرف الجميع قلة حظه من الدقة، كما أنه لم يكن يحظى بالذكر بمناسبة وبغير مناسبة، كما يحدث الآن مع متوسط الدخل ومعدلات النمو. وعلى أى حال فقد كان حساب متوسط الدخل فى الدول الفقيرة، التى سميت بعد ذلك بقليل بالدول المتخلفة أو دول العالم الثالث، أمراً غير شائع بالمرة، ليس فقط لندرة الإحصاءات القومية، ولكن أيضاً لأن فكرة قياس التقدم بمقياس متوسط الدخل للدولة ككل لم تكن شائعة بدورها.

على أنه، لم يمض وقت طويل على إنشاء هيئة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة العديدة، فى أعقاب الحرب، حتى تبنت هذه المؤسسات تعبير «الدول المتخلفة» (Underdeveloped Countries) كما تبنت تعريف التخلف «انخفاض متوسط الدخل للدولة ككل» وسرعان ما بدأ تدفق الجداول الإحصائية الخارجة من هذه المؤسسات، وهى جداول ترتب الدول بعضها فوق بعض فى مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وتكاد تقوم كلها على «متوسطات» تتعلق بالدولة ككل، فتقارن الدول بعضها ببعض، من حيث تقدمها أو تخلفها فى هذه المتوسطات. فإلى جانب متوسط الدخل، كان هناك متوسط استهلاك السعرات الحرارية والبروتينات، ومتوسط العمر المتوقع لدى الميلاد، وعدد الأطباء وأسرَّة المستشفيات لكل ألف من السكان، كمؤشر لحالة الصحة، وعدد الأشخاص للحجرة الواحدة، كمؤشر لحالة السكن، بل وعدد نسخ الصحف والمجلات منسوباً لعدد السكان، كمؤشر لمدى انتشار معرفة القراءة والكتابة.. إلخ. وهو الذى يذكر المرء بما يحدث عند القبض على مجرم خطير، فلا يكتفى بالتقاط صورة أمامية له تظهر ملامحه الرئيسية، بل تلتقط له صور من كل الجوانب، من الأمام ومن الخلف ومن كلا الجانبين، حتى تتوثق معرفتنا به ولا يبقى أدنى شك فى تحديد شخصية مرتكب الجريمة. والجريمة هنا هى بالطبع انخفاض متوسط الدخل.

شعار اللحاق بأمريكا وسد الفجوة بيننا وبينها:

كان لابد أن يثور التساؤل عما هو بالضبط ذلك المستوى من متوسط الدخل الذى تُعتبر الدولة إذا قل دخلها عنه «دولة متخلفة» وإذا زاد دخلها عنه تصبح «دولة متقدمة» وكان أول اقتراح هو اتخاذ متوسط الدخل فى الولايات المتحدة أساساً تقاس بالمقارنة به سائر الدول الأخرى. فالدولة متخلفة إذا قل متوسط دخلها عن ربع أو عشر متوسط الدخل الأمريكى، ومتقدمة، أو على الأقل غير متخلفة، إذا زاد متوسط دخلها عن ذلك. هكذا دأبت الكتب الأولى الصادرة عن التخلف والتنمية أن تفعل، كلما أرادت التمييز بين هذه الدول وتلك. ثم تبين أن هذا يمكن أن يؤدى إلى بعض النتائج الغريبة إذ يستيقظ سكان إحدى الدول فى الصباح فيجدوا أن دولتهم لم تعد دولة متخلفة، بينما كانت تعتبر كذلك فى اليوم السابق، إذا حدث وأصابت الولايات المتحدة كارثة اقتصادية أدت إلى انخفاض كبير فى متوسط دخلها، كذلك تبين عدم ملاءمة هذه الطريقة عندما فقدت الولايات المتحدة المكانة فى ترتيب متوسط الدخل واحتلتها بدلاً منها بعض الدول الأوروبية، ولم تعد أعلى الدول فى متوسط الدخل فى هذه السنة هى بالضرورة أعلاها فى السنة التالية.

فى أواخر الستينيات اقترح رقم ثابت لمتوسط الدخل، وهو ٥٠٠ دولار كحد فاصل بين التقدم والتخلف، وطُبّق هذا المعيار بضع سنوات ثم اكتشف أيضاً عدم صلاحيته بسبب ما لابد أن يطرأ على القيمة الحقيقية للدولار من تغير بين سنة وأخرى، فضلاً عن أن مرور الزمن لابد أن يجعل متوسط الدخل الذى كان مرضياً من قبل لا يمثل مستوى كافياً من الطموح للدول منخفضة الدخل، فإذا بالخمسمائة دولار تبدو منخفضة للغاية كهدف ترمى هذه الدول إليه.

فى مثل هذا المناخ سرعان ما انهمك اقتصاديو التنمية فى حديث لا ينقطع عن حجم الفجوة (The Gap) التى تفصل بين الدول المتخلفة والمتقدمة.

وما أكثر ما كُتب فى قياس هذه الفجوة وتصويرها، هى بدورها، من كل زاوية من الزوايا، مرة فى اللحظة الراهنة وهى ساكنة، ومرة وهى متحركة عبر فترة طويلة من الزمن، كمائة عام أو مائتين. كما راح البعض يحسب لنا عدد السنوات التى تحتاج إليها كل دولة من الدول المتخلفة «لسد الفجوة» الفاصلة بينها وبين الولايات المتحدة، فوجدوا أننا إذا افترضنا أن دولة ما، كسيريلانكا مثلاً سوف يستمر متوسط الدخل فيها فى النمو بنفس معدل نموه خلال الستينيات، وافترضنا أيضاً أن الولايات المتحدة سوف تنمو كذلك بنفس معدل نموها فى الستينيات، فإن سيريلانكا تحتاج إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة للحاق بالولايات المتحدة، أى لكى يصل متوسط دخلها إلى مستوى متوسط الدخل فى الولايات المتحدة. أما الدول التى كان معدل نموها أقل من معدل نمو الولايات المتحدة، (مثلما كان الحال فى مصر فى الستينيات) فقد كتب بجوار اسمها حرفان هما (N.S) أى «لا حل» (No Solution)، إذ كيف يمكن لدولة متخلفة عن غيرها أن تلحق بهذه التى تسبقها، إذا كانت - فضلاً عن تخلفها - تسير أيضاً بسرعة أقل من سرعة الدولة المتقدمة عنها؟

كان المطلوب منا، لدى قراءتنا لهذه الكتابات، أن نذرف الدموع بالطبع حزناً وحسرة على صعوبة اللحاق بالدول المتقدمة. ولكن هذه الكتابات كانت فى نفس الوقت تحاول أن تتجنب تجنباً تامّا أن يصيبنا اليأس. الشعور بالأسف أو الحسرة لا بأس به، إذا كان يدفعنا إلى المزيد من محاولة اللحاق وعبور هذه الفجوة المشئومة، أما اليأس فخطير، إذ مؤداه أن نتوقف عن السير وراء الدول المتقدمة نقتفى أثرها خطوة بخطوة، وقد يؤدى إلى النتيجة الخطيرة التالية: وهى أن نبحث لأنفسنا عن هدف آخر أقرب إلى الواقعية، إذ ربما اكتشفنا وهذا هو الخطير فى الأمر، أن ذلك الهدف الآخر ليس فقط أقرب إلى الواقعية بل هو أيضاً هدف أفضل وأثمن.

ذلك أن الانهماك فى محاولة سد الفجوة بين متوسطات الدخول لابد أن يصرف نظرنا، ليس فقط عن العمل المباشر لرفع مستوى معيشة شرائح معينة من السكان، هى الشرائح الفقيرة بالفعل، بل لابد أن يصرف نظرنا أيضاً عن أية محاولة للتساؤل عن المعنى الحقيقى للنهضة، وعما إذا كان رفع متوسط الدخل قد يتعارض مع أهداف أخرى لا تقل أهمية كتغيير المقررات التعليمية مثلاً، أو استخدام التليفزيون استخداماً أفضل، أو ابتداع طريقة للمواصلات أقل تكلفة من حيث آثارها على البيئة والمجتمع من السيارة الخاصة، بل وقد يتعارض حتى مع زيادة فرص العمالة المتاحة.. إلخ. وبعبارة أشمل، لابد أن يؤدى الانهماك فى هدف سد الفجوة بين متوسطات الدخول إلى صرف أنظارنا عما يمكن أن يحدثه السير نحو هذا الهدف من ضرر لثقافتنا الخاصة، بأوسع معانى لفظ «الثقافة»، أى التخلى عن كل ما يميزنا عن غيرنا. فإذا بنا، إذا قدّر لنا بالفعل أن نسد الفجوة، قد أصبحنا مثلهم، ليس فقط فى متوسط الدخل.. بل أيضاً فى كل شىء: أنماط السلوك، وطريقة التفكير، وفلسفة الحياة.. إلخ.

فى غمار هذا الانهماك فى سد الفجوة بين متوسطات الدخول، تجرأ أستاذ فى الأنثروبولوجيا، وليس فى الاقتصاد، أن يقدم تعريفًا للتنمية (development) يختلف عن تعريف الاقتصاديين لهذا اللفظ، فقال إن التنمية هى «التحقيق المتزايد لقيم وثقافة المجتمع الخاصة»، ولكن مثل هذه التدخلات والمعارضات لم يكن من الممكن أن تنجح فى الصمود فى وجه «وابور الزلط» الاقتصادى، الذى يكتسح أمامه كل شىء، ويقضى على أى شىء لا يمكن إدخاله فى حساب «متوسط الدخل».

ثلاث حماقات وأربعة أعذار:

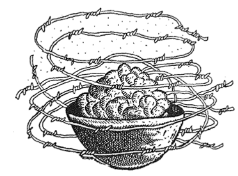
الخلاصة أن تشخيص مشكلة البلاد الفقيرة على أنها مشكلة انخفاض متوسط الدخل كان ينطوى على ثلاث حماقات قاتلة:

الحماقة الأولى: هى الانشغال «بمتوسط» عن الاهتمام بأمر الفئات المحرومة بالفعل. والحماقة الثانية: هى تعليق أهمية مبالغ فيها على ما يمكن حسابه بالأرقام وإهمال أشياء أخرى قد لا تقل أهمية، ولكن ليس من السهل التعبير عنها رقميًا. والحماقة الثالثة: هى الانشغال باللحاق بالغير، فى الصالح والطالح، طالما كان هذا ينعكس فى زيادة متوسط الدخل، بدلاً من الاهتمام بما هو أجدر وأنفع من أمورك أنت الخاصة.

ومن المحزن الآن أن ندرك السهولة التى تم بها منذ خمسين عامًا إقناعنا بمعيار «متوسط الدخل» كمقياس للتقدم الاقتصادى أو التأخر. كان علينا أن نقاوم الفكرة ونتصدى لها، ولكننا قبلناها دون تردد، وابتلعناها بسرعة ولم



الغالبية العظمى من الناس ليس لديهم وسيلة لمعرفة صحة أو خطأ الطريقة التى استخدمت لحساب الأرقام، ولا ندرى ما إذا كان معدل ٤٪ أو ٥٪ مرتفعا أم منخفضا، ولكن إذا أعلنت الحكومة أنه رقم معقول فلا بد أنه معقول!!



نكتشف خطأنا إلا بعد أن بدأنا نشعر بآثار السم الذى أخذ يسرى فى الدم.

نعم، قد يكون لنا بعض الأعذار. «فمتوسط الدخل» رقم بسيط يلخص أمورًا كثيرة، ومن ثم فإنه رغم عيوبه الخطيرة معيار سهل الاستخدام، وما أسهل أن يستخدم فى ترتيب البلاد بعضها فوق بعض، وفى قياس مدى تقدمك أو تأخرك، ومدى ما أحرزته كل عام من نجاح أو فشل، وما أسهل أن يتجاهل الناس أمورًا مهمة كان من الواجب إدراجها فيه ولم يتم إدراجها (كخدمات ربات البيوت مثلاً أو كثير جدًا من السلع والخدمات التى تنتج وتستهلك دون أن تباع فى الأسواق).



والحكومات، خاصة حكومات البلاد الفقيرة، تحتاج إلى رقم مثل متوسط الدخل ترفعه كشعار، وتصدّع به رءوس شعوبها ليل نهار، فتعلن تارة أن هدفها مضاعفته، وتارة أنها حققت ما أرادت تحقيقه بشأنه بل وتجاوزته، وتباهى به سائر الأمم، وتبرر به ما تتخذه من وسائل القمع، وتلهى به الناس عن مختلف أنواع الظلم أو الفساد، إذ أن كل هذا يهون فى سبيل رفع معدل نمو متوسط الدخل. والغالبية العظمى من الناس ليس لديهم وسيلة لمعرفة صحة أو خطأ الطريقة التى استخدمت لحساب الأرقام، ولا ندرى ما إذا كان معدل ٤٪ أو ٥٪ مرتفعًا أم منخفضًا، ولكن إذا أعلنت الحكومة أنه رقم معقول فلا بد أنه معقول!!

والاقتصاديون والإحصائيون يفضلون بدورهم أن يحتل متوسط الدخل هذه الأهمية إذ إن إسباغ أهمية على أمور أخرى من التى يصعب أو يستحيل حسابها، يقلل من قيمة ما يقومون به من حسابات، ويفقدهم جزءًا من الوجاهة التى يسبغها على المرء التعامل بالأرقام، فالأرقام تم اعتبارها منذ زمن بعيد وكأنها مرادفة للعلم، فكلامك علمى «وموضوعى» بمقدار ما يعتمد على الأرقام، وليس من السهل على الشخص قليل الحظ والتعليم، أن يدرك أن جمع الإحصاءات وتحليلها كثيرًا ما يكون أقل حظًا من العلم والموضوعية وأكثر تحيزا من تعبيرات خالية تمامًا من الأرقام.

متوسط الدخل وتوزيع الدخل:

ولكن ربما كان أهم ما سهّل الوقوع فى هذا الخطأ (خطأ التركيز على انخفاض متوسط الدخل كتشخيص لمشكلة الدول الفقيرة)، وجعل هذا الشىء القبيح يبدو فى أعيننا جميلاً، هو أنه قدم إلينا مرتبطًا بفكرة عن العدالة الاجتماعية تصور قضية العدل على أنها قضية «توزيع». هذا التصوير لفكرة العدل، قبلناه أيضًا بحسن نيّة ودون تأمل كاف فى حقيقته، فإذا بالفكرتين معًا: فكرة أن «التقدم» هو زيادة متوسط الدخل»، وفكرة أن «العدالة الاجتماعية هى حسن توزيع الدخل»، يسهل ابتلاعهما معًا، على الرغم من صعوبة قبول كل منهما على حدة.

فالقول بأن مشكلة العدالة الاجتماعية هى مشكلة «توزيع الدخل»، يفترض وجود شىء واحد كامل (ككعكة كبيرة مثلاً، كما يحلو للاقتصاديين أحيانًا أن يقولوا)، تجرى بعد ذلك تجزئته وتوزيعه بين عدد من الأفراد، والعدل هو ألا تزيد نصيب أحدهم زيادة كبيرة (أو لا يزيد على الإطلاق) على نصيب كل من الآخرين، وهذا الشىء الواحد الكامل (أو الكعكة الكبيرة) هو الدخل القومى، وهو ما يجرى توزيعه على مختلف أفراد وشرائح المجتمع. هذه الطريقة فى تصوير الأمر من شأنها أن توحى للمرء بأن أى زيادة فى حجم الكعكة من شأنها أن تصيب المجتمع بالخير فى النهاية، أو على الأقل أن أى زيادة فى حجمها يمكن بسهولة أن يفيد منها المجتمع، لو افترضنا فقط سياسة رشيدة فى «التوزيع»، إذا كان الأمر كذلك، فإن هدف زيادة الدخل الإجمالى (وبالتالى زيادة متوسط الدخل أيضًا) يصبح هدفًا مشروعًا وجديرًا بالسعى من أجله، طالما أن المرء يفترض ضمنًا أن سياسة رشيدة فى توزيع الدخل آتية لا ريب فيها.

لقد سخر الكاتب البريطانى برنارد شو سخرية لاذعة من هذا الظن، عندما سأله سائل: «كيف تتحمل يا مستر شو أن تكون لك لحية كثيفة وطويلة بهذا الشكل، وفى نفس الوقت تكون لديك صلعة جرداء ليس فيها شعرة واحدة؟» فقال برنارد شو: «إن المشكلة ليست مشكلة نمو، بل هى مجرد مشكلة توزيع!». إن السبب الذى يجعلنا نضحك إذ نسمع هذه الإجابة هو أعمق مما قد نظن. فبرنارد شو يقول فى الواقع: إننا إذا اعتبرنا أن مشكلته هى «مشكلة توزيع» فإن حلها يكون سهلاً جدًا، إذ ليس علينا إلا أن ناخذ بعض الشعر من اللحية ونضعه فى قمة الرأس، ولكن الحقيقة بالطبع ليست كذلك. فما نبت فى اللحية يصعب نقله، ولابد أن يكون علاج الصلع من البداية بعمل مباشر لإنبات الشعر فى قمة الرأس.

التنمية كتوسيع دائرة الاختيار:

ربما ساعد أيضًا على تسهيل وقوعنا فى هذا الخطأ، تلك الحجة الشهيرة التى قدمها الأستاذ آرثر لويس (Arthur Lewis) لتبرير التنمية، أو لتفسير اعتبارها هدفًا جديرًا بالسعى من أجله، وذلك فى فصل شهير وضعه فى آخر كتابه «نظرية النمو الاقتصادى» (The Theory of Economic Growth) الذى نشر فى منتصف الخمسينيات، وظل يعتبر (بل وربما لا يزال يعتبر حتى الآن) من أفضل ما كتب فى نظرية التنمية خلال الخمسين عامًا الماضية.

كانت حجة آرثر لويس فى تبرير التنمية، لا تميز بين زيادة دخل الفقير وزيادة دخل الغنى، بل تبرر زيادة الدخل بصفة عامة، فقال: إن زيادة الدخل مرغوب فيها لأنها «توسع دائرة الاختيار»، ويقصد بذلك أن شخصًا دخله مائة دولار فى الشهر لا بد أن تكون السلع والخدمات التى يستطيع الحصول عليها أو الاختيار بينها محدودة للغاية، بالمقارنة بالسلع والخدمات المتاحة لشخص دخله ألف دولار فى الشهر. كلما زاد الدخل كلما زادت الاحتمالات والفرص، وزاد عدد أصناف الطعام التى يمكن الاختيار بينها، وعدد البلاد التى يمكن أن تقرر أن تقضى فيها عطلتك، وعدد أصناف السيارات التى يمكن أن تقتنى واحدًا منها.. إلخ.

هذا التبرير لزيادة الدخل يبدو منطقيًا ومعقولاً تمامًا، ولكن لا بد أن نلاحظ أيضًا أنه لا يميز بين توسيع دائرة الاختيار أمام شخص فقير وتوسيعها أمام شخص ثرى. إنه لا يميز مثلاً بين إتاحة الفرصة أمام شخص فقير لتناول اللحم هو وأولاده مرة فى الشهر، بدلا من الانتظار حتى يأتى عيد من الأعياد، وبين إتاحة الفرصة لشخص ثرى للاختيار بين قضاء عطلته فى جزر هاواى أو فى بلد قريب من بلدته، بدلاً من اضطراره إلى قضائها فى هذا البلد القريب دون غيره لأن دخله لا يسمح بأكثر من ذلك.

إن آرثر لويس لم يرتكب، فى دفاعه هذا، خطأ منطقيًا، وإنما أخطأ فقط فى عدم تمييزه بين المهم والأقل أهمية، ومن ثم أتاح الفرصة للتركيز على «متوسط الدخل» للدولة ككل، دون تمييز بين مستويات الدخول المختلفة داخل الدولة، ومن ثم أصبحت كل زيادة فى متوسط الدخل مطلوبة وجديرة بالسعى من أجلها، بصرف النظر عمن يحصل عليها، وتم تأجيل بحث زيادة دخل الفقراء إلى حين بحث مسألة «التوزيع»، التى قد لا يتسع وقت الباحث لبحثها.

صياغة جديدة لخطأ قديم:

منذ سنتين وقع اقتصادى كبير آخر فى نفس الخطأ، بل وربما بعذر أضعف من العذر الذى يمكن أن نجده لآرثر لويس، ففى سنة ١٩٩٩ نشر البنك الدولى كتابًا للاقتصادى الهندى الشهير أمارتيا سن (Amartya sen) الذى حصل فى نفس العام على جائزة نوبل فى الاقتصاد. الكتاب بعنوان «التنمية كطريق للحرية»، والفكرة التى يدافع عنها الكتاب ويلخصها عنوانه، فكرة مزدوجة: الحرية هى الهدف النهائى للتنمية، كما أنها شرط من شروط تحقيق التنمية.

أما القول بأن الحرية شرط من شروط التنمية، فهو للأسف مجرد ترديد للفكرة الشائعة بضرورة الديمقراطية للتنمية (وهى فكرة مشكوك فى صحتها كما تدل تجارب تاريخية كثيرة من هتلر وستالين إلى محمد على وعبد الناصر) ولكنه يضيف إلى ذلك ما يعتبر أنه غاب عن كثيرين، من أن نظام السوق نفسه هو مظهر من مظاهر الحرية، فيقول:

« إن العلاقة بين جهاز السوق وبين الحرية، ومن ثم بينه وبين التنمية الاقتصادية، تثير مسائل يمكن تصنيفها إلى نوعين متميزين على الأقل، ويجب توضيح الاختلاف بينهما. الأول: يتعلق بأن حرمان الناس من فرص عقد ما يريدون عقده من صفقات، عن طريق فرض قيود تحكمية عليهم، يمكن أن يكون هو نفسه مصدرا من مصادر فقد الحرية.. هذه الحجة التى يمكن تقديمها لصالح نظام السوق يجب التمييز بينها وبين الحجة الأخرى التى تتمتع بشيوع كبير فى الوقت الحاضر وهى أن إطلاق حرية السوق تؤدى إلى زيادة الدخل والثروة وزيادة الفرص الاقتصادية المتاحة للناس.. إن هذه الحجة الثانية هى التى تحظى بأكبر قدر من الاهتمام والتأكيد فى الكتابات الاقتصادية المعاصرة. وهى إذا أخذت بوجه عام حجة قوية بلا شك، وهناك الكثير من الأدلة الواقعية التى تدل على أن الاعتماد على نظام السوق يمكن أن يولّد نموًا اقتصاديًا سريعًا وارتفاعًا فى مستوى المعيشة.. إن هناك بعض الحجج المهمة لصالح التدخل فى السوق، ولكن يمكن القول بصفة عامة إن الآثار الإيجابية لنظام السوق هى الآن أكثر تمتعًا بالقبول مما كانت من عقود قليلة». (ص ٢٥-٢٦)

إن مثل هذه الفقرات هى فى رأيى من الأسباب القوية التى شجعت على منح الأستاذ أمارتيا سن جائزة نوبل فى الاقتصاد منذ سنتين، إذ يصعب أن نتصور أن نعطى هذه الجائزة، فى الوقت الراهن، لمن يضع التأكيد على عيوب نظام السوق. ولكن ليس هذا على كل حال موضوعنا الحالى الذى يهمنا الآن هو قول أمارتيا سن إن الحرية هى الهدف النهائى للتنمية. وهذا القول لا يزيد فى الحقيقة عن أن يكون صياغة جديدة لمقولة آرثر لويس القديمة من أن التنمية توسع دائرة الاختيار. فتوسيع دائرة الاختيار لا يعنى أكثر أو أقل من زيادة الحرية. ولكن هذه الصياغة الجديدة التى يقدمها أمارتيا سن لها نفس الخطورة التى تحيط بصياغة آرثر لويس، وهى الخطورة الناتجة عن عدم التمييز بوضوح بين زيادة حرية الفقير وزيادة حرية الغنى، ومن ثم تصبح أى زيادة فى متوسط الدخل زيادة مرغوبا فيها (وربما بنفس الدرجة) سواء حصل الغنى على هذه الزيادة أو حصل عليها الفقير، ما دامت كل زيادة فى متوسط الدخل تنطوى على «زيادة الحرية»!



القول بأن الحرية شرط من شروط التنمية، هو للأسف مجرد ترديد للفكرة الشائعة بضرورة الديمقراطية للتنمية (وهى فكرة مشكوك فى صحتها كما تدل تجارب تاريخية كثيرة من هتلر وستالين إلى محمد على وعبد الناصر)





كتاب الزاوية

رياض الصالحين

باب الجهاد:

قال اللَّه تعالى (التوبة ٣٦): ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾.

وقال تعالى (البقرة ٢١٦): ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾.

وقال تعالى (التوبة ٤١): ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

وقال تعالى (التوبة ١١١): ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وقال تعالى (النساء ٩٥، ٩٦): ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

وقال تعالى (الصف ١٠ - ١١): ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.





محاولات للتصحيح ذهبت سدى:

كان يظهر بالطبع، بين الحين والآخر، من الاقتصاديين والإحصائيين من يحذر من المبالغة في الاهتمام بمتوسط الدخل، ولكنهم كانوا يخسرون المعركة لصالح المعسكر الآخر المتمسك بكل عناد بهدف رفع معدل نمو هذا المتوسط. ما أكثر مثلاً ما كتب الأستاذ دادلي سيرز (Dadley Seers) الذي كان أستاذًا بجامعة ساسكس ببريطانيا عن أن تخفيض مستوى البطالة كثيرًا ما يكون أهم من رفع متوسط الدخل، وما أكثر ما كتب بول ستريتن (Paul Streeten) الذي كان أستاذًا بجامعة أكسفورد عن أن إشباع الحاجات الأساسية هدف أجدر بالتحقق من زيادة متوسط الدخل للدولة ككل، بل وما أكثر ما كتب شوماخر (E.F Schumucker) وميشان (Mishan) عن أن زيادة متوسط الدخل قد تؤدي، هي نفسها إلى انخفاض مستوى الرفاهية بدلاً من زيادته، وأن كون ٥٪ أكبر من ٤٪ لا يعني بالضرورة أن ٥٪ أفضل من ٤٪ لم يكف كل هذا لتحويل الاقتصاديين والإحصائيين عن مسلكهم، واستمر متوسط الدخل، ورفع معدل نموه، يحتلان تلك المكانة الرفيعة التي تبوآها منذ خمسين عامًا وحتى الآن.

فإذا اضطروا أحيانًا للتسليم بأهمية أمور أخرى غير رفع متوسط الدخل، كتخفيض مستوى البطالة مثلاً أو حماية البيئة من التلوث أو تقليل حوادث العنف ووضع حد لزيادة الجرائم.. إلخ. لم يجدوا ما يدافعون به عن هذه الأهداف النبيلة إلا أنها تساهم في رفع متوسط الدخل. فالبطالة مكروهة ليس بالضبط لأن الإنسان المتعطل يفقد احترامه لنفسه واحترام أهله وعشيرته، بل لأنها تفقد المجتمع مصدرًا من مصادر زيادة الدخل. والتلوث أيضًا مذموم ليس بالضبط لأنه يفقد الناس مصدرًا أساسيًا من مصادر التمتع بالحياة، ولكن لأنه يصيب الناس بالأمراض، والأمراض تقلل من إنتاجيتهم فيقل معدل نمو متوسط الدخل. وقل مثل ذلك عن حوادث العنف والجريمة، إذ أن مكافحة العنف والجرائم تقتطع من ادخار المجتمع جزءًا كان من الأجدر توجيهه لاستثمارات جديدة تزيد متوسط الدخل.. إلخ.

التنمية البشرية: محاولة أخرى غير كافية:

في أوائل التسعينيات أعلن البعض أنهم قرروا أن يستبدلوا بمتوسط الدخل مؤشرًا جديدًا أفضل وأجدر بالاهتمام، وهو مؤشر التنمية البشرية (Human Development). كان الفضل في هذا يعود إلى اقتصادي باكستاني مشهور هو محبوب الحق، شغل فترة منصب وزير التخطيط في باكستان قبل أن يلتحق بالبنك الدولي في السبعينيات، ولا بد أن كان له دور مهم في بعض ما رفعه البنك من شعارات في أوائل السبعينيات عن ضرورة الاهتمام «بالتوزيع» إلى جانب «زيادة متوسط الدخل»، وهي شعارات لم تستمر طويلاً، على أي حال، إذ عاد البنك يؤكد مرة أخرى على نمو متوسط الدخل. في مطلع التسعينيات أقنع محبوب الحق «برنامج الأمم المتحدة للإنماء» (UNDP) بإدخال مؤشر جديد سمي بمؤشر التنمية البشرية، يقيم به أداء الدول بدلاً من مجرد الاعتماد على مؤشر نمو الدخل الإجمالي أو المتوسط. ويقوم هذا المؤشر الجديد على ثلاثة عناصر:

١- العمر المتوقع عند الميلاد.

٢- معدل القدرة على القراءة والكتابة عند البالغين.

٣- متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي (أي متوسط الدخل).

ومن ثم فإن ترتيب الدول في مدى نجاحها أو فشلها في تحقيق «التنمية البشرية»، أي في إسعاد البشر وتلبية حاجاتهم الحقيقية، وتحقيق الحياة اللائقة بهم وتوفير الطمأنينة واحترام الذات، إلى آخر هذه المعاني الجميلة والمستهدفة أصلاً من التركيز على «الإنسان» بدلاً من «السلع» والتي قد لا تحققها التنمية بالمعنى الشائع والمألوف، كل هذا يتوقف في نظر التقرير على مدى النجاح والفشل في هذه الأمور الثلاثة. ولا أخفي على القارئ شعوري بعدم الارتياح إذ وجدت هذه الأهداف العظيمة التي كنت أظن أن التنمية البشرية تستهدفها، قد اختصرت في هذه المؤشرات الثلاثة.

فالمؤشر الثالث (متوسط الدخل) ليس على أي حال إلا المؤشر المعتاد للتنمية، ومن ثم فوروده هنا لا يمثل أي تقدم عن الكتابات والمقارنات المألوفة المتعلقة بالتنمية الاقتصادية.

والمؤشر الأول (العمر المتوقع عند الميلاد) يعكس في الحقيقة طول الحياة أكثر مما يعكس نوعية الحياة. فارتفاع هذا المؤشر مثلاً من ٦٠ عاماً إلى ٧٠ عاماً، لا يعني بالضرورة أن حياة الإنسان قد أصبحت أفضل بل يعني فقط أنها أصبحت أطول مما كانت، وهناك على أية حال من الحيوانات ما يعيش أطول من الآدميين دون أن تكون لديها هيئات مهتمة بتطوير معنى التنمية. وقد يؤيد هذا أن العمر المتوقع عند الميلاد في مصر زاد في الأربعين عاماً الماضية (١٩٦٠ - ٢٠٠٠) بنحو ١٧ عامًا (من ٤٨,٨ إلى ٦٦,٣ عاماً) ولكن مؤشرات كثيرة أخرى تدل على تدهور نوعية الحياة في مصر سواء فيما يتعلق بمستوى السكن أو المواصلات أو نوعية التعليم أو درجة تلوث الهواء أو المياه.. إلخ.



صحيح أن زيادة العمر المتوقع عند الميلاد تعكس إلى حد ما أوضاع الصحة وحالة التغذية ولكن الأمر هنا يحتاج إلى وقفة، فقد لا يكون من الواجب أن نقبل هذا القول دون تحفظ. فتحسن الأوضاع الصحية له أشكال وصور متعددة ليست كلها على نفس المستوى من حيث احترام آدمية الإنسان وتخفيف آلامه. فتحقيق تخفيض كبير مثلاً في معدلات وفيات الأطفال الرضع قد يؤدي إلى زيادة كبيرة وعبر فترة قصيرة من الزمن في العمر المتوقع عند الميلاد، دون أن يقترن هذا بالضرورة بتحسن يذكر في مدى توفر الدواء أو أسرة المستشفيات



أو فيما يتلقاه المريض من عناية من الأطباء ومستوى التمريض، أو مدى ما يشعر به المرء من اطمئنان على إمكانية حصوله على الرعاية الطبية إذا احتاج إليها. ومن الممكن القول إن هذه الأمور الأخيرة كلها أكثر صلة باحترام آدمية الإنسان وتحسين نوعية الحياة من تخفيض معدل وفيات الأطفال الرضع مثلاً، أو من مكافحة الأوبئة بالتطعيم الشامل إلى غير ذلك من وسائل إطالة الحياة دون تحسين فى نوعها.

ويمكن أن نقول شيئًا مماثلاً عن مستوى التغذية، فالحرمان من الغذاء له بدوره أشكال وألوان، بعضه فقط هو الذى يهدد الحياة، ومن ثم ينعكس فى انخفاض العمر المتوقع عند الميلاد، مثل سوء تغذية الأمهات وهن فى سن الإرضاع، ولكن أكثر أنواع الحرمان من الغذاء لا يصل إلى هذا الحد، بل يقتصر أثره على أن يصيب المرء بالبؤس طول عمره. فقد ينام الناس جوعى كل يوم، ومع ذلك يعيشون إلى سن السبعين أو الثمانين. وقد يصلح للتعبير عن هذه الحالة منظر كثير من رجال الشرطة فى مصر، المنتشرين فى شوارعنا أو الواقفين لحراسة السفارات والمؤسسات المختلفة، حيث تظهر عليهم مظاهر الحرمان والجوع دون أن يصل هذا الحرمان بالضرورة إلى درجة تخفيض العمر المتوقع، ومن ثم فلا يعبر عن حالتهم للأسف، هذا المؤشر من مؤشرات «التنمية البشرية».

بقى المؤشر الخاص بمعدل القدرة على القراءة والكتابة لدى البالغين. وهو طبعًا مقياس مهم لتقدم الإنسان وإن كان من الممكن أن يتساءل المرء عما إذا كان هذا المؤشر يتعلق بالإنتاجية أكثر مما يتعلق بمختلف الاعتبارات الإنسانية المستهدفة أصلاً من جعل الإنسان، وليس السلع، محور الاهتمام، كالسعادة واحترام النفس والعلاقات الاجتماعية السوية والشعور بالطمأنينة.. إلخ.

على أية حال، فإنه يبدو لى على ضوء هذه الملاحظات، أن هذه المؤشرات الثلاثة التى يتبناها مفهوم «التنمية البشرية» لا تكفى على الإطلاق بالإحاطة بمختلف الأبعاد الإنسانية لمفهوم التقدم البشرى، وأنها إن أردنا الصدق، تكاد تجعل التنمية البشرية مرادفًا للتنمية بالمعنى التقليدى، أى زيادة نصيب الفرد من السلع والخدمات، أو متوسط الدخل أوالناتج.

لا عجب إذن أنه رغم ظهور هذا المؤشر الجديد، التنمية البشرية، استمرت تقارير البنك الدولى وكتبه فى التأكيد على الأهمية القصوى لرفع معدل نمو الدخل الإجمالى والمتوسط، وفى إعطائه الأولوية على ما عداه، بل والتأكيد على أن الوسيلة الأساسية للنهوض بحال الفقراء فى كل بلد هى تنمية متوسط الدخل فى الدولة ككل. وهكذا استمر البنك فى الترويج لهذه السياسة الملتوية والتى تعنى بصريح العبارة: «أن الفقراء لن ينصلح حالهم إلا بعد أن يزيد ثراء الأثرياء أولاً!».

توبة غير نصوح:

إزاء هذا التاريخ الطويل، لابد أن تعترى المرء ريبة شديدة إذ يرى البنك الدولى يرفع من جديد شعارات مثل «التنمية الشاملة» أو ضرورة «مكافحة الفقر» بمعنى ضرورة الاهتمام بالفقراء بالذات. بل والأرجح أن من يقرأ هذا التقرير الحديث للبنك الدولى الصادر فى هذا العام (٢٠٠٠/ ٢٠٠١) ويحمل عنوان «الهجوم على الفقر»، سوف يبتسم إشفاقًا من أن ينخدع أحد بهذه المحاولة الجديدة من جانب البنك لذرّ الرماد فى الأعين. نعم، من الخطر أن يترك الفقراء يتزايدون إذ أن هذا لا بد فى النهاية أن يهدد الاستقرار وقد يؤدى إلى كارثة سياسية يضار منها الجميع: الفقراء والأثرياء، ولكن الاهتمام بالفقراء بسبب تحقيق الاستقرار السياسى شىء، والاهتمام بالفقراء بسبب كراهية الفقر شىء آخر تماماً. وقد قدّم البنك الدولى فى تاريخه الطويل، الدليل بعد الدليل، على أنه عندما يهتم بالفقراء إنما يهتم بهم للسبب الأول لا الثانى، ومن ثم فهو لا يؤكد على هذه الشعارات النبيلة (عدالة التوزيع، إشباع الحاجات الأساسية، التنمية الشاملة والهجوم على الفقر.. إلخ) إلا على فترات متباعدة، وفقط عندما تظهر حاجة سياسية ملحة إلى ذلك. أما ما فى القلب فلازال فى القلب، ولا يزال غرام البنك كله هو بمعدلات نمو الدخل الإجمالى ومتوسط الدخل، التى قد ترتفع بشدة ويبقى مع هذا فقر الفقراء على ما هو عليه.



وما دام ما يكنه المرء فى القلب لابد أن يفضحه بشكل ما، ما يقوله اللسان، فإن التقرير الأخير للبنك والصادر هذا العام لا يسعه بين الحين والآخر إلا أن يعبّر عن مكنون القلب، المرة بعد الأخرى، فى عبارات من نوع العبارة الآتية:

«إن الفوارق الصارخة المتعلقة بمستويات الفقر فيما بين الدول الغنية والدول الفقيرة تشير إلى الدور المحورى الذى تلعبه التنمية الاقتصادية فى تخفيض الفقر.. ففى الغالبية العظمى من الحالات نجد أن ارتفاع معدل النمو (فى متوسط الدخل) يؤدى إلى ارتفاع مستوى الاستهلاك لأفقر ٢٠٪ من السكان، بينما يؤدى انخفاض معدل النمو إلى انخفاض هذا الاستهلاك.. وعلى الرغم من أن وجود انحرافات عن هذه العلاقة إذ نجد النمو فى متوسط الدخل يؤدى إلى انخفاض فى درجة الفقر فى بعض البلاد بدرجة أكبر بكثير مما يؤدى فى غيرها، فإن العلاقات التى تكشف عنها الإحصاءات تؤكد أهمية دور النمو الاقتصادى (أى ارتفاع متوسط الدخل) فى تحسين حال الفقراء وفى انتشال الناس مما هم فيه من فقر».

وهكذا يعود البنك الدولى ليكرر على أسماعنا ما ظل يردده طوال الخمسين عامًا الماضية من أن مواجهة مشكلة الفقر لا تكون، كما قد يظن صاحب الفطرة السليمة، بالعمل مباشرة على تحسين حال الفقراء، بل هى برفع معدل نمو متوسط الدخل، وهو كلام فضلاً عن أنه، كما رأينا يشخص المشكلة تشخيصًا سيئًا ومن ثم يصف علاجًا قد ينجح وقد لا ينجح، فإنه يصيب قارئه بالملل الشديد لكثرة ما تردد على سمعه من قبل. ■





رياض الصالحين

باب «الكلم» الجرح:

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال، قال رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم: «ما من مكلوم يكلم فى سبيل اللَّه إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى؛ اللون لون دم والريح ريح مسك» مُتَّفَقٌ عَلَيه.

وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ عن النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم قال: «من قاتل فى سبيل اللَّه من رجل مسلم فواق ناقة وجبت له الجنة، ومن جرح جرحاً فى سبيل اللَّه أو نكب نكبة، فإنها تجىء يوم القيامة كأغزر ما كانت؛ لونها الزعفران وريحها كالمسك» رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرمذيُّ وقال حديث صحيح.

وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال: مر رجل من أصحاب رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته، فقال لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم، فذكر ذلك لرَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم فقال: «لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل اللَّه أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر اللَّه لكم ويدخلكم الجنة؟! اغزُوا فى سبيل اللَّه، من قاتل فى سبيل اللَّه فواق ناقة وجبت له الجنة» رَوَاهُ التِّرمذيُّ وَقَالَ حَديثٌ حَسَنٌ.

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال قيل: يا رَسُول اللَّه ما يعدل الجهاد فى سبيل اللَّه؟ قال: «لا تستطيعونه» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه» ثم قال: «مثل المجاهد فى سبيل اللَّه كمثل الصائم القائم القانت بآيات اللَّه لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل اللَّه» مُتَّفَقٌ عَلَيه.

وهذا لفظ مسلم.

إذا نسينا فاذكري أنت.. أم هاشم

يوسف القعيد

لوحات الفنان محمد حجى

خمسة وعشرون عاماً من عمرى قضيتها وأنا أمر على مقام أم هاشم مرتين كل يوم. الأولى صباحاً. والثانية مساء. كان يلفت نظرى نوعية زوارها من فقراء المصريين. يحضرون إليها على عربات الكارو. يزداد الحضور كثافة يومى الجمعة والأحد. مطالبهم منها يصل تحقيقها إلى حدود المعجزات. حى فقير. يقابله غنى «حى الحسين» وزواره من الأغنياء. أصحاب السيارات السوداء الفارهة ذات الستائر التى تحجب ركابها عن الرؤية. لا يرى مجاذيب الحسين سوى أموالهم الجديدة وأياديهم الممدودة بها فقط. السياح يعرفون طريقهم إلى الحسين ولكنهم لا يحضرون إلى السيدة زينب . مولدها فى الأول من رجب من كل عام يوشك أن يكون جمعية عمومية للفقراء والمساكين والمحتاجين فى بر مصر كله. يقيمون فى الحوارى والشوارع المحيطة بها من كل ناحية. أما الذين أسعدهم حظهم بالإقامة فى حماها. ـ هكذا يسمون السكنى بجوارها ـ فمن حق الآخرين أن يشعروا بالحسد تجاههم. فالإقامة بالقرب منها تعنى أن الإنسان رأى الجنة على الأرض قبل أن يصل إليها فى الآخرة. الفلاحون فى قريتى يقولون إن الله ينجى مصر من الأزمات والشدائد. لوجود السيدة زينب وغيرها من آل البيت مدفونين فى ترابها. يحيى حقى فى جولة لى معه بالسيدة طلب منى عدم مناقشة ما لا تدركه الحواس من الأمور عندما سألته لماذا يحب المصريون السيدة زينب كل هذا الحب؟ قال لى إن كنا سعداء بما نعلم. فلا يجب أن نقلل سعادتنا بالبحث عما لا نعلمه. وإن الإصرار على إخضاع الماوراء قد يفسد أسطوريته، ويبدد قدسيته ويجعله من الأمور العادية. جمال الغيطانى كان يرى أن المصريين فى حاجة إلى أم رءوم يلجأون إليها وقت الشدة. وأن السيدة زينب لعبت فى العصور الحديثة بالنسبة لوجدان المصريين. الدور الذى لعبته إيزيس فى مصر الفرعونية بالنسبة لكل مصرى.



أما الدكتور سيد عويس. فقد كان يتكلم معى عن المفهوم الشعبى المصرى للإسلام، كان يرى أن أركان هذا المفهوم ثلاثة: السيدة زينب باعتبارها رئيسة الديوان. تجسد البحث عن العدل. والخوف من الظلم. وأنها قادرة على إنصاف كل مظلوم. عند المصريين مثل شعبى يقول: يا بخت من بات مظلوم ولا باتش ظالم. وإن سألت أى إنسان عامى عن معنى هذا المثل يقول لك، إنه يبيت ليلته وهو له، وليس عليه.

ملاذ الفقـــراء والعاجـــزين

فالمظلوم لابد أن ينصف ذات يوم. أما أخوها الحسين. فهو سيد الشهداء. والشهادة والاستشهاد من القيم الأزلية فى الشخصية المصرية. والثالث هو الإمام الشافعى. الذى يفضفض المصريون بين يدى مقامه بهمومهم. ومن لا يعيشون فى القاهرة يكتبون له الرسائل. وللدكتور سيد عويس دراسة ميدانية مبكرة عن ظاهرة إرسال الرسائل من قبل المصريين إلى الإمام الشافعى. وعلى الرغم من أنه له العديد من الكتابات عن هذه الظواهر الثلاثة. إلا أن العمر لم يمهله حتى يفرد دراستين أخريين عن ظاهرتى: رئيسة الديوان. وسيد الشهداء. يكتب سيد عويس فى كتابه قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى. الصادرة عن روزاليوسف ١٩٨٨: أن مكانة الأم التى تلد ذكراً أو التى تلد أنثى على السواء مكانة مرتفعة سواء فى الماضى أو الحاضر. ويؤكد ذلك الأمثلة الشعبية التى يحفظها المصريون ويرددونها «إللى بلا أم حاله يغم». «الأم تعشش والأب يطفش». إن الأنثى المصرية زوجة أو أختا أو ابنة هى حاملة ثقافة المجتمع المصرى، الفراعنة عندهم إيزيس والمسيحيون لديهم مريم العذراء أم الفادى المخلص. والمسلمون عندهم السيدة زينب. مرة أحد المواطنين الطيبين أرسل رسالة إلى ضريح الإمام الشافعى فى ٥ أكتوبر ١٩٥٥ يطلب فيها من الإمام الشافعى عقد جلسة شريفة يحضر فيها سيدنا الحسن وسيدنا الحسين والست زينب أم هاشم وجميع أهل بيت النبى (صلى الله عليه وسلم) وذلك لمسح وإزالة إسرائيل واليهود من على وجه الأرض المقدسة خلال أسبوع.

الدكتور أحمد على مرسى أستاذ الأدب الشعبى يرى أن الثقافة الشعبية تقدس من الإناث اثنتين: الأم والأخت. الأم دائماً عظيمة والأخت دائماً عظيمة. وهذا موجود فى مصر منذ فجر التاريخ وحتى الآن. قلت له ولكن الفراعنة كانوا يتزوجون من شقيقاتهم، قال لى إن هذا ليس صحيحاً. الذى كان يحدث أن الرجل لكى يرفع من شأن زوجته كان يناديها بأخته. والزوجة تقول لزوجها يا خويا والأخوة هنا رابطة تصل إلى حدود القداسة. إن السيدة زينب هى الجازية فى السيرة الهلالية.



وإن كان الوجدان الشعبى المصرى أحب السيدة زينب للأسباب التى سبق ذكرها. ولكن هناك ما يمكن أن يضاف. انطلاقاً من قصة حياتها. ومدى الآلام التى مرت بها. فالمصرى يحنو على المسكين. والمظلوم وينفر من أولئك الذين يتصرفون بحماقة المنتصرين. حتى وإن كانوا قد انتصروا فى معارك حقيقية. أعتقد أن هناك موقفاً إسلامياً عاماً من حكاية السيدة زينب وقصة حياتها. فنحن نجد أنفسنا أمام أربعة أماكن يقال إنها ماتت فيها: المدينة المنورة. مصر. دمشق. شمال العراق. وثلاثة أضرحة ومقامات لها: فى مصر وسوريا والعراق. الموقف المصرى منها يعكسه الألقاب التى أطلقها عليها المصريون. الست، الطاهرة، السيدة، وهو الاسم الذى كان فى الأصل السيدة زينب. ثم أصبح السيدة فقط. وأم العواجز، وأم هاشم، وأم الشهيد، وابنة الشهيد، وشقيقة الشهيدين.

ولدت فى السنة الخامسة من هجرة الحبيب المصطفى التى توافق سنة ٦٢٦ من بعد ميلاد السيد المسيح. وما أن وضعت السيدة فاطمة الزهراء وليدتها الكريمة. حتى قالت السيدة أسماء

بنت عميس زوجة جعفر بن أبى طالب وقد حملتها بين يديها:

- يا ابنة رسول الله. إنها شبيهة بك فى جمال الخلقة وحسن التكوين وما أشبهها بأخيها الحسين.

وجاءت فاطمة الزهراء إلى أبيها وسألته أن يسميها فقال: ما كنت لأسبق رسول الله. وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) على سفر فلما عاد سأله عن اسمها: فقال: ما كنت لأسبق ربى تعالى. فهبط جبريل الأمين. يقرأ السلام من الله تعالى على النبى. وقال له: سم هذه المولودة زينب. والكلمة مركبة من كلمتين هما: زين والأب. وفى لسان العرب: الزينب شجر حسن المنظر. طيب الرائحة. وبه سميت المرأة. وواحد الزينب للشجر زينبة. ثم أخبره بما يجرى عليها من المصائب. فبكى النبى وقال: من بكى على مصائب هذه البنت كان كمن يبكى على أخويها الحسن والحسين. وحينما جئ بها فى الأيام الأولى لولادتها إلى الرسول. ووقع نظره عليها. وإذا به يستحضر صورة جدتها خديجة وتقول الرواية: فضمها الرسول إلى صدره وأخذ يقبلها ثم قال: أوصيكم بها. فإنها شبيهة جدتها خديجة الكبرى. وقد عاشت خمس سنوات من عمرها فى بيت النبوة متمتعة بعطف جدها. ورعاية أبويها.

جدها هو المصطفى النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى أسس ونشر أحد أعظم الأديان فى العالم. وأبوها على بن أبى طالب أول من آمن بالرسول. وأول من ضرب بالسيف فى سبيل الله. وأول من أعلن نصرة الرسول. قال عنه الرسول: أنا مدينة العلم وعلىّ بابها. فمن أراد العلم فليأت الباب. وأمها الزهراء. قال عنها الرسول: فاطمة سيدة نساء أهل الجنة. أخواها الحسن والحسين. قال الرسول: «خير رجالكم على، وخير شبابكم الحسن والحسين، وخير نسائكم فاطمة».

كانت زينب الابنة الأولى لأسرة ازدان بيتها بحسنين هما الحسن الذى ولد منتصف شهر رمضان فى السنة الثالثة للهجرة والحسين الذى ولد فى الثالث من شعبان للسنة الرابعة من الهجرة. وتأتى زينب فى السنة الخامسة كما يرجح ذلك المحققون وبعد عام أو أكثر أنجبت الزهراء بنتاً أخرى هى أم كلثوم لتكون شقيقة لأختها زينب. وخلافاً لما كان منتشراً عند بعض العرب فى الجاهلية من التشاؤم والاستياء عند ولادة البنت. فقد أرسى الإسلام ثقافة سلوكية جديدة فى المجتمع الإسلامى. تجعل البنت مساوية فى الشان والقيمة للولد.

كتاب الأحزان

عاشت السيدة زينب فى أسرة تحيا حالة من التقشف الطوعى الذى اختارته. وليس لأنه فرض عليهم. بمعنى عدم تطلعاتهم لرغد العيش ورفاهية الحياة. الأسرة لم تكن فقيرة. كانت هناك ثروات لجدتها خديجة وكان هناك الموقع القيادى لجدها الرسول. فقد ولدت ونشأت فى فترة الانتصارات العسكرية والسياسية التى كانت تعود على المسلمين الأوائل بالغنائم الكثيرة. ولجدها النبى التصرف المطلق فيها. إلى جانب استعداد المسلمين لبذل كل إمكانياتهم ووضعها تحت تصرف الرسول. ولكن السيدة زينب تلاحظ امتلاك عائلتها لبعض الإمكانيات ثم تنازلها عنها لصالح الآخرين. وقد نزلت الآيات القرآنية تخلّد هذا. لم تكن العائلة تمتلك بيتا تعيش فيه لكن أحد الصحابة المتمكنين من أهل المدينة وهو حارثة بن النعمان. وضع أحد منازله تحت تصرف على. حينما أراد الزواج من فاطمة. وبعد فترة بنى الرسول بيتاً ملاصقاً لمسجده له باب إلى المسجد كبقية الحجرات التى بناها لزوجاته. وانتقلت العائلة إلى ذلك البيت الجديد الملاصق لبيت الله المجاور لبيت رسول الله.



لقد نشأت السيدة زينب فى عائلة نذرت نفسها للجهاد فى سبيل الله. وفى أجواء رسالية. ما كان يدور فيها غير الاهتمامات المبدئية. جدها الرسول قاد ٢٨ غزوة ومعركة. وأبوها الإمام على رافق الرسول فى كل هذه المعارك. عدا واحدة هى غزوة تبوك حيث تخلّف بأمر من رسول الله. كما قاد الإمام بنفسه العديد من السرايا والمعارك المحدودة. لقد عاشت الأسرة مع أوضاع المجتمع. فى أجواء مفعمة بالمسئولية والتضحية.

بعد خمس سنوات قضتها السيدة زينب فى بيت كان الرسول إذا سافر كان آخر الناس عهداً به فاطمة. وإذا قدم من سفر كان أول الناس عهداً به فاطمة. ولكن ها هى شمس السعادة فى بيت السيدة زينب قد آذنت بالمغيب. فرسول الله يلبى نداء ربه ويلتحق بالرفيق الأعلى فى الثامن والعشرين من صفر ١١هـ. لقد صحبت زينب أمها وهى تنكب على الرسول عند مصارعته لسكرات موته. ورأت زينب أخويها الحسنين حيث ألقيا بنفسيهما على جدهما الرسول يودعانه. وأبوها على بن أبى طالب تذوب نفسه أمام المصيبة فيقول: إن الصبر لجميل إلا عنك، وإن الجزع لقبيح إلا عليك، وإن المصاب بك لجليل؛ وإنه قبلك وبعدك لجلل.

عاشت فاطمة بعد وفاة والدها خمسة وسبعين يوماً، وقد ظلت بعد أبيها ناحلة الجسم منهدة الركن باكية العين محترقة القلب. قال علىٌ: غسلت النبى فى قميصه فكانت فاطمة تقول: أرنى القميص. فإذا شمته غشى عليها. فلما رأيت ذلك غيبته.

وبدأ زمن المحن وأولها قضية خلافة الرسول. ويقول المسعودى: ولما بويع أبو بكر فى يوم السقيفة وجددت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة. خرج علىّ فقال: أفسدت علينا أمورنا. ولم نستشر. ولم ترع لنا حقاً. فقال أبو بكر: بلى ولكنى خشيت الفتنة. وقد دافعت فاطمة عن حق على فى الخلافة أمام نساء المهاجرين والأنصار. وأنها برفقة زوجها على وابنيها الحسنين دارت على بيوت المهاجرين والأنصار تدعوهم إلى الالتفاف حول قيادة علىّ.

القضية الثانية كانت مصادرة فدك. وهى قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة. وقال الحموى فى معجم البلدان: وكان يسكنها اليهود فاستسلموا بعد واقعة خيبر للرسول دون قتال. وكانت تقدر بمائة ألف درهم. ويقول الحموى عنها: وفيها عين فوارة. ونخيل كثيرة. ولأنها لم يسبقها حرب ولا قتال فهى فىء وملك خاص لرسول الله. حسب مفاد الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ سورة الحشر الآية (٦) وقد وهبها النبى لابنته فاطمة الزهراء لكن الخليفة أبى بكر رأى أن يصادر فدك باعتبار أن النبى لا يورث. كما ينقل هو أنه سمع ذلك من النبى. ولم يقبل قول الزهراء أن أباها وهبها إياها. كما رفض شهادة علىّ بذلك لفاطمة.

ما إن وضعت السيدة فاطمة الزهراء وليدتها الكريمة. حتى قالت السيدة أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبى طالب وقد حملتها بين يديها:

- يا ابنة رسول الله. إنها شبيهة بك فى جمال الخلقة وحسن التكوين وما أشبهها بأخيها الحسين

وقد جاء انتزاع فدك من فاطمة. فى الأيام الأولى لمصيبتها فى أبيها، ثم تنحيه علىّ عن حقه فى خلافة الرسول. فأحدث ذلك أثراً فى نفس فاطمة دفعها لإعلان معارضتها للخليفة وللاحتجاج عليه أمام المسلمين وقالت فى هذه الخطبة قولتها المشهودة: يا ابن أبى قحافة أفى كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبى؟ لقد جئت شيئاً فرياً.

وبعد وفاة أمها الزهراء. أصبحت السيدة زينب على صغر سنها سيدة المنزل. ترعى شئون أبيها وإخوتها. كما كانت أمها تملأ فراغ أمها خديجة بنت خويلد بالنسبة لوالدها. حتى سميت أم أبيها. لقد واجهت حياة البيت ورعته وأدارت شئونه بعقلية واعية وحس صادق. وقلب مؤمن. تقول الدكتورة بنت الشاطئ: لقد أنضجتها الأحداث فتكون للحسن والحسين وأم كلثوم أماً. لا تعوزها عاطفة الأمومة. بكل ما فيها من حنو وإيثار.

وجاء الخاطبون يتوافدون على بيت على بن أبى طالب. ولكن والدها كان قد اختار لها عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب. وكان يقال عن جعفر «أبو المساكين» الذى كان يستحى أن يطعم طعاماً وجيرانه لا يقدرون على مثله. وقال الرسول: إن الله اختارنى من ثلاثة من أهل بيتى. أنا سيد الثلاثة: اختارنى وعلياً وجعفر وحمزة. وأمه هى أسماء بنت عميس. بعد استشهاد زوجها تزوجت من أبى بكر فأولدها محمد بن أبى بكر. وبعد وفاة أبى بكر تزوجها الإمام على وولدت للإمام على ولداً أسماه يحيى، أما عبد الله فهو أول مولود فى الإسلام بأرض الحبشة. وكان يسمى بحر الجود ويقال إنه لم يكن فى الإسلام أسخى منه. وأبناؤهم هم: عون بن عبد الله بن جعفر. كان مع أمه زينب فى صحبة خاله الإمام الحسين وقد استشهد فى كربلاء بعد أن قتل ثلاثة فوارس وثمانية عشر رجلاً ثم ضربه عبد الله بن قطفة الطائى بسيفه فقتله والثانى محمد. وكان لعبد الله بن جعفر ولد آخر اسمه محمد من زوجة أخرى هى الخوصاء من بنى بكر بن وائل وقد استشهد مع الحسين فى كربلاء مما سبب الاشتباه عند بعض الباحثين. والثالث عباس والرابع على المعروف بالزينبى والخامسة أم كلثوم وهى البنت الوحيدة للسيدة زينب. وقد ألّف الحافظ جلال الدين السيوطى (٨٤٩ - ٩١١هـ) رسالة حول ذرية السيدة زينب سماها: «العجاجة الزنزبية فى السلالة الزينبية».



ورغم زواجها، وزواج والدها بعد فقد أمها أكثر من زوجة. لكن أيّاً من زوجاته لم تكن لتأخذ مكان السيدة زينب فى بيت أبيها. فهى سيدة البيت، تقول الدكتورة بنت الشاطئ: عندما ولى الإمام على أمر المسلمين. وانتقل إلى الكوفة. انتقلت زينب وزوجها معه. فعاشا فى مقر الخلافة. ووقف عبد الله مع عمه فى نضاله الحربى فكان أميراً من أمراء جيشه. وفى الكوفة كانت السيدة زينب تفسر القرآن الكريم لنساء الكوفة وتروى لهن أحاديث جدها المصطفى وأخبار أمها الزهراء. وتوجيهات أبيها المرتضى. وإن كانت السيدة زينب لم تنل من امتيازات الخلافة والحكم شيئاً. حتى بمقدار سد عوز وحاجة بيتها.

لقد واكبت السيدة زينب حوالى ثلثى عمر

١ - ابنة الزهراء بطلة الفداء زينب. رضى الله عنها
تأليف: على أحمد شلبى
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة التعريف بالإسلام - الطبعة الأولى، أبريل ١٩٧٢

٢ - المرأة العظيمة.. قراءة فى حياة زينب بنت على
حسن بن موسى بن الشيخ مؤسسة الانتشار العربى - بيروت - الطبعة الأولى ٢٠٠٠

٣ - حياة السيدة زينب. بنت الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب
تأليف الشيخ جعفر النقدى
منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات
بيروت - لبنان ١٩٩٨

٤ - قنديل أم هاشم. رواية يحيى حقى
الطبعة الأولى. سلسلة اقرأ - العدد ١٨ يوليو ١٩٤٤

٥ - السيدة زينب
د. بنت الشاطئ عائشة عبدالرحمن
دار الكتاب العربى. بيروت ١٩٧٩

أبيها. عندما ولدت كان عمر أبيها ٢٨ سنة. وعاصرته وهو يتقلب بين المعارك والحروب في عهد الرسول «صلى الله عليه وسلم» وعاصرته في معارك: الجبل. صفين. النهروان. وكانت السيدة عائشة بنت أبي بكر زوجة الرسول «صلى الله عليه وسلم» قد تحالفت مع طلحة بن عبد الله التيمي والزبير بن العوام ابن عمة الرسول. للتمرد على سلطة الإمام علي، وكانا قد بايعاه. فسارت معهما إلى البصرة تحرض الناس ضد الإمام. وتدعوهم لقتاله. تحت شعار المطالبة بدم الخليفة عثمان. واحتشد معها ثلاثون ألف مقاتل وقد حاول الإمام التفاوض معهم. لكنهم أصروا على القتال والمواجهة.

استشهد الإمام عليّ في فجر ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ٤٠هـ. وانطلق إلى الشهادة من بيت ابنته زينب. تقول السيدة زينب: إنها سمعت والدها يقول في تلك الليلة: اللهم بارك لنا في الموت. اللهم بارك لي في لقائك. وكنت أمشي خلفه. فقلت: واغوثاه. أبتاه أراك تنعى نفسك منذ الليلة. وما هي إلا فترة بسيطة وإذا بالسيدة زينب تسمع نعي أبيها عليّ. حيث ضربه عبد الرحمن بن ملجم. من أتباع الخوارج بالسيف على هامته. حين رفع رأسه من السجدة الأولى. لصلاة الصبح ووقع الإمام على في محرابه صريعاً، قائلاً: لقد فزت ورب الكعبة. ونقل الإمام إلى داره. حيث فارقت روحه الحياة بعد يومين من إصابته. أي في الحادي والعشرين من شهر رمضان. بويع الإمام الحسن بالخلافة. في الكوفة والبصرة والمدائن وجميع أهل العراق. ولكن حدث الصدام مع معاوية. وتم الصلح. وانتقد أتباع الحسن الصلح. وقرر الحسن الانتقال إلى المدينة. وقد غادرت السيدة زينب الكوفة بعد خمس سنوات مليئة بالأحداث وأهمها فقد أبيها عليّ.

وفي المدينة كان وجود الحسن يقلق معاوية. فأغرى زوجته جعدة بنت الأشعث بمائة ألف درهم. ووعدها أن يزوجها ولده يزيداً. إن هي دست السم للإمام الحسن واستجابت جعدة. وألقت السم الفتاك الذي أرسله معاوية في طعام الحسن. ورأته أخته زينب وهو في فراش الموت فانفطر قلبها لمأساة أخيها وتجددت عليها المصائب والأحزان ومما زاد في آلامها ما تعرضت له جنازة أخيها من إساءة وهوان. حيث كان قد أوصى بدفنه عند قبر جده أو على الأقل أن تمر جنازته على قبر جده لكن الأمويين اعترضوا الجنازة وأثاروا السيدة عائشة لتمنعهم من الاقتراب بجنازة الحسن عند قبر جده. ولذلك ورد في كتب التاريخ أن نساء بني هاشم وفي طليعتهن السيدة زينب استمررن في النواح عليه شهراً كاملاً. وأظهرن الحداد. ولبسن السواد سنة كاملة.

حاول معاوية أخذ البيعة لولده يزيد قسراً من الحسين الذي غادر المدينة إلى مكة. ثم غادر مكة إلى الكوفة. لأنه لا يريد أن تكون مكة ساحة للثورة. والصدام مع الأمويين. ولكنه لم يصل إلى الكوفة. وبقي في مكان على شاطئ الفرات سأل عن اسم المكان فقيل إنه كربلاء. فأمر بالنزول فيها. فهي الأرض التي اختارها الله لتكون مسرح ثورته. وميدان شهادته وموضع قبره. ويروى أنه لما قيل للحسين هذه أرض كربلاء أخذ ترابها فشمه وقال: والله هي الأرض التي أخبر بها جبريل رسول الله أني أقتل بها. وروى أن النبي «صلى الله عليه وسلم» أعطى أم سلمة تراباً من



تربة الحسين. حمله إليه جبريل وقال لها: إن صار هذا التراب دماً، فقد قتل الحسين. فحفظت أم سلمة ذلك التراب في قارورة عندها. فلما قتل الحسين صار التراب دماً. فأعلمت الناس بقتله.

زحفت القوات الأموية لتحاصر الحسين وأصحابه في كربلاء. كان الأمويون ثلاثين ألف رجل. بينما كان عدد أفراد معسكر الحسين لا يزيد على ثمانين رجلاً. ومنع الأمويون الحسين ورجاله من الوصول إلى مياه الفرات. ولم يكتف الجيش الأموي بقتل الإمام الحسين وأصحابه جميعاً. بل قتلوا حتى الأطفال الرضع. كعبد الله بن الحسين وهو دون العام من عمره. حيث ذبحوه على صدر أبيه. ولم يسلم من معسكر الحسين إلا ولده علي بن الحسين زين العابدين لأنه كان مريضاً. وأجهزوا على جثث الإمام الحسين وأتباعه يحزون رءوسهم. وداسوا على الأجساد بخيولهم. وأخذوا نساء الحسين وأطفاله سبايا. تتقدمهن رؤوس الحسين وأصحابه معلقة على رءوس الرماح.



وكانت السيدة زينب قد أصرت على الخروج مع الحسين رغم معارضة الرجال لذلك. واستأذنت زوجها الذي كان قد أصبح كفيفاً. وحينما حدثت الفاجعة الكبرى بمقتل أخيها الحسين بعد قتل كل رجالات بيتها وأنصارها. خرجت السيدة زينب تعدو نحو ساحة المعركة تبحث عن جسد أخيها الحسين. غير عابئة بصفوف الجيش الأموي المدجج بالسلاح. فلما وقفت على جثمان أخيها الذي مزقته السيوف. جعلت تطيل النظر إليه ثم رفعت بصرها نحو السماء. وهي تدعو بحرارة ولهفة: اللهم تقبل منا هذا القربان. إن الشيخ حسن موسى الصفار يسمى سلاح الحسين. بأنه سلاح المظلومين. يقول المؤرخون: إنه لم يضرب أحد في الإسلام كما ضرب الحسين. فقد وجد به مائة وعشرون جرحا. ما بين ضربة سيف، وطعنة رمح، ورمية سهم. أما كيف علمت السيدة زينب باستشهاد شقيقها. فقد حدث أن فرس الحسين بعد أن وقع الحسين من فوق ظهره. صبغ ناصيته بدم الحسين. وركض نحو خيمته كأنه يريد إعلام النساء بمقتل الحسين. وعندما رأت أشلاءه صاحت: وا محمداه. وا أبتاه. وا علياه. وا جعفراه واحمزاه. هذا حسين بالعراء صريع كربلاء. ليت السماء أطبقت على الأرض. وليت الجبال تدكدكت على السهل.

وعادت إلى المدينة. بعد فراق جاوز السبعة أشهر. وذهبت إلى مسجد جدها الرسول وناجته قائلة: يا جداه إني ناعية إليك أخي الحسين. وأصبحت تذكر الناس بمظلومية الحسين وأهل بيته ومأساة كربلاء. وهكذا حركت ثورة المدينة. حيث تمرد أهل المدينة على الحكم الأموي. وكان قد قتل لها في كربلاء ستة من الإخوة وفي بعض الروايات الأخرى عشرة. وثلاثة من أولاد أخيها الحسن. واثنان من أولاد أخيها الحسين. إضافة إلى سائر رجالات أسرتها الهاشميين والذين يتراوح عددهم بين السبعة عشر والسبعة والعشرين بطلاً. وقبل كل هؤلاء جميعاً ابنها عون. الذي قدمته شهيداً بين يدي خاله. وقال أبو الفرج الأصفهاني إن قاتل عون هو عبد الله بن قطبة ويجمع كتاب سيرتها أنه لم يسمع لها بكاء حين قتل ولدها عون إذ أشارت إليه في ندبتها ومأتمها. بمثل ما بكت به أخاها وأولاد أخيها.

بعد كل هذه التطورات لعبت السيدة زينب دور راعية القافلة. ورغم أن علي بن الحسين زين العابدين. كان حاضراً في واقعة كربلاء وكان في الثانية والعشرين من العمر. وقد حمته السيدة زينب خلال الحرب علاوة على أن مرضه جعله يبقى في الخيمة ولا يشارك في القتال وقد حاول ابن زياد قتله. فقالت له إن أردت قتله فاقتلني معه. فقال لرجاله: دعوه لها. باللرحم ودت أنها تقتل معه. وغادرت السيدة زينب كربلاء بعد ظهر الحادي عشر من المحرم. مثقلة بما لا يمكن أن تتحمله حتى الجبال. تسافر لأول مرة متجهة إلى الكوفة. بعد أن فقدت أكثر من سبعة عشر بطلاً من أهلها. إضافة إلى السبعين من أنصارهم. وأحرق الأمويون خيامها. وسلب ما معها من مجوهرات. ودخلت الكوفة مع السبايا على جمال غير مهيأة لراحة راكبيها. وفي حالة مأساوية. وألقت خطبة في أهل الكوفة وقد رواها الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» وتعد أول تعليق على كربلاء وتقدم فيها رؤية أهل البيت لما جرى حيث حملت المجتمع الكوفي المسئولية المباشرة عما حدث للحسين، وأهل البيت الذين خذلوا الإمام؛ لأنهم خذلوا الإمام. قالت عنهم: أهل الختل والغدر. والختل هو الخداع. والغدر هو الخيانة ونقض العهد. بل والمشاركة في قتله. والتركيز على ضعف المجتمع الكوفي ومساوئ أخلاقه وتوضيح أبعاد الفاجعة. وقد أوضحت أبعادها السيدة زينب عندما قالت: فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ولن ترحضوها بغسل عارها أبداً. ومن أركان هذه الخطبة. إيضاح منزلة الحسين ومقامه في مواجهة الإعلام الأموي. وهي التي قالت عنه: سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة. وفي الخطبة الإنذار بالانتقام. فلا يستخفنكم المهل. فإنه لا يحفظه البدار. ولا يخاف فوت الثار. وإن ربكم لبالمرصاد. لقد استمرت في مواجهتها للأمويين. ومن ذلك المواجهة الشهيرة بينها وبين ابن زياد. فقد دخلت عليه ضمن السبايا. كانت تلبس أرذل الثياب التفت نحوها؛ وتساءل من هذه الجالسة؟ هذه زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله. وقد غضب ابن زياد من عدم ردها عليه. وترفعها عن الإجابة عليه فقالت له: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد وطهرنا من الرجس تطهيراً. إنما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر. وهو غيرنا يا ابن مرجانة.

إن هذا الرد جعل ابن زياد يتراجع عن نية عقابها الجسدي. مستبدلاً إياه بالعقاب النفسي. حيث تكلم مع السيدة زينب بلغة التشفي والشماتة فقال له: لعمري لقد قتلت كهلي وأبدت أهلي. وقطعت فرعي. واجتثثت أهلي. فإن يشتفيك هذا. فقد اشتفيت.



وكان موقفها في مجلس يزيد بن معاوية وكانت قد عانت الكثير في طريقها إلى مجلسه. رحلة صعبة في ظروف نفسية شديدة القسوة. وفي بعض الروايات أنه قبل إدخالهم على يزيد أوقفوهم فترة على درج باب المسجد حيث مكان وقوف سبايا الكفار ثم أتوا بحبل أوثقوهم به كتافاً وكانت بداية الحبل في عنق علي بن الحسين. ونهايته في عنق السيدة زينب كما تربط الأغنام. وساقوهم. وكلما قصروا عن المشي ضربوهم بالسياط. والجميع يكبّرون ويهللون. حتى أوقفوهم بين يدي يزيد في مجلسه. وهو متربع على سريره.. فالتفت إليه علي بن الحسين قائلاً: ما ظنك بجدنا رسول الله لو يرانا على مثل هذه الحالة؟ ودعا يزيد برأس الحسين ووضعه أمامه في طست من ذهب وكان مع يزيد قضيب. فهوى ينكت به في ثغره. وألقت السيدة زينب خطبة بليغة ركزت فيها على البعد القيمي والأخلاقي للمعركة. كما يقول حسن موسى الصفار في كتابه «المرأة العظيمة» فقد كان الأمويون يعتقدون أنهم أحق بالحكم بسبب انتصاراتهم. ولكن السيدة زينب ركزت على المبادئ والقيم التي يجب الاحتكام إليها في تقويم الواقع وتفسير أحداثه. والبعد الثاني إدانة الجرائم الأموية. والثالث: التركيز على الجذور العائلية الفاسدة لهم. والرابع هو الإشادة بأهل البيت. والخامس هو سؤال المصير: المستقبل سيكون لمن؟ والسادس عن العزة الإيمانية. تقول ليزيد: اللهم خذ لنا بحقنا وانتقم ممن ظلمنا. واحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا. وتتحداه قائلة: فوالله ما فريت إلا جلدك ولا حززت إلا كمك. وتكرر تحديها له: فكد كيدك. واسع سعيك. ومن المعروف عن السيدة زينب أنها كانت صاحبة بلاغة لغوية. وعلم وافر وأنها لم تحتكر العلم لنفسها. ولكنها أفاضت به على غيرها. ليس من النساء فقط. ولكن من الرجال أيضاً. وكان الناس يرجعون إليها في الحلال والحرام.

موتها ومساجدها

كان الموت بالنسبة لها قنطرة إلى جنة الله العريضة ونعيمه السرمدي. وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاتها. والأرجح عند الكثير منهم أنها توفيت سنة ٦٢هـ الموافق ٦٨٣م. بعد أن أكملت ستة عقود من الجهاد والكفاح. ويتفق المؤرخون على أن الوفاة قد وقعت في الخامس عشر من شهر رجب. وقد اختلف المؤرخون في مكان وفاتها ومحل قبرها. بعض الروايات تشير إلى أن عبد الله بن جعفر رحل عن المدينة وانتقل مع السيدة زينب إلى ضيعة كان يمتلكها قرب دمشق. في قرية يقال لها راوية. وقد توفيت السيدة زينب في هذه القرية ودفنت في المرقد المعروف باسمها. ورغم اختلاف المؤرخين في زمن هذه الهجرة. إلا أن هناك من يقول إن السبب فيها مجاعة حصلت في المدينة. وقد دفنت في إحدى القرى المعروفة التي أصبحت يقال لها قرية الست. وقد أصبحت المنطقة كلها تعرف بالسيدة زينب وتبلغ مساحة المقام وملحقاته ١٥٠٠٠ متر ويتسع لخمسة آلاف مسلم وقد زار هذا المشهد الرحالة ابن جبير الذي يقول إنه قبر أم كلثوم بنت عليّ ويقال لها زينب الصغرى. وزار المشهد الرحالة ابن بطوطة وإن كان يقول عنه قبر الست أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب. وورد أن السيدة نفيسة صاحبة المقام المعروف في القاهرة بنت حسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن بن علي بن أبي طالب قد زارت هذا المشهد في قرية راوية.

هناك رواية أخرى تقول إن السيدة زينب حينما غادرت المدينة المنورة بضغط من والي المدينة الأموي عمرو بن سعد الأشدق. فإنها توجهت إلى مصر واستقبلها الوالي مَسلمة بن مخلد وأنزلها داره بالحمراء في القاهرة. وبعد أحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً. توفيت في ١٥ رجب سنة ٦٢هـ. وصلى عليها الوالي مَسلمة بن مخلد. ودفنها بمخدعها من الدار حسب وصيتها. وعلى هذا يقع ضريح السيدة زينب في الجهة البحرية من دار مسلمة بن مخلد الأنصاري. وبمرور السنين اندثر جزء كبير من الدار. إلا ما كان من الضريح الطاهر. وقد تناوب على خدمة المكان أناس انقطعوا لهذا العمل. ويصرف عليه من وجوه الخير. ومن ريع الأعيان والممتلكات التي أوقفت عليه وفي زمن دولة أحمد بن طولون أجرى على المشهد ما جرى على المشاهد الأخرى. من عمارة وترميم. فلما جاءت الدولة الفاطمية كان أول من بني عمارة جليلة عظيمة. على هذا المشهد من خلفاء الفاطميين. أبو تميم معد نزار بن المعز. وفي أيام الحاكم بأمر الله. أوقف على المشهد الزينبي عدة ضياع وأسواق ومحال تجارية. ليصرف ريعها على خدمات المشهد.

وجرت تجديدات للمشهد في أزمنة الملك سيف الدين أبي بكر بن أيوب ومحمد علي باشا. وعبد الرحمن كتخدا وفي زمن الخديوي عباس باشا الأول. جرت محاولة لتجديد

كانت زينب الابنة الأولى لأسرة ازدان بيتها بحسنين هما الحسن الذي ولد منتصف شهر رمضان في السنة الثالثة للهجرة والحسين الذي ولد في الثالث من شعبان للسنة الرابعة من الهجرة. وتأتي زينب في السنة الخامسة وبعد عام أو أكثر أنجبت الزهراء بنتاً أخرى هي أم كلثوم لتكون شقيقة لأختها زينب

المسجد ولأن الموت لم يمهله. قام الخديو محمد سعيد باشا بإتمام ما بدأه سلفه.

أما المسجد القائم حاليا فقد تم إنشاؤه على ثلاث مراحل. الجزء الأول منه وهو المطل على الميدان المعروف باسم السيدة زينب أقيم في عهد الخديو توفيق ثم تمت توسعته ليصبح ١٥٠٠ متر تقريباً في عهد الملك فاروق الأول. وافتتح للصلاة في يوم الجمعة ١٩ ذي الحجة ١٣٦٠هـ. ١٩٤٢م. ولما رأت حكومة الرئيس جمال عبد الناصر زيادة إقبال الناس على هذا المسجد. حتى ضاق عن أن يتسع لهم. خاصة في أيام الجمع والأعياد. أمر عبد الناصر بإجراء توسعة عظيمة. بلغت حوالي ٢٥٠٠ متر مربع من الجهة القبلية. وبذلك اتصل المسجد الزينبي بمسجد الزعفراني المجاور له واكتملت التوسعة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م حيث أقيمت له دورة مياه للطهارة والوضوء. ومكتبة ضخمة تضم عشرات الآلاف من المجلدات وألحقت بها قاعة فسيحة للمطالعة. أما المئذنة التي تعتبر فريدة في نوعها لما تتحلى به من نقوش وزخارف عربية جميلة. فإن ارتفاعها يقرب من ٤٥ متراً.

وهناك مسجد لها في مدينة سنجار المعروفة في شمال العراق وجنوب نصيبين عن يمين الطريق إلى الموصل. والمدينة اشتهرت بأنها تقع على طرق المواصلات والقوافل. لأنها تقع على الطريق بين سورية والعراق وتقع فيها جبال سنجار التي يبلغ ارتفاعها ٤٨٠٠ قدم. وهذا على أساس أن السيدة زينب توفيت بهذه المنطقة. ويقع ضريح السيدة زينب على ربوة عالية في مدخل المدينة. وهو فناء واسع وفيه غرفة مستطيلة الشكل. في وسطها القبر المشيد من الحجر والجص. وفي الغرفة محراب صغير وتغطيه قبة مظهرها الخارجي مضلع مخروطي الشكل. وقد دمر الضريح عند دخول التتار إلى المنطقة لكنه جدد بعد ذلك. وإن كان مقامها في شمال العراق لا تسنده روايات تاريخية موثقة فإنه تبقى ثلاثة احتمالات لمكان دفنها هي: المدينة المنورة ـ مصر ـ دمشق. ومن يدافعون عن الاحتمال الأول يقولون إنه من الثابت عودة السيدة زينب إلى المدينة بعد واقعة كربلاء. وبناء عليه فإن وفاتها قد تمت في المدينة المنورة. وإن كان تاريخ وفاتها ومحل قبرها في المدينة المنورة مجهولين ويجب أن يكون قبرها بالبقيع وكم من أهل البيت من أمثالها من جهل محل قبره. وتاريخ وفاته وخاصة من النساء. وإن كان بعض الباحثين –محمد جواد مغنية في كتابه «بطلة كربلاء» يتساءل: لو كان قبرها في المدينة لعرف واشتهر. وكان مزاراً للمؤمنين كغيره من قبور الصالحات والصالحين.

الموقف بين القاهرة ودمشق يبدو مختلفاً. فإن لم يكن هناك أثر يتحدث عن قبر للسيدة زينب الكبرى في المدينة المنورة. ولا يوجد مقام ينسب لها هناك. فالأمر في القاهرة والشام تقوم عليه أدلة وروايات ونصوص تاريخية. ينسبان للسيدة زينب. وهناك جماهير تؤمها وهناك أكثر من بحث حول هذا الموضوع منها: المرقد الزينبي للشيخ فرج العمران القطيفي وهي مطبوعة في النجف الأشرف في العراق وبحثه ينتهي إلى أنها مدفونة في دمشق. وبحث العالم الباكستاني محمد حسنين السابقي. ومطبوع في بيروت في ٢٤٠ صفحة. وهو أيضاً يميل إلى القول إنها مدفونة في الشام وليس في مصر

ويقول: والظاهر أن المشهد الزينبى المعروف فى القاهرة هو للسيدة زينب بنت يحيى المتوج بن الحسن الأنور بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب. وإن كان على أحمد شلبى يؤكد أن السيدة زينب عندما جاءت إلى مصر لم تكن بمفردها. كانت معها السيدة فاطمة ابنة الحسين. ومسجدها معروف بالقاهرة باسم مسجد فاطمة النبوية وكذلك السيدة سكينة ابنة الحسين ومسجدها المعروف بالقاهرة باسمها وحسب ما قاله محمد بن عبد الله:

لما وصلت مصر سمعت عسامة المعاقرى يقول حدثنى عبد الملك بن سعيد الأنصارى. قال حدثنى وهب بن سعيد الأوسى عن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصارى. قال رأيت زينب بنت على بعد قدومها بأيام. فوالله ما رأيت مثلها وجهاً كأنه شقة قمر.

وقالت رقية بنت عامر الفهرى:

ـ كنت فيمن استقبل زينب بنت على. لما قدمت مصر بعد المصيبة. فتقدم إليها مسلمة بن مخلد الأنصارى. وعبد الله بن الحرث. وأبو عميرة المزنى فعزاها مسلمة فبكت وبكى الحاضرون وقالت: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. وقد وافق دخولها مصر مع بزوغ هلال شعبان سنة إحدى وستين هجرية الموافق ٢٦ أبريل ٦٨١ ميلادية. وكان قد مضى على استشهاد شقيقها الحسين ستة أشهر وأيام.



وعن حكاية مولدها السنوى يقول الشيخ جعفر النقدى: وبعد مرور عام على وفاتها وفى نفس اليوم الذى توفيت فيه اجتمع أهل مصر قاطبة وفيهم الفقهاء والقراء وأقاموا لها موسماً عظيماً برسم الذكرى على ما جرت به العادة. ومن ذلك الحين لم ينقطع هذا الموسم إلى وقتنا هذا. وهو المعبر عنه بالمولد الزينبى الذى يبتدئ من أول شهر رجب من كل سنة وكان الناس فى مصر يكثرون من زيارتها فى يوم الأحد. وهو اليوم الذى توفيت فيه. وكان كافور الإخشيدى لا يزورها إلا فى هذا اليوم. كما كان يزور السيدة نفيسة بنت الحسن يوم الخميس. وكذلك كان يفعل أحمد بن طولون. وكان الظافر بنصر الله الفاطمى لا يزورها إلا فى هذا اليوم. وكان الظاهر جقمق أحد ملوك مصر فى القرن الثامن الهجرى توقد له فى هذا اليوم الشموع وتنار أرجاء المشهد بالقناديل الملونة ولازم زيارتها فى هذا اليوم كثير من العلماء والأولياء وأهل الفضل.

الحى والقنديل

كثير من الأدباء عاشوا فى السيدة زينب منهم ـ كما يكتب كامل زهيرى ـ بيرم التونسى فى شارع المواردى. ومصطفى صادق الرافعى. ويحيى حقى فى حارة الميضة. كما عاش على مقربة من هذا المكان يوسف السباعى فى جنينة ياميش وفتحى رضوان الذى عاش فى شارع الخليج المصرى الذى أصبح شارع بورسعيد الآن. وكثير من الأدباء كتبوا عن السيدة زينب المقام والحي والمجاذيب. وإن كان نجيب محفوظ قد خلّد حى الحسين ومنطقة الجمالية فى أعماله الروائية. فإن يحيى حقى يقف فى الناحية الأخرى. السيدة زينب فقد ولد فى حارة الميضة. وهى إحدى الحارات الخلفية للمسجد. بل واكتسبت اسمها من ميضة الجامع التى يتوضأ فيها الناس. له رواية وقصة قصيرة. يأخذان عنوانهما من السيدة. الرواية عنوانها قنديل أم هاشم. والقصة القصيرة هى أم العواجز. وهو عنوان قصة قصيرة. أصبح عنوانا للمجموعة القصصية نفسها، كتب يحيى حقى قنديل أم هاشم فيما بين عامى ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ونشرت لأول مرة فى سلسلة اقرأ. عن دار المعارف العدد ١٨ يونيو ١٩٤٤ ومسجد السيدة زينب يرد من السطر الثالث فى الفصل الأول للقصة. وأسرة البطل تعيش فى رحاب الست وحماها: أعياد الست أعيادنا ومواسمها مواسمنا. ومؤذن المسجد ساعتنا. وأحب الأسماء لقلبه هو أم هاشم. فالبطل إسماعيل ينشأ فى حراسة أم هاشم وهاهو قنديل أم هاشم المعلق فوق المقام: هيهات للجدران أن تحجب أضواءه يمتلئ الميدان من جديد شيئاً فشيئاً، أشباح صفر الوجوه منهوكة القوى. ذابلة الأعين. يلبس كل منهم ما قدر عليه. أو إن شئت مما وقعت عليه يده من شىء. فهو لابسه. نداءات الباعة كلها نغم حزين.

والقنديل الذى يضئ مقام السيدة زينب هو بطل الرواية. وزيته هو مورد الرزق المتسع للشيخ درديرى الذى يقول للدكتور إسماعيل:

ـ تعرف يا سى إسماعيل. ليلة الحضرة يجىء سيدنا الحسين. والإمام الشافعى. والإمام الليث. يحفون بالسيدة فاطمة النبوية. والسيدة عائشة. والسيدة سكينة. وفى كوكبة من الخيل. ترفرف عليهم أعلام خضر ويفوح من أردانهم المسك والورد يأخذون أماكنهم عن يمين الست وعن يسارها. وتنعقد محكمتهم وينظرون فى ظلامات الناس. لو شاءوا لرفعوا المظالم جميعاً. ولكن الأوان لم يئن بعد. فما من مظلوم إلا وهو ظالم أيضاً. فكيف الاقتصاص له؟ فى تلك الليلة، هذا القنديل الصغير. الذى تراه فوق المقام. يكاد لا يشع له ضوء. تنبعث منه عندئذ لآلئ تخطف الأبصار إننى ساعتها لا أطيق أن أرفع عينى إليه. زيته فى تلك الليلة فيه سر الشفاء. فمن أجل ذلك لا أعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من المنكسرين. وفى مشهد آخر يسمع إسماعيل فتاة سمراء ألصقت جبينها على السور:

ـ يا أم هاشم. يا ستارة على الولايا لا تغضى عينيك ولا تشيحى بوجهك. تمد إليك يد مسترحمة فخذيها. إن الله طهرك وصانك وأنزلك الروضة. وإن قلبك لرءوف إن لم يقصدك المرضى والمهزومون والمحطمون فمن غيرك يقصدون؟ إذا نسينا فاذكرى أنت! متى يمحى المقدر علىَّ؟ أفيطول الأمد؟ منذ غادرنى رضى الله وأنا كالنائمة يركبه كابوس. يقبض فى يد واحدة على الموت والحياة. نذرت لك يوم يتوب المولى علىَّ أن أزين مقامك الطاهر بالشموع، خمسين شمعة يا أم هاشم يا أخت الحسين.

وقد كتب يحيى حقى فى مقدمة آخر طبعة من الرواية صدرت فى حياته، أن بطل قنديل أم هاشم هو السفير إسماعيل كامل. سفير مصر الأسبق بالهند. وأن يحيى حقى عرف هذه الحكاية الداخلية لدبلوماسى مصرى عندما كان يعمل فى السلك الدبلوماسى فى إسطنبول ولكنه عند الكتابة استبدل الدبلوماسية بالطب. وهذا من طبيعة عمل الفنان. وقد أبلغ فتحى رضوان كامل زهيرى ـ فيما بعد ـ بقصة القصة.

الفن العظيم هو الذى يقودنا إلى الجوهر وهكذا يضع يحيى حقى أيدينا على معنى أن السيدة زينب نصيرة المظلومين. وناصرة المنكسرين. ثم إن عبقرية الفنان تلتقى مع نفاذ رؤية الباحث الاجتماعى. فما يكتبه سيد عويس عن رسالة المواطن المصرى البسيط الذى يطلب اجتماعاً لآل البيت. نجده فى رواية يحيى حقى على لسان خادم المسجد درديرى. هى ليست صدفة. ولكنها عبقرية الباحث الاجتماعى تلتقى فى منتصف الطريق مع عبقرية المبدع الروائى.



تفاصيل الرواية معروفة. إسماعيل بعد عودته من أوروبا يكتشف أنهم يعالجون عينى خطيبته بزيت القنديل فيثور. ويتهجم على القنديل فتصاب فاطمة بالعمى. ولاترى مرة أخرى إلا بعد أن يعالجها بزيت القنديل وإن كان الفيلم الذى أخرجه كمال عطية سنة ١٩٦٨ بنفس العنوان يركز على أن الدكتور إسماعيل. عالج فاطمة بالأدوية الحديثة وأوهم من حوله أن العلاج تم بزيت القنديل فترى فاطمة وتتحقق المعجزة. وقد قام ببطولة الفيلم: سميرة أحمد، شكرى سرحان، صلاح منصور، عبد الوارث عسر، أمينة رزق. وكتب له السيناريو والحوار صبرى موسى.

سألت نجيب محفوظ لماذا لم تكتب عن السيدة زينب؟ قال لى لأن قدميه لم تقوداه إلى حيها فى صباه وشبابه. ثم ذكرنى بأن السيدة موجودة بقوة فى ثلاثية جمال الغيطانى «التجليات». وترد باعتبارها رئيسة الديوان. أى تجسيد فكرة رفع الظلم عن المظلومين من المصريين.

أحداث رواية عودة الروح لتوفيق الحكيم تدور فى السيدة زينب. وهناك إشارات كثيرة لها فى كتابه «عصفور من الشرق». أيضاً فإن كتاب يوسف السباعى «بين أبو الريش وجنينة ياميش» الذى صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٥٠ تدور أحداثه فى السيدة أيضاً. وفتحى رضوان يتوقف أمامها فى سيرته الذاتية. خاصة فى الخليج العاشق. وأحداث أحدث روايات بهاء طاهر «نقطة النور» تدور فى السيدة زينب. ومعظم روايات محمد جلال تدور أحداثها فى حى المنيرة القريب من السيدة زينب. ورواية عبده جبير تحريك القلب تدور فى منزل آيل للسقوط بحى السيدة زينب.

فى الشعر كان من المتوقع أن يكون شعراء العامية هم الأقرب إلى السيدة زينب وإلى حيها. ولكن قصيدة صلاح جاهين الملحمية الطويلة «الليلة الكبيرة» يمكن أن تدور أحداثها فى الليلة الكبيرة لأى مولد دون تخصيص. ولكن أحمد عبد المعطى حجازى يكتب فى نوفمبر ١٩٥٥ قصيدته التى ربما كانت العمل الشعرى الوحيد الذى يدور حول السيدة. أعرف طبعاً أن هناك قصائد المديح الكثيرة لشخص السيدة الكريم. ولكن قصيدة حجازى فيها رؤية كونية لفتى قادم من الريف يبحث عن السيدة زينب. الحى والمقام. وعنوان قصيدته «الطريق إلى السيدة». وهى منشورة فى ديوانه الأول. مدينة بلا قلب الذى صدرت طبعته الأولى عن دار الأدب ببيروت عام ١٩٥٩ والقصيدة تبدأ هكذا:

يا عم/ من أين الطريق؟/ أين طريق السيدة؟/ أيمن قليلاً، ثم أيسر يا بنى/ قال.. ولم ينظر إلىّ ـ وينهى القصيدة. أنا هنا لا شىء، كالموتى، كرؤيا عابرة/ أجر ساقى المجهدة/ للسيدة/ للسيدة.

وللمطرب الشعبى محمد عبد المطلب الأحمر أغنيته الشهيرة عن الفتى الذى يسكن حى السيدة ولكن حبيبة القلب تسكن فى الحسين وحتى ينال كل الرضا. لابد أن يقطع المسافة من السيدة للحسين مرتين كل يوم.

نفحات من عطر نجيب محفوظ



فاروق عبد القادر

الأستاذ سلامة أحمد سلامة وقف بى أمام حديقة مترامية، لا حد لتنوع شجرها وزهرها وثمرها. قال: نريد أن نشارك نجيب محفوظ يوم ميلاده التسعين (١١/١٢/١٩١١). ولم ينس الأستاذ أن يلفت نظرى إلى أهمية الالتزام بعدد محدد من الكلمات. فماذا يمكن أن أكتب عن نجيب محفوظ؟

وإننى أعتقد أننى كنت محظوظاً لأن «نجيب» كان موجوداً فى عالمى - بقوة - قبل أن تبدأ شهرته فى السطوع حول منتصف الخمسينيات. لقد نشر روايته الأولى فى ١٩٣٩، وخلال عقد الأربعينيات نشر سبع روايات أخرى. إضافة لمجموعته الأولى «همس الجنون». (يثبت فى قوائم أعماله أنها صادرة فى ١٩٣٨، لكن عبد المحسن بدر أثبت أنها لم تصدر إلا فى ١٩٤٧. يكتب عبد المحسن: « وفى مقابلتى لأديبنا الكبير فى «الأهرام» سألتُه عن السر فى إصراره على تحديد هذا التاريخ لنشر مجموعته «همس الجنون»، فأجاب بأن هذا التاريخ هو نوع من التحديد لمستواها الفنى بالمقارنة بإنتاجه، لكنه لا يمثل تاريخ نشره الحقيقى..» - «الرؤية والأداة، ص ٨٠»). لكنه ظل غير معروف، على نطاق واسع - حتى منتصف الخمسينيات على وجه التقريب: نشرت له سلسلة «الكتاب الذهبى» - وكانت سلسلة مقروءة ولها شهرتها - روايته «خان الخليلى» فى يوليو ١٩٥٢ - طبعتها الأولى فى ١٩٤٦ - ثم «القاهرة الجديدة» - وقد غيرت عنوانها إلى «فضيحة فى القاهرة» باقتراح من إحسان عبد القدوس، المسؤول عنها، على الأرجح - فى نوفمبر ١٩٥٣، بعدها «زقاق المدق» فى ١٩٥٤، وأخيرًا «بداية ونهاية» فى ١٩٥٦. فى هذا العام الأخير كانت مجلة «الرسالة الجديدة» - وهى مجلة أدبية رأس تحريرها يوسف السباعى ولقيت انتشارًا واسعًا - قد نشرت له - فى أعدادها المتتالية - الجزء الأول من الثلاثية «بين القصرين»، ثم صدرت فى كتاب، أعقبها - فى العام التالى - «قصر الشوق» و«السكرية»، بعدها بدأت شهرة نجيب محفوظ فى الاتساع، وأصبحت أعماله موضوعات للنقد والتعليق، من كافة الاتجاهات، وعلى مختلف درجات الرفض والقبول.

أقول: إن نجيب محفوظ كان موجودًا فى عالمى قبل هذا التاريخ، كنا جماعة قارئة نتبادل أعماله الصادرة عن «لجنة النشر للجامعيين»، (وكان اسمه على الغلاف: نجيب محفوظ عبد العزيز، وما تزال فى مكتبات بعضنا نسخ منها)، وحين راحت شهرته فى الاتساع كان هو متوقفًا عن كتابة الرواية (١٩٥٢-١٩٥٨)، وفى ١٩٥٩ نُشرت «أولاد حارتنا» مسلسلة فى «الأهرام»، فثارت حولها المشكلة المعروفة، والتى انتهت إلى منع صدورها فى القاهرة، ولم تصدر طبعتها الأولى، من بيروت، إلا فى ١٩٦٦. فى هذا التاريخ الأخير كان نجيب محفوظ قد كاد أن يفرغ من منظومة ثانية فى أعماله، وهى - عندى - منظومة ذهبية، تبدأ «باللص والكلاب، ١٩٦١» وتنتهى إلى «ميرامار» التى صدرت فى الشهور الأولى من ١٩٦٧. وأننى أذكر، جيدًا، كيف كنا ننتظر هذه الأعمال، وهى تنشر مسلسلة فى «أهرام الجمعة»، وكيف كنا نتناقش حول ما يفعل ويقول سعيد مهران وعيسى الدباغ ثم عمر الحمزاوى وأنيس زكى وزهرة.. إلى آخره أبطال هذه المنظومة الباهرة.

وبعد قاصمة الظهر فى ١٩٦٧ توقف نجيب - للمرة الثانية - عن كتابة الرواية، لكن «القصة القصيرة» و«الحوارية» - لا أقول، ولا يقول هو: المسرحية - قدمت الوسيط التعبيرى البديل، فتتالت مجموعاته: «خمارة القط الأسود، ١٩٦٩»، «تحت المظلة، ١٩٦٩»، «حكاية بلا بداية ولا نهاية، ١٩٧١» و«شهر العسل، ١٩٧١». وكما كانت «أولاد حارتنا» مَعْبرًا بين منظومتين من الأعمال نهاية الخمسينيات، لعبت هذا الدور «المرايا، ١٩٧٢»، لتبدأ بعدها سلسلة روائية طويلة تبدأ من «حب تحت المطر، ١٩٧٣» إلى «قشتمر، ١٩٨٩». تتزاوج معها سلسلة ثانية من مجموعات القصص القصيرة، تبدأ بمجموعة «الجريمة، ١٩٧٤»، ولعلها لم تنته بعد. على أننى أعتقد أن أعمال نهاية الثمانينيات وعقد التسعينيات تمثل منظومة رابعة لها سماتها الخاصة من «أصداء السيرة الذاتية - نُشرت مسلسلة فى ١٩٩٢، ولم تصدر فى كتاب إلا فى ١٩٩٦، إلى «أحلام فترة النقاهة» التى ما يزال الأستاذ قادرًا على تقديم المزيد منها.

هكذا: فى عامه التسعين، يقف الأستاذ - شامخًا ومتألقًا - على قمة خمسين عملاً إبداعيًا: خمس وثلاثين رواية، وخمس عشرة مجموعة من القصص القصيرة. فماذا يمكن أن أكتب عن نجيب محفوظ؟



تحدثتُ عن «منظومات» فى أعماله. وإننى أفضل استخدام هذا الوصف بدل كلمة «المراحل» التى دأب النقاد على استخدامها. فهذه الأخيرة قد توحى بوجود «انقطاع» أو «انفصال» بين المرحلة والتالية عليها، كأن المؤلف قد أغلق درجًا وفتح آخر، وكل درج مغلق على ما فيه، ولا صلة له بالدرج الآخر. وليس هذا التصور صحيحًا، وليست هناك «انقلابات» فى أعمال نجيب. بعبارة أخرى: إن إبداعه يجرى متدفقًا، مثل نهر تحدد الشطآن مجراه، قد تتمايز فيه موجة أو موجات، لكنها تبقى متصلة بما سبقها، مفضية لما تلاها، وقد تعترض هذا المجرى عقبات موضوعية فيتوقف زمنًا، أو يتخذ مسارب أخرى.

إنما على هذا النحو نستطيع الحديث عن منظومة تبدأ بروايته الأولى «عبث الأقدار، ١٩٣٩» وتنتهى إلى «بين القصرين» التى اكتمل نشرها فى ١٩٥٧. الثانية تبدأ مع «اللص والكلاب، ١٩٦١» وتنتهى إلى «ميرامار، ١٩٦٧»، وبين هاتين المنظومتين تقع «أولاد حارتنا، ١٩٥٩». المنظومة الثالثة تبدأ بروايته «حب تحت المطر، ١٩٧٣» وتنتهى إلى «قشتمر، ١٩٨٩». وبين هاتين المنظومتين كذلك تقع «المرايا، ١٩٧٢». المنظومة الرابعة والأخيرة تشمل أعمال عقد التسعينيات، وما يزال الأستاذ قادرًا على الإضافة إليها (فى الشهر الماضى نشرت مجلة «نصف الدنيا» المجموعة الثالثة من قصصه وأحلامه).

فلنلق نظرة أكثر قربًا إلى ما يميز كلاً من هذه المنظومات بأقل عدد ممكن من الكلمات:

* إن الانتقال من الكتابة عن مصر الفرعونية إلى مصر المعاصرة لم يأت بعد روايته «الفرعونية» الثالثة، كما هو شائع، لكن الحقيقة أن هذه الرواية الثالثة ذاتها: «كفاح طيبة، التى صدرت طبعتها الأولى فى ١٩٤٤، تمثل هذا الانتقال، وتحليل هذه الأعمال الثلاثة (وهو ما قام به، باقتدار، عبد المحسن بدر فى كتابه الذى سبقت إليه الإشارة) يثبت مجموعة من الحقائق المترابطة: أن تلك الأعمال لم تكن «فرعونية»، بمعنى أنها لا تستعيد هذه الفترة من التاريخ بطابعها الخاص من حيث الممارسات والأفكار وطرائق الحياة، من ناحية، ولا هى تعيد صياغتها وتقدم لها تفسيرًا جديدًا، من الناحية الأخرى. الثانية أنها لم تكن تحمل لقارئها رسائل تعنيهم أو تتصل بحياتهم. الأولى تصور صراعًا عابثًا يدور بين «خوفو» والأقدار، ينتهى إلى تدميره، بمعنى أنه لا

فى عامه التسعين،
يقف الأستاذ - شامخا ومتألقا -
على قمة خمسين عملاً إبداعيا:
خمس وثلاثين رواية،
وخمس عشرة مجموعة
من القصص القصيرة

جدوى من مصارعة الأقدار. لأن النتيجة هي دمار الفرد بالغًا ما بلغت قوتُه. هذا الدور الذي يلعبه القدر في الرواية الأولى يلعبه الحب في الثانية: الفرعون الشاب يقع في هوى الغانية الجميلة «رادوبيس». ويؤدى به هذا الهوى الجامح إلى أن يفقد عرشه، ثم حياته ذاتها. تختلف «كفاح طيبة» من وجهين: الأول أنها تحمل رسالة واضحة كل الوضوح لقارئيها: كما قاوم المصريون القدامى احتلال الهكسوس لبلادهم، فإن على المصريين المعاصرين أن يقوموا بالكفاح ذاته ضد الاحتلال الإنجليزي. الوجه الثاني أن هذا الهدف، وتركيز الكاتب عليه، مسقطًا جوانب أخرى، أدى لأن يتخلص العمل من كثير من الشوائب التي شابت العملين السابقين من تقريرية وجفاف وتدخل مباشر من جانب المؤلف وصيغ لغوية جاهزة. تخلَّص من الكثير ولم يتخلص منها كلها. فما أشق الرحلة التي قطعها الأستاذ حتى يصفو له التعبير الروائي الخالص!

الأعمال التالية في هذه المنظومة ـ التي بلغت أَوْجها الرائع في «بين القصرين» ـ تتوجه مباشرة نحو تحليل عناصر الواقع في فترة من التاريخ المصري تحدد الثلاثية، بدايتها ونهايتها: ١٩١٨ ـ ١٩٤٤. والروائي لا يتابع هذه الفترة على نحو يتقدم دائمًا إلى الأمام: «القاهرة الجديدة» تدور أحداثها في ١٩٣٤، و«خان الخليلي» في ٤١ ـ ١٩٤٢، و«زقاق المدق» في ٤٤ ـ ١٩٤٥، ثم ترتد «بداية ونهاية» في التاريخ لتدور أحداثها فيما بين ٣٥ ـ ١٩٣٩ على وجه التقريب، وتأتي «الثلاثية» لتضم هذه الفترات كلها وترجع لما قبلها. وفيها جميعًا كان الروائي حريصًا على تحديد التواريخ (هذا هو السطر الأول في «خان الخليلي»: «انتصفت الساعة الثانية من مساء يوم من سبتمبر ١٩٤١..»). الرواية الوحيدة التي تخلو من هذا التحديد ـ نظرًا لطبيعتها الخاصة ـ هي «السراب، ١٩٤٨»، وإنْ كانت قرائن عديدة تشير لأن أحداثها قد انتهت حوالي سنة ١٩٤٠ (راجع أدلة تفصيلية في «الرؤية والأداة»، ص ٢٤ ـ ٣٢٥).



ولئن كانت «كفاح طيبة» تركز على الجانب الوطني وحده، فإن بقية أعمال هذه المنظومة سوف تتولى القيام بعملية «مسح شامل» لطبقات المجتمع المصري، هناك وآنذاك: ثمة «الأرستقراطية» أو الطبقة العليا (مقابل الهكسوس في «كفاح طيبة» تقف الارستقراطية ذات الأصول التركية في «القاهرة الجديدة»)، من جانب، والطبقات الشعبية (دون تقسيمات داخلية إلى حرفيين وعمال وبروليتاريا رثة.. إلخ) من الجانب الآخر، وبينهما الطبقة الوسطى، أو ما اصطلح على تسميتها بالبورجوازية، هي مجال شُغل الروائي بامتياز، كل أبطال هذه المنظومة منها، وهذا طبيعي ومنطقي، فهم ـ أبناء هذه الطبقة ـ القلقون، المتوترون، المتمزقون بين الطموح إلى الصعود نحو الأعلى، والخوف من الانحدار نحو الأسفل (انظر للأشقاء الثلاثة في «بداية ونهاية»: الأكبر انحدر إلى أسفل، والأصغر سقط وهو يتطلع إلى أعلى، والأوسط بقي حيث هو).

وقد نلاحظ أن الروائي ـ صادرًا عن اهتمامه البالغ بالطبقة الوسطى ـ يكاد يجعل من أبطاله المنتمين إلى بقية الطبقات أنماطًا أو أقنعة: أبناء الأرستقراطية فاسدون بلا أمل في الصلاح، وأبناء الطبقات الشعبية متمسكون بأنماط حياة وقيم منحدرة إليهم من قرون، بعضها قد يلائم التغير الحادث وأكثرها لا يلائمه، لكن السمة الغالبة أنهم غير واعين بالقهر الواقع عليهم، ومن ثم لا يعملون من أجل مقاومته ورفعه عن كواهلهم. أقصى ما تبلغه الشخصيات العاملة على رفع القهر وإحداث التغيير ـ وهم من الطبقة الوسطى كذلك ـ هو ما يقدمه واحد من آخر أبطال هذه المنظومة، من الجيل الثالث في «الثلاثية». يقول أحمد شوكت: «إني أومن بالحياة والناس، وأرى نفسي ملزمًا باتباع مُثُلهم العليا ما دمت أعتقد أنه الحق. إذ النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسي ملزمًا بالثورة على مُثلهم ما اعتقدت أنها باطل، إذ النكوص عن ذلك خيانة..». ولنلاحظ ـ من ناحية ـ أننا لا نسمع هذه الكلمات من فم صاحبها، لكن خاله، كمال عبد الجواد، هو مَن يستعيدها، ويعيد النظر فيها. من الناحية الأخرى فلا شك في أن أحمد شوكت أكثر تقدمًا واستواءً من سَمِيِّه أحمد راشد، محامي «خان الخليلي» الذي أفقده الروائي إحدى عينيه، وجعله يضع نظارة سوداء لا يرفعها أبدًا!

أبناء الطبقة الوسطى، إذن، يخوضون صراعات متعددة، سعيًا للصعود وتجنبًا للانحدار. يخوضون الصراع بين ما هو مادي وما هو روحي، بين ما هو موروث وما هو مكتسب، بين ما هو قديم وما هو حادث، بين ما هو مرفوض وما هو مقبول. وقد نلاحظ أن أكثرهم تطلعًا إلى ما هو مادي هم الذين يلقون الدمار. يكفي أن نستعيد ـ في لحظة ـ مصائر فرعون رادوبيس ومحجوب عبد الدايم ورشدي عاكف وعباس الحلو (رغم أصوله الشعبية إلا أنه كان طموحًا للخروج من «الزقاق»، وكان في هذا الطموح دماره) وحسنين كامل في «بداية ونهاية». جميعهم يلقى العقاب لأنه طمح إلى حياة غنية بمتع الحس وحده.

«الثلاثية» قمة هذه المنظومة، وواحدة من قمم صاحبها وقمم الرواية العربية على السواء. حَوَت عوالم ما قبلها وتجاوزتها، التغيير الذي كان يصيب الفرد أصبح إيقاع العمل كله، هو اللحن الذي يتردد وراء الشخوص والأحداث، لم تعد رؤية الروائي بارزة العظام، لكنها اكتست لحمًا ودمًا وأفكارًا ومشاعر، وتجسدت في شخوص وأحداث، توارى المؤلف بتقاريره وتدخلاته، وأفسح المجال لشخصياته كي تتطور وتستدير، من خلال الفعل والتفاعل، إنها تحدث التغيير في الواقع فيغيرها بدوره في جدل لا يتوقف، ثم إن الروائي لا يهمل خطًا رسمه أو كلمة قالها، ويفاجئ حتى القارئ المتمرس، ولن يتسع المجال لأية أمثلة، وما أكثر ما قيل عن «الثلاثية» من شتى وجهات النظر!



* لكن الواقع المصري هو الذي تغير. حدث ما حدث في ١٩٥٢ فتوقف نجيب عن الرواية. وحين عاد شاء أن يبدأ بعمل ذي طابع «كوني»، لو صح التعبير، فجاءت «أولاد حارتنا». لكن الظروف التي أحاطت هذا العمل حالت دون أن يأخذ حقه من المناقشة، وأن يُطرح على بساط النقد والعرض. العمل التالي هو الذي أخذ هذا الحق، وما يُعد عند الكثيرين بداية هذه المنظومة التي اختلفت عن الأولى اختلافًا كبيرًا.

«اللص والكلاب، ١٩٦١» فاجأت القراء لكنها أربكت «النقاد». وحين عدت إلى مراجعة ما كُتب عنها لم أستطع إخفاء دهشتي. لن يتسع المجال للإفاضة، يكفي أن أُذكر بما كتبه عبد القادر القط تحت هذا العنوان الذي يلخِّص وجهة نظره: «اللص والكلاب رواية فاشلة» («أخبار اليوم»، ١٢/٥/١٩٦١). والواضح من مقاله كله أنه يرفض الرواية كلها، ويطالب المؤلف بكتابة رواية أخرى تلائم تصوراته، فهو لا يفهم لماذا تطيش طلقات سعيد مهران فلا تصيب أهدافها: «ولا أدري أي هدف قصده الأستاذ نجيب محفوظ حين جعل طلقات سعيد مهران تطيش فتقتل هؤلاء الأبرياء.. (..) فهل تراه يريد أن يُحَمل القدر أيضًا مع المجتمع مسؤولية انحراف سعيد مهران؟ في رأيي أن كل هذه المآخذ قد جاءت من تقيد الأستاذ نجيب محفوظ بتلك الوقائع الحقيقية دون أن يستخلص منها جوهرها..»، وهو لا يرى في سعيد سوى «مجرم لا نتعاطف معه..»، يمضي في طريق «ملوث بالدم والجريمة»... إلخ.

وفي مقاله هذا يأخذ عبد القادر القط على لويس عوض ما كتبه هذا الأخير عن الرواية لأنه أضاع جانبًا كبيرًا من مقاله خارج العمل الذي يناقشه. والحقيقة أن ما كتبه لويس في مارس ١٩٦١ (وهو منشور في كتابه «دراسات في النقد والأدب، ١٩٦٤، ص ٣٤٥») يثير قدرًا كبيرًا من الإنكار والدهشة، ويكشف عن ابتعاد واضح عن فهم الرواية من ناحية، وجهل كامل بإبداع نجيب السابق عليها، من جهة ثانية، أضف لذلك الغلظة والفجاجة. يكتب لويس: «نجيب محفوظ عندي كاتب من أولئك الكتَّاب القلائل في تاريخ الأدب في الشرق والغرب، كلما قرأتُه غَلى الدم في عروقي ووددتُ لو أني أصُكه صكًا شَديدًا (!).. (..) فلقد اكتشفت، فيما اكتشفت أن بعض من كتبوا عن «ثلاثية» نجيب محفوظ الشهيرة: مثلاً، لم يقرأوا منها إلا صفحات معدودات، وأنا شخصيًا أعلن وأعترف على الملأ أني لم أقرأ منها إلا جزءها الأول وأعلن وأعترف على الملأ أني لن أقربها ثانية إلا حين يتاح لي أن أعتكف أسبوعين في مرسى مطروح(!).. (..) فإن أردت أن تعرف موضوع هذه القصة في كلمات فَقُل إنها قصة «ڤان ڤالڤان» في القرن العشرين، أو شيء من هذا القبيل.. (..) لكن غريبة الغرائب في «اللص والكلاب» أنها قصة كلاسيكية القالب رومانسية المضمون.. إلخ».

هل نحن بحاجة للتعليق على هذا اللغو الفج؟ هذا رجل يعترف في شجاعة لا يُحسد عليها ـ أنه لم يقرأ شيئًا لنجيب حتى ثلاثيته الشهيرة، اكتفى منها بجزء واحد حتى يتاح له الاعتكاف في مرسى مطروح، ولا يستطيع أن يتفهم سعيد مهران إلا من خلال ڤان ڤالڤان، وبوسع أي مبتدئ في دراسة الأدب أن يرى الفارق الواضح بين بطل «البؤساء» وبطل «اللص والكلاب»، ثم يتلاعب بالمصطلح ما بين الكلاسيكية والرومانسية، وجزاء نجيب عنده أن «يصكه صكًا شديدًا»!.

فَلندعْ ما لا يجدي إلى ما يجدي. من حسن الحظ أن الأستاذ يحيى حقي كان بين من التفتوا ـ باهتمام ومحبة ـ نحو «اللص والكلاب»، ومن حسن الحظ أيضًا أنه عايش «نجيب» وهو مشغول بكتابتها. انظر لهذه الصورة الأدبية يقدمها أستاذ من أساتذة كتابتها: «كنتُ ونجيب جارَيْن في «مصلحة الفنون» ونخرج معًا، وكنتُ أسأله أحيانًا: ماذا تقرأ هذه الأيام وماذا يشغلك؟ فكان يضحك في وجهي ويقول لي: لا شغل ولا تفكير إلا في محمود أمين سليمان (السفاح). وكنت في تلك الفترة إذا دخلت عليه مكتبه وجدتُه يذرعه جيئة وذهابًا، فكأني أوقظه من غيبوبة أو أرده من عالم مجهول إلى عالمنا، لو انطلق مدفع بجواره لما أحس به، يداه معقودتان وراء ظهره، ورأسه مرتفع مائل للوراء، وأفهم من صوته أن ريقه جاف، لو نقرتَ على جسده لرَنَّ رنين قوس المنجد، بين الحين والحين يرفع يده إلى جبهته ويمسحها كأنه يزيل عَرَقًا أو يهدِّئ حرارتها..». تلك بعض صورة المبدع وقد ضبطه مبدع آخر متلبسًا بالإبداع!

أمَا ويحيى حقي مبدع وناقد، فإنه يتناول بالتحليل كل عناصر «اللص والكلاب» في ضوء مصطلحيه اللذين حدد معناهما بدقة عن «الإستاتيكية» و«الديناميكية» في أدب نجيب محفوظ، ثم يخلص إلى الحكم: «هذه الكلمة قاصرة على الصنعة وحدها، ولكني لا أحب أن أختمها دون أن أُشيد ببراعة نجيب محفوظ وشدة أمانته في عمله وإخلاصه له، فهو لا يهجم على أمر دون أن يتخذ له عدته، حتى في رسم الشخصيات الثانوية.. (..) إن قدرته على البصر والإبصار خارقة حتى لتأخذني رجفة كلما تصورت حال أدب القصة عندنا لو لم نسعد بفن نجيب محفوظ..». (عن: «عطر الأحباب، ١٩٧١»، مؤلفات يحيى حقي، المجلد (١٢)، ص٥٤ ـ ١٠٨).

يقتضيني الإنصاف أن أضيف ـ على الفور ـ أن من أهم النقد الذي كتب عن «اللص والكلاب» ـ وعن أعمال هذه المنظومة بوجه عام ـ ما قدمته لطيفة الزيات (راجع، من فضلك،

الروائى - صادرًا عن اهتمامه البالغ بالطبقة الوسطى - يكاد يجعل من أبطاله المنتمين إلى بقية الطبقات أنماطًا أو أقنعة: أبناء الأرستقراطية فاسدون بلا أمل فى الصلاح، وأبناء الطبقات الشعبية متمسكون بأنماط حياة وقيم منحدرة إليهم من قرون، بعضها قد يلائم التغير الحادث وأكثرها لا يلائمه

قراءاتها لروايات «اللص والكلاب» و«الطريق» و«الشحاذ» فى: «نجيب محفوظ، الصورة والمثال»، ١٩٨٩، ص - ص ٤٩ - ١٣٢، وراجع كذلك دراستها العامة: «الشكل الروائى عند نجيب محفوظ من «اللص والكلاب» إلى «ميرامار»، المصدر ذاته، هنا عين فاهمة مُحبة، مدققة متفحصة، لا تفصل شكل العمل عن مضمونه، وتروح تفك خطوطه المتلاحمة فى صبر وأناة، لا تهمل تفصيلاً واحدًا دون أن تدمجه فى سياق التحليل، ولا يفوتها - بطبيعة الحال - التشابه الذى يفرض نفسه بين الأعمال الثلاثة التى تتناولها (وإن كانت ترى أن الشكل الروائى ذاته يمتد إلى الأعمال الثلاثة الباقية فى هذه المقطوعة: «السمان والخريف» و«ثرثرة فوق النيل» و«ميرامار» وإنْ كان أكثر خفاءً) :فى الروايات الثلاث نتلقى الحدث من وعى الشخصية مباشرة أو من زاوية قريبة أشد القرب من وعى الشخصية، والحقيقة الذاتية تقف على نفس المرتبة من الأهمية مع الحقيقة الموضوعية، والحقيقة الداخلية مع الخارجية، والحلم مع الواقع. وفى الروايات الثلاث تتداعى المستويات الزمانية والمكانية داخل وعى الشخصية الرئيسية وتتشابه وتتناقض فى نفس اللحظة الروائية، مؤدية إلى إغناء الحقيقة الواحدة بوجوهها المتعددة، وإلى تكثيف وتعميق درامى للتجربة.. (..) والبناء الروائى يتشابه، بدوره، فى الروايات الثلاث، بحيث نتلقى نفس إطار البناء باختلاف من رواية إلى أخرى، فالحدث الذى نتلقاه من وعى الشخصية الرئيسية ينطوى فى «الطريق» و«الشحاذ» - مثلما ينطوى فى «اللص والكلاب» - على رحلة بحث عن المعنى، لها بدايتها الحاسمة المحددة، ونهايتها الحاسمة المحددة.. (..) ورحلة الشخصية تستوعب من البداية إلى النهاية، التعرف على الحقائق الأساسية، وعلى ألوان القهر الاجتماعى والميتافيزيقى، ومحاولة الإنسان لإيجاد المعنى فى عالمٍ يتحكم فيه الخلل والقصور على الصعيدين الاجتماعى والميتافيزيقى..».

إن هذا التوصيف لأعمال هذه المنظومة صحيح فى مجمله، ومن السهل أن تندرج فى إطاره «السمان والخريف» و«الثرثرة» و«ميرامار» كذلك، وتبقى التنويعات داخل اللحن الواحد: إن «اللص والكلاب» تبدأ بخروج سعيد من السجن (بما يعنى الميلاد من جديد)، و«السمان والخريف» بفصل عيسى الدباغ من عمله وتقوض عالمه كله، و«الطريق» بموت الأم ومعرفة «صابر» بحقيقة أبيه (وإن ظل متشككًا فيه)، و«الثرثرة» بفصل «أنيس» من وظيفته نتيجة إدمانه. كل هذه البدايات تعنى أن على البطل القيام برحلة الحياة من جديد. وليس غريبًا أن تبدأ هذه الرحلة فى «الشحاذ» بجملة عابرة يقولها لعمر الحمزاوى أحد موكليه: «ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها؟..»، فتفجَّر فى المحامى الثرى الناجح المتخلى التساؤل عن معنى حياته هو، ومن ثم تبدأ الرحلة. فى هذا السياق كذلك، فإن بنسيون ميرامار نقطة تلتقى عندها مسارات لرحلات أربع، اثنتان فى الماضى (عامر وجدى، طلبة مرزوق) واثنتان فى الحاضر (البحيرى ومنصور باهى)، ومنه أيضًا ستبدأ رحلة الشخصية الوحيدة الناجية من الدمار (زهرة).

هذه المنظومة من الأعمال، عندى، من أثمن ما قدمه الأستاذ. كان فى قمة نضجه وامتلائه وتألق قدراته، ولعب نجيب محفوظ دور الكاتب العظيم كما يجب: لم يُخْفِ عن قارئيه شيئًا ارتآه، لم يخادعهم أو يهدهد مشاعرهم، بل أنذر وحذَّر، أشار إلى التناقضات البادية له وراء الواجهات البراقة، وإلى دبيب العفن والتقوض ينخر أسس ما هو قائم، ويهدد بكارثة وشيكة. من وراء أقنعة الرمز والفانتازيا والصياغة المكثفة التى تومئ وتوحى قال نجيب ما يريد فى جراة ونفاذ. ولن يتسع المقام إلا لمثال واحد: هذا «أنيس» فى واحدة من نوبات السُطَل والهم: «أيها الحكيم القديم «ايبو - ور» أقْدم بعصرك الذى اضمحل فيه كل شىء إلا الشعر، أسْمعنا الغناء. حدثنى ماذا قلت لفرعون. اقبل الحكيم «أيبو - ور» وهو ينشد: إن ندماءك قد كذبوا عليك. هذه سنوات حرب وبلاء.. ما هذا الذى حدث فى مصر؟ إن النيل لا يزال يأتى بفيضانه، إن من كان لا يملك أضحى الآن من الأثرياء.. لديك الحكمة والبصيرة والعدالة لكنك تترك الفساد ينهش البلد. هل لك أن تامر حتى يأتيك من يحدثك بالحقيقة؟..».

هل ثمة سبيل للخطأ فى فهم مثل هذا النص، وهو كثير فى أعمال هذه المنظومة؟



مرة ثانية: كان الواقع المصرى هو الذى تغير. حدث ما حدث فى ١٩٦٧. لم تكن هزيمة عسكرية فادحة وفاضحة فقط، لكنها كانت هزيمة نظم وأبنية وسياسات وقادة ومؤسسات وأفكار وطرائق فى الحياة والعمل. وكان لما حدث فى ١٩٦٧ أثر حاسم فى إبداع نجيب، ترك أثره هذا من وجهَين: الأول أننا لا نكاد نجد له عملاً روائيًا تاليًا إلا وتبدت فيه ١٩٦٧ على نحو من الأنحاء. مرة ثانية أكتفى بمثال واحد، وليكن من أحد الأعمال وثيقة الصلة بالسيرة الذاتية. فى «قشتمر، ١٩٨٩» يقول الراوى ملخصًا مواقف بقية الشخصيات: «غلب علينا الاستسلام للواقع وتخلصنا من كثير من رواسب الماضى، واجتاحنا ما يشبه النعاس الهنىء والحلم العذب، حتى انتفضنا قائمين على صوت انفجار كالبركان فى يوم من الأيام عجيب اسمه ٥ يونيو، دهشة وتساؤل وتعجب وحيرة وعدم تصديق، ثم دهشة وتَعجُب، تَجَرُع لواقع لا مفر منه. كيف؟ لا ندرى. لماذا؟ لا ندرى. ثم سيل منهمر من الحكايات وفيض من النكت، مضطرب بلا حدود لعواطف متناقضة، من أقصى الحزن إلى أقصى الفرح، لكن جرثومة الكآبة استقرت فى كل نفس..».

وكانت القصة القصيرة هى الشكل الفنى الملائم. وهذا هو الوجه الثانى. (كان نجيب قد رجع لكتابتها، ونشر مجموعتين بين منظومة أعماله الثانية: «دنيا الله، ١٩٦٢» و«بيت سيىء السمعة، ١٩٦٥»)، وهكذا تتالت مجموعاتها. فى حوار معه عقب فوزه بجائزة الدولة التقديرية فى ١٩٦٩، قال لى بوضوح: «بعد ١٩٦٧ وجدت لدَّى انفعالاً بلا موضوع محدد، اجتزتُ أزمة كتلك التى دفعتنى للتوقف سبع سنوات كاملة بعد قيام ثورة ١٩٥٢. بعد ١٩٥٢ كانت الموضوعات قائمة عندى لكن الانفعال قد مات، أما الآن فالانفعال قائم لكن الموضوعات هى التى تتسرب من بين أيدينا. صدقنى إذا قلت لك إننى أبدأ كتابة القصة القصيرة الآن دون أن أعرف كيف تنتهى، لم تعد لدَّى تخطيطات لأعمالى كما كان الأمر فى الماضى.. من يستطيع الآن مثل هذا التخطيط؟.. (..) الانفعال اليومى هو عذابى وعزائى كذلك، هل أستطيع أن أثبِّت ما فى الخارج كى أطيل النظر إليه ثم أتناوله بالمعايشة والتحليل؟ (..) الرواية بحاجة لرؤية متكاملة تضم الذات والموضوع، تضم الماضى والحاضر وتستشرف المستقبل، وهذا ما لا أستطيعه الآن» (روزاليوسف، ١٩٧٠/٦/٢٩).

من جديد، يكشف نجيب عن التزامه الحار بقضايا وطنه وهموم ناسه. كان ممرورًا، وكان صادقًا وهو يعرض لقارئيه حيرته ودهشته وفجيعته وتشتته واضطراب خطاه، لكنه لم يغفل، لحظة واحدة، عن أن بلاده تخوض معركة شاملة، ولا عُذر لقاعد. الصراع هو الملمح الأول والأساسى فى هذه القصص، صراع يشمل العالم كله ولا تخلو قصة واحدة من مظاهره. لا واحدة تخلو من الصراع الجسدى أو التلاحم البدنى أو القتل بالرصاص أو السكين أو الانتحار أو موت البراءة. لكننا لا نخطئ رؤية الكاتب لهذا الصراع وموقفه منه. هذا مثال واحد: يقول العربى المسلَّح للزنجى: على الأرض تُسرق أوطان ويُضطهد أبرياء، وعلى المسروق والمضطَهد أن يحمل السلاح، وأن يتعاون مع من يعطيه السلاح، وأن نفسِّر حكمة الله فى ضوء ذلك.. (قصة «فنجان شاى» من مجموعة «شهر العسل»).

وكما كان نجيب بحاجة إلى مَعْبَر نحو منظومته الروائية الثانية، لعبت «المرايا، ١٩٧٢» هذا الدور إلى المنظومة الثالثة. كانت «المرايا» أقرب إلى ذاته، ينتقى شخصيات ووجوهًا عرفها فى مراحل شتى من حياته، لعله يبدو محايدًا وهو يرتبها لا حسب قربها منه أو بُعدها عنه ولكن حسب حروف الهجاء (سيعود إلى التكنيك نفسه فى «حديث الصباح والمساء، ١٩٨٧» ولكن لهدف آخر). ولعل أهم ما يلفت النظر فى مراياه هو غَلَبة الساقطين والأوغاد، وقلة قليلة هى الناجية، تلك التى يتعاطف معها الكاتب، وإن كان يهب لها أسوأ المصائر، وتلك نغمة مترددة عنده قبل «المرايا» وبعدها.

من «حب تحت المطر» إلى «قشتمر» بضعة عشر عملاً. تدفق إبداع الأستاذ حتى أنه كان ينشر أكثر من عمل فى العام الواحد (فى ١٩٧٥ مثلاً نشر «حكايات حارتنا» و«قلب الليل» و«حضرة المحترم» على التوالى، وفى ١٩٨٢ نشر «ليالى ألف ليلة» و«الباقى من الزمن ساعة»، وفى ١٩٨٥ «العائش فى الحقيقة» و«يوم قتل الزعيم»). وتتالق حَبَّات كثيرة، لعل أكثرها بريقًا هى «ملحمة الحرافيش، ١٩٧٧». استعاد فيها الروح القديمة والجِلْد القديم. وجعل فى عنوانها كلمة «الملحمة»، فالبطولة فيها ليست معقودة لفرد، ولا هى مقتصرة على فترة من الزمن، لكنها تضم عشر حكايات كلها حلقات فى الصراع، وتقول الحكايات جميعًا: فشلت المحاولات الفردية والإصلاحية والهبَّات التلقائية، ولم يبق سوى طريق واحد: القائد على رأس« الفقراء المسلحين، لا تسلط من جانب ولا استخذاء من الآخر ولا امتياز لأحد. الكل يعمل والكل يحظى بثمار عمله، والعدل يشمل الجميع، وإن حانت الحرب فالكل محاربون. هكذا تتحقق العزة فى الحارة، وتتفتح أمام أهلها أبواب الحلم: أن يحظوا يومًا بالخضرة والنعيم وثمار التوت.

إلى جانب الملحمة فإن هذه المنظومة تتوزع بين اتجاهين: فى الأول يحاول نجيب تسجيل أحداث معاصرة وإبداء الرأى فيها، وإن تنازل فى سبيل ذلك عن كثير مما يعرف من إحكام البناء وحبكة التتابع وكثافة الصور وشاعرية اللغة، و«لعله أول من سيوافقك إن شئت أن تخلع عن أى من أعماله هذه صفة الرواية. هو خير من يعرف القواعد والأطر، فى القديم والجديد، فى الشرق والغرب. إن هذا الأمر لا يشغله، فكل ما يعنيه هو التعبير عن تحولات الواقع بوتيرة تقارب سرعته فى التحول، ومنذ السبعينيات، ثمة تحولات تحدث فى التوجهات الرئيسة التى سادت العقدين السابقين عليها، والروائى يجد فى ملاحقتها. هذا الاتجاه يشمل كثيرًا من أعمال المنظومة («الكرنك، ١٩٧٤»، «عصر الحب»، «الباقى من الزمن ساعة»، أمام العرش»، «يوم قتل الزعيم»). الاتجاه الثانى يصرف فيه الروائى إحدى عينيه عن الواقع، ويفتحها على عمل من أعمال التراث، ثم يروح يصب النبيذ القديم فى الأقداح الجديدة، الأقداح التى صُنعت على عينه الأخرى المتابعة لتحولات الواقع («ليالى ألف ليلة»، «رحلة ابن فطومة»، وقد نضيف إليهما أيضًا «حكايات حارتنا»).

فى ١٩٧٤ كانت الملفات القديمة قد فُتحت لتكشف جوانب ما حدث فى سجون عبدالناصر وأحاطه الكتمان. وكان لا بد من فتح تلك الملفات حتى تكون ثمة إمكانية للتجاوز. نشر نجيب «الكرنك» وأرخها بنهاية ١٩٧١ (لا أذكر أن نجيب قد أرَّخ عملاً آخر!)، كان غاضبًا ممرورًا، وكان صادقًا كذلك. وجاءت «الكرنك» شهادته، دون احتفال كبير بالفن الروائى، وهى جماع شهادات أبطالها. يقول الروائى، الأخلاقى المتطهر، الذى يريد أن يغسل يديه من أدران العالم، متفلسفًا ومبررًا أيام الانتفاش الكاذب والزهو الأجوف «قلت لنفسى إن حياتنا تزخر بالألم والسلبيات، ولكنها فى جملتها ليست إلا النفايات الضرورية التى يلفظها البناء الضخم فى شموخه، وأنها يجب ألا تعمينا عن العظمة فى تولدها وامتدادها..

حدث ما حدث فى ١٩٥٢ فتوقف نجيب عن الرواية.
وحين عاد شاء أن يبدأ بعمل ذى طابع «كونى»، لو صح التعبير، فجاءت «أولاد حارتنا».
لكن الظروف التى أحاطت هذا العمل حالت دون أن يأخذ حقه من المناقشة،
وأن يُطرح على بساط النقد والعرض



(..) هل عرفنا ما كان يعانيه ساكن الحارة فى القاهرة عندما كان صلاح الدين يحقق انتصاره الحاسم على الصليبيين؟..». طيب. وماذا بعد أن تهاوى العملاق الخرافى الذى كانت ساقاه من رمل وطين. ماذا بعد الاعتقال الثالث وبعد أن «استيقظنا على أعنف مطرقة صَكّت رؤوسنا الثملة بأحلام العظمة»؟، وبعد أن فشل صلاح الدين فى طرد الصليبيين وجاء بهم إلى أبواب القاهرة؟ ماذا بعد أن سقط تبرير كل باحث عن التبرير؟

تبدلت وجوه وأسماء. سقط «خالد صفوان» عن عرش إرهابه وقعد خالد صفوان مكانه، واستدرجه الروائى إلى مقهى «الكرنك» - دون مبالاة بمعقولية أن يحدث هذا أو لا يحدث - كى يقول لنا حكمة الجلادين. فأية تبريرات يمكن أن يقدم؟ أية تعلات يمكن أن تكون ثمنًا لموت الطموح والآمال والقعود على أرصفة الحياة كالنفايات فى شرخ الشباب؟ أية تعلات يمكن أن تكون ثمن العذرية الضائعة، ضَنّت بها الفتاة المحبة على حبيبها فى لحظة الوجد لينتهكها جلف غليظ وعينان جاحظتان تنظران؟ أية تعلات يمكن أن تكون ثمن حزن العاشقة المحزونة التى لا يعدها الزمن - رغم الأمل التقليدى فى الصفحات الأخيرة - بعشق جديد؟

ليذهب كل تبرير إلى حيث ألقت. فماذا يبقى بعد أن يُدمر «أثمن رأس مال»؟ أليس هذا من سيقيم «البناء العظيم» ويعض على سلاحه كى يطرد الصليبيين، ماذا يبقى منه وقد أحالوه أشباحًا مرتعدة تحيا من خوف الذل فى ذل؟

هذا جوهر شهادة نجيب محفوظ. وهو موضوع سيعود إليه أكثر من مرة فى أعمال هذه المنظومة (خاصة: «أمام العرش» و«يوم قتل الزعيم»).



الاتجاه الثانى فى هذه المنظومة تمثله «رحلة ابن فطومة». وإذا كان التاريخ قد عرف رحلة ابن بطوطة بعنوانها الطريف «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، فإن كاتب رحلة خليفته «ابن فطومة» يستبعد، عمدًا، أية تفاصيل تشى بتحديد موطنه، بحيث يمكن أن يكون أى مدينة من «دار الإسلام». فى أول شبابه تعرض لمحن زلزلته: خانه الدين لأنه قبع فى المساجد، وخانته أمه لأنها قبلت الزواج من معلمه، وخانته حبيبته لأنها تزوجت حاجب الوالى، وبدا له كل شىء كالحًا فتخايل له حلم الرحلة فى طلب الحكمة خلاصًا وحيدًا: «أريد أن أعرف.. وأن أرجع إلى وطنى المريض بالدواء الشافى..»، تحدد باعث الرحلة والهدف منها. وتحددت خطتها كذلك: سيزور ديار المشرق والحيرة والحلبة والأمان والغروب، وصولاً إلى دار الجبل التى تراءت لعينى خياله «كنجم معشوق يعتلى عرشه وراء النجوم..».

بعبارات من عندنا: إن نجيب محفوظ قد اختزل مسيرة التاريخ الإنسانى كله فى هذه الرحلات: اثنتين فى الماضى (المشرق والحيرة) واثنتين فى الحاضر (الحلبة والأمان)، أو اثنتين فى الزمان واثنتين فى المكان، وتبقى دار الجبل متلفحة بالصمت والغموض، مثل أى «يوتوبيا» صاغها الإنسان من أشواقه إلى أن ينعم بالعدل والحرية معاً، وما دار الغروب إلا تمهيد لها وخطوة فى طريقها: حين تخلو القافلة من تاجر واحد، وحين تطرح كل شىء وراءك، وحين تفكر فى العمل دون انتظار ثمرة أو جزاء، وحين تغوص فى ذاتك: فناناً صاحب إبداع، أو متصوفاً صاحب رؤية، أو فيلسوفاً صاحب مذهب. حينذاك تستطيع التحليق دون جناحين، وتحقيق ما عجز الإنسان عن تحقيقه فى ماضيه وحاضره.

وقد لا أكون بحاجة إلى القول بأن الروائى لا يقدم لقارئه «معادلاً موضوعياً» دقيقاً لهذه النظم فى تاريخ الإنسان وحاضره، يكفيه أن قدم الملامح الأساسية للنظم الأربعة: البدائى أو العبودى، والمَلَكية المطلقة القائمة على الحق الإلهى، ثم رأسمالية الغرب واشتراكية الشرق. وقد لا أكون بحاجة للقول كذلك بأنه قد مال مع صاحب رحلته إلى النظام الغربى، ولم يتحفظ فى إبداء إعجاب به. فليس هذا سوى وجه من وجوه الاستلاب فى ثقافتنا المعاصرة.

من تاريخ الإنسان فى العالم إلى تاريخه فى مصر. فى مثال ثالث وأخير لأعمال هذه المنظومة تأتى «حديث الصباح والمساء: ١٩٨٧». سبق أن وصفتها بأنها «جدارية هائلة من الشخصيات والأحداث فى عدد قليل من الصفحات لا يتجاوز المائتين، كل شخصية تضيف لمسة هنا أو أخرى هناك، والروائى ممعن فى حياده الظاهر، يرتب الشخصيات حسب حروف الهجاء، ولا ينسى - هذا الموظف العتيق - أن يكتب الأسماء ثلاثية - وأحياناً رباعية - كى تكتسب شهاداتها الصدق والصحة، ويقف عند رقم سيتكرر كثيراً، وستكون له آثاره على الجيلين الثالث والرابع: سبعة وستين. وعليك - بعد أن خلط لك الأوراق - أن تعيد ترتيبها فى سياق تتابعها الزمنى، ثم أن تسأل السؤال الأساسى: وأين يختبئ الروائى الماكر؟..» (عن: «أوراق من الرماد والجمر» ١٩٨٨، ص ٢٤ - ٢٥).

أهم الملامح فى هذه الجدارية الرائعة خطان يسيران معاً، جنباً إلى جنب: الموقف من أحداث التاريخ المصرى فى أهم لحظات تحوله، من ناحية، ثم انتقال ثقافة التراث الشفاهى الغيبى من جيل لجيل، من الناحية الأخرى. ولنكْتَف هنا بالخط الأول: إن نجيب محفوظ قدم لوناً من «التاريخ الفنى» لأهم نقاط التحول فى مصر المعاصرة، من مجىء الحملة الفرنسية إلى مصرع السادات. تاريخ لا ترويه وقائع جافة، بل نسيجه شخصيات من لحم ودم ووراثة واكتساب وتعليم ومشاعر ومصالح، عاشت متأثرة بتلك النقاط الفاصلة، تصوغ حياتها فى ضوء نتائجها، وهى تدرى أو لا تدرى. فى هذا التاريخ لا يبدو الروائى المتظاهر بالحياد محايداً، لكنه يهب أفضل المصائر لهؤلاء الذين انحازوا للثورة الوطنية فى تجلياتها المتتالية، وأسوأ المصائر - خارج الوطن غالباً بالنسبة للأجيال التى طحنها ٥ يونيو وتهاوى الأحلام - لمن اختاروا الوقوف على الجانب الآخر من الخندق.

«حديث الصباح والمساء» إضافة ثمينة لقلب عالم نجيب محفوظ، هى تَمُت بصلة واضحة إلى «الثلاثية» و«ملحمة الحرافيش» و«الباقى من الزمن ساعة» من حيث هى رواية أجيال، وتَمُت - من الناحية الأخرى - بصلة واضحة إلى «ميرامار» و«المرايا» من حيث هى رواية شخصيات. أثمن ما فيها تفاصيل تلك الجدارية الهائلة، التى تجد فيها - كلما أمعنتَ النظر - اللون الواحد فى درجاته كلها، يشغل مكانه مع بقية الألوان، لا يتجاوز حَيِّزه المحدد له، فى إحكام هندسى دقيق.



فى هذه المنظومة الرابعة والأخيرة قد نجد أن التغير الذى أصاب الكاتب هو أكثر مما أصاب الواقع. بعبارة ثانية: كى نحسن فهم هذه المنظومة علينا أن نضع فى اعتبارنا ما أصبح عليه الأستاذ الكبير: وَهَنَ منه السمع والبصر وهناً شديداً، ثم جاءت تلك الحادثة الرهيبة التى تعرض لها فى أكتوبر ١٩٩٤ لتزيده وهناً على وهن. أصبحت يمناه عاجزة عن الإمساك بالقلم، فهو يُملى أعماله، ولا يراجع تجارب الطبع كما اعتاد. كما أن تكثيف الحراسة من حوله أرغمه على تغيير عاداته التى صارت جزءاً من صميم حياته: الخروج إلى الناس، والحياة فى قلبهم، وتَسَمُّع نبضهم الحى. إذن: ضعف منه السمع والبصر، فضاق مدى معرفته بالواقع الحى والعالم الخارجى، وأصبح مقصوراً على ما يترامى إليه من أحاديث جلسائه. وهو - فى أفضل الأحوال - محدود، وغير محايد بالضرورة. فماذا بقى له؟ الجواب فى عمل من أعمال نهاية الثمانينيات. فى «صباح الورد، ١٩٨٨» يكتب: «إنها لنقمة أن تكون لنا ذاكرة، لكنها أيضاً النعمة الباقية»، أكاد أضيف: «والوحيدة كذلك. من معينها يمتح نجيب أعماله الأخيرة: إن ضاق الخارج، فقد بقى له الداخل رحباً ثرياً.

هنا بالضبط تأتى «أصداء السيرة الذاتية» - نُشرت مسلسلة فى ١٩٩٢ لكنها لم تصدر كاملة إلا فى ١٩٩٦، وكلمة «أصداء» فى عنوان العمل تشير إلى صميمه، أنه لا يقدم سيرته أو أحداث حياته، لكنه يتقصى انعكاسات تلك الأحداث على عقله وروحه ووجدانه إنه يصفيها ويستقطر دلالاتها ويستخلص دروسها ومعانيها، ثم يصوغها تلك الصياغة الخاصة: أكثر من مائتى مقطوعة، قد لا يتجاوز أطولها الصفحة الواحدة، ويقف بعضها عند السطر الواحد أو السطرين، يلخِّص فيه الأستاذ ويركِّز ويكثِّف ويوجز رؤيته للحياة والناس. فى النصف الأول منها ينطلق الراوى حراً يحدثنا بما رأى وسمع وعرف وتذكر وتخيل وحَلُم، حتى يظهر الشيخ عبد ربه التايه» فى النصف الثانى، فيتخذ مجلس «الأستاذ الشيخ» ويتخذ الراوى مجلس «التلميذ الفتى»، فماذا فى نصفى النص؟

من البداية يسأل الشيخ: «ماذا يدفعك إلينا؟ فقلت بعد تردد: أكاد أضيق بالدنيا وأروم الهروب منها، فقال بوضوح: الدنيا محور طريقتنا وَعَدونا الهروب..» تلك البداية تتردد فى صياغات مختلفة. ولكن: ماذا فى الدنيا يمكن أن يصبح موضوعاً للحب؟ مرة ثانية: «سألت الشيخ عبد ربه عما يقال عن حبه للنساء والطعام والشعر والمعرفة والغناء. فأجاب جاداً: «هذا من فضل الملك الوهاب..»»، وما أكثر ما قال الراوى وشيخه فى المرأة والحب، ومعهما يأتى الفن، ومادمنا فى رحاب المتصوفة، فهو يتخذ شكل السماع والطرب، لكن الشيخ وصاحبه لا يدعوان إلى التفرغ للحب والفن، بل إن العمل قيمة كبرى فى الأصداء. فى ختامها يهنئ الشيخ مريديه: «هنيئاً لمن قام بواجبه فى السوق وتحدى الكَدَر..»، بعبارة من عندنا: مَن عَمل على الاهتمام بشئونه الخاصة من جانب، ولم يهمل الشئون العامة من الآخر. كذلك يشغل الموت: تأمله، والتفكير فيه، وتذكر الراحلين، والتأهب للقائه، حيزاً كبيراً فى الأصداء، ولأن الذاكرة هى المصدر الوحيد لما يروى الراوى عن نفسه وشيخه فطبيعى أن تشغل مسألة الذاكرة والنسيان مكانها، وما كان لصاحب «الأصداء» أن يهمل الواقع المعيش مهما غاص فى أعماق الذاكرة، ثمة مقطوعات عديدة تشى بأن الأستاذ يبقى مهموماً بهذا الواقع الثقيل وهمومه الرازحة. خذ هذه المقطوعة وتأمل كلماتها القليلة: «سألت الشيخ: متى يصلح حال البلد؟ فأجاب: عندما يؤمن أهلها بأن عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة»!

وفى ١٩٩٦ أيضاً صدرت آخر مجموعاته المكتملة «القرار الأخير». لعل أهم ما يلفت النظر فيها ظاهرة الفساد الذى ساد فشمل كل شىء، لم يعد الأمر أمر أفراد فاسدين هنا أو هناك، يدارون فسادهم ويتسترون به، لكنه أصبح مؤسسات قوية باطشة، تستند فى قيامها إلى مناخ شامل يشيع الفساد ويشجِّع عليه، فتحمى الفاسدين وتطارد أعداءهم وتستمد قوتها من شيوعها حتى أصبحت هى القاعدة والسائدة، وما عداها أصبح استثناء وشذوذا.

بعدها، أصبحت مجلة «نصف الدنيا» القاهرية هى ناشرة أعماله (كلنا يعرف مدى التزام الأستاذ بمؤسسة «الأهرام» «ووفاءه» لها منذ التحق بها كاتباً متفرغاً أول السبعينيات)، وقد أصدرت منها ثلاث مجموعات: الأولى أسْمَتها «كتاب القرن»، ووصفته بأنه يضم «٥٩ قصة.. آخر ما كتب صاحب نوبل» (٢١/٢/١٩٩٩)، والثانية والثالثة تضمان «أحلام فترة النقاهة» واحدة صدرت نهاية العام الماضى، والأخرى قبل أسابيع (١٤/١٠/٢٠٠١)، لكن هذه الإصدارات تفتقد الدقة، فالمجموعة الأولى منها تعيد نشر عشرين قصة سبق نشرها فى «القرار الأخير»، كما أن الأخطاء الطباعية الكثيرة فى المجموعات كلها تزيد من عدم اكتمالها، وصعوبة اعتبارها، «نصوصاً معتمدة» لهذه الأعمال.

إن شئنا صياغة مختصرة لإبداع نجيب محفوظ فى هذه المنظومة الأخيرة - والتى مايزال الأستاذ قادراً على الإضافة إليها - أمكننا القول إن الكاتب الكبير يستقطر لقارئه خبرات حياته الطويلة، يصفيها ويركزها فى بللورات صغيرة مضيئة، ومازال ملاحقة تحولات الواقع والتعبير عنها عذابه وعزاءه، ولأن ما يبلغه من هذا الواقع أصبح محدوداً بالضرورة، فهو يمتح من معين الداخل: الأحلام والذكريات والرؤى. وأهم ملامح الواقع الذى يبلغه هو الفساد الشامل الذى أحاط كل شىء (وهو فساد لا دخل للشياطين والأبالسة بحدوثه، لكنه بما كسبت أيدينا: فاسدين وصامتين)، ولا حيلة للصغار سوى محاولة التواؤم معه، والإفادة منه، وتَوقِّى

شروره، وإن عجزوا فوسائل الخلاص عديدة: الموت وفقدان الذاكرة والعيش في عالم خاص من الهذيان والهلاوس.



ورغم قلة ما يترامى إليه من هذا الواقع فما يزال الرجل قادراً على تسمُّع نبض الناس الصغار، ضحايا هذا الواقع قبل أن يكونوا صانعيه، والكاتب منهم، مشارك لهم، متعاطف معهم، يقول عنهم: «ما حدث قد حدث، ولكن.. ماذا عما لم يحدث بعد؟..» هو قَلِق متوجس؟ نعم. يرى الطريق ملأى بالعقبات والمصاعب؟ نعم.. لكنه لا يتخلى أبداً عن الأمل، و«السيد القادم» لابد أن يجيء، صحيح أن الجميع ظلوا بانتظاره حتى دَاخَلَهم اليأس، لكنه عاود الاتصال، فلعله يأتي في «المرة القادمة»!

ولا يكتفي الكاتب العظيم بغرس الأمل، لكنه يقدِّم تلك الصياغات المقطرة والمركزة لحكمة الحياة: يراها مدرسة ليس أمام من يدخلها سوى «الاجتهاد والكفاح والصبر»، يراها رحلة مليئة بالأفراح والأحزان، بالانتصار والانكسار، موشاة بالضحكات والدموع، على أديمها تتلاقى التناقضات وتتحايث وتتعايش، نصارعها وتصارعنا، وأسلحتنا متعددة في هذا الصراع، على رأسها الإرادة والمعرفة والعمل وبذل الجهد ومكابدة المشقة، ثم توطين النفس على «تَقَبُّل قوانين الأشياء»، والإيمان بأن لكل مرحلة من مراحل العمر مسراتها، وأن النهاية حين تأتي فهي لا تعني سوى الانتقال من عالم لآخر، ولعل من أجمل ما يصوغه راوي «الأصداء» هذه المقطوعة: «في مرحلة حاسمة من العمر، عندما تسنَّم بي الحب ذروة الحيرة والشوق، همس في أذني صوت عند الفجر، هنيئًا لك، فقد حمَّ الوداع. وأغمضت عيني من التأثر، فرأيت جنازتي تسير وأنا في مقدمها أسير حاملاً كأساً كبيرة مترعة برحيق الحياة».

ويكتسب وجه الكاتب الكبير في مجمل هذه الأعمال شفافية وعذوبة، ناتجتين عن المسافة التي ينظر منها إلى ما يحدث، ويُسْلكه في عداد ما رأى وعرف وخبر، ويصوغه في هدوء وحكمة مَن عاش وأراد وعمل وكابَد وأنجز وحقق، فحقَّ له أن يتأمل ويستوحي ويستقطر ويصوغ. إن شئت عبارة أكثر إيجازاً أمكنك القول إن الأستاذ نجيب مايزال قادراً على مواصلة الإبداع، وعلى أن يأخذ عمله - كما كان دائماً - مأخذ الجد الكامل: رسالة الحياة ومعنى الوجود.

ألا تراه لا يستطيع - رغم كل شيء - أن يتوقف عن الكتابة؟

تلك - مقتبساً عن يحيى حقي - نفحات من عطر نجيب محفوظ، نظرة عجلى إلى عالمه الروائي، لم تعرض لعالمه القصصي إلا قليلاً. قلت في أول هذا الحديث إن «نجيب» كان موجوداً في عالمي منذ الدراسة الثانوية، ثم «أتاني زماني بما أرتضي» فعرفت الأستاذ عن قرب: في مقهى «ريش» من منتصف الستينيات لأوائل الثمانينيات، وفي «الأهرام» حيث كنت أعمل بمجلة «الطليعة» من ١٩٧٢ إلى ١٩٧٧، وكان الأستاذ يأتي إليه كل خميس، ثم في مقهى «علي بابا» حتى أصابته تلك الطعنة الغادرة في ١٩٩٤، وتابعتُ الكتابة عن أعماله منذ بدأت حول منتصف الستينيات، وكان الأستاذ حَفِيًا بي وبما أكتب، يقرأه بعناية ويناقشني فيه بمودة واهتمام، وتصاعد النقاش أكثر من مرة حول أعمال بعينها («أمام العرش» و«يوم قتل الزعيم» بوجه خاص)، لكنني أشهد أنه كان رحب العقل سمح النفس، يُصغي - باهتمام صادق - لآراء الآخرين، ويناقشهم في جرأة ووضوح، وإن احتد النقاش فعل ما يفعله ابن البلد القاهري: زاغ من المأزق بالنكتة، ثم أطلق ضحكته الصافية الممتدة!

وحين أُعلن نبأ حصوله على جائزة «نوبل» مساء الخميس ١٩/١٠/١٩٨٨ فرح المصريون كأن الجائزة تخص كلاً منهم، صباح اليوم التالي سعيت للقائه في مقهاه، وكنتُ أهجس بأنه قد لا يلتزم نظامه اليومي المعتاد، لكنه جاء، متأخراً بعض الوقت، أمامه ووراءه يمشي صحفيون ويتقافز مصورون، وجمهور السابلة في «ميدان التحرير» انتبهوا إليه، فراحوا يشيرون نحوه، وبعضهم وجد الجرأة كي يتقدم منه مصافحاً أو محتضناً مهنئاً.

أعدَّ الأستاذ مجلسه كما يفعل كل صباح، وجلستُ إليه وحدنا.

- أستاذ نجيب.. ماذا يعني هذا عندك؟

- لك أنت سأقول إنني سعيد لأنني كسرتُ القاعدة..

- أيَّة قاعدة؟

- القاعدة التي تقضي بأن الحصول على أي شيء الآن - دع عنك مثل هذه الجائزة - إنما يقتضي مسلكاً خاصاً، يقوم على قاعدة انتهازية وعلاقات عامة واتصالات هنا وهناك.. أنا لا أقول إنني وضعت قاعدة أخرى.. أقول فقط إنني كسرتُ القاعدة السائدة، وقدمتُ درساً لكل الجادين والمجتهدين: إن الانصراف إلى العمل، والعكوف عليه يمكن أن يؤدي حتى إلى جائزة نوبل.





ولعل هذه المقابلة كانت من أوائل ما نُشر عنه بعد حصوله على الجائزة (مجلة «اليوم السابع»، باريس، ٢٤/١٠/١٩٨٨) ومجلة «الأفق»، نيقوسيا، ٢٧/١٠/١٩٨٨). يومها كتبت: الجائزة لنجيب محفوظ: انتصار لقيم الإخلاص والجدية والتجرد، انتصار لإعلاء شأن العمل وبذل الجهد، والانصراف عن انتهازية الفكر والسلوك، والانصراف عن الضجيج الإعلامي الفارغ والسعي المحموم - الذي يستخدم كل الوسائل - للحصول على جائزة من هنا أو منحة من هناك، والترفع عن كل ما يشين، أو يخفض الجبين الشامخ. الجائزة لنجيب محفوظ: شجرة الجميز المصرية السامقة، عميقة الجذور في تراب مصر، شهية الثمار، وارفة الظلال، طالما تفيأناها، وشحذنا أقلامنا الساذجة على جذعها وفروعها..».

ومايزال الأستاذ بيننا: رقماً قياسياً وإطاراً مرجعياً ومثلاً أعلى يحظى بكل الحب والاحترام.

ويا أستاذ نجيب.. كل سنة وأنت طيب. ■

كتـــاب الـزاويـــة

رياض الصالحين

باب فضل السماحة في البيع والشراء والأخذ والعطاء وحسن القضاء والتقاضي وإرجاح المكيال والميزان والنهي عن التطفيف وفضل إنظار الموسر المعسرَ والوضع عنه:

قال اللَّه تعالى (البقرة ٢١٥): ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

وقال تعالى (هود ٨٥): ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

وقال تعالى (المطففين ١ - ٦): ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وعن أبي هريرة رَضيَ اللَّهُ عَنهُ أن رجلاً أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم يتقاضاه فأغلظ له فهم به أصحابه، فقال رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً» ثم قال: «أعطوه سناً مثل سنه» قالوا: يا رَسُول اللَّه لا نجد إلا أمثل من سنه. قال: «أعطوه فإن خيركم أحسنكم قضاء» مُتَّفَقٌ عَلَيه.

وعن جابر رَضيَ اللَّهُ عَنهُ أن رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم قال: «رحم اللَّه رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى» رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

وعن أبي قتادة رَضيَ اللَّهُ عَنهُ قال سمعت رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم يقول: «من سره أن ينجِّيه اللَّه من كرب يوم القيامة فلينفس عن مُعسر أو يضع عنه» رَوَاهُ مُسلمٌ.

الإنشــــاد الــــدينى والأغــــانى الدينيـــة

مـــايكـــل فـريشـــــكوف

■■ كثيراً ما يُفترض أن الإسلام السلفى يرفض الموسيقى، وأن تلاوة القرآن والأذان هما الممارستان اللحنيتان المقبولتان منه. وبنفس المنطق، فإن موسيقى الصوفية تصنف تحت عنوان الإسلام «الابتداعى» أو «الشعبى». إذن فكل من الممارسات «السلفية» و«الصوفية» تميز فئوياً عن العالم «الدنيوى» وموسيقاه. وهذا الرأى «الثلاثى» الخاطئ عن الموسيقى والدين فى مصر يمكن تصحيحه عن طريق دراسة ذلك المجال الثرى من الممارسات اللحنية الإسلامية التى تمارس هناك.

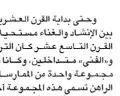
انتشر أداء الإنشاد الدينى فى مصر خلال القرن العشرين، متعدياً كل الحواجز الجغرافية والاجتماعية. وبما أن ممارسة الإنشاد تركز فى المقام الأول على الابتهال إلى الله وتسبيحه، ومدح رسوله وحبه، والتعبير عن التجربة الروحانية، والمواعظ الدينية، فهو لا يقتصر على منطقة أو طبقة اقتصادية أو رؤية دينية. فالإنشاد يعبر عن البعد العاطفى للإسلام، الذى يُعَبَّر عنه كأحسن ما يكون التعبير فى الصوفية. ومع أن الإنشاد دائماً صوفى كأوسع ما يكون معنى هذه الكلمة، ورغم أن بعض الفرق الصوفية تشتهر بالفعل بإنشادها الشعائرى (بينما لا يوجد ذلك فى غيرها)، فإن الإنشاد يحظى بالتقدير فى مجال اجتماعى عريض يتخطى حدود الطرق الصوفية بكثير.

والواقع أنه بينما قد يمثل الإسلام العاطفى، الذى يتجلى فى الصوفية الشعبية، الدافع الأساسى نحو التعبير الموسيقى عن الشعور الدينى، فإن الخطوط التى يفترض أنها تفصل الإسلام «السلفى» عن «الصوفى»، و«النخبوى» عن «الشعبى»، لا يمكن تمييزها، هى أقل حدة بكثير، على الأقل فى مصر. وتعكس مثل هذه التقسيمات بعض المفاهيم والجدل أكثر منها معتقدات وممارسات حقيقية. ذلك أن حقيقة الأمر هى أن الأفكار والمشاعر الصوفية - وهى حب الله ورسوله وآل البيت - تنتشر فى المجتمع المصرى بدرجات متفاوتة (وإن كان الانتشار غير معترف به دائماً)، ويكون التعبير عن هذه الأفكار والمشاعر أصدق ما يكون شعراً وغناءً. وصعوبة التمييز بين ما هو غناء «سلفى» و«صوفى»، أو «نخبوى» و«شعبى»، أو «دنيوى» و«مقدس» تعكس تواصلاً عاماً وتداخلاً بين هذه الفئات وضرورة الحذر عند استخدامها.

والفصل بين أنواع الأداء اللحنى فى الإسلام يتسم بالصعوبة كذلك. فمن ناحية النص، يمكن تمييز الإنشاد عن تلاوة القرآن والأذان. فالإنشاد شعر فى المقام الأول؛ أما القرآن فكلام الله، والأذان من التراث. وقدسية كلام الله، والقواعد الخاصة بتلاوته (التجويد)، تحدد طريقة الأداء الصوتى للقرآن (وإن كان بالإمكان تحقيق أثر كبير فى إطار هذه الحدود). ومع ذلك فهناك أثر متبادل فى أساليب الأداء، إذ إن المنشد عادة ما يتلو القرآن ويؤذن للصلاة كذلك. كما أن كل أنواع الأداء الإسلامى شكّلها تاريخ مشترك للتراث الإسلامى. وكثيراً ما كان هذا التراث ينظر بعين الشك إلى استخدام الموسيقى فى الدين، بل ويتخذ منه موقفاً عدائياً، وهو ساعد على طبع كل الأنواع الإسلامية بملامح مشابهة.

ومع ذلك فإننا عندما نقارن مجال الإنشاد بتلاوة القرآن نجده أكثر مرونة إلى حد كبير فى الأداء، وأكثر حرية فى الجمع بين الممارسات الموسيقية الأخرى. وبينما قد يزعم بعض المصريين أنهم قادرون على التمييز بوضوح شديد بين الإنشاد والغناء (بمعناه العام)، فهما فى واقع الأمر ليسا منفصلين انفصالاً بيناً فى المفهوم أو الممارسة، وهناك تواصل بين أداء الإنشاد الدينى، بالمعنى الدقيق للكلمة، وأداء الغناء غير الدينى الذى لا لبس فيه.





وحتى بداية القرن العشرين، كان الفصل بين الإنشاد والغناء مستحيلاً تقريباً. ففى القرن التاسع عشر كان التراثان «الدينى» و«الفنى» متداخلين، وكانا يشكلان معاً مجموعة واحدة من الممارسات؛ وفى الوقت الراهن تسمى هذه المجموعة أحياناً بالتراث القديم. وشيئاً فشيئاً انفصل الغناء الدينى عن الغناء غير الدينى مع قدوم صناعة الموسيقى التجارية، التى روجت للموسيقى الشرقية الترفيهية الأكثر ربحية، حيث نأت بها عن التراث الدينى. إلا أن التأثيرات المتبادلة القوية والاستعارات الموسيقية ظلت قائمة، لتجعل أى فصل حاد مستحيلاً. وفى الفترة من منتصف القرن حتى أواخره، ضمت المنطقة «الرمادية» بين ما هو دينى بشدة ودنيوى بشدة نسخاً أوركسترالية من الإنشاد تأثرت تأثراً قوياً بتراث الأغنية الحضرية، إلا أنه كان يؤديها المشايخ، وكذلك أغانى دينية يؤديها مطربون ليس معترفاً بهم كمشايخ.

وفى مجال الإنشاد، قد تفرق مصر بين الأنواع تبعاً للمؤدى، وأسلوب الأداء، والنص، والسياق. وقد يكون تعريف الأنواع تعريفاً دقيقاً أمراً إشكالياً. فلا وجود للتعريفات المتفق عليها بشأن مصطلحات الأنواع. غير أن هناك شبه اتفاق يمكن تمييزه، وإن تداخلت فئات الأنواع إلى حد ما. وأنواع الإنشاد الرئيسية التى نستعرضها فى هذا المقال - وهى التواشيح الدينية والقصائد الدينية والمولد والابتهالات والقصة الدينية والذكر - صار لها جمهور عريض من خلال الأداء الحى أو الإنتاج الإعلامى، أوكليهما.

ملامح الإنشاد الدينى المعيارية

فى الوقت الذى يوجد فيه التواصل الذى يربط بين الإنشاد والغناء، فإن هناك كذلك معايير ومقاييس مشتركة تعود أصولها إلى التقاليد الإسلامية والمواقف الإسلامية من الأداء الموسيقى، وهى التقاليد والمواقف التى يحدد بها المصريون وضع المؤدين والأداء بناء عليها. وبينما لا يطبق كل المصريين نفس المعايير بنفس الطريقة، فإن هناك ميلاً مشتركاً فى تقدير ما يمثل الأداء الدينى بحق.

فالإنشاد الدينى الحقيقى ينبغى تفسيره على أنه عمل من أعمال التقوى: وهى عبادة الله، أو التعبير عن الشعور الدينى الحقيقى، أو دعوة الآخرين إلى الإسلام. والمتعة الجمالية المصاحبة لذلك مقبولة، ما لم تكن غاية فى حد ذاتها. بل إنها قد تعتبر ميزة إذا أمكن للإنشاد بذلك أن يقضى على الرغبة فى الموسيقى «الدنيوية». وبما أنه ينبغى على تجربة الإنشاد أن تكون دينية، فإن على ممارسات الإنشاد أن تحافظ على مسافة محسوسة بينها وبين الأغنية الدنيوية.

ولا بد أن يتم الإنشاد فى سياق مقدس إلى حد مناسب، أى ليس ضمن شعيرة من الشعائر الإسلامية الجوهرية (حيث لا يقره التراث)، ولا فى سياقات غير دينية (حيث قد يساء تأويله، أو يسخر منه، أو تكون له تداعيات منفرة). وفى إطار هذه الحدود، قد يؤدى الإنشاد فى مناسبات دينية صريحة، أو مناسبات اجتماعية عامة. والاحتراف مقبول، شريطة أن يخدم المنشد الله والإسلام.

ولا بد أن يحتل النص مكانة رئيسية فى أداء الإنشاد، لأهميته فى ترسيخ المقصد والوظيفة والتجربة الدينية. لذلك فإن جودته ورسالته على قدر كبير من الأهمية. وأكثر الأفكار قبولاً هى تسبيح الله والدعاء والابتهال إليه؛ ومدح وغزل الرسول محمد وآل بيته؛ والتعبير عن التجربة الروحانية؛ وقصص الشخصيات الدينية؛ والمواعظ الموجهة للمستمعين. وفى بعض الأحيان قد يستخدم شعر غزلى غامض، وإن كان مثل هذا الشعر يراقَب لكونه إما شديد التصوف أو شديد الإباحية. وأكثر هذا الشعر شيوعاً الدعاء إلى الله ومدح الرسول. والشعر الدينى غزير على امتداد التاريخ الإسلامى، ولم يكن يؤلفه فقط أشخاص معروف أنهم فى المقام الأول أولياء ومتصوفة، يمثل هذا الشعر النمط الأساسى لتعبيرهم اللغوى، بل ألفه كذلك العديد من صحابة الرسول (مثل حسان بن ثابت، حوالى ٦٥٩ ميلادية)؛ وعلماء الدين (مثل الإمام الشافعى، الذى توفى سنة ٨٢٠ ميلادية)؛ وعلماء الأزهر (مثل الشيخ صالح الجعفرى، الذى توفى سنة ١٩٧٨). وهذا الشعر كثيراً ما يؤدى كإنشاد. وعادة ما تفضل اللغة العربية الفصحى، لغة كتاب الله والتراث (وخاصة نوع القصائد)؛ ولكن الأشكال العامية (الموال والزجل) تستخدم كذلك من أجل الوصول إلى أعداد أكبر من الناس، وخاصة فى المناطق الريفية.

ولأن النص مهم، فالصوت مهم كذلك. إذ يحول الأداء الصوتى المُلَحَّن النص إلى أداء اجتماعى، وقد أثراه التعبير العاطفى الذى يكمل معناه. و الصوت المفرد هو الأمثل من أجل وضوح النص وإظهار العاطفة، حيث يحظى النطق الواضح بتقدير شديد. ومع أنه لم توضع قواعد مقننة لأداء الإنشاد، فإن الكثير من مبادئ التجويد غالباً ما تطبق فى الممارسة، لضمان الفهم واستحضار الجو المقدس لتلاوة القرآن؛ وعادة ما يكون المنشد على علم بهذه المبادئ نتيجة لتعليمه الدينى.

ونظرت الشريعة الإسلامية بصورة عامة إلى الآلات الموسيقية نظرة توجس؛ ومن ثم فهى إما محدودة، أو ملغاة بالمرة، فى معظم أنواع الإنشاد. وبعد الصوت المفرد، نجد أن التكوين الأكثر قبولاً هو الصوت المفرد مع البطانة. وأكثر الآلات الموسيقية المسموح بها هى الدف (حيث يشير الحديث إلى إقرار الرسول له) وغيره من آلات الإيقاع، وكذلك الناى أو الكَوَلة؛ وقد أصبح صوت الناى الحزين الذى يستخدم كثيراً فى السياقات الصوفية رمزاً للشوق الروحانى. وتحظى الآلات الوترية التقليدية كالكمان والعود والقانون، وكذلك الآلات «الشعبية»، بقدر أكبر من الانتقاد، وإن كانت هذه الآلات مفضلة على الآلات الغربية والإلكترونية المستخدمة فى الموسيقى الشعبية المعاصرة وترتبط بلا ريب بالسياقات غير التقليدية. وقد تستخدم الآلات منفردة، أو على هيئة تخت، أو (فيما بعد) فرقة موسيقية كبيرة (كفرقة الموسيقى العربية). والاستخدام المتنوع للآلات يكشف عن تواصل يربط الإنشاد بالغناء. وفى الاتجاه ناحية الغناء، وفى الإنشاد والأغانى الدينية، كثيراً ما يواجهنا ما أسميه «الصوت الدينى»، وهى فرقة الطرب القياسية التى تبرز فيها آلات الإيقاع القوية (وخاصة الدف وما شابهه) والناى؛ وهناك كذلك الكورس كبير العدد ليقوم مقام البطانة، أو يمثل نظيراً للذكر الصوفى.

ويرى كثيرون أن الأسلوب الموسيقى المثالى هو الجاد والمبجل والتأملى؛ أما الأساليب والإيحاءات المرحة الخاصة بالموسيقى الترفيهية الدنيوية فتقابل بالنقد من جانب بعض الجهات. وعادة ما يوحى الإنشاد بالإحساس بما هو «أصيل» ثقافياً، بينما يتحاشى «تحديث» وتغريب الموسيقى التجارية المعاصرة. وبينما يحقق بعض الإنشاد هذه المهام عن طريق إدخال التراث

بسبب التعليم الدينى
والخبرة، يلقب المنشد بـ«الشيخ».
وهو يتحاشى صفة «المطرب» مفضلاً عليها
أن يعرفه الناس بالمنشد، أو بالصفات الأكثر تخصصاً
(التى تختلف باختلاف نوع الإنشاد).
ومسلكه وملبسه هما مسلك
الشيخ وملبسه

في مصر القرن العشرين

«الشعبي»، فإن الأسلوب اللحني لكثير من الإنشاد تشكله أسس تلاوة القرآن والتراث القديم (وبذلك قد يكون من الصعب على من يسمعه لأول مرة التمييز بين التلاوة والابتهالات). ومن بين أبرز أمثلة الغناء العربي التي بين أيدينا تسجيلات للمنشدين العظام (مثل الشيخ إبراهيم الفران والشيخ طه الفشني).

وكما هو الحال في تلاوة القرآن، هناك تقدير للنطق المعقد الذي يجمل النص دون أن يغطي على معناه. وربما يكون البيت الملحن كثير التفاصيل والتنميق والزخارف ومعقداً في استخدامه لتغيير السلم الموسيقي والقفلة. وغالباً ما يقدم بيت من الشعر أولاً لمجرد نقل المعنى، ثم يتبعه البيت الملحن. ويعد الارتجال اللحني أمراً أساسياً لتحقيق قدر أكبر من المرونة والتعبير والتأثير العاطفي. وهناك تحاش للإيقاع السريع الذي يستحضر الحالة النفسية والسياقات الخاصة بالموسيقى الدنيوية في معظم الأنواع. والغناء غير الموزون (الذي يشبه الأسلوب الإيقاعي لتلاوة القرآن) هو المفضل بسبب تداعياته التأملية وابتعاده عن معظم الموسيقى الترفيهية؛ وفيما عدا ذلك، كثيراً ما تقل أهمية الوزن من خلال استخدام الإيقاعات البطيئة، أو الوقفات، أو البحور المعقدة الطويلة (التي تستحضر التراث العربي الإسلامي الخاص بالموشحات القديمة). وتقبل البحور القصيرة الأكثر انتظاماً بشكل أساسي لمصاحبة الذكر الصوفي، وإن لم ينج هذا من انتقاد المحافظين. وكما هو الحال في الموسيقى العربية القديمة، وكذلك تلاوة القرآن، يوفر المستمعون التغذية الاسترجاعية الصوتية عقب إنهاء المنشد للعبارة، مستخدمين كلمات الإعجاب مثل «الله!» و«يا سلام!».



وتمتد نماذج الإنشاد المثالية إلى ما وراء الصوت والسياق، إلى الحالة الاجتماعية والعرض المرئي. وبسبب التعليم الديني والخبرة، يلقب المنشد بـ«الشيخ». وهو يتحاشى صفة «المطرب» مفضلاً عليها أن يعرفه الناس بالمنشد، أو بالصفات الأكثر تخصصاً (التي تختلف باختلاف نوع الإنشاد). ومسلكه وملبسه هما مسلك الشيخ وملبسه. فالمنشد يرتدي الملابس العربية الإسلامية، وتشمل العمامة والشال والأردية فضفاضة (العباءة أو الجلباب أو القفطان أو الجبة)، وعادة ما يمسك في يده بمسبحة. وهو بهذه الملابس يمكن تمييزه عن المقرئ أو الخطيب. وعلى النقيض من ذلك، يرتدي المطرب الملابس «الحديثة».

وفيما مضى، كانت نساء كثيرات ـ مثل الحاجة السويسية (في القرن التاسع عشر) ـ يتفوقن في الأداء العلني للإنشاد وهن يرتدين ملابس عادية. إلا أن الاتجاهات الإحيائية الإسلامية في القرن العشرين روجت لفكرة أن صوت المرأة عورة؛ ومن ثم فإن الصوت، شأنه شأن الجسد، لابد أن يحجب عن الناس. ومع أن معظم المصريين لا يقرون موقف الحجب هذا، فقد تأصل باعتباره كراهية واسعة الانتشار لأداء النساء علناً في إطار سياقات دينية، بينما كانت النتيجة المتناقضة هي أن على المغنيات أن يجدن فرصاً للأداء في العالم الأكثر رفضاً والأقل احتشاماً الخاص بالترفيه التجاري والملاهي الليلية. والاستثناء الأساسي نجده في القصص الدينية التي سنناقشها فيما يلي.

الإنشاد المسجل:

كان الإنشاد خلال القرن العشرين يسجل وينتج من أجل الاستهلاك كسلعة إعلامية، على الأسطوانات أولاً، ثم على أشرطة الكاسيت فيما بعد. وهذه التسجيلات باعتبارها تجارية، كانت في كثير من الأحيان تسجل في الاستوديو، وكانت مقتطعة من السياقات المعتادة التي تعرف الأداء بأنه «إنشاد». والمنتجون لا يؤكدون أن التسجيل إنشاد بتقديم الأصوات والنصوص المناسبة وحسب، بل كذلك عن طريق التكوين الرمزي الدقيق على غلاف الشريط. فالمنشد، الذي يُعَرَّف بأنه «الشيخ» فلان، يصور في وضع محتشم، وهو يرتدي ملابس المشايخ، وغالباً ما تكون الصورة مركبة على لوحة فنية تتزاحم فيها الرموز الدينية كالصور الفوتوغرافية للأماكن المقدسة والمساجد والمآذن والأهلة والنقوش العربية.

وفي الغالب كان الإنشاد يسجل من أجل استهلاك المصريين أنفسهم، لا من أجل جمهور الدارسين أو جمهور الموسيقى العالمية في الغرب؛ فهذه الأشرطة صناعات مادية خاصة بالثقافة المصرية. وعند الاستماع إلى هذا الإنشاد المسلم، يعيش المرء مع عناصر صوتية من عالم مصر. ومع ذلك لا بد أن يعي المستمع أن اعتبارات التسويق، والإمكانيات التي تقدمها الاستوديوهات وتكنولوجيا التسجيل، والرقابة الحكومية، قد تجعل هذا الإنشاد مختلفاً بعض الشيء عن النسخة الحية المقابلة له ـ إن كان لهذه النسخة وجود أصلاً. وهناك أنواع بكاملها من الإنشاد (أبرزها التواشيح الدينية) متوفرة على كاسيتات، ولكنها لم تعد تؤدى حية. وعلى العكس من ذلك، فإن منتجات صناعة «الموسيقى العالمية»، وإن كانت بقدر أعلى من الدقة في نقل الأصوات ومتحررة من القيود الحكومية المصرية، فهي تُختار وتُعدل بحيث تناسب الأذواق المفترضة في سوق الموسيقى العالمية الغربية. وهذه التسجيلات قد تحاول تمثيل الثقافة المصرية، ولكنها ليست جزءاً منها.

التراث القديم

حتى بداية القرن العشرين، كان الأداء الديني والطرب متداخلين في الغالب الأعم، وكانا يشكلان معاً ما يسمى الآن بالتراث القديم. وكان التعليم يبدأ في الكُتّاب، حيث كان التلاميذ يتعلمون تلاوة القرآن ويحصلون على معرفة أساسية باللغة العربية الفصحى والأدب العربي الفصيح. وكان ذلك التعليم هو أساس تدريب كل المغنين تقريباً؛ وكثير منهم بدأ بغناء التراث الغنائي الديني، ومن ثم كانوا يعتبرون «من المشايخ».

وبناء على ذلك كان الإنشاد والغناء قريبين من بعضهما في كثير من الأحيان، وكان الواحد منهما لا يميز عن الآخر في كثير من الأحيان، في تلك الفترة. فلا نكاد نميز شعر الغزل العفيف (الموشحات والقصائد) عن الشعر الروحاني، وخاصة شعر الطرق الصوفية. وكان المجتمع الذي يغلب عليه التدين يفضل أداء الشعر الروحاني، ليس فقط في مناسبات دينية بعينها (مثل ليالي رمضان أو العيدين أو المولد النبوي)، بل كذلك في المناسبات الاجتماعية الاحتفالية كالأعراس. وعلى العكس من ذلك، كان الغزل الدنيوي السامي «يستعار» من أجل الاستخدام الروحاني، وكذلك التوزيع الموسيقي الدنيوي. كما كانت الأساليب الموسيقية قريبة من بعضها كذلك. وكما هو الحال بالنسبة للمنشد، كان المطرب يصاحبه كورس (يسمى المذهبجية)، وكثيراً ما كان ينادي بالشيخ. وكانت العادة أن تتضمن ذخيرة المطرب الغنائية أغاني دينية صرفة وقصائد غزل عفيف، وكان يمزجهما في عرض واحد.

وأكثر أنواع الإنشاد تسجيلاً في أوائل القرن العشرين هي التواشيح الدينية والقصائد الدينية. وفي التواشيح كان الأداء يتم بالتناوب في تضاد صوتي بين المنشد الرئيسي باعتباره المنشد المنفرد، بأسلوب مزخرف ارتجالي غير موزون (وهذا الجزء يسمى أحياناً ابتهالات)، والكورس، مستخدماً ألحاناً معقدة مؤلفة من قبل في إطار شبه موزون. ويمكن للمنشد المنفرد كذلك أداء قصيدة كاملة بالفصحى بالأسلوب المنفرد؛ وهذا النوع يسمى عامة بالقصيدة الدينية (أو الابتهالات، عندما تكون الفكرة هي الدعاء والرجاء). وقد يضاف لأي من النوعين مصاحبة آلية خفيفة.

وليس من قبيل الصدفة أن بعض النماذج الحسنة من التراث



القديم، وإن كانت قليلة نسبية، قد سجلت، لأن ظهور صناعة الموسيقى كان فى بداية القرن العشرين، فى أعقاب تطور البنية التحتية التكنولوجية والاقتصادية اللازمة، حيث حفظت هذه الأنواع وحددت المسار الحتمى لتدهورها فى العقود التالية. ومن بين أعظم المؤدين الذين سجلت أعمالهم الشيخ يوسف المنيلاوى، والشيخ درويش الحريرى، والشيخ أبو العلا محمد، والشيخ على محمود، والشيخ محرز سليمان، والشيخ إبراهيم الفران.

التواشيح الدينية المتأخرة:

استمر أداء التواشيح الصوتية الخالصة (ومنها الابتهالات والقصائد الدينية) حتى منتصف القرن العشرين، وإن ازداد انفصالها عن التيار العام للطرب. فقد كان الطرب موجهاً فى المقام الأول نحو الترفيه الدنيوى، وتخلى شيئاً فشيئاً عن التواشيح باعتبارها «أساساً تدريبياً» للمطربين الجدد، وخاصة مع انتشار المدارس الدنيوية، واختفاء الكُتَّاب بعد ذلك. وفى الوقت نفسه، قلت شعبية التواشيح الجادة كترفيه للمناسبات الاجتماعية. ونتيجة لذلك صارت التواشيح فى نهاية الأمر تعد دينية بحتة، دون أن يكون لها أى دور شعائرى مهم: ولم يكن المؤدون مثل الشيخ طه الفشنى يغنون موسيقى الطرب، كالجيل السابق من المشايخ. وعندما لم تحظ التواشيح بدعم المناسبات الاجتماعية ولا صناعة الموسيقى المزدهرة، ولا الشعائر الإسلامية، تدهورت تدهوراً حاداً خلال الربع الأول من القرن العشرين. واليوم قد تسمع التسجيلات فى الإذاعة، وخاصة فى المناسبات الدينية، إلا أن التواشيح نادراً ما تؤدى أداء حياً: وتستمر القصائد الدينية كابتهالات شعائرية (كما سيأتى فيما يلى)، وفى سياقات صوفية. وغالباً ما يعتبر الذواقة الشيخ طه الفشنى أعظم من تخصص فى التواشيح فى القرن العشرين: إذ إن صوته مذهل. ومن التسجيلات الشهيرة الأخرى، تلك الخاصة بالشيخ محمد الفيومى، والشيخ نصر الدين طوبار. وهذه التسجيلات، التى تعتبر الآن نخبوية وتعبيرا سائدا عن الشعور الإسلامى، هى فى واقع الأمر جزء من تراث كان يمارس فى يوم من الأيام على كل المستويات الاجتماعية (وما زال يروق لها)، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتراث الصوفى، وكذلك بجذور الموسيقى العربية الدنيوية المعاصرة. وتنطبق الملاحظات ذاتها على الابتهالات الشعائرية (كما هو مذكور فيما سيلى).

المولد النبوى:

إنشاد الموالد

المولد النبوى (أو المولد وحسب) هو حدث (مولد الرسول فى ١٢ ربيع الأول)، ونوع من أنواع النصوص، ونوع من الإنشاد. فمن الناحية النصية، يمدح المولد الرسول محمد وهو يروى سيرته، شعراً ونثراً. وقد ألف الكثير من نصوص المولد اعتماداً فى المقام الأول على السيرة النبوية المنسوبة لابن اسحاق (المتوفى حوالى ٧٦٧) وقدمها ابن هشام (المتوفى سنة ٨٢٨ أو ٨٣٣). وفى مصر نجد أن هناك ثلاثة نصوص من هذه السيرة هى الأكثر شيوعاً: وهى نصوص جعفر بن حسان البرزنجى المدنى (المتوفى سنة ١٧٦٥) وعبد الرءوف المناوى القاهرى (المتوفى سنة ١٦٢١) وشرف الدين البوصيرى، الذى نشأ فى البوصير والقاهرة (توفى سنة ١٢٩٨ بالإسكندرية). كما ألف الكثير من مشايخ الصوفية الموالد لاستخدامها فى طرقهم.

ويشيع الأداء الملحن لنصوص الموالد بصورة خاصة خلال شهر المولد النبوى. وقد يتضمن أداء الموالد أجزاء من التلاوة والغناء، باستخدام شكلى التواشيح والقصائد الدينية. ومن أمثلة ذلك الشيخ على محمود والشيخ إبراهيم الفران والشيخ طه الفشنى. وفى سنة ١٩٨١ دعيت مجموعة صغيرة من المنشدين من الطريقة الحامدية الشاذلية لأداء مادتهم الشعائرية فى باريس فى المهرجان الثامن للفنون التقليدية، بقيادة المنشد الشيخ محمد الهلباوى: وقد سجلت مواد عديدة وطرحت لسوق «الموسيقى العالمية». والفقرة ٣ من الحامدية الشاذلية ١ عبارة عن نص مولد لشيخ الطريقة، وهو أداء مولد نمطى فى الطرق الصوفية. والمنشد المنفرد هو السائد، مع جواب كورالى من حين لآخر من بقية المجموعة. ويمكن سماع أداء مولد آخر للشيخ الهلباوى بمصاحبة بطانة مختلفة على الحامدية الشاذلية ٢، الفقرة ٩.



وتتلى قصيدة البردة الشهيرة للبوصيرى فى أنحاء العالم الإسلامى. وعادة ما تحسن القصيدة بإدخال مدح الرسول والصلوات عليه، وكثيراً ما يكون ذلك بدمج أبيات شعرية إضافية مقابلة للأبيات الأصلية (التشطير). وفى مصر نجد أن أشهر المفسرين هو الشيخ عبد العظيم العطوانى الذى سجل القصيدة كلها (باستخدام نص تشطير موسع) على سلسلة من أشرطة الكاسيت، كمنشد منفرد مع قرارات كورالية. ولكن رغم شعبية أداء المولد المستمرة فى الصعيد وفى بعض الطرق الصوفية التى تستخدمه شعائرياً، فقد تدهور بصورة عامة فى النصف الثانى من القرن العشرين.

والمنشد المحترف المتخصص فى مولد النبى يسمى فى بعض الأحيان الموالدى، ولكن هذا المصطلح ينطبق كذلك على طبقة عريضة من المؤدين. ويؤدى الموالدى التواشيح الدينية بمصاحبة الكورال وآلات الإيقاع، وهى فى العادة الرق والدف والبازة والنقرزان والكاس؛ وكثيراً ما يعزف الموالدى نفسه على الدف أو ينقر على عصا بالمسبحة. ولأنه يغنى فى المقام الأول مديحاً للرسول محمد، وخاصة مولد النبى وقصص المديح الإعجازية عن غيره من الأنبياء، فهو يسمى كذلك المداح. ويقدم الموالدى عروضه فى العديد من الاحتفالات الشعبية ـ فى مولد النبى وموالد الأولياء، وكذلك فى المناسبات الاجتماعية كالأعراس. وربما كان أشهر موالدى فى الذاكرة القريبة هو محمد الشبيطى (المتوفى سنة ١٩٧٦). ومع أن هذا الأسلوب من الإنشاد حلت محله إلى حد كبير القصص والذكر على مدى العشرين سنة الأخيرة، فإننا مع ذلك قد نسمع نماذج من هذا النمط فى مصر (مثل باريان ١)، وكذلك أسطوانة «الموسيقى العالمية» المدمجة فى فرنسا (باريان ٢).

وليس من السهل تصنيف المولد والموالدى دينياً أو اجتماعياً. فأهمية الرسول تجعل المولد عزيزاً على الكثير من الطرق والتجمعات الصوفية، إلا أن هذا النوع مقبول فى دائرة ديموجرافية تتعدى الطرق الصوفية بكثير، وتشمل أفراد كل الطبقات الاجتماعية؛ وكان يستخدم فيما مضى على الأقل للترفيه. ومن الناحية الصوتية يرتبط الأداء بالتراث القديم، ومن ثم بالموسيقى العربية بصفة عامة.

الإنشاد الشعائرى:

الابتهالات والحضرة الصوفية

بينما كان الكثير من الإنشاد يستخدم فى سياقات اجتماعية عديدة، فإن هناك نوعين فى الوقت الراهن يتسمان إلى حد كبير بالشعائرية، وهما الابتهالات وإنشاد الطرق الصوفية.

والابتهالات تؤدى أداء منفرداً، بدون مصاحبة، وبلا أوزان، وهى ارتجالية؛ وتعتبر شكلاً من أشكال الدعاء. وبما أن الابتهالات من ناحية الأداء أقرب أنواع الإنشاد إلى الأذان والتلاوة، فهى أقلها احتمالاً لأن تتهم بأنها «موسيقى»، ولذلك ازدهرت حتى فى فترة النزعة المحافظة الإسلامية. وإلى جانب الشعر الدينى الذى يشمل الابتهالات إلى الله، تتضمن النصوص المديح، وكذلك الابتهالات النثرية التقليدية والصلاة على النبى؛ بل قد يمكن تسمية العرض كله بأنه أدعيا. ويرتدى المبتهل نفس ملابس المقرئ؛ وهو فى العادة مقرئ.

ومع أن الابتهالات الصرفة لم تكن شائعة كترفيه، فهى تحتل مكانة رئيسية فى الممارسة الإسلامية فى مصر: فغالباً ما تكون صلاة الفجر مسبوقة بالابتهالات، حيث يختم المبتهل أداءه بالأذان. وهذا الأداء تذيعه الإذاعة يومياً من أحد مساجد القاهرة الكبيرة. وفى المساجد الأخرى التى لا يتوفر فيها مبتهل، قد يذاع هذا البث من خلال مكبرات الصوت بالمسجد. وكذلك تسبق الابتهالات الصلاة فى رمضان. وعادة ما تتضمن أشرطة التواشيح أجزاء مطولة منفردة تسمى «ابتهالات»، إلا أن تسجيلات الأداء الشعائرى نفسه نادرة؛ ولنستمع إلى الشيخ محمد عمران والشيخ نصر الدين طوبار. وقد يدير زوار القاهرة مؤشر الراديو قبل صلاة الفجر لسماع مبتهل معاصر شهير، كالشيخ محمد الهلباوى أو الشيخ سعيد حافظ. وربما تسمع ابتهالات الشيخ الهلباوى كذلك فى الحامدية الشاذلية ٢، الفقرتان ٣ و٨، ونوع الابتهالات قريب من الغناء الدنيوى فى التراث القديم، وخاصة أداء القصائد (التى لا يزال يؤديها فى الوقت الراهن الفنانون التراثيون مثل صباح فخرى من سوريا). وبينما يعتبر أسلوب الابتهالات المنفردة من الناحية الدينية من النخبة والتيار السائد، فهو منتشر كذلك فى شعائر الطرق الصوفية، وفى أداء الذكر العام.

والإنشاد أساسى فى كثير من الطرق الصوفية. وفى الحضرة، كثيراً ما يؤدى الإنشاد ليكون مصاحباً للذكر، الذى تذكر فيه أسماء الله الحسنى مُوَقَّعة. وهذا الإنشاد (الذى قد يكون هو نفسه ملحناً) يفرض على التركيب إيقاعاً منتظماً ومتسارع؛ فالإنشاد قد يكون منفرداً، أو كورالياً، أو بالمجاوبة. وفى الطرق الأقل محافظة، تستخدم الآلات الموسيقية فى بعض الأحيان. وقد يؤدى الإنشاد المنفرد أو الكورالى بدون الذكر. ويشبه الإنشاد المنفرد الابتهالات. ومع أن المديح والدعاء موضوعان أساسيان على الدوام، فإن إنشاد أية طريقة صوفية يمكن تمييزه عادة باستخدام بعض النصوص الإيمانية الموجهة إلى الأولياء والمشايخ المهمين للطريقة، بينما تأتى النصوص من تراث التواشيح والابتهالات والمديح العام. وبينما يسجل الإنشاد الآخر محترفون، فإن منشدى الطرق الصوفية من الهواة. ورغم وصف الطرق الصوفية فى مصر فى كثير من الأحيان بأنها هامشية أو من الطبقات الدنيا، فهى تضم أعضاء من كل الطبقات السوسيواقتصادية؛ وكان إجمالى عدد الأعضاء فى عام ١٩٨٥ يقدر بثلاثة ملايين.

وشعائر الطرق الصوفية لا تحظى باهتمام عام فى مصر، ونادراً ما يكون لمنشديها طموحات مهنية كى يمثلوا الطريقة لدى الجمهور الأعرض. ونتيجة لذلك لا ينتج أحد تسجيلات تجارية لشعائر الطريقة (وإن كانت بعض الطرق تنتج تسجيلات للاستهلاك المحلى فقط). وسجلت بعض المقتطفات القصيرة من الذكر الموسيقى الخاصة بالطريقة الليثية (اختفت) التى تمثل الشيخ أحمد البساتينى أثناء مؤتمر الموسيقى العربية سنة ١٩٣٢ بالقاهرة؛ وهناك عينات منها متوفرة على أسطوانة مدمجة من إصدار CDEJ بعنوان .Musique Arabe ويمثل عرضان فى باريس لحضرة الحامدية الشاذلية (الحامدية الشاذلية ١، الفقرة ١؛ والحامدية الشاذلية ٢، الفقرة ٥) عينتين نادرتين وقيمتين لشعائر هذه الطريقة لا تختلفان عن العروض التى تقدم فى مصر، وإن كانتا أقل حماساً.

الإنشاد الأوركسترالى

مع تدهور الدور الاجتماعى للإنشاد، شجع نجاح الموسيقى العربية التجارية، القائم على الفرقة العربية كوسيلة آلاتية، بعض المنشدين

فى سنة ١٩٨١ دعيت مجموعة صغيرة من المنشدين من الطريقة الحامدية الشاذلية لأداء مادتهم الشعائرية فى باريس فى المهرجان الثامن للفنون التقليدية، بقيادة المنشد الشيخ محمد الهلباوى؛ وقد سجلت مواد عديدة وطرحت لسوق «الموسيقى العالمية»

الإنشــــاد الديـــنى

على مقاومة تردد التراث الإسلامى فى السماح بالآلات الموسيقية فى الممارسة الدينية، وسجلوا مع فرق موسيقية أشبه بتلك التى يستخدمها المطربون الشعبيون فى أيامهم، كوسيلة لجذب جمهور أعرض. إلا أنه لكى تضفى هذه الفرق جواً إسلامياً، أبرزت «الصوت الدينى»، من خلال رمز أو أكثر من الرموز الموسيقية التى تستحضر الإسلام والروحانية (وتقابله أصوات موسيقى الطرب الدنيوى المعتادة): قسم الدفوف القوية، والأوزان الأطول، والإيقاعات الأبطأ، والاستخدام السخى للناى. وعادة ما يضاف كورس رجالى (وأحيانا نسائى) كبير ليكون مشابهاً للبطانة. وفى هذا السياق الجديد، يحافظ على جرس صوت المنشد وأسلوبه. كما أن هناك مساحة للارتجال الصوتى، فى إطار شكل شديد الأوركسترالية والترتيب.

وهذا الإنشاد يمكن تسميته تواشيح أو ابتهالات أو مولد أو أدعية، ولكن لا بد من تمييزه بدقة عن العروض الصوتية الأصلية لهذه الأنواع. ففى الوقت الراهن، كثيراً ما نسمع الإنشاد الأوركسترالى فى وسائل الإعلام، كخلفية موسيقية للبرامج الدينية والمسلسلات فى الإذاعة والتلفزيون. وتشمل النماذج التى أنتجتها شركة صوت القاهرة الشيخ محمد عمران، والشيخ سعيد حافظ، والشيخ طه الفشنى، والشيخ محمد الفيومى، والشيخ سيد النقشبندى، والشيخ نصر الدين طوبار. وتؤدى فرقة الإنشاد الدينى التى ترعاها الدولة (تاسست سنة ١٩٧٤) عروضها كذلك بهذا الأسلوب؛ وتسجيلاتها متوفرة فى دار الأوبرا بالقاهرة.

ويبين الإنشاد الأوركسترالى وضعاً يتفق مع التواصل من الإنشاد الصرف على الغناء العادى. ولكن رغم التنازلات التى قدمت للموسيقى العربية الحديثة، فإن هذا النوع معترف بانه مميز عن الأغانى الدينية. ومهما كان تعقد الموسيقى المصاحبة للمنشد المنفرد فى الإنشاد الأوركسترالى، فهو لا يزال شيخاً، ويعرف بالمنشد وليس المطرب، ويستخدم أسلوباً صوتياً بات مميزاً للإنشاد.

الإنشاد الشعبى؛ والذكر والقصص الدينية

تنظر المؤسسات الدينية الرسمية ووسائل الإعلام الخاضعة للحكومة إلى الابتهالات والقصائد والتواشيح على أنها أكثر أنواع الإنشاد قبولاً، لارتباطها بفن راق وتقاليد دينية خاصة بالتيار العام. وتقدم تسجيلات الإذاعة والتلفزيون لهذه الأنواع على أنها تعبير دينى حقيقى (وإن لم تكن مستساغة دائماً من أعضاء الجماعات الإحيائية الإسلامية). وتصنف الآراء الرسمية الصادرة عن نفس المؤسسات الإعلامية والدينية أنواع الإنشاد على أنها «شعبية» أو غير إسلامية، أو تصفها بالصفتين معاً. إلا أن هذه الحقيقة لا تحول دون شعبية الإنشاد «الشعبى» بين كل طبقات المصريين، وخاصة من ينتمون إلى إحدى الطرق الصوفية. وإضافة إلى ذلك، يمثل هذا الإنشاد التخت الذى تبقى من الموسيقى العربية، وكثيراً ما يتضمن مقتطفات لحنية مأخوذة من تراث الطرب الدنيوى فى القرن العشرين (وخاصة أغانى الحب التى غنتها أم كلثوم).

والذكر والقصص الدينية شكلان رئيسيان من أشكال الإنشاد الشعبى فى مصر حالياً. فهما فى الوقت الراهن أكثر شيوعاً من الأنواع التى تدعمها وسائل الإعلام، وإن كان ذلك فى المقام الأول فى المناطق الريفية وبين الطبقات الدنيا والحرفيين وصغار التجار فى المدن. وكل من الذكر والقصص الدينية يؤديها منشدون محترفون تساندهم الفرق الموسيقية. وأكثر العروض من حيث إبهارها وسهولة الوصول إليها تتم فى موالد الأولياء، وفى احتفالات المولد النبوى. إلا أن الذكر والقصص عادة ما تؤدى كذلك فى الأعراس وغيرها من المناسبات الاجتماعية. والعروض التى تقدم من خلال مكبرات الصوت عادة ما تقام فى سرادقات كبيرة فى الخلاء.

وأشرطة التسجيل الخاصة بهذه الأنواع لا تصدرها شركة صوت القاهرة الحكومية، وإنما المئات من شركات الإنتاج الصغيرة، التى يقع الكثير منها فى الدلتا. ولا بد من البحث عن العروض والأشرطة فى المدن الصغيرة والقرى وكذلك فى الأحياء الشعبية بالمدن الكبيرة. وفيما عدا ظهور هذه الأنواع من حين لآخر فى البرامج «الفلكلورية» (حيث تقدم كثقافة شعبية طريفة وليس كتعبير دينى خالص)، فهى غائبة فى واقع الأمر عن الإذاعة والتلفزيون.

ذكر الحضرة العامة (المديح)

تجمع الحضرة العامة بين الذكر (الذى يؤدى بحركات على قدر كبير من الحماس من الانحناء أو التمايل)، والإنشاد، والموسيقى المصاحبة (الإيقاع إلى جانب آلة لحنية واحدة على الأقل؛ ويفضل أن تكون الكمان أو الناى). ومع أن هذه الحضرة تشبه طقساً قريباً منها يؤدى فى الطرق الصوفية، فهى تتم فى فضاء عام خارج سلطة أية طريقة منظمة. ومقارنة بحضرة الطريقة، فإن المنشد، وليس شيخ الطريقة، هو الذى يقودها؛ ويشمل العرض قدراً أكبر من الموسيقى، وذخيرة أكبر وأكثر جراة من الشعر الصوفى، وحشداً أكبر من الناس. ومع أنه لا شك فى أن الحضرة العامة تؤدى بإحساس دينى كبير، فإن الكثيرين يحضرون كذلك من باب الاهتمام الجمالى، أو من أجل الترفيه.

وتتمتع الحضرة العامة بشعبية كبيرة فى الصعيد، ذلك أن أعظم نجوم موسيقى الذكر فى العشرين سنة الأخيرة جاءوا من مصر الوسطى. ومن أشهر هؤلاء الشيخ ياسين التهامى، والشيخ أحمد التونى من أسيوط. وإلى الجنوب منها، فى قنا، يتمتع الشيخ أمين الدشناوى بشعبية كبيرة، وخاصة بين أعضاء طريقته الصوفية، العصبة الهاشمية. وفى الدلتا يشتهر الشيخ محمد البلبيسى؛ ويقدم الشيخ رمضان عويس عروضه حول القاهرة (وكل يوم سبت فى مقام سيدى على زين العابدين الواقع فى حى المدبح).

وبينما يمكن تصنيف المشايخ مثل التهامى والتونى على أنهم «شعبيون»، فهم يتذوقون التعبير الصوفى الغامض المنجذب لعمر بن الفارض (المتوفى سنة ١٢٣٥) وعبد الرحيم البرعى (المتوفى سنة ١٠٥٨) وحسين بن منصور الحلاج (المتوفى سنة ٩٢٢) وغيرهم من الشعراء القدامى (فعلى سبيل المثال يعتمد التهامى ١ على قصيدة غزل صوفية لشاعر مصرى معاصر هو الشيخ عبد العليم النخايلى؛ ويقوم التهامى ٢ فى المقام الأول على قصيدة الخمر لابن الفارض). كما تغنى القصائد الصوفية العامية، وكثير منها على قدر من الصعوبة كذلك (مثل أبى الحسن الششترى) المتوفى سنة ١٢٦٩. (ويغنى منشدو حضرة آخرون شعراً غامضاً (فصيحاً أو عامياً) يمدح الرسول وآل البيت والأولياء. ولهذا السبب قد يسمى منشد الذكر مداحاً، حيث تكون لديه ذخيرة أشبه بذخيرة الموالدى. ومن الناحية الموسيقية، قد تضم الحضرة العامة الابتهالات والتراث القديم الرفيع وأساليب الطرب الحديثة، وكذلك الموسيقى الريفية.

وفى الآونة الأخيرة بدأ الشيخ التهامى فى تقديم عروض فى أوروبا. وهناك اثنان من هذه العروض على أسطوانة مدمجة مزدوجة (ياسين ٤، وتشمل شعر بن الفارض والحلاج)، وإن كانت التحذيرات المعتادة فيما يتعلق بالموسيقى التى تنتجها صناعة الموسيقى العالمية تنطبق على هذه التسجيلات عالية الجودة.

القصص الدينية

يؤدى القصص الدينية (التى تشمل الشعر العامى والنثر السردى) منشد (ويسمى غالباً الصييت فى هذه الحالة، وتصاحبه فرقة أكبر من تلك المستخدمة فى الذكر. والقصص أكثر انتشاراً من الذكر فى الدلتا، بينما عكس ذلك هو الصحيح فى الصعيد. ويؤدى بعض المنشدين كلاً من الذكر والقصص، بل إنهم يمزجون النوعين فى عرض واحد. ويبدو أن هذا النوع الجديد نسبياً خرج من عباءة أكثر من تراث قديم تدهور على مدى الخمسين سنة الأخيرة: وهى الموالدى القديم (الذى كان يغنى القصص الدينية الشرعية الخاصة بالأنبياء، مع البطانة والآلات الإيقاعية) والمداح القديم (الذى كان يغنى أغانى دينية غير شرعية بالعامية، بينما يصاحب نفسه على الدف). ويجمع الصييت الحديث بين هذين التراثين مع فرقة موسيقية أكبر عدداً، حيث يدمج الأساليب الموسيقية الشعبية والحضرية، والآلات الموسيقية، والمقتطفات اللحنية. والصييت، بعمامته البيضاء والطاقية الحمراء والجلابية التى فصلت تفصيلاً حسنًا قريب الشبه بالعالم أو الخطيب الأزهرى، وهو يكتسب مكانة دينية من هذا التشابه. وغالباً ما تتم العروض من أجل موالد الأولياء والمولد النبوى، وكذلك الأعراس. ويرجع السبب لحد ما إلى قرب القصص من الموسيقى الدنيوية فى كونها النوع المعاصر الوحيد من الإنشاد الذى تتمتع فيه المرأة بوجود كبير فى الأداء، حيث تشارك كمغنية أولى؛ وهذه المغنية قد تسمى صييتة أو منشدة.



وهناك نوعان من القصة: القصة النبوية التى تروى المعجزات النبوية (وهى فى العادة قصص خاصة بالنبى محمد)؛ والقصة الخيالية، وهى حكاية من نسج الخيال ولكنها تتضمن معنى أخلاقياً. ويستمتع الناس بالقصص باعتبارها ترفيهاً، ويكون الجو النفسى أخف من أنواع الإنشاد الأخرى، وخاصة فى حالة «القصص الخيالية». ومع أنه لا يمكن إنكار الجانب الترفيهى فى القصص، ورغم أن القصص الخيالية قد لا تكون دينية بشكل صريح، فإن الأداء يولد جواً دينياً مرجعه الحالة الدينية وصورة المنشد، والسياقات أو التوقعات الدينية، والدمج المتكرر لمديح النبى محمد بشكل فرعى.

وتنتج صناعة أشرطة الكاسيت المزدهرة التى تركزت فى طنطا أعمال عشرات الفنانين؛ ومعظم الأشرطة تسجيلات داخل الاستوديو. ومع أن العروض الحية يمكن أن تكون أطول، فإن الحدود الفيزيقية لشريط الكاسيت، إلى جانب العوامل الاقتصادية، تحدد طول التسجيلات التجارية بخمس وأربعين دقيقة. ومن بين المؤدين الشعبيين فى الدلتا الشيخ أحمد المجاهد والشيخ السعيد خميس والشيخ أشرف إبراهيم الطمادى. ومن بين المنشدات الشهيرات هنيات شعبان ووفاء (التى ظهرت فى مشهد المولد من فيلم أم كلثوم: صوت يحب مصر).

الأغانى الدينية

إذا كان الإنشاد الأوركسترالى قد نشأ عن بحث المنشدين عن أسواق أوسع عن طريق إدخال فرقة الصوت الدينى التى استعيرت من موسيقى الطرب الدنيوية، فإن عملية معاكسة تحدث كذلك. فرغم اتجاه صناعة الموسيقى المصرية فى الغالب نحو الموسيقى غير الدينية، ففى بعض الأحيان قد يسجل أحد المطربين ذائعى الصيت، المعروف أساساً باغانيه العاطفية، أغانى لحنت له (عادة بأسلوب الطرب الخاص بالتيار السائد) تقوم على نصوص

يمكن تصنيف المشايخ مثل التهامى والتونى على أنهم «شعبيون»، فهم يتذوقون التعبير الصوفى الغامض المنجذب لعمر بن الفارض (المتوفى سنة ١٢٣٥) وعبد الرحيم البرعى (المتوفى سنة ١٠٥٨) وحسين بن منصور الحلاج (المتوفى سنة ٩٢٢) وغيرهم من الشعراء القدامى





رياض الصالحين

باب فضل الدعاء بظهر الغيب:

قال اللّه تعالى (الحشر ١٠): ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾.

وقال تعالى (محمد ١٩): ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾.

وقال تعالى (إبراهيم ٤١) إخباراً عن إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾.

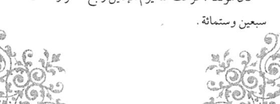
وعن أبى الدرداء رَضِىَ اللَّهُ عَنهُ أنه سمع رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم يقول: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملَك: ولك بمثل» رَوَاهُ مُسلِمٌ.

وعن أبى هريرة رَضى اللَّهُ عَنهُ أن رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء» رَوَاهُ مُسلِمٌ.

خاتمة المؤلف

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله. اللهم صلّ على محمد عبدك ورسولك النبى الأمى، وعلى آل محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد النبى الأمى وعلى آل محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

قال مؤلفه: فرغت منه يوم الإثنين رابع عشر رمضان، سنة سبعين وستمائة.



دينية، دون أن يعطى هوية «المنشد» أو «الشيخ». وقد يحدث هذا من أجل الدراما ذات الموضوع الدينى (مثل أغانى أم كلثوم فى الفيلم الغنائى رابعة العدوية)، أو للإذاعة أثناء أحد الأعياد الدينية. وقد تصاحب الأغانى الدينية فرقة المغنى العادية، ولكن فى أكثر الأحيان يتم إبراز عنصر أو أكثر من عناصر «الصوت الدينى». وفى بعض الأحيان يرتدى المغنى بشكل مؤقت بعض العناصر من ملابس المنشد، التى تقربه من الصورة الدينية. ومثل هذا الإنتاج يساعد على تعزيز ما يحظى به المغنى من احترام، ويقوى الصلة الفنية بالتراث القديم، حتى ولو كان تعليمه الموسيقى بعيداً عن الموسيقى التقليدية.

ولذلك يمكن التمييز بين نوعين من أداء المطربين للأغانى الدينية. فالأول هو المطرب المعروف بأنه بدأ حياته الغنائية والموسيقية كشيخ فى التراث القديم. وأداء الأغانى الدينية الخاص بهذا المغنى ينظر إليه على أنه عودة مخلصة وصادقة للأصول. ومع أن أم كلثوم تركت عالم الإنشاد فى فترة مبكرة من حياتها الفنية، فقد كانت تفضل أداء الكثير من الأغانى الدينية بعد ذلك بوقت طويل. وكان العديد منها يمثل «الصوت الدينى»، ومنها «إلى عرفات الله» (١٩٥٥) و«نهج البردة» (١٩٤٦) و«ولد الهدى» (١٩٤٦) و«رباعيات الخيام» (١٩٤٩-١٩٥٠). والنموذج الآخر هو الشيخ سيد مكاوى الذى كثيراً ما تذاع سلسلة أغانيه «المسحراتى» (التى تعتمد على شعر فؤاد حداد) فى شهر رمضان. وبسبب التغيرات التى طرأت على التعليم الموسيقى من بداية القرن العشرين، فقد اختفى بالفعل فى الوقت الراهن المغنون الذين تمتد جذورهم إلى التراث القديم. ويضم النمط الثانى مطربين آخرين مثل عبد الحليم حافظ، وهو أحد أول المغنين العظام الذين تلقوا تعليماً موسيقياً حديثاً. ولأنه ظهر بشكل أساسى بعد ثورة ١٩٥٢، فقد نال شهرته بسبب أغانيه العاطفية والوطنية، ولكنه سجل كذلك مجموعة من الأغانى الدينية كى تذاع فى شهر رمضان. وبالمثل لم يتلق المطرب الشعبى محمد عبد المطلب تدريباً كشيخ؛ وقد أنتج هو الآخر البوماً دينياً. وسجل رياض السنباطى، الذى تلقى تعليماً محافظاً، أغنيته «إله الكون» تصاحبه فرقة «الصوت الدينى» والكورس، بالإضافة إلى تلحينه الكثير من الأغانى الدينية لأم كلثوم وغيرها. ونشر محمد الكحلاوى، الذى يظهر على شاشة التلفزيون فى هيئة المشايخ وتحيط به الرموز الإسلامية، الكثير من الأغانى الدينية البسيطة على الطريقة الشعبية. ومنذ فترة قريبة، سجل المطرب المحبوب على الحجار، الذى اشتهر فى المقام الأول بأغانيه الدنيوية، أغنية «صلينا الفجر فين» التى حظيت بقدر كبير من الاستحسان؛ وهو فى النسخة المصورة منها يرتدى الملابس الإسلامية.

وحتى فى حال تلقى المغنى لقدر من التدريب فى التعلم والأداء الدينيين، فعادة ما لا تعتبر الأغانى الدينية كما يؤديها المطربون إنشاداً. ولأنها تكونت بالكامل تقريباً فى رحم الموسيقى العربية الدنيوية، فهى تفتقر إلى الجرس الصوتى، والأساليب اللحنية، والارتجال، والسياقات، ومقاصد الإنشاد الدينية. والأمر الأهم هو أنه يؤديها مغنون ليس (أو لم يعد) معترفاً بهم كمنشدين. إلا أن التشابه بين الإنشاد الأوركسترالى والأغانى الدينية يوضح التواصل الذى يربط التراثين الدينى والدنيوى، وصعوبة الفصل بين الاثنين فصلاً حاداً.

وبالإضافة إلى الأغانى الدينية الخاصة بالمطربين المحترفين، هناك نوعية كبيرة من الأغانى الدينية الشعبية الخاصة بالعديد من المناسبات (مثل رمضان والعيد والحج). وفيما مضى كان الهواة يغنونها للأصدقاء والعائلة والجيران. إلا أن التأثير الطاغى لوسائل الإعلام، وخاصة اختراق الإذاعة والتلفزيون لأصغر القرى، قد طال أداء الهواة للأغانى الدينية وحل محله (بل إنه فى واقع الأمر قضى قضاء مبرماً تقريباً على كل الممارسات الموسيقية الشعبية ما قبل الحديثة)، بينما حفظ بعض أصواتها ونصوصها باعتبارها «فلكلوراً» فى إطار الإنتاج الإعلامى. والآن إذا حدث أن غنت الأسرة والجيران للحج، فإنهم قد يختارون أغنية أحد الأفلام شبه الشعبية - التى تحتفى بالزيارة المرتقبة لقبر الرسول - وغنتها أول مرة المغنية والممثلة الدنيوية ليلى مراد (وكانت قد تحولت إلى الإسلام من اليهودية): «يا رايحين للنبى الغالى».



وفى النهاية نجد أن قيمة البحث الإثنوموسيقى تقوم على حقيقة أن الممارسة الموسيقية تعكس حياة اجتماعية أعرض، وبالتالى تكشفها. ودراسة الموسيقى فى الثقافة ليست غاية فى حد ذاتها؛ بل هى أداة لفهم الثقافة والتاريخ والتجربة المعاشة الخاصة بكل منهما. والأبعاد العاطفية لمثل هذه التجربة، شديدة الأهمية بالنسبة للحياة الدينية، كثيراً ما يجرى توصيلها من خلال الصوت التعبيرى - فيما بين حاملى الثقافة، ومنهم إلى الباحث الإثنوموسيقى. وتساهم الدراسة التاريخية للإنشاد المصرى، بما فى ذلك أبعاده الموسيقية والدينية والاجتماعية المتغيرة، فى الفهم العام للتغير الدينى والاقتصادى والاجتماعى. والمقارنة المنهجية بين أنواع الإنشاد فى كل جوانبها (بما فى ذلك الشعر والموسيقى وسياقات الأداء) تكشف الكثير من المواقع التى تشغل الفضاء الواقع بين ما هو دنيوى صرف وما هو دينى صرف، مبينة تواصلاً عريضاً من الظلال «الصوفية» و«السلفية»، والتجاورات العديدة للتقاليد الموسيقية الريفية والحضرية، والانتماءات متعددة الطبقات. وتبين هذه الدراسة أن التقسيم السطحى إلى فئات، مثل «دينى» و«دنيوى» و«صوفى» و«سلفى» و«شعبى» و«نخبوى»، الذى كثيراً ما يؤخذ به كأمر مسلم به، لا بد من التعامل معه بمهارة، وكفاءة حريصة، وحرص نقدى. ■

ترجمة: أحمد محمود



كتب عربية

عالم بلا سيادة
الدول بين المراوغة والمسئولية

برتران بادي
ترجمة: لطيف فرج
القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠١، ٢٠٠ صفحة



منذ البداية كانت السيادة محاصرة، في العصور الوسطى، كان مبدأ الحرب العادلة يمثل قوة ضاغطة تفرض ذاتها على سيادات الدول، وحين انتعشت مبادئ حقوق الإنسان منذ قرن مضى، ونما الوعي العام بالمسئولية الجماعية تجاه البشرية ومصير الإنسان، وتكاتفت المجموعات الدولية لمواجهة مخاطر فساد البيئة وزيادة السكان وانخفاض معدلات التنمية الاقتصادية وافتقاد الأمن، وظهر حق «التدخل الدولي» الذي بدا مبدأ منصفًا وعادلاً ومفيدًا من الناحية النظرية، لكن في التطبيق كان البون شاسعًا، إذ تسارع الدول الكبرى إلى تفعيله حين تمس الأزمة مصالحها (حالة حرب الخليج الثانية نموذجًا)، لكنها تغض الطرف حين يبدو الأمر عراكًا، عليها أن تنأى بنفسها كي يجهز أطرافه على بعضهم البعض كما جرى في منطقة البحيرات الكبرى في أفريقيا، أو هي تتدخل تحت لافتة إنسانية ودولية لتحقيق أهداف أبعد كما جرى قبلاً في الصومال.

باختصار، كيفية هذا التدخل لتحقيق شرعية دولية وتأكيد مبدأ العمل الجماعي مازالت غامضة، خصوصًا أن هذا التدخل لا يتم دائمًا تحت مظلة الأمم المتحدة، وإنما بمبادرات من زعيمة العالم «أمريكا» التي تقرر ما ستفعل، ثم يكون على الأمم المتحدة أن تمنح قرار أمريكا الشرعية المطلوبة.

المؤلف يشير في موضع آخر إلى أن الأمم المتحدة لم تعد سوى وعاء لعقد الصفقات بين الدول الكبرى، والنتيجة: أن ما يعقد من اتفاقات بين الأطراف المتنازعة لا يحقق سيادات، وإنما يقيم تعايشًا مزعزعًا بين «جيتوات»، وهو ما يسميه «دبلوماسية الجيتو».

إن شرعية السيادة كما يقول المؤلف تنازعها شرعيتان أخريان: شرعية السوق التي تعلي من قيم النفعية والانفتاح، وشرعية المرتكزات الثقافية التي تعلي من شأن الهوية، والعولمة تزعم أنها مع الاثنتين: مع قيم السوق ودواعي الخصوصية.

وعبر دراسة تاريخية عميقة في القسم الأول من الكتاب، يخلص المؤلف إلى أن السيادة في عالم اليوم لم تعد سوى وهم كبير تبحث عنه الدول الضعيفة وهي غير قادرة في تحقيق سيادتها دون حماية الدول الكبرى التي تمنحها قوة، والدول الكبرى لن تفعل إلا إذا كان ذلك محققًا لمصالحها.

لكن ثمة ضوءا في نهاية النفق يلمحه المؤلف في الفعالية النشطة التي تبديها المنظمات غير الحكومية في قضايا عديدة وفي مناطق مختلفة من العالم. وهذا الدور الذي ينطوي على إمكانات تحقيق مجتمع مدني عالمي وإن كان يساعد الدول الصغرى على تجاوز محنتها، فإنه يعرض هويتها للمسخ، إذ الفاعلين هنا من خارجها.

□ □ □

الطيب صالح.. دراسات نقدية

حسن أبشر الطيب
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١، ٤٣٠ صفحة



قياسًا على إنتاجه الأدبي القليل - ولكن شديد التميز - فإنه يمكن القول إن ما كتب من دراسات نقدية عن أدب الطيب صالح ربما تتجاوز صفحاته ما كتبه الطيب نفسه.

فأولى ميزات الطيب صالح إلى جانب تواضعه وأريحيته وخفة ظله، أنه كاتب مقل، لكن أحدًا لا ينسى وربما بعضنا يحفظ مقاطع كاملة عن «موسم الهجرة إلى الشمال» و«دومة ود حامد» و«عرس الزين» و«مريود» و«ضو البيت»، وهي من الأعمال الفارقة ليس في أدب الطيب وحده، وإنما في مسيرة الأدب العربي كله.

هذا الكتاب يضم أكثر من ٢٠ دراسة نقدية ونص إنساني عن الطيب صالح وأعماله، وهذه عينة من الأسماء المشاركة: محمد بن عيسى، بلند الحيدري، عثمان وقيع الله، محمود إبراهيم الشوش، روجر ألن، رجاء النقاش، أحمد عبد المعطي حجازي، محمد خير عثمان، محمد المكي إبراهيم، وقد جمعت هذه المقالات بمناسبة بلوغ الطيب السبعين، احتفاءً من أصدقائه به وليس بوسعنا هنا أن نشير إلى ما تضمنته هذه الدراسات التي تناول بعضها شاعرية أسلوب الطيب صالح، وبعضها تأثره بالموروث الصوفي أو بالفلكلور الشعبي السوداني أو بالتراث العربي والشعري أو تأثير الغربة والاغتراب على نصوصه الإبداعية.. إلخ.

ويلفت النظر في الحوار الذي أجراه «بشير القمري» مع الطيب صالح أن البطل الحقيقي في أعماله هو المكان، وأن الشخصيات عنده واحدة لكنها تتغير تبعًا للنص، أما المكان فهو يتحول، والكتابة عنده انعكاسات واحتفالات بالمكان، وهو يؤكد أن الخصوصية وطعمها يأتيان من تأثير البيئة في الكاتب والكتابة، والفلكلور «كخزان» ثقافي فني جمالي تعبيري (...) كمستودع لثقافة دينية أو لغوية».

الطيب صالح ظاهرة جديرة بالاهتمام في الأدب بين العربي والعالمي، فإنتاجه - على قلته - شديد التميز والخصوصية، وقد قال عنه الناقد كمال أبو ريه في حوار بالإذاعة البريطانية منشور نصه في الكتاب: يكتب الطيب صالح القليل من الأعمال وفي الوقت نفسه يظل حاضرًا حيث إن أعماله تدرس في الجامعات. ويقول عنه الدكتور صلاح فضل في الحوار نفسه: الطيب صالح يكشف عن مبدع من الطراز الأول، لكنه مبدع مقل تنتشر أعماله لكي تملأ فراغًا في خارطة الإبداع العربي، وهي على قلتها تمثل علامات نعود إليها كل فترة، لأن قراءتها تختلف من مرحلة إلى أخرى.

□ □ □

الاتحاد الأوروبي من التعاون الاقتصادي إلى السياسة الخارجية والأمنية المشتركة

مجموعة باحثين
تحرير: عماد جاد
القاهرة: مؤسسة الأهرام، ٢٠٠١، ٢٢٤ صفحة



تقدم مسيرة العمل الأوروبي المشترك نموذجًا للتعاون الإقليمي المتدرج الذي يبدأ من القاعدة، حيث بدأت في مجالات اقتصادية محدودة للغاية (في الفحم والصلب فقط) وصولاً إلى السوق الأوروبية المشتركة وتوحيد العملية ووضع أسس خارجية وأمنية مشتركة.

والدراسات التي يضمها هذا الكتاب تتابع هذه المسيرة، ويبدأ بالموقف الأوروبي من «بلدان التحول الاقتصادي في أوروبا الشرقية» عقب سقوط الكتلة الاشتراكية، ويتابع التعارضات التي حالت دون سرعة اندماج بلدان هذه الكتلة في مسيرة العمل الأوروبي المشترك والتدفقات الرأسمالية الاستثمارية عليها وسياساتها المالية والنقدية وموقفها من الالتحاق بأوروبا الموحدة والشروط التي فرضتها أوروبا عليها كي تتمكن من تحقيق هذا الالتحاق ومنها ضرورة توافر مؤسسات مستقرة تحمي الديمقراطية وحكم القانون وحقوق الإنسان، وأن يعمل الاقتصاد وفقًا لآليات السوق وتوفر القدرة على التعامل مع ضغوط المنافسة وقوى السوق، وأخيرًا تحمل مسئوليات العضوية بما يعنيه ذلك من تقيد بالأهداف السياسية الاقتصادية والنقدية للاتحاد، وتقدم الدراسة عرضًا للتطورات الاقتصادية في كل من (ستونيا وبولندا).

وتقدم الدراسة التالية الخبرة الأوروبية لاستيعاب دول شرق ووسط أوروبا وخصوصًا في المجال الأمني، وبعد استعراض لعديد من التجارب والمعاهدات التي احتواها هذا المجال، تلاحظ الدراسة أنه لم يوجد إطار متفق عليه لضبط علاقات التنسيق الناتجة عن اختلاط العضوية بين المنظمات المختلفة، وتحديد أولويات التدخل تجاه الأزمات في مناطق مختلفة من العالم، كما تلاحظ الدراسة أنه تم التوسع في المهام غير العسكرية للمؤسسات الأمنية واستحدثت مهام جديدة كما تم تفصيل مهام لم تكن مستخدمة أثناء الحرب الباردة.

وتناقش دراسة تالية المنهج الأوروبي في التعامل مع مشكلات ما بعد الحرب الباردة، وتؤكد على الجهود الكبيرة التي بذلتها أوروبا بالتعاون مع الولايات المتحدة كي تقلص مخاطر السيناريوهات التي توقعها الخبراء للأوضاع الأوروبية في أعقاب انتهاء الحرب الباردة خصوصًا مع انهيار دول الكتلة الاشتراكية، حيث نجحت أوروبا في تطوير هياكل صنع القرار والتعامل بدرجة عالية ضد الشفافية والإحساس بالمسئولية مع المشكلات التي واجهتها.

وتتناول الدراستان الأخيرتان استراتيجيات مواجهة الصراعات المتفجرة التي اتبعتها دول الاتحاد الأوروبي والسياسة الخارجية الأمنية المشتركة، فتشير إلى أنه على مدى العقد الأخير واجهت الجماعة الأوروبية عديد من المشكلات الناجمة عن تفكك الكتلة الشرقية، وقد نجحت في التعامل مع بعضها وعجزت عن تسوية البعض الآخر لتصل الأمور إلى نقطة الانفجار، وحين تصل الأمور إلى هذه النقطة، فإن تدخل الولايات المتحدة يكون هو الحل كما جرى في البوسنة وكوسوفو وأيرلندا، وتشير إلى أن تشكيل الاتحاد الأوروبي لسياسة خارجية وأمنية مشتركة إنما جاء في

عروض موجزة

سياق التطور الطبيعي لآليات العمل الأوروبي المشترك.

□ □ □

حوار مع أدونيس

صقر أبو فخر

عمان: بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٠، ٢٠٣ صفحة



يتضمن الكتاب حوارات مطولة أجراها المؤلف مع الشاعر الكبير «أدونيس»، الذي ينظر إليه اليوم بوصفه زعيم الحداثيين العرب من الشعراء على وجه الخصوص، إذ يقدر أن شاعرًا حداثيًا معاصرًا أفلت من تأثيره بالفكرة أو بالعبارة. أدونيس الذي ولد في سورية وذاعت تجربته الشعرية في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات مطلقًا شرارة الحداثة المعاصرة في الشعر العربي، تأثر في تجربته الشعرية بخمسة مصادر هي الشعر العربي الكلاسيكي وخاصة المتنبي وأبو نواس وأبو العلاء المعري، والكتابة الصوفية والفكر اليوناني والفيلسوف الألماني نيتشه بما يمثله من غضب وتمرد، وأخيرًا التفكير العلمي بمنهجيته المعروفة.

يسأله المؤلف عن استجابات الطفولة وحنينه إلى الأماكن الأولى وخصوصًا قرية قصَّابين التي ولد فيها في الشمال السوري فيجيب بأن حنانه للطفولة له وجهان، أحدهما حنين من لم يعش طفولته قط، إذ كان عليه أن يعمل في الحقل ويمارس حياته كالكبار وهو في هذه السن الصغيرة، أما الوجه الثاني فهو فقدان الطفولة إلى الأبد. ويفاجئنا أدونيس الذي يتزعم الحداثة اليوم بأنه لم ير راديو أو سيارة قبل سن الثالثة عشرة.

واختار أدونيس أن يخرج من سورية ليعيش في بيروت، وستلاحظ على مدى الحوارات أن أدونيس الذي اختار لنفسه اسمه الثاني «علي» اختار كذلك بيروت وطنًا ثانيًا لتكون ميلادًا لولادته الشعرية، واختار أن يتقن الفرنسية وأن يعيش في المنافي، أما الملاحظة الثانية: فهي أنه لا يحبس دموعه حين يتذكر المواقف النبيلة، فقد بكى في أكثر من موضع بالحوارات.

ويحكي أدونيس عن تجربته مع مجلة شعر ولقائه بيوسف الخال في عام ١٩٥٦، ودوره في تأسيس المجلة التي قادت تيار الحداثة بقوة ومشاغبة طوال هذه الحقبة. ويلاحظ أدونيس أن دعاة التجديد اليوم ليسوا أصحاب مشروع، ويرى أن ذلك يتسق مع غياب المشروع على المستوى القومي وحتى الإقليمي، ويشير إلى أن الكتابة اليوم تسير في أفق مسدود.. «هناك انكفاء على مشاغل الحياة اليومية وعلى التفصيلات والجزئيات، ويؤكد أدونيس أن مشروع الحداثة بكامله فشل في المجتمع العربي، ودليله على هذا الفشل أننا أخذنا منجزات العقل الغربي ورفضنا مبادئ هذا العقل، وهذه مجرد لعبة استهلاكية وأكبر احتقار لمعنى الحداثة». ويرى أن العلمانية والديمقراطية في خلاف لا بد منهما لتحقيق نهضة العالم العربي، ويؤكد على أن الأنظمة العربية لم تكن جادة يومًا في اقتلاع دولة إسرائيل وتعجب لما يردده البعض من مخاوف من غزو الثقافة الإسرائيلية للعرب في حالة السلام.

على مدى صفحات الكتاب يبدي أدونيس كثيرًا من الآراء الإشكالية التي تثير جدلاً كالعادة، أو تصلح موضوعًا لجدل في أحسن الظروف.

□ □ □

كتب أجنبية

The New Penguin History of Scotland

(تاريخ أسكتلندا)

E.D: R.A.Houstan and W.W.J.Knex

Allen Lane, 640PP. £ 2.5. 2001



دون بقية أقاليم المملكة المتحدة «بريطانيا» وباستثناء «انجلترا»، يشعر الاسكتلنديون دائمًا بأنهم مميزون يساعدهم في ذلك تاريخهم والخطوات الكبيرة التي قطعوها على الصعيد الثقافي والتعليمي والاقتصادي. وعندما فكَّرت حكومة العمال البريطانية في

التهديد الإسلامي خرافة أم حقيقة؟

جون ل. اسبوزيتو

ترجمة: قاسم عبده قاسم

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١



لم تخرج الدعوة إلى الإحياء الإسلامي وتجديد الدين من فراغ. فهي في معظم الأحوال ردة فعل مقاومة لاكتساح تغريبي أو سلوك استعماري يهدد الهوية الحضارية للأمة الإسلامية، وإزاء هذا الخطر الماثل، يهرع الناس إلى أصولهم يستمسكون بها ويؤكدون جدارتها لحمايتهم من المسخ والانسحاق.

والمد الإسلامي الصاعد منذ سبعينيات القرن العشرين لم يكن استثناء في هذا السياق، فقد انهارت المشاريع العربية واحدًا تلو الآخر برغم اكتسائها أردية متباينة: ليبرالية واشتراكية وقومية، وعجزت الأنظمة التي كانت عسكرية في معظمها عن تلبية الحاجات النفسية - فضلاً عن المادية - لمواطنيها. ومثَّلت هزيمة يونيو ١٩٦٧ انعطافة مهمة على الطريق، حوَّلت الأنظار إلى الأعمق خصوصًا مع التحولات السياسية والاقتصادية في عديد من البلدان العربية والإسلامية، والوعود التي بشرت بها الثورة الإيرانية منذ أواخر السبعينيات وتأكيدها على حيوية الإسلام السياسي وأحقيته في مناطق نفوذه.

وقد مثَّل نجاح ثورة الخوميني في إيران خطورة على الغرب من زاويتين على الأقل: أولاهما: أنها أكدت إمكانية تكرار الصيغة ذاتها في دول إسلامية وعربية أخرى بما يهدد المصالح الغربية في تلك الدول (بترول الخليج مثلاً)، وثانيتهما: أن إيران الخميني وحتى اليوم مازالت تعتبر الغرب (أمريكا بالذات) عدوًا يناهض رغبتها في الاستقلال والتقدم، وعزَّز هذه الرؤية انتهاء الحرب الباردة وزوال الكتلة الشيوعية وانهيار دولها واستبدال القوة الأعظم (أمريكا) بالقطبية الثنائية التي سادت منذ أواخر الخمسينيات وحتى نهاية الثمانينيات.

وواكب هذه التحولات «تخريجات» فكرية أكدت حتمية الصراع بين الحضارة الغربية من ناحية، والحضارات القديمة وعلى رأسها الإسلام من ناحية ثانية، كما أن كثيرين ممن اعتنقوا فكرة المقاومة العنيفة سواء داخل دولهم ذاتها أو في الغرب، أقدموا على ما فعلوه تحت لافتة الإسلام وشعاراته، ووجدوا دائمًا فقهاءهم الجاهزين لتبرير تطرفهم.

يضيق المقام عن استعراض - ولو موجز - لأبعاد الصراع بين الإسلام والغرب كما رآه المؤلف، وهل هو صراع «لاهوتي» مقترن بأصول الديانتين الإسلامية والمسيحية كما عبرت عن ذلك الحروب الصليبية التي مثلت موجات متعاقبة امتدت من القرن الحادي عشر وحتى القرن الثالث عشر، أم صراع بين مستعمر يسعى للنهب والسيطرة، ومستعمَر يدافع عن وجوده وأرضه؟

والمؤلف الذي يقدم مسحًا للتيارات الإسلامية المعاصرة - فيما بعد مسحه التاريخي - في مصر وتونس وإيران والجزائر والمغرب وتركيا وغيرها، لا يفوته أن يشير إلى الدور «الآثم» للأنظمة الحاكمة في العالم الثالث في تشجيع النزعات الأصولية المتطرفة برفض وجودها والاعتراف بها حتى لو جاءت بها صناديق الاقتراع كما جرى في الجزائر وتركيا. ويشير إلى شيوع التركيز على النزعات الراديكالية لدى بعض الجماعات الإسلامية وتزكية عناوين ومانشيتات من نوع:

«لا تبحث عن المعتدلين في الثورة الإسلامية»، «الجهاد يتجه نحونا»، «صدام الثقافات: صعود الإسلام في فرنسا يزعج عامة الشعب ويقودنا إلى حركة رجعية»، «انتبهوا: الإرهاب الإسلامي فرقة انتحارية عالمية»، «الجهاد الأمريكي»، «الأمير تشارلز على خطأ الإسلام يهدد الغرب فعلاً».

والفكرة الغربية عن الإسلام في عمومها لا تتجاوز ما تبثه هذه العناوين، وربما تضيف إليها معاداة الإسلام للديمقراطية وحقوق الإنسان وتحقيره للمرأة ومجافاته لروح العلم والدولة المدنية، وهي صورة قاصرة سيئة الفهم والنية، ولعلنا نحيي شجاعة المؤلف الذي يشير إلى «غض البصر» والبصيرة الغربية حين يتعلق الأمر بممارسات استعمارية وحشية منبتة الصلة بالإنسان وحقوقه حين تمارسها إسرائيل أو الصرب بدعاوى دينية تمامًا، والإسراع بالوعيد والعقاب إذا كان الأمر يتعلق بالمسلمين المدافعين عن حقوقهم السليبة.

الإحياء الإسلامي بالضرورة حركة سياسية تستهدف السلطة، إنما هي بالنسبة لعموم المسلمين، بعيدًا حتى عن تيارات الإسلام السياسي وجماعات الضغط والنقابات، حركة اجتماعية هدفها خلق مجتمع يمتلك توجهًا إسلاميًا وتقوم روابط أبنائه على صحيح الدين.

أما التهديد الحقيقي فيمارسه الغرب نفسه، مرة بانعدام العدالة في التعامل مع القضايا الدولية خصوصًا التي يكون المسلمون أحد أطرافها، ومرة أخرى بإشاعة مناخ داعم للأصولية المسيحية المتطرفة التي لا تهدد المسلمين فحسب وإنما الغرب المسيحي ذاته.

عماد الغزالي

إعطاء سلطات أوسع لأقاليم أسكتلندا وويلز وأيرلندا الشمالية، كانت السلطات الممنوحة لأسكتلندا هى الأكبر، ونسبة لا بأس بها من أعضاء الحكومة البريطانية اسكتلنديون تفوق نسبة الأقاليم الأخرى قياساً إلى عدد السكان.

وخلال السنوات القليلة الماضية التى تلت نقل السلطات إلى أسكتلندا، ظهرت عديد من الكتب عن التاريخ الاسكتلندى الذى يشعر الاسكتلنديون بفخر شديد تجاهه. وعلى عكس الأيرلنديين الذين عانوا مرارة الاحتلال الإنجليزى وبشاعته على مدى مئات السنين فإن الاسكتلنديين انظموا إلى الاتحاد البريطانى طواعية، وقد خاضوا الحرب وانتصروا فيها، لذلك تتم معاملتهم داخل الاتحاد البريطانى بشكل مميز.

وهذا الكتاب مجموعة من المقالات عالية المستوى لا تستهدف المبتدئين بل الخبراء فى التاريخ الأسكتلندى، لذلك جاءت خالية من مجرد المعلومات التى تسرد تفاصيل تاريخ أسكتلندا، بل هى نوع من التأملات وإصدار الأحكام التى أخذ عليها بعض النقاد أنها ذات طابع يسارى.

ويتناول الكتاب نواحى عديدة من التاريخ الأسكتلندى من التعليم إلى الصحة والهجرة، وعلى سبيل المثال يتوقف الكتاب عند ظاهرة الهجرة فيشير إلى أنها قديمة للغاية وتعود للعصور الوسطى عندما كان الاسكتلنديون يهاجرون للعمل كجنود مرتزقة فى الجيوش الأجنبية كما أنها استمرت بحيث هاجر مليونا اسكتلندى بلادهم فى الفترة من ١٨٤١ حتى ١٩٣١، ويلاحظ أن المهاجرين كانوا من ذوى الدخول الأقل الذين عانوا من وطأة الظروف الاقتصادية.

ويتوقف الكتاب أيضاً عند التطورات السياسية الأخيرة فى أسكتلندا وإقامة برلمان جديد وحكومة إقليمية ويشير إلى أن كل التغييرات الدستورية والتشريعية التى حدثت كان وراءها ما أسماه المؤلفون بنخبة سياسية ذات نفوذ كبير داخل حزب العمال البريطانى فى لندن وتم ذلك لأغراض تلك النخبة.

ولا ينسى الكتاب الحديث عن إنجازات الأمة الأسكتلندية خلال ٥٠٠ عام، فرغم كل شىء بقيت أسكتلندا أمة حية رغم الصراعات الداخلية والضغوط المستمرة من الخارج ولم تذب أسكتلندا فى الكيان الأكبر «المملكة المتحدة» بل ظل لها كيان مستقل يشعر أبناؤه بالفخر الشديد لانتمائهم إليه ويحاولون بشتى السبل إثبات ذلك من خلال نهضة فكرية وتعليمية كبيرة، وعلى سبيل المثال فإن التعليم متقدم فى أسكتلندا عنه فى إنجلترا، كما أن الصحة كذلك.

□ □ □

The Art of Reciting The Quran

(تلاوة القرآن)

Kristina Nelson

Auc Press, 2001, LE. 80



تلاوة القرآن تعد أحد الملامح الرئيسية فى علاقة المسلم بالكتاب الكريم. وهناك مدارس عديدة فى تلاوة القرآن أبرزها المدرسة المصرية التى تطورت عبر عشرات السنين بحيث أصبحت أهم المدارس الإسلامية فى هذا المجال دون منازع. وبالنسبة لمؤلفة هذا الكتاب كريستينا نيلسون، فإن أول ما أثار اهتمامها هو أن سماع التلاوة القرآنية موجود فى كل مكان تقريبًا فى العالم الإسلامى فى الشارع والمسجد والمحلات والمنازل وفى الليل والنهار. وهو أكثر من مجرد طقس يومى يمارسه المسلمون بل يصب فى قلب العملية الإيمانية.

والتلاوة فى حد ذاتها عملية اتصالية، فهناك قارئ من جانب ومستمع من جانب آخر وهذا فى حد ذاته عبادة.

إن معظم الدارسين الغربيين اقتربوا من القرآن كتابة وتعاملوا معه مثلما يتعامل دارسون آخرون مع التوراة والإنجيل أى باعتبار أن الذى أمامهم نص، لكن كتاب «تلاوة القرآن» يركز الاهتمام على ظاهرة أصيلة ومهمة وهى قراءة القرآن شفاهة، وهو يركز أيضًا على تلاوة القرآن فى سياقها المصرى ويختبر نواح عديدة فى هذا السياق باعتبار أن المدرسة المصرية أسهمت بشكل كبير فى خدمة هذا المجال الإسلامى، ومؤلفة الكتاب باحثة موسيقية وهى تلقى الضوء فى كتابها على أهمية تلاوة القرآن فى العالم الإسلامى وآراء الكثيرين فى هذا الصدد ولا شك أن مثل هذا العمل سيكون مرحبا به من جانب الدارسين والطلاب المتخصصين فى دراسات الشرق الأوسط، وكذلك من جانب علماء اللسانيات والإنتروبولوجيا والباحثين الدينيين.

□ □ □

The Rise and Fall of Marks and Spencer

(صعود وسقوط ماركس آند سبنسر)

Judi Bevan

London, Profile,2001,269PP,. £16,99



محلات ماركس آند سبنسر الشهيرة فى لندن ملمح أساسى من ملامح العاصمة البريطانية لا تكتمل زيارة أى أجنبى للندن بدون زيارة هذه المحلات التى تجتذب ١٠ ملايين شخص أسبوعيًا. ولسنوات طويلة اعتبر المستهلكون أن «ماركس آند سبنسر» ليس فقط مكانًا لشراء السلع الجيدة، ولكنه علامة على الجودة وما ينبغى أن يكون فى هذا المجال. وحتى وقت قريب كان ماركس آند سبنسر رمزًا للامتياز البريطانى، لكن الشركة المالكة للمحلات شهدت تدهورًا كبيرًا خلال السنوات القليلة الماضية، بحيث تراجع ماركس آند سبنسر عن عرشه مع الخسائر القادمة التى يتكبدها سنويًا.

إن قصة إنشاء هذه المحلات فريدة، فقد وصل مايكل ماركس إلى إنجلترا عام ١٨٨٢ مهاجرًا لا يملك شيئًا وقد قدم من منطقة بولندية كانت تحت السيطرة الروسية ولم يكن عمره يتجاوز ٢٠ عامًا ولا يستطيع التكلم بالإنجليزية، ولكن بضربة حظ التقى مع إسحاق ديورست تاجر الجملة الذى أقرضه ٥ جنيهات إسترلينية ليبدأ العمل كبائع متجول. وبعد ١٢ عامًا أقامت شركة مع توم سبنسر الذى كان يعمل «صرافًا» لدى «ديورست» ودفع توم ٣٠٠ جنيه إسترلينى كرأس مال مقابل الحصول على ٥٠٪ من الملكية.

ويتناول الكتاب الذى وضعته المؤلفة جودى بيفان المرحلة الثانية من عصر ماركس آند سبنسر عندما استطاع سايمون ابن مايكل ماركس فى الفترة من ١٩١٦ حتى ١٩٤٦ أن ينقل الشركة إلى عالم المجد، فقد تمكن فى البداية من هزيمة محاولة ابن توم سبنسر السيطرة على الشركة، كما استطاع أن يجعل ماركس آند سبنسر ظاهرة فريدة من خلال اختيار الأسلوب واللون والمادة التى يرغب فيها المستهلك مصرًا على جودة النوعية مع رخص السعر فى الوقت نفسه. وكان ديكتاتورًا حقيقيًا يرعب الموظفين لكنه يعطيهم الأمل والطموح أيضًا.

وواصلت ماركس آند سبنسر تدعيم مكانتها ليس فى بريطانيا فقط، ولكن فى عديد من دول العالم، إلا أن جاء عقد التسعينيات من القرن العشرين عندما أصبح ريتشارد جرين برى رئيسًا لمجلس الإدارة وكانت بداياته رائعة حتى أنه تمكن عام ١٩٩١ من تحقيق أرباح قدرها مليار جنيه إسترلينى قبل خصم الضرائب، لكن الأمور بدأت فجأة تنساب من بين يديه ولم يكن هناك جرس إنذار وبدأت المبيعات تتراجع خاصة عام ١٩٩٨، وتزعزعت الثقة فى ماركس آند سبنسر ليقدم جرين برى استقالته بعد أكبر أزمة تمر بها سلسلة المحلات الشهيرة.

□ □ □

The Complete Mahfouz Library

(المكتبة الكاملة لنجيب محفوظ)

Auc Press, 2001, LE. 600

بمناسبة بلوغ الكاتب الكبير نجيب محفوظ عامه التسعين خلال الشهر الحالى، أعدت الجامعة الأمريكية بالقاهرة برنامج نشر شاملا لأعمال الكاتب الأشهر فى الرواية المصرية والعربية يتضمن ٢٠ عملاً فى صندوق واحد يشكل مكتبة صغيرة لأعمال محفوظ علاوة على مجلد يضم الثلاثية الشهيرة «بين القصرين»، «قصر الشوق»، و«السكرية»، وأيضًا آراء وجهات نظر لنجيب محفوظ تحت عنوان «نجيب محفوظ فى سيدى جابر».

ولد نجيب محفوظ فى ١١ ديسمبر عام ١٩١١ فى حى الجمالية بالقاهرة، ودرس الفلسفة فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول فى الفترة من ١٩٣٠ - ١٩٣٤. وعمل فى عديد من المصالح الحكومية المدنية حتى تقاعد عام ١٩٧١. تشتمل قائمة أعماله الأدبية على أكثر من ٤٠ قصة ومجموعات من القصص القصيرة من أهمها «زقاق المدق» و«بداية ونهاية» فى الأربعينيات.

وقد نشر الثلاثية فى الخمسينيات. ثم تلى ذلك «أولاد حارتنا»، وبعد ذلك «اللص والكلاب» و«السمان والخريف»، و«ميرامار» و«ثرثرة على النيل» فى الستينيات، و«حضرة المحترم والحرافيش» فى السبعينيات. و«رحلة ابن فطومة واخناتون» فى الثمانينيات. وفى عام ١٩٨٨ حصل نجيب محفوظ على جائزة نوبل فى الآداب وكان أول أديب مصرى وعربى يفوز بهذه الجائزة. ومنذ ذلك الوقت وتحديدًا منذ محاولة اغتياله الآثمة عام ١٩٩٤، فإنه أصبح مقلاً فى كتاباته، ومن أهم أعماله فى تلك الفترة «أصداء السيرة الذاتية» التى جرى ترجمتها إلى الإنجليزية إضافة إلى «نجيب محفوظ فى سيدى جابر».

وقد بدأت الجامعة الأمريكية بالقاهرة برنامجها لنشر أعمال نجيب محفوظ عام ١٩٧٨، وباعتبارها الناشر الأجنبى لأعماله ووكيله الأدبى عبر العالم منذ عام ١٩٨٥، فإن الجامعة الأمريكية بالقاهرة نشرت أو أخذت حقوق نشر ٤٠٠ طبعة من أعماله فى ٢٧ لغة.

□ □ □

"اجتماع"

The Myth of Maturity: What Teenagers Need From Parents to Become Adults

(خرافة النضوج: ما يحتاجه المراهقون من الآباء ليصبحوا راشدين)

Terri Apter

Norton, 2001, 288PP., £ 19.95

معالجة متعمقة للمشاكل التى تواجه الشباب فى السن ما بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين، هؤلاء الذين تخطوا مرحلة المراهقة الأولى وعلى أعتاب سن النضوج والرشد. فقد تبين للباحثة أن المجتمع الحديث وضغوطه المتزايدة قد أخرت سن الرشد، ويكون الشباب فى حاجة إلى مساندة ورعاية الآباء فى هذه المرحلة من حياتهم. ومن خلال عملها كباحثة فى علم النفس الاجتماعى ومقابلاتها مع مجموعة كبيرة من طلبة الجامعات فى الولايات المتحدة، فحصت المؤلفة المناطق التى يفشل فيها الشباب أحيانًا، وهذه المناطق الأربعة هى: استكمال التعليم والحصول على الوظيفة، والعلاقة بالأصدقاء، والعلاقات الجنسية. وتترتب على هذه المشكلات أعراض القلق والاكتئاب واللجوء إلى المخدرات والاستدانة ومحاولات الانتحار. توجه المؤلفة نصائحها إلى الآباء فى الأسلوب الأمثل للتعامل مع الأبناء من هذه الفئة العمرية أثناء معاناتهم هذه المشكلات.

"إدارة"

المعرفة الإدارية والإدارة

أسامة عبد الرحمن

عمان: دار الفارس، ٢٠٠١

فى كثير من مؤسساتنا العربية الاقتصادية وغيرها، يبدو أن الإدارة هى المعوق الرئيسى لتفعيل أداء هذه المؤسسات وتنظيم إنجازها وتنمية قدراتها، والإدارة واحدة من أهم ركائز التنمية، هذا ما يؤكده المؤلف الذى يبسط سبل الإدارة الحديثة ومدى إسهامها فى التنمية العربية.

"اقتصاد"

اقتصاد إسرائيل على مشارف القرن الحادى والعشرين

فضل مصطفى النقيب

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

قامت إسرائيل منذ البداية على مساعدات غربية وأمريكية، وكثير مما حصلت عليه كان ابتزازًا بزعم تعرض اليهود للاضطهاد فى العهد النازى وضرورة حصولها على تعويضات مقابل هذا التعذيب. المؤلف يقدم تحليلًا تاريخيًا وواقعيًا للاقتصاد لإسرائيل الآن وفى المستقبل.

"تاريخ"

زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة

بيبرس الدوادار

تحقيق: زبيدة محمد عطا

القاهرة: دار عين، ٢٠٠١

شغل المؤلف منصب نائب السلطنة فى العصر المملوكى، ويقدم هنا استعراضًا لسير عديد من العلماء والحكام والسلاطين والأحداث اللافتة عسكريًا واجتماعيًا وثقافيًا، وحالة التعليم والثقافة فى هذا العصر.

■■■

Interrogations : The Nazi Elite in Allied Hands, 1945

(تحقيقات: النخبة النازية فى يد الحلفاء ١٩٤٥)

Richard Overy

Allen Lane, 2001, 664PP., £ 25.00

فى نهاية الحرب العالمية الثانية، وجد الحلفاء المنتصرون أنفسهم أمام مشكلة أثارت بعض الخلاف فى الرأى، وهى ماذا يصنعون بالقادة النازيين الذين مازالوا على قيد الحياة. وبعد أن اقترح البعض إطلاق الرصاص عليهم جميعًا، استقر الرأى على محاكمتهم. وبدأت بالفعل محاكمات نورمبرج الشهيرة فى نوفمبر عام ١٩٤٥. وتدور فكرة هذا الكتاب حول الفترة التى تلت انتصار الحلفاء وأسر القادة النازيين، والتى سبقت محاكمات نوفمبر عام ١٩٤٥. ففى هذه الفترة واجه النازيون سلسلة من التحقيقات المطولة أجراها معهم بعض من رجال الجيش، وخلت من المحامين والممثلين القانونيين عنهم كمجرمى حرب. وبالتالى وجد المؤلف فى الأرشيفات القومية فى واشنطن سجلات وثائقية بالأقوال والاعترافات الشخصية المطولة التى أدلى بها كل من هؤلاء النازيين من ذوى المناصب العليا ومن بينهم هرمان جورنج ورودولف هيس وجواكيم ربنتروب. هذه التحقيقات وما تضمنته من اعترافات عفوية لم يسبق نشرها.

■■■

The End of Globalization : Lessons from the Great Depression

(نهاية العولمة: دروس من الكساد الكبير)

Harold James

Harvard UP, 2001, 260PP, £ 27.50

المؤلف خبير فى تاريخ المؤسسات المالية فى القرن العشرين، وهو يهدف فى كتابه هذا إلى عقد مقارنة بين نظام العولمة الحالى وبوادر الكساد العالمى الذى يتنبأ به البعض، وبين نظام العولمة الذى ساد منذ ١٩٠٠ إلى ١٩١٣ قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى وحلول الكساد الكبير فى سنوات ما بين الحربين، ومن بين الأسباب التى عجلت بحلول الكساد ويحللها المؤلف إلى جانب نشوب الحرب، تصاعد الغضب تجاه النظام الاقتصادى والشعور بالظلم إزاءه بين شعوب العالم.

■■■

The Dynamics of Global Dominance: European Overseas Empires 1415-1980

(محركات السيادة العالمية: الإمبراطوريات الأوروبية الخارجية، ١٤١٥-١٩٨٠)

David B. Abernethy

Yale University Press, 2001, 524PP.

يهدف المؤلف إلى بناء نظرية شاملة عن الإمبراطورية تفسر حقيقة أن ثلثى الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة الآن حكمتهم دول أوروبية فى وقت ما. فكيف تسنى لثمانى دول أوروبية صغيرة أن تحكم ثلاثة أخماس كوكب الأرض؟ ويعتمد المؤلف على منهج إظهار الفروق والتشابهات بين الإمبراطوريات الأوروبية المختلفة فى خمس مراحل زمنية تراوحت بين التمدد والانكماش.

ومن التعميمات التى يتوصل إليها المؤلف والتى تجسد أهمية المحدد الجغرافى مسألة أن معظم المدن المركزية الأوروبية تمتعت بساحل على الأطلنطى، مما جعل الأمريكتين على سبيل المثال أقرب إلى إسبانيا منها إلى الصين.

كذلك يلاحظ المؤلف أن القوى الأوروبية كان لديها حكومات قوية مدفوعة بمنافسة حادة، ولكن أيضًا كانت تجمع بين مصالح القطاع الخاص والقطاع الدينى إلى جانب مصالح الدولة فى الوقت نفسه، وهو نموذج لم يكن واردا فى العالم العربى ولا فى الصين.

"تراث"

بؤس البنيوية

ليونارد جاكسون

ترجمة: ثائر ديب

دمشق: وزارة الثقافة السورية، ٢٠٠١

يمثل هذا الكتاب ضربة قاصمة لدعاة هذا المذهب النقدى (البنيوية) الذى اكتسح الساحة الأدبية والنقدية منذ ثمانينيات القرن العشرين وحتى الآن، فقد أزاح البنيويون الفرنسيون ما قبلهم وصار الأدباء والشعراء يكتبون وفق المنهج الجديد، ولكن المؤلف يشير إلى أن البنيوية لم تشكل أبدًا موقفًا نظريًا متماسكًا مما عجّل بتداعيها.

■■■

تفاصيل الشجر فى وقائع الزمن

محمد المنسى قنديل

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

يُقلِّب الكتاب فى وقائع التاريخ العربى الغارب، وقد اختار المؤلف بوصفه قاصًا، قصصًا من هذا التاريخ تمتد من زمن فرسان الصحراء العربية الواسعة إلى زمن الملوك والفتوحات الإسلامية مرورًا بزمن الحلم الأندلسى وصولاً إلى حوارى القاهرة المملوكية، ويحاول المؤلف أن يكتشف جذور هذا الماضى الذى يثقل كاهل الشخصية العربية ويدفعها خارج الزمن.

■■■

رحلتان إلى سورية

الشيخ محمد رشيد رضا

عمان: بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

لعب الشيخ رشيد رضا ومجلته المنار دورًا مهمًا خلال الثورة العربية فى ١٩١٦. وهو هنا يروى وقائع رحلتيه إلى سورية الأولى فى عام ١٩٠٨، والثانية خلال ١٩٢٠، ويتناول فى وصفه لوقائع رحلتيه الأوضاع فى سورية خلالهما ولقاءاته بكبار السياسيين وزعماء القبائل والتأثير الذى تركه فيهم والأثر الذى تركوه فيه.

■■■

عجائب الهند

تحقيق: محمد الحبشى

أبو ظبى: المجمع الثقافى، ٢٠٠١

الكتاب من تأليف بزرك شهريار الرامهوزى وقد وصفه المفكر الراحل الدكتور حسين فوزى بأنه خليط من المبالغات والصدق والوصف البليغ، وهو يحكى عن البحر كما لم يتناوله أحد من قبل، وقد كانت الهند دومًا ملهمة لخيال الرحالة والأدباء والفنانين بما تشتمل عليه من تنوع لغوى وثقافى ودينى وفنى وعرقى.

"تعليم"

الجامعات.. الثوابت والمتغيرات

صالح بدير

القاهرة: مركز تطوير التعليم الطبى، ٢٠٠١

لا تعنى زيادة أعداد المقبولين فى الجامعة، ولا كثرة المتخرجين منها أن التعليم الجامعى بخير، فهذه المؤشرات الكمية قد تكون انعكاساتها السلبية أكبر بكثير من دلالاتها الإيجابية، هذا بعض ما يؤكد عليه المؤلف الذى يناقش حال التعليم الجامعى اليوم وفى ظل المتغيرات الراهنة.

"دوريات"

أحوال مصرية

القاهرة: الأهرام، نوفمبر ٢٠٠١

العدد الجديد من هذه الدورية ربع السنوية يخصص ملفًا عن الطبقة العاملة المصرية حيث يبحث فى أسباب انهيارها وخطايا هذه الطبقة والأخطاء التى ارتكبت بحقها، يساهم فى الملف عدد من الكتاب والأكاديميين منهم «عبد الباسط عبد المعطى ومحمد جمال إمام وصابر بركات. يضم العدد مجموعة أخرى من الدراسات والتحقيقات العميقة منها دراسة عن مدلولات الأسماء فى مصر وعلاقتها بالحراك الاجتماعى، وبحث عن ظاهرة الأفراح الإسلامية وأسباب شيوعها، فضلاً عن قراءات لكتب حديثة ومتابعات فى الفنون وأوجه الإبداع المختلفة.

■■■

المحيط الثقافى
مجلة
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١
دورية جديدة صدر العدد الأول منها عن المجلس الأعلى للثقافة، وهى تعنى بالثقافة بمفهومها الشامل حيث تقدم تحليلات سياسية ودراسات فى السينما والدراما والأدب والمسرح، كما تقدم لقاءات مع رموز أدبية وفكرية واستعراض لاتجاهات عالمية حديثة فى الفن والإبداع والمجلة يرأس تحريرها الدكتور فتحى عبد الفتاح.

■■■

سطور
القاهرة: دار سطور، نوفمبر ٢٠٠١
هذا العدد ربما يكون الأخير الذى يصدر عن هذه المجلة الثقافية الشهرية المهمة التى استمرت تصدر لأكثر من ستين عددًا بوصفها مجلة تصدر من خارج مصر، بما يترتب على ذلك من أعباء مالية وإدارية ضخمة. والعدد الأخير من سطور مخصص للقرن الأمريكى خصوصًا بعد أحداث الثلاثاء ١١ سبتمبر الماضى، فضلاً عن أبواب المجلة الثابتة ومتابعاتها الأدبية والسينمائية والتشكيلية وغيرها، وهكذا ستختفى طاقة ضوء ثقافية جديدة من حياتنا دون أن تمتد لها يد.

رواية

خاتم
رجاء عالم
بيروت: الدار البيضاء: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١
تدخل الكاتبة السعودية بروايتها تلك إلى مناخات لم تعتدها فى أعمالها الشعرية والنثرية السابقة، حيث تطرح أسئلة جديدة من خلال تطرقها إلى أزمات واقعية نفسية، فى محاولة لسبر أغوار الاحتقانات التى تكون ثنائية الشخصية فى مجتمع صحراوى اجتهدت المؤلفة فى تناوله بأسلوب سردى مميز.

■■■

ديك الشمال
محمد الهراوى
الرباط: منشورات الزمن، ٢٠٠١
ثمة تناقض يعيشه الوطن العربى، والتحولات التى شهدتها أقطاره خصوصًا على الصعيد الاقتصادى أحدثت تأثيرات وتشوهات واضحة فى البنية الثقافية والفكرية وفى القدرة على التعاطى مع الحداثة وما بعدها، الرواية ترصد هذه التأثيرات فى المغرب الذى بحكم موقعه الجغرافى، وميراثه فى مواجهة الاستعمار الفرنسى كان عرضة لتأثيرات عميقة تعود لسنوات عديدة خلت.

■■■

يالو
إلياس خورى
بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١
رواية جديدة يخوض فيها الروائى اللبنانى غمار الحرب الأهلية اللبنانية التى استمرت أكثر من عشرين عامًا وتركت ندوبًا وجروحًا لم تندمل حتى الآن فى الواقع اللبنانى، والرواية تأخذ طابع التحقيق المطول، تمزج بين المأساة والسخرية والوقائع.

سياسة

أبعاد القضية الفلسطينية
عبد الله خلف
الكويت: المؤلف نفسه، ٢٠٠١
استعراض لأبعاد القضية الفلسطينية والمناورات الدولية والمحاولات التى جرت لحل الأزمة سياسيًا وصولاً إلى انتفاضة الأقصى، والمؤلف يقدم ما يشبه الصورة البانورامية لهذه القضية التى شغلت العرب ومازالت والتى ربما سيستمر تأثيرها فى المستقبل.

■■■

أسامة بن لادن.. الشيخ الذى صنعته أمريكا
عبد الرحمن على
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١
طوال سنوات الجهاد الأفغانى ضد السوفييت، لعبت أمريكا عبر أجهزة مخابراتها أدوارًا مهمة إلى جانب المجاهدين فأمدتهم بالسلاح ووفرت لهم التدريب والخبرات العسكرية والمخابراتية، وكان بن لادن هو صنيعة أمريكا بحق، فهى التى صنعت الأسطورة ثم هى الآن التى تتجرع ما صنعت يداها.
إلى ذلك يتابع المؤلف سيرة حياة بن لادن وتحولاته حتى صار أسطورة ولغزًا يحير العالم.

■■■

الإرهاب.. بذوره وبثوره.. زمانه ومكانه وشخوصه
هشام الحديدى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١
الإرهاب هو العنوان الكبير الذى دارت وتدور بسببه أولى حروب القرن، المؤلف يعرض لبدايات الموجات الإرهابية فى مصر والعالم والدور الغربى فى صناعة الإرهاب ورعايته له حتى بات خطرًا يهدد العالم كله، ويميز بين إرهاب الدولة وإرهاب الجماعات خصوصًا المتطرفة منها، كما يميز بين المقاومة المشروعة دفاعًا عن الأرض والحقوق والإرهاب الذى يتخذ من الدين ستارًا يتخفى وراءه.

■■■

الأسلحة البيولوجية والكيمائية بين الحرب والإرهاب
عبد الهادى مصباح
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١
دراسة تتابع تطور السلاح الكيميائى والبيولوجى وأسلحة الدمار الشامل، وخطورة وصول هذا النوع من الأسلحة إلى جماعات الإرهاب، وخصوصًا أنها رخيصة التكلفة بسيطة التصنيع، إلا أنها مع ذلك ذات تأثير مدمر على قطاعات عريضة من السكان، وهو ما انتهت إليه جماعات الرفض السياسى والاجتماعى فى بؤر توتر عديدة فى العالم.

■■■

الامبراطورية الأمريكية. الجزء الثانى
مجموعة من الباحثين
القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠١
يتناول هذا الجزء الأساطير المؤسسة للسياسة الأمريكية والدعائم التى قامت عليها كقوة استعمارية صارت الآن وبعد تفكك الاتحاد السوفيتى وانهيار الكتلة الاشتراكية قوة وحيدة، كما يتناول العلاقات الأمريكية العربية والمخاطر الناجمة عن سوء فهم أمريكا، حيث يرتفع البعض بها إلى مستوى الأسطورة منبهرًا بإنجازها فى الفترة القصيرة من عمرها، فيما يجردها البعض من كل ميزة مدفوعًا بعدائه لنمط الحياة والأيديولوجيا التى تمثلها.

■■■

انتفاضة الأقصى ٢٠٠٠
عمان: دار الجليل، ٢٠٠١
توثيق لانتفاضة الأقصى التى جاءت استكمالاً للتأثيرات بالغة الأهمية التى حققتها انتفاضة الحجارة وتطويرًا لآلياتها، ويقدم الكاتب توثيقًا ليوميات الانتفاضة وأسماء الشهداء وحكاياتهم البطولية بالكلمة والصورة، وصولاً إلى ما تعد به الانتفاضة فى القريب.

■■■

حروب المنطقة العربية.. الموقف السياسى المصرى
صلاح سالم
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١
طوال النصف الثانى من القرن العشرين اشتعلت المنطقة العربية بالحروب التى لم تغب عنها أبدًا مصر، سواء كانت مشاركًا أصيلاً وربما وحيدًا، أو مشاركًا بحكم الموقف والمكانة، المؤلف يحلل الدور المصرى فى هذه الحروب، ويطرح رؤية مستقبلية لأشكال الصراع واحتمالاته.

■■■

كنت نائبًا لرئيس المخابرات
عبد الفتاح أبو الفضل
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١
تعد التجربة المصرية لبناء جهاز مخابرات هى الأولى فى الوطن العربى، حيث كانت هذه الأجهزة مقصورة على الدول الكبرى فقط، والكتاب صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٨ محتشدًا بالعديد من الأسرار والأفكار التى أثارت ردود أفعال متباينة فى حينها، حيث فتح المؤلف من موقعه المؤثر والفاعل فى جهاز المخابرات المصرى عديدًا من الملفات الشائكة.

■■■

من ملامح حكم العسكر والعسكرية فى مصر المعاصرة
عطية الصيرفى
القاهرة: المؤلف نفسه، ٢٠٠١
بأسلوب ساخر، يقترب من أسلوب عبدالله النديم يسرد المؤلف حكايته مع السلطة فى تجلياتها المختلفة داخل السجون وخارجها. والصيرفى ناشط يسارى قديم صاحب تجربة طويلة فى الصدام مع السلطة ومحاورتها مضطهدًا دومًا ومحاضرًا، ويركز بالذات على تجربته فى انتخابات مجلس الشعب التى انتهت بسقوطه.

■■■

Civil Islam: Muslims and Democratization in Indonesia
(الإسلام المتمدن: المسلمون والتحول نحو الديمقراطية فى إندونيسيا)
Robert W. Hefner
Princeton University Press, 2000, 286PP.
قبل أواخر الثمانينات لم يكن للإسلام تأثير يذكر على السياسة فى إندونيسيا، حتى أن قليلاً من الناس يدركون أن إندونيسيا هى فى الحقيقة أكبر دولة إسلامية حيث عدد المسلمين بها (٢٠٠ مليون تقريبًا) يتجاوز عدد المسلمين فى كل الدول العربية مجتمعة.
ومع هذا ينقسم عادة المسلمون فى إندونيسيا إلى فئتين: فئة «الأبانجان» وهم يوفقون بين الإسلام وبين العادات والأفكار الهندوسية القديمة ويرفضون بعض الالتزامات مثل الصلاة اليومية. أما الفئة الثانية من المسلمين فيطلق عليهم «السانترى» وهم الملتزمون والمتمسكون بكافة العبادات الإسلامية.
ويقدم هذا الكتاب دراسة تفصيلية للإسلام فى عهد سوهارتو وصراع القوى السياسية خلال التسعينيات داخل إندونيسيا. وهو يبدى اهتمامًا خاصًا وتعاطفًا مع المثقفين المستنيرين من المسلمين الذين عملوا على التحول نحو الإسلام والتحول نحو الديمقراطية فى نفس الوقت. وهو يلقى الضوء على عبد الرحمن وحيد كلاعب سياسى مهم، ومنظمة «نهضة العلماء» التى تعد من أكبر المنظمات الإسلامية فى العالم. ولكن الكتاب ينتهى مع سقوط سوهارتو عام ١٩٩٨ ولا يناقش صعود عبد الرحمن وحيد للرئاسة فى أكتوبر عام ١٩٩٩ ثم سقوطه هو الآخر بعد ذلك بعامين.

■■■

Crescent and Star: Turkey Between Two Worlds
(الهلال والنجم: تركيا بين عالمين)
Stephen Kinzer
Farrar, Straus & Giroux, 2001, 272PP., $25.00
ستيفن كنزر، المدير السابق لمكتب صحيفة النيويورك تايمز الأمريكية فى مدينة إسطنبول خلال سنوات التسعينيات، يقدم فى هذا الكتاب خلاصة معايشته للمجتمع التركى وتحليله لمعضلات النظام السياسى لهذه الدولة التى تقع عند مفترق الطرق بين أوروبا وآسيا جغرافيًا، والشرق والغرب ثقافيًا.
يرى كنزر أن أهم المشكلات التى تواجه تركيا الآن هى الأصولية الإسلامية، والأقلية

الكردية وما تثيرد من توترات، وغياب الحريات الديمقراطية.

ومع ذلك فهو يثق فى الطبقة الحاكمة وفى قدرتها على اتباع نمط الديمقراطيات الغربية واستكمال تجربة كمال أتاتورك الذى يكن له كنزر الإعجاب الشديد.

ولكن يجد المؤلف نفسه فى موقف متناقض حين ينادى بمزيد من احترام حقوق الإنسان ومزيد من الحريات السياسية والتحول نحو الديمقراطية، ثم يعود ويحذر من الخطر الأصولى وضرورة استمرار مساندة الجيش للطبقة الحاكمة.

طب

أعراض وعلاج أشهر الأمراض

نشمى الرويلى

الكويت: المؤلف نفسه، ٢٠٠١

أكثر من ٥٥ مرضًا من الأمراض الشائعة بين الناس، يعرض لها المؤلف كمتخصص ويقدم وصفات للعلاج بعد بيان الأعراض، كما يقدم أحدث نظريات الطب فى مجال التغذية.

■■■

جراحات التجميل

أحمد عادل نور الدين

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

عن حقيقة جراحات التجميل، إيجابياتها وسلبياتها والمدى الذى وصلت إليه فى السنوات الأخيرة وقدرتها على علاج التشوهات والحروق، ويقدم المؤلف فصولاً عن السمنة وكيفية التخلص منها، وأخرى عن تفادى مشكلة سقوط الشعر.

صحة عامة

Women's Moods: What Every Woman Must Know About Hormones, the Brain, and Emotional Health

(أمزجة النساء: ما يجب أن تعرفه كل امرأة عن الهورمونات والمخ والصحة العاطفية)

Deborah, Md Sichel, Jeanne Driscoll

Quill, 2000, 368PP., $ 14.00

هذا الكتاب نتاج عمل مشترك بين طبيبة نفسية شهيرة وممرضة محترفة اسمها جين دريسكول أصبحت شخصية عامة فى الولايات المتحدة بسبب محاضراتها وشرائطها التى تتحدث فيها عن الأعراض النفسية المصاحبة للحمل والرضاعة وكيفية معالجتها.

يبين الكتاب العمليات البيولوجية التى تجعل النساء يختلفن عن الرجال بالإضافة إلى الاختلاف فى التكوين الكيميائى للمخ، وهى الأشياء التى تفسر حدة وأوقات تقلب المزاج فى حياة المرأة، وما يصاحب هذه التقلبات من اكتئاب وقلق وتوتر.

ثم تقدم المؤلفتان النصائح العملية فى كيفية إدراك أسباب هذه التقلبات والتعامل معها من خلال الغذاء المناسب والراحة والفهم والروحانيات والتمرينات المناسبة.

طعام

Back to the Table: The Reunion of Food and Family

(العودة إلى المائدة: اجتماع الطعام والأسرة من جديد)

Art Smith

Hyperion, 2001, 288PP., $ 29.95

عمل آرت سميث فى وظيفة الطاهى الخاص لأوبرا وينفرى كما عمل فى أسر العديد من مشاهير الولايات المتحدة بين فنانين ورؤساء. وفى هذا الكتاب يقدم الشيف الشهير وصفات خاصة، كما يقدم أفكارًا حول تقديم الطعام وإعداد المائدة بشكل يضمن الألفة والانسجام والاحترام بين الحاضرين، وهو يبين كيف تسهم بعض الأطعمة فى دعم المناخ الأسرى. ولا يتوقف آرت سميث عند ذلك بل يستعرض فى كتابه الصلوات المختلفة التى تسبق تناول الطعام لدى الشعوب والثقافات المتنوعة.

علم نفس

الإرشاد النفسى المصغر

محمد حامد زهران

القاهرة: دار الكتاب، ٢٠٠١

المشكلات التى تواجه الآباء والمدرسين فى التعامل مع الصغار قد تبدو أعقد من قدراتهم على التعامل معها بطريقة تقليدية، فثمة اختلالات واختلافات نفسية وفروق فردية بين الصغار ينبغى الالتفات إليها، هذا الكتاب يقدم سبلاً إرشادية للتعامل مع احتياجات الصغار النفسية ويجيب عن تساؤلات الآباء والمعلمين فى هذا الإطار.

فكر

إطلالة عشق الوطن

حسن أبشر الطيب

السودان: مركز عبد الكريم ميرغنى الثقافى، ٢٠٠١

٤٠ مقالة فى الثقافة والفكر والشئون العامة، ودراسات عن أدباء سودانيين كبار من أمثال الطيب صالح وآخرين، وبعض المقالات تتناول المأثور السودانى الشعبى والثقافة السودانية المحلية وتجلياتها فى الفنون والآداب.

■■■

الأختام الأصولية والشعائر التقدمية

على حرب

الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١

اعتاد المفكر اللبنانى على حرب فى كتاباته الأخيرة، أن يناقش كثيرًا مما اعتبر مسلَّمات لدى الفكر العربى المعاصر، وهو ما يلقى عبئًا فى متابعة المشاريع التراثية والحداثية كى يفصل الصالح بينها عن الطالح، لكنه فى النهاية يقدم صورة صحيحة عن مكونات العقل العربى ومواطن قوته ودلالات ضعفه، وصولاً إلى صياغة معاصرة تمنح الفكر العربى قدرة على الجدل والتواصل.

■■■

التجزئة والدولة القطرية.. قراءة استطلاعية

منير شفيق

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

يضع المؤلف التجزئة والدولة القطرية فى قفص الاتهام، ويحملها مسئولية ما آلت إليه الأحوال من تفكك وانهيار فى العالم العربى، ويشير إلى أن الدولة القطرية لم تنشأ من فراغ، فهى أساسًا وليدة الاستعمار لكن العصبيات القومية والعقليات الانعزالية التآمرية كانت سببًا فى شيوعها على هذا النحو.

■■■

العلم بين المعمل والمسجد

خالد منتصر

القاهرة: دار المحروسة للنشر، ٢٠٠١

يجمع هذا الكتاب عشرات المقالات التى كتبها المؤلف خلال السنوات العشر الأخيرة، والخيط الذى يجمعها هو انحيازها للدولة المدنية وتقليص نفوذ رجال الدين فى الحياة العامة، فالمؤلف يرى أن أى تقدم لن يتحقق إلا فى ظل دولة مدنية علمانية.

■■■

وحدة العقل العربى الإسلامى

چورچ طرابيشى

لندن: دار الساقى، ٢٠٠١

استكمالاً لمشروعه فى نقد العقل العربى أو نقد نقده، والذى تناول فيه الفكر المغربى محمد عابد الجابرى وقبله المفكر المصرى حسن حنفى، يواصل چورچ طرابيشى تشريحه لبنية هذا العقل وتناقضاته، وهو هنا يؤكد وحدة الإطار العام الذى تحرك فيه الفلاسفة المسلمون رغم اختلاف الزمان والمكان ورغم التباينات الظاهرية بينهم.

فكر دينى

البيان القرآنى

محمد رجب البيومى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

أقر المفكرون والعلماء منذ القدم بأن القرآن الكريم نمط من القول غير مسبوق وشهدوا بما له من سحر التأثير وروعة البيان وكمال الإعجاز وأكدوا أنه تفرد بنمط خاص فى البيان والتصوير. وهذا الكتاب يقع فى جزءين، يدرس الأول منها الجزالة والرقة وبلاغة الإقناع وبلاغة التصوير والإيجاز والإطناب فى القرآن، كما يتناول الغريب فى كتاب الله ويتساءل: هل يمكن أن يفسر القرآن علميًا، أما الجزء الثانى فهو دراسات تطبيقية تتناول التكرار فى سور القرآن والجملة القرآنية وسورة الكهف وغيرها من الموضوعات.

■■■

الطريق إلى السعادة الزوجية

موسى صالح شرف

القاهرة: مكتبة التراث الإسلامى، ٢٠٠١

يتناول الكتاب مجموعة من الموضوعات التى تهم كل مقبل على الزواج أو متزوج، والإسلام بوصفه دستور حياة، لم يهمل هذه العلاقات وبيَّنها بوضوح تام بهدف تحقيق السعادة والاطمئنان للأسرة التى هى نواة المجتمع المسلم، والكتاب يتحدث عن حق الخطيب على خطيبته وآداب المعاشرة وشرعية الفحص الطبى للزوجين قبل الزواج وغيرها من الموضوعات.

■■■

ألفاظ القرآن الكريم.. دراسة علمية تكنولوجية

على حلمى موسى

القاهرة: الجمعية المصرية للإعجاز العلمى للقرآن والسنة، ٢٠٠١

تسعة فصول تبحث فى مصادر وأصول ألفاظ القرآن الكريم، وتحلل أسماء الله الحسنى الواردة فى القرآن وتشرح دلالات الحروف الواردة فى بدايات السور وعلاقاتها بمعانى الآيات.

■■■

حرية الاعتقاد فى القرآن الكريم

عبد الرحمن حللى

الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١

ثمة آية فى القرآن الكريم من سورة الكهف تجيب بوضوح عن سؤال حرية الاعتقاد فى القرآن، تقول: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، بما يعنى أن الإسلام أعطى أعداءه حتى حق الكفر به، والكتاب يناقش تلك الإشكالية فضلاً عن إشكاليات الجهاد وحقوق الأقليات غير المسلمة وغيرها.

■■■

حياة الصحابيات

أحمد الخطيب

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

تمثل حياة الصحابيات اللائى عشن فى العهد النبوى يتعلمن من سلوك الرسول الكريم وزوجاته، نبراسًا ينبغى أن تقتدى به المسلمات فى كل عصر، وهذا الكتاب يلقى أضواءً على حياة الصحابيات ومنهن أم قليم بنت الحارث، وأم كلثوم بنت عقبة وغيرهن.

■■■

عبر من السيرة النبوية

مشام على حافظ

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١

تحتشد السيرة النبوية العطرة بآلاف العبر التى نجدها فى كل موقف أو حديث أو إيماءة من الرسول الكريم، المؤلف هنا يقدم عبرا يستقيها من سيرة الرسول الكريم ترسم منهاجًا للحياة والفلاح فى الدنيا والآخرة.

فلكلور

الزواج والموت في الأغنية الشعبية الفلسطينية

أحمد جميل الحسن
دمشق: دار الشجرة، ٢٠٠١

ستظل فلسطين صامدة وباقية، وسيظل الفلسطينيون يقاومون ويجاهدون ضد الغاصب الإسرائيلي ما بقي ميراثهم الشعبي وتراثهم مقاومًا ومتواجدًا، وهذا الكتاب يدعم هذا الاتجاه من خلال دراسته لما يرد عن الزواج والموت في الأغنية الشعبية الفلسطينية.

فلسفة

العدل الجذل

فريدريك نيتشه
ترجمة: سعاد حرب
بيروت: دار المنتخب العربي، ٢٠٠١

عرض لأهم نظريات نيتشه وآرائه الفلسفية ودعائم المنطق عنده ومواقفه من فلاسفة عصره والسابقين عليه، وتختص بدراسة معمقة لآرائه في الفلسفة والثقافة العربية.

■■■

من النقل إلى الإبداع

حسن حنفي
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

يواصل حسن حنفي مشروعه في التراث الإسلامي، ويؤكد في كتابه هذا أن الفلسفة الإسلامية كانت مستقلة تمامًا عن أية تبعية سواء للفكر اليوناني الغربي أو المشرقي الفارسي، ويقدم بالدليل سبق المسلمين في عديد من القضايا الفلسفية وعلم المنطق على نظرائهم الغربيين.

فنون

Rembrandt's Women

(نساء رمبراندت)
Julia Lloyd Williams
Presrd, 2001, 272PP., $ 75.00

صدر هذا الكتاب منذ قريب لكي يتزامن مع المعرض المقام حاليًا في الأكاديمية الملكية للفنون بلندن تحت نفس العنوان «نساء رمبراندت». ومن المعروف عن الفنان الهولندي الشهير أنه كانت لديه ثلاث نساء في حياته: ساسكيا، وديركس مديرة منزله، وهندريك الخادمة. ويعتقد كثير من النقاد أن السبب في العمق العاطفي للوحات البورتريه النسائية لرمبراندت أنها كانت تجسد نساء من أعضاء منزله، حيث كان يرسم أيضًا لوحات لزوجته وأمه.

يضم الكتاب ست مقالات طوال تتناول قضايا مختلفة من وحي لوحات رمبراندت النسائية مثل: ماذا كانت معايير الجمال الأنثوي في القرن السابع عشر في هولندا؟ وما هي نوعية المرأة التي كانت تسمح لنفسها في ذلك الوقت بأن تصور عارية في عمل فني؟ وما هو سر المنديل الذي كانت تحمله النساء المصورة في لوحات هذا العصر؟

■■■

Writing With Hitchcock: The Collaboration of Alfred Hitchcock and John Michael Hayes

(الكتابة مع هتشكوك: التعاون بين ألفريد هتشكوك وجون مايكل هايز)
Steven de Rose
Faber & Faber, 2001, $ 15.00

كان ألفريد هتشكوك مؤمنًا بأهمية السيناريو الجيد في صناعة الفيلم الجيد، ومع ذلك كان يتخلص من كتابة السيناريو الواحد تلو الآخر. وقد جاءت الأفلام الأربعة التي كتبها جون مايكل هايز وأخرجها هتشكوك في أفضل وأغنى مراحل هتشكوك السينمائية، ومنهم «النافذة الخلفية» و«لإمساك لص». ويتناول هذا الكتاب ذلك التعاون الفني الذي استمر لفترة ثم توقف بسبب الخلاف في الرأي. حيث كان هتشكوك يدقق الاختيار في كتَّاب السيناريو ويفضلهم شبابًا غير مختبرين ولم يشتهروا بعد لكي يتتلمذوا على يديه. أما عندما يصبح للتلميذ رأي مخالف فيكون ذلك معناه نهاية العلاقة. وهو ما حدث تمامًا مع هايز.

مذكرات وسير

ذكريات الأدب والحب

سهيل إدريس
بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

يطرح صاحب «الحي اللاتيني» أيامه على صفحات كتاب يحوي مذكراته الصحافية والسياسية، فيبدو من خلالها المجتمع اللبناني الذي لا يغيب بطبيعة الحال عن المذكرات حيث تتناول التحولات السياسية والفكرية والاجتماعية التي داهمت هذا المجتمع خلال العقود الأخيرة. والتي كان أبرزها على الإطلاق الحرب الأهلية التي استمرت أكثر من عشرين عامًا.

■■■

يوسف السباعي.. الأيام والليالي

علاء الدين وحيد
المنصورة: دار سنابل، ٢٠٠١

الميتة المفجعة للأديب يوسف السباعي الذي قتل على يد أحد الناشطين في منظمة فلسطينية ممن رفضوا اتفاقية كامب ديفيد التي أبرمها الرئيس المصري الراحل أنور السادات مع الإسرائيليين، ختمت حياته الثرية بطريقة دراماتية وكاننا نقرأ بعضًا من رواياته ذات الطبيعة الرومانسية والتي تحولت في معظمها إلى أعمال سينمائية، هذا الكتاب يبحث في مسيرة يوسف السباعي أدبيًا وصحافيًا وسينمائيًا وسياسيًا.

■■■

Andre Malraux: Une Vie

(أندريه مالرو: حياة)
Olivier Todd
Gallimard, 2001, 644PP., 175Fr.

حاز أندريه مالرو مكانة متميزة للغاية بين أعلام الثقافة الفرنسية في القرن العشرين. وهو لم يشتهر فقط بسبب رواياته وكتاباته عن الفن والسياسة والحضارة، ولكنه كان رجلاً ثوريًا، رحل في العشرينيات إلى الشرق الأقصى مناهضًا للاستعمار، واشترك بالقتال في الحرب الأهلية الإسبانية، كما اشترك في المقاومة الفرنسية ضد النازي ليصبح بعد عام ١٩٤٥ اليد اليمنى للجنرال شارل دي جول.

يتناول هذا الكتاب لمؤلفه أوليفييه تود حياة مالرو ولكن من زاوية تحتوي على قدر من التشكك ورغبة من «تود» في إظهار أن مالرو قد حصل على حجم أكبر من حجمه.

منوعات

جوائز الدولة ومبدعو الأقاليم

طارق الطاهر
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠١

حصل عديد من مبدعي مصر في الأقاليم على جوائز الدولة التشجيعية أما التقديرية فلم يحصل عليها سوى الدكتور عز الدين عيسى، على الرغم من أن أقاليم مصر كانت دومًا بمثابة معمل تفريخ للإبداع والمبدعين، والدراسة تنقسم إلى ثلاثة أقسام يتناول الأول: مسيرة هؤلاء الفائزين بجوائز الدولة من مبدعي الأقاليم، والثاني: يقدم حصرًا لهم منذ عام ١٩٥٨ وحتى اليوم، أما القسم الثالث: فيعرض لقوانين جوائز الدولة منذ البداية وحتى اليوم.

■■■

لا للاكتئاب نعم للفرح

عرفات نظام الدين
بيروت: المؤسسة العربية الأوروبية للصحافة والنشر، ٢٠٠١

كثيرة هي الأحداث التي تبعث على الاكتئاب والحزن، وما يبث عبر الفضائيات وما يموج به العالم من اضطرابات يكفي لتراكمات من الإحباط واليأس تجب أي فرصة للفرح، لكن المؤلف يدعونا إلى تذكر نعم الله علينا التي نقرأها في كتاب الكون وفي كتاب الذات وجميعها مما يجعلنا نسبح بحمده ونشعر أن الحياة أجمل وأبسط وأن بوسعنا أن نملأها حبًا وسعادة.

■■■

هؤلاء الكتاب وقضاياهم الساخنة

سناء صليحة
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١

قراءة في أفكار وأعمال عدد من الكتاب ينتمون إلى حقب تاريخية وروافد إبداعية مختلفة من أمثال ثروت عكاشة ويوسف إدريس ويحيى حقي ويوسف القعيد، ما القضية التي شغلت كل واحد منهم أكثر من الآخر، وكيف تعاملوا معها إبداعيًا، وبعض ما تقدمه المؤلفة هو شهادات استقتها من لقاءاتها معهم.

نقد أدبي

الأعشى ومجمعه اللغوي

سهام عبد الوهاب الفريح
الكويت: مجلس النشر العلمي، ٢٠٠١

الأعشى هو صاحب أكبر ديوان بين شعراء العرب قبل الإسلام ويمثل معجمه اللغوي كافة العناصر اللغوية والفنية، ويقدم فرصة لدراسة نقدية بالغة الثراء، تشير إلى ما كانت عليه بلاغة العرب في الجاهلية.

■■■

بلاغة السرد

محمد عبد المطلب
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠١

دراسة موسعة في السرد الروائي هي الأولى لمؤلفها الذي استغرقه الشعر طوال سنوات من عمله الأكاديمي ومتابعاته للواقع الأدبي المصري والعربي، وفي هذا الكتاب يقدم المؤلف تحليلات نقدية لعديد من الأعمال لأدباء من مختلف الأجيال منهم إدوار الخراط ويوسف القعيد ونعيم صبري وميرال الطحاوي وأحمد الشيخ والطاهر وطار والطيب صالح وإبراهيم الكوني ومجيب طوبيا وآخرون.

■■■

بنية القصيدة في شعر محمود درويش

ناصر علي
عمان: الكويت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

دراسة في السمات العامة المميزة لشعر محمود درويش وبنية القصيدة وتراكيبها وتأثرها بالشعر العربي القديم وبشعر الحداثة، والوحدات الأساسية المكونة لشعره وهي المرأة والوطن ومخزون الذكريات والسنوات الأولى في فلسطين السليبة.

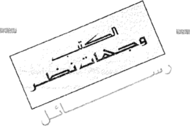
■■■

على أسوار بابل

جورج طراد
بيروت: رياض الريس، ٢٠٠١

حين تذكر الحداثة العربية المعاصرة في مجال الشعر والأدب عمومًا يتبادر إلى الذهن فورًا اسم يوسف الخال وتجربة مجلة شعر التي عكست تمرد الخال وآخرين من أمثال محمد الماغوط وأدونيس وأنس الحاج ونازك الملائكة على الواقع الشعري في زمانهم، والمؤلف هنا يتابع على وجه الخصوص تجربة يوسف الخال في إحلال العامية محل الفصحى في قصائده، ويقدم رؤيته لدعاوى الإحلال الكامل للعامية محلها وجعل الفصحى لغة تراث لا أكثر، كما يستعرض آراء يوسف الخال في عديد من القضايا عبر حوار مطول معه ضمن الفصول الخمسة التي يضمها الكتاب.

■■■



مـــــا بعـــد طالبـــان

إشارة إلى مقال الأستاذ هويدى عن مرحلة ما بعد طالبان، فإنى أود أن أعرب عن تقديرى لما جاء به من عرض وتحليل قيم، إلا أننى أود أن أعرض بعض الملاحظات على ما جاء عن عدم قدرة هذه الحركة على الاستمرار، والذى يرجع إلى عدم وجود تأييد دولى، ومساعدة خارجية، وذلك لتغير الموقف الدولى، ووجود قطب واحد حاليًا، بينما كان الجهاد ضد الاتحاد السوفيتى يلقى تأييد الولايات المتحدة وباكستان والسعودية.

١- إن الحركة حاليًا لا تلقى تأييداً من دول خارجية، إلا أنه يجب النظر إلى أنها تتمتع بتأييد عدد كبير من الشعوب الإسلامية، بل عكس القول، إن هذا التأييد دلالة واضحة على صحوة العالم الإسلامى، والذى كان موجودًا إبان فترة الجهاد ضد الاتحاد السوفيتى.

٢- إن الحركة تدعم تدعيمًا كاملاً من الأفغان والباكستانيين المقيمين على حدود أفغانستان ولعل خروج الآلاف بأسلحتهم صوب أفغانستان، خير دليل على ذلك. وأود أن أشير إلى أن المعارضين لطالبان لا يحظون بأى تأييد، فقد لاحظت فى العزاء الذى أقامته أسرة عبد الحق، أن الذى حضر لتقديم واجب العزاء فى بيشاور لا يتعدى عشرة أفراد، بينما يخرج الآلاف كل يوم فى هذه المنطقة لتأييد طالبان، ويرجع ذلك إلى حساسية هذه الشعوب ضد من يحاول التعاون مع الأجنبى ضد مصلحة وطنه.

٣- والمقارنة العسكرية مختلفة تمامًا، فالاتحاد السوفيتى كان يتمتع بميزات عسكرية كبيرة فى أفغانستان تتمثل فى:

- احتلاله الكامل لأفغانستان بجيش بلغ مائة ألف جندى مزودين بأسلحة حديثة من طائرات، ومدفعية، ودبابات.
- وجود حدود شاسعة له على حدود أفغانستان، من الشمال (قاجيكستان وأوزبكستان) ومن الغرب (تركمستان) حيث كانت هذه الدول جزءًا من الدولة السوفيتية. وكانت هذه الحدود مصدرا سهلاً لمد جيش الاتحاد السوفيتى بكل ما يحتاجه، وقاعدة أساسية له، فضلاً عن استيلائه الكامل على السلطة الداخلية فى أفغانستان.

٤- لذلك فإن مقاومة هذا الجبروت العسكرى لم تكن لتنجح بدون مساعدة دول كبرى كالولايات المتحدة، وبدون تمويل دولة غنية كالسعودية التى أنفقت ٢١ مليار دولار، وبدون فترة زمنية طويلة استمرت زهاء عشر سنوات.

٥- والحملة العسكرية الأمريكية الحالية تنحصر فى:

- حرب جوية.
- محاولة استخدام قوات الشمال.
- البحث عن قواعد فى دول مجاورة لتسهيل العمل العسكرى.

والحرب الجوية لم تنجح حتى الآن سوى فى قتل المدنيين وتشريد الشعب الأفغانى، وقوات الشمال عاجزة عن اختراق خطوط طالبان، لأنها تحولت إلى بقايا من الجنود المرتزقة، يكنُّ الشعب الأفغانى البشتونى كراهية شديدة لهم، خاصة بعد تعاونهم مع الولايات المتحدة وروسيا العدو القديم للشعب الأفغانى. ولا تجد الولايات المتحدة قواعد أرضية لها قريبة من أفغانستان، فباكستان تجد أن التسهيلات التى قدمتها تلاقى معارضة شديدة من الشعب الباكستانى، وترغب فى إنهاء الحملة فى أقرب وقت ممكن، والقاعدة التى قدمتها أوزبكستان، لا تطمئن لها الولايات المتحدة، لوجود معارضة إسلامية داخلية لها.

والولايات المتحدة تتردد ألف مرة فى الدفع بقوات برية، خوفًا من أن يكون مصيرها مصير قواتها فى فيتنام.

٦- وهناك جانب آخر لا يمكن إغفاله، هو وجود معارضة داخل أوروبا لهذه الحملة. فضلاً عن أن الشعب الأمريكى سيناهض بدوره هذه الحملة حينما يشعر أنها لم تات بأى نتائج، كما حدث فى حرب فيتنام.

ولا يعنى ذلك أننى أؤيد طالبان أو أعارضها، بل أردت فقط تقديم هذه الملاحظات.

سفير / فاروق الهوارى

من سعاد حسنى إلى طائرات الشبح

منذ أشهر ونحن فى بغداد نستلم نسخًا من هذه المجلة الراقية. وأصارحكم، أننا فى البداية كنا نستنسخ بعض المقالات، وخصوصًا مقالات الأستاذ هيكل الرائعة.. ثم انتهينا باستنساخ كل المجلة. ولأول مرة، أجد مجلة بهذا الغنى والتنوع من السياسة إلى الفكر إلى الفن. وأحييكم على هذه الجرأة فى تخصيص غلاف عدد أغسطس للفنانة الكبيرة الراحلة سعاد حسنى. وعن أفلام الأستاذ عبد الوهاب، وكذلك الأستاذ فريد الأطرش. وقبل سنتين أرسلت رسالة إلى الأستاذ خير الدين حسيب رئيس مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت عاتبته على قلة الجهد البحثى والدراسى المبذول فى المجالات الأدبية والفنية، لأنها فى رأيى هى الأهم فى توحيد وتقريب الشعوب العربية ونخبتها الطليعية Intellectuals.

وعند متابعة أغلفة أعداد المجلة من أغسطس إلى أكتوبر، من سعاد حسنى إلى طائرات الشبح، لا أملك أحيانًا إلا أن أقول سبحان مغيِّر الأحوال؛ إذ لا يزال هذا العالم الهَرِم قادرًا على مفاجأتنا بين حين وآخر، كاشفًا عن الطابع الفوضوى والمصادفى للمسيرة البشرية على سطح الكوكب، إننا لم نبلغ الحدود النهائية، ويجب علينا أن نكتشف القيم والأخلاق من جديد أو نصنعها. بالفكر والفن والأدب لعالم ترقد الكارثة على مرمى حجر منه.

وبمناسبة عرضكم لأهم الكتب التى تصدر فى أمريكا، فقد وجدت عرضًا قصيرًا للكتاب الرائع Divided We Stand، ولكنكم أهملتم زميله Twin Towers. كما عرضتم بسرعة لكتاب هولبيك الجديد Plateform، الذى استعرضته قبل أسابيع مجلة Econ-omist.

أمنياتى المخلصة للمجلة بالتوفيق والنجاح وتمنياتى لكم جميعًا، وبالأخص لمعلمنا الكبير الأستاذ هيكل أطال الله فى عمره.

يوخنا دانيال
بغداد

** نشكر الأستاذ دانيال ونود أن نلفت نظره إلى أن المجلة تعنى بنشر مقالات ودراسات عن كتب حديثة صدرت مؤخرًا وليس مجرد خواطر وآراء أو شذرات متناثرة.

المحـــرر

مســـئوليـــة بن لادن

تحية تقدير وإعجاب بما تبذلون من جهود قيمة فى إثراء الرأى العام العربى بما تطرحونه من معلومات وتحليلات رفيعة المستوى، وعلى رأسها المقال الشهرى للأستاذ الكبير هيكل والذى ننتظره بفارغ الصبر، ولهذا السبب ولأننا نعتبر أن مجلتكم الوحيدة التى تتخذ من وجهات النظر عنوانًا ومادة شيقة ومفيدة للقراء، فإننى أرفق لكم بعض الملاحظات التى طرأت لى بعد الانتهاء من قراءة مقال الأستاذ الكبير - قبل الأخير - المعنون (حريق أمريكى وعالمى) علها تكون مكملة للصورة وتحمل شيئًا من الفائدة.

ربما كانت كلمة الأستاذ محمد حسنين هيكل هى أهم ما كنا ننتظره كقراء بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر الماضى، وبعد سيل متدفق من المعلومات والتحليلات، والتى لا يتمكن القارئ العادى أن يتبين غثها من سمينها، ولذلك كانت كلمة الأستاذ هيكل والتى تابعتها بشغف أهم ما قرأت، وهى الوحيدة التى دفعتنى للتواصل معها عبر هذه الخواطر التى عنت لى عقب الانتهاء من مقالة الأستاذ الكبير، وذلك لما أكنه له شخصيًا ولقلمه من احترام، كما أقدر فى المقابل احترامه لعقلية قرائه، وحرصه على التواصل معهم بما يملكه من معلومات مستفيضة، وما يطرحه من تحليلات معمقة، بالإضافة لقدرته على إشعارهم بأنه يفكر معهم ولا يملى عليهم رأيًا. ولكل هذه الاعتبارات بالإضافة إلى كونها محاولة للتفكير المشترك بحثًا عن الحقيقة إزاء موضوع أقل ما يقال عنه إنه من أكثر الأحداث التاريخية إثارة سواء على صعيد الفعل أو رد الفعل، كما أنه أحد العوامل المهمة التى ستصبغ القرن الحادى والعشرين بألوان عديدة، لا نرى فيها ما هو زاه أو مبهج حتى الآن.

وربما كان هذا الاستدراك مبنيًا فى أساسه على معلومات ظهرت للجميع على الفضائيات، وفى كافة وسائل الإعلام بعد بدء العمليات العسكرية الأمريكية فى أفغانستان. وأستطيع إجمالها فى النقاط التالية:

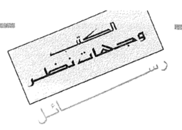
١- الرسالة المصورة المثيرة للجدل التى بثتها قناة الجزيرة الفضائية غداة بدء الضربات الجوية لأسامة بن لادن واثنين من معاونيه هما سليمان أبو غيث وأيمن الظواهرى، والتى احتوت تصريحًا واضحًا لا يقبل اللبس أو التأويل، بأن الذين قاموا بالعمليات الانتحارية فى أمريكا هم وبالتعبير الحرفى (كوكبة من الشباب المسلم، فتح الله عليهم، وأسأل الله لهم مكانًا فى فردوسه الأعلى). وإذا سلمنا بتأكيد الأستاذ هيكل بأن قدرات بن لادن تعجز عن القيام بمثل هذه العملية، فإننا لا نسلم أن قدراته العقلية تعجز عن إدراك أن تصريحًا كهذا مرفقًا بتهديده الواضح بأن الولايات المتحدة لن تنعم بالأمن ما لم ننعم به فى فلسطين، هو اعتراف ضمنى بأن له (وعلى أقل تقدير وأكثره تحفظًا) اتصالاً وثيقًا، واطلاعًا على الجهة المنفذة، وأن له القدرة على الضرب من جديد ومن داخل الولايات المتحدة، وقد لا يختلف اثنان أن الحديث المتوقع من برىء فى موقفه أن يواصل الإنكار فى نفس الوقت الذى يهدد بالرد فى حالة الهجوم عليه، لا أن يؤكد هوية الفاعلين ومعرفته بهم، بل وتهديده بتكرار نفس العمليات مستقبلاً، مما يعطى أعداءه فرصة تأكيد التهمة، وتجريده من أى تعاطف دولى.

٢- الرسالة التالية (والتى تم تسجيلها أغلب الظن يوم الخميس الحادى عشر من أكتوبر الماضى)، والتى ظهر فيها سليمان أبو غيث الناطق الرسمى باسم تنظيم القاعدة وأكد فيها وبكلمات أكثر وضوحًا أن «عاصفة الطائرات لن تهدأ، ونقول للمسلمين فى أمريكا وبريطانيا وننصحهم بعدم ركوب الطائرات وعدم السكن فى الأبراج والمبانى العالية».

٣- تصريح عبد الله أسامة بن لادن فى مقابلة نشرتها صحيفة الصاندى ميرور البريطانية يوم الأحد الرابع عشر من أكتوبر، أن والده غادر فجأة غداة الهجمات على الولايات المتحدة، وانتقل إلى الجبال مع ستين شاحنة محملة بتجهيزات وأجهزة اتصالات عبر الأقمار الصناعية، مما يؤكد نقطتين فى غاية الأهمية:

أ- أنه كان على علاقة بشكل أو بآخر بهذه العمليات، وأنه كان يتوقع ردًا انتقاميًا من الولايات المتحدة.

ب- أن بن لادن على ما يبدو كان يتمتع بحرية التنقل والاتصال، كما أن الاختراق العميق لتنظيمه من قبل أجهزة استخبارات عديدة من أهمها جهاز الاستخبارات الباكستانى قد تم تضخيمه، فبن لادن قادر على التنسيق مع هذا الجهاز فى عمليات مهمة كاغتيال احمد شاه مسعود، وقادر فى نفس الوقت على الاحتفاظ بسرية جدوله الخاص، وإلا



لأصبح بإمكاننا اتهام جهاز الاستخبارات الباكستانى بأنه كان على اطلاع تام على عمليتى تفجير السفارتين الأمريكيتين فى نيروبى ودار السلام، وعملية المدمرة «كول»، ولا نعتقد أن الولايات المتحدة قادرة على التغافل عن مثل هذا الاحتمال الخطير.

٤- أن الطلب الأمريكى للمساعدة من باكستان تضمن فى بنده الأول طلبًا للتعاون المعلوماتى والاستخباراتى، ورغم ذلك فلا يبدو أن أمريكا مطمئنة تمامًا لقدرتها على التنبؤ بأفعاله القادمة، أو حتى كسر شفرته (وهذا واضح فى حالة الهستيريا التى انتابت الإدارة الأمريكية إثر إذاعة رسالته المصورة وتعميمها الطلب للمحطات الأمريكية بعدم بث رسائله خوفًا من احتوائها على رسالة مشفرة)، كما أنها تتعامل بحذر وقلق مع تهديدات الحرب الجرثومية، وهى لا تملك على ما يبدو تصورًا واضحًا (حتى الآن) عن إمكانية حدوث مثل هذا الهجوم ومداه إن حدث (سجلت العديد من حالات الإصابة بمرض الجمرة الخبيثة حتى تاريخ كتابة هذه السطور).

٥- أن الخيار الصربى أو خيار (مناهضى العولمة) الذى تم التحدث عنه فى الأيام الأولى فى تصريحات صادرة من مقر قيادة حلف الناتو فى أوروبا يعد احتمالاً مستبعدًا، فبالإضافة لما سبق فإن هناك تصورًا يمكن إجماله فى أن الحرب فى البلقان لم تشهد وفى خضم العمليات العسكرية الملتهبة والتى يكون استدعاء الشعور القومى فيها أسرع وأقوى ما يمكن من أى عملية انتحارية على الإطلاق من قبل الصرب، وربما لو حدثت عملية واحدة من قبل طيارى أو جنود يوغسلافيا السابقة، لكان الأمر قد اختلف على صعيد العمليات العسكرية، ولكان هذا الخيار أكثر حضورًا فى محاولات الفهم والاستقصاء الحالية.

٦- أيًا كانت الجهة المنفذة ودوافعها، فإن العملية قد كشفت قصورًا مخابراتيًا وأمنيًا لا شك فيه، وإنه لمن الغريب حقًا أن يبقى بعد الأحداث الأخيرة كل من رؤساء الـ CIA والـ FBI يمارسون أعمالهم وكان شيئًا مما يستوجب تغييرات جذرية فى الوجوه والأساليب لم يحدث.

إن طالبان وأسامة بن لادن، وكل الحركات الإرهابية التى أفرزها (الجهاد فى أفغانستان)، لا تمثل فى الواقع شيئًا يستحق الدفاع عنه، لقد عانت هذه المنطقة من قسوة المصالح الأمريكية، ودفعت شعوبها الكثير بسبب السياسة الخارجية الأمريكية المتحيزة ضدها، والمنكرة لكل أمانيها المشروعة، وها هى الآن تدفع ثمن الشطط والجنون فى الرد على هذه السياسة، ثم تعود لتتحمل الرد الأمريكى بكل عنجهيته، ولا ندرى إلى متى سنبقى فى دوامة الأخذ والرد، وإرادتنا السياسية مشلولة، فلا هى قادرة على الفعل، ناهيك عن رد الفعل.

على أديب
بغداد - العراق

نايبول.. بين محاولة الفهم والهجوم الشخصى

كتب الناقد الأستاذ صبرى حافظ مقالاً فى عدد المجلة الصادر فى شهر نوفمبر ٢٠٠١ تحت عنوان: «نايبول الكاتب والجائزة»، وقد توقعت أن يقدم لنا سيادته قراءة نقدية لأعماله الإبداعية.. قراءة تعتمد على التحليل الفنى والفكرى لأعماله وتعين القارئ على استشراف رؤاه وأبعاد عالمه. ولكنى وجدت سيادته وقد تجاوز دوائر النقد والتحليل إلى دائرة الهجوم على شخص الكاتب. فهو عنده أكثر الكتاب المعاصرين غطرسة ورعونة، كاتب ينحدر من العالم الثالث ولكنه كاره له وشديد الانتقاد لسلبياته، يتبنى رؤى مستعمريه ويردد عنه وعن ثقافاته أبشع المقولات الاستشراقية والاستعمارية القديمة عنه، وهو يفعل ذلك بثقة تبلغ درجة التبجح. وهو عنده كاتب كبير من حيث قدرته اللغوية وبراعته الأسلوبية لكنه يتسم بحدة المزاج والغرور وضيق الأفق والغطرسة والافتقار للكياسة والتسامح، وهو بارع فى السيطرة على اللغة ولكنه لا يستطيع السيطرة على مشاعره إذ يتسم بضيق الخلق وسلاطة اللسان.

فإذا تجاوزنا الخلط بين السمات الشخصية (الانفعالية والأخلاقية والسلوكية) للكاتب وإبداعه الأدبى، فهل يمكننا التجاوز عن التناقض بين الاعتراف بقدراته اللغوية وبراعته الأسلوبية وسيطرته على اللغة والحديث فى نفس الوقت عن ضيق أفقه: هل القدرات اللغوية والبراعة الأسلوبية هى مجرد قشرة من السكر على مضمون ردىء؟ وكيف يمكن فصل اللغة عن الفكر، فى حين أن اللغة هى الفكر، والاعتراف بالمستوى الرفيع للغة والأسلوب هو اعتراف بنفس المستوى للفكر وللرؤى وللآفاق التى تنطوى عليها اللغة والتى يتحتم أن تتسم بالعمق والشمول حتى يندمج فى السرد الروائى - باتساق وتكامل - ما هو فكرى وما هو جمالى.

ويقول الأستاذ صبرى فى مقاله إن استخدام نايبول لبلاغة اللغة الإنجليزية جعله فى هجومه على الإسلام فعالاً، لأن براعته الأسلوبية هى أداته لدس السم فى العسل.

وقد قرأت الاقتباس الذى أثبته فى مقاله من كتابات المؤلف فلم أجد هجومًا على الإسلام. إذ يقول نايبول: «لقد حاولت أن أكتشف كيف يمكن للإسلام أن يتجاوز أمور العبادات والطقوس وأن يصبح خلاقًا وثوريًا، وأن يتجاوز المعتقدات الدينية ويمهد لنهضة حقيقية تنفتح على الجديد وتثرى به كما كان حال المسلمين فى أيام مجدهم الغابر» فهل بوسعنا أن نستخلص من هذه العبارة هجومًا على الإسلام بشكل عام أم هو هجوم عما وصفناه هنا فى مصر بالإسلام البدوى: إسلام التمسك بعادات وتقاليد وأزياء وسلوكيات ارتبطت بمجتمع القبائل فى أرض الحجاز منذ أكثر من ألف عام، إسلام الاهتمام بفقه العبادات والإهمال التام لفقه المعاملات بكل ما ينطوى عليه من قيم اجتماعية وحضارية.

وأخيرًا أتصور أن ما قاله نايبول عن الاضطراب العصابى الذى ينتاب الهندى المسلم حين يعانى وجدانه من تعارض الانتماء لتاريخه الوطنى مع انتمائه الدينى.. أتصور أن ذلك لا يختلف عما يكتبه بعض الكتاب المعاصرين المصريين عن الحاجة الماسة إلى غرس بذور الانتماء للتاريخ الفرعونى والقبطى فى ذاكرة المسلم المصرى المعاصر حتى تكتمل هويته المصرية الوطنية والقومية. فهل نقرأ لهؤلاء الكتاب باعتبارهم يدسون السم فى العسل؟

محمود عبد الوهاب
قاص وناقد




فن البراءة

اطلعت باهتمام بالغ على موضوع «لوحات طلاب جامعة بيرزيت.. البراءة والبساطة.. فن المقاومة» فى عدد «وجهات نظر» الشهر الماضى وكنت مسرورة للغاية من ظهور هذا المشروع - الذى نصحت الطلاب به وأشرفت عليه - فى مجلتكم المحترمة والذائعة الصيت.

لقد قرأت مقالة الأستاذ حلمى التونى ورأيت بعض الصور التى نشرتها «وجهات نظر» لمشروع طلاب جامعة بيرزيت وكنت سعيدة للغاية. إننى فخورة أن هذا الشعور الحقيقى لطلاب فلسطينيين قد لفت انتباهكم بهذا الشكل الجميل. ولا بد أن أشير هنا إلى أن هؤلاء الطلاب لم يمارسوا فى حياتهم من قبل أى عمل فنى ولكن عندما عرضت عليهم الموضوع فإنهم تسابقوا لجمع مئات من صور الانتفاضة من الصحف اليومية.

إن هدف المشروع كان دراسة العلاقة بين الشكل والفضاء المحيط به مع التركيز على الحركة الداخلية داخل إطار الصورة.

وكانت فكرة التجريد بالنسبة للطلاب جديدة ومثيرة ولكن نتيجة تعاطفهم مع القضية فإنهم بشكل لا إرادى تلقفوا الفكرة وسارعوا بتنفيذها. وكانت المحصلة بسيطة وطازجة وصادقة، كما أشار بحق الأستاذ التونى.

وأود أن أبلغكم أننا وضعنا الصور التى جمعها الطلاب فى الصالة الفنية الصغيرة لجامعة بيرزيت بعد أن كانت تلك الصور معلقة على الحوائط، الأمر الذى لم يتح لكثيرين رؤية هذه الصور. ونأمل أن يكون المكان الجديد فرصة لمزيد من الاطلاع على هذه الصور.

فيرا تامارا
محاضرة فى جامعة بيرزيت وفنانة

علال الفاسى

أهنئكم بعدد نوفمبر الماضى ٢٠٠١ من مجلة «وجهات نظر» والذى قرأته أيضًا من الغلاف إلى الغلاف، ولكنى لاحظت فى مقال أستاذنا الجليل الدكتور أحمد كمال أبو المجد بعنوان «الإرهاب والإسلام» أنه ذكر اسم الزعيم السياسى المغربى المرحوم «علال الفاسى» رئيس حزب الاستقلال باعتباره تونسيًا. واعتقادى أنها فلتة قلم من أستاذنا المحقق المدقق المتثبت الحجة، متعه الله بالصحة وطول العمر.

عبدالقادر الإدريسى
منظمة الإيسيسكو - الرباط

تعليقات قصيرة

لا تحتاج «الدورية» وليست المجلة الثناء لأنها تعدت مرحلة الثناء والنقد وكفاكم احترام القراء لكم ولجهدكم ولتسمحوا لى بأن أبدى بعض التعليقات القصيرة على مقال المحلل الكبير الأستاذ/ هيكل فى مقال نوفمبر الماضى.

* نتيجة للحرب الباردة «١٩٤٥:١٩٨٩» إن الذى أعطى الروح والدم جنى بعدها الشعر ومن قدم الموارد هو الذى جنى كل شىء، وهذا هو الواقع لأن الرخاء والتنمية أساسها الروح والدم متمثلة فى البشر لأنه أساس كل تقدم وهو ما تقدسه الولايات المتحدة.

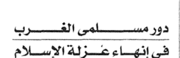
* فى أثناء توقيع «بيتان» على بيان الاتفاق السلمى مع النازى فى سبيل التعايش مع الآخر على الرغم من أن الآخر «لم ينقض عليه من الفراغ إلى التاريخ والجغرافيا ومع ذلك لم ينجح التعايش فما بال فلاسفة التطبيع بما يطلبون منا التعايش مع الآخر البربرى العنفوى على الرغم من ظهوره لنا كعفريت العلبة وليس جارنا أو حتى نعرف له تاريخا ولا أرضا.

* فى تقسيم ابن خلدون للعصبية.. ودورة الحكم لها قسمها أربع مراحل: الظفر بالبغية والاستئثار بها وتشييد الآثار ثم الفراغ والعته.

وفى مرحلة الفراغ والعته ينجذب الحكام إلى اللهو والملذات وجنون العظمة والتبعية، مما يهدد ويحتم نهاية العصبية وبداية عصبية جديدة وللأسف هذا ما نمر به فى أغلب أقطارنا العربية فمتى النجدة من العملاء والتابعين؟!

أحمد أبوزيد
طالب بجامعة المنيا - أبوقرقاص

نون



دور مسلمى الغرب في إنهاء عزلة الإسلام

لم يحدث من قبل أن واجه المسلمون الذين يقيمون فى الغرب أو أولئك الذين يقيمون فى الشرق، تحدياً حقيقياً كالذى يواجهونه اليوم.. فقد أطلقت أحداث ١١ سبتمبر التى وقعت فى الولايات المتحدة الامريكية إعصاراً عنيفاً، لفّ العالمين العربى والإسلامى بغطاء كثيف من الضغوط والتساؤلات، وأحدث خلطاً شديداً فى الأوراق لعلاقتنا بالغرب وعلاقة الغرب بنا.

بالنسبة لنا فى العالمين العربى والإسلامى تحول هذا الإعصار إلى نوع من البحث داخل الذات، وليس البحث عن الذات؛ إذ يبدو وكأن موقفنا من الغرب قد أصبح فى حاجة إلى مزيد من الإيضاح والتحديد. وبالاخص أولئك الذين يعيشون من المسلمين فى بيئات ثقافية وحضارية غربية، سواء كانوا قد وفدوا إليها أو ولدوا فيها واحتفظوا بقدر متفاوت من آثار بيئاتهم وثقافاتهم السابقة.

وقد فجّرت ظاهرة الإرهاب الموجه إلى الغرب لديهم ولدينا أيضاً سؤالاً مهماً: هل نحن جزء من حضارة الغرب؟ أم أننا نستقل بحضارة عربية ذات منطلقات وتصورات وقيم تختلف اختلافاً جذرياً عن الحضارة الغربية، قد تصل إلى حد التناقض والتصادم معها؟

بالنسبة للغرب أُثير نفس السؤال فى ظروف أقل انفعالية من الظروف السائدة الآن، ووجد بعضهم فى نظرية «صدام الحضارات» تفسيراً سياسيّاً مريحاً لما يطرأ على العالم من صراعات وخلافات وتناقضات. وهو فى الوقت نفسه تفسير ينطوى على تبرير لمظاهر الاستعلاء وللمظالم التى تقع على بعض الشعوب، وللفجوة المتزايدة بين الشمال والجنوب، وبين الأغنياء والفقراء، ولنظام عالمى غير متوازن يسمح للأقوياء بأن يفرضوا سيطرتهم وهيمنتهم على الشعوب الأضعف والأقل نمواً والأكثر تخلفاً.

ويبدو هذا التفسير بمثابة تبرير سياسى مسبق، عما يفتقده البعض من تميز حضارى يعطيهم حق التصرف دون حساب، أو الكيل بمكيالين، وهى الشكوى التى ترددها دول العالم الثالث بصفة مستمرة، أو الأخذ بالنظام الهرمى السائد فى ترتيب دول العالم، والذى أفضى فى واقع الأمر إلى وجود دولة واحدة قوية، وحفنة من الدول الأقل قوة، ثم أغلبية كبيرة من دول لا وزن لها فى معيار الحضارة والنفوذ.

ولكن التاريخ يثبت أن نشوء الحضارات وسقوطها، لم يكن نتيجة للصراع بين الحضارات بل نتيجة لحلقات متصلة من التفاعل والتحاور فيما بينها. كل حضارة تأسست على ما قبلها واستوعبت أهم ما فيها ثم تجاوزتها إلى مرحلة أرقى وأكثر تعقيداً. ولم يكن الصراع فيما بينها غير درجة من درجات التفاعل أو الاشتباك المباشر ولكن دون أن تدمر أو تقضى الحضارة المزدهرة على الحضارة الآفلة التى دخلت مرحلة الذبول والاضمحلال، ثم أضحت من بعض مكونات الحضارة الجديدة السائدة.



المعطيات التى بين أيدينا اليوم تؤكد أنه لا توجد فى الوقت الراهن حضارة عربية قائمة بذاتها، تملك من المقومات ما يضعها فى موقع الصدام أو المناطحة مع الحضارة الغربية. الشعوب العربية والإسلامية، ومعظم شعوب العالم الثالث تعيش عالة على ما تنتجه الحضارة الغربية، فى كافة المجالات: اقتصادياً، وسياسياً، وفكرياً وثقافياً بدونها قد تذوى وتتلاشى من الوجود.. ربما كانت هناك اختلافات فى المعتقدات الدينية وفى البنى الاجتماعية أو فى أسلوب الحياة أو فى درجة التقدم وفى النظرة إلى القيم الحياتية السائدة. ولكن معظم المجتمعات العربية والإسلامية باتت تبحث عن المشاركة السياسية والاقتصادية والعلمية وتتطلع إلى الالتحاق بالتكتلات والتجمعات الغربية. والتحدى الحقيقى الذى يواجهها هو أن تُقبل من جانب هذه التكتلات كَندٍ وعلى قدم المساواة. وتبدو الفروق بيننا فى الشرق وبين أوروبا بنفس درجة التفاوت والفروق بين أوروبا وأمريكا. ربما كانت الفجوة بيننا وبين أوروبا أكثر اتساعاً منها بين أوروبا وأمريكا. ومن ثم فإن استعدادنا للوقوع تحت الهيمنة الأمريكية وبالتالى تحت التأثير الأوروبى يبدو أمراً وارداً. ولكن ثمة مظلة حضارية وثقافية واحدة تغطى الجميع، وتسمح بقدر كبير من التنوع الثقافى، الذى يسمح لليابان مثلاً أو للصين بأن تنتهج أسلوباً مختلفاً فى الحياة لا يؤدى بالضرورة إلى وقوع صراع حضارى.. وإن كان من الممكن أن يؤدى إلى وقوع خلافات سياسية واقتصادية.

لماذا إذن ينفجر الجدال حول صراع الحضارات مرة أخرى؟ ولماذا يتردد الحديث عن بوادر مرحلة صدام بين الإسلام والغرب؟ وأين يكون موطن هذا الصراع القائم أو المتوقع؟

الواقع أن ما ينطوى عليه الإسلام من قيم ومفاهيم سياسية، لا تمثل فى ذاتها صداماً ولا تولّد صراعاً مع الحضارة الغربية السائدة بكل توجهاتها. ولكن الصراع الحقيقى بدأ منذ حاول الغرب فى العصور الحديثة توظيف الإسلام لخدمة أهداف سياسية استعمارية، مرة لإسقاط الدولة العثمانية، ومرة أخرى لمحاربة الإمبراطورية السوفيتية والمبادئ الشيوعية، وحين انتهت المعركة الفاصلة فى أفغانستان بخروج السوفييت وتحلل الكتلة الشيوعية انقلبت الآية فأصبحت الغاية هى تجريد الإسلام من قوته السياسية التى تحولت إلى قوة مناهضة للغرب، قادرة على تعبئة العالم العربى والإسلامى ضد إسرائيل وتوسعاتها الاستعمارية وأطماعها فى القدس كعاصمة لها، وضد الهيمنة الأمريكية الحامية والضامنة لإسرائيل. وهو ما يجعل من مقولة صراع الحضارات مجرد مقولة سياسية، تخلع على الإسلام قوة سياسية أو تجرده منها بحسب الحاجة والطلب.

وهنا يبدو وكأن الغرب قد أخذ على عاتقه تحديد التعريف الملائم للإسلام كلما أعوزته الحاجة إلى ذلك. وهو تقريباً ما حاول الرئيس بوش وأنطونى بلير وجوقة كبيرة من الإعلام الغربى القيام به، بالتأكيد على أن الغرب ليس ضد الإسلام ولكنه ضد الإرهاب. وحض الشعوب الإسلامية ورجال الدين الإسلامى على تصحيح المفاهيم الخاطئة للإسلام.



والسؤال هو لماذا يترك المسلمون للغرب زمام الامور فى تحديد التعريف العصرى الملائم للإسلام، يضعونه فى موقف الوئام أحياناً وفى موقف الصراع أحياناً أخرى؟

فى اعتقادى أن العقبة الكأداء التى حالت حتى الآن دون تحديد عصرى حديث للإسلام، هى أن حركات التنوير والتحديث التى قادها المصلحون الإسلاميون طوال المائة عام الأخيرة فشلت فى العثور على الحلول الملائمة التى توفق بين الدين والحداثة، كما أخفقت فى التخلى عن وهم مازال سائداً فى مجتمعاتنا بأننا نستطيع أن نستهلك منتجات الحضارة الغربية دون أن نأخذ بمفاهيم التطور والمنهج العلمى، وهو ما أدى لانحراف التيارات السلفية إلى العنف والإرهاب، وظهور الحركات المتشددة والمتطرفة التى تخاصم العصر وتعادى التقدم، ولا تجد أمامها من سبيل للتعامل مع الواقع المعاصر غير محاولة تدميره ومقاطعته وإعدامه من الوجود.



ما الذى يمكننا عمله؟

اللحظة الراهنة من الحضارة الحديثة التى نحن جزء منها، تفرض على العرب والمسلمين خياراً مصيرياً هو الفرق بين الحياة والموت، بين أن نكون جزءاً من العالم ومن العصر، أو نحكم على أنفسنا بالانعزالية والانزواء والفناء.

وفى تقديرى أن الظروف الراهنة المحيطة بالعرب والمسلمين فى الشرق لا تبشر بتحولات سريعة على طريق النهضة لأسباب عديدة يضيق المقام بذكرها، ومن ثم فلا يبقى أمامنا غير التجمعات الإسلامية التى تعيش فى الغرب ورموزها من العلماء والمفكرين وأساتذة الجامعات الذين يمثلون أفضل ما أنتجته وأفرزته المجتمعات العربية والإسلامية وصدّرته للغرب، (نحو ١٢ مليونًا فى أوروبا و٧ ملايين فى أمريكا) هى التى يمكن أن تحمل الأمانة فى إحياء الفكر الإسلامى وإقامة جسر قوى بين الإسلام والغرب، يصحح المفاهيم، وينشر المعارف، ويبدد المخاوف والشكوك، ويسهم بكل قوة فى المجتمعات التى يعيش فيها حتى لا تتحول إلى حصون معادية لشعوبنا وقيمنا، ليس على أساس أنهم أقليات خائفة مذعورة، منبتة الصلة بالمجتمع الذى تعيش فيه وبالقيم السائدة حوله. بل تسعى إلى الاندماج الحقيقى الكامل فى هذه المجتمعات، وهضم قيمها واستيعابها، دون إهدار لأساسيات القيم الإسلامية والعمل على التكيف مع الخصوصيات الثقافية للمجتمعات التى يعيشون فيها.

لابد أن يُنهى المسلمون عزلتهم فى البلاد التى يعيشون فيها، سياسيّاً وإعلاميّاً وثقافيّاً. وأن يقدموا رؤية حضارية جديدة للإسلام: تملك القدرة على مخاطبة الرأى العام الغربى بلغته وبمفرداته، فلا يصبح «بن لادن» هو الإسلام، بقدر ما لم يكن «هتلر» هو الغرب!!

سلامة أحمد سلامة

ضاعف مدخراتك

مع وثيقة ادخار البنك العربى الذهبية



واحصل على الجنيهات الذهبية

- مدة الوثيقة ثلاث سنوات .
- تحقق أعلى عائد ١١,٢٥٪ .
- يمكن الاقتراض بضمان الوثيقة .
- جنيه ذهب لكل ٢٥ ألف جنيه مصرى .
- قيمة الوثيقة ألفين جنيه مصرى ومضاعفتها .
- إمكانية استرداد كامل القيمة بعد ستة شهور من تاريخ الإصدار .
- يصرف نصف العائد شهرياً والنصف الآخر يستثمر حتى تاريخ استحقاق الوثيقة .

لمزيد من المعلومات برجاء الاتصال بتليفون: ٨٨٨ ٩٤ ٣٠



أكبر شبكة مصرفية عربية



Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 36 - January 2002

مجلة شهرية . العدد السادس والثلاثون . السنة الثالثة . يناير ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل

دفاتر أزمة !

حريم الغرب وحريم الشرق

الفن القبطى وصورة مصر

على هوامش الحدث الأفغانى / طارق البشرى

الإسلام وحرب الكراهية / نصر حامد أبو زيد

١٠٠ يوم غيرت العالم ! / سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد السادس والثلاثون
يناير ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إسماعيل سراج الدين .. مدير عام مكتبة الإسكندرية.
- جودى مابرو .. كاتبة بريطانية.
- خالد فهمى .. أستاذ مساعد تاريخ الشرق الأوسط بجامعة نيويورك.
- ريم سعد .. مدرس بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- شريف بسيونى .. أستاذ القانون بجامعة «دى بول» بشيكاغو، ورئيس الجمعية الدولية لقانون العقوبات بفرنسا.
- طارق البشرى .. كاتب ومؤرخ.
- عبد العظيم أنيس .. أستاذ بجامعة عين شمس.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد الميلى... المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- مينا بديع عبد الملك .. أستاذ الرياضيات بجامعة الإسكندرية.
- نصر حامد أبو زيد.. أستاذ الدراسات الإسلامية فى جامعة ليدن بهولندا.
- وليد محمود عبدالناصر ... باحث متخصص فى الشئون السياسية.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى ـ محمد حاكم ـ سعد الدين شحاتة



المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكياً ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهماً ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالاً ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهماً ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

بحكم التقويم، هذا العددُ من «وجهات نظر» هو الأولُ فى عام جديد. وبحكم ما تستوجبه مناسبات الانتقال «الفارقة» أو ما نتصور أنها كذلك، يقف الناس ـ أو بعضُهم على الأقل ـ لينظروا إلى ما كان.. ويتدبروا ما هو آت؛ ما فاتهم، وراح.. وما يجب عليهم فعله. أو على الأقل «شرف المحاولة».

وللوقفة على الأعتاب ـ وهى هنا لعام جديد ـ كما أن لطرقِ الأبواب ـ وهى هنا لمستقبل (مجهول بطبيعته).. مأمول بحكم الضرورةِ والحاجةِ والهدف) ـ آدابٌ وتقاليد، وشروط؛ من «إرادةٍ ضروريةٍ «للفهم». و«استشرافٍ» مطلوبٍ «للفعل».

٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢

لم يكن عاما، ننزع آخر أوراقه اليوم، هو الأكثر دموية فى التاريخ؛ فضحايا هيروشيما ونجازاكى «المدنيين» أضعاف من سقطوا تحت أنقاض مركز التجارة العالمى فى نيويورك صباح ذلك اليوم «الأشهر إعلاميا»: الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ والذى أدى انهياره فى نهاية المطاف إلى الإجهاز (فيما سماه الأمريكيون Collateral Damage) على آلاف القرويين ورعاة الأغنام فى سفوح وهضاب أفغانستان الفقيرة الوعرة. ولكن تظل دالةً، ومعبرةً.. وصادمةً مشاهدُ وصورُ العام الذى نودعه اليوم (٢٠٠١) بوصفه يحمل الرقم الأول فى قرن جديد، كان المبشرون يعدوننا فيه بعالم «عولمى» جديد، نحصد فيه ـ شرقًا وغربًا ثمار انتصار الحضارة الغربية و«تفردها» من خير وسلام وحرية ورفاهية.

حفل ألبوم صور العام الأول بعد الألفين بمشاهد لمذعورين يعدون فى شوارع نيويورك.. وأطفال يواجهون الدبابات ويحصدهم القناصة فى شوارع نابلس.. ومعدمين ألفوا ـ وربما أدمنوا ـ الحربَ فى فيافى أفغانستان وشوارع كابول المتربة الفقيرة.

وازدحمت سماوات العام الأول بعد الألفين وأثيره بصيحات الحرب وتهديداتها.. وتنظيرات التراجع ومسوِّغاتها.. وصرخات التظاهرات وشعاراتها، عالية تصم الآذان.. ثم تذوى أصداؤها فى الفضاء وتخبو رويدًا رويدًا، إن لم يكن بحكم قوانين الفيزياء وطبيعتها، فبحكم قوانين السياسة و«واقعيتها».

وامتلأت أوراق ومنتديات العام الأول بعد الألفين باختلافات بين الجميع حول التعريف، والمصطلحات.. واللغة: حربٌ على الارهاب، أم حربٌ صليبيّة..؟ صدامٌ أو حوارُ حضارات، أم صراعُ مصالح وسياسة..؟ انتحارٌ إرهابىٌ، أم استشهادٌ فدائى..؟



بين مشكلات التعريف والتوصيف والتنظير فى العام الأول من القرن الجديد، يبقى الأهم للمهتمين ـ باستشراف ماهو آت ـ موضوعًا براقًا تم استحضاره من قبل حكماء وسياسيين .. ومشعوذين، والنفخ فيه على عجل تحت عنوان كبير يلائم الحدث والغرض: «صدام الحضارات». والقصة قديمة. وتعود جذورها أيضًا ـ ربما بالمصادفة ـ إلى بداية قرن. فقبل حوالى مائة عام، بدأت كتابات الاستشراق فى التمهيد لما كتبه المستشرق المخضرم برنارد لويس بعنوان «جذور الغضب الإسلامى». يومها ـ ولاعتبارات كثيرة ـ لم تستوقف المقالة الكثيرين. إلا أنه منذ سنوات قليلة، وفى عدد ربيع عام ١٩٩٣ لمجلة فورين أفيرز (النافذة والمؤثرة) نشر صموئيل هنتنجتون مقالته الشهيرة عن «صدام الحضارات». المقالة التى اعتمدت إلى حد كبير فى خطها الفكرى على مقالة برنارد لويس فى بداية القرن جذبت فوراً مقداراً مفاجئاً من الاهتمام وردود الفعل.



يومها روج هنتنجتون لمقولة إن المصدر الأعمق للصدام فى هذا العالم الجديد لن يكون ـ فى الدرجة الأولى ـ أيديولوجيا أو اقتصاديا، بل ستكون الثقافة هى المنبع المهيمن على الانقسامات والصدامات الكبرى بين البشر. وحسب ماقرره فى مقاله الشهير ـ ومن بعده فى كتابه الذى حمل الاسم نفسه ـ فإن «صدام الحضارات سيسيطر على السياسة العالمية.. وإن الصدامات الرئيسية فى العالم الجديد ستبرز بين دول ومجموعات تنتمى إلى حضارات مختلفة».. وبرغم حقيقة التنوع الحضارى، اختزل هنتنجتون الأمر برمته ليقرر بأن «الصدام الرئيسى سيكون حتماً بين الإسلام والغرب» !!

شئنا أم أبينا.. ووافقنا الرجل أم اختلفنا معه، فإن الواقع يقول ـ للأسف ـ بأن قرنا جديدا بدأ، وصدى آرائه يتردد حولنا فى كل مكان، مختلطة بكثير من خلط وتعميم وضبابية وغرض، نسمعها ونقرؤها حيناً ـ ونشمها أحيانًا أخرى ـ فى تصريحاتٍ لزعماء ومسئولين كبار، وفى كتابات تملأ صحفا رزينة محترمة، لن يكون أبداً آخرها العدد الذى خصصته النيوزويك أخيراً للترويج للمقولة.



مشاهد العام الأول من القرن الجديد حفلت أيضاً بكثير من الخرافات، والأساطير، والغرائب، وفقدان الذاكرة. فنبوءات نوستراداموس تم ترويجها. والكهل المريض القابع فى إحدى مغارات أفغانستان تمكن من مهاجمة «البنتاجون» رمز القوة والحداثة والهيمنة العسكرية الأول فى العالم. وقاذفات B52 ذهبت لتقصف بيوتًا من الطين على الناحية الأخرى من العالم. وجون ووكر ليند الأمريكى القادم من كاليفورنيا الناعمة، ذهب ليحارب مع طالبان. والفيتو استُخدم فى مجلس «الأمن» اعتراضاً على قرار بإرسال مراقبين دوليين الى الارض الفلسطينية لضمان «أمن» الطرفين.



فقدان الذاكرة الذى هو بالطبيعة مرضُ الأعوام الأخيرة لا الأولى فى عمر البشر، كان سمةً لسلوكيات كثيرة فى العام «الأول» من القرن الجديد. ففى أفغانستان حارب المتحالفون (الحلفاء.. والحلف الشمالى) عدوا نسوا أن من بينهم من صنعوه، ومن بينهم من حالفوه، ومن بينهم من استخدموه. وفيما يدور فى «الضفة والقطاع»، نسى الجميعُ أن الاراضى «محتلة» باتفاق الجميع، وأن النظر للصدام أو العنف أو الدماء لابد أن يأتى فى هذا السياق. وفى أمريكا التى اعتمدت إدارتها المحاكمات العسكرية وقانون «باتريوت»، نسى المندفعون فيها أنهم ربما يخسرون جوهر وسر قوة البلاد ذاتها، وهو المتمثل فى معنى ذلك التمثال الواقف على شاطئ نيويورك ـ ليس بعيدا ـ عن المبنى المنهار.



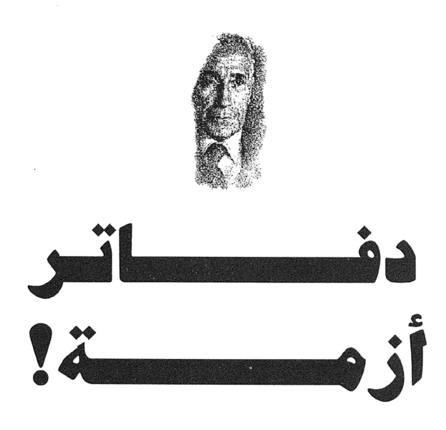
وفيما تزداد كل المفاهيم ـ خصوصا فى عالمنا العربى ـ التباسًا وارتباكًا. تبقى أسئلةُ العام المنقضى بلا إجابة عند الكثيرين: بدءًا من «هل فعلَها أم لم يفعلها؟» وحتى «أين تبخر بن لادن؟!». ويبقى السؤال الرئيس فى عام جديد: ماهى أمريكا؟ أو كيف هى فى عالم جديد؟

على بوابة معسكرهم (العدالة) جنوبى أفغانستان، كتب مشاة البحرية الأمريكية ماوصفوه بـ«الدستور الجديد» وجاء فيه: «نحن شعب الولايات المتحدة الأمريكية.. سنقوم بركل مؤخراتكم..».

وإلى حد كبير، ستظل تلك العبارة أو الـ Slogan بالمفهوم الأمريكى تلقى ظلالها، قاتمةً ومربكةً لخطوات كل أولئك الدالفين اليوم إلى عام جديد.

وجهات نظر

محمد حسنين هيكل



دفاتر أزمة!

ما الذى فعلناه بأمتنا العربية، وما الذى فعلناه بأنفسنا، وقضايانا، والمستقبل؟. أسئلة تذكر بها مناسبات:

○ المناسبة الأولى: أننا فى نهاية عام أخذ وقته وانقضى، وفى بداية عام جديد تهل اليوم مطالعه، وقد تعود الناس فى مثل هذه المناسبات أن يقوموا بعمليات جرد يفحصون فيها دفاترهم، ويراجعون بنودها، ثم يتفكرون فيما كان ويكون!

○ والمناسبة الثانية: أن الأمة وبشكل واضح تعيش حالة أزمة، والأزمات فى التجربة الإنسانية الواعية أشد ما يدعو الناس إلى الفحص والمراجعة، لأن أحوال اليسر. تزين لهم بحقائق الأشياء أن يتساهلوا ويتفاءلوا، لكنه فى أوقات العسر. فإن حقائق الأشياء تضغط عليهم بالتنبيه والتحذير قبل أن تتراكم الخسارة على الخسارة ويحل الإفلاس!

○ والمناسبة الثالثة: أن الأمة العربية (بكافة شعوبها) تحس أن ما جرى ويجرى فى أفغانستان وفلسطين اليوم، والمنطقة الواقعة بين أفغانستان وفلسطين غدا. يطوقها بحالة حصار أو شبه حصار: عسكرى وسياسى. اقتصادى وفكرى. وكانت الأمة تستشعر قبل أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ (صواعق النار فوق نيويورك وواشنطن) أنها تنزلق إلى منحدر، وفى أعقاب ما تداعى بعد ١١ سبتمبر، اكتشفت الأمة أنها بالفعل على حافة الهاوية، وحولها ركام من بقايا حقائق وأكاذيب. وبقايا أحلام وأوهام ليس بينها «وتد» متين يمكنها التعلق به أو الاستناد إليه لتفادى السقوط. إلا أن تقع معجزة!



والمعجزة فى حياة إنسان فرد تحتاج إلى الخوارق أو شىء منها، لكنها فى حياة الشعوب والأمم لا تحتاج لغير شرط واحد هو «يقظة الإرادة»، خصوصا فى حالة أمة وراءها تجربة فى صنع التاريخ. ومعها ثقافة استوعبت عصورا من شراكة الحضارة الإنسانية بدرجة زادت أحيانا وقلت. وفوقهما نضج صنعته قرون طويلة من صراعات القوة انتصرت فيها مرات أو عجزت.

والشاهد أن «يقظة الإرادة» تستدعى ثقافة التجربة، ثم إن ثقافة التجربة بدورها تستدعى حكمة العقل، برغم ما تدفع إليه مشاعر الخوف بهاجس أن مزالق الخطر لا تستطيع انتظار الحكمة، بل تستعجل سرعة الحركة. بينما الحقيقة أن الحركة بغير الحكمة رد فعل لا إرادى، عصبى أقرب إلى التشنج منه إلى القصد والفعل الواعى، كما أن الخوف وما يتعجل به آخر المطلوب عند الحافة وعندما تكون فرص النجاة معلقة بالمعجزة!



ولعل مساءلة النفس بقصد المراجعة والفحص هى النقلة الأولية والضرورية لناحية السلامة، ثم الابتعاد. ولو زحفا. عن الحافة نقلة بعد نقلة حتى يمكن الوقوف على القدمين بحثا عن مخرج من حالة الحصار والعودة من جديد إلى مجرى الحياة.

والأمم والشعوب القادرة حين تسائل نفسها لا تفعل ذلك بقصد التفجع والندم فهى تعى أن حركة التاريخ زمان غير قابل للاستعادة حتى يمكن تعديل مساره بأثر رجعى، وهى تعى أيضا أن حركة التاريخ تتأثر بعناصر لا إرادية، مجملها أن الأمم والشعوب لا تختار مواقعها من الأرض ومواردها، ولا تتحكم فى جوارها ومحيطها كى تختار الأكثر أمنًا فيه والأوفر غنىً.

وبالتحديد فإن حركة التاريخ احتكاك مطالب ومصالح، وضغوط مشاق ومصاعب، وتدافع أشواق تطلب الرقى والرفعة، وهي توفر لنفسها حق الاختيار إذا أحسنت التقدير، وتلك بالضبط مهمة السياسة، باعتبارها علم وفن استخدام إرادة المجتمعات فى إدارة إمكانيات مواقعها ومواردها وطاقاتها الإنسانية لتحقيق طموحاتها حاضرا ومستقبلا.

وهنا يجيء ما يستحق الوقوف أمامه فى ذلك القول المأثور عن الرئيس الأمريكى الأسبق «دوايت أيزنهاور» والذى جمع فيه خلاصة خبرته قائلا: «إن السياسات الطيبة ليست ضمانا أكيدا للنجاح، لكن السياسات السيئة ضمان محقق للفشل».



وأمام مناسبات تدعو الأمة إلى التذكر والتفكر، وتفرض إعادة فحص الدفاتر ومراجعة الحسابات. فإن مساءلة النفس واردة وربما واجبة:

«كيف وصلنا إلى هنا؟. عن أى طريق؟. ولأى سبب؟

وتلك الأسئلة فى الظروف الراهنة، مشروعة، عاجلة وملحة، وهى تستحق إجابات تقريرية وليست إنشائية، محددة وليست مطلقة، وذلك هو الأسلوب المعتمد فى تقدير حسابات الربح والخسارة والمضاهاة حسب تعبير أيزنهاور «بين سياسات طيبة قد لا تضمن النجاح أكيدا، وسياسات سيئة تضمن الفشل محققا»!

والظاهر للجميع أن «الفشل المحقق» هو النتيجة التى ضمنتها السياسة العربية لنفسها بشهادة ما جرى ويجرى اليوم فى أفغانستان. وفلسطين. وغدا حولهما وفى المنطقة الواقعة بينهما من قلب آسيا حتى شرق البحر الأبيض. ومعنى ذلك بمرجعية أيزنهاور: أن السياسات العربية كانت سيئة. مع اعتبار أن أيزنهاور مرجعية يمكن الاعتماد عليها لأن تجربته كانت بشهادة النتائج ناجحة وكذلك شاملة:

. فـ: أيزنهاور هو الضابط العسكرى رفيع الرتبة الذى قاد جيوش الحلفاء لانتصار الحرب العالمية الثانية، وتلك أقرب وأشهر قصة صراع فى الذاكرة البشرية.

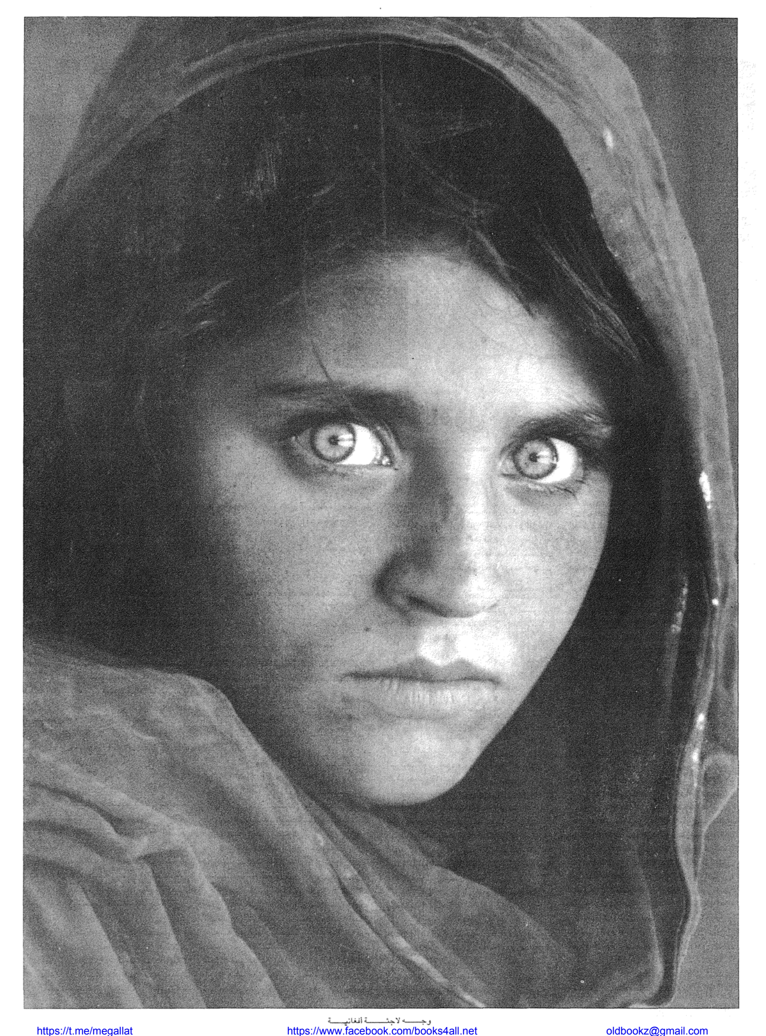
. وهو أيضا رئيس الدولة الذى أدار سياسة أمريكا ثمانى سنوات من بداية إلى نهاية خمسينيات القرن العشرين، وهى فترة شهدت مجىء الولايات المتحدة من وراء المحيط مصممة على أن يكون لها الدور المحورى فى ترتيب شئون عالم ما بعد الحرب والنصر.

. ثم إن تلك السنوات الثمانى كانت مرحلة الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتى، وفيها جرى اعتماد «السياسة» أو السياسات التى ثبت أنها حققت لأمريكا انتصارها فى الحرب الباردة بدليل سقوط الاتحاد السوفيتى وانفراط عقده.



ومن المدهش أنه حين يسأل العرب أنفسهم: كيف وصلنا إلى هنا؟ وعن أى طريق؟ ولأى سبب؟ فإن المفاجأة التي تنتظرهم هى لحظة يكتشفون أن بداية الخلل فى دفاترهم وأخطائهم فى الرصد والقيد وقعت بإملاء أيزنهاور أو سياساته على الأقل.

والشاهد هو الملفات والأوراق!



وجـــه لاجئـــة أفغانيـــة

دفاتر أزمة!

الدفتر الأول

الورقة الأولى:

الحرب بإطلاق الأفكار وليس بإطلاق النار

عندما استسلمت جيوش ألمانيا النازية بلا قيد ولا شرط أمام الحلفاء المنتصرين فى الحرب العالمية الثانية بقيادة «دوايت أيزنهاور»، كانت القوى المسيطرة فى أمريكا تفكر فعلا فى الحرب القادمة مع الاتحاد السوفيتى، رغم أنه كان شريكها الشرقى فى النصر. وكان محسوسا وملموسا حتى من قبل نشوب الحرب، أن العداء لهتلر هو الذى جمع الأمريكيين على الروس مضطرين أكثر من مختارين، فالرأى الأصلى عندهم ـ قبل هتلر وبعده ـ أن المستقبل صراع إلى النهاية بين الرأسمالية وبين الشيوعية، أى بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى.

وفى اللحظة التى انتهت فيها الحرب العالمية الثانية ـ فإن القوى المتنفذة فى أمريكا وقع اختيارها على قائد النصر ضد «هتلر» ليكون بنفسه قائد النصر ضد «ستالين»!

وكان ظاهرا ـ بدون إعادة السؤال مرتين ـ أن الحرب الجديدة ليست تكرارا للحرب السابقة، لأن السلاح الذى فصل فى الحرب السابقة وهو القنبلة الذرية، لم يعد قابلا للاستعمال فى الحرب اللاحقة، لأن الولايات المتحدة خسرت احتكارها للأسلحة الذرية عندما لحقها الاتحاد السوفيتى إلى سرها بفاصل سنتين اثنتين.

وكان تأهيل «أيزنهاور» لقيادة الحرب الجديدة إعدادا يستحق النظر:

● ومثلا فإنه عندما نشر «أيزنهاور» مذكراته عن سنوات الحرب ـ كان العنوان الذى «اختاروه» لها هو: «حملة صليبية فى أوربا» «A Crusade in Europe"»، وكان المقصود بالعنوان أنها «حرب ضد الجهالة» (النازية فى تلك الحالة)، لكن الإشارة إلى الحروب الصليبية ـ الدينية ـ الإيمانية ـ كانت لها مقاصد ومعبأة بحمولات.

● وفى مثال آخر ـ فإنه عندما بدأ إعداد «أيزنهاور» للحياة المدنية، كان المنصب الذى «اختير» له هو منصب رئيس جامعة «كولومبيا»، وهكذا فإن الرجل الذى خلع سترته العسكرية بنهاية خدمته قائدا عاما لقوات الحلفاء، اكتسى بالرداء الجامعى يبدل هندامه ويرتبه للخدمة فى البيت الأبيض رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية (وزعيما للعالم الحر كما كان يقال تلك الأيام).

● وحدث فيما بعد وعندما أراد «أيزنهاور» أن يكتب مذكراته عن سنوات رئاسته للولايات المتحدة، أن العنوان الذى «اختاروه» لها كان «شن السلام» «Waging Peace"»، والعادة أن الحرب هى التى «تشن»، لكن السلام لا «يُشن» وإنما يصنع بأسلوب آخر غير شن الحملات (صليبية أو غير صليبية).

لكن تلك كلها كانت إشارات محسوبة ومتعمدة، تومئ إلى تغيير رئيسى فى الأسلحة تنتقل به الحرب من «إطلاق النار» إلى «إطلاق الأفكار».



كان التقدير أن الصراع بين الرأسمالية والشيوعية حتمى، وأن هذا الصراع لا يمكن أن يدور بين الاثنين مباشرة فى ميادين قتال، لأنه فى تلك الميادين معرض أى لحظة للتصاعد إلى المستوى النووى، وذلك فوق احتمال أى طرف حتى إذا سبق عدوه فى حجم ما تكدس داخل ترساناته من رؤوس نووية، ذلك أن إمكانية الردع المتبادل بحاملات الرؤوس النووية من الصواريخ المتحركة (فى أعماق البحر أو أعالى الفضاء) ـ تلغى الفاصل بين النصر والهزيمة بدمار مروع للطرفين، المهزوم فيه قتيل بالكامل والمنتصر ثلاثة أرباع قتيل، وكلا الاحتمالين مستحيل!

وإذن فهو صراع إلى النهاية بغير سلاح ـ وبغير نار!

ثم إنه صراع مزدوج:

● طرفان كل منهما نظرية فى ترتيب وإدارة شئون المجتمعات: مواقعها، مواردها، ومستقبلها. ومكمن الخطر أن كل نظرية تطلب التفوق تجسد نفسها ذات الوقت فى قوة عظمى، ومؤدى ذلك أن النظريتين فى النهاية قوتان نوويتان على طريق صدام. وفى غيبة القدرة على فرض التفوق بالنار، فإن كل نظرية ليست لديها وسيلة غير أن تعرض ما لديها على الدنيا وعلى الناس باعتباره طريق الخلاص.

ومعنى ذلك أنها صور فى الأحلام لها القدرة على صنع مثال فى الواقع ـ يجذب قلوب وعقول آخرين بعضهم ينتمى إلى العالم المتقدم (وهم يريدون إعادة ترميم حياتهم بعد إعصار الحرب)، وبعضهم الآخر ينتمى إلى العالم المتخلف الذى أيقظه إعصار الحرب، (وقد هرولوا إلى الساحة باحثين عن حلم وعن مثال).

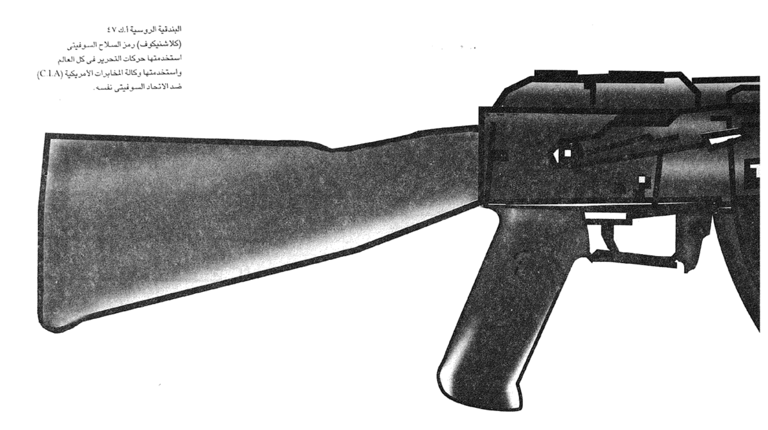
ومعنى ذلك ـ أيضا ـ أن الصراع فى شكله الجديد صراع نظريات (أفكار) لها القدرة على التحقيق (تجربة حية).

● يصاحب ذلك إدراك عملى بأن احتكاك النظرية الرأسمالية والشيوعية ـ و«المثال» المجتمعى المتجسد للاثنتين فى دولة، لن يكون بينهما مباشرة وإنما «يجوز» أن يكون عند غيرهما وعلى أرضه.

يلى ذلك أنه إذا وصل الاحتكاك إلى الدرجة التى يتطاير فيها شرر وينشب حريق، فإن النار يجب أن تظل بعيدة عن الترسانات النووية ـ أى هناك على أرض الآخرين!

وهكذا فهى بالدرجة الأولى حرب فى قلوب وعقول هؤلاء الآخرين ـ ثم إنها فى الدرجة الثانية وإذا حكمت الظروف ـ حريق على أرض هؤلاء الآخرين.

وكذلك انطلقت النظريتان، القوتان ـ إلى سباق يقطع الأنفاس وكانت تلك هى الحرب الباردة!، وقد توافقت بدايتها مع رئاسة «أيزنهاور» للولايات المتحدة الأمريكية، وكانت إدارته هى التى وضعت استراتيجياتها وخططها وسياساتها.



البندقية الروسية أ.ك ٤٧ (كلاشنيكوف) رمز السلاح السوفيتي استخدمتها حركات التحرير في كل العالم واستخدمتها وكالة المخابرات الأمريكية (C.I.A) ضد الاتحاد السوفيتي نفسه.

الورقـــة الثانيـــة:

حـــــول البحـــر الأبيـض ... شــــــرقـــا وغــــــربـــــا

وكانت الساحة الرئيسية على خريطة الحرب الباردة تدور حول البؤرة التى دار حولها التاريخ الإنسانى المكتوب، وهى البحر الأبيض وما حوله فى كل الاتجاهات: شمالا وشرقا وجنوبا.

- إلى الشمال: هناك أوربا الغربية وقد خرجت بلدانها بلا استثناء منهكة من الحرب (فرنسا وإيطاليا مثلا)، أو مدمرة (ألمانيا وحتى بريطانيا).

- إلى الشرق: هناك الخلجان والوديان والصحارى الواقعة من البحر وحتى أقاصى الهند، وهى ما يطلق عليه وصف الشرق الأدنى أحيانا والشرق الأوسط أحيانا أخرى.

- إلى الجنوب: هناك الشواطئ الخضراء وبحار الرمال والغابات حتى قلب أفريقيا.

وهنا موقع العالم العربى فى الوسط تماما من هذه الرقعة الواسعة. وخارجها كانت بقية العالم بعيدة خصوصا أن بعض الأقاليم تبدت مصائرها مقررة أو مؤجلة أو معزولة: أمريكا اللاتينية مقررة كمنطقة نفوذ للولايات المتحدة، والصين مؤجلة لأنها - الآن - فتحت أبوابها للشيوعية، وبلد مثل أستراليا بعيد بالمكان - وحتى بالزمان!

وكذلك تركز صراع الحرب الباردة حول البحر الأبيض: شماله (فى أوربا)، وشرقه (العالم العربى وغلافه الإسلامى: بالذات تركيا وإيران وباكستان).

وباختصار فقد كانت للحرب الباردة ضفتان: ضفة غرب أوربية - وضفة شرق أوسطية، وكل منهما تحتاج إلى استراتيجية خاصة بها وإلى خطط وسياسات تصلح لها وحدها.

وبان للناظرين أن كل ضفة رسمت خريطتها بنفسها - أى بأحوالها وظروفها:

(بالنسبة للضفة الشمالية - الغرب أوربية - فإن بلدانها جميعا كانت دولا متقدمة استنزفتها الحرب، والظاهر أن هذا الاستنزاف هو الذى يكشفها لغواية العقيدة الشيوعية ومثالها السوفيتى - مع ملاحظة أن هذه البلدان والدول وصلت بالتقدم الذى أحرزته قبل الحرب إلى درجة عالية من الديمقراطية سمحت - ضمن ما سمحت - بوجود أحزاب شيوعية، ومع الأوضاع المستجدة بعد الحرب فإن هذه الأحزاب يمكن تشجيعها وتوجيهها بحيث تتحول إلى قواعد موالية لموسكو داخل أوطانها، وإذا كان يُراد حماية هذه الأوطان من غواية العقيدة الشيوعية ومثالها السوفيتى - إذن فإن الحل هو مساعدة هذه البلدان والدول بما يمكنها من العودة إلى سابق أحوالها المتقدمة ويضخ الحيوية فى عروقها، ويحصنها بالرخاء ضد العثرات والمزالق، وذلك ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية بمساعداتها السخية التى أتاحت للغرب الأوربى أن يعاود الوقوف على قدميه قادرا على مواصلة التقدم، متمسكا بالتعددية الديمقراطية، وقد عرفها من قبل الحرب العالمية.

● وأما بالنسبة للضفة الجنوبية - الشرق أوسطية - فإن واقع الحال كان مختلفا، ذلك أن معظم بلدانها ودولها فاتتها عصور التنوير. والنهضة، ومنظومة القيم التي أتت معها، كما فاتتها عصور الانطلاق التجارى والصناعى والمالى واتساع الثروة التي راكمتها، وبالتالى فهذه البلدان والدول أمامها على طريق التقدم عقبات وعوائق يصعب اجتيازها ببرامج للمساعدات الاقتصادية مهما كانت سخية، ومع التخلف والضعف الذاتى زائدا عليها جاذبية صور التقدم التي تراها هذه البلدان والدول الشرق أوسطية متحققة أمامها فى عوالم قريبة منها (على الضفة الأخرى شمال البحر الأبيض) - فإن هذه البلدان والدول - جنوب البحر - سوف تجد نفسها ممزقة بين واقعها وطموحها، وذلك يجعلها مكشوفة، فإذا أريد تحصينها ضد الغواية، إذن فهو الدين يعوض عن الدنيا، ويعد بجنة فى الحياة الأخرى تشتريها هذه الحياة الأولى. والأرضية اللازمة لهذه المقايضة جاهزة لأن مادية الشيوعية بالقطع متصادمة مع روحانية الدين.

وكذلك رسمت الخرائط وكذلك تحددت وسائل الحرب الباردة وتحددت أسلحتها على ضفتى البحر الأبيض: شمالا وجنوبا:

● الضفة الغرب أوربية - فإن الوسيلة الرئيسية فيها «مشروع مارشال» يعطى للمتقدمين سابقا فرصة استعادة التقدم ومعه الديمقراطية، والسلاح الحامى لاستئناف التقدم هو منظمة حلف الأطلنطى.

● والضفة الشرق أوسطية - فإن الوسيلة الرئيسية فيها هى الدين وأفضله - من وجهة نظر أمريكية - ما ركز على استعادة القديم بدعوى الرجوع إلى الأصول، والسلاح الضامن للأصول - فى هذه الحالة - عمل من وراء ستار، لأن الولايات المتحدة لا تستطيع على المكشوف أن تقف وتدعو من شرفات المآذن أو أبراج الكنائس إلى التمسك بأهداب الدين والعزوف عن مطالب الدنيا رجاءً فى نعيم الآخرة.

كان التقدير أن الصراع
بين الرأسمالية والشيوعية حتمى،
وأن هذا الصراع لا يمكن أن يدور بين الاثنين مباشرة
فى ميادين القتال، لأنه فى تلك الميادين معرض
فى أى لحظة للتصاعد إلى المستوى
النووى وذلك فوق احتمال
أى طرف من الأطراف



الورقة الثالثة:

خطف الأديان سبق خطف الطائرات!

عندما انتخب «دوايت أيزنهاور» رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية في شهر نوفمبر سنة ١٩٥٢ - ودخل البيت الأبيض أواخر يناير ١٩٥٣ - اختار معه رجلين لأعلى المناصب في إدارته. وتصادف أنهما شقيقان لأب قضى عمره وعمله قسيسا داعيا إلى ملكوت السماء!

● أولهما «جون فوستر دالاس» في موقع وزير الخارجية، وكان المبشر الأعلى صوتا بأن «الدين» هو السلاح الأكثر فاعلية ونفاذا في العالم الثالث، لأنه الهوية التقليدية لشعوب وأمم مازالت مع وعيها العذرى الفطرى، والدين بالنسبة لها عقد سياسي واجتماعي وحيد تقيم به جسرا بين الآخرة والأولى!

● والشقيق الثاني «آلان دالاس» في موقع مدير وكالة المخابرات المركزية التي أوكلت إليها مهمة إدارة الحرب الجديدة (الباردة) وسلاحها «إطلاق الأفكار وليس إطلاق النار»، وبما أن الاستراتيجية الأمريكية في العالم الثالث اعتمدت على سلاح الاعتقاد ضد تهديد الإلحاد، فإن وكالة المخابرات الأمريكية تجاسرت على اتخاذ شعارات الإسلام - وهي العقيدة الأكثر انتشارا في المنطقة - لتكون وسيلتها وذخيرة سلاحها.

وفي الشهر الأول من رئاسة «أيزنهاور»، كانت الخطوط الرئيسية لسياسة إدارته قد تم تحديدها، بل وتسميتها بوصف معركة القرن (نصف القرن في الحقيقة لأن القرن العشرين كان قد بلغ منتصف عمره!). وميدان المعركة هو الشرق الأوسط بالتحديد، والسبب حسب شرح الرئيس «أيزنهاور» في وثيقة توجيه استراتيجي بتوقيعه: «أن منطقة الشرق الأوسط هي المنطقة الوحيدة في العالم التي تعيش حالة انكشاف كامل أمام الاتحاد السوفيتي عسكريا وسياسيا».

- عسكريا: لأن حلف الأطلنطي يغطي أوربا الغربية، كما أن حلف جنوب شرق آسيا يدور على جوار الصين، لكن المنطقة بين الحلفين هي الثغرة المفتوحة والقلقة. والإمبراطورية البريطانية تزعم أنها قادرة على ملء الفراغ في هذه المنطقة، بينما هي عاجزة وحدها، ثم إنه عندما اقتنعت بريطانيا بأن الأمن في المستقبل ترتيبات جماعية وليس تفردا إمبراطوريا - فإن الحكومة البريطانية أصرت أن تكون هي التي تعرض الترتيبات الجماعية للأمن الإقليمي في الشرق الأوسط، لكن دول هذه المنطقة تشككت على الفور في العرض البريطاني واعتبرته محاولة للتغطية على الوجود الإمبراطوري الذى طال على أراضيها، والآن يراد منحه رخصة متجددة للاستمرار بتمويه شكل حلف جماعي، وكذلك كان الرأى في واشنطن أنه إذا كانت بريطانيا في موضع الشك، فإن الولايات المتحدة تستطيع أن تطل على المنطقة بشيرا بوعد جديد ليس له ماض إمبراطوري (في الشرق الأوسط على الأقل)، وإذن فإنه يتعين على الولايات المتحدة أن تأخذ الأمور في يدها وتبادر هي وتعرض!

- وسياسيا: فإن شعوب منطقة الشرق الأوسط راودها حلم أن تستقل وتنهض بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لكن هذه الشعوب فقيرة مستضعفة. فإذا كان على الولايات المتحدة أن تملأ الفراغ العسكرى في المنطقة، فإن الفراغ السياسي يصبح مسئوليتها كذلك، ومن أجل ملء الفراغ السياسي في المنطقة فإن الولايات المتحدة عليها:

١ - أن تساير القوى الجديدة في المنطقة بأن تدغدغ أحلامها بأسلوب وطريقة الحياة الأمريكية وبريقها، وتحاول مساعدتها - إلى حد يعطيها الفرصة للضغط عليها عند اللزوم - وتقديرها أن طموح هذه القوى الجديدة لا يستند إلى بنية أساسية حديثة: زراعية أو صناعية أو علمية قادرة - أو تراث تحررى له في الأرض جذور - بحيث تنطلق لتحقيق مشروعها بالطريق الديمقراطي. ومؤدى ذلك أن القوى الجديدة في الشرق الأوسط سوف تواجه - في الغالب - عقبات كبيرة تعطل أحلامها وتصيب شعوبها بالإحباط نتيجة التناقض بين «الوعد» والتأخر في «الوفاء بالوعد»!

٢ - أن الولايات المتحدة عليها في الوقت نفسه أن تحتفظ بعلاقاتها وتدعمها مع القوى التقليدية في الشرق الأوسط؛ لأن هذه القوى هي الأقرب إلى أرض الواقع الراهن، يساعدها أن مسئوليتها فيه مأمونة، فهي ليست مطالبة بغير «المحافظة على الموروث»، وذلك على عكس التزام قوى التجديد «بالتغيير» - ولكل تغيير مخاطره.

يتصل بذلك وتلك حقيقة لا يصح أن تُنسى - أن القوى التقليدية في الشرق الأوسط هي بذاتها السلطة الحاكمة في مناطق البترول، في شبه الجزيرة العربية (على الأقل إلى عقود قادمة)، ومعنى ذلك أن السياسة الأمريكية عليها حفظ ميزان شديد الحساسية بين القوى الفاعلة في الشرق الأوسط: تقليدية سابقة أو تجديدية لاحقة.

٣ - ولأن حفظ هذا الميزان مسألة معقدة فإن مرونة السياسة الأمريكية أمامها امتحان صعب: كيف يمكن لها مسايرة قوى التجديد بحيث لا تتحول إلى تهديد تجمح به التطلعات إلى بعيد داخل المنطقة - أو خارجها؟

وفي المقابل كيف يمكن مساندة قوى التقليد بحيث تستطيع المحافظة على سلطتها إلى أطول زمان ممكن، لأن هذه القوى - فضلا عن سلطتها في مناطق النفط - تستطيع تثبيت قوى التجديد في مكانها، وتعطلها إذا «شردت» بما يؤثر على استقرار وأمن المنطقة (من وجهة نظر أمريكية)؟

٤ - وبما أن هذا الشد والجذب بالدرجة الأولى صراع أفكار في عقول الناس وقلوبهم، وبما أن ممارسته لا يمكن إدارتها بأى وسيلة من وسائل الإجبار - فإن وكالة المخابرات المركزية مكلفة بإدارة معركة القرن في الشرق الأوسط، ولها كل الصلاحيات في مسايرة قوى التجديد وحماية قوى التقليد. ولها في ذلك مساندة العنف إذا دعت الضرورة (مع ملاحظة أن عنف أجهزة المخابرات لا يكون في العادة حربا مسلحة وإنما يكون انقلابا من الداخل).

٥ - ولكي يمكن إدارة معركة القرن بأمان فإن الضرورات تستوجب فك أجهزة التفجير في «بؤر التوتر» المشحونة بالخطر في المنطقة، وأولها الصراع العربي الإسرائيلي. فهذا الصراع هو «جهاز الاشتعال» الجاهز الذى يستطيع الاتحاد السوفيتي أن يلعب به، ثم إن هذا الصراع هو كذلك مخزن الوقود الذى يمكن أن تستولى عليه قوى التجديد «لتسخين» جماهيرها وتعبئة هذه الجماهير.

أى أن حل الصراع العربي - الإسرائيلي يصبح المهمة الأولى التي يجب أن تضطلع بها «وكالة المخابرات المركزية» تساعدها وزارة الخارجية ووزارة الدفاع، كلٌّ في دورها وبإمكانياتها.

....

....

[وبالفعل فإن وثائق تلك المحاولات لحل الصراع العربي - الإسرائيلي تتكدس تلالاً من الملفات السرية تحت عناوين مختلفة فيها: «العملية أوميجا» (ترتب لسلام عربي - إسرائيلي عام) وفيها «العملية ألفا» (ترتب لصلح مصرى - إسرائيلي منفرد.]

....

....

٦ - وبينما هي تؤدى ذلك كله فإن الولايات المتحدة لابد لها أن تتحمل بالتزام قطعي تجاه الدولة اليهودية في إسرائيل، فهذه الدولة كانت «تعهدا» بريطانيا تحول إلى «مشروع» أمريكي، ومع ذلك التحول أصبحت إسرائيل هي الدولة الأقرب في الإقليم إلى النموذج الأمريكي بجانب أن تقدمها - وضمنه قوتها العسكرية (على ذلك الموقع من شرق البحر الأبيض) - يجعل منها قاعدة ملجأ أخير Last Resort إذا تعقدت الأمور في الإقليم لسبب أو آخر بما يؤثر في مصالح وأمن الولايات المتحدة.



وفي أوائل عهد «أيزنهاور» ما بين انتخابه في نوفمبر ١٩٥٢ ودخوله إلى البيت الأبيض أواخر يناير ١٩٥٣ واعتماده لسياساته في الشرق الأوسط، شاءت الظروف أن أكون في الولايات المتحدة؛ لتغطية الحملة الانتخابية «لأيزنهاور» (ضد منافسه «أدلاى ستيفنسون»)، ثم لمتابعة توجهات الإدارة الأمريكية الجديدة بعد ظهور نتائج الانتخابات.

وقد أشرت مرات من قبل إلى هذه الزيارة وإلى أطراف من وقائعها، وأهمها لقاء في وزارة الدفاع (البنتاجون) مع الجنرال «ألفريد أولمستيد» المشرف على برامج المساعدات العسكرية الأمريكية. ولأن سياق هذا الحديث

كانت الخطوط الرئيسية لسياسة
إدارة «أيزنهاور» قد تم تحديدها
وتسميتها بوصف معركة القرن
وميدان المعركة هو الشرق الأوسط بالتحديد والسبب
أنها المنطقة الوحيدة في العالم التى
تعيش حالة انكشاف كامل أمام
الاتحاد السوفيتى عسكريا وسياسيا



دفـــــاتر أزمــــــة!



يستقيم أكثر باستعادة وقائع هذه المقابلة وما جرى فيها، فإنى أعود إلى روايتها (معتذرا عن التكرار):

....

....

[طرحت على الجنرال «أولمستيد» حاجة مصر إلى أسلحة أمريكية، وأشرت إلى أن نائب وزير الدفاع الأمريكى السابق «ويليام فوستر» وعد بذلك أثناء لقاء أجراه فى شهر سبتمبر الماضى مع عدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة فى مصر بينهم اللواء «محمد نجيب» و«جمال عبد الناصر» وآخرون غيرهما. وقلت: «إنه بناء على هذا الوعد يزور واشنطن الآن وفد عسكرى برئاسة قائد الجناح «على صبرى»، وقد أتى هذا الوفد ليتفاوض عمليا فيما وعد به مساعد وزير الدفاع الأمريكى قبل شهور. لكن هذا الوفد حتى الآن كما ذكر لى رئيسه («على صبرى») لا يفعل شيئا إلا القيام برحلات منظمة إلى بعض القواعد العسكرية الأمريكية بمقولة «مشاهدة السلاح الأمريكى والتعرف إليه عن قرب»، والوفد الآن يطلب خطوة عملية على أساس ما جاء إلى هنا من أجله».

واستمع الجنرال «أولمستيد» إلىّ بصبر ثم سألنى بما ملخصه:

ـ «لماذا تريدون سلاحا قبل أن تقرروا من هو العدو؟ أنتم حتى الآن اعتبرتم إسرائيل عدوكم، كان ذلك قبل التغيير الثورى فى مصر (٢٣ يوليو ١٩٥٢)، ونحن حتى الآن لم نعرف من الجنرال «نجيب» ولا من الكولونيل «ناصر» إذا كان رأيهما فى العداء لإسرائيل هو ما كان أيام «فاروق»، أو أن الدراسة العسكرية لكلا الرجلين وخبرتهما منذ ١٩٤٨، إلى جانب آمالهما للشعب المصرى قد علمتهما أن الخطر على المنطقة ليس من إسرائيل وإنما الخطر من الاتحاد السوفيتى ومن الشيوعية.

أنتم كلكم فى المنطقة دول إسلامية، والإسلام دين سماوى يتصادم مع الإلحاد الماركسى، أليس كذلك؟!»

قالها الجنرال ثم وقف من مقعده واستدار يلمس زرا كهربائيا انفتح به ستار كبير كان يبدو للناظر وكأنه جزء طبيعى من جدار المكتب، وبفتح الستار بانت خريطة بعرضه لمنطقة الشرق الأوسط وجوارها غربا وشرقا، وكان جوار المنطقة على الناحيتين مغطى ببقع من الأعلام والدبابيس الملونة تشير وتلفت، فى حين أن وسط الخريطة ظهر سطحا خاليا إلا من الألوان الأصلية للخريطة.

ومد الجنرال «أولمستيد» يده فتناول مؤشرا وجهه نحو غرب القارة الأوربية وقال: «هنا حلف الأطلنطى يصد الاتحاد السوفيتى ويحصره فى الشرق».

ثم وجه المؤشر إلى ناحية رسم القارة الآسيوية وقال: «وهنا حلف جنوب شرق آسيا يصد الاتحاد السوفيتى والصين».

ثم عاد الجنرال بالمؤشر إلى وسط الخريطة ـ الشرق الأوسط ـ وواصل «عرضه»: «هذه المنطقة بين القارات فراغ برغم أنها الأهم، وهى كما ترى خالية من أعلام أو دبابيس، ترمز إلى وجود قواعد عسكرية ومطارات وموانئ ومراكز للقيادة ونطاقات للدفاع... أى أنه لا شىء فى الشرق الأوسط حتى الآن إلا الفراغ.

وعاد الجنرال «أولمستيد» إلى مقعده وركز نظره علىّ قائلا ببطء بقصد إعطاء الفرصة لسامعه يتدبر ما سمع:

«نحن نعرف أنك صديق لـ الكولونيل ناصر وهو الرجل القوى فى النظام المصرى الجديد، وإذا كنت تريد أن تخدم بلدك وتساعد صديقك فقل له أن يتذكر دروسه فى الاستراتيجية، وأن يعرف أن أمن بلاده ليس معلقا بصفقة سلاح معنا، وإنما معلق بانضمام مصر إلى حلف عسكرى يملأ فراغ المنطقة ويبنى حائطا دفاعيا ضد الاتحاد السوفيتى كما حدث فى أوربا الغربية وكما حدث فى جنوب شرق آسيا».

وكنت أسمع الجنرال «أولمستيد» باهتمام واستطرد هو:

«الحلف المرغوب فيه والمطلوب عندكم جاهز وأساسه طبيعى متسق مع طبيعة الإقليم، الإقليم كله إسلامى ولذلك فإن ما يطرح نفسه للدفاع عنه لا يمكن إلا أن يكون حلفا إسلاميا».

وكنت مازلت أسمع واستطرد الجنرال «أولمستيد»:

«تصور لو أن حلفا إسلاميا قام على أساس ثلاث ركائز: مصر وهى أعرق بلد إسلامى بالتجربة التاريخية ـ وتركيا وهى أقوى بلد إسلامى بجيش حسن التدريب والتسليح ـ وباكستان وهى أكبر البلاد الإسلامية من ناحية التعداد.

هذا الحلف يستطيع أن يجذب إليه بقية شعوب ودول المنطقة ـ من أفغانستان حتى المغرب. والدول الإسلامية تستطيع إقامة هذا الحلف فى أربع وعشرين ساعة: لأن هناك كثيرين جاهزون للمساعدة لأن أمن المنطقة يهمهم، «مثلنا نحن والبريطانيين وربما قوى أوروبية أخرى»!

وبدا لى أن الجنرال أولمستيد لم يفرق بين اهتمامى بسماع ما يقول وبين اقتناعى به، فقد زاد فى شرحه وفاض ووصل إلى صميم الموضوع وقلبه قائلا:

«هذا الحلف لن يكون حلفا عسكريا فقط، ولن يكون مجرد تجمع دفاعي، وإنما سيكون تنظيما له قوة جذب فكرى غالب من الناحية الاستراتيجية العالمية؛ تذكر ـ تذكروا جميعا ـ أن هذا الحلف سوف يكون بمثابة «مغناطيس جبار» يشد إليه كتلا من المسلمين داخل الاتحاد السوفيتى وداخل الصين. لاحظ أن الجمهوريات الجنوبية فى الاتحاد السوفيتى مسلمة: كازاخستان ـ طاجيكستان ـ تركمانستان ـ أذربيجان، القوقاز بأسره تقريبا ـ كلهم يعتنقون الإسلام. وإذا كان تعداد الاتحاد السوفيتى ١٥٠ مليونا (فى ذلك الوقت) فمعنى ذلك أن داخل الدولة السوفيتية ما لا يقل عن ستين مليون مسلم. والصين نفس الشىء ـ لأننا نعرف أن الإسلام قوى فى غرب الصين، تقديرنا أن هناك ثمانين مليون مسلم على الأقل فى غرب الصين.

وتوقف الجنرال «أولمستيد» ونظر إلىّ يحاول قياس رد الفعل ثم أضاف:

ـ هل تستطيع تقدير تأثير «مغناطيس إسلامى جبار» على جنوب الاتحاد السوفيتى وعلى غرب الصين؟

وختم الجنرال «أولمستيد»:

فى هذا الإطار مستقبلكم ومن داخله تحصلون على السلاح والمساعدات الاقتصادية، ويصعب علىّ تصور أننا نعطيكم سلاحا دون أن تعرفوا ونعرف نحن أيضا من هو العدو الذى تستعدون له.

تأكدوا أن إسرائيل ليست عدوا «طبيعيا» لكم فى إطار إسلامى، وإنما هى عدو «مصطنع»، والحقيقة أن التناقض بينكم وبينها يظهر عندما تضعون عملكم فى إطار قومى ـ لكنه فى إطار إسلامى يزول التناقض لأن إسرائيل قريب لكم وابن عم «فأنتم جميعا أبناء إبراهيم»!]

فى نفس الزيارة إلى أمريكا قابلت لأول مرة وزير الخارجية الأمريكية العتيد «جون فوستر دالاس» وكان «دالاس» الذى يتأهب لزيارة الشرق الأوسط ـ حريصا على أن يسمع عن أحوال المنطقة ما يستطيع سماعه قبل أن يرى بعينيه على الأرض. لكن اللقاء مع «دالاس» جاء مختصرا لم يزد على عشرين دقيقة بسبب ضيق وقته، على أن معظم هذه الدقائق العشرين أكدت اهتمام الإدارة الجديدة بالحالة الإسلامية للمنطقة، باعتبارها المحدد الرئيسى (فى تقديرهم) لهويتها ولمستقبلها.

وحاولت أن أشرح لوزير الخارجية الجديد، أن هوية المنطقة عربية باللغة الواحدة والتاريخ المشترك على الأقل ـ وأن المحتوى الحضارى للهوية القومية «إسلامى» بلا جدال، وهو فى معظمه إسهام ثقافات عاشت قبل الإسلام ثم آمنت به وصبت فيه ثقافاتها مثلما فعلت مصر والشام (حافة الدولة البيزنطية) وفارس وتركيا وحتى أوربا المسلمة فى الأندلس ـ لكن وزير الخارجية الجديد لم يكن جاهزا للكلام عن مكونات الحضارة وإنما كان يفكر فى شىء آخر وقد أفلت منه أثناء الحديث قوله «إن المنطقة عندكم تعوم على بحرين: بحر من البترول وبحر من الدين»!

ولم يكن على بالى وقتها أنها معركة حول «الأفكار» وأن للإسلام فيها دورا مرسوما، وأن شعارات هذا الدين على وشك أن تصبح رهينة فى يد «آلان دالاس» شقيق «جون فوستر دالاس» فى معركة القرن التى بدأت، وأن خطف العقائد فى الخمسينيات سوف يسبق خطف الطائرات فى السبعينيات!

....

....

[وفيما بعد علمت (ومن مساعد وزير الخارجية والسفير الأمريكى بالقاهرة «هنرى بايرود») ـ أن إدارة أيزنهاور تأثرت فى سياستها إزاء العالم العربى بدراسة قام بها فريق من أساتذة جامعتى «برينستون» و«شيكاغو» وعلى رأسهم الدكتور «بولك» ـ أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة شيكاغو ـ وقد ذهبت هذه الدراسة إلى أن الدولة الوطنية فى العالم العربى ظاهرة حديثة وهشة، وأن المنطقة عاشت إلى مطالع القرن العشرين تحت سلطة خلافات إسلامية انتهت «بالعثمانيين» الذين حكموا من «استنبول» إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى.

وأضافت الدراسة أنه حتى فى قرون الحكم المملوكى الطويلة فإن أمراء المماليك غطوا فجوة الشرعية فى دولهم بخلفاء من بقايا العباسيين حمل كل واحد منهم لقب «خليفة المسلمين»، ومع ذلك ظل ألعوبة فى يد «الأمير المملوك».

أضافت الدراسة أيضا أن مشايخ الدين ـ بمن فيهم علماء الأزهر ـ قاموا باستمرار بدور الوسيط بين الأمير «المملوك» وبين رعاياه المسلمين. وعن طريق هؤلاء

حتى فى قرون الحكم المملوكى الطويلة فإن أمراء المماليك غطوا فجوة الشرعية فى دولهم بخلفاء من بقايا العباسيين حمل كل واحد منهم لقب «خليفة المسلمين»، ومع ذلك ظل ألعوبة فى يد «الأمير المملوك»



المشايخ كانت الرعية ترفع للمملوك مظالمها، وإلى هؤلاء المشايخ كان المملوك وأعوانه يعطون التوجيهات ضمانا للسمع والطاعة.]

....

....



والدول العظمى لا تغير استراتيجياتها بسهولة: لأن هذه «الاستراتيجيات» لا تصنع بالإلهام أو النزوة، ولا تتقرر بقيام حكم أو سقوط حكم، ولا يؤثر فيها أن يذهب رئيس ويجيء رئيس، فالاستراتيجيات إملاء جغرافيا وتاريخ، وقد تتغير السياسات المعبرة عنها لتتلاءم مع متغيرات الظروف، لكن الاستراتيجية تعلم دارسيها أن الأهداف يمكن الاقتراب منها عن طريقين: اقتراب مباشر أو اقتراب غير مباشر، مع بقاء الهدف في الحالتين ظاهرا أمام عيون طالبيه حتى وإن أخذتهم «التضاريس» إلى الطرق الدائرية!

والذي حدث في المنطقة بعد ذلك معروف مشهور:

- كانت مصر تدعو إلى العمل القومي وجاءت إليه بقوى التجديد، وفي المقابل أنشأت الولايات المتحدة حلف بغداد وجمعت فيه قوى التقليد العربية مضافا إليها القوى الإسلامية الموالية لها في المنطقة: باكستان وإيران وتركيا.

- وعندما سقط حلف بغداد بثورة العراق سنة ١٩٥٨، كان دالاس هو صاحب نظرية الحلف المركزي كي يضم دول النطاق الشمالي للعالم العربي وهي: باكستان وإيران وتركيا، وكلها إسلامية. على أنه من «معجزات» تلك الفترة أن الحلف المركزي ما لبث أن سقط بدوره، وذلك عندما قام انقلاب في تركيا أطاح بعدنان مندريس (داعية حلف بغداد والحلف المركزي بعده) - وأكثر من ذلك فإن هذا الانقلاب حاكم مندريس وحكم عليه بالإعدام ونفذ حكمه!

- وكان أن السياسة الأمريكية توجهت في أعقاب ذلك ومباشرة إلى إنشاء «حلف إسلامي» صريح نقل مركزه إلى الجنوب والشرق خطوة أو خطوات، فبعد أن كان حلف بغداد يجمع في عضويته كلا من: العراق وباكستان وتركيا وإيران، جاء الحلف المركزي ليجمع في عضويته: باكستان وإيران وتركيا (أي بدون العراق) وعندما تحول الحلف المركزي إلى الحلف الإسلامي أوائل الستينيات، فقد جمع في عضويته كلا من: باكستان وإيران (أي بدون تركيا التي عدلت مسارها والتفتت إلى أوربا ولو بالانتساب) - وأخيرا وفي نهاية المطاف أمكن تشجيع المملكة العربية السعودية - بعد حرب سنة ١٩٦٧ وضربتها القوية ضد الحركة القومية العربية - على إنشاء «منظمة المؤتمر الإسلامي». ■

الورقــــة الرابعــــة:

باكســـــــــتان:

دور خـــاص في الحــــرب البــــاردة!

■ في ذروة سنوات الحرب الباردة (من ١٩٥٥ إلى ١٩٧٥)، كانت معارك هذه الحرب على أشدها في آسيا وأفريقيا (والعالم العربي جسر واصل بين الاثنين).

وفي حرب قصد بها أن تدور «بأسلحة الأفكار وليس بأسلحة النار»، فإن بلدين - دولتين بقيت لهما - بعد كل ما جرى لسياسة الأحلاف - أهمية خاصة في الحسابات الأمريكية لهذه المنطقة الشاسعة (آسيا وأفريقيا والجسر الواصل بينهما).

● البلد الأول هو المملكة العربية السعودية، باعتبارها موطن الإسلام الأصلي (ومع أن الإسلام هاجر شمالا في كل اتجاه ليحقق انتشاره ويصنع تاريخه ويقيم حضارته) - فإن ذلك البلد (ومهما قيل عن الانتشار والتاريخ والحضارة) بقي مقر الحرمين الشريفين بما لهما من هيبة وقداسة، لكن وساوس المملكة ظلت تؤرقها لأنه حينما تكون القيمة غنى فإن القيمة ذاتها

> الــــدول العظـــــمى لا تغيـــر اســــتراتيجيتها بســــهولة، لأن هـــذه «الاســـتراتيجيات» لا تصنـــع بالإلهـــام أو النـــزوة، ولا تتقـــرر بقيـــام حـــكم أو ســـقوط حـــكم، ولا يـــؤثر فيهـــا أن يذهـــب رئيـــس ويجـــيء رئيـــس

تصبح مصدر التهديد لأن الطمع حولها يزيد!

يضاف إلى ذلك أن الطبيعة خصت هذا البلد بثروة نفطية هائلة تمكنه من نفوذ سياسي يضيف إلى المكان مكانة يساعد عليها قيام منظمة المؤتمر الإسلامي.

● وأما البلد الثاني فهو باكستان باعتبارها «دولة الإسلام» في شبه القارة الهندية، وربما في العالم: لأن الإسلام فيها هوية وطنية إلى جانب كونه عقيدة دينية. وقد نشأت باكستان بالعداء وبالانسلاخ عن الهند في وقت كان للهند فيه وضع خاص في حركة التحرر الوطني عبر القارات - وبهذه النشأة فإن باكستان شعرت بوحشة حاولت تعويضها بصلات وثيقة مع الولايات المتحدة، وكان من هنا أن باكستان شاركت في كل مشروعات الأحلاف الأمريكية للشرق الأوسط (حلف بغداد والحلف المركزي والحلف الإسلامي) - والمشكلة أن هذه الأحلاف جميعا تعثرت على الطريق وسقطت، وبقيت دولة الإسلام وحيدة تبحث عن صحبة أو تبحث عن غطاء.

كانت باكستان موقعا وضعته الجغرافيا ملاصقا للهند ومجاورا للصين وقريبا من الاتحاد السوفيتي، وعلى الخريطة فإن باكستان هي أقرب نقطة من جنوب الاتحاد السوفيتي إلى المياه الدافئة، وذلك حلم الإمبراطوريات الروسية من عصر بطرس الأكبر إلى عصر ستالين الرهيب.

بالزيادة على ذلك ومع اشتداد الحرب الباردة، فإن موقع باكستان جعلها بالضبط في منتصف المسافة بين عالمين كلاهما يفور مثل بركان:

- عالم على الشرق منها يحتوي كوريا والهند والصين وفيتنام.

- وعالم على الغرب منها يحتوي الدول العربية وإيران، وكانت تلك الدول - تلك الأيام - وعلى خط ممتد من القاهرة إلى طهران تعيش مرحلة من التغييرات العنيفة سياسية واجتماعية، اندلعت فيها ثورات ووقعت انقلابات ونشبت صراعات أهمها بالطبع صراع العرب مع إسرائيل.

وفي المسافة بين العالمين - على الشرق وعلى الغرب - كانت باكستان أرضا واسعة وسماء مفتوحة تنادي القواعد العسكرية برية وبحرية وجوية. وبالطبع كانت الولايات المتحدة أول الراغبين.

وكانت باكستان بحكم التاريخ - بعد حكم الجغرافيا - تكوينا إنسانيا فريدا في تركيبته، ذلك أنه حينما أصر حزب الرابطة الإسلامية - بقيادة محمد علي جناح على تقسيم الهند - لأن الحياة داخل وطن واحد غدت مستحيلة بين المسلمين والهندوس - فإن اللورد «لويس مونتباتن» نائب الملك (الأخير) في الهند قام بتشكيل لجنة عهد إليها برسم خطوط تقسيم شبه القارة بين دولة هندية - هندوكية - وبين دولة جديدة (هندية في أعماقها)، إسلامية في تعبدها وصلاتها - وكان المبدأ الذي جرى اعتماده عند رسم الخط الفاصل بين الدولتين، أن المناطق التي تحوي أغلبية هندوكية تبقى في الهند - وأما المناطق التي تكون أغلبيتها من المسلمين فإنها تتجمع مع بعضها لتصبح كيان باكستان. وكانت عملية التقسيم أشبه ما تكون بسكين يقطع في اللحم الحي، وعلى الأرض فإنه لم يكن في باكستان غير ثلاثة أقاليم إلى حد ما هما إقليم «البنجاب» وإقليم «السند» وإقليم «البنغال» (الذي انفصل عن باكستان فيما بعد وأصبح اليوم بنجلاديش) وأما بقية الدولة فقد كانت قطعة من هنا وقطعة من هناك، وإضافة تلتحق بهذه الناحية أو تلتصق بالناحية الأخرى.

وترتبت على قيام باكستان بهذا الشكل خصائص حتمية:

- بما أن باكستان دولة جديدة جرى سلخها عن دولة قائمة - إذن فهي في خطر من البلد الأصلي الذي يعتبرها جزءا منه - ولذلك يتعين عليها أن تحمي نفسها ضده وتلك مهمتها الأولى.

- نتيجة ذلك أن الجيش الباكستاني الذي جاء إلى الدولة الجديدة شتاتًا لابد من تقويته لأنه رباط الوحدة في الداخل وحارس الأمن على الحدود، وبالتالي فهو لم يصبح فقط أهم جهاز في الدولة وإنما أصبح دولة داخل دولة.

- أن المخابرات العسكرية في هذا الجيش تحتاج إلى قوة نفاذ لأنها القادرة على استطلاع نوايا الهند، وعلى كشف عناصر الطابور الخامس ممن طوّح بهم قرار التقسيم إلى الوطن الجديد، وبقي معهم انجذابهم سواء بالعادة أو بالحنين - أو حتى بالولاء - إلى الوطن الأصلي.

- وفي الحقيقة فإن الجيش والمخابرات بدورهما المحوري في أمن باكستان الخارجي والداخلي على السواء كانا طاقة الاندفاع نحو ما شاركت فيه باكستان من أحلاف عسكرية (حلف بغداد - الحلف المركزي - الحلف الإسلامي). وكانت هذه الأحلاف (مع استحالة الحرب) غارقة إلى الآذان في العمل السري. ومع ضرورات التخفي في حروب العقائد، فقد جرى الخلط بين الدعوة الدينية والتجسس الأمني بما لذلك في معظم الأحيان من نتائج خطرة.

- أنه إزاء هوية باكستان الإسلامية فإن تعميق الوطنية يتأكد بتعميق الإيمان الديني، وفي العادة فإنه عندما تتداخل السياسة في الدين، فإن شدة الضغط والرغبة في التوظيف - تحول وهج الإيمان إلى نار تعصب. ومع أن الإيمان بالمضمون والجوهر عقل، فإن التعصب درجة من درجات الحمق!



وكان المناخ الذى صنعته هذه الأوضاع وتأثيراتها وتفاعلاتها قد جعل باكستان مسرحا مثاليا لما تتمناه الولايات المتحدة الأمريكية وتطلبه. (وبينه ما سمعته بنفسي من الجنرال «أولمستيد» فى مكتبه وأمام خريطته داخل البنتاجون سنة ١٩٥٣ وضمنه خطة المغناطيس الإسلامي الجبار الذى يجذب إليه كتلا إسلامية تعيش فى جنوب الاتحاد السوفيتي - وقرب الصين الشعبية).



وهكذا أصبحت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لاعبا رئيسيا فى باكستان، وكذلك أصبحت هيئة الاتصال العسكرى بين قيادة القوات المسلحة الباكستانية وبين البنتاجون. (وفى عصر رئاسة «أيزنهاور») عملا مشتركا لـ قيادة عمليات مقرها مدينة «بيشاور» - وجرى تقسيم العمل:

● تولت باكستان مهمة الاتصال بعناصر المقاومة الإسلامية للدولة السوفيتية فى الجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفيتي، وكانت بعض هذه العناصر على حق فى مقاومتها للدولة السوفيتية التي طبقت سياسة نزعت إلى طمس الأثر الإسلامي فى أقاليم ساهمت بنصيب وافر فى التراث الحضارى للإسلام.

وكانت المخابرات الباكستانية قادرة على الوصول - بالمسالك الجبلية والوسائط القبلية عبر أفغانستان - إلى جمهوريات طاجيكستان، وأوزبكستان، وتركمانستان.

وفى هذا الإطار قامت المخابرات الباكستانية ووراءها المخابرات المركزية الأمريكية على تشجيع وإنشاء جماعات تنفذ أشكالا من عمليات المقاومة تنبه - على الأقل - إلى وجود معارضة إسلامية حية وفاعلة.

ومع أن «المقاومة» الإسلامية جنوب الاتحاد السوفيتي كانت لها حجة مشروعة - فإن القوى الوافدة التى جاءت لمساعدتها كانت موضع شبهة؛ لأن دافعها لم يكن حفاظا على الإسلام أو حرصا عليه، وإنما كان خطط حرب خفية تدور فى الأفكار - ولا بأس فيها من شرر نار طالما كان محصورا وبعيدا عن الكبار - ومن المفارقات أن الاتحاد السوفيتي أصبح مكتوبا عليه أن يتألم فى صمت، لأنه إذا اشتكى كشف ضعفه حتى إذا نجح فى إثبات سوء نية خصمه.

والذى حدث هو أن السلطة السوفيتية راحت تقمع - وفى نفس الوقت تدارى، وفى مقابل ذلك فإن نشاط المخابرات الباكستانية والأمريكية راح يواصل ضغوطه ويزداد إصرارا.



وفى هذا الإطار وداخله بدأت طائرات التجسس الأمريكية الجديدة من طراز «يو ٢» - التى تحلق على ارتفاع عال لا تطوله الدفاعات السوفيتية - تقوم بمهام استطلاع فى العمق الشرقى للاتحاد السوفيتي، وتلك هى المناطق التى اختارتها الدولة السوفيتية لمنشآتها العسكرية النووية والفضائية. فقد أراد السوفييت إبعاد هذه المنشآت إلى أقصى ما يمكن عن أوربا الغربية حتى لا يطولها التجسس الأمريكي، والآن ومن «بيشاور» (شمال باكستان) وعبر أفغانستان (وذلك أقصر طريق إلى قلب روسيا) وجدت الولايات المتحدة منفذا سالكا مفتوحا أمامها لتطل وتراقب المواقع الحساسة للقوة السوفيتية.

وقد ظلت مهام الاستطلاع والتجسس من «بيشاور» تواصل عملها بطائرات «يو ٢» حتى ربيع سنة ١٩٦٠، حين تمكن صاروخ روسى من إسقاط إحداها، وتكتم السوفييت على أسر قائد الطائرة وحطامها، حتى فوجئ الرئيس «أيزنهاور» فى باريس وأثناء افتتاح مؤتمر قمة للأربعة الكبار فى العالم، بالزعيم السوفيتي «نيكيتا خروشوف» يصرخ فى وجهه ويرمى أمامه على المائدة بصور تبدأ بقائد طائرة التجسس الكولونيل «فرانسيس باور» ملقى على الأرض ثم ممددا على سرير مستشفى ثم جالسا أمام صحفيين عسكريين، ومجموعة كبيرة لصور أخرى التقطتها آلات التصوير الدقيقة لطائرة التجسس وتظهر فيها تفاصيل بعض المنشآت العسكرية مبينة وكاشفة - وبعد الصراخ يمضى «خروشوف» ويصف «أيزنهاور» على مسمع من الرئيس الفرنسى «شارل ديجول» ورئيس الوزراء البريطانى «هارولد ماكميلان» بأنه «كذاب ومنافق» وهذه هى الأدلة!



فى تلك الأوقات كان تدخل الجيش الباكستانى فى شئون الحكم طاغيا، وكانت لهذا التدخل ذرائع جاهزة، فهو حارس الدولة الإسلامية وسط المخاطر، وهو الأمين على العقيدة بالمسئولية عن دولتها، وهو الشريك الرئيسى فى التحالف الباكستانى الأمريكي، وخصوصا جانبه الأمنى!

وأدى ذلك إلى تكرار الانقلابات العسكرية، وفى الحقيقة فإنها لم تكن انقلابات بالمعنى الدقيق للانقلاب، ذلك أن الذى قام بها فى جميع الأحوال قيادة الجيش التي وجدت فى بعض الظروف أن الساسة المدنيين ليسوا على مستوى الكفاءة المطلوبة للدولة - وكذلك قررت أن تتدخل لإزاحة هؤلاء الساسة المدنيين بغرض ضبط الأمور وتقويمها، وذلك تكرر من انقلاب الجنرال «أيوب خان» وحتى انقلاب الجنرال «برفيز مشرف».

ومن اللافت للنظر أن الجيش الباكستانى كان هو - أيضا - عنصر الوصل الأهم فى الصحبة بين الدولتين الحائرتين (إسلاميا): السعودية وباكستان.

● ومن ذلك أنه حين أحست الأسرة الحاكمة السعودية بالخطر من ضغط الحركة القومية عليها وتأثيرها المحتمل على القوات المسلحة السعودية - فإن الملك «فيصل» بمشورة أمريكية، استعان أو استأجر فرقتين من الجيش الباكستانى تتولى مدرعاتهما حفظ الأمن: أمن المملكة وأمن الأسرة.

وحتى هذه اللحظة لا تزال هناك قوات باكستانية تشارك فى الأمن السعودى.

● وفى إطار تلك الصحبة وعندما بدأ الجيش الباكستانى يشعر أن الهند تتقدم نوويا، وأن دولة الإسلام تحتاج قنبلتها الذرية حتى تصمد وتردع - فإن السعودية (وغيرها من الدول الإسلامية) بادرت تساعد. (وربما أنه كانت هناك رغبة أن تكون أول قنبلة ذرية ذات هوية إسلامية - وليس بالتحديد عربية - وكان الأسلحة لها - فى حد ذاتها - معتقدات).

وكذلك فإن الصحبة بين البلدين الحائرين إسلاميا: باكستان والسعودية أصبحت متجاوزة لدعوى العقيدة، وثيقة بمطالب الأمن والدفاع، وكان الصديق الأمريكي للاثنين سباقا باستمرار يمهد ويشجع ويساعد. ويرضى فى بعض الأحيان عن الفعل المشترك (كما هو الحال فى وجود فرق باكستانية لحماية الداخل السعودى)، ولا يرضى فى أحيان أخرى (حين يجد أن المشروع النووى الباكستانى بمساعدات إسلامية يتقدم ويهدد الموازين الحساسة فى المحيط الهندى). ■

الورقـــة الخامسة:

أفغانســـــتان: ســـــقف العـــــالم

■ وسط معمعان الحرب الباردة ومع خطط إثارة الفتنة فى الجمهوريات الجنوبية - الإسلامية - للاتحاد السوفيتي أصبحت أفغانستان على صعوبة أرضها وعزلة شعبها، جسرا مزدحما بأكبر عملية مخابرات سرية جرى تدبيرها وتنفيذها طوال القرن العشرين.

....

[واتذكر سنة ١٩٦٨ وأثناء زيارة رسمية قام بها جمال عبد الناصر إلى الاتحاد السوفيتي يطلب مزيدا من السلاح؛ لأن الجيش المصرى أتم مرحلة الدفاع على جبهته، وبدأ يستعد لعبور قناة السويس تحقيقا لهدف إزالة آثار العدوان - أن الزعيم السوفيتي «ليونيد بريجنيف» قال لجمال عبد الناصر أثناء جلسة المحادثات الرسمية: إنه يريد أن يذهب معه إلى جناحه فى قصر الضيافة؛ لأن لديه موضوعا يرغب فى بحثه وهو يحمل فى شأنه رجاء من القيادة السوفيتية».

واتضح أن طلب بريجنيف ورجاء القيادة السوفيتية لهما صلة بأفغانستان.

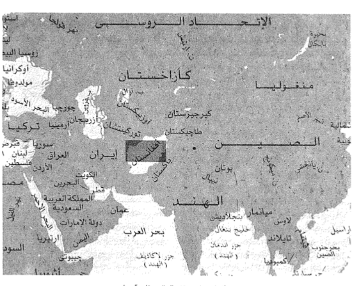
وكان ما قاله «بريجنيف» من واقع ملخص للاجتماع كتبه السيد «على صبرى»:

«أن القيادة السوفيتية منزعجة من زيادة النشاط المناوئ للدولة فى المناطق الجنوبية من البلاد، وهذه المناطق فى غالبيتها إسلامية، والنظام السوفيتي منذ إقامته احترم عقائد وشعائر كل الأديان، ولم يتدخل فى حرية أصحابها وحقهم فى معتقداتهم. (وأنت باسيادة الرئيس ذهبت بنفسك فى زيارة سابقة إلى طشقند وزرت مساجدها والتقيت بشيوخها وصليت معهم واستمعت إليهم).

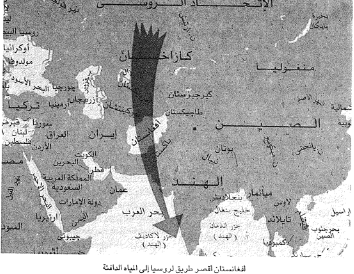
والحكومة السوفيتية لديها معلومات موثقة (وهى على استعداد لوضعها تحت تصرف صديقنا الرئيس ناصر)، وكلها تؤكد أن هناك جهدا منظما تقوم به المخابرات الباكستانية لإثارة تعصب دينى «عدوانى» ليس هناك ما يدعو له. والمخابرات الباكستانية فى ذلك مدفوعة بالمخابرات المركزية الأمريكية ونحن لا نعرف ما الذى يدعو باكستان إلى مثل هذه المغامرات، وقد سألنا رئيس باكستان الجنرال «أيوب خان» ما السبب الذى يدعوهم إلى ذلك، وكان رده: «إن ما يجرى ليس سياسة الحكومة الباكستانية لكنه يعرف أن هناك عناصر فى الجيش الباكستانى غاضبة من المساعدات العسكرية التى يقدمها الاتحاد السوفيتى للهند».

«يستكمل بريجنيف كلامه





افغانستان سقف العالم وقلب آسيا



أفغانستان أقصر طريق لروسيا إلى المياه الدافئة

وفق الملخص الذى كتبه على صبرى».

«إن دوائر عربية معينة بدأت تدخل فى جوانب من هذه الأعمال المعادية للسوفييت، وقد لاحظنا أن بعض الجهات السعودية وفرت أموالا لبناء عشرين مسجدا فى كازاخستان، ونحن لا نعترض على أى نوع من علاقات التعاطف بين المسلمين فى الاتحاد السوفيتى وأبناء دينهم خارجه، ولكننا نريد أن نستفهم من أصدقائنا العرب عن الهدف الذى يقصدون إليه فى تعاملهم مع المسلمين فى الدولة السوفيتية. نحن نظن أننا نساعد العرب والمسلمين فى معركتهم لتحرير أرضهم من عدوان إسرائيل ـ بتحريض الولايات المتحدة، كما أننا نساعد على التوصل إلى حل عادل لحقوق الشعب الفلسطينى فى أرضه وفيها مقدسات إسلامية عزيزة عليهم ـ لكننا فى بعض المرات نجد أن فهمنا للأمور يتعثر:

نحن نساعد القضايا العربية بقدر ما نستطيع، لكننا نجد على الجانب العربى بعض المرات تصرفات نستغربها... أخيرا صادرنا شحنات من كتب وصل عددها إلى مليون، وقال خبراؤنا أن بينها مائة ألف مصحف وبقيتها كتب فى الدعوة والتفسير، وقد سمحنا بالمصاحف: لأن المصحف كتاب مقدس، ومع أنه باللغة العربية ولن يعرفها أحد فى جمهورياتنا الجنوبية سوى حفنة من الناس ـ فقد كان تقديرنا أن الناس يسعدون باقتناء الكتب المقدسة حتى وإن لم يستطيعوا قراءتها ـ أما بقية الكتب فقد تحفظنا عليها فى المخازن، وقد رصدنا فى أعقاب ذلك ظهور منشورات تحرض الناس على السلطة لأنها تصادر كتبا عن المعتقدات».

وقال الرئيس عبد الناصر (طبقا للملخص المحضر) «إنه يشعر بأن الأصدقاء السوفييت يبالغون فى الحساسية: فتوزيع المصاحف على أوسع نطاق مفيد روحيا لكل الناس، وأما بقية كتب الدعوة والتفسير فإن مصادرتها خطأ لأن ما فيها معروف ومحفوظ. ثم إنه إذا كان الناس لا يقرءون العربية إذن فليست هناك من الأصل مشكلة».

ومع ذلك وعد الرئيس عبد الناصر أن يتصل فى هذا الشأن بالملك فيصل، وكذلك برئيس باكستان ورئيس وزراء أفغانستان السردار «داود خان».

(وذلك تم بالفعل وقامت الرئاسة فى مصر بإبلاغ القيادة السوفيتية بنتائجه).

كانت أفغانستان جسرا غريبا، لكنه جسر مرصوف ومهيأ لكى تمشى عليه الفتن وتتحرك المؤامرات، لأن طبيعته الجبلية، ووديانه شبه المغلقة على نفسها بالقمم العالية، ومناخه القارى القاسى ـ يجعله نموذجيا للمطلوب منه، فهو معزول وعازل، مطروق وإن كان بصعوبة ـ سالك ولكن بشروط، وأهم هذه الشروط هو التوافق مع نفر من أهل البلد الذين يعرفون المداخل والمسالك، وهم جميعا تركيب إنسانى يمتزج فيه الضعف بالقوة، والخيال بالقسوة، والغنى النفسى بالفقر المادى، والكبرياء الفردى بالولاء القبلى، وما يترتب على ذلك كله فى التعامل مع القوى داخل البيت وخارجه. وذلك يفتح للتعامل معهم وسائل وأساليب!

وموقع البلد وسط آسيا تماما ـ «فى قلبها» ـ كما كان يقول اللورد كيرزون نائب الملك فى الهند مع بدايات القرن العشرين، ثم إن الموقع هضبة مرتفعة تطل على شبه القارة الهندية وعلى القوقاز وعلى الصين وعلى إيران، حتى أن «ماركوبولو» الرحالة الإيطالى «الأسطورى» وصف أفغانستان بأنها «سقف العالم».

وأهل البلد أعراق وقبائل بعضها فى أفغانستان وبعضها وراء حدودها، حتى تكاد أفغانستان أن تكون ثلاث مناطق عرقية مقسومة بعرض البلد بخطوط شبه فاصلة.

ـ الشمال: من العرقين الطاجيكى والأوزبكى، بعضهم فى أفغانستان وبعضهم فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى الجنوبى (فى ذلك الوقت) طاجيكستان وأوزبكستان.

ـ الوسط: ينتمى إنسانيا إلى عناصر «الحزارا» وهم بقايا هجرات مغولية عبرت من الشرق إلى الغرب واستقرت جحافل منها فى أفغانستان وفاضت على شرق إيران.

ـ والجنوب: بأكمله من قبائل البشتون وأرض هذه القبائل ولغتها وثقافتها عائلة واحدة مع شمال باكستان.

وفى كل منطقة من هذه المناطق الثلاثة مدينة رئيسية هى الواجهة وفيها المفتاح.

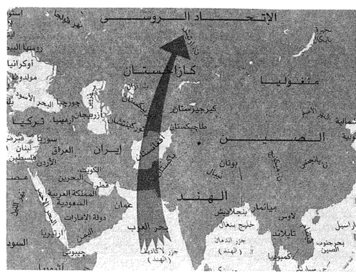
»مزار شريف» مدينة الشمال وهى طاجيكية أوزبكية ـ ومدينة «هيرات» عاصمة الوسط وهي شيعية فارسية، وفى وقت من الأوقات كانت «هيرات» تمثل مجتمعا يعكس صورة مصغرة للبلاط الشاهنشاهى فى طهران ـ بمقدار ما أن «قندهار» عاصمة الجنوب توشك رغم بعد المسافات أن تكون ضاحية من ضواحى «بيشاور» عاصمة إقليم الحدود الشمالية الشرقية فى باكستان وهو الإقليم الذى أضفت عليه قصص وأشعار الكاتب البريطانى الشهير «رديارد كيبلنج» لمسة من الغموض المثير، وربما أنه من «بيشاور» استوحى كيبلنج عبارته المأثورة بـ: «إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا»!

وقد عاشت أفغانستان تاريخها الحديث وسط صراع الإمبراطوريات التي تسابقت إلى التوسع فى آسيا طوال القرن التاسع عشر:

شعب «أفغانستان»
تركيب إنسانى يمتزج
فيه الضعف بالقوة،
والخيال بالقسوة، والغنى النفسى،
بالفقر المادى والكبرياء
الفردى بالولاء القبلى

دفـــــاتر أزمــــــة!





أفغانستان أقصر طريق من باكستان والمياه الدافئة إلى روسيا

- الإمبراطورية البريطانية تحاول تدعيم مواقعها حول درة التاج الغالية في الهند.

- وروسيا القيصرية تضغط جنوبا بأمل الوصول إلى المياه الدافئة في المحيط الهندي بعد أن أكملت توسعها شرقا وأطلت على المحيط الهادئ.

- وفرنسا في الهند الصينية تحاول أن تقفز فوق الجبال نحو الموقع الأعلى لتراقب ما تفعله بريطانيا وما تفعله روسيا.

والطبيعة الأفغانية قاسية إلى درجة جعلت اللورد كيرزون نائب الملك في الهند (أوائل القرن العشرين) يلخص منطق الإمبراطورية قائلا: «لا داعي لاحتلال أفغانستان، الأرخص أن نشتريها»!

وكان شراء أفغانستان ممكنا: لأن توجهات الأجناس متضاربة، وولاءات القبائل لمن يقدم السلاح والذهب، وكان الشعب الأفغاني أول من وصف أحواله بقسوة، ومنها قول ذائع مؤداه: «أن الله حين خلق الطبيعة والناس، ووزع أجناس الأرض على أقاليمها وجد عنده بقايا من كل شيء: بقايا طبيعية وبقايا إنسانية وقد أخذ كل هذه البقايا وطوّح بها وسقطت كلها كومة واحدة على كوكب الأرض في مكان أصبح اسمه أفغانستان»!

....

[وأتذكر المرة الوحيدة التي زرت فيها أفغانستان والتقيت بآخر ملوكها «ظاهر شاه» في قصره وسط كابول، وبدا لي الرجل - رغم مظاهر البروتوكول الصارمة في بلاطه - بسيطا وادعا، وعندما قلت له: «إنني مبهور بالأجواء الأسطورية لسوق كابول الذي زرته قبل أن أتوجه إلى القصر للقائه - تبسم الملك برقة ورد بما معناه أنه «يخشى أن الجو الأسطوري الذي يراه الزائرون لبلاده يلفتهم عن الحقائق فيها».

وكان الملك «ظاهر شاه» محقا فيما قاله بأكثر مما تصورت حين سمعت منه.

وفي تلك الزيارة وبعد أيام من لقاء الملك كانت لدي فرصة أن أطوف وأرى - وقد أصابني شعور لم يغب طول الوقت بأن البلد «معتقل» في موقعه - معتقل في تاريخه، وقد ظللت معطلا في «كابول» - أياما فوق ما قدرت - أنتظر الطائرة القادمة من «بيشاور». فالعاصمة الأفغانية تحيط بها سلسلة جبال شاهقة يسمونها «تخت سليمان»، والطائرة الوحيدة إلى «كابول» - تلك الأيام - تجيء من «بيشاور» في الضحى وتعود عند الظهر. لكن الطائرة لابد أن تجد لها فتحة بين الضباب والجبل حتى تنفذ بينهما إلى مطار كابول على هذه الناحية من «تخت سليمان». وكان أول ما أفعله كل صباح أيام الانتظار أن أقصد إلى ساحة قريبة من الفندق - الخان - الذي أقيم فيه وأتطلع ببصري إلى أعلى أقيس المسافة بين «تخت سليمان» وبين قاع السحاب، وأتساءل إذا كانت تسمح للطائرة أن تمر أو تعوقها؟ - وتثاقلت ثلاثة أيام والجو مغلق. وفي اليوم الرابع سمعت أزيز محركات الطائرة، وأعددت حقيبة السفر وهرعت بأسرع ما استطعت إلى المطار قبل أن تنزل كتل الضباب مرة أخرى تلف الذرى العالية وترقد فوقها على تخت سليمان!]

....

....

وفي أزمنة مستجدة فإن نشاط المخابرات الباكستانية والمخابرات الأمريكية عبر الجسر الأفغاني إلى الجمهوريات الإسلامية جنوب الاتحاد السوفيتي، ظل يتسع ويتزايد ويخلق مشكلاته وعقده، ويصنع توتراته وأزماته، حتى ازدحمت الأجواء وضاقت بها سماء «كابول».

والذي حدث أن السردار «داود خان» وهو ابن عم للملك وصهر له ورئيس لوزرائه راح يحاول إقناع الاتحاد السوفيتي بمساعدة أفغانستان ومساعدة نفسه ذات الوقت عن طريق تقديم أسلحة للجيش ومساعدات للاقتصاد الأفغاني، وبالفعل فإن الاتحاد السوفيتي استجاب وساعد، ربما لأنه أراد أن يتوقى من بعيد ويصد التيارات «الإسلامية» التي تهب عبر أفغانستان.

لكن نشاط المخابرات الأمريكية والباكستانية على الجسر - وفي طبيعة أفغانستان وأحوالها وأجوائها - اخترق كل شيء أمامه، وإذا رئيس الوزراء يطيح بالملك، ثم يعلن أفغانستان جمهورية، وينصب نفسه رئيسا لها ويحاول أن يحكم بيد من حديد تضبط الإسلاميين الأصوليين، وتحجم العلمانيين اليساريين، وكانت مهمة «داود خان» مستعصية بين يمين يهرب إلى الجهل ويسار يندفع إلى المجهول!

وفي ظرف أقل من سنتين كان «داود خان» الواقع بين المطرقة والسندان قد سقط ضحية انقلاب يساري ساندته مجموعة من ضباط الجيش الذين درسوا في الاتحاد السوفيتي!



ولم تكن تلك كما بدا على السطح نكسة للمخابرات الباكستانية والمخابرات المركزية الأمريكية - بل على العكس - فإنها بدت فرصة ملائمة بل وهدية من السماء إذا أحسن استغلالها: لأن النظام اليساري - وعناصره من الشيوعيين - هدف حي ومستفز يشجع على التصويب نحوه علنا وسرا!

ومع أوائل السبعينيات كانت أفغانستان في حالة احتقان:

- المجموعة اليسارية

«أفغانستان»... تكوين إنساني متداخل مع كل ما حوله





الشيوعية تمارس الهواية الدائمة للحركات اليسارية وهى الانقسام والتشرذم والتفتت إلى درجة أن الفصيل الواحد يصبح ألف شظية!

- كذلك فإن «محمد تراقى» القائد المختار لرئاسة الانقلاب اليسارى الأول ما لبث أن سقط ليحل محله ضابط أقوى منه شكيمة. والداعى أن المقاومة الإسلامية للنظام راحت تقوى وتنظم نفسها فى تشكيلات مقاتلة، رفعت صيحة الجهاد، وراحت تطلب المساندة من ناحية الجسر الأخرى. وكانت المخابرات الباكستانية والأمريكية جاهزة تلبى أى طلب وتزيد عليه.

- ثم تأزمت الأمور وتعقدت عندما فوجئ الكل بقيام الثورة فى إيران وإعلان دولتها الإسلامية فى طهران، بعد سقوط «محمد رضا بهلوى» من فوق عرش الطاووس.

ووسط تلك التعقيدات وخشية تأثيرات الثورة الإيرانية على الجنوب الإسلامى فى الاتحاد السوفيتى، دفع السوفييت إلى قمة السلطة بضابط من غلاة الشيوعيين هو «بابراك كارميل» الذى لم يكد يدخل القصر الجمهورى، حتى دعا الجيش السوفيتى إلى دخول أفغانستان بحجة أن الخطر داهم، وأن نشاط المخابرات الأمريكية والمخابرات الباكستانية على وشك أن يحدث انقساما فى الجيش الأفغانى يمهد الطريق ويفتحه لعناصر فى كابول مستعدة للتفاهم مع الولايات المتحدة. ■

الورقة السادسة:

موسكو تقع فى الفخ الأفغانى!

■ لم يكن قرار القيادة السوفيتية بدخول الجيش الأحمر إلى أفغانستان سهلا، بل كان اختيارا بالغ التعقيد فرض عليها ما لم تكن مستعدة له أو متفقة عليه. والحقيقة أن قرار التدخل أحدث انقساما داخل المكتب السياسى للحزب الشيوعى، كما أنه أوقع خلافا بين المكتب السياسى وبين القيادة العليا للقوات المسلحة السوفيتية. وطبقا للوثائق (التى فتحت ملفاتها قبل أوانها بأمر من الرئيس الأسبق «بوريس يلتسين» بقصد تحديد المسئوليات فى النهاية المؤلمة للنظام الشيوعى) - فإن أول إشارة واضحة عن احتمال دخول الجيش السوفيتى إلى أفغانستان وردت فى مذكرة من الجنرال «ليونيد شيبارشين» الممثل الرئيسى للمخابرات السوفيتية فى كابول والمذكرة «تشير إلى اتصالات سرية يقوم بها الجنرال «حفيظ الله أمين» مع «قيادات التمرد» الإسلامى فهايتها تمكين عملاء المخابرات الأمريكية من مقادير البلاد، وتظهر بعد ذلك فى الوثائق السوفيتية رسائل من «بابراك كارميل» تشرح خطورة الأوضاع فى كابول، ثم تتحدد الخطوط أكثر فى مذكرة مشتركة قدمها إلى المكتب السياسى أربعة من أعضائه هم: «يورى أندربوف» المشرف على الأمن الداخلى، و«أندريه جروميكو» وزير الخارجية، و«ديمترى أوستينوف» نائب رئيس الوزراء وزير الدفاع، و«بوريس بوناماريوف» مسئول الشئون العقائدية. وفى هذه المذكرة أبدى الساسة الأربعة «أن الموقف فى كابول يقتضى دخول قوات من الجيش السوفيتى والإفإن أفغانستان سوف يجرى تسليمها للولايات المتحدة الأمريكية وعملائها بكل ما يعنيه ذلك من انكشاف يعرض للخطر أمن الجمهوريات السوفيتية الجنوبية (الإسلامية).

وعندما عرضت المذكرة - وهى مكتوبة بخط اليد - على اجتماع المكتب السياسى يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٩ - اعترض عليها خمسة من أعضائه وهم: «سوسلوف» - و«جريشين» - و«كيرلينكو» - و«بلش» - و«تيخونوف». وكان رئيس المكتب السياسى وهو الزعيم السوفيتي «ليونيد بريجنيف» موزعا بين الفريقين، والداعى إلى حيرته أن ثلاثة من كبار القادة العسكريين الذين حضروا اجتماع المكتب السياسى اعترضوا هم - أيضا - على إدخال الجيش السوفيتى أو وحدات منه إلى «ساحة الفوضى الأفغانية»، وكان الثلاثة هم: الماريشال «نيكولاى أوجاركوف» - والماريشال «سيرجى اخراموييف» من رئاسة أركان حرب الجيش - والجنرال «فالنتين فادينيكوف» وهو المستشار العسكرى لرئيس المكتب السياسى (زعيم الاتحاد السوفيتى).

وطالت المناقشات طوال يومى ٢٥ و٢٦ ديسمبر وعند الظهر انضم «بريجنيف» إلى معسكر الداعين للتدخل، وبانضمامه إليهم رجحت كفتهم وصدر القرار، ومع غروب مساء يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٧٩ نزلت وحدات من الجيش السوفيتى بالطائرات فى مطار «كابول»، كما أن فرقة مدرعة من هذا الجيش بدأت عبور الحدود بسرعة متوجهة إلى العاصمة الأفغانية.



وصباح يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٧٩ نزل الرئيس الأمريكي «جيمى كارتر» إلى مكتبه البيضاوى فى الساعة السادسة والنصف كما فى العادة كل يوم ليجد مستشاره لشئون الأمن القومى «زبجنيو برجينسكى» فى انتظاره بنفاد صبر، ومع أن ذلك الاجتماع الصباحى موعد مقرر كل يوم بين الرئيس ومستشاره، فإن «كارتر» كان يعرف أن أخبارا مثيرة تنتظره. فقد أيقظه «برجينسكى» من النوم فى الساعة الثانية صباحا ليخطره بأن «الجيش السوفيتى دخل أفغانستان»، وكذلك كان «كارتر» يتوقع - وقد مرت أربع ساعات ونصف على هذا الإخطار المبدئى - أن مستشاره للأمن القومى ينتظره فى المكتب البيضاوى حاملا «سيلا من التفاصيل» و«قائمة من الخيارات»: للعرض وللقرار.

....

[ومن المصادفات أننى سمعت بنفسى بعد عشر سنوات تفاصيل حوار الرئيس الأمريكى مع مستشاره للأمن القومى، وقد سمعتها من الطرف الأقدر على روايتها وهو «زبجنيو برجينسكى» نفسه، ووقتها كنا فى أحد صالونات السفارة المصرية فى موسكو ليلة ١٨ نوفمبر ١٩٨٩ - والسفير فى ذلك الوقت هو وزير الخارجية المصرى الحالى «أحمد ماهر».

وقتها كانت موسكو (أيام جورباتشوف وفترة الجلوسنوست أو الشفافية) تشهد اجتماعات مصارحة بين الروس والأمريكان، وكانت الاجتماعات تحت قيادة رجلين كلاهما يعرف الخبايا:

«أناتولى دوبرينين» السفير السوفيتى فى واشنطن لربع قرن، وهو عضو فى المكتب السياسى مع جورباتشوف - على الناحية السوفيتية.

وأما على الناحية الأخرى فقد كان «زبجنيو برجينسكى» مستشار «كارتر» للأمن القومي - هو الذى يتصدر المجموعة الأمريكية.

وكان «أحمد ماهر» بيقظة دبلوماسية مجرب قد دعا المجموعتين: الروسية والأمريكية إلى العشاء فى بيت السفارة المصرية، وكان السفير الأمريكى فى موسكو وقتها (ماتلوك) وكنت - الضيفين الوحيدين من خارج مجموعتى «المصارحة»!

وعلى مائدة العشاء دار كلام لاحظ فيه «أناتولى دوبرينين» أن الدبلوماسية فى الزمن الجديد تقتضى تشاورا مسبقا بين الأطراف لا تختفى فيه النوايا وراء العبارات المبهمة، لأننا فى عصر لم يعد فى مقدور طرف أن يخبئ فيه شيئا، وأن «الشطارة» الزائدة فى السرية كما كان فى عهود سابقة لم يعد لها لزوم؛ لأن تصرفات الأطراف فى أى أزمة تدل عليها الخيارات المفتوحة أمامهم وضمنها حسابات قوتهم. ثم إن «مناخ السرية قد يوقع الجميع وبينهم أصحابه فى خطأ التقدير وكذلك تبدأ ردود أفعال تصعب السيطرة عليها وتؤدى لأوخم العواقب»، وأشار «دوبرينين» على سبيل التدليل إلى قرار دخول الجيش السوفيتى إلى أفغانستان، وكيف أن سرية التصرف ومفاجآته أوقعت الطرف الأمريكى فى خطأ كبير عند تقدير النوايا السوفيتية، بمعنى أن السوفييت اعتبروا دخولهم إلى أفغانستان إجراءً دفاعيا محضا، لكن الأمريكان «قدروه» هجوميا وتصرفوا على هذا الأساس».





لم يكن قرار القيادة السوفيتية بدخول الجيش الأحمر إلى أفغانستان سهلا، بل كان اختيارا بالغ التعقيد فرض عليها ما لم تكن مستعدة له أو متفقة عليه





وبعد أن غادرنا مائدة العشاء وجلسنا للقهوة ومعها أحاديث السهرة، فى ركن من الصالون الرئيسى لبيت السفارة، قلت لـ «برجينسكى» ولـ «دوبريزين» معا أن حكاية الدخول العسكرى السوفيتى إلى أفغانستان والرد الأمريكى عليه واقعة مهمة فى سياق الحرب الباردة تساوى التقصى والتدقيق، ولذلك أستاذنهم فى العودة إليها.

والشاهد أننى لم أكن فى حاجة إلى أكثر من سؤال واحد وجهته لدوبرينين، ورد عليه بقوله: «صحيح مازال اعتقادى أن أصدقاءنا الأمريكان أخطأوا فى تقدير نوايانا: كان إجراؤنا دفاعيا صرفا وكان ذلك ظاهرا أمامهم، لكنهم أخذوه هجوميا وعدوانيا وكذلك فعلوا ما فعلوا»! ـ ثم كان أن «برجنيسكى» تدخل وأفاض فى الحديث ولقرابة ربع الساعة راح يتكلم ونحن جميعا نصغى دون مقاطعة (وحين حاول السفير الأمريكى «ماتلوك» أن يتدخل فى الحديث وجدتنى دون قصد أشير إليه بيدى راجيا منه أن لا يقطع تدفق الرواية واستجاب الرجل).

قال «برجنيسكى» وبأسلوبه الذى تتدافع فيه العبارات وتتماسك الألفاظ وتجيء مخارج حروفها قائمة محددة موجها كلامه فى البداية لدوبرينين:

«كيف كان يمكن لى ـ أو لغيرى ـ فجر ٢٧ ديسمبر تقدير نواياكم باعتبارها «عملا دفاعيا» ـ بينما كانت الشواهد أمامنا تقول بعكس ذلك؟

يستطرد برجنيسكى وقد عاودته حرفته القديمة أستاذا للعلوم السياسية:

● أولا: كانت الأجواء فى المنطقة شديدة التوتر بقيام الثورة الإسلامية فى إيران ونجاحها وسقوط النظام الإيرانى بكل مؤسساته: العرش والحكومة والجيش ـ فى يد آية الله الخمينى قائد الثورة الإسلامية الذى راح يهاجم أمريكا باعتبارها الشيطان الأكبر، ولم تمض أسابيع حتى أنتج التحريض أثره وإذا السفارة الأمريكية فى طهران ـ تقع تحت الحصار ويتحول كل من فيها رهائن لشباب إسلامى غاضب.

● وثانيا (موجها كلامه لدوبرينين): أنكم تدخلتم فى حرب أهلية أفغانية بين حكومة شيوعية وأغلبية من السكان مسلمة، وقد وجدناكم ذات صباح تقتحمون حدود أفغانستان وإذا القوات السوفيتية طرفا فى هذه الحرب الأهلية ـ ضد المسلمين!.

● وثالثا: فإننى شخصيا وغيرى من أعضاء مجلس الأمن القومى الأمريكى (الذى دعوته قبل اجتماعى الصباحى مع الرئيس). قدرنا أنه لا يمكن أن يكون تدخل الجيش السوفيتى نهاية النهاية فى أفغانستان، وإنما لابد أن يكون دخولكم بداية البداية.

يستطرد «برجينسكى»:

«وعندما جلسنا أمام الرئيس «كارتر» صباح ٢٧ ديسمبر سألنى عن تقديرنا لنواياكم وقلت له:

«سيادة الرئيس نحن أمام جيش سوفيتى يزحف جنوبا فى أفغانستان ـ وأفغانستان هى أقرب طريق للسوفييت إلى المحيط والخليج، ونحن لا نستطيع على الإطلاق وبضمير مستريح أن نقطع بأنهم لن يذهبوا إلى أبعد من أفغانستان. وحتى من أفغانستان فإنهم اقتربوا أكثر مما ينبغى من المياه الدافئة للمحيط الهندى ومن منابع النفط فى الخليج وذلك يدعونا إلى التصرف وتصرفنا يكون له هدفان:

الهدف الأول: وقف السوفييت لا يتقدمون بعد أفغانستان.

والهدف الثانى: إرغامهم على التراجع والخروج من أفغانستان.

وبصراحة فإننى قلت للرئيس أيضا:

«سيادة الرئيس إن الروس وقعوا فى فخ. وتلك فرصتنا كي نرد لهم جميل فيتنام، ولذلك يتعين علينا أن نعمل على سد الطرق أمامهم بحيث تتحول أفغانستان إلى مصيدة لا يخرجون منها إلا بفضيحة تهز هيبة الدولة السوفيتية وتكسر شوكتها».

الورقــة السابعــة:

أنجـــح عمليـــة مخـــابرات فـى القــــرن العشـــرين

في الساعة الثانية من صباح يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩ انعقد مجلس الأمن القومى بحضور الرئيس «كارتر» لبحث «الدخول العسكرى السوفيتى فى أفغانستان واستعراض الخيارات المفتوحة أمام الولايات المتحدة للرد عليه».

وكانت جلسة مجلس الأمن فى الواقع حوارا نشيطا بين مستشار الرئيس للأمن القومى «زبجنيو برجينسكى» وبين الأميرال «ستانسفيلد تيرنر» مدير وكالة المخابرات المركزية، وطبقا للوثائق الأمريكية ـ وضمنها مذكرات «كارتر» ووزير الخارجية «سايروس فانس» (ومذكرات برجينسكى نفسه) فإن اجتماع مجلس الأمن القومى استقر على الخطوط التالية:



١ ـ أن ما عرضه مستشار الأمن القومى وما توافر لدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ووكالة الأمن القومي ومخابرات وزارة الدفاع تقطع كلها بأن حجم التدخل العسكرى السوفيتى فى أفغانستان كثيف، وبالتالى فإنه «ضمن الاحتمالات التى لا يمكن استبعادها أن يكون الهدف التالى لهذه القوات عملا سوفيتيا فى اتجاه الخليج حتى بحر العرب والمحيط الهندى، وذلك تهديد للمصالح القومية الأمريكية».

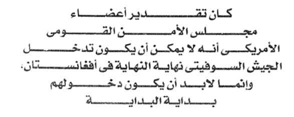
٢ ـ أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتدخل علنا ضد السوفييت فى أفغانستان لأنها لا ترتبط مع هذا البلد بأى اتفاقيات دفاع مشترك، ثم إن تدخلها الصريح حتى مع تجاوز الاعتبارات القانونية، يمكن أن يؤدى إلى صدام مباشر مع الاتحاد السوفيتى ويمكن أن يستفز من ردود الفعل السوفيتية، مما يجعل الخطر على الخليج (حتى بحر العرب والمحيط الهندى) محققا وليس محتملا فقط.

٣ ـ أن الولايات المتحدة مدعوة إلى تعزيز وجودها المسلح فى الخليج، تحسبا لكل الاحتمالات، ولذلك فإن سفراءها المعتمدين عليهم الآن أن يطلبوا من «الأطراف المحليين» أن يسمحوا بهدوء وبغير صخب إعلامى ـ بتفعيل تفاهمات واتفاقيات سابقة فى التعاون العسكري مع الولايات المتحدة.

٤ ـ أن الولايات المتحدة عليها أن تشجع عناصر المقاومة فى أفغانستان على تكثيف نشاطها بما يمكنها من تعطيل الجيوش السوفيتية، ثم الانتقال من حرب التعطيل إلى حرب التوريط ـ أى حرب استنزاف ترغم السوفييت فى النهاية على الانسحاب من أفغانستان عسكريا فى ظروف غير ملائمة سياسيا.

٥ ـ وبما أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تظهر فاعلا رئيسيا فى النشاط العسكرى المعادى للسوفييت فى أفغانستان ـ حتى لا يؤدى ذلك إلى صدام مسلح بين القوتين ـ فإن عليها (الولايات المتحدة) أن تجد قيادة بديلة لهذه الحرب الخفية فى أفغانستان، ولابد أن تكون لهذه القيادة أهلية تعطيها نوعا من مشروعية «التدخل عمليا» ضد السوفييت فى أفغانستان.

٦ ـ بما أن المقاومة الأفغانية التى أدى نشاطها إلى خلخلة الأوضاع فى أفغانستان بما أوصل إلى التدخل السوفيتى مقاومة إسلامية، فإنها لابد أن تستمر كذلك وتتصاعد باستنفار كافة أصدقائها ومناصريها فى العالم الإسلامى



كان تقدير أعضاء مجلس الأمن القومى الأمريكى أنه لا يمكن أن يكون تدخل الجيش السوفيتى نهاية النهاية فى أفغانستان، وإنما لابد أن يكون دخولهم بداية البداية





والدول الإسلامية، والوصول فى ذلك إلى حد تكوين تحالف إسلامي واسع يحمل عبء محاربة ضد السوفييت فى أفغانستان.

٧ـ وهذه المقاومة لابد لها من مصدر سلاح وذخيرة لا ينقطع، وحين سأل أحد الحاضرين عن مصدره كان الرد عليه (من برجينسكى): لابد أن نحصل عليه من أي مكان، نشتريه، نستأجره، نسرقه إذا أدى الأمر.

٨ـ ومن الأفضل أن يكون السلاح سوفيتي الصنع حتى يصعب اتهام الولايات المتحدة بأنها مصدره، وذلك يعطيها فرصة أن تقول للسوفييت إذا سألوها، إن هذا سلاح سوفيتي تحصل عليه المقاومة الإسلامية من الاتحاد السوفيتي أو قواته فى أفغانستان «أى من عندهم»!

٩ـ إن المملكة العربية السعودية قدمت من قبل دعمها إلى العناصر الإسلامية فى أفغانستان، وفيما تقول به التقارير، فإن المملكة العربية السعودية التى تشعر الآن بضغط الثورة الإسلامية فى إيران عليها، وترى أن سقوط الملكية فى إيران نذير شؤم للأسرة الحاكمة ـ على استعداد لأن تتخلى عن حذرها التقليدى وتوظف «موارد المملكة المعنوية والمادية» فى «جهاد إسلامى مقدس ضد الإلحاد السوفيتي، وإذا تحمست المملكة للدعم فإن السلاح يمكن ضمانه بالشراء من مصادر عديدة (والمال عصب كل أنواع الحروب بما فيها الجهاد الإسلامي!).

١٠ـ ومن باب الاحتياط لاحتمال أن تتحرج المملكة «بترددها الدائم» فى الخروج وحدها إلى هذا الجهاد المقدس، فإنه من الضرورى تدعيمها مبكرا بشراكة إسلامية واسعة راسخة وقوية، بحيث يكون من ذلك إغراء لها بدور قيادى على رأس تجمع إسلامى يخوض «الجهاد» دفاعا عن الدين والشرع.

والسعودية فى الواقع جاهزة لهذا الدور إذا وجدت تشجيعا عليه؛ لأن الثورة الإيرانية حركت قلقا إسلاميا فى المملكة وتظهر فى وسطه قيادات متشددة من الوهابيين الذين علا صوتهم بالنقد لتصرفات الأسرة الحاكمة فى ثروة المملكة، كذلك فإن الثورة الإيرانية كان لها ردود فعل فى المناطق الشرقية من المملكة وهى مناطق شيعية المذهب وعلاقتها بالنظام من الأصل متوترة.

....

....

[ولم أكن أتصور درجة عداء الوهابيين للمذهب الشيعي حتى لقاء مع الملك فيصل فى فندق فلسطين بالإسكندرية فى شهر يونية ١٩٧١، وخلال حوار طال أكثر من ساعتين سمعت الملك فيصل يمتدح شاه إيران «محمد رضا بهلوى» بحرارة ويستفيض فى وصفه كرجل ذكى و«مقدام» ثم يستدرك فجأة قائلا بالحرف:

«لا عيب فيه ـ طال عمرك ـ إلا أنه شيعى»!]

....

....

١١ـ أن مصر يمكن إقناعها بأن تتقدم سندا قويا للسعودية فى «تدخل إسلامى معاد للسوفييت فى أفغانستان»، والرئيس «أنور السادات» متحفز فى أي وقت للعمل ضد الاتحاد السوفيتي وهو بالفعل منهمك فى نشاطات متنوعة فى هذا الاتجاه بموجب اتفاق «نادى السافارى» الذى يضم السعودية ـ والمغرب ـ وإيران ـ ومصر ـ وفرنسا، ومع أن تجمع السافارى يركز نشاطه على أفريقيا ـ فإنه ليس صعبا إقناع الرئيس السادات بفتح جبهة أخرى لهذا النشاط يقوم عليها عمل جهادى ضد السوفييت فى أفغانستان.

وهناك مغريات إضافية تقنع الرئيس السادات بذلك:

ـ أن الثورة الإسلامية فى إيران تشغل باله (أى الرئيس السادات) خشية زيادة نفوذ الجماعات الإسلامية فى مصر ولو بالعدوى. وهو (أى الرئيس السادات) غاضب من الثورة الإيرانية لأنها أنهت حكم أسرة «بهلوى» وعزلت صديقه «محمد رضا بهلوى» شاه إيران.

ـ أن الرئيس السادات راغب إلى أقصى درجة ـ وإلى آخر حد فى التعاون مع الولايات المتحدة عن اعتقاد لديه من أيام إدارة نيكسون وكيسنجر بأن «٩٩٪ من أدوار حل قضية الشرق الأوسط فى يد الولايات المتحدة وحدها». وهو لم يقصِّر فى إعلان ما يعتقده ولا فى التصرف على أساسه.

....

....

[وكانت هذه العلاقة بين الرئيس «السادات» وبين شاه إيران من مفارقات السياسة المصرية وعجائبها ـ! ـ ذلك أن شاه إيران كان ـ باستمرار وبغير انقطاع ـ أقرب الأصدقاء إلى إسرائيل، كما أن بترول إيران كان وقود أسلحة الجيش الإسرائيلى فى البر والجو والبحر طول معارك السويس ١٩٥٦، وسيناء ١٩٦٧، والاستنزاف ١٩٦٨ إلى ١٩٧٠، والعبور سنة١٩٧٣.

ولكن الرئيس «السادات» روى فى معرض دفاعه عن استضافته لشاه إيران فى مصر بعد طرده من الولايات المتحدة الأمريكية ـ وليس فقط من إيران ـ بقوله: «إنه استضاف شاه إيران حتى يرد له جميلا سبَّق به «الرجل» إلى مساعدة مصر وتمثل بشحنة بترول كان المجهود الحربى ـ فى أكتوبر ١٩٧٣ ـ يحتاجها وطلبها (الرئيس السادات) من شاه إيران، فقام الشاه بتحويل إحدى ناقلات البترول الإيرانية بكامل حمولتها من عرض البحر إلى مصر بدلا من وجهتها الأصلية.

وتلك واقعة فيها من العواطف أكثر مما فيها من الحقائق (فيما أعرف عن مسار الحرب وقد كنت قريبا منه، مقيما طول الوقت تقريبا فى قصر الطاهرة الذى كان الرئيس السادات يمارس منه قيادته، كذلك لا يظهر للواقعة أثر فى الملفات الرسمية ذات الصلة، وقد بحثت فيها زيادة فى طلب التأكيد)، والأرجح أن الرئيس السادات كان يحاول البحث عن ذريعة لاستضافة الشاه، ومع أن الذريعة الإنسانية كانت تكفيه إلا أنه قصد فى مواجهة المناخ المتعاطف مع الثورة الإيرانية ذلك الوقت، أن يستدعى الوطنية المصرية لتسهيل قبول قراره باستضافة الشاه.

والمدهش فى الأمر أن إطار الواقعة مستعار من قصة حقيقية جرت سنة ١٩٦٥ أثناء الخلافات بين مصر والولايات المتحدة على اتفاقيات توريد القمح بمقتضى القانون رقم ب. ل ٤٨٠، وذلك أنه فى نهاية صيف ذلك العام أوقفت واشنطن شحنات القمح إلى مصر، وطلبت مصر شراء قمح سوفيتي، ولم يكن لدى الاتحاد السوفيتي فائض، لكن رئيس الوزراء «اليكسى كوسيجين» بعث يقول: «إن المحصول السوفيتي من الحبوب هذه السنة جاء أقل من المتوقع، مما اضطر الاتحاد السوفيتي أن يدخل سوق القمح مشتريا من السوق الكندى، لكنه بالنظر إلى تعرض مصر لضغوط أمريكية، فإن القيادة السوفيتية أمرت بتحويل شحنات قمح مشتراة للاتحاد السوفيتي إلى مصر، وسوف تتوجه البواخر الحاملة للقمح وهى الآن فى المحيط الأطلسى إلى ميناء الإسكندرية على البحر الأبيض بدلا من الذهاب إلى ميناء «أوديسا» على البحر الأسود!».

وهذه الواقعة منشورة فى وقتها ـ معلنة ومسجلة (الصفحة الأولى من الأهرام، العدد الصادر صباح ٢٥ يونية ١٩٦٥).

ويظهر أن الرئيس «السادات» فى رغبته لمساعدة شاه إيران، استعار له مشهدا من قصة العلاقات المصرية ـ السوفيتية وأعاد صياغته بما يناسب هواه فى ظرف مختلف.

وذلك مسلك يستطيع علم النفس تفسيره فى «حالة» تقوم فيها «الرغبة» باستعارة مشهد من واقعة حقيقية وتقوم بـ: «تلبيسه» على واقعة أخرى ـ وهو نوع من إعادة تركيب الصور وتوظيف قدرتها على خلق الانطباع (حتى وإن كانت الصورة مركبة!)]

....

....

وعلى أى حال فقد انتهت مداولات مجلس الأمن القومى الأمريكي برئاسة «جيمى كارتر» صباح ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩ بتوجيه رئاسى يقضى بـ:

«أن يتوجه مستشار الرئيس للأمن القومي «زبجنيو برجينسكى» إلى منطقة الشرق الأوسط بادئا بالقاهرة لمقابلة الرئيس «أنور السادات» والبحث معه فى تنظيم جهد إسلامى شامل يساند المقاومة الإسلامية الأفغانية فى مواجهتها لجيش الاحتلال السوفيتي، ثم يتوجه مستشار الأمن القومى

كانت العلاقة بين الرئيس «السادات» وبين شاه إيران من مفارقات السياسة المصرية وعجائبها، ذلك أن شاه إيران باستمرار وبغير انقطاع أقرب الأصدقاء إلى إسرائيل، كما أن بترول إيران كان وقود أسلحة الجيش الإسرائيلي فى كل حروبه ضد العرب





بعد القاهرة إلى الرياض لمقابلة الملك خالد وولى العهد الأمير «فهد» ووزير الدفاع الأمير «سلطان» ويجرى معهم محادثات تضمن حشد موارد السعودية ونفوذها لقيادة «جهاد إسلامى» ضد الشيوعية فى أفغانستان، وإذا نجح «برجينسكى» فى مهمته مع الرئيس السادات فإنه يستطيع أن ينقل إلى القادة السعوديين ما يطمئنهم إلى أنهم ليسوا وحدهم (فى ساحة الجهاد)».

«وأخيرا يتوجه مستشار الأمن القومى إلى باكستان ليقوى موقف الحكومة فيها بموارد السعودية ونفوذها - وبنقل مصر ووسائلها - وحتى تثق هذه الحكومة فى إسلام آباد أنها سوف تكون وسط عمل إسلامى يلتف فيه من حولها ويجمع على أرضها قوى الإسلام وإمكانياتها».

وكان ذلك حلم باكستان الذى بدا بعيد المنال - والآن أصبح فى متناول اليد!

وطوال الأسبوع الأول من شهر يناير ١٩٨٠ كان «زبجنيو برجينسكى» مستشار الرئيس «جيمى كارتر» للأمن القومى فى زيارة سرية ممتدة للشرق الأوسط.

يوم ٣ يناير قابل الرئيس «أنور السادات» لمدة ثلاث ساعات ونصف الساعة، وفى اليوم التالى ٤ يناير كان فى جدة يقابل الأمير «فهد» والأمير «سلطان»، ويوم ٥ يناير وصل «برجينسكى» إلى إسلام آباد ليرتب الأرضية للجهاد باسم الإسلام ضد الإلحاد.

لكن العملية كما اتضح الآن كان وراءها أكثر مما ظهر منها - لأن الجهاد الإسلامى الذى أعلن ضد الاتحاد السوفيتى لم يكن رد فعل طبيعيا لدخول الجيش السوفيتى، وإنما كان: خطوة وسط سياق جرى قبلها واستمر بعدها:

- كانت الخطوة الأولى قرارا أمريكيا بإزعاج السوفييت فى جمهورياتهم الجنوبية من قواعد فى أفغانستان.

- والخطوة الثانية تصعيد هذا النشاط وتكثيفه إلى درجة تضطر السوفييت إلى التدخل العسكرى.

- وأخيرا تجىء الخطوة الثالثة وهى إعلان الجهاد عندما يقع الدخول السوفيتى المأمول والمطلوب.

وذلك سياق الحقائق التى تكشف أخيرا أن «برجينسكى» كان يتستر عليها بأستار سميكة من الغموض، لكنه أخيرا فتح خزائن ذاكرته (وأوراقه) واعترف فى حديث طويل مع المجلة الفرنسية «لانوفيل أوبسرفاتور» اعترافا كاملا وافيا - وقد جرى الحديث بالنص التالى:

[سؤال: إن المدير السابق لوكالة المخابرات الأمريكية «روبرت جيتس» كتب فى مذكراته التى صدرت أخيرا بعنوان «من الظلال» أن المخابرات الأمريكية بدأت تساعد «المجاهدين» فى أفغانستان بشكل مكثف قبل ستة شهور من دخول الجيش السوفيتى إلى ذلك البلد، وقد كنت أنت فى تلك الأيام مستشارا للأمن القومى لرئيس الولايات المتحدة، ومعنى ذلك أنك تعرف وأنه كان لك دور، فهل ما ذكره «جيتس» صحيح؟

برجينسكى: نعم. طبقا لما تقول به السجلات الرسمية، فإن الولايات المتحدة لم تدخل بثقلها فى أفغانستان إلا سنة ١٩٨٠ بعد أسابيع من دخول القوات السوفيتية إلى كابول، لكنه فى التاريخ الحقيقى (بصرف النظر عما تقول به السجلات) فإن التدخل الأمريكى لمساندة «المجاهدين» بدأ قبل ذلك بستة شهور.

إننى يوم ٣ يوليه سنة ١٩٧٩ عملت على إصدار توجيه رئاسى من «كارتر» بتقديم كل المساعدات الممكنة إلى العناصر المعادية للسوفييت فى كابول، وفى ذلك اليوم كتبت للرئيس مذكرة قلت فيها: «إن موقف السوفييت يزداد صعوبة فى أفغانستان مع كل يوم، وأعتقد أننا إذا رفعنا الضغط درجة، فاعتقادى أن الاتحاد السوفيتى سوف يرغم على التدخل عسكريا ومباشرة فى أفغانستان».

سؤال: معنى ذلك أنك فعلت ذلك عامدا لاستفزاز السوفييت؟

برجينسكى: ليس بالضبط، نحن لم نقم بـ «زق» الروس حتى يتدخلوا، ولكننا عارفين بما نفعل - رفعنا درجة احتمال تدخلهم - وقد حصل.

سؤال: هل معنى ذلك أن الروس كانوا على حق فى تبرير دخولهم إلى أفغانستان على أساس أنهم اضطروا إليه لمواجهة عملية سرية تقوم بها الولايات المتحدة ضدهم؟ كانوا يقولون ذلك ولم يكن أحد يصدقهم والآن يظهر أن فيما قالوه شيئا من الحقيقة، وذلك أمر يدعو إلى الأسف!

برجينسكى: الأسف على ماذا؟ أن العملية السرية التى قمنا بها كانت فكرة رائعة، لقد أدت إلى دخول السوفييت فى فخ تمنينا أن يدخلوا فى مثله وقد دخلوا، فهل تريدون أن أقول لكم أننى آسف على مخطط وضعناه ونفذناه ونجح بامتياز؟

يوم تدخل الروس بجيشهم فى أفغانستان كتبت للرئيس «كارتر» مذكرة قلت له فيها: «إن أمامنا الفرصة الآن لكى نجعل الاتحاد السوفيتى يذوق مرارة الكأس التى شربناها فى فيتنام، والحقيقة أننا ولمدة عشر سنوات جعلنا الروس ينزفون دما ولا يستنزفون جهدا فقط: فهم حين دخلوا أضروا باقتصادهم وأرهقوا سلاحهم وأضعفوا معنويات جنودهم وأضروا بهيبتهم، وذلك أدى فى النهاية إلى تمزق الإمبراطورية السوفيتية.

سؤال: هل تعرف أن ذلك معناه أنكم أعطيتم السلاح للإرهابيين الذين أصبحوا أعداء لكم؟ ... أنكم خلقتم بذلك صورة الإسلام الإرهابى.

برجينسكى: أيهما أفضل للغرب: انهيار الاتحاد السوفيتى، أو ممارسة الإرهاب بواسطة بعض الجماعات الإسلامية؟ أيهما أخطر على الغرب: طالبان أو الاتحاد السوفيتى؟

سؤال: لكن الإرهاب الإسلامى يمكن أن يتحول إلى موجة عالمية؟

برجينسكى: هذا كلام فارغ، يخلط بين الإسلام وبين ظواهر العولمة، لننظر إلى الأحوال الإسلامية بدون تهييج، هناك دين له احترامه وله أتباع يقدر عددهم بمليار ونصف المليار من الناس، لكن الدين لا يجمع هؤلاء سياسيا فى التحليل الأخير. ما الذى يجمع مسلما أصوليا من السعودية، أو مسلما عسكريا من باكستان، أو مسلما معتدلا من المغرب، أو مسلما متعلما من مصر، أو مسلما قبليا من وسط آسيا؟ - لا شىء يجمع هؤلاء إطلاقا، لا يجمعهم إلا ما يجمع المسيحيين فى العالم وهو فى الواقع لا شىء!]

هكذا تكلم الرجل الذى «صمم» و«هندس» «مشروع الجهاد الإسلامى فى أفغانستان» - متواصلا فيه مع استراتيجية أمريكية ثابتة جرى وضعها من قبل زمنه وزمن رئيسه «جيمى كارتر» - بهدف كسب معركة كان عليها أن تدور فى أفكار الناس وعقولهم، والهدف أن تتفوق الرأسمالية الأمريكية ومثالها - الإمبراطورى.



وتلك معركة بدأها «دوايت أيزنهاور» (ومعه الأخوان فوستر وآلان دالاس) - وواصلها «جيمى كارتر» (ومعه برجينسكى وستانسفيلد تيرنر) - وأخيرا وصلت المعركة إلى «جورج بوش» (ومعه دونالد رامسفيلد وكونداليزا رايس)، وكان وصولها إلى «بوش» فى ظروف متغيرة ذابت فيها ثلوج كثيرة فوق جبال أفغانستان، وذابت قربها إمبراطوريات.

وكان الدفتر الأول من دفاتر الأزمة قد بلغ آخره وانطوى، وانفتح غلاف دفتر ثان على بقية لمعركة إطلاق الأفكار قبل إطلاق النار - على أن إطلاق النار فى الدفتر الجديد جاء أكثر من إطلاق الأفكار!

وكان الدفتر الأول تسجيلا لتطور العمليات - لكن الدفتر الثانى يجىء ومعه نتائج الحسابات وهى خسائر على طول الخط وحريق «فى المخازن» - كما هى العادة مع الخسائر حين يريد «بعضهم» إخفاء مسئوليته عنها - بالإهمال أو بالجريمة - وتحويل الدفاتر والأوراق من شاهد صادق وأمين إلى رماد صامت وحزين ينتظر هبة ريح تطويه فى النسيان! ■

تقول السجلات الرسمية
أن الولايات المتحدة
لم تدخل بثقلها فى أفغانستان
إلا سنة ١٩٨٠ بعد أسابيع
من دخول القوات السوفيتية
إلى كابول، لكن الحقيقة
أن التدخل الأمريكى لمساندة
«المجاهدين» بدأ قبل
ذلك بستة شهور

قراءة..
على هوامش
الحدث الأفغانى

طارق البشرى

إذا نظرنا إلى الملامح العامة للربع الأخير من القرن المنقضى، نلحظ أن ثلاثة أحداث دولية كبيرة حدثت، وكانت لها آثار ممتدة على الساحة العالمية، وكلها حدثت فى السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين.

أهم هذه الأحداث بطبيعة الحال هو انهيار الاتحاد السوفيتى والكتلة الاشتراكية، وانتهاء نظام الثنائية الدولية والحرب الباردة بين القطبين العالميين، وأدى ذلك بالولايات المتحدة إلى السعى لفرض هيمنتها المنفردة على العالم، وظهور ما عرف باسم «النظام العالمى الجديد» والترويج لمفهوم العولمة الذى يسعى لا لفتح الحدود الدولية فقط، ولكن لإزالتها وكسحها كسحًا، وخاصة بالنسبة لما جرى التعارف على تسميته بدول العالم الثالث.

ومع الدفقات الإعلامية والفكرية والسياسية التى راج بها مفهوم العولمة، انطمس فى المقابل مبدآن دوليان جوهريان، كانا هما أقوى ركنين تعتمد عليهما فى الساحة الدولية حركات شعوب «العالم الثالث» وحكومات هذه الشعوب، هذان المبدآن هما: مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها، ومبدأ عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول. وقد صرنا الآن لا نكاد نرى أو نسمع أيا من هاتين العبارتين فى أى مقروء أو مسموع من الصحف والكتب الحديثة والخطب والمؤتمرات والتصريحات، وذلك فى السنوات العشر الأخيرة، رغم أنهما عبارتان كانتا تملآن أسماعنا وأبصارنا لعشرات السنين منذ بداية القرن العشرين.

والحادث الثانى هو حرب الخليج فى ١٩٩٠ و ١٩٩١، والتى جرت بمناسبة اجتياح العراق للكويت، والتى انتهت بالاحتلال العسكرى للولايات المتحدة للخليج العربى، واستقرار وجودها الجهير فى أرجائه. واتسم هذا الحادث بأمرين هامين، أولهما أنها كانت المرة الأولى التى تضربنا فيها الولايات المتحدة الأمريكية بنفسها، فلم يحدث قبلها فى الوطن العربى أن استخدم السلاح الأمريكى بالأيدى الأمريكية لضرب بلد عربى، كان يستخدم من قبل عن طريق الصهاينة، وكان يستخدم عن طريق الصراعات الداخلية، ولكن التدخل الأمريكى المباشر فى حرب صريحة ضد بلد عربى، وتضرب بنفسها شعبًا عربيًا مسلمًا، فقد كان ذلك هو الحادث الأول، إن لم تخطئ الذاكرة، وثانى الأمرين: أنها كانت فى ظنى المرة الأولى أيضًا التى تجتمع فيها دول الغرب ذات الثقل على ضرب بلد عربى أو إسلامى بغير تعارض ذى شأن بين مصالح هذه الدول وبغير اختلاف فى السياسات يصل إلى حد التعارض إزاء حرب ساخنة. وذلك كله منذ اجتمعت الدول الأوروبية الكبرى ضد محمد على فى ١٨٤٠.

والحادث الثالث: هو هذا الحادث الأخير الذى نعيشه فى هذه الأيام، وهو العدوان الأمريكى على أفغانستان. وهو يفوق أحداث ٩٠-١٩٩١ فى أنه عدوان يفتقد المبرر المعنوى الذى توافر فى الحرب ضد العراق تحت ذريعة اجتياحها للكويت وانقسام العرب وتأييد الكثير من دولهم لصد العدوان العراقى على الكويت، لأن الحرب ضد أفغانستان قامت دون أن تقدم الولايات المتحدة الأمريكية أى دليل على من هو المسئول عن حوادث التفجير التى جرت فى نيويورك وواشنطن فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فنحن هنا أمام حادث عدوان صريح يفتقد المبرر المقنع، ولم تعتن الولايات المتحدة بأن تقدم أى دليل يسوغ فعلتها أمام الشعوب المحيطة بأفغانستان والشعوب الإسلامية بعامة، واكتفت بأن تنظم أمورها مع حلفائها من دول الغرب الكبيرة ومع روسيا ومع ضمان حياد الصين.

على أن ثمة فارقًا بين حادث الخليج فى ٩٠-١٩٩١ وبين حادث أفغانستان فى ٢٠٠١، الحادث الأول كان مفرقًا للعرب، أما الحادث الأخير فهو صار موحدًا للمسلمين، الحادث الأول قسمنا شعوبًا ورأيا عاما، أما الحادث الأخير فقد أشعرنا بالانتماء الواحد وبوحدة المصير إزاء الجبروت الأمريكى. الحادث الأول تضمن فى طياته مبررات انضمام قسم كبير من حكوماتنا إلى أمريكا دفاعًا عن الكويت، أما الحادث الأخير فقد افتقد هذا المسوغ، فلم تستطع أى من حكومات العرب والمسلمين أن تقف مع الولايات المتحدة فى حربها، فيما عدا حكومة تركيا وفيما عدا باكستان، كما أن الموقف السلبى للحكومات العربية والإسلامية كشف قدرًا غير خاف من الوهن والاسترخاء أمام شعوبها دون مسوغ منها. أما باكستان فهى فى وضع اشتباك غير عادى مع الأحداث، بحيث إنها الآن فى مجال اعتبارها أمة تتمزق بين التشابك العرقى والثقافى لشعبها مع الأفغانيين وبين التورط الحكومى لها مع الأمريكيين لاعتبارات تتعلق بالتنافس مع الهند على صداقة الأمريكيين.

نحن لا نعرف ما ستنتهى إليه الأوضاع فى هذه الحرب الأخيرة، وأن أحداثها كل أحداثها لاتزال فى طور التشكل، ولكن أمامنا الآن عددًا من الاعتبارات ينبغى أن نضعها تحت بصرنا لنتابع مآلاتها فى المستقبل القريب، ولنرى ما هى الدروس التى يمكن أن نستفيدها من هذا الذى يجرى أمامنا.



أولا:

نحن نلحظ أولاً، أنه رغم ما يبدو على السطح من ضعف العرب والمسلمين وأن «الأكلة يتداعون على قصعتهم» حسبما ورد فى الحديث النبوى الشريف، إلا أن الأحداث السياسية الكبرى فى ربع القرن المنصرم، وحتى الآن، نجد العرب أو المسلمين هم طرف فيها، وأحداث القتال والحركات الشعبية التى لا تهدأ، نجد العرب والمسلمين هم طرف فيها، كانوا هم طرف الصراع وموضوعه أيضًا. وحرب الخليج فى ٩٠-١٩٩١ كانت كذلك، وهذه حرب الأفغان فى ٢٠٠١ هى كذلك، ومن قبلها هزيمة المصريين والعرب فى ١٩٦٧ كانت كذلك وانتصار ١٩٧٣ كان كذلك أيضًا، وثورة إيران فى ١٩٧٩ هى كذلك، وأحداث البوسنة والهرسك ثم أحداث كوسوفو فى منتصف التسعينيات هى كذلك، ناهيك عن الانتفاضة الفلسطينية الأولى فى ١٩٨٧، ثم الانتفاضة الفلسطينية الثانية فى سبتمبر ٢٠٠٠ وهكذا فإن حدثين من الأحداث الثلاثة الكبرى فى ربع القرن الأخير - التى ذكرتها فى بداية الحديث - المسلمون والعرب طرف فيه، وأن الحدث الثالث وهو انهيار الاتحاد السوفيتى كان المسلمون فى أفغانستان من أهم عناصر تحققه بما خاضوه من حروب المقاومة ضد الاحتلال السوفيتى على مدى عشر سنوات، وأن صلة العرب بغير العرب من المسلمين تحققت على أرض أفغانستان، فى المرة الأولى عندما شاركوا فى حروب المقاومة ضد الاحتلال السوفيتى فى أفغانستان، وفى المرة الثانية عندما توجه الحرب الأمريكية الجارية الآن ضد الأفغان ومن آووا إليهم من تنظيمات العنف العربية، وعندما يثير هؤلاء «العرب الأفغان» شعارات تحرير فلسطين من الصهيونية، وتحرير الأرض المقدسة فى الجزيرة العربية من الاحتلال العسكرى الأمريكى.

ونحن نلحظ ثانيًا، أنه إذا كنا نعرف باليقين أو بالظن الراجح، أنه لا يمكن مثلاً عزل السياسات المصرية عما يدور فى «بر الشام» أى فى فلسطين وسوريا ولبنان، وذلك سواء نظرنا إلى التاريخ الحديث، أو عدنا إلى التاريخ الوسيط، وكذلك إذا نظرنا إلى أوضاع التاريخ والجغرافيا السياسية لمنطقة وسط آسيا، نجد أنه بذات الدرجة من الظن أو اليقين لا يمكن عزل السياسات الباكستانية عما يدور فى أفغانستان ويمكن أن نستدعى فى ذلك حادث سقوط طائرة الرئيس الباكستانى الأسبق ضياء الحق واغتياله والتضحية فى الحادث بالسفير الأمريكى الذى كان مرافقًا له، وذلك لما عرف وقتها من إزماعه إنشاء وحدة فيدرالية بين البلدين، كما يمكن أيضًا أن نتابع دور باكستان فى المساعدة وحشد المقاومة الأفغانية ضد الاحتلال السوفيتى طوال عقد الثمانينيات، ثم المؤازرة الباكستانية لحركة طالبان فى سيطرتها على الحكم ضد الشماليين، ثم فى استقرار الأوضاع الأفغانية حتى جرت الأحداث الأخيرة.

وفى هذا الصدد، فى معرض المقارنة بين السياسات الباكستانية والأفغانية، وبالنظر إلى الحادث الأخير، نلحظ أن باكستان بطبيعة الحال أكثر تقدمًا من أفغانستان وأكثر قوة عسكرية وقوة اقتصادية، وأن لديها قنبلة ذرية مما يدخلها فى مصاف دول معدودة للغاية فى العالم كله. ودولتها أكثر

نحن لا نعرف ما ستنتهى إليه الأوضاع في هذه الحرب الأخيرة، وأن أحداثها كل أحداثها لاتزال في طور التشكل، ولكن أمامنا الآن عدداً من الاعتبارات ينبغى أن نضعها تحت بصرنا لنتابع مآلاتها في المستقبل القريب، ولنرى ما هى الدروس التى يمكن أن نستفيدها من هذا الذى يجرى أمامنا



تماسكًا وأصلب عودًا من مثيلتها في أفغانستان، ولكن الغريب أن التقدم والقوة العسكرية والاقتصادية وتماسك الدولة وصلابتها، كل ذلك كان يتناسب تناسبًا عكسيًا مع القدرة على المحافظة على استقلال الإرادة السياسية عندما ضغطت الولايات المتحدة الأمريكية على كل من البلدين، إن إرادة الدولة الباكستانية انهارت في يوم أو يومين من الضغط الأمريكى عليها، بينما صمدت الإرادة الأفغانية واستعصت حتى جرى القتال والتدمير، ولاتزال ثمة ملامح صمود ومقاومة بعد ضرب وغزو وتدمير هائل، وباكستان إزاء أفغانستان لا تتعامل مع مجرد بلد مجاور، ولكنها تتعامل مع بلد يتضمن العمق الاستراتيجى لأمنها القومى، والشأن الأفغانى بالنسبة لها هو شأن الأمن القومى الباكستانى.

والعجيب أن حكومة باكستان بررت هذا الخور السريع المفاجئ في إرادتها السياسية بأنها هددت بضرب المفاعل الذرى لديها، وأنها خضعت للإرادة الأمريكية حرصًا على المحافظة على هذا المفاعل. وبهذا صار السلاح النووى ليس سلاحًا يحمى الدولة، ولكنه صار «نقطة ضعف» أو «كعب أخيل» يتعين على الدولة أن تحميه. وهذه مفارقة تظهر أن القوة والضعف ليسا أثرًا لنوع السلاح المملوك، وأن السلاح النووى ليس بذاته قوة سياسية رادعة أو حارسة، وأنه يتحول إلى عبء على حامله، وذلك واضح في الدول التى انشقت على الاتحاد السوفيتى وهى حائزة لهذا السلاح النووى، ولم تظهر لها أية قوة سياسية تتناسب مع أهمية هذا السلاح، (مثل بعض الجمهوريات الحديثة في وسط أوروبا ووسط آسيا).

وفى مقابل هذا الوضع الباكستانى، نلحظ أن الموقف الأفغانى قد تناسب تناسبًا عكسيًا أيضًا مع ما يعتبر تقدمًا ماديًا وقوة عسكرية وصلابة دولة حديثة، وأن مقاومة شعب فيتنام للاحتلال الأمريكى في أواخر الستينيات كان مثلاً على ذلك وسابقة له، ثم هذه العبارة التى وردت على لسان الملك فيصل ملك السعودية بعد حرب ١٩٧٣ بأنه وبلاده مستعدان أن يعودا إلى «التمر» إذا لم يخلص القدس من أيدى الصهاينة وتعود لأيدى العرب، وقد اعتبرت الدوائر الصهيونية والأمريكية أن في هذه العبارة تهديدًا لا يطاق، وما لبث الملك فيصل أن اغتيل، وهذه الحكمة التى وردت على لسان كارل ماركس عندما أراد أن يحرض الطبقة العاملة ضد ذوى السطوة والسلطان والمال والجاه والسلاح فقال للعمال: إنهم ليس لديهم ما يفقدونه إلا القيود. هذه الحكمة هى أكثر ما ينطبق ويفسر ما نشير إليه الآن.

ثانيــــــــــــــا:

وملاحظة أخرى تتراءى من أن البلدين اللذين عرفنا لهما مقاومة شعبية فاعلة ومنتجة وناجحة في ربع القرن الأخير، كانا هما أفغانستان ضد الاحتلال السوفيتى، ولبنان ضد الاحتلال الصهيونى، وإن كلا من هاتين الدولتين كانت الدولة المركزية فيها ضعيفة منظورًا إليها في علاقتها بالجماعات الشعبية في بلدها، والوجود القبلى والعشيرى في أفغانستان يمثل وحدات انتماء حية وذات فاعلية تقوم صنوا للدولة أو ما يقارب ذلك، أو بعبارة أخرى يستحيل على الدولة أن تتجاهل ما عليه هذا الوجود من توازنات، والطبيعة الجغرافية الجبلية تؤكد بقاء هذا التميز القبلى وتصعب مهمة الدولة المركزية في سعيها لاحتكار السلطة وفرض هيمنتها الوحيدة على أفراد المواطنين. ومن جهة أخرى فإن الوجود الطائفى في لبنان يمثل أيضًا وحدات انتماء حية وذات فاعلية تقوم صنوا للدولة اللبنانية، بما لا تستطيع الدولة المركزية أن تذيبه أو أن تقلل من حجمه وأثره، وبما لا يمكنها من فرض سلطانها الوحيد على أفراد المواطنين لديها بغير مراعاة هذا التكوين الطائفى.

القبلية والعشائرية في أفغانستان والطائفية في لبنان، مثّل كل من ذلك في بلده مراكز ثقل شعبى سياسى لصالح ما صرنا نسميه حديثًا في لغة السياسة الجارية وحدات المجتمع المدنى، وهى في الحالتين المذكورتين إن كانتا أشكالاً تقليدية من تكوينات المجتمع المدنى، فقد يجد من ظروف الحال في حالات أخرى أن تكون هذه الوحدات والتكوينات من التشكيلات الحديثة مثل نقابات العمال أو النقابات المهنية، على نحو ما وجدنا في المقاومة الشعبية في فرنسا ضد الاحتلال النازى في الحرب العالمية الثانية، وعلى نحو ما نجد من دور مهم للنقابات العمالية في إنجلترا من قبل ومن بعد.

كما أن ظاهرة التناسب العكسى بين سلطة الدولة المركزية وبين المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الأجنبى، والتناسب الطردى بين قوة وحدات الانتماء الأهلية والمحلية مع هذه المقاومة، هذه الظاهرة نلحظها بوضوح قبل ربع القرن الأخير في حركة التحرير الجزائرية في الخمسينيات وبداية الستينيات وحركة تحرير فيتنام في الستينيات، وقبل ذلك في الصين في حرب تحريرها الطويلة من العشرينيات حتى سنة ١٩٤٩. وكان من أسباب ضعف الدولة المركزية هناك هذا الاتساع الهائل للصين الذى كان يصعب جدًا إخضاعه لسيطرة مركزية وحيدة شديدة في الظروف التاريخية والحضارية السائدة وقتها.

أساس هذه الظاهرة في تناسبها العكسى، حسبما يبدو لى، أن الدولة في البلدان المحتلة أو المستعمرة، يستحيل أن تملك من القوة العسكرية النظامية ما يمكنها من خوض حرب منتصرة ضد الجيش النظامى للدولة الغازية، الدولة الاستعمارية المحتلة هى بالتعريف وباللزوم تملك من التفوق العسكرى والخبرات القتالية النظامية ومن التفوق العلمى والتقنى ومن القوة الاقتصادية تملك من كل ذلك مالا يتناسب ألبتة في قوته مع ما يملكه مجتمع مستعمر محتل، وإن أية حرب نظامية بين هذين الطرفين هى حرب معروفة مسبقًا نتيجتها. لذلك لا نجد حرب تحرير قط خاضها جيش نظامى وانتهت بالنصر له إلا في النزر اليسير من الحالات المخصوصة، مثل حرب مصر في ١٩٧٣، وحرب تركيا ضد احتلال الحلفاء لأراضيها بعد الحرب العالمية الأولى، إنما أساس حروب التحرير أنها حروب عصابات أو عمليات اغتيال ونسف أو مقاومة سلبية بحيلة أخرى، مما لا يتلاءم معه إلا نشاط الجماعات الأهلية.

وليست المشكلة قط في افتقاد التوازن أو التماثل أو التقارب في قوة كل من الجيشين النظاميين للدولة المعتدية والدولة المحتلة، ولكن المشكلة في أن الدولة المعتدى عليها، وبحسبانها دولة مركزية تنشد الهيمنة على مجتمعها وعلى مواطنيها بغير شريك لها في هذه الهيمنة. هذه الدولة ترفض أن تقوم بين مواطنيها قوة سياسية منفصلة عنها أو متميزة وتملك أدوات للقتال، حتى وإن كانت هذه القوة موجهة إلى قتال المعتدين فقط، وحتى إن كانت لم تنشأ ولم تقم إلا لهذا السبب وحده من مجاهدة الاحتلال الأجنبى. ونحن لم نجد قط دولة قبلت أن يقوم بين أظهرها تنظيم يحمل سلاحًا ويكون منفكًا عن سيطرتها القابضة لذلك لم تظهر هذه الظاهرة كما سبق البيان إلا في المجتمعات ذات الدول المركزية الضعيفة، منظورًا إلى هذا الضعف في تناسبه مع قوى المجتمع المدنى، أى في المجتمعات التى لم تستطع حكوماتها المركزية أن تقضى على وجود تنظيم مسلح مجاهد بها يحارب الاحتلال، إما بسبب الضعف النسبى لهذه الحكومات أو بسبب القوة النسبية لتشكيلات المجتمع المدنى التى أعدت هذه التنظيمات أو ساندتها. ومن هنا نلحظ مشكلة الدولة المركزية القابضة في بلادنا إزاء ما قد يصادفها من احتلال لبعض أراضيها من قوة احتلال عسكرى.

ومع القوة النسبية لوحدات المجتمع المدنى التى ترعى واجبات الجهاد والتحرير لأراضى الوطن، يرد دور الإسلام في هذا الشأن، والإسلام هنا ليس مجرد عقيدة تحض على البذل والتضحية والفداء وتحمس الناس للدفاع عن الديار والأوطان والعقائد، ولكن الإسلام أيضًا له دور اجتماعى مهم، من حيث إنه عقيدة منتشرة ذات استقرار وذيوع وتقبل بين الناس ورضاء بحاكميتها بينهم، فهم يتناهضون به ويتحاكمون بمرجعيته بغير إملاء عليهم من خارجهم. وهذه الصفة تمكن من قيام عنصر التنسيق والتوحيد بين الانتماءات الفرعية التى تقوم عليها وحدات المجتمع المدنى، ذلك أن هذه الانتماءات الفرعية إن كانت فعّالة في جمع كل من يندرجون في هذا الانتماء من أفراد وجماعات أصغر، إلا أنها لا تستطيع وحدها أن تقوم بالتنسيق بينها وبين الوحدات الأخرى المثيلة لها، والتى يجمعها بها الانتماء العام المشترك للجماعة الوطنية التى تقوم الدول المركزية على حمايتها وحراستها والتنسيق بين وحداتها، ومع ضعف الدولة يخشى أن يضعف العنصر الجامع للجماعات الفرعية في إطار الجماعة الأشمل. ومع وجود مهام الجهاد لدى الجماعات الفرعية والضعف النسبى المتزايد للدولة يخشى أن يزداد ضعف العنصر الجامع لهذه الجماعات مع بعضها وأن ينفرط عقدها، كما حدث في أفغانستان ذاتها بعد انتصارها على الاحتلال السوفيتى وطرده، إلا أن الإسلام يمكن بما يؤديه من وظائف تجميع للجماعة يمكن أن يؤدى إلى المساهمة الكبيرة في رأب ما ينصدع من علاقات التجمع والتماسك، كما صنعت طالبان منذ انتصارها في ١٩٩٦.



ثالثــــــــــــا:

عندنا عدد من المشاكل الفكرية والثقافية شبه المزمنة، ذلك لأننا لم نهتم بحلها الحلول الشاملة، ونكتفى كثيرًا إزاءها بالحلول السياسية السريعة أو بالتغطية الإعلامية الكثيفة، فتخبو ونحن نظن أنها زالت، ثم تحدث الواقعة التاريخية بكل وضوحها وتضاريسها وينقسم الناس حولها كما كانوا في السابق «وكأننا لم نبت ليلة معًا» كما يقول الشاعر القديم، والأمر في الواقع يحتاج إلى حلول فكرية وثقافية عميقة وأن نعمل على إذاعتها والتثقيف الفكرى بها بجلاء.

فمثلاً في أزمة الخليج في ١٩٩٠-١٩٩١، حدث الغزو العراقى للكويت وحدث الاحتلال الأمريكى للأرض العربية، فوجدنا أنفسنا ننقسم على أنفسنا بذات الطريقة وبذات التصنيف وبذات الأسباب التى انقسمنا فيها على أنفسنا في مطلع القرن العشرين وفى العقود الأولى منه، أيهما نقاوم ونجعل له الأولوية في المعالجة: هل هو في إصلاح أمراض الداخل أم مقاومة أخطار الخارج؟ وأيهما السبب وأيهما

الحدث الأفغانى

النتيجة، وهن الداخل أم طمع الخارج؟ وبأيهما نبدأ؟ لقد وجدنا الهدفين فى مصر وجعلناهما عملية سياسية واحدة فى ثورة ١٩١٩، ولكن الحل الذى كنا أدركناه فى هذه الثورة التى جمعت بين مطلب الاستقلال ومطلب الديمقراطية، ما لبثنا أن تعثرنا به عندما لم يحل أى من الهدفين حله الحاسم، وجاء من تيارات الثلاثينيات وما بعدها من يطرح خيار الأولوية من جديد، ويركز على أى من الهدفين قبل الآخر، أو دون الآخر. وهكذا لم يحسم أمر المزج بين المسالتين فى نسق فكرى واحد، أو بعبارة أدق فإن هذا النسق الواحد لم يشع فى البيئة الثقافية ليشكل أحد أركان التيار الرئيسى الأساسى فى الفكر السياسى السائد.

لذلك لاحظنا أنه ما أن ظهرت أزمة الخليج فى ٩٠-١٩٩١ حتى انقسم الناس - أو القسم الغالب من الرأى العام السياسى الفعال - انقسم إلى فريقين كادا أن يكونا متواجهين. قسم يركز على الأوضاع الداخلية وما فيها من استبداد ويستخلص من ذلك إدانة العراق ويغض الطرف عن الوجود الأمريكى العسكرى باعتباره مجرد أثر ورد فعل، ويغلو البعض فيرى الوجود الأجنبى عنصر دفاع مبرر الوجود عن استقلال بلد عربى. وقسم يركز على الاحتلال الأمريكى بحسبان أن المشاكل العربية لا بد أن تحل فى الإطار العربى وحده، ويغلو البعض فيتخذ موقف الدفاع عما صنعت العراق فى الكويت، وليس المهم هو ما غالى به البعض من الفريقين، ولكن المهم هو أن هذا الجدل الفكرى والسياسى الذى اتخذ طابع الصراع جاء ترداداً لذات ما قام من جدل وصراع فى بداية القرن العشرين حول إصلاح الأمة من الداخل على طريقة حزب الأمة فى مصر أم بجلاء الاحتلال الأجنبى على طريقة الحزب الوطنى.

والأهم من ذلك أن غالب الأحزاب فى بلدنا وغالب الجماعات السياسية قد صادفه هذا الانقسام من داخله، سواء من التيار الإسلامى أو التيار القومى أو التيار الليبرالى أو التيار اليسارى، فى كل من هذه التيارات، وجدنا من يركز على الخطر الخارجى على طريقة الحزب الوطنى القديم أيام مصطفى كامل ومحمد فريد، ووجدنا من يركز على الاستبداد الداخلى باعتباره أصل المشاكل على طريقة حزب الأمة القديم أيام أحمد لطفى السيد ومن شايعه. وهذا ما يظهر نوعاً من الوهن الذى يمس قوة التماسك والاتساق الفكرى والثقافى فى نظرنا لقضية أساسية عايشناها منذ بداية القرن العشرين. ويعكس قدراً من الاضطراب فى موقفنا من هذه القضايا.

والحقيقة أنه فى الحادث الأفغانى الأخير، لم يثر شىء شبيه فى هذه المسألة، والكثيرون من الإسلاميين لا يطيقون نظام حكم «طالبان» فى أفغانستان، ناهيك عن غير الإسلاميين، ومع ذلك فلم يظهر صوت يؤبه بقوته أو فاعليته يؤيد الأمريكيين فى ضربهم الأفغان وغزو أراضيهم، ومن الناحية الشعبية بين العرب والمسلمين، يكاد يقوم نوع من التوافق الجماعى - إن لم نقل الإجماع - على إدانة الحرب الأمريكية ضد الأفغان مع كراهة هذا الصنيع القمعى المتجبر من الساسة الأمريكيين، ومن ناحية الحكومات فإنه فيما عدا تركيا وباكستان، لا نكاد نجد حكومة عربية أو إسلامية أيدت الصنيع الأمريكى ولا وافقت أمريكا إلا بسبب الخضوع والانصياع، خضوع الضعيف وانصياع الخائف. وبالنسبة للإرهاب، فإن هذه التهمة التى لم تثبت على أحد بعد فى الحدث الأفغانى، كاد يكون هناك ذات القدر من التوافق الجمعى الشعبى على أن العنف يعتبر مسلكاً سياسياً مشروعاً إذا كان يجرى دفاعاً عن الأوطان أو مقاومة لغزو أو تحريرا للبلاد والشعوب.. وحتى الحكومات لا تكاد تشذ عن ذلك، أو لا تستطيع أن تجهر بإنكار هذا الأمر.

رابعـــــا:

ما يثير عدداً من القضايا السياسية التى لم تذلل على نحو كامل ولم تحسم بعد، هو موضوع الجماعة السياسية ومدى التعارض أو التقابل أو التداخل فى مسائل الانتماء الشعبى والوطنى للجماعات وللدول. ولا أريد هنا أن أطيل الحديث، ولكننى أشير فى عجالة إلى مفهوم الأمة وأثر هذا المفهوم وما طرأ عليه من تغيير فى العصر الحديث الذى نحياه فى القرنين الأخيرين.

ونحن نقصد بـ«الأمة» الجماعة أى المجموع من البشر الذى يتحدد فى الإدراك الإنسانى على وفق تصنيف معين، ويقوم هذا التصنيف على وصف يلحق بهذا المجموع ويصدق عليه ويميزه عن غيره من الجماعات الأخرى، والأمة بهذا النحو تكوين أو تشكيل ثقافى، لأنه يقوم على أساس من «الإدراك البشرى» لمعيار تصنيف معين ومن «الشعور بالانتماء» الذى ينبنى على وجوه تجانس «يراها» الناس غالبة وحاكمة لغيرها. فالتصنيف وحده لا يكفى، لأن ثمة من التصنيفات ما لا يعول عليه فى مجال الإدراك بالأهمية والشعور بالانتماء، مثل لون الشعر مثلاً أو طول القامة أو الحجم أو السلوك، ثم هو تصنيف يولِّد وجه تجانس غلابا فى الإدراك ويسوِّغ وجه شعور بالانتماء، انتماء الفرد للجماعة أو انتماء الجماعة الصغرى للجماعة الأكبر، والانتماء فيه من معنى الاتحاد والامتزاج وفيه من معنى «الفناء» فى الجمع المنتمى إليه، «الفناء» الذى يعنى من أحد وجوهه التحقق الذاتى فى المجموع المنتمى إليه.

ونحن نعرف أن وجوه الانتماء متنوعة ومتعددة، وأنها متداخلة ،بعضها إقليمى وبعضها نَسَبِى وعرقى وبعضها يتعلق بالمهنة والحرفة وبعضها يتعلق بالمعتقد أو المذهب وبعضها يتعلق باللغة أو اللهجة. ولكنها كلها موجودة ويمكن أن تتداخل العلاقات بشأنها.. وهى وجوه الانتماء الحاكمة التى يقوم عليها ما نسميه الجماعة السياسية، أى الجماعة التى تقوم على أساسها الدولة فى ظرف تاريخى محدد.. أريد أن أقول أنه فى العصر الحديث فإننا نحن العرب والمسلمين ارتبك لدينا مفهوم الأمة بفعل عدة عوامل منها:



فيما عدا تركيا وباكستان، لا نكاد نجد حكومة عربية أو إسلامية أيدت الصنيع الأمريكى ولا وافقت أمريكا إلا بسبب الخضوع والانصياع، وبالنسبة للإرهاب، كاد يكون هناك ذات القدر من التوافق على أن العنف يعتبر مسلكاً سياسياً مشروعاً إذا كان يجرى دفاعاً عن الأوطان

العامل الأول: أننا خرجنا من مفهوم الأمة المعتمد على وحدة الدين الإسلامى إلى مفهوم الأمة بوصفها الجماعة القومية المستندة إلى اللغة الواحدة. والإسلام دين ودولة وهو منشىء لجماعة سياسية بما يستفاد من أحكامه وتاريخه الاجتماعى، واللغة تصنيف يرتبط بالامتزاج التاريخى أيضاً وتقوم على أساسه دول الغرب فى العصر الحديث. وقد ارتبك لدينا الإدراك الجمعى بين هذين التصنيفين ولم نجر توفيقاً عميقاً بينهما أو تنسيقا منهجيا.

العامل الثانى: إن حكوماتنا لم تنشأ دولها وفقاً لأى من هذين التصنيفين فى الغالب الأعم، فلا الحكومات قامت على أساس وحدة الجماعة الدينية لتحقق بها وحدة سياسية وتحرسها (بل إنها زالت بإلغاء الخلافة الإسلامية فى ١٩٢٤) ولا قامت هذه الحكومات على أساس البديل الفكرى والثقافى الآخر وهو اللغة والقومية، والأتراك بقوميتهم التركية انسلخوا عن الجماعة الإسلامية، ولكنهم لم يقيموا دولة موحدة على أساس الوحدة الطورانية التى كانوا ينشدونها والتى تمتد إلى أواسط آسيا، والعرب لم يستطيعوا بدعوتهم القومية العربية توحيد اثنتين وعشرين دولة تقاسمت عروبتها.

العامل الثالث: إن حدود الدول القائمة لم تقم على أساس أى من التصنيفات الجماعية الحاكمة، ولكنها قامت على أساس توازن القوى السياسية بين الدول الغربية الكبرى المستعمرة، كما حدث بالنسبة لاقتسام بلاد الشام بين الإنجليز والفرنسيين فى اتفاقية سايكس - بيكو أثناء الحرب العالمية الأولى، أو على أساس توازن القوى السياسية بين حركات التحرر الوطنى وجبروت الدول الغربية المستعمرة كما حدث بالنسبة لمصر والسودان مثلاً، ولكن هذه الحكومات من بعد صارت ذات وجود ومصالح تدافع بها عن حدودها وترسخ مفاهيم استقلال جماعتها السياسية عن غيرها. وهذا مما ساهم فى إرباك علاقات الانتماء الجماعى ومشاعره.

المهم من ذلك كله أننا مع إدراكنا الجماعى لما يجمع بيننا نحن الشعوب الإسلامية ذات العقيدة الواحدة والحضارة الشاملة والتاريخ الواحد أو المتماثل والتشكل النفسى المتشابه، ومع إدراكنا أن ثمة مشتركاً عاماً يجمع بيننا، ومع ما يؤكد هذا المشترك العام من وحدة ما نعانيه من قمع عالمى واستبداد بنا من الدول الكبرى ومن كراهية تجمعنا ضد الاستعمار الغربى وسياساته، وما نشعر به من وحدة المصير، إلا أن هذا المشترك العام لا يتحدد به فى وضوح ما هى بالضبط الواجبات الفردية والجماعية التى يمليها علينا، وما هو بالضبط ما يتعين أن نتحاكم به بين بعضنا البعض من وجوه النشاط وواجبات النهوض للدفاع والمقاومة.

ومن ناحية ثانية، فإن قيام الحكومات لدينا لا على أساس تصنيف جامع ومانع للجماعات السياسية، قد أربك لديها إمكانية التقدير بين ما يعتبر من ضرورات «الأمن

الحـدث الأفغـانى

القـومي» الذى يعنى حماية الجماعة السياسية وحراستها والذود عنها، وهذا هو رأس واجبات الدولة بالنسبة للجماعة السياسية التى تقوم عليها والمصدر الأساسى لشرعيتها، أقول ارتبك لديها التقدير بين ضرورات الأمن القومى هذه، وبين موجبات «أمن الدولة»، أى أمن النظام السياسى القائم على رأس هذه الجماعة والحافظ له ولتشكيلاته المؤسسية والمجتمعية، وصار «أمن الدولة» هو الذى يسيطر ويحكم موجبات «الأمن القومي»، وهذا الخلل والإرباك أصاب سياسات الدول فى غالب بلادنا العربية والإسلامية، وهى لا تجد دائماً فى الأمن القومي للجماعة السياسية التى تحكمها، لا تجد دائماً فى ذلك ما يهدد أمن الدولة، أو ما يزعزع استقرارها، ولعل المؤتمرات التى عُقدت للحكومات العربية بشأن الانتفاضة الفلسطينية، أو المؤتمرات التى عُقدت بعد ذلك للحكومات الإسلامية بشأن غزو أفغانستان، هى أمثلة تشهد بهذا الأمر، إذ انعكس فى قرارات هذه المؤتمرات الحكومية أن غالب هذه الحكومات تستشعر الحرج فى علاقتها بالولايات المتحدة بأكثر كثيراً من شعورها بالقلق على الأمن القومي لبلادها ولجماعتها السياسية فى المدى الطويل. وتتعقد المسألة ويزيد الارتباك عندما تقوم الحركات السياسية الشعبية فى كل بلد لتتنبه إلى المخاطر الآتية من الخارج وتتنادى للذود عن الحياض والدفاع عن الحوزة، فترى الحكومات فى ذلك ما يهدد استقرارها الداخلى وتحتشد ضده..

ولعل موقف باكستان بعد أحداث ١١ سبتمبر هو أوضح مثل على ذلك، إذ دفعها قلقها على استقرارها الداخلى إلى التضحية بموجبات أمنها القومى، وصار قلقها من شعبها على نفسها أشد من شعورها بالخطر الداهم على أمنها القومي من أن تنشأ فى أفغانستان دولة خصم لها فتنحصر باكستان بين عداء الهند لها وعداء الأفغان. وهكذا يستعاض عن الذى هو خير بالذى هو أدنى، وعن النفع العام بالنفع الخاص، وعن الآجل الباقى بالعاجل المنقطع، وتصير الحكومة محمية وليست حامية للجماعة.

خامساً:

على أنه من جهة أخرى، فإن الأوضاع العالمية التى نتجت عن انتهاء الحرب الباردة بين الكتلة الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وبين الكتلة الشرقية بقيادة الاتحاد السوفيتى، قد أسفرت عن ظرف موات للدول الإسلامية وشعوبها يمكنها من تحقيق قَدر من التقارب والتنسيق فى السياسات، قدر لم يكن متاحاً من قبل على مدى نصف القرن الأخير.

إن الناظر فى شأن بلاد المسلمين، يرى أن المخاطر التى تتعرض لها هذه البلاد من الخارج، وأن أحداث الغزو والاحتلال وما يتهدد استقلالها، كل ذلك كان يتنوع بالنسبة لكل منها حسب الموقع الجغرافى وحسب الأحداث التاريخية التى جرت منذ أواخر القرن الثامن عشر. والبلاد العربية فى شمال افريقيا وغرب آسيا كانت وبقيت تكافح ضد الأطماع الآتية من دول أوروبا الغربية، سواء من انجلترا أو فرنسا أو إيطاليا، ثم قام العرب جميعاً بعد ذلك يكافحون الاستعمار الاستيطانى الصهيونى لفلسطين، وهو الاستعمار المؤيد من الولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ثم دعا التحالف الغربى إلى إعادة صياغة علاقات التبعية والإلحاق التى تربط البلاد العربية به، وذلك بإبرام معاهدات الدفاع المشترك وبإقامة الأحلاف العسكرية منذ منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، وكافحت حركات التحرر الوطنى وحكومات التحرر الوطنى هذا المسعى بما أقام خصومة حادة بين الطرف الغربى وبين الطرف العربى.

وفى مقابل ذلك، فإن خبرة الجغرافيا السياسية وتجارب التاريخ منذ القرن الثامن عشر حمل الشعوب التركية والفارسية ووسط آسيا على إدراك أن المخاطر المحدقة بهم ترد فيما ترد، أو ترد أكثر ما ترد من الشمال الروسى، سواء فى عهد القياصرة قبل ١٩١٧ أو فى عهد البلاشفة الشيوعيين بعد ١٩١٧. لقد توسعت روسيا القيصرية فى أراضى شعوبهم وضمت إليها أكثر ما ضمت وعملت على إذابتهم من النواحى العقيدية والحضارية والسياسية وغيرها، ثم قمع الجيش الأحمر حركات تحررهم التى شبت بعد ثورة ١٩١٧ فى روسيا.

ومن هنا جرى التخالف والتباين فى النظر لقضايا الأمن الجماعى وفى تقدير أولويات المخاطر وإمكانات التحالف، جرى التخالف فى ذلك بين من هم فى موقف الشعوب العربية ومن هم فى موقف شعوب وسط أسيا. وكان هذا من أسباب عدم إمكان حدوث التقارب بين شعوب المسلمين على المدى الذى استطالت إليه فترة الحرب الباردة. وقد كان الغزو السوفيتى لبلاد الأفغان فى ١٩٧٩ هو ما يؤكد على حقيقة المخاطر الآتية من الشمال الروسى على هذه المنطقة، كما كان الدعم الكامل للولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل هو ما يؤكد أيضاً على حقيقة المخاطر الآتية من الغرب على المنطقة العربية من بلاد المسلمين.

والخلاصة أنه على مدى الخمسين سنة المنقضية، كانت البلاد التركية الفارسية وشعوب وسط آسيا يستقوون ضد الخطر الروسى الشمالى بالحلف مع الأمريكيين، وكانت البلاد العربية تستقوى ضد الخطر الأمريكى الصهيونى بالحلف مع الروس، ولست أقول إن كان هذا هو العامل الوحيد فى هذا التوجه السياسى لكل من المنطقتين، ولكننى أثير عنصرًا أراه مهمّا فى هذا التوجه وعلى الجملة فإن هذا التخالف فى السياسات هو ما به قوى التدابر داخل الدائرة الإسلامية من الشعوب.

ونحن نذكر مثلاً أن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر رسمت فى كتاب «فلسفة الثورة» ثلاث دوائر للعمل المصرى، الدائرة الإسلامية والدائرة العربية والدائرة الأفريقية، بحسبان ما تنتمى إليه مصر من دوائر متداخلة يمكن أن ترسم من خلالها توجهاتها السياسية الدولية. وقد تفاعلت كل من الدائرتين العربية والأفريقية، ولم يحدث التفاعل فى الدائرة الإسلامية، وأظن أن سبب ذلك كان يرجع إلى هذا التدابر والتخالف الذى قسم بلاد المسلمين أقسامًا بالنسبة لموجبات الأمن الجماعى لكل من هذه البلاد، بالضبط كماحدث فى نهايات القرن التاسع عشر من تدابر داخل الدائرة العربية بسبب خضوع أرض الشام للاستبداد العثمانى واستقواء الثوريين هناك بمصر الخاضعة للاستعمار البريطانى، وخضوع الثوريين فى مصر للاحتلال البريطانى ومحاولتهم الاستقواء بالنفوذ العثمانى، الأمر الذى أبعد احتمالات التقارب عقودًا تالية من السنين.

المهم أن انتهاء مرحلة الحرب الباردة بانهيار الاتحاد السوفيتى وبالتفرد الذى طلعت به الولايات المتحدة عازمة السيطرة المنفردة على العالم بمعاونة شركائها الأصغر من دول غرب أوروبا، هذا الأمر قد أنهى السبب الرئيسى للتناقض الذى كان طرأ بين دول المسلمين ومصالح شعوبهم، بعد أن صارت الولايات المتحدة هى وحدها المرجع للخطر الداهم المتحقق فى فلسطين، وهى ذاتها المرجع والفاعل للخطر الداهم المتحقق فى أفغانستان. إن مصر تقاربت مع الهند على مدى مشارف الخمسين سنة بسبب العدو الإنجليزى المشترك الذى كانت تواجهه كل من حركتى التحرير المصرية والهندية، رغم التنوع الحضارى والعقيدى والتاريخى الكبير بين مصر والهند، فما بالنا الآن بالأثر التوحيدى لوجود عدو واحد مشترك، فضلاً عن هذا التوافق العقيدى والحضارى والتاريخى بين كل هذه الشعوب فى بلاد المسلمين الآسيوية والأفريقية. ويؤكد ذلك أيضًا أننا نلحظ فى الحدث الأفغانى الذى يجرى هذه الأيام، نلحظ قدرًا من التقارب الأمريكى الروسى والتنسيق بين سياستيهما مما يسهم في توحيد المخاطر التى يواجهها المسلمون.



سادساً:

على أن المشكل الحادث فى هذه المرحلة التاريخية، هو هذا التنوع الهائل فى الظروف والأوجاع السياسية الداخلية والخارجية مع تنوع السياق التاريخى والتجارب البشرية بين الشعوب الإسلامية فى العالم، وأثر هذا التنوع وتبعاته.

نحن على المستوى العربى أو الإسلامى، لدينا دوائر متعددة، فثمة الدائرة العربية، وثمة الدائرة الفارسية، ودوائر الشعوب التركية، وثمة الدائرة الهندية، وثمة الدائرة الأفريقية عربية وغير عربية، أى شمال الصحراء وجنوبها، وشرق أفريقيا وغربها، وثمة دائرة جنوب شرق آسيا، ثم هناك أقليات المسلمين المنتشرين الآن بضعة ملايين فى كل من البلاد الأوروبية الكبرى أو

على مدى الخمسين سنة المنقضية،
كانت البلاد التركية الفارسية وشعوب وسط
آسيا يستقوون ضد الخطر الروسى الشمالى
بالحلف مع الأمريكيين، وكانت البلاد العربية
تستقوى ضد الخطر الأمريكى
الصهيونى بالحلف مع الروس

الحـدث الأفغـانى

الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا كانت الدوائر العربية والفارسية وبعض التركية تتشابه فى الغلبة العددية للمسلمين بالنسبة لمواطنى كل دولة، وبالنسبة للتداخل التاريخى والثقافى بين شعوبها، فإن الأمر يختلف فيما عدا هذه الدوائر من حيث النسبة العددية للمسلمين وتاريخ العلاقات بين الطوائف والفرق فى كل بلد والأوضاع السياسية والاقتصادية وغير ذلك.

لدينا جميعًا القدرة على إدراك هذه الفروق والتنوعات الكثيرة، من حيث المعرفة بها ومن حيث إمكان تصور ما يترتب عليها من آثار، فى السياسات المختلفة وفى تبين المصالح الشعبية الواجبة الرعاية، وفى تبين تنوع وجوه المخاطر التى تواجه كل جماعة فى أى ظرف مخصوص. ولكن ما لم نستبنه بعد فى إطار الفكر السياسى الآخذ من المرجعية الفقهية الإسلامية، هو النظر فيما هى أسس تقويم السياسات المتباينة التى تفرضها مصالح الجماعات فى البلاد المختلفة، وكيف يمكن اكتشاف مدى اتفاق سياسة معينة مع المرجعية الشرعية للإسلام فى ظروف تنوع لمصالح الجماعات واختلاف فى السياسات قد يصل إلى حد التضارب بين المسلمين.

وقد سبقت الإشارة إلى ما حدث فى فترة الحرب الباردة من تنوع للسياسات بين الدول الإسلامية شارف مبلغ التضارب بين من يتقوون بالاتحاد السوفيتى ضد خصمهم الأمريكى الألد، وبين من رأوا الاستعانة بالظهير الأمريكى فى مواجهة الأطماع الوشيكة للاتحاد السوفيتى فى بلادهم، وفى الآونة الأخيرة فى الأحداث الأفغانية التى لاتزال تقع، جد التساؤل عن موقف الجنود المسلمين فى الجيش الأمريكى إذا أمروا بالاشتراك فى الحرب الأفغانية. ومن قبل ذلك خلال أزمة الخليج فى ١٩٩٠-١٩٩١، ثار التساؤل عن شرعية اشتراك قوات عربية مع الأمريكيين فى ضرب الشعب العراقى.

تتباين الاجتهادات طبعًا وتختلف، وقد تصل إلى حد تبادل التهم، ذلك لأننا لم نستقر على توصيف معين للصالح العام من وجهة النظر الإسلامية، توصيف عام يتضمن ثلاثة جوانب، أولها: الأسس العامة الضابطة لما هو الشأن الإسلامى وما هو صالح الجماعة الإسلامية فى ظروف عالم اليوم. ثانيها: مدى ما تسمح به هذه الأسس العامة من تنوع بين مصالح البلاد والشعوب والجماعات بداخله. وثالثها: إذا جرى الاختلاف حول تقدير ما هى المصلحة الأعم، أو إذا بلغ الاختلاف حد التضارب فما هى إجراءات ومناهج حسم المشاكل، وكل ذلك ينظر فيه نظرة واقعية إلى أوضاع العالم اليوم ما يعج به من قوى متصارعة ومن تحالفات ومن قوى عظمى ليس لمثل شعوبنا قول فاصل معهم حتىَ الآن، وليس ثمة منظمة ذات قرار مرعى الجانب بالنسبة للدول الإسلامية أو الدول العربية، وليس ثمة دولة منا ذات قوة وبأس يستطاع بهما حسم خلاف يثور بين المختلفين.

والحال أن دول الغرب فى تاريخها المعاصر وبعد صراعات مضنية بين بعضها البعض، بلغت ذروتها فى حربين عالميتين فى القرن العشرين، قد استطاعت من بعد أن تبلور تنظيمًا وتوجهًا ثقافيًا يمكنها من حل مشاكلها بين بعضها البعض بقدر من التقبل المتبادل وسعة النظر فى مصالح الطرف الآخر، واستخدام أساليب المفاوضة والمساومة لحل الصراعات والوصول إلى التسويات بين المصالح. ولكننا نحن الآن لم نبدأ طريقنا الفكرى لتهيئة الأوضاع الفكرية والثقافية المناسبة، وأولها الإقرار بأن الاتفاق العام لا ينفى التنوع والاختلاف والتعارض، وأن الأمر هنا من حيث المرجعية الشرعية يدرك فى باب فقه المصالح، وبما يفيد من موازنات.

ويدخل فى هذا المجال النظر فيما هى الحدود الضابطة فى دعم أية دولة لدولة أخرى فى إطار توازنات القوى وتوازنات المصالح بين بعضهم البعض، ومدى ما يجوز فيه للمغالى أن يفرض مغالاته على الآخرين،وما يجوز به للمتراخى أن يشد الآخرين إلى تراخيه، وما هو معيار المغالاة والتراخى إذا أردنا قدرًا من التقبل العام والاجتماع الغالب لما يتصور أنه المصلحة الأعم، ما هى مثلاً حدود التوافق مع مطالب مسلمى الصين وبأى قدر فى ظروف حرص غالبية الدول العربية والإسلامية على كسب صداقة الصين فى الظرف العالمى الراهن وإزاء توازنات القوى العالمية الجارية. وكذلك الأمر بالنسبة للشيشان مثلاً وعلاقة ذلك بالدولة الروسية ودورها المحتمل فى التأمين النسبى للعراق وسوريا مثلاً.

كل ذلك يحتاج لا إلى توفيق بين المصالح فقط، فهذا قريبة إمكانياته، ولكنه يحتاج إلى جهد أصعب فى تقدير نواحيه الفقهية الإسلامية، حتى لا نفاجأ فى لحظة ما بانفجار فكرى يحدث فيطغى على غيره، أو نفاجأ بوهن «لا أدرى» يصيبنا بهبوط فى الدورة الدموية.



سابعًا:

كنا فى شبابنا نمزح بترديد عبارة خطابية كانت قالتها بطلة من بطلات التراجيديا فى أحد أفلام الأربعينيات فى السينما المصرية، تقول «المجنى عليه صفح والجانى لم يصفح». ونحن الآن بعد خمسين سنة لا أجد عبارة أكثر جدية وتعبيرًا من هذه العبارة فى وصف حالة الغالب من حكوماتنا وسياساتنا الرسمية العربية والإسلامية فى علاقتها مع الولايات المتحدة الأمريكية. إن ما حدث فى فلسطين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية يمثل جريمة، وهى بتعبير رجال القانون تعتبر جريمة مستمرة، ومن ارتكبها ويرتكبها هو الولايات المتحدة الأمريكية. والأمر كما نعلم جميعًا لا يتعلق بفلسطين وشعبها وأرضها فقط، ولكنه يتعلق بكل العرب.

وإن الولايات المتحدة التى عايشنا عداءها لنا فى فلسطين نصف القرن الماضى، هى من نواجه الآن فى بلاد الأفغان وهى من تقيم القواعد العسكرية حولنا فى الخليج العربى، وهى من يحاصر البلاد ويشن سلاح المقاطعة. ونحن نعرف من ممارسات الحكومات الأمريكية خصائص فى الفعل السياسى لا يجوز أن تغيب عن الناس أولهما: إن ما تصنعه إسرائيل فى عرب فلسطين، سبقتها فيه السياسة الأمريكية بالنسبة للسكان الأصليين فى أمريكا منذ مئات السنين، وأن أهم الأسس التقليدية التى تقوم عليها السياسات الأمريكية تعتمد على خبرتين تاريخيتين رئيسيتين، الأولى هى إبادة السكان الأصليين وتفريغ شمال أمريكا من سكانها، والثانية هى نقل شعب أفريقى من بلاده بالاسترقاق ليسخر فى بناء الولايات المتحدة. وإسرائيل فيما تفعل تذكر الولايات المتحدة بشبابها القديم. فلا يمكن أن نتصور أن الدوافع الأخلاقية أو القانونية يمكن أن تحرك سياسة الحكومات الأمريكية هناك، إلا بضغوط شعبية هائلة لن تتوافر فى المستقبل المرئى ولا يمكن أن نحتكم إلي الولايات المتحدة وهى خصم أساسى في هذه المسألة.



وثانيهما: أن الولايات المتحدة تفرق ما بين الحليف وبين الصنيعة، الحليف له حقوق تراعى ولكنه ينبغى أن يكون بلدًا من أوروبا الغربية، وإلا فلا يجوز التعامل معه إلا بحسبانه صنيعة، الصنيعة يجب أن تتخلص منه فور انتهاء خدمته لها لئلا يطالب بأجره. فإذا كان رسول الله ﷺ قد علمنا أن نعطى الأجير أجره قبل أن يجف عرقه، فإن الولايات المتحدة على العكس تعمل على التخلص من الأجير قبل أن يطلب أجره. وهذا هو درس باكستان فى الحدث الأفغانى الذى لا يزال جاريًا ولم تتم فصوله بعد، ورغم كل ما فعلته حكومة باكستان فى التخلص من حكم حلفائها «طالبان» لصالح الولايات المتحدة أقامت الولايات المتحدة الحكومة الأفغانية الجديدة التى تمد يدها للهند فى هذه الأيام. وبعد كل ما صنعته الضغوط الروسية على جمهوريات وسط آسيا لمساعدة الولايات المتحدة، تنسحب الولايات المتحدة من اتفاقية ١٩٧٢ بشأن الصواريخ المضادة وكانت أبرمتها مع الاتحاد السوفيتى. وهذا ما سبق أن صنعته أيضًا فى أفغانستان إذ أدارت ظهر المجن للمقاومة الأفغانية الوطنية المحاربة والمجاهدة بعد انسحاب الروس من أفغانستان فى ١٩٨٩ وبدأت من يومها تتعقب هؤلاء المجاهدين وتثير عليهم حكوماتهم للتخلص منهم، وكان الحدث الأفغانى الأخير هو حلقة من سلسلة حلقات هذا التخلص.

أفلا تتعظ وتعتبر الحكومات والقوى السياسية فى بلادنا بهذه الدروس فى رسمهم لعلاقاتهم مع الولايات المتحدة الأمريكية؟!

أما من حيث قوة الولايات المتحدة، فلعلنا نذكر قولاً لسعد زغلول: إن من أسموا أنفسهم «المعتدلين والواقعيين» قالوا له إن بريطانيا العظمى قوية جدًا وقد خرجت لتوها منتصرة من حرب عالمية ضروس. فنقل على الفور مجال المناقشة إلى مجال آخر وقال «إنهم لصوص وإنهم يسرقون الأوطان»، نقل المسألة بسرعة ووضوح من مجال البحث فى القوة المادية المتاحة فى لحظة تاريخية معينة، نقلها إلى مسألة البحث عن مصير الشعوب والأوطان ووجوب التمسك بالحقوق، وبهذا العزم والإصرار والوضوح فى رؤية المسائل، ومع زمن ليس بعيدًا، ضعفت قوة السارقين وعادت الأوطان المسروقة. ■

الولايات المتحدة تفرق ما بين الحليف وبين الصنيعة، الحليف له حقوق تراعى ولكنه ينبغى أن يكون بلدًا من أوروبا الغربية، والا فلا يجوز التعامل معه إلا بحسبانه صنيعة، الصنيعة يجب أن تتخلص منه فور انتهاء خدمته لها لئلا يطالب بأجره

النصر خارج القانون

شريف بسيوني



ليس هناك مجال للشك في أن اليد العليا في الحرب الدائرة في أفغانستان كانت ومازالت للقوات الجوية الأمريكية، ومن ثم كان من الطبيعي أن تلحق تلك الضربات الجوية خسائر شديدة بين صفوف قوات طالبان، والتي أدت بدورها إلى إقصاء حركة طالبان وقادتها من الحكم في أفغانستان، بيد أنه يبقى تساؤل مهم دون إجابة، وهو حجم الخسائر البشرية بين صفوف المدنيين الأفغان؟

الرد على هذا التساؤل لا خلاف عليه من وجهة النظر الأمريكية، ألا وهو أن قتل وجرح آلاف المدنيين، وتدمير الممتلكات الخاصة والبنية الأساسية المدنية، وقصف المستشفيات هو من قبيل الخسائر التبعية أو التكميلية الناجمة عن الحرب الدائرة، أو كما يطلق عليها الجانب الأمريكي Collateral Damage هنا يتعين الرد بأنه إذا لم تكن تلك الخسائر ناتجة عن خطأ مقبول وغير متعمد في الوقائع، فهي جرائم حرب لا محالة.

إذا نظرنا إلى أرض الواقع نجد أن الجنرال مايرز قائد أركان الجيش الأمريكي يحاول أن يدعم النظرية الأمريكية القائلة بأنه من الممكن كسب الحروب باستخدام القوات الجوية فقط، وهي النظرية التي اتبعت في حرب الخليج عام ١٩٩١، ثم في حرب كوسوفو عام ١٩٩٨، وهي قائمة على أن الأمريكيين بصفة عامة، والسياسيين بصفة خاصة، لا يتقبلون وقوع ضحايا بين القوات البرية الأمريكية، وخير دليل على ذلك هو سحب خمسة وثلاثين ألف جندي من الصومال في أعقاب مقتل ثمانية عشر منهم. من ناحية أخرى، يلقى مؤيدو نظرية الحرب باستخدام القوات الجوية تأييد ودعم المؤسسات الصناعية القائمة على تصنيع معدات تلك الحرب، فهم يؤيدون نظرية أنه من الممكن كسب الحروب باستخدام القوات الجوية فقط دون اشتراك أية قوات برية، وحجتهم في ذلك أن هؤلاء الذين يتعرضون لمثل ذلك القصف الجوي وما يتبعه من خسائر اقتصادية وعسكرية شديدة سرعان ما يطلبون تسوية سياسية دون الحاجة إلى اللجوء إلى استخدام القوات البرية، علاوة على ذلك، فالخسائر التبعية أو التكميلية الناجمة عن الحرب لا ينبغي الاعتداد بها في تقييم الموقف!!



هنا ينبغي إدراك حقيقة أن تقييم الخسائر التبعية و التكميلية يعتمد بالدرجة الأولى على مدى القدرة في التحكم والسيطرة على وسائل الإعلام، إذ إن الحروب السابقة في جرينادا، بنما، العراق، وصربيا أثبتت سهولة التحكم في وسائل الإعلام، حيث كانت الأرقام الحقيقية لأعداد الضحايا المدنيين غير معلومة وقت وقوع تلك الأحداث، وعادة لا يكشف عنها إلا بعد مرور وقت طويل بما لا يجعل لرد الفعل أثرا على الموقف السياسي، ومن ثم، وضمانا لاستمرار ونجاح الهجوم الجوي، فعادة ما يكون الإعلان عن الخسائر البشرية بين المدنيين أو أنباء الدمار الذي يلحق بالبنية الاقتصادية والاجتماعية في أقل صورة ممكنة.

وتطبيقا على ما تقدم، لم تشكل الخسائر التبعية أو التكميلية أية أهمية في حرب العراق، إذ كانت وسائل الإعلام قد جعلت من صدام حسين وحشا قاتلا، ومن ثم استحق المدنيون من رعايا العراق القتل وعقوبات قاسية أسفرت عن مقتل نصف مليون طفل عراقي تُسأل الولايات المتحدة الأمريكية عن مقتلهم بصفة غير مباشرة.

أما عن قصف صربيا، فقد كان بسبب ما ارتكبته القوات الصربية في كوسوفو من أعمال تطهير عرقي، وقد اتبع في ذلك القصف ذات الأسلوب الذي اتبع في العراق، إذ إنه على الرغم من اتهام الرئيس الصربي آنذاك ميلوسوفيتش بارتكاب أفظع الجرائم، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية كان لها رأي آخر فاستخدمته في التوصل إلى عقد اتفاق دايتون وتوقيع البوسنة وكرواتيا عليه، وربما يكون هذا هو السبب الرئيسي في انخفاض حجم الخسائر التبعية أو التكميلية في تلك الحرب عن مثيلتيها في العراق وأفغانستان. وعلى الرغم من ذلك، فقد وجهت للقوات الأمريكية اتهامات بارتكاب جرائم حرب أثناء القصف الجوي لصربيا، الأمر الذي دفع بالولايات المتحدة للتأكد من أن المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة (ICTY) لن يشرع في التحقيق في تلك الاتهامات، وهو الأمر الذي لم يحدث في أفغانستان.

تجدر الإشارة أيضا إلى أن الخوف من وقوع ضحايا بين صفوف القوات الأمريكية قد تحول إلى رعب، وهو الأمر الذي أدى إلى القول بأن «وقوع الضحايا في الجانب الآخر، مدنيين أو عسكريين، وبغض النظر عن ارتفاع العدد أفضل بكثير من أن يكون الضحايا من بيننا، مهما قل عددهم»... لا شك في أن هذه النظرية تخالف كل مبادئ القانون الدولي الإنساني الذي يحكم النزاعات المسلحة، والذي يحظر اعتبار المدنيين، الأهداف المدنية، أسرى الحرب، أو المستشفيات أهدافا لأية أعمال مسلحة تحت أي ظرف من الظروف ومهما كانت المسببات، بل يمتد الحظر أيضا ليشمل الهجوم على أي من تلك الأهداف - سواء كان مباشرا أم غير مباشر - بقصد تجنب إحداث خسائر في القوات المعتدية ذاتها.



ومن هنا كان منبع الاستثناء الذي ابتكرته الولايات المتحدة لخدمه أغراضها على سند من أن الضرورة العسكرية تبيح تجنب الخسائر بغض النظر عن العواقب والخسائر التي قد تلحق بالخصم، بيد أن الولايات المتحدة تعلم علم اليقين أن هذا ليس جائزًا قانونيا، ومن ثم فهي ما برحت تبحث عن أعذار وهمية لتبرير سياساتها، وتحاول تجنب الخسائر التبعية أو التكميلية بقدر المستطاع، إلا أن التساؤل الذي يحتاج دائما إلى إجابة عاجلة ليس منصبا على الإجراءات المتبعة لتقليل حجم الخسائر، وإنما هو مدى شرعية الإجراءات ذاتها.

أما عن أفغانستان، فقد مارست الولايات المتحدة سيطرة فعلية على إمكانية نقل وسائل الإعلام لأخبار الحرب، ومن بينها ما قامت به قوات التحالف الشمالي ضد سجناء الحرب من قوات طالبان فيما وصف بأنه تمرد بأحد السجون قرب مدينة مزار الشريف، حيث قصفت الطائرات الأمريكية السجن مستخدمة القنابل، الأمر الذي أسفر عن مقتل مئات الأسرى من بين الطالبان وغيرهم. وقد نقلت وسائل الإعلام الألمانية أن كثيرين ممن لقوا حتفهم في ذلك السجن قيدت أيديهم خلف ظهورهم، وهي إشارة واضحة لارتكاب جرائم حرب.

أما عن كيفية تطور الأحداث إلى ذلك الحد فليست هناك معلومات متاحة أكثر من أن التمرد بدأ بعد أن تنامى إلى أسماع السجناء صراخ هؤلاء الذين كان يتم استجوابهم، وربما تعذيبهم، وهو الأمر الذي يشكل جريمة حرب أخرى تمت في حضور، وربما تحت إشراف أفراد من القوات المسلحة الأمريكية وعملاء جهاز المخابرات المركزية الأمريكية الـ CIA بما يجعلهم مسئولين عن تلك الأحداث. وأخيرا، فإذا كان ذلك التمرد قد وقع بالفعل فهو ناتج عن تعذيب أسرى الحرب بالمخالفة للقانون الدولي الإنساني، وعليه فإن القصف الأمريكي للسجن وقتل مئات الأسرى، يعد وبلا أدنى شك جريمة حرب على أوسع نطاق.

مازالت جهود المجتمع الدولي مستمرة للحد من معاناة البشرية من جراء الحروب، وعلى الرغم من توقيع بلدان العالم أجمع على اتفاقيات جنيف الأربعة إلا أن البشرية مازالت تشهد ارتكاب أفظع الجرائم... هنا يتعين القول بأنه كان من الأجدر بالولايات المتحدة، بصفتها القوة العظمى الوحيدة، أن تسلك مسلكا تحتذي به الدول في الالتزام بالقوانين الدولية وعدم مخالفتها عن طريق وضع الاستثناءات واحدا تلو الآخر، إذ إنها بذلك تفتح الباب أمام الدول الأخرى لوضع استثناءاتها الخاصة بما يخل بالنظام الدولي والاحترام المتبادل لمبادئ القانون الدولي الإنساني، وخير دليل على ذلك هو ما أسفر عنه القصف الجوي لأفغانستان من تشريد ما يربو على مليونين من المدنيين من منازلهم التي دمرت، نتيجة لذلك القصف المنهجي الواسع النطاق ولمدة شهرين متواصلين، فصاروا يعيشون أسوأ ظروف معيشية، وخاصة مع حلول فصل الشتاء وتدمير معظم البنية الأساسية والمرافق العامة بما يهدد حياتهم، الأمر الذي يتعين معه على الولايات المتحدة أن تعطي الأولوية للمساعدات الإنسانية لهؤلاء المشردين قبل أن تتفاقم الأوضاع وتحدث هناك كارثة إنسانية. سيما وأن هناك التزاما على الولايات المتحدة تجاه هؤلاء الضحايا من المدنيين يتمثل في المسئولية المترتبة على هذا القصف وما نتج عنه من آثار غير مباشرة تتمثل في الأضرار الجسيمة التي لحقت بهم من جراء الأخطاء في إصابة الأهداف أثناء القصف الجوي. وهو الأمر الذي يطرح تساؤلا آخر في غاية الأهمية حول نوع تلك المسئولية من ناحية، هل هي المسئولية الجنائية الناتجة عن الخطأ غير العمدي وما ترتب عليها من قتل للمدنيين الأبرياء وتدمير ممتلكاتهم؟ أم هي المسئولية المدنية بأركانها من خطأ وضرر وعلاقة سببية؟ ومن ناحية أخرى هل يجُب تلك المسئولية وجود الضرورة العسكرية وما يتبعها من ضرورة توافر التناسب Proportionality والنتيجة المستهدفة من وراء ذلك؟ إنه من الأوفق عند الإجابة عن تلك الأسئلة عدم التمسك بحرفية النصوص القانونية ولكن تفسيرها وفقا لروح القانون الدولي الإنساني ذاته والغرض الذي من أجله استنت نصوصه ألا وهو وضع الإنسان كأساس وغاية مبتغاة من الحماية القانونية.

الإسلام والغرب: حرب

نصر حامد أبو زيد

> السؤال هو: هل يمكن تفسير الموقف الراهن باعتباره تعبيرا عن «كراهية» و«عداء» متأصلين ضد الإسلام والمسلمين، أم أن على الباحث أن يتحدى مثل تلك الإجابات السهلة؛ لأنها جاهزة ومريحة، ويبحث عن الأسباب الأعمق لتفسير الموقف الراهن؟

بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر صار حديث «الإسلام» فى أوروبا بصفة عامة، وفى «هولندا» بصفة خاصة، هو العنوان المفضل فى كل قنوات الإعلام المكتوب والمسموع والمرئى على السواء. وليس معنى هذا أن موضوع «الإسلام» كان موضوعا هامشيا فى أى وقت من الأوقات خلال السنوات العشرين الأخيرة، وتحديدا منذ حَدَث «الثورة الإسلامية» فى إيران ونجاحها فى إزالة عرش الطاووس سنة ١٩٧٩، لكنه كان حاضرا دائما بدرجات ونسب تتفاوت وضوحا وخفوتا حسب الأحداث - أو بالأحرى الحوادث - التى تتواتر أنباؤها قادمة من أى ركن من أركان العالم الإسلامى الفسيح. لكن الأمر فى السياق الحالى جد مختلف: فالحدث الذى أعطى حديث «الإسلام» مركز الصدارة بهذه الدرجة من الحدة لم تأت أنباؤه من داخل العالم الإسلامى، بل كان حدثا حيا بالصورة شاهده ملايين المشاهدين يحدث فى كل من «نيويورك» و«واشنطن».

أنشأ هذا السياق واقعا مختلفا للحديث عن الإسلام، وطرح بالتالى أسئلة مغايرة لتلك التى كانت تُطرح عادة فى ندوات الحوار سواء عبر قنوات الإعلام أو داخل المؤسسات الدينية أو الأكاديمية فى الغرب. بينما كانت الأسئلة قبل الحادى عشر من سبتمبر تتعلق غالبا بهموم غير المسلمين وبقضايا «الأقليات» و«المرأة» و«حقوق الإنسان» فى الإسلام، فإن هذا السياق الجديد استعاد بأثر رجعى أسئلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عن «الإسلام والعنف»، مفهوم «الجهاد» و«انتشار الإسلام بالسيف»، «الإسلام والتخلف» ومعاداة الحضارة والتقدم والتفكير العلمى.. إلخ.



ورغم أن دلالات حدث الحادى عشر من سبتمبر ما تزال فى حاجة إلى كثير من التحليل والمناقشة لسبر أسبابه الفعلية، أعنى الأسباب العميقة فى بنية النظام العالمى، وفى نسق أيديولوجية «العولمة»، وما يرتبط بها من عملية تدفق المعلومات والأموال وسهولة الحصول على تكنولوجيا الحرب والأسلحة، وعلاقة ذلك كله بالتحول الهيكلى فى بنية «الإرهاب» من قوى محلية غاضبة، تقوم بعملية هنا وهناك، إلى قوة دولية مدمرة، فإن رد الفعل السريع انشغل بالبحث عن «الفاعل» من أجل تحديد المسئولية الجنائية والقانونية. ولما كانت الأرض ممهدة من قبل لتنصيب متهم سبق اعتباره «العدو الجديد» للنظام العالمى فى كتابات صمويل هنتنجتون عن «صراع الحضارات»، فما أسرع ما تم وضع «الإرهاب»، الذى يرفع راية الإسلام، موضع الاتهام. هذا رغم أن الحديث يدور دائما حول «الإرهاب الدولى»، وهى ظاهرة تتجاوز حدود الأديان والثقافات وتحتاج إلى تحليل أعمق لمكوناتها وعناصرها وتاريخها.

وإذا كان رد الفعل فى العالم الإسلامى يميل إلى تفسير هذا الميل فى الغرب لرد ظاهرة الإرهاب إلى «الإسلام» وحده بوصفه - أى بوصف هذا الميل - تعبيرا عن موقف عدائى أصيل ومتأصل ضد «الإسلام» وما يمثله من قيم، فإن هذا التفسير لا يقل بساطة، وأخشى أن أقول سطحية، عن مفهوم «صراع الحضارات» عند هنتنجتون. لقد اختصر هنتنجتون «الغرب» فى «أمريكا»، مثله مثل فوكوياما صاحب نظرية «نهاية التاريخ»، ضاربا عرض الحائط بالفروق الثقافية والتاريخية بين «أوروبا» و«أمريكا»، ووضع هذا الغرب بوصفه كتلة واحدة فى مواجهة كتلات أخرى جغرافية وعرقية ودينية، دون تمييز بين هذه التصنيفات.

والسؤال هو: هل يمكن تفسير الموقف الراهن باعتباره تعبيرا عن «كراهية» و«عداء» متأصلين ضد الإسلام والمسلمين، أم أن على الباحث أن يتحدى مثل تلك الإجابات السهلة؛ لأنها جاهزة ومريحة، ويبحث عن الأسباب الأعمق لتفسير الموقف الراهن؟ وكيف يمكن للباحث الموضوعى - مهما حاول - أن يتخلص من الأحاسيس والمشاعر والانفعالات المعقدة التى تضغط على عقله وتشل أحيانا قدرته على التحليل الهادئ. لعلى لا أعبر فقط عن تجربتى الشخصية حين أذكر أننى حال مشاهدتى على شاشة الـ CNN لحدث انهيار المبنى الأول من مركز التجارة العالمى، وما تلاه من اقتحام الطائرة للمبنى الثانى ثم انهياره هو الآخر بعد دقائق، تبادر إلى ذهنى فورا حالة رد الفعل المتوقعة ضد هذا الفعل الإجرامى البشع بكل المقاييس، والمرفوض بكل المعايير والأعراف الإنسانية. لكنى وفى نفس اللحظة لم أستطع أن أمنع عقلى من مقارنة رد الفعل المتوقع - والمبرر - بحالة رد الفعل «البارد» - الهادئ والمحايد والموضوعى - ضد القتل اليومى للفلسطينيين، والذى كان العالم كله يشاهده على نفس القناة. صرخت فى أعماق نفسى: سيهتز العالم كله غضبا للدم الأمريكى، نفس العالم الذى لم تحركه مشاهد الدم الفلسطينى الذى يسيل يوميا منذ أكثر من عام كامل. أليس الدم هو الدم؟ أم أن الدم الإنسانى يكتسب قيمة تتوقف على محل الميلاد والجنسية ولون البشرة؟ أى عالم هو عالم الألفية الثالثة؟ وما معنى «حقوق الإنسان» و«حوار الحضارات» و«حوار الأديان»؟ ما أسهل أن ننصِّب من «الغرب» مجرما نصوِّب له سهام كراهيتنا، ونُنَفِّس فى كراهيته عن مشاعر غضبنا وإحباطنا. لكن الأصعب الا نستسلم لسَوْرة الغضب، التى هى فى النهاية سمة من سمات الضعف وقلة الحيلة، بل والعجز.



استدعى حدث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ أخبار أحداث الانتفاضة الفلسطينية فى سبتمبر ٢٠٠٠، والتى كانت قد صارت جزءا من زادنا اليومى فى الغربة، نتابعها بالصوت والصورة، ونتابع حالة البرودة العاطفية التى تُقَابَلَ بها أنباء الانتفاضة ومشاهدها الحية فى الدوائر السياسية والثقافية هنا. بالنسبة لنا كان لون الدم فى أعيننا ورائحة الدم ملء أنوفنا، والحزن يعتصر كل اهتزازة فى مشاعرنا وعواطفنا.

إن المقولة المريحة، والتى مفادها أن الغرب - هكذا دون تمييز أو تحديد - يكره الإسلام ويتآمر ضد المسلمين يمكن بلا شك أن تجد سندا لها فى بعض حقائق التاريخ - الحروب الصليبية - والجغرافيا - القضاء على الامبراطورية العثمانية وإلغاء الخلافة - والاقتصادية المتمثلة فى نهب ثروات الشعوب فى فترة المد الامبريالى. تلك شواهد تُستدعى دائما لتأكيد مقولة العداء الغربى المتأصل للإسلام والمسلمين. لكن مقولة العداء الأصيل تلك لا تشرح لنا علاقات «الصداقة» بين «الغرب» وكثير من الأنظمة السياسية فى العالم الإسلامى، خصوصا تلك التى تعتبر نفسها - ويعتبرها الكثيرون فى الغرب والشرق على السواء - أنظمة «إسلامية».

ومن المؤكد أن مقولة الكراهية الأصيلة للإسلام والمسلمين لا تصمد فى تحليل التحالف الإسلامى الأمريكى للقضاء على الشيوعية، التى كانت تعد شارة الإلحاد. فى هذا التحالف ضد الشيطان الأحمر وضع الغرب يده فى يد الإسلام، ووضع المسلمون يدهم فى يد الغرب «المسيحى» للقضاء على الإلحاد عدو البشرية، فاين كان العداء المتأصل؟ أليس هذا التحالف هو الذى سمح للإرهاب بتكوين «قاعدته» فى أفغانستان، وذلك حين لم تمانع كل الأنظمة السياسية من السماح للمجاهدين - الإرهابيين محليا - بالسفر إلى أفغانستان؟ من هنا هو المسئول ومن هنا هو المجرم ومن الضحية؟

هل كانت الحرب ضد الجمهورية الإسلامية وضد نظام الخمينى حربا ضد «الإسلام»، وهى حرب ساعدت فى إشعالها قوى محلية «إسلامية» كثيرة؟ وهل كانت حرب «تحرير» الكويت ضد الاحتلال العراقى حربا مع «الإسلام» وضد العلمانية؟ ألم تشارك فى هذه الحرب دول إسلامية كثيرة يدا بيد مع قوى الغرب بقيادة الولايات المتحدة؟ ليس معنى ذلك بأى وجه من الوجوه محاولة تبسيط العلاقة المعقدة تاريخيا وجغرافيا وسياسيا وثقافيا بين «الغرب» و«العالم الإسلامى» باتساع رقعته الجغرافية وتعدد أبنيته العرقية والثقافية. إن التبسيط المخل يتركز فى هذه المعادلة الساذجة بين «إسلام» - يبدو ثابتا وساكنا ومفهوما - وبين «غرب»، يبدو كذلك ثابتا وساكنا ومفهوما. هذا ما يحاوله هواة الصيد فى الأيديولوجيا بينما يعلنون موتها ونهاية التاريخ. إذا سلمنا بمقولة «نهاية التاريخ» فمن السهل التسليم بوجود إنيات ثابتة ساكنة مثل «الغرب» و«الإسلام».

فى جذر الفلسفة الأمريكية يمكن أن نتلمس أسبابا لهذا الحرص على نصب عدو ما، يكون جاهزا حين تتعرض الأمة الأمريكية - الناشئة التكوين والهشة التاريخ والقابلة للتشظى - لخطر ما حقيقى أم وهمى. إن نمط التفكير الأمريكى مبنى معرفيا على أساس الفلسفة البراجماتية، التى وضع أسسها كل من

«تشارلز ساندرز بيرس» (١٨٣٩ ـ ١٩١٤) و«وليام جيمس» (١٨٤٢ ـ ١٩١٤). وهى فلسفة تركز على مدى «الفائدة» العملية المباشرة للأفكار؛ فالفكرة تكون «صحيحة» إذا كانت فقط «نافعة»، وتكون على العكس «زائفة» إذا لم يكن لها مردود نفعى مباشر. وليست الفلسفة البراجماتية مجرد رد فعل للفلسفة المثالية التى تؤمن بالأفكار بوصفها «حقائق» مستقلة ذات وجود موضوعى، بل هى تبالغ فى ربط مفهوم «الحقيقة» ربطا مباشرا بالفائدة العملية، أو «تحقيق المنفعة».

ولما كانت فكرة أن «الإسلام عدو» فكرة نافعة بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وزوال خطر التحدى الشيوعى سياسيا وعسكريا وأيديولوجيا، فقد أصبحت الفكرة «حقيقة» بقدر ما تحققه من نفع. أما لماذا يحتاج الواقع الأمريكى إلى «عدو» فهذا سؤال آخر يجد إجابته فى التكوين التاريخى لهذا المزيج المعقد من الجماعات والمصالح والصراعات المعروف

القرار. وكم كان حجم الفضيحة مرعبا حين فسر الخبراء عبارة «توكلت على الله» التى وردت على لسان الطيار المصرى المسكين بأنها تعنى إقدامه على «الانتحار»! إنه ليس جهلا باللغة، بل هو جهل بالتاريخ والثقافة والتراث الذى تعد اللغة وعاءه الجامع.



هذا عن الوضع فى أمريكا من حيث علاقتها بالعالم الإسلامى من جهة، ومن حيث طبيعة المداخل التى فرضتها هذه العلاقة على دراسة الإسلام من جهة أخرى. الوضع فى أوروبا ـ وهى مكون رئيسى فى مفهوم «الغرب»، والذى تعد أمريكا مكونا من مكوناته ـ يختلف. ويكفى أن نذكر أن الاهتمام بالإسلام وتاريخه وآدابه يعود إلى بدايات انبعاث المد الإسلامى داخل حدود الامبراطوريتين القديمتين الرومانية

والفارسية منذ أواخر القرن السابع وبدايات القرن الثامن. وقد واكب هذا التداخل الجغرافى تلاقح ثقافى اتخذ فى البداية شكل المساجلات الدينية.

من المفيد فى هذا السياق الإشارة إلى أن بدايات السجال المسيحى الإسلامى مذكور فى القرآن الكريم فى سورة آل عمران بصفة خاصة، حيث تسرد قصة السيد المسيح بدءا من ميلاد السيدة مريم حتى رفع السيد المسيح (الآيات من ٣٥ ـ ٦٠) ثم تنعطف الآيات التالية (٦١ وما بعدها) مشيرة إلى الحوار الذى دار بين النبى عليه السلام ووفد نصارى «نجران» القادمين من «اليمن» والتى كانت آنذاك تحت حكم «الحبشة» الخاضعة بدورها للكنيسة الرومانية. فى هذا السياق يتبين منطق القرآن الكريم فى حالة وصول الحوار إلى طريق مسدود، تسليم الأمر إلى «العلم الإلهى» بالدعوة إلى الابتهال إلى الله بأن يصب لعنته

وغضبه على «الكاذبين» ﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾.

هذا المنطق القرآنى المحايد والموضوعى ظل منهج المسلمين فى الاستجابة للتحديات اللاهوتية التى كان يطرحها المفكرون النصارى نذكر من أوائلهم «يوحنا الدمشقى» (ت: ١٣١هـ/٧٤٩) الذى نشأ وتربى وتعلّم وعمل فى بلاط الخلافة الأموية فى دمشق، ولم يمنعه ذلك من تحدى صدق نبوة «محمد» عليه السلام ومن تحدى مصداقية القرآن الكريم ورفض كل المفاهيم القرآنية عن طبيعة السيد المسيح وحقيقته. بل يمكن القول إن كتابات «يوحنا الدمشقى»، أشهر لاهوتيى عصره وآخر آباء الكنيسة، عن الإسلام والقرآن وعن نبى الإسلام هى التى وضعت الأساس اللاهوتى للنقاش الذى ما يزال

الكراهيـــة.. لمـــاذا؟

بالمجتمع الأمريكى. إلى أى حد يمكن المقارنة بين هذا التكوين التاريخى للولايات المتحدة والتكوين التاريخى لدولة «إسرائيل» فهذا سؤال آخر يكتسب شرعيته من حقيقة أن شكل التماسك الاجتماعى السياسى الوحيد يتحقق فقط فى حالة وجود «خطر». فإذا لم يكن ثمة خطر حقيقى فعلى فلا بد من اختلاق حالة «خطر»، تتطلب بدورها تعيين «عدو». هل يساعدنا هذا الشرح لأسس الفلسفة الأمريكية فى فهم أيديولوجيا البحث عن عدو؟ وهل يشرح لنا لماذا أصبح هذا العدو هو «الإسلام» تحديدا، وذلك دون أن نبتلع الطُعْم الذى يراد لنا ابتلاعه؟



فى أمريكا يمكن أن نتلمس بداية تخلق مشاعر الخوف من الإسلام ابتداء من نجاح الثورة الإسلامية فى إيران، وما صاحبها من احتلال السفارة الأمريكية فى «طهران» واحتجاز عدد من الدبلوماسيين والعاملين فى السفارة. خلق هذا الحدث اهتماما متزايدا بالإسلام فى الدوائر السياسية والأكاديمية الأمريكية، لكن هذا الاهتمام انصب بصفة أساسية على استراتيجية تجميع المعلومات التى من شأنها أن تساعد صانع القرار السياسى فى التصدى لمشكلات التعامل مع العالم الإسلامى فى إيران وتركيا والعالم العربى من جهة، وفى جنوب شرق آسيا من جهة أخرى. وبعبارة أخرى يمكن القول إن الغايات النفعية هى التى حددت النهج الأمريكى الغالب فى الدراسات الأكاديمية للإسلام، وحصرتها فى إطار المداخل السيسيولوجية والأنثروبولوجية والعلوم السياسية. وهذه المداخل على أهميتها تتجاهل البعد التاريخى للفكر والثقافة الإسلامية، وهو بعد لازم وحتمى لفهم الإسلام الحى، أى الإسلام كما تمارسه المجتمعات الإسلامية المختلفة عرقيا وثقافيا. وفى تركيز المناهج الأمريكية على دراسة الإسلام الحى معزولا عن سياقه التاريخى يكمن «سوء الفهم» العويص فى الأوساط السياسية المسئولة عن صناعة

صداه مستمرا حتى الآن بين اللاهوتيين المسيحيين وممثلى الفكر الإسلامى. ومع ذلك فلم نسمع عن أى مضايقات تعرّض لها «يوحنا الدمشقى» فى عقيدته أو فى شخصه. لم نجد سوى الاهتمام بكتاباته والرد عليها ومناقشة أطروحاته[1].

هذا الحوار، أو بالأحرى السجال، القديم الجذور بدأ يأخذ شكلا منظما فى القرن الثانى عشر حيث تمت ترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية لأول مرة فى طليطلة سنة ١١٤٣. صحيح أن هذه الترجمة لم تُنشر إلا بعد ذلك بحوالى أربعة قرون سنة ١٥٤٣ وذلك بتأييد ومساندة «مارتن لوثر»(١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) المصلح البروتستانتى المعروف. كان الهدف من الترجمة هو إتاحة معرفة بالقرآن تمكن رجال اللاهوت من «الدحض» و«الرفض»، وهى الحاجة التى تزايدت مع تزايد خطر التوسع العثمانى رغم انحسار الرقعة الجغرافية للإسلام بسقوط «غرناطة» ١٤٩٢ تطور الاهتمام الأكاديمى بالإسلام وتاريخه وآدابه فى أوروبا واتخذ مسارات مختلفة ومنحنيات شتى معروفة لكل من درس تاريخ الاستشراق. ورغم كل السلبيات التى يمكن تتبعها فى الدراسات الاستشراقية، وهى السلبيات التى حللها بكفاءة منقطعة النظير الدكتور «إدوارد سعيد» فى كتابه المعروف، فإن الخدمات التى أسداها المستشرقون للثقافتين العربية والإسلامية لا يمكن تجاهلها.



من الجدير بالذكر أن ترجمة القرآن بهدف الدحض والرفض من منظور لاهوتى لم تمنع «التأثر»، ويكفى أن أشير هنا إلى دراسة رائدة بعنوان «أثر الإسلام فى إصلاح المسيحية» للمرحوم الشيخ «أمين الخولى»، وهى دراسة تتبع بدقة تاريخية وبمنهج تحليلى الكيفية التى تسربت بها الأفكار والمفاهيم الإسلامية حتى ساهمت فى بلورة حركة «الإصلاح الدينى» التى تمثلت فى كتابات «مارتن لوثر»، الذى كان يعتبر الإسلام، كما يتمثل فى التوسع العثمانى «عدوا» لابد من التصدى لخطره. هذا من ناحية التأثير الإسلامى فى العالم المسيحى، ومن الناحية الأخرى، ناحية تأثير الدراسات الاستشراقية فى المفكرين العرب والمسلمين، يكفى الإشارة إلى الاهتمام فى الثلاثينيات من القرن الماضى بترجمة كل ما ينشر عن الإسلام فى الغرب من أجل الدخول معه فى حوار علمى. النموذج الواضح لهذا «الحوار» يمكن متابعته فى الترجمة الأولى لدائرة المعارف الإسلامية، والتى توقفت للأسف عند حرف «العين». هل يجب التذكير بأن دائرة المعارف الإسلامية تصدر فى الغرب، تصدرها مؤسسة «بريل» بمدينة «ليدن» بهولندا. وهى نفس المؤسسة التى أصدرت هذا العام المجلد الأول من الموسوعة القرآنية، التى يشارك فى مجلس تحريرها وهيئة مستشاريها علماء وباحثون مسلمون وغير مسلمين. وقد كانت مجلة «المنار» التى كان يصدرها «رشيد رضا» وساهم فى تحريرها الشيخ «محمد عبده» حتى وفاته عام ١٩٠٥ قناة اتصال بين الشرق والغرب حتى وفاة صاحبها؛ فكانت مفتوحة لكل الآراء فكتب فيها المبشرون المسيحيون، وكان يتولى الرد والتعليق على هذه الكتابات رشيد رضا نفسه أو غيره من العلماء المسلمين.

هكذا يمكن القول إن «السجال اللاهوتى»، الإسلامى المسيحى، والذى بدأ مبكرا جدا فى القرن الثامن، تطور بالتدريج إلى حوار بين طرفين تبادلا مواقع القوة، لكن هذا «الحوار» لم يتخذ شكلا منظما إلا فى منتصف القرن العشرين وبعد صدور الوثيقة الأولى عن «حقوق الإنسان» سنة ١٩٤٨ ففى بداية الخمسينيات تم إنشاء اللجنة الدائمة للتعاون بين المسلمين والمسيحيين Continuing Committee for Muslim Christian Cooperation (CCMCC) . وهى اللجنة التى قامت بتنظيم مجموعة من اللقاءات بين بعض ممثلى القيادات الدينية من الجانبين فى لبنان. وبالمثل نظم كل من «الفاتيكان» و«المجلس العالمى للكنائس» لقاءات مماثلة، هذا بالإضافة إلى المؤتمر الذى نظّمه العقيد «القذافى» فى ١٩٧٠ واللقاءات التى نظمها «مركز البحوث الاقتصادية والاجتماعية» فى تونس، ولقاءات «مؤسسة آل البيت» فى عمان.

لكن ذلك لم يمنع وجود شكل آخر من أشكال الحوار غير شكل اللقاء بين القيادات الدينية الممثلة للمؤسسات الرسمية على الجانبين. اتخذ الحوار أشكالا فكرية ذات طبيعة أكاديمية، وتمثل ذلك فى تأسيس «جماعة البحث الإسلامى المسيحى» (GRIC) عام ١٩٧٧، بمشاركة عناصر من الباحثين المسلمين والمسيحيين، كاثوليكيين وبروتستنتيين على السواء. وتتكون هذه الجماعة حاليا من أربع مجموعات نشطة فى كل من «بروكسل» و«باريس» و«تونس» و«الرباط»، حيث يقومون بعمل دراسات فى موضوعات مشتركة، ثم يجتمع ممثلون عنهم مرة كل عام لتقييم تطور الأبحاث المُنْجَزَة. وقد نشرت هذه الجماعة حتى الآن كتابين: يتناول الكتاب الأول الكيفية التى يمكن بها قراءة وفهم كل من «القرآن» و«الكتاب المقدس» بعهديه القديم والجديد. وقد نشر الكتاب باللغة الفرنسية بعنوان Ces Ecritures qui nous questionnent, Paris, Centurion, 1987 ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية. أما الكتاب الثانى فيتعامل مع موضوع «الإيمان والعدل» Foi et Justice, Paris, Centurion, 1993.



وفى نفس اتجاه البحث الأكاديمى نُشِرَت كثير من الكتب المؤلفة والمترجمة على السواء، هذا بالإضافة إلى الدوريات المتخصصة فى قضايا الحوار الإسلامى المسيحى. يمكن الإشارة هنا إلى الجهود المبذولة من الجانب الكاثوليكى حيث يصدر «المعهد البابوى للدراسات العربية والإسلامية» (PISAI) فى «روما» كتابا دوريا سنويا Islamochristiana منذ عام ١٩٧٥، كما يقوم نفس المعهد بنشر الدورية الشهرية Encounter فى إيطاليا، والدورية Se Comprendre فى باريس. أما على الجانب البروتستنتى فيمكن الإشارة إلى الدورية الفصلية The Muslim World والتى بدأ ظهورها منذ عام ١٩١٠، والذى يتولى نشرها الآن مركز ماكدونالد دونكان بلاك Duncan Black Macdonald Center لدراسة العلاقات المسيحية الإسلامية فى هارتفورد Hartford CT. ولا بد من الإشارة كذلك إلى الفصلية الدورية ـ كل ثلاثة شهور ـ Islam and Christian-Muslim Relations والتى تنشر بالتعاون بين مركز دراسة العلاقات المسيحية الإسلامية فى «برمنجهام» فى المملكة المتحدة، وبين مركز التفاهم الإسلامى المسيحى فى «واشنطن»، العاصمة الأمريكية. بالإضافة للمطبوعات والدوريات تقوم المؤسسات الأربعة المشار إليها فى «روما» و«هارتفورد» و«برمنجهام» و«واشنطن» بتنظيم محاضرات وعقد مقررات دراسية فى موضوع العلاقات المسيحية الإسلامية.

ولا يكتمل هذا العرض لمحاولات الحوار الإسلامى المسيحى فى العصر الحديث دون الإشارة إلى ظاهرة تزايد عدد المكتبات المخصصة لموضوع المسيحية والإسلام والتى تنشئها المؤسسات الكاثوليكية والبروتستنتية فى كل من آسيا وافريقيا بهدف دفع عملية الحوار فى اتجاه مزيد من التفاهم المشترك. وبالمثل يمكن الإشارة إلى تزايد عدد الكتب التى توجد فى المؤسسات الإسلامية فى المجتمعات الغربية، والتى تتناول موضوع العلاقات المسيحية الإسلامية من زوايا متعددة.

وإذا كان الهدف من الحوار، سواء اتخذ شكل اللقاءات والمواجهات المباشرة، أو اتخذ شكل الدراسات والبحوث الأكاديمية، ليس الوصول بالضرورة إلى «اتفاق تام»، بقدر خلق مناخ من التفاهم المشترك، فإن معوقات نجاح الحوار يمكن تلمس بعض جوانبها فى حقيقة أن محاولات الوصول إلى اتفاق تظل مضمرة فى كثير من اللقاءات المباشرة. وهذا الأمر يطبع هذه اللقاءات، أو بعضها، بطابع «المفاوضة» وليس «الحوار». والفارق بين استراتيجيات «التفاوض» وبين استراتيجيات «الحوار» ليس فارقا فى الدرجة بل هو فارق نوعى: إذ يتضمن «التفاوض» إمكانية التنازل عن شىء مقابل الحصول على شىء مقابل، فيلتقى طرفا التفاوض فى منتصف الطريق. وليس الأمر كذلك فى حالة «الحوار» حيث يكون الهدف هو الوصول إلى فهم متبادل لموقف كل طرف من جانب الطرف الآخر، وهو التفاهم الذى من شأنه أن يخفف تدريجيا من حالة «الصراع» لينتقل بأطراف الحوار إلى حالة التعاون.

وهذا المفهوم للتعاون بديلا عن الصراع، وللتفاهم بديلا عن «التفاوض» أو«العراك» اللاهوتى، هو المفهوم الذى يبدو أن مؤسسة «الأزهر» تنطلق منه كما يعبر عن ذلك ممثلها الدكتور «على السمان»، حيث ذهب إلى أن الحوار الذى يتبناه «الأزهر» ويسعى إلى إنجازه يدور على ثلاثة مستويات: «المستوى الأول: مستوى اللجنة الدائمة للأزهر لحوار الأديان السماوية، والمستوى الثانى: هو لجنة الحوار والعلاقات الإسلامية بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والمستوى الثالث هو المؤسسة الدولية لحوار الأديان السماوية وتعليم السلام DIC ومقرها بباريس. هذه المؤسسة الأخيرة كان لها دور محورى ـ فيما يقول الدكتور السمان ـ «فى عقد اتفاق الحوار الذى أُبرم بين الأزهر والفاتيكان فى مايو ١٩٩٨م».

فى حديثه عن إنجازات اللجنة الدائمة لحوار الأديان، المستوى الأول، يعرض الدكتور «على السمان» للصعوبات التى تعترض عمل هذه اللجنة، كما يعرض للاستراتيجية الأساسية التى تتبناها. أما عن صعوبات النقاش فى مسألة حوار الأديان فيقول إنه: «أصبح موضوع نقاش هادئ أحيانا ونقاش ساخن أحيانا أخرى، ملىء بالموضوعية فى النقد والتقويم فى بعض المراحل، وملىء بالسطحية والتعميم فى نقد غير هادف فى مراحل أخرى». ورغم تلك العوائق فقد تبنت اللجنة أن تطبق القاعدة الإسلامية التى فحواها: «اللهم اجعلنا ممن يجمع ولا يفرق».

من المؤكد أن مقولة الكراهية الأصيلة للإسلام والمسلمين لا تصمد فى تحليل التحالف الإسلامى الأمريكى للقضاء على الشيوعية، كما مقولة العداء الأصيل تلك لا تشرح لنا علاقات «الصداقة» بين «الغرب» وكثير من الأنظمة السياسية فى العالم الإسلامى

وحول السؤال عن قيمة ودور وفائدة حوار الأديان بصفة عامة وفائدة الحوار الذى تقوم به اللجنة بصفة خاصة، يحدد نائب رئيس اللجنة أهمية الحوار وضرورته فى عدة أمور:

١ ـ كون «الحوار» نهجا إسلاميا أصيلا، مارسه الرسول ضد مخالفيه، بل مارسه القرآن ذاته. ٢ ـ الحوار هو بمثابة «صمام الأمان بديلا عن المواجهة والصدام».

٣ ـ الحوار «مبدأ أخلاقى» يعنى الاعتراف بالآخر، فهو «لغة المنظمات الدولية والإنسانية والمجتمع المدنى». الغاية من الحوار بين الأديان هى السعى إلى «إيجاد لغة مشتركة بيننا وبين ممثلى الأديان الأخرى لإقامة معادلة ذكية وأمينة بين ما نريده نحن الذين يحملون جزءا من مسئولية تقديم الصورة الصحيحة لإسلامنا الحنيف وبين ما يريده الآخرون لتوضيح صورة أديانهم وحرصهم على إيجاد أرضية تعاون حول القيم المشتركة للأديان». فى إطار هذا الهدف تم للجنة تحقيق الإنجازات التالية:

١ ـ أولا «المشاركة فى المؤتمرات الدولية للحوار ليعلو صوت الأزهر من أعلى المنابر ناشرا فكر إسلام السماحة ولمواجهة اتهام الإسلام بما ليس فيه». وأهم هذه المؤتمرات ـ فى نظر الدكتور «السمان» ـ كان مؤتمر روما للألفية أمام نحو ألف من ممثلى الأديان الأخرى فى العالم، حيث قُرِأت رسالةُ الإمام الأكبر شيخ الأزهر أمام هذا الجمع الكبير عن مكان الأديان الأخرى فى الإسلام والقواعد التى أرست تعامل المسلمين مع غير المسلمين حتى فى حالة الحرب مما يؤكد الأسلوب الروحانى والإنسانى والحضارى لتعامل الإسلام مع الآخرين. » ولا ينسى الدكتور السمان فى هذا السياق الإشارة إلى المؤتمر الذى عقد عام ١٩٩٩ فى قصر وندسور بإنجلترا تحت رئاسة الأمير فيليب والد الأمير شارلز»، الذى كان قد أكد مبادئ الحوار فى خطابه التاريخى بأكسفورد حينما رفض أن يُحَمَّل الإسلام بجريرة ما يقوم به بعض المسلمين والذى أكد أنه تعلم من الإسلام كثيرا».

والآن وبعد هذه الجهود المشكورة من الجانبين لماذا تبدو الصورة قاتمة؟ ولماذا لم تمتد جدوى الحوار الرسمى والأكاديمى لتمارس أى فعالية تذكر على مستوى وعى المواطن العادى، المسلم وغير المسلم على السواء، فى المجتمعات الغربية؟ لماذا يظل خطاب الأمير شارلز خطابا نخبويا، ولماذا تظل عبارات جورج بوش الابن وتونى بلير والرئيس الفرنسى شيراك عن التمييز بين الإسلام ـ دينا وثقافة وحضارة ـ وبين «الإرهاب» عبارات بلا مردود فى سلوك مواطنيهم فى «أمريكا» و«إنجلترا» و«فرنسا»؟ وأخيرا لماذا هذه الفجوة بين صورة الإسلام فى «الإعلام» وبين الصورة فى الخطابين السياسى والدينى الرسميين؟ تلك أسئلة آن أوان مواجهتها مواجهة شجاعة.

أعتقد أن جزءا جوهريا من الشجاعة المطلوبة هو شجاعة مواجهة النفس بالنقد، الذى لا يجب التقليل من شانه لمجرد أنه صادر من آخرين. إن «الآخر» ليس بالضرورة عدوًا أصيلا، بل هو بدرجات متفاوتة «مرآة» تتجلى فيها صورة «الأنا». وعلى ذلك يجب علينا عدم المراوغة للتهرب من الإجابة عن السؤال التالى: لماذا يستشهد المسلمون دائما بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية التى تبرز الوجه السلمى المتسامح للإسلام ويتجاهلون النصوص الأخرى التى تحض على القتال والقتل والإرهاب؟ وهو سؤال أصبح يثار كثيرا بعد الحادى عشر من سبتمبر، خاصة مع تزايد حجم الإجابات الجاهزة، سواء ذات الطابع الدفاعى/الاعتذارى apologetic أو ذات الطابع السجالى polemic.



فى الإجابات الدفاعية/الاعتذارية يتم تجاهل النصوص التى تحض على القتال والتربص للمشركين فى كل مكان، أو يتم اللجوء إلى توظيف مقولة «النسخ» رغم كل ما تثيره من مشكلات من الوجهة اللاهوتية؛ فالنصوص التى تحض على القتال والتربص بالمشركين نزلت بعد النصوص التى تؤكد التسامح والمساواة بصرف النظر عن اللون أو اللغة أو حتى العقيدة. فى الإجابات ذات الطابع السجالى يقوم المحاور ببيان أن العنف ظاهرة موجودة فى كل الأديان وفى كل الثقافات، ولعله يستشهد بمدى العنف الذى مارسه الصليبيون باسم المسيح لا ضد المسلمين وحدهم بل ضد المسيحيين الشرقيين واليهود معا. وحين يؤكد المحاور حقيقة وجود العنف فى كل الأديان وكل الثقافات فإنه يكاد يصل إلى تخوم تبرير العنف.

ومن أهم عناصر الشجاعة فى مواجهة النفس أن يعترف رجال السياسة والعلماء والمثقفون فى العالم الإسلامى أن ثمة مشكلة يعانى منها العالم الإسلامى، تتمثل فى ظاهرة وجود تفسيرات للإسلام يمكن استخدامهما تبريرا لقتل الأبرياء. ولابد من الاعتراف أن هذه التفسيرات ستظل معوقا من معوقات التقدم والازدهار والترقى ما لم يبدأ العلماء والمثقفون فى العالم الإسلامى فى توظيف منهج النقد التاريخى فى دراسة التراث وتحليله. ولابد من الإشارة هنا منعا لسوء الفهم الناشئ عن الالتباس أن «النقد» لا يعنى «النقض» والهدم. ولا يمكن القول إن بنية «العقل الإسلامى» ضد «النقد» ومع التسليم والإذعان كقيم مطلقة: ذلك أن الحديث عن عقل إسلامى خارج محددات الجغرافيا والتاريخ من جهة، وبمعزل عن الشروط الاجتماعية/الثقافية للمجتمعات الإسلامية بمرجعياتها التاريخية المختلفة من جهة أخرى، حديث ميتافيزيقى لا يستند إلى أسس واقعية. لعل الأكثر واقعية أن نبحث عن علة هذا الفزع العام من منهج «النقد»، خاصة حين يطال أيا من الظواهر الدينية فى التاريخ الحديث، فى أزمة «الحداثة» و«التحديث» وإشكالياتها النابعة من سياق العلاقة الملتبسة بين العالم الإسلامى من جهة، وبين أوروبا بصفة خاصة والغرب بصفة عامة من جهة أخرى. ربما نجد فى هذه العلاقة مؤشرات للإجابة على بعض الأسئلة الحائرة. لماذا كان ممكنا مثلا فى القرن التاسع الميلادى لمفكر موسوعى مثل جلال الدين السيوطى (ت ٩٠٩ هـ) أن يسرد الرأى القائل بأن «القرآن» الكريم أُوحيَ إلى محمد عليه السلام بالمعنى فقط وأنه هو الذى وضع صياغته باللغة العربية، ولم يعد ممكنا اليوم مجرد مناقشة هذا الرأى أو حتى حكايته؟ لماذا إذا ذكر مؤرخ ـ مجرد ذكر ـ الحقيقة التاريخية المعروفة أن محمدا، عليه السلام، فشل فى دعوته فى مكة حيث تعرض هو وصحبه لاضطهاد غير محتمل من قريش، ومن ثم لم يجد مناصا من الهجرة إلى يثرب، تهيج الدنيا ويحتج المحتجون فيحاكم الرجل ويحكم عليه بالسجن؟ ولماذا ينجرح الشعور الدينى بصدور رواية أدبية أو نشر قصيدة شعرية، أو عرض لوحة فنية أو رواية سينمائية، ويحشد الخطباءُ العامةَ فى مظاهرات احتجاج ضد ما لم يقرءوا أو يشاهدوا؟ ما سر ذلك العداء العجيب للفنون والآداب، خاصة فنون الموسيقى والغناء، كأن ترتيل القرآن الكريم لا ينتمى إلى فن الأداء الصوتى، وكأن القرآن نفسه ليس نصا أدبيا وفنيا راقيا بامتياز؟ وأخيرا لماذا نحرم ثقافتنا من فنون المسرح والأداء بوضع محاذير ضد ظهور بعض الشخصيات التاريخية؟ فى البدء انْصَبَّ التحريمُ على ظهور الأنبياء، ثم أخذ ينسحب تدريجيا على الصحابة وآل البيت، والآن توضع المحاذير ضد الممثل أو الممثلة الذى يشخص دور شخصية مهمة من التابعين، كأن يقال مثلا إن عليه.أو عليها. أن يجعل من هذا الدور آخر الأدوار التشخيصية. أليس معنى ذلك أن التمييز بين «الشخصية» و«الممثل» الذى يشخصها غائب غيابا تاما من أفق الوعى العام؟ إنه التوحيد التام بين «المثل» و«الممثول»، سواء فى اللغة ـ بين الألفاظ والمعانى والدوال والمدلولات ـ أو فى الواقع بين «الفكر» و«الشخص»، أو فى الأداء الفنى والأدبى بين «المتخيل» و«الواقعى». وكأن الثقافة الإسلامية ما تزال فى مرحلة التفكير البدائى «السحرى»، الذى لا فارق فيه بين اللغة كنظام رمزى وبين ما تمثله وترمز إليه من دلالات، ولا بين «الممثل» والدور الذى يمثله والشخصية التى يقدمها، ولا بين العمل الفنى أو الأدبى وبين «العالم» الذى ينبثق عنه، أو الفنان الذى يبدعه. يبدو هذا كله غريبا فى ظل ثقافة دينية انطلقت من آفاق مرجعية تراثية رحبة، انبثقت بصفة أساسية من «قرآن» تأسست دعوته على العقل ـ نقيضا للجهل والتعصب وضيق الأفق المسمى «جاهلية» ـ وعلى «العدل» نقيضا للظلم الذى يتأسس على قوة «الجهل» فى كل مناحى الحياة، وعلى «الحرية» نقيضا للعبودية بكل معانيها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.



إن التردد فى تقبل منهج النقد التاريخى للتراث يرتبط بغياب قيمة «النقد» من أفق الحياة العامة بوصفه شرطا أوليا للمعرفة الحقيقية، أى المعرفة التى تنبثق من معطيات المعلوم إلى آفاق المجهول. وغياب «النقد» كقيمة إيجابية يمكن أن يفسر هذا التوجس من الديمقراطية باسم الإسلام. ويجعل من الصعب على المواطن فى الغرب تصور إمكانية التعايش بين الإسلام والديمقراطية. وحين تُذكر الديمقراطية تُذكر حقوق المراة، اعتمادا على شواهد الحال فى مجتمعات إسلامية كثيرة.

علينا فى ممارسة الحوار ألا نكون أقل شجاعة فى نقدنا للآخر، وللغرب السياسى. خاصة حين يتصل الأمر بالكيان الصهيونى وممارساته القمعية ضد شعب فلسطين. إن «إسرائيل» هى نقطة ضعف أوروبا السياسية والثقافية، وليست نقطة ضعف أمريكا وحدها. علينا أن نذكر الغرب السياسى والثقافى بأن «المشكلة اليهودية» لم تُحل حين تم تصديرها لفلسطين استنادا على دعاوى لاهوتية سرعان ما تتهاوى أمام سلاح النقد التاريخى. وإذا كانت الكنيسة قد أصدرت وثيقتها البابوية بتبرئة اليهود من دم المسيح عليه السلام، فكيف يمكن أن يكون لهؤلاء اليهود، الذين لم يقتلوا السيد المسيح؛ لأنهم لم يكونوا موجودين آنذاك، أن يكون لهم حق فى الأرض التى لم يعيشوا فيها أبدا؟ وإذا تبنينا النهج السجالى لقلنا إن حقهم فى العودة إلى أرض الأسلاف ـ أرض الميعاد ـ لابد أن



فى جذر الفلسفة الأمريكية البراجماتية يمكن أن نتلمس أسبابا لهذا الحرص على نصب عدو ما، يكون جاهزا حين تتعرض الأمة الأمريكية لخطر ما حقيقى أم وهمى. ولما كانت فكرة أن «الإسلام عدو» فكرة نافعة بعد سقوط الاتحاد السوفيتى، فقد أصبحت الفكرة «حقيقة» بقدر ما تحققه من نفع



يقارنه تحملهم لمسئولية الجريمة التى ارتكبها أسلافهم: فالميراث لا يتجزأ. علينا أن نكشف للغرب السياسى أن انتماءه الدينى المضمر يجعل من «إسرائيل» طفل العالم المدلل. لكنه ليس الانتماء الدينى المضمر فقط، بل يضاف إليه «عقدة الذنب» إزاء اليهود.



وبصرف النظر عن نهج التحاور واستراتيجياته وآلياته، فمن الضرورى أن يكون حوارا نقديا بنّاء، لا مجرد نقد للآخر وتبرئة الذات. وفى تقديرى أن الأمر ليس أمر عداء متاصل ضد الإسلام فى الغرب، بقدر ما هو غياب لروح الحوار النقدى المتبادل، والمستند على درجة عالية من الشفافية المنهجية. إن مشكلاتنا مع الغرب هى مع سياسات الغرب ومصالحه الاقتصادية، وفى القلب من هذه السياسات والمصالح «الكيان الصهيونى». دليلى على ذلك مسألة «تجريم» النقد التاريخى إذا اتصل بموضوع المحارق النازية، وإذا اتصل بالحقوق التاريخية لليهود فى أرض فلسطين. حين يتصل الأمر بإسرائيل يصبح الغرب شرقا حيث يصبح «النقد» جريمة.

فى الندوة التى عقدتها الأكاديمية الكاثولوكية فى مدينة «هامبورج» بألمانيا يومى ١٥-١٦ نوفمبر عن «السلام والأديان»، وبعد انتهاء المحاضرين الثلاثة من إلقاء كلماتهم وفتح باب الحوار للجمهور، وقف مواطن أمريكى يعيش فى ألمانيا وألقى شبه محاضرة وجّه فيها نقدا شديدا للمسلمين بصفة عامة وللعرب بصفة خاصة، لعدم اعترافهم بالأيادى البيضاء لأمريكا، وإنكارهم الواضح للجميل. وقف المواطن يعدد بالأرقام (ملايين الدولارات) حجم المساعدات التى أنفقتها الولايات المتحدة لمساعدة المحتاجين فى العالم بدءا من مشروع «مارشال» الذى انتشل أوروبا من دمار الحرب العالمية الثانية وأعاد بناء اقتصادها من جديد. هذا المشروع الإنسانى العظيم الذى لولاه - هكذا شرح المواطن الأمريكى - ما استطعنا أن نجتمع هنا اليوم فى هذا المكان الرائع، لننعم بإمكانية هذا الحوار. ومن مشروع مارشال انتقل المحاضر للمساعدات التى أنفقتها الولايات المتحدة لإيواء اللاجئين الفلسطينيين عقب النكبة، وذكر التدخلات الإنسانية لحماية المسلمين فى «كوسوفو»، هذا بالإضافة إلى برامج المساعدات الاقتصادية لمصر وغيرها. ألم تقف الولايات المتحدة إلى جانب «الأفغان» فى حربهم العادلة ضد الاحتلال السوفيتى، وزودت المقاتلين الأفغان بالمال والسلاح؟ هكذا تساءل المتحدث فى دهشة واستنكار بالغين. وتهدج صوته وهو ينهى تعليقه بالتساؤل: ومع كامل التقدير ما سر هذه الكراهية التى تتبدى فى كلام الدكتور «أبو زيد» ضد أمريكا والأمريكان؟! تعالت أصوات الاستهجان من جميع الحاضرين اعتراضا على لهجة «الاستعلاء» الواضحة فى حديث المتحدث.

ورغم لهجة الاستفزاز الواضحة فى التعليق فقد شكرت المتحدث لأنه أتاح لى الفرصة للرد على اعتراضات وأوهام لم أتعرض لها فى صلب محاضرتى: مسالة كراهية العرب والمسلمين للغرب بصفة عامة ولأمريكا بصفة خاصة. قلت له إن المسالة ليست مسالة كراهية متاصلة، بل هو «النقد» الذى تتقبله إذا كان موجها ضد غير أمريكا ولكنه محرم ضد أمريكا. حديث هذا المواطن الأمريكى هو «الصدى» لحديث الكراهية المتاصلة فى الغرب ضد الإسلام عند بعضنا. فى العالم الواحد الصغير غير المتكافئ وغير العادل يبدو اختيار «الحوار» هو الاختيار الأصعب، فى حين يبدو اختيار «الكراهية» هو الاختيار الأسهل. لقد اختار الساسة فى أمريكا أن يقودوا العالم - الذى أطاعهم فى مجمله - فى حرب كراهية ضد عدو لم يتحدد بشكل واضح: الإرهاب الدولى. وعلينا أن نحذر «النقد» الذى قد يبرر الإرهاب دون أن يمنعنا ذلك من كشف النقاب عن النتائج المتوقعة لهذه الحرب التى شارك فيها كل طرف من أجل حربه الخاصة.

ها هو «شارون» يعلن أنه يخوض حربًا ضد «السلطة الفلسطينية» لأنها تحمى «الإرهاب» شانها فى ذلك شأن نظام «طالبان» الذى يحمى «القاعدة». هذه واحدة من نتائج حرب الكراهية العمياء ضد عدو لم يتحدد، فاصبح من حق كل طرف من أطراف التحالف أن يشير إلى عدوه باصابع الاتهام بوصفه «الإرهاب». من يستطيع فى هذا السياق المجنون أن يمسك رأسه، ويطامن من غضبه ويحبس نبض مشاعره وعواطفه، ليقول كلمة سواء؟ ما أصعب وضع المفكر أو المثقف، الذى هو أيضا مواطن له انتماءاته التى يعتز بها، والذى يريد أن يظل مخلصا لقضية المعرفة وساعيا لنشدان الحقيقة! إن الانتماء الحقيقى يفرض على الباحث نقد ثقافته الخاصة سعيا لتطويرها، وفى هذا المنحى قد يتجهمه بعض أهله: لأنهم يريدون منه أن يوجه سهام نقده للآخر وحده. وإذا أخلص النقد ضد «الآخر» وأفرط - ولو بالتضمين دون الإفصاح - فى تبرئة الذات فقد خان أمانة الكلمة وروح البحث. تلك هى الغربة، وأى غربة! ■

الهوامش

(١) انظر عن «يوحنا الدمشقى والإسلام»:
D.J. Sahas, John of Damascus on Islam, Leiden 1972.

■■ مؤلف هذا الكتاب صحفي أمريكي يعترف أنه خصم سياسي لهنري كيسنجر، وهو يتعرض بالوثائق للجرائم التي تشكل أساسًا لإدانة كيسنجر قانونيًا في جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية بما في ذلك جرائم التآمر للقتل والتعذيب. ولذلك فإنه لا يتعرض لأحداث ومواد تسيء إلى كيسنجر وإن كانت لا تخضع لمعيار جرائم الحرب أو جرائم ضد الإنسانية وفق القوانين الدولية التي تطبق اليوم.

ومن أمثلة هذا النوع الأخير قيامه بتجنيد الأكراد العراقيين وخيانتهم بعد ذلك. فهو الذي شجعهم على النهوض بالسلاح ضد صدام حسين في الفترة ١٩٧٤-١٩٧٥ ثم تخلى عنهم وعرّضهم للإبادة عندما قام صدام حسين بإبرام اتفاقه المشهور مع شاه إيران.

هذا المثال يقع في خانة السياسة الشريرة وإن لم يمثل مخالفة لقانون معروف. وبالمثل فإن قيام كيسنجر بالتستر السياسي والدبلوماسي والعسكري على سياسة الأبرتهايد في جنوب أفريقيا وسعيه لزعزعة استقرار أنجولا ونشاطاته الأخرى في أمريكا الوسطى في أوائل الثمانينيات مع أوليفر نورث لن يتعرض لها الكتاب.

إن مؤلف الكتاب يقصر اهتماماته على الجرائم الواضحة والتي يمكن - بل يجب - أن توضع تحت وطأة المحاكمة. وهذه الجرائم تشمل على وجه التحديد على:

١- القتل الجماعي للمدنيين في الهند الصينية.

٢- التآمر المتعمد في القتل الجماعي، ثم في الاغتيال في بنجلاديش.

٣- التخطيط لمقتل «قائد عسكري في دولة ديمقراطية - شيلي - ليست في حرب مع أمريكا.

٤- التدخل شخصيًا في خطة لقتل رئيس دولة قبرص (المطران مكاريوس).

٥- التحريض والتمكين من القتل الجماعي في تيمور الشرقية.

٦- الاشتراك شخصيًا في خطة قتل صحفي يوناني يعيش في واشنطن.

وربما كانت هناك جرائم أخرى لم تعرف بسبب حرق أدلتها.

The Trial of Henry Kessinger

(محاكمة هنري كيسنجر)

Christopher Hitchens

Verso, 2001

محاكمة هنري كيسنجر

عبدالعظيم أنيس



إن كثيرين من أعوان كيسنجر - في فترة قيادته في السلطة - موجودون الآن في السجن، وبعضهم نال عقابه وتم فضحه. ولم يبق إلا كيسنجر دون عقاب. فباسم الألوف من الضحايا - المعروفين والمجهولين - ألم يأن الأوان لأن تأخذ العدالة مجراها فيما يتعلق بكيسنجر؟

إننا نعيش اليوم في العصر الذي لم تعد فيه «حصانة السيادة» لحاكم أي بلد أمرًا مقبولاً. فالحكم على بينوشيه «دكتاتور شيلي السابق» في لندن والنشاط الرائع لقضاة إسبانيا في هذا الصدد وأحكام المحكمة الدولية في لاهاي... كل ذلك قد هدم القناع الذي كانت ترتكب الجرائم تحته باسم «حصانة رئيس الدولة».

وبالتالي فلم يعد هناك سبب يمنع من صدور أمر قضائي بمحاكمة هنري كيسنجر في الجرائم التي سلف ذكرها. وثمة أسباب تجعل المؤلف يعتقد أن كيسنجر قد فهم هذا التحول الحاسم في القانون حتى ولو كان العديدون من القادة لم يدركوا ذلك.

إن كثيرين من أعوان كيسنجر - في فترة قيادته في السلطة - موجودون الآن في السجن، وبعضهم نال عقابه وتم فضحه. ولم يبق إلا كيسنجر دون عقاب. فباسم الألوف من الضحايا - المعروفين والمجهولين - ألم يأن الأوان لأن تأخذ العدالة مجراها فيما يتعلق بكيسنجر؟

ثمة دلائل على أن كيسنجر يخشى بالفعل أن تمتد إليه يد العدالة. فالمؤلف يقول إن لديه تسجيلاً صوتيًا لحديث تليفوني دار بين كيسنجر ومايكل كوردا «صاحب دار نشر أمريكية» في نيويورك في ٢ ديسمبر ١٩٩٨. وقد بدأ الموضوع عندما دق جرس التليفون في مكتب كوردا وجاءت رسالة تطلب منه الاتصال بالدكتور هنري كيسنجر على وجه السرعة.

ورفع كوردا سماعة التليفون وطلب من سكرتيرته أن تطلب ٧٥٩٧٩١٩ (مكتب شركة هنري كيسنجر وشركاه) ثم قال وسط ضحك الحاضرين في مكتبه «الرقم في الحقيقة كان يجب أن يكون ١٨٠٠ كمبوديا أو ١٨٠٠ ضرب كمبوديا».

وبعد برهة قصيرة يسمع صوت كوردا وهو يقول «هنري.. هاي كيف أنت؟ أنت تحصل على صيت واسع هذه الأيام في صحيفة نيويورك تايمز وإن كان ليس الصيت الذي تحبه... أعتقد مثلك أنه من المشكوك فيه أن تقول الإدارة نعم وأن تنشر هذه الأوراق... طبعًا لا... لا أعتقد أن هناك مشكلة حول ذلك حتى ولو كان الأمر غير مريح... هذا قاض إسباني يناشد محكمة إنجليزية مقاضاة رئيس دولة شيلي... إسبانيا ليس لها سلطة الحكم على أحداث وقعت في شيلي على أية حال... إنه بالمطلق كلام فارغ...».

ويستطيع أي إنسان أن يحكم عند سماع هذا الشريط على بعض الأشياء الخاصة بهنري كيسنجر وأولها وأهمها حالة الرعب لديه عند سماع نبأ القبض على دكتاتور، وأيا كانت تفاصيل حديثه مع كوردا فإن الكلمة المفتاح في هذا الحديث هي «المساءلة القانونية».

فما الذي كانت صحيفة نيويورك تايمز قد نشرته ذلك الصباح وأشار إليه كوردا في حديثه التليفوني مع كيسنجر؟

إنه مقال بقلم محررها لشئون الأمن القومي تيم وينر تحت عنوان «الولايات المتحدة سوف تنشر ملفات الجرائم تحت حكم بينوشيه» ويقول المقال:

«في مواجهة سياسية ودبلوماسية حاولت تجنبها قررت الولايات المتحدة أن ترفع الحظر عن بعض الوثائق السرية حول الاغتيالات والتعذيب أثناء حكم الدكتاتور بينوشيه في شيلي...» وقرار رفع الحظر عن هذه الوثائق هو أول إشارة لاستعداد الولايات المتحدة للتعاون في القضية ضد بينوشيه. والمسئولون في إدارة كلينتون يعتقدون أن فوائد المكاشفة في شئون حقوق الإنسان تجب المخاطر على الأمن القومي في هذه المسألة بالذات»... وبينما أيد المسئولون في حكومات أوروبا تقديم بينوشيه للمحاكمة التزمت الولايات المتحدة الصمت تعبيرًا عن شكوكها في سلطة المحاكم الإسبانية، وعن قلقها حول مغزى هذا بالنسبة لمسئولين أمريكيين قد توجه إليهم أدلة الاتهام في بلاد أجنبية».

وكما توضح الوثائق الأمريكية التي أفرج عنها فقد أيد الرئيس نيكسون وهنري كيسنجر (مستشاره لشئون الأمن القومي ووزير خارجيته فيما بعد) انقلابًا يمينيًا في شيلي في أوائل السبعينيات. لكن كثيرًا من أفعال الولايات المتحدة خلال انقلاب ١٩٧٣ وما فعله المسئولون الأمريكيون وأجهزة المخابرات مع حكومة بينوشيه مازال سريًا لم يفرج عنه. والملفات السرية عن نظام بينوشيه الموجودة لدى أجهزة المخابرات الأ مريكية المختلفة والمكتبات الرئاسية لجيرالد فورد وجيمي كارتر مازالت في الكتمان.

ووفق بيانات وزارة الخارجية فإن هذه الملفات تحتوي على سجل بتاريخ العدوان على حقوق الإنسان والإرهاب الدولي، ولدى المخابرات الأمريكية ملفات عن الاغتيالات التي قام بها النظام والبوليس السري في شيلي، وعن محاولات شيلي لتشكيل كتيبة عسكرية ذات توجه يميني لأعمال القتل، كما تحتوي مكتبة فورد على الملفات السرية الخاصة بشيلي التي لم يسمح بنشرها حتى اليوم.

وحسمًا لهذا الوضع طلب المؤلف إجراء حوار مع كيسنجر حول هذه القضايا لكنه اعتذر.

إن الولايات المتحدة تعتقد أنها تتعقب وتدين مجرمي الحرب والإرهابيين الدوليين دون أن يخطر في بالها أنها بهذا التكتم تحمي واحدًا من أكبر هؤلاء... وهو هنري كيسنجر.



بين السياسيين في واشنطن سر معلن وإن كانوا يتجنبون الحديث عنه. والسبب في هذا الموقف هو أنه ليس من مصلحة الحزبين الرئيسين - الجمهوري والديمقراطي - إعلانه على الملأ.

وبكلمة صريحة فإن هذا السر هو: في خريف ١٩٦٨ اتجه ريتشارد نيكسون وحواريوه إلى تخريب مفاوضات السلام مع الفيتناميين في باريس. كان الحزب الديمقراطي بقيادة جونسون هو الذي يجري المفاوضات، وكانت الانتخابات العامة الأمريكية على الأبواب وكان نيكسون هو مرشح الحزب الجمهوري. ولذا كانت طريقة تخريبها بسيطة، فقد أرسل نيكسون إلى حكومة سايجون من قال لها إنه إذا انتصر الجمهوريون في الانتخابات الأمريكية فسوف يقدمون لها شروطًا أفضل من شروط حكومة جونسون التي يقدمها هربرت همفري الذي كان مرشح الديمقراطيين في انتخابات الرئاسة.

وقد نجحت تلك الحيلة وانسحبت فيتنام الجنوبية من مفاوضات باريس، وكان الديمقراطيون يعولون كثيرًا على نجاحها لمساعدتهم في الانتخابات. وكان الديمقراطيون على استعداد لوقف الغارات على فيتنام الشمالية كجزء من هذه الصفقة.

ومن زاوية أخرى لم تنجح الحيلة لأن إدارة نيكسون التي جاءت إثر الانتخابات قد أنهت الحرب بعد سبع سنوات (١٩٧٥) بنفس الشروط التي كانت معروضة في باريس. والسبب الحقيقي في تكتم الساسة الأمريكيين لهذه المسألة أنه خلال تلك الفترة ما بين مفاوضات الديمقراطيين ومفاوضات كيسنجر قتل عشرون ألف جندي أمريكي وأعداد غير معروفة من الفيتناميين والكمبوديين والليتوانيين، وتأثير هذه السنوات الضائعة على المجتمع الفيتنامي والديمقراطية الأمريكية يفوق كل حساب.

وفي عام ١٩٩١ صدر كتاب «مستشار للرئيس» الذي كان مؤلفه كلارك كليفورد وزير الدفاع في حكومة جونسون، وكان ريتشارد هولبروك المساعد السابق لوزير الخارجية ثم السفير بالأمم المتحدة عضوًا في فريق المفاوضات، وكان هنري كيسنجر هو الشخص الوحيد الذي كان على صلة بفريق المفاوضات وإن لم يكن من الحزب الديمقراطي، ومن هذا الطريق عرف بالعرض الأمريكي في المفاوضات بوقف الغارات على فيتنام الشمالية.

يقول كليفورد إنه من مكتبه بوزارة الدفاع كان قادرًا على قراءة تقارير المخابرات عن «الطريق السري الخاص» بين الرئيس ثيو في سايجون ورجال حملة نيكسون الانتخابية، وفي مقدمة هؤلاء الرجال جون ميتشل وزير العدل في حكومة نيكسون ومدير حملته الانتخابية والمسجون رقم ١٥٧-٢٤٧٨ في سجون ألاباما بعد ذلك، وكانت تساعده في هذا العمل مدام آنا شينوليت «صينية من تايوان» والتي كانت تعرف باسم «السيدة التنين» لحكومة ثيو أنه سيقدم لهم شروطًا أفضل من شروط الديمقراطيين بمجرد كسب الانتخابات.

وفي النهاية انسحب ثيو من مفاوضات باريس مدمرًا لها قبل الانتخابات الأمريكية بيومين. ولا يشك كليفورد فيمن نصح ثيو بالانسحاب. فهو يقول: «إن نشاط فريق نيكسون قد تعدى تمامًا حدود النضال السياسي المقبول. لقد مثل بهذا تدخلًا مباشرًا في أعمال السلطة التنفيذية ومسئوليات رئيس الدولة الأمريكية... إن نشاطات حملة نيكسون مثلت تدخلًا غير قانوني في شئون تتعلق بالأمن القومي من جانب أفراد خصوصيين».



ويعترف نيكسون في كتابه «مذكرات ريتشارد نيكسون» أن هنري كيسنجر هو الذي أخبره أن إدارة جونسون كانت تتجه لوقف الغارات على فيتنام الشمالية بهدف إنجاح المفاوضات. وكان هنري كيسنجر - كما يقول ريتشارد هولبروك - هو الشخص الوحيد من خارج الحكومة المسموح له بمناقشة المفاوضات معه. يقول هولبروك: «لقد كنا نثق فيه. وليس من المبالغة أن نقول إن حملة نيكسون الانتخابية كان لها مخبر سري داخل الوفد الأمريكي المفاوض».

وفي ١٢ أكتوبر اتصل كيسنجر برجال نيكسون وقال إن وقف الغارات على فيتنام الشمالية سوف يعلن في ٢٣ أكتوبر. وهذا ما كان مفروضًا أن يحدث لولا أنه كلما اقترب الفيتناميون الشماليون من الاتفاق يتقدم وفد فيتنام الجنوبية بمطالب جديدة.

والمعروف اليوم السبب في ذلك، ففي شهر يوليو تم بهدوء في نيويورك اجتماع بين نيكسون وسفير فيتنام الجنوبية في واشنطن وكان مدبر هذا الاجتماع هو «السيدة التنين». وفي عام ١٩٩٩ استطاع الصحفي البريطاني أنتوني سامرز الحصول على ملف التحقيقات الفيدرالية الخاص بحملة نيكسون الانتخابية وأن ينشره في كتابه «غطرسة القوة: العالم السري لريتشارد نيكسون» كما استطاع أن يجري حديثًا مع «السيدة التنين». وهذان الإنجازان أمداه بكل أطراف مؤامرة نيكسون - كيسنجر لإفشال مفاوضات باريس انتظارًا لانتصار نيكسون في معركة الرئاسة.

إن القصة بحذافيرها - مع اختلافات طفيفة - موجودة في كتاب هولدمان وفي مذكرات كليفورد، وهي معادة جزئيًا في كتاب جونسون عن سيرة حياته بعنوان «الفرصة المواتية» وفي مذكرات مطولة لوليم بوندي أحد مهندسي الحرب الفيتنامية.

وبالطبع كافأ نيكسون كيسنجر بتعيينه مستشارًا للأمن القومي في إدارته ثم وزيرًا للخارجية بعد ذلك.

فيما يلي سوف يرد كثيرًا ذكر لجنة الأربعين، وهي لجنة شبه سرية رأسها كيسنجر في الفترة ١٩٦٩-١٩٧٦، وكانت مسئولة عن المراجعة النهائية لكل نشاطات أمريكا السرية خارج البلاد (وربما داخلها).

ولقد نشأت هذه اللجنة أصلًا في عهد أيزنهاور لمراقبة أعمال المخابرات. وكان لها أسماء مختلفة في الإدارات المختلفة حتى سميت بلجنة الأربعين في عهد نيكسون. وقد اعترف وليم كولبي خلال استجوابه في الكونجرس أن هنري كيسنجر هو الذي يرأس هذه اللجنة باعتباره مساعدًا للرئيس نيكسون في شئون الأمن القومي، كما اعترف فورد بعد ذلك بأن مهمة هذه اللجنة «هي مراجعة كل عملية سرية تتولاها الحكومة»، ومن أعضائها رئيس أركان القوات المسلحة ونائب وزير الدفاع ووكيل وزارة الخارجية للشئون السياسية بالإضافة إلى مدير المخابرات المركزية. وقد أضاف إليها الرئيس نيكسون وزير العدل جون ميتشل.

وعند تولي نيكسون الرئاسة في شتاء ١٩٦٨ كانت مهمة كيسنجر إثبات أنه «ملكي أكثر من الملك» في نقطتين أساسيتين... أولًا: البحث عن تبرير لأعمال انتقامية ضد فيتنام المدمرة أصلًا، وثانيًا: إقامة حائط سد بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية.

ومع أن مفاوضات باريس كانت قد وصلت في عهد جونسون إلى الاتفاق على وقف الغارات على فيتنام الشمالية مقابل سحب جيشها من المقاطعات الشمالية لفيتنام الجنوبية إلا أن الحرب عادت بكل عنفها في عهد نيكسون، وخصوصًا الغارات العنيفة على فيتنام الشمالية. ولم تكن هناك دوافع عسكرية لهذا العمل وإنما كان المقصود إبراز صلابة الإدارة أمام متطرفي أعضاء الكونجرس ولطمأنة حكام فيتنام الجنوبية.

إن هذه الغارات العنيفة على فيتنام الشمالية وكمبوديا هي جريمة حرب - وفق أي مقياس - دامت سبع سنوات، فعندما وقع الانهيار الأمريكي الذي لم يمكن وقفه في أبريل - مايو ١٩٧٥ كان الثمن أبهظ ألف مرة عما لو كانت الحرب أوقفت عام ١٩٦٨.

وإلى القارئ مثال أخير على غباء كيسنجر واستهانته بأوضاع الجنود... في ١٢ مايو ١٩٧٥ أوقفت السفن الحربية الكمبودية باخرة تجارية أمريكية. فإذ بكيسنجر يقنع فورد بإرسال حملة من المارينز والقوات الجوية لإنقاذ السفينة، ومن بين ١١٨ مارينز أرسلوا قتل ١٨ وجرح خمسون. وكان هذا العمل عبثًا لأن السفينة كان قد أفرج عنها قبل الغارة. وأثبتت تحقيقات الكونجرس بعد ذلك أنه كان في استطاعة كيسنجر وقف هذه المذبحة لو أنه كان قد استمع لراديو كمبوديا الذي كان قد أذاع نبأ الإفراج عن السفينة قبل بدء الغارة.



إن الولايات المتحدة تعتقد أنها تتعقب وتدين مجرمي الحرب والإرهابيين الدوليين دون أن يخطر في بالها أنها بهذا التكتم تحمي واحدًا من أكبر هؤلاء... وهو هنري كيسنجر



عينات من جرائم الحرب التي اقترفها كيسنجر

في يناير ١٩٧١ قدم جنرال تيلفورد تيلور - الذي كان المدعي العمومي في محاكمات نورمبرج - شهادته عن حرب فيتنام قائلًا: إنه لو طبقت المعايير التي استخدمت في محاكمات نورمبرج بأمانة على الساسة الأمريكيين الذين خططوا





بعد سنين طويلة وأبحاث واسعة قام بها لورانس ليفز شولتز الأستاذ بجامعة ييل Yale يتبين أن «نظام الطريقين» - طريق السفير وطريق المخابرات - كان متبعاً في بنجلاديش، حيث تقوم مجموعة مخابرات من السفارة - من وراء ظهر السفير ودون علمه - وبتعليمات من واشنطن بكل أعمالها القذرة تماماً كما حدث في شيلي

لحرب فيتنام فإن الاحتمال الراجح أن يكون مصيرهم هو نفس مصير المستشار العسكري للامبراطور الياباني خلال الحرب العالمية الثانية ياما شيتا. وفي كتابه (نورمبرج وفيتنام) يناقش الجنرال تيلور الاعتراض الذي يمكن أن يثار ضد وجهة النظر السابقة بأن المسئولين الأمريكيين لم تكن لديهم معلومات كافية عن حقيقة الأوضاع في فيتنام. وهو يرفض هذا الرأي قائلاً إنه ربما كان في وسع هؤلاء الساسة ادعاء هذا حتى منتصف الستينيات. ولكن بعد ذلك يستحيل قبول هذا الادعاء خصوصًا بعد مذبحة ماي لي My Lai التي أحيط بها كبار الضباط علماً من مرؤوسيهم.

لقد كتب الجنرال تايلور كتابه هذا ولم تكن كل الحقائق عن المذابح الأمريكية في فيتنام وكمبوديا معروفة، ولكنه كان يرى ضرورة الالتزام بالمعايير التي أرسيت في محاكمات نورمبرج. ومن بين عدد كبير من الأحداث التي تدين كيسنجر مباشرة اختار بعضها كما أوردها كيفن باكلي مدير مكتب نيوزويك في سايجون الذي كان يتابع مهمة «التهدئة» التي بدأ تنفيذها في الشهور الأولى من عام ١٩٦٩ عندما كان لكيسنجر سلطة كبيرة في إدارة الحرب، وكان الهدف الحقيقي لسياسة «التهدئة» هذه Pacification هو تأديب مقاطعة كين هو Kien Hoeu باعتبارها المسئولة عن الاضطرابات في دلتا الميكونج وانتزاع ألوف الفلاحين من السيطرة السياسية لجبهة التحرر الوطني الفيتنامي، ويقول باكلي في ١٩ يونيو ١٩٧٢ «كل الدلائل التي جمعتها تشير إلى نتيجة واحدة واضحة وهي أن أعداداً هائلة من المدنيين غير المحاربين قد قتلتهم النيران الأمريكية التي قصد بها «تهدئة» هذه المقاطعة. وربما يصل عدد القتلى إلى ٥٠٠٠ مدني. وبالطبع تعتبر مذبحة ماي لي شيئا هينًا بالنسبة لهذه المذبحة».



ثم نأتي إلى جرائم كيسنجر في ضرب كمبوديا ولاوس باعتبار أنهما يخفيان خطوط إمداد فيتنام الشمالية، ضربهما بطائرات ب - ٥٢، وهي طائرات تطير على ارتفاع شاهق بحيث لا يراها أحد على الأرض، وهي تحمل أطناناً ضخمة من القنابل، وهي طائرات لا تعطي أي إنذار بقدومها، ولعلوها الشاهق غير قادرة على إصابة أي هدف بدقة.

ولقد ادعى كيسنجر كذباً أمام لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس أن المناطق التي اختيرت للضرب في كمبوديا غير مأهولة بالسكان بينما كانت مذكرة أعدتها رئاسة الأركان تحصي عشرات الألوف من القتلى الكمبوديين، ولاشك أن إدارة نيكسون تتحمل المسئولية النهائية لكل ما حدث في فيتنام بدءاً من ١٩٦٨، وكانت هذه الحقيقة توشك أن تتضمن في قرار محاكمة نيكسون أمام الكونجرس بعد فضيحة ووترجيت.

أما الحقائق الخاصة بكيسنجر في هذا الموضوع فترد في شهادة كولونيل سيتون Sitton الذي قال إنه بدأ يلاحظ منذ أواخر ١٩٦٩ أن كيسنجر يفرض رأيه على العسكريين في اختيار الأماكن التي تضرب في كمبوديا ولاوس. ولذلك فمن المستحيل أن يدعي أنه لم يكن يعلم بنتائج ضرب هذين القطرين.

بل يتضح من مذكرات كيسنجر نفسه أن وزير الخارجية روجرز ووزير الدفاع ميلفن ليرد كانا معارضين لعملية ضرب كمبوديا، وأن اثنين من كبار مساعديه قد استقالا احتجاجاً على قرار ضرب كمبوديا، كما أن أكثر من مائتين من موظفي وزارة الخارجية وقعوا على مذكرة احتجاج موجهة إلى وزير الخارجية وليم روجرز.

ووفقاً لإحصاءات البنتاجون فإن عدد الإصابات ما بين مارس ١٩٦٨ ومارس ١٩٧٢ كان كما يلي:

أمريكيون ٣١٢٠٥، فيتناميون جنوبيون نظاميون ٨٦١٠١ «أعداء»، ٤٧٥٦٠٩، وقد قررت لجنة فرعية من الكونجرس أنه خلال السنوات الأربع ١٩٦٨ - ١٩٧٢ وصل عدد القتلى أو الجرحى من المدنيين إلى ٣ ملايين.

بنجلاديش وقتل مجيب الرحمن:

في ديسمبر ١٩٧٠ سمح النظام العسكري في باكستان بإجراء انتخابات حرة لأول مرة. وقد اكتسح زعيم رابطة عوامي الشيخ مجيب الرحمن هذه الانتخابات وحصل على أغلبية كبيرة في البنغال (شرق باكستان) إذ حصل على ١٦٧ مقعداً من ١٦٩ مقعدًا في البرلمان. وكان من المفروض أن يجتمع البرلمان في ٣١ مارس سنة ١٩٧١. ولكن في أول مارس قام الجنرال يحيى خان قائد النظام العسكري في باكستان بتأجيل انعقاد البرلمان، وأدى هذا إلى احتجاجات جماهيرية واسعة وحركة عصيان مدني في البنغال.

وفي ٢٥ مارس وجه الجيش الباكستاني ضربته إلى عاصمة البنغال (داكا) وقبض على مجيب الرحمن ونُقل عنوة إلى باكستان الغربية، كما قام الجيش بعملية إبادة لأنصار مجيب الرحمن وطرد الصحافة الأجنبية من داكا.

ولقد أرسل قنصل أمريكا في داكا رسالة مطولة إلى هنري كيسنجر مستشار الأمن القومي تتضمن الجرائم التي ارتكبها الجيش الباكستاني في داكا، ومن بينها إحراق بيوت الطالبات في المدينة وإطلاق النار على أي طالبة حاولت الهرب، ومن بينها أيضاً قيام الجيش بأعمال القتل والاغتصاب في المدينة بحيث قدر عدد القتلى في الأيام الثلاثة الأولى بعشرة آلاف. وقد وصل عدد القتلى في نهاية العمليات إلى نحو نصف المليون، وبدأت حركة لاجئين واسعة النطاق تعبر الحدود إلى الهند.

ولقد عبَّر القنصل الأمريكي في داكا والسفير الأمريكي في إسلام أباد عن استيائهما من صمت وزارة الخارجية الأمريكية وطالباها بإدانة وحشية الجيش الباكستاني، وكان رد فعل كيسنجر ونيكسون غريبا، فقد استدعيا القنصل الأمريكي في داكا إلى واشنطن وقال كيسنجر لنيكسون إن السفير الأمريكي منحاز إلى الهند. وفي أواخر أبريل سنة ١٩٧١ أرسل كيسنجر رسالة ود إلى الجنرال يحيى خان يشكره على «رقته ومهارته».

والآن نحن نعلم لماذا كان كل هذا الود ليحيى خان. ففي أبريل سنة ١٩٧١ أرسلت بكين دعوة لفريق بنج بونج أمريكي لمباراة في بكين. وعن طريق السفير الباكستاني في بكين أرسلت الصين رسالة تدعو فيها نيكسون لإرسال مبعوث إلى بكين.

وبالفعل كان هذا المبعوث هو كيسنجر، وبعد عودته من بكين بدأ يتحدث كالماويين عن مؤامرة سوفيتية هندية للتدخل العسكري وضم البنغال إلى الهند. وفي هذا الجو أرسل كيسنجر تعليمات لقائد حاملة الطائرات En-terprise إنتربريز أن تبحر من ساحل فيتنام إلى ساحل البنغال. وقد عبر قائد الحاملة لرؤسائه عن استيائه من هذه التعليمات.

وبلغ الأمر أن فقد كيسنجر أعصابه في اجتماع «مجموعة المراجعة العليا» Senior Re-view Group وقال «الرئيس يقال دائما إننا ننحاز لباكستان، ولكن كل اقتراح يقدم لي هنا يمضي في الاتجاه المعاكس. أحياناً أعتقد أنني في مجلس مجنون».

والحقيقة أن نيكسون كان يكره حكومة الهند ويتعاطف مع باكستان. وكثير من حوارييه بما في ذلك كيسنجر كانوا يدركون كراهية نيكسون لأنديرا غاندي وكان يشير إليها دائماً بالقول «تلك المرأة الداعرة».

ولقد أدى تدخل الهند عسكرياً إلى إنقاذ البنغال واستقلالها كدولة «بنجلاديش» وسخرت الصحافة الأمريكية من سياسة كيسنجر وفشلها البالغ في هذا الموضوع مما أثار سخط كيسنجر على بنجلاديش وقائدها مجيب الرحمن.

وبمجرد تعيينه وزيراً للخارجية في ١٩٧٣ قام كيسنجر بمعاقبة جميع موظفي الخارجية الذين كانوا قد احتجوا على صمت واشنطن إزاء مذابح الجيش الباكستاني للشعب البنغالي، وفي خريف سنة ١٩٧٤ أدار ظهره لمجيب الرحمن في أول زيارة له لواشنطن بوصفه رئيسا لدولة بنجلاديش ولم يحضر الاجتماع الذي دام ربع الساعة بين فورد ومجيب الرحمن الذي جاء يطلب معونة اقتصادية للدولة الحديثة.

وبعد أسابيع من عودته إلى داكا - نحن نعلم هذا الآن - تشكلت مجموعة في السفارة الأمريكية في داكا بدأت الاتصال سرًا بمجموعة من ضباط الجيش كانوا يخططون لإزاحة مجيب الرحمن.

وفي ١٤ أغسطس سنة ١٩٧٥ قتل مجيب الرحمن وأربعون من أسرته كما قتل في السجون بعد ذلك عدد من أعوانه وأنصاره.

والآن وبعد سنين طويلة وأبحاث واسعة قام بها لورانس ليفز شولتز الأستاذ بجامعة ييل Yale يتبين أن «نظام الطريقين» - طريق السفير وطريق المخابرات - كان متبعاً في بنجلاديش، حيث تقوم مجموعة مخابرات من السفارة - من وراء ظهر السفير ودون علمه - وبتعليمات من واشنطن بكل أعمالها القذرة تماماً كما حدث في شيلي.

وفي مكان مجيب الرحمن وضع زعيم الجناح اليميني في رابطة عوامي - ويدعى مشتاق - الذي ادعى كذبًا أنه لم يلتق قط مع الضابطين المدبرين للانقلاب... الرائد فاروق والرائد رشيد، كما ادعت واشنطن أنها فوجئت بالانقلاب.

لكن في حوار أجراه الرائد رشيد مع صحفي أمريكي بعد عام من الانقلاب اعترف رشيد أنه قابل مشتاق ستة أشهر قبل الانقلاب وأن السفير الأمريكي كان على علم بأن هناك إعدادا للانقلاب على مجيب الرحمن وأنه أعطى تعليماته لموظفي السفارة بقطع علاقتهم بالضباط. ثم اشتد غضبه عندما وقع الانقلاب واكتشف أن الذين قبضوا على السلطة من الضباط هم الذين كان يطلب من موظفيه قطع علاقتهم بهم.

لقد اعترف فيليب شيرى عندما استجوبه ليفز شولتز بوجود علاقة بين المخابرات الأمريكية والضباط الذين قاموا بالانقلاب وبين قائد الجناح اليميني مشتاق.

ولقد قامت مؤسسة كارينجي للسلام الدولي بإجراء أبحاث عن هذا الموضوع. ووافق ١٥٠ موظفا في وزارة الخارجية على أن يجيبوا عن أسئلة توجه إليهم. ولقد استمرت هذه الدراسة تسعة أشهر. ولم تنشر على الملأ وإن سمح لأستاذ جامعة ييل بالاطلاع عليها وهي تثبت نتيجة واحدة، وهي أن الانقلاب على مجيب الرحمن وقتله تم

بمعرفة الولايات المتحدة والقيادة الباكستانية.

شيلي

في تعبير مشهور لكيسنجر عن احتقاره للديمقراطية قال يومًا: إنه لا يرى سببًا للسماح لقطر أن يتبنى الماركسية لمجرد أن شعبه لا يقدر المسئولية. والقطر المعنى هنا هو شيلي الذى كان وقت هذا الكلام من أكثر شعوب أمريكا الجنوبية تمتعًا بالديمقراطية التعددية.

في سبتمبر ١٩٧٠ أجريت الانتخابات العامة في شيلي وأصبح من الواضح أن دكتور سلفادور أليندى هو رئيس الجمهورية القادم. لكن اسم أليندى كان يثير الفزع لدى اليمين في شيلي ولدى بعض الشركات الأمريكية التي ترتبط بمصالح في شيلي مثل شركة I.T.T وشركة البيبسي كولا وبنك تشيز مانهاتن.



ووصل هذا الفزع إلى الرئيس نيكسون عن طريق دونالد كندل رئيس شركة البيبسى كولا وخلال عشرة أيام عقدت في واشنطن اجتماعات عليا حددت مصير الديمقراطية في شيلي. فبعد مناقشات مع أصحاب المصالح الأمريكية في شيلي ومع مدير المخابرات المركزية ذهب كيسنجر مع مدير المخابرات ريتشارد هولمز إلى البيت الأبيض وعقد اجتماعًا برئاسة نيكسون الذى أوضح فيه ما يريده: «لا تدخل من جانب السفارة، عشرة ملايين دولار جاهزة للعمل.. وأكثر إن دعت الضرورة. أريد استخدام أفضل رجال لدينا.. فلتجعلوا الاقتصاد في شيلي يصرخ من الألم.. مطلوب خطة عاجلة خلال ٤٨ ساعة».

وتشكلت مجموعة في المخابرات هدفها إجراء سياسة ذات طريقين.. طريق للدبلوماسية وطريق آخر سرى غير معروف لا للخارجية ولا للسفير الأمريكي في شيلي، وهو طريق زعزعة الاستقرار والخطف والاغتيال بهدف إثارة انقلاب عسكري.

وكانت هناك عقبات في المدى القصير وأخرى في المدى الطويل، فالعقبة طويلة المدى أن هناك تقاليد عسكرية بامتناع الجيش في شيلي عن التدخل في السياسة. أما العقبة قصيرة المدى فتمثلت في شخص واحد، هو الجنرال رينيه شنيدر رئيس الأركان الذى يعارض بشدة أى تدخل عسكرى في العملية الانتخابية. وعلى هذا تقرر في اجتماع بواشنطن في ١٨ سبتمبر ١٩٧٠ ضرورة التخلص من الجنرال شنيدر.

والخطة كانت تتمثل في خطف شنيدر بطريقة تبدو أنها من عمل اليسار وأنصار أليندى بأمل أن يؤدى هذا العمل إلى خوف وتشويش يجعل الكونجرس في شيلي لا يعطى الرئاسة إلى أليندى. وكانت هناك مجموعة من الضباط شبه فاشية تدعى «أرض الآباء والحرية» كانت على استعداد للقيام بعملية خطف رئيس الأركان. وكان السفير الأمريكي في شيلي يحذر موظفيه من أى اتصال بهذه المجموعة، ولكن السفير كان يجهل أن الملحق العسكرى في سفارته على اتصال بهذه المجموعة بالذات، وأنه زود بعض أعضائها بالأسلحة.

وعندما تأكد وصول أليندى إلى كرسى الرئاسة حاولت هذه المجموعة خطف شنيدر أكثر من مرة وفشلت، وفي النهاية قامت باغتياله.

وقد جرت محاولة في لجنة المخابرات لتبرئة أمريكا من تهمة اغتيال شنيدر بالقول إن المدافع الرشاشة التى أعطتها المخابرات لبعض الضباط في شيلي لم تستخدم في قتل شنيدر وإنما استخدمت مدافع أخرى.

ثم وقع الانقلاب على أليندى بينما كان كيسنجر يقف أمام الكونجرس استعدادًا لتوليه وزارة الخارجية، وقد كذب عندما قال في الكونجرس إن حكومة واشنطن ليس لها دور في هذا الانقلاب... فعل هذا بينما كانت الرسائل تصله من شيلي عن عدد القتلى. ثم قتل وزير خارجية أليندى (أور لاندو) في واشنطن بعد ذلك.

ولقد أثبتت لجنة «الحقيقة والمصالحة» في الكونجرس الأمريكي بعد ذلك كل وقائع التعذيب والاغتيالات التى دبرتها المخابرات المركزية في شيلي. وكل هذه الجرائم تمت في عهد كيسنجر، ولذا فمن المستحيل أن يدعى أنه لم يكن على علم بها. أما وزير خارجية شيلي في عهد أليندى الذى قتل في واشنطن فقد كان ذلك من تدبير بينوشيه وقام بالتنفيذ جنرال مانويل كونتريرا (الذى هو في السجن الآن).

قبرص والمطران مكاريوس

يدعى كيسنجر في مذكراته أنه لم يستطع أن يعطى انتباهًا كافيًا لمشاكل اليونان - قبرص - تركيا خلال سنوات حكم نيكسون، وذلك بسبب مشاكل حادثة ووترجيت ومشاكل نيكسون الأخرى في البيت الأبيض.

والحقيقة أن هذا الكلام فارغ، فبعد تعيينه وزيرًا للخارجية حرص على الاحتفاظ بمنصب مستشار الأمن القومي في نفس الوقت حتى لقبه أحد مساعديه بـ «القائم بأعمال رئيس الدولة للأمن القومي».

والحقيقة أن كيسنجر كان يكره رئيس قبرص مكاريوس ويقول عنه «إنه السبب في معظم مشاكل قبرص»، مع أن مكاريوس كان قائدًا منتخبًا في جمهورية بلا سلاح، وكانت هذه الجمهورية عضوًا في الاتحاد الأوروبي والكومنولث والأمم المتحدة أيضًا.

ولقد واجه حكم مكاريوس في قبرص التحدى وتهديد استقلال الجزيرة من جانب الدكتاتورية العسكرية التى كانت تحكم أثينا آنذاك، ومن جانب حكومة شبه عسكرية في تركيا، وجرت محاولات لاغتيال مكاريوس من متطرفين يونانيين وقبارصة.

وإذا كان مكاريوس هو سبب معظم مشاكل قبرص كما يقول كيسنجر فإن الحل هو إبعاده عن السلطة، وإذا أمكن إثبات أنه كانت هناك خطة لعزله وأن كيسنجر كان على علم مسبق بها فإن هذا يكذّب دعاوى كيسنجر طبعًا.



والحقيقة أنه يتضح من سجلات كيسنجر ومذكراته ومن التحقيقات الرسمية التى جاءت بعد ذلك أنه كان على علم بمخطط لعزل مكاريوس وقتله من جانب السلطة العسكرية الحاكمة في أثينا، وكان على علم بأنه لو تحقق هذا فإن الغزو التركى للجزيرة واقع لا محالة.

وقد أقرت اللجنة الأوروبية عن حقوق الإنسان تقريرًا أعده ثمانية عشر محلفًا بعد بحث سنة كاملة عن نتائج الغزو التركى لقبرص، وبمقتضى هذا التقرير فقد قام الجيش التركي بعمليات اغتيال للمدنيين وإعدام مسجونين وتعذيب معتقلين.

وفي إطار سياسة كيسنجر التى كانت تقوم على دعم الدكتاتورية العسكرية في أثينا وحكم الجنرالات ترد قضية الصحفى اليونانى إلياس ديمترا كوبولس المناضل من أجل الديمقراطية، والذى حاول مساعدة النضال الديمقراطى اليونانى من خلال إقامته في واشنطن وتوثيق علاقته بعدد من أعضاء الكونجرس الأمريكي الديمقراطيين من أمثال إدوارد كيندى.

ولقد وضعت الطغمة الحاكمة في أثينا أكثر من محاولة لخطفه، وتبين فيما بعد أن الدكتاتور جورج بابادوبلس اتصل بالبعثة اليونانية في واشنطن لتحقيق هذا الهدف. وبعد سقوط الطغمة الحاكمة اليونانية تبين أنه ورد في أحد الملفات السرية برقية سرية جاءت من السفارة اليونانية ونصها:

«نستطيع أن نعتمد على تعاون كل وكالات الحكومة الأمريكية في تنفيذ العملية، لكننا نعتقد أن رد فعل الكونجرس الأمريكي سيكون عنيفًا».

وفي عام ١٩٧٦ أراد الصحفي اليوناني إلياس أن يعرف ما هو نوع «التعاون» الذى أبدته الأجهزة السرية الأمريكية، واستطاع عن طريق رفع قضية مستفيدًا من قانون حرية المعلومات أن يعرف لأول مرة أن كيسنجر كان على علم بمخطط خطف الصحفي اليوناني، وأنه كان يكن كراهية خاصة لهذا الصحفى اليونانى لأنه قام بفضح حملة نيكسون الانتخابية التى استلمت معونة مالية من طغمة أثينا الحاكمة بلغت أكثر من نصف مليون دولار، وأن المبلغ سلم إلى مدير الحملة الانتخابية جون ميتشل من يد يونانى يدعى توماس باباس.

يبقى ذكر أن كيسنجر بعد ترك مناصبه الرسمية أقام شركة استشارات خاصة تدعى «كيسنجر وشركاه» مهمتها تسهيل الاتصالات بين الشركات الدولية العملاقة وبين الحكومات الأجنبية. ومع أن قائمة هذه الشركات غير معلنة إلا أن من المعروف أن من بينها أمريكان إكسبريس، آى. ت. ت I.T.T، ولوكهيد وشركة هاينز وبنك الميرلاند.. إلخ.

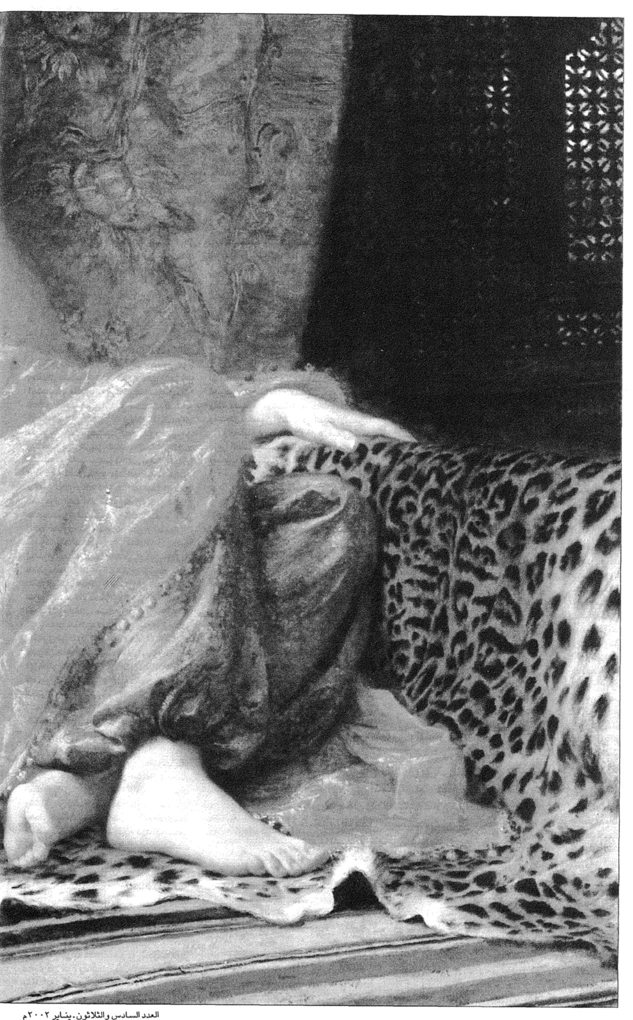
وشريكاه الأصليان في تلك الشركة هما الجنرال برين سكوروفت ولورانس إيجلبرج، والاثنان قد عملا معه طويلاً في ميدان السياسة الخارجية وأجهزة الأمن القومي.

ولقد ساعدت تلك الشركة شركات أمريكية عديدة في الدخول إلى السوق الصينية مثل شركة هاينز، كما اتضح أن ثمة علاقة بين شركة كيسنجر ونظام صدام حسين في بغداد عندما كان النظام العراقى مرضيًا عنه في واشنطن لحربه ضد إيران، وقد اتضح أن أحد شركاء كيسنجر الآن ستاجا كان هو همزة الوصل مع بغداد في ذلك الوقت، كما مثلت شركة كيسنجر أحد البنوك الإيطالية التى تبين أنها تمنح بغداد قروضًا غير قانونية.

وفي ١٩٨٩ حقق كيسنجر ارتباطًا مع شركة فريبورت ماكموران Free Port Mac-moran وهي شركة دولية تعمل في ميدان النفط والغاز ومقرها نيوأورليانز، وكسب من هذا الارتباط ألوف الدولارات خصوصًا بعد تعيينه عضوًا في مجلس إدارتها.

وفي مارس ١٩٩٩ زار كيسنجر إندونيسيا وأحيا علاقاته القديمة هناك وأبرم عقدًا للبحث عن الذهب والنحاس في مناجمها مدته ثلاثون عامًا.

في تعبير مشهور لكيسنجر
عن احتقاره للديمقراطية قال يومًا:
إنه لا يرى سببًا للسماح لقطر أن يتبنى الماركسية
لمجرد أن شعبه لا يقدر المسئولية. والقطر المعنى هنا
هو شيلي الذى كان وقت هذا الكلام من أكثر
شعوب أمريكا الجنوبية تمتعًا
بالديمقراطية التعددية



حريم الشرق.. وحريم الغرب!

تصورات الرحّالة الغربيين عن النساء فى الشرق الأوسط

جودى مابرو

مع أن كلمة «حريم» (من «حرام») تعنى حجرات البيت حيث يقيم النساء والأطفال - والتى يُقْصَى عنها الرجال ما عدا الزوج وبعض الأقرباء المقرّبين - أو تعنى نساء البيت، فإن الطبعة الأولى من قاموس روجيه (Roget's Thesaurus) عام ١٨٥٢ أوردت كلمة «حريم» تحت كلمة (impurity) (دَنَس)، جنبًا إلى جنب مع كلمات مرادفة للمبغى.





■■ شكّلت النساء المسلمات مؤخراً موضوع نقاش كثيف في الصحافة الغربية، خاصة حين طالبت قلّة قليلة من الفتيات في فرنسا وانجلترا بحقّهن في ارتداء غطاء الرأس في المدرسة. ولقد عكس السجال الطويل والمرير الذي دار في فرنسا والآخر المقتضب الذي دار في انجلترا تلك النظرة الغربية المتأصلة التي ترى أن السبب الأوحد لاضطهاد النساء المسلمات هو دينهن. فلطالما «عرفت» أوروبا أن النساء المسلمات يعانين من الاضطهاد ما لا تعانيه غيرهن من النساء، فهذا ما وصفته كتب الرحلات الغربية والأدب العربي وما صوّره الفن الغربي على مر فترة مديدة من الزمن. لذا فقد أُخِذَ الأمر على أنه واقعة لاشك فيها، ويمكن للجميع أن يروها متجلية في الحجاب وفي مؤسسة الحريم، هاتان الظاهرتان لاتزالان تثيران اليوم ردود فعل قوية شأنهما في أي وقت مضى.

والحجاب، الذي يطلقه الغرب على كلّ وشاح يُغَطَّى به رأس المرأة، هو تعبير يمكن أن يضلّل ويسوق إلى تعميمات زائفة مغلوطة. لذا سرعان ما طَفَتْ على السطح مجموعة من الأفكار عن الإسلام والنساء المسلمات. ومن الأمثلة على ذلك أنّ مراسلاً لـ«الجارديان» قام بتحقيق عن حالة تلميذتين في أولترنجشام ارتدتا غطاء الرأس، فطلب مقابلة والدهما لاقتناعه أن الإسلام دين يهيمن فيه الرجال وأنّ النساء المسلمات كائنات سلبية لا حول لها ولا قوة، غير أن إحدى الفتاتين قالت له إن والدها مشغول وعرضت عليه أن تساعده هي نفسها. ويقول هذا المراسل: «ومن ثم فقد ساعدتني فاطمة طوال ٤٠ دقيقة كاملة. ومع أنها لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، فإن طلاقتها وثقتها بنفسها لو وجدتا لدى شخص في ضعف سنها لكانتا لافتتين للانتباه؛ فهي سيدة نفسها وتعرف ما تريد» (الجارديان، ١٩ يناير ١٩٩٠).



وفي مايو ١٩٨٩ تضمن برنامج تليفزيوني عن أفغانستان مقابلة أجراها رجل أيضاً، مع بعض الطالبات في جامعة كابول. وحين أعربت الفتيات اللاتي يعشن في مدينة أنهكتها الحروب عن رغبتهن الجامحة في السلام وعن استعدادهن لقبول التسويات إذا ما كانت ضرورية لتحقيقه، أصيب المحاور البريطاني بصدمة. فقد كان واثقاً من أن هؤلاء الصبايا اللاتي ترعرعن في فترة الحكم الشيوعي لابد أن يجدن مكانة النساء أكثر أهمية من السلام.. وحين طرح عليهن السؤال: «أأنتن مستعدات حقاً لارتداء الحجاب؟» أجبن جميعاً أنهن مستعدات، إذا ما كان لذلك أن يسهم في إحلال السلام في البلاد.

وخلال العقد الذي كرّسته الأمم المتحدة للمرأة، بين عامي ١٩٧٥ و١٩٨٥ راح النسويون في الغرب يلحّون إلحاحاً قصير النظر على مسائل مثل الختان أو الحجاب، ويشيرون للنساء في الشرق الأوسط وأفريقيا على أن هذه هي القضايا الرئيسة للنضال من أجل تحرر المرأة في بلدانهن. غير أنّ هؤلاء النسويين بدأوا يدركون مع نهاية ذلك العقد أن الأمور ليست بمثل هذه البساطة، وأن ليس من شأن امرأة غربية أن تقرر لامرأة من هذه المناطق ما هي القضايا الرئيسة، وأن نزع الحجاب أو إغلال الختان لن يعود على النساء فجأة باستقلالهن الاقتصادي، وبالطعام والسلام، مما ترى الكثيرات منهن أنها القضايا التي تجب معالجتها أولاً.

والحال أن أوروبا كانت طوال قرون قد سُحِرَت بالحجاب وبالحريم ونفرت منهما في آن واحد. فقد عمل هذان الرمزان، من جهة أولى، على الحيلولة بين المراقب الأوروبي ورؤية النساء أو الاتصال بهنّ مما أيقظ لديه مشاعر الإحباط والسلوك العدواني. أما من جهة ثانية، فقد وفر للرجال فرصة الجموح بالخيال والتلويح بتجارب غريبة وشهوانية مع «الجميلة المتحجبة» و«درة نساء الحريم». وذلك في الوقت الذي أبدت فيه المراقبات من النساء ما أبداه الرجال من التباس وعداء ومركزية أوروبية، وإن يكن لأسباب مختلفة عن أسباب الرجال.

ومما يجدر ذكره هنا أن الرحالة الغربيين، بتركيزهم على الحجاب والحريم، غالباً ما أخفقوا في فهم أوجه حياة النساء في الشرق الأوسط. فالحريم كما فُهِمَ في الغرب كان نادراً إلى أبعد الحدود وكان ليبدو «غريباً» كل الغرابة بالنسبة لغالبية نساء المنطقة اللواتي يعشن في مناطق ريفية، ويعانين من الفقر، وينهضن بقسط وافر من أعباء العمل الزراعي. وهو ما يصحّ أيضاً على المدن التي اضطرت فيها كثير من النساء إلى العمل بغية الإسهام في دخل العائلة. ومن ثم، فإن ما تعنيه كلمة «الحريم» هو ذلك الجزء المنعزل من البيت حيث لا يُسمَح للرجال الأغراب بالدخول. إلا أننا سنجد لاحقاً أنّ إيحاءات هذه الكلمة في الغرب قد جاءت مغايرة تماماً.

وإلى هذا، فقد أفضى ما افترضه الرحالة من أن النساء المحجبات هن بالضرورة أشد اضطهاداً وسلبية وجهلاً من السافرات إلى أقوال تنطوي على مبالغة وإفراط، مفادها أن نساء «المشرق» أشبه بالسجينات قياساً بما تتمتع به النساء في أوروبا من تحرر كامل. ولاشك بالطبع أن النساء في كلا المجتمعين كن يعانين من الاضطهاد بقدر يزيد أو ينقص، لكن ما فات الرحالة أن يدركوه هو ما تنطوي عليه أوضاع النساء في هذين المجتمعين من ظروف التشابه، وذلك لانطلاقهم من افتراضات مفادها أن أسلوب الحياة الغربي أرقى بالضرورة.



وما يثير اهتمامنا هنا هي تلك الكثرة من كتب الرحلات التي انهمرت من المطابع في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مما خلفه كتّاب مغمورون تعوزهم الشهرة. فلقد أبدى الأوروبيون فضول لمعرفة «الشعوب الأخرى»، غير أن ذلك لم يكن إلا على مستوى يرسِّخ اقتناعهم بتفوق ثقافتهم على غيرها من الثقافات. وكانت كتب الرحلات وعروض الفانوس السحري بالنسبة لهم بمثابة مكافئ للبرامج التليفزيونية الوثائقية في هذه الأيام.

والحال أنّ عدداً هائلاً من الكتب عن الشرق الأوسط وشمال أفريقيا قد وجد طريقه إلى النشر لدرجة أن كثيراً من المؤلفين كانوا يستهلون كتبهم بمسوغات تبرر إصدارها، إذ كان ثمة قدر كبير من التكرار والانتحال في هذه الكتب. فتنوع الحياة في تلك المنطقة كان مجهولا، شأنه اليوم في أغلب الحالات، كما اتُّخِذَت مواقف تعميمية وشمولية، نظرًا لما أملاه الخوف مما هو مختلف والجهل به من مقاربة تركزت على المظاهر الخارجية وحدها. ولقد بلغ الافتتان بالشرق، وبالنساء فيه خاصة، درجة شعرت فيها الكتب المدرسية المعنية بعلم الآثار، على سبيل المثال، أنها مضطرة لأن تعلق على هذا الموضوع. أما الناشرون فكانوا يلجأون في بعض الأحيان إلى تضمين كتبهم رسومًا مثيرة للنساء بغية الترويج لها.

وفي حين كان يضطر أولئك الرحالة والسياح والآثاريون، والجغرافيون، وعلماء الطبيعة، والفنانون وسواهم إلى السفر إلى شمال أفريقيا أو الشرق الأوسط كيما يروا النساء المحجبات، فإن بمقدور معظم الغربيين اليوم أن يروا هؤلاء النساء في المدن الأوروبية. أما ردة فعلهم الشائعة حيال هذه الرؤية فيمثلها أفضل تمثيل ما كتبته مجلة «ماري كلير» في أيلول عام ١٩٨٨، حيث نشرت مقالاً يعزف على وتر افتراضات بالية ورثها عن الرحالة الغربيين بخصوص النساء الشرقيات:

> غالبًا ما تأتي خبرة الغربيين بالحجاب من رؤيتهم زمراً من النساء القصيرات، البدينات، المتسربلات من الرأس إلى إخمص القدمين بنوع من الكتان الأسود الفاحم، وهن يطفن على مهل في متاجر المدن الكبرى. ومع أن هؤلاء النساء يبدون بمثابة الشيء الشاذ والغريب وهن يركبن ويترجلن من سيارات الليموزين التي تراها متوقفة بانتظارهن أمام محلات «الماربل آرش لماركس وسبنسر» في لندن، إلا أنهن قد يكنّ في بلادهن ساحرات الجمال، وغامضات، وفاتنات، ومدهشات مثل نجد الصحراء القاحلة في شبه الجزيرة العربية.

ومن الواضح بالنسبة لي أن ثمة خلطًا وتشوشًا فيما يقوله الكاتب عن النساء المحجبات. فهو يرى أنهن قد لا يكنّ على نحو ما صوّرهن الخيال الغربي من جمال وإدهاش، ويرى أنهن قد يكنّ ساحرات الجمال، وغامضات، وفاتنات، ومدهشات، حين يكشفن أنفسهن، خاصة في بيئتهن الطبيعية حيث لا يبدون بمثابة الشيء الشاذ أو الغريب. وبعبارة أخرى، فإن هذا الكاتب لا يُعنى بهؤلاء النساء إلا بوصفهن موضوعات جنسية، وهو يزيد من غموض هذا الأمر ومن لغزيته لأن مثل هذه الموضوعات تبيع جيدًا. ولقد استوقفني وأنا أقرأ هذه المقالة، التي عُنْوِنَتْ «جزيرة العرب خلف الحجاب» وأُرْفِقَتْ بالصور المثيرة كما يليق بمجلة الأزياء، ما اشتملت عليه من ردود أفعال تشبه

من مقدمة كتاب:

Veiled Half-Truths: Western Travellers' Perception of Middle Eastern Women

(تصورات الرحالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط)

Judy Mabro

London: I.B.Tauris, 1999.



وعلى الرغم من تراكم أدلة كافية تثبت أن النساء المسلمات. بصرف النظر عن السراى وغيره من أنواع الحريم الكبيرة. كن حرات فى الخروج من البيت والعودة إليه ويمارسن سلطة واسعة فى داخله، إلا أن كثيرًا من الأوروبيين تشبثوا بالفكرة التى مفادها أن وضع هؤلاء النساء يبعث على الأسى وأن الحريم مكان للفجور

ما أبداه عدد كبير جدًا من سياح القرن التاسع عشر فى الجزائر، ومصر، وسواها من بلدان الشرق الأوسط، ممن أسهبوا فى الكتابة عن المظهر والجنس لدى النساء اللاتى صادفوهن أو حلموا بهنّ.

فإذا ما بدأنا بما فى الروايات والقصائد الرومانسية، وفى كتب الرحلات والقصص التوراتية، من أفكار عن النساء الشرقيات، نجد أنّ الارتكاس المباشر، الذى يتلو الإثارة الناجمة عن كون هؤلاء الكتّاب قد عادوا فى الزمن إلى أيام ألف ليلة وليلة أوالكتاب المقدس، هو ارتكاس عدوانى، غالبًا ما يتجلى فى سلوك بعيد كل البعد عن التحضر؛ كأن ينتهكوا حرمة البيوت، أو يسترقوا النظر إلى النساء المستلقيات على المصاطب أو المستحمات فى الأنهار، أو يسودوا صفحة ثقافات كاملة على أنها منحطة ومتفسخة، ليصل الأمر فى إحدى الحالات حد دفع المال لفتاة لقاء ختانها ورؤية هذه العملية من بدايتها إلى منتهاها. كما أننا نجد لدى هؤلاء الكتّاب شعورًا بالعداء تجاه البيوت المغلقة والمدن المغلقة والنساء المحجبات اللاتى كن يصدّنهم، هم المراقبون الغربيون، بل ويقلبن الأدوار بين المراقِب والمراقَب، ذلك أن النساء خلف النوافذ الحديدية والعيون خلف الحجاب لم تكن، بالطبع، عاجزة عن الرؤية. ولذا، وكما كتب مالك علولة عن المصورين الفرنسيين فى الجزائر، فإنّ:

> هؤلاء النسوة المحجبات لم يكنّ بالنسبة للمصوّر لغزًا محيِّرًا وحسب، بل كنّ أيضًا بمثابة هجوم صريح عليه. ولا بدّ من الاقتناع بأن النظرة الأنثوية المحدقة التى ترشح من خلال الحجاب هى نظرة من نوع خاص؛ فهى، إذْ تركزها الفتحة الضيقة المخصصة للعين، تشبه عين آلة التصوير، أو العدسة التى تجعل من كل شىء هدفًا لها.
>
> والمصوِّر لا يخطئ هذا. فهو يعرف جيدًا هذه النظرة التى تشبه نظرته حين تمتد من الحجرة المظلمة أو من محددة المنظر. ولذا يشعر المصور بأنه يصور ما إن يجد نفسه إزاء الحضور الطاغى لامرأة محجَّبة؛ وإذْ يصبح هو نفسه موضوعًا للنظر، فإنه يفقد المبادرة، حيث تُسلَب منه نظرته المحدقة...
>
> وحيال هذا التحدى الهادئ الذى يكاد أن يكون طبيعيًا، فإن المصوِّر يردّ بعملية انتهاك مزدوج، حيث ينزع الحجاب عن المحجَّب ويقدم تمثيلاً صُوريًا للمحرم. (الحريم الكولونيالى، ص١٤).

وينظر مالك علولة فى كتابه «الحريم الكولونيالى» فى عدّة آلاف من البطاقات البريدية التى أنتجها الفرنسيون فى الجزائر وقيل إنها تصوّر النساء والعادات والتقاليد هناك. ويجد علولة أنّ صورة النوافذ ذات القضبان تتكرر كثيرًا فى هذه البطاقات بحيث يتضح للناظر من غير شك أن نساء الجزائر يعشن فى سجون. أما صور النساء العاريات فتتكر على هؤلاء النساء أية طبيعة ما عدا الطبيعة الجنسية فى الوقت الذى تخلف فيه انطباعًا راسخًا بأن المصور قد نجح فى مهنته، إذْ رفع الحجاب عن المحجب، على الرغم من أن هذه الصور مأخوذة فى الأستوديوهات ولموديلات من النساء:

> وعلى هذا النحو فإن فكرة المرأة الحبيسة فى دارها لابد أن تفرض نفسها بطريقة «طبيعية» إلى أبعد حد... فإذا لم تكن رؤية النساء متاحة (أى إذا كنّ محجبات)، فذلك لأنهن سجينات وهذه الموازاة الدرامية بين التحجب والحبس ضرورية لبناء سيناريو متخيل يفضى إلى تصفية المجتمع الفعلى والواقعى، هذا المجتمع الذى يسبب الإحباط، واستبداله بوهم، وهم الحريم.

على هذا المنوال ذاته، كانت كتابة رحالة القرن التاسع عشر (من الرجال والنساء) مسكونةً بالحريم وبالحجاب. فصور السجون والأغلال فى كل مكان، مهما تكن بعيدة عن الموضوع. وكانت رؤية جدار أو مصراع نافذة، أو سماع رنين خلخال تثير لدى هؤلاء الرحالة أفكارًا عن نساء حبيسات وردود فعل عدوانية تجاه نظام الحياة المغلق فى «الشرق»، ذلك النظام الذى يختلف كثيرًا عن حياة الغرب الودودة والمنفتحة. ونظرًا لتعذر دخول هؤلاء الكتّاب إلى حياة العائلة ـ الأمر الذى يبدو متاحًا فى أوروبا أمام أى رحالة أجنبى ـ فقد انهمر من أقلامهم وابل من الأحكام الأخلاقية المتعلقة بتعدد الزوجات، والحريم، وفجور النساء (شهوا نيتهن المفرطة، وغياب المبادئ الأخلاقية لديهن، وميولهن السحاقية، وهلمجرا)، وموقفهن البائس من الأمومة، وغبائهن. ومثل هذه المواقف كانت نتاجًا للمركزية العنصرية وللإيمان بتفوق العنصر الأوروبى. فوصف الحياة فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية يروى عن النساء هناك ما يرويه عنهن فى الشرق الأوسط، وإن كان «اختباء» النساء فى هذه المنطقة الأخيرة قد أثار ردود فعل خاصة تركزت أكثر ما تركزت على الحريم. وحين نقرأ قوائم الاتهام بالفجور الذى يعممه هؤلاء الكتاب، ينبغى أن نتذكر أيضًا أن النساء اللواتى بدون لأولئك الرحالة متحررات أكثر من غيرهن ويستطعن الظهور عليهم أكثر من غيرهن، كُنَّ من البغايا أو الراقصات.

ولقد أشار كثير من الأدب الغربى إلى الحريم كما لو أنه كان موجودًا فى كل مكان من الشرق الأوسط على النحو الذى صورته عليه اللوحات الاستشراقية والروايات عن السراى فى إستانبول. كما تم التعامل مع هذا التصوير للحريم كما لو أنه مكافئ لتلك المسرحيات التى تصور الحياة اليومية فى قصر باكنغهام واللوحات النصفية لسيدات العصر الفيكتورى مما يُعْتَبَر مطابقًا لحياة العائلة الإنجليزية وسلوكها وعاداتها. وكان السيّاح الأوروبيون «يعرفون»، حتى قبل أن يغادروا أوطانهم، أن «الحريم» عالم فاسق تُزْرَب فيه معًا نساءٌ جميلات، وشهوانيات، وتافهات، فيستلقين على أرائك طيلة النهار، يدخّن الغلايين، وينتظرن السيد أن يأتى ليختار إحداهن، فإن لم يقع عليهن الاختيار أطلقن العنان مع بعضهن بعضًا لأفعال لا يمكن وصفها (أو أنها توصف وصفًا مفصّلاً فى بعض الأحيان). لكن الواقع هو أن أغلبية نساء المنطقة كن يعشن فى القرى. وعلى الرغم من معرفة أن حياتهن كانت مختلفة عن الوصف السابق كل الاختلاف، وكثيرًا ما كُتبَ عنها بإسهاب نظرًا لسهولة مراقبتها، إلا أن ذلك لم يَعُدْ عليهن (أو على نساء المدن الفقيرات اللواتى يعملن خارج المنزل) بأى قدْرٍ من الاحترام الإضافى.

وذلك لأن الكتّاب كانوا يكتفون بواحدٍ من خيارين، فإما أن يطلقوا العنان لخيالاتهم الجامحة عن العذراوات عند النبع، مستذكرين رفقة التى يطلبها إبراهيم لابنه اسحق أو مريم العذراء، أو أن يصرفوا النظر عن هؤلاء النساء بوصفهن جاهلات ومنحطات، أشبه ببهائم الجر. وبذا تتواصل ضروب التعميم عن النساء الحبيسات.



وعلى الرغم من تراكم أدلة كافية فى القرن التاسع عشر تثبت أن النساء المسلمات ـ بصرف النظر عن السراى وغيره من أنواع الحريم الكبيرة ـ كُنَّ حرّات فى الخروج من البيت والعودة إليه ويمارسن سلطة واسعة فى داخله، إلا أن كثيرًا من الأوروبيين تشبثوا بالفكرة التى مفادها أن وضع هؤلاء النساء يبعث على الأسى وأن الحريم مكان للفجور. ومع أن كلمة «حريم» (من «حرام») تعنى حجرات البيت حيث يقيم النساء والأطفال ـ والتى يُقْصَى عنها الرجال ما عدا الزوج وبعض الأقرباء المقرّبين ـ أو تعنى نساء البيت، فإن الطبعة الأولى من قاموس روچيه (Roget's Thesaurus) عام ١٨٥٢ أوردت كلمة «حريم» تحت كلمة (impurity) (دَنَس)، جنبًا إلى جنب مع كلمات مرادفة للمبغى. ولقد استمر ذلك كمعنى وحيد إلى حين صدور طبعة Everyman من هذا القاموس عام ١٩٥٢ حيث وردت كلمة (apartment) (شقّة) كمعنى ثان. أما طبعة عام ١٩٦٢ فلم تضع كلمة «حريم» تحت المدخل (impurity)، وإنما تحت المدخل (Womankind) (جنس النساء) والمدخل (love-nest) (عش الحب)، وكان ذلك صائبًا. غير أن الأصوب هو ما أوردته الطبعات الأخيرة حيث وضعت كلمة «حريم» تحت المدخل (Womankind) والمدخل (Se-clusion) (مكان منعزل)، مع أن الطبعة التى صدرت عام ١٩٧٢ فى لندن عن Galley Press باسم Everyday Roget's Thesaurus عادت إلى وضع الكلمة تحت المدخل القديم (impurity).

ومع أنّ النساء من الرحالة كُنَّ قادرات على زيارة الحريم، إلا أن ردود أفعالهن كانت معقدة وانتقادية إلى أبعد حد فى أغلب الأحيان. وأنا لا أشير هنا إلى نساء مثل لوسى دَفْ غوردن، التى عاشت فى مصر سبع سنوات ووافتها المنية هناك عام ١٨٦٩ بسبب إصابتها بالسل، وإنما أشير إلى عدد كبير من السائحات اللواتى كن يقمن بزيارات منظمة إلى هذا الحريم أو ذاك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. فتلك الزيارات غالبًا ما كانت قصيرة جدًا، وغالبًا ما اتسمت بسوء فهم متبادل وأحاديث متكلفة من خلال مترجم. ونادرًا ما خطر للرحالة الغربيين من النساء أن يفكرن أى تفكير عميق بالأثر الذى يتركه حضورهن على ما كان يجرى، فما كُنَّ يلاحظنه لم يكن الحياة اليومية العادية على وجه التحديد، إذ كُن





جزءًا مما كان يجري. وعلاوة على أن بعض الكاتبات كن يسخرن من ردود أفعال النساء على زياراتهن لهن ليظهرن مدى جهلهن وصبيانيتهن، فقد شعرت كثيرات من هؤلاء الكاتبات بأن لديهن الأهلية والكفاءة الكافية لإطلاق أحكام واثقة وأكيدة. فإن لم تكن النساء جميلات وفاسدات كما هُنّ في اعتقادهن، فلا بد أن يكن إذًا أميات، وأمهات رديئات يثرن الشفقة لهذه الحياة المملة التي يعشنها. بل إن البعض كن يعتبرن أن لديهن من المعلومات المسبقة ما يكفي لأن يرفضن الزيارة أصلاً. ومن هؤلاء إ.هـ. ميتشل في عام ١٨٩١، حيث أشارت إلى أنها كانت تقوم بالزيارة لو كان لذلك أن يساعد «أخواتنا المسكينات» على النجاة من أَسْرِهن. أما الذهاب لرؤيتهن في حبسهن البغيض فهو أمر أصعب من أن تحتمله مسيحية (عن لين تورنتن، المرأة في اللوحات الاستشراقية). أما هاربيت مارتينو، المناضلة الإنجليزية من أجل حقوق النساء، فقد قامت بزيارة حريمين وعلقت ببساطة أنها لا تستطيع أن تفكر بالصباحين اللذين قضتهما هناك دون أن ينقبض قلبها على نحو يفوق ما أصابها في مدارس الصم والبكم، أو المصحات العقلية، أو حتى السجون (الحياة الشرقية، المجلد ٢، ص١٤٧).

أما في الواقع، فقد كانت نساء الطبقة الوسطى والعليا في مصر يكتبن المقالات ويصدرن الكتب التي تتداولها الأيدي في ضروب الحريم منذ أوائل الستينيات من القرن التاسع عشر. ومع حلول العقد الأخير من ذلك القرن كانت الصحف النسائية قد صدرت أيضًا. ولقد أطلقت مارغو بدران على هذه العقود اسم «مرحلة النسوية المستترة»، حيث لم تكن أصوات النساء مسموعة للعالم الخارجي بسبب من عزلة النساء والفصل بين الجنسين. غير أن قلة ما من الرحالة الغربيين لا بد أن تكون قد تمكنت من سماع ما كان يجري أو من قراءة ما كان يُنشَر للنساء العربيات في القرن التاسع عشر من ضروب الكتابة الشعرية، والقصصية، والمقالات التي تتناول العلاقة بين الرجل والمرأة، والمعاجم التي تشتمل على تراجم لأعلام النساء وما إلى ذلك (مارغو بدران ومريام كوك، فتح البوابات). بل إن كثيرات من نساء الطبقة الوسطى والعليا في مصر كُنّ قد انخرطن في النضال ضد الاحتلال البريطاني واشتركن في المظاهرات عام ١٩١٩، حيث كفّت كثيرات منهن على أثر ذلك عن ارتداء الحجاب الذي يغطي الوجه.

ولقد وجدت ليلى أحمد أثناء كتابتها عن مواقف النساء الأمريكيات في ثمانينيات القرن العشرين من الحريم أن معظم هؤلاء النساء «يعرفن» أن النساء المسلمات يعانين من الاضطهاد ما لا تعانيه غيرهن من النساء، وذلك في الوقت الذي يعترفن فيه صراحة بأنهن لا يعرفن شيئًا عن الإسلام أو عن مجتمعات الشرق الأوسط. وتناقش ليلى أحمد طريقتين مختلفتين في النظر إلى الحريم، حيث:

> يمكن تعريف الحريم بأنه ضَرْبٌ من النظام الذي يتيح للرجال مدخلاً جنسيًا إلى أكثر من امرأة واحدة. ويمكن تعريفه أيضًا، وعلى نحو أدق، بأنه ضرب من النظام الذي تتشارك فيه قريبات رجل ما ـ زوجاته، وأخواته، وأمه، وعماته، وبناته ـ قسطًا كبيرًا من وقتهن ومكان عيشهن، ويوفر للنساء، علاوة على ذلك، مدخلاً سهلاً ومتكررًا إلى نساء أخريات في مجتمعهن. وذلك بصورة أفقية وقطرية وعمودية. («المركزية الاثنية الغربية وتصوراتها عن الحريم»، دراسات نسوية، ٣:٨، «١٩٨٢»).

وبالطبع، فقد فضل الغرب التعريف الأولى على الدوام.

وحين كان الرسامون يرسمون النساء جماعات، فإن الحمام التركي كان خلفية نمطية لمثل هذه الرسوم. وما يلفت الانتباه أن الرسامين الذين صوروا النساء بوصفهن أمهات هم قلة قليلة وحسب بين الرسامين الاستشراقيين قبل نهاية القرن التاسع عشر، وذلك قياساً بالعدد الكبير من اللوحات التي تصور النساء الغربيات ومن حولهن أطفالهن. ويعود هذا في جانب منه إلى أن الخلفية «الغربية» كانت تمكن هؤلاء الرسامين من رسم أشياء ما كان لهم أن يرسموها على خلفيات وطنية دون تبعات وخيمة؛ ذلك أن «فتاةً شبه عارية ومثيرة على عتبة في الجزائر هي أمر غريب ومدهش، أما الفتاة ذاتها وفي الوضع ذاته على عتبة في باريس فهي أمر فاحش وقذر» (بيترغي، التجربة البرجوازية، المجلد ١، ص ٣٩٢).



بيد أن ما كان يعزز مثل هذه المواقف لم يكن مقتصرًا على طرائق النظر إلى النساء «الشرقيات»، وإنما تمثل أيضًا في الأفكار الأوروبية السائدة بخصوص دور المرأة. فالأيديولوجية البرجوازية الشائعة كانت قائمة على معارضة بين عالمين، عالم عمل الرجال العام المغترب وعالم عمل النساء الخاص غير المغترب والمرتبط برعاية الأطفال والتضحية، كما كانت البنية برمتها معتمدة على تعزيز مُثُل الزواج الأحادي وصورة النساء بوصفهن كائنات جنسية سلبية. ولذا فقد كان من شأن تصوير نساء الحريم كأنهن نساء عاديات يعتنين بأطفالهن ويرعين منازلهن كما تفعل النساء في أوروبا أن يقوض كل دعائم الحياة العائلية الغربية. وذلك في قرن من التغير المتلاحق، ومع ثقافة الطبقة الوسطى «الانتقائية المليئة بضروب التوتر والدوافع المتناقضة» (كما يصفها بيترغي)، حيث كان من الضروري أن يتم الحفاظ على هذين العالمين المنفصلين، اللذين كانا عرضة لتهديد دائم ومتواصل.

فالقرن التاسع عشر هو فترة كان على الناس فيها أن يتكيفوا مع صنوف من التغير الشديد في حياتهم اليومية حتى إنهم حاولوا تجميد الأشياء وتجزئتها بغية الحد من ذهولهم. فالتصنيع، والنقل، والاضطراب والتغير السياسيان، وتعاظم تجارة ما وراء البحار، والاستعمار، ومراحل النمو والركود، وضروب الصراع بين الفلسفة والدين في أرجاء القارة الأوروبية، وبين العلم والدين في إنجلترا، كل ذلك عمل على تغيير المجتمع ودفع البشر لأن يكونوا في آن معًا متعجرفين وغير واثقين حيال مكانتهم في العالم. كما كان على البشر أن يتكيفوا مع إحساس جديد بالزمن أدخلته القطارات، والمحركات البخارية السريعة، والخدمات البريدية فضلاً عن الدراسات الجيولوجية والآثارية في النصف الأول من ذلك القرن وكتاب داروين أصل الأنواع في عام ١٨٥٩، أي بعد بضع سنوات من معرض الكريستال بالاس عام ١٨٥١، والذي يشكل الذروة التي بلغها القرن التاسع عشر:

> إنها لمفارقة ساخرة أن مجتمعًا يعتبر ذاته القمة الفريدة للحضارة كان عليه أن يعمل على رعاية الحفريات التي أطاحت بذلك الوهم المريح.
>
> فالتيار الثقافي الذي ينتمي إليه الفيكتوريون لم يكن سوى واحد وحسب من تيارات التاريخ الكثيرة، ولعله ليس الأكمل بينها، فما بالك بأن يكون الأبقى. ومن المؤكد أنه لم يعد بالإمكان القول إن اليهودية ـ المسيحية قد احتلت على الدوام مركز المسرح العالمي؛ فهي مجرد حدث واحد في دراما معقدة تعود إلى عصور طويلة ماضية. (ريتشارد د. ألتيك، الناس والأفكار في العصر الفيكتوري، ص ص٩٩-١٠٠).

مع منتصف القرن الثامن عشر، كان الإنتاج المنزلي قد بدأ بإفساح المجال أمام إنتاج المصانع، مما أفضى إلى تطور الأيديولوجية البرجوازية بخصوص العالمين المنفصلين. وراحت العوائل محدثة النعمة تبني فيلات تعزل فيها النساء وتقطعهن عن العمل في المجال العام. وقَضَتْ فكرة «التهذيب» التي لعبت دورًا كبيرًا في تلك الفترة بأن على نساء الطبقة الوسطى أن ينافسن نظيراتهن من الطبقة العليا، فكان عليهن ألا ينخرطن في أي عمل مأجور ما لم يكن ذلك أمرًا لا مفر منه. ولقد كُتِبَتْ في تلك الفترة روايات كثيرة عن الطريقة التي كنّ يقضين فيها أيامهن في تعلم الأشغال النسوية والقيام بزيارات متبادلة متكررة بعضهن لبعض. أما التعليم الذي نلنه فكان محدودًا إلى أبعد حد ولم يكن المقصود منه سوى جعلهن زوجات وأمهات طيبات، كما كانت الصفات والخصائص الجنسية التي اعترف لهن بها معدة لهذا الغرض ذاته.



وبالمقارنة، فإن النساء في النصف الأول من القرن الثامن عشر لم يكن يُنظر إليهن على هذا النحو. فحتى أواخر أربعينيات القرن الثامن عشر «كان ثمة تمثيل ثابت للنساء بوصفهن موضعًا للمشاعر الجنسية الجامحة والجوع الجسدي. ومنذ منتصف القرن الثامن عشر فصاعدًا بدأت صورة النساء هذه بالتحول ببطء باتجاه المثال المنزلي، أو ملاك البيت الذي يحفظه كملاذ من العالم الخارجي القاسي. وفي عام ١٧٦١، أطلق جان جاك روسو في كتابه الشهير إميل فكرته عن التربية الملائمة التي ينبغي أن تتلقاها صوفي، أو المرأة المثالية كما يراها. وكتب يقول إن هذه التربية يجب أن تكون متصلة كل الاتصال بشئون الرجال، ذلك أن على المرأة أن «تمتعهم، وتنفعهم وتكون محبوبة عندهم وتتشرف بهم، وتعلمهم في الصغر، وترعاهم في الكبر، وتشير عليهم، وتواسيهم، وتجعل الحياة سائغة ومقبولة لديهم». ولقد عززت الداروينية في القرن التاسع عشر هذه الأفكار، حيث أشارت إلى أن تطور المرأة الخاص قد جعل منها عضوية متكيفة مع تنشئة الأطفال في الوقت الذي جعلها هشة وسيئة التكيف مع المساعي الفكرية. وبالطبع، فإن الصورة القديمة التي قضت بأن تكون النساء محكومات من قبل الرجال وفي حمايتهم لم تختف تمامًا بأي حال من الأحوال، كما أن الصورة الجديدة لم تكن أكثر من صورة مثالية ليس غير. ولقد تم الإقرار بوجود الرغبة الجنسية لدى بعض النساء، إنما مقابل النظر إليهن على أنهن «بلا أخلاق»، إما أن يكن من بنات الطبقة الدنيا ـ كفتيات المصانع اللواتي وُصِفن بوضاعة الأخلاق ولم يكن من الممكن قبولهن كخادمات في المنازل ـ أو من النساء «الغريبات»، كالغجريات ونساء الأعراق الأخرى، أو مجرد مجنونات وحسب. ومع ذلك، فقد كان يرى أن سنة القيم البرجوازية هذه تصلح للطبقة الوسطى كما تصلح تاليًا لأي أحد آخر، خاصة أنها تترك الحرية للرجال نظرًا لما لديهم من «أهواء أقوى».

وحين عمد الرحالة إلى الشرق الأوسط إلى مقارنة حياة النساء فيه بحياة النساء في أوروبا لم يقارنوا بين أفراد، ذلك أنهم كانوا يتحدثون بصورة تكاد أن تكون ثابتة عن النساء الأوروبيات من الطبقة الوسطى. وحتى آنذاك لم تكن المقارنة شريفة أو نزيهة. فمن الواضح أن كثيرًا من هؤلاء الكتّاب لم تكن لديهم أية معرفة بحياة النساء من الطبقة العاملة الأوروبية ومدى تدهورها وانحطاطها. وحين كانوا يلتقون بالنساء المحجبات و«السجينات»، كان أكثر الكتّاب من الرجال يتوقون إلى رؤيتهن وامتلاكهن في الوقت الذي يؤكدون فيه على اختلاف نسائهم عنهن. أما الكاتبات النساء فكن يملن إلى وصف المساواة التي يتنعمن بها بأوصاف متفاخرة، متناسيات ما عانته كثيرات منهن في مجتمعاتهن من ضجر وإحباط ويأس، مما كان سببًا في سفرهن وترحالهن في كثير من الحالات.

وفي النظرة الأوروبية الذكورية إلى

العالم، غالبًا ما نجد النساء وسكان البلدان الأخرى وقد تم «تصويرهم ومعاملتهم كأطفال بحاجة إلى الحماية والرعاية التي توفرها سلطة ذكورية/امبراطورية نظرًا لضعفهم وبراءتهم وقصورهم» وإذا ما كان الرجال الأوروبيون قد اعترفوا بحق النساء التركيات في الخروج سافرات، في الوقت الذي بذلوا فيه كل جهد لمنع نسائهم من تجاوز حدود معينة، فذلك لأنهم كانوا يحاولون استخدام النساء التركيات - أو غيرهن من النساء الشرقيات - لدك النظام الاجتماعي هناك تحت ستار تحرير هؤلاء النساء من ربقة رجالهن.



والحق أن النسويين لم يختلفوا عن غيرهم في اتخاذ مواقف مركزية أوروبية واستعمارية. وحين أخذت النساء العربيات بالانخراط في النضالات الوطنية، غالبًا ما سارعت النساء الأوروبيات إلى الإشارة إلى ما يرتكبنه من خطأ. ومن الأمثلة على ذلك ما تقوله تروبريدجهال في كتابها مصر في صورة ظليلة:

> إيه أيتها النساء، يا من تقاتلن من أجل الحرية أروع قتال وأنبله، فلتنسين في الحال كل كفاح سياسي. إن المهمة الملقاة على عاتقكن لهي أعظم أهمية بما لا يقاس من الحكم الذاتي لبلادكن. فلتنسين كل شيء ماعدا إلغاء تعدد الزوجات، تلك اللطخة الشنيعة التي تشوه سمعة بلادكن الطيبة. (ص ٦٤).

وأكثر ما يصدم المرء لدى قراءته ما كتبه الرحالة في وصف حياة النساء «الشرقيات» في القرن التاسع عشر هو ذلك المستوى الرفيع من النفاق فيما يختص بوضع المرأة في الغرب. فالسؤال الحقيقي هو ما مدى الفوارق في حياة النساء في كلتا المنطقتين، والتي تؤدي إلى مثل هذا التفاوت في الأوضاع الاقتصادية والسياسية، أيًا كانت المظاهر الخارجية والأساليب المختلفة في تنظيم شئون الأسرة؟ وهل المسيحية هي السبب الذي يجعل وضع النساء الأوروبيات على هذه الدرجة من الاختلاف، نظرًا لاعترافها بالقيمة الحقيقية للمرأة، كما ادعى الكثير من الكتّاب؟ ربما كان علينا، قبل قراءة ما خطّه الكتّاب عن النساء الشرقيات، أن نلقي نظرة على وضع النساء في أوروبا وما حمله الرحالة معهم من أفكار تتعلق بطبيعة المرأة.

فمع تنامي تأكيد الأيديولوجيا البرجوازية في القرن التاسع عشر على حصر المرأة بالبيت، كان ثمة جهد مبذول لإقامة تعارض مُحكَم بين عالم الرجل وعالم المرأة بين العالم العام والعالم الخاص، وذلك باللجوء إلى «غريزة» الأمومة لدى المرأة بوصفها جوهر كينونتها الذي لا يقتصر على جعلها منشئة أطفال وحسب، بل يهبها ضربًا من النفوذ الأخلاقي بفضل طبيعتها المُحِبّة والمضحية. وربما وافق كثير من الرجال على ما كتبه الرسام الشهير ديلاكروا في مفكرته بعد زيارته الجزائر، حيث قال: «يا للجمال! لكأننا في أيام هوميروس! فالمرأة في مدقتها منهمكة في رعاية أطفالها، أو في غزل الصوف أو تطريز أقمشة جميلة. تلك هي المرأة كما أفهمها» (أوردته آسيا جبّار في كتابها نساء الجزائر في مساكنهن).

وبالطبع، فإن الحفاظ على هذه البنية المؤلَّفة من عالمين منفصلين (ومتساويين) لم يكن ممكنًا على مستوى المجتمع ككل. فمثل هذه البنية تظل ضربًا من المثال الذي لا يُطال أبدًا. بل إن ذلك لم يكن مرغوبًا فيه من الناحية الاقتصادية، لأن المرأة كانت تشكل جزءًا أساسيًا من القوة العاملة.

لقد تم تصوير هذين العالمين على أنهما عالمان منفصلان لكنهما متساويان. ولعلنا لا نجد من صور هذين العالمين على هذا النحو بذلك العداء للمرأة الذي نجده فيما كتبه بيير جوزيف برودون عام ١٨٤٦:

بالنسبة لي، كلما فكرت بالأمر أكثر، كلما ضعفت قدرتي على تبرير ما يُقدَّر للمرأة خارج البيت والعائلة. فأنا لا أرى أية منطقة وسطى بين البغي وربة المنزل (أقول ربّة المنزل، لا الخادمة). فما الذي يحط من قدر المرأة إذا ما اتخذت هذا الخيار؟ وبأي منظور يكون دور المرأة، المثقل بأعباء إدارة شئون المنزل وكل ما يتعلق بأمور الاستهلاك والادخار، أدنى مرتبة من دور الرجل، الذي تتمثل وظيفته في توجيه الورشة، أي في قيامه بدور حكومة للإنتاج والتبادل؟

ومع هذا، فقد قبلت نساء كثيرات مثل هذا الرأي، نظرًا لما كان شائعًا في أوساط الطبقتين الوسطى والعليا من إيمان عميق برسالة خاصة تؤديها المرأة. وحين كانت النساء من الرحالة إلى شمال أفريقيا والشرق الأوسط يخبرن من يلتقينهن هناك عن الزواج الغربي القائم على المساواة التامة أو كُنّ يطلقن ضروبًا من التعميم الذي لا يستند على أكثر من خبرة محدودة وناقصة. والحق أن كثيرًا من النقد الذي وجهنه للمجتمعات التي زرنها كان من الممكن أن يوجّه أيضًا إلى مجتمعاتهن.

ففي إنجلترا القرن التاسع عشر كان يُنظر إلى النساء بوصفهن مشكلة. فمن جهة أولى، لم تكن النساء راضيات على الدوام بالمكانة المقسومة لهن في المجتمع، أما من جهة ثانية، فقد كانت أعدادهن كبيرة جدًا بالنسبة لمجتمع قائم على الزواج الأحادي وقدسية المنزل وتبعية النساء. ولقد ناقش و. ر. غريغ هذه «المشكلة» في عام ١٨٦٢ في مقالة عنوانها «لماذا النساء زائدات عن الحاجة؟» وحاول أن يبين أن هؤلاء النساء الفائضات هنّ «الشر والآفة التي تجب مداواتها». وكان الدواء مرة أخرى ترحيل ٥٠٠٠٠٠ إلى المستعمرات.

ولقد ازدهرت تجارة البغاء على نحو خطير في فرنسا أيضًا نتيجة لتضافر إفقار النساء مع ازدواجية المعايير الجنسية بالنسبة للرجل والمرأة والمطالبة بأن يكون الرجال «ذوي خبرة» قبل الزواج. وهكذا، فقد افتُرِض بنساء الطبقة العاملة والنساء المهاجرات من المستعمرات أن يكن ضمانًا لطهارة زوجات البرجوازية وبناتها.

وفي روايته واحد من فاتحينا (١٨٩١)، يصور جورج ميريديث «مهراجا من الشرق» يطوف الشوارع ليلًا أثناء زيارته إلى لندن ويلاحظ أن «مجتمعات الزواج الأحادي تنم على مظهر لائق وخلفية شنيعة».

والدارس لهذه الفترة يعجب حين يعلم أن الأوروبيين كانوا يشخصون بداية الطمث والمشاعر الجنسية المرتبطة بسن اليأس على أنهما مشكلتان مرضيتان، ذلك أن الجنس عند المرأة كان يُعتبر مرضًا يتطلب العلاج. ومن ثم دخول مستشفيات الأمراض العقلية.

لذا كان يجري الختان (قطع البظر) «لمساعدة النساء في السيطرة على أنفسهن». وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر، كان أطباء النسائية في الولايات المتحدة وبريطانيا يستأصلون مبايض سليمة بكل رحابة صدر كعلاج لحالات مثل الجنون المبكر أو الصرع.

وبالنظر إلى مثل هذه المواقف والأجواء، ليس مستغربًا أن تكون



ردود الفعل تجاه «الشهوانية الشرقية» على ما كانت عليه من القوة والتشوّش.

النظرة المتدنية إلى المرأة فى أوروبا فى هذا العصر وصلت إلى درجة أنه حين أرسلت شارلوت برونتى عام ١٨٣٧ بعضاً من بواكير أشعارها إلى الشاعر روبرت سوثى لإبداء رأيه فيه أقرّ أنّ لديها الموهبة لكنه حاول أن يثنيها عن مواصلة الكتابة قائلاً:

ليس للأدب أن يكون شغل المرأة الشاغل، ولا ينبغى أن يكون.. فأحلام اليقظة التى تغرقين فيها قد تؤدى إلى حالة من الاعتلال تصيب العقل؛ ولأن كلّ الحاجات العادية فى هذه الدنيا تبدو لك تافهة وبلا طائل، فإنك لن تكونى نافعة فيها ولا فى سواها.

وعلى الرغم من النجاح السريع الذى حققته رواية شارلوت برونتى جين آير، فإن أصوات المعارضة سرعان ما بدأت تشير إلى أن البطلة لا تبدى الخصال التى تميز المثال الأنثوى. فجين آير فخورة بنفسها، وتبدى مشاعر الهوى والغضب، مما لا يمكن قبوله فى عصر كانت السيطرة فيه لأتباع الكنيسة الإنجيلية. ولم يكن معروفاً فى ذلك الحين أن المؤلف امرأة، إذ نُشرَت الرواية باسم مستعار هو كورير بل. ففى عام ١٨٥٧، وجّهت تهمة الإساءة إلى الأخلاق العامة هذه إلى كل من فلوبير بسبب روايته مدام بوفارى وبودلير بسبب ديوانه أزهار الشر. أما المشهد الذى يقوم فيه رجل ببيع زوجته فى رواية (عمدة كاستربريدج)، فقد صدم الحساسية الفيكتورية أيما صدمة. واتهم النقاد هاردى بتجاوز روايته حدود المعقول فى القص.. بيد أن بيع الزوجات كان يجرى فى انجلترا القرن التاسع عشر، وفى أسواق المواشى غالباً، حيث كانت تقتضى العادة الشعبية فى كثير من الأحيان أن تُساق المرأة إلى هناك بالرسن (صموئيل بيات مينيفى، زوجات للبيع، حيث يورد ٣٠٠ حالة موثقة بين عامى ١٨٠٠ - ١٩٠٠).

لقد مال رحّالة العصر الفيكتورى إلى اعتقاد مفاده أن حياة المرأة المسيحية، الأوروبية، المنتمية إلى الطبقة الوسطى وحياة المرأة المسلمة، الشرقية، المنتمية إلى المنزلة الاجتماعية ذاتها تقفان على طرفى نقيض. غير أنّ حياة النساء فى الشرق لم تكن كما وصفوا، وحياة المرأة الأوروبية ظلت مكبّلة بأشد القيود حتى نهاية القرن، لذا فإن الوضع فى الطرفين لم يكن مختلفاً كثيراً كما يحلو لكثيرين أن يؤكدوا. فالنساء الفقيرات فى كلا المجتمعين كن يعانين من العمل المضنى سواء داخل البيت أم خارجه، وحقيقة ارتداء المرأة الشرقية الحجاب ما كانت لتجعلها أشد معاناة وشقاء بالضرورة. والحال أن النساء لم يكن ضحايا مستكينة وسلبية فى واحد من هذين المجتمعين أكثر منهن فى المجتمع الآخر.

فحين ألّحت النسوة فى حمام تركى على السيدة مارى مونتاغيو لكى تخلع ملابسها وتلتحق بهن، نضت عنها سترتها لكى تريهن مشدّها. وهذا ما ساقهن - كما تقول - إلى الاعتقاد بأنها سجينة فى آلة لا يمكن فتحها إلا من قِبَل زوجها. وهذا مثال على أن كل واحدة من مجموعتى النساء هاتين كان بمقدورها أن ترى الأخرى كمجموعة من السجينات. ولاشك أن كلتيهما كانت محقة.

أما ماتيلدا بيثام إدواردز فقد خرجت أثناء رحلتها فى شمال أفريقيا، لتتمشى مع بعض الصبايا الفرنسيات ممن التقت بهن هناك. غير أن والدة هؤلاء الفتيات طلبت منها ألا يغربن عن ناظريها إلى أن يعدن سالمات إلى البيت، ذلك أنه لم يكن من اللائق أن يتجولن فى الطرقات بمفردهن بوجود كثير من الجنود فى المدينة.

هنا تكمن السخرية فى حرية التفكير الأوروبية! ففى حين نرثى لحياة العزلة والقيود التى تعيشها النساء المغربيات، نجد أن الصبايا الفرنسيات فى سن الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين لا يُؤتَمَنَ على البقاء وحدهن أبعد من حديقة المنزل! لاشك أن بمقدور هجاء عربى أن يخرج بشىء من حالة كهذه! (شتاء مع السنونو، ص١١٦).

وثمة رحالة آخر هو جون رينيل موريل سمع الكثير مما قاله الفرنسيون ضد العرب فى الجزائر، غير أنّه حذّر قراءه من قبول هذه الاتهامات على نحو أعمى.

لدى تلقيك هذه وغيرها من أقاويل الكتّاب الفرنسيين عن العرب، من الضرورى أن تتوخّى أشد الحذر، وذلك لأن من مصلحة الفاتحين أن يصوروا ضحاياهم بأبشع صورة، كما يبرروا وحشيتهم وظلمهم. (الجزائر ص٣٠٣)

وأخيراً، فقد أمضى الباحث الفرنسى فولنى من الوقت فى تهيئة نفسه للرحلة التى انطلق بها إلى مصر وسوريا فى أواخر القرن الثامن عشر أكثر مما أمضاه معظم الرحّالة. وذلك، كما يقول، لأن فهم طبيعة بلد ما يقتضى أن تقيم هناك، وتتعلم لغة هذا البلد وتمارس عاداته، علماً أن ذلك كله لن يكون كافياً لحصول الرحّالة على معرفة حقة وفهم حق:

فليس عليهم (الرحّالة) أن يغالبوا كل ما سيواجهونه من أهواء وحسب، وإنما أن يتغلبوا كذلك على التى جلبوها معهم؛ ذلك أن الفؤاد مُحَابٍ، والعادة غلاّبة، والحقائق خادعة، والوهمَ هيّن. ولذا فإن على المراقب أن يكون محترساً دون أن يكون خائر القلب، وعلى القراء الذين ليس أمامهم سوى الرؤية بعين وسيط أن يهتموا برأى هذا الدليل دون أن ينسوا حكمهم الخاص. (سى.ف.فولنى، رحلة إلى مصر وسوريا، ص٣٩).

والحال أنّ قلة من الرحّالة هم الذين تمكنوا من الوفاء بقائمة المتطلبات الأولى، وأقلّ منهم بكثير من وفوا بالثانية. فمواجهة الأهواء والأحكام المسبقة التى حملوها معهم لم تكن واحدة من النصائح النافعة التى قُدِّمت لرحالة القرن التاسع عشر. ■

ترجمة: ثائر ديب



مراكز البيع:

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى. نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٣
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس. ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس: ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول
ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج. دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان. محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥
القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٢٤٥٣٥٦٩٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
العاشر من رمضان: دوار العاشر. طريق الإسماعيلية
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل. محطة التعاون. الهرم ت: ٣٨٣٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية. خلف المحكمة
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى. مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع. السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ت: ٣٦٣٠٥٩٠
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر أبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٠٣-٢٩١٨٤٧٠

العباسية: ١٥ ش العباسية. ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت:٢٢٠٨٥٥٥
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية. فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
صفط اللبن: سنتر الصاوى. شارع التحرير
بنى سويف: ٥، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٢٢ ٥٧٦٥
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ٠٥٥٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ت: ٠١٠١٩٢٢٤٢٨
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩ ٠٦٨٣٦٥٦٥٦
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم. خلف المحكمة ٠١٠١٩٧٧٥٣٣
دسوق: ش الجيش. أمام عمر أفندى
بورسعيد: ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة. طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com





رسم لميدالية تذكارية من الفضة قام بإعدادها
الفنان بديع عبدالملك غطاس



الفن القبطى

صورة مصر فى عصورها المتطورة

مينا بديع عبدالملك

ابتكر أقباط مصر عناصر الفن المسيحى المتمثل فى صناعة الأخشاب والفخار والزجاج وصناعة المعادن والعاج والعظم بالإضافة إلى الأيقونات والمنسوجات والعمارة. ويقول الأب يوساب السريانى إن فكرة الأيقونة من بدايتها كانت متداولة فى مصر حتى قبل بداية الفن المسيحى متمثلة فى بورتريهات الفيوم وأخميم، فكان الأقباط يضعون صورهم الخاصة فى منازلهم كما يحدث الآن فى العصر الحديث، ومنها أخذت الأيقونة، ولم يكن هذا الأمر موجودًا فى العالم المسيحى آنذاك. وكان الشعب القبطى فنانًا بطبيعته فقام بزخرفة المنازل والمبانى والكنائس بعناصر أخرى مثل النسيج والأحجار.

فى بادئ الأمر - كما يذكر وديع حنا شنودة - كان من المعتقد أنه لا وجود لفن قبطى مستقل، وأن تلك الآثار المسيحية التى ترى ماثلة فى كنائس الأقباط وأديرتهم، ما هى إلا آثار بيزنطية يونانية. إلا أن أول من لاحظ استقلال الفن القبطى عن سواه من الفنون الأخرى هو العلامة ماسبيرو Maspero، وجاءت أقوال العلماء الذين قاموا بإحياء هذا الفن باكتشافاتهم وكتاباتهم أمثال بتلر وكلارك ودى كوسون وشاسينا وجاييه وإيڤلين هوايت وأميلينو ودريتون وغيرهم من العلماء والباحثين والرحالة، مؤيدة ومجمعة على ذلك. ولو أنه ظهر على هذا الفن فى بادئ الأمر (فى القرون الثلاثة الميلادية الأولى) مسحة التشابه مع الفن البيزنطى اليونانى، وذلك يرجع إلى ارتباط واتحاد الكنيسة القبطية مع الكنائس المسيحية عامة. ولكن منذ أن انفصلت الكنيسة القبطية عن الكنائس الغربية وأصبح لها وجود ذاتى مستقل أمكن للأقباط من ذلك الوقت أن يتخلصوا من كل شىء له علاقة بالفنون البيزنطية واليونانية، وعادوا إلى الصناعات المصرية الفرعونية مع إدخال التعديلات التى تتفق مع المعتقد الدينى المسيحى.

وهنا يقول الأب يوساب السريانى: لقد اقتبس فن مصر القبطى بعض عناصره من الفنون الأخرى خلال الأحداث السياسية أو العلاقات التجارية، فمثلاً بحكم موقع مدينة الإسكندرية الحساس أخذ الفنانون فيها عن الفن اليونانى الرومانى تيجان الأكانثاس بعد أن حوروها وجردوها من نسب الطراز الرومانى الأصلى وأبعاده، كما أخذ الفن القبطى كذلك من الفن البيزنطى ومن الفن الساسانى. ورغم كل ما اقتبس بقى الفن القبطى محافظًا على جوهر قوميته وأصالته.

وتذكر نعمت إسماعيل علام أن الفن القبطى هو الفن الأول فى الشرق الأوسط الذى كان من إنتاج الشعب ولم توجهه الدولة. ولقد أنتجه مسيحيو مصر منذ الفترة التى اعترفت فيها الدولة بالكنيسة عام ٣١٣م واستمر لفترة بعد الفتح العربى.

وقد اهتمت المتاحف الكبرى فى العالم بعرض نماذج الفن القبطى منها متحف اللوفر بباريس، ومتحف برلين بألمانيا، ومتحف المتروبوليتان بالولايات المتحدة، ومتحف لندن بالمملكة المتحدة، والمتحف الملكى ببلچيكا. كما اهتمت بعض جامعات العالم بإنشاء أقسام متخصصة لدراسة هذا الفن مثل قسم تاريخ الفن القبطى بجامعة «ليدن» بهولندا وقسم الدراسات القبطية بجامعة مونستر بألمانيا الذى أسسه الأستاذ الدكتور كراوزا وقسم الفن القبطى بجامعة وارسو ببولندا الذى يرأسه الأستاذ الدكتور جودلفسكى وقسم آخر بجامعة باريس.

وهنا نذكر بكل تقدير العالم الفرنسى الدكتور بير دى بورجيه رئيس القسم القبطى بمتحف اللوفر بباريس الذى أصدر عدة مؤلفات عن الفن القبطى منها مجلد ضخم يختص بالنسيج القبطى فقط يحتوى على أكثر من ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير ويعتبر أكبر دراسة متخصصة عن النسيج القبطى. ومن شدة اهتمامه بدراسة هذا النوع من الفن - كما يذكر الأب يوساب السريانى - قام بصنع نول نسيج

تاج عمود قبطى من باويط قرن ثامن ميلادى



يدوى ليعمل عليه بنفسه حتى يستطيع أن يقف بنفسه على مختلف الطرق الفنية التى كان يستخدمها الأقباط منذ القرون الأولى.

وقبل أن نتعرض لدراسة هذا الفن فإنه يجب الإشارة إلى بعض أسماء المصريين الذين ساهموا - فى القرن العشرين - بجهد واضح فى هذا المجال منهم: مرقس باشا سميكة (مؤسس المتحف القبطى بالقاهرة)، د. سعاد ماهر محمد (فى النسيج القبطى)، الدكتور أحمد فخرى (فى الآثار)، الدكتور باهور لبيب (فى الآثار)، الدكتور حشمت مسيحة (فى الآثار)، الدكتور لبيب حبشى (فى الآثار).

صناعة الأخشاب:

تجلى تفوق الأقباط فى فن النجارة فى درايتهم الكاملة بالأنواع المختلفة للأخشاب. فلم يتوقف استخدامهم على الأنواع المحلية - كما كان الحال عند قدماء المصريين - مثل خشب الجميز والنبق والسنط والنخيل، بل لجأوا إلى استيراد أجود الأنواع من الخارج مثل خشب الأبنوس من أثيوبيا وجنوب السودان، والأرز من لبنان وسوريا، والساج من الهند بالإضافة إلى خشب الجوز والبندق والبلوط من أوروبا وغرب آسيا وغيرها.

ففى بادئ الأمر عند استخدامهم للأخشاب المحلية، فإنهم كانوا يشقونها ألواحًا ويسكبون عليها المياه، ثم يتركونها معرضة للشمس مدة كافية حتى تجف، وحتى لا تلتوى بعد صنعها تبعًا لتغير حرارة الجو، ومنها ما كانت رائحته ذكية تساعد على منع الحشرات التى تفتك بها سريعًا.

وعندما استوردوا الأصناف الأخرى من الخارج نشأت لديهم طريقة تطعيم الخشب فيصنعون البرواز الخارجى من الخشب العادى ثم يزينون سطحه بحشوات منقوشة من أنواع أخرى فيزداد رونقها وبهاؤها.

وكان أعز أنواع الأخشاب عند الأقباط خشب الزيتون الذى ورد ذكره كثيرًا فى الكتاب المقدس، فكانوا يصنعون منه - وحتى الآن - الأختام المستخدمة فى ختم الخبز المقدس الذى يستخدم فى الصلوات الكنسية، وكذلك خشب الجميز، إذ يعتقد أنها شجرة مقدسة لكونها تعيش أجيالاً عديدة بدون رى بالماء حتى أن المصريين القدماء كانوا يكثرون من زراعتها بجانب المقابر والمعابد وصنعوا منها توابيت الموتى.

استمر تزيين الخشب ونقشه برسم صور دينية ومناظر من حياتهم وأعمالهم إلى حوالى القرن العاشر الميلادى فى عصر الفاطميين عندما تبدلت هذه الصور بأشكال هندسية ونباتية تتخللها صور الطيور والحيوانات.

وأهم ما يستلفت النظر فى صناعة الأبواب الدقيقة والحواجز الخشبية بالكنائس والتى يطلق عليها اسم حامل الأيقونات، أنها تتكون من عدة قطع صغيرة من الخشب المخروط أو المنقوش. وتتجلى روعة تلك الصناعة فى أنه يمكن تجميع أجزائها بعضها إلى بعض دون استعمال المسامير أو الغراء فى تثبيتها، وأن بين كل حشوة وأخرى تركت مسافة كافية مراعاة لما قد يحدث فى الأخشاب عادة من تمدد أو انكماش تبعًا لاختلاف فصول السنة فيتسنى لها بذلك أن تتكيف حسب اختلاف درجات الحرارة طوال العام.

الفخار:

تعد صناعة الفخار من أقدم الصناعات التى برع فيها الإنسان إذ أن الأوانى الفخارية كانت الوسيلة الضرورية لطهى المأكولات وحفظ السوائل على اختلاف أنواعها ووضع الحبوب لصيانتها من التلف. وقد ظلت صناعة الفخار محافظة على مكانتها حتى القرن الثالث عشر

نسيج قبطى تظهر به علامة الصليب وفى أعلى القطعة رسم للطاووس الذى يرمز إلى الفردوس والحياة الجديدة

نحت قبطى من الحجر يمثل رمز السمكة التى تشير إلى المسيحية. من القرن الرابع الميلادى. بمتحف اللوفر بباريس

الميلادى. ومما يدل على انتشار الفخار على نطاق واسع بمصر، وكان زهيد الثمن، ما رواه المقريزى عن أحد الرحالة «أن البقالين وبائعى الخردوات فى القاهرة كانوا يسلمون مبيعاتهم للمشترين فى أوان من الخزف بدون مقابل».

وازدهرت صناعة الخزف فى العصر القبطى وامتازت مصنوعات هذا العصر عن غيرها بخلوها من الدهان المعدنى الذى يجعل لها بريقًا ورونقًا خاصًا. وانتشرت صناعة الأطباق الفخار والقدور المعدة لحفظ السوائل لا سيما فى الأديرة القبطية. وكانت تزين هذه القدور والأطباق بأشكال الأسماك والأسد والطيور والنباتات وغيرها من الأشكال الرمزية. وكذلك كان يصنع من الفخار نوع خاص من المسارج المعدة للإضاءة، نقش على سطوحها نصوص قبطية بارزة، وعدد كبير من القوارير الصغيرة الجميلة الأشكال، والتى كانت تستخدم فى حفظ أنواع العطور والدهون والأطياب. وكذلك مجاميع الأنابيب الصغيرة المستديرة التى تعرف باسم قوارير القديس «مينا»، وقد حليت بصورة بارزة للقديس «مينا» (شهيد مصرى فى القرن الرابع الميلادى) تمثله وهو واقف بين جملين وحوله كتابة بالأحرف القبطية البارزة. ومما هو جدير بالذكر أن رهبان دير القديس «مينا» القائم حاليًا بمنطقة مريوط - غرب الإسكندرية - قد قاموا حديثًا بإعادة صناعة تلك القوارير الفخارية بنفس النقوش التى كانت عليها فى القرن الخامس الميلادى وبنفس الإتقان الذى كان لأجدادهم الأوائل، فأعادوا بذلك جزءًا من أمجاد ذلك العصر.

وكذلك استخدمت بعض قطع الفخار - وبالأخص فى الأديرة - فى تدوين نصوص قبطية من الكتاب المقدس. كما كانت - لكثرتها ورخص ثمنها - المادة التى يتعلمون عليها طريقة تحسين وإتقان الأحرف القبطية عند البدء فى تعلم الكتابة. وقد عثر فى الأديرة القديمة على عدة قطع من الفخار الذى استخدم لجميع الأغراض السابقة ويرجع تاريخها إلى ما بين القرن الخامس والثامن الميلادى.

الزجاج:

يذكر فلندرز بترى أنه كشف عن بعض قطع من الزجاج الشفاف فى إحدى مقابر هوارة بالفيوم يرجع تاريخها إلى القرن الرابع الميلادى، كما وجد أيضًا بعض عدسات كان القصد منها تكبير الأشياء. ويؤكد الفريد بتلر شهرة منطقة وادى النطرون وأديرته منذ العصر القبطى المبكر بهذه الصناعة وأنه كانت توجد فى هذه المنطقة عدة معامل لصناعة الزجاج، وهذه المعامل تعود إلى العصر الرومانى. وفى عام ١٧٣٠ زار مصر الرحالة جرانجيه وقد رأى ثلاثة معامل للزجاج مهجورة بجهة وادى النطرون، كما كانت الأديرة القبطية - حتى القرن التاسع عشر - ملأى بالزجاج المستخدم فى المصابيح الملونة المشغولة بالمينا. وفى منتصف القرن الثامن الميلادى بدأت الكنائس فى استعمال أوان للقيام بالطقوس الدينية من مادة الزجاج الدقيق بدلاً من الذهب أو الفضة.

صناعة المعادن:

نبغ الأقباط فى فن صياغة المعادن، وكان لديهم الكثير من الأوانى والأدوات المعدنية المصنوعة من الذهب أو الفضة أو النحاس أو البرونز وكذلك من الحلى وأدوات الزينة الثمينة الجميلة، وإن كان ما وصلنا منها الآن قليلا جدًا بالمقارنة مع ما كانوا يملكونه من قبل، وسبب ذلك يرجع إلى أنه كان من عادة القوم وقتئذ أن تصهر تلك الأوانى سواء أكانت ملكًا للأفراد أو للكنائس كلما تقادم العهد عليها لاستبدالها بأوان أخرى جديدة. ويحتفظ المتحف القبطى بالقاهرة بالعديد من معادن العصر القبطى، منها باب من خشب الدوم محاط بإطار من البرونز ومزين برسوم بارزة وصور ملائكة، وفى وسطه قرص عليه رسم بارز ودوائر داخلها صلبان برونزية الصنع ويعود تاريخه إلى القرن العاشر الميلادى وعثر عليه فى الفيوم. أيضًا يوجد تمثال رائع وفاخر لنسر من البرونز عظيم الصنع عثر عليه فى حفائر أحد أبراج حصن بابليون بمصر القديمة، ولروعته حاول فيكتور عمانوئيل ملك إيطاليا اقتنائه لكن الحكومة المصرية اعتذرت عن ذلك. أيضًا توجد مجموعة من الأطباق الفضية والنحاسية عليها رسوم أسماك يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر الميلادى.

صناعة العاج والعظم:

العاج والعظم من المواد التى توافرت فى مصر من أقدم العصور التاريخية وتؤخذ من سن الفيل وفرس النهر. ومن بين المصنوعات التى قامت على مادتى العاج والعظم، أدوات الزينة للمرأة كصناعة الخلاخيل والأمشاط ودبابيس الشعر ثم الصناديق الصغيرة لحفظ أدوات الزينة أو القلائد الثمينة وغيرها. وقد ظلت تلك الصناعة منتشرة فى مصر فى جميع عصورها، وفى العصر القبطى بلغت درجة مرموقة من الدقة والإتقان والبراعة، كما كثرت وتنوعت الأدوات المصنوعة من مادتى العاج والعظم، فقد استخدمت تلك المواد فى عمل لوحات للتصوير بعضها بارز ومنها ما هو غائر فى مناظر دينية رائعة بالإضافة إلى قطع أخرى صبغت على شكل طيور أو حيوانات أو أسماك بالإضافة إلى استخدامها فى تطعيم التوابيت الفاخرة وفى تطعيم أبواب الكنائس ومازالت الحواجز الخشبية (حامل الأيقونات) بكنائس مصر القديمة يشاهد معظمها مطعمًا تطعيمًا تعطينا مثالاً رائعًا لدقة وعظمة ما بلغه الصانع القبطى من براعة عجيبة فى فن التطعيم.

العمارة القبطية:

إن المسجد والكنيسة هما أهم مبنى فى المدينة وخاصة فى القرى المصرية. فقد ورثنا عن المصريين القدماء الاهتمام الكبير بمعتقداتنا الدينية وتغلغلها فى النفوس. وإذا كان الأقباط قد ورثوا عن المصريين القدماء اللغة القبطية، وهى آخر مراحل تطور اللغة المصرية القديمة وورثوا أيضًا بعضًا من الألحان من الموسيقى الفرعونية إلا أنه كان لهم طابعهم الخاص الجديد، وقد ظهر ذلك بوضوح فى العمارة. فنرى كنائس القرنين الخامس والسادس تشبه المعابد ذات الشكل المستطيلى الخارجي وزخارف فرعونية أضيفت إليها الرموز المسيحية إلا أن التصميم الداخلى يختلف تمامًا عن المعبد المصرى، بل ويقترب بالأكثر إلى البازيليكا. فبعد منشور التسامح الدينى الذى صدر عام ٣١٣م وجد المسيحيون أن أنسب مبنى ممكن أن يتحول إلى كنيسة هو البازيليكا الرومانية التى تتكون من صحن أوسط وجناحين وحنية Apse فى المقدمة للملك أو الرئيس. وقد كان للبازيليكا القبطية فى القرون من الخامس حتى الثامن الميلادى طابعها الخاص من دخولها داخل مستطيل ووجود جناح ثالث غربى ووجود حجرتين بجانب قدس الأقداس (الهيكل) نصف الدائرى، ووجود المدخل Narthex أو أكثر كما هو فى الدير الأبيض (نسبة إلى بنائه بالحجر الأبيض) والدير الأحمر (نسبة إلى بنائه بالحجر الأحمر) بسوهاج. وتطور شكل البازيليكا وظهر الخورس وهو قسم منفصل بين الهيكل والصحن كما فى كنائس أديرة وادى النطرون ثم تطور شكل الكنيسة فى القرنين ١٦ - ١٧م وامتدت من الشمال إلى الجنوب بدلاً من الشرق إلى الغرب. كما فى دير القديسة دميانة بالطربة المدفونة. وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد ظهرت الكنائس ذات الاثنتى عشرة قبة كما فى معظم كنائس الوجهين البحرى والقبلى التى بنيت فى هذا العصر. ومن العناصر المعمارية المهمة فى الكنيسة القبطية تيجان الأعمدة، فالعامود القبطى يتألف من ثلاثة أجزاء هى القاعدة والبدن والتاج، ويتميز ببساطة زخرفة بدنه وزخرفة تاجه بعناصر زخرفية مميزة، فبعضها يحمل زخارف نباتية وهندسية تشتمل على أوراق الإكانتس وعناقيد العنب وسعف النخيل وثمار الرمان، والزخارف الهندسية فأخذت أشكال السلال ذات الزخارف المجدولة والمفرغة فى بعض الأحيان. ومن الملاحظ أن شكل أوراق العنب فى الشرق قد طرأ عليه تغيير كبير حيث بسط الفنان القبطى فى شكل الورقة لدرجة أنها صارت فى بعض الأحيان رمزية. وتحولت إلى شكل هندسى متصل، وبذلك مهدت إلى زخارف الأرابسك التى تميز بها الفن الإسلامى.

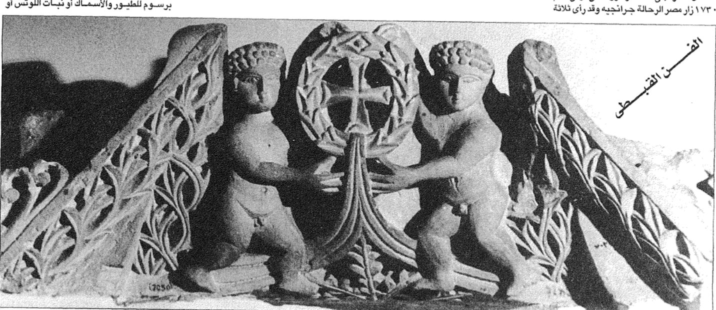


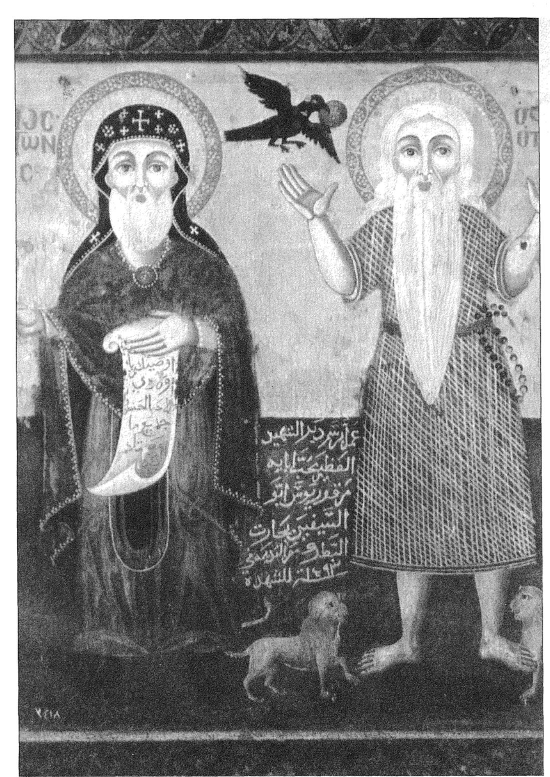
أما العمارة القبطية المستخدمة فى خدمة الحياة الدنيوية فهى تشمل العمارة السكنية والمنازل ومبانيها وزخرفتها وتخطيط المدن ومصانع الهدايا التذكارية. وقد استعان الفنان القبطى - فى زخرفة العمارة - بمناظر جنى وتجميع محصول العنب، نيل مصر الخالد وفيه تسير المراكب محملة بالأوانى الفخارية، غزلان، تماسيح وأسماك وأيضًا نبات اللوتس. ومن ثم كان من الطبيعى أن يستخدم المسلمون الصناع والعمال المهرة من الأقباط فى أعمال البناء والزخرفة فى العصر الأموى. وفى مصر نجد التأثير الفنى للأقباط على زخارف منازل الفسطاط وجامع عمرو بن العاص ومقياس النيل بالروضة.

المنسوجات القبطية:

تعتبر المنسوجات القبطية من أهم الفنون التى ظهر فيها تطور الفن القبطى. وكان الأقباط يتقنون هذه الصناعة إتقانًا كبيرًا ويصدرون منسوجاتهم إلى روما وبيزنطة فى فترة الحكم الرومانى. ووصلتنا نماذج من المنسوجات القبطية يرجع الفضل فى بقائها إلى جفاف التربة المصرية وإلى عادة الأقباط فى تكفين موتاهم بأجمل الملابس ودفنهم فى مقابر رملية فى الصحراء بعيدًا عن وادى النيل خوفًا من مياه الفيضان. وكان الصانع القبطى يزخرف النسيج برسوم للطيور والأسماك أو نبات اللوتس أو

قطعة من الحجر الجيرى يعود تاريخها إلى القرن الخامس وفى أعلاها نقش صليب داخل إكليل من الغار يحمله طفلان. وأهمية تلك القطعة أنها تمثل مزيجًا من العصرين الوثنى والمسيحى. ويعتقد أنها واردة من سوهاج.





رسم للقديسين الأنبا أنطونيوس والأنبا بولا يعود تاريخه إلى القرن ١٨. [المتحف القبطى بالقاهرة]

عناقيد العنب أو أشكال هندسية أو بصور أشخاص.

وقد ظلت شهرة المنسوجات القبطية حتى العصور الإسلامية وكان نسيج القباطى المعروف بالتابستري من أفخر أنواع النسيج، وقد اشتهر باسم «القباطى» نسبة إلى قبط مصر. وقد اهتم العالم الإسلامى بصناعات الأقباط فكان الخلفاء يختارون مصر لترسل الكسوة السنوية إلى الكعبة لما لمسوه من إتقان المصريين لصناعة النسيج.

أما عن الألوان المستخدمة فى مختلف مظاهر الفن القبطى فكان لها رموزها التى تخدم بدورها المضمون اللاهوتى. فاللون الأصفر يرمز للقداسة التى تنبعث من النور الإلهى ويستخدم عوضًا عن الذهب، واللون الأحمر بدرجاته يرمز إلى المجد والفداء، واللون الأبيض يرمز إلى الطهارة القلبية، واللون الأزرق يرمز إلى الأبدية التى لا نهاية لها، واللون الأسود يرمز إلى الوجود ويستخدم دائمًا فى تأكيد الأشكال وإبراز التصميم.

الموسيقى القبطية:

الموسيقى المصرية القديمة - بشهادة كل العلماء والموسيقيين - لا زالت ماثلة فى صورتين: إحداهما تتمثل فى حياة الناس العامة ولا سيما فلاحى مصر، ومصر العليا بصفة خاصة، ممن عاشوا حتى اليوم أبعد ما يكون عن المؤثرات الوافدة وبقيت لهم أغانيهم بترنيماتها على صورة لم تبعد كثيرًا عما كانت عليه فى الماضى البعيد. والأخرى تتمثل فيما لا يزال يتردد بين أرجاء الكنائس القبطية على ألسنة المرتلين والشعب يؤدونه كما وعوه ولقنوه، فمسيحيو مصر ورثوا عن آبائهم الفراعنة موسيقاهم، لم يصرفهم عنها خروجهم من معتقد ولم يمس المعتقد الجديد تلك الموسيقى القديمة فى صميمها وإنما مسها فى ظاهرها فلوّن منها شيئًا ولكنها لا تزال هى هى موسيقى فرعونية بلحمتها وسداها.

ويؤكد العلماء الموسيقيون مثل هكمان وفلز وجلسبى ودريتون وغيرهم أن هناك تشابها فى الأداء بين الغناء الشعبى الحديث والغناء القديم، بل يؤكد أن هناك تطابقًا فى الترتيل والتنغيم بين ما هو جارى على ألسنة المرتلين فى الكنائس القبطية والمغنين فى الريف وبين ما كان جاريًا على ألسنة آبائهم من قدماء المصريين.

تستخدم الكنيسة القبطية موسيقاها الصوتية - وليست الآلية - فى العبادة. وهذا تقليد مصرى قديم وتقليد عبادى قديم أيضًا. ففى الدولة الحديثة كان الاهتمام فى مصر القديمة ينصب على الصوت أصلاً، حيث إنهم يعتبرون صوت الإنسان موصلاً للروح من شخص إلى شخص، وانه أخلص وسيلة للتعبير. وهذه الطريقة الصوتية البحتة أتاحت لكل الشعوب الفرصة للعبادة دون أن تكون مقصورة على الموسيقيين فقط.

وقد ذكر فيلو السكندرى (القرن الأول الميلادى) أن جماعة المسيحيين الأولين أخذوا ألحانًا من مصر القديمة ووضعوا لها النصوص المسيحية. ومن بين هذه الألحان لحن «غولفوثا» أو «الجلجثة» أى الجمجمة الذى كان يستعمله قدماء المصريين أثناء عملية التحنيط وفى مناسبة الجنازات. ولحن «بيك أثرونس» أى عرشك أو كرسيك الذى يشتمل نصفه الأول على نغمات حزينة تردد لوفاة الفرعون ونصفه الآخر على نغمات مبهجة تردد لزفاف الفرعون المنتقل إلى مراكب الشمس لتصحبه إلى «رع» فى دنيا الخلود.

ويذكر عميد الأدب العربى د. طه حسين أن كل حرف يردد داخل جدران الكنيسة القبطية على مدى كل ساعات الليل والنهار له موسيقاه الملهمة، كما تنفرد الكنيسة القبطية عن كل كنائس العالم بهذا الكم الهائل من الألحان التى تمثل أعمق ما فى ذاكرة البشرية من موسيقى ملهمة تنتمى إلى عشرات الفصائل الموسيقية المختلفة والمتباينة فى تأثيراتها وقوتها، كما أن التأثيرات البديعة لنوع هذه الألحان لاسيما الألحان الجنائزية والتى يرجع تاريخ بعضها إلى العبادة الأوزيريسية (نسبة إلى أوزوريس).

وإذا كانت اللغة الإيطالية لغة المسرح والغناء، واللغة الفرنسية لغة الصالون، فإن اللغة القبطية لغة الصلاة. ميزة هذه اللغة - كما يذكر عميد الموسيقى القبطية د. راغب مفتاح - أن أغلب كلماتها تحتوى على حروف متحركة كثيرة تؤدى إلى سهولة اللفظ وجمال الترتيل والتسبيح. لهذا السبب تفقد أنغام هذه اللغة نحو ٧٠٪ من أصولها الموسيقية عندما تنقل إلى لغة أخرى.

من هنا فإن الموسيقى القبطية تعد أقدم تراث موسيقى فى العالم، وهى موسيقى شعبية وجذورها مصرية عريقة. لذا فإنه من واجب المصريين جميعًا الحفاظ على هذا التراث الفريد باعتباره أحد الفنون القومية المصرية الأصيلة.

يبدو مما تقدم عن الفن القبطى أن له طابعًا شعبيًا مصريًا دنيويًا إلى جانب الطابع الدينى ويتفق تمامًا وحياة الشعب المصرية القديمة والفن الشعبى الحديث. وأنه صورة من صور الفنون المصرية فى عصر من عصورها المتطورة وأن له طابعًا شعبيًا خاصًا من أصالة وعمق وروحانية.

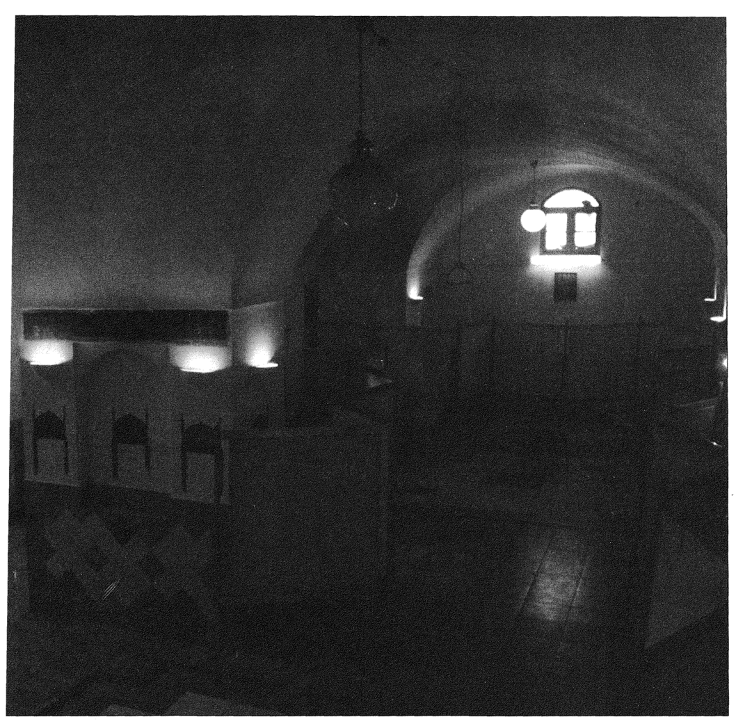
وقد أصبح للفن القبطى تأثيره المباشر فى حضارة أوروبا وفنونها فى عصر من عصور نهضتها وكذلك فى بعض البلاد الآسيوية والأفريقية. ■

مراجع:

١- يوساب السريانى (الأب): الفن القبطى - دير السريان ١٩٩٥.

٢- رءوف حبيب: الأخشاب القبطية القديمة وروعة نقوشها، مكتبة المحبة - القاهرة، ١٩٧٨.

٣- باهور لبيب: الفن القبطى - دار المعارف، ١٩٧٨.



«متحف النوبة»
مصر

عمارة المجتمع

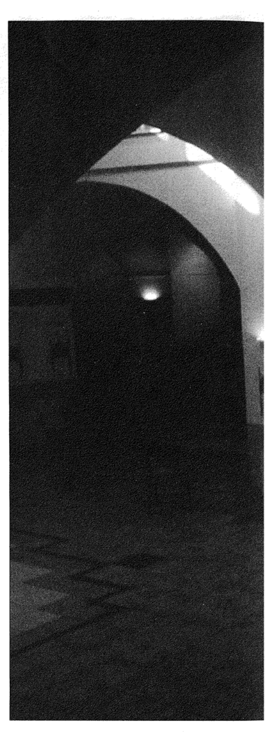
جائزة الأغاخان للعمارة ٢٠٠١

إسماعيل سراج الدين

يشهد العالم كل ثلاث سنوات مظاهرة ضخمة تنظمها جائزة الآغاخان للعمارة، لتعلن خلالها الفائزين بهذه الجائزة، والاحترام الذى اكتسبته هذه الجائزة منذ إعلان جوائز دورتها الأولى فى حدائق شاليمار فى باكستان عام ١٩٨٠، نتج عن الجدية الشديدة التى اتبعها القائمون عليها والتى انبثق عنها معايير جديدة لتقييم المنشآت المعمارية. وفى توقع البعض أن تكون الضخامة والفخامة، هى معايير الفوز الأساسية، ولكن منذ إعلان الفائزين بالدورة الأولى قلبت الجائزة كل المعايير بل أثارت فى بعض الأحيان الدهشة والحيرة والتساؤل لدى الجميع، إذ كرمت أعمال ذات طابع اجتماعى فى العشوائيات فى إندونيسيا وأبراج مياه فى الكويت وغير ذلك من الخيارات، التى أجبرت المعماريين فى العالم أجمع أن يفكروا تفكيراً عميقاً فى معنى الإنجاز المعمارى وعلاقة العمارة بالمجتمع.

أنشأ الجائزة الأمير كريم أغاخان عام ١٩٧٧ لتشجيع المفاهيم المعمارية التى تنجح فى مواجهة احتياجات المجتمعات الإسلامية وتطلعات هذه المجتمعات. وكشفت الجائزة خلال دوراتها الماضية نماذج متفردة فى مجالات التصميم المعاصر، والإسكان الاجتماعى، وتنمية المجتمعات المحلية، وترميم الآثار وإعادة توظيفها، إضافة إلى البيئة والحفاظ عليها.

طالعتنا الجائزة هذا العام باختيارات عشرة: تسعة مشروعات فائزة بالإضافة إلى جائزة الرئيس (التى لا تمنح إلا نادراً جداً) التى منحت للمعمارى السريلانكى جيفرى باوا لأعماله المتميزة عبر حياته كلها. ووجدنا هذه الأيام خيارات استمرارية فى اهتمامات الجائزة



«حياة جديدة لمبان قديمة»
إيران

والتراث والبيئة

ومحاور فكرها من الاهتمام بالنواحي الاجتماعية والتراثية والبيئة وإبراز كل منها من خلال تجارب معمارية متميزة.

المحور الاجتماعي:

لاشك أن العمارة ترتبط بالمجتمع، ولكننا نقصد هنا الاهتمام بمعالجة الفقر والحرمان في المقام الأول، والتأكيد على التفاعل الاجتماعي، مع احترام الثقافة والبيئة.

وكانت المشروعات الثلاثة الريفية التي كُرِّمت هي:

مدرسة كاهيري إيلا لتربية الدواجن بغينيا

لإدخال المزيد من البروتين في طعام الغينيين جاءت الفكرة لإقامة مدرسة لتعليم الفلاحين كيفية تربية الدواجن. وجاءت هذه المدرسة بالحل المعماري المتناهي البساطة، ولكنه الحل المعماري الذي يستجيب لحاجة المستفيدين من المبنى ويحدث وسائل البناء المحلية ويهذبها، ويفتح مجالات جديدة للفلاحين المجاورين لتحسين طريقتهم في البناء بالإضافة إلى الاستفادة المادية لهم ولجيرانهم من الاضطلاع بتربية الدواجن في غينيا. يعود الفضل في إنشاء هذه المدرسة إلى السيدة كيفكاس الفنلندية الجنسية التي تعاون معها غينيين، ونفذ المشروع في منطقة كنديا المعروفة بالمباني المستديرة ذات السقف المخروطي المغطى بالقش. بنيت المدرسة وفق هذا النمط، ولكن من ثلاث بنايات، فصل للدراسة وجناح للدارسين يسع ١٢ دارساً، وجناح للمعلمين. وتلتف هذه البنايات حول ساحة في وسطها شجرة. وقد طوّر كبير البنائين التقليديين في هذه المدرسة تقنيات جديدة في البناء. فبعد أن تدرب على تطوير البناء التقليدي الذي أدخل إليه المعماريين مواد جديدة تزيد من متانته وصلابته، بدأ هو نفسه في توظيف هذه التقنيات في صور مختلفة جديدة.

قرية آيت إكتل المغربية:

تعد هذه القرية نموذجاً للترابط بين المغتربين وسكان الوطن الأم. فقد كانت قرية آيت إكتل تعانى من ندرة المياه لعزلتها، فكانت النساء يقضين ساعات لجلب المياه فى عمل شاق ومعظم شباب القرية التى يبلغ تعدادها ألفى نسمة يهاجرون للخارج لإعالة أهل القرية ولتوفير سبل عيش آدمية لهم. وفى عام ١٩٩٢ أسس على أمهان وهو مهاجر من أبناء القرية رابطة ثقافية اجتماعية ضمت أبناء قبيلة غوجداما التى تكون معظم سكان القرية الذين هاجروا للرباط والدار البيضاء. وأطلق عليها رابطة آيت إكتل للتنمية عام ١٩٩٥. وفرت الرابطة المياه من خلال شبكة تضخ المياه إلى الصنابير التقليدية فى الشوارع، ومدرسة تسمح ساعات العمل فيها بمساعدة الأطفال لأسرهم فى الأشغال اليومية. ووفرت الرابطة الكهرباء للقرية.

المعماريون الحفاة بالهند:

فى ولاية راجستان فى الهند بدأت تجربة رائدة فى عام ١٩٧٢، تقوم على إحياء المعارف المخزونة على مدار الزمن لتنمية المجتمع، فأسست كلية «المعماريون الحفاة» فى تيلونيا وهى مجتمع ريفى فى راجستان. إن اللافت للنظر أن الكلية جذبت الحرفيين البنائين من خلال رؤية خاصة لشخص متميز اسمه بنكرووى الذى تبنى المشروع. والتجربة تقوم على أن المجتمع يستطيع أن يعتمد على نفسه لتطوير نفسه، وسرعان ما عمل معه المعلمين المحليين الذى وجدوا التقدير منه لمهاراتهم وكذلك مسئولى الرعاية الصحية ومهندسى الطاقة الشمسية وميكانيكى المضخات الآلية، وأدت هذه المشاركة بين تخصصات مختلفة إلى ظهور خطة إنمائية، وبرامج بحثية قام بها «المعماريون الحفاة» من أبناء المنطقة. وهو الاسم الذى أطلق على بناة مهرة ليست لديهم شهادات أو تعليم جامعى، ولكنهم قادرون حقاً على البناء وحل مشاكل المجتمع الذى يعيشون فيه. وهذه التسمية مأخوذة من اسم «الأطباء الحفاة» هم أيضاً أعضاء هيئة التدريس فى الكلية التى أنشأها بنكم روى، والتى بها برامج بحثية استحدثت تعديلات فى الأبنية التقليدية وأدخلت لها تقنيات حديثة وبسيطة يسهل تطبيقها مثل القباب الجيولوجية التى اخترعها بكمنتر فولر. ووفرت الكلية أكثر من مائتى مسكن فى القرى المجاورة لتيلونيا. وابتكرت نظاماً لحصد مياه الأمطار بدلاً من الاعتماد على المياه الجوفية فقط، واستطاعت زراعة مناطق جديدة، كل هذا أدى إلى انتشال سكان القرية ومحيطها العمرانى من الفقر المدقع إلى حياة آدمية إنسانية. ومن الجدير بالذكر أن الكلية دربت مئات من المعماريين الحفاة يعملون فى عشرات القرى براجستان. فباتت تجربة حقاً تستحق التكريم والدراسة.

ونجد أن الخيط المشترك بين هذه المشروعات الثلاثة هو أهمية المشاركة معاً، والاعتماد على الذات، واستعمال التقنيات المناسبة.

كما أن كلا منها يؤكد على بعد يختلف تماماً عن الآخرين. ومن ثم يستحق التكريم، فمشروع «آيت أكتل» أبرز علاقة المهاجرين بالباقين: وأهمية التواصل الاجتماعى للمهاجرين مع مناطقهم الريفية.

وأبرز مشروع (المعماريون الحفاة) علاقة المهنة المعمارية بالمجتمع الفقير حيث جاء التأكيد على توظيف خبرة المعماريين مع المجتمع، دون الاهتمام بشهادة المعمارى الجامعية، ولكن بالتركيز على مدى تمكنه من التعامل مع الواقع.

أما مشروع مدرسة الدواجن فى غينيا فرغم بساطة النموذج المعمارى المستعمل، نجد فى داخله فكراً تنموياً ارتقى بالمستوى التعليمى للفقراء، وربَّى فيهم حاسة الاعتماد على الذات اقتصاديا وأدى إلى تحسين وسائل البناء فى القرى المجاورة. ووجدنا أن نجاح المشروع اعتمد بالأساس على مشاركة المجتمع المحلى مع الوافد الأجنبى فى النشاط لإنجاح التجربة.

البُعد الاجتماعى للعمارة

قرية الأطفال:

فكرة مؤسسة قرى الأطفال المعمارية SOS الاهتمام بالأيتام، والأطفال المهجورين وتقوم مشاريعها على تكوين منازل تؤوى من ٨ إلى ٩ أيتام ترعاهم موظفة حنونة، وتكون هذه المساكن نسيج القرية وتترابط وتتكامل قرية الأطفال ككل مع المدينة المحيطة بها، وتلتف المدينة ومجتمعها حول القرية، مما أدى إلى أن الأطفال عندما يكبرون يدخلون دون صعوبات فى نسيج المجتمع وسوق العمل.

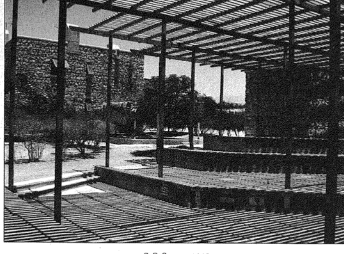
مركز أولبيا الاجتماعى

(إنطاليا، تركيا):

تفرد هذا المشروع بحل ثلاث مشكلات بتدخل معمارى فى مجمله بسيط ولكنه ناجح، وهذه المشكلات هى:

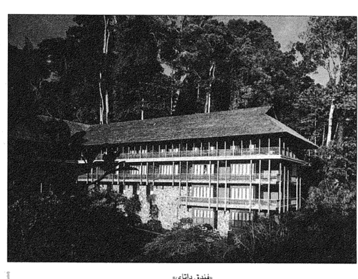
الربط بين المبانى المترامية بالجامعة، إيجاد بؤرة أو أكثر للتفاعل الاجتماعى، وإدخال عنصر إنسانى بيئى رقيق فى وسط سادته الأبنية المتعامدة.

أرادت جامعة البحر الأبيض بإنطاليا بناء مركز للنشاط الاجتماعى بالجامعة واهتم المعمارى ألا يكون الحل عبارة عن مبنى مستقل يضاف إلى المبانى المنفصلة الأخرى الموجودة، فالمفروض أن الحياة الاجتماعية بالمجتمع الجامعى جزء من العملية التربوية وليست منفصلة عنها. وجاء التصور ببناء شريط خطى يربط بين المبانى المختلفة

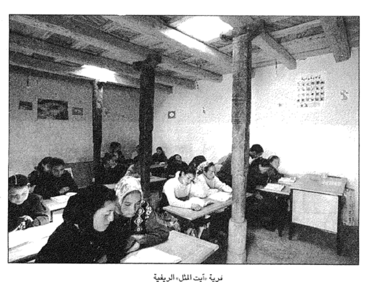




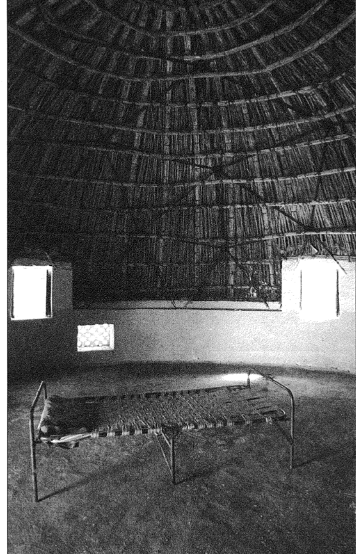
قرية الأطفال.. S.O.S.
الأردن



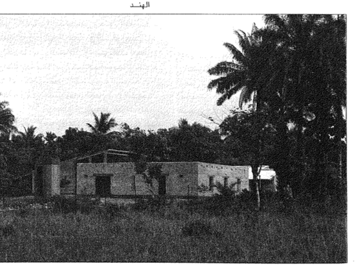
«فندق داتاى»
ماليزيا



قرية «آيت المثل» الريفية
المغرب



«كلية الحفاة»
الهنـد



«مزرعة النجاح»
غينيـا

ويتكون الشريط من ممر للمشاه مغطى ببرجولا، ويجاوره الماء، ثم يتسع فى مكانين لتكوين ميادين صغيرة تتواجد فيها حوانيت ومقاه وأماكن لأندية الطلاب، بالإضافة إلى الانفتاح على مدرج كبير (١٢٠٠ شخص) تستغله الجامعة والطلاب وأهل المدينة المحيطة بها.

وكان لهذا الكسر وتعامد توزيع المبانى والمشايات وربطها مع المركز الاجتماعى تأثير كبير على زيادة التفاعل بين الطلبة، وبينهم الأساتذة وفتح الباب للتفاعل بين الجامعة وبين المجتمع المحيط بها.

إن أروع ما فى هذا التصميم هو وجود بعد مريح للنفس الإنسانى، وهو قناة ماء تقسم الممر الرئيسى للمركز الاجتماعى تتدفق عبر شلالات صغيرة من أعلى نقطة فى الموقع مما يرطب المساحات المحيطة. وحرص المعمارى جنكيز بكتاش على تزويد المساحات الشمالية للمركز ببركة كبيرة للمياه الساكنة يحيط بها مجمع المحاضرات ومطعم. ومن الناحية الجنوبية المقابلة تجويف صغير يضم درجات للجلوس وفى وسطه نافورة مياه يطل عليها برج ساعة.

الحفاظ على التراث:

كان الحفاظ على التراث دائماً محورا من المحاور الأساسية لفكرة جائزة الآغاخان للعمارة، وجاءت قرارات لجنة التحكيم فى ٢٠٠١ مؤكدة لهذا المحور باختيار مشروعين يمثلان طريقتين متكاملتين للتعامل مع التراث والحفاظ عليه: مشروع إيرانى لإحياء المبانى القديمة فى المدن التاريخية، ومشروع متحف النوبة بمصر، الذى يتعامل مع التراث من المنهج المتحفى.

إحياء المبانى القديمة بالمدن الإيرانية:

المدينة مثل الكائن الحى، يجب أن تتجدد خلاياها، وحاجاتنا لاستعمال المكان تتغير عبر الزمان، وكثيراً ما نجهز على المبانى القديمة ونزيلها راغبين فى إفساح المجال لاستعمالات جديدة للأرض، ولكن كثيراً ما نجد أن هناك من بين هذه المبانى القديمة عددًا يستحق الحفاظ عليه لما له من قيمة جمالية أو تاريخية.. والحل فى هذه الحالة هو إعادة استخدام المبنى بما يتناسب واحتياجات الحاضر.. وهذا يحتاج لترميم المبنى واستعماله استعمالاً يتناسب مع المبنى كأثر ومع حاجات المجتمع. طبقت هذه التجربة فى مدن أصفهان ويزد وتبريز وزنجان. والجديد فى المشروع الإيرانى هو المدخل المؤسسى، الذى جعل شراكة (٥١٪ منها للقطاع الخاص) تركز على مبانٍ أساسية فى حى بذاته وتتولى العمل مع مشاركة المجتمع المحيط بالمبنى. وجاءت النتائج مبشرة بنجاح كبير يستحق الدراسة والاستفادة من هذه التجربة.

متحف النوبة:

نظمت اليونسكو حملة دولية عام ١٩٦٠ لإنقاذ آثار النوبة، شارك فيها المجتمع الدولى من خلال أربعين بعثة أثرية وتم إنقاذ ٢٢ أثرا من الغرق فى بحيرة السد العالى التى اكتملت مع مشروع السد العالى عام ١٩٧١، ولعرض مكتشفات هذه البعثات تبنت مصر برعاية من اليونسكو إنشاء متحف النوبة وتراثها، والذى افتتح فى ١٩٩٧، ومعروضات المتحف تبرز ثقافة النوبة منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى العصر الحديث. الجديد فى المتحف أنه متحف للمجتمع المحلى قبل أن يكون رمزاً سياحيًا، فهو يضم قسماً تعليمياً، هو الأول من نوعه فى مصر، ينظم رحلات ومحاضرات وحلقات تعليمية لأطفال المدارس.

وموقع المتحف على مرتفع صخرى فى أسوان احترمه المعمارى واستغله فى تقديم صورة واقعية للبيئة والعمران النوبى من خلال تصميم المتحف وبنائه من مواد محلية. كما كان لتنسيق الموقع موضع مميز فى رأى الجائزة.

التعامل مع البيئة:

كانت قضية البيئة دائماً من المحاور الكبرى لتفكير جائزة الأغاخان فى عمارة المجتمعات الإسلامية. ونجد البيئة دائماً حاضرة فى الحلول التى طرحتها المشروعات الفائزة بصورة أو بأخرى.

وجاءت هذه المجموعة من الجوائز مؤكدة لهذا التيار، من استعمال الطاقة الشمسية فى المشروعات الريفية إلى تداخل العناصر الطبيعية فى المعمار كما رأينا فى متحف النوبة أو قرية الأطفال. ولكن هناك مشروعين اختيرا خصيصاً للبعد البيئى فيهما، أولهما فندق «داتاى» بماليزيا وهو محاولة ناجحة لاحترام البيئة المجاورة قدر الإمكان. وثانيهما حديقة «باغ فردوسى» بطهران.

فندق داتاى (ماليزيا):

يقال إن الغابات الاستوائية من أجمل ما فى العالم، وهى من نماذج الطبيعة الخلابة، ومن ثم فإن بناء فندق سياحى حديث وكبير فى الغابة الاستوائية يحتاج إلى حس مرهف حتى لا يتأثر النظام الإيكولوجى.

ويمثل فندق «داتاى» حلاً رائعاً لتكامل حاجات السياحة وحاجات البيئة. لقد كان قرارا جريئاً من المعمارى الاسترالى «كيرى هيل» أن يبنى فندقاً فى أخدود على شكل وحدات معمارية قائمة بذاتها محاولاً استغلال الأشجار كدعامات للمبانى، ودون أن يمس أى عنصر من عناصر الغابة. وربط وحداته بممرات واحترم التقاليد المحلية فى بناء الفندق، كما تخلل البناء تقنيات حديثة ومتقدمة لزيادة متانة البناء ولتوفير الخدمات للنزلاء أدى إلى لغة معمارية بليغة. ومن اللافت للنظر الآن أن الفندق أصبح جزءاً من مكونات الغابة فالألوان

حديقة «باغى فردوسى»
إيران

العتيقة بدأت تظهر على الأجزاء المعدنية والخشبية كما أن النباتات المتسلقة تنمو على أساسات الفندق الحجرية.

حديقة «باغ فردوسى» (طهران، إيران):

هذه الحديقة المسماة على شرف الشاعر الكبير (الفردوسى) على سفح الجبل المحيط بطهران، كبيرة جداً (٣٠ هكتارا) وهى ترتفع إلى ٣٠ متراً، مما جعل وجود العديد من السلالم وأماكن الراحة، واستخدامات المياه والفسقيات، والتماثيل والتكوينات الحجرية والنباتية بها أمراً طبيعياً. ويعبر ذلك عن تفاعل كبير بين المعمارى والبيئة، الذى احترم أنواع النباتات المحلية، وقد اختار منها أنواعاً تستطيع أن تتحمل فترات القحط مما أضفى الجمال على هذا المكان الذى تبناه أهل طهران. ونجد فى الحديقة طرزا تمثل ثقافات المجموعات السكانية فى إيران مثل الأذربيجانية والكردية والتركمانية والزاغروس مما يعكس اندماجها فى المجتمع.

جائزة الرئيس: المهندس «جيفرى باوا»

جاءت جائزة الرئيس تتويجاً للجوائز الأخرى وتأكيدا للاتجاه البيئى فى العمارة، وجائزة الرئيس تختلف عن باقى الجوائز إذ إنها لشخص تكريماً لجل عمله عبر مشوار الحياة وليست لمشروع بعينه، وهى لا تعطى فى كل دورة بل إنها حجبت فى أغلب الدورات.

وكان أول فائز بجائزة الرئيس المهندس المصرى حسن فتحى سنة ١٩٨٠ فى الدورة الأولى، وكان ذلك أول التكريمات الدولية الكبيرة التى منحت له، وكان الفائز الثانى المهندس العراقى «رفعة الجادرجى» سنة ١٩٨٦. والآن الفائز الثالث «جيفرى باوا».

وباوا مهندس معمارى رهيف الحس، من أسرة ماليزية مسلمة، انتقلت الأسرة إلى جزيرة سيلان (سرى لانكا حالياً) حيث ولد عام ١٩١٩ وبدأ محامياً، ولكنه اتجه للعمارة على كبر، وتخرج فى لندن وبدأ ممارسة العمارة فى سرى لانكا وعمره ٣٨ سنة.

وأعمال باوا تعتبر أعظم تعبير للعمارة البيئية، وتأثيره امتد إلى كل جنوب آسيا، وقد بيَّن فى إنجازاته تداخل الطبيعة والعمارة، ويعتبر منزله فى كولومبو ومزرعته على بعد ٥٠ كيلومترا منها، معلَمين طوَّر كل منهما باستمرار على مدى ٤٠ سنة، الأول كمسكن والثانى كحديقة.

وكما قال الأمير كريم أغاخان فى ختام كلمته الختامية بعد الندوة العلمية التى نوقشت فيها المشروعات الفائزة:

«إن القضية هى قضية التميز: الامتياز فى الفكرة وفى التصميم وفى الربط بين المجتمع والعمارة ومراعاة البُعد البيئى والموروث الحضارى».

هكذا انتهت دورة أخرى من دورات جائزة الأغاخان للعمارة، وهى مثل الدورات التى سبقتها تأتى ببعض ما نقتنع به فوراً وبعض ما نختلف فيه ويصبح مثاراً للتساؤلات والاندهاش أحياناً. ولكن تبقى الجائزة مثار اهتمام الجميع لكونها قد قلبت كل الموازين. وتأتى دائماً فى جزء من المشروعات المختارة بعكس المتوقع من قبل الكثيرين، وهو ما يدعونا إلى إعادة تأسيس مدرسة معمارية معاصرة جديدة، وتنمية حاسة النقد المعمارى لدى المعماريين الشبان، وتنمية الفكر النقدى فى العمارة فى بلادنا. ■

الجـــــزائر ســــنوات التســــعينيات

الحرب غير المرئية

محـمـد الميـلي

القول التالى ينطبق على ما يجرى فى الجزائر حاليًا، يجب أن يعرف الإنسان كيف يحدث التغيير من أجل أن يبقى كل شىء على حاله.

فقد دخلت الجزائر منذ ١٩٩١ فى دوامة عنف دموى، استمرت سنوات عديدة. وقد اتخذت وقائع تلك الدوامة طابعاً وحشيًا جعلها تبدو فى نظر كثيرين غير مفهومة. وقد كانت موضوع دراسات عديدة تجاوز عددها المائة كتاب فى السنوات الأخيرة.

ولاشك أن القارئ العربى فى حاجة لأن يتعرف على بعض هذه الكتب ولو من خلال عرض موجز أو تعريف مسهب.

وقد ترددت كثيراً فى أى الكتب أختار لـ«وجهات نظر» واستقر الرأى أخيراً على واحد منها جذبنى عنوانه وهو «الحرب غير المرئية.. الجزائر فى سنوات التسعينيات».

مؤلفه هو «بنيامين ستورا» وهو مؤرخ معروف تخصص فى دراسة الحركات الوطنية بالمغرب العربى وفى الجزائر خاصة. وكنت قد حضرت بعض محاضراته بباريس عندما كنت سفيراً لدى اليونسكو، منتصف الثمانينيات. وقد صدرت له عدة كتب مثل «مجندو حرب الجزائر»، «مخيالات حرب: فيتنام ـ الجزائر»، «الغانغرينا والنسيان»، «الجزائر: تكوين أمة»، «مصالى الحاج»، «الأبواب المائة للمغرب العربى» و«تحويل ذاكرة» بالإضافة إلى كتاب عن «فرحات عباس» وضعه بالاشتراك مع زكية داود.

يمثل بنيامين ستورا جيلاً جديداً من الكتّاب الفرنسيين الذين ولدوا بالجزائر. ولأنه من يهود الجزائر فهو ينتمى إلى جالية جزائرية هاجرت أصولها إلى شمال افريقيا منذ العصور القديمة أى قبل الفتح الإسلامى.

La Guerre invisible:
Algerie Annees 90

(الحرب غير المرئية.. الجزائر فى سنوات التسعينيات)

Benjamin Stora

Presses de Sciences Po. Mars 2001.
120pp.

يضاف لذلك أن أسرته كانت تقيم بمدينة «خنشلة» فى قلب الأوراس، قبل أن تتحول إلى مدينة قسنطينة حيث ولد مؤلفنا عام ١٩٥٠. ولاشك أن أسرته ـ مثل يهود المدن الداخلية ـ كانت ترتدى اللباس التقليدى الجزائرى، رجالاً ونساء، بالإضافة إلى إتقانها للعربية الدارجة التى كانت هى لغة التخاطب مع المسلمين، زيادة عن العبرية طبعاً. لم يتغير هذا الوضع إلا بعد العشرينيات عندما ظهر جيل مفرنس اللباس، نتيجة الاحتكاك بالأوروبيين، والتردد على الجامعات الفرنسية.

ورغم أن اليهود كانوا يتمتعون بالجنسية الفرنسية منذ عام ١٨٧١، فقد كانوا يعانون من المعاملة العنصرية للأوروبيين. كان هناك مثل فرنسى يقول: «الفرنسى يبصق على الإسبانى الذى يبصق على الإيطالى الذى يبصق على المالطى الذى يبصق على اليهودى الذى يبصق على العربى الذى يبصق على الزنجى». فكان هناك سلم للقيم يحدد وضع كل جنس اجتماعيًا.



وقد عانى يهود الجزائر كثيراً من التمييز، خاصة فى عهد حكومة فيشى. لكن تصرف الجزائريين المسلمين معهم أثناء ذلك كان يختلف: فقد حموهم بعد تطبيق القرارات النازية عليهم، وآووا يهود تونس الذين التجأوا إلى الجزائر هرباً من الاحتلال الألمانى.

وعلى الرغم من الحزازات التاريخية التى كانت موجودة بين المسلمين واليهود، منذ حادثة تسميم النبى (صلى الله عليه وسلم)، والتى كانت تتسبب من حين لآخر فى أحداث دامية. فقد حدث فى ٥ (أوت) أغسطس ١٩٣٤ أن دنس يهودى «الجامع الأخضر» الذى كان يدرس به الشيخ عبدالحميد بن باديس. هاج سكان الحى فقتلوا عدداً من اليهود بالسلاح الأبيض، فلم تكن لديهم أسلحة نارية. ورد اليهود الفعل بإطلاق النار على المسلمين. وقد صار يوم ٥ (أوت) أغسطس مثلاً يضربه الناس كناية عن التنكيل الشديد، فإذا بالغ رجل فى تهديد خصمه يقول له: «سوف أعمل فيك سانكسوت» أى ٥ (أوت) أغسطس.

حفل الشيخ ريمون

لكن الخصومات بين المسلمين واليهود لم تكن تستمر، كما لم تستمر الخصومات بين الأعراق الجزائرية بعضها ضد بعض. وهذا ما يفسر كون المسلمين أعطوا اليهود حماية، زمن فيشى، ولم يستغلوا قوانين فيشى ضدهم. وقد سجل اليهود هذا الدور للمسلمين واعترفوا به، وهذا ما يفسر كون بعض اليهود، التحقوا بجبهة التحرير الوطنى فى حرب التحرير، وإن كان عدد هؤلاء لا يتناسب مع أهمية الأقلية اليهودية فى الجزائر.

وعلى ذكر قسنطينة ويهودها يمكن التذكير بالضجة الكبيرة التى أثيرت بالجزائر منذ نحو سنتين، عندما انتشر خبر حفل غنائى يقيمه بمدينة قسنطينة المغنى الشهير «أنريكو ماسياس».

ومن أسباب الضجة أن هناك من سكان قسنطينة من كان يؤكد أن هذا الأخير أطلق الرصاص على جزائريين انتقاماً لمقتل خاله المغنى الشهير «الشيخ ريمون» الذى أطلق عليه فدائى النار.

أثناء الإعداد لتلك الحفل، خصصت قناة «فرنسا ٢» برنامجاً تليفزيونيًا مطولاً للحديث عن «الشيخ ريمون»، شارك فيها بعض الجزائريين من عشاق فنه، كما شارك فيها بناته، وهنريكو ما سياس الذى كان قد تزوج إحداهن. وقد اقترح أحد الجزائريين المساهمين فى البرنامج أن يقام الحفل الغنائى فى ساحة شعبية بأحد أحياء المدينة القديمة، هو الحى الذى قتل فيه الشيخ ريمون.. وذهبت بعض أفراد أسرته إلى المطالبة بمعاقبة الفدائى الذى أطلق الرصاص على الشيخ ريمون.

وقد اتخذت ردود الفعل ضد مشروع الحفل أشكالاً مختلفة، وعارض فيها عدد من الشخصيات السياسية حتى اضطرت السلطات إلى إلغائها.

لم يكن كتاب «الحرب غير المرئية» هو أحسن الكتب التى صدرت عن حرب الجزائر فى السنوات الأخيرة، بل لم يكن أحسن ما كتبه مؤلفه لماذا اخترته إذن؟ وجوابى أنه تناول جانباً لم يتعرض له غيره. جانب يسهب فى تفصيل فكرة الغموض التى أحاطت بهذه الحرب، والتى يلخصها شعار، نسيت قائله، وهى: «نخشى أن تكون رؤيتنا واضحة، كما نخشى أن يرانا الناس بوضوح».

فقد حاول «ستورا» أن يقدم تصوراً لهذه الحرب، ليس من زاوية السرد التاريخى وما يتطلبه من توثيق وتسجيل للوقائع، وليس من زاوية الأحكام القيمية وما تستند عليه من حشد للحجج واستعراض للمواقف، ولكن لأنه زاوج بين التاريخ والذاكرة من جهة، وبين تَغْيِيب التاريخ وما ينجم عنه من محو للذاكرة الجماعية من جهة أخرى.

فهو يلاحظ ابتداء من المقدمة أن السلطات الجزائرية إذ حرَّمت على وسائل الإعلام نقل ما يدور فى البلد من وقائع، جعلت الوطن الجزائرى يظهر على الخريطة «بقعة سوداء» يلفها الظلام، بعد أن كانت تضئ خضراء شمالاً وصفراء جنوباً، مشعة فى كل أحوالها. وهذا فى الوقت الذى أصبحت فيه صور التليفزيون هى التى ترصد الحياة، وتسجل التاريخ، وتشد الجماهير. ولكى يقرب لنا ما يريد أن يقوله من خلال ذلك العنوان، يستشهد بما كتبه Philippe Sollers الكاتب والمفكر المعروف، فقد كتب هذا الأخير مقدمة لكتاب نشرته منظمة العفو الدولية عند المفقودين عام ١٩٩٤ جاء فيها:

«كل حادث لا تستطيع أن يبرزه التليفزيون



**كان هناك مثل فرنسى يقول:
«الفرنسى يبصق على الإسبانى الذى يبصق
على الإيطالى الذى يبصق على المالطى الذى يبصق على اليهودى الذى يبصق
على العربى الذى يبصق على الزنجى». فكان هناك
سلم للقيم يحدد وضع كل جنس اجتماعيا**

حال وقوعه، يصبح مشكوكاً فى مصداقيته. إن الرأى الآن هى الشاشة.. إذا لم يكن الحدث موضوع نشر مصور فذلك يعنى أن كل شىء محتمل».

ويعلق «ستورا» على ذلك قائلاً: «هل يمكن أن توجد حرب إذا لم يشاهدها المرء على الشاشة»؟ ثم يقول: «عندما يغيب تنوع الواقع يصبح من الصعب أن نقتسم التجربة الحسية لهذه الحرب. وبما أن الحدث يفتقر إلى فضاءات يظهر من خلالها. فهو يخرج بسهولة عند دائرة السرد. إن كل فرد فى هذه الحرب الأهلية يوجد على مقربة من «جبهة القتال» بحيث يشعر أنه دوماً فى خطر؛ فيكون من العبث ألا نشاهد فيها المحاربين الذين يشكلون أطراف النزاع».

حرب التسمية

أول ما يصدم الإنسان الذى يحاول أن يفهم ما يجرى بالجزائر منذ سنوات عشر، مشكل يتصل باللغة، بالكلمات، بالتسمية: «ما نوع النزاع الذى يعانى منه هذا البلد؟» يتساءل المؤلف، ثم يضيف: «إن التردد فى وصف النزاع والاختلاف حول الكلمة أو الوصف الذى توصف به الحرب، يترجم مدى الحيرة أمام الواقع. إن مختلف التسميات التى يسمى بها النزاع لا تساعد أبداً على توضيحه، بل هى على العكس تزيد فى تكثيف العتمة حول النزاعات التى مزقت الجزائر» وبعد أن يتساءل: هل الجزائر فى حالة حرب فعلاً؟ يقول: «ما هو مستوى عدد القتلى فى المعسكرات المتنازعة الذى يسمح للمعركة ضد الإرهاب ألا تنعت بأنها حرب؟».

إن اغتيال عدد معتبر من المسئولين ومقتل أكثر من مائة ألف وهو العدد الذى أعلن رسميًا، يجعل من الصعب عدم التفوه بكلمة «حرب» لوصف ما حدث فى الجزائر.

وحتى بعد التسليم بأنها حرب، فأى صنف من الحروب هى؟ هل هى حرب تقليدية بين جيش نظامى مخلص للنظام أو جيش من الثوار معتصمين بالجبال ومنظمين تنظيماً محكماً؟ كلا.. فالجيش الإسلامى للإنقاذ وهو القوة الوحيدة المنظمة فعلاً، لم يستطع أن يبلغ مستوى من التنظيم العسكرى مهيكل بحيث يغطى كامل التراب الجزائرى، أمّا منافسوه من الإسلاميين الذين يطلق عليهم «الجماعات الإسلامية المسلحة» فهم عبارة عن عناصر متفرقة، غير موحدة إيديولوجيًا ومشتتة جغرافيًا، وغامضة تنظيميًا. فهى جماعات مستقل بعضها عن بعض، لم تنجح فى أن توحّد صفوفها تحت قيادة موحدة، وظلت أسيرة منطق عنف داخلى ما فتئ يتضاعف بعيداً عن أية اعتبارات سياسية. وهذا الوضع الذى اتسمت به جعل من السهل اختراقها وتوظيفها: فهناك عمليات ثأر بين أفراد أو أسر أو عشائر لتصفية حسابات خاصة تتخذ طابع انتقام سياسى.. وهناك إعدامات تمارسها فرق دولة تختفى وراء قناع مكافحة الإرهاب. هل هى حرب عصابات؟ لا يذكر الناس أية معركة حاسمة حدثت فى تاريخ محدد، ولا تسجل ذاكرتهم أى مكان تواجه فيه المعسكرات فى قتال مكشوف.

هل يمكن أن نتحدث عن مجرد سباق دموى بين كتل مختلفة تتصارع من أجل الحكم والانفراد بتسيير شؤون الدولة؟ إن الثروات الضخمة التى توفرها حقول الغاز والبترول لا تفسر وحدها مستوى الوحشية الذى بلغه النزاع بحيث تضررت منه كل شرائح المجتمع. هل هى حرب «حضارة»؟ حرب بين أنصار الحداثة الجمهورية ودعاة التعصب الدينى؟ بين غياهب الظلامية وأنوار العقلانية؟ يجب التنصيص على أن الحرب هنا ليست دينية، لأن ٩٨٪ من الجزائريين مسلمون».

ثم يقول إن هذه الحرب الدموية قد مزقت الحجاب عن عدد من الحقائق يتوالى بعضها وراء بعض: فوراء مشاريع مجتمعية دينية أو دنيوية يوجد صراع رجال وكتل؛ والمعارك من أجل السلطة تخفى وهانات اقتصادية وإرادات الشركات البترولية الكبرى؛ وخلف عنف وحشى وغير مفهوم يكمن تاريخ طويل من تقاليد العنف الذى عمل عمله فى مجتمع تعرض للاستعمار دهراً، ويسعى - أى المجتمع - لبناء الأمة الجزائرية منفصلة عن فرنسا.

إن ثنايا الحرب بين العسكريين والإسلاميين تخفى حروباً أخرى حاسمة وغامضة فى الوقت نفسه.. إنها لغز له زنادان. إنها حروب يختفى بعضها داخل بعض، مثل الدمى الروسية، أو الطاولات التى يخفى بعضها بعضاً حسب أحجامها المختلفة، حروب تمر بدهاليز مظلمة، تشتمل على مخابئ مزدوجة ومطبات عديدة.

هل هى حرب أهلية؟ إن النظام الجزائرى وحلفاءه، وأحزاب المعارضة التى ترفض التفاوض مع الإسلاميين تحفظوا طويلاً على التسليم بهذا الوصف. فى الوقت الذى لم تتردد بعض أحزاب المعارضة التى تدعو إلى التفاوض مع التيار الإسلامى فى إقرار هذه التسمية.

إن حرب التسمية هذه تكشف عن المصاعب التى يصطدم بها من يحاول الإحاطة بجذورها ومعرفة طبيعتها وأهدافها. إن الطابع اللامرئى لهذه الحرب يرجع أيضاً إلى هذا الاضطراب فى إعطائها اسماً محدداً.

بيتروديمقراطية الشعبية

لكن كيف بدأت هذه الحرب، ومتى انطلقت؟ إن بدايات الانطلاقة العبثية لهذه الحرب وسط حياة سياسية مبنية على مرجعيات عادية، يصعب تحديدها. لقد جاءت هذه الحرب دون أن تعلن عن نفسها، عبر خطوات ومراحل يكتنفها الغموض؛ انطلقت بصورة غير ملموسة. وتدرجت حتى بلغت ذروتها فى ١٩٩٣ و ١٩٩٤.

ولا يستبعد بنيامين ستورا أن تكون البداية هى قلاقل أكتوبر ١٩٨٨، لأنها تمثل انهيار الحزب الواحد جبهة التحرير الوطنى.

ثم يشير إلى الأحداث الخطيرة التى شهدتها سنوات ١٩٨٩ و١٩٩٠ و١٩٩١.. يقول عنها: إن الإسلاميين هم الذين تسببوا فيها.

وقد يكون من المناسب أن نُذكّر بأهم التطورات التى عرفتها الجزائر خلال تلك السنوات والتى لم يتعرض لها المؤلف، حتى نتصور ماذا يعنى بالغموض الذى يكتنف بدايات الحرب.

كانت قلاقل أكتوبر ١٩٨٨ هى السبب فى إحداث شرخ كبير تفاقمت معه الهوة التى تفصل بين النظام والشعب. فقد انهارت السياسة الوفاقية التى كانت قائمة على الريع البترولى. والواقع أن نذر هذا الشرخ بدأت قبل ذلك بسنتين؛ عبرت عنها أحداث مدينة قسنطينة فى ١٩٨٦ بصورة صارخة: فقد انطلقت حركة احتجاجية من الجامعة، ما لبثت الجماهير أن احتضنتها فسيطر الجمهور على الشوارع، واختفت قوى الأمن عن الأنظار، وراح بعض الشباب يفرضون على أصحاب السيارات أن يدفعوا إتاوة إذا أرادوا مواصلة الطريق. وفى نفس الفترة تقريباً انطلقت حركة احتجاجية بالعاصمة ضد قرار هدم المنازل التى بنيت بصورة غير شرعية.

«ولو أن النظام كان يتقن قراءة الواقع ويحسن تأويل بعض الإشارات التى بدأت قبل ١٩٨٦، لكان من الممكن أن يتجنب الانفجار، إن هو وظف، فى الإبان، عوائد البترول قبل انحسار أسعاره، فى معالجة الأوضاع المتردية التى كان يعانيها الشعب ولم يكن يشعر بها المسئولون».

ذلك ما كان يقوله بعض أركان الجناح اليسارى فى جبهة التحرير، بعد أن أبعدوا عن السلطة. وبعبارة أخرى إن بدايات الأزمة ترجع إلى بداية الثمانينيات، وإن كانت بعض عواملها ترجع إلى منتصف السبعينيات. لكن ارتفاع سعر البترول - والغاز الذى ربط به - سمح للنظام بأن يشترى «السلم الاجتماعى». فقد بلغ سعر البترول أربعين دولارًا. وقد وظفت الحكومة مبالغ كبيرة من تلك العائدات عام ١٩٨١، لتأمين المواد الاستهلاكية على نطاق واسع؛ وبذلك أعطت انطباعًا مزيفًا، بوجود رفاهية ينعم الشعب فى بحبوحتها. وهذا ما جعل أحد الخبراء المهتمين بالشأن الجزائرى وهو المستعرب جيل





كيبيل (Jilles Kepel) يصف النظام الجزائري بأنه «بتروديمقراطية شعبية».

إلا أن الانخفاض الحاد في سعر البترول وجه ضربة قاضية لميكانيزم الربط بين سلبية الجماهير والسعر المرتفع للبترول، فقد قيل عن مظاهرات أكتوبر ١٩٨٨ إنها كانت مبرمجة من طرف النظام كي يتخلص من الجناح الذي كان يعتبره مسؤولاً عن عرقلة ما كان يريده من انفتاح اقتصادي وسياسي.



ويرجح بعض المحللين هذا الاحتمال مستشهدين بالخطاب الذي كان ألقاه الرئيس الشاذلي بن جديد، قبل اندلاع الأحداث أعلن فيه عزمه على وضع حد للحرب بين الكتل في قمة السلطة. ودون أن يذكر بالاسم زعماء الكتل المعنية فإنه ندد بسلوك وممارسات بعض المسؤولين في حزب جبهة التحرير الوطني «الذين أثبتوا عجزهم عن التكيف مع الأوضاع الجديدة».

ولم يكن محض صدفة أن تنطلق الشائعات بعد ذلك عن قرب تحرك الشارع، بل إن بعضهم تحدث عن مظاهرات صاخبة يوم ٥ أكتوبر، قبل حدوثها ببضعة أيام. ويقال إن بعض المواد الاستهلاكية الضرورية اختفت من السوق، نتيجة التخطيط لتأجيج السخط الذي يسمح بالتخلص من قيادة الحزب. ويقال إن عددًا من السجناء مجرمي الحق العام أطلق سراحهم لتأطير المظاهرات.

لكن الذين خططوا لتلك الأحداث لم يقرأوا حسابًا لاحتمال انفلات الأمور وخروجها عن السيطرة. ذلك أنهم تعودوا على الحسابات «المخبرية» والخطط التي تطبخ في دهاليز الحكم دون مراعاة لمعطيات الواقع العنيد.

فقد اغتنم التيار الإسلامي هذه الفرصة ووجه المظاهرات لفائدته. علمًا بأن حزبه «الجبهة الإسلامية للإنقاذ» لم يكن قد تأسس بصفة رسمية، لكن شبكاته كانت موجودة وتشتغل من زمان.

وأمام انفلات الأمور نزلت دبابات الجيش إلى شوارع العاصمة، وكان ضحايا وسالت دماء.

بعد خمسة أيام من الغليان تم الإعلان عن خطاب يلقيه الرئيس الشاذلي يوم ١٥ أكتوبر ١٩٨٨، فكان كل الناس بما فيهم ممثلي أهم التيارات السياسية مشدودين لما سوف يقوله الرئيس. أعلن هذا الأخير عن تعديل الدستور وعن التعددية السياسية وعن فتح باب الترشيح للانتخابات البلدية والتشريعية لمرشحين من خارج حزب جبهة التحرير الوطني، ولم تمر ساعات قلائل حتى انطلقت مظاهرات «تلقائية» هائلة ترفع صور الرئيس.

جبهة الإنقاذ: انتصار كاسح

أمكن للنظام أن يسيطر على الوضع مؤقتًا، وشكلت حكومة برئاسة قاصدي مرباح الذي كان مسؤولاً عن جهاز «الأمن العسكري» في عهد الرئيس بومدين، ثم أقيل لطموحه في الرئاسة، أو هكذا تصور الرئيس بن جديد، وعينت حكومة حمروش التي وعدت بتنفيذ إصلاحات اقتصادية. ولم تمر خمسة أيام على تنصيب حكومة حمروش حتى نشرت الجريدة الرسمية مرسومًا رئاسيًا يعترف بـ «الجبهة الإسلامية للإنقاذ» حزبًا معترفًا به.

كان دخول الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الساحة السياسية المكشوفة ونزولها إلى ميدان المنافسة الانتخابية يمثل تحولاً مهمًا بفعل الوزن السياسي الذي اكتسبته، والفضاءات الجغرافية والإعلامية التي احتلتها، وقلوب المستضعفين والفقراء التي نجحت في استمالتها، مستغلة بصورة خاصة الزلزال الذي ضرب ضواحي العاصمة في ١٩٨٩، وكانت تسعف الناس بتوزيع المواد الغذائية، وكان حضورها في ميدان المساعدات أقوى من حضور السلطات التي بدت شبه غائبة. من هنا فجبهة الإنقاذ يمكن أن تشكل عدوًا شرسًا في حالة الاصطدام، كما تمثل حليفًا من الوزن الثقيل في حالة التحالف معها.

وهذا ما يفسر التكتيك الذي ضبطه مولود حمروش لصيانة النظام وتأمين مستقبله، وذلك عن طريق إيجاد أغلبية تسنده، حتى يمكن تمرير الإصلاحات. ونظرًا إلى أن المجلس الشعبي الوطني يتشكل من نواب جبهة التحرير هو في حاجة إلى هذه. لذلك حرص على أن يظل داخل جبهة التحرير، بل وضمن قيادتها إذ كان عضوًا في مكتبها السياسي مع أربعة من وزرائه كان أبرزهم «سيد أحمد غزالي»، وزير الخارجية وعلي بن فليس وزير العدل (وهو حاليًا رئيس الحكومة).

وبما أنه لا يطمئن كل الاطمئنان لجبهة التحرير فقد سعى لكسب الجبهة الإسلامية للإنقاذ، حتى تدعمه في مسعاه لتحجيم جبهة التحرير من جهة وإيجاد قوة سياسية في الميدان تحد من نفوذ الجيش، من جهة أخرى. ولهذا يؤكد كثيرون أن حمروش أبرم اتفاقات سرية مع جبهة الإنقاذ.

لكن إذا كان الاتفاق بين الحكومة وجبهة الإنقاذ على تحجيم جبهة التحرير يمثل قاسمًا مشتركًا بينهما، فإنه محكوم عليه بالفشل في المدى القريب: لأن جبهة الإنقاذ كانت تخطط للانفراد بالحكم سواء بالانتخابات أو بالقوة، كما كان يعبر عن ذلك شعار رفعته، كانت قواعدها تردده وهو: «دولة إسلامية بالصندوق أو بالبندقية».

وقد استشهد بعض الجنرالات على ذلك بما قاله عباس مدني في إحدى لقاءاته التليفزيونية: «يجب التخلص من هذا المسمار الذي علاه الصدأ»، يقصد بذلك الرئيس بن جديد.

وأثناء الإعداد للانتخابات التشريعية التي كانت مقررة في يونيو ١٩٩١، غيرت جبهة الإنقاذ موقفها، وأصبحت تدعو إلى انتخابات رئاسية مبكرة، بناء على أن الانتخابات التشريعية لا أهمية لها ما دام الرئيس يستطيع أن يحل المجلس بمقتضى الصلاحيات التي يمنحها له الدستور.

وهذا ما يفسر الإضراب العام الذي دعا له الإسلاميون، في صيف ١٩٩١، وما صاحبه من مظاهر عصيان مدني، بدا معها أن جبهة الإنقاذ أو بعض قياداتها المتشددة تفكر فعلاً في الزحف على الرئاسة.

أمام هذا الخطر لم يجد الرئيس بن جديد بدا من إعطاء الأمر بتدخل الجيش، فأقيلت حكومة حمروش «أي استقالت»، وعين سيد أحمد غزالي رئيسًا للحكومة.

آنذاك بدأت مرحلة جديدة، تراجعت خلالها جبهة الإنقاذ عن المطالبة بانتخابات رئاسية مبكرة، وقبلت أن تخوض غمار الانتخابات التشريعية التي تأجلت إلى ديسمبر ١٩٩١.

كانت جبهة التحرير منقسمة فيما يتعلق بالإعداد للانتخابات: أمينها العام السيد عبد الحميد مهري كان يرى أن الانتصار فيها ولو جزئيًا يتطلب ترشيح وجوه جديدة تقترحها القاعدة على أساس ما تتمتع به من شعبية، ولو كانت من خارج جبهة التحرير، بينما كان هناك من لم يهضم فكرة التخلي عن النهج المألوف المتمثل في «طبخ» القوائم الانتخابية بحضور ممثلي الأجهزة الأمنية.

وكانت الحكومة قد التزمت بشفافية الانتخابات، وهو ما طبقته فعلاً، كما تبين بعد ذلك.

وكما اختلفت قيادات جبهة التحرير والنظام ككل، في أسلوب الترشيحات، اختلفت في التخطيط لما بعد الانتخابات: فالأمين العام لجبهة التحرير اقترح إجراء اتفاق مع كل القوى السياسية على تشكيل حكومة ائتلافية بعد الانتخابات مهما تكن النتيجة، لأنه إذا لم تتحصل جبهة الإنقاذ على الأغلبية فلا خطر من دخولها للحكومة: وإن هي تحصلت على الأغلبية فإنها تكون ملزمة بالاتفاق. وإذا تراجعت وأخلت به، فإنها تكون معزولة إزاء الأطراف الأخرى، لكن هذا الاقتراح لم يقبل.

وقد يكون من المفيد التذكير ببعض الملابسات التي أدت إلى ذلك النجاح الكاسح لجبهة الإنقاذ، رغم أنها خسرت مليون صوت بالقياس إلى الانتخابات البلدية في صيف ١٩٩٠، ذلك أن القانون الانتخابي قد تم تغييره، واعتمد تقسيم الدوائر الانتخابية الذي اقترحته جبهة الإنقاذ، والذي كان لفائدتها. لماذا؟ خصوصًا أن المجلس الوطني كان يتشكل من نواب جبهة التحرير. هنا تختلف التأويل التي يذهب بعضها إلى حد اتهام النظام القائم بأنه كان يخطط لنجاح الإسلاميين. لكن مناقشة هذه المسألة يبعد بنا عما نحن بصدده.



كان الناس مشدودين مساء يوم ٢٦ ديسمبر لمحطات الإذاعة والتليفزيون من أجل أن يعرفوا نتائج المعركة الانتخابية. وكان قصر الحكومة غاصا بالصحفيين، جزائريين وأجانب.. وكان رئيس الحكومة يتابع النتائج عبر اتصالاته مع الولايات. وكان واضحًا من خلال الأسئلة التي يطرحها رئيس الحكومة على محاوريه في الولايات عبر الهاتف، أن ما كان يهمه في الدرجة الأولى هو أن يعرف: هل نجح مولود حمروش أم سقط. وقد سجل ذلك مراسل «لوموند» في صحيفته.

وما إن عرفت نتائج الدورة الأولى للانتخابات التشريعية حتى صار واضحًا أن جبهة الإنقاذ تحصلت على أغلبية ساحقة سوف تتأكد في الدورة الثانية، بما يسمح للبرلمان القادم أن يغير الدستور ويدخل عليه ما يراه من تعديلات. وقد اختلف رجال الحكم في الموقف الذي يجب اتخاذه: المؤسسة العسكرية ترى ضرورة وقف المسار الانتخابي، ويدعمها في ذلك اتحاد العمال، والأحزاب التي تنعت بـ «الديمقراطية»، وإن كانت تمثل أقلية ضئيلة. وعارض في ذلك كل من الأمين العام لجبهة التحرير الوطني السيد عبد الحميد مهري، وكذلك السيد حسين آيت أحمد زعيم حزب القوى الاشتراكية. وعندما عرض الأمر على الرئيس بن جديد قال إما أن تنفذ سياستي وهو الاستمرار في الانتخابات، وإلا فسوف أضطر إلى الاستقالة.

ومن بين الحجج التي تذرع بها دعاة وقف المسار الانتخابي، أن البلديات التي كانت تابعة لجبهة الإنقاذ رفضت توزيع مليون بطاقة انتخابية. يضاف لذلك ما صرح به بعض زعماء الإنقاذ، مثل الشيخ محمد السعيد الذي طلب من الجزائريين أن يستعدوا بعد نجاح جبهة الإنقاذ، لتغيير عاداتهم فيما يتعلق باللباس. ويُنسب للشيخ رابح كبير، عضو مجلس الشورى للجبهة الإسلامية للإنقاذ أنه قال ما معناه: إذا قررت كوادر جزائرية أن تهاجر إلى الخارج حتى لا تتعامل مع جبهة الإنقاذ، فإن هناك اثنى عشر ألف كادر إيراني مستعدون لتعويضهم.

الجزائر بين انحسار الدولة وحصار الدول

يرى مؤلف «الحرب غير المرئية» أن تسلسل الأحداث وتوالي التقتيلات والمجازر من عام ١٩٩٣ إلى عام ١٩٩٨، «يتم في غياب قراءة مفهومة» لأن مشاهد الحرب تبدو في صورة انهدامات عميقة يستحيل على من يسقط فيها أن يخرج منها «حواجز عديدة تقوم في وجه الملاحظ تمنعه من الفهم» كما أن الوحشية التي تفجرت «أحدثت بفعل نكدها المتكرر فوضى في الرؤية واضطرابًا في الذاكرة، بينما الموت يضيع في متاهات يومية». إلا أن عدم وضوح الرؤية أي انعدامها أصلاً لا يعني أن آثار الحرب لم تكن منظورة؛ بالعكس، إنها تتصاعد من يوم لآخر، وتشتد وحشية، وتمتد إلى شرائح مدنية ليست لها مسئولية حكم أي سلطات إدارية، لتصبح حربًا على الرأي والفكر والقلم، بل والمجتمع. فاتخذت أشكالاً من العنف وبلغت درجة من الفظاعة لا يستطيع المرء أن يسمع تفاصيلها، وتعجز حساسية الإنسان عن تحملها.

فقد امتدت التقتيلات إلى سلك التعليم: في شهر فبراير ١٩٩٢ اغتيل ما لا يقل عن ٢٤ معلمًا ومعلمة، بعضهم قتل في القسم أمام تلاميذه. وأصبح الشباب المجند، وليس فقط رجل الأمن أو العسكري المحترف، هدفًا للتقتيل والذبح. حتى أن بعض العسكريين لم يتحملوا بعض ما شاهدوه، مثل مشهد شاب مجند ذُبح في آخر يوم من رمضان في عام ١٩٩٤، حينما كان يعد طعام الإفطار، على يد جمع مسلح هجم على مركز للجيش بتواطؤ ضابط صف؛ وأكثر ما أثر في العسكري الذي يروي الحادثة لأحد الصحافيين، «منظر عجين.. السباجيتي» يخرج من حلقه قطعًا قطعًا كأنها دود».

إن اغتيال عدد معتبر من المسئولين ومقتل أكثر من مائة ألف وهو العدد الذى أعلن رسميا، يجعل من الصعب عدم التفوه بكلمة «حرب» لوصف ما حدث فى الجزائر

وبعد قتل المعلمين جاء دور الصحافيين والمثقفين والفنانين.

وشيئًا فشيئًا انحسرت الدولة وضاعت البقية الباقية من هيبتها. وأصبحت أكثر من دولة غربية تراهن على نجاح الإسلاميين فى استلام زمام الحكم.

لذلك قررت قيادة الأركان، حسب المؤلف «أن تشن عمليات كبرى ضد الفرق الإسلامية المسلحة، «فالحركة الإسلامية المسلحة» القريبة من جبهة الإنقاذ والمتمركزة فى منطقة «مفتاح» غير بعيد عن العاصمة هوجمت بقوة وضربت أحيانًا بالنابالم، مما أدى إلى تشتيت محاربيها» ويستخلص الكاتب أن ذلك كان أحد العوامل الذى دفع تلك الحركة إلى تصعيد عملياتها ضد الأجانب. فاغتالت خمسة موظفين فرنسيين فى ٣ أغسطس ١٩٩٤. واختطفت طائرة «إيرباص» تابعة للخطوط الفرنسية، مما دفع باريس إلى وقف رحلاتها الجوية إلى الجزائر، ثم تبعتها الشركات الإسبانية والإيطالية، وتلتها شركات الملاحة البحرية. وفى الوقت نفسه طلبت وكالة «رويتر» من مراسليها بالجزائر أن يغلقوا مكاتبهم ويوقفوا نشاطهم. وأصبحت باريس متشددة فى منح التاشيرات إلى الجزائريين فانخفض رقمها من ٨٠٠ ألف فى ١٩٩٢ إلى ما دون المائة ألف.

فى ظل هذا الانحسار والحصار، كان النظام يتعامل مع الأخبار بعقلية متخلفة، إذ فرض رقابة غير ذكية على كل ما يتصل بالحرب.

ويعلق بنيامين ستورا على ذلك بقوله:

«إن جوهر المعارك تبدو كانها تدور فى فلك آخر.. مع الروايات التى تنقل أخبار الرعب والمجازر، تحوم ظلال وسحب تشيع الشك وتزرع عدم اليقين. كل ذلك يتسبب فى إثارة شعور هلع إزاء خطر يمكن أن يداهم المرء فى أى مكان ومن حيث لا يتوقع».

زيادة عن ذلك كله صدرت مجموعة قوانين منذ أبريل ١٩٩٠، فى عهد حكومة حمروش، أى قبل أن ينفجر العنف الدموى على نطاق واسع، ثم عززتها أخرى فى فبراير ١٩٩٢ زمن رئاسة محمد بوضياف، ومجموعة ثالثة فى ٣٠ سبتمبر أى بعد اغتيال هذا الأخير.

ويستشهد بنيامين ستورا بما كتبه الصحافى «طوماس فيرنز» فى صحيفة لوموند:

«يستحيل على الصحافيين أن يزوروا الجزائر، كما يستحيل عليهم أن يعرفوا الظروف والملابسات الحقيقية للتقتيلات؛ من المستحيل أن نعرف بالتدقيق من هم القتلة، ما هى دوافعهم، كما يستحيل الفرز بين أنشطة مختلف الفرق المسلحة، وعمليات الثأر وتصفية الحسابات، والاختراقات».

تقنين التعتيم

وكان مجموعة القوانين التى أشير إلى تواريخها لم تكف، فحددت السلطات فى ٧ يونيو ١٩٩٤ «الخطوط الحمراء» التى لا تستطيع الصحافة أن تتخطاها. وبذلك أصبحت كل المعلومات التى تتصل بالوضع الأمنى، من بعيد أو قريب، خاضعة لرقابة مشددة، أى أن كل المواد المعدة للنشر فى الصحف المكتوبة، أو فى قنوات الإذاعة أو فى «الوحيدة» ـ وهو الاسم التى تطلقه الصحف الجزائرية على التليفزيون ـ تمر على رقابة يشترك فى ممارستها كل من وزارة الاتصال ووزارة الداخلية.

وفى هذا السياق صدر مرسوم ـ لم ينشر فى الجريدة الرسمية ـ ينص على تكوين «خلية اتصال مكلفة بالاتصال مع وسائل الإعلام تتولى صياغة وإذاعة البلاغات الرسمية المتعلقة بالوضع الأمنى، والتى يتم تبليغها عبر وكالة الأنباء الجزائرية» ثم ينص المرسوم على أن أية معلومة تتصل بأنشطة الإرهاب والتخريب لا ينص عليها بلاغ رسمى أو تصريح مسؤول، يمنع نشرها».

وتنص التعليمات التى صدرت للصحف فى إطار هذا القانون على «ضرورة أن يعمل الصحافيون على غرس النفور من الإرهاب ورفضه من طرف الضمير الجماعى» كما ينص على محاربة الشائعة والدعاية العدوة وقهرها، من أجل الحد من التأثير السيكولوجى الذى يتوقعه الإرهابيون من ترويج تلك الشائعات، وهكذا وُضعَتْ تحت تصرف الصحافيين الألفاظ والتعابيرِ والمصطلحات الملائمة لتصوير الحدث وصياغة الخبر، حتى لا يلجئوا إلى استعمال تعابير تخدم أيديولوجية العدو، دون أن يكونوا واعين لذلك. كما يجب نشر البلاغات المتصلة بالإرهاب فى الصفحات الداخلية مع تجنب نشر صور زعماء الإرهاب ودعاة العنف. وفيما إذا كان لا بد من نشر الخبر فى الصفحات غير الداخلية، فينبغى أن يكون حيز الخبر محدودًا وصغيرًا.

وفى مقابل ذلك يتعين على الصحافيين أن ينشروا على نطاق واسع الفظائع التى ترتكبها الأنظمة الإسلامية، وأن يبرزوا الشعوذة وأساليب النهب التى يمارسها أولئك الذين يتسترون وراء الدين من أجل ارتكاب أفعال إجرامية.

وفى ١١ فبراير ١٩٩٦ عمدت وزارة الداخلية إلى وضع هيئات رقابية فى المطابع تقرأ المواد الصحافية قبل السماح بتقديمها للطبع.

وقد عبر أحد الصحافيين، وهو «محمد بلحى» عن حيرة الصحافى أمام تلك المجموعة من القوانين والإجراءات فكتب فى يومياته (التى نشرت عام ١٩٩٧ تحت عنوان «يوميات جهنمية») ـ كتب يوم ٢١ مايو ١٩٩٤ ما يلى:ـ

«إن الظلام الذى يلف الخبر الأمنى يضايق عمل الصحافى. أى خبر يصلح للنشر؟ هل تنشر أخبار العمليات الإرهابية؟ منذ أسبوع، عشية عيد الأضحى وقعت حادثة فى بلدة «تلاغ»، إذ هوجم مركز فوز تابع للجيش، ولم نتحدث عنه. كيف يمكن التمييز بين الخبر والشائعة؟ إن الشائعة تتضخم فى حالة الفراغ وغياب المعلومة. إن مهمة رجل الاتصال أن يعلم الناس بما يحدث. إن المفزع فى الأمر هو هذه الكوة السوداء».

وفى الوقت الذى يرتفع فيه عدد الضحايا، يتضاعف عدد الكوادر التى تهاجر إلى تونس وفرنسا وكندا. وبما أن فرنسا متهمة بدعم النظام الجزائرى، فقد انتقلت إليها عمليات الإرهاب عام ١٩٩٥ فيما بين شهرى يوليو وديسمبر. وفى ١٩٩٦ اتخذت فى الجزائر عمليات الإرهاب شكلاً جديدًا: سيارات مفخخة فى قلب المدن، هجومات منتظمة على القطارات، تخريب السكك الحديدية، تفجير القنابل فى المحلات العمومية والشواطئ التى يقصدها المصطافون وفى الأسواق. ويستشهد بنيامين ستورا بما كتبه الصحافى سعيد زهراوى عن عام ١٩٩٦ فى يومياته التى صدرت عام ٢٠٠٠ تحت عنوان «بين الرعب والأمل» إذ يقول:

«فى براقى من ضواحى العاصمة أفاق الناس فى الصباح الباكر على انفجار هدَّم مسجدًا بفعل قنبلة قوية المفعول. قتل ستة مصلين وجرح ثلاثة عشر. ولم يخب الاستنكار والسخط والغضب، حتى حدث انفجار رهيب فى مستشفى بلدة «عين بسام» أسفر عن مقتل خمسة أشخاص واثنين وعشرين جريحًا بين المرضى والمستخدمين. إن الجنون الدموى أثار أحاسيس لم يسبق أن عرفها الإنسان، هى مزيج من الخوف والغثيان. كما يتسبب فى الحيرة وعدم الفهم إلى درجة فقدان العقل، ويثير السعار بفعل شعور بالعجز إلى درجة لا تحتمل بما يتسبب فيه من ألم بدنى.. إن كل أحد يشعر باستمرار أنه على اتصال حميم بالموت اللا مرئى».

برمجة اللا تاريخ

ثم يتعرض الكاتب للمجازر التى توالت عام ١٩٩٧، ليحاول إثر استعراضها، أن يقدم تفسيره لهذا العنف غير المفهوم الذى يلفه الضباب، تفسيره هو عمليًا مجموعة تفاسير، تتصل كلها بالتاريخ، سواء كان تاريخاً حضوريًا أو تاريخاً مغيباً. التفسير الأول هو الاحتلال الاستعمارى وما ارتبط به من انتزاع للأرض التى أخذت من أصحابها ومالكيها لتمنح للأوروبيين: أكثر من مليون هكتار فيما بين ١٨٦٠ و١٩١٨، إن اقتلاع الجزائرى من أرضه ودفعه إلى أراضٍ جرداء أو جبال مجدبة «يتسبب فى عنف خارق يبعث النعرات القبلية من أجل أن يحتمى بها الفرد دفاعاً عن وجوده، ومحاولة لاسترجاع أرضه المغتصبة».

إن اغتصاب الأرض، ومحاربة اللغة العربية، تؤدى إلى تمزق فى الشخصية وضياع فى الهوية وصعوبة فى التعبير عن ذلك كله، إن الترنح تحت كل تلك الضربات ينتقل من جيل لآخر حاملاً معه الطابع القديم للعنف الفلاحى. وفى الوقت الذى تفقد فيه القبيلة أراضيها، تفقد فيه الزوايا نظامها التربوى، فينفجر المجتمع، ويتعرض الفرد لجاذبية العنف ورغبة الأخذ بالثأر.

وإذ حاول الاستعمار فرنسة الجزائر، كان حتماً عليه أن ينقل للمتعلمين من أبنائها فى مدارسها قيماً إنسانية مثل العدالة والحرية والمساواة، فتفاعلت هذه مع ما تبقى من ثقافة التراث لتصهر مجتمعاً جديداً يتنفس عبق الوطنية وينظم صفوفه استعداداً لساعة الصفر.



ومن المفارقات العجيبة، أنه فى الوقت الذى اطمأن فيه الاستعمار إلى أبدية وجوده بالجزائر، كما تدل على ذلك الاحتفالات بمرور قرن على الاحتلال يتحرك المارد خارجاً من القمقم الذى أغلقوه عليه ليقول: هأنذا، متسلحاً بإرادة حياة، ساعياً إلى عقلنة ما يشعر به من رغبة فى عنف يرد له الاعتبار عبر البعد السياسى الذى يعطيه لتحركه وحركاته.

ويعتبر المؤلف أن هناك رجالاً ثلاثة، هم المؤسسون للحركة الوطنية الجزائرية المعاصرة: مصالى الحاج مسئول أولى الحركات المنادية بالاستقلال: نجم شمال أفريقيا فى ١٩٢٦، وحزب الشعب فى ١٩٣٧. وفرحات عباس الذى سعى إلى التوفيق بين مبادئ العلمانية وقيم الإسلام، وعبدالحميد بن باديس مؤسس حركة العلماء. «إلا أن الأهداف التى سعى إلى تحقيقها هؤلاء قُذف بها خارج التاريخ فى مجتمع ما بعد الاستقلال. وهكذا يولد التيار الإسلامى سنوات التسعينيات وسط الكوة المظلمة التى تمثل انعدام الذاكرة.. وبذلك يصبح التاريخ الحقيقى غير مرئى.. إن غياب التاريخ الذى رفضوا التكفل به يعزز إحساس العنف المتجدد باستمرار.. إن معركة سنوات التسعينيات بين الإسلاميين والنظام تدور دون أية خلفية تاريخية، مع تغييب كامل لصور ودور الآباء المؤسسين للأمة».

لكن تغييب الآباء المؤسسين لم يتم فى الاستقلال فقط: إذ أن بنيامين ستورا يرى أن «ثورة» ١٩٥٤ انطلقت فعلاً بإبعاد آباء الوطنية الجزائرية. وهنا يتطور العنف كمحرك أساسى للنشاط الثورى على حساب الفكر السياسى، الذى تراكم خلال سنوات وسنوات من العمل الدءوب والجهد الصبور والتثقيف العميق. وبذلك يبدو العمل السياسى وكأن الأحداث قد تجاوزته، ويبدو العمل المسلح كما لو كان هو الأسلوب الوحيد الأنجح لتحقيق الهدف المنشود.

فى مواجهة هذا النسيان المبرمج للآباء المؤسسين انصهرت فكرة تمجيد تقاليد الحرب التى انتصرت بالعنف ضد الدولة الاستعمارية.

فلا غرابة إذن أن يبعث النزاع الحالى الذكريات المتصلة ببطولات حرب التحرير ضد فرنسا وردود الفعل التى تسببت فيها. وبما أن الدين لعب دور الملجأ والملاذ خلال الاستعمار حتى صار حاضراً فى كل مظاهرالتحدى للدولة الاستعمارية، فقد استعمل من جديد ليتحدى نظاماً يعتبر فى نظرهم معادياً للدين ومنحرفاً عن مبادئ نوفمبر.

يمكن القول، والحالة هذه أن عامل قطيعة مزدوجا مع النظام القائم قد تحقق: المرجعية الدينية التى كانت وراء تحريك أصناف المقاومة كلها المسلحة والسياسية من عهد الأمير عبدالقادر إلى أن تبلور الشعور بالانتماء إلى أمة ليست فرنسية ولا تستطيع أن تكون فرنسية، من جهة أولى، ومرجعية أول نوفمبر الذى يمثل بدوره، كما أشار المؤلف لذلك حسبما أوردناه آنفاً، قطيعة مع الماضى السابق إلى درجة التنكر لآباء الوطنية الجزائرية.

وقد كان من المفروض أن تصمد الدولة الجزائرية الحديثة والمجتمع الذى تشكل بعد الاستقلال فى وجه تلك الهجمات التى تريد أن تبنى دولة «إسلامية» انطلاقاً من الصفر، أو بعد تقويض الدولة الحديثة.

إلا أن ذلك لم يكن ممكناً لأن جيل الثورة والاستقلال لم يُعِدَّ الجيل



الموالى ليخلفه من جهة، ولأن مظاهر العجز والقصور فى تسيير الدولة مضافة إلى ما شاع من أخبار الفساد قد قضى على مصداقية النظام من جهة أخرى.

إن الملاحظة التى قدمها «بنيامين ستورا» عن التنكر للماضى وتغييب التاريخ الوطنى لا تخلو من وجاهة: فثورة نوفمبر زيادة عن كونها انطلقت من قطيعة مع أحد الآباء المؤسسين للوطنية الجزائرية الحديثة، أسفرت فى جملة ما أسفرت عنه من نتائج عن تمجيد للعنف الثورى الذى تطور إلى تمجيد لقوة السلاح مبطن بتحقير للعمل الفكرى وللسياسة بمفهومها النبيل.

وعندما استقلت الجزائر، ظهر للعلن الصراع بين الزعامات التاريخية لجبهة التحرير حتى حسم الجيش الأمر لفائدة أحدهم. وقد ارتفع آنذاك شعار يقول «لا تاريخ»، بمعنى أن المشاركة فى التخطيط للثورة لا ينبغى أن تكون هى المرجعية لمن يحكم. وقد ثار أحد المسئولين فى جيش التحرير آنذاك على هذا الشعار، وأراد أن يجسم سخطه ذاك، فأطلق على مولود ولد له فى تلك الفترة اسم «لا تاريخ». (وهو لايزال حيًا يرزق - أى الابن الذى اسمه لا تاريخ - وصار من رجال المال المعروفين فى أحد بلدان الخليج).

ويجب أن نسجل بأن تمجيد العنف لم يكن مقصوراً على الذين حملوا السلاح من الأميين وأنصاف المتعلمين، بل شارك فيه مثقفون، بعضهم عن حسن نية وبعضهم عن انتهازية.

فى هذا الصدد يمكن أن نشير إلى أن مفكراً ثوريًا كبيراً مثل فرانز فانون غذى هذا التيار، عن حسن نية، عندما أشاد بالعفوية الثورية للجماهير الفلاحية، وقد رددنا كلنا أو بعضنا، مقولته بشىء غير قليل من الإعجاب. إلا أن فرانز فانون كان معذوراً عندما صاغ فكرته تلك، لأنه استخلصها من مشاهداته فى الميدان بعد أن التحق بصفوف جبهة التحرير الوطنى، دون أن يكون قد اطلع على تاريخ الحركة الوطنية التى انطلقت، بكل تياراتها من المدن.

فما شاهده «فانون» من ثورية لدى سكان الأرياف، لم يكن نتيجة تلقائية ثورية، بل كان نتيجة عمل قام به مناضلون فى المدن ثم انطلقوا منها إلى الأرياف يبشرون بضرورة تقويض النظام الاستعمارى.



إن التعتيم على الماضى وعدم العناية بتاريخ الحركة الوطنية بعد الاستقلال قد حوّل حركة نوفمبر والتطورات السياسية التى سبقتها إلى صور مجردة، سرعان ما اختفت من ذاكرة الجيل الجديد، لأنها لم تكن مثبتة بوجود تاريخية معروفة، ولا بتدريس التاريخ بصورة حية. وقد سبق لى أن سجلت هذه الظاهرة فى مقال نشرته بصحيفة «المجاهد» فى الذكرى العاشرة للاستقلال، أى عام ١٩٧٢. وقد اعتمدت فى تحليل هذه الظاهرة على بعض ردود الفعل التى شاهدتها عام ١٩٦٦ عندما نزل إلى السوق فيلم «ريح الأوراس» للمخرج الجزائرى المعروف الأخضر حامينة.. الفيلم يروى قصة أم فقدت ابنها، اختطفه الفرنسيون ولم تعد تعرف عنه شيئاً. وقد تخللت مشاهد الفيلم وقائع حربية بسيطة، تتمثل فى ضرب طائرات عمودية فرنسية لبعض المعاشر الريفية وإطلاقها الرصاص على سكانها. وهى مشهد جد عادى لمن عاش حرب التحرير، خال من أى مبالغة. وقد لفت انتباهى آنذاك ملاحظة صدرت عن طلبة جامعيين كانوا يجلسون خلفى فى قاعة العرض، إذ قال أحدهم لزملائه: «كم نبالغ نحن الجزائريين، ما أظن أن فرنسا كانت تمارس مثل هذه العمليات». إذا كان مثل هذا التعليق يصدر فى السنة الرابعة بعد الاستقلال فما بالك فى سنوات التسعين؟

الريف
بين التهجير والهجرة

لقد عرفت الجزائر، خلال الحرب تهجير مئات الآلاف من الجزائريين واقتلاعهم من مواطنهم الريفية، وتجميعهم فيما كانت تسميها السلطات الفرنسية «مراكز التجمع»، تنفيذاً لخطة ساذجة. لأن بعض ضباط الجيش الفرنسى الذين كانوا فى حرب فيتنام، وأصبحوا يعملون فى جزائر الخمسينيات وبداية الستينيات كانوا موتورين من هزيمتهم فى فيتنام واضطرارهم للتفاوض بعد معركة «ديان بيان فو» الشهيرة التى وقعت يوم ٨ مايو ١٩٥٤، وكان هاجسهم وخوفهم الكبير أن يصابوا بهزيمة مماثلة فى الجزائر.

هذا ما يفسر تشكيل فريق من الضباط الفرنسيين اشتغلوا بفيتنام، تخصصوا فى «الحرب النفسية»، وبنوا نظريات «مخبرية»، تتلخص فى محاولة قلب النظرية المعروفة التى كان قد صاغها «ماوتسى تونج» عندما قال أثناء حربه الشعبية ضد «شان كاى شيك»: «جيش التحرير يجب أن يكون وسط الشعب مثل السمك فى الماء» فضباط الحرب النفسية قالوا: فى هذه الحالة يجب إفراغ الماء وتصريفه حتى يمكن أن نمسك بالسمكة. ومن هنا ظهرت فكرة «مراكز التجمع» التى تهدف إلى تجفيف الماء المحيط بسمكة جيش التحرير. وقد صدرت دراسات فرنسية آنذاك عن مراكز التجمع هذه، قدّر بعضها عدد المشمولين بالتهجير، خلال حرب ١٩٥٤ - ١٩٦٢ بها تقديرات مختلفة تتراوح بين مليونين وستة ملايين نسمة. عندما تحقق الاستقلال، كان عدد سكان المدن محدوداً بالنسبة لسكان الأرياف. ونظراً لانعدام برنامج اجتماعى وإعمارى من جهة، ولمباهج المدينة من جهة أخرى، فقد راح سكان الأرياف يهاجرون من مواطنهم تدريجياً ويتمركزون حول المدن الكبرى، خاصة العاصمة، فى أحياء تصديرية، أو فى بنايات شعبية ترفع بسرعة، بحيث ظهرت قرى ريفية كاملة حول العاصمة، تمركزت فيها أسر هاجرت من مواطنها وصارت تعيش اغتراباً مزدوجاً: بعدها عن موطنها، ومناخ المدينة التى ترى يوميًا مباهج الحياة فيها، ومظاهر ترفها الباذخ، دون أن تصيب من ذلك نصيبها.

وبذلك ظهر شعور حرمان بلغ أقصاه فى سنوات الثمانين.

هذه الجماهير المهمشة والمحرومة من أبناء الريف الذين اضطرتهم ظروف قاسية إلى الهجرة للمدينة، كانوا يجدون شيئاً غير قليل من المتعة عندما يستمعون إلى خطيب الجمعة، يهاجم النظام، ويندد بفساد رجاله، ويؤكد أن «الإسلام هو الحل».

أصبح المسجد مكان تثوير، استغلته جبهة الإنقاذ، أى رجالها حتى قبل الإعلان عن تأسيسها، إلى أقصى حد.

يضاف لذلك أن أدبيات النظام فى السبعينيات التى كانت تركز على دور «الريف» و«الفلاحين» فى نجاح الثورة وانتزاع الاستقلال، قد ساعدت فى الثمانينيات على تأجيج شعور الحرمان وتغذية السخط، فى نفس الوقت الذى ألهبت فيه خيال شباب لا عمل له ولا مستقبل، كى يتقمص شخصية جندى التحرير بالأمس، ويصبح اليوم بطلاً هو الآخر، عندما يخوض غمار حرب ضد النظام القائم.

إن هذا الوضع ساعد على تضامن المحرومين، فسقطت بذلك التصنيفات الماضية التى تقسم الناس إلى مناضلين ضد الاستعمار، وعاملين معه، ومتفرجين محايدين. لم يعد هناك ما يفصل بين ابن جندى جيش التحرير وابن العميل الذى رفع السلاح ضمن الجيش الفرنسى. اتحد الجميع فى ظل رغبة مشتركة لتحسين أوضاعهم، وطموح مشترك لبناء مجد جديد تكون نتيجته أحد أمرين أو كلاهما معاً: إحياء ماضى جيش التحرير، وسحق الذين تنكروا لمبادئه وأصبحوا من أركان نظام ممقوت.

تلك بعض من مظاهر المناخ الذى ظهرت فيه الفرق الإسلامية المسلحة. وهى نفسها التى اعتمدها مؤلف كتاب «الحرب غير المرئية» فى تعداد أوجه شبه (سطحية) بين حرب الأمس وحرب اليوم. وقد أشار الكاتب إلى ظهور مصطلح «الجهاد» فى حرب اليوم وحرب الأمس.

لكن قيادة جبهة التحرير فى الخمسينيات كانت تعتبر أن الفصل بين الدين والدولة ضرورى. وتلك القيادة نفسها هى التى قررت، منذ ١٩٥٦، إعطاء اسم «المجاهد» إلى الصحيفة الناطقة باسم الثورة المسلحة أو باسم جبهة التحرير الوطنى. وقد دافع آنذاك عن هذه التسمية، عبان رمضان، أحد الوجوه البارزة فى القيادة.

ولا يستبعد أن يكون المقصود باختيار هذا الاسم هو تيسير تعبئة الشعب والتحاق أبنائه بصفوف الثورة، على أساس أن الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائرى من سكان الأرياف، وهم متدينون عادة، ومازالوا يذكرون ويتداولون حكايات أجدادهم الذين حاربوا الفرنسيين الذين جردوهم من أراضيهم تحت راية الجهاد.

إن الحرص على تشبه الفرق المسلحة فى التسعينيات بكفاح الأمس بلغ ببعضها حد المحاكاة السخيفة: فقد أعلنت «الجماعة الإسلامية المسلحة» فى ٦ أغسطس ١٩٩٤ تحرير الدراسة ومنع التلاميذ والأساتذة من التردد على المدارس. وعلى أساس هذا المنع أحرقت مدارس وخربت معاهد وقُتل معلمون ومعلمات. لأن هذه الجماعة المسلحة فى ١٩٩٤، أرادت أن تحاكى جبهة التحرير. ففى مارس ١٩٥٦ أصدرت قيادة جبهة التحرير أمراً إلى طلبة الجامعات بأن يضربوا عن الدراسة ويلتحقوا بصفوفها، لأنها كانت فى حاجة إلى الإطارات المتعلمة. أما الجماعات المسلحة فقد منعت الدراسة حتى فى المدارس الابتدائية.

مطبات التدخين والحجاب

لكن المؤلف يخطئ فى مسألة أساسية وذلك عندما يقول: «إن تصريحات بعض الزعماء الجزائريين التى تتسم بالاشتراكية وبأفكار عن العالم الثالث، لا يجوز أن تنسينا بأن جبهة التحرير الوطنى قد بسطت نفوذها من عام ١٩٥٤ إلى ١٩٦٢، على السكان المسلمين، بمنع استهلاك التبغ وتحريم شرب الخمر باسم الإسلام، وكانت تعاقب المخالفين بتشويه خلقتهم».

يشير المؤلف بذلك إلى تعليمة، مجهولة المصدر، صدرت فعلاً عام ١٩٥٥ فى بعض ولايات الكفاح، بمنطقة قسنطينة تنص على تحريم تدخين السجائر ومعاقبة المخالف بجدع أنفه، وهى عقوبة سلطت بالفعل على بعض المخالفين.

إن هذا الأمر غير مفهوم. وقد نجد له بعض التفسير - وليس التبرير - فى الظروف التى شهدتها بعض ولايات الكفاح عن الأشهر العشرة الأولى من عمر الثورة المسلحة. فقد استشهد عدد من قادة نوفمبر فى الأشهر الأولى: باجى مختار، ابن مالك، ديدوش مراد، زيادة عن إلقاء القبض على رابح بيطاط ومصطفى بن بولعيد.

يضاف إلى ذلك أن إعلان حالة الطوارئ واعتبار الجهات التى ينشط بها الثوار «مناطق محرمة» تطلق فيها الطائرات النار على كل شىء يتحرك، فأصبحت الاتصالات بين عناصر الثورة صعبة جداً، وبالتالى لم يكن من السهل انتقال المعلومات بين القيادات والقواعد. فى ظل هذا الوضع برزت قيادات محلية تتصرف محليًا، وأصبح من الأمور العادية أن يصدر مسئول محلى تعليمات دون أن يرجع فيها إلى قياداته السياسية. هذا هو الإطار الذى صدرت فيه تعليمات غريبة، غير مفهومة، مثل منع التدخين - وكذلك النشوق - ومعاقبة المخالف بجدع أنفه، ومثل مقاطعة التجار اليهود، وكذلك التجار الذين ينتمون إلى المذهب الأباضى (وهو أقرب المذاهب الخارجية إلى السنة). وقد كان قرار منع التبغ صادراً عن تصور ساذج بأن يؤدى إلى انهيار الاقتصاد الفرنسى نظراً للدخول التى يوفرها للدولة! ومقاطعة التجار الأباضيين واليهود غير مفهومة أيضاً مادامت التجارة - مثل كل الاقتصاد - مرتبطة بفرنسا. ولا يستبعد أن قرار مقاطعة التجار يهدف إلى إنعاش تجارة غير اليهود وغير الإباضيين، من المسلمين الآخرين الذين يستفيدون حتماً من هذه المقاطعة.



وقد تصدى بعض الوطنيين فى المنطقة التى ظهرت بها دعوة المقاطعة هذه، فحاربوها خاصة ما يتصل بمقاطعة الأباضيين. كما حارب

إن ثنايا الحرب بين العسكريين والإسلاميين تخفى حروباً أخرى حاسمة وغامضة فى الوقت نفسه.. إنها لغز لـه زنادان، إنها حروب يختفى بعضها داخل بعض، مثل الدمى الروسية

بعض المشايخ الوطنيين عقوبة جدع الأنف على أساس أنها تشويه لخلقة الله.

وأتذكر أن مؤتمر «الصومام» اتخذ قراراً رسمياً، فى ١٩٥٦ بأنه لا معنى لتحريم التدخين، وأنه مسموح به. لذلك أعجب كيف لم يطلع باحث مثل «بنيامين ستورا» على هذه الحقائق، فنسب منع التدخين وجدع الأنف إلى جبهة التحرير من ١٩٥٤ـ١٩٦٢.

ويبدو أن ما كان يهمه هو العثور على مواطن الشبه بين الحربين. يؤكد ذلك محاولته أن ينسب مظاهرالعنف إلى طبيعة الجزائرى، طبيعة تشكلت لديه منذ العهد الاستعمارى. من هنا يكون السعى لتسجيل أوجه الشبه قد حال دون أن يتأكد من بعض الوقائع. فى حين أن وثائق الصومام واضحة فى تحريم منع التدخين.

ونفس الحرص على تسجيل مواطن الشبه هوالذى جعله يوحى بوجود شبه بين الحربين فيما يتصل بالحجاب. فهو يقول إثر الفقرة المتعلقة بمنع التدخين ما يلى: «إنهم (أى رجال الحركات الإسلامية المسلحة) أصدروا نفس التعليمات ـ أى منع التدخين ـ مع إضافة تتمثل فى فرض الحجاب على النساء». ثم يضيف فى نوع من الإيحاء بوجود شبه مع حرب التحرير فيما يتصل بالحجاب فيقول: «إن مسألة الحجاب هذه بوصفها تأكيداً للذات ومقاومة للنظام، ليست جديدة، ويكفى أن نقرأ الفصل الأول من كتاب فرانز فانون «سوسيولوجية ثورة» (عنوان الطبعة الأولى كان هو الثورة الجزائرية فى عامها الخامس) وهو ـ أى فانون ـ أحد صانعى أيديولوجية جبهة التحرير، فقد كتب ما يلى: «بعد ١٣ مارس ١٩٥٨، استأنفت النساء ارتداء الحجاب، لكن بعد أن تجرّد من معناه التقليدى الصرف. فهناك إذن ديناميكية تاريخية للحجاب نلمسها بوضوح فى تطور الاستيطان الفرنسى بالجزائر. إن الحجاب ميكانيزم للمقاومة».. ذلك ما قاله فانون عن الحجاب، كما نقله المؤلف.

وهنا أيضاً نلمس فى استشهاد «بنيامين ستورا» بهذا النص لفانون عن الحجاب، أنه لم يكن محيطاً بأهم جوانب المسألة.

لأن ما كتبه فانون عن الحجاب، بعد ١٩٥٨، مرتبط بسياق تاريخى محدد، وملابسات ظرفية خاصة.

وأصل الحكاية التى يشير إليها فانون واعتمدها فى تحليله لمفهوم الحجاب هى التجمع الذى نظم فى مدينة قسنطينة لاستقبال الجنرال ديجول الذى ألقى بها خطابه الشهير بخطاب قسنطينة، الذى أعلن فيه برنامجه لتصنيع الجزائر. وفى هذا الخطاب دعا الجنرال أو أحد مرافقيه ـ فتيات الجزائر إلى نبذ الحجاب وكان ذلك فى أكتوبر ١٩٥٨.

ويبدو أن السلطات الفرنسية كانت قد طلبت من بنت أحد الموظفين فى إدارتها أن ترتدى الحجاب، وتقف فى صفوف المشاهدين الجزائريين، حتى إذا صدر طلب التخلص من الحجاب، ترمى هى بحجابها على أنه استجابة للطلب الفرنسى، وهذه البنت معروفة فى قسنطينة، ولم تكن قد ارتدت الحجاب فى حياتها أصلاً قبل ذلك اليوم.

وتجدر الإشارة إلى أن عدداً كبيراً من الفتيات الجزائريات كن سافرات آنئذ، وأن عددهن كان فى تزايد.

لكن «مسرحية» نزع الحجاب هذه، جعلت عدداً من الفتيات السافرات، يرجعن إلى الحجاب، حتى لا يتصور الناس أن سفورهن استجابة لطلب الزعيم الفرنسى.

ذلك هو السياق التاريخى الذى احتلت فيه مسألة الحجاب عام ١٩٥٨ هذه المكانة التى لاحظها «فانون».

ربع الساعة الأخير

لقد استحوذ على المؤلف هاجس التشابه بين الحربين إلى درجة جعلته يسوق أوجه شبه، تحتاج إلى شىء من التدقيق والتمييز.

فهو يقول بعد النص الذى استشهد به من «فانون» عن الحجاب ما يلى:

«هناك أوجه شبه ومقارنات أخرى يمكن العثور عليها خاصة فيما يتصل بالعنف. فهناك عدة أشكال من العنف مورست فى هذه الحرب الأهلية تشبه ما حدث فى الحرب ضد الفرنسيين، مثل إرهاب المدن، وعمليات التمشيط العسكرية، والإعدامات بدون محاكمة، وممارسات التعذيب، والتصعيد فى الإرهاب، و«ربع الساعة الأخير».. فبعد أربع وعشرين ساعة بعد الهجوم على الحى المسمى «عين الله» بالعاصمة الذى أسفر عن مقتل خمسة فرنسيين، أكد الرسميون الجزائريون أن هذه العملية هى دليل على أن الإرهابيين الإسلاميين أصبحوا فى حالة عجز.. فهو يشير بربع الساعة الأخير، إلى التصريح الذى كان أدلى به الوزير المقيم بالجزائر والمسئول عن تسييرها مدنيًا، وهو «روبير لاكوست»: فقد أكد خلال نوفمبر ١٩٥٦ ـ أى بعد اختطاف الطائرة التى كانت تقل ابن بله ورفاقه ـ «إنه ربع الساعة الأخير» للثورة الجزائرية وأن هذه فى حالة احتضار. وشبّه ذلك بما قيل بعد الاتجاه إلى الاعتداء على الأجانب من طرف الإسلاميين، وأن هؤلاء أصبحوا فى حالة عجز فى حين أن الحالتين تختلفان اختلافاً كليًا.

ففى عام ١٩٥٦ كانت الحرب قائمة على أشدها. وقد انزعجت السلطات الفرنسية للتطور الذى سجله الكفاح المسلح إلى درجة جعلتها تتصور ـ وقد صدرت تصريحات بذلك ـ أنه لولا القاهرة لما تمكنت الثورة الجزائرية من الاستمرار. وبناء على ذلك كانت فرنسا أحد الأطراف الأساسية فى التخطيط لضرب مصر بعد تاميم القناة، لأنها تصورت أن العدوان الثلاثى، سوف ينهى الثورة الجزائرية. كان ذلك التصور قائماً على أساس أن عصب الحرب يوجد فى القاهرة. فإذا احتلت هذه تقطع الإمدادات عند جبهة التحرير بالسلاح والمال وإعداد الإطارات. فكيف إذا أضيف لذلك اختطاف الطائرة المقلة لأبرز قادة جبهة التحرير الموجودين فى الخارج.

إن «ربع الساعة الأخير» فى حسابات لاكوست يقوم على منطق واضح من وجهة النظر الفرنسية: فإذا ضربت القاهرة ونجح العدوان الثلاثى من جهة، واختطف قادتها فى الخارج من جهة أخرى، فذلك يعنى أن الرأس الجزائرى المدبر للثورة قد ضُرب، وأن قاعدتها الخلفية الأساسية قد انتهت، لأن كلا من اختطاف الطائرة وبدء هجمات العدوان الثلاثى على مصر، تم فى وقت واحد، فى ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦. فأى وجه للشبه بين «ربع الساعة الأخير» الذى اشتهر به لاكوست، وبين ما قاله مسئولون جزائريون فى أغسطس ١٩٩٤ تعليقاً على قتل مدنيين أوروبيين؟

والغريب أن نفس المؤلف يسجل ذلك بثلاث صفحات، أن الحركة الإسلامية المسلحة «خلافاً لجبهة التحرير فى حربها من أجل الاستقلال، لم تنجح فى أن تجر الأحزاب الجزائرية الأخرى لتأييدها، كما لم تنجح فى القضاء عليها. والإسلاميون المسلمون اليوم لم يتمكنوا على امتداد سنوات الحرب الأهلية من إقامة قواعد خلفية تزودهم «بجيش حدود» كما كان الأمر فى الماضى. كما أن الإسلاميين لم ينجحوا فى الحصول على دعم المثقفين الغربيين؛ كما لم ينجحوا فى إسماع صوتهم بالمحافل الدولية. فى حين أن السلاح الدبلوماسى كان أساسيًا فى معركة جبهة التحرير ضد الاستعمار».

وهو يسجل ويعترف بوجود فوارق أساسية بين الحربين، الحرب ضد الاستعمار ١٩٥٤ـ ١٩٦٢، والحرب الأهلية ١٩٩٢ـ١٩٩٩. لكنه يرى أن ما يجعل حرب اليوم شبيهة بحرب الأمس هو إلحاح الأحكام المسبقة والأفكار الجاهزة التى صنعت ذاكرة حرب الجزائر فى فرنسا. «إن حاجة التكرار من حرب لأخرى وبرمجة السوابق المَرَضية لم تسمح باكتشاف الأسرار الكبرى لحرب الجزائر. فقد كان التكرار بمثابة صدمات كهربائية متوالية لا تنجح فى الشفاء من اضطرابات الذاكرة». فهو هنا يتحدث عن صور الحرب الجزائرية كما تبدو فى المنظور الفرنسى.

إعادة تمثيل الأدوار

على أن هناك مسألة نجح فى الإلمام بها، تتلخص فى الكفاح الذى قادته المرأة الجزائرية ضد الاستعمار، والمعركة التى خاضتها ضد قانون الأسرة فى منتصف الثمانينيات، ووقوفها ضد العنف الذى يختفى وراء الإسلام. إن المقاومة المسلحة التى خاضتها المرأة بجانب الرجل، ضد الاستعمار حطمت الصورة التقليدية النمطية للمرأة الخنوعة بين جدران أربع. لكن ما إن تحقق الاستقلال حتى تناسى كفاحها. صحيح لقد احتلت مناصب فى القضاء وفى مختلف أجهزة الإدارة، لكن وضعها ما لبث أن عرف انتكاسة أخلّت بما جاء فى الدستور عن المساواة بين الرجل والمرأة. ففى عام ١٩٨٤ صادف المجلس الوطنى على قانون الأسرة الذى يجعل من المرأة كائناً قاصراً. ومازال هذا القانون معمولاً به حتى الآن.

لم يعارض الرجال هذا القانون علانية ولا تظاهروا ضده، لكن عدداً من النساء تظاهرن أمام المجلس الوطنى الذى كان يرأسه أحد رجال نوفمبر، المرحوم رابح بيطاط؛ وكان فى طليعة المتظاهرات، الزهرة ظريف، التى كانت سجنت خلال الثورة، لأنها كانت فدائية. والزهرة ظريف هى زوجة رابح بيطاط!

وفى عنفوان «الحرب غير المرئية»، لم تستسلم المرأة «بل قاومت ونظمت المعركة للتخلص منه ـ حسب تعبير عالمة اجتماع فرنسية ـ تعتبر أن «هذه الحرب ليست حرباً أهلية لكنها ضد المدنيين».

ويعلق المؤلف على ذلك قائلاً: «إن إعادة تمثيل أدوار الأمس، والحكايات التى تجتر ذكريات الحرب الأولى، لا تساعدنا فى التقدم على طريق فهم هذا التاريخ الحى.



كذلك الأمر بالنسبة للصور المستعادة. إن الحرب الراهنة تحدث أصداء تعيد ذكرى سابقتها بإيحاءاتها المتعددة واجتراراتها المنبعثة: كل مشهد يصبح موضوع تفكير، ومقاربة، وعودة وانبعاث. لكن تلك الأشكال لا تتوالى إلا لكى تتغير، والصور المستعادة المتكررة لا معنى لها إلا إذا اعتبرناها مبعث طاقات بصدد أن تحيا فى الحاضر. وإلا فإن التذكير دوماً بالماضى يبنى لوحة للتأويل تحول دون أن نتبين تقاطع التجارب الحاسمة».

وهذا ما يدفع الكاتب إلى التأكيد على أن الاتجاه العام يتمثل فى السير نحو «انعدام الرؤية» لأن الاختفاء عن أنظار الناس «يشكل سلاحاً مطلقاً فى يد الرائى الذى وحده يستطيع أن يرى الناس دون أن يراه الناس. إن الاختفاء عن الأنظار يسبب العجز عن إعطاء معنى للعالم الذى تجرى فى فضائه هذه الحرب. إن ذلك يجعلنا نتخيل مجالات هجرتها الحياة. هى عبارة فقط، عن موت وشمس، مما ينسينا هذا المجتمع الذى يعيش ويتحرك ويقاوم ويتساءل: «ما هى الجزائر بعد مرور أربعين عاماً على استقلالها؟»».

ومهما يكن من شىء فالمؤلف يسجل فى النهاية أن هناك أمة، وإن تكن بعيدة عن أنظار الكاميرات «تعيد تحديد كيانها وتصلح ذاتها».

«.. والمؤرخ من جهته يتساءل: إذا لم تكن هناك آثار مرئية، كيف يمكن لنا أن نمسك بما يهرب منا، وكيف نهتدى وسط المتاهات الدائرية للانغلاق والرعب التى تسحق جزءاً من المجتمع، وكيف يمكن لنا أن نتكهن بالمتغيرات الجارية؟».

ثم يجيب عن هذا التساؤل بالفقرة التالية:

«تبقى أمام المؤرخ دائماً إمكانيات عديدة، كى يجتاز حواجز الرقابة الخارجية والرقابة الذاتية، وينطلق رأساً إلى الواقع. سوف يلجأ إلى شهادات الناس وما يقوله المشاركون فى الصراع؛ كما يلجأ إلى القراءة المتمعنة فى الصحافة اليومية، ومطالعة روايات الخيال، قصة مكتوبة كانت أو فيلماً، ويا لها من مفارقة عجيبة، فى فترة الانتقال هذه إلى القرن الحادى والعشرين: فى الوقت الذى يتميز بطوفان الصور خاصة التليفزيون، يجد المؤرخ نفسه مُجبراً على أن يعود إلى المناهج التقليدية القديمة ليحاول كتابة التاريخ الذى هو بصدد التكوين.

لكن يبدو أن «بنيامين ستورا» ـ وهو مؤرخ ممتاز ـ لم يطبق هذا النهج عندما كتب بعض مقاطع كتابه هذا، خاصة ما يتصل منها بمنع التدخين، وفرض الحجاب، و«ربع الساعة الأخير». ■

الأزهر والطب

«قواعد التنوير فى قواعد التحضير»

خالد فهمى



محمد الشباسى مؤلف الكتاب

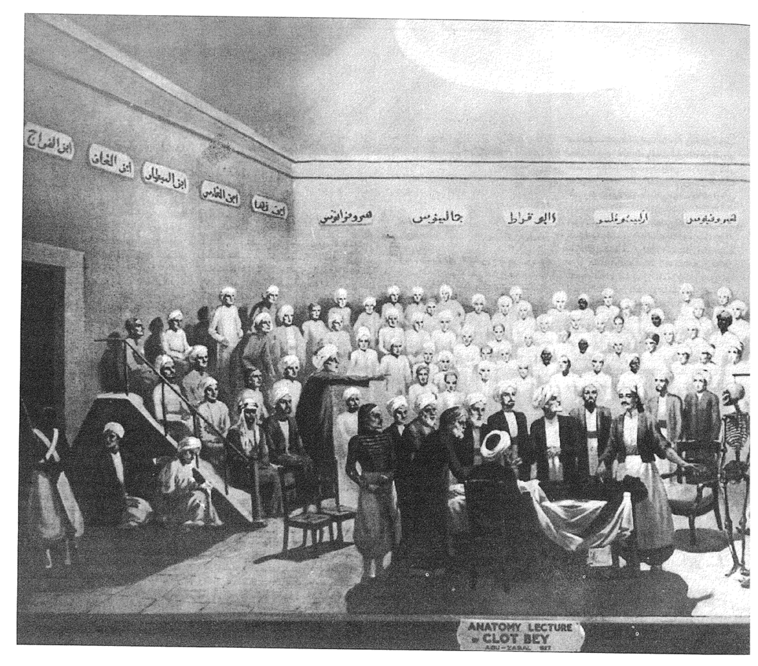
تاريخ المؤسسة الطبية المصرية الحديثة يكاد يكون مجهولاً. فباستثناء حدث قيام الفرنسى كلوت بيك بتأسيس مدرسة ومستشفى قصر العينى عام ١٨٢٧ لا يلم المرء بالكثير عن تاريخ هذه المؤسسة المهمة والحيوية، ولاسيما المشاكل والمعوقات العديدة التى واجهتها فى نموها

«إن للعلم أنواعا لا تحصى، وأفرادا لا تستقصى، وانفعها ما دل على وحدانية الصانع جل وعلا، ولم يورث المطلع عليه فسادا فى دينه ولا خللا، هذا ومن انفع العلوم وأسناها، وارفعها وأعلاها، علم الطب الذى به قوام البنية الحيوية، والقيام بالواجبات الشرعية، لكن لما كان لا يصل إلى المهارة فيه الطبيب، ولا يكون له فيه أوفر نصيب، إلا إذا مارس فن التشريح، وعرف جميع أجزاء البدن على الصحيح، وكانت المهارة فيه، ومعرفة ظاهره وخافيه، موقوفة على معرفة علم التحضير، إذ به يصير التشريح غير عسير، انتدب لكل من هذين الفنين الشاب الأمجد، والذكى اللوذعىّ الأوحد، الطبيب النطاسى، والماهر الآسى، محمد أفندى الشهير بالشباسى، معلم التشريح والتحضير فى المدرسة الطبية، فى الديار المصرية، وهو احد من كمل تلقى علم الطب بباريز قاعدة المملكة الفرنساوية، وقد انتخبه لهذين العلمين من منح من العلوم الطبية باكمل منحة، معلمه الأول كلوت بيك مير اللواء كشاف عموم الصحة، وذلك لما يعلم من براعة الأفندى المذكور ومهارته، وحذاقته وفطانته، وقوّة قلبه وجسارته، ودراءته بجميع العلوم الطبية لاسيما هذان العلمان فإنه لكثرة ممارسته لهما، والاطلاع على دقائقهما و حقائقهما، كان أولى بتعليمهما والتاليف فيهما...»

رسالة التنوير فى قواعد التحضير
محمد الشباسى
بولاق - دار الطباعة - القاهرة - ١٨٤٨

بهذه الديباجة المسجوعة استهل كتاب رسالة التنوير فى قواعد التحضير الذى ألّفه محمد الشباسى، معلم أول التشريح والفسيولوجيا فى مدرسة الطب البشرى الملحقة باسبتالية قصر العينى والذى طُبع بدار الطباعة العامرة الكائنة ببولاق مصر القاهرة فى شهر رمضان من شهور عام ١٢٦٤، الموافق أغسطس ١٨٤٨ فمن هو هذا «الطبيب النطاسى، والماهر الآسى، محمد أفندى الشهير بـ«الشباسى»؟ وماذا دفعه لتاليف هذا الكتاب؟ ومن الذى طلبه وقرأه؟ وكيف قرأه جمهوره واستقبله؟ تلك هى بعض الأسئلة التى يتناولها هذا المقال، بهدف التعرف، ليس فقط على الكتاب ومؤلفه، ولكن أيضاً على موضوعه. ذلك أن تاريخ المؤسسة الطبية المصرية الحديثة يكاد يكون مجهولاً. فباستثناء حدث قيام الفرنسى كلوت بيك بتأسيس مدرسة ومستشفى قصر العينى عام ١٨٢٧ لا يلم المرء بالكثير عن تاريخ هذه المؤسسة المهمة والحيوية، ولاسيما المشاكل والمعوقات العديدة التى واجهتها فى نموها. ويحاول هذا المقال من خلال عرض بعض المواضيع التى يتناولها هذا الكتاب الشيق أن يفحص مشكلة قلما تناولها المؤرخون المصريون فى دراستهم لتاريخ إدخال الطب الحديث فى مصر وتدريسه، وهى موقف الدين من التشريح. فمن المعروف أن الطب الحديث مبنى على علم وظائف الأعضاء وأن هذا العلم يعتمد على التشريح. كما يشاع (على عكس ما تثبته الوقائع التاريخية كما سيتضح فيما بعد) أن الكنيسة فى الغرب كان لها موقف معاد للتشريح بحجة أن العبث بالجسم من شأنهِ أن يمنع القيامة والبعث بعد الموت. فهل وقع تناحر بين الإسلام والطب الحديث عندما بدأ تدريس الطب اعتمادا على التشريح وفتح الجثث، بدلا من الاعتماد على كتب ابن سينا وجالينوس وأبوقراط؟ لن يحاول هذا المقال أن يجيب عن هذا السؤال بالبحث فى موقف الفقه من التشريح، ولكن بمحاولة التعرف على موقف العلماء ورجال الدين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر من مؤسسة قصر العينى الجديدة ومن القائمين عليها ومما كان يجرى فيها.

وهنا تكمن أهمية الكتاب الذى بين أيدينا، إذ أن الشباسى، شأنه شأن أغلب زملائه الذين تخرجوا فى الدفعات الأولى من مدرسة أبى زعبل (قبل أن تنتقل إلى مقرها الجديد، قصر



محاضـــــــرة فــــى التشـــــــريح

العينى، عام ١٨٣٧ وتُعرف به)، كان فى الأصل طالباً أزهريًا اختاره الأزهر لإلمامه بالقراءة والكتابة. وبالتالى تمكننا قراءة رسالته فى قواعد التحضير (والمقصود بالتحضير هنا هو تحضير الجثة للتشريح) من الوقوف على أهمية خلفية الشباسى الأزهرية لعمله كمعلم أول التشريح والفسيولوجيا فى مدرسة قصر العينى.

المــــــــؤلـــــــف

كان مؤلفنا هذا طالبا بالأزهر والتحق بمدرسة الطب فور تأسيسها بأبى زعبل فى ١٨٢٧، ويبدو أنه كان متفوقاً على أقرانه، لأنه اختير للسفر إلى فرنسا فى بعثة عام ١٨٣٢ الطبية التى سافر معها كلوت بيك بنفسه والتى قامت الجمعية الطبية الفرنسية بامتحان أعضائها الاثنى عشر، أما تاريخ عودته إلى مصر فمُختلَف عليه: فالشيّال يقول إن عودته كانت فى عام ١٨٣٨، أما الدكتور نجيب محفوظ فيقول، اعتمادا على الوثائق التاريخية التى كانت محفوظة آنذاك فى قصر عابدين، إنه لم يعد إلا بعد ذلك بعامين، أى فى عام ١٨٤٠ وفور عودته مُنح رتبة بكباشى وحُددت أجرته بعشرة جنيهات شهريًا، وكما يقول الشباسى نفسه فى فاتحة كتابه فإن أول تعيينه كان كمدرس فى مدرسة الطب «أعلم التشريح والفسيولوجيا...وأعطانى (كلوت بيك) بالاسبتالية الكبرى (أى قصر العينى) عيادة الأمراض الزهرية (أى التناسلية).

وكان على خريجى قصر العينى عند تخرجهم، وقبل تسلمهم لمهام وظائفهم الميرية الجديدة، أن يحلفوا «يمين أبوقراط» (The Hippocratic Oath)، المنسوب إلى الطبيب الإغريقى أبوقراط المعروف بأبى الطب (٤٧٠-٣٦٦ ق.م)، والذى يردده طلبة الطب فى العديد من جامعات العالم حتى يومنا هذا عند استلامهم لإجازاتهم العلمية. وإليك الترجمة العربية (عن الفرنسية) للقسم الذى أمر كلوت بيك بتحريره حتى يتسنى لتلامذته «أولاد العرب» (أى المصريين) أن يقسموا به:

هذا عـــــهـــد الأطبـــا

اقسم بالله العظيم ونبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم على انى اكون اميناً حريصاً على شروط الشرف والبر والصلاح فى تعاطى صناعة الطب وأن اسعف الفقرا مجاناً ولا اطلب اجرة تزيد علي اجرة عملى وانى إذا دخلت بيتاً فلا تنظر عيناى ماذا يحصل فيه ولا ينطق لسانى بالأسرار التى يامنونى عليها ولا استعمل صناعتى فى إفساد الخصال الحميدة ولا اغويها على الذنوب ولا اعطى سُمّاً البتة ولا ادل عليه ولا اشين به ولا اعطى دوا فيه ضرر على الحوامل ولا إسقاط لهن واكون موقراً وحافظاً المعروف مع الذين علّمونى ومكافئاً لأولادهم بتعليمى إياهم ما تعلمته من آبائهم ما دمت حريصاً على عهدى واميناً على يمينى فجميع الناس يعتبرونى ويوقرونى، وإن خالفت ذلك فاكون المرذول المحتقر، والله شهيد على ما اقول.

ويبدو من كلام الشباسى عن نفسه أنه كان أميناً فى مهنته محافظاً على عهده إذ يذكر فى فاتحة كتابه أنه «(نجح) فى المداواة بكل طريقة مرضية، فأدنى شىء فعلته أنى اجتهدت فى معالجة الفقراء والمساكين من أهالى المحروسة وما يليها، حتى شفى بمعالجتى الكثير من أهاليها...» إلا أن سجلات قصر العينى المحفوظة فى دار الوثائق القومية تعطى لنا انطباعاً مختلفاً بعض الشىء عن تلك الصورة المثالية التى يقدمها الشباسى عن نفسه، إذ تسجل لنا واقعة يمكن اعتبارها حالة إهمال طبى كان صاحبنا مسئولاً عنها، فقد مرت عليه حالة تورم فى «كيس» (أى صَفَن) مريض يدعى إبراهيم أغا الخزرجى، فأجرى له الشباسى

عملية جراحية بغير إذن منه أو من أقاربه. وفى ذلك الوقت لم تكن موافقة المريض شرطا لإجراء العمليات الجراحية. ولكن شاء حظ الشباسى العاثر أن يموت المريض بعد أربعة أيام من إجراء العملية وأن يقيم أهل المتوفى دعوى شرعية عليه اتهموه فيها بالتسبب فى وفاة مورثهم وطالبوه بما تقتضيه الشريعة: الدية أو القصاص. نُظرت الدعوى، كما جرت العادة آنذاك، فى كل من المحكمة الشرعية و«شورى الأطبا»، وكانت تلك بمثابة وزارة الصحة، وكان من ضمن اختصاصاتها التحقيق فى المخالفات المالية والإدارية والمهنية للأطباء. وبالرغم من أنه «اتضح من أوراق التحقيق... أنه حصل حسن شهادة فى حق الحكيم المذكور وصار صرف النظر عن الدعوى من الأقارب» إلا أن خبر الواقعة وصل إلى الخديو عباس، فأمر «بوضع قانون فى حق الحكما لأجل عدم وقوع مثل ذلك من الأمور غير المرضية». وقد نص البند الأول من هذا القانون على «أنه لا يجوز بوجه من الوجوه التجربة وإجراء عملية التشريح جبراً من (أى على) الأشخاص الذى على قيد الحياة وبالاقتضى (أى وإذا لزم) تجربة وإجراء التشريح وتحصيل التقوية للصناعة فإنه من (أى على) الأشخاص الذى توفوا...» ويتضح من هذا النص أن الخديو عباس لم يقتنع بالحجج التى كان الأطباء يقدِّمونها (والتى ما زلنا نسمعها منهم إلى الآن) بأنهم أدرى بجسم المريض منه وأنهم وحدهم القادرون على تحديد مصلحته، بالإضافة إلى الرأى الآخر الشائع فى كل المستشفيات التعليمية والذى يذهب إلى القول بأن العمليات الجراحية مهمة لتعليم الأطباء المبتدئين واكتساب الخبرة، وأنه بذلك «تحصل التقوية للصناعة». فكان رد عباس على تلك الحجة الواهية ألا يكون ذلك على حساب حياة المريض. وأضاف فى البند الثالث من القانون أن من ينتهك حرمة المريض على هذا النحو يُعاقب بالنفى إلى فيزاوغلى فى السودان «بقيد الحياة بشرط لا يشتغل فى شغل حتى يصير عبرة للغير وموجباً لانتباه غيره...».

ولا نسمع عن الشباسى بعد تلك الواقعة كثيراً ولكن من المعروف أنه كُلف بعيادة المستشفيات العسكرية والملكية (أى المدنية) وأن شركة قناة السويس اختارته طبيباً لموظفيها، وقد عمّر الشباسى طويلاً وكانت وفاته فى ١٨٩٤ عن عمر يناهز التسعين.

الكتـــــاب

وكان الشباسى قبل تأليفه للتنوير قد قام بترجمة مرجع فرنسى مهم عن التشريح هو كتاب جان كروفيلييه Jean Cruveillier الذى كان قد صدر فى عام ١٨٢٩ بعنوان: Anatomic pathologique du corps humain، فصدر بالعربية بعنوان: التنقيح الوحيد فى التشريح الخاص الجديد فى عام ١٨٥٠ فى ثلاثة مجلدات ضخمة بلغ مَجموع صفحاتها ١٣٢٠ صفحة. وبذل كل من الشيخ سالم عوض القنواتى الذى عُرف «بالمصحح الأول» والشيخ محمد عمر التونسى، «الباشمصحح»، مجهوداً ضخماً فى تصحيح لغته وتهذيبها حتى صارت سلسة سهلة الفهم. ولكن يبدو أن مطبعة بولاق لم تتمكن من طباعة الرسوم والأشكال التوضيحية التى تميّز بها الأصل الفرنسى والتى لا تُضارع فى تاريخ الرسوم التوضيحية الطبية.

وبعد فراغه من ترجمة نص كروفيلييه قال إنه استشعر الحاجة الماسة لتأليف كتاب فى التحضير «والذى أحوجنى إلى تعب التأليف، وترك ترجمة بعض التصانيف، أنه لا يوجد فى كتب الفرنساوية كتاب فى التحضير مفيد، يستغنى به عن غيره مع أن ذلك أكد من أكيد (أى: مؤكد تماما)، لأن أغلب كتب التشريح عندهم خالية عن ذكر كيفيات التحاضير، ولو كانت مؤلفة من المشاهير...فلذلك ألفت هذا الكتاب الجليل،... فعلى تلامذة التشريح أن يبدأوا قبله بعلم التحضير، وأن يتعلموا أسماء الأعضاء ويعرفوها معرفة خبير، كما يجب أن يعرفوا الاحتراسات اللازمة لتحضيرها، ومعرفة سهلها من عسيرها، فبذلك يسهل عليهم معرفة أجزاء الأشلاء والمطالعة فى كتب التشريح،... ولا يرغب التلميذ فى التشريح إلا إذا مارس التحضير، ومتى اجتهد فى ذلك كان الأمر غير عسير، وبالجملة فالتشريح روح العلوم الطبية، وبدونه لا يعرف الطبيب حقيقة الأعضاء الآلية.»

تاريخ التـــشـــريح
فى قــصــر العـــينى

لم يكن التنوير فى قواعد التحضير الكتاب الوحيد عن التشريح الذى طُبع فى مطبعة بولاق فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. فالشيّال يذكر ستة كتب أخرى تُرجمت كلها عن الفرنسية وطُبعت فيما بين عامىّ ١٨٣٣ و١٨٥٠ هذا بخلاف الكتب التى تتناول موضوعات طبية أخرى، والتى بلغت فى إحصاء الشيّال ٥٤ كتاباً، وكان أول كتاب فى التشريح يُطبع فى مصر هو «القول الصريح فى علم التشريح» الذى وضعه بالفرنسية الدكتور بايل Bayle والذى طُبع فى بولاق عام ١٨٣٣، وكان أيضا أول ما تُرجم وطُبع من كتب الطب فى مدرسة الطب، مما يدل على المكانة المهمة التى احتلها علم التشريح فى مناهج التعليم فى المدرسة، الأمر الذى نجد له صدًى فى كتابات وترجمات الكثير من الأطباء. فعيسوى النحراوى مثلاً يقول فى مقدمة كتاب الدكتور كلار الذى ترجمه بعنوان التشريح العام: إن التشريح «عليه مدار أصل الطب والأحكام»، كما يقول الشباسى فى مقدمة رسالة التنوير إنه «من المعلوم عند الأمم المتمدنة أنه لا يتقدّم الإنسان فى الطب إلا بممارسة فن التشريح».



وعند حديثه عن التشريح يذكر كلوت بك فى مذكراته الأهمية التى كان يعلقها على تدريس التشريح فى مؤسسته الطبية الحديثة، ومما يلفت النظر أنه بدأ هذا الحديث بالإشارة إلى المعارضة الشديدة التى يزعم أنه واجهها من قِبل رجال الدين وأوضح كيف حاول جاهداً أن يستميل علماء الأزهر لرأيه ويبيّن لهم الفائدة المرجوة من هذا العمل غير المسبوق فى مصر: «لقد عملت جاهداً حتى أحوز ثقة شيخ الإسلام (كذا) الشيخ العروسى وهو رجل ورع ومهم له شهرة واسعة فى البلاد... وعندما تطرقت إلى موضوع التشريح لم يفهم أن النظرية [أى الاعتماد على النصوص النظرية فى تدريس الطب] لا تقدم سوى مفاهيم مبهمة غير مكتملة. فقلت له ألا ترى أن على صانع الساعات لكى يُصلِح ساعاته المعطوبة أن يفهم نظامها الميكانيكى؟ أولا تدرك أن عليه أن يقوم بجمع أجزائها ثم تفكيكها مرة أخرى حتى يتسنى له أن يفهم كيف تعمل؟ ويبدو أن هذه الصورة قد استوقفته... [فى النهاية] استطعت أن أحصل على موافقته ولكن بعد أن تعهدت أن أكون حريصاً وأن أقوم بتدريس التشريح فى السر».

ويبدو للوهلة الأولى أن حرص دكتور كلوت كان فى محله فالدكتور نجيب محفوظ يخبرنا اعتماداً على مذكرات كلوت بيك أن «ممارسة التشريح أثارت الكثير من الاعتراضات ليس اعتراض العلماء فقط ولكن اعتراض التلامذة أنفسهم. وبالإصرار والعزيمة حصلنا على موافقة العلماء... ولكن حدث ذات يوم أن استشاط أحد الطلبة غضباً عندما رأى الجثث تُشرّح فهمّ بطعن كلوت بيك فى جبهته وصدره، ولكن لحسن الحظ تمكن كلوت بيك من تحاشى الطعنة بحركة صغيرة من ذراعه، واستأنف الدرس وكان شيئاً لم يحدث، فحاز بذلك على إعجاب الطلبة».

ومن غير المؤكد أن تكون هذه الواقعة صحيحة تماماً إذ أنها تشبه وبشكل غريب حادثة أخرى كانت قد وقعت قبل ذلك بخمس أو ست سنوات لا لكلوت بيك ولكن للفرنسى الآخر الذى كان يعمل مثله لمحمد على والذى ضاهت شهرته شهرة كلوت بيك وأقصد به كولونيل سيف المعروف بسليمان باشا. ذلك أنه أثناء تدريب مماليك محمد على لكى يكوِّنوا نواة هيئة ضباط جيشه الحديث، وحسب رواية كلوت بيك نفسه، دبر هؤلاء الشبان «المؤامرات مراراً ضد المسيو سيف لاغتياله، وبلغ من أمرهم معه أنه كان ذات يوم يدبر تمرينات ضرب النار، فإذا بأحدهم أطلق عليه رصاصة مرت بجوار أذنه وسمع صفيرها. فلم يفقد شيئاً من ثبات جأشه بل استأنف التمرين النارى نفسه وأمر التلاميذ بإطلاق النار من جديد... فلم يسع الثائرين إزاء هذا التسامح الغريب والبسالة النادرة إلا أن كسروا من شدة حدتهم وبعد أن كانوا ناقمين عليه صاروا أولياء له يخصونه بالحب الشديد والاحترام». وبالإضافة إلى التشابهات المريبة بين الواقعتين والتى توحى بأن إحداهما قد تكون منقولة عن الأخرى يؤكد لنا كلوت بيك أن الإسلام مرة أخرى كان وراء تلك المقاومة للتقدم والتحديث فى المجال العسكرى شأنها شأن مقاومة التحديث فى المجال الطبى، فيقول إن «ما فطر المسلمون عليه من الشمم وإباء الضيم والصفات النفسية التى تحول دون رضوخهم للمعلمين المسيحيين» كان الدافع وراء محاولة الاغتيال تلك.

وهناك لوحة فنية لفنان مجهول أوردها الدكتور نجيب محفوظ فى كتابه عن تاريخ التعليم الطبى فى مصر (والغالب أن أصلها كان محفوظاً فى مبنى قصر العينى القديم) توثق وتسجل بشكل درامى المواجهة بين العلم والدين التى يسوقها كلوت بيك عند الحديث عن أول درس للتشريح أُجرى فى مصر، وكان ذلك يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧. تقدم اللوحة مشهدا فى قاعة محاضرات أُعدت خصيصاً لغرض تدريس التشريح، فبالإضافة إلى المنضدة التى وُضعت عليها الجثة والتى تتوسط القاعة، زُينت جدران القاعة بأسماء المشاهير من رجال الطب العرب مثل أبو موسى جابر وابن زهر وابن البيطار وغيرهم، فى محاولة لإقناع الطلبة بأن ما يحدث أمامهم فى هذه القاعة امتداد لتراث العرب الطبى وليس بدعة مذمومة. والأهم من ذلك هو ظهور طالب واقف يشير بذراعه لما يحدث فى منتصف القاعة، وكأن اللوحة تحيلنا إلى ذلك الموضع فى مذكرات كلوت بيك الذى يوضح فيها اعتراض أحد التلاميذ على عملية التشريح. وتظهر لنا اللوحة كلوت بيك وهو يتابع الدرس لامساً بيده اليمنى صدر الجثة ومشيراً بيده اليسرى إلى هيكل عظمى معلق فى تركيبة لغرض الشرح والتوضيح، وكأن كلوت بيك يشرح العلاقة بين شكل الجثة الخارجى والهيكل العظمى الذى تحتويه (أو كأنه يشير إلى حتمية الموت).

على أن أهم ما يميَز اللوحة هو ثلاثة عناصر أو رموز، اثنان منها واضحان والثالث غائب، أما العنصر الغائب فهو كتاب التشريح الذى جرت العادة على إدراجه في لوحات دروس التشريح ولو بشكل هامشىّ، للإشارة فيما يبدو إلى أن التشريح إنما يؤكد مقولات الأقدمين وعلى رأسهم جالينوس. فحتى القرن

الخديو عباس لم يقتنع بالحجج التى كان الأطباء يقدمونها (والتى ما زلنا نسمعها منهم إلى الآن) بأنهم أدرى بجسم المريض منه وأنهم وحدهم القادرون على تحديد مصلحته، بالإضافة إلى الرأى الآخر الشائع فى كل المستشفيات التعليمية والذى يذهب إلى القول بأن العمليات الجراحية مهمة لتعليم الأطباء المبتدئين واكتساب الخبرة

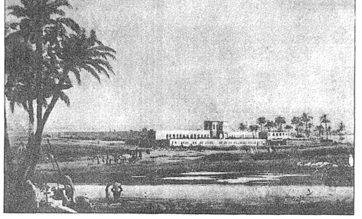
السابع عشر عندما أصبح التشريح معترفاً به في كليات الطب في بلدان أوروبا الغربية كانت اللوحات الفنية التي تسجل هذه الممارسات الغريبة دائما تُظهر كتاب التشريح الذى كان يُفترض أن درس التشريح يؤكد صحة مقولاته. وقد تكون لوحة الفنان الهولندى الشهير رمراندت «درس تشريح دكتور تالب» خير مثال على ذلك. فبالرغم من احتلال الجثة المشرحة لمنتصف اللوحة إلا أن نظرات أغلب الحاضرين موجهة ليست للجثة وإنما لكتاب التشريح المفتوح والموضوع في الركن الأيمن السفلى للوحة في إشارة واضحة للمكانة التى كانت النصوص الطبية القديمة ما زالت تحتلها في تدريس الطب. أما في لوحة قصر العينى فقد اختفت هذه الإشارة تماماً، وكأن اللوحة تقول إن معرفة الجسم البشرى لا تتم إلا بفتحه ورؤيته بالعين، بغير حاجة لمعرفة ما قاله جالينوس أو ابن سينا أو غيرهما في هذا الصدد.



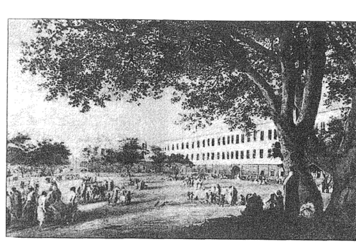
أما العنصران الآخران الحاضران في اللوحة فيتعلقان بموقف الدين من الطب وتحديداً بمقاومة الإسلام المزعومة للتشريح. فاللوحة تظهر لنا جنديين بملابس عسكرية، أحدهما يقف بجانب الجثة والآخر عند مدخل القاعة، في إشارة واضحة للتدابير الأمنية التى اتخذها كلوت بيك لمقاومة الطلبة الأزهريين الجدد أو لمواجهة علماء الأزهر الذين دعاهم لحضور هذا الحدث الجلل. وتُظهر اللوحة اثنين من هؤلاء العلماء عند الجثة منكبّين على متابعة ما يقوله كلوت بيك بثقة واضحة. وموقع هذين العالمين في اللوحة، وهذا هو العنصر الثالث المهم، له دلالة بالغة الأهمية، فقد اختار الفنان (الذى كان بالتأكيد يعتمد على رواية كلوت بيك عن هذا الحدث المهم) أن يكون وضعهما بين الجثة التى هى مصدر العلم في تقدير كلوت بيك وبيننا نحن المتفرجين، وكأنه يقول بذلك إن محاولاته الدءوبة لنشر العلم والمعرفة يعترضها دائما الدين ورجال الدين.

التشريح في الغرب بين الطب والسياسة

غير أنه من المستبعد جداً أن فهم الطبيب الفرنسي للعلماء المسلمين ومواقفهم كان سليماً آنذاك، فلم يكن قد مضى على إقامته في مصر سوى سنتين، وهى فترة غير كافية ليتعلم العربية (التى لم يتحدث أو يكتب بها قط برغم طول مدة إقامته في مصر) أو لمعرفته بمبادئ الإسلام، فما بالك بموقف الفقه من قضية شائكة كالتشريح. فقد كان يعتقد مثلاً «أن الدين الإسلامي يقضى باحترام الموتى ويسلم ببقاء الشعور فيهم كما لو كانوا على قيد الحياة، فهم يحسون بما تصاب به أجسامهم من الجراح أو الأذى أياً كان». وأغلب الظن أن رؤية كلوت بيك للإسلام كانت متأثرة بالأفكار الاستشراقية السائدة في وقته والتى اعتبرت الإسلام سبب تخلف المجتمعات الإسلامية الشرقية، ولكن



مستشفى أبو زعبل العسكرى



مستشفى قصر العينى العسكرى

يبدو أن حنق كلوت بيك على رجال الدين (وهو واضح تماما في كتاباته برغم احتجابه خلف ستارٍ واهٍ من الاحترام المصطنع)، كان مردّه موقفه من الكنيسة ومن المسيحية لا من الإسلام ومن علمائه، نظرا لأن هذا الموقف المعادى للدين، المبنى على اعتباره عائقا في وجه العقلانية والتقدم، كان موقفاً تقليدياً للفلاسفة التنويريين، وتبعهم فيه الكثير من المؤرخين وأهمهم مؤرخو الطب في أوروبا في العصر الحديث. فكثيراً ما نقرأ أن محاولات الأطباء الدءوبة لتطوير الطب واستحداث نظريات جديدة تشرح كيفية انتشار الأمراض والأوبئة أو التوصل إلى وسائل جديدة للعلاج كانت تصطدم دائماً بمعارضة الكنيسة. ويرى مؤرخو الطب التقليديون أن معارضة الكنيسة كانت عقبة مهمة أمام الكثير من هذه الممارسات وخاصة تشريح الجسم البشرى. كما يرون أن معارضة الكنيسة كانت نابعة من اعتبار التشريح عملاً يتحدى قدرة الخالق أو يعبث بمخلوقاته، فضلا عن شكهم في أن هذا العبث بأجسام الموتى يمنع القيامة والبعث بعد الموت. وحسب الروايات التقليدية فقد تمكن العلم الحديث من التغلب على هذه «الأوهام الدينية» (كما يسميها كلوت بيك عند حديثه عن جهوده في هذا المجال في مصر) بالإصرار على نشر المعرفة واستخدام الحجة والمنطق وعدم الرضوخ لمخاوف العامة من كل ما هو جديد وغير مألوف. وما استخدام كلوت بيك لتشبيه الجسم الإنسانى بالساعة إلا محاولة منه لمقارعة الحجة بالحجة سبقه فيها الكثير من الأطباء عند تاريخهم لمهنتهم: فتشبيه الخالق بصانع الساعات الذى تتضح قدرته وتتجلى حكمته عند التأمل في عظمة وروعة مخلوقاته كان قولاً مألوفاً دأب الأطباء وفلاسفة عصر التنوير على ترديده للتذكير بأهمية استخدام الحجة والمنطق للتغلب على الشعوذة والسحر و«الأوهام الدينية». (على أنه ربما غاب عن كلوت بيك الخطورة الكامنة في هذا التشبيه، إذ كثيراً ما قيل إن هذه التشبيهات «الميكانيكية» - الكون كآلة والجسم كساعة والخالق كصانع ماهر - ربما تذكرنا بعظمة الخالق ولكنها في نفس الوقت كانت الأساس الذى بنى عليه الفيزيائى لابلاس (١٧٤٩-١٨٢٧) تصوره للكون بغير حاجة لافتراض خالق، فالآلة ليست في حاجة إلى صانعها بعد أن يفرغ من ابتكارها والساعة تستطيع أن تعمل بدقة متناهية بدون تدخل لاحق من الساعاتى الذى جمّع أجزاءها).



وفى مواجهة هذه النظرة التقليدية الشائعة للعلاقة بين الدين والطب الحديث، ظهرت في الآونة الأخيرة دراسات جادة تشكك في افتراضاتها. فحاولت أن تفسر المقاومة التى واجهتها محاولات تدريس الطب بالاعتماد على التشريح بالتناقضات الكامنة داخل المؤسسة الطبية ذاتها، وبوضع تلك المؤسسة داخل إطارها التاريخى. وتوصلت من ذلك إلى أن دور الكنيسة في مقاومة التشريح لم يكن مهما، وأن المقاومة الأساسية أتت من مصادر أخرى، منها مثلاً جمود المؤسسة الأكاديمية الطبية في القرون الوسطى وما قبل الحديثة (القرون ١٣-١٧)، حيث كانت تفصل الطب والحكمة عن الجراحة. فالطبيب (أو الحكيم) عندما هو من يستقى علمه من كتب الأولين والذى لم يدنس يده بعمليات الجراحة والحجامة وجبر العظام وخلع الأسنان، التى كان يقوم بها حلاقو الصحة أو الجرّاحون، الذين كان يُنظر إليهم كنوع من الجزارين يختص عملهم بالأجسام الآدمية بدلا من الحيوانية. لذلك ظلت الجامعات التى كانت تدرس الطب كجامعات بولونيا وبادوا وباريس تعتمد على كتب جالينوس لا على درس التشريح. وحتى عندما كان يُستعان بالجسم البشرى للتدريس كان ذلك يتم لتأكيد صحة آراء جالينوس وأرسطو وليس لتصويب هذه الآراء أو الإضافة إليها. وفى هذه الحالات كان الطبيب يُلقى محاضرته مستعينا بالنص الكلاسيكى، واقفاً خلف منصة عالية، بعيدا عن الجثة التى كان يتولى تشريحها مشرِّح (sector)، وهو منصب يعتبر من أدنى وأحقر المناصب في المؤسسة الأكاديمية الطبية.

بالإضافة إلى جمود الجامعات والمؤسسات الأكاديمية كانت الصعوبات التى واجهها التشريح لكى يتبوأ مكانته المركزية في تدريس الطب نابعة من معارضة المجتمع ككل - لا المؤسسة الدينية وحدها - لتلك الممارسات المقلقة. فالمجتمعات البشرية تكاد تجمع على إجلال الموت واحترامه وعلى التعبير عن هذا الإجلال وذلك الاحترام بسرعة دفن الميت (إكرام الميت دفنه). وبالتالى فإنها تستنكر تأخير الدفن أو العبث بجسم الميت بغض النظر عن أية حجج لاهوتية أو فقهية. هذا بالإضافة إلى أن التشريح اقترن في أذهان العامة في أغلب مجتمعات أوروبا الغربية في العصر ما قبل الحديث بالقانون وبالعقوبات الجسدية الاستعراضية التى كثيراً ما شوهدت في الميادين العامة أو في مداخل القرى. إذ كان الحصول على جثث سليمة لأناس حديثى الوفاة لاستخدامها لأغراض تعليمية شيئاً بالغ الصعوبة، فمن ذا الذى كان يرضى بأن تؤخذ جثة ذويه لمسرح التشريح في الجامعة حيث يمثل بها بعض الطلبة مدعو العلم؟ لذلك اضطر أساتذة التشريح للتقدم للسلطات القضائية والسياسية بطلب الحصول على جثث من يُنفَّذ فيهم حكم الإعدام، ويا حبذا إذا لم تكن العقوبة هى ضرب العنق (وهو عقاب كان مقصوراً على الطبقة الأرستقراطية) وإنما الشنق (وفى أغلب المجتمعات الأوروبية كان الشنق يُنفذ في «سوقة» الناس و«أسافلهم») حتى يتوافر تحت مشرط المشرِّح جسم كامل يستطيع به أن يشرح لتلاميذه آراء جالينوس. وبذلك أضحى التشريح مقترنا في أعين الناس بالإعدام، وصار بمثابة مرحلة أخيرة ومهينة للعقاب الجسدى تلاحق المجرم حتى بعد خمود أنفاسه.



على هذا النحو دحضت هذه الدراسات الجديدة الآراء التقليدية التى كانت ترى في الدين العائق الوحيد أمام



كتاب الزاوية

عبقرية المسيح

وضع المفكر والكاتب الكبير عباس محمود العقاد سلسلة من العبقريات لشخصيات إسلامية بارزة فى مقدمتها النبى صلى الله عليه وسلم وعدد آخر من الصحابة الكرام ولم ينس العقاد برؤيته الشاملة والعميقة أن يقدّم عبقرية المسيح تأكيداً للدور الذى لعبته الديانة المسيحية فى التاريخ الإنسانى، وكذلك دور السيد المسيح عليه السلام. وقد صدرت طبعات من هذا الكتاب تحت عنوان «حياة المسيح». يقول العقاد فى المقدمة إن هذا الكتاب مقصور على غرض واحد وهو جلاء العبقرية المسيحية فى صورة عصرية نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها.

الإيمان بظهور المسيح

الإيمان بظهور رسول إلهى يسمى «المسيح» لم يعرف قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها، فى التلمود والهجادا وما إليها. ومرجع التسمية نفسها إلى الشعائر التى وردت فى سفر التكوين وسفر الخروج وما يليها من أسفار الأنبياء. فإن المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم، وأول ما ورد ذلك فى الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين حيث روى عن يعقوب أنه «بكر فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه ودعا ذلك المكان بيت إيل ـ أى بيت الله». وقد كان الإيمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الأول، فردد الشعب الإسرائيلى وعود أنبيائه بعودة الملك إلى أمير من ذرية داود تخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه.



تقدم الطب وقدمت أسباباً تاريخية أخرى أراها أكثر إقناعاً. فإذا عدنا إلى قراءة مقولات كلوت بيك فى هذا الصدد، ينبغى أن نلاحظ أنه كان متأثراً بأفكار التنويريين بشكل غير نقدى وأنه كان يرى فى نفسه وفى عمله فى الشرق تنويرا للبشرية التعيسة فى مصر.

وقبل أن نعود إلى مؤلفنا محمد الشباسى لكى نعرف (وقد كان أصلاً طالباً أزهريّاً) رأيه فى موقف الشرع من التشريح، نطرح بعض التساؤلات عن الأسباب التى دفعت البعض فى مصر إلى الاعتراض على دروس التشريح التى استحدثها كلوت بيك فى مؤسسته التعليمية الجديدة. فهل نستطيع القول ـ مثل المؤرخين المحدثين للطب فى أوروبا ـ بأن هذه الاعتراضات لم تكن نابعة من العلماء ورجال الدين أو منطلقة من موقف فقهى بقدر ما كانت معبرة عن نفور طبيعى وإنسانى من انتهاك حرمة الموتى؟ وهل اقترن التشريح بمشاهد العقاب البدنى الفظيعة فى أعين الناس فى مصر كما كان الحال فى بلدان أوروبا الغربية؟ هل من الممكن أن نفترض أن مقاومة التشريح كان لها أسباب أخرى لم تكن لها علاقة بالشرع أو الدين أو الفقه؟ وما هو مصدر إمداد قصر العينى بالجثث التى كان الشباسى وغيره من أساتذة التشريح يشرحونها؟ تلك بعض التساؤلات التى تلح على الباحث فى تاريخ مصر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر وتطالبه بأن يحاول الإجابة عنها.

التشريح بين العلم والشرع

وبالرجوع إلى السجلات والمحافظ المحفوظة فى دار الوثائق القومية (والتى تُعد بحق كنزاً قومياً يجب العناية به والحفاظ عليه) يمكن للباحث أن يجيب ولو بشكل مبدئى عن بعض هذه الأسئلة. ذلك أن سجلات ضبطية مصر (أى شرطة القاهرة) وديوان تفتيش صحة المحروسة ومجلس الخصوصى (وكان ذلك المجلس بمثابة مجلس استشارى تضاهى سلطاته سلطات مجلس الوزراء الآن) كلها تشير إلى أن أهم سبب للاعتراض على عمليات التشريح كان تأخير الدفن وليست أية حجج أخرى مثل تلك التى يوردها كلوت بيك فى كتبه من قبيل شعور جثث المسلمين بالألم أو تقويض فرص البعث بعد الموت. وكان الاهتمام بعدم تأخير الدفن بالأهمية بمكان حتى صدرت تعليمات صارمة بأن تكون مهمة الكشف على الأموات أول ما يقوم به حكماء الأثمان فى المحروسة (أى أطباء الأحياء فى القاهرة) فى عملهم اليومى وتنبه عليهم بأن يقوموا بتلك المهمة يومياً من الساعة الواحدة حتى الحادية عشرة صباحاً (حسب التوقيت «العربى» أى بعد ساعة واحدة من شروق الشمس إلى ما قبل غروبها بساعة واحدة). وكانت عقوبة الحكماء الذين يتأخرون فى تادية تلك المهمة الحساسة تتراوح بين الحبس عشرة أيام والطرد من الخدمة الميرية كلية. فى مواجهة اعتراض بعض الأهالى ورجال الدين من تأخير الدفن وخاصة أثناء فترات الوباء عندما زادت أعداد المتوفين يومياً شددت السلطات الطبية من تنبيهاتها للحكماء بعدم التأخير. ولكنها أكدت فى نفس الوقت على أهمية عدم التسرع فى الدفن خوفاً من تشخيص بعض حالات الإغماء على أنها حالة وفاة مما يعنى دفن الناس أحياء والموت «أشنع ميتة» كما عبر عن ذلك رشيد رضا فى فتوى مهمة أصدرها عام ١٩١٠ أجاز فيها عملية الكشف الدورى على الأموات حتى وإن استدعى ذلك كشف الطبيب على المرأة.



وإذا كانت هذه السجلات المحفوظة فى دار الوثائق القومية توحى لنا بأن تأخير الدفن كان من أهم أسباب الاعتراض على عمليات التشريح، فإن فى مؤلفات وترجمات الجيل الأول من أطباء قصر العينى (المحفوظة فى دار الكتب التى تعد أيضاً كنزاً قوميّا) ما يمكننا من الوقوف على رأيهم هم من بعض جوانب هذا الموضوع الشائك. ففى أكثر من موضع من الكتاب الذى بين أيدينا ـ مثلاً ـ يوضح الشباسى رأيه فى موقف الإسلام من الطب الحديث ومن التشريح تحديداً. فكما رأينا لا يرى الشباسى أى تعارض بين الطب والدين، بل يؤكد فى أكثر من موضع أن «علم الطب... به قوام البنية الحيوية، والقيام بالواجبات الشرعية». وعلى خلاف رواية كلوت بيك التى تركز على اعتراض الطلبة الشديد على التشريح يؤكد لنا الشباسى أن هذه المعارضة زالت سريعا؛ فيقول إن «من العجائب أن حب التشريح استولى على تلامذتى بعدما كانوا له كارهين، فطالما شوهد أحدهم يترك غذاءه والخروج إلى (التفسح) النزهة (ويعكف على قراءة) كتاب التنقيح الوحيد ليكون فيه من المتمكنين، ويأخذ العضو المحضر فى محل نومه، وإذا لامه أحد لا يبالى بلومه».

أما بخصوص ممارسة التشريح فكان الشباسى بالطبع مؤمناً بأهميتها أشد الإيمان ولم يكن يتصور وجود للطب كما فهمه ومارسه بدونها: «فلفتح الجثث» كما يقول «فوائد كثيرة منها معرفة الأعضاء وهى فى حالتها الصحية التى كانت عليها زمن الحياة،... ومنها معرفة أنواع التغيرات المرضية التى تصيب كل عضو على حدته أو كل مجموع من المجاميع ومقابلتها بالأعراض التى تشاهد قبل الموت ليستنتج من هذه المقابلة معالجة ناجحة للغاية، ومنها حل المشكلات التى تخص الطب السياسى أو الشرعى كما فى أنواع الحرق أو التسمم أو القتل أو الغرق أو السقوط أو الجروح الخطرة، ومنها تجنب ما يوقع فى الأخطار وقت الأعمال الجراحية الصغيرة أو الكبيرة ومعرفة سبب حصول النجاح أو عدم حصوله فى هذه العمليات...». وبالإضافة إلى كل هذه الفوائد العلمية التى تعود على الطب من جراء ممارسة التشريح لا يجد مؤلفنا غضاضة من أن يضيف فائدة مهمة أخرى وهى «معرفة أفعال ووظائف الأعضاء البديعة التركيب والتامل فى صنع المولى جل جلاله وهذا مما يقوى الإيمان ويزيده». بل إنه يستشهد بجالينوس الذى قال إن «قراءة كتب التشريح

أعظم العبادات الإلهية وتحمل على الإقرار بوحدانية الله».

وفي خاتمة كتابه يعود الشباسي ويؤكد على أهمية التشريح ليس فقط للعلوم الطبية ولكن أيضاً لتنفيذ أحكام الشرع. فيوضح قائلاً: «فمما شرحناه على حالة الأعضاء في أنواع الموت الفجائي يمكن أن يكون الطبيب السياسي (أي الطبيب الشرعي) صاحب فطنة بما اكتسبه من العلوم بحيث يمكنه الحكم بحياة الشخص الذي عاش بعد الموت الظاهري دون من مات معه موتاً حقيقيًا، فمثلاً ثلاثة أشخاص غرقوا في آن واحد بعارض فنشأ من ذلك مسألة الوراثة التي لا يمكن حلها بطريقة قطعية إلا بتعيين من الذي عاش بعد الآخرين وصورتها أن أحد الثلاثة كان معرضاً للاحتقانات الدموية المخية فمات بالسكتة والثاني مات بالإغماء والثالث عاني الغرق مدة طويلة ثم مات بالإسفكسيا فالطبيب السياسي يستنتج حينئذ من حالة المجموع الوريدي والشرياني والقلب والرئتين والمخ استنتاجات قريبة للعقل مؤسسة على مشاهدات لا على ظن وتخمين. ومثل ذلك يقال فيما إذا خسفت أرض أو انهدم بيت أو احترق أو حدث سبب من أسباب أُخر فمات به عدة أشخاص في آن واحد». وفي موضع آخر يشرح الشباسي باستفاضة أن التشريح يستطيع أن يعين على إقامة أحكام الشرع، وفي نفس الوقت تستطيع السلطات السياسية أن تستخدمه لأغراضها الخاصة، وتحديداً لكي تضبط إحصائياتها الحيوية: «كثيراً ما يُسأل الطبيب عمن يوجد في الطريق ميتاً فيقال له هل مات حقيقة وما سبب موته وهل موته ناشئ من قتل الشخص لنفسه أو قتل الغير له. فحينئذ لا يجب على الطبيب الإجابة على الحالتين الأخيرتين بمجرد النظر في الهيئة الظاهرة بل يجب عليه أن يقول إني لا أستدل على شيء من الهيئة الظاهرة، ولا أعرف لكم جواباً إلا بعد فتح الجثة لأني منه أستدل على سبب الموت. وقد يحصل الغلط في ذلك كما إذا وُجد شخص ميت في الطريق وقال الطبيب بمجرد البحث عن الوجه والصدر واليدين والملابس إنه مات عقب سكتة مخية وكان الواقع بخلافه، فقد نتج من ذلك مفسدتان: الأولى هدر دمه بعدم القصاص من قاتله والثانية عدم ضبط قوائم الموتى.

حتى عهد قريب كانت كتابة تاريخ مصر في القرن التاسع عشر تتبع مناهج أوروبية المركز، فغالباً ما ينصب الاهتمام على دور أوروبا في إحداث النهضة التي شهدتها مصر في ذلك القرن، وكثيراً ما كانت كتابة تاريخ الطب، وخاصة تاريخ مستشفى قصر العيني، تعتمد على مصادر أوروبية، كشهادات بعض الرحالة الأوروبيين الذين سُنحت لهم فرصة زيارة المستشفى، أو كتابات كلوت بيك ذاته. على أن الوثائق المعاصرة البالغة الغنى والأهمية المتعلقة بتاريخ الطب والصحة العامة والمحفوظة في دار الوثائق القومية تؤهلنا الآن لأن نصحح الصورة وأن نعتمد على مصادر أخرى تقدم لنا تفاصيل أكثر دقة عن الممارسات اليومية في مستشفى قصر العيني وفي مدرسة الطب التابعة لها، كما من شأنها أن تقدِّم لنا صورة - ولو غير واضحة تماماً - عن رد فعل المجتمع تجاه بعض الممارسات غير المألوفة التي كانت تحدث هناك.

وهنا تكمن أهمية الكتاب الذي بين أيدينا وغيره من الكتب الطبية التي كانت من أوائل مطبوعات مطبعة بولاق والمحفوظة الآن في دار الكتب. فالشباسي كان من الدفعة الأولى من خريجي مدرسة الطب المصرية ومن أوائل من درّس فيها. ويُعد كتابه هذا من الكتب الطبية القليلة التي أُلفت في مصر، ولذلك تمكننا قراءته من التعرف على آراء مؤلفه في موضوع مهم وشيق ألا وهو الموقف من التشريح. وكما رأينا فالشباسي على عكس الرواية الشائعة التي يقدمها كلوت بيك - والتي نقلها عنه كل من أرّخ للطب في مصر في القرن التاسع عشر - يقدم لنا صورة يبدو فيها التشريح والشرع أو الطب الحديث والدين غير متعارضين، بل ويؤكد أن التشريح من شأنه أن يعلي كلمة الشرع بالمساعدة على إقامة الواجبات الشرعية. واللافت للنظر في كتاب الشباسي أنه لم ينتهج لهجة اعتذارية عند الكلام عن التشريح، فالحجج التي يسوقها للتدليل على أهمية التشريح للطب والدين معاً لم يقصد منها إقناع حفنة من رجال الدين المتعصبين أو «مكافحة بعض الأوهام الدينية» كما كان كلوت بيك يرى، وإنما كانت نابعة من عقلية لم تر أصلا أي تعارض بين التشريح والشرع أو بين الإسلام والعلم. وبذلك يقدم لنا كتاب الشباسي عن التشريح صورة لطالب أزهري أصبح طبيباً ماهراً لم ير يوماً تعارضاً بين إيمانه ومهنته أو بين الإسلام والحداثة، ذلك التعارض الذي بذل جيل لاحق من المفكرين المسلمين في أواخر القرن التاسع عشر جهداً كبيراً لمواجهته. أما متى ولماذا ظهر هذا التعارض وكيف تمت مواجهته فتلك قصة أخرى.■


كلوت بك



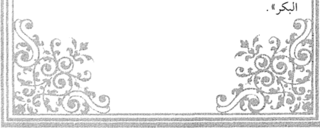
عبقرية المسيح

تاريخ الميلاد

يفهم رقم التقويم الميلادي أن السيد المسيح ولد في السنة الأولى للميلاد، وعلى هذا الحساب يجري العمل بين الأمم الأوروبية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد وهي السنة التي دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير (Exigus) إلى تأريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد.

أما القول الراجح في تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات، وأنه على أصح التقديرات لم يولد في السنة الأولى للميلاد.

ففي إنجيل «متى» أنه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات. وقد جاء في إنجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة في السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦٥ في تأسيس مدينة رومة، ومعنى هذا أن السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالي سنة ٧٧٩ رومانية، وأنه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أي قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات. يذكر إنجيل لوقا أن القيصر أوغسطس أمر بالاكتتاب - أي بالإحصاء - في كل المسكونة، وأن هذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرنيوس واليًا على سورية «فذهب الجميع ليكتتبوا كل من مدينته، وصعد يوسف.. من مدينة الناصرة إلى اليهودية.. ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر».



الناس والتلوث

نحن هنا بصدد خطاب يتسم بالسطحية وبنبرة متعالية تلقى باللوم فى تلوث البيئة على الطبقات الأدنى فى المجتمع ولا تكف عن الوعظ والإرشاد فى إطار مفهوم ضيق عن الرقى والتحضر. وهذه النظرة التى تساوى بين تراب مداخن مصانع الأسمنت وبين سيدة ريفية تغسل أوانى الطهى بالقرب من شاطئ النيل لا تفتقر فقط إلى السند العلمى، وإنما هى أيضا تضر بقضية البيئة ضررا كبيرا

ارتبطت قضية البيئة مؤخرا ارتباطا وثيقا بقضية العولمة وازداد التاكيد على كونية المشكلة وبالتالى على ضرورة توحيد النظر إليها ومواجهتها على مستوى العالم إلا أن الخطاب البيئى - كخطاب العولمة ذاته - يختلف اختلافا كبيرا من مكان إلى آخر. كما أن الاهتمام بالبيئة وأنواع الأنشطة المصاحبة لهذا الاهتمام تختلف أيضا من بلد إلى آخر. ويعزى هذا الاختلاف إلى عدة عوامل منها مثلا نوع الخطر البيئى الذى يتهدد منطقة معينة ومدى وعى السكان بهذا الخطر ووضع قضية البيئة على الساحة السياسية ومدى شعبيتها وقوة جذبها كأداة انتخابية مثلا - كما تتنوع استجابات الناس فى البلدان المختلفة وردود فعلهم تجاه ما يعتبرونه خطرا بيئيا تبعا لدرجة الحرية السياسية المتاحة فى بلد معين وإلى درجة قبول المجتمع بشكل عام لأشكال الاحتجاج المختلفة، خاصة تلك التى قد تتسم بالعنف أو التى قد تتعارض مع المصلحة الاقتصادية لبعض قطاعات تلك المجتمعات. والكتاب الذى بين أيدينا يهتم بشكل خاص بالبنية الثقافية كعامل حاسم فى أسلوب فهم الناس للأخطار البيئية وبالتالى فى تشكيل أنواع الفعل التى يقومون بها لمواجهة تلك الأخطار.

و كالوضع فى بقية دول العالم تزايد الاهتمام بالقضايا البيئية فى مصر واحتلت مناقشة المشكلات البيئية مكانا بارزا فى وسائل الإعلام، و كان لتبنى الدولة لهذه القضية دور حاسم فى تعزيز وضعها فى الأجندة السياسية ونقلها من قضية هامشية إلى قضية محورية مسموحة التداول. ففى السنوات الأخيرة ازداد اعتراف الدولة بوجود العديد من المشاكل البيئية واتخاذ خطوات إيجابية لمحاولة مواجهتها كان من أهمها صدور قانون البيئة (قانون ٤ لسنة ١٩٩٤) وإنشاء وزارة دولة لشئون البيئة سنة ١٩٩٩.



ولا يمكننا بأى حال الحديث عن أى نقص فى عدد الكتابات والإسهامات التى تتناول قضايا البيئة والتلوث. فالصحف اليومية والمجلات لا تكاد تخلو من أخبار وموضوعات تتعلق بالبيئة كما أن خبراء البيئة أو المهتمين بها هم ضيوف دائمون على برامج الإذاعة والتليفزيون. فليست المشكلة فى كم الاهتمام بالموضوع وإنما فى بعض خصائص الخطاب السائد حول البيئة والتلوث. ويعنينا هنا الحديث عن سمة أساسية لهذا الخطاب وهى أوضح ما تكون فى تناول وسائل الإعلام لقضايا التلوث، وبالتالى فهى الأكثر رواجا وسيادة. وكلمة السر هنا هى «نقص الوعى». ونحن هنا بصدد خطاب يتسم بالسطحية وبنبرة متعالية تلقى باللوم فى تلوث البيئة على الطبقات الأدنى فى المجتمع ولا تكف عن الوعظ والإرشاد فى إطار مفهوم ضيق عن الرقى والتحضر. وهذه النظرة التى تساوى بين تراب مداخن مصانع الأسمنت وبين سيدة ريفية تغسل أوانى الطهى بالقرب من شاطئ النيل لا تفتقر فقط إلى السند العلمى، وإنما هى أيضا تضر بقضية البيئة ضررا كبيرا، إذ تزج بها فى صراع آخر لتجعل منها محددا طبقيا يميز الصفوة وتساهم فى تصوير الاهتمام بالبيئة على أنه نشاط أنيق يضفى الوجاهة على من يقوم به. والبيئة النظيفة وفق هذه النظرة تقتصر على النواحى التجميلية، والقيمة الأساسية هنا هى ما يسمى بـ«المظهر الحضارى». وكرد فعل لهذا الخطاب قد ينظر الكثيرون إلى الاهتمام بالبيئة على أنه نوع من الرفاهية لا يتناسب إلا مع من هم على درجة عالية من خلو البال وبهذا تحرم القضية من أنصار عديدين ويتم استبعاد الغالبية العظمى من الشعب الذين يعانون فى أغلب الأحيان أكثر من غيرهم من الآثار الوخيمة للتلوث.

People and Pollution: Culture Constructions and Social Action in Egypt

(الناس والتلوث: البناء الثقافى والفعل الاجتماعى فى مصر)

Michellass. Hopkins, Sohair R.Mehanna, and Salah El-Haggar

American University in Cairo Press, 2001, 192 PP.

إزاء خلفية كهذه يبرز كتاب «الناس والتلوث: البنية الثقافية والفعل الاجتماعى فى مصر» كعمل متميز ومتوازن فى تناوله لقضية البيئة والتلوث فى مصر. والكتاب يتناول رؤية المصريين العاديين للبيئة والتلوث وينطلق من فرضية بسيطة وهامة فى نفس الوقت وهى أن «أعضاء الطبقة العاملة والطبقة الوسطى من ريف وحضر مصر مهتمون بقضايا البيئة والتلوث وأن لديهم وعيا بالعوامل التى تساهم فى فهم هذه المشاكل والتصرف حيالها». ولا يقتصر هدف المؤلفين على التعرف على أنواع الوعى الموجودة لدى الناس وفهم مصادرها وخصائصها، وإنما يتعدى ذلك إلى استكشاف وإظهار الطرق العديدة التى يلجأ إليها الناس لمواجهة هذه المشاكل والتعامل معها. وتقوم أطروحتهم على أهمية التعرف على البناء الثقافى السائد والذى يفهم الناس من خلاله الواقع من حولهم - بما فى ذلك التدهور البيئى - إذ إن هذه البنى الثقافية هى التى توفر الأطر التى تتبلور داخلها تصورات الناس عن مشاكلهم وأيضا - بالتالى - تصوراتهم لما يمكن عمله من أجل مواجهة تلك المشاكل.

و الكتاب من تاليف نيكولاس هوبكنز أستاذ الأنثروبولوجى وعميد كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وسهير مهنا الباحثة المشاركة بمركز البحوث الاجتماعية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وصلاح الحجار أستاذ الهندسة بنفس الجامعة. وقد كتبت التصدير الدكتورة نادية مكرم عبيد وزيرة الدولة لشئون البيئة حينئذ فى بادرة طيبة تشير إلى جدية فى التعامل مع قضية البيئة عن طريق التعرف على كافة وجهات النظر والاستفادة من البحث العلمى النقدى والموضوعى. والكتاب نتاج مشروع

ريم سعد

بحثى لمركز البحوث الاجتماعية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة بتمويل من مركز بحوث التنمية الدولية (كندا).



اعتمد البحث على عدة طرق ومناهج بحثية منها المسح والمقابلات والجماعات البؤرية (focus groups) والقياس العلمى لمعدلات تلوث المياه والهواء ومستويات التلوث السمعى، بالإضافة إلى وجود ٤ باحثين مقيمين كان كل منهم مسئولا عن إحدى مناطق البحث الأربعة والتى اختيرت لتمثل ملامح مختلفة للطبقة العاملة والمتوسطة فى الريف والحضر، كما تمثل المناطق المختارة أيضا تباينا فى درجة ونوع المشاكل البيئية السائدة. والمناطق المختارة هى:

١ - كفر العلو: وهى منطقة صناعية تقع بالقرب من حلوان، و رغم وجودها داخل القاهرة الكبرى إلا أنها لا تزال تحتفظ ببعض خصائص المجتمع الريفى ومن الناحية البيئية فهى منطقة محاطة بالعديد من المصانع وتعانى من التلوث الناتج عن المخلفات الصناعية وبخاصة تراب الأسمنت المتساقط على السكان من مصنع أسمنت بورتلاند حلوان.

٢ - دار السلام: وهى منطقة حضرية صناعية يسودها الإسكان غير الرسمى (أو ما يسمى بالإسكان العشوائى) وهى أكثر مناطق البحث تلوثا بسبب مشاكل المجارى والقمامة وتلوث الهواء والتلوث السمعى نتيجة لحركة المرور الكثيفة على الشوارع الرئيسية والغبار من الشوارع غير المرصوفة والمخلفات والضوضاء من الورش والشوارع والازدحام بصفة عامة.

٣ - السيدة زينب: وهى حى قاهرى عريق يمثل الطبقة الوسطى وهى كغيرها من الأحياء المماثلة تعانى من مشاكل تلوث الهواء والضوضاء الناتج عن الازدحام وانتشار الورش وبعض المصانع الصغيرة.

٤ - أبخاص: وهى قرية تقليدية اختيرت لتمثل الريف وتتمثل مشاكلها البيئية فى استخدام المواد الكيماوية فى الزراعة إلا أن المشكلة الأكبر هى أن جميع مصادر المياه فى القرية غير صالحة للشرب.

و رغم تنوع اختيار المناطق المبحوثة والقيام بمسحين فى ١٩٩٥ و١٩٩٧ شمل كل منها أكثر من ألفى مبحوث بالإضافة إلى طرق الاستقصاء الأخرى التى استخدموها إلا أن المؤلفين يتحفظون فى اعتبار بحثهم ممثلا للمجتمع المصرى بشكل كامل وإنما هو - حسب رأيهم - يغطى قطاعا كبيرا منه على أية حال. وجدير بالذكر أن نية الباحثين كانت قد اتجهت فى البداية إلى إدراج حى المعادى المتميز طبقيا فى بحثهم وقد بدأوا بالفعل فى تنظيم بعض الجماعات البؤرية هناك إلا أنهم لم يستطيعوا المواصلة وذلك لعدم تعاون المبحوثين هناك معهم. على أنه قد تمت تغطية هذه الفجوة إلى حد كبير باعتماد المؤلفين على مصادر أخرى عبرت عن رأى هذه الفئة أوردوا من خلالها الرؤى السائدة لدى أعضاء الطبقات العليا من المجتمع وقد أدرجوا أمثلة من تلك الرؤى من خلال اقتباسات لبعض الدراسات الأخرى وبخاصة رسالة الماجستير غير المنشورة للباحثة إيمان الرملى حول رؤية المرأة للتغير البيئى فى القاهرة.



وقد تضافرت البيانات الناتجة من طرق البحث المختلفة وخدمت بعضها البعض فتكاملت البيانات الإحصائية والكمية مع البيانات النوعية والوصفية وتم عرضها بطريقة اتسمت بالبساطة والحيوية والتى زاد منها الاقتباسات العديدة التى جاءت على لسان المبحوثين أنفسهم. وقد وضع المؤلفون مادتهم العلمية الناتجة من بحثهم الميدانى فى سياق نظرى مقارن، واختاروا لقراءة مادتهم أربعة اتجاهات نظرية أولها - وهو الأقرب إلى الأطروحة العامة للكتاب - يركز على التصورات الثقافية كعامل أساسى فى ترجمة الواقع البيئى وفهمه. ويركز الاتجاه الثانى على مفهوم تحليل المخاطر ويتناول هذا الاتجاه دور الإحساس بالخطر فى التحفيز على الفعل، أما الاتجاه الثالث فيعتبر البيئة النظيفة كملكية

عامة، والرابع يعتمد على نموذج العدالة البيئية وهو ينظر إلى المشاكل البيئية باعتبارها علاقات بين الناس وبعضهم أكثر من كونها علاقة بين الناس والبيئة وينظر إلى تفاوت أثر التغيرات البيئية على الجماعات المختلفة ويجد مفهوم الطبقة مكانا في هذا الاتجاه التحليلي. وقد اختيرت هذه المقاربات بدقة وعرضت باقتصاد ووفرت إطارا مفاهيميا يسمح بقراءة البيانات الخاصة بمصر بالمقارنة مع دول وثقافات أخرى.

يظهر التكامل في تصميم البحث وعرض نتائجه بصفة خاصة في إدراج فصل خاص بـ«قياس التلوث» وهو يتناول التقويم العلمي للحالة البيئية في مناطق البحث الأربعة. ومن المؤكد أن إدراج هذه البيانات العلمية التي قام بجمعها الفريق العلمي المشارك في البحث قد أفاد بدرجة أو أخرى في دحض نظرية «قلة الوعي»؛ إذ جاء تقويم الناس لأحوالهم المعيشية بما في ذلك الأحوال البيئية في مناطقهم مطابقا إلى حد كبير مع القياسات العلمية، غير أنني لا أعتقد أن قياس وعي الناس بمشاكل التلوث أو اختبار قدراتهم العلمية أو مقارنة علم الخبراء بعلم العامة كان هدفا في حد ذاته، وإنما الهدف الرئيسي هو استكشاف التصورات الثقافية الخاصة بالبيئة والتلوث، و أحيانا ما تفيد قراءة آراء الناس على خلفية الحقائق العلمية في التعرف على هذه التصورات أو لفت النظر إليها. ومثال على ذلك هو رأى الناس في مدى نقاء أو تلوث مياه الشرب في مناطقهم حيث تشير القياسات العلمية أن جميع مصادر المياه في قرية أبخاص غير صالحة للشرب ومع ذلك يقول ٩٠,٧٪ من سكان القرية أنهم راضون عن مستوى نقاء المياه وهي أعلى نسبة بين المناطق الأربعة. والمياه الملوثة كما يرى الناس هي التي تكون لديها رائحة أو طعم غير مستحب أو التي تبدو قذرة، وتظهر هنا أهمية المعطيات الملموسة في تحديد ماهية التلوث كما يراه الناس وبنفس المنطق فهم غير مدركين تماما للأخطار التي يسببها الرصاص مثلا، ويلاحظ المؤلفون أن تعريف الناس للتلوث يقترب كثيرا من تعريف القذارة حيث تأتي مشكلة تراكم القمامة ومشكلة المجاري (وهي المشاكل التي ينتج عنها قذارة الشارع) على رأس مصادر تلوث البيئة كما يرى سكان المناطق الأربعة. هذا بالإضافة إلى أن التركيز على هذه النواحي يتفق مع وصف المؤلفين لطبيعة بحثهم التي تهتم أساسا بما أسموه بالأجندة البنية والتي تعنى بتنظيف البيئة الملوثة مقارنة بالأجندة الخضراء والتي تهتم بالحفاظ على الطبيعة. فالبيئة في الثقافة المصرية ترتبط ارتباطا شديدا بمفهوم النظافة وبقضية الصحة في حين يأتي الاهتمام بالطبيعة في مرتبة تالية، بعكس مثلا مفهوم البيئة في الولايات المتحدة حيث تحتل الطبيعة مكانا مركزيا.



.. والحكومة!

ورغم الدور الكبير الذي تلعبه وسائل الإعلام في تشكيل وعي الناس بقضايا البيئة إلا أن الكتاب يؤكد على أن رؤية السكان للأخطار البيئية بصفة عامة تتأثر كثيرا بمشاكلهم المباشرة فنجد أن أكثر الإجابات ركزت على تلوث الهواء والماء ومشكلة القمامة بينما أتت أشياء مثل الإشعاع النووي ومشكلة طبقة الأوزون والاحتباس الحراري في ذيل الاهتمامات. وكانت إجابات كل منطقة على حدة تعكس المشكلة الأكثر إلحاحا فيها، فقد رأى مثلا ٧٧,٢٪ من سكان كفر العلو أن مشكلة تلوث الهواء هي أكبر مشكلة بيئية وليس هذا بمستغرب في تلك المنطقة التي يغمرها التراب الأسمنتي المنبعث من مداخن مصنع الأسمنت بحلوان. وكذلك انعكست المشاكل الخاصة بكل منطقة في إجابات الناس حول مصادر التلوث. ففيما يخص تلوث الهواء مثلا نزع سكان كفر العلو إلى ذكر المصانع كسبب رئيسي في حين رأى سكان السيدة زينب ودار السلام أن السيارات هي السبب الرئيسي بينما ذكر سكان قرية أبخاص الغبار.

وبشكل عام فإن مفهوم التلوث هو أكثر تحديدا بالنسبة للسكان من مفهوم البيئة، فالأخيرة لا تعني لهم البيئة الطبيعية والمادية فقط وإنما أيضا وربما بشكل أكبر البيئة الاجتماعية وهي التي تعني بأصل الإنسان وخلفيته الاجتماعية وبالتالي أخلاقه وسلوكه. وحسب مفهوم البيئة هذا يدرج السكان نوعا مهما من المشاكل البيئية في منطقتهم وهي ما يمكن أن يطلق عليه «التلوث الأخلاقي» والذي يتضمن ظواهر مثل معاكسة الفتيات وانتشار المخدرات والبانجو والمقاهي التي تعرض أفلاما جنسية - إذن فللتلوث أيضا، كالبيئة تضمينات أخلاقية واجتماعية.

التلوث والطبقة والفقر

يركز الكتاب بشكل واضح على أهمية النظر إلى الطبقة كجزء لا يتجزأ من قضية البيئة. فمن ناحية يشير المؤلفون إلى أن الصفوة وأعضاء الطبقات العليا في المجتمع هم الذين يتخذون معظم القرارات الخاصة بالبيئة وأن الطبقات الوسطى والدنيا هم الذين يتحملون آثار هذه القرارات. كما يلاحظون أن بعض المشاكل البيئية «ديمقراطية» نسبيا بمعنى أن آثارها تطال الجميع كتلوث الهواء نتيجة عادم السيارات مثلا في حين أن هناك العديد من تلك المشاكل المرتبطة بالفقر ويتأثر بها الفقراء أكثر من الأغنياء؛ مثل وجود مساكن محدودي الدخل بجوار المناطق الصناعية والمشاكل البيئية الناتجة عن شدة الزحام ومشاكل التخلص من القمامة والصرف الصحي وانتشار الحشرات والقوارض وانتشار أمراض مثل البلهارسيا.

ونرى بوضوح كيف تتقاطع قضايا البيئة مع المشاكل الناتجة عن الفقر وتدني مستوى المعيشة وبالتالي يساهم الكتاب في طرح قضية البيئة بصفتها

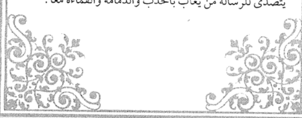


عبقرية المسيح

صورة وصفية

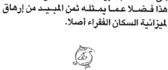
من أقدم الصور الوصفية التى حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون فى القرن الرابع وزعم رواتها أنها كتبت بقلم بيليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدولة الرومانية، رفعها إلى مجلس الشيوخ الرومانى فى عصر الميلاد، وجاء فيها: «إنه فى هذا الزمن ظهر رجل له قوة خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلامذته بابن الله، وكان للرجل سمت نبيل وقوام بيِّن الاعتدال، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معًا، فيحبه من يراه ويخشاه. شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول، ولكنه فى جانب الأذن أجعد لماع، وجبينه صلت ناعم، وليس فى وجهه شية، غير أنه مشرب بنضرة متوردة، وسيماه كلها صدق ورحمة، وليس فى فمه ولا أنفه ما يعاب، وعيناه زرقاوان تلمعان، مخيف إذا لام أو أنب، وديع محبب إذا دعا وعلم، لم يره أحد يضحك، ورآه الكثيرون يبكى، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان، وكلامه متزن رصين لا يميل إلى الإطناب، وملاحته فى مرآه تفوق المعهود فى أكثر الرجال».

إلا أن هذه الرواية مشكوك فيها وفى إسنادها التاريخى، ومثلها جميع الروايات التى تداولها الناس فى ذلك العصر أو بعده، ومنها ما لا يعقل ولا يظن به إلا أنه مدسوس من أعداء المسيحية فى العصور الأولى، كقول بعضهم إنه كان قميئًا أحدب دميم الصورة، فإن الشريعة الموسوية كانت تشترط فى الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب، ولا ترسم لخدمة الدين من يعيبه نقص أو تشويه، فمن غير المعقول أن يتصدى للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة والقماءة معًا.





قضية تنموية حاسمة. ويظهر هذا من خلال الوصف الدقيق للوضع البيئى فى مناطق البحث وبالذات فى تسليط الضوء على الظروف المادية والموضوعية التى تفسر إلى حد كبير ارتباط الظروف المعيشية للفقراء والمشاكل الناتجة عن الفقر بمشكلة التلوث. ومثال على ذلك مشكلة القمامة والتى يجمع خبراء التنمية والمراقبون وسكان المناطق على وجودها كمشكلة بيئية ضخمة. سنجد أن عملية جمع القمامة من تلك المناطق إما غير موجودة (كما فى أبخاص وكفر العلو) أو هى غير منتظمة، وحتى فى دار السلام والسيدة زينب فإن جامعى القمامة لا يأتون بشكل منتظم وحين يأتون فإن عرباتهم لا تستطيع الدخول فى الشوارع الضيقة والأزقة التى تظل بذلك محرومة من تلك الخدمة، هذا فضلا عن أن جامعى القمامة والذين يعتمد نشاطهم الاقتصادى الأساسى على المخلفات القابلة للتدوير لا يجدون الحافز الكافى للعمل فى المناطق الفقيرة والتى لا قيمة تذكر لقمامتها، وتحت هذه الظروف يلجأ السكان إلى التخلص من قمامتهم عن طريق إلقائها فى الخرابات ثم إحراقها بعد ذلك أو إلقائها فى الترع بالنسبة لسكان القرى. وتؤدى مشكلة القمامة إلى تفاقم مشكلة أخرى وهى انتشار الذباب والبعوض والصراصير والفئران والتى لا يقتصر ضررها البيئى على الأمراض التى تنقلها، وإنما يشمل أيضا محاولات السكان مكافحتها بالاستخدام المفرط للمبيدات الحشرية، حيث يذكر أكثر من ٦٥٪ من أفراد العينة أنهم يستخدمون المبيدات بانتظام داخل منازلهم للقضاء على الحشرات. ولنتخيل معا نوعية الهواء الذى يستنشقه سكان كفر العلو داخل منازلهم حيث يضطرون إلى إغلاق نوافذها باستمرار مع تغطيتها بالبلاستيك لمنع غبار الأسمنت من النفاذ إلى الداخل مما ينتج عنه انعدام التهوية وتفاقم مشكلة تلوث الهواء وفوق كل ذلك يضطرون إلى استخدام المبيدات للقضاء على الحشرات، هذا فضلا عما يمثله ثمن المبيد من إرهاق لميزانية السكان الفقراء أصلا.



ورغم أن موضوع الكتاب هو «المصريون العاديون» إلا أننا لسنا أمام مقابلة بسيطة ما بين «الصفوة» و«الشعب». فهناك فروق كبيرة بين مناطق البحث الأربعة ويلعب الموقع دورا كبيرا فى تفسير الاختلافات فى الرؤى والأفكار الخاصة بالبيئة والتلوث. ويظهر هذا العامل مثلا فى إجابة السكان على سؤال: كيف تفسر سلوك الناس الذين يلقون بالمياه (القذرة) والقمامة فى الشارع؟ والإجابتان الرئيسيتان هنا هما:

١ـ الناس ليس لديها حل آخر وقد أعطى هذه الإجابة ٥٥,٣٪.

٢ ـ الناس أميون وجهلة وليس لديهم وعى وقد أعطى هذه الإجابة ٣١,٣٪.

وهذه النسب هى بالنسبة للعدد الإجمالى لأفراد العينة، أما إذا نظرنا إلى إجابات كل موقع على حدة فإن فارقا ضخما يظهر بين إجابات الموقع الريفى (أبخاص) وشبه الريفى (كفر العلو) من جهة وبين الموقعين الحضريين (دار السلام والسيدة زينب) من جهة أخرى. فنسبة من رأوا أن الناس ليس لديها بديل آخر فى المواقع الريفية تزيد على أربعة أضعاف نسبتها فى الموقعين الحضريين (كفر العلو ٩٣,٧٪ وأبخاص ٩٢,٩٪، دار السلام ٢٣٪، السيدة زينب ١٧,٤٪) كذلك فالفارق أيضا ضخم بين المواقع الريفية والحضرية فيما يخص الإجابة الثانية فقد عزى أكثر من نصف المبحوثين فى الموقعين الحضريين هذا التصرف إلى الجهل وقلة الوعى فى حين أعطى هذه الإجابة ٤,٥٪ فقط فى أبخاص و٣,٢٪ فى كفر العلو، ويرى المؤلفون فى الفرق بين المجموعتين نوعا من التقسيم الطبقى بين من هم فى أدنى السلم الاجتماعى من ناحية ومن هم أعلى منهم بقليل، حيث يستخدم سكان الحضر وضعهم الأعلى نسبيا لإقرار أفضليتهم الأخلاقية، وإن كان من الممكن أيضا الطرح بأن سكان المواقع الحضرية هم الأكثر تعرضا لتفسيرات خطاب الصفوة المهيمن والذى يرى دائما فى جهل وقلة وعى الطبقات الأدنى السبب الرئيسى لتلوث البيئة ولمشاكل أخرى عديدة، فتصبح تلك هى «الإجابة النموذجية» والتى تميز صاحبها وتشبهه بالجماعة الأفضل.

ورغم الدور الكبير الذى تلعبه الطبقة والوضع الطبقى فى التحكم فى أشكال «العدالة البيئية» بالإضافة إلى تأثير رؤية الطبقات لبعضها البعض فى تشكيل المفاهيم الخاصة بالتلوث وفى بلورة التصورات الثقافية لدى المجموعات الاجتماعية المختلفة حول أسباب تلوث البيئة إلا أن هذه الزاوية هى فقط واحدة من عدة اتجاهات تحليلية يستخدمها المؤلفون، كما أن الطبقة هى فقط واحدة من عدة أشكال للتمايز الاجتماعى التى يتناولها الكتاب، فالبحث تعامل مع تقسيمات ومتغيرات عدة مثل النوع والسن ودرجة التعليم، بالإضافة إلى بعض التقسيمات الاجتماعية الأخرى داخل مناطق البحث كقولهم مثلا: إن العوامل التى تعرقل جهود التعاون بين السكان هى وجود انقسامات بين السكان القدامى والجدد كما فى كفر العلو ودار السلام والسيدة زينب أو التنافس بين العائلات الكبيرة فى أبخاص وكفر العلو وكذلك الانقسامات بين عمال مصنع الأسمنت والآخرين فى كفر العلو. و للمثال الأخير أهمية خاصة إذ يشير إلى عامل مهم فى إحجام البعض عن المشاركة الفعالة فى مكافحة عوامل التلوث حيث إنه فى كثير من الأحيان تتعارض الرغبة فى العيش فى بيئة نظيفة مع المصلحة الاقتصادية والحاجة المادية ونرى هنا كيف تستخدم إدارة مصنع الأسمنت حاجة العمال إلى الوظيفة فى إقناعهم بعدم المشاركة فى الاحتجاج على التلوث الذى تخلفه تلك الصناعة حيث أقنعت الإدارة العمال أن زيادة الإنتاج وبالتالى زيادة دخلهم من الحوافز تتوقف على عدم استخدام الفلتر على مداخن المصانع.



وهكذا نعود إلى الارتباط بين الفقر والتلوث والذى يظهر أيضا فى عدم قدرة السكان الذين يعانون مشاكل عدة من جراء التلوث وأضراره الصحية على المفاضلة بشكل حاسم بين وجود المصانع وبين البيئة النظيفة، فالحاجة إلى العمل قد تفوق الحاجة إلى الهواء النظيف، كذلك الأمر بالنسبة للموقع الريفى أبخاص حيث يعلم الناس أضرار المواد الكيماوية ولكنهم اختاروا - بتعبير المؤلفين - صفقة فاوستية أى استخدام الكيماويات الضارة فى الزراعة فى مقابل محصول أوفر يدر دخلا أكبر.

البيئة والناس والحكومة

ومن أكثر إسهامات الكتاب أهمية وجدة هى الخاصة بتحديد المسئولية عن التلوث من وجهة نظر السكان ورؤيتهم لدور الحكومة ومعوقات النشاط البيئى ومكافحة التلوث وبالتأكيد فإن طرح الكتاب لهذه القضايا وتحليل المؤلفين لنتائج البحث لا يفيد فقط فى فهم علاقة الناس بالبيئة وإنما يتعداه إلى إلقاء الضوء على جوانب مهمة من المجتمع المصرى المعاصر تتعلق برؤية الناس لأنفسهم ولحكامهم.



وأكثر نتيجة مدهشة هى أن الغالبية العظمى ترى أن المتسبب الرئيسى للتلوث هم الناس أنفسهم وممارساتهم الخاطئة والحل يكون بأن يقوّم الناس من سلوكهم، ويفسر المؤلفون هذه الإجابة والتى يصفونها بأنها «غير متوقعة» بأن وعى الناس بالمشاكل البيئية حولهم يوازيه الوعى «بقلة حيلتهم» وبأن احتجاجاتهم على الأسباب الجذرية للمشاكل سوف تقابل إما بالقهر أو التجاهل مما يدفعهم إلى حصر اللوم داخل المجال الوحيد الذى يتمتعون فيه بأى سلطة وهى فقط سلطتهم على أنفسهم وعلى سلوكهم وتصرفاتهم، فينتهى الأمر بأن يتشابه تشخيص الفقراء إلى حد كبير مع تشخيص الطبقات العليا للمشكلة البيئية وهو أن الفقراء - بسبب سلوكهم الخاطئ - هم المتسبب الرئيسى فى القذارة والتلوث، على أن هذا الرأى تجب قراءته على خلفية رؤية السكان لدور الحكومة وواجباتها نحو المواطنين، فالناس وإن لم يلوموا الحكومة بشكل مباشر فى التسبب فى التلوث إلا أنهم يرون أن حلول الكثير من المشاكل لا بد أن تأتى على يد الحكومة. فهم وإن رأوا مثلا أن سبب قذارة الشارع هو أن الناس تلقى بقمامتها فيه إلا أنهم يرون أن دور الحكومة - أولا - أن توفر نظاما فعالا لجمع القمامة والتخلص منها، وثانيا: أن تقوم بدورها فى تنظيم العلاقات بين المواطنين وبعضهم ووضع قواعد واضحة يتم تطبيقها على الجميع دون استثناء، فالناس مثلا يجدون أنه من الصعوبة أن يقوم الجار بتأنيب جاره على إلقاء القمامة وأن ذلك هو دور القانون والقائمين على تطبيقه، هذا فضلا عن أن سكان مناطق البحث لديهم شعور قوى بأن الحكومة تحابى الأقوياء والأغنياء وتستثنيهم من تطبيق القوانين.

وهكذا فإن لدى السكان رؤية واضحة لتقسيم الأدوار والمسئوليات بين الشعب والحكومة ولديهم أيضا فكرة واضحة عن حقوقهم التى يعتقدون - عن حق - أنهم لا ينالون منها النصيب الكافى بسبب ضعفهم وقلة نفوذهم، وتوجد فى الكتاب أكثر من إشارة إلى ما ذكره السكان فى أكثر من منطقة حول تذمرهم لأنهم مواطنون يدفعون الضرائب مثلهم مثل الآخرين وبالتالى من حقهم على الدولة أن توفر لهم الخدمات الأساسية إلا أن أحياءهم الفقيرة تظل مهملة ولا تحظى بالاهتمام الذى تناله الأحياء الأرقى والتى يقطنها المواطنون الموسرون. وهى مفارقة فعلا أن نجد أن على سكان دار السلام تحمل نفقة توصيلات الصرف الصحى من الماسورة الرئيسية إلى منازلهم بينما مثل هذه التكلفة ليست واردة بالنسبة لسكان مصر الجديدة أو الزمالك مثلا.



نحن هنا إذن أمام شعور سائد وقوى بالتهميش وهو شعور له بالتأكيد ما يبرره. فالمواطن المصرى ليس سلبيا بقدر ما هو مستبعد ولا يقتصر هذا الوضع فقط على تجاهل مطالبه وإنما يمتد إلى المعوقات العديدة التى تواجه محاولات السكان لتنظيم أنفسهم فى عمل مشترك، وليس أقلها خوفهم من البطش بهم مما يتسبب فى إجهاض العديد من التجارب كمثل تفكير بعض السكان فى دار السلام فى تكوين جمعية للحى تعنى بنظافته إلا أنهم أحجموا عن ذلك خوفا من أن تعتبرها الحكومة تنظيما معارضا، وبنفس المنطق ينظر السكان إلى التعاون مع أحزاب المعارضة على أنه عمل يكتنفه الكثير من المخاطر.

ومع هذا فإن الكتاب يسلط الضوء على الكثير من الأعمال الإيجابية التى قام بها الناس فعلا من أجل تحسين أوضاعهم البيئية.

هذا الكتاب ذو الإخراج الجميل والمضمون المهم لا يقدم فقط إسهاما نظريا وعلميا بعرضه لنتائج مشروع بحثى جاد، وإنما يسعى إلى إرساء مبدأ أن تكون الناس العادية وثقافتها وآراؤها جزءا لا يتجزأ من عملية رسم السياسات وسن القوانين. والكتاب يستحق أن يقرأ بعناية ليس فقط لأهميته بالنسبة لقضية البيئة وإنما لأنه يقدم منهجا يجب أن يحتذى فى الدراسات التنموية التى ستظل قاصرة وعاجزة عن إرشاد السياسات إذا لم تؤخذ آراء الناس ورغباتهم فى الاعتبار. يبقى فقط أن نستحث المؤلفين على الإسراع بتوفير ترجمة عربية للكتاب حتى تتسع الفائدة منه وحتى يتسنى لسكان مناطق البحث الاطلاع على نتائج مشاركتهم والشعور بمردود إسهاماتهم. ■

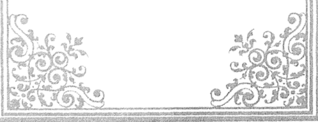


عبقرية المسيح

تجارب الدعوة

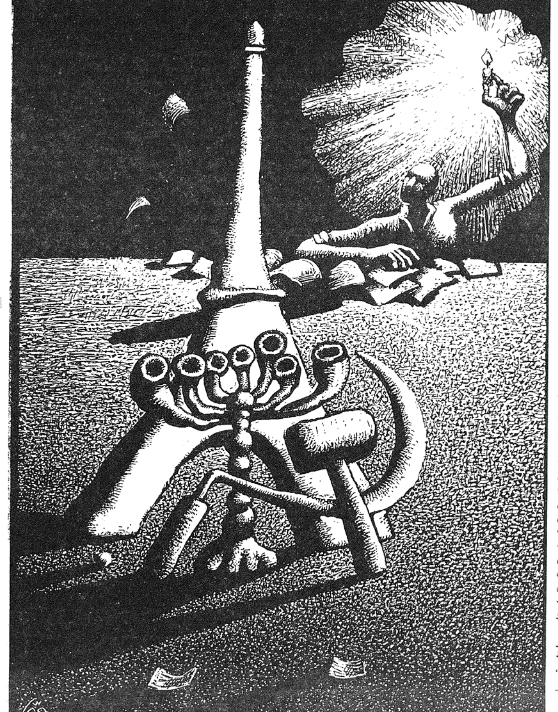
منذ الخطوة الأولى التى خطاها السيد المسيح فى التبشير برسالته أخذ على نفسه أن يعتزل «السلطة» وينحى لها عن ميدانها، فلا يتصدى لها بإبطال أو إنفاذ: لا يبدلها ولا يدعى لنفسه ولايتها، وحق لكل معلم قادر أن يسلك تلك الخطة فى زمنه، فإنه - كما تقدم - قد نشأ فى دنيا تشكو الكظة من الشرائع والأوامر والنواهى والحكام والمتحكمين: ما فاض من رومة الشرائع تملأه مراسم الهيكل وشعائره ومحللاته ومحرماته، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وأبنائه وأذنابه وتابعيه، ولا حاجة إلى مزيد من الأحكام مع فساد الحكام، فإذا وجب إصلاح بعضها فالخير من إصلاحه لا يساوى جهد الحرب التى تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان، وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الأدومية اليهودية التى تشايع الدولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين، ومن الحق أن الشر الذى ينجم من ذلك الجهد أخطر وأفدح من الخير الذى يتأتى من ورائه، إن تأتى، وقد يدرك بإصلاح الضمائر وتهذيب الآداب الإنسانية وتعليم الآحاد أمثلة من الأخلاق تهدى أصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين.

إلا أنه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانه، وسرعان ما أقبلت عليه الجموع حتى أحست السلطة - سلطة الدين قبل كل شىء - بالخير المقبل من ذلك الداعية المحبوب، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد والجمود جاءوه فى ميدانه بعد أن ترك ميدانهم.



تاريخ العلاقات السرية بين يهود مصر

فى العشرينيات من القرن العشرين وحتى الأربعينيات تزعم يهود منظمات نقابية، وكان منهم داود ناحوم، كما لعبوا دوراً مهمًا فى الصحافة مثل يعقوب صنوع، ولم يجد المصريون العاديون غضاضة فى التعامل أو حتى التعاون مع اليهودى مثله مثل القبطى



توفى فى منتصف مارس ٢٠٠١ شحاتة هارون وهو أحد الشخصيات البارزة فى التاريخ المعاصر لليسار المصرى بشكل عام، والحركة الشيوعية المصرية بشكل خاص. ومن اللافت للنظر أن شحاتة هارون اليهودى المصرى المنتمى تاريخيًا للتيار الشيوعى قد طلب فى وصيته استقدام حاخام من فرنسا للصلاة عليه، وطلب أن ينشر فى نعيه جميع هوياته: المصرية واليهودية والانحياز للمضطهدين بمن فيهم الفلسطينيون.

وقد أثار غياب شحاتة هارون من جديد ليس فقط مسألة العلاقة بين اليهود المصريين والحركة الشيوعية، حيث لاشك أن هناك الكثير من الكتابات التى تناولت هذه الزاوية سواء من داخل معسكر الحركة الشيوعية المصرية أو من خندق المعارضين لها، ولكنه أثار العلاقة الثلاثية الأبعاد بين يهود مصر والحركة الشيوعية وفرنسا، وهى علاقة تعرض لها عرضاً عدد من الكتّاب فى معرض تناولهم لتاريخ يهود مصر أو لتاريخ الحركة الشيوعية فى مصر أو الحزب الشيوعى الفرنسى، ولكن ربما لم يتم تناولها بشكل مترابط فى مقال بحثى واحد من قبل.

ويرتبط الموضوع أيضاً بمناسبة صدور الجزء الأول من مذكرات الأستاذ محمد يوسف الجندى الذى حمل عنوان مسيرة حياتى حتى ١٩٦٤ «والصادر عن دار الثقافة الجديدة» مؤخراً، وهو كتاب مهم من حيث تناوله لدور اليهود فى الحركة الشيوعية المصرية، وأنماط تطور هذه الحركة، وعلاقة ذلك بفرنسا وحزبها الشيوعى، وذلك كله من منظور رواية السيرة الذاتية لكاتبه.

ويقر محمد يوسف الجندى فى سيرته الذاتية (ص٣٥) أن مؤسسى أكبر أربع منظمات شيوعية فى مصر كانوا يهوداً، إلا أنه يوضح بجلاء أن ذلك لم يثر تحفظًا لديه. ففى ذلك الوقت، وقبل حرب فلسطين كان المجتمع المصرى يتقبل اليهود ودورهم فى المجالات السياسية والاقتصادية والنقابية والاجتماعية. ففى العشرينيات من القرن العشرين وحتى الأربعينيات تزعم يهود منظمات نقابية، وكان منهم داود ناحوم، كما لعبوا دوراً مهما فى الصحافة مثل يعقوب صنوع، ولم يجد المصريون العاديون غضاضة فى التعامل أو حتى التعاون مع اليهودى مثله مثل القبطى.

وبالإضافة إلى اليهود ذوى الجذور المصرية، يشير محمد الجندى إلى أن جالية كبيرة من الأجانب كانت تعيش فى مصر،

مسيرة حياتى حتى ١٩٦٤
محمد يوسف الجندى
القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ٢٠٠١.

والحركـــة الشيـــوعيـة .. وفرنســا

وليــد عــبــدالناصـــر

خاصة قبل إلغاء الامتيازات الأجنبية طبقاً لاتفاقية مونتريه لعام ١٩٣٧، وكان من هؤلاء الأجانب نسبة مهمة من اليهود من جنسيات مختلفة (الفرنسية / الإيطالية / اليونانية / الأرمنية) أو حتى بلا جنسية. وكانت فرصة هؤلاء في الانفتاح على أوروبا وعلى الثقافة والفكر هناك أكثر من المصريين، ولذا كان من الطبيعي أن يكون لهم ريادة في مختلف المجالات، بما في ذلك الحركات الثورية والتعرف على الفكر الماركسي.



وخلال الحرب العالمية الثانية، وأثناء التحالف ضد ألمانيا النازية والذي ضم الاتحاد السوفيتي السابق، أصبح هناك تساؤل في تقبل دخول الكتب عن الاتحاد السوفيتي وعن النظرية الماركسية، وافتتح «هنري كورييل» - اليهودي ذو الجنسية الإيطالية الذي قدم أبواه أصلاً من فرنسا للإقامة والعمل في مصر - مكتبة في ميدان مصطفى كامل سماها «مكتبة الميدان»، كانت تعرض الكتب التي تعكس الفكر الشيوعي، وبالرغم من أن أغلبها كان باللغات الأجنبية، فقد اعتاد الشباب اليساري في مصر على ارتيادها، ويوضح محمد الجندي أن أبا كورييل كان مليونيراً وأنه في بعض الروايات كانت المكتبة ملك والده ولكن كان يديرها هو.

ويرى محمد يوسف الجندي في سيرته الذاتية أن اليسار المصري كان يعارض الدعوة الصهيونية والدعوة لهجرة اليهود إلى فلسطين، وذلك بالرغم من أن المنظمات الشيوعية في مصر كانت تضم عدداً من اليهود. بل إن هؤلاء اليهود شكلوا ما سمي بـ«رابطة اليهود للنضال ضد الصهيونية»، كما أنه يؤكد أن النضال ضد المنظمات الشيوعية أيد نضال الشعوب العربية ضد الاستعمار ودعا للتضامن معها، وفي ضوء وجود غالبية ضمن قادة وأعضاء المنظمات الشيوعية في مصر من الأجانب خلال الأربعينيات (ص٤٢)، فإن محمد يوسف الجندي يرى أنه كان من الطبيعي أن تساند هذه المنظمات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وأن تؤيد مجيء الحكومة الوفدية للحكم في ٤ فبراير ١٩٤٢، وذلك بالرغم من اتهام قوى وطنية أخرى لهذه الحكومة بأنها جاءت على أسنة الحراب البريطانية.

ونلاحظ من قراءة السيرة الذاتية للأستاذ محمد الجندي أنه عندما يسرد أسماء من شملتهم اعتقالات ١١ يوليو ١٩٤٦ التالية للدور النشيط للحركة الوطنية العليا للطلبة والعمال التي لعب الشيوعيون دوراً مهماً في إطارها، يبرز عدد لا بأس به من الأسماء اليهودية مثل هنري كورييل وداود ناحوم ونحوم منشه وإيمي ستون وغيرهم (ص٥٥-٥٦).

ويتعرض محمد الجندي للخلافات التي جرت عند توحيد تنظيمي «ايسكرا» و«الحركة المصرية للتحرر الوطني» في تنظيم واحد هو «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو)» أو ما سمي تاريخياً بوفد الشيوعيين، وجاء ذلك عقب أحداث ١٩٤٦ (ص٥٩). فقد كان حجم الأجانب في قيادة «ايسكرا» يمثل الأغلبية، بينما كانت القيادة في «الحركة المصرية» من المصريين عدا هنري كورييل، وتركز الخلاف حول تمصير القيادة، وكان كورييل من أبرز الداعمين للتمصير، مما حسم الخلاف لصالح التمصير مع بقاء كورييل مسئولاً سياسياً و«هليل شفارتز» مسئولاً تنظيمياً.

وبحلول هذا الوقت، كان مكتب والد هنري كورييل قد تحول إلى مكان للقاءات التنظيمية للشيوعيين المصريين، وكان كورييل يتحدث العربية بلكنة أجنبية، فلغته الأولى كانت الفرنسية، مثله مثل معظم اليهود الأجانب المقيمين في مصر حينذاك، ولكنه كان يقرأ العربية بسهولة (ص٦٠). وكانت الحركة الشيوعية - في رأي محمد يوسف الجندي - مدخلاً لربط كورييل وغيره من اليهود ذوي الأصول الأجنبية مع المصريين من عمال وموظفين ومثقفين، بل وأزهريين، وغيرهم.

ومن المحطات المهمة في مذكرات محمد الجندي تعرضه لحرب فلسطين، فهو يقر بمعارضة «حدتو» للحرب التي كانت كوادر الحركة ترى فيها مؤامرة مشتركة بين الاستعمار البريطاني والسراي والرجعية المصرية لصرف الأنظار عن الوجود البريطاني في مصر (ص٦٧ - ٦٨). وبالرغم من ذلك يعيد تأكيد أن الحركة كانت ترفض هجرة اليهود إلى فلسطين، وأنها دعت أصلاً لإقامة دولة ديمقراطية ومستقلة واحدة تضم جميع سكان فلسطين من العرب واليهود، وهو ما رفضه الطرفان العربي واليهودي. ويعترف محمد الجندي بتأييد «حدتو» لقرار تقسيم فلسطين، ولكنه يوضح أن ذلك لم يجيء باعتبار التقسيم حلاً جيداً، ولكن باعتباره الحل الوحيد الممكن الذي يضمن جلاء الجيوش البريطانية عن فلسطين (ونلاحظ هنا عدم تعرض الكاتب لما يضمن حقوق عرب فلسطين)، ويرى أن البديل كان حرباً لم تكن مصر مستعدة لها، وأن الهدف المتفق عليه من وراء هذه الحرب بين الملك عبدالله والوكالة اليهودية والاستعمار البريطاني هو منع قيام دولة فلسطين.

ويخلص الجندي إلى أن الزمن أثبت صحة وجهة نظر «حدتو»، فقد لحقت الهزيمة بالعرب، واستولى اليهود على مساحة أكبر مما قررته الأمم المتحدة لهم، وتم القضاء على فرصة إقامة دولة فلسطينية، في حين أنه كان يجب التمسك بالحدود التي حددتها الأمم المتحدة للدولة الفلسطينية، حتى لو كان ذلك كحد أدنى.

ويتضح من تحليل الأستاذ محمد الجندي لأحداث حرب فلسطين التزامه بالتفسير التآمري لتلك الأحداث، وهو تفسير تبنته قوى سياسية عديدة لها توجهات فكرية متباينة تجاه نفس تلك الأحداث، وتراوحت مواقعها ما بين التيارات الدينية والقومية العربية والوطنية المصرية واليسارية.



وينتقل الكاتب من تناول أحداث حرب فلسطين إلى إفرازاتها على الساحة المصرية، خاصة ما أسماه بحالة «الهستيريا» التي سادت مصر وتميزت بالعداء لليهود، بالرغم مما يؤكده الأستاذ الجندي من أن اليهود المصريين كانوا يحملون نفس ملامح المسلمين والأقباط المصريين، ويتهم الجندي جماعة الإخوان المسلمين وجماعات أخرى باستغلال حرب فلسطين لإذكاء مشاعر التعصب ضد اليهود، ويوضح أنه عقب اغتيال النقراشي باشا عام ١٩٤٩، فإن قائمة الاعتقالات لم تقتصر على الإخوان المسلمين المتهمين بعملية الاغتيال، بل شملت أيضاً الشيوعيين واليهود، بمن فيهم كورييل.

ويفرق محمد يوسف الجندي بين الصهيونية التي يعتبرها حركة رجعية وبين اليهود الذين يجب كسبهم للنضال مع العرب في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية (ص٧٢)، منطلقاً مما تمليه عليه انتماءاته الفكرية لمفاهيم الأممية والاشتراكية، وعلى أساس الفرضية الماركسية القائمة على اعتبار أن مصالح الشعوب الكادحة في كل مكان واحدة رافضة لما تعتبره مظاهر التعصب القومي والتوجهات العنصرية.

ويواصل الكاتب تركيزه على شخصية كورييل المحورية في تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، حيث يوضح أنه تولى لاحقاً قيادة تيار سمي بـ«خط القوات الوطنية الديمقراطية» وكان يدعو إلى عدم اقتصار الدعوة والتنظيم على العمال، بل شموله الفلاحين والمثقفين والطلبة أيضاً، بينما كان اتجاه آخر بقيادة د. عبدالمعبود الجبيلي يدفع إلى اقتصار العمل على صفوف العمال فقط، ثم تولى كورييل لاحقاً ما سمي بقيادة الداخل للحركة.

وإذا كان ما سبق قد تناول في معظمه العلاقة بين اليهود والحركة الشيوعية المصرية، مع إشارات هنا وهناك إلى العنصر الثالث في هذا المقال أي «فرنسا»، فإن التركيز على فرنسا يزداد في مذكرات محمد الجندي عندما يشير إلى عودة د. إسماعيل صبري عبدالله عام ١٩٤٩ من فرنسا بعد حصوله على شهادة الدكتوراه، وما ذكره عن الاتصال بالحزب الشيوعي الفرنسي أثناء إقامته هناك ومجيئه بتوجيه بتكوين الحزب الشيوعي المصري، خاصة أن الحزب الشيوعي الفرنسي لم يكن يمنع انضمام الأجانب لعضويته مما دفع عدداً من المصريين - غالبيتهم من اليهود الذين طردوا من مصر عام ١٩٤٨ بعد اعتقالهم. حيث كان يطرد اليهود الذين لا يحملون الجنسية المصرية بينما كان يخيَّر اليهود المصريين بين مغادرة البلاد أو البقاء رهن الاعتقال، وكان عدد كبير منهم قد اختار الذهاب إلى فرنسا، سواء للبقاء فيها، أو للانتقال من هناك إلى إسرائيل للانضمام إلى صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، وهو ما تبلور لاحقاً في تشكيل ما سمي بـ«المجموعة المصرية» داخل الحزب واختير إسماعيل صبري عبدالله مسئولاً لها.



ولم يقتصر التواجد اليهودي المؤثر في «حدتو» أو الحزب الشيوعي المصري، بل شمل منظمات أخرى، فكان «مارسيل إسرائيل» هو أحد مؤسسي منظمة تحرير الشعب الشيوعية، كما أن سيدة أجنبية يهودية هي «أوديت حزان» هي التي أنشأت المنظمة الشيوعية المصرية.. ومن المفارقات أيضاً، أن محمد الجندي يوضح أنه التقى بهذه السيدة لأول مرة بعد ذلك في عقد الثمانينيات من القرن العشرين، وكان اللقاء في باريس (ص٧٦).

وتأتي مرحلة أخرى ليست أقل إمتاعاً مما سبق في مذكرات محمد يوسف الجندي، وذلك عندما يتحدث عن خروجه من مصر هارباً واتجاهه إلى باريس، بتنظيم من الحركة الشيوعية المصرية، وذهب إلى عنوان محدد له سلفاً وكان لعائلة مصرية يهودية طردت من مصر عام ١٩٤٨ (ص٩١). ونلاحظ هنا تكرار الأستاذ محمد الجندي لمقولة طرد اليهود من مصر عام ١٩٤٨. وهي مقولة يختلف معه فيها الكثيرون بمن فيهم كاتب هذا المقال، حيث إن استخدام تعبير الطرد يوحي بالمساواة بين خروج بعض اليهود من مصر خوفاً من حالة العداء الشعبي لليهود عقب حرب ١٩٤٨ وبين الطرد المخطط والمنظم للفلسطينيين من أراضيهم بواسطة الجماعات الصهيونية في فلسطين.

وخلال وجوده في باريس، التقى محمد الجندي مع العديد من اليهود الشيوعيين الذين كانوا في مصر وذهبوا إلى فرنسا دون أن يقطعوا صلاتهم التنظيمية مع الحركة الشيوعية المصرية، بل إنه يوضح أن أعضاء «حدتو» الذين انضموا في البداية للحزب الشيوعي الفرنسي استقالوا بعد ذلك بتوجيه من هنري كورييل

ليحافظوا على ارتباطهم العضوى بـ«حدتو» فى مصر، حيث رأى كورييل أن جهودهم يجب أن توجه إلى داخل مصر وقام بتشكيل لجنة قيادية للعمل فى الخارج بقيادته لجمع الشتات الشيوعى المصرى فى الخارج، خاصة من اليهود، وكان كورييل قد طرد فى منتصف عام ١٩٥٠ من مصر إلى إيطاليا باعتباره يحمل الجنسية الإيطالية، ولكن إيطاليا لم تعترف بهذه الجنسية، مما دفعه لترتيب حضوره إلى باريس بشكل غير شرعى فى أوائل عام ١٩٥١، حيث استمر فى الإقامة فيها حتى اغتياله فى ٤ مايو ١٩٧٨. وحدثت أزمة بين كورييل وبين المجموعة اليهودية الشيوعية ذات الأصول المصرية فى باريس من جهة والحزب الشيوعى الفرنسى من جهة أخرى حين اتهم بعض قادة الحزب «أندريه مارتى» بأنه على علاقة بزوجين مصريين مشكوك فيهما»، وكان المقصود كورييل وزوجته (ص٩٢).

ويستمر الجندى فى سرد لقاءاته باليهود المصريين المنتمين للحركة الشيوعية خلال وجوده فى فرنسا، حيث يشير إلى لقائه مع يوسف حزان الذى رتب له الإقامة مع أسرة يهودية أخرى كانت قد التحقت بعضوية الحزب الشيوعى الفرنسى (ص٩٢).

ويتناول الجندى بقدر مهم من التفصيل الخلاف بين «حدتو» ومعها الشيوعيون اليهود المصريون المقيمون فى فرنسا من جهة والحزب الشيوعى الفرنسى من جهة أخرى، ويرجعه لدعم «حدتو» ـ بخلاف بقية الأحزاب الشيوعية خارج مصر ـ لثورة ٢٣ يوليو، وجاء هذا الخلاف بين حدوث انفراج نسبى فى علاقة الحركة مع الحزب بعد الدور البارز الذى لعبته «حدتو» فى الحركة الوطنية المصرية فى مطلع الخمسينيات، وعندما تحول موقف «حدتو» عام ١٩٥٣ من تأييد الثورة إلى الدعوة للإطاحة بما أسمته بـ«الديكتاتورية العسكرية»، جاء مشروع دمج «حدتو» مع ست منظمات شيوعية صغيرة أخرى عام ١٩٥٥، إلا أن المنظمات الصغيرة التى اشترطت استبعاد كورييل من التنظيم الموحد حتى يغير الحزب الشيوعى الفرنسى موقفه منه، وهو ما قبلته «حدتو» مرحليًا، إلى أن سمحت قيادة التنظيم الجديد الذى حمل اسم الحزب الشيوعى المصرى الموحد بإعادة كورييل لاحقاً إلى قيادته، إلا أنه حتى فى مرحلة إبعاده، فقد أحيل إلى كورييل موضوع تحقيق السلام بين العرب وإسرائيل، وقام بالفعل بالاتصال باليسار الإسرائيلى على أساس الدعوة لقيام دولة فلسطينية بجانب الدولة الإسرائيلية. ويشير الجندى إلى أن كورييل كان له دور فى الكشف عن الإعداد للعدوان الثلاثى على مصر قبل حدوثه، وأنه وغيره أرسلوا المعلومات الخاصة بذلك للرئيس الراحل جمال عبدالناصر عن طريق د. ثروت عكاشة الملحق العسكرى المصرى فى باريس حينذاك الذين كانوا على اتصال به، وجاء ذلك بعد فترة كان كورييل فيها مستمراً فى رفع شعار معارضة ما أسماه بـ«الديكتاتورية العسكرية فى مصر»، بالرغم من ظهور أصوات مصرية غير يهودية داخل «حدتو» تطالب بتغيير موقف الشيوعيين نحو تأييد عبدالناصر بعد مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥، وهو تغيير تم لاحقاً (ص٩٣).

ولا ينكر الجندى أن الشيوعيين المصريين كانوا على علم بأن قطاعات من الشيوعيين العرب الآخرين كانت تنظر إلى كورييل باعتباره جاسوساً صهيونيًا، ولكنه ينفى عنه هذه التهمة ويؤكد دفاعهم عن كورييل، بل ويعرب عن التقدير لدور الأخير فى التثقيف السياسى ورفع معنويات الشيوعيين المصريين المقيمين فى فرنسا وربطهم برفاقهم فى مصر (ص١٠٥ـ١٠٦). بل ويشير الجندى إلى أن العناصر اليهودية الشيوعية المصرية فى باريس مثل كورييل ويوسف حزان كان لهم دور فى دعم القضية الفلسطينية مما دعا عرفات إلى منح كورييل وحزان أوسمة، كما يشير إلى أن تلك العناصر ساعدت الحركات الشيوعية فى دول عربية أخرى مثل السودان.

وبالإضافة إلى «حدتو»، فإن فصائل شيوعية أخرى مثل حركة السلام المصرية دعت لتحقيق السلام بين مصر وإسرائيل منذ مرحلة مبكرة من منطلق أن من شأن ذلك أن يحقق التفرغ للتضامن من أجل مواجهة الاستعمار وتحقيق التنمية، ودعت الحركة إلى مؤتمر دولى لهذا الغرض تحضره مصر والدول العربية والدول الخمس الكبرى، ورحبت الصحف الإسرائيلية فى حينه بهذه الدعوة.

ومع هذا العرض الذى قدمناه لما تضمنته السيرة الذاتية للأستاذ محمد يوسف الجندى فيما يتعلق بتلك العلاقة ثلاثية الأبعاد بين يهود مصر والحركة الشيوعية وفرنسا، فمن المهم المقارنة مع الإشارة إلى مراجع أخرى تناولت بشكل أو بآخر نفس تلك العلاقة.

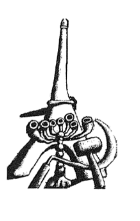
ونذكر هنا بشكل خاص كتاب «جيل بيرو» عن حياة هنرى كورييل والذى صدر باللغة الفرنسية وترجم إلى عدة لغات أخرى، ففى هذا الكتاب يتعرض المؤلف بالتفصيل لأصول اليهود الأجانب الذين قدموا إلى مصر منذ عهد محمد على بحثاً عن مورد للرزق ومكان للاستقرار والأمان، متتبعاً سيرة هؤلاء وأبنائهم فى مصر، ومؤكداً على استمرار ارتباطهم الوجدانى والشعورى والثقافى بأوروبا والغرب وهامشية اتصالاتهم وتعاملهم مع المجتمع المصرى الذى كانوا يعيشون فيه، ثم منتقلاً إلى دائرة أضيق تضم من انضم منهم إلى الحركة الشيوعية المصرية، وفى مقدمتهم هنرى كورييل، وبعد التعرض لدور هؤلاء فى الحركة السياسية والفكرية فى مصر حتى خروجهم منها، يعود المؤلف مرة أخرى إلى تتبع سيرة هؤلاء واستمرار التواصل بينهم بعد وصولهم إلى فرنسا، ومدى ما بقى من صلات بينهم وبين الحركة الشيوعية المصرية حتى اغتيال كورييل فى باريس عام ١٩٧٨.

كما يهمنا الإشارة إلى الجزء الوارد فى المجلد الثالث من كتاب د. رفعت السعيد «تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ١٩٤٠ـ١٩٥٠» والذى كرسه للرد على السؤال بشان كثافة التواجد اليهودى والأجنبى فى صفوف الحركة الشيوعية المصرية. وجاءت إجابة د. رفعت السعيد بأن نسبة من هؤلاء الأجانب واليهود لم يكونوا من الرأسماليين، بل كانوا من الحرفيين والعمال والمهنيين والمثقفين الذين احتكوا بشكل مباشر بالمصريين وحياتهم الاجتماعية، والذين كان من الطبيعى أن يتخذوا منحى اشتراكيًا ويساريًا، وهو تحليل يتفق فيه د. رفعت السعيد مع مصطفى طيبة فى كتابه «الحركة الشيوعية المصرية ١٩٤٥ـ١٩٦٥: رؤية داخلية». ويوضح الكاتبان ـ وكلاهما انتمى إلى الحركة الشيوعية المصرية فى تلك المرحلة ـ دور شخصية مثل جوزيف روزنتال وهو يهودى روسى فى تأسيس أول نقابات عمالية فى مصر للفافى السجائر والخياطين وعمال المطابع.

ويتفق السعيد وطيبة على أن امتدادات الفاشية السياسية فى أوروبا داخل مصر، ونمو التيارات الدينية الإسلامية، والحرب العالمية الثانية، كانت كلها عوامل لها تأثير على توجهات اليهود والأجانب فى مصر فى تلك المرحلة. فعلى الصعيد السياسى ظهر تقارب لرجال القصر مع المحور، وبدأت أحزاب مثل مصر الفتاة والأحرار الدستوريين تدفع فى نفس الاتجاه، واتسمت الجالية الإيطالية فى مصر بالانقسام بين فاشيين ومعارضين للفاشية، وتزامن ذلك كله مع تعاظم دور الأزهر وجماعة الإخوان المسلمين والتوظيف السياسى للدين، مما دفع الأجانب واليهود (وكان عددهم حوالى ٦٣ ألفا فى مصر طبقاً لتعداد ١٩٣٧) إلى نزعة يسارية عكست مخاوفهم من هذه الظواهر، التى رأوا فيها جميعاً مظاهر لإفرازات الفاشية فى أوروبا، مما دفعهم إلى تبنى نقيض الفاشية.

وكما هو الحال مع محمد يوسف الجندى، فقد رأى السعيد وطيبة فى حرية الحياة الثقافية والفكرية التى تمتع بها الأجانب فى ظل الامتيازات الأجنبية سبباً إضافيًا لانضمامهم للحركات الشيوعية، حيث كان مسموحاً لهم بإدخال المطبوعات الشيوعية فى ظل الحماية التى وفرتها الامتيازات الأجنبية لنشاطهم السياسى، بالإضافة إلى مشكلة اللغة التى حالت دون اطلاعهم على الأدبيات السياسية المصرية، بينما كانت الأدبيات السياسية الماركسية متاحة بلغاتهم، كذلك فقد بدأت بريطانيا تتغاضى بعض الشىء عن النشاط الشيوعى خلال الحرب العالمية الثانية باعتباره يصب لصالح مناهضة المحور.

ويؤرخ السعيد وطيبة للدور اليسارى لليهود المصريين والأجانب إلى ما قبل المرحلة التى يؤرخ لها محمد يوسف الجندى، ويشيران بشكل خاص إلى «ليون كاسترو» الذى كان صديقاً لسعد زغلول و«زكى ليفى» ثم نشأة تيار يسارى بزعامة «إدوارد سوريانو» الذى أقام علاقات وطيدة مع الحزب الشيوعى الفرنسى، ثم ظهور «اتحاد أنصار السلام» عام ١٩٣٢ بغالبية يهودية ضمن أعضائه وبزعامة «جاكو دى كومب» وارتباطه بالتجمع العالمى للسلام. ويتفق السعيد وطيبة فى أنه نظراً



يعترف محمد الجندى بتأييد «حدتو» لقرار تقسيم فلسطين، ولكنه يوضح أن ذلك لم يجىء باعتبار التقسيم حلاً جيداً، ولكن باعتباره الحل الوحيد الممكن الذى يضمن جلاء الجيوش البريطانية عن فلسطين



لمطاردة عناصر الحزب الشيوعى القديم الذى تم حله عام ١٩٢٤ بواسطة حكومة الوفد، فقد بدا دور الأجانب - خاصة اليهود - متضخماً بالنظر إلى عددهم فى المجتمع المصرى عند تأسيس الحركات الشيوعية المصرية فى مطلع الأربعينيات، إلا أن الكاتبين لا يفسران لنا سبب تمتع اليهود والأجانب بنسبة مرتفعة أيضاً من مواقع القيادة والعضوية فى الحزب الشيوعى المصرى القديم الذى دام ما بين عامى ١٩٢٢ و١٩٢٤.



إلا أنه فى حالة «مصطفى طيبة»، فإنه يعبر فى بعض مواقع كتابه عما يسميه بتململ من المثقفين أنصاف الأجانب فى «ايسكرا» و«الحركة المصرية للتحرر الوطنى»، ولكنه يرفض الهجوم على هنرى كورييل باعتباره مدخلاً للهجوم على الحركة الشيوعية المصرية والتشكيك فيها بحجة أن بعض مؤسسى منظماتها يهود تحيط بهم الشكوك، معتبراً أن الحركة الشيوعية المصرية أكبر بكثير من كورييل وغيره، ويشيد بدور كورييل فى ترجمة وطبع الكتب الماركسية مما جعل الفكر الشيوعى فى متناول العامة الذين لا يعرفون لغة أجنبية، وإدماج النوبيين فى الحركة الشيوعية المصرية نظراً لاهتمامه بنشاطهم.

إلا أنه بخلاف محمد الجندى، فإن مصطفى طيبة يعترف بأن انحسار نشاط «حدتو» وانعزالها عن الجماهير كان بسبب موقفها من قضية فلسطين حيث أقرت بالحق القومى لليهود فى تكوين دولتهم فى أرض فلسطين، وهو موقف يذكر طيبة أن كورييل صاغه بنفسه فى محاضرة كانت تدرس للكوادر، وعندما طرح طيبة موقفاً مناهضاً لذلك الموقف فى اللجنة المركزية لـ«حدتو»، هاجمه كورييل واتهمه بالعداء للأممية ولمواقف الاتحاد السوفيتى السابق.

وتأكيداً للعلاقة بين الحركة الشيوعية المصرية وفرنسا، يشير مصطفى طيبة إلى أنه عند تكوين الحزب الشيوعى المصرى، اقترح د. فؤاد مرسى استشارة الحزب الشيوعى الفرنسى، وسافر بالفعل سعد زهران إلى باريس ومعه الوثائق الأساسية للحزب، وعاد بموافقة الحزب الشيوعى الفرنسى وتوصيته بجمع كل الشيوعيين المصريين فى الحزب الجديد.

واتفاقاً مع ما ذكره الجندى عن دعم بعض اليهود المصريين الشيوعيين لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، يوضح طيبة أن «مارسيل إسرائيل» من «منظمة تحرير الشعب» أيَّد حركة الجيش من معتقله.

ويقر مصطفى طيبة بعدم إدراك الحركة الشيوعية المصرية لدور مصر فى حركة التحرر العربى، وعجزها عن فهم العلاقة العضوية بين الوطنية المصرية والقومية العربية، وافتقاد الوعى بالأبعاد الخطيرة للحركة الصهيونية العالمية وتخطيطها لإقامة دولة إسرائيل الكبرى. ويرفض طيبة إشادة رفعت السعيد بموقف «حدتو» ضد حرب فلسطين، موضحاً أنها لم تستند فقط إلى الموقف السوفيتى المؤيد للتقسيم، وإنما إلى الحديث عن وجود قومية إسرائيلية تنطبق عليها شروط الأمة كما حددها استالين من لغة مشتركة وتكوين نفسى مشترك وأرض مشتركة يجب أن تكتسب مشروعيتها فى صورة دولة، وبذلك تصبح حرب ١٩٤٨ هى حرب تحرير فى مواجهة الرجعية العربية، بل ويتهم طيبة كورييل بالدفاع عن العدوان الإسرائيلى عام ١٩٦٧ باعتباره نضالاً حفاظاً على البقاء وفى مواجهة الإبادة والفناء دون تيقن بانكشاف الأهداف الاستعمارية الكامنة وراء زرع إسرائيل فى المنطقة.




ومن الأجزاء الممتعة فى كتاب مصطفى طيبة المشار إليه، رده على مقال المستشار طارق البشرى نشره فى مجلة الهلال عام ١٩٨٨ وتناول فيه دور هنرى كورييل، حيث رأى البشرى أن كورييل وجَّه التنظيم ضد الحركات الشعبية الإسلامية والوطنية والعربية بدعوى أنها فاشية، واتهمه بالتعاون مع الصهاينة فى فلسطين، مما أوحى بأن الحركة الشيوعية المصرية كانت فى مجملها أداة فى يد فئة من اليهود لتحقيق أهداف الصهيونية.

ويرد مصطفى طيبة بأن مظاهرات نوفمبر ١٩٤٥ فى مصر لم تكن تضامناً مع الشعب الفلسطينى بل هجوماً على منشآت ومحلات يهودية، ويتفق هنا طيبة مع محمد يوسف الجندى فى أن هذه المظاهرات أضرت بالقضية الوطنية وقدمت خدمة للاستعمار والصهيونية عبر تحويل الهجوم نحو اليهود المصريين مما حرضهم على الهجرة إلى إسرائيل، دون تمييز بين الصهاينة واليهود التقدميين، فكان المفترض أن الحرب هى ضد الصهيونية وليست ضد اليهودية. كما نفى مصطفى طيبة ما ذكره طارق البشرى من إرجاع جميع الصراعات داخل التنظيمات الشيوعية المصرية إلى كونها صراعات بين المصريين والأجانب - خاصة اليهود - ويؤكد - كما هو الحال بالنسبة لمحمد الجندى - أن كورييل على سبيل المثال كان من أبرز الدافعين فى اتجاه التمصير، كما أن أسباباً أخرى عديدة وأكثر أهمية كمنت وراء تلك الصراعات داخل وفيما بين التنظيمات الشيوعية المصرية.

وختاماً، نأمل أن يكون ما سبق قد ألقى بعض الضوء من حيث المعلومات والربط فيما بينها، أو من حيث التحليل والرؤية النقدية، لتلك العلاقة التى تبدو للوهلة الأولى مثيرة للغرابة والدهشة بين مثلث يهود مصر والحركة الشيوعية وفرنسا، وهى غرابة سرعان ما تنقشع عندما يتم تتبع مسيرة ارتباطها والعوامل والأسباب التى أدت إلى هذا الارتباط فى مراحل مختلفة من تاريخ يهود مصر والحركة الشيوعية بها وفرنسا ما بين مطلع الأربعينيات ومنتصف الخمسينيات من القرن العشرين. ■



عبقرية المسيح

شريعة الحب

شريعة الحب لا تبقى حرفًا من شريعة الأشكال والظواهر، ولكنها لا تنقض حرفًا واحدًا من شريعة الناموس بل تزيد عليه وينبغى هنا أن نصحح معنى الناموس فى الأذهان، فإن معناه هو «القوام» الذى يقوم به كل شيء، وناموس العقيدة هو الأصول الأبدية التى يقوم بها ضمير الإنسان ما دام للضمير وجود، فلن يزال قائمًا - كما قال السيد المسيح - ما قامت الأرض والسموات.

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس لاحقًا لأنه جاء بشريعة الحب، وهى زيادة عليه.

إن الناموس عهد على الإنسان بقضاء الواجب، أما الحب فيزيد على الواجب، ولا ينتظر الأمر ولا ينتظر الجزاء.

الحب لا يحسب بالحروف والشروط، والحب لا يعامل الناس بالصكوك والشهود، ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيد عليه، وهو مستريح إلى العطاء غير متطلع إلى الجزاء.

بهذه الشريعة - شريعة الحب - نقض المسيح كل حرف فى شريعة الأشكال والظواهر.

وبهذه الشريعة - شريعة الحب - قضى على شريعة الكبرياء والرياء، وعلم الناس أن الوصايا الإلهية لم تجعل للزهو والدعاوى والتيه بالنفس ووصم الآخرين بالتهم والذنوب، ولكنها جعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك، وللعطف على الناس بالرحمة والمعذرة، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب.



عـــــــروض
مـــــوجـــــزة

كتب عربية

الإبداع في حل المشكلات

حسين علي
دمشق: دار الرضا للنشر، ٢٠٠١، ١٧٥ صفحة



اعتمد المؤلف في كتابه على ما كتبه الأمريكيون حول الإبداع في حل المشكلات، بهدف تقديم دليل عملي يحسِّن قدرات الفرد على التعامل معها وانتقاله من العقلية الانفعالية إلى العقلية الفاعلة.

ويستند المؤلف في كل فصول الكتاب إلى أمثلة عملية تقرِّب ما يهدف إليه، بدءًا من أهمية تعريف المشكلة والوقوف على جوهرها، وانتهاءً بتقييم الحلول، ومرورًا بعملية توليد الحلول وتطبيقها وإقرار سير العمل. ويعطي المؤلف أهمية كبيرة لعملية تعريف المشكلة وفي ضوء الوصول إلى التعريف الحقيقي للمشكلة، يسهل ابتكار حلول لها، ويعطي مثالين مهمين أحدهما لطالب وأستاذه يتعقبهما ذئب، سارع الطالب بخلع حذائه والعدو أسرع من أستاذه لأنه أدرك أن لحاق الذئب بهما مؤكد، لكنه حين يعثر على أحدهما فسيكتفي به بما يمنح الآخر فرصة للهرب، والمثال الثاني يشير إلى قدرات مدير فندق يشكو نزلاؤه من بطء المصعد، وحتى بعد إصلاح المصعد وتركيب مصعد آخر استمرت شكوى النزلاء، فما كان من المدير إلا أن وضع مرايا في جميع الأدوار مجاورة للمصاعد، كي ينشغل النزلاء بها فلا يشعرون ببطء مرور الوقت.

كما يقدم نماذج لمشكلات كان التشخيص فيها خاطئًا ومن ثم جاءت الحلول خاطئة بالتبعية، ويشير إلى عادات سبعة للأشخاص ذوي الفاعلية العالية في حل المشكلات وهي أن يكون الفرد فاعلاً لا منفعلاً، وأن يحدد هدفه منذ البداية، وأن يضع سلمًا للأولويات، وأن يفكر بالربح المشترك مع جميع المعنيين بالمشكلة، وأن يسعى أولاً للفهم وَيحاول بعد فهمه لها أن يعبر عنها بطريقة مفهومة، وأن يستفيد من مشورة الآخرين، وأن يكون على استعداد لتجديد عناصر حياته بما يعينه على الابتكار.

ويقدم مجموعة من النصائح لصاحب المؤسسة بهدف تشجيع الإبداع وخلق بيئة إبداعية للعاملين، ومنها ألا يعطي الأفراد أهدافًا وإنما فقط توجهات، وأن يشجع التعدد والمعارضة، وألا تكون البيئة رسمية وتقليدية، وأن تدخل العاطفة في نظام العمل، وأن يشعر الأفراد العاملون بالأمان، وأن يشجع المصداقية وليس فقط تعظيم الشعور بالمسئولية، وأن يمنح الفرصة للأناس العاديين أن يتجاوزوا إمكانياتهم ويؤدوا أعمالاً استثنائية كي تبرز قدراتهم الحقيقية.

ويقدم المؤلف نماذج تحليلية ورسوما بيانية لعمليات تحليل المشكلة وتحليل القرار والإبداع في الحلول مستعرضًا تجارب شركات أمريكية كبرى.

□ □ □

بنية المسلسل الدرامي التليفزيوني

قيس الزبيدي
دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠١، ١٨٤ صفحة



تجتذب الدراما التليفزيونية ملايين المشاهدين، الذين - في كثير من الأحيان - يتبادلون المواقع مع أبطالها، فيتمثلون أحزانهم ويتشيعون لبعضهم على حساب بعضهم الآخر وفق تصنيف «الأخيار والأشرار»، ويتواصل المشاهدون فيما بينهم سعيًا لفك ألغاز وعقد المسلسل كل حسب هواه.

بسبب هذه الأهمية وذلك التأثير، يسعى هذا الكتاب إلى تحليل البنية الدرامية للمسلسل التليفزيوني.

وحسب المؤلف، فقد وجدت الأشكال السردية التسلسلية في كافة الأنواع الأدبية والفنية منذ القدم، وتقدم ألف ليلة وليلة دليلاً جليًا على صحة هذا الاستنتاج، حيث كان على شهريار أن ينتظر بلهفة الحريص على التبيان ما تجود به قريحة شهرزاد كل ليلة، وكان عليه أن يتفاعل مع شخصياتها التي تساهم في الحكي إنقاذًا لشهرزاد من مصيرها المحتوم.

ويتناول المؤلف البنية التي تطور بها المسلسل التليفزيوني مواكبًا لتطور تقنيات التليفزيون ذاته، الذي تحول إلى آلة سرد كبيرة يحتل هدف التسلية موقعًا فريدًا على خريطتها، وتلبي الدراما التليفزيونية احتياجات هذا الهدف إلى حد بعيد.

ويحتاج المسلسل إلى جمالية خاصة به، سواء كان يسرد حكاية مفتوحة تتألف من قصص عديدة لأبطال عديدين، أو حكاية مغلقة تمت تجزئتها إلى حلقات متعددة.

ويشير المؤلف إلى ما انتهت إليه باحثة ألمانية ميزت ثلاثة عناصر في بنية الخطاب عبر المسلسل: بنية التوتر وبنية الفصول وبنية المفاجأة.

وتؤكد دراسات الكتاب على تقليدية بنية الدراما العربية السائدة في عموميتها، فقد اكتسبت سمات متشابهة تتكرر في أغلب الأحوال ويضع المؤلف في ختام دراسته وصفًا موجزًا لعناصر النص التليفزيوني الدرامي ووظائفه وهي: نمط الحكاية، زمن الحكاية، زمن سرد الحكاية، الحوار، بنية النص الفنية، طبيعة بنية السرد الفنية، أهمية نص الإخراج.

ويشير إلى أن العملية الفنية ترتكز إلى مرحلتين في الكتابة، الأولى: هي مرحلة كتابة النص الأدبي «السيناريو»، والثانية: هي مرحلة كتابة المخرج نص التصوير «الديكوباج»، والأخيرة: هي القادرة على إعادة التوازن إلى بنية النص الفني، والتخفيف من مظاهر الخلل التي تنشأ من اتساع بنية النص اللافني.

□ □ □

التجريب في الرواية العربية الأردنية

منى محمد محيلان
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ووزارة الثقافة الأردنية، ٢٠٠١، ٢٣٢ صفحة



تقف هذه الدراسة عند معظم الروايات التجريبية الأردنية في الفترة ما بين ١٩٦٠ و١٩٩٤، وتقول المؤلفة إنها تبدأ دراستها منذ عام ١٩٦٠ على الرغم من أن التجريب في الرواية الأردنية بدأ عام ١٩٦٨ بظهور روايات «الكابوس» لأمين شنار، و«أنت منذ اليوم» لتيسير سبول، و«أوراق عاقر» لسالم النحاس، وقد تزامنت حركة التجريب في الرواية الأردنية مع بدء حركة التجريب في كل من مصر والعراق وترسخت في الثمانينات والتسعينات.

ويلاحظ أن معظم الروائيين الذين مارسوا التجريب في الأردن كانوا على صلة بالصحافة إما كمحترفين أو كُتَّاب مقالات مثل غالب هلسا وإبراهيم نصرالله ورمضان الرواشدة ومؤنس الرزاز، كما أن بعضهم له تجارب شعرية مهمة مثل إبراهيم نصرالله وتيسير سبول وسليمان الطراونة وأمين شنار.

وأما مفهوم التجريب الذي تبنته المؤلفة مستفيدة من دراسات لنقاد آخرين في الموضوع نفسه فقد تمثل في الانقطاع عن مسايرة التقاليد السائدة للتراث الأدبي والتي تمثلت أساسًا في الصور المختلفة للواقعية، وشمل الشكل والمضمون معًا.

وتشير إلى أن الخروج على أساليب السرد التقليدية في الروايات التجريبية الأردنية انطلق من إحساس الروائي بالإحباط في عالم تتسارع تحولاته مما أفقده اليقين بالثوابت، وقد اعتمدت الروايات في معمارها العام على المنولوجات الداخلية والتداعيات والتكنيك الدرامي والقالب الشعري، ووظفت أساليب اللاوعي وسرد الذكريات، وانفتح النص الروائي على الأساليب الأدبية المتنوعة كالاعترافات والمذكرات واليوميات والرسائل واستعان بالتقنيات المسرحية والسينمائية والفنون الجميلة.

واتسم زمان الروايات بالتقلب والحركة فامتزج الماضي والحاضر والمستقبل المتخيل.

ومن ناحية اللغة مزجت الروايات بين العامية والعربية المبسطة ولغة الصوفية واللغة الشعرية، واستلهم التراث على صعيد اللغة والأسلوب مستفيدًا من القرآن الكريم والسيرة النبوية والمقامات وألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والحكم والأقوال المأثورة.

ومن ناحية الشكل استفادت الروايات من المنجزات التقنية الحديثة في الرواية الغربية واستلهم بعضها الأشكال التراثية ومزج بعضها بين الاتجاهين.

تقدم المؤلفة هذه الاستخلاصات عبر دراستها لعشرين رواية أنجزها عشرة روائيين من أجيال واتجاهات مختلفة.

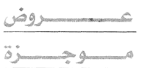
□ □ □

طه حسين والمغرب العربي

أبو القاسم محمد كرو
تونس: مؤسسات بن عبد الله للنشر والتوزيع، ٢٠٠١، ٢٦٣ صفحة



الفصل الأول علاقة طه حسين بتونس التي يرى المؤلف أنها بدأت في العام ١٩٠٩ حين كان طه حسين مازال طالبًا متمردًا على التعاليم الأزهرية وقد



أخذ بيده عالمان جليلان هما أحمد لطفى السيد وعبد العزيز جاويش، والأخير تونسى الأب وإن كان ولد وعاش وتوفى بمصر، وكان للشيخ جاويش تأثير كبير على طه حسين فهو الذى وجَّهه نحو دراسة الأدب والتعمق فى الدراسات النقدية، وهو الذى ألح عليه ليتعلم الفرنسية ثم ليسافر إلى فرنسا لينهل من علومها وآدابها، وهى المسالك التى سلكها الشيخ جاويش نفسه.

ومن يراجع صحف العشرينيات والثلاثينيات فى تونس وحتى اليوم - كما يقول المؤلف - لا بد أنه سيلمس مكانة طه حسين وأثره وإشعاعه الذى يمتد جيلاً بعد جيل، وأما اهتمام طه حسين نفسه بتونس فبدأ باهتمامه بالتراث التونسى والأندلسى وعلاقته الحميمة بشيخ المؤرخين التونسيين حسن حسنى عبد الوهاب الذى منحته الجامعة المصرية الدكتوراه الفخرية وقت أن كان طه حسين وزيرًا للمعارف، ويشير المؤلف إلى مواقف طه حسين النضالية ضد الاستعمار الفرنسى وهجومه على ممارساته ضد المدنيين فى دول المغرب العربى وتأييده للمجاهدين وقد أبدى ابتهاجًا شديدًا بحصول الشعبين التونسى والمغربى على استقلالهما وتمنى أن يصيب الجزائر ما أصابهما وقد منحت تونس وسام الاستقلال لطه حسين فى العام ١٩٥٧، ويشير المؤلف إلى بعض أصحاب الفضل من التوانسة على طه حسين ومنهم عبد العزيز الثعالبى الذى كان أول من عرَّف القراء التونسيين بطه حسين حين نشر نصًا أدبيًا له فى العام ١٩١١، وكان عبارة عن قصيدة طويلة بمناسبة العام الهجرى الجديد، والأديب التونسى الكبير محمود المسعدى الذى كتب طه حسين نقدًا لروايته «السد» عام ١٩٥٧، وكذلك علاقته بالأديب نور الدين محمود والرئيس التونسى الحبيب بورقيبة، ويورد المؤلف فى نهاية بحثه ثلاث وثائق لطه حسين عن تونس هى محاضرة بعنوان «رحلة فنية» وحوار أجرى معه فى الصحافة التونسية عام ١٩٥٧ ومقالة بعنوان «تونس» كتبها طه حسين.

أما الجزائر التى لم يزرها طه حسين قط، فقد كتب عنها أروع مقالاته وأكثرها جرأة وحرارة دفاعًا عن حق الشعب الجزائرى فى الاستقلال وفى الحياة الكريمة، وقد حاول طه حسين أن ينشئ معهدًا لتعليم اللغة العربية فى الجزائر عام ١٩٥٠ ليقاوم عملية الفرنسة التى كانت تسير على قدم وساق هناك، غير أن الفرنسيين لم يمكنوه، وقد كتب طه حسين عن الأدباء الجزائريين وأشهر ما كتبه مقالته المطولة عن الأديب الجزائرى مولود معمرى بمناسبة صدور قصته «الربوة المنسية» باللغة الفرنسية.

وفى الملحق الخاص بالجزائر يورد المؤلف النقد الذى كتبه طه حسين عن «الربوة المنسية» ومقالة عنوانها «قضية الجزائر» ومقالة بقلم محمد الصالح صديق عنوانها «مع طه حسين».

أما المغرب فقد زارها طه حسين عام ١٩٥٨، وألقى فيها عدة محاضرات واحتفى به الرسميون ورجال الأدب والعلم، وكما ندد بالاستعمار فى الجزائر وتونس فعل الشىء نفسه فى المغرب، ويورد المؤلف فى ختام الفصل ملاحق مما كتبه طه حسين عن المغرب ومن محاضراته هناك وما كتب عنه بمناسبة الزيارة. ويضم الكتاب صورًا نادرة لطه حسين فى المغرب العربى مع مسئولين كبار ووسط الجموع التى احتشدت لسماع محاضراته.

□ □ □

التشويق.. رؤية الإخراج فى الدراما السينمائية والتليفزيونية
عبد الباسط سلمان المالك
القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠١



يلعب التشويق فى الفنون البصرية دورًا بالغ الأهمية، وهو يمثل عنصرًا أساسيًا من عناصر البناء الدرامى يدفع المتلقى لمتابعة أحداث العمل حتى نهايته.

فى البداية يعدد المؤلف مقومات العمل الدرامى والتى تبدأ بالفكرة وهى التى تحدد طبيعة العمل وتفرض الشخصيات والأجواء التى تتحرك فى إطارها، أى أنها هى التى تغذى كل عناصر الدراما، ثم الشخصيات التى عبر التفاعل بينها ينمو البناء الدرامى وتتصاعد حالة التشويق، ويشير المؤلف إلى الحوار بين الشخصيات بوصفه أحد عناصر الدراما مؤكدًا على أن العمل الجيد هو الذى يعتمد على بلاغة الصور وقلة المساحة الممنوحة للحوار، وتأتى الحبكة فى مقدمة العناصر الدرامية عبر تصعيدها للأحداث وصولاً إلى الأزمة الدرامية ثم الذروة التى تمثل نقطة التحول فى مجرى الأحداث.. «فهى النقطة التى تشبه لحظة الانفجار أو لحظة العنف والإثارة».

الغموض وخلق الشك عند المشاهد واستمالة تعاطفه تجاه أشخاص بأعينهم داخل العمل وحنقه على آخرين والتوافق بين النص الدرامى والإخراج، هذه كلها عناصر مهمة فى تحقيق التشويق عبر الصوت والصورة.

وفى فصل تال يركز المؤلف على قدرة التصوير فى التأثير على المشاهد وجذب انتباهه من خلال أحجام اللقطات وحركات الكاميرا وزوايا التصوير، حيث إن التنويع فى حجم اللقطة يكسر الرتابة والملل عند المتلقى، فضلاً عن دورها فى خلق التأثير الدرامى والنفسى المطلوب، وكذلك الحال بالنسبة لحركات الكاميرا سواء كانت حركة عمودية أو مقتربة أو مبتعدة أو موازية أو زوم.. إلخ، ثم يبين أهمية الإضاءة فى تعميق الإحساس بالعمق المكانى وخلق أجواء انفعالية ومؤثرات درامية مهمة، ويشرح الأساليب الثلاثة للإضاءة وهى السلويت والنوتان والكورسكورو، والأول: يستخدم لخلق حالة من الغموض وإخفاء تفاصيل الشخصية، والثانى: يهتم بتوزيع الإضاءة بشكل يكشف كل مكونات الصورة دون عمق حقيقى، أما الكورسكورو فيعطى إحساسًا بالتجسيد والعمق وينقل أغلب التدرجات اللونية.

ولا يستبعد المؤلف أهمية المكياج والمونتاج والموسيقى التصويرية والإيقاع الحركى كعناصر مؤثرة ومهمة فى إحداث التشويق.

□ □ □

التسامح والعنف فى الإسلام
سيد عطاء الله مهاجرانى
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١، ١٨٢ صفحة



فى خريف عام ٢٠٠٠ قدَّم الوزير المسئول عن الثقافة والفنون والآداب والصحافة والإرشاد الإسلامى فى إيران استقالته، وقد كان عطاءالله مهاجرانى مرشحًا لخلافة الرئيس محمد خاتمى وقيادة سفينة الإصلاح والتغيير فى حالة عدم ترشيح خاتمى لنفسه، وبرغم أن ذلك لم يحدث فإن مهاجرانى وجد نفسه مضطرًا تحت وطأة ضغوط التيار المحافظ إلى أن يستقيل ويغادر مطبخ صناعة القرار فى إيران، وهو الذى سُمى بـ«وزير الوزراء» فى إدارة الرئيس خاتمى الإصلاحية، للدور المهم الذى لعبه فى برنامج الإصلاحات فى مجالات الصحافة والإعلام والثقافة والفنون.

ويقدم الكتاب رؤية من قريب لكثير من آراء مهاجرانى ومواقفه المبدئية فى موضوعات مختلفة فى جزءين: الجزء الأول يمثل خطابًا كان من المفترض أن يكون مناظرة مع واحد من رموز التيار المحافظ لكنها لم تحدث، والجزء الثانى هو مرافعة ألقاها مهاجرانى من فوق منبر البرلمان، شدت أنظار الرأى العام الإيرانى والعالمى.

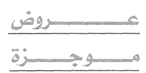
ويقدم مهاجرانى فى البداية تعريفه لمعنى التساهل والتسامح فى الإسلام، ويشير إلى أن الشريعة سمحة وسهلة وتطبيق الأحكام الدينية سهل يسير، والدين والشريعة هما أسلوب حياة، ولم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يكون المؤمنون فى حرج ومشقة وضيق من دينهم، وقد جعل الله تعالى الدين يسيرًا بمخاطبته للرسول الكريم «ونيسرك لليسرى»، والتساهل بمعنى الغفران والتيسير كما يقول مهاجرانى كان مبدأ مهمًا فى أسلوب النبى الكريم فى الدعوة والتبليغ، وينقل عن الإمام على كرَّم الله وجهه قوله:

«اعقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية».

ويورد المؤلف مقتبسات من القرآن والسنة وأقوال السلف الصالح تؤكد منهج التيسير والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ويؤكد على عدة أمور مهمة أهمها: التدرج فى الأحكام حتى يمكن للناس قبولها والامتثال لها، وامتياز التشريع القرآنى بعرض أمور كلية فى مجال العبادات والمعاملات وترك التفاصيل للسنة النبوية المطهرة، وامتيازه كذلك بالنظر إلى الحقائق وليس إلى القشور، وتمتعه بالمرونة والقابلية على التكيف مع المستجدات الحضارية والثقافية لمختلف المجتمعات الإنسانية، كما أن القرآن جعل الإنسان محور تشريعاته، واهتم بالبعدين المادى والمعنوى للإنسان بشكل متوازن، وجعل الفطرة الإنسانية هى معيار التشريع.

أما الجزء الخاص بالاستجواب فيتضح فيه موقفه المستنير من الأدب القصصى والشعر - حتى الماجن منه - وتسامحه مع الصحافة مهما كان نقدها، ومطالبة الصحافة فى الوقت نفسه بالإنصاف فى تعاملها مع الموضوعات التى تمس وزارته، وتشجيعه لنشر الكتب والتآليف الموسيقى والمسرحى والسينمائى بوصفها روافد ثقافية مهمة، يقول مهاجرانى ردًا على منتقديه:

«إن إقامة جمهورية من دون توافر الحرية، أى من دون وضع حدود للسلطة، تؤدى إلى فناء الجمهورية ذاتها، لأن فقدان المؤسسات الدستورية سيؤدى إلى قيام أنظمة حكم مطلقة.



كتب أجنبية

Czechoslovakia: The Short Goodbye

(تشيكوسلوفاكيا: الوداع القصير)

Abby innes

Yale, 2001, 345PP, £ 25.00



منذ تفكك تشيكوسلوفاكيا السلمي عام ١٩٩٣ إلى جمهوريتي التشيك وسلوفاكيا، والذي أطلق عليه البعض «الطلاق» فإن كثيرًا من المراقبين الغربيين لازالوا يتساءلون عن الأسباب الحقيقية وراء هذا الانفصال؟ لقد أخذ الساسة وصناع القرار في الغرب مسألة التحول من الاشتراكية إلى الديمقراطية ومن الشمولية إلى الليبرالية في تشيكوسلوفاكيا، على أنها أمر يسير وطريق يقود إلى الاستقرار بعد مرحلة قصيرة من الانتقال، لكن تبين أن العكس كان هو الصحيح، فقد ظلت الدولة متماسكة لعدة سنوات بعد نهاية الحكم الشيوعي ليفاجأ العالم بعقد استفتاء على الانفصال الذي حدث بالفعل.

إن السؤال الجوهري في هذا الصدد هو لماذا تفشل الاتحادات «الفيدراليات» المؤلفة من جنسيات متعددة؟ وقد تكون الإجابة سهلة إلى حد ما فيما يتعلق مثلاً بدولة متعددة الأعراق والديانات مثل يوجوسلافيا السابقة لأن عوامل التفكك والصراع ظاهرة للعيان، فالاختلاف الاقتصادي والاجتماعي والاستبداد السياسي وكبت الحريات أوضح الأسباب على حتمية التفكك وانهيار الاتحاد. لكن الأمر قد يبدو مختلفًا بالنسبة لتشيكوسلوفاكيا، فالتشيك والسلوفاك يتحدثان لغتين مفهومتين بالنسبة لكليهما، كما أن الشعبين ليس لهما تاريخ من العداوة والبغضاء، كما هو الأمر بالنسبة لأعراق يوجوسلافيا مثلاً. وكان الشعبان على عكس الأمر بالنسبة حتى لدول في أوروبا الغربية، يتمتعان بمستوى معيشة متقارب، فماذا حدث لكي يحدث الطلاق؟

إن الكتاب يحاول تلمس الأسباب الحقيقية من خلال تتبع عدة خيوط بحثية حول ميراث الشيوعية، وكذلك العواقب الاجتماعية لعملية الإصلاح الاقتصادي التي تمت بعد زوال الشيوعية. فقد ارتفعت نسبة البطالة في سلوفاكيا بينما ظل الأمر كما هو عليه في التشيك. واستغل اليمين التشيكي الأمر لكي يضغط من أجل انقسام الدولة من خلال عملية ديمقراطية.

لقد اختلفت أولويات الشعبين وكان الانفصال السلمي طبيعيًا وإن كان مفاجئًا للبعض.

□ □ □

Daughters of the Nile.. Photographs of Egyptian Women's Movement 1900-1960

(بنات النيل.. لقطات من حركات نسائية مصرية ١٩٠٠-١٩٦٠)

Edited by: Hind wassef and Nadia Wassef

Auc Press, 2001, 188PP., 250 Phat, LE. 90



هذا العمل هو أول محاولة لتقديم توثيق فوتوجرافي للحركات النسائية المصرية في النصف الأول من القرن العشرين. ويحتوي الكتاب على مجموعة أرشيفية من الصور الفوتوجرافية التي تضم صورًا لأشخاص محوريين وهامشيين في هذه الحركة، وأخرى لمظاهرات وحملات انتخابية وأشكال مختلفة من النشاط النسائي ورائدات نسائيات في المجالات المختلفة.

ومن خلال هذه اللقطات المصورة تمكن هذا العمل من استعادة أحداث وشخصيات من ذلك الزمن البعيد بشكل لا تنجح الكلمة المكتوبة في إبرازه. وتؤكد هذه المجموعة المصورة على تباين أشكال كفاح النساء من حيث الأهداف كالحق في التصويت في الانتخابات والتعليم ومشاركة النساء في الكفاح الوطني.

وكانت بعض هذه الصور قد نشرت سابقًا في مجلات وجرائد، ولكنها تخرج علينا الآن لتحدثنا باستفاضة عن قصة الحركات النسائية. إن المعرفة العميقة التي تقدمها لنا هذه المجموعة المصورة تنهض بمعرفتنا عن الحركات النسائية، وسوف تكون مصدر إلهام لأجيال قادمة من النشطين في هذا المجال.

ومركز دراسات المرأة الجديدة الذي تأسس في عام ١٩٨٤ هو هيئة نسائية مصرية لا تسعى للربح، يعمل في مجال القضايا النسائية من خلال الدعوة والبحث العلمي. ومحررتا هذا الكتاب من العضوات النشيطات في المركز.

□ □ □

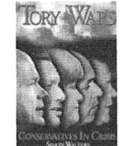
Tory Wars

(حروب المحافظين)

Simon Walters

London, Politico, 2001

,320PP., £10.99



يقدم هذا الكتاب تشريحًا دقيقًا للصراعات الداخلية التي تعرض لها حزب المحافظين البريطاني المعارض قبيل وبعد الانتخابات البرلمانية التي جرت في يونيو الماضي وتكبد فيها الحزب هزيمة ساحقة للمرة الثانية على التوالي خلال ٤ سنوات.

وبعد أن سيطر الحزب على الحكم في بريطانيا لمدة ١٨ عامًا متتالية، فإنه دخل منذ هزيمته التاريخية في مايو ١٩٩٧ في «حرب أهلية» أطاحت برموز شهيرة في الحزب وتركت البقية من الزعماء والأعضاء يتصارعون ويلقون اللوم على بعضهم البعض في الأوضاع التي آل إليها الحزب.

وقد كانت المفاجأة الكبرى في نتائج انتخابات زعامة الحزب بعد هزيمة يوليو الانتخابية هي خسارة مايكل بورتيللو الذي كان الجميع يتوقع أن يكون زعيم الحزب ورئيس الوزراء في حالة فوز المحافظين بالانتخابات، ويكشف مؤلف الكتاب سايمون والترز المحرر السياسي لصحيفة «ميل أون صنداي» البريطانية خبايا الخلافات التي سبقت انتخابات يونيو البرلمانية حيث انقسم الحزب إلى معسكرين أحدهما بقيادة وليام هيج زعيم المحافظين والآخر بقيادة مايكل بورتيللو وزير الخزانة في حكومة الظل. وكانت الخلافات بين المعسكرين حول كل شيء تقريبًا ابتداء من فرص الأمن وأوروبا والاقتصاد والضرائب ونهاية بالاستراتيجية والتكتيك.

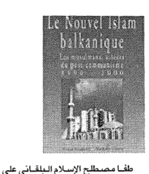
إن المشكلة الأكبر التي واجهت وتواجه المحافظين منذ هزيمة ١٩٩٧ أن الحزب اتجه إلى اليمين تاركًا الوسط لحزب العمال الذي أصبح يقول إنه المتحدث باسم الطبقة الوسطى، وبالتالي تضاءلت شعبية المحافظين مما أدى لانقسام داخلي ونقاشات حول جدوى التحول لليمين.

□ □ □

le Nouvel islam Balkanique. Les Musulmans, acteurs du Post-communisme, 1990-2000

(الإسلام البلقاني الجديد.. المسلمون: العناصر الفاعلة في فترة ما بعد الشيوعية «١٩٩٠-٢٠٠٠»)

Sous la direction de Xavier Bougarel et Nathalie Clayer. Ed. Maisonneuve et Larose, 512P.



طفا مصطلح الإسلام البلقاني على سطح الأحداث الجارية مرتين، الأولى: أثناء حرب البوسنة والثانية: إبان حرب كوسوفو. فمرة أخذ شكل خيالات وأوهام جعلت منه رأسًا لجسر الجهاد والإرهاب في قلب أوروبا ومرة أخرى ـ على النقيض من ذلك ـ أخذ شكل الخطاب المُسكِن الذي كان يرى في هؤلاء المسلمين شعوبًا علمانية متحضرة، أوروبية، تواجه الإبادة على أيدي جماعات من الصرب. وبين الصورتين الأولى الكاريكاتيرية والثانية الإنكارية، كيف لنا أن نقدر دور مسلمي البلقان في الوقت الذي ينهار فيه النظام الشيوعي ويفتح تفككه الطريق أمام تفجر القوميات والتطهير العرقي والنزح وأعمال القتل؟ ما الذي تعرفه عن هؤلاء الأوروبيين الأصليين المنحدرين من شعوب سلافية أو ألبانية اعتنقت الإسلام أثناء القرون الخمسة التي دام خلالها حكم العثمانيين؟

ويوضح الكتاب أن تعداد مسلمي البلقان يزيد على ثمانية ملايين نسمة يتنوعون بتنوع لغاتهم (المتحدثون باللغة السلافية أو الألبانية أو التركية أو الغجرية) وشعائرهم الدينية (هناك أتباع السنة الذين يدينون بالطاعة لأنصار الجماعات الصوفية مثل البكتاشيون وهم يحظون بنفوذ كبير في ألبانيا حتى إنه يتم اعتبارهم بمثابة الممثلين لعشيرة مستقلة) وتعدادهم الديموغرافي، فهم يمثلون أغلبية كبيرة في ألبانيا ولكنهم أقلية في البوسنة (٤٦٪) وفي مقدونيا (٣٣٪) وفي اليونان (١,٥٪). وأخيرًا، فهم يتنوعون بفعل درجة إيمانهم التي تتراوح ما بين الإلحاد الموروث من عصر الشيوعية وحتى النضال الإسلامي الراديكالي مرورًا بكافة أشكال علمنة الدولة والدين.

وأخيرًا، وفي امتداد لمسألة ألبانيا، تقدم ناتالي كلايه مفاتيح أكثر موضوعات الساعة حساسية حيث تقوم بتحليل جوانب الإسلام التي جعلت منه عنصرًا لإعادة التشكيل الداخلي في كوسوفو ومقدونيا ـ آخر الجبهات البلقانية سخونة ـ في وسط الفوضى الناتجة عن صراع بعض المجتمعات الشيوعية السابقة والتي لا تحظى فيها مؤسسات الدولة إلا بأقل مستوى ممكن من المشروعية.

□ □ □

اقتصاد

أسواق النفط والمال.. إلى أين؟

الحسن بن طلال

عمان: منتدى الفكر العربي، ٢٠٠١

يضم هذا الكتاب أبحاث ومناقشات ندوة أقامها منتدى الفكر العربي ضمت عددًا من الخبراء والمختصين في مجال النفط، ودارت حول مستقبل النفط في العالم العربي في ضوء بحث العالم الصناعي عن مصادر بديلة للطاقة وتقليص الأهمية الاستراتيجية للنفط في الاقتصاد العالمي.

■■■

هموم اقتصادية عربية

تحرير: طاهر حمدي كنعان

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

دراسات في تكريم المفكر الاقتصادي يوسف عبد الله صايغ ساهم فيها باحثون من دول عربية عديدة اعترافًا بفضله وعطائه طوال تاريخه، ويناقش الكتاب هموم التنمية والتكامل والنفط والعولمة.

■■■

Egypt: An Economic Geography

(مصر: جغرافيا اقتصادية)

Fouad N. Ibrahim with Barbara Ibrahim

I.B.Tauris, 2002, 256P, £ 14.95(bp)

يصدر قريبًا هذا الكتاب الذي اشترك في تأليفه فؤاد إبراهيم أستاذ الجغرافيا الاجتماعية بجامعة بايروت الألمانية مع باربارا إبراهيم مديرة المكتب الإقليمي لمجلس السكان بالقاهرة. ينطلق الكتاب من الفرض أن مصر كانت منذ القدم واقعة تحت رحمة الجغرافيا. ثم يتعرض الكتاب لمشكلات اقتصادية تعانيها مصر بسبب الجغرافيا، منها: توفير الغذاء للسكان الذين يتزايدون باستمرار، ونقص المياه والأراضي الصالحة للزراعة، وأثر العولمة على محاولات مصر التصنيعية.

■■■

Thinking the Unthinkable: The Immigration Myth Exposed

(انكشاف خرافة الهجرة)

Nigel Harris

I.B.Tauris, 2001, 176P, £ 12.95(bp)

منذ أن نشأت الدولة، كانت هناك دائمًا دول غنية وأخرى فقيرة، ولكن فقط في القرن العشرين بدأت توضع القيود لوقف حركة السكان بين تلك وذاك.

يرى أستاذ الاقتصاد نيجل هاريس خلافًا للادعاء السائد بأن المهاجرين يسببون البطالة، أن الهجرة تعمل على إثراء الدولة المضيفة اقتصاديًا واجتماعيًا. فالمهاجرون يقومون بالوظائف التي لا يرغب أو لا يستطيع المواطنون القيام بها. وهو يبين من خلال الأدلة التاريخية كيف كانت الهجرة ضرورية في إحياء اقتصاديات الدول الغنية.

تاريخ

The Road to Jerusalem: Glubb Pasha Palestine and the Jews

(الطريق إلى القدس: جلوب باشا وفلسطين واليهود)

Benny Morris

I.B.Tauris, March 2002, 256P, £ 45.00

بني موريس، المؤرخ الإسرائيلي المعروف من أشهر المنتمين لطائفة «المؤرخين الجدد» وأكثرهم تعرضًا للنقد والهجوم. في مارس القادم يصدر له كتاب عن «جلوب باشا» أو السير جون جلوب قائد القوات العربية البريطاني في الأعوام الحاسمة بين ١٩٣٦ و١٩٥٦ التي شهدت انهيار فلسطين ونشأة الدولة الإسرائيلية. الكتاب يحتوي على تحليل لرؤية جلوب الشخصية للشرق الأوسط وشعوبه، ودراسة لمواقفه من الثورة العربية في فلسطين ومخططات تقسيم فلسطين. كما يقدم تحليلا خاصا لأفكار وتحركات جلوب باشا أثناء ١٩٤٨ عندما قاد جيشه الصغير إلى فلسطين لمحاربة إسرائيل.

■■■

The Myth of Nations: The Medieval Origins of Europe

(خرافة الأمم: الأصول القروسطية لأوروبا)

Patrick J. Geary

Princeton University Press, 2002, 151PP, $ 24.95

يتحدى باتريك جيري أستاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا المشاعر الوطنية لكثير من الأوروبيين بهذا الكتاب. هؤلاء الذين يرجعون أصولهم الوطنية إلى القوطيين أو الصرب لا يعرفون تاريخهم كما يقول جيري، وإنما يستمسكون بخرافات ساعد في نسجها مؤرخون متواطئون مع أيديولوجيات سياسية وطنية.

تراث

مآثر العرب العلمية

فؤاد جميعان

عمان - بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

يتضمن المؤلف ثلاثة أقسام، يتناول القسم الأول الجزيرة العربية جغرافيًا وأصول العرب وتقسيماتهم وقبائلهم وثقافتهم، ويتناول القسم الثاني العلوم التي برع فيها العرب والمسلمون ودور العرب في حفظ ما كتبه العلماء الرومان وما أضافوه لعلوم اليونان، أما القسم الثالث فخصص للفلسفة ودور الفلاسفة العرب في مسيرة الفلسفة الغربية.

■■■

مخطوطات بلدية الإسكندرية. الجزء الخامس

إعداد يوسف زيدان

الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠١

تستعد مكتبة الإسكندرية لافتتاحها بعد شهور قلائل، لتواصل عطاءها بعد انبعاثها من جديد، ليستعيد العالم ذكرياته عن هذه المدينة الساحلية التي كانت قبل قرون مصدر إشعاع فكري وعلمي وفلسفي للعالم كله، وهذا الكتاب امتداد لمشروع تحقيق مخطوطات مكتبة الإسكندرية ويختص بالحديث النبوي الشريف.

دوريات

البحرين الثقافية

المنامة: المجلس الوطني للفنون والآداب، ٢٠٠١

تقدم المجلة في عددها الأخير ملفا خاصا حول تجديد الفكر العربي يشارك فيه محمد جابر الأنصاري ومحمد سليم العوا وخلدون النقيب وسعيد حارب فضلاً عن دراسات أدبية في الشعر والقصة ومتابعات لأنشطة ثقافية عربية.

■■■

الجوار الأدبي

المملكة العربية السعودية (العدد الأول)

مجلة جديدة صدر عددها الأول في السعودية برئاسة تحرير محمد علي عابدين، وتأمل المجلة في أن تكون جسرًا بين العرب وإيران من أجل مزيد من الفهم والتواصل وتكريس قيم الجوار بما ينطوي عليه من معان في الذهنية العربية والإسلامية عمومًا، وتضمن العدد الأول دراسة عن الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي وأخرى عن سهراب سبهري ونصوصًا شعرية لشعراء عرب وإيرانيين فضلاً عن متابعات ثقافية نشطة شملت عواصم عربية عدة.

■■■

الدراسات الفلسطينية

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

في العدد الجديد من المجلة حوار مع محمود درويش ومقالات لمحمود عباس «أبو مازن» وفيصل حوران وخالد الحروب وماجد كيالي، وشهادات عن فيصل الحسيني من حنان عشراوي وعبد القادر الحسيني وفدوى الحسيني وسميح شبيب، ومقارنة بين التجربتين المفاوضيتين الفيتنامية والفلسطينية، وأربعة تقارير عن الأوضاع في الأراضي الفلسطينية وكذلك تقرير لجنة ميتشيل وخطة تينيت.

■■■

The London Review of Books

Volume 23, Number 24, 13 December, 2001

في هذا العدد من مجلة عروض الكتب التي تصدر في لندن مرتين كل شهر، يكتب إدوارد سعيد مقالاً مطولاً ينعى فيه المثقف الفلسطيني إبراهيم أبو الغد الذي لعب دورًا كبيرًا في تنظيم جهود الفلسطينيين والعرب المقيمين في الولايات المتحدة لخدمة القضية الفلسطينية.

مقالات أخرى يشملها العدد تعرض سير ومذكرات كل من فرناند أوليفيه عشيقة بيكاسو الأولى، والنجم السينمائي مارلون براندو، والأديب الفرنسي جوستاف فلوبير.

■■■

International Journal of Middle East Studies

(المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط)

The Middle East Studies Association of North America, Vol. 33, No. 3, August 2001

من أهم الدوريات المتخصصة في دراسات الشرق الأوسط، تصدر هذه المجلة ربع سنوية. ويضم عددها الثالث من عام ٢٠٠١ ملف خاص عن سياسات الهوية في تركيا، وملف آخر عن الحرب الثقافية الباردة في المجتمع الإيراني، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من عروض الكتب المتعلقة بالشرق الأوسط.

■■■

The Journal of Modern African Studies

(مجلة الدراسات الأفريقية الحديثة)

Cambridge University Press, Volume 39, Number 1, 2001

في هذا العدد من دورية الدراسات الأفريقية ربع السنوية، مقال عن المجتمع المدني في نيجيريا الذي أشاع العنف والقبلية بدلاً من تعميق الديموقراطية، ومقال آخر يتناول الاستراتيجيات الدبلوماسية للدول الأفريقية في التعامل مع الهيئات والمنظمات الاقتصادية التابعة للأمم المتحدة. هذا إلى جانب مجموعة كبيرة من العروض للكتب الحديثة المتعلقة بالقارة الأفريقية.

المجلة يحررها البروفيسور كريستوفر كلافام الأستاذ بجامعة لانكستر.

روايات وقصص

أرض ورماد

عتيق رحيمي

ترجمة: إسكندر حبش

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

رواية أفغانية تعيد القارئ إلى أشكال السرد القديمة، حيث مصائر الأبطال قدرية ومأساوية، ويعلو دومًا الحس الشعري والأخلاقي والدرامي بعيدًا عن أية مغامرة تجريبية، لكن الرواية برغم كل هناتها البنائية والمعمارية تبقى صدى لما جرى ويجري في أفغانستان بعد تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر الماضي.

■■■

الأيام لا تخبيء أحدًا

عبده خال

كولونيا: دار الجمل، ٢٠٠١

رواية جديدة للقاص السعودي صاحب التجارب المميزة في مسيرة القصة السعودية، وهي تأتي بعد ثلاث مجموعات قصصية وروايتين، ويضيف المؤلف

بروايتـه لبنة جـديدة في صـرح الأدب الروائي السـعودي الذي لايزال محـدوداً بالقياس إلى المنتج الشعري.

■■■

العطيلي

نبيل أبو حمد

لندن: دار الساقي، ٢٠٠١

رواية أولى لكاتب والشاعر والرسام تنطوي على مغامرات إبداعية تنهل من ميوله ومواهبه التشكيلية أساساً: الرؤى والأحلام واللقطات البصرية التي يتكامل مع تناليـهـا النص الذي يتناول ثنائية الوطن/ المنفى والقلق/ الأمل من خـلال قصة شحاذ قرر أن يعود إلى بلده في فلسطين لاستعادة المال الذي أودعه أمانة لدى صديقه اليهودي حاييم.

■■■

العنكبوت

عمرو عبدالسميع

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

رواية جديدة تضيف إلى رصيد الأدب الساخر عبر بناء روائي محكم، وهي تحكي عن شبكة تجسس ضد مصر نسجت خيوطها مجموعة من الأوهام المريضة لتنتهي بهم أوهامهم إلى السقوط.

والمؤلف لم يختر أن يعبر عن شخوصه عبر عوالم التجسس وخباياها وإنما من خلال كوميديا سوداء ترسم مصير هؤلاء الخونة.

■■■

وداع لم يتم

محمد صفوت

القاهرة: اتحاد الكتاب، ٢٠٠٠

مجموعة رابعة لمؤلف تتميز كتاباته ببساطة التناول وتتبدى فيها عوالمه الخاصة التي تطل فيها صورة الأم وشبح الموت وتعانق الذاكرة الطفلة مشاعر النضج والمغامرة.

■■■

The Pickup

(التقاط)

Nadine Gordimer

Farrar, Straus & Giroux, 2001,

270pp., 24.00$

ولدت الأديبة اليهودية نادين جورديمر في جنوب أفريقيا عام ١٩٢٣، وحصلت على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٩١. كتبت أكثر من مائتي قصة قصيرة وعشر روايات، ومنذ شهرين صدرت لها رواية أخرى جديدة بها شيء من «صراع الحضارات». يتمثل الصراع في قصة حب تنشأ في جنوب أفريقيا بين جولي الفتاة البيضاء الثرية وإبراهيم - أو عبده كما ينادونه في ورشة إصلاح السيارات - الشاب المسلم القادم من الطرف الآخر من القارة الأفريقية عن طريق هجرة غير قانونية.

تبين الرواية قطبية الخلاف بين الحبيبين، فبينما تشعر جولي بالخجل من أهلها الأثرياء، يشعر إبراهيم بالإعجاب تجاه الثراء والقوة والثقافة العالمية، فهو يريد الدخول في نفس الحلقة التي تريد هي الخروج منها. وعندما تتسبب مشكلة وجوده غير القانوني في جنوب أفريقيا في طرده من البلاد، يتزوجان ويذهبان للعيش في قريته حيث يشعر هو بالخجل من مظاهر الفقر والقذارة، بينما تشعر جولي الرومانسية أن هذه هي الحياة الحقيقية.

"سياسة"

إسرائيل.. مخاطر واحتمالات

أرنون سوفير

ترجمة: محمد حمزة غنايم

رام الله: مدار، ٢٠٠١

قبل شهور نشر المؤلف دراسته التي توصل فيها إلى أن ٤٢٪ فقط من اليهود مقابل ٥٨٪ من العرب، سيعيشون في المنطقة الواقعة بين الأردن والمتوسط في سنة ٢٠٢٠ من مجموع ١٥,٢ مليون نسمة هم إجمالي السكان، وهو ما أفزع اليهود لأنه يعني اختفاء الكيان الصهيوني عن الخريطة خلال ٢٠٢٠، وهذا الكتاب ترجمة لما ذهب إليه الباحث الإسرائيلي الذي أفزعت دراسته المجتمع الإسرائيلي كله.

■■■

الصداقة اللبنانية الفرنسية

بيار عطا الله

باريس: منشورات بيروت سير سان، ٢٠٠١

يتضمن الكتاب شهادات جمعها المؤلف عن لبنانيين يعيشون في فرنسا ويساهمون في نسج علاقات البلدين ومنهم أدباء وفنانون وموسيقيون واقتصاديون وسياسيون. ويؤكد المؤلف على متانة العلاقة التي تربط اللبنانيين بفرنسا وأبعادها التاريخية والثقافية.

■■■

انتخابات مجلس الشعب، ٢٠٠٠

تحرير: هالة مصطفى

القاهرة: مؤسسة الأهرام، ٢٠٠١

ترتبط الانتخابات ارتباطاً وثيقاً بعملية التطور الديمقراطي، وتشكل الدراسات الانتخابية واحدة من مجالات المعرفة المهمة في النظم السياسية المقارنة، وهذا الكتاب يضم مجموعة من الدراسات والمتابعات التي رصدت الانتخابات البرلمانية الأخيرة في مصر.. دلالاتها ونتائجها، والتغيرات التي شهدتها الساحة السياسية وأثرت على مجريات الانتخابات.

■■■

صنع القرار في الاتحاد الأوروبي

محمد كمال وفؤاد نهرا

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

مع الانحياز الأمريكي السافر للجانب الإسرائيلي في صراع الشرق الأوسط، يبحث العرب عن معادل موضوعي في المواجهة التي ستمتد لسنوات عديدة في المستقبل، ومن هنا يأتي الاهتمام بعملية صنع القرار في الاتحاد الأوروبي حتى يمكن التأثير عليه لصالح الجانب العربي.

■■■

صورة الأتراك لدى العرب

إبراهيم الداقوقي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

بعد كتابه الأول «صورة العرب لدى الأتراك»، يكمل المؤلف الصورة ويسعى عبر عمليات تحليل مضمون لما ينشر في الإعلام العربي عن الأتراك وكذلك في الكتب المدرسية والدراسات البحثية ومواقف النخبة، إلى بيان الحقائق والأوهام في حقيقة العلاقات بين العرب والأتراك.

■■■

مؤامرة الغرب الكبرى

تعليق: سوسان جورج

ترجمة: محمد مستجير

القاهرة: سطور، ٢٠٠١

هذا الكتاب ترجمة لتقرير لوجاتوا وهو التقرير الخطير الذي ينبه بصورة جذرية إلى مخاطر العولمة وانقلاب آلياتها بصورة شرسة تهدد خصوصيات الشعوب وتؤثر بشكل مباشر على التنمية في الدول الفقيرة.

■■■

The Tragedy of Great Power Politics

(مأساة سياسات القوى العظمى)

John J. Mearsheimer

W.W.Norton & Co., 2001, 555P, $ 27.95

يقدم المؤلف نظرية واقعية يفسر بها سياسات القوى العظمى. فهو يرى أن الأمم القوية لا يمكن أن تتفادى الصراع من أجل بسط النفوذ والسيطرة.

على سبيل المثال لا يهم إن كانت ألمانيا في عام ١٩٠٥ كان يقودها بسمارك أو كايزر أو هتلر، ولا يهم إن كانت ديمقراطية أو أتوقراطية، المهم حسب هذه النظرية كم من القوة النسبية امتلكتها ألمانيا في ذلك الوقت. وهو بنفس المنطق يرى أن القوى العظمى الوحيدة الموجودة حالياً هي الولايات المتحدة وروسيا والصين بفضل امتلاكهم للسلاح النووي.

"شعر"

الديناصورات تشتم ستيفن سبيلبرج

جمال بدومة

الرباط: وزارة الثقافة والاتصال، ٢٠٠١

ديوان أول للشاعر الذي تتعدد مشاغله عبر صفحات الديوان، وهي شواغل إنسانية وطموحات تجريبية في اللغة والتشكيل أيضاً مستنداً إلى البداهة والبساطة ومعيداً الاعتبار إلى المشاعر الرقيقة البريئة.

■■■

غجرية

نصيرة محمدي

الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠١

اختارت الشاعرة نمط القصائد الطويلة، وفي معظم القصائد يحضر الوطن كمعادل موضوعي للطبيعة المفقودة، حيث تتبدى بقوة مناجاتها للبحر والشجر والرياح والصحراء والطيور، ومن هنا تأتي تسمية الديوان، حيث الطبيعة هي الملاذ ومناط الترحال للغجر في كل عصر وأي مكان.

■■■

غوارب

أبو بكر زمال

الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠١

شفافية وحساسية شابة في التعامل مع العالم، لا تتوقف على اللغة وحدها وإنما الدلالات والاستعارات والتشبيهات، والشاعر يدافع عن تجربته وتجريب زملائه من الشعراء الشباب في الجزائر معتبراً أنه يرسم خريطة جديدة للأدب في بلاده التي تعيش لحظة انتقالية سياسياً واقتصادياً وعلى كافة الأصعدة.

"فكر"

الحياة والشاعر

ستيفن سبندر

ترجمة: محمد مصطفى بدوي

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠١

الكتاب الأصلي صدر في ذروة الحرب العالمية الثانية (عام ١٩٤٢)، ويعد صدى للاحتجاج على الحرب التي كادت تعصف بالحضارة الغربية، ويتضمن رؤى عن علاقة الشعر بالحياة وإعلاء لشأن الروح الإنسانية في مواجهة مناورات الساسة وألاعيب السياسة، كما يرصد تجليات ثورة الشعراء على الحضارة الصناعية.

■■■

السنة والشيعة خصام أم وئام؟

محمود مراد

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠١

صار الحوار سمة من سمات عصر العولمة، والحوار بين الأديان ضرورة ملحة لرأب الصدع وإزالة الأوهام التي لا صلة لها بصحيح الأديان، ومن باب أولى يأتي الحوار بين المذاهب داخل الدين الواحد بالغ الأهمية، هذا ما سعى إليه المؤلف عبر ندوات ولقاءات ضمت نخبة من رموز الفكر السني والشيعي في مصر وإيران، وانتهت جميعاً إلى نبذ الأوهام الشعبية عن العلاقة بين السنة والشيعة.

"فكر ديني"

شهر رمضان وفقه الصيام والقيام

يوسف القرضاوي

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

شهر رمضان مناسبة سنوية مهمة عند المسلمين في العالم أجمع، ومن أدركه هذا الشهر ولم يتب أو يتقرب إلى الله بصالح الأعمال فهو من الخاسرين.

المؤلف وهو أحد الدعاة والعلماء الكبار

يعرِّف الناس بفضائل هذا الشهر الكريم وأحكام صيامه وزكاة الفطر ونصابها، وما الذى يجب على المسلم عمله حتى يستفيد إلى أقصى حد من بركات هذا الشهر الكريم.

فلسفة

Wittgenstein's Poker

(عصا وتجنستاين)

David Edmonds and John Eidinow

Ecco Press, 2001, 352pp., $ 24.00

فى أكتوبر من عام ١٩٤٦ حدثت مواجهة تاريخية بين الفيلسوفين كارل بوبر ولديويج وتجنستاين فى حلقة نقاشية عقدت بكامبردج.

كانت الخلفية وراء هذه المواجهة الجدل الدائر بين الفيلسوفين النمساويين حول طبيعة الفلسفة، فبينما يرى كارل بوبر أن الفلسفة تعالج مشكلات جادة وحقيقية كان يرى وتجنستاين أن الفلسفة ما هى إلا ألغاز لغوية. وقد دعى بوبر فى ذلك اليوم من جانب جمعية يرعاها وتجنستاين للحديث عن أحد الألغاز الفلسفية.

وحسب ادعاء بوبر فإن وتجنستاين كان عنيفًا فى استجابته لمجموعة من المشكلات الفلسفية التى أدرجها بوبر وأخذ يلوح بعصا مدفأة ساخنة. وعندما تحول النقاش إلى الأخلاق طلب وتجنستاين من بوبر أن يذكر له قاعدة أخلاقية. فرد بوبر: «أن لا تهدد محاضرًا زائرًا بعصا مدفأة» هنا غضب وتجنستاين وألقى بعصاه ثم اندفع خارجًا من القاعة.

هذا الكتاب الذى أعده صحفيان من الـ «بى بى سى» يجمع بين الفلسفة والصحافة والسيرة الشخصية وحصل على إعجاب معظم النقاد ليصبح واحدًا من أهم وأفضل الكتب التى صدرت عام ٢٠٠١.

Perspectives on Habermas

(رؤى عن هابرماس)

Lewis Edwin Hahn

Open Court Publishing Co., 2000, 672 PP., $29.95

مجموعة من ثمانية وعشرين مقالاً نقديًا لعدد كبير من الفلاسفة المعاصرين حول أعمال الفيلسوف الألمانى يورجن هابرماس، المعروف أن هابرماس من أبرز ممثلى مدرسة أو تيار «النظرية النقدية». وقد خصص معظم حياته العملية للدفاع عن المثل التنويرية مثل العقلانية والإنسانية وإمكانات الخطاب.

فنون

الألوان فى القرآن

أحمد رأفت

القاهرة: دار الجيل، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف السمات البارزة للفنون الإسلامية والقيم التشكيلية الأساسية التى تتوافق مع صحيح القرآن والعقيدة، ويركز المؤلف بالذات على فكرة الألوان ودلالاتها كما وردت فى القرآن الكريم.

مسرح صلاح عبدالصبور

أحمد مجاهد

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠١

يضم الكتاب خمسة فصول يتناول كل فصل منها إحدى مسرحيات صلاح عبدالصبور الخمسة فى محاولة لتحليل خصوصية الخطاب الشعرى عنده، خصوصاً أن عبدالصبور استكمل الدور البارز الذى لعبه شوقى وعزيز أباظة فى النهوض بالمسرح الشعرى عبر رؤى وهموم جديدة ووفق تيار الحداثة الذى يقف عبدالصبور فى طليعته.

Big Parades and Grand Illusions The Anti-War Cinema of the First World War

(مواكب كبيرة وأوهام عظيمة: السينما المضادة للحرب فى الحرب العالمية الأولى)

Andrew Kelly

I.B.Tauris, 2002, (revisecl paper back), 224PP, £ 14.95.

«كل شيء هادئ على الجبهة الغربية» و«الاستعراض الكبير» و«الوهم العظيم» عناوين لأفلام سينمائية مهمة ظهرت منذ نهاية العشرينيات لتقدم رؤية جديدة عن الحرب العالمية الأولى، مخالفة للأفلام التى أنتجت قبل هذه الفترة كأدوات دعائية تخدم الحرب. فقد بيّنت هذه الأفلام وغيرها كيف دمرت تلك الحرب شباب الأمم. يقدم هذا الكتاب القصة الكاملة لهذه الأفلام وكيف استقبلت وما أثارته من جدل.

The Lute in Britain.. A History of the Instrument and its Music

(العود فى بريطانيا: تاريخ الآلة وموسيقاها)

Mathew Spring

Oxford University Press, 526pp., £95.00

كان العود من أهم الآلات الموسيقية المستخدمة فى أوروبا من أواخر القرون الوسطى وحتى القرن الثامن عشر، سواء كآلة منفردة أو مجتمعة مع آلات أخرى أو بمصاحبة الغناء، حتى أنه أطلق عليه «بيانو عصر النهضة». يكشف لنا هذا الكتاب التاريخ التفصيلى لآلة العود فى بريطانيا، خاصة حين كانت أهم آلة موسيقية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

مذكرات وسير

ذكريات إسبانية مع نزار قبانى

سلمى الحفار الكزبرى

بيروت: دار النهار، ٢٠٠١

سبع عشرة رسالة من نزار قبانى إلى الناقدة والأديبة سلمى الكزبرى التى جمعتها بالشاعر صداقة أدبية ومشاعر إنسانية صادقة، وهو نوع من الأدب أدب الرسائل، تضاءل وجوده إلى حد كبير فى عصرنا الحاضر.

هندسة أقل.. خرائط أقل

أمين صالح

المنامة: دار الأيام، ٢٠٠٠

مقالات عدة ينتقل فيها المؤلف بين الكتابة السينمائية والفنية والأدبية، كاشفًا عن لحظات إنسانية بالغة الثراء والعمق يجمع بينها خيط رئيسى هو الإحساس بالاغتراب وألم المنفى.

محمد الماغوط.. وطن فى وطن

لؤى آدم

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

يستعين المؤلف بقدر كبير من مصطلحات علوم النفس والاجتماع والفلسفة لتقويم تجربة الماغوط وهو واحد من رواد الحداثة فى الشعر العربى المعاصر، ويسبر أغوار سيرة الماغوط من خلال حوارات ولقاءات بأناس عاش بينهم، وينحو إلى قراءة تفصيلية فى بذرة التمرد لدى الماغوط وقوة الإيماءات الشعرية فى نصوصه.

نجيب محفوظ.. أمير الرواية العربية

سلوى العنانى

القاهرة: الدار العربية للكتاب

يتناول الكتاب سيرة حياة وكتابة نجيب محفوظ، متتبعاً رحلته من الجمالية إلى العباسية، ورحلته مع القلم، ومشواره مع السينما، ومصر كما عبّر عنها فى رواياته، وكيف ساهمت كل هذه المدخلات فى تتويج مشوار محفوظ وفوزه بجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٩٨.

نقد أدبى

الخطاب النفسى فى الأدب العربى

حسن البندارى

القاهرة: مكتبة الآداب ومكتبة الأنجلو، ٢٠٠١

يسعى المؤلف إلى عرض الدوافع النفسية فى نصوص النقد العربى القديم عبر خمسة فصول تتناول أعمال عبد العزيز الجرجانى وعبد القاهر الجرجانى وابن رشيق القيروانى مستهدفًا إشراك القارئ فى تأمل النصوص وطرق تحليلها لدى النقاد القدامى.

جهة خامسة

غسان عبد الخالق

عمان: دار الفارس، ٢٠٠٠

لم تستطع إغراءات الحداثة ونظريات النقد الحديث أن تجذب نجيب محفوظ بعيدًا عن العالم الروائى المميز الذى اختاره لنفسه منذ البداية، عالم الحارة الشعبية وتجلياتها وإسقاطاتها اللافتة على الواقع السياسى والاجتماعى المصرى. فكيف أفلت محفوظ من هذه الإغراءات واستمر بدأب فى الطريق الذى اختاره.

شخصية المرأة فى الأدب العربى القديم

على التبنونى

عمان: دار الكرمل، ٢٠٠٠

اهتمت دراسات اجتماعية وإنسانية عديدة بالمرأة من جميع الجوانب، ويعنى هذا الكتاب بالمرأة فى التراث الأدبى العربى. القصصى والشعرى والفلكلورى مما يكمل الصورة ويغطى جانبًا مهمًا منها ويجيب عن السؤال: كيف عبر الأديب العربى عن المرأة وكيف كانت نظرته إليها؟

ملحمة الحدود القصوى

سعيد الغانمى

بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١

دراسة فى أدب الكاتب الليبى البارز إبراهيم الكونى الذى برغم إقامته الدائمة فى سويسرا، إلا أنه يكتب دومًا عن الصحراء التى أرادها أن تكون تاريخًا لمجتمع يعيش على حافة الحياة، مجتمع بلا زمن، بعد أن ظلت الرواية العربية مشغولة بالمجتمعات الحديثة فى المدن.

نظرية التلقى

بشرى موسى صالح

الدار البيضاء: بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠١

شغلت نظرية التلقى عديدا من النقاد أخيرًا بفعل تيار الحداثة النقدى. والتفت النقاد إلى الجمهور بعد أن انصب تركيزهم طويلاً على النص ومؤلفه متناسين الطرف الثالث، والمؤلفة هنا تقدم دراسة نظرية وتطبيقية لموضوع التلقى حللت فيه نصوص الشعراء نزار قبانى ونازك الملائكة وحميد سعيد وعبد الأمير معلة.

Painted Shadow: A Life of Vivienne Eliot

(حياة فيفيان إليوت)

Carole Seymour - Jones

Constable, 2001, 682 PP, £ 20

كانت فيفيان إليوت الزوجة الأولى للشاعر الأمريكى تى.إس إليوت الذى أمضى حياته فى انجلترا وحاز جائزة نوبل ويعتبر من أهم شعراء القرن العشرين وأكثرهم تأثيرا.

من التفاصيل المثيرة التى يرويها الكتاب العلاقة الآثمة التى نشأت بين فيفيان إليوت والفيلسوف البريطانى برتراند راسل الذى يظهره الكتاب فى صورة شخص كريه ومغرور وخائن.

وقد أثار هذا الكتاب الذى يتناول سيرة حياتها اهتمام الأوساط الأدبية لما يحتويه من هجوم على شخصية تى.إس إليوت وسلوكه يصل إلى حد اتهامه بتدبير موت زوجته عام ١٩٤٧ بعد أن تخلى عنها وأودعها إحدى المصحات العقلية.

فريد الأطرش.. رؤية أخرى

تلقت مجلة «وجهات نظر» الرسالة التالية تعليقًا على ما جاء في مقال «فريد الأطرش.. نغم في حياة العرب» للكاتب نبيل حنفي في عدد أكتوبر ٢٠٠١ ونظرًا لضيق مساحة باب «رسائل»، فإن المجلة تورد الأفكار الرئيسية في الرسالة.

المحرر

انقضضت بلهفة على مقال الأستاذ نبيل حنفي محمود. ولكن خيبة أملي، منذ السطور الأولى في المقال، تساوت تماما مع لهفتي الأولى لقراءته.

وإنني إذ أرجو المعذرة من كاتب المقال ومن هيئة تحرير «وجهات نظر»، فإنني سأسارع إلى عرض الوقائع الموضوعية التي ساقتني إلى هذه الملاحظات الأولية، سواء في المعلومات التي تضمنها المقال، أو في القيم الثقافية التي بنيت عليها الأحكام العامة التي أطلقها.

أولا: في المعلومات

١- يفتتح الكاتب مقاله بمعلومة عن العلاقة بين محمد عبد الوهاب وسيد درويش، ليبين أهمية الأحداث الفنية التي شهدها العام ١٩٢٣ (وهو العام الذي شهد هجرة فريد الأطرش وأسمهان إلى القاهرة)، فيؤكد أن «محمد عبد الوهاب، عمل مع الشيخ سيد درويش في أوبرا كليوبترة التي نظمها أمير الشعراء أحمد شوقي». هذه المعلومة الواحدة تضم سلسلة من المعلومات الخاطئة، الناجمة عن الخلط بين مجموعة من الحقائق غير المدققة.

صحيح مثلا أن عبد الوهاب تعاون مع سيد درويش بين ١٩٢١، و١٩٢٣، ولكن ذلك كان في مسرحية شهرزاد، حين مرض سيد درويش الذي كان يلعب في المسرحية دور «زعبلة»، فعرض الدور على زكريا أحمد، ثم على محمد عبد الوهاب.

وصحيح أن سيد درويش قد بدأ تلحين مسرحية «كليوبترة ومارك أنتوني»، ولكنه توفي بعد أن أنهى تلحين الفصل الأول، وبعض ألحان الفصل الثاني، ولم تظهر المسرحية عمليا إلا في العام ١٩٢٧، عندما أكمل تلحينها محمد عبد الوهاب نفسه، ولعب دور البطولة فيها أمام منيرة المهدية، ولم يحدث أن قدمت هذه المسرحية - الأوبرا في حياة سيد درويش، لأنه أصلا توفي قبل إتمامها، كما هو معروف.

غير أن الخطأ الأكبر في هذه المعلومة المثلثة الأخطاء، هو نسبة نص الأوبرا التي اشترك سيد درويش وعبد الوهاب في تلحينها (وليس في تمثيلها كما أكد المقال) إلى أمير الشعراء أحمد شوقي. أما الحقيقة فهي أن لأمير الشعراء فعلا مسرحية بعنوان «مصرع كليوبترة»، ولكن قصيدة واحدة منها هي التي أخذت طريقها إلى التلحين والغناء، هي قصيدة عبد الوهاب الشهيرة «أنا أنطونيو، وأنطونيو أنا». أما نص المسرحية التي لحنها سيد درويش وعبد الوهاب فهو نص آخر لا علاقة له بأحمد شوقي، ولم يحدث أصلا أن قام سيد درويش بتلحين أي قصيدة لأمير الشعراء، والفارق واضح بين عنواني المسرحيتين: - مصرع كليوبترة، لأحمد شوقي وكليوبترة ومارك أنتوني.

٢ - في السطر السادس من بداية المقال، يتابع الكاتب سرد معلوماته، للتأكيد على الصفة التاريخية للعام ١٩٢٣، فيذكر أنه إضافة إلى كونه عام نزوح أم كلثوم للقاهرة (وهذه معلومة صحيحة ودقيقة)، فإن «عبد الوهاب سجل في هذا العام أيضا، سبع أغنيات على أسطوانات، ساهمت في دعم انتشاره، وتأكيد مكانه على قمة الغناء».

والحقيقة أن ما سجله عبد الوهاب من أسطوانات في ذلك العام (كما هو ثابت في كل المراجع الجادة والموثوق بها في هذا المجال) لم تكن «دعما لانتشاره»، بل كانت البداية الأولى لهذا الانتشار. أما الأسطوانات التي أدت إلى «تأكيد مكانه على قمة الغناء»، فقد ظهرت في العامين ١٩٢٧ و١٩٢٨ (وليس العام ١٩٢٣).

فالقوائم التاريخية لأرشيف الراحل الأستاذ عبد العزيز عناني (وهو أحد أدق المراجع في هذا المجال، لأنه استمد تواريخ الأغاني من مجموعة الأسطوانات الكاملة التي يملكها) تقول إنه في العام ١٩٢٧، ظهرت أسطوانات: اللي انكتب (موال)، اللي يحب الجمال، أنا أنطونيو، يا حبيبي كحل السهد. أما في العام ١٩٢٨ فسجل عبد الوهاب اسطوانات منها موال اللي راح راح، أهون عليك، دور أحب أشوفك، قصيدة يا جارة الوادي، والطقطوقتان الشهيرتان حسدوني وباين في عينيهم، وخايف أقول اللي في قلبي. وكانت أسطوانات هذين العامين بالذات هي التي «ساهمت في دعم انتشار عبد الوهاب، وتأكيد مكانه على قمة الغناء».

٣- في نهاية العمود الثالث من المقال، يشير الكاتب إلى إحدى أشهر الأغنيات في بدايات فريد الأطرش «يا ريتني طير لا طير حواليك»، على أنها من ألحان «الفنان الفلسطيني يحيى اللبابيدي، الذي كان يعمل آنذاك مديرا لقسم الموسيقى العربية بالإذاعة الفلسطينية».

والحقيقة أن الكاتب خلط بين جنسية يحيى اللبابيدي، وجنسية الإذاعة التي كان يعمل بها. صحيح أنه كان مديرا لقسم الموسيقى في الإذاعة الفلسطينية، التي كانت تعرف أيضا باسم إذاعة القدس (وهي غير الإذاعة الفلسطينية الشهيرة الأخرى، التي كانت معروفة باسم إذاعة الشرق الأدنى، وكان مقرها في جنين، ثم في يافا بعد ذلك)، ولكن يحيى اللبابيدي لم يكن فلسطينيا، بل من أسرة لبنانية معروفة في بيروت.

٤ - في سرد مطول لدعم الرأي القائل بأن الأفلام الغنائية العربية الحقيقية بدأت مع فريد الأطرش، وليس مع عبد الوهاب أو أم كلثوم، يرتكب الكاتب خطأ فادحا في تاريخ أفلام كل من عبد الوهاب وأم كلثوم، فيؤكد أن آخر أفلام عبد الوهاب كان «ممنوع الحب» (١٩٤٢)، وآخر أفلام أم كلثوم «عايدة» (١٩٤٢). والحقيقة أن عبد الوهاب مثّل بعد ممنوع الحب فيلمين شهيرين هما «رصاصة في القلب (١٩٤٤) مع راقية إبراهيم، و«لست ملاكا» (١٩٤٦) مع نور الهدى وليلى فوزي. أما أم كلثوم، فقد مثلت بعد «عايدة» فيلمين آخرين «سلامة» (١٩٤٤) وفاطمة (١٩٤٨).

أما مسألة حصر صفة «البداية الحقيقية للسينما الغنائية» بفيلم «انتصار الشباب» لفريد الأطرش، فإن لمعظم (إن لم أقل لجميع) النقاد السينمائيين والموسيقيين الجادين والمعروفين رأيا مخالفا.

صحيح أن فريد الأطرش جاء في انتصار الشباب وما تلاه من أفلام، يساهم في إضافات مميزة للأغنية السينمائية (خاصة في مجال الأوبريت الاستعراضي) ولكن ذلك لا يسمح لأحد بإلغاء ريادة عبد الوهاب والقصبجي وزكريا والسنباطي في هذا المجال. (راجع البحث القيم للناقد السينمائي المعروف سمير فريد في عدد سابق من «وجهات نظر»، عن دور عبد الوهاب الريادي في السينما الغنائية).

٥ - بعد ذلك، ينسب المقال إلى فريد الأطرش أنه لحن أول دعوة غنائية للوحدة العربية، في أوبريت «غنا العرب» (من فيلم بلبل أفندي، ١٩٤٨) وأوبريت «بساط الريح» (من فيلم آخر كذبة، ١٩٥٠). وفي هذا الادعاء سعى آخر إلى شد الحقائق التاريخية من شعرها، وتدجينها أو إخفائها، لتسمح بتبرير الرأي المعد سلفا، أو الانطباع العام، القائم على اعتقاد ما، لا يريد الالتزام بالتسلسل الدقيق لوقائع التاريخ الموسيقي والغنائي.

فقد غنت أم كلثوم في مارس في العام ١٩٤٥، يوم تأسيس جامعة الدول العربية قصيدتها الشهيرة (شعر محمد الأسمر، ألحان زكريا أحمد) زهر الربيع، وذلك احتفاء بالملوك والرؤساء العرب الذين أسسوا الجامعة العربية. كما غنى عبد الوهاب في الأربعينيات قصائد وطنية مضمخة بمشاعر الوحدة العربية مثل قصيدة دمشق، وقصيدة فلسطين (١٩٤٨).

٦ - ويتابع كاتب المقال في هذا الموضوع بالذات، فينسب إلى فريد الأطرش أنه لحن «أجمل أغاني الوحدة وأخلدها على الإطلاق»، عند قيام دولة الوحدة بين مصر وسورية في العام ١٩٥٨«، وهي « الموسكي لسوق الحميدية» (١٩٥٨) و«حموي يا مشمش» (١٩٥٩)، وقد غنتها صباح.

إن الكاتب لا يكتفي في وصف هاتين الأغنيتين الجميلتين فعلا، بصفة «أجمل» و«أخلد» أغاني الوحدة، بل يضيف إلى ذلك وصفا ثالثا يذهب إلى أقصى ما في اللغة من أفعل التفضيل والجزم والحسم، هو وصف «على الإطلاق».

لا أدري في الحقيقة من أين أتى الكاتب بكل هذه الثقة في التقييم «المطلق»، والكل يذكر ظهور أغنيات للوحدة، مع لحني فريد الأطرش لصباح، مساوية على الأقل (بل ربما متفوقة) في قوتها الإيقاعية واللحنية، إضافة إلى طابعها الشعبي العميق، مثل لحن محمود الشريف «على الأحباب سلام الله، وعالوحدة ما شاء الله» الذي غنته فايدة كامل، ولحن عبد العظيم عبد الحق «وحدة ما يغلبها غلاب» الذي غناه محمد قنديل، والمتضمن البيت الفائق الجمال:

أنا واقف فوق الأهرام وقدامي بساتين الشام

٧ - يحمّل الكاتب لحن قصيدة «عدت يا يوم مولدي» أحكاما تفضيلية مطلقة، مرة على لسان بليغ حمدي، فيؤكد أن فريد الأطرش «أعطى الموسيقى الشرقية أفكارا جديدة ومتطورة وممتازة وجريئة... لم يعطها أي ملحن آخر معاصر له»، ثم يضيف الكاتب من جعبته أن ما أحدثته هذه الأغنية من أثر في تاريخ الغناء العربي يؤكد ما قاله بليغ حمدي، وأن الناقد الكبير كمال النجمي أكد ذلك أيضا عندما أشار إلى أن هذا اللحن خارج عن كل تقاليد تلحين القصيدة العربية.

لا شك أولا بأن هذا اللحن يعد من أقوى وأجمل ما لحن فريد الأطرش، وأنه إضافة جيدة في فصيلة التلحين المعاصر للقصيدة العربية، ولكن هل هو أول لحن من هذه الفصيلة، وهل هو لحن وحيد في لونه، لم يلحن أحد قبله أو بعده، قصيدة لها هذه الصفات، كما يوحي الكاتب؟

على سبيل المعلومات فقط (وعلى سبيل المثال لا الحصر) نذكر نماذج من بعض ما فعله عبد الوهاب في هذا المجال منذ بداية الثلاثينيات، أي قبل ثلاثة عقود من ظهور لحن فريد الأطرش المذكور.

ففي النصف الثاني من القصيدة - المونولوج «على غصون البان» سجل عبد الوهاب أول خروج على الكلاسيكية



التقليدية في تلحين القصيدة العربية (١٩٢٨)، في مقطع «طير يا فؤادي وغن». وفي العام ١٩٣٣ لحن عبدالوهاب قصيدته الأعجوبة «جفنه علَّم الغزل» التي لا داعي لإطالة الشرح حول مدى جدتها وخروجها على التقاليد الكلاسيكية في تلحين القصيدة. ثم ظهرت بعد ذلك قصيدة «أعجبت بي» (١٩٣٦) واعتبرت المنعطف التاريخي في إرساء قواعد القصيدة الغنائية العربية الحديثة.

ثانيا - في التحليل الفني، والقيم الثقافية

١ - في مسألة تطور الموسيقى العربية وتطويرها (ولعلها المسألة الأهم التي أثارها المقال المذكور، وبني على أساسها منح حجم معين ودور معين لفريد الأطرش في تطوير الموسيقى العربية جعله سابقا لعبد الوهاب في هذا المجال، أو منافسًا وحيدا له، مبعدا عن حلبة المنافسة روادا عمالقة من أمثال محمد القصبجي ورياض السنباطي وزكريا أحمد (الذي أغفل كاتب المقال ذكره نهائيا)، ثم محمد فوزي ومحمود الشريف وأحمد صدقي وسواهم من الجيل التالي، مثل كمال الطويل ومحمد الموجي وبليغ حمدي.

والحقيقة أن الخلل في المعيار الذي ينطلق منه أي كاتب، هو الذي يقود عادة إلى الخلل في التقييم والاستنتاجات العامة، وتحديد الأدوار والمواقع التي يستحقها كل فنان.

لقد بدأ الخلل في المعايير المعتمدة لقياس تطور (أو عدم تطور) الموسيقى العربية في مطلع المقال، عندما أكد الكاتب أن سيد درويش قد رحل عن عالمنا في العام ١٩٢٣ «قبل أن يقطف ثمار ما بذره من أفكار متطورة في تربة الغناء المصري التي لم تنتج قبله إلا التكرار والرتابة». ثم يضيف في عبارة ثانية لاحقة، عندما انتقل إلى الحديث المباشر عن فريد الأطرش، وبعد استعراض عدد من ألحان الأطرش في الأربعينيات والخمسينيات، أن هذه الألحان جاءت «لتكسر مونوتونات الأغنية العربية، ولتقدم غناء عربيا مؤسسا على أصول مغرقة في المحلية، لكنه في نفس الوقت عالمي الشكل والمضمون».

فإذا توقفنا عند العبارة الأولى، الخاصة بسيد درويش، فإن النصف الأول منها يتصف بالدقة والموضوعية، عندما ينسب إلى سيد درويش بذر أفكار متطورة في تربة الغناء المصري. ولكنه عندما يجزم في النصف الثاني من العبارة أن تربة الغناء المصري قبل سيد درويش «لم تنتج إلا التكرار والرتابة»، فإنه يلغي بسطر واحد إبداعات النهضة الموسيقية الكبرى التي انطلقت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، المسئولة عن تطوير وتركيز الأشكال الأساسية في الموسيقى العربية.

أما حكاية تخصيص نتاج فريد الأطرش دون سواه بأنه مغرق في المحلية لكنه عالمي الشكل والمضمون، فإننا قبل الدخول في مناقشته، فقد نبهنا كاتب المقال إلى أنه يعني «بعالمية الشكل والمضمون» في ألحان فريد الأطرش استنادا إلى إيقاعات الموسيقى الغربية الراقصة، مثل التانجو والرومبا والفالس. بينما يقول تاريخ الموسيقى العربية بين العشرينيات والأربعينيات أن سيد درويش والقصبجي وعبد الوهاب، بشكل خاص، كان لهم مفهوم أرقى وأعمق في «العالمية» جعلهم ينهلون من نتاج الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية (قبل الإيقاعات الراقصة للموسيقى الخفيفة) ويتعمقون فيها، قبل أن يدخلوا في تجارب بالغة الغنى.

٢ - في مسألة عالمية ومحلية الموسيقى العربية.

يبدو أن معيار العالمية الذي استخدمه كاتب المقال، هو أن «أول لحن عربي» تجاوز الحدود العربية هو تانجو «يا زهرة في خيالي»، وأن «أكبر أوركسترا عالمية» (لفرانك بورسيل) قد عزفت أربعة ألحان لفريد الأطرش. وأن «مغنين عالميين» قد رددوا بعض ألحانه مثل ماريا كازا بيانكا، التي غنت له «ياجميل يا جميل».

باختصار شديد ننبه إلى أن ربط قيمة أي إبداع عربي موسيقي، بترديد الغربيين له، هو أخطر مفهوم يمكن أن نؤسس عليه أي نشاط في مجال الإبداع الموسيقي والغنائي.

لقد انتشر لحن « يا مصطفى يامصطفى» ذات يوم، في كل أرجاء الدنيا، كما لم ينتشر أي لحن عربي آخر (بما في ذلك يا زهرة في خيالي) فهل نبني على ذلك أن «يا مصطفى» أعظم من جندول عبد الوهاب، ورباعيات السنباطي، ورق الحبيب للقصبجي، وأهل الهوى لزكريا أحمد، لأن أذن المستمع الأوروبي لم تستسغ هذه الألحان؟

٣ - مسألة تنصيب فريد الأطرش كأعظم عازف للعود.

لا شك بأننا إذا أحصينا عباقرة العزف على العود العرب في القرن العشرين، كان لفريد الأطرش موقع ممتاز في صف الطليعة بين هؤلاء العازفين. أبدأ ملاحظتي بهذا الرأي، حتى لا تختلط الأمور أمام القارئ.

ولكن هذا الرأي شيء، والقيم الثقافية التي انطلق منها كاتب المقال، ليقول لنا إن جائزة أحسن عازف عود قد منحت لفريد الأطرش في تركيا، دون حاجة اللجنة للاستماع إلى أي عازف آخر، مسألة أخرى تماما، هي التي نود التوقف عندها لحظة في سياق هذا المقال.

أ - من هي هذه اللجنة التركية، وما هو المستوى الأكاديمي الذي تستند إليه لمنح مثل هذه الألقاب والجوائز؟ ومتى عقدت هذه المسابقة؟ وما هي وقائعها الحقيقية؟

ب - إذا أردنا بعد ذلك الانتقال الى مناقشة الموضوع بجدية وعمق، يمكن القول إن تحديد قيمة أي عازف للعود، يستند الى تفحص مقدرة يده اليمنى على العود، ويده اليسرى. ذلك أن اليد اليسرى، التي تحدد موضع الأصبع على الوتر، هي المسؤولة عن التعبير عن خيال العازف الموسيقي وإحساسه الموسيقي. أما اليد اليمنى فهي المسؤولة، بنسبة أكبر، عن مدى تقنية العازف، أي مدى سيطرته على آلته. فإذا اعتمدنا هذا المعيار المتعارف عليه أكاديميا، فإننا نجد أن القيمة الأساسية لفريد الأطرش كعازف للعود، إنما تستند إلى القوة التقنية الممتازة في يده اليمنى. لذلك فإن له قدرة على إنطاق آلة العود بين يديه نطقا فصيحا مبينا، عز وجوده بين عازفي العود.

ولكن حتى في هذا المجال بالذات، ليس الأطرش وحيدا أو أوحد، بل إنه استمد هذه التقنية من أستاذيه اللبناني فريد غصن والمصري محمد القصبجي.

فإذا انتقلنا إلى موضوع اليد اليسرى، المسئولة عن إظهار سعة الخيال الموسيقي وعمق الإحساس، فإن من يستمع إلى عزف فريد الأطرش (دون أن يكون من أصحاب العصبيات الموسيقية العمياء) سيلاحظ خياله المحدود، بدليل أن هناك تشابها غريبا في كل تسجيلات تقاسيم فريد الأطرش.

٤ - في مسألة تميز فريد الأطرش في نطق الأحرف العربية.

أعتقد أن التوفيق لم يخن كاتب المقال، كما خانه في هذه المسألة بالذات، ذلك أن نسبة عالية جدا من الدارسين الجادين للموسيقى العربية، إضافة إلى نسبة مماثلة من الذواقة تتفق على أن الأداء الغنائي لفريد الأطرش هو الحلقة الأشد ضعفا في سلسلة مواهبه الفنية المتعددة.

وفي الختام، عذرا من الكاتب (عن الصراحة)، وعذرا من «وجهات نظر» (عن الإطالة)، وليست هذه هي المرة الأولى التي أقرأ فيها مقالا فنيا مبنيا على مثل هذه المعايير والمعلومات، ولكن صدمتي كانت أكبر من كل ما سبق، لأن ما قرأته كان منشورا في «وجهات نظر»، وليس في أي من المجلات الفنية، المزدانة بصور الفنانات الفاتنات، وليس بالقيم الثقافية الجادة.

إلياس سحاب



حلم الإرادة

أود أن أعبر لسيادتكم عن خالص تقديري وإعجابي الشديد بمجلتكم الراقية.. والتي سعدنا بها منذ مولدها في فبراير عام ١٩٩٩.

وتحية إعجاب وتقدير للكاتب الكبير محمد حسنين هيكل الذي يعتبر مقاله في مجلة «وجهات نظر» من أفضل المقالات السياسية في الصحافة العربية.

فالمقال دائمًا عبارة عن.. لوحة لمفكر مستنير.. وفنان بارع تتداخل فيها الرؤية الشخصية الخبيرة مع النظرة الوثائقية والتحليل السياسي بحس تاريخي ونظرة جغرافية شاملة كل ذلك في بناء محكم وبأسلوب أدبي عذب وممتع وآخرها مقال «السياسة بين الحلم والإرادة» في عدد نوفمبر ٢٠٠١ الماضي. والذي وصل فيه الأستاذ هيكل.. مع نهاية المقال.. إلى أن الإرادة تقدر أن تعيش حلمها «وتحدد وسائله» وأما العجز فليس لديه غير أن يعيش حلم الآخرين «ويذوب فيه».

- ونحن نشعر يا سيدي في أمتنا العربية في وقتنا الراهن باننا مطالبون أن نعيش حلم الإرادة قبل أي وقت مضى ونستطيع أن نجدد وسائل تحقيق هذا الحلم بما يتناسب مع تاريخنا المجيد.. وموقعنا الجغرافي الفريد وميراثنا الثقافي المديد.

فنحن نملك الإرادة.. ونقدر على الحوار مع العصر ومتغيراته وإن شاء الله في سبيلنا لتحقيق الحلم.

علي محمود
اخصائي اجتماعي جمعية العروة
الوثقى الخيرية الإسلامية بالإسكندرية



أين التكنولوجيا؟

لقد أمكنني الحصول على بعض الأعداد من مجلة «وجهات نظر» خلال العام الماضي، ومع كل عدد أقرأه أزداد ارتباطًا بهذه المجلة، حيث يكتب فيها خيرة الكُتّاب المتخصصين كُل في مجاله. وهي مجلة متعددة المجالات، فهي مجلة ثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية.

وينبع إبداع هذه المجلة من أنها نشأت في وقت عصيب للثقافة المصرية، حيث إن البعض يظن أن نهر الثقافة المصرية قد نضب ويكمن أيضًا ارتباطي بهذه المجلة من كونها المصدر الوحيد لي لأن أتفاعل مع الحياة الثقافية والمثقفين المصريين بعيدًا عن إرهاصات الجرائد اليومية والإصدارات الأسبوعية ذات الاتجاهات المختلفة.

يبقى لي تعليق واحد، وهو أن هذه المجلة رغم تناولها لمجالات شتى، إلا أنها لم تتناول مجالاً يعتبر من المجالات الحيوية في عالمنا المعاصر، وهو مجال «التكنولوجيا». إذ إنني لم أجد أي مقال عن التكنولوجيا وأهميتها في حياتنا، سواء كان في العموم أو بالأخص في المجتمع والاقتصاد المصري، وكيفية تأثيرها على مختلف ألوان الحياة.

محمد شوقي
مهندس حاسبات
فانكوفر - كندا



١٠٠ يوم غيَّرت وجه العالم!

مائة يوم تقريبًا غيرت وجه العالم أو كادت. وأصبحت هى الحد الفاصل بين قرن وقرن. وأكبر الظن أن القرن الواحد والعشرين لم يبدأ فعليًا وعمليًا إلا بعد الحادى عشر من سبتمبر الماضى، أى بعد انهيار البرجين التوأم فى نيويورك والهجوم الذى تعرض له مبنى وزارة الدفاع الامريكية (البنتاجون). وبعد أن وجدت أكبر دولة فى العالم نفسها لأول مرة عرضة لهجوم حقيقى، عجزت حتى الآن عن تحديد مصادره. ولكنه أطاح بتفوقها الأمنى الذى حصنها من أى عدوان خارجى على مر تاريخها القريب كله. وأطاح معه بكثير من المبادئ والقوانين والأعراف التى استقرت أساسًا للعلاقات الدولية طوال القرن العشرين.

دخل العالم خلال المائة يوم الأخيرة مرحلة جديدة تمامًا، جعلت العام المنصرم من أخطر الأعوام التى شهدها التاريخ الحديث.. وحفلت هذه الأيام الكئيبة بأكبر قدر من المآسى والفواجع وسفك الدماء، فى حرب غير متكافئة، بين أحدث ما امتلكته البشرية من أساليب العلم والتكنولوجيا لأسلحة دمار متطورة، استخدمت على نطاق واسع على يد أقوى وأكبر دولة فى العالم، فى مواجهة أشد القوى تخلفًا ورجعية وتعصبًا، فوق أرض شعب من أفقر وأتعس شعوب العالم وأكثرها تعرضًا للقحط والجفاف والصراعات القبلية، ووسط بيئة دولية غير متوازنة، رجحت فيها كفة القوة العسكرية الكاسحة التى تملكها دولة عظمى وحيدة تفرض سطوتها على العالم.

ومن المؤكد أن ثمة انقلابًا طرأ على الموازين العالمية نتيجة هذا الهجوم وما أعقبه من تداعيات، لعلنا لم نشهد منها غير البدايات. ولكن أكثر الدول والشعوب تأثرًا بهذا الانقلاب، كانت الدول العربية بصفة خاصة والشعوب الإسلامية بصفة عامة. التى وجهت إليها مسئولية احتضان الإرهاب وتصديره لأسباب مجتمعية وحضارية وسياسية. وأصبح لزامًا عليها - من ثم - أن تدفع ثمنًا باهظًا.. ليس فقط لأن المتهمين بارتكاب الهجوم وتدبيره وتمويله ينتمون إلى دول عربية سواء كانت هذه الادعاءات صحيحة أو خاطئة، ولكن أيضًا لأن الفجوة الفاصلة بين مستويات الفكر والحياة والنظم السياسية والاجتماعية فى كلا الجانبين، اتسعت بدرجة غير مسبوقة. ضاعف منها عجز الدول العربية عن بلورة استراتيجيات عسكرية وسياسية متناسقة، قادرة على مواجهة الهجمة التوسعية الشرسة للاحتلال الإسرائيلى فى فلسطين وعدد من الدول العربية طوال نصف قرن من صراع غير متكافئ.. أوهن القوى العربية وفكّ إرادة الشعوب فيها، وأفسد النظم السياسية وشلّ فاعليتها عن التطور.



ردود الفعل العربية إزاء هذه التحولات، التى وضعت العالم العربى وقضاياه ومصيره منفردًا ودون سند أو حليف، فى مواجهة تكتل عالمى واسع تقوده أكبر دولة فى العالم، لم تزد على محاولة تبرئة نفسها من الاتهامات الموجهة إليها بأنها البيئة الحاضنة للإرهاب والانخراط فى سجال عالمى لدفع الشبهات والاتهامات التى نسبت إلى الفكر الإسلامى بأنه يحبذ العنف ويولده، ويحارب خصومه بالإرهاب والخديعة، والتعلل بأن الانحياز الغربى المسيحى إلى الصهيونية العالمية والإرهاب الاستيطانى الإسرائيلى هو السبب فى وقوع هذه الكوارث، وتخريج أجيال غاضبة محبطة من الشباب، لم تجد لها منفذًا غير الاحتماء بالتطرف الدينى والعنف المجتمعى بهدف التغيير بالقوة.

وقد يكون كل هذا صحيحًا بدرجة أو بأخرى، ولكنه لم يعد يكفى لمواجهة الضغوط العالمية، ولا للتنصل من مسئوليتنا كشعوب ومجتمعات عربية.. كما أنه لم يعد يكفى لمواجهة الأخطار المحدقة التى لا تهدد إرادة الدول العربية وحريتها واستقلالها فحسب، بل باتت تهدد فوق ذلك وجودها وحدودها وهويتها.

لم تعد مؤتمرات القمة، ولا اجتماعات وزراء الخارجية العربية والإسلامية، ولا اللجوء إلى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية تغنى شيئًا عن الفشل الذى منيت به سياسات النخب العربية، وعجزها عن الالتفاف حول القضايا القومية وحول منهج لتحقيق المصالح المشتركة يخلو من التناقضات. كما أن الظن بأن اللجوء إلى أسلوب الحوار بين الثقافات، والبحث عن أرضية مشتركة أو جسور للتفاهم والتوافق بين الغرب والشعوب العربية والإسلامية، ليس وحده كافيًا لكى يضيق الفجوة ويبدد الأخطار، ويولد جوا من التعاطف والمساندة لقضايانا.. وهو ما حاولت الجامعة العربية أن تدعو إليه، بعد أن أخفقت محاولات توحيد الصف على المستوى الرسمى.



تهلّ الأيام الأولى من العام الثانى فى الألفية الثالثة، وأجواء الخوف والتوجس تخيم على العالم العربى.. التهديدات تحاصر معظم دوله من كل جانب نتيجة لأحداث سبتمبر. واحتمالات التدخل تحت ستار محاربة الإرهاب وضرب قواعده تلوح أمام الأعين. ولا يوجد حتى الآن أساس لانتهاج سياسة عربية واقعية عقلانية ليس فقط تجاه القضية الأولى التى تشغل العالم، بل أيضًا تجاه المجتمعات العربية ذاتها وموقفها من الإرهاب واستخدام العنف. وقد حاولت كل دولة عربية على حدة أن ترتب أمورها باتفاقيات سرية أو علنية مع الدولة الكبرى، اتقاء للشرور والأخطار. ولم يعد أحد يلقى بالاً إلى كثير من الآراء والتحذيرات والنصائح التى لا يكف الزعماء العرب عن إطلاقها فى الهواء أو إبلاغها إلى العالم..

هل تظل حالة الخدر اللذيذ التى يعيش فيها العرب مستمرة لا تؤثر فيها الصراعات المتوالية؟ وهل هناك من سبيل إلى استعادة الوعى وإيقاظ الهمم ومواجهة الأخطار المحدقة؟

إن أى حوار مع الآخر فى الغرب أو فى الشرق، لن يجدى ما لم يسبقه حوار داخلى بين النخب الاجتماعية والقوى الفكرية على المستوى السياسى والاجتماعى والاقتصادى.. وأهم شىء هو أن تفسح النظم العربية للشباب مكانًا للمشاركة والحوار وتحمل المسئولية. وهو ما لن يتأتى إلا بإطلاق الحريات، والقيام بإصلاحات حقيقية تفتح مجالات العمل السياسى، وتتيح حرية التعبير، وتكفل الدفاع عن مصالح الفئات الاجتماعية كلها دون تمييز أو استثناء.

إن الفئات العمرية الشبابية تمثل فى المجتمعات العربية نسبة عالية تصل إلى أكثر من النصف فى حالات كثيرة. ولكنها فئات مهملة، ضائعة، مستبعدة من تحمل المسئولية وممارستها والتدرب عليها. ولا توجد فى المجتمعات العربية تقاليد تسمح بالحوار بين الأجيال فى البيت وفى المدرسة والجامعة، وفى التشكيلات الاجتماعية والسياسية. ولا تقتصر المشكلة فقط على تخلف الخطاب الدينى وعجزه عن مخاطبة الأجيال الجديدة التى تتعامل مع الكمبيوتر ووسائل الاتصال الحديثة، والتى اختلفت أذواقها ومعارفها وميولها اختلافًا جذريًا عن آبائهم. ولكن تخلف الخطاب السياسى والاجتماعى يبدو أفدح ضررًا وأبعد أثرًا فى تشويه عقول أجيال بأكملها. وحين يصعب التوفيق بين الموروث والواقع، وبين الواقع والطموح، وبين الطموح وما تفرضه القيود السياسية والاجتماعية.. فلا بد أن ينتج نوع من العنف الذى يبدأ فى الداخل ثم لا يلبث تحت وطأة القمع أن يتجه إلى الخارج.

ويكفى أن ننظر فى الأرقام التى ترددت عن «الأفغان العرب» وتنظيم القاعدة الذى اجتذب الألوف من الشباب العربى من كل الجنسيات بدون استثناء. وبعضهم يعيش فى مجتمعات أوروبية وأمريكية هاجر إليها سعيًا وراء تحقيق ذاته، ولكنه لم يستطع أن يتكيف مع هذه المجتمعات كما لم يستطع أن يتكيف مع مجتمعه الأصلى.. ربما تفوق فى مجال عمله أو دراسته، ولكنه ظل محصورًا داخل قيود وقوالب فكرية هيأته نفسيًا وذهنيًا لموقف الصدام مع المجتمع الذى هاجر إليه.

وسواء كان هؤلاء الشباب العرب من تنظيم القاعدة هم المسئولون عن أحداث سبتمبر بإيعاز وإيحاء وتدبير من بن لادن، أو كان غيرهم.. فقد تهيأت للغرب بقيادة أمريكا من خلال التذرع بالقضاء على الإرهاب، فرصة لإعادة ترتيب الأوضاع فى المنطقة العربية وصياغة استراتيجية جديدة ظهرت ملامحها فى إطلاق يد إسرائيل فى المنطقة. وحتى لو لم تكن الدول العربية مسئولة عما حدث، فإن ضعفها لا شك يغرى بها لكى تدفع الثمن. وقد بدأ يغرى بالفعل بعض القوى فى الغرب للمطالبة بتغيير المناهج الدراسية الدينية التى يتحتم على دول عربية تعديلها، لنزع فتيل الإرهاب وتجفيف منابع التعصب الدينى، كشرط لقبولها فى المجتمع الدولى.

إلى هذا الحد بلغت درجة الانقلاب الذى شهده العالم خلال مائة يوم. وحين يدور العام دورته، فلا أحد يدرى أين يكون موقع أقطار عربية عديدة تحت عجلات التاريخ.. وهل توقظ الصدمة أهل الكهف النائمين فى العالم العربى؟

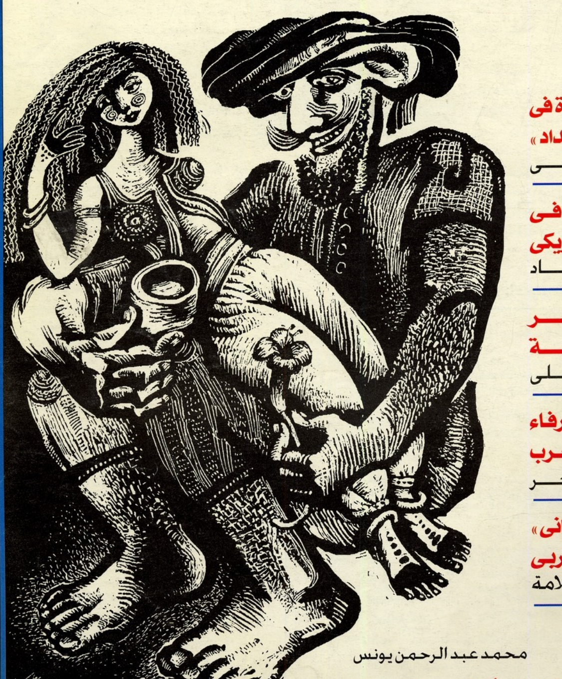
سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 37 - February 2002 مجلة شهرية. العدد السابع والثلاثون. السنة الرابعة. فبراير ٢٠٠٢. الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل

واشنطن تؤذن للجهاد فى كابول!



قراءة جديدة فى «طبائع الاستبداد»
حسن حنفى

الإنترنت فى الزمن الأمريكى
أيمن الصياد

آلة الفكر وفكر الآلة
نبيل على

لصوص لكن ظرفاء فى كاريكاتير العرب
صخر أبو فخر

صورة «الأمريكانى» فى العقل العربى
سلامة أحمد سلامة

محمد عبد الرحمن يونس
القاهرة .. فى حكايات ألف ليلة وليلة



بعرض خاص للمجموعة
(ثلاثة أجزاء) ٥٠ جنيها



فى معرض القاهرة الدولى للكتاب بجناحنا بالعرض المكشوف

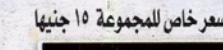
وبالمكتبات الكبرى ولدى بائعى الصحف والمجلات

م	اسم الكتاب	المؤلف	السعر
١	الفقه الميسر ١-٣	شيخ الأزهر/د.محمد سيد طنطاوى	٣٦
٢	حتى الملائكة تسأل - قصة الإسلام فى امريكا	د. جيفرى لانج	١٨
٣	من أيات الإعجاز العلمى فى القرآن ١-٣	د.زغلول النجار	٢٠
٤	خواء الذات والادمغة المستعمرة	د. مراد هوفمان	٨
٥	الإسلام فى الألفية الثالثة	د. مراد هوفمان	١٨
٦	الإمبراطورية الأمريكية ١-٣	نخبة من المفكرين	٦٩
٧	قارعة سبتمبر	نخبة من المفكرين	١٥
٨	المسيح اليهودى ونهاية العالم - الطبعة الثانية	رضا هلال	١٨
٩	نابوليون والإسلام	كريستيان تشيرفيلز ترجمة د. زين نجاتى	١٠
١٠	الأمريكى التائه فى الشرق الأوسط	عاطف الغمرى	١٦
١١	الدين والسياسة فى الولايات المتحدة	ترجمة د.عصام فايز/ د.ناهد وصفى	١٥
١٢	الدين والفكر فى فخ الاستبداد	د.محمد خاتمى رئيس جمهورية إيران	٢٠
١٣	ابتلاء الأنبياء	حنفى المحلاوى	١١
١٤	عالم بلا سيادة	ترجمة / لطيف فرج	١٦
١٥	تكنولوجيا المعلومات والتنمية	د.صلاح زين الدين	١٢
١٦	قصة الحضارة الفرعونية	أحمد عثمان	٨

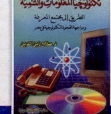


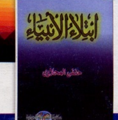


خصومات تصل إلى
٤٠٪









٤ ش السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة تليفاكس : ٢٥٦٥٩٣٩ - ٤٥٤٤٤٦٧ - ت: ٤٥١٩٦٢٨
كوالالمبور - جاكارتا - لوس أنجلوس

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد السابع والثلاثون
فبراير ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

ـ **أيمن الصياد** .. صحفى.
ـ **حسن حنفى** .. أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة.
ـ **حسين الواد** .. أستاذ الأدب القديم والمناهج الحديثة، جامعة تونس.
ـ **رشدى سعيد** .. أستاذ جيولوجيا مصرى مقيم فى الولايات المتحدة.
ـ **سلامة أحمد سلامة** .. صحفى.
ـ **شوقى عقل** .. مهندس إنشائى.
ـ **صخر أبو فخر** .. كاتب فلسطينى.
ـ **لطيفة سالم** .. أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية آداب بنها.
ـ **محمد حسنين هيكل** .. صحفى.
ـ **محمد عبد الرحمن يونس** .. محاضر فى جامعة الدراسات الأجنبية فى بكين.
ـ **نبيل على** .. خبير الأبحاث اللغوية العربية والإلكترونية.

رسوم العدد للفنانين:
محمد حجى ـ محمد حاكم ـ سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تقرير
إلى قارئ وجهات نظر

رأت هيئة تحرير مجلة «وجهات نظر» أن تخصص افتتاحية العدد الأول للسنة الرابعة من عمر هذه المجلة الشابة لكلمة من الناشر. يلقى خلالها الضوء بعد سنوات ثلاث من صدورها على ما كانت تطمح إلى تحقيقه من أهداف، وما أنجزته من وعود قدمتها إلى القارئ وحرصت على بلوغها، وكانت عند حسن ظن قارئها فيما حققته من نجاح فاق كثيرا من التوقعات.

فرغم تخوفات معظم الزملاء والأصدقاء الذين طرحت عليهم فكرة المجلة قبل صدورها وتوقعاتهم بندرة. إن لم يكن انعدام. وجود قارئ لمثل هذه المجلة.. فقد كان خير تعبير عن هذه التخوفات وهذا الانطباع العام ما كتبه الأستاذ جهاد الخازن فى جريدة الحياة اللندنية مهنئا بصدور العدد الأول محييا غناه وتنوعه، داعيًا القراء لسرعة اقتنائه والاحتفاظ به وبالأعداد القليلة التالية التى ستصدر بعده متوقعا أن مثل هذه المحاولة الجادة الرصينة. فى رأيه. لا تستمر عادة ولا تعمر طويلا.

وإذا كانت المجلة قد وعدت قارئها فى العدد الأول بمجلة مختلفة لقارئ مختلف.

- تحمل فى سطورها أفكار العالم بحروف عربية.
- يقتنيها مرة فى الشهر ليقرأها ويقرأ فيها طوال الشهر.
- تقدم لقارئها أحدث وأهم الكتب والمنشورات والتقارير فى مجالات متنوعة بين الثقافة والسياسة والفكر.
- أن تجرب النفاذ من خلال ما هو منشور فى الكتب والتقارير وغيرها إلى محيط أوسع يفيد فى التعرف على أحوال الحاضر وتصورات المستقبل.
- أن تحاول أن تكون جسرًا بين الثقافات وعبر القارات وأن تفتح ما تستطيع من نوافذ مطلة على مراكز الفكر والنشر على اتساع العالم.
- أن تحتفل وتحتفى بوجهات النظر، على اختلافها وتنوعها وغناها.. ولاتكرس لوجهة نظر واحدة، ولا حتى لوجهتى نظر متقابلتين فقط، بل لوجهات عديدة مختلفة للنظر تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها، إلا إذا اقتضت الظروف أن يكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف توقع فى هذه الحالة المقال باسمها..



العدد الأول.. السنة الأولى



وإذا كان هذا ما التزمت به المجلة وخططت له فقد يكون من المناسب أن يضع الناشر تحت أنظار القارئ العزيز تقريرا مفصلا عن أحوالها، وما انتهت إليه رحلتها عبر ثلاث سنوات:

- لقد أصدرت المجلة ٣٦ عددًا لو حولت إلى مقاس الكتاب لعادلت موسوعة من العلوم والمعارف فى أكثر من ٢٥٠٠٠ صفحة من القطع الكبير..
- عرضت المجلة فيها حوالى ٣١٠٠ كتاب عربى وأجنبى، ٢٠٠ منها عرض مطول و٥٤٠ عروضا موجزة وحوالى ٢٣٦٠ فى عروض قصيرة.. بمعدل حوالى ٨٦ كتابًا فى العدد الواحد و١٠٣٣ كتابا فى العام.
- تحقق ذلك من خلال ما يقرب من ٥٠٠ مقالة حفلت بها سطور المجلة وتوزعت كالتالى:

٤٠,٥٪ علوم اجتماعية.
(٢٨٪ منها سياسة وفكر. ١٢,٥٪ اقتصاد وعلوم اجتماعية).
٢٧٪ فى الآداب والفنون.
(١٥٪ فى الأدب و١٢٪ فى الفن).
٢١٪ فى التاريخ والمذكرات والسير.
(١٣٪ فى التاريخ و٨٪ فى المذكرات والسير).
٧,٥٪ فى العلوم.
٤٪ متنوعات مختلفة.

- شارك فى كتابتها وتحريرها أكثر من ٢٥٠ كاتبًا ومفكرًا وأستاذًا منهم ٦٤ كاتبا أجنبيا و١٨٦ كاتبا عربيا ومصريا.

ولعل هذا التوزيع والتنوع يلقى ضوءًا كاشفا على ما قدمته المجلة حتى الآن. وينير الطريق أمامها فى التخطيط للمستقبل خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أمامنا وأمام القارئ العزيز ما يلى:

١ . إن مجمل الرغبات التى تصل إلى المجلة. والتى تعكس اهتمامات عدد من القراء المتابعين والذين وجدوا عندهم الوقت ليتصلوا، والأمل ليطلبوا. تتلخص فى:

(أ) أن تزيد عدد عروض الكتب القصيرة.
(ب) أن تزيد مساحة عروض الكتب الموجزة وتطور طرق العرض لو أمكن.
(جـ) أن تزيد المساحة المخصصة للعلوم وفتوحات الطب والتكنولوجيا.
(د) أن تزيد المساحة المخصصة لتحليل وملاحقة ما يضطرب به العالم من حولنا.. ويصطخب به عالمنا العربى من أهوال وأحداث وتطورات، والغريب أن الطلب على زيادة متابعة الأحداث السياسية هو الأكثر حجمًا وإلحاحا..

٢ . المقارنة بين اهتمامات المجلة والتحليل الموضوعى لما نشرته وعلاقة ذلك بما ينشر عربيا وعالميًا..

وهنا يقفز للذاكرة ما زخرت به العديد من المقالات التى نشرت فى كبريات الصحف والمجلات الأمريكية محللة لواقع الفجوة والاختلاف الثقافى بين الغرب وبين العالم العربى مدعية أن أحد أبرز شواهده أن مصر. وهى المركز الثقافى الأكبر فى العالم العربى والتى يزيد عدد

سكانها على ٦٥ مليون نسمة لا تصدر أكثر من ٣٧٥ عنوانا جديدًا فى السنة!! بينما تصدر إسرائيل وحدها ٤٠٠٠ عنوان جديدًا فى السنة!! والواقع أن ما ادعوه بعيد كل البعد عن الحقيقة.

ففى مصر تشير الدراسة التى أجراها الدكتور شعبان خليفة - شيخ المكتبيين المصريين والعرب - من واقع أرقام دار الكتب المصرية وقوائم دور النشر المعلنة معا، إلى أن إجمالى عدد العناوين الصادرة عام ٢٠٠١ بلغت ٩٧٤٥ عنوانا - ولا يشمل هذا الرقم عددًا كبيرًا من الكتب المدرسية الخارجية ومن الكتيبات القبطية - منها ٨٩٧٥ عنوانا باللغة العربية و٧٧٠ عنوانا بلغات أخرى.. ومنها حوالى ٦٣١٠ عناوين جديدة وحوالى ٣٤٣٥ عنوانا إعادة طباعة.. وأن التحليل الموضوعى لهذه الكتب يوزعها كالتالى:

- ٢٥٪ علوم اجتماعية (سياسة واقتصاد وقانون وخدمة اجتماعية.. إلخ).
- ٢٣٪ ديانات.
- ١٧٪ آداب (٧٥٪ منها نصوص حديثة وتراثية، ٢٥٪ منها دراسات).
- ١٠٪ جغرافيا وتاريخ وتراجم.
- ٩ ٪ علوم تطبيقية.
- ٦ ٪ علوم بحتة.
- ٤ ٪ فلسفة وعلم نفس.
- ٣ ٪ فنون.
- ٢ ٪ لغات.
- ١ ٪ معارف عامة.

وتتوزع فئات هذه الكتب بالنسب الآتية:

- ٤٠٪ كتب ثقافة عامة بما فيها الكتب الجامعية.
- ٣٥٪ كتب مدرسية (رسمية وخارجية مساعدة).
- ١٥٪ مطبوعات حكومية.
- ١٠٪ كتب أطفال.

ويقدر حجم الكتب الصادرة فى مصر بحوالى ٣٣٪ من إجمالى الكتب الصادرة فى كل الدول العربية.. وإن اختلفت التقسيمات والفئات حتى أن نسبة الكتاب المدرسى تصل فى بعض الدول العربية إلى ٩٠٪ أو يزيد - ليس ذلك اهتمامًا بالتعليم وإنما لقلة عدد الكتب الثقافية العامة وندرتها.

العدد الأول.. السنة الثانية

وإذا كان هذا هو التحليل التقديرى التقريبى لما يصدر فى مصر.. فكيف هى الصورة فى العالم بصفة عامة؟

تشير أرقام اليونسكو واتحاد الناشرين الدولى إلى أن العالم يصدر فيه سنويا حوالى مليون وربع المليون عنوان جديد وحوالى نصف المليون دورية مطبوعة، وحوالى خمسة ملايين تقرير علمى وفنى، وحوالى ربع المليون رسالة ماجستير ودكتوراه وربع المليون كتاب ودورية إليكترونية..

ويشير التحليل الموضوعى لإجمالى الكتب الصادرة عالميًا للمتوسطات التالية:

- ٤٠٪ علوم اجتماعية.
- ١٥٪ آداب.
- ١٣٪ علوم بحتة وتطبيقية.
- ١٠٪ تاريخ وجغرافيا.
- ٧ ٪ ديانات.
- ٥ ٪ فلسفة وعلم نفس.
- ٤ ٪ فنون.
- ٦ ٪ باقى المعارف العامة واللغات.

ويفيد التحليل الفئوى المقارن بأن الكتب الصادرة عالميا توزع إجماليا كالتالى:

- ٧٠٪ كتب ثقافية عامة. مقابل ٤٠٪ فى مصر.
- ٢٠٪ كتب مدرسية. مقابل ٣٥٪ فى مصر.
- ٥ ٪ كتب أطفال. مقابل ١٠٪ فى مصر.
- ٥ ٪ كتب حكومية. مقابل ١٥٪ فى مصر.



هذا عن التنوع والتصنيف الموضوعى للكتب فى مصر والعالم أما عن محتوى مقالات المجلة وقيمتها.. فلابد أن نسجل أن المجلة ومقالاتها المتميزة - منذ أعدادها الأولى - حظيت باهتمام وتقدير بالغين من القراء وأوساط الصحافة..

ونقل عنها أكثر من مرة فى الصفحات الأولى: مما أثمر الاتفاق الرائد فى الصحافة العربية التى منحت بموجبه «وجهات نظر» لكل من جريدتى «الخليج» الإماراتية، و«السفير» اللبنانية حق نشر مقالاتها بالكامل بالتزامن مع نشرها فى مجلتنا فى سابقة جسدها اتفاق يصون حقوق الملكية الفكرية.. نرجو أن يكون بداية لتقليد يتبع فى دنيا الصحافة والنشر فى عالمنا العربى..

وغنى عن البيان أن هذا الاتفاق - أيضًا - يمثل نجاحا ملحوظا لهذه المجلة الثقافية العربية التى تصدر فى القاهرة فى إثارة اهتمام القارئ العربى بدرجة تؤكد وحدة وانسجام المزاج الثقافى.. فى المحيط العربى على اتساعه.



ولابد من الإشارة أن نظرة فاحصة إلى خريطة توزيع المجلة وتصديرها قد تدعو إلى تسجيل تحفظ محزن كبداية، لأن له تأثيره على اكتمال الصورة وشمول المقارنة.. وهو أن المجلة حتى الآن لم يتيسر دخولها إلى أقطار عربية عزيزة هى الجزائر - تونس - ليبيا - السودان - المملكة العربية السعودية - والعراق.. وكلنا أمل أن يتم ذلك قريبا.

- تحتل مصر - وهذا أمر طبيعى - النسبة الأكبر بين الدول فى الكميات الموزعة... وتتوزع نسب التوزيع داخل مصر كالتالى:
٥٧٪ القاهرة - ١٨٪ الإسكندرية - ١٩٪ محافظات وجه بحرى - ٦٪ محافظات وجه قبلى.
- مراكز التوزيع الرئيسية داخل القاهرة تتوزع بالترتيب التالى: ٢٢٪ مصر الجديدة ومدينة

تقرير إلى قارئ وجهات نظر

نصر - ٢٠٪ المهندسين والدقى وإمبابة - ١١٪ الفلكى والدواوين - ٨٪ منطقة وسط القاهرة - ٦٪ الزمالك - ٦٪ المعادى وما حولها، ٦٪ الجيزة والروضة ثم تتوزع باقى الكمية على باقى مناطق القاهرة الكبرى. على أن الملاحظ أن التوزيع فى منطقة كمصر الجديدة ومدينة نصر يزيد قليلاً على التوزيع فى محافظة الإسكندرية.. وعلى التوزيع فى كثير من الدول العربية كل على حدة!!

ورغم أرقام وحقائق التوزيع هذه.. ورغم ما يبذل من جهد للوصول بالمجلة لكل نقاط التوزيع فى مصر والعالم العربى ومتابعتها. إلا أن الشكوى مازالت متزايدة من صعوبة الحصول عليها أحيانا. خاصة فى الدول العربية والأجنبية وفى المدن المصرية البعيدة عن القاهرة والإسكندرية. كما تتكرر الشكوى من نفاد كمياتها بسرعة من بعض مناطق التوزيع.. مما يشير إلى أهمية اعتياد القارئ العربى، على الاشتراك فيما يحب من مجلات، الأمر المعتاد عالميا فى مثل هذه النوعية من المجلات وهو ما لم يتعود عليه القراء العرب بعد.. والمجلة تطمع فى إقناع قارئها باستخدام هذه القناة الميسرة.. أى عن طريق الاشتراكات.. أو أى طريقة أخرى تيسر وصولها لأعداد أكبر من المهتمين وإعلامهم بها.

كما أن المجلة تتوجه إلى قارئها العزيز لإبداء الرأى فى موضوعاتها التى أفردنا تفاصيلها وتوزيعاتها، لكى يسهم برأيه فى خطط التطوير المستقبلية.



وإذا كانت «وجهات نظر» قد نجحت فى أن تستكتب هذا العدد الكبير والمتنوع من الكتاب المصريين والعرب والأجانب فإنها مازالت تأمل فى استقطاب عدد أكبر من كل الدول العربية ومن تخصصات مختلفة.. ليكتبوا فى تخصصاتهم وفى غيرها.. آملة فى اعتبار هذه دعوة مفتوحة للإسهام فى تحرير المجلة خاصة



العدد الأول.. السنة الثالثة

بأقلام المثقفين والمتخصصين الذين لم تتح لهم فرص النشر قبل ذلك.



لقد سعت المجلة من خلال ما يقدمه أصدقائها إلى إدخال أحدث الفنون الصحفية فى أساليب المقالة والتحليل والرأى. وكان من أهم ما تميزت به «وجهات نظر» ذلك التجديد الذى أدخله «محمد حسنين هيكل» فى الصحافة العربية وهو أسلوب المقال «المسترسل» أو «المستطرد»، وهو نوع من المقال جديد على الصحافة العربية ينتقل فيه الكاتب من كليات المسائل إلى تفاصيلها ويربط بين الحوادث الكبرى الموجهة للتاريخ وبين النزعات الإنسانية للبشر، وفهم مادة التاريخ.. إنه مكان وسط بين المقال المألوف وبين الكتاب، فهو أطول من المقال وأقصر من الكتاب وهدفه أن يمسك بموضوع معين يستوفيه.



يبقى علىّ من موقعى كناشر لـ«وجهات نظر» أن أشيد بهيئة تحرير المجلة وعلى رأسها الأستاذ سلامة أحمد سلامة رئيس التحرير وأتقدم لهم جميعا بكل التقدير على ما بذلوه.. وما قدموه وحققوه، وأن أستسمحهم فى أن أجيب عن تساؤلات العديد من القراء فأذكر لهم أن الذى يكتب الافتتاحية هو الأستاذ أيمن الصياد، وأن الذى يعد العروض الموجزة هو الأستاذ عماد الغزالى والأستاذة هديل غنيم والأستاذ عبدالله عبدالسلام، وأن أشيد للجهد المتميز والإخراج الفريد الذى يقدمه رئيس التحرير الفنى الأستاذ حلمى التونى ومجموعة الفنانين المتميزين بلوحاتهم ورسومهم.. محمد حجى ونبيل تاج وسعد الدين شحاته ومحمد حاكم.. الذين أسهموا إسهاما كبيرا فى بناء صورة المجلة وجمالياتها، وهى صورة لا تكتمل إلا بذكر جهد وفن عشاق المجلة فى مطابع الشروق واحتمال العاملين فيها بنفس راضية لكل المتاعب التى يفرضها إصدار مجلة «وجهات نظر» بأكبر قدر من الإتقان والمسئولية وعلى رأس هؤلاء المهندس أحمد علام ومساعده شريف المعلم.. وكذلك العاملين بالكمبيوتر والمراجعة والتجهيزات الفنية.. ثم دينامو المجلة تحريرًا وإخراجًا وطباعة الأستاذ أحمد الزيادى.



وتدل المؤشرات المبدئية لتحليل نوعية القراء المهتمين بالمجلة فى مصر لأمرين جديرين بالملاحظة والتأمل، أولهما: أن اهتمام النساء والشباب أكثر مما توقعنا ومن المعتاد.

وثانيهما: أن نسبة القراء أكثر ارتفاعًا بين الأطباء والمهندسين ورجال القضاء والسلك الدبلوماسى..

وهو ما يطرح تساؤلا جادا ومهما حول تعريف من هم «المثقفون»؟ وهل يصح لمجموعة أو فئة أو مهنة ما أن تنفرد بإطلاق هذه الصفة على نفسها؟ غير أن هذا حديث يطول، ولكنه يشير فى الوقت نفسه إلى أن فئة المثقفين تتسع لأنواع وأنماط عديدة فى عالم تتسع معارفة وتتنوع يوما بعد يوم.

وكل ما تطمع إليه مجلة «وجهات نظر» هو أن تكون قادرة على مواكبة ما يطرأ على فنون المعرفة والثقافة من تقدم واتساع لتشبع اهتمامات أوسع دائرة للمثقفين فى العالم العربى.

إبراهيم المعلم

محمد حسنين هيكل



دفاتر أزمة!

«الدفتر الثانى»

واشنطن تؤذن

■ فى يوم قادم مع المستقبل سوف تقف الأمة العربية محاسبة، تطلب التحقيق فى شأن السياسات التى ساقتها إلى تلك المغامرة على جبال أفغانستان وفى أعماق كهوفها. ومع أنى تابعت معظم فصول ومشاهد هذه المغامرة، فإنى أوثر الآن أن أترك روايتها لغيرى، طلبًا لأقصى قدر متاح من الموضوعية، ذلك أنه عندما يتحدث طرف من الأطراف عن مسألة له فيها وجهة نظر، فالخشية دائما أن وجهة نظره تنعكس على رؤيته، وبالتالى على روايته!

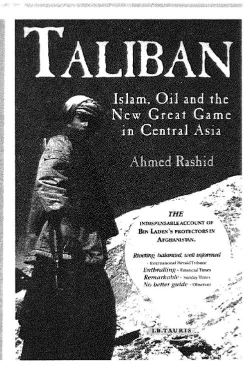
ومن حسن الحظ أن هناك وفرة فى المصادر الدولية التى تعرضت بالتقصى والبحث فى دخائل وخفايا ما جرى على جبال أفغانستان وفى كهوفها وضمنه دور السياسة العربية هناك. وكذلك اخترت أن أستند فى هذا الحديث على ثلاثة مصادر - بين عشرات غيرها - أعرف أن وراءها جهدا دءوبا، وصلات وثيقة، ومصداقية تقنع أى باحث عن الحقيقة بأنه وجد جوابا لسؤاله - كى يبدأ من هنا حقه العام أن يعرف وأن يتخذ لنفسه ولو بالضمير موقفا!

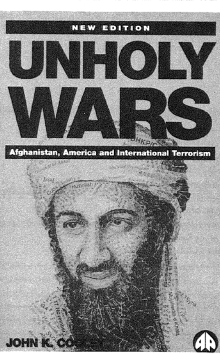
والمصادر التى اخترتها عمادا لهذا الحديث ثلاثة كتب:

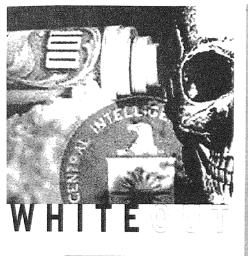
١ـ كتاب «طالبان: الإسلام والنفط والصراع الكبير فى وسط آسيا» ومؤلفه عميد الصحفيين الباكستانيين «أحمد رشيد»، وقد ظهر هذا الكتاب ونشر فى لندن لأول مرة سنة ٢٠٠٠، ثم أعيد نشره من جديد ثلاث طبعات سنة ٢٠٠١ (وأعرف أن هذا الكتاب كان أمام الرئيس الأمريكى جورج بوش ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير فى نفس الوقت من أواخر شهر سبتمبر الماضى).

٢ـ كتاب: «الحروب غير المقدسة: أفغانستان، أمريكا، والإرهاب الدولى»، ومؤلفه الصحفى الأمريكى المخضرم «جون كولى» الذى قام بتغطية منطقة الشرق الأوسط سنوات طويلة لكبرى وكالات الأنباء الأمريكية ABC، وقد نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٩٩، وأعيدت طباعته مرة ثانية سنة ٢٠٠٠، ومرة ثالثة سنة ٢٠٠١.

٣ـ كتاب: «غسيل الواقع» (وتلك هى الترجمة الأقرب إلى معنى العنوان الإنجليزى White Out)، والسطر الثانى من هذا العنوان هو: «وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والمخدرات والصحافة»، وقد اشترك فى تأليف الكتاب اثنان من نجوم التحقيق بالعمق، أولهما «ألكسندر كوكبيرن» وهو الآن محرر مجلة «ذى نيشن»، وكاتب مجموعة من أكثر الكتب رواجا. والثانى «جيفرى سان كلير» وهو صحفى مشهود له فى متابعة نشاط أجهزة المخابرات الدولية. وقد نشر الكتاب عام ١٩٩٨ فى لندن، وكانت هناك جهود مُلِحَّة نجحت فيما سعت له، ولم يطبع الكتاب فى نيويورك كما كان مقدرا. ■







للجهـــاد فى كـابول!

الـورقـــــة الأولــــــــــى:

التحالف ضد «الإلحاد» وأطرافه الأربعة!

■■ تتفق الكتب الثلاثة - وعشرات من المصادر غيرها - على مجموعة من الحقائق الأساسية - تتصل بإدارة الولايات المتحدة لحربها الباردة ضد الاتحاد السوفيتي (وهى الحرب التى بدأت أول الخمسينيات من القرن العشرين، واستراتيجيتها إطلاق الأفكار قبل إطلاق النار، وخطف العقائد والأديان واستخدامها ضد الخصم الشيوعى الأخطر) - وهذه المجموعة من الحقائق الأساسية تظهر فى مصادرها مترابطة ومتكاملة:

١- أن المخابرات المركزية الأمريكية متعاونة مع المخابرات العسكرية الباكستانية، سبقت إلى إدارة عمليات «حرب نفسية»، هدفها إثارة المشاعر المعادية للاتحاد السوفيتى داخل جمهورياته الجنوبية وفيها غالبية إسلامية، مستغلة فى ذلك فجوة أو جفوة طبيعية بين النظام السوفيتى «المادى» فى فلسفته، وبين الإسلام «الروحانى» فى مبادئه، وبالطبع فإن دافع المخابرات الأمريكية لم يكن «الحرص على الدعوة أو صدق الإيمان»، وإنما «إقلاق وإزعاج» الاتحاد السوفيتى فى أكثر المواقع إثارة للمواجع!

٢- أن استعمال أفغانستان قاعدة لإدارة وتوجيه عمليات إقلاق وإزعاج الاتحاد السوفيتى، بدأ على استحياء أوائل الخمسينيات، واشتد فى الستينيات، وبلغ الذروة أواخر السبعينيات - حين أصبح هدف مجلس الأمن القومى الأمريكى وعلى رأسه فى ذلك الوقت «زبجنيو برجينسكى» (مستشار الرئيس كارتر للأمن القومى) - استفزاز الاتحاد السوفيتى بتصعيد النشاط المعادى له فى أفغانستان من المستوى النفسى إلى المستوى العملى والوصول فى ذلك إلى درجة ترغمه - ولو كارها - على التدخل عسكريا فى أفغانستان، فإذا تحقق ذلك فهذه هى الفرصة لتحويل ذلك البلد إلى فيتنام سوفيتية تؤثر عليه بمقدار ما أثرت فيتنام الأمريكية على أصحابها!

٣- وكان تقدير «برجينسكى» - كما عرضه على الرئيس جيمى كارتر (وبالاعتماد على روايات كارتر وبرجينسكى قبل أى مصدر غيرهما) - أن الولايات المتحدة لا يصح لها أن تظهر علانية فى أفغانستان (عندما تتحول إلى فيتنام سوفيتية)، وإنما الأفضل أن تظل بعيدة بمسافة كافية، وأن تترك المعركة للمسلمين يخوضونها باسم «الجهاد الإسلامى» ضد «الإلحاد المادى». وأهم من ذلك يتكفلون بتمويلها لأن العبء أثقل مما تستطيع وكالة المخابرات المركزية أن تُحَمِّلَه على ميزانيتها، كما أنه أكبر مما يقبل به الكونجرس فى الموافقة على اعتمادات لعملية سرية تقدم إليه «مستقلة لوحدها»، زيادة على ذلك فإن الذهاب إلى «لجنة الأمن» (المتفرعة من لجنة الشئون الخارجية) لطلب الموافقة على مبالغ بهذا الحجم يؤدى إلى كشف العملية (لأن الكونجرس «مبنى من الفخار»، ما فيه يرشح خارجه)، وذلك يحرج السياسة الأمريكية، والإحراج فى مثل هذه الحالة خطر؛ لأنه قد يؤدى لتعقيدات دولية من الأفضل تجنبها!

وكان معنى ذلك فى تقدير «برجينسكى» (كما عرضه فى مذكرة للرئيس «جيمى كارتر»):

- أن الولايات المتحدة لابد لها من ترتيب يُمَكِّنها من «العمل على الأرض»، والصرف على العمل وإدارته تحت إشرافها، دون أن يظهر دليل يثبت عليها شيئا تتورط بسببه فيما لا ضرورة له!

- يتداعى من ذلك أن الولايات المتحدة وهى تخوض معركة استنزاف الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان بـ: «سلاح الجهاد»، عليها أن تجد «وكالة إسلامية» معتمدة تحمل المسئولية على الأرض - وتدفع تكاليف العمل - وتتلقى التوجيهات بشأن خططه وتوقيتاتها من الأجهزة الأمريكية المعنية.

ومع أن هذه المواصفات لما هو مطلوب أمريكيا فى أفغانستان بدت شبه المستحيل فى معادلاتها - فإن «برجينسكى» عرض تصورات رآها قادرة على شبه المستحيل!

- وقد كان فى حسابات «برجينسكى» أن «الوكالة الإسلامية الجهادية» المرغوب فيها والمطلوبة بمواصفاتها قائمة بالفعل وعاملة فى الواقع، وكل ما يلزمها الآن: إثارة همتها، وتطوير وسائلها، وتنشيط خططها وتركيز فعلها وتعبئته فى إطار «جهاد إسلامى» صريح ومُعلن ضد الاتحاد السوفيتى «الذى اعتدى على ديار الإسلام»!■

الـورقـــة الـثــــانيـــــة:

توزيع الأدوار في سيناريو «برجينسكي»

وتجمع الكتب الثلاثة التي يستند إليها هذا الحديث - على أن «برجينسكي» خطا بعد ذلك خطوة في عرض تصوراته على الرئيس «كارتر» وعلى مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض فتقدم باقتراح لتوزيع مسئوليات «الجهاد الإسلامي» المُبتغى في مرحلة جديدة على أدوار رئيسية ثلاثة:

● أولا: دور لـ: باكستان تصبح به «دولة الإسـلام الأنقى» قـاعـدة للـعـمليات في أفغانستان كما كانت باكستان في مرحلة سابقة قاعدة للعمليات عبر أفغانستان (جسرا إلى الجمهوريات السوفيتية الجنوبية).

وكان تقدير «برجينسكي» أن «إسلام آباد» مهيأة نفسيا وسياسيا لتطوير عملها في أفغانستان، فهناك مصالح قامت بالفعل وترسخت خلال المرحلة السابقة من العمل في الجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفيتي، وهناك دواع سياسية تغرى باكستان بقبول مسئوليتها في «العمل الجهادي» داخل أفغانستان إذا ضمنت تاييدا إسلاميا أوسع يلتف حولها. والجيش الباكستاني - وهو السلطة الأقوى في «دولة الإسلام الأنقى» - متحفز. وحتى إذا قامت في «إسلام آباد» حكومة مدنية ترى في قضية «الجهاد» رأيا آخر، فإن المخابرات العسكرية الباكستانية لا تعتبر نفسها ملزمة بطاعة ساسة «إسلام آباد» لأن رأيها فيهم بالغ السوء من كثرة ما تعرفه عن دخائلهم، وإذن فإن تعاون المخابرات العسكرية في باكستان على هذا الأساس مضمون، وذلك المطلوب الأهم.

● ثانيا: دور للمملكة العربية السعودية تصطف به المملكة وراء باكستان مباشرة وكان تقدير «برجينسكي» أن الرياض جاهزة بدليل أن المملكة ساعدت من قبل - ولا تزال تساعد - في عملية إحراج السوفييت عبر أفغانستان، فإذا أصبح الإحراج «جهادا إسلاميا» داخل أفغانستان ذاتها، فإن المملكة سوف تكون أكثر من مستعدة، خصوصا أن الرياض مهتمة بدور متميز في قيادة العالمين العربي والإسلامي: لأن غياب مصر - بعد صلحها مع إسرائيل - ترك الساحة العربية خالية - وبالتالي مهيأة لدور تستطيع المملكة أن تقوم به، فإذا جمعته إلى دورها القيادي في منظمة المؤتمر الإسلامي وزادت عليه وضعها داخل منظمة الدول المصدرة للبترول الأوبك - فقد أصبحت المملكة رسميا وفعليا دولة الرجاء والأمل - عربيا وإسلاميا. فإذا أضافت الرياض إلى هذه القائمة دعوة جهاد مقدس ضد الإلحاد، فإن ذلك يوفر لها ظروفا مثالية؛ لأنه يعطيها القيادة العربية الإسلامية دون أن يفرض عليها بالضرورة أن تتحمل بمسئولية المواجهة مع إسرائيل، وهي مسئولية تخشاها وتحاذر يوما أن تجد نفسها وجها لوجه أمامها. وفي ظروف عادية فقد كان شبه مؤكد - إذا أصبحت المملكة هي القيادة المعترف بها في العالم العربي والإسلامي - أنه سوف يقع استدعاؤها بهذه الصفة إلى فلسطين، لكنها حين تستبق استدعاء فلسطين بدعوة إلى أفغانستان جهادا من أجل الإسلام - فإنها بذلك تضع نفسها في موقف إسلامي يصعب على أحد أن يطلب منها زيادة عليه.

وكذلك كان تقدير برجينسكي، أن السعودية سوف تتحمس.

● وثالثا: دور لمصر على أساس أن الرئيس «أنور السادات» يمكن إقناعه - أن «يتعاون» حتى يقوى عزيمة باكستان (المنقسمة على نفسها)، ويطمئن وساوس السعودية (وهي حاضرة كل وقت)، وكان ظن «برجينسكي» أن الرئيس السادات تواق إلى إرضاء الولايات المتحدة التي تملك في حساباته المُعْلنة ٩٩٪ من أوراق حل قضية الشرق الأوسط، وهو بمشاعره كاره للسوفييت ومنغمس بالفعل في نشاط معاد لهم في أفريقيا ضمن التنظيم الذي اقترحه الكونت «ألكسندر دي ميرانش» الرئيس الأسطوري للمخابرات الفرنسية وأُطلِقَ عليه وصف «نادي السفاري» (وذلك التنظيم يضم كلا من السعودية وإيران والمغرب ومصر) ويقوم بالفعل بنشاط معاد للسوفييت في القرن الأفريقي - (وأيضا في غرب أفريقيا - أنجولا والكونجو).

والراجح - وذلك تقدير «برجينسكي» - أن السياسة المصرية النشيطة ضد السوفييت في أفريقيا لن تجد مانعا من تحويل نشاطها أو جزءً منه إلى أفغانستان، خصوصا أن الرئيس السادات بذلك يسابق الثورة الإسلامية في إيران وهو لا يغفر لها أنها أسْقطَت حكم صديقه الشاه «محمد رضا بهلوي» (وفقا لما يقوله ويعلنه)!



وطبقا لكتاب «الحروب غير المقدسة» (صفحة ٣١)، فإن «زبجنيو برجينسكي» مستشار الرئيس الأمريكي «جيمي كارتر» لشئون الأمن القومي كان جالسا أمام الرئيس السادات يوم ٣ يناير ١٩٨٠، ينقل له رسالة من «جيمي كارتر» تدعو «مصر الإسلامية» أن تقوم بدور في «جهاد إسلامي» ضد الإلحاد السوفيتي الذي غزا بجيوشه بلدا إسلاميا.

وطبقا لتعبير «برجينسكي» فإن الدعوة التي حملها للرئيس المصري طلبت إليه أن «يدخل في الفريق الجهادي الإسلامي في أفغانستان (Join The Team)»، وكانت الحجج التي عرضها لإقناع الرئيس السادات:

١- «أن مصر بمكانتها الخاصة في العالم الإسلامي مؤهلة لدور في الدفاع عن العقيدة الإسلامية»!

٢- «أنه لا يصح ترك «شعارات الإسلام العظيمة» يحتكرها «آية الله الخميني» لنفسه أو للإسلام الشيعي»!

٣- «أن دخول مصر في هذا «العمل الجهادي» يعطي الرئيس السادات نفوذا أوسع في المنطقة إزاء أطراف عربية تعارض سياسته في السلام مع إسرائيل، ومنها سوريا والعراق وليبيا».

٤- «أن قيام الرئيس السادات بدور في «الجهاد الإسلامي» يرد بشدة على أولئك الذين يتهمونه «بالتفريط» في فلسطين، ويهيئ له قاعدة إسلامية أوسع من «الحيز المحدود» لدول الجامعة العربية».

٥- «أن مصر تملك مؤهلات تيسر لها العمل في أفغانستان بينها أنها بلد الأزهر الذي يقبل المسلمون مرجعيته، كما أنها موطن جماعة الإخوان المسلمين التي تأثرت بها أو تفرعت منها جماعات إسلامية عاملة في باكستان وأفغانستان، والرئيس السادات كرئيس لمصر يملك سلطانا على الأزهر، وكسياسي فهو يحتفظ بعلاقات طيبة مع بعض زعماء الإخوان، وبرغم حساسيات (يعرف بها برجينسكي)، فإن ميدان الجهاد الإسلامي يستطيع جمع السلطة المصرية، والأزهر، والإخوان المسلمين على عمل مشترك يواجه شرور الإلحاد من ناحية، ومن ناحية أخرى تذوب به حساسيات - مع الإسلام السياسي - مترسبة من ظروف سابقة أو تلين معه مفاصل في العلاقات بين الطرفين متصلبة - في الوقت الراهن»!

٦- «أن مصر لن تتكلف شيئا لأن الولايات المتحدة سوف تنشئ صندوقا خاصا للجهاد في أفغانستان تشارك بنفسها في تمويله وتدعو للمشاركة عددا من دول الخليج، أولها المملكة العربية السعودية. وهو يحمل رسالة حول هذا الموضوع من الرئيس «كارتر» إلى الملك والأمراء في السعودية، وهو (برجينسكي) على ثقة بأن المملكة سوف تستجيب سياسيا وماليا»!

٧- «أن مصر تستطيع أن تستفيد «بأكثر من أجر الجهاد وثوابه»؛ لأن الجهاد في أفغانستان يضمن عقودا سخية للصناعات العسكرية المصرية؛ لأن ذلك الجهاد - بالذات! - يلزمه سلاح سوفيتي الصنع والنوع».

(وكان «برجينسكي» يقصد بذلك إغراء الرئيس «السادات» بأن «الجهاد الإسلامي» سوف يحتاج أن يشترى من مصر أسلحة سوفيتية الصنع لم تعد تريدها، أو أسلحة سوفيتية النوع - قامت بتصنيعها في منشآتها (الصناعات الحربية)، ولا تجد





كان تقدير «برجينسكي» - أن السياسة المصرية النشيطة ضد السوفييت في أفريقيا لن تجد مانعا من تحويل نشاطها أو جزء منه إلى أفغانستان، خصوصا أن الرئيس السادات بذلك يسابق الثورة الإسلامية في إيران وهو لا يغفر لها أنها أسقطت حكم صديقه الشاه «محمد رضا بهلوي»



مشتريا لها، لأن المنطقة تشهد تحولا ظاهرا إلى الأسلحة الأمريكية!)

٨ـ وكان الختام في حجج «برجينسكي» كالمعتاد «أن مشاركة مصر في «الجهاد الإسلامي» ضد الاتحاد السوفيتي في أفغانستان تساعد الرئيس «كارتر» على مواجهة أصدقاء إسرائيل في الكونجرس ـ لأنها ترد على دعايات يقوم بها «مناحم بيجن» (رئيس وزراء إسرائيل وقتها) تزعم «أن مصر ليست صديقا للولايات المتحدة إلا بمقدار ما تريد منها أن تضغط على إسرائيل» وتلك حجة سوف تبطل عندما يظهر أن مصر على رأس التصدي الإسلامي للسوفييت في أفغانستان».

وتجمع الكتب الثلاثة (وغيرها من المصادر وضمنها مذكرات برجينسكي نفسه) أن «برجينسكي» خرج من مصر متوجها إلى السعودية وقد وجد نفسه رسولا مكلفا من الرئيس «السادات» (أيضا)، إلى جانب تكليفه من الرئيس «كارتر»، لأن الرئيس المصري خوله إبلاغ الملك وولي العهد ووزير الدفاع في السعودية عندما يلقاهم أن ينقل إليهم رسالة إضافية منه مؤداها أنه «جاهز ومستعد للعمل، والتعاون معهم (اليوم قبل غد) في عمل جهادي ضد الإلحاد!

....

....

[ومن مفارقات السياسة المصرية أن أحد الرجال الظاهرين في صفوف ثوار ٢٣ يوليو وهو السيد «مجدي حسنين» الذي أشرف على أول مشروع كبير لاستصلاح أراضي الصحراء في مصر باسم مديرية التحرير ـ وقد أصبح بعد ذلك سفيرا في تشيكوسلوفاكيا ـ بعث إلى «جمال عبد الناصر» مذكرة شهيرة حول الفوائد المحتملة «للإلحاد في العالم الشيوعي»!

وكان رأي «مجدي حسنين» في مذكرة بخط يده إلى «جمال عبد الناصر»: «أن وجود الاتحاد السوفيتي (وبقية حلفائه) بغير دين ـ أي ملحدين ـ باب مفتوح لدعوة تقنعهم بالإسلام، باعتبار أن وجودهم بلا دين يجعلهم أكثر تقبلا من آخرين لهم دين ورثوه ويتمسكون به. وكانت رؤية «مجدي حسنين» أن «الإلحاد الشيوعي» «منطقة محايدة» إيمانيا، وبالتالي فإن الدعوة للإسلام فيها ممكنة.

وفي ختام مذكرته، قال «مجدي حسنين»: «تصور يا سيادة الرئيس لو أن الاتحاد السوفيتي والصين وشعوب الكتلة الشرقية دخلت الإسلام ـ وقتها لن تصبح إسرائيل مشكلة ولا حتى أمريكا وبريطانيا»!

وقد قرأ «جمال عبد الناصر» هذه المذكرة، ثم كتب على هامشها بخط يده تأشيرة موجهة إلى المشير «عبد الحكيم عامر» نصها بالحرف:

«حكيم

اتصل بمجدي واطلب منه أن يكف عن هذه الخزعبلات»!

جمال

وفي الحقيقة فإن هؤلاء الذين وجدوا في «الإلحاد» فرصة سانحة لدعوة الإسلام في منطقة محايدة إيمانيا ـ لم يكونوا أكثر شططا من الذين وجدوا في الإلحاد فرصة سانحة للجهاد باسم الإسلام بمقتضى فتوى من «زبجنيو برجينسكي»!]

....

....

الورقة الثالثة:

توزيع الاختصاصات على أطراف التحالف

يوم ٥ يناير ١٩٨٠ كان «زبجنيو برجينسكي» في السعودية، ومع أن الملك «خالد» كان لا يزال رسميا على العرش، إلا أن السلطة انتقلت منه إلى ولي العهد الأمير «فهد» (الذي كان حريصا أن يكون انتقال السلطة الفعلي إليه محسوسا على المستوى الرسمي أيضا، ولعله من هنا كان يتعمد في كل الاحتفالات والاجتماعات العامة التي يحضرها مع الملك أن يكون وصوله لاحقا لوصول الآخرين، وحتى يقوم الجميع وفيهم الملك ليصافحوا ولي العهد بما يؤكد أنه الرجل القوي في النظام فعليا)!

والذي حدث (وهو المتوقع) أن الملك «خالد» أحال ضيفه إلى أخيه الأمير «فهد»، وقد أبدى الملك لبرجينسكي قبوله للمبدأ: من منطق أن العمل الإسلامي ضد الاتحاد السوفيتي ـ ومن أفغانستان ـ كان موضع اتفاق سابق معتمد من الملك فيصل. والآن وقد تحول الأمر إلى جهاد مقدس في أفغانستان ذاتها فإن تعاون المملكة طبيعي ومؤكد.



وأما التفاصيل المستجدة فهي «عند ولي العهد».

وأبدى الأمير «فهد» رضاه عندما سمع من «برجينسكي» أن الرئيس «السادات» تعهد بوضع الثقل المصري بكامله وراء السعودية في «ساحة الجهاد»، على أن ولي العهد لم يكن يريد قصر دور المملكة على تقديم المال فقط، وإنما كان يريد لها دورا أكبر في الجهاد. وكان رأيه ـ وأيّده فيه بعض إخوته وبالذات الأمير «سلطان» ـ أن إدارة الجهاد ينبغي أن تكون للمملكة، وقيادته من فوق أرضها، وبعد ذلك تكون ترتيبات التنفيذ كما هو «مناسب»!

وفي الترتيب العملي فإن ذلك اقتضى الاتفاق على خطوط سياسية عريضة:

١ـ التمويل مشترك وبالتساوي بين الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة العربية السعودية عن طريق صندوق دوار، يتأسس في «جنيف» بمبلغ قدره ألف مليون دولار تتجدد تلقائيا بمقدار ما يصرف منه.

٢ـ والجهات المكلفة بالإشراف على التنفيذ من الجانب الأمريكي ـ وكالة المخابرات المركزية ـ (وفيها الأميرال ستانسفيلد تيرنر في ذلك الوقت)، ومن الجانب السعودي: هيئة المخابرات العامة (وفيها الأمير «تركي بن فيصل» الذي جاء إلى هذا المنصب خلفا لخاله السيد «كمال أدهم» مؤسس الهيئة).

٣ـ التوجيهات والاتصالات السياسية مع قيادات الجهاد الإسلامي من اختصاص المملكة تجنبا للحرج، مع العلم بأن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لها مكتب معروف في «بيشاور». ومع أن الجيل الأول من الزعماء الأفغان الكبار مثل رباني ـ حكمتيار ـ مسعود، (على اختلاف ما بينهم) تعاملوا من البداية مع وكالة المخابرات المركزية ـ حينما كان نشاطهم داخل الجمهوريات الإسلامية للاتحاد السوفيتي ـ فإنهم الآن والميدان على أرض بلادهم ـ يفضلون أن يكون التعامل مع السعودية «لتكون الوسائط إسلامية»!

(ومن غرائب ما حدث باسم الإسلام في تلك الفترة ـ على حد رواية عميد الصحفيين الباكستانيين ـ أن زعماء القبائل والمليشيات الأفغانية الذين جرى اعتمادهم قادة للجهاد، وقع تنصيبهم «للحرب المقدسة» بإجراءات اقترحها أحد «الخبراء» (من مستشرقي وكالة المخابرات المركزية على الأرجح)، وكانت مراسم هذه الإجراءات تقضي بأن يُفتح باب الكعبة للقائد المرشح، ثم يدخل الرجل منه إلى قدس الأقداس، فيؤدي الصلاة أمام كل جدار من جدران الكعبة، باعتبار أن كل ناحية من داخل الكعبة «قِبْلة»، ثم يخرج الرجل وقد وقع ترسيمه «أميرًا» للجهاد ضد الإلحاد!).

٤ـ تختص مصر بتوريد الأسلحة والمعدات والذخائر مما لديها (من أسلحة سوفيتية: سوفيتية الصنع وسوفيتية النوع)، وعليها أيضا أن توفر للجهاد الإسلامي دعما دينيا وسياسيا وإعلاميا، وفي إطار ذلك المطلب فإن بعضا من أهم المؤسسات الدينية في مصر

صدرت لها التعليمات بأن تتقدم باجتهادات وفتاوى تؤيد وتزكى أسبقية الجهاد ضد الإلحاد. كما أن بعض وسائل الإعلام الشهيرة فتحت أبوابا ثابتة تدعو للجهاد فى أفغانستان وتجمع الأموال له.



وفى تلك الأوقات كان التقدير المشترك للطرفين الأمريكي والسعودى أن دخول مصر «بثقلها» إلى ساحة «الجهاد الإسلامى» فى أفغانستان سوف يشجع عناصر قومية وإسلامية شديدة الإخلاص لمعتقداتها على أن تهرع إلى الساحة. وبحيث يظهر فعلا أن هناك أهدافا عربية وإسلامية تستحق العزم والبذل، وأن العمل فى سبيلها ثواب يُسعى إليه تقربا وزلفى!

ويروى «جون كولى» فى كتابه: «حروب غير مقدسة» (الفصل الثانى من صفحة ٢٩ إلى صفحة ٤٣ وعنوان الفصل كله: أنور السادات) - أن الرئيس «السادات» كلف نائب الرئيس «حسنى مبارك» وهو المسئول وقتها عن أجهزة الأمن الداخلى والخارجى، بالإشراف على المجهود المصرى فى «الجهاد الأفغانى». (لكن «مبارك» لم يلبث إلا شهورا حتى ترك المهمة وأحالها إلى المشير «عبد الحليم أبو غزالة»، وبدوره أحالها المشير أبو غزالة إلى غيره).

ثم يعود «جون كولى» ليقول (ص٣٢)، أنه بعد أيام من لقاء الرئيس «السادات» مع «زبجنيو برجينسكى» فى يناير ١٩٨٠ - أعطى الرئيس المصرى إذنا باستعمال مطار «قنا العسكرى» قاعدة للتخزين والتشوين لخدمة «العمل الجهادى» فى أفغانستان، وكانت طائرات الشحن الأمريكية العملاقة تهبط فى هذا المطار كل مساء ويجرى تحميلها بالأسلحة والذخائر لكى تطير قبل منتصف الليل، وتهبط قبل الفجر فى المطارات العسكرية الباكستانية. وفى بعض المرات كان هناك «أفراد» مصريون يصحبون هذه الشحنات لإتمام إجراءات التسليم والتسلم، كما أن ميناء «بورسعيد» تحول إلى قاعدة خلفية للتخزين والشحن إلى «كاراتشى».

وكانت الشحنات من مصر بالدرجة الأولى أسلحة وذخائر ومعدات سوفيتية الصنع أو سوفيتية النوع ويقول «جون كولى»:

«إن المخازن العسكرية المصرية كلها أفرغت ما كان فيها من أسلحة، بعضها مما كان مستخدما فى الجيش المصرى وجرى الاستغناء عنه، وبعضها ما أنتجته المصانع العسكرية المصرية وفيها مصنع فى حلوان وهو الذى جرى تعديل بعض آلاته لكى ينتج رشاشات سوفيتية التصميم».

وابتداءً من ربيع ١٩٨٠ وبعده فصولا متوالية إثر فصول: كانت الحركة على الجسر الجوى بين مطار «قنا» العسكرى وبين مطار «بيشاور العسكرى» - وبين بورسعيد وكاراتشى - فيضا يتدفق ليلا ونهارا ودون توقف!

....

....

[وفيما يظهر فى عدد من الروايات فإن بعض حماسة الإدارة المصرية فى شحن الأسلحة إلى الجهاد الأفغانى، كان دافعها الرغبة فى التخلص من السلاح السوفيتى: لأن تغير الأحوال قضى أن يكون تسليح الجيش المصرى أمريكيا يعتمد على مساعدة عسكرية أمريكية ملحقة باتفاقية كامب دافيد، وبمقتضاها يجرى تخصيص مبلغ ١,١ بليون دولار سنويا لمشتريات سلاح أمريكى يُتفق عليه].

....

....

ومن المفارقات أن السلاح الأمريكى الوحيد الذى وصل إلى أيدى المجاهدين فى أفغانستان هو الصاروخ المتقدم ضد الطائرات من طراز «ستنجر»، وقد «باعت» منه وزارة الدفاع الأمريكية إلى صندوق الجهاد الإسلامى فى أفغانستان ٩٠٠ صاروخ - ثم راجت شائعات بأن مجموعة من هذه الصواريخ وقعت فى يد إيران أو على الأقل معروضة عليها للبيع. وسارعت وكالة المخابرات المركزية تشترى من قادة الجهاد ما وصل إلى أيدى رجالهم من صواريخ «ستنجر»، وكانت الوكالة الآن تطلب استعادة كل صاروخ منها بما يوازى خمس مرات سعر بيعه الأصلى. وتمكنت الوكالة من استعادة ٢٦٠ صاروخا، وما بقى منها فى ساحة الجهاد بعد ذلك جرى اعتباره مفقودا مع تعهدات من القادة بأنه إذا ظهر من هذه الصواريخ شىء، فالاستعداد لشرائها - وبالسعر الأعلى - مازال قائما. والظاهر أن إيران كانت قد حصلت بالفعل على بضع عشرات من صواريخ «ستنجر»، والراجح فى «أسواق السلاح» أنها قامت بتصنيع نموذج إيرانى له، دخل إلى الخدمة العاملة فى قوات الحرس الثورى!

وفى أول أبريل ١٩٨٠ أعلن الرئيس «السادات» فى حديث صحفى نشرته وسائل الإعلام فى مصر ما يمكن اعتباره «قرارا رسميا بالتدخل فى أفغانستان» وكان نص ما قاله الرئيس «السادات» فى ذلك الصدد:

«إننا على استعداد بأسرع ما يمكن لكى نساعد فى أفغانستان وأن نتدخل لنصرة إخواننا المجاهدين هناك سواء طلبوا منا المساعدة أو لم يطلبوها».

وحين سُئِلَ متحدث رسمى من إدارة الاستعلامات المصرية عن تصريح الرئيس «السادات»، وهل تتضمن مساعدته لمجاهدى أفغانستان شحنات أسلحة؟ كان رده «بالإيجاب». ثم أضاف: «أن ما سوف نعطيه لإخواننا من الأسلحة هو بعض ما كان عندنا ولم نعد فى حاجة إليه وذلك أبسط واجب نؤديه نحو إخواننا فى الإسلام».

....

....

[وقد أدى «هذا الواجب البسيط نحو إخواننا فى الإسلام» - إلى خلط شديد لحق بالخطاب الإسلامى فى مصر ولم يُحسن إليه ولا صان مكانته.

والشاهد أن الإسلام عرف دائما أربعة ألوان من الخطاب الدينى:

- خطاب تقليدى (يمثله الأزهر ودار الإفتاء).

- وخطاب تجديدى (حمل لواءه مجتهدون كبار ابتداءً من الإمام «محمد عبده» إلى العلاَّمة «حسين فضل الله»).

- وخطاب شعبى (تمثل مرات فى نشاط الطرق الصوفية ومرات فى جماعات مثل الإخوان المسلمين، خصوصا فى سنوات نشأتها الأولى).

- وخطاب وطنى (نموذجه الأصدق نضال «حزب الله» بقيادة السيد حسن نصر الله لتحرير جنوب لبنان من الاحتلال الإسرائيلى).

وفى الظروف المستجدة - مع الجهاد ضد الاتحاد السوفيتى - فقد امتلأت الساحة بأنواع طارئة من الخطاب الإسلامى، فيها:

- الخطاب الدعائى: يُحَرِّضُ على القتال فى أفغانستان غافلا أو عارفا -!- أنه (تحت توجيه وإشراف قيادة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية).

- والخطاب الفضائى: وقد طلع على الناس حين تحولت الفتوى إلى صورة ولون وأداء، استغنت جميعها عن الاجتهاد الحق ومقتضياته وأولها الرسوخ فى العلم!

- والخطاب «المُرائى»: وذلك نوع طارئ من الخطاب الدينى يتحرك سياسيا بتوجيه غامض ويحمل فى ظاهره وفى باطنه ما يريب، لأن هدفه كما يتضح من حركته تصفية ما تبقى من الصراع العربى الإسرائيلى نفسيا ومعنويا بمقولات من نوع «حوار الأديان» و«مجمع الأديان» والدم المشترك بين «أبناء العم» من نسل إبراهيم - وغير ذلك من مقولات، وكان هذا «الخطاب المُرائى» هو الذى أوقع الخطاب الإسلامى التقليدى فى ورطة الخوض فى مزالق أساءت إلى دوره التاريخى وإلى وزنه العلمى وإلى قيمة مرجعيته!]

....

....

ثم كان الأغرب «فى أبسط واجب نؤديه لإخواننا فى الإسلام» ما سجله «جون كولى» فى (صفحة ٣٢) وهو أن إسرائيل عرضت على وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كمية من السلاح السوفيتى، قالت إنها استولت عليه أثناء حروبها مع الجيوش العربية، وقبضت إسرائيل ثمن هذه الأسلحة من الصندوق المشترك لدعم الجهاد الإسلامى فى أفغانستان)! ■

الخطاب «المرائى» نوع طارئ من الخطاب الدينى يتحرك سياسيا بتوجيه غامض، وهدفه كما يتضح من حركته تصفية ما تبقى من الصراع العربى الإسرائيلى نفسيا ومعنويا بمقولات من نوع «حوار الأديان» و«مجمع الأديان» والدم المشترك بين «أبناء العم» من نسل إبراهيم - وغير ذلك من مقولات



الـورقـــــة الـرابـعــــــة:

كـيف دفـعت أمـريكا حـصـتـهـا فـى صـنـدوق الجــــهـــاد؟

وفى السنة الباقيـة من إدارة الرئيس «كارتر» وهى آخر إقامته فى البيت الأبيض بعد أن خسر الانتخابات أمام «رونالد ريجان» فى نوفمبر عام ١٩٨٠، لم تدفع المخابرات الأمريكية حصتها بالكامل فى الصندوق المشترك مع السعودية لدعم الجهاد الأفغانى، بل كان ما دفعته أقل من نصف ما تعهدت به، مع أنها هى التى اقترحت حجم الصندوق شراكة متساوية مع المملكة العربية السعودية. وأما «الرياض» فقد دفعت نصيبها وزيادة، سواء فى مبالغ جرى إنفاقها داخل المملكة وبينها الصرف على زعماء سياسيين أفغان زاروها لبحث «أمور الجهاد»، أو طلبوا مساعدات عاجلة يصعب عليهم انتظار صندوق جنيف عندما يقررها. وكانت السعودية بالإضافة إلى ذلك قد أنشأت ما أُسمِى بـ: «مكتب الخدمات العامة» بحيث يكون ـ وليس المخابرات ـ واجهة الترتيب والتنظيم والمتابعة. وكانت مهمة هذا المكتب أن ينظم الدعوة ويستقبل المتطوعين ويرتب إقامتهم فى السعودية، حتى تتم إجراءات إلحاقهم بصفوف المجاهدين، وأهم هذه الإجراءات، سحب جوازات سفرهم الأصلية وتزويدهم «ببطاقات خدمة» معها تصريحات «مرور خاصة» تمكنهم من السفر إلى باكستان والوصول إلى «بيشاور»، حيث يتولاهم هناك فرع أمامى «لمكتب الخدمات العامة» مهمته توزيعهم على «مواقع الجهاد» التى تكون قيادتها فى حاجة إليهم.

وقبل نهاية السنة الأولى فى تاريخ الجهاد الأفغانى وهى سنة ١٩٨٠، كان مكتب الخدمات العامة فى السعودية وفرعه المتقدم فى «بيشاور» قد نشطا تحت قيادة الشيخ «عبد الله عزام» وهو أستاذ أردنى من أصل فلسطينى، كان عضوا فى «حزِب التحرير الإسلامى» الذى تعاون فى الخمسينيات مع حلف بغداد.

ومع نهاية هذه السنة كان الرئيس «كارتر» ومستشاره للأمن القومى قد غادرا البيت الأبيض.



وعندما انتخب «رونالد ريجان» (نوفمبر ١٩٨٠) لرئاسة الولايات المتحدة، وفتحت أمامه مسألة الجهاد الإسلامى فى أفغانستان ـ حتى قبل دخوله إلى البيت الأبيض ـ جاءته ملفاتها ومعها مطالبات من المخابرات الأمريكية تلح فى السماح لها باعتمادات إضافية تسدد تعهدات واشنطن فى الصندوق المشترك مع الرياض ـ وقد تحمس «رونالد ريجان» للعملية بعد أن أقنعه مستشاروه، وفى مقدمتهم صديقه الأعز «ويليام كايسى» (الذى اختاره لرئاسة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية) ـ بأهمية اصطياد الجيش السوفيتى فى أفغانستان باعتبارها «الأكبر» بين كل عمليات الحرب الباردة (وكان ذلك صحيحا).

ومعنى ذلك أن «رونالد ريجان» ومن قبل أن يتولى مقاليد السلطة ويفكر فى خطوط أول ميزانية لإدارته ـ كان عليه أن يوفر مبالغ طائلة للجهاد الأفغانى تسدد الحصة الأمريكية عن السنة الأولى فى الصندوق المشترك مع السعودية، وتعتمد المقرر للسنة الثانية وتدفعه، وتزيد فوقه ما يتناسب مع المستوى الذى بلغته العملية واحتمالاتها غير المحدودة.

ويروى كتاب «الحرب غير المقدسة» أنه فى أوائل شهر ديسمبر التقى الرئيس المنتخب «رونالد ريجان» فى لوس أنجلوس بنائب مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى ذلك الوقت: الجنرال «فيرنون والترز» وهو جندى من تحت السلاح بدأ حياته فى المخابرات العسكرية أيام الحرب العالمية الثانية، ثم برز فى العمل السرى فى أوربا بطريقة لافتة للأنظار حملته إلى أرقى المناصب فى مؤسسات الأمن وأوصلته نائبا لمدير المخابرات المركزية.

وفى هذا الاجتماع فى لوس أنجلوس ـ أوائل شهر ديسمبر ١٩٨٠ ـ كان «فيرنون والترز» يريد أن يشرح للرئيس المنتخب ـ وفى حضور عدد من أقطاب إدارته وبينهم «ويليام كايسى» المرشح مديرا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية (وهو صديق قديم لوالترز) ـ كافة الاحتمالات الواعدة للجهاد الأفغانى ـ وكذلك مشكلاته!

وأهمها حسب ما طرحه الجنرال والترز:

● أن تكاليف العملية تتزايد على نحو متصاعد بسبب النجاح وليس بسبب الفشل.

● أن الوكالة لا تقدر من ميزانيتها العادية أن تفى بالنصيب الأمريكي فى الصندوق المشترك مع السعودية لأن ميزانيتها لا تحتمل!

● أن الوكالة أمامها مشروعات مهمة فى تضييق الخناق على الاتحاد السوفيتى فى أوربا الشرقية، وبحيث يتم حصر الاتحاد السوفيتى بين غرب آسيا وشرق أوربا فى الوقت نفسه ـ وبالذات من بولندا مع مجىء «بابا» جديد لروما (جون بول الثانى) من مواطنى ذلك البلد الذى تتحرك فيه الآن منظمة علنية معادية للشيوعية تحت اسم التضامن يتزعمها (ليخ فاليسا) رئيس نقابات عمال بناء السفن فى جدانسك ـ ومعنى أن تتكفل الوكالة بتدبير ما هو لازم لأفغانستان ـ من ميزانيتها الحالية ـ أن يسقط مشروع بولندا على الأرض كطائرة تعطلت محركاتها ووقعت أجنحتها!

وبدا أن الرئيس ريجان حائر إزاء ما طُرِحَ عليه؛ لأن أهم بند فى حملته الانتخابية كان التوقف عن التمويل بالعجز، وترحيل ذلك العجز سنة بعد سنة إلى الدين العام، وعليه فهو مُطَالَب أن يضغط الإنفاق ولا يزيد منه، لكنه فى الوقت نفسه على حد قوله: «وقع فى غرام عملية أفغانستان»، لأنها بدت له ـ وهو «العدو الشرس» للشيوعية، حيث تكون ـ نموذجا مثاليا لسفح دم السوفييت، جزاء ما تسببوا فيه «من سفح دم أمريكى غزير فى فيتنام»!

ولعل أهم ما تجمع عليه المصادر مما حدث فى ذلك الوقت (وكله ظاهر فى الكتب الثلاثة التي يستند إليها هذا الحديث) هو الطريقة التى تمكنت بها إدارة الرئيس ريجان عندما تولت السلطة من تدبير الاعتمادات اللازمة «للجهاد فى أفغانستان» دون أن يتكلف دافع الضرائب الأمريكى بسنت واحد!



ويركز كتاب «الحروب غير المقدسة» بالتحديد (واستنادا إلى وثائق اطلع عليها مؤلفه إلى جانب شهادات سجلها ـ ومنها أقوال خمسة من رؤساء أجهزة المخابرات الأمريكية والأوربية ـ إلى جانب تقارير سرية عرضت على لجنة المخابرات فى مجلس الشيوخ الأمريكى لثمانى سنوات متعاقبة) ـ على رواية تفاصيل وافية عن الطريقة التى تمكنت بها إدارة ريجان من دفع نصيبها فى صندوق «الجهاد الأفغانى».

وابتداءً من صفحة ١٢٨ من كتاب «الحروب غير المقدسة» تتدفق تفاصيل هذه الطريقة (وهى مزعجة) ـ على النحو التالى:

بعد حفل تنصيب «رونالد ريجان» بثلاثة أيام، استقبل رئيس الولايات المتحدة فى مكتبه البيضاوى شخصية أُحيطَ وصولها إلى البيت الأبيض بجو من السرية شديد، زاد منه أن اجتماع «ريجان» بهذه الشخصية حضره الجنرال «فيرنون والترز» الذى عُيِّن مستشارا لرئيس الولايات المتحدة للمهام الخاصة التى يشرف عليها مجلس الأمن القومى. كذلك حضره وزير الدفاع الجديد «كاسبر واينبرجر»، والجنرال «روبرت ماكفرلين» مساعد مستشار الأمن القومى للرئيس، الذى كان عليه أن يسجل وقائع الاجتماع لمكتب الرئيس فى «محضر مختوم» لا يُفَضْ قبل خمسين سنة!

وكان الزائر هو رئيس المخابرات الفرنسية الخارجية (SDECE) ذائع الصيت الكونت «ألكسندر دى ميرانش» وهو صديق وثيق الصلة بـ «كايسى» وبـ «والترز» من تعاون ورفقة عمليات سابقة.

(أشار «دي ميرانش» فيما بعد إلى ذلك اللقاء مع «ريجان» فى حديث صحفى نشرته مجلة تايم فى عددها بتاريخ ١٣ يونية ١٩٩٢).

وطبقا لجون كولى و(لمحرر مجلة «تايم») فإن «دى ميرانش» عرف من صديقيه (كايسى ـ ووالترز) أن الرئيس الأمريكى مشغول بتوفير نصيب أمريكا فى الجهاد الأفغانى. وكان لديه الحل ـ ثم إن لديه الفرصة الآن ليعرضه على «ريجان» بنفسه، وقد دخل فى الموضوع مباشرة قائلا:

«السيد الرئيس Mr President. هل أستطيع أن أسأل ما الذى تفعلونه بالمضبوطات التى تصادرها الوكالة المختصة بتنفيذ قانون مكافحة الإدمان DEA أو مكتب التحقيقات الفيدرالىFBI أو هيئة الجمارك FCA؟!

وقال الرئيس «ريجان»: «إنه لا يعرف ـ لكنه يفترض أن هذه المضبوطات يجرى حرقها تحت رقابة مشددة». وقاطعه «دى ميرانش»: «هذه غلطة يا سيادة الرئيس»!

واستطرد «دى ميرانش» يقول لرئيس الولايات المتحدة ـ (وفى مكتبه البيضاوى داخل البيت الأبيض) ـ «إننى أفهم أن تصادروا هذه الشحنات من المخدرات ولكنى لا أفهم لماذا تحرقونها». واقتراحى ـ سيادة الرئيس ـ أن تعملوا على توصيل جزء منها إلى معسكرات الجيش السوفيتى فى أفغانستان لنشر الإدمان فى صفوف رجاله؛ لأن ذلك يتكفل بإنهاك القوى القتالية لجنوده. أضاف الكونت «دى ميرانش»، و«ريجان» يسمع مأخوذا: أليس ذلك ـ سيادة الرئيس ـ ما فعله «الفيت كونج» (المقاومة الوطنية) فى فيتنام؟ وأليس ذلك ـ سيادة الرئيس ـ ما أدى إلى هبوط معنويات الجنود الأمريكيين فى تلك الحرب»؟

(أقر «دي ميرانش» بهذه النصيحة فعلا وتحمل مسئوليتها فى مذكراته التى نشرها (ديسمبر ١٩٩٢) بعنوان Perception et» « Action رؤى وأفعال ـ لكن «دى ميرانش» لم يشر فى كتابه إلى بقية النصيحة).

كانت بقية نصيحة «دى ميرانش» تدعو (سيادة الرئيس) إلى تخصيص باقى مضبوطات المخدرات ـ بعدما يجرى تسريبه إلى معسكرات الجيش السوفيتى فى أفغانستان ـ بحيث يجد طريقه إلى الأسواق (العالمية) ويُعاد بيعه عن طريق «شبكات أهلية»، ويكون من عائده فائضا يدفع نصيب الولايات المتحدة فى «الجهاد الأفغانى».

ويسجل كتاب «حروب غير مقدسة» (صفحة ١٢٩)، أن الرئيس ريجان أطرق مفكرا بضع ثوان ثم رفع رأسه قائلا: «هذه فكرة عظيمة A Great Idea»، ثم التفت إلى معاونيه المشاركين فى اجتماعه مع مدير المخابرات الخارجية الفرنسية وقال: «إن أحدا لم يقترح علىَّ فكرة على هذا المستوى من قبل»! ورفع الرئيس «ريجان» سماعة التليفون وطلب توصيله بـ «ويليام كايسى» (الذى لم تمكنه مهمة عاجلة من حضور اجتماع البيت الأبيض)، وقال له: «أريدك أن تقابل صديقنا الفرنسى؛ لأن لديه اقتراحات أراها بديعة وأريدك أن تسمعها منه».

وكان «كايسى» قد سمعها من صاحبها قبلا، ولعله لم يحرص على حضور الاجتماع فى البيت الأبيض حتى لا يشارك فى إقناع «ريجان» بتلك الفكرة البديعة، ومن ثم يتحمل مسئوليتها القانونية فى يوم من الأيام إذا تسرب سرها! وقد رأى الأفضل له أن يأتيه بها أمر من رئيس الولايات المتحدة.

وكذلك التقى «دى ميرانش» فى اليوم التالى بـ«ويليام كايسى» وبحث معه تفاصيل فكرته وتحويلها إلى خطة!

الورقة الخامسة:

أساطير الأفيون وأمواله الخرافية!

لم تكن المخدرات بعيدة عن أفغانستان، ولا غريبة عن جماعات المجاهدين الذين يقاتلون «الإلحاد» متمثلا في القوات السوفيتية التي دخلت أفغانستان.

والشاهد أن أفغانستان كانت من الأصل واحدا من بلدين لهما النصيب الأكبر عالميا في زراعة وصناعة «الأفيون» (بورما هي البلد الثاني).

وطبقا لكتاب «طالبان» (لأحمد رشيد صفحة ١١٩) فإن إنتاج أفغانستان من الأفيون (وقتها) كان يصل سنويا إلى ما بين ٢٢٠٠ - ٢٤٠٠ طن، وذلك تقدير الأمم المتحدة.

(وقد زاد هذا الإنتاج عدة مرات تحت ضغط «مطالب الجهاد» حتى أصبح يضخ في اقتصاد أفغانستان سنويا ما يزيد على ستة بلايين دولار سنويا، هي عماد اقتصاد البلد، وأهم مورد للثروة فيه).

وكانت زراعة الخشخاش وصناعة وتقطير الأفيون من زهرها وثمرها هي شاغل معظم زعماء القبائل والعشائر الأفغانية، وعندما أصبح هؤلاء الزعماء في مقدمة صفوف الجهاد، فإن كل واحد منهم حاول أن يبني مليشيا مسلحة تتناسب مع مقامه قبل أن يتقدم في طلب نصيبه من الصندوق المشترك لمساعدة المجاهدين في أفغانستان.

وفي مرحلة لاحقة (مرحلة طالبان) وعندما أصبح للحرب في أفغانستان قادة للجهاد لا يملكون أرضا ولا زرعا ولا معامل تقطير، فإن هؤلاء القادة وجدوا لأنفسهم مكانا على الخريطة حين أمسك كل منهم بمدخل طريق أو تقاطع طرق، ثم أقام هناك حاجزا يُنظِّم مرور شحنات الأفيون ويسمح بها مقابل رسوم.

ويستعين «محمد رشيد» (كتاب طالبان) بتقارير لمنظمة مكافحة المخدرات التابعة للأمم المتحدة وفيها (صفحة ١٢٠) تقرير يقول:

«لقد حدث ما يشبه الانفجار في تجارة المخدرات القادمة من أفغانستان، لأن ما متوسطه ٧٠٪ من حجم المخدرات المتداولة في العالم أصبح يجيء من هذه المنطقة، وهناك أدلة قاطعة على وجود صلة بين القائمين بهذه العمليات وبين عناصر نافذة في الإدارات الرسمية لأكثر من حكومة».

ويرى «محمد رشيد» أن الإشارة واضحة هنا إلى المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات العسكرية الباكستانية، ويورد نماذج واقعية اضطرت فيها السلطات الباكستانية - تحت ضغوط دولية - إلى التبرؤ من عمليات الأفيون ونقل بعض ضباطها الذين أشارت إليهم تقارير الأمم المتحدة بالاسم إلى مواقع أخرى.

ويزيد كتاب «طالبان» إلى ذلك (صفحة ١٢١) - بالوقائع والأسماء كيف أن بعض ضباط مكاتب مكافحة المخدرات التابعة للأمم المتحدة في «بيشاور» اضطروا إلى الاستقالة من وظائفهم كنوع من الاحتجاج؛ لأنهم اكتشفوا أن المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات العسكرية الباكستانية تعرقل جهودهم.



وطوال حقبة الثمانينيات كانت أموال الجهاد ضد الإلحاد في أفغانستان تتدفق سيلا في العالم العربي، فالمصادر أصبحت سخية والحسابات طرية والفرص مفتوحة على الآخر لمن يستطيع الوصول والدخول!

والشاهد أن ثروات هائلة (بالملايين وعشرات الملايين ومئات الملايين) تحققت لأصحابها في هذه الفترة في السعودية ولبنان والأردن والمغرب ومصر، والأساس فيها فيض الخير من أموال الجهاد في أفغانستان.

وفي مصر على سبيل المثال فإن هذه الأموال أغرت كثيرين تواجدوا في ميدان الأعمال أصلا - أو سعوا إليه «خفافا» باعتقاد أن هناك فرصة متاحة للغنى الفوري!

وتظهر التقارير أن عددا من «رجال الأعمال» - القدامى والجدد، عرفوا باتصالاتهم أن هناك طلبا على أنواع من الأسلحة بالذات لم يعد منها كفاية في المخازن العسكرية المصرية، وقد سارعوا - خفافا أيضا - إلى توريدها، وقصد بعضهم إلى بلدان أوربا الشرقية وبالذات بلغاريا والمجر وتشيكوسلوفاكيا يشترون من هناك بسرعة ما أصبح نادرا هنا.

وكانت فوارق الأسعار في بعض الأوقات خرافية لكن الاحتياجات كانت ملحة والطلبات عاجلة!

....

....

[ومن غرائب تلك الأيام أن «الجهاد» في أفغانستان احتاج إلى بغال ألفت مسالك الجبال واكتسبت مهارات صعودها، وافتى أحد العارفين بأن البغال المصرية لا تصلح للغرض وأن أنسب البغال للمطلوب ما هو موجود في جزيرة قبرص، لأن طبيعة الجزيرة جبلية، والبغال فيها من أيام ثورة الأسقف «مكاريوس» ضد بريطانيا، تعودت وحصَّلت بالمران خصائص تنفع الجهاد الإسلامي الآن (كما نفعت البطريرك الأرثوذكسي من قبل)!.

وكذلك توجه أحد رجال الأعمال إلى قبرص يشترى (٢٠٠٠) ألفي بغل قبرصي قادرة على الحياة والعمل على سفوح وقمم الجبال في أفغانستان.

وكان باديا مرة أخرى أن إغراء الربح وفيرا وسريعا يرفع الأسعار بطريقة مبالغا فيها. ومن الغريب أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تحوطت لذلك ووضعت ضمن هيئة السفارة الأمريكية في القاهرة - في ذلك الوقت - ممثلا لمجلس الأمن القومي في البيت الأبيض برتبة وزير مفوض اسمه «جوكس كوفي» وكان مجتمع القاهرة يحس بقرون استشعار مرهفة لديه أن مركز «جوك» لا يقل نفاذا عن مركز «فرانك ويزنر» السفير المعتمد للولايات المتحدة الأمريكية في القاهرة أيامها، ولعله لم يخطر ببال أحد أن «كوفي» - الذي كان معروفا (وذلك صحيح) أنه يمثل البيت الأبيض وليس وزارة الخارجية - هو المسئول المكلف بالإشراف على تزويد «الجهاد الأفغاني» بما يحتاجه من مصر أو عن طريقها. وكذلك كان «كوفي» يطلب، وكان يوافق، وكان يأذن بالصرف من اعتمادات الصندوق المشترك في جنيف، وكان الرجل بالتأكيد يلاحظ أن «رجال الأعمال» المشتغلين باحتياجات الجهاد «يبالغون» - لكن الضرورات لها اعتباراتها، وكانت لـ «جوك» (كما كان أصدقاؤه ينادونه اختصارا أو تدليلا) - كلمة مشهورة تقول: «إن الجهاد أيضا يحتاج إلى حوافز»!]

....

....

الورقة السادسة:

الرجل الغامض وسط الأساطير!

وتجمع الكتب الثلاثة: «طالبان» و«الحروب غير المقدسة» و«غسيل الواقع» على أن الجهاد في أفغانستان تكلف ما بين ١٢ إلى ١٤ بليون دولار، وذلك حساب الصندوق المشترك الدوار الذي كانت السعودية والمخابرات المركزية الأمريكية تصرفان منه. لكن الموارد الإضافية الطارئة أضافت إلى ذلك المبلغ أضعافه، إذ يقدر كتاب «طالبان» (لأحمد رشيد) صفحة ١٨ أن ما صُرِفَ في هذه الحرب يُقدر بمبلغ ٤٥ مليار دولار) وتلك ثروة عصيَّة حتى على القانون، وبالفعل فإن هذه الثروة فلكية أطاحت ببنك «الاعتماد والتجارة» بعد أن قام لسنوات طويلة بدور «الممر المالي» الظاهر لأموال «الجهاد الإسلامي» في أفغانستان.

كان هذا البنك مشروع رجل عَلا نجمه مرة واحدة أوائل الثمانينيات وهو السيد «آغا حسن العابدي» مؤسس ورئيس مجلس إدارة بنك الاعتماد والتجارة - والرجل باكستاني خَبِرَ أعمال البنوك ولمح فرصته حين رأى الطوارئ الجديدة، وقَدَّرَ حاجتها إلى بنك أكثر مرونة من غيره. وقد حصل على الترخيص بتأسيس البنك في الإمارات العربية المتحدة، ثم ضم إليه شركاء واصلين من أبرزهم السيد «كمال أدهم» مدير المخابرات السعودية ومستشار الملك فيصل (وخال الأمير تركي الذي خلفه على إدارة المخابرات السعودية).

و في سنوات قليلة أصبح هذا البنك ومقره مدينة أبو ظبي عاصمة الإمارات العربية المتحدة - واحدا من أقوى بنوك الشرق الأوسط وأظهرها في الأسواق المالية، كما أن مؤسسه «آغا حسن العابدي» أصبح شخصية مرموقة في عواصم المال والأعمال في العالم كله، بل وقد حاول الرجل أن يعطي نفسه مكانة تجعله أكثر من مجرد رئيس مجلس إدارة بنك!

....

[وقد شاءت المصادفات أن أكون طرفا في تجربة مباشرة مع «آغا حسن عابدي»، (وأهمية التجربة دلالتها على أن حكومات أوربية أو هيئات نافذة في أوربا - عرفت مبكرا عن «دور» الأفيون في تمويل النصيب الأمريكي في عمليات أفغانستان)، فقد حدث في شهر مارس سنة ١٩٨٦ أن صديقا قديما هو السفير «عظيم حسين» الذي كان ممثلا فوق العادة للهند في القاهرة سنوات الخمسينيات بعث إليَّ بخطاب وَقَّعه معه صديق مشترك لنا هو السير «ساني

واشنطن تؤذن للجهاد

رامفال» الذى كان وقتها سكرتيرا عاما لمنظمة الكومنولث. وكان خطاب الاثنين دعوة لكى انضم عضوا فى مؤسسة باسم «العالم الثالث» ـ ضمن نشاطها أن تقوم على منح جائزة سنوية باسم «جائزة العالم الثالث» لشخصية عالمية لها إسهام مرموق فى الحياة الدولية. وقد أضاف الصديقان فى خطابهما أن جائزة العالم الثالث سوف تكون فى إطار الأمم المتحدة. وبالفعل وقع بينما كنت أفكر فى العرض أن اتصل بى من نيويورك الصديق السفير «على تيمور» وهو وقتها مدير المكتب الخاص للسكرتير العام للأمم المتحدة «بيريز دى كويلار» وكان «على تيمور» ينقل إلى رسالة مؤداها أن السكرتير العام يضم صوته إلى أصوات أخرى سبقته فى إقناعى بقبول عضوية مؤسسة العالم الثالث ولجنة الجائزة التابعة لها. ثم عرفت من السفير «عظيم حسين» أن الجائزة تحددت قيمتها بمبلغ مائة ألف دولار، وأن هذا المبلغ سنوى وكذلك تكاليف مراسم الاحتفالات سوف تُقدَّم هدية من «مؤسسة العالم الثالث» وهى مؤسسة لا تستهدف الربح، مسجلة فى نيويورك ويرأسها «آغا حسن العابدى» الذى هو فى نفس الوقت رئيس مجلس إدارة بنك الاعتماد والتجارة.

ونظرت فى القائمة المقترحة لعضوية لجنة الجائزة بالتحديد ووجدت سبعة من ألمع الأسماء بينهم العالم الباكستانى الذائع الصيت الدكتور «أمير عبد السلام» (الحاصل على جائزة نوبل فى الطبيعة النووية عام ١٩٧٩، والذى تبرع بقيمة جائزته لإنشاء معهد دولى فى مدينة «تريستا» شمال إيطاليا يكون أكاديمية لتدريس العلوم النووية لشباب من أبناء العالم الثالث، وكان الدكتور «أمير عبد السلام» يُعْتَبر أستاذا لكل مهندسى المشروعات النووية الكبرى فى آسيا).

وبينما كنت أفكر جديا فى الموضوع لحقتنى رسالة جديدة من السفير «عظيم حسين» يقول فيها: «إنه تلقى اقتراحا بأن تكون الجائزة فى المرة الأولى من نصيب «ويلى برانت» مستشار ألمانيا الغربية السابق»، ويسألنى رأيى؟

....

[كان «ويلى» عمدة برلين الغربية فى ذروة الحرب الباردة، وحين كانت ألمانيا مقسومة إلى شرق وغرب، وكذلك عاصمتها «برلين» التى وُضعت تحت إدارة دولية مشتركة تحميها قوات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ثم إن «ويلى برانت» أصبح فيما بعد مستشارا (أى رئيس وزراء) لألمانيا الغربية، وكان هو الذى ابتدع سياسة التوجه إلى الشرق Ostpoli-tik) مع بداية الوفاق ـ ثم أصبح بشخصه ودوره أكبر رموز هذا الوفاق والآمال التى تعلقت به لتفادى صدام ـ نووى ـ بين القوتين الأعظم].

....

....

وربما أن ترشيح «ويلى برانت» لهذه الجائزة كان العامل الحاسم فى قبولى بما عُرض علىَّ (من عضوية مجلس العالم الثالث وعضوية لجنة جائزته)، وتقرر أن نتقابل جميعا ـ بالذات أعضاء لجنة الجائزة ـ فى نيويورك وأن ننزل معا فى فندق بلازا الأمم المتحدة، ومبناه فى مواجهة مبنى الأمم المتحدة مباشرة، والانتقال بين الاثنين لا يقتضى غير عبور الشارع من الرصيف إلى الرصيف. وكان السكرتير العام للأمم المتحدة قد خصص قاعة لاجتماعات لجنة الجائزة، كما ارتأى أن يكون احتفالها بمنح جائزتها للمرة الأولى ـ إلى «ويلى برانت» فى قاعة اجتماعات الجمعية العامة.

وسارت أعمال اللجنة على ما يرام، ولم يكن هناك اعتراض من أى عضو فيها على اختيار «برانت»، وقامت أمانة اللجنة بإبلاغه، ورد عليها بقبوله، وجاء إلى نيويورك فعلا، ونزل فى نفس الفندق (بلازا الأمم المتحدة) مع أعضاء لجنة الجائزة.

ثم حضر «ويلى برانت» اجتماعا للجنة «أبلغناه» فيه بقرارها وحيثياته، ولم يبق من مراسم الجائزة غير احتفالها الرسمى المقرر عقده فى قاعة اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، والمتحدث الرئيسى فيه هو السكرتير العام للمنظمة الدولية «بيريز دى كويلار».

وفيما بين اللقاء الصباحى للجنة الجائزة والاجتماع المسائى الاحتفالى، فوجئت بـ«ويلى برانت» يطلبنى على التليفون ليسألنى هل يستطيع أن يجىء ويلقانى فى غرفتى ـ والآن؟!

وعندما دخل «ويلى برانت» إلى غرفتى فى فندق بلازا الأمم المتحدة، أحسست أن الرجل مشغول إلى درجة الهم بشىء يثقل عليه، ولأنى أعرفه منذ سنوات طويلة، تكررت خلالها لقاءاتنا وطالت أحاديثنا، خصوصا عندما كنت ضيفا على صديقى القديم الذى كان أحد رؤساء تحرير مجلة «دير شبيجل» الألمانية ذائعة الصيت وقد قبل الآن أن يعمل مستشارا صحفيا وعضو مجلس وزرائه وهو «كونراد آللزر» ـ أثناء دورة الألعاب الأوليمبية فى ميونيخ سنة ١٩٧٢، (و«برانت» وقتها مستشار ألمانيا الغربية) ـ فقد كنت أستطيع أن أحكم على حالته بالنظر إلى ملامحه.

وجلس «ويلى برانت» على مقعد ثم بادرنى بسؤال: هل تعرف ما فيه الكفاية عن «حسن آغا»، وأدهشنى السؤال، وقلت: «إننى لم أتعرف عليه قبل هذه المرة فى نيويورك، لكننى أعرف اثنين من مساعديه («عظيم حسين» سفير الهند فى مصر سابقا و«سانى رامفال» سكرتير عام الكومنولث حاليا، وهما القائمان على منظمة العالم الثالث التى جمعتنا فى هذه المناسبة).

وقال «برانت»: «إننى تلقيت اليوم من بون (عاصمة ألمانيا الغربية أيامها) ما يجعلنى أعاود النظر فى قبولى للجائزة التى أعطيتموها لى اليوم ـ ولا أعرف كيف أتصرف؟ ليس عندى شىء محدد أستند عليه وإنما عندى هواجس غير محددة تخص «حسن آغا» و«بنك الاعتماد والتجارة»، وسَكَتَ قليلا ثم استطرد:

«يعلم الله أننى فى حاجة إلى كل «مارك» من هذه المائة ألف دولار التى أعطيتموها لى هذا الصباح، لكنى الآن غير مستريح إلى قبولها ـ أنت تعرف كم أحتاجها».

....

....

[كان «ويلى برانت» فى اليوم السابق قد قدم لى زوجته الشابة الجديدة والتى كانت من قبل سكرتيرة له، وكان «ويلى» ظاهر البهجة وهو يقدمها قائلا «إنها غيرت حياته وأن سعادته لا توصف وهو يستيقظ كل صباح فى كوخ صغير فى «بافاريا» يتخذانه الآن عشا للزوجية، ثم يذهب بنفسه إلى المطبخ ويصنع طبق البيض المقلى ويُعِد الشاى والخبز المقدد والعسل لإفطار الصباح له ولهيلدا.]

....

وحاولت أن أستوضح من «ويلى برانت» إذا كان لديه أكثر مما استثار هواجسه، ولم يكن لديه شىء محدد، لكن الشكوك فى مثل هذه الحالات تكفى لأنها تنبه إلى تناقض فى الضمير بين القبول بشىء أو رفضه حتى دون تحديد للأسباب!

وقلت لـ«ويلى برانت» أننى أفهمه ولكن المشكلة الحساسة هى كيف يتصرف دون أن يسىء إلى شخص (عظيم حسين وسانى رامفال مثلا) أو إلى جهة (الأمم المتحدة وسكرتيرها العام، واحتفال المساء هذه الليلة يجرى بمشاركته فى تقديم الجائزة وبحضوره العشاء بعدها وذلك تكريم خاص موجه إلى برانت شخصيا).

ولمدة نصف ساعة رحنا نقلب مختلف الاحتمالات حتى توصلنا إلى حل وسط:

«يقف «ويلى برانت» فى احتفال المساء ويقبل الجائزة، ويتسلم الشيك بقيمتها، ثم يعلن أنه يتبرع به إلى أحد الصناديق الاجتماعية للأمم المتحدة، ويكون ذلك حل الإشكال».

بمعنى أنه يقبل الجائزة معنويا ويعتذر عن قيمتها ماديا، وهو بذلك يتسق مع شعوره ولا يحرج «بيريز دى كويلار» السكرتير العام للأمم المتحدة، وفى نفس الوقت لا يجرح أحدا من القائمين على منظمة العالم الثالث وجائزته، ولا يُسىء ـ بدون سبب واضح ـ إلى حسن آغا العابدى.

....

وفيما بعد (عندما قارب «الجهاد» فى أفغانستان مرحلته الأولى)، وارتفع درع الحماية عن «حسن آغا» مؤسس بنك الاعتماد والتجارة ـ لجأ الرجل إلى باكستان، ثم بان إلى أى مدى كان البنك غارقا فى أموال تجارة الأفيون وفى تحويل مسار جزء كبير منها إلى عمليات الجهاد الإسلامى فى أفغانستان.

وفى التحقيقات التى أعقبت إفلاس البنك مع بداية التسعينيات، تبين أن عمليات الاحتيال والاختلاس التى جرت فى البنك جاوزت خسائرها أكثر من عشرين بليون دولار!

وأثناء التحقيقات والمحاكمات الخاصة بإفلاس البنك ـ ومن المفارقات أن بعضها جرى فى الولايات المتحدة (بعد انتهاء مرحلة الجهاد الأولى) ـ تعرض عدد كبير من المشاركين فى إدارة بنك الاعتماد والتجارة ـ وربما كانوا أبرياء ـ إلى المساءلة، واستدعوا للتحقيق معهم، ومنع بعضهم من دخول الولايات المتحدة (وكان من بينهم السيد «كمال أدهم» الذى اضطر إلى توقيع تسوية دفع بمقتضاها ٨٠ مليون دولار ليسوى مسئوليته كعضو فى مجلس إدارة البنك!).

إن الجنود المرتزقة بلا فائدة (للأمير) وهم خطر عليه، لأنهم دائما منقسمون فيما بينهم، شجعان فيما بينهم لأنهم يتنازعون على الغنائم، جبناء أمام العدو لأنهم لا يريدون الموت، وهم يحاذرون الهزيمة؛ لأنها تفسد وظيفتهم ولهذا يتجنبون القتال أساسا

«ماكيافيللى»

الـورقـــــة الـســـــابـعـــــة:

ماكيافيــــللى فى أفغانســـتان!

■■ لكن حروب العقائد تحتاج إلى الإيمان قبل أن تحتاج إلى المال، وترضى بالتضحية ولا تنتظر الثروة، والمجاهدون فى سبيل الله لا يحرصون على المال؛ لأنه إذا كان ذلك - فهو الحرص على الحياة، وإلا لما كانت للمال فائدة. فإذا كان الحرص على المال هو المقصود إذن فالتعرض للخطر غير وارد وإيثار السلامة يصبح «القاعدة الذهبية» لسلوك المجاهدين.

وعندما أصبح أمراء الحرب الأفغانية طلاب ثروة تجرى حولهم أنهارا، سواء من صندوق «الجهاد الإسلامى» المشترك بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية (فى جنيف)، أو من فوائض زراعة وتجارة الأفيون، أو من رسوم السماح بمروره عند حواجز الطرق بين أمراء الحرب - فإن جماعات «الجهاد الإسلامى» تحولت إلى «قوات مرتزقة».

والحقيقة أن «جون كولى» مؤلف كتاب «حروب غير مقدسة» كان موفقا إلى أبعد حد فى اختياره للقول المأثور الذى استعاره من قائله الأصلى ليُصَدِّر به كتابه، فقد اختار «كولى» لتصدير كتابه فقرة كاملة من كتاب «الأمير» الذى ألفه «ماكيافيللى» (على شكل رسالة إلى «لورنزو العظيم» أمير فلورنسا، وقد تحول هذا الكتاب إلى عمل تأسيسى فى بناء علوم وفنون السياسة). وفى تلك الفقرة التى اختارها «جون كولى» من كتاب «الأمير» يقول ماكيافيللى:

«إن الجنود المرتزقة بلا فائدة (للأمير) وهم خطر عليه».

لأن الجنود المرتزقة دائما منقسمون فيما بينهم، عطشى للقوة، وغير منضبطين برباط أى نوع من الولاء، وهم شجعان فيما بينهم لأنهم يتنازعون على الغنائم، جبناء أمام العدو لأنهم لا يريدون الموت، وليست لديهم خشية من الله، ولا عهد مع الناس، وهم يحاذرون الهزيمة؛ لأنها تفسد وظيفتهم ولهذا يتجنبون القتال أساسا. وقادة المرتزقة نوعان: إما رجال يتقنون الحرب أو لا يتقنونها. وفى الحالة الأولى فإن الأمير لا يستطيع أن يثق بهم لأن إتقانهم للحرب يغريهم بقوتهم، فيأخذون فى ابتزاز أسيادهم، أما إذا كانوا لا يتقنون الحرب فإنهم يصبحون سببا للخسارة والهزيمة بينما تقع المسئولية على أسيادهم!

وقد أظهرت التجربة أن الممالك والجمهوريات لابد أن تكون لها جيوشها النظامية، تدافع عن أمنها ومصالحها، باعتباره الخير المشترك للجميع فى توفير الأمن والمصلحة، وهنا فإن الجنود المرتزقة وضباطهم لا مكان لهم ولا عمل».

وكان ذلك تماما حال زعماء الجهاد فى مناطق أفغانستان المختلفة ومن عصبياتها القبلية المتصارعة ما بين «البشتون» و«الطاجيك» و«الأوزبك» و«الهازارا» - شمال أفغانستان وجنوبها - شرقها وغربها!

وربما أنه من القسوة تصنيف كل من خرجوا للجهاد من زعماء القبائل والمناطق فى أفغانستان على أنهم مليشيات من المرتزقة، لكن الجميع - وبغير استثناء - أدركوا حقيقة بالغة الأهمية، مؤداها أن مستقبل أفغانستان لن يتضح شكله ولن تتقرر صورته إلا بعد أن يخرج الجيش السوفيتى من بلادهم (ولم يكن لديهم شك وقد بلغت الأمور ما بلغته على أرض المعركة - أن الاتحاد السوفيتى سوف يخرج من أفغانستان أكيدا - سواء كان خروجه بهم أو بغيرهم - وهنا فإن الشعور الذى ساد بينهم

وأصبح معيارا لتصرفاتهم هو «أن كل طرف سوف يتحدد مستقبله بمقدار ما ادخر لنفسه من الإمكانيات المتاحة له الآن كى يجاهد، وليس بكمية ما بذل من هذه الإمكانيات حتى يبلغ الجهاد غايته وتجىء ساعة الحقيقة».

وهكذا أصبحت استراتيجية جماعات الجهاد بغير استثناء هى: الانتظار والاحتفاظ بالقوة حتى تكون هذه القوة أداة للسلطة عندما تنتهى الحرب.

وعندما كانت ضرورات الحصول على الدعم المادى والعسكرى تقتضى قدرا من العمل يزكى أصحابه ويرفع بالتالى مخصصاتهم من المال والسلاح والمؤن، فإن بعضهم كان «يجاهد» بالقدر الضرورى - وليس أكثر - ولمجرد حفظ الحق فى المستقبل عندما يجىء حسابه! وفى الواقع وعلى الأرض فإن القدر الأكبر والأصعب من «الجهاد» كان من نصيب المتطوعين الباكستانيين من جنود الجيش (خصوصا من مناطق البشتون فى ولاية الشمال الغربى من باكستان - وعاصمتها «بيشاور» - وهى ملاصقة لإقليم «قندهار» وامتداد بشرى لأهلها). وكذلك من نصيب المتطوعين العرب الذين أُرسلوا تكليفا أو قصدوا تطوعا إلى مقر قيادة الجهاد فى السعودية، وكانوا فى ذلك الوقت ثلاث جماعات:

● جماعة من أفضل الرماة المسرحين من الجيش الباكستانى والجيش المصرى وغيرهما من الجيوش الإسلامية والعربية، وقد جرى تجنيدهم عندما وصلوا إلى نهاية خدمتهم، وعرضت عليهم مرتبات لم يكن فى مقدورهم رفضها (ما بين ٥٠٠ - ٧٠٠ دولار فى الشهر).

● جماعة من المنتمين إلى تنظيمات إسلامية قصدوا إلى أفغانستان إثر ضربات أمنية وُجِّهَت إلى تنظيماتهم؛ لأن هذه التنظيمات مارست بالعنف أشكالا من الأعمال الإرهابية فى أوطانها.

● ثم جماعة من المتطوعين الإسلاميين حَلَتْ لهم فكرة الجهاد فى سبيل الإسلام، وقد زينها لهم إعلام كثيف آثار حميتهم أو آثار طموحهم إلى «ذكر جهادى» ينالهم ثوابه!

وعلى طول سنوات «الجهاد ضد الإلحاد» وصل عدد المتطوعين العرب من الجماعات الثلاثة إلى بضع عشرات من الألوف، ضمنهم ما بين خمسة إلى سبعة آلاف شاب مصرى حملتهم مقادير مختلفة إلى جبال أفغانستان!

....

....

[وفى وقت من الأوقات ما بين سنة ١٩٨٤ - ١٩٨٧ أدى وجود هذه الجماعات من الشباب المصرى وغيرهم من السعوديين والجزائريين والسوريين والسودانيين والفلسطينيين إلى تزايد واضح فى عمليات الهجوم وترتيب الكمائن وبث الألغام ضد القوات السوفيتية، لكن جزءا من هذه العمليات لم يكن جهادًا خالصا «لثوابه»، والشاهد واقعة شديدة الأهمية جرت فى ذلك الوقت، فقد حدث أن نجاح بعض العمليات ضد السوفييت دعا عناصر من الجهاد إلى طلبات تقدموا بها إلى قادتهم، وفيها ما يتعلق بمستقبلهم بعد انتهاء مهمتهم فى أفغانستان، وعندما تأخر الرد عليهم قاموا بنوع من الإضراب «توقفوا فيه عن الجهاد»، حتى حضر إليهم ممثل رسمى للمخابرات المركزية الأمريكية، وعقد اجتماعا مع بعض قادة الفصائل، وأعلن أمامهم باسم حكومته أن هناك ٢٠٠٠ موافقة على منح الجنسية الأمريكية (بكل امتيازاتها) لأكفأ العناصر فى تأدية مهام الجهاد، وبالفعل فإن مندوب الوكالة فى هذه المناسبة أعلن عن قرب تسليم أول دفعة من البطاقات الخضراء Green Card - وهى البطاقة التى تمهد للمواطنة الأمريكية الكاملة - للأكثر استحقاقا بين المجاهدين. ومن المفارقات أن واحدا من الذين حصلوا على البطاقة الخضراء فى هذه المناسبة كان الشيخ «عمر عبد الرحمن» مفتى جماعات الجهاد المصرية، الذى تكررت زياراته لبيشاور وعلا صوته فيها كثيرا يحث ويحرض على الجهاد - وذلك الشيخ الضرير الآن سجين نيويورك إلى الأبد بطريقة مجافية لروح ونص القانون الأمريكى، والغريب أن التهم الموجهة للشيخ لم تُعلن بالكامل على الملأ، لكن السلطات الأمريكية تستبقى الشيخ فى زنزانته وهو فيما يظهر سجن إلى الأبد فى محبسين: فقدان البصر وفقدان الحرية].

....

....



وفى كل الأحوال وبصرف النظر عما قام به المتطوعون العرب فى ساحات الجهاد - فإن زعماء القبائل والعشائر وقادة المليشيات من أمراء الحرب كانوا على ثقة أن ساعة الحقيقة قادمة؛ لأن الاتحاد السوفيتى جرى بالفعل





من القســـــوة تصـــــنيف كل من خـــرجـــوا للجهــــاد من زعمـــاء القبائل والمناطق فى أفغانستان على أنهم مليشيات من المرتزقة، لكن الجميع - وبغير استثناء - أدركوا حقيقة بالغة الأهمية، مؤداهـــا أن مســـتقبل أفغانســـــتان لن يتضح شكله ولن تتقــرر صــورته إلا بعـــد أن يخرج الجيش السوفيتى من بلادهم

استنزافه في حرب لم تقتنع بها قياداته لا في موسكو حيث القيادة العليا للجيوش السوفيتية، ولا على الأرض الأفغانية التي دخلت إليها القوات متورطة.

كان البلد قاسيا - على عكس بلدان أوربا الشرقية مثل بولندا والمجر ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية - فقد كانت القوات السوفيتية التي تخدم في أوربا الشرقية تعيش أحوال عز ورفاهية نسبية، بينما كانت الظروف في أفغانستان قاسية ما بين طبيعة موحشة، ومجتمع فقير ومغلق - وإغارات تعترض خطوط المواصلات وتحصر القوات السوفيتية في مواقعها، كأن هذه المواقع تحولت أقفاصا حديدية لجنودها!

وكان اعتماد القيادة السوفيتية كالعادة في مثل تلك الظروف على الطيران، ولكن الطبيعة الجبلية لأفغانستان تجعل الضرب الجوي عقيما، إذا لم يكن على الأرض حليف محلي يُعتمد عليه.

ولم يكن الجيش السوفيتي مطمئنا للاعتماد على حكومة أفغانية؛ لأن النظام الشيوعي - كما هي العادة ! - نجح في شرذمة قواته وبعثرتها فرقا وجماعات متناحرة داخل البلد.

وكانت ساعة الحقيقة تقترب وعندما جاءت فإنها فرضت نفسها، بما اضطر الجيش السوفيتي إلى الانسحاب من أفغانستان، تاركا مقاليد السلطة فيها لحكومة شيوعية يرأسها «نجيب الله». وكان التقدير السوفيتي أن حكومة «نجيب الله» لن تستطيع البقاء طويلا في «كابول»، وقُصَارى المطلوب منها أن تكون فاصلا زمنيا بين الخروج السوفيتي من أفغانستان وسقوط الحكم الشيوعي في هذا البلد، وبذلك تبتعد وصمة الهزيمة عن الجيش السوفيتي وتلحق بشيوعيين أفغان وصلوا بالانقلاب إلى السلطة، وساعدهم الاتحاد السوفيتي بقوته وسقطوا بعجزهم الذاتي عن الاحتفاظ بما عندهم!■

حجم المشكلات التي تنتظر أفغانستان «بعد التحرير»، واختارت أن تبتعد بمنطق أنه ليس لديها وقت تضيعه مع أمراء الحرب وشيوخ القبائل والعشائر وقادة المليشيات وزراع وتجار الأفيون، خصوصا أن الشعب الأفغاني العادي راح يتطلع بعد انتهاء الحرب إلى عهد من السلام والرخاء يعوضه عما قاسى منه، والسياسة الأمريكية أول من يقدر أنه الأمل المستحيل.

وكذلك فإن القرار الأمريكي ترك «المعمعان» لأهله وخرج من أفغانستان بجوائز النصر دون الانتظار حتى تستحق ضرائبه!

ثم كان بعد الخروج الأمريكي من أفغانستان أن معظم الحشد الذي جمعته الولايات المتحدة للجهاد ضد الإلحاد انفضَّ سامره وتفرق جَمْعَهُ.

(ويستحق الملاحظة هنا أن دولا عربية أرادت أن تخرج من المغامرة الأفغانية وتقطع كل صلة بها، لكن الحقائق التي نشأت ونمت في أفغانستان راحت تطارد هذه الدول، ذلك أن العناصر التي جرى شحنها وتعبئتها وتحريضها على الجهاد ضد الإلحاد جنحت إلى ظن أنه لم يعد أمامها الآن غير أن تعود «كي تجاهد في أوطانها» - وكانت لهذه الظنون نتائج مأساوية بالذات في أوطان مثل الجزائر ومصر)!



الورقة الثامنة:

أمريكا تحتكر غنائم الجهاد وتتهرب من ضرائبه!

■■ في السنوات الثلاثة ما بين انسحاب الجيش السوفيتي ١٩٨٩، وعبور دباباته فوق «جسر الصداقة» الذي يربط ضفتي «نهر خورس» عائدة من أفغانستان إلى جمهورية أوزبكستان السوفيتية (في ذلك الوقت)، وحتى سقطت الحكومة الشيوعية التي تركها الجيش السوفيتي وراءه في «كابول»، ولجوء رئيسها (١٩٩٢) إلى مقر الأمم المتحدة طالبا حمايته - كانت السياسة الأمريكية قد حققت انتصارها كاملا في الحرب الباردة وكان الاتحاد السوفيتي قد خسر معركة «الأفكار» رغم أوهام ساورته بأن النصر فيها حتمية تاريخية من نصيبه.

....

....

[لكن الحتميات التاريخية ليست صوابا في معظم الأحيان، لأن ثقتها الزائدة في مقولاتها المُعَلَّبة تعزلها عن حركة التغيير ثم تترسخ هذه العزلة حين تتولى المسئولية عنها بيروقراطيات دولة تزعم أن الزمن معها، وأن الحقيقة ملكها - باستنادها كما تحسب إلى عقيدة في التطور تزعم لنفسها قوة القانون الطبيعي!]

....

....

ثم حدث بعد النصر أن الولايات المتحدة تصرفت إزاء «الجهاد الإسلامي» في أفغانستان بسرعة متناهية وإذا هي تهجر الساحة الأفغانية وكأنها لم تكن هناك:

● ولعل الولايات المتحدة تصرفت بفهم لطبيعة العقائد حين يقع استخدامها لأهداف سياسية - بينما المنطق يعلم أصحابه أن عوامل السياسة متحولة والعقائد ثابتة، ومعنى ذلك أن هناك تناقضا قادما بالضرورة بين المتحول والثابت.

● أو أنها تصرفت عن حسٍّ استراتيجي يدرك متى بداية الأشياء ومَتى نهايتها. أي بحساب الواقعية: يُقَدِّر أن قيمة الأشياء تنتهي حين تنتهي الحاجة إلى استعمالها! - وأيا كان السبب فإن الولايات المتحدة:

- سارعت فور سقوط الاتحاد السوفيتي بالانسحاب من إدارة الجهاد ضد الإلحاد في أفغانستان - وأوقفت دورها في التمويل، خصوصا أن قضية تجارة المخدرات تفجرت كواحدة من أظهر القضايا في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة - كما سحبت كل أثر لوجودها على أرض الصراع، إلى درجة أن مكتب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في «بيشاور» جمع أوراقه في ليلة واحدة وطلع الفجر وإذا مقره مبنى خال من أي مسئول.

ومن وجهة نظر «الاستراتيجية الأمريكية» فإن الأهداف كانت تحققت:

- ما رسمه «أيزنهاور» و«دالاس» (إطلاق الأفكار قبل إطلاق النار بما في ذلك «الجهاد ضد الإلحاد») - وقع تنفيذه وبلغ مطلبه بالتزام إدارات جمهورية وديمقراطية واصلت نفس المطالب الاستراتيجية أربعين سنة.

- وفضلا عن تحقيق الهدف فإن الولايات المتحدة أدركت بحس الإمبراطورية أن البقاء في أي موقع بعيد - مثل أفغانستان - بعد تحقيق الهدف، يحمل مسئوليات قد يطول أمرها مثل إقامة نظام حكم أو يحمل أعباء مثل إعادة التعمير، وكله مما لا تريد الولايات المتحدة أن تتحمله.

● وفي الواقع فإن السياسة الأمريكية قدرت لكنه بقي على الساحة الأفغانية - عدد من أمراء الحرب يتابعون ما انتظروه بعد خروج السوفييت وبعد نجاح الجهاد في هزيمة الإلحاد، وكان وراء هؤلاء الأمراء بلدان ليس في مقدور أيهما أن ينسحب وينسى:

● أولهما، بسبب الجوار الجغرافي وتبعاته: أي باكستان.

● والثاني، بسبب عمق وتشعب التزاماته: أي المملكة العربية السعودية.

وهكذا فإنه في الفترة التي أعقبت الخروج السوفيتي من أفغانستان والسقوط الشيوعي في «كابول»، وهي الفترة ما بين ١٩٩٢ إلى عام ١٩٩٤ - لم يكن أمام البلدين المربوطين بـ«العمل الإسلامي» في أفغانستان (باكستان والسعودية) - غير الوقوف وراء خليط من أمراء الجهاد الأفغان ينتظرون الغنائم وبالقرب منهم بقايا من تنظيمات الجهاد وشراذم شبابه الذين وجدوا أنفسهم بلا غطاء!

وخلال تلك الفترة من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٤ أصبحت أفغانستان أرضا موحشة لنوع مخيف من الفوضى الدموية حركته نزعات الكراهية القديمة، وغرائز الانتقام المستجدة - والطمع في بقايا الذهب على قاع صناديق الجهاد - وقبل ذلك السباق المحموم إلى زراعة وتجارة الأفيون.

وربما أن شخصية رجل مثل الجنرال «عبد الرشيد دوستم» (نائب وزير الدفاع الأفغاني اليوم) - وكما صَوَّر ملامحها «أحمد رشيد» في كتابه عن «طالبان» - ترسم لوحة لمحنة أفغانستان من خلال شخصية رجلها القوي (الأوزبكي) في تلك اللحظة!

ويروي «أحمد رشيد» في كتابه «طالبان» أنه وصل إلى لقاء مع الجنرال «دوستم» في عاصمته مزار شريف عام ١٩٩٣، ثم دخل إلى ساحة قلعة «كالاي جانجي» - وهي مقر القيادة - في انتظار دعوته لمقابلة «دوستم»، ولفت نظره أن حائط أحد الجدران ملطخ بدم تَصَوَّرَه دم ذبيحة (عنزة) أُعِدَّت طعاما للمقاتلين، لكن عميد الصحفيين الباكستاني لاحظ إلى جوار الدماء بقايا عظام، دعته إلى سؤال مرافقه، وكان الرد الذي تلقاه:

«إن جنديا اتهم بعصيان الأوامر، وحكم عليه الجنرال «دوستم» بالإعدام «هَرْسًا».

وكان «أحمد رشيد» قد سمع عن الإعدام شنقا، وعن الإعدام رميا بالرصاص، وعن الإعدام على الكرسي الكهربائي (في أمريكا)، لكنه لم يسمع من قبل عن الإعدام «هرسا» واستوضح، وجاءه الشرح:

«وضعناه أمام دبابة تمر فوقه جيئةً وذهابًا عدة مرات حتى نتأكد أن جسمه أصبح لحما مفروما لا يصلح إلا لعمل «كفتة» إذا كان هناك من يأكلها!».

وكان الجنرال «دوستم» في تلك الفترة (وهو الآن مرة أخرى) صاحب أقوى جيش في تحالف شمال أفغانستان، وكانت قاعدته (وهي الآن مرة أخرى) «مزار شريف» عاصمة الشمال الأوزبكي، وحين علا نجم الجنرال «دوستم»، فقد ظهر مواليا للشيوعية وحليفا للجيش السوفيتي وسندا لحكومة «نجيب الله» وظل كذلك طوال الثمانينيات، وفجأة انقلب على الأصدقاء والحلفاء وانضم إلى تحالف الشمال، ثم انشقَّ على تحالف الشمال ووصل الانشقاق إلى صدام بالدبابات خسر فيه «دوستم» وخرج من أفغانستان - لكنه عاد إليها بعد سنوات من الغيبة ليعقد صلحا من جديد مع تحالف الشمال، وكان بين أطراف هذا الحلف عندما بدأ الضرب الأمريكي الجوي الكثيف في شهر أكتوبر الأخير، وفي حمي الضرب الكثيف تقدم «دوستم» وسبقَ الجميع إلى احتلال «مزار شريف»، ثم دفع جيوشه (حوالي ٤٠٠٠٠ مقاتل ومعهم ٣٠٠ دبابة و١٥ طائرة) حتى وصلت طلائعها إلى «قندهار»، وهناك طلبت إليه القيادة الأمريكية أن يلتزم باتفاقه ويتراجع بقواته حتى لا يثير حربا أهلية بين «الأوزبك» و«البشتون» في «قندهار» - ليس هذا مكانها ولا زمانها.

وكان الجنرال «دوستم» بطل مذابح رهيبة قدرت جريدة «الإندبندنت» البريطانية ضحاياها «في حدود مائة ألف قتيل وبضع مئات ألوف من الجرحى»!

ولسنوات ممتدة كان الجنرال وضباطه كلما سنحت لهم الفرص - (وقد عادت الفرص وسنحت لهم) - من أكبر القوى المسيطرة على زراعة وتجارة المخدرات، وقد تحول الجنرال «دوستم» ورجاله بالجريمة إلى أكبر مُلَّاك للأراضي والعقارات، وكانوا هم الخاطفون والمغتصبون للزوجات والبنات والصبيان في «المناطق المحررة»، وأخيرا كان «دوستم» صانع مذبحة قلعة «كالاي جانجي» حيث جرى قتل مئات الأسرى من جنود طالبان بعد أن حصلوا على عهد أمان عندما اقتربت قوات «دوستم» من «قندهار» لبضعة أيام أواخر شهر نوفمبر الماضي، وخلافا لعهد الأمان أمر «دوستم» بقتل ستمائة أسير وهم مقيدون بالحبال من أرجلهم وأيديهم، بعضهم بالرصاص، وبعضهم بالسكاكين، وبعضهم هَرْسًا. (وكانت القوات الجوية الأمريكية تحمي من الجو وتغطي، وهذه مذبحة سوف تكون يوما من الأيام موضع تحقيق؛ بوصفها جريمة حرب بكل المعايير!)

ويبقى أن «دوستم» مجرد نموذج لقادة سياسيين وعسكريين حولتهم القوى وحروبها - خارجية وداخلية - تحريرية وجهادية - إلى تجار في الأرواح والدماء والسلاح والأفيون. وكان هؤلاء هم أبطال الكابوس الذي عاشته أفغانستان ما بين ١٩٧٩ وحتى ١٩٩٢.■

الــورقـــــة الـتـــاســـعـــــة:

طالبـــان: خــــروج من التـــاريخ واســـتــــغناء عن الذاكـــرة!

كانت الولايات المتحدة تملك أن تبتعد عن الساحة الأفغانية وتترك كابوسها لأهله - وكذلك كان فى وسع دول أخرى عربية وغير عربية أن تلملم حوائجها وتخرج - أو تحاول، لكن باكستان والسعودية كان مكتوبا عليهما البقاء فى أفغانستان: لأن كلتيهما لها فيها استثمارات وأرصدة سياسية لا تستطيع الاستغناء عنها، وكذلك ديون لا تستطيع بِجَرَّةِ قلم أن تشطبها من الدفاتر وتنساها.

وكان مشروع «المدارس الشرعية» أهم الاستثمارات المشتركة بين بلدين حاول كلاهما لأسبابه ودواعيه أن يتخذ لنفسه نوعا من «الشخصية الإسلامية» تقدم سياساته الدولية والإقليمية والمحلية وتخدمها.

وفى الظروف المستجدة بعد الخروج السوفيتى من أفغانستان، كان مشروع «المدارس الشرعية» ملتقى السعودية وباكستان ولكل من البلدين دوافعه:

■ كانت دوافع باكستان فى المشروع المشترك «للمدارس الشرعية» ترجع إلى جذور تاريخية ودينية معظمها من القرن التاسع عشر مع يقظة مسلمى الهند، وقد توافق المشروع مع بروز السلفية الإسلامية (الوهابية والمهدية والسنوسية) أوائل ذلك القرن، وكلها تدعو المسلمين بأسلوب أو آخر إلى عودة لأصول العقيدة تطهر نفسها من البدع الطارئة، باعتبار أن ذلك فى نظر أئمة السلفية (خصوصا محمد بن عبد الوهاب) طريق النهوض. (وكانت دعوة ابن عبد الوهاب رد فعل طبيعيا على تحركات فى الخليج العربى أمام شواطئ شبه الجزيرة العربية تومئ إلى سباق إمبراطورى عنيف تشارك فيه بريطانيا وأسبانيا والبرتغال وفرنسا، تحاول كلها أن تعزز مواقعها فى آسيا).

وعلى هذا السياق ظهرت فى شبه القارة الهندية تيارات ودعوات جياشة وجماعات منظمة وفاعلة، والمهم - فى هذا الحديث - أنه مع قيام دولة باكستان، ومع الدور الخاص فيها للجيش الباكستانى - نشطت الدعوة إلى إنشاء مدارس شرعية تساعد فى المحافظة على رباط الإسلام بين المسلمين الذين بقوا فى الهند (وهم وقتها ٦٠ مليونا والآن أكثر من ضعف هذا العدد)، وبين باكستان دولة الإسلام البازغة فى غرب الهند وشرقها، وفيها أعظم أقاليمه: «البنغال» وقتها و«البنجاب» و«السند» ومقاطعات الشمال الغربى (الأسطورية على مداخل جبال الهملايا).

وكانت المدارس الشرعية أقرب إلى نوع من الكتاتيب يدخلها الصبيان من سن الخامسة حتى سن الخامسة عشرة، وفيها يتعلمون «القرآن» (وهم لا يعرفون لغته)، ويدرسون الشريعة (وقد تأثرت برواسب ثقافية مما ترسخ فى شبه القارة الهندية)، ويعبئون بحمية الجهاد (لأنهم يعيشون داخل أو قرب مجتمعات جهل وجاهلية تعبد الأصنام وتقدس الحيوانات)!

وفى الواقع فإن أكثر انتشار المدارس الشرعية وأوسع نشاطها جرى فى مناطق تكدس اللاجئين بعد تقسيم الهند وعقب موجات الهجرة الإسلامية التى تحركت نحو باكستان دون إعداد وبغير استعداد!

ونتيجة لذلك فإن «تلاميذ هذه المدارس» أصبحوا نموذجا من «جند الله» (كما أطلق عليهم)، غريبا كما هو فريد: فهم شباب بلا جذور فى أرض، ولديهم تعليم دينى وشرعى بالتقليد لأن لغة الدين والشرع غائبة، ثم إنهم حشد مقطوع الصلة بالتاريخ، مستغن عن الذاكرة، ورباطهم وولاؤهم هو السمع والطاعة بالبيعة لمعلم لم يخرج طول عمره من قريته أو من معسكر اللاجئين الذى وجد نفسه فيه، إلى جانب أن حياتهم متقشفة خشنة بواقع الفقر وبأساس التربية، وفى الحالتين فكلهم «منذور» لله وللدعوة والجهاد عندما يرتفع صوت المؤذن يدعو جند الله إلى ساحته.



■ وكان دخول المملكة العربية السعودية شريكا فى مشروع «المدارس الشرعية» (الذى ساعد على وصول عددها زيادة على ٢٨ ألف مدرسة) خطوة لها مقدمات مهدت لها وأوصلت إليها:

١- أن ثورة أسعار النفط (فى بداية السبعينيات) أحدثت زلزالا اجتماعيا فى المملكة، فقد نزل عليها غنى أيقظ لدى أهلها أملا فى درجة من التنمية ودرجة من المشاركة فى الثروة والسلطة - ولكن ذلك لسبب أو آخر لم يتحقق على النحو الذى تمناه الناس.

٢- وأنه مع ثروة «زائدة» ومع توزيع لهذه الثروة مشوه، فقد ظهرت أشكال وألوان من الاستهلاك والترف أثارت ردة فعل أخلاقية ودينية فى بلد يسود فيه الخطاب الأصولى، وهكذا فإن المعارضة ضد هذه الأوضاع - انتقلت إلى عناصر متشددة فى فكرها، صارمة فى تعبيرها.

٣- وبما أن الدولة السعودية كانت شركة بين الفقيه (الإمام محمد بن عبد الوهاب) وبين الأمير (الشيخ سعود الكبير)، فإن الخلاف راح يظهر بين «الوهابية» التطهرية فى الدعوة وبين «السعودية» المهيمنة على الحكم.

٤- وعندما هبت رياح الثورة الإسلامية فى إيران (طوال سنة ١٩٧٨ و١٩٧٩) - فقد حركت مشاعر المواطنين الشيعة فى المنطقة الشرقية، وجرت مظاهرات تأييد لها فى «القطيف» - لفتت النظر إلى أن الجبهة الداخلية للمملكة مكشوفة.

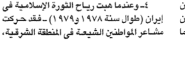
٥ - وفى تلك الأجواء قام شاب من غلاة «المتطهرين» ومعه جماعة من الأنصار، باحتلال الحرم الشريف فى مكة المكرمة (نوفمبر ١٩٧٩)، ودعواهم أن النظام ليس مؤهلا لحماية البيت الحرام، وكان زعيم هذه الجماعة وهو «محمد جهيمان العتيبى» ينتمى - كما هو ظاهر من اسمه - إلى قبائل «عتيبة» بمكانتها فى شرق الجزيرة العربية (موطن الوهابيين).

(ويروى جون كولى فى كتابه «حروب غير مقدسة» أن: الحكومة السعودية التى فوجِئت باحتلال الكعبة - وظلت عاجزة لأيام عن تخليصها، ثم لم تجد فى النهاية بُدًا من استئجار فرقة «كوماندوز فرنسية» جاءت دون إعلان واقتحمت الكعبة وخلصت ورحلت بهدوء بعد تحصيل أتعابها، لكن تحرير الكعبة بهذه الطريقة ترك فى حلوق المؤمنين مرارة شديدة!)

٦- ومع ذلك كله وفى أعقابه - وبمنطق الدفاع أيضا - فإن المملكة زادت نشاطها الإسلامى وفتحت خزانتها تُمَوِّل وتساعد باكستان، فى كافة المجالات سياسية وعسكرية واقتصادية - والأهداف إسلامية: أمنية وجهادية فى نفس الوقت!

ولم يكن مشروع المدارس مجرد تطوع - بل كان كذلك منفعة مباشرة، والسبب أن هذه المدارس ونشاطها فتح أمام الرياض بأكثر مما حسبت مجالا ومتنفسا لعناصر إسلامية متشددة أو متطهرة أو مجاهدة ظهرت داخل المملكة، وكان الأسلم للمملكة تسهيل خروج هذه العناصر إلى بعيد حيث تمارس كل ما تشاء من تشدُّد وتطهُّر وجهاد.

وهكذا فإن الإسلام الذى تعرض لمحاولة توظيف ضد الإلحاد (فى أواخر السبعينيات)، تعرض (أوائل التسعينيات) مرة أخرى لمحاولة التوظيف مع اختلاف الظروف، فى المرة الأولى خطفه الأمريكان كما تخطف الطائرات، واستعملوه ضد الاتحاد السوفيتى، وقضوا غرضهم فيه ثم تركوه ورحلوا. والآن جاء الدور على قوى محلية (باكستان والسعودية) وكلتاهما ظهرت لها الآن أغراض مستجدة.



- الجيش الباكستانى (الذى تابع ما فعله الجهاد بالسوفييت) يحلم ويخطط حتى يتحول شباب المدارس الشرعية إلى مجاهدين فى كشمير ضد الهند.

- والنظام السعودى (الذى يريد تأمين المملكة من الداخل) يجدها فرصة مفتوحة لتصدير المجاهدين، يبشرون ويعلمون فى المدارس الشرعية ويدرسون ويحرضون كما يحلو لهم، شريطة أن يكون جهادهم وثوابهم بعيدا عن المملكة!

وكذلك ظهرت على الساحة حركة «طالبان»: بمعنى الدرس وبمعنى الطلب!

جيش من التلاميذ على استعداد للجهاد فى سبيل الإسلام، ومعرفتهم بالدين هى ما تلقوه فى المدارس الشرعية التى التحقوا بها فى قرى باكستان وفى معسكرات اللاجئين قرب مدنها، وفى مدارس» قندهار» الموصولة جغرافيا وتاريخيا بالمقاطعة الشمالية الغربية لباكستان وعاصمتها «بيشاور».



وهكذا فإنه عندما تصارع أمراء الجهاد الأفغانى ضد الإلحاد وأوقعوا أفغانستان فى كابوسها الرهيب بعد الانسحاب السوفيتى عام ١٩٩٢ - كان الوطن الأفغانى فى حاجة إلى خلاص - وكان الخلاص الجاهز المهيأ قرب الساحة هو: «طالبان» التى أصبحت جيشا جرارا من «جند الله» (ما بين خمسين إلى ستين ألفا غير عشرات ألوف أخر جاهزون لمطالب حفظ الأمن وحراسة الطرق وعدد من الأعمال الإدارية) تحت قيادة مدرس شرعى سابق هو «الملا محمد عمر» وهو رجل عرف الجهاد وأخلص فيه وضحى حتى فقد عينا وقدما، ومع الملا عمر جمع أحاط به من «رفاقه» وكلهم متشدد متطهر مجاهد بايعه شبابه على السمع والطاعة حتى الموت.

وبالطبع فإن التوجه السياسى وراء «جند الله» كان بحكم الحقائق على بلدين كُتِبَ عليهما البقاء فى أفغانستان بعد أن تفرَّق الحشد الكبير الذى تداعى للجهاد ضد الإلحاد (على طريقة برجينسكى) وهما: باكستان والمملكة العربية السعودية.

وهنا فإن كلا من البلدين عهد إلى مسئول فيه أن يتولى باسمه التوجيه السياسى:

- الجنرال حميد غول رئيس المخابرات العسكرية الباكستانية ممثلا لبلده.

- والأمير تركى بن فيصل رئيس المخابرات السعودية ممثلا لبلده.

وتحركت «طالبان» ولديها مهمتان:

- إزالة الشر من أفغانستان تجسده جماعات الجهاد الإسلامى ضد الإلحاد، وقد ضلَّت طريقها بعدما انتهى خيرها وتفاقم شرها.

- ثم إنقاذ سمعة الجهاد الإسلامى بين شعوب الأرض التى كانت تتابع - مستغربة ! - كيف تَحَوَّل الجهاد فى سبيل الله إلى فساد فى الأرض؟



الـورقـــة الـعـــاشـــرة:

أميـر المـؤمـنين فى أفغانســـتان!

وخطوة بعد خطوة بدأت قوات طالبان تتقدم فى أفغانستان، ولأن أجواء «طالبان» كانت «بشتونية» فإن دخولها وتمركزها فى إقليم «قندهار» جرى سهلا، كما أن انضباطها بعد انحلال جماعات الجهاد السابقة حمل سمعة طالبان التطهرية إلى بعيد، ومن ثم انفتحت أمامها ولايات الوسط (الهازارا)، وولايات الشمال (الأوزبك والطاجيك) ومع أن دخول هذه الولايات جميعا وتوطيد أركان السلطة فيها (بحد السيف) لم يكن سهلا - إلا أن المشكلات الحقيقية بدأت على الفور وكلها مما كان منتظرا إذا استطاع النظر أن يمد رؤيته إلى ما هو أبعد من موقع قدميه:

- ذلك أن المدارس الشرعية لا تؤهل تلاميذها لشأن دنيوى، خصوصا إذا وضعت الظروف بين أيديهم مسئولية شعب ودولة وسلطة.

- ثم إن تلاميذ المدارس الشرعية لا يعرفون وطنا ينتمون إليه، فمعظمهم من معسكرات لاجئين ترسخت هويتهم فيما تلقوه عن شيوخ مدارسهم، وفى غيبة انتماء وهوية فإن فكرة الوطن أصبحت بلا حدود كما أن صورة العالم كانت بلا شكل.

- وتلاميذ المدارس الشرعية ذكور لم يختلطوا فى حياتهم بالجنس الآخر، فقد عاشوا بلا أم ولا زوجة ولا أخت ولا صديقة، فإذا ظهرت امرأة فهى «شبه جارية» مملوكة لسيدها «محجوبة عن غيره» ثم إن لها فى الحياة وظيفة واحدة!

- وأخيرا وبمنطق أن البشر فى هذه الدنيا للعبادة فى انتظار الثواب فى الآخرة، فإن فكرة صنع مستقبل من نوع ما، لم تكن تضغط على قيادات طالبان.

وكذلك راحت شئون الدولة ومسئوليات الحكم وطموحات المستقبل تُسَيِّر نفسها على نحو لا يتناسب مع العصر وربما مع كل العصور. ويورد «أحمد رشيد» فى كتابه «طالبان» ملحقا يضم بعض الوثائق بينها الإعلان الأول الذى صدر عن حركة طالبان عندما «يسر الله عليها بفتح كابول»!

ونص الإعلان كما يلى:

إعلان صادر عن رئاسة الأمر بالمعروف - كابول (ديسمبر ١٩٩٦):

١- لصيانة النساء من الغواية فلابد لهن أن يرتدين الحجاب، كما أنه لا يسمح لأى سائق عربة أو سيارة بنقل امرأة ترتدى الحجاب الإيرانى؛ لأنه لا يكفى للتغطية الشرعية، وفى حالة المخالفة فإن السائق سوف يُحكم عليه بالسجن، كما أنه إذا صادف البوليس الشرعى امرأة تمشى فى الطرقات بالبرقع الإيرانى وحده، فسوف يُقبض عليها، وإذا تواجدت امرأة فى طريق دون رجل من أهلها فسوف يتم القبض عليها.

٢- تُمنع الموسيقى وقد يُحظر إذاعتها من أى وسيلة إعلامية عامة. كذلك يُحظر على المحلات والفنادق والسيارات والعربات أن تستعمل أجهزة تسجيل الغناء وإعادتها لأن ذلك ممنوع. وهذا الأمر لابد أن يُطبق خلال خمسة أيام، وإذا وُجدت أى أدوات موسيقية فى محل، فإن صاحب المحل سوف يُسجن والمحل سوف يُغلق. ويُفتح المحل فقط فى حالة تقدم خمسة أفراد لضمان أن صاحب المحل لن يعود إلى ارتكاب المخالفة مرة أخرى، وإذا وجدت شرائط موسيقية فى سيارة فإن السيارة سوف تُصادر والسائق سوف يُسجن ويمكن الإفراج عن الاثنين فى حالة تقدم خمسة أفراد بضمانات بعدم تكرار المخالفة.

٣- يُمنع حلق اللحى أو قصها وفى ظرف شهر ونصف شهر مَن الآن، فإن أى رجل يُضبط حالقا ذقنه أو قاصًا شعرها، سوف يُقبض عليه ويُسجن حتى تكبر لحيته إلى حدها الشرعى.

٤- يُمنع منعا تاما الاحتفاظ بأبراج الحمام واللعب بالطيور وخلال عشرة أيام، فإن هذه العادة أو الهواية لابد أن توقف وبعد عشرة أيام سوف يجرى تفتيش يضمن تنفيذ هذا البند، وإذا ظهرت مخالفة له فإن المسئول يُقتل.

٥- يمنع منعا باتا اللعب بالطائرات الورقية وكل محلات بيع مثل هذه الطائرات الورقية يجب إغلاقها.

٦- لمنع الشرك بالله فإن كل صور أو رسومات فى حجرات البيوت أو فى المحلات أو فى الفنادق أو فى أى مكان آخر، لابد أن تُرفع، وسوف يُكلف المسئولون بالتفتيش للتأكد من تنفيذ ذلك الأمر فى أى مكان.

٧- يُمنع القمار منعا باتا، ويُطلب من كل من يعرف بمكان يجرى فيه اللعب أو بأفراد يشاركون فيه، أن يُبلغ عن ذلك وسوف يجرى سجن كل اللاعبين والمتواطئين على السكوت وإغلاق المكان.

٨- يمنع الإدمان والمدمن يُوضع فى السجن ويُحقق معه حتى يعترف بالمكان الذى حصل منه على المادة التى يستعملها لكى يتسنى عقاب صاحبه وسجنه.

٩- لمنع تصفيف الشعر على الطريقة الإنجليزية أو الأمريكية فإن من يضبط متلبسًا بتصفيف شعره على هذا النحو سوف يتولى البوليس الشرعى حلق شعره وتغريمه أجر الحلاق!

١٠- لمنع الفوائد على القروض وعلى تغيير العُملة فإن هناك لوائح سوف تصدر للتطبيق فى هذا المجال وسوف يُسجن كل مخالف لها لمدد طويلة.

١١- يُمنع غسيل الملابس فى المجارى العامة للمياه فى المدينة بواسطة الشابات من النساء، وكل شابة تُضبط متلبسة بهذا الفعل سوف يُقبض عليها وتُعاد إلى بيتها ويُعاقب زوجها بالحبس.

١٢- تُمنع الموسيقى والرقص فى حفلات الزواج، وفى حالة المخالفة فإن رئيس العائلة سوف يُقبض عليه ويُعاقب.

١٣- يُمنع منعا باتا استعمال الطبول، وإذا ضُبط أحد متلبسًا بمخالفة ذلك، فسوف يُوقع عليه العقاب المناسب.

١٤- يُمنع منعا باتا أخذ مقاييس جسد أى امرأة بغرض تفصيل ملابس لها حتى ولو كان القائم بالعمل امرأة أخرى.

١٥- يُمنع ممارسة أعمال السحر بقصد الإضرار بالآخرين وكتب السحر جميعا سوف تُصادر وتُحرق، كما أن كل من يشيع عنه استعمال ألعاب الحواة سوف يوضع فى السجن.

١٦- تُوقف كل وسائل المواصلات وقت أداء الصلاة وأى شخص يوجد فى شارع أو فى محل فى هذا الوقت يُقبض عليه فورا.

الـورقـــة الـحـــاديـة عـشـــرة:

طالبـان: البـــدايـة والنهـــايـة!

بهذا الإعلان للحقوق والواجبات - وغيره على مثاله - بدأ عهد «طالبان» فى أفغانستان - وسط عالم يعبر نهاية القرن العشرين إلى فاتحة القرن الحادى والعشرين، ثم مضت «دولة المتطهرين» تنشئ دولتها بعد أن أعلنت مواثيقها وأقامت سلطتها وتمكنت من إزاحة بقايا مليشيات المجاهدين إلى ركن فى شمال أفغانستان باندفاع لا تفسير له غير أن تلك المليشيات تآكلت وتحللت من الداخل بالكامل!

وكانت عملية تنظيم دولة طالبان بسيطة: إعلان أفغانستان إمارة إسلامية - ومبايعة «الملا محمد عمر» أميرا للمؤمنين له وحده السمع والطاعة - وإنشاء مجلس الشورى إلى جانب أمير المؤمنين له حق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - وتولى بعض أعضاء مجلس الشورى على رأس وزارات الدولة، أو ما بقى منها (خصوصا وزارة للخارجية لأنه كان لابد منها حلقة اتصال بين عالم طالبان وعالم بقية الدول).

على أن الصلات مع العالم كانت تحتاج إلى نصح، وذلك دور تفردت تقريبا به: المخابرات العسكرية الباكستانية، أو انفرد به بعض ضباطها بصفة شخصية؛ لأن ارتباطهم بالحركة كان وثيقا، ولأن طالبان كانت «سلاحا مأمولا فيه» لمرحلة تالية عندما يحين وقت تنشيط العمل العسكرى ضد الهند فى كشمير.

ولم يكن للمملكة العربية السعودية اختصاص واسع فى تلك الأحوال؛ لأن دورها انحسر فى تقديم المساعدات المالية، خصوصا بعد أن أثبتت أفغانستان فائدتها مرة أخرى مجالا لـ: «نفايات سياسية» خطرة على الأرض السعودية، فى حين أن أراضى أفغانستان وأحوالها ومناخها - مجال واسع أمامها يستوعب الجهاد، وما يصاحبه من شحن دينى - جهادى - قد يفلت عياره!



● ومنذ بداية زمانها تلقت طالبان من أصدقائها فى المخابرات العسكرية الباكستانية ما طمأنها إلى مواقف إسلام آباد حيالها مهما تغيرت هناك الحكومات. والشاهد أنه عندما حققت طالبان سيطرتها على أفغانستان كانت رئاسة الحكومة فى إسلام آباد فى عهدة السيدة «بناظير بوتو»، وفجأة وقع انقلاب دستورى فى باكستان، وضع رئاسة الحكومة فى عهدة السيد «نواز شريف»، وفجأة - مرة أخرى - وقع انقلاب عسكرى، لكن الجيش احتفظ لنفسه برئاسة الدولة وأسندها للجنرال «برفيز مشرف». وبرغم هذه الانقلابات، فإن طالبان بصلتها بالمخابرات العسكرية الباكستانية، وبدور المخابرات العسكرية الباكستانية فى إدارة الصراع مع الهند - ضمنت لنفسها وضعا جعلها «حالة خاصة» تحظى بدعم متواصل بسبب علاقتها مع مؤسسة الأمن القومى فى باكستان.

....

....

[ولعل المخابرات العسكرية الباكستانية ساعدت دون قصد

على سقوط دولة «طالبان»، فعندما وجهت الولايات المتحدة إنذارها إلى «الملا عمر» بتسليم «بن لادن» وإلا... ـ وبعث الجنرال «برفيز مشرف» إلى «مزار شريف» بوفد عسكرى باكستانى يتولى إقناع «الملا عمر» ومجلس شوراه بجدية التهديد الأمريكى ـ فقد تبين فيما بعد أن الوفد العسكرى الباكستانى حَرَّضَ «الملا عمر» على الرفض بدلا من إقناعه بالقبول، وكان رئيس المخابرات العسكرية الباكستانية الذى رَأسَ الوفد يرى أن التهديد الأمريكى ليس جديا، وأن قبوله هو التهديد لطالبان؛ لأنه يفقدها احترامها بين المسلمين! وربما أن عناصر فى المخابرات العسكرية الباكستانية وأصدقاءها من المجاهدين القدامى والجدد كرهوا إلى حد الموت طرفا دوليا استعملهم ثم تركهم فى العراء عندما لم تعد له فيهم مصلحة، وهو الآن يوشك أن ينزع منهم سلاحا أعدوه لإزعاج الهند فى كشمير!]

....

....

وكانت المملكة العربية السعودية تواصل مساعداتها المالية، لكن العبء راح يزيد، وأسعار البترول تتراجع والمملكة تتأخر مدفوعاتها، وجاءت نجدة المقادير لدولة المتطهرين، حين أقبلت بعض شركات البترول الأمريكية المعنية بموارد وسط آسيا الغنية (وهى المنطقة المرشحة لأن تكون إضافة مهمة توازن نفط الخليج العربى) ـ تبحث مع حكومة طالبان مشروع خطوط أنابيب ينقل النفط وسط الجبال والوديان التى تسيطر عليها دولة المتطهرين.

لكن العقود مع شركات البترول الأمريكية طالت، ومدفوعات السعودية تعثرت، وكان على «طالبان» أن تبحث لنفسها عن مصادر إضافية للتمويل لا تجعلها رهينة لطرف، خصوصا أن أصدقاء لها من المتطهرين الوهابيين لم يكفوا عن نصح إمارة المؤمنين الجديدة بألا تترك نفسها رهينة لعطايا المملكة وحدها أو شركات النفط الأمريكية معها.

وكذلك مضت «طالبان» تبحث لنفسها عن موارد جديدة، تكون بديلا لما يغنيها إذا دعا الأمر، خصوصا أنها كانت ـ أيضا ـ فى حاجة إلى فتح مزيد من المدارس سندا ومددا لا ينقطع من «جند الله»، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك نوع من الإنفاق الضرورى لإصلاح الطرق وتجديد وسائط النقل، وإنشاء شبكة اتصال تربط مواقع السيطرة فى الإمارة مع بعضها (لأن دولة المتطهرين تحتاج صلابة فى رقابتها على الأمور توازى الصلابة فى صدق الإيمان).

وأمام الاحتياج إلى المال يضغط كل يوم، فقد اكتشفت «طالبان» ما توصل إليه غيرها من حكام أفغانستان قبلها أى «الأفيون».

وهنا أصدر أمير المؤمنين فتوى من أغرب ما صدر عن المجتهدين فى التاريخ مؤداها أن:

«زراعة الأفيون وتجارته مباحة شرعا، وأما زراعة الحشيش وتجارته فهى محرمة شرعا». والداعى: أن الأفيون تقع زراعته وصناعته بهدف التصدير ولذلك ينزل ضرره على غير المؤمنين، وأما الحشيش فإنه يُستهلك محليا ولذلك ينزل ضرره على المؤمنين!

وعلى هذه الأرضية استجد عاملان:

ـ العامل الأول: أن «أسامة بن لادن» وجد فى إمارة أفغانستان الإسلامية قاعدة لدور تصوره لنفسه.

وكان «أسامة بن لادن» من الأصل شابا من أسرة سعودية عملت فى مجال المقاولات وحققت غنىً فادحا حين أوكل إليها مشروع توسعة الحرم الشريف فى مكة بتكلفة قدرها خمسون بليون دولار (وهو مشروع يستحق تقدير كل مسلم ولكن تمويله وملابسات هذا التمويل أثارت ومازالت تثير جدلا واسعا فى السعودية).

وكان «أسامة بن لادن» قد اتصل بعمليات المجاهدين الأولى فى أفغانستان حين وقع استخدام مكتب المقاولات الذى كان مسئولا عنه فى «كابول» ـ واجهة من واجهات تمويل النشاط الجهادى، وتفويت الأموال اللازمة لهذا النشاط من مصادرها الأصلية إلى طلابها فى الميدان.

وفيما يظهر فإن «أسامة بن لادن» كان فى تلك الأوقات صديقا مقربا من الأمير «تركى بن فيصل» رئيس المخابرات السعودية، وكان حلقة وصل بينه وبين جماعات جهادية مختلفة فى أفغانستان وخارجها!

لكن «أجواء الجهاد» أخذت «أسامة بن لادن» فاندمج فيها، ولم يعد مجرد واجهة أو وسيط أو ممول، وإنما تحول بدوره إلى فاعل قائم بذاته وصاحب أمر ونهى. وتلك ليست أول مرة فى التاريخ يصبح فيها الوكيل أصيلا أو التابع مستقلا!

وفى النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين، وكانت مرحلة الجهاد الأولى قد انتهت، ومرحلة طالبان لم تبدأ بعد ـ طاف «أسامة بن لادن» على بلدان عديدة من الصومال إلى السودان إلى اليمن، وظهر له ظل على مواقع عمليات دموية تلاحقت فى القرن الأفريقى أو بالقرب منه ـ على وجه التحديد.

وكذلك بدأت مطاردة «أسامة بن لادن»، وتبدى له ـ وهو معقول ـ أن إمارة المؤمنين فى أفغانستان أنسب ملاذ يحتمى به، وكانت الإمارة من جانبها مستعدة. وبالفعل فإن «أسامة بن لادن» خلال سنوات إقامته فى ظل أمير المؤمنين أصبح مرافقا للملا محمد عمر ومفتيا وكذلك ممولا للإمارة، قدم لها ما يزيد على مائة مليون دولار! وكانت الإمارة تشعر بجميله، (وإن كان رد الجميل فى النهاية قد كلف طالبان دولتها)!

ـ وأما العامل الثانى: الذى استجد فهو أن إمارة أفغانستان الإسلامية، ووجود «بن لادن» فيها، أصبحت عنصر جذب ينادى جماعات إسلامية أصولية مطاردة فى أوطانها ـ ومنها جماعة الجهاد المصرية ـ كى تقصد إلى دولة المتطهرين الإسلاميين، والظن أنهم هناك فى أمان ولو بعزلة المكان وصعوبة تضاريسه وأجوائه الجهادية المواتية، وأنهم من هناك يقدرون ويملكون فرصة إعداد وتنفيذ مشروعات وخطط جهادية «مطلوبة»!

....

....

[ومن الإنصاف للحقيقة القول هنا أنه لم يكن صعبا فى هذه الظروف سواء على «بن لادن» ولا على «الملا عمر» التقدم فى نقلة واحدة من الجهاد ضد «الإلحاد» إلى الجهاد ضد «الكُفر» ـ أو ما يتصورونه كذلك ـ وكان ذلك لعبا بالنار، لأنها أصبحت حربا على العالم كله بما فيه الإسلام ـ وغالبية أهله لا يعترفون بتفسير «طالبان» لروحه وشريعته ونصوصه.]

....

....



ومع بداية القرن الحادى والعشرين أصبحت إمارة أفغانستان الإسلامية كتلة حرجة بذلك الخليط الذى تحول إلى عجينة «شبه نووية»، وكانت هذه الكتلة الحرجة تتمدد داخل إمارة المؤمنين الطالبانية وتهدر فيها ـ ثم إن بلوغ درجة الانفجار زاد قُرْبًا بوجود «بن لادن» وما يتحرك حوله ـ وجماعة الجهاد المصرية وما وراءها!

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية ترصد وتتابع وترتب.

كانت قد استغلت الأفكار والعقائد والأديان، وأولها الإسلام فى عصر مضى لمحاربة الاتحاد السوفيتى، بدعوى الجهاد ضد الإلحاد. والآن فذلك ميدان فات زمانه، لأن الصراع الجديد لم يعد حربا بالأفكار. وإنما هو زمان الأسواق وليس زمان العقائد.

....

....

[ولست متأكدا ـ حتى الآن ـ أن طالبان أو تنظيم «بن لادن» (القاعدة) أو أن جماعة الجهاد المصرية كانوا وراء صواعق النار فوق نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر الماضى، ولعلهم كانوا هناك مع آخرين لم يظهر أثرهم بعد، لكن هؤلاء الإسلاميين وضعوا أنفسهم (أو وضعتهم الظروف والقوى وضمنها الولايات المتحدة الأمريكية بنفسها) موضع الشبهة ورأس قائمة المطلوبين ـ وكذلك كان.

....

....

[وقد سألنى سفير أوربى مرموق فى القاهرة: لماذا تظهر فيما تكتب شكوك تستبعد أن تقوم جماعات إسلامية وعربية ـ بتخطيط وتنفيذ عمليات ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟ ثم استطرد السائل: أليس ذلك ـ فى جزء منه ـ نزعا للثقة فى كفاءة أطراف إسلامية وعربية، وقدرتها فى القيام بعمل على هذا المستوى المدهش من ناحية التخطيط والإدارة والتكنولوجيا، بصرف النظر عن مقاصد الفعل ونتائجه المأساوية؟

وكان ردى: إننى لا أنزع قدرة شباب مسلم وعربى على أعمال مدهشة تخطيطا وإدارة وتكنولوجيا ـ لكنى كنت ومازلت أتكلم بالتحديد عن تلك العناصر التى نسبت إليها المسئولية فعلا عما جرى فى نيويورك وواشنطن. ومازال تقديرى ـ وقد عرضته على الناس نقلا عن مصادر فى بروكسل ـ وزاد عليه فيما بعد تقرير صادر عن مركز دراسات إستراتيجية معتمد فى موسكو أشارت إليه صحف بريطانية كبرى، وملخصه أن عناصر بلقانية كانت ضالعة فى تلك العمليات المدهشة (يمكن أيضا مراجعة تصريح لنائب الرئيس الأمريكى ديك تشينى قال فيه بعد ساعات من صواعق النار فوق نيويورك وواشنطن: إن ما جرى يحمل توقيع جهاز دولة)

أضفت أيضا: إن مستوى العناصر العربية والإسلامية التى نسبت إليها المسئولية عن حوادث ١١ سبتمبر كانت لها من قبل سوابق فعل فى مواقع أكثر سهولة من نيويورك وواشنطن. وهنا فى مصر فقد رأينا امتحانا لمستواها فى مجزرة السياح فى الأقصر قبل سنوات قليلة ـ وإذا كان ذلك هو المستوى، ثم وضعنا معه أساليب الإدارة السياسية والعسكرية فى الدفاع عن دولة طالبان فى أفغانستان ذاتها ـ إذن فنحن أمام تأكيد جديد يؤكد مرة أخرى أن مجزرة السياح فى الأقصر هى المستوى.

....

....

[ولسوء الحظ فإن الإسلام أُسيء إليه مرة ثانية، كما أُسيء إليه مرة أولى.

● وكانت المرة الأولى باستدعائه للجهاد بواسطة المخابرات المركزية الأمريكية.

● وكانت المرة الثانية بالطيران الأمريكى يضرب «جند الله» ضربا بلا هوادة، حتى بدا وكأنه عقاب للمسلمين جميعا حتى أولئك الذين لم يشاركوا فى الجهاد الإسلامى (على طريقة برجينسكى)!

وكان الموضوع من أوله إلى آخره كارثة أصابت العرب فى أنفسهم وقضاياهم ومستقبلهم، ثم إن الشظايا طالت أطرافا عربية وإسلامية بادرت وتطوعت للخدمة، وسمحت بأن يكون الجهاد الإسلامى مركبة مجانية للسيطرة الأمريكية، ثم تصورت خطأ أن ما تطوعت به يوفر لها حصانات وحقوقا، وذلك نسيان ـ لا يستحق الغفران ـ لطبائع القوى أو طبائع الإمبراطوريات!]

....

....

وكان الرئيس «دوايت أيزنهاور» هو الذى لخص تجربته فى الخطاب الأخير من رئاسته قائلاً «إن السياسات الطيبة ليست ضمانا أكيدا للنجاح ولكن السياسات السيئة ضمان محقق للفشل».

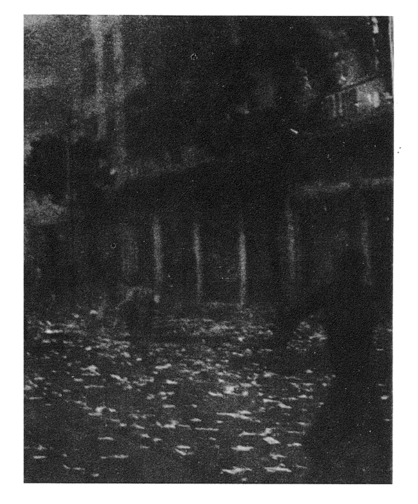
وذلك صحيح!

على أنه مما يستحق التأمل أن «أيزنهاور» فى نفس هذا الخطاب الأخير استشهد أيضا بحكمة إغريقية بليغة تقول:

«إن الآلهة لا تعاقب البشر حين تغضب عليهم وإنما هى تسلط عليهم أنفسهم وكفى»!

وذلك ما جرى!! ■

لطيفة محمد سالم



خمسون عاماً مرت على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، جرت خلالها أحداث جسام غيّرت وجه مصر ووجه المنطقة العربية، وكانت ثورة يوليو التى قادها الزعيم الراحل جمال عبدالناصر وعدد من ضباط الجيش، وهى نقطة الانطلاق التى أشعلت شرارة التغيير وحفرت مجرى جديدا لتحولات تاريخية أثرت على شعوب المنطقة، ورسمت أمام أجيالها القادمة منعطفات وعلامات على الطريق. وقد كانت للثورة إرهاصاتها الأولى وبشائرها الظاهرة والخفية. وما زال كثير من الأحداث التى سبقتها وأدت إليها وصنعتها، موضوع جدل ونقاش بين المؤرخين والباحثين، ومن بين المقدمات التى أفضت إلى قيام الثورة، كان حريق القاهرة الذى وقع يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢، إثر مظاهرات صاخبة عنيفة احتجاجاً على مذبحة جنود البوليس فى الإسماعيلية على يد الإنجليز. وتحولت هذه المظاهرات بتدبير لم تكشف تفاصيله حتى الآن، وبفعل أيد خفية إلى إحراق وتدمير المبانى وسط العاصمة. ولم يتفق المؤرخون على تحديد المجرمين أو الفاعلين الأصليين فى حريق القاهرة. ولكنه كان من أهم العوامل التى سارعت بالأحداث والتطورات التى أفضت إلى سلسلة من الانهيارات الدستورية والأزمات الوزارية التى انتهت بقيام ثورة يوليو، وطرد الملك، وحل الأحزاب، وقيام النظام الجمهورى.

ولاشك أن مرور نصف قرن على هذا الحدث الكبير - ثورة يوليو ١٩٥٢ - يستحق قدراً من التمحيص والمراجعة والتذكير.. ويهم مجلة **«وجهات نظر»** أن تنتهز هذه الفرصة، لتلقى بعض أضواء كاشفة تنشط الذاكرة العربية، عساها أن تجد الفرصة لتأمل حقبة من تاريخها، تضعها فى المواجهة مع حاضر أليم، انبهمت فيه معالم الطريق الذى خيِّل لكثيرين أن ثورة يوليو قد افتتحته.

وجهات نظر

حريق القاهرة

تعد الفترة الزمنية منذ نهايات الحرب العالمية الثانية وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، من أهم الفترات التى عاشتها مصر، وبالرغم من قصرها فإنها ماجت بالأحداث المتلاحقة التى اتسمت بالديناميكية، وبشَّرت بإمكانية حدوث ميلاد لحكم جديد يسقط الحكم القديم ويقتلعه من جذوره، وقد تبلورت فيها الأوضاع، ولم تعد هناك تحركات القوى التقليدية على الساحة السياسية فقط، إنما أيضًا نشطت الجماعات الأيديولوجية التى أصبحت لها بصمات على المجتمع. أما بالنسبة للآخر والذى تمثل فى الوجود البريطانى على الأرض المصرية، فكانت له رؤيته إذ وضع فى اعتباره تصدع الإمبراطورية البريطانية، ومن ثم غدا من الصعب فصم عرى الارتباط الإنجليزى مع مصر، والنتيجة ذلك الصدام الذى وقع بين القوى الوطنية وبين أصحاب المصالح، وتمخض عن أحداث جسام أسهمت بفاعلية فى تاريخ مصر المعاصر، وكان حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ أهم هذه الأحداث.

وللحديث عن هذا اليوم الحزين، لابد من العودة إلى الوراء قليلاً لالتقاط صورة بانورامية للحياة السياسية المصرية حتى تتسنى لنا معايشة الظروف التى أفضت إلى هذا الحدث الدرامى، ولنبدأ بالمثلث التقليدى أى: الملك والوفد والإنجليز.

* بالنسبة للملك فاروق، فإنه منذ اعتلائه العرش وهو لا يتوانى عن الإغارة على اختصاصات حكوماته، وفى يومى ٨ أكتوبر ١٩٤٤، ٢٧ يناير ١٩٥٢ أقال وزارتى الوفد، وبين هذين التاريخين اشتد تسلطه وزادت أوتقراطيته على الوزارات التى أمر بتشكيلها، وخضع رؤساؤها لمشيئته وحققوا له رغباته، وكان أبرز مثال لذلك دخول حرب فلسطين. ولم تكن وزارة الوفد الأخيرة (١٢/١/١٩٥٠ - ٢٧/١/١٩٥٢) بمنأى عن هذا الطريق، وذلك بعد أن تقاربت المصالح بين العرش والوفد، وعندما حصل الملك على أغراضه، عقد العزم على التخلص منها، وجاء حريق القاهرة ليعطيه الفرصة.

* أما بالنسبة للوفد، فإن المنهج الذى انتهجه بعد إقالته فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ لم يكن يختلف فى البداية عن الخط الذى التزم به قبل ذلك، وعندما صعَّد الموقف ضد بريطانيا، رأت أنه من الأفضل لنجاح المفاوضات أن تتحسن العلاقات بين فاروق والنحاس، وبدأ يظهر فى الأفق خط جديد يجمع بينهما، فالملك يعانى من الصدمات التى يتلقاها، والوفد شغوف بالعودة إلى السلطة. وتحقق المطلوب، وأجريت الانتخابات التى أسفرت عن تشكيل حزب الأغلبية للوزارة.



ولم يكن فاروق مرتاحاً لعودة الوفد الذى التزم بالمهادنة وأجاب الطلبات الملكية، ومع نهاية عام ١٩٥١ وضحت تمامًا ملامح عدم رضا الملك عن حكومته. وكانت مصر تمر بظروف اقتصادية واجتماعية صعبة، ومن ثم فإن إقالة الوزارة لن تكون فى الصالح الملكى، أيضًا فإنها ستعيد للوفد شعبيته، كما أن فاروق لن يجد من معارضى الوفد تعاونًا لسوء علاقته معهم، ثم إنه من غير الكياسة أن يحدث تغيير أثناء المفاوضات مع بريطانيا، ورغم هذا فإن فكرة الإقالة لم تسقط من حساباته.

وسرى اختلاف وجهات النظر داخل الوزارة، وأصبح لفؤاد سراج الدين وزير الداخلية سلطته، وبررت القيادة الوفدية سياسة استسلامها للملك برغبتها فى التفرغ للكفاح ضد بريطانيا. وجاءت خطوة إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى الحكم الثنائى فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ لتكون انتصارًا للوزارة، إذ وضعت فاروق أمام الأمر الواقع. فاستاء من أن يسترد الوفد مكانته، وأصبح متربصًا يتحين الفرصة لإقالتها.

ونشطت الحركة الفدائية فى منطقة قناة السويس، وشجعتها حكومة الوفد، وجرت المعارك البطولية، وتأججت مشاعر الغضب ضد بريطانيا، وكان رد فعل فاروق تعيين حافظ عفيفى رئيسًا للديوان، وهو يحمل كل الحب للإنجليز ويدخر كل الكره للوفد، وتعيين عبد الفتاح عمرو مستشارًا للديوان الملكى للشئون الخارجية، وهو يواكب الاتجاه نفسه. وانعكس ذلك على الشعب فى صورة مظاهرات ساخطة، زادت حدتها مع مولد ولى العهد فى ١٦ يناير ١٩٥٢ واتخذت طابع العنف. وفى ٢٥ يناير وقعت مذبحة الإسماعيلية، حيث صمدت قوات بلوكات النظام أمام القوات البريطانية، واستشهد وجرح الكثير منها، واجتمع مجلس الوزراء لبحث قطع العلاقات السياسية مع



وانهيار المؤسسات القديمة

بريطانيا، وتدهورت الحالة سريعًا، وتجمعت عواصف الغضب، وسرعان ما احترقت القاهرة.

* أما بالنسبة لبريطانيا، فإنه مع زوال المسببات التى سبق أن دفعتها للتمسك بالوفد من ناحية، ومعاكسته لها من ناحية أخرى، جعلها لا تعارض إقالته فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤، وراحت تؤكد أن الملكية هى المؤسسة التى تمتلك المكانة والسلطة والاستمرار، وعليه مضت تتقرب من فاروق، ولكن عندما تفجرت المظاهرات ضدها فى فبراير ١٩٤٦ غيَّرت من سياستها، وخشى الملك من حدوث أزمة مع أحداث الإسكندرية الدامية، فراح يؤيد المفاوضات، وما لبث أن استاءت لندن من الالتجاء لمجلس الأمن لعرض القضية المصرية، ومن تعيين إبراهيم عبد الهادى رئيسًا للديوان، ومن الاستغناء عن البعثة العسكرية البريطانية، ومن الصمت تجاه الصحافة التى تهاجم الإنجليز. وحينما فشلت المساعى أمام مجلس الأمن، حدث التقارب مرة أخرى بين بريطانيا والملك الذى أدرك مدى سوء الحالة الداخلية بعد الهزيمة فى حرب فلسطين، وذلك الفزع الذى سيطر عليه من الخطر الشيوعى.

وعادت بريطانيا وأدركت مدى التخبط فى السياسة المصرية، فالعرش أصبح يهتز، والحكومات اتسمت بالضعف، والمعارضة تشتد، وأنه لاستقرار الأوضاع والوصول إلى تسوية مرضية لابد من عودة الوفد إلى الحكم. وارتاحت لعودته، ولكن صلابته والفشل فى نجاح المفاوضات ورفضه مقترحات تأسيس قيادة للحلفاء للدفاع عن الشرق الأوسط، جعل لندن تطلب من سفيرها فى القاهرة البحث فى مسالة حكومة بديلة، كما أنها لم تستجب لطلب مصر الخاص بشراء الأسلحة. وجاء رد السفير على حكومته بأن فاروق فى وضع لا يسمح له باتخاذ خطوة الإقالة.

ومع إقدام الحكومة الوفدية على إلغاء المعاهدة، راحت الخارجية البريطانية تستعرض العراقيل التى توضع فى طريق سياستها، ورأت أن الملك هو الوحيد الذى يمكنه إنقاذ الموقف بإقصاء الوفد عن الحكم، وأنها على أتم الاستعداد لتقديم المساعدة. وازدادت الأمور تعقيدًا بتوهج نشاط الفدائيين فى منطقة القناة، وتفاقم المظاهرات، وتعنت وزير الداخلية المصرى فى الدخول فى مفاوضات، واستخدمت القوات البريطانية العنف، وكان عدوانها على كفر عبده دليلاً على شراستها، وهددت الحكومة الوفدية بقطع العلاقات مع بريطانيا، وسحبت السفير المصرى من لندن، ثم وقعت مذبحة الإسماعيلية، واعتبر السفير البريطانى أن ما تقوم به الحكومة ستعده لندن «حالة حرب» وأبلغ رئيس الديوان عن إمكانية احتلال القاهرة أو الإسكندرية، ومن ثم اتصل القصر بفؤاد سراج الدين مبينًا أنه إذا كان موضوع قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا مدرجًا فى جدول أعمال مجلس الوزراء، فإن الملك لن يصدق عليه، ولكن ما لبث أن اندلع حريق القاهرة ليتحقق ما خطط له.

* وإذا انتقلنا إلى أحزاب الأقلية، فكان أهمها حزب الأحرار الدستوريين، الذى أعطى صوته للملك، وبالتالى استخدمه ضد الوفد، ولكن حدث تغير مع الوزارة الوفدية الأخيرة، إذ سجل الحزب موقفًا مضادًا لفاروق تمثل فى أزمة مجلس الشيوخ وفى التوقيع على عريضة المعارضة التى رفعت للملك فى ١٨ أكتوبر ١٩٥٠. ولم يكن موقف السعديين يختلف عن موقف الأحرار الدستوريين. وكذلك الأمر بالنسبة لحزب الكتلة الوفدية.

وفيما يختص بالحزب الوطنى، فإنه بعد أن شارك فى عريضة المعارضة، عاد حافظ رمضان وأيقن أن المصلحة تكمن فى العودة إلى الأحضان الملكية، خاصة بعد بروز فتحى رضوان الذى تزعم الاتجاه الراديكالى وكون «اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى»، وأصدر صحيفة «اللواء الجديد» التى تحولت تدريجياً إلى جبهة قوية معارضة للملك منذ عام ١٩٥١، وكان لها الأثر الكبير فى تبصير الرأى العام وتعبئته، وكثرت مقالاتها عن الدستور وولاء العبيد وولاء الأحرار والشورى، وهاجمت الملك وتصرفاته وحاشيته بضراوة، وأعطت الدفعة ليتحرك الشعب، فصورت وقائع الثورة الفرنسية والثورة العرابية والثورة الإيرانية، كما تنبأت بوقوع ثورة فى مصر تطيح بالحكم القائم، ولم يتمكن القصر من إسكات صوتها إلا مع حريق القاهرة.

* وإذا انعطفنا على القوى غير التقليدية المتبقية على الساحة السياسية، نجدها تتمثل فى الجماعات الأيديولوجية، تلك التى لعبت دورًا مؤثرًا فى الشارع المصرى، وتحتل مصر الفتاة الصدارة فيها، وقد تأرجح موقفها بين رضا فاروق عليها ونفص يده عنها. وفى عام ١٩٤٩ تمكن أحمد حسين رئيسها من ترتيب أوراقه، وتحولت مصر الفتاة إلى حزب مصر الاشتراكى الذى كرَّس إمكاناته لتولى المعارضة، وذلك عن طريق النائب إبراهيم شكرى عضو مجلس النواب، إذ تمكن من تفجير قضايا بالغة الأهمية داخل المجلس، وعن طريق اللقاءات التى عقدت بمقر الحزب واستعرضت فيها الأوضاع المتردية، وعن طريق طواف أحمد حسين بالأقاليم وبث روح الثورة فى الناس، وأخيرًا عن طريق صحيفة الحزب «مصر الفتاة ـ الاشتراكية» التى أدت مهمتها بنجاح، فهاجمت الملك وحاشيته، وشرحت أبعاد الثورات وسوء أحوال الطبقات الكادحة، وأشارت إلى منشورات الضباط الأحرار وما جرى فى حرب فلسطين. ووُجهت إليها تهمة العيب فى الذات الملكية وأُلغيت، ولكن حلَّت مكانها صحيفة «الشعب الجديد» لتواصل مسيرة قذف الملك، وتُعَرِّج على النظام الإقطاعى، وتعقد المقارنة بين الأحوال فى فرنسا قبيل ثورتها وأثناءَها والأوضاع فى مصر، وتصور المد الثورى لدى المصريين، ثم يأتى المقالان اللذان اعتبرا من عناصر التحريض على حريق القاهرة، حمل المقال الأول عنوان «انصبوا المشانق ولكن الشعب سينتصر» وأسفر فيه أحمد حسين عن الهجوم على فاروق، ويصدر الحكم عليه ويأتى بحيثيات إسقاطه عن عرشه. أما المقال الآخر فهو تحت عنوان «الثورة. الثورة. الثورة» وأُرفقت به صورة تمثل بؤس وشقاء الشعب ما بين شيخ متهدم وطفل فى أسمال بالية ومريض على قارعة الطريق وكتب عليها «رعاياك يا مولاى». ومما يذكر أن ٧٠ ألفًا من نسخ هذا العدد نفدت فى حينها، وعلقت الصورة فى الأماكن العامة، وعليه وجهت لأول مرة تهمة العمل على قلب نظام الحكم لأحمد حسين، وما لبثت أن اشتعلت القاهرة.

وعن جماعة الإخوان المسلمين، فقد تحسنت علاقتها مع الملك الذى وجد فيها أداة لمحاربة الشيوعية.

وأنه بواسطتها تكون له الزعامة العربية والإسلامية، وساعد ذلك على تألق شخصية حسن البنا. ومع هزيمة حرب فلسطين ارتفع مؤشر ديماجوجية الجماعة، فخشى فاروق من نشاطها، كما أقلقه نظام البيعة، بالإضافة إلى رغبته فى إرضاء بريطانيا، وأخيرًا للرباط الذى ربطها بعناصر من الجيش، لذلك جميعه تم حلّها فى ٨ ديسمبر ١٩٤٨، وأعقب ذلك اغتيال النقراشى وحسن البنا. وعندما تولت وزارة الوفد الأخيرة، مضى التقارب بين فاروق والجماعة لحاجة كل منهما للآخر، وألغى قرار الحل، ووطد حسن الهضيبى المرشد العام صلته بالملك. ولكن فى الوقت نفسه سرت الاختلافات داخل الجماعة، وأصبح هناك خط معاد للحكم المستبد أسهمت فيه مجلة «الدعوة» ووجدت مقالاتها الصدى لدى الناس.

وتأتى التيارات اليسارية لتؤدى دورها فى الميدان السياسى، وقد تكثفت مجهودات السلطة لإجهاضها، ومع ذلك استمر النشاط الشيوعى الذى اعتمد على المنشورات التى هاجمت الحكم الملكى وتنبأت عام ١٩٤٨ بقيام ثورة تسقط الرأسمالية والإمبريالية، وأن يحكم الشعب نفسه بحكومة من الفلاحين والعمال. وصدرت صحيفة «الملايين» لتواكب صحف المعارضة، فهاجمت القصر وأشارت إلى التصدع الذى يعيشه النظام. كذلك فعلت صحيفة «الكاتب»، ورغم أحكام المصادرة، فإن ذلك لم يفت فى عضد هذا النشاط، ومما يسجل أنه كان لتلك التيارات الأثر الفعّال فى المظاهرات قبيل الحريق.





وفى هذا الصدد نذكر منشورات الضباط الأحرار التى شاركت هى الأخرى فى الحث على ضرورة التغيير والحض على الثورة. أيضًا فإن الصحافة المستقلة أدلت بدلوها فى تبصير المصريين بما وراء الأحداث وإعدادهم للخطوة القادمة، وقد امتلأت روز اليوسف وأخبار اليوم وآخر ساعة والجمهور المصرى بالمقالات المعارضة والناقدة للأوضاع، ووجهت الطعنات للمسئولين. والواقع أن الفترة من مايو ١٩٥٠ إلى حريق القاهرة مثلت ذروة المعارضة الصحفية، وهذا يحسب للحكومة الوفدية، بالإضافة إلى الموقف القضائى الذى شكّل دعامة أساسية لاستمرار المسيرة الصحفية، وقبل ذلك الإصرار على التحدى الذى التزم به الصحفيون، وهذا كله حقق نتائجه، فأصبح الشعب فى شوق ولهفة منتظرًا أن ينجلى الليل وينكسر القيد.



الفترة من مايو ١٩٥٠ إلى حريق القاهرة مثلت ذروة المعارضة الصحفية، وهذا يحسب للحكومة الوفدية، بالإضافة إلى الموقف القضائى الذى شكل دعامة أساسية لاستمرار المسيرة الصحفية، وقبل ذلك الإصرار على التحدى الذى التزم به الصحفيون، وهذا كله حقق نتائجه، فأصبح الشعب فى شوق ولهفة منتظرا أن ينجلى الليل وينكسر القيد



* وفى وسط هذا المُناخ المفعم بالصخب احترقت القاهرة، وقد أشارت ظروف ما قبل الحريق إلى أنه لابد لشىء ما أن يحدث، خاصة مع توهج الحركة الوطنية التى تمثلت فى الفدائيين الذين أشعلوا منطقة القناة ضد الوجود البريطانى وعزوف المصريين عن إمداد المعسكرات البريطانية بما تحتاج إليه وانسحابهم من خدمتهم من ناحية، والمظاهرات التى جابت أرض مصر ضد الإنجليز ونظام الحكم من ناحية أخرى.

وعقب مذبحة الإسماعيلية، وفى ليلة السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢ بدأت بواكير هذا اليوم العصيب، إذ أعلنت نقابات العمال عدم التعاون مع المؤسسات البريطانية، فحدثت حركة تمرد فى مطار القاهرة قام بها عمال الطيران ورفضوا إمداد الطائرات البريطانية بالوقود. وفى الصباح الباكر حدثت اضطرابات بين قوات بلوكات النظام فى ثكناتهم بالعباسية، وخرج البعض منهم فى مظاهرة احتجاجًا على ما جرى لإخوانهم فى الإسماعيلية، وتوجهوا إلى جامعة فؤاد الأول (القاهرة)، حيث مثلت بوتقة لتجميع الثائرين، وأخذت المظاهرات طريقها إلى مجلس الوزراء، وانضّم إليها الأزهريون، وسيطر على الجميع الغضب والانفعال، ورجّت الهتافات المكان، مطالبة بالانتقام من الإنجليز والموالين لهم، وبدا الأمر وكأنه ثورة شعبية.

ووصلت الجموع إلى مقر مجلس الوزراء، وخرج إليها عبد الفتاح حسن وزير الشئون الاجتماعية، وراح يشجع ويحمس، ومما يذكر أنه قامت مظاهرات متعددة فى مختلف أنحاء القاهرة لها الطابع نفسه، كذلك ازدحمت ساحة عابدين بالجماهير، ودوت الصيحات المستنكرة لما يحدث، ودل هذا على أن هناك اتجاهًا ثوريًا جارفًا تغلغل فى القاهرة.

وفى خضم ذلك، وجد المتربصون للموقف والمدبرون للحريق الفرصة لتنفيذ التخطيط وتحقيق المطلوب. وفى منتصف النهار بدأت الشرارة الأولى لحريق القاهرة فى كازينو بديعة بالأوبرا، وعلى الفور انتشر الحريق فى ميادين وسط القاهرة وعبر الشوارع المحيطة بها، ثم انتقل إلى شارع الهرم ووصل إلى الأوبرج، وبلغ عدد المنشآت التى احترقت حوالى السبعمائة، ضمت محلات تجارية كبيرة وإدارات ومكاتب لشركات وشقق وفنادق ودور سينما ومعارض ومقاهى ومطاعم وملاهى وحانات وأندية وبنك باركليز. وأسفر الحريق عن وقوع ضحايا من بينهم عدد من الإنجليز، بالإضافة إلى الخسائر المادية الفادحة، وصاحبت الحريق حوادث سلب ونهب نتيجة للفوضى التى ضربت بأطنابها فى القاهرة، حيث ظهرت عناصر الشغب من الرعاع فازداد الموقف اشتعالاً.

كانت المسألة مدبرة ومنظمة، وانتهجت أسلوبًا مدروسًا بعناية فائقة، إذ تحرك القائمون على الأمر بالسيارات الجيب بسرعة مذهلة إلى الأماكن المخطط حرقها، والتى اختيرت بدقة ومعهم خرائطها حاملين المواد الحارقة من قنابل وبودرة وبنزين ولاعات وأجنات حديدية ومواقد إستيلين لصهر الحديد، وكانوا يقتحمون الواجهة الرئيسية للمبنى ويخرجون أثاثه ويشعلون الحريق، ثم ينتقلون إلى مكان غيره، وهكذا، وقد وصف شهود العيان ملامحهم بأن لهم سمة الأفندية.

وأمام تلك الأحداث ماذا كان موقف الوزارة الوفدية؟

عندما علم فؤاد سراج الدين ببداية أحداث ذلك اليوم كلّف المسئولين فى البوليس بالعمل على تحجيم الموقف خشية انفلات الزمام وانقلاب الميزان لغير صالح الوفد، ولكن وضح تمامًا التراخى من جنود البوليس لاشتراك زملائهم فى المظاهرات، وعندئذ اتصل بمحمد حيدر القائد العام للقوات المسلحة - وكان آنذاك فى القصر - وطلب نزول الجيش لحفظ النظام، فأبدى تمنعًا، وكرر فؤاد سراج الدين الطلب عندما بدأ الحريق، فاعترض القائد العام فى البداية، ثم بيَّن أن الأمر يحتاج إذنًا من الملك، وحينما اشتعلت النيران فى سينما ريفولى وسينما مترو، كرر وزير الداخلية اتصاله به، فلم يتلق إجابة، فذهب إلى القصر فى الساعة الثانية والنصف والتقى برئيس الديوان وشرح له خطورة الموقف. وانتهى الأمر بصدور الأمر الملكى فى الساعة الثالثة إلا ربعًا، ولكن تلكأ عثمان المهدى رئيس الأركان فى التنفيذ، مما أدى إلى إجراء مزيد من الاتصالات قام بها فؤاد سراج الدين. وأخيرًا نزل مائة وخمسون جنديًا إلى حديقة الأزبكية فى الساعة الخامسة مساء، ووزعوا على الشوارع، لكنهم لم يطلقوا الرصاص، ولما استفسر وزير الداخلية عن السبب علم أنه لابد من أمر كتابى من البوليس، فأعطى الأمر بالتليفون، ومع هذا لم يطلقوا الرصاص، وازدادت عدة القوات وبلغت خمسمائة، واستمرت على موقفها، ماعدا صدور بعض الطلقات التى كانت أكثرها فى الهواء، بينما النيران ظلت مشتعلة والسلب والنهب يأخذ مجراه، وتدريجيًا ومع الساعة الحادية عشرة مساء بدأت الأمور فى الاستقرار وخفت حدة النيران، وبذلك انتهى يوم السبت الأسود.

* والسؤال الذى يفرض نفسه من دبَّر مؤامرة حريق القاهرة؟



وقبل تتبع أصابع الاتهام وطرح الأبعاد المختلفة، نسجل أن الوزارة الوفدية كانت فى موقف لا تحسد عليه، وقد تمكن فاروق من أن يستصدر منها إعلان الأحكام العرفية حتى يحمِّلها مسئولية الأحداث، وهى لم تعارض واستسلمت لقدرها المحتوم، ويعلق السفير البريطانى فى القاهرة على هذا الإجراء بأنه يدل على المهارة، وأنه جاء بناء على نصيحته بالاتفاق مع زميله الأمريكى، وسرعان ما أقال الملك الوزارة فى اليوم التالى للحريق لتقصيرها فى استتباب الأمن.

أشارت أصابع الاتهام إلى فؤاد سراج الدين لتراخيه إزاء الأحداث على أساس أنه

لم ينج من البوليس بعض الشخصيات القريبة من الإنجليز والقصر وخاصة فى القلم السياسى، وأنه أعطى الفرصة للمظاهرات أن تشتعل، وأنه لم يغدق على البوليس رغم مواقفه الوطنية بعكس الحال بالنسبة للجيش، وأنه أخلى القاهرة من كبار ضباط الشرطة الذين حضروا وليمة غداء الملك، وأنه ألقى بالمسئولية يوم الحريق على قيادة الجيش، وأنه عقب إقالة الوزارة أعلن ضرورة اتباع سياسة التعاون مع وزارة على ماهر حتى لا تتخذ ضده أية إجراءات لتقاعسه يوم الحريق. أيضًا اتهم عبد الفتاح حسن بأنه حرَّض الجماهير على الشغب، واتفق مع أحمد حسين على تفجير المظاهرات عقب مذبحة الإسماعيلية، لكن لم تثبت صحة هذا الاتفاق. ورغم أن التآمر كان واضحًا فى الحريق، فإن الوزارة الوفدية قد اعترتها نقاط الضعف، تلك التى ساعدت على تدهور الأوضاع.

وأشارت أصابع الاتهام إلى أحمد حسين رئيس حزب مصر الاشتراكى نظرًا لنشاطه المتقد قبل الحريق، وأقر شهود العيان أنه كان فى هذا اليوم يتنقل فى شوارع القاهرة راكبًا سيارة «ستروين» يشجع المشاغبين، وأن نزعته الفاشية جعلته يتصور أنه هتلر الذى حرق الريخستاج، وبالتالى قبض عليه، ولم يجد النائب العام اتهامًا ضده، ولكن على ماهر أصدر أمرًا عسكريًا أدخله تحت الاتهام لحملته الصحفية قبيل الحريق، وصدر الحكم عليه للعيب فى الذات الملكية. ومن الملاحظ أن أحمد حسين قد انتشى لما حدث للقاهرة من منطلق أنه خطوة للتعبير عن السخط القائم، بالإضافة إلى أن الأماكن التى تعرضت للحريق هى ملك للرأسمالية الأجنبية، والكثير منها يرتبط بالمصالح البريطانية التى سبق أن هاجمتها صحيفة الحزب.

وأشارت أصابع الاتهام إلى فتحى رضوان زعيم الجناح الراديكالى فى الحزب الوطنى لما كتبه فى صحيفته، وقبض عليه يوم الحريق، كذلك اتجهت الأنظار إلى الجبهة المعارضة لحسن الهضيبى على أساس أنها قدمت المساعدات لحزب مصر الاشتراكى لمهاجمة المقاهى والحانات. أيضًا هناك من رأى أن اليهود قد اندست أيديهم فى الحريق لزعزعة ثقة الرأسماليين اليهود فى مصر، وبالتالى تصبح أبواب إسرائيل مفتوحة أمامهم. ومما يذكر ما تردد أن الضباط الأحرار اشتركوا فى الحريق ليكون ذلك فرصة للقيام بانقلابهم، ولكنهم بينوا فى منشورهم الذى وزِّع عقب الحريق أن نزول الجيش أحبط مؤامرات الخونة، ولا شك أنهم وجدوا بعد وصول الأمر لحرق القاهرة أنه قد حان الوقت لتنفيذ خطتهم.

وأشارت أصابع الاتهام إلى الشيوعيين واستخدامهم للشباب الاشتراكى فى الحريق، وأنه نظرًا لأن عدد الأخيرين غير كاف، اقتصر الحريق على أماكن محددة بالقاهرة. وتم القبض على عدد من الشيوعيين وأنصار حركة السلام، وراح فاروق يكيد لهم لدى السفير البريطانى فى القاهرة، ويبين أن هناك تورطًا للبعثات التابعة للسوفييت فى الأحداث.



وأشارت أصابع الاتهام إلى الملك الذى كان على يقين من قرب نهايته، فطغى فى تصرفاته، وانقلب على الوزارة الوفدية، وأجَّل إقالتها لعدم ملاءمة الظروف، لذا فقد قدم له حريق القاهرة الفرصة لتحقيق ما يصبو إليه. ومن المعروف أنه وقت بدء الحريق كانت هناك وليمة غداء فى القصر، دعا إليها فاروق ستمائة من ضباط البوليس والجيش ـ من أعلى الرتب إلى رتبة صاغ ـ بمناسبة ميلاد ولى العهد. ومن اللافت للنظر أن وزير الداخلية ووزير الحربية لم يدعيا لها، وأن الدعوة بُلِّغت تليفونيًا وليس عن طريق البطاقات وقبل يوم واحد من الميعاد المحدد واقتصرت على القاهرة فقط بهدف إخلائها من المدافعين عنها، كما أن العادة جرت على أن تكون الدعوة على العشاء. ولم يراع فاروق أحداث الإسماعيلية، ورغم رؤيته للمظاهرات فى ساحة عابدين، فإنه لم يلغ الدعوة أو يؤجلها. ومنذ البداية رفض تدخل الجيش لمدة ساعتين وربع، وعندما صدر الأمر الملكى بالتدخل حدث التلكؤ فى التنفيذ لساعات أخرى، وقيل إن السبب يرجع إلى عدم رغبة إقحام الجيش فى السياسة. ومن البديهى أن يخشى القصر تحكم الجيش فى الموقف لإمكانية حدوث ما لا تحمد عقباه خاصة مع نشاط الضباط الأحرار. أيضًا فقد لعب محمد إبراهيم إمام وكيل حكمدار القاهرة ورئيس البوليس السياسى دورًا لصالح القصر، إذ عاق الاتصالات. كذلك يجب أن نضع فى الاعتبار وجود حافظ عفيفى وعبد الفتاح عمرو بجوار فاروق وهما صناعة إنجليزية.

واستدعى فاروق السفير الأمريكى بالقاهرة ـ وكانت تربطه به علاقة طيبة ـ فى الساعة الرابعة بعد الظهر علَّه ينقذ الموقف، حيث لم يكن يتصور أن تتطور الأمور بهذه السرعة، وقد تملك القصر الرعب، ونقل السفير الأمريكى لزميله الإنجليزى انطباع الهلع، خشية امتداد الحريق للقصر، حتى لقد طلب الملك تجهيز طائرة هليوكوبتر لنقل ناريمان وطفلها إلى قصر القبة. وفى حديث لرئيس الديوان مع القائم بالأعمال البريطانى يذكر أن مصر أخذت طريقها إلى الثورة، وأنه لو قام المحتشدون باقتحام القصر، فإن ثورة ذات طابع كلاسيكى كانت قد قامت.

ومما يسجل أن العلاقة بين فاروق والإنجليز اتخذت وجهين إبان هذه الأزمة، الوجه الأول تمثل فى سخط الملك على الإجراءات الانتقامية التى اتخذتها بريطانيا فى منطقة القناة، وعدَّ تطور الأحداث يشكل خطرًا على عرشه، وصرح بذلك للسفير الأمريكى وطعن فى السياسة البريطانية وأمل فى المساعدة الأمريكية. أما الوجه الآخر فتمثل فى أنه عقد العزم على الاستعانة بالقوات البريطانية ليحتمى بها عند الضرورة، فبعث بأحد ضباطه إلى مقر الجيش المصرى فى طريق السويس ليرى مدى إمكانية تنفيذ تعليماته التى تتلخص فى وجوب مقاومة الجيش إذا تحركت القوات البريطانية إلى القاهرة قبل الميعاد، وألا يقاوم إذا خرجت الحالة تمامًا عن السيطرة. معنى هذا أنه رتب الأمور لإنقاذه وقت اللزوم، لكنه مع هذا كان يرتاب فى اقترانه بالحماية الإنجليزية التى لا أمان لها. وسرعان ما استعاد توازنه بعد إقالته للوزارة الوفدية، لكن ذلك لم يستمر طويلاً.

وأشارت أصابع الاتهام إلى المخابرات الإنجليزية، إذ وصل العداء قمته بين الإنجليز والوفد، ولم تكن الظروف القائمة لتسمح بتهديد الملك وإقالة الوزارة وفرض وزارة أخرى، لذا كان لابد من التحرك لإقصاء الوفد عن الحكم، ومما تجدر الإشارة إليه أن الولايات المتحدة الأمريكية واكبت الموقف البريطانى بشأن التخلص من الوزارة الوفدية التى مثلت حجر عثرة أمام نظام الدفاع عن الشرق الأوسط.

وأصبح لزامًا على بريطانيا ضرب الحركة الوطنية، وإعادة الهدوء إلى منطقة القناة، وإثبات أن بقاء قواتها على الأرض المصرية ضرورة لتتحرك فى الوقت المناسب لحماية مصر من الفوضى والشغب، وأنه مع الحريق يكون التشهير بها على أساس أنه غدا لاطمانينة على حياة الأجانب فيها، وأخيرًا الحصول على التعويضات المبالغ فيها، وإحراج مركز مصر الاقتصادى.



ووفقًا للتخطيط المتقن لتنفيذ الحريق، فإن اختيار توقيته وتحديد يوم السبت ظهرًا من المصلحة حيث عطلة نهاية الأسبوع للمنشآت، وفيما يختص بدور السينما تكون الحفلة الصباحية قد انتهت، كما أن الترتيب حصر رواد الترف كلوب ـ النادى الإنجليزى ـ فى عدد قليل من كبار السن، وجعل بنك باركليز ينقل دفاتره إلى فرع الموسكى قبيل الحريق الذى أُدخل تحته نادى محمد على ونادى السيارات الملكى وأوبرج الأهرام، وهى الأماكن المرتبطة بالملكية للإيحاء بأن الانتقام ينصب على مصالح كل من بريطانيا والقصر، إذ لم تخل أى من المظاهرات من الهتاف ضدهما. أيضًا فإن وقوع الحريق فى أماكن ذات ميادين واسعة وشوارع فسيحة يُسَهِّل من عملية التحرك السريع والهروب من البوليس، كذلك فإن البودرة المستعملة فى الحريق غير متوافرة إلا لدى الجيش، وبنزين الولاعات لا يوجد إلا فى شركة شل الإنجليزية. بالإضافة إلى ذلك التنظيم الدقيق والخطة المحكمة التى نفذت بها عملية الحريق وتمت فى وقت واحد وعلى وجه السرعة، ثم ما تبين بشأن بعض المشاركين أنهم يتكلمون اللغة الإنجليزية، وهنا يتبادر سؤال: هل من الممكن أن يكون هؤلاء من المنتمين إلى جماعة إخوان الحرية التى شكَّلها الإنجليز لاستقطاب بعض المصريين أثناء الحرب العالمية الثانية، وكانت تمولها المخابرات الإنجليزية وسبق اتهامها فى حريق كنيسة السويس قبل اثنين وعشرين يومًا من حريق القاهرة وطبق عليها قرار حكومى بالحظر؟



وعلى جانب آخر، فإن السفارة البريطانية بالقاهرة وجهت الاحتجاج للحكومة المصرية، متهمة السلطات الرسمية بالتواطؤ والتستر، وألقت اللوم على الملك الذى تباطأ فى إنقاذ الموقف، وفى الوقت نفسه فإنها تؤيده فى اتهامه للشيوعيين وحزب مصر الاشتراكى. ومن الملاحظ أن فاروق لم يلتق بالسفير البريطانى إلا بعد ثلاثة أيام من الحريق حتى لا يثير المصريين، مما أقلق الأخير الذى كرر اتصاله برئيس الديوان يوم الحريق، وراح يذكر للندن أنه إذا لم يكن فى مقدرة الجيش المصرى حماية الرعايا البريطانيين، فسيكلف القائد العام البريطانى بالتحرك واتخاذ ما يراه مناسبًا للموقف، وتوافق وزارة الخارجية البريطانية على ذلك.

وبالفعل فقد وردت مسألة إعادة احتلال القاهرة، ولكن تتابع مراسلات السفير البريطانى لحكومته وتصويره عودة الهدوء بعد إعلان الأحكام العرفية قد أقصى ذلك الأمر، وتعكس الوثائق البريطانية الارتياح الذى بدا واضحًا على المسئولين الإنجليز لإقالة وزارة الوفد.

وعلى أية حال فرغم أن الملابسات تشير إلى أن الحريق تدبير إنجليزى، فإن الوقائع لا تكشف إلا مجرد قرائن ينقصها الدليل القاطع.

والواقع أن حريق القاهرة شأنه فى ذلك شأن أحداث تاريخية لم يتم التوصل إلى حقيقة أمرها بعد، والباب مازال مفتوحًا للبحث والتنقيب. ومما لاشك فيه أن المناخ المفعم بالانفعالات قد سيطر عليه الغضب الذى اتقدت جذوته لينعكس على هذه النهاية. وبصفة عامة فإن الطريق الذى أوصلنا لحريق القاهرة كانت عليه علامات تشير إلى أن الانهيار آت وقريب، حيث تهاوت القوى السياسية الموجودة بعد أن أصابها الوهن، وعندما احترقت القاهرة احترقت معها دعامات النظام القائم الذى لم يتمكن من الصمود أكثر من ستة أشهر، إذ سرعان ما بزغ على القاهرة فجر جديد مع يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

قراءة جديدة للكواكبي في:

"طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"

حسن حنفي

الاستبداد في الفكر العربي المعاصر

إن قراءة الفكر العربي لذاته هي في نفس الوقت تجديد له، ربط للماضي بالحاضر، والحاضر بالماضي بعد ما يقرب من قرن من الزمان. فقد تغيرت الظروف، منذ فجر النهضة العربية الإسلامية الأولى في القرن الماضي إلى ردة هذا القرن وربما فجر النهضة العربية الإسلامية الثاني في مطلع القرن الجديد. فقد اكتملت الدورة الأولى في الفكر العربي الحديث على مدى قرنين. وبدأت الدورة الثانية للفكر العربي المعاصر بداية بهذا القرن. وإذا كان الاستعمار الغربي هو الدافع على النهضة الأولى فإن الصهيونية الاستيطانية في فلسطين هي الدافع على النهضة الثانية.

وإذا كان تحرير الأرض، ومقاومة الاستعمار والصهيونية كان هو الغالب على النهضة الأولى فإن الدفاع عن الحرية والديمقراطية، حرية الفرد وديمقراطية الحكم، هو الغالب على النهضة الثانية. كان مشروع الأفغاني الإصلاحي، الإسلام في مواجهة الاستعمار في الخارج والقهر في الداخل. فقد تحقق النصف الأول منه في النهضة الأولى، وما زال الفكر العربي المعاصر يحاول تحقيق النصف الثاني منه في النهضة الثانية بالرغم من صعوبة المخاض والأزمة الراهنة، غياب الرؤية والعجز، وذلك باستثناء بعض الدول مثل ماليزيا وإيران والمقاومة في جنوب لبنان وفي فلسطين والشيشان وكشمير..




وقضية الحرية والديمقراطية ليست مجرد نظم ملكية أو عسكرية تجعل الحكم وراثة أو شوكة، وليست مجرد قوانين استثنائية مقيدة للحريات، وأحكام عرفية، وقوانين طوارئ، وأجهزة أمن وتجسس، واعتقالات وسجون، وتزييف للانتخابات، وتأليه للفرد، فلا فرق بين الله والسلطان في الوعي السياسي، وتعددية حزبية شكلية لحساب الحزب الحاكم أو حزب واحد حاكم يستبعد كل أشكال التعددية وتداول السلطة. القضية أصعب من ذلك بكثير، إذ تمتد جذورها إلى عمق الموروث الثقافي بعد أن ترسخ في الثقافة الشعبية وأصبح جزءاً من الوعي القومي. فأزمة الحرية والديمقراطية في واقعنا المعاصر إنما تمتد جذورها إلى الموروث الثقافي في الوعي القومي، وما تبقى فيه من تصور هرمي أومركزي أو رأسي للعالم، يعطي الأعلى ما يسلبه من الأدنى. الأعلى يأمر والأدنى يطيع كما هو معروف في الثنائيات التقليدية الموروثة التي تحدد العلاقة بين طرفين، بين الأعلى والأدنى وليس بين الأمام والخلف، في محور رأسي وليس في محور أفقي، مما ساعد على خلق المجتمع الأبوي الممثل في شخصية «سي السيد». ولا يعني ذلك إغفال باقي العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فهناك تفاعل بين العوامل المادية والمكونات الثقافية في الوعي الفردي والوعي الجمعي، في ثقافة الفرد والتصور الجماعي للعالم.

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

ومن المساهمات الأولى في رصد هذه الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديمقراطية في الوجدان العربي المعاصر «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» لعبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢). وهو من أجمل العناوين وأكثرها دلالة في الفكر العربي الحديث والمعاصر. يتجه مباشرة نحو الموضوع، الحرية والديمقراطية في صيغته النافية، الاستبداد والاستعباد. يجمع بين النظر والعمل، بين البحث عن طبائع الاستبداد والبحث عن مصارع الاستعباد أي طرق التخلص منه. وهو بحث في الماهيات أي في الجذور والطبائع أكثر منه بحثاً في الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية. هو بحث فلسفي وليس بحثاً اجتماعياً. محررها وليس مؤلفها الرحالة «ك» وليس المفكر والمصلح والعالم الكواكبي. فالرحالة هو الذي يستمد فكره من تجاربه ومشاهداته وليس من المصادر المدونة القديمة. والرمز «ك» يعني أن أي رحالة قادر على الوصول إلى نفس النتائج بوصفها خبرة جماعية مشتركة، وربما حماية لنفسه وتسترا من حكام الطغيان، «وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان». ويعترف هو بهذين المصدرين، «منها ما درسته ومنها ما اقتبسته». ولا يشير إلى مصدر الاقتباس بل يكتفي بذكر «المؤرخين المدققين»، «المدققين»، «المدققين السياسيين»، «العلماء الأثاريون»، «بعض الحكماء»، «أحد المحررين السياسيين»، «المحررين»، «أهل النظر في أحوال البشر»، «المتأخرون من أهل أوروبا»، «المتأخرون من الشرقيين»،... إلخ، ولكن الكواكبي يعيد قراءة الوافد لإعادة توظيفه في تنظيره المباشر للواقع، وكان الوافد الخارجي يصف الواقع المحلي، لا فرق بين واقع أوروبا وواقع الشرق. فالاستبداد واحد، لا فرق بين أباطرة أوروبا وقياصرتها وبين خلفاء بني عثمان. لا فرق بين الآخر والأنا. لا يقصد حكما بعينه بل قصد فقط تنبيه الغافلين عن الجذور التاريخية للداء الدفين.

والكتاب مصدر ببيت شعري وشطر أو بشعر منثور يدل على أنه كلمة حق وصيحة في واد، مثل يوحنا المعمدان. إن ذهبت اليوم مع الريح فإنها في الغد تكون ريحاً قادرة على اقتلاع أوتاد الطغيان.

والكتاب يشمل مقدمة وتسعة عناوين أشبه بالأبواب والفصول. فبعد البسملة والحمدلة تشير المقدمة إلى ظروف تأليف الكتاب وأنه من أواخر مؤلفاته عام (١٣١٨هـ - ١٩٠٠م). نشره مقالات في بعض الصحف المصرية في عهد عباس حلمي الثاني، ولا ضير في مدحه أسوة بالقدماء، ربما طبقاً للقول المأثور «وداوني بالتي كانت هي الداء». ثم تم جمعه في كتاب متوجها إلى الناشئة العربية المعقود عليها آمال الأمة. لذلك أتى الأسلوب سهلاً، والفكر واضحاً، أشبه بالمقال الصحفي منه بالبحث الفلسفي، وبالخطاب العام للناس منه إلى الخطاب الخاص للمتخصصين «وإني تخيرت أن أتكلم في هذه المواضيع إجمالاً واقتضاباً على أسلوب شبيه بالخطابة».

كما تضع المقدمة الكتاب في علم السياسة الموجود لدى كل الأمم المتمدينة وهو علم شامل يضم فنون التاريخ والأخلاق والأدب والحقوق. برز فيه الرومان الجمهوريون أجداد الإيطاليين الحاليين. وكتب فيه غريغوريوس اليوناني رسائله. وفي فارس كتبت «كليلة ودمنة» سياسية أخلاقية. وفي الثقافة الإسلامية «نهج



عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، الأعمال الكاملة، مع دراسة عن حياته وآثاره

بقلم: محمد عمارة،

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ ص ٣٢٨ - ٤٣٨

البلاغة» و«كتاب الخراج» بين الدين والسياسة. وواضح قلة معلومات الكواكبي في التراث السياسي الإسلامي الذي يتجاوز ما ذكر بكثير.

ويضع علماء الإسلام في القرون الوسطى مع أنهم عاشوا في الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي الأول طبقاً لتحقيبها الخاص خارج تحقيب الحضارة الغربية. ألف فيه علماء الإسلام ممزوجاً بالأخلاق مثل الرازي والطوسي والغزالي والعلائلي كما كان الحال عند الفرس، وممزوجاً بالتاريخ عند ابن خلدون وابن بطوطة على طريقة المغاربة.

ويسمى علماء الإسلام في عصر الإصلاح الديني في نهاية الفترة الثانية من الحضارة الإسلامية، عصر الشروح والملخصات والموسوعات الكبرى، وبداية الثالثة، المتأخرين من الشرقيين في تركيا الذين لهم تأليف في علم السياسة مستقلة وممزوجة مثل أحمد جودت باشا، وكمال بك، وسليمان باشا وحسن فهمي باشا. والعرب قليلون مقلون باستثناء رفاعة بك، وخير الدين باشا التونسي، وأحمد فارس، وسليم البستاني، والمبعوث المدني. فالأتراك كانوا في دولة الخلافة، والعرب كانوا في الأطراف. هذا بالإضافة إلى ما كتبه العرب في الصحف والمجلات.

أما المتأخرون من أهل أوروبا أي المتأخرين بالنسبة للحضارة الإسلامية والمحدثين بالنسبة للغرب فهم الذين توسعوا في علم السياسة وألفوا فيه المجلدات الضخمة دون أن يذكر أسماء المؤلفين أو المؤلفات.

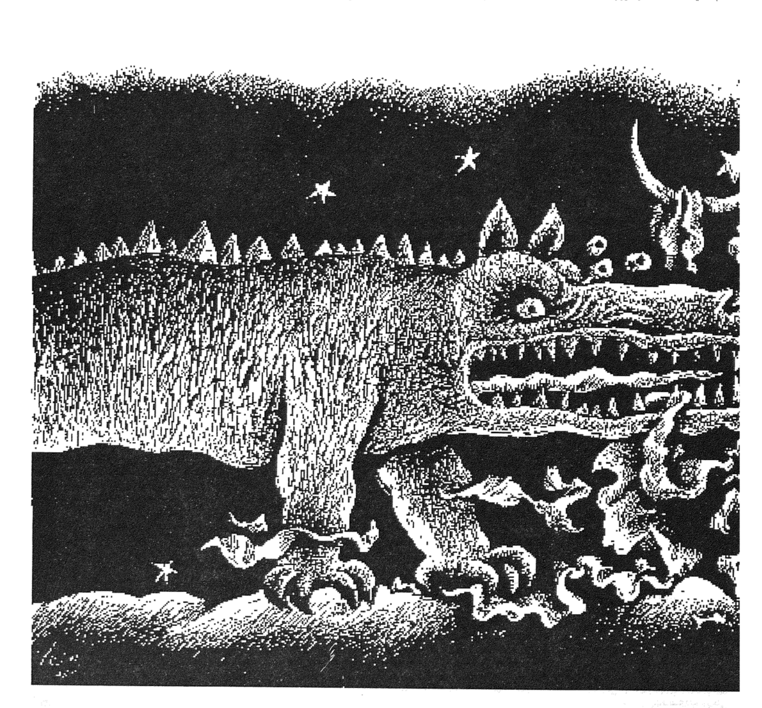
وتبدأ مباحث الموضوع على نحو تساؤلي حول طبيعة الاستبداد، وأن المستبد شديد الخوف، واستيلاء الجبن على رعية المستبد، وأثر الاستبداد على الدين والعلم والمجد والأخلاق والتربية والترقي والمجد والمال، وأعوان المستبد ومن يتحمل الاستبداد وكيفية التخلص منه واستبداله.

ولا توجد إجابات واحدة لهذه الأسئلة. بل تتعدد الإجابات تشخيصاً للداء واقتراحاً للدواء عند فريقين: أهل النظر والكلام: المادي، والسياسي، والحكيم، والحقوقي، والرباني. وأهل العزائم: الأبي، والشهم، والمتين، والفدائي (المفادي). فعند المادي الداء القوة والدواء المقاومة. وعند السياسي الداء استعباد البرية، والدواء استرداد الحرية. وعند الحكيم الداء القدرة على الاعتساف، والدواء الاقتدار على الاستنصاف، وعند الحقوقي الداء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغليب الشريعة على السلطة، وعند الرباني الداء مشاركة الله في الجبروت، والدواء توحيد الله حقاً. أما أهل العزائم، فعند الأبي الداء مد الرقاب للسلاسل، والدواء الشموخ عن الذل، وعند الشهم الداء التعالي على الناس باطلاً، والدواء تذليل المتكبرين، وعند المتين الداء وجود الرؤساء بلا زمام، والدواء ربطهم بالقيود الثقال، وعند الفدائي الداء حب الحياة والدواء حب الموت.

ما هو الاستبداد؟

الاستبداد لغة هو الاستئثار بالرأي دون مشورة. ويقصد به استبداد الحكومات خاصة، وعند السياسيين هو تصريف فرد أو جماعة في حقوق الناس بلا خوف تبعة أو مساءلة. وله ألفاظ مشابهة مثل: استعباد، اعتساف، تسلط، تحكم. وتصبح صفات لأشخاص مثل: مستبد، حاكم بأمره، حاكم مطلق، ظالم، جبار، أما المستبد بهم فهم أسرى، أذلاء، مستصغرون، وفي مقابل الألفاظ المرادفة للاستبداد هناك شرع مصون، حقوق محترمة، حس مشترك، حياة طيبة. وفي مقابل صفات المستبدين، عادل، مسئول، مقيد، دسقورس. وفي مقابل المستبد بهم محتسبون، أباة، أحرار، أحياء.

والاستبداد معنى صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شئون الرعية كما تشاء بلا حساب أو عقاب أو قيد. وأشكالها كثيرة، الغلبة أو الوراثة



"طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"

وربما الدستور الذى لا ينفذ. وتشارك كلها فى غياب الرقابة والمحاسبة (يضرب المثل بخلافة عثمان بن عفان، والجمهورية «الحاضرة» فى فرنسا فى مسائل النياشين وبنما ودريفوس). ولم تستمر حكومة مدنية مسئولة أكثر من نصف قرن باستثناء الحكومات فى إنجلترا بسبب يقظة الإنجليز والحكومات البدوية التى تهرب عشائرها فى حالة الضيم (يضرب المثل بملوك تبع وحمير وغسان التى لم تعرف حكم الاستبداد).

وقد صور الحكماء المتأخرون المستبد على أنه يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم. يرى الرعية كالغنم لا يود منها إلا الطاعة والتذلل والتملق. هو عدو الحق والحرية يتجاوز الحد لأنه لا يرى حاجزاً أمامه. وهو مستعد بالفطرة للخير والشر، والرعية تتركه للشر وتتنازل عن دورها فى دفعه نحو الخير.

وربما كان تعريف الاستبداد فى حاجة إلى مزيد من التحليل النفسى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى والقانونى والأيديولوجى. ربما آثر الكواكبى ترك ذلك فيما بعد فى فصوله السبعة التالية عن الدين والعلم والمال والأخلاق والتربية والمجد والترقى. ومع ذلك فالمستبد لديه عقدة نفسية، إحساساً بالضعف يتحول إلى قوة، وعقدة نقص تتحول إلى عقدة عظمة كما هو الحال فى القاتل الذى لا يستطيع قتل ذبابة. وينتمى إلى طبقة اجتماعية دنيا يعوضها بالصعود السريع إلى الطبقة العليا عن طريق الاستبداد. وهو عقائدى يمتلك الحقيقة المطلقة، يرى فى استبداده خلاص الناس من حكم البشر تحقيقاً للحاكمية وتطبيقاً للشريعة الإسلامية. فهو المهدى المنتظر الذى سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وهو الفقير الذى يريد أن يتحول إلى غنى عن طريق الاستبداد وليس عن طريق الكسب المشروع. وهو الذى يريد أن يشرع للاستبداد بالقانون. فالتحليل اللغوى والنظرى لا يكفى لتحديد الاستبداد وظروف نشاته.



عبد الرحمن الكواكبى



صور الحكماء المتأخرون المستبد على أنه يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم. يرى الرعية كالغنم لا يود منها إلا الطاعة والتذلل والتملق

الاستبداد والدين

وهو الاستبداد الدينى. ويعتمد الكواكبى هنا على مادة وافدة من الغرب، رأى المحررين السياسيين من الإفرنج على نشأة الاستبداد السياسى من الاستبداد الدينى أو على الأقل العلاقة بينهما، وهو رأى صائب فيما يتعلق بالدين التاريخى القديم كاليهودية والمسيحية، فى القسم التاريخى من التوراة والرسائل المضافة إلى الإنجيل. وهو غير صائب فى الجوانب التعليمية الأخلاقية فى الديانتين. فالدين يدعو البشر إلى الاستسلام لقوة هائلة تعلم كل شىء، وتقدر على كل شىء، ويخافها البشر. ثم يقوم المستبد السياسى على هذا البناء النفسى للدين ويتمثل الله بحيث لا يعود فرق بين الله والسلطان وقد حدث ذلك فى فرنسا وفى روسيا. قصر المستبد هو هيكل الخوف. والملك الجبار هو المعبود، وأعوانه هم الكهنة. ومكتبته المذبح المقدس. والأقلام هى السكاكين. وعبارات التعظيم هى الصلوات. والناس هم الأسرى الذين يقدمون القرابين.

ثم جاءت البروتستانتية فكانت دفعا نحو الحرية أكثر من الكاثوليكية. فالإصلاح الدينى شرط الإصلاح السياسى. لذلك ازدهرت الديمقراطية فى إنجلترا التى تبنت أحد فروع البروتستانت وهى الإنجليكانية.



وقد بدأ حكماء اليونان ذلك من قبل حين بشروا بعقيدة الشرك فى الألوهية لمقاومة الاستبداد السياسى. فهناك صلة بين تعدد الآلهة عند اليونان كما هو الحال فى الأساطير وبين الديمقراطية عند اليونان. وقد استمد اليونان هذه التجربة من الآشوريين الذين أخذوها من المصريين. فللعدالة إله، وللحرب إله وللبحار إله، وللأمطار إله توزيعا لقوى الألوهية على أكثر من إله، وإله الآلهة الحكم بينهم حين الخلاف والترجيح بين آرائهم. وقد تم التعبير عن ذلك بصور أدبية ساحرة وأساليب بلاغية بديعة حتى اشرأبت النفوس بها مما سهل بعد ذلك على الجبابرة التنازل عن جبروتهم لأن ما يحدث فى السماء أولى أن يحدث على الأرض. وانصاع الملوك مكرَهين. وقامت مدن أثينا وإسبرطة على هذا الأساس. وسارت اليونان مسار الرومان، وازدهرت ديمقراطية الرومان. وكل نظم جمهورية أو ملكية مقيدة إنما ترجع إلى هذا العهد القديم.

ومع ذلك فالتشريك بالرغم من فائدته العملية إلا أنه باطل نظرياً. وضرره أكثر من نفعه. لذلك قاومه الدين، اليهودية والنصرانية والإسلام، فى التوراة والإنجيل والقرآن. فقد فتح التشريك باباً للمشعوذين ومدعى الألوهية. وبدلاً من أن يكون وسيلة للقضاء على الاستبداد السياسى أصبح وسيلة لتشريعه باسم الدين، وأضفى على السلطان صفات الألوهية فافسدت إسرائيل التوحيد بتأليه بعض الأسباط الملوك والأحبار. وأفسد النصارى التوحيد بتعظيمهم وتقديسهم الرهبان والقدّيسين بل وتأليه المسيح وأمه، والوقوع فى التشبيه والتجسيم بدلاً من فهم لغة الأبوة والنبوة فهما مجازياً. وبدأ ذلك بولس فى رسائله ويوحنا فى رؤيته وإنجيله ورسائله. وهو ما لاحظه النقاد الغربيون للكتب المقدسة والنقاد المسلمون مثل ابن حزم وابن تيمية فى تطور العقيدة النصرانية.

ولا ينطبق ذلك على القرآن فى رأى الكواكبى بل ربما على الممارسات العملية للمسلمين حكاماً ومحكومين. ومع ذلك من السهل على المستبد إيهام العوام بأنه لا فرق بين صفات الله وصفات السلطان، بين الفعال المطلق والحاكم بأمره. كلاهما ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، بين المنعم وولى النعم، بين جل شأنه وجليل الشأن. بل لقد ادعى بعض المستبدين الألوهية وتصوروا أن الله هو المستبد الأعظم، والاستعانة بالدين على ظلم المساكين. فالدين «أفيون الشعب» (والنماذج من أبناء داود، وقسطنطين، وفيليب الثانى الإسبانى، وهنرى الثامن الإنجليزى، والحاكم الفاطمى، والسلاطين الأعاجم المنتصرين لغلاة الصوفية).

لذلك جاء الإسلام ليجعل من عقيدة التوحيد وليس التشريك أساساً نظريا للحرية والشورى، بين الديمقراطية والارستقراطية. ومارسه الخلفاء الراشدون وبعض حكام المسلمين بعدهم مثل عمر بن عبد العزيز والمهدى العباسى ونور الدين الشهيد. فكانوا نماذج للحكم الذى يقوم على الحرية والعدالة، والمساواة بين الحاكم والمحكوم فى الرأى والنصيحة وفى الكسب والمال جمعاً بين الحرية والاشتراكية. والقرآن مملوء بالآيات ضد الاستبداد، إحياء للعدل والمساواة وإعطاء نماذج من قصص الأنبياء، بلقيس وقومها وموسى وفرعون. وهناك آيات مباشرة تحض على الشورى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتحذر من الاستبداد فى الرأى. كما نبه الحديث على ذلك.

ثم ترك المسلمون أصول دينهم وأخذوا أقوال غيرهم، واقتبسوا مقام البابوية واحترام الأعاظم وطاعة الكبراء طاعة عمياء، وقاموا مقام البطارقة والكردينالية والأسقفية، وحاكوا مظاهر القديسين والرهبان. وقلدوا رجال الكهنوت، وشاركوا مراسم الكنائس وزينتها. وتبركوا بالأثر، وقالوا بالحلول. ووقعوا فى الأشكال والرسوم والقرابين والموالد، والأعلام والنياشين. بل وحذروا من آيات بعينها وأحاديث بعينها تحض على مقاومة الظلم والاستبداد كما أخفى النصارى واليهود آيات من الإنجيل والتوراة. وجاءوا من المجوسية باستطلاع الغيب من الفلك، والتعامل مع الكواكب خشية أو طمعاً. ولفقوا من الأساطير والإسرائيليات علوماً «لدنية»، الهدف منها استعباد الناس. وقد حدث نفس الانحراف عند اليهود والنصارى. وصاغوا عقائد فى الاختيار والتثليث لا أصل لها فى الإنجيل والتوراة مستمدة من نواميس المصريين الأقدمين والأساطير والآثار والألواح الآشورية. وكلها تؤدى إلى الاستبداد. ومع ذلك ظل القرآن حافظاً لشعور المسلمين من قبول الاستعباد وحاثاً لهم على الحرية والجهر بالحق.

وبدلاً من هذا الموقف الدفاعى وتجريم التاريخ كان يمكن البحث فى علم العقائد عن الجذور النظرية للاستبداد مثل التصور الهرمى والمركزى والرأسى والتراتبى للعالم الذى يجعل العلاقة بين طرفين الأعلى والأدنى وليس التصور الأفقى للعالم الذى يجعل العلاقة بين طرفين بين الأمام والخلف، بالإضافة إلى إعطاء الأولوية للقضاء والقدر على حرية الاختيار، وللطاعة للإمام على

الخروج على الحاكم الظالم، ولحديث الفرقة الناجية على التعددية الفكرية وحق الاختلاف.

الاســـــتــــبـــــداد والعلم

وهو الاستبداد العقلى. ولقد قاوم الاستبداد العلم، واضطهد المستبدون العلماء نظراً لما يمثله العلم من حرية الرأى. فكما أن الاستبداد ضد الدين فإنه أيضاً ضد العلم. وكما كفَّر المستبدون المفكرين الأحرار اضطهدوا العلماء أصحاب النظر العلمى الحر كما حدث فى موضوع إعجاز القرآن الذى اقتصر على البلاغة أو الإخبار بالغيب دون التطرق للإعجاز العلمى. فالقرآن متجدد فى فهمه مع الزمان والحدثان. وكل ما فيه برهان عيان لا مجرد تسليم وإيمان.

لقد كشف العلم فى الغرب الحديث حقائق موجودة فى القرآن تصريحاً أوتلميحاً منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، مستورة لا يدركها أحد، مثل أن مادة الكون هى الأثير التى وصفها القرآن فى بدء التكوين، وأن الكائنات فى حركة دائبة، وأن الأرض سبع، وأن لولا الجبال لترنحت الأرض، وأن التغيير فى التركيب الكيماوى ناشئ عن اختلاف النسب والمقادير، وأن فى الجماد حياة، وأن الإنسان ترقى من الجماد، وأن ناموس موسى اللقاح فى الذباب، بالإضافة إلى التصوير الشمسى، وتسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء، ووجود المكروب وتأثيره على الأمراض.



والحقيقة أن موضوع الإعجاز العلمى للقرآن قد استشرى فى الفكر العربى المعاصر كجزء من مشروع أسلمة المعرفة. وهو يؤدى إلى عكس ما يهدف إليه الكواكبى، حث الدين على العلم. فهو يبدأ من العلم الغربى الذى اكتشفه غير المسلمين بمناهج تجريبية خالصة والنظر فى الطبيعة كما فعل علماء المسلمين الأوائل. ثم يكتفى بقراءة القرآن من خلاله انتقاء. فالفضل للغير، العالم وليس للمؤول للقرآن. وأين كان المؤولون لآيات الإعجاز قبل أن يكتشف علماء الغير قوانين الطبيعة؟ ألا يعتبر ذلك الاستحواذ على جهد الغير وفضله؟ وماذا يفعل المؤولون للآيات إذا ما تغير العلم هل يتغير التأويل، ومن ثم يتم ربط القرآن الثابت بالعلم المتغير، ويصبح الأصل فرعاً والفرع أصلاً؟ ألا يؤدى ذلك إلى وهم المسلمين بأن لديهم العلم سلفاً فيتبلدون فى حين يبحث علماء الغير فى مظاهر الكون فيتيقظون؟ ولا تنفع نظرية التسخير، أن الله سخر للمسلمين الغربيين لخدمتهم. الغرب يبدع العلم فى الدنيا دون بغية الآخرة. والمسلمون ينقلون العلوم عن الغرب المسخر لهم بغية الآخرة. فالغرب له نصف الحقيقة، الدنيا، والمسلمون لهم الحقيقة كلها، الدنيا والآخرة! وقد كان موقف العلماء والقدماء من المسلمين هو موقف علماء الغرب حالياً، النظر فى الطبيعة ومعرفة قوانينها. وكان العلم العربى الإسلامى فى بدايات عصر النهضة الأوروبى أحد مصادر نهضة العلم الأوروبى الحديث.

وبعد هذا الاستطراد عن الإعجاز العلمى للقرآن يعود الكواكبى إلى معارضة المستبد لنور العلم وبحث العلماء حتى لا تستنير الرعية فتثور على الاستبداد السياسى، وتبقى فى جهلها فتطيع وتستكين . بل إن المستبد يخشى علوم اللغة لأنه يعلم أن دواء اللسان عقل ودواء اللغة فكر. كما لا يخشى المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لأنها اغتراب للناس خارج العالم مع أن المعاد قادر على تحرير الوجدان من الخوف من الحاضر والاتجاه نحو المستقبل وطلب الشهادة، فإن أعظم شهادة كلمة حق تقال فى وجه حاكم ظالم. إنما يخاف المستبد من العلوم النظرية ومنها العلوم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التى تدفع إلى حرية الفكر، ومن العلوم العملية المتعلقة بعلوم الحياة والكون والحقائق التى لا يمكن للمستبد تغييرها. الاستبداد والعلم إذن ضدان. لذلك يخشى المستبدون العلماء لأن العلم من الله. إذ يعرف العلم أن الحرية أفضل من الحياة. لذلك خشى المستبدون فى الشرق من العلماء حتى من قول «لا إله إلا الله» وفهم معناها، تحرر الوجدان الإنسانى من كل قيد، والإعلان عن الحق فى مواجهة الباطل، والعدل ضد الحكم. فالشهادة بالقول تعنى الشهادة بالفعل. ولا فرق بين الشاهد والشهيد.

المستبد عاشق للخيانة والعلماء أعداؤه. وهو سارق مخادع والعلماء منبِّهون محذِّرون. له سيئاته التى لا يفسدها عليه إلا العلماء المصلحون. يبغض المستبد العلم لسلطانه على النفوس وزعزعة طاعتها للحكام والبحث عن الحقائق المستقلة عن آرائهم وسلطانهم. الاستبداد ضد الحرية والعلم يقوم على حرية البحث والنظر. لذلك كان العوام قوام المستبد نظراً لميلهم إلى التقليد والتبعية وتأليه الحكام. فيذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل. ولا شك أن خوف المستبد من رعيته أشد من خوف الرعية من بأسه فى حين يأمن العادل قومه ويأمنه (مثل المستبد نيرون وتيمور، ومثل العادل أنوشروان وصلاح الدين). ونظراً لخطورة الخوف فى الديانات الثنوية القديمة فقد أقيم له هيكل لعبادته اتقاء لشره. وكلما ضعفت السياسة فى أمة عظمت القصور ومراسم التشريفات وأبهات السلطة والصولجان. ويبدو ذلك فى لغات الأمم. فتكثر ألفاظ التعظيم فى الفارسية وتقل فى العربية.

الاســـــتــــبـــــداد والمال

وهو الاستبداد الاقتصادى عن طريق قوة المال. فالمال كل شىء: القوة مال، والعقل مال، والعلم مال، والدين مال، والنبات مال، والجاه مال، والترتيب مال، والاقتصاد مال. فالمال كل ما لدى الإنسان من قدرة على الفعل. المال عند الاقتصادى ما ينتفع به الإنسان، وعند الحقوقى ما يجرى فيه المنع والبذل، وعند السياسى ما تستعاض به القوة، وعند الأخلاقى ما تحتفظ به الحياة الشريفة. (بعد تعريف الاستبداد يعقد الكواكبى مقارنات بين الاستبداد من ناحية والدين والعلم والمجد والمال والأخلاق والتربية والترقى تباعًا قبل الاستبداد والتخلص منه. وآثرنا تغيير الترتيب بعد الدين والعلم وتقديم المال ثم الأخلاق والتربية وتأخير المجد قبل الترقى حتى يبدو العرض أكثر ترابطًا من الدين والعلم إلى المال إلى الأخلاق والتربية إلى المجد والترقى).

وإذا كان النوع الإنسانى لا يأكل بعضه بعضا إلا أن الإنسان أكل لحم أخيه الإنسان حتى أتى حكماء الصين والهند فأبطلوا أكل اللحوم كليّاً. ثم أتت الشرائع الدينية الأولى بتخصيص القربان للمعبود أو للنيران. وافتدى به إبراهيم إسماعيل، واستعاض عنه المسيح بالخبز داخل الكنائس وليس خارجه. وما زال أكل لحم الإنسان موجوداً عند بعض القبائل الزنجية. ثم أتى الاستبداد ليحيى هذا الأثر القديم وأحياها بصورة أدهى وأمر. فقد جعل البشر، أعداء وأصدقاء، طعمة للظالمين وامتصاص حياة الزراع والعمال، وأكل ثمار الغير، واغتصاب الأموال والجهد والعمل. فلا فرق بين أكل لحوم البشر فى الماضى ونهب الأعمار وإزهاق الأرواح وسلب العمل إلا فى الشكل. فالاستبداد الاقتصادى من صاحب رأس المال للعامل صورة من صور الاستبداد السياسى. علاقة الغنى بالفقير هى علاقة القوى بالضعيف، علاقة الظالم بالمظلوم. ولا فرق بين استبداد الرجال واستبداد النساء، نصف البشر.

ويتعاون رجال الدين ورجال السياسة ورجال الاقتصاد على استبعاد البشر. ويستولى ما لا يزيد على ١٪ من البشر على مقدرات وإيرادات وأرزاق ٩٩٪ منهم ترف وإسراف فى جانب، وفقر وضنك فى جانب آخر. وينضم إلى رجال الاقتصاد التجار والمحتكرون ضد الزراع. ويستعمل الاستبداد الاقتصادى كل القيم الإنسانية بما فى ذلك الجمال للإثراء لصالح رب المال والجمال والاتجار بأعراض الناس وأجساد النساء كما هو الحال فى تجارة الجنس(وهو ما فعلته كاترين كما يروى المؤرخ كريستوفر بحمل النساء على الخلاعة فى المراقص حتى هب الشباب للعمل للإنفاق عليهن وضاعفت خزينتها فى خمس سنوات).

الاستبداد بسلب أموال الناس وحقوقهم غصبا باسم تشريعات باطلة ومن ثم كان حفظ المال فى أيدى الناس أصعب من كسبه.

والاستبداد مقرون بالثروة، فالأغنياء أصدقاء المستبدين. لذلك يعظم الذل فى الثروة. ذل الأغنياء للمال، وذل الفقراء للأغنياء.

وقد وردت كثير من الأمثال العامية والأقوال المأثورة بمدح المال فهو يحل المشكلات، والطريق إلى العز. ومع ذلك فإن للمال آفات كثيرة على الحياة الشريفة مثل الترف والسرف. فزيادة المال عن الحاجة بلاء.

وبالرغم من أهمية المال والثروة فى نهضة الأمم، فالاقتصاد عصب الدول إلا أن الزهد فى المال قيمة. فالغنى غنى القلب (يستشهد الكواكبى بحديث «اسألوا الله الكفاف من الرزق» وبحديث «لو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى أن يكون له واد آخر»). والفقير من استغنى عن الناس. ولا يعنى ذلك التباطؤ فى الكسب بل رعاية الطرق الشريفة والحاجات الأساسية الضرورية للحياة الإنسانية. فلا أفضل من إنسان يأكل من عمل يده.

والمال نعمة من الله فاض بها على الطبيعة ولا يملك أحد تخصيصها لنفسه إلا بعمل أو بمقابل. فالعمل مصدر الرزق. والجهد تعويض عن الكسب. والتمول أى الادخار جزء من طبيعة الإنسان والحيوان على السواء وقت الحاجة وساعة القحط أو الجوع كما هو الحال فى قصة يوسف.

وتنتظم المعيشة بالاشتراك العمومى الذى جاء به الإسلام فى القرون الأولى. فالحكم الإسلامى ديمقراطى اشتراكى. وهو ما عم بعد ذلك فى العالم المتمدن الإفرنجى، وتدافع عنه الجمعيات التى تطالب بالمساواة والتقارب فى الحقوق والأحوال المعيشية بين البشر ضد استبداد المال وتراكم الثروات. وهو ما حاولته الشريعة الإسلامية من خلال أنواع الزكاة، جزءا من أربعين من رؤوس الأموال، يفيض من الأغنياء إلى الفقراء. أما الأراضى الزراعية فملك للأمة وليست للأفراد، يستفيد منها عامة المسلمين وليس أغنياؤها فقط. هذا بالإضافة إلى الصرف على المحتاجين من العوض والدية والتكفير عن الذنوب. ومصادر بيت المال من خراج وعشور تصرف على جموع الأمة، الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وفى الرقاب والعاملين عليها. ولذلك ثلاثة شروط. الأول إحراز المال بوجه مشروع حلال مقابل عمل وجهد. والثانى عدم التضييق على حاجات الغير مثل احتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو امتلاك الأراضى (حمى إيرلاندا ألف مستبد



قراءة جديدة للكواكبى فى:

"طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"

مالى من الإنجليز ليتمتعوا بثلثى أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرات الملايين من البشر. وهو أيضًا حال ريف مصر. ولا يختلف عن ذلك سكان لندن على أرصفة الطرقات وهى من الأمم المتمدنة. لذلك لا تجيز الصين أن يمتلك شخص واحد أكثر من مقدار معين، خمسة أفدنة، واقتدت روسيا فى ولاياتها بالصين).

والثالث عدم تجاوز المال قدر الحاجة لأن الإفراط فى الثروة مهلكة. الفوائد القليلة على الأموال تشجيع للاستثمار. أما الربا الفاحش فاستغلال للضعفاء والمحتاجين. ليس الدافع على الاستثمار الطمع أو الربح بل تحقيق المنافع العامة. وإن ثروة بعض الأفراد فى الحكومات العادلة أضر بكثير منها فى الحكومات المستبدة لأنهم يصرفون الأموال لإفساد الأخلاق فى حين أن المستبدين يعرفونها فى مظاهر الأبهة والعظمة إرهاباً للناس. وتزول الثروة عندما يغتصبها الأقوى أو عندما تندلع ثورات الاشتراكيين أو حتى الفوضويين.




وهناك فرق بين الاستبداد الغربى والاستبداد الشرقى. الاستبداد الغربى يجمع بين الاستبداد السياسى والاقتصادى، ويعين الأمة على الكسب. لذلك كان أحكم وأرسخ مع بعض اللين. فى حين أن الاستبداد الشرقى سياسى خالص لا يدفع الناس إلى الكسب. لذلك كان سريع الزوال. إذا زال الاستبداد الغربى فإنه يكون لصالح الحرية والعدل. وإذا زال الاستبداد الشرقى فلصالح استبداد آخر. لذلك تفوق الغرب باستمرار، وسار الشرق فى مكانه فى دورة أبدية.

كان يمكن تحويل هذه الاشتراكية الأخلاقية التى تقوم على الزكاة والصدقات والكفارات إلى اشتراكية علمية تقوم على الملكية العامة لوسائل الإنتاج، وتحديد سياسة الأجور طبقا للجهد العضلى، ومنع تجميع رؤوس الأموال فى أيدى القلة. بل إن تحليل لفظ المال لغوياً يبين أنه ليس جوهراً أو اسماً يشير إلى مسمى فى الخارج بل هو مصدر مركب من «ما» اسم صلة و«ل» حرف جر مما يبين أن المال علاقة، وأن الملكية وظيفة اجتماعية، فالمالك له حق التصرف والانتفاع والاستثمار ولكن ليس له حق الاستغلال أو الاحتكار أو الاكتناز.

الاستبداد والأخلاق

والاستبداد ليس فقط دينيًا أو عقليًا أو اقتصاديًا بل هو استبداد أخلاقى نظراً لأثر الاستبداد فى أخلاق المستبد وفى أخلاق المستبد بهم على نحو سلبى. فالمستبد به يكفر بالأخلاق وبالقيم التى يمارسها المستبد والتى يعينه الناس عليها حتى المستبد بهم. يفقد حب وطنه وأهله، ويضعف ولاؤه لأمته. لا يحرص على بقاء شىء. وقد يتعود على الاستبداد فيصبح كالحيوان المطيع لصاحبه لا فرق فى ذلك بين شباب وشيوخ.

يسلب الاستبداد المستبد راحته الفكرية ويحيله إلى شقى ثقيل الهم حتى أنه يفقد التمييز بين الخير والشر. فيستولى الاستبداد على العقول الضعيفة خاصة عقول العامة من خلال





فى الاستبداد يغيب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة والنقد للحكام ومراجعته. لذلك أطلقت الأمم الحرة حرية الرأى والتعبير فى المطبوعات والمجالس النيابية للرقابة على المسئولية والحكام



مظاهر الأبهة والعظمة التى يحيط المستبد بها نفسه. فتشوش عليها الحقائق، وتغيب عنها البديهيات. فالاستبداد قادر على قلب الحقائق فى الأذهان، واستعمال الأديان لتبريره مع أن وظيفة الحكومات خدمة الناس وتحقيق مصالحهم. قد يوحى الاستبداد بحسنات له مثل تحقيق المنفعة، وحسن الإدارة، وسرعة التنفيذ، وطاعة الأوامر، وتليين الطباع، ويدفع على احترام الناس بعضهم لبعض. والحقيقة أن ذلك يتحقق قهراً لا طوعاً، وجبراً لا اختياراً، وعن اضطرار وليس عن طبيعة.

وإذا كان العدل فى أخلاق البشر يقوم مقام العناية فى إنماء الشجر يكون الاستبداد مفسدة للأخلاق لأن الاستبداد قضاء على القوانين، وتحكم بالإرادة الفردية. بل إن الحيوان يخضع لقانون الغاب. لذلك سلب الفقه الرقيق إرادته الحرة وجعله تابعاً لمولاه. لا يخضع الاستبداد لنظام أو عقل أو منطق بل لمطلق الإرادة التى تجعل الحسن قبيحاً والقبيح حسناً، مرة اشتراكية ومرة رأسمالية. ويجبر الناس على التبرير طبقاً لإرادة المستبد وليس طبقاً للحسن والقبح فى ذاتهما.

فى الاستبداد يغيب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة والنقد للحكام ومراجعته. لذلك أطلقت الأمم الحرة حرية الرأى والتعبير فى المطبوعات والمجالس النيابية للرقابة على المسئولية والحكام. وقد وضع القرآن التشريعات لحماية هؤلاء المحتسبين دون أن يذكر الكواكبى نظام الحسبة فى الإسلام ويعنى الوظيفة الأساسية للحكومة الإسلامية.



وإذا كانت الخصال أولاً حسنة طبيعية كالصدق والأمانة والهمة والمدافعة والرحمة وقبيحة طبيعية كالرياء والعدوان والقسوة، وثانياً خصالاً كمالية مثل العفو وتقبيح الطمع وهو ما يدركه العقل ويحث عليه الشرع، وثالثاً خصالاً اعتيادية وهو ما يكسبه الإنسان بالوراثة أو التربية أو الألفة فإن الاستبداد من النوع الثالث الذى يأتى اكتسابا من الناس وتعودا عليه ولا يتفق مع العقل والنقل أو مع الضرورة والاختيار. وإذا ساءت الأفعال ساءت الظنون فالفلاح فى الشرق يأمن الإفرنجى فى معاملته ويثق بوزنه وحسابه ولا يأمن بنى جلدته. والإفرنجى إذا تعود على الخيانة فإنه يأمن الشرقى ولا يأمن ابن جنسه. وهى تفرقة أصولية بين الضروريات والحاجيات والتحسينات يوظفها الكواكبى فى تصنيف الفضائل الخلقية.

وفى الاستبداد تقل مشاركة الناس فى إدارة شئونهم، وتقل المشاركة فى الحياة العامة. والمشاركة من أعظم أسرار الكائنات ويقارن الكواكبى بين أخلاق الشرقيين والغربيين فى المشاركة تحت الوهم الشائع أن الشرقيين أقل مشاركة من الغربيين (يستثنى الكواكبى من ذلك اليابانيين والبوير). وهو موضوع الاستبداد الشرقى الشهير الذى تعرض له فلاسفة الغرب خاصة مونتسكيو. يرجعه البعض إلى الجهل أو عدم التعاون أو المرض أوعدم التمسك بالدين أو فقدان الحرية السياسية.

الغربى قوى النفس شديد المعاملة ولكنه حريص على الاستئثار والانتقام، مادى النظرة. لم يبق من مبادئ المسيحية لديه شىء. الجرمانى جاف الطبع لا يعتبر الضعيف جديراً بالحياة. يجعل الفضيلة فى القوة، والقوة فى المال. العلم من أجل المال، والمجد من أجل المال. واللاتينى مطبوع على العجب والطيش. يرى العقل فى الأخلاق، والحياة بلا حياء، والشرف فى الزينة، والعز فى الغلبة.

وأهل الشرق أديبون يغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب واتباع الوجدان والعواطف والفتوة والقناعة. ومع ذلك يتهاون فى المستقبل. ويقلد الغربى. والعجيب أن يغلب على الشرقيين الاستبداد وهم جماعة تقلل من تسلط الفرد، ويغلب على الغربيين الحرية وقيمهم تقوم على الفردية التى تسمح بظهور الفرد والزعامة الفردية. فى الشرق جماعة بلا رقابة على الحكام، وفى الغرب أفراد تراقب الجماعة سلوكهم طبقاً للعقد الاجتماعى. فى الشرق نبوة وولاية وزعامة، وفى الغرب حكمة وعقد ومراجعة. وهى مقابلات شائعة فى الفكر الغربى فى القرن التاسع عشر أثناء انتشار النظريات العنصرية ومحاولات تحديد خصائص الشعوب.

وقد سلك الأنبياء فى إنقاذ الأمم مسالك عدة منها تحرير الوجدان الإنسانى من تعظيم أحد إلا الله أو الإذعان لسواه، وحث البشر على التمسك بنور العقل وحرية الإرادة من أجل القضاء على الاستبداد العقلى والإرادى. وقد تابع الحكماء السياسيون الأقدمون الأنبياء لتحرير الضمير الإنسانى من الاستبداد عن طريق التربية وتهذيب الأخلاق. أما المتأخرون الغربيون فقد آثر البعض منهم تحرير البشر من الدين إلى فضاء العقل والطبيعة، فالفطرة كافية للنظام، والعلم المتحرر من تبرير الدين كما كان الحال فى الحضارات القديمة المصرية والآشورية أو المنحصر فى طبقة الأشراف عند الغرناطيين والرومان أو عند النخبة من الشبان فى الهند واليونان القادرة على ذلك. ثم جاء الإسلام وأطلق حرية العلم للجميع وانتقل إلى أوروبا فساعدها على التحرر.

لقد ساعدت الظروف الحكماء الغربيين على اختصار الطريق. بدءوا مستبدين وانتهوا متحررين. ومن حكمائهم من لم يغال وبتطرف فى رفض الدين وجعله المصدر الأول للاستبداد بل أصلحوا الدين لإصلاح الأخلاق وتغيير المجتمع. وما أحوج الشرق إلى مثل هؤلاء الحكماء بوذيين ومسلمين ومسيحيين ويهود. لا يبالغون أو يتطرفون، ويصلحون الدين دون رفضه أو إبقائه على ما هو عليه عن طريق التعليم والتربية من أجل تغيير الوضع القائم حتى تظل الأمم الشرقية فى التاريخ ولا تنقرض كما انقرض الآشوريون والفينيقيون.

الاستبداد والتربية

إذا كانت الأخلاق هى الفضائل النظرية فإن التربية هى تهذيب الأخلاق أى الأخلاق العملية، وتحويل الفضائل النظرية التى يضعها العقل والفطرة إلى سلوك يومى وممارسات عملية. التربية علم وعمل. والعمل بالنية والعزم المسبق.

فقد خلق الله فى الإنسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد طبقاً للحديث الشهير (إنما الأعمال بالنيات). فالتربية عامل مساعد للفطرة. يصعد إلى مرتبة الملائكة أو يهبط إلى مستوى الحيوان. وهذا هو معنى الأمانة التى حملها الإنسان ورفضت السماوات والأرض أن يحملنها وحملها الإنسان، الاستعداد للنمو نحو الكمال والنقص، نحو الخير أو الشر، إلى الحرية أو إلى الاستبداد. الإنسان كالغصن الرطب إما أن ينمو مستقيماً أو يميل على جنبه فيعوج.

والاستبداد أسوأ وسيلة للتربية. يؤدى إلى إفساد الفطرة بدنًا وروحًا ويورث البدن

الأسقام، والروح توقف العقل عن النماء. التربية والاستبداد عاملان متضادان. ما تبنيه التربية يهدمه الاستبداد.

والتربية ملكة تحصل بالتعلم والتمرين والعقيدة والاقتباس. أهم أصولها وجود المربين، وأهم فروعها الدين كوازع سياسي والمثابرة على العمل. والاستبداد ريح صرصر عاتية، يفسد الدين في أهم ركيزته وهي الأخلاق، ويبقى على العبادات لأنها تلائمه، حركات طاعة ورموز خضوع لا تفيد في تطهير النفوس، لا تنهى عن منكر ولا تأمر بمعروف. فاستولى الاستبداد على النفوس، لا فرق بين الله والسلطان، ورد الفعل عليهما بالكذب والخداع والرياء والنفاق أو الخوف والانزواء والانطواء حتى يصبح كالأسير الأليف والحيوان المستأنس مع حاكمه ومع ربه.

تربية الجسم في السنتين الأوليين وظيفة الأم، وحتى السابعة وظيفة الأبوين، والانتقال من العقل إلى البلوغ وظيفة المعلمين والمدارس، ثم تربية القدوة بالأقربين والخلطاء إلى الزواج وظيفة الصدفة، ثم تربية المقارنة وهي وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق. فهناك خمس مراحل للتربية لكل منها مربٍ طبقاً لمراحل العمر.

ليست التربية مجرد جهد فردي أو جماعي محدود بل هي تربية اجتماعية سياسية. إذ إن التربية الفردية تخضع للهيئة الاجتماعية والقانونية والسياسية.

والحكومات المنتظمة هي التي تتولى تربية الأمة. وهي التي تنشىء قوانين النكاح، وتفتح بيوت العطاء، وتقيم المدارس للتعليم الإلزامي، وتسهل الاجتماعات وتشيد المسارح، وتؤسس المنتديات، وتقيم المكتبات والمتاحف والنصب التذكارية، وتسن القوانين للمحافظة على الآداب والحقوق، وتسهر على حفظ العادات القومية واحترام الملة. تقوى الآمال وتيسر الأعمال، وتؤمن العاجزين، وتكرم الرواد. ومن ثم يحيا المواطن مطمئناً في حياته ومماته، وتحيا الأمة بحياة مواطنيها ورضاهم عنها. أما النظم المستبدة فهي غنية عن التربية لأنها أشبه بنظم الأحراش في الغابات التي لم تهذبها يد بشرية.

يعيش الإنسان في ظل العدل والحرية، نشيطاً على العمل، راضياً بأعماله، سعيداً بآماله، ناجحاً كان أم أقل نجاحاً. أما أسير الاستبداد فيعيش خاملاً خامداً ضائع القصد حائر الاتجاه، لا فرق بين حياته وموته. يشعر بآلام الأسر كما يشعر المستبد بلذة القوة والاستبداد. فيلجأ إلى الدين والتعويض في السعادة الأخروية مع أن الدنيا ممر الآخرة.

وقد عبرت الأمثال العامية والأقوال المأثورة عن ذلك والتي تحبذ الخمول، وتبرر المصائب (وذلك مثل: «الدنيا سجن المؤمن»، «المؤمن مصاب»، «إذا أحب الله عبداً ابتلاه»، «هذا شان آخر الزمان»، «حسب المرء لقيمات يقمن صلبه»). مع أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ضد الكسل والبطالة والهروب إلى الآخرة فراراً من الدنيا (مثل: «إن الله يكره العبد البطال»، «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها»).



وقد وقع نفس الشيء عند اليهود والنصارى، واقتبسوا من التوراة والإنجيل آيات تبرر الظلم والخضوع للسلطان. والنص صريح على رفض الظلم (من التوراة: «يد الله على قلب الملك»، ومن الانجيل «اخضعوا للسلطان ولا سلطة إلا من الله»، «الحاكم لا يتقلد السيف جزافاً. إنه مقام للانتقام من أهل الشر». وفي الرسائل «فلتخضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله». ومن الوعظ الإسلامي الحكومي «السلطان ظل الله في الأرض»، «الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه»، «الملوك ملهمون». والآيات الصريحة في رفض الظلم مثل ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

الاستبداد يضطر الناس إلى إباحة الكذب والتحايل والخداع والنفاق والتذلل وهي أخلاق عبيد السلطة. ويتربون على ذلك في المدارس. صحيح أن لمستوى المعيشة بين الغنى والفقر دخلاً في التربية ومع ذلك يظل عامل الحرية أو الاستبداد هو الأقوى. فالمستبد به كالنائم المزعوج بالأحلام، لا يعلم شيئاً من العالم المحيط به. فالتربية الصحيحة غير مقصودة ولا مقدورة في ظلال الاستبداد إلا تخويفاً من الظالمين. والإقناع خير من الترغيب والترهيب. والمدارس تقلل الجنايات لا السجون. والقصاص قلما يفيد في العقاب. والقصاص في الإسلام يعني المساواة وليس العقوبة. تهدف التربية إلى إعداد العقل المتميز وحسن التفهم والإقناع والتمرين والتعود، وحسن القدوة والمثال، والمواظبة والتمادي.

الاستبداد والمجد

الاستبداد أصل كل فساد وأثر سيىء في كل واد. يفسد الدين والعقل والمال والأخلاق والتربية. يفسد الطموح والسعي إلى العلى، ويحوله إلى تكبر وتسلط وطغيان. يحول المجد إلى تمجد. المجد مطلب طبيعي شريف لا يترفع عنه نبي أو زاهد. يعبر عن السعي نحو الأكمل والأفضل. وهو من الجد والاجتهاد والسعي الدءوب، تحمل الأمانة والمسئولية تحقيقاً لغاية الإنسان في الحياة. يسعد الإنسان به. ويلتذ بها الساعي له مثل عظم لذة العبادة لله والعلم للحكماء على جميع أنواع المباهج الدنيوية. والمجد أفضل من الحياة. فالحياة بلا مجد خمول وكسل، وقنوع ويأس. المجد مفضل على الحياة عند الأحرار، والحياة مفضلة على المجد عند المستبد بهم وهو ما خلط على ابن خلدون حتى حين فضل الحياة على الإقدام على الخطر. لهذا استشهد أئمة آل البيت وفضلوا المجد على الحياة. كما أن الحيوان يرفض التناسل وهو في الأسر في قفص. فلا يتكاثر إلا إذا كان حرّاً طليقاً في الطبيعة.

ويتطلب المجد البذل والتضحية في سبيل الجماعة، بتعبير الشرقيين في سبيل الله أو الدين، وبتعبير الغربيين في سبيل الإنسانية أو الوطنية طبقاً لظاهرة التشكل الكاذب، التعبير عن نفس المعاني بألفاظ مختلفة من الموروث أو الوافد. وتكون التضحية بالمال، وهو مجد الكرم أقل أنواع المجد أو بذل العلم النافع وهو مجد الفضيلة أو بذل النفس وهو مجد النبالة أعلى أنواع المجد، المجد على الإطلاق، مجد النفوس الكبيرة.

والتمجد نقيض المجد. هو صفة الإرادات المستبدة والمتعاونين معهم، أصحاب الألقاب وحملة النياشين. وقد يؤدي إلى دعوة الألوهية أي خداع العامة. المتمجدون أعداء العدل وأنصار الجور للتغرير بالأمة وسوقها، مستعملاً أعوانه الذين مثله بعد إغرائهم بالمناصب والمراتب. يعتمد المتمجد على دعوة الأصالة وتعني الشرف والرتبة والعائلة والقبيلة والأصل الوراثي والنسب. وليس معناها الحالي الدفاع عن الهوية. وهي ثلاثة أنواع: بيوت العلم والفضيلة، وبيوت المال والكرم، وبيوت الظلم والإمارة وهو أكبر الأقسام. فالحكم الوراثي غير شرعي لأنه يقوم على أصالة الأجداد، الأصالة بهذا المعنى القبلي جرثومة البلاء، تستر وراء العظمة الوراثية والأبهة الحالية. وهو ما أدانه القرآن صراحة بإدانة الإسراف والترف وتداول المال بين القلة (وهي آيات مثل: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾).

المستبد الذي يضع التاج على رأسه والصولجان في يده والعبيد حوله بالمراوح يرى نفسه إلهاً. والرعية مبهورة بمستبدها مسحورة ببهائه. وكل ذلك أوهام.



والاستبداد عام وشامل في الحكم وفي المجتمع، في الدولة والمؤسسات من الحاكم إلى الشرطي إلى الفرّاش إلى الكنّاس. كل أعلى يستبد بالأسفل منه. والناس على دين ملوكهم.

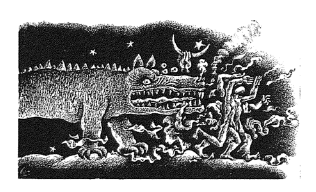
ويشهد العقل والتاريخ أن المستبد الأعظم في الأمة هو اللئيم الأعظم فيها. ولما كان حريصاً على ظلم الناس فإنه يستعمل أعواناً من جنسه لتكوين عصابة الاستبداد.

ويجهل المستبد أن الناس أعداؤه لظلمه وأنه لا يأمن على نفسه وحياته من الثورة ضده. كما لا يأمن الوزير من صولة المستبد الذي فوقه أو المستبد به الذي تحته. وزير المستبد هو وزير المستبد الأعظم وليس وزير الأمة مهما تشدق بالرغبة في الإصلاح ورعاية مصالح الناس. وهو لا أخلاق له ولا ضمير. المستبد لا يستصنع إلا الأراذل والأسافل وخربي الذمم بالرغم من ندم البعض منهم. وفي الحقيقة أن المستبد فرد عاجز، لا حول له ولا قوة إلا بالمتمجدين طلاب المناصب والرتب. والأمة الأسيرة لا يفك أسرها إلا العقلاء الأحرار.

الاستبداد والترقي

إذا كان المجد هو طلب الرقي الذاتي والسعي نحو العمل فإن الترقي هو التقدم في التاريخ. فالحركة سنة الكون، صورة الألوهية، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. والحركة في التاريخ نوعان، تقدم ونكوص، إقدام وإحجام على نحو أفقي. وهو ما يسعى إلى أعلى وإلى أسفل نهضة وسقوط، قيام وقعود على المستوى الرأسي. وهو صريح بنص القرآن والحديث.

والترقي على أنواع: ترقي في الجسم، وهو الترقي البدني. وترقي في العائلة والعشيرة، وهو الترقي الاجتماعي، والترقي في القوة بالعلم والمال وهو الترقي الاقتصادي، والترقي في الملكات بالخصال والمفاخر وهو الترقي



الثقافي والحضاري. وهناك ترق آخر بالروح، والشوق إلى المعاد. ونقيض هذه الأنواع كلها ما سمي بالقضاء والقدر، وهو عجز طبيعي ناتج عن الاستبداد. وإذا كان القدر مرة لصالح الترقي ومرة ضده فإن الاستبداد هو الطريق إلى الانحطاط والتأخر والفناء. بل يدفع إلى طلب التسفل دون الرفعة. الترقي والانحطاط حركتان جدليتان حتى في الحيوان مثل الاندفاع والانقباض. وهو ما عناه القرآن بابتلاء الإنسان بالخير والشر. هو جدل الإيجاب والسلب، المزاحمة والتدافع في الحياة.

والمستبدون بهم لا حراك فيهم، منحطو الإدراك والإحساس والأخلاق. هم أشبه بسكان القبور، لا أموات ولا أحياء، شقاء مريد، بعيداً عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة، نوم ويأس، غباء وجهل، فقدان الثقة بالنفس وضياع الحزم، ندب وبكاء، حرص على الراحة، وتباطؤ في السعي، رضى وخنوع، وإلقاء المسئولية على الأقدار، سجود لغير الله، وقبول للتفاوت بين الناس وهم أكفاء، انحناء وخضوع، ذل وخنوع، وقد خلق الناس جميعاً إخواناً أسوياء. هذا بالإضافة إلى الخوف والخشية وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهر بالحق والشهادة وباقي أركان الإسلام دعوة للتحرر دون الخنوع.



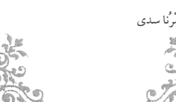
من شعر «صلاح عبد الصبور»

ولد صلاح عبدالصبور فى ٣ مايو ١٩٣١ بالزقازيق وحصل على ليسانس الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٥١، بدأ حياته مدرساً ثم عمل فى «روزاليوسف» و«الأهرام» ثم انتدب مديراً للنشر بوزارة الثقافة وعمل مستشاراً ثقافياً بالسفارة المصرية فى الهند عامى ١٩٧٧ و١٩٧٨ ثم رئيساً لهيئة الكتاب.

حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٥ ثم جائزة الدولة التقديرية للآداب عام ١٩٨١، وقد ألَّف للمكتبة العربية أكثر من عشرين كتاباً، منها ٦ دواوين شعرية، منها «الناس فى بلادى» و«أقول لكم» و«أحلام الفارس القديم» و«إبحار فى الذاكرة»، أما مسرحياته الشعرية فمنها «مأساة الحلاج» و«مسافر ليل» و«ليلى والمجنون» و«الأميرة تنتظر» و«بعد أن يموت الملك». . وهو أحد روّاد حركة الشعر الحديث ومؤسس مدرسة الشعر الحر فى مصر. توفى فى ١٤ أغسطس ١٩٨١.

ثلاث صور من غزة

يا أيها الصغارْ
عيونُكُمْ تحرقنى بنارْ
تسألنى أعماقُها عن مطلعِ النهارْ
عن عودة إلى الديار
أقول . . يا صغارْ
لننتظر غداً
لو ضاع منا الغد، يا صغارُ
ضاعَ عُمْرُنا سدى



إن لم تكن الأمة مسئولة عن نفسها حريصة على حريتها استبدت بها أمة أخرى كما هو الحال فى الوصايا على السفيه المقررة فى الشرائع. والله لا يظلم الناس بل الناس أنفسهم يظلمون

والوحدة قوة باسم الاتحاد الوطنى كما هو الحال فى الغرب أو الإخاء الدينى كما هو الحال فى الشرق. الرباط فى الغرب جنسي وليس مذهبياً، سياسى وليس دينيّاً، نقداً مبطناً للدولة العثمانية التى يتشاحن فيها الأعاجم والأجانب. والحل هو الأمة والوطن. ولماذا يكون العربى أشد استخفافاً بأخيه العربى من الغربى وقد أصبح دينه المال وغايته الربح؟ الغربى أقوى من الشرقى علماً وثورة ومنعة. لذلك تكون له السيادة الطبيعية إذا واطن الشرقيين. الغربى يعرف كيف يسوس. فاستعمر الأرض، واستوطن الشرق، ولا يريد الخروج منه (مثل الروس مع البولنديين والتتار، والهولنديين فى الهند، والروس فى قازان، وفرنسا فى الجزائر، والإنجليز فى بلاد العرب). فى حين بقى المسلمون فى الأندلس وتركوا وراءهم العلم والعمران. فلماذا يكون الشرقى أقل من الغربى؟ السبب لأنه يقبل الاستبداد الذى يؤدى إلى الخمول والموت («نحن ألفنا الأدب مع الكبير، ولو داس رقابنا، ألفنا الثبات، ثبات الأوتاد تحت المطارق، ألفنا الانقياد ولو إلى المهالك، ألفنا أن نعتبر التصاغر أدبا، والتذلل لطفا، والتملق خصاصة، والكهنة رزانة، وترك الحقوق سماحة، وقبول الإهانة تواضعاً، والرضا بالظلم طاعة، ودعوى الاستحقاق غروراً، والبحث عن العموميات فضولاً، ومد النظر إلى الغد أملاً طويلاً، والإقدام تهوراً، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقاحة، وحرية الفكر كفراً، وحب الوطن جنوناً»).

هناك أمم عادلة فى التاريخ (مثال ذلك: الجمهورية الثانية للرومان، الخلفاء الراشدون، أنوشروان، عبد الملك الأموى، نور الدين الشهيد، بطرس الكبير). وفيها يكون الحكام أمناء على سلامة الأبدان والاعتناء بالشئون العامة، والحريات الفردية، والرقابة على السلطة، والحقوق العامة، وتطبيق العدل، والحفاظ على الأموال، ورعاية القيم والشرف. يتحقق الترقى فى التاريخ بأصول الحكومات المنتظرة فى وجه الاستبداد. القوة للشرع ولا نفوذ إلا نفوذ الشرع. الشرع هو حبل الله المتين. والأمة رقيبة على حسن تطبيقه كما تشهد بذلك الآيات مثل ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾.

ونظراً لرغبة الكواكبى فى الجمع بين النظر والعمل، بين البحث العلمى والممارسة السياسية فقد ساد «الاستبداد والترقى» الأسلوب الخطابى، فى الشخص الثانى المخاطب الجمع بحيث أصبح الخطاب الفلسفى أشبه بالخطبة السياسية للاستنهاض. ومع ذلك فإنه يكشف عن بداية التحول من المجتمع الدينى إلى المجتمع المدنى، ومن العثمانية إلى الوطنية.

التخلص من الاستبداد

لا توجد أعظم من مدرسة التاريخ الطبيعى والعمومى. ولا برهان أقوى من الاستقراء للتعرف على وسائل التخلص من الاستبداد. فلقد عاش الإنسان دهوراً طويلة لا يعرف نظاماً إلا الشيوخ الأكثر خبرة أو الأقوى بنية، فى حالة البداوة، عشائر وقبائل، يقرر بنفسه بما له من احترام عند الآخرين أو باستشارة حكماء القبائل فى نظام إدارى بسيط وقواعد قضائية قليلة، تحكم بالحدس والوجدان. وهو ما سماه ابن خلدون «البدو».

عاش النصف الآخر فى قرى ومدن فظهرت الطبقات الاجتماعية، الغنى والفقير، والسياسية، الرئيس والمرؤوس، مما استلزم أشكالاً متطورة من الحكومات درسها الغرب الحديث بعد أن مارستها الإنسانية قبله. وانقسمت الأمم إلى أحزاب سياسية تختلف فيما بينها فى كيفية تطبيق أشكال الحكومات، بديهية فى الغرب، غامضة فى الشرق.

والاستبداد هو الحكم الذى لا توجد بينه وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم. ولا عبرة فيه بيمين أو عهد أو دين وتقوى أو حق وشرف أو عدالة ومقتضيات المصلحة العامة.

ويتطلب ذلك عدة مباحث تدور حول محاور ستة: الأمة، والحكومة، والحقوق، والوظائف، والقوانين، والخدمات، وأهمها الحكومة أو الحكم الذى به يتعلق الاستبداد.

أولاً: الأمة والفرق بينها وبين الشعب. هل هى ركام مخلوقات أو جمعية عبيد لمالك متغلب، أم جمع يربطه الجنس والوطن وحقوق مشتركة؟

ثانياً: الحكومة، هل هى تسلط على الرقاب تفعل ما تشاء أم وكالة سياسية عن الأمة لإدارة شئونها العامة؟ وما نوعيتها، الملكية المطلقة أم المقيدة، ونوع القيد أو الرياسة الانتخابية مدى الحياة أو موقوتة؟ هل تنال بالوراثة أو العهد أو الغلبة؟ وهل يتحدد ذلك بالمصادفة أم بالكفاءة وشروطها؟ وما وظائف الحكومة، إدارة شئون الأمة حسب الرأى والاجتهاد أو تكون مقيدة بقانون يعبر عن رغبات الأمة؟ وما العمل إذا اختلفت الحكومة مع الأمة فى اعتبار الصالح فهل الأمة فوق الحكومة؟ وما هى حقوق الحاكمية، تخصص الحكومة لنفسها ما تشاء من مراتب العظمة ورواتب الحال، تهب

قراءة جديدة للكواكبى فى:

"طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"



وتمنع ما تريد أم طبقاً لوكالة الأمة؟ وهل تطيع الأمة الحكومة على الإطلاق أو عن طريق الإقناع حتى تاتى الطاعة اختياراً وعن رضى؟ وهل هناك رقابة على الحكومة من الأمة أو وكلائها، أم أنها غير مسئولة تفعل ما تشاء. وكيف يتم رفع الاستبداد، من الحكومة ذاتها أم من عقلاء الأمة؟

ثالثا: الحقوق العمومية لمعرفة هل الحكم ملك أم أمانة ونظارة على الأملاك العمومية مثل الأراضى والأنهار والسواحل والمعادن والقلاع والجيوش والمعاهدات وتأمين وظائفها؟ هل تتصرف فيها الحكومة بإرادتها أم هناك مساواة فى الحقوق بين الناس، فصائل وبلداناً وأدياناً؟ وهل تملك الحكومة السيطرة على الأعمال والأفكار أم أنها جزء من الحقوق الشخصية تدخل فى إطار حرية الفكر؟

رابعاً: وظائف الحكومة ومهامها فى وضع الضرائب بإرادتها المطلقة أم بمشاركة إرادة الأمة؟ وإعداد المنعة، بالقوة والتجنيد الإجبارى والتسليح ضد العدو الخارجى أولقهر الأمة وضد رغبتها؟ والحرص على الأمن العام مسئولية الأفراد أو الحكومة نيابة عنهم؟ وهل يتم توزيع المناصب على أقارب الحاكم ومعارفه أو على كافة القبائل والطوائف بحيث تكون الحكومة جزءاً مصغراً من الأمة دون ذكر الكفاءة والقدرة والأهلية؟ وهل تجتمع السلطات السياسية والدينية والتعليمية فى سلطة واحدة أم يتم التفريق بين السلطات؟

خامساً: القانون وحفظ السلطة فيه بحيث لا تكره الحكومة الناس خارج القانون، وتأمن العدالة القضائية بحيث لا يكون العدل ما تراه الحكومة بل ما يراه القضاة. هل حفظ الدين والآداب للحكومة أم للقضاء، ودور الحكومة فى حفظ الجامعات الكبرى كالدين والجنسية واللغة والعادات والآداب العمومية دون أن تتدخل الحكومة فى أمر الدين ما لم تنتهك حرمته، وتعيين الأعمال بقوانين وحدود وسلطة الشرطة والتزامها بالقانون، وطريقة سن القوانين، تعبيراً عن إرادة الحاكم أو جماعة منتخبة من قبل الأمة. وهل القانون هو حكم القوى على الضعيف أم أحكام يتساوى أمامها جميع الناس بصرف النظر عن الطبقة، وله احترامه وسلطانه على الجميع.

سادساً: تيسير الخدمات العامة مثل التوسع فى الزراعة والصناعة، وإلى أى حد يمكن تركه للقطاع الخاص أم للقطاع العام بلغة العصر؟ والتوسع فى العمران وإلى أى حد تتدخل الحكومة فيه ومراعاة الاعتدال فيه دون بذخ وإسراف؟ والترقى فى العلوم والمعارف ودور الحكومة فى ذلك ونسبته إلى المبادرات الخاصة، وهل يكون التعليم جبراً أم اختياراً فرضاً من الحكومة أم حرّاً مطلقاً؟

وفى مبحث رفع الاستبداد يضع ثلاث قواعد: الأولى كون الأمة التى لا يشعر أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية. والثانية أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم بالحكمة والتدرج، وتغير إحساسات الناس وأمزجتهم، وإلا وقعت الفتن. ومن يدرى ربما يكون الثوار الجدد أشد استبدادا من المستبدين القدماء. ولا يثور العامة ضد المستبدين إلا فى حالات مخصوصة، مشهد دموى لمظلوم، هزيمة المستبد فى الحرب، إهانته للدين، أزمة اقتصادية خانقة، مجاعة عامة، نقض لقوانين البلاد الموروثة، تضييق ينتهى بمشاركة النساء فى الثورة عليه، موالاته للعدو. والثالثة تهيئة البديل عن الاستبداد قبل مقاومته ولا يكون بديلاً على الإجمال بل برنامجاً تفاصيلياً يقتنع به الناس موافقاً لرأى الأغلبية التى عانت من الاستبداد. بالإضافة إلى وضوح الغاية وسهولة الاتصال (وقد كانت صعوبة الاتصال بين أنصار على أحد أسباب عدم نجاحه ومن والاه من أئمة آل البيت). فما هو شكل الحكومة البديلة عن الاستبداد؟

إن لم تكن الأمة مسئولة عن نفسها حريصة على حريتها استبدت بها أمة أخرى كما هو الحال فى الوصايا على السفيه المقررة فى الشرائع. والله لا يظلم الناس بل الناس أنفسهم يظلمون.

من الواضح فى تصور الكواكبى لوسائل التخلص من الاستبداد أن الغرب لديه نموذج للتحديث، الغرب الليبرالى، الحكومة المقيدة، المسئولة أمام البرلمان، والتعددية الحزبية، والأغلبية والأقلية، وسيادة القانون، والمساواة فى الحقوق والواجبات. والحكومة أى السلطة هى مركز الدولة كما هو الحال فى الفكر السياسى الدينى، والتركيز على الإمامة وصفات الإمام أكثر من المؤسسات ووسائل الرقابة على الإمام.

وواضح من المقارنات بين الاستبداد من ناحية، والدين والعلم والمال، والأخلاق والتربية، والمجد والترقى من ناحية أخرى أهمية الاستبداد والدين، والاستبداد والترقى، فكما أن الدين يمكن أن يكون مصدراً للاستبداد سواء فى تصوراته للعالم أو فى مؤسساته يمكن أن يكون مصدراً للتحرر، «أفيونا للشعب» أو«زفرة للمضطهدين». كما أن الدين يمكن أن يكون عقبة فى سبيل التقدم إذا ما قام على الاستبداد وكما كان الحال فى العصر الوسيط الأوروبى، ويمكن أن يكون دافعاً على التقدم كما كان الحال فى تراثنا القديم. ويظل السؤال قائماً، ومن الذى يقوم بتحديد أى الوظيفتين وفى أى ظرف تاريخى؟ ومن الذى يضع الجرس فى رقبة القط؟ هذا هو السؤال.

كتاب الزاوية

من شعر «صلاح عبد الصبور»

أحلام الفارس القديم

لو أننا كنا كغصنىْ شجرَهْ
الشمسُ أرضعتْ عروقنا معًا
والفجرُ روّانا ندى معًا
ثم اصطبغنا خضرةً مزدهرهْ
حين استطلنا فاعتنقنا أذرُعا
وفى الربيع نكتَسى ثيابَنا الملوّنهْ
وفى الخريفِ، نخلع الثياب، نعرى بَدنَا
ونستحم فى الشتا، يُدْفئُنا حُنوُّنا
لو أننا كنا بشطِّ البحرِ موجتينْ
صفِّيتا من الرمالِ والمحَارْ
توِّجتا سبيكةً من النهار والزَبَدْ
أسلمتا العنان للتيّار
يدفعُنا من مهدنا للحْدنا معا
فى مشية راقصة مُدندنهْ
تشربُنا سحابةٌ رقيقهْ
تذوبُ تحت ثغرِ شمسٍ حلوة رفيقه
ثم نعودُ موجتين توأمينْ
أسلمتا العنانَ للتيارْ
فى دورة إلى الأبدْ

الإنترنت في الزمن

أيمـــــن الصيـــــاد



لم يأت ١١ سـبتمبر بأكثر من «تعرية» وعد العولمة الأمريكي بأن عالم ما بعد الحرب الباردة قد تطور إلى عالم الانفتاح بعد الانغلاق السوفيتي الذي هدد حريات العالم



لا جديد.. في العالم الجديد!

عندما نشرت الصحافة الأمريكية قبل أسابيع نصوصًا كاملة «مثيرة» لمحادثات هاتفية بين أمراء الأسرة الحاكمة السعودية، صدم الأمر - أو ربما «المحتوى» - كثيرين ممن تسنى لهم في عالمنا العربي - وهم قلة على أية حال - الاطلاع على المقالة. ولكن - رغم الضجة «المكتومة» حول الأمر أو بالأحرى «النشر» - تبقى حقيقة أن التنصت.. ومن ثم التسجيل ليس جديدًا. وإنما «النشر» هكذا، صراحة ودون مواربة، هو الجديد، وتبقى حقيقة أن الحدث، ومثله كثيرٌ - رغم ما يبدو من تباين في درجة اللون - يعكس حقيقة أن العالم لم يتغير - راديكاليًا - بعد الحادي عشر من سبتمبر كما يعتقد الكثيرون، وإنما ما تغير فعلاً هو درجة الوضوح أو الصراحة.. أو «البجاحة» إذا استعرنا تعبيرًا لغويًا يصف «بعضَ الصراحة» أحيانًا.

فبدلاً من شعارات للعولمة تقول: «نطمح في تعاون دولي عالمي يزيل الحدود والقيود.. إلخ»، أصبح المبدأ معلنًا: «من ليس معنا فهو ضدنا.. وعليه أن يتحمل النتائج».

واللهجة شبه الدبلوماسية التي استمرت لسنوات تؤكد على أهمية وقف العنف في الضفة والقطاع أو في الشرق الأوسط (يتجنب الأمريكيون عادة استخدام تعبير «الأرض المحتلة»)، تحولت على لسان كوندوليزا رايس مستشارة الرئيس الأمريكي للأمن القومي إلى: «لإسرائيل الحق في أن تدافع عن نفسها بالصورة التي تراها.. وعلى عرفات أن يوقف الإرهاب الفلسطيني فورًا..» مؤكدة أنه «يتعين التعامل مع حزب الله بصفته منظمة إرهابية.. وأن بعض الإرهاب الحالي ضد إسرائيل، شيء لا يمكن للولايات المتحدة أن تتحمله..» (!) طبقًا لتصريحات رايس لصحيفة «عربية» بعد ساعات من تصريحات نشرتها صحيفة أمريكية يتغزل فيها شارون في سيقان السيدة الأمريكية الرشيقة.

(نص كلام شارون في النيوزويك: «عليَّ أن أعترف.. لقد كان من الصعب أن أركز في الحديث مع كوندوليزا رايس لأن لديها ساقين جميلتين..»).

حقيقة الأمر أن رايس لم تكشف عن ساقيها - كما فعلت ملكة سبأ - لشارون الباحث الدءوب عن «عرش سليمان». كما أنها لم تُقصِّر ما اعتادته من ثياب. وهي - ربما - لم تضع ساقًا على أخرى كما كانت تفعل دائمًا السيدة أولبرايت وزيرة خارجية كلينتون في حضرة الزعماء العرب. كل ما هنالك أن رايس أصبحت أكثر «وضوحا».. وصراحة. ولمن يريد أن يقارن - أو يطابق إذا صحت لديه الرغبة في ذلك - أن يرجعَ إلى مقال مطول كانت السمراءُ الأنيقة قد نشرته قبل عامين في دورية أمريكية أكاديمية متخصصة، ناقشت فيه «استراتيجيات السياسة الأمريكية في قرن جديد». يومها كانت كوندوليزا خارج الإدارة، بما تقتضيه - أو كانت تقتضيه - من دبلوماسية في القول، أو تغليف للتعبير.

في عالم الواقع إذن، ورغم ضجيجٍ علا صوتُه.. يبدو أن السياسة «هي هي» كما يقول العربُ القدامى والعامةُ المحدثون. لا الأهداف «الاستراتيجية» تغيرت.. ولا المبَادئ تحولت.



في العالم الآخر «الافتراضي» The Virtual World كما يُوصَفُ دائمًا وبحق مجتمع الإنترنت، يبدو أن الصورة أيضًا لا تختلف كثيرًا.

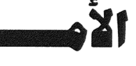
فقبل أيام فقط من الحادي عشر من سبتمبر الشهير كانت مجموعة من عملاء الـ FBI في تكساس تتجه إلى إحدى أكبر شركات استضافة مواقع الإنترنت Hosting Company في أمريكا. لتفتش وتصادر وتعطّل عددًا من الأجهزة الخادمة Servers التي تحمل محتويات مواقعَ عربيةٍ وإسلاميةٍ مهمة مثل بوابة

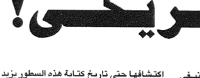
Congressional Statement
Federal Bureau of Investigation:
On Cyber Security
August 29, 2001

«عروب» الفلسطينية aroob.com والجزيرة نت aljazeera.net التابع لقناة الجزيرة القطرية.

والثابت أن الإجراء الذى كان مخالفًا للقوانين التى كانت ساريةً وقتها، حدث قبل أن ينطلق نفير الهستريا الأمنية الذى ترددت أصداؤه لاحقًا صباح ذلك اليوم «السبتمبرى» لتعصف بأوضاع قانونية مستقرة، وبكيانات وجماعات.. وحسابات «سياسية قبل مصرفية».. وبعد كل ذلك، وربما قبله، بالخصوصية والاستقلالية .. والأمان.

ما حصل فى شركة الكمبيوتر فى تكساس فى أغسطس الماضى من اجتياح رجال المباحث الفيدرالية الأمريكية لأجهزة استضافة مواقع الويب متجاهلاً جوهر فلسفة الإنترنت ذاتها القائمة على الحرية والتواصل والعولمة، لم يكن بعيدًا عنه ما حدث فى الأسبوع نفسه على الناحية الأخرى من العالم فى «ديربان» حين شهدت فعاليات مؤتمر مناهضة العنصرية مواجهة عنيفة بين إرادة «الحكومة» الأمريكية واتجاهات المنظمات غير الحكومية NGOs





والمفترَض أنها ـ وفقًا للمبشرين ـ تمثل أحد أركان «العالم الجديد». يومها انتصرت الإرادة الأمريكية «بإجماع الحكومات».

ويومها ـ وقبل الحادى عشر الشهير ـ بات السؤال حول «معنى العالم الجديد» مثقلاً بعلامات الاستفهام.



وإذا كانت القاعدة الأمريكية تقول بأن أصوات الإعلام تمهد لأفعال الساسة، فقد لايكون بعيدًا عن ماحدث فى تكساس المقال المطول الذى نشرته صحيفة الوول ستريت جورنال فى ١٣ أغسطس ٢٠٠١، لدانيال بايبس (أكاديمى) وستيف إيمرسون (صحافى) والذى نشر أيضا فى اليوم نفسه على الإنترنت بعنوان «مواجهة قوى الإرهاب تدعو السلطات الأمنية فى الولايات المتحدة إلى إغلاق عشرات مواقع الإنترنت العربية والإسلامية المؤيدة للفلسطينيين» والتهمة كالعادة «معاداة السامية». والمثير أن المواقع التى ذكرها وعددها الكاتبان فى مقالهما هى ذاتها التى استهدفها مكتب التحقيقات الفيدرالى فى غارته يومها على الشركة التى تجددت متاعبها بالطبع بعد أحداث سبتمبر وما تبعها من قوانين.

وهنا لابد من ملاحظات ثلاثة:

١ـ أن استهداف تلك المواقع حدث قبل الحادى عشر من سبتمبر.

٢ـ أن الكاتبين يمثلان فيما عرف عنهما مصدراً استشارياً مهماً للجان الكونجرس الأمنية والمختصة بالشؤون الخارجية، وكذا أيضاً لوكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالى. وأن آراءهما المعلنة تتلخص فى أن إسرائيل على حق فى كل ما تفعله. وأن العرب والمسلمين لا يفهمون سوى لغة القوة التى تمارسها إسرائيل و«هى محقة فى ذلك».

٣ـ المقال الذى نشر على الإنترنت يُنكر ببساطة وبحسم أن يكون للآخرين حقٌ فى نشر ما يرونه على الشبكة الدولية ذاتها، مما يمثل نموذجًا صارخًا لازدواجية المعايير والوصف ليس من عندى بل جاء ضمن تعليق لجماعة Internet Freedom على مقالة الكاتبين الأمريكيين.

الحدث إذن، إلى جانب أحداث أخرى ذات صلة، ربما مثلت إرهاصات مبكرة - سارعت بها توابع زلزال سبتمبر - لتكريس ما أسمته جماعات الدفاع عن الحريات المدنية «إمبريالية الإنترنت». والتى تعكس واقع توازن القوى الحقيقى حتى فى العالم التخيلى (٧٠٪ من البنية الأساسية لشبكة الإنترنت مملوك لشركات أمريكية).

١١ سبتمبر إذن - على عكس ما قد يظنه البعض - لم يات بأكثر من «تعرية» وعد العولمة الأمريكى بأن عالم ما بعد الحرب الباردة قد تطور إلى عالم الانفتاح بعد الانغلاق السوفياتى الذى هدد حريات العالم. ففى هذا العالم «اليوتوبى» كان يُفترض أننا انتقلنا إلى عالم بلا حدود تسيح فيه المعلومات والتجارة والأفكار. والتى - بحكم الفكرة ذاتها - لاينبغى أن تكون مقبولةً «فقط» عندما تكون أحادية الاتجاه وإمبريالية المصدر. إلا أن قوانين الطبيعة والتاريخ للأسف تقول بأن الافتراضات المتعلقة بالأمانى - فى نهاية المطاف - تظل «نظرية» حينما تصطدم بقوى لها بالضرورة موازين.. ورياح لها بالصيرورة اتجاه. والمعادلات تحكم بالطبيعة الحسابات.

كشف ١١ سبتمبر القناع اللامع لبشرى العولمة ليترك الحقيقة سافرة «خيوط اللعبة ما زالت فى أيدى اللاعبين الكبار التقليديين ولم تخرج من قاعات دوائر الأمن والاستراتيجية وما زالت محكومة بجبروت تلك الدوائر وصرامة بوصلتها.

هيستريا أمنية

حالة الهيستريا الأمنية التى ضربت الولايات المتحدة مواطنين ومؤسسات، بعد الحادى عشر من سبتمبر، والتى طالت - على الأقل عند العامة - أشخاصاً لمجرد أنهم يحملون الاسم: «أسامة»، وصلت إلى درجة أن المدعى العام الأمريكى عقد مؤتمراً صحفياً طارئاً أعلن فيه أن «الحكومة لاتستبعد أن يكون «الإرهابيون خططوا لهجمات الكترونية بالإضافة إلى الهجمات الفعلية..» وذلك كرد فعلى فورى وجاهز على انطلاق فيروس الكمبيوتر Nimada بعد أيام من الهجمات، رغم أنه لم يكن أبداً الأول ولن يكون الأخير فى هذا العالم الغامض المثير (عدد الفيروسات التى تم اكتشافها حتى تاريخ كتابة هذه السطور يزيد على ثمانية وخمسين ألفاً. أو على وجه الدقة ٥٨٣٧١ فيروساً)



وفيروسات الكمبيوتر التى ظهر الجيل الأول منها عام ١٩٨٧ فى أحد المختبرات الجامعية لأغراض بحثية عبارة عن برنامج كمبيوتر صغير الحجم (بريمج) له القدرة على ربط نفسه بالبرامج الأخرى، وكذلك إعادة إنشاء نفسه حتى يبدو كأنه يتكاثر ويتوالد ذاتيًا، مما يتيح له القدرة على الانتشار فيفسد عمل برامج الحاسب المختلفة، أو حتى نظام التشغيل نفسه.

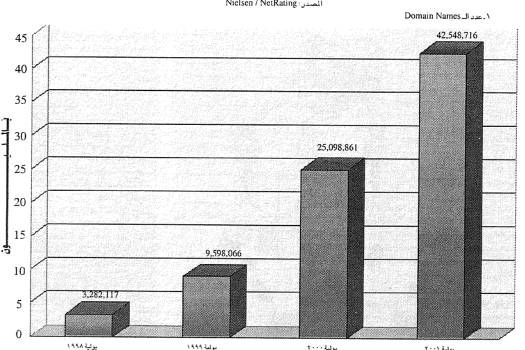
ولا يقتصر انتشار فيروس الحاسب الآلى على النظام أو الحاسب الذى يتواجد به، ولكنه ينتقل أيضًا إلى نظم أخرى ذات صلة ببعضها. وقد تتحقّق هذه الصلة عن طريق تبادل الوسائط التخزينية (الأسطوانات المرنة أو المدمجة... إلخ) والمصابة بالفيروس. كما تتحقق بدرجة أكثر انتشارًا من خلال الشبكات التى تربط أجهزة الكمبيوتر ببعضها سواء كانت صغيرة فى داخل المكتب نفسه LAN أو ذات نطاق أوسع WAN أو حتى تلك «العالمية» الأكبر على الإطلاق (الإنترنت) والتى تصل فعليّاً، وعلى مدار الساعة بين ملايين الأجهزة فى أرجاء العالم قاطبة. سواء كان ذلك الجهاز فى مطبخ مراهق فى كوالالمبور أو فى إحدى الغرف المحصنة تحت الأرض فى البنتاجون.. أو حتى على حجر ذلك المسافر فى القطار السريع الذى يشق دلتا النيل فى طريقه إلى القاهرة.

ومن ذلك يتضح إمكانية انتقال الآثار التخريبية لفيروس الكمبيوتر من مدينة إلى أخرى أو من بلدة إلى أخرى أو من قارة إلى قارة وفى وقت قصير للغاية قد لا يتعدّى الدقائق أو الثوانى المعدودة، كما يتضح فى الوقت نفسه مدى خطورة انتشار الفيروس، إذا كان من النوع المؤثر، سواء على المستوى الفردى أم الجماعى، أم القومى.

ويختلف أثر فيروس الكمبيوتر من واحد إلى آخر. فمنها ما هو «طيب» لاتنتج عنه أضرار تُذكر. ويقتصر على مداعبتك بإظهار رسالة براقة تحتل فجأة شاشة الجهاز لتعلمك «أنه هنا.. ومع تحياتى». ومنها ما هو شرير، يصل فى شره إلى حد احتلال جهازك «متخفياً» ليتخذ منه منصة لمهاجمة كل أصدقائك الذين تتصل بهم عن طريق البريد الالكترونى منتحلاً صفتك دون أن تدرى. ومنها ما يضع فى

الامبراطورية: نمو الإنترنت فى العالم

المصدر: Nielsen / NetRating



٢ـ عدد مستخدمى / مواطنى الإنترنت فى العالم (اكتوبر ٢٠٠١) = ٤٤٥،٤٧٣،٩٩٩

جهازك. وبالتالى فى الشبكة المتصل بها بابا خلفيا Back Door يسمح للآخرين لاحقًا بالتسلل للشبكة عبره للعبث بالبيانات المخزنة عليها.

وهناك أنواع مختلفة من الفيروسات، منها التقليدى الذى لايصيب الجهاز إلا إذا وقع مستخدمه فى شرك «الغواية والغفلة»، وحاول فتح ملف مرفق مع رسالة اليكترونية (يحمل عادة اسما مغريا مثل Naked Wife أو New Job ويتخفى الفيروس داخله). ومنه ما هو أكثر ذكاء ويعرف بالـ Worms ويعمل مثل دودة الأرض فينتشر فى أرجاء الشبكة مخربًا أو ملتهمًا ما بها من بيانات. أما فيروس حصان طروادة Trojan Horse فقد أخذ مبرمجه الفكرة اليونانية القديمة فى إخفاء الجنود داخل الحصان الخشب.

مراهقون.. ومتمردون

وتحمل بعض الفيروسات المدمرة الشهيرة والتى يخلقها عادة «مراهقون عباقرة» راغبون فى إثبات ذواتهم، أو متمردون على قيم الرأسمالية والعولمة، أسماء مثيرة لها مدلولها. فمازال الجميع يذكر فيروس «تشيرنوبيل» والتى كانت كارثة المفاعل النووى الروسى التى ضربت أوكرانيا فى ٢٦ أبريل عام ١٩٨٦ هى الحافز وراء إطلاقه وتسميته بنفس الاسم. وبرمجته بحيث ينام متخفيا داخل جهاز الكمبيوتر طيلة العام ولا ينشط للعمل إلا فى السادس والعشرين من أبريل من كل عام (تاريخ الكارثة) مذكراً بها لا أكثر. مثلما هو الحال مع فيروس «مايكل أنجلو» القديم الذى ينشط فى ٢٦ مارس من كل عام ليمسح معلومات القرص الصلب للأجهزة المصابة به فى احتفال مجنون بذكرى ميلاد فنان عصر النهضة «مايكل أنجلو»!!.

وتشيرنوبيل فيروس مدمر يعمل على إعطاب الجهاز تماما، بعكس فيروس I Love You الشهير واسع الانتشار الذى خرج من الفلبين فى ٤ مايو ٢٠٠٠ ليحتل رأس قائمة الفيروسات الأكثر شهرة Top Ten قبل أن يخطفها منه فيروس Melisa الذى اجتاح العالم العام الماضى. ويعتمد كلاهما على استخدام أنظمة البريد الالكترونى التى صارت أساسًا للتراسل فى عالم اليوم. ويستهدف الفيروس أساسًا أجهزة الكمبيوتر التى تعمل «بنظام ويندوز» الذى تنتجه شركة مايكروسوفت العملاقة وبخاصة تلك التى تستخدم نظام «إكسبلورر» لتصفح الإنترنت، الذى تنتجه الشركة «المحتكرة» ذاتها. ويظهر الفيروس فى البريد الإلكترونى على صورة رسالة بعنوان «أحبك» Love You وفى حالة فتحها ينتشر الفيروس بأن ينسخ نفسه ليرسل أتوماتيكيًا رسالة مشابهة Infected لكل عناوين البريد الإلكترونى المسجلة لدى المستخدم. قبل أن يتسلل فى هدوء فى بنية الحاسب محدثًا آثاره التخريبية.

والمثير أن آلية عمل فيروس مليسا ذى الاسم الرقيق تشبه إلى حد كبير الطريقة التى يعمل بها الفيروس الذى عرف باسم «بن لادن» وكلاهما ينتمى إلى فئة Internet Worms .

وفيروس بن لادن - إذا استخدمنا الاسم من باب خطأ مشهور أفضل من صواب مهجور - ظهر فى آسيا بعد أسابيع من هجمات سبتمبر، واسمه الحقيقى Toal حسب المعاجم المتخصصة فى الموضوع. إلا أن مبتكريه - والذين ربما استهدفوا أتباع المنشق السعودى - ضمنوه ملفًا يحمل اسم بن لادن مرفقًا برسالة تُرسلُ تلقائيًا إلى آلاف العناوين المسجلة فى البريد الالكترونى.

ورغم حقيقة عدم صحة ما يشيع أحيانا بين العامة من خلط بين فيروسات الحاسب والفيروسات العضوية الطبيعية التى تهاجم الكائنات الحية، وتتكاثر ذاتيًا فى داخلها، وتصيبها بالأمراض الفتاكة، إلا أنه من المثير أن نعلم أن فيروس الحاسب يحمل مجموعة من الخصائص التى يتميز بها الفيروس الطبيعى. وذلك كمايلى:

١- يقوم الفيروس العضوى بتغيير الخصائص العضوية لخلايا الجسم، مؤثرًا على كيفية قيامها بوظيفتها الأصلية. وهو الأمر نفسه الذى يحدثه فيروس الحاسب حين يقوم بتغيير وظائف البرامج الأخرى، أو إرباك نظام التشغيل ذاته.

٢- يتكاثر الفيروس العضوى ويتسبّب فى إنشاء فيروسات جديدة. ويشبه فى ذلك ما يقوم فيروس الحاسب حين يعيد إنشاء نفسه (Reproduce itself) فيظهر وكأنه يتكاثر ذاتيًا.

٣- الخلية التى تُصاب بالفيروس العضوى لا تُصاب بالفيروس نفسه مرة ثانية، وكذلك فيروس الحاسب الآلى، لا يصيب برنامجًا مصابًا.

٤- الجسم الذى ينقل إليه الفيروس الطبيعى العدوى قد يظل مدة طويلة دون ظهور أعراض المرض عليه، وكذلك أنظمة الحاسب المصابة بالفيروس قد تبقى مدة طويلة دون ظهور أعراض تخريبية عليها.

٥- فى بعض الحالات يقوم الفيروس العضوى وفيروس الحاسب بتغيير شكليهما؛ حتى يصعب اكتشافهما والتغلب عليهما.

وتبقى حقيقة انه مثلما هناك فيروس جديد يظهر كل يوم تقريبًا، تحرص برامج مقاومة الفيروسات على تطوير نفسها باستمرار لتتمكن من حماية الأجهزة والشبكات وإبقائها فى حيز الأمان الذى يظل ممكنا فى كل الأحوال إذا توافر الوعى التقنى الكافى. وتبقى الإصابة فى كل الأحوال، كما يقول اختصاصيو أمن المعلومات، «مسؤولية كل مصاب».

الصينيون

التحذير من هجمات فيروسية كان موضوعا رئيسا لتقرير أعده مكتب المباحث الفيدرالية الأمريكى FBI تحت عنوان Cyber Security وتم عرضه أمام لجنة خاصة من الكونجرس يوم ٢٩ اغسطس ٢٠٠١ (قبل أيام فقط من ضربة الحادى عشر من سبتمبر). وكانت مناسبة التقرير الاستجابة لحالة الاهتمام الإعلامى ومن ثم فى الكونجرس - والمبالغ فيها من وجهة نظر المتخصصين - بانطلاق فيروس Code Red بإصدارتيه (الأولى يوم ١٣ يوليو ٢٠٠١ والثانية مع بداية أغسطس) والذى كان مطوروه قد نجحوا فعلاً فى توجيه ضربة موجعة إلى الشبكة العنكبوتية، مما تسبب فى إبطائها ونشر البلبلة بين جمهور مستخدميها فى العالم.

ومعلوم أن كود ريد، الاسم الذى ترتعد منه فرائص جميع المتطوعين الجُدُد فى قوات مشاة البحرية الأمريكية (مارينز)، يشير إلى عقوبات جسدية ونفسية قاسية وغير إنسانية، هدفها الإخضاع بالقهر والترويع. وأحيانا تصل القسوة إلى حد الموت، لذا يُمنع كود ريد رسمياً، لكنه يُطبق عبر طرق غير شرعية، وفى ظل إنكارٍ متواصل.

وربما كان للاسم Code Red دلالته فالفيروس الذى ضرب قرابة ١،٥ مليون كومبيوتر فى أمريكا، إضافة إلى ستة ملايين جهاز فى سائر أنحاء العالم، و جاء انتشاره مواكباً لأزمة طائرة التجسس الأمريكية على السواحل الصينية كان دائمًا يترك رسالة على شاشة الجهاز المصاب تحمل عبارات: «الموقع اخترقه الصينيون».

ويدخل كود ريد الجهاز، ولكنه لا يحاول الوصول إلى الملفات الرقمية وضربها، كما غيره من فيروسات المعلوماتية، لكن ما يفعله أبسط وأعمق: إنه يتمترس فى الكومبيوتر ويتكاثر، كما الأرنب فى الجحر، ويرسل نسخاً لا نهائية من البيانات الموجودة على الجهاز المصاب إلى جهاز آخر على الشبكة فيصيبه بالشلل قبل أن يكرر السيناريو ذاته.. وهكذا دواليك، إلى الموقع الذى يريد ضربه.

ويهتم الفيروس بالوصول إلى الأجهزة التى تتضمن جبالاً من المعلومات، مثل مواقع الجامعات الكبرى والموسوعات الضخمة والمؤسسات العلمية وأرشيفات الوثائق وغيرها. ويُنتج الفيروس النسخة تلو النسخة من تلك الأرتال الرقمية ويرسلها، عبر البريد الالكترونى، إلى عناوين المواقع التى يستهدفها. وكأنه يحرِّك جبالاً من رمال على الطرقات العامة، فتكون النتيجة بطئًا فى الحركة وصعوبة شديدة فى التنقل بين المواقع، مما يصيب خدمات الشبكة بالتوقف.

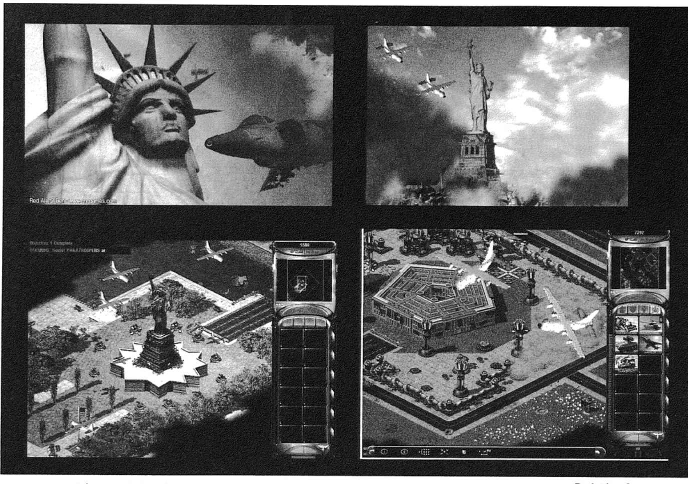
وكان الفيروس الذى ضرب قبل الحادى عشر من سبتمبر قد أجبر وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) على إغلاق مواقعها، وأربك خبراء أف بى أى واختصاصيى حماية أمن العمل المعلوماتى، الذى بات عصباً أساسياً فى الاقتصاد.

هل فعلها الصينيون كما يذهب تقرير الـ FBI إلى الاعتقاد. أم هم مراهقو الجيل الذى ينمو فى عصر المعلوماتية والشبكات. والذين تحدد تفاعلاتهم سمات العصر الرقمى والشكل سريع التغير للإنترنت، حتى لو لم يحركهم سوى النزق ونزوات المراهقة. أم هم تلك الفئة من الشباب المتمرد (النسخة الحديثة من لابسى قمصان جيفارا والمعتصمين بميادين باريس فى الستينيات) والمعارضون للعولمة وللتلوث البيئى، والمتظاهرون فى سياتل وديربان ضد النسخة الأمريكية المتسلطة وغير العادلة للعالم الجديد.

التشفير والتعبير

أيًا ما كان الأمر فإن تقرير الـ FBI المتشائم أمام الكونجرس والذى تحدث طويلاً عن الحرب المعلوماتية والمخاطر اللانهائية «المحتملة»، سبقته كالعادة تقارير صحفية وتصريحات علنية متكررة بدأت مع بداية القرن الجديد. وبالتحديد فى فبراير ٢٠٠٠

فيروس نيمادا



Red Alert 2 هى واحدة من مئات الالعاب الإلكترونية المخصصة للكمبيوتر. والمثير أن ابنى الصغير فاجأنى يوم كانت إحدى شبكات التلفزة تستعرض أهم لقطات العام المنصرم بأن لعبته الكمبيوترية (الأمريكية) تسمح له فى إحدى مراحلها بأن يفعل الأمر ذاته، ويهاجم بطائرته المعالم الرئيسية للولايات المتحدة مثل البنتاجون وتمثال الحرية ومركز التجارة العالمى.. إلخ، وأنه فى تلك الحالة يحصل حتماً على نقاط إضافية !!

حين حذر لويس فريه مدير مكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى يومها من أن «عمليات اختراق أنظمة الكمبيوتر باتت تمثل تهديدا للأمن القومى والاقتصادى للولايات المتحدة » وأن المشكلة تتفاقم بسرعة، بالرغم من أن مكتب التحقيقات قد نجح فى تطوير قدراته على التصدى لهذه الهجمات.

وكان من الطبيعى تماما وقتها أن تخرج وزيرة العدل لتطالب «بموازنة» تخصص لهذا الغرض.

وفى فبراير أيضاً من العام التالى ٢٠٠١ خرجت صحيفة USA Today الأمريكية لتعلن«أن إسلاميين متشددين بينهم أسامة بن لادن يضعون صورا ورسائل مشفرة على مواقع شهيرة على الإنترنت » ويستخدمونها فى التخطيط لهجمات ضد الولايات المتحدة وحلفائها. ونقلت الصحيفة عن مسؤولين قانونيين أمريكيين وخبراء «أن المتشددين يستخدمون البريد الالكترونى والملفات المحفوظة على الكمبيوتر لإخفاء خرائط وصور عن أهدافهم وتعليمات بتنفيذ هجمات عبر منتديات الحوار والصفحات الإباحية ومواقع أخرى على الإنترنت».

ويبدو أن مقال الصحيفة الأمريكية كان يتحدث عن تقنية للتشفير يعرفها القليلون من المتخصصين وتعرف بـ Steganography وتقوم على فكرة الحبر السرى التقليدية. إذ يستطيع المتخصص وباستخدام أكواد معينة أن يخفى نصوصاً وخرائط فى ملفات صور أو حتى ملفات MP3 الموسيقية. التى يتم تبادل الملايين منها كل يوم عبر الانترنت.

وفى عرف كاتب المقال الذى نقلته كل وسائل الإعلام فى حينه، فالانترنت أصبحت مجالا جديدا لصناديق« بريد الجواسيس». حيث يجرى تشفير الرسائل بواسطة برامج وضعتها جماعات تؤيد الخصوصية عبر الانترنت .ومن الممكن ان تخفى هذه البرامج خرائط وصورا داخل صفحات قائمة على مواقع مختارة .ويجرى فك الرسائل المشفرة باستخدام «زر خاص» أو شفرة معينة يضعها المتلقى.

وأوردت الصحيفة أن مسؤولين رفضوا ذكر المواقع التى جرى إخفاء هذه المواد عليها مستشهدين بدواع أمنيةبالرغم من أن الخبراء أوضحوا – والكلام مازال للصحيفة الأمريكية – أنه يصعب على أجهزة الأمن تعقب هذه الرسائل.

تقرير الصحيفة الأمريكية أشار بالتالى إلى أن جورج تينيت مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية كتب فى تقرير لجلسة مغلقة للجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ: «إن الجماعات الارهابية بما فى ذلك حزب الله وحماس وجماعة القاعدة التى يرأسها بن لادن تستخدم بدرجة كبيرة الملفات المحفوظة على الكمبيوتر والبريد الالكترونى لمساندة هذه العمليات». وأن بن لادن بدأ يستخدم الملفات المشفرة منذ خمسة أعوام«إلا أنه زاد من استخدامها فى الآونة الأخيرة بعدما كشف مسؤولون أمريكيون أنهم يسجلون مكالماته الهاتفية عبر القمر الاصطناعى فى أفغانستان ويتعقبون نشاطاته.

الفزع.. والمبالغة

لم تكن أصداء حديث ممثل الـ FBI أمام الكونجرس فى التاسع والعشرين من أغسطس قد خفتت بعد، حين جاءت أحداث سبتمبر الدرامية لتلقى بالزيت على النار. ولتعيد تدوير التقارير الصحفية القديمة، فحديث الـ USA Today فى بداية العام عن تقنيات التشفير والـSteganography أضافت إليه التقارير الجديدة كلاما جدياً حول أن «الارهابيين يحصلون على معلوماتهم وخرائطهم من المواقع الحكومية على الانترنت» وأن بإمكانهم عن طريق تقنيات الاختراق Hacking التى يدمن احترافها المراهقون، أن يتسببوا فى تهديدات ومخاطر تتجاوز بمراحل ماحدث فى ١١ سبتمبر.

حالة الفزع التى اجتاحت الولايات المتحدة والتى كان لها جانبها «الانترنتى» بالضرورة، أدت إلى إجراءات ذات طابع بوليسى طالت الشبكة الدولية. إذ سرعان ما اختفت معلومات - استمرت هناك لسنوات - عن الأسلحة البيولوجية والكيماوية من المواقع الحكومية والخاصة على الانترنت، إضافة إلى معلومات عن عمل الاستخبارات والتجسس، وكذلك خرائط ذات طابع أمنى. وأزالت مواقع الحكومة الامريكية معلومات عن الأسلحة الكيماوية، وأخفت وكالة حماية البيئة صفحات تتعلق بالمصانع الكيماوية واستعداداتها فى مواجهة حالات الطوارئ. وأزيلت خرائط تظهر عليها المواقع العسكرية

برامج الـ FBI استهدفت إعداد قوائم لأولئك الذين تكثر زياراتهم (قراءتهم) لمواقع معينة، أو ذات مضمون بعينه على الشبكة الدولية

الأمريكية من موقع وكالة التصوير والخرائط، وقيد موقع خدمات المعلومات الجغرافية، الدخول إلى خرائطه التى تظهر عليها طرق الولايات المتحدة ومواقع المبانى والمنشآت الحكومية وخطوط سكك الحديد وممرات أنابيب النفط وغيرها. ولوحظ اختفاء المعلومات المتعلقة بنشاط الاستخبارات، خصوصاً الأمريكية منها، من المواقع الحكومية والخاصة على حد سواء. وأزالت الرابطة الفيدرالية لعلماء أمريكا قواعد البيانات التى تتحدث عن نشاط الحكومة والجيش والمؤسسات الأمنية. واختفت من الموقع عينه، مئات الصفحات التى تظهر تراتبية عمل الحكومة الأمريكية واستخباراتها، إضافة إلى الصفحات التى تتحدث عن الأسلحة الكيماوية التى يصنعها الجيش الأمريكى.

وفيما لم تحدد الجهة المسؤولة عن هذه الخطوة غير المسبوقة فى تاريخ الانترنت، رأى كثيرون انها تتعارض مع الحق فى المعرفة والاطلاع، وتهدد البحث العلمى الذى استقرت آلياته على التراكم المعرفى القائم على حرية تدفق البيانات. مشككين فى جدوى تلك الخطوة، و منبهين إلى استحالة التمييز بين ماهو بيانات «ضارة» وأخرى حميدة. إذ إن المعلومات المحايدة Plain عن تطوير النظم الكهربية الخاصة بتشغيل قطارات الأنفاق، والتى يظل نشرها ضروريًا لإمكان إحداث ذلك التطور قد تفيد من يفكر فى إحداث كارثة. بالإضافة إلى أن إخفاء مراكز طبية لتقارير تحدثت عن نقص فى الاستعدادات فى مواجهة استخدام الغازات السامة، ينتهك حق الناس فى المعرفة ومن شأنه أن يكون معوقًا لآليات المراقبة والمحاسبة من جانب دافع الضرائب فى بلد ديموقراطى. فضلاً عن أن «جماعات الإرهاب» ربما كانت قد حصلت على هذه المعلومات عندما كانت متاحة فى أوقات سابقة. وفضلاً عن حقيقة كونها متاحة على مواقع غير رسمية، إضافة إلى وجودها فى المكتبات العامة كما قال جراى باس المسؤول فى إحدى جماعات الدفاع عن حرية المعلومات. محتجاً بأن «روح المجتمع المدنى قد فقدت، تحت مبررات الأمن وهو أمر لن نسمح بحدوثه فى أمريكا».

الإجراءات التى توجها فى نهاية المطاف قانون باتريوت USA PATRIOT ACT الذى وقعه أخيراً الرئيس الأمريكى بوش، والتى لاقت انتقادات عنيفة من جماعات الحقوق المدنية، لم تسلم من هجوم جماعات الدفاع عن حرية الانترنت وهى بالمناسبة جماعات قوية. إذ أشار بيان لها حمل عنوانًا تهكميًا «Osama Bin Cyber Terrorist Doesn't Exist» إلى خرافة «مايسمونه بإرهاب الإنترنت..» مذكرين بخرافة الـ Y2k أو فيروس الألفية الذى قالت التقارير على مدى عام كامل أنه سيتسبب فى لحظة الانتقال من قرن إلى آخر فى كوارث لن يكون أقلها سقوط طائرات وفيضانات واصطدام قطارات (نتيجة توقف متوقع لأجهزة الكمبيوتر الرئيسة التى قالوا أنها ستعجز عن إدراك التاريخ الجديد) ليلتها - يقول البيان - لم يتجاوز الأمر إطفاء «عمدى» للأنوار لإتاحة الفرصة أمام قبلات العام الجديد. وذلك بعد أن حققت الشركات التى روجت للذعر العام أرباحا خيالية مقابل «تسويق الحلول».

وتظهر بداهة حجة جماعات الدفاع عن حرية الانترنت بالنظر إلى مدى التواضع المريع فى تصميم موقع حكومة أفغانستان الطالبانية والذى يؤكد على بدائية أفعال المجموعات المشتبه بها إذ إنها تميل فى الغالب إلى اعتماد أساليب بدائية فى الاتصال، وكذلك فى نقل الأموال والتصرف بها. وأن الكثير من مستويات العمل يتم عبر إدارة مباشرة، تعتمد على العقود الشفوية والكلام المنقول من الشفة إلى الأذن وأهل الثقة، والعمل فى استقلالية نسبية بناء لتوجهات عامة، وما إلى ذلك من أساليب. وتميل المجموعات المتهمة كما يبدو من التحقيقات الرسمية إلى نقل الأموال مباشرة وإلى السفر واللقاء الشخصى المباشر كأسلوب للاتصال.

ويبقى لافتًا للانتباه بلا شك أنه فى صخب الحديث عن إرهاب الـ High Tech وبين أكداس أوراق التحقيق فى أحداث ١١ سبتمبر (بلغت آلاف الصفحات) لم تكن هناك غير وثيقة واحدة. ولم تكن غير ورقة استنسخت بخط اليد والتى قيل أن محمد عطا أرسلها لشركائه متضمنة تعليمات الليلة الأخيرة. لم نسمع هنا عن Palm أو PDA أو غيرها من الوسائل التقنية المحمولة يدويًا لتدوين المذكرات أو الرسائل. كما لم نسمع عن تقنيات الـ Bluetooth المهياة للتراسل. كما كان مثيرًا أن تكون رسالة البريد الإلكترونى الوحيدة التى أشير إليها هنا هى تلك الغرامية المرسلة من المهندس المصرى إلى صديقته الإسكندنافية.

والحال أن ميل هذه المجموعات إلى التقنيات البدائية، واستخدامها غير المتطور للانترنت، هو الخيط الذى جمع آراء خبراء، مثل جايمس بامفورد، مؤلف كتاب جسد من الأسرار و قصر اللغز اللذين يتحدثان عن وكالة الأمن القومى. وكما ناقش سايمون ريف الخبير فى الموضوع احتمال استخدام بن لادن أسلوب التشفير المعقد «ستيجانوجرافى»، مؤكداً أنه لا توجد أدلة على استخدامه من قبل المجموعات الملاحقة، والتى تعطى انطباعاً قوياً عن ميلها إلى أساليب بدائية تماماً.

مكارثية..

الحاصل أنه سواء كان بن لادن يخفى تعليماته داخل صور جنسية عارية.. أو كان الأمر كله لايعدو أن يكون مبالغة استوجبتها متطلبات سياسية أو أطر ثقافية «هوليوودية» مهووسة بالصرعات التقنية، فإن الثابت أن الإدارة الأمريكية أو بالأحرى «القوى الأمريكية» التى انتبهت مبكرًا إلى ماتمثله «ديموقراطية / اشتراكية» الانترنت من تهديد للأسس المستقرة لقوة الرأسمالية المتمثلة فى الاحتكار والسيطرة، كانت قد بدأت قبل سنوات من كارثة سبتمبر فى اتخاذ خطوات تدريجية «لإعادة الإمساك بالزمام..» حسب تعبير لويس فريه مدير الـ FBI أمام لجنة خاصة بالكونجرس، كانت مدعوة لتأييد اتخاذ إجراءات خاصة توفر قدراً من التحكم والمراقبة لمايجرى هناك فى ذلك العالم «المفتوح والمتاح على مصراعيه».

فى هذا الإطار اتخذت الحكومة الأمريكية مبكرًا قرارات حازمة بمنع تصدير تقنيات المساعدة على التشفير، وكذا أجهزة السوبر كمبيوتر (عدا المصدرة لإسرائيل) وفى مطلع التسعينيات حاولت السلطات سجن فيل زيمرمان (أمريكى الجنسية) مبتكر برنامج Pretty Good Privacy PGP والذى يضمن سرية المعلومات الشخصية على الانترنت، قبل أن تنجح جماعات الحريات المدنية فى الدفاع عنه.

إلا أنه وفى إطار تبرير معارضتها السماح بحرية تداول برامج التشفير طرحت إدارة الرئيس الأمريكى بيل كلينتون القضية على النحو التالى: «إذا صنع أحدهم برنامج تشفير قوياً لا تستطيع الأجهزة الأمنية اختراقه، ألا يشكل ذلك أداة مثلى فى يد جماعات إرهابية؟» يومها عقدت الإدارة الأمريكية صفقة مع شركة AT&T للاتصالات، تسمح للشركة بإنتاج رقيقة كومبيوتر متخصصة بالتشفير، شربطة أن تكون متصلة سراً مع أجهزة الأمن الالكترونى فى أمريكا. وهو الأمر الذى يعرف تقنيا بـ Kleptography ورغم إلغاء الصفقة عندما أثار الكشف عنها كثيرًا من الجدل، إلا أن أحداث سبتمبر وتوابعها كشفت عن أن الأجهزة الأمنية كانت قد أطلقت يدها منذ زمن طويل فى استعمال برنامج كارنيفور. وهو البرنامج الذى طورته قبل سنوات المباحث الفيدرالية الأمريكية FBI (كشف عنه لأول مرة بداية عام ٢٠٠٠) لمراقبة البريد الالكترونى وأنماط تصفح الانترنت.

ويُشبه نظام كارنيفور ببساطة ذلك الرجل الذى يسترق النظرمتلصصًا من فوق كتفيك، لا ليشاركك قراءة صحيفتك المفضلة كعادة رفيق القطار «ثقيل الظل»، وإنما ليعرف عند أى الصفحات تتوقف ولمن تقرأ من الكُتاب. فالعارف لآليات تصفح الانترنت يعلم أن الدخول إلى الشبكة يتم بواسطة الاتصال بين حاسبة وكمبيوتر آخر «خادم» يؤمن له الاتصال معها. وعند زيارة أى موقع والدخول إلى أى صفحة على الإنترنت، يرسل الموقع نسخة من الصفحة المطلوبة، فتصل إلى الخادم أولاً، فيرسل نسخة منها إلى المستعمل.

وهذه الآلية البسيطة هى التى يتم اعتراضها بواسطة نظام كارنيفور الذى يقوم خفية بوضع برنامج معين بين حاسب المستخدم والحاسب الخادم. فيتعرف على الصفحات التى يزورها المستخدم، ويقارن محتوياتها مع قاعدة البيانات التى لديه وفى حالة وجود مايستلزم التوقف عنده يقوم



شبكة «إيشلون» الضخمة التى بإمكانها التنصت على كافة الاتصالات بجميع أنواعها فى العالم كله، لم تفلح فى منع هجمات الحادى عشر من سبتمبر، كما لم تفلح حتى فى التنبؤ بحدوثها

تلقائيًا بارسال نسخة من الصفحة التى زارها المستخدم مع الرقم التعريفى IP لجهازه إلى الـ FBI والتى يصبح بوسعها بالتالى إعداد قوائم لأولئك الذين تكثر زياراتهم (قراءتهم) لمواقع معينة، أو ذات مضمون بعينه على الشبكة الدولية... ويالها من «مكارثية» جديدة فجة، للتفتيش فى اهتمامات الناس هذه المرة، وليس فقط فى أفكارهم. الأمر الذى أدى إلى احتجاجات لجماعات الدفاع عن الحقوق المدنية على الانترنت، خصوصاً حق الأفراد فى حماية الحياة الشخصية. وتُشَبه تلك الجماعات – وأشهرها بريطانية – عمل هذا البرنامج الذى طورته الأجهزة الأمنية وغيرت اسمه ليصبح DSS1000 بدخول الشرطة البيوت وتفتيشها دون أى إذن.



أيًا ما كان الأمر فان هوس مابعد ١١ سبتمبر دفع باثنتين من كبريات شركات خدمة الإنترنت فى الولايات المتحدة إلى الإعلان عن استعدادهما التام للتعاون مع جهود الـFBI فى هذا الصدد، وقالت الشركتان وهما أمريكا أون لاين و إيرث لينك أنهما ستتعاونان مع اف بى آى فيما يتعلق بمعلومات المستخدمين وكلمات مرورهم فور أن يطلب منهم ذلك. الإجراءات ذات الطابع البوليسى الواضح، والتى اعترض عليها ـ بطبيعة الحال ـ المدافعون عن الحريات، شكك المعلوماتيون أيضًا فى جدواها ـ إلا فى حالة كونها انتقائية ـ مذكرين بأن عدد مشتركى شبكة أمريكا أون لاين يزيد على واحد وثلاثين مليون مشترك فيما يزيد عدد مشتركى إيرث لينك على خمسة ملايين شخص. ولأن هناك أكثر من ٢٢,٥ مليار رسالة بريد إلكترونى يتم تبادلها سنويا، فضلا عما يزيد على ٤ مليارات صفحة على الانترنت بكل لغات العالم (٤٢٥٤٨٧١٦ High Domain Names فى أول يوليو ٢٠٠١) فإن الحديث عن «انفجار المعلومات» الذى قد يؤدى إلى تراكمها بدلا من تفاعلها، يصبح منطقيًا. ويصبح التذكير بأن شبكة «ايشلون» المعقدة (كشف النقاب عنها قبل حوالى عامين) والتى بإمكانها التنصت على كل الاتصالات بجميع أنواعها فى العالم كله، لم تفلح فى منع هجمات الحادى عشر من سبتمبر. كما لم تفلح حتى فى التنبؤ بحدوثها. رغم أنها تصب تقاريرها من مراكزها المنتشرة عبر العالم إلى وكالة الأمن القومى الأمريكية NSA على مدار الساعة.

يعرف المعلوماتيون أن غزارة المعلومات والاتصالات، كسمة من سمات العصر الرقمى، لها عواقب وخيمة على من يتعاطاها. وقد تشكّل عبئاً ثقيلاً عليه لا يقوى على تحمّله. وينطبق هذا الأمر على جهاز أمنى، أو على شركة تجارية أو صناعية تضطرّ أحياناً إلى شراء مواد / معلومات، تكون متوافرة فى قواعد بياناتها من دون أن تدرى. والقول بأن «أمريكا لم تكن تعلم بما تعلم به أمريكا» ليس بعيدًا أبدًا عن الصواب. فالأجهزة الأمنية الأمريكية تتلقى أطناناً من المعلومات كل يوم، ولكن تبقى المشكلة فى تحليلها واستخلاص النتائج. فالمقاتلات المجهّزة بوسائل رصد معلوماتية متطوّرة جداً، ربّما استطاعت كشف الطائرات المخطوفة فى حينه، ولكن – وبحكم مسافة حتمية بين الآلة والإنسان – لم يكن بمقدورها أبدًا أن تكشف النيّة. إذ رغم توافر البيانات وأجهزة المحاكاة، تظل الحقيقة الأزلية تتمثل فى أن «الخريطة ليست الأرض». ويبدو أن القول المنسوب لشاعر أمريكى ينطبق أيضا على طبيعة شبكات الاتصالات والمعلوماتية، التى ربّما فاقت تضاريس أفغانستان وعورة بتشابكاتها وخفاياها واستحالة السيطرة عليها.

وربما يظل مثيرًا – رغم مافيه من مصادفة – أوجه الشبه بين الهيكلة العنكبوتية للانترنت والهيكلة نفسها المعروفة حتى الآن لما يسمى بتنظيم «القاعدة». فرغم أن «القاعدة» ـ لغويًا ـ تفترض محلاً وجهة وأرضًا ومساحةً وحدودًا، إلا أن الأمريكيين قالوا ـ مبكرًا ـ أنها تمتد من أستراليا وجزر ماندناو شرقًا إلى كاليفورنيا وأتاوا غربًا (٦٣ دولة حسب تصريحات بوش). وكذلك الإنترنت. فعلى عكس الدولة، لاتتحدد الشبكة بالمكان، كما أنها لاتعرف الجغرافيا. وعندما يتحدث البنتاجون عن ضرب الدول التى تقدم مأوى Hosting لخلايا التنظيم، يتذكر المعلوماتيون فورًا أن اللفظة هى التى تستخدم تقنيًا لتعريف أجهزة الكمبيوتر التى تستضيف مواقع الانترنت وجعلها جزءًا من الشبكة. كما أن البناء اللاهرمى واللامركزى للانترنت الذى تربط نقاطه (Nodes) شبكة أقرب ببيت العنكبوت. لايختلف كثيرًا عن وصف الأجهزة الأمنية الأمريكية لشكل الروابط بين خلايا «القاعدة».

وأيا ماكان أمر التشابه «الشكلى»، يعتقد نشطاء حقوق الإنسان ـ حتى فى أمريكا ـ أن الربط القسرى بين ماهو منسوب للقاعدة، وبين حرية الانترنت، غير مبررٍ. وأن استغلال مناخ الفزع العام فى تقنين مامن شانه تهديد قيمة الحرية ذاتها قد تصير له نتائج وخيمة. ويُذكر أولئك بماحدث فى مطلع الخمسينيات حين تعرض المجتمع الأمريكى لحملة اعتقالات وملاحقات استهدفت كبار موظفى الدولة، ثم لم تلبث أن اتسعت لتشمل السياسيين والأكاديميين ونجوم السينما والمسرح. ولقد عرفت فى حينه بـالماكارثية نسبة إلى بطلها السناتور جوزيف ماكارثى (مثل الحزب الجمهورى فى الكونجرس من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٢) بعد أن نجح فى تعبئة الرأى العام بسبب الرعب الذى أحدثه تورط أمريكا فى حرب كوريا. يومها كان الجنرال دوايت أيزنهاور وعالم الذرة أوبنهايمر والمخرج والممثل البريطانى الأصل شارلى تشابلن من بين الذين طالتهم قائمة الاتهام.

ويقول أحد المعلقين الأمريكان أن قانون وزير العدل اشكروفت يشبه الإجراءات الاضطرارية التى طُبقت عام ١٩٣٣ ضد الشيوعيين فى ألمانيا. يومها افتعل النازيون حريق الرايخستاج واتهموا الحزب الشيوعى بانه يهدف إلى التنكيل باعضائه. ومع أن المقارنة غير صحيحة لأن الإدارة الأمريكية لم تفتعل ماحدث فى ١١ سبتمبر، لكنها على الأقل استفادت من تاثيرات الذعر لتقوى من سيطرة الاستخبارات وأجهزة الأمن على مرافق الحياة.

هل تسمحون لى بأن أستعير ماقاله كريس ايفانز مؤسس حركة حرية الانترنت Internet Freedom: «حتى لو كسب بوش ورجاله الحرب ضد الإرهاب، فإنه يبدو من المؤكد أن كلنا سنخرج فى النهاية خاسرين..»

أو لعل الأنسب للسياق، وللمناسبة.. و«للعصر» أن نستعيد قولاً أمريكيًا صرفًا للعالم والسياسى الأمريكى بنيامين فرانكلين (١٧٠٦ – ١٧٩٠): «ان الذين يتنازلون عن حرياتهم الأساسية مقابلَ الحصولِ على قدرٍ مؤقتٍ من الأمن، لايستحقون الحرية ولا الأمن. ولن يَتمكنوا من الحصول على أى منهما».



كان الاعتقاد يومًا بأن شبكة الانترنت؛ ذلك العنكبوت الديموقراطى الذى ينسج خيوطه حول العالم، والتى أحدثت تغييرًا ثقافيًا أكثر عمقًا ممّا أحدثته مطبعة جوتنبرج فى العصور الوسطى، والتى بكل المقاييس تعتبر أكبر امبراطورية ظهرت فى التاريخ، تعدُنا بعالم متكافئ، لاحدود فيه قائمةً على الجنس أو الدين أو اللون أو البلد أو القوة والضعف. حيث يكفى أن تمتلك متصفحًا وحسابًا للبريد الالكترونى لتقف على قدم المساواة مع كل الآخرين من مواطنى هذا العالم التخيلى.

خلاصة الأمر إذن، أن ماكان يتم سرًا أو على استحياء قبل ١١ سبتمبر من اجراءات للحد من حرية وشيوعية (بالتعبير اللغوى لا السياسى) الانترنت، أصبح معلنًا.. بل ومقننًا. وانه فى عالمِ أحادى القطبِ والقوة. ويحكمه شعارُ «من ليس معنا فهو ضدنا».. وفى عالم تصدر فيه القرارات فى «ديربان» بإملاء القوة، لا بإرادة المجتمعين، يصبحُ العمل على الحد من حرية الانترنت من جانب القوة الوحيدة «طبيعيًا».. ويصبح ضروريًا الدفاع عن تلك الحرية من جانب الذين يأملون فى إيجاد عالم آخر أكثر عدلاً. ■

مواقع ذات صلة:

American Civil Liberties Union:
http://www.aclu.org
Internet Freedom:
http://www.netfreedom.org

عن البيئة والسياسة وقضية دفء الأرض



رشدى سعيد

قضية البيئة من القضايا التى أفرزها العصر الحديث ولم يبدأ أحد فى الكلام عنها أو طرحها على ساحة العمل السياسى إلا فى أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن العشرين عندما تنبه الناس خاصة من سكن منهم المناطق الصناعية إلى مقدار الدمار والتلوث الذى أحدثه النمو المتسارع للصناعة

كان للقرار الذى اتخذه الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش فى شهر مارس سنة ٢٠٠١ وبعد أقل من شهرين من توليه السلطة بانسحاب الولايات المتحدة من بروتوكول كيوتو الذى كانت الإدارة الأمريكية السابقة قد وقَّعته فى آخر سنة ١٩٩٧، أثر كبير على المهتمين بقضايا البيئة وسبب لانزعاج الكثير من الدول.. فقد كان هذا البروتوكول نتاج عمل مضن أخذ السنوات الطوال للوصول إليه، وكان يُعد واحداً من أعظم الإنجازات فى مجال الحفاظ على البيئة بسبب أنه يعالج قضية عابرة للحدود ومؤثرة على كل الدول وهى قضية التغيرات المناخية التى يمكن أن تحدث لكوكب الأرض نتيجة الاستخدام المفرط والمتسارع للموارد وعلى الأخص الوقود الحفرى الذى يسود عالم اليوم والذى يرى الكثير من المشتغلين بالعلم أنه يمكن أن يسبب ازديادا كبيرا فى انبعاثات غاز ثانى أكسيد الكربون فى الجو العالمى بنسب تزيد بكثير على قدرة امتصاص الأرض لها مما يمكن أن يؤدى إلى ازدياد حرارة كوكب الأرض وإلى إحداث تغيرات مناخية ستكون سببا للكوارث التى يمكن أن تطول سكان هذا الكوكب.

وقد تم الوصول إلى هذا البروتوكول بعد جدل استمر لسنوات طوال بين المشتغلين بالعلم عن أثر هذا الغاز وغيره من الغازات التى توجد فى جو الأرض والتى توصف بأنها غازات الاحتباس الحرارى على ميزان البيئة العالمى رجحت فيه كفة أولئك الذين يعتقدون بأن الاستخدام المتزايد للوقود الحفرى سيؤدى إلى اختلال هذا الميزان وإلى دفء العالم وهو الرأى الذى نال تأييداً شعبيّاً وسياسيّاً فى الكثير من الدول الصناعية وعلى الأخص فى غرب أوروبا.. ويهدف بروتوكول كيوتو إلى خفض نسبة انبعاثات الغازات المسببة لظاهرة الاحتباس الحرارى والتى تؤدى إلى دفء الأرض وفيه تعهدت الدول الصناعية بخفض هذه الانبعاثات من أرضها إلى أقل من نسبة انبعاثاتها فى سنة ١٩٩٠ بمقدار ٧٪ وذلك خلال الفترة بين سنتى ٢٠٠٨ و٢٠١٢.

كان إقدام الرئيس الأمريكى على الانسحاب من هذا البروتوكول على الرغم من معرفته أنه سيسبب إزعاجاً وعدم قبول من معظم دول العالم وعلى الأخص من دول غرب أوروبا مقصوداً فى ذاته أراد أن يبين به للعالم وبكل الوضوح استقلالية القرار الأمريكى وشكل التوجهات الأيديولوجية لإدارته الجديدة التى تعبر عن مصالح واهتمامات الذين ساعدوه فى الوصول إلى مركزه الجديد، ولعدد طويل من السنين كان اليمين الأمريكى غير راض عن الكلام الكثير عن قضية البيئة وما يحدث لها من فساد وما يجرى بشأن إصلاحها من قرارات تحد من نشاطه.. وكانت قضية إيقاف هذا الكلام الذى استطاعت مجموعة صغيرة من المفكرين أن تفرضه على جدول أعمال رجال السياسة، وأن تجعله واحداً من أبرز القضايا التى تشغل الرأى العام أحد أهم بنود جدول أعمال اليمين الأمريكى.

وقضية البيئة هى من القضايا التى أفرزها العصر الحديث والتى لم يبدأ أحد فى الكلام عنها أو طرحها على ساحة العمل السياسى إلا فى أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن العشرين، عندما تنبَّه الناس خاصة من سكن منهم المناطق الصناعية إلى مقدار الدمار والتلوث الذى أحدثه النمو المتسارع للصناعة والتوسع الكبير فى استخدام المنتجات الاصطناعية لتكثيف إنتاجية الأرض الزراعية ومكافحة الآفات والحشرات فقد بدا للكثيرين أن هذا الاستخدام المفرط الذى تتسارع معدلاته مع مرور الزمن سيؤثر على ميزان البيئة المحيطة بالإنسان خلال عقود قليلة وسيؤثر بالسلب على نوعية حياته وعلى صحته الجسمانية والنفسية.

على أن درجة الوعى بهذه الآثار ليست واحدة فى كل البلاد الصناعية فهى عالية فى غرب أوروبا واليابان حيث يكتظ السكان فى المدن وتظهر هذه الآثار بصورة واضحة وهى فى أدناها فى الولايات المتحدة.. حيث لا تبدو هذه الآثار لافتة للانتباه لذلك النصف من السكان الذى يعيش فى متسعات الأرض التى لازالت الولايات المتحدة تتمتع بها والتى تصل فى مساحاتها إلى أبعاد قد تدهش الكثيرين أن يعرفوها.. فبالولايات المتحدة من الأرض التى تستخدم لرعى الأبقار ما يكاد أن يتساوى ومساحة أوروبا الغربية بكاملها.. وسكان مثل هذه المناطق لا يعيرون قضية البيئة اهتماماً كبيراً فالأرض التى يعيشون عليها واسعة لا يستطيعون تصور إفسادها بإلقاء عوادم مصنع فى نهر أو ببث دخانه فى الهواء.. كما أنه من الصعب عليهم أن يروا محدودية الموارد الطبيعية فلازالت الأرض التى يعيشون عليها مليئة بالأشجار كما أن البحار من حولهم غنية بالأسماك والقشريات، والجبال بكر تنتظر من يكشف عن معادنها وثرواتها المخبأة التى لا يرون أن فى استغلالها إخلالا بشىء.. وهم يتفقون هنا مع الكثير من رجال الأعمال الذين يرون فى القوانين التى يدعو إليها حماة البيئة والخائفون عليها عبئاً على مصالحهم وتعطيلاً لأعمالهم وزيادة تكلفة منتجاتهم وتقييداً لحرية استغلال الموارد الطبيعية التى منحها الخالق للناس لاستخدامها.



والمتتبع لنتائج الانتخابات وتطور الفكر السياسى فى البلاد الصناعية التى تأخذ بالنظام الديمقراطى لابد أن يلحظ أن الولايات المتحدة تقف وحيدة بين جميع هذه البلاد من حيث تأرجح نظرة أهلها إلى قضية البيئة، ففى الوقت الذى لا يشوب أغلبية سكان أوروبا الشك فى أهمية هذه القضية فإننا نجد أن هذه القضية لا تنال إجماع السكان بالولايات المتحدة ويكاد أن ينقسم المجتمع بشأنها إلى نصفين متساويين فى الأعداد.. فهناك ذلك النصف من السكان الذى يعيش فى معظمه بالمدن الكبيرة والذى يجابه فى كل يوم المشاكل والقضايا الجديدة التى أفرزتها التطورات السريعة والمتلاحقة لتقنيات العصر والتى تأتى قضية البيئة وما تفرع عنها من قضايا أخرى فى مقدمتها والتى يحتاج حلها إلى الخروج على الكثير مما درج عليه الناس من عادات وتقاليد ومبادئ وأفكار لعهود طويلة.. وهناك ثانياً ذلك النصف الآخر الذى يعيش فى معظمه فى متسعات الأرض بعيداً عن المدن الكبيرة والذى لايزال متمسكا

بالكثير من عادات وأفكار الأجداد حتى وإن استخدم مستحدثات العصر من عدد وآلات.

وصورة الحزبين الكبيرين بالولايات المتحدة عند الكثيرين هى أنهما يعبران عن توجهات هذين النصفين من السكان.. فالحزب الديمقراطى مشغول باهتمامات ذلك النصف الذى يسكن فى أغلبيته المدن وعلى الأخص من سكن منهم فى قلبها والذى هو أكثر تقبلاً للآراء والتجارب الجديدة وأكثر استعداداً لاقتحام مشاكل العصر ومحاولة إيجاد الحلول لها. أما الحزب الجمهورى فهو مشغول فى الأساس بقضايا النصف الآخر من السكان والذى يعيش فى معظمه فى البرارى وخارج المدن وأكثر مؤيديه من المحافظين ممن لا يريدون أن يهزوا المراكب السائرة أو أن يغيروا من مسارها.. ولابد من التأكيد هنا على أن الخطوط التى تفصل النصفين ليست قاطعة فهناك من سكان المدن من يتفقون فى نظرتهم مع السكان فى خارجها والعكس صحيح. كما أن الحزبين الكبيرين ليسا بالضرورة على طرفى نقيض لأن كلا منهما مضطر لأن يضفى الكثير من المرونة والوسطية على آرائه وأفكاره حتى يحصل على أكبر دعم من كل قطاعات الناخبين مما يدفعهما للاتجاه بسياساتهما نحو الوسط وهو ما يسبب فى الكثير من الأحيان غضب قطاعات مهمة من أنصارهما.

وبطبيعة الحال فإن هناك الكثير من القضايا التى تفصل النصفين من السكان اللذين يمثلهما الحزبان الأساسيان بالولايات المتحدة اخترت أن أبرز منها قضية البيئة لكى أقدم للقارئ تفسيراً للسبب الذى دفع الرئيس الأمريكى أن يقدم على إعلان انسحاب الولايات المتحدة من بروتوكول كيوتو.. فقد فعل الرئيس الأمريكى ذلك لأنه كان يعبر عن آراء الذين صوتوا له سواء من سكان البرارى أو من رجال الأعمال خاصة رجال البترول الذى خرج هو نفسه من بينهم والذين لا يريدون أن يروا مزيداً من القيود على أعمالهم أوعلى الاستخدام الحر للوقود والبحث عنه فى كل مكان يرونه مناسباً لاحتمال وجوده.

غازات الاحتباس الحرارى وظاهرة دفء الأرض

يعالج بروتوكول كيوتو أحد أوجه قضايا البيئة ذات الأبعاد العالمية والتى تتعلق بظاهرة تزايد دفء الأرض، والتى يعزوها المشتغلون بالعلم إلى ازدياد نسب غازات الاحتباس الحرارى فى الجو عاماً بعد آخر بسبب زيادة النشاط الإنسانى وتسارع معدلاته.. وغازات الاحتباس الحرارى هى تلك التى توجد فى جو الأرض بنسب صغيرة جداً وتسبب دفء الأرض، فمن خلالها تنفذ إشعاعات الشمس ذات الموجات المتوسطة والطويلة إليها وبواسطتها تحتفظ الأرض بهذه الإشعاعات لأنها تعيق هروبها عندما ترتد من سطحها، ولولا هذه الغازات لكان كوكب الأرض باردا وبلا حياة مثله مثل باقى الكواكب والأجرام السماوية التى لا توجد بأجوائها هذه الغازات ذات الخواص الفريدة.. تاثير هذه الغازات هى أنها تحبس الحرارة فى جو الأرض كما يحبس الزجاج الحرارة فى الصوبة الزجاجية، ومن غازات الاحتباس الحرارى غازات ثانى أكسيد الكربون والميثان وبخار الماء وأكسيد النتروز والأوزون وغيرها من الغازات التى توجد فى جو الأرض بنسب صغيرة جداً.

وزيادة نسبة هذه الغازات فى الجو يؤدى إلى حبس المزيد من الحرارة فى الأرض فتدفأ ويتاثر مناخها وتتغير مراكز الضغط الجوى فيها وتختلف مواقع المناطق الممطرة والجافة بها وتمتد الصحارى وتتغير أمكنة الأراضى الصالحة لزراعة المحاصيل. كما يؤدى ارتفاع درجة حرارة الأرض إلى تقلص مساحة الغطاء الجليدى فوق القطبين وفوق قمم الجبال وإلى ذوبان ثلوجها وانسياب مياهها إلى البحار فيرتفع منسوبها وتغرق المناطق الساحلية الواطئة والعامرة بالسكان. وكل هذه الظواهر قد حدثت بالفعل ورصد الكثير منها خلال المائة عام الأخيرة فقد ارتفعت درجة حرارة الأرض خلال هذه السنوات بحوالى نصف درجة مئوية كما ارتفع منسوب البحر خلالها بين ١٠ و٢٠ سنتيمترا.



ويعود ارتفاع نسبة غازات الاحتباس الحرارى إلى زيادة انبعاثاتها فى الجو نتيجة التزايد المتسارع لمختلف الأنشطة الإنسانية.. وقد زادت كمية غاز الميثان المنبعثة فى الجو حتى تضاعفت نسبتها خلال الخمسين سنة الأخيرة نتيجة اتساع عمليات التحلل العضوى التى تصاحب التزايد السكانى وتضخم مساحات القمامة خارج المدن واتساع مساحات زراعة الأرز وانتشار حظائر تربية الماشية وازدياد حدائق الغابات، كما زادت أيضاً نسبة ثانى أكسيد النتروز نتيجة ازدياد استخدام المخصبات الأزوتية فى الزراعة، أما أكبر الزيادات وأكثرها أثراً فقد حدثت فى غاز ثانى أكسيد الكربون بسبب التوسع الكبير الذى حدث فى استخدام الوقود الحفرى (الفحم والبترول والغاز) منذ بدء عصر الصناعة بل ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ولثانى أكسيد الكربون أهمية خاصة فى دورة الحياة ذاتها فهو المصدر الرئيسى للكربون الذى يدخل فى عملية التمثيل الضوئى فى الأجزاء الخضراء من النباتات والتى يتم فيها تخليق المركبات العضوية المعقدة من تفاعل مواد بسيطة مثل الماء وثانى أكسيد الكربون.. وفى ميزان الطبيعة الأولى فيما قبل عصر الصناعة كانت كمية غاز ثانى أكسيد الكربون الموجودة فيها والتى كان مصدرها ما يخرجه الحيوان منه أثناء عملية التنفس أو ما ينبعث منه من حرائق الأخشاب التى كانت تشكل المصدر الأساسى للطاقة فيما قبل عصر الصناعة، معادلة على وجه التقريب للكمية التى يمتصها النبات فى عملية التمثيل الضوئى. فلما جاء عصر الصناعة تغيَّر الميزان تماماً فقد أدى التوسع فى حرق الفحم ثم البترول والغاز إلى زيادة نسبة غاز ثانى أكسيد الكربون التى أطلقت فى الجو إلى درجة فاقت قدرة النبات بل والطبيعة كلها على استيعابه فزادت نسبته فى الجو من ٢٧٠ جزءا فى المليون عند بدء عصر الصناعة إلى ٣٨٠ جزءا فى المليون فى تسعينيات القرن العشرين.. وحدثت أسرع معدلات الزيادة فى العقود الثلاثة الأخيرة حين زادت نسبته بأكثر من ١٥٪ دفعة واحدة.

وعلى الرغم من أن هناك الكثيرين من المشتغلين بالعلم ممن يجزمون أن العالم فى طريقه إلى الدفء

بسبب تكاثر هذه الغازات فإن هناك عدداً آخر من العلماء ممن لا يظنون أن لهذه الغازات أية علاقة بدرجة حرارة كوكب الأرض التي تقلبت عبر السنوات المائة والثلاثين الماضية والتي لدينا قياساتها المرصودة.. فقد حدثت أكبر الارتفاعات في درجة حرارة الأرض في الستين سنة التي سبقت سنة ١٩٣٨ ثم انخفضت بعد ذلك وحتى سنة ١٩٧٥ بمعدلات خشي بعض المشتغلين بالعلم أن تكون نذيرًا لبدء عصر جليدي جديد.. ثم انعكس الاتجاه بعد هذه الفترة وحتى وقتنا هذا.. ومثل هذه التقلبات تثبت أنه لا توجد علاقة بين درجة حرارة الجو ونسبة غازات الاحتباس الحراري به والتي تزايدت بصورة مستمرة عبر السنوات المائة والثلاثين الماضية.

بروتوكـول كـيـوتـو

ومـهـمـا كـان من هذه الخلافات بين المشتغلين بالعلم بشأن ظاهرة دفء الأرض فإن شعوراً قوياً ساد الدوائر السياسية العالمية منذ آخر سنوات الثمانينيات من القرن العشرين بأن خللاً كبيراً يحدث في ميزان البيئة المحيطة بالإنسان زاده إلحاحاً ما شهده ذلك العقد من الاضطرابات الجوية العنيفة التي طالت الكثير من أرجاء الأرض وزادت فيه الأعاصير والفيضانات ـ وعم الجفاف مناطق كثيرة كانت تنعم عادة بالأمطار ـ وفي سنة ١٩٨٨ باركت جميع الدول فكرة تشكيل هيئة علمية دولية لدراسة هذه التغيرات المناخية ومعرفة أسبابها وأبعادها تحت رعاية الأمم المتحدة وأوكل تشكيلها والإشراف عليها إلى منظمتي الأرصاد الجوية وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة.. ومن اللافت للنظر أن تشكيل هذه الهيئة التي ضمت ألفي عالم ومتخصص تم برضاء جميع الدول وبمباركة جميع الاتجاهات السياسية بما في ذلك اليمين نفسه الذي تطلع إلى التوصيات التي كان يتوقعها منها لكي تساهم في الخلاص من نشاط تنجيم واستخدام الفحم الحجري في أوروبا وبالتالي من عمال مناجمه ونقاباتهم التي كانت تتسم باليسارية والمجابهة.. وكانت نقابة عمال الفحم ببريطانيا من أنشط النقابات العمالية وأكثرها عداء لحزب المحافظين ولرئيسته في ذلك الوقت مارجريت تاتشر.. ومن الطرائف في هذا المقام أن عداء هذه السيدة لنقابة عمال الفحم بالذات كان أحد دوافعها لإنشاء مركز هاولي للتنبوءات الجوية أحد أكبر مراكز دراسات المناخ في العالم.



وأدت توصيات هذه اللجنة الدولية إلى عقد اجتماع «قمة الأرض» الدولي في ريو بالبرازيل في سنة ١٩٩٢ حيث تم توقيع الاتفاقية الإطارية للتغيرات المناخية من ١٥٥ دولة والتي دخلت حيز التنفيذ في شهر مارس سنة ١٩٩٤ بتصديق الدول الخمسين عليها. وتلى ذلك التحرك الدولي الذي تم في إطار مؤتمر برلين الذي عقد في جنيف سنة ١٩٩٥ للبحث في الخطوات التنفيذية لتطبيق توصيات الاتفاقية الإطارية والتي كان في مقدمتها تلك التي سيتم بمقتضاها خفض انبعاثات غازات الاحتباس الحراري والتي تعددت الآراء بشأن تحديدها من بين العديد منها ونسبة هذا الخفض والجدول الزمني لتنفيذ هذا الخفض.

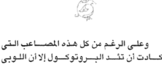
وأثار صدور مقترحات برلين لخفض غازات الانبعاث الحراري مخاوف الكثيرين وخاصة من بين أحزاب اليمين في مختلف أرجاء العالم الصناعي وعلى الأخص في الولايات المتحدة إلا أن جهود الناشطين البيئيين الذين وجدوا تاييداً من الكثير من دول أوروبا خاصة تلك التي تحكمها أحزاب يسار الوسط ـ والتي تشكل أحزاب الخضر رافداً مؤثراً فيها ـ قد أفلحت في سنة ١٩٩٧ في تحرير بروتوكول كيوتو في المؤتمر الدولي الذي عقد في تلك المدينة، شهد صراعاً لم يحسمه إلا قرار الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس بل كلينتون بالتوقيع عليه في اللحظة الأخيرة للمؤتمر، وفي هذا البروتوكول تعهدت ٣٨ دولة صناعية بخفض نسبة انبعاثاتها من غازات الاحتباس الحراري حتى تصل بها إلى نسبة تقل عن انبعاثاتها في سنة ١٩٩٠ بمقدار ٧٪ وذلك في مدى العشرة إلى الاثنى عشر عاماً المقبلة.

وقبل أن يجف مداد التوقيع على هذا البروتوكول كان هناك هجوم عليه من دوائر اليمين ومن رجال الأعمال وهدد مجلس الشيوخ الأمريكي فور التوقيع على البروتوكول بانه سيرفض الموافقة عليه.

وشنت ضد البروتوكول حملة ضخمة قادها بعض المشتغلين بالعلم تشكك في صحة ظاهرة دفء الأرض التي انبنى عليها وتثير التساؤلات عما إذا كانت زيادة درجة حرارة الأرض التي حدثت في السنوات الأخيرة تشكل اتجاهاً عاماً أم انها حالة من نظام كوني ترتفع فيه الحرارة وتنخفض بسبب عوامل كثيرة غير زيادة نسب غازات الاحتباس الحراري في الجو، لازال أمامنا عمل كثير حتى نحصرها ونعرف آثارها.. ناهيك عن صراع المصالح التي كان سيحسمها الالتزام بخفض نسب غازات الاحتباس الحراري وعلى الأخص غاز ثاني أكسيد الكربون الذي سيستدعي خفضه إلى الإقلال من استخدام الطاقة المولدة من الوقود الحفري والتي خشيت الدول والشركات المنتجة له من تاثيره على نشاطها وأرباحها.. كما خشيت الكثير من الدول على ما يمكن أن يتركه الإقلال من استخدام الوقود الحفري من أثر سلبي على اقتصادياتها وجملة ناتجها القومي ومعدلات نموها ومستوى معيشة أهلها، وقدرت بعض مراكز البحوث غير الحكومية بالولايات المتحدة أن مثل هذا الخفض الذي تقرر في بروتوكول كيوتو قد يؤدي إلى خسائر في جملة الناتج القومي لهذه البلاد قد تصل إلى حوالي ٤٠٠ مليار دولار في كل عام وإلى زيادة في أسعار الكهرباء قد تصل إلى أكثر من ٨٦٪ من سعرها الحالي.

وشاركت الدول المنتجة للبترول في هذه الحملة فقد خشيت أن يؤدي الإقلال من استخدام الوقود الحفري إلى تقلص دخولها وقامت بعمل الدراسات لتقدير ما يمكن أن ينالها من خسائر في حالة تطبيق بروتوكول كيوتو في مقال الأستاذ حسين عبدالله في وجهات نظر (عدد مايو ٢٠٠١) عرض لدراسات دول الأوبك في هذا الخصوص.

وجاءت ذروة هذه الحملة بإعلان الرئيس جورج دبليو بوش بانسحاب الولايات المتحدة من الالتزام بهذا البروتوكول في شهر مارس الماضي مما كاد أن يجهز عليه كلية لأن نفاذه كان معتمداً على تصديق خمسين دولة من الضروري أن تشكل انبعاثاتها من غاز ثاني أكسيد الكربون ما لا يقل عن ٥٥٪ من جملة الانبعاثات الكلية لهذا الغاز في العالم، ولما كانت انبعاثات هذا الغاز من الولايات المتحدة وحدها تزيد على ٣٦٪ من جملة انبعاثاته في العالم فقد كان واضحاً أن انسحاب الولايات المتحدة يمثل ضربة قاضية له.. وقد راح كل الأمل في نفاذ البروتوكول بعد أن أعلنت اليابان التي تمثل انبعاثاتها من غاز ثاني أكسيد الكربون ٨,٥٪ من جملة انبعاثات هذا الغاز انسحابها أيضاً.

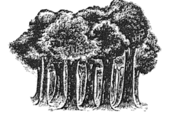


وعلى الرغم من كل هذه المصاعب التي كادت أن تشد البروتوكول إلا أن اللوبي الأوروبي استطاع أن يعيد اليابان إلى قائمة الدول التي أمكن له أن يحصل على موافقتها على بروتوكول جديد ومقبول لعدد كبير من الدول الصناعية لمجابهة مشاكل تقلبات المناخ ودفء الأرض.. وعرض هذا البروتوكول الجديد في الاجتماع الدولي الذي عقد بمدينة مراكش بالمغرب في شهر نوفمبر سنة ٢٠٠١ وتم الاتفاق عليه من ١٦٠ دولة لم تكن الولايات المتحدة من بينها.. وفي هذا البروتوكول الجديد التزمت أربعون دولة صناعية بإنقاص انبعاثاتها من غازات الاحتباس الحراري بنسبة ٥,٢٪ عن نسبة انبعاثاتها في سنة ١٩٩٠ في خلال الأحد عشر عاماً القادمة. ولازال أمام نفاذ هذا البروتوكول الجديد ضرورة موافقة عدد كاف من الدول الصناعية التي لا تقل جملة انبعاثاتها من غازات الاحتباس الحراري عن ٥٥٪ من الجملة الكلية لهذه الانبعاثات على مستوى العالم.. ويبدو من واقع المناقشات التي تمت في اجتماع مراكش، أن كبرى الدول الصناعية خارج الولايات المتحدة كاليابان وروسيا وبريطانيا قد وافقت على المضي قدماً في إجراءات وضع هذه الاتفاقية محل النفاذ.

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن الإدارة الأمريكية لم تُبد اهتماماً كبيراً باجتماع مراكش وكان وفدها إليه على مستوى صغار الموظفين ومشاركتها في مناقشاته هامشية تماماً.. هذا على الرغم من أن مجلس الشيوخ الأمريكي كان قد أوصى الإدارة الأمريكية في شهر أغسطس ٢٠٠١ بأن تهتم باجتماع مراكش وأن تشارك فيه بطريقة فعالة وأن تتقدم إليه بمقترحات جديدة تحمي المصالح الأمريكية وتحافظ على نموها الاقتصادي ويجرى تطبيقها على جميع البلاد بما فيها الصين والهند وغيرها من الدول تحت التنمية والتي كانت معفاة من تطبيق خفض انبعاثات الاحتباس الحراري في بروتوكول كيوتو..

المتتبع لنتائج الانتخابات وتطور الفكر السياسي في البلاد الصناعية التي تأخذ بالنظام الديمقراطي لابد أن يلحظ أن الولايات المتحدة تقف وحيدة بين جميع هذه البلاد من حيث تأرجح نظرة أهلها إلى قضية البيئة





وفى خلال الأشهر الثلاثة التى انقضت منذ صدور هذه التوصية وحتى انعقاد مؤتمر مراكش كانت هناك إشارات متضاربة حول موقف الإدارة الأمريكية من هذه التوصيات. ففى الوقت الذى وعد فيه كولن باول وزير الخارجية بأن يعد مقترحات جديدة تتماشى وتوصية المجلس لعرضها على مؤتمر مراكش بررت السيدة كونودليزا رايس مستشارة الأمن القومى الأمريكى أن الإدارة الأمريكية ليست لديها أية نية لإعداد مثل هذه المقترحات وهو الموقف الذى أخذت به الإدارة الأمريكية. وهذا الموقف هو موقف غلاة اليمين ممن لا يريدون للولايات المتحدة أن تلتزم بأى شىء أمام المجتمع الدولى ويطالبون بأن تكون لها حرية العمل دون رقيب والذين لا يريدون أن يروا أى قيد على حرية استخدام الموارد وعلى الأخص الوقود، فهى مواقف لا يشاركهم فيها الكثيرون حتى من بين رجال الأعمال أنفسهم والذين يرون أن القيد على استخدام الوقود الحفرى آت لا محالة إن لم يكن بسبب الفساد البيئى الذى يرونه آتياً فسيكون بسبب الضغوط الدولية ومن هنا جاءت توصية مجلس الشيوخ فى شهر أغسطس الماضى بضرورة المشاركة الفعالة فى مؤتمر مراكش.. معبرة عن رأى أغلبية رجال الأعمال الذين يريدون تخطيط استثماراتهم وبناء مصانعهم لتتماشى مع ما سوف تأتى به الاتفاقيات الدولية من التزامات نحو غازات الانبعاث الحرارى.. فالذين يخططون لإصلاح أو تعديل أو بناء محطات توليد الكهرباء على سبيل المثال يريدون أن يعرفوا مقدماً حدود التزاماتهم نحو البيئة حتى تجىء مصانعهم متماشية معها ودون الحاجة إلى إجراء تعديلات فيها.. وكانت الإدارة الأمريكية الجديدة قد استثنت غاز ثانى أكسيد الكربون من بين الملوثات الخارجة من هذه المحطات واكتفت بتقنين تحديد كمية الملوثات الغازية الأخرى مثل ثانى أكسيد الكبريت وأكسيد النتروجين والزئبق.. إلا أن هذا التقنين لم يقنع بناة هذه المحطات لأنهم يرون أن تحديد انبعاثات غاز ثانى أكسيد الكربون آت لا ريب، ولذا فإنه من الأفضل للولايات المتحدة أن تشارك بفعالية فى وضع القوانين المنظمة لشئون البيئة خاصة ما كان منها عابراً للحدود كما هو الحال فى انبعاثات غازات الاحتباس الحرارى.

ولعل أهم ما جاء به بروتوكول مراكش من مبتكرات يمكن أن تجذب الدول وخاصة الصناعية منها لقبوله هو تلك الحزمة من الإجراءات والآليات التى يمكن أن تقلل من الآثار التى ستأتى مع خفض استخدامات الوقود وانبعاثات غاز ثانى أكسيد الكربون على اقتصاديات هذه البلاد والتى شملت إعطاء هذه الدول الفرصة لبناء رصيد يخفف من درجة الخفض عن طريق توسيع المساحات الخضراء بها.. فمن المعروف أن النبات هو أحد مستقرات هذا الغاز والقادر على امتصاصه، وكذلك بتمكينها من شراء ما سمى بأرصدة الكربون وهى أرصدة سيتم طرحها وتداولها فى السوق يمكن فيها لدولة ما أن تشترى من دولة أخرى بعض رصيدها من الكربون إذا رأت هذه الدولة الأخيرة أن تتوقف عند حد معين فى انبعاثاتها من غازات الاحتباس الحرارى يقل عن الحد المسموح لها مما يتيح لها الفرصة أن تبيع هذا الزائد لأية دولة ترغب فى زيادة حد انبعاثاتها من هذه الغازات. والدول المرشحة لأن تكون لها هذه الأرصدة الزائدة هى دول الكتلة الشرقية فى الأساس والتى كانت قد حددت أنصبتها وقت استخداماتها للوقود بطريقة تفتقر إلى الكفاءة ثم تقلصت حاجتها إلى هذه الأنصبة بسبب التراجع الاقتصادى الذى شهدته وبسبب الاستخدام الأكثر كفاءة للوقود بالنسبة لوحدة الإنتاج. وتعتبر روسيا الاتحادية أحد أكبر أصحاب هذه الأرصدة فقد بلغت نسبة انبعاثاتها من غاز ثانى أكسيد الكربون - حسب ما جاء بملحق بروتوكول كيوتو - ١٧,٤٪ من جملة انبعاثات هذا الغاز أو ما يساوى حوالى نصف جملة انبعاثات الولايات المتحدة منه. هذا على الرغم من أن جملة الناتج القومى لروسيا لا يزيد على ٤٪ فقط من جملة الناتج القومى للولايات المتحدة (البيانات عن سنة ١٩٩٩ كما جاء فى تقرير البنك الدولى عن التنمية لسنة ٢٠٠٠ / ٢٠٠١).

ماذا بعد اتفاقية مراكش؟

بروتوكول كيوتو وصورته المعدَّلة فى مراكش هو آخر ما تفتق عنه ذهن المشتغلين بالبيئة لحل مشكلة دفء الأرض التى يعزوها أغلبية المشتغلين بالعلم إلى ازدياد انبعاثات غازات الاحتباس الحرارى خاصة غاز ثانى أكسيد الكربون الذى يخرج فى جو الأرض من حرق الفحم والبترول والغاز التى زادت معدلات استخدامها زيادة كبيرة خلال الخمسين سنة الماضية.. ومن الواضح أن طريق كيوتو ومراكش قد أصيب بضربة قاضية بانسحاب الولايات المتحدة على السير فيه وإنه لن يؤدى إلى أى إصلاح حقيقى للبيئة أو لتحسين مناخ الأرض حتى وإن اتفقت كل الدول الصناعية خارج الولايات المتحدة على السير فيه. فالولايات المتحدة هى أكبر مستخدم للوقود الحفرى بجميع أنواعه وانبعاثاتها من غازات الاحتباس الحرارى هى أكبر بمسافات شاسعة عن كل البلاد، وهى الآن وتحت الإدارة الجديدة فى طريقها لرفع كل القيود على استخدام الوقود والبحث عنه.. وقد زادت بالفعل نسبة انبعاثات غاز ثانى أكسيد الكربون بنسبة ٣.١٪ خلال العام الماضى حسب ما جاء بنشرة مصلحة الطاقة الأمريكية التى صدرت فى شهر نوفمبر ٢٠٠١ وهى أعلى نسبة تزيدها هذه الانبعاثات منذ سنة ١٩٩٠. كما أن كفاءة استخدام الوقود بالنسبة لوحدة الإنتاج لم تتحسن خلال العام الأخير، ولأول مرة منذ سنوات طوال حسب ما جاء بالنشرة ذاتها. وكان الأمل يحدو الكثيرين من محبى البيئة إلى أن تستمر الولايات المتحدة فى دعمها للبحث العلمى الموجه لهذا الميدان والذى كان قد نجح فى أن يخفض من انبعاثات الولايات المتحدة من غاز ثانى أكسيد الكربون بالنسبة لوحدة الإنتاج إلى نصف ما ينبعث من هذا الغاز فى أوروبا الغربية بالنسبة إلى نفس هذه الوحدة، ومن الواضح أن هناك مجالاً كبيراً للتقدم فى هذا الميدان والذى نالت فيه اليابان قصب السبق فقد كان استخدامها للوقود الأكثر كفاءة قد بلغ بالنسبة لوحدة الإنتاج نصف ما تستخدمه الولايات المتحدة لها.



زيادة نسبة الغازات فى الجو يؤدى إلى حبس المزيد من الحرارة فى الأرض فتدفأ ويتأثر مناخها وتتغير مراكز الضغط الجوى فيها وتختلف مواقع المناطق الممطرة والجافة بها وتمتد الصحارى وتتغير أمكنة الأراضى الصالحة لزراعة المحاصيل





ومن القضايا الخلافية والتى سيكون لها أكبر الأثر فى الإقلال من أثر بروتوكول كيوتو واتفاقيات مراكش والتى وقفت فيها الولايات المتحدة منفردة عند مناقشة بنود تنظيم انبعاثات غازات الاحتباس الحرارى قضية إعفاء الدول النامية من أى قيد على انبعاثاتها من هذه الغازات.. فقد وقفت وحيدة بين الدول ضد إعطائها هذا الامتياز.. وكانت الدول الأخرى قد رأت أن من العدل ترك الفرصة للدول النامية لكى تلحق بالعصر الصناعى وتنعم بمستوى العيش الذى أتى به دون وضع أية قيود على استخدامها للموارد أو الوقود شأنها فى ذلك شأن ما حدث للدول الصناعية عندما دخلت ذلك العصر. ولما كانت خمسة أسداس البشر ينتمون إلى العالم النامى ولا ينعمون بالمستوى الرفيع للعيش الذى ينعم به السدس الآخر. فإن تصور نجاح حتى ولو ربع هذا العالم النامى لكى يرفع مستوى عيشه إلى مستوى دولة كالمكسيك فى ظرف الثلاثين سنة القادمة (يكون هو نفسه قد تضاعف عدده خلالها) سيكون صعباً وضاغطاً على البيئة والموارد بدرجة قد تضر بالسلم العالمى والأمان الاجتماعى ضرراً بليغاً.. إن هذا الوضع سيضيف عدة ملايين أخرى من السيارات وسيحتاج إلى مد مئات الآلاف من الكيلومترات من الطرق وإنشاء آلاف المطارات ومحطات توليد الكهرباء وغير ذلك من البنى التحتية هذا بالإضافة إلى حرق الملايين فوق الملايين من الأطنان من الوقود مما سيضر بالبيئة وتوازناتها ضرراً بليغاً.

إن طريق كيوتو ومراكش مسدود وكان من الأجدر لمحبى البيئة وجماعات الضغط التى تقف وراءهم من الدعاة والموظفين الدوليين والمهنيين والذين شكلوا وفى حد ذاتهم مجموعات من المنتفعين أن يوجهوا جهودهم نحو حلول تكون أكثر واقعية وأكثر قابلية للتطبيق كالدعوة لدعم البحث العلمى الموجه لإيجاد مصادر جديدة ونظيفة ومتجددة للطاقة حتى يمكن الاستغناء عن استخدام الوقود الحفرى كلية أو على الأقل عن جزء منه.. وفى يقينى أن توفير مثل هذه المصادر هو الذى يمكن أن يجعلنا نتكلم على مستقبل آمن للإنسان على وجه هذه الأرض التى تئن بما يجرى عليها من دمار.

وأريد من القارئ فى نهاية هذا المقال أن يتصور معى كم من الوقت والمال كان من الممكن أن يتوفر لو أن جهود بناء وهدم وإعادة بناء بروتوكول كيوتو عبر الثلاث عشرة سنة الماضية قد صرف فى حث الحكومات على إحياء ودعم عمليات البحث العلمى المنظم لإيجاد مصادر جديدة للطاقة غير المفسدة للبيئة والتى كانت قد بدأت منذ عقود ثم تراجعت تحت ضغوط المصالح الخاصة. ألم يكن فى هذا حل سهل لمشاكل البيئة؟ ولكنى أستدرك وأقول إن الحلول البسيطة والسهلة كثيراً ما تكون بعيدة عن العيون!

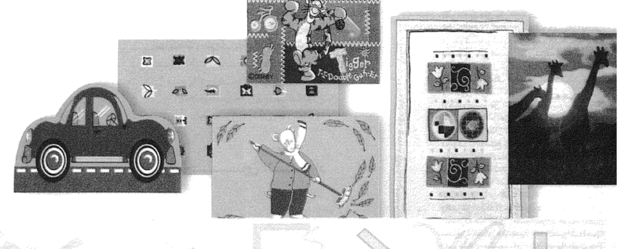


مراكز البيع:

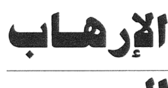
مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى . نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٣
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس . ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول
ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج . دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان . محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥
القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٢٤٥٣٥٦٩٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
العاشر من رمضان: دوار العاشر . طريق الإسماعيلية
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل . محطة التعاون . الهرم ت: ٣٨٢٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية . خلف المحكمة
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى . مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع . السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ت: ٣٦٣٠٥٩٠
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر أبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٣٩١٨٤٧٠-٠٣

العباسية: ١٥ ش العباسية . ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت:٢٢٠٨٥٥٥
بنها : ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية . فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
صفط اللبن: سنتر الصاوى . شارع التحرير
بنى سويف: ٥ . ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٥٧٦٥ ٢٢
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ٠٥٥٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ت: ٠١٠١٩٢٢٤٢٨
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩ ٠٦٨٣٦٥٦٥٦
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم . خلف المحكمة ٠١٠١٩٧٧٥٣٣
دسوق: ش الجيش . أمام عمر أفندى
بورسعيد : ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة . طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com



GÉNÉRAL AUSSARESSES
SERVICES SPÉCIAUX Algérie 1955-1957
Mon témoignage sur la torture
Perrin



الإرهاب الرسمى بين الإدانة والنفاق السياسى

حسين الواد

إن الجنرال أوساريس ظل أربعين عاما متلفعا بالصمت ممتثلا لما تدعوه إليه طبيعة المهام المكتومة التى اضطلع بها من وجوب ملازمة السكوت. وعندما قرر أن يخرج عن صمته ذاك الطويل ليدلى بشهادته عما اقترفت يداه فى الجزائر سنتى ١٩٥٦ و ١٩٥٧ أثناء «حرب» ظلت الحكومات الفرنسية إلى سنة ١٩٩٩ تجحد أنها كانت «حربا»، غضب عليه كثير من الناس

من أغرب ما فى المحاكمة التى تعرض لها الجنرال بول أوساريس فى باريس وصدر فى أعقابها حكم بتغريمه ما يعادل ٧ آلاف دولار فى ٢٥ يناير الماضى أن لا شىء، فى الظاهر، لا فى الكتاب الذى صدر له فى أبريل ٢٠٠١ متضمنا شهادته على حرب الجزائر فى سنتى ١٩٥٥ - ١٩٥٧ و لا فى سيرة مؤلفه الشخصية، يدعو إلى الادعاء عليه وجرجرته أمام المحاكم.

فبول أوساريس سلخ عمرا، هو الآن فى آخر الهزيع الأخير منه (ولد سنة ١٩١٨)، فى نصرة الجمهورية سواء بانضمامه إلى «فرنسا»دى جول «الحرة» و مشاركته فى حرب تحريرها، أو بالتحاقه بالهند الصينية لنجدة العساكر الفرنسية المدحورة فى معركة ديان بيان فو، أو بتحوله للجزائر ليقود «فيالق الموت» ممارسا أعمالا قذرة من قبيل الاغتيال والتعذيب والترويع والترهيب، أو بالاضطلاع، فى أجهزة الجيش الفرنسى الخاصة، بتكوين هذا الفريق أو ذاك من فرقها الضاربة.

ليس ثمة، فى الظاهر دائما، من وجهة النظر هذه، ما يدعو القضاء الفرنسى إلى تتبع هذا الجنرال الفانى المنخور فى أرذل العمر بدائه العضال، فالخدمات المفرطة فى السرية والخطورة والقذارة التى أسداها لحكومته، فى نطاق اختصاصه،قد نهض بها بكثير من الحماس والحذق، ترقّى بها من رتبة إلى رتبة حتى اختارت الولايات المتحدة الأمريكية أن تستفيد من خبرته فأسهم فى تدريب قواتها الخاصة.



أما الكتاب الذى يتسبب لصاحبه فى هذه المحاكمة فليس بالكتاب الوحيد الذى يتحدث، بكثير من الأدلة والقرائن والشهادات، عما جرى فى حرب تحرير الجزائر من فظاعات. ذلك أن قائمة التآليف والمصنفات فى هذا الموضوع لا يبلغها استقصاء،تكاد تكّون مكتبة من المكتبات. ثم إنه ليس بأفضل الكتب أو أكثرها استئثارا بالاهتمام، فهو لا يرقى مثلا لا إلى مرتبة التاليف المدهش الذى كتبه إيف كوريير فى مطوّلته الشهيرة عن حرب الجزائر ولا إلى مستوى ما كتبه محمد حربى عن تلك الحرب من خلال مجهود محترم فى التاريخ والتنظير، وهذا حتى نكتفى بمثالين فرنسى وجزائرى وإن كان فى سواهما تآليف و شهادات كثيرة لا تقل عنهما قيمة وفائدة وخطورة. من هذه الوجهة أيضا ليس ثمة، فى الظاهر دائما، ما يدعو إلى مقاضاة مؤلف هذا الكتاب.

ثم إن الجنرال أوساريس ظل أربعين عاما متلفعا بالصمت ممتثلا لما تدعوه إليه طبيعة المهام المكتومة التى اضطلع بها من وجوب ملازمة السكوت. و عندما قرر أن يخرج عن صمته ذاك الطويل ليدلى بشهادته عما اقترفت يداه فى الجزائر سنتى ١٩٥٦ و ١٩٥٧ أثناء «حرب» ظلت الحكومات الفرنسية إلى سنة ١٩٩٩ تجحد أنها كانت «حربا»، غضب عليه كثير من الناس.

قيل،مثلا، إن الشيخ الجنرال قد ملّ الظلام الذى كان يلف عملياته طيلة اضطلاعه بـ«أقذر المهام» و ضاق بالظلام الآخر الذى آلت إليه حياته قبيل الانطفاء، فرغب فى الخروج إلى أنوار الأضواء الساطعة. أدلى أولا بتصريح مطول إلى جريدة لوموند(العالم) ثم أوكل ذكرياته لمن صاغها له كتابا هو هذا الكتاب،واستطاب الأمر فاتبعه، أثناء المحاكمة، بكتاب آخر أسماه «من أجل فرنسا: أجهزة خاصة ١٩٤٢-١٩٥٤، نشرته دار دو روشى فى ٢٧٤ من الصفحات.

وتحركت منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان فاستندت «جماعة حقوق الإنسان» إلى ما ورد فى الكتاب من خطير الاعترافات، فادعت على صاحبه يوم ٤ مايو ٢٠٠١ بـ«التبجّح بجرائم حرب»، وادعت الفيدرالية الدولية لحقوق الإنسان على أوساريس يوم ٧ مايو بارتكاب «جرائم فى حق الإنسانية»،وادعت عليه «الحركة المناهضة للعنصرية من أجل الصداقة بين الشعوب» الادعاء نفسه. ورفع عليه أقارب العربى بن مهيدى دعوى بـ«الاغتيال» ما دام قد اعترف (والاعتراف سيد الأدلة) بأن بن مهيدى لم يمت منتحرا وإنما مات شنقا،شنقه بعد سابق إضمار وتدبير أوساريس ومعاونوه. لم تحتفظ النيابة إلا بالادعاء على أوساريس بـ«المشاركة فى التبجّح بجرائم حرب» فاتّهمت بها كلاً من الكاتب والناشر وشرعت فى مقاضاتهما.

فما الذى فى هذا الكتاب دون سواه مما هو من قبيله قد حرك هذه السواكن وجعلها تضطرب كل هذا الاضطراب؟ علما بأن الحكومة الفرنسية كانت قد أصدرت سنة ١٩٦٢ أمرين بالعفو عن الانتهاكات والتجاوزات والجرائم التى ارتكبت فى الجزائر سواء فى نطاق الانتفاضة الجزائرية أو نطاق التصدى لها لحفظ الأمن والنظام، وأصدرت سنة ١٩٦٨ فى دعم الأمرين قانونا ينص على العفو العام عمّا حصل فى الجزائر طيلة العمل على تحريرها.



يقول الناشر فى التنبيه المختصر الذى صدّر به هذا الكتاب: « قرأنا عن حرب الجزائر كثيرا من المرافعات الأسيانة ومن التبرير الاستذكارى ومن الإدانة القاسية. ومع ذلك فإن الشهادة المباشرة التى يدلى بها اليوم الجنرال أوساريس تأتى منقطعة النظير.والذى نعتقده أنها، بعد أربعين عاما، تساعد على تفهّم ذلك التّعقّد المفزع الذى اتسم به عهد لم يزل يسكن حاضرنا».

ويقول أوساريس فى التوطئة التى مهّد بها لكتابه: «كنت قد قررت، مثل كثير من رفاقى الذين حاربوا فى الجزائر، أن أظل ساكتا وألاّ أنسى». (..) « و حتى لو كنت أدرك أن الأحداث التى أسوقها من شأنها أن تصدم – أولئك الذين كانوا يعلمون بها و يودّون أن أظل صامتا وأولئك الذين لم يعلموا و ظلّوا يفضلون ألاّ يعلموا عنها شيئا –فإنى أعتقد أنه من المفيد اليوم أن تذكر بعض الأحداث التى حصلت. وبما أنى كنت، مثلما نرى لاحقا، على صلة متينة ببعض الفترات الخطيرة من حرب الجزائر، فإنى أقدّر أنه يتعين علىّ أن أتحدث عنها. فالصفحة قبل أن تطوى ينبغى أن تقرأ، وحتى تقرأ ينبغى أن تتمّ كتابتها». ثم يقول بعد التأكيد على أنه يستحيل على الجيش الذى تكلفه أمته بمحاربة عدو يستعمل الرعب والترويع ألاّ يلجأ إلى استعمال أعنف الوسائل: «فليتذكر الذين يطلعون على هذا العمل أن الهجوم على إطلاق الأحكام أيسر من الفهم، وأن تقديم الاعتذارات أهون على النفس من استعراض الوقائع».

قد يقرأ هذان التصديران على أنهما من مألوف ما أصبح يتعمده كثير من الناشرين والكتاب للفت الأنظار إلى ما يكتبون وينشرون لو لم تكن السنتان ١٩٥٥ و١٩٥٧ وما يلحق بهما متفرّعا عنهما فى صميم ذلك الجرح العميق الذى ظلت تنكأه بكل من فرنسا والجزائر أبسط الأحداث وأوهى الأسباب، فكأن المسكوت عنه الذى لا تفتأ أصوات عديدة تنادى بضرورة تجاوزه تتهيبه تلك الأصوات نفسها وهى تنادى بتجاوزه عن طريق ضرورة الخوض فيه.

Général Aussaresses
Services spéciaux Algérie 1955 - 1957

(الجنرال أوساريس)
أجهزة خاصة فى الجزائر ١٩٥٥- ١٩٥٧

Editions : Perrin, 2001.197p.

تحدث أوساريس في كتابه عن وقائع خاضها بأجهزة الجيش الخاصة ضد «فلاقة» (الثوار) جبهة التحرير الوطني والأهالي في مدينة «فيليبفيل» (سكيكدة حاليا) سنة ١٩٥٥ ومدينة الجزائر سنة ١٩٥٧.

خصص لوقائع فيليبفيل الفصول الستة الأولى. فعندما حلّ بها كانت جبهة التحرير قد اتخذت قرارها بنقل المقاومة من الأرياف إلى المدن، وكانت الحكومة الفرنسية قد قررت أن تعمل على القضاء على قادة جبهة التحرير ومنع أي تطور لحرب عصابات المدن.

علم أوساريس بذلك كله عندما حلّ بفليبفيل وبلغه أن جبهة التحرير كانت تعدّ لتفجيرات هائلة اختارت لها يوم ١٨ يونيو تاريخا. استفزّه ذلك التاريخ إذ رأى فيه إهانة شخصية له (١٨ يونيو تاريخ رمز لدى الفرنسيين ولدى أوساريس) فشرع في تجميع المعلومات للوصول إلى مدبّري العمليات. واعترف بممارسة التعذيب. بلغ إلى علمه أيضا أن يوسف زيغود (مسؤول جبهة التحرير على المنطقة) يعدّ لهجوم على المدينة يتم تنفيذه يوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٥. روى بكثير من الدقة وقائع الهجوم وتحدث عن كيفية التصدي له.

إذا كانت معركة فيليبفيل لا تكاد تخرج عن نطاق المواجهة المسلحة بين الثوار من جهة والجيش الفرنسي وأجهزته الخاصة وشرطته من جهة ثانية، فإن ما جرى في منجم «الحالية» يدخل في نطاق الإجرام الصريح ففيه أمر أوساريس بتصفية ٦٧ أسيرا من المسلمين.

بعد معركة فيليبفيل أرسل أوساريس الى إنجلترا في دورة تدريبية على القفز بالمظلات في نطاق إعداد فرنسي إنجليزي للحملة على مصر تأديبا لعبد الناصر على دعمه للثورة الجزائرية وتأميم قناة السويس.

أما معركة مدينة الجزائر فقد تحدث عنها المؤلف في معظم الكتاب. فعندما كلفت فرنسا الجنرال ماسّو باسترجاع مدينة الجزائر من سيطرة الثوار واستئصالهم منها، بادر ذلك الجنرال إلى استقدام أوساريس للاستفادة من خبرته في انتصاره الساحق على جبهة التحرير في فيليبفيل.

نزل أوساريس بمدينة الجزائر في الشهر الأول من سنة ١٩٥٧ مدركا إدراك يقين أن الجيش الفرنسي سيلوث يديه بأعمال قذرة تمس بسمعته وتلطخها. كانت هذه المدينة وقتها في يد رجال العربي بن مهيدي. ومن خططه أن يبلغ بالإرهاب أقصى الغايات حتى تولي فرنسا راحلة عن الجزائر. أما المهمة التي كلّف بها الجنرال ماسّو فكانت تتمثل في القضاء على قادة جبهة التحرير «في أسرع وقت ومهما تكن الوسائل».

علم أوساريس، عند حلوله بمدينة الجزائر، أن الاستعداد حثيث لتنفيذ إضراب عام كان مقررا ليوم ٢٨ يناير. كان عليه أن يعمل على شلّ حركة الإضراب و إفساده. أعلن منع الجولان واستعان بقائمة كانت لدى الشرطة تتضمن حوالي ألفين من أسماء النشيطين في صفوف جبهة التحرير وشرع في الإيقاف والاستنطاق للوصول إلى القادة والسيطرة على المدينة وخاصة منها قصبتها.

تحدث أوساريس عن دوره في معركة مدينة الجزائر بكثير من النخوة واقفا عند تفاصيل العمليات التي نظمها وقام بها لإفشال الإضراب و ملاحقة رجال جبهة التحرير والقضاء عليهم معرضا بالنفاق المتردد في مواقف الساسة وبتظاهرهم بأنهم لا يرون ولا يسمعون ولا يفهمون ما كان يراه ويسمعه ويفهمه جميع الناس. وفي هذا القسم وردت الشهادات الفظيعة التي تستفز وذكرت الأسماء والرموز التي تلطخت في حرب الجزائر وظلت تناور لتلميع سمعتها.

افترق الذين تحدثوا عن هذا الكتاب على أعمدة الصحف أو في سياق استدعائهم «شهودا» أثناء المحاكمة في الشهادة التي أدلى بها الجنرال فيه. فمنهم من ذهب إلى أن الكتاب لا يضيف شيئا إلى ما يعرفه الجميع عن حرب الجزائر إلا ما يتعلق ببعض الجزئيات التي يتم بها الاغتيال أو التعذيب. ومنهم من استفظع الكتاب واستبشعه فرمى صاحبه بـ«الإجرام في حق الإنسانية» واعتبره «سفاحا». ومنهم من رغب في تفهم الأسباب التي دفعت بهذا الجنرال إلى الإدلاء الآن بشهادة لا تكسب صاحبها فخرا.

إذا كانت الوقائع التي ذكرها أوساريس في شهادته لا تضيف إلا قليلا يسيرا إلى ما يعرفه الجميع عن فظاعات حرب الجزائر حتى أن المجلس الوزاري الذي انعقد يوم ٢ يونيه ٢٠٠١ ورأسه السيد جاك شيراك رئيس الجمهورية وقرر إحالة الجنرال إلى التقاعد المباشر وتجريده من شاراته، اتخذ قراره هذا بناء على أن الكاتب «كشف عما كان يعرفه الناس كافة»، فإن الصيغة السردية التي اعتمدها الراوي كان لها أثر فعّال في الضجة التي قامت حول هذا الكتاب «القضية».

فقد رويت الوقائع على لسان «الأنا» وفق الصيغة المستعملة في الشهادات والتراجم الذاتية والمذكرات. ومن خصائص هذه الصيغة أن «الأنا» ينهض فيها بدور الراوي الذي يضطلع بالقص والحكي وبالدور الذي اضطلع به عندما كان شخصية من الشخصيات التي عاشت الأحداث المروية وشاركت في صنعها. فلهذا «الأنا» موقع في زمن الأحداث والوقائع عند حصولها، وله موقع آخر خارج تلك الأحداث والوقائع عند الاضطلاع بروايتها. وقد كان القراء، ولم يزالوا، يخلطون بين الأنا «الراوي» والأنا «الشخصية» ويعدونهما كائنا واحدا حتى كشفت الأبحاث عن أنهما ليسا كذلك. فالذي يروي الوقائع ليس هو الذي يعيشها، والذي يعيشها ليس هو الذي يرويها.

يوفر هذا الكتاب، بالضجة التي تسبب فيها، مثالا نادرا ما يتوفر في التاريخ للفصل بين الأنا الراوي والأنا شخصية من شخصيات الوقائع التي تروى. فقبول أوساريس لا يمثل أمام القضاء لأنه ارتكب أعمالا فظيعة في واقع الأحداث، ذلك أن الاغتيالات التي أمر بها أو قام بتنفيذها والتعذيب الذي مارسه والترويع الذي أشاعه والترهيب الذي نشره أعمال لا يعاقب عليها القانون لأنها من مشمولات العفو العام الذي كان قد صدر في شأنها. وعندما رأى بعض المتحمسين لمقاضاة الجنرال لارتكابه جرائم ضد الإنسانية، أنه لا يمكن أن تدخل الفظاعات التي اعترف باقترافها في خانة الجرائم التي تسقط بالتقادم أو في خانة العفو العام لأن عددا كبيرا من الأشخاص الذين اختطفهم ما زالوا يعدون مفقودين. وهذا يكسب الإجرام في حقهم صفة الدوام، لم تأخذ النيابة بهذا التخريج مثلما لم تأخذ بغيره من التخريجات التي رمت إلى جعل القوانين تنسحب على ما يسبقها.

ولكن أوساريس إنما يمثل أمام القضاء لأن «الأنا» الراوي روى الوقائع والأحداث على نحو معين وذكرها ذكرا يدخل تحت طائلة القانون. رأت النيابة في الطريقة التي استعملها الراوي في سرد الوقائع «تبجحا وإشادة وتباهيا» بالتعذيب والاغتيال والترويع والترهيب. وهذا جرم يعاقب عليه قانون للصحافة صدر في ٢٩ يولية ١٨٨١ بخمس سنوات سجنا وغرامة مالية.

إذا كان أوساريس لا يمثل أمام القضاء لأنه ارتكب في الواقع الحدثي أعمالا فظيعة، وإنما يمثل أمامه لأنه روى ارتكابه تلك الأعمال في واقع السرد رواية يعاقب عليها نص قانوني قديم فما الذي في هذه الصيغة يزجّ بمستعملها تحت طائلة القانون.

استعمل أوساريس في رواية الوقائع التي استحضرها صيغة «الرؤية من الداخل»، وهي صيغة يرمز لها في علم السرديات بـ«ر= ش»، حيث يعني حرف الراء الراوي ويعني حرف الشين الشخصية. وتتّسم هذه الصيغة بأنها الصيغة الأفضل التي تسمح للمضطلع بفعل القص بأن يبدي موقفه من الوقائع التي يذكرها مرتين. فهو يفصح عن موقفه من الوقائع عند حصولها عندما كان فاعلا من فواعلها في ما يصطلح عليه بواقع الحدث، ويفصح عن موقفه منها بعد حدوثها في ما يصطلح عليه بواقع السرد. والذي حرص أوساريس على إبرازه، بكثير من الإصرار، أن موقفه من الوقائع عندما كان فاعلا من فواعلها هو عين موقفه منها بعد حدوثها. بل إن أوساريس بعد حصول تلك الوقائع الرهيبة بأربعين عاما لم يغير من موقفه منها. لم يعبّر مرة واحدة أثناء السرد عن أي «ندم» تماما مثلما لم يكن قد خامره أثناء القيام بالتقتيل والتعذيب في واقع الفعل أي شعور بالندم. لم يذكر مرة واحدة في واقع السرد والقص أنه يحسّ بالرثاء أو الإشفاق أو القلق أو الاستياء أو الأسف تماما مثلما لم يكن قد خالجه أي إحساس بالرثاء أو الشفقة أو القلق أو الاستياء أو الأسف على آلاف الضحايا الذين كان حظهم العاثر قد رمى بهم بين مخالبه في واقع الأحداث. بل إنه قد كان، في واقع الأحداث وفي واقع القص، لامباليا حينا بما كان يأمر به أو يقوم بتنفيذه شخصيا، مرتاحا له أحيانا، راضيا دائما عن قيامه على النحو الأنجع بالمهام التي كانت دولته قد ندبته للنهوض بها.



ففي القسم الأول، وفيه تحدث عن معركة فيليبفيل (سكيكدة) نقرأ قوله عند إزهاقه أول روح من أرواح ضحاياه الذين يعدون بالألوف: «أصرّ الرجل على الامتناع عن الكلام. وجدتني حينئذ مدفوعا إلى استعمال وسائل الإكراه. كانت المرة الأولى التي أمارس فيها التعذيب. لم يكن الأمر يومها مجديا. مات ذلك الشخص دون أن ينبس بحرف. لم أشعر بشيء. لم آسف على موته. إذا كنت قد أسفت على شيء فعلى أنه مات قبل أن ينطق». (ص ص ٤٤-٤٥).

ونقرأ قوله في هذا القسم أيضا عند ذكر الأحداث التي حصلت في منجم الحالية: «أمرت الأسرى بالاصطفاف. من كان ينتمي منهم إلى «الفلاقة» (الثوار) ومن كان عاملا من العملة المسلمين الذين قاموا بمساعدتهم. كان ينبغي أن أصدر الأمر بنفسي. لم أكن لأبالي بشيء. كان لا بد من قتلهم لا أكثر ولا أقل، فقتلتهم». (ص ٦٧).

وإذا كان أوساريس قد قال في هذا القسم من كتابه عند الحديث عن الأعمال التي ارتكبها «الفلاقة»: «عندما رأيت الأطفال مذبوحين أو مدهوسين، والنساء مبقورات البطون مقطّعات الأوصال، أعتقد أنني أنسيت معنى الرحمة». (ص ٦٤)، فإن قوله هذا يتنزّل، عند التدبّر، في نطاق تبرير مقاومة الإرهاب بإرهاب أقوى منه وأشد. وهذا في الحقيقة موضوع تساؤل محرق وإن كان كثير من الناس يستسهلون الاقتناع به.

أما الفصول التي تحدث فيها عن معركة مدينة الجزائر فإن المواطن التي تستوقف فيها كثيرة كثرة فاحشة.

فنحن نقرأ فيها قوله: «كنت التكتّم ذاته. ففيما عدا المحيطين بالجنرال ماسّو وقلّة نزرة من ضباط فرقة المظليين العاشرة، لم يكن ليخطر على بال أحد أنني كنت قائد جوقة الإرهاب المضاد».

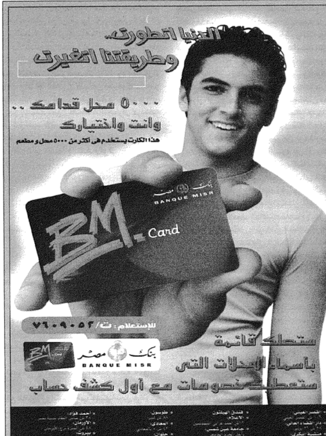
ونقرأ قوله: «تحضرني مثلا ذكرى نساء كن قد دللن على بعض القتلة. كان المذنبون قد اختفوا في كوخ قرب غابة زيرالدا. لم نلتفت حتى إلى الشروع في استنطاقهم. قتلناهم في الحين». (ص ١٦٤).

ونقرأ قوله: «كان أعواني يتحولون، في معظم الأحيان، إلى مكان يبعد عن مدينة الجزائر حوالي عشرين

تحدث أوساريس عن دوره في معركة مدينة الجزائر بكثير من النخوة واقفا عند تفاصيل العمليات التي نظمها وقام بها لإفشال الإضراب و ملاحقة رجال جبهة التحرير والقضاء عليهم، وفي هذا القسم وردت الشهادات الفظيعة التي تستفز وذكرت الأسماء والرموز التي تلطخت في حرب الجزائر وظلت تناور لتلميع سمعتها

GÉNÉRAL AUSSARESSES
SERVICES SPÉCIAUX
Algérie
1955-1957
Mon témoignage sur la torture
Perrin

الإرهــــاب الرســـمى





كيلومترا،وكان المشتبه فيهم يصرعون بزخة رشّاش،ثم يوارون التراب.كانت الإعدامات لا تتم فى نفس المكان أبدا».(ص ١٤٧).

ونقرأ قوله:« من النادر أن يطلع الصباح على الأسرى الذين نستنطقهم أحياء، سواء تكلموا أم لم يتكلموا».(ص ١٥٣).

ونقرأ قوله:« كانت الوسائل التى استعملتها هى هى دائما: الضرب والكهرباء والماء. كانت هذه الوسيلة الأخيرة هى الأخطر على الأسير. كان يندر أن يتعدى استعمالها الساعة من الزمن، فضلا عن أن المشتبه فيهم كانوا يأملون فى النجاة إذا ما تكلموا»(ص ١٥٦).

ونقرأ فى اغتيال العربى بن مهيدى:«وصلت فى سيارتين إحداهما من جيب والأخرى دودج.كان معى اثنا عشر رجلا من فرقتى الأولى مدججين بالسلاح.كان النقيب ألّير ليلتها فى الخدمة. وكان قد أمر مجموعة من العساكر بالاصطفاف. طلبت منه إحضار بن مهيدى وتسليمه لى. و فى اللحظة التى خرج فيها بن مهيدى من البناية، وكان قد أوقظ من النوم، أمر ألّير « بتحية السلاح». أدت حينئذ،فرقة من فيلق المظليين الثالث، وأنا مندهش، تحية الشرف لقائد جبهة التحرير المهزوم. كان ذلك إكراما من بيجار(كان المقدم فرنسوا بيجار قائدا للفيلق الثالث مظليين) للرجل الذى كان قد أصبح له صديقا.(...)كان بن مهيدى قد أدرك دون شك وقتها المصير الذى كان ينتظره.(...) عزلنا الأسير فى غرفة كانت مهيّأة من قبل. كان واحد من رجالى واقفا فى المدخل على حراستها. وبمجرّد أن دخلنا إلى الغرفة،أنا و مساعدىّ،أمسكنا بن مهيدى وقمنا بشنقه على نحو يمكن أن يبدو انتحارا. عندما تيقنت من موته أسرعت بإنزاله ونقله إلى المستشفى».(ص ص ١٦٨،١٦٩).



ليس من شك فى أنه بإمكان هذه الوقائع الفظيعة التى يعج بها كتاب أوساريس ألاّ تثير على صاحبها سخط القراء ونقمتهم لو أنه اختار لروايتها صيغة من صيغ السرد غير صيغة الرؤية من الداخل، أو حرص، على الأقل،على إبراز شىء من الاختلاف بين مواقف الأنا من الأحداث عندما كان فاعلا من فواعلها ومواقفه منها عندما اضطلع بروايتها. بل إنه كان بإمكان أوساريس لو أنه كان قد لجأ إلى ذلك أن يستردّ بعضا من آدميته أو بعضا من البطولة التى كان أحرز عليها عندما شارك متطوعا فى تحرير بلاده من النازية معرّضا نفسه لممارسات أصبح يسقى مرارتها أناس عملوا على تحرير بلادهم.

لكن الكاتب أصّر على أن يكون موقفه من الأحداث عند روايتها مطابقا لموقفه منها عندما كان يسهم فى صنعها.أصر على هذا فى طيات كتابه و تمسّك به أثناء محاكمته. وكان إصراره مبنيا على أنه لا يلبس جبة القاصّ و إنما يتلفع بعباءة المؤرخ، فهو يذكر ما كان قد جرى على النحو الذى كان قد جرى عليه. و إذا كان الذى جرى على النحو الذى كان قد جرى عليه يمثل جرما فإن هذا الجرم لا يعنيه هو من حيث هو راو، فإذا كان قابلا لأن يعنيه من حيث هو شخص قام بتنفيذ أوامر عليا فإنه يعنى أيضا جميع الذين أسهموا فيه. فقضية التعذيب والاغتيال والإرهاب والإبادة ليست قضية فردية و إنما هى قضية جمع،إذا أرقت ينبغى أن تؤرّق البشرية بأسرها وإذا أزعجت ينبغى أن تزعج جميع الناس.

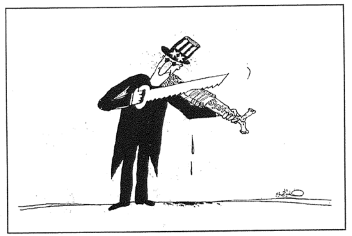
أصرَ أوساريس على هذا الموقف، وهو موقف لا يخلو،عند الإنصاف،من صلابة. فعندما قال الناشر،أثناء المحاكمة: إن المؤلف كتب ما كتبه «تخفيفا عن النفس»، هبّ الجنرال واقفا و قال: «هذا غلط.لم أشعر قط بالحاجة إلى التخفيف عن ضميرى». وعندما قالت أرملة بولندير(الجنرال الذى استعفى من مهامه رفضا لممارسة التعذيب حسب أرملته وغضبا من سوء معاملة الجنرال ماسّو له حسب أوساريس) «يتباهى المؤلف فى هذا الكتاب بالأعمال التى قام بها».هب الجنرال واقفا وقال: «لست أتباهى بذلك يا سيدتى. لست أتباهى بذلك». وهذا الذى كان من الجنرال أثناء محاكمته هو عين ما نقرأ آخر ما نقرأ فى كتابه.قال متحدثا عن الحفل الذى نظم على شرفه سنة ١٩٦٢ وعن الضباط الشبان الذين كانوا يرقصون على أنغام أغنية «الهارب من الجندية» من تأليف بوريس فيان وعن تذكره أحداث فيليبفيل ومدينة الجزائر ومصرع بن مهيدى وبومنجل على يديه: «لم أشعر بالنّدم.ولكنى تمنيت ألاّ يجد أىّ من هؤلاء الشبان نفسه ذات يوم مدفوعا إلى أن يقوم،لمصلحة بلاده،بالأعمال التى تعين علىّ القيام بها هنالك فى الجزائر».

فهل تكون محاكمة أوساريس ناتجة عن سوء تفاهم بين المؤلف وقرائه متولد عن الصيغة التى اعتمدها فى سرد الوقائع والأحداث. ففى حين قصد المؤلف إلى ما قصد إليه بانطباق مواقف الأنا الذى يروى على مواقف الأنا الذى أسهم فى صنع الأحداث عندما كان فاعلا من فواعلها، إمعانا فى الوفاء للحقيقة التاريخية حتى تنهض بوظيفتها،استفظع لسان الادعاء الوقائع وطريقة روايتها. بدا له أن الأنا الذى أسهم فى صنع تلك الوقائع المؤلمة فى واقع التاريخ لم يكتف بصنعها بل رواها دون أن ينز له عرق أسفا عليها أو ندما فاتهمه بالتبجّح بالتعذيب وبتبرير اللجوء إليه.وإذا كان الدفاع قد فطن إلى أن المؤلف إنما يحاكم بسبب الموقف الذى يتخذه الراوى مما يرويه فإن الادعاء ظل متمسكا بالخلط بين الأنا شخصية من الشخصيات الفاعلة فى الأحداث والأنا الذى يضطلع بالسرد والقص،فطالب بتخطئة كل من الجنرال والناشر بمائة ألف فرنك فرنسى.أم أن الضجة التى واكبت المحاكمة، بعد أن كانت تسببت فيها،ليست،فى الحقيقة،سوى ضرب من ضروب التنصل من فظيع ما كانت أمة من الأمم قد ارتكبته فى حق شعب قامت باستعماره.فأن يعدّ أوساريس مذنبا برواية وقائع إبادة مرعبة على النحو المزعج الذى قد يلاحقه بوليس السرد أخف على بعض الضمائر القلقة من أن تكون الأمة الفرنسية بأسرها مذنبة فى حق الجزائر من أجل عظيم ما ارتكبته فيها من جرائم. وفى التمسك بإدانة القول تغطية على إدانة الفعل الذى يفصح عنه القول. ■

لصوص لكن ظرفاء

الكاريكاتير عند العرب

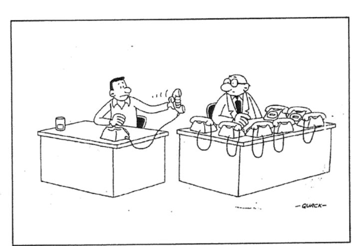
صقر أبو فخر



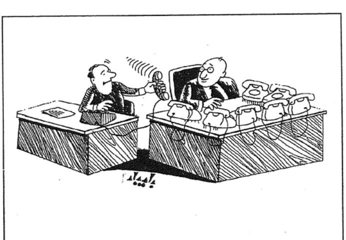
عزف أمريكي منفرد..!
خضير الحميري، جريدة «العرب اليوم»، ٣/٢/١٩٩٨



للرسام محمود كحيل



من أعمال الرسام البلجيكي بيرنسيليك

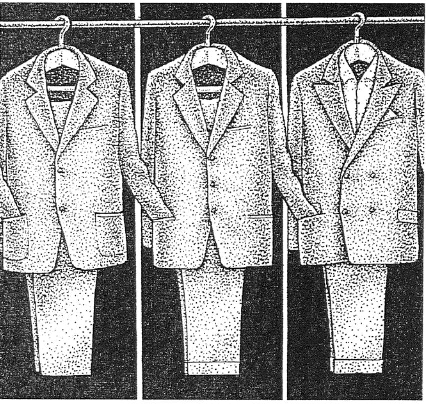


الرسام بليبل (لبنان) يعمل في جريدة «المستقبل»، ٤/٧/٢٠٠١

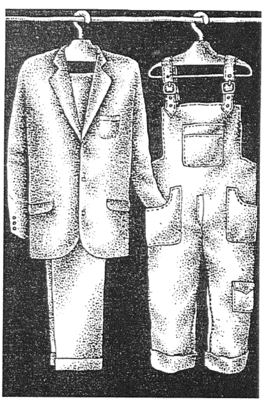
الظُرف والفكاهة والسخرية ثالوث الأدب الضاحك بامتياز، وهو وليد مجتمع التنعم والتأنق والقلق في آن. والفنون العظيمة لم تنشأ إلا في المجتمعات المترفة، اللاهبة في ابتداع الأسئلة، واللاهثة وراء اعتناق الأجوبة والوصول إلى اليقين. والمجتمعات العربية التي عاش في عصورها القديمة أدباء ظرفاء أمثال الفرزدق والجاحظ وابن الرومي وأبونواس وإبراهيم الموصلي وأبوالعلاء المعري وأبودلامة وأبوعلقمة وأبوالشمقمق وأشعب وجحا وابن سودون، هؤلاء كرسوا بعض أدبهم ونقدهم للسخرية من القُوّاد والوزراء والقضاة والوعاظ والمحدِّثين والأعراب والنحويين والحمقى والمغفلين والبخلاء والطفيليين والنساء وذوي العاهات ومن كل شيء تقريباً، وأبدعوا في جملة ما أبدعوا، تراثاً هائلاً من المصنفات العجيبة والكتب الغريبة من «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني حتى «هز القحوف» ليوسف الشربيني، ومن «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي حتى «الفاشوش في حكم القراقوش» للأسعد بن مماتي. وفي العصر الحديث نشأ جيل من الكتّاب والأدباء والصحافيين ممن برعوا في الصحافة والأدب واشتهروا بالفكاهة الراقية والسخرية الثاقبة والهزل الرفيع.

والكاريكاتير، في العالم العربي اليوم هو الناتج الممتاز والمدهش للفكاهة العربية الحديثة. ومثلما الفاكهة راحة للجسم فإن الفكاهة ترويح عن النفس وراحة لها في آن. والسخرية - كأحد ضروب الفكاهة - لها وظيفة اجتماعية؛ فهي تقوم بمهمة النقد وتهدف إلى التقويم الاجتماعي أو التغيير الاجتماعي أو الجزاء الاجتماعي أو القصاص السلمي، وذلك في قالب فني ضاحك. وثمة نوعان من السخرية: الأول يهدف إلى التعريض بالآخرين أو التهكم اللاذع، والثاني يبغي النقد والكشف والإضحاك. وفي الأحوال كلها فإن السخرية هي أرقى أنواع الفكاهة، في حين أن الدعابة هي أخف الألوان. والواضح أن كل ما يُضحِك هو نوع من السخرية، لكن ليست كل سخرية تؤدي إلى الإضحاك. فثمة سخرية مُرّة تستمد مرارتها من البؤس المادي أو من النفاق الاجتماعي أو من الإحباط السياسي. ومهما يكن الأمر فإن السخرية يجب أن تؤدي أغراضها تماماً في النقد والتفكهة.

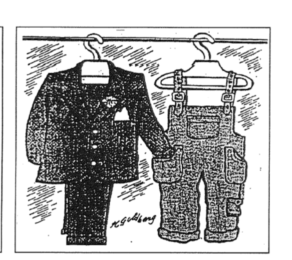
ومن مظاهر الاضطراب في الثقافة العربية اليوم، غياب المجلات المصورة الفكاهية والساخرة، وربما كان هذا الأمر نتيجة منطقية لتواري الظُرف والظرفاء من الحياة العربية. فلا توجد اليوم في العالم



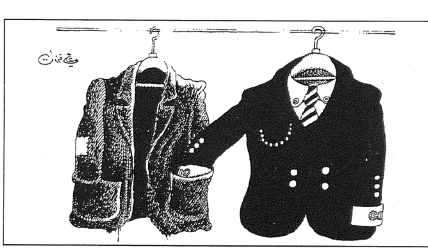
الرسام اليوغوسلافى يوغوسلاف فلاهوفيتش



الرسام اليوغوسلافى يوغوسلاف فلاهوفيتش



«الجماهير» (عمان) ١٦/٨/١٩٩٥



«الوطن». السبت ٢٣ صفر ١٤١٨هـ ٢٨ يونيو ١٩٩٧

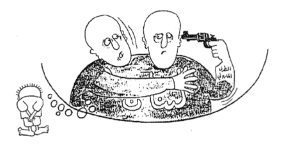
العربى أية مجلة ضاحكة ذات قيمة. حتى إن مجلة «روزاليوسف» الشهيرة التى كانت لا تنشر الصور بتاتاً وتكتفى بالكاريكاتير فقط، تخلت عن هذا التقليد الذى سارت عليه طويلاً وراحت تنشر الصور بدلاً من الرسوم الكاريكاتيرية، ولو استثنينا بعض مجلات الكاريكاتير المعدودة والمحدودة جداً فى انتشارها، كان لنا الحق فى القول إن العالم العربى أصابه القحط الشديد فى هذا النوع من الكتابة، وأقفر تماماً فى هذا الضرب من الإبداع، وهو الذى شهد فى المائة سنة الأخيرة ولادة نحو مائة جريدة ومجلة فكاهية ضاحكة وساخرة، أولها وأشهرها صحيفة «أبونضارة» التى أصدرها فى مصر سنة ١٨٧٧ يعقوب صنوع، وآخرها مجلة «الدومرى» التى أصدرها فى دمشق سنة ٢٠٠٠ على فرزات.

لعل الحياة الثقافية العربية أجدبت فى هذا الحقل من الأدب، فباتت عابسة كتومة، لا تفصح ولا تتبسم، وانزوى الظرف والظرفاء، ويكاد المتفكهون أن يصيروا قلة معزولة. وها هو القرن العشرون طوى أعوامه وخلَّف وراءه كآبة لا تنقشع، وتكاد تغلِّف بسوادها كل شىء، حتى ليعجز السحرة والمنحرقون عن ابتداع ضحكة طويلة وعميقة حقاً، ولعل الظرفاء فى هذا المعمعان المضطرب، خسروا معركة العصر فأخلوا ميدانهم لرسامى الكاريكاتير.

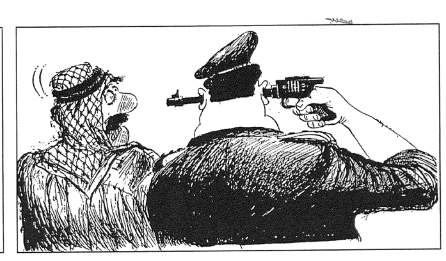
ظهور الكاريكاتير:

الكاريكاتير طراز من الرسم التهكمى الذى يعتمد على المبالغة فى سبيل الإضحاك. وهو، إلى ذلك، مخالفة للمألوف فى الطبيعة وفى النسب التشريحية المعروفة للإنسان. إنه تحطيم للجمال والنظام بالوصف المبالغ فيه، وكشف للأقنعة. أى أنه تعرية حقيقية تخز ولا توجع، وهو، باختصار، نكتة قائمة على حقيقة واقعية.

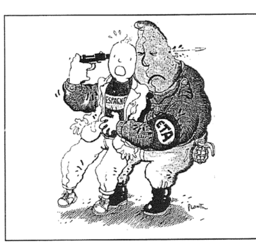
فى مخزون الرسم المصرى القديم ثمة لوحة جميلة يناهز عمرها الخمسة آلاف سنة تمثل مشهداً طريفاً؛ فهى تصوِّر طائراً يصعد على سلم طويل إلى شجرة عالية. ربما يمكننا اعتبار هذه اللوحة ببعض من التحفظ، أقدم كاريكاتير عرفته البشرية. وبعد ذلك ربما، استطراداً، يمكن اعتبار الأقنعة الأفريقية ضرباً من الكاريكاتير، فهى صُنعت لإبعاد الأرواح الشريرة بالسخرية منها. وليس بعيداً عن ذلك بعض أعمال الرسامين الرومان واليونان القدماء الذين رسموا آلهتهم بأشكال ساخرة. غير أن الكاريكاتير كفن إنسانى متميز لا يرقى إلى ذلك العصر البتة، فهو فن حديث نسبياً، نشأ فى أوروبا فى القرن الثامن عشر تقريباً. ومع أن بعض اللوحات والرسومات الساخرة كانت شائعة فى أوروبا



ناجى العلى ١٩٧٦



خالد الهاشمى (البحرين) ١٩٩٢



عن مجلة «الإكسبريس» الفرنسية للفنان بلانتو
الأهرام ١٩/٧/١٩٩٧

لصـــوص لكـــن ظرفـــاء

قبل تلك الفترة، لاسيما تلك الرسومات التى كانت تصور رجال الكنيسة وخصومها بأشكال ساخرة مثلما كان يفعل ليوناردو دافنشى منذ سنة ١٤٩٠ فصاعداً، فإن فن الكاريكاتير لم يصبح فناً مستقلاً إلا مع ازدهار الصحافة وانتشارها فى القرن الثامن عشر فصاعداً، ولم ينتعش إلا مع ازدهار النظم الديمقراطية وإطلاق حرية التعبير والنقد. أما كلمة كاريكاتير فقد تأخر ظهورها فى القاموس الإنجليزى أول مرة حتى سنة ١٧٥٥. وكان للثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ الفضل فى تحرير الفنانين من القيود القديمة، فبرز منهم آنذاك الرسام «دومير» الذى يعد من أعظم الرسامين السياسيين فى ذلك العصر. وقد ظهرت رسومه مدوية عنيفة بعد الثورة، وكانت ناقدة تسخر من الأوضاع السائدة والتقاليد الشائعة. لكننا لا نجازف بالقول إذا اعتبرنا الرسام الفرنسى «أونورييه دومييه» (١٨٠٨ ـ ١٩٧٩) هو مؤسس هذا الفن فعلاً.

أما لدى العرب فيذكر الأصمعى فى كتابه «تجميل الكتب» أن رجلاً من العراق يدعى حمدان الخراط البصرى عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى واشتهر بتصوير الأشخاص والحيوانات، وقد كلفه الشاعر بشار بن برد بأن يصور له طيراً على قطعة من زجاج، فصورها له الرسام. لكن بشاراً لم يعجبه الرسم فهدده بالهجاء، فرد عليه المصور بتهديد مماثل قائلاً: «سأصورك على باب دارى بهيئتك هذه وعلى عاتقك قرد آخذ بلحيتك حتى يراك الصادر والوارد» فقال بشار: «اللهم اخزه. فانا أمازحه وهو يأبى إلا الجد».

وظهر الكاريكاتير فى الصحافة العربية، أول مرة فى ٢١/٣/١٨٧٧ عندما أصدر يعقوب صنوع (١٨٣٩ ـ ١٩١٢) فى القاهرة أول جريدة هزلية مصورة باسم «أبونضارة زرقا». وقد مهدت هذه الصحيفة الطريق أمام جيل كامل من رسامى الكاريكاتير المصريين أمثال: رخا وعبدالسميع وصاروخان (الأرمنى) وصلاح الليثى وزهدى ورفقى التركى وشوقى التركى، ثم ظهر بعدهم صلاح جاهين وبهجت عثمان وجورج البهجورى وأحمد عزالعرب ومحيى الدين اللباد ومصطفى حسين وأحمد حجازى ورجائى ونيس وناجى كامل وإيهاب شاكر ورءوف عياد ونبيل السلمى. وفى سورية صدرت أول صحيفة هزلية فى ٢/٤/١٩٠٩ تحت اسم «حُط بالخرج» لمحمد عارف الهبل. ثم برز من رسامى الكاريكاتير السوريين توفيق طارق وعلى الأرناؤوط وعبدالوهاب أبوالسعود وخالد العسلى وعبد اللطيف المارديني وسمير كحالة ثم ممتاز البحرة وعلى فرزات ويوسف عبدلكى وعبدالهادى الشماع وياسين الخليل وسعد حاجو وموفق قات وحميد قاروط.

أما فى بيروت فقد أصدر نجيب جانا وهو سورى أول صحيفة هزلية بعنوان «حمارة بلدنا» فى ١٧/٩/١٩١٠. وفى مصادر أخرى أن أول صحيفة هزلية هى «هبت» التى أصدرها خليل كاملة سنة ١٩٠٨. ثم أصدر توفيق جانا، وهو سورى أيضاً ولعله شقيق نجيب جانا، ثلاث صحف بالتتابع هى: «البغلة» فى ٤/٧/١٩١٣، و«حمارة الجبل» فى ١٨/٨/١٩١٣، و«جراب الكردى» فى ٢٠/٤/١٩١٤. لكن الكاريكاتير، كفن مميز، لم يظهر فى لبنان إلا عندما أصدر يوسف مكرزل مجلة «الدبور» فى ١/١/١٩٢٣ ليؤسس بذلك لجيل من الرسامين اشتُهر منهم ـ فيما بعد ـ خليل الأشقر وديران وستافروا جبرا وبيار صادق وجان مشعلانى وناجى العلى (فلسطين) وإيلى صليبا. ويعتبر عزت خورشيد، بحق أول رسام كاريكاتير فى لبنان. وبعد «الدبور» كرّت سلسلة من الصحف الهزلية أبرزها: «أبو دلامة» لمحمد شهاب ١٩٢٧، و«أبوالرياح» لعزيز عوض ١٩٢٧، و«الصياد» لسعيد فريحة ١٩٤٣، و«الأربعون حرامى» لإسكندر رياشى ١٩٦٠، و«جحا» لفريد الكفورى و«شاش باش» لنمر الصيدانى.

فى العراق صدرت أول جريدة هزلية ٢١/١١/١٩٠٩ هى «مرقعة الهندى» لأحمد حمدى، أما أول صحيفة تدخل الكاريكاتير إلى صفحاتها فكانت «حبزبوز» التى أصدرها نورى ثابت فى ٢٩/٩/١٩٣١. واشتهر من بين رسامى الكاريكاتير فى العراق سعاد سليم وعبدالجبار محمود ومحمود أبوطبرة.

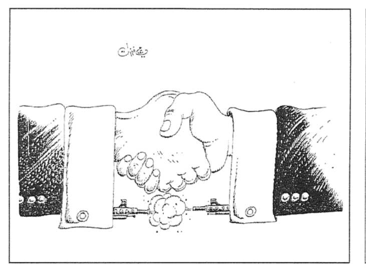
تأخر الكاريكاتير عن صحافة المغرب العربى حتى الستينيات. وفى هذه الفترة أصدر عبدالسلام السفيانى مجلة «النقاد»، ثم أصدر أحمد السنوسى والحسين بن ياز (باز وبزيز) مجلة «الهدهد». ومن بين الصحافة الهزلية اشتهرت «كيخ كيخ» و«الأسبوع الساخر» و«الأسبوع الضاحك» و«التقشاب» ومن بين الرسامين برز العربى الصبان (مراكش) ومحمد الزواوى (ليبيا) ورشيد قاسى (الجزائر).

السرقة بالكاريكاتير:

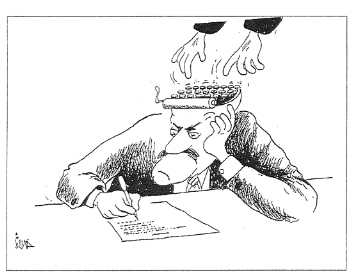
السطو على إبداع الغير عتيق جداً فى تاريخ الأدب والفن فى العالم العربى، وقصص «السارقين» تكاد ترقى فى عراقتها إلى بواكير الشعر الجاهلى كما وصلتنا فى مصادرها ومظانها. وقد عُنى العرب كثيراً بموضوعات «السطو» و«الانتحال» و«الإغارة» وأفردوا لها أبواباً فى تصانيفهم وكتبهم، وبرعوا فى نقد الكلام ومعانيه وصوره، فميزوا الأصيل من الدخيل والمعسول من المزغول والطريف من المنحول والسابق من اللاحق، واعتبروا «السطو» مسلكاً مستنكراً يحط من القيمة الإبداعية لصاحبه فينزع عنه الجدة والطرافة والنبل.

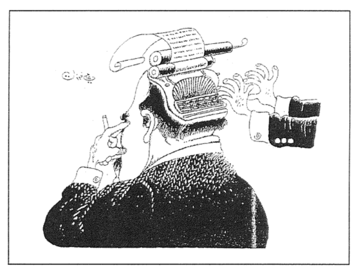
غير أن العرب وجدوا أن ثمة اقتباساً يكون مستحباً إذا خالطته الرشاقة وإذا أضاف إلى الأصل

من أعمال الرسام البولندى ايه . ميرجنسكى

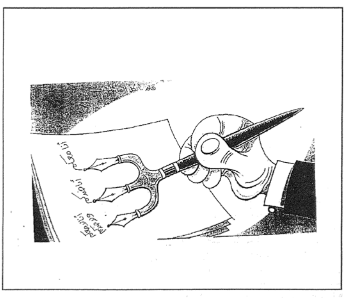


صوت الكويت ١٩٩٢

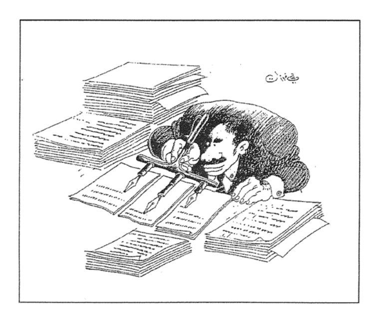




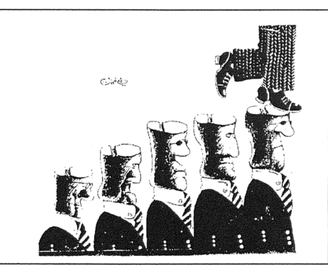
تشرين (دمشق)، ٢٠/١١/١٩٩٤



الاتحاد (أبو ظبى) ١٦/١/١٩٩٦



الرسام السورى على فرزات



علی فـرزات

لصـــوص لكـــن ظرفـــاء

سحراً وجمالاً. وهو يشبه ما ندعوه اليوم «الاختطاف». ولم يستنكروا السرقة الحاذقة وهى الأخذ والإضافة والتبديل حتى ليصبح الجديد جديداً خالصاً أو مماثلاً الأصل فى الطرافة وربما تفوق عليه فى المعانى، وهو نوع من التحويل الذكى والتوليف الجميل. حتى إن المتنبى عندما سُئل عن بعض «سرقاته» أجاب: «الأفكار جادة وقد يقع الحافر على الحافر». ومثلما أن المعانى مبذولة لمن يشاء، فالأفكار أيضاً مبذولة لمن يريد التقاطها ثم استخدامها فى صورة أو قصيدة أو مقالة. وقد جهد العرب فى التفريق بين «الاقتباس» و«السطو» و«التأثر» وتكلموا بإسهاب على ضروب «الإغارة» وفنونها وأنواعها، ورتبوا المسألة على مراتب، وقالوا إن الاقتباس مشروع فى بعض الأحيان، والتأثر مباح مادامت الحياة تلقى بمناخاتها على الجميع ومادامت الألفاظ والمعانى ملقاة على الطرقات. أما التضمين فقد عُدَّ براعة فى بعض الأحيان واحتيالاً فى أحيان أخرى. وعلى غرار ما انتهجته العرب قديمًا، فى موضوع السرقات الأدبية يمكن أن ننحت غراراً بعد غرار فى موضوع السرقة بالكاريكاتير.

مـراتب التـشـابه:

تخلف ظهور السرقة بالكاريكاتير كثيراً فى التاريخ العربى، ولم ينشأ هذا الضرب من السرقة إلا مع انتشار الصحافة الحديثة. ولاريب فى أن ثمة اختلاطاً كبيراً فى أنواع السرقة بالكاريكاتير ويصعب، فى بعض الأحيان، التميز بين ما يدخل فى باب التأثر وما يدخل فى باب الاقتباس مثلاً. ذلك لأن اللوحة، أى لوحة، لها صلة قوية بالتداعيات الغائرة وبمخزون الذاكرة البعيدة، وبالكثير من المؤثرات الخفية ما لا يمكن رصده والتأكد منه. والذاكرة هى مخزون الحياة اليومية يمتزج فيها الذاتى بالموضوعى وبكل ما هو عام ومشترك بين الناس. وكل لوحة تحيل فى تفصيلاتها على لوحة أخرى، وكل صورة فى النهاية تتناسل من صورة أخرى ربما تكون عناصرها فى لحظة الانبثاق مجهولة تماماً حتى من الرسام الذى يرسمها. ومهما يكن الأمر ففى الإمكان تدريج مراتب التشابه على النحو التالى:

١ ـ التوارد: وهو نوع من التقاء الأفكار كأن يرسم عدد من الرسامين صوراً متشابهة إلى حد بعيد، وينشروها فى اليوم نفسه. فهذه عملية بريئة تماماً ويكون الدافع ـ فى العادة ـ حدثا ذا أهمية كبرى ألقى بتأثيره على الجميع. وأكثر ما يكون ذلك فى البلد الواحد حيث إن ما يجرى فيه من وقائع يهم الجميع ويهتم به الجميع.

٢ ـ المشابهة: لا يُعَد سرقة ما هو شائع بين الناس وما هو راسخ فى النفوس مما يشترك فيه عامة البشر كأنه يُرسم الغنى متكرشاً والفقير مهلهل الثياب، والديكتاتور باللباس العسكرى والعربى بالكوفيه والعقال، أو كان تشير إلى اليهودى بالنجمة السداسية وإلى الأمريكى بالقبعة ذات النجوم، وإلى الفدائى بالثياب المرقطة. وليس سرقة استخدام العين الباكية للإشارة إلى المأساة أو الساعة الرملية للإشارة إلى التلاشى، أو الخوذات والأحذية العسكرية للدلالة على حكم العسكر. ولا يعد سرقة أيضاً اشتراك عدد من الرسامين فى استخدام العكازات للإشارة إلى الشيخوخة أو إلى جرحى الحروب، أو استعمال المقص للدلالة على رقيب الأخبار، والعصا والجزرة للكناية عن الاستغباء والاستعباد، والمنحنيات للتعبير عن الحالة الاقتصادية.

٣ ـ الاقتباس: لاشك فى أن ثمة تمييزاً جدياً بين الاقتباس والسرقة. فليس سرقة البتة اقتباس الحكم والأمثال كتصوير الحكمة الهندية القديمة المشهورة: «لا أسمع، لا أرى، لا أتكلم». أو تصوير المثل العربى الشائع جداً: «عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة». وثمة اقتباس مستحب وهو عندما يتفوق المقتبس على المقتبس منه.

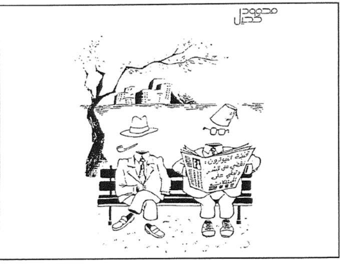
٤ ـ الاختطاف: الاختطاف هو نوع من التأثر التحويلى، كأن يعمد رسام ما إلى فكرة سبقه إليها غيره فيحولها تحويلاً آخر فيها من الطرافة والجدة ما يجعلها جديدة تماماً. وهذا نوع من الاختطاف الخلاق والمحبب والمقبول.

٥ ـ التضمين: وهو استعارة فكرة أو جملة وتضمينها فى رسم مختلف. وهذا الأمر لا غبار عليه، فهو يستعير من الرسم الأول بعض عناصره ويستخدمها أداة فى رسمه الجديد تماماً. أى أن العناصر المستعارة سيعاد توظيفها كأداة إيضاحية فى رسم آخر مختلف فعلاً.

٦ ـ السرقة الحاذقة: وهى نوع من التغيير والتحويل النوعى فى شكل الصورة وفى عناصرها بحيث تأتى الصورة الجديدة ليست مختلفة تماماً عن الصورة القديمة لكنها مختلفة عنها فى المضمون أو فى الإيحاء أو فى القصد الذى أرادت أن تقصد إليه.

٧ ـ السرقة المكشوفة: عناصر الكاريكاتير ثلاثة: الفكرة والكلمة والصورة.. فإذا اشترك رسمان فى عنصر واحد من هذه العناصر فذلك يسمى تشابهاً. وإذا اشترك الرسمان فى عنصرين فربما عُدَّ هذا الأمر تأثراً أو تحويلاً حاذقاً. أما إذا اشتركا فى العناصر الثلاثة معاً فذلك ـ بلاشك ـ سرقة تامة يمجها الذوق وتمقتها الأصالة. وإذا كان صحيحاً أن اللوحة أو الرسم الكاريكاتيرى ليس شهاباً هابطاً من كوكب مجهول لا أصل له، وأنه تكوين فنى يستند إلى أصول غامضة وإلى تأثيرات خافية على الرسام نفسه، غير أن بعض الرسوم الكاريكاتيرية حتى لو أخذنا فى الاعتبار جميع المؤثرات والأسباب التخفيفية، تصدمنا بكثرة التشابه فيها بحيث لا يمكن اعتبارها إلا نوعاً فظاً من الانتحال والسرقة. والمؤسف أن هذه السرقات صارت شائعة والإغارة باتت فاشية، فعمّت الفجاجة والسذاجة معظم الصحف العربية ودهم الانتحال ذائقة القراء العرب فالجاها إلى الحضيض ووسمها بالسطحية والابتذال.

إن هذه الحالة المستشرية ربما تجد أسبابها فى شيوع أنماط الاستهلاك البقرى والإثراء السريع وتهلهل سلم القيم الاجتماعية وصعود قيم المنفعة غير المرتبطة بالأخلاق. كما أنها تترافق مع اختفاء الطمأنينة وظهور عوارض التوتر والشراسة فى السلوك الفردى والانغماس فى حماة الاستحواذ السلعى، وانسداد أفق الترقى والازدهار الاجتماعى والتقدم العام، وغياب الحركات الفكرية التى تستقطب الشبان لتعيد صوغ تطلعهم الجمعى إلى المستقبل. وفضلاً عن ذلك كله فإن المجتمع العربى اليوم ما عاد متوثباً ناهضاً مبدعاً. ففى طور التقدم والنهوض ترتكز الأمة على الإبداع والتجديد. أما فى طور التراجع والتقهقر فالعقول تصبح، فى معظمها، متبعة لا مبتدعة، فتعجز عن توليد الطريف النافع وتنصرف إلى السقيم الضار، فينزوى الإبداع والابتكار ويتقدم الشرح والاقتباس. والسرقات ما هى إلا أحد مظاهر الانحطاط الثقافى والتراجع الحضارى والمعرفى. لذلك كان النقد دائماً محاولة من محاولات التقويم وتصحيح الاتجاه وإعادة الأمور إلى نصابها. ومن ضروب النقد أيضاً، مطاردة السارقين وكشف انتحالاتهم وإغاراتهم. وهذه الرسوم الكاريكاتيرية المرفقة تفصح، أيما إفصاح، عن مواطن التأثر والمشابهة وتكشف بجلاء ما بعده جلاء، عن الانتحال والسطو. وأن النباهة والمعرفة الفنية والحذاقة كفيلة بأن تقرر مراتب التشابه ومراتب السرقة فيها■

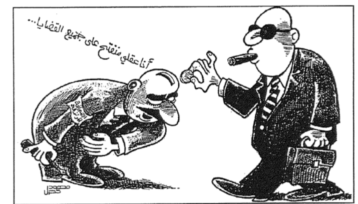


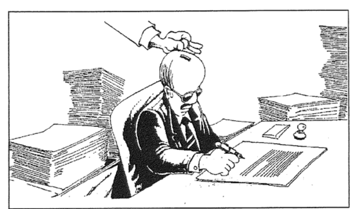
بريشة «محمود كحيل» مجلة «المجلة» - ١٩ سبتمبر ١٩٨١



بريشة «بول سيب» [أمريكي] - جريدة «بوسطن جلوب» ١٩٧٧


الحياة ٤/١/١٩٩٢





نقد..

مدح!..

آلـــة الـفـكـــر .. وفـكـــر الآلــــة

في عصرنا هذا الذي أصبحت فيه المعرفة أهم موارده الاقتصادية كان لا بد أن يصبح المخ - صانع هذه المعرفة - هو الموضوع المحوري للعلم الحديث. فكان أن أطلقوا على عقد التسعينيات من القرن المنصرم «عقد المخ». حيث حشدت جهود الفلاسفة والعلماء والتكنولوجيين لإعادة اكتشاف المخ البشري، لتسقط بذلك الحواجز التي كانت تفصل في الماضي بين الفلسفي والتطبيقي، وبين السيكولوجي والبيولوجي، وبين الطبيعي والآلي. على جبهة موازية، يسعى مهندسو الذكاء الاصطناعي إلى إنتاج أجيال متقدمة من النظم والروبوتات الذكية ذات القدرة على التكيف ذاتيا مع بيئة عملها، وعلى التحاور الطبيعي السلس مع رفيقها البشري. لقد أيقن هؤلاء المهندسون أن لا سبيل لتحقيق ذلك إلا باتخاذ المخ البشري نموذجا، وهم يستحدثون حاليا طرقا غاية في الجدة والطموح لبناء نظم وآلات على نمط البنية الداخلية للمخ البشري، ومحاكاة المظاهر المختلفة لسلوكه الذكي: لغويا كان أم حسيا - حركيا، منطقيا كان أم حدسيا تلقائيا، ابتكاريا كان أم روتينيا يعاد إنتاجه على نمط ما سبق ابتكاره. وهكذا، وبعد سلسلة من محاولاتهم البدائية المتواضعة منذ بداية الخمسينيات، اهتدى أهل الذكاء الاصطناعي إلى المدخل الحقيقي لإكساب آلتهم الصماء قدرا من القدرات الذهنية الأصيلة، وبعضا من المرونة الفائقة التي يتميز بها المخ البشري في التعامل مع ظواهر الواقع. في المقابل، وبعد طول انتظار، عثر علماء المخ في الكمبيوتر على الآلة المثلى لتكون وسيلتهم في سبر أغوار المخ البشري ومنظومته العصبية مثلما كانت «آلة المضخة» هي وسيلة وليام هارفي لاكتشاف كيفية عمل القلب ودورته الدموية.



إن العالم يشهد حاليا لقاء مثيرا بين فريقين من الباحثين ظلا حتى وقت قريب يعمل كل منهما مستقلا عن الآخر، ونقصد بهما علماء المخ ومنظري المعرفة من جانب، وعلماء الذكاء الاصطناعي ومهندسي المعرفة من جانب آخر، وما أشد حاجة كل فريق إلى الآخر، فلا أمل في التصدي لمعضلة المخ البشري دون نهج علمي مبتكر ينهض - أساسا - على مبدأ تعدد التخصصات العلمية والعملية، ويقحم نفسه بجسارة في غابة العلاقات الكثيفة التي تشغى بها مناطق التداخل بين هذه التخصصات التي تتباين بشدة من حيث أسسها النظرية ومناهجها البحثية ووسائلها العملية، ونكتفي في هذه المقدمة بسرد قائمة بهذه التخصصات من أجل إيضاح مدى اتساع المجال المعرفي الذي نحن بصدده:

* الفلسفة
* علوم المعرفة
* علم النفس المعرفي
* علم الأعصاب
* البيولوجيا
* علم اللغة
* الكيمياء الحيوية
* علوم الكمبيوتر ونظرية المعلومات والاتصالات وتكنولوجيا الذكاء الاصطناعي.
* التكنولوجيا الأعصابية فيما يخص تصوير المخ بالأشعة المقطعية والرنين المغناطيسي وأجهزة تسجيل الإشارات الكهربية التي تسري داخل المخ البشري.

وتهرع الهندسة الوراثية كعهدنا بها منذ ظهورها لتضيف لمستها السحرية على هذه الباقة المعرفية المثيرة، تكاد تدفع بحديثنا الراهن إلى عالم ليس ببعيد هو أقرب إلى الخيال العلمي، تندمج فيه الهندسة الوراثية مع تكنولوجيا المعلومات، فهناك من يبشر بأمخاخ محسَّنة «جينيا»، ومطعمة «الكترونيا»، بل هناك من يؤكد أن هذا الاندماج البيولوجي - المعلوماتي بات ضروريا لكي نوفر لإنسان العصر عقلا جديدا يواجه به عالمه الجديد.

إن الجدل الفلسفي والتناول العلمي للقضايا المتعلقة بالمخ على مشارف نقلة نوعية حاسمة نحن في أمس الحاجة إليها؛ فنحن نجهل مخنا بصورة لافتة إلى درجة يجوز معها القول إن جُل ما أنجزنا في شأنه حتى الآن يسوده الطابع الإمبريقي، ويعد من قبيل «الفلكلور البيولوجي» إذا ما قورن بما نحن مقدمون عليه. والشواهد على صحة هذا الزعم كثيرة ودامغة، نكتفي منها هنا ببعض من تلك ذات الصلة بعالم اليوم الذي نحياه. لقد دخلنا بالفعل عصر اقتصاد المعرفة دون أن يتوفر لنا الحد الأدنى من الأسس العلمية لفهم آليات توليد المعرفة وتوظيفها، ورفعنا شعار «التعلم مدى الحياة» كشرط أساسي للبقاء في عصر

المخ البشرى فى مواجهة الذكاء الاصطناعى

نبيل علي

اهتدى أهل الذكاء الاصطناعى إلى المدخل الحقيقى لإكساب آلتهم الصماء قدرا من القدرات الذهنية الأصيلة، وبعضا من المرونة الفائقة التى يتميز بها المخ البشرى فى التعامل مع ظواهر الواقع. فى المقابل وبعد طول انتظار، عثر علماء المخ فى الكمبيوتر على الآلة المثلى لتكون وسيلتهم فى سبر أغوار المخ البشرى ومنظومته العصبية



المعلومات، وما زالت نظرياتنا عن التعليم والتعلم لا تخرج عن كونها تخمينا، وكثر الحديث عن عصر الوسائط المتعددة والتدفق الإعلامى دون سند من نظرية متماسكة - أو شبه متماسكة - عن الإدراك الحسى، وكيف تعمل حواسنا وتمتزج مع بعضها البعض وهى تستقبل هذه الشحنة الإعلامية المكثفة من وسائط: الصورة والنص والصوت، ناهيك عن قصور معرفتنا الشديدة فيما يخص علاقة حواسنا بأمخاخنا وأجسادنا.



هذا بعض من الدوافع المعرفية والتربوية والإعلامية التى تجعل من دراسة المخ البشرى ضرورة ملحة، وبالرغم من أهميتها إلا أن هذه الدوافع - فى تصور الكاتب - هى فى حقيقة أمرها دوافع فرعية تندرج تحت دافع محورى، ونعنى به هنا تهيئة العقل البشرى لمواجهة حاسمة مع «ظاهرة التعقد». لقد تفشت هذه الظاهرة إلى حد لم يصبح فيه التصدى لها ضربا من الرفاهية الذهنية، بل صار أمرا لازما فرضته كثرة الظواهر المعقدة التى تحيط بنا من كل صوب، والتى تزداد حدة وتفاقما يوما بعد يوم. ولكى تتضح لنا أهمية دراسة المخ فى التصدى لظاهرة التعقد، علينا أن نقر بداية أن المخ البشرى هو - بلا منازع - أعقد ظواهر الكون قاطبة، ويبدو تبوءه لقمة هرم التعقد أمرا منطقيا وطبيعيا حتى يتسنى له - أى المخ - أن يستوعب ما دونه من ظواهر التعقد كحالات فرعية أو جزئية من تعقده الأسمى. وعليه، يمكن القول إن معركة الإنسان الحاسمة مع ظاهرة التعقد لا بد أن تدور - أساسا - على جبهة المخ، ذروة التعقد، فبهذا يتم الانقضاض على هذه الظاهرة من أعلى نقطة ممكنة. ولو نجحنا فى مسعانا هذا - ولو جزئيا - ستتكشف لنا ساعتها وسائل عديدة لتتناول ما دون المخ من ظواهر معقدة: علمية كانت أم تكنولوجية، بيئية كانت أم اقتصادية، اجتماعية كانت أم نفسية.

هذا يكفى عن دوافع دراستنا الحالية التى تقيم تقابلا بين المخ، «آلة الفكر» الإنسانى، وبين «فكر الآلة» متمثلا فى نظم الذكاء الاصطناعى. أما عن هيكلها العام، فهى تبدأ باستعراض بنية المخ، وكيف تعمل هذه العجينة الرمادية، أو الوردية كما يطلق عليها أهل الفرنسية، وكيف ينبثق الذكاء من شبكتها الهائلة المكونة من بلايين الخلايا والوصلات العصبية والشعيرات الدموية والتفاعلات الكهروكيميائية. هذا فيما يخص آلة الفكر، أما «فكر الآلة» فالمدخل إليه هو سؤال أساسى مؤداه: هل يمكن للآلة أن تكون ذكية؟ وهل ستظل ملكة الذكاء حكرا على العقل البشرى؟ أم أن هناك طيفا من العقول وأنماطا مختلفة من الذكاء؟، وهذا يقودنا إلى استعراض الجوانب المختلفة لمفهوم الذكاء الاصطناعى والتحديات التى يواجهها، وتناول آراء المؤيدين والمعارضين له. بعد تناولنا لطرفى التقابل المعرفى (آلة الفكر وفكر الآلة) نحدد بإيجاز بعض مواضع التقائهما وافتراقهما، لنختتم حديثنا بما يمكن أن ينجم عن اندماجهما الوشيك بكل ما يزخر به من آمال ويحف به من مخاطر.

أولا: آلة الفكر

١:١ عن إشكالية التناول

يا له من تحد جسيم حقا أن يتجاوز العقل ذاته لينأى عنها، ولو قليلا، يمارس نشاطه فوق الذهنى meta-mentalistic، من أجل فهم آلياته وتفسير مظاهر سلوكه ومعرفة حدوده وقيوده. فلا مفر فى هذا المسعى من الوقوع فى فخ «الحلقية»: فالتفكير فى «آلة الفكر» لا بد أن يؤدى بنا إلى التفكير فى ماهية الفكر ذاته.

من جانب آخر، فقد أقام الفكر الإنسانى معظم صروحه الفلسفية والعلمية على أسس من المعرفة الواعية، فى حين ظل هذا الفكر قاصرا فى تعامله مع المعرفة اللاوعية، وهى المعرفة الكامنة وراء معظم أنشطة العقل: وراء إثارة الدوافع، وبناء المفاهيم، وفورية الحدس، ووهج الابتكار، وهى - أى المعرفة اللاوعية - التى يكتسب من خلالها الطفل لغته الأم، وتتعامل من خلالها الحواس مع مراكزها داخل المخ وهلم جرا. ولا شك أن ثمة علاقة مباشرة بين قصور معرفتنا اللاوعية هذا، وافتقارنا الحالى إلى تعريفات يمكن الاطمئنان إليها لكثير من المفاهيم الأساسية المتعلقة بالمخ، مثل: العقل والذكاء والحدس والابتكار، وما شابه.

كان العهد فيما مضى هو النظر إلى آلة الفكر من منطلق التعامل مع طرفى ثنائية «العقل - المخ» كل على حدة: وذلك بافتراض إمكان الفصل بين السيكولوجى والبيولوجى، وبين التصورى المجرد والمادى المحسوس، وقد سمح ذلك بتناول الوظائف المعرفية التى يمارسها العقل دونما حاجة إلى الخوض فى طبيعة المخ البشرى ومتاهة تفاصيله الداخلية. إن جاز هذا فى الماضى لغياب الأسس العلمية والوسائل العملية، فإن المضى فى هذا النهج الثنائى لم يعد له ما يبرره حاليا، خاصة بعد أن استقر الرأى على أن جهود إماطة اللثام عن خفايا آلة الفكر الإنسانى لن تكلل بالنجاح إلا باندماج السيكولوجى مع البيولوجى، والنفاذ إلى العمق الميكروبيولوجى، ودقائق بنية المخ البشرى، وتفاصيل العمليات الكهروكيميائية التى تسرى بداخله، والتعرف الدقيق على هيكلية البنى الرمزية والمعرفية التى تحملها وتتبادلها شبكة خلاياه العصبية. مما يزيد الأمر صعوبة، أنه لا يمكن فصل دراسة العقل عن السياق الاجتماعى الذى يمارس فيه هذا العقل وظائفه ومغامراته ومناوراته، ليضاف بذلك إلى ثنائية السيكولوجى - البيولوجى عنصر ثالث ألا وهو العنصر الثقافى.

٢:١ بنية المخ

ليس فى نية الكاتب، ولا فى قدرته، تناول بنية المخ البشرى وما تنطوى عليه من عمليات بيولوجية وكيميائية وكهربية. إن ما نسعى إليه هنا هو استخلاص أهم الملامح ذات المغزى بالنسبة إلى التقابل المحورى بين المخ والكمبيوتر الذى تركز عليه الدراسة الحالية. ولتكن نقطة البداية هى الخلية العصبية -neuron، وحدة البناء الأساسية للمخ البشرى وجهازه العصبى. يتكون المخ من عشرات البلايين من الخلايا العصبية تتشابك فيما بينها من خلال شبكة اتصال أعصابية هائلة قوامها ما يقرب من ألف بليون عنصر من عناصر التشبيك العصبية synapse. تتلقى كل خلية مجموعة من الإشارات تفد إليها من الخلايا الأخرى، أو من خلال الخلايا الحسية المنتشرة فى مواضع الجسم المختلفة. تظل هذه الإشارات المغذاة إلى الخلية (إشارات الدخل input بلغة أهل الكمبيوتر) تتراكم إلى أن تصل إلى قيمة معينة تكفى لإثارة الخلية العصبية فتنتقل من حالة الكمون إلى حالة التوهج، أو الفعل، لتولد خرجا output فى صورة إشارة كهربية تنتقل إلى الخلايا العصبية الأخرى أو إلى العضلات مباشرة.

تنتقل الإشارة الكهربية من الخلية التى تولدها إلى الخلايا المستقبلة لها عبر عناصر التشبيك العصبية السابق الإشارة إليها، وذلك بعد تحويل هذه الإشارة الكهربية إلى رسالة كيميائية من حوامض أمينية معينة. وفقا لما يقرره عنصر التشبيك العصبى، يسمح للإشارة القادمة أن تنفذ إلى الخلايا الأخرى، أو يتم إحباطها وتجاهلها. هكذا تنتقل الإشارات من الحواس إلى مراكز المخ المختلفة لتصدر بدورها أوامرها إلى العضلات والغدد، فى رحلة تظل الإشارة العصبية تتحول خلالها من الكهربى إلى الكيميائى ومن الكيميائى إلى الكهربى، ويتأرجح مصيرها بين استمرار سريانها أو انقطاعه، وتندمج - سلبا أو إيجابا - مع الإشارات القادمة من مصادر أخرى داخل الجهاز العصبى لتثير أو تحبط الخلايا العصبية الأخرى.



بعد هذا العرض شديد التبسيط والإيجاز دعنا نتمعن قليلا فيما تنطوى عليه هذه البنية المخية الشبكية من دلالات تتجاوز طبيعتها المادية المباشرة.

* بالرغم من المهام العديدة التى يقوم بها المخ البشرى إلا أنه يعمل دون سلطة مركزية توجه أداء ما دونها من مستويات أو وظائف، فالكل يعمل بصورة لامركزية، وربما يكون هذا هو سر عظمة هذه المنظومة البيولوجية الرائعة، وما تتسم به من مرونة هائلة وقدرة فائقة على التكيف مع الواقع والتجاوب الدينامى الفورى مع متغيرات هذا الواقع دونما حاجة إلى الرجوع لسلطة عليا. إن هذه اللامركزية ذاتها هى السر وراء النجاح الهائل الذى حققته شبكة الإنترنت التى تعمل هى الأخرى بلا هرمية ولا سلطة مركزية. ولندع الذاكرة تتداعى لتستحضر البناء الهرمى الذى اختاره أفلاطون لتنظيم جمهوريته حيث اتخذ من جسم الإنسان: رأسه وجسده وأطرافه نموذجا لبناء مدينته الفاضلة، وظلت هذه النزعة التراتبية hierarchical تضرب بأطنابها فى البنى

التنظيمية والفكرية، ويشهد التاريخ القريب والبعيد كم عانت، وتعاني، منها البشرية سياسيا واجتماعيا ومعرفيا.

* إن المعارف التي يتعامل معها المخ البشري ليست مخزنة في خلاياه العصبية بل تحددها أنماط شبكات الاتصال والعلاقات التي تربط بين هذه الخلايا ونوعية الرسائل المتبادلة بينها، وهو الأمر الذي يؤكد أهمية التواصل على المستوى الفردي والجماعي، فالإنسان كما قيل - حيوان اتصالي، ولا تقوم للمجتمع قائمة دون نظام للاتصال الذي اعتبره البعض شرطا من شروط بقاء الكائن البشري. ويتسق هذا التوجه الاتصالي - العلاقي أيضا مع ما توصل إليه فرديناند دي-سوسير، في تأسيسه لعلم اللغة الحديث، من أن معنى الكلمة ليس كامنا بداخلها بل تحدده حصيلة علاقات الاختلاف بينه وبين معاني الكلمات الأخرى، فمعنى كلمة «أسد» - على سبيل المثال - هو ما يستنتج من الفروق بينه وبين أقرانه من فصيلة القطط، وبين فصيلة القطط وفصائل الثدييات، وبين الثدييات وفصائل الحيوانات الأخرى، وهكذا.

* إن نظرية المعلومات والاتصالات تطرح نفسها هنا كأحد المداخل الواعدة لدراسة كيفية عمل المخ البشري في تعامله مع الإشارات الكهربية والرسائل الكيميائية المتبادلة بين عناصره، وذلك في إطار ثلاثية المرسل والمستقبل وقناة الاتصال التي تربط بينهما، وهي الثلاثية الحاكمة التي تقوم عليها هذه النظرية.

٢:١ حوار نصفي المخ

تتحكم مراكز المخ المختلفة في جميع وظائف الجسم، وقد تم تحديد مواضع هذه المراكز على نصفي المخ الأيمن والأيسر. ما يهمنا هنا هو إبراز أوجه الاختلاف بين طبيعة المهام التي يقوم بها كل من هذين النصفين وتأكيد أهمية التكامل المعرفي بينهما.

لقد نجح جوزيف بوجين في إعداد قائمة من الخصائص العامة (شكل رقم ١) التي يلجأ إليها علماء النفس المعرفي من أجل توضيح مدى التباين في أسلوب عمل نصفي المخ(١).

بشكل عام، يمكن القول إن النصف الأيسر يلتزم بالقواعد، ويعمل - عادة - في ظل القيود من خلال إقامة العلاقات المنتظمة المتدرجة من خطوة إلى أخرى. على العكس من ذلك، يعمل النصف الأيمن بصورة أكثر تحررا؛ فهو يهوى انتهاك القواعد، وتجاوز الواقع، ويعتمد على الحدس بصورة أساسية ليقفز من المقدمات إلى النتائج مباشرة ومن أقصر الطرق. وإن كان النصف الأيسر قادرا على تمييز الفروق والاختلافات الدقيقة، إلا أن النصف الأيمن هو القادر على عقد المقارنات واستخلاص النتائج. لهذا وذاك، فالنصف الأيمن ذو قدرة على التخمينات الجامحة وإحداث المفاجاة وتقييم المواقف والربط بينها.

من أكثر أوجه عدم التماثل بين نصفي المخ هو ذلك المتعلق بالنشاط اللغوي الذي يتركز أساسا في النصف الأيسر، ولكن هذا لا يعني أن النصف الأيمن «أصم لغويا» بل يمكن اعتباره في الحقيقة «فوق لغوي». فبينما يقف النصف الأيسر عند حدود المعاني الحرفية للكلمات، يستأنس النصف الأيمن المجاز ويجيد إقامة العلاقات الاستعارية بين الأشياء غير المرتبطة دلاليا، فنراه يربط - على سبيل المثال - بين «العواطف والنيران» ليستسيغ عبارات من قبيل: نار الغيرة، تأجج العواطف واشتعالها واحتراق القلوب بلهيبها، وبين «النقاش والحرب» فتروق له بذلك عبارات مثل: مهاجمة الآراء والدفاع عن المواقف ونسف الحجج وشن حملات النقد وما شابه. إن النصف الأيمن هو الذي يستوعب الشعر، ويدرك ظلال المعاني، ويستخلص المغزى من صخب الألفاظ وشواش التفاصيل.

من جانب آخر، وبينما يهوى النصف الأيسر التعامل مع الحتمي القاطع، وينتقي المعاني ويناى عن اللبس ويختزل ويجرد ويدمج ويجمع، يميل النصف الأيمن - على النقيض من ذلك - إلى التوسع والتأويل، ويهوى التعامل مع المحتمل، ويتجاوز راهن اللحظة إلى ما يمكن أن يترتب عليه من توقعات ونتائج. إن النصف الأيمن يضع ما توصل إليه النصف الأيسر في سياقه الأوسع، فهو شمولي موسوعي بحكم طبيعته، وشموليته تلك تجعله يرى الأمور بنظرة فوقية من أعلى إلى أسفل، على عكس النصف الأيسر الذي عادة ما يلجأ إلى التدرج الهرمي الصاعد من أسفل إلى أعلى، يصل إلى الأعقد من خلال الأبسط، ويبني المركب من عناصره الأولية والوسيطة وهكذا. إن النصف الأيمن يهب سياقا لما لا سياق له، ويضفي النظام على المشوش والمضطرب، ويقيم الصلات بين ما يبدو متباعدا ومتنافرا.

وأخيرا وليس آخرا، يمكن القول بصفة عامة إن النصف الأيسر يتسم بالموضوعية، والالتزام بالعام المشترك والحقائق المستقرة السائدة، في حين يسود النصف الأيمن الطابع الانفعالي الذاتي، حيث يعيد صياغة العام المشترك في إطار الخاص الفردي القائم على الخبرات الشخصية والظروف المحلية. والنصف الأيمن هو الحارس الأمين على الرصيد العقلي للإنسان الذي لا يبلى مع تقدم السن، فهو الذي يستخلص الحكمة المصفاة من حصاد الخبرات المعيشة والمعارف المتراكمة.

٤:١ عن آلات الفخار والبخار وسحق الأرقام

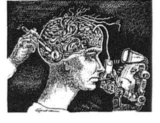
والآن، كيف يمكن تصور الكيفية التي يعمل بها المخ البشري؟، كيف تقوم هذه الآلة البيولوجية بأشياء غامضة مثل الفكر والابتكار واكتساب المهارات والخبرات؟. وكيف ينبثق الذكاء من اللاذكاء، لاذكاء عناصر المخ المادية السابق ذكرها؟. بقول آخر، هل يمكن لنا تفسير الذكاء بدلالة مجموعة من الأشياء البسيطة؟ أو كما قيل. هل يمكن أن نفتت السلوك الذكي ونظل نفتته حتى لا يبقى هناك ذكاء، وأن نحيل أنشطة العقل المعقدة إلى سلسلة من العمليات البيولوجية البسيطة؟. لا شك أن الأمر أعقد من ذلك بكثير ويصعب على المرء تصور إمكان اختزال إشكالية العقل - المخ، ذروة هرم التعقد كما أسلفنا، دون أن نقتص منها بصورة مخلة، وسيمضي وقت ليس بقصير قبل أن ينجح العقل في اكتشاف سره أو بعض منه، وما نسمعه حاليا عن اكتشاف أحد الجينات المرتبطة بالذكاء وآخر ذي صلة بالنحو اللغوي ما هو إلا بداية رحلة طويلة يصعب - إن لم يتعذر - التكهن بمسارها.

إزاء الظواهر المعقدة، عادة ما يلجأ الفكر الإنساني إلى الاستعارة كجسر معرفي يعبر من خلاله إلى المعقد بتمثيله بما هو أبسط. وعلى مر العصور، ومنذ عهد الإغريق إلى يومنا هذا، أثبتت استعارة الآلات جدارتها كإحدى الوسائل الفعالة التي أجاد الفلاسفة والعلماء



يصعب على المرء تصور إمكان اختزال إشكالية العقل - المخ، ذروة هرم التعقد كما أسلفنا، دون أن نقتص منها بصورة مخلة، وسيمضي وقت ليس بقصير قبل أن ينجح العقل في اكتشاف سره أو بعض منه، وما تسمعه حاليا عن اكتشاف أحد الجينات المرتبطة بالذكاء وآخر ذي صلة بالنحو اللغوي ما هو إلا بداية رحلة طويلة يصعب - إن لم يتعذر - التكهن بمسارها





استخدامها في تفسير الظواهر وتجسيد المفاهيم، فكانت آلة الفخار ذات المحور الدوار وراء تصور فلاسفة الإغريق لنظام الكون كمجموعة من الأفلاك تدور - كما تصوروا خطأ - حول الأرض كمركز لها. ولا شك أن ثمة علاقة بين آلة قياس الوقت وتصور كون منضبط يعمل كالساعة في ظل قوانين نيوتن القاطعة. في مبادرته الجسورة لتفسير عمل المخ البشري وجد فرويد في آلة البخار غايته، فراح يفسر عمل المخ البشري بقوانين الديناميكا الحرارية، وربما يكون وراء هذا التصور ما يتميز به المخ من معدل مرتفع لاستهلاك الطاقة، فبينما يبلغ وزنه ٢٪ من وزن الجسم إلا أنه يستهلك ما يوازي ٢٠٪ من إجمالي طاقة الجسم المولدة. وهكذا، سادت مصطلحات الميكانيكا من قبيل: الدوافع والكوابح والطاقة الذهنية والقدرة العقلية وضغط الغرائز وتفريغ الشحنة والتوازن النفسي بفعل قانون بقاء الطاقة، وبدا المخ في هذا التصور تحت رحمة الحواس والمثيرات التي تنقلها له هذه الحواس من خارجه، أو الدوافع الغريزية التي تفد إليه من داخله. لقد استحال المخ البشري في إطار هذه النظرة إلى كيان سلبي، آلة لتوليد ردود الأفعال، فكل فعل يؤدي إلى رد فعل، وكل سبب محدد يؤدي إلى نتيجة معينة، والغرائز تفرض نفسها كقوة قاهرة لا يملك الجهاز العصبي إلا الخضوع لها. ما أبعد هذا التصور عما يجري داخل المخ البشري، وهو ما أدى بالبعض إلى القول بأن فرويد كان خاطئا في تفسير عمل المخ البشري بيولوجيا وكيميائيا وفيزيائيا.

ومن آلة البخار إلى الكمبيوتر، فما أن ظهر في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي حتى تبنى الكثيرون استعارة المخ كآلة لمعالجة المعلومات، وهكذا انزوت مصطلحات الميكانيكا لتحل محلها مصطلحات المعلومات من قبيل: الرموز والإشارات والرسائل وعمليات التكويد والتحويل وتخزين الأفكار واسترجاعها من الذاكرة. تبعا لهذا التصور الاستعاري، تحولت النظرة إلى المخ لتقوم على أساس الثلاثية الحاكمة لعمل الكمبيوتر وهي ثلاثية: الدخل - معالجة المعلومات - الخرج، والتي يناظرها في حالة المخ ثلاثية: الحواس - التفكير - الفعل، حيث تمثل الحواس عنصر الدخل الذي يغذي المخ بمعلومات من خارجه، ليقوم التفكير وآلياته الذهنية بمعالجتها مولدا خرجا في صورة أفعال وردود أفعال تتحكم في وظائف الجسم المختلفة.

لكن هذا التوجه المعلوماتي لتفسير عمل المخ كان ينطوي على خطأ أساسي، خلاصته: أن كمبيوتر الأجيال الأولى كان في - جوهره - آلة حاسبة ذات قدرة هائلة على «سحق الأرقام»، وتتسم معمارية بنائه بمركزية طاغية تتنافى تماما مع الطابع الشبكي لبنية المخ البشري. علاوة على ذلك، فهو - أي الكمبيوتر - يعمل بصورة حتمية قاطعة؛ فكل دخل يؤدي إلى خرج محدد بعينه. ولا غرابة في ذلك، فالأجيال الأولى من الكمبيوتر قد ظهرت على أيدي علماء الرياضيات والمنطق. سرعان ما اكتشف أن آلة سحق الأرقام تلك بمركزيتها الطاغية وحتميتها القاطعة لا يمكن استخدامها كنموذج لفهم طبيعة عمل المخ

مقدمة الرأس

متحرر
مجازي
احتمالي
ذاتي
ملتزم
حرفي
قاطع
موضوعي

البشرى الذى هو أبعد ما يكون عن المركزية والحتمية، فسر عظمته لا يكمن فى سرعة معالجته للمعلومات بصورة رياضية منطقية محضة، بل فى مرونة التعامل مع المعلومات متجاوزا القطع الرياضى والصرامة المنطقية إلى لا يقين الاحتمالات وزيفها وتميعها.

٥:١ دورة اللا يقين

لا يعمل المخ بصورة خطية يقيم من خلالها مسارات مستمرة تصل بين المثيرات وردود الأفعال، ولا يعمل كآلة منطقية تربط بين المقدمات والنتائج بصورة مباشرة وقاطعة، بل يعتمد فى كثير من الأمور على الحس الطبيعى المباشر فى التعرف على الأنماط وتمييز الفروق بين الأشكال والمواقف. وليس هدف المخ هو الدقة أو التعامل مع المكتمل الدقيق دون غيره، بل ترجع مرونته الفائقة إلى قدرته على التعامل مع المحتمل والزائغ والمشوش وغير المكتمل. إن دورة العمل داخل المخ البشرى يجوز وصفها بـ«دورة اللا يقين»، ففى كل مرحلة منها يتدخل عنصر الاحتمال، فالخلايا العصبية لا تتجاوب تلقائيا بصورة ميكانيكية مع ما تتلقاه من مثيرات، فهى صاحبة القرار فى أن تتجاوب معها أو تتجاهلها. بقول آخر، لا تعمل هذه الخلايا تحت رحمة المثيرات المغذاة إليها حيث يمكنها أن تتجاهل مثيرا قويا فى مواقف معينة، وأن تضخم من مثير ضعيف فى مواقف أخرى. حتى لو ولدت الخلية العصبية خرجا تجاوبا مع ما وفد إليها من مثيرات، فلا يشترط أن تنتقل إشارة هذا الخرج إلى الخلايا العصبية الأخرى أو العضلات أو الغدد وخلافه: فخرج الخلية العصبية ينفذ - كما أوضحنا - من خلال عناصر التشبيك العصبى syn-apse، وهى الأخرى ليست عنصرا سلبيا بل آلية إيجابية فعالة يمكن لها أن تحول الإشارة القادمة إليها وتحورها، بل تبطل مفعولها تماما وتمنع نفاذها إلى الخلايا العصبية الأخرى. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يمكن بعد وصول دورة عمل المخ إلى نهايتها واتخاذ مركز المخ قرارا بفعل معين، أن يرجئ المخ استجابته للمثير، أو أن يتجاهله تماما. وكشاهد على ذلك تلك المواقف العديدة التى يتجاهل فيها الإنسان الإحساس بالألم وهو يواجه مواقف أكثر صعوبة.

بالرغم من كل هذا اللا يقين، يظل المخ البشرى قادرا على القيام بمهامه بصورة فعالة ومنتظمة، يوجه وظائف الأعضاء، ويحل المسائل ويتخذ القرارات، ويحلل المواقف ويقطع بالآراء. ربما يكون السر فى ذلك هو فائض الموارد الذهنية المتوفرة للقيام بهذه المهام، فما أن يُسد منفذٌ حتى يجد المخ آلاف المسالك البديلة خلال هذه الشبكة الهائلة من مسارات الاتصال العصبية. ولولا تيار اللا يقين هذا ما أمكن للعقل البشرى أن يقوم بمعظم وظائفه التى يسود معظمها عنصر الاحتمال. ودعنا نلخص هنا هذه الوظائف (شكل رقم ٢):

* استئناس غير الدقيق وإكمال الناقص
* الصمود إزاء التعقد
* مرونة التكيف مع البيئة
* التوفيق بين الدوافع المتعددة والمتباينة
* الاستخلاص من المشوش
* التنسيق بين الحواس وبينها وبين آليات الحركة
* القدرة على التعميم
* الوعى بالذات
* إرجاء الاستجابة
* التواصل والتعاون مع الآخر الذكى
* تنوع تنمية القدرات الذهنية
* عدم التطبيق الصارم للقواعد

إذا ما تمعنا قليلا فى هذه الوظائف سيتبين لنا أن كلا منها يتعامل مع الاحتمالات بصورة أو بأخرى، وهو ما يؤكد محورية مفهوم «اللا يقين» فى فهم طبيعة المخ البشرى. إن هذا اللا يقين الكامن فى عقل الإنسان هو وسيلة هذا العقل الفعالة التى يتعذر بدونها مواجهة لا يقين الواقع بتعقده وفوضاه ومتغيراته واحتمالاته، والذى لا تجدى معه صرامة المنطق، وميكانيكية قوانين العلة والأثر، وهرمية السلميات وخطيتها. إنه اللا يقين الذى أشعل فتيل الثورة اللا منطقية فى مجال الذكاء الاصطناعى من أجل تطوير آلة جديدة لمعالجة المعلومات والمعارف تختلف جوهريا عن آلة جون فون نيومان[٢] المركزية المنطقية القاطعة، آلة تحاكى مرونة المخ البشرى، وتستطيع القيام بالوظائف المذكورة أعلاه، أو قدر كبير منها على الأقل، ويا له من تحدّ لمطورى عتاد الكمبيوتر وبرمجياته على حدّ سواء.



نصف المخ الأيمن	نصف المخ الأيسر
حسى	عقلانى
حدسى	منطقى
محسوس	مجرد
غير خطى	خطى
فوق لغوى	لغوى
ضمنى	صريح
خيالى	واقعى
موسوعى	موضعى
توسعى	اختزالى
معرفى - مفهومى	معلوماتى - حاسوبى

شكل رقم «١»

ثانيا: فكرة الآلة

١:٢ كسر احتكار الإنسان لملكة الذكاء

يبدو منطقيا أن يستهل الحديث عن آلة الفكر بطرح سؤال أساسى مؤداه: هل يمكن للآلة الصماء أن تكتسب ملكة الذكاء؟. تتراوح الإجابة على هذا السؤال بين فلاسفة يقطعون باستحالة ذلك، وبين مهندسى الذكاء الاصطناعى الذين يؤكدون إمكان حدوثه، ووصل الأمر ببعض المتحمسين منهم إلى القول بأنه سيجىء اليوم الذى يمكن أن يتفوق فيه ذكاء الآلة على ذكاء الإنسان، تماما كما فاقت قوة الآلة الميكانيكية قوة عضلاته، ودقة نظم الإنذار والمراقبة دقة حواسه ومتانة أعصابه، وفاقت قدرة الكمبيوتر التقليدى قدرة عقله على القيام بالعمليات الحسابية، ولم يصبح السؤال - فى رأيهم - هل سيحدث ذلك؟ بل متى سيحدث؟، ولنسمع ما يقوله ميرفين مينسكى عالم الذكاء الاصطناعى عن توقعاته عن نمو فكر الآلة وذكائها: «إن عقول السيلكون[٣] صنيعة الذكاء الاصطناعى ستنمو إلى درجة نصبح معها - نحن البشر - فى عداد المحظوظين لو قبل أصحاب هذه العقول السيلكونية أن يحتفظوا بنا كحيوانات أليفة». إنه لضرب من الإسراف بلا شك، لكنه لا يخلو من مغزى، ولا يضاهيه فى تطرفه إلا إسراف زميله جون مكارثى بمقولته الغريبة «حتى أبسط الآلات لها معتقدات».

بعد أن طرحت الفلسفة أسئلة ما وراء الطبيعة، لتنشغل بمشاكل الإنسان على الأرض، راحت تركز على تأكيد إنسانية الإنسان وجوانب تميزه عن باقى الموجودات، ووصل الأمر بديكارت إلى حد القول: «ما الحيوانات إلا أتوماتيات»، بل كدنا أن ننكر على الأطفال ملكة الذكاء حتى أثبت لنا جان بياجيه أن عقل الأطفال ليس وعاء سلبيا تلقى فيه المعلومات والمعارف، بل هم نشطاء فى بناء المعرفة وتوظيفها، ولديهم أسلوب تفكيرهم الخاص الذى يفوق أحيانا تفكير الكبار فى أمور الخيال والتعامل مع المجاز والاستعارة.

وحتى يخصوا الإنسان وحده بملكة الذكاء ربط هؤلاء الفلاسفة، ومن تبعهم من علماء النفس المعرفى، هذه الملكة بعدة خصائص يتميز بها الإنسان عن غيره، مثل القدرة على التعلم، والتواصل اللغوى، والتفكير المنطقى، والسلوك العاطفى الأخلاقى والتآلف الجماعى (الاجتماعى). ويا ليتهم أدركوا أن هذه الخصائص ستتهاوى واحدة تلو أخرى، بعد أن ثبت أنها لا تخص الإنسان وحده. فالقدرة على التعلم خاصية تمتلكها حتى أدنى الكائنات. فكما يتعلم الإنسان ذاتيا، كذلك تتعلم الحيوانات والأدوات والآلات وأجيال الإنسان الآلى والنظم والجماعات والمؤسسات بل الفيروسات أيضا. وها نحن نصبو، من خلال تضافر تكنولوجيا المعلومات مع الهندسة الوراثية، إلى إكساب الخلايا ملكة التعلم ذاتيا؛ كى تدرك خلية السرطان كيف توقف نموها العشوائى، وتذود خلية الأعصاب غير المتجددة عن بقائها ضد الضمور، وتتجدد خلية الشعر تلقائيا لتهزأ بداء الصلع الذى كان يلهو بموتها. وفيما يخص قدرة التواصل اللغوى فقد أثبتت بحوث حديثة إمكان تعلم الشمبانزى التراكيب النحوية البسيطة، بل وفهم بعض العلاقات الدلالية بين معانى الكلمات[٤]. أما القدرة على التفكير المنطقى، كحل المسائل وبرهنة النظريات ولعب الشطرنج واستخلاص المعرفة من فيض المعطيات، فقد أثبتت نظم الذكاء الاصطناعى أن هذه الأنشطة الذهنية الراقية هى التى يسهل على الآلة محاكاتها، فقد هزم الكمبيوتر فطاحل لاعبى الشطرنج وأثبت قدرة فائقة على حل المسائل، والقيام بمهام التشخيص والتصميم والتخطيط، بل نجح فى إثبات عدد لا بأس به من النظريات الرياضية عجزت عن إثباتها عقول البشر. الشىء اللافت هنا أنه بالرغم من قيام آلة الكمبيوتر بكل هذه العمليات الذهنية الراقية، إلا أنه يصعب عليها بشدة محاكاة الأنشطة الدنيا التى يشترك فيها الإنسان مع باقى الحيوانات، ونقصد بها تلك التى يتعامل من خلالها الكائن الحى مع بيئته، كيف تتفاعل حواسه وآليات حركته كى يسلك طريقه خلال دنيا الواقع، يتحاشى العوائق ويتجنب المخاطر ويميز القريب ويترقب البعيد وهلم جرا.

أما السلوك العاطفى الأخلاقى فليس هو الآخر حكرا على الإنسان، ولا يقف الأمر هنا عند حدود غرائز الأمومة

والأبوة لدى معظم الحيوانات، فما أكثر ما تظهر الحيوانات الأليفة عواطف تجاه أصحابها. أما البعد الاجتماعي، فلا يستطيع أحد أن ينكر هذا الذكاء الجماعي الذي تظهره ممالك النمل والنحل. والمثال الحاسم هنا هو ما عرف عن السلوك الجماعي لأصدقائنا من فصيل الدرافيل، وهو السلوك الذي يمثل نوعا من التكافل الاجتماعي نفتقده نحن بني البشر. ليس هذا فحسب، فلن يقتصر أمر امتداد السلوك العاطفي على دنيا الحيوان بل سيمتد ليشمل الآلات أيضا. فقد أيقن أهل الذكاء الاصطناعي استحالة الفصل بين الذكاء الذهني والذكاء العاطفي، وهم يسعون حاليا إلى تطوير روبوتات تظهر العواطف وتتأثر بالمواقف وتعتصرها الآلام، بغض النظر عما يقال عن ضحالة هذه المشاعر مهما ارتقت النظم الآلية في محاكاة مظاهرها الخارجية. بل هناك من يتحدث عن «الروبوت القديس» المتفاني في خدمة غيره، بعد أن تخلص من أنانية الإنسان، وزال عنه شعور القلق على بقائه، حيث يمكن استنساخه في روبوتات أخرى.

خلاصة القول، هناك قناعة لدى الكثيرين بضرورة كسر احتكار الإنسان لملكة الذكاء، وغدًا مستساغا القول بأن هناك أنماطا متعددة من السلوك الذكي، وفضاء متسعا من العقول لا عقل واحد هو عقل الإنسان، بل تجاسر البعض فراح يتساءل: أي نوع من الكمبيوتر هو الإنسان..؟!.

٢:٢ من فخاخ الفئران إلى «الروبوسابين»

كما تطور ذكاء الجنس البشري وأسلافه عبر العصور البيولوجية من صورته البدائية حتى ارتقى إلى صورته الحالية الراقية المتمثلة في «الهوموسابين»[٥]، كذلك تطور - ويتطور - ذكاء الآلة من أبسط الأدوات إلى أعقد النظم والآلات وصولا إلى «الروبوسابين» أو الروبوت العاقل العارف، ذي الحواس الآلية المرهفة، والقدرات الذهنية الاصطناعية الهائلة التي تنمو دوما بفعل آليات التعلم الذاتي من خلال التفاعل المباشر مع الواقع.

لقد بدأ مسار تطور الآلة بأدوات بسيطة تعمل بصورة تلقائية مثل فخاخ الفئران وأدوات قياس حركة الكواكب ومنظم السرعة الذي اخترعه جيمس وات للتحكم في محركه البخاري كي لا يفلت زمامه[٦]. بعد أن نجح الإنسان في صنع آلته البخارية والكهربائية لتنوب عنه «عضليا»، سعى إلى بناء آلة تخفف عنه «عقليا». وقد شهد القرن التاسع عشر عدة محاولات لبناء آلة حاسبة، تعمل بعناصر ميكانيكية من التروس والروافع وما شابه. إلا أن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح؛ بسبب عدم توفر الأسس العلمية، وربما - أيضا - بسبب هذا التناقض الجوهري بين ميكانيكية تلك العناصر وصلابتها، وبين رهافة المعلومات وسيولتها المتدفقة. وما إن توفرت هذه الأسس العلمية والوسيلة التكنولوجية المناسبة لبناء تلك الآلة الحاسبة؛ حتى تحقق الحلم المنتظر بنهاية أربعينيات القرن العشرين، وخرج إلى الوجود الكمبيوتر الالكتروني الرقمي ثمرة لالتقاء علوم الفيزياء والرياضيات المنطقية والهندسة الالكترونية. ومنذ ظهوره، واصل الكمبيوتر مسار تطوره بمعدلات غير مسبوقة، وارتقت نظم المعلومات على جبهات عديدة، من زيادة سرعة تنفيذ العمليات الحسابية والمنطقية، إلى زيادة سعة التخزين للوسائط الالكترونية، ومن زيادة كفاءة ملحقات إدخال البيانات وإخراجها، إلى زيادة إمكانات لغات البرمجة الراقية التي تقترب رويدا رويدا من مرونة اللغات الإنسانية وقدرتها الفائقة على التعبير. وهكذا، اكتسبت الآلة كثيرا من المقومات التي تؤهلها كأداة لبناء نظم الذكاء الاصطناعي.

وكما توالت أجيال الكمبيوتر، توالت كذلك أجيال الروبوت ليتطور روبوت الجيل الأول الغشيم، الذي يقوم بمهمة روتينية محددة، إلى روبوت الجيل التالي الذي يمكن إعادة برمجته من أجل توسيع مجالات استخدامه والمهام التي يقم بها، وبعدها يأتي روبوت الجيل الثالث المزود بأجهزة الرؤية الاصطناعية والأطراف الحساسة ووسائل التغذية المرتجعة feed-back التي تمكنه من التكيف مع بيئة العمل. ويستمر التطور في مشوار صعوده سعيا إلى بناء روبوتات قادرة على العمل بروح الفريق من خلال التواصل فيما بينها، بل يتم حاليا تزويد الروبوتات، «أصحاب الياقات المعدنية» كما أطلق البعض عليها، بالقدرات اللغوية والخلفية المعرفية حتى يمكنها التواصل الذكي مع رفاقهم من أصحاب الياقات الزرقاء والبيضاء.

ولكن من أين واتت مهندسي الذكاء الاصطناعي هذه الجرأة التي تتطاول على كل هذه السنين من «أركيولوجيا» البيولوجي والمعرفة؟، وكيف لها أن تدعي نجاحا فيما فشل فيه الفلاسفة خلال خمسة وعشرين قرنا، عندما عجزوا عن تقديم رؤية فلسفية مقنعة عن الذهن البشري وماهية المعرفة التي يتعامل معها؟. ربما يرجع ذلك إلى اقتناع هؤلاء المهندسين بأن المخ البشري برغم تعقده الشديد ما هو في نهاية الأمر إلا آلة متقدمة لمعالجة المعلومات، وما من نشاط عقلي إلا ويمكن محاكاته بنموذج معلوماتي.

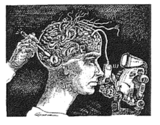
كما أشرنا سابقا فقد تسرع البعض في بداية ظهور الكمبيوتر، متصورا أن هذه السرعة الهائلة، وهذه القدرة الحسابية الغاشمة، ووسائل التخزين ذات السعة العالية كفيلة بحل كثير من المشاكل. ترجع هذه النظرة المسرفة في تفاؤلها إلى اعتقاد خاطئ؛ بأن الكمبيوتر بسرعته الهائلة قادر على توليد جميع البدائل الممكنة لحل مشكلة ما، وإجراء المقارنات بين هذه البدائل وفقا للمعايير المحددة التي يتطلبها الحل، ولا بد أن يؤدي ذلك بنا في نهاية المطاف إلى التوصل إلى حل المشكلة رهن الدراسة. في ظل هذا التصور، تتحول مهارة لعب الشطرنج إلى عملية حصر جميع النقلات الممكنة والنقلات المحتملة التي يمكن أن يقوم بها الخصم ناظرين إلى الأمام عبر عدد محدود من النقلات التالية لكل وضع محتمل لرقعة الشطرنج. أما مشكلة الترجمة الآلية - كمثال آخر لنظم الذكاء الاصطناعي - فحلها يكمن في حصر جميع معاني الكلمات وأنماط تراكيب الجمل في اللغة التي تتم الترجمة منها، والمعاني والأنماط المقابلة لها في اللغة التي تتم الترجمة إليها.

سرعان ما اكتشف قصور هذه النظرة الميكانيكية لحل المشاكل القائمة على حصر جميع البدائل الممكنة لها، وذلك لسبب بسيط وجوهري هو أن عدد هذه البدائل ينمو بمعدل متزايد للغاية يصل حتى على مستوى المسائل البسيطة إلى قيم يصعب علينا حتى تصورها، فعلى سبيل المثال تقدر البدائل الممكنة للعبة الشطرنج بـ ١٠ أس ١٢، أما أنماط تراكيب الجمل فيصعب حصرها بأية طريقة رياضية أو عملية، فاللغة كما يقول نعوم تشومسكي هي «الاستخدام اللامحدود لوسائل محدودة»، وحتى معاني الألفاظ التي تصور البعض إمكان حصرها في متن المعاجم، لا تتوقف هي الأخرى عن التغيير من خلال عمليات المجاز، والتوسع في معاني الكلمات، ناهيك عما يستحدث من مصطلحات جديدة.

لقد غاب عن ذهن هؤلاء استحالة أن تلاحق الرياضيات والمنطق، والمعرفة القاطعة بشكل عام، كم المشاكل التي تظهر بمعدل يفوق قدرتنا على حلها. وعلى الجميع أن يعي بوضوح الحدود التي تقف عندها الأساليب العلمية القاطعة. وعندما يعجز العلم النظري يأتي دور الخبرة العملية، نوع آخر من أنواع المعرفة البشرية يختلف في طبيعته اختلافا جوهريا عن المعرفة العلمية القاطعة، فالخبرة هي تلك المعرفة التي نكتسبها من خلال ممارستنا الشخصية، أو ننقلها عن غيرنا بصورة عفوية أو مخططة، وهي - أي الخبرة - وإن كانت إمبريقية تقريبية، إلا أنها وسيلتنا لحل كثير من المشاكل التي تواجهنا يوميا، إن ما نفهمه عن هذا العالم بصورة قاطعة يقل، وبكثير، عما يغطيه نطاق خبراتنا. إنها هي الخبرة التي تحدد سلوكنا وتصرفاتنا وقراراتنا وطرق صياغتنا للمشاكل وأساليب حلنا لها، وهي أداتنا العملية للتعامل مع الغامض والمحتمل وغير المكتمل، وهي - ومازال الحديث عن الخبرة - تلك القدرة الخفية التي نصادف بها حلول كثير من المشاكل دون أن نعرف كيف اهتدينا إليها. تجاوبا مع هذا التوجه، تمثل النظم الخبيرة expert systems أحد الفروع الأساسية للذكاء الاصطناعي، وهناك محاولات مشجعة لتطوير نظم خبيرة تحاكي خبرة المدرس في تعليم طلبته، وخبرة مهندسي الجيولوجيا في تحديد مواقع الثروات البترولية والمعدنية، بل تم تطوير نظم خبيرة لتشخيص الأمراض تفوقت في حالات عديدة على كثير من الأطباء المتخصصين.

كما هو متوقع، واجه مفهوم الذكاء الاصطناعي معارضة شديدة من قبل كثيرين اختلفت أسبابهم ودوافعهم، فبينما اعتبره بعض أهل الدين نوعا من الهرطقة العلمية، فالذكاء هو هبة الخالق لكائنه الفريد، نرى كثيرا من أهل البيولوجي يرفضونه على أساس من اعتقاد راسخ من أن المخ البشري هو عضو بالغ التعقيد يستحيل علينا محاكاته. أما الفلاسفة، فيفرقون بشدة بين ما يطلق عليه ذكاء الآلة والذكاء البشري الأصيل بقول آخر، هناك فرق شاسع بين قيام الآلة بسلوك ذكي بفضل البرامج التي صممها الإنسان، كأن تفهم النصوص وترد على الأسئلة وتبرهن النظريات مثلا، وبين أن تكون الآلة مستقلة بذاتها ذات ذكاء، تستحدث الحلول وتطرح الأسئلة من تلقاء نفسها. أما أهل اللغة فمصدر اعتراضهم على ما يدعيه أصحاب الذكاء الاصطناعي من إمكان محاكاة السلوك اللغوي هو أن فهم اللغة وتوليدها يحتاج إلى ملكات ذهنية ونفسية يصعب محاكاتها، وهي أمور تحتاج إلى خلفية معرفية تفوق بكثير تلك التي تتضمنها كتب القواعد والمعاجم، بل دوائر المعارف أيضا، والتحدي إذن هو كيف نضع العالم في جوف الآلة؟!! العالم بموجوداته وأحداثه ومفاهيمه وعلاقاته وقيمه، وكيف يتسق ذلك مع حقيقة أننا ندرك قدرا كبيرا من العالم حولنا من خلال الحس الطبيعي المباشر، وبالسليقة أحيانا، وهي نوع من المعرفة يصعب تعريفه ومحاصرته.

لا يعمل المخ بصورة خطية يقيم من خلالها مسارات مستمرة تصل بين المثيرات وردود الأفعال، ولا يعمل كآلة منطقية تربط بين المقدمات والنتائج، بل يعتمد في كثير من الأمور على الحس الطبيعي المباشر



وياتى إلينا علماء النفس فيلقون بالزيت على النار، عندما يصدرون حكمهم فى عدم جواز فصل المعرفة عن المشاعر المصاحبة لها. فالسلوك الذكى فى رأيهم ليس فقط فى الرد على الأسئلة بصورة سليمة أو استنتاج الحقائق بشكل دقيق، بل أيضا فى قدرة الكائن الذكى - إنسانا كان أو آلة - فى أن ينفعل ويتأثر بما حوله، حجتهم فى ذلك هو تداخل المواقف النفسية مع آليات التفكير بصورة يتعذر معها الفصل بينهما.

لقد فشلت كل هذه الاعتراضات فى أن تثنى مهندسى الذكاء الاصطناعى عن اقتناعهم الراسخ، وما زادتهم إلا تشبثا بموقفهم، وهم متمسكون برأيهم أنه لو أمكن محاكاة الوظائف التى يحتاج تأديتها إلى ذكاء، فماذا يهمنا إذا كان هذا الذكاء أصيلا أو مصطنعا، طبيعيا أو مفتعلا. إن الهدف ليس هو محاكاة الذكاء البشرى بعينه، بل صنع ذكاء مختلف، واختلافه لا يعنى بالضرورة أنه أقل قدرة.

بالرغم من كل الإنجازات التى تحققت فى مجال الذكاء الاصطناعى حتى الآن، فمازال - وربما سيظل - يواجه العديد من التحديات سواء على جبهة العتاد أو على جبهة البرمجيات، ويمكن القول بشكل عام إن هناك مدخلين أساسيين لمواجهة هذه التحديات، هما: المدخل البيولوجى والمدخل اللغوى.

عالم الواقع

احتمالات

الاستخلاص من المشوش وغير المكتمل

مرونة التكيف مع البيئة

التواصل مع الآخر الذكي

التنسيق الحسي الحركي

الوعى بالذات وتقييمها

تنمية القدرات الذهنية

إرجاء الاستجابة

عدم التطبيق الصارم للقواعد

الصمود إزاء التعقد

آلة الفكر

ودروة اللايقين

تعقد

فوضى

متغيرات

شكل رقم «٢»

٣:٢ المدخل البيولوجى للذكاء الاصطناعى

يمكن القول بصفة عامة، إن تكنولوجيا المعلومات قد قامت - حتى الآن - على علم «الفيزياء»، سواء من حيث استنادها إلى الأسس الكهربية والمغناطيسية والضوئية، أو من حيث طبيعة المواد المستخدمة فى بناء عناصر الكمبيوتر الأساسية. فكما هو معروف، يتم تصنيع الشرائح الالكترونية electronic chips من بلورات السيلكون المستخلصة من الرمال. على ما يبدو، فقد اقتربت تكنولوجيا المعلومات تلك القائمة على الفيزياء من خط نهايتها، حيث وصلت هذه الشرائح الإلكترونية - بالفعل - إلى مشارف حدودها القصوى، والتى يتعذر تجاوزها، وذلك من أجل تحقيق مزيد من التصغير لهذه الشرائح، أو بغرض زيادة السرعة التى تنفذ بها العمليات الحسابية والمنطقية. للخروج من هذا المازق التكنولوجى وليد قيود الفيزياء، سارعت البيولوجيا تطرح نفسها كبديل، وهى توشك حاليا أن تبعث بتكنولوجيا المعلومات الفيزيائية إلى متاحف التاريخ. من الشواهد على ذلك، تلك التجارب التى تجرى حاليا، لدمج العناصر البيولوجية مع العناصر السيلكونية فيما يعرف بتكنولوجيا «البيوسيلكون» Biosilicon، بل واستغلال الأنسجة الحيوية منفردة فى بناء المقومات الأساسية لتكنولوجيا المعلومات. إن الهدف هو بناء كمبيوتر أكثر سرعة وذكاء ومرونة، ذى ذاكرة أكثر اتساعا (تكفى الإشارة هنا إلى طاقة تخزين البيانات الهائلة لنواة الخلية الحية متناهية الصغر التى تحمل فى جوفها بلايين الرموز البيولوجية المكونة للنص الوراثى الكامل).

لا يقتصر لجوء تكنولوجيا المعلومات إلى البيولوجيا على العناصر الأساسية لبناء الكمبيوتر، بل يمتد ليشمل معمارية عتاده، والكيفية التى تعمل بها برمجياته. وليسمح لنا القراء لتوضيح المقصود هنا بأن ننعطف قليلا بحديثنا صوب الأمور الفنية. إن معمارية بناء الكمبيوتر منذ ظهوره حتى الآن قد قامت على أساس مركزية وحدة المعالجة المركزية central processing unit التى يعمل الجميع تحت سيطرتها، ومركزية الذاكرة التى يتنافس الجميع على شغل حيزها. لقد بات واضحا أن هذه المعمارية شديدة المركزية تمثل عائقا حقيقيا أمام تطوير كمبيوتر أسرع وأذكى وأكثر مرونة. من أجل التخلص من هذه المركزية، تقوم معمارية السوبركمبيوتر الفائق السرعة على «تفتيت» وحدة المعالجة المركزية لتتوزع على عدد كبير من الكمبيوترات الميكروية المتصلة ببعضها البعض، مكونة شبكة كثيفة تعد نقلة نوعية فى سبيل محاكاة بنية المخ البشرى. من الأساليب الحديثة لبناء هذا الكمبيوتر اللامركزى هو استخدام ما يعرف بتكنولوجيا «الشبكات الأعصابية الصناعية "Artificial Neural Network" التى تعد - كما يقول توم ستونير - علامة فارقة فى تطوير ذكاء الآلة، وتمثل الحد الفاصل بين نظم الكمبيوتر غير العضوية القائمة على الفيزياء، وبين النظم البيولوجية الآلية ذات الذكاء الأرقى.

ومرة أخرى، لا يقتصر استخدام الشبكات الأعصابية الاصطناعية على العتاد فقط، بل تستخدم أيضا فى تطوير برمجيات أكثر قدرة ومرونة، تختلف اختلافا جوهريا عن الطريقة التى تعمل بها البرمجيات التقليدية. تستخدم برمجيات الشبكات الأعصابية الصناعية ما يعرف بـ «البرمجة الوراثية» genetic programming. كما يوحى اسمها، تعمل هذه البرامج بأسلوب أقرب ما يكون إلى الكيفية التى تتطور بها الكائنات الحية، ويقصد بذلك قدرة هذه الكائنات على أن تتعلم، وتزداد ذكاء ومهارة ومناعة، من خلال تفاعلها المباشر مع واقع بيئتها: فالبرنامج الوراثى لا يعمل فى ظل قواعد محددة سلفا، بل يبدأ مسار تطوره - هو الآخر - من حالة أولية بدائية، ليظل يرقى تدريجيا، ويتعلم تلقائيا، من خلال تعرضه المباشر لواقع المشكلة التى يستخدم فى حلها. ومثله مثل الكائن الحى، يظل البرنامج الوراثى يتكيف ويتبلور ويتحسن ويزداد فاعلية، وذلك بتطبيق مبادئ نظرية التطور، من قبيل: الانتخاب الطبيعى وظهور الطفرات وتوارث الصفات وما شابه. إن القواعد التى يعمل فى ظلها هذا البرنامج ذو الأساس البيولوجى تتنافس مع بعضها البعض وفقا لمبدأ البقاء للأقوى: فالحالات القوية المتواترة لواقع المشكلة رهن الحل هى التى تفرض نفسها على البرنامج كى يتكيف تلبية لمطالب هذه الحالات، أما الحالات الضعيفة الشاردة فتظل تتوارى دون أن ينشغل بها البرنامج بما يكفل تركيزه على تلك المتعلقة بصلب المشكلة.

٤:٢ المدخل اللغوى للذكاء الاصطناعى

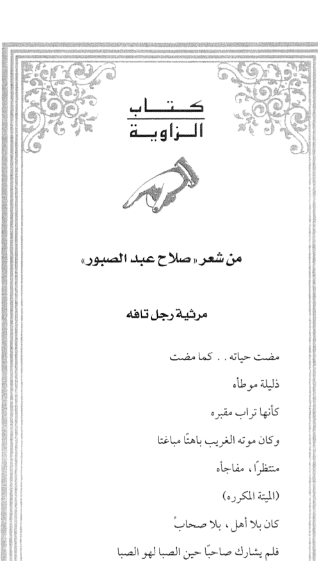
يعتمد نجاحنا فى إكساب الآلة ملكة الذكاء على مدى فهمنا لطبيعة البنى الرمزية التى تتعامل معها آليات الحوسبة الطبيعية داخل المخ البشرى. لقد رسخت فى ذهن الكثيرين مقولة «اللغة مرآة العقل» مما أدى بهم إلى اعتبار اللغة الإنسانية مدخلا أساسيا لكشف النقاب عن الكيفية التى تعمل بها أنشطة المخ البشرى: لغوية كانت أم غير لغوية. سندهم فى ذلك أن النشاط اللغوى يتميز عن غيره من الأنشطة الذهنية فى إمكان محاصرته دخلا وخرجا، فنحن ننطق المقولات ونسمعها، ونولد العبارات ونفهمها، ونكتب النصوص ونقرأها. كل ذلك يتم بصورة محسوسة يمكن رصدها بدقة من نقطة بدايتها إلى نقطة نهايتها، ولنقارن ذلك بنشاط ذهنى آخر مثل الإدراك البصرى الذى يصعب اقتفاء مساره دخلا وخرجا. من منطلق آخر، يؤكد أهل البنيوية الصلة الوثيقة بين اللغة والعقل، وذلك من خلال تحليلهم لنصوص أساطير الشعوب المختلفة. فقد اكتشفوا أن بينها قواسم عامة مشتركة تعبر حدود الثقافات والأزمنة. من أبرز هذه القواسم ثنائيات: الخير والشر - السماء والأرض - الخالق والمخلوق - الإنسان والطبيعة - السيد والتابع - الرجل والمرأة، وما شابه. نظرا إلى عموميتها تلك، يزعم البنيويون أن هذه الثنائيات لا بد وأن تكون انعكاسات لثنائيات كامنة فى ثنايا العقل البشرى. أما أهل الحتمية اللغوية فقد تمادوا فى تأكيد العلاقة الوثيقة بين العقل واللغة زاعمين أن العقل هو صنيعة لغته، وأننا نرى العالم من منظور لغتنا الأم.

تواجه حاليا مقولة «اللغة مرآة العقل» معارضة شديدة من مصادر عدة، فهى تعجز عن تفسير ذكاء الحيوان الأعجم الذى لا لغة له، ولا تقدم جوابا شافيا لسؤال أساسى، طالما طرح ومازال يطرح، وهو: كيف يكتسب الأطفال - فى الأصل - لغتهم الأم؟ إن لم تكن فى حوزة عقولهم آلية معرفية أكثر تجريدا، تجب اللغة ذاتها بحيث تمكنهم من استخلاص قواعد اللغة من خلال تعرضهم لعينة عشوائية من كلام الكبار. وماذا أيضا عما يؤكده كثير من العلماء من أنهم يفكرون بصورة تشكيلية لا لغوية؟! وكيف نفسر أنه بالرغم من صخب الكلمات وشدة تجسدها إلا أننا عادة نتذكر المعانى لا الكلمات، ونختزن مضمون العبارات لا ظاهر ألفاظها حتما، نحن لا نفكر بالعربية أو بالإنجليزية أو بأية لغة أخرى. استنادا على ما سبق، خلص البعض إلى أن هناك ما يمكن أن نطلق عليه «لغة الفكر»، وهى نظام معرفى أكثر نطاقا وتجريدا وثراء من اللغات الإنسانية بلا شك. إن كشف طبيعة لغة الفكر هذه هى التى ستمكننا من تحديد طبيعة البنى الرمزية التى تتعامل معها آليات المعالجة الذهنية، وكيف تبنى المفاهيم، وكيف تمتزج هذه المفاهيم مع بعضها البعض لكى تولد مفاهيم أكثر ثراء وتعقيدا.

ثالثا: عن التقاء آلة الفكر وفكر الآلة وافتراقهما واندماجهما

١:٣ عن التقاء آلة الفكر وفكر الآلة

تناولنا فى مواضع سابقة بعض أوجه التشابه بين المخ البشرى والكمبيوتر، وسنكتفى هنا بتناول بعض الجوانب العامة لهذا التقابل البيولوجى - الآلى. بصفة عامة، يمكن القول إن ثنائية «المخ - العقل» تناظر ثنائية العتاد hardware - البرمجيات software، ومن حيث البنية العامة - وكما أوضحنا سلفا - فالحوسبة الطبيعية، أو آليات التفكير الذهنى، تناظر وحدة المعالجة المركزية للكمبيوتر، فى حين تمثل عناصر الحواس والأطراف وحدات الدخل والخرج فى النظم الآلية. وفيما يخص الذاكرة، فكما أن للذاكرة البشرية مستويين من الذاكرة: ذاكرة المدى القصير وذاكرة المدى الطويل، فللكمبيوتر أيضا ذاكرته المتطايرة قصيرة المدى التى



من شعر «صلاح عبد الصبور»

مرثية رجل تافه

مضت حياته . . كما مضت
ذليلة موطأه
كأنها تراب مقبره
وكان موته الغريب باهتًا مباغتا
منتظرًا، مفاجأه
(الميتة المكرره)
كان بلا أهل، بلا صحابْ
فلم يشارك صاحبًا حين الصبا لهو الصبا
ليحفظ الوداد في الشباب
كان وحيدًا نازفًا كعابر السحاب
وشائعًا كما الذباب
وكنت أعرفه
أراه كلما رسا بى الصباح فى بحيرة العذاب
أجمع فى الجراب
بضع لقيمات تناثرت على شطوطها التراب
ألقى بها الصبيان للدجاج والكلاب
وكنت إن تركت لقمة أنفتُ أن ألمها
يلقطها، يمسحها فى كمه، يبوسها، يأكلها
«فى عالم كالعالم الذى نعيش فيه
تعشى عيون التافهين عن وساخة الطعام والشراب»

يستخدمها في إجراء العمليات الحسابية والمنطقية، وذاكرة المدى الطويل المتمثلة في وسائط التخزين الدائم من أقراص مغناطيسية وضوئية.

تلك بعض من مظاهر التشابه العام، إلا أن المصدر الأساسي للتشابه بين المخ والكمبيوتر يكمن في التقاء كليهما على جبهة الرقمنة digitization، فالمخ يشبه الكمبيوتر في كونه يعمل بصورة رقمية، بمعنى أن الرسائل المتبادلة عبر الجهاز العصبي ليست إشارات مستمرة تزداد وتخفت شدتها وفقا لقوة المثير أو رد الفعل المقابل. إن هذه الإشارات عبارة عن سلسلة من النبضات المتقطعة المتلاحقة، تتوقف شدة الإشارات بالتالي على عدد هذه النبضات أو معدل تدفقها. كما هو معروف، فالتعامل مع المعطيات في هيئة الأعداد، أي الأرقام، هو أساس الرقمنة. من جانب آخر، وتأكيدا للطابع الرقمي لعمل المخ البشري، نشير هنا إلى أن الخلايا العصبية تعمل هي الأخرى بصورة ثنائية، تتنقل بين حالتين لا ثالث لهما، فهي إما كامنة خامدة أو مثارة متوهجة، تماما كما هي الحال بالنسبة إلى عناصر بناء الكمبيوتر التي تعمل بصورة ثنائية متنقلة ما بين الصفر والواحد.

وعلى ما يبدو فإن الرقمنة هي المنتهى الذي تؤول إليه كثير من الظواهر: بيولوجية كانت أو معرفية. فها هم أهل الميكروبيولوجي يكتشفون أبجدية الكود الوراثي الرباعية التي هي في جوهرها زوج من التقابلات الثنائية، وقد أثبتت هندسة البرمجيات أن جميع المشاكل يمكن أن تؤول في النهاية إلى سلاسل رقمية قوامها ثنائية «الصفر والواحد» التي تمثل العنصر الذري لعمليات الرياضيات المنطقية.

٢٠٢ عن افتراق آلة الفكر عن فكر الآلة

يميل أهل التكنولوجيا إلى اختزال أعضاء الجهاز العصبي ووظائفه في هيئة الآلات، فالعين آلة تصوير والذاكرة آلة تسجيل والذهن آلة حاسبة. لقد أثبتت البحوث الحديثة خطأ مثل هذه التصورات، وأبرزت العديد من أوجه الاختلاف الأساسية بين الأعضاء البيولوجية ونظيراتها الآلية. وكما يقول كلود شانون صاحب نظرية المعلومات، إن فهم المخ الإنساني بصورة أعمق لا يتأتى من خلال البحث عن أوجه التشابه بين المخ والكمبيوتر، بل من خلال دراسة أوجه الاختلاف بينهما، والتي سنتناول بعضا منها فيما يلي باختصار:

من حيث السرعة، تعمل عمليات المخ والذاكرة بوحدة المليثانية (واحد على ألف من الثانية) في حين يعمل الكمبيوتر بوحدة النانوثانية (واحد على ألف مليون من الثانية) أي بسرعة تقارب مليون مرة سرعة المخ البشري. في ذات الوقت، لا توجد حدود لتوسيع ذاكرة الكمبيوتر على عكس الذاكرة البشرية المحدودة والتي تعمل في ظل قيود فسيولوجية وبيولوجية. من جانب آخر، تتسم عناصر الكمبيوتر بأنها تعمل بصورة ثابتة ومستقرة، في حين تخبو الذاكرة البشرية وتموت الخلايا العصبية وتضعف الحواس وتضمر القدرات الذهنية. هذه بعض الجوانب التي ربما يرى فيها البعض تفوقا للآلة على المخ البشري.



إن أهم ما يتميز به المخ البشري هو كثافة بنيته الشبكية شديدة التشعب والتي تعوض بطئه النسبي في معالجة المعلومات بكفاءته العالية في معالجة المعارف والمفاهيم التي عادة ما تتسم هي الأخرى بشدة التشعب. أضف إلى ذلك ما تتميز به الذاكرة البشرية من مرونة وديناميــة في تفاعلها مع جميع العمليات الذهنية، وهو ما يوفر طرقا مركبة لتخزين المعلومات واستدعائها من الذاكرة تفوق بكثير تلك المستخدمة في النظم الآلية لاسترجاع المعلومات. يكفي هنا أن نشير إلى أسلوب تداعي الذاكرة البشرية الذي يسمح بتشعب وانتشار عمليات البحث داخلها، وسرعة الوصول إلى ما تختزنه من معلومات ومفاهيم، وإقامة الروابط بينهما، بل وحتى «النسيان»، الذي ربما يرى فيه البعض عيبا في الذاكرة البشرية، يعد في كثير من المواقف ميزة، حيث يجعل تركيز الذهن منصبا على الأمور الأحدث والأكثر أهمية، والتي غالبا ما تظل عالقة بالذاكرة، وهو ما حدا بمهندسي الذكاء الاصطناعي أن يسعوا لإكساب نظمهم الآلية «فضيلة النسيان».

٢٠٣ عن اندماج آلة الفكر وفكر الآلة

يشهد تاريخ التطور العلمي والتكنولوجي



سيجيء اليوم الذي يمكن أن يتفوق فيه ذكاء الآلة على ذكاء الإنسان، كما فاقت قوة الآلة الميكانيكية قوة عضلاته، ودقة نظم الإنذار والمراقبة دقة حواسه ومتانة أعصابه، وفاقت قدرة الكمبيوتر التقليدي قدرة عقله





أن المهندسين كثيرا ما يقدمون العون لعلماء الأحياء ووظائف الأعضاء فى اكتشاف الكيفية التى تعمل بها الأجهزة البيولوجية والوظائف الفسيولوجية. فى المقابل، يقدم علماء البيولوجى والتشريح إلى المهندسين كثيرا من الأفكار التى تهديهم إلى تصميم آلات وآليات ونظم مبتكرة وقد تناولت الدراسة الحالية بعض مظاهر هذا الحوار الحيوى - الآلى، وكيف استعان أهل البيولوجيا باستعارة الآلات فى تفسير عمل المنظومات الحيوية. أما عن اهتداء المهندسين بالمعارف البيولوجية، فهناك العديد من التطبيقات الهندسية التى تشهد على ذلك، نذكر منها - على سبيل المثال - الاهتداء بعين الضفدع فى تصميم شاشات الرادار، وبأرجل الجراد فى تصميم الآليات التى تحط بها المركبات الفضائية على سطح الكواكب.

يمكن القول إن ذلك التبادل المعرفى يمثل الحد الأدنى للحوار «الحيوى - الآلى» الذى يتحرك حاليا صوب مزيد من التداخل، وقد أشرنا فى موضع سابق كيف يصبو أهل تكنولوجيا المعلومات إلى استخدام العناصر البيولوجية فى بناء أجيال متقدمة من الكمبيوتر. على الجانب المقابل، أصبحت أجسادنا أكثر عرضة للتدخل التكنولوجى، من أمثلته منظمات دقات القلب، وأجهزة السمع التعويضية والمفاصل والقلوب الصناعية. على صعيد آخر، يرى البعض فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات امتدادا لأجسادنا حيث تمكننا من ممارسة كثير من أنشطتنا عن بعد، من مشاركة الآخرين اجتماعاتهم وحلقات سمرهم إلى إجراء العمليات الجراحية وإصلاح الأقمار الصناعية.

إن التدخل التكنولوجى فى الجسد لم يعد بدافع العلاج، حيث تتنامى النظرة حاليا إلى الجسد بصفته كيانا قابلا للاكتمال والتحسين، بل يصل الأمر بأهل تكنولوجيا الواقع الخائلى Virtual Reality إلى حد القول بإمكان الاستغناء عن الجسد تماما ليعم الإنسان - كما يدعون - بخلود رقمى، فقد نجحت هذه التكنولوجيا الطموحة أن تقيم لنا عوالم رمزية نجوب فى أرجائها تاركين وراءنا أجسادنا، متحررين من قيود الجسد وقوانين الطبيعة وقوانين المجتمع. والحال هكذا، فلا عائق يعوقنا من أن نخترق الحوائط ونهوى من أعلى الشواهق دون أن نصاب بخدش، ونجوب عوالم مجرات الفضاء، ونرحل عبر الأزمنة الجيولوجية، ونخلط أزمنة المستقبل البعيد مع أزمنة الماضى السحيق حتى يدين لنا عنصر الزمن كما دان لنا فيما سبق عنصر المكان.

ولنترك عوالم الرمز الخائلية، نستسمح أهل الخيال العلمى أن نقتطع من عالمهم تلك المناطق التى اوشكت أن تطولها يد التكنولوجيا فيما يخص المخ البشرى، والذى يتعرض حاليا لهجمة تكنولوجية شرسة تهدف إلى تعزيزه بشرائح الكترونية -neu rochip تزيد من سعة ذاكرته وقدراته الذهنية. بل هناك من يتصور إمكان إرسال إشارات مباشرة إلى مراكز الشعور باللذة داخل المخ بحيث يمكن توليد هذا الشعور صناعيا دون حاجة إلى مثيرات حسية، أو عقاقير، وما شابه، ويزعم البعض أن هذا لم يعد حلما بل حقيقة ممكنة لا يقف أمام تحقيقها إلا الاعتراض الأخلاقى، ولكنهم واثقون أن هذا الاعتراض سيزول ما إن تكتشف الفوائد التى يمكن أن تعود على الإنسان بفضل ذلك، تماما كما أخذت تخفت حاليا بعض الأصوات المعارضة للاستنساخ البشرى. لكن المشكلة على ما يبدو ستتجاوز الجانب الأخلاقى إلى ما هو أبعد بكثير، فالتدخل التكنولوجى فى آلة الفكر الإنسانى ينطوى حتما على الكثير من القضايا شديدة التعقيد التى لا يمكن حصرها فى النطاق الأخلاقى دون غيره.

ودعنا نتساءل، فى ختام حديثنا، هل سيؤول الأمر فى النهاية إلى تقسيم العمل بين المخ البشرى والكمبيوتر الذكى، الأول يبدع ويبتكر، والثانى يعيد إنتاج ما سبق ابتكاره وإبداعه؟. أم نحن على مشارف ما أطلق عليه البعض عصر «ما بعد البيولوجيا»؟، وهل تلوح فى الأفق بوادر ظهور جنس بشرى جديد يجمع بين البيولوجى والإلكترونى المعلوماتى، جنس «الهوموإلكترونيك»، الذى ينذر البعض بأنه سيقضى على جنس «الهوموسابين» الحالى كما قضى هذا على سلفه. حقا لقد آن أوان الفزع..!!.

الهوامش

(١) كتاب « Grammatical Man » تأليف Jeremy campell: ص ٢٤١.

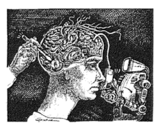
(٢) جون فون نيومان هو العالم المجرى الذى يعتبر مهندس الكمبيوتر الأول.

(٣) كما هو معروف تصنع شرائح الكمبيوتر الالكترونية من شرائح بلورات السيلكون.

(٤) كتاب «ما بعد المعلومات» تأليف توم ستونير ترجمة مصطفى إبراهيم فهمى: ص٣٧.

(٥) إنسان العصر الحديث وفقا للتصنيف البيولوجى لتطور سلالة البشر.

(٦) نفس المرجع السابق: ص ١٢٤.



كتاب الزاوية

من شعر «صلاح عبد الصبور»

من مسرحية «بعد أن يموت الملك»

الشاعر: أستودعكم يا أصحابى . .

هبوا . . هل أنتم موتى . . هل متم مثله؟

معذرة . . أنتم تدرون

كانت هى حبى المجنون

أشكركم إذ صنتم سرى المكنون

المتعقل رغم إرادته إذ يعطيه الخوف تبصره

إن أعطاه الوجد جناحه

كنت أناجيها فى نومى المتوفز

وأحن إليها حتى تنخلع الأعضاء

ما بين شهيق الرغبة وزفير العجز

أتمنى أن أمسح قدميها بالشعر كما تمسح بالزيت العطرى

أقدام القديسين

فوداعا يا أصحابى

فلقد عشنا بعض الزمن الميت جيرانا

يرعانا نفس اللحاد المجنون، ونلبس نفس

الأتربة المتجمدة، ونقتسم فطير الصدقات الملعون

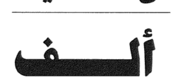
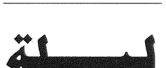
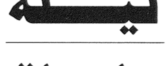
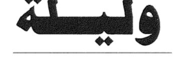
والآن . . هأنذا أمضى

هى تدعونى أن أتبعها

طفلاً لا أملك أن أعطيها

فأنا خار مذ بعت الحرية بالخبز

القاهرة في حكايات ألف ليلة وليلة

محمد عبدالرحمن يونس

مـــــــدخــــــــل:

■■ إنّ أهمّ المدن التى ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة هى المدن الحضريّة القريبة من البحار والأنهار، والمليئة بالعمران والبساتين، والحمّامات والأسواق والحانات التجاريّة. وحكايات ألف ليلة وليلة هى حكايات المدينة العربيّة الإسلاميّة فى أوج نموّها المعرفىّ والحضارىّ فى العصر الوسيط، ومثاقفتها وعلاقاتها مع المدن الأخرى، والحضارات الأخرى الهنديّة والفارسيّة والصينيّة، وإن ابتعدت هذه الحكايات عن المدن المزدهرة، فإنّها لا تبتعد عن بنية هذه المدن إلاّ لتنتقل إلى مدن أسطورية وجزر تبدو غاية فى الجمال، وكأنها الصورة النديّة لهذه المدن. يقول أحد الرواة واصفاً إحدى هذه الجزر: « فنظروا إلى تلك الجزيرة فرأوا فيها أشجاراً وأنهاراً وثماراً وبساتين، وفيها من جميع الفواكه والأنهار من تحت تلك الأشجار، وهى كأنّها الجنّة». وعموماً تبدو المدن التى يصل إليها الرّواة كأنّها جنان الأرض، من حيث التشكيل العمرانى، ونشاط الحركة التجاريّة، وجمال النساء اللاتى يصفهنّ الرّواة بالأقمار المشعّة.

غير أنّ المدن التى وصفتها حكايات ألف ليلة وليلة ليست مدناً مدينية تماماً، بل تبدو علاقاتها علاقات بدويّة، على الرغم من استهجان الراوى المدينى لعلاقات البادية، فحتى بغداد المركزيّة أو البصرة المدينة الحضريّة المهمّة فى الليالى لا تخلو تماماً من علاقات البداوة وقيمها.

لقد كان رواة ألف ليلة وليلة وَلِعين بوصف المدن الكبيرة والارتحال إليها، فى حين أنّ المدن الصغيرة لم تكن إلاّ محطّات سفر، يرتاح فيها الأبطال والتجّار، أو طرقاً إجبارية يضطرّ السرد للمرور بها للوصول إلى المدينة المركز الحلم، التى تحتضن الأبطال وتعطيهم المال والشهرة والنساء، وكل ما لذّ وطاب.

لخراسان وبغداد والبصرة الصدارة فى الليالى، وتأتى بعدها من حيث الأهميّة القاهرة ودمشق، هاتان المدينتان المهمّتان اللتان لعبتا أدواراً سياسيّة وتجاريّة مهمّة فى الدولة العربية الإسلاميّة. فدمشق كانت عاصمة للدولة العربية ـ أيام الأمويّين ـ التى بسطت هيبتها على جميع بلاد أواسط آسية (فى التركستان)، وغربىّ الهند (باكستان اليوم)، وعلى شمال القارة الأفريقية، وعلى شبه جزيرة إيبيرية (إسبانية والبرتغال)، حتى أنّ الزحف العربى اجتاز جبال البرانس إلى فرنسة، ووصل إلى مدينة تور فى الشمال الغربى من فرنسة.

أمّا القاهرة فقد « مثّلت عاصمة المدنيّة» فى ليالى ألف ليلة، إذ كانت «مصر تجذب التجار لا ليثروا من التجارة فيها ولكن ليروا مظاهر المدنيّة والخصب والثراء». إلاّ أنّ مركزيّة القاهرة فى الليالى أهمّ بكثير من دمشق، على الرّغم من أنّ دمشق فى التاريخ كانت عاصمة للخلافة الإسلاميّة، وكانت أكثر مركزية من القاهرة. ولا ندرى ما السبب الرئيس الذى جعل الرّواة يحتفون بالقاهرة أكثر من دمشق، إلاّ أنّه يمكن القول: إنّ «الإضافات الأخيرة التى أُضيفت إلى هذا الكتاب (كتاب ألف ليلة وليلة) الضخم حدثت فى مصر، والراجح أنّ ذلك كان فى أواخر عهد المماليك، ولعلها وُضعت فى القاهرة (...) وهذا الرأى يمكن استنتاجه (...) من لغة هذا الجزء (الإضافات) فهى تشبه اللغة العربية فى عصورها المتأخّرة وتقرب فى كثير من الوجوه من اللغة المصرية الدارجة» . ولأنّ هذه الإضافات حدثت فى القاهرة، فقد كان نصيب القاهرة فى هذه الحكايات أكبر من نصيب دمشق، لأنّه من الطبيعى أن يسجّل الرواة أخبار مدينتهم قبل المدن الأخرى، وعلى الرّغم من ذلك فإنّ ثمّة إشارات غير قليلة فى الليالى إلى أهمية دمشق ومركزيتها أيام الدولة الأمويّة، وهذه الإشارات تجعلها تتفوق على مدن أخرى كثيرة، ومنها: الكوفة والقدس والإسكندرية وحلب وصنعاء وفاس، وغيرها من المدن العربية والأجنبيّة الأخرى الواردة فى الليالى، والتى لا تتعدّى أن تكون محطات لاستراحات قصيرة جداً.

ويُلاحظ أنّ حكايات القاهرة لا تنتمى تحديداً إلى فضاءات القاهرة، بل إنّ الرّواة كانوا يعرفون أهمية بغداد المركز، ولذا فقد بدأوا بسرد الحكاية من القاهرة، ثم ارتحل أبطالهم مع ارتحال السرد إلى بغداد المركز. وهكذا تنتهى بعض حكايات (القاهرة) فى بغداد، كحكاية «علاء الدين أبى الشامات»، وحكاية «على الزيبق المصرى»، وحكاية «على المصرى وزواجه ببنت ملك بغداد».

وقد اعتبر الدّارسون أنّ الحكايات المصرية أضافها رواة محترفون إلى كتاب ألف ليلة وليلة، وقد عمل هؤلاء الرّواة على تضخيم حجم الكتاب بقصص عربيّة فيها الكثير من التقاليد الإسلاميّة، والأساطير الفرعونيّة والسير اليهوديّة فى آن، واعتبروا أنّ هذه الحكايات مرّت فى ثلاثة أطوار:

١ ـ الطور الفاطمى: وفيه رُوِيت حكايات متأثّرة بالطلاسم والسحر والجن.

٢ ـ الطور الأيوّبى: وفيه رويت قصص البطولة والحروب.

٣ ـ الطور المملوكى: وتسجّل حكايات هذا الطور أخبار المدن والشطّار.

ولم تسهم الإضافات الأخيرة إلى كتاب ألف ليلة وليلة، من قبل الرّواة المصريين، فى ترجيح كفّة القاهرة على بغداد، لأنّ بغداد تمثّل الكلّ الحضارىّ والمعرفىّ المزدهر للدولة الإسلاميّة، ولأنّها تتربّع على عرش المجد السياسىّ فى التوسّع والنفوذ والقوّة، يضاف إلى ذلك «أنّ القصاص المصرى إذا تحدّث عن مصر ـ وهو منها وفيها ـ تحدّث عمّا يرى، وعبّر عمّا يسمع (...) أمّا إذا تكلم عن بغداد فإنما يتأثّر بعوامل أربعة: يتأثّر بما وُضِع من الأقاصيص الجميلة فى بغداد، ويتأثّر بما ملأ الآذان وشغل الأذهان عن عظمة بغداد وأبّهة الخلافة، ويتأثّر بما ركّب الله فى طباع الناس من تقديس الماضى، وتعظيم البعيد، ويتأثّر بجهله أحداث التاريخ وتطوّر الأمم، فيأبى وهو فى القرن العاشر من الهجرة أن يعترف بموت «الرشيد» ومصرع «بغداد» ونكبة المجد الأثيل».

ومن البديهى أن نقول إنّ بغداد المركزيّة فى الليالى، والأولى فى الحضارة العربية الإسلاميّة، فى العهد العباسىّ، تتفوّق على دمشق، لا من حيث عدد الحكايات فحسب، بل من مستويات عديدة أخرى، كنموّ الأحداث وتشعبها، وحركة الأبطال، وحركة الوحدات السرديّة منها وإليها، وتشعب الملامح الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة التى امتازت بها بغداد، وتعدّد الفضاءات المكانيّة وأهميّتها فى بناء حكايات بغداد، وقدرة بغداد هذه المدينة المنفتحة حضارياً على استيعاب الأقوام والشعوب ومن جنسيّات مختلفة، وعلى التفاعل معها، واحتضانها.

وفى هذه الدراسة أحاول أن أتبيّن ملامحها، التى لا يذكرها الرّواة تحديداً، بل يستبدلونها بمدينة مصر التى هى مدينة القاهرة، لأن الرواة عندما يذكرون مدناً مصرية أخرى فإنهم يحدّدونها، كالإسكندريّة والقليوبيّة ودمياط، وأن أتبيّن ملامحها، وبعضاً من بنيتها المعرفيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والتجاريّة، منطلقاً من نصّ الليالى نفسه، ومعتمداً فى آن بعض الخلفيات المرجعية التاريخيّة التى ذكرت هذه المدينة.

الملامح الاجتماعيّة لمدينة القاهرة فى ألف ليلة وليلة

يتّفق الدارسون على أنّ كتاب ألف ليلة وليلة يتكون من طبقات متعددة، وإحدى هذه الطبقات كُتبت فى بغداد وأخرى كتبت فى مصر. والطبقة المصرية أُضيفت إلى الكتاب فى زمن متأخر. فـ «الأقاصيص الهيّنة الجيدة السبك التى تمثّل حياة الطبقة الوسطى وتقوم على مشكلة من مشكلات الحب ويكون حلّها على يد الخليفة هى من الطبقة البغدادية، وأمّا حكايات الصعاليك وحكايات الجن ـ وهذه فى الغالب ضعيفة الأسلوب ـ فهى من طبقة مصرية متأخّرة». إنّ ما يميّز حكايات ألف ليلة وليلة فى طبقتها المصرية كما يرى أحد الدارسين، وجود عنصر المغامرات فى بنية أحداثها «التى تعتمد المكر والحيلة من جانب والمنافسة السياسيّة الحادة من جانب آخر». على أن الدارس، مهما كان دقيقاً، لا يستطيع أن يصنّف خصائص معينة ودقيقة للطبقة المصرية، تميّزها عن البغدادية أو الهندية أو الفارسية، لأنّ معظم الحكايات تلتقى فى معظم بنياتها التركيبية، التى تتشابه من حيث الحيلة والمكر والقتل والدهاء والجوارى الجميلات، ورجال السلطة السفّاحين، والملوك والأمراء الذين يتطاحنون حروباً مدمّرة فى تنافساتهم السياسيّة. فالطور البغدادى يتداخل مع الطور القاهرى، ويتزامن معه، والسارد الذى يكون فى بغداد سرعان ما ينتقل إلى القاهرة، وبالعكس، كما فى حكاية «على الزيبق المصرى ودليلة المحتالة»، والذى يكون فى القاهرة سرعان ما ينتقل إلى بغداد، بوحداته السرديّة كما فى حكاية «علاء الدين أبى الشامات» ، وقد «كان القصاص المصرى يعتمد على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعة والمنقولة، والرّوايات القديمة الصحيحة والمدخولة، ثم يضيف إلى ذلك ما تُنوقل فى مصر وما تجمّع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدوّنون ما رأوا من الأعاجيب».

ويمكن بشىء من التقريب القول: إنّ الطريقة التى يمكنها أن تلقى الضوء لمعرفة الطور القاهرى، ولو بشكل نسبى، هى متابعة السارد وهو يحدد الأماكن الواقعية التى يصل إليها الأبطال، أو يسمّى بعض أحيائها، أو يحدد أسماء حكّامها الحقيقيين فى الأزمنة التى حكموا فيها، وسيساعدنا أيضاً، فى تحديد هذه الحكايات لغة الحكاية التى تنهل فى تركيبتها من لهجة المدينة، لأنّ هذه اللهجة من شأنها «أن تقودنا إلى أصل النص»، فالحكايات التى تذكر المدن المصرية تحتفظ بلهجة عاميّة، لا تزال معروفة فى مصر حتى الآن. على أنّ ذكر الشخصية المقرونة بمكان معين، أو بزمان يدور الأبطال فى فضائه التاريخىّ، ليس دليلاً كافياً لمعرفة أصل الحكاية، أو الطبقة التى تنتمى إليها، فعلى سبيل المثال نجد أن الحكاية التى« تُقال عن الرشيد قد تكون أُلفت بعده بقرون، أو حتى أُلفت قبله بقرون وأُضيف إليها اسمه إضافة مفتعلة عندما أراد القاصّ أن ينزّل هذه القصّة القديمة إلى جوّ المسلمين فسمّى الملك القديم هارون الرشيد، ولم يجد من سامعيه تحرّجاً ولم يقدّر أنّ قوماً سيتساءلون ويخضعون قصصه، الذى ألّفه ليؤدّى غرضاً آخر، لقوانين العقل والواقع والحق».

وفى دراستى لملامح القاهرة فى حكايات ألف ليلة وليلة التى وصفتها، سأعتمد بالدرجة الأولى، فى تحديد حكايات الطبقة المصرية، المسمّيات المكانية للمدن المصرية وأحيائها، من دون أن أجدنى مضّطراً للخوض فى الآراء الكثيرة المتشعّبة والمتضاربة التى تؤكّد أو تنفى أو ترجّح أنّ هذه الحكاية أو تلك قاهرية أو بغدادية، أو هندية أو فارسية، لأنّ دراستى ستنطلق من الفضاء المكانى، وأهمّ ملامحه، وعلاقات شخوصه، ودور هؤلاء



الشخوص فى تحديد سمات المكان وهم يصفونه، أو يتعايشون معه. وفى البداية تجدر الإشارة إلى أنّ الرّواة لا يذكرون القاهرة فى جميع الحكايات إلاّ مرّتين، وهم يستعيضون عنها باسم مصر، أو مصر القديمة، وهم يعنون بها القاهرة، لأنهم عندما يذكرون مصر فإنّهم يذكرون أحياء حقيقية لا تزال معروفة حتى الآن بالأسماء نفسها فى القاهرة المعاصرة، ومن هذه الأحياء: القليوبيّة، وخان مسرور، وباب زويلة، والحبّانيّة، وبين القصرين، وحى البندقانيّين، وحارة اليمانيّة والجوديّة، وميدان الفيل، وباب النصر، وحى العادليّة.

أمّا حكايات القاهرة فى الليالى فهى: حكاية «الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين»، وهى داخلة ضمن حكاية «هارون الرشيد مع الصياد»، وتجرى حوادثها فى مصر والبصرة. وحكاية «النصرانى لملك الصين»، وهى ضمن حكاية «الأحدب وملك الصين»، وحكاية «علاء الدين أبى الشامات»، وهى مصرية وبغدادية فى آن، وحكاية «وردان الجزّار»، وهى فى زمن الحاكم بأمر الله، وحكاية «الملك الناصر والولاة الثلاثة»، وحكاية «علاء الدين والى قوص مع أحد اللصوص»، وحكاية «الرجل البغدادى الذى سافر إلى مصر لأجل ما رآه فى الحلم»، وفيها يرتحل السرد من بغداد إلى القاهرة، ثم يعود إلى بغداد، وحكاية «الحاكم بأمر الله مع الرجل الكريم»، وحكاية «على المصرى وزواجه ببنت ملك بغداد»، وكما يظهر من عنوان الحكاية، فإنّ الشخصية المصرية فيها ترتحل من القاهرة لتستقرّ ببغداد، وحكاية «جودر ابن التاجر عمر وأخويه»، وحكاية «على الزيبق المصرى ودليلة المحتالة»، وحوادثها فى القاهرة وبغداد. وحكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال»، وهى داخلة ضمن حكاية «التاجر حسن مع الملك محمد بن سبائك»، وحكاية «معروف الإسكافى وزوجته فاطمة العرّة»، وحكاية «الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدى».



إذا كانت بغداد فى ألف ليلة وليلة قد نالت حظوة كبيرة عند الرّواة، باعتبارها مدينة مركزيّة للسياسة والسطوة والعلم والمعرفة والترف والرفاهية، فإنّ حظّ القاهرة بالرّغم من حكاياتها الكثيرة أقلّ من حظّ بغداد، إذ يصورّها الرّواة على أنّها مدينة «للاحتيال والشطارة والشعوذة والجهل»، ويمكن القول إنها تحتلّ المرتبة الثالثة بين فضاءات المدن العربية فى ألف ليلة وليلة، بعد بغداد والبصرة، لكنّ هذه المدينة بالرّغم من أنها فضاء للاحتيال بامتياز، فإنّ عليها قسمات وملامح جماليّة غير قليلة، فهى قريبة إلى القلب وعزيزة على النفس، وفضاء لمتعة العين والقلب: «فليس على وجه الأرض أحسن منها». ومن ملامحها: أنّ الحياة فيها طيّبة، وأنها تجمع كل ما تطمح إليه ملذات النفس البشريّة، التقيّة والمارقة، وسكانها محلّ صدق، كما يذكر أحد الشعراء:

أأرحل من مصر وطيب نعيمها
وأى مكان بعدها لى شائق؟
بلاد تشوق العين والقلب بهجة
وتجمع ما يهوى تقى ومارق
وإخوان صدق يجمع الفضل شملهم
مجالسهم مما حووه حدائق
أسكان مصر إن قضى الله بالنوى
فثمّ عهود بيننا ومواثق

ومن صفاتها، أنها «مدينة مصر المحروسة» و«مدينة مصر السعيدة»، والمدينة التى يقصدها الراوى هنا، هى القاهرة تحديداً.

والقاهرة فى بعض حكايات ألف ليلة وليلة مدينة تجاريّة مزدهرة، وتجّارها أثرياء مترفون حتى التخمة: «كان بمدينة مصر رجل تاجر، وكان عنده شيء كثير من مال ونقود وجواهر ومعادن وأملاك لا تُحصى». لكنّ الرّاوى العاشق لبغداد ذات الشهرة التجاريّة التى لا تُضاهى، لا يستطيع أن يتخلّص من سحرها وجاذبيتها، وهو يصف ثراء التّجار فى القاهرة، بل يؤكّد أنهم يعودون بجذورهم إلى أصول بغدادية. فالتاجر المصرى الغنى صاحب الأموال التى لا تحصى «كان اسمه حسناً الجوهرى البغدادى».

ومن مظاهر ثراء التّجار فى مصر وأبّهتهم، ما نقرؤه عن شمس الدين والد علاء الدين أبى الشامات، فهو «صاحب خدم وحشم وعبيد وجوار ومماليك ومال كثير». وما يُلاحظ على أولاد هؤلاء التّجار أنّ فضاء القاهرة بكلّ شساعته وجمال نسائه لا يغريهم بدوام العيش فيه، فابن التاجر حسن البغدادى، المدعو بـ«على المصرى»، وعلاء الدين أبو الشامات ابن التاجر شمس الدين، يرفضان العيش فى القاهرة بالرغم من ثرائها الأسطورى، ويرتحلان إلى بغداد المركز ليستقرّا هناك بقيّة حياتهما. وهذا الارتحال عائد إلى أضواء الشهرة والثراء التى عاشتها بغداد المركزيّة.

ويقدّم الرّاوى تجّار مصر فى صورة مليئة بالكرم، وبخاصة فى علاقاتهم المتميّزة مع رجال السلطة. فها هو أحد تجّار مصر الأثرياء الذى يملك مائة جارية، يكرم الخليفة الحاكم بأمر الله وجنوده، عندما ينزلون فى بستانه، ويطعمهم جميعاً مما أرسلته إليه جواريه المائة من طعام، إذ أخرج الرجل: «مائة بساط ومائة نطع ومائة وسادة ومائة طبق من الفاكهة، ومائة جام ملآن حلوى ومائة زبديّة ملأى بالشرابات السكريّة»، ثم قدّمها للخليفة وحرّاسه. ويقول الرّاوى: إنّ الخليفة الحاكم بأمر الله سجد «شكراً لله تعالى وقال: الحمد لله الذى جعل فى رعايانا من وسّع الله عليه حتى يطعم الخليفة وعسكره من غير استعداد لهم، من فاضل طعامه».



وصعايدة مصر هم الآخرون كرماء فى ألف ليلة وليلة، ويذكر الرّاوى أن متولّى القاهرة الأمير شجاع الدين محمد نزل وأعوانه عند رجل من أهل الصعيد، وباتوا عنده، فاكرمهم خير إكرام، وقدّم لهم كل ما يليق بهم.

إنّ صورة رجال مصر الكرماء فى الليالى لها خلفيّة تاريخيّة واقعية تسجّلها بعض المصادر التاريخيّة والاجتماعيّة، إذ يذكر ابن خلدون أنّ أهل مصر «أكثر صدقة وإيثاراً من جميع أهل الأمصار». ويتعاطف الرّاوى مع رجال مصر، وبطبيعة الحال يفضّلهم على رجال الإفرنج، انطلاقاً من أيديولوجيته الإسلاميّة، ويدفع نساء رجال الإفرنج إلى ترك أزواجهنّ محبّة برجال مصر، ففى حكاية «الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدى»، يتزوّج أحد رجال الصعيد امرأة إفرنجية جميلة، من سبايا نساء الإفرنج - أيام الحروب الصليبية - وعندما تُعقد الهدنة بين المسلمين والإفرنج لتبادل سبايا الطرفين وفقاً لمعاهدات وقف الحرب، يُحضرون المرأة الإفرنجية، ويسألها رسول ملك الإفرنج، بحضور الملك الناصر وزوجها الصعيدى: «أتروحين إلى بلادك أم إلى زوجك فقد فكّ الله أسرك أنت وغيرك. فقالت للسلطان: أنا قد أسلمت وتزوّجت وحملت كما ترون وما بقيت الإفرنج تنتفع بى، فقال الرسول: أيّما أحبّ إليك أهذا المسلم أو زوجك الفارس فلان؟ فقالت كما قالت للسلطان».

أمّا الصورة النقيضة لصورة ثراء التجار الفاحش فى القاهرة، فهى صورة المهمّشين اقتصادياً ومالياً، فمقابل الثراء الفاحش هناك الفقر المدقع، فأرباب المهن الدونيّة يتضوّرون جوعاً، مقارنة بالتجار الأثرياء، ولعلّ صورة معروف الإسكافى تجسّد حال هؤلاء المهمّشين، فقد «قعد فى الدكان إلى نصف النهار، فلم يأته شغل ولم يكن معه من حقّ الخبز شيء ثم إنه مرّ على دكان الكنافى ووقف باهتاً واغرورقت عيناه بالدموع».

إنّ دراسة نصوص الليالى المتباعدة فى الزمان والمكان، والعادات والطباع والأخلاق، من شأنها أن تجعل الباحث لا يركن إلى نتائج دقيقة وثابتة أو متشابهة، لأنّ رواة الليالى المتعددين متناقضون فى رؤيتهم للحياة بعلاقاتها وقيمها، وكذلك نجد أنّ المدن والشخوص التى يصفونها، هى الأخرى مليئة بالتناقض أيضاً. وربما قد تكون ثمّة قواسم مشتركة بين الحكايات من حيث الأحداث والغايات، من جهة، وبين ملامح الشخوص ورؤيتها من جهة أخرى، لكنّ هذه القواسم تظلّ قابلة لشروخ وثغرات عديدة. ومن هذه الثغرات يبرز المتغاير، فإذا كان أحد الرّواة قد وقف مع الأمراء والأميرات، والأبطال التجار المغامرين، وحقّق لهم كل ما يطمحون إليه، فإنّ راوياً آخر وقف مع إسكافى فقير (معروف الإسكافى)، ونقله من حيّه الفقير بمصر، إلى مدينة (اختيان الختن)، وأكرمه وسخّر له خاتم «شبيك لبيك أنا بين يديك»، ثم جعله ملكاً على مدينة (اختيان الختن). وإذا كان راوٍ آخر قد رأى أنّ المرأة شرّ مطلق، فهى الزانية فى طبعها، والماكرة فى حياتها، فإنّ راوياً آخر قد رآها مليئة بالنبل والكرم والطهارة.



وإذا كان أحد رواة ألف ليلة وليلة يذكر أنه «كان فى مصر سلطان عدل وإحسان»، فإنّ راوياً آخر، انطلاقاً من فكرة الثنائيات الضدّية التى يركّز عليها معظم رواة ألف ليلة وليلة، يذكر أنه كان فى مصر ملك يسمى شمس الدولة، يعذّب الناس ظلماً، ويغتصب ممتلكاتهم قهراً، إذ أرسل هذا الملك «إلى أخوى جودر وجاء بهما ورماهما تحت العذاب، (...) وأخذ الخرجين منهما ووضعهما فى السجن». وإذا كان ظلم الحكام مستشرياً فى مصر، شأنها شأن كل مدن ألف ليلة وليلة وبلدانها، فإنّ هذا لا يمنع من أن تكون هناك شريحة تنتمى إلى السلطة، وتتحلّى بالكرم والنبل، ويؤلمها ما يعانى منه المظلومون والبؤساء فى مصر، وهذا ما نلمسه فى حكاية: «معروف الإسكافى وزوجته فاطمة العرّة». إذ إنّ القاضى فطن إلى مكر زوجة معروف الإسكافى، فأنصفه منها، وتصدّق عليه: «وكان ذلك القاضى من أهل الخير، فأخرج له ربع دينار». ولا يعنى إذا كان هذا القاضى عادلاً، أنّ أعوانه عادلون، بل هم ظلمة، مثلهم مثل طبقة الحاشية التى تحيط بالرجل السلطوى الكبير فى الليالى، سواء أكان خليفة أم سلطاناً، أم قاضياً أم وزيراً، إذ يذكر الراوى فى الحكاية السابقة أن رسل القاضى، بعد أن أفرج هذا عن معروف الإسكافى، ذهبوا ليأخذوا منه إتاوة غصباً، على الرغم من أنه برىء ومظلوم: «وإذا بالرسل أتوا إليه وقالوا له: هات خدمتنا؟ فقال لهم: إنّ القاضى لم يأخذ منى شيئاً بل أعطانى ربع دينار. فقالوا: لا علاقة لنا بكون القاضى أعطاك أو أخذ منك. فإن لم تعطنا خدمتنا أخذناها قهراً عنك».

ومن الملامح الاجتماعيّة فى قاهرة ألف ليلة وليلة: ملمح المرأة الشريرة، وربما يكون هذا الملمح أهم ملمح لنساء ألف ليلة وليلة بعامة، ولنساء القاهرة بخاصة، «وشيء طبيعى أن يكثر الشرّ الصادر عن المرأة فى الليالى هذه الكثرة، وتعجّ به الصفحات فقد قامت هذه الحكايات على أساس من خيانة زوجة لزوجها، وتسببت فى تعقيده وسفكه للدماء». وتمثّل فاطمة العرّة، فى حكاية «معروف الإسكافى»، المرأة فى أبشع صورها الشريرة والمحتالة. فقد كانت، كما يقول الرّاوى: «فاجرة شرّانيّة قليلة الحياء كثيرة الفتن، وكانت حاكمة على زوجها، وفى كل يوم تسبّه وتلعنه ألف مرة».

ومن صور هذه المرأة الشريرة، شراهتها فى

طلب الطعام، وإصرارها على أن يجلب لها زوجها كنافة خاصة بعسل النحل، وعندما لم يجد فى المدينة إلاّ كنافة بعسل القصب اضطرّ أن يحضرها، وعند ذلك انفجرت زوجته شراً وسفهاً: «وغضبت عليه وضربته بها فى وجهه وقالت له: قم يا مغفّل هات لى غيرها. ولكمته فى صدغه، فخلعت سناً من أسنانه ونزل الدم على صدره (...) وقبضت على لحيته». ولم تكتف هذه المرأة بذلك بل حاكت له مكيدة كادت تودى به، لأنه لم يستطع أن يشبع رغباتها المسعورة فى الحصول على الحلوى الفاخرة غالية الثمن. إذ إنها ربطت رباطاً على ذراعها ولوّثت ثيابها بالدم، وذهبت باكية إلى القاضى مدّعية أن زوجها معروف الإسكافى ضربها، وكسر ذراعها وقلع سنّها. وعندما يصلحهما القاضى تذهب إلى قاضٍ آخر وتشكو زوجها، مدّعية أنّه ضربها للمرّة الثانية. فيصلحهما القاضى، وعندما يعجز الزوج عن شراء الحلوى تصمّم على الانتقام منه وإذلاله، فتذهب إلى الباب العالى لتشكو زوجها للمرة الثالثة. فما كان من هذا الزوج المخذول إلاّ أن ترك القاهرة هارباً منها إلى مدينة أسطورية بعيدة اسمها «اختيان الختن».



وتمعن بعض نساء القاهرة، فى ألف ليلة وليلة، فى التهتك والشذوذ الجنسىّ، الذى يصل إلى حدّ ممارسة الجنس مع الحيوانات، فها هى المرأة فى حكاية « وردان الجزّار » - لا يذكر الراوى اسماً لها - تلوذ بجسد دبّ ضخم فى دهليز بعيد عن القاهرة، وتشترى كل يوم خروفاً من وردان الجزّار، وتطعمه لهذا الدبّ. يصف الرّاوى حالتها مع هذا الدبّ: «فلما فرغت (من إطعامه) أكلت كفايتها، ووضعت الفاكهة والنقل وحطّت النبيذ وصارت تشرب بقدح وتسقى الدبّ بطاسة من ذهب، حتى حصلت لها نشوة السكر، فنزعت لباسها ونامت، فقام الدبّ وواقعها وهى تعاطيه من أحسن ما يكون لبنى آدم، حتى فرغ وجلس، ثم وثب إليها وواقعها. ولما فرغ جلس واستراح. ولم يزل كذلك حتى فعل فيها عشر مرات ثم وقع كل منهما مغشياً عليه، وصارا لا يتحركان ».

قد يبدو الفعل الجنسىّ هنا أسطورياً فى عدد مرّاته، وفى الفضاء الواقع فيه (فضاء الدهليز)، لكنه ليس مستحيلاً، من حيث كونه تعبيراً عن إحدى حالات الشذوذ التى لم تسلم منها أية مدينة من المدن العربية الإسلاميّة، إذ شهدت العلاقات الجنسيّة انحرافاً، و «زحف الشذوذ الجنسىّ على المجتمعات العربية»، وعلى الرغم من محاربة الفقهاء والمتشدّدين، للشذوذ الجنسىّ فى المدينة الإسلاميّة، إلاّ أنّه «استمرّ رغم كل المراقبة والتحذيرات».

ويبدو أنّ مدينة القاهرة فى أزمنة الليالى كانت أكثر المدن فضاءً للحريّات والعلاقات الجنسيّة، ويبدو أنّ سلطاتها فى تلك الأزمنة كانت غير صارمة فى تطبيق الحدود على العلاقات الجنسيّة، أو هى غير قادرة على تطبيقها، نظراً للكمّ الكثير من الأجناس البشرية التى وفدت إلى القاهرة. وهنا تتشابه القاهرة مع بغداد إلى حدّ بعيد من حيث الجنسيّات المتعددة التى دخلتها عبر التاريخ.

ويُلاحظ أن الشخوص إذا ما تعرّضت فى بعض مدن ألف ليلة وليلة إلى الكبت والحرمان الجنسىّ، فإنها تهرب من مدنها إلى فضاء مصر لتحقيق لذّاتها الجنسيّة، كما فى حكاية «داء غلبة الشهوة عند النساء ودواؤها» ، إذ تَوْلَع إحدى الشابات الأميرات بنكاح قرد، وعندما يكتشف والدها السلطان أمرها، يقرّر أن يقتلها خوف الفضيحة، فتهرب مع قردها إلى فضاء مصر الآمن لتحقيق الفعل الجنسىّ الشاذ معه: «فتزيّت بزىّ المماليك وركبت فرساً وأخذت لها بغلاً حمّلته من الذهب والمعادن والقماش ما لا يوصف، وحملت القرد معها وسارت حتى وصلت به مصر، فنزلت فى بعض بيوت الصحراء». ولا يقصد الراوى بالصحراء تلك البعيدة عن مصر، بل يقصد الفضاء المحيط بمدينة القاهرة، والبعيد نسبياً عن الازدحام، لأنّ هذه الأميرة كانت تشترى كل يوم «لحماً من شاب جزّار». هذا إذا عرفنا أنّ المرافق التجاريّة فى تلك الأيام لم تكن موجودة فى الصحراء، باستثناء بعض الخانات التى شكّلت محطّات استراحة على الطرق الصحراوية، التى تربط بين المدن.

ونساء القاهرة متحررات وجريئات، إذ يخرجن إلى الأسواق ويلتقين بالرجال، ويبدو هذا طبيعياً فى مدينة تغصّ أسواقها بالازدحام، ويلتقى فيها الرجال بالنساء، من دون كبير عناء، فـ«تزاحم البشر فى القاهرة «عبر تاريخها الطويل» يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلاً».. ويبدو أنّ مظاهر الترف التى عرفتها بعض أسر القاهرة الأرستقراطية، دفعت هاته النسوة للتحرّر، والاحتكاك بالرجال، والخروج من فضاءات المنازل إلى فضاءات المتاجر والأسواق المزدحمة بالمارين من الجنسيّات المتعددة.

وتشير حكاية «النصرانى لملك الصين» الداخلة ضمن حكاية «الأحدب وملك الصين» إلى أنّ إحدى نساء القاهرة الجميلات المتحرّرات التقت بتاجر بغدادى شاب فى سوق « قيصرية جرجس» بالقاهرة. وسرعان ما أعلنت له حبّها، وواعدته على اللقاء بمنزلها، الملىء جمالاً وأبّهة، بحى الحبّانيّة. يصف الراوى لقاءهما بمنزل المرأة: «لم أشعر إلاّ والصبية أقبلت وعليها تاج مكلّل بالدرّ والجوهر. فلما رأتنى تبسّمت وحضنتنى ووضعتنى على صدرها، وجعلت فمها على فمى وجعلت تمصّ لسانى وأنا كذلك (...) وتمكن حبّها عندى وهان علىّ جميع المال. ثم أخذنا نلعب ونتهارش مع العناق والتقبيل إلى أن أتى الليل».



ويسجّل التاريخ بعضاً من ملامح نساء مصر المتحرّرات واللواتى يخرجن إلى الأسواق بحرّية، من دون أن يثير خروجهن حفيظة مجتمعهن وأزواجهن وإخوتهن وآبائهن. وعلى ما يبدو كان هذا الخروج الحرّ مثيراً ومغرياً للطامعين والمغامرين بغزو البلدان واغتصابها، ودافعاً لغزو مصر، إضافة إلى ذلك حالة الترف والبطر التى عاشتها مصر، والتى كانت هى الأخرى مغرية للاندماج فيها، ولحصاد نعيمها. ويروى تقى الدين أحمد بن على المقريزى الخبر الآتى: «أرسل أحد المغاربة جارية إلى مصر لتباع بألف دينار. فأتت سيدة وساومت على شرائها بعد أن فحصتها ثم اشترتها بستمائة دينار. وكانت السيدة ابنة الأخشيد محمد بن طغج ملك مصر حينذاك. وعندما عاد التاجر إلى وطنه روى الحكاية للمعزّ». فما كان من المعزّ لدين الله الفاطمى، إلاّ أن أغرته هذه الحكاية، فاستدعى الشيوخ، وطلب من التاجر أن يحكى لهم الحكاية، وعندها قرّر أن يغزو مصر قائلاً: «يا إخواننا انهضوا إلى مصر، فلن يحول بينكم وبينهم شىء فإنّ القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها وما هذا إلاّ من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم فانهضوا لمسيرنا إليهم».. فأجاب الشيوخ: «سمعاً وطاعة»».

وإذا أخذنا بصحّة هذا الخبر، فإنّه يمكن اعتبار أنّ أيديولوجيا غزو مصر من قبل المعزّ لدين الله كانت تستتر خلف نوايا عدوانية مبيّتة، تطمح لتحقيق مكاسب خاصة، يحققها احتلال مصر، هذا البلد الذى يعنى بالنسبة للمعزّ الرفاهية وملذّات العيش، وفضاء حرّاً تحقق النفس فيه ما تصبو إليه من ثراء وامتلاك وملذّات لا يستطيع فضاء القيروان أن يحققها للمعزّ وقادته وأركان دولته. وإذا كانت جيوش المعزّ لدين الله زحفت من القيروان إلى مصر واستطاعت أن تحتلها، فإنّ هذا الاحتلال لم يكن ناتجاً عن ضعف نفوس رجال مصر، ولم يكن ناتجاً عن الحريات الاجتماعيّة العامة التى أعطت المرأة نوعاً من الاستقلالية فى تصرفاتها، بعيداً عن سلطة الرجال وجبروتهم، بل لأن سياسة الغزو كانت مهيّأة نفسياً لأن ترى فى مصر فضاء جميلاً، تتحقّق فيه أحلام الغزاة الجامحة صوب الرفاهية وامتلاك الأموال والابتناء بالجوارى، إضافة إلى ذلك الاستعدادات الحربية لجيش غازٍ ضخم «بلغ تعداده مائة ألف مقاتل مجهّزين بخير عتاد وبصحبتهم ألف جمل وعدد لا يُحصى من الخيول التى حُمّلت بالفضّة والمؤن والذخائر».

وإذا كانت مصر فى بعض حكايات الليالى فضاء حرّاً تتحقق فيه حرية الفعل الجنسىّ، باعتباره فضاءً مفتوحاً على الموبقات والمعاصى - وهى فى هذا تشبه بغداد إلى حد بعيد، بل هى تفوقها - فإنه من الطبيعى أن يكون من بين هذه المعاصى شرب الخمرة. ففى حكاية « الملك الناصر وولاته الثلاثة»، يعترف والى القاهرة للملك الناصر بأن رجلين من رجال سلطته القضائية كانا ولعين بالخمرة، وما استطاع أن يضبطهما متلبّسين بالجرم، عندها احتال عليهما، وعندما ضبطهما عفا عنهما مقابل تقديمهما له رشوة مالية، على أنّ والى القاهرة لم يكن معنياً فى الحكاية بمنع الناس من شرب الخمرة، لأنه كان هناك دكاكين « للخمارين»، كما تذكر الحكاية، بل كان همّه أن يضبط هذين الرجلين من رجال سلطته، حتى ينتقم منهما، من دون الآخرين، ويقدّمهما إلى القضاء.



وفى حكاية «النصرانى لملك الصين» يرتحل بطل الحكاية، وهو شاب بغدادى، - لا يذكر الراوى اسماً لهذا الشاب - إلى القاهرة، وينزل فى أحد الخانات بحى « بين القصرين »، ويبيع تجارته، ويمعن فى ملذّات الطعام والشراب: « واقمت أياماً كل يوم أفطر على قدح الشراب وأُحْضر اللحم الضانى والحلويات». وعندما يتعرّف إلى إحدى السيدات القاهريات الثريات، فإنها تدعوه إلى منزلها، وهناك يغيبان فى حمّى الشراب والجنس كل ليلة: « فقدّمت لنا الجوارى الطعام والمدام فإذا هى حضرة كاملة فشربنا إلى نصف الليل ثم اضطجعنا، ونمنا فنمت معها إلى الصباح، فما رأيت عمرى مثل هذه الليلة».

ونظراً لثراء القوم وبطرهم فى القاهرة، وميلهم إلى اللذائذ والمتع، فإنّ حفلات شرابهم تكون عامرة بالطعام الفاخر. ويصف الرّاوى العشاء الذى أعدّه الشاب التاجر البغدادى، وأرسله إلى عشيقته القاهرية: « وجهّزت العشاء، فعملت جوزاً ولوزاً وتحتها أرز مفلفل، (...) وأخذت فاكهة ونقلاً ومشمشاً وأرسلتها».

وإذا كانت عشيقة هذا الشاب (القاهرية) فى إحدى صفاتها مخلّة بالعرف الاجتماعىّ باعتبارها هى الباحثة عن الرجال، الطالبة لهم، والفاعلة فى علاقاتها الجنسيّة، لأنها هى التى تطلب من الشاب تحقيقها، وهى التى تبتزّه، لأنها تقبض منه بعد كل لقاء جسدى «خمسين ديناراً»، فإنها، وعندما يفتقر هذا الشاب ويصرف كل أمواله عليها، تبدى نبلاً عميقاً وأخلاقاً كريمة، إذ تعيد له كل أمواله، وتملّكه كل أموالها، وتتزوّجه حلالاً. يقول الشاب: «وأرسلت إلى الشهود فحضروا فقالت لهم اكتبوا كتابى على هذا الشاب واشهدوا أنى قبضت المهر، فكتبوا كتابى عليها ثم قالت: اشهدوا أنّ جميع مالى الذى فى هذا الصندوق وجميع ما عندى من المماليك والجوارى لهذا الشاب فشهدوا عليها، وقبلت أنا التمليك وانصرفوا بعدما أخذوا الأجرة، ثم أخذتنى من يدى وأوقفتنى على خزانة وفتحت صندوقاً كبيراً،

لخراسان وبغداد والبصرة الصدارة فى الليالى، وتأتى بعدها من حيث الأهمية القاهرة ودمشق، هاتان المدينتان المهمتان اللتان لعبتا أدواراً سياسيّة وتجارية مهمة فى الدولة العربية الإسلامية



وقالت لي انظر هذا الذي في الصندوق، فنظرت فإذا هو ملآن مناديل، فقالت هذا مالك الذي أخذته منك (...) فخذ مالك فقد ردّه الله عليك».

إنّ هذا الملمح النبيل لصورة الأنثى في الليالي لا يتكرّر كثيراً، لأنّ الغالبية العظمى من نساء الليالي محتالات وداعرات، ومبتزّات لأموال الرجال، وهذا ما تثبته البنية الفكرية والأيديولوجية لمجمل الرّواة الذين أضفوا على نساء الليالي مزيداً من الدونية والمكر والخداع ونقص العقل.

ومن وجوه القاهرة في ألف ليلة وليلة: وجه الاحتيال واللصوصية، وهو الوجه الأبرز لهذه المدينة، فهناك المرأة المحتالة، وهناك الرجل المحتال، سواء أكان لصّاً أم فقيراً صعلوكاً، أم ملكاً كبيراً.

ومن لصوص القاهرة المحتالين، ما ذكره الراوي في حكاية «الملك الناصر وولاته الثلاثة»، فبينما كان والي بولاق يوماً من الأيام جالساً في داره مهموماً، من جرّاء دَين أصابه: «ثلاثمائة ألف دينار»، وإذا بمجموعة من اللصوص يطرقون بابه، ويقولون له: «إننا لصوص وغنمنا في هذه الليلة غنيمة عظيمة وجعلناها برسمك لتستعين بها على هذه القضية التي أنت مهموم بسببها وتسدّ بها الدّين الذي عليك». فما كان من الوالي إلاّ أنْ قدّر الموقف الذي عدّه كريماً من هؤلاء اللصوص، وأعطاهم المائة ألف دينار، التي كان قد ادّخرها لرد دينه، كما يذكر الراوي، معتبراً أنّ هذا المبلغ جزءاً من ثمن هذه الغنيمة التي ظنّ أنها كافية لردّ كل ديونه، إلاّ أنّ اللصوص لم يكونوا أصحاب مروءة، فهم مجرّد لصوص محترفين، ومحتالين مهرة. وتنطلي الحيلة على والي بولاق، ويفاجئنا راوي الحكاية بمكوّنات هذه الغنيمة، على لسان الوالي نفسه: «فلما أصبح الصباح رأيت ما في الصندوق نحاساً مطلياً بالذهب والقصدير يساوي كله خمسمائة درهم. فعظم عليّ ذلك وضاعت الدنانير التي كانت معي، وازددت غمّاً على غمّي».

ويبقى سرد الراوي لهذه الحكاية ليس بريئاً، و«ليست هناك حكايات بريئة» في ألف ليلة وليلة، فهذا الراوي يُدين بشكل غير مباشر سلوك والي بولاق المتعاطف مع الظلمة في مدينته من جهة، يشير من جهة أخرى إلى الجهل الذي تغرق فيه السلطة، فبدلاً من أن يقبض الوالي على هؤلاء اللصوص، ويردّ ما سرقوه إلى أصحابه، ويكشف ما في الصندوق قبل ذهابهم، فإنه يعطيهم مائة الألف دينار، ويتركهم يمضون «تحت الليل إلى حال سبيلهم، ولم يعلم بهم أحد».

وقد كان فقراء القاهرة في الليالي قادرين أيضاً، على حبك الحيلة في أعلى تقنياتها. فها هو معروف الإسكافي، بعد أن يهرب من القاهرة ويلجأ إلى «اختيان الختن»، يمارس الاحتيال ويدّعي أنه تاجر ثري كبير، وأنّ حملته التجاريّة الكبيرة ستصل بعد أيام إلى المدينة، ويصدّقه الناس، ويقرضونه «ستين ألف دينار»، ويوهم الناس بأنّ أمواله الكثيرة جداً القادمة مع الحملة قادرة على تبديد فقر المدينة، فيقوم بتوزيع المبلغ الذي اقترضه على فقراء المدينة، ومن ثمّ لتكون هذه الحيلة طريقاً إلى كسب ودّ الملك، فما كان من الملك إلاّ أن قرّبه، ورغب في تزويجه ابنته الجميلة. ووفق النسق السحريّ الذي يحكم بنية السرد والفضاءات المكانية، التي يرتحل إليها السرد، يضفي الراوي على سلوك معروف الإسكافي هالة من الثراء الأسطوري، فيبدأ بتشكيل حالات من التخيّل الكاذبة، تقوم بدورها في حبك حيلة جديدة على الملك وابنته، إذ يدّعي أنه سيقدّم لابنة الملك مهراً يليق بمكانتها السياسيّة والاجتماعيّة. يقول معروف الإسكافي: «لابدّ أن أدفع صداقها خمسة آلاف كيس، وأحتاج إلى ألف كيس أفرّقها على الفقراء والمساكين ليلة الدخلة، وألف كيس أعطيها للذين يمشون في الزّفة، وألف كيس أعمل بها الأطعمة للعساكر وغيرهم؟ وأحتاج إلى مائة جوهرة أعطيها للملكة صبيحة العرس، ومائة جوهرة أفرّقها على الجواري والخدم، فأعطي كل واحدة جوهرة تعظيماً لمقام العروسة؟ وأحتاج إلى أن أكسو ألف عريان من الفقراء».

إنّ هذا التخيّل السحري الخارق، الذي يحلم به رجل إسكافي فقير، هو بنية تتكرر في غير حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، فعندما يجد هذا الفقير أنّ الواقع الذي يعايشه لا يحقق ما يصبو إليه، فإنه يتحايل على من حوله، ويضفي على حيلته تخيّلات لا تتحقّق إلاّ بالمصادفات الغرائبية السحريّة الموجودة في ألف ليلة وليلة، فـ«في النصوص العجائبية - وألف ليلة وليلة من أهمها - يروي المؤلف أحداثاً غير قابلة للوقوع في الحياة». وطالما أنّ الراوي الشعبي يعايش واقعاً أسود، ويتموضع في طبقة دونية مهمّشة منه، فإنه شكّل بطلاً شعبياً كمعروف الإسكافي، جعله يتجاوز هذه الطبقة الدونية وفق عمليات التخيّل، وصولاً إلى الطبقة العليا، والزواج بإحدى نسائها، وحمّل هذا البطل أحلامه الملغاة وأوهامه التي يستحيل أن تتحقق في واقعه الأسود، ففي الأدب الشعبي «سبق لأقدم الشعوب بحقّ أن حقّقت رغباتها في حكاياتها، وهي تلك الرغبات التي لم تظفر بتحقيقها قطّ في الحياة».



لقد كان «القصاصون العرب (في ألف ليلة وليلة) مدينين للمصريين بأعمال اللصوص الماكرة وبالحيل». وقد ظهرت معظم أشكال المكر والاحتيال في كل مدن ألف ليلة وليلة - العربية وغير العربية - وبخاصة في مدينتي القاهرة وبغداد. ولم تقتصر الحيلة على مذهب دون آخر، فهي عند المسلمين والمسيحيين واليهود والمجوس، وهم مواطنو مدن ألف ليلة وليلة. وقد تورّط فيها أهم ملوك مصر في الليالي، وهو الملك الناصر (أشهر سلاطين المماليك)، إذ احتال هذا الملك على وزيره، أبي عامر بن مروان، لكي يأخذ منه غلاماً جميلاً من غلمان النصارى كان قد أُهدي إليه، وبعد أن يأخذه حيلة، يشي أعداء أبي عامر عند الملك الناصر بأنّ «عنده من الغلام بقية حرارة وأنه لا يزال يلهج بذكره حين تحركه الشمول فيقرع السنّ على إهداء الغلام». وعندما سمع الملك الناصر هذه الوشاية قرر أن ينتقم من وزيره أبي عامر، بعد أن يحتال عليه ليكشف مدى إخلاصه وولائه له، بكتابة رسالة مزوّرة عن لسان الغلام، يطلب فيها من مولاه الوزير أن يتحايل في استدعائه من عند الملك، لأنه لا يطيق الصبر على مفارقته، وأنّه غير راغب بالبقاء في دار الناصر، لكن الوزير وبفطنته السياسيّة اكتشف أنّ هذه الرسالة ما هي إلاّ مكيدة من الملك لاكتشاف مدى إخلاصه، فأخذ رسالة الغلام، وكتب على ظهرها هذه الأبيات:

أمن بعد أحكام التجارب ينبغي
لذي الحزم أن يسعى إلى غابة الأسد
ولا أنا ممن يغلب الحبّ عقله
ولا جاهل ما يدّعيه أولو الحسد
فإن كنت روحي قد وهبتك طائعاً
وكيف تردّ الروح إن فارقت جسدي

ويتابع الراوي قائلاً: «فلما وقف الناصر على الجواب تعجّب من فطنته ولم يعد إلى استماع واش فيه بعد ذلك».

وقد كان ملوك مدن الليالي، سواء أكانت عربيّة أم أجنبيّة، يستشيرون ويقرّبون أصحاب الحيل الأذكياء، وعندما يجدون أنفسهم عاجزين عن حلّ مشكلة معيّنة، فقد كانوا يأخذون بآرائهم، وبخاصة آراء العجائز الماكرات اللواتي يفقن رجال زمانهن مكراً ودهاءً وخبرةً معرفيّة. فعلى سبيل المثال نجد أنّ الملك أفريدون ملك القسطنطينية، عندما تهزمه الجيوش الإسلاميّة - جيوش الملك شركان حاكم دمشق، وأخيه ضوء المكان حاكم بغداد - يلجأ إلى العجوز شواهي ذات الدواهي (أم حليفه الملك حردوب)، لكي تخطط له كيف يحارب ويحتال على الجيوش الإسلاميّة، أي أنّ أصحاب الحيل والمكر والمكيدة - في الليالي - لم يكونوا يحتالون من أجل كسب العيش، أو إشباع شهواتهم الجنسيّة، أو من أجل الحصول على منصب يقرّبهم من السلطان فحسب، بل كانت لديهم معارفهم في خطط الحروب العسكرية، وكانت لهم نظرتهم الثاقبة، لما يجري في مدنهم، وعلاقاتها الطبقيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وقد تعلّموا الحيلة وأتقنوها وتفننوا في حبكها.

إنّ القاهرة التي تبدو واقعية في الليالي تمتزج بكثير من اللوحات السحريّة، والتخيّليّة، التي أضفاها الرواة عليها، وهذه حال معظم مدن الليالي. فالمدينة الواقعيّة لا تتشكّل من فضاءاتها وعاداتها وملامحها التاريخيّة الواقعية فحسب، بل توغل بعيداً في السحر والخرافة إذا ما رأى الرّواة أنّ ثمّة ضرورة لهذا السحر، لأنّ الحدث الواقعي لا ينمو مكتفياً بذاته في مدن الليالي، بل يحتاج إلى حوافز سحريّة لاستكمال بنائه.



إن ما يميز حكايات ألف ليلة وليلة في طبقتها المصرية كما يرى أحد الدارسين، وجود عنصر المغامرات في بنية أحداثها «التي تعتمد المكر والحيلة من جانب والمنافسة السياسية الحادة من جانب آخر»

ويحفل الفضاء السحريّ للقاهرة، في حكايات الليالي، بالجان وبأولاد ملوك الجان. ومن ملامح العوالم التخيّليّة والسحريّة التي تحتفي بالجان والعفاريت ما يسجّله الراوي في حكاية «معروف الإسكافي مع زوجته فاطمة العرّة»، فعندما يهرب معروف من شرّ زوجته وظلمها يجلس باكياً عند إحدى الدور الخربة المهجورة بحي العادلية، وإذا بحائط الدار ينشقّ، ويبرز منه مارد «طويل القامة رؤيته تقشعر منها الأبدان»، ويطلب منه أن يخبره بقصته حتى يساعده، وعندما يعرف قصّته مع زوجته يقول له: «أتريد أن أوصلك إلى بلاد لا تعرف لك زوجتك فيها طريقاً؟ قال له: نعم. قال: اركب فوق ظهري. فركب وحمله وطار به بعد العشاء إلى طلوع الفجر، وأنزله على رأس جبل عال». ولأنّ معروفاً الإسكافي يعيش في فضاء شعبي مصري يؤمن بالسحر والقدرات الخارقة للجان والعفاريت، فإنّ الرّاوي - فيما بعد - يقدّم له كل الحوافز (الموتيفات) السحريّة التي تجعله غنيّاً في مدينة «اختيان الختن» الأسطورية، ثم ملكاً عليها، إذ يقدّم له كنزاً أسطورياً في طريق رجوعه من «اختيان الختن»، بعد أن هبطت عليه المواجع والأحزان. ويذكر الراوي أنه بينما كان عائداً شاهد رجلاً مسكيناً يحرث أرضه في إحدى القرى الصغيرة، فعرض عليه أن يساعده في الحراثة، ومن خلال حراثته وجد كنزاً كبيراً غاصّاً بالأموال والجواهر الثمينة.

إنّ الراوي الشعبي، وهو يقدّم هذا الكنز

الكبير لبطله معروف الإسكافى، لن يعرّضه لهجمات اللصوص وقطّاع الطرق، وهو فى طريق عودته إلى «اختيان الختن»، بل سيقدّم له - حتى تصل الحكاية إلى ذروتها - حرّاساً لهذا الكنز، ولأنّ حراس هذا الكنز الكبير قد يعجزون عن الدفاع عنه، فيما إذا كانوا بشراً عاديين، فإنه وفقاً للنسق السحرىّ الغرائبى، سيقدّم له خاتماً سحرياً يخدمه مارد من الجان، وستسهم هذه الأداة السحريّة فى نمو الحكاية، لأنّها ستعيد معروفاً الإسكافى إلى مدينة « اختيان الختن» مكللاً بالمال والمنعة، ومن شأن هذه الأداة السحريّة أنّها تساعد البطل « فى النهاية على التخلص من سوء الطالع، ولكن قبل استلام الأداة السحريّة يصبح البطل عرضة لعدد مختلف من الأحداث التى تؤدّى كلها، على أية حال، إلى نتيجة حصوله على تلك الأداة». ولم تسهم هذه الأداة السحريّة فى تخليص معروف الإسكافى من سوء طالعه فحسب، بل قذفت به إلى أعلى المراتب الاجتماعيّة والسياسيّة وتوّجته ملكاً على «اختيان الختن»، بعد أن أثبت للناس جميعاً أنّه صادق فى ثرائه، وأثبت لوالد زوجته الملك أنه كفء لابنته الجميلة.

ويتكرّر إسعاف البطل فى حكايات ألف ليلة وليلة المصرية بالأداة السحريّة التى تنقله من وضع طبقىّ دونى إلى وضع آخر متميّز، سلطوى وثرى، أو تزيل عنه همّاً أو ظلماً حلّ به، وبخاصة إذا كان هذا البطل من أفراد الطبقة الشعبيّة، فالراوى فى حكاية « جودر وأخويه» ، يجعل التاجر المغربى يقدّم لجودر - عندما لقيه فى الحجّ - خاتماً سحرياً، وذلك بعد أن كان أخواه سالم وسليم قد تآمرا عليه وباعاه إلى رئيس بحر السويس، ولهذا الخاتم خادم من الجان اسمه الرعد القاصف، يقوم بمساندة البطل، ويتكفّل بنقله إلى مصر، وهنا يمكن القول: إنّه لا غرابة - وفق المنطق السحرىّ العجائبى الذى يتحكم فى علاقات الأبطال وارتحالاتهم - فى أن ينقل العفريت - خادم الخاتم السحرىّ - جودر بن عمر من مكّة إلى مصر، لأنّ المعتقد الشعبى « يجعل للجان من القوى والسمات الفائقة ما يقدّمهم على الإنسان ذاته، فلا يعود الإنسان مركز المخلوقات، ولا هو الذى أمر الله الملائكة أن يسجدوا له ففعلوا إلاّ إبليس فقد أبى واستكبر، وإنّما هو أدنى قوة وأقلّ سلطاناً من الجان». وستسهم هذه الأداة السحريّة (الخاتم) فيما بعد، فى أن تقدّم لجودر أجمل امرأة فى المدينة، وهى الأميرة آسية بنت الملك شمس الدولة، وفى تتويجه ملكاً على مصر، بعد أن يموت ملكها شمس الدولة.



إذا كان الراوى فى بعض الحكايات المصرية لا يقدّم لأبطاله الفقراء الأداة السحريّة التى ستجعلهم يتجاوزون مدنهم ومواطنيهم مالاً وسلطة، فإنه لا يحرمهم من الكنوز الأسطورية التى تجعلهم فى مصافّ الملوك ثراءً. ويبقى تقديم هذه الكنوز لهؤلاء الأبطال المهانين اقتصادياً، نوعاً من التعويض والسمّو على الواقع الرثّ وتجاوزه بالاتكاء على الحلمىّ والتخيّلىّ الذى يحقق الإنسان فيه كل ما يصبو إليه، « ففى المجتمع الذى لا تتاح فيه الحياة المنطلقة يهرب العامّة من مواجهة مشاكلهم ومنها مسألة الحصول على الثروة - إلى تخيّلات وأوهام، فما أيسر أن يعيش الوهم باستطاعة الحصول على كنز متى ألقيت التعزيمة المناسبة». إلاّ أنّ الرّاوى، فى موضع آخر، قدّم الأداة السحريّة (خاتم شبيك لبيك) إلى البطل الشعبى جودر ابن التاجر عمر، لأنّ زمان الحكاية أسطورى تخيّلىّ، وملك مصر فى هذا الزمان هو ملك أسطورىّ، واسمه « شمس الدولة»، وهو غير معروف تاريخياً من بين الملوك الذين حكموا مصر فى الدولة الإسلاميّة.

ويُلاحظ أنّ الكنوز فى الحكايات المصرية مرصودة بأسماء أبطال مصريين محددين، ولا يمكن أن تفتح أبوابها إلاّ لهؤلاء الأبطال، وهاهو الحاكم بأمر الله يقول لوردان الجزّار: « إنّ هذا الكنز لا يقدر لأحد أن يفتحه غيرك، فإنه مرصود باسمك وصنعتك (...) وهو عندى مؤرّخ وكنت أنتظر وقوعه حتى وقع ».

إنّ فضاءات مصر فى حكاية « جودر ابن التاجر عمر » هى فضاءات سحريّة يسكنها ملوك الجان، ففى بركة « قارون» يسكن الجان أولاد الملك الأحمر الذين أتوا من فاس. وهذه البركة مرصودة أيضاً باسم الصياد «جودر». إذ إنّ ملوك الجان الذين يعيشون على هيئة أسماك فى هذه البركة لا يُنتصر عليهم إلاّ بشخص جودر ابن التاجر عمر، باعتباره التعويذة القادرة على فكّ سحرهم، كما يؤكّد الساحر الكهين الأبطن للمغربى عبد الصمد: «فرأيت أن هذا الكنز لا يُفْتح إلاّ على وجه غلام من أبناء مصر اسمه جودر بن عمر، فإنه سيكون سبباً فى قبض أولاد الملك الأحمر وذلك الغلام يكون صياداً، والاجتماع به يكون على بركة قارون ولا ينفعك هذا الرصد إلاّ إذا كان جودر».

هذه هى بعض ملامح مصر والقاهرة فى ألف ليلة وليلة، وإن غابت القاهرة فى معظم الأحيان تسميةً فى الليالى واستُبدلت بمصر، فإنها هى المعنيّة فى أغلب الحكايات، لأنّ الرّواة يذكرون أحياء حقيقية عرفتها القاهرة قديماً، ولا تزال هذه الأحياء تحتفظ بأسمائها حتى وقتنا الراهن. كما أُشير إلى ذلك سابقاً.

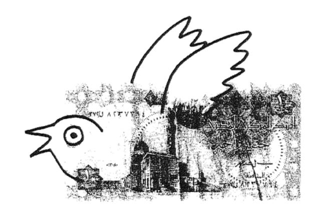
إنّ القاهرة مدينة السحر، وهى تحتلّ فى الأدب الشعبى مكانة مهمّة ومتميّزة، وهى «البلاد المليئة بالعجائب فحكاياتها الخرافية التى وصلت إلينا قد دوّنت فى أسلوب فنى، وهى إلى ذلك تُعدّ ينبوعاً للتراث الشعبى والعقائد القديمة البالغة فى القدم. وما يزال بعض هذه الحكايات يعيش فى الحكايات الشعبية لدى كثير من الشعوب». ولا تزال فضاءات القاهرة الشعبية هى الفضاءات العربية الأولى - إذا ما استثنينا فضاءات مدن المغرب التى تضاهيها - المغلّفة بنكهة السحر والأساطير والحيل والتمائم والحُجُب، والأولياء الصالحين، والحشيش والجوزة (النارجيلة)، والمقاهى التى لا تزال تحتفظ بطعم حكايات ألف ليلة وليلة، والنساء اللواتى يقرأن الكفّ ويفتحن المندل، ويغامرن فى شعاب الحياة كما الرجال، بل ربما أكثر. ويبدو أنّ هذه المدينة الثّرية البطرة، التى تعاقبت عليها حضارات ومدنيّات وأمم كثيرة، كان لها حظّ وافر من الموسيقى والخمور والجوارى والملاهى والنساء. والاحتفالات بأعياد الفرح، وإقامة طقوس لهوها الخاصة، والمعارف والعلوم والطبّ والسحر وفنون الاحتيال.

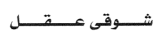
وكما كانت حكايات مدينة القاهرة وغيرها من مدن ألف ليلة وليلة محكومة بثنائية الواقعىّ والتخيّلىّ، فإنّ حكايات القاهرة المعاصرة هى الأخرى لا تزال موشومة بكثير من الواقعية السحريّة والتخيّل الغرائبى.

وأحبّ أن أشير فى نهاية هذه الدراسة إلى أنّ القرآن الكريم لم يذكر أى بلد عربى باسمه فى كل آياته سوى مكّة ومصر.

وإذا كانت مصر فى الأدبيات الكلاسيكية وكتب الرحالة مثالاً للرخاء والرفاهية، والدولة العامرة بالحياة، والرافلة بالترف، كما يذكر ابن خلدون نقلاً عمن تحدّث عنها: « ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى فى عوائدهم ما يقضى منه العجب، حتى إنّ كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النُّقْلة إلى مصر لذلك، لما يبلغهم من أنّ شأن الرّفه بمصر أعظم من غيرها».، فإنها لم تسلم من هجاء بعض الشعراء. ■

عصر التناقضات





شوقى عقل

.. إن عالما بهذه الصورة الكئيبة المنطوية على مختلف ألوان التوحش والعنف والإفقار واللامساواة والقهر.. لا يمكن له أن يستمر طويلا. بهذه الكلمات ينهي الراحل رمزي زكي رؤيته لوضع العالم في نهاية القرن العشرين ويودعه، ثم يودعنا بعد ذلك منذ ما يزيد على العام بقليل. وهو وضع كما قال كئيب قاس لا يسوده إلا الظلم والقهر والعنف. على أنه لا يساوره الشك في أن هذه القسوة وهذا العنف لا بد أن يؤدي إلى إعادة تشكيل قوى الديمقراطية والتقدم المناهضة لعالم السوق الكونية بوجهها اللاإنساني.

فما هو حال القرن العشرين ؟ إنه عصر انفراد الرأسمالية بالسيطرة على العالم، عصر التناقضات والأزمات الاقتصادية الحادة، عصر المضاربات، إنه ناد كبير للقمار. كما أنه عصر الديناصورات الاقتصادية الهائلة الحجم، وعصر التجمعات القارية الكبيرة. فمن ناحية نجد الولايات المتحدة وتوابعها (كندا والمكسيك)، ومن ناحية ثانية نجد المجموعة الأوروبية التي أعلنت وحدتها الاقتصادية والسياسية، ومن ناحية أخرى هناك الاقتصاد الياباني وتوابعه في جنوب شرق آسيا. وبالرغم من كونه ثاني أكبر اقتصاد في العالم، إلا أنه يترنح تحت تأثير كساد طويل الأمد وديون مشكوك في تحصيلها تبلغ حوالي ١,٥ تريلون دولار! وهناك الصين العملاق الأصفر الكبير ودوره المتوقع في إدارة شئون العالم الذي مازال قيد المجهول. وفي الزوايا المظلمة تقبع دول العالم الثالث والأخير بلا قدرة أو فعل سوى انتظار قرارات الدائنين والمنظمات الاقتصادية الدولية مثل صندوق النقد والبنك الدوليين، مكبلة بديونها التي بلغت ١٩٥٠ مليار دولار، ترقب عاجزة التدهور الكبير في مداخيلها القومية نتيجة لتدهور أسعار المواد الخام ومواد الطاقة مثل البترول. وعوضا عن الوعود الجميلة التي قدمتها الليبرالية الحديثة لشعوب العالم، وبدلا من عالم الرفاه الموعود، فإن مزيدا من البطالة والأزمات والتوترات الاجتماعية والسياسية تجتاح العالم، وتنمو التنظيمات الفاشية والنازية والعنصرية أكثر فأكثر، وتسود عصابات الجريمة المنظمة وتتحكم في عالم كامل مواز لعالمنا. وهي النتائج الحتمية لهذا العالم الوحشي الخاضع للرأسمالية الكونية.

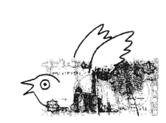


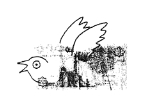
يغطي الكتاب سنوات العقد الأخير من القرن العشرين، وهي نفسها سنوات العقد الأخير من حياة د. رمزي زكي. وهو يضم مجموعة من المقالات والدراسات حول العديد من القضايا الاقتصادية العالمية والمصرية، ورغم تعدد الموضوعات التي يتناولها عبر تلك الفترة الطويلة من الزمن مقاسة بعمر البشر، وعبر هذا الكم من المتغيرات الكبيرة التي حملتها تلك الفترة القصيرة مقاسة بعمر الأمم، إلا أن خيطا واحدا ينتظمها، وهو التأكيد المستمر على الجانب الاجتماعي والإنساني لكل سياسة اقتصادية، وعلى العدالة في توزيع الثروات، سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد أو الأمم.

والتأكيد المستمر على الطبيعة الاجتماعية والإنسانية للعلوم أيا كانت، وتأثيرها على حياة البشر، خاصة مع علم كعلم الاقتصاد الذي لابد أن ينحاز لمصلحة جماعة على حساب جماعة أخرى، كان دائما الاختيار الأصعب للمفكرين الذين يحملون، بالإضافة لعمق المعرفة وسبق الريادة، الحب العميق لوطنهم والأمل في خلاصه من محنه.

في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، عالم الحرب الباردة وظهور المعسكر الاشتراكي، ظهرت دول الرفاه الاجتماعي في المعسكر الرأسمالي، وحققت الطبقة العاملة والتكنوقراط والأنتليجنسيا فيه مكاسب اجتماعية وسياسية هائلة. تمثل ذلك في حقوق ساعات العمل والتأمينات الاجتماعية والصحية والتقاعد ودعم المواد التموينية للفقراء ومحدودي الدخل، وتقديم الخدمات العامة بأسعار معقولة، كما تمثل في ظهور منظمات العمل المدني ذات القوة الكبيرة في التأثير وتوجيه الرأي العام. كان ذلك ببساطة لأن الرأسمالية لم يعد لها الهيمنة المطلقة على العالم. وتزايد تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي طبقا للسياسة التي وضعها لورد كينز في أعقاب الكساد العالمي الكبير في ثلاثينيات القرن الماضي، ذلك التدخل الذي استهدف التوظيف الكامل للموارد والعمل والتحكم في السوق والمنتجين لضمان الأمن الاجتماعي، أو ما يمكن إجماله باختصار بالمصالحة التاريخية بين العمل ورأس المال، تحت رعب تهديد وجود الاشتراكية وأنظمتها المسيطرة على ما يقارب نصف العالم. استند الاقتصاد العالمي في العصر الذهبي لاستقراره على الأسس التي تم وضعها في مؤتمر مدينة بريتون وودز الأمريكية في صيف ١٩٤٤، ومن هذا المؤتمر ولدت المؤسسات التي قادت الاقتصاد الرأسمالي العالمي في الفترة من ١٩٤٥ - ١٩٧٠، وهي الفترة التي شهدت ازدهارا اقتصاديا لامعا. هذه المؤسسات هي صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، والاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة المعروفة اختصارا بالجات. كان الأساس القوي لاستقرار وثبات نظام النقد والاقتصاد العالمي هو اتخاذ الدولار الأمريكي كعملة دولية بسبب قابلية تحويله إلى ذهب، على أساس سعر صرف ثابت يبلغ ٣٥ دولارًا للأوقية! مع قيام الصندوق بتوفير السيولة اللازمة لأعضائه حين حدوث عجز مؤقت بالميزانية أو ميزان المدفوعات. ولكن مع تنامي قوة الليبراليين الجدد ودعوتهم للتحول نحو نظام تعويم العملات، رفعت الولايات المتحدة الغطاء الذهبي عن الدولار عام ١٩٧١، فانهار عصر ثبات سعر الصرف وانهار معه نظام النقد الدولي الذي تأسس في ضوء اتفاقية بريتون وودز، وقفز سعر أوقية الذهب ليصل إلى ٨٥٠ دولارًا خلال ثماني سنوات، ثم عاد ليتراوح ما بين الثلاثمائة والأربعمائة دولار فيما يلي ذلك، أي عشرة أضعاف سعره عند لحظة تركه للمضاربين. وانطلقت الشياطين وتشكلت ثروات هائلة من المضاربات على أسعار الصرف، واشتعلت حمى المضاربات العالمية، ولم يعد الاستثمار مجزيا في قطاعات الإنتاج المادي (الصناعة والزراعة) مقارنة بمعدلات الأرباح في المضاربات، وزادت البطالة وارتفعت إلى معدلات قياسية. وازداد تراكم الأموال دون فرص استثمار تقابله مما خلق فوائض هائلة من رءوس الأموال تهيم على وجهها، بحثا عن الأرباح دون حساب لما ستخلفه من دمار لاقتصاديات دول بأكملها. ونتج عن اندماج أسواق المال والنقد الدولية وسرعة الاتصال فيما بينها عبر شبكات الكمبيوتر انفلات السيطرة عليها. كان دخولها لبلد ما يعني فقدان هذا البلد سيطرته على مستوى عرض النقود والأسعار، بينما خروجها المفاجئ منه يحدث ضغطا على سعر الصرف وعلى الاحتياطيات الدولية وميزان المدفوعات. وازدادت عناصر الخطر في الاقتصاد العالمي بسبب التغيرات الفجائية في أسعار الصرف والفوائد والمواد الأولية، ولم يعد التنبؤ ممكنا بمساراته، وتتالت الأزمات: أزمة المديونية الخارجية للبلاد النامية ١٩٨٢، الانهيار المفاجئ لبورصة الأوراق المالية في نيويورك ١٩٨٦، أزمة النمور الآسيوية ١٩٧٧، أزمة كساد الاقتصاد الياباني. فما هو حال مصر في خضم هذه التغيرات العالمية والفوضى الكبيرة؟

في وداع القرن العشرين.. تأملات اقتصادية في هموم مصرية وعالمية.
دكتور: رمزي زكي
دار المستقبل العربي، ١٩٩٩، ٤٤٨ ص





تحت عنوان تأملات فى هموم مصر الأساسية، يناقش د. رمزى زكى مشاكل مصر الاقتصادية، وهو حين يفعل ذلك لا يخفى انحيازه للفقراء الذين زاد فقرهم بتناقص نصيب أجورهم من الدخل القومى لمصر من ٤٨٪ عام ١٩٧٢ إلى ٢٧٪ عام ١٩٩٤. وهو يرى إمكانية مضاعفة دخل مصر القومى خلال عشر سنوات عبر سياسات اقتصادية يحدد لها هدفا أساسيا هو زيادة الناتج القومى من السلع والخدمات بمعدل سنوى قدره ٧,٢ ٪، وهذا بالطبع يتطلب تنفيذ العديد من المشروعات الإنتاجية . ويعنى ضرورة الوصول بمعدل الاستثمار السنوى إلى٢٨٪ من الناتج المحلى الإجمالى، ليعطى العائد المطلوب. فما هو المانع؟ إنها السياسة الانكماشية التى فرضها صندوق النقد والبنك الدوليان على مصر. وعلى العكس من تلك السياسات الانكماشية فإن المطلوب مجموعة من السياسات الحافزة على الاستثمار والنمو، منها: خفض معدلات الضغط الضريبى، وخفض سعر الفائدة، وزيادة الإنفاق العام الاستثمارى، وحماية الإنتاج المحلى وضبط بوابة التجارة الخارجية وزيادة التوظيف والأجور، أى زيادة نصيب العمل من الدخل القومى حتى تزداد قوى الطلب لتقضى على الركود بالسوق المصرية.

فى رؤاه لأزمات مصر الاقتصادية ورؤاه لحلولها، لا يخفى رمزى زكى إدراكه العميق لطبيعة التكوين الاجتماعى والسياسى الذى أفرز هذه المشكلات وقدرات هذا التكوين على حلها. فهو حين يضع الحلول اللازمة لمثل هذه الأزمات، لا يتجاوز قدرة الجسد المريض على تحمل العلاج، وبالأحرى تنفيذه والاستفادة منه، فيتجاوز بذلك عجز الناقد المتفرج إلى عمق المدرك لما يعانيه وطنه وحاجته لمعرفة الطريق. وحين يرفض بشدة الإعلان عن قابلية التحويل للجنيه المصرى كطلب صندوق النقد الدولى، فإنه يشير إلى حقيقتين:

الحقيقة الأولى: إن دولا من غرب أوروبا رفضت إطلاق حرية تحويل عملاتها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية قبل أن تصل باقتصادياتها إلى مرحلة التوازن الذى استطاعت معه أن تتواجد فى الاقتصاد العالمى من موقع القوة، والمثال هنا من دول غرب أوروبا، فلماذا كان علينا دائما أن نكون ملكيين أكثر من الملك!

الحقيقة الثانية: إن حالة الازدواجية النقدية - ما بين دولار وجنيه - فى مصر وما يقابلها من ازدواج سعر الفائدة، سيدفع رءوس الأموال الباحثة عن الأرباح السريعة فى السوق العالمية إلى الاستفادة من هذه الحالة الفريدة لتحقق أرباحا من غفلتنا، بالسحب من هنا والإيداع هناك والاستفادة من فرق سعر الفائدة! ولكنه لا يرفض إطلاق حرية التحويل، بل يحدد الشروط الواجب توافرها لتقدم مصر على هذه الخطوة ولا نندم بعدها كما جرت العادة.



من ناحية أخرى فإنه يحدد المشكلات الاقتصادية الأساسية التى تواجه مصر بأربع مشكلات (عويصة)، هى عجز الموازنة العامة والتضخم والبطالة والمديونية الخارجية . ينشأ عجز الموازنة العامة نتيجة لازدياد الإنفاق العام للدولة مع ضعف الإيرادات وتناقصها. هذا الإنفاق يشمل الأجور والمرتبات والدعم للسلع الشعبية الأساسية والتكاليف الاستثمارية للمشروعات الكبرى أو ما اصطلح عليه بالقومية، ويشمل كذلك كافة مصاريف الحكومة الجانبية من بدلات وانتقالات وعقد المؤتمرات..إلخ. ويتم خفض هذا العجز طبقا لتوجهات الحكومة الاجتماعية: إما بإلقاء العبء على عاتق الفقراء بإلغاء الدعم للسلع الضرورية والطاقة وتجميد التوظيف، وبزيادة الضرائب العامة المباشرة وغير المباشرة، وإما عن طريق طبع البنكنوت وزيادة الائتمان المصرفى الممنوح للحكومة، وما يعنيه ذلك من ازدياد التضخم المحلى وارتفاع الأسعار مع ثبات الأجور، أى مزيد من إفقار الفقراء. وقد يتم تمويل هذا العجز بالاقتراض من الخارج، أى بزيادة المديونية الخارجية. ومن ناحية أخرى وبتوجه اجتماعى آخر يمكن القضاء على عجز الموازنة بخفض حاسم للإنفاق الحكومى فى مستويات الإدارة العليا ومنع البدلات واستحداث المناصب وخفض عقد المؤتمرات إلا الضرورى منها للوجود الفعال على ساحة العمل الدولى، وتمويل الإنفاق الحكومى من خلال تنفيذ مشروعات كبرى يحقق الاستثمار فيها عائدا حقيقيا ويخلق فرص عمل جديدة ويزيد من الناتج القومى العام، بالطبع مع الدراسة المتأنية لجدوى هذه المشاريع، يقوم بها متخصصون بعيدا عن تأثير القرار السياسى.

لجأت الحكومة لمواجهة عجز الميزانية وتحت ضغط صندوق النقد الدولى وبطلب منه، إلى طرح أذون الخزانة بدءا من يناير ١٩٩١، وبأسعار فائدة عالية لاجتذاب الفوائض المالية، مما أدى إلى نمو سريع فى حجم الدين العام الداخلى وصل فى ميزانية العام الحالى إلى ١٥٠ مليار جنيه، مما أدى إلى تزايد أعباء خدمته وأضعف الاستثمار فى قطاعات الإنتاج المادية، الصناعية أو الزراعية، حيث يفضل المستثمرون العائد المضمون المرتفع فى تلك السندات.

يشير د. رمزى زكى فى إيجاز شديد التركيز إلى الآثار الاقتصادية والاجتماعية المدمرة لمشكلة التضخم، وكل أثر من هذه الآثار كفيل أن يستدعى إلى ذاكرة أى منا العديد من الأمثلة التى نراها حولنا ونعايشها معايشة يومية، وهو إيجاز لا يدع معه مجالا لإيجاز آخر، ولنر ماذا يقول: (.. فالتضخم إذا انطلق من عقاله، واندفع بقوة عاما بعد الآخر، فإنه يؤدى إلى زيادة العجز فى ميزان المدفوعات لأنه يعرقل الصادرات ويشجع الواردات وينمى ظاهرة هروب رأس المال للخارج. كما أنه يؤثر على الاستثمار سلبا، لأنه يؤدى إلى استحالة حساب التكاليف المقدرة للمشروعات الاستثمارية والخطط الإنتاجية بسبب عدم استقرار قيمة النقود. وهو يشوه اتجاهات الاستثمار، حيث يفضل المستثمرون فى ظروف التضخم استثمار أموالهم فى المشروعات الخدمية ذات العائد السريع. إلى جانب تأثيره السلبى على الادخار، لأنه يخفض من مستوى الدخل الحقيقى ويرفع من الميل للاستهلاك وإلى سلبية سعر الفائدة الحقيقى. كما أنه يؤدى إلى زيادة العجز فى الموازنة العامة للدولة، لأنه يرفع من حجم الإنفاق العام فى الوقت الذى تنخفض فيه الإيرادات الحقيقية للدولة. وحينما تتدهور قيمة النقود فى غمار التضخم تظهر ظاهرة الدولرة Dollarization أى هروب الناس من العملة الوطنية واللجوء إلى العملات الأجنبية «كالدولار» الأكثر ثباتا فى قيمتها كمخزن للقيمة المدخرة. أما على المستوى الاجتماعى فآثاره جد خطيرة، لأنه يزيد من غنى الأغنياء ويزيد من فقر الفقراء. كما أنه ينمى ظاهرة الاقتصاد السرى «الرشوة والفساد الإدارى وعمليات التهريب والسوق السوداء.... إلخ» وأخيرا وليس آخرا، يؤدى التضخم إلى تدهور سعر الصرف للعملة الوطنية).

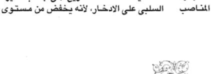


يتساءل رمزى زكى بعد ذلك كيف يمكننا أن نحد من التضخم دون اللجوء للسياسات الانكماشية والتى قد تنجح فى أن تخفض معدل التضخم السنوى، ولكن مقابل خلق حالة من الغلاء الشديد الذى يصعب على كثير من الفئات الاجتماعية التعامل معه، وهو ما يشكل الأغلبية الساحقة من المصريين. والحل يكمن فى معرفة سبب تفاقم هذه الأزمة، وهو توقف جهود التنمية واعتماد سياسة ليبرالية السوق.

تعد القدرة على مواجهة مشكلة البطالة فى مصر مؤشرا مهمًا على نجاح أى برنامج للإصلاح الاقتصادى، أو فشله فى حالة زيادتها. وهذا بطبيعة الحال لكونه يتوجه لحل المشاكل اليومية المباشرة للقطاع العريض من السكان. وإذا ما تم تطبيق هذا المقياس فى الواقع نجد أنه قد حدث نمو للبطالة فى مصر بمعدل متسارع نتيجة لتطبيق برامج التثبيت والتكيف الهيكلى ذات الطبيعة الانكماشية، والتى فرضها صندوق النقد الدولى.

ولا يوجد حصر دقيق أو حتى قريب من الدقة عن حجم البطالة السافرة فى مصر، رغم الأهمية الاجتماعية والسياسية والأمنية لهذه المشكلة، وتداعياتها الخطيرة المحتملة حال استفحالها وخروجها عن السيطرة. يشهد العالم منذ عقدين أو أكثر قليلا تزايدا فى أعداد العاطلين عن العمل، كنتيجة مباشرة للثورة العلمية والتكنولوجية، أو ما يعرف بالثورة الصناعية الثالثة. وإذ واكب كل تقدم علمى وصناعى للبشرية المزيد من تحسين ظروف العمل والحياة، إلا أن هذه الثورة بما قدمته من تطور تقنى عال وإحلال الآلة محل الإنسان، وإدماج الوظائف، واندماج الشركات لتوفير الوظائف، أدت إلى بطالة واسعة النطاق، فى نفس اللحظة التى نمت فيها معدلات الإنتاجية، وبالتالى حجم ومعدلات الأرباح. ولنر الأرقام: شركة United States Steel وهى أكبر شركة لإنتاج الصلب فى الولايات المتحدة كان يعمل بها ١٢٠ ألف عامل عام ١٩٨٠، انخفض عددهم إلى ٢٠ ألف عامل فقط عام ١٩٩٠، مع بقاء نفس القدر من المنتجات الذى كان ينتج عام ١٩٨٠! ألغت جنرال موتورز ٢٥٠ ألف وظيفة خلال الفترة من ١٩٧٨ إلى ١٩٩٣

... تشير الدراسات إلى أن عملية



يشير رمزى زكى فى تنبؤ مبكر (كتب هذه الدراسة فى نهاية ١٩٩٤) إلى احتمال أن تفقد مصر احتياطياتها بسرعة فى أوجه لا نفع منها مثل تسديد ديوننا الخارجية المترتبة على عجز ميزان المدفوعات بعد فتح باب الاستيراد على مصراعيه دون قيود، وهذا ما حدث بالفعل!



إعادة هندسة الوظائف ستؤدى إلى إمكانية القضاء على ٢٥ مليون وظيفة من وظائف القطاع الخاص الأمريكي من أصل ٩٠ مليون عامل، أى ما نسبته ٢٨٪ من إجمالى عمالة القطاع الخاص فى المجتمع الأمريكي بأكمله!

وبالرغم من كون مشكلة البطالة مشكلة عالمية، إلا أن طبيعة المشكلة فى مصر تأخذ أبعادا لها نتائج اجتماعية وسياسية خطيرة. حيث نمت الجريمة والتطرف والعنف فى المجتمع المصرى فى الآونة الأخيرة وبمستوى لا سابق له. والعمل فى مصر هو المصدر الوحيد للحصول على دخل، والبطالة تعنى مباشرة الجوع والتشرد، ولا يمكن مقارنة المجتمعات التى تطبق نظم إعانة البطالة وغيرها من الضمانات الاجتماعية بحالة المجتمع المصرى.

يعتبر رمزى زكى أن جزءا كبيرا من أزمة مصر الاقتصادية يرجع إلى الديون الخارجية. ويرى أن صناع القرار فى بداية لجوئهم للاقتراض الخارجى كان لديهم اعتقاد خاطئ فحواه أنه من الممكن تحقيق التنمية وزيادة مستوى المعيشة بالاعتماد المتزايد على الديون الخارجية. وغاب عنهم أن الاقتراض بالأمس يعنى ضرورة السداد اليوم، وأن الاقتراض اليوم يعنى ضرورة السداد غدا. وهذا ما حدث حين حل السداد وضغط الدائنون وتدخل صندوق النقد واضعا شروطه التى سبق الإشارة إليها ولم تجد الحكومة بدا من الانصياع لها.

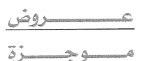
ولتجنب احتمال تجدد مديونيتنا فى المستقبل، فإنه من الضرورى وضع ضوابط لتجارة الاستيراد، وهو الأمر الذى لابد سيحدث - أى تجدد مديونيتنا - حينما تزيد وارداتنا عن صادراتنا، مما سيزيد العجز فى ميزاننا التجارى، مما سيؤدى للاستدانة لتمويل هذا العجز، وهو الشىء نفسه الذى حدث من قبل وتسبب فى أزمة ديوننا الخارجية.

فى استعراضه لمشاكل مصر الاقتصادية يتطرق د. رمزى إلى موضوع احتياطيات مصر الدولية، ويشير بادئ بدء إلى أنها تشكلت عبر فترة زمنية قصيرة، إذ قفزت من ٢ مليار دولار عام ١٩٩٠ إلى حوالى ١٨ مليار دولار عام ١٩٩٤ وذلك بتوفر ظروف وعوامل، منها تخفيض وإلغاء جزء من ديون مصر من قبل كل من الولايات المتحدة ودول الخليج بعد حرب الخليج نتيجة للموقف السياسى لمصر، مما أدى إلى وفر كبير فى مبالغ خدمة هذه الديون التى بلغت حوالى ٤ مليارات دولار. ومنها تحويلات المصريين العاملين بالخارج وكذلك الوفر الذى حدث للدولار نتيجة الانكماش الاقتصادى بعد وضع الاتفاقات مع صندوق النقد والبنك الدوليين موضع التنفيذ، إضافة إلى مداخيل السياحة قبل أن يضربها الإرهاب. وواضح أن هذا النمو لم يأت كما هو مفترض نتيجة لعلاقة موجبة بين نمو الاحتياطيات الدولية من ناحية وبين نمو الدخل والصادرات من ناحية أخرى. بل على العكس تماما، حدث هذا النمو فى ظل انكماش وركود اقتصادى وخفض شديد فى مستوى معيشة المصريين، وفى ظل بطالة وسوء أحوال معيشية. إنها تكلفة اجتماعية عالية دفعت ليتم تكوين هذه الاحتياطيات. ويشير رمزى زكى فى تنبؤ مبكر(كتب هذه الدراسة فى نهاية ١٩٩٤) إلى احتمال أن تفقد مصر احتياطياتها بسرعة فى أوجه لا نفع منها مثل تسديد ديوننا الخارجية المترتبة على عجز ميزان المدفوعات بعد فتح باب الاستيراد على مصراعيه دون قيود، وهذا ما حدث بالفعل!



كثيرة هى التحذيرات التى أطلقها د. رمزى زكى قبل أن يرحل عنا، حذر من تزايد عجز الموازنة العامة نتيجة الإفراط فى اللجوء لأذون الخزانة والقروض المحلية، وقد حدث. حذر من إطلاق حرية الاستيراد دون رابط أو تنظيم لئلا يختل ميزان التجارة الخارجية فى سبيل استيراد سلع لا ضرورة لها، وقد حدث. حذر من تزايد البطالة وأثرها المدمر على المجتمع، وحذر من التضخم وآثاره الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة، وقد حدث. إبان حياته حدث كثير مما كان يحذر منه، لكنه لم يكن ليقف ويشير ويقول: قلت لكم، كان همه دائما أن يجد حلولا لأزمة مستجدة سبق وحذر منها دون أن يكل ودون استجابة حتى تقع، فالوطن - لا المتسبب - هو الخاسر دائما. ولكنه فى لحظة عابرة ضئيلة، وفى خضم معركته، وقف قليلا والتفت إلى الخلف، إلى جهده وجهد محبين آخرين للوطن، ليجد أن لا شىء مما دعا ودعوا إليه تحقق، وكانت الآمال الكبار تملأ نفسه، ثم تبين، للأسف - يقول رمزى زكى - أنه كان حرثا فى البحر، لكنه ألقى تساؤله ومضى مواصلا الطريق، وقدم فيما تلى من سنوات عمره العديد من الكتب والدراسات لأوضاع عالم اليوم، شارحا ومحللا وكاشفا طبيعته القاسية الوحشية. يقول رمزى زكى فى نهاية القرن الذى كان يودعه:... لا يساورنى الشك فى أنه ستنمو فى خضم هذا العالم الكئيب القوى الخيرة الحية التى ستناضل من أجل إزالة كل أشكال الكآبة والإفقار والاغتراب والقهر لإنسان القرن الحادى والعشرين، وإلا فإن ذلك القرن سينطوى على كارثة مهولة للبشرية. ■


دار الشروق
تقدم لكم أحدث إصدارتها
المواجهة المصرية الأوروبية في عهد محمد على
التيارات الإسلامية فى مصر
ومواقفها تجاه الخارج
من النكسة إلى المنصة
[١٩٦٧ - ١٩٨١]
د. وليد محمود عبد الناصر
تقديم
د. احمد كمال أبو المجد
معسكر الأرامل
ترجمة
الدكتورة ماجدة مخلوف
فى فقه الحضارة العربية الإسلامية
حضارة الوسط
نحو أصولية جديدة
د. رفيق حبيب
ذكريات عربي أفغاني
دكتور أيمن صبري فرج
اللغة والمجاز
بين التوحيد ووحدة الوجود
عبد الوهاب المسيرى
سنوات مع
الملك فاروق
شهادة للحقيقة والتاريخ
د. حسين حسنى
آفاق فى الإبداع الفنى
رؤية نفسية
د. أحمد عكاشه
تطلب من
دار الشروق : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق : ١ ميدان طلعت حرب تليفون : ٣٩١٢٤٨٠
ومكتبة الشروق : مبنى فرست أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة محل رقم ١٩ تليفون : ٥٧٣٥٠٣٥
ومن المكتبات الكبرى واجنحة دار الشروق داخل معرض الكتاب
كما يمكنكم شرائها إلكترونيا www.e-kotob.com



كتب عربية

الامبراطورية الأمريكية (الجزء الثاني)

مجموعة من الباحثين

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠١، ٤٤٦ صفحة



ينطلق هذا الكتاب - كما جاء في تقديمه - من أن معرفتنا بأمريكا القوة العظمى في عالم أحادى القطبية، هي قوة لنا في التعامل معها، ويتضمن عدداً من الدراسات كتبها مختصون ينطلقون من خلفيات أيدلوجية متباينة تبحث العلاقات الأمريكية العربية والسياسة الخارجية الأمريكية وانحيازها الدائم لإسرائيل وعلاقتها بالاتحاد السوفيتي والإسلام في أمريكا، والمسيحية الصهيونية الأمريكية، أما قائمة المشاركين فتضم روجيه جارودي ومراد هوفمان ونعوم تشومسكي ورضا هلال وعادل المعلم وحسن وجيه وسهير جبر وآخرين.

وقد أضيفت إلى الدراسات السابقة دراسة كتبها الدكتور ماهر حتحوت في أعقاب أزمة الثلاثاء الأسود ١١ سبتمبر الماضي، وفيها يحاول الدكتور حتحوت الاقتراب أكثر من الواقع الأمريكي الذي عاش فيه أكثر من ثلاثين عاماً، وهو يحذر المتعاملين مع أمريكا في البداية من التعميم أو التعامل مع أمريكا بوصفها كتلة واحدة متناسقة، فأمريكا كما يعرفها أمريكات كثيرة متعددة بل وأحياناً متناقضة، ويميز في هذا السياق بين أمريكا صانعة القرار، بما تتغذى به من معلومات وما تتأثر به من ضغوط وما تخدمه من مصالح، وهي ليست بالضرورة مصالح الأمريكيين بشكل عام، وهناك أمريكا المؤسسة العلمية، ثم أمريكا امبراطورية الإعلام، وأمريكا المؤسسة الدينية وعلى رأسها الكنائس البروتستانتية، ثم أمريكا الشارع والذي ينطوي على قدر كبير من التعددية في الأعراف والألوان والأديان والثقافات والأذواق والصراعات الدائمة بين جماعات الضغط، وأقواها جماعات الضغط الصهيونية بما تملكه من تأثير.

ويتساءل الدكتور حتحوت عن موقع المسلمين داخل هذه التعددية التي تشبه ألوان الطيف، ويجيب بأن المسلمين أنفسهم ليسوا كتلة واحدة، إنما هم تعددية داخل هذه التعددية، ويتتبع أسباب هجرتهم من بلادهم الأصلية إلى أمريكا وتفاوت قدراتهم على التكيف مع واقعهم الجديد. ويلفت النظر إلى فكرة «الشخصية الإسلامية الأمريكية»، وهي الفكرة التي بلغت نضجها في تجربة المركز الاسلامي لجنوب كاليفورنيا، والتي تؤصل لمستقبل الإسلام في أمريكا حتى يستطيع المسلمون التواصل مع مكونات المركب الأمريكي المتشعب بما يفيد أحفادهم الذين لم يعرفوا غير أمريكا وطناً، بما لا ينتقص من جوهر الاسلام وأصوله فيحرم حلالاً أو يحل حراماً، وبما يضمن تواصل هؤلاء المسلمين الأمريكان مع أمة الإسلام ومع الإنسانية في عمومها، ويقدم نموذجاً لكيفية التعاطي مع قضايا خلافية داخل المجتمع الأمريكي، ومنها الموقف من إسرائيل مثلاً، ويؤكد أن العمل لتحقيق العدالة في فلسطين ينبغي أن يكون عملاً وطنياً أمريكياً يرفض إهدار أموال دافعي الضرائب لتدعيم العدوان ويطالب بعدم مخالفة القانون الأمريكي بشأن المساعدات العسكرية الخارجية التي ينبغي أن توجه للدفاع وليس للعدوان وهو مالا ينطبق على الحالة الإسرائيلية.

ومن موقع مراقب ومعايش للأحداث في أعقاب سبتمبر الأسود يؤكد المؤلف أنه برغم كل ما قيل ويقال حتى هذه اللحظة التي يعميها الغضب والتعصب وشهوة الانتقام، فإن هناك فرصة نادرة لوصول الإسلام إلى عقول الناس وقلوبهم. «وتمكين الوجود الإسلامي كمكون أصيل وهاد في قلب التعددية الأمريكية، قد يشارك في صنع القرار بما يؤثر على تعامل أمريكا مع العرب والمسلمين في العالم».

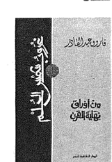
وهي فرصة لن تتحقق من تلقائها، فبانتظارها عمل منظم دءوب ومواجهة للوبي يهودي قوي أقام حياته على تفعيل العقل الأمريكي وتطويعه في اتجاه واحد، وهذا هو تحدى المسلمين والعرب الحقيقي.

□ □ □

من أوراق نهاية القرن

فاروق عبدالقادر

القاهرة: الدار الثقافية للنشر ٢٠٠١، ٥٠٢ صفحات



المطالعات التي يقدمها لنا المؤلف عبر صفحات الكتاب تتسع للإبداع العربي على اختلاف أشكاله. والوجوه التي تطل منها هي خلاصة هذا الإبداع وواجهته، والملاحظة الأساسية أن الناقد هنا، كما في كل أعماله السابقة، لا يكتفي بإصدار وحيد للمبدع محل الدراسة، وإنما يتابع مشروعه الروائي كله، كاشفاً عن تطوراته صعوداً أو هبوطاً، وتحولاته في الفكر والتوجه، كما يحلل في السياق ذاته التحولات المجتمعية وتأثيراتها على مسيرته.

وبهذه الصيغة الاستقصائية التأملية، يشير إلى تراجعات الروائي الجزائري الطاهر وطار - بحسب تعبير المؤلف - في العقدين الأخيرين، فالروائي الذي بدأ ثورياً ومتحمساً للنضال التحرري في مواجهة المستعمر في عمله الفذ «اللاز»، الذي يعتبره الناقد رواية الثورة الجزائرية بامتياز، بدا نكوصياً ومرتبكاً في عمليه الأخيرين «الشمعة والدهاليز» ثم «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي» والذي يرى الناقد فيهما ارتداداً على ماضيه.. «إنهما أعمال مراوغة حمالة أوجه، يريد صاحبها أن يقول ولا يقول، يريد أن يرضي الشيطان والرحمن. طبيعي إذن أن تتشابك خطاه وأن يتعثر بين التخفي والمكاشفة».

على الجانب الآخر تكشف متابعته للمشروع القصصي والروائي للمبدع العراقي فؤاد التكرلي عن تميز وولاء نادر لقضاياه ذاتها. وهو يعتبر روايته «الرجع البعيد» (١٩٨٠) واحدة من أهم إنجازات الرواية العربية، ومنها يبدأ الولوج إلى العالم القصصي للمؤلف. وفي هذه الرواية يخلق المؤلف عالماً كاملاً يضج بالحركة والحياة وبطلها نموذج «لطراز سائد من الحزبيين الذين يغتصبون الناس والسلطة ويخترقون حاجز المحارم وأية حواجز أخرى»، وهذا النمط المتكرر يقاسي من شروره بطل رواية التكرلي الأخيرة «المسرات والأوجاع»، وبينهما عدد من القصص القصيرة «موعد النار» و«الصخرة والطوف»، وإجمالاً، فإن الناقد يرى في أعمال التكرلي أصداء الواقع العراقي منذ الخمسينيات وحتى الثمانينيات، وتكشف متابعة عبدالقادر لملحمة عبدالرحمن منيف «أرض السواد» عن منهجه الذي يستعين بالدراسات التاريخية والنفسانية والاجتماعية وغيرها لتحليل عمل المبدع، وهو قبل أن يؤلف الملحمة يعرض لقارئه السياق التاريخي الذي دارت فيه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر، مستعيناً بدراسة مستفيضة للشخصية الرئيسية للملحمة وهي داود باشا والي بغداد الشهير المتوفى في عام ١٨٥٠، ويعود الناقد إلى عديد من المراجع التاريخية التي تضيء صفحات من ماضي العراق المشرق دون أن تغيب أبداً دلالتها في الحاضر، سيبقى العراق دائماً محط المطامع والتآمر وستتحالف ضده القوى الراغبة في محاصرته واستنزافه (...) ومهما خاض العراق من أهوال، فإن في نهاية النفق ضوءاً، ومن ضفاف العناء والعذاب يشرق الأمل».

المتابعات تمتد لتشمل أسماء مثلت علامات فارقة في مسيرة الإبداع العربي، بينها محمود دياب ذلك المسرحي والقاص المصري الذي ظلم حياً وميتاً بعدما حاصرته السلطة السياسية وأجبرته على الانزواء ولم يجد سوى في خيار الموت راحة مما عاني، وإطلالة على مجموعتين قصصيتين للمبدع السوري المتميز زكريا تامر وقراءة في ثلاثية الروائي السوري خيري الذهبي «التحولات»، وقراءة لآخر أعمال نجيب محفوظ القصصية، ودراسة مهمة عن الرواية الفلسطينية من المنفى إلى الانتفاضة ومتابعة لإبداعات حيدر حيدر والطيب الصالح وصنع الله إبراهيم وأسامة أنور عكاشة ومحمد شكري وهناء عطية وفتحي غانم وسناء المصري ومحمد المخزنجي.. وقراءة لمذكرات الدكتور عبدالرحمن بدوي والدكتور رفعت السعيد وتجربة سهى بشارة في معتقل الخيام الإسرائيلي ومعاناة مليكة أوفقير في سجون الملك محمد الخامس، وغيرها من الموضوعات.

□ □ □

صبحي شفيق.. الناقد الفنان

إعداد وتقديم: سمير فريد

القاهرة: صندوق التنمية الثقافية، ٢٠٠١، ٢٤١ صفحة



يأتي هذا الكتاب تحية إلى الناقد صبحي شفيق في مناسبة بلوغه السبعين، وهو يجمع عشرات المقالات التي كتبها صبحي شفيق في سنوات الستينيات وهي مقالات نقدية تتناول أعمالاً سينمائية مصرية وعالمية نشرت في جرائد ودوريات عديدة.

ويمثل صبحي شفيق كما يقول المؤلف نقطة تحول من نقد جيل الخمسينيات إلى نقد جيل الستينيات والأجيال اللاحقة، وشارك في تأسيس جماعة السينما الجديدة عام ١٩٦٨ والتي صدرت عنها مجلة السينما وهي أول مجلة متخصصة في السينما، وفيها واصل صبحي شفيق دوره الطليعي في النقد السينمائي ونشر الدراسات المميزة، ثم شارك بعد ذلك في تأسيس جمعية نقاد السينما عام ١٩٧٢، قبل أن يسافر إلى فرنسا ويعيش في باريس أكثر من ١٥ عاماً.

وإلى جانب اهتماماته النقدية، أخرج صبحي شفيق أفلاماً تسجيلية كان أولها عام ١٩٦٩، ثم أخرج فيلماً طويلاً هو التلاقي عام ١٩٧٢، ظل ممنوعاً من العرض حتى عام ١٩٧٧، وكان سبب منعه أنه كشف عن الفساد والانحراف في

أجهزة الدولة وأكد رغبة الشعب في الإصلاح والتغيير.

يبدأ الكتاب بحوار مع صبحي شفيق يرسم ملامح فكره وعطائه على مدى أكثر من نصف قرن، ويشير إلى تأثير كتاب وأدباء هذه المرحلة على تفكيره، يقول شفيق في نهاية حواره.. «لقد قضيت حياتي أحاول الإجابة عن عشرات الأسئلة، بعض الإجابات كانت نظرية وبعضها كان تطبيقيًا، ولكن لاتزال الأسئلة كثيرة والإجابات مفتوحة.. حياة أي منا ليست حياة الأشخاص وإنما هي جزء لا يتجزأ من جهودنا مجتمعة لاستعادة هويتنا الثقافية». وأما الأفلام المصرية التي اختارها سمير فريد من نقد وتحليل صبحي شفيق فهي دنيا، وبدون كلام، و٣ قصص، ورسالة من امرأة مجهولة، والمعجزة، وعلى ضفاف النيل، والناصر صلاح الدين، وثمن الحرية، والطريق والبوسطجي. ومن الأفلام الأجنبية ألكترا، واشتريت أبًا، وهاملت، والطيور، و٩ أيام في عام، وصانعة المعجزات، والحياة للحياة، فضلاً عن دراسات عن الموجة الجديدة في السينما الفرنسية، والسينما المصرية الجديدة.

□ □ □

القاهرة.. نسيج الناس في المكان والزمان

محمد رياض

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ٢١٠ صفحات

تعيش القاهرة حالة فوضى شاملة، جعلت كثيرين ممن عاشوا فيها وأحبوها حتى سبعينيات القرن المنقضي يتحسرون على أيام كان الجو فيها أجمل والحياة أنعم والتلوث والزحام أقل مما هما عليه الآن.

يبدأ المؤلف برصد لجغرافيا القاهرة منذ إنشائها قبل ألف عام وحتى اليوم، والخلاصة التي يقدمها مذهلة، فقد ظلت القاهرة تنمو طوال هذه الأعوام الألف داخل منسوب ٢٠ مترًا في الغرب و٣٠ مترًا في الشرق، واستمر ذلك حتى عصر الخديو إسماعيل حينما بنيت القاهرة الحديثة.

وفي أوائل القرن العشرين جاءت التجربة الثانية في الارتفاع إلى مناسيب أعلى حين بنيت مصر الجديدة، وبعد ستة عقود كانت التجربة الثالثة بناء مدينة نصر، وفي مقابل هذه التجارب الناجحة نسبيًا، ثمة تجارب أخرى، أثرت سلبيًا في نمو المدينة، منها النمو الطفيلي العشوائي لمنشية ناصر والدويقة، وكذلك النمو العشوائي للبساتين ودار السلام، جرى ذلك كله مع تضاعف سكان القاهرة بشكل متزايد حتى قاربوا ١٢ مليون نسمة، وصارت القاهرة من أكثر عواصم العالم كثافة.

المؤلف يتابع النمو التضخمي لأحياء القاهرة القديمة والحديثة، واستمرار النتوءات العشوائية على الأطراف بل وفي قلب العاصمة ذاتها، التي باتت بؤرًا للإجرام والانحراف تهدد العاصمة ذاتها، وإلى جانب ضياع السمات العمرانية المميزة للقاهرة وفقدانها لعناصرها الجمالية، فإن الهجرة المستمرة من الريف والصعيد إلى العاصمة أوجد ما اصطلح علماء الاجتماع والتخطيط العمراني على تسميته بظاهرة «ترييف المدينة» بما تنطوي عليه من آثار مدمرة اجتماعيًا ونفسيًا واقتصاديًا.

ويلاحظ المؤلف عبر تتبع تاريخي للقاهرة عبر العصور أن نموها لم يكن يسير مطردًا بل كانت هناك فترات توقف عن النمو لأسباب مختلفة منها تدهور الأوضاع السياسية وفقدان الأمن الداخلي والتردي الاقتصادي والصحي بما حمله من كثرة المجاعات وانتشار الأوبئة وغيرها من الأسباب.

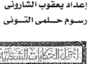
ويتابع التركيبة الديموجرافية لسكان القاهرة ويلاحظ أن مصر عمومًا من الدول التي تزيد فيها نسبة الذكورة، كما يلاحظ أن قاعدة الهرم الديموجرافي المتكونة من صغار السن آخذة في الانكماش، وأن نسبة العاطلين إلى قوة العمل الفعلية تتجاوز ٧٣٪.

ويحذر في ضوء أرقام ومؤشرات عديدة يوردها عن انفجار وشيك بسبب المدن الجديدة التي أحاطت بالعاصمة وزادت أعباؤها ومشاكلها المرورية والاقتصادية، ويقدم في النهاية رؤية شاملة لحل مشكلات القاهرة منها نقل العاصمة السياسية وتقسيم القاهرة الكبرى إلى عدة محافظات وتوزيع الوزارات والإدارات الخدمية على محافظات قريبة.

ويقدم وصفة من ثلاث نقاط هي: تناغم بين السلطات المحلية للأحياء وأجهزة الوزارات لتنفيذ مشروعات التحسين، والكف عن إنشاء مدن جديدة، وأن تصبح العاصمة منتجة لا عالة على المحافظات المجاورة.

هذا الكتاب قصيدة حب للقاهرة، بأسلوب علمي هدفه تجميل الصورة التي باتت ملطخة ومتنافرة ومليئة بالندوب.

□ □ □



أجمل الحكايات الشعبية للأطفال

إعداد يعقوب الشاروني

رسوم حلمي التوني



كيف يمكن للحكاية أن تصبح شعبية ومتداولة من جيل إلى آخر؟ من أين تكتسب الحكاية سطوتها وتأثيرها النافذ، وما الذي يمنحها الاستقرار في الوعي الجمعي لأمة ما، لقرون عديدة؟ وهل ثمة خطوط تماس بين الديني والمحكي والميثولوجي تذيب الفواصل - أو تكاد - بينهم، وتجعل البحث عن مرجعية أشبه بحديث البيضة والدجاجة، أيهما أسبق؟

هذه الحكايات الشعبية تحيلنا من جديد إلى الأسئلة ذاتها، وتثبت - من جديد أيضًا - استحالة الإجابة.

جميل وجميلة

فالخيال الذي صاغ قصة جميل وجميلة لم ينفلت من روعة قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وجميلة هنا هي الفتاة الأكثر جمالاً بين فتيات مدينتها مما يدفع بعضهن إلى الكيد لها واستئذان الأم في اصطحابها للهو، وحين ينفردن بها يمارسن غواية الشر ويظهرن حقيقة مشاعرهن تجاهها، وهو أمر لاتنتبه إليه جميلة إلا بعد أن تفقد حليها التي تلقيها في البئر برغبتها، استجابة لمقولات رفيقاتها الشريرات اللائي تركنها فريسة لغول مرعب يرغمها على الإقامة معه إلى أن يخلصها فارسها الجميل «جميل» من براثنه.

هكذا يبدو «العظم» الأساسي للقصة شبيهًا بقصة سيدنا يوسف وبقيتها من خيال يداعب ميل المغامرة والتحدي والانتصار للخير والطيبة عند الناس.

بلح الشاطر

وفي «بلح الشاطر حسن» يجذبنا - كالعادة في مثل تلك الحكايات - الصراع الأبدي بين الخير والشر، والأول يمثله بالطبع الشاطر حسن بكل براءته وذكائه وشجاعته، ولأنه كذلك، فإن أباه يمنحه البساط السحري الذي يمكنه من اختصار المسافات والتحليق في الآفاق والنفاذ حتى إلى غرفة نوم الأميرة - التي بدت هنا شريرة تحيل خُطّابها إلى تماثيل حجرية - كما يدله رجل طيب على نخلتين تحيلان حياته إلى نعيم وتمكنانه من الانتصار على الأميرة الشريرة وإعادة «مساخيطها» إلى صورهم الإنسانية التي كانوا عليها، وما أن فعل حتى ركب بساطه وانطلق بحثًا عن مغامرة جديدة.

هدايا فيروز

وتطالعنا في «هدايا فيروز» التيمات المستقرة ذاتها في الحكي الشعبي حيث الصراع بين الطيبة والشر، وعطايا القدر للطيبين الذين يمثلهم هنا شعبان بائع الملح وابنته الجميلة فيروز التي لطيبتها وحسن خلقها تتزوج الأمير الذي يمنح أباها حمارا يتساقط من فمه الذهب ومطحنة تعد له في غمضة عين ما تشتهي نفسه من الطعام، وحين يسرقهما أحد الأشرار فإن «العصا السحرية» تعيدهما إليه بعد أن تؤدب الشرير وتلقنه درسًا لا ينساه.

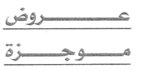
ويدور الصراع في البئر العجيبة بين أختين، إحداهما مطيعة نشيطة مبتسمة، والأخرى كئيبة كسولة ناقمة، وجزاء رقتها ووداعتها فإن الأقدار تسوق إلى الأولى سيدة عجوزا تزيد حياتها صفاءً وجمالها نصاعة وألقا، وهو عكس المصير الذي تلقاه أختها العبوسة الكسولة.

عصفور وجرادة

وأما في «عصفور وجرادة» و«الأمير الجبان» فنحن أمام تيمتين مهمتين يصوغهما الحكي الشعبي ببراعة وخفة، إذ يؤكد في الأولى على كذب المنجمين حتى لو صادفهم حظ سعيد، كذاك الذي أحال عصفورًا من إسكافي بسيط إلى منجّم السلطانة إلى أن افتضح أمره، وفي الثانية فإن الأمير الذي هرب دومًا من الحروب ومواجهة الأعداء، اكتشف لذة الشجاعة وقدراته المخبوءة على القتال والمقاومة حين أجبر على مواجهة الأعداء بفضل شجاعة زوجته الأميرة.

الحكي هنا كما نرى يستقي من مصادر عديدة وثقافات أمم مختلفة، وفي كل الأحوال فإنه يتبنى القيم الجميلة ذاتها، وينتصر للحق والخير والجمال، ولكن أحدًا من هؤلاء الطيبين لا يحصد جزاء عمله فورًا ودون تضحيات، وفي كل القصص تقريبًا يلعب القدر بخوارقه إلى جانب الطيبين ليسحق الظلم ويضبط نواميس الكون.

عماد الغزالي



العرب وعصر العولمة

نجاح كاظم

الدار البيضاء: بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٢، ٣٠٣ صفحات



لم تحظ المعلومات باهتمام تستاهله فى أكثر ما كتب عن العولمة، برغم أنها تمثل البعد الرئيسى فى هذا التطور من تاريخ الإنسانية، فالمعلومات هى رمز العصر المعلوماتى أو عصر الاقتصاد الإلكترونى كما يسمى الآن، وهى - بالارتباط الوثيق بين أنظمة الكمبيوتر وأجهزة الاتصالات من ناحية، وبين هذه الأنظمة وعلوم البيولوجيا والجينات من ناحية ثانية - تمهد لاقتصاد العقود المقبلة من القرن والذى اصطلح على تسميته «اقتصاد البيو». هذا الكتاب يلقى أضواء باهرة على هذا البعد الغائب الذى يسميه المؤلف البعد الخامس. وهو يبدأ بسرد تاريخى مختصر لدور العلم والتكنولوجيا فى مسيرة الإنسانية، طارحًا إيجابيات وسلبيات التكنولوجيا، ومشيرًا إلى ما قرره أحد علماء الكمبيوتر من أن التطور الذى شهدته البشرية خلال ربع القرن الأخير يتجاوز - من زاوية التأثير والنتائج - ما تحقق خلال الـ ٢٥ عامًا الماضية.

وإلى جانب التطبيقات المؤملة لثمار عصر المعلومات والاتصالات فى الجوانب العسكرية والتى شهد العالم بعضها فى حرب الخليج الثانية وأخيرًا فى الحرب ضد أفغانستان، فإن تطبيقات إيجابية عديدة ينتظرها العالم فى المجالات الطبية والعلمية والاقتصادية والصناعية والزراعية والبيئية ومختلف جوانب الحياة.

ويجيب المؤلف فى القسم الأخير من الكتاب عن تساؤل العنوان إجابة محبطة لكنها علمية ومتوقعة: يعيش العالم العربى تخلفًا حقيقيًا فى الوضع التكنولوجى مع فجوة تقنية فاصلة مع العالم المتقدم يصعب ردمها ويجعل واقعه العملى ذا مشاكل كثيرة ومعقدة. أمام أسباب هذه الفجوة وعوائق ردمها كما يشير المؤلف فأولها سياسى «غياب الاستقرار السياسى اللازم لخلق أرضية تكنولوجية»، وثانيها «غياب الارتباط العضوى بين المنظرين لأسباب الفجوة وأصحاب القرار. ويرى المؤلف أن علاج هذين العيبين فضلاً عن ضرورة نقل وتوطين التكنولوجيا عبر سياسة قصيرة المدى تخلق البنى التحتية اللازمة لهذا التوطين واستراتيجية بعيدة المدى تحقق الاستقرار السياسى وتتعامل بفاعلية مع نظم التعليم لإعداد الكوادر وتوجد صيغ للتعامل الجماعى بين كل الدول العربية وتوفر مواردها للإنفاق السخى على التعليم وتشجيع الاستثمار فى مجال التكنولوجيا وتعيد العقول العربية المهاجرة هو السبيل الوحيد لردم الفجوة.

□ □ □

معذرة كولومبوس
لست أول من اكتشف أمريكا

هاينكه زود هوف

تعريب: حسين عمران

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠١، ٣٠٥ صفحات



اكتشف «كريستوفر كولومبوس» أمريكا قبل ٥٠٠ سنة، هذه حقيقة لا يبدو أن أحدًا يمارى فيها.

لكن هذا الكتاب يدحضها ويشير إلى البحارة الفينيقيين الذين جابوا شواطئ العالم وداروا حول القارة الأفريقية وأسسوا مدنًا على ساحل الأطلسى وغيره قبل ثلاثة آلاف سنة، بوصفهم المكتشفين الحقيقيين للقارة الجديدة، استنادًا إلى مجموعة من الشواهد والقرائن الثقافية والتاريخية التى مازالت آثارها باقية هناك حتى اليوم منها: ثقب الجمجمة والختان والأهرامات وعبادة زهرة اللوتس وأقنعة الجان وحلية الموتى والإنسان الطائر ذو الجناحين والإله الفينيقى الوثنى «بعل» والآلهة الوثنية القزمة بشكلها المميز.

والهنود الحمر استقبلوا الفينيقيين، الذين أرسل بعضهم بتكليف من فرعون مصر بترحاب وتجاوب شديدين بعكس الحال حين وصل المغامرون الأوروبيون إليهم بعد ذلك بآلاف السنين، ويرجع الفضل فى ذلك إلى قدرة الفينيقيين أنفسهم على التكيف: وهى سمة ميزتهم وقرّبتهم من كافة الشعوب الذين هبطوا عليهم.

ويجرى المؤلف مقابلات لغوية مهمة بين مفردات استخدمتها قبائل المايا ولها نظائر فى اللغات السامية المنطوقة وفى اللغة العربية مع تحريفات بسيطة، كما يشير إلى الموقع الأسطورى الذى احتلته الحيوانات من عبادات العالم القديم.

النتيجة التى ينتهى إليها المؤلف هى أن كولومبوس ليس أول من اكتشف أمريكا، بل سبقه إليها الفينيقيون برحلاتهم التجارية والاستكشافية.

كتب أجنبية

Stay the Hand of Vengeance
The Politics of War Crimes Tribunds

(سياسات محاكمات جرائم الحرب)

Gary Jonathan Bass

Princeton University Press, 2001, 368PP.



يتساءل المؤلف فى هذا الكتاب عما أدى إلى فلاح محاكمات جرائم الحرب أو فشلها فيما مضى. ويُعَدُّ كتابه العميق فى بحثه ترياقاً قيماً للطبيعة غير التاريخية التى تميز بها الكثير من الكتّاب عن القانون الإنسانى الدولى، الذى غالباً ما يعتبر محاكمات نورمبرج السابقة الوحيدة لما يجرى فى الوقت الراهن من محاكمات. وإذا كان باص يأخذ نورمبرج فى اعتباره، فهو يدرس كذلك فترة ما بعد حروب نابليون، والإبادة الجماعية فى أرمينيا، والحرب العالمية الأولى. وينتهى كتابه برواية مفصلة للمناورة السياسية التى وراء محكمة لاهاى الخاصة بيوغوسلافيا.

ويركز باص فى مواضع مختلفة من الكتاب على التوتر بين المبادئ والمصلحة الشخصية فى سياسة الدول الليبرالية الخارجية. فما هى الظروف التى كانت الدول ترى فيها أعداءها الأسرى على أنهم يستحقون الإجراء القانونى الواجب اتخاذه - وإلى أى مدى كانت على استعداد لضمان إحقاق الحق؟ يقول باص إنه رغم ما يحيط بالإجراءات القانونية من شكوك، فإن الدول الليبرالية الحديثة تشعر باضطرارها لتطبيق فكرة حكم القانون على معاقبة الجنود والساسة الأجانب. بينما كانت بريطانيا راضية سنة ١٨١٥ عن نفى نابليون إلى سانت هيلانة دون أية إجراءات قانونية رسمية، إلا أنه بحلول عام ١٩١٨ رأت الدول المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى أن قاعة المحكمة هى المنبر الصحيح للتعامل مع القادة العسكريين الألمان والأتراك الذين أشرفوا على الترحيل الإجبارى للأرمن. ولكن إلى جانب هذا الدفاع القانونى كان هناك تردد دائم بشأن مخاطرة أية دولة بجنودها؛ وقد انهارت عمليتا لايبزج واسطنبول عندما بدا أنهما ستكلفان البريطانيين والحلفاء الكثير من الأرواح.

ويزخر كتاب باص بالتفاصيل التاريخية الساحرة، إلا أن بنيته تشى بجذوره كبحث أكاديمى فى العلوم السياسية. فهدفه هو وضع نموذج لكيفية تأثير القيم المحلية على سلوك الدولة، حيث يقوده هذا المنهج الرسمى الثابت إلى تقليل أهمية التغيرات التى تطرأ على البيئة الدولية. فقبل نورمبرج كان يبدو - للمشاعر والأحاسيس المعاصرة - أن استخدام الصيغ القانونية كثيراً ما يكون فيه شيء من الانتهازية؛ فعلى سبيل المثال لا يُتهم القيصر فيلهلم الثانى فى معاهدة فرساى بشيء أكثر وضوحاً من «الاعتداء الشديد على الأخلاق الدولية وقدسية المعاهدات». وعلى نطاق أوسع، كانت جرائم الحرب فى الماضى غالباً ما تبدو شكلاً من أشكال التبرير ذات الأثر الرجعى، والإقرار القانونى الذى يُقصد به إظهار الحرب على أنها منافسة بين الحق والباطل، وبالتالى تستحق أن تُخاض. أما اليوم فالموقف معكوس: فلدينا محاكم لجرائم الحرب تتسم بقدر غير مسبوق من الدقة والصلاحية القانونية، إلا أنها شُكِّلت كبديل لتدخل القوة العظمى، وليست نتيجة طبيعية له.

□ □ □

In the Eye of Horus.. Aphotographer's Flight Over Egypt

(فى عين حورس: رحلة مصور فوق أرض مصر)

Photographs by Marcello Bertinetti..Text by: Maria Crele

AUC Press, 2001, LE 220



ليس هذا هو الكتاب الأول المصور عن مصر ولن يكون الأخير، فهناك عشرات الكتب وربما أكثر من ذلك عن مصر: آثارها، طبيعتها، شعبها وغير ذلك من النواحى المميزة لمصر. لكن ما يميز هذا الكتاب أن مصوره التقط صوراً غاية فى الروعة وبعضها عن طريق الأقمار الصناعية عن مصر لتكشف وبحق عن اسم مصر الحقيقى القديم وهى الأرض الحمراء والسوداء. فالأحمر الناتج عن الصحراء التى أحرقت الشمس وجهها، يتعانق ويتكامل مع الطمى الأسود الذى يحمله نهر النيل إلى مصر.

وبعين طائر يقدم المصور مجموعة متنوعة وفريدة من الصور التى تتحدث

عن مصر أرض الفراعنة ومدى التنوع والتعقيد كل ذلك بألوان زاهية غاية فى الروعة والوضوح. والكتاب المصور مصحوب بنص كتبته ماريا كروس التى درست علم المصريات فى جامعة تورين وكذلك فى جامعة زيورخ وهى تعمل حالياً فى المتحف المصرى فى تورين.

أما المصور مارشيلو برتينى فقد بدأ عمله كمصور وصحفى عام ١٩٧٨ وتخصص فى كتابة موضوعات عن الشعوب والبلدان. ومنذ ذلك الوقت وهو يعمل مع مجلات وكالات مصورة بارزة من ايطاليا.

وقد كتب مقدمة الكتاب الدكتور ممدوح البلتاجى وزير السياحة المصرى.

□ □ □

The Death of Gentlemanly Capitalism

(موت الرأسمالية اللطيفة)

Philip Avgar

Penguin Books, 2001, 416PP., £10.99



يتناول مؤلف هذا الكتاب فيليب أوجار، وهو مسئول مالى سابق التطور الذى حدث فى حى المال فى لندن والمعروف باسم «ذى سيتى». ويقول إن هذا الحى كان يوصف بأنه مثل بطولة ويمبلدون الشهيرة للتنس التى تقام سنويًا فى بريطانيا، فهى تقام فى لندن ولكن يسيطر عليها، أى على البطولة لاعبون أجانب، ومع ذلك فإن هذه البطولة لازالت توفر الكثير من فرص العمل والتدفق المالى لبريطانيا ويشير إلى أن أغلب العاملين فى حى المال، لايزعجهم أن الحى أصبح يسيطر عليه الأجانب وينقل عن رئيس بورصة لندن قوله إن نمط الملكية لا يهم كثيرًا.

إلا أن المؤلف فى هذا الكتاب، يعترض قائلاً: بل إنها تتهم كثيرًا فمن يملك الأسهم والسندات تكون لديه القوة والنفوذ ويشير إلى أن الوضع الراهن المتمثل فى بيع الشركات البريطانية البارزة لمالكين أجانب جعل حى المال غير قادر على السيطرة على مصيره وربما كان من غير الشائع حاليًا الحديث عن الصناعة الوطنية والمصالح الوطنية فى عصر العولمة لكن أوجار يثير عديدًا من الأسئلة تتركز حول مدى صحة ما يقال عن إنه باسم العولمة ومبادئ السوق يمكن السماح للصناعات الرئيسية فى الدولة بأن تتحول إلى أيدى الأجانب. ويقدم الكتاب عرضًا تاريخيًا لتطور حى المال فى لندن حيث ظل الحى بسيطًا وذا توجه عالمى يعرف فيه العاملون بعضهم بعضًا ومعظم المتعاملين فيه من البريطانيين. باختصار فإن كل شىء ابتداء من طريقة اللباس والكلام والأكل وحتى المبانى والحجرات وغيرها تنم عن الطابع الإنجليزى وتعلو فى المكان قيم الطبقة العليا والشريحة العليا من الطبقة المتوسطة فى بريطانيا. لكن لا شىء يبقى كما هو فقد حدث ما يسميه الانفجار العظيم فى عام ١٩٨٦ عندما اختارت حكومة مارجريت تاتشر المحافظة إصلاح سوق المال والسندات فى لندن لكى تكون البورصة قادرة على المنافسة وتحتل مكانها المميز عالميًا. وجرى العمل على تحرير قواعد العمل بالبورصة وتم السماح بـ ١٠٠٪ ملكية للأجانب ودخلت استثمارات أمريكية كثيرة إلى السوق. ولم تهتم حكومة المحافظين بالوقوف إلى جانب المؤسسات المالية البريطانية وتركت الأمور دون تدخل من جانبها، الأمر الذى أوقع البنوك البريطانية فى أزمات كثيرة.

ويقول المؤلف إن ما يسمى بالرأسمالى اللطيف وهو اصطلاح سكه مؤرخان بريطانيان فى الخمسينيات ويركز على مبادئ التعامل فى البورصة. هذا الرأسمالى مضى إلى حال سبيله. فالمصرفى والمتعامل المالى الموهوب الذى يتصرف بهدوء وبشكل نافع ويلتزم بقواعد الإتيكيت ترك مكانه لمتعاملين ديناميكيين لا تعنيهم هذه القواعد بقدر ما تعنيهم السرعة فى الإنجاز وتحقيق أكبر قدر من الربح. ويعترف المؤلف بأنه غير راض عما حدث ويرجعه إلى عصر العولمة لكنه لا يملك بالتأكيد أى وسيلة لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء.

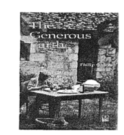
□ □ □

The Generous Earth

(الأرض السخية)

Philip Oyler

London, Pallas, 2001, £ 10.95



رغم حالة العداء التاريخى بينهما والتى امتدت إلى مئات السنين، فإن البريطانيين لازالوا يكنون إعجاباً شديداً بالفرنسيين وبفرنسا. وفى كل عام تتوجه ملايين عديدة منهم للسياحة فى فرنسا والاستمتاع بطبيعتها، وعلى عكس ألمانيا التى لازال البريطانيون حتى الآن ينظرون إليها بتشكك وربما تخوف، فإن غرام سكان الجزر البريطانية بفرنسا لا ينقطع لذلك يتوالى إصدار الكتب عن نواح مختلفة من فرنسا تاريخاً وثقافة وشعباً.

وهذا الكتاب صدر للمرة الأولى عام ١٩٥٠ ثم أعيد نشره قبل وقت قصير. ومثله مثل مؤلفين بريطانيين عديدين أراد المؤلف أن يكتشف فرنسا الحقيقية. وليست الصورة المنطبعة عنها لذلك ملأ سيارته بما يحتاجه وعبر بحر المانش الذى يفصل بين البلدين وسار فى الريف وطرقه المتعرجة وتحدث مع فلاحيه وجاب القرى والمدن وأمضى أوقاتاً طويلة مع الفرنسيين العاديين. ولأنه كان مهووساً على ما يبدو بضرورة اكتشاف روح فرنسا أو قلبها فإنه تتبع تفاصيل صغيرة لكى يصل إلى ما هو أشمل وأعمق. وقد تناول الكتاب على سبيل المثال بالتفصيل الوجبات الغذائية التى يتميز بها الفرنسيون خاصة فى الريف ووصف طبيعة الريف الفرنسى وجماله.

وكما سبق، فإن المؤلف نشر كتابه عام ١٩٥٠. الأمر الذى يجعله تاريخاً فبعد ما يزيد على خمسين عاماً لابد أن أموراً كثيرة تغيرت. ليس فى الطبيعة نفسها بل وفى الناس أيضاً. وقد دخلت التكنولوجيا الحديثة كل مكان تقريباً بما فى ذلك الريف الفرنسى. ثم إنه مع اكتساح العولمة أرجاء المعمورة فإن التساؤل الذى يبرز ماذا تبقى من «روح فرنسا» التى حاول المؤلف البريطانى سبر أغوارها. وأيضاً ماذا تبقى من كتاب المؤلف ذاته سواء على صعيد المعلومات أو الوصف أو حتى الآراء.

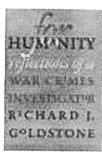
□ □ □

For Humanity: Reflections of a War Crimes Investigator

(من أجل الإنسانية: خواطر محقق جرائم حرب)

Richard Goldstone

Yale University Press, 2001, 152PP



الخيط الرئيسى الذى يمسك به المؤلف طوال تجاربه المختلفة هو أهمية استقلال القضاء عن السياسة، حيث يقول: «ما لم أكن متمتعاً بالاستقلال ـ فى الواقع وفى الإدراك ـ لكان قد لحق ضرر كبير بعملى فى جنوب أفريقيا ولاهاى وآروشا (موقع محكمة رواندا) ـ وبالجهود كافة كذلك». كما يشير إلى أن أهم إنجاز لمحاكم جرائم الحرب هو أنه «صار مقبولاً اليوم أن تتمكن محكمة دولية من إحقاق الحق». وما من شك فى أن جولدستون ساهم مساهمة كبيرة فى جعل محكمة لاهاى مؤسسة لها مصداقيتها فى مواجهة لامبالاة أو معارضة معظم دول العالم البارزة. وبالمثل لاشك فى كونه محقًا فى قوله: إن محكمة الجنايات الدولية المرتقبة لابد أن تكون منصفة فى إجراءاتها إن هى أرادت كسب الاحترام الدولى. وهو ما ينتقد الولايات المتحدة انتقاداً شديداً لرفضها دعم المحكمة، ما لم تضمن عدم توجيه التهم لمواطنيها. ولكن رغم جهود جولدستون وأتباعه، لم تحظ المحاكم الحالية بعد بالقبول فى تلك الأماكن التى قد تكون أكثر أهمية فيها: أى بين المجتمعات المعنية. وترى أعداداً كبيرة من صرب البوسنة أن محكمة لاهاى غير شرعية: وفى رواندا ينظر كثيرون إلى إجراءات الدعوى فى محكمة آروشا باستياء وعدم ثقة. ولأسباب مختلفة، لا يؤمن أى من المجتمعين بحكم القانون الكونى المحايد الإيمان الكافى الذى يجعله يستوعب الطريقة التى يعمل بها ضمن ثقافتهما السياسية. وما دامت العدالة بمنأى عن المجتمعات المحلية التى يعيش فيها الضحايا والجناة، فستكون مساهمتها محدودة فى عملية المصالحة.

وكما يقول جولدستون، فمن الواضح أنه سيكون من الأيسر جعل العدالة الدولية محايدة فى وجود محكمة دائمة، لا محاكم تنشأ بطلب من الولايات المتحدة وحلفائها. وحتى فى هذه الحالة، فإن نجاح المحكمة أو فشلها سيتوقف على ما تتلقاه من دعم سياسى. ولابد أن تكون الدول على استعداد لتسليم مواطنيها فى حال اتهامهم (أو تتخذ هى نفسها الإجراءات الصارمة حيالهم): ولابد أن تكون على استعداد لتهميش القيادات الأجنبية المتهمة: ولابد أن تكون على استعداد لدعم العمل العسكرى إن كان ضرورياً لفرض حكم القانون. بل إن المجتمع الدولى ـ كما يبين نموذج رواندا ـ لا يمكنه الانتظار حتى ترتكب الفظائع ثم يتدخل. فستكون العدالة قائمة على أساس من الإهمال والانفصال دوماً عرضة للاتهام باللامبالاة.

ومع ذلك فإن هناك تقارباً واضحاً بين الدول السياسية التى يكتب عنها باص والنظام الشرعى الذى يتطلع إليه ريتشارد جولدستون. وتحظى فكرة حكم القانون الدولى بالتقدير فى الوقت الراهن فى لغة الساسة، وتتجسد فى تكثيف شبكة المؤسسات. ويظل هذا ـ فى بعضه على الأقل ـ مجرد خيال، إلا أن جاذبيته قد تكون من القوة بحيث تشد الدول إلى نوع من تنسيق العمل الذى يقربها من الواقع.

لقد كان جولدستون أول مدّعٍ فى محاكم يوجوسلافيا السابقة ورواندا. وقد كتب فى هذا الكتاب بتأن وحرص شديدين ليروى فيه اهتمامه بانتهاكات حقوق الإنسان فى بلده جنوب أفريقيا وفى العالم.

□ □ □

اجتماع

ظاهرة الطلاق فى دولة الإمارات العربية المتحدة

عبد الرازق فريد المالكى
أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠١

يمثل الطلاق ظاهرة فى مجتمعات الخليج وفى دولة الإمارات العربية المتحدة على وجه الخصوص. الباحث يدرس أسباب هذه الظاهرة وتحليل نتائجها وانعكاساتها على المجتمع الإماراتى.

■■■

What's Happening to Home? Balancing Work, Life, and Refuge in the Information Age

(ماذا يحدث للبيت؟ موازنة العمل والحياة والملاذ فى عصر المعلومات)

Maggie Jackson

Sorin, 2002, (192P), $ 19.95

يتناول الكتاب التغيرات التى لحقت بأسلوب ومحل العمل نتيجة لثورة المعلومات وثورة الاتصالات، حيث توجد أعداد متزايدة من العاملين والموظفين فى مجالات شتى يقومون بإنجاز أعمالهم من المنزل اعتمادًا على شبكات الاتصال الإلكترونية. تهتم المؤلفة بتأثير ذلك التطور على خصوصية الحياة الأسرية داخل المنزل وتبدل مفهوم «البيت».

■■■

Christmas Unwrapped: Consumerism, Christ, and Culture

(إزالة غلاف عيد الميلاد: الاستهلاك والمسيح والثقافة)

James Tracy, Richard Horsely

Trinity Press 2001, 234P, $ 20.00

مجموعة من المقالات النقدية التى تناقش احتفالات عيد الميلاد فى الولايات المتحدة وما آلت إليه فى ذلك المجتمع. فقد أصبح عيد الميلاد - بمظاهره السنوية من أغانى عيد الميلاد والتسوق وشراء الهدايا وتبادلها مع الأهل والأصدقاء - ديانة جديدة فى أمريكا: ديانة الرأسمالية الاستهلاكية. تناقش إحدى المقالات اختلاف مظاهر عيد الميلاد فى أمريكا عن مثيلتها فى أوروبا، وتناقش مقالة أخرى الأفلام الأمريكية التى أنتجت عن عيد الميلاد.

إدارة وتجارة

التدوين فى مجالات الأعمال

القاهرة: مكتبة لبنان وأبو الهول، ٢٠٠١

عن مدى فاعلية أسلوب تدوين الأفكار والأعمال المطلوبة وقواعدها وكيفية كتابة الخطابات الناجحة ومصادر جمع المعلومات وكيفية كتابة نشرة صحفية للشركة وأهمية تجنب الأخطاء الشائعة والاهتمام بطريقة العرض وتجنب التكرار وغيرها مما يكسب الرسالة فاعلية فى الأداء.

■■■

سوء السلوك التنظيمى

ستيفن أكرويد وبول طومبسون
ترجمة: عبد الحكم أحمد الخزمى
القاهرة: دار الفجر للنشر، ٢٠٠١

النقطة الأساسية التى يلفت المؤلفان النظر إليها هى أن سلوك المديرين لا يختلف كثيرًا عن سلوك الأفراد العاديين، فالأخيرون يتصرفون بلا مبالاة اعتمادًا على أن ما يتقاضونه مقابل عملهم لا يدفعهم إلى الالتزام بالسلوك التنظيمى الصحيح، والمديرون من جهتهم يزيد إدراكهم أن مصالحهم لا تتطابق مع مصالح شركاتهم، وهو ما يقود فى نهاية المطاف إلى سوء السلوك التنظيمى.

■■■

The Rule of Three: Surviving and Thriving in Competitive Markets

(قانون الثلاثة: الاستمرار والنجاح فى الأسواق التنافسية)

Jagdish N. Sheth, and Rajendra S. Sisodia

Free Press, 2002, 288P, $ 27.50

يدفع المؤلفان بنظرية مفادها أن القوى التنافسية فى أى سوق، إذا تركت دون تدخل من الحكومة أو من أى ظروف أخرى، تخلق حتمًا موقفًا تكون السيطرة فيه لثلاث شركات كبرى على باقى السوق. مثال ذلك مطاعم الوجبات السريعة فى الولايات المتحدة (حيث يسيطر ماكدونالدز وبيج برجر ووندى) ومصانع الشرائح الإلكترونية فى كوريا (جولدستار وهيونداى وسامسونج). ولكى تنجح الشركات الأخرى، يجب عليها كما يؤكد المؤلفان أن تنافس الكبار من خلال التخصص.

تفترض النظرية أن الأسواق الحرة بطبيعتها تتسم بالكفاءة، وكفاءة السوق تتطلب وجود ثلاثة متنافسين. فإذا كانا اثنين سيؤدى ذلك إلى احتكار الأسعار والتحطيم المتبادل، وإذا كانوا أربعة، سيؤدى ذلك إلى حرب أسعار مستمرة. يقدم المؤلفان أيضًا نصائح واستراتيجيات للشركات التى تمثل أحد هؤلاء الثلاثة، باعتبار أنه فيما بينهم توجد شركة قائدة واثنتان تابعتان وغير متساويتين.

■■■

When Generations Collide: Who They Are? Why They Clash? How to Solve the Generational Puzzle at Work?

(عندما تتصادم الأجيال: من هم؟ لماذا يتصادمون؟ وكيف نحل المشكلة الجيلية فى العمل؟)

Lynne C. Lancaster and David Stillman

Harper Business, 2002, 384P, $ 25.95

يعالج المؤلفان التفاوت الجيلى فى محل العمل الذى قد تنجم عنه مشكلات وصراعات نتيجة لاختلاف الرؤى والمنطلقات لدى كل جيل. وبالتركيز على المجتمع الأمريكى يقسمان العاملين إلى أربع فئات جيلية: التقليديون، المولودون بين ١٩٠٠ و١٩٤٥؛ والبيبى بومرز المولودون بين ١٩٤٥ و١٩٦٤؛ ثم جيل إكس المولودون بين ١٩٦٥ و١٩٨٠؛ وأخيرًا، الألفيون وهم المولودون بعد ١٩٨٠.

الكتاب مفيد لمن لديهم أعمال أو تعاملات مشتركة مع أمريكيين، كما أن فكرته يمكن تطبيقها على أى مجتمع آخر. ومع هذا فقد وجه إليه بعض النقد بسبب انزلاقه فى فخ القولبة والتعميم.

■■■

The New Imperialists: How Five Restless Kids Grew up to Virtually Rule your World

(الإمبرياليون الجدد: كيف استطاع خمس من الصبية القلقين أن يحكموا عالمنا)

Mark Leibovich

Prentice, 2002, (320P), $ 25.00

يحكى ليبوفتش - صحفى جريدة الواشنطون بوست - فى كتابه هذا مسيرة نجاح خمسة من ألمع نجوم التكنولوجيا فى العالم الآن: ستيف كايس (أى. أو. إل تايم وارنر) وجيف بيزوس (آمازون دوت كوم) وجون تشامبرز (سيسكو) ولارى إليسون (أوراكل) وبطبيعة الحال بيل جايتس (مايكروسوفت). ولدى المؤلف اعتقاد راسخ بأن المحرك الكبير وراء هؤلاء الرجال يكمن فى طفولتهم، وبالفعل يظهر بعد تناوله لطفولة كل منهم على حدة أن هناك عوامل مشتركة كثيرة أهمها معاناة نفسية كبيرة فى فترة المراهقة من ناحية، وثراء مادى من ناحية أخرى.

■■■

Otis: Giving Rise to the Modern City

(أوتيس: الصعود بالمدينة الحديثة)

Jason Goodwin

Ivan R. Dee, 2001, (320P), $ 27.95

لولا المصاعد ما كان من الممكن بناء ناطحات السحاب، وهذا الكتاب يتناول تاريخ أول شركة أنتجت المصاعد وهى الشركة التى أسسها إليشا أوتيس عام ١٨٥٠، الذى اخترع جهاز أمان أوتوماتيكيا فأحدث ثورة فى استخدام المصاعد التى كانت معروفة ولكنها غير منتشرة بسبب خطورتها. ويتتبع المؤلف السياسات التى انتهجها تشارلز ابن إليشا الذى استغل مرحلة ما بعد الحرب الأهلية الأمريكية ليتسيد المجال، وغيرها من الإدارات التى توالت وما انتهجته بعضها من أساليب غير نظيفة فى سبيل البقاء والمنافسة.

أطفال

أطلس الصغير

ترجمة وإعداد: وفاء أشرف
رسوم: محمد فايد
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

عبر رحلة مع شخصية لطيفة صغيرة يجول الأطفال فى أطلسهم الصغير هذا عبر العالم، فيتعرفون على قارات العالم وأهم الدول الموجودة فى تلك القارات والمسطحات المائية التى تحيط بها، وأهم ملابس وعادات وسمات الشعوب.

■■■

The Philosopher's Club

(نادى الفلاسفة)

Christopher Phillips, Kim Doner (illustrator)

Tricycle Press, 2001, (44P), $ 14.95

للأطفال من سن الرابعة إلى الثامنة. يحاول المؤلف أن ينقل أسلوب الحوار السقراطى للأطفال، تشجيعًا لهم على التفكير بأنفسهم فى تساؤلات الحياة التى كثيرًا ما تراودهم. من ضمن الأسئلة التى يطرحها الكتاب: ما هى الحكمة؟ هل العقل والمخ يتكونان من نفس الشىء؟ من وجدت أولاً، البيضة أم الدجاجة؟ كيف تعلم أنك موجود؟

اقتصاد

حلم الهجرة للثروة: الهجرة والعمالة المهاجرة فى الخليج العربى

باقر سلمان النجار
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

مثل موضوع الهجرة للعمل فى بلاد النفط بالخليج العربى منذ ثلاثة عقود على الأقل موضوعًا بالغ الأهمية ومادة خصبة للدراسات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية نظرًا للآثار المهمة - إيجابًا وسلبًا - التى تركها سواء على مجتمعات النفط أو البيئات التى أتى منها المهاجرون.

■■■

2002 Index of Economic Freedom

(مؤشر الحرية الاقتصادية لعام ٢٠٠٢)

Gerald O' Driscoll (editor)

Dow Jones & Co, 2001, (375P), $ 24.95

تقرير سنوى يتناول بالتحليل اقتصاديات ١٦٢ دولة ويصنفها حسب درجة الحرية الاقتصادية. يحتوى تقرير هذا العام على بيانات عام ٢٠٠١ الخاصة بالضرائب وقوانين الاستثمار الأجنبى والجمارك والقواعد البنكية والسياسات النقدية.. وغيرها فى كل دولة.

تاريخ

المصريون والفرنسيون فى القاهرة

أندريه ريمون
ترجمة: بشير السباعى
القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ٢٠٠١

يقدم المؤلف وجهة نظر نقدية فى حوليات الجبرتى وموقفه من حركة المقاومة المصرية مستخدمًا الوثائق التاريخية وكثير منها لم ينشر، ويتعرض المؤلف للثورات المختلفة والانتفاضات التى قام بها المصريون تعبيرًا عن رفضهم للاحتلال حتى جلاء الفرنسيين عن مصر.

■■■

المواجهة المصرية الأوروبية فى عهد محمد على
محمد عبدالستار البدرى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١
دراسة عن العلاقات المصرية الأوروبية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، والأسباب التى دعت عدة دول أوروبية لم تكن بينها فرنسا إلى التحالف ضد الأحلام التوسعية والنهضوية لوالى مصر محمد على باشا، والآثار الناجمة عن تلك المواجهة.

■■■

حكماء وشعراء من أون إلى قصر العينى
محمود فوزى المناوى
القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠١
يقودنا المؤلف فى رحلة عبر الزمن فى ستة فصول إلى الشعراء الأطباء عبرالعصور وارتباط الحكمة بالطب فى كل زمان، ويقدم لنا أسماء لمشاهير الأطباء الشعراء ونماذج من إنتاجهم.

■■■

The Rise of the Fatimids: The World of the Mediterranean and the Middle East in the Tenth Century
(صعود الفاطميين: عالم البحر المتوسط والشرق الأوسط فى القرن العاشر)
Michael Brett
Leiden: Brill, 2001, (497PP)
قام المؤلف بتدريس تاريخ شمال أفريقيا إلى عدة أجيال من الدارسين فى كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن. وهو يقدم هنا رؤيته فى تاريخ الفاطميين، ففى الجزء الأول من كتابه يتناول مشكلة أصول الفاطميين الذين ظهروا فى تونس مدعين نسبهم إلى السيدة فاطمة ابنة الرسول، وكونهم شيعة «سبعيين» أى تتوقف سلسلة الإمامة لديهم عند الأمام السابع «المهدى عبد الله» الذى يعد أول إمام فاطمى، وكان قد اختفى عام ٧٦٠ ميلادية ليظهر مرة أخرى عام ٩١٠ ميلادية!
الجزء الثانى من الكتاب يتناول أسس الدولة الفاطمية فى المغرب، وتوسع الدولة الذى شمل بيزنطة وصقلية والمغرب، وروح الأدب الفاطمى فى ذلك العصر الذى شهد أعمال ابن الهيثم. أما الجزء الثالث والأخير من الكتاب فيتناول الدولة الفاطمية فى أوج ازدهارها تحت حكم الإمام الفاطمى الرابع «الخليفة المعز» الذى ضم مصر وبنى مدينة القاهرة.

"تراث"

النبوءة أو قدر البطل فى السير الشعبية العربية
أحمد شمس الدين الحجاجى
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠١
ترتبط السيرة الشعبية بالوجدان الجمعى ارتباطًا وثيقًا وتلعب دورًا مؤثرًا فى تشكيل قيمة وتحديد رؤيته لمعانى الخير والشر والبطولة والفداء، المؤلف يركز على أثر السيرة الشعبية من ناحية، وكذلك دور النبوءة والمنامات فى حياة البطل العربى، إذ واكبت كل بطل نبوءة ساهمت فى تغيير شكل حياته وحددت سلوكه.

"تعليم"

التخطيط المدرسى الاستراتيجى
محمد عبد الخالق مدبولى
القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠١
يدرس الفصل الأول إعادة ترسيم الحدود بين مفهوم التخطيط المدرسى والتخطيط التربوى والتخطيط التعليمى والتخطيط الصفى، وفى الفصل الثانى رؤية لملامح الإدارة المدرسية فى حقبة التسعينيات وبعض الاقتراحات للنهوض بالمدرسة، ويقدم الفصل الثالث مكونات الخطة الاستراتيجية للمدرسة، ويخصص الفصل الأخير لكيفية إعداد المدرسة وتهيئتها لتقبل التغيير والتطور الحادث فى محيطها.

■■■

المعلمون والسياسة فى مصر
عبدالسلام نوير
القاهرة: مركز الدراسات السياسية (الاهرام)، ٢٠٠١
يقدم الباحث وصفاً لأوضاع معلمى المرحلة الأساسية باعتبارها من أهم مراحل التعليم، ولدورهم المهم فى ترسيخ المبادئ الأصيلة فى عقول الأجيال الجديدة، ثم يتتبع الاتجاهات السياسية الرئيسية لدى المعلمين وتأثيرها على التلاميذ.

"رواية"

الأسلاف
فاضل العزاوى
لندن: دار الجمل، ٢٠٠١
شخوص الرواية وإن بدت من نسج الراوى إلا أن ظلالها الواقعية ماثلة بقوة واختلاطها بالتاريخ الدموى للعراق فى مرحلة تاريخية بعينها، وعبر الشخصية الأساسية فى الرواية عادل سليم يقدم المؤلف وجهة نظر سياسية اجتماعية فى الأحداث.

■■■

ليالى الكالكا
شاكر الأنبارى
دمشق: دار المدى، ٢٠٠١
عن رحلة تيه عاشها ضايع جديان بطل الرواية، الذى خاض غمار حرب ليس له علاقة بها وقرر بعدها الهروب إلى جبال كردستان ليواجه هناك نفسه على حقيقتها، ويبدأ فى تكثيف جهوده بحثاً عن هويته وتاريخه ليواجه المستقبل بأقدام ثابتة.

■■■

My Name is Red
(اسمى أحمر)
Orhan Ramuk
Erdag M. Goknar (Translator)
Knopf, 2001, (384PP), 25.95
المؤلف من أشهر الروائيين الأتراك المعاصرين وترجمت رواياته السابقة إلى أكثر من عشرين لغة. تقع أحداث روايته الأخيرة فى إسطنبول فى القرن السادس عشر، أى مع بداية مرحلة أفول الإمبراطورية العثمانية وازدهار النهضة فى باقى أوروبا.

"سياسة"

التفكير الإبداعى وحرب أكتوبر
سعد الدين خليل
القاهرة: دار التحرير، ٢٠٠١
يضع المؤلف نصر أكتوبر فى إطاره الصحيح بوصفه نصرًا إبداعيًا ونتاجًا لاستراتيجية وتكتيك واع سخّر كل أسباب النصر ومقوماته سياسيًا واقتصاديًا ونفسيًا حتى تحقق.

■■■

المسلمون والمسيحيون تحت الحصار اليهودى
أحمس حسن صبحى
القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠١
يعرض المؤلف لمسلك اليهود تجاه المسلمين والمسيحيين على مر العصور، وكيف استطاعوا أن يسيطروا على التوجه الأوروبى المسيحى ضد الإسلام، وكيف بذروا بذرة الصهيونية التى آمن بها كثير من المسيحيين فايدوا اليهود وأمدوهم بالسلاح والتأييد المعنوى وأقاموا دولتهم فى رقعة عزيزة من عالمنا العربى والإسلامى.

■■■

المواطنة فى زمن العولمة
السيد ياسين
القاهرة: المركز القبطى للدراسات الاجتماعية، ٢٠٠١
دعوة إلى تجديد الإطار النظرى السائد فى البحوث السياسية والاجتماعية والثقافية بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ونهاية الصراع الأيديولوجى بين الرأسمالية والشيوعية، ومحاولة من المؤلف لترسيخ مفهوم المواطنة الذى يحتل الحيز الأكبر بين مقالات الكتاب.

■■■

المواطنة والديمقراطية فى البلدان العربية
مجموعة من الباحثين
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١
تتناول المقالات الأوضاع الراهنة فى البلدان العربية على صعيدى المواطنة والديمقراطية على وجه الخصوص، وهما يرتبطان بشدة بمفهوم الدولة المدنية وحقوق الانسان، فما الذى يهدد المواطنة وما الذى يعوق ترسيخ قيم الديمقراطية على وجهها الصحيح فى الوطن العربى؟

■■■

تحول المجتمع العربى فى حيفا بين ١٩١٨ و١٩٣٩
مى صقيلى
لندن: تاويرس، ٢٠٠١
دراسة عن حال المجتمع فى مدينة حيفا منذ بدايات الانتداب البريطانى الأول على فلسطين وحتى عام ١٩٣٩ وكيف ساهمت الضغوط الاستعمارية فى اندلاع البركان الشعبى ثم اشتعال ثورة عام ١٩٣٦ التى شهدتها مدينة حيفا.

■■■

حينما ارتجت الأرض رجا
سمير رجب
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١
مجموعة من المقالات التى نشرها رئيس تحرير جريدة الجمهورية القاهرية خلال العام الأخير والتى تتناول بالتحليل أوضاعاً سياسية واقتصادية واجتماعية محلية وعالمية تلقى أضواءً على السياسة المصرية الخارجية وتعاطيها مع عديد من الأزمات فى أعقاب وصول شارون إلى الحكم فى إسرائيل.

■■■

روسيا إلى أين؟
أشرف الصباغ
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠١
رؤية من الداخل لما حدث ومازال يحدث فى روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، والكتاب وإن كان يركز بالذات على روسيا فإنه يشير إلى انعكاسات ذلك على العالم كله وعلى عالمنا العربى على وجه الخصوص.

■■■

سيادة الدول فى ضوء الحماية الدولية لحقوق الإنسان
باسيل يوسف باسيل
أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠١
يؤكد كثير من الخبراء السياسيين أن المفهوم التقليدى للسيادة قد زال أو هو فى طريقه للزوال، وقد فرض مفهوم الحماية الدولية لحقوق الإنسان على الخبراء إعادة النظر فى معنى السيادة، والكتاب يعرض لآليات هذه الحماية فى الأمم المتحدة والقانون الدولى.

■■■

مدافع شارون
مدحت الزاهد
القاهرة: دار الحكمة، ٢٠٠١
تقف الانتفاضة الباسلة للشعب الفلسطينى بتضحياته المستمرة وبإمكاناتها المحدودة فى مواجهة مدافع شارون وبطش آلته العسكرية. المؤلف يثمّن دور الانتفاضة ويكشف - من ناحية ثانية -

عن العجز العربي والتواطؤ الدولى إزاء ما يجرى فى فلسطين المحتلة.

■■■

Bias: A CBS Insider Exposes How the Media Distorts the News

(تحـيـز: شـهـادة من داخل الـ«سى.بى.إس تكشف كيف تحرِّف وسائل الإعلام الأخبار)

Bernard Goldberg

Regenery Pub., December 2001, 234P, $ 27.95

عمل برنارد جولدبرج لمدة ثلاثين عاماً صحفياً فى المحطة الإخبارية التليفزيونية «سى.بى.إس» وحصل خلال هذه السنوات على سبع جوائز «إيمى». وفى هذا الكتاب قرر جولدبرج الكشف عن تجاهل وسائل الإعلام للموضوعية فى الأخبار، وتحيزها لجماعات ضغط معينة خاصة اليسارية منها. ففى قاعات الأخبار الآن أصبحت معايير «الحساسية السياسية» توضع فى المقدمة قبل معيار «الحقيقة».

■■■

The Death of the West: How Dying Populations and Immigrant Invasions Imperil our Country and Civilization

(موت الغرب: كيف تهدد غزوات الهجرة وتناقص السكان بلادنا وحضارتنا)

Patrick J.Buchanan

St. Martin's Press, 2002, (320P), $ 25.95

يقدم هذا الكتاب نموذجاً من فكر التيار اليمينى المتطرف فى السياسة والمجتمع الأمريكى. فمؤلفه هو بات بوكانان مرشح الرئاسة الأمريكية الأسبق والذى ترك الحزب الجمهورى وأسس حزب الإصلاح. عمل بوكانان مستشاراً لثلاثة رؤساء أمريكيين سابقين هم نيكسون وفورد وريجان. يقول بوكانان فى كتابه «المؤرخون سوف يطلقون على قرص منع الحمل قرص انتحار الغرب» تعبيراً عن قلقه من تناقص السكان البيض فى المجتمع الأمريكى والمجتمعات الأوروبية فى مقابل الهجرات المتزايدة من غير البيض التى يخشى بوكانان أن تحول أمريكا إلى دولة من دول العالم الثالث. ينادى المؤلف بضرورة عودة أمريكا إلى أصولها المسيحية - البيضاء، منددا بانتشار الشذوذ الجنسى وزيادة معدلات الإجهاض والطلاق فى المجتمع الأمريكى.

«شـعـر»

حكمة العرب أو أنوار العقل

ماجد مصطفى الصعيدى

القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠١

يلبى هذا الكتاب احتياجات الدارسين والمحبين للشعر على السواء فهو يقدم مختارات من روائع الشعر العربى عبر مسيرته الطويلة، مختارات لابن عربى وأبى نواس والشريف الرضى وابن الفارض والفرزدق وأبوتمام وابن الرومى وغيرهم، كما يقدم تراجم مختصرة لهؤلاء الشعراء تلقى أضواء على حياتهم ويخص المتنبى وأبوالعلاء المعرى بقسمين فى كتابه.

■■■

من قال إنى يوسف

يوسف الشايب

فلسطين: دار الزهرة، ٢٠٠١

عشر قصائد وترنيمتان يقدمهما الشاعر الفلسطينى فى ديوانه الجديد، لا يغيب عنها البُعد الفلسطينى بطبيعة الحال ولا واقع الشعب الفلسطينى تحت الاحتلال.

■■■

يلزم بعض الوقت

زهرة يسرى

القاهرة: كتابات جديدة - هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠١

فى القسم الأول من الديوان تعرض لنا القصائد نماذج مهمشة هشة تعيش على هامش المجتمع ولا يعبأ كثيرون بأحزانها وانكساراتها، وفى القسم الثانى تغوص فى غمار النفس الإنسانية وتعقيداتها فى مزج ضرورى بين الذاتى والموضوعى.

«علم نفس»

التاريخ الإجرامى للجنس البشرى

كولن ولسن

ترجمة: رفعت السيد على

القاهرة: دار حور، ٢٠٠١

الدافع الإجرامى ليس شذوذاً أو جنوحاً لفعل الشر أكثر من فعل الخير بقدر ما هو مركب طفولى وميل يدفع إلى الاستسهال والاختصار، هو نزعة للحصول على شىء مقابل لا شىء، وأعتى المجرمين هم أشخاص ذاتيون تماماً. والمجرم ليس إلا شخصاً بالغاً يحيا ويسلك فى حياته سلوك الأطفال. هذا جوهر ما يؤكده الكتاب عبر دراسات نظرية ونماذج تطبيقية.

«عـلـوم»

العلم فى مجتمع حر

جاول فير آبندى

ترجمة: السيد نفادى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

ليس العلم حكرًا على الغرب، وقد كان العالم الإسلامى فى عصور الظلام الأوروبى نبراسًا لتقدم الغرب وازدهاره علميًا وفكريًا، ولكن وقوع العالم الإسلامى أسيرًا للاستبداد السياسى أثر سلبًا على مسيرته العلمية والفكرية، إذ يحتاج التقدم العلمى إلى قيم الحرية والتفكير المنطلق، بعيدًا عن السلطة الاستبدادية.

■■■

ما بعد المعلومات - التاريخ الطبيعى للذكاء

توم ستويز

ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

ليس الذكاء حِكْرًا على الإنسان، بل للنبات ذكاؤه وللحيوان كذلك. الكتاب يشرح هذا ويركز على مستويات الذكاء عند الإنسان والتى دفعته إلى أن يصمم أرقى الأجهزة ذكاءً وتعقيدًا، ويقدم فصلاً عن الكمبيوتر واستخداماته ودوره فى تنمية الذكاء الإنسانى.

■■■

هكذا تحدث كارل ساجان

سمير حنا صادق

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠١

قراءة فى عدد من الأعمال المهمة لعالم الفلك الأمريكى الشهير كارل ساجان الذى رحل فى ديسمبر ١٩٩٦. ويقدم المؤلف فى هذا الكتاب مختارات من ثلاثة كتب لساجان هى «مخ بروكا» و«تنينات عدن» و«بلايين وبلايين» ويتساءل ساجان بعد تتبعه للعديد من الظواهر الطبيعية والبيئية وتدخلات الإنسان فيها: هل من نهاية لهذا التلاعب بالكون؟

■■■

Bright Earth: Art and the Invention of Color

(الأرض الساطعة: الفن واختراع اللون)

Philip Ball

Farrar, Straus & Giroux, 2002, 384P, $ 27.00

مؤلف هذا الكتاب ليس فنانًا وإنما عالم بريطانى فى الكيمياء والطبيعة، ولكنه ينتمى إلى تلك الطائفة من العلماء الذين لديهم أسلوب أدبى وقدرة على الكتابة عن العلم بشكل يجذب جماهير القراء غير المتخصصين فى العلوم.

وفى هذا العمل «العابر للتخصص» يتحدث فيليب بول عن الأساس الفيزيائى لتطور فنون التصوير والذى يتلخص فى «اللون». فتاريخ الفن وإبداعات كل عصر من عصوره مرتبط بالألوان التى كانت متاحة فى ذلك الوقت للفنانين، وما تم التوصل إليه من خلال الابتكارات العلمية والتصنيعية.

■■■

Wild Health: How Animals Keep Themselves Well and What We can Learn from Them

(الصحة البرية: كيف تحافظ الحيوانات على صحتها وماذا يمكن أن نتعلمه منها)

Cindy Engel

Houghtoon Mifflin, 2002, 288P, $ 24.00

جمعت المؤلفة مجموعة هائلة من الملاحظات والدراسات المعملية عن كيفية معالجة الحيوانات لأنفسها من الأمراض، وذلك من خلال عملها كمحاضرة فى العلوم البيئية فى إحدى جامعات المملكة المتحدة.

«فكـر»

تلك العتمة الباهرة

الطاهر بن جلّون

ترجمة: بسام حجار

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠١

يقدم الأديب المغاربى الحائز على جائزة جونكور الأدبية الفرنسية ما يشبه الشهادة عن تجربته داخل سجن «تزمامارث» وكيف أثرت هذه التجربة على حياته وأفكاره وإبداعه الذى يركز على الحريات السياسية ويتحسس حدودها وقيودها داخل الوطن العربى.

■■■

أعلام فى حياتنا

نعمات أحمد فؤاد

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

تخيَّرت الكاتبة مجموعة من رموز العلم والأدب والفكر المصريين لتتحدث عن دورهم فى الحركة التنويرية المصرية وإسهاماتهم فى إثراء وجدانها وتنمية ملكاتها النقدية ومنهم مصطفى لطفى المنفلوطى والمهندس حسن فتحى والدكتور محمد أحمد خلف الله والفنان حامد سعيد والشيخ محمد الغزالى.

■■■

رحلة فى فكر طه حسين

مجاهد عبدالمنعم مجاهد

القاهرة: دار الثقافى للنشر والتوزيع، ٢٠٠١

لم يكن طه حسين مفكراً عاديًا، كان ظاهرة ونسيجًا وحده فى الثقافة العربية، ومثلت إسهاماته فى النقد الأدبى والفكر الدينى علامات مهمة فى مسيرة هذه الثقافة، وقد ملأت كتاباته الدنيا وشغلت الناس، خصوصاً كتابيه «فى الشعر الجاهلى» و«مستقبل الثقافة العربية» المؤلف يتابع عبر عناوين أربعة هى «انكسار الثورة العقلانية» و«جدل العقل العمل والتاريخ» و«النقد الأدبى والرؤية الجمالية» و«جدل الأدب والحياة» مسيرة هذا المفكر العملاق.

«فكـر دينى»

المقدمة فى الصلاة على النبى

حسين أحمد شبل

القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ٢٠٠٢

سبعة عشر فصلاً عن أصل الصلاة على النبى وفضلها استنادًا إلى الآية الكريمة «إن الله وملائكته يصلون على النبى» ويتناول المؤلف الأحاديث الصحيحة الواردة فى الصلاة على النبى، ومعنى الصلاة الإبراهيمية وكيفية الصلاة على النبى للحصول على أجرها كاملاً.

■■■

مشاكل الأقباط فى مصر وحلولها

نبيل لوقا بباوى

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠١

عشر مشكلات من وجهة نظر المؤلف تؤرق حياة الأقباط فى مصر أهمها إهمال الكنائس أو عدم وضع خطة واضحة لترميم القديم منها، وعدم التركيز على الحقبة القبطية فى التاريخ المدرسى، وكذلك تمثيل الأقباط فى البرلمان وفى الحكومة والمناصب الإدارية العليا، ويقدم المؤلف حلولاً لتلك المشكلات من وجهة نظره.

■■■

Why Religion Matters: The Fate of the Human Spirit in an Age of Disbelief

(أهمية الدين: مصير النفس الإنسانية في عصر اللا إيمان)

Huston Smith

Harper San Francisco, 2000, 304PP., $25.00

يؤكد هيوستن سميث وهو من أهم أساتذة الأديان المقارنة في الولايات المتحدة على أهمية البعد الديني في الحياة الإنسانية سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات أوالحضارات. وهو يقسم التاريخ إلى ثلاث مراحل: المرحلة التقليدية والمرحلة الحديثة ومرحلة ما بعد الحداثة. وبالرغم من أننا نعيش في مرحلة ما بعد الحداثة إلا أن سميث يرى أن المستقبل يجب أن يتجه إلى المرحلة التقليدية لأن الحداثة وضعت النفس الإنسانية في نفق مظلم بالإصرار على مادية الواقع. يقول هيوستن: إن العلم.. أداة الحداثة، لم يُجب عن أسئلة الإنسانية الوجودية التي لخصها جوجان في عنوان لوحته الشهيرة: «من نحن؟ من أين أتينا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟».

فنون

الأنا ـ الأخر ازدواجية الفن التمثيلي

صالح سعد

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠١

مسارات عديدة سلكها فن التمثيل العربي يحصرها المؤلف، مشيراً إلى بداياته وتطوره عبر العقود وأهم الرموز التي قادت هذا التطور، والإسهامات المهمة لفن التمثيل في المسرح والسينما واتجاهات مقارنة بمثيلاتها في الغرب.

■■■

ثورة الحجارة

ألفريد فرج

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

سيظل نضال الشعب الفلسطيني البطل في الأرض المحتلة ملهمًا لكثير من المبدعين في طول الوطن العربي وعرضه، وفي هذا النص يقدم المؤلف مسرحية تجسد رؤاه لثورة الحجارة التي تواجه بشجاعة نادرة عنفًا أعمى تمارسه آلة عسكرية جبارة لا تتورع عن استخدام أساليب القتل والتنكيل.

■■■

ملامح التغيير في القصص الشعبي الغنائي

إبراهيم عبدالحافظ

القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، ٢٠٠١

دراسة لأهم التحولات التي طرأت على فن الإنشاد الديني والقص الشعبي، ودور العوامل الاقتصادية والثقافية والسياسية في هذه التحولات، وتأثير تجارة الكاسيت على كساد هذا الفن وتتضمن الدراسة جانباً تاريخيًا يتتبع رحلة هذا الفن حتى اليوم.

■■■

Leonardo's Incessant Last Supper

(العشاء الأخير لليوناردو)

Leo Steinbery

Zone Books, 2001, (321P), $ 43.00

مؤلف الكتاب أستاذ فخري بجامعة بنسلفانيا ومؤرخ فني مشهور من خلال كتبه التي تنال قدرا كبيرا من اهتمام ومناقشة النقاد والدارسين. يتناول ستينبرج في كتابه الأخير لوحة «العشاء الأخير» الشهيرة لليوناردو دافنشي محللاً مكانتها في الفن الغربي والوجدان المسيحي، ومحللاً للمعنى الذي أراد ليوناردو أن يبرزه فيها، وهو الأمر الذي طالما كان مثار جدل طويل من جانب النقاد.

■■■

Churches

(الكنائس)

Judith Dupre

Mario Botta (Introduction)

Harper Collins, 2001, 160 PP., $ 35.00

الكنيسة عمل فني يعكس عظمة موضوعه. وفي هذا الكتاب تقدم المؤلفة رحلة معمارية وفنية تضم ستين من أهم كنائس العالم. ما بين «البانثيون» في روما إلى «العائلة المقدسة» في برشلونة و«الكاتدرائية البلورية» في كاليفورنيا. كذلك تضم الكنائس الجميلة التي شيدها معماريون معاصرون مثل فرانك لويد رايت وماريو بوتا، وكنائس أقل شهرة مثل «كنيسة فوق الماء» الواقعة في هوكايدو باليابان.

يشمل الكتاب المعلومات التاريخية والدينية عن الكنائس التي يتناولها، وتحليل فني يقدم بشكل بسيط للقارئ العادي بجانب طائفة كبيرة من الصور الفوتوغرافية البديعة.

لغة

التصوير الطيفي للكلام

سعد مصلوح

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠١

دراسة فيزيائية لأصوات اللغة وتعريف بالأجهزة الحديثة التي يبتكرها العلماء لدراستها وفي مقدمتها الراسم الطيفي للأصوات والذي يسمى «المطياف» الذي كان له أثر كبير في تطوير الدراسة الصوتية وربطها بكثير من المجالات العلمية والتطبيقية مثل هندسة الاتصال وتخليق الكلام وأمراض النطق والسمع وغيرها.

■■■

النحو للجميع

حافظ جلال

القاهرة: دار المقطم، ٢٠٠١

تبسيط لقواعد النحو يجعل استخدامها يسيراً سواء لمن يحترفون مهنة الكتابة أو سواهم ممن يتعاملون مع القلم، وهي فكرة تابع المؤلف نشرها على مدى سنوات في جريدة أخبار الأدب بالقاهرة.

مذكرات وسير

الخروج من النفق المظلم ـ معالم سيرة ذاتية

عبد العزيز المقالح

اليمن: دار العفيف الثقافية، ٢٠٠١

عن رحلة الشاعر والمفكر اليمني أحمد حسين مروني ونشأته في مدارس اليمن وبعثته التعليمية في بغداد وتأثيرها على فكره النضالي وحياته ومحاولاته الدائمة للتغيير ومشاركاته في ثورات ١٩٤٨ و١٩٥٥ و١٩٦٢، وتقلده لمناصب قيادية ونضاله المستمر للنهوض بالشعب اليمني حتى وفاته.

■■■

الدنيا أجمل من الجنة

خالد البري

بيروت: دار النهار، ٢٠٠١

يروي المؤلف مذكراته في السجن عندما كان عمره أربعة عشر عامًا والذي ألقي فيه بتهمة الانتماء للجماعات الإسلامية، والتحول الذي طرأ على روحه وفكره ونفسيته في هذه السنوات الخمسة التي قضاها في السجن.

■■■

ذكريات الأدب والحب

سهيل إدريسي

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

يقدم صاحب «الحي اللاتيني» وناشر العشرات من الروايات والأعمال الأدبية الناجحة العربية والمترجمة، ذكرياته في الأدب والحب التي لا يغيب عنها بطبيعة الحال البعد السياسي والاجتماعي.

■■■

Searching for Hassan: An American Family's Journey Home to Iran

(البحث عن حسن: رحلة عائلة أمريكية إلى إيران)

Terence Word

Houghton Mifflin, 2002, 366P, $ 23.00

في عام ١٩٩٨ قامت عائلة «وارد» الأمريكية برحلة إلى إيران بحثًا عن طاهٍ إيراني يدعى حسن كان يعمل في منزلهم في إيران عندما كانوا مقيمين هناك في الستينيات.

يستخدم المؤلف تلك الرحلة خيطًا روائيًا ومن خلالها يتكلم عن التاريخ والدين والثقافة والسياسة في إيران.

■■■

My Stroke of Luck

(ضربة حظي)

Kirk Douglas

Morrow, 2002, 208P, $ 22.95

تعرض كيرك دوجلاس وهو أحد ألمع نجوم هوليوود منذ الأربعينيات إلى أزمة قلبية منذ عدة سنوات أدت إلى عجزه عن الكلام. والآن وفي سن الرابعة والثمانين، يكتب دوجلاس عن رحلته في العلاج وتماثله للشفاء، مستعينًا بذكرياته وأصدقائه ومن ضمنهم الرئيس رونالد ريجان والمطرب الراحل فرانك سناتر وأسرته في التغلب على الاكتئاب الذي كاد أن يودي به إلى الانتحار.

■■■

Selkirk's Island: The True and Strange Adventures of the Real Robinson Robinson Crusoe

(جزيرة سلكيرك: المغامرات الحقيقية والغريبة لروبنسون كروزو الحقيقي)

Diana Souhamp

Harcourt, 2002, (248P), $ 24.00

استوحى دانييل ديفو رواية «روبنسون كروزو» الشهيرة التي ألفها عام ١٧١٩ من القصة الحقيقية لبحار سكوتلاندي يدعى ألكساندر سلكيرك.

هذا الكتاب يروي قصة هذا البحار الذي ولد في أسرة فقيرة وحلم بالثراء الذي يجلبه السفر، فالتحق عام ١٧٠٣ وهو مازال في الثالثة والعشرين بسفينة قرصان سيىء السمعة يدعى ويليام دامبير. وأثناء الرحلة الشاقة ومع فظاظة وقسوة القرصان تمرد سلكيرك عليه، مما جعلهم يتخلصون منه عن طريق وضعه وحيدًا على شاطئ جزيرة جوان فرنانديز التي تبعد مئات الأميال عن جزيرة شيلي. وهناك عاش سلكيرك أربع سنوات من العزلة قبل أن تنقذه سفينة تابعة أيضًا للقرصان دامبير.

نقد أدبي

The Representation of Business in English Literature

(صورة النشاط التجاري في الأدب الإنجليزي)

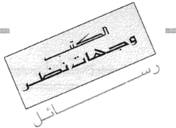
Arthur Pollard (editor)

Institute of Economic Affairs, 182PP, £12(pb)

في بعض الأحيان صوّر الأدب الإنجليزي النشاط التجاري بشكل من التعاطف والإعجاب، ولكن في معظم الأحيان كان الكتّاب يميلون إلى إعطاء النشاط التجاري صورة سلبية، وتظهر في أعمالهم شخصية رجل الأعمال متصلة بصفات الفساد أو القسوة أو البخل والخلو من المبادئ. البحث عن السبب وراء هذه الظاهرة دفع «معهد الشئون الاقتصادية» إلى تمويل هذا الكتاب الذي يحتوي على مجموعة من المقالات التي تناقشها، ولكن الدراسات أكدت مخاوف المعهد الذي يسعى إلى تشجيع الاقتصاد الحر، حيث وجدت بالفعل أن معظم الكتّاب انتقدوا رأسمالية السوق باستثناء بعض الأعمال القليلة لماندفيل وشو وجون داير. كما أظهرت أن الهدف لا يكون في الغالب مهاجمة شخصية رجل الأعمال كفرد، وإنما نقد المؤسسات والعمليات التي تتحكم في توزيع الموارد في المجتمع توزيعاً غير عادل.

ويؤكد مدير المعهد في مقدمة الكتاب أن هؤلاء التجار هم الذين طالما وفروا الرعاية للفن والآداب. ويتساءل «لماذا يبصق الروائي على السوق ويحتقر مؤسساته.. ويسعى إلى عض اليد التي تطعمه؟»

■■■



بين عبد الوهاب وفريد الأطرش

لو امتد العمر بالفنانين الراحلين محمد عبدالوهاب وفريد الأطرش لشعرا بسعادة بالغة بشأن الجدل الذى دار على صفحات مجلة «وجهات نظر» فى أعدادها الأخيرة والذى بدأ بمقالة للأستاذ نبيل حنفى محمود ثم تعليق من الأستاذ إلياس سحاب. رأى كاتب المقالة الأصلية أنه يستوجب ذلك التعليق الذى نعتقد أنه كافٍ لإنهاء هذا الحوار.

المحرر

طالعت فى باب «رسائل» بعدد يناير ٢٠٠٢ من «وجهات نظر» رسالة السيد: إلياس سحاب التى تضمنت العديد من الملاحظات حول مقالى «فريد الأطرش.. نغم فى حياة العرب» والذى نشر بعدد أكتوبر ٢٠٠١، وإن أوضح ما شد انتباهى منذ أن طالعت السطور الأولى لتلك الرسالة هو مدى الحدة والنبرة المتعالية التى وسمت حديث كاتب الرسالة.

إن أغرب ما جاء برسالة الكاتب واسترعى انتباهى منذ قراءتى الأولى لها.. هو خلوها من ذكر أى مرجع أو مصدر يمكن لقارئها الركون إليه للتحقق مما طُرح بها من قضايا، إذ لم يكن هناك سوى إشارة عرضية إلى أرشيف أحد الهواة المنقطع الصلة بما جاء بمقالى، كان هذا فى مقابل ما ضمّه مقالى - موضوع هجوم الرسالة - من مصادر أثبتها فى ختامه. لكن ملاحظتى الثانية والأخيرة على هذه الرسالة تنطوى على ما هو أعجب، فقد تجنب كاتب الرسالة تمامًا مناقشة ما استعنت به في مقالى من آراء لموسيقيين ونقّاد والتفّ حولها بحثًا عن قضايا فرعية خطط لعرضها فى رسالته، وبالرغم من ذلك.. فقد اخترت أن يكون الرد على ما جاء بتلك الرسالة من خلال تفنيد ما حوته من ملاحظات.. مستعينًا فى هذا بآراء أهل العلم بالموسيقى من علماء ونقاد، ولاعتقادى بأن ما قصد إليه الكاتب من رسالته هو الملاحظات الأربعة التى أوردها تحت مسمى «التحليل الفنى والقيم الثقافية»، فإننى سأبدأ بالرد على تلك الملاحظات الأربعة بعد أن أضم إليها ما أورده الكاتب عن قصيدة «عدت يا يوم مولدى» فيما أسماه بملاحظاته على معلومات مقالى المذكورة، وبعد ذلك.. فإننى ساعرض فى عجالة سريعة لما أثاره كاتب الرسالة من ملاحظات عن معلومات مقالى.

فى أولى ملاحظاته التى انصبت على دور فريد الأطرش فى تطوير الموسيقى العربية، يقول كاتب الرسالة بأن مقالى استهدف «منح حجم معين ودور معين لفريد الأطرش فى تطوير الموسيقى العربية جعله سابقًا لعبد الوهاب فى هذا المجال أو منافسًا وحيدًا له». ويعيب كاتب الرسالة على مقالى أنه أهمل ما قدمه رواد عمالقة فى هذا المجال مثل محمد القصبجى ورياض السنباطى ومحمد فوزى وآخرين.. خاصًا الشيخ زكريا أحمد بملاحظة جانبية وضعها بين قوسين مفادها أننى أغفلت ذكره نهائيًا، والرد على هذه الملاحظة يبدأ بمناقشة ما قاله من أن مقالى قد منح فريد الأطرش دورًا فى تطوير الموسيقى العربية سابقًا لعبد الوهاب أو منافسًا وحيدًا له، والحقيقة أننى لست القائل بذلك وإنما أشرت فى مقالى إلى آراء منشورة لكل من د. رتيبة الحفنى وكمال النجمى. فى كتاب «محمد عبد الوهاب.. حياته وفنه» تقول د. رتيبة الحفنى فى الصفحة رقم «٨٩»: «كان فريد الأطرش منافسًا لعبد الوهاب الذى ابتعد عن المسرح والسينما وأصبحت ساحة الطرب خالية له، وكان لفريد شعبية كبيرة وكان الإقبال على أفلامه إقبالاً عظيمًا وهى التى كانت تضم أجمل الاستعراضات الغنائية الراقصة، وكان يخطو نفس خطوات عبد الوهاب: فى الاستعانة بالإيقاعات الغربية.. والاقتباس من الموسيقى العالمية، وبدأ عبد الوهاب يجارى فريد الأطرش وينافسه فى تقديم الأغانى القصيرة ذات الإيقاعات الغربية المرحة»، ولم يختلف ما قاله كمال النجمى فى الصفحة رقم «٨٠» من كتابه «الغناء المصرى - مطربون ومستمعون» عن هذا التنافس بين المطربين الكبيرين كثيرًا عما أوردته د. رتيبة الحفنى، كان التنافس الذى أشار إليه كل من د. رتيبة الحفنى وكمال النجمى يدور حول الاستعانة ببعض الإيقاعات الغربية فى تحديث الأغنية العربية، وهو ما لم يفعله بعض من أشار إليهم كاتب الرسالة طوال عمرهم الفنى (مثل الشيخ زكريا أحمد وأحمد صدقى ورياض السنباطى).. أو جاء إسهام البعض منهم فى ذلك تاليًا لما قدمه فريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب (مثل محمد فوزى وكمال الطويل وآخرين)، ولقد أضافت د. سمحة الخولى «العميد السابق لمعهد كونسرفتوار القاهرة» إلى ذلك رأيها المنشور فى الصفحة رقم «٢٩٥» من كتابها «القومية فى موسيقا القرن العشرين» والذى قالت فيه: «فهى التى (أى الإذاعة المصرية) بلورت وكرّست تيارات التلحين الغنائى: المحافظة أو المعتدلة التجديد من جانب مثل ألحان زكريا أحمد والسنباطى والقصبجى والتى سحرت بها أم كلثوم بصوتها الفذ جماهير المصريين والعرب قرابة نصف قرن - أو التيارات «المغرقة فى التجديد» والأخذ السطحى من الغرب من جانب آخر، مثل فريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب ومدرسته الممتدة لعبد الحليم حافظ وغيره»، وهنا.. وإن كان رأى كل من د. رتيبة الحفنى وكمال النجمى محايدًا ومرحباً بتلك التجربة.. بينما كان رأى د. سمحة الخولى رافضًا لها ومنددًا بها، إلا أن الجميع اتفقوا على وضع فريد الأطرش جنبًا إلى جنب مع محمد عبد الوهاب فى هذا المضمار.. إن لم يكن سابقًا له، بل إن موسيقيًا كبيرًا كبليغ حمدى يرى أن: «فريد الأطرش كان مرشحًا - أكثر من غيره - للخروج بالموسيقى الشرقية من آفاقها المحلية إلى المجال العالمى» وذلك فيما طرحه من آراء فى كتاب «فريد الأطرش بين الفن والحياة».

فى ملاحظته عن عالمية ومحلية الموسيقى العربية.. (ينبه) كاتب الرسالة إلى خطورة مفهوم ربط قيمة أى إبداع موسيقى عربى بترديد الغربيين له، ولم يقل لنا ما هو المفهوم الصحيح لتقييم الإبداعات الموسيقية العربية، هل يتم ذلك بالانغلاق والانعزال - فى عصر العولمة - عما حولنا من موسيقات؟، إذن كيف يستقيم ذلك مع ما تحققه بعض الموسيقات القومية (كالموسيقى الهندية) من نجاحات عندما تغزو أسماع الناس فى الشرق والغرب على حد سواء؟، إن عالمية الإبداعات الفنية تكمن أساسًا فى انتشارها بين الناس فى مشارق الأرض ومغاربها، وإلا كيف كان العالم سيعلم شيئًا عن نجيب محفوظ قبل حصوله على جائزة نوبل دون انتشار أعماله وترجمتها إلى العديد من اللغات الحية؟

ثم كانت ملاحظة الكاتب عن عزف فريد الأطرش على آلة العود، فبعد أن أطلق قنبلة دخان تمثلت فى تشكيكه فيما ذكرت بمقالى عن منح فريد الأطرش جائزة أحسن عازف على آلة العود فى مسابقة أقيمت فى تركيا عام ١٩٦٢، فإنه ينتقل بعد ذلك إلى ما يريد الانقضاض عليه والانتقاص منه من ملكات هذا الرائد وهو مهارته غير العادية فى العزف على العود. يبدأ كاتب الرسالة هجومه بتعريف عناصر الموهبة عند عازف العود والتى تتمثل فى مقدرة كل من اليد اليمنى واليد اليسرى على تنفيذ المهام المطلوبة على أوتار العود، وبعد أن يقول: «إن القيمة الأساسية لفريد الأطرش، إنما تستند إلى القوة التقنية الممتازة فى يده اليمنى»، فإنه يعود ليسلب ذلك من يده - أى يد فريد - اليسرى التى يقول إنها: «المسئولة عن إظهار سعة الخيال الموسيقى وعمق الإحساس» ليؤكد أنها أقل فى مهارة العزف من يده اليمنى مما يجعل خياله فى التقاسيم محدودًا (!)، ويدلل كاتب الرسالة على ذلك بقوله: «بدليل أن هناك تشابها غريبًا من كل تسجيلات تقاسيم فريد الأطرش».

إن تفنيد ما أثاره كاتب الرسالة فى ملاحظته السابقة سوف يبدأ بالرد على تساؤله عن مصدر معلومة الجائزة التركية لأحسن عازف على آلة العود، وعن ذلك أقول.. لقد استمعت إلى نبأ تلك الجائزة حال منحها لفريد الأطرش فى عام ١٩٦٢ من إذاعات القاهرة وعمّان، وقد أوردها أيضًا الكاتب / عبد الكريم الجوادى فى كتابه «فريد الأطرش» الذى صدر عن كل من دار الكتاب العالمى ببيروت ومكتبة الاشتراكى ببغداد فى عام ١٩٩٢، ولكنى سأدع مهمة الرد على فرية «تقنية اليد اليسرى» هذه للمختصين. يقول الموسيقار بليغ حمدى فى الصفحة رقم «٦٦» من كتاب «فريد الأطرش بين الفن والحياة» عن حكاية أن خيال فريد الأطرش فى التقاسيم كان محدودًا: «إننى أذكر القارئ مبدئيًا بأن فريد الأطرش كان عازفًا بارعًا على آلة العود.. إن لم يكن هو أعظم عازف فى العالم العربى كله، ولأنه لم يكن مجرد عازف.. وإنما كان موسيقيًا وبالتالى فهو يفكر فيما يعزفه».

إن إعجاز عزف فريد الأطرش على آلة العود يتجلى فى عدد كبير من الأدوار المنفردة (الصولوهات) والتقاسيم التى ضمنها الكثير من أغنياته وسجلت فى كثير من جلساته الخاصة، إن التشابه الغريب الذى يقول كاتب الرسالة أنه لاحظه فى كل تسجيلات تقاسيم فريد الأطرش على العود.. إنما يرجع إلى أنه لم يستمع إلا إلى التسجيلات المتداولة لحفلاته والتى كان دائمًا ما يقدم فيها مقطوعة «أستورياس٦» نزولاً على رغبة جمهوره، ولكن تقاسيم فريد فى أغنياته الكثيرة كانت شيئًا مبتكرًا وعبقريًا، ولنضرب مثلاً هنا بتقاسيمه الشجية فى مقدمة تسجيله الأول لأغنية «أول همسة» والذى أذيع من إذاعة القاهرة فى ١٩٤٩/٥/٦.. وتقاسيمه الساحرة قبل مقطع «ساعة هَنا.. لو تصفالك تنسى معاها الكون كله» من أغنيته الخالدة «ليالى الأنس»، من منا لم يستخفه الطرب حين يستمع إلى فريد الأطرش يعزف على العود اللحن الأساسى لأغنية «بنادى عليك» فى أحد مشاهد فيلمه «لحن الخلود»؟، كان هذا العزف مبهرًا حتى لقد بدا مميزًا على أداء الفرقة الموسيقية له، إن عود فريد الأطرش يعادل فى يده إمكانات فرقة موسيقية كاملة، وهو ما تشهد به تسجيلات العديد من أغنياته التى قدمها فى جلسات خاصة بمصاحبة عوده مثل «وياك - قلبى ومفتاحه - الربيع - عينيه مهما قالوا عنك وغيرها كثير».. حتى ليتمنى المرء لو أنه سجلها بعوده فقط.

فى ملاحظته الأخيرة التى ضمنها قسم التحليل الفنى والقيم الثقافية.. يقول كاتب الرسالة بأن «التوفيق لم يخن كاتب المقال كما خانه فى هذه المسألة بالذات»، وهو يعنى ما تضمنه مقالى عن «تمسك فريد الأطرش بالنطق الصحيح للغة العربية» والذى صوّره كاتب الرسالة ليصبح «مسألة تميز فريد الأطرش فى نطق الأحرف العربية»، ولعل القارئ يدرك الآن مدى عدم دقة كاتب الرسالة فى قراءة وفهم ما يكتبه الآخرون، فقد ذكرت فى مقالى «تمسك فريد الأطرش



بالنطق الصحيح للغة العربية»، ونقلها ـ لا فض فوه ـ لتصبح «مسألة تميز فريد الأطرش فى نطق الأحرف العربية» وبالرغم من ذلك.. فإننى أقدم لكاتب الرسالة أدلتى على «تمسك فريد الأطرش بالنطق الصحيح للغة العربية» وأترك للقارئ أن يحكم بيننا. فى حديث للأستاذ الدكتور/ أحمد كشك ـ أستاذ اللغة العربية وعميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة أدلى به لإذاعة «صوت العرب» فى برنامجها المفتوح عصر يوم ١٩٩٣/١٢/٢٦.. تناول أستاذ اللغة العربية الخصائص اللغوية لغنائيات فريد الأطرش بالشرح والتحليل، وسوف أتوقف هنا عند واحدة منها وهى خاصية «المد» فى اللغة العربية وكيف حافظ عليها فريد الأطرش فى غنائياته وذلك فى إطار تمسكه بالنطق الصحيح للغة العربية كما ذكرت فى مقالى، يقول الدكتور كشك: «فريد الأطرش كان يملك فى إطار غنائياته إدراكًا كاملاً بقيمة المد، باعتبار المد لديه قُفلاً لمقطع يستطيع أن يتحرك بصوته فيه، إن عذوبة فريد الأطرش فى غنائياته تبين حقًا عندما يصل فى جملته الأدائية إلى صوت المد، هنا يبدأ أو يظهر فريد الأطرش.. تُحسُّ به فى ختام المقطع.. فى ختام قُفل الكلمة، فعلى سبيل المثال.. فريد الأطرش يغنى فى «بنادى عليك»: والحب من غير أمل.. أسمى معانى الغرام، عذوبة فريد الأطرش موجودة فى حروف الألف الموجودة فى نطق هذه الجملة، عندما يجد فريد واديًا لمساحات المّد يتحرك حركة لا حصر لها، وبالتحديد فى حرف الألف الموجود فى كلمتىّ «معانى» و«الغرام»، مساحات المّد لدى فريد لا يطرقها دون أن يستغلها الاستغلال الزمنى الموسيقى الكامل»، انتهى كلام الدكتور كشك وهو ليس مما يقرأ أو يكتب فى «المجلات الفنية المزدانة بصور الفنانات الفاتنات» كما يقول كاتب الرسالة، وهل بعد ذلك يجيء إلينا من يقول بأن «الأداء الغنائى لفريد الأطرش هوالحلقة الأشد ضعفًا فى سلسلة مواهبه الفنية المتعددة»؟، ولعله من المفيد أيضًا أن يطلع معى القراء على أحدث الآراء فى أداء فريد الأطرش الغنائى وهو للأستاذ محمد الكحلاوى ـ مساعد رئيس تحرير جريدة «الصحافة» التونسية، وهو الرأى الذى جاء فى مقال «هكذا انهارت دوائر الثراء فى الأغنية العربية» بالعدد الحادى عشر من جريدة «الفنون» الكويتية والصادر فى أول نوفمبر ٢٠٠١، يقول الأستاذ الكحلاوى واصفًا تجربة فريد الأطرش الغنائية: «مثل أغانى فريد الأطرش التى تجمع بين معانى الدراما والتعبير إلى عمق اللغة وتفرد الأسلوب».

كانت آخر ملاحظات كاتب الرسالة فى مجال التحليل الفنى ـ من وجهة نظرى ـ عن ما تضمنه مقالى عن قصيدة «عدت يا يوم مولدى»، يقول كاتب الرسالة بأننى حملت لحن القصيدة أحكامًا تفضيلية مطلقة على لسان كل من بليغ حمدى وكمال النجمى، ولم يناقش كاتب الرسالة ما قاله كل من بليغ حمدى وكمال النجمى عن القصيدة ونقلته عنهما موضحًا المصدر الذى نشرت به هذه الآراء، ليقول: «ولكن هل هو لحن وحيد فى لونه، لم يلحن أحد قبله أو بعده، قصيدة لها هذه الصفات، كما يوحى الكاتب؟، ولست أدرى من أين جاء كاتب الرسالة بهذا الحكم من أننى قصدت بما كتبت عن قصيدة «عدت يا يوم مولدى» أن أوحى بكل ما قاله، ولكن الحقيقة الواضحة من هذه النقطة وغيرها. أنه لا يستطيع أن يعقب على رأى منشور لموسيقار كبليغ حمدى أو لناقد كبير مثل كمال النجمى. وإنما يستطيع فقط أن يحرّف الحقائق ليمتشق كلمة ويدخل فى معارك وهمية ما أشبهها بتنازلات دون كيخوت لطواحين الهواء.

يتبقى هنا أن أرد فى عجالة سريعة على ما أطلقه كاتب الرسالة من دخان فى أول رسالته حينما تحدث وأسهب فى ملاحظاته على معلومات مقالى، ففى أول ملاحظتين وهما عن علاقة سيد درويش بمحمد عبد الوهاب ومكانة عبد الوهاب فى عالم الغناء بعد رحيل سيد درويش فى عام ١٩٢٣، فإننى أقول إن معلومات الجزء الأول من مقالى ـ والتى دارت حولها أول ملاحظتين لكاتب الرسالة ـ قد جاءت كلها من ثلاثة كتب «وليس من المجلات المزدانة بصور الفنانات» هى: «محمد عبد الوهاب ـ حياته وفنه» للدكتورة رتيبة الحفنى ـ «محمد عبد الوهاب ـ مطرب المائة عام» لكمال النجمى و«السبعة الكبار فى الموسيقى العربية المعاصرة» لفكتور سحاب، إننى لم أشر إلى هذه الكتب فى ثبت المصادر بمقالى وذلك لهامشية المعلومة، ومع هذا فإن كاتب الرسالة يستطيع أن يرجع إلى الصفحة رقم «١٤٨» من كتاب فكتور سحاب «الذى هو فى الأصل رسالة جامعية للحصول على درجة الماجستير فى التاريخ» ليتأكد من أن محمد عبد الوهاب قد عمل فى عام ١٩٢٣ مع سيد درويش فى أوبرا كليوباترا التى ألفها أحمد شوقى، أما ما تضمنه كتابى د. رتيبة الحفنى وكمال النجمى فقد كان توثيقًا لما قدمه عبد الوهاب فى عام ١٩٢٣ من أغنيات ساعدت على انطلاقه لتحيل مكان سيد درويش بعد وفاته كما ذكرت د. رتيبة الحفنى فى الصفحة رقم «٢٢» من كتابها وكما أكده أيضًا الأستاذ النجمى فى الصفحة رقم «٦٩» من كتابه.

فى ملاحظته الثالثة على معلومات مقالى.. يقول كاتب الرسالة إننى قد خلطت بين جنسية الملحن يحيى اللبابيدى وبين جنسية الإذاعة الفلسطينية التى كان يعمل بها، ولست أدرى هل أثرت جنسية يحيى اللبابيدى الأصلية أو موطن أسرته على كونه مؤلف وملحن أغنية «يا ريتنى طير»؟، أما الملاحظة الرابعة والتى دارت حول تاريخ بعض أفلام أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، فقد نشأ الخلط فيها عندما فهم كاتب الرسالة من مقالى أننى أعنى آخر ما مثل الاثنان من أفلام.. بينما كنت أشير إلى آخر ما قدماه من أفلام عند مطلع الأربعينيات.

انصبت الملاحظة الخامسة على أول من لحن دعوة غنائية للوحدة العربية، والتى يرى كاتب الرسالة أن هناك أغنيات كثيرة سبقت أوبريت «غناء العرب» لفريد الأطرش، وفى هذه الملاحظة.. فإن ما ذكره كاتب الرسالة من أغنيات كانت أغنيات مناسبات ولم تجسد الوحدة العربية بقدر ما جسدتها غنائيات فريد الأطرش التى جمعت اللهجات والإيقاعات والأزياء والأعلام فى عمل واحد، وفيما يعد امتدادًا للملاحظة الخامسة.. جاءت الملاحظة الأخيرة عن أجمل أغانى الوحدة المصرية ـ السورية، وإننى أتحدى كاتب الرسالة أن يستوقف أى عربى فى أية عاصمة عربية ليسأله عن اسم من تغنى بما ذكر من أغنيات إلى جانب اسم من تغنى بأغنيتىّ فريد الأطرش، فإن وجد عربيًا واحدًا يعرف أن فايدة كامل هى من تغنت فى مناسبة الوحدة بأغنية اسمها «على الأحباب سلام الله».. فإننى سأعلن على الملأ خطأ كل ما كتبت فى مقالى ولا أعود بعدها للكتابة أبدًا.

نبيل حنفى محمود
أستاذ مساعد بكلية الهندسة
جامعة المنوفية، وناقد موسيقى



بعد العاصفة

يزداد إعجابى دومًا بمجلتنا «وجهات نظر»، وخاصة كتابها الذين تعلمنا منهم الكثير، خاصة أننى عاشق للقراءة عن نضالات الشعوب من أجل حريتها، وقد أثارنى مقال الأستاذ هيكل «السياسة بين الحلم والإرادة» فى عدد نوفمبر الماضى، وأكتب إليكم عارضًا وجهة نظرى.

لقد فعلت أمريكا ما فعلته من تشريد وتقسيم لأفغانستان مرتين، المرة الأولى: أثناء الغزو السوفيتى المساند لانقلاب كارميل، والمرة الثانية: أثناء أحداث سبتمبر واستطاعت اختراق المجتمع الأفغانى بأسلوبها المعهود فى تقسيم الدول وأثارت الصراعات ونشرت بذور التعصب والتفرقة فى مختلف الأوطان، وذلك ليس بجديد، فهو فعل متكرر من تلك القوى الاستعمارية، ولكن رغم تكراره لا أحد يعى الدرس ولا يتعلم أحد من التجربة، ولقد نجحت أمريكا فى التربع فى المنطقة كما تربعت سابقًا فى الخليج وبدأت الصراعات على غنائم الحرب بين الكبار مبكرًا!

ونحن كعرب فى معزل عما يدور وسنظل كذلك ما دمنا لا نتعلم من التاريخ.

لقد شهدنا تقسيم فلسطين وصمتنا بل وتعاونت نظم عربية فى هزيمة الجيوش العربية وزرع الكيان الصهيونى ذلك الجسد الصديدى فى كيان الأمة العربية. ولم ندرك أن إسرائيل امتداد للغرب. وتكرر نفس الموقف المتخاذل فى غزو العراق وضربه المتكرر والذى يوضع اليوم فى خطة أمريكا أضف إليها اليمن والسودان التى لن تنجو من تلك السياسات وإن اختلفت التكتيكات المستخدمة فدورها آت. ولكن بعد إحكام السيطرة على أفغانستان وإخضاع الشعب الفلسطينى فى غرف التنازلات التفاوضية باسم السلام.

والحل للخروج من تلك الأزمة صعب ولكن ليس بالمستحيل فيجب علينا تدعيم ثقافة المقاومة بدلاً من ثقافة الاستسلام فالأمم التى تسقط وهى تقاوم تنهض ثانية أما الأمم التى ترضخ فلن تقوم لها قائمة، وهناك شواهد تاريخية تدعم ذلك وتشهد على نضالات الشعوب وتمسكها بالحلم.

عصام شعبان حسن تريك
أمين اتحاد الشباب التقدمى
أسيوط



مقالات الأستاذ هيكل

أحب أن أعرفكم أننى من أشد المعجبين بالأستاذ هيكل لأسلوبه الشيق ومعلوماته الوفيرة وخبرة السنين الطويلة والحرفية العالية فى كل ما يكتبه وحتى لا أطيل عليكم فأنا موظف فى البريد (ساعى بريد) ولكنى ذو ثقافة عالية حيث لم أكمل تعليمى لأسباب اجتماعية ولكنى أحب القراءة وأستعير كتبا من الأصدقاء.

وقرأت أن هناك كتابا جمع مقالات الأستاذ هيكل فى مجلة وجهات نظر وهى المقالات التى كانت تحكى عن القذافى والملك الحسن ملك المغرب، والملك حسين ملك الأردن.

ومجلة «وجهات نظر» على ما أسمع فى منتهى الروعة ولكنى لا أستطيع شراءها لأن كل مرتبى ١١٠ جنيهات شهريًا. ولذلك أرجو التكرم بإرسال نسخة من الكتاب أزين به مكتبتى المتواضعة.

محمد حسن على عطية
محافظة البحيرة ـ المعدية ـ مركز إدكو
الرقم البريدى: ٢٢٧٧٦

«وجهات نظر» سعيدة بهذه الرسالة وستقوم بإرسال كتاب الأستاذ هيكل إلى القارئ الكريم.

المحرر



نــون

صـــورة «الأمـــريكانى» فى العـــقل العـــربى!

لسنوات طويلة ظل الاهتمام العربي منصباً على تقصي الأسباب والأشكال التي تظهر بها صورة العربي في الخيال الأمريكي. وخرجت دراسات وأبحاث عديدة تحاول تفسير ما ينال هذه الصورة من تشويه وافتراء، تنعكس بصفة خاصة في الأدب والسينما ووسائل الإعلام بطريقة مثيرة. وتؤثر على وضع العرب والمسلمين في البيئة الأمريكية من خلال تعاملها معهم واحتكاكها بهم.. وبالأخص في أوقات الأزمات الحادة التي يتم فيها تعبئة الإعلام الأمريكي لحساب قوى الضغط المهيمنة في المجتمع الأمريكي. وكانت لتقلبات السياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط دائماً تأثيرات عميقة على تشكيل صورة العربي والمسلم في الوعي الأمريكي، سواء حين يُراد تحسينها أو تقبيحها، وكان تقبيحها هو الغالب في معظم الأحيان.

ولعل الشعوب العربية قد شعرت بعد أحداث سبتمبر، بضراوة الحملة الأمريكية المتعمدة على صورة العربي أو المسلم. ليس فقط كما يعيش ويتحرك في إطار الثقافة الأمريكية، بل بصفة عامة في الرؤية الغربية للحضارة الإنسانية المعاصرة.. فاختارت أن تبحث عن أوجه الخلاف والتضاد بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وأن تفسر ما وقع من هجمات إرهابية في أمريكا على أنها نتاج إخفاق العرب والمسلمين في اللحاق أو الالتحاق بالحضارة الغربية.. لا لسبب إلا لأن التركيبة التي تشكل هوية العربي المسلم، محكوم عليها - من وجهة نظرهم - بالتخلف والقصور والعجز، الذي سرعان ما يتحول إلى موقف عدائي ساخط من الغرب وإنجازاته وتفوقه.

ولم يكن من السهل رغم التخاذل الشديد الذي استقبلت به الحكومات العربية. حملات الافتراء والتشويه الغربية والأمريكية بصفة خاصة، أن تستكين جميع الأصوات والتيارات الرافضة في العالمين العربي والإسلامي. وكانت المفاجأة التي أفزعت الأمريكيين أنفسهم هي في السجال العنيف أحياناً الذي دار بين وسائل الإعلام الأمريكية ووسائل إعلام عربية، في محاولة لصد الحملات الأمريكية المغرضة، كشفت عن مشاعر عميقة من السخط وانعدام الثقة في «الصديق» الأمريكي، وأظهرت أن للأمريكي صورة أخرى في الوعي العربي شديدة القبح يصعب تجاهلها!



لا تحتاج صورة العربي في العقل الأمريكي إذن إلى الوقوف أمامها طويلاً.. العرب يعرفونها والأمريكيون والأوروبيون لا ينكرونها، بل يؤكدون عليها ولا يكفون عن إضافة الرتوش والملامح التي تبرزها وتثبتها في الذهنية الغربية. ولكن أحداث ١١ سبتمبر فتحت. بعد الصدمة الأولى. الباب أمام مناقشات حادة حول الأسباب التي أدت إلى سخط العرب والمسلمين على الولايات المتحدة الأمريكية وإلى تحول النظرة العربية إلى أمريكا في الاتجاه المعاكس، الأمر الذي أدى إلى ضعف التأييد والمساندة لأمريكا فيما تسميه حملتها ضد الإرهاب في معظم أرجاء العالم العربي.

ويعرف الأمريكيون عن يقين أن مصداقية أمريكا تكاد تكون قد طُعنت في الصميم. وزاد منها إصرار الحَكومة الأمريكية والإعلام الأمريكي على تجاهل الأسباب الحقيقية لموجة العداء والكراهية التي ظهرت ضد أمريكا في العواصم العربية والإسلامية، فالأمريكيون ليسوا على هذا القدر من السذاجة. وهم يواجهون في واقع الأمر تاريخاً طويلاً من الشكوك وانعدام الثقة، جعلت صورة الأمريكي في الخيال العربي صورة مركبة الملامح تخفي وراء القسمات الناعمة قدراً من الخداع والقسوة، ما دام الأمر يتعلق بالحصول على منفعة ما. فكل شيء مباح ما دام يحقق فائدة أو مكسباً مضموناً. ومفهوم الصداقة بالنسبة للأمريكيين مفهوم عابر، يفقد مصداقيته واستحقاقاته بمجرد زوال الأسباب الداعية له.

ولم يكن غريباً أن يطلق تعبير «أمريكاني» في المصطلح العربي الدارج على كل سلوك زائف يعتمد على المظهر دون الجوهر، وعلى الغلو في الإبهار الذي يعمي عن الحقيقة، سواء في الحياة اليومية أو في السياسة أو في فنون السينما والمسرح. وهو ما جعل فنون الاستعراض تصل إلى ذروتها في أمريكا من حيث الأداء والتأثير.. لتنتقل بعد ذلك إلى عالم السياسة الداخلية والخارجية.. حيث تصبح الانتخابات الرياسية مسرحاً عالمياً كبيراً تمارس فيه تقنيات الإبهار والتأثير اللحظيّ ودغدغة الحواس، بهدف تحقيق انتصار كاسح على الخصم. مع توظيف عوامل الخداع البصري، والتفوق الشديد في وسائل الإعلام وجمع المعلومات وتشكيلها وتوجيهها، بما يضمن ترويج الأفكار والآراء والمعتقدات التي تخدم الأشخاص وليس القضايا.

هذه الصورة التي تشكلت «للأمريكاني» في العقل العربي، لم تتكون دفعة واحدة. بل تطورت وتفاعلت على امتداد نصف القرن الأخير من القرن العشرين. فلم تكن علاقة الولايات المتحدة بالعالم العربي حتى بداية الحرب العالمية الثانية واضحة المعالم أو وثيقة الروابط. وقد ظلت أمريكا في الخيال العربي حتى الخمسينيات هي أرض الفرص للمهاجرين العرب حيث «ينمو الذهب على أغصان الشجر». ومن الناحية السياسية كان تبني الرئيس ويلسون في عام ١٩١٩ لحق الشعوب المقهورة في تقرير مصيرها، من الأمور التي جعلت العرب ينظرون إليها كنصيرة لنظام عالمي جديد يقوم على الحرية وحق الشعوب في الاستقلال. وروّجت أمريكا لهذه المبادئ بقوة حين انضمت إلى الحلفاء ضد المحور في الحرب العالمية الثانية. وحين وضعت الحرب أوزارها بهزيمة المحور، كانت الآمال الكبيرة التي تجيش بصدور حركات الاستقلال العربية لوضع نهاية للاحتلال البريطاني، تتعلق بقوة على دور لأمريكا في مساعدة الشعوب المقهورة.



ولكن التفاعلات التاريخية التي تلت هذه الحقبة، شهدت سلسلة متوالية من خيبات الأمل، ونقض الوعود، والمؤامرات التي لعبت فيها أطراف دولية كثيرة أدواراً من الخديعة والنفاق وازدواجية المعايير. وكان أول شرخ كبير أصاب صورة أمريكا في الوجدان العربي كنصيرة للحريات وحق الشعوب في الاستقلال حين أعلن الرئيس ترومان اعتراف بلاده بإسرائيل في مايو ٤٨ بعد ١١ دقيقة من إعلان بن جوريون لتأسيسها. وسقطت بذلك قيم كثيرة، ظل العرب يعلقونها على السياسة الأمريكية. ومنذ هذه اللحظة دخلت العلاقات العربية الأمريكية نفقاً مظلماً من التراجع والارتباك وسوء الفهم، التي تداخلت فيها عوامل الإعجاب والبغض، والتقارب والتباعد، والصلح والخصام، والثقة والارتياب. حتى كانت حرب ٦٧ التي انحازت فيها حكومة جونسون بالكامل وصراحة مع إسرائيل. وتخلّت أمريكا نهائياً عن مرحلة الاعتدال والتوازن التي ميَّزت عهد أيزنهاور، والتي حاول خلالها إثبات تمسك بلاده بمُثُل عليا لنظام أخلاقي دولي لا يولي اعتباراً للسياسات الحزبية أو لجماعات الضغط. ولم تتوقف السياسات الأمريكية بعدها عن الانحدار إلى حضيض الإذعان الصريح للنفوذ الإسرائيلي، الذي بدا وكأنه قد نجح في «اختطاف» الحكومة الأمريكية وإخضاعها لمصالح إسرائيل نهائياً.



تظل الصورة الأمريكية في العقل العربي، متعددة الأقنعة، ملتبسة الملامح، غامضة الوجوه. يصعب الركون إليها والوثوق بها. فهي في أفضل حالاتها تعبِّر عن فطرة سليمة، تحترم القيم الإنسانية، وتدافع عن حق الفرد في الحرية والمساواة، وتتميز بالدفء والرغبة في التفوق والنجاح. وهي في أسوأ حالاتها تبدو شديدة الأنانية، مجبولة على المنفعة والانتهازية، قادرة على تطويع كل شيء لخدمة أهدافها، مغترة بقوتها، تضع يدها على الزناد وهي تتكلم.

وما بين الدفاع عن الحرية وحقوق الإنسان، وبين الدعوة إلى مكافحة الإرهاب، غلفت السياسة الأمريكية أهدافها، وغيرت أقنعتها، وبدّلت مبادئها الأخلاقية. وكان هذا التناقض في توظيف المبادئ سبباً في تضارب السياسات واختلافها من مرحلة إلى أخرى بحسب ما تمليه المصالح. وهو ما يفسر كثيراً من مظاهر الصعود والهبوط واضطراب المعايير في العلاقات الأمريكية العربية.

ولكن بينما يسعى العرب والمسلمون إلى استكشاف ملامح الصورة العربية في العقل الأمريكي، والعمل على تصحيحها وتحسينها وتبديد ما يلحق بها من سوء فهم أو سوء نظر، «استجداءً» لعلاقات أمريكية عربية متوازنة، بحكم ما يستشعره العرب من حاجة لما يسمى «الصديق» الأمريكي.. فإن الأمريكيين لا يعبأون كثيراً بالتعرف على صورة الأمريكي في العقل العربي، ومن ثم فهم لا يجهدون أنفسهم بالتعمق في استجلاء أسباب الكراهية والعداء التي انفجرت في وجه أمريكا أخيراً.. وحين أقلقتهم هذه الظاهرة، فلم يكن الهدف من محاولات تحسين صورة أمريكا أمام العرب والمسلمين هو تلافي الأسباب، بقدر ما كان تحقيق أهداف نفعية عاجلة تمثلت فيما أطلق عليه تشكيل «التحالف ضد الإرهاب». ومن ثم لم تجد تصريحات بوش من يصدقها عندما تحدّث عن عدم العداء للإسلام، ولا عندما التقى بالأطفال المسلمين في المركز الإسلامي في واشنطن، ولا في تصريحات المسئولين أمام شبكات التليفزيون العربية.. فقد اعتبرها العرب والمسلمون مجرد لعبة «أمريكاني»!!

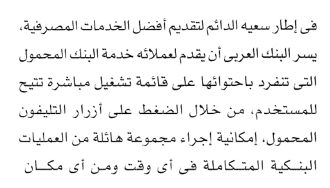
سلامة أحمد سلامة

البنك العربي

ARAB BANK

Mobile Banking

بنك فى متناول يديك على مدار اليوم



فى إطار سعيه الدائم لتقديم أفضل الخدمات المصرفية، يسر البنك العربى أن يقدم لعملائه خدمة البنك المحمول التى تنفرد باحتوائها على قائمة تشغيل مباشرة تتيح للمستخدم، من خلال الضغط على أزرار التليفون المحمول، إمكانية إجراء مجموعة هائلة من العمليات البنكية المتكاملة فى أى وقت ومن أى مكان

- الإستفسار عن أرصدة حساباتك .
- طلب كشف حساب .
- الابلاغ عن فقدان البطاقات الإئتمانية .
- الابلاغ عن فقدان بطاقة الصراف الآلى .
- إجراء التحويلات بين حساباتك .
- الإستفسار عن آخر المعاملات التى تمت على الحساب .
- إعلامك لحظياً أينما كنت بالمعاملات التى تنفذ على حسابك .
- إصدار أوامرك للبنك لوقف صرف الشيكات المفقودة .



Checkmate Adv.

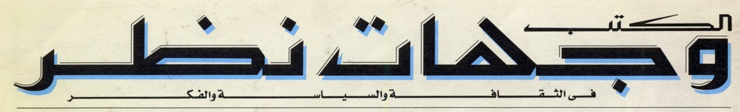
تمتع بمجانية الإشتراك بهذه الخدمة
من الآن ولمدة ستة أشهر

vodafone

لمزيد من المعلومات برجاء الإتصال بتليفون ٨٨٨ ٩٤ ٣٠
أو برقم ٨٨٨ من أى محمول ڤودافون

البنك العربي

أكبر شبكة مصرفية عربية



Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 38 - March 2002

مجلة شهرية . العدد الثامن والثلاثون . السنة الرابعة . مارس ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

الخطاب الدينى المعاصر
أحمد كمال أبو المجد

سيناريوهات غياب عرفات
خليل الشقاقى

المرأة التى أنشأت دولة
عبد الرحمن منيف

اقتصاديات الكساد
محمود عبد الفضيل

ماذا حدث للثقافة المصرية ؟
جلال أمين

عن الإسلام والأصولية والحداثة
فوكوياما فى حوار خاص مع :
وجهات نظر

مستقبل المجلات الثقافية العربية
سلامة أحمد سلامة



نبى مصر المزيف !!
أحمد عثمان

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الثامن والثلاثون
مارس ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

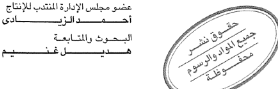
محتويات العدد :

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



كتاب العدد :

- أحمد زويل... أستاذ الكيمياء والطبيعة بمعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا.
- أحمد عثمان .. باحث في التاريخ المصري القديم.
- أحمد كمال أبو المجد... أستاذ القانون الدستوري بجامعة القاهرة.
- جلال أمين... أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية في القاهرة.
- جون ماريسكا .. نائب رئيس يونيون أويل أوف كاليفورنيا.
- خليل الشقاقي .. مدير مركز نابلس للدراسات الفلسطينية.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- عبد الرحمن منيف .. روائي سعودي مقيم في واشنطن.
- قاسم عبده قاسم .. أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق.
- قدري سعيد .. لواء متقاعد. رئيس وحدة الدراسات العسكرية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
- محمد السطوحي .. صحفي مصري مقيم في واشنطن.
- محمد الميلي... المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- محمد عبد المطلب .. أستاذ البلاغة والنقد الأدبي بجامعة عين شمس.
- محمود عبد الفضيل .. أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجي - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عددًا) شاملة أجرة البريد : داخل مصر : ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة :

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

فوكوياما

غربى قادم من الشرق

الصورة لأطفال دون العاشرة، يقذفون ما بأيديهم من حجارة ـ فى الأغلب تجاه دبابة أو جرافة تقتلع أشجار الزيتون المعمرة، وتخلف البيادر وراءها يبابًا وخرابًا ـ والعنوان ببنط عريض فوق الصورة «إنهم يستهدفون العالم المعاصر».

وكاتب المقال الذى نشر فى العدد السنوى لـ «نيوزويك» هو فرانسيس فوكوياما صاحب «نهاية التاريخ.. والرجل الأخير» (١٩٩٢) والذى يبدو أنه انضم بمقاله هذا إلى صاحبه اللدود صمويل هانتنجتون ونظريته الشهيرة عن «صراع الحضارات» (١٩٩٣) بعد عقد من التنافس بين الفكرتين، وأيتهما أولى بأن يتبناها صانعو القرار فى الغرب، وبالذات فى واشنطن.

كان هانتنجتون قد قال إن نهاية الحرب الباردة وإن كانت نهاية لصراع الأيديولوجيات، لكنها حتمًا ليست نهاية الصراع. وخلافًا لفوكوياما، رأى الأستاذ فى «هارفارد» أن انهيار النظم الاشتراكية لا يعنى وصول قطار التاريخ إلى محطته الأخيرة مؤذنًا بانتصار الليبرالية الغربية. فالصراع سيُستأنف. وتفصيل ذلك حسب نص هانتنجتون فى مقالته الشهيرة: «مقولتى هى أن المصدر الأعمق للصدام فى هذا العالم الجديد لن يكون فى الدرجة الأولى أيديولوجيـًا أو اقتصاديًا، بل ستكون الثقافة هى المنبع المهيمن على الانقسامات والصدامات الكبرى بين البشر. الدول القومية ستبقى اللاعب الأقوى فى ما يخص شؤون العالم، لكن الصدامات الرئيسية فى السياسة العالمية ستبرز بين دول ومجموعات تنتمى إلى حضارات مختلفة. صدام الحضارات سيسيطر على السياسة العالمية. وستكون الحدود الثقافية بين الحضارات فى الوقت نفسه خطوط القتال فيما بينها».

ينقسم العالم ـ حسب هذه الفرضية ـ إلى كيانات عميقة الاختلاف مادام اختلافها ناجما عن عناصر راسخة شأن اللغة والدين والتقاليد والتاريخ. وبما أننا نشهد تطورًا اقتصاديًا واجتماعيًا يُضعف الكيانات السياسية التقليدية (الدول)، فإن أفراد الكيانات الجديدة سيعرّفون أنفسهم ويحددون ولاءاتهم السياسية بهويتهم الدينية أو الاثنية.. أى الحضارية، لا على أساس الانتماء إلى الدولة ذات السيادة.

ويذهب هذا الرأى إلى أن الازدهار الاقتصادى كما التطور التقنى فى مجال الاتصال والمواصلات، لن يؤدى ـ كما توقع المتفائلون ـ إلى التقارب والتفاهم بفعل الهجرة وإمكانية التواصل الفورى، وإنما إلى حدّة الوعى بالاختلاف الحضارى. وهذا الوعى الحاضر والحادّ بالانتماء إلى حضارات مختلفة سيفضى إلى صراع حتمى، وخاصة أن انتهاء الحرب الباردة بانتصار ساحق و«نهائى» للغرب ـ وهو مايقول به فوكوياما ـ سيحضه على الإمعان فى نشر قيمه ومعاييره، فى حين تلوذ الكيانات الحضارية الأخرى بأصولها الثقافية، باحثة عن هوية متميزة، تحدد ولاءاتها السياسية على أساسها.

وفى حين يتحدث النص عن سبع «أو ثمانى» حضارات رئيسية، ينصبُّ الجانب الأكبر من اهتمامه على الصدام بين اثنتين منها، الإسلام والغرب. مستوحيًا، أو متوازيًا، أو على الأقل مسترجعًا فى ذاكرة القارئ المهتم، مقالة مهمة كان قد نشرها برنارد لويس فى ١٩٩٠ بعنوان « جذور الغضب الإسلامى».

وأيًا ماكان أمرُ تنظيرات الأكاديميين ونقاشاتهم الفكرية حولها، وماقيل عن تصحيح نسبى من جانب هانتنجتون لبعض أطروحاته، إلا أن ماجرى فى نيويورك.. ثم أفغانستان.. وما سيجرى لاحقًا على إيقاع طبول الحرب التى مازالت تدق فى واشنطن، دفع بالرجل وأطروحته القديمة المثيرة إلى دائرة الضوء. فأعيد تدويرها على نطاق واسع. حتى بات الشعار ـ الذى سرعان ما أوجد شعارًا مضادًا ـ كأنه عنوان المرحلة ـ يجرى تسويقه وترويجه، بقصدٍ وغرضٍ أحيانًا وعن اقتناعٍ ـ للأسف ـ أحايينَ كثيرة.



على الناحية الأخرى من النهر كان يقف فرانسيس فوكوياما بنظريته عن «نهاية التاريخ»، والتى رآها البعض تتوارى مع اختفاء مركز التجارة العالمى من سماء نيويورك فى ذلك الصباح المجنون. وذهب المنتقدون إلى القول بأنه إذا ما كان لا بد من نهاية فهى نهاية «نهاية التاريخ»! إلا أن المفكر «الخمسينى»، الذى كان قد راجع نظريته جزئيًا فى مقالة شهيرة عام ١٩٩٩، التقط الخيط فى مقالة النيوزويك الأخيرة ليؤكد أن «الفاشية الإسلامية» هى أخطر على الغرب من الشيوعية. (فى كتابه نهاية التاريخ ١٩٩٢ وصف فوكوياما الأصولية الإسلامية بأنها تعكس تشبيهًا سطحيًا Superficial Resemblance للفاشية الأوروبية، وبالتالى فإن خطر تحديها للغرب وللأيديولوجية الليبرالية الديمقراطية الغربية لم يكن قويا).

يقول فوكوياما فى النيوزويك: «إن أحداث سبتمبر تتحدى القيم والنموذج الأمريكى : لأن محمد عطا ـ والعديد من الخاطفين ـ كانوا متعلمين عاشوا ودرسوا فى الغرب، ولم يستطع الغرب إغراءهم بل إن النفور مما شاهدوه كان كافياً لدرجة أنهم كانوا راغبين فى الانقضاض بالطائرات على البنايات..» ويضيف: «إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدل بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة..» مؤكدًا أن الأصولية الإسلامية الحديثة هى السبب فى ذلك : لأنها ترى المجتمعات الغربية مجتمعات فاسدة تسود فيها الموبقات مثل المثلية والإباحية الجنسية وحقوق المرأة. ومن ثم «فالحرب الأمريكية ليست ضد الإرهابيين وإنما مع الأصوليين وهم ليسوا مجموعة صغيرة، ولكنهم يصلون إلى ٢٠ ٪ من سكان العالم الإسلامى..» ومن ثم ينتهى المفكر الأمريكى إلى القول بأن «بحر الفاشية الإسلامية الذى يسبح فيه الإرهابيون يشكل تحديًا أيديولوجياً هو فى بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية..».

بالتأكيد لم يكن فرانسيس فوكوياما أخر من أغوتهم ـ أو ربما أقنعتهم ـ مقولة «الصدام الحتمى بين الحضارات» وبالذات فى ذروة تعاظم مشاعر الغضب والنقمة جراء ماجرى فى نيويورك. لم تمنعه حقيقة أنه وهو الذى تضرب جذوره العرقية فى تربة حضارة شرقية صامدة عريقة (اليابان) يجلس على كرسى الأستاذية فى قلب عاصمة الغرب «واشنطن»، ويضمه مجلس مستشارى الرئيس بوش، بعد أن عمل لفترة فى إدارة التخطيط السياسى بالخارجية الأمريكية، ثم فى مجلس الأمن القومى. حيث يلعب المفكرون وأصحاب الرأى فى تلك الديموقراطيات دورًا رئيسيًا ويصبح لكلامهم قيمة.



فى مقابلة خاصة تحاور «وجهات نظر» فرانسيس فوكوياما صاحب الكتاب الذى اعتبره الكثيرون أهم كتاب فى العقد الماضى، لتسأله ـ وتحاوره ـ عن رؤيته وأفكاره بعد الحادى عشر من سبتمبر: عن الإسلام والغرب.. والأصولية والحداثة.

بقى أن نقول أن مقال فوكوياما فى النيوزويك ليس الوحيد الذى يقدم الإجابة على سؤال: «كيف يفكر الغرب؟». فهناك العديد من المقالات لسياسيين ومفكرين «مؤثرين» تكملُ ملامحَ الصورةِ؛ ألوانها وظلالها؛ برنارد لويس من جامعة برنستون فى «النيويوركر»، وصمويل هانتنجتون من هارفارد فى «النيوزويك»، ومارجريت ثاتشر فى «الجارديان»، ودانيال بايباس فى «الواشنطن بوست»، وجورج دبليو بوش فى خطاب «حالة الاتحاد». وقبل كل ذلك الرسالة الشهيرة: «ما الذى نحارب من أجله.. رسالة من أمريكا» والتى جاءت فى عشر صفحات كاملة وحملت ٦٠ توقيعًا لأسماء كبيرة بارزة.

وربما نفكر فى «وجهات نظر» أن نعرض لكل هذا فى ملف خاص. إذ تبقى الخطوة الأولى فى أى «حوار» هى الاستماع «جيدًا» إلى الآخر. وإذا كانت الخطوة الأولى تتلوها ـ بحكم الرغبة فى السير قدمًا ـ خطوات، فلعلنا فى شرقنا العربى الإسلامى ـ إذا صحت النية والعزم ـ ذاهبون لا إلى الإفراط فى إبراء الذمة وغسل الأيدى، و«إنكار ماهو معلوم بالضرورة». بل إلى التوضيح والتصحيح : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون». (الممتحنة ـ ٨:٩).



أيًا ماكان الأمر، تبقى المهمة الأسمى أمام المفكرين والعقلاء على الجانبين هى نزع فتيل الاستقطاب الحاد البادى فى «ثنائية» مطلقة مفرطة فى غلوها؛ سواء كانت فى شعار «فسطاط الإيمان.. وفسطاط الكفر» الذى أعلنه بن لادن فى خطابه الشهير، أو «محور الخير.. ومحور الشر» الذى تبناه جورج بوش فى خطاب الاتحاد قبل أسابيع. لا فرق.. فى التحليل النهائى ـ رغم المفارقة ـ لا فرق.

وجهات نظر



حول الخطاب الديني المعاصر

أحمد كمال أبو المجد

هذا حديث عن الخطاب الديني المعاصر، المنتشر عندنا في مصر وفي سائر بلاد العرب والمسلمين.. ولي في هذا الخطاب رأي أبديه، ولكني لا أبتديه.. ذلك أن ابتداءه وسط موجة الهجوم الإعلامي والسياسي على الإسلام والعرب والمسلمين، من شأنه أن يفتح باب الشك في بواعث هذا الحديث، وقد يتصوره البعض استجابة لا تجوز لتدخل أجنبي سافر في أخص شئوننا الثقافية والدينية.. وقبولاً ضمنياً للهيمنة الثقافية من جانب قوة أو قوى كبرى تسعى إلى بسط نفوذها على الآخرين، وتمنح نفسها شرعية كاذبة في تحديد «مفردات» ثقافة أولئك الآخرين ومكوناتها الموضوعية..

لذلك.. أستأذن القارئ في مطلع هذا الحديث في أن أذكره بأن كاتب هذه السطور، ومعه عشرات من الكتاب والباحثين والمهتمين بالشأن الثقافي في عمومه، وبالخطاب الديني على وجه الخصوص، لم يتوقفوا منذ أكثر من عشرين عامًا عن نقد بعض صور الخطاب الديني السائد، نقدًا تناول مضمون ذلك الخطاب، كما تناول أسلوب القائمين به، مما يعبر عن حاجة أصيلة لهذا النقد وتلك المراجعة، سابقة في الزمان على الملابسات المعقدة التي أحاطت بأحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة، من ذلك على سبيل المثال أنني نشرت في الصحف المصرية والعربية خلال تلك السنوات نحو عشرين مقالاً، تدور كلها حول الحوار الديني وآدابه، وحول عناصر الجمود أو عناصر الشطط في بعض صور الخطاب الديني المنتشر في بلادنا وضرورة مراجعة ذلك الخطاب، وتصحيح فهم كثير من القائمين به للإسلام ذاته.. بجوانبه المتصلة بالعقيدة أو بالأخلاق أو بالشريعة..

كما ظهرت خلال هذه الفترة كتب عديدة لعلماء مصريين وعرب ومسلمين تدعو إلى هذه المراجعة وتنادي بتجديد الفكر الإسلامي بصفة عامة والفقه الإسلامي بصفة خاصة.. من أجل ذلك كله كان حرصي على القول بأنني أبدي الرأي في الخطاب الديني السائد وإن كنت لا أبتديه..

ويبقى قبل أن نحدد مداخل إصلاح الخطاب الديني المعاصر، أن نبدأ بتحديد ما نقصده بالخطاب الديني، وأن نرصد أهم أوجه النقص أو العوج في الخطاب المعاصر.

وحديثنا هذا لا يتعلق «بالنص» الديني، قرآنًا كان ذلك النص أو سنة، فكتاب الله كله كلام الله سبحانه، وهو حق كله، وحكمة كله، ونور كله، وهو محفوظ بحفظ الله - تعالى - له.. وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، هي الأخرى وحي يوحى، المعنى فيها من عند الله سبحانه، واللفظ من عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي أوتي جوامع الكلم.. ولكن النصوص كلها تحتاج إلى تفسير، وهذا التفسير تحكمه ضوابط منهجية لابد من اتباعها حتى لا يتسلل إليه الهوى أو تغيب عنه البصيرة.. وفي التفسير مندوحة عن الكلام الكثير الذي دار بعضه في صدر الإسلام ودار كثير منه خلال السنوات الأخيرة.. حول «النص» ومحاولة تقييده بالإطار التاريخي الذي أحاط «بتنزيله» على النبي صلى الله عليه وسلم.. فعن طريق التفسير، يستجلي المفسر والفقيه «مقاصد» النصوص، فيتيسر لهما تنزيل حكم النص على الوقائع المتجددة، وهو ما يحقق للنصوص معنى «الخلود» والصلاحية الدائمة من خلال «التجديد» الذي أشار إليه حديث النبي صلى الله عليه وسلم، والذي رواه أبو داود في سننه الصحيحة من «أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها».. والأمر - عند التحقيق والتأمل - لا يقتضي أن يكون المجدد فردًا واحدًا بعينه يبعث أو يخرج وحده على الناس كل مائة سنة.. بل يحتمل الأمر أن يكون التجديد عمل جماعة أو مدرسة علمية أو فقهية.. وألا يكون عمل تلك الجماعة منسوبًا إلى سنة واحدة كل مائة سنة..

أما الخطاب الديني الذي نتحدث عنه وحده في هذه السطور، فهو خطاب الدعاة والوعاظ والخطباء والمفتين والباحثين حين يقدم إلى جمهور الناس على أنه الوصف السليم والفهم الصحيح للإسلام في عقيدته ونظامه الأخلاقي وآدابه وشريعته.

ولهذا الخطاب الديني - بتعريفه هذا - دور أساسي في تكوين «العقل المسلم» و«الوجدان المسلم»، ومنه يتلقى عامة الناس تصورهم للإسلام، وللعالم في ظله.. وتزداد أهمية ترشيد هذا الخطاب في ظل أمرين تكاد تشترك فيهما جميع البلاد الإسلامية.. أولهما انتشار الأمية بمعناها العام، والأمية الدينية بوجه خاص.. وهو ما يحول دون الاتصال بمصادر المعرفة الدينية الصحيحة، من المراجع المعتمدة في التفسير وفي علوم الحديث والسيرة والفقه.. وما يجعل الخطاب الديني بمعناه الذي بيناه المصدر الأساسي إن لم يكن الوحيد للمعرفة الدينية.. والمسئول الأول عن تحديد معالم «التدين» ورسم صورة «المتدينين» لدى الأفراد ولدى الجماعة، ولدى الغير.. ثانيهما: تعاظم موجة التدين احتجاجًا على المادية التي آل إليها أمر الحضارات المعاصرة.. وما صاحبها من تراجع في «نوع» العلاقات الإنسانية السائدة، وفساد لذات البين داخل الجماعة الواحدة، وداخل المجتمع الدولي كله، وهو التراجع المسئول - مع أسباب أخرى - عن انتشار ظواهر الأنانية والانحصار على الذات، وظواهر العنف الفردي والجماعي، الذي يتخذ أشكالاً متعددة باختلاف ميادينه، بدءًا بالعنف الفردي والحكومي، وانتهاء بالإرهاب الداخلي والدولي، ووصولاً إلى الحروب الأهلية والإقليمية والدولية.

وتعبر موجة التدين - بالإضافة إلى معنى الاحتجاج - عن حرص جديد على الاتصال بالجذور والأصول الاعتقادية والثقافية والسلوكية التي تصنع «الهوية» وتؤكد معنى «الخصوصية» الثقافية، وتيسر الانتماء الواضح لثقافة محددة وأمة معينة.

والتدين حين يرتبط بأصوله الاعتقادية والسلوكية وحين يفهمها الفهم السليم ويضعها موضعها الصحيح.. ظاهرة جديرة بالاحتفال والتشجيع، فهو مصدر هداية للفرد، وانضباط للجماعة، يغري بالصلاح والإصلاح، ويعصم من الفساد والإفساد.. ويؤدي - في نهاية الأمر - إلى الارتفاع بمستوى العلاقات الإنسانية بين أفراد الجماعة، وبين الجماعات المختلفة داخل النظام الدولي.. وهذا الارتفاع هو الذي ييسر التعاون، ويوظف التنوع الإنساني، ويعين على احترام حقوق الأفراد والجماعات، ويفتح الباب أمام السلام الاجتماعي، والسلام الدولي.. أما حين ينحرف التدين عن أصوله، وحين ينفصل - ولو بالنيات الحسنة - عن إطاره المرجعي، فإنه يصير تدينًا مغلوطًا، يفضي إلى حالات فكرية ووجدانية فردية وجماعية بعيدة الصلة بالصورة التي سعى «الدين» إلى بنائها وإقامتها في الفرد وفي الجماعة على السواء..

والدين - من قبل ومن بعد - دعوة ونداء وخطاب، تتحقق غاياته في الناس بقدر ما يستجيبون الاستجابة الصحيحة لهذه الدعوة وذلك النداء: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (٦٦ - النساء).



وبمراجعة الخطاب الديني المنتشر هذه الأيام، والذي يصنع صورة التدين المعاصر، يتضح أن هناك مظاهر سبعة لانحراف هذا الخطاب عن توجهات الإطار المرجعي الثابت للدين، والدين الذي نخصه بالحديث في هذه الدراسة هو «الإسلام» الذي عرفته البشرية ولا زلنا نعرفه، ونحتكم في معرفته إلى مصدريه الأساسيين: القرآن الكريم، وسنة النبي - صلى الله عليه وسلم، وسيرته التي جسدت الوحي في سلوك إنساني مشهور لييسر للناس في عصره ومن بعده سبيل التحقق بما جاء في الكتاب والسنة من هداية في العقيدة واتباع للشريعة..

حديثنا هذا لا يتعلق «بالنص» الدينى.
قرآنًا كان ذلك النص أو سنة. فكتاب الله كله كلام الله سبحانه.
وهو حق كله، وحكمة كله، ونور كله، وهو محفوظ بحفظ الله ـ تعالى ـ له..
وأحاديث رسول الله ﷺ.. هى الأخرى وحى يوحى. المعنى فيها من عند الله سبحانه، واللفظ من عند رسول الله ـ ﷺ ـ الذى أوتى جوامع الكلم

والمظاهر السبعة لهذا الانحراف هى موضوع هذا الحديث كله.. وقد وجدت أن أيسر المداخل لإصلاح الخطاب الدينى المعاصر أن أستعرض هذه المظاهر واحدًا بعد الآخر وأن أبين ـ ما وسعنى ـ مدى انحرافها عن المنهج الصحيح فى فهم الإسلام وتصور عقيدته، وإقامة نظامه فى المجتمع.

ولست فى حاجة إلى أن أقرر ـ قبل الحديث عن مظاهر الانحراف ـ أن من الخطأ التعميم فى إصدار الأحكام.. وأن من الخطباء والكتاب والمفتين من خلا «خطابهم» من هذه المظاهر، فقدموا بذلك للإسلام وللتدين به، صورة مشرقة موصولة بالأصول، مستجيبة لحاجات الناس، واعيةً بما طرأ على الدنيا من حولهم من تغيرات.. فرضها تطور إنسانى متعدد الساحات موصول الحلقات، وهو تطور استجاب له أولئك الدعاة والخطباء والمفتون.. ولكن يبقى صحيحًا ـ فى تقدير كاتب هذه السطور ـ وتقدير كثير ممن معه، أن الصورة الغالبة للخطاب الدينى المعاصر تحتاج إلى النقد، وإلى المراجعة الهادئة فى غير مبالغة أو تهويل.

العنصر الأول:
الترهيب والتخويف

أول عناصر الخطاب الدينى المعاصر، وأكثرها انتشارًا، وأشدها حاجة للمراجعة، الدعوة للإسلام عن طريق الترهيب والتخويف، وإغفال الدعوة إليه عن طريق الترغيب والتبشير.. وقد كان من ثمرات هذا الخلل أن وجدنا كثيرًا من المتدينين يقبلون على التدين «مذعورين» مخوفين، تلاحقهم صيحات الوعيد، وما ينتظرهم يوم القيامة من عذاب أليم مهين.. وهو ذُعر يملأ النفوس قلقًا، ويحول بينها وبين السكينة والرضا.. وقد يحول بين أصحابه وبين التوجه للعمل البنائى الصالح الذى هو رسالة المسلمين فى الدنيا وطريقهم إلى السعادة فى الآخرة.. ذلك أن الخائفين المذعورين لا يصلحون لبناء الحضارات العظيمة، وحمل تبعات هذا البناء.. ومخالفة هذا التوجه لصحيح الإسلام لا تحتمل الجدل الكثير.. فالنبى صلى الله عليه وسلم ـ شأنه شأن سائر الأنبياء والمرسلين ـ قد بعثه الله شاهدًاومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.. فهو (صلى الله عليه وسلم) شاهد على الناس بما بلغهم من كلمات الله، وما ذكرهم به من نعمه وآياته.. وهو مُبشرٌ لهم بالفلاح فى الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.. وهو ـ كذلك وبعده ـ نذير يذكرهم بعواقب الاستكبار والجحود بعد الإعذار وإقامة الحجة ووضوح الحقيقة ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (١٤ ـ النمل)، «﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (١٦٥ ـ النساء).

وهكذا جمع الإسلام ـ دائمًا ـ بين الترغيب والترهيب حثًا للنفوس والعقول على اتباع الحق وإقامة العدل والسعى فى الناس بالخير.. فلم يعد من حق أحد أن يجعل الترهيب وحده أداة لهذا الحث، وأسلوبًا يعتمد عليه وحده، فى الدعوة إلى الإيمان والإسلام، وإقامة الدين..

وإغفال أسلوب الترغيب فيه ـ فوق ذلك ـ إغفال لمعنى أساسى آخر هو معنى الرحمة والمغفرة من الله.. فهو سبحانه الرحمن الرحيم الودود الغفور التواب.. وهو القائل لعباده: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣ ـ الزمر) وهو ـ سبحانه ـ القائل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (١٥٦ ـ الأعراف) ونبينا (صلى الله عليه وسلم) قد روى لنا عن رب العزة سبحانه قوله فى حديث قدسى: «يا ابن أدم لو جئتنى بقراب الأرض ذنوبًا لجئت بقرابها مغفرة».. وبعد هذا كله لا يكون من حق أحد ـ مهما حسنت نيته ـ أن يأخذ ببعض الكتاب دون بعض.. وأن يشيع فى أفق المؤمنين جوًا من الذعر والرهبة والخوف المقيم.. تتراجع معه معانى القرب من الله والأنس بمعرفته والتوجه لحبه ـ سبحانه ـ لما يغذونا به من نعمه، كما يقول الحديث الشريف.. إن الدعوة إلى الله بالترهيب وحده ليست منهج الإسلام الصحيح، وعواقبها قد لا تكون ظاهرة للداعية أو المفتى أو الناصح للناس.. ولكن ثمرتها المحققة أن يحل الذعر محل الاطمئنان وأن يسد الخوف المقيم أبواب الإحساس بالطمأنينة والرضا ـ وهما حالتان من حالات الإيمان الصحيح وأثران من آثار وقعه فى النفوس: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (٢٧:٢٨ ـ الفجر). ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (١١٩ ـ المائدة).

إن الترغيب، والتبشير يظلان معًا المدخل الأساسى لجذب النفوس إلى الحق.. وهما يفعلان فعل السحر عند أكثر الناس، ويشيعان فى النفوس جوًا من الطمأنينة والسكينة والرضا، ويفجران ينابيع الخير والتوجه إليه انطلاقًا من حقيقة وجودية وإيمانية كبرى مؤداها أن الله تعالى خلق عباده كلهم «حنفاء» كما يقول الحديث القدسى، وحين تتفجر ينابيع الخير تتفجر معها طاقة العمل والقدرة على الإبداع والبناء والتعمير، وهى غايات كبرى من غايات الوجود الإنسانى على هذا الكوكب «هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها» (٦١ ـ هود). إن الخوف وحده يبعث على التراجع والانكماش.. أما الاطمئنان والثقة فإنهما يبعثان على الحركة والتقدم والانتعاش.

العنصر الثانى:
الميل إلى التشديد
على الناس

جوهر التشديد التوسع فى إيجاب الواجبات والتضييق فى إباحة المُباحات.. واختيار أعسر الأمور وأجلبها للمشقة وأدعاها إلى وقوع الحرج مع وجود البديل الذى يرفع الحرج ويجلب التيسير.

والمتشددون ـ فى كل زمان ـ يصدرون فى تشددهم عن تصور خاطئ لمهمتهم وحدودها. فهم يتصورون أنفسهم وصاة على الدين وعلى الناس، وهم لذلك فى خوف دائم مقيم أن يؤدى التيسير على عباد الله إلى الخروج على حدود الله وتكاليف الشريعة.. وينسى هؤلاء أنهم دعاة ومبلغون، وليسوا أوصياء على أحد من الناس.. إذ تظل الطاعة والمعصية أمورًا منوطة باختيار الأفراد والمكلفين، يسألون عنها بين يدى خالقهم الذى علمهم أنه ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٢٥٦ ـ البقرة). وعلمهم رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن ما يلقونه يوم الحساب لا يعدو أن يكون ثمرة أعمالهم «ترد إليهم»..

كذلك يتصور المتشددون أن تشددهم من شأنه أن يقفل أبواب الشر والعوج، وأن يسد الذرائع فى وجه الانفلات من تكاليف الشريعة.. وينسون أن سد الذرائع طريق احتياطى من طرق التشريع والإفتاء.. وأنه كما يسد مداخل الشر، فإنه يفتح أبواب الخير.. كما ينسون أن المرجع فى حل الأفعال والتصرفات وتحريمها إنما هو إلى الخالق سبحانه.. وأن الوصول فى التشديد إلى الاقتراب من تحريم الحلال لا يقل إثمًا عن الوصول إلى تحليل الحرام، يشهد لذلك ويقرره قوله سبحانه: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ (١١٦ ـ النحل).

والتشديد ـ فوق ذلك كله ـ من شأنه أن يصور للناس أن طاعة الله أمر عسير، وأن التدين يُحمِّل أصحابه عناءً ومشقة.. مما يغرى كثيرين «بالإعراض عن جملة الشريعة» كما يقول ابن قيم الجوزية.

والتشديد ـ فى حقيقته ـ هو الاجتهاد الأسهل وليس الاجتهاد الأفضل، إذ الأمر كما قال الفقيه الكبير سفيان الثورى عليه رحمة الله: «ليس العلم فى التشديد، فإنه يحسنه كل أحد، إنما العلم الرخصة من ثقة».. والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه كما يقول حديث النبى صلى الله عليه وسلم.



ويحتاج الدعاة والخطباء والمتحدثون والمفتون إلى أن يعرفوا معرفة لا شك فيها، ولا مكابرة معها أو جدال.. أن شريعة الإسلام قد بنيت على التيسير ورفع المشقة ورفع الحرج، ولم تبن أبدًا على التعسير والمشقة والحرج.. وهذا من أصول الإسلام الكبرى التى تشهد لها نصوص عديدة فى القرآن وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم الصحيحة التى لا ترد.. يقول الحق سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (١٨٥ ـ البقرة). ويقول: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٧٨ ـ الحج). ويقول: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ (٦٦ ـ الأنفال). ويقول فى وصف مهمة نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الأعراف ـ الآية ١٥٧).

ويعلم الله المسلمين أن منهج الإسلام فى تقرير الحل والحرمة منهج توسعة على الناس وتخفيف عنهم، وعفو عن كثير من الأعمال والتصرفات.. يقول سبحانه فى سورة المائدة (الآية ١٠١): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.. وبيانًا لمعنى هذه الآية يقول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث رواه الحاكم عن أبى الدرداء: «ما أحل الله فى كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا».. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (٦٤ ـ مريم).

وتصف عائشة رضى الله عنها منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاجتهاد بقولها: «ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً».. فقد كان أبعد الناس عنه.

ويبقى فى أمر المفاضلة بين التشديد على الناس والتيسير عليهم أن نلاحظ أمرين، يتصل أولهما بمضمون رسالة الإسلام ذاته، ويتصل الآخر باصول دعوة الناس ومنهج تلك الدعوة.

١ ـ فأما الذى يتصل بمضمون رسالة الإسلام فهو تحديد موقف الفرد المسلم والجماعة المسلمة من الحياة، ففى بعض نماذج الخطاب الإسلامى المعاصر دعوة غريبة إلى مخاصمة الحياة، والتحريض على الزهد فيها، والإعراض عنها، ووصف هذه الدنيا بأنها جيفة وطلابها كلاب، ومن شأن هذه الدعوة أن تصرف جمهور المسلمين عن الإقبال على الحياة والسعى لتعمير الأرض، ومنافسة أهلها على مواقع الريادة والقيادة، وهى دعوة تناقض نداء الإسلام الصريح للعمل النافع والضرب فى الأرض ابتغاء الرزق وتحقيق التوازن الذى تشير إليه الآيتان الكريمتان فى قوله سبحانه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ

تعبر موجة التدين.
بالإضافة إلى معنى الاحتجاج.
عن حرص جديد على الاتصال بالجذور
والأصول الاعتقادية والثقافية والسلوكية التى تصنع
«الهوية» وتؤكد معنى «الخصوصية»
الثقافية، وتيسر الانتماء الواضح
لثقافة محددة وأمة معينة



الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ (٧٧ ـ القصص). وقوله على لسان المؤمنين الصالحين: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ (٢٠١ ـ البقرة).

والزهد المحمود فى الدنيا هو الزهد مع القدرة.. وليس الزهد مع العجز.. والمؤمن الحق هو الذى يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا، والتوجه الإسلامى الصحيح هو توجه يملؤه الأمل والتفاؤل والتطلع إلى المستقبل والإعداد له، وهو المعنى الذى عبر عنه حديث نبوى شريف قلما ينتبه قارئوه إلى دلالته الكبرى على موقف الإسلام الإيجابى من الحياة.. يقول صلى الله عليه وسلم: «إذا قامت الساعة على أحدكم وفى يده فسيلة، فاستطاع ألا تقوم عليه حتى يغرسها فليفعل. فإن له بذلك أجرا».

والإسلام بهذا كله لا يضع أصحابه فى صراع مع الحياة، والمسلم الحق لا يكره الناس والدنيا، ولا يقضى عمره فى معركة ـ صنعها الوهم ـ مع قواها ونواميسها، وأنى له ذلك وهى صنع الله الذى أحسن كل شيء خلقه ثم هدى. ثم أنى له ذلك وهى ـ دون الآخرة ـ دار العمل وأرض الابتلاء.. ثم كيف يكون هذا موقف المسلم فيها وقد أسبغ الله عليه فيها نعمه ظاهرة وباطنة، وخلق له ما فيها جميعًا، ثم دعاه إلى تعميرها بسلطان العقل وقوة العمل وأحب منه ـ بين ذلك ـ أن يرى أثر نعمته عليه..

إن موقف المسلم من الحياة قضية بالغة الأهمية لابد أن ينتبه إليها المشتغلون بالخطاب الدينى، إذ إن الخلل فيها هو أول أبواب الانحراف الذى تقع فيه جماعات من الشباب، الذين يبدأون تدينهم بالعزلة عن المجتمع، وفى العزلة يلقنون كراهية الحياة وكراهية الناس، ويقيمون فى أنفسهم حربًا باردة يحاكمون فيها مخالفيهم.. وبعيدًا عن نور المعرفة وإشراقات السماحة تكون مفاصلة المجتمع، واتهام أهل الزمان كلهم جميعًا بالكفر، ووصف العصر كله بالجاهلية.. وهى آفات خطيرة نبه إليها العلماء المحققون، فوجدنا ابن القيم يقول فى أمثال هؤلاء: «ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلم بالذنوب والخطايا، فإنه أول بدعة ظهرت فى الإسلام، فكفر أهلها المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم.. وسموا دارهم دار هجرة، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب»..

٢ ـ أما الأمر الذى يتصل بمنهج الدعوة فهو ضرورة مراعاة أحوال الناس عند مخاطبتهم.. وإلا لم تصل رسالة الداعى إليهم.. حين لم تتصل بواقعهم أو تخاطب همومهم وشواغلهم.. وهذا ما نسميه «تفريد الفتوى» و«تفريد القضاء» أى ضرورة استجابتها لحال السائل، من حيث قدرته وما يحيط به من ظروف.. وهو منهج النبى صلى الله عليه وسلم فى الفتوى وفى القضاء.. ومن أمثلته الواضحة أنه أذن للأحباش أن يرقصوا ويغنوا فى بيت النبوة أو مسجده الشريف، وحين اعترض عمر على ذلك لم يقبل اعتراضه بل راجعه قائلاً: «دعهم يا عمر» ثم أذن لزوجته عائشة أن تنظر إليهم حتى اكتفت، وقد فطنت رضى الله عنها إلى أن هذا قد كان منه صلى الله عليه وسلم مراعاة لسنها الصغيرة حينذاك، فقالت فيما يرويه عنها البخارى ومسلم: «فاقدروا قدر الفتاة الحديثة السن الحريصة على اللهو».. ترى هل ينتبه المتشددون إلى هذه المعانى الإنسانية الرفيعة، وهل يسعهم من التيسير ما وسع نبيهم صلى الله عليه وسلم فى هذا.. وحين قال لعائشة وقد زفت فتاة إلى رجل من الأنصار: «يا عائشة ما كان معهم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو».

وتفريد الفتوى باختلاف حال الفرد السائل منهج أصولى رده بعض الفقهاء إلى العرف كمصدر تكميلى للأحكام الشرعية.. وفى هذا يقول الفقيه الحنفى الشهير ابن عابدين: «إن كثيرًا من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله أو لحدوث ضرورة، أو لفساد أهل الزمان، بحيث لو بقى الحكم على ما كان عليه أولاً، للزم منه المشقة والضرر بالناس ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير ودفع الضرر والفساد»..

وقد عبر عن قاعدة التيسير هذه فقيه ثقة معاصر بقوله: «إنه يختار الأيسر لا الأحوط فى زماننا[1]».

العنصر الثالث: هو الغفلة عن مقاصد الشريعة، والوقوف عند ظاهر النصوص وحروفها

وهذا المنهج النصى الخالص الذى لا يلتفت إلى المقاصد يسميه البعض تجاوزًا أو خطأ بـ«السلفية»، وهى كلمة حمالة أوجه استعملها ابن تيمية وغيره فى ميدان العقائد والإلهيات إشارة إلى منهج الالتزام بالنصوص القرآنية المتضمنة لأمور العقيدة، وهى نصوص تنفى عن الخالق سبحانه مشابهة مخلوقاته ولا يتكلف أصحابها تكلف الفلاسفة الذى وصل بالبعض منهم إلى مقولات من التشبيه والتجسيد، أو الحلول، أو وحدة الوجود التى يندمج فيها الخالق بالمخلوق.. أما فى مجال الشريعة والاجتهاد فى استنباط أحكامها فإن ابن تيمية قد تحرر من المنهج الحرفى، وكانت له اجتهادات رائعة أوصله إليها بصره بالمقاصد القائمة وراء النصوص.. ولذلك عده مؤرخو الفقه من المجددين، بل عدوه شيخ المجددين.. وأصحاب هذا النظر الحرفى الضيق للنصوص القرآنية والنبوية يسيئون الظن بكل مذهب أو اجتهاد يدعو إلى التجديد واستخدام العقل فى فهم النصوص وتفسيرها وتطبيق حكمها على الوقائع المتجددة بدعوى أن ذلك يفتح باب الحكم بالهوى.. ودعوى أن المؤمن الصالح متبع لا مبتدع.. وهذا كله لا حجة فيه، فالاتباع الذى أمرنا به إنما هو اتباع العقلاء المبصرين لا اتباع المقلدين المنقادين.. والابتداع الذى نهينا عنه هو أن ندخل فى الدين ما ليس منه إضافة إليه أو حذفًا منه، أو قولاً فيه على الله بغير علم.

أما الابتداع المحمود فهو ثمرة الاجتهاد على منهج فى استقراء الحكم الشرعى من دليله الجزئى فى إطار من مجموع النصوص وفى ظل من الوعى بمقاصدها الكلية وبالمصالح التى اعتبرها الشارع بالنص عليها أو تركها «مرسلة» يتغياها المجتهدون فى اجتهادهم، وتسعى الأمة من ورائهم إلى تحقيقها، غير خارجة على نص قطعى، ولا ساعية لتحقيق مصلحة ألغى الشارع اعتبارها بدليل يقينى لا يحتمل التأويل.

والأمر فى شأن المقاصد على ما ذكره الإمام الشاطبى فى موافقاته (كتاب الموافقات فى أصول الشريعة) حين قال: «إن تكاليف الشريعة ترجع كلها إلى تحقيق مقاصدها فى الخلق».. ثم فصل ـ رحمه الله ـ هذه المقاصد إلى رعاية الدين، ورعاية النفس، ورعاية النسل ورعاية العرض، ورعاية المال..

ثم عاد فقرر أن المصالح المتصلة بهذه المقاصد تندرج تنزلاً من الضروريات، إلى الحاجيات، إلى التحسينات (الكماليات).

ولا غنى لأحد من المشتغلين بالخطاب الدينى، والممارسين له، عن معرفة ما قرره علماء الأصول فى كيفية رعاية هذه المصالح التى تتفاوت مراتبها، ويحتاج الأمر إلى منهاج دقيق للتوفيق بينها عند تعارضها، ولتقديم الفقيه أو المفتى أو القاضى بعضها على بعض عند تزاحمها، فقد قرر علماء الأصول قواعد عديدة فى هذا الشأن.. فى مقدمتها القاعدة المعروفة من أن درء المفسدة، فى موقف معين، مقدم على جلب المنفعة فيه ومنها:

أن مصلحة الجماعة تقدم على مصلحة الفرد.

وأن مصلحة الكثرة تقدم على مصلحة القلة.

وأن المصلحة الدائمة تقدم على المصلحة العارضة أو المؤقتة.

.. ولا ندرى كيف يغفل البعض عن هذه الضوابط التى يفرضها المنطق وتقتضيها الحكمة وتوجبها البداهة، خصوصًا حين يدلهم القرآن الكريم على هذا المنهج فينص فى أحيان كثيرة على المقاصد القائمة وراء الأحكام، وهو منهج لم تستثن منه أحكام العبادات، مع أن الأصل فيها مطلق الطاعة نزولاً عند قوله سبحانه: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ (٣٦ ـ الأحزاب). فيدل على القصد من فرض الصلاة بقوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ (٤٥ ـ العنكبوت) ويدل على الحكمة من فرض الصيام على المؤمنين بقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ (١٨٣ ـ البقرة) كما يدل على الحكمة من فرض الزكاة بقوله: ﴿صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾. وأخيراً يدل على الحكمة من فريضة الحج بقوله: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله﴾ (٢٨ ـ الحج).

ثم تكشف الأحاديث النبوية الصحيحة عن زوال القبول والثواب عن الفعل العبادى حين تغيب عنه مقاصده، لقول النبى صلى الله عليه وسلم: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه». ويقول: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش». ويجمع فقيه مصر الأشهر العز بن عبد السلام هذه المعانى فى عبارته الشهيرة: «كل أمرٍ تقاعد عن تحصيل مقصوده فهو ردٌّ» (أى مردود على صاحبه ولا قيمة له).

إن إدراك مرامى الأحكام الشرعية، ومقاصد التكاليف التى تنطوى عليها تلك الأحكام من شأنه أن يحقق المنفعة القصوى للفرد والجماعة من إقامة أحكام الشريعة.

أما حين تنفصل الأحكام عن غاياتها، وتنفك الرابطة بين التكاليف الشرعية ومقاصدها.. فإن المنفعة تفوت والمصلحة تغيب.. ويقع الناس بذلك فى العسر والعنت والحرج.. ما أدق وأحكم قول ابن القيم: «اعلم أن الشريعة عدل كلها وقسط كلها، ورحمة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الظلم، ومن القسط إلى الجور، ومن الرحمة إلى ضدها، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل..».

العنصر الرابع: الغفلة عن ترتيب الأولويات ومراتب الواجبات الدينية

والواقع أن من أعقد المشاكل التى تواجه حركات التغيير الفكرى والاجتماعى تحديد نقطة البداية فى هذا التغيير وترتيب الأولويات فى برامج الإصلاح.. وتتخذ هذه المشكلة طابعًا أشد تعقيدًا فى خصوص الخطاب الدينى، وفى إطار العمل الإسلامى حيث تتنازع هذا الترتيب اعتبارات مختلفة ومعايير عديدة، فهو ليس قائمًا على تقدير الأهم والمهم من حيث المصلحة الاجتماعية فحسب، وإنما يتداخل فى تحديده عنصران إضافيان:

أولهما: ترتيب القيم فى إطار التصور

جمع الإسلام ـ دائماً ـ
بين الترغيب والترهيب حثاً للنفوس
والعقول على اتباع الحق وإقامة العدل والسعى
فى الناس بالخير.. فلم يعد من حق أحد أن يجعل
الترهيب وحده أداة لهذا الحث، وأسلوباً يعتمد
عليه وحده، فى الدعوة إلى الإيمان
والإسلام، وإقامة الدين

الاعتقادى الشامل الذى يقوم على الإسلام، وهو ترتيب قد لا يتطابق بالضرورة تمامًا مع الترتيب القائم على رعاية المصلحة الاجتماعية كما يراها الناس، أو كما تراها أكثريتهم العددية.

ثانيهما: ملاحظة درجة الثبوت، وقطعية المصدر الذى يستند إليه الحكم محل البحث، فما ثبت بدليل قطعى يكون عادة أوفر نصيبًا من الطلب والإلحاح فى برامج الإصلاح، بينما تتراخى فى الترتيب أمور أخرى إذا لم يحمل ثبوتها درجة اليقين التى تحملها نصوص أخرى ربما كانت تعالج أمورًا أقل أهمية أو أقل اتصالاً بالمصلحة الاجتماعية الظاهرة.

وفى تقديرنا - مع ذلك - أن درجة ثبوت الدليل الجزئى لا يجوز أن تكون العنصر الأساسى الحاكم فى تحديد مراتب الأعمال.. فقد يثبت دليل جزئى ثبوتًا قطعيًا دون أن يؤثر ذلك على نوع الحكم التكليفى الذى يقرره ذلك الدليل، مما يتعين معه الرجوع إلى معيار موضوعى مستمد من مجموع النصوص لا من واحد منها فحسب، ولا نريد أن نطيل الحديث أكثر من ذلك فى هذه القضية الفنية التى قد لا يستوعبها غير المتخصصين، وإنما نقرر أن الذين يمارسون الخطاب الدينى ويوجهونه للناس لا يملكون إغفال الواقع الاجتماعى الذى يعملون فى إطاره، وأن يصنعوا لأنفسهم أولويات خاصة بهم، منعزلة عن حاجات الناس فى الأزمنة المختلفة والأمكنة المختلفة، مستندين إلى أن الإسلام «حاكم لا محكوم» وأن على الناس أن يعيدوا ترتيب حياتهم على أساس هذه الأولويات كما يحددها لهم أولئك المصلحون والدعاة، ذلك أن الفقه والاجتهاد والفتيا تقتضى جميعها رعاية مصالح الناس، وهذه الرعاية هى جوهر «السياسة الشرعية»، والسياسة الشرعية كما يقول ابن القيم قسم من الشريعة، أى جزءًا من أجزائها، وليست قسيمًا لها أو بديلاً عنها، وهى على ما عرفها ابن عقيل: «فعل ما يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد».

فإذا انتقلنا من هذا التحليل العلمى لمسألة ترتيب الأولويات والفتيا نظرة فاحصة إلى ما آل إليه أمر كثير من المتدينين الذين تحددت معالم تدينهم فى إطار الخطاب الدينى الذى شكل رؤيتهم للإسلام ولواجباتهم فى ظله وجدنا عوجًا لا شك فيه، فهم - على سبيل المثال - لا يفرقون بين أساسيات العقيدة التى لا يكتمل بغيرها معنى الإيمان بالله والتصديق برسوله والاعتقاد فى اليوم الآخر، وكلها من أركان الإسلام التى بنى عليها، وبين أمور فرعية تتصل - من بعيد - بهذه الأركان كزيارة المقابر، وبناء الأضرحة، والحلف بغير الله.. فيظل بعضهم يشدد فى أمر تلك الفروع، ويشد الناس إليها، ويشغلهم بها.. فتمتلئ الساحة بجدل لا طائل من ورائه ولا نفع فيه.. ومنها - ولعله المثال الواضح المتكرر أمامنا - أن هؤلاء لا يفرقون بين الفرائض - أى الأمور التى أوجبها الشارع - سبحانه - على سبيل الفرض - وبين ما أمر به على سبيل الندب والاستحباب.. فيهمل بعضهم أمر الفرائض، ويشدد على نفسه وعلى الناس فى أمور لا تجاوز حد الندب والاستحباب.. وأكثرهم لا يعرف الفرق بين ما هو فرض عين وهو يجب على كل فرد مكلف.. بحيث لا يسقطه عنه أداء غيره له، وما هو من فروض الكفاية التى تجب على مجموع الأمة، بحيث إذا قام بها فرد أو عدد كاف من الناس سقط الإثم عن باقيهم.

كذلك لا يفرق عامة المتدينين - متأثرين بما يستقبلونه من خطاب دينى، بين الأمور المجمع عليها بين الفقهاء، وتلك التى اختلف حولها الرأى بين المدارس الفقهية أو داخل المدرسة الواحدة، ، والنتيجة العملية التى يؤدى إليها هذا الخلل فى فهم مراتب الأحكام والتكاليف الدينية أننا نرى كثيرًا من الناس، رجالاً ونساءً وشبابًا يشغلون أنفسهم بأداء أعمال ليست لها فى منطق الأولويات قيمة كبرى، ويهملون أمورًا أخرى لها الوزن الأكبر والقيمة العظمى، ويظهر ذلك عند استقراء الأسئلة وطلب الفتاوى التى يتقدم بها أكثر الشبان والفتيات إلى العلماء والمفتين والمتحدثين عن الإسلام، فهم - على سبيل المثال - يسألون عن نوافل العبادات، وعن أمور متعلقة بالأشكال والمظاهر، وعن أمور جزئية تعددت فيها آراء الفقهاء، دون أن يؤدى الأخذ برأى منها دون آخر، إلى الوقوع فى إثم أو ضياع أو فوات مصلحة فى الدنيا أو ثواب فى الآخرة.. وحسبى فى هذا المقام أن أشير إلى خلل هائل يقع فيه بعض المتدينين من الشباب، حين يتعرف بعضهم على دينه من جديد، وتتجه نيته إلى الالتزام بأوامره ونواهيه، فيكون أول ما يبدأ به الاهتمام بالتزام صيغ معينة فى الدعاء والذكر والتسبيح والحرص على أداء السنن والنوافل والإنكار الشديد على الذين يتساهلون فى أدائها.. والتعبير عن ذلك بإرسال اللحية، وتقصير الثوب (على هيئة لا أصل لها فى الدين، ولا وزن لها فى ميزان الشرع) وارتداء الجلباب. وهو بدوره أمر شكلى خاص لا علاقة له بالدين، وإنما هو عُرف من الأعراف، وأزياء الناس لا استقرار لها كما كان يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب خلاف - رحمه الله.. ثم يبدأ الواحد منهم فى نصح أمه وأبيه وإخوته وأخواته فى غلظة وصلف واستكبار، مهملاً فى ذلك كله أصلاً كبيرًا من أصول الإسلام، هو بر الوالدين، وإكبارهما، وإحسان معاملتهما التى جعلها الله سبحانه تالية فى الوجوب للإيمان به الذى هو أصل الأصول فى عقيدة أهل الإسلام، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (٢٣ - الإسراء). وقوله الذى يحدد للمسلم مرتبة هذا الإحسان: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (١٥ - لقمان).

العنصر الخامس: الغفلة عن دور العقل وأهمية العلم فى بناء التصور الإسلامى

وهذه الغفلة تقع فى ميدانين، أولهما: الميدان العام الذى يجعل للعقل الإنسانى دورًا أساسيًا إلى جانب دور النقل، أى النصوص القرآنية والنبوية.. وذلك فى مقام فهم الطبيعة التى تحيط بنا، وسائر أمور المعاش التى يشترك فيها المسلمون مع غيرهم من سائر خلق الله.. أما الميدان الثانى، فهو ميدان الفقه ومعرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال الناس، أفرادًا وجماعات.

والواقع أن قضية دور العقل مع وجود النقل أى النصوص التى مصدرها الوحى الإلهى المنزل على الأنبياء والمرسلين قضية قديمة فى الفكر الإنسانى وفى تاريخ الأديان السماوية.. والمناقشة حولها تخرج بنا عن نطاق هذه المحاولة لرصد «الثغرات» القائمة فى الخطاب الدينى السائد عندنا، ولكن الذى نحرص على وضعه فى إيجاز ووضوح كامل أمام أمتنا الإسلامية، وأمام الأجيال الناشئة، وشباب الإسلام أنه آن الأوان لوضع حدٍ ونهاية لهذه المقابلة المغلوطة بين العقل والوحى.. وأن نعرف جميعًا أن صاحب «العلم» هو صاحب «الشريعة».

فإن واهب العقل هو الموحى بـ «النقل» وأن الرواية فى أمور الدين لا تكفى وحدها ولا تغنى أبدًا عن التعلم والفقه والدراية.. وأن «المسلم» العاقل التقى عليه أن يقرأ - فى خشوع - كتاب الله المنزل على رسوله، وأن يقرأ - فى خشوع مماثل - كتاب الله المثبوت فى الكون.. آيات بينات تدل على القدرة والرحمة والعلم واللطف والوحدانية. إن على المسلمين المعاصرين أن يودعوا - إلى غير رجعة - منهج الخرافة فى فهم الدين ونصوصه ومنهج تعطيل العقول، التى بغيرها لا تفهم النصوص.. وأن يعلموا - علم اليقين - أن تكاليف الشريعة ليست عقوبات يفرضها الله على المكلفين، فهو سبحانه غنى عن العالمين.. والنصوص ليست إلا شواهد وعلامات على تحقيق مقاصد الشريعة.. وإن كارثة ترك الاجتهاد والنظر ينبغى أن تنزاح عن كاهل هذه الأمة حتى تستطيع عمل شيء، أى شيء لإنهاء الجمود القاتل، والخروج من بياتها الحضارى الطويل..

ودعونا نذكر هؤلاء الخائفين من العقل وسلطانه، والمشفقين أن تتطاول العقول على النصوص، دعونا نذكرهم بأن الله تعالى هو المتكفل بحفظ تلك النصوص، وأن الفقهاء وأهل العلم كانوا - ولا يزالون - ورثة الأنبياء فى المحافظة على تلك النصوص، ولكن الأزمة الحقيقية فى ثقافتنا السائدة وفى خطابنا الدينى المعاصر أن العقل قد أنزل عن عرشه، وأن قضية العلم قد تراجعت مكانتها فى عقول كثير من المتدينين.. وأنه إذا كانت آفة الدنيا من حولنا أن بعض الناس قد تصوروا أن العقل يستطيع - بغير النقل وهداية الوحى - أن يهدى إلى الرشد، فإن آفتنا - نحن المسلمين - أننا عطلنا العقول وركنت عامتنا وخاصتنا إلى المنقول، فتوقف كثيرون عن إعمال العقول، وتوقف بعضهم عن السعى وإحسان العمل، واختلط التوكل بالتواكل، وامتزجت القناعة بالخمول، كما اختلطت العفة بالعجز، فتقدم الناس وتأخرنا، وتحركت الدنيا وتجمدنا.. ولا خير اليوم فى خطاب دينى لا يتصدى لهذه الثغرة، ولا يعالج هذا الخلل.

العنصر السادس: مداومة الحديث عن الماضى، والذهول عن الحاضر، والخوف من المستقبل

إن استقراءً سريعًا للخطاب الدينى السائد عندنا يكشف على الفور عن ظاهرة شديدة الغرابة تتمثل فى أن الجانب الأكبر، والوحيد أحيانًا، فى هذا الخطاب يتصل بالماضى ويكاد يقف بالسامعين والمشاهدين عند عصر النبوة وعصر الصحابة وقليل من التابعين.. حتى صار الإسلام فى تصور العامة هو تاريخ هذه الحقبة وحدها، وسيرة الخلفاء الأربعة الراشدين، وقد يضاف إليهم الخليفة الأموى العادل عمر بن عبد العزيز.. وتلك آفة بالغة الخطورة على جيلنا كله.. فقد التوت أعناق هذا الجيل وهو مشدود أبدًا إلى الوراء، منكفئ على الماضى، مشغول بالذات.. وحجتهم الحاضرة - ولا غناء فيها - أن من يقطع صلته بماضيه لا رجاء له فى مستقبله، وتلك حجة داحضة، أو هى كلمة حق يراد بها باطل، فإن أحدًا من العقلاء الأتقياء لا يقول بقطع الصلة بالماضى ولا يتصور - من حقه - أن يعرض عن جملة التراث، أو أن يهون من قدسية النصوص التى نزل بها الوحى على

المتشددون - فى كل زمان - يصدرون فى تشددهم عن تصور خاطئ لمهمتهم وحدودها، فهم يتصورون أنفسهم وصاة على الدين وعلى الناس، وهم لذلك فى خوف دائم مقيم أن يؤدى التيسير على عباد الله إلى الخروج على حدود الله وتكاليف الشريعة.. وينسى هؤلاء أنهم دعاة ومبلغون، وليسوا أوصياء على أحد من الناس



رسـول الله صلى الله عليه وسلم، أو أن يغض من فضل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين عاشوا معه، وتلقوا منه الحكمة، وتأسوا بسيرته، وكانوا همزة الوصل بين عصره ومن جاء بعدهم... ولكن يبقى أن نذكر أمرين:

أولهما: أن الماضى ـ بكل ما فيه ـ ليس من صنعنا نحن، وأمجاده ماض نعتز به ولكن لا فضل لنا فيه.. ثم إن الماضى على امتداده ساحة هائلة اجتمع فيها الحق والباطل، والهدى والضلال وتصارع فيها العدل مع الظلم، والإسلام مع الكفر والنفاق.. ومن ثم فليس كل قديم نافعًا.. وليس كل ما مضى خيرًا نجتره ونلتزم به واهمين.

ثانيهما: أن الاستغراق فى الماضى يشغل عن معالجة «الحاضر» واستشراف المستقبل والإعداد له والاحتفال بأمره.. ولست أدرى كيف ينسى بعض الخطباء والمتحدثين والمفتين أن يذهلوا عن السرعة الهائلة التى تتحرك بها العلوم والمعارف الإنسانية بأشكالها وصورها التى لم تكن تخطر على بال الأقدمين.. وكيف يستطيع هؤلاء أن يعزلوا عقولهم ووجدانهم ومعهم عقول المخاطبين والسامعين عن الإيقاع السريع لحركة الحياة من حولهم.

لقد آن الأوان لتكون النغمة الغالبة على الخطاب الدينى المعاصر دعوة للجيل كله، يرفع بها أصابعه عن آذانه، ويزيل غشاوة الرتابة والجمود عن عيونه ويشحذ الهمة لعمل كبير، وجهاد طويل بخطو سريع يمد بها أبصاره إلى المستقبل، ويرتحل ـ ولو قليلاً ـ عن الماضى الذى حصر نفسه فيه، ووقع فى أسره وهو يظن أنه يتقرب ـ بهذا كله ـ إلى الله.

وبعــــد..

فهذه وقفة ـ على طولها ـ سريعة مع الخطاب الدينى المعاصر.. نؤكد بعدها من جديد، أننا لسنا غافلين عن جهود صادقة تبذل هنا أو هناك لترشيد هذا الخطاب، ولكن الحقيقة التى لا نحب لأحد أن يكابر فيها دفاعًا عن نفسه، أو اعتذارًا عن تقصيره، أو مجاملة لصاحب سلطان.. إن هذا الخطاب الدينى يحتاج إلى ثورة حقيقية عمادها الأكبر مزيد من العلم والفقه ومزيد من التوجه لفهم علل الأحكام ومقاصدها الكبرى.. ومزيد من معرفة الواقع المعقد الذى يحيط بنا وبسائر الناس من أهل هذا الزمان.. وبغير جهد علمى صادق يبذل على طريق هذه الثورة.. فإن الحديث عن صحوة إسلامية، أو مشروع إسلامى للنهضة لن يكون إلا فرقعة لفظية، وكلامًا مرسلاً لا غناء فيه، ولغوًا لا يصح به دين ولا تصلح به حياة.

العنصـــــر الســـــابع:
علاقة المسلمين بالغير

هذه القضية بالغة الأهمية، وعلى فهمها الصحيح يتوقف مستقبل العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الإسلامى الواحد.. ومستقبل العلاقات بين المسلمين وغيرهم من شعوب الأرض.. ومن المؤسف أن بعض نماذج الخطاب الإسلامى المعاصر تقع فى أخطاء فادحة وهى تصف هذه العلاقة «لجماهير المسلمين». ويتمثل الخطأ الأكبر فى إقامة سور نفسى واجتماعى يحاجز بين المسلمين وسائر الناس، وإقامة سور آخر يحاجز بين المسلمين بعضهم البعض داخل المجتمع الواحد.. فتكون عاقبة ذلك «محاصرة» المسلمين داخل حوزات مغلقة، تحول دون تواصلهم مع غيرهم، وتتركهم فى عزلة تضر بهم وبالناس جميعًا.. وتمنح شرعية كاذبة للدعاوى التى تملأ الدنيا من حولنا هذه الأيام.. زاعمة أن الإسلام يضع أتباعه فى حالة «جهاد دينى مقدس» متواصل الحلقات ضد من لا يدين بدينهم ولا يرى رأيهم، وأنهم سيظلون ـ لذلك غرباء ـ عن مسيرة الإنسانية المعاصرة.. وستظل الفجوة قائمة وواسعة بينهم وبين سائر الشعوب بسبب اعتناقهم لفكرة «الجهاد» وتفسيرها تفسيرًا يتسع يومًا بعد يوم.. وبسبب إصرارهم على أنهم مختلفون تمامًا عن سائر الشعوب، وأن عقيدتهم وثقافتهم لا تفسحان مكانًا للاختلاف.. ولا تحرصان على التعايش مع «الآخرين» فى ظلال من المساواة والاعتراف المتبادل، والحوار الذى لا يحول دونه وجود الخلاف.

والحق أن قضية «العلاقة بالآخر» تقع فى نطاقين متميزين:

أولهما: النطاق الداخلى، أى خلاف المسلمين بعضهم مع بعض، والآخر: علاقة المسلمين مع غيرهم ممن لا يدينون بالإسلام، وينتسبون لعقائد وثقافات أخرى.

فأما الأمر الأول: فيقتضى ملاحظة أن الفرد المسلم ليس وصيًا على الفرد المسلم الآخر، وأن اختلاف الأفكار والمواقف العملية بين أفراد المسلمين، وتحت مظلة الدين الواحد الذى يدينون به، أمر وارد تمامًا، وهو ـ فى النهاية ـ نافع لمجموع الأمة.. ولا يجوز أن تضيق به الصدور أو أن يكون سبيلاً للتفرقة والقطيعة وتبادل الاتهام، كما أنه لا يقتضى ـ أبدًا ـ أن يكون أحد أطرافه مؤمنًا، والآخر فاسقًا ومارقًا.. إذ الصواب والخطأ فى الاجتهاد غير الاستقامة والخطيئة. والقرآن يذكرنا ـ وقلما نتذكر ـ بأن وحدة الأمة لا تحول دون وقوع الخلاف بين أفرادها، بل يظل المؤمنون ـ رغم خلافهم ـ «كالبنيان يشد بعضه بعضا». وحتى إذا استفحل أمر الخلاف ووصل إلى حد الاقتتال المنهى عنه، فإن الفريقين المختلفين يظلان «إخوة» ويظلان «مؤمنين». ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (٩ـ الحجرات) لذلك نلح فى الرجاء على المشتغلين بالخطاب الإسلامى أن يراجعوا أنفسهم وأن يعيدوا التأمل فى آيات الكتاب الكريم وسنة النبى صلى الله عليه وسلم، ليعرفوا ـ من جديد ـ كيف اعتبر الإسلام التنوع وتعدد الآراء واختلاف الثقافات نعمة تستوجب شكرها «بالتعارف» الذى يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (١٣ـ الحجرات) ثم ليقفزوا ـ بعد ذلك ـ قرونًا من الزمان ليسمعوا الإمام أباحنيفة وهو يقول: «علمنا هذا رأى وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بخير منه قبلناه»، ثم ليسمعوا الإمام الشافعى وهو يقول: «رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب».. وليذكروا بعد ذلك أن الصحابة وهم حواريو النبى صلى الله عليه وسلم الذين لازموه وأخذوا منه الدين والعلم والعمل، قد اختلفوا فى أمور عديدة، وأن التابعين من بعدهم كانت بينهم خلافات فى الرأى أكثر من اختلافات الصحابة.. وأن الأئمة أصحاب المدارس الفقهية الكبرى فى تاريخ التشريع الإسلامى.. كانت لهم أصولهم الفقهية، واجتهاداتهم الخاصة بهم فى فروع الفقه وفيما انتهوا إليه من رأى.. فما ذكر أحد منهم أحدًا بسوء.. فضلاً عن أن يتهمه فى خلق أو دين.. إن هذا السجل المشرف أثر من آثار البصر الدقيق بالأصول الاعتقادية الكبرى للإسلام وعثرة من عثرات الإيمان بأن الحكمة ليست حكرًا على أحد.. وإنما هى موزعة بين الأفراد، مبثوثة فيهم جميعًا.. وأن على طالبها أن يبحث عنها عند الآخرين ولو كان هؤلاء الآخرون غير داخلين فى الإسلام بحدوده الجغرافية أو التاريخية.

أما غير المسلمين فقد علمنا القرآن الكريم أن نجادلهم بالتى هى أحسن ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤ـ فصلت) كما بين لنا أن العدل معهم، والبر بهم (والبر تقديم ما يجاوز حد العدل) هو أقوم السبيلين.. ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨ ـ الممتحنة).

وحين يتصل الأمر باختلاف العقائد الدينية، فإن القاعدة الذهبية الكبرى التى لا يتصور ورود النسخ عليها أو تبديلها هى قوله تعالى: «لا إكراه فى الدين» وهى قاعدة بين القرآن مظهرها العملى بقوله تعالى على لسان المؤمنين: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥ـ سبا). كما تردد صداها فى آيات أخرى عديدة: يقول تعالى لنبيه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩ـ يونس) ويقول له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (٢٢:٢١ـ الغاشية)

ويبدو أن الإحساس المرير بالتراجع السياسى والاقتصادى والعسكرى للشعوب الإسلامية المعاصرة قد دفع كثيرًا من الدعاة إلى التورط فى تحريض المسلمين على مخاصمة الدنيا كلها، والدخول مع الناس «الآخرين» فى معركة مواجهة ورغبة فى الاستبعاد والإقصاء.. ولازلت أذكر ـ فى دهشة يمازجها الأسف الشديد، خطيبًا أديت خلفه صلاة الجمعة منذ عشرين سنة، ختم خطبته بدعاء على «الكافرين» أن يحصيهم الله تعالى عددًا، وأن يهلكهم بددًا، ويجعلهم وأموالهم غنائم للمسلمين.. ثم بدا له أن يفصل اللعنة التى صبها عليهم مستعرضًا علمه بأسماء بعض البلاد، فأخذ يذكرهم بجنسياتهم وأقطارهم، حتى لم يترك بلدًا من البلاد الأوروبية إلا وقد أدخله باسمه فى «لعنته» العامة التى ختم بها خطبته.

إن هذا كله انحراف صارخ عن جادة الإسلام الصحيح ومخالفة واضحة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته وأدبه فى الدعوة إلى الله.. يشهد بهذا ما تعلمناه من أن بعض أصحابه سألوه أن يدعو على المشركين فرفض قائلاً: «إنى لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة». وبعد هذا كله، فقد تغير الزمان، وتبدلت أوضاع الدنيا كلها، ولم يعد المسلمون «منحازين» وحدهم فى بلد واحد، ولم يعد غير المسلمين.. هم الآخرون «منحازين» فى أقطار لا يدخلها أو يقيم فيها المسلمون.. وسقطت بهذا التطور الكبير ترتيبات وصياغات صنعها الفقهاء فى عصر غير العصر وملابسات غير ما يحيط بنا اليوم من ملابسات.. فلم يعد لتقسيم الدنيا إلى دار حرب ودار إسلام ذات المعنى الذى كان له.. ولسنا اليوم ولا قبل اليوم ـ نحن المسلمين ـ فى حالة قتال دائم مع غير المسلمين.. وإنما نحن وإياهم شركاء فى مسيرة واحدة، نتبادل ثمرات الخبرة والتجربة، ونوظف تنوعنا فى العقائد والثقافات لما ينفع الناس. متعاونين فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، ملتزمين، كلٌّ فى ناديه، بثوابت ما يؤمن به، وليت فقهاءنا وأهل الاجتهاد فينا يقدمون للأمة صياغات جديدة تشرح العلاقات الجديدة بين المسلمين وغير المسلمين.. بما يستحق أن نسميه «فقه التعايش والاتصال» بديلاً عن فقه «العزلة والانفصال»...

يحتاج الدعاة والخطباء
والمتحدثون والمفتون
إلى أن يعرفوا معرفة لا شك فيها،
ولا مكابرة معها أو جدال.. أن شريعة الإسلام قد بنيت
على التيسير ورفع المشقة ورفع الحرج،
ولم تبن أبداً على التعسير
والمشقة والحرج

هـامش

(١) هو الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه: «نحو فقه ميسر معاصر» مكتبة وهبة ص ٢٦.

عن الإسلام.. والأصولية..

محمد السطوحي

منذ نحو خمسة عشر عاما، كان نائب وزير الدفاع الحالي بول ولفويتس يتحدث كمن يقرأ المستقبل، فقال: «إن فوكوياما الصغير (٣٥ عاما في ذلك الوقت) سيكون أول وزير خارجية أمريكي من أصل ياباني».

وإلى الآن لم تتحقق نبوءة ولفويتس، وربما تثبت السنوات القادمة ذلك إن كانت صحيحة. غير أن الدلالة الأهم لهذه العبارة، هي ما تكشف عنه من جوانب أساسية في شخصية فرانسيس فوكوياما. فهو ليس مجرد منظِّر، يمضي وقته في القراءة والكتابة، ثم يذهب لممارسة لعبة الجولف. لقد استهل حياته العملية بعد حصوله على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة هارفارد، بالعمل في وزارة الخارجية الأمريكية كنائب لمدير إدارة التخطيط السياسي، وشارك أثناء هذه الفترة في بداية الثمانينيات ضمن الوفد الأمريكي في المحادثات المصرية الإسرائيلية، إلى أن توقفت بعد الغزو الإسرائيلي للبنان. ورغم أن فوكوياما ركز بعد ذلك على الكتابة، والعمل الأكاديمي، إلا أن تأثيره وصلاته لم تنقطع يوما عن العمل السياسي ومؤسساته في الكونجرس أو وزارة الخارجية، أو البيت الأبيض الذي عين فيه مؤخرا ضمن مجلس استشاري للرئيس بوش لاقتراح السياسات الخاصة بقضايا الهندسة الوراثية.

صحيح أن فوكوياما لم يصبح بعد وزيرا للخارجية كما تنبأ ولفويتس، إلا أن البعض يعتقد أن دوره في تشكيل السياسات الخارجية الأمريكية، بل والغربية بشكل عام، ربما يفوق في تأثيره بعض من تولوا هذا المنصب بالفعل. فقد شارك في صياغة نوع من التأصيل الفكري، أو الإطار النظري لتلك السياسات، في وقت كان فيه المسئولون الأمريكيون يبحثون عن إطار نظري جديد يحكم عمل مؤسساتهم وتوجهاتها، بعد أن تهاوت المنظومات الفكرية القديمة بانتهاء الحرب الباردة.

واعتبر كتاب فوكوياما الأخير «نهاية التاريخ، والإنسان الأخير» مع كتاب صامويل هنتينجتون الشهير «صراع الحضارات» أهم ماظهر من مؤلفات خلال العقد الماضي لتقديم هذا الإطار الفكري المفقود، وإن كانا من منظورين مختلفين، بل و متناقضين. غير أن النظرة الأكثر تفاؤلا في كتاب فوكوياما واتفاقها مع الروح التي سادت تلك الفترة مع نهاية الحرب الباردة، جعلته الأكثر تأثيرا، حتى إن خبيرا استراتيجيا مثل توم بلو وصف «نهاية التاريخ» بأنه أهم ما كتب خلال العقد الماضي على الإطلاق.



وقد تعرض الكتاب منذ صدوره لانتقادات عديدة، إلا أن فوكوياما ومؤيديه أصروا على أن التطور البشري بلغ قمته بالليبرالية الديمقراطية، بمفهومها العلماني كما هو مطبق في الغرب، وبما يعنيه من تعددية، وحريات مدنية ودينية، واقتصاد السوق الحرة.

ثم جاءت أحداث سبتمبر الماضي وما أعقبها من حرب - لا تزال مستمرة - ضد الإرهاب، بكل ما تحمله من مخاطر واحتمالات. وقد اعتبر البعض تلك الأحداث نهاية لـ «نهاية التاريخ»، لتبرز بشكل أكبر النظرية المقابلة لهنتينجتون المعروفة بصراع الحضارات.

وقد تمسك فوكوياما بنظريته حتى الآن، باعتبار أن الليبرالية الديمقراطية لا تزال هي المحرك الرئيسي للسياسات العالمية. وحقيقة أن فوكوياما لم يتجاهل تماما ذلك «التحدي الإسلامي» في كتابه «نهاية التاريخ» إلا أنه لم يجد فيه مايهدد الليبرالية الديمقراطية، لاعتقاده بانحسار جاذبية المنظور الإسلامي في بعض الدول الإسلامية، كما أنه لم ير مايمنع المواءمة بين الإسلام كدين، وبين مفاهيم الليبرالية الديمقراطية.

إلا أنه نشر مؤخرا مقالا مهمًا في مجلة «نيوزويك» ركز فيه على ما وصفه بالإسلام الراديكالي أو المسلح، أو الفاشية الإسلامية، باعتبارها تهديدًا خطيرًا تنبغي مواجهته وهزيمته.



وعندما يصدر هذا الكلام الخطير عن مفكر في ثقل وتأثير فوكوياما، فلابد من الوقوف عنده، ومناقشته، خاصة أننا بدأنا بالفعل نرى انعكاسات له في منظور وسياسات إدارة بوش، وهي تتجه لتوسيع الحرب ضد الإرهاب فيما بعد أفغانستان.

لذلك اتصلت بفرانسيس فوكوياما، أو فرانك كما نناديه منذ بدأت معرفتي به عندما كان أستاذا لي بجامعة جورج ماسون في منتصف التسعينيات. وقد رحب على الفور بهذا اللقاء الذي تمنينا فيه معًا أن يكون بداية لحوار حقيقي وجاد عبر المحيط. فالفكرة الآن لاتقل تأثيرا عن السلاح، وتجاهلها أصبح ترفا لا نقدر عليه. فمن الضروري الآن أن نشارك في حوار فعال، وناضج، بعيدا عن التشنج و الانفعالات، لايعمينا فيه اعتزازنا بأنفسنا، ورغبتنا في (إفحام) الآخرين، عن رؤية نقائصنا وعيوبنا والتعامل معها بصراحة وموضوعية.

بقي أن أشير إلى أن مقال فوكوياما الأخير بمجلة نيوزويك بعنوان «هدفهم العالم المعاصر» قد صحبته صورة لأطفال فلسطينيين وهم يلقون الحجارة، بما في ذلك من دلالات ذات مغزى، ولا تتفق مع مضمون المقال ذاته. ورغم معرفتي بأن نشر الصورة هو قرار محرر المجلة في المقام الأول، إلا أنني سألت فوكوياما في البداية عن رأيه في اختيار الصورة، وقد وافقني الرأي في أنها لم تكن موفقة ولا تعبر عن مضمون المقال، مشيرا إلى أن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي يمثل قضية مختلفة.

وبعد هذا التوضيح الواجب، انتقلنا مباشرة إلى صلب الموضوع: الإسلام، والغرب، والحداثة حيث بدأ المفكر الأمريكي بتوضيح رأيه في القضية بشكل عام:

- فوكوياما: أنا أرى أن التوفيق ممكن بين الإسلام كدين، وبين الحداثة. فالإسلام يمثل دينًا ونظامًا ثقافيًا معقدًا للغاية، وقد أثبت قدرته على التوافق مع الحداثة في عدد كبير من المجتمعات، ولدى كثير من الأفراد، ولا أرى هناك سببا يمنع وجود شكل «حديث» للإسلام. غير أن «نوع الإسلام» الذي يروج له الوهابيون في السعودية، وأسامة بن لادن وحركة طالبان، لا يمكن أن يتفق مع الحداثة، وأنا أعتقد أن القضية الأساسية هي إمكانية وجود دولة علمانية، ولكن يجب أن نفهم أن العلمانية ليست فكرًا موروثًا في الحضارة الغربية، فمنذ خمسة قرون لم تكن هناك علمانية في أي مجتمع مسيحي غربي، كان هناك أمراء وأديان للدولة. لكن المجتمعات الغربية تعلمت المبادئ العلمانية في إطار عملية التنوير نتيجة الحروب الدينية التي اشتعلت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والتي تقرر بناء عليها فصل الدين عن مجال السياسة، وفي اعتقادي أن هذا الأمر - ليس فقط ممكنا - لكنه أيضا ضروري ومطلوب في إطار التقاليد الإسلامية. فالإسلام السياسي أوالمسيس يؤدي إلى الصراع المستمر، كما أن العلمانية يمكن توفيقها مع الإسلام، وهي أيضا ضرورية لتحديث المجتمعات الإسلامية، كما حدث في تركيا، ومصر وبعض الدول التي قبلت هذا المبدأ الأساسي للحداثة.

● لكن كما تعرف فإن التجارب التاريخية للإسلام والشعوب الإسلامية تختلف جوهريا عن تجارب الشعوب الغربية المسيحية في تحولها إلى العلمانية، وبالنسبة لكثير من المسلمين فإن الإسلام كدين لا يقف عند حدود العبادات أو المبادئ الأخلاقية، بل يتجاوزها إلى تحديد مفاهيم عامة لنظام الدولة، وأسلوب إدارة شئون الحكم. وهذا في ذاته يجعل من الصعب تحقيق هذا الفصل بالأسلوب الذي تم به في المجتمعات العلمانية الغربية.

- أعتقد أن هناك فارقا بين العلمانية، وبين معاداة (الإكليركية) كتعبير عن الدين، فالدين يمثل مكونا أساسيا للمجتمع، ولابد أن يكون له دور في تشكيل السياسة وفي تحديد أسلوب حياة الناس داخل المجتمع. لكن المشكلة التي تواجهها كل المجتمعات الحديثة، هي التنوع الكبير بداخلها، وحتى في العالم الإسلامي هناك فروق بين السنة والشيعة، وبعض الطوائف الإسلامية الأخرى، ولابد أن تكون هناك طريقة للتعامل مع هذا التنوع. ولاشك أن هناك أشكالا ووسائل سياسية تتواءم مع ما يفرضه الإسلام كدين. ولكن يبقى هناك مبدأ أساسي يتطلب فصلا معينا بين السياسة والدين، حتى في المجتمعات الإسلامية، وأنا لا أستطيع أن أحدد لك نوعية المؤسسات، أو أن أرسم الخطوط الفاصلة بين الإسلام والسياسة، فهذا أمر متروك لكل مجتمع يقرره لنفسه، لكن هذا الأمر يمثل قضية أساسية لنا جميعا.

● لكن المشكلة أنه إذا أخذنا دولة مثل تركيا، التي ذكرتها كدولة قبلت العلمانية كمبدأ للحداثة، نجد أنها تجاوزت مرحلة الفصل بين الدين والسياسة، إلى ما يمكن أن نعتبره نوعا من الرفض أو المعاداة لأشكال التعبير عن الدين، التي يفترض أن تصان حتى في المجتمعات العلمانية، وأنا لا أدري إن كان هناك نموذج يحتذى به بالشكل الذي تتحدث عنه في الفصل بين الدين والسياسة في الدول الإسلامية، بما يرضي دعاة الطرفين.

- لقد كان هذا هو الرأي الذي عبرت عنه في محاضرة ألقيتها أمام مجموعة من الطلبة الأتراك هنا في واشنطن، وقلت لهم إن الأتاتوركية ليست مجرد علمانية لكنها

أنا أرى أن التوفيق ممكن بين الإسلام كدين، وبين الحداثة. فالإسلام يمثل دينا ونظاما ثقافيا معقدا للغاية، وقد أثبت قدرته على التوافق مع الحداثة فى عدد كبير من المجتمعات

تنطوى على معاداة للإكليركية أو الدين، وقد تعرضت منهم لوابل من الانتقادات، حيث أكدوا أن الأمر ليس معاداة للدين، ولكن منع تسييس الإسلام. و أنا لا أريد أن أتخذ الآن موقفًا صارمًا بشأن هذا الموضوع، لكنك محق فى أن هناك نوعًا من العلمانية التى تتحول إلى معاداة الدين، ويمكنك أن ترى ذلك فى الولايات المتحدة، فهناك من يعادون أى شكل من أشكال التعبير عن الدين فى الحياة العامة، وأنا شخصيا أعتقد أن من غير الممكن أو الملائم وجود هذا النوع من كبت الدين، سواء فى المجتمعات الإسلامية أو المسيحية الغربية، فلابد أن تتاح الحريات الدينية بشكل حقيقى وأن يسمح للناس بالتعبير عن معتقداتهم الدينية، ولكن عندما يرتبط دين معين بسلطة الدولة، فإن هذا يمثل مشكلة حقيقية.

● اللافت للنظر أنك عبرت قبل ذلك عن اعتقادك بأن إيران هى المؤهلة لقيادة العالم الإسلامى لحل هذه المعضلة، كيف يكون ذلك؟

- إن إيران هى التى قادت العالم الإسلامى لإحياء الأصولية منذ الثورة ضد الشاه عام ١٩٧٨، ووصول آية الله خومينى للحكم. وهناك دولتان عاشتا فى ظل شكل صارم للإسلام الأصولى، هما إيران وأفغانستان، ويمكن القول إنه لا أحد ممن عاشوا هذه التجربة يريد أن يستمر فيها، فالناس قد يعتقدون برغبتهم فى ذلك قبل الثورة، لكن بعدها يتبين لهم وجهها القمعى، وتقييدها لحرية المرأة، وحرية الصحافة، وأشكال التعبير الأخرى. وفى إيران الآن نجد أن سبعين فى المائة من السكان تحت سن الثلاثين، ولا أجد بينهم تأييدا لاستمرار هذا النظام الثيوقراطى، والاحتمال الأكبر هو أنه مع نمو هذا الجيل سوف تتحول إيران إلى الليبرالية. وبما أن إيران هى التى قادت الحركة الأصولية الإسلامية، فإنها ستكون فى وضع يمكنها من توضيح إمكانية وجود مجتمع إسلامى أكثر حداثة.

● ربما يكون ذلك صحيحا لو أن تلك الحداثة لم تكن انقلابًا كاملاً، أو سيرًا فى الاتجاه المعاكس لكل ما جرى خلال العقدين الماضيين، فهل ترى ذلك ممكنًا؟

- لا أعتقد ذلك، وفيما أراه من اتصالاتى مع الإيرانيين، فهم ليسوا راغبين فى نظام معادٍ للإكليركية أو قمع الدين، لكنهم يريدونَ الاحتفاظ بهويتهم الإسلامية فى ظل مجتمع لا يسيطر عليه رجال الدين، بل يكون مجتمعا أكثر حداثة، به حكومة أكثر تكنوقراطية، ومؤسسات حديثة مع المزيد من التعددية والحريات.

● لكن تجربة الإسلاميين فى كل من إيران وأفغانستان، ربما لا تكون كافية بذاتها للحكم. فكما تعلم أن القضية ليست فقط فى تولى الإسلاميين السلطة، ولكن أيضا فى الوسيلة التى يصلون بها إلى الحكم، فهى إلى حد كبير تحدد نوعية أولئك الإسلاميين، فلو كانت من خلال ثورة أو انقلاب عسكرى، فإننا بالتأكيد سنرى تلك النوعية من الإسلاميين التى تحدثت عنها. لكن ماذا عن الإسلاميين الذين يتعايشون داخل المجتمع المدنى، ويقبلون بالمفاهيم الأساسية للديمقراطية من حيث التداول السلمى للسلطة من خلال انتخابات تحدد إرادة الشعب؟ إننا لم نر بعد تجربة حقيقية مكتملة من هذا النوع تسمح لنا بالحكم المستند إلى تجارب الواقع، وليس المبنى على مخاوف.

- هذا صحيح..وقد كانت هناك حالة الجزائر التى كان يمكن فيها للإسلاميين أن يصلوا إلى السلطة عن طريق الانتخابات، ولكن هذا لم يحدث نتيجة الضغوط الخارجية وتدخل الجيش. وأنا أميل للقول إن هذا كان خطأ، وأنه كان من الأفضل السماح لهم بالوصول إلى الحكم. فمن الأشياء التى تتعلمها عندما تتولى السلطة، هى أن عليك الوصول إلى صيغ توفيقية بشأن القضايا المعروضة، كما أن دخول هذه الأحزاب فى العملية السياسية يقلل بطريقة ما من جاذبيتها، وهذا ما حدث مع حزب الرفاه فى تركيا. وبصفة عامة فأنا أعتقد أن من المفيد السماح للأحزاب الإسلامية المستعدة للمنافسة الديمقراطية أن تفعل ذلك، مادامت تلتزم بقواعد تلك المنافسة. إلا أن ما يخشاه الكثيرون، هو أن أغلبهم من الراديكاليين، وأنهم لن يسمحوا بتكرار الانتخابات التى وصلوا عن طريقها إلى الحكم، ولن يسمحوا بالتعددية. وهذا قلق حقيقى، وهو يفسر تدخل الجيش التركى ضد حزب رفاه لإبعاده عن مجال السياسة التركية.

● لكن أليس ذلك انتهاكا للمبادئ الديمقراطية الأساسية، حتى وإن كان يتم باسم الدفاع عن تلك المبادئ؟

- هذا صحيح تمامًا، وهذه مشكلة صعبة، لذلك فأنا أعتقد أن من الأفضل على المدى الطويل السماح بهذا النوع من التعبير الديمقراطى، حتى لو أدى ذلك إلى بعض السياسات الراديكالية أو كبت للحريات على المدى القصير، لأن هذا سيؤدى فى النهاية إلى نوع من النضج الديمقراطى فى تلك المجتمعات، بما يسمح بحريات التعبير.

● هل تعتقد أن فى المنظور الفكرى للإسلاميين ما يحول دون قدرتهم على التطور الديمقراطى، بما يسمح بحرية التعبير واستيعاب الجماعات والتوجهات المختلفة أو المتناقضة؟

- هناك قضيتان : الأولى هى الديمقراطية، والثانية هى الليبرالية، وهى حرية الناس فى أن تكون لديهم أنظمة تعددية تسمح لهم بالمشاركة. والمشكلة مع الإسلاميين أو الراديكاليين الإسلاميين، هى أنهم ديمقراطيون بمعنى أنهم يقبلون بإرادة الشعب، لكنهم ليسوا ليبراليين من حيث الإيمان بالتعددية السياسية والتسامح، وهذا ما حدث فى إيران، فقد كانت أكثر ديمقراطية فى ظل آية الله خومينى عنها أيام الشاه، الذى لم يسمح بالانتخابات. إلا أنه فى عهد الخومينى أصبح المجتمع أقل تسامحًا وأقل ليبرالية فتم اضطهاد البهائيين ومن لا يشاركونهم معتقداتهم الدينية، وهنا تكمن المشكلة مع الإسلاميين، فهى ليست كونهم غير ديمقراطيين، ولكن أنهم لايسمحون بأى تعددية، بينما المطلوب هو وجود الحريات، والديمقراطية، لكى تتمكن المؤسسات السياسية من العمل بشكل سليم.

● لكن، على فرض صحة ذلك لدى بعض الإسلاميين، هل ترى فى الإسلام - كمنظومة فكرية، ما يتعارض مع هذه المفاهيم الديمقراطية والليبرالية؟

- بالتأكيد لا فيما يتعلق بالديمقراطية، ولا أعتقد أن الإسلام كدين فيه ما يتعارض مع ذلك، لكن لست أنا من يتحدث عن هذا الموضوع، فهذا نقاش ينبغى أن يدور بين المسلمين أنفسهم حول حجم التعددية ودرجة التسامح الموجودة فى مجتمعاتهم. وأنا

والحداثة

يمكنني أن أحدثك عن آرائي ونصائحي من الخارج. غير أن هذه في الأساس قضية يتعين على المجتمعات الإسلامية أن تواجهها. لكن بناء على ملاحظاتي الشخصية فإنه يمكن أن تكون إسلاميًا وفي الوقت نفسه متسامحًا وتؤمن بالتعددية.



● لقد أثرت تساؤلات كثيرة في مقالك الأخير بمجلة نيوزويك بشأن الدول العربية والإسلامية، وأشرت إلى التراجع الكبير في كل الدول العربية وأغلب الدول الإسلامية عن التحرك في اتجاه الديمقراطية كما حدث في كثير من الدول الآسيوية أو في أمريكا اللاتينية، وذكرت أيضا أنه لم تفلح دولة عربية واحدة في وضع أسس التنمية الاقتصادية السليمة، أو اتباع السياسات التي تدمج اقتصادياتها في الاقتصاد العالمي بالشكل الذي رأيناه في تايوان وكوريا الجنوبية، وتشيلي والمكسيك وغيرها، وأنا أذكر أيضا أنني عندما كنت أدرس المؤسسات السياسية معك طرحت علينا هذا الموضوع وطلبت رأيي الشخصي فيه، لكني لم أعرف أبدا رأيك في تفسير هذه القضية المعقدة، وإن كان تكرار طرح السؤال في ذاته قد يوحي باتجاه الإجابة عنه. لذلك فإنني أود أن أستمع منك الآن لرأيك الشخصي.

- لقد شغلني هذا الموضوع لفترة طويلة، وأنا بدأت بدراسة الاتحاد السوفيتي والحركات الشيوعية، وكان من الأشياء التي لاحظتها في آسيا وجود أشكال عديدة من الأحزاب الشيوعية القوية التي تمكن بعضها من الوصول إلى الحكم في الصين وفيتنام، وأماكن أخرى. أما في الشرق الأوسط فكانت هناك بعض الأحزاب الشيوعية المتفرقة التي لم يتمكن أي منها من الوصول إلى السلطة باستثناء اليمن الجنوبي لفترة قصيرة نسبيًا. وقد تساءلت كثيرًا عن سبب ذلك، وأعتقد أن الإسلام هو أحد الأسباب التي منعت وجود أحزاب مناهضة عسكريًا للإكليركية مثل الأحزاب الشيوعية، فكان ذلك تعبيرًا عن التأثير الواضح للدين. لكن يبدو لي أن ذلك أيضًا كان أحد العوامل التي ساعدت شرق آسيا على التحديث بسرعة أكبر من الدول الإسلامية. ففي شرق آسيا لا يوجد دين بالشكل المتعارف عليه في أوربا أو الشرق الأوسط. فهناك بعض التقاليد الأخلاقية مثل الكونفوشية، لكن بشكل عام هناك دول علمانية، مع درجة عالية من التسامح الديني. فهذه الدول لم تنشغل بصراعات داخلية أو بعنف طائفي بسبب الدين، لقد تصارعوا لأسباب أخرى، غير أن الدين لم يكن قضية بالنسبة لهذه المجتمعات. أما في الشرق الأوسط فإن إنشاء الدولة العلمانية كان أكثر صعوبة، كذلك فإن الإسلام الراديكالي كان في اعتقادي إحدي العقبات أمام تحقيق قدر من الديمقراطية، في ظل التخوف من أن وصول الإسلاميين إلى الحكم بوسائل ديمقراطية، سيؤدي إلى تراجع العملية الديمقراطية، وقد كان ذلك أحد أسباب تعثر التنمية السياسية في عدد من الدول الإسلامية.

● لكن حتى إذا سلمنا جدلاً بكل ذلك، ألا ترى أي تأثير إيجابي للإسلام أو للقيم الدينية التي يمكن أن يستفاد بها في عملية التنمية السياسية والاقتصادية لتلك المجتمعات كما حدث بالفعل في عدد من الدول الإسلامية الآسيوية؟

- إنني لا أعني بذلك أنه مجرد تأثير سلبي، فهناك عدد من الدول الإسلامية التي كانت قادرة على التحديث، منها ماليزيا على سبيل المثال، فقد كانت في فترة ما، واحدة من أسرع الدول نموًا في العالم، وكذلك إندونيسيا، التي تمكنت من تحقيق إنجازات كبيرة مع احتفاظها بهويتها الإسلامية. فمن الواضح أنه لا توجد مشكلة هنا وأعتقد أن الإسلام يمكن أن يأتي بحلول مبتكرة وخلاقة للتوفيق بين المعتقدات الدينية والمؤسسات العصرية. وكتابي الأخير *The Great Disruption* يتناول قضية الأسرة والتفكك الاجتماعي الذي يحدث في المجتمعات الغربية. وفي جوانب عديدة نرى أن المجتمعات الإسلامية أكثر تماسكًا، وبها معدلات أقل للجريمة، فهناك أمور إيجابية عديدة في تلك المجتمعات.



● لقد ذكرت في مقال لك حول هذا الموضوع إنه إذا استندت السياسة لشيء مثل الدين فإنه لن يحدث أي نوع من السلام المدني، وفي اعتقادي أن هذه عبارة أو حكم قوي، وأود أن أعرف مبرراتك للوصول إليه.

- إنه بيان يستند للتجارب التاريخية، في مجتمعات عديدة، فمن الممكن أن يكون هناك مجتمع صغير، مثل القبيلة أو مجموعة منعزلة من الناس، وأن تعيش في ظل دين واحد، بدون مشاكل لسنوات ولأجيال عديدة. ولكن من المستحيل تقريبًا أن نتصور مجتمعًا حديثًا به مثل هذا التجانس أو التماثل الديني لأنه يتعارض مع طبيعة المجتمع الحديث، الذي يعيش فيه عدد كبير من السكان، لهم آراء متنوعة. وفي أي إطار فإن هذا المجتمع لابد أن يفرز خلافات في الرأي والمواقف، حتى في ظل التقاليد المشتركة، فهي لابد أن تنقسم إلى فروع متعددة، وهكذا. وعندما تسيس الدين، فإن هذا سيقود إلى صراع سياسي، وهذا هو الهدف الأساسي للعلمانية، فهي تقول إننا لن نتفق أبدا على مبادئ المعتقدات الدينية، فعلينا إذن أن نضعها بعيدا عن السياسة، وأن نتفق على أنه لا اتفاق بيننا بشأنها، لكن أن يكون ذلك في إطار الحياة الخاصة لكل منا، وليس كموضوع للصراع السياسي. أما الدولة غير العلمانية فتقتضي أن يعتنق الجميع نفس المعتقدات الدينية.

● لكن حتى في الدولة الدينية، يمكن وجود معتقدات دينية أخرى مخالفة؟

- صحيح طبعا، كأن تكون هناك أديان أساسية ثابتة، لكن مع وجود مبدأ التسامح الديني، أما بالنسبة لكثير من الإسلاميين الراديكاليين فهذه ليست القضية، إنهم لا يريدون التسامح مع الأديان الأخرى، بل يريدون أسلمة المجتمع بما يتفق مع رؤيتهم الخاصة للإسلام، وهذا ما يؤدي إلى الصراع.

● إن التجربة التاريخية للإسلام، تؤكد أيضا أن أصحاب المعتقدات المختلفة يمكن أن يعيشوا بسلام في مجتمعات إسلامية بدون مشاكل، أليس ذلك صحيحا؟

- بالتأكيد، لذلك فإنني أقول إنه لا يوجد شيء جوهري في الإسلام يفرض تلك الأرثوذكسية غير المتسامحة، فمثلا النظام العثماني : كان متسامحًا تمامًا وسمح للجماعات الدينية المختلفة بالاستمرار في ممارساتها الدينية، فالإسلام ذاته لا يمنع ذلك، لكنها بعض التفسيرات الخاصة بالإسلام.

● أود أن أتوقف هنا عند قضية الأصولية الإسلامية، صحيح أنها الآن تسلط عليها الأضواء لارتباطها بأحداث سبتمبر الأخيرة من الهجوم على مركز التجارة العالمي في نيويورك والبنتاجون في واشنطن، وما أعقب ذلك من حرب في أفغانستان، والحملة ضد الإرهاب، لكن هناك أيضا الأصولية المسيحية، والأصولية اليهودية، وغيرها من الأشكال الأصولية، التي تحدثت عنها في كتابك «نهاية التاريخ» فهل ترى فيها مشاكل مشابهة لتلك التي تراها في الأصولية الإسلامية؟

- أعتقد أن أغلب أشكال الأصولية معادية للحداثة، لكن هناك أيضًا فروقًا بينها، ومن الخطأ وضعها جميعا في سلة واحدة، لأن العامل الاجتماعي يميز بينها. وعلى سبيل المثال فإن إحدي أكبر الحركات الثقافية الجارية الآن، هي تحول الكاثوليك في أمريكا اللاتينية إلى البروتستانتية (الإنجيلية) وهناك أعداد هائلة من البعثات التبشيرية وغيرها تشارك في تلك العملية. لكن لأنه لم يتم تسييس هذا الشكل من الإنجيلية البروتستانتية، فإنه لم يؤد إلى راديكالية سياسية، وكان لها في الحقيقة تأثير حميد على قضايا التنمية الاقتصادية وغيرها. وفي المقابل فهناك صعود الأصولية الهندوسية في الهند، مما أدى إلى هدم المسجد الشهير في أيوديا.. وما يحدث أيضا في سريلانكا بين التاميل والهندوس. وهي كلها تمثل هذا النوع من تسييس الدين، وهو أمر خطير للغاية.



● في هذا الإطار، هل ترى هناك ما يميز الأصولية الإسلامية عن غيرها من الأشكال الأصولية الأخرى؟

- لا أدرى إن كان هناك ما يميز الأصولية الإسلامية بشكل خاص، فجميع الحركات الأصولية ترفض الدولة العلمانية، أو الفصل بين الدين والسياسة.

● عندما تحدثت عن الراديكاليين الإسلاميين قلت إنهم يمثلون من عشرة إلى خمسة عشر في المائة من العالم الإسلامي، مستندًا في ذلك إلى الباحث دانيال بايبس، وهو كما تعلم مشكوك في مصداقيته على الأقل لدى جانب من الخبراء المسلمين، أو المتعاطفين مع قضايا العالم الإسلامي وهذه قضية أخرى، لكن إذا سلمنا جدلا بصحة هذا التقدير، فإنه يعني ببساطة وضع نحو مائة وخمسين مليونا من المسلمين في سلة الراديكاليين، وهذا رقم هائل، ويفرض التساؤل حول الأسلوب الذي تقترحه للتعامل معهم؟

- أولاً أنا لا أعرف ما هو الرقم الحقيقي، وقد كان هذا هو التقدير الوحيد الذي رأيته، وربما يكون الرقم أكثر أو أقل، لكن ما تقوله صحيح، فرقم مائة وخمسين مليونًا يمثل عددًا كبيرًا من الناس، وهم ربما لا يمثلون أغلبية في العالم الإسلامي، كما أنهم موزعون بطريقة غير متساوية بين الدول الإسلامية. لكنهم يظلون قوة سياسية مهمة ينبغي احتواؤها، والمسألة ليست اضطهادهم أو قمعهم سياسيًا، ولكن بإجراء حوار داخلي حول قضايا الإسلام والحداثة. وأنا أعتقد أن المملكة العربية السعودية كان لها دور مهم في ترويج الأفكار الوهابية الراديكالية، فهم لديهم الأموال التي مكنتهم من نشر تلك الأفكار ليس فقط في السعودية ولكن في مناطق عديدة من العالم بما فيها الولايات المتحدة، وهي الأموال التي مكنت أسامة بن لادن وأتباعه عمليًا، من شراء دولة في أفغانستان.

● لكن هذه المذاهب والأفكار بما فيها الوهابية كانت مسالمة في أغلبها، وربما لا يكون من الإنصاف إلصاق ما حدث من سلوكيات مرفوضة أو عمليات إرهابية بها.

إن الأتاتوركية
ليست مجرد علمانية
لكنها تنطوي على معاداة
للإكليركية أو الدين

أعتقد أن من المفيد السماح للأحزاب الإسلامية المستعدة للمنافسة الديمقراطية أن تفعل ذلك، مادامت تلتزم بقواعد تلك المنافسة

- الحقيقة أن سجلها خليط من هذه الناحية، وإذا استخدمنا باكستان كمثال، فإنها لم يكن من الممكن أن نرى بها هذه الحركات الراديكالية بدون التأييد السعودي لنشر الأفكار الوهابية من خلال ما يعرف «بالمدارس» التي تروج لأفكارهم.

● حتى فيما يتعلق بهذه المدارس، لقد ظلت قاصرة على أداء دورها التقليدي بنشر التعليم الديني البسيط للفقراء في باكستان، دون الدخول في الكثير من القضايا السياسية التي تثير القلق الغربي الآن بشأن توجهاتها، لكن نقطة التحول فيها كانت الغزو السوفيتي لأفغانستان، الذي حول اهتماماتها إلى مساندة الأفغان في مواجهة الغزو الشيوعي، وكانت النتيجة ما يوصف الآن بظاهرة الإسلام الراديكالي أو المسلح. فالقضية ليست فيما يدرسونه، ولكن أساسًا في العوامل أو الأحداث الخارجية التي كثيرًا ما تفرض نفسها عليهم.

- هذا الكلام صحيح بالتأكيد، فهو تطور معقد للغاية، وقد كانت تجاربهم بدون شك عاملاً في هذا التحول الراديكالي، ولكن تبقى القضية أن هناك معاداة للحداثة بشكل أساسي في جوهر الوهابية، حتى لو كانت تروج لتعاليم سلمية. فالمجتمع الوهابي يمكن أن يثرى بسبب البترول كما حدث، لكنه من وجهة نظري غير قادر على التحديث.



● لكن هذا يجرنا للحديث عن مصادر الراديكالية الإسلامية أو العمليات الإرهابية كما تراها. فيبدو لي من بعض كتاباتك المنشورة أنك تقلل من أهمية العوامل المتعلقة بالسياسة الخارجية الأمريكية خاصة بشأن الفلسطينيين أو العراق.

- إنني لا أريد بالضرورة أن أقلل من تأثير هذه العوامل، ولكن يبدو لي أن الراديكالية لا يمكن تفسيرها ببساطة من منطلق المعارضة للسياسة الخارجية الأمريكية، فهناك شكاوى في مناطق عديدة من العالم تجاه السياسة الأمريكية، لكن قليلاً منها يمكن أن يفرز أسامة بن لادن كرد فعل. وأنا أعتقد بوجود أسباب أكثر عمقًا تتمثل في الفقر، وانعدام التنمية، والركود السياسي بالإضافة طبعًا للسياسة الأمريكية تجاه إسرائيل، فأنا لا أحاول أن أقلل من ذلك، غير أنني لست واثقًا أيضًا من أن هناك ما يمكن عمله بالنسبة لهذا الموضوع، فالولايات المتحدة يمكن أن تقوم بدور أكبر للتوصل إلى تسوية للصراع العربي الإسرائيلي، وهو ما شاركت فيه شخصيًا عندما كنت في الخارجية الأمريكية (فوكوياما عمل نائبًا لمدير إدارة التخطيط السياسي بالخارجية الأمريكية في بداية الثمانينيات) إلا أنني لست متأكدًا أن شخصًا مثل أسامة بن لادن يمكن أن يقبل بنوعية التسوية. فلو افترضنا جدلاً أن عرفات وباراك تمكنا من التوصل إلى اتفاق خلال العام الأخير لإدارة بيل كلنتون، وتفاهما بشأن العديد من القضايا التي لا تزال تفصل بين الجانبين، لا أعتقد أن ذلك كان سيؤثر بأي درجة على أسامة بن لادن، وكان سينظر إلى ذلك الاتفاق على أنه غير شرعي.

● قد يكون ذلك صحيحًا بالنسبة لأسامة بن لادن، لكن التوصل إلى اتفاق معقول كان سيحرمه من الغطاء السياسي الذي يستخدمه كمبرر لعملياته الإرهابية، والذي يجعل الكثيرين - حتى من بين المعتدلين - يستمعون إليه، ويشاركونه بعض مشاعره الغاضبة تجاه السياسات الأمريكية.

- ليكن، وأنا أعتقد بالتأكيد أن تحقيق تقدم بشأن قضية فلسطين سيكون شيئًا جيدًا.



● لكن كل هذا الجدل لا يدور نظريًا في الفراغ، إنه يأتي بعد أحداث سبتمبر الأخيرة، وفي إطار ما وصفته واشنطن بالحملة أو الحرب ضد الإرهاب، وقد سبق أن كتبت أن الإسلام الراديكالي يمثل تحديًا أيديولوجيًا أكبر من الشيوعية، أو أنه يمثل قوة يمكن أن تحدث دمارًا هائلاً في العالم الحديث. وبصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا حول هذا التقييم، لابد أن نتساءل عما تنصح به الولايات المتحدة أو الغرب لمواجهة ما تراه من هذا الخطر؟

- لا أعتقد أنه يمكن عمل أكثر مما يتم الآن، فقد كانت هناك مشكلة في أفغانستان، كمكان تعمل منه منظمة القاعدة، ولكن يبدو أن هذه المشكلة يتم التعامل معا بالفعل، صحيح أنه لا تزال هناك عناصر منتشرة للمنظمة، أو قضية التعامل مع صدام حسين، لكن هذه مشكلة منفصلة، وربما تشغل واشنطن على مدى العام أو العامين القادمين. كذلك فأنا أعتقد أن من الضروري إعادة النظر في العلاقات مع السعودية، فالحكومة الأمريكية تنظر للنظام السعودي على أنه معتدل وصديق مع وجود بعض الجوانب السلوكية الغريبة لديه، لكني أعتقد أن السعوديين لهم دور أساسي في ترويج هذا النوع من الراديكالية.

● لكنك هنا تتحدث أيضًا عن العراق أو صدام حسين، ولا أعتقد أنك تريد وضعه في سلة واحدة مع الراديكاليين الإسلاميين.

- بالطبع لا. فهو بعثي علماني، وليس إسلاميًا على الإطلاق. وهو يمثل قضية منفصلة. لكن ما حدث بعد الحادي عشر من سبتمبر هو أن الجميع أدركوا ما تمثله أسلحة الدمار الشامل من تهديد كبير. قبل ذلك كان هناك فهم نظري بإمكانية حصول شخص أو جماعة ما على سلاح نووي أو قنبلة قذرة أو سلاح بيولوجي وأن يستخدمها، لكن كان هناك تجاهل لهذا الخطر لأن أحدًا لم يصدق أن يكون هناك أشخاص على هذه الدرجة من السوء. أما الآن وبعد ١١ سبتمبر فلم يعد من الممكن الاعتماد على هذه الفرضية، وصدام حسين لديه هذه الأسلحة، ولديه بالتأكيد النوايا السيئة، وهي مشكلة كان يتعين مواجهتها حتى لو لم تقع أحداث سبتمبر.

● لكن لا يوجد ما يشير إلى امتلاكه لأسلحة نووية، وحتى بالنسبة للأسلحة البيولوجية والكيماوية، فمن شهادة شخص مثل سكوت ريتر رئيس فريق المفتشين سابقًا في العراق، فإنه تم تدمير قدر هائل من مخزون العراق بل وإمكانياته اللازمة لتصنيع تلك الأسلحة؟

- أعتقد أنه عندما غادر المفتشون العراق عام ١٩٩٨ كان ما اكتشفوه يزيد بكثير عن كل تصوراتنا السابقة بشأن ما يمتلكه العراق. ثم كان ما كشف عنه المنشقون العراقيون حيث تبين أنه نفذ كثيرًا من هذه البرامج.

● لكن هناك دولاً أخرى عديدة تملك هذه الأسلحة بما فيها الأسلحة النووية مثل إسرائيل والهند و باكستان..

- بالتأكيد، لكن ليس هناك قلق من أن أيًا من هذه الدول سوف تعطي قنبلة لإرهابي لكي يهاجم بها الولايات المتحدة، لكنه احتمال قائم بالنسبة للعراق.

● دعنا نعود إذن لقضيتنا الأساسية في هذا الحوار، فقد لاحظت أيضًا أنك عند استعراضك لأسلوب مواجهة «الخطر الراديكالي»، ذكرت أن الفاشية الألمانية لم تفشل لتناقضاتها الأخلاقية الداخلية، بل لأن قوات الحلفاء دمرتها وحولتها إلى حطام ثم احتلتها، وهو ما يعطي انطباعًا بأن هذا هو الأسلوب الذي تقترحه لمواجهة ما وصفته «بالفاشية الإسلامية». فهل هذا ما تقصده بالفعل؟

- لا.. فهناك أسلوبان للتعامل مع الظاهرة: إما على المستوى الفكري أو العسكري، وكلاهما مهم. لكن المشكلة أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تهزم «فكرة» الإسلام الراديكالي. وأنا لا أرى فائدة من حملة العلاقات العامة التي تقودها تشارلوت بيرز في العالم الإسلامي.

(تشارلوت بيرز كانت مسئولة تنظيم حملات إعلانية في ماديسون أفنيو بنيويورك ثم استقدمها وزير الخارجية كولين باول لتكون نائبة له لشئون الدبلوماسية العامة، ولتتولى تنظيم حملة دعائية لتحسين صورة الولايات المتحدة في العالمين العربي والإسلامي. وقد شك البعض فيما إذا كانت السيدة التي نجحت في ترويج أرز «العم بن» يمكن أيضا أن تروج «العم سام»)

ويضيف فوكوياما: إنني لا أعتقد أن مديرة من ماديسون أفنيو يمكنها أن تقنع الناس في العالم الإسلامي بأمور تتعلق بالدين، إنهم يمكنهم فقط أن يقدموا صورة أو تفسيرا أفضل لمواقف السياسة الخارجية الأمريكية، وإن كنت لا أعتقد أيضًا أن بإمكاننا الانتصار في هذا المجال. غير أن الأمر المؤكد أنه لا يمكن الدخول في حوار مع أسامة بن لادن، وفي هذه الحالة يكون اللجوء للعمليات العسكرية. فإذا كان نجاحه في الحادي عشر من سبتمبر قد أعطاه بعض الشرعية، إلا أنه فقد الكثير منها بانتزاع قاعدته التي كان يعتمد عليها في أفغانستان. فهذا إذن عنصر مهم في المواجهة، لكن ذلك لا يعني أنه الأسلوب الوحيد، فهناك أيضًا وسائل غير عسكرية للتعامل مع بعض القضايا، وأنا لا أعتقد مثلاً بضرورة وجود الولايات المتحدة في منطقة الخليج الفارسي (العربي) أو أن تكون لنا قواعد في السعودية، والسبب الوحيد لذلك هو فرض منطقة الحظر الجوي فوق العراق. وإذا أمكن بطريقة ما التخلص من صدام حسين، فإن الولايات المتحدة يمكنها أن تخرج من المنطقة، وأعتقد أننا جميعًا هنا في واشنطن سنسعد بذلك. فأنا لا أقول إن العمل العسكري هو الوسيلة الوحيدة لحل تلك المشكلة.

● لكن إذا أخذنا منظمة القاعدة كمثال، فإنها لم تمارس نشاطاتها من داخل الدول العربية رغم أن أغلب أعضائها من العرب، بل وجدت ضالتها في أماكن بها حالات خاصة جدًا مثل أفغانستان أو الصومال حيث لا توجد حكومات قوية، وتمكنت المنظمة من فرض وجودها في هذه الأماكن. وهذا في ذاته يعطي مؤشرًا على أبعاد القضية على المدى الطويل.





من أشعار ناظم حكمت *

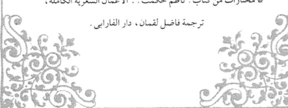
احتفالاً بالذكرى المئوية الأولى لمولد رائد الشعر التركى الحديث، أعلنت منظمة اليونسكو عام ٢٠٠٢ «عام ناظم حكمت». وقد اشتهر شعر حكمت أثناء حياته فى العالم كله لما تميز به من طابع نضالى وتحررى؛ فترجم للعديد من اللغات من ضمنها العربية. ويعد ناظم حكمت أول من أدخل «التفعيلة الحرة» فى الشعر التركى الحديث بعد تأثره بمدرسة الحداثة الروسية. ومع هذا وبسبب معتقداته الماركسية، ومعاداته للكمالية تعرض فى وطنه للسجن والنفى أكثر من مرة إلى أن تم حرمانه من الجنسية التركية عام ١٩٥٩، وتوفى فى موسكو عام ١٩٦٣.

إلى فيــرا

قالتْ لى: لِمَ لا تأتى؟
قالتْ لى: لِمَ لا تبقى؟
قالتْ لى: لِمَ لا تضحك؟
قالتْ لى: لِمَ لا تموت؟
أتيتُ
بقيتُ
ضحكتُ
ومُتُّ

١٩٦٣

* مختارات من كتاب: ناظم حكمت.. الأعمال الشعرية الكاملة، ترجمة فاضل لقمان، دار الفارابى.



فــوكــويــامــا

عــن الإســـلام.. والأصـــولية.. والحـــداثة

- هذا صحيح، لهذا كان من الضرورى اتخاذ إجراءات فى تلك الأماكن التى يعملون فيها بحرية، لكن الموقف يبقى قابلاً للاشتعال فى مصر والجزائر ودول أخرى، فرغم عدم السماح لهم بحرية العمل، إلا أنهم يبقون كقوة سياسية أساسية، وكعامل زعزعة للاستقرار.

● لكنك تشير إلى هذه النوعية من الإسلاميين باعتبار أنها هى التى ترفض تصديق أن مسلمين تورطوا فى هجمات سبتمبر، وتعزوها لإسرائيل، وهذا بالتأكيد - بصرف النظر عن مدى صحته - يشير ولو بشكل غير مباشر إلى الرفض الضمنى لهذه الهجمات أو لاتباع هذا الأسلوب الإرهابى، لكن يبدو أنك خرجت بنتيجة مختلفة.

- نعم، فما يزعجنى حقيقة فى تلك الآراء، هو انفصالها الكبير عن الواقع كما أراه أو يراه أغلب الأمريكيين.وهو يعنى أن الأمر سيكون أكثر صعوبة فى التعامل من أناس يرون العالم بهذه النظرة المخالفة تمامًا.وهذا يعنى أنهم كما تقول يعتقدون بأن ما حدث ليس شيئًا جيدًا، لكن عدم القدرة على قبول الحقائق الأساسية لما وقع بالفعل، يوضح اختلافًا هائلاً فى الرؤية.

● لكن هذا أيضًا قد يكون نتيجة أزمة عدم الثقة فى الولايات المتحدة، أو فيما تقدمه من أدلة.

- نعم، وهناك بالتأكيد تفسيرات عديدة لعدم الثقة، لكن إذا كنا غير قادرين على الاتفاق بشأن الحقائق الأساسية لما حدث، فإن هذا يعنى وجود مشكلة حقيقية، تجعل سوء الفهم أمرًا لا مفر منه.

لكن مع التسليم بسوء الفهم للولايات المتحدة من جانب الكثيرين فى الدول الإسلامية، فإنه ليس من الإنصاف القول بأنه من جانب واحد، فالولايات المتحدة تواجه أيضا مشكلة سوء الفهم للعالم الإسلامى.

- ربما يكون من المأمون القول إنه لا توجد حدود أو نهاية لسوء الفهم الأمريكى للعالم الإسلامى، ولكن فى هذه القضية بالتحديد، فإنه حتى بعد إذاعة شريط الفيديو الذى يصور أسامة بن لادن وهو يعترف بجريمته،فإن هؤلاء الناس لم يكونوا مستعدين لقبول أن أسامة بن لادن وراء تلك الهجمات، فمن الصعب تصور ما يمكن أن يقنعهم.



● أود أن أنتقل بك الآن للحديث عن قضية صراع الحضارات، التى أثارها صامويل هنتينجتون، وقد ذكر فى مقال أخير بمجلة نيوزويك أن أحداث سبتمبر الأخيرة وتوابعها من الممكن أن تؤدى إلى وقوع هذا الصراع. هل تشاركه هذا التخوف؟

- لا بد من التأكيد هنا على أنه لم يقل إن هذا سيؤدى إلى صراع الحضارات، ولكن كما ذكرت، فإنه قال إن ذلك ممكن، وأعتقد أن ذلك يمثل قلقًا حقيقيًا، وأنا أتفق معه فى أن ما حدث يمكن أن يتضخم ليؤدى إلى هذا الصراع، وبالتالى فمن المهم عدم السماح بتفسير تلك الأحداث بهذه الطريقة. فهذا ما يقوله أسامة بن لادن بأن ذلك صراع للحضارات، لكن هذا غير صحيح.

● ماذا يمكن عمله إذن لتجنب وقوع مثل هذا الصدام؟

- إن ما تفعله إدارة الرئيس بوش بهذا الشأن مهم للغاية، من خلال التأكيد للمسلمين فى أنحاء العالم، وفى الولايات المتحدة، بأن ما يحدث ليس حربًا ضد الإسلام، ولكن ضد هؤلاء الذين قادوا الطائرات المدنية لاقتحام المبانى الأمريكية.

● لكن يبدو من خلال مقالك حول هذا الموضوع، أنك توسع من هدف هذه الحرب. فهى ليست قاصرة كما تقول على الإرهابيين الذين كانوا وراء اقتحام مركز التجارة العالمى، ولكنها أيضًا - كما كتبت - تشمل قطاعًا أوسع ممن تصفهم بالراديكاليين الإسلاميين أو الفاشية الإسلامية؟

- كما سبق أن ذكرت، فأنا أعتقد بوجود مشكلة حقيقية فى هذا الشكل من الإسلام الراديكالى، وحقيقة الأمر أنها ليست مجموعة صغيرة من الإرهابيين، ولكنها تشمل أيضا قطاعًا أكبر من أصحاب الأفكار الراديكالية فى العالم الإسلامى.وهى بالطبع لا تمثل الأغلبية أو القوة المسيطرة، لكنها جزء من العالم الإسلامى.

● هل ترى أى تأثير للأحداث الأخيرة بعد هجمات سبتمبر والانتصار فى أفغانستان، من حيث تحجيم هذه الجماعات، أو تقليل نفوذها؟

- أعتقد أن التأثير وقع بالفعل، فقد كان السقوط السريع لحركة طالبان مؤثرًا بقوة فى الرأى العام الإسلامى، إن الناس تحب المنتصرين، والنجاح يجلب معه نوعًا من الشرعية.

● منذ عشر سنوات خرجت بنظريتك الشهيرة عن «نهاية التاريخ» والتى أكدت فيها أن تطور المجتمعات البشرية، بلغ نهايته بالليبرالية الديمقراطية، والرأسمالية القائمة على اقتصاد السوق. الآن - وبعد ١١ سبتمبر - قال بعض الكتاب مثل فريد زكريا إن هذه الأحداث تمثل نهاية لـ«نهاية التاريخ» هل توافق على هذا التحليل؟



المشكلة مع الإسلاميين أو الراديكاليين الإسلاميين، هى أنهم ديمقراطيون بمعنى أنهم يقبلون بإرادة الشعب، لكنهم ليسوا ليبراليين من حيث الإيمان بالتعددية السياسية والتسامح، ولا أعتقد أن الإسلام كدين فيه ما يتعارض مع ذلك



- لا أعتقد أن هذا صحيح، «فنهاية التاريخ» كان يمثل رأيي في قضية الحداثة، وأنها عملية ستستغرق وتسيطر على السياسات العالمية، ولا يوجد فيما حدث بعد الحادي عشر من سبتمبر ما ينقض هذه الرؤية. فأسامة بن لادن يمثل بطريقة ما حركة رد فعل يائسة ضد عملية التحديث.

● لكن لاشك أيضًا أن «شجرة الزيتون» إذا استخدمنا رمز توماس فريدمان للتعبير عن القيم والمفاهيم، أو الصراعات التقليدية التي تربط أو حتى تقيد الإنسان المعاصر - ربما لا يزال لهذه الشجرة جذورها القوية التي تمكنها حتى الآن من مواجهة تيار العولمة أو الحداثة أو سيارة اللاكساس، وهي التي تجعل البعض يتمسك بها ولو على حساب ما تقدمه له الحداثة من مكاسب اقتصادية.

- هذا صحيح، والواقع أن الحداثة لم تكن لها أبدًا نفس الجاذبية لدى كل المجتمعات، لكنها تظل المشكل الأساسي للسياسات العالمية، حتى بالنسبة لمن يرفضون الحداثة، فالاستقطاب الآن أصبح بين من يختارون شجرة الزيتون، ومن يختارون اللاكساس، وهذا يمثل التركيبة الحالية للسياسات العالمية. فحتى عندما ترفض الحداثة، فإنها تظل الطريقة التي يتحدد بها العالم الآن.



● وكيف ترى الإسلام والدول الإسلامية في إطار هذه التركيبة العالمية، هل هو جزء منها أم أنه بديل لها؟

- هذا يعتمد على شكل الإسلام الذي تتحدث عنه، فلو كان الإسلام الراديكالي، فالإجابة ستكون: أنه البديل. فهو في هذه الحالة لا يمكن توفيقه مع الليبرالية الديمقراطية، وجوانب عديدة للحداثة. وأعتقد أن الشعوب التي ستختار هذا الشكل من الإسلام سوف تكون رافضة للحداثة بشكل أساسي، وعلى الجانب الآخر هناك مجتمعات إسلامية عديدة تريد التعددية والديمقراطية والدولة العلمانية والتنمية الاقتصادية مع الاحتفاظ بهويتهم الإسلامية والثقافية. وأعتقد أن هذا أيضا ممكن.

● لكن حتى من بين من سيقبلون بالكثير من مفاهيم الحداثة، فإن هناك من لا يرونها مفاهيم غربية أو جديدة عليهم، ويعتقدون أن لها أصولاً في التراث والثقافة الإسلامية، مما قد يعني على الأقل إطلاق تسميات مختلفة؟

- هذا ممكن جدًا، فهذه مفاهيم عالمية. وهي تشبه الوسائل العلمية التي تستخدم لتحقيق تقدم في العلوم الحديثة فقد ابتكرت في الغرب المسيحي، ولكنها بعد ذلك لم تعد تمثل فكرة مسيحية أو غربية، إنها فقط فكرة يمكن تطبيقها عالميًا. فالبشر كلهم متشابهون تحت الجلد، والطبيعة البشرية واحدة، وهذا الكلام ينطبق على آسيا أيضًا، وما بها من قيم خاصة مثل قيم العمل الصينية أو اليابانية. فالمجتمعات تصل إلى أشكال مؤسساتية متشابهة، من خلال طرق ثقافية مختلفة.

● لو طبقنا ذلك على قضية الديمقراطية على سبيل المثال، فإن كثيرًا من الإسلاميين يعتقدون بأن في الإسلام مفاهيم ديمقراطية خاصة مثل الشورى وأنه لا يوجد شكل واحد لتطبيق الديمقراطية بالمفهوم الغربي.

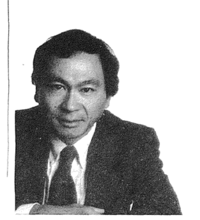
- هناك أشكال مؤسساتية مختلفة للديمقراطية، وحتى في الغرب هناك النظام الرئاسي والنظام البرلماني، والأنظمة الفيدرالية وغيرها. وللإجابة عن هذا السؤال لابد من معرفة نوع المؤسسات التي تتحدث عنها، لأن هناك مواصفات أساسية للديمقراطية، إذا تم تجاوزها إلى درجة معينة، فإنه يصعب عندها القول إنها ديمقراطية. لكنني أتفق معك في أنه توجد وسائل عديدة لخلق نظام سياسي ديمقراطي.

● لكن ماذا لو سادت الراديكالية الإسلامية بالشكل الذي تحذر منه، هل يمكن القول إنها ستكون نهاية «نهاية التاريخ».

- نعم إذا سادت بالفعل في العديد من الدول، لكني لا أعتقد أن ذلك سيحدث، فكما رأينا في إيران وأفغانستان. إنهما الآن في مرحلة التخلص من هذا التطبيق الراديكالي للإسلام، وبالتالي فإنه لا يمثل بديلاً على المدى الطويل.

● إذا كان الحادي عشر من سبتمبر لم يبدأ تاريخًا جديدًا حتى الآن على الأقل، فما معنى العبارات المكررة بأنه قد غير العالم؟ ما هي أوجه هذا التغيير كما تراها؟

- ربما كان أكثر التغييرات الجوهرية إدراك الجميع لحجم المخاطر التي تتعرض لها المجتمعات التكنولوجية الحديثة. فبعد سنوات عديدة من تصنيع الطائرات وبناء ناطحات السحاب، فإن المؤامرة كانت في استخدام هذين الرمزين للمجتمعات الحديثة ضد تلك المجتمعات. وأعتقد أن هذا الإحساس بالخطر لن يتلاشى، لذلك فهو يمثل تغييرًا مهمًا. أما فيما يتعلق بتركيبة السياسات العالمية فلا أعتقد أنها تغيرت بصورة جوهرية، فهي سوف تستمر بالشكل الذي كانت عليه.■



كتاب الزاوية

من أشعار ناظم حكمت

يا عيني يا حبيبي! *

صاحبي منصور من بورسعيد
في الثالثةَ عشرة، في الرابعة عشرةَ
من عمره،
جلَسَ، حافيَ القدمين،
حليقَ الرأس،
يَمْسَحُ الأحذيةَ، يلمِّعُها،
خلفَ صندوقه المزخرف
والمزيَّن بالمرايا.
صاحبي منصور أسودُ ناحِلٌ،
ما أشبهه ببذرِ البلح.
صاحبي منصور شهي لذيذ.
باستمرار يغني الأغنية ذاتها:
يا عيني، يا حبيبي! . . .
أحرقوا بورسعيد، قتلوا منصور.
رأيتُ صورتَه في الصحف
هذا الصباح
صورةُ جثة طفل بين الموتى
يا عيني، يا حبيبي!
كم أنتَ شبيهٌ ببذرِ البلح . . .

براج ٢٥/١١/١٩٥٦

* عنوان القصيدة باللغة العربية في الأصل.

ضحايا موت أوسلو!

خليل الشقاقي

هل نظّم ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية، الانتفاضة الفلسطينية وقادها كي يكتسب شعبية وشرعية بينما يضعف بذلك إسرائيل ويجبرها على قبول المطالب الفلسطينية المتطرفة؟ أم كانت الانتفاضة رد فعل عفويا من جانب «الشارع» الفلسطيني الغاضب وغير المنظم لزيارة زعيم حزب الليكود (ورئيس وزراء إسرائيل فيما بعد) أريئيل شارون لموقع يعرفه اليهود باسم جبل الهيكل ويعرفه المسلمون باسم الحرم الشريف، وفشل عملية أوسلو للسلام في إنهاء الاحتلال العسكري الإسرائيلي؟ الواقع أن معظم الإسرائيليين يأخذون بالرأي الأول، في حين يأخذ معظم الفلسطينيين بالرأي الثاني. وكلاهما مخطئ فيما يراه.

فالحقيقة هي أن الانتفاضة التي بدأت في أواخر شهر سبتمبر من عام ٢٠٠٠ لم تكن رد فعل من جانب «الحرس الجديد» في الحركة الوطنية الفلسطينية تجاه زيارة شارون وركود عملية السلام وحسب، بل كذلك تجاه فشل «الحرس القديم» داخل منظمة التحرير الفلسطينية في تحقيق الاستقلال الفلسطيني وأسلوب الحكم الجيد. وقد اتجه الحرس الجديد إلى العنف لإجبار إسرائيل على الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة من جانب واحد (كما انسحبت من جنوب لبنان في مايو ٢٠٠٠) وفي الوقت نفسه لإضعاف الحرس القديم وإقصائه في آخر الأمر.



وبعد مرور أكثر من عام على الانتفاضة، لم يتزعزع التزام الحرس الجديد بالهدفين، ولديه أسبابه في ذلك. فقد بدأ الإسرائيليون في التفكير بصورة جادة في الانسحاب من جانب واحد، وتولى الحرس الجديد زمام الأمر بصورة فعلية في معظم المؤسسات المدنية في السلطة الفلسطينية، واخترق أجهزة الأمن التابعة لها، وأجبر عرفات على ترضية القادمين الجدد خوفاً من فقدان شرعيته أو التسبب في نشوب حرب أهلية فلسطينية. والواقع أنه عند هذه النقطة وحدها يمكن لاحتمال وجود عملية سلام حقيقية والالتزام الجاد من جانب السلطة الفلسطينية بأسلوب الحكم الجيد أن يقدم لكل من إسرائيل والحرس القديم استراتيجية للخروج مما هما فيه من مأزق.

تحديد الاتجاه

بلورت الانتفاضة اتجاهين مهمين داخل السياسة والمجتمع الفلسطينيين. فقد قيَّد أول هذين الاتجاهين، وهو الانقسام بين الحرسين القديم والجديد داخل الحركة الوطنية، قدرة قيادة السلطة الفلسطينية على إدارة الأزمة الحالية والدخول في مفاوضات فعلية مع إسرائيل على المدى القصير تقييداً شديداً. أما ثانيهما، وهو تضاؤل نفوذ الوطنيين مقارنة بالإسلاميين (مثل حماس)، فخلق تحدياً طويل المدى لقدرة الوطنيين على قيادة الشعب الفلسطيني.

وعندما وُقِّعت اتفاقية أوسلو في عام ١٩٩٣، حظيت على الفور بتأييد ثلثي الجماهير الفلسطينية. ذلك أن الآمال كانت عريضة؛ فقد كان من المفترض أن تؤدي أوسلو إلى إنهاء الاحتلال، وإقامة نظام منفتح وديمقراطي، وتحسن سريع في الظروف المعيشية والاقتصادية. إلا أن العصر الذهبي لعملية السلام لم يدم طويلاً. وبلغت نسبة التأييد الشعبي الفلسطيني ٨٠ بالمائة في أوائل عام ١٩٩٦، بينما هبط معدل تأييد العنف ضد الأهداف الإسرائيلية إلى ٢٠ بالمائة. وقبيل الانتخابات العامة الفلسطينية في يناير من ذلك العام، بلغ ما تحظى به فتح، وهي الحركة الوطنية الرئيسية التي يتزعمها عرفات، مستوى غير مسبوق هو ٥٥ بالمائة، وقفز معدل تأييد عرفات إلى ٦٥ بالمائة. وفي الوقت ذاته هبط معدل تأييد كل الجماعات المعارضة مجتمعة ـ القومية منها والإسلامية ـ إلى ٢٠ بالمائة، مقابل ٤٠ بالمائة قبل ذلك بعامين.

وعندما جاء النظام السياسي الفلسطيني الحالي إلى الوجود بعد تلك الانتخابات، كان يتمتع بشرعية حقيقية. فقد شارك في الانتخابات ٧٥ بالمائة ممن لهم حق التصويت، رغم دعوة المعارضة إلى مقاطعة الانتخابات. وحصل عرفات على أكثر من ٧٥ بالمائة من مجموع الأصوات، في حين كانت نسبة الأصوات الباطلة ٢٢ بالمائة، وكان ما حصلت عليه منافسته سميحة خليل هو ٨ بالمائة فقط. وفازت فتح بنسبة ٧٧ بالمائة من مقاعد المجلس التشريعي الفلسطيني الجديد.

وفيما بين عامي ١٩٩٣ و٢٠٠١، باستثناء ١٩٩٤ وحده، لم يهبط التأييد لأوسلو عن ٦٠ بالمائة قط. إلا أن الآمال الفلسطينية أخذت تتلاشى نتيجة لانتخاب بنيامين نتانياهو رئيساً لوزراء إسرائيل في منتصف ١٩٩٦ واستمرار بناء المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وقطاع غزة. وهبطت التوقعات الفلسطينية القائلة بأن عملية السلام سرعان ما ستؤدي إلى إقامة الدولة والتسوية الدائمة من ٤٤ بالمائة خلال رئاسة شيمون بيرس للوزراء في عامي ١٩٩٥ و١٩٩٦ إلى ٣٠ بالمائة في العام الأول من رئاسة نتانياهو للوزراء. وبعد أربع سنوات، حين حل إيهود باراك محل نتانياهو واستمرت المستوطنات اليهودية في التوسع، هبطت توقعات التسوية الدائمة إلى ٢٤ بالمائة. وما إن فاز أريئيل شارون في الانتخابات ليصبح رئيساً لحكومة إسرائيل في أوائل ٢٠٠١، حتى بلغت نسبة من يتعلق بذلك الأمل من الفلسطينيين ١١ بالمائة فقط.

وكان لفقدان الثقة في قدرة عملية السلام على توفير اتفاق دائم بشروط مقبولة أثره شديد القوة على مستوى الدعم الفلسطيني للعنف ضد الإسرائيليين، بما في ذلك التفجيرات الانتحارية ضد المدنيين. وفي يوليو ٢٠٠٠، وبعد محاولة الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون الفاشلة لرعاية تسوية سلمية نهائية في كامب ديفيد، وقبل اندلاع الانتفاضة الثانية، كان ٥٢ بالمائة من الفلسطينيين يؤيدون استخدام العنف؛ وبعد عام من ذلك بلغت تلك النسبة ٨٦ بالمائة. ومن ضحايا موت أوسلو الأخرى شعبية عرفات ومنظمة فتح التي يرأسها. فقد هبطت قمة كامب ديفيد بشعبية عرفات، التي كانت في هبوط مطرد منذ ١٩٩٦، إلى ٤٧ بالمائة. وبعد عام آخر هبطت إلى ٣٣ بالمائة. وفي الوقت نفسه هبط التأييد الذي تحظى به فتح إلى ٣٧ بالمائة في يوليو ٢٠٠٠، ثم إلى ٢٩ بالمائة بعد ذلك بعام.



والمستغرب أن الإسلاميين الفلسطينيين لم يستفيدوا استفادة كبيرة من هبوط شعبية عرفات وفتح قبل الانتفاضة - فقد اختار من تخلوا عن القضية الوطنية الأساسية البقاء في موضع المتفرجين، وتراوحت مستويات التأييد للإسلاميين بشكل ثابت حول ١٥ بالمائة. إلا أن الانتفاضة غيرت تلك العملية. فما إن حل يوليو ٢٠٠١ حتى ارتفعت شعبية الإسلاميين إلى ٢٧ بالمائة، ولأول مرة تعدت نسبة التأييد للإسلاميين والمعارضة الوطنية مجتمعين، وهي ٣١ بالمائة، النسبة التي حصلت عليها فتح وحلفاؤها، وكانت ٣٠ بالمائة.

وليست عملية السلام المنهارة ولا الظروف الاقتصادية والمعيشية المتدهورة وحدها هي العوامل التي استنزفت صفوف مؤيدي عرفات وفتح. فقد تغير تقييم الشعب الفلسطيني لوضع الديمقراطية الفلسطينية، والفساد الرسمي، والأداء الحكومي من السيئ إلى الأسوأ على مر السنوات الست الماضية. ففي عام ١٩٩٦ منح ٤٣ بالمائة ممن استطلعت آراؤهم الديمقراطية وحقوق الإنسان الفلسطينية شهادة تفيد خلوها من الأمراض؛ وبحلول عام ٢٠٠١ لم يقر بذلك سوى ٢١ بالمائة. وفي الفترة نفسها، هبطت التقديرات الإيجابية لأداء مؤسسات السلطة الفلسطينية من ٦٤ بالمائة إلى ٤٠ بالمائة، بينما ارتفع معدل الاعتقاد بأن السلطة الفلسطينية فاسدة من ٤٩ بالمائة إلى ٨٣ بالمائة.

ولم تفضِ الانتفاضة إلا إلى زيادة شعور الفلسطينيين بخيبة الأمل. فقد أدى الحصار الإسرائيلي المحكم وإغلاق الأراضي الفلسطينية، وما تبع ذلك من قيود مدمرة على الحركة، إلى توقف الحياة المدنية والاجتماعية والاقتصادية. وفي يوليو ٢٠٠٠ كان أقل من ثلث الفلسطينيين بقليل يعتقد أن العنف سوف يحقق الأهداف التي لم تحققها المفاوضات؛ وبعد عام انتهى ٥٩ بالمائة إلى تلك النتيجة. والواقع أنه بعد تسعة أشهر من الانتفاضة كان ٧١ بالمائة يظنون أن القتال له بالفعل ذلك الأثر.

وقد ألحق فشل عملية السلام، بالإضافة إلى التقدير شديد السلبية لكل القضايا المتصلة بأسلوب حكم السلطة الفلسطينية، وتقديم الخدمات، الضرر بشرعية السلطة الفلسطينية والحرس القديم الذي يمثلها. كما أتاح الفرصة للقوى الأخرى داخل المجتمع الفلسطيني كي تتقدم. وهذا على وجه الدقة ما فعله الجيل الأصغر من القادة في خريف عام ٢٠٠٠ - حيث انتهز فرصة انتهاكات شارون وما أعقبها من اضطرابات كي يغتنم اللحظة ويتحدى منافسيه الداخليين.

تغيير الحرس

عاشت القيادة الوطنية الفلسطينية خلال الفترة من ١٩٦٧ حتى ١٩٩٤ في الشتات، حيث انتقلت قيادة منظمة التحرير من الأردن إلى لبنان، ثم إلى تونس. وفي ذلك الوقت كانت القيادة المحلية في الضفة الغربية وقطاع غزة تسعى إلى إثبات نفسها من حين لآخر، حيث لم تكن تحظى إلا بالقتل من جانب الإسرائيليين أو تثبيط الهمة من جانب منظمة التحرير الفلسطينية. فقد قللت الهزيمة التي ألحقها الجنود الإسرائيليون بمنظمة التحرير حين غزت إسرائيل لبنان عام ١٩٨٢ من مركزيتها في السياسة الفلسطينية وأضعفت قبضتها على الفلسطينيين في الأراضي المحتلة. والواقع أن مركز الجاذبية في السياسة الفلسطينية أخذ ينتقل من الخارج إلى الداخل. فعلى سبيل المثال، كانت القيادة الناشئة حديثاً في الأراضي المحتلة هي التي بدأت الانتفاضة الأولى خلال الفترة من ١٩٨٧ إلى ١٩٩٣.

إلا أنه في عام ١٩٩٤، وتنفيذاً لإعلان المبادئ الذي جرت حوله المفاوضات في أوسلو، عادت قيادة منظمة التحرير إلى الضفة الغربية وقطاع غزة لإقامة السلطة الفلسطينية. ومنذ ذلك الوقت والعلاقة بين القيادة الوطنية الأكبر سناً المعترف بها والقيادة الناشئة الأصغر سناً ليست على ما يرام. ولم تنجح جهود الحرس القديم لكسب قيادات الانتفاضة الأولى الشابة أو احتوائها قط، وهو ما يعود في المقام الأول إلى ميول الحرس القديم السلطوية. ومع ذلك فقد خلقت الفرحة الغامرة التي صاحبت الانسحاب الإسرائيلي الجزئي من الأراضي الفلسطينية المحتلة، وإجراء أول انتخابات وطنية عام ١٩٩٦، وتشكيل أول حكومة

اتجـــه الحـــرس الجـــديد
إلى العنـــف لإجبـــار إســـرائيل
علـى الانســحاب من الضفـــة الغربيـــة وقطـــاع غـــزة
مـــن جـــانب واحـــد (كما انسحبت
من جنـــوب لبنـــان في مـــايو ٢٠٠٠)

فلسطينية في التاريخ الحديث، مظهراً من مظاهر الانسجام.



ويضم الحرس القديم مؤسسي الحركة الوطنية الفلسطينية، إلى جانب قيادات المنظمات الفدائية العديدة وبيروقراطية منظمة التحرير الفلسطينية. وقد أمضى هؤلاء الرجال، ومنهم عدد قليل دون الخمسين، معظم حياتهم السياسية خارج الأراضي الفلسطينية. وتسيطر هذه المؤسسة السياسية على كل من فتح والسلطة الفلسطينية. وتسيطر الشخصيات الرئيسية في هذه الجماعة، مثل محمد عباس (أبو مازن) وأحمد قريع (أبو علاء) ونبيل شعث، على الفريق الفلسطيني في مفاوضات السلام.

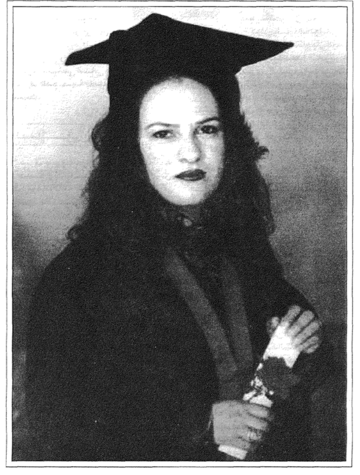
ويشمل الحرس الجديد القيادات المحلية الناشئة حديثاً وكذلك قيادات الانتفاضة الأولى. ومعظم هؤلاء لا تزيد أعمارهم على الأربعين. وقليلون منهم في مجلس وزراء السلطة الفلسطينية والمجلس التشريعي الفلسطيني، وقليلون منهم رؤساء أو كبار أعضاء أجهزة الأمن المختلفة. إلا أن المجموعة إجمالاً تفتقر إلى التماسك والقيادة والسلطة الرسمية. وفي حين يوصف بعضهم كأفراد عصابات أو أمراء حرب؛ كان آخرون، مثل سامي أبو سمهدانة في رفح وعاطف عبيات في بيت لحم، هدفًا للاغتيال من قبل الجيش الإسرائيلي، وقد قُتل الأخير في شهر أكتوبر. إلا أن بعض الأعضاء البارزين في الحرس الجديد، مثل مروان برغوثي في رام الله وحسام خضر في نابلس، أكثر احتراماً. ومع أن صوت الحرس الجديد أكثر خفوتاً في مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية، فإن له بعض النفوذ في تنظيمات فتح، مثل اللجنة العليا والمجلس الثوري، وكذلك في «التنظيم» التابع لفتح الأشبه بالميليشيا، وفي الجناح العسكري «كتائب الأقصى».

وتستمد المؤسسة السياسية الفلسطينية شرعيتها من إرث منظمة التحرير الفلسطينية التاريخي، وكذلك من اتفاقية أوسلو وما نتج عنها. وهي تسيطر على الموارد المالية لمنظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية، وتحظى بالاعتراف الدبلوماسي من جانب المجتمع الدولي، وتسيطر على بيروقراطية السلطة الفلسطينية وأجهزتها الأمنية. إلا أن الوجوه السياسية الجديدة استمدت قوتها خلال الانتفاضة الثانية من تحالفها مع المعارضة الإسلامية، ومن عدم الرضا العام في كل مكان عن تقدم مفاوضات السلام وإعادة الإعمار الوطني. وقد استخدم المتمردون هذه الأدوات لتحييد سلطة الدولة الرسمية. ومع أن الجناح العسكري للحرس الجديد لا يزال صغيراً، فقد استطاع السيطرة بهدوء على كثير من مؤسسات السلطة الفلسطينية المدنية المتداعية ومنع اتخاذ أية إجراءات قمعية ضده. ولم يسعَ الحرس الجديد إلى إنشاء أية مؤسسات وطنية، بل عمد إلى السيطرة على المؤسسات الموجودة بالفعل.

وللحرس القديم تراتب قيادي واضح. ولا يهيمن عرفات على هذه المجموعة وحسب؛ بل إن بقاءها مرهون بوجوده ودعمه لها. وبينما يعترف الحرس الجديد بقيادة عرفات، فإنه لا يستمد شرعيته منه؛ فالواقع أن عرفات هو الذي يشعر بالحاجة إلى إبداء المصداقية للقيادات الشابة، بالتغاضي عن تحالفها مع الإسلاميين ومواجهاتها العنيفة مع الجيش الإسرائيلي. ومنذ مارس ٢٠٠١، حين بدأت إسرائيل في استهداف قوات الشرطة الفلسطينية النظامية، سمح عرفات لوحدات من حرس الرئاسة وأجهزة الاستخبارات الفلسطينية بالمشاركة في الهجوم على الجنود والمستوطنين الإسرائيليين، رغم ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر. ومن الواضح أنه يشعر بأنه حتى الأسلوب البديل لاكتساب قبول الحرس الجديد - وهو انفتاح النظام السياسي الفلسطيني وتشجيع التحول الحقيقي إلى الديمقراطية - أقل جاذبية.



ولكن الحرس الجديد مازال يطلب المزيد من معسكر عرفات. فهو يريد الشفافية والمحاسبة وشن حملة على الفساد والمزيد من المواجهات المباشرة مع إسرائيل. كما أنه دعا إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية لا تضم ممثلين من صفوفه وحسب، بل كذلك كبار أعضاء الجماعات الإسلامية وغيرها من الجماعات المعارضة. وأيد الحرس الجديد بشدة المطالب المحلية والدولية الخاصة بأسلوب الحكم الجيد، بما في ذلك احترام حكم القانون، والقضاء المستقل، ودور أكبر للمجلس التشريعي، والمؤسسات العامة الأكثر قوة وكفاءة.



مع انهيار أوسلو وتنامي الشك في قدرة أو رغبة الطرف الإسرائيلي في سلام حقيقي عادل، أصبحت الانتفاضة «من الحجر إلى الشهادة»، خبزا يوميا للشعب الفلسطيني.
وفاء إدريس.. الفتاة الأولى في طابور الاستشهاديين

غـــايات ووســـائل

يعارض الحرس الجديد بشدة أي اتفاق لوقف إطلاق النار يستتبع اتخاذ إجراءات قمعية ضد المناضلين الوطنيين أو الإسلاميين الفلسطينيين. والواقع أنه أدان علناً كلاً من تقرير ميتشل (وهو النتائج التي توصلت إليها لجنة تقصي الحقائق برئاسة السناتور الأمريكي السابق جورج ميتشل للنظر في أعمال العنف الإسرائيلية الفلسطينية الأخيرة) وخطة تينت (وهي خطة وقف إطلاق النار والأمن التي وضعها مدير الاستخبارات المركزية جورج تينت في يونيو ٢٠٠١). فبدلاً من قبول هاتين المبادرتين من أجل إنهاء العنف، يريد الحرس الجديد من عرفات أن يؤيد علناً أهداف الانتفاضة وأساليبها بتوجيه أوامر إلى قوات الأمن بالانضمام إلى المواجهات المسلحة. وفي المقابل يشك الحرس القديم في فاعلية العنف وينتقد حتى المشاركة القليلة من جانب بعض قوات الأمن في القتال. ومع ذلك فإن الكثيرين من أعضائه مقتنعون بأن عرفات لا يسعه الدخول في مواجهة جادة مع الحرس الجديد في غياب فرصة معقولة لاتفاق سلام مع إسرائيل، ويقبل البعض مقولة أن مشاركة قوات الأمن الرسمية من حين لآخر في القتال ضرورية في سبيل تحقيق هذا الهدف. وهم يظنون أنه عندما يحين الوقت لوقف المواجهات المسلحة، فإن من لديهم سجل قتالي بحق هم فقط الذين ستكون لهم الشرعية في الداخل، وسيقررون مواجهة من يرغبون في الاستمرار واعتقالهم.

ويسعى بعض أعضاء الحرس القديم خارج السلطة الفلسطينية إلى الابتعاد عن الحكومة وإقامة منبر جديد للتعبئة السياسية والإصلاح. وفي يناير من عام ٢٠٠١، على سبيل المثال، طالب رئيس المجلس الوطني الفلسطيني، الذي يمثل

ضحايا موت أوسلو!

الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة وكذلك فى الشتات، بأن تعالج السلطة الفلسطينية الفساد الحكومى وغياب حكم القانون معالجة تامة، ودعا أعضاء مجلس وزراء عرفات إلى الاستقالة، وطالب بإنشاء «تنظيم للاستقلال الوطنى». إلا أن الحرس الجديد لم يتقبل الفكرة وسعى إلى إثبات ذاته، ليس من خلال الإدانة المباشرة للسلطة الفلسطينية، وإنما من خلال هزيمة الجيش الإسرائيلى.

وفيما يتعلق بأهداف الحرس الجديد النهائية، فإنه يشارك النظام القديم - رغم ما يظنه البعض فى إسرائيل والغرب - فى هدفى إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة (وعاصمتها القدس الشرقية العربية) التى تعيش إلى جوار إسرائيل فى سلام، والحل العادل لمشكلة اللاجئين. ومع أن معظم أعضاء الحرس الجديد أكثر تشدداً من نظرائهم القدامى فيما يتعلق بشكل هذا الموقف المبدئى الذى يدعون إليه، فإن موقفهم قد يعكس إدراك الخطر المتزايد الناتج عن إراقة الدماء اليومية؛ ولدى بعض أفراد الجماعة، مثل سرى نسيبة رئيس جامعة القدس وممثل ياسر عرفات فى القدس الشرقية، أهداف غاية فى الاعتدال فيما يتصل بعملية السلام ويعارضون السعى لتحقيقها من خلال العنف.

ويكمن الفرق الرئيسى بين الحرس الجديد والحرس القديم فيما يتعلق بإسرائيل فى الطريقة التى يعرِّفون بها الانتصار فى المعركة ضد الاحتلال. وتسعى جماعة عرفات إلى التفاوض على تسوية لا تنهى الاحتلال وحسب، بل تسمح كذلك للقيادات المعترف بها بالبقاء فى السلطة داخل فلسطين لسنوات مقبلة. وعلى النقيض من ذلك، لا يعتبر الحرس الجديد المفاوضات جزءاً ضرورياً فى المعادلة؛ ذلك أن الانسحاب الإسرائيلى من جانب واحد أو الفصل من جانب واحد يفى بالغرض كذلك. وقد لا يعارض المتمردون التفاوض على أية تسوية تدعمها غالبية الفلسطينيين، إن وجدت هذه التسوية فى يوم من الأيام. إلا أنهم يدركون أن الحرس القديم وحده هو الذى يمكنه التفاوض على مثل هذا الاتفاق، ذلك أن له قيادة وطنية موحدة ورؤية شديدة الوضوح، وكذلك الخبرة والاتصالات مع الإسرائيليين. ولذلك فإن الحرس الجديد يرى أن الانسحاب الإسرائيلى من جانب واحد أو الفصل من جانب واحد أسلوب أكثر جاذبية لتحقيق الأهداف الوطنية الفلسطينية؛ فالتفاف الحرس الجديد حول المفاوضات بين الإسرائيليين والسلطة الفلسطينية، سيجعل الحرس القديم خارج الموضوع ويرتقى هو إلى السلطة.



وكانت السلطة الفلسطينية قد رحبت فى البداية بالانتفاضة الجديدة، لظنها أن الضغط المتزايد على إسرائيل سوف يعزز موقفها على طاولة المفاوضات. إلا أن الحرس الجديد كان ينظر إلى الانتفاضة على أنها وسيلة لوقف المفاوضات وليس لاستمرارها. فقد أكد الفشل فى تحقيق أى نجاح فى كامب ديفيد اعتقاد القيادات الشابة بأنه لا يمكن للفلسطينيين إنهاء الاحتلال حسب شروطهم هم إلا من خلال المواجهة الشعبية المسلحة.

ولكى يزيد الحرس الجديد من الضغط على إسرائيل ويزيد من عزم المعارضة الداخلية فى الأسابيع الأولى من الانتفاضة، أقام تحالفاً، مع الإسلاميين وغيرهم من قوى المعارضة. ورغم اختلافهم على الأهداف النهائية، فإن الحرس الجديد يفضل وجود الإسلاميين فى تحالفه وتحت قيادته، على الأقل لتذكره الطريقة التى خلق بها الإسلاميون قيادة موازية، وبنية مؤسسية، وجناحاً عسكرياً فى الانتفاضة الأولى.

وليست الفجوة بين الأجيال هى الحاجز المهم الوحيد فى المجتمع الفلسطينى. فالحاجز القائم بين الوطنيين والإسلاميين هو الآخر له أهميته، وكذلك الجدل الخفى فى بعض الأحيان بين المؤيدين لعملية سلام أوسلو والمعارضين لها. ويتفق بعض أفراد الحرس الجديد، وخاصة هؤلاء الذين أُدمجوا فى مؤسسات السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية - إلى جانب من هم على شاكلة نسيبة ممن تأثروا بتقليد اللاعنف - مع معظم الحرس القديم على أن الانتفاضة الحالية خطأ كبير. إلا أن هذه الجماعة هُمِّشت فى ظل الجمود السياسى الحالى والتأييد الشعبى الجارف للمواجهة المسلحة، ولا زالت تلوذ بالصمت.

عند ملتقى الطرق

سوف يتوقف حل التوترات الفلسطينية الداخلية أو تفاقمها على ظهور أى من سيناريوهات ثلاثة محتملة. ففى حال استمرار الجمود الفلسطينى الإسرائيلى الذى يجيش بالغضب، سيكون المستفيد الرئيسى هو الإسلاميون. إلا أنه فى حال اختيار إسرائيل الانسحاب واسع المدى أو الفصل من جانب واحد، فسوف يستفيد الحرس الجديد. أما إذا تمكنت القيادتان الإسرائيلية والفلسطينية من الاتفاق على شكل له أهميته من أشكال التسوية التى يتم التفاوض عليها، سواء أكانت تسوية مؤقتة أم دائمة، فسوف يمد ذلك فى أجل الحرس القديم.

وسوف يؤدى استمرار الوضع القائم إلى مزيد من الهبوط فى الدعم الفلسطينى لعملية السلام وما تستتبعه من تسويات، إلى جانب استمرار مستويات الدعم المرتفعة لاستخدام العنف. وسوف تستمر شرعية السلطة الفلسطينية فى التلاشى، وسوف تنخفض معها شعبية عرفات. وسوف يؤدى الصراع بين الحرسين القديم والجديد إلى مزيد من الانقسام والضعف فى المعسكر الوطنى، حيث يحقق الحرس الجديد انتصاراً على الحرس القديم عند حدوث تغيير فى القيادة. وقد يبقى عرفات فى السلطة، إلا أن ما لديه من مساحة للمناورة سوف تتقلص إلى حد كبير. وإذا قُدِّر له أن يختفى من على الساحة، فإن خروجه سوف يعجل بموت الحرس القديم ويؤدى إلى الاقتتال بين أفراد الحرس الجديد المتطلعين إلى أن يحلوا محله. وقد تنضم تلك القيادات الشابة الموجودة فى السلطة الفلسطينية حالياً إلى الحرس الجديد وتقدم الرجال والدعم الشعبى، وفوق هذا وذاك كل الاحترام السياسى. إلا أنه سواء بقى عرفات أم ذهب، فإن توازن القوة العام سوف يستمر فى الانتقال من الوطنيين إلى الإسلاميين، حيث ينجح المعسكر الإسلامى فى نهاية الأمر فى أن يصبح القوة المهيمنة فى السياسة والمجتمع الفلسطينيين.

ومقابل ذلك، فإن الفصل أو الانسحاب الإسرائيلى من جانب واحد سوف يحقق نصراً مبيناً للحرس الجديد. ويبدو الفصل من جانب واحد جذاباً لأنه لا يتطلب وجود شريك على الطرف الآخر. وبما أن إسرائيليين كثيرين يستنتجون أن الفلسطينيين لا ولن يقبلوا الحلول الوسط المقدمة، فإنهم آخذون فى الاقتناع بأن الفصل هو الطريقة الوحيدة للحد مما تتعرض له بلادهم من هجوم. واليوم يؤيد معظم الإسرائيليين فكرة إقامة سور يفصل المجتمعين، وإن كان حجم تأييد ذلك يتوقف على مكان خط التقسيم. فكلما اتسع مدى الانسحاب والجلاء الإسرائيلى، كان ما يحظى به من تأييد أكثر فتوراً. ومع ذلك فإن الفكرة تلقى من الدعم على امتداد الطيف السياسى ما يكفى لجعلها احتمالاً حقيقياً.

وسوف يقارن أى انسحاب إسرائيلى من جانب واحد من المناطق الفلسطينية بالانسحاب الإسرائيلى من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠. ومن المحتمل أن يتصرف الحرس القديم تصرف الحكومة اللبنانية، بينما يسلك الحرس الجديد سلوك حزب الله. فالسلطة الفلسطينية لن تتولى السيطرة على الأراضى والمستوطنات التى أخليت حديثاً، تاركة تحالف الوطنيين الشباب والإسلاميين الذى جرت تقويته حديثاً ليعلن تحرير تلك المناطق ويستخدمها قواعد يستمر منها فى محاربة الجيش الإسرائيلى فى المناطق التى لا تزال تحت الاحتلال.

ومن المحتمل أن يرفض الحرس الجديد أية محاولة من جانب قيادة السلطة الفلسطينية لاستغلال مناسبة الانسحاب الإسرائيلى كفرصة لبدء استئناف المفاوضات. والواقع أن القادة الشباب قد يسعون لتحويل ما حققوه من «انتصار» إلى تحد للحرس القديم أو إقصاء له، وبذلك يقوون قبضتهم على الحركة الوطنية (رغم أنهم سيُبقون عرفات لحين ظهور قيادة بديلة لديها ما هو أكثر مما يحظى به من مصداقية فى الداخل). وبما أن الجماهير الفلسطينية ستنظر إلى الانسحاب الإسرائيلى من جانب واحد على أنه نصر مبين للحرس الجديد، فإن أسهم الوطنيين بصورة عامة سوف ترتفع، بينما تنخفض أسهم الإسلاميين.

أهو تحرك للأمام؟

قد يفضل الإسرائيليون والفلسطينيون، ناهيك عن العالم الخارجى، سيناريو التفاوض على تسوية ما. ولكن هل حتى هذه النتيجة ممكنة فى الوقت الحالى؟ إن أيّاً من أنواع التسوية الثلاثة - الاتفاق الشامل الذى يهدف إلى إنهاء الصراع، وحزمة تهدئة الأوضاع التى يُقصد بها تخفيف حدة العنف ومساندة الوضع الراهن، والاتفاق الانتقالى الواقع بين الاثنين - لا يبدو ممكناً اليوم. إلا أنه فى وجود القيادة الأمريكية والبريطانية القوية، قد يجد عرفات، بل وربما شارون كذلك، أن اتفاق تهدئة الأوضاع أمر مقبول.

وسوف يحل الاتفاق الشامل كل القضايا موضع النزاع، بما فى ذلك القدس واللاجئين، لينهى بذلك الصراع. وكما أوضح التقدم الذى تحقق فى مفاوضات كامب ديفيد، فإن هذه التسوية ممكنة. وإذا عاد الجانبان إلى المناقشات الجادة، فإنهما قد يحاولان استكمال العمل الذى بدآه حسب الخطة التى وضعها الرئيس كلينتون فى ديسمبر ٢٠٠٠ وتلك التى وضعت فى طابا بمصر فى الشهر التالى. إلا أن مجرد وضع الشروط التى يمكن أن تبدأ على أساسها تلك المحادثات يوضح كم هى بعيدة المنال. ذلك أن هناك ثلاثة شروط لابد من تحقيقها كى توجد تسوية شاملة لا يتوفر أى شرط منها الآن. أول هذه الشروط هو أنه يتعين على الإسرائيليين أن يأتوا إلى الحكم بقيادة وائتلاف أقل تمسكاً بأيديولوجيا إسرائيل الكبرى تكون على استعداد للانسحاب من كل الأراضى الفلسطينية المحتلة التى احتلت عام ١٩٦٧ تقريباً، وإخلاء معظم المستوطنات، وقبول مقايضة الأرض للسماح للمستوطنات الباقية بأن تظل تحت السيطرة الإسرائيلية. وثانى هذه الشروط هو الحاجة إلى وجود إدارة أمريكية ملتزمة التزاماً قوياً بإنجاح العملية. أما الشرط الثالث فهو ضرورة تحقيق كل من الحرس القديم والحرس الجديد على الجانب الفلسطينى وحدة الهدف. (وهذا الشرط الأخير يمكن تحقيقه إذا تقبل الحرس القديم فكرة الإصلاح السياسى الداخلى الذى يمهد السبيل للنظام السياسى ويوجد الشراكة الممكنة بين الجماعتين القياديتين.)



ولا يعتقد أى من الشعبين الإسرائيلى أو الفلسطينى أن هذا الاتفاق ممكن. فالواقع أن أيّاً منهما غير مستعد فى الوقت الراهن لأن يغض الطرف ويقبل الحلول الوسط المؤلمة التى يقتضيها مثل هذا الاتفاق. وينبغى ألا تؤدى

كان لفقدان الثقة في قدرة عملية السلام على توفير اتفاق دائم بشروط مقبولة أثره شديد القوة على مستوى الدعم الفلسطيني للعنف ضد الإسرائيليين، بما في ذلك التفجيرات الانتحارية ضد المدنيين

هذه الحقيقة إلى اليأس وإنما إلى استنتاج أن القيادة القوية ذات الشرعية المعترف بها هي وحدها التي يمكنها التفكير في السير في هذا السبيل. وفي حالة وجود هاتين القيادتين في يوم من الأيام، فمن الأرجح أن يقبل شعباهما في نهاية الأمر الحلول الوسط اللازمة لأي اتفاق يجرى إبرامه ـ وهو ما لن يحدث قبل يوم واحد من وجودهما.

وفي الوقت نفسه يمكن أن تكون حزمة تهدئة الأوضاع بمثابة إجراء مؤقت يهدف إلى تهدئة الوضع الحالي، واستعادة ثقة الجماهير في عملية السلام، وتيسير العودة إلى مفاوضات الوضع النهائي التي تبشر بقدر أكبر من الخير. ولا بد لهذه الحزمة أن تشمل وقف كل أشكال العنف، والعودة إلى ما كان عليه انتشار القوات العسكرية قبل الانتفاضة، وتجميد بناء المستوطنات، وتنفيذ التعهدات الانتقالية القائمة (وأوضحها وفاء السلطة الفلسطينية بالتزاماتها والانسحاب الإسرائيلي الحقيقي من المناطق التي عرفتها اتفاقية أوسلو بأنها «المنطقة ج»، وهي تمثل في الوقت الراهن حوالي ٦٠ بالمائة من الضفة الغربية وتشمل مناطق ذات كثافة سكانية منخفضة وكذلك المستوطنات والقواعد العسكرية الإسرائيلية والطرق التي تربط بينها)، والاتفاق على استئناف محادثات الوضع النهائي. ولا بد أن يكون كل من الإسرائيليين والفلسطينيين على استعداد لدعم مثل هذا الاتفاق، حيث يمكن وصفه والترويج له بحق على أنه طريقة بناءة لتنفيذ الإجراءات التي اتفق عليها الجانبان بالفعل.

وقد توافق الحكومة الإسرائيلية الحالية على هذه الحزمة، وإن كان الحصول على هذه الموافقة يتطلب قدراً أكبر بكثير من المشاركة الإيجابية للمجتمع الدولي، وخاصة الولايات المتحدة. ولن يحظى التجميد التام لبناء المستوطنات بالقبول. كما لن تُقبل ثالث وآخر إعادة لنشر القوات من «المنطقة ج» التي نص عليها اتفاق متابعة أوسلو لعام ١٩٩٥، والاتفاق الإسرائيلي الفلسطيني المؤقت ـ ذلك أنها ستشمل الجلاء عن عدد من المستوطنات المعزولة والمواقع العسكرية المتقدمة في الضفة الغربية. وعلى الجانب الفلسطيني، سوف يتطلب التنفيذ الناجح لهذا الاتفاق اندماج الحرس الجديد التام في النظام السياسي. وفي غياب هذا الاندماج، سيتعين على الحرس القديم فرض وقف لا يحظى بقبول شعبي لإطلاق النار في مواجهة مقاومة يحتمل أن تكون قوية وعنيفة من جانب كل من منتقديه الوطنيين والأجنحة المسلحة التابعة للجماعات الإسلامية وغيرها من جماعات المعارضة. إلا أنه حتى في حال امتثال الحرس الجديد للأمر بالفعل، فمن المحتمل أن تستمر بعض أعمال العنف الصغيرة وتقضي في نهاية الأمر على محاولة تهدئة الأوضاع، ما لم يصاحب ذلك تقدم كبير.

وسوف تتطلب تهدئة الأوضاع مراقبة متعددة الجنسيات، كإجراء لبناء الثقة. وسوف تُصَعِّب المراقبة الدولية على الحرس الجديد مهاجمة أهداف إسرائيلية دون تحدي عرفات تحدياً صريحاً وإحراجه، وهو ما ليس على استعداد للقيام به. وبذلك يزيد نشر المراقبين ثمن خرق وقف إطلاق النار ويزيد من احتمالات المراقبة الذاتية لوقف إطلاق النار. كما أن المراقبة سوف تساعد على طمأنة كل جانب بشأن نوايا الجانب الآخر، بينما تكون بمثابة دافع مستقل لتنفيذ المراحل الصعبة من الاتفاق، وتخلق بالتالي حوافز لكلا الجانبين على الالتزام التزاماً تاماً.



وإذا أضيفت أربعة مكونات أخرى إلى حزمة تهدئة الأوضاع، فإنها ستكون بمثابة ترتيب انتقالي. وهذه الإضافات الأربع هي الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة، بما في ذلك إزالة كل المستوطنات الموجودة فيه؛ والمزيد من إعادة نشر للقوات الإسرائيلية في الضفة الغربية بما يؤدي إلى الربط التام بين الأراضي الفلسطينية هناك؛ وإقامة الدولة الفلسطينية؛ وتوسيع تفويض المراقبين الدوليين ليشمل الإشراف على نشر القوات الإسرائيلية والسيطرة الفلسطينية على معابر الحدود الدولية؛ وقد يسمي شارون هذا اتفاقاً مؤقتاً طويل المدى، بينما قد يفضل عرفات النظر إليه على أنه آلية جديدة ومحسَّنة لتنفيذ الاتفاق المؤقت القائم. ولكن إذا كانت هناك رغبة للتحرك قدماً، فيمكن إقناع الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني بحزمة جديدة لتهدئة الوضع.

وقد دعا بالفعل شيمون بيرِس ـ وهو الآن وزير خارجية إسرائيل ـ إلى معظم هذه المكونات. كما قيل إن شارون على استعداد لمناقشة الانسحاب من غزة منذ زيارته الأولى للولايات المتحدة كرئيس للوزراء. في الوقت الذي أعلن فيه مراراً استعداده لقبول الدولة الفلسطينية المجاورة. ومع ذلك فإن من المؤكد تقريباً أن أي تقدم نحو الاتفاق المؤقت لا بد أن يكون في البداية من خلال حزمة تهدئة للأوضاع أكثر تواضعاً.

الإصلاح أو الفناء

كان لهجمات الحادي عشر من سبتمبر أثر مهم، ولكنه مؤقت، على المجتمع الفلسطيني. إذ خلق الغضب العالمي من الإرهاب وتصميم الولايات المتحدة على قيادة تحالف لمواجهته مخاوف جديدة، بينما أتاح فرصاً جديدة. فقد كان عرفات مصمماً على تحاشي أي ربط بينه وبين الإرهاب ضد المدنيين، وكان حريصاً على إبداء تضامنه مع الولايات المتحدة. وكان معظم الفلسطينيين، بمن فيهم الحرس الجديد، يخشون انتهاز إسرائيل فرصة الأزمة وشن هجوم مدمر ضد المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية. وكان الإسلاميون الفلسطينيون يخشون الربط بينهم وبين أسامة بن لادن وشبكته. ونتيجة لذلك امتنع الإسلاميون عن الهجمات الانتحارية ضد المدنيين الإسرائيليين لبعض الوقت، وابتعد الحرس الجديد عن حلفائه، وأصبحت مصداقية الحرس القديم الدولية شيئاً له قيمته وغطاء مفيداً. وكان عرفات يرى أن ثمن الترضية المستمرة للحرس الجديد قد زاد زيادة كبيرة، وربما كان يخشى على بقائه هو.

إلا أن حاجة الولايات المتحدة إلى الدعم الإسلامي في الحرب ضد الإرهاب أتاحت في الوقت ذاته بعض الفرص. فلم تفعل الإدارة الأمريكية ما يلزم بشأن مؤتمر سلام الشرق الأوسط، الذي أدى إلى بدء مفاوضات سلام مباشرة غير مسبوقة بين إسرائيل وكل جيرانها العرب، إلا بعد حرب الخليج. وكان الحرس القديم يأمل هذه المرة في حدوث ما يشبه ذلك. وهكذا استخدم عرفات الضغط والإقناع لجعل معارضيه في الداخل يقبلون الهدوء المؤقت.



ومع ذلك لم يصدق الحرس الجديد ولا الإسلاميون أن شارون سوف يبدي تعاوناً؛ وشكهم في محله حتى الآن. فالتزاماً بفكرة أن يد عرفات وراء كل حادث عنيف، يبدو أن شارون وكبار أعضاء الحكومة الإسرائيلية ومجتمع الاستخبارات قد توصلوا إلى نتيجة مؤداها أن عرفات لم يعد شريكاً. والواقع أنهم يقومون بعملية مطردة ولكنها غير منتظمة لإلغاء شرعية سلطته وتصفيتها. وقد أدركوا أن الهدوء النسبي على الجانب الفلسطيني قد لا يكون سوى أمر مؤقت وسعوا إلى حرمانه من طوق النجاة الذي قد توفره له دبلوماسية ما بعد الحادي عشر من سبتمبر. وما زالت سياسة إسرائيل الخاصة بالاغتيال وغزو الأراضي التي تخلت عنها من قبل مستمرة، رغم نجح عرفات في خفض مستوى العنف بنسبة تزيد على ٨٠ بالمائة في وقت قصير. ويبدو كذلك أن المساعي الدبلوماسية الحميدة الخارجية لن تتمكن من إجبار عرفات على الالتزام الكامل بوقف إطلاق النار أو كبح جماح استفزازات شارون المستمرة.

وبذلك فمن غير المحتمل أن يختار عرفات والحرس القديم الوقف التام لإطلاق النار، بل قد لا يكون في وسعهم فرضه. ومنذ اندلاع الانتفاضة الثانية وهم مضطرون للتحرك بحذر شديد؛ فلم تعد السلطة الفلسطينية تتمتع باحتكار استخدام القوة في أراضيها. كما أن شرعيتها موضع شك من جانب الشارع الفلسطيني، بينما يؤيد شعبها العنف ويعارض اتخاذ إجراءات متشددة ضد الإسلاميين أو راديكاليي الحرس الجديد، ولا تبدو في الأفق أية عملية سياسية ممكنة. وإذا أقدم عرفات على قمع معارضيه في الداخل فإنه يخاطر، في حال نجاحه، بأن يُنظر إليه على أنه أحد أعوان إسرائيل أو أنه صورة من سعد حداد (قائد جيش جنوب لبنان الذي أقامته إسرائيل في أواخر السبعينيات لتوفير الأمن لشمال إسرائيل). وإذا لم ينجح، فإنه سيواجه بحرب أهلية.

ولذلك فإن خيارات عرفات محدودة. ففي بيئة سياسية طرأ عليها تغيير يحصل فيها عرفات على الشرعية والدعم الجماهيري، استطاع رئيس السلطة الفلسطينية التحرك لفرض وقف إطلاق النار. وهذه البيئة يمكن تحفيزها بتحريك عملية السلام، التي بدأتها وقادتها الولايات المتحدة وأيدها المجتمع الدولي، وإن كانت احتمالات حدوث ذلك ضعيفة جداً.

إلا أنه إذا كان الوضع الحالي يبدو سيئاً ـ وخاصة في أعقاب استئناف الهجمات الانتحارية الفلسطينية الكبرى في أوائل ديسمبر ـ فمن السهل تخيل ما يمكن أن يكون عليه من سوء أشد. واليوم تعد قيادة عرفات هي العامل الذي يحافظ على تماسك الحرس القديم والحرس الجديد معاً، ويحول دون استيلاء الحرس الجديد التام والقريب على السلطة. ورغم ضعف مهارات الاتصال لدى عرفات، فهو لا يزال يعطي الجماهير الفلسطينية إحساساً بالاستقرار، وبذلك يحول دون انهيار واسع المدى للقانون والنظام. كما أن وجوده يمنع الإسلاميين من أن يشكلوا خطراً مباشراً على هيمنة الوطنيين غير المستقرة؛ ففي غيابه قد تتفتح أبواب جهنم.

ولدى عرفات والسلطة الفلسطينية بطبيعة الحال بديل لهذا المستقبل المظلم؛ فبدلاً من أن ينتظروا بلا جدوى خطة سلام أمريكية أو دولية لإنقاذهم، يمكنهم الشروع الآن في عملية إصلاح سياسي. وسوف يتيح ذلك للحركة الوطنية كسب تأييد معظم الفلسطينيين، في الوقت الذي يؤدي فيه إلى دمج فئتيها الرئيسيتين. وسوف تكون الرسالة الموجهة إلى عرفات والحرس القديم والمجتمع الفلسطيني بصورة عامة هي الإصلاح أو الفناء. ■

(Foreign Affairs, January/February, 2002)

ترجمة: أحمد محمود

لم يمر قرن دون أن تستقبل الدنيا حروبًا كريهة. لم تولد أمة ولم تعرف الشيخوخة أو الموت فى ظل السلم

«ديجول»

■ يتفق الخبراء الجيوسياسيون وعلماء السياسة من ألفريد جروسر إلى محمد حسنين هيكل إلى جان دانيال إلى فرانسوا فورى وغيرهم على أن القرن العشرين ابتدأ عام ١٩١٤ وانتهى عام ١٩٨٩، بسقوط حائط برلين وما تلاه من تفكك الاتحاد السوفيتى. أى أن بداية القرن العشرين اقترنت بحرب وضعت حدًا لما كانت تتمتع به دول أوروبية قوية من حصانة تجعلها مستعصية على من يفكر فى الاعتداء عليها. فى حين أن نهاية القرن اقترنت ببقاء دولة واحدة متمتعة بالحصانة وهى الولايات المتحدة الأمريكية التى انفردت بهذه الخاصية منذ ١٩٨٩ مثلما انفردت بالتفوق العسكرى. ولعل هذا هو ما حمل عددًا من الخبراء على اعتبار يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ يومًا فاصلاً بين عهدين. لأن انهيار برجى نيويورك والهجوم على البنتاجون وضعا حدًا لانفراد أمريكا بالمنعة والحصانة. لذلك اعتبره كثيرون هو البداية الحقيقية للقرن الواحد والعشرين.

فهل كُتب على الإنسانية أن تكون الأيام الفاصلة بين قرونها مرتبطة بالحروب؟ يبدو أن الجواب بالإيجاب. وقد سبق للجنرال ديجول أن كتب بأن العالم لم يعرف فى تاريخه قرنًا ساده السلام «.. إذ لم يمر قرن دون أن تستقبل الدنيا حروبًا كريهة. لم تولد أمة ولم تعرف الشيخوخة أو الموت فى ظل السلم. إن تاريخ الإنسانية مع الأسف هو تاريخ أسلحتهم».

إن الخسائر المهولة التى لحقت بالإنسانية فى الحرب العالمية الثانية وما سجلته هذه من دمار وما شهدته من جرائم ضد الإنسانية جعلت الناس يتصورون أنها هى آخر الحروب. لذلك احتفلت شعوب الدنيا كلها بذلك الانتصار، بما فيها شعوب المستعمرات التى اعتبرته إيذانًا باقتراب موعد تحررها، وخصوصًا أن كثيرين من أبنائها ساهموا فى تلك الحرب وكانوا وقودًا لها.

وهذا ما يفسر اندفاع الجماهير فى مظاهرات ضخمة دعت إليها حركات وطنية كما حدث فى الجزائر. لكن السلطات الرسمية واجهتها بالحديد والنار فى عمليات عسكرية شارك فيها سلاح الطيران، (كان مساعد وزير الطيران الفرنسى آنذاك من الحزب الشيوعى الفرنسى) كأن شعوب المستعمرات غير معنية بالانتصار على النازية رغم أنها شاركت فى محاربتها، وكان دورها يقف عند حد تقديم دمائها وأرواحها. وكان ذلك إعلامًا للمستضعفين فى الأرض المهمشين فى التاريخ أن هناك مكيالين ومنظارين للحكم على الأشياء وتقييم التصرفات.



إن رد الفعل ذاك زاد سمعة الدول الاستعمارية الأوروبية تشويهًا، وجعل النخب المثقفة فى المستعمرات تتطلع إلى أمريكا أن تساعدها على التحرر، أو تراهن على الاتحاد السوفيتى. فقد كانت أمريكا تتمتع بسمعة طيبة منذ إعلان مبادئ ويلسون فى بداية القرن الماضى. (لم تكن ممارساتها فى أمريكا اللاتينية معروفة). لذلك فكر أحد زعماء الحركة الوطنية الجزائرية وهو فرحات عباس فى الاستعانة بأمريكا. أقوى دولة فى معسكر الحلفاء، فتقدم إلى ممثلها فى الجزائر بمذكرة تضمنت مطالب سياسية، تحمل عنوان: «البيان الجزائرى» وما لبث أن تحول هذا العنوان إلى اسم حزب سياسى جماهيرى واسع انضوت تحت لوائه أهم الحركات الوطنية بما فيها من كان نشاطه محظورًا. لذلك انصب عليه التنكيل الاستعمارى فى ٨ مايو ١٩٤٥.

إن السمعة الطيبة التى كانت تتمتع بها أمريكا، هى التى جعلت جبهة التحرير الجزائرية تهتم بخطاب القاه السيناتور «كينيدى» (قبل أن يصبح رئيسًا) فى مجلس الشيوخ، تعرض فيه للقضية الجزائرية، لذلك قررنا فى هيئة التحرير «المقاومة الجزائرية» نشر نصه كاملاً فى كلتا الطبعتين العربية والفرنسية فى ربيع ١٩٥٧.

ومعروف أن الحرب الباردة بين الغرب والمعسكر الشيوعى بالإضافة إلى تناقضات داخل المعسكر الغربى نفسه، وبروز تيار عدم الانحياز بعد مؤتمر باندونج فى ١٩٥٥ (الذى سجل ظهور العالم العربى بقوة عبر شخصية جمال عبدالناصر).. كل ذلك ساعد على انتزاع الاستقلال السياسى لعدد من الشعوب المستعمرة.

رؤساء أمريكا منذ ١٩٤٥
رؤساء حرب
ماعدا كلينتون

إذن فقد كان عام ١٩٤٥ محطة مهمة فى تاريخ الإنسانية، أصبحت معه أمريكا والاتحاد السوفيتى تنفردان بالتفوق والحصانة. وإذ نجحت كل منهما فى صنع القنبلة النووية فإن الرعب المرتبط باستخدامها قد أصبح عامل تجميد لها وعنصر توازن قائم على الرعب، إلى أن تفكك الاتحاد السوفيتى فانفردت أمريكا وحدها بالتفوق والهيمنة.

اطمأنت دول أوروبا الغربية لهذا الوضع الجديد فقررت تخفيض ميزانياتها العسكرية؛ فى الوقت الذى استغلت فيه أمريكا ذلك الوضع كى تطبق اختراعات الثورة الصناعية الثالثة على المجال العسكرى وليس على الميدان الاقتصادى وقطاع الاتصالات فقط. بذلك كانت الولايات المتحدة هى أول دولة فى العالم تطبق ثورة الاتصال والرقمية على فنون الحرب فأصبحت قواتها الجوية والبرية والبحرية تتمتع بمرونة فائقة، وانسجام فريد ودقة متناهية.

وهكذا «دشنت» أمريكا فى العقد الأخير من القرن الماضى حربًا جديدة تختلف كل الاختلاف عن سابقاتها، ولا تنطبق عليها قواعد الحرب التقليدية التى فلسفها «كارل فان كلوسويتز» فى كتابه المعروف عن الحرب.

فقد برمجت رقميًا «عاصفة الصحراء» فى قاعدة عسكرية بولاية فلوريدا، قبل أن تطبقها بدقة متناهية، فى بلاد العرب، بعدة أشهر. لقد تضاءلت الفروق بين الخطط الافتراضية المرسومة على خرائط مجسمة، وبين تنفيذها فى ميدان العمليات. وبذلك انعدم هامش المجهول أو كاد ينعدم، عكس ما كان عليه الأمر فى الماضى.

لذلك أصبحت الخطط الأمريكية تنص على «صفر» أموات، بالنسبة لجنودها، مما جعل بعض الكتّاب يعتبرون أن حرب الخليج الثانية لم تقع.

هكذا أصبح البون شاسعًا بين أوروبا وروسيا من جهة وأمريكا من جهة أخرى، بحيث يمثل هوة كبيرة يستحيل تداركها.

بذلك توفر لأمريكا مالم يتوفر لغيرها: مستوى فائق من التقدم التكنولوجى فى جميع المجالات فانفردت بالتفوق والهيمنة على العالم، إضافة إلى موقع حصين بين المحيطين الأطلسى والهادئ يجعل مستحيلاً على أية قوة معادية أن تأخذها على غرة.

مع ذلك فكرت واشنطن منذ عهد ريجان، فى تعزيز تلك الحصانة عبر مشروع «حرب النجوم» واستمر هذا التوجه فى عهد بوش الأب. ففى العام الرابع والأخير لولايته الأولى، وضع البنتاجون سنة ١٩٩١ دليلاً يحدد الأولويات لسنوات ١٩٩٢ - ١٩٩٤ على أساس أن بوش سينجح فى الانتخابات لولاية ثانية، خصوصاً وقد انتصر فى حرب عاصفة الصحراء وكرّس التفوق الأمريكى. ينص ذلك الدليل على أن من واجب أمريكا «أن تمنع أية قوة معادية من إحكام سيطرتها على مناطق غنية بموارد تسمح لها بأن تصبح دولة كبيرة». كما ينص على ضرورة صرف البلدان المتقدمة صناعيًا «عن التفكير فى أية محاولة تهدف إلى تحدى الزعامة الأمريكية أو تغيير النظام السياسى القائم».

أعدّ هذا التقرير كل من النائب الحالى لوزير الدفاع، ومستشار نائب الرئيس الحالى لشئون الأمن القومى، وقد سبق لوزير الدفاع فى حكومة بوش الأب أن أدلى ببيان أمام لجنة الدفاع فى مجلس الشيوخ بتاريخ ٢١ فبراير ١٩٩١، جاء فيه:

«إن هذه الحرب نموذج لنوع الحروب التى يمكن أن نخوضها فى العهد الجديد.. إن لنا، زيادة على مصالحنا فى جنوب غربى آسيا، مصالح مهمة فى أوروبا وآسيا والمحيط الهادئ وأمريكا اللاتينية والوسطى. فيجب أن نضبط سياساتنا ونعد قواتنا بحيث تردع أى تهديد، وتسمح (فيما إذا لم يكن بد من الحرب) بالانتصار السريع فى المستقبل على أى خطر..»



لكن نجاح بيل كلينتون فى انتخابات نوفمبر ١٩٩٢ أوقف العمل بتلك الأولويات. فهو أول رئيس أمريكى يفكر فى الخروج عن خط الحرب، منذ ١٩٤٥.

«كل الرؤساء، من ترومان إلى بوش الأب كانوا رؤساء حرب» حسب تعبير المؤرخ Ronald Steel.

فقد صرح كلينتون بعد انتخابه وقبل أن يتسلم مقاليد الحكم بأن لإدارة المفضلة للدبلوماسية الأمريكية مستقبلاً ستكون هى حرية الاقتصاد والمبادلات التجارية. وقد جسمت هذا الخيار اتفاقيات التبادل الحر التى أبرمتها واشنطن مع المكسيك وكندا عام ١٩٩٣، والتصديق على منظمة التجارة العالمية عام ١٩٩٤ والتقارب مع كل من روسيا والصين.

نتيجة لهذا التوجه، تحول مركز الثقل من أجهزة الأمن القومى ووزارة الدفاع إلى وزارة المالية والمجلس الجديد للأمن الاقتصادى التابع للبيت الأبيض.

وذلك يتطلب إعادة النظر فى مستلزمات منطق الحرب الباردة الذى كان هو السائد قبل ١٩٩٣. ومن هنا كانت علاقة كلينتون سيئة مع المؤسسة العسكرية. وتولدت عن ذلك معركة لىّ ذراع انتهت لغير صالح كلينتون.

عسكرة الفضاء
هل تنهى الإرهاب؟

مع مجىء الرئيس بوش الابن، أصبح الذين يحتلون أهم مناصب المسئولية، من أنصار إعطاء الأولوية للإستراتيجية العسكرية، وممن سبق لهم ممارسة مسئوليات أمنية وعسكرية زمن الحرب الباردة وخلال حرب الخليج الثانية، مثل ريتشارد شينى (نائب الرئيس) وكولين باول (وزير الخارجية) ودونالد رومسفيلد (وزير الدفاع) وجيمس كيلى (مستشار نائب الرئيس لشئون الأمن القومى) وبول وولفوفيتز (نائب وزير الدفاع).

وتجدر الإشارة إلى أن وزير الدفاع الحالى كان أحد منظرى الحرب الباردة، فيما بين ١٩٧٥ و١٩٨٩، وسعى إلى إزالة مصطلح «الانفراج» من قاموس السياسة الخارجية الأمريكية.

فليس من محض المصادفة أن يكون هو الذى وضع تقريراً يحمل اسمه، نشر بتاريخ **١١ يناير ٢٠٠١ (بعد الانتخابات الرئاسية وقبل التنصيب الرسمى للحكومة الجديدة)**

محمد الميلي

هذا التقرير يتعرض بالتفصيل لأهم المخاطر التي تهدد أمريكا؛ مثل الخطر الذى يمكن أن يصدر عن رجال «مثل أسامة بن لادن، قد يتحصلون على أسلحة باليستيكية» ومثل الخطر الذى قد يتخذ شكل هجومات تأتي من الفضاء. ويترتب على ذلك ضرورة أن يُمنح الرئيس خيار نشر أسلحة فى الفضاء للدفاع عن المصالح الأمريكية.

وقد تساءل أحد الذين علقوا على هذا التقرير، فى شيء من السخرية: ما هى الجهة التي يمكن لها أن تتحدى أمريكا فى أعالى الفضاء أو فى أعماق البحار؟ هل هى روسيا التى تبحث عن سياح أمريكان أثرياء حتى يمولوا برنامجها الفضائى»؟

أما خطر بن لادن فلم يتعرض له أحد بالتعليق. ومهما يكن من شيء، فإن الإدارة الأمريكية الحالية لم تخف خططها لتحقيق أهدافها من أجل عسكرة الفضاء حتى من قبل ١١ سبتمبر. فميزانيتها العسكرية المعدة لعام ٢٠٠٢ تتجاوز ميزانياتها السابقة: ٣٤٠ مليار دولار مقابل ٣١٠ فى السنوات الماضية وهى ميزانية تفوق الميزانيات العسكرية لكل من الصين وروسيا وألمانيا وفرنسا مجتمعة.

كما أن سياسة الطاقة التى اقترحها الرئيس بوش فى شهر مايو الماضى، تنص على مواصلة نمو الاستهلاك فى الطاقة بنسبة ١,٣٪ سنوياً لغاية عام ٢٠٢٠. وهذا يعنى استحالة اللحاق بها فى هذا الميدان أيضاً من طرف أية قوة فى العالم: فمعدل استهلاك الفرد الأمريكى سنوياً يقدر الآن بـ٥,٥ طن، بينما لا يتجاوز معدل الاستهلاك الفردى فى العالم طنا ونصف.



من المعروف أن أمريكا واجهت مع انتهاء الحرب الباردة مشكلة زوال عدو واضح يساعدها على تعبئة قواها، ويمكنها من تحقيق مزيد من الانصهار لوحدة شعبها.

وقد سبق لأحد رجال جورباتشوف، وهو «جورجى أرباتوف»، أن قال للأمريكان عام ١٩٨٨: إن الاتحاد السوفيتى سوق ينصب لكم فخاً رهيباً، سوف يحرمكم من وجود عدو.

بعد زوال الخطر السوفيتى ظهرت نظرية صدام الحضارات، وتم التلويح بالخطر الإسلامى. ولم يغب على الإدارة الأمريكية أنها فى حاجة إلى عدو خارجى. وهو ما عبر عنه هنرى كيسنجر فى كتابه الضخم «دبلوماسية» بقوله: «إن ما تحتاج إليه أمريكا هو تهديد واضح معروف وأيديولوجية معادية. هاتان الخاصيتان من خصائص الحرب الباردة لم تعودا موجودتين».

بماذا يمكن والحالة هذه تعويض الخطر الشيوعى!

لم يتبَنَّ كيسنجر نظرية صدام الحضارات ولكنه استعمل مثلاً

أسبانيًا يقول: «أيها المسافر، لا توجد أمامك طرق، فأنت الذى تشقها عندما تمشى».

فهل كان حادث ١١ سبتمبر هو الذى شق أمام واشنطن الطريق الذى كانت تبحث عنه؟

إن الذى لاشك فيه الآن هو أن واشنطن وجدت فيما حدث فرصة فذة تمكنها من ضرب عصفورين بحجر واحد: تحديد العدو الذى هى فى حاجة إليه، وتحقيق الأهداف التى لم تتمكن من تحقيقها فى المنطقة بعد أن خاب الأمل الذى كانت علقته على الطالبان.

فقد راهنت أمريكا، على نظام الطالبان عندما انتصر عام ١٩٩٦، أن يمكنها من الاستيلاء على المنطقة وثرواتها الطاقوية. لقد علق أحد المسئولين فى جهاز المخابرات الأمريكية على انتصار الطالبان بقوله:

«إن هؤلاء الشباب (الطالبان) ليسوا أسوأ من غيرهم. إنهم شديدو الاندفاع، لكن بسط نفوذهم على البلاد أفضل من الحرب الأهلية. فهم يسيطرون على كل التراب الواقع بين باكستان وحقول غاز تركمانستان لذلك قلنا: قد تكون سيطرتهم أمراً جيداً. فذلك يسمح ببناء أنبوب يمر عبر أفغانستان لنقل مصادر الطاقة إلى السوق الجديدة وهو ما يرضى الجميع».

وقد عبَّر نائب رئيس الشركة الأمريكية Unocal عن تأييد شركته للطالبان عندما وصف انتصارهم بأنه «تطور إيجابى» لأن من شأنه أن يساعد على تحقيق مشروع أنبوب الغاز».

لكن تفجير السفارتين الأمريكيتين فى نيروبى ودار السلام عام ١٩٩٨، كشف لواشنطن عن انفلات نظام الطالبان من حساباتهم.

تسبب ذلك فى تقارب أمريكى ـ هندى، فى الوقت الذى وجد فيه النظام الباكستانى نفسه رهينة لنظام الطالبان، المعزول عالميًا، دون أن يتمكن من الحصول على العمق الاستراتيجى الذى ما فتئت إسلام أباد تسعى لتحصيله.

حتى كان يوم ١١ سبتمبر، فأدخل متغيرات جيوسياسية فى المنطقة وفى عدة جهات من العالم: فاضطرت باكستان إلى التخلى عن «الطالبان» فتحسنت علاقتها مع أمريكا التى وجدت فى ذلك مسوغًا لرفع العقوبات التى كانت قد فرضتها إثر التجارب النووية عام ١٩٩٨.

لكن لم تكن المتغيرات الجيوسياسية هى النتيجة الوحيدة ليوم ١١ سبتمبر، فلأول مرة تتعرض أمريكا لعدوان خارجى منذ ١٨١٢، عدوان ضرب رمز قوتها الاقتصادية فى نيويورك ورمز هيمنتها العسكرية فى واشنطن، وإن كان فشل فى ضرب الرمز السياسى (البيت الأبيض).



أما ما ذهب إليه بعض المعلقين من تشبيه ذلك العدوان بواقعة «بيرل هاربور» فهو غير وارد: لأن وجه الشبه الوحيد بين الهجومين يتمثل فى أن المخابرات الأمريكية توقعت فى كلتا الحالتين حدوث شىء ما، إلا أنها لم تستطع أن تحدد توقيته ولم تنجح فى إحباطه.

فيما عدا ذلك لا يوجد وجه شبه، لأن عدوان ١١ سبتمبر ضرب التراب الأمريكى فى العمق بينما كان هدف الهجوم اليابانى هو بيرل هاربور فى جزيرة هاواى. وإذا كان المزارعون الأمريكان تمكنوا من قلب النظام الملكى الأهلى هناك عام ١٨٩٨، فإن مجموعة جزر هاواى لم تصبح الولاية الخمسين إلا عام ١٩٥٩، زيادة على كونها بعيدة عن الشواطئ الأمريكية المطلة على المحيط الهادئ.

ما حدث فى سبتمبر الماضى يمثل أسلوباً فى الحرب لم يسبق له مثيل، زيادة على كون الطرف المعتدى لا يمثل دولة، بل هو تنظيم له فروع منتشرة فى جهات مختلفة من العالم، بما فيه التراب الأمريكى.

إن الدقة التى نفذت بها العملية و«الخبطة» الإعلامية التى حققتها على مستوى المعمورة ضاعفت من الفزع الذى ألحقته بأمريكا وغير أمريكا. ومما يزيد فى مضاعفة مخاوف العالم من هذا السلاح الجديد أن تاريخ الحروب علمنا بأن ظهور أى سلاح جديد، يعنى أن استعماله سوف يتكرر مهما بلغ مفعوله من الفظاعة والوحشية والتدمير. فقد استعمل غاز الحرب أكثر من مرة رغم تحريمه دوليًا بعد ظهوره فى الحرب العالمية الأولى. وإذا كان قد خيَّل للعالم أن تدمير Gueruice فى أسبانيا عام ١٩٣٧ من طرف الطيران الألمانى لن يتكرر فى تاريخ الحروب، فقد تواصل تدمير المدن بعد ذلك فى حروب بين دول وفى حروب أهلية.

وقد سجل بعض المنظرين أن التاريخ القديم عرف «المدينة الدولة» (أثينا وإسبرطة) وعرف التاريخ الوسيط «المنطقة الدولة» ممثلة فى الإقطاع وسلطات الإقطاعيين وعرف التاريخ الحديث «الأمة الدولة». أما الآن فالعالم يواجه إمكانية وجود «تنظيم ـ دولة» إن لم يكن «فرد ـ دولة» كما يوحى بذلك التركيز على أسامة بن لادن.

وإذا كانت أمريكا قد توقعت حدوث هجوم عليها يشنه مثل هذا التنظيم ـ الدولة، فإنه لم يخطر على بالها أن يأتى الهجوم فى صورة طائرات مدنية يتم تحويلها بالسكاكين والمدى والتهديد بالقنابل اليدوية.

إن ١١ سبتمبر إذ وضع حداً لاستحالة ضرب أمريكا فى العمق، فهو يعنى أن الولايات المتحدة أصبحت مندمجة فى المجموعة الدولية، مما يستلزم صهر عولمة جديدة.

لماذا قالت أمريكا: كيف حدث هذا؟ ولم تتساءل:

لماذا حدث هذا؟

فى مواجهة هذا الوضع الجديد يمكن لأمريكا أن تتخذ أحد موقفين، يقع كل منهما على طرف نقيض الآخر.

الأول: هو أن تستخلص العبرة فى اتجاه تفهم أى محاولة فهم ما يجرى فى العالم خاصة مطامح وتطلعات الشعوب، وهذا يستلزم حداً أدنى من مراجعة سياستها الخارجية، أى حد أدنى من النقد الذاتى.

وهذا ما تصوره أو تمناه Stephen Schle Sivgo، وهو من أنصار الحزب الديمقراطى، لكنه أعجب بشخصية بوش كما بدت بعد ١١ سبتمبر، وهو يرى أن ذلك اليوم أحدث صدمة نبهت أمريكا إلى أنها لم تعد جزيرة عملاقة محصنة، بل أصبحت جزءاً من عالم حقيقى وليس افتراضيا.

وهو يتصور أنه إذا لم تستخلص واشنطن العبرة من الحدث ولم تنفتح انفتاحًا حقيقيًا على العالم، غير آبهة بالآخرين، فإن هناك مبانى وعمارات أخرى سيلحقها الدمار فى المستقبل.

الثانى: أن تكون قراءتها للحدث متمشية مع منطق الحرب المعتمد لدى الإدارة الأمريكية؛ وتتمثل فى استخراج نتيجة أخرى مغايرة خلاصتها أن الخطر أضخم مما كان يتوقعه منظرو البنتاجون، وأن الأمر يقتضى المزيد من الاستعداد لتجنب مثل ذلك اليوم فى المستقبل. حينئذ يتطلب الأمر تطوير القوة العسكرية والتعجيل بعسكرة الفضاء.

ولا يخفى أن مثل هذا الاتجاه يعنى تعزيز الهيمنة الواحدة، والانفراد بالقرار فى مواجهة الوضع الجديد؛ ويترتب على ذلك أن أمريكا تمثل بمفردها المجتمع الدولى. على هذا الأساس يعتبر النظام الأمريكى ليس فقط متفوقاً، بل مدعو لمزيد من التفوق؛ ومن هنا فلا يمكن لمثل هذا الحدث أن يجبرها على مراجعة سياساتها، لأن يوم ١١ سبتمبر، رغم خطورة دلالاته، حسب هذه القراءة يمثل جملة اعتراضية بين قوسين، لا تدخل تغييراً أساسياً على السياق العام ولا تتسبب فى أى تعديل لميزان القوى. هذا التوجه ينسجم مع ثوابت السياسة الأمريكية المعروفة منذ الحرب العالمية الثانية، وليس فقط منذ عهد ريجان، ففى ربيع ١٩٤٢ عندما زار مولوتوف ـ وزير خارجية الاتحاد السوفيتى ـ واشنطن واستقبله الرئيس روزفلت، عرض هذا الأخير على مبعوث ستالين برنامجاً يتمثل فى تكليف أربع دول بالسهر على السلم فى العالم وهى الولايات المتحدة، بريطانيا، الاتحاد السوفيتى والصين.



التاريخ عرف «المدينة الدولة» و«المنطقة الدولة» و«الأمة الدولة». أما الآن فالعالم يواجه إمكانية وجود «تنظيم ـ دولة» إن لم يكن «فرد ـ دولة»





لكن الرئيس الأمريكى لم يكن مقتنعاً، فى قرارة نفسه، بهذا العرض أو على الأقل لم يكن يجعل الدول الأربع فى مستوى واحد: يؤكد ذلك ما قاله لابنه إيليوت، بعد ذلك «إن بريطانيا فى حالة أفول، والصين لاتزال تعيش فى القرن الثامن عشر، والاتحاد السوفيتى يتخوف منا، ويدفعنا إلى التخوف منه. فأمريكا هى وحدها القوة الكبرى التى تستطيع أن تحافظ على السلام فى العالم».

إذن فاعتبار أمريكا هى الدولة الوحيدة القادرة على أن تسهر وتضمن السلام العالمى، فكرة قديمة نسبياً، وقد تأكدت بعد حائط برلين ولم تعد محل نقاش.

فليس من المستغرب إذن أن ينتصر الخيار الثانى لدى الفريق الحاكم الآن.

ويرى عدد غير قليل من الخبراء والمهتمين بالشأن السياسى، سواء فى أوروبا أو أمريكا اللاتينية أو حتى فى الولايات المتحدة نفسها أن ذلك الخيار سوف ينتهى إلى مأزق. بل هو يؤدى إلى تعميق الأزمة.

ويبدو أن هذا التوجه يتماشى مع الرأى العام، فأغلب الأمريكان يتساءلون: كيف وقع هذا، وقليل هم الذين تساءلوا: لماذا وقع هذا؟ والفرق واضح: فسؤال «كيف وقع» يتطلب جواباً «فنيًا» إن صح هذا التعبير، أى يوجه الجواب نحو ثغرات محتملة فى أجهزة آلية وشبكات بشرية متفوقة على كل نظائرها فى العالم، وطرح السؤال السابق: كيف وقع، يغنى عن طرح سؤال «لماذا وقع» فضلاً عن أن يوجه إلى البحث عن الأسباب.

ومن العوامل التى ساعدت على عدم التفكير فى طرح سؤال «لماذا» هو ما عرف عن الرأى العام الأمريكى من عدم الاهتمام بما يجرى فى الخارج.

وقد حاول الكاتب والصحفى الأمريكى David Halberstam أن يقدم تفسيراً لعدم الاهتمام بما يدور فى العالم الخارجى، خلاصته أن نهاية الشيوعية جعل أمريكا تبتعد عن العالم، فانحسرت المعلومات الخارجية. وهكذا قلصت الصحف الكبرى مساحاتها المخصصة لأخبار العالم، كما أنقصت القنوات التليفزيونية المدة الزمنية التى تغطى أنباء الخارج. لذلك لوحظ منذ التسعينيات أن أجور أرباب الصحف ومرتباتهم ارتفعت بنفس النسبة التى أغلقت بها مكاتبها الخارجية.

هناك خلفية أيديولوجية تبرهن على أنه إذا استطاعت أمريكا أن تنتصر فى الميدان الأفغانى فإنها لاتزال بعيدة عن تحقيق الانتصار فى معركة الأفكار

إن هذا التفسير وارد لكنه لا يكفى لتفسير عدم اهتمام الناس بطرح سؤال: «لماذا؟» والحقيقة أن طرح سؤال لماذا، يستلزم السير عكس التيار الجارف الذى يتمثل فى سخط الرأى العام وإلحاحه على الانتقام. فليس من الممكن والحالة هكذا أن يرفع صوت نشاز يشذ عن المعزوفة التى يرددها الجميع. صحيح أنه من الصعب أن يخرج الإنسان عما يبدو من إجماع كل الشعب.

إلا أن ذلك يستدعى ملاحظتين تكمل إحداهما الأخرى..

الأولى: أن هناك فعلاً نصيباً كبيراً من التلقائية وراء تشكل الرأى العام والطريقة التى تحقق بها الإجماع أو ما يشبه الإجماع حول رد الفعل الذى استقبلت به الجماهير الأمريكية ما حدث يوم ١١ سبتمبر.

وهو أمر طبيعى فى وضع مثل الوضع الأمريكى: فقد كان المواطنون مطمئنين إلى استحالة أن يتعرَّض بلدهم لأية ضربة. وهو قبل ذلك وبعد ذلك أمر طبيعى فى بلد تعود فيه المواطن على قصر اهتمامه بشئونه الداخلية، فالديمقراطية الأمريكية ما فتئت، منذ عهد «دى توكفيل» حقيقية فى حدود الولاية. أما السياسة الخارجية فهى لا تعنيه غالباً لأن مركز الثقل الذى يوجهها لا يوجد فى الهيئة التنفيذية المسئولة عن تسيير شئون الولاية، إذ إنه موجود فى البيت الأبيض ومطابخه الخاصة.

هذه الظاهرة ليست جديدة، بل ترجع إلى عدة عقود. نعم إن الدستور الأمريكى ينص على الفصل بين السلطات، كما يتضمن ضوابط ومؤسسات تراقب مؤسسة الرئاسة، خاصة فيما يتعلق بشئون الحرب والسلم. ومعروف أن الكونجرس هو الذى يمثل أداة الرقابة الشعبية على أنشطة الحكومة. لكن التجربة دلت على أن السلطة زمن الحرب تصبح من اختصاص الرئيس. لأن مؤسسة الرئاسة ما فتئت منذ زمن بعيد تستحوذ تدريجياً على السلطة كاملة، مستغلة ظروف الحرب والأزمات: وهو ما أدى إلى أن يتخلى الكونجرس عن صلاحياته لفائدة الرئاسة. وبذلك اختفت تدريجيّاً أهم الضوابط التى ينص عليها الدستور.

هذه الظاهرة كانت موضوع دراسة قيِّمة كتبها Arther M.Schlesinger سنة ١٩٧٣، وترجمت إلى الفرنسية عام ١٩٧٦، بعنوان «الرئاسة الإمبريالية».

فى هذه الدراسة يسجل المؤلف أن الاستحواذ على صلاحيات الكونجرس من طرف مؤسسة الرئاسة قد تحقق على مراحل فى المجالين الداخلى والخارجى. ثم يضيف فى المقدمة:

«أعتقد أن الرئاسة الإمبريالية انطلقت أساساً من السياسة الخارجية، خاصة امتلاك قرار بالغ الأهمية بالنسبة للأمة، وهو قرار إعلان الحرب».

ثم يصف مدى السلطات التى أصبح يتمتع بها الرئيس منذ بداية السبعينيات (فى القرن الماضى) فيقول: «إن الرئيس الأمريكى هو الوحيد الذى يملك حقاً ملكياً مطلقاً فيما يتصل بالسلم والحرب دون رؤساء الدول الكبرى فى العالم، باستثناء ماوتسى تونج ربما» (المقدمة ص٣. الترجمة الفرنسية. نشر المطبوعات الجامعية. باريس ١٩٧٦).

هذا الوضع يجعل المواطن الأمريكى يطمئن إلى رئيسه فيما يتصل بالسياسة الخارجية، ويتجاوب مع توجهاتها دون تساؤل غالباً. بل إن بعض ردود فعله تتم أحياناً عن سذاجة بالغة.

فى أوج إحدى الأزمات مع ليبيا صادف فى إحدى المدن الداخلية أن اخترقت طائرة حاجز الصوت فتصور بعض المواطنين أنه هجوم ليبى!

فى هذا السياق تبرز الملاحظة الثانية، وهى تتصل بمسئولية الدولة والبيت الأبيض فى توجيه الرأى العام الأمريكى. فمسئولية الرئيس واردة، وهى قد تفرض عليه السباحة ضد التيار. لأن انسياق المواطن العادى وراء التيار الغالب ظاهرة تعرفها كل الشعوب. لكن ذلك لا يبرر ممارسات وسياسات لا تعود بالفائدة على الأمة، وعلى مجموع الإنسانية عندما يتصل الأمر ببلد مثل الولايات المتحدة الأمريكية. إن مجاراة التيار لا تصلح لأن تكون سياسة، لأن «مسايرة الرياح هو أقصى ما تطمح إليه الأوراق الميتة» حسب تعبير أحد الحكماء.

لماذا يكرهون أمريكا؟

أجرت صحيفة «نوفيل أوبسرفاتور» الصادرة فى الأسبوع الثانى من يناير ٢٠٠٢ (١٠-١٦ يناير) حديثاً مع الفيلسوف الفرنسى اندرى جلوكسمان، (Andre Gluksman) حول الإرهاب تعرض فى هذا الحديث إلى النتائج التى يمكن أن تترتب على ١١ سبتمبر، وهو يربط بين العمل الإرهابى و«العدمية»، مذكراً بالإرهاب الذى ظهر فى روسيا والذى وصفه الأديب الروسى دوستوفسكى فى رواياته. وقد تحدث هذا الفيلسوف بإسهاب عن هذه الظاهرة فى كتاب أصدره أخيراً ونزل الأسواق فى النصف الثانى من يناير ٢٠٠٢ بعنوان «دوستوفسكى فى منهاتن».

فى حديثه مع مجلة «جان دانيال» تعرض إلى احتمال استعمال الأسلوب الذى دمر البرجين التوءم فى نيويورك، من طرف إرهابيين ملحدين فى المستقبل. فهو لا يستبعد أن تظهر شبكات إرهابية تستخدمها دولة على حافة الإفلاس، تهدد بها دولة أخرى كى تجبرها على دفع قروض هى فى أشد الحاجة إليها. ويقول فى حديثه هذا: «كما سمح نظام التكتم والسرية فى البنوك، باستعمال حسابات تمويل شبكات (القاعدة)، فقد يسمح بتمويل أى عمل إرهابى عَدَمى مُلحد مناهض للغرب» ثم يلاحظ أن العدمية واقع راهن.. «كما يدل على ذلك ارتياح ثلاثة أرباع الإنسانية لما حدث يوم ١١ سبتمبر. سواء كانوا ينتمون إلى الطبقات البورجوازية فى أمريكا اللاتينية التى ترسل أبناءها للدراسة فى جامعات نيويورك، أو كانوا من سكان الصين حتى إنه مايزال الأطفال يتعلمون فى المدارس تاريخ الهزيمة المهينة التى ألحقها الغرب بهم عام ١٨٥٠ أثناء حرب الأفيون، أى كانوا فى اليابان حيث نجد النخب المثقفة فيه متجاوبة مع عبارات بن لادن عندما ذكر أن «الذين ارتكبوا هيروشيما يحصدون الآن ما زرعوه». ثم يضيف جلوكسمان: «إن هناك خلفية أيديولوجية تبرهن على أنه إذا استطاعت أمريكا أن تنتصر فى الميدان الأفغانى فإنها لاتزال بعيدة عن تحقيق الانتصار فى معركة الأفكار».




إن ما لاحظه الفيلسوف الفرنسى عن ارتياح ثلاثة أرباع الإنسانية يكشف عن مدى الكراهية التى يحملها الناس لأمريكا فى أنحاء من العالم مختلفة. هذه الكراهية لا نلمسها فقط لدى بعض الشعوب المستضعفة، المضطهدة، التى تحمِّل أمريكا مسئولية معاناتها، بل تظهر فى بلدان غربية أيضاً.

على أن حقيقة الشعور الذى يحمله الناس هنا وهناك إزاء أمريكا هو مزيج من الكراهية والإعجاب. ففى عدد من البلدان التى يتظاهر جماهيرها ضد أمريكا ويحرقون أعلامها، تتشكل طوابير طويلة أمام قنصلياتها طلباً للتأشيرة وتلهفاً على الالتحاق بجنة الله فى أرضه.

لكن إذا كان شعور الكراهية مفهوماً فى بلدان المشرق العربى والعالم الإسلامى لارتباطه بالموقف الأمريكى من فلسطين، فما هو تفسير الكراهية الخفية التى لا تظهر دائماً بوضوح فى بلدان حليفة لأمريكا مثل بلدان أوروبية ومثل اليابان؟

يرجع ذلك إلى نوعين من العوامل: سياسى وفكرى.

بالنسبة للعوامل ذات الطابع السياسى يصعب استعراضها كلها، لأن بعضها لا يظهر عادة للعلن نظراً للمصالح المشتركة بين أمريكا وحلفائها من أوروبا أو آسيا. لكن يمكن أن نسوق مثالاً ماضيًا من فرنسا لاتزال تأثيراته موجودة فى الحاضر. فموقف الجنرال ديجول من أمريكا بوصفها زعيمة الحلف الأطلسى معروف، خاصة بعد أن عاد إلى الحكم فى مايو ١٩٥٨ وأنهى الجمهورية الفرنسية الرابعة، التى كانت تسير فى ركاب أمريكا دون نقاش، وأقام بدلها الجمهورية الخامسة.

فقد قرر تزويد فرنسا بقوة نووية كخطوة أولى على طريق تأكيد استقلالها عن الولايات المتحدة الأمريكية. وهو نفس المنطق الذى دفعه إلى الانسحاب من الحلف الأطلسى عام ١٩٦٦، فاضطرت القيادة العسكرية للحلف - وهى أمريكية - أن تنتقل من باريس حيث كان مقرها إلى بروكسل.

ويمكن أن يضاف للعامل السياسى، عامل آخر هو مزيج من الموقف السياسى ورد الفعل النفسى؛ ويتمثل فى كون الضعيف أو الأقل قوة ينحاز عاطفياً ضد الأقوى والأكثر عتواً. فمنذ عهد التوراة تعوَّد الناس على كراهية جالوت أو من هو فى حكم جالوت. ولعل هذا ما يساعد على تفسير مواقف أوروبية، مثل ذلك الذى أعلنه الجنرال ديجول عندما زار مقاطعة «كيبيك» فى كندا وألقى خطاباً صاح فى ختامه: «يحيا الكيبيك حراً»، متحدياً بذلك جارتها الجنوبية ومؤكداً على فرنستها لغوياً.

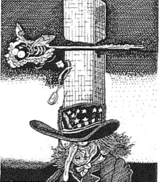
ولا شك أن تحليل البيان الذى أعلنه الاتحاد الأوروبى عقب ١١ سبتمبر يعكس بعضًا من موقف يتحدى الأقوى ويود التعبير عن نوع من الاستقلالية. فالموقف الذى اتخذه وزراء خارجية الاتحاد فى بروكسل لا يخلو من التعبير عن شىء من التحفظ السياسى الذى لا يصل إلى درجة التحدى، ولا يعيد النظر فى التضامن التام مع الولايات المتحدة الأمريكية. وقد عبرت صحيفة لوموند «الصادرة يوم ١٤ سبتمبر (تاريخ ١٥ سبتمبر) عن موقف الاتحاد الأوروبى ودلالته، فى افتتاحية جاء فيها:

«سوف يتحصل الأمريكان على دعم المجموعة الدولية إذا كان رد الفعل ضد الإرهاب يستهدف

☜



إذا كان شعور الكراهية لأمريكا مفهوماً بين العرب والمسلمين، فما هو تفسير ظهوره فى بلدان حليفة كالبلدان الأوروبية واليابان؟




مرتكبي الأحداث ومن يحركونهم، وإذا كانوا - أي الأمريكان - يقبلون بالتعاون والنقاش ومشاركة بلدان أخرى في معركة طويلة المدى ضد الرعب والإرهاب. هذا ما قاله الأوروبيون للأمريكان في اجتماعات بروكسل.

إن مثل هذه السياسة المصممة والمدروسة هي التي نتضامن معها، وليست السياسة التي يتحكم فيها منطق إما الله وإما الشيطان».



أما العامل الفكري فيمكن أن نشير إلى تيار فلسفي في أوروبا الغربية يمثله أكثر من فيلسوف. وهناك مارتن هايدجر الألماني (١٨٨٩-١٩٧٦).

فقد نشر عام ١٩٥٢ «مدخل إلى الميتافيزيقا» تحدث فيه عن أوروبا المسحوقة بين فكي كماشة ضخمة، روسيا من جهة وأمريكا من جهة أخرى. وهو إذ يندد بكل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، فإنه يقصد إلى مهاجمة العالم المادي وتدهور الفكر وتحكم الرتابة في دنيا عمَّ فيها الانحلال وتدهورت الأخلاق وانعدمت فيها القدرة على الإبداع.

ويمكن أن نعتبر الفيلسوف الفرنسي «إيما نويل مونيي» فيلسوف «الشخصانية» ومؤسس مجلة «Esprit» من الذين عبروا عن هذا التيار بصيغة أخرى. فهو ينادي بالعدالة ويدعو إلى المسيحية، ويشن هجومًا قويًا على أمريكا بوصفها «أكثر بلدان العالم لا أخلاقية» ولأنها تخضع لسلطان المال الذي هو عندها بمثابة الروح».

وهو يعتبر أن أمريكا «بربرية» «تهدد مجموع الحضارة الإنسانية». وكان يرى أن مواجهة الخطر تكون ناجحة إن هي «انتهجت روحانية تتفوق على الليبرالية الأمريكية ووجهها العكسي أو المعكوس، الفكر البلشفي».

وفي مجال آخر هو اللغة، نجد روني إيتيانبل، الذي توفي مطلع هذه السنة عن عمر يناهز ٩٢ عامًا، قد هاجم انتشار ما يسميه «الفرانجلي» أي مزج كلمات فرنسية بكلمات إنجليزية، في كتابه الذي صدر عام ١٩٦٤ بعنوان (Parlez-Vous Frangleis) ومعروف أن النخب المثقفة في أوروبا الغربية قد أفرزت في الستينيات من القرن الماضي تيارًا يساريًا قويًا هاجم الشركات متعددة الجنسيات بقوة بوصفها مظهرًا من مظاهر الهيمنة الأمريكية. كما اتخذت حرب فيتنام مناسبة لتهييج الجماهير ضد نظام الولايات المتحدة الأمريكية.

في هذا السياق يمكن أن نشير إلى كتابات أحدث، مثل كتابات «ريجيس دبراي» التي صدرت أخيرًا. فهو يشيد بالقيم الجمهورية الفرنسية ويضعها في مواجهة «أنانيات الديموقراطية الأمريكية المتدينة».

وإذا انتقلنا إلى ميدان الأدب نجد كتابات «جورج دوهاميل» (١٨٨٤ - ١٩٦٦) الأديب والأكاديمي الفرنسي المعروف. (وقد كشف د.طه حسين، عميد الأدب العربي، عن جوانب من فكره). فقد ندد هو الآخر بـ «الآلة الأمريكية التي يرى أنها تمثل «حضارة الحشرات» وتعمل على إقامة عالم آلي مثل الذي وصفه البريطاني «جورج أورويل» (١٩٠٣-١٩٥٠) في قصته المعروفة (١٩٨٤). فهي تندد بمخاطر الاستبداد والديكتاتورية، وتصور عالمًا بئيسًا تتحرك فيه كائنات تعيسة تنوء تحت ضغط الحاجة والفاقة والهموم.

وقد اتخذت كراهية أمريكا في غرب أوروبا صيغًا جديدة في الوقت الراهن، مثل الدفاع عن الخصوصيات الثقافية والتنديد بإخضاع العلم واختراعاته لمنطق الربح، وتسخير كشوفاته وتطبيقاته لخدمة سلطان القوة ومنطق الهيمنة.

صحيح أن رد الفعل في أوروبا وفي غير أوروبا عمومًا، كان إدانة تامة وشديدة للعملية الإرهابية، بل إن كثيرين في أوروبا هتفوا «كلنا أمريكان» تعبيرًا عن مدى تضامنهم مع شعب الولايات المتحدة الأمريكية.

لكن هناك تعليقات عديدة في فرنسا وفي غير فرنسا داخل الاتحاد الأوروبي خاصة، تختلف كليًا عند الحالة التي تصورها جملة «كلنا أمريكان».

فقد بادرت ماري جوزي ماندزان إلى توجيه تعليق نشرته «لوموند» بتاريخ ١٩ سبتمبر (أي أن القراء اطلعوا عليه يوم ١٨ أي بعد أسبوع واحد من الحادث) - وهي مديرة بحوث في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي. ومما جاء في هذا المقال:

«أصبح مطلوبًا منا أن نكون كلنا أمريكان. شخصيًا لا أشعر أبدًا أني أمريكية، لكني على العكس من ذلك أحس بمشاعر مختلفة تدفعني إلى إدانة عالم يغني مع رئيس - كارثة، ويهتف له، رئيس يدافع عن عقوبة الإعدام ولا يحمل للشرق الأوسط إلا الاحتقار. إن فظاعة الحدث تغرقنا في الحزن وتثير لدينا الفزع. لكن الانفعالات العاطفية لا ينبغي أن تشل إرادة التفكير لدينا أو تجردنا من حقنا في التقييم الموضوعي للحدث.



إن تحليل الإعلام المصور وغير المصور الذي ينهال علينا يكشف عن دلالة واضحة عندما نقرأ الحدث ميثولوجيا: رمز امبراطورية اقتصادية ينهار، لاينقص شعاراته أي شيء: برج بابل، الصاعقة الإلهية، وخاصة خطاب الحرب المقدسة الذي ينقلب إلى تبرير قداسة الحرب عند الآخرين.. إن الكون كله يُصلِّي مع أمريكا ويدعو لها، وهي واثقة أن الله سوف يعبر عن غضبه على أعدائها، ورغبته في الانتقام منهم لها».

ثم تشير إلى ما ينتظر الشعب الأفغاني من تدمير (لأن المقال نشر قبل بدء الهجوم على أفغانستان) فتقول بعد أن تسجل شدة ضغط الإعلام الأمريكي على الرأي العام العالمي:

«إنهم يحرصون على أن نظل مذهولين. يجب أن يدخلوا «غير المتوقع» في «غير المعقول»، إن مثل هذا الإعلام يتضمن عنفًا كبيرًا، ويهيئنا لعنف أكبر لم يكن ليخطر لنا ببال، عنف تحمله الأجوبة والردود التي يجرى الإعداد لها الآن.. لنكن واضحين، إن السؤال الذي يطرحه كل من يحقق في جريمة قتل هو: من المستفيد من الجريمة؟ هل هم الفلسطينيون؟ قطعًا لا. فشارون أصبح طليق اليدين ويتجرأ على وصف عرفات بأنه «بن لادن إسرائيل»، مواصلاً سياسة عمياء ضد الشعب الفلسطيني في وجود دول مشلولة! هل يستفيد من ذلك الأفغان الذين يسحقهم الطالبان؟ كلا. فها هم مهددون بالانقراض تحت القنابل الأمريكية. هل هم الفقراء؟ هل هم المضطهدون؟ أبدًا». ثم تنهي مقالها بما يلي:

«كل ما أتمناه أن لا يندفع حكامنا الغربيون، دون تفكير في هذه المتاهة المعقدة من المصالح الاقتصادية التي تسعى لأن تجعل العالم رهينة لها. يجب علينا جميعًا أن نصمد أمام رغبة الانتقام الأعمى الذي يفتح الباب واسعًا من جديد للعنصرية والتعصب، مما يجعلنا ننسى البحث عن الأسباب الحقيقية، الاقتصادية والاجتماعية لهذه الطامة الكبرى».

اتخذت كراهية أمريكا في غرب أوروبا صيغًا جديدة في الوقت الراهن، مثل الدفاع عن الخصوصيات الثقافية والتنديد بإخضاع العلم واختراعاته لمنطق الربح

شبيه بهذا الموقف، ما عبرت عنه «سوزان جورج» وهي أمريكية تعيش في فرنسا وتناضل ضد العولمة في صفوف التنظيم المعروف باسم (أتاك) قالت في حديث لصحيفة «نوفيل أوبسرفاتور»، جوابًا عن أسئلتها: «.. طبعًا لقد صعقت لهول ما حدث.. لكن أرفض أن أتوقف عن التفكير.. إني أدين الوحدة المقدسة والخطب الداعية إلى الحرب والشعارات التي يصدِّعون بها رؤوسنا. أنا ولدت أمريكية.. لكن لسنا كلنا أمريكان. نحن كلنا أناس ضعاف قابلون للعطب، هذا ما نسيناه.. لقد كافحت طيلة حياتي حكامًا أمثال نيكسون وكيسنجر وبوش، فلن أسير في ركابهم الآن.. إن قتل المدنيين، وإلقاء القنابل على أفغانستان لن ينجح إلا في شيء واحد وهو تغذية كراهية أمريكا بمزيد من الوقود.. إن الأمريكان عاجزون عن فهم سبب كراهية الناس لهم. إنهم لا يعرفون أدنى شيء عما يعمله حكامهم.. لست أحمل أي تفهم لعمل بن لادن وأرى أنه يجب منعه من الإضرار. لكن هذا السيد وجماعته كانوا يعتبرون «مكافحين من أجل الحرية» عندما كانوا يحاربون ضد موسكو في أفغانستان. إن الولايات المتحدة هي التي اخترعت هذا الإرهاب زمن الحرب الباردة.. وهي التي قتلت أو أمرت بقتل المدنيين في السودان وفي شيلي وفي بنما. وهي التي تركت النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي يتعفن». (عدد ٢٤ سبتمبر ٢٠٠١).



وقد أجرت صحيفة لوموند في عددها الصادر بتاريخ ٢٣-٢٤سبتمبر الماضي حوارًا مع المثقفين من بينهم «آلان جوكس» وهو باحث متخصص في أمريكا والقضايا الاستراتيجية. وهو إذ يشير إلى شعار «كلنا أمريكان» يرد عليه قائلاً:

«إن ما حدث لا يمس فقط الولايات المتحدة وحدها. إنها مركز النظام العالمي. لذلك تبدو كراهية الأمريكان غير مفهومة لهؤلاء. لكن أن يقول الناس: كلنا أمريكان، فإن ذلك غير صحيح على الإطلاق. إننا أوروبيون، ومع ذلك فقد تأثرنا، غير أن دوافعنا (في التأثر) تختلف. إن اشتراكنا مع الأمريكان في رد الفعل يرجع إلى الطابع الفاشي والصبغة الإبادية للعملية، ولا يصدر عن تفكير سياسي مشترك. يجب أن تحتفظ بالقلب حارًا، لكن يتعين أن يكون الرأس باردًا».

وهو يعني بالقلب «الحار»، التضامن عاطفيًا مع الأمريكان، وبالرأس البارد، أن يكون تقييم الحدث بعيدًا عن العاطفة؛ ويتضح ذلك من تعقيبه على الجملة السابقة بقوله:

«إن بن لادن، في جنونه، يقول أيضًا أشياء حقيقية رغم ما فيها من إحراج. فهو يصف تطور النظام العالمي وصفًا حقيقيًا. إنه يهذي فقط عندما يتصور أن بإمكانه تغيير نظام الأشياء بمثل تلك العمليات الانتقامية المدمرة. وعندما يقول الرئيس بوش «إن الله معنا» فهو ومن يرددون معه ذلك - يضعون

من اليابان أيضًا انطلق صوت رئيس وزراء يابانى سابق، هو «ياسو هيرو ناكاسونى»يدعو أمريكا إلى «التخلى عن الوقاحة التى جعلتها تتصرف كما لو كانت تملك العالم»

أنفسهم فى نفس موقع أسامة بن لادن، وهو موقع الحرب المقدسة. فى حين أن أية حرب لا يمكن أن تكون مقدسة».

ويرد على مقولة الذين ينادون بوجوب الثقة فى الشعب الأمريكى قائلاً: «يجب أيضًا أن نثق فى المعايير الخاصة بالأوروبيين التى تختلف، منذ سنوات، عن الأساليب الأمريكية. إن النظام الأمريكى يهدف إلى فرض سيطرته على العالم، ولا يهمه تحقيق السلام. فى حين أن الوضع السياسى والإقليمى فى أوروبا، لا يمكن أن يعالج بالاستراتيجية التى يقترحها الأمريكان. لا شك أن نقاشًا سوف ينشب (بين أوروبا وأمريكا) حول التحدى المجنون الذى رفعه الإرهابيون. وإذا نحن أخذنا فى الاعتبار الأهداف التى يعلنها بن لادن، فيجب أن نسلم بأن هناك مصاعب حقيقية ستواجهنا. إن العمل الأمريكى، المتمثل فى الغفلة عن المشكل الإسرائيلى ـ العربى عندما تركوه يتعثر حتى سمح لشارون الذى هو إرهابى ومرتكب جرائم إبادية، لم يكن عملاً ذكيًا. ولا يتلاءم طبعًا مع مصلحة الأوروبيين».

ويثير آلان جوكس بعد ذلك مسألة طرح سؤال: «لماذا؟» فيتساءل: هل البحث عن الأسباب خاصية أوروبية؟ ليلاحظ أن الأمريكان مدعوون إلى البحث عن الأسباب وإجراء مراجعة عميقة لاستراتيجيتهم. ثم يبدى تشككه فى قدرة أمريكا على إجراء هذه المراجعة لأن «الأمريكان غير مُبَرْمجين (ذهنيًا) لطرح السؤال وفهم المسألة الاجتماعية على مستوى العالم. إنهم مبرمجون لإنكار ذلك، إذ يعتبرون أن الإرهابيين يتشابهون وأن الإرهاب شر مطلق. وهذا ما يفسر ترددهم إزاء الانتفاضة الفلسطينية وإطلاق العنان لشارون كى يقمع الجماهير الفلسطينية ويستمر فى التنكيل بها».

ويستخلص آلان جوكس من تحليل الموقف الأمريكى، أن واشنطن تقصر اهتمامها على ما تعتبره قضية كبرى وهى مكافحة الإرهاب، وهذا ما جعلها تعمى عن رؤية الأبعاد الحقيقية للقضية الفلسطينية، ثم يعقب على ذلك قائلاً:

«إن الاهتمام فقط بمحاربة الإرهاب غير كاف. فالمهم هو محاربة الإرهاب ومعالجة أسبابه. وفيما إذا لم يتحقق ذلك فإن المتطوعين للعمل الإرهابى لن ينقص عددهم، وخاصة فى المناطق التى يسودها اليأس ويلفها القنوط، كما هو الشأن فى غزة والضفة الغربية».

وفيما إذا لم يعالج موضوع الإرهاب على ذلك الأساس فإن محاربة بن لادن كما يقول غير واحد، سوف تستغل من طرف الآخرين «مادام لا يوجد مقابل للانتصار الأمريكى الساحق»، وهذا ما يفرض على أوروبا اتخاذ مواقف أكثر وضوحًا من النزاع الفلسطينى الإسرائيلى وأن تعلم الأمريكان بذلك» كما يرى عدد من المثقفين الأوروبيين.

وفى شرق آسيا، اليابان، نجد الكاتب الحائز على جائزة نوبل ١٩٩٤ وهو Kenzebura يتعرض هو أيضًا للأسباب السياسية التى تفسر كراهية أمريكا؛ ولكنه لا يكتفى بذلك، إذ يُرجع ما حدث فى ١١ سبتمبر إلى أسباب هيكلية.

أجرت صحيفة لوموند الصادرة بتاريخ ٢٧ نوفمبر الماضى حديثًا أعرب فيه عن رأيه فى الموقف من اليوم المذكور: فهو يرى أن على أمريكا أن تعترف بهزيمتها وتضع سياسة لما بعد ١١ سبتمبر على مستوى العالم «مع تركيز الجهد على معالجة الكراهية الشديدة التى تراكمت ضدها والتى تمثل الخلفية الحقيقية لذلك العمل الإرهابى. إن مثل هذه السياسة تعتبر خيارًا بطوليًا يقضى فى المهد على حرب إرهابية ثانية». ثم ينتقد الرئيس الأمريكى فيقول: «لكن الرئيس بوش المعتمد على دعم شعبه، أراد عكس ذلك عندما شن حربًا يجزم أن الانتصار فيها حتمى. وهذا غير مؤكد.

إن الآلام التى تعتصر الشعب الأفغانى والفوضى التى استقرت فى البلد تجعل الطابع اللا إنسانى للإرهاب ملتبسًا مَكْسُوًا بالغموض».

بناء على هذا المنطق يعتبر أنه كان على حكومة الولايات المتحدة أن تتمهل فى رد الفعل حتى تلتئم جراح الشعب الأمريكى؛ وتجد الوقت اللازم لتدرس الأسباب التى أفضت إلى عمليات ١١ سبتمبر، بدل أن تسارع بانتقام أعمى. ثم يضيف:

«وحتى إذا نجحت أمريكا وحليفتها بريطانيا فى قتل بن لادن أو إيقافه، فلست أعتقد أن ذلك «الحل» ينفع فى معالجة قابلية أمريكا للضرب. بل هو على العكس من ذلك سوف يتسبب فى موجة إرهابية ثانية وثالثة تغرق الأطراف المتحاربة فى مزيد من وحل معركة مشبوهة طويلة الأمد».

ولما سألته «لوموند» عن سبب هذه الكراهية لأمريكا، أجاب بما يلى:

«هى أسباب قريبة وواضحة، لكنها بدَتْ بعيدة لأننا غفلنا عنها حتى فوجئنا بما حدث. إننا إذ تعامينا عنها، رفضنا أن نراها. إن الإرهاب الذى ضرب أمريكا غذَّته العولمة، وتحكم الليبرالية الجديدة فى مَفاصل الاقتصاد مما أدى إلى مزيد من المظالم، إضافَة إلى التفوق العسكرى. كنت أرى فى تلك الهجومات تعبيرًا عن عاطفة حاقدة، ولكنى أراها مرتبطة بأسباب هيكلية. إلا أن الرئيس بوش ومجموع الشعب الأمريكى شعروا بهذا الإرهاب فى المستوى العاطفى، فاندفعوا فى حشد قوات عسكرية ضخمة وتعبئة وسائل اقتصادية كبيرة صرفت أنظارهم عن رؤية السبب الأساسى».

ومن اليابان أيضًا انطلق صوت رئيس وزراء يابانى سابق، هو «ياسو هيرو ناكاسونى»يدعو أمريكا إلى «التخلى عن الوقاحة التى جعلتها تتصرف كما لو كانت تملك العالم».

إن الولايات المتحدة تزعم أنها تدين الارهاب، وتنسى أنها مارست إرهاب دولة ضد إندونيسيا وكمبوديا وإيران وأفريقيا الجنوبية وأمريكا اللاتينية

وفى أمريكا اللاتينية ارتفعت أصوات عديدة تذكر الولايات المتحدة بممارساتها هناك. وقد لخص كاتب مكسيكى شعور شعب المنطقة عندما كتب:

«إن الولايات المتحدة تزعم أنها تُدين الإرهاب، وتنسى أنها مارست إرهاب دولة ضد إندونيسيا وكمبوديا وإيران وأفريقيا الجنوبية وأمريكا اللاتينية التى عرفت بلدانها تلك الحرب القذرة التى شنتها ضدها أمريكا فى إطار ما عُرف ببرنامج «كاندور».

ويروى الكاتب التركى «أورهان ياماك» أنه كان يجلس فى مقهى شعبى، محاطًا بأناس بسطاء، سائقى عربات، عندما سمع النبأ، ويسجل ردود فعلهم، فيذكر «أنهم أصيبوا بالذهول ثم ظهر عليهم الفرح والابتهاج».

ويربط الألمانى Uri Back بين ١١ سبتمبر واقتصاد السوق الليبرالى، كما فعل الأديب اليابانى. ثم يلاحظ أن أمريكا عاجزة عن أن تتصور إمكانية وجود بديل عن الليبرالية الاقتصادية الجديدة التى تسببت فى الكوارث، مؤكدًا على أن الليبرالية الجديدة هى السبب فى الإرهاب، ثم يقول:

«إن مخاطر الإرهاب وتهديداته قد ذكَّرتنا ببعض الحقائق البسيطة. كانت الليبرالية المظفرة قد أخفتها: فالفصل بين الليبرالية الاقتصادية والشأن السياسى وَهْمٌ على خلاف ما تعتمده الليبرالية، وهو وهم كلف العالم ثمنًا باهظًا.. إنه لا وجود للأمن فى غياب الدولة وفى غياب الخدمات العامة. إن غياب الضرائب يعنى انعدام سياسة تربوية وصحية معقولة، وهو يستلزم انعدام الأمن فى القطاع الاجتماعى.. آنذاك تفقد الدولة شرعيتها، وعندما تنعدم الشرعية ينعدم الأمن. ثم يقرر: «إن مساعدة المهمشين ليست فقط مطلباً إنسانيًا مُلحّاً، بل هو يخدم أيضًا المصلحة الخاصة للغرب ويمثل مفتاح أمنه الداخلى».

على أن انتقاد السياسات الأمريكية وتحميلها مسئولية ما حدث قد تطور بعد بدء الهجوم على أفغانستان ونظام الطالبان. ويكفى أن نستشهد فى هذا المجال بالموقف الذى أعلنه نيلسون مانديلا؛ فقد كان أبدى تضامنه مع أمريكا وأيد حربها ضد الإرهاب. لكنه عندما تابع وقائع الحرب فى أفغانستان، غير رأيه وكتب إلى الرئيس بوش رسالة خلال شهر (يناير ٢٠٠٢) يعلمه فيها أنه يتراجع عن تضامنه المطلق معه فى حربه، لأن الاستمرار فى ذلك التضامن يعطى انطباعًا «بأننا نفتقد إلى الحساسية الإنسانية وأننا لا نهتم بما يسلط على الشعب الأفغانى ولا بآلامه.

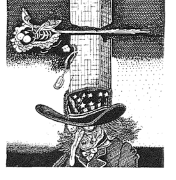


وبعد فمن الصعب أن يرصد المرء أهم ردود الفعل أو يستعرض أبرز النتائج التى تسببت فيها أحداث ١١ سبتمبر. فهنا فيض من دراسات تعرض بإسهاب لما يسمى «ما بعد الإسلامى». والواقع أن الأفكار التى تسجل نهاية ما يسميه البعض «التطرف الإسلامى أو التعصب الإسلامى، قد ظهرت قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بأربع سنوات، سواء فى شكل أبحاث نشرتها مجلات متخصصة أو كتب لمفكرين ومؤرخين ومديرى مراكز أبحاث.

وقد يتطلب الأمر تخصيص هذا الجانب من الموضوع بدراسة خاصة ومتعمقة.

على أن أخطر ما يحمله الغد هو أن تظل الأوضاع التى كانت قائمة يوم ١٠ سبتمبر ٢٠٠١، على حالها بعد ذلك اليوم، كما لاحظ ذلك الأمين العام للأمم المتحدة يوم ١٠ نوفمبر الماضى.

إن تركيز الجهود كلها على محاربة الإرهاب، دون أية التفاتة للمشاكل الكبرى الأخرى التى يعانى العالم منها، ليس فقط يعد نوعًا من الانتصار للذين دبروا عمليات يوم ١١ سبتمبر، ولكنه ينذر بأن يقود العالم إلى مرحلة حُبلى بعدد من المجاهيل ستضاعف من بؤس الدنيا مادام لم يتفرغ العالم متضامنًا لمعالجة الأسباب العميقة التى أدت إلى ذلك اليوم. ولا شك أن نجاح مثل هذا المسعى يتوقف إلى حد كبير على صياغة إجابة موفقة عن سؤال: لماذا حدث هذا؟ بدل الاقتصار على طرح سؤال واحد: كيف حدث هذا، كما فعل الفريق الحاكم فى الولايات المتحدة الأمريكية. ■



لم يكن اهتمام الولايات المتحدة والغرب عموماً بأفغانستان وآسيا الوسطى وليد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها، رغم أهمية تلك الأحداث، بل إنه يعود لفترات طويلة مضت بالنظر إلى طبيعة الصراع الدولى خلال الحرب الباردة. ثم تجدد الاهتمام فى عقد التسعينيات مع توالى الإعلان عن اكتشافات بترولية ضخمة فى آسيا الوسطى وتأكيد الخبراء والمتخصصين أن المنطقة تعوم فوق بحيرة من البترول والغاز.

والشهادة التالية التى قدمها جون ماريسكا نائب رئيس شركة يونيون أويل أوف كاليفورنيا، التى بلغ عائد عملياتها عام ٢٠٠٠ حوالى ٩,٣ مليار دولار أمام لجنة العلاقات الدولية فى مجلس النواب الأمريكى فى ١٢ فبراير ١٩٩٨ تلقى مزيدًا من الأضواء على الأهمية الاستراتيجية لأفغانستان بالنسبة للقوى الرأسمالية الغربية وتطرح رؤية كاشفة عن الدوافع الحقيقية التى ذهبت من أجلها الولايات المتحدة للحرب فى أفغانستان.

وقد خلصت اللجنة الأمريكية يومها إلى أن اهتمام الكثيرين بالمنطقة ومواردها بات متزايدًا.. وأن من مصلحة الجميع توفير ما يكفى من الطاقة للاحتياجات المتزايدة. لأن عدم تلبية الاحتياجات سيحدث ضغوطًا فى كل أسواق العالم تؤدى إلى رفع الأسعار.

المحرر

Testimony by John Mareska
To: House Committee on International Relations, Subcommittee on Asia and the Pacific
Washington, D.C.: February 12, 1998.

طريق الحرير الجديد

لماذا ذهبت أمريكا إلى أفغانستان؟

جون ماريسكا

أنا جون ماريسكا، نائب رئيس شركة يونيون أويل أوف كاليفورنيا UNOCAL للعلاقات الدولية وهى واحدة من الشركات العالمية الرائدة فى مشروعات تنمية مصادر الطاقة، وأنشطة شركتنا متركزة فى ثلاث مناطق أساسية هى آسيا وأمريكا اللاتينية وخليج الولايات المتحدة فى المكسيك. ونحن منتج كبير للغاز والنفط فى آسيا والخليج الأمريكى.

وأنا أقدر دعوتكم لى للحديث هنا تقديراً عظيماً. واثق فى أهمية جلسة الاستماع هذه وأنها تأتى فى الوقت المناسب. وأهنئكم على الاختيار والتركيز على مسألة احتياطيات الغاز والبترول فى آسيا الوسطى، وعلى الدور الذى تلعبه فى تشكيل سياسة الولايات المتحدة.

إن هناك حاجة ماسة لمضاعفة طرق خطوط الأنابيب لبترول وغاز آسيا الوسطى. كما أن هناك حاجة لدعم الولايات المتحدة للجهود الدولية والإقليمية لإنجاز تسويات سياسية متوازنة ودائمة بين روسيا والدول المستقلة حديثاً، وفى أفغانستان أيضاً هناك حاجة ماسة للمساعدة المنتظمة وذلك لتشجيع الإصلاحات الاقتصادية وتطوير المناخ الاستثمارى الملائم فى المنطقة. وفى هذا الخصوص نحن نطالب بإلغاء القسم ٩٠٧ من مرسوم دعم الحرية.

لأكثر من ٢٠٠٠ عام، ظلت آسيا الوسطى نقطة التقاء بين أوروبا وآسيا، فقد كانت نقطة التقاء طرق التجارة القديمة بين الشرق والغرب والذى أطلق عليه طريق الحرير، وفى لحظات عديدة من التاريخ كانت هذه المنطقة هى مهد العلم والثقافة والقوة. وهذه المنطقة غنية جداً بالثروات الطبيعية التى تشجع على قيام التجارة عبر الحدود، وتخلق علاقات سياسية إيجابية وتحفز التعاون الإقليمى. هذه الثروات من المرجح أن تعيد تعزيز وتقوية اقتصاديات الدول المجاورة وتضع كل بلدان المنطقة على طريق الازدهار والرخاء الاقتصادى.

منذ حوالى ١٠٠ عام، ولدت صناعة النفط الدولية فى منطقة آسيا وبحر قزوين، وذلك نتيجة لاكتشاف البترول فى هذه المنطقة، وفى سنوات التدخل، تحت الحكم السوفيتى، فإن وجود موارد للغاز والبترول فى المنطقة كان شيئًا معروفاً بشكل عام، ولكنها كانت متطورة بشكل جزئى.

وبما أننا نقترب من نهاية القرن العشرين، فإن التاريخ يعيدنا دورة كاملة. فبسقوط العوائق السياسية، فإن آسيا الوسطى ومنطقة بحر قزوين تعود لتجتذب ناسا من حول العالم يلتمسون طرق ووسائل لتطوير ونقل موارد الطاقة السخية إلى الأسواق العالمية.

إن منطقة بحر قزوين تحتوى على احتياطيات هائلة من مادة الهايدروكاربون، وكثير منها موجود فى حوض بحر قزوين نفسه.

إن احتياطيات الغاز الطبيعى المؤكدة فى أذربيجان وأوزبكستان وتركمانستان وكازاخستان تبلغ أكثر من ٢٣٦ تريليون قدم مكعب. وأن احتياطيات النفط الكلية ربما تصل إلى أكثر من ٦٠ بليون برميل - أى ما يكفى لخدمة احتياجات أوروبا البترولية لمدة ١١ سنة - والبعض يقدر هذه الاحتياطيات بأكثر من ٢٠٠ بليون برميل.

فى ١٩٩٥ كانت المنطقة تنتج حوالى ٨٧٠ ألف برميل يومياً (٤٤ مليون طن فى السنة). وبحلول عام ٢٠١٠ فإن الشركات الغربية ستزيد الإنتاج إلى حوالى ٤,٥ مليون برميل يومياً - أى بزيادة نسبتها أكثر من ٥٠٠٪ فى ١٥ عاماً فقط. إذا حدث هذا فإن إنتاج المنطقة سيمثل حوالى ٥٪ من الإنتاج العالمى من البترول، و١٠٪ تقريباً من إجمالى البترول المنتج خارج دول الأوبك.

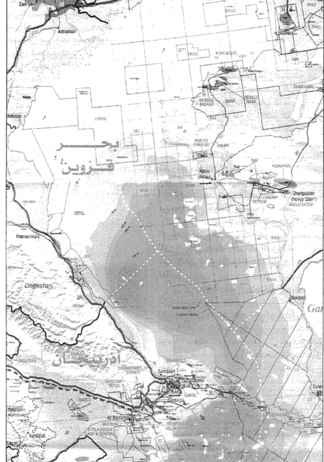
المشكلة الرئيسية الوحيدة التى لم تحل بعد هى: كيف ستصل موارد الطاقة الهائلة الموجودة فى المنطقة إلى الأسواق التى تحتاجها؟ إن الحل يبدو سهلاً وهو بناء طريق حرير جديد. ومع ذلك فإن تنفيذ هذا الحل ليس بهذه البساطة فالمخاطر عالية ولكن الفوائد عالية أيضاً.

اكتشاف وبناء طرق إلى الأسواق العالمية

إحدى المشاكل الرئيسية هى أن آسيا الوسطى منطقة منعزلة. فهى محاطة من ناحية الشمال بالمنطقة القطبية الشمالية، وتحيطها مساحات هائلة من الأراضى اليابسة من الشرق والغرب، ومن الجنوب محاطاً بسلسلة من العوائق الطبيعية - الجبال والبحار - وأيضاً عوائق سياسية، مثل مناطق صراع سياسى أو دول فرضت عليها عقوبات. وهذا يعنى أن المصادر الطبيعية لهذه المنطقة محاصرة، جغرافيًا أو سياسيًا. وكل بلدان القوقاز وآسيا الوسطى تواجه تحديات سياسية صعبة. فالبعض يواجه حروبا لم يتم تسويتها بعد أو صراعات كامنة ومستترة. والبعض الآخر يطور أنظمته باستمرار. حيث القوانين دائمة التغير والتبدل. فتعهدات وقوانين العمل يمكن إلغاؤها بدون سابق إنذار، كما يمكن إنهاء الأعمال نتيجة وجود حقائق جيوبوليتيكية جديدة.

بالإضافة لذلك، فإن العقبة الفنية الرئيسية التى نواجهها فى نقل البترول هى البنية التحتية لخطوط الأنابيب الموجودة فى المنطقة، لأن خطوط الأنابيب الموجودة قد تم

بحر قزوين (شمال)



بناؤها فى الفترة التى كانت فيها موسكو مركز الحكم السوفيتى، فهى تتجه ناحية الشمال والغرب فى اتجاه روسيا. ولم تكن هناك وصلات للجنوب والشرق.

إن الاعتماد بشكل كامل على هذه البنية التحتية لتصدير بترول آسيا الوسطى غير عملى. فروسيا حالياً من غير المحتمل أن تكون قادرة على امتصاص كميات كبيرة جديدة من البترول الأجنبى، ومن غير المحتمل أن تكون سوقا مهمة للطاقة فى العقد القادم. كما أنها تفتقد القدرة على توزيعه إلى الأسواق الأخرى.

من المؤكد أنه ليس هناك مخرج سهل من آسيا الوسطى. فإذا كانت هناك طرق أخرى فى اتجاهات أخرى فيجب إنشاؤها.



إن البنية الأساسية لمشروعى الطاقة الكبيرين تسعى لتلبية هذه الاحتياجات والتحديات. المشروع الأول برعاية كونسورتيوم خط أنابيب قزوين، الذى يخطط لبناء خط أنابيب غربى من شمال قزوين إلى الميناء الروسى على البحر الأسود فى نوفوروسيسك. وسيتم نقل البترول من نوفوروسيسك بواسطة ناقلات بترول خلال البسفور إلى البحر المتوسط والأسواق العالمية. المشروع الآخر برعاية شركة التشغيل الدولية الأذربيجانية (AIOC)، وهى كونسورتيوم (اتحاد مالى) مكون من ١١ شركة بترول أجنبية منها أربع شركات أمريكية هى أوناوكال وأموكو واكسون وبنز أويل. وهو سيتبع أحد أو كلا الطريقين غرباً من باكو. الخط الأول سينحرف شمالاً ويعبر شمال القوقاز إلى نوفوروسيسك، والآخر سيعبر جورجيا ويمتد إلى محطة الشحن على ميناء سوبسا فى البحر الأسود. الطريق الثانى ربما يمتد غرباً وجنوباً عبر تركيا إلى ميناء سيحان على البحر المتوسط، ولكن حتى لو تم إنشاء هذين الخطين، فلن تكون قدرتهما الإجمالية كافية لنقل كل البترول المتوقع تدفقه من المنطقة فى المستقبل، وليس لديها القدرة على نقله إلى الأسواق المناسبة. ومن هنا يجب بناء خطوط تصدير أخرى.

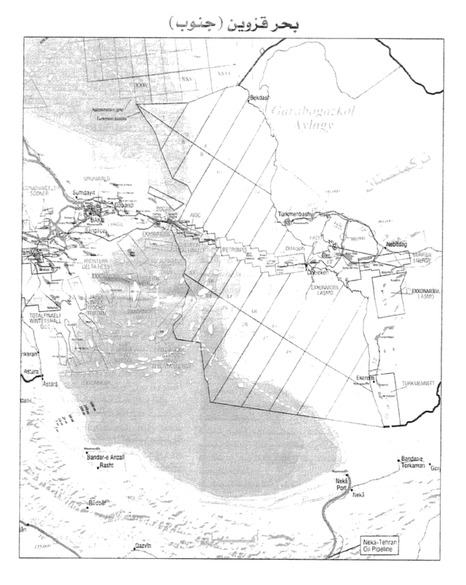
أون أوكال UNOCAL تعتقد أن العامل الرئيسى الذى يجب أن يحكم التخطيط لهذه الخطوط هو موقع أسواق الطاقة المستقبلية التى من المرجح أن تحتاج هذه الموارد والإمدادات. فإذا كانت آسيا الوسطى كانت نقطة التقاء آسيا وأوروبا فى القرون الماضية، فإنها مرة أخرى فى موقع فريد إلى أسواق الخدمة المحتملة فى كلتا المنطقتين - إذا تمكنا من بناء طرق التصدير إلى هذه الأسواق. دعنا نلقى نظرة إلى بعض هذه الأسواق المحتملة..

أوروبا الغربية

أوروبا الغربية هى سوق صعبة وعنيدة Tough Market، تتميز بالأسعار العالية لمنتجات البترول، والسكان المعمرين، وزيادة المنافسة من الغاز الطبيعى.

بين ١٩٩٥ و٢٠١٠ نحن نقدر أن الطلب على البترول سيزيد من ١٤,١ مليون برميل فى اليوم (٧٠٥ أطنان فى السنة) إلى ١٥ مليون برميل فى اليوم (٧٥٠ طنا فى السنة)، بمعدل نمو متوسط ٠,٥٪ سنوياً. علاوة على ذلك، فإن المعروض فى المنطقة الآن كبير وهو البترول القادم من مناطق فى الشرق الأوسط وبحر الشمال، واسكندنافيا وروسيا. على الرغم من أنه ربما يكون هناك مجال لبعض من نفط آسيا الوسطى فإن أسواق أوروبا الغربية من غير المحتمل أن تكون قادرة على امتصاص كل المنتج من بترول بحر قزوين.

بحر قزوين (جنوب)



منشآت البنية التحتية للبترول والغاز فى منطقة بحر قزوين
مارس ٢٠٠١

حقل بترول	خط أنابيب رئيسى لتصدير البترول الخام
حقل غاز طبيعى	خطوط أنابيب بترول أخرى
خط سكة حديد	خط أنابيب رئيسى لتصدير الغاز الطبيعى
	خطوط أنابيب غاز طبيعى أخرى
	خط أنابيب بترول تحت الإنشاء
	خط أنابيب غاز تحت الإنشاء
	ميناء لناقلات البترول

طـــريق الحـــــرير الجــــديد



منطقة وسط آسيا وبحر قزوين هى مباركة ومسعدة بسبب وفرة البترول والغاز الذى من الممكن أن يعزز معيشة سكان المنطقة ويوفـــر الطاقــة لنمـــو أوروبـــا وآســــيا

وسط وشـــــرق أوروبا

إن أسواق أوروبا الوسطى والشرقية لا تنتظر المزيد. فعلى الرغم من أن هناك زيادة فى الطلب على البترول فى قطاع النقل فى المنطقة، فالغاز الطبيعى أكثر ربحية بشكل كبير كمنافس للبترول.

بين ١٩٩٥ و٢٠١٠ من المتوقع أن يزيد الطلب على البترول فقط بنصف مليون برميل يوميًا، من ١.٣ مليون برميل فى اليوم (٦٧ مليون طن فى السنة) إلى ١.٨ مليون برميل فى اليوم (١٩.٥ مليون طن فى السنة).

كما أن أوروبا الشرقية هى أيضاً سوق تنافسية جداً. بالإضافة إلى أنها تسد احتياجاتها من البترول من بحر الشمال وأفريقيا والشرق الأوسط، فإن روسيا تمد غالبية دول المنطقة بالبترول.

الأســـواق الداخليـــة للدول المستقلة حديثاً

إن النمو فى الطلب على البترول أيضاً سيكون ضعيفاً فى الدول المستقلة حديثاً. نحن نتوقع أن الطلب فى السوق الروسية وأسواق الدول المستقلة حديثاً سيزيد بنسبة ١.٢٪ سنوياً بين ١٩٩٧ و٢٠١٠.

آسيـا / البـاسيـفيك

هنا يكون الاختلاف واضحاً مقارنة بالأسواق الثلاثة الأخرى.

ففى منطقة آسيا / الباسيفيك يتزايد الطلب بسرعة كبيرة على البترول والزيادة المهمة المتوقعة فى السكان. قبل الأزمة الحالية فى عديد من اقتصاديات آسيا والباسيفيك. كنا قد توقعنا أن طلب هذه المنطقة على البترول سيتضاعف تقريباً فى سنة ٢٠١٠ بالرغم من أن الزيادة فى الطلب على المدى القصير من المحتمل ألا تستجيب لهذه التوقعات، إلا أن شركتنا تقف خلف تقديراتها طويلة المدى.

إن نمو الطلب على الطاقة سيبقى قويا لسبب واحد أساسى وهو أنه من المتوقع تزايد عدد سكان المنطقة بمقدار ٧٠٠ مليون فرد بحلول سنة ٢٠١٠.

إنه من مصلحة أى أحد أن تكون هناك موارد كافية لمقابلة زيادة الحاجة من الطاقة لآسيا. إذا لم يتم إشباع حاجات آسيا من الطاقة. فإنها ببساطة ستخلق ضغوطا على كل الأسواق العالمية، بما يؤدى إلى ارتفاع الأسعار فى كل مكان.

السؤال الأساسى هو كيف يمكن لموارد الطاقة فى آسيا الوسطى أن تكون متاحة لإشباع حاجات آسيا من الطاقة من أسواق آسيا القريبة. هناك حلان ـ مع عدة متغيرات.

طرق التـــصـــديـر

شرقاً إلى الصين: الطول الممنوع؟

الخيار الأول هو السير شرقاً عبر الصين. لكن هذا يعنى بناء خط أنابيب طوله أكثر من ٣ آلاف كيلو متر إلى وسط الصين ـ أيضاً بناء وصلة طولها ألفا كيلو متر لتصل إلى مراكز السكان الرئيسية بالقرب من الشاطئ. حتى مع هذا التحدى الهائل، فإن شركة الصين الوطنية للبترول تفكر فى بناء خط أنابيب شرقى من كازاخستان إلى الأسواق الصينية.

Unocal كان لها فريق فى بكين الأسبوع الماضى للتشاور مع الصينيين. وقدم الصينيون فكرة على المدى الطويل وقدرتها على حشد مواردها لمقابلة احتياجاتها القومية من البترول. الصين واثقة من بناء هذا الخط. السؤال هو ما هى تكاليف نقل البترول خلال هذا الخط الأنبوبى والعوائد الصافية التى سيتلقاها المنتجون.

جنوبًا إلى المحـــيط الهندى: المسافة الأقصر إلى الأســواق الناميــة

الاختيار الثانى هو بناء أنبوب جنوبى من وسط آسيا إلى المحيط الهندى.

الطريق الجنوبى الأول المحتمل من الواضح أنه سيكون عن طريق إيران. ومع ذلك، هذا الخيار مغلق بالنسبة للشركات الأمريكية بسبب قوانين العقوبات. الخيار الآخر الممكن هو الطريق عبر أفغانستان، التى تحتوى على تحديات فريدة.

فهذا البلد متورط فى حرب مريرة لما يقرب من عقدين. المنطقة التى سيمتد عبرها الأنبوب تقع تحت إدارة طالبان، الحركة الإسلامية التى لم تعترف بها كحكومة تقريبًا معظم الدول الأخرى. من البداية نحن أوضحنا أن بناء الخط المفتوح لا يمكننا البدء فيه حتى يتم الاعتراف بالحكومة بالشكل المناسب الذى يعطى الثقة للحكومات، والمقرضين وشركتنا.

بالرغم من هذا، فإن الطريق عبر أفغانستان يبدو أنه الخيار الأفضل مع بعض المشاكل الفنية القليلة، إنه أقصر الطرق للبحر وأفضل الطرق نسبيًا من حيث التضاريس بالنسبة لخط الأنابيب. الطريق خلال أفغانستان هو الوحيد الذى سوف يقدم بترول آسيا الوسطى الحبيس إلى الأسواق الآسيوية ومن ثم سيكون الأرخص بالنسبة لنقل البترول.

رؤية شركتنا العملية هى خلق كونسورتيوم «اتحاد» أنابيب بترول آسيا الوسطى. خط الأنابيب سيصبح جزءا مكملا فى نظام خطوط الأنابيب البترولية للمنطقة الذى سينتفع منه ويجمع البنية التحتية للأنابيب الموجودة فى تركمانستان وأوزبكستان وكازاخستان وروسيا.

الأنبوب الذى سيكون طوله ١٠٤٠ ميلا سيبدأ من قرب مدينة شاردزو فى شمالى تركمانستان، ويمتد إلى الجنوب الشرقى خلال أفغانستان إلى محطة التصدير التى ستكون مبنية على الساحل الباكستانى على البحر العربى. فقط حوالى ٤٤٠ ميلا من الأنبوب ستكون فى أفغانستان.

هذا الأنبوب سيكون قطره ٤٢ بوصة وستكون طاقته فى الشحن مليون برميل من البترول فى اليوم. والتكلفة المقدرة للمشروع حوالى ٢.٥ بليون دولار أمريكى.

وهناك مصالح سياسية دولية وإقليمية جديرة بالاعتبار فى هذا الأنبوب. مستوردو البترول الخام الآسيويون، خاصة فى اليابان، ينظرون إلى وسط آسيا وبحر قزوين كمصدر استراتيجى جديد للبترول لإشباع طلباتهم من مصادر مختلفة. إن الأنبوب يفيد بلدان آسيا الوسطى لأنه سيسمح لهم ببيع بترولهم فى أسواق واسعة وبالعملة الصعبة. الأنبوب سيفيد أفغانستان، التى ستتلقى عوائد من تعريفات النقل، وسيساعد على وجود الاستقرار ويشجع التجارة والتنمية الاقتصادية.

بالرغم من أن شركتنا لم تتفاوض مع أى مجموعة ولا تفضل أى مجموعة، إلا أننا لنا اتصالات معهم وأطلعنا كلا منهم. نحن نعرف أن الجماعات المختلفة فى أفغانستان تدرك أهمية مشروع الأنبوب لبلدهم، وأعربوا عن دعمهم له.

الدراسة الحالية للبنك الدولى تحدد أن الأنبوب المقترح من آسيا الوسطى عبر أفغانستان وباكستان إلى البحر العربى ستوفر عوائد أكثر من مرضية لمنتجى النفط من خلال الوصول إلى الأسواق عالية القيمة، بقدر أكثر مما تحققه حاليًا عبر الوصول خلال طرق التصدير التقليدية فى البالتيك والبحر الأسود. إن البرهان بقيمة العوائد التى سيتلقاها المنتجون قد تحددت بواسطة دراسة البنك الدولى. فبالنسبة لبترول غرب سيبيريا الخام، فإن العائد الصافى سيزيد تقريبًا بقيمة ٢دولار لكل برميل بتدفقه جنوبًا إلى آسيا. بالنسبة للمنتج فى كازاخستان الغربية، فإن قيمة العائد الصافى ستزيد بأكثر من دولار لكل برميل من خلال التدفق جنوبًا إلى آسيا بالمقارنة مع التدفق غربًا إلى البحر المتوسط عن طريق البحر الأسود.

تصدير الغاز الطبيعى

فيما يتعلق بموارد الغاز الطبيعى الوفيرة فى آسيا الوسطى، فإن هدفنا هو توصيل المورد الطبيعى المحدد إلى أقرب سوق ممكنة. هذا هو الشرط الأساسى لتحقيق النجاح التجارى لأى مشروع للغاز. كما بالنسبة لكل المشروعات التى تمت دراستها فى هذه المنطقة، فإن المشروعات التالية تواجه تحديات جيوبوليتيكية، أيضًا مشاكل مرتبطة بالسوق.

أناوكال والشركة التركية، كول هولدينجس أ.س، مهتمون بجلب وإحضار موارد الغاز التنافسية إلى السوق التركية. أنبوب الغاز الطبيعى لأوراسيا المقترح سوف ينقل الغاز من تركمانستان مباشرة عبر بحر قزوين خلال أذربيجان وجورجيا إلى تركيا ٦٠٪ من هذا الأنبوب المقترح للغاز سيتبع نفس الطريق الذى سيتبعه أنبوب البترول المقترح ليسير من باكو إلى سيحان. بالطبع، الحدود لقزوين تبقى هى المشكلة.

فى أكتوبر الماضى، اتحاد «كونسورتيوم» سينتجاز Centgas أنبوب آسيا الوسطى المحدودة، التى تملك يوناوكال حصة أسهم فيه، كان قد تشكل لتطوير أنبوب الغاز الذى سيعمل على توصيل احتياطيات الغاز الطبيعى الضخمة فى حقول دولت أباد فى تركمانستان إلى أسواق باكستان وربما الهند. التقييم المستقل يوضح أن موارد هذا الحقل تكفى لحاجات المشروع، بافتراض أن معدلات الإنتاج سترتفع مع الوقت إلى ٢ بليون قدم مكعب من الغاز يوميًا لمدة ٣٠ عامًا أو أكثر.

فى إنتاجه منذ ١٩٨٣، حقل دولت أباد للغاز الطبيعى نقل إنتاجه شمالاً عن طريق أوزبكستان، كازاخستان وروسيا إلى الأسواق فى مناطق بحر قزوين والبحر الأسود. إن الأنبوب المفترض والذى سيكون طوله ٧٩٠ ميلا سيفتح أسواقًا جديدة لهذا الغاز، ينقله من تركمانستان عبر أفغانستان إلى مولتان، باكستان. الامتداد المقترح سيصل مع نظام أنبوب سوى Sui الموجود، ينقل الغاز إلى قرب نيودلهى، حيث سيتصل بأنبوب HBJ الموجود.

بواسطة خدمة هذه الأحجام الإضافية، فإن وصلة الامتداد ستعزز اقتصاديات المشروع بالشكل الذى يؤدى إلى تخفيضات كبيرة فى تكاليف الغاز الطبيعى المنقول لكل المستخدمين وتحقيق أفضل هوامش للربح، كما هو مخطط حاليًا. فإن أنبوب سينتجاز سيتكلف تقريبًا ٢ بليون دولار. وصلة الامتداد داخل الهند والتى سيكون طولها ٤٠٠ ميل ستضيف ٦٠٠ مليون دولار إلى التكلفة الكلية للمشروع. كما أنه بالنسبة لأنبوب البترول المقترح لآسيا الوسطى، فإن سينتجاز لا تستطيع البدء فى الإنشاء حتى يتم الاعتراف دوليًا بحكومة أفغانستان بالشكل المناسب. ومن أجل أن يتقدم المشروع، فيجب أن يكون هناك تمويل دولى، اتفاقيات حكومية ـ حكومية، واتفاقيات حكومية ـ مع الكونسورتيوم.

الخـــاتمـــــة

إن منطقة وسط آسيا وبحر قزوين هى مباركة ومسعدة بسبب وفرة البترول والغاز الذى من الممكن أن يعزز معيشة سكان المنطقة ويوفر الطاقة لنمو أوروبا وآسيا. إن أثر هذه الموارد على المصالح التجارية للولايات المتحدة والسياسة الخارجية لها أيضًا مهم. فبدون تسوية سلمية للصراعات فى المنطقة، فإنه من غير المحتمل أن يتم بناء أنابيب البترول والغاز عابرة الحدود. نحن نطالب الإدارة والكونجرس بإعطاء دعم قوى إلى الأمم المتحدة لقيادة عملية السلام فى أفغانستان.

إن مساعدة الولايات المتحدة فى تطوير هذه الاقتصاديات الجديدة ستكون ضرورية وحيوية لنجاح المشروعات. نحن نشجع برامج المساعدة الفنية القوية فى كل مكان فى المنطقة. نحن أيضًا نطالب بسحب أو إلغاء القسم ٩٠٧ من مرسوم دعم الحرية. هذا القسم يقيد بشكل ظالم مساعدة الحكومة الأمريكية إلى حكومة أذربيجان ويقيد نفوذ وتأثير الولايات المتحدة فى المنطقة.

إن تطوير طرق تصدير ذات كفاءة ومربحة، لموارد وسط آسيا الهائلة هى مهمة هائلة ولكنها ليست مستحيلة. وهذا قد تم إنجازه من قبل. الممر التجارى، طريق الحرير الجديد، الذى يمكنه ربط عرض آسيا الوسطى بالطلب.. بالشكل الذى يجعل آسيا الوسطى مرة ثانية مفترق الطرق بين أوروبا وآسيا. ■

ترجمة: جمال عمر

عـودة «اقتصـاديـات الكسـاد»

محمود عبد الفضيل

اعتقد الكثيرون أن «عصور الكساد» قد ولت إلى غير رجعة، وأن السياسات الاقتصادية قادرة على وقف الانزلاق نحو أوضاع «الكساد» شديدة الوطأة. وإذا بشبح الكساد يطل برأسه من جديد في اليابان في التسعينيات وبلدان آسيا منذ عام ١٩٩٧ ومؤخراً في الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ٢٠٠٠



[١]

عندما داهم «الكساد الكبير» العالم خلال عامي ١٩٢٩ - ١٩٣٠، لم تكن الأطر النظرية للتحليل الاقتصادي السائدة آنذاك ملائمة لتحليل ظاهرة الكساد وسبل الخروج منه. وفي ظل هذه الظروف، كانت عملية كتابة جون ماينارد كينز - الاقتصادي البريطاني الكبير - لمؤلفه الهام «النظرية العامة للتوظف وسعر الفائدة والنقود» (١٩٣٦)، الذي أحدث ثورة في أدوات التحليل الاقتصادي الكلي. عملية صراع شاقة - حسب وصف «كينز» نفسه - في مقدمة كتابه.

إذ اضطر «كينز» إلى التمرد على المقولات الرئيسية السائدة في التحليل الاقتصادي آنذاك حول «البطالة الاختيارية» للعاطلين عن العمل. أي أنهم «عاطلون» باختيارهم لأنهم يرفضون العمل عند المستوى السائد للأجور. وكذلك كان لابد له من الهجوم على القبول العام بقانون «ساي» للأسواق الذي كان يزعم أن «العرض يخلق الطلب الخاص به». لأنه وفقاً لهذه الرؤية، فإن «نظام الأسواق» يعتبر مزوداً بآلية «التصحيح الذاتي». وهي خاصية أشبه بجهاز «الترموستات» (Thermo-stat)، الذي يوجد في الأجهزة الكهربائية لضبط درجة الحرارة، فلا تزيد على ولا تقل عن «المستوى التوازني» المطلوب، دون أي تدخل من الخارج.

ولذا فإن صدمة «الكساد الكبير» قد ساعدت على انطلاق «الثورة الكينزية» في تحليل وفهم «اقتصاديات الكساد»، وبالتالي فتح الطريق المسدود أمام سبل العلاج. وفي المقابل، فإن فترة «ما بعد الحرب العالمية الثانية» وبدء عمليات «إعادة الإعمار الواسعة» في البلدان الأوروبية، قد أبعدت إلى حد كبير شبح «الكساد» على النحو الدرامي الذي شهدناه في الثلاثينيات من القرن العشرين. وأصبحت «الاقتصادات الرأسمالية» في البلدان الغربية المتقدمة تشهد مجرد هزات محدودة، وخلال فترات قصيرة نسبياً زمنياً، أطلق عليها تعبير «الانكماش الاقتصادي»، وهو التعبير المقابل لمصطلح (Recession) باللغة الإنجليزية.

ويجدر بنا هنا أن نفرق بهذا الصدد بين ثلاثة تعبيرات (أو مصطلحات) يجري استخدامها بشكل «تبادلي»، وعلى نحو غير دقيق في الكتابات الاقتصادية المتداولة باللغة العربية حول «الأزمات الاقتصادية». إذ نجد أن مصطلحات «الكساد»، و«الركود»، و«الانكماش» تكاد تستخدم لتوصيف نفس الظاهرة تقريباً، بينما الدقة العلمية تستدعي عدم الخلط بين تلك المصطلحات.

فمصطلح «الكساد» (Depression) يعني حالة التدهور الحاد في مستويات النشاط الاقتصادي وأوضاع التشغيل والتوظف، وهو أشد وطأة وأطول زمناً من حالة «الانكماش الاقتصادي» (Recession) التي تشير إلى حالة من الإبطاء في مستويات النشاط الاقتصادي أقل حدة وأقصر زمناً. بينما مصطلح «الركود» (Stagnation) يجب أن يقتصر استخدامه لتوصيف الأوضاع

The Return of Depression Economics

(عودة اقتصاديات الكساد)

Paul Krugman

W:W Norton & Co, 1999.

الاقتصادية التي تتسم بعدم الحركة، أي انعدام «التوسع» أو «الانكماش» في مستويات النشاط الاقتصادي على مدار الزمن. وبطبيعة الحال، تختلف درجات «الانكماش» و«الكساد» الاقتصادي، حسب درجة الحدة وطول استمرار الظاهرة.

وفي ظل هذه الخلفية، يجيء مؤلف «بول كروجمان»، أحد أبرز وألمع الاقتصاديين الأمريكيين المجددين والمبدعين، «عودة اقتصاديات الكساد» (The Return of Depression Economics)، الصادر عام ١٩٩٩، ليعيد إحياء النقاش حول «آليات الانزلاق نحو حالات الكساد» بعد موجات من الرواج والازدهار الاقتصادي التي سادت في بلدان أوروبا وآسيا الناهضة والولايات المتحدة. فلقد اعتقد الكثيرون أن «عصور الكساد» قد ولت إلى غير رجعة، وأن السياسات الاقتصادية قادرة على وقف الانزلاق نحو أوضاع «الكساد» شديدة الوطأة. وإذا بشبح الكساد يطل برأسه من جديد في اليابان في التسعينيات وبلدان آسيا منذ عام ١٩٩٧ ومؤخراً في الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ٢٠٠٠.

فلقد عاشت الولايات المتحدة الأمريكية، خلال التسعينيات حالة من الاسترخاء والشعور المبالغ فيه بأن «الرواج والازدهار الاقتصادي»، الذي صنعه ما سمي «بالاقتصاد الجديد»، القائم على نشاط شركات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وكذا الأرباح الهائلة التي حققتها الاستثمارات الفردية والمؤسسية في أسواق المال من خلال الأدوات والمشتقات المالية الجديدة، قد أبعدت عنها «شبح الكساد» تماماً. بل لقد ظهرت موجة من الكتابات تبشر بانتهاء ما كان يسمى «الدورة الاقتصادية» (Business Cycle)، أي تناوب فترات «الرواج» و«الكساد» في الاقتصادات الرأسمالية المرتكزة إلى «آليات السوق».

ولعل أهم ما كتب في هذا المجال مقال منشور بمجلة (Foreign Affairs) التي تصدر في واشنطن في يوليو ١٩٩٧، عنوانه «نهاية الدورة الاقتصادية». وفي غضون الشهر نفسه، نشرت مجلة (Wired)، المعروفة باتجاهاتها الليبرالية في أمريكا، مقالاً آخر بعنوان: «الرواج الطويل: تاريخ للمستقبل» (The Long Boom: A History of the Future) وفحوى كلا المقالين أن قضايا «الكساد» و«الركود»، قد غدت من قضايا الماضي، ويجب تدريسها والإشارة إليها كمجرد درس من دروس التاريخ الاقتصادي البعيد.

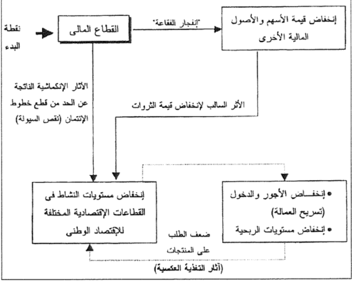


[٢]

لعل أهم مظاهر ومؤشرات الكساد تتجلى في انخفاض ملحوظ في «مستويات النشاط الاقتصادي» في القطاعات المختلفة، ولا سيما قطاع المال، والبناء والتشييد، وقطاع الخدمات، وبعض فروع قطاع الصناعة التحويلية. وينعكس ذلك بدوره في عدد من المؤشرات:

شكل «١»

دينامية العلاقة بين «القطاع المالي» و«القطاع العيني» في ظل ظروف الانكماش والكساد



المصدر: من تصميم المؤلف.

* انخفاض مستوى المبيعات والأرباح.
* ارتفاع أعداد «العمال المسرَّحين».
* انخفاض الدخول من الأعمال والأجور.
* ارتفاع عدد الإفلاسات و«الإغلاق» المؤقت للمنشآت.
* ارتفاع حجم «المخزون السلعي» الراكد.
* عدم القيام باستثمارات جديدة.

ولا شك أن تلك الأوضاع تؤدي إلى مزيد من الانكماش نتيجة انخفاض مستوى «التوقعات» وشيوع النظرة التشاؤمية للمستقبل. وتعود جذور «اقتصادات الكساد» إلى عدد من المسببات تؤدي إلى الدخول في دائرة الكساد رويداً رويداً. إذ عادة ما تسبق مرحلة السقوط في الكساد، وجود حالة من الرواج المصطنع تسمى «اقتصاد الفقاعة» (The Bubble Economy)، تغذيها موجة من المضاربات الكبيرة، ولا سيما في مجال:

* المضاربات العقارية.
* المضاربات في بورصة الأوراق المالية.

وعادة ما يرافق ذلك المغالاة في عمليات الإقراض والاقتراض، وما يصاحبها من المجاملات لكبار المقترضين، دون ضمانات كافية أو تدقيق في أنشطة الاستثمار التي يقومون بها في ظروف «الرواج». إذ إنه في الوقت الذي تدقق فيه البنوك مع صغار المقترضين حول الضمانات، وطبيعة الأنشطة التي يرغبون في تمويلها، يتم الاكتفاء بالنسبة لكبار المقترضين «بالسمعة في السوق»، ومدى قوة النفوذ السياسي في البلاد. ولذا هناك العديد من الأسئلة التي لا تطرح أصلاً عن منح القروض الكبيرة (راجع: كروجمان، ص ٨٨). وكان هذا النوع من الممارسات شائعاً في بلدان كثيرة وأخذ أبعاداً خطيرة في «تايلاند» و«إندونيسيا»، مع بداية النصف الثاني من التسعينيات.

وعندما وقعت الواقعة، وانفجرت «الفقاعة».. انهارت قيم الأصول المالية (الأسهم والسندات)، وقيمة العملة المحلية إزاء الدولار في «أسواق الصرف الأجنبي»، الأمر الذي أدى إلى إفلاس العديد من الشركات التي كانت تستثمر أموالها المقترضة في عمليات تشييد وبناء دور السكن الفاخرة والأبراج العالية. وكنتيجة لذلك، بدأت «خطوط الائتمان» الداخلي والخارجي تنقطع، وأخذت الأزمة تستفحل، والانكماش الاقتصادي تزداد حدته.

وعندما تحتدم الأزمة، وتمسك بخناق الاقتصاد الوطني، تختلط «أزمة السيولة» «بأزمة الانكماش الاقتصادي»، يغذي كل منهما الآخر. وتبدأ الثقة تهتز بالمستقبل، وتنخفض توقعات الربحية.. مما يؤدي إلى مزيد من الانكماش في حجم الاستثمارات الجديدة، وترتفع معدلات تسريح العمالة، على النحو المبين في الشكل (١).

ويلاحظ أنه في الفترة التي تسبق تعمق الأزمة، يبدأ رجال الأعمال وكبار المضاربين في الاقتراض «بالعملة المحلية» وتحويلها على الفور إلى «دولارات ونقد أجنبي» للاستفادة من فروق الأسعار في المستقبل، نظراً للتدهور المتوقع في قيمة «وسعر صرف» العملة المحلية إزاء الدولار وغيرها من العملات الأجنبية. كما يبدأ تهريب «رؤوس الأموال» للخارج. ويشير التاريخ المالي الحديث إلى أنه كلما بدأت العملة المحلية تضعف في «سوق الصرف الأجنبي»، تتعاظم هجمات المضاربين (Speculative Attacks) بلا هوادة، مما يؤدي إلى مزيد من التدهور وفقدان الثقة في العملة المحلية «كمخزن للقيمة».

[٢]

يشير «كروجمان» في الفصل الأخير من كتابه إلى أنه تعتبر المرة الأولى منذ جيلين أن يصبح القصور في جانب الطلب والإنفاق (الطلب الداخلي والطلب الخارجي على الصادرات) المصدر الرئيسي للطاقات العاطلة في المصانع وعدم التشغيل لقوة العمل في الولايات المتحدة الأمريكية، عند نهاية التسعينيات. ويعترف «كروجمان» بأن الاقتصاديين المحترفين من أبناء مهنته (كما هو الحال بالنسبة «لراسمي السياسات») لم يكونوا مستعدين للتعامل مع تلك الأوضاع الجديدة، حيث كان التركيز في التحليل الاقتصادي خلال العقود الماضية على جانب العرض في الاقتصاد الوطني (The Supply side) أي مدى قدرة الاقتصاد على الإنتاج، من ناحية، وعلى مرونة الأسعار والأجور لإجراء عمليات التصحيح اللازمة، من ناحية أخرى، دون أدنى تدخل من جانب راسمي السياسات لإدارة جانب الطلب في الاقتصاد الوطني.



ويعترف «كروجمان» أن سياسات إدارة الطلب «ذات الصبغة الكينزية»، التي اعتبرها البعض من مخلفات الماضي، هي التي يجب أن يعتد بها الآن عندما يقترب الاقتصاد الوطني من «عتبة الكساد» (أو الانكماش الاقتصادي). ولذا فإن مجرد الارتكان إلى السياسات النقدية (Monetary Policies) التي ترتكز إلى تخفيض «أسعار الفائدة» لا يؤدي بالضرورة إلى الخروج من حالة الكساد. وانظروا إلى حالة اليابان خلال التسعينيات، فرغم التخفيضات المستمرة في «سعر الفائدة» الذي كاد يقترب من الصفر، لم تفلح تلك السياسات حتى الآن في إخراج اليابان من دائرة الانكماش الاقتصادي.

وبهذا الصدد، ينتقد «كروجمان» الدفاع الدوجماتي عن «حرية الأسواق» في ظروف الكساد والأزمات. إذ إن المطلوب هو إيجاد حلول لمشاكل «قصور الطلب» و«سوء توزيع الدخول»، والاعتراف بحدود «آليات السوق» في حل تلك المشاكل. و يشن «كروجمان» هجوماً حاداً على تلك الدوائر التي تعلق مسئولية «الأزمات الاقتصادية» على بعض العوامل العارضة دون النفاذ إلى جوهر المشكلة. ومثال ذلك الحديث عن سوء إدارة بنوك اليابان، أو فساد حاكم إندونيسيا السابق، أو ارتفاع «عجز الموازنة» في البرازيل (ص ١٥٨). ويشبه الموقف بحالة طريق كثرت فيه حوادث السيارات، فإذا بالمحققين يهتمون بقضايا جانبية مثل: تعاطي بعض السائقين الخمر، أو أن إطارات السيارات لم تكن جيدة، وغير ذلك من العوامل الثانوية، دون الاهتمام بدراسة خصائص وتضاريس الطريق ذاته الذي تسير عليه تلك السيارات! وهكذا فإن العيب أحياناً يكمن في «النظام الاقتصادي» ذاته.

وفقاً «لكروجمان»، ليس هناك روشتات جاهزة لعلاج الأزمات الاقتصادية في كل

البلدان وكل الظروف. فـإذا لم يسـتـجب «الاقتصاد المريض» للعلاج لابد من تغيير الدواء. ويرى «كروجمان» أن توصيات صندوق النقد الدولي، التي تبناها أيضاً عدد من الاقتصاديين في البلدان النامية، حول تخفيض عجز الموازنة العامة للدولة من خلال زيادة الضرائب وخفض النفقات العامة كإجراء من أجل استعادة الثقة، عادة ما يؤدي إلى تعميق الأزمة ويطيل أمد الكساد. ولعل حالة الأرجنتين تمثل برهاناً ساطعاً على مصداقية ما يقوله «كروجمان». فعندما أصر «صندوق النقد الدولي» على ضرورة الوصول بعجز الموازنة إلى الصفر، وسايرهم في هذا المنهج وزير الاقتصاد المخلوع «دومينجو كافالو»، انتهى الأمر بتعميق الأزمة الاقتصادية والاجتماعية وحدوث الانفجار على النحو الذي شهدناه في منتصف ديسمبر ٢٠٠١ ومازالت الأزمة مستمرة.

ويسخر «كروجمان» في نهاية مؤلفه من هؤلاء الاقتصاديين وراسمي السياسات الذين لا يريدون بذل الجهد الكافي لفهم الواقع بعيون جديدة فاحصة، بعيداً عن النظريات والمبادئ التي تقادمت مع مرور الزمن. ويقول إن تلك الحالة الذهنية «الجامدة» هي التي تعيق اكتشاف الحلول المبتكرة والعلاج الناجع لمشاكل «اقتصادات السوق».



[٤]

حالات «الانهيار» الاقتصادي و«الذوبان المالي» (The "Meltdown Case"):

يؤدي انهيار الثقة في الوضع الاقتصادي عامة إلى هروب الأموال الأجنبية والمحلية (ولا سيما «الأموال الساخنة» والودائع السائلة). وأحياناً يكون خروج الأموال «الوطنية» قبل «الأجنبية»، نتيجة حالة «الذعر المالي» التي تنتاب الجميع. بل يمتد «الذعر المالي» إلى أبناء الطبقة الوسطى التي تشعر بالخوف وعدم الاطمئنان إلى المستقبل، وهي تخشى أكثر ما تخشاه تآكل القيمة الحقيقية لمدخراتها، وانخفاض قيم الأصول التي في حوزتها (أراضي - مباني - أصول مالية)، وكذلك تقلص فرص العمل وصعوبات الحفاظ على مستويات معيشتها في المستقبل. ولعل «الأزمة الأرجنتينية»، تمثل حالة نموذجية بهذا الصدد.

فلقد عانت «الأرجنتين» خلال الأعوام الأربعة الأخيرة من أزمة اقتصادية خانقة. ورغم أن الرئيس الأرجنتيني «دي لروا» كان محل إعجاب دوائر المال في «وول ستريت»، إلا أنه فشل في إنقاذ ثالث أكبر اقتصاد في أمريكا اللاتينية، كما عصفت الأزمة الاقتصادية في الأرجنتين بثلاثة وزراء للاقتصاد خلال عام واحد، كان آخرهم وأهمهم «دومينجو كافالو».

وعندما اندلعت المظاهرات وموجة العنف في البلاد يومي ١٩ و٢٠ ديسمبر، كانت «الأرجنتين» على شفا الإفلاس الاقتصادي على الصعيدين الداخلي والخارجي. وقد تمثلت أهم عناصر الأزمة الاقتصادية والاجتماعية في الأرجنتين فيما يلي:

* عدم القدرة على دفع أقساط ومستحقات «الدين العام الخارجي» الذي بلغ ما يربو على ١٦٠ بليون دولار، ووصلت الأرجنتين إلى حافة «التوقف عن الدفع».
* التوقف عن دفع المرتبات والأجور والمعاشات لعدة شهور، مما أدى إلى ضائقة مالية كبيرة للجمهرة العظمى، من كاسبي الأجور وأرباب المعاشات.
* تزايد المخاطر التي تحيط بمدخرات «الطبقة الوسطى»، نتيجة احتمالات «فك الارتباط» بين «البيزو» (العملة الوطنية الأرجنتينية) والدولار الأمريكي، وبالتالي احتمالات تخفيض قيمة العملة المحلية إزاء الدولار. هذا بالإضافة إلى القيود المفروضة على السحب النقدي من الحسابات الجارية لدى البنوك (في حدود ألف دولار في الشهر)، وما يؤدي إليه مثل هذا الإجراء من آثار نفسية كبيرة وقلق حول المستقبل تغذيه الشائعات.
* تدهور الأحوال المعيشية للطبقات الشعبية، نتيجة ارتفاع «معدلات البطالة» (١٨٪)، وازدياد «معدلات الفقر» و«التهميش الاجتماعي».

وهكذا تفاعلت كل هذه العناصر لصناعة الأزمة الاقتصادية والاجتماعية الشاملة في الأرجنتين (راجع الشكل «٢»).

ونتيجة لذلك، فقد اندلعت المظاهرات في الأحياء الفقيرة في العاصمة الأرجنتينية، ثم انضم إليها الآلاف من أبناء «الطبقة المتوسطة» في المدينة. ولعل من أكثر التعبيرات بلاغة عن حالة السخط التي كانت تسود صفوف المتظاهرين، وتناقلتها «وكالات الأنباء»، ما جاء على لسان طبيبة متظاهرة أمام مبنى الحكومة: «لقد سئمنا الفساد والجوع والفقر». ولكن أخطر العبارات - في تقديرنا - هو ما جاء على لسان شابة عاطلة عن العمل وأم لطفلين، إذ قالت «لقد فقدنا الأمل بمستقبلنا ومستقبل أولادنا». إذ إنه عندما تدفع الأوضاع قسماً كبيراً من السكان إلى فقدان الأمل والثقة بالمستقبل، تكون الأزمة ليست مجرد «أزمة اقتصادية»، بل «أزمة اجتماعية ومعنوية» في آن واحد. وهنا مكمن الخطورة.

وخلال الفترة السابقة للاضطرابات في الشارع الأرجنتيني، دار صراع عنيف في البرلمان والمجتمع حول «الموازنة الجديدة» للدولة، وعلاقة ذلك بالحصول على الشريحة الأخيرة من قرض تم الاتفاق عليه مع «صندوق النقد الدولي» ويبلغ حجم هذه الشريحة ١،٣ بليون دولار. فمع تعمق حالة الكساد الاقتصادي في البلاد، انكمشت الإيرادات الضريبية، وتصاعدت أعباء خدمة الدين العام الخارجي والداخلي. ودار الجدل حول كيفية سد «فجوة عجز الموازنة» التي تصل إلى أربعة بلايين دولار (٤ بلايين دولار) فحيث ليس هناك مجال لرفع حجم الإيرادات الضريبية نتيجة حالة الانكماش والكساد التي تعم الأجزاء والقطاعات المختلفة للاقتصاد الوطني، ولم يبق هناك مجال للحركة سوى تخفيض حجم وبنود الإنفاق العام. الأمر الذي سوف يزيد الأمور سوءاً، من خلال تعميق أزمتي «السيولة» و«الركود». هذا ناهيك على تعميق «حجم البطالة» وزيادة معدلات الذين يسقطون يومياً خلف «خط الفقر».

وهكذا تعمق «المأزق الاقتصادي والمالي» للحكومة الأرجنتينية. فمن ناحية، إجراء مزيد من التخفيض لحجم الإنفاق العام ورفع معدلات الضرائب يضر بالتوازنات الاجتماعية في البلاد. ومن ناحية أخرى، فإن عدم تخفيض «عجز الموازنة» الذي يرتضيه «صندوق النقد الدولي» (كبير الدائنين الدوليين للأرجنتين) يؤدي إلى عدم دفع الشريحة الأخيرة من القرض الكبير الذي حصلت عليه الأرجنتين خلال عام ٢٠٠١، إذ إن الحكومة الأرجنتينية كانت تعتمد بصفة أساسية على تلك الشريحة لدعم احتياطياتها من النقد الأجنبي وتفادي التوقف التام عن سداد أقساط ديونها الخارجية المستحقة.



وهكذا وقعت «الحكومة الأرجنتينية» بين شقي الرحى، بين طبقات اجتماعية عريضة لا تحتمل المزيد من التقشف والانكماش الاقتصادي، وبين «صندوق نقد دولي» متشدد في شروطه، أوقف دعمه لوزير الاقتصاد الأرجنتيني «كافالو» الذي كان يسير معظم الوقت على روشتة توصيات الصندوق للخروج من الأزمة.

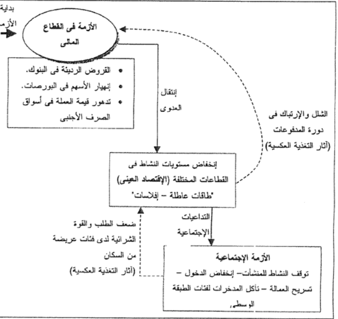
ولكن ذلك المشهد الأخير للأزمة لم يكن سوى نتاج تراكمات طويلة من السياسات والممارسات التي امتدت خلال حقبة التسعينيات، التي بدأت خلال فترة رئاسة الرئيس البيروني الأسبق «كارلوس منعم» واستمرت مع قدوم الرئيس المخلوع - تحت ضغط الشارع - «فرناندو دي لاروا». فلقد تمثلت تلك السياسات في سياسات الخصخصة العشوائية، والاعتماد المفرط على رؤوس الأموال الأجنبية (لا سيما الأموال «المضاربة» و«الجوالة»). هذا بالإضافة إلى استناد معظم الجهد الإنمائي للبلاد إلى الاقتراض الخارجي. كذلك أدى ربط قيمة «البيزو» بالدولار الأمريكي، ومساواة أحدهما بالآخر، إلى أن دفع الاقتصاد الأرجنتيني ثمناً غالياً نتيجة ارتفاع قيمة «العملة الأمريكية».

يضاف إلى كل هذا ممارسات وتراكمات اتسمت بالفساد المالي والإثراء غير المشروع، يقابلها إهمال في مجال معالجة الاختلالات الاجتماعية الناجمة عن ارتفاع معدلات البطالة في صفوف أبناء الطبقات الشعبية والوسطى، وارتفاع معدلات الفقر، وتوسع أنشطة «القطاع غير الرسمي» وازدياد درجات التهميش الاجتماعي. كل هذا حدث في دولة كانت تزهو إلى عهد قريب - بأن لديها أكبر «طبقة متوسطة» في أمريكا اللاتينية.

إذ إن العديد من تلك السياسات الاقتصادية تبدو ناجحة عند بداية تطبيقها في السنوات الأولى، ولكن تؤدي في نهاية المطاف إلى أن يرى الناس «النفق عند نهاية الضوء» بدلاً من «رؤية الضوء عند نهاية النفق»!

شكل «٢»

مراحل انتقال الأزمة من قطاع لآخر داخل الاقتصاد والمجتمع



المصدر: من تصميم المؤلف.

"الخــــاتـــــون" أو "المـــــس بيـــــل"

المرأة التى أنشأت دولة ونصَّبت ملكًا!

عـبـدالرحـمـن منيف

■■ مع مطلع القرن العشرين، أصبح واضحًا أن الإمبراطورية العثمانية لم تعد قادرة على البقاء طويلاً، فقد أنهكها الضعف، وعم فيها الفساد، وتفجرت داخلها المشاكل التى طالما حاولت إبعادها أو تأجيلها، وازداد تربص الطامعين والخصوم بها، يطوقونها من كل جانب ويحكمون عليها الحصار، لكى يرثوها ويتقاسموا تركتها، خاصة بعد أن تم الاتفاق بين هؤلاء على المناطق والنسب.

الأقاليم العربية، والتى هى جزء من الإمبراطورية العثمانية، كانت أيضًا فى حالة مخاض أقرب إلى الغليان، فهى تحاول انتزاع استقلالها وحريتها من الإمبراطورية العجوز، وتحاول فى نفس الوقت أن تستقر، أو بالأحرى أن تكتسب تأييد الدول الأوروبية، لكن هذه الدول التى تتظاهر بالدعم والتأييد كانت لها نوايا مختلفة، إذ بالإضافة إلى كونها دولاً استعمارية لا تخفى، لذلك لم تهمل الأقطار العربية ولم تتركها. كانت لها بالمرصاد، وتنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض عليها، ومن أجل ذلك استعدت مبكرًا واتفقت فيما بينها على كيفية تقاسم تركة الامبراطورية، وقد أوفدت لهذه الغاية أعدادًا كبيرة من رجالها وعيونها تحت تسميات متعددة إلى أقاليم الإمبراطورية، خاصة الأقطار العربية، تجوس خلالها وتدرس أوضاعها تمهيدًا لاختيار أفضل الطرق والوسائل من أجل وضع اليد عليها، والسيطرة على خيراتها، وإخضاع شعوبها.

من جملة الذين أوفدوا لهذه الغاية ومنذ وقت مبكر: المبشرون والباحثون عن الآثار، والدارسون للغات الشرقية، والمهتمون بالقبائل والعشائر والعلاقات الاجتماعية والأقليات. وكان عدد غير قليل من هؤلاء الموفدين مرتبطين بدوائر المخابرات ويعملون بتوجيهها.

ضمن الذين أوفدوا للمنطقة العربية فى بداية القرن العشرين، وكلفوا بمهمات ونشاطات تركت بصمات واضحة استمرت آثارها لفترة طويلة: لورنس وفيلبى والمس بيل.

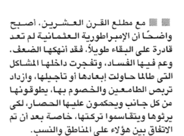
جيرتروود بيل من أوراقها الشخصية، ١٩١٤-١٩٢٦

تأليف: إليزابيث بيرجوين

ترجمة: نمير عباس مظفر

تقديم: الأستاذ الدكتور عبد الرحمن منيف

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر



وإذا كان لورنس قد نال الشهرة الأوسع بين الثلاثة، ونسبت إليه الأهمية الأكبر، وكتب الكثير عن شخصه ودوره، بما فى ذلك نشاطه العسكرى فى اقتحام المواقع ونسف الجسور والسكك الحديد أثناء الحرب العالمية الأولى، مما عجل فى سرعة انحسار نفوذ الإمبراطورية العثمانية عن بلدان المشرق العربى، وخاصة أن الأعمال ترافقت مع وعود وعهود قدمها لورنس باسم الإمبراطورية البريطانية باستقلال البلدان العربية ووحدة أراضيها حالما تنتهى الحرب بانتصار الحلفاء، فإن ما عزز صورة لورنس أكثر: الحياة الرومانسية التى عاشها، وما تخللها من مغامرات واعتقال وهروب، ثم تلك العزلة التى لجأ إليها فى أعقاب الحرب، بما فى ذلك تغيير اسمه وشخصيته، وأخيرًا النهاية الفاجعة التى انتهى إليها. لقد صور كل ذلك فى مجموعة من الأفلام والكتب صدرت عنه، وجعلت منه الأكثر شهرة، بحيث تركزت عليه وحده الأضواء، وعزيت إليه المآثر والخوارق فى الوقت الذى غُيِّبت أو اختصرت أدوار الآخرين.

صحيح أن فيلبى لا يعتبر مغبونًا من حيث المعرفة والشهرة قياسًا للورنس، إذ عاش فترة طويلة، وكتب فى حقول شتى، كما لعب أدوارًا بالغة الأهمية، وإن ظل أكثرها طى الخفاء، خاصة فى بلدان الجزيرة العربية، ومع ذلك بقى أقل بريقًا من لورنس، واقتصرت المعرفة به على أوساط دون غيرها.

الأقل شهرة بين الثلاثة، ولا تكاد تعرف خارج العراق، وفقط ضمن أوساط محدودة وضيقة، هى جيرترود بيل، أو مس بيل، حسب التسمية الأكثر تداولاً، أو الخاتون كما كان يطلق عليها عامة الناس.

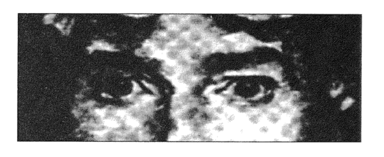


تعتبر المس بيل شخصية فذة ودورها بالغ الأهمية، إن لم يكن حاسمًا، فى الصيغة التى أخذتها المنطقة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى من حيث العلاقة مع بريطانيا، ومن حيث نوعية الحكم الذى قام فى العراق.

بدأت علاقة المس بيل بالمنطقة مع بداية القرن العشرين تقريبًا، وقد تزامنت ولورنس فى البحث عن الآثار، وكانت البداية فى كركميش، عند مدخل نهر الفرات إلى سورية، وظل الاثنان معًا فترة من الزمن، ثم افترقا كل إلى مكان وكل لمهمة، إذ أخذت المس بيل تجوب المنطقة من أقصاها إلى أقصاها بحجة البحث عن الآثار مرة، وبحجة دراسة لهجات البدو مرة، وبحجة الإلمام بأصول القبائل وبأنسابها ثالثة، إلى أن وصلت إلى أعماق الجزيرة العربية فى محاولة لاستمالة عدد من شيوخ البدو إلى جانب الحكومة البريطانية وتعبئة عواطف العرب ضد الأتراك، الأمر الذى أدى إلى احتجازها فى حائل من قبل ابن رشيد الذى كان مواليًا للأتراك، إلى أن تم الإفراج عنها وترحيلها من الجزيرة العربية. أما لورنس فقد اختص بالهاشميين ووثق العلاقة معهم حتى نهاية الحرب.

مغامرات خطرة ومتعددة اندفعت إليها مس بيل، وقد دفعت ثمنًا لقاء ذلك. فهى لم تهدأ ولم تتوقف عن التجوال والإقامة لفترات غير قصيرة فى بلدان المنطقة، مما ساعدها أكثر من قبل على إتقان العربية، وإلى التعرف على كثيرين ممن يعملون فى الحقل العام، إضافة إلى الإلمام أكثر بتفاصيل المنطقة ومشاكلها، إلى أن انتدبت للعمل فى العراق أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان من حسن حظها أن تعمل مع واحد من أبرز صانعى خرائط المنطقة: السير بيرسى كوكس.

من خلال وصولها إلى العراق، وبحكم ما تملك من معرفة وإمكانيات ومواهب، ونظرًا للموقع الذى احتلته، بدأت رحلتها الكبرى، وبدأت فى صناعة الممالك وتنصيب الملوك واختيار الوزراء وتقسيم النفوذ والأرزاق، بحيث لم تمر فترة إلا وأصبحت الخاتون التى تضفى على الأشخاص والأشياء شكلها وأهميتها، وأصبح التقرب إليها وكسب ثقتها ورضاها هدفًا لكثيرين من الساسة والمتطلعين إلى المناصب والنفوذ، أما من يعاديها أو يختلف معها، حتى لو كان من أبناء جلدتها والعاملين معها فى الإدارة، فإن



من خلال وصولها إلى العراق، وبحكم ما تملك من معرفة وإمكانيات ومواهب، ونظرًا للموقع الذى احتلته، بدأت رحلتها الكبرى، وبدأت فى صناعة الممالك وتنصيب الملوك واختيار الوزراء وتقسيم النفوذ والأرزاق

مصيره النفى أو النقل، إن لم يكن أكثر من ذلك!

من جملة الذين تعرضوا لانتقامها، بعد أن وقفوا فى وجهها: طالب النقيب ثم فيلبى. فالسيد طالب، زعيم البصرة غير المنازع، والذى كان طامحًا لاحتلال عرش العراق، باعتباره واحدًا من أبناء البلاد، وكان حظه فى الوصول إلى العرش لا يقل عن فيصل بن الحسين، لما يتمتع به من قوة وعلاقات تأييد، إضافة إلى دعم بعض رجال الإدارة الإنجليزية من العاملين فى إدارة الانتداب، لم يلبث هذا السياسى الطموح، بعد أن عبّر عن نواياه وهيأ نفسه بحكم الاتصالات التى كان يجريها بهدف تسلم العرش، أن تعرض لغضب المس بيل، خاصة أن الأخيرة أخذت تميل إلى تزكية فيصل، وتحاول إبعاد أو إضعاف المرشحين الآخرين. ورغم أن طالب النقيب كان يشغل مركزًا حكوميًا رفيعًا فى الحكومة الانتقالية التى كان يرأسها عبد الرحمن النقيب، إلا أن غضب الخاتون عليه أدى إلى تجريده من منصبه أولاً، ثم إلى نفيه بعد ذلك للهند، وظل فى المنفى بضع سنين، جرى خلالها تنصيب فيصل ملكًا على العراق، وإقامة صيغة جديدة للحكم، بحيث أصبحت الدنيا حين عاد طالب من المنفى، بعد أن سمح له بذلك، مختلفة تمامًا عما تركها، وهكذا طواه النسيان وانتهى دون أن يخلف أثرًا. لقد حصل كل ذلك لأن المس بيل أرادت له هذا المصير!

أما المستر فيلبى الذى كان أحد صانعى السياسة البريطانية فى المنطقة العربية، خاصة فى العراق، وقد شغل مناصب عديدة فى إدارة الانتداب، بما فيها وكيل وزارة الداخلية، وكان بمثابة الوزير الفعلى، وكانت له خطوط كبيرة فى الارتقاء وإشغال مناصب أكبر، إلا أن خلافه مع المس بيل، خاصة فيمن يجب أن يشغل عرش العراق، إذ كان فيلبى ميالاً إلى طالب النقيب وغير مقتنع بفيصل الأول، أدى هذا الاجتهاد ثم الخلاف بين الاثنين، إلى أن تتبنى الإدارة، المندوب السامى فى العراق أولاً، ثم مؤتمر القاهرة الذى انعقد لدراسة هذه القضية وقضايا المنطقة الأخرى، وأخيرًا موقف لندن، أدى ذلك لإقرار موقف المس بيل، فى أن يكون فيصل ملكًا، مما أغضب فيلبى ثم إلى اعتكافه، الأمر الذى حمل الإدارة على نقله إلى مكان آخر وتكليفه بمهمات أخرى.

إن فيلبى، الرجل القوى، والبالغ الذكاء والمكر، لم يستطع أن يقف فى وجه جيروود بيل. والإدارة البريطانية بعد أن فاضلت بين الاثنين، وأيهما أكثر ملاءمة للعراق، لم تتردد فى اختيار المس بيل، أو الخاتون، وفى تزكية مواقفها وخياراتها. ووجدت الإدارة لفيلبى مكانًا آخر فى الجزيرة العربية؛ ولقد أثبتت الأيام أن هذا الاختيار كان يتوخى مصلحة الإمبراطورية البريطانية بالدرجة الأولى، إذ أعطى كل من الاثنين، فيلبى والمس بيل أفضل ما لديه فى المكان الذى اختير له.



لقد تمت الإشارة إلى هذين المثلين للتدليل فقط على مدى قوة المس بيل، وما تتسم به من عناد وبعد نظر، إضافة إلى الإصرار وقوة المثابرة.

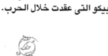
إن فترة الحرب العالمية الأولى ثم ما تلاها، من أصعب الفترات وأكثرها دقة وخطورة، إذ لم تكن مجرد انتصار لطرف وهزيمة لآخر، يمكن بعدها أن تسوى الأمور بين الطرفين تبعًا لموازين القوى، وأن يقدم المهزوم تنازلات ترضى الطرف المنتصر. كما لم تكن تلك الحرب مجرد سقوط إمبراطورية، مثلما حصل لإمبراطوريات أخرى، وإنما كانت بمثابة زلزال كبير غيّر وجه العالم، وأعاد رسم خرائطه، بحيث أصبح عالم ما بعد الحرب مختلفًا نوعيًا عما قبلها، وكانت حصة البلاد العربية من هذا التغيير، من حيث التجاذبات وإعادة النظر والمساومات، أكبر من الآخرين، نظرًا للطبيعة الخاصة لهذا القطر.

فالعراق من ناحية الموقع الجغرافى، الخاص والدقيق، ومن ناحية التنوع الاثنى والمذهبى الذى ميز ساكنيه، ونظرًا لوجود ثروة نفطية مؤكدة فى أراضيه، وتنافس القوى الكبرى على هذه الثروة، نظرًا للتنوع فى طبيعة تكوينه الاجتماعى، من حيث غلبة البداوة على القاطنين فيه أو المهاجرين إليه من ناحية العدد والعقلية، ولعدم وجود الحد الأدنى من القواسم المشتركة بين زعمائه وقياداته السياسية التقليدية، على الصيغة السياسية التى يجب أن تسود، كل ذلك جعل التعامل معه فى أعقاب الحرب شائكًا وعرضة لإعادة النظر مرة بعد أخرى.

وبريطانيا التى كانت تتطلع منذ وقت مبكر لأن تضع يدها على العراق، نظرًا لأهميته، ولأنه محطة رئيسية فى الطريق إلى الهند، ما كادت تنتصر فى الحرب، وتفرد سيطرتها على هذا البلد حتى واجهتها مجموعة من المشاكل والثورات، جعلت موقفها دقيقًا وصعبًا، إذ لم يهدأ الداخل، ولم يقر لها منافسوها بما كانت تطالب به أو تريده، وهكذا اندلعت الثورات الواحدة بعد الأخرى، فما كادت ثورة النجف تنتهى حتى انفجرت ثورة العشرين، وما كادت ثورات العشائر العربية تهدأ أو تتوقف فى وسط العراق وجنوبه حتى هبت حركات التمرد والعصيان فى الشمال.

وما أن توصلت إلى صيغة أولية لنظام الانتداب، وتشرع فى إقامة الإدارة، حتى قوبلت برفض واسع، الأمر الذى اضطرها لإعادة النظر والتفكير بصيغة أكثر قبولاً وثباتًا، وكان أن توصلت إلى اعتبار النظام الملكى هو الصيغة الملائمة، لأنها تساعد على الاستقرار!

توصلت بريطانيا إلى هذه القناعة فى الوقت الذى عزلت فرنسا فيصل بن الشريف حسين عن عرش سورية واضطرته إلى المغادرة، مستغلة بقاء لواء الموصل موضوعًا للمساومة، لأن هذا اللواء بقى بين تركيا التى تطالب به، وبين بريطانيا التى تريد جعل تبعيته للعراق كى تتمكن من السيطرة على ثروته النفطية، وبين فرنسا التى تعتبره جزءًا من سورية اعتمادًا على اتفاقيات سايكس بيكو التى عقدت خلال الحرب.



فى ظل أجواء بهذا التعقيد والتداخل قدر لاثنين أن يلعبا دورًا حاسمًا فى تقرير مصير العراق، من حيث ضبط أوضاعه ورسم حدوده وتحديد نوعية وشكل الحكم الذى يجب أن يقوم فيه. كان هذان الاثنان هما السير بيرسى كوكس وجيرترود بيل.

صحيح أن الحاكم الفعلى، هو المندوب السامى بيرسى كوكس، صاحب التجربة الطويلة فى المنطقة، والذى يتمتع بصفات مميزة إداريًا وسياسيًا، إلا أن وجود الخاتون، المس بيل إلى جانبه كان ضروريًا، وإليها يعود الفضل الكبير فى ترتيب الكثير من الأمور، إذ بالإضافة إلى معرفتها بالعربية وبأنساب القبائل وطبيعة العلاقات التى تربط أو تباعد بين الشيوخ والمناطق، فقد كانت تملك قدرة فائقة على العمل، وعلى إقامة العلاقات، وحل المشاكل والمنازعات، وترتيب الأمور التى يصعب على غيرها القيام بها.

ومن المفيد أن نتوقف هنا عند موضوع تنصيب فيصل بن الحسين ملكًا على العراق، نظرًا لأهمية الموضوع أولاً، ولأنه يمثل نموذجًا لقابليات هذه المرأة، ثانيًا.

حين بدا واضحًا أن الميل هو اختيار النظام الملكى العراقى، كان هناك عدد كبير من المرشحين لتسلم العرش، وكان لكل واحد من هؤلاء المرشحين منطقته ومؤيدوه والمتحمسون له، وكان له أيضًا من يؤيده، أو يتظاهر بذلك، من رجال الانتداب، وكان المسألة مسابقة لإشغال منصب يعتقد كل من المرشحين أنه أهل لذلك!

من هؤلاء المرشحين: عبد الرحمن النقيب، أبرز رجال بغداد ونقيب أشرافها، وقد اعتمد عليه الانتداب فى تشكيل أول حكومة بعد الحرب، وكان موضع ثقة المندوب السامى والإدارة البريطانية، ولولا تقدمه فى العمر وثقل حركته ومرضه لكان حظه فى الوصول إلى العرش كبيرًا.

أما طالب النقيب فكان أبرز زعماء البصرة وأكثرهم نفوذًا وحركة، ولولا تسلطه وغروره، وميله إلى الرفض والعناد، لاستطاع أن يقيم علاقات ودية مع إدارة الانتداب، لكن هذه العلاقات كانت دومًا عرضة للتارجح والخطر، مما أدى إلى عدم الثقة به وإلى استمرار الخشية منه.

وكان ضمن المرشحين للعرش أيضًا: هادى باشا العمرى، أحد زعماء مدينة الموصل، ثم حاكم إمارة المحمرة، الشيخ خزعل، وحاكم نجد عبد العزيز بن سعود، ووالى بشت كومه الإيرانى، كما رشح أيضًا الأغاخان لعرش العراق، وأضيف إلى المرشحين فيصل بن الحسين الذى عزل عن عرش سورية وأخذ يبحث عن عرش بديل، وكان المستر تشيرشل يميل إلى فيصل أكثر من أى مرشح آخر لأن «تنصيب فيصل على عرش العراق سيزيد من سيطرة الحكومة البريطانية عليه وعلى أبيه شريف مكة(1)».

وهكذا، وما أن انعقد مؤتمر القاهرة، والذى تقرر فيه تبنى فيصل كى يكون ملكًا، حتى اندفعت المس

بيل إلى تنفيذ هذا القرار الذى لاقى هوى كبيرًا فى نفسها، باعتبارها أكثر المتحمسين لفيصل، وأول مرشح لهذه المهمة.

وكما أشرنا توًا، كان المتحمسون والمرشحون للعرش كثيرين، وكانت الفروق بين واحد وآخر قليلة، وهنا ظهرت قوة المس بيل ومكرها، فى إسقاط المرشحين المنافسين لفيصل الواحد بعد الآخر. لجأت إلى المداهنة والإقناع مما حمل أكثر المرشحين حظًا ـ عبد الرحمن النقيب ـ على الانسحاب. ولجأت إلى القوة والحزم فى إبعاد ثم نفى طالب النقيب، الذى يشكل خطورة حقيقية على فيصل سواء انتخب ملكًا أو بقى فى العراق، لما له من تأثير وعلاقات. كما لجأت المس بيل إلى شيوخ العشائر وإلى رجال الدين، واستعانت بزعماء المدن والأحياء من أجل تنظيم حملة تطالب بتنصيب فيصل ملكًا للعراق، وهكذا استطاعت بكثير من الحركة والجهد والتنظيم أن تجعل فيصلاً الأوفر حظًا فى تولى العرش، مستغلة البيت الذى ينتسب إليه، والصفة التى كانت له، والتأييد الذى حصل عليه نتيجة التحريض والتعبئة، بما فى ذلك الصحافة التى أنشئت من أجل الدعاية له وإقناع الرأى العام بجدارته.

إن الجهد الذى بذلته المس بيل، والذى تناول أدق التفاصيل، منذ لحظة وصول فيصل إلى البصرة، ثم مروره أو توقفه فى بعض المحطات، وزياراته للأماكن المقدسة، وفى أوقات معينة، وأيضًا ما يجب أن يقوله للناس وما يقدمه من وعود، وحتى الملابس التى يحسن ارتداؤها، واختيار الأشخاص الذين يفترض أن يرافقوه ويحيطوا به، والآخرين الذين يفترض أن يتعاون معهم فى إدارة البلاد، وكان فى مقدمتهم جعفر العسكرى ونورى السعيد.. إن هذه التفاصيل التى أشرفت عليها المس بيل بنفسها، والقوى التى حشدتها من أجل ذلك، جعلت اختيار فيصل ملكًا تحصيل حاصل، كما يقال، إذ أصبح فى نهاية المطاف المرشح الوحيد للعرش، بعد أن نُسّق الآخرون بأشكال شتى، وأصبح الاستفتاء الذى تمت الدعوة إليه إقرارًا بالأمر الواقع، وتثبيتًا لحقيقة أمست لا تحتاج سوى بعض الشكليات كى تكتمل.



هناك مقدار كبير من «الحقائق» الصغيرة التى تشير إليها المس بيل من أجل إنجاز هذه المهمة، مهمة اختيار النظام الملكى للعراق، ثم تسمية فيصل للعرش، وكل هذه التفاصيل تؤكد أن مهمة كهذه ليس من السهل القيام بها فى بلد مثل العراق، وفى فترة مليئة بالاضطرابات والصراع، وكان من الممكن أن تطيح بها أو تغيرها، لولا قوة هذه المرأة وإصرارها، وأيضًا قدرتها على تكييف الأمور لتحقيق هذه الغاية، والمرونة التى كانت تتمتع بها من أجل تطويع أقوى الرجال وأكثرهم عنادًا وصلابة.

إن اختيار رجل مثل فيصل لعرش العراق أمر بالغ الصعوبة، إن لم يكن مستحيلاً، لولا المس بيل. فهذا الرجل الذى لم تمض سوى شهور على هزيمته فى سورية من قبل الفرنسيين، والذى يتصف بروح رومانسية من حيث النظرة والعلاقات، والتصرفات أيضًا، وكان موضع منافسة من بعض أفراد أسرته وخصومه، وكان غريبًا عن هذا البلد، إذ لم يره من قبل، ولا يعرف إلا القليلين من رجاله، فقط أولئك الذين التحقوا بالثورة العربية حين أعلنها والده الشريف حسين عام ١٩١٦، ورافق بعضهم فيصلاً فى مسيرته نحو دمشق، وأصبحوا جزءًا من العناصر التى يعتمد عليها فى إدارة السياسة والحرب حين تولى حكم سورية، ثم حين واجه الفرنسيين، ولما هزم عاد أغلب هؤلاء إلى الأماكن التى انطلقوا منها، أو هاموا على وجوههم باحثين عن مكان أو صيغة حياة جديدة.

إن أوضاعًا مثل هذه، ورجالاً كهؤلاء كانوا بحاجة إلى قوة استثنائية لكى تعيد تنظيم أوضاعهم وأدوارهم، وما كان هذا الشىء ليحصل، ووفق هذا النسق لولا المس بيل.

لم يقتصر الأمر على ذلك، إذ ما كادت تبرز المصاعب والتحديات، من حيث إقامة المؤسسات واختيار الرجال لإدارتها، وما كاد ينشأ الجيش وما يقتضيه من رجال وأسلحة وأموال، وما أن ظهر عجز الموازنة وتزايد هذا العجز سنة بعد أخرى، وما أن بدأت التمردات، خاصة فى الشمال، وإعلان عدد من المتنفذين عصيانهم على الحكومة المركزية، حتى بدأ يظهر ضعف فيصل وتردده، بل وظهر ميله إلى اعتزال السلطة والتخلى عن هذه المهمة الصعبة، لولا المس بيل وعدد من الرجال الذين اندفعوا للمساعدة وتحمل الجزء الأكبر من الأعباء، مما أدى إلى تماسك فيصل من جديد ومتابعة المسيرة.



إن اختيار فيصل لعرش العراق أمر بالغ الصعوبة، إن لم يكن مستحيلاً، لولا المس بيل. فهو الرجل الذى لم تمض سوى شهور على هزيمته فى سورية من قبل الفرنسيين



ومن أجل مساندته والوقوف بقوة إلى جانبه، أخذت المس بيل تتولى الكثير من الأمور اليومية والخاصة، بما فى ذلك العناية بالصحة والأسرة والإشراف على الزوجة والأولاد فى اختيار المربيات والملابس، وفى تعليم اللغات، وغير ذلك الكثير من الشئون، بحيث لم يعد من الممكن الاستغناء عنها أو الاعتماد على غيرها. وكان فيصل الأول يلجأ إليها فى الصغيرة والكبيرة، إلى أن وصل الأمر إلى حد الالتباس فى العلاقة، وتشير المس بيل ذاتها إلى عدد من الحالات حين كان فيصل الأول يستدعيها إلى مزرعته الخاصة فى خانقين ليناقش معها بعض الأمور، أو لكى يفضى إليها بمكنونات عقله وقلبه!



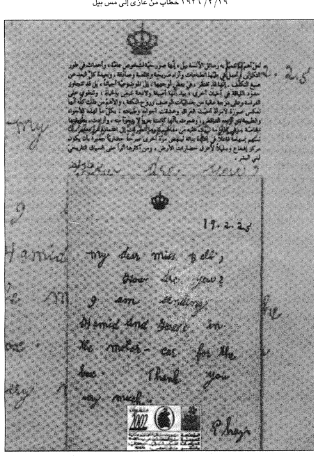
أما الرجال الأساسيون فى بناء الدولة وإدارتها، فكانت علاقة المس بيل بأغلبهم وثيقة، وكانوا يسترشدون برأيها ويتشاورون معها فى معظم القضايا، أما أولئك الذين اختلفوا معها أو لم يمتثلوا لتوجيهاتها فقد انتهى بهم الأمر إلى المقاطعة والإبعاد، وإن حاول فيصل الأول، بعد أن تمرس بالحكم، أن يبقيهم فى الظل فترة من الزمن ثم يستعيدهم مرة أخرى!

وما يقال عن إنشاء الدولة العراقية واختيار نظام الحكم، يمكن أن يقال أكثر منه عن إنشاء المؤسسات والإدارات، وقد ساهمت المس بيل، مع رجالها الأقربين، فى إقامة الكثير منها، وارتبط بعضها باسمها حتى بعد أن لم تعد موجودة، ولعل إنشاء المتحف العراقى وزيادة عمليات التنقيب عن الآثار، من جملة ما أولته عناية خاصة، وربما بدافع الحنين إلى العمل الأول الذى بدأت فيه علاقتها بالمنطقة!

حتى الطقس القاسى فى العراق خلال فصل الصيف، والذى يضيق به ساكنوه من أبنائه، ويهرب منه الأجانب استطاعت المس بيل احتماله والتكيف معه، وقد صدف أن مرت أصياف عديدة غادر خلالها معظم الأجانب، خاصة من الإنجليز، البلاد فى الوقت الذى بقيت راضية وليست مرغمة، وتعودت ثم ألفت هذا الجو، بحيث اعتبرت العراق موطنًا ثانيًا لها.

حتى فيصل الذى كان يقضى أجازاته الصيفية فى شمال البلاد أو يسافر إلى أوروبا، هربًا من الحرارة الشديدة فى بغداد، اعتبرت

١٩/ ٢/ ١٩٢٦ خطاب من غازى إلى مس بيل



19.2.26

My dear Miss Bell,

I am sending

the motor-car

Thank you

very much.

المس بيل الحصول على مراوح كهربائية هبة لا تقدر لمواجهة هذا الجو، ولا تفضل مكانًا آخر على بغداد، وإذا حاولت أن تمنح نفسها بعض الامتيازات تتبرد في مياه دجلة أو تذهب بإجازة قصيرة إلى إيران، وخلال الإجازة تشتغل في جمع المعلومات واكتشاف بعض المناطق! وتمارس هواية صيد الطيور والحيوانات، وحين تتعب من كل ذلك تعود لممارسة هوايتها الأولى: البحث عن الآثار.

هكذا كانت المس بيل خلال إقامتها في العراق، أما في أوقات الفراغ فكانت تزور مناطق العراق المختلفة، وتدون المعلومات والملاحظات، وتقيم الصلات مع المتنفذين ووجوه المناطق، وتبعث إليهم بعد فترة بالأعطيات والهدايا لتأكيد روابط الصداقة وتمتينها، ولكي تطلب منهم المساعدة أو أداء بعض الخدمات في وقت لاحق.

ربما لم تتناول عشاءها بمفردها إلا مرات نادرة، فقد كانت دائمًا داعية أو مدعوة، ومع عدد مختار ومحدود من الأصدقاء، وفي مثل هذه الليالي كان يجري الكثير من البوح وكشف الأسرار واستعمال لغة خاصة في الخطاب، ومن جملة ما تشير إليه في إحدى رسائلها أن نوري السعيد، الذي كان يزورها كثيرًا، كان يحب شرب الخمر وأن تكون له علاقات نسائية واسعة!

هذا غيض من فيض، كما يقال، عن عالم المس بيل، فالذي أشير إليه هوجزء مما دونته في رسائلها إلى أبيها وإلى زوجة أبيها، ثم إلى بعض الأصدقاء، وهذا ما يستدعي التوقف طويلاً عند السفر الكبير والمهم، والذي يضم قسماً غير قليل من الرسائل التي بعثت بها إلى أبيها، وكانت بمثابة مرآة لحياتها ولأدق التفاصيل المتعلقة بقيام هذه الدولة، وما رافق قيامها من صراع وملابسات وأدوار.

قبل الإشارة إلى ما بذله الأستاذ نمير مظفر من جهد ممتاز ليس فقط في ترجمة هذا النص الذي يجب أن يكون موجوداً كمرجع في العربية، وإنما في الحواشي والمعلومات الإضافية التي استخرج الكثير منها من بطون الكتب أو استقاها من أقرباء وأصدقاء الذين مر ذكرهم في الرسائل ثم في الكتاب.

قبل الإشارة لابد من التوقف وتأمل الطريقة التي اعتمدتها المس بيل في التعبير عما تريد قوله، إذ رغم مقدرتها التحليلية في الكتابة، وقد أثبتت ذلك في غير هذا السفر، حين كتبت عن القبائل وعن الآثار، وفي التقارير العديدة المنسوبة إليها، إلا أن اعتماد الرسائل هنا كوسيلة للتعبير يضفي عليها صفة حميمية، ويجعلها أقرب إلى النفس، كما أن لها صفة الخصوصية التي تجعلها بوحاً أو أقرب إلى البوح والأسرار، خاصة أنها موجهة إلى أقرب الناس إليها، وهم موضع أسرارها والذين يمكن أن يؤتمنوا على أدق القضايا وأكثرها خفاء، وربما خطورة، مما يحولها في النهاية إلى وثائق بالغة الأهمية.

لم تلجأ المس بيل في هذه الرسائل إلى الكتابة التاريخية، أي إلى التحليل وإيراد المستندات والوثائق، كما لم تلجأ إلى كتابة الذكريات في وقت متأخر، أي بعد انقضاء الأحداث وظهور النتائج، ولم تلجأ أيضاً إلى استعادة ما وقع لكي تظهر مقدار ما تتمتع به من الحكمة وبُعد النظر.

لقد لجأت إلى كتابة الرسائل إلى ذويها، وإلى أصدقاء تعرف مدى اطلاعهم وتدقيقهم، وتاليا إمكانية تساؤلهم ومحاسبتهم، مما يجعلها موضوعية وذاتية في آن واحد، فهي تورد المعلومات والوقائع أولاً ثم تعلق عليها، وكلا الأمرين يحتاج إلى دقة من ناحية، وإلى جراة من ناحية ثانية، أي أنها لا تخشى من إيراد الوقائع، ولا تخشى من إبداء الرأي فيها، كل ذلك في وقته وبكل ما يحيط به من ملابسات.




هذا النوع من الكتابة شديدة الخصوصية، ولا يخلو من مكر أيضاً، فالكاتب يتناول قضايا عامة بالغة الحساسية، ويعرف أن لهذه القضايا انعكاسات كثيرة مباشرة وتاريخية، لكن باعتبار أنها لن تنشر سريعاً، أغلب الأحيان، ولأنها وصلت إلى أيد يفترض تقديرها لمدى الدقة والأهمية فلابد أن يتاح لها رؤية النور ذات يوم، وأن تعيد رسم المشاهد والوقائع بحيث تبرز الحقيقة، وينال كل انسان ما يستحقه، من وجهة صاحب العلاقة.

إن هذا السفر يحوى قسماً غير قليل من الأوراق الشخصية لجيرتروود بيل، ويتناول الفترة من ١٩١٤، تاريخ وصولها إلى العراق، وإلى ١٩٢٦ تاريخ وفاتها في بغداد، وإذا كانت اليزابيث بورغوني قد تكلفت من الجهد في ترتيب هذه الأوراق ووضعها في إطار يساعد القارئ الأجنبي، الانجليزي بشكل خاص على التعامل معها واستعادة وجه من أبرز وجوه الاستعمار البريطاني، فإن من حق القارئ العربي أن يتعامل مع هذه الأوراق بطريقة مختلفة، وأن يعيد ترتيبها ضمن رؤية تاريخية مغايرة، لأن كثيرين من بقايا العاملين في الحقل العام عاصروا أو عاشوا بعد المس بيل، ثم الأجيال التي تلتهم، يتذكرون، ربما بشكل مشوش، الكثير من الوقائع والأسماء، بحيث إن القراءة المدققة تستطيع أن تعيد المشاهد والوقائع لا وفقاً لما تشتهي أو ترغب، وليس امتثالاً لإرادة المس بيل أو الزاوية التي رأت بها الأحداث، وإنما اعتماداً على المقارنة والوقائع والحقائق التي أتيحت من مصادر أخرى متعددة.

ولابد من كلمة أخيرة: إن كم المعلومات المتوفرة عن المس بيل، أو الخاتون، وفي هذا المصدر أو مصادر أخرى، تحرض العاملين في السينما والمسرح والتليفزيون على التعامل مع هذه الشخصية، ويمكن من خلال إعادة «قراءتها» أن نستعيد مرحلة تاريخية كاملة، وأن ندرك بوضوح أكبر كيف تنشأ الدول وكيف تقام الممالك، وكيف ينصب الملوك.. وأخيراً كيف يعزلون.

هـامـش

(١) عبد الرحمن البزاز، العراق من الاحتلال إلى الاستقلال، بغداد ١٩٩٧.

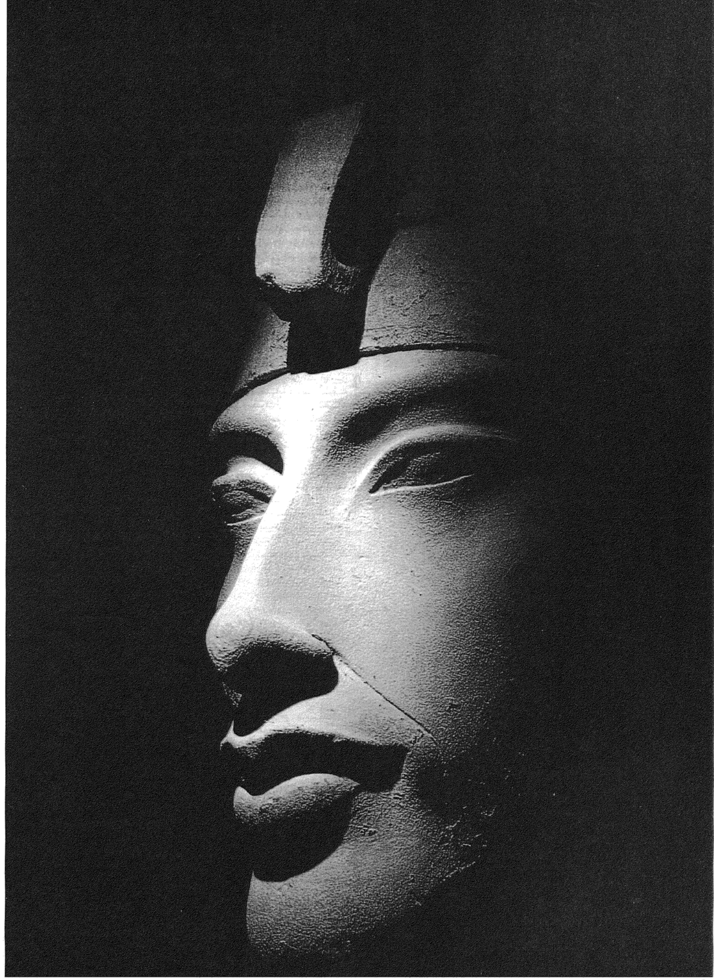
كتاب الزاوية

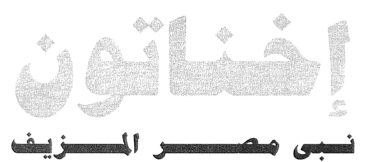
من أشعار ناظم حكمت

حول القرن العشرين

أنا من أبناء القرن العشرين،
وفخور بأنني كذلك.
يكفيني
أن أكون حيث أنا في القرن العشرين
أن أكون في جبهتنا نحن،
أقاتل من أجل عالم جديد . . .
- حبيبتي . .
بعد قرن من الزمان . . .
- لا! بل أبكر من ذلك
رغم كل شيء.
إن هذا القرن العشرين،
المحتضر هنا، المولود هناك،
قرني العشرين هذا بأيامه
الأخيرة الجميلة،
سيكون بالتأكيد باهراً ومغموراً بالشمس
مثل عينيكِ أنت يا خديجتي، يا حبيبتي،
(إنه ليلي الرهيب الذي سينتهي
بالكثير من الصخب والضجيج مع انبلاج الفجر).

١٩٤٨





نبى مصر المزيف

أحمد عثمان

■■ استردت مصر قاعدة لتابوت فرعوني يوم ٢٧ يناير الماضى، كانت مفقودة من متحف القاهرة منذ ٧١ سنة. وسافر الدكتور جاب الله على جاب الله أمين عام المجلس الأعلى للآثار إلى ألمانيا لإحضار القاعدة، مع غطاء التابوت الذى أقرضته مصر للعرض فى متحف ميونخ. إلا أن التابوت الذى خرج من القاهرة باسم سى منخ كارع، عاد إلينا باسم آخر. هو إخناتون. وبينما يثير التساؤلات حول اعتبار التابوت العائد لإخناتون، هو أن هذا الملك كان فى الثالثة والثلاثين من عمره عند نهاية حكمه، بينما أكد الأطباء أن التابوت لشاب لا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره. وبينما استقر رأى الخبراء على أن التابوت صنع لامرأة. قد تكون مريت آتون ابنة إخناتون الكبرى. فإن الغالبية العظمى من علماء المصريات استقرت على أن المومياء التى عثر عليها داخل التابوت، كانت لسى منخ كارع، أخو إخناتون وزوج ابنته.

ويبدو أن الآثار المصرية بإعلانها هذا قد قبلت النظرية التى تقول بإن إخناتون كان مريضًا بمرض خلقى، يعيق نموه الطبيعي ويجعله أصغر من سنه. فعندما قام جرافتون إليوت سميث وديرى أستاذى التشريح بكلية طب القصر العينى عند العثور على التابوت، بالكشف على الجمجمة، تبين لهما أنها لرجل لا يزيد عمره على ٢٣ أو ٢٤ سنة، نظرًا لأن ضروس العقل بدأت فى الظهور. ولم يكن نموها اكتمل بعد عند الوفاة. ثم جاء هاريسون أستاذ التشريح بجامعة لفربول البريطانية ففحص الجمجمة مرة أخرى فى سبعينيات القرن الماضى، وأكد ما سبق أن توصل إليه جرافتون وديرى من قبل، وهذا هو ما أكدته كذلك صور أشعة إكس التى أُخذت للجمجمة في ثمانينيات القرن الماضى. إذ مات سى منخ كارع فجأة أثناء وجوده فى طيبة، فلم يجد الكهنة سوى هذا التابوت ليضعوه فيه.



إلا أن هناك بعض علماء المصريات الذين يذهبون إلى أن إخناتون كان مصابًا بمرض خلقى منذ الولادة، يعيق نموه الطبيعي. وهؤلاء ينكرون أن تكون مومياء المقبرة ٥٥ لسى منخ كارع، ويصممون على أنها لإخناتون نفسه. فهم يقولون بأن هذا الملك كان مريضًا بمرض جنسى غريب جعله مثل الخنثة وصار جسده يشبه أجسام النساء. فمنذ ستينيات القرن الماضى تعرض إخناتون إلى كل أنواع التفسيرات الشاذة، فى كتابات علماء المصريات الذين يستندون إلى فرضيات وهمية يقيمونها. فرغم أن فحص جمجمة المقبرة ٥٥ بين بوضوح أن صاحبها لم يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر عند الوفاة بسبب عدم تكامل ضرس العقل. فقد صمم بعض رجال المصريات. وعلى رأسهم الأسكتلندى سيريل أولدريد. على أنها لإخناتون الذى بلغ ٣٣ عند نهاية حكمه. وحتى يبرز أولدريد هذا التناقض، زعم أن إخناتون كان مصابًا بعدة أمراض سلالية، تؤدى إلى بطء فى النمو وتجعل صاحبها من المعاقين. فقد تكهن «سيريل أولدريد» الذى عمل مديرًا لمتحف أدنبرة بأسكتلندا، بأن إخناتون كان مصابًا بمرض اسمه «فروليتش»، يجعله غير قادر على ممارسة الحياة الجنسية أو الإنجاب. ولما كان من المستحيل فحص جسد الملك حيث لم يتم العثور عليه حتى الآن، اعتمد أولدريد فى استنتاجه على الشكل الفنى الغريب الذى ظهر فى أيام إخناتون، والذى يتميز بالمبالغة فى تقديم الملامح، واعتبروه يمثل حقيقة جسدية للملك نفسه.

وفى كل الأحوال، فإن علماء المصريات أبدوا اهتمامًا كبيرًا بإخناتون وحياته وأفكاره الدينية وصراعه مع الكهنة المصريين، والكتاب الذى نعرض له من أحدث المؤلفات في هذا المجال. ■

شروقك جميل فى أفق السماء
يا آتون الحى، بداية الحياة
عندما تصعد فى أفق السماء الشرقى
تملأ الأرض بجمالك
فأنت جميل، عظيم، تتألق عاليًا فوق الأرض

■■ بعد نهاية حكم إخناتون أخفى خصومة الرعامسة سيرته عن الناس، ومنعوا ذكر اسمه فى كل أرض مصر وحذفوه من قائمة الملوك، فجعلوا يشيرون إليه بلقب «ساقط أخيتاتون (العمارنة)». وظل الناس قرونًا طويلة لا يعرفون شيئًا عن إخناتون إلى أن عثر رجال الآثار على بقاياه فى تل العمارنة قبل ١٥٠ عامًا. ومنذ أن تم الكشف عن آثار العمارنة، أصبح إخناتون وابنه توت عنخ آمون أهم ملوك مصر القديمة، يثير اسمه الحب فى قلوب الملايين والبغض فى قلوب الآخرين.

Akhenaton: Egypt's False Prophet
(إخناتون: نبى مصر المزيف)
Nicholas Reeves
London, Thames & Hudson, 2001.

فى كتابه «إخناتون نبى مصر المزيف» الذى صدر بلندن فى أبريل الماضى، حاول نيكولاس ريفز تقديم تفسير جديد لحياة الملك إخناتون. وريفز واحد من علماء المصريات فى بريطانيا، مسئول عن مشروع البحث عن مقابر ملوك العمارنة الذى يجرى منذ أكثر من عامين فى وادى الملوك. ومع أن ريفز مشهور بدقته فى تجميع المعلومات من أحدث المصادر المتوفرة، إلا أن قدرته على تقديم تفسير مقنع لثورة العمارنة، كانت ضعيفة. فرغم اعترافه بأن إخناتون الذى عاش منذ حوالى ٣ آلاف و٥٠٠سنة نادى بعبادة إله واحد لا صورة له ولا تمثال، ينكر ريفز القيمة الفكرية والدينية لهذه الثورة. وسبب هذا الإنكار ـ فى رأى الكاتب ـ أن الملك المصرى لم يقم دعوته على رؤية فلسفية أو روحية، بل كان هدفه استخدام الصراع الدينى من أجل تحقيق مصالحه السياسية. وعلى هذا فهو يرى أن محاربة إخناتون لكهنة آمون، كان بقصد القضاء على نفوذهم السياسى وليس بسبب رفضه لتعدد الآلهة. وهو يصر على أن إخناتون منع عبادة الآلهة المتعددة ونادى بإله واحد ليس هناك من يمثله، حتى يحصل على سلطة هذا الإله فى علاقته مع شعبه. ويؤكد ريفز تفسيره هذا فيقول: «كانت الآتونية نفسها فى الممارسة، لا تزيد عن كونها أداة نفعية (براجماتية) للسيطرة السياسية».



ويتحدث الكاتب البريطانى عن فترة حكم إخناتون، فيصفها بأنها: «رغم بدايتها الطيبة، تداعت بسرعة إلى كيان مشوه واضطهاد دينى واسع الانتشار، تهتك لخراب طائش وانهيار اقتصادى شبه كامل. ولا يمكن مسامحة إخناتون على (هذه) الأحداث: قسوة لم تحدث فى مصر قبل أو منذ (عصر) العمارنة. (وتم القضاء على العمارنة) كمدينة وكفكرة مجردة وهدمها (بعد نهاية حكمه) ومنعت آثار وجود (هذا) الفرعون بطريقة منظمة. (ولنا أن نتساءل) أى نوع من الرجال كان هذا (الملك)؟

ولفترة طويلة لفت إخناتون النظر (بعد الكشف عن تشابه دعوته) مع عالم اليوم الذى يسوده التوحيد، بسبب إصلاحاته الدينية، ولأن ثورة الفرعون قد فشلت فى النهاية بدا هذا ليؤكد دوره ككاشف قديم لرؤية دينية ـ وسلطة للخير. ومثل هذا الغزل (والمديح) الذى روَّجه جيمس هنرى بريستد (عالم المصريات الأمريكى) و(البريطانى) آرثر ويجال منذ حوالى قرن مضى،



كانت طيبة ـ الأقصر حاليًا ـ هي المركز السياسي والديني لدولة الأرضين المصرية، بينما أقام الملوك قصورهم في مدينة منف بالقرب من سقارة الحالية. ولم يتم بناء قصور ملكية شرق الدلتا، إلا منذ بداية حكم الملوك الرعامسة الذين كونوا الأسرة التاسعة عشرة

وأخذه الباحثون والجمهور بشغف، كان خطأ بالتأكيد أخذ يتغير الآن إلى رؤية أكثر سوادًا. وبالنسبة للأنبياء، يبدو أن إخناتون كان نبيًا مزيفًا عمل كثيرًا لمصلحته السياسية الشخصية».

مولد إخناتون

حدث تغير جوهري في مسار التاريخ المصري القديم، عندما وقع أمنحتب الثالث في حب طاي ـ ابنة وزيره يويا ـ وتزوجها في السنة الثانية لحكمه. إذ أصر أمنحتب الثالث تاسع ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذي حكم مصر حوالي ٣٨ عامًا من ١٤٠٥ قبل الميلاد، على جعل زوجته طاي ملكة على مصر، رغم أن التقاليد المصرية تقضي بأن تكون أخته هي الملكة. فالتقاليد لا تمنع من اتخاذ الملك لأي عدد من الزوجات، إلا أن الملكة ـ التي يخلف أبناؤها أباهم على العرش ـ لابد وأن تكون هي الوريثة الشرعية، أي الابنة الكبرى للملك السابق. وبحسب التقاليد المصرية فإن من يتزوج الابنة الكبرى للملك يصبح له الحق في خلافته على العرش، لذلك كان الأمراء المصريون يتزوجون أخواتهم حتى لا يخرج الملك عنهم. ورغم أن أمنحتب تزوج أخته سيت آمون عند توليه العرش، التي كانت لاتزال طفلة في مرحلة الحضانة عند موت أبيهما تحتمس الرابع، إلا أنه صمم أن تكون زوجته الثانية طاي هي الملكة. ورفض الكهنة قبول قرار الملك، كما رفضوا الاعتراف بالولد الذي تنجبه له طاي ابنًا شرعيًا لآمون. وبالفعل عندما أنجبت طاي ابنها الأول تحتمس ـ والذي عثر على اسمه منقوشًا في مقبرة توت عنخ آمون ـ فإنه سرعان ما اختفى في ظروف غامضة بعد أن عيَّنه أبوه وليًا للعهد، وقالت الشائعات إن الكهنة قتلوه. ولهذا فعندما حملت الملكة للمرة الثانية، كان من الطبيعي أن تصاب طاي بالقلق عند حلول موعد ولادتها.



كانت طيبة ـ الأقصر حاليًا ـ هي المركز السياسي والديني لدولة الأرضين المصرية، بينما أقام الملوك قصورهم في مدينة منف بالقرب من سقارة الحالية. ولم يتم بناء قصور ملكية شرق الدلتا، إلا منذ بداية حكم الملوك الرعامسة الذين كونوا الأسرة التاسعة عشرة. وكان أمنحتب الثالث قد بنى قصرًا صيفيًا لزوجته طاي في مدينة زارو بالقنطرة شرق. وحفر لها بركة للنزهة أمام القصر. ووجد الأثريون عدة نسخ من جعران ملكي أصدره أمنحتب في عامه الحادي عشر، أعلن فيه أنه منح زوجته طاي مدينة زارو هدية لها وحفر بركة بجانب القصر الذي كانت تعيش فيه هناك: «العام ١١، الشهر الثالث للفيضان اليوم الأول.. أمر صاحب الجلالة بعمل بركة لزوجة الملك العظيمة التي تعيش في مدينتها زارو ـ خا».

ابن آمون

وهكذا ولد إخناتون في سنة ١٢ من حكم والده، في المقر الصيفي بمدينة زارو بشمال سيناء. وخافت الملكة طاي على ابنها الذي أخذ اسم أمنحتب مثل والده، أن يقتله الكهنة مثلما فعلوا بابنها الأول، فلم تسمح له طوال طفولته أن يذهب إلى مقر الأسرة في منف. بل أرسلته ليتم تعليمه عند أخيها الأكبر الكاهن «آنن» في معبد رع بمدينة عين شمس، على عكس التقاليد التي كانت تقضي بأن يتم تعليم الأمير في منف مع أولاد النبلاء. وأول ما نسمع عن ابن طاي هو عند وصوله إلى العاصمة طيبة وهو في السادسة عشرة، حيث خصص له أبوه فيلا داخل القصر الكبير الذي بناه في ملقاتا على الضفة الغربية للأقصر. وفي نفس السنة التي وصل فيها إخناتون إلى طيبة ـ عام ٢٨ من حكم أمنحتب الثالث ـ أشرك الملك ابنه معه في الحكم على أنه أمنحتب الرابع. إذ أدرك الملك أنه بعد موته، لن يسمح الكهنة لابنه باعتلاء العرش. ومع أن الملك في مصر القديمة كان مطلق السلطة ـ حيث كان الاعتقاد السائد هو أنه ابنًا للمعبود آمون ـ إلا أنه كان مقيدًا في تصرفاته بالتقاليد القديمة التي كانت تعتبر كدستور غير مكتوب. كان المصريون القدماء يعتقدون بالميلاد المقدس للفراعين. ذلك أنه قبل دخول الملك على زوجته، كان يذهب أولاً إلى المعبد حيث يتم تطهيره بالماء المقدس ثم دهان جسمه بالزيوت والعطور. وفي أثناء ذلك يقوم الكهنة بترتيل بعض الأناشيد الهدف منها دعوة روح آمون للحلول في جسد الفرعون. وعندما يتم ذلك الحلول، يذهب الملك ليدخل على زوجته. وعلى ذلك اعتقدوا أن الابن الذي يولد من هذه العلاقة يصبح ابنًا لآمون. وبحسب الاعتقادات المصرية، فإن آمون يرفض الحلول في جسد الملك لو أن زوجته لم تكن هي الوريثة، الابنة الكبرى للملك السابق. وعلى ذلك فإن ابن طاي لا يعتبر ابنًا لآمون ولا يحق له الجلوس على العرش. ولو أنه أصبح ملكًا فمعنى ذلك هو القضاء على سلالة الأسرة الحاكمة، حيث سيقوم هو بتكوين أسرة جديدة. لكن أمنحتب تجاهل كل هذه التحذيرات وأشرك معه ابن طاي في الحكم، بعد أن زوَّجه «نفرتيتي» ابنته من زوجته الملكية سيت آمون.

رفض الكهنة اعتبار إخناتون ابنا شرعيًا لآمون، واعترضوا على إشراكه في العرش مع أبيه. فرد إخناتون بإنكار سلطة آمون. معلنًا وجود قوة إلهية عليا لإله عالمي هو آتون، الذي اختاره ليجلس على عرش أبيه. وقام الملك الشاب ببناء معبد ملحق بالكرنك لآتون، الذي رمز له بأشعة النور التي تمسك بمفتاح الحياة. ولم يكن هذا في حد ذاته ليثير غضب الكهنة، فقد كان المصريون معتادين على تعدد المعبودات. ولكنه اعتبر أن آتون ـ الذي ليس له صورة أو تمثال ـ هو إله واحد لكل البشر، كما حرم دخول معبده إلا لمن ترك المعبودات الأخرى. وثارت ثائرة الكهنة فلم يتمكنوا من إخفاء مشاعرهم، ووجه البعض منهم عبارات التحدي لأمنحتب نفسه. واضطر إخناتون تحت ضغط أبويه إلى ترك طيبة العاصمة، واختار موقعًا بمحافظة المنيا وبنى فيه مدينة أخيتاتون قبالة مدينة ملوي ـ يعرف الآن باسم تل العمارنة ـ ليعيش فيها هو ومن تبعوه، بعد أن غيَّر اسمه إلى إخناتون. وطالما ظل أمنحتب الثالث على قيد الحياة، كانت سلطة إخناتون محددة بحدود تل العمارنة لا يتعداها. ولكن عند موت أبيه ـ في السنة الثانية عشرة من الحكم المشترك ـ وجد إخناتون نفسه الحاكم الأوحد لكل أرض مصر، وهنا بدأت المشكلة.

آتون الحي

كان مفهوم الإله الذي لا يستطيع الناس رؤية تجسيدًا ماديًا له، جديدًا على عامة المصريين في ذلك الوقت، كما أن الاختلاف بين الشعوب ـ بل بين المدن والقرى ـ في ذلك الوقت، كان يفسر على أساس من اختلاف المعبودات لدى الأقوام المختلفة. فكيف بإله واحد ـ ليس لكل مصر فحسب ـ بل لأرض الشام وأفريقيا كذلك؟ لهذا فلم يتبع إخناتون إلا عدد قليل من مثقفي زمانه. ولكن إخناتون لم يوافق على أن تستمر الأمور كما كانت عليه، وقرر الاعتماد على الجيش لفرض العقيدة الجديدة على شعبه، فعيَّن خاله «آي» مشرفًا على الخيالة وقائدًا للحرس الملكي، في المكان الذي كان يشغله والده يويا. كما كوَّن فرقة عسكرية من بين أبناء الجاليات الأجنبية في مصر لحراسته، وهذا يتضح من رسومات مقابر النبلاء في تل العمارنة. وأرسل جنوده إلى جميع المدن المصرية لإغلاق المعابد ومصادرة أوقافها وتسريح الكهنة. ثم أمر بشطب اسم آمون من جميع النقوش، حتى تلك التي تدخل في تركيب اسم والده «آمون حتب» وكذلك كلمة «نترو» وهي جمع لكلمة «نتر»، بمعنى «معبود». إلا أن الفجوة ظلت كبيرة بين ما ينادي به إخناتون ونخبة من المثقفين الذين تبعوه، وبين ما يؤمن به عامة الشعب في القرى والمدن بعد مضي خمس سنوات من موت أمنحتب الثالث.



وهكذا نرى أن أول من أدرك وحدة الوجود المادي تماثله للوجود الروحي في المصادر التاريخية، هو إخناتون، ونجد وضوح رؤية هذا الملك الدينية، من خلال الأشعار التي كتبها بنفسه والتي وجدت مسجلة فوق جدران مقابر نبلائه بتل العمارنة. هنا إخناتون يتحدث عن آتون باعتباره الإله الواحد الذي صنع كل الوجود، وهو النور (شو) «الإله الذي أنجب نفسه (بنفسه)»، ويخاطبه قائلاً:

شروقك جميل في أفق السماء
يا آتون الحي، بداية الحياة
عندما تصعد في أفق السماء الشرقي
تملأ الأرض بجمالك
فأنت جميل، عظيم، تتألق عاليًا فوق الأرض
تحيط أشعتك البلاد وكل ما صنعت
ورغم أنك بعيد فأشعتك على الأرض
ومن أنك عال فخطواتك هي النهار.

وألغى إخناتون الاعتقاد الديني السابق سواء فيما يتعلق بتعدد الآلهة أو فيما يختص بتجسيد الإله في شكل مرئي، لكنه لم يبلغ طقوس العبادة المصرية القديمة، بل استخدمها في النظام الديني الجديد الذي أقامه. وفي هذا الخصوص يقول سير آلان جاردنر في كتابه عن «مصر الفراعنة»: «يظهر مدى اعتماد (العبادة الآتونية) في شكلها الأول على عبادة عين شمس القديمة ـ ليس فقط من استخدامها لاسم رع هارختي ـ وإنما كذلك لذكرها لمسلته الكبيرة في الكرنك (التي أصبحت بمثابة الحجر المقدس لدى إخناتون).. وكذلك بالنسبة

إلى رئيس كهنة آتون في عام ١٦ ميرى رع، الذى لايزال يحمل لقب (كاهن) عين شمس القديم أعظم العرّافين. وتتبين بصورة مستمرة صعوبة الهرب تمامًا من التقاليد السابقة». (ص٢١٦) ويمضى جاردنر في التعليق على اختفاء أوزوريس من العبادة الآتونية، ومع هذا فإن «طقوس الدفن لاتزال تحتفظ بالكثير من أشكالها القديمة، إلا أن هذه تم تجريدها الآن من معناها السابق». (٢٢٩)



وعلى هذا فإن إخناتون وإن استخدم بعض الطقوس ومظاهر العبادة القديمة، إلا أنه أعطاها دلالة جديدة في معبد آتون، الذى شيده على غرار معبد عين شمس. بل إن غالبية هذه الطقوس قائمة حتى يومنا هذا داخل الكنيسة القبطية المصرية، كما هى لم تتغير. كما استمر إخناتون في استخدام نفس طقوس الدفن الأوزوريسية من حيث بناء المقبرة وتحنيط الجسد ووضع تماثيل الشبه، وما إلى ذلك وإن كان قد قطع كل علاقة لهذه الطقوس بأوزوريس.

فرويد وإخناتون

بعد اكتشاف رجال الآثار لإخناتون والتعرف على تاريخه، انبهر علماء المصريات في النصف الأول من القرن الماضى بحياة إخناتون وتعاليمه، التى وجدوها تعبر عن الفكر الدينى الليبرالى في العصر الحديث. وذهب بعضهم إلى اعتباره أول مفكر متفرد في رؤيته للعالم، في التاريخ البشرى. ثم جاء سيجموند فرويد ـ عالم النفس اليهودى الشهير ـ ليعلن في كتابه الأخير «موسى والتوحيد»، الذى تم نشره في لندن عام ١٩٣٩، عن اعتقاده بأن موسى كان مصريًا وليس عبرانيًا، وأنه كان تلميذًا لإخناتون. لاحظ فرويد وجود تشابه بين قصة ميلاد موسى وميلاد عدد من العظماء في العالم القديم، أمثال «أجاد» الملك الأكادى و«روميلوس» الذى بنى مدينة روما و«أوديب» الذى وردت قصته في الأساطير اليونانية. ففى كل هذه الحالات كان الطفل ـ خوفًا على حياته عند مولده ـ يتم تهريبه من بيت عائلته، ويتولى قوم آخرون تربيته. ثم يعود بعد ذلك إلى عائلته الحقيقية. إلا أن قصة موسى التوراتية تختلف عن تلك القصص في نقطة واحدة، فبينما الطفل في جميع تلك الحالات يولد لعائلة ملكية ويهرب من القصر الملكى لتقوم عائلة فقيرة بتربيته، فإنه في حالة موسى يتم تهريبه من بيت العبرانيين الفقراء الذى ولد فيه وتربى في القصر الملكى. وفسر فرويد هذا الاختلاف بأنه دلالة على تعمد كتبة القصة التوراتية إخفاء الأصل المصرى للبطل الذى كانوا يعتقدون فيه، وجعله عبرانيًا. وأظهر أن كلمة «موسى» التى كانت تستخدم كاسم علم في مصر بمعنى (الابن). توت موسى، رع موسى إلخ، لم تكن كلمة عبرية بل مصرية. وتساءل العالم اليهودى كيف يمكن للأميرة المصرية أن تعرف اللغة العبرية، ثم إنه لكى يعرف معنى الاسم (الذى انتشل من الماء)، يجب أن يكون «موشوى» وليس «موشى».



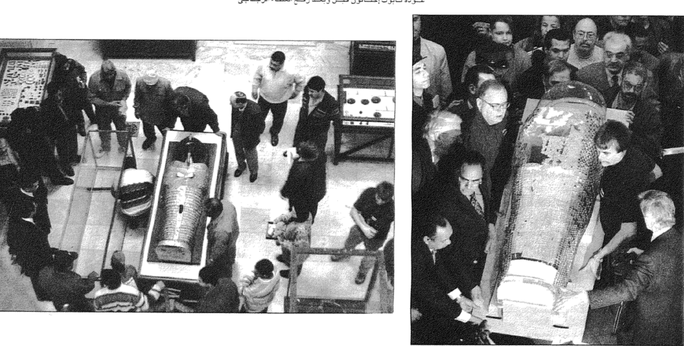
وهذا هو الموضوع الذى أثاره سيجموند فرويد عندما حاول قبيل الحرب العالمية الثانية، التدليل على أن موسى كان مصريًا. فقط لاحظ وجود تشابه بين قصة ميلاد موسى وميلاد عدد من العظماء في العالم القديم. إلا أن قصة موسى تضمنت خروجًا عن سياق الرواية في نقطة هامة. فبينما الطفل في جميع الحالات يهرب من القصر الملكى لتقوم عائلة فقيرة بتربيته، فإنه في هذه الحالة يهرب من عائلة فقيرة لتربية العائلة المالكة داخل القصر الملكى. كما ذهب فرويد إلى أن موسى كان أحد المسئولين في بلاط الفرعون إخناتون يسمى تحتمس، كان نصيرًا للديانة الآتونية. وتقول نظرية فرويد إنه بعد موت الملك اختار تحتمس القبيلة العبرانية التى كانت تعيش شرقى الدلتا لتصبح هى قومه المختار الذين أخذهم إلى خارج مصر في وقت الخروج. ونقل إليهم عقائد ديانة إخناتون التوحيدية.

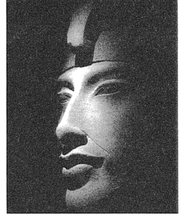
اعتراض فيلوكوفسكى

إلا أن كتاب فرويد أدى إلى تغيير موقف علماء المصريات من الملك المصرى، وتحول غرامهم به بعد الحرب العالمية الثانية إلى عداء صريح ومباشر. وكان إيمانويل فيليكوفسكى أحد علماء النفس اليهود، الذى هاجر من روسيا إلى الولايات المتحدة هو الذى بدأ في سبعينيات القرن العشرين، بمعارضة فرويد والهجوم على إخناتون. وكرّس فيلوكوفسكى حياته في محاولة لإثبات خطأ ما ذهب إليه فرويد بخصوص الملك المصرى، عن طريق إثبات سبق موسى لعصر إخناتون. ثم جاءت المحاولة الأولى لتحطيم شخصية إخناتون، هى التى قام بها الاسكتلندى سيريل أولدريد في كتابه عن إخناتون. فقد حاول تفسير الشكل الفنى الغريب الذى ظهر في أيام حكم العمارنة والذى يتميز بالمبالغة في تقديم الملامح، باعتباره يمثل حقيقة جسدية للملك نفسه. وذهب أولدريد إلى أن إخناتون كان مريضًا بمرض غريب يجعله غير قادر على ممارسة الحياة الجنسية أو الإنجاب. ولما كان من المعروف أن إخناتون أنجب ستة بنات من زوجته، فقد ذهب أولدريد إلى أن هؤلاء لسن من صلب الملك، وإنما من نتاج أباء أمنحتب الذى حل محل ابنه في علاقته بنفرتيتى. وبالطبع فإن مثل هذه الافتراضات لا تستند إلى أى دليل أو قرينة. بل إن أولدريد ـ في نفس هذا الكتاب ـ ذهب إلى أن إخناتون عاشر إحدى بناته جنسيًا وأنجب منها طفلاً مات أثناء ولادته. ولم يكتف أولدريد بهذا، فقال ـ في ذات الكتاب نفسه ـ إن إخناتون كان لديه شذوذ جنسى وكان يعاشر أخاه «سى منخ كارع» جنسيًا. ومنذ ستينيات القرن الماضى تعرض إخناتون إلى كل أنواع التفسيرات الشاذة، في كتابات علماء المصريات الذين يستندون إلى فرضيات وهمية يقيمونها. وتبع غالبية علماء المصريات بعد ذلك، نفس الطريق الذى سلكه الباحث الأسكتلندى ووصل الحد بالباحث الكندى دونالد ريدفورد أن يعلن في كتابه عن إخناتون، أنه لا يكن للملك المصرى إلا الكراهية والاحتقار، مما يتعارض مع تقاليد البحث الموضوعى للتاريخ. هناك من أصر على أن عبادة آتون ليست سوى شكل من أشكال عبادة الشمس. كان «رع» إله الشمس (الذى يطلق عليه كذلك أسماء خبر وآتوم)، معبودًا قديمًا لدى المصريين، أما آتون (آدون أو أدونى في الآرامية والعبرية بمعنى الرب أو السيد) فلم يعبد في مصر لا قبل ولا بعد عصر العمارنة، رمز له إخناتون بالنور «شو» (شعاع) الذى يمنح الحياة للبشر.

من الناحية التاريخية، لم يكن من الممكن إدراك فكرة وحدانية الإله إلا في مصر القديمة، وفي عصر الأسرة الثامنة عشرة بالتحديد؛ ذلك أن الجماعات البشرية الأولى كانت تجعل إلهًا لكل جماعة تعيش في قبيلة أو قرية. وعندما تم توحيد مجموعة من

عودة تابوت إخناتون قبل وبعد رفع الغطاء الزجاجى

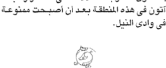




القبائل والمدن، صار معبود الجماعة المسيطرة على الحكم بمثابة إله للمجموعة كلها. ولما كانت مصر هي الأمة الوحيدة التي تم توحيدها في الأزمنة القديمة تحت سيطرة سياسية مركزية واحدة، أصبح هناك معبودًا مشتركًا يؤمن به جميع المصريين، إلى جانب معبوداتهم المحلية. وكان الاعتقاد المصرى القديم هو أن الأرض ملك للإله، يقوم الملك الذى هو ابنه بإدارتها نيابة عنه. وفي أيام الأسرة الثامنة عشرة أصبح آمون معبود طيبة (الأقصر)، أبًا للفرعون وإلهًا لكل المصريين يحكم البلاد باسمه. إلا أن حالة جديدة تمامًا ظهرت بعد ذلك، عندما خرجت الجيوش المصرية إلى بلاد الشام في الشمال وبلاد السودان في الجنوب وأخضعها لسلطة الملك المصرى. وإذا كان الملك يحكم مصر نيابة عن أبيه آمون، فبأى حق يحكم هذا الملك البلاد الأجنبية الخاضعة له؟ وهنا ظهرت محاولات لتفسير الوضع الجديد الذى لم يكن له وجود قبل عصر الإمبراطورية، وحاول البعض القول بملكية آمون للأراضى الأجنبية كذلك. إلا أن إخناتون جاء ليقول بوجود معبود واحد لكل البشر، في مصر كما في بلاد الشام والسودان. ولم يكن ممكنًا قبل عصره أن يعيش في مجموعة صغيرة من البشر - مثل قبائل العبرانيين - التوصل إلى وحدانية الذات الإلهية. إذ كان إله الجماعة هو الذى ينصرها في صراعها مع الجماعات الأخرى، فماذا يكون الموقف لو أن الإله واحد لجميع الأطراف المتصارعة.

انقـــلاب عـــسكرى

أدى استخدام إخناتون للجيش في محاربة الديانات القديمة، في النهاية إلى الإطاحة بعرشه نتيجة لانقلاب قام به القادة العسكريين. فبالرغم من أن ولاء الجنود للملك كان - في مصر القديمة - يعتبر جزءًا من التعبير عن إيمانهم الديني، حيث كان الملك هو ممثل المعبود على الأرض. إلا أن إخناتون نفسه رفض أن يكون ممثلاً لكل المعبودات المصرية، بل أمر جنوده بمنع الناس من عبادتها. وبدأت المؤامرات تحاك داخل الجيش - لاشك بتشجيع من الكهنة - للإطاحة بإخناتون ونظامه. وعبثًا حاول خاله آى إقناعه بالوصول إلى حل وسط حيث يسمح بإعادة فتح المعابد القديمة، ويستمر هو وأتباعه في عبادة آتون، ولكن إخناتون رفض قبول أى محاولة لتغيير النظام الدينى الجديد الذى أدخله. وعندما ازدادت المؤامرات ضده، نصحه آى بالتنازل عن العرش لتوت عنخ آمون، وخرج هو من مدينة العمارنة ليعيش في المنفى. وليس هناك دليل واحد يشير إلى موت إخناتون عند نهاية حكمه. بينما توجد العديد من الأدلة التى تشير إلى أنه كان لايزال حيًا بعد نهاية حكمه. فهو لم يدفن في المقبرة التى أعدها لنفسه وسط الصخور المحيطة بمدينة العمارنة، بل إن هناك بعضًا من أتباعه ظلوا يذكرون تاريخ كتاباتهم وينسبونها إلى عصره، كأنه لايزال على العرش. إلا أن اسمه منع تمامًا من المصادر الرسمية، وكان عند الضرورة يشار إليه بتعبير «با خرو با أخيتاتون»، ومعناها «ساقط أخيتاتون (العمارنة)». ولاشك أن هذه هى أول حالة نعرفها في التاريخ عن ملك يسقط عن العرش. ومع سقوطه فهو قد فقد ألقابه وأسماءه الملكية. فلا يستطيع أحد أن يشير إليه باسمه الذى كان يعرف به أثناء وجوده على العرش، أى أنه صار لا اسم له. وتوجد دلالات على أن مكان المنفى الذى عاش فيه إخناتون كان عند معبد «سرابيط الخادم» في سيناء، وهى تقع على بعد بضعة كيلومترات إلى الشمال الغربى من دير سانت كاترين وجبل موسى. فقد عثر الأثرى البريطانى فليندرز بيترى هناك على تمثال للملكة طاى والدة إخناتون كما وجدت دلالات على استمرار عبادة آتون في هذه المنطقة بعد أن أصبحت ممنوعة في وادى النيل.



وفى ٧ أكتوبر ١٩٩٧ أعلن في القاهرة عن كشف هام قامت به البعثة الأثرية الفرنسية التى تعمل في منطقة سقارة، التى عثرت على مقبرة مرضعة الملك توت عنخ آمون. وقال آلان زيفى رئيس البعثة الفرنسية التى عثرت على المقبرة، إن هناك لوحة منقوشة عند مدخل المقبرة تصور المرضعة مايا، يجلس على حجرها الملك توت صغيرًا وهو يرتدى لباس الملك، بينما يجلس كلبه الأليف تحت المقعد. وذكر زيفى أن هذا المنظر يضم كذلك عددًا من كبار رجال الدولة المهمين. ووصف الأثرى الفرنسى اللوحة التى ظهرت بأنها تحتوى على ستة من كبار رجال الدولة، قائلاً إنهم بلاشك يمثلون الشخصيات الوزارية التى حكمت مصر أيام توت عنخ آمون. وبالرغم من عدم وجود كتابات تحتوى على أسماء الوزراء فقد تمكن زيفى من التعرف على شخصياتهم من ملامحهم ومن عصى المارشالية التى يحملونها في أيديهم، وهم: آى وحور محب وبا رمسيس وسيتى ونخت مين ورجل آخر اسمه مايا كذلك. وبخلاف مايا هذا الذى كان وزيرًا للمالية، فإن الوزراء الخمسة الباقين كانوا جميعًا من القادة العسكريين. ليس هذا فحسب، بل إن أربعة منهم خلفوا توت عنخ آمون على العرش بعد ذلك. هم آى وحور محب وبا رمسيس (الذى أصبح رمسيس الأول) وسيتى الأول. ومن الواضح أن وزارة توت عنخ آمون كانت بمثابة مجلس لقيادة الثورة تتكون من العسكريين، الذين حصلوا على مراكزهم بسبب ما قاموا به من انقلاب عسكرى ضد والده إخناتون. كما يتبين لنا أن ثلاثة من قادة الجيش قاموا بعملية تمرد ضد إخناتون، هم حور محب ورمسيس وسيتى، وعندما أدرك آى - القائد العام لجيش إخناتون - عدم استطاعته القضاء على هذا التمرد بمساعدة القائد نخت مين الذى كان قريبًا له، تم التوصل إلى اتفاق بين العسكريين الخمسة على أن يتنازل إخناتون عن العرش لابنه توت عنخ آمون، وأصبحوا جميعهم يشكلون الوزارة الجديدة.■

ولد إخناتون في سنة ١٢ من حكم والده، في المقر الصيفى بمدينة زارو بشمال سيناء. وخافت الملكة طاى على ابنها الذى أخذ اسم أمنحتب مثل والده، أن يقتله الكهنة مثلما فعلوا بابنها الأول، فلم تسمح له طوال طفولته أن يذهب إلى مقر الأسرة في منف. بل أرسلته ليتم تعليمه عند أخيها الأكبر الكاهن «آنن» في معبد رع بمدينة عين شمس، على عكس التقاليد التى كانت تقضى بأن يتم تعليم الأمير في منف مع أولاد النبلاء

إخنــاتون والمزاميــر

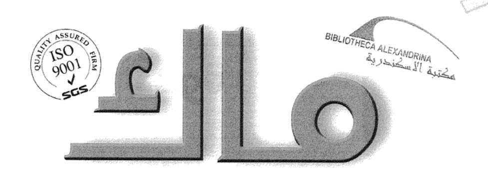
■■ تبين للباحثين في العصر الحديث وجود تشابه بين كتابات إخناتون وبين بعض النصوص التوراتية، خاصة المزمور رقم ١٠٤ الذى يكاد يكون منقولاً عنها. ويتبين هذا بوضوح عند المقارنة بين الفقرات ٢٠ - ٢٦ من المزمور ١٠٤، مع بعض أشعار الملك المصرى:

المزمــــــور ١٠٤

تجعل ظلمة فيصير ليل، فيه يدب كل حيوان الوعر.
الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها.
تشرق الشمس فتجتمع وفي مآويها تربض.
الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله في المساء
ما أعظم أعمالك يا رب، كلها بحكمة صنعت، ملآنة الأرض من غناك.
هذا البحر الكبير الواسع الأطراف، هناك دبابات بل عدد، صغار حيوان مع كبار.
هناك تجرى السفن لوياثان (الحوت) هذا خلقته ليلعب فيه.

أشـــعار إخناتون

عندما تغيب في أفق السماء الغربى، العالم في ظلمة مثل الأموات،
ينامون في غرفهم رؤوسهم ملفوفة، تتوقف أنفاسهم ولا يرى واحد الآخر،
تُسرق كل أشيائهم تحت رؤوسهم ولا يعرفون.
يأتى كل سبع من عرينه، كل الأفاعى تلدغ،
تسود الظلمة،
العالم في سكوت، الذى صنعهم راح يستريح في أفقه.
عندما تصعد في الأفق الأرض مشرقة،
(فانت) تضيء كآتون في النهار،
تبعد الظلمة عندما ترسل آشعتك،
الأرض في بهجة كل يوم مستيقظة تقف على أقدامها،
فانت أقمتهم.
ما أعظم أعمالك مخفية من قدامنا،
أيها الإله الواحد لا يملك قدرته آخر،
صنعت الأرض على هواك، لما كنت وحدك
الرجال، كل المواشى صغار وكبار، كل ما يمشى على الأرض
(و) كل ما هو يرتفع يطير بأجنحته
تبحر المراكب جنوبًا وشمالاً،
كل الطرق مفتوحة لأنك أشرقت،
الحوت ينط أمامك في النهر،
وأشعتك وسط البحر الكبير.■


ماك
ISO 9001
QUALITY ASSURED FIRM
SGS

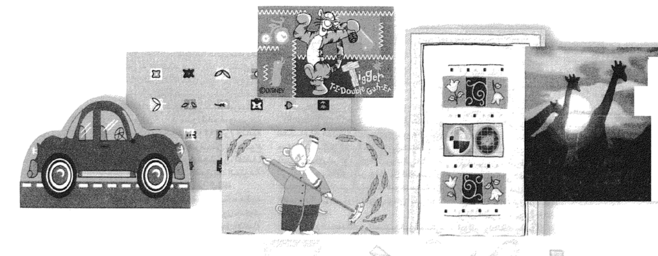


مراكز البيع:

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى . نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٣
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس . ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول
ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج . دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان . محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥
القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٢٤٥٣٥٦٩٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
العاشر من رمضان: دوار العاشر . طريق الإسماعيلية
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل . محطة التعاون . الهرم ت: ٣٨٣٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية . خلف المحكمة
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى . مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع . السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ت: ٣٦٣٠٥٩٠
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر أبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٠٣-٣٩١٨٤٧٠

العباسية: ١٥ ش العباسية . ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت:٢٢٠٨٥٥٥
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية . فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
صفط اللبن: سنتر الصاوى . شارع التحرير
بنى سويف: ٥ . ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٢٢ ٥٧٦٥
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ٠٥٥٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ت: ٠١٠١٩٢٢٤٢٨
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩ ٠٦٨٣٦٥٦٥٦
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم . خلف المحكمة ٠١٠١٩٧٧٥٣٣
دسوق: ش الجيش . أمام عمر أفندى
بورسعيد: ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة . طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com



صعود وسقوط

يتحدث
الناس عن رائد الفضاء
السوفيتي «سيرجي كريكاليف»
الذي صعد إلى «مير» في مايو ١٩٩١
وعاد بعد ذلك في مارس ١٩٩٢ ليجد دولته
وقد تغير اسمها إلى «روسيا الاتحادية» واسم مدينته
وقد تغير إلى سان بطرسبرج. لقد جاءت
«مير» في زمن التحولات التاريخية
للعالم والاتحاد
السوفيتي.



أحيانا ما تحجب الأحداث السياسية الجارية في العالم أحداثا أخرى مهمة، يكون بعضها بداية لتحولات تبدو من على البعد بطيئة وباهتة لكنها في الحقيقة تحفر مجرى جديدا للمستقبل. فعندما نلقي نظرة على عام ٢٠٠١ المنصرم، سوف يخطف أبصارنا بالتأكيد وقائع كثيرة، بعضها كان له ضجيج عال لكنه خفت مع الوقت، وبعضها الآخر كان مشحونا بطاقة عالية ومحملا برموز مشعة بالمعاني والأصداء، فبقي موصولا بالحاضر المتجدد والمستقبل القادم. لقد أنستنا في الحقيقة أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وسقوط أبراج نيويورك في لحظة اصطدام دامية أرجوانية الألوان أن أيام ٢٠٠١ قد حملت أيضا أحداثا أخرى مهمة، من بينها سقوط المحطة الفضائية الروسية الشهيرة «مير» آخر رموز روسيا السوفيتية وتحولها عند اصطدامها مع الهواء إلى شظايا محترقة تبرق بألوان حمراء وبرتقالية وهي في طريقها مندفعة لا يشيعها إلى مثواها الأخير إلا عدد قليل من الهواة والمصورين.

وبرغم سقوط «مير» واختفائها إلا أنها تستحق الحديث عنها، ليس فقط لأن موتها كان مشعا بالألوان والرموز، ولكن لأن حياتها كانت موصولة بمشروع استكشاف كامل كبير يتحرك مثل الزمن دائما إلى الأمام بصرف النظر عن صراع الدول وتصاريف السياسة. ففي لحظة سقوطها المهيب، وانسياب دموع الحزن من عيون الكثيرين في روسيا، كان رواد الفضاء الروس والأمريكان يخطون بأقدامهم معا لأول مرة داخل محطة فضائية «دولية» جديدة اشتركوا معا في بناء أجزائها، وما زالوا ومعهم دول أخرى يضيفون إليها كل يوم. ولم يمض أيضا على اختفاء «مير» إلا أسابيع قليلة، حتى كانت وكالة الفضاء الروسية تستعد لاستقبال مواطن «أمريكي» على متن المحطة الدولية في أول رحلة سياحية لإنسان «عادي» إلى الفضاء. لقد كانت «مير» البداية، وبعد أن مضت بوقت قصير وضع الإنسان العادي قدمه داخل سفينة أخرى للاستكشاف، ولن يمر وقت طويل حتى يجر خلفه طوفانا من البشر. يتوقون إلى النظر والمعرفة والإدراك العميق الدافئ للكون المحيط بالأرض، بعد أن ظلت تلك السفن بصرف النظر عن أسمائها ودولها لعقود طويلة حكرا على العلماء، بأحاسيسهم الباردة ومعادلاتهم الصماء.

ثمن الحرية

هناك علاقة عميقة بين الحرية وغزو الفضاء. ففي صميم فكرة الطيران والصعود بعيدا عن الأرض رغبة دفينة للخلاص من سجن الجاذبية والانعتاق من عبوديتها الدائمة. ولا يمكن في الحقيقة تجاهل تأثير الجاذبية الأرضية على صورة الإنسان وباقي الأنواع الحية بيولوجيا واجتماعيا. والمحطة الفضائية في حقيقتها هي المعادل المكاني للأرض «بدون جاذبية»، أو بمستوى منخفض للغاية منها. ويبدو المكان داخل المحطة الفضائية ثلاثي الأبعاد في مساواة كاملة بين الأبعاد الثلاثة، فقد أنهى غياب الجاذبية قهر كثير من المعاني الأرضية الحاكمة بكل مدلولاتها الطبيعية والنفسية والاجتماعية أيضا. فلا «فوق» ولا «تحت» ولا «سقف» ولا «أرضية» ولا «حوائط» داخل المحطة إلا بشكل مجازي.

ويرجع إلى العالم الإنجليزي إسحاق نيوتن ١٦٤٢ ـ ١٧٢٧ Isaac Newton الفضل في وضع قانون الجاذبية وقوانين الحركة الأخرى المعروفة في كتابه الشهير «المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية» Principia سنة ١٦٨٧. ومن خلال قانونه الثالث (لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومضاد له في الاتجاه) وضع نيوتن الأساس النظري لفكرة «المحرك الصاروخي»، الوسيلة الوحيدة العملية حتى الآن لتوليد القوة المطلوبة للتغلب على الجاذبية والانطلاق نحو الكون. ومنذ عصر نيوتن حتى إطلاق الاتحاد السوفيتي لأول قمر صناعي في ٤ أكتوبر ١٩٥٧ مرت حركة التطور على محطات كثيرة لتحويل قانون (الفعل ورد الفعل) إلى «صاروخ» قادر على حمل الإنسان والأشياء إلى الفضاء. والصواريخ بأشكالها البدائية كانت معروفة قبل نيوتن بقرون كثيرة، لكن الجديد كان في استخدام تلك الأداة للدوران حول الأرض أو الفكاك تماما من جاذبيتها. وقدَّر العلماء السرعة المطلوبة للدوران في مدار قريب من الأرض بحوالي ٨٠٠٠ متر/ثانية، وسرعة الإفلات منها تماما بحوالي ٩٢٠٠ متر/ الثانية تقريبا. وعندما بدأ الاقتراب من الموضوع «تكنولوجيا» مع بداية القرن العشرين، اكتشف العلماء الثمن الباهظ لتحقيق تلك السرعة بسبب الحجم الهائل المطلوب من الطاقة.

وبدون الدخول في تفاصيل فنية معقدة سوف نقدم للقارئ مثالين. الأول «مكوك الفضاء» وهو أحدث وسيلة يمكنها حمل الأشياء إلى الفضاء والدوران بها حول الأرض. فالمكوك يصل وزنه عند الإطلاق إلى ٢٠٤٠ طنا تقريبا نصفهم عبارة عن وقود صاروخي موجود داخل خزانات الوقود. وبعد التخلص من خزانات الوقود الفارغة أثناء الرحلة يعود المكوك إلى الأرض ووزنه يقترب من السبعين طنا فقط وبداخله حمولته من الرواد والأجهزة التي لا يتجاوز وزنها ثلاثين طنا. ومن هذا المثال نكتشف أن ثمن صعود ثلاثين طنا من الأشياء إلى مدار حول الأرض يحتاج إلى ٢٠٠٠ طنا تقريبا من الوقود والأشياء الأخرى يجب أن تنطلق معها منذ البداية. أما المثال الثاني -الصاروخ السوفيتي «فوستوك» - Vostok الذي حمل القمر الصناعي (سبوتنيك) Sputnik في سنة ١٩٥٧ كأول قمر يدور حول الأرض، فكان وزنه عند الإطلاق حوالي ٢٩٠ طنا في حين أن وزن مرحلته الأخيرة التي تحمل داخلها القمر لم تكن تزيد على طن واحد، أما وزن القمر نفسه فكان ٨٣ كيلو جراما فقط. والمشكلة لم تكن في كميات الوقود الهائلة المطلوبة، ولكن في كيفية السيطرة على إحراق تلك الكميات داخل المحرك الصاروخي وفي زمن لا يتعدى دقائق معدودة. فالمحرك الصاروخي هو أكثر المحركات شراهة في استهلاك الوقود، ولهذا السبب يمكن أن نفهم حوادث الانفجار التي تحدث من آن إلى آخر لصواريخ الإطلاق ومعها حمولتها الثمينة وهي في طريقها إلى الفضاء.

الصاروخ إذن (أو مركبة الإطلاق) Space Launch Vehicle كان حصان عصر الفضاء في القرن العشرين، وبدونه لم يكن ممكنا التفكير في إقامة محطة فضائية دائمة تدور حول الأرض أو في إرسال رواد إلى القمر أو إلى أي جرم سماوي آخر. وكان من الصعب أن ينجح الإنسان في بناء تلك النوعية من الصواريخ من المحاولة الأولى، ولكن الأمر أخذ مراحل متتالية:

* وضع قسطنطين تسيوكوفسكي (١٨٥٧-١٩٣٥) Konstantin Tsiolkovsky العالم الروسي الكبير والأب الروحي للسفر إلى الفضاء في ١٩٠٣ «تصورا» تفصيليا لصاروخ يمكنه حمل الإنسان خارج الغلاف الجوي للأرض مقترحا استخدام وقود من الأكسجين والهيدروجين السائل. وشرح ذلك في ورقته الشهيرة «بحث في السفر بين الكواكب باستخدام الوقود الصاروخي». وصدرت له أيضا بعد ذلك كتب كثيرة من بينها «ما بعد الأرض» في ١٩٢٠. وأدخل تسيوكوفسكي مفهوما أساسيا في علم الصواريخ وهو استخدام «المراحل». Staging وفكرة المراحل تعني أن يتكون الصاروخ من مراحل متعددة، كل مرحلة منها تعمل بمحرك صاروخي واحد أو أكثر، ويكون لكل مرحلة خزانات الوقود الخاصة بها. فإذا كان مطلوبا حمل تلك الكميات الهائلة من الوقود للتغلب على الجاذبية ففكرة المراحل تتيح التخلص من خزانات الوقود الفارغة أولا بأول بدون الاضطرار إلى حملها حتى النهاية. وهي الفكرة التي طُبقت بعد ذلك في كل الصواريخ المستخدمة في مجال الفضاء (الصاروخ «ساتيرن ٥» الذي حمل أول إنسان إلى القمر كان مكونا من ثلاث مراحل و ١١ محركا صاروخيا، ووزنه لحظة الإطلاق ٢٩١٠ أطنان ويحمل كمية من الوقود وزنها ٢٦٣٨ طنا!!).

* قام بعد ذلك العالم الأمريكي الكبير روبرت جودارد (١٨٨٢-١٩٤٥) Robert Goddard في سنة ١٩١٤ ببناء أول محرك صاروخي يعمل بالوقود المكون من الأكسجين السائل والجازولين، ولم يجربه في صاروخ حقيقي إلا في ١٦ مارس ١٩٢٦، عمل فيها المحرك لمدة ٢,٥ ثانية فقط، ولم ينجح الصاروخ في الارتفاع للأكثر من ١٢,٥ متر. وظهرت نتائج أبحاث جودارد بعد ذلك في ورقة شهيرة بعنوان «طريقة للوصول إلى الارتفاعات العالية».

* المرحلة الثالثة من مراحل التطور بدأت بعد ذلك في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها بواسطة مجموعة من العلماء الألمان بقيادة الجنرال «والتر دورنبرج» Walter Dornberger وعالم الصواريخ الشهير «فيرنر فون براون» Werner von Braun (١٩١٢-١٩٧٧) بتطوير سلسلة من الصواريخ الباليستية كان آخرها الصاروخ V-2 الشهير الذي استخدم في الحرب العالمية الثانية بكثافة كبيرة (حوالي ٣٢٠٠ صاروخ) ضد بريطانيا. وبعد انتهاء الحرب ولجوء العلماء الألمان إلى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بدأ تطوير الصواريخ الباليستية العابرة للقارات وتحول بعضها بعد ذلك إلى صواريخ إطلاق للأقمار الصناعية.

* وخلال عقد الستينيات والسبعينيات، وفي ظروف الحرب الباردة وانقسام العالم إلى معسكرين، اشتعل سباق الفضاء بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة فكان يوري جاجارين السوفيتي Yury Gagarin أول إنسان يدور في الفضاء حول الأرض (١٢ أبريل ١٩٦١)، وكان نيل أرمسترونج الأمريكي Neil Armstrong أول إنسان يضع قدمه فوق أرض القمر (٢٠ يولية ١٩٦٩) في إطار مشروع أبوللو. وأطلقت بعد ذلك الولايات المتحدة في ١٩٧٣ أول محطة فضائية صغيرة تحت اسم المعمل الفضائي Skylab بقيت في الفضاء لمدة ٩ أشهر، وتعاقب عليها ثلاثة رواد لفترات مختلفة كان أطولها ٨٤ يوما.



محمد قدري سعيد

* تميز عقد الثمانينيات بإنجازين مهمين: الأول بناء الولايات المتحدة لمكوك الفضاء كمركبة صاروخية تُستعمل لمرات متعددة reusable launch vehicle بين الأرض والمدار القريب حولها، وتحمل طاقما كبيرا من سبعة رواد بدلا من صواريخ الإطلاق التي تستخدم لمرة واحدة وذات حمولة محدودة نسبيا (أطلق لأول مرة في ١٢ أبريل ١٩٨١). والإنجاز الثاني إطلاق المحطة الفضائية السوفيتية «مير» كمكان دائم لإقامة الإنسان في الفضاء. ومن ناحيتها بدأت الولايات المتحدة التفكير متأخرا في بناء محطة فضائية أطلقت عليها في بداية الأمر «الحرية» تحولت بعد ذلك إلى المحطة الفضائية الدولية.

ولقد أصبح مفهوما مع نهاية الثمانينيات أن الإنسان قد أقام في الفضاء بنية مادية تخدمها بنية فكرية. أما البنية المادية فتكونت من صواريخ الإطلاق والأقمار الصناعية بأنواعها المختلفة والمحطات الفضائية والتلسكوبات الفضائية والمركبات المخصصة لمهام استكشاف كواكب المجموعة الشمسية. أما البنية الفكرية فقامت على عدد من القضايا والأسئلة الأساسية تناقش الهدف من استكشاف الفضاء، والأولويات، ومبررات التكلفة الباهظة المطلوبة.

ويمكن القول إن الأقمار الصناعية والمحطات الفضائية كانت من بين المكونات ذات الطابع «البرجماتي» الظاهر الفائدة بسبب قربها من الأرض، وبسبب ما تقوم به من وظائف وما تقدمه من خدمات. ولم يعد ممكنا في الحقيقة تصور شكل الحياة على الأرض بدون منطقة المدار القريب منها Low Earth Orbit الذي انتقل إليها منذ بداية عصر الفضاء وحتى الآن كل وسائل التحكم لما يجرى على الأرض من عمليات حيوية. أما المحطات الفضائية فكما تصورها فون براون عالم الصواريخ الكبير ومهندس مشروع أبوللو بأنها «نقطة ملاحظة» outpost خارج الأرض، تراقبها من ناحية وتنظر إلى الكون المحيط بها من ناحية أخرى. وأضيف إلى هذا المفهوم بعد ذلك أنها مكان «بلا جاذبية»، ومعمل للتجارب بعيدا عن سلطانها، وعتبة انطلاق إلى الكون السحيق.

زمن التحولات

هيمن برنامج الفضاء الأمريكي خلال سنوات التسعينيات وبعد انتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتي على باقي دول العالم ودارت في فلكه أنشطة الدول الأخرى في أوروبا وآسيا. واحتلت المحطات الفضائية دورا محوريا في مبادرة «التعاون الدولي في الفضاء» التي أطلقتها الولايات المتحدة في ١٩٩١ وكان هدفها التعامل بشكل جماعي مع التحديات الكبرى المتوقعة في مجال الفضاء من خلال العمل المشترك على المحاور الآتية:

* مهمة إلى كوكب الأرض Mission to Planet Earth ويركز هذا المحور على مراقبة كوكب الأرض، وملاحظة التغيرات التي تطرأ على بيئته الحيوية،

وتسجيل كل ما يتعلق بها من قياسات. والهدف من ذلك فهم أثر النشاط البشرى على البيئة الحيوية الحاضنة للحياة، وتحديد السياسات اللازمة لإصلاح الأضرار الحالية، والمحافظة على البيئة فى المستقبل.

* بناء محطة دائمة فى الفضاء لعمل الأبحاث الخاصة بالعيش فى ظروف الفضاء وانعدام الوزن لفترات طويلة، وتدريب الرواد، وتطوير التكنولوجيات اللازمة للحياة على الكواكب الأخرى البعيدة.
* مهمة بعيدة عن كوكب الأرض: وتركز على مهام الاستكشاف البعيد وخاصة كوكب المريخ، عن طريق إرسال المركبات الأتوماتيكية فى البداية بدون الإنسان، وعمل الدراسات اللازمة عن سطحه وبيئته، واختيار أفضل المواقع لهبوط الرواد عليه فى المستقبل.
* العودة للقمر للبقاء والإقامة عليه.
* تطوير وسائل الإطلاق إلى الفضاء بجانب المتوفر منها حاليا مثل المكوك والصواريخ، والتركيز على التكنولوجيات المختلفة المرتبطة بها لتصبح أكثر أمانا وأقل تكلفة وأكثر قدرة على القيام برحلات فضائية بعيدة.

وفى إطار هذا البرنامج بدأت الولايات المتحدة مشروع المحطة الفضائية «الحرية» التى تغير اسمها بعد ذلك إلى «ألفا» أو «المحطة الفضائية الدولية» بعد انضمام روسيا الاتحادية إلى المشروع ومجموعة أخرى من الدول.

المحطة الفضائية «مير»

عندما يأتى ذكر المحطة الفضائية «مير»، يتحدث الناس عن رائد الفضاء السوفيتى «سيرجى كريكاليف» من أبناء لينينجراد، الذى صعد إلى «مير» فى مايو ١٩٩١ وعاد إلى الأرض بعد ذلك فى مارس ١٩٩٢ ليجد دولته وقد تغير اسمها إلى «روسيا الاتحادية» واسم مدينته وقد تغير إلى سان بطرسبرج. لقد جاءت «مير» فى زمن التحولات التاريخية للعالم والاتحاد السوفيتى، ولم تكن مجرد جسم يدور حول الأرض ولكنها كانت فكرا سوفيتيا فضل أن يمنح الإنسان مكانا يجرب فيه العيش والعمل فى الفضاء، فى مقابل فكر آخر أمريكى فضل القفز مرة واحدة إلى القمر لكنه لم يستطع البقاء هناك ولم يعد إليه حتى الآن. لقد اعتبر الحزب الشيوعى بناء «مير» الهدف الرئيسى لبرنامج الفضاء السوفيتى خلال الثمانينيات، واستخدمها بجانب مهمتها العلمية كإحدى وسائل العلاقات الدولية مع حلفائه وأصدقائه فأتاح لرواد تلك البلاد الصعود إليها والبقاء داخلها لبعض الوقت.

جاءت «مير» ردا على تطوير الولايات المتحدة لمكوك الفضاء، وتزامن معها فى نفس الوقت تطوير الاتحاد السوفيتى لوسيلتين صاروخيتين للوصول إلى الفضاء: الأولى الصاروخ العملاق إنيرجيا Energia والثانية المكوك السوفيتى «بوران» Buran وهو يشبه المكوك الأمريكى لدرجة كبيرة، وجُرب مرة واحدة فى سنة ١٩٨٩ بدون رواد، ثم أُهمل بعد ذلك تماما وتحول إلى مطعم فى حديقة جوركى الشهيرة فى موسكو.

انطلقت «مير» إلى الفضاء فى ٢٠ فبراير ١٩٨٦ فى عصر ميخائيل جورباتشوف وسط شعارات «البريسترويكا» وإعادة البناء. وعندما انهار البناء ومعه جورباتشوف بقيت «مير» كوكبا فى السماء ورمزا باقيا من رموز الدولة السوفيتية التى اختفت رموزها على الأرض واحدا بعد الآخر وفى سنوات قليلة. كان ترتيب «مير» السابعة والأخيرة فى سلسلة من المحطات المدارية السوفيتية التى حملت اسم «ساليوت» Salyut وعندما تقرر إطلاقها كان الاتحاد السوفيتى قد انتهى من تطوير الصاروخ «بروتون» أقوى الصواريخ السوفيتية فى ذلك الوقت وكانت حمولته القصوى عشرين طنا، هى وزن الوحدة الرئيسية للمحطة. وفى ضوء الخبرات المتراكمة من المحطات «ساليوت» استقر فكر العلماء على بناء «مير» من وحدات منفصلة كل واحدة منها يمكن أن تُفضى إلى الأخرى.

تكون هيكل المحطة من ست وحدات مستقلة أسطوانية الشكل، تم تجميعها على مراحل بعد حملها من الأرض بواسطة الصواريخ الروسية. وفى بعض الوحدات كانت هناك فتحات للالتحام مع مركبات الإمداد بالمواد والرواد القادمين من الأرض. خصصت الوحدة «كفانت-١» (أطلقت فى ١٩٨٧) للأبحاث الفيزيائية والفلكية وزودت بتلسكوبات للأشعة السينية وأشعة جاما، والوحدة «كفانت-٢» (١٩٨٩) للبحوث البيولوجية ومراقبة الأرض، والوحدة «بريرودا» (١٩٩٦) للاستشعار عن بعد ومراقبة الغلاف الجوى، والوحدة «كريستال» (١٩٩٠) لبحوث المواد وبها فتحة لاستقبال مكوك الفضاء الأمريكى، والوحدة «سبيكتر» (١٩٩٥) خصصت أيضا للاستشعار عن بعد، ثم الوحدة الرئيسية وطولها يصل إلى ١٥ مترا وهى مجهزة لإقامة الطاقم وبها مكتبة صغيرة ومكان يمارس فيه الرواد بعض الأنشطة الرياضية. والمحطة مجهزة للالتحام مع مركبة الإمداد بروجرس إم-١٥ التى تزود المحطة بالمؤن والوقود وصواريخ الدفع الصغيرة اللازمة لتصحيح المدار.

بلغ وزن «مير» بعد أن اكتمل بناؤها وزودت بالمختبرات والأجهزة والمعامل ١٣٠ طنا، وأتاحت بعد أن بدأ العمل داخلها اختبار وتطوير نظريات لتشغيل المحطات الفضائية وصيانتها وتزويدها بالرواد والإمدادات. وأجريت على متنها كثير من التجارب بعضها تم التحكم فيه عن بعد ومن الأرض وفى غيبة أفراد متخصصين. ومن أكثر المجالات التى استفادت من المحطة مجال البحوث البيولوجية والدوائية، وتطلب ذلك وجود الرواد فوقها لفترات طويلة وحقق بعضهم فترات بقاء قياسية زادت عن العام الكامل، مثل «فاليرى بولياكوف» الذى نجح فى البقاء داخلها لمدة ٤٣٨ يوما متصلة.

وعندما تحول الاتحاد السوفيتى إلى روسيا الاتحادية، وفى ظروف الأزمة الاقتصادية الخانقة، بدأ التفكير فى «تسويق» المحطة والحصول على موارد يمكن أن تغطى مصاريف التشغيل. ولقد لاقت تلك الدعوة رغبة من الولايات المتحدة وأوروبا واليابان للاستفادة من خبرة «مير» فى أعمال تطوير وبناء المحطة الفضائية الدولية الجديدة. وتطورت الأمور بعد ذلك فى اتجاه مثير سياسيا وتكنولوجيا، فانضمت روسيا إلى مجموعة المحطة الفضائية الدولية بكل خبرة علمائها الطويلة فى تطوير وتشغيل «مير» وما سبقها من محطات «ساليوت»، وأصبحت «مير» نفسها بعد ذلك قاعدة اختبار رائعة لكل أنشطة التصميم والتصنيع لمكونات المحطة.

وفرت هذه المرحلة من مراحل التعاون الدولى لمير فرصة إضافية للبقاء من خلال استقبالها لأعداد متزايدة من الرواد الأمريكيين، يأتون إليها على متن مكوك الفضاء لقضاء أوقات طويلة داخلها حيث لا يوجد مكان آخر يمكن أن يقدم مثل هذه الخدمة. ولقد ساهم الأمريكيون بدورهم فى تطوير بعض معامل «مير» وخاصة معامل البحوث البيولوجية والدوائية.

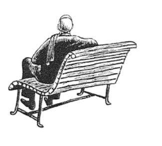
المحطة الفضائية الدولية

قبل أسابيع قليلة من نهاية القرن العشرين كان قد أُطلق من أجزاء المحطة الفضائية الدولية وحدتان: الأولى روسية (٢٠ نوفمبر ١٩٩٨) والثانية أمريكية (٤ ديسمبر ١٩٩٩) بعد رحلة عناء طويلة تكنولوجية وسياسية. لقد نجح الفريق الدولى بقيادة الولايات المتحدة وروسيا ومشاركة أوروبا واليابان وكندا فى الوصول بالمشروع إلى مرحلته الأخيرة والبدء فى نقل أجزاء المحطة جزءا بعد آخر إلى مدار يبعد عن الأرض ٣٥٢ كيلومترا على أن ينتهى العمل خلال خمس سنوات من بدء تجميع المحطة فى الفضاء. كانت المعجزة الحقيقية، بجانب المعجزة الهندسية، عبور المشروع فوق مصاعب سياسية وفنية لا حصر لها. فلم يكن أحد يحلم بأن المبادرة الأمريكية «للتعاون الدولى فى مجال الفضاء» سوف تصمد لكل الاختبارات السياسية والاقتصادية التى واجهتها، فخلال فترة العمل فى المشروع والتى اقتربت من عقدين، تبدل عليه ثلاثة رؤساء أمريكيين، وأربعة رؤساء لوكالة الفضاء الأمريكية «ناسا»، وسقطت رؤوس أربعة مديرين للمشروع، وكان على وشك التوقف والإلغاء سنة ١٩٩٣ لكنه مر بأعجوبة من تحت مقصلة الكونجرس بفارق صوت واحد.

بدأت فكرة المحطة الفضائية الدولية لأول مرة فى عهد ريجان سنة ١٩٨٤ «كخطوة منطقية» لبرنامج الفضاء الأمريكى الذى كان قد انتهى لتوه من بناء المكوك كمركبة كبيرة الحجم يمكن استخدامها بمرونة «ذهابا وعودة» بين الأرض والفضاء. وكانت الرؤية الأمريكية فى ذلك الوقت، أن المحطة ستعمل «كمركز عمليات فضائى» قريب من الأرض، يعيش على متنه بصورة دائمة فريق دولى لإجراء البحوث فى المجالات العلمية والتكنولوجية والتجارية، ويقدم خدمات متنوعة «للبنية الفوقية» الفضائية التى تدور حول الأرض من أقمار وسفن فضاء، على أن يؤخذ فى الاعتبار إمكانية أن يستخدمها المواطن العادى بجانب الرواد المحترفين. لكن الهدف الأكبر من المحطة كان إتاحة الفرصة لإجراء البحوث فى علوم الحياة والبقاء الطويل فى ظروف الفضاء وانعدام الوزن استعدادا



الصاروخ إذن (أو مركبة الإطلاق) Space Launch Vehicle كان حصان عصر الفضاء فى القرن العشرين وبدونه لم يكن ممكنا التفكير فى إقامة محطة فضائية دائمة تدور حول الأرض أو فى إرسال رواد إلى القمر أو إلى أى جرم سماوى آخر، وكان من الصعب أن ينجح الإنسان فى بناء تلك النوعية من الصواريخ من المحاولة الأولى



لاستخدام المحطة فى المستقبل كنقطة انطلاق أمامية لرحلات الإنسان إلى القمر وإلى كواكب المجموعة الشمسية وخاصة المريخ.

وفى سنة ١٩٩٢ لم تكن المحطة فى مدارها كما كان مخططا، وكان الإنفاق قد وصل إلى ١٠ بلايين دولار على تصميمات ونماذج، وثار جدل واسع فى الولايات المتحدة حول جدوى المشروع وتكلفته وصعوبات إدارته مع الأطراف الدولية الأخرى، لكن إدارة كلينتون عندما جاءت إلى البيت الأبيض قامت بدفع الأمور إلى مراجعة نهائية لتصميم المحطة، واقترحت فى ١٩٩٤ ضم روسيا إلى الفريق الدولى المسئول عن المشروع، وقبلت روسيا ورحبت رغم مشاكلها السياسية والاقتصادية الصعبة.

كان الظن فى ذلك الوقت أن انضمام روسيا لفريق العمل سوف يتيح ضرب أكثر من عصفور بحجر واحد. فاشتراكها مع أعداء الأمس فى مشروع بهذا الحجم سوف يمثل مصافحة ومصالحة بعد طول عداء، كذلك فإن الخبرة الروسية الطويلة فى مجال المحطات الفضائية والإقامة الطويلة فى الفضاء يمكنها أن تقدم الكثير للمشروع، أما العصفور الأخير فكان خفض التكلفة عن طريق إضافة شريك آخر إلى باقى الشركاء. العصفور الوحيد الذى أفلت من الرهان على روسيا كان العصفور الأخير، فبرغم أن الاشتراك فى المحطة لا يمثل لروسيا تحديا فنيا صعبا إلا أنها كانت تواجه ضغوطا مالية وسياسية شديدة، وكان أملها أن يمنع الاشتراك فى المشروع انفراط عقد جماعتها من العلماء والفنيين الذين بنوا على أكتافهم المجد الروسى فى الفضاء. لم يكن الطرف الروسى فى كل الأحوال بالجهة المناسبة التى يمكن الاعتماد عليها فى أمور التمويل، فكما قال السناتور الأمريكى تيموثى رويمر «كان الأمل أن يوفر لنا الروس ٢ بليون دولار بسبب أسلوبهم الاقتصادى فى العمل، والنتيجة أننا أعطيناهم نحن ٢ بليون دولار للوصول بالعمل إلى نهايته».

كان على الروس بناء وحدتين من وحدات المحطة. الأولى «زاريا أو الفجر» ووظيفتها تزويد المحطة بمصادر الطاقة والدفع الصاروخى. وتحمل الأمريكيون كامل تكلفتها، والثانية للخدمات وإعاشة الرواد. وبكرم بالغ من «الناسا» وللمساعدة فى حل المعضلة الروسية، وافقت على إعطاء الروس ٤٧٢ مليون دولار خلال سنة ١٩٩٨ مقابل ٩ زيارات قام بها مكوك الفضاء للمحطة «مير» وأيضا مقابل إقامة رواد أمريكيين لفترات مختلفة داخلها. وكذلك فعلت كل من الوكالة الفرنسية والألمانية مقابل خدمات مماثلة.

على الجانب الفنى، واجهت المحطة منذ البداية صعوبات ومشاكل تكنولوجية لا حصر لها. أولها كان له علاقة بمفاهيم استخدام التكنولوجيا المتقدمة فى مشروع يستغرق تنفيذه مدة طويلة مع خطر تقادم تلك التكنولوجيا خلال زمن تنفيذ المشروع. وكانت الصعوبة الهندسية الثانية فى أسلوب تجميع المحطة واختبار أجزائها فى الفضاء. لقد أُطلقت أجزاء المحطة جزءا بعد جزء إلى مدارها المحدد ليتم تجميعها معا بواسطة أذرع آلية، وبواسطة رواد يمشون ويسبحون فى الفضاء بملابسهم الفضائية المجهزة، وهذه المرحلة هى أخطر مراحل المشروع. ومن المتوقع أن يصل مجموع ساعات السباحة الحرة فى الفضاء إلى ١٠٠٠ ساعة سوف تتكفل بها أطقم أمريكية وروسية مدربة. قابل العمل أيضا صعوبة التعامل مع أجزاء آتية من ١٨ بلدا مختلفا، ومحاولة وضع قواعد للتوفيق بين هذه الأجزاء الميكانيكية والكهربية ونظم الكومبيوتر ولغاته وبرامجه المسئولة عن التحكم فى كل أنشطة المحطة الحيوية.

اقتصر شحن الأجزاء إلى الفضاء فى البداية على المكونات الأمريكية والروسية بالإضافة إلى «الذراع الروبوت» الكندى الضرورى لتجميع الأجزاء. أما بالنسبة لمعمل الأبحاث الأوروبى والمعمل اليابانى فسيتم إطلاقهما قبل نهاية العام الحالى. ومن المتوقع أن تأخذ فترة الإطلاق والتركيب خمس سنوات يتم خلالها نقل ما يقرب من ٤٢٠ طنا من المكونات بواسطة ٤٠ رحلة للمكوك والصواريخ الروسية المختلفة. وفى سنة ٢٠٠٦ على وجه التقريب، وبعد الانتهاء من عمليات التجميع والاختبار، سوف تأخذ المحطة صورتها النهائية فى مساحة تقترب من مساحة ملعب كرة القدم (١٠٨ أمتار × ٧٤ مترا) وحجم يساوى مرتين ونصف حجم المحطة الروسية «مير» وتكون بذلك مستعدة لاستضافة سبعة رواد داخلها بصفة دائمة. ويقدر مكتب المحاسبات الأمريكى التكلفة الإجمالية للمحطة شاملة تكلفة نقل الأجزاء والتشغيل لمدة ٢٠ سنة بمبلغ ٩٦ بليون دولار.

ماذا نفعل بالمحطة؟!

لم تكن السنوات الماضية فى عمر المحطة الفضائية الدولية كما ذكرنا زمنا بلا متاعب. فبعد نشوة الفكرة، يأتى الواقع بأحكامه الاقتصادية والسياسية ومستحيلاته التكنولوجية والعلمية ليضع الحلم فوق طاولة الاختبار فإما أن ينجو ويحلق أو يموت. والآن وبعد أن أصبح الهدف قريبا وفى متناول اليد. تحولت الأسئلة لتركز على ما يمكن أن نفعله بالمحطة الفضائية، وما يمكن أن تقدمه ليس فقط للولايات المتحدة وشركائها ولكن أيضا للعالم أجمع. ومن المدهش أن معظم المتحمسين لتلك المشروعات الكبرى فى البداية لا يعرفون على وجه اليقين فائدتها النهائية، وعادة ما ينفجر الواقع بعد تحقيقه عن أشياء لم تكن فى الحسبان ويتحول مع الوقت إلى لبنات فى بنية الحضارة والتقدم التى تتسع جبهتها مع الزمن.

لقد جاءت المحطة الدولية فى زمن يُعلى كثيرا من قيمة الربح والاستفادة القصوى من كل الأنشطة البشرية بكل أشكالها العلمية والفنية والرياضية. فلا مكان لمبدأ «العلم للعلم» أو «الفن للفن» أو «الرياضة للرياضة». وبسبب ذلك لم يتأخر التفكير فى كيفية إدخال المحطة الدولية عالم «البزينس» فقد ألح الكونجرس أن تصبح المحطة مكانا جاذبا للصناعة تُجرى فيها أبحاثها وتجاربها فى المجالات المختلفة. وطلب الكونجرس من وكالة الفضاء الأمريكية أن تقدم له ثلاثة تقارير عن مستقبل المحطة:

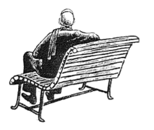
* التقرير الأول عن الاستخدامات المتوقعة للمحطة والعمليات المختلفة ذات الطابع التجارى التى يمكن تنفيذها داخلها، والتطور المتوقع لتلك العمليات.
* التقرير الثانى يتضمن توصيفا للأنشطة التجارية التى اقترحتها «الناسا» فى تقرير سابق قدمته للكونجرس فى مايو ١٩٩٩.
* التقرير الثالث يتضمن نتائج دراسات الجدوى التى أجرتها «الناسا» عن الاستخدامات التجارية للمحطة، وفيها انتهت إلى أن الاستفادة من المحطة تجاريا يعتبر هدفا طويل المدى. وأشارت الدراسة إلى ثلاثة مجالات مرشحة للاستثمار التجارى فى المدى القريب: التعليم، والترفيه والإعلان. هذه هى المجالات المتاحة أمام الاستثمار التجارى الخاص، ويمكن أن نضيف إليها إنتاج بعض المواد ذات الطبيعة الخاصة باستغلال انعدام الجاذبية داخل المحطة.

والمشكلة ليست فقط فى العدد المحدود من الأنشطة المتاحة حتى الآن أمام الاستثمار الخاص، ولكن أيضا فى أسلوب تعامل المستثمرين التجاريين مع المحطة التى تدور بعيدا عنهم فى الفضاء، ويتطلب الوصول إليها والعيش فوقها إعدادا خاصا. وتتمثل المشكلة الأولى فى وسيلة الوصول إلى المحطة التى تقتصر حاليا على مكوك الفضاء، بأعداده القليلة ورحلاته المتباعدة. وكذلك مشكلة التكلفة وكيفية تحديد عناصرها المختلفة من أفراد وطاقة وأماكن عمل واستهلاك مواد..إلخ. ولا تستبعد دراسات الجدوى أن يتم دعم تلك الخدمات بواسطة الحكومة الأمريكية لتشجيع الصناعة والقطاع الخاص للتعرف على إمكانيات المحطة وما يمكن أن تقدمه لهم. وستكون الأولية فى منح التخفيضات للمشروعات والأبحاث الجديدة خاصة فى مراحلها الأولى قبل أن تحقق عائدا ملموسا. وفى نفس الإطار تم اقتراح حزم من الخدمات تتناسب مع بعض التطبيقات التجارية وتفتح الطريق أمامها من خلال المحطة الفضائية لارتياد مجالات جديدة بتكلفة معقولة.

أُثيرت أيضا مشكلة الملكية الفكرية للمواد التى تقوم الشركات الخاصة بتطويرها على متن المحطة الفضائية وباستخدام معاملها، وهل يترتب على ذلك انفراد تلك الشركات بكامل الملكية الفكرية إذا دفعت كل المصاريف المطلوبة منها؟ وما هو الوضع إذا قامت الدولة بتخفيض تلك التكلفة لتشجيع البحث العلمى وتشجيع الصناعة على استخدام المحطة كمنصة للبحوث والتجارب؟

لقد بدأت الدعوة الفعلية لاستخدام المحطة الدولية تجاريا فى سنة ١٩٩٩ عندما طلبت الناسا من الشركات المختلفة إرسال مطالبها ومقترحاتها، وكانت الاستجابة عالية. ومنذ تلك اللحظة بدأت العلاقة تتحول من مجرد مقترحات إلى اتفاقيات مبدئية تتناول الجوانب المختلفة المالية والفنية. الحالة الوحيدة التى تحولت إلى اتفاق كانت مع شركة «زمن الأحلام» Dreamtime وهى شركة تعمل فى مجال الوسائط المتعددة Multi-media. وصاحب ذلك الاتفاق ضجة دعائية ضخمة هدفها جذب الآخرين إلى المحطة ومحاولة إثبات أن المحطة ليست فقط عتبة فضائية ولكن جذورها تمتد أيضا ناحية الأرض. والطريف أن مشروع «زمن

خلال عقدى الستينيات والسبعينيات، وفى ظروف الحرب الباردة وانقسام العالم إلى معسكرين ، اشتعل سباق الفضاء بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فكان جاجارين السوفيتى أول إنسان يدور فى الفضاء حول الأرض (١٢ أبريل ١٩٦١) وكان نيل أرمسترونج الأمريكى أول إنسان يضع قدمه فوق أرض القمر فى إطار مشروع أبوللو (٢٠ يوليه ١٩٦٩)



عندما تحول الاتحاد السوفيتى إلى روسيا الاتحادية، وفى ظروف الأزمة الاقتصادية الخانقة، بدأ التفكير فى «تسويق» المحطة والحصول على موارد يمكن أن تغطى مصاريف التشغيل. ولقد لاقت تلك الدعوة رغبة من الولايات المتحدة وأوروبا واليابان للاستفادة من «مير» فى أعمال تطوير وبناء المحطة الفضائية الدولية



الأحلام» كان محاولة ذكية لتحقيق ربح من عمليات الدعاية للمحطة. فالهدف كان عمل أرشيف كامل لها بالصور والوثائق والأفلام بأحدث الطرق الرقمية تغطى كل الأنشطة الفضائية المتصلة بها وطريقة بناء المحطة وتجميع أجزائها وكيفية وضعها فى مدارها حول الأرض.

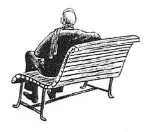
بجانب ذلك، احتلت صناعة الدواء والبحوث البيولوجية والنانوتكنولوجي (هندسة المواد الجديدة من مكوناتها الذرية الأساسية) مكانة خاصة بين الأنشطة الأخرى المقترحة للاستثمار التجارى. ومن خلال سلسلة من الندوات وورش العمل نجحت الناسا فى رسم إطار لما يمكن عمله داخل المحطة فى هذه المجالات. ولم تقتصر تلك النوعية من البحوث والإنتاج الخاص على الصناعة فقط، بل امتدت إلى البحوث الأكاديمية التى تُجريها مراكز البحوث والمنظمات والهيئات المهتمة بالصحة والإنسان. ولقد تحقق بالفعل أكثر من ٢٣ اتفاقا و ١٨ مذكرة تفاهم بين وكالة الفضاء الأمريكية وكثير من المعاهد والهيئات الهامة مثل: المعهد القومى للصحة والمعهد القومى للسرطان والمعهد القومى للشيخوخة. وسوف تنفذ تلك الأنشطة عندما تبدأ داخل المعمل الأمريكى وفى المعمل الأوروبى والمعمل اليابانى وكلها أجزاء من المحطة الدولية. وهناك اهتمام رئيسى بالبحوث الخاصة بمشاكل رواد الفضاء الصحية والبيولوجية.

وفى تقرير «للأكاديمية الأمريكية للعلوم» بعنوان «مستقبل بحوث التكنولوجيا الحيوية على متن المحطة الفضائية الدولية»، ظهر الاهتمام بعلوم الأنسجة وبناء سلاسل جديدة من البروتينات. إن انعدام الجاذبية داخل المحطة يسمح بتطوير مواد وتركيبات أكثر نقاء مما هو متاح على سطح الأرض، كما أن علم الأنسجة يتطلع إلى معرفة تأثير انعدام الجاذبية على عمل الخلايا وانقسامها. ويصب كل ذلك فى مجال واسع من التطبيقات العملية التى تحظى باهتمام المجتمع البشرى مثل صناعة الأعضاء وعلاج السرطان ومرض الإيدز وأمراض القلب والدم والمناعة والعظام. وتميل الأكاديمية إلى تأكيد أنه برغم إغراء الاستخدام التجارى للمحطة إلا أن الهدف الأساسى من إنشائها هو البحوث العلمية، ومساندة برنامج الاستكشاف الفضائى فى المستقبل. ومن هذه النقطة تركز الأكاديمية على وضع برامج جديدة للبحوث والتفكير فى كيفية إدارة المحطة من هذا المنطلق، على أن يشارك المجتمع البحثى والعلمى فى تصميم تلك البرامج ووضع الخطط المختلفة المنفذة لها.

زمن الإنسان العادى

وأكثر ما أثار جدلا فى موضوع استخدام المحطة هو فتح أبوابها «للإنسان العادى» أو بتعبير آخر للسياحة الفضائية. وحتى الآن اقتصر دور المواطن على دفع تكلفة غزو الفضاء من خلال الضرائب والتبرعات، لكن أحدا لم يسمح له بان يضع قدمه داخل مركبة فضائية ليشارك الرواد سفرهم المحفوف بالمخاطر. وتحتفظ الذاكرة التاريخية بجحافل البشر المهاجرين إلى «الأرض الجديدة» فى عصر الكشوف الجغرافية على الأرض، والأعداد الكبيرة منهم التى ماتت من الجوع والمرض وغدر الطريق، قبل أن تطأ أقدامهم الأرض الموعودة. وبشكل عام ينظر العلماء إلى مشاركة الإنسان العادى من زوايا مختلفة ومتعارضة أحيانا. المؤيدون يرون أن زمن الإنسان العادى فى الفضاء قد آن أوانه فى ضوء المشاريع المختلفة التى يفكر فيها علماء الفضاء، مثل بناء مستعمرة فوق القمر أو المريخ، حيث لا يمكن الاعتماد إلى ما لا نهاية على الرواد المدربين والمختارين لتلك المهمة. ومن وجهة نظرهم أن المجال قد أصبح متاحا بعد بناء المحطة الدولية التى يمكنها استضافة سبعة أشخاص بعد أن كان العدد من قبل فى المحطات السابقة لا يزيد على واحد أو اثنين. إن برنامج الفضاء بكل تعقيداته الفلسفية والعلمية والتكنولوجية يحتاج بجانب المهندسين والعلماء إلى خيال الكتاب والأدباء والشعراء والفنانين.

ويرى المعارضون أن الأوان لم يحن بعد، فالمخاطر مازالت كثيرة، وإذا تعرض لها فرد



عادى بدون تدريب وتجهيز سابق فربما يهدد الرحلة كلها بصورة من الصعب التنبؤ بها. ولقد سافرت بالفعل من قبل «مدرسة أطفال» فى إحدى رحلات مكوك الفضاء بعد أن مرت بمرحلة تدريب قاسية، ورغم ذلك كان قدرها أن تموت مع باقى الرواد بسبب انفجار المكوك بعد انطلاقه مباشرة فى رحلة مشئومة.

سياحة فى الفضاء

بدأ الحديث عن «سياحة الفضاء» منذ فترة طويلة، لكن المبادرة الحقيقية ظهرت بالفعل فى يونية ٢٠٠٠ عندما أعلن «دينيس تيتو» أحد المستثمرين الكبار فى «وول ستريت» والبالغ من العمر ٥٩ عاما استعداده لدفع عشرين مليون دولار لقضاء بعض الوقت داخل المحطة الفضائية «مير» وأجريت له بالفعل بعض الفحوص الطبية بواسطة الشركة المسئولة عن إدارة أعمال المحطة السوفيتية. ولم يكن تيتو غريبا تماما عن هذا المجال، فقد عمل لفترة كمخطط لرحلات الفضاء فى «معمل الدفع النفاث» Jet Propulsion Laboratory (JPL) وهو المركز رقم واحد فى الولايات المتحدة المسئول عن التخطيط والإشراف على رحلات الفضاء المتجهة إلى كواكب المجموعة الشمسية. لكن ما حدث من تغير فى خطط الحكومة الروسية واتخاذها قرارا بوقف الرحلات إلى «مير» وقف عقبة أمام حلم «تيتو» فى السفر إلى الفضاء.

لكن إغراء الفكرة والمبلغ الكبير كانا وراء تحول التفكير الروسى من استخدام «مير» كمكان لزيارة الرجل إلى المحطة الدولية، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أعلنت الشركة المسئولة عن تنظيم الرحلة أن رحلة سياحية ثانية سوف يتم تنظيمها قبل نهاية العام.

هذا التطور السريع فى الأحداث أربك الأمريكيين وأصبحت ردود أفعالهم متناقضة. عبَّر مدير الناسا عن عدم حماسه لتلك المخاطرة والسماح بوجود فرد عادى داخل المحطة فى ظروف انشغال باقى الرواد المقيمين داخلها بتجميع أجزائها. واستنكر السيناتور الأمريكى الجمهورى «رالف هال» الفكرة وأرسل إلى مدير الناسا خطابا حادا قال فيه إن رحلة «تيتو» يمكن أن تعرض المحطة الجديدة للخطر من أجل إرضاء رغبات رجل غنى بعد أن أنفق عليها دافعو الضرائب بلايين الدولارات. ومن ناحية أخرى وجدت الناسا أنه مع توفر الشروط اللازمة لسفر «تيتو» فإن فى الأمر جانبا تعليميا ودعائيا لا يجب أن تسقطه من الحساب، والأهم من ذلك الاستجابة لرغبة تبدو قوية عند قطاع عريض من الناس للسفر إلى الفضاء..رغبة لا يمكن إغفالها ويجب تفهم دوافعها.

من الأرض إلى الأرض: نهاية مير

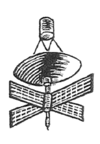
فى يونية ٢٠٠٠ زحف ثلاثة من طاقم محطة الفضاء «مير» عبر القناة التى تربطها بكبسولة العودة «سيوز» وقاموا بإغلاق فتحة الممر للمرة الأخيرة، وتركوا المحطة بلا عودة فى طريقهم إلى الأرض. لقد عانت «مير» كثيرا فى سنواتها الأخيرة، فلم تنقطع المشاكل والأعطال فى شكل حرائق وتسرب للسوائل وانخفاض فى الضغط وانهيار لمصادر الطاقة ووسائل تأمين الحياة. وبرغم كل شيء كان هناك إجماع شبه كامل على أن «مير» تمثل قطعة غالية من التكنولوجيا الروسية البديعة. كانت أكبر بيت صنعه البشر وجمعت أجزاؤه ووضع فى مدار حول الأرض، ولن يتفوق عليه بناء مماثل إلا فى سنة ٢٠٠٢ عندما تقترب المحطة الدولية من مراحل تجميعها الأخيرة.

تحملت «مير» طيلة خمسة عشر عاما أشعة شمس لا ترحم، وبردا قارسا، وشلالا لا يتوقف من الشهب الصغيرة. وخلال حياتها دارت ٨٧٦٠٠ مرة حول الأرض، وأجرى داخلها ١٦٥٠٠ تجربة، وساعدت فى تطوير ٦٠٠ من التكنولوجيات الصناعية، وتدرب داخلها ١٠٤ من الرواد حقق بعضهم أرقاما قياسية لم تتحطم حتى الآن. لقد كانت «مير» مصدر إلهام لكل ضيوفها الكثيرين الذين جاءوها من معظم قارات العالم ولم تبخل عليهم بالخبرة والعلم عندما عنّ لهم بناء بيت جديد.

كان قرار التخلص من «مير» صعبا على المشاعر الوطنية الروسية، وعندما حان الوقت المحدد فى فجر الثالث والعشرين من مارس ٢٠٠١ وبدأ العد التنازلى لإسقاطها، أشعلت المحطة الأرضية محركا صاروخيا صغيرا متصلا بها فدفعها بعيدا عن مدارها، وتركها تهوى صوب الأرض وتتمزق وتحترق وتتحول إلى شظايا ورماد أخذته الرياح ونثرته فوق مياه المحيط الواسع. ■

المراجع:

1. Fred Guterl, "Mir: A Falling Star" Newsweek, March 19, 2001, p. 44-47.
2. Erick Check, "Space Station: Craters Ahead", Newsweek, March 19, p.48-49.
3. Frank Sietzer Jr., "Mir: Resting in peace", Aerospace America, May 2001, p.36-43.
4. Roald Z. Sageev, "Farewell to a cold warrior: Mir Station Obituary", The Planetary Report, March/April 2001, p.4-7.
5. Steven J. Isakowitz, "International Reference Guide to Space Launch Systems", AIAA, 1992.



كتاب الزاوية

من أشعار ناظم حكمت

نصائح إلى مرشحى السجون

انظر إلى وجهك بعد كل حلاقة.
انس عمرك،
احترس من القمل،
ومن نسمات أمسيات الربيع الباردة،
احرص أيضاً
على تناول حصتك من الخبز حتى اللقمة الأخيرة،
واحذر من نسيان الضحك ملء الفم . . .
من يدرى؟
قد تقلع المرأة التى تحبها عن حبك،
لا تستهن بالأمر!
فتلك مسألة جادة تحدث لدى السجين
شعوراً كما لو أن غصناً أخضر قد قصف.
سيِّئ أن تحلم بالورد والبساتين وأنت فى الداخل،
جيّد أن تحلم بالغابات والبحار الصاخبة.
أوصيك بالقراءة والكتابة على الدوام
إضافة إلى تعلم الحياكة،
وصب المرايا.
ليس مستحيلاً أن تقضى فى السجن
عشراً من السنين، خمس عشرة . . وأكثر
ذلك ممكن شريطة:
ألا تسودّ تلك الجوهرة النائمة تحت ثديك الأيسر!

آيار ١٩٤٩



مصر كيف تغادر بوابة العالم الثالث؟

أحمد زويل

مع كل الميزات والمواهب والموارد الموجودة في مصر فإنني أتساءل: ما الذي نفتقده. إن بلادًا أخرى مثل الهند وكوريا الجنوبية والصين أظهرت تقدمًا عظيمًا في بعض المجالات فلماذا لا يحدث الأمر ذاته مع مصر؟!





عندما غادرت مصر في الثالثة والعشرين من عمري، كنت مدركًا تمامًا مدى تأثيرها على قيمي الأسرية والتعليمية، لكني لم أكن مدركًا تمامًا لمدى مساهماتها في حضارة العالم، ثم عرفت أنه في كل مجال من مجالات المعرفة تقريبًا، يتعلم الأطفال في الغرب حضارة مصر القديمة مزودة برسوم عن أفضل الأعمال المعمارية وتحديدًا الأهرامات ومنارة الإسكندرية القديمة وهما اثنتان من عجائب الدنيا السبع في العالم القديم.. وخلال تاريخها المكتوب الذي يزيد على ستة آلاف عام عاشت مصر استمرارية ممزوجة بثقافات وديانات مختلفة، فمن الأسر الفرعونية إلى عصر البطالمة ثم العصرين الروماني والمسيحي إلى الثقافتين الإسلامية العربية والقبطية حاليًا إضافة إلى الثقافات التي خبرتها مصر نتيجة حملات الغزو والاستعمار على أيدي قوى أجنبية.

وقبل فترة قصيرة، كنت أقرأ في سلسلة من الكتب العلمية مع أطفالي واكتشفت أنه في كل موضوع قرأناه، سواء كان الضوء أو الزمن أو المادة أو الكيمياء أو الورق أو اللغة أو الفنون أو الدين، كان يرد اسم مصر أولاً بين الدول التي ساهمت في تعريف العالم بهذه الموضوعات.

الموقف الآن مختلف. مصر لديها من السكان حوالي ٧٠ مليون نسمة ومواردها محدودة، وهي تعتبر من الدول النامية التي يسميها البعض «العالم الثالث»، وهو مصطلح لا أجده مناسبًا ولذلك سألت نفسي: ماذا حدث للمصريين؟ لماذا لا تكون مصر دولة متقدمة؟ وبالنظر إلى أن مكانة الأمم في صعود وهبوط عبر الزمن فإنني أتساءل: هل تستعيد مصر مجد أيامها الخوالي؟ ثم ما هو مستقبل مصر؟

ولأسباب مختلفة، فإنني أسأل نفس الأسئلة عن الثقافة الأمريكية: وبعد أن أمضيت أكثر من ٣٠ عامًا في الولايات المتحدة فإنني أقدِّر تمامًا نواحي القوة في الأمة الأمريكية كالشخصية الشابة والانفتاح والمؤسسات الديمقراطية التي تضمن الحرية والاحترام للشعب الأمريكي، كما أقدر الإنجازات الأمريكية في العلم والتكنولوجيا وفي خلق فرص جديدة للشباب. أمريكا هي بلد الفرص. لكني أتساءل: هل تستطيع الولايات المتحدة الحفاظ على دورها القيادي في عالم معقد ومتفاعل؟ وهل تستطيع الحفاظ على هيكل اجتماعي متوازن مع استمرار مؤسسات النخبة في الوقت نفسه؟ وهل يمكن أن يستمر تفوقها مع نظام التعليم الحالي؟ كما أتساءل: لماذا هذا العنف داخل أمريكا والكراهية لها من الخارج؟

وبالنسبة لكلتا الثقافتين المصرية والأمريكية.. هناك أسئلة معقدة وصعبة، وأعتقد أنني في وضع يسمح لي بأن أتعامل مع هذه المسألة على الأقل لكوني شخصًا يأمل الخير في هاتين الثقافتين وأن خبراتي في كلتا الثقافتين مهمة في تحليل وتشريح المشاكل التي تواجههما.

ترجمة بتصرف من:

Voyage Through Time.. Walks of Life to The Noble Prize

(رحلة عبر الزمن)

Ahmed Zuwail

The AUC Press, Cairo, New York, 2002

إن مصر لديها الموارد البشرية والتاريخ واحترام العالم ولكن هناك شيئًا أهم وهو حب المصريين لمصر، الأمر الذي يجعل إيماني بقدرات وإمكانيات مصر أقوى، إن المصريين يتجادلون ويتبادلون النكات حول بلدهم وزعمائهم، لكنهم حساسون بل وعاطفيون عندما يتعلق الأمر بالهجوم عليها. وهم يقدرون قيمة التعليم والإنجازات العلمية والثقافية. وقد خبرت ذلك عندما رأيت مصر كلها تحتفل بمنحى جائزة نوبل وقلادة النيل، وحتى قبل ذلك كان المصريون على علم ببعض اكتشافاتي العلمية.

ومع كل الميزات والمواهب والموارد الموجودة في مصر فإنني أتساءل: ما الذي نفتقده؟ إن بلادًا أخرى مثل الهند وكوريا الجنوبية والصين أظهرت تقدمًا عظيمًا في بعض المجالات فلماذا لم يحدث الأمر ذاته مع مصر؟ ثم إن مصر واليابان بدأتا نهضتهما الحديثة معًا حوالي عام ١٨٧٩ والآن فإن اليابان جزء من العالم المتقدم بعكس مصر. إن من الواضح أنه ليست هناك أسباب جينية تمنع مصر من تحقيق تلك المكانة، لكن هناك كلمة واحدة ربما تقول كل الكلام. وهي النظام، فقد كان لدى الألمان الشرقيين نفس التركيبة الجينية والثقافية التي لدى الألمان الغربيين لكن الألمان الشرقيين لم يتوسعوا في السوق العالمية بالقدر الذي فعله الألمان الغربيون بسبب النظام الذي كان يحكم حياة الناس وعملهم. والحقيقة نفسها تنطبق على الكوريتين الشمالية والجنوبية.

إن لمصر موقعًا فريدًا يمكّنها من التقدم للأمام فهي زعيمة للعالم الإسلامي وهي بلد الأزهر الشريف. كما أنها تفتخر بتراثها المسيحي الغني والكنيسة القبطية اليوم جزء من الثقافة المصرية. كما أن مصر هي أكبر دولة عربية من حيث السكان لكن قوتها تتجاوز مسألة السكان والعرب يعتبرونها مركز الثقافة العربية والمسرح والفنون والسينما وبرامج التليفزيون، هذه المكانة الفريدة مع الانفتاح على العالم إضافة إلى كونها مهد إحدى أقدم الحضارات تجعل مصر حالة خاصة مميزة.

لقد اعتمدت مصر في دخلها خلال السنوات الأخيرة على السياحة وقناة السويس وعائدات البترول وأيضًا عائدات المصريين العاملين بالخارج خاصة في العالم العربي، ولكن مع إمكاناتها الهائلة كان على مصر أن تتخطى هذه الموارد الطبيعية وتدخل عالم التكنولوجيا والعلم وتستعيد بعضًا من مجدها الغابر.

وأرى أن الوصفة التالية تمثل مخرجًا من الموقف الحالي للتوجه إلى مستقبل جديد. وأنا أقدم «قائمة الأمنيات» تلك ليس من باب النقد ولكن رغبة مني في أن يستعيد بلدي الأم موقعه الصحيح بين أمم العالم المتقدمة. وآمل أنه بدلاً من اتخاذ موقف دفاعي تجاه تلك الأفكار أن نبدأ بشكل علمي في دراسة مدى فائدتها أو عدم قدرتها على التطبيق. ولكن بغض النظر عما سنفعله فإن التغيير مطلوب. وقد بذل الرئيس مبارك كل ما في وسعه لبناء

البنية الأساسية لمصر وحان الوقت للانتقال إلى العالم المتقدم. وأنا متفائل بطبعي وأعتقد أن ذلك يمكن أن يتم.

إننى أرى ثلاث ركائز تشكل مثلث التغيير فى مصر وهى التعليم والبيروقراطية والقانون. وإذا ما تم تحديد هذا المثلث بوضوح، فإن الناس ستدعم تمامًا محاولات بناء مستقبل زاهر لمصر. إن الأولويات يجب أن تكون واضحة: أولاً: الاستثمار فى المستقبل يجب أن يركز على خلق نظام تعليمى عملى على مستوى عالمى والاهتمام بالتراث الوطنى مثل الآثار التاريخية وبالتغيرات البيئية والمناخية. ثانيًا: إقامة اقتصاد قوى وزيادة الناتج المحلى الإجمالى ممكن فقط إذا ما تم إحداث تغييرات سوف أذكرها لاحقاً. ثالثًا: الأمن القوى يجب أن يشمل، إضافة إلى الدفاع عن البلاد، أمرين على نفس القدر من المساواة وهما الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط، وحماية النيل وموارد المياه. وهذه الأولويات لا يجب أن تكون مثار اتفاق القليلين ولكن لابد أن يتقاسمها المواطنون إجمالاً.

كل من أقابله فى مصر يتحدث عن الحاجة إلى نظام تعليمى جديد لكن الصورة تبدو مشوشة ويكون التساؤل لماذا وكيف؟ وربما تبدو الإجابة على لماذا أكثر وضوحًا من كيف إن خلق نظام تعليمى على مستوى عالمى يتطلب دراسة النظام الحالى بالتفصيل لكنى أرى أن التغيير مطلوب بإلحاح بالنظر إلى مستوى خريجى الجامعات ومهارات العمل وأخلاقيات الطلاب.

إن إدخال مفاهيم مثل فريق العمل والثقة فى قدرة الشخص، وغياب الفهلوة، كما أن قيم العمل تتطلب أسلوبًا جديدًا للتعليم ومناهج جديدة تستهدف تقديم توليفة حقيقية من هذه القيم. وبالطبع لا يمكن تحقيق هذه الأهداف من أجل التنافس مع الدول المتقدمة بينما نسبة الأمية لاتزال تقترب من ٥٠٪.

ومن الضرورى أن تغير مصر نظامها التعليمى الحالى إلى نظام أساسه الكفاءة واستخراج أفضل ما فى الطلاب وتوفير مكان فى الجامعة لمن يستحق أن يدخلها. ومصاريف التعليم لابد أن تتحملها الأسر القادرة على أن تدفع وأن يتم إعفاء الطلاب غير القادرين الذين يحرزون درجات عالية. كما أنه من الضرورى زيادة عدد المدارس الفنية وكذلك قدرة هذه المدارس من أجل بناء قاعدة فنية فى كل القطاعات بمصر.

وعلى مستوى الدراسات العليا بالجامعات، أعتقد أنه لا مخرج سوى إقامة بعض مراكز الامتياز. وهذا ليس رفاهية ومن الضرورى تحقيق ذلك لكى تنافس مصر عالميًا وتُنمى مكانتها الوطنية تمامًا مثلما فعل الألمان مع معاهد ماكس بلانك والفرنسيون مع الكوليج دوفرانس والولايات المتحدة مع معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا «إم.آى.تى» وإسرائيل مع معهد وايزمان وتكنون والهند مع المعاهد الهندية للتكنولوجيا وقد كنت ومازلت مستعداً للمساعدة فى هذا المسعى.



البيروقراطية هى الركيزة الثانية فى المثلث، وبعض البيروقراطية ضرورة فى أى نظام ولكن عندما يتدخل الروتين فى شئون الناس ويمنع استقلالية التفكير فإنه من المحتم تنفيذ أفكار تقدمية ذات رؤية فى هذا الصدد. إن الديمقراطيات على النمط الغربى ليست الطريق الوحيد للحكم لكن من الواضح بالنسبة لى أن الانتفاع بالموارد البشرية فى عمل جماعى يتطلب عملية ديمقراطية هى بالأساس مناهضة للبيروقراطية، وأعتقد أن الحد من البيروقراطية أمر حاسم لتحقيق أى تقدم اقتصادى أو ثقافى كبير.

لقد كانت لى تجربة مباشرة مع جامعة العلوم والتكنولوجيا ومشروعات أخرى فى مصر وظهر لى كيف تستطيع البيروقراطية و«قوة الكرسى» - أو بمعنى أكثر دقة قوة المنصب - إعاقة أى تقدم حقيقى. فقد وافق الرئيس مبارك بحماس على فكرة جامعة العلوم والتكنولوجيا لأنه يرى أن مصر لن تكون قادرة على المشاركة فى العولمة مالم تتكافأ تكنولوجياً وعلمياً مع بقية العالم، وهذا يعنى ضرورة أن يجد العلماء الشباب عملاً بحثيًا منتجًا وفعالاً فى مصر وإلا يضطرون لمغادرة مصر لكى يحلموا بالمشاركة بشكل أكبر فى الإنجازات العلمية والتكنولوجية.

ورغم أن أوامر واضحة صدرت فيما يتعلق بجامعة العلوم والتكنولوجيا، إلا أن التنفيذ البطىء للخطة كان كافيًا بشعور أى شخص جاد لديه التزامات ومطالب محددة فيما يتعلق بالوقت، بالإحباط. لقد بدأ المشروع فى أول يناير عام ٢٠٠٠ فى مدينة السادس من أكتوبر على مشارف القاهرة من أجل بناء حرم جامعى على مساحة حوالى ٣٠٠ فدان وقد استكملت إقامة الهياكل الأكاديمية والإدارية ولدىَّ إيمان قوى بأن الجامعة لكى تنجح لابد أن تكون منظمة غير حكومية غير هادفة للربح، ويجب أن يكون لها قانونها الداخلى الخاص بها وتمويل. ومجلس للأمناء مؤلَّف من شخصيات بارزة من مصر والعالم، لكن حملة جمع التبرعات لهذا التمويل أو «الوقف» لا يمكن أن تبدأ بدون دعم عملى وقانون يصدر فى توقيت مناسب لتحقيق ذلك. والبيروقراطية ليس لديها أى اهتمام بالوقت، إن هناك خطة فى ميثاق جامعة العلوم والتكنولوجيا لإقامة وادى تكنولوجيا يساعد مصر فى التكنولوجيا المتقدمة وفى جلب صناعات التكنولوجية الفائقة.

الركيزة الأخيرة لمثلث التغيير فى مصر هى القانون. إن مصر تمتلك نظامًا قضائيًا قويًا وقوانين واضحة لكن المشكلة فى تنفيذ تلك القوانين. وهناك حالات يتحايل فيها الأفراد على القانون ابتداء من المخالفات المرورية وحتى التورط فى عمليات فساد بمليارات الدولارات. وهذا أمر خطير ليس فقط بسبب تأثيره على المواطنين ولكن أيضًا لدوره السلبى فى جذب المستثمرين الأجانب. ومصر بحاجة لتعديل النظام القانونى وتطبيق القانون على كل مواطن دون واسطة أو بقشيش.

هذه المشاكل التى أوضحتها ليست مقصورة على مصر فقط بل هى موجودة فى العالم العربى. وفى بعض دول العالم النامى وحتى فى الدول العربية الغنية بالبترول، هناك حاجة لتغيير نظم العمل فالأموال وحدها لا يمكن أن تبنى أمة متقدمة. ورغم تحقيق تقدم فى هذه الدول العربية الغنية إلا أنها لم تصبح فى مصاف الدول المتقدمة. وعلاوة على ذلك، ليست هناك روابط اقتصادية قوية بين دول العالم العربى بالمقارنة بالدول الأوروبية.

وما لم تتحقق وحدة عربية فى شكل سوق مشتركة فإننى لا أرى أى تأثير للموارد العربية فى الأسواق العالمية. إن هناك بعض الوحدة فى التبادل الثقافى والترفيه. لكن من الضرورى تقوية الاستثمار الاقتصادى والعلمى بين الدول العربية بشكل جزئى من خلال الجامعة العربية.



من ناحيتها، تواجه أمريكا مشكلات من نوع آخر وأيضًا تحديات جديدة والأسئلة هنا مختلفة عما سبق. إن الولايات المتحدة تطبق القانون على الجميع من مخالفات المرور حتى فرض الضرائب والناس سواسية أمام القانون. ومع ذلك فإننى عندما أزور عديدًا من الدول يبادرنى البعض بالقول: فى أمريكا إذا كان لديك مال يمكنك أن تشترى القانون ويشير كثيرون إلى قضية أو.جى.سيمبسون نجم كرة القدم الأمريكية السابق كمثال شهير لذلك، فالكثيرون يعتقدون أنه قتل زوجته السابقة لكنه استأجر فريقًا من المحامين البارعين الذين نجحوا فى إقناع المحلفين بأنه برىء. وأعتقد أنه فى النظام الرأسمالى تلعب الثروة دورًا مهمًا حيث يمكنك استئجار أفضل المحامين ويمكنك أن تشترى «راحتك» فى المجتمع لكنى أعتقد أيضًا أن ذلك يحدث فى كل مكان ومن السذاجة الاعتقاد بأن الديمقراطية نظام مثالى بشكل مطلق.

أمريكا أيضًا لديها مؤسسات تعليمية تجتذب الكثيرين من أنحاء العالم ورغم أن الأمريكى العادى لا يتعلم الكثير بشأن بقية العالم إلا أن وجود معاهد وكليات صفوة ونظام مدرسى ذى قاعدة واسعة يجعل المجتمع قادرًا على التقدم وتحقيق أعلى معدلات الناتج المحلى الإجمالى فى العالم. كما أن البيروقراطية الأمريكية فى حدودها الدنيا والنظام الأمريكى يؤمن باستقامة الفرد إلى أن يثبت العكس، وهذا لا يعنى أن كل شىء فى أمريكا على ما يرام ولكن ما أريد قوله هو أنه لا بد من الحذر فيما يتعلق بالتعميم بدون معرفة أسس المجتمع الأمريكى.

وإذا كان الأمر كما سبق فلماذا أبدو قلقًا على مستقبل أمريكا.. إن هناك ثلاث مشاكل تدور فى ذهنى فى هذا الصدد وهى التعليم والبحث ثم العنف وأخيرًا النظرة الضيقة للعالم.

وبالنسبة للتعليم والبحث، فإنك فى الولايات المتحدة يمكنك أن تجد أفضل تعليم ممكن لكنه ليس متاحًا لغالبية المواطنين، كما أن الولايات المتحدة بدأت تتخفف من جهودها لجعل العلم جزءًا من تعليم كل شخص غنيًا كان أم فقيرًا، وهى حاليًا فى المركز السابع عشر فيما يتعلق باختبارات الرياضيات بالنسبة للمدارس الثانوية على مستوى العالم. وجزء من المشكلة يتعلق بالنظام التعليمى، فالمدارس الخاصة تقدم لتلاميذها تعليمًا راقيًا يمكنهم من تعلم المهارات الأساسية والتفوق فى عالم التكنولوجيا الحديثة بعكس بعض المدارس العامة التى تفتقر للموارد والمدرسين الأكفاء ويخرج التلاميذ من هذه المدارس وهم غير قادرين على مواجهة العالم الحديث.

هناك مشكلة أيضًا تتعلق بموقف بعض الأمريكيين من العلم. فهم على أساس دينى يرفضون بعض النظريات العلمية وهذا ليس مقصورًا على أمريكا فقط، ومازال بعض الآباء حتى الآن يرفضون أن يتعلم أبناؤهم نظرية النشوء والتطور لداروين. إن الناس مسموح لهم بالإيمان بما يرغبون لأن الدستور الأمريكى يفصل بين الكنيسة والدولة ولكن المدرسين أيضًا يجب أن يقوموا بتدريس العلم دون خجل أو تأنيب ضمير.

البحث العلمى مسألة أخرى مهمة حيث إن الدعم المالى لهذا البحث لا يتناسب مع دولة عظمى وهذا مصدر قلقى. فقد تناقص تمويل الأبحاث بشكل كبير.

المشكلة الثانية التى آمل أن تعالجها أمريكا فورًا ودون إبطاء ذات علاقة أيضًا بالتعليم وهى العنف الذى أصبح - سواء كان ذلك فى المدارس أو الشوارع، ظاهرة مقلقة لملايين الأسر. إننى أعيش فى واحدة من أفضل المناطق فى لوس أنجلوس لكنى أخشى أن أسير فيها ليلاً.

والبعض يعتقد أن أصول العنف تكمن فى التعدد العرقى فى المجتمع الأمريكى أو فى امتعاض الفقراء من الأغنياء، ولا أعتقد أن هذين فقط هما السببان الحقيقيان خاصة أن أغلبية المجتمع تنتمى للطبقة المتوسطة، ثم إن هناك تعددًا عرقيًا فى كندا وعديد من المدن الأوروبية، كما أنه فى القاهرة مثلاً فإن الفقراء مدركون للفجوة بينهم وبين الأغنياء لكنى أستطيع أن أسير فى تلك الأماكن دون الخوف من العنف. وأعتقد أن المسألة متعلقة بالفوضى الاجتماعية وعدم السيطرة على امتلاك الأسلحة ولابد من تعديل قانونى يجعل العقوبة تناسب الجريمة.

المشكلة الثالثة: فى أمريكا من وجهة نظرى.. النظرة الأمريكية الضيقة للعالم وهو ما يظهر فى الانطباع عن أن التعامل الأمريكى مع العالم سطحى ومتغطرس. وبينما أكتب هذا الكتاب فإن الخوف من الإرهاب محليًا وعالميًا يجتاح العالم ولابد أن تلعب أمريكا دورًا فى مكافحة الإرهاب الدولى وفى نفس الوقت فى العمل على احترام حقوق الإنسان وتضييق الفجوة بين الأغنياء والفقراء.. والمطلوب رؤية جديدة لا تنبع من بناء الدرع الصاروخى أو السياسات الانعزالية ولكن من بناء الجسور بين البشر والثقافات والأمم والأساس فى تلك الرؤية عدم تجاهل هؤلاء الذين لا يملكون أو هؤلاء الذين يشعرون بالإحباط فى بعض أجزاء من العالم. إن الفقر واليأس مصدران للإرهاب وزعزعة النظام العالمى.

إن العالم أصبح أكثر اعتمادًا على بعضه البعض. وقد ذاقت الثقافتان المصرية والأمريكية ثمار إنجازات عظيمة فى تاريخهما، وآمل أن يكون الحصاد للقرن الجديد والألفية الجديدة سخيًا لكل منهما وأن تنهض مصر من جديد وتنتهج الولايات المتحدة منظورًا جديدًا فى قيادتها للعالم. لقد قلت مرات عديدة أننى متفائل. ■

إننى أرى ثلاث ركائز تشكل مثلث التغيير فى مصر وهى التعليم والبيروقراطية والقانون. وإذا ما تم تحديد هذا المثلث بوضوح، فإن الناس ستدعم تمامًا محاولات بناء مستقبل زاهر لمصر

مـــاذا حـــدث للثقـــافـــة

جـــــلال أمـــــين

[١]

في سنة ١٩٥٥، أى منذ أقل قليـلاً من نصف قرن، صدر في مصر كـتـاب مهم يحمل نفس عنوان هذا المقال «في الثـقـافـة المصرية» للأسـتـاذين عبـدالعظيم أنيس ومـحـمـود أمين العالم. وقد أحدث ظهور هذا الكتاب دويًا واسع النطاق واهتم به المثقفون في مصر والعـالم العـربي اهـتـمـامًـا شـديـدًا، إمـا بالتـأييـد أو بالمعـارضـة، وظل لفـتـرة طويلة مـحل تـعليق ونقد، إيجابًا وسلبًا، وقد كان يستحق بالفعل هذا الاهتمام كما أنه بلاشك علاقة مهمة في مسار الثقافة المصرية.

ذلك أنه مهما كان ما يمكن أن يوجه إلى هذا الكتاب من نقد أو تحفظ على هذه الملاحظة أو تلك، وما قد يعتبر في أسلوب بعض فصوله من حـدة أو قـسـوة زائدة على بعض الكـتّـاب المصريين الكبار، فقد كان الموقف الذى عبّر عنه الكتاب موقفًا جريئًا وضروريًا، ويعكس شعورًا قـويًا كـان قـد بدأ يتـراكم لدى قطاع واسع ومتزايد الحجم من المثقفين المصريين بالسخط على سـمـة مـعـيـنة من سـمات المناخ الثـقـافي السـائد وقت ظهور الكتاب هى التي ركز عليها الكتاب وسلّط عليها الضوء كله وأشبعها نقدًا وتفنيـدًا. هذه السـمـة هى الانحـياز الطبـقي الغالب على الثقافة المصرية في ذلك الوقت، بما تضمنه من تجاهل وإغفال شبـه تام لحاجات ومشاعر ومطامح الغالبية العظمى من الشعب المصرى، وهى الـغـالبـيـة الفـقـيـرة والمظلومة اجتماعيًا واقتصاديًا.



كانت الملاحظة صحيحـة، وإثارتها في ذلك الوقت مطلوبة وواجبة، ولكن المناخ العام كان أيضـاً مـلائمًـا لاسـتـقـبـال هذه الصـيـحـة وهذا التنبيه. كانت ثورة يوليو ١٩٥٢ قد قامت قبل ثلاث سنوات من ظهـور الكتـاب، وكـان أحـد دواعي هذه الـثـورة، كـمـا كـان أحـد أهدافـهـا المعلنة، يـتـعلقـان بهذه القـضـيـة بالضـبط: الالتـفـات إلى حـاجـات الـغـالبـيـة العظمى من المصريين والنهوض بأحوالهم الاقـتـصـادية، ووضع حـد لما كـانوا يتـعـرضـون له من ظلم اجتماعي، أى إنـهـاء الانحـيـاز الطبـقي للنظام السياسي والاجتماعي المصرى، وها هما كاتبان شابان من ذوى الحمية والوطنية والحماسة، ينشران كـتـابـاً ينـاديان فيـه بنفس الشيء في ميدان الثقافة.

ثم مرت الأعوام، وما أكثر ما شهدته مصر من أحداث وتقلبات في السياسة والاقتصاد والثقافة في الخمسين سنة التالية، فإذا بنا، وقد شهدنا نهاية القرن وبدأنا الألفية الجديدة، نجد المنظر العـام للثقافة المصرية لا يكاد يشبه في شيء ما كان عليه قبل خمسين عامًا، وكان من عـاش بمصر في ١٩٥٥ وعلم ما كـان عليـه حال الثقافة في تلك الأيام، يكاد يستحيل عليه أن يتعرف على ما يراه من حالها اليوم. المشاكل القديمة جرى حلها، أو على الأقل اتخذت صورة مختلفة تمامًا بما كانت عليه في ١٩٥٥، ولكن مـشـاكل جـديدة أخطر وأفـدح ظهـرت على السطح، مما قـد يحـتـاج إلى أسلوب أشد حدة بكثـيـر من الأسلوب الذى اتخـذه عـبـدالعظيم أنيس ومحمود العالم منذ نصف قرن.

ووصف ما يحدث الآن في الساحة الثقافية في مصر ليس أبدًا بالأمر السهل، فالظواهر معقدة ومتشابكة، وجذورها متداخلة لا يعرف أولها من آخرها، والأمراض كثيرة مضى، على نشوئها وقت طويل حـــتى لا يكاد أن يكون من الممكن تحديد تاريخ الإصابة الأولى، ومضـاعـفـاتهـا كثيرة يصعب رد كل منها إلى أصله وسببه. والمسـئـوليـة عن هذه الأمـراض مـوزعـة على كثيرين ينتمون إلى عصور مختلفة، بعضهم رأسـمـالي، وبعضهم اشتراكي، ومنهم المصرى ومنهم الأجنبي، كـمـا أن منهم صـانعي الثـقـافـة أنفسهم ومنهم مستهلكوها الذين فرضوا أذواقهم ورغباتهم على صانعي الثقافة.

أيًّا كـان الأمـر، فـإن من المؤكـد أن المشكلة الأساسية لم تعد هى «طبقية الثقافة» بل هى شيء مـخـتـلف تمامًـا. صـحـيـح أن المشـاكل الثـقـافـيـة كلها لها بُعد اجـتـمـاعي واقتـصـادى واضح، ووثيقة الصلة بالتطورات الطبقية التى شهدها المجتمع المصرى خـلال الخمسين عـامـاً الماضـيـة، ولكن من المؤكـد مع ذلك أن المشكلة الثقافية الأولى لم تعد الآن، كما كانت أيام ظهور كـتـاب أنيس والعـالم، مـشكلة كـتّـاب وأدباء يعـبـرون عن انحـيـازات طبـقـيـة تتـجـاهل أو تتـعـارض مع مصالح غـالبـيـة الشعب المصرى من الفقراء، بل إن تصوير المناخ الثقافي المصرى الحـالي على أنه في الأسـاس نـتـيـجـة لمجـرد انحيازات ومصالح طبقية يبعد بنا عن الحقيقة أكثر مما يقرّبنا منها. فما هى السمات الأساسية إذن للمناخ الثـقـافي السـائد الآن في مصر؟ ومـا هى أوجه الفساد الحقيقية فيه؟

أظن أن القصة جديرة بأن تُروى من أوَّلها، بل حتى من قبل ١٩٥٥ بكثير، إذ إن من الممكن أن نلاحظ نمطًا مـعـيـنًا، يكاد أن يكون قـانونًا، خضع له تطور الثقافة المصرية خلال المائة عام الأخـيـرة كلهـا، بل ومنذ ظهـور الروّاد الأوائل للنهضة الثـقافية المصـرية في الربع الأخير من القرن التـاسع عـشر. هذا النمط الذى اتخـذه مسار الثقافة المصرية وتقلباته، وثيق الصلة - فيما يبدو لى - بمسار الطبقة الوسطى المصرية وما طرأ على حجمها وخصائصها من تطورات.



[٢]

دعنا نـتـفـق من البـداية على أن من أهم مـا يحدد سمات المناخ الثقافي لمجتمع ما في وقت معين هو من سمات الطبـقة الوسطى منه، وأن هذه المقولة ممكن القول بانطبـاقها بشكل عـام على المجتمع المصرى مثلما تنطبق على غيره. إذ إنها مقولة تبـدو منطقية تمامًا حتى لتكاد أن تكون بديهية.

ذلك أن الطبـقـة الوسطى هى في الأسـاس الطبقة المنتجة للثقافة (بالمعنى الضيق للثقافة الذى أتبناه في هذا المقـال، أى بمعنى الإنتـاج الفكرى والفني وليس بالمعنى الـواسع الـذى يشمل أيضًا أنماط السلوك والقيم والعادات)، كما أنها في الأساس الطبقة المستهلكة للثقافة. فالطبقة الدنيا في أى مجتمع، يحـول مستوى تعليمها ومستوى دخلها على السواء دون أن تلعب دورًا مهمًا في إنتاج الثقافة أو استهلاكها. أما الطبـقـات العليا فـمـشكلتـهـا كمنتـجـة أو كمستهلكة للثقافة ليست في مستوى التعليم أو الدخل بل تتمثل في أمرين: الأول هو انخفاض حجمها كنسبة من إجمالي السكان، مما يقلل من دورها كـمنتـج ومـسـتـهـلك للـثـقـافـة، والـثـانـي هوافتـقـادها لدافع نفـسى قوى لإثبات الذات، فأفرادها من حيث كونهم محظوظين اقتصاديًا واجتماعيًا لا يجدون في أنفسهم الحافز القوى لإثبات تفوقهم لا في ميدان تحصيل الثـقـافـة (الاستهلاك) ولا في ميدان القدرة على المساهمة فيها (الإنتاج). فإن قاموا بإنتاج الثقافة أو استـهـلاكـهـا فـالأغلب أن يكون ذلك على نحـو عابر، ومن باب التسلية أو الترفيه، بينما تتوفر حـوافز أخـرى أكـثـر قـوة لدى أفراد الطبـقـة الوسطى الحـريـصـين دومًـا على التـرقي والصـعـود، إما للحـاق بمن فوقهم أو لتـمـييز أنفسـهم عمن هم دونهم، أو لحـرصـهم أكثر من غيرهم على تغيير المجتمع إلى الأفضل.

هناك بالطبع استـثـناءات، إذ قد نجـد في تاريخ العـالم، وكـذلك في التـاريخ المصـرى، بعض المنتجين الكبار للثقافة ممن ينتمون إلى الأرستقراطية أو إلى الطبقات الدنيا، ولكن يظل هذا دائمًا استثناء محدودًا للغاية. نعم، ما أكثر الأمثلة لكـتّـاب ومـفـكـرين وفنانين أوروبيين (خـاصـة قبل القرن التـاسع عـشر) احـتـاجـوا بشـدة إلى رعـاية الأرسـتـقـراطيـة ودعـمـهـا وحمايتها، ولكن الأرستقراطية الأوروبية نفسها نادرًا مـا أنتـجت مفكرين أو فنانين أو كـتّـابًا مهمين. والملاحظة تنطبق أيضًا على مصر خلال القرنين الماضيين، إذ نادراً ما أنتجت الطبقة العليا في مصر منتجين كبارًا للثقافة.

هذه الحقيقة هى أقرب إلى البديهيات، مما لا يكاد يحتاج إلى تدليل. ولكن من الصحيح أيضًا، وإن كـان أقل وضـوحًا، أن الطبـقـة الوسطى لا تحـمل دائمًا نفس الخـصـائص والسمات، بل قد تتغير خصائصها وسماتها من مجتمع لآخر ومن عصر إلى آخر. إننا كثيراً ما نسـمـع أو نقـرأ كـلامًـا يكيل الثناء للطبـقـة الوسطى، بوجه عام، بـاعـتـبـارها حاملة لواء التقدم، أو المنوطة بتحقيق التنمية الاقتصادية، أو الحارسة للديمقراطية.. إلخ ولكن الأرجح أن هذا الإفراط في الإعجاب وتعليق الآمال على الطبقة الوسطى منبعهما ميل خاطئ إلى تعميم التـجربة الأوروبية على المجتمعات الأخرى والظن بأن السـمـات التى طبـعت الطبـقـة الوسطى في أوروبا، في نشـوئهـا وتطورها ابتداء من القرن أو القـرنين السـابقـين على الثورة الصناعية، وحتى اكتمال هذه الثورة، هى في نفسها بالضرورة سمات الطبقة الوسطى التى نمت بسرعة في بلادنا (وأكثر بلاد العالم الثـالث الأخـرى) خـلال نصف القرن الماضي. ولكن الحقيقة - فيما يبدو لى - هى أن الطبقة الوسطى يمكن أن تلعب دوراً إيجابيًا في ازدهار ثقافة أمة من الأمم، وفي نهضتها بوجه عام، ويكون لها من السمات والخصائص ما يستحق التـقدير والإعـجـاب، بينما قد تلعب الطبـقـة الوسطى في أمة أخرى، أو في ظروف مغايرة، دوراً غـيـر حـمـيـد في تطور الـثـقـافـة ومـعطّل للنهضة.

يمكن تفـسـير ذلك بأن سـمات وخـصـائص الطبقـة الوسطى تتأثر إلى حد بعيد بعـاملين أساسيين، الأول هو طبيعة المصدر الأساسى لدخل هذه الطبقة وثروتها، والثانى هو درجة السرعة التى تجرى بها زيادة هذا الدخل وهذه الثروة. أما مصدر الدخل والثروة فقد يكون عملاً

وصف ما يحدث الآن في الساحة الثقافية في مصـر ليـس أبدًا بالأمر السـهل، فالظـواهـر معقـدة ومتشابكـة، وجذورهـا متـداخلة لا يعرف أولها مـن آخرهـا، والأمـراض كـثـيـرة، مضى على نشوئهـا وقت طـويل حتـى لا يكـاد أن يكـون مـن الممكن تحـديـد تاريـخ الإصابـة الأولـى



في الثقافة المصرية
عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم
بيروت - دار الفكر الجديد، ١٩٥٥.

المصـــــرية فى نصـــــف قـــــرن

١٩٥٢ - ٢٠٠٢

منتجًا، كالاشتغال بالزراعة أو الصناعة أو بعض أنواع التجارة أو ممارسة مهنة كالمحاماة أو الطب أو التدريس أو حرفة كالنجارة أو السباكة. ولكن مصدر الدخل والثروة يمكن أيضًا أن يكون عملاً غير منتج كأعمال السمسرة أو المضاربة وبعض أصناف التجارة كما قد يكون عملاً غير أخلاقى وغير مشروع كالرشوة وتلقى العمولات أو الإتجار فى المخدرات أو تهريب السلع.. إلخ.

وأما السرعة التى تجرى بها زيادة الدخل وتكوين الثروة فهى ليست إلا تعبيرًا آخر عن معدل الحراك الاجتماعى. فانتقال الشخص من الطبقة الدنيا إلى الطبقة الوسطى مثلاً قد يتم عبر فترة طويلة تستغرق معظم حياة هذا الشخص، وهو ما يحدث عادة إذا كان سبب هذا الانتقال هو التعليم أو الاشتغال فى الصناعة أو التجارة فى ظروف مستقرة نسبياً. ولكن زيادة الدخل وتراكم الثروة قد يحدثان أيضاً بين يوم وليلة، وعلى الأخص فى فترات التضخم الجامح الذى قد يسمح بتحول الحرفى البسيط إلى مليونير إذا مارس فى نفس الوقت عملاً ناجحًا فى مجال المضاربة، أو استطاع أن يقتنص إحدى الفرص التى يتيحها التضخم فقام بالشراء والبيع فى الوقت المناسب. قد يحدث مثل هذا أيضاً فى ظروف تتيح الهجرة إلى بلاد أعلى دخلاً وأكثر فرصًا، كبلاد النفط مثلاً، أو فى ظروف الحرب، أو حين يعم الفساد وتشيع الرشوة.. إلخ.

إن أفراد الطبقة الوسطى الذين يحصلون على دخلهم من الزراعة أو الصناعة أو التجارة، أو من ممارسة مهنة أو حرفة، يتسمون على الأرجح بسمات نفسية وتطلعات وقيم تختلف عن تلك التى يتسم بها أولئك الذين يحصلون على دخلهم من مصادر غير منتجة أو غير أخلاقية. كما أن هؤلاء الذين استغرق صعودهم إلى الطبقة الوسطى بضع عشرات من السنين يتسمون على الأرجح بسمات نفسية وتطلعات وقيم تختلف عن سمات وتطلعات وقيم أولئك الذين حققوا هذا الصعود فى غمضة عين، وكانوا بالأمس فقط فى أسفل السلم الاجتماعى.

وسوف أزعم فى هذا المقال أن المناخ الثقافى فى أمة من الأمم يميل إلى الازدهار فى ظروف تعتمد فيها الطبقة الوسطى، أو العناصر الغالبة فيها، فى الحصول على دخلها وتكوين ثرواتها على مصادر «منتجة» فى الأساس، وهى مصادر لا يمكن بطبيعتها أن تسبب زيادة كبيرة مفاجئة فى الدخل أو الثروة، بل تتم فيها هذه الزيادة عادة عبر فترة طويلة من الزمن. بينما يميل المناخ الثقافى إلى التدهور والانحطاط عندما تعتمد فيها الطبقة الوسطى، أو عناصر غالبة فيها، على مصادر غير منتجة أو غير مشروعة أو غير أخلاقية، لتكوين الثروات وزيادة الدخل، وهى مصادر يمكن أن تجلب هذه الزيادة فى الدخل والثروة بشكل مفاجئ أو عبر فترة قصيرة جدًا من الزمن.



إن هذا الفارق بين الحالتين قد يكون هو مصدر الخطأ فى قياس حالة دول العالم الثالث على حالة العالم الصناعى، من حيث سمات الطبقة الوسطى ودورها فى إحداث النهضة. فنمو الطبقة الوسطى فى الدول الصناعية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان نموًا أبطأ بكثير من نمو هذه الطبقة فى كثير من دول العالم الثالث خلال نصف القرن الماضى، كما أن هذا النمو فى الدول الصناعية كان مصدره فى الأساس أعمالاً منتجة كنمو فى الدخل الصناعى والزراعى وأرباح التجارة، بينما اعتمد نمو الطبقة الوسطى فى دول العالم الثالث إلى درجة أكبر بكثير على «دخول ريعية»، أى دخول لا يقابلها جهد، وهى فى كثير من الأحيان دخول مقابل «خدمات» قليلة الإنتاجية وكثيرًا ما تكون غير مشروعة.

لم يكن الأمر كذلك دائمًا فى مصر، بل تراوح المناخ الثقافى فى مصر خلال المائة عام الماضية ازدهاراً وانحطاطًا، ولكن يلفت النظر أن تعاقب الازدهار والانحطاط هذا يدعم هذه المقولة التى ذكرناها حالاً، وهى اقتران فترات الازدهار بهاتين السمتين الحميدتين فى الطبقة الوسطى: الاعتماد على أعمال منتجة فى الحصول على الدخل وتكوين الثروات، واستقرار اقتصادى واجتماعى نسبى يعود إلى قلة الفرص المتاحة لتكوين الثروات عبر فترة قصيرة من الزمن، بينما اقترنت فترات الانحطاط الثقافى بعكس هاتين السمتين. والذى سوف أحاوله الآن هو أن أتتبع تطور مصر الثقافى فى خلال فترة تمتد إلى نحو مائة وعشرين عامًا، تبدأ ببداية الاحتلال الإنجليزى فى ١٨٨٢، وتمتد إلى الآن، ومع التوسع بوجه خاص فى فترة الخمسين عامًا الماضية والتى تلت ثورة يوليو ١٩٥٢، لكى أبيِّن إلى أى حد يعكس التقلب فى المناخ الثقافى المصرى، بين الازدهار والانحطاط، ذلك التقلب فى سمات الطبقة الوسطى.



[٢]

طوال العقود الثلاثة الواقعة بين بداية الاحتلال الإنجليزى لمصر وقيام الحرب العالمية الأولى (١٨٨٢ - ١٩١٤) ظلت الطبقة الوسطى فى مصر صغيرة للغاية، سواء فى حجمها المطلق أو حجمها النسبى فى مجموع السكان، بالمقارنة بها الآن. وكان المصدران الأساسيان لدخل هذه الطبقة هما الملكية الزراعية والتعليم، فكانت هذه الطبقة إذن مدينة بوجودها إلى الاعتراف بحق الملكية الفردية للأراضى الزراعية منذ أيام الخديوى سعيد، وإلى التقدم فى التعليم فى عهدى محمد على وإسماعيل. وقد كان نمو الدخل من هذين المصدرين، بحكم طبيعتهما، بطيئًا نسبيًا. ففى الظروف الاجتماعية العادية لا تقترن بحدوث تضخم جامح فى الأسعار، أو بقيام حرب أو ثورة، أو بانفتاح مفاجئ على الاقتصاد العالمى، لا يزيد الدخل المتولد من الزراعة أو التعليم إلا بمعدل بطيء.

شهدت هذه الفترة شيوع مناخ رفيع المستوى فى الثقافة المصرية، إذا قورن بكثير من الفترات اللاحقة أو السابقة، وسواء فى ذلك المثقفون المحافظون المتمسكون بالتراث أو المجددون الداعون إلى التغريب، فكانت هذه الفترة هى التى أنتجت محمد عبده فى الفقه والفكر الدينى، وقاسم أمين وفرح أنطون فى الفكر الاجتماعى، ومحمد المويلحى والمنفلوطى فى الأدب، ومحمود سامى البارودى فى الشعر، ومحمد عثمان فى الموسيقى، كما شهدت محاولات ناجحة للغاية لتطوير الصحافة والمسرح. إن المرء لابد أن تعتريه دهشة شديدة إذ يقرأ عن هذه الفترة فيجد أن الشيخ محمد عبده، ذلك الفلاح المصرى الذى لا يدين فى صعوده الاجتماعى إلا لتعليمه وذكائه الفطرى، كان يتبادل الرسائل، مع بعض من أكبر مفكرى عصره، كتولوستوى مثلاً، فيعبر عن أفكار أصيلة وجريئة فى نفس الوقت، بثقة عالية بالنفس وبلغة عربية رفيعة نفتقد كلاً منها بشدة فى أيامنا هذه.

قد يمكن تفسير ذلك بالعاملين اللذين أشرنا إليهما من قبل، طبيعة مصادر الدخل الأساسية للطبقة الوسطى، والاستقرار النسبى فى أحوال هذه الطبقة، ولكن من الممكن أيضاً أن تكون من العوامل المفسِّرة لهذا المناخ الثقافى رفيع المستوى، طبيعة العلاقة بين مصر والثقافة الغربية فى تلك الفترة. كان مثقفو تلك الأيام قد انفتحوا حقًا على الغرب، وشاهدوه بأعينهم، ومنهم من أقام فى الغرب فترة وتأثروا به، ولكن تكوينهم الأساسى كان مصدره دائمًا التراث العربى والإسلامى، ومن ثم لم يكن من المتصور أن يفقدوا ثقتهم بهذا التراث بسهولة، بل حاولوا إصلاحه دون التضحية به. بل حتى الداعون إلى الاقتباس من الغرب إلى أبعد الحدود، مثل قاسم أمين وفرح أنطون، كانوا أكبر ثقة بأنفسهم وأكثر اعتزازًا بتراثهم من الداعين إلى التغريب فى فترات لاحقة. ولكن هذا العامل المتعلق بطبيعة النظرة إلى الغرب وإلى تراث الأمة، يمكن بقليل من التأمل، أن نرى أنه ليس بعيد الصلة بالعاملين الاقتصاديين اللذين ذكرناهما حالاً: طبيعة مصادر الدخل والاستقرار النسبى فى الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للطبقة الوسطى.



إن شيئاً مماثلاً يمكن أن نقوله عن الفترة التالية (١٩١٤ - ١٩٣٩) أى فترة ما بين الحربين، وإن كانت هناك بالطبع بعض الفوارق المهمة. فمن حيث مصادر دخل الطبقة الوسطى فقدت الزراعة جزءًا من أهميتها بسبب ما أصاب الدخل الزراعى من تدهور بسبب الأزمة العالمية، ولكن التعليم زادت أهميته بدرجة ملحوظة كمصدر من مصادر دخل الطبقة المتوسطة. ومن ناحية أخرى أضيف مصدر جديد للدخل فى مصر، لم تكن له أهمية تذكر قبل الحرب العالمية الأولى، وهو التصنيع. صحيح أن أثر الصناعة كمصدر للدخل ومولِّد لفرص العمالة بقى محدودًا، ولكن لم يعد من الممكن إهمال الصناعة كمصدر لدخول وثروات الطبقة الوسطى فى تلك الفترة مثلما كان هذا ممكنًا من قبل.

وباستثناء سنوات الحرب الأولى وما صاحبها من تضخم، بقى معدل النمو فى الدخل، وكذلك معدل الحراك الاجتماعى (أى معدل التغير فى المركز النسبى للشرائح الاجتماعية المختلفة) بطيئين، مما يسمح بالقول أن الطبقة الوسطى المصرية استمر نموها ومعدل نضجها «على نار هادئة»، طوال هذه الفترة أيضًا.

ليس غريبًا إذن، إذا صحَّ التفسير الذى نقدمه لازدهار المناخ الثقافى أو تدهوره، أن نجد أن المناخ الثقافى فى مصر قد استمر رفيع المستوى خلال العشرينيات والثلاثينيات. كانت هذه الفترة هى التى شهدت الأعمال الرئيسية لطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وأحمد أمين وسلامة موسى وإبراهيم المازنى.. إلخ، وازدهار الشعر المصرى على يدى أحمد شوقى وحافظ إبراهيم، وتطوير الموسيقى المصرية على أيدى سيد درويش وزكريا أحمد والقصبجى، والمسرح المصرى بجهود أمثال جورج أبيض ويوسف وهبى والريحانى، وظهور أول الأفلام المصرية التى كان بعضها بدوره رفيع المستوى ومن إنتاج سيدات مصريات مثل عزيزة أمير وفاطمة رشدى، وظهور ثورة فى فن النحت على يد الفنان مختار.. إلخ.

إلى جانب الخصائص الإيجابية التى اتسم بها نمو الطبقة الوسطى فى مصر فى تلك الفترة يمكن أن نضيف عاملاً آخر لتفسير ازدهار الثقافة المصرية خلالها، وهو دور الحسّ الوطنى القوى الذى فجّرته ثورة ١٩١٩، وكذلك استمرار علاقة صحية نسبيًا بين مثقفى هذه الفترة والثقافة الغربية. كانت الثقافة الغربية التى تأثر بها مثقفو هذه الفترة لاتزال هى الثقافة الأوروبية، فى عصر كانت هذه الثقافة الأوروبية لم يفت الضعف فى عضدها بعد، كما أن هؤلاء المثقفين، وإن كانوا، بصفة عامة، يبدون أقل ثقة بتراثهم الفكرى والثقافى من الجيل الذى سبقهم، فإنهم ظلوا يحتفظون بدرجة عالية من الاعتزاز والاحترام إزاء هذا التراث.

فى سنة ١٩١٤ أنشأ بعض النابهين من المثقفين المصريين جمعية أسموها «لجنة التأليف والترجمة والنشر» قُدِّر لها أن تلعب دوراً جليلاً وباهرًا فى نشر الثقافة فى مختلف فروع المعرفة، فى مصر والعالم العربى، خلال الفترة التى نتكلم عنها الآن، وهى فترة ما بين الحربين، ولكنها بدأت تتردى وتضعف فى أعقاب الحرب الثانية، حتى أغلقت تمامًا فى أواخر الخمسينيات ولم يبق منها إلا مطبعة.. كان أفراد هذه المجموعة من المثقفين ينتمون إلى مختلف التخصصات والميول والاتجاهات، ولكن كانت فيهم جميعاً هذه الصفة الواحدة المشتركة، وهى الجمع بين مستوى رفيع من المعرفة بالتراث والثقافة العربية، ومستوى عالٍ من الاطلاع على آخر تطورات العلم الغربى، كل فى فرعه، هذا فى الفلك وذاك فى الجغرافيا أو فى الكيمياء أو الفلسفة أو التاريخ أو النقد الأدبى.. إلخ. وقد أكسبتهم معرفتهم الحميمة بالتراث العربى القدرة على التعبير عن معارفهم المكتسبة من إطلاعهم على العلم الغربى، بلغة عربية جميلة. فإذا ترجموا بعض النتاج الغربى فى مجال تخصصهم، أنتجوا ترجمات رفيعة وواضحة، ترقى أحيانًا إلى مستوى الأعمال الأدبية. كان عدد كبير من هؤلاء المثقفين المصريين الذين توافر فيهم هذا الجمع بين الثقافتين العربية والغربية من خريجى تلك المدرسة العتيدة، مدرسة المعلمين العليا، التى كانت تُعدّ





إن المرء لابد أن تعتريه دهشة شديدة إذ يقرأ عن هذه الفترة فيجد أن الشيخ محمد عبده، ذلك الفلاح المصرى الذى لا يدين فى صعوده الاجتماعى إلا لتعليمه وذكائه الفطرى، كان يتبادل الرسائل، مع بعض من أكبر مفكرى عصره، كتولوستوى مثلاً



خريجيها للتعرف على الثقافتين. (وهى تجربة ما أجدرنا الآن بدراستها دراسة فاحصة لنعرف سر قدرتها على تخريج هذا النموذج الفريد من المثقفين).

ثم شهدت مصر انحطاطًا ثقافيًا ملحوظًا خلال الفترة الممتدة بين الحرب العالمية الثانية وقيام ثورة يوليو (١٩٣٩ - ١٩٥٢)، وهو ما يسهل تفسيره أيضًا بما طرأ من تحول على سمات الطبقة الوسطى خلال هذه الفترة. لقد اتسعت الطبقة الوسطى المصرية خلال الأربعينيات بدرجة كبيرة ومفاجئة، لعدة أسباب من أهمها الإنفاق الأجنبى على مستلزمات الحرب، وما ترتب على هذا الإنفاق، وعلى ندرة السلع بوجه عام من تضخم. أدى هذا إلى أن انضمت إلى شرائح الطبقة الوسطى القديمة شرائح جديدة حققت صعودًا اجتماعيًا سريعًا عن طريق مصادر للدخل هى فى الأساس غير منتجة، كالمضاربة وأعمال الوساطة من مختلف الأنواع. ويبدو أن المهم فى تحديد أثر هذه الشرائح الجديدة على المناخ الاجتماعى والثقافى السائد ليس وزنها العددى بل وزنها المالى. فربما كان عدد أفراد هذه الشرائح الجديدة لا يشكل إلا نسبة ضئيلة من إجماع الطبقة المتوسطة المصرية، ولكن تضخم قدرتها الشرائية أحدث تغيرًا ملموسًا فى هذا المناخ.



قرب نهاية هذه الفترة نشر توفيق الحكيم مقالاً صغيرًا فى صحيفة أخبار اليوم (التى كان ظهورها هو نفسه انعكاسًا لهذا التغير فى المناخ الثقافى) بعنوان «العصر الشكوكى»، يقصد العصر الذى تحقق فيه النجاح الساحق والشعبية الواسعة للمنولوجست «محمود شكوكو» وكان قد بدأ نوعًا جديدًا من المونولوجات، أى الأغانى القصيرة والخفيفة سريعة الإيقاع ذات المعانى السهلة وخفيفة الظل، وتستخدم تعبيرات شائعة بين الطبقات الدنيا، أو «سوقية»، وكثيرًا ما تسخر من بعض القيم المستقرة لدى الطبقة الوسطى القديمة، وتكسر بعض قواعد الغناء القديم كما تحدث تواصلاً أكثر حميمية وترفع الكلفة بين المغنى وجمهور المستمعين. اشتهرت مع أغانى محمود شكوكو مونولوجات حسين المليجى وثريا حلمى اللذين كانا أيضًا يستجيبان لأذواق طبقة جديدة من المستمعين حديثى الثراء، والأشد إقبالاً على الحياة والأكثر استعدادًا للسخرية من طبقة لم يلتحقوا بها إلا حديثًا، وللترويج لقيم النشاط والخفة والشطارة بدلاً من التزمت فى احترام المبادئ والتقاليد الراسخة.

كانت هذه هى أيضًا الفترة التى شهدت تحولاً ملحوظًا فى موسيقى محمد عبدالوهاب أكبر وأشهر المطربين المصريين طوال القرن العشرين، فأصبحت أكثر سرعة، وأقل عمقًا، وأقصر عمرًا. أصبحت موسيقى عبدالوهاب منذ هذه الفترة أكثر استخفافًا بقواعد وأصول الموسيقى العربية، وتصاحبها كلمات أقرب إلى فهم العامة وتحمل معانى أقل جمالاً مما كان يغنيه عبدالوهاب فى العشرينيات والثلاثينيات. وبينما ازدهر هذا النوع من الأغانى، انحسرت شعبية مغنين أقرب إلى التراث العربى والمصرى فى الموسيقى والغناء من أمثال صالح عبدالحى وعزيز عثمان، الذين أصبحت الإشارة إليهم فى الصحف والمجلات والأفلام كثيرًا ما تقترن ببعض السخرية والاستهزاء، الصريح أو الخفى.

ظهرت فى هذه الفترة أيضًا نغمة حديثة فى الصحافة المصرية بدأتها دار أخبار اليوم التى أسست فى أعقاب الحرب مباشرة، ودشنت مدرسة جديدة فى الصحافة المصرية، وتقوم على الإثارة وأخبار الفضائح والجرائم، وتستخدم المانشيتات العريضة والصور الجذابة فى كسب الجمهور. وازدهر فى هذا النوع الجديد من الصحف رسوم الكاريكاتير التى تستجيب لذوق جمهور جديد أكثر إقبالاً على السخرية من القيم الاجتماعية السائدة. من بين ما انتشر من شخصيات الكاريكاتير فى هذه الفترة شخصية «غنى الحرب» وهو رجل سمين سمنة مفرطة، وشديد الجهل فى نفس الوقت، ولكنه بالغ الثراء، كما يبدو من سلسلة الساعة المتدلية من جيبه والخواتم التى تحلّى أصابعه، وهو يأمر وينهى الناس من حوله بحكم ثرائه، وإن لم تكن له مزايا أخرى غير هذا الثراء.

فى السينما والمسرح زاد التأكيد فى أعمال يوسف وهبى ونجيب الريحانى على ظاهرة التناقض الطبقى الصارخ، والمفارقة المتفاقمة بين الغنى الفاسد والفقير الشريف. كما شهدت هذه الفترة أيضًا تزايد أعمال العنف السياسى وكثرة الاغتيالات السياسية وتفجير القنابل فى الأماكن العامة، خاصة من جانب المتطرفين فى الدين، مع تزايد العنف المقابل من جانب السلطة.

لم يتوقف الأدباء الكبار عن الكتابة فى الأربعينيات ولكنهم قدموا الكثير من حيويتهم وحماستهم للتجديد مع تقدمهم فى السن، دون أن يحل محلهم جيل جديد يقاربهم فى العمق، أو فى الرصانة أو فى محاولة تطويع التراث لمواجهة حاجات العصر دون إعلان التمرد على هذا التراث.

لا يجوز عند الكلام عن ثقافة هذه الفترة أن نغفل التحول الذى طرأ على مصدر الثقافة الغربية التى كانت تستقبلها مصر فى هذه الفترة، من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. إن تيار التغريب الذى بدأت مصر فى التعرض له منذ بدايات القرن التاسع عشر ظل تغريبًا أوروبيًا حتى هذه الفترة التى نتكلم عنها الآن (١٩٣٩ - ١٩٥٢)، حينما بدأ يتحول لأول مرة إلى تغريب على النمط الأمريكى. والظاهر أن زيادة التأثر بنمط الحياة الأمريكى، بما فى ذلك نمط الحياة الثقافية، كان يلائمها جدًا ما حدث فى مصر خلال هذه الفترة من حراك اجتماعى سريع. ففى نمط الحياة الأمريكى، كما فى مناخ الحراك الاجتماعى السريع، تعلو قيم العجلة واحترام الثراء بصرف النظر عن مصدره، وتزيد اللهفة على التمتع بالحياة، ويقل التزمت فى التمسك بالمبادئ إذا تعارض مع زيادة المتعة أو الثراء، كما يضعف التمسك بالقديم وتثور شكوك أكبر فى صلاحيته، ويقل الاهتمام بالجذور التاريخية، وبالطقوس والرسميات المستمدة من هذه الجذور.





لم يتوقف الأدباء الكبار عن الكتابة فى الأربعينيات ولكنهم قدموا الكثير من حيويتهم وحماستهم للتجديد مع تقدمهم فى السن، دون أن يحل محلهم جيل جديد يقاربهم فى العمق، أو فى الرصانة أو فى محاولة تطويع التراث لمواجهة حاجات العصر





[٤]

ثم قامت ثورة ١٩٥٢، فلم تنقض بعدها سنوات قليلة حتى دخلت مصر، بسببها فى مرحلة من مراحل تطورها الثقافى أكثر ازدهارًا، أنتجت ثمارًا أرقى نوعًا وأقدر على البقاء مما أنتجته سنوات الحرب والسنوات التالية لها مباشرة. فى السبعة عشر عامًا التالية للثورة (١٩٥٢ - ١٩٧٠) نمت الطبقة الوسطى بمعدل أعلى حتى مما شهدته الفترة السابقة عليها، ولكن كان الأهم من ذلك التغير الذى لحق مصادر هذا النمو.

فمن ناحية، شهدت هذه السنوات التالية للثورة توسعًا غير مسبوق فى التعليم، بالإضافة إلى ما قامت به الثورة من إزالة الحواجز التى كانت تقف فى وجه من حصل على فرصة التعليم فى الثلاثينيات والأربعينيات، فأتاحت لهم فرص الترقى والصعود الاجتماعى فى الخمسينيات والستينيات. كما شهدت الخمسينيات والستينيات أيضًا ارتفاعًا كبيرًا فى معدل التصنيع واستصلاح الأراضى ونمو الجيش وما يتصل بهذا كله من مرافق وخدمات أدت أيضًا زيادة تدخل الدولة فى الحياة الاجتماعية إلى خلق فرص جديدة للترقى أمام الطبقة الوسطى سواء بالعمل فى خدمة الدولة مباشرة، أو فى بعض مشروعات القطاع الخاص التى نمت مع نمو نشاط الدولة.

كان هذا النمو فى حجم الطبقة المتوسطة فى الخمسينيات والستينيات يختلف اختلافًا كبيرًا عن نموها فى سنوات الحرب والسنوات التالية لها مباشرة. فمصادر نمو الدخل خلال العقدين التاليين لثورة يوليو كانت فى الأساس مصادر منتجة، بمعنى مساهمتها فى إنتاج سلع جديدة أو تقديم خدمات تساهم مساهمة خفيفة فى ارتفاع مستوى الرفاهية، كالتعليم والصحة وإدارة المرافق العامة. نعم، كانت هناك بلاشك أمثلة «للإثراء بلا سبب» ولكنها كانت بلاشك أقل انتشارًا، على الأقل بالنسبة إلى من حققوا الزيادة فى دخولهم بأعمال منتجة، مما كانت فى الفترة السابقة عليها أو خلال السبعينيات والثمانينيات.

هذه الصفة التى اتسمت بها مصادر الدخول الجديدة فى الخمسينيات والستينيات، بالإضافة إلى ما شاع خلال الجزء الأكبر من هذه الفترة من تفاؤل بمستقبل مصر السياسى والاجتماعى، ومن تعاطف حقيقى من جانب معظم المثقفين إزاء أهداف ثورة يوليو السياسية والاجتماعية، يفسر إلى حد كبير ما شهده المناخ الثقافى فى مصر من خلالها من ازدهار بالمقارنة بالفترة السابقة والفترة اللاحقة عليها. يكفى أن نذكّر القارئ بأن أهم أعمال نجيب محفوظ ويوسف إدريس فى الرواية والقصة القصيرة ظهرت فى هذه الفترة، وأن هذه الفترة هى التى شهدت أهم مسرحيات نعمان عاشور وألفريد فرج ويوسف إدريس، وظهور مدرسة الشعر

الحديث بقيادة صلاح عبدالصبور وعبدالمعطى حجازى، وبروز مواهب صلاح جاهين فى الشعر العامى والكاريكاتير، ومدرسة أحمد بهاء الدين فى الصحافة، وكمال الطويل وبليغ حمدى ومحمد الموجى فى الموسيقى، وأغانى تحمل معانى جديدة وجميلة ومتفائلة بالحياة كتب كلماتها صلاح جاهين ومرسى جميل عزيز وغنّاها عبدالحليم حافظ، وأفضل أعمال يوسف شاهين وصلاح أبوسيف فى السينما.. إلخ.



[٥]

فى الثلاثين عامًا التالية (١٩٧٠-٢٠٠٠) تضافرت عدة عوامل لإفساد المناخ الثقافى المصرى على نحو ما كان - على الأرجح - ليخطر على بال عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم عندما كتبا كتاب «فى الثقافة المصرية» فى ١٩٥٥. كانت المشكلة الاجتماعية التى تؤرق صاحبى هذا الكتاب فى مطلع الخمسينيات قد بدأ حلها على نحو جدّى فى الواقع، كما بدا وكان ما كان يشكو منه الكاتبان فى الإنتاج الثقافى قد اختفى تمامًا. صحيح أن من الكتّاب الكبار من استمر يكتب على نفس المنوال الذى كان يكتب به قبل الثورة، فقصص إحسان عبدالقدوس ومسرحيات توفيق الحكيم مثلاً، ظلت بعيدة جداً عن التعرض للمشكلات الحقيقية التى تعانى منها الطبقات الدنيا، كما أن نجيب محفوظ لم يغيّر مسلكه قط عما كان قبل الثورة، فأبطال رواياته وقصصه ظلت مستقاة من الطبقة الوسطى، العليا أو الصغيرة، كما أنه اتجه منذ الستينيات اتجاهًا متزايدًا إلى الأدب الرمزى الذى ربما كانت تختفى وراءه قلة تعاطفه مع حكومات الثورة. بالرغم من هذا كانت الصورة العامة فى الأدب والمسرح والسينما والأغانى صورة ثقافة منحازة للشرائح الاجتماعية الدنيا، تصف مشكلاتها الحقيقية وتعبر عبر آمالها وطموحاتها. وعلى أى حال، فمهما كان توصيفنا لحالة الثقافة المصرية فى أواخر الستينيات فلا يمكن أن نتصور أن عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم كانا سيجلسان فى ذلك الوقت للتعبير عن نفس الرسالة التى عبّرا عنها فى كتاب «فى الثقافة المصرية» بل الأرجح أنهما، ما كانا سيجلسان لكتابة أى كتاب فى الثقافة المصرية، إذ لعل الصورة العامة كانت ستحظى برضاهما بوجه عام.

السؤال المهم والمثير الآن، هو عما يمكن أن يشعر به رجلان فى عنفوان الشباب، ولهما مثل حساسية وحماسة أنيس والعالم، إزاء حال الثقافة المصرية الآن، وعما يمكن أن يشعرا بضرورة كتابته أو قوله الآن عنها.

الذى لا أشك فيه أن مصادر الشكوى كثيرة، وهى باعثة على قلق شديد، ولكن مهمة التشخيص ليست بهذه السهولة، بل هى فيما يظهر أصعب بكثير من مهمة التشخيص التى قام بها أنيس والعالم منذ نحو نصف قرن.

يجب أن نلاحظ أولاً ما طرأ من تغيرات كبيرة ومذهلة منذ أوائل السبعينيات على مصادر دخل الطبقة الوسطى ومعدل نموها. إن معدل نمو الطبقة الوسطى فى مصر خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين هو على الأرجح معدل لم تعرف مصر مثيلاً له فى تاريخها الحديث. ولكن هذا النمو كان يرجع فى الأساس، وللأسف الشديد، إلى أعمال غير منتجة، فقد عرفت مصر معدلاً مرتفعًا للغاية للتضخم فى السبعينيات والثمانينيات، أعلى بكثير مما عرفته فى أى وقت خلال القرن العشرين بأكمله، وأدى هذا إلى نمو الدخول والثروات المفاجئة من المضاربة وأعمال الوساطة ومقاولات وتجارة فى العملات وتاجير الشقق. اقترنت السبعينيات والثمانينيات أيضًا بظاهرة جديدة على المجتمع المصرى، وهى الهجرة إلى الخارج، خاصة إلى دول الخليج، التى أدت بدورها فضلاً عن مساهمتها فى ارتفاع معدل التضخم، إلى نشوء ثروات مفاجئة وارتفاع معدل الحراك الاجتماعى بشدة. كانت الدخول والثروات الناتجة عن التضخم والهجرة ضعيفة الصلة جداً بحجم الجهد المبذول، وكذلك ضعيفة الصلة بمستوى التعليم، وهو ما انعكس فى انضمام شرائح واسعة إلى الطبقة الوسطى ذات قدرة شرائية عالية مع مستوى منخفض من الثقافة وضعف القدرة على التمييز بين العمل الفنى الراقى والهابط. زادت خلال هذه العقود الثلاثة أيضًا (١٩٧٠-٢٠٠٠) الدخول المتولدة من السياحة، وهى أيضًا كثيرًا ما تكون ضعيفة الصلة بالجهد المبذول، وقد تتطلب من الشطارة والقدرة على اقتناص الفرص أكثر مما تتطلب من جهد مستمر أو تعليم.

بالإضافة إلى الزيادة الكبيرة فى هذه المصادر الثلاثة لدخول وثروات الطبقة الوسطى (التضخم والهجرة والسياحة) طرأت أيضًا تغيرات مهمة للغاية على مصدرين آخرين من مصادر الدخل والثروة للمثقفين بوجه خاص، وهما الدولة المصرية من ناحية والهيئات الأجنبية من ناحية أخرى.

أما الدولة، فقد كانت منذ وقت طويل، أحد مصادر الدخل للمثقفين بما تمنحه لمؤسساتهم أو مجلاتهم من معونات، أو ما قد تهيئه لكثيرين منهم من وظائف.

ولكن طرأ تغير مهم ابتداء من السبعينيات على حجم ونوع هذه المعونات التى تقدمها الدولة، فضلاً عما طرأ من تغير على طبيعة الدولة نفسها. فمن المدهش من ناحية أن دور الدولة بينما أصابه تقلص ملحوظ فى مختلف ميادين النشاط الاقتصادى والاجتماعى، زاد وترعرع فى ميدان الثقافة، أو على الأقل فى كثير من فروع النشاط الثقافى.. إن ضغط الجماهير الغفيرة على الدولة مطالبة إياها بفتح المزيد من المدارس والجامعات أمر مفهوم تمامًا، ولكن الأصعب فى تفسيره هو استمرار دور الدولة بنفس الدرجة التى عرفناها فى الخمسينيات والستينيات، بل أحيانًا بدرجة أكبر، فى نشر الكتب وإنشاء الصحف والمجلات الجديدة. نعم انخفض بشدة، على الأقل بالمقارنة بمعدل التضخم، ما تقدمه الدولة من دعم للسينما والمسرح، ولكن زاد بشدة ما تنفقه الدولة على التليفزيون وعلى التوسع فيه بإنشاء قنوات جديدة.





أصبحت وسائل نشر الثقافة فى نهاية القرن (من إصدار الكتب والصحف والمجلات إلى قنوات الإذاعة والتليفزيون) التى تسيطر عليها الدولة سيطرة تامة، أوسع مدى وأكثر انتشارًا من أى وقت عرفته هذه الوسائل فى مصر خلال القرن بأكمله



كانت الدولة طوال الخمسينيات والستينيات تدرك بالطبع أهمية حصولها على تأييد المثقفين وقيامهم بالترويج لسياساتها، وكان هذا مفهومًا تمامًا من دولة تدشن مبادئ جديدة فى السياسة الخارجية والداخلية، وفى السياسة الاقتصادية والاجتماعية، وكان المتوقع أن تضعف قبضة الدولة على الثقافة عندما ضعفت قبضتها فى سائر نواحى الحياة. وقد يكون هذا هو ما حدث بالفعل فيما يتعلق بما يتعرض له المثقف المعارض من خطر التنكيل به وعقابه. ولكن مالم يحدث هو ترك المثقفين وشأنهم، أو قبض يد الدولة عن الإغداق على المؤيدين لسياستها والمستعدين للترويج لما ظهر منها من نكوص عن سياسات الخمسينيات والستينيات.

الذى حدث هو العكس بالضبط، فقد فتحت الدولة خزائنها، منذ أوائل السبعينيات، لكل من كان على استعداد للترويج لسياسات الانفتاح، أو للوقوف فى صفها فى سياساتها الجديدة إزاء إسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. بل لقد أظهر الرئيس السادات طوال السبعينيات ميلاً لتقريب المثقفين الموالين له على نحو لم يظهره الرئيس عبدالناصر، فى أى وقت خلال الخمسينيات والستينيات. كان عبدالناصر وفيما يظهر مستغنيًا عن ترويج المثقفين لسياساته أكثر من استغناء السادات عنهم، إذا اعتمد عبدالناصر بدرجة أكبر بكثير على الآثار المباشرة لهذه السياسات على الطبقات الدنيا المستفيدة منها، بينما شعر السادات بحاجة أكبر لتزيين سياسات لم تكن تتمتع بوجه عام بشعبية واضحة لا بين الجماهير ولا بين المثقفين.



ولكن بغض النظر عن طبيعة السياسات المراد الترويج لها، كانت التغيرات الاجتماعية التى تحققت فى مصر، خلال السبعينيات والثمانينيات تستدعى مثل هذا التوسع الكبير فى دور الدولة فى الثقافة. ذلك أنه بعد مرور ربع قرن على قيام ثورة يوليو، كان قد تكوّن لمصر جمهور واسع من المتعلمين وأنصاف المتعلمين، الذين تخرجوا من جامعات ومدارس تتساهل أكثر من أى وقت فى منح الشهادات، ومعاهد متوسطة تخرّج من الملمين بقواعد القراءة والكتابة والحساب أكبر مما تخرّج من المتدربين على حرفة أو مهنة بعينها، أدى هذا التوسع فى التعليم إلى خلق طلب جديد وواسع على أنواع من الثقافة غير المتعمقة، وعلى وسائل للترفيه تستجيب لنوازع وميول بسيطة وبدائية، مما كان يناسبه بشدة أنواع معينة من الصحف (كالصحف المهتمة بشئون الرياضة والحوادث والجرائم)، وكذلك، وعلى الأخص، أنواع معينة من البرامج التليفزيونية (من أمثال المسلسلات الخفيفة أو المثيرة ومسابقات الفوازير.. إلخ)، بل وأنواع من الكتب الخفيفة وقليلة العمق، كان من الممكن بالطبع أن يفسح المجال فى كل هذا للقطاع الخاص للقيام به، ولكن الدولة رأت لسبب أو لآخر، أن تقوم هى بتلبية جزء كبير من هذا

الطلب، عن طريق إصدار صحف ومجلات جديدة من نفس الدور الصحفية ودور النشر التي كانت قد أممتها الدولة في الستينيات لأهداف مختلفة تمامًا، أو عن طريق التوسع في القنوات وساعات الإرسال التليفزيونية، وكذلك عن طريق التوسع في نشر الكتب التي تطبع منها أعداد كبيرة من النسخ وتقدم بأسعار زهيدة للجمهور.

هل كان السبب هو مجرد استخدام هذه الصحف والمجلات والقنوات الجديدة كمنابر لمزيد من الترويج لسياسات الحكومة؟ أو كوسائل لإلهاء الناس وصرف نظرهم عما يجرى من تحولات خطيرة في هذه السياسات؟ أم كان السبب مجرد تحقيق مغانم شخصية في الثروة والسلطة، للقائمين بأمر هذه المؤسسات الصحفية والتليفزيونية؟ أيًا كان السبب فقد أصبحت وسائل نشر الثقافة في نهاية القرن (من إصدار الكتب والصحف والمجلات إلى قنوات الإذاعة والتليفزيون) التي تسيطر عليها الدولة سيطرة تامة، أوسع مدى وأكثر انتشارًا من أي وقت عرفته هذه الوسائل في مصر خلال القرن بأكمله.

بالإضافة إلى ازدياد أثر الدولة في تشكيل المناخ الثقافي السائد، كان هناك أيضًا ازدياد في دور المؤثرات الخارجية، وأعني بها على الأخص تأثير دول النفط في الخليج، وتأثير الشركات الأجنبية والمؤسسات الدولية، وتأثير العلاقة الجديدة بين مصر وإسرائيل. كان النظام الناصري طوال الخمسينيات والستينيات يضع حاجزًا قويًا أمام هذه المؤثرات بما فرضه من قطيعة تامة مع إسرائيل من ناحية، وأسوار جمركية وسياسية عالية أمام الشركات الأجنبية، وخصام شبه تام مع المؤسسات المالية الدولية، وقيود صارمة على هجرة المصريين إلى الخليج. ولكن ربما لم يكن أقل من هذا أهمية أن هذه المصادر الخارجية الثلاثة كانت في ذاتها أضعف بكثير من أن تحدث تأثيرًا مهمًا في المناخ الثقافي المصري. كانت دول الخليج غير قادرة أصلاً، قبل السبعينيات على استقبال عدد كبير من المهاجرين المصريين، وكانت ثرواتها ودخولها قبل ارتفاع أسعار النفط في ١٩٧٣ ليست بذات جاذبية كبيرة إلا لعدد محدود جدًا من المصريين، معظمهم من ذوي المؤهلات العالية. كذلك لم تكن إسرائيل قبل ١٩٦٧ في وضع يسمح لها بإغراء أي مثقف مصري على التعامل معها، حتى بفرض أن النظام المصري كان يسمح بهذا التعامل.

كانت السبعينيات أيضًا هي بداية الهجمة الشديدة من جانب الشركات متعددة الجنسيات على العالم الثالث، ومعها بداية الاتساع الكبير في نشاط المؤسسات المالية الدولية لفتح أبواب دولة بعد أخرى من دول العالم الثالث أمام هذه الشركات. إن مصر لم تعد إلى علاقتها الحميمة بالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي إلا ابتداء من منتصف السبعينيات، ولكن هذا الوقت كان هو أيضًا وقت تدشين هاتين المؤسستين لما عُرف «بالإصلاح الاقتصادي» أو «بالتثبيت الاقتصادي والتكيف الهيكلي»، ليس في مصر وحدها بل في العالم بأسره. إن الآثار السياسية والاقتصادية لهذا الانفتاح على دول الخليج وعلى إسرائيل وعلى الشركات الأجنبية والمؤسسات الدولية، كانت بالطبع أكثر وضوحًا من آثاره الثقافية، ولكن ليس من الصعب تبين أهمية هذه الآثار الثقافية أيضًا.



هكذا شهدت مصر فترة يزيد عمرها الآن على ربع قرن، تبدأ من السنوات الأولى للسبعينيات ولازلنا نعيش في ظلها حتى اليوم، تفاعلت خلالها مجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، البالغة القوة، على تشكيل المناخ الثقافي. لم تخل ثمار هذا التفاعل من بعض الثمار الطيبة، ولكن الصورة العامة الناتجة عنه كانت بلاشك سيئة للغاية.

تفاعل النمو السريع في الطبقة الوسطى، بسبب الازدياد الكبير والمفاجئ في أنواع معينة من الدخول والثروات أغلبها من مصادر غير منتجة وكثير منها غير مشروع أو غير أخلاقي، مع اتساع كبير أيضًا في عدد المتعلمين تعليمًا متسرعًا بل وعشوائيًا، مع زيادة الدور الذي تلعبه الدولة في الحياة الثقافية، ولكنها الآن، بعكس دولة الخمسينيات والستينيات، «دولة رخوة» تسمح باستغلال عدد محدود من الأفراد لأموالها ونفوذها. وفي نفس الوقت تحدث هجرة واسعة النطاق إلى دول الخليج من جانب المتعلمين وغير المتعلمين، بما في ذلك عدد لا يستهان به من المثقفين، ومن لم يهاجر منهم فتحت أمامه فرص الكسب الكبير بالكتابة لصحف الخليج ومجلاتها وإذاعاتها وتليفزيوناتها، أو بالاشتغال مراسلين لها في مصر، أو بإنتاج الأفلام والمسلسلات والبرامج الإذاعية والتليفزيونية. ومن ثم أصبحت سوق دول الخليج عاملاً مؤثرًا في تحديد طبيعة ما ينتج من أعمال ثقافية أو ترفيهية حتى في داخل مصر، سواء في تحديد موضوع الفيلم أو مغزى المسلسل التليفزيوني أو نوع النكات التي يلقيها الممثلون على خشبة المسرح المصري أمام السائح الخليجي.

كذلك ترك الانفتاح على إسرائيل أثرًا في المناخ الثقافي المصري، وإن لم يبلغ بعد ما بلغه أثر العلاقة مع دول الخليج. أهم جوانب هذا الأثر هو اتجاه بعض المثقفين المصريين، الذين لايزالون لحسن الحظ قلة نادرة، لقراءة اتجاه الريح في علاقة مصر بإسرائيل، فإذا وجدوا الاتجاه مناسبًا كتبوا بجرأة، أو أخرجوا من الأفلام أو أنتجوا مسرحيات تؤيد وتحبذ المزيد من الانفتاح على إسرائيل. وإذا رأوا إسرائيل ترتكب من الأعمال ما يفرض على السلطة المصرية التباطؤ في الانفتاح عليها، التزموا الاعتدال في الكلام عن هذا الموضوع أو انصرفوا إلى موضوعات مختلفة تمامًا.

ولكن أثر الانفتاح على إسرائيل على الثقافة المصرية لم ينحصر في هذا الأثر المباشر، بل كان الأهم والأعمق من هذا الأثر المباشر أثره على صورة العرب بوجه عام في المناخ الثقافي المصري، وعلى موقف عدد كبير نسبيًا من المثقفين المصريين (أي عدد أكبر من هؤلاء المعبرين عن فائدة التقارب مع إسرائيل) من أهداف الوحدة العربية وتقارب مصر مع بقية الشعوب العربية. فقد بدأ يشيع في الثقافة المصرية اتجاه متزايد القوة، منذ أوائل السبعينيات، ينادي بدرجات مختلفة من الصراحة بالتركيز على مشاكل مصر، خاصة مشاكلها الاقتصادية، واعتبار ما حدث من تقارب بين مصر وبقية العرب في الخمسينيات والستينيات، غلطة كبيرة لابد من تصحيحها.

هكذا أنتج من المسرحيات ما حاز شعبية واسعة ولا يفعل أكثر من السخرية ببقية البلاد العربية، والسخرية بشعارات الوحدة والقومية العربية التي رفعت في الخمسينيات والستينيات.

أما الشركات الأجنبية والمؤسسات الدولية فكان أثرها في المناخ الثقافي لا يقل نفاذًا أو أهمية، وإن كان هذا الأثر قد ظهر بأكبر قدر من الوضوح في مجالات بعينها أهمها البحوث التي يقوم بها المثقفون المصريون في العلوم الاجتماعية والإنسانيات، إذ أصبحت هذه الشركات والمؤسسات هي التي تضع «جدول الأعمال» أو «أجندات» أو أولويات ما يقوم به المثقفون المصريون من بحوث، حتى ولو تعارضت تعارضًا صارخًا مع الأولويات التي تفرضها المصالح الوطنية.



مع الارتفاع الكبير في معدل الحراك الاجتماعي والانتشار الواسع في التعليم بين مختلف طبقات الشعب، لم يكن من المتصور ألا تزيد فرص ظهور مواهب شتى في مختلف فروع الإنتاج الثقافي عما كانت عليه قبل منتصف القرن، بل حتى عما كانت عليه خلال الخمسينيات والستينيات. وقد ظهرت بالفعل خلال الفترة التي نتكلم عنها الآن (١٩٧٠ - ٢٠٠٠) مواهب باهرة في مختلف هذه الفروع، من الرواية والقصة القصيرة والشعر، إلى الإخراج والتمثيل السينمائي والمسرحي، إلى الموسيقى والغناء، إلى مختلف أنواع الفن التشكيلي، إلى البحوث الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. في كل هذه الأفرع من فروع الثقافة لم يعد الأمر مقصورًا كما كان طوال المائة عام السابقة، على عدد قليل من القمم المنعزلة وسط صحراء واسعة قاحلة، والتي فرضت نفسها بحكم موهبتها أو لفرصة نادرة أتيحت لها في مجتمع يتسم بقلة ما يتيحه من فرص للغالبية الساحقة من أبنائه، وتنحصر مجالات اهتماماتها في دائرة طبقة اجتماعية معينة يتركز في يدها المال والنفوذ، وهو بالضبط ما شكّل موضوع الشكوى الأساسية في كتاب «في الثقافة المصرية» في منتصف القرن، بل اتسع الميدان اتساعًا كبيرًا، فظهرت المواهب في كل طبقة وفي كل مجال، وصارت الطبقات كلها من أعلاها إلى أدناها، موضوعًا ممكنًا من موضوعات الكتابة وسائر وسائل التعبير، ولم يعد من الممكن الآن أن يشكو المرء من حرمان طبقات بأسرها من فرص التعبير عن مشكلاتها وطموحاتها.

لم تعد هذه هي المشكلة، وإنما أصبحت المشكلة تزايد حدة المنافسة، شيئًا فشيئًا، مع انتهاء الستينيات، بين أنواع من الإنتاج الثقافي يدعمها المال الوفير أو الطلب الواسع أو كلاهما، ودولة

الانفتاح على إسرائيل على الثقافة المصرية لم ينحصر في هذا الأثر المباشر، بل كان الأهم والأعمق أثره على صورة العرب بوجه عام في المناخ الثقافي المصري، وعلى موقف عدد كبير نسبيًا من المثقفين المصريين من أهداف الوحدة العربية

تقف وراء هذا المال الوفير والطلب الواسع، وبين أنواع أخرى أرقى مستوى وأشد التزامًا، ولكنها لا تتمتع بمثل هذه الوفرة في المال والطلب أو بمثل هذا الدعم الكبير من جانب الدولة. في كل ميدان من ميادين الثقافة إذن، لم تعد المشكلة هي مشكلة ندرة المواهب والكفاءات المعبِّرة عن مشاكل الطبقات الدنيا وآمالها، أو الملتزمة بمختلف جوانب النهضة الوطنية، الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية، وإنما أصبحت المشكلة هي ضيق المساحة المتاحة لهذه المواهب والكفاءات في مختلف ميادين الثقافة بسبب طرد الثقافة الرديئة لها. لقد زاد عدد أصحاب المواهب الحقيقية والكفاءات في الثلاثين عامًا الأخيرة زيادة كبيرة عما كان في الخمسينيات والستينيات، ولكن المنافسة التي كان يتعرض لها هؤلاء، في الخمسينيات والستينيات من جانب المتكسبين من الأعمال الثقافية الخالية من أي موهبة أو كفاءة حقيقية، كانت أقل حدة بكثير، لأن الحراك الاجتماعي وانتشار فرص التعليم (وإن كانا خلال هذين العقدين أعلى بكثير مما كانا من قبل) لم يحققا تلك المعدلات المذهلة التي تحققت لها في الثلاثين سنة الأخيرة، فضلاً عن أن الدولة في الخمسينيات والستينيات وفرت درجة عالية من الحماية لأصحاب المواهب والكفاءات الحقيقية لم يظفروا بمثلها منذ بداية السبعينيات. اشترك الجميع في المنافسة، وكانت الغلبة للأسف، باستثناءات نادرة للغاية، لصالح منتجي الثقافة الرديئة.

في هذه الحالة، أعمالاً خالية تمامًا من أية جاذبية للجمهور. بل كانت العملة الرديئة في حالة السينما والمسرح ذات جاذبية بالفعل لجمهور واسع، وإن كانت جاذبيته تقوم إما على استغلال موضوعات الجنس أو مواقف هزلية بالغة السطحية، مما يمكن أن يكسب جمهورًا واسعًا من المراهقين أو من أشباه المتعلمين.

كان انتشار استخدام الجنس لترويج بعض المجلات في مصر ظاهرة لافتة للنظر في السنوات العشر الأخيرة مما لم يكن معهودًا بالمرة بهذه الدرجة في أي مرحلة من مراحل تطور الصحافة المصرية. وقد انتشرت الظاهرة إلى درجة اضطرت حتى بعض المجلات المعروفة بتاريخ طويل محترم، أو بالتزام سياسي قديم، إلى الالتجاء إلى نفس الحيلة لجذب المزيد من القراء، خاصة وقد قلَّت قدرتها على جذبهم بالكتابة في القضايا السياسية والقومية لأسباب خارجة عن إرادتها. وقد شجع هذا الاتجاه على اتخاذ الجنس وسيلة لترويج الأفلام أو المسرحيات أو المجلات والصحف، ازدياد فرص تحقيق الكسب من ورائه بسبب ازدياد حجم الطلب الذي تولده جماهير غفيرة من متوسطي التعليم ومحدودي الثقافة ولكنها تملك القدرة الشرائية اللازمة. لم يكن هذا متاحًا قطعًا في النصف الأول من القرن، اللهم باستثناء فترات الحروب وما خلقته من «أغنياء الحرب»، بل ولم يكن

متاحًا بهذه الدرجة على الإطلاق، حتى بفرض سماح الدولة بحدوثه، خلال الخمسينيات والستينيات. فلما وجدت هذه الجماهير الغفيرة ممن يملكون القدرة الشرائية، مع حلول عصر التضخم والهجرة في السبعينيات، وسحب الدولة يدها عن التدخل في هذه الأمور دون أن تقدم للناس قضايا تكفي لشغلهم وجذب اهتمامهم، من القضايا الوطنية القومية، انفجر تيار الجنس في السينما والمسرح والصحافة المصرية على نحو يشبه ما حدث في الدول الغربية ولكنه لا يجد له شبيهًا في تاريخ الثقافة المصرية.

حدث شيء مشابه في الموسيقى والغناء. وإن كان استغلال الجنس أقل وضوحًا فيهما بطبيعة الحال، ومع هذا فهو موجود هنا أيضًا في نوع الألحان والإيقاع وكلمات الأغاني وأصوات المغنين ودرجة وسامتهم في نظر جمهور يتكون أساسًا من الشباب. هكذا ظهر نوع من الأغاني أطلق عليه اسم «الأغاني الشبابية»، لا يحظى بشعبية تذكر بين المستمعين الذين تزيد أعمارهم على الأربعين، وهم من وجدوا بعض الفرار في الاستماع إلى ما سمي «بأغاني التراث»، التي أصبحت تشمل، ليس فقط أغاني مطلع القرن العشرين، بل أيضًا كثيرًا من أغاني الخمسينيات والستينيات. وهكذا اتسع معنى «التراث» في الموسيقى والغناء، بحيث أصبح يشمل أغاني وموسيقى حديثة للغاية، مثل ألحان كمال

الطويل والموجي وبليغ حمدي، أو أغاني عبدالحليم حافظ، وكأنها تنتمي لعصر سحيق موغل في قدمه.

حدث أيضًا طرد للعملة الجيدة لحساب العملة الرديئة في ميدان الكتابات الدينية، إذ حدث تدهور مذهل في مضمون ومستوى هذه الكتابات فيما بين عقدي الخمسينيات والستينيات من ناحية، والعقود الثلاثة التالية لها من ناحية أخرى. بل ويزيد التدهور وضوحًا إذا قارنا بين مستوى هذه الكتابات في هذه العقود الثلاثة الأخيرة وبين مستوى الفكر الديني والكتابة الدينية طوال النصف الأول من القرن. وأقصد بهذا التدهور على الأخص ما شاع في الفترة الأخيرة من تفسيرات لا عقلانية للدين حققت شعبية واسعة عن طريق التليفزيون والإذاعة والصحف، وغلبة التأكيد على ظواهر الدين وقشوره على حساب محاولة اكتشاف روح الدين وأهدافه العليا. ويدخل في ذلك تعليق أهمية غير مبررة على تشابه بعض الألفاظ المستخدمة في النصوص الدينية وبعض النظريات العلمية الحديثة للإيحاء بأن المقصود من هذه النصوص هو نفس ما كان يقصده علماء الطبيعة، وإقحام الدين في مسائل سياسية واجتماعية بقصد الانتصار لمواقف دنيوية أو تحقيقًا لمصالح مادية في معارك جارية كان من الواجب أن يترفع الناس عن استخدام الدين سلاحًا فيها.



للتدليل على ذلك فلننظر إلى نسبة الأعمال الثقافية الرفيعة التي نشرتها مثلاً الهيئة العامة للكتاب أو مختلف دور النشر الحكومية الأخرى، خلال العقود الثلاثة الأخيرة بالمقارنة بالأعمال الأخرى - نعم، كان لابد أن يكون من بين الكم الهائل الذي قامت المطابع ودور النشر الحكومية بنشره بعض الأعمال الرفيعة التي تنشر لأول مرة أو يعاد نشرها، ولكن الأكثر لفتًا للنظر هو النسبة العالية لما أخرجته هذه المطابع ودور النشر من أعمال لا تستحق النشر، بسبب حظوة يتمتع بها الكاتب لدى المسئولين عن هذه المؤسسات.

شاعت أيضًا في الصحف والمجلات الحكومية ظاهرة غريبة تكاد تكون غير معروفة تمامًا في الخمسينيات والستينيات، وهي احتلال أسماء خالية من أي موهبة، بل وكثيرًا ما تكون عاجزة عن نقل أي معنى مفهوم للقارئ، لمساحات ثابتة في هذه الصحف، فيفرضون أنفسهم فرضًا على القراء، أسبوعًا بعد أسبوع، لمجرد تمكنهم لسبب أو آخر من الاقتراب والحصول على رضا المسئولين عن الصحيفة أو المجلة.

لم يكن هذا «النجاح» بسبب مجرد الحظوة ممكنًا في فنون كالسينما والمسرح، تخضع بطبيعتها، أكثر مما تخضع الصحف، لاعتبارات الإقبال الجماهيري وحسابات الربح والخسارة، ومن ثم لم يكن من الممكن أن تكون «العملة الرديئة» التي تطرد «العملة الجيدة»



أصبحت المشكلة تزايد حدة المنافسة، شيئًا فشيئًا، مع انتهاء الستينيات، بين أنواع من الإنتاج الثقافي يدعمها المال الوفير أو الطلب الواسع أو كلاهما، ودولة تقف وراء هذا المال الوفير والطلب الواسع، وبين أنواع أخرى أرقى مستوى وأشد التزامًا



من مظاهر شيوع «العملة الرديئة» أيضًا في الأدب والنقد الأدبي، ظاهرتان قد تبدوان لأول وهلة منفصلتين تمام الانفصال ولا يمكن أن تكون بينهما أية صلة، ومع ذلك فقد تكونان في الحقيقة انعكاسًا لنفس سمات المناخ الثقافي الذي نشأتا فيه. الظاهرة الأولى تتمثل في ظهور، وتكرر ظهور، ميل لدى جيل جديد من كتّاب الرواية والقصة إلى التجرؤ على بعض المقدسات الدينية، على نحو لم يكن متصورًا طوال العقود السابقة. وتتمثل الظاهرة الثانية في ظهور أعمال أدبية على أعلى درجة من الغموض والإبهام، يحار قارئها، مهما حاول وعاود المحاولة أن يفهم معناها أو قصد الكاتب منها. فإذا تجرأ بعض هؤلاء القراء على نقدها، وُوجهوا، سواء من أصحاب هذه الأعمال الأدبية أنفسهم، أو من بعض المتخصصين في النقد الأدبي، بالقول بأن هذه الأعمال الرائعة في الحقيقة، وإن لم تكن مفهومة بالمرة، تنتمي إلى مدرسة «ما بعد الحداثة»، هي مدرسة لا يستطيع فك رموزها إلا الراسخون في العلم أو ذوو الحسّ المرهف القادرون على الغوص في أعماق النفس البشرية. هاتان الظاهرتان الغريبتان اللتان قد تبدوان على طرفي نقيض، قد يكون مما ساعد على ظهورهما وتكرارهما اشتداد الميل إلى تقليد ما يفعله الكتّاب والنقاد في الغرب، بعد أن فتحنا كل الأبواب الموصدة دونه، مع اشتداد دور «العلاقات العامة» في الترويج لبعض الأعمال والموضوعات الأدبية دون غيرها. لقد سبق أن أشرت إلى دور الحظوة الشخصية التي قد يتمتع بها كاتب أو ناقد لدى هذا المسئول أو ذاك من أصحاب النفوذ في وسائل الإعلام، في الحصول على درجة لا

يستهان بها من الرواج والشهرة. فإذا قُدِّر للكاتب أو الناقد أن يحصل على هذه الحظوة فإنه قد يضمن لروايته أو مقالاته مكانة أو على الأقل ذيوع صيت، ما كان يمكن أن يحصل عليهما فى عصر أكثر التزامًا ببعض المبادئ العامة والمستقرة.



لم تظهر المؤسسات الأجنبية فى الحياة الثقافية المصرية فى العقود الثلاثة الأخيرة، تلك الصورة الساذجة التى عرفناها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، كقيام بعض المؤسسات الثقافية الأمريكية المشبوهة بتمويل مجلات أو كتب تروّج لنظام الحياة الأمريكية وتنتصر للديمقراطية الغربية و«العالم الحر»، وتدحض الشيوعية وتؤكد على تعارضها مع الأديان، بل أصبح هذا الدور الآن أكثر التواء ولكنه أشد نفاذًا وأبعد أثرًا.

إن هذا الدور لازال يتخذ أحيانًا بعض الصور المباشرة والواضحة الهدف، كدعوة بعض المثقفين لمؤتمر أو ندوة لهما مظهر ثقافى وفكرى ولكن الهدف السياسى منهما لا يمكن أن يخفى على أحد، أو كاستضافة بعض المثقفين المصريين لمدد متفاوتة الطول للإقامة فى بلد غربى أو للتدريس فى إحدى الجامعات الغربية خاصة إذا كان موضوع المحاضرات يؤكد على تخلف العرب أو الإسلام عن ركب الحضارة الغربية أو عن التقدم الإسرائيلى، أو تقديم الدعم لمخرج سينمائى مصرى بشرط أن تدور الأفلام المدعمة حول نفس هذه الموضوعات وتحمل للمشاهد نفس هذه الرسالة. كما قد تلجأ بعض هذه المؤسسات إلى إسباغ حمايتها على بعض الأعمال الأدبية أو الفكرية التى تتجرأ جراءة زائدة على الدين فتعرض على صاحبها الانتقال إلى دولة أجنبية للإقامة بها تمكينًا له من ممارسة موهبته بمطلق الحرية.

ولكن هناك وسائل أخرى أقل وضوحًا وأطول عمرًا تمارسها هذه المؤسسات الثقافية والمالية الأجنبية والدولية، وتتعلق بالبحوث والدراسات الاجتماعية والإنسانية أكثر مما تتعلق بالأعمال الأدبية. فقد تكاثر منذ منتصف السبعينيات عدد المنح ومختلف صور الدعم التى تقدمها المؤسسات الأجنبية والدولية للمصريين المشتغلين بالبحوث الاجتماعية والاقتصادية، خاصة إذا كانوا من أعضاء أو مديرى مؤسسات أو مراكز بحوث مصرية، بشرط أن تكون الموضوعات التى يزمع هؤلاء بحثها مما يتفق مع اتجاهات وميول المؤسسة الأجنبية المقدمة للدعم. وسرعان ما فهم الباحثون المصريون نوع هذه الموضوعات القادرة أكثر من غيرها على استجلاب الدعم المالى، فإذا بها تتعلق إما بتحرير المرأة أو بحقوق الإنسان أو الديمقراطية، أو بحقوق الأقليات العنصرية أو الدينية، أو بالتكامل الاقتصادى مع دول أخرى فى الشرق الأوسط بشرط أن تكون إسرائيل من بين هذه الدول، أو بإثبات مزايا بيع القطاع العام والخصخصة، أو مزايا وضرورة برامج التكييف الهيكلى والتثبيت الاقتصادى، بما فى ذلك تحرير التجارة الدولية وتشجيع الاستثمارات الأجنبية وتقليص دور الدولة فى النشاط الاقتصادى.

كان هناك شبه بلا شك بين ميل الكثيرين من الباحثين فى العلوم الاجتماعية والإنسانيات، خلال عقد الستينيات، إلى الكتابة عن ضرورة تدخل الدولة بشدة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وعن حتمية الحل الاشتراكى، وعن مزايا حماية الناتج المحلى ضد الواردات ومخاطر الاستثمار الأجنبى، إذ كان من يكتب فى عكس ذلك الاتجاه لا يحظى بعطف الدولة ويُحرم من فرص الصعود السياسى والاقتراب من السلطة، وبين هذا الاتجاه الذى نتكلم عنه الآن، والذى تزايد قوة منذ السبعينيات، طمعًا فى الحصول على دعم وعطف المؤسسات الأجنبية. ومن الممكن القول بأن كلا النوعين من التدخل من شأنه إفساد جانب مهم من جوانب الحياة الثقافية، إذ يُعرِّض المثقف أو الباحث الاجتماعى لقول ما يتعارض مع ضميره أو على الأقل لتنحية مسألة الضمير جانبًا لحساب الكسب المادى أو السياسى. ولكن بالإضافة إلى ذلك يجب أن نلاحظ الاختلاف البيِّن بين أهداف السلطة فى مصر، خلال الستينيات، وأهداف المؤسسات الأجنبية فى العقود التالية. فإذا تعاطف المرء مع أهداف السلطة فى الستينيات فلابد أن يعتبر أن إفساد المناخ الثقافى بعد انتهاء تلك الحقبة هو أخطر وأشد ضررًا من أى تدخل للسلطة قبل ذلك.

لم يكن غريبًا بالمرة، وإن كان مؤسفًا للغاية، أن يتحول دور الدولة شيئًا فشيئًا، تحت تأثير هذه العوامل كلها، من تقديم الدعم للثقافة الرفيعة وحماية الجمهور من طغيان الأنواع الرديئة من الثقافة، إلى عكس ذلك بالضبط، إذ ألقت الدولة بثقلها ونفوذها وأموالها إلى جانب الثقافة الرديئة، وتركت منتجى الثقافة الرفيعة والباحثين عنها يحاولون أن يواجهوا وحدهم، ودون سند أو دعم، تيار الثقافة الفاسد الزاحف نحوهم. نحن نعرف ما يحدث فى دول أخرى كثيرة، حيث تشجع قنوات التليفزيون التجارية الإنتاج الثقافى الردىء، إذا كان يجلب الربح الوفير، وتعرض على الناس من البرامج والأفلام ما يتمشى مع الإعلانات التجارية ولا يضعف من تأثيرها، مهما كان مستوى هذه البرامج والأفلام متدنيًا، فتأتى الدولة لتفعل ما فى قدرتها لدعم الثقافة الرفيعة التى لا تستجيب لأذواق الجماهير الغفيرة، بل تستجيب لأذواق وقيم أكثر ندرة ومن ثم أقل ربحًا. نحن نعرف مثلاً الجهد والمال اللذين تبذلهما قنوات الإذاعة البريطانية والتليفزيون البريطانى الخاضعة للدولة، وما تمنحه الحكومة البريطانية من دعم للمسرح القومى وللمؤسسة القومية للسينما، حماية للثقافة الرفيعة من تيار الثقافة التجارية المحكوم بدافع الربح وحده. لهذا لابد أن تصيبنا الدهشة إذ نرى التليفزيون المصرى، الخاضع لسلطان الدولة، تحركه أكثر فأكثر دوافع الربح، ويخضع أكثر فأكثر، مع مرور الأيام، لمطالب أصحاب الإعلانات التجارية، وإذ نرى دور النشر الحكومية تخضع أكثر فأكثر لاعتبارات المجاملات الشخصية التى تحكمها فى نهاية الأمر مصالح خاصة تتعلق إما بالربح أو بالشهرة. بل ونرى أعلى الجوائز الحكومية التى نشأت أصلاً لتشجيع الكتّاب والعلماء والمفكرين المتميزين، يعطى الكثير منها بناء على اعتبارات مماثلة، ومنبتة الصلة بالأهداف التى أنشئت من أجلها هذه الجوائز.



هكذا تضافرت هذه العوامل جميعًا لإنتاج المناخ الثقافى السائد الآن فى مصر: انفتاح اقتصادى بلا ضابط على الاقتصاد الغربى والمؤثرات الثقافية الغربية، هجرة بمعدلات عالية إلى دول النفط العربية، ارتفاع كبير فى معدل التضخم، انتشار واسع للتعليم مع هبوط واضح فى مستواه، نمو سريع فى الطبقة الوسطى مع درجة عالية من الانفصام بين نمو الدخل والجهد المبذول، مع تدفق دخول وثروات جديدة فى أيدى شرائح اجتماعية جديدة ذات ميول وأذواق ثقافية متدنية، وازدياد تغلغل الشركات التجارية الأجنبية فى الحياة الاقتصادية فى مصر مع نمو نشاط المؤسسات الثقافية والمالية، الأجنبية والدولية، فى الحياة الثقافية المصرية، وزيادة تأثيرها فى إنتاج المثقفين المصريين خاصة فى مجالات البحوث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتضافر مع هذا كله تحول مهم طرأ على طبيعة الدولة المصرية، إذ بينما تنازلت الدولة عن كثير من التزاماتها القديمة، فى مجالات السياسة الاجتماعية والعربية والاستقلال الوطنى، استمرت سيطرتها على المؤسسات الثقافية ووسائل الإعلام الجماهيرى.

كانت نتيجة هذا كله مناخًا ثقافيًا مختلفًا تمامًا عما كان سائدًا من نصف قرن، وأصبح مصدر الشكوى مختلفًا تمامًا عما كان يشكو منه عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم عندما كتبا كتابهما «فى الثقافة المصرية» فى سنة ١٩٥٥. كان من الممكن تلخيص القضية الأساسية حينئذ فى تنكر كبار الكتّاب والأدباء فى مصر لقضية الصراع الطبقى الانقسام الحاد بين الشرائح الاجتماعية والاقتصادية، فلم يعد هذا صالحًا لتلخيص القضية الثقافية الأساسية الآن. بل أصبح الأقرب إلى التشخيص الصحيح لهذه القضية الآن وصفها بأنها قضية صراع محتدم بين ثقافة تخدم فى الأساس مصالح تجارية، تمثلها شركات أجنبية ومؤسسات دولية بالإضافة إلى شركات ومؤسسات مصرية، حكومية وخاصة، وبين ثقافة تخدم مصالح بقية المصريين المنتمين إلى طبقات وشرائح اجتماعية مختلفة، والذين يبحثون بغباء شديد وشق الأنفس عن بضع ثمرات من الإنتاج الثقافى الرفيع، تحاول الصمود أمام هذا التيار الكاسح من الثقافة الرديئة. ■

لابد أن يكون من بين الكم الهائل الذى قامت المطابع ودور النشر الحكومية بنشره بعض الأعمال الرفيعة التى تنشر لأول مرة أو يعاد نشرها، ولكن الأكثر لفتًا للنظر هو النسبة العالية لما أخرجته هذه المطابع ودور النشر من أعمال لا تستحق النشر، بسبب حظوة يتمتع بها الكاتب لدى المسئولين عن هذه المؤسسات





قصيدة النثر بين القبول والرفض

محمد عبد المطلب

[١]

سيطر على الواقع الإبداعي والنقدي نوع من الهدوء النسبي بالرغم من استمرارية الإبداع واستمرارية المتابعة النقدية، لكنها استمرارية أشبه (بالوقوف المتحرك)، ثم فجأة انشغل هذا الواقع بمجموعة من الحوارات النقدية التي ارتفعت حدتها إلى درجة الصراخ، وقد ازداد الإحساس بهذه الحدة نظراً لحالة الهدوء التي أشرنا إليها، ومجمل هذه الحوارات تطول (قصيدة النثر)، وبدا الأمر كأننا نواجه ظاهرة نوعية طارئة، لم يكن لها حضور سابق، أي أن الحوارات كانت تجاهلاً لحقيقة إبداعية حاضرة بالفعل في الخطاب الإبداعي العربي، مع تغيير العمق الزمني لها من بلد إلى آخر، فبينما كانت تجليات الحضور في لبنان في منتصف القرن العشرين، كانت تجلياتها في مصر والعالم العربي في السبعينيات.

معنى هذا أن الحدة قد تأسست على ركائز غير صحيحة، وإن كانت البداية الحوارية نفسها مقبولة حول قصيدة النثر، وعدم الصحة هو الذي طرح هذه القضية على أساس مغلوط، حيث تم طرح سؤال يتجاهل الواقع، وهو: هل قصيدة النثر نوع إبداعي حاضر بالفعل، أم هي مجرد وهم يخايل المبدعين؟ لذا فإن تعديل السؤال أمر تفرضه الحقيقة الإبداعية، حيث يكون المطلوب فحص الخواص النوعية الفارقة التي تعطى قصيدة النثر خصوصيتها المغايرة لسواها من أجناس القول.

والعجب أن مجمل الحوار قد تغاضى عن مرحلة النشأة في العالم العربي عموماً، ومصر على وجه الخصوص، واتكأ كاملاً على لحظة الحاضر، وهذا التغاضي هو الذي جعل الحوار مغلوطاً - كما قلنا - إذ أن قصيدة النثر أصبحت حقيقة فرضت نفسها على الخطاب الأدبي، ولا نجاوز الحقيقة إذا قلنا أنها أصبحت صاحبة السيادة فيما ينشر مفرداً، أو ما يطبع على شكل دواوين، برغم أنها تكاد تكون محاصرة من جمهرة التفعيليين أولاً، ومن جمهرة النقاد ثانياً، وبرغم أن هذا الحصار يمكن أن يكون نابعاً من طبيعتها الإبداعية، بوصفها نوعاً نافراً عن الشفاهة، وغير قابل للتلقي العجل السريع، واحتياجها إلى قدر وافر من القراءة المتأنية المتأملة إلى تتابع السطوح والأعماق، والخارج والداخل، فلا فرق فيها بين سطح وعمق، ولا فرق فيها بين داخلها وخارجها، فالعلاقة الجدلية بينهما لا تعطى لطرف أهمية على الطرف الآخر.



لقد تفجر الحوار بفاعلية إشارة صريحة لواحد من كبار الشعراء، هو أحمد عبدالمعطي حجازي، والإشارة - في مجملها - تكاد تكون إشارة هجائية، وقد أخذت أهميتها البالغة لأن مصدرها له هذه الأهمية، ومن ثم سارع مبدعو قصيدة النثر لمواجهة هذه الإشارة مواجهة ممتلئة بكثير من الخشونة، بل ربما تجاوزت الخشونة إلى القسوة الجارحة، وهو الأمر الذي نرفضه تماماً، لأن الخلاف في الرأي يجب أن يظل في إطار احترام الرأي الآخر، ومواجهته مواجهة منهجية بالرأي الذي يؤسس لفكر يواجه فكراً، وأن يستحضر الجميع مقولة الإمام الشافعي: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب.

والحق أن جمهرة المشاركين في الحوار لم يكونوا جميعاً معارضين لحجازي، بل إن هناك قلة شاركت من منطق تبني وجهة نظره، والشد على يديه لإقدامه على فتح الحوار حول هذا الجنس المنفلت الذي لم يتقبلوه شكلاً أو مضموناً، وقد عززوا موقفهم بحاشية تفسيرية تسلب قصيدة النثر كل مقومات انتمائها للشعرية، بل تسلبها الانتماء للأدبية عموماً.

اللافت في هذه المعركة الحوارية أن الذين أقدموا على المشاركة كان معظمهم من المبدعين، بينما أحجم النقاد إلا نفراً، بالرغم من أن منطق الأمور كان يحتاج إلى تعديل المواقع، على معنى غلبة المشاركة للنقاد، وأن يحجم المبدعون، لأنهم متهمون بالدفاع عن النفس حقاً أو باطلاً، لكن الذي حدث أن معظم الجلبة كانت من المبدعين، وارتفعت أصواتهم ارتفاعاً هائلاً دفاعاً عن النفس.

فلماذا أحجم النقاد إلا نفراً من الاشتباك في هذا الحوار الصاخب؟

إن النظرة المنصفة للخطاب النقدي فيما يتصل بقصيدة النثر، تؤكد أن هذا الخطاب لم يتجاهل هذا النوع الإبداعي، بل إنه تابعه متابعة تكاد تكون مفصلة، ولا يعنينا هنا أن تكون المتابعة بالقبول أو الرفض، فالأمران مطروحان على نحو لازم لكل إبداع، لكن المهم أن هذه المتابعة كانت اعترافاً صريحاً بدخول الشعرية العربية في مرحلة جديدة من مراحلها المتتابعة. وبرغم ازدحام هذه المتابعة بالآراء الرافضة، فإن الذي نراه أن الرفض لم يكن عائقاً أمام المسيرة، بل ربما كان عامل مؤازرة، لأنه لو لم يكن هناك إحساس بأن قصيدة النثر قد فرضت حضورها التنفيذي، لما كانت هذه المقارنة، ولما كان هذا الرفض الحاد.

إن الخطاب النقدي الذي طرح موقفه - في مرحلة سابقة وقريبة من قصيدة النثر - قد اعتمد آراء مجموعة من النقاد لهم رسوخهم النقدي، وشموخهم المنهجي، وهذه الآراء جاءت شمولية وموسعة حيناً، ومحدودة جزئية حيناً آخر، ويطول بنا الأمر لو رحنا نعدد الأسماء ونطرح مجمل الآراء.

معنى هذا أن النقد لم يكن غائباً ولا مغيباً كما يدعي البعض، بل كان حاضراً وفاعلاً، صحيح أنه حضور محدود، لكن هذه المحدودية رهن بالبدايات دائماً، ورهن بالإبداعات الطارئة التي تحتاج إلى وقفة تأمل قد تطول لاستيعابها قبل الدخول إلى دهاليزها، والسير في معارجها، وتحسس ملامحها الجوهرية والشكلية وما يمكن أن تنبيء به من إرهاصات قادمة.

بالرغم من أن المتابعة النقدية لم تكن سرية بل علنية فيما نشر أو أذيع، بالرغم من ذلك فقد أسرع البعض بإصدار حكم غريب بأن النقد المتابع للشعرية قد غاب غياباً مطلقاً بعد غياب نجومه السابقين أمثال مندور ولويس عوض وشكري عياد ولطفي عبد البديع وتوقف نجومه الذين مازالوا على قيد الحياة، ولا أدري كيف يجترئ بعضنا على مثل هذا القول الظالم، وأظن أن من يجترئ عليه واحد من اثنين: إما أنه لا يقرأ أصلاً، ويعيش في قوقعة إبداعه فحسب، وتلك مصيبة، وإما أنه ينكر ما يقرأ، وتلك مصيبة أعظم.

وعندما نذكّر بجهد النقد في متابعة قصيدة النثر يجب أن نذكّر - أيضاً - بجهد (المبدعين النقاد) وهم كثر، ولكل منه مشاركته الإيجابية الفاعلة، سواء في ذلك المبدعون لقصيدة النثر ذاتها، أو المبدعون الذين لم يقاربوها باعتبارها من المنكر الذي يجب تجنبه.

والذي نخلص إليه في هذا السياق، أن المتابعة النقدية - برغم محدوديتها - قد استطاعت أن تقدم إنجازاً لافتاً طال قصيدة النثر في النشأة والصعود، وطال كثيراً من خواصها التكوينية في الجوهر والشكل، لكن ذلك كله مازال في حاجة إلى المتابعة والتواصل الهادئ.



[٢]

ويبدو أن الحوار حول قصيدة النثر لم يكتف بحضورها الآني، بل إنه اتسع في كل الاتجاهات، وبخاصة اتجاه الزمن الماضي، الذي أصبح مستنداً شرعياً يساند غيره من المستندات التي قدمتها هذه القصيدة لتأكيد انتمائها إلى دوحة الشعرية.

لكن يبدو - أيضاً - أن جمهرة مبدعي قصيدة النثر يرفضون اعتماد مستند الموروث ضمن مستندات الشرعية، وحجتهم - في ذلك - أن القديم ليس شرطاً دائماً للجديد.

أي أنهم - دون وعي - يدعون إلى نوع من القطيعة والانفصال، وكأنهم أبناء بلا آباء أو



لنقل: إنهم مغرمون بقتل الأب، ومن ثم يمكن إبداعهم إبداعًا لقيطًا. من أين جاء؟ لا ندرى. وإلى أين يمضي؟ لا ندرى أيضًا.

والشيء اللافت، أنهم لا يعتمدون مستند التراث ثم يصرون على أن إبداعهم ينتمي إلى دوحة الشعرية العربية. وهذا الإصرار يجعل التراث حاضرًا وفاعلاً فى هذا الإبداع الطارئ، ومن ثم يصبح حلقة فى سلسلة حلقات الشعرية العربية بكل عمقها التاريخي والفني.

وهكذا يصل الموقف النقدى والإبداعي إلى ازدواجية متناقضة، من حيث رفض اعتماد التراث مستندًا شرعيًا، ثم الإصرار على أن قصيدة النثر تنتمي للشعرية، وأن من يدخل فى إطار هذه الثنائية كمن يريد السكنى فى الطابق العاشر من المبنى شريطة ألا يكون أسفله طوابق أخرى مسكونة أو غير مسكونة، أى أن يسكن فى الهواء، يمكن لأقل عاصفة أن تذهب به ومعه سكناه.

إن الرافضين لمستند التراث مثلهم كمثل الذى يريد أن يقدم نفسه لمن لا يعرفه، أو لمن لم يقابله من قبل، فيقول: أنا فلان، ثم يمتنع عن تقديم هوامش توضيحية لشخصيته. صحيح أن مثل هذا التصرف قد يكون نوعًا من الاعتزاز بالنفس بعيدًا عن الألقاب والأوصاف والأصول العائلية والرتب الوظيفية، لكن ماذا يجدى كل ذلك فى تعامل الآخر مع مثل هذا الشخص المخلوع من جذوره، والمبتور عن أصوله؟

ولا شك أن استحضار التراث بوصفه أحد المستندات الشرعية، يتوافق مع العقيدة الإبداعية برسوخ جوهر الشعرية، وهى عقيدة قديمة أشار إليها أبو عبيدة معمر بن المثنى بقوله: «ألم تعلم أن الشعر جوهر لا ينفد معدنه(١)» وثبات الجوهر يوازيه تغير البناء الشكلي، وهوامشه المصاحبة له، وإضافاته اللاحقة، وعلى هذا الأساس يصح انتماء «قصيدة النثر» للشعرية العربية، ويصبح التراث مستندًا شرعيًا معترفًا به، والقول بغير ذلك يعنى أنها لا تنتمى إلا إلى ذاتها، فإذا كان ذلك هو عقيدة أصحابها، إذن فليعلنوها صريحة، وليقولوا إننا لا ننتمى إلى دوحة الشعر، حتى يتوافق التنظير مع إجراءاتهم الإبداعية.

إن رسوخ الشعرية جعلها محلاً صالحًا لمجمل التطورات الطارئة التى تتناوبها تبعًا للتغيرات المصاحبة فى الزمان والمكان والبيئة، وتغير الواقع الحضارى، فلولا هذا الرسوخ الجوهرى للشعرية، ما كان هذا التجلى المبهر لتحولاتها الشكلية، إذ أن ثبات الجوهر قد أكسبه بعض القداسة الإبداعية، وفى الوقت نفسه، فإن هذه القداسة قد تباعدت تمامًا عن الإطار الشكلى وتوابعه.

ومن الواضح أن ثبات الجوهر قد حول الشعرية إلى «ديوان للعرب»، كما سنوضحه بعد ذلك، ولم يتحقق لها ذلك إلا لأن المخاض والميلاد والنشأة كانت ممتزجة بالتكوين الأول للواقع العربى، ومن ثم امتلك الجوهر قداسته لأنه فوق الذوات المبدعة، بينما لم يمتلك الشكل هذه القداسة لأنه من صناعة المبدعين، ومن ثم فهم أصحاب حق شرعى بالتعديل والتغيير فيه، وحق شرعى فى الحذف والإضافة إليه.

ولا يمكن الادعاء بأن مثل هذا التغيير والتعديل كان يتجه دائمًا إلى الأفضل أو الأحسن، بل إنه معرض للذبذبة والتأرجح بين الصعود والهبوط، تبعًا للتحولات الحضارية، وهوامشها المصاحبة لها، دون أن يتدخل التدرج الزمنى فى الصعود والهبوط فقد وصلت الشعرية العربية إلى ذروتها الصاعدة فى العصر العباسى، ثم هبطت إلى القاع فيما تلاها، ثم عادت للصعود مع العصر الحديث.

لكن تحولات الشعرية فى الصعود والهبوط ظلت على ولائها الأول للموروث بوصفها تنويعًا طارئًا، وقد يستمر، وقد يتوقف، وقد يتلاشى.

إن المتابع المنصف لمسيرة الشعرية العربية يدرك أن كل مرحلة من مراحل التطور قد استندت على بعض الركائز التراثية التى تحفظ لها انتماءها الأصيل للشعرية العربية، وتنفى عنها الانقطاع، ومن ثم تجد ناقدًا من نقاد القرن الخامس الهجرى هو ابن رشيق فى عمدته يذكر «امرؤ القيس» الذى جسد بكورة الشعرية، ويقول عن الشعراء الذين جاءوا بعده «لا يكادون يفلتون من حبائله».

وقد تجلى التواصل مع التراث فى مرحلة «الإحياء» تجليا كليا وجزئيا، بل إن المصطلح نفسه «الإحياء» يمثل إشارة واضحة على أن المرحلة كانت عملية استحضار للشعرية العربية فى أخصب مناطقها.

وقد حافظ هذا التواصل على مجمل تجلياته فى المرحلة الرومانسية برغم مغامراتها مع «المعنى» تارة، ومع البناء الشكلى تارة أخرى. بل إن الوعى النقدى الصحيح يمكن أن يدرك مدى التداخل التطورى بين حركة الإحياء والمرحلة الرومانسية، كما يمكن أن يلاحظ أن شعر الإحيائيين كان مشحونًا بمؤشرات رومانسية، وأن الشعر الرومانسى كان مشحونًا بإجراءات إحيائية.

وظل التواصل مع التراث حاضرًا فى مرحلة «التفعيلة» والتسمية ذاتها «التفعيلة» تؤكد اعتماد التراث مدخلاً لها.

وأعتقد اعتقادًا جازمًا أن حضور التراث قد صاحب ظهور «قصيدة النثر»، فلولا الوعى التراثى بوجود منطقة مشتركة يمكن أن يجتمع فيها الطرفان: الشعر والنثر، ما كان لها أن تكون، وما كان لها أن تحتل، هذه المساحة المحترمة فى عالم الإبداع. صحيح أن الروافد الأجنبية قد تدخلت ـ بالضرورة ـ لكن تدخل الوافد الأجنبى لم يقتصر على مرحلة «قصيدة النثر»، بل يكاد يكون موازيًا لتاريخ الشعرية العربية فى القديم والحديث على السواء، لكن هذا التدخل متذبذب فى الصعود والهبوط، يزيد فى مرحلة، ويقل فى أخرى، لكنه لا يغيب تمامًا.

إن رصد مراحل التطور التى مرت بها الشعرية، يقتضى رصد عناصر التراث المصاحبة لها، ورصد العناصر الوافدة الدخيلة عليها، لأن هذا الرصد هو الذى سوف يحدد أفق التجريبية الملازمة لها، من حيث هى مغامرة واعية بماضيها وحاضرها، وواعية بأفقها الآتى واحتمالاته التكوينية، وهذا الوعى هو الذى يحمى المغامرة التجريبية من أن تستحيل إلى عملية هدم وتخريب، لا تبقى على حاضر ولا تعطى أملاً فى مستقبل.

ولا شك أن التطور الملازم للشعرية يمثل خطًا موازيًا لتحولات الواقع العام والخاص. والتحولان ـ معا ـ يمثلان جدلية صاعدة هابطة، لأنه من المسلم به أن كل مغامرة تجريبية يمكن أن تصعد إلى الأفضل، لكنها ـ أيضًا ـ يمكن أن تهبط إلى الردئ، لكن فى هذا أو ذاك، لا يمكن القول ـ أبدًا ـ أن هناك إبداعًا قد وصل إلى الكمال، أو اقترب منه. ومن يتابع الخطاب النقدى فى القديم والحديث يدرك أن معظم منجزاته قد تعلقت بالجوانب السلبية فى كل مرحلة أكثر من تعلقه بالجوانب الإيجابية، لكن الحكم النهائى على أى مرحلة من مراحل الشعر يجب أن يكون فى إطار نظرة كلية لها، وأعتقد أن هذا ما تحقق عندما اعتمد الدارسون مراحل الشعرية فى أطرها الكلية يرصدون خواصها ويحددون جمالياتها، وفى الوقت نفسه يكشفون ما بها من عوار. فهناك المرحلة الجاهلية، وصدر الإسلام والأموية.. إلخ. والحكم النقدى على كل مرحلة، لا ينظر فى سلبياتها فحسب، ولا فى إيجابياتها فحسب، وإنما يطول الحكم المرحلة فى كليتها.



[٢]

مهما أوغلت الحداثة فى عزل النص عن هوامشه الخارجية، فإنها لا يمكن أن تعزل تحولات الإبداع ـ جملة ـ عن تحولات الواقع المحيط به، إذ أن التحولات تكون استجابة حتمية للوارد الخارجى بكل تفاعلاته الصاعدة أو الهابطة، الناعمة أو الخشنة.

معنى هذا أن «قصيدة النثر»، استجابة لزمنها، لكن هذه الاستجابة كانت مسبوقة بمؤشرات صريحة أحيانًا، وضمنية أحيانًا أخرى، والمؤشرات ـ فى مجملها ـ كانت بمثابة «بشارة» الميلاد، التى صدرت من مناطق نثرية خالصة، مثل الإشارات الصادرة من نصوص المنفلوطى والرافعى وجبران وطه حسين وسواهم من الكتاب الناثرين، والتى صدرت من مناطق شعرية كثيرة، كتلك الصادرة من إبداعات بشر فارس وإبراهيم شكر الله، وباكثير وعبد الرحمن الشرقاوى وسواهم، ثم كانت هناك الإشارات الصادرة من مناطق تمزج بين الشعر والنثر، وبخاصة منطقة «الترجمة» التى قدمت الشعرية غير العربية فى صيغة نثرية خالصة.

واللافت فى هذا السياق أن زمن «قصيدة التفعيلة» فى مصر، كان موازيا لزمن «قصيدة النثر» فى لبنان، فكانت أصوات الماغوط وأنسى الحاج وسركون وسعيد عقل موازية لأصوات صلاح عبد الصبور وحجازى فى مصر، ونازك الملائكة والسياب والبياتى فى العراق. وقد يرى البعض أن ذلك راجع إلى الطبيعة اللبنانية وميلها الصريح إلى المغامرة والهجرة المادية والمعنوية، واستجابتها غير المحدودة لواردات الغرب، فقصيدة النثر كانت نوعًا من التجاوب مع هذه الطبيعة المغامرة.

والشيء المؤكد أن للمصريين مغامراتهم التجريبية، وقصيدة التفعيلة ذاتها كانت نوعًا من هذه المغامرات، لكن مغامرة المصريين تتم فى إطار من التواصل مع السابق، أى أن المغامرة لا تؤمن بالطفرة التى قد تؤدى إلى التعثر وإنما تؤمن بالصعود الآمن والتحرك المنتظم، فقد ظلت قصيدة النثر محصورة ومحاصرة فى منطقة المنشأ، بينما أخذت قصيدة التفعيلة فى الانتشار حتى أصبحت صاحبة السيادة فى مسيرة الشعرية العربية.

وهذا الحصار كان ناتجًا للإحساس العام الذى سيطر على الواقع الأدبى آنذاك، إذ لم يتقبل هذا الإبداع الطارئ لأنه كان نوعًا من التناسخ مع النموذج الغربى، بينما شعر التفعيلة كان نوعًا من التشكيل على القصيدة العربية بكل عمقها التراثى.

ولا يعنينا هنا أن ندخل فى الجدل حول منطقة النشأة فى مصر أو غيرها من البلدان العربية، كما لا يعنينا الدخول فى جدل حول صاحب البدايات الأولى للتفعيلة، إنما الذى يعنينا أنها مثلت مرحلة مهمة وخطيرة فى تاريخ الشعرية



أعتقد اعتقادًا جازمًا أن حضور التراث قد صاحب ظهور «قصيدة النثر»، فلولا الوعى التراثى بوجود منطقة مشتركة يمكن أن يجتمع فيها الطرفان: الشعر والنثر، ما كان لها أن تكون، وما كان لها أن تحتل، هذه المساحة المحترمة فى عالم الإبداع



العربية، بينما مثلت قصيدة النثر اللبنانية مرحلة استثنائية، ومن ثم لم تتقبلها الذائقة الشعرية، ولم تقبل عليها إلا في منتصف السبعينيات من القرن الماضي تقريبًا، ولم يتحقق القبول ثم الإقبال إلا بعد توثيق هذه النوعية بجذور تراثية من ناحية، وفروع وافدة من الغرب من ناحية أخرى، وهذا التوثيق يعني خصوبة الثقافة الحاضرة، وأنها ثقافة حضارية من الطراز الأول، لأنها لا تعرف الانغلاق والجمود، بل تؤمن بالتلاقح، ولا تعرف الانعزال والانقطاع، لأن الانعزال موت بطيء، لكنها - في الوقت نفسه - لا تعرف الذوبان في مواجهة الوافد المهيمن.

لقد ظلت «قصيدة النثر» تخايل المبدعين منذ منتصف القرن حتى السبعينيات، ثم - فجأة - حدث ما يمكن أن نسميه «هجرة جماعية» أو شبه جماعية من السبعينيين إليها، ثم جاء بعدهم التابعون، وتابعو التابعين من الثمانينيات والتسعينيات، وإن ظل الستينيون على ولائهم للتفعيلة، صحيح أن بعضًا منهم قد أغوته قصيدة النثر فمارسها في إبداعات مفردة، لكنهم ظلوا متمسكين بمنطقتهم الإبداعية بوصفها منطقة الشعرية الحقة.

وهنا يحتاج الأمر إلى وقفة قصيرة لتأمل الحاضر الإبداعي لقصيدة النثر، وحال المهاجرين الأول، وحال التابعين وتابعي التابعين.

لقد كانت غالبية المهاجرين الأول من شعراء التفعيلة، ولهم فيها إنجازات لافتة، مما يؤكد امتلاكهم للموهبة والأدوات على صعيد واحد، أي أن الهجرة لم تكن عن جهل بقوانين الإيقاع، ولا حتى للتخفف من قيودها كما يدعي البعض.

وأعتقد أن امتلاك السبعينيين لهذا الرصيد حفظهم من الانقطاع والعزلة ووضعهم في دائرة التراكم التواصلي، وهي الدائرة الشرعية لكل إبداع شعري أو غير شعري.

أما من هاجر بعدهم، فكان أحد اثنين، الأول: امتلك ما امتلكه سابقوه من رصيد وقدرات إبداعية، ومن ثم جاء إنتاجهم - في قصيدة النثر - ملتحمًا بقصيدة السبعينيين، مع إضافات تختص بهم وترتبط بشعريتهم.

الآخر: ذلك المهاجر دون دوافع حقيقية للهجرة، ودون امتلاك الأدوات التي تجعل هجرته عملاً مأمونًا ومشروعًا، وغياب الدافع والأداة، جعل الهجرة نوعًا من التمرد العشوائي، فهم يقولون إننا لم نهاجر رغبة في الجديد، وإنما كانت الهجرة لرفض الإبداع المحيط بهم، وقد تشكل هذا الرفض في أطر من التجريح الخشن الذي طال الشعرية العربية في جملتها، فهم يقولون: كيف يمكن لنا أن نتحرك راكبين الحمر والبغال وسط السيارات الفارهة؟ وكيف نرحل بين القارات فوق الجمال وسط الطائرات والصواريخ؟



وتضخم الرفض، وتجاوز الإبداع إلى المبدعين، حيث رأى الجيل الأخير من المهاجرين أن من سبقهم وزامنهم من التفعيليين والعموديين هم مجموعة من الرجعيين أشبه بالجماعات الإرهابية والأصولية التي لا هم لها إلا السباحة في المياه الراكدة، ولا هم لها إلا أن تصادر حق المبدعين في المغامرة الحداثية، فهم يعيشون في غير زمنهم، ومن ثم لم يألفوا العالم الجديد، ولم يستوعبوا مستجداته، أو ربما استوعبوها على نحو شائه، ولذا فإن تعبيرهم عنها تعبير شائه، هو تعبير الذي يعيش زمانًا ومكانًا حاضرين، لكنه يرحل بإبداعه إلى زمان ومكان لم يعد لهما وجود تنفيذي على نحو من الأنحاء.

ويبدو أن الجيل الأخير من المهاجرين لم يدرك بعد أن قصيدة النثر ليست نهاية المطاف في تحولات الشعرية، وأنها لا تمثل إلا مرحلة من مراحلها، أو تمثل تنويعًا على مراحلها، ذلك أن الشعرية لم تعرف التوقف ولن تعرفه.

فكل مرحلة هي مولود لمرحلة سابقة، - وقد تتعدد المواليد - ثم هي بشارة لمرحلة آتية. أما كيف تكون المرحلة الآتية، فهذا ضرب من التخمين لا تحتمله طبيعة الدراسات الإنسانية عمومًا، والشعرية على وجه الخصوص، لأن الإبداع ليس ظاهرة طبيعية لها شروطها المحددة التي تقدم إمكانية التنبؤ بها، وإنما هو ظاهرة إنسانية غير قابلة للوقوع في إطار التنبؤ بحال من الأحوال. وأظن لو أن المتنبي قد بعث اليوم وقرأ قصيدة من قصائد التفعيلة أو من قصائد النثر لاستلقى على قفاه من الضحك والسخرية.

إن الذي نخلص إليه من هذا المحور من متابعة الحوار حول قصيدة النثر، أن من يتقبلونها ويقبلون عليها، يعترفون بأن جانبًا مهمًا من مشروعيتها يعتمد التراث العربي القديم. حيث تجلى الوعي الجاهلي بإمكانية إنتاج الشعرية في صيغة نثرية، ومن ثم ادعوا أن «القرآن شعر» برغم أنه لا تنطبق عليه قوانين الشعرية. وقد امتد هذا الوعي إلى الموروث العرفاني بإنجازاته اللافتة في النثرية الصاعدة إلى أفق الشعرية.

إذا كان هذا هو موقف المتقبلين في اعتماد التراث، فإن الرافضين - أيضًا - قد اعتمدوا التراث في رفضهم لقصيدة النثر، لأنها خروج جارح على كل موروث الشعرية العربية بكل تقاليدها الفنية والجمالية والإيقاعية، وقد تحول هذا الاعتماد التراثي إلى نوع من الإرهاب الذي يقترب من عملية التكفير.



[٤]

سافر الشعر في الزمن العربي محاطًا بهالة من القداسة بوصفه «ديوان العرب»، وعلل لذلك ابن رشيق في عمدته بأن العرب «احتاجت إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد، لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه، سموه شعرًا(٢).

لا شك أن هذه العقيدة الإبداعية الملازمة للشعرية كانت نتاجًا للواقع الحضاري المسيطر آنذاك، وهو واقع يغاير واقعنا الحضاري اليوم مغايرة تكاد تكون شاملة وكاملة، ومن ثم فإن مقولة «ديوان العرب» لم يعد لها هذا اللزوم القديم، إذ أن الواقع الحضاري اليوم له تقنياته وأشكاله التي تتقبل المقولة القديمة في شيء من التحفظ، لأن أدوات الحضارة قد استحدثت وسائل يمكن أن تؤدي المهمة السابقة للمقولة على نحو أكثر دقة وكفاءة.

لا شك أننا نعيش زمن «الصورة» بكل تقنياتها المعرفية والجمالية، وبكل طاقتها التسجيلية والتخزينية. وهو ما أحدث تعديلاً في ذائقة التلقي، وبخاصة تلقي الفنون القولية، والتعديل في الذائقة أتاح لأنواع جديدة أن تتدخل وتفرض وجودها الإبداعي بوصفها إضافة، وليس بوصفها بديلاً، ومن هذه الأنواع «قصيدة النثر» التي ملأت الدنيا وشغلت الناس، حيث يجاهد الدارسون لتحديد مداخلها ومخارجها، وتجميع خواصها الفارقة تمهيدًا للوصول إلى تحديد معرفي كاشف لحقيقتها التكوينية، وإن كان هذا الوصول مازال في مرحلة المخاض، ذلك أن نوعيتها مراوغة بطبعها، وعصية على التحديد.

وبرغم المراوغة والعصيان، فإن هناك مؤشرات صاحبتها منذ بداياتها الأولى، ومازالت تصاحبها حتى الآن، ويمكن تجميع أطراف هذه المؤشرات وطرحها بوصفها مقدمة أولية لمن يريد استقبال هذه النوعية في إطارها الطارئ.

وأعتقد أن الإشارة الأولى التي تأخذ بيدنا إلى آفاق النوعية لقصيدة النثر، تتمثل في عقيدتها الإبداعية، إذ أن المألوف في تاريخ الشعرية - عمومًا - أن تتوجه إلى العالم لتنقله من طبيعته الوجودية إلى طبيعتها الجمالية، أو على معنى آخر، إن الشعرية كانت تعمل على «تشعير العالم»، وقدمت في هذا السياق إنجازات لافتة في كل مرحلة من مراحلها القديمة والحديثة. لكن قصيدة النثر لم تسر في هذا الطريق المطروق، وإنما آثرت - بداية - أن تبحث عن المناطق الشعرية في العالم، لكي تستصفيها لنفسها، وتمارس فيها إبداعيتها، أي أنها انتقلت من العموم إلى الخصوص، فلم يعد من هم الشعرية نقل الواقع إلى الشعر، بل همها «فحص» المناطق الشعرية والوصول إليها، ثم الوقوف عندها، وفرق واضح بين الاتجاهين، ففي الاتجاه الأول تبدأ الحركة من الإبداع لتصل إلى العالم فتنقله إليها، وفي الاتجاه الآخر تبدأ الحركة - أيضًا - من الإبداع، لكي تصل للعالم، لكنها تستبقيه في موضعه لتمارس فاعليتها الاختيارية في بعض مناطقه فحسب.

وهذان التوجهان يتوافقان مع الطبيعة الإدراكية، حيث اعتمدت الشعرية - عمومًا - الرؤية أداة للإدراك، والرؤية - في حقيقتها - نوع من الإدراك الكلي، بينما تخلت قصيدة النثر عن «الرؤية» لتعتمد «المشاهدة» بكل عمقها العرفاني، والمشاهدة تتنافى مع الإدراك الكلي، لأنها لا تتعامل إلا مع «المادة الأولية» للموجودات، بوصفها أكثر المناطق إيغالاً في الشعرية.

معنى هذا أن الشعرية لم تعد تكتفي بمقاربة العالم، بل إنها تسعى للالتحام به التحامًا حميمًا، حيث يكون تعبيرها عنه، هو تعبير عن ذاتيتها الخالصة، وتعبيرها عن ذاتها هو تعبير عن العالم الذي شاهدته والتحمت به.

وهذا التوجه يقودنا إلى الإشارة الثانية الصادرة من قصيدة النثر، واللافت أنها إشارة تكاد تكون خارج دائرة الحداثة، ذلك أن هذه الدائرة أوغلت في اعتماد التلقي والمتلقي اعتمادًا كليًا، بينما قصيدة النثر قد استبعدت المتلقي من حساباتها استبعادًا مؤقتًا، فحرصت على أن تكون صادقة مع نفسها أكثر من صدقها مع الآخر، بل إنها قد تكون صادمة للآخر في كل مخزونه الثقافي والمعرفي والعرفي، بل فيما فوق ذلك وتحته.



إذن لم يعد للمتلقي حقوق قبل قصيدة النثر، ولم يعد مسموحًا له بممارسة سطوته عليها، وتوجيهها حسب احتياجاته الخاصة أو

معنى هذا أن «قصيدة النثر»، استجابة لزمنها، لكن هذه الاستجابة كانت مسبوقة بمؤشرات صريحة أحيانا، وضمنية أحيانا أخرى، والمؤشرات - في مجملها - كانت بمثابة «بشارة» الميلاد، التي صدرت من مناطق نثرية خالصة، مثل الإشارات الصادرة من نصوص المنفلوطي والرافعي وجبران وطه حسين وسواهم من الكتاب الناثرين



العامة، لكن ليس معنى ذلك أنها استعادت الزمن الرومانسى بكل عمقه الذاتى، فذلك ما ينافى طبيعتها الجمالية، وإنما المعنى الذى تستهدفه أن تجعل السيادة للنصّية ذاتها، فهى خارج نفوذ كل الأطراف المتعاملين معها. ومن ثم فإنها تحاول تعديل الميزان لتميل بكفته إلى النصّية بعد أن ظلت فترة طويلة تميل إلى جانب المبدع، ثم جاءت مرحلة الحداثة لتميل بالكفة تمامًا إلى جانب المتلقى.

الإشارة الثالثة تأتى فى إطار جماعى. تتكاثر فيه الخواص الطارئة، وفى مقدمة هذه الخواص، نفور قصيدة النثر من الأبنية الزخرفية، سواء أكانت أبنية خارجية أم كانت أبنية داخلية، لأن معظم هذه الأبنية قد فقدت قدرًا كبيرًا من جمالياتها. لأنها دخلت فى طور التكرارية التى استهلكت قدرًا وافرًا من هذه الجمالية، ولا نقصد بهذه الأبنية ما كان يسمى «المحسنات»، لأن هذه المحسنات قد وجدت لها سكنًا مريحًا فى قصيدة النثر، لا بوصفها محسنات، وإنما بوصفها لبنات تركيبية مشحونة بطاقة جمالية مسموعة ومرئية وملموسة على صعيد واحد.

لكن المقصود: تلك الأبنية الشكلية الضابطة لهندسة الصياغة والدلالة معًا. إذ إن الشكل لم يعد من احتياجات قصيدة النثر، لأن احتياجها منصب على الحقيقة الجوهرية للشعرية التى لازمتها منذ أطلت على الواقع العربى القديم، وهى حقيقة النصّية ولا شىء سواها.

إن ابتعاد قصيدة النثر عن الأبنية الزخرفية، قد دفعها إلى مفارقة «النقاء العرقى» و«الصفاء اللغوى»، إذ هما ينتميان إلى مثالية لم يعد هذا أوانها، حيث الزمن اليوم زمن «الهجنة» واختلاط الأنساب الإبداعية، وتداخل المعايير الجمالية، والأعراف الاجتماعية. وأصبح من العسير الفصل بين النقى والمشوب، والصافى والعكر، لتغير المعايير التى يقاس بها هذا وذاك، حتى أصبح النقاء والصفاء نوعين من القوالب الجامدة أو المحفوظة التى فقدت حيويتها، ومن ثم فقدت شرط الصلاحية، ومن ثم سعت قصيدة النثر للخروج من مثل هذه القوالب برفضها للثنائيات الجاهزة: «دينى ـ دنيوى»، «تقدمى ـ رجعى»، «ظاهر ـ باطن»، «حقيقى ـ متخيل»، «اتساق ـ فوضى»، «ذاتى ـ موضوعى»، «فردى ـ جماعى»، «جميل ـ قبيح» ثم تمردت على الثنائية المقدسة: «شعر ـ نثر».

إن تمرد قصيدة النثر على مثل هذه الثنائيات كان توافقًا مع مصدر إنتاجها الطارئ «المشاهدة»، هذا المصدر الذى ربط الشعرية «بالجوهر الخام»، أو: المادة الأولية ـ كما سبق أن ذكرنا ـ، عندما كانت الشعرية هى العالم، والعالم هو الشعرية، ومن ثم استحقت أن تكون «ديوان العرب»، لكن هذه الديوانية أخذت فى الغياب التدريجى لتستحيل الشعرية إلى «طاقة تأثيرية» وتحريضية فى الوقت نفسه، أى أنها تحولت من مهمة رصد حركة العالم، إلى مهمة إفساح الطريق أمام المتحركين، ثم تابعت الشعرية تحولاتها الوظيفية لتمارس فاعلية مزدوجة بين «التدمير والتكوين»، تدمير ما هو قائم بالفعل، ثم إعادة تكوينه، أو البدء فى تكوينات جديدة وفق شروط خاصة بعيدًا عن المحفوظ والراكد والمبتذل، سواء أكان ذلك وافدًا أم متسربًا من الواقع القديم.



لقد حققت قصيدة النثر بهذه الإشارات ما كانت تستهدفه من التوحد بالعالم، فى مناطقه الشعرية، أو لنقل إنها أصبحت العالم فى شعريته، أو هى الشعر فى عالميته، حيث انكسرت الحواجز النوعية، وتداخلت الأجناس القولية وغير القولية، وأصبح مألوفًا أن تحل الشعرية فى نصوص غير شعرية، وحضور النثرية فى نصوص شعرية. وأصبح من المأنوس أن نواجه فى النص كمًا هائلاً من السرد والحوار ملاصقًا لكم وافر من الغنائية والذاتية المفرطة، وأصبح من المأنوس حضور التفاصيل اليومية والمفردات الحياتية والهموم الوقتية خلال المجاز والرمز والإشارة، أى أن مساحة المشترك صارت أوسع وأكبر من مساحة الخاص والتفرد.

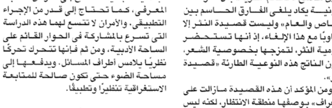
إن اتساع مساحة المشترك كان نوعًا من التجاوب مع «سيولة العالم» وذوبان حدوده الفارقة، وظهور ما يمكن أن نسميه «أدبيات العولمة» بكل طاقتها العقلانية وعمقها الفردى، على معنى أن الحضارة التكنولوجية لابد أن توازيها حضارة أدبية من طراز خاص، تتحسس طريقها بين الخصوصية والعالمية، بين جاذبية التراث، وعصرية المشاهدة، أى أن قصيدة النثر ـ على هذا الأساس ـ تمثل استراتيجية أدبية لها آلياتها الجمالية التى يمكن أن تضيف قيمًا للشعرية لم تكن لها من قبل. وأن تتيح لها مسالك لم تسلكها من قبل، على أن يكون فى الاعتبار إمكاناتها الخاصة فى تعديل مسارها كلها تحركت من مرحلة إلى مرحلة أخرى. وإمكاناتها الذاتية فى توسيع دائرة المشترك التى أشرنا إليها.

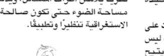
إن ملامح «العالم القرية» بكل خواصه الكونية يكاد يلغى الفارق الحاسم بين «الخاص والعام» وليست قصيدة النثر إلا تجاوبًا مع هذا الإلغاء، إذ أنها تستحضر عمومية النثر، لتمزجها بخصوصية الشعر، ليكون الناتج هذه النوعية الطارئة «قصيدة النثر».

ومن المؤكد أن هذه القصيدة مازالت على «الأعراف» بوصفها منطقة الانتظار، لكنه ليس انتظارًا سالبًا، وإنما هو انتظار إيجابى يتيح لها أن تستكمل تكوينها الإبداعى الذى يغاير ما سبقها من شعريات، ونؤكد هنا على كلمة «المغايرة» حتى لا يفهم البعض أننا ندعو إلى انقطاع قصيدة النثر عما سبقها من شعريات عربية. ويمكن تلخيص هذه المغايرة فى عدة إجراءات جاء بعضها هادئًا وناعمًا أحيانًا، وجاء بعضها حادًا وخشنًا أحيانًا أخرى.

وفى هذا الإطار تتبدى ملامح التحدى بين قصيدة النثر و«المعنى» إذ هى تقاومه، وهو يراوغها. وانتهى الأمر إلى أن تعاملت معه فى حدود اقتصادية، لا تعترف «بالفائض» الدلالى من ناحية، ولا تقيم اعتبارًا «للمخزون» التراكمى من ناحية أخرى، وإنما يقتصر تعاملها على «البضاعة الحاضرة» دون حذف أو إضافة، وتبع ذلك أن أعلنت ثورتها على الخيال المجفف، والمجاز المعلب، هذا المجاز الذى سبق أن أطلق عليه ابن جنى «المجاز الميت»، ثم امتدت الثورة إلى التراكيب المترهلة، والأبنية الآيلة للسقوط بعد أن تناوب عليها آلاف السكان.

إن قصيدة النثر بهذه الثورة البيضاء تستحدث لنفسها بلاغة جديدة، فالمجاز الذى يغويها، «مجاز النص»، لا مجاز الصورة المحدودة، هو المجاز الذى نسى اعتماد طرفين أساسيين، ليحلق مع الطرف الواحد حينًا، وتعدد الأطراف وتكاثرها حينًا آخر، ثم غياب جميع الأطراف فى حين ثالث، إنه المجاز الذى يلتبس بالحقيقة ذاتها، ولا شك أن هذه البنية البلاغية الجديدة تحتاج إلى قدر من الضبط المعرفى، كما تحتاج إلى قدر من الإجراء التطبيقى. والأمران لا تتسع لهما هذه الدراسة التى تسرع بالمشاركة فى الحوار القائم على الساحة الأدبية، ومن ثم فإنها تتحرك تحركًا نظريًا يلامس أطراف المسائل. ويدفعها إلى مساحة الضوء حتى تكون صالحة للمتابعة الاستغراقية تنظيرًا وتطبيقًا.







[٥]

لقد رصدنا فى المحور السابق بعض الإشارات التوضيحية الصادرة من قصيدة النثر، ولم نتوقف أمام إشارتها الأولى التى تكاد تكون محور الجدل والنقاش حولها، ونعنى إشارتها «الإيقاعية»، ونعتقد أن هذه الإشارة كانت بداية الفاعلية الضدية، أو لنقل إنها كانت المدخل الأساسى لجموع الرافضين.

فما موقف قصيدة النثر من الإيقاع؟

لا شك أن قصيدة النثر تعتمد النصّية ـ بداية ونهاية ـ ومن طبيعة النص أن يتخير إيقاعاته، سواء أكانت إيقاعية أم دلالية، محفوظة أم طارئة، وهو فى هذا الاختيار يخضع لفرديته، ومتطلباتها، أو لنقل: إن النص هو الذى يقترح إيقاعه السطحى والعميق، والتدقيق فى هذين المستويين يمكن أن يقودنا إلى تحديد هذا الإيقاع، وتحديد عناصره، وكشف شروطه الإنتاجية.

الإيقاع ـ فى قصيدة النثر ـ نابع من الاحتياجات الداخلية، بحيث لا يشارك غيره فى هذه الاحتياجات، كما أن غيره لا يشارك فيها، سواء أكانت احتياجات روحية أم عقلية أم عاطفية أم بصرية أم سمعية أم حتى حسية.

ومن الخطأ الفادح تصور انفصال إيقاعية قصيدة النثر انفصالاً كاملاً ومطلقًا عن إيقاعية الشعر العربى. فمهما ارتفع الإيقاع فى الشعر، وانخفض فى قصيدة النثر، فإنه لن يخرج عن نطاق «الحركة والسكون» وتحولاتهما فى الاقتراب والابتعاد والتداخل، وهذه التحولات مسموعة بوضوح فى ا لشعر، لكنها خافتة فى قصيدة النثر، ومن ثم فهى فى حاجة إلى إنصات تام حتى يمكن الإحساس بها، ولأننا لم نحسن الإنصات، أصدرنا الحكم الفورى بغياب الإيقاع عنها، وأصبح هذا الحكم سند معظم الرافضين.

فى متابعتنا لموقف قصيدة النثر من الإيقاع، نلاحظ إهمالها لبنيات الإيقاع الجزئية، وعنايتها البالغة للبنية الكلية لهذا الإيقاع، وهى ـ فى ذلك ـ تتوافق مع الإيقاع الكلى للعالم الذى تغيب إيقاعيته إذا ركزنا المتابعة على مفرداته الجزئية، فنحن عندما نتأمل لوحة طبيعية أو تشكيلية على نحو جزئى، فسوف نفتقد فيها التناسق، بل ربما تجلت أمامنا نموذجاً للتنافر، حيث لن نجد تناسقاً بين(منزل) بجواره (كائن بشرى أو حيوانى)، ثم بينهما (شجرة) متشعبة الفروع والأغصان، لكن تجميع هذه التكوينات على نحو مخصوص من التقارب والتباعد والصغر والضخامة، هو الذى يحقق لها الاتساق والانتظام، وأظن أن إيقاع قصيدة النثر شىء قريب من هذا النمط التكوينى، لأنه يعطى إيقاعيته الصوتية والدلالية كلياً لا جزئياً، لكن الوقوع على هذا





ظلت «قصيدة النثر» تخايل المبدعين منذ منتصف القرن العشرين حتى السبعينيات منه، ثم ـ فجأة ـ حدث ما يمكن أن نسميه «هجرة جماعية» أو شبه جماعية من السبعينيين إليها، ثم جاء بعدهم التابعون، وتابعو التابعين من الثمانينيات والتسعينيات، وإن ظل الستينيون على ولائهم للتفعيلة



الإيقاع، والإمساك بخواصه مازال فى مجال الفحص والدراسة، أى أن ما قدمناه يمثل فرضاً، يحتاج مجاهدة ليصبح قانوناً.

وأعتقد أن الفحص يجب أن يبدأ من ثنائية (الحركة والسكون)، لأنها الثنائية التى تحكم اللغة العربية فى كل منطلقاتها الكلامية، وقصيدة النثر أحد هذه المنطلقات، لكنها عندما تخضع للحركة والسكون، فإنها تتعمد ربطهما بعلاقات محددة، سبق أن رصدها العروضيون القدامى، وبهذا الربط تظهر الأبنية الصوتية فى شكل: أسباب ثقيلة وأسباب خفيفة، أوتاد مفروقة وأوتاد مجموعة، فواصل صغرى وفواصل كبرى.

لكن هل تعاملت قصيدة النثر مع هذه الأبنية المحفوظة كما تعاملت معها الشعرية العربية فى بنائها العمودى أوالتفعيلى، أم أنها استحدثت لنفسها إجراءات أخرى تنبع من احتياجاتها الخاصة، أم أنها استحدثت لنفسها إجراءات أخرى تنبع من احتياجاتها الخاصة، أم أنها أهملتها إهمالاً كلياً أو جزئياً، وتركت للحركة والسكون أن يمارسا حضورها على نحو عشوائى؟

الإجابة عن هذا التساؤل الخطير تحتاج إلى متابعات فردية وجماعية مغلفة بنوع من السماحة والمودة، ثم ضم هذه المتابعات إلى متابعات أخرى كانت تتحسس الإيقاع فى أبنية أخرى مثل الإيقاع الحركى، ونعنى به التشكيلات الصوتية الناتجة من الحركات (الكسرة - الفتحة - الضمة)، والإيقاع الحرفى فى تشكيلاته المتعددة، والإيقاع البديعى، والإيقاع الصرفى، ثم الإيقاع النحوى. وكلها أنظمة لها حق المشاركة فى إنتاج إيقاعية قصيدة النثر.

ولكى تكون مجموع المتابعات منصفة ومتوازنة، لابد أن تضع فى اعتبارها أن قصيدة النثر لم تعد حريصة على (الأفضل) - كما هو السائد فى تاريخ الشعرية العربية، وإنما حريصة الحرص كله على (الأنسب). أى أنها تؤثر الابتعاد النسبى عن «المثال» الفنى، لتقترب كثيرًا من الواقع الإبداعى، ومن ثم فإنها تؤثر «الصحة الجمالية» على «الصحة اللغوية»، وتؤثر «الصحة الإيقاعية» على «الصحة الموسيقية».

ونحترس هنا حتى لا يدخل عليها الظن بأن إيثار الصحة الجمالية على الصحة اللغوية معناه أنها تسمح بالخطأ اللغوى، لأن عقيدتها أنها لا تقارب هذا الخطأ، بل إنها تكاد تنفر من مصطلح «الضرورات» الذى أنتجته الشعرية حرصًا على سلامتها العروضية، وإيثارها هذه السلامة على السلامة اللغوية.

وإنما الذى نعنيه أن قصيدة النثر لم تعد حريصة كل الحرص على «اللغة الفصحى» وإنما هى ترضى «بالفضيحة» طالما دخلت دائرة «الأنسب»، بل إن حرصها على الأنسب، يدفعها بالنزول من «الفضيحة» إلى «التداولية» لتحقيق الالتحام الحميم بالواقع، وليس مجرد معايشته على البعد.

معنى هذا كله، أن قصيدة النثر ترى نفسها فوق «الشكل»، وخارج دائرة نفوذه، لأنها سلبته كل هوامش القداسة التى اكتسبها من عمقه التاريخى، لكن من المؤكد أن تعاليها على الشكل قد أضفى عليها قدرًا من اللبس، حتى استعصت على التحديد المعرفى، وكل المحاولات النقدية التى سلكت هذا السبيل، كانت تحددها بالسلب، فهى ليست القصيدة العمودية، وليست الموشحة، وليست التفعيلية، وليست الشعر المنثور، وليست النثر الفنى، وليست النثر العادى.

إنها خارج إطار هذه النوعيات، لكنها ربما تكون كل هذه النوعيات، لكنها - وهذا هو الأمر المهم - ليست بديلاً عن أى منها، فحضورها لا ينفى سواها، لكن المؤسف أن أصحاب الأنواع الأخرى ينفونها من حديقة الإبداع، بوصفها نوعاً لقيطاً لا ينتمى إلى دوحة الشعرية العربية، بل لا ينتمى إلى دوحتها النثرية.



[٦]

واضح أن المحور السابق قد تبنى وجهة نظر أصحاب قصيدة النثر، أو لنقل: إنه طرح وجهة نظرهم طرحًا مجردًا، والموضوعية تقتضى أن تطرح الدراسة وجهة النظر المقابلة التى تبناها الرافضون، لأن رفضهم لم يقف عند حدود «السلب» بل إنهم حولوا الرفض إلى طاقة هجومية عنيفة تسلطت على قصيدة النثر، وتسلطت على كل من له علاقة بها من مبدعيها أولاً، ثم من تقبلها من النقاد ثانيًا، بل إن هذا الهجوم قد لاحق من وقفوا منها موقفًا محايدًا.

لقد انطلقت الموجة الأولى من الهجوم إلى مبدعى قصيدة النثر، وبخاصة الجيل الأول من المهاجرين الذين رحلوا من منطقة التفعيلة بعد أن أنجزوا فيها شعرية لافتة، تنتمى إلى الشعرية العربية أولاً، ثم تنتمى لجيل السبعينيين ثانيًا.

وتزداد حدة الهجوم على هؤلاء المهاجرين، لأن هجرتهم كانت مسلحة بقدرات إبداعية، ومواهب شعرية، فما أنتجوه بعد الهجرة - له نوع من القبول فى إطار هذه النوعية الطارئة «قصيدة النثر».

لكن هؤلاء المهاجرين مسئولون عن الانتكاسة التى حلت بالشعرية العربية عمومًا، لأن هجرتهم قد أغوت آخرين من فاقدى الموهبة، وفقيرى الأدوات، أغوتهم على ارتكاب «جريمة الإبداع الشعرى» المزيف تحت مصطلح «قصيدة النثر»، بل شجعت أصحاب البدايات على التعامل الفورى مع هذه النوعية دون تهيئة ثقافية وجمالية وإبداعية مناسبة، لأنهم وجدوا فيها منطقة صالحة للكسل العقلى، والاسترخاء الذهنى، والركود النفسى والعاطفى، ثم هى منطقة صالحة للتسول الصياغى، والانتهاب التركيبى، والاحتذاء الإفرادى.

لقد تحولت ساحة الإبداع إلى «ساحة للعشوائية»، فأصبح الجميع شعراء، بمجرد «وضع اليد» على نص أو نصين من نصوص تلك المراهقات الفكرية والعاطفية، ومن نصوص الخواطر الساذجة والمسطحة، ومن نصوص أصحاب الملاحظات المستهلكة، وأصحاب المفارقات المحفوظة والمعلبة.

لقد اختلط الحابل بالنابل، وكثرت الجعجعة دون طحن، اجترأ فاقد الشىء على إعطائه، وتطاول الصغار على الكبار، وأسرع الجميع إلى «قتل الأب». ورفع شعار بيانهم الأول «تحرير الشعر».

وترتفع حدة الهجوم على قصيدة النثر بوصفها نوعًا دخيلاً على الأدبية، لازدحامها بالركاكة والفجاجة التعبيرية، والابتذال والسذاجة الدلالية، ثم قبل ذلك كله سعيها الحثيث إلى جرح القيم الدينية والأخلاقية والعرفية والثقافية تحت شعارها «تحرير الشعر» وتوابعه من «حرية الإبداع» دون شروط سابقة، وقد انتهى كل ذلك إلى إزالة الحاجز الأخير بين «المحرم والمحلل»، أو لنقل إن قصيدة النثر قد استغنت عن الطرف الأول من الثنائية، فلم يعد هناك إلا المحلل فحسب.

وفى ركام هذه العشوائية الإبداعية، استحالت النصوص إلى نوع من «التناسخ» وأباح كل مجترئ على قصيدة النثر لنفسه السطو المسلح على نصوص الآخرين، سواء أكانوا قريبين منه أم بعيدين عنه، ثم يتبع السطو بالتحرش غير الشرعى بالنصوص المقدسة والنصوص غير المقدسة، ما كان منها تراثيًا، وما كان معاصرًا، ثم بعد ذلك يقف كل دعى ليفتخر بنهيبته، ثم يزعم أنها الإبداع الصحيح، وما عداها فهو إبداع «الجاهلية الأولى».



ويرى الرافضون أن هذه العشوائية لم تسيطر على النصّية فحسب، بل إنها سيطرت على فكر أصحاب قصيدة النثر أيضًا، حيث كانت بداياتهم المبشرة بالميلاد فى مطالع القرن العشرين من مصطلح حاز رضاء الأغلبية، لأنه عبر عن حقيقة نوعية لكتابات نثرية أوغلت فى استحضار بعض عناصر الشعرية، كما هو الأمر فى نصوص المنفلوطى وجبران والرافعى وطه حسين وسواهم من الناثرين «الشعر المنثور».

لكن هذا المصطلح المرضى عنه أخذ فى الغياب ليترك المجال لمصطلح طارئ ظهر فى لبنان فى منتصف القرن تقريبًا، هو مصطلح «قصيدة النثر»، وبما أنه كان مصطلحًا وافدًا، ظل فى إطار حصار شديد فى منطقة الميلاد، لكن الإلحاح على المصطلح ومع متابعته بإجراءات تطبيقية، أخذ فى التجلى والانتشار، بخاصة مع مرحلة السبعينيات وما تلاها من مراحل، وتم التغاضى عن التناقض الذى يغلفه، حيث إن ثنائيته ينفى بعضها بعضًا، والضدان لا يجتمعان فى المحل الواحد.

ومنذ أن اعترف الواقع الأدبى والمصطلح الجديد، وأصحابه يمارسون عليه بعض التعديلات التى هزت ركائزه التأسيسية، حيث تم تغييب الشطر الثانى من ثنائيته «النثر»، والاكتفاء بالشطر الأول «قصيدة» أو «قصائد». ثم فى تعديل آخر، تم تغييب الشطرين معًا، وآثر المبدعون العودة إلى المصطلح الأم «الشعر». ومن ثم أصبح من المألوف أن يحمل غلاف دواوين قصائد النثر الإشارة العنوانية «شعر»، ولم نقرأ - أبدًا - على رأى من الأغلفة المصطلح الأصلى «قصيدة النثر».

معنى هذا أن أصحاب هذه النوعية غير مقتنعين بمصطلحهم أصلاً - وعدم اقتناعهم بالعنوان يعنى عدم اقتناعهم بما يشير إليه من إبداع، أو - على أحسن الفروض - إنهم مازالوا على الأعراف يتأرجحون بين الإقدام والإحجام.

إن مجرد وقوف أصحاب قصيدة النثر على الأعراف، يعنى افتقادهم للبعد الاستراتيجى، وقد صاحبهم هذا الفقد فى مرحلة المخاض، ثم مرحلة الحضانة، ويبدو أنه ظل مصاحبًا لهم فى مرحلة النضج، أى أن حركتهم الإبداعية حركة تكتيكية محدودة بلحظتها الراهنة، لذا فهى واقعة تحت سطوة التهديد بالانحسار أولاً، ثم الغياب النهائى ثانيًا، فهى قد جاءت من المجهول، وسوف تذهب إليه مرة أخرى،





رأى الجيل الأخير من المهاجرين
أن من سبقهم وزامنهم من التفعيليين والعموديين
هم مجموعة من الرجعيين أشبه بالجماعات
الإرهابية والأصولية التى لا هم لها إلا السباحة فى المياه
الراكدة، ولا هم لها إلا أن تصادر حق المبدعين فى
المغامرة الحداثية، فهم يعيشون فى غير زمنهم،
ومن ثم لم يألفوا العالم الجديد





فبدايتها هي نهايتها، ونهايتها هي بدايتها. ولن تترك أثرًا لها على رمال الإبداع الشعري، لأن كل أثر لها سوف تمحوه رياح الإبداع الصحيح.

ويدعم المتنبئون نبوءتهم عن غياب قصيدة النثر، بهذا الحصار الجماعي من رءوس الإبداع والنقد والثقافة حتى لا تتسرب جرثومتها إلى أجناس الإبداع القولية الأخرى، وبخاصة الشعر.

كما يدعمون نبوءتهم بأن قصيدة النثر لم تقدم - في تاريخها القصير نسبيًا - أى إنجازات لافتة على مستوى الدواوين، أو مستوى القصائد المفردة، سواء نظرنا إليها في منطقة الميلاد اللبنانية، أم في غيرها من المناطق التابعة في أنحاء العالم العربي، فهي أشبه ما تكون بالنبات الشيطاني الضار الذي لا نفع فيه بحال من الأحوال.

وخطورة هذا النوع الإبداعي المرفوض، أنه قد يتحول إلى تحريض خفي للمتلقي لكي يهجر الشعر والشعرية عمومًا، وخاصة أن أصحابه يسيطرون على «مافيا» إعلامية تشرع لإنتاجهم. وتهدد كل من يقترب منهم بالنقد، فضلاً عمن يقترب منهم بالتجريح الرافض.



[٧]

لقد تفجر الحوار الأخير حول قصيدة النثر بفاعلية الرأى الذى طرحه واحد من كبار الشعراء في سلسلة الثنائيات الإبداعية في تاريخ الشعرية العربية: النابغة والأعشى، جرير والفرزدق، الكميت والطرماح، أبو تمام والبحترى، ثم أبو تمام والمتنبي، شوقي وحافظ، العقاد والمازني، السياب والبياتي، ثم صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي.

وبما أن بداية الحوار كانت من دائرة المبدعين، فقد أسرع المبدعون إلى المشاركة فيه بين مؤيد ورافض للآراء الحجازية في قصيدة النثر. وهذا التدخل الجماعي من المبدعين وإزاء إحجام شبه جماعي من النقاد. وهي معادلة خطيرة، بل بالغة الخطورة، لأن آراء المبدعين وأحكامهم - غالبًا - غير بريئة، ثم هم - أصلاً - غير مطالبين بإصدار الأحكام النقدية، لأنهم على هذا النحو يكونون هم: الخصم والحكم في الوقت نفسه.

وبرغم ذلك نقول: إن الخطورة ليست في مشاركة المبدعين، وإنما في إحجام النقاد، لأن هذا يعني تخليهم - اختيارًا - عن مهمتهم الأصلية في متابعة الإبداع متابعة جزئية وكلية للوصول إلى أحكام نقدية محايدة.

ويبدو أن إحجام النقاد له أسبابه المتعارضة، فالبعض لم يجاهر برفض قصيدة النثر، خوفًا من الاتهام بالتخلف والرجعية والجمود، والعجز عن ملاحقة التطور الإبداعي بأدواته البالية التي فقدت شرط الصلاحية.

والبعض لم يعلن رأيه بالتأييد والقبول خوفًا من الاتهام بالتغريب والمروق الإبداعي الذي يهدد الهوية الشعرية خصوصًا، والهوية العربية عمومًا، والبعض اكتفى بما سبق أن قدمه رفضًا أو قبولاً، لأنه مازال مقتنعًا بأن فيه ما يكفي لمواجهة هذا الحوار الذي جد على الساحة الأدبية.

أما الذى نراه في تجدد الحوار حول قصيدة النثر - أن هذا التجدد قد استعاد مرة أخرى مسألة «الشكل»، ونعني بالشكل هنا «البناء الإيقاعي»، إذ إن معارضي قصيدة النثر قد ربطوا بين الأمرين ربطًا محكمًا لا فكاك منه، فإذا غاب الشكل، غاب الإيقاع، وإذا غاب الإيقاع، غاب الشكل، وهو ما يعني أن الإيقاع قد أصبح هدفًا في ذاته، وهذه العقيدة الإبداعية تنافي العقيدة الإبداعية للشعرية العربية منذ أن كانت «ديوان العرب» حتى اليوم، إذ أن هذه العقيدة كانت تنظر للإيقاع بوصفه أداة يعزف عليها المبدعون، ومن حق كل شاعر أن يعزف على الأداة التي تناسب منتجاته الإبداعية.

ولو صحت العقيدة بأن الإيقاع هدف في ذاته، لكانت «ألفية بن مالك» أعظم النصوص في تاريخ الشعرية العربية، ولو صحت هذه العقيدة لما جرؤ ناقد متقدم مثل أبي هلال العسكري على تقديم مفهوم للشعر يخلو من أي إشارة للإيقاع أو الموسيقى العروضية، حيث يقول: «والشعر كلام منسوج، ولفظ منظوم، وأحسنه ما تلاءم نسجه ولم يسخف، وحسن لفظه ولم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفًا بغيضًا ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلاً دونًا(٣)».

وقد يكون لنا بعض تحفظات على هذا التحديد الذي طرحه أبو هلال، لكن أهمية الطرح كانت في إغفاله الإيقاع في التعريف، وليس معنى ذلك أنه ينفيه نهائيًا من دائرة الشعرية، وإنما معناه أنه ليس هدفًا في ذاته يحتاج إلى إدخاله في جوهر الشعرية تحديدًا وتعريفًا.

والشيء اللافت أن كل مرحلة شعرية، يتسابق مبدعوها في مغامراتهم، ويتفاخرون بتجاوزاتهم، وعندما يبلغون ذروة المغامرة والتجاوز، يتوقفون، ثم يطالبون غيرهم بالتوقف عند الحدود التي وقفوا عندها، وكأن المغامرة والتجاوز وقف عليهم وحدهم.

ولا يمكن - في هذا السياق - متابعة مجموع المغامرات التجريبية، والتجاوزات الإبداعية في تاريخ الشعرية العربية، فهذا ما تضيق عنه هذه الإطلالة السريعة على دائرة الحوار حول قصيدة النثر. لكن المتاح هنا توجيه الإطلالة على مرحلة التفعيلة، بوصفها المرحلة السابقة على قصيدة النثر، ففي هذه المرحلة سمح الشعراء لأنفسهم بهجر «البحور الشعرية» كما رصدها الخليل بن أحمد، وآثروا العزف على التفعيلة، ثم انتهكوا التفعيلة نفسها بانتهاكات مسموح بها عروضيًا أحيانًا، وغير مسموح بها أحيانًا أخرى، ولا شك أن هذا حقهم الشرعي، لكن الذي ليس من حقهم أن يعتبروا «التفعيلة» نهاية المطاف، وأن كل تجاوز لها هو مروق غير مشروع، وتمرد غير مباح.

وفي مواجهة هذه «الأحكام العرفية» التي فرضتها دولة العروض في كافة مستوياتها، قام أصحاب قصيدة النثر مطالبين بالخلاص من القوالب «سابقة التجهيز»، والخلاص من العزف على آلة واحدة قد بليت من طول العزف عليها، ومن ثم آثروا أن يقدموا أدوات العزف الجديد النابع من خصوصية نصوصهم، وهذه الخصوصية تكسبها طبيعة تعددية، حيث يكون لكل نص إيقاعه الخاص الذي يلتحم ببنية الصياغة، لأن الإيقاع - من وجهة نظرهم - لا يمكن فصله عن النصّية بحال من الأحوال.

إن أصحاب قصيدة النثر ومن شايعهم من النقاد والمتلقين يرون أن المعارضة الحاضرة في الواقع الأدبي اليوم، هي استعادة لمواقف قديمة موغلة في القدم حينًا، وقريبة من الحاضر حينًا آخر، هي استعادة لموقف ابن أبي إسحاق والأصمعي من الفرزدق، وموقف ابن الأعرابي من أبي تمام، وموقف الصاحب بن عباد من المتنبي، ثم هي استعادة لموقف العقاد والمازني من شوقي، وموقف العقاد من شعر التفعيلة، لكن أين المعترضون، وأين المعترض عليهم في مسيرة الشعرية العربية؟



إن قمة التخليط في تصور البعض أن حضور نماذج إبداعية رديئة قد يهدد الشعرية العربية جملة، فالرداءة تكاد تكون ملازمة للشعرية، بل تكاد تغلب عليها، لكن الزمن يقوم بعملية تصفية، فيحتفظ بالجيد، وينفي الرديء، وقديمًا قال القاضي الجرجاني: «ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية، فانظر، هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه.. ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة، لوجدت كثيرًا من أشعارهم معيبة مسترذلة، ومردودة منفية(٤)».

وبرغم ذلك لم يدع القاضي الجرجاني أن هذه الشعرية المعيبة المسترذلة قد هددت الشعر العربي في قليل أو كثير، فلم يصلنا أن شاعرًا، أو شعراء، أو حلقًا شعريًا، قد هدد مسيرة الشعرية بإبداعه الهابط، فكل مرحلة مزدحمة بالغث والسمين، ولم يكن الغث - في يوم ما - مدعاة لنفي السمين.

وقد روى المرزباني أن أبا تمام قد عمل شعرًا حسنًا، وفي أبياته بيت واحد ليس كسائرها، فقيل له: لو أسقطت هذا البيت، فضحك وقال: إنما مثل هذا مثل رجل له بنون، كلهم أديب جميل متقدم، ومنهم واحد قبيح متخلف، فهو يعرف أمره، ويرى مكانه، لكنه لا يشتهي أن يموت(٥).

إن الذي نخلص إليه من الخوض في غمار الحوار الحاضر حول قصيدة النثر على مستوى المقول النقدي والمقول الإبداعي، أن هناك ما يجب أن نتخلص منه، وهناك ما يجب أن نحرص عليه، وبهذا وذاك يمكن أن تعتدل كفتا الميزان.

أول ما يجب الخلاص منه، السؤال الذي لا يفتأ معظم الرافضين لقصيدة النثر يرددونه ترديدًا آليًا: هل هذا النص موزون أو غير موزون؟

أما الذي يجب أن نحرص عليه وهو السؤال الصحيح - من وجهة نظرنا -: هل هذا شعر أو غير شعر؟

إن النقد الذي يلاحق الإبداع عمومًا، ويلاحق قصيدة النثر خصوصًا، أمر مطلوب، والخلاف حول هذه القصيدة أمر مشروع، لكن المصادرة عليها شيء مرفوض بداية ونهاية. ■

إن ابتعاد قصيدة النثر عن الأبنية الزخرفية، قد دفعها إلى مفارقة «النقاء العرقي» و«الصفاء اللغوي»، إذ هما ينتميان إلى مثالية لم يعد هذا أوانها، حيث الزمن اليوم زمن «الهجنة» واختلاط الأنساب الإبداعية، وتداخل المعايير الجمالية، والأعراف الاجتماعية

الهوامش

(١) جمهرة أشعار العرب - أبو زيد القرشي - دار المسيرة، بيروت: ١٦

(٢) العمدة - ابن رشيق - أمين هندية بمصر سنة ١٩٢٥: ١/ ٥

(٣) الصناعتين: أبو هلال العسكري، تحقيق: د. مفيد قمحة - دار الكتب العلمية ١٩٨٤: ٧٤

(٤) الوساطة - القاضي الجرجاني - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوي - عيسى الحلبي: ٤

(٥) انظر: الموشح - المرزباني - المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣هـ: ٢٨٨، ٢٨٩

حجاج الهند في القـــرون الوســـطى

قاســـم عبــده قاســـم



كانت معـركـة ديــو البحـريـة في مطـلـع القـرن السـادس عشـر، والتي هُـزم فيهـا الأسـطول المصـري وحلفاؤه من المسلمين في شبـه القارة الهندية، إيذانًا بحـقـبـة جـديـدة في تـاريـخ التجـــارة والسـفـر والرحــلة من شــبـه القـــارة الهنـــدية إلى مكـــة

تتسم فترة القرون الثلاثة التي يغطيها هذا الكتاب (١٥٠٠ ـ ١٨٠٠) بقدر كبير من الأهمية في تاريخ العالم بشكل عام، والعالم الإسلامي على نحو خاص. إذ إن هذه الفترة التي تبدأ مع طلوع شمس القرن السادس عشر، وتنتهي بمغيب شمس القرن الثامن عشر، شهدت أحداثًا غيرت موازين القوى العالمية منذ ذلك الحين وحتى الآن.

ففي بداية تلك الفترة انتهت مركزية العالم العربي في الحضارة العربية الإسلامية وانتقل مركز الثقل الحضاري والقوة السياسية والعسكرية من ضفاف النيل إلى ضفاف البسفور. فقد نجح العثمانيون في فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ميلادية وحولوها من عاصمة للمسيحية الشرقية إلى عاصمة للإسلام (إسلامبول). وكان حتمًا أن تصطدم القوة العثمانية الصاعدة بالقوة المملوكية في مصر والشام، إذ كانت سلطنة المماليك تقوم بدور القوة المركزية ـ سياسيًا وعسكريًا وثقافيًا ـ في العالم الإسلامي منذ قيامها في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري. وكان هذا يعني حماية الأراضي المقدسة في الحجاز وفلسطين من ناحية، وحماية حركة الحج من ناحية ثانية، وحماية طرق التجارة ومحطاتها في البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي من ناحية ثالثة. وطوال عصر سلاطين المماليك كان البحر الأحمر بحيرة إسلامية مغلقة لا يحق لسفن غير المسلمين دخولها. بيد أن العثمانيين هزموا المماليك في مرج دابق ثم الريدانية، وحولوا الأراضي المصرية والشامية إلى ولايات عثمانية. ومن ثم انتقلت إليهم مسئولية حماية الحجاز والبحر الأحمر وتجارة المحيط الهندي؛ ولكن حقائق الجغرافيا جعلت العثمانيين القابعين في مدينة استنبول على ضفاف البسفور عاجزين عن القيام بدور كان يقوم به سلاطين المماليك على ضفاف النيل.

ومن ناحية أخرى، شهد القرنان الخامس عشر والسادس عشر محاولات القوى الأوروبية لدخول البحر الأحمر والسيطرة على طرق السفر البحرية في مياه بحر العرب والمحيط الهندي؛ وكانت القوة العسكرية ومحاولات التحالف مع الحبشة المسيحية ضد مصر من بين وسائل عديدة لجأ إليها البرتغاليون. وبينما فشلت محاولات التحالف البرتغالي الحبشي لدخول البحر الأحمر، نجحت محاولات الالتفاف حول أفريقيا بمساعدة واحد من الملاحين المسلمين الذين كانوا يذرعون هذه الطرق جيئة وذهابًا... وزعم الأوروبيون أنهم اكتشفوا طريق «رأس الرجاء الصالح»!!

ولكن النتيجة العملية تجسدت في بداية حركة استعمار ناجحة استهدفت محطات التجارة العالمية في المحيط الهندي، ثم طرق السفر والتجارة بين البحر الأحمر والمحيط الهندي، ثم تصاعدت خلال هذه القرون الثلاثة لتصل إلى حركة استعمار جثمت على صدر هذه المناطق وغيرها إلى منتصف القرن العشرين في بعض الأحيان. وكانت معركة ديو البحرية في مطلع القرن السادس عشر، والتي هُزم فيها الأسطول المصري وحلفاؤه من المسلمين في شبه القارة الهندية، إيذانًا بحقبة جديدة في تاريخ التجارة والسفر والرحلة من شبه القارة الهندية إلى مكة.

... ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي يتناول تجربة مسلمي شبه القارة الهندية في الحج إلى مكة في الحجاز خلال فترة تمتد من بداية القرن السادس عشر إلى بداية القرن التاسع عشر.



تهتم الدراسة أساسًا بالحج من أراضي المسلمين في الهند (دولة مغول الهند). وقد حدثت حوادث عديدة أثرت على حركة الحج في القرن السادس عشر أهمها ما ذكرناه عن ضم الحجاز إلى أراضي الدولة العثمانية، ولأن حماية الحجاز وضمان أمان الحجاج من أهم وسائل إضفاء الشرعية على الحكام المسلمين، فقد بذل العثمانيون جهودًا ناجحة لتأمين طرق الحج، وقوافل الحجاج التي كانت تضم أحيانًا ما يصل إلى أربعين ألف حاج.

وقد حدثت في كل من الهند وفارس تغيرات سياسية مهمة أثرت على حركة الحج في مطلع القرن السادس عشر. إذ إن الصفويين استولوا على الحكم في فارس، وإلى جانب سيطرتهم السياسية فرضوا المذهب الشيعي على المناطق التي حكموها. ومن ناحية أخرى، نجح المغول في فتح شمال الهند في عشرينيات القرن السادس عشر، ومنذ بداية النصف الثاني من هذا القرن صارت دولتهم تحت حكم سلطانهم القوي «أكبر» القوى المهيمنة في شمال الهند. فقد تأسست الامبراطورية المغولية الإسلامية في الهند على يد «ظهير الدين محمد بابُر»، وهو من سلالة تيمورلنك، عندما قام بحملة على إقليم البنجاب في شمال الهند، ثم تواصلت حملاته حتى أقام دولته سنة ١٥٢٦م. وقد وطدت أركانها خلال حكم خليفتيه محمد همايون بادشاه وجلال الدين محمد أكبر لتصير أقوى سلطة سياسية وعسكرية شمال الهند، وتستمر في الوجود حتى منتصف القرن التاسع عشر حين فرض الاستعمار الإنجليزي هيمنته على هذه المناطق. وطوال فترة الحكم المغولي في هذه المنطقة الشاسعة كان هناك نوع من السلام الإسلامي Pax Islamica سائدًا في البلاد بفضل الاستقرار وحسن الإدارة والرخاء مما أسهم في زيادة عدد المسافرين للقيام بفريضة الحج من شبه القارة الهندية.

ويقول مؤلف الكتاب: «إن اختيار تاريخ نهاية الدراسة مباشر وواضح، إذ إن الموقف تغير جذريًا في أواخر القرن الثامن عشر». فقد تدهورت الامبراطوريات الرئيسية الإسلامية الثلاث في أخريات هذا القرن مما جعل السفر والحج أكثر صعوبة وأشد عرضة للخطر، وفي رأيه أن هذا التدهور يمكن أن يكون نتاجًا لزيادة الهيمنة الأوروبية في العالم الإسلامي.

وربما يكون من المناسب أن نشير إلى أن قوة العثمانيين التي كانت تفوق كل القوى الأوروبية مجتمعة طوال الفترة السابقة بدأت تواجه نوعًا من التحدي الأوروبي من ناحية، كما بدأت مشكلات الإدارة والبيروقراطية والمشكلات المحلية في ولاياتها العربية تحد كثيرًا من قدراتها من ناحية أخرى، كما أن القوى الأوروبية بدأت تطمع في ممتلكاتها العربية وتهاجمها. أما دولة المغول في الهند والدولة الصفوية الشيعية في فارس فكانتا داخل السياق العام للتسابق الاستعماري للقوى الرأسمالية في أوروبا؛ وهو سياق تحكم في التجارة والسفر والناس والأرض، صحيح أن الاستعمار لم يكن قد احتل سوى أجزاء صغيرة من الهند حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولكن محطات التجارة وطرقها كانت تحت سيطرة الأساطيل الأوروبية. وللمرة الأولى في تاريخ البشرية يميل ميزان التجارة بشكل فاضح دائم لحساب طرف على حساب الطرف الآخر؛ فقد كانت التجارة ـ ولا تزال ـ عبارة عن «أخذ» المواد الخام من آسيا وأفريقيا، ثم «بيع» المنتجات إلى هذه المناطق بالسعر الذي يراه البائع.

لقد أدت السيطرة الأوروبية على آسيا ـ والإنجليزية خاصة ـ إلى نتائج مهمة على كافة جوانب رحلة الحج. إذ إن السيطرة الأوروبية أدت إلى تغيير سياسات العالم الإسلامي وتدمير اقتصادياته في غالب الأحوال. وقد أثر ذلك بطبيعة الحال على رحلة الحج الإسلامية على نحو سلبي.



وقد شهدت الفترة الأخيرة من القرون الثلاثة التي تشملها الدراسة حدثًا محليًا مهمًا في شبه الجزيرة العربية أثر بدوره على حركة الحج وهو ظهور الحركة الوهابية التي احتضنتها الأسرة السعودية، وتحولت إلى حركة سياسية عسكرية نتجت عنها حوادث عسكرية واضطرابات أثرت على حركة الحج. ثم قضت قوات محمد علي بقيادة ابنه إبراهيم على الدولة السعودية الأولى ودمرت عاصمتها الدرعية لحساب السلطان العثماني، ولكن تأثير الوهابية الديني ظل قويًا.

في الفصل الثاني من كتاب «الحج إلى مكة» يقدم المؤلف تعريفات للحج ويقول إن الحج إلى مكة «هو أهم حج»، ويقول إن

Pilgrimage to Mecca, The Indian Experience 1500-1800
(الحج إلى مكة.. التجربة الهندية ١٥٠٠ ـ ١٨٠٠)
Michael N. Pearson
Princeton 1996 - Markus Wiener Publishers

المسلمين يقومون برحلات حج أخرى إلى أماكن ذات أهمية دينية. والمؤلف هنا يخلط بين الحج باعتباره شعيرة إسلامية وركنًا من أركان الإسلام الخمسة «لمن استطاع إليه سبيلاً»، وبين زيارات الأضرحة وموالد الأولياء التي تعتبر نوعًا من «الديانة الشعبية» وليست من ضمن الفروض الإسلامية. ومع ذلك فإن موالد الأولياء تشهد زوارًا تصل أعدادهم إلى عدة ألوف مثلما يحدث في مولد السيدة زينب بالقاهرة، والسيد أحمد البدوي في طنطا، وأبو الحسن الشاذلي.

والحج عند المسلمين فرض على من استطاع إليه سبيلاً وفي زمن محدد من السنة الهجرية، ولكن الزيارة أمر مختلف تمامًا على الرغم من اهتمام الكتاب برصد أخبار الزيارات لأضرحة الأولياء، وخانقاوات الصوفية، ومشاهير الصوفية. وتقوم بها النساء أكثر من الرجال. ويقدم مثالاً هو «سيدي على رئيس» الذي قام برحلة حج من الهند إلى الحجاز في خمسينيات القرن السادس عشر، بيد أنه لم يغفل زيارة ضريح واحد من أضرحة الأولياء في طريقه. ويقدم الكتاب للقارئ غير المسلم تعريفًا يفرق بين الحج والعمرة؛ ولكنه يلاحظ أن الحج يجمع بين كل الأمور: فهو حدث اجتماعي، وآلية لتقوية وتطهير العالم الإسلامي، وهو رحلة مثيرة وممتعة، كما أنه تجمع بشري كبير بكل مخاطره.

والحج قد يعني أشياء مختلفة لمختلف الناس؛ ولكنه بالنسبة للغالبية الساحقة من الناس تجربة الحياة وتتويج لها، وأمل يتطلع إليه الناس في حياتهم.

ولكن سؤالاً مهمًا يطرح نفسه؛ كيف كان الحجاج يصلون إلى مكة في مطلع القرن السادس عشر؟ الإجابة باختصار: أنهم كانوا يصلون إلى هناك بصعوبة؛ ولكن سؤالاً آخر يطرح نفسه عن شكل هذه الصعوبة.

بصرف النظر عن الطريق الذي كان الحجاج يسلكونه كانت رحلة الحج شاقة مرهقة وخطيرة؛ إذ كان الحجاج القادمون من غرب أفريقيا ـ عبر المغرب العربي ومصر ـ يقضون حوالي سنتين في رحلة الحج ذهابًا وإيابًا. ومن أشهرها رحلة قام بها «منسى موسى» من غرب أفريقيا عبر مصر في عصر سلاطين المماليك وكانت معه كميات كبيرة من الذهب بحيث تسببت في انخفاض سعر الذهب في الأسواق المصرية. ولأن الرحلة كانت شاقة ومرهقة وخطيرة، كانت السلطات المصرية في ذلك العصر تحرص على أن يخرج محمل الحج، وقافلة الحج، من القاهرة صحبة حامية عسكرية تحت قيادة أحد كبار الأمراء، وبصحبته عدد من الأطباء في كل التخصصات ومعهم المؤن والإمدادات الكافية. وعندما انهارت قوة الدولة المملوكية وسلطتها بدأت قبائل العربان تنهب قوافل الحج وتقتل الحجاج لدرجة أن السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر شهدت توقف حركة الحج من الأراضي المصرية والشامية. وكانت الرحلة تستغرق من القاهرة حوالي ثلاثة أشهر للوصول إلى مكة حيث يقضي الحجاج حوالي عشرين يومًا في مكة ثم يعودون.



وإذا كان الموقف السياسي مضطربًا فإن احتمال تعرض الحجيج للنهب كان يمثل مشكلة خطيرة. والحقيقة أنه بعد أن ضم العثمانيون الحجاز صار الأمن مستقرًا هناك حتى أواخرالقرن الثامن عشر. وهناك تقارير عن رحلات حج بحرية من الهند فيما كتبه أحد المعاصرين عن رحلته من سراة إلى جدة يتحدث فيها عن المخاطر والمصاعب التي واجهته في رحلته التي استغرقت اثني عشر شهرًا في أواخر القرن السابع عشر.

والمعلومات التي جمعها المؤلف عن رحلة الحج الهندية ساعدته على وضع تصور شبه متكامل عن الحج من الهند؛ فهناك معلومات مشفوعة بالأرقام عن الحجاج الذين غادروا من غرب الهند، ولا سيما من ميناء «سراة». كما أن هناك دليلاً على أن حجاج ماليزيا كانوا يسافرون إلى الحجاز عبر الموانئ الهندية؛ إذ إن ميناء سراة صار منذ القرن السادس عشر فصاعدًا محطة الحجاج القادمين من شرق آسيا إلى الحجاز. ومن ناحية أخرى، كان هناك حجاج يقومون بالرحلة برًا من شمال غرب الهند لكن الوثائق التاريخية تخلو من أي ذكر لأعدادهم.

ومن اللافت للنظر أن كل حاكم من الحكام الهنود في تلك الفترة كان يرسل سفينة أو أكثر كل سنة إلى البحر الأحمر لحمل الحجاج على الرغم من أن حمولات البضائع غالية الثمن كانت تحملها السفن أيضًا. ولدينا وصف من القرن السابع عشر لواحدة من هذه السفن التي كانت قد أبحرت من سراة وعلى متنها ألف وسبعمائة إنسان كانت أغلبيتهم في رحلة حج إلى مكة. وفي سنة ١٦١٨م وصلت إلى سراة إحدى سفن الملك جهان جير وعلى متنها ما بين ستمائة إلى سبعمائة حاج وحمولة من البضائع الغالية. هذه الأمثلة ـ وغيرها كثير ـ توضح أن الحكام المسلمين في الهند كانوا يخصصون سفنًا ضخمة لنقل الحجاج. وكانوا ينفقون عليها من أموالهم وجاراهم في ذلك كبار رجال دولتهم.

ومن المهم أن نعرف أن أضخم أنواع هذه السفن كانت تلك المعروفة باسم «الرحيمي» و«السلاري» والتي تصل حمولتها إلى ألف وخمسمائة طن. بيد أن هناك دليلاً على وجود سفن أخرى لنقل الحجاج دونما حماية أو رعاية من الحكام، وربما كانت أعداد هذه السفن «الأهلية» كبيرة أيضًا. وهو ما يشير إلى أن أعداد الحجاج

الطريق إلى مكة

حجاج الهند في القرون الوسطى

الهنود المسلمين المسافرين إلى الحجاز آنذاك كانت تصل إلى عدة آلاف.



الفصل الثالث: يتناول موضوع «مركزية الحج»: وهو يقدم الحج للقارئ الغربى أساسًا باعتباره مركز العقيدة الإسلامية لأنه يجمع كل المؤمنين فى مكان واحد وزمان واحد لهدف واحد. والحج يكرّس مفهوم الأمة عند المسلمين. ولكن ما يكشف الكتاب عنه هو أن الحج استرعى انتباه علماء الغرب الذين يصرون على دراسة الظاهرة من منطلق رؤيتهم التى ترى أن الثقافة الغربية ينبغى أن تكون الثقافة المرجعية وأن تكون المعايير الأوروبية / الأمريكية هى وحدها الصالحة للحكم على الظواهر. فقد اهتموا بالحج من الناحية الاجتماعية والأنثروبولوجية والسياسية والثقافية والاقتصادية ولكنهم لم يسالوا انفسهم - أو غيرهم - عن قوة الدافع الدينى الذى يجعل من الحج أمنية كل مسلم التى يريد تحقيقها قبل الوفاة والتى يرى الجميع أنها تتويج إلهى لحياة الإنسان فى الدنيا.

فى الحج تلعب مكة دورًا مركزيًا حدده القرآن الكريم، وكرسه التراث الدينى والقصص الدينى عن بناء الكعبة ودعوة إبراهيم عليه السلام إلى الله بأن يجعل أفئدة من الناس تهوى إلى إسماعيل وأمه اللذين تركهما بوادٍ غير ذى زرع. ولكن المدينة المنورة تلعب دورًا مَهمًا أيضًا. وكانت على مرّ التاريخ الإسلامى من مراكز العلم والثقافة الإسلامية. وهناك أمثلة كثيرة من الهند تؤكد على دور المدينة المنورة فى تعليم الحجاج الذين يؤثرون البقاء والمجاورة فى المدينة لدراسة العلوم الإسلامية ثم العودة إلى بلادهم للتعليم. ولكن أهم التاثيرات الناجمة عن المجاورة والدراسة فى مكة أو المدينة تتمثل فى أن العائدين منهما يتسمون بالتمسك الصارم بتعاليم الدين. ولكن هناك تجارب تثبت أن العلماء الذين يدرسون فى الحجاز بعد رحلة الحج يصيرون من أصحاب التاثير الواضح على مواطنيهم.

وهناك مسألة غاية فى الأهمية ترتبط بمسألة الحج ومركزية مكة تتمثل فى انتشار الإسلام والصراع مع المبشرين الكاثوليك فى آسيا. إذ كان الإسلام أثناء الفترة من ١٥٠٠ إلى ١٨٠٠ ينتشر بقوة وسرعة فى جنوب شرق آسيا وفى الهند أيضًا. وكان لابد أن يصطدم فى معارك عنيفة - فى بعض المناطق - مع البعثات التبشيرية الكاثوليكية. وهنا كانت تتضح أهمية مكة، والحجاز، والحج لأن أفضل القضاة كانوا من الحجاز أو درسوا هناك. وتوضح التقارير البرتغالية، ومعظمها شكاوى، ماهية الأساليب التى كان الدعاة المسلمون يستخدمونها لتحويل الهندوس وغيرهم إلى اعتناق الإسلام. إذ كان ثمة ربط قوى بين التجارة والدين وربط بين منطقة الحجاز والبحر الأحمر، التى هى قلب العالم الإسلامى، وعملية اعتناق الإسلام. ويبدو من هذه التقارير البرتغالية، والشكاوى التى قدمها الرهبان الفرنسسكان، أن الدعاة كانوا فى غالبيتهم من التجار العاملين فى تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى. ومن المعلوم أيضًا أن انتشار الإسلام فى جنوب شرق آسيا قد تم على أيدى المسلمين الجدد فى الهند لا سيما من جوجارات وغيرها من المناطق الساحلية. وهو ما يعنى الدور المهم الذى لعبته منطقة الحجاز ومكة فى الجمع بين التجارة والدين. وتصف التقارير البرتغالية كيف أن الهنود الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا على أيدى الدعاة الحجازيين هم الذين نشروا الإسلام فى ربوع جنوب شرق آسيا.

وللحج جوانبه السياسية. ففى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى، كانت مكة تحت واحد من الأشراف (وكذلك كانت المدينة) يخضع لدولة سلاطين المماليك. وفى كل سنة يخرج محمل الحج من القاهرة يحمل كسوة الكعبة وقدرًا كبيرًا من المعونات المادية والمالية لحكام المدينة وأهلها. وفى ميناء جدة كان هناك ممثل شبه دائم للسلطات المصرية من كبار أمراء المماليك للإشراف على جمع الضرائب من التجار الذين يفدون بتجارة المحيط الهندى. ثم حدثت تطورات أخرى بعد أن احتكر السلطان الأشرف برسباى تجارة التوابل وتدهور مركز ميناء جدة لحساب ميناء «الطور» المصرى الذى صار المحطة الرئيسية لجباية مكوس تجارة المحيط الهندى الداخلة إلى البحر الأحمر.

وعلى الرغم من سقوط دولة سلاطين المماليك سنة ١٥١٧م: فإن أشراف الحجاز ظلوا يحكمون مكة والمدينة وجدة وينبع حتى القرن التاسع عشر. ومع ظهور البرتغاليين عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر بدأوا يحاولون إغلاق البحر أمام سفن الحجاج القادمة من المحيط الهندى. ولم يكن الهدف دينيًا فقط؛ إذ إن السفن التى كانوا يستولون عليها كانت تحمل البضائع غالية الثمن كما تحمل الحجاج المسلمين. وهكذا، كانت عمليات القرصنة البرتغالية ذات عوائد عالية لا سيما بعد اختفاء القوة البحرية المملوكية التى كانت تحمى تلك المناطق وغياب البحرية العثمانية التى اكتفت بمياه البحر المتوسط فى غالب الأحوال. ويذكر أحد التقارير عن معركة جرت بين البرتغاليين وأسطول هندى من كاليكوت سنة ١٥٠٤/١٥٠٥م أنه كانت هناك سفينة محملة بالذهب والفضة مرسلة من المسلمين الهنود إلى أشراف مكة (وفى رواية أخرى أنهما سفينتان) وبعدها تم تحويل مثل هذه المساعدات إلى الطرق البرية. وقد كانت عداوة البرتغاليين عنيفة ضد المسلمين (بعد النجاح النهائى لهم وللأسبان فى القضاء على الوجود السياسى للمسلمين بسقوط آخر الحكام من بنى الأحمر سنة ١٤٩٢م) فتطلعوا إلى منع الحج إلى مكة عن طريق إغلاق بحر العرب والبحر الأحمر بعمليات القرصنة من ناحية والاستيلاء على مكة وأخذ جسد النبى عليه الصلاة والسلام رهينة مقابل فدية كبيرة من ناحية أخرى. إذ كان الأوروبيون يعتقدون أن جسد النبى عليه الصلاة والسلام مُعلَّق فى الهواء بمكة!!



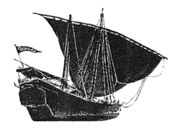
ومن ناحية أخرى، كان يحدوهم الأمل فى تحويل نهر النيل عن الجريان إلى مصر؛ وبذلك تتحول مصر كلها إلى صحراء جرداء. والحقيقة أن ملوك الحبشة من النصارى كانوا يلوحون بتهديدات مثل هذه أثناء حروبهم ضد المسلمين فى دول الطراز الإسلامى (القرن الأفريقى حاليًا) وعندما كانت علاقاتهم تتوتر مع سلاطين المماليك فى مصر لسبب أو لآخر. وقد جرت محاولات لتحالف أوروبى حبشى عن طريق مبعوث أوروبى وتاجر مسلم على أساس هجوم صليبى من الشمال فى البحر المتوسط وهجوم حبشى من الجنوب، ولكن الخطة فشلت وقبض على الجاسوس المسلم وتم تدمير الجيش الحبشى على حين هرب الأسطول الذى أغار على الإسكندرية.

ولكن البرتغاليين كانوا طليعة حركة استعمارية أوروبية جاءت للاستيلاء على ثروات العالم الإسلامى وخطف طرق التجارة العالمية ومحطاتها بين الشرق والغرب. وساء المسلمين ما فعله هؤلاء من خطف السفن وقتل الحجاج ونهب المتاجر التى تحملها السفن من توابل وغيرها من السلع الثمينة فى ذلك الزمان. وكانت معركة ديو البحرية التى قام فيها الأسطول المصرى بقيادة الأمير حسين والأسطول الهندى بقيادة مالك أياز محاولة لطرد البرتغاليين من الهند سنة ١٥٠٨/١٥٠٩م ولكن هزيمته كانت من أهم العوامل التى ضمنت بقاء البرتغاليين فى تلك الأنحاء. بيد أن الحرص على استمرار حركة الحج كان من أهم مشاغل الأتراك العثمانيين بعد أن حلوا محل المماليك فى حماية الحجاز؛ إذ إن الشريف بركات أرسل ابنه الشريف بركات إلى السلطان سليم العثمانى الذى أقر عائلته فى حكم مكة والمدينة والحجاز كله تحت سيادة العثمانيين.

وانتعشت حركة الحج تحت الحكم العثمانى، وزادت أعداد الحجاج بشكل كبير، وأنفق العثمانيون أموالاً جمة لتعمير طرق الحج وترميم الكعبة وتامين الحجاج. وكان من بين ألقاب السلطان العثمانى لقب «خادم الحرمين الشريفين». وكان هذا يعنى فى التحليل الأخير أن العثمانيين مسئولون عن التصدى للبرتغاليين. وبدأ العثمانيون يسهمون بشكل فعال لطرد البرتغاليين من الهند. وفى سنة ١٥٣٨م وصل أسطول عثمانى إلى مصر مع تعليمات بالإبحار إلى الهند وطرد البرتغاليين من ديو، ولكن صمود الحامية البرتغالية أمام الحصار العثمانى جعل الأسطول يعود. ومع هذا استمر المسلمون فى الهند وجنوب شرق آسيا يتطلعون إلى العثمانيين لحمايتهم. ولكن العثمانيين كانوا قوة قارية فى الأساس، كما أن اهتماماتهم الأولية كانت موجهة إلى المناطق فى أوروبا الشرقية والوسطى وبلاد الشام ومصر وباقى المنطقة العربية. ولكن بما أن التجارة البحرية كانت تدار بواسطة عناصر غير عثمانية فقد اعتبرها العثمانيون أداة سياسية واقتصادية يمكن استخدامها لصالحهم. ولكن الحج كان مسئوليتهم بالفعل.

ففى سنة ١٥٤١م أرسل البرتغاليون حملة كبرى إلى البحر الأحمر، وكان هدفهم المحدد إغلاق طريق الحج. وكان العثمانيون قد ضاقوا ذرعًا بالبرتغاليين وأعمالهم العدوانية، وعندما فتح العثمانيون البصرة سنة ١٥٤٦م اقتربوا من هرمز التى كانت المعقل الحصين للبرتغاليين. وجرت محاولات لإحلال التفاهم بين الطرفين ولكنها باءت بالفشل، وكانت التجارة تحتل مكان الصدارة فى هذه المباحثات الفاشلة. وكتب السلطان سليمان القانونى إلى ملك البرتغال فى أكتوبر ١٥٦٥م يحذره من مغبة استمرار الأعمال العدوانية البرتغالية فى إقليم الهند، ومن استمرار هجمات القرصنة ضد

طوال فترة الحكم المغولى
فى هذه المنطقة الشاسعة كان هناك نوع
من السلام الإسلامى Pax Islamica سائدًا
فى البلاد بفضل الاستقرار وحسن الإدارة والرخاء
مما أسهم فى زيادة عدد المسافرين
للقيام بفريضة الحج
من شبه القارة الهندية



الحجاج الهنود المسلمين. ولكن الفترة التالية شهدت نوعًا من الهدوء، ولم يكن بوسع العثمانيين أن يفعلوا الكثير لمساعدة الحجاج القادمين من شبه القارة الهندية، كما أن البرتغاليين خففوا من غلوائهم تجاه هؤلاء.



كان الصفويون في فارس يمثلون عقبة في سبيل المساعدة العثمانية لحركة الحج من الهند بسبب عدائهم المذهبي والسياسي للعثمانيين. وبالنسبة للحجاج كان واضحًا أن الطريق البري - عبر فارس الشيعية - لم يكن اختيارهم الأول دائمًا. إذ كان الطريق البحري أكثر سهولة وكان معظم الحجاج الهنود المسلمين يستخدمونه ولكن سيطرة البرتغاليين عليه منذ القرن السادس عشر جعلت أعدادًا متزايدة من الحجاج تسافر عن طريق البر. وقد كانت عداوة البرتغاليين الشديدة للمسلمين وراء قصص المذابح المرعبة التي ارتكبها البرتغاليون، بلا تمييز، ضد سفن المسلمين التي تحمل الحجاج والبضائع في طريقها إلى البحر الأحمر والحجاز أو خارجة منه. ومع مرور الوقت بدأ البرتغاليون يفرقون بين سفن العرب والأتراك والسفن التي يملكها الهنود، وإلى جانب عدائهم للمسلمين كانت تجارة التوابل المربحة وراء تصرفاتهم العنيفة؛ إذ كانوا راغبين في منع تجارة التوابل عبر البحر الأحمر واحتكروا لأنفسهم حق حملها إلى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح.

ولكن ضعف البرتغاليين في أواخر القرن السادس عشر أفسح المجال أمام دولة مغول الهند لرعاية حركة الحجاج إلى الحجاز. وقد كان جميع أباطرة المغول في شمال الهند يحرصون على الظهور في صورة حماة الإسلام. وكان نسخ القرآن بيد الإمبراطور وإرسال النسخة إلى مكة من الممارسات الشائعة في هذا المجال، وكان «بابُر» أول من فعل هذا بعد انتصاره سنة ١٥٢٦م. وكانت مركزية الحج ومكة المكرمة بالنسبة للحكام المسلمين في الهند واضحة جلية آنذاك. وكان ميناء الحج الرئيسي في سراة يكشف عن هذه الحقيقة من خلال الأعداد الكبيرة للمسافرين لقضاء مناسك الحج والسفن الضخمة المجهزة لنقلهم. وكان السلطان أكبر حريصًا على تأمين طريق الحج من خلال الحرص على العلاقات الودية مع البرتغاليين، وكذلك فعل بقية الحكام المسلمين.

كانت غالبية الحجاج المسلمين الهنود من الرجال بطبيعة الحال، لكن رحلات الحج لم تخل من النساء لاسيما من زوجات الحكام وقريباتهم. وفي بعض الأحيان كان إرسال بعض كبار رجال الدولة الذين يُخشى منهم نوعًا من النفي السياسي المستتر، ولم يكن بوسع أحد أن يرفض فرصة القيام برحلة الحج بطبيعة الحال. هناك حالات كثيرة تقف دليلاً على هذا النمط الغريب من الممارسات السياسية للحكام المسلمين في الهند.

ومن ناحية أخرى، كانت الأراضي الحجازية مكانًا يفضل الكثيرون اللجوء إليه عندما تأتي الرياح السياسية بعكس ما تشتهيه سفن طموحاتهم. فالمهزومون والطامعون في العرش والذين يعانون من وطأة التقاعد الإجباري؛ كلهم كانوا يجدون في الحجاز المأوى والملاذ الآمن. ففي سنة ١٥٣٥م تعرض «بهادو شاه» حاكم جوجارات إلى ضغوط عنيفة من السلطان همايون فأرسل أحد أعوانه يحمل أمواله وحريمه إلى الحجاز. وبقوا هناك حتى وفاة «بهادور». ولم يكن هذا هو المثال الوحيد بطبيعة الحال.

وكانت رحلة الحج تُرى على أنها وسيلة لتخليص الإنسان من ذنوبه وشفاء روحه ولكن ممارسات حكام مكة تجاه الحجاج الهنود أحيانًا كانت تجعلهم لا يرغبون في تكرار التجربة. ففي ثمانينيات القرن السادس عشر كان أمير الحج الهندي سلطان خواجا وأخذ معه عددًا كبيرًا من الناس وستمائة ألف روبية واثني عشر ألف ثوب لكي يوزعهما على أهل مكة، ولكن السلطات المكية عاملته بلا رحمة بحيث إنه عندما عاد إلى شمال الهند اعتنق الديانة التوفيقية التي ابتدعها السلطان أكبر. وقد حدث الشيء نفسه مع آخرين.

ومع هذا، فإن استمرار دولة المغول بشمال الهند في دعم حركة الحج إلى الحجاز طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر، يدل على أن الحج كان أداة مركزية في سياسة دولة المغول التي استمرت قائمة حتى القرن التاسع عشر.



الفصل السادس في هذا الكتاب يعالج موضوع الأبعاد الاقتصادية للحج من خلال الحديث عن الطرق البرية. ويمتد الموضوع إلى الفصل السابع والفصل الثامن أيضًا.

ويخبرنا التاريخ أن النشاط الاقتصادي في الحجاز كان قديمًا من خلال رحلتي الصيف والشتاء التي قام فيها أبناء قريش بنقل تجارة المحيط الهندي عبر الطرق البرية إلى تخوم الإمبراطورية الرومانية عند الحدود الجنوبية لبلاد الشام. وهناك إجماع بين الباحثين على أن مكة ويثرب (المدينة المنورة) ازدهرتا بوصفهما محطات على طريق التجارة البري. ومن ناحية أخرى كانت جدة ميناءً مهمًا للتجارة مع مصر ودول البحر الأحمر. وبسبب الغزوات المغولية في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي حدثت تحولات مهمة في طرق التجارة العالمية أكسبت البحر الأحمر أهمية متزايدة في حركة التجارة العالمية، واكتسب ميناء جدة أو (بندر جدة) أهمية كبيرة لهذا السبب أيضًا، وصار محطة رئيسية من محطات التجارة العالمية بحيث أولته السلطات المملوكية اهتمامًا كبيرًا من ناحية، وبحيث صارت جدة سوقًا دائمة تجرى فيها العمليات التجارية طوال العام من ناحية أخرى.

وكان هناك من يزعم بأن مكة كانت سوقًا للتجارة أيضًا، وأن الناس يذهبون للتجارة والحج؛ ولكن الحقيقة أن السوق التجارية في مكة كانت موسمية في أيام معدودات تنتهي بنهاية مراسم الحج. وكانت أهمية السوق المكية نابعة من كون مكة المكرمة مركز الحج الإسلامي وليس بوصفها سوقًا تجارية.



ويناقش الكتاب عدة أمور: هل تلعب العوامل الاقتصادية دورًا في تشجيع الناس على القيام برحلة الحج؟ ويتصدى الكتاب لمزاعم أولئك المعاندين الذين ينكرون الجانب الديني للحج ويصرون على الجانب الاقتصادي وحده. كما يركز الكتاب في هذه الفصول الثلاثة على فهم أماكن الأسواق وتنظيم وتوجيه طريق الحج الرئيسي في مطلع العصور الحديثة، ولاسيما تلك الطرق المرتبطة بمنطقة المحيط الهندي، وبحر العرب، أو التجارة بين شبه القارة الهندية والمنطقة العربية.

والزعم بأن التجارة والحج متلازمان زعم له تاريخ طويل عند الباحثين الغربيين الذين يذهب الغلاة منهم إلى القول بأن التجارة، وليس الحج، هو الدافع إلى هذه الرحلة. ولكن مكة لم تكن سوقًا دائمة؛ بل إن جدة كانت ولاتزال أفضل من حيث موقعها والتسهيلات المتوافرة للتجارة العالمية بها. وكانت مكة - ولا تزال - مقصد الحجاج بسبب ما كرمها الله من وجود الكعبة بها، وبسبب دورها في التراث الديني الإسلامي. صحيح أن التجارة ارتبطت بالحج بشكل ما، لكن الحج كان هو المنشط للتجارة ولم تكن التجارة أبدًا هي الحافز إلى القيام برحلة الحج.

ولم نجد في المصادر التاريخية ما يدل على أن قوافل الحجاج الآتية إلى مكة كانت تضم تجّارًا؛ ولم نسمع عن قوافل مشتركة تضم التجّار والحجاج. ولكن بعض الأفراد كانوا يمارسون نوعًا محدودًا من عمليات البيع والشراء، كما أن بعض أهالي مكة كانوا يقدمون خدمات تجارية للحجاج. فقد كان هناك تمييز في المصادر بين الحجاج والتجّار. أما الرحلات القادمة من الهند في القرن السادس عشر وما يليه فكان التجار يحجون ولكنهم كان يقصدون جدة بتجارتهم أثناء رحلة الحج. ومن الواضح أن قوافل التجّار كانت تسير في أعقاب قوافل الحج لكي تستمتع بالحماية العسكرية التي تصحب هذه القوافل من ناحية، ولكي تضمن رواجًا في ظل وجود الأعداد الكبيرة من الحجاج من ناحية أخرى. لقد كانت هناك حركة قوافل تجارية كبرى على أراضي المنطقة العربية؛ ومن الواضح أن توقيتها كان يُعدُّ بحيث يناسب خروج قوافل الحجاج مما جعل البعض يظنون أن التجارة والحج كانا متلازمين.

أما عن الطرق البحرية إلى الحجاز وأبعادها الاقتصادية، فقد ربط عدد من المؤرخين والكتاب الأوروبيين بين الحج والتجارة، بين الهند والبحر الأحمر عامة، وبين جوجارات والبحر الأحمر على وجه الخصوص. ومن الواضح تمامًا أن التجارة البحرية في المحيط الهندي في ذلك الزمان كانت تعتمد على الرياح الموسمية التي كانت تحسب بالتقويم الشمسي، على حين كان موسم الحج يحسب على أساس التقويم القمري. ومن ثم فإن الربط التعسفي بين التجارة والحج بأقلام أولئك المؤرخين يتجاهل الجاذبية الدينية الخالصة للحج. لقد كان هناك تناقض حاد بين التجارة والحج في بعض الأحيان بسبب الرياح الموسمية ودوران السنة الهجرية. إذ كان الوصول إلى جدة محكومًا بالتقويم الشمسي أما الوصول إلى مكة لأداء مناسك الحج فكان محكومًا بالتقويم القمري. وهكذا تظهر عبثية ما قيل عن «سوق الحج» في مكة؛ لأنه في بعض الأحيان كان يعني أن التجار القادمين من الهند كان عليهم أن ينتظروا أحد عشر شهرًا في جدة حتى يحين موسم الحج. فالواقع أن معظم





في كل سنة يخرج محمل الحج من القاهرة يحمل كسوة الكعبة وقدرًا كبيرًا من المعونات المادية والمالية لحكام المدينة وأهلها. وفي ميناء جدة كان هناك ممثل شبه دائم للسلطات المصرية من كبار أمراء المماليك للإشراف على جمع الضرائب من التجار الذين يفدون بتجارة المحيط الهندي





من أشعار ناظم حكمت

عينا أميرتى عسليتان

عينا أميرتى عسليتان

وفيهما أزقة خضراء

وفوق صفحات الذهب نقوش خضراء

إخوتى، ما هذه المهارة فى الفن!

سنوات تسع مضت ويدى لم تلمس يدها

شخت أنا ههنا

وهى شاخت هناك

فتاتى يا ذات الرقبة الممتلئة البيضاء المتجعدة،

يستحيل أن نصاب نحن بالشيخوخة

لابد من العثور على عبارة أخرى لوصف ارتخاء اللحم،

فأن يشيخ المرء:

يعنى أن يصبح عاجزًا عن حب غيره.

١٩٤٧

اللعنة

عصافير الدورى على أسلاك الهاتف

يا لها من مخلوقات مسكينة لا تعرف شيئًا عن الهاتف

ليتنى أرى أجسادكم ملفوفة بالأكفان

فقد جعلتم أبناء قومى

مكفوفين وعيونهم مفتوحة!

١٩٤٧




الطريق إلى مكة

حجاج الهند فى القرون الوسطى

تجارة البحر الأحمر كانت تركز على جدة وكانت محكومة بالرياح الموسمية. وكان هناك وكلاء محليون للتجار يمكنهم بيع البضائع فى موسم الحج، وكان هذا هو السائد فى كل المراكز التجارية فى منطقة المحيط الهندى وبحر العرب والبحر الأحمر.

أما الحجاج القادمون بالبحر فلم يكن أمامهم خيار سوى الخضوع لحكم الرياح الموسمية، والراجح أن أعدادهم كانت تتزايد عندما يقترب التقويم الهجرى من وقت الرياح الموسمية. أما فيما عدا ذلك، فإنهم كانوا يمضون الوقت فى زيارة المدينة المنورة، أو الدراسة، أو القيام بعمرة.



كانت الملاحة فى البحر الأحمر هى المشكلة الأشد خطورة، ومع ذلك فإن مياهه ظلت تحمل الحجاج القادمين من الهند، كما استمرت فى حمل التجار والبضائع من تلك الأنحاء أيضًا. وفى أوقات مختلفة كانت هناك موانئ مهمة تتناوب فى أهميتها على سواحل هذا البحر حسب تغير ظروف التجارة العالمية. فقد كان ميناء عيذاب المصرى قبالة جدة قد ازدهر بسبب الحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. وظل ميناء ينبع الصغير يؤدى دوره حتى تأثر بالاضطرابات السياسية أواخر القرن الخامس عشر. وعندما ظهر البرتغاليون صار ميناء عدن عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر محطة ترقب وانتظار للسفن الخارجة من هذا البحر، وفى القرن السابع عشر يبدو أن ميناء المخا (مُخا) قد نما بشكل كبير بحيث صار منافسًا لميناء جدة، وساعدت تجارة البن المزدهرة على انتعاش هذا الميناء وزيادة أهميته فى أواخر القرن السابع عشر. ومع ذلك، وعلى الرغم من صعود وتدهور ميناء عدن ثم ازدهار ميناء المُخا؛ فإن جدة ظلت هى الميناء التجارى المركزى فى البحر الأحمر على الدوام. وكانت تجارتها تزدهر بشكل كبير حين يتصادف موسم الحج وقدوم آلاف من الحجاج مع الرياح الموسمية التى تسمح بقدوم السفن التجارية من المحيط الهندى.

وكان نقل جماهير الحجاج التواقين إلى ممارسة شعائر الحج فى مكة عبر جدة، من حين لآخر (حسب التوافق بين التقويم الشمسى والتقويم القمرى) حادثًا اقتصاديًا مهمًا فى حياة ميناء جدة. وقد ظل هذا الميناء على أهميته على الرغم من وجود البرتغاليين عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر. وتشير التقارير التى كتبها البحارة والرحالة الأوروبيون فى أواخر القرن السادس عشر إلى الأهمية المركزية التى تميزت بها جدة؛ كما تشير التقارير الإنجليزية فى بواكير القرن السابع عشر إلى تلك الحقيقة. ولدينا روايات عديدة عن الأساطيل الكبيرة التى كانت تحمل الحجاج الهنود المسلمين إلى جدة. ويبدو أن تجارة جدة ظلت محتفظة بأهميتها على مدى عدة عقود فى القرن الثامن عشر. لقد كانت تجارة جدة طوال الوقت مسألة منفصلة عن الحج إلى مكة على الرغم من أن التجارة كانت تنتفع أحيانًا بنزول الحجاج فى جدة وهم فى طريقهم إلى مكة.

أما اقتصاد مكة المكرمة، فإنه كان يعتمد على موسم التجارة المؤقتة فى أيام الحج فى شهر ذى الحجة من كل عام هجرى. وكانت التجارة محصورة فى المؤن والبضائع المرتبطة بالحج وحاجيات الحجاج. ولكننا لا نجد نشاطًا تجاريًا يعتد به فى مكة بحيث يجعلها سوقًا دائمة للتجارة، أو منطقة للتجارة العابرة (ترانزيت). ولم يكن معظم الحجاج يتاجرون؛ إذ لم يكونوا يشترون سوى ما يلزمهم من مؤن وهدايا لذويهم عند العودة. ومع هذا كانت هناك رابطة من نوع ما مع جدة؛ خصوصًا عندما كان الحجاج القادمون عن طريق البحر يمرون بجدة.

كانت مشكلة مكة أنها تفتقر إلى الإمكانات التى تجعلها قادرة على توفير غذائها وحاجاتها، ولم يكن موقعها يسمح بأن تكون مركزًا تجاريًا طبيعيًا. وقد جاء فى القرآن الكريم ما يدل على أنها «بواد غير ذى زرع». ونتيجة لهذا اعتمدت مكة على الطعام المستورد من القاهرة عن طريق جدة، ومن الحبشة، ومن المناطق الأخرى داخل شبه الجزيرة العربية. ومن ناحية أخرى، اعتمد سكان مكة تمامًا على موسم الحج فى معيشتهم. وكان كثيرون من حكام الهند المسلمين يرون أن من واجبهم أن يقدموا العون لأهالى مكة عن طريق الأوقاف وبناء دور الضيافة وتقديم الدعم المالى المباشر. وهناك أدلة على أن مسلمى الهند كانوا يرسلون مساعداتهم عن طريق التجار والأساطيل التجارية المسافرة فى البحر الأحمر؛ لاسيما فى الفترة التى سبقت قدوم البرتغاليين إلى هذه المنطقة.

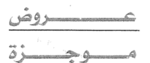
وقد رصد كثيرون النشاط التجارى فى مكة أثناء موسم الحج وفى أعقابه، كما أن عددًا منهم وصف سوق مكة فى تلك الفترة؛ وربما بلغت أعداد حوانيت تلك السوق حوالى ستة آلاف حانوت معظمها كان عبارة عن مكان مؤقت، ولم يكن معظم من يبيعون فى هذه السوق تجارًا محترفين. وكانت السوق عمومًا تشبه معرضًا للسلع من طراز غير تقليدى. وهناك تظهر الحقيقة الواضحة بأن مكة المكرمة لم تكن سوقًا بالمعنى العادى للكلمة، ولم تكن مركزًا طبيعيًا للتبادل التجارى؛ وإنما كانت سوقًا موجهة لخدمة حاجات الحجاج وتوفير الهدايا والتذكارات الدينية التى يريدونها. وكانت مياه زمزم واحدة من أهم تلك الهدايا.



على الرغم من أن عنوان الكتاب يوحى بالتركيز على الحج وتجربة مسلمى الهند فى القيام بهذه الرحلة خلال فترة قرون ثلاثة تمتد من مطلع القرن السادس عشر وتنتهى بنهاية القرن الثامن عشر، فإن المؤلف تناول عددًا من الموضوعات التاريخية التى تقترب من السياسة والاقتصاد بصورة غير مباشرة. وربما يكون الكتاب أقرب إلى موضوع التاريخ الاقتصادى منه إلى غيره. وقارئ الكتاب سيجد نفسه أمام أسئلة كثيرة بسبب تنوع الموضوعات التى تتصل بتجربة الحج، والعوامل العسكرية، التى امتزجت بالعلاقات السياسية والدوافع الاقتصادية، فى تأثيرها على حركة الحج من شبه جزيرة الهند إلى الحجاز. ■



Earn your first 1000 points...
احصل على ١٠٠٠ نقطة فى رصيدك...
EGYPTAIR Plus
MS 3 101 038 747
AHMED HUSSEIN HAGEEN
DATE OF ISSUE 5/01
Subscribe now with EgyptAir's frequent flyer programme to enjoy personalized service, extra baggage allowance, reward tickets, reward upgrades & many more privilages
إشترك الآن فى برنامج المسافر الدائم لمصر للطيران لتتمتع بالخدمة الخاصة والوزن الإضافى للأمتعة والرحلات المجانية وتعلية درجة السفر والعديد من المزايا الأخرى
For futher information, please contact the Customer Affairs Department at tel. 6964394 thru 99, fax 6349727 or e-mail customeraff@egyptair.com.eg
Visit our website www.egyptair.com.eg
للمزيد من التفاصيل، برجاء الإتصال بإدارة شئون العملاء
تليفون ٦٩٦٤٣٩٤-٩٩ أو فاكس ٦٣٤٩٧٢٧
أو بالبريد الالكترونى customeraff@egyptair.com.eg
قم بزيارة موقعنا www.egyptair.com.eg
مصر للطيران
EGYPTAIR Plus
EGYPTAIR



عـروض موجـزة

كتب عربية

أيام وردية

علاء الديب

القاهرة: دار الهلال ٢٠٠٢، ١٤٥ صفحة



يتابع علاء الديب في هذه الرواية رصد تحولات الطبقة الوسطى المصرية منذ هزيمة ١٩٦٧ وحتى اليوم، وكان بدأها في روايته «زهر الليمون» مع بطله عبدالخالق المسيري ثم مع منير فكار في «أطفال بلا دموع» وعبر استعراض الأوراق الخاصة لسناء فرج زوجة منير فكار في «قمر على المستنقع»، وحتى في كتابه «وقفة قبل المنحدر» والذي يمثل تجربته الشخصية للعمل في بلاد النفط، لم تفلت منه تحولات هذه الطبقة التي بدت انقلابية في محطات كثيرة، وهي بحسب قوله في «تذييل» يثبته في نهاية الرواية: الطبقة اللغز في تاريخنا، صاحبة أكبر إنجازات وأفظع جرائم، صاحبة الحل والربط، وقليلة الحيلة، صاحبة المُثل العليا والقيم المزيفة، الخائنة النبيلة، صانعة العدسات الوحيدة التي أرى بها الواقع والمصير.

«أمين الألفي» بطل «أيام وردية» أخصائي اجتماعي. مفكر عربي قديم، كثير الأقنعة، زوجته شادن وابناه هم كل حياته وسنوات عمره الباقية، شيئاً فشيئاً تسامقت السدود والحواجز بينه وبينهم بعد أن تدخلت أبلة الحاجة زينب ورفيقاتها من المنقبات في حياتهم ونجحن في تطليقها منه.

هزيمة يونيو كانت قاصمة الظهر له وللبلد، بعدها حاصرته رطانات لا تنتهي من الكذب والنفاق واللاجدوى، تضاءلت الأحلام وفقدت الشعارات والمبادئ التي عاش لها معناها، زملاؤه من المدرسين صاروا يديرون أبعديات للدروس الخصوصية، فيما هو مستغرق يحشد الجماهير في محاضرات عن فلسطين والمقاومة والنضال في سبيل استعادة الحقوق، وهي التجربة التي انتهت بتوبيخ أمني وتحذير من أن هذا النشاط غير مرغوب فيه.

ناجي فريد صديقه الوحيد الذي كانت له معه مراسلات، كان مهندساً وضابطاً احتياطياً. اشتغل بنشاط وتفوق في إصلاح دبابات الوطن وبعد العبور اشتغل بنفس النجاح والتفوق في التجارة، وفي الخليج مكث سنوات يراكم الثروة حتى مات هناك ووضعوه في ثلاجة حتى تجمد شعر ذقنه الأبيض.

عبر هذا الصديق تسطع فلسطين، الجرح الذي لا يندمل والصرخة التي لا تصمت، تتبدى في مقاطع كثيرة في الرواية مع ناجي ومع الدكتور ألبير بشاي وآخرين بينهم نزيلة سكنت إحدى غرف المصحة النفسية التي استقر بها أياماً كانت هي كل أيامه الوردية.

هي من أريحا، من عائلة فلسطينية معروفة، كانت هي «وردته الصفراء التي ظل يبحث عنها، تمنى أن يجمع لها كل لحظات السعادة وأن ينثرها تحت قدميها قرباناً» وهدية خالصة علها تداوي بعضاً من التعاسة والشقاء الذي عاشته، كأنها فلسطين، وردة صفراء «أشجان ملتهبة وجراح لا تطيب».

أيام المصحة الوردية ساعدته على استرجاع أيام طفولته وصباه وشبابه المبكر، لكن الصور المسترجعة لم تكن أبداً سعيدة، مرة أخرى يرى أغلب تجارب حياته تنتهي إلى لا شيء، في أيامه الوردية حلّق في الخيال، لكنها أيام سرعان ما تبددت، بعدها عاد إلى «كُشك» إبراهيم أبوخليفة في بلدته القديمة، تمضي أيامه الأخيرة بلا صخب وكأنه يجرب الموت.. «حوله دنيا واسعة خالية، ليس إلى جواره أحد، لم يكن حزيناً، يراقب الأشياء وهي تنتهي، ليس في ضوضاء، لكن في سكينة».

□ □ □

اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود

عبدالوهاب المسيري

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٢، ٢٤٠ صفحة



اللغة الإنسانية نظام دلالي يتسم بالاتساق الداخلي وله قواعد خاصة. والمجاز اللغوي - أي الاستعارة والكناية والمجاز المرسل - ليس مجرد زخارف ومحسنات بديعية، لكنه أيضاً جزء أساسي من التفكير الإنساني، أي جزء من نسيج اللغة التي هي جزء أصيل في عملية الإدراك، وهذا الكتاب ليس بحثاً لغوياً يعنى بالمجاز ودروبه، لكنه يتوسل به لفهم عديد من ظواهر عالمنا المعاصر فضلاً عن استبطان كنه الوجود.

يشير المؤلف مثلاً إلى ما اقترحه الكاتب الأمريكي توماس فريدمان لتلخيص عصر العولمة وإنسانها بالتركيز على «ماكدونالدز». فإنسان ماكدونالدز بحسب «فريدمان» هو شخص ضمرت هويته ولم تعد تعنيه مسائل مثل الوطن والكرامة، إنه «إنسان طبيعي، اقتصادي، جسماني كامل». وهكذا يتجاوز الرمز - المجاز - دلالته الحسيّة ليصبح تعبيراً عن شيء معنوي أكبر، إنه تعبير عن عصر بأكمله.

ويقترب المؤلف بالتحليل من الصورتين المجازيتين الأساسيتين في الحضارة الغربية وهما الصورة الآلية والصورة العضوية، حيث تفترض الأولى علاقات آلية منضبطة بين الظواهر بعضها البعض. فيما ترى الثانية أن العلاقات بين الظواهر فيما بينها وبين الإنسان والمجتمع - حيث إن هذا النموذج يتمركز حول الإنسان - علاقات مركبة لا يمكن اكتشافها، ويلاحظ المؤلف أن النموذج السائد في الغرب الآن، بعد عصور طويلة من الفكر الفلسفي والمادي من هوبز إلى روسو إلى نيتشه إلى ماركس وهيجل وكانط وعشرات غيرهم. هو مزيج من النموذجين.

الفكرة الأساسية التي يقوم عليها الكتاب تجنح إلى وجود علاقة بين رؤية الكون والصور المجازية، لذا فإن توليد الغرب صورتين مجازيتين عضويتين هما الجسد والجنس، يصلحان كتعبير عن رؤية الإنسان الغربي الحديث للكون، ويشير المؤلف إلى إسهامات عديد من المفكرين والفلاسفة الغربيين في هذا الإطار بينهم داروين وشوبنهاور.

ويخلص إلى أن الفكر الفلسفي العلماني الغربي يرى المرجعية النهائية في المادة، ولذا فإنه يدور حول الإنسان بوصفه جسداً مادياً يعيش في الطبيعة، ويتجاوز هذا الفكر بذلك ثنائية الذات والموضوع ويصبح الجسد قضية مركزية، وتصير المعرفة محدودة بنطاقها، فهي مثل الجسد الذي لا تتجاوز شرعيته حدوده. ويلغي الزمان بفعل الرغبة الجنينية في الهروب من التركيب والتجاوز، وتتآكل أهم مؤسسة ظهرت في تاريخ الإنسان وهي مؤسسة الأسرة التي يتحول فيها الفرد من شخص مادي طبيعي إلى كائن اجتماعي ذي جسد وروح.

ويطبق المؤلف منهجه في تحليل الصور المجازية على الفكر الصهيوني الذي يدور في إطار رؤية تعاقدية نفعية ضيقة، فالصورة المجازية الأساسية في الوجدان الصهيوني هي أن العالم بأسره مجرد سوق كبيرة، وما يسمى بالوطن القومي ليس سوى سلعة تباع وتشترى، فالأرض ليست وطناً وإنما عقار، وعلاقة الإنسان بها ليست علاقة انتماء وإنما علاقة نفعية تعاقدية، وهكذا يُنظر إلى إسرائيل كحائط صد أو كلب حراسة، وهي نظرة زعمائها أنفسهم إلى طبيعة دولتهم والكيان الصهيوني قائم على عديد من الصور المجازية التي تجسد تطلعاته وأساطيره وتفاعلات أجنحته من حمائم وصقور ونعام ودجاج.

وفي فصل تال يتابع المؤلف علاقات الدال بالمدلول وانفصالهما في الحضارة الغربية الحديثة، حيث تم تفكيك الإنسان والكليات والمرجعيات والجوهر والذات والموضوع، وما بعد الحداثة «هي الرمال المتحركة التي تلعب فيها الدوال المنفصلة عن المدلولات».

ويقدم المؤلف عشرات الأمثلة على خطورة هذا المنحى والتحيز الواضح في علاقات الدال بالمدلول وأثرها في إشاعة مزيد من الخلط في المصطلحات والمفاهيم بهدف تثبيت النسق الحضاري الغربي القائم على التفتيت وتغييب الكليات والمرجعيات الكبرى.

□ □ □

أمريكا والسعودية
حملة إعلامية أم مواجهة سياسية؟

غازي القصيبي

بيروت - عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢، ١٣٤ صفحة



موضوع الكتاب الذي يشير إليه عنوانه، لا تصل إليه إلا بعد أن تكون قطعت شوطاً يجاوز نصف صفحاته تقريباً، لكن ذلك لا يعني أن ما طويته من أوراق في النصف الأول مقطوع الصلة بما بعده، فالقارئ مدعو عبر الفصول الأولى إلى تأمل الحال المأسوي - والهزلي أيضاً - للإعلام العربي، والكتاب يبدأ برواية تخيلية عن لقاءات ثلاثة تجري في ثلاثة مطاعم في كل من لندن وباريس وواشنطن، تجمع مسئولين وصانعي قرار في العواصم الثلاث الكبرى بإعلاميين فيها، حيث يتم تسريب أخبار معينة لتحقيق أغراض خاصة يتفق عليها الطرفان، ونستخلص من الحكاية التخيلية تلك أن العلاقة بين السياسي والصحفي عندهم تحكمها اعتبارات مهنية وموضوعية فضلاً عن دوافع المصلحة المشتركة، بعكس الحال في مجتمعاتنا العربية التي يجتهد صحفيوها - في معظمهم - للحصول على لقب بوق النظام أو حامل مباخره، ويشير المؤلف إلى أن نظرة الإعلاميين الغربيين إجمالاً إلى المجتمعات التي لا تسود فيها الليبرالية الديمقراطية تتراوح بين العداء العابر والكراهية العميقة.

«كان الإعلام الغربي مستعداً وراغباً وقادراً، وجاءت الحملة الإعلامية الغربية على البعبع المرعب: الأصولية الإسلامية وربيبتها المملكة العربية السعودية».

والموقف الأمريكي من السعودية لم يكن مجانياً، بل مثّل ردة فعل على رسائل ذات مغزى بعث بها الأمير عبد الله بن عبد العزيز ولي العهد السعودي يرفض

فيها تجاهل الرئيس الأمريكى بوش للقضية الفلسطينية ودعمه اللا محدود لإسرائيل، حتى أنه رفض لقاء بوش «إذ اللقاء لن يؤدى إلى نتيجة» وكان رد الأمير عبد الله على دعوات بوش المتكررة أنه مستعد للزيارة إذا قام بوش بمبادرة تدل على اهتمامه بمعاناة الفلسطينيين، وفى أواخر أغسطس ٢٠٠١ حمل الأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز السفير السعودى فى الولايات المتحدة إلى واشنطن رسالة مفصلة وقاسية استعرضت العلاقات الأمريكية السعودية وتاريخ التعاون الوثيق بين الدولتين، وكذلك المذابح الدموية التى يتعرض لها الفلسطينيون فى الأراضى المحتلة، وانتهت الرسالة إلى أنه لا المملكة ولا العرب ولا المسلمون بإمكانهم الوقوف موقف المتفرج مما يجرى فإن «قيادة المملكة ليست مثل شاه إيران الذى وضع مصالح الدول الأجنبية قبل مشاعر شعبه» وأن المملكة «من الآن وصاعدًا» ستتخذ القرارات التى تراها فى مصلحتها دون أن تأخذ مصالح أمريكا فى الاعتبار. وكان لرسالة الأمير عبد الله تأثيرها على الإدارة الأمريكية، إذ صدرت عن الرئيس بوش إشارات تؤكد تغييرًا واضحًا فى المواقف، وقبل أن تترجم هذه الإشارات إلى إجراءات عملية وقعت أحداث سبتمبر، وبسرعة تحرك اللوبى الصهيونى لوأد المبادرة الأمريكية وضرب العلاقات السعودية الأمريكية واتهام السعودية برعاية الأصولية والتطرف بل وخلق حركة طالبان، وهكذا تحولت السعودية من دولة صديقة لأمريكا إلى دولة عدوة، وفقًا لميكانيزم وضعته أجهزة الاستخبارات الأمريكية وتنفذه أبواقها فى وسائل الإعلام، واحتمالات توتر العلاقات أو عودتها إلى سابق عهدها برأى المؤلف متساوية، والأمر متروك للأيام المقبلة.

□ □ □

آفاق فلسفة عربية معاصرة

أبو يعرب المرزوقى ـ طيب تيزينى

دمشق: دار الفكر ٢٠٠١، ٣٢٤ صفحة



تواصل سلسلة حوارات القرن المميزة رسالتها بالغة الأهمية. الحوار هنا بين مفكرين يشتغلان بالفلسفة وعليها، ولأن الحيّز يضيق عن استعراض الأفكار الثرية التى ضمنها كل منهما فى مقاله. فربما كان الأنسب هو التوقف عند التعقيبات التى تشير ـ ولو فى عجالة ـ إلى أهم النقاط التى يقوم عليها المبحثان.

يرى المرزوقى أن علاج تيزينى لمسألة تكوين فلسفة عربية متميزة تم عبر قسمين، فى الأول يؤرخ للفلسفة العربية الوسيطة، ويحلل الموقف الفلسفى الراهن ثم الموقف الشعبى من الفلسفة والمتفلسفين، وفى القسم الثانى يبحث فى إمكانات تحقيق التفلسف العربى.

ويرد المرزوقى على أربع مسائل أثارها بحث تيزينى، فيرفض إحالة ما حل بالفلسفة العربية من نكوص إلى التفسير بالمؤامرة السياسية الدينية ويحيلها إلى عجز النخبة عن القيام بدورها الحقيقى فى الإبداع النظرى، كما يرفض حصر مفهوم الفلسفة فى معناها التقليدى القائم على الجدل بين العقل والنقل، ويرى مفهومها أوسع بكثير يشمل ما كان يعد ضمن المباحث الدينية والأدبية عند القدامى، ويعترض على ما يظنه تيزينى حلاً لإشكاليات الفلسفة العربية وهو الفصل بين الفلسفة والدين، مؤكداً أن البحث فى المسائل الدينية هو من مهام الفلسفة ولا يمكن تحييدها عنه. وأخيراً لا يوافق المرزوقى على اعتبار العامل القومى وحده أساساً لإطار حضارى يؤسس مشروعاً فلسفياً يوحد العرب. ويرى فى هذا المقترح انكماشاً على العروبة دون مضمون يحدد رسالة معينة، ويتساءل عن وسائلنا للصمود أمام دعوة الشرق أوسطية وروابطنا السياسية والاقتصادية والثقافية، أقوى بمستعمر الأمس مما كان عليه حالها قبل عقود، بل إن هذه الروابط أقوى من الروابط التى تجمع الأقطار العربية ببعضها، ويتساءل كذلك عن المشروع الذى نقدمه للشباب مبشرا بنهضة عربية حقيقية؟ من جهته ينتقد «تيزينى» جنوح المرزوقى إلى تمثل نهج لا تاريخى يعيقه فى عملية تقصى حيوية تاريخ الفكر العربى بتمييزه القاطع بين التاريخى والفلسفى. ويعيب عليه غياب الاتساق المنطقى فى بحثه.. «فهو من طرف يكثف النظر فى الوحى على ذلك النحو الاختزالى القاطع. ومن طرف آخر يعلن أن الهوية فى التصور العربى الإسلامى هوية مفتوحة»، ويعيب عليه كذلك تشكيكه فى الفكر العربى ومنتجيه عبر العصور وكأننا نبدأ من الصفر. «فكل المشروعات المزعومة فلسفية، ضروب من العجلة الخالية من التؤدة العلمية» ويضع تيزينى يده ـ بحسب تعقيبه ـ على أحد أهم أسباب الأيديولوجية فى فكر المرزوقى، والتى جعلته ينظر إلى الفكر الفلسفى العربى بوصفه فكراً ملتبساً زائفاً إنشائياً. ويشير إلى قوله: «الغريب أننا نرى أمام ناظرينا

ذكريات عربى أفغانى

أيمن صبرى فرج

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٢٢٥ صفحة



تغطى هذه المذكرات مرحلة البراءة الأولى فى الجهاد الأفغانى ـ كما يسميها الأستاذ فهمى هويدى فى تقديمه للكتاب ـ فتتوقف عند العام ١٩٩٠ حين اضطر السوفييت بعد كل ما لاقوه وتكبدوه من خسائر إلى الانسحاب، ومن ثم فهى لا تتعرض لسنوات الصراع بين الأشقاء، رفقة الجهاد: سياف وحكمتيار وربانى ويونس خالص وشاه مسعود وزملائهم، ولا لظهور جماعة طالبان فيما بعد واستيلائهم على السلطة فى العام ١٩٩٦.

صاحب المذكرات لا صلة له بأية تنظيمات أو جماعات إسلامية ولم يعمل بالسياسة يومًا، شاب مصرى عادى تمضى أحلامه فى طريقها المعتاد، متفوق فى دراسته ـ حاصل على دراسات عليا فى الزراعة ـ ولو جرت المياه فى مجراها الطبيعى، كان عليه أن يحصل على الدكتوراة ويواصل أبحاثه فى الاتجاه ذاته، لكن ما جرى لمسلمى أفغانستان وجهادهم الأسطورى دفاعًا عن بلدهم جعله يقرر فى لحظة فاصلة أن يغادر هذا كله ويلبى النداء، لتبدأ مرحلة جديدة فى حياته بدءًا من العام ١٩٨٨ فى بلد يقول عنه: «لو خيُرت ما اخترت لى وطنًا إلاك ياأفغانستان».

ومثل كثيرين ممن شدوا الرحال إلى هناك، مثلت أفغانستان لأيمن صبرى فرج ـ أبو جعفر المصرى القندهارى فيما بعد ـ حلم إقامة دولة الإسلام، التى بدت قريبة المنال. ومنها ينطلق الرفاق لإقامة دولة الإسلام الكبرى فى أنحاء العالم.

صاحب المذكرات يبدأها من حيث يجب أن تبدأ، مواصلاً السرد إلى نهايته، حين يفقد ساقه التى تتطاير شظايا بفعل لغم أرضى، وعبر عامين ـ منذ وطات قدماه أرض الأفغان إلى أن تناثرت واحدة فوقها ـ يحكى لنا عن رفاق المسيرة الذين اجتمعوا من أنحاء المعمورة: من مصر وفلسطين والسودان والعراق والسعودية والأردن والجزائر وتونس والهند وأمريكا، ليلبوا نداء الجهاد، والصعوبات التى واجهوها والبطولات والتضحيات التى قدموها واستعدادهم للشهادة بل السعى إليها، دون أن يغفل الأفغان من المجاهدين الذين يراهم ذوى بأس وشجاعة نادرة، يقدرون العلماء ويقدسون كتاب الله وإن عابهم تعصبهم الشديد لمذهبهم الحنفى، وهو تعصب مرده إلى قلة بضاعتهم من العلم وجهلهم بالفقه ومقاصد الشريعة، والحقيقة أن التعصب والعنف الذى بدا عليه الأفغان فى المذكرات، لم يسلم منه المجاهدون العرب أنفسهم، ويروى لنا صاحب المذكرات كيف أن مواجهات دامية كادت أن تقع بين الطرفين ـ العرب والأفغان ـ لأمور بسيطة، مثل الصلاة على الشهيد أو عدم الصلاة عليه، أو تمييز قبره بعلامات مميزة من عدمه.. إلخ، وصاحب المذكرات نفسه لا يغيب عنه هذا الملمح العنيف، إذ يبدى إعجابًا مفرطًا بصديقه «أبو جبل» الذى قدم مثله من مصر والذى «سمع يومًا أن صاحب مكتبة القرية يلين الكلام لزبائنه من الفتيات، فدخل المكتبة وحطمها تحطيمًا وظل يضرب ذاك المنحل حتى كاد يقضى عليه».

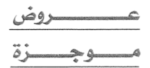
«هو العنف المكبوت بداخلى والذى يتراكم ولا بد من تفريغه وإلا انفجرت معه (...) وعلى مدى سنوات الجهاد استمتعت بالعنف أولاً ثم أصبح روتينيًا لا متعة فيه».

سيتأكد لنا من خلال المذكرات، أن النزاع بين فرقاء الجهاد كان قادمًا لا محالة، وخصوصًا أن القندهاريين ـ الذين جاءت منهم جماعة طالبان ـ كانوا يرون الحرب بين الطرفين (المجاهدين والسوفييت) حربًا بين كفار وملاحدة، وحسب أولوياتهم فقد كان عليهم الانتظار حتى ينتصر المجاهدون، ثم يبدأ جهادهم ضد رفاق الأمس، بل إن مجاهدى الحزب الإسلامى التابع لحكمتيار واجهوا هجومًا عنيفًا من مقاتلى شاه مسعود فى الشمال كى يبعدوهم عن مناطق نفوذهم، ولم يكن السوفييت قد رحلوا بعد.

أما أسامة بن لادن وتنظيمه «القاعدة» فقد بدأ فى تجهيزه فى السنوات الأخيرة من الثمانينيات على ما يروى صاحب المذكرات، الذى يتطرق إلى علاقة أطراف عديدة بالجهاد الأفغانى مثل السعودية ومصر وأمريكا، والأسلحة الفاسدة التى اعتادت الأخيرة تزويد الأفغان بها بعد أن تأكدت من نصرهم، والفتن المتعددة التى كانت تنشب بسبب النظر إلى العرب بوصفهم وهابيين كفارا.

المذكرات التى تلقى أضواءً باهرة على الجهاد الأفغانى فى براءته الأولى، تلقى ـ من طرف خفى وربما دون أن يقصد صاحبها ـ أضواء أخرى على الدوافع الكامنة للصراع بين المجاهدين أنفسهم، عربًا و أفغان، لأسباب قبلية وسياسية ومصلحية وأخرى ذات صلة بمحدودية الأفق والتعصب المذهبى وقلة البضاعة لدى شباب غض يمتلئ حماسة وبراءة، ترك الدنيا وراءه وقطع آلاف الأميال بحثًا عن الشهادة أو دولة الإسلام، فظفر بعضهم بالأولى وباتت الثانية حلمًا بعيد المنال.

عماد الغزالى



التكرار الناجح لتحقيق النهوض في جل بلاد آسيا غير الإسلامية فضلاً عن تجربة اليابان في القرن التاسع عشر يتحقق بما يماثل الشروط التي تحققت بها النهضة الغربية ولا نعني ذلك» بما يعني أن حديث المرزوقي بعد ذلك عن بعث فلسفة عربية هو حديث بلا معنى، ويعيب عليه إسرافه في الأخذ بثنائيات العقل والنقل والدين والفلسفة وغيرها. ويشدد تيزيني في الختام على أن إنتاج فلسفة عربية متميزة لن يتحقق خارج إطار الخصوصية التاريخية العربية.

□ □ □

رسائل الشيخ علي يوسف وصفية السادات

حلمي النمنم

القاهرة: ميريت، ٢٠٠٢، ١٧٧ صفحة



في ١٥ يوليو من عام ١٩٠٤، نشرت جريدة المقطم خبراً صغيراً، يقول إنه بعد ظهر يوم الخميس ١٤ يوليو تم عقد قران الشيخ علي يوسف على إحدى كريمات الشيخ عبدالخالق السادات. وفي يوم الجمعة نشرت جريدة المؤيد التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف الخبر. وكان هذا الخبر بداية لواحدة من أعنف وأهم المعارك السياسية و«الشرعية» التي شهدتها مصر في تلك الفترة، فعقد القران تم في منزل السيد توفيق البكري وهو من الأشراف وزوج ابنة الشيخ السادات الكبرى. وعلى الفور، أحال الشيخ السادات القضية إلى المحكمة التي بدأت تنظرها وأجرت تحقيقات مع المأذون والشهود ووكيل العروس، وكان الاتهام الأساسي الذي واجهه الشيخ علي يوسف هو أنه ليس كفؤاً لابنة الشيخ السادات وهو ما يجعل العقد باطلاً. وهو ما انتهت إليه المحكمة وبدأ الاستغلال السياسي للقضية وبدأت جريدة اللواء - جريدة الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل - تجرح في خصمها اللدود الشيخ علي يوسف الذي كان يسانده الخديوي.

تفاصيل كثيرة تضمنها هذه القصة لكن المؤلف اختار أن يعرض لنا رسائل العاشقَين التي تفيض حبّا وهيامًا؛ إذ تخاطبه «صفية» بحبيبي ومالك روحي وحامل عرشي، ويخاطبها الشيخ علي يوسف بحبيبتي وملكة فؤادي.

□ □ □

اقتصاد إسرائيل على مشارف القرن الحادي والعشرين

فضل مصطفى النقيب

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١، ٢٥٦ص.



انطلاقاً من العلاقة الطردية بين «الاقتصاد» و«التوسع» كدينامية مستمرة للمشروع الصهيوني، يهدف هذا الكتاب إلى مناقشة الاقتصاد الإسرائيلي من منظور التغيرات الكبيرة التي طرأت عليه في حقبة التسعينيات، وما تطرحه من مؤشرات مستقبلية. فحسب ما يشير المؤلف – وهو أستاذ الاقتصاد الرياضي بجامعة واترلو في كندا – تعد فترة التسعينيات من أهم الفترات في تاريخ الاقتصاد الإسرائيلي، يتناولها الكتاب في ثلاثة موضوعات. الأول يتعلق بالنمو الكبير الذي ميز الاقتصاد الإسرائيلي في التسعينيات، وهنا يطرح المؤلف سؤالاً عن سبب هذه الطفرة التي قد تكون راجعة للإصلاح والتوجه نحو الرأسمالية والانفتاح على الأسواق العالمية، أو راجعة لموجة الهجرة الكبيرة التي تمت في التسعينيات وتدفق الاستثمار الأجنبي بفضل مناخ العملية السلمية. الموضوع الثاني يتعلق بدور القطاع العام في الاقتصاد الإسرائيلي حيث شهدت التسعينيات تراجعاً في دور الدولة لصالح الخصخصة، فهل تضع الرأسمالية قيوداً على التوسع الصهيوني؟ أم أنها النظام الملائم لهذا التوسع في الأوضاع الراهنة ؟

أما الموضوع الثالث، فيتعلق بمستقبل دور الاقتصاد الإسرائيلي في منطقة الشرق الأوسط في إطار العملية السلمية. وفي هذا الصدد يتناول المؤلف اتجاهين متقابلين في السياسة الإسرائيلية، اتجاها يرى مستقبل إسرائيل في الاندماج الكامل في منطقة الشرق الأوسط وقيادة المنطقة، واتجاها آخر يرى المستقبل في متابعة الاندماج في العالم الغربي من دون أي اهتمام بالشرق الأوسط.

وفي أجواء العملية السلمية، يضيف المؤلف أنه لم يحدث أي تغيير جذري في نوعية العلاقة بين اقتصاد إسرائيل والاقتصاد الفلسطيني، فعلاقة التبعية الاستعمارية مازالت كما كانت عليه، والمؤشرات كلها تدل على أن إسرائيل في طريقها لإقامة علاقات مشابهة مع الاقتصاد الأردني، لكن بأساليب مختلفة.

□ □ □

كتب أجنبية

The Real Odessa: How Peron Brought the Nazi War Criminals to Argentina

(كيف استطاع بيرون تهريب مجرمي الحرب النازيين إلى الأرجنتين)

Uki Goni

Granta, 382PP, £ 20, 2001.

في الوقت الذي تواجه فيه الأرجنتين حالياً أزمة اقتصادية خانقة لم تواجهها من عشرات السنين وأدت إلى استقالة خمسة رؤساء خلال مدة لا تزيد على أسبوعين، يأتي هذا الكتاب لينبش في الماضي ويعيد الدراسة والتنقيب عن تفاصيل قصة مثيرة وقعت في نهاية الحرب العالمية الثانية، ألا وهي لجوء بعض المسئولين في ألمانيا النازية إلى الأرجنتين في عهد رئيسها الراحل خوان بيرون. وقد ظهرت عديد من الكتب بل والقصص حول هذه الواقعة المثيرة التي لايزال بعض تفاصيلها خافياً.

وقد أمضى المؤلف ٥ سنوات يبحث في عديد من دور الوثائق والأرشيف في أوروبا لعله يستطيع تركيب قصة أقرب إلى الحقيقة بشأن ما حدث. ويشير إلى أنه في عامي ١٩٥٥ و١٩٩٦ وصلت درجة الحرارة في الأرجنتين إلى حوالي ٤١٥ درجة فهرنهايت، ولم يكن هذا الارتفاع إلا بسبب قيام مكتب المعلومات الأرجنتيني ودائرة الهجرة بإحراق كميات ضخمة من الملفات التي تشير - حسب قول المؤلف - إلى وجود علاقة بين الرئيس بيرون وأركان حكمه وبين تهريب مجرمي الحرب النازيين إلى الأرجنتين.

ويشير المؤلف إلى أن إثارة تلك القضية في الأرجنتين تسبب توتراً شديداً لأن المؤسسة الحاكمة هناك تعتقد أن البلاد لا يمكن أن تتقدم للأمام إلا بنسيان تلك القضية. لكن مؤلف الكتاب يصر على أن الكشف الكامل عن تفاصيل تلك الواقعة هو الذي يمكن أن يحرر الأرجنتين من تركة الماضي الثقيلة ويجعل ضميرها مستريحاً ومستعداً للسير إلى الأمام. ولا ينسى المؤلف أن يشير إلى دور الفاتيكان المباشر في هذه القضية واعتبار كبار رجال الدين الكاثوليك أن النازيين أقل شراً من الشيوعيين.

ويعود المؤلف ليذكر من جديد أن الصمت على هذه المسألة أمر خاطئ تماماً ويشير إلى أنه خلال حكم العسكريين في نهاية السبعينيات والثمانينيات اختفى الآلاف من الأرجنتينيين وران الصمت على ظروف اختفائهم ومن وراء ذلك، مؤكداً أن الصمت في هذه الحالة هو الموت. ولذلك فإن الصمت لن يجعل أمة ما تتقدم للأمام.

□ □ □

Histoire du Gaullisme

(تاريخ الديجولية)

De Serge Berstein

France - Perrin., 2001,

570 PP,



ماذا يبقى من الديجولية بعد نصف قرن من تفجر حركة «العصيان المدني» التي ولدت يوم الثامن عشر من يونيو ١٩٤٠؟ يرى سرج برستين - أحد مؤلفي الكتاب - أنه لم يعد يبقى منها شيء يذكر بخلاف بعض اللحظات التاريخية التي لا تنسى - فإذا كانت الثقافة السياسية للديجولية قد تواءمت بلاشك مع الوضع القائم في فرنسا في الستينيات، فقد تبين «تنافرها» مع وقائع نهاية القرن العشرين.

كيف يمكن لنا تعريف الديجولية؟ إنها بمثابة «توالف» مبتكر وهش غالباً بين القومية والفكر الجمهوري. فالقومية هي الاعتقاد الراسخ للجنرال ديجول، قومية تأخذ شكل «الأولوية المطلقة للأمة الفرنسية على غيرها من الأمم» وهي تتناقض كل التناقض مع «العالمية السلمية لليسار الجمهوري».

ورغم ذلك، لن يُرِد ديجول أن يحصر نفسه في سياسة القومية، رويداً رويداً ودون التخلي عن أفكاره تقارب مع الجمهورية. وهي تختلف بقدر كاف عن النموذج السائد ولكنها تتسق مع المبادئ الديمقراطية وسيادة الشعب. وتتمحور على «فكرتين بسيطتين» «العظمة كهدف والدولة القوية كوسيلة».

فالديجولية قبل كل شيء هي عمل رجل لا يرضى بالهزيمة. فالنغمة السائدة في فرنسا الحرة - كما يوضح سيرج برستين - هي «القومية المرتبطة بعض الارتباط بالنموذج الجمهوري المستسلم بمسئوليته عن الهزيمة». وهذا هو سبب تشكك الجمهوريين في هذا الجنرال الذي انخرط في السياسة» إلا أن ديجول ما لبث أن قدم الضمانات على ارتباطه بالديمقراطية منتقلاً بذلك في الفترة من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤ من «القومية اللاسياسية» إلى «مفهوم مبتكر للجمهورية».

وثائق المراحل أهمية هي قيام

الجمهورية الخامسة بعد «فشل نماذج الديجولية والنموذج الجمهوري في أعقاب الحرب». في عام ١٩٥٨، ترسخ نظام سلطة يختلف جل الاختلاف عن منطق الأنظمة السابقة التي يريدها الجنرال ديجول أن ترى النور. يقول الكاتب «لأول مرة في تاريخ فرنسا، يتحقق نظام سياسي يجمع بين لفظين تم اعتبارهما متضادين حتى ذلك الحين وهما الجمهورية والدولة القوية. بالطبع هناك عدة أشكال للديجولية ولكنها تبدو أساسًا بمثابة أفضل النظم «تواؤمًا مع المشاكل المعقدة التي تواجهها الدولة والمجتمع في النصف الثاني من القرن العشرين».

وإذا كان تعريف الديجولية يتمثل في دور رئيس الجمهورية في أنه «حجر الزاوية» وفي أن عظمة فرنسا هي أولى الأولويات فإن «الشيراكية» تبعد عن ذلك. فلقد أراد الرئيس الحالي جاك شيراك أو قبل في مواجهة فاليري جيسكار ديستان في بادئ الأمر ثم في أثناء حقبة التعايش بعد ذلك أن يقلل من وضع الرئيس. أما العظمة الفرنسية فقد تراجعت أمام بناء أوروبا. ويخلص الكاتب إلى أن الديجولية كوصفة سياسية قد استنفدت قواها بشكل لا يمكنها من حل مشاكل فرنسا في نهاية القرن العشرين».

□ □ □

The Skull Beneath the Skin
Africa After the Cold War

(أفريقيا بعد الحرب الباردة)

Mark Huband

Westview Press, 2002, 376PP.,

£ 21.99



مؤلف هذا الكتاب لديه نظرية بسيطة يقوم عليها الكتاب ألا وهي أنه لكي يحقق الاستقرار في القارة السمراء فإن من الضروري ترك دول القارة تحدد استراتيجياتها السياسية وحدها. ويقول إن على هذه الدول حكومات وشعوبًا أن تحدد بنفسها ماهية مشاكلها وكيف تتعامل معها من أجل حلها.

ويقرر مارك هابند أن الصعوبات السياسية والاقتصادية التي تواجهها القارة حاليًا مثل الفساد الحكومي والبقاء في السلطة وسوء استخدامها وكذلك الحروب الداخلية وإهمال الموارد وعدم الإدارة السليمة، كلها من نتاج التدخلات الأجنبية من جانب القوى الكبرى. ويقدم الكتاب حججًا مقنعة عن هذه التدخلات الأجنبية وكيف ساهمت في إيصال أفريقيا إلى الوضع المزري حاليًا من خلال استغلال موارد القارة الطبيعية وهي كثيرة وترك مواطنيها يشتبكون في حروب وخلافات ومجاعات وأمراض.

وهناك فصول عديدة تتحدث عن المآسي التي تعرضت لها القارة سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا لكن المؤلف يبدو متفائلًا بشأن أفريقيا ما بعد الحرب الباردة وهو يشير إلى أن دول القارة تبدو عازمة على إصلاح أحوالها والمشاركة في مسيرة العالم نحو التقدم.

□ □ □

Inventing the Victorians

(اكتشاف الفيكتوريين)

Matthew Sweet

London: Faber, 2002, 264PP,

£16.99



يمثل العصر الفيكتوري، الذي حكمت فيه الملكة فيكتوريا الإمبراطورية البريطانية الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر بالنسبة لكثير من المؤرخين والمثقفين عصر التزمت والتشدد وسيادة قيم المجتمع على حساب الفرد والتمسك بالقيم الدينية إلا أن مؤلف الكتاب ماثيو سويت يخالف هذا الرأي ويقدم موضوعًا بحثيًا طريفًا اعتمد فيه على ما يبدو على بعض ما كانت تنشره الصحف الإنجليزية خلال ذلك العصر. ويقول إن أمورًا كثيرة منها الموجودة حاليًا مثل الأكلات السريعة وأعمدة القلوب الوحيدة في الصحف وحتى المقالات التحريرية التي تتضمن في داخلها إعلانات كانت موجودة بل إنه يقول إن آلة الفاكس كانت موجودة أيضًا حيث تم اختراعها عام ١٨٤٣. ويشير إلى أن بعض الكتاب كانوا على سبيل المثال وهم يعرضون لمسرحية ما يقدمون إعلانًا في ثنايا موضوعاتهم وهو نفس الأمر الذي يحدث حاليًا.

ثم إن الأفيون «أو المخدرات» كان منتشرًا كثيرًا وحسب تعبيره، فقد كان متوافرًا أكثر من الطعام، بل إن الأطفال كان يتم إعطاؤهم مشروبًا يدخل في تركيبه الأفيون كهدايا، وكان يتم بيع كميات كبيرة للغاية منه.

ويشير الكتاب إلى أن هناك أمورًا كثيرة تتطلب المراجعة وإعادة النظر وخاصة الأحكام القيمية التي أصدرها المؤرخون والمثقفون على العصر الفيكتوري، مثل أنه كان عصرًا متشددًا دينيًا وعنصريًا. ويضيف بأن هناك دلائل كثيرة تثبت أن هذه الأمور مجرد أساطير تحولت إلى وقائع بفعل كثرة تكرارها، لقد تولت الملكة فيكتوريا عرش الإمبراطورية البريطانية في عام ١٨٣٧ وظلت في الحكم حتى بداية القرن العشرين، وخلال حكمها توسعت الإمبراطورية البريطانية بشكل غير مسبوق لدرجة أنه أصبح يطلق عليها الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس وكانت وفاة فيكتوريا بداية لغروب تدريجي لشمس تلك الإمبراطورية.

□ □ □

True Tales of American Life

(قصص حقيقية من الحياة الأمريكية)

Paul Auster

London: Faber, 2002, 394PP,

£16.99

في مايو ١٩٩٩ دعا الراديو الوطني للولايات المتحدة بول أوستر أن يقص على المستمعين قصة على الهواء مباشرة مرة كل شهر. إلا أنه رفض لكن زوجته أقنعته بإعادة النظر في رفضه، واقترحت عليه أن يسأل المستمعين للبرنامج أن يرسلوا قصصهم ليقرأها على الهواء. ووافق أوستر على هذا الاقتراح لكنه وضع شرطين، الأول: هو أن تكون القصص من واقع الحياة والثاني أن تكون قصيرة. وخلاف ذلك ليس هناك أي محظورات على موضوع القصة أو الأسلوب. وكان كتاب «قصص حقيقية من الحياة» نتاج هذا البرنامج. وللمفاجأة حقق الكتاب أعلى المبيعات واعتبره كثير من النقاد نوعًا من التاريخ الاجتماعي أو الإنثروبولوجي للمجتمع الأمريكي، وكما يقول النقاد فإن هذه المجموعة القصصية لبول أوستر مثيرة ومدهشة لأمرين اثنين، الأول: له علاقة بالقصص نفسها، والثاني: له علاقة ببول أوستر الذي يقول في مقدمته إن أصحاب القصص لم يحاولوا أن يقتبسوا من الأدب أو أن يكونوا على شاكلته بل كتبوا ما عاشوه في الواقع بشكل خام أبعد ما يكون عن الزخرفة.

إن الأمر المدهش في هذه القصص هو أنها تضارع الأعمال الفنية الكبيرة، ولكن لا تشبهها، فالمستمعون تحدثوا بشكل واضح دون تجميل، وكانت اللغة بسيطة مباشرة، لكنها كانت ممتعة ومبتكرة بشكل غير عادي.

وبدايات القصص مباشرة، ففي إحداها يقول المؤلف «في أكتوبر من عام ١٩٧٧ كان عمري ١٢ عامًا»، بينما يبدأ آخر قصته «قبل عدة أعوام قمت بزيارة صديق»، ثم تتوالى وقائع القصة.

وقصص المستمعين تلك تتحدث عن أشياء قد تبدو بالنسبة لهم مجرد أمور عادية لكنها حسب رأي النقاد إعادة اكتشاف للأشياء ولأنها نبعت من الناس وهي حقيقية فإن المصداقية فيها أكبر. ولذلك تلقفها الأمريكيون بشغف بالغ. إنها نوع من الأدب الشعبي كتبه أناس ذكروا أسماءهم لكنهم غير معروفين بل مجهولين بشكل شبه تام، ولم يكن هدفهم جذب انتباه القارئ أو استعراض قدراتهم بل مجرد سرد قصصهم، وذلك هو سر نجاح هذه القصص وذلك الكتاب.

□ □ □

The Death of Comedy

(موت الكوميديا)

Erich Segal

Harvard UP, 2001, $ 25



يضع إريك سيجال مؤلف هذا الكتاب مهاراته كقاص وكاتب سيناريو وأستاذ للأدب الكلاسيكي لتناول هذا الموضوع. ويقدم من خلال الكتاب دراسة تفصيلية عن تطور فن الكوميديا في الغرب من الإغريق القدامى إلى المسارح والسينما إلى أن يصل لحكم مفاده أن الكوميديا في انحدار بل ويحاول أن يقدم تأبينًا للكوميديا. ويعلنها سيجال صراحة: لقد ماتت الكوميديا، ويشير إلى أنها بدأت في الضعف والذبول منذ قرون طويلة إلا أنها لقيت مصرعها - على حد قوله - على أيدي جورج برنارد شو ويوجين أونيسكو وصموئيل بيكيت.

الكتاب مليء بالمعلومات التي تدعم وجهة نظره سواء المسرحيات أو المسارح وغيرها من المعلومات. وبالطبع فإن هناك من سيختلف مع وجهة نظر سيجال ويقول إنه على العكس فإن فن الكوميديا يشهد طفرات كبيرة في العصر الحديث. وكان ظهور السينما والتليفزيون فرصة كبيرة لإثراء هذا الفن وإتاحة المجال لملايين البشر للاستمتاع به بل وأيضًا إتاحة الفرصة لظهور مؤلفين وفنانين كوميديين أثروا هذا الفن العريق.

"اجتماع"

جمهورية طاجيكستان

عبيد العتيبي

الكويت: جامعة الكويت، ٢٠٠١

دراسة للمجتمع الطاجيكستاني والأسباب التي قادت إلى الصراع الطاجيكي وتأثير هذا الصراع على الدولة، وكيف يمكن تجنب الصراع مستقبلاً وإرساء دعائم دولة حديثة.

■■■

Three Faces of Beauty: Casablanca, Paris, Cairo

(ثلاثة وجوه للجمال: الدار البيضاء، باريس والقاهرة)

Susan Ossman

Duke University Press, 2002, 224P, $ 18.95

تتناول المؤلفة ثقافة التجميل في صالونات التجميل المنتشرة في كل من القاهرة والدار البيضاء وباريس باعتبارها ترمز لعملية التخفف من التقاليد في سبيل التحرر والتحديث. ففي صالونات التجميل تتم عملية «تفكيكية» للجسد لكي يُعاد بناؤه مرة أخرى. الكتاب يضم الكثير من المصطلحات النقدية الحديثة، ولا يناقش تفاصيل عملية التجميل نفسها والفروق بينها في تلك المدن الثلاث.

■■■

The Body and the Blood: The Holy Land's Christians at the Turn of a New Millennium

(مسيحيو الأراضي المقدسة على مشارف الألفية الجديدة)

Charles M.Sennott

Public Affairs, 2001, 479PP, $ 30.00

يتناول صحفي أمريكي في هذا الكتاب مجتمع العرب المسيحيين في الأراضي المقدسة الذين تضاءلوا إلى أن أصبحوا لا يشكلون أكثر من ٢٪ من إجمالي السكان في إسرائيل والضفة الغربية وقطاع غزة. يناقش الكتاب الأسباب التي تجعل أكثرهم يفضل الهجرة، حيث يعيش ضعف عدد المسيحيين الفلسطينيين في الخارج.

"اقتصاد"

Free Trade Today

(الاقتصاد الحر اليوم)

Jagdish Bhagwati

Princeton University Press, 2002, 144PP, $ 24.95

يعد البروفيسور جاجديش باجواتي أهم دعاة التجارة الحرة في العالم، وبالإضافة لعمله أستاذاً في جامعة كولومبيا يعمل باجواتي مستشاراً خاصاً لقضايا العولمة في الأمم المتحدة ومستشاراً خارجياً للمدير العام لمنظمة التجارة العالمية.

في هذا الكتاب الذي يعقب كتابه الشهير عن «الحمائية» يرد باجواتي على المناهضين للعولمة والتجارة الحرة فيبين كيف يمكن للتجارة الحرة أن تخدم البيئة والمجتمع عن طريق رفع مستويات المعيشة بدون اللجوء إلى فرض القيود التجارية، وذلك عن طريق استخدام النظريات الحديثة في السياسة التجارية.

كذلك يؤيد باجواتي التجارة الحرة المتعددة الأطراف ويحذر من الاتفاقات الثنائية أو الجغرافية مثل «النافتا» التي يرى أنها تحدث الفوضى في نظام التجارة العالمية.

■■■

African Economies and the Politics of Permanent Crisis, (1979 - 1999)

(النظم الاقتصادية الأفريقية وسياسات الأزمة المزمنة «١٩٧٩-١٩٩٩»)

Nicolas Van De Walle

Cambridge University Press, 2001, 303PP, $ 19.95

يقدم هذا العمل تفسيراً سياسياً لفشل الدول الأفريقية في تحقيق التنمية بالرغم من مرور عشرين عاماً على الإصلاح الاقتصادي المفروض من الخارج. فعن طريق تحليل برامج المعونة الدولية والتي تشمل حكومات غربية والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي والنظم السياسية التسلطية، ينتهي المؤلف إلى أن هذه الحكومات تدربت على القيام بقدر من الإصلاح يكفي لاستمرار تدفق المعونات ولكن ليس بالقدر الذي ينهي حالة الأزمة المزمنة. فالمعونة قد أضرت بإمكانيات المؤسسات المحلية لإدارة الإصلاح والنمو، أما التحول الاقتصادي الحقيقي فلن يأتي سوى عن طريق إصلاح سياسي داخلي.

"تاريخ"

الدولة العثمانية - تاريخ وحضارة

مجموعة من الأساتذة

إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلي

ترجمة: صالح السعداوي

تركيا: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠٠١

عن نشأة الدولة العثمانية والعوامل التي شكلت تلك النشأة، والمبادئ التي حملتها وجعلتها - من وجهة نظر المؤلفين وفي حقبة تاريخية معينة - مركز إشعاع علمي وحضاري. كما يقدم الكتاب الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية في الدولة العثمانية.

■■■

Blood of Revolution: From the Reign of Terror to the Rise of Khomeini

(دماء الثورة: من عهد الإرهاب في فرنسا إلى صعود الخوميني)

Erik Durschmied

Arcade, 2002, 366PP, $ 25.95

نظرة على سجل الثورات السياسية الكبرى التي قامت على مدى القرنين الماضيين. يتوصل المؤلف من خلال تناوله للثورة الفرنسية والثورة البلشفية والثورة الإسلامية الإيرانية وغيره، إلى أن الشجاعة والعبقرية والمبادئ سرعان ما تتطور في المراحل الأولى من الثورة إلى جنون وتعصب وانتهازية وسادية. كما يتوصل إلى أن الانهيار السياسي الكامل لا يحدث ببساطة بسبب غزو فكري أو عسكري، حيث لم يتم أبداً إقصاء حاكم إلا إذا كان هذا الحاكم بالفعل شديد الضعف أو شديد الغباء.

■■■

1979: The Year That Shaped the Modern Middle East

(١٩٧٩: العام الذي شكَّل الشرق الأوسط الحديث)

David W; Lesch

Westview, 2001, 188PP, $ 20.00

يرى المؤلف أن ثلاثة أحداث وقعت في عام ١٩٧٩ شكَّلت ما لحق من تاريخ الشرق الأوسط. أولاً: اتفاقية السلام المصرية - الإسرائيلية التي حوَّلت المواجهة العربية الإسرائيلية من قضية وجودية إلى قضية تفصيلية تتعلق بمفاوضات الوضع النهائي. ثانياً: الغزو السوفيتي لأفغانستان والذي عجَّل بسقوط الاتحاد السوفيتي، وثالثاً: قيام الجمهورية الإسلامية في إيران وبداية المواجهة الأمريكية والغربية مع الإرهاب الإسلامي.

"تراث"

اللهجة الكويتية من خلال الشعر النبطي

يعقوب الغنيم

الكويت: مكتبة الأمل، ٢٠٠١

عديد من القصائد النبطية (العامية الخليجية) تروي تاريخ الكويت وتتوقف عند منعطفات تاريخية مهمة في مسارها، يحللها المؤلف ويوضح الدور الذي لعبته هذه اللهجة في حفظ تاريخ الكويت وتأثيرها في المجتمع الكويتي ويعدها بمثابة ديوان للتاريخ الكويتي.

"تعليم"

القيم السلوكية

محمود عقل

السعودية: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ٢٠٠١

ثمة مجموعة من القيم السلوكية والاجتماعية التي تميز طلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية، وثمة مؤثرات تحدد هذه القيم السلوكية، المؤلف يرصد سلوك طلاب هذه المرحلة وقيمهم الأساسية وكيف يمكن للقائمين على العملية التربوية أن يرشدوها في الاتجاه الصحيح.

■■■

Methods and Resources for Elementary and Middle - School Social Studies

(مناهج ومصادر للدراسات الاجتماعية في مرحلتي المدرسة الابتدائية والإعدادية)

James Stockard

Waveland Press, 2001, 484PP., $ 42.95

الكتاب موجه لمدرسي الدراسات الاجتماعية في المدارس الابتدائية والإعدادية ويحتوي على نصائح عديدة خاصة بأفضل طرق تدريس الدراسات الاجتماعية للتلاميذ.

"دوريات"

البيت

الرباط: بيت الشعر، ٢٠٠٢

تتنوع موضوعات المجلة بين الشعر والنثر، إلى جانب الدراسة النقدية والتي من بينها دراسة عن أدب الفرانكفونية، تتضمن نصوصاً شعرية لشعراء كتبوا بالعربية مباشرة وقصائد أخرى ترجمت عن الفرنسية.

■■■

الفنون الشعبية

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب

يتضمن العدد موضوعات شتى منها دور الموسيقى الشعبية في التطور الموسيقي عموماً وفن الفلكلور والمعتقدات السائدة حول القديسين، ويترجم الكاتب والمخرج المسرحي رأفت الدويري حكايتين من الأدب الهندي.

■■■

سطور

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢

يتناول هذا العدد قضايا عدة مطروحة على الساحة العالمية بينها مستقبل السلام مع إسرائيل، ونقد الهيمنة الأمريكية، يشارك في العدد أدباء ونقاد ومفكرون بينهم د. فيصل دراج ود. علي الغتيت وآخرون.

ويرأس تحرير سطور الدكتور محمد عناني والدكتورة فاطمة نصر.

"دين"

الذهب والعاصفة

نوري الجراح

عمان: بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

دراسة تحفل أساساً بالبُعد الثقافي والسوسيولوجي في نشأة القارة الأمريكية واكتشافها والأسباب التي أدت إلى أن يترك الآلاف من المهاجرين بلادهم وحياتهم التي اعتادوا وشدوا الرحال إلى المجهول باحثين عن الذهب وأحلام الثراء في القارة الجديدة. يطرح الشاعر السوري ذلك كله بلغة أدبية سلسة.

■■■

نفسية بني إسرائيل في القرآن الكريم

زاهية الدجاني

عمان: دار فارس، ٢٠٠١

ظل بنو إسرائيل طوال تاريخهم يحيكون المؤامرات ويتحايلون على من عاشوا معهم بهدف السيطرة عليهم. وهو الأمر الذي فعلوه في عصر النبوة ومراحل بناء دولة إسلامية، والكتاب يركز على سيرة بني إسرائيل في القرآن الكريم وخروجهم من مصر ومؤامراتهم وتحالفاتهم والصفات النفسية التي تميزهم وتفسر سلوكهم. وكيف أثرت في صراعاتهم وحياتهم في كل عصر، وكيف يسهم فهم هذه الصفات في تحليل مواقفهم الحالية.

■■■

Roman Catholics and Shi'i Muslims: Prayer, Passion, and Politics

(الروم الكاثوليك والشيعة المسلمون: الصلاة والعاطفة والسياسة)

James A. Bill and John Aldeu Williams

University of North Carolina, 2002, 208PP, $ 27.50

أوحى لقاء الرئيس محمد خاتمي مع البابا يوحنا بولس الثاني في مارس عام ١٩٩٩ للمؤلفين باوجه التشابه الموجودة بين العقيدتين اللتين يدين بهما هذان الزعيمان وهما الشيعة الإسلامية والكاثوليكية الرومانية. من ضمن التشابهات التي يرصدها المؤلفان المسرحيات العاطفية التي يقيمها الشيعة إحياء لذكرى استشهاد الإمام الحسين في كربلاء، وتلك التي يقيمها الكاثوليك إحياءً لذكرى صلب المسيح. كذلك تقترب صورة فاطمة الزهراء ابنة الرسول في ذهن الشيعة من صورة مريم العذراء. يتناول الكتاب أيضًا تأثير الفلاسفة المسلمين على الفلاسفة الكاثوليك ومدى التبادل الثقافي الإيجابي الذي حدث بينهما في الماضي.

"روايات وقصص"

الضغينة والهوى

فواز حداد

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠١

شبكة تاريخية معقدة من أحداث الخمسينيات من القرن الماضي تدمجها أحداث الرواية لتكون شاهدة على الخصومات السياسية في بلاد الشام، وكذلك تضارب المصالح بينها، والرواية تقدم بانوراما كاملة للعلاقات الغربية الشرقية والأطماع الاستعمارية التي شابتها.

■■■

الغرفة المغلقة

سعاد آل خليفة

عمان: دار الفارسي، ٢٠٠١

مجموعة قصصية ترسم ملامح لوجوه وشخوص مختلفين متنوعي المشارب والأهواء، تكسو بعضهم علامات حزن شفيف وتطغى السعادة على قسمات بعض آخر وتراود أحلام الرفاهة والهناء أكثرهم، هكذا ترصدهم المؤلفة، شخوص من واقع الحياة.

■■■

مشهد من وراء السور

عزالدين نجيب

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١

مجموعة قصصية جديدة لمؤلف عُرِف بوصفه فنانًا وناقدًا تشكيليًا أكثر منه أديبًا، لكن مجموعاته القصصية السابقة برهنت على تميزه في هذا اللون الأدبي، وهو ما تبثه هذه المجموعة الجديدة التي تبحث عن المصير الإنساني الذي لا يدفع إلى التفاؤل به واقع مؤلم دام عانى المؤلف بعضًا من تجلياته الحزينة كمعتقل سياسي.

■■■

The True Sources of the Nile

(منابع النيل الحقيقية)

Sorah Stone

Doubleday, 2002, 288PP, $ 23.95

الرواية الأولى لمؤلفتها تدور في بوروندي حيث تعمل البطلة ضمن إحدى بعثات نشطاء حقوق الإنسان. تقع البطلة الأمريكية في حب شاب من أفراد الطبقة العسكرية الحاكمة، وتتمنى في سذاجة أن يتغلب حبهما على الفروق الثقافية والعنصرية بينهما، تماماً كما تتمنى أن تتغلب بوروندي على صراعها الملحمي بين قبائل التوتسي والهوتو بالإرادة الحسنة والبنية التحتية المناسبة.

■■■

Arafat's Elephant

(فيل عرفات)

Jonathan Tel

Counterpoint, 2002, 208PP, $ 14.00

مجموعة قصصية مستوحاة من الحياة المعاصرة في مدينة القدس، منها قصة بعنوان «الزر الأحمر» تدور حول فدائي ينوي تفجير نفسه، وقصة أخرى تدور حول لقاء كاهن يهودي بطبَّاخ الرئيس عرفات. المؤلف درس علوما فلكية وفيزياء في الولايات المتحدة وبريطانيا، وتلك هي مجموعته القصصية الأولى.

"رياضيات"

The Essential John Nash

(الأعمال الأساسية لجون ناش)

Harold W. Kuhn & Sylvia Nasar (editors)

Princeton University Press, 2002, 272PP, $ 29.95

عندما فاز جون ناش بجائزة نوبل للاقتصاد في عام ١٩٩٤، اندهش الكثيرون من كونه مازال على قيد الحياة، ثم ظهرت قصة حياته التي كتبتها سلفيا نصار «عقل جميل» والتي كشفت فيها عن مرضه بالشيزوفرانيا، وقد تحول كتابها إلى فيلم سينمائي عام ٢٠٠١ يحمل نفس العنوان. أما هذا الكتاب فيتناول أعمال جون ناش وأشهرها مساهمته في نظرية المباراة التي نال من أجلها جائزة نوبل. وتعد مساهماته في الرياضيات البحتة أبرز تأثيراً كما يتم تطبيقها في مجالات شتى.

"سياسة"

أضواء على المعابر

فهد الباشا

بيروت: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١

مر الشعب اللبناني في تاريخه المعاصر بنكبات وأزمات هائلة سياسية وعسكرية واجتماعية عصفت باستقراره عقودًا ومازال يجاهد كي يسترد عافيته ومواقعه الثقافية والسياسية. المؤلف يرصد ذلك ويركز بالأخص على الحرب الأهلية التي استمرت ما يزيد على عشرين عامًا.

■■■

انتهاكات حقوق الإنسان في العراق

رياض العطار

دمشق: الجمعية العراقية لحقوق الإنسان، ٢٠٠١

يشغل موضوع حقوق الإنسان حيزًا مهمًا في مجتمعاتنا المعاصرة، ويطرح في كثير من البلدان وتحت ظروف مختلفة لأسباب حقيقية أحيانًا، ولأسباب مختلقة في أحيان كثيرة، وانتهاكات حقوق الإنسان في العراق يتم تسليط الأضواء عليها الآن لأسباب واضحة، لكن ذلك لا ينفي أنها واقعة وأن حقوق الإنسان منتهكة بالفعل في العراق.

■■■

الإسلام والغرب الأمريكي بين حتمية المواجهة وإمكانية الحوار

محمد إبراهيم مبروك

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١

يقدم المؤلف بدائل للصدام الذي يقترحه البعض ويراه حتميًا بين الشرق والغرب، بدائل تفتح آفاقًا أوسع للحوار وتجنب المواجهة، ويدافع عن إمكانية المساهمة المتبادلة بين الحضارتين لتحقيق التوازن بديلاً عن الصراع.

■■■

الدبلوماسية الكويتية بين المحنة والمهنة

سليمان ماجد شاهين

الكويت: المؤلف نفسه، ٢٠٠١

يجمع الكتاب عديدًا من الندوات والمحاضرات التي تناولت الآثار المدمرة للغزو العراقي للكويت عربيًا وإقليميًا ودوليًا.

■■■

الدولة والثورة

منير شفيق

الرباط: بيروت، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١

رد نقدي على كتاب «لينين» الدولة والثورة، بعد سنوات من انهيار الاتحاد السوفيتي وتداعي المنظومة الفكرية التي بُني عليها الفكر الشيوعي في مواجهة الرأسمالية.

■■■

صنع القرار في الاتحاد الأوروبي

محمد مصطفى كامل

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

تصاعدت الأزمة في الشرق الأوسط بصورة غير مسبوقة وشهد الصراع العربي الإسرائيلي تدهورًا غير مسبوق تلاشت معه أحلام الأمن والسلام، وكان من المفترض أن تلعب أوروبا دورًا وهي القريبة جغرافيًا وبحكم المصالح من أجواء المنطقة، ولكنها لم تفعل. المؤلف يلقي الضوء على كيفية صنع القرار الأوروبي في ضوء الشراكة الأوروبية، وكيف يمكن أن تلعب هذه الشراكة دورًا في حل عديد من النزاعات في أوروبا وفي العالم كله.

■■■

نحو مستقبل مشرق

سامي الحصاونة

عمان: الجامعة الأردنية، ٢٠٠١

عن العلاقات العربية الأمريكية وتأثيرها على الواقع العربي الراهن وكذلك على القضايا العربية المستقبلية. وهي موضوعات دار بشأنها نقاش واسع شهدته الجامعة الأردنية في محاضرات وندوات عديدة يجمعها هذا الكتاب.

■■■

هنا وهناك

ساري حنفي

فلسطين: المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ٢٠٠١

دراسة شاملة تستقصي العادات والتقاليد الفلسطينية وكيفية الحفاظ عليها لمواجهة عمليات القرصنة الإسرائيلية، وتدعيم العلاقة بين الشتات الفلسطيني والمركز.

■■■

Succession in Saudi Arabia

(الخلافة في السعودية)

Joseph A. Kechichian

Polgrave, 2001, 287PP, $ 55.00

دراسة لتاريخ الخلافة الملكية في المملكة العربية السعودية منذ الملك ابن سعود وحتى اليوم. الكتاب يتناول كل حاكم على حدة حسب الترتيب الزمني ويحاول استقراء مستقبل الخلافة في حالة ابتعاد الملك فهد عن ساحة الحكم.

■■■

Statecraft: Strategies for a Changing World

(فن الحكم: استراتيجيات من أجل عالم متغير)

Baroness Thatcher

Harper Collins, 2002, £ 25.00

يصدر الشهر المقبل أحدث كتاب لرئيسة وزراء بريطانيا السابقة البارونة تاتشر، التي تقول عنه: «أردت أن أكتب كتاباً آخر يكون هذه المرة عن المستقبل، ففي هذا العصر الذي يسوده المستشارون الصحفيون يكمن الخطر في اتباع القادة السياسيين للموضة وليس لمعتقداتهم ومواهبهم.. يجب على الغرب أن يظل قوياً

ويقظاً وهدفي في هذا الكتاب أن أبيّن كيفية - ووجوب - إتمام ذلك».

في «فن الحكم» تستدعي مارجريت تاتشر خبرتها السياسية لمجابهة تحديات الألفية الجديدة، فتتناول أسس الهيمنة الأمريكية ومستقبل الدور الأمريكي، كما تتناول الأدوار المستقبلية لكل من الصين والهند ودول الشرق الأقصى، كذلك تحذر من عواقب عدم الاستقرار في البلقان وتقدم استراتيجيات لمحاربة خطر الدول المارقة والتطرف الإسلامي والإرهاب الدولي.

"سينما"

المهنة كاتب سيناريو

سمير الجمل

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠١

يقدم المؤلف وجهة نظره في فن كتابة السيناريو ويرى أنها موهبة أساسًا قبل أن تكون علمًا، ويتضمن الكتاب مجموعة من الحوارات مع عدد من كتّاب السيناريو الذين أثروا الحياة الفنية بأعمال درامية مهمة.

■■■

دليل الأفلام في القرن العشرين

محمود قاسم

تقديم كمال الشيخ

القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠١

تضم هذه الموسوعة الأفلام السينمائية المصرية التي أنتجت منذ عام ١٩٢٣ وحتى عام ٢٠٠٠، حيث تم إنتاج ما يقرب من ٢٨١٣ فيلمًا. كما تتعرض الموسوعة لأحوال السينما العربية في الأردن والجزائر والمغرب العربي وغيرها.

■■■

دليل الفيلم الفلسطيني ١٩٣٥-٢٠٠٠

تيسير خلف

الدوحة: مهرجان الشاشة العربية المستقلة، ٢٠٠١

عن حال السينما الفلسطينية وأهم المشكلات التي تعانيها وتأثير الأزمات السياسية والحصار الاقتصادي على نموها، والحلول المقترحة لمواجهة مثل تلك الأزمات.

■■■

Experimental Cinema in the Digital Age

(السينما التجريبية في العصر الرقمي)

Malcolm le Grice

British Film Istitute, 2002, 484PP.

مجموعة من المقالات التي تتناول تأثير التكنولوجيا الحديثة على السينما وخاصة السينما التجريبية في العقود الثلاثة الماضية.

"شعر"

إمضاءات

شوقي عبدالأمير

عمان: بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

ديوان تحمل قصائده رؤى فلسفية عميقة تبحث في البدايات والنهايات ورحلة الوجود والعدم وما وراء الطبيعة. ويقدم المؤلف عبر قصائده تجربة لغوية تقرّب بين القارئ والنص وتكشف غموض الرمز.

■■■

دوائر الجحيم

خوستو خورفي

ترجمة: المهدي أخريف

المغرب: دار توبقال، ٢٠٠١

مجموعة شعرية أسبانية يلتقط فيها الشاعر لحظات من عمر الإنسان تكشف عن عمق المأساة الإنسانية، عبر توظيف هائل للرمز.

■■■

زهر الرمان

مريد البرغوثي

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٢

يعيدنا الشاعر بنصوصه تلك إلى أجواء الأرض التي ينبعث عبيرها عبر نصوصه اللافتة، والتي تهيم في عوالم الطفولة والصبا والشباب، فترسم هالات من الحزن وتتمسك بأهداب الأمل.

■■■

مانكان

ياسين عدنان

المغرب: دار النشر المغربية، ٢٠٠٢

تجربة شعرية خصبة تهتم بتفاصيل الحياة في المجتمع المغاربي وثقافته وحياته اليومية من خلال رؤية بالغة البساطة والشفافية.

"عسكرية"

Ambiguous Order: Military Forces in African States

(النظام الملتبس: القوات المسلحة في الدول الأفريقية)

Horbert M. Howe

Lynne Rienner, 2001, 327PP, $ 55.00

نظرة شاملة على القضايا الأمنية في أفريقيا، خاصة قضية الضعف العسكري وارتباطها بانتشار العنف الداخلي والعنف بين الدول المتجاورة وذلك في الفترة التي تلت الحرب الباردة.

يتناول المؤلف جذور ضعف القوات المسلحة في الدول الأفريقية خاصة بعد زوال حماية الدول العظمى، وفي ظل حكام قلقين على مواقعهم وبالتالي يفضلون جيشاً يقوده الولاء على حساب الكفاءة المهنية والعسكرية.

ثم يناقش المؤلف ثلاث دراسات حالة لوسائل العلاج التي قدمت من قبل لموازنة هذا الضعف وما تنطوي عليه من مشكلات: أولاً قوات حفظ السلام المتعددة الأطراف (مثل إكوموج)، وشركات الأمن الخاصة (مثل إجزكيوتيف أوتكامز) وأخيراً برامج إعادة التدريب الخارجية (مثل البرنامج الأمريكي آي.سي.آي.آر).

■■■

Rocket's Red Glare: Missile Defenses and the Furture of World Politics

(الدفاعات الصاروخية ومستقبل السياسة العالمية)

James Wirts & Jeffrey Larsen (editors)

Westview, 2001, 320PP., $27.50

مجموعة مقالات كتبها أكاديميون وسياسيون حول أنظمة الدفاع الصاروخي. يتضمن الكتاب دراسات عن البيئة السياسية والتكنولوجية للدفاع الصاروخي، والآراء السياسية المختلفة، والاتفاقات الدولية المتعلقة بهذه القضية.

"علوم"

The Miracle of Flight

(معجزة الطيران)

Stephen Dalton

Merrell, 2000, 184PP, £ 22.50

مقدمة مبسطة في علم الطيران موجهة للقارئ العادي، تتناول تطور الطيران لدى الكائنات الحية الطائرة من الطيور والحشرات، والكيفية التي تعمل بها الأجنحة.

ثم يناقش الكتاب تاريخ تكنولوجيا الطيران التي ابتدعها الإنسان منذ الرواد الأوائل الذين حلموا بالطيران إلى آخر التطورات التي لحقت بتكنولوجيا الطيران في العالم.

■■■

The Emperor's New Clothes Biological Theories of Race at the Millennium

(نظريات بيولوجية عن العنصرية)

Joseph L.Graves Jr.

Rutgers University Press, 2001, 253PP

يحاول عالم الأحياء النشوئية أن يثبت في هذا الكتاب أنه لا يوجد أساس بيولوجي للفصل العنصري بين البشر. وبالتالي فإن نظرية العنصرية ذات طبيعة أيديولوجية بحتة ولا يوجد دليل علمي على صحتها.

"فكر"

إشكالية العقل العربي بين الذات والآخر والآخر الجديد

ثابت مكاوي

بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠١

تتجاذب العقل العربي أفكار عديدة، يمينية ويسارية وماضوية وحداثية، والالتباس والتطاحن بين هذه الأفكار بما يعوق النشاط الفكري الصحيح، وتستنفد الطاقة في غير مجالها، وهو ما ينبه إليه المؤلف ويرسم سبلاً للتقدم الفكري والعطاء الحضاري على أوجهه الصحيحة.

■■■

في نقد الإسلام الوضعي

أيمن عبدالرسول

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١

ليست الجماعات الإسلامية كتلة صماء واحدة، بل هي وإن استندت إلى أصول واحدة، فإنها متنوعة ومختلفة أحيانًا إلى حد التضاد. المؤلف يتناول الأفكار السائدة داخل كل جماعة واختلافها عن الأخرى ودواعي هذا الاختلاف. ويسعى إلى إثبات زيف مواقف بعضها. ويقدم دراسة نقدية لعديد من الأفكار السائدة بينها.

■■■

كلمات سيئة السمعة

يحيى جابر

بيروت: رياض الريس، ٢٠٠١

مقالات ترصد الأوضاع المتردية في عالمنا العربي والتي امتد تأثيرها على أجيال من الشباب تردت بالتالي أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية مما أفقدهم الأمل وحال بينهم وبين بلوغ أهدافهم.

"فنون"

The Tastemakers: UK Art Now

(صانعو الأذواق: الفن في المملكة المتحدة الآن)

Rosie Millard

Thomas and Hudson, 2002, 256PP, £ 18.95

روزي ميللرد مؤلفة هذا الكتاب هي مراسلة الفن في محطة الـ«بي.بي.سي». وقد اشتهرت روزي ميللرد بفضل طريقتها الفريدة في نقل الأحداث الفنية وأصبحت لها شعبية كبيرة في بريطانيا حيث يرى البعض أنها أدخلت حيوية على مجال كان يبعث على الملل. في هذا الكتاب تقدم روزي ميللرد مشهد الحياة الفنية المعاصرة في بريطانيا من خلال الشخصيات الرئيسية العاملة فيه، والذين بفضل مواقعهم يتحكمون في الأذواق وفي الموضات الفنية وفي المعارض التي يتم الإنفاق عليها.

■■■

Wolfgang Tillmans: View From Above

(ولفجانج تلمانز: رؤية من أعلى)

Zdnex Felix, Rudolf Schmitz, Giorgio, Verzotti (editors)

Hantje Cants Publishers, 2002, 240PP.

حصل فنان التصوير الفوتوغرافي ولفجانج تلمانز على جائزة «ترنر» البريطانية عام ٢٠٠٠، وهي أرفع الجوائز التي تمنح للفنانين المعاصرين. هذا الكتاب يضم أشهر صوره التي عرف بها إلى جانب صور لم تنشر من قبل.

"مذكرات وسير"

الصدى

عبدالكريم الأشقر

حلب: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١

دراسة للبُعد التاريخي والثقافي الذي نشأت في إطاره واستمرت جامعة الإمارات،

وإلى ذلك يروى المؤلف من خلال مذكراته أيامه في الجامعة منذ ١٩٧٩ وحتى ١٩٨٣.

■■■

عبدالله خالد الحاتم، الصحفى والمؤرخ والباحث

خالد سالم محمد

الكويت: رابطة الأدباء الكويتيين، ٢٠٠١

دراسة تقويمية للدور الذى لعبه عبدالله خالد الحاتم كصحفي ومؤرخ وباحث كويتي، وقد كان أول رئيس تحرير لمجلة فكاهية تصدر فى الخليج وتتناول الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية باسلوب يتميز بالسخرية والتهكم.

■■■

Strangers in the House: Coming of Age in Occupied Palestine

(غرباء فى المنزل: الحياة فى فلسطين المحتلة)

Raja Shehadeh

Foreword by Anthony Lewis

Steer Forth. 2002, 256PP. $ 25

رؤية فلسطينية للصراع في الشرق الأوسط مقدمة للغرب في صورة مذكرات محام فلسطيني بارز هو راجا شحادة، الذى ولد فى عائلة فلسطينية كبيرة إبان تأسيس دولة إسرائيل عام ٤٨. وكان والده المحامى عزيز شحادة أول من نادى بالاعتراف بإسرائيل في الستينيات وتبنى حل سلمى يقيم الدولتين، مما أدى فى النهاية إلى اغتياله. وفي هذه المذكرات يروى شحادة عن تعليمه وعلاقته بأهله وحبه الأول وعمله في مجال حقوق الإنسان وأسفاره، وذلك فوق صورة خلفية من صراعه المستمر ضد الاحتلال الإسرائيلي، حيث يقدم العديد من المشاهد التي تبين العنف والإهانة والإذلال الذى يمارسه الإسرائيليون يوميًا ضد الفلسطينيين، والتي يوضح شحادة أنها تفسر مدى الغضب والإحباط الذى يعانى منه معظم الفلسطينيين.

"مدن"

مدينة برقة

عبدالله عبده

القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠١

برقة مدينة مصرية قديمة تعرف حاليا باسم «المرج» وهى الآن من ضواحي القاهرة، وقد اشتملت هذه المدينة على آثار فرعونية وإسلامية، وهذا غير معروف لدى عوام الناس بل ولدى كثير من المختصين.

■■■

Berlin: A Modern History

(برلين: تاريخ معاصر)

David Clay Large

Allen Lane, 2002, 706PP, £ 25

تاريخ مدينة برلين منذ عام ١٨٧٠ - عام توحيد ألمانيا - وحتى اليوم. يتناول المؤلف مظاهر التغير والاستمرار فى هذه المدينة سواء فى أسلوب إدارتها في الحقب المختلفة والشخصيات المالية المؤثرة فيها، وطبيعتها القاسية، والتى يرجعها البعض لما شهدته هذه المدينة من أزمات حصار وجوع وتضخم.

"نقد"

الدوائر والزوايا

مختار أبوغالي

الكويت: رابطة الأدباء الكويتيين، ٢٠٠١

دراسة تحليلية نقدية في شعر أحمد السقاف، موضوعاته وقضاياه وكيفية طرحها، وهو واحد من شعراء الكويت البارزين.

■■■

العطيلى

نبيل أبو حمد

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠١

يتوسل القاضي بالرمز فيلقى على لسان أبطاله ما يجسد مأساة وطن مسلوب الحرية فاقد للهوية، ومبرزًا طموحات الأفراد للانفلات من أسر هذا المصير المعتم والانطلاق نحو المستقبل.

■■■

جماليات المكان فى روايات جبرا إبراهيم جبرا

أسماء شاهين

عمان: دار الفارسي، ٢٠٠١

للمكان دور بارز حتى في روايات جبرا إبراهيم جبرا، وهو دور ينعكس على الشخوص وعلاقتهم بزمانهم وبالمكان الذى يعيشون فيه، وهى مسألة تكتسب أبعادًا جمالية وتاريخية في حالة جبرا على وجه الخصوص.

■■■

رواة وروائيون

ماهر البطوطي

عمان: دار الفارسي، ٢٠٠١

مرت الرواية عربيًا وعالميًا بتطورات مهمة تأثرت بالتيارات الفنية والمذاهب الفلسفية والجمالية التي سادت في كل مرحلة تاريخية من واقعية ورمزية ورومانسية وواقعية سحرية، وهذا الكتاب يتابع تلك التيارات ونماذجها ومنهم نجيب محفوظ وجيمس جويس وكافكا وماركيز وهيمنجواى وغيرهم وتأثير هؤلاء على الفن الروائى.

■■■

شعراء السبعينيات

شعبان يوسف

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

تمثل تجربة شعراء السبعينيات في مصر مرحلة مهمة في تطور الشعر العربي في مصر مثلته جماعتا إضاءة وأصوات، المؤلف يقدم تحليلاً نقديًا ومتابعة لمسيرة عديد من الرموز الشعرية لتلك المرحلة ومنهم رفعت سلام وحسن طلب وحلمى سالم وغيرهم.

■■■

كتب الحب عند العرب

أحمد الطويلي

بيروت: رياض الريس، ٢٠٠١

كتاب الحب عند العرب، أى ما كُتب عن الحب نثرًا وشعرًا يملأ صفحات تمتد بعمق التاريخ العربي منذ الجاهلية وحتى اليوم. المؤلف يحلل لغة المحبين وأفكارهم عن الحب وما قاله المفكرون والفلاسفة والفقهاء في الحب، منهم ابن قيم الجوزية وإخوان الصفا وغيرهم.

■■■

فى الأدب الهندى الحديث والمعاصر: الأم، النصيب وقصص أخرى

ترجمة: د. سمير عبدالحميد إبراهيم

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

يتضمن الكتاب قصصًا لثلاثة من أشهر الكتاب في الهند، ودراسة للمراحل التي مرت بها القصة الهندية والعوامل التي أثرت فيها اجتماعية وسياسية وغيرها، وارتباطها بمسار القصة في العالم.

■■■

لن تتكلم لغتى

عبدالفتاح كيليطو

بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠١

عن علاقة الثقافة العربية بلغتها في الماضى والحاضر ودورها في نهضة الحضارة العربية. إنه احتفاء باللغة على أكثر من صعيد بينها العلاقة بالآخر الثقافى والحضارى.

■■■

مسامرات نقدية

عبدالكريم الأشقر

حلب: دار القلم العربي، ٢٠٠٢

تعرف الحياة الأدبية العربية صالونات ومسامرات الأدباء التي تعقد أحيانًا بشكل دورى منتظم ومعلن، وأحيانًا بطريقة عفوية هدفها تبادل الرأى واستحضار الإبداع ومناقشته، والمؤلف يعرض الكثير من المسامرات والمحاورات التي كان طرفًا فيها مع عديد من المفكرين والأدباء والشعراء في بلاده.

■■■

مسرح صلاح عبدالصبور

أحمد مجاهد

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠١

تحليل نقدى لمسرح صلاح عبدالصبور والتيمات الأساسية التى دافع عنها وشكلته ومنها صراع المثقف مع السلطة ومفاهيم الحرية والعدالة والنضال ضد الاستعمار وغيرها، يتوصل المؤلف إلى هذه المعاني عبر تحليله لعدة أعمال من المسرح الشعرى لعبد الصبور ومنها: بعد أن يموت الملك ومأساة الحلاج وليلى والمجنون ومسافر ليل.

■■■

معرفة الليالي العربية

أمين الريحاني

تحقيق: جفرى ناشى

أمريكا: بلاتفورم انترناشيونال، ٢٠٠١

دراسة نقدية تحليلية لألف ليلة وليلة، عن أصل هذه الحكايات وبداياتها ونشأتها واللغات التى ترجمت لها، وتحتوى الدراسة على لوحات لبعض حكايات ألف ليلة وليلة.

■■■

ميخائيل باختين.. دراسات أخرى عن الرواية

زهير شليبة

الدنمارك: دار حوران، ٢٠٠١

دراسة عن باختين ودوره فى مسيرة الأدب الروسي، وإلى جانب هذه الدراسة عن سيرة باختين يقدم المؤلف رؤية منهجية تحليلية لتطور فن الرواية ودراسة للمستشرق الروسى بافل جرنيتشر الذى يتتبع تطور فن الرواية في الأدب العربي والعالمي كجنس أدبي مميز.

■■■

L'Excentricite Academique: Literature, Institution, Societe

(الغرابة الأكاديمية: الأدب والمؤسسة والمجتمع)

Helene Merlin-Kajman

Belle Letters, 2002, 276PP, 20 Euros

يتناول هذا الكتاب «الأكاديمية الفرنسية» ذلك الكيان الذي تأسس عام ١٦٣٥ ليضم نخبة الكتاب والأدباء الفرنسيين. وقد أنشئت الأكاديمية بأمر ملكى بهدف تدعيم اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي في المملكة الموحدة الجديدة في ذلك الوقت، ثم ظلت تحت رعاية البلاط حتى قيام الثورة.

تتساءل المؤلفة عن دور الأكاديمية اليوم، حيث ترى أن وضعها أصبح شرفيًا بالرغم من سلطتها في حسم النزاعات اللغوية. وكانت مكانة الأكاديمية قد بدأت في التضاؤل منذ القرن التاسع عشر مع نشوب الصراع بين الكلاسيكيين والرومانسيين وكذلك في القرن العشرين حيث اتسعت الفجوة بين التقليديين المحافظين ورواد التجديد. بل إن الأكاديمية هاجمت أدباء موهوبين مثل أميل زولا وبودلير لأسباب أخلاقية وليس لأسباب أدبية أو فنية. وفي الأجيال القليلة السابقة أصبحت هناك قامات أدبية ترفض أن تنضم إلى هذا الكيان مثل جون بول سارتر وآندريه جيد. أما اليوم فليس من «الموضة» أن يكون الأديب عضوًا في الأكاديمية الفرنسية، وخاصة إن الموضة الفكرية السائدة في باريس الآن هي الفوضوية ومعاداة القيم المؤسسية.

■■■

Postmodern Pooh

(«پو» ما بعد الحداثة)

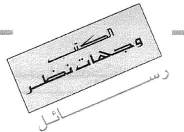
Frederick Crews

North Point, 2002,175PP, $22

كلمة «پو» التى تظهر فى عنوان هذا الكتاب تشير إلى اسم شخصية محببة فى قصص الأطفال الكلاسيكية، وقد استخدمها المؤلف فى مجال تحليله الساخر للحروب الثقافية التى ميزت الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين.

يرى المؤلف أن مدارس النقد الفكرى الحديثة تستخدم أساليب لغوية مراوغة لتشتيت القارئ عن ملاحظة مدى الفراغ فى حجج النقاد. يسخر المؤلف من نصوص لنقاد مثل جاك دريدا وهارولد بلوم وعلماء مثل رتشارد داوكنز.. وغيرهم.

■■■



المخ.. والدماغ

سعدت بمقال الصديق الدكتور نبيل على لما فيه من شجاعة الطرح وما يحتوى من رؤية أراها جميلة من حيث كونها تسعى لتجسيد وحدة المعرفة وتكامل المعارف.

وأرجو أن تتاح لى الفرصة أن أشاركم ما أثاره المقال من تأملات وأفكار سأحاول أن أوجزها فيما يلى:

فى نهاية المقال جملة هى «حقًا لقد آن أوان الفزع»!! مما أثار لدى قدرًا كبيرًا من الاندهاش أن يأتى من واحد من أهل المعلوماتية وتكنولوجيتها؛ لأن ما يفزع منه الكاتب بدا لى استخلاصًا من تيار فكرى آخر مضمر فى «بطن الشاعر».. لماذا؟ لأن كل ما جاء فى المقال كان استعراضًا للتقابل بين آلة الفكر وفكر الآلة، واستشرافًا لما يمكن أن يحدث من تلاقح بينهما يحسّن أداء كل منهما؛ والمسألة الجوهرية المضمرة هى أن نساوى بين إحدى وظائف العقل وبين مجمل وظائف العقل، الذى هو حال نشاط الجهاز البيولوجى المتفرد فى الإنسان وهو الدماغ.

يجوز لى هنا عشمًا فى الصديق وهو اللغوى المتحمس لضبط الترجمة أن أتحفظ على استخدامه لكلمة المخ.. وهو ليس أكثر من جزء من مكونات الدماغ Cortex Vs Brain صحيح أنه انتشر استخدامها كخطأ شائع ولكن من المهم أن نثابر على تصحيح الكلمات المترجمة أو مدلولاتها.

أوافق الدكتور نبيل أن الاندماج البيولوجى - المعلوماتى بات ضروريًا، ولكن ذلك ليس من أجل توفير عقل جديد لإنسان العصر لكى يواجه العالم الجديد.. لأن التقدم التكنولوجى الذى سيصل بالذكاء الصناعى إلى مرحلة الاستخدام اليومى كآلية جديدة تقوم بها آلات ذكية لن يؤدى إلى تغيير الدماغ نوعيًا؛ لأن ذلك السعى الحثيث الذى أثق فى وصوله إلى غاياته ليس أكثر من تحسين أو تطوير لأداء نصف المخ (وهو الفص السائد الأيسر فى معظم البشر) تاركًا الفص الأيمن وباقى أجزاء الدماغ دون تدخل أو تطوير.

لقد عظم الإنسان عبر تاريخه من حواسه التى ينتقل من خلالها الدخل أو المؤثرات البيئية - على مراحل - بدأت فى مجال العين من النظارات الطبية والتلسكوب ثم الميكروسكوب بأجياله المتعددة ليصل إلى الرادار والتصوير بالأشعة الحمراء والحرارة.. وقس على ذلك فى كل الحواس الخمس وامتداداتها «الآلية».

لكن الصخرة التى لايزال البشر يواجهونها فى ذلك المجال هى ما بعد حدوث التجربة الإحساسية من شعور وحوافز وإعطاء المعنى (الإدراك)، والعمليات التى تتم داخل النسق (الشبكات العصبية العنكبوتية) ثم المخرجات.

لذلك أرى أن موضوع الذكاء الصناعى منحاز بداية إلى دراسة آليات عمل نصف المخ السائد والخاص بعمليات تؤدى فى النهاية إلى كفاءة وسرعة اتخاذ القرار المناسب فى مواقف تتعدد فيها المتغيرات وتتشابك المكونات لحد الشواش.

وربما من المناسب هنا أن أذكر بأن الذكاء كقدرة فطرية اتضح فى العقدين الأخيرين أن درجته تزداد عندما يمتزج بالعواطف.. ومن ثم أصبحنا نتحدث عن الذكاء العاطفى والذكاء الاجتماعى بجانب الذكاء المدرسى والذكاء العملى.

إذًا.. أنبّه أصحاب أو أهل المعلوماتية والحاسوب أن نهتم بالدماغ ككل، وبالجزء الأحدث تطوريًا فيه وهو المخ بفصّيه إذا كان لنا أن نستشرف ما يفزع حين يصنع الإنسان آلة ذكية تغضب فتثور أو تحبط فتمارس العنف أو تفرح فتنتشى لأنها سعيدة مبسوطة.

إننى أرى أن التقدم فى مجال الذكاء الصناعى حين يصل إلى منتهاه سيكون إضافة عبقرية إلى ما يمتلك الإنسان - بالإضافة إلى تكوينه المتفرد - من أدوات تجعله أقدر على الاحتفاظ بالسيادة فى هذا الكون.

من عرض الدكتور نبيل للمداخل للذكاء الصناعى أود أن أشير إلى الخوارزميات المعروفة فى البرمجيات لاتخاذ القرارات، وهى أبسط العمليات العقلية ومعزولة عن سياقها المكافئ فى العقل البشرى؛ لما يتفرد به الدماغ من شبكة هائلة من الاتصالات بين الخلايا العصبية، فمن المعروف أن عملية الإدراك تتم على أرضية من الوعى.. وفى تلك الحالة نجد خاصية اسمها الإدراك الأولى Apperception التى تسمح للخبرة الإدراكية أن تسكن فى موضعها من النسق فى السياق العام.

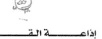
تلك القدرة هى التى تسمح لنا أن نقول إن الدماغ البشرى يمتاز بالمرونة والمطاوعة.. وهى كما يذكر الدكتور نبيل التحدى الأكبر أمام أهل التكنولوجيا المعلوماتية. وعند هذه النقطة من تعليقى أودّ أن أدلف إلى مسألة المنهج لدراسة نشاط الدماغ. لقد بدأت رحلة التفكير فى التفكير من خلال التأمل الذاتى Intro-spection، ثم أعطيت لبعض التأملات صدقيتها من خلال اتفاق عدد من الخبراء، ربما فى مراحل تاريخية متتالية، على نفس الرؤى ليتحقق قدر من الصدقية بالاتفاق Cousensual Validity. وظلّ الحال هكذا فى مجالى الفلسفة (نظرية المعرفة) وعلم النفس، إلى أن سيطرت اتجاهات التجريب والموضوعية مع سيادة المدرسة السلوكية فى علم النفس. لكن الحصاد من انتشار ذلك التيار السلوكى المتعارك فى نفس الوقت مع تيار التأمل الداخلى والدراسات الديناميكية كان بروز تيار جديد هو جماع التيارين مما يسمى علم النفس الإنسانى الذى وصل إلى مداه فيما يسمى علم نفس عبر الشخص Transpersonal Psych.

إن استقراء تاريخ الدراسات المختلفة لفهم الإنسان سواء فى خبراته الذاتية أو سلوكياته المرصودة والتى يمكن قياسها يشى بأن أى منهج لايجمع بين الذاتى والموضوعى لايقرّبنا من فهم آليات عمل الدماغ. صحيح أن عقد بحوث الدماغ فى التسعينيات أضاء كثيرًا من المناطق الغامضة على المستوى البيولوجى لكننى أودّ أن أؤكد هنا أن كل الفروض والاكتشافات البيولوجية تعطينا بيانات ومعلومات مبهرة لكنها متضاربة وغير نهائية.. ما أدى إلى كثير من اللا يقين.. الذى لا يسمح لنا منطقيًا أن نعتمد اللا يقين نفسه كنسق فكرى يتبناه العلماء لفهم الإنسان. لأن التعقد بسبب التشابك المهول الدرجة داخل أنسجة الدماغ ربما يكون هو المسئول عن استنتاجنا لهذه المقولة «اللا يقين».

وأودّ هنا أن أذكر أن كل الفكر الإنسانى فى النهاية والبداية هو مفاهيم وأطر اتبعها الإنسان ليفهم العالم ويتفهم نفسه، وليعطى معنى للوجود الذى حتمًا ينتهى بالموت على المستوى الفردى. بسبب ذلك الدافع الإنسانى المتفرد اكتشفنا اللغة والتفكير بمفردات اللغة وبالصور الذهنية، لكن ذلك لا يتساوى بالقطع مع حقيقة الأشياء فى ذاتها.. لأن الواقع مستقل عن ذواتنا، والحقيقة هى تصوراتنا ورؤانا لذلك الواقع، التى تتغير مع تغير وتطور أدواتنا للتعرف على الواقع رصدًا واختبارًا.. بل وإلى حد كبير تغييرًا بسبب أفعالنا وتدخلاتنا كبشر. لذلك آمل أن يمكننا الذكاء الصناعى من حصر أشمل للتعقيد فى الواقع وصولاً إلى تقليل درجة اللا يقين فى عقولنا.

لكننى أكرر مرة أخرى ضرورة اهتمام أهل الذكاء الصناعى بأن تشمل دراساتهم ومغامراتهم العلمية النبيلة كل الدماغ.. لكى تصل الإنسانية إلى آلة ذات ذكاء مختلف يمتاز بالسرعة نعم، ولكنه يماثل العقل البشرى فى الشمولية والإدماج.. وربما قدر من الدافعية الذاتية للآلة.. وربما درجة ما من الشعور والانفعال؛ ولا أجرؤ على الحلم بأن تكون لدينا آلة ذكية لديها خاصية ذاتية على الدهشة والاستكشاف كنسق System مغلق ومفتوح فى آن.

أ.د. أحمد شوقى العقباوى
أستاذ الطب النفسى - جامعة الأزهر



إذاعة القدس

من دواعى الاعتزاز، أن تتقدم أسرة إذاعة «القدس» الإذاعة العربية الفلسطينية على طريق تحرير الأرض والإنسان، إلى أسرة تحرير وإدارة مجلة «الكتب.. وجهات نظر»، بالتهنئة بالعام الجديد، وبالتبريكات لجهودكم فى توالى إصدار هذه المجلة، المفخرة للإعلام العربى.

إن إذاعة «القدس» التى انطلق بثها منذ العام ١٩٨٧، وشكلت بالتفاف الجماهير حولها، صوت الانتفاضة، واستمرت، صوت الذين لا صوت لهم، وعبرت عن المواقف القومية.

إذاعة «القدس» التى ترسل «مؤقتًا» من جنوب سوريا ويغطى إرسالها الأردن، فلسطين، وقسمًا من الوجه البحرى من مصر، لبنان، جنوب ووسط سوريا، العراق حتى واسط، السعودية حتى الطائف.. تستعد بإذن الله، لزيادة طاقتها خلال الأشهر الأولى من هذا العام.. بفضل دعم المستمعين الذين يدعمون استمرارها، واستقلالها، ويدافعون عن حرية الرأى والكلمة فيها.

إذاعة «القدس» التى مارس العدو الصهيونى، منذ انطلاقتها الأولى، ضدها حملة «تشويش» إذاعى ليمنع انتشار صوتها، ثم لجأ إلى أساليب أخرى فى محاولة منه لإيقاف بثها.. ثم حاول سرقة موجاتها العاملة:

- موجة متوسطة ٧٠٢ وهى بقوة (٢٠٠) كيلو واط.
- موجة متوسطة ٦٣٠ وهى بقوة (٥٠) كيلو واط.
- موجة إف. إم ٩٦,٧ .
- موجة إف. إم ١٠٥,٤ وكل منها بقوة ١٠ كيلو واط.
- موجة قصيرة ٩٠١١ و١١٠٥ (كل منها بقوة ٢٠ كيلو واط).

متوقفة حاليًا للافتقار إلى قطع الغيار.

إذاعة «القدس» تستعد الآن لانطلاقة أقوى، فى طاقتها التقنية وبرامجها، ونغتنم هذه المناسبة.. لنتقدم إليكم، بأمنية الحصول على موافقتكم الكريمة بالسماح والموافقة على إذاعة بعض مواد مجلتكم، شهريًا عبر أثيرها، تعميمًا للفائدة ونشرًا لمادة سياسية، فكرية، ثقافية راقية على أوسع مدى يصل إليه إرسال إذاعة «القدس». شاكرين لكم تعاونكم.

المشرف العام
فضل شرورو
دمشق

المجلة ترحب بإذاعة المواد التى تنشرها من خلال إذاعة القدس وتتمنى لهذه الإذاعة النجاح والتغلب على الصعاب التى تواجهها لإيصال صوت فلسطين إلى العالم.

المحرر



مجلة مختلفة.. كيف؟

أرجو ألا يزعجكم خطابى هذا، فأنا ومجموعة من أصدقائى ننتمى إلى الجيل الذى تسمونه بالجديد. هذا الجيل الذى خرج فلم يجد للأسف صحافة مصرية تحترم عقله. ويمكن مقارنتها بالصحافة العالمية المحترمة التى تعنى بالدقة والموضوعية والمعلومة وإضافة الجديد. وكان طبيعيًا أن يجذبنا إلى مجلتكم فى البداية تميزها بكتابات الصحفى العالمى القدير محمد حسنين هيكل ووعدها لنا بأنها (مجلة مختلفة لقارئ مختلف) ولكننا - للأسف - كثيرًا ما لا نجد هذا الاختلاف، بل



على العكس نكتشف بعد شراء المجلة ودفع عشرة جنيهات كاملة أنها تكاد لا تختلف عن مجلات تقليدية مثل الهلال بعد أن ضاعت معظم صفحاتها في تقليب صفحات التاريخ والاحتفال بمناسبات موسمية دون أن نرى معلومة أو استنتاجًا جديدًا، إذ لم يخرج مثلاً موضوع حريق القاهرة بنظرية مختلفة أو استنتاج جديد عن الجهة المسئولة عنه كما لم يأت الحديث عن السيدة زينب بأكثر من تكرار لما قاله وكتبه الشيعة ألف مرة على مدى عشرة قرون وكذلك أمر إحياء ذكرى الكواكبي المئوية.

ففي الأعداد الأخيرة مثلاً لا أذكر أن هناك ما جذبنا للقراءة والنقاش ووجدنا فيه الاهتمام بالمعلومة الجديدة والأسلوب الذي جربناه في الصحافة العالمية غير مقالات الأستاذ هيكل طبعًا والافتتاحية التي يكتبها هو أيضًا بلا توقيع، ومقال الكاريكاتير الطريف الذي يبدو أن إعداده استغرق جهدًا كبيرًا وموضوع الإنترنت المسيس المدروس جيدًا والحافل بالأرقام والمعلومات والذي ينبه للمرة الأولى إلى امبريالية الإنترنت، وتحقيقات فهمي هويدي الميدانية والمراغي الاقتصادية.

فضلاً عن إطلالة رئيس التحرير في الصفحة الأخيرة والتي نضمن مقدمًا أن نجد فيها رأيًا في قضية جديدة مثارة غير متحفية.

أرجو ألا يكون خطابي هذا مزعجًا. ولكني أردت أن أعرفكم أن هناك في هذا الجيل من يقرأ هذه المجلة ويريد أن يستمر في قراءتها شهريًا فأرجوكم ألا تكتفوا بأن كبار السن حريصون عليها. فأنا أعلم مثلاً أن جزءًا كبيرًا من حرص والدي على قراءتها يعود إلى شعور طبيعي بالحنين إلى الماضي الذي تعود فيه على قراءة هذا الكاتب العبقري كما يسميه محمد حسنين هيكل.

أما نحن فنريد أن نواظب على قراءتها لأسباب أخرى غير مجرد الحنين.

وبالمناسبة لم أرسل رسالتي تلك بالبريد الإلكتروني بعد أن نبهني أصدقائي إلى عدم وجود موقع لكم على الإنترنت مما يعني أنكم ربما لا تحرصون أيضًا على مراجعة بريدكم الإلكتروني.

د. حسن الببلاوي
hbeblawi@yahoo.com

شكرًا لك.. واسمح لنا بمناسبة رسالتك أن نؤكد على ثلاث نقاط:

١. نحن في هذه المجلة نرحب بكل نقد، بل ونلح في طلبه، وهذه الصفحة نادرًا ما تخلو من انتقادات لقراء نشكر لهم حرصهم واهتمامهم بالمشاركة في توغ مطبوعتهم.

٢. الأستاذ هيكل لا يكتب افتتاحية المجلة، كما أنه لا يكتب بلا توقيع. الذي يكتب الافتتاحية منذ مارس ٢٠٠٠ هو الأستاذ أيمن الصياد مدير التحرير، وهو بالمناسبة صاحب موضوع «الإنترنت.. في الزمن الأمريكي» الذي أشرت إليه.

٣. اطمئن نراجع البريد الإلكتروني بانتظام.

المحرر

صلاح عبد الصبور

سعدتُ عندما وجدت أنكم استعنتم بقصائد الشاعر صلاح عبد الصبور لملء الزوايا في العدد الأخير من مجلة «وجهات نظر». ولكن يبدو أن من قام بهذه المهمة كان في عجلة من أمره فلم يلاحظ أن القصيدة التي نشرت تحت عنوان «الفارس القديم» هي قصيدة غزل ولا علاقة لها بالقصيدة الحقيقية التي منحت الديوان اسمه، كذلك وجدت قصيدة أخرى بعنوان «ثلاث صور من غزة» مع أن المنشور فعلاً يتعلق بصورة واحدة من هذه الصور الثلاث.

د. عبد العظيم أنيس

نبحث عن.. «وجهات نظر»

قرأت كثيرًا عن صدور مجلة «الكتب.. وجهات نظر»، وعرفت أن الأوساط الثقافية استقبلتها استقبالاً طيبًا.

وقد حاولت غير مرة الكتابة إليكم لأهنئكم بصدور المجلة، لكني لم أستطع لأن المجلة لا توزع في أسواق المملكة كما فهمت من الباعة وشركات التوزيع! كما أن المجلة لا تصل إلى المكتبات الوطنية ولا إلى الأندية! وقد تفضل أحد الأصدقاء وأحضر لي منذ عامين أحد أعداد المجلة على سبيل الإعارة والاطلاع على مواد المجلة.. وقد أعجبت كثيرًا بإخراجها وأناقة طباعتها وحسن اختيار موضوعاتها واهتمامها بعروض الكتب والدراسات النقدية.

وفي الختام أرجو لمجلتنا العزيزة «الكتب وجهات نظر» اطّراد التقدم والازدهار.

سعد بن عايض العتيبي
الرياض ـ المملكة العربية السعودية




مستقبل المجلات الثقافية العربية

■ في عصر تسود فيه ثقافة ما بعد النص المكتوب، حيث تصبح الصورة هي العنصر الغالب في مجتمعات تقترب فيها النصوص المكتوبة من التليفزيون، تتوارى المجلات والصحف إلى الخلف، وتتعرض الكتب والمطبوعات الثقافية لخطر المزاحمة والتراجع، أو الإهمال والمصادرة في بلاد مثل بلادنا.. ومع ذلك فقد نجد كثيرًا من المثقفين مازالوا يجلسون على أرصفة الحياة الفكرية، يطالبون الدولة بأن تقدم لهم من العون ما يمكنهم من تأسيس مجلة مركزية فكرية ثقافية جامعة.

وإذا كانت الظروف العالمية والتطورات الاقتصادية والسياسية قد أجبرت الدولة بمعناها الحديث على تغيير مساراتها منذ الستينيات، لتتخلى عن التزامها المبدئي بإنتاج الثقافة وتوليد الفكر، تاركة هذه المهمة للمثقفين أنفسهم، فإن كثيرًا من المثقفين في المجتمعات العربية مازال يرى أن الثقافة التي تصنع خارج نطاق سيطرة الدولة وبعيدًا عن إشراف السلطة، محكوم عليها بالفشل والنقصان. ومازال لدينا هذا المفهوم الشمولي للثقافة التي لابد أن تكون جامعة مانعة.. جامعة لكل التيارات، ومانعة لكل ما يهدد بالخلاف مع الفكر السائد الذي تحتضنه الدولة، حتى وإن كان على حساب حرية التفكير والإبداع. مازال المثقفون في بلادي يبحثون عن الدعم المادي والمعنوي، يأتيهم ممن يديرون شئون الثقافة، دون أن يتبادر إلى أذهانهم أنه في اللحظة التي يفقد فيها المثقف مبادراته الخاصة، يصبح عالة على من يقدم له الدعم، منصاعًا لرؤية الموظف الجالس على مكتبه في وزارة الثقافة ومجالسها وإداراتها، خادمًا مطيعًا للمثقف الحكومي الذي يتلقى التعليمات والتوجيهات من بيروقراطية لها أجندتها وأولوياتها السياسية والأمنية، الداخلية والخارجية. ومن ثم فليس غريبًا أن يشكو البعض من البؤس الساجي على الحياة الثقافية في مصر والوطن العربي، حيث لا تختلف الأوضاع هنا عن هناك.

لم يزل في مصر والوطن العربي كثيرون، ونحن في القرن الواحد والعشرين، عاجزين عن التفرقة بين دور الدولة في رعاية الثقافة، ودورها في إنتاج الثقافة.. رعاية الدولة للثقافة شيء، وإنتاجها شيء آخر. فالحكومات في الدول الحديثة من شأنها أن تهيئ للمواطن أيسر السبل الكفيلة بالوصول إلى منابع الثقافة بأشكالها ومستوياتها المختلفة. وأن تزيل العقبات التي تعترض طريقها. ولكن ليس من شأنها أن تفرض نوعًا من الثقافة تؤثره وترضى عنه، أو تمنع أنواعًا أخرى تضيق بها وتسخط عليها. ومن ثم يبقى من شأن المثقفين أنفسهم أن يعثروا على أفضل السبل لإنشاء وإصدار مطبوعاتهم، حفاظًا على استقلاليتهم وتأكيدًا لحريتهم.



محو الأمية، نشر التعليم، بناء المتاحف، إنقاذ الآثار، الحفاظ على التراث الثقافي والشعبي، تشجيع المبادرات التي تهيئ سبل الوصول بالثقافة إلى الفئات المحرومة والمناطق النائية، إنشاء المكتبات العامة في المدن والأقاليم، ضمان توزيع العائد الثقافي بالعدل بين المدينة والريف، وبين المجتمعات الحضرية والمجتمعات الريفية.. وغير ذلك من الأساليب المستحدثة لنشر الثقافة هي مسئولية الدولة. أما دخول الدولة كمنتج في حقل الثقافة، أي كناشر للكتب والمجلات والصحف، أو كمنتج للأفلام والمسرحيات ومالك ومدير لدور السينما والمسارح، فهذا ما أدى إلى تدهور كثير من أنشطة الإنتاج الثقافي، وظهور طبقة من المنتفعين بما تنفقه الدولة من ميزانيات ضخمة على طبع ونشر كتب وسلاسل تافهة القيمة، مجاملة للبعض من ذوي النفوذ في الحياة العامة، وإلى إنتاج مسرحيات لا ترقى إلى ما كان ينبغي أن يقدمه مسرح تملكه الدولة كالمسرح القومي، إلا فيما ندر.

وقد أثبتت تجربة الستينيات والسبعينيات في مصر حين ألقت الدولة بثقلها وراء كل صغيرة وكبيرة في الأنشطة الثقافية، سواء بتمويل هذه الأنشطة أو بدعمها ماديًا ومعنويًا وتوزيعيًا، أنها لم تفرز غير عدد قليل من ذوي المواهب المحدودة. ومعظم المواهب الحقيقية التي لمعت في تلك الفترة نشأت خارج نطاق السيطرة العامة للدولة، وإن استفادت بالإمكانيات المتاحة أمامها. ومع ذلك فإن الأجهزة الثقافية لم تتعلم شيئًا من التجارب السابقة. وباستثناء ما أنفقته أجهزة الثقافة من إعادة طبع ونشر عدد لا بأس به من روائع الكتب والمؤلفات القديمة لأدباء ومؤلفين عظام والتي أشبعت وملأت حياتنا الثقافية طوال نصف قرن أو يزيد، فإن معظم الأعمال الثقافية التي قامت الأجهزة الرسمية حديثًا بإصدارها لا تكاد ترتقي إلى شيء من الأعمال التي أعيد طبعها ونشرها.

وقد كان من نتيجة تصدي أجهزة الثقافة الحكومية لنشر أعمال أدبية وثقافية، أن نشبت أزمة الروايات الخاصة بوليمة أعشاب البحر وما أعقبها من أزمات مشابهة لنشر روايات ضحلة المستوى بالغة الإثارة. ولم تنجح أجهزة الثقافة في حل التناقض الذي تسبب في حدوث الأزمة، بين مسئولية الدولة كناشر يتحتم عليه مراعاة عدد من الضوابط الأدبية والأخلاقية، ومسئوليتها في حماية حرية الإبداع وتشجيع المواهب الناشئة. وهو ما حدا بنا إلى المطالبة حينذاك بأن ترفع أجهزة الدولة يدها عن الدخول كمنافس في الإنتاج الثقافي، وأن يقتصر دورها على التشجيع والدعم غير المباشرين. وهو ما يمكن أن يتحقق في صورة الجوائز الأدبية، أو تحمل جانب من نفقات الطبع والتوزيع والنشر للمواهب الواعدة أو الصاعدة.



ولابد أن نعترف بأن المجلات الثقافية تواجه مستقبلاً غير مأمون في المجتمع العربي، وأن اقتصار المجلة على لون واحد من فنون الفكر والثقافة كأن تكون مجلة أدبية فقط؛ تقتصر على الأدب والنقد أو على الشعر أو القصة أو المسرح، أو تكون مجلة فكرية تقتصر على الدراسات الفلسفية والمقاربات الفكرية، أو مجلة سياسية تهتم فقط بالمقالات السياسية والدراسات الاقتصادية أو مجلة للفنون بأنواعها المختلفة، تظل في الأعم الأغلب مقصورة على طائفة محدودة من أهل الاختصاص. وتفقد بذلك قيمتها التثقيفية في الوصول إلى قارئ عام ذي توجهات واهتمامات متنوعة. ويغلب هذا الاتجاه في الوقت الحاضر على كثير من المجلات ذات اللون الواحد في عالمنا العربي. كما يغلب عليها أن تبحث عن مصادر تمويلها من إدارات الثقافة والهيئات الرسمية، فتصبح رهنًا بما تحصل عليه من دعم حكومي وليس بما تحصل عليه من دعم القارئ وتشجيعه.

على أن أخطر ما يواجه المجلات الثقافية في عالمنا العربي، هو تلك التحولات السريعة المتتابعة التي فجرتها ثورة الإعلام والنشر والتي أدت إلى نشوب منافسة حامية بين النص المكتوب والصور المرئية. وبين المجلات والصحف من ناحية والإنترنت والتليفزيون من ناحية أخرى. وقد انتشرت ظاهرة تبادل المعلومات والبيانات والمقالات بين الإنترنت والمجلات والصحف. وطبقًا لبعض التقديرات فإنه يجري تبادل أكثر من ٤ مليارات صفحة على الإنترنت بكل لغات العالم.

ولكن أحداث ١١ سبتمبر أثرت فيما أثرت على تلك الظاهرة من ناحيتين. الناحية الأولى: هي إقدام السلطات في الولايات المتحدة الأمريكية على إزالة طائفة كبيرة من المقالات وقواعد البيانات والملفات من على مواقع الإنترنت لأسباب أمنية. الأمر الذي قلل من درجة الحرية والانطلاق التي كان يتمتع بها مستخدمو الإنترنت. مما أغرى الكثيرين بالعودة إلى النص المكتوب، أي إلى المجلات ذات الدراسات الجادة والأبحاث المعمقة.

والناحية الثانية: هي ما اكتشفه الكثيرون بعد أحداث سبتمبر من أن رسائل الإعلام السريعة الساخنة التي يحملها التليفزيون لم تكن كافية لإشباع حاجة الناس إلى المعرفة. ومن ثم لجأوا إلى الإنترنت أولاً ثم إلى المجلات العامة أو إلى مجلات ذات طبيعة إنترنتية، بحثًا عن الإجابة على أسئلة ملحة فجرتها موجات إعلامية مكثفة عن الإسلام وبن لادن والقاعدة وطالبان، ولماذا الكراهية؟ وضد مَنْ، إذا كانت هناك كراهية؟ ومن هو العدو؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي شغلت عقول الكثيرين في المجتمعات الغربية وأعادت طرح كثير من الشكوك والتساؤلات، ودفعت الناس إلى الإقبال على شراء الكتب والمجلات.

ومن هنا فإن المجلات الحديثة في الغرب والمجتمعات المتقدمة التي تعيش في ظل ثورة المعلومات وهي في أوجها، لا تنافس عالم ما بعد النص المكتوب، بل تحاول تجاوزه وإقناع المستهلك أنه مازال بحاجة إليها كمصدر للمعرفة والثقافة، إلى جانب الإنترنت والتليفزيون، مستفيدة في ذلك من تعدد وسهولة الولوج إلى مصادر المعرفة بدرجة معقولة من التكامل فيما بينها.

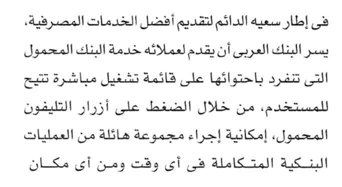
التحدي الحقيقي بالنسبة لمجلاتنا الثقافية، ليس فقط في ضمان أكبر هامش من الحرية والاستقلالية وعدم التبعية، بل في مواجهة تحولات المستقبل وما تحمله ثورة المعلومات والنشر من مفاجآت!

سلامة أحمد سلامة

Mobile Banking

البنك العربي
ARAB BANK

بنك فى متناول يديك على مدار اليوم



Balance Inquiry
Transfer Money
Mini Statement

- الإستفسار عن أرصدة حساباتك .
- طلب كشف حساب .
- الإبلاغ عن فقدان البطاقات الإئتمانية .
- الإبلاغ عن فقدان بطاقة الصراف الآلى .
- إجراء التحويلات بين حساباتك .
- الإستفسار عن آخر المعاملات التى تمت على الحساب .
- إعلامك لحظياً أينما كنت بالمعاملات التى تنفذ على حسابك .
- إصدار أوامرك للبنك لوقف صرف الشيكات المفقودة .

Checkmate Adv.

تمتع بمجانية الإشتراك بهذه الخدمة
من الآن ولمدة ستة أشهر

vodafone

لمزيد من المعلومات برجاء الإتصال بتليفون ٨٨٨ ٩٤ ٣٠
أو برقم ٨٨٨ من أى محمول ڤودافون

البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد التاسع والثلاثون . السنة الرابعة . أبريل ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 39 - April 2002

محمد
حسنين
هيكل

ثورة يوليو / خمسون عاماً

٤ فبراير ١٩٤٢
المسرح الخلفى لثورة يوليو

الانقلاب العسكرى الأول فى السياسة المصرية !

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد التاسع والثلاثون
أبريل ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- إيان بوروما .. باحث أمريكى.
- بروس إكرمان .. كاتب فى مجلة لندن ريفيو أوف بوكس.
- حسام الدين زكريا .. باحث فى العلوم اللغوية والموسيقا.
- زينب الميلى.. صحفية جزائرية.
- ستيفن واينبرج .. أستاذ فى جامعة تكساس.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- صنع الله إبراهيم .. روائى.
- عفاف عبد المعطى .. باحثة فى الأدب العربى.
- محمد أبو الغار .. أستاذ طب القاهرة.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد يوسف عدس .. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- وديع فلسطين .. صحفى عضو مجمعى اللغة العربية فى سوريا والأردن.

رسوم العدد للفنانين:
محمد حجى ـ محمد حاكم ـ سعد الدين شحاتة



المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١،٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهماً ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالاً ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

خلفيـــة موضــــوع!

لقد ظننت أننى أستطيع استعارة هذه الصفحة من رئيس تحرير هذه المجلة، وهو المسئول ـ بالأساس ـ عنها، ومن مدير تحريرها، وهى صفحته يعرض فيها لخلفيات يراها لازمة لتقديم مواد كل عدد ـ كل شهر.

وهدفى من استعارة الصفحة قريب مما هو مطلوب منها، ولكنه فى هذه الحالة تقديم لخلفية موضوع واحد أكتب فيه اليوم عن ثورة ٢٣ يوليو فى مناسبة ذكرى خمسين سنة على مرورها ـ وقد خطر ببالى أننى أستطيع المشاركة فى محاولة للإجابة على مجموعة من الأسئلة أراها ـ ويراها غيرى ـ ضرورية وأساسية للمحافظة على السلامة النفسية للأمة وعلى ضميرها، وحقها فى فهم ما جرى ويجرى، وذلك أمر مطلوب وحيوى للغد وما بعده، وهذا الغد وما بعده ـ وليس بقايا الماضى ـ هو الداعى الأهم والأنفع.

وبين الأسئلة:

ـ هل كانت الثورة فى مصر سنة ١٩٥٢ حتمية، أو ضرورية ؟

ـ ومن هو جمال عبد الناصر ـ الرجل فيه قبل الرئيس أو الزعيم أو الأسطورة ـ وهو أهم شخصية عربية فى القرن العشرين ـ حتى إن وقع الاختلاف على تقييم دوره بين مؤيد ومعارض، محب وكاره؟

ـ وما الذى صنعته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وما الذى عجزت عنه، وما الذى بقى منها ـ أو ضاع ـ بعد نصف قرن، وعلى مداخل قرن جديد؟

وربما طرأت على مسار هذا الحديث أسئلة أخرى تتفرع منه أو تظهر مع سياقه.

وعندما خطر لى أننى أستطيع المشاركة فى حديث أو حوار عن ذلك كله، فقد كانت فى ذهنى خلفيات ـ هى فى نفس الوقت مقدمات:

ـ بينها أننى عشت تجربة مباشرة مع الحياة السياسية المصرية، وقد أخذتنى هذه التجربة إلى دخائلها منذ عملت ما بين ١٩٤٦ حتى سنة ١٩٥١ مراسلا مسئولا عن الشرق الأوسط بأوسع خرائطه، من «أثينا» إلى «أديس أبابا»، ومن «دلهى» إلى «الدار البيضاء».



وأثناء هذه التجربة وبعدها وفى أجواء حرب ـ (وخصوصا فيما يتصل بشئون العالم العربى وبالذات حرب فلسطين ١٩٤٨)، فقد وجدت نفسى فى صميم اهتمامات السياسة المصرية طالبا ومطلوبا فى آن واحد.

ـ وبينها أن تلك الأجواء والظروف أتاحت لى فرصا نادرة منها علاقة صداقة عميقة سادها حوار حميم مع «جمال عبد الناصر» وهو حوار لم ينقطع من يوليو ١٩٥٢، حين ظهر على الساحة حتى سبتمبر ١٩٧٠ حين غاب عنها. وتلت ذلك علاقة وثيقة ـ علاقة حوار أيضا ـ مع خلفه «أنور السادات»، ومع أن الحوار لم يعد حميما بعد سنة ١٩٧٤ كما كان قبل أن نختلف حول فك الارتباط الأول بين مصر وإسرائيل ـ فإنه ظل حوارا متواصلا وإن تباعد أطرافه واختلفت لهجته حتى غاب «أنور السادات» هو الآخر فى أكتوبر ١٩٨١.

ـ وبينها أننى بعد «جمال عبد الناصر» و«أنور السادات» ـ ظللت مهتما بما يجرى فى مصر وحولها قريبا ـ وواسعا، مع أنى حرصت على الابتعاد مسافة تكفل أن أتابع ـ وليس أكثر ـ باعتقاد أنه ليس أسوأ من رجل يهتم بالشأن العام ـ يرضى أن يكون «رجلا لكل العصور»!

ـ ومن الظاهر فى كل الأحوال أن طبيعة المرحلة السياسية فى بلدان العالم الثالث التى قامت (على امتداد القرن العشرين) تطالب بالخروج من السيطرة الاستعمارية، وتتطلع إلى مستقبلها فى عالم يتغير بسرعة ـ مرحلة لا تسمح ـ إلا بمقدار ـ لصحفى وطنى أن يكون محايدا (هذا إذا كان الحياد أو أى درجة منه ممكنا فى كل الأحوال، ولعل أقصى الممكن فى مجال استقلال الصحفى أن يكون انحيازه لمستقبل، ولرؤية، ولمشروع، ولفكرة، وبالتالى لا يكون انحيازه لرجل أو أسرة أو قبيلة أو سلطة حكم) ـ وذلك ما حاولته قبل سنة ١٩٥٢ وبعدها ـ وحتى الآن، شاهدا على القرار وهو يُصنع وسط النار أو مراقبا له من مسافة تسمح برؤية «الوهج» بعيدا عن لهب الحريق!



وخلال ذلك كله كثرت وتراكمت ملفاتى، وظننت أن مجموعة أوراقى الخاصة قبل الثورة وأثناءها وبعدها، فيها ما يكفينى من المراجع والأسانيد ـ لكن الطموح إلى استكمال الصورة، دعانى إلى الأفق الأرحب، وكذلك أضفت إلى مجموعة أوراقى الخاصة ـ كثيرا من الوثائق والشهادات، والمصادر المفتوحة والمغلقة حتى الآن ـ بما يجعلنى أكتب ما أكتب بنوع من الاطمئنان أرضى معه بسلامة القول ومسئوليته.

والحاصل أننى حين جلست لأكتب هذا الحديث فى مناسبة مرور خمسين سنة على ثورة ٢٣ يوليو ـ قضيت أكثر من سنة مخصصا نصف وقتى، وشهورا أخيرة مخصصا كل الوقت ـ راغبا أن أضع نفسى فى وضع الاستعداد لقراءة التاريخ وهكذا:

١ ـ راجعت مجموعة أوراقى الخاصة ـ تلالا من الملفات ـ فيها ما سجلته بخط يدى وفيها ما هو بخط غيرى، وضمنهم «محمد نجيب» و«جمال عبد الناصر» و«أنور السادات».

٢ ـ راجعت مذكرات وتسجيلات عن عشرات المقابلات مع عدد من رؤساء الوزارة فى مصر قبل الثورة، وفيهم «على ماهر» و«نجيب الهلالى» و«حسين سرى» و«محمود فهمى النقراشى»، إلى جانب عدد من الساسة بينهم «محمد حسين هيكل» و«على الشمسى» و«مكرم عبيد» و«فؤاد سراج الدين» و«محمد صلاح الدين» و«عبد الرزاق السنهورى» و«سليمان حافظ» و«أحمد عبود» و«محمد أحمد فرغلى»، وبعض من أتاحت لى الظروف لقاءهم من أفراد من الأسرة المالكة السابقة وبينهم الملكة «نازلى» والدة «فاروق»، والملكة «فريدة» أول زوجة له، واثنان من أخواته هما «فايزة» و«فتحية»، و«النبيل» «عباس حليم»، ثم بعض الظاهرين من حاشية الملك وفيهم «كريم ثابت» والدكتور «يوسف رشاد» وقرينته «ناهد رشاد».

وبالنسبة لفؤاد سراج الدين فقد رجعت إلى وقائع مقابلات مستفيضة معه جرى بعضها فى بيت كريمته السيدة «نائلة سراج الدين» مع صور أوراق بخط يده فيها خطابات كتبها لجمال عبد الناصر.

٣ ـ وكذلك عدت مرة أخرى لحوار مطول ـ أكثر من ثلاثين ساعة ـ مع «حسن يوسف» (باشا)، وهو رجل قضى مدة خدمته العامة فى القصر منذ كان مستشارا منتدبا من وزارة الخارجية حتى أصبح رئيسا للديوان الملكى، وكان الرجل على قناعة كاملة (لم يشاركه فيها كثيرون) بأن القصر قابل للإصلاح من داخله، بحيث يتحول إلى مرجعية شرعية تؤدى دورها الدستورى وتلتزم به.

وكان الرجل على درجة عالية من النزاهة، ولعله الوحيد الذى خرج من خدمة «السراى» (كما كانت تسمى وقتها) ـ لا يملك غير معاشه يعتمد عليه هو وقرينته السيدة «سعدية» ـ وبنوع من الاكتفاء المترفع والصارم، (ولم يكن لهما أولاد).

وقد أضيف فى الشهادة بنزاهة الرجل، أننى عندما عرضت عليه الانضمام إلى مركز الدراسات التاريخية بالأهرام سنة ١٩٥٩ ـ سألنى بوضوح وكنا نتمشى فى نادى الجزيرة «هل تعرض علىّ عملا حقيقيا، أم أنك تقصد مساعدتى»؟

وكان السؤال مفاجئا ـ لكنه كان صدى «ضمير حى». وقلت للرجل «إننى أتحدث عن عمل حقيقى لدىّ بشأنه تصور»:

أضفت أنه مع اهتمامى بتاريخ مصر الحديث كله ـ فالمركز الجديد فى الأهرام لا يستطيع أن يتحمل منه إلا بمقدار، وذلك معناه التركيز على الفترة ما بين سنة ١٩١٩ وثورة سنة ١٩٥٢، فتلك هى المرحلة التى انتهى إليها ما قبلها ـ من زمن «محمد على» ـ ومشى منها ما بعدها (حتى سقوط الملكية فى مصر)، وبالتالى فإن هذه الفترة من تاريخ مصر الحديث هى المساحة التى تستحق الأولوية ـ من وجهة نظر مركز تنشئه دار صحفية، لأن علاقة هذه الفترة بالسياسة الجارية علاقة امتداد منطقى وطبيعى.



يلى ذلك ظنى بأن الحياة السياسية فى تلك الفترة جرت على مستويين بالتوازى وبالتفاعل فى نفس الوقت: مستوى رسمى أو شبه رسمى دار فى مواقع السلطة، ومستوى شعبى جرى فى الشارع السياسى، وجرى بعضه تحت الأرض وبالعنف أحيانا، وكلا المستويين على علاقة جدلية ببعضهما.

وكذلك فقد تصورت أن يكون العمل فى مركز الدراسات التاريخية مسئولية موزعة بين رجلين: «حسن يوسف» (باشا) مسئولا عن التأريخ للجانب الرسمى أو شبه الرسمى ـ تساعده تجربته فى القصر. والدكتور «محمد أنيس» (أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة القاهرة) مسئولا عن التأريخ للجانب الشعبى ما هو ظاهر منه وما هو خفى.

[أضفت أن متابعة وتوثيق ما وقع وتدفق ـ ومازال ـ بعد الثورة مسألة أخرى تحتاج إلى تصور مختلف.] واستمع إلىّ «حسن يوسف» (باشا) واتفقنا على موعد جاء فيه إلى مكتبى ومعه سؤال جديد: «هل يمكن أن يكون عرضى عليه رغبة فى الحصول على معلومات أو أسرار يحتفظ بها ويمكن استعمالها ضد عهد سقط؟»

وطمأنته أن ذلك ليس فى خواطرى (وفصّلت أمامه وجهة نظرى).

وبدأ الرجل عمله وأدى فيه جهدا يستحق الاحترام.

ومرت سنوات، وتدفقت أحداث وكان سنة ١٩٧٤ أننى تركت موقعى فى الأهرام بعد الخلاف مع الرئيس «السادات». ولم ينقطع «حسن يوسف» (باشا) عن التردد زائرا على المكتب الذى واصلت عملى منه بعيدا عن الأهرام. وذات يوم جمعة فى ديسمبر سنة ١٩٧٥، وكان «حسن يوسف» (باشا) يزورنى ـ (فى بيتى الريفى فى قرية «برقاش» على الطرف الغربى لدلتا النيل) ـ ومعه صديقه الذى أصبح صديقى أيضا وهو «عبد الفتاح عمرو» (باشا) وكان سفير القصر الملكى لسنوات فى لندن مضت بنا الذكريات بعيدا عن كل الحدود والقيود، وسألته أليس خسارة أن تضيع هذه الوقائع؟ والسنوات تمر والنسيان وارد، ولم يمانع، واتفقنا وكانت له تحفظات قَبِلْتُها (ووفيت فيما أتمنى):

أولها: أن لا أكتب ولا أنشر شيئا مما يقوله قبل «خمس عشرة» أو عشرين سنة بعد رحيله (وذلك ينطبق أيضا على قرينته).

والثانى: أن يحاط ما سجلته معه بكل الضمانات التى أحيط بها أوراقى الخاصة «لأنه عهدة شخصية».

والثالث: رجاؤه إذا استعملت ما سمعت منه فى يوم من الأيام ـ أن يكون ذلك فى معرض «شرح» الملك «فاروق» وليس فى معرض «تشريحه».

وعلى نفس هذه الشروط سجلنا بعد ذلك ثلاث ساعات ونصف الساعة مع «عبد الفتاح عمرو» (باشا)، وكانت فى الواقع حوارا بين «حسن يوسف» و«عبد الفتاح عمرو»، وكلاهما يحاول تذكير الآخر ويقابل ويضاهى بما يسمح بتدقيق الوقائع وتثبيت صورتها.

٤ ـ وبالإضافة إلى ذلك فقد عدت إلى قراءة ومراجعة جبال وليس مجرد تلال من الوثائق البريطانية والأمريكية والفرنسية (والإسرائيلية)، مما هو محفوظ فى سجلات رئاسة الوزارة ـ وزارات الخارجية والدفاع (ومخابرات هذه الدول فى بعض الأحيان). وربما قلت إننى راجعت قبل أن أكتب هذا الحديث أكثر من ستين ألف ورقة، ركزت بالتفصيل على حوالى الأربعة آلاف منها.

٥ ـ وأخيرا ـ فقد أعدت قراءة ملفات الأوراق الخاصة لساسة كبار كان لهم اهتمام بالشأن المصرى ودبلوماسيين مقتدرين مثلوا بلادهم فيها، ولعل أهم هذه المجموعات الخاصة وفيها مجموعة أوراق السير «أنتونى إيدن» (وكان وزير خارجية بريطانيا زمن الحرب العالمية الثانية)، ومجموعة أوراق السير «مايلز لامبسون» (اللورد كيلرن)، السفير البريطانى الأشهر فى مصر من سنة ١٩٣٤ حتى سنة ١٩٤٦، وهى فترة شملت كل سنوات الحرب العالمية الثانية بمقدماتها وعواقبها، وكذلك أوراق السير «والتر سمارت» المستشار الشرقى للسفارة فى سنوات التحول الكبير، إلى جانب مجموعة أوراق السير «رونالد كامبل»، والسير «رالف ستيفنسون»، وكلها موجودة (أو صور منها) فى مكتبة كلية «سان أنتونى» إحدى كليات أوكسفورد، وهى كلية متخصصة فى دراسات الشرق الأوسط ـ وفعلت نفس الشىء مع مجموعة أوراق «جيفرسون كافرى» الذى كان سفيرا للولايات المتحدة ما بين سنة ١٩٥٠ حتى سنة ١٩٥٥، ومجموعة أوراق «كيرميت روزفلت» وكان مسئولا عن المخابرات الأمريكية فى الشرق الأوسط منذ سنة ١٩٤١ وحتى سنة ١٩٥٥.

وفى النهاية أمسكت بالقلم وجلست لأكتب، حريصا على أن يكون وراء كل كلمة سند!

محمد حسنين هيكل

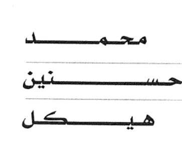

من أين
تبدأ قصة
يوليو ١٩٥٢
؟
السؤال الأول :
هل كانت
ضرورية ؟

السفير البريطانى
«مايلز لامبسون»
أو جاموس باشا
«حسب وصف الملك فاروق»
مع النحاس باشا
➤



الانقلاب العسكرى الأول في السياسة المصرية





لقد رجح عندى أن أبتعد لبعض الوقت عما يجرى لنا، ويجرى حولنا، وهى مهمة سهلة، وصعبة، فى آن واحد!

● سهلة لأن ما يجرى يغرى بفراقه ـ دون أسف عليه ـ فهو واقع بارد، مجرد من دفء حلم، أو كرامة مشروع، أو إلهام فكرة!

● وصعبة لأن ما يجرى يحض على البقاء قريبا منه ـ فهو صراع مصائر، ومطالب مستقبل، وأزمة أمة تحاول أن تستجمع بقايا طموح وإرادة، وبقايا آمال ورؤى ـ تذكرها بأن لها حقا ودورا وموقعا فى زمن عالمى جديد!



ولقد رجح عندى ما رجح لأن العاطفة تدخلت فى حركة الميزان وأنهت التردد بين «السهل» و«الصعب» فبعد ثلاثة شهور وثلاثة أسابيع تحل الذكرى الخمسون لثورة يوليو ١٩٥٢، وذلك يوم بالغ الخطر فى التاريخ العربى الحديث، لا يكاد يختلف أحد على أن حياة الأمة فى النصف الثانى من القرن العشرين، وحتى مطالع القرن الحادى والعشرين كانت ـ وظلت ـ موصولة به على نحو أو آخر!

وكان فى خطة عملى منذ أكثر من سنة أن أعود إلى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ـ قارئا للتاريخ مرة أخرى، وليس كاتبا له، فتلك كما أشرت مرات، مهمة أتركها لغيرى ممن هم أقرب اختصاصا، أو أبعد جرأة ـ وربما أوسع خيالا!

ومن الأكيد أن هناك دراسات جادة وموضوعية عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (خصوصا فى إنجلترا وفرنسا حيث توافر كثيرون على دراسة السقوط الإمبراطورى البريطانى والفرنسى فى حرب السويس سنة ١٩٥٦) ـ لكن الأكيد فى الوقت نفسه أن العالم العربى شهد ـ ويشهد ـ خلطا تتنوع أسبابه ما بين مقصود لأهواء وأغراض إقليمية ودولية ـ محلية وذاتية، وما بين غير مقصود أدى إليه السهو والخطأ، خصوصا فى ظروف ترضى عن السهو وتكافئ على الخطأ!

والحقيقة أننى اطلعت على ما كتبه بعضهم واستغربت، وتابعت على الشاشات (فضائيات عربية فى كل مكان) ما يرويه بعضهم واستعجبت، وبدا لى الكثير مما يلقى على الناس مجافيا لما رأيته بعينى وسمعته بأذنى فى زمانه وفى مكانه عندما شاءت مصادفات ـ أن أكون فى الموقع الأقرب من بؤرة القرار، مراقبا ومتابعا بل ومشاركا فى بعض الأحيان، ومهتما فيها جميعا.

وبالإضافة إلى ما رأيته بنفسى وسمعته فى زمانه ومكانه ـ فقد كنت تعلمت درسا أساسيا يؤكد قيمة تسجيل الدقيقة والثانية فى وقتها وموقعها، وينهى عن اعتبار الذاكرة الإنسانية خزانة مأمونة للمعلومات، والسبب، أن هذه الذاكرة ليست صندوقا من حديد وصلب، دونه سلاح وعليه أقفال، وإنما هى وعاء مفتوح تصب فيه وتتسرب إليه ليل نهار صور ومشاهد ونزعات ومطامح وإيحاءات ـ وكله يتفاعل مع بعضه فى عملية شبه كيميائية وتكون النتيجة خلقا آخر يذوب فيه الأصل.

وأظن أننى مدين بالفضل فى تقليل الاعتماد على الذاكرة لنصيحة أول رئيس تحرير عملت معه، وهو «هارولد أيرل» رئيس تحرير جريدة «الإجيبشيان جازيت»، وكان ملخص نصيحته لى، ولثلاثة زملاء مصريين التحقنا دفعة واحدة للتدريب فى جريدته ـ قوله لنا: «أنتم سوف تذهبون إلى مهام متواصلة تغطون فيها مسارات الحوادث فى وطنكم وأوطان غيره، وعندما تأخذكم المهام التى تكلفون بها إلى أى مكان، خصوصا خارج البلاد، فلا تحاولوا أن ترسلوا بمواد إخبارية عاجلة؛ لأن وكالات الأنباء سوف تسبقكم، وأما ما تستطيعون التفوق به على غيركم فهو التركيز على خلفية الوقائع والحوادث وحركتها الداخلية، مستندين إلى المشاركين فيها وشهودها، راسمين باللون والظل وبالصوت والهمس صورا حية للأجواء والظروف والملابسات، وعليكم تسجيل ذلك وتثبيته أولا بأول حتى تستطيعوا فيما بعد وعندما تكتبون تقاريركم، أن تستعيدوه على نحو دقيق وأمين. وإذا اعتمدتم على الذاكرة وحدها ومر يوم ـ ثم يوم، فأخشى أن النتيجة تكون أقرب إلى فن القصص منها إلى عرض الخبر!

وعندما جلست لأكتب كان واضحا لى ـ بينى وبين نفسى ـ أن هدفى من الكتابة الآن، ليس أن أقر حقا أو أمحو باطلا، فذلك دور





قديسين وليس دور صحفيين، كما أن هدفى ليس أن أدافع عن أحد أو أدين غيره؛ لأن ذلك مطلب تأخر وقته سياسيا وإن لم ينته حقه تاريخيا: من ناحية لأن الرجال الذين كان يمكن إنصافهم أو إدانتهم لم يعودوا على قيد الحياة بحيث يلحق بأيهم ثواب أو عقاب - ومن ناحية أخرى لأن الحقيقة عليها الانتظار حتى تنجلى الغُمة عن ذاكرة الأمة. فالقوى التى تهيمن على الأرض ومواردها، وعلى الاقتصاد وآلياته، وعلى القرار وسلطته، كان لابد أن تمد سيطرتها فى نفس الوقت إلى الذاكرة: لأنها مجمع الحكمة ومستودع الضمير، وهناك - تكمن إرادة الأمة.

وعليه فإن هذه القراءة فى التاريخ - تطلب استثارة اهتمام الباحثين عن الحقيقة فى شئون أمتهم وأحوالها، وأوضاع أوطانهم وآمالها، وفى اليوم وغدا وبعد غد. وقد لا أجد بأسا من أن أعترف أن هذه القراءة للتاريخ موجهة بالدرجة الأولى إلى الشباب: شباب العمر - وشباب العقل - وشباب الوعى - وشباب الشوق إلى الحق!

وأريد أن أزيد (ولعل الزيادة لا تكون تزيدا)، أننى أتمنى أن يقرأ من يعنيهم الأمر هذا الفصل وغيره وفى ذهنهم أن التاريخ يصنعه بشر. وأن البشر خلق من لحم ودم، وليسوا - مهما تسامت أدوارهم فى صناعة - خوارق ومعجزات. بمعنى أن الطبائع الإنسانية لها أوجه ضعفها وأوجه قوتها، مواضع لينها ومواضع صلابتها. والخطر عند قراءة التاريخ أحيانا أن صناعته تضفى على أبطاله أشكالا من القداسة دخيلة على الطبع الإنسانى، وفى التاريخ الإسلامى فإن ذلك الخلط بين ولى الأمر فى سلطة الدنيا، والقوامة على الدين بسلطة الولاية - يزداد فى العادة، وهذا التباس تجاوزه كثيرون ممن كتبوا فى التاريخ العربى وعنه، وفيهم «ابن إسحاق» و«المقريزى» و«ابن أياس» و«الطبرى» و«ابن تغرى بردى»» و«عبدالرحمن الجبرتى». والشاهد أن هؤلاء الرجال سجلوا ما سجلوا وفى اعتبارهم أن الحق لا يجافى الطبع، وإنما يأخذه فى حسابه، وأن العصمة المطلقة لذات الله وحدها، وأما خلقه فإن الميزان الحقيقى لهم ما يستطيعون تقديمه من النفع لأوطانهم، حتى وإن لم تكن تصرفاتهم معصومة أو مقدسة (لأنها نسبية). والواقع أن التاريخ لا يحتمل فكرة البطولة المطلقة - لأن التاريخ إنسانى وليس إلهيا!

ومن المفارقات أن شعوب العالم المتقدم تعرف التفرقة بين الواقع والأسطورة، وبالتالى فإن المثال الكامل لم يخلق قط ولا فى حالة الأنبياء، فمنذ خروج آدم من الجنة خرج وراءه بنو البشر جميعهم، وعاشوا دنياهم بكل مواطئها، وحسابهم آخرها ليس على ما هوت إليه نفوسهم، وإنما على ما ارتقت إليه هممهم. ■

٤ فبراير ١٩٤٢

المسرح الخلفى لـ ٢٣ يوليو

■■ مرة أخرى فى قراءة التاريخ يتأكد لأى قارئ أن الصراعات الكبرى حضانة للتحولات الإنسانية الأهم، وأن الحروب باعتبارها الذروة الخطرة للصراعات هى الولادة الطبيعية للتحولات المؤثرة على حياة ومستقبل الشعوب والأمم.

وعليه فإن أى قارئ للتاريخ الحديث سوف يتأكد أن الحرب العالمية الثانية كانت حضانة حركة الثورة الوطنية فى العالم الثالث على اتساعه عبر ثلاث قارات (آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية).

ثم إن أى قارئ للتاريخ المصرى - فى سياق العصر الحديث - سوف يلحظ أن يوما بالتحديد فى مسار هذه الحرب العالمية الثانية - وهو يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ كان ولادة قيصرية بالجراحة - فتحت الباب - يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - لولادة قيصرية أخرى من نفس النوع، والاختلاف بين الولادتين - هوية السلاح. ففى الولادة الأولى كان المشرط إنجليزيا وفى الولادة الثانية كان المشرط مصريا!

....

....

[ولمجرد التذكرة فإن ٤ فبراير ١٩٤٢ هو اليوم الذى وجَّه فيه السفير البريطانى فى مصر السير «مايلز لامبسون» (والذى أصبح اسمه اللورد «كيلرن» فيما بعد عندما منح اللقب مكافأة على خدماته للإمبراطورية، واختار أن ينتسب إلى المقاطعة الإسكتلندية التى جاءت منها عائلته) - وكان نص إنذار السفير البريطانى إلى الملك «فاروق» بالنص: «إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة من مساء اليوم أن «مصطفى النحاس» باشا دُعى إلى تأليف الوزارة، فإن الملك «فاروق» يتحمل تبعات ما يحدث».

والوقائع الكاملة لأحداث تلك الليلة كما كتبها السير «مايلز لامبسون» بخط يده فى دفتر يومياته المودع ضمن مجموعة أوراقه فى كلية «سان أنتونى» المتخصصة فى دراسات الشرق الأوسط والتابعة لجامعة أوكسفورد - تنشر الآن بنصوصها (لأول مرة كما أحسب) فى وثيقة تالية لهذا الحديث مباشرة].

....

....

وإذا كان ذلك فإن يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ يستحق أن يوضع فى سياقه وفى إطاره، وبفهم متسع ورحب لحركة التاريخ وعناصرها، لأن الأمم كثيرا ما تجد نفسها فى خضم صراعات لم تفكر فيها، ولم تطلبها، لكن الظروف المحيطة وبدون تخطيط أو مسئولية على أحد - تضعها وسط المعمعان - راضية أو كارهة والغالب أن وقائع يوم ٤ فبراير والطريق إليها كان تجربة من هذا النوع لبلد وجد نفسه وسط الصراع العالمى رغم أنفه، وحاول أن يبحث عن أمان فيه، على عجل من أمره!

● وكما هو بيِّن الآن فإن السير «مايلز لامبسون» بإنذاره للملك فاروق (رغم ما فى الإنذار من إهانة) - لم يكن يمارس كراهية شخصية، كما قالت وتقول به روايات ملكية، شاعت بعدها ولا تزال لها أصداء.

● ولم يكن «مصطفى النحاس» باشا - للدقة والإنصاف - خائنا بالتواطؤ مع الإنجليز حين قَبِلَ رئاسة الوزارة مساء يوم ٤ فبراير على أسنة الحراب البريطانية (على حد التعبير الذى استعمله أحمد ماهر (باشا) رئيس السعديين ليلتها).

● ولم يكن الملك «فاروق» شابا فقد عقله دون مقدمات، فَحَقَّ للسفير البريطانى أن يعيده إلى صوابه ولو بالدبابات!

إنما البيِّن الآن أن الحقيقة أعقد من تلك الروايات، وأبسط أيضا؛ لأن ما وقع مساء ٤ فبراير ١٩٤٢ كان فى إطار حركة تاريخ حكمها تدافع عنيف بين القوى، وتداعيات أثرت بالوعى أو باللاوعى على مسار الحوادث. وكان التعقيد والبساطة فى نفس الوقت هو الدرس المفيد الذى تكشفه قراءة التاريخ وتكشف معه أن الحقيقة لها أكثر من وجه، بمعنى أن ما جرى فى ٤ فبراير ١٩٤٢ كانت له وجوه عديدة:

● وجه بريطانى - حقيقى - له منطقه الذى يمكن فهمه.

● ووجه مصرى ملكى - حقيقى - له هو الآخر منطقه الذى يمكن تقديره.

● ووجه مصرى وفدى - حقيقى له بدوره منطقه الذى يمكن قبوله.

وعليه فإن ما جرى فى ذلك اليوم كان أكبر كثيرا من «زهو» السير «مايلز لامبسون» بقوته، وأكبر من «حرص» الملك «فاروق» على عرشه، وأكبر من «تلقف» «مصطفى النحاس» (باشا) لرئاسة الوزارة من وسط عاصفة، وفى الحقيقة فإن الحادث من أوله إلى آخره كان إشارة تختزل وتختصر صراع مقادير أكبر من إرادة الأفراد، وظرف عالمى أوسع بكثير من موقع قصر عابدين، ولعله كان مشهدا «مصريا» فى «حرب عالمية».

ومؤدى ذلك أن استكشاف أبعاد وحدود عملية ٤ فبراير ١٩٤٢ وما تداعى بعدها - يتطلب استعادة واسترجاع صورة الصراع الدولى كما تجلى وقتها.



كانت بداية الحرب العالمية الثانية يوم ٣ سبتمبر ١٩٣٩، وقد نشبت بين «ألمانيا النازية» من ناحية وبين «بريطانيا» و«فرنسا» من الناحية الأخرى، وسببها المباشر رغبة «هتلر» (زعيم ألمانيا النازية) فى استعادة منطقة «دانزيج» فى بولندا كى تعود إلى ألمانيا بعد أن سلخت منها نتيجة للحرب العالمية الأولى (ومعاهدة فرساى التى رتبت نتائجها).

وتمكنت القوات الألمانية من احتلال «بولندا» كلها فى سبعة عشر يوما ثم توقف القتال، وبدا أن الحرب نامت، لأن «ألمانيا» خطت الخطوة الأولى ونفذت بالسلاح ما أرادته فى «بولندا»، ثم عجزت بريطانيا وفرنسا عن نجدة «بولندا» فى الشرق، وتلا ذلك أن الجبهة الغربية (الفرنسية) مع ألمانيا بقيت خنادق متقابلة وساكنة، ومع أن السكون يتحول إلى صخب فى بعض الأوقات حين تتبادل الجبهات وراء الخنادق ضربات المدافع، إلا أن ذلك بدا قصدا سياسيا قصاراه تذكير العالم أن الحرب على الجبهة الغربية مازالت دائرة!

ومع أوائل سنة ١٩٤٠ - أى بعد أربعة شهور من نشوب القتال، وثلاثة شهور من سقوط «بولندا» - كان صوت الحرب خافتا لدرجة دعت إلى وصف هذه المرحلة بـ: «الحرب الفارغة» (the phony war) لأن جيوش بريطانيا وفرنسا وقفت على ناحية من



جبهة القتال، ووقفت القوات الألمانية على الناحية الأخرى. ثم إن الجيوش البريطانية التى عبرت بحر الشمال إلى الشواطئ الفرنسية ظلت هناك، لأن القيادة العليا الإمبراطورية رأت إبقاء قواتها فى مقاطعة نورماندى شمال فرنسا حتى تظل مواصلاتها على البحر مفتوحة قريبة وسالكة إلى قواعدها البريطانية - وفى كل ذلك فإن الحرب ليست وقوفا فى الخطوط الدفاعية سواء خط «ماجينو» الفرنسى أو خط «سيجفريد» الألمانى - ولا انتظارا على الشاطئ الآخر من بحر الشمال!

وفى الوقت نفسه فإن بقية القوى المهتمة بالحرب ظلت على مسافة تتابع وتراقب:

● الولايات المتحدة تتابع وتراقب - من وراء الأطلنطى - ومصالحها الطبيعية وراء حلفاء الغرب الرأسماليين واعتقادها (الولايات المتحدة) أنها تجسيد الرأسمالية فى عنفوانها وليست مجرد احتياطى أمريكى للرأسمالية الأوروبية المتهالكة.

● وإيطاليا تتابع وتراقب - من وراء جبال الألب - ومطامعها الملهوفة مع الألمان وشغلها الشاغل أن تتشارك معهم فى الإرث الإمبراطورى لبريطانيا وفرنسا عندما يُعاد توزيعه، وقد بدت هذه العملية حتمية سواء بالقتال أو بالاتفاق.

● والاتحاد السوفيتى يتابع ويراقب - من العمق الشرقى الأوروبى - ويرى الحرب صراعا بين الاستعمار القديم (البريطانى والفرنسى) المتخوم، وبين استعمار جديد يتضور جوعا فى ألمانيا ووراءها إيطاليا وقد تفتحت شهيته من جديد.

● وأخيرا لاحت اليابان مطلة من وراء بحر الصين، ترسم لنفسها مجالا حيويا فى شرق آسيا تحسبه فى متناول اليد عندما تسقط الإمبراطوريات القديمة (بريطانيا وفرنسا) بالهزيمة أو تنكسر شوكتها بالضعف.

كل ذلك وجبهات القتال غرب أوروبا ساكنة.



كان منطق الحركة يفترض أن يكون الدور على بريطانيا وفرنسا؛ لأن ألمانيا بدأت بالخطوة الأولى ونالت ما طلبت، والآن جاء دور الغير بمسئولية الرد، وهذا الغير قابع فى خطوطه لا يرد. لكن «هتلر» ليس قادرا على انتظار خصومه، فقد تجلت أوروبا الغربية أمام عينيه أفقا مفتوحا بلا عائق - وفضلا عن ذلك فهو لا يستطيع الاستمرار فى حالة «السكون» دون حسم، خصوصا إذا كانت الفرصة أمامه سانحة لبسط السيطرة الألمانية على غرب أوروبا والاستدارة بعدها إلى الشرق حيث معاقل الخطر الشيوعى، وحسابه أنه إذا جاءت لحظة المواجهة بينه وبين الاتحاد السوفيتى، فإن بريطانيا سوف تقبل شروطه للصلح، وفى أعقابه فإن الولايات المتحدة سوف تسارع إلى صفقة عالمية معه!

وعندما جاء ربيع سنة ١٩٤١ كانت الجيوش الألمانية تنفذ من شمال أوروبا الغربية، وتقطع بلدانها واحدا بعد الآخر بسهولة ما تمشى «السكين فى الزبد» على حد تعبير شاع تلك الأيام.

وسقطت دول الشمال الأوروبى واحدة بعد الأخرى فى أيام: هولندا، بلجيكا، لوكسمبورج. والتفت مدرعات ألمانيا - تحت قيادة ماريشالات الرايخ الثالث مثل «رونشتد» و«جودريان» و«روميل» - تكتسح سهول «الفلاندرز»، وتتدفق منها عبر «المارن» و«الموز» وتحتل باريس، واستسلمت فرنسا، وانسحبت القوات البريطانية من «نورماندى» مهرولة عبر أى وسيلة للنقل البحرى من «دنكرك» هاربة من الشاطئ الفرنسى إلى أى مرسى بريطانى مقابل.

وفى يونيو سنة ١٩٤٠ وقفت بريطانيا فى الحرب وحدها، فى حين أن ألمانيا لم تعد وحدها لأن إيطاليا انضمت إليها حتى يلحق زعيمها «موسولينى» بحصة من المستعمرات الفرنسية قبل أن تفوت الفرصة، وساد الاعتقاد بأن الدور الآن على بريطانيا، وأن قوات «هتلر» على وشك غزوها، وأن تركيز الطيران الألمانى عليها بهذه الكثافة - تمهيد لعبور البحر (وفق عملية عُرف فيما بعد اسمها الرمزى: «سبع البحر»).

لكن بريطانيا أظهرت عزمها على المقاومة على الشواطئ والمدن والقرى والشوارع والبيوت على حد تعبير «تشرشل» فى خطابه الشهير الذى أعلن فيه أنه ليس عنده ما يقدمه غير «الألم والدم والدموع»، مضيفا «أن مصير العالم الحر سوف يتقرر على حافة الماء من سواحل هذه الجزر البريطانية».

وفى بداية سنة ١٩٤١ كان «هتلر» الراغب فى حسم الحرب قد وجد أن غزو بريطانيا يكلفه أكثر مما يستحق، وبالتالى قرر أن ينضم إلى شريكه الإيطالى الذى تعثر وتعطل فى شمال أفريقيا عندما أراد أن يستعيد زمن قياصرة روما من كبار الفاتحين - بادئا الحرب بهجوم من ليبيا على مصر - وقد تصور «هتلر» أنه بانضمامه إلى «موسولينى» يفك القبضة البريطانية عن البحر الأبيض المتوسط كله.

وكذلك اتجه إلى شواطئ ليبيا جيش ألمانى - الفيلق الأفريقى كما أُطلق عليه - وهدفه دخول مصر واجتيازها إلى قناة السويس، والتقدم من سيناء إلى سهول سوريا نحو الشمال والشرق لتكون من ذلك كماشة تطبق على الاتحاد السوفيتى من الجنوب أى من الباب القوقازى، ويتوافق ذلك مع هجوم يجرى الإعداد له من أوروبا، من الباب البولندى - إلى قلب أوكرانيا، وحتى أسوار «الكرملين» فى موسكو.

وكان القائد الألمانى المختار لهذه الخطة الجسورة التى تبدأ من جنوب البحر الأبيض وتطوق شرقه، قائدا ألمانيا أصبح أسطورة وهو الماريشال «أروين روميل» الذى وصل بالطائرة إلى طرابلس مساء يوم ١٢ فبراير ١٩٤١.

وكذلك فإنه حين أصبحت كل الطرق تدور حول البحر الأبيض المتوسط، فإن مصر أصبحت الملتقى والتقاطع والموضع الأخطر! ■

الطريق البريطانى إلى ٤ فبراير وبعده

■ كانت مصر ترقب ما يجرى فى أوروبا مأخوذة، وقد أدهشها احتلال «بولندا» فى سبعة عشر يوما، وعندما سقطت فرنسا ودخل «هتلر» غازيا إلى باريس يرقص تحت قوس النصر الشهير، تحولت الدهشة إلى انبهار. لأن باريس فى وعى الطبقة العليا المصرية لم تكن مجرد عاصمة أوروبية، بل إنها «عاصمة النور والحضارة» من عصر نابليون ومحمد على بعده، وإلى عصر الخديو إسماعيل وحفيده الأخير على عرش مصر الملك «فاروق».

وكانت السياسة البريطانية تفهم وتدرك تأثير النفوذ الأوروبى (الفرنسى بالذات)، على الحياة الثقافية والسياسية المصرية، وظنونها أن النخب الوطنية التى تقوم بممارسة السياسة - بالقدر المسموح به فى وطن محتل - فرنسية الهوى فى معظمها. وكان ذلك - بالإضافة إلى عوامل أخرى - نوعا من «العناد الخفى» إزاء بريطانيا خصوصا وهى قوة الاحتلال التى تحجب الاستقلال وتسوف وتؤجل من وعد إلى آخر، ومن اتفاق إلى معاهدة - دون نهاية ترضى بها الوطنية المصرية تحقيقا لآمالها.

وكان «العناد الخفى» محسوسا فى القصر الملكى بأكثر مما هو مرئى، ولأن القصر لم يكن على استعداد للمعارضة الصريحة، فإنه راح يماطل حتى لا تمسك به قوة الاحتلال وتضبطه متلبسا بمعارضة المجهود الحربى فى ظل تواجد بريطانى كثيف، وانتقال فى ميادين الحرب من شمال البحر الأبيض إلى جنوبه، وبه أصبحت القاهرة واحدة من القيادات الرئيسية الثلاث!

كانت الإمبراطورية البريطانية تملك من حكمة التجربة ما جعلها تدرك مع حالة حرب أوروبية عامة، فاضت مضاعفاتها على بقية العالم - أن ظروف الاتصال والمواصلات (وقتئذ) لا تسمح للعاصمة «لندن» أن تمارس قيادة صراع الحرب على كل الجبهات فى كل القارات، وكذلك جرى تقسيم القيادة الإمبراطورية إلى ثلاث قيادات رئيسية:

١- قيادة عامة فى لندن يتولاها رئيس الوزراء مع هيئة أركان الحرب الإمبراطورية وهى مكلفة بوضع الاستراتيجيات العليا للحرب، بالإضافة إلى مسئوليتها المباشرة عن مسرح العمليات الأوروبى.

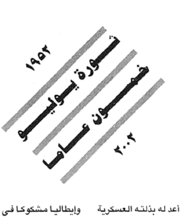
٢- وقيادة رئيسية فى مصر مقرها القاهرة (يقودها وزير دولة بريطانى مقيم ومعه السفير البريطانى فى القاهرة والقائد العام لقوات الشرق الأوسط)، وهذه القيادة لها مسئولية التصرف (فى إطار الاستراتيجية العليا) وفق ما تقتضيه الظروف، بالإضافة إلى مسئوليتها عن البحر الأبيض والبحر الأحمر والدائرة المحيطة بهما أو الواقعة بينهما، وبدون الرجوع إلى لندن إلا فى حالة الضرورة.

٣- وقيادة رئيسية فى الهند (وهى درة التاج) ومقرها فى «دلهى» ويشرف عليها نائب الملك وحكومته فى الهند، وهى مسئولة عن آسيا من بحر العرب - إلى بحر الصين.



وحتى بعد نشوب الحرب وسقوط باريس، كانت مصر تحاذر التورط قدر ما هو ممكن، وتبدى استعدادها لتطبيق معاهدة سنة ١٩٣٦ بالنص، وإن لم يكن بالروح. وكانت فتوى قانونية من فقيه مصر الكبير «عبد الحميد بدوى» (باشا) قد ذهبت إلى أن نصوص معاهدة سنة ١٩٣٦ - لا تنطبق على حرب تنشب فى أوروبا (وهذا هو الحال عندما كانت ألمانيا وحدها أمام الحلفاء)، وإنما تنطبق على حرب يكون فيها ما يهدد الأراضى المصرية، (وذلك ينطبق على إيطاليا إذا قررت دخولها).

وكان رأى «بدوى» (باشا) أن مصر فى حالة حرب أوروبية تشارك فيها بريطانيا - غير مطالبة بأكثر من إعلان حالة الطوارئ. وبالفعل فإن السلطة



البريطانية أخذت ما هو مقرر لها من مزايا حالة الطوارئ، بما فى ذلك فرض الرقابة على كل كلمة مكتوبة أو مطبوعة أو منطوقة ـ فى مصر.

(وبمقتضى ذلك تشكلت هيئة رقابة إنجليزية يرأسها وزير الداخلية المصرى بالاسم، فى حين أن تكوينها لا يدع مجالا لشك عن موضع الأمر فيها:

ـ الليوتنانت كولونيل و. ويلسون مساعدا للرقيب العام.

ـ المستر جـ. هـ. دولامار رقيبا عاما على البريد.

ـ المستر ر. ب. فيرنس رقيبا عاما على المطبوعات.

إلى جانب ذلك تشكلت مكاتب فرعية للرقابة فى الموانئ والمطارات المصرية:

فى القاهرة ـ المستر س. جولدنج.

فى الإسكندرية ـ المستر ج. ف. موس.

فى بورسعيد ـ المستر ج. ث. ماكجوبين.

فى السويس ـ المستر ف. شفرويت).

وبصرف النظر عن إعلان حالة الطوارئ وما يترتب عليها، فإن الملك «فاروق» ظل مترددا بسند وتشجيع من رجال أحاطوا بالقصر وقتها، وأولهم «على ماهر» (باشا) الذى كان رئيسا للوزراء عندما قامت الحرب.

وضمن هذا التردد الملكى فإن وزارة «على ماهر» (باشا) أعلنت ما سُمى وقتها، سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب»، ومؤدى هذه السياسة أن مصر تنفذ المطلوب منها بنصوص معاهدة سنة ١٩٣٦ (وذلك تحقق بإعلان حالة الطوارئ) ـ لكنها تحتفظ لنفسها بمسافة من ميادين القتال.

وكان الشيخ «محمد مصطفى المراغى» (شيخ الأزهر) قد عزز ذلك بشعار أطلقه يقول بأن ذلك الصراع فى أوربا «حرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل».

ومع أن تلك بدت تعبيرات عن سياسة «تعاند الإنجليز» ولا تعارضهم، فإن لندن سكتت عليها: لأن هذه السياسة ساعتها كانت أكثر تحقيقا لمصالحها، فهى تتيح استعمال مرافق مصر لصالح المجهود الحربى (وفق معاهدة سنة ١٩٣٦). وفى نفس الوقت فإن عدم المشاركة فى ميادين القتال بمنطق «تجنيب مصر ويلات الحرب»، يفرض على الطليان والألمان نوعا من الحذر فى نشاطهم الحربى ضد الأراضى المصرية حتى لا تتحول المشاعر والمواقف من نصف تبعية إلى تبعية بالكامل للاستراتيجية البريطانية!

وفى هذه الأجواء بقيت الأمور فى مصر هادئة طوال السنة الأولى من الحرب العالمية ـ إلى درجة أن القائد العام للقوات البريطانية وهو الجنرال (الماريشال) «أرشيبالد ويفل» ـ كان يخرج من بيته وسط حدائق الزهرية فى الزمالك بملابس مدنية كل صباح، ويتمشى إلى نادى الجزيرة قاصدا حمام السباحة فيه (الليدو)، ويعوم نصف ساعة ثم يعود فيدخل غرفة الملابس حيث يكون الجاويش المكلف بخدمته الشخصية قد أعد له بذلته العسكرية فيرتديها، ويتجه إلى مائدة على حافة حمام السباحة يتناول إفطاره فى نظام لا ينقطع إلا إذا نزل الوحى عليه وكتب شعرا.

....

....

[وكان الماريشال ـ الذى فقد إحدى عينيه فى الحرب العالمية الأولى، واستعاض عنها ببديل من زجاج ـ شاعرا، وكان أيضا عاشقا، وقد كتب نصف ديوان من الشعر على شكل رسائل غرام لزوجة وزير مصرى له شأن فى ذلك الوقت. وكانت السيدة جميلة بالفعل، ومع أن فى مجموعة أوراقى نصوص قصيدتين مما كتب الماريشال، فلست واثقا أن السيدة المذكورة بادلته غرامه، والظن أنها تظاهرت بقبول قصائده باعتبار ذلك نوعا من «الواجب الوطني» فى زمن الحرب.]



وبرغم أن الحكومة البريطانية تقبلت المعاندة التى لقيتها من السلطات فى مصر (القصر والحكومة) ـ وفيها «تجنيب مصر ويلات الحرب» وأنها «حرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل» ـ بهدوء أعصاب، فإن أجهزة الإمبراطورية وفيها الأمن والمخابرات العسكرية كانت تشك فى بعض رجال القصر، وكذلك فى عدد من الوزراء، لكن مثل هذا الشك لزم الحذر حتى لا يثير أزمات لا داعى لها.

وفى ذلك الوقت فإن الشك حاول أن يتحفظ وأن يعبر بهدوء عن هواجسه، ومن ذلك مثلا أن السفارة البريطانية طلبت إخراج «فيروتشى» بك وهو إيطالى كان يعمل مديرا لـ «الجاراچات الملكية» على عهد الملك «فؤاد»، ثم جاء الملك «فاروق» وعينه كبيرا لمهندسى القصر، وأبدى السير «مايلز لامبسون» السفير البريطانى، ملاحظة عنه فى إحدى مقابلاته مع الملك قائلا: «إن فيروتشى ليس فقط مهندسا فاشلا، وإيطاليا مشكوكا فى ولائه، بل إنه رجل سيئ الخلق، إلى درجة أن اختصاصه الحقيقى فى القصر، كان «متعهد تقديم إيطاليات جميلات يبعن الهوى بثمن وليس أكثر». وسأله الملك «فاروق»: لمن كان يقدم «جميلاته»؟ ـ وابتسم السفير البريطانى ابتسامة لها معنى وسأل الملك: «هل تريدنى أن أقول بصراحة؟» من جانبى أفضل أن لا أقول»! ـ لكن «فاروق» لم يسكت وإنما أضاف: «تقصد أن تقول أنه كان يقدم بغايا إيطاليات لوالدى ـ أليس كذلك؟». وأضاف الملك بهدوء أعصاب ـ أو كذلك بدا: «إن هذا غير صحيح و«سعادتك» تعرف كيف تنتشر الشائعات؟!»

وفى دفتر يومياته يسجل السير «مايلز لامبسون» أنه بعد هذا الحوار، طلب كبير الأمناء فى البلاط المصرى «سعيد ذو الفقار» (باشا) مقابلته ليبلغه «أن الملك يشعر بإهانة من الطريقة التى تحدث بها السفير بالأمس و«بالتصريح» عن «فيروتشى» (بك)، و«بالتلميح» عن الملك «فؤاد»، وكان رد السير «مايلز لامبسون» على كبير الأمناء، نصيحة منه إلى «فاروق» بأن يكبر على هذا المستوى من «لعب العيال»!

وكان السير «مايلز لامبسون» يراقب ويتابع، وتكشف الوثائق أن واحدا من مصادره فى ذلك الوقت كان الأمير «محمد على» ولى العهد.

ويكتب «مايلز لامبسون» فى أحد تقاريره: ذكر لى الأمير «محمد على» أن «على ماهر» (رئيس الوزارة) طلب من «محمد محمود خليل» (رئيس مجلس الشيوخ) ـ إبلاغ السفير الإيطالى الكونت «ماتزولينى»، «أن مصر لن تعلن الحرب على ألمانيا رغم أن ذلك مفروض عليها بالمعاهدة»!

وفى مرة ثانية نقل «مايلز لامبسون» عن ولى العهد: «أنه ذهب إلى القصر «ينذرهم» بأن عدم دخول الحرب ضد ألمانيا قصر نظر سياسى منهم» ـ وأضاف الأمير: «قلت لهم إن أخى (عباس حلمى) فقد عرشه لأنه تردد فى موقف مماثل، ثم إننى كنت الخلف الطبيعى له على العرش، ولولا أن الجنرال «ماكسويل» (القائد العام للقوات البريطانية فى مصر) فهم خطأ كلمة قلتها له، وظن أننى أتردد، لكنت أنا الآن سيد قصر عابدين وليس فاروق» ـ أضاف «محمد على»: «قلت لهم ذلك فى وجههم ولم يفهموا لأن فاروق لا يريد أن يتعلم شيئا»!



ثم بدأ الشك البريطانى يتخلى عن تحفظه عندما وصلت «معركة المصائر» إلى جنوب البحر الأبيض وإلى مصر، وفى المرحلة التى كانت بريطانيا تقف فيها وحدها فى ميدان القتال ضد «هتلر».

وهنا جاء الطلب البريطانى بخروج «على ماهر» (باشا) من رئاسة الوزارة فى مصر بصيغة الأمر؛ لأن الأوضاع لم تعد تحتمل، وكان خروج «على ماهر» إثر برقية بتوقيع وزير الخارجية البريطانية «أنتونى إيدن» إلى السفير البريطانى فى القاهرة السير «مايلز لامبسون»، نصها أربع كلمات «على ماهر يجب أن يذهب» (Aly Maher must go).

وقد طار السير «مايلز لامبسون» من القاهرة إلى الإسكندرية يوم ١٣ يونيو ١٩٤٠ ليقابل الملك «فاروق» وينقل إليه الأمر بنفسه موضحا (حسب نص تقريره) «أن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تصبر على وجود رئيس وزراء مصرى لا نثق فيه، ولا يثق فيه الشعب المصرى نفسه لأنه لا يمثله»، وعندما حاول الملك «فاروق» أن يتذرع باستقلال مصر، رد عليه «لامبسون» بقوله: «أرجوك لا تلعب بالنار، وأن تحاول بدلا من ذلك إجراء مشاورات تجيء بحكومة تمثل الأغلبية فى مصر وربما «رأيت» ـ جلالتك ـ أن يكون «النحاس» (باشا) ضمن من تتشاور معهم»!

وكتب السير «مايلز لامبسون» تلك الليلة إلى وزارة الخارجية فى لندن ليقول: «إننى لم أطلب ما هو أكثر ولم أحاول أن أصر ـ مثلا ـ على أن تدخل مصر الحرب رسميا، لأنى لا أرى من ذلك كسبا يتحقق لنا».

ولم يقاوم الملك «فاروق» كثيرا فى إخراج «على ماهر» بل إنه ـ بناء على نصيحة رئيس ديوانه «أحمد حسنين» (باشا) جاء إلى رئاسة الوزراء بصديق للإنجليز هو «حسن صبرى» (باشا)، لكن الرجل لم يقض فى رئاسة الوزارة غير بضعة أشهر، ثم فاجأته نوبة قلبية قضت عليه واقفا أمام الملك «فاروق» يلقى خطاب العرش فى قاعة مجلس النواب فى البرلمان المصرى، ومرة أخرى اختار الملك لرئاسة الوزارة صديقا آخر للإنجليز هو «حسين سرى» (باشا).

....

....

[ولم يكن هؤلاء الرجال من أمثال «حسن صبرى» و«حسين سرى» عملاء للإنجليز، وإنما ساسة يعتقدون بضرورة التفاهم مع بريطانيا لبلوغ المطالب المصرية لأن ذلك أسلم من مواجهة غير متكافئة معها، فى زمن حرب

برغم أن الحكومة البريطانية تقبلت المعاندة التى لقيتها من السلطات فى مصر (القصر والحكومة) . وفيها « تجنيب مصر ويلات الحرب » وأنها « حرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل » . بهدوء أعصاب، فإن أجهزة الإمبراطورية وفيها الأمن والمخابرات العسكرية كانت تشك فى بعض رجال القصر، وكذلك فى عدد من الوزراء





الملك «فاروق» و«جاكلين» قرينة السفير البريطانى ويقف خلفهما «محمد رضا بهلوى» (شاه إيران) والأميرة «فوزية» شقيقة الملك «فاروق» «إمبراطورة إيران»

لا تستطيع مصر أن تؤثر في مجراها، وعلى فرض أنها كانت تستطيع، فقد كان رأى هؤلاء الساسة أن «الشيطان البريطانى» الذى يعرفونه أفضل من «الشيطان الإيطالى أو الألمانى» الذى يدخل بلدهم بقوة السلاح فى حرب عالمية.].

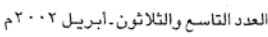


وفى بداية ١٩٤١ (يوم ٢٠ فبراير) وقع حادث لافت للنظر، فقد تم التحفظ فى فلسطين على دبلوماسى رومانى بدرجة وزير مفوض اسمه «أولجار ناتاسيسكو»، وكان قادما من تركيا عبر سوريا يحمل ثلاث حقائب، والظاهر أنه كانت لدى السلطات البريطانية معلومات دعتها إلى مخالفة الأعراف الدولية، فأمرت بتوقيف الدبلوماسى الرومانى وفتح حقائبه للتفتيش، وإذا هى تحتوى على أجهزة استقبال وإرسال لاسلكية برسم التسليم إلى قنصلية رومانيا فى الإسكندرية. وكانت ضمن المضبوطات أوراق تحتوى على تعليمات بموجات اتصال يومى منظم على ترددات لاسلكية محددة، كما كان هناك كشف بعدد من الأسئلة تطلب معلومات تفصيلية عن أوضاع الأسطول البريطانى فى ميناء الإسكندرية. والأهم أن تلك المضبوطات من الأوراق كانت فيها نسخة من الخطة العسكرية للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط.

وكان ذلك نذير خطر مضاعف، فقد تبدى لهذه العملية معنى يتجاوز الواقعة وتفاصيلها، مؤداه أن الخطر على الأمن فى مصر لم يعد «ألمانيا» أو «إيطاليا» ولم يعد طرفا معينا يمكن تحديده وترصده، وإنما الخطر اتسع نطاقه بسيطرة «هتلر» على أوربا وبما نتيجته أن أى أوربى هو جاسوس محتمل متنكر - والدليل أنه فى هذه الواقعة دبلوماسى رومانى.

وتلقى السفير البريطانى فى القاهرة (وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١/ تحت رقم ٢٤٩) - تعليمات بأن يتصل برئيس الوزراء «حسين سرى» (باشا)، ويطلب منه إغلاق القنصلية الرومانية فى الإسكندرية، وترحيل العاملين فيها، «مع امتنان الحكومة البريطانية إذا شمل الإجراء أيضا إبلاغ الوزير المفوض الرومانى فى القاهرة «أنه شخص غير مرغوب فيه».

وكتب السفير البريطانى فى القاهرة بتاريخ ٥ مارس (ملف وزارة الخارجية البريطانية ٣٧١/ تحت رقم ٥٥٢) يقول: «تأخرت فى مقابلة رئيس الوزراء لأنه كان فى جولة يطوف خلالها ببعض المحافظات. وعندما لقيته اليوم سلمته مذكرة بطلباتكم. ونظر إلىَّ «سرى» (باشا) باستغراب وسألنى: «هل أنتم فى حرب مع رومانيا؟»، وعندما أجبته بالنفى قال لى: «إذن فأنا غير مستعد لإجابة طلباتكم»، ثم أضاف «إن مصر ليست مستعمرة وهى على غير استعداد لأن تطيع السياسة البريطانية طاعة عمياء»، وقمت بلفت نظره إلى أن لندن «لن تكون مسرورة بما سوف أنقله لها مما أسمعه منه»، ولم يغير «سرى» (باشا) موقفه وإن



حاول تلطيفه بقوله: «إنه لو كان الدبلوماسي الروماني قبض عليه في مصر لاختلف الأمر، لكن القبض عليه وقع في فلسطين.» وإضافة إلى ذلك فإن الرجل ليس مستشارا للسفارة الرومانية في القاهرة»، وفهمت أن «سرى» (باشا) كان يعرف أن «ناناسيسكو» بدأ سفره إلى مصر من تركيا، وأنه هناك قابل السفير الألماني «فون بابن»، ومع ذلك فإن معرفته تلك لم تغير رأيه. واقتراحي إليكم أن تفوضوني إبلاغه بخيبة أملكم في تعاونه معنا لأن دراستي لشخصية «حسين سرى» أكدت لي أنه لا يتحرك إلا بالضغط الشديد عليه».

ولم تمض أيام قليلة حتى أبرقت وزارة الحربية في لندن إلى الملحق العسكري البريطاني (وثيقة ٤٥ / ٤١٨ / ١٦) تلفت نظره إلى أن القنصلية اليابانية في الإسكندرية تقوم بنشاط مشبوه في متابعة دخول وخروج وحدات الأسطول البريطاني من ميناء الإسكندرية.

ثم كتبت وزارة الحربية (المخابرات العسكرية) (وثيقة ج.هـ ٥١٧) إلى وزارة الخارجية تقول لها: «يبدو أنه سوف يكون عليكم اتخاذ إجراءات قوية مع الحكومة المصرية حتى تفعل شيئا حاسما لوقف نشاط معاد تقوم به بعض القنصليات الأجنبية في مصر. إننا سمعنا علاوة على ذلك من مصادرنا في أوربا أن عددا من الممثلين المصريين يرون أن الظرف مناسب لكي تمارس بلادهم نوعا من الاستقلال «المزعوم» يجعلها نائية بمسافة معقولة عنا، وذهب بعضهم أكثر ليوحي لحكومته «بأنهم الآن يستطيعون استغلال الظرف الحرج بالنسبة لنا، حتى يحصلوا على تنازلات منا، وتقديرهم أن مأزقنا الراهن - فرصتهم المتاحة».



وتظهر في وثائق كسر الشفرات الشهيرة - التي كان مقرها قصر «بلتشلي»، في ريف «ووريكشير»، والتي كانت تستعمل جهاز «أولترا» الأسطوري لفتح أسرار «الأعداء»، حتى أن «ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا كان يسميها (magic السحر) - مجموعة من الإشارات تومئ إلى ما يبدو أنها «قنوات اتصال» بين القصر الملكي في القاهرة وبين دول المحور (ألمانيا - إيطاليا)، ثم إن بعض هذه القنوات كان «فاعلا» وبعضها الآخر خاملا.

ويظهر في الإشارات أنه كانت هناك مبكرا قناة اتصال في روما قام عليها الوزير المصري المفوض «مراد سيد أحمد» (باشا)، بتوجيه من القصر كلفه بـ «أن يجس نوايا «إيطاليا» عن «تصوراتهم» في شأن «التعامل» مع مصر». وكان الرد مقتضبا ومنسوبا إلى الكونت «شيانو» وزير الخارجية - (وهو في نفس الوقت متزوج من «إيدا» الابنة الكبرى لزعيم إيطاليا بنيتو موسوليني) - مفهومه «أن مصر يصح لها أن تتوقع منا معاملة أفضل مما تلقاه حاليا من الإنجليز».

كانت إيطاليا على وشك دخول الحرب مع ألمانيا، وكان الإحساس العام أن مصر في خريطة ما بعد الحرب، وفي حالة انتصار دول المحور داخل منطقة النفوذ الإيطالي، وهكذا فإن القصر الملكي في مصر لم يكن مطمئنا إلى عبارة عامة من الكونت «تشيانو» عن مستقبل مصر من المنظور الإيطالي، وهكذا طلب من الوزير المفوض «مراد سيد أحمد» (باشا) أن يحصل على معلومات أكثر تفصيلا. ويبدو أن مسئولا في وزارة الخارجية ألح أمامه «لماذا تصرون على تعهدات منا بمعاملة أفضل، دون أن تفعلوا شيئا يثبت استحقاقكم لذلك؟!»

وفيما يبدو فإن هذه الرسالة من روما هي ما جعل بعض «الإيطاليين» في القصر يوحون إلى الملك «فاروق» بـ: «أن أذكى ما يستطيع أن يفعله لمستقبل بلاده أن يهرب بطائرة إلى إيطاليا فور دخولها الحرب، ثم يعود بعد ذلك إلى القاهرة مع قواتها المنتصرة الزاحفة من ليبيا».

....

[وظهرت احتمالات هرب الملك في الشهادات المروية المصرية، وفي الوثائق البريطانية - قصة مثيرة.

ففي رواية «حسن يوسف» (باشا) أن «فيروتشي» كبير مهندسي القصر (وهو إيطالي)، كان الوسيط الذي نقل للملك «فاروق» اقتراح الهرب بطائرة عبر البحر إلى إيطاليا (مطار برنديزي العسكري) أو إلى ليبيا (مطار طبرق العسكري) و(ليبيا وقتها مستعمرة إيطالية).

وعاش الملك «فاروق» مع الفكرة أياما يبحث فيها ويقلب، فقد رأى أمامه ملوك الدانمرك والنرويج وهولندا ينتظرون جامدين (محسوبين على الحلفاء وإن لم يريدوا) - حتى أطبقت عليهم القوات الألمانية وحولتهم إلى أسرى في قصورهم، أو لاجئين خارج أوطانهم. وخطر له - كما زين فيروتشي وآخرون - أنه إذا هجر معسكر المهزومين - وهم على كل حال أعداؤه باحتلالهم لوطنه - ثم قصد إلى معسكر المنتصرين، وهم في هذه الظروف - قبل الحسم العسكري - سوف يقدرون جميله - إذن ففي مقدوره تأمين مستقبل البلد ومستقبل العرش باتفاق مبكر يجعله شريكا في النصر.

لكن الملك لم يكن يريد أن يهرب وحده، وإنما كان يفكر في أسرته أيضا. ويرجح «حسن يوسف» (باشا) أن الملك لم يتشاور في شاغله الكبير مع أحد غير والدته - وهمسا. ولم تكن الملكة «نازلي» متحمسة بمشاعرها، لكنها بعد ساعات عادت متحدثة بعقلها، ولديها عدد من الحجج، (يظن «حسن يوسف» (باشا) أن مصدرها كان «أحمد محمد حسنين» (باشا) الأمين الأول للملك، الذي انتقل أيامها إلى رئاسة الديوان). وكانت حجج الملكة «نازلي» أمام ابنها بما مؤداه أن الأفضل أن يظل «بقيمته» في بلده وينتظر التطورات ويتعامل معها من موقعه، وكما يتبدى له في ظروف جديدة. ورأيها أيضا أنه إذا دخل الطليان والألمان إلى مصر فإنهم سوف يكونون في حاجة إلى تعاونه معهم أكثر من حاجته هو إلى تعاونهم معه. ثم إنه إذا خرج الآن فقد يقدم الإنجليز على إعلان خلو العرش ويجدون من أسرته، (خصوصا ولي عهده الأمير «محمد علي توفيق») من يقبل الجلوس مكانه، وهو أول من يعرف «أنهم» مازالوا حتى الآن يعتقدون أن فرع الملك «فؤاد» اغتصب التاج من فرع «عباس حلمي». وإذا حدث وهرب «فاروق» ثم دخل الطليان والألمان إلى البلد، فليس هناك من يضمن أنهم لن يتعاملوا مع الرجل الذي يجلس على العرش، بدلا من الرجل الذي هرب إليهم، مع ملاحظة أن علاقته بهم سوف تسوء لأنهم لن يعطوه مسبقا - أو لاحقا - شيئا مما يطلبه للبلد، وبالتالي «لن ينوبه غير الكسوف». وكان واضحا أن هذه الحجج تتخطى الإدراك السياسي للملكة الأم، ولذلك تبدى كلامها درسا مستجدا لقنه لها «كاردينال» القصر، وصاحب النفوذ الرمادي فيه «أحمد محمد حسنين» (باشا) - وقد أضافت الملكة «نازلي» بعد ذلك وهي تشرح لابنها ملاحظة من عندها على الأرجح هي قولها «إنها لا تريد للعائلة المالكة في مصر أن تفعل ما تفعله أي فلاحة في الريف - ترفع جلبابها كي تغطي رأسها، وهي حين تفعل ذلك تكشف ساقيها - وربما أكثر»!

(وقد سمعت بنفسي هذا التعبير - بدون مساحيق! - ومن الملكة «نازلي» وبصوتها على التليفون في مكالمة من فندق «هاسلر» في روما حيث كنت - إلى فندق «فيرمون» في سان فرانسيسكو حيث كانت الملكة «نازلي» في شهر مايو ١٩٥٠ - وتلك قصة طويلة أخرى - لها دورها في مكانها!).

تلك هي الناحية المصرية من حكاية هرب الملك «فاروق» وسط الحرب إلى إيطاليا].

....

....

وأما على الناحية الأخرى فإن الوثائق البريطانية (الدبلوماسية والعسكرية) تحتوي على تفاصيل محددة عن قصة هرب الملك إلى إيطاليا أو إلى ليبيا. ففي اجتماع لجنة الحرب في القاهرة (وفق تقرير لامبسون بتاريخ ٢٥ يونية ١٩٤٠)، فإن المسألة نوقشت وحدثت أثناء المناقشة شبه مشادة بين القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط الماريشال «أرشيبالد ويفل» وبين السفير البريطاني في مصر «مايلز لامبسون»، وبدأت المناقشة وفقا لمحضر لجنة الحرب، حين طلب السير «مايلز لامبسون» تشديد كل إجراءات الرقابة على المطارات المصرية وفي الأجواء لمنع طائرة الملك من الخروج. وتدخل الجنرال «ويفل» بقوله: «لماذا لا تتركه يهرب»، واستطرد: «أنتم لا تثقون فيه، وهو يبادلكم المشاعر، وأنتم لا تستطيعون عزله الآن على الأقل - وكذلك فإن هربه قد يكون حلا مرضيا لكل الأطراف». ورد السفير: أن «تلك تعليمات لندن!».

وواصل «ويفل»: «لماذا لا تراجعهم في



الصورة الرسمية للسير «مايلز لامبسون» وعقيلته «جاكلين» في صالون السفارة البريطانية بالقاهرة



لندن برأينا، فقد يغيرون تعليماتهم؟». ورد «لامبسون»: «إننى على استعداد لأن أبعث إلى الخارجية بوجهة نظرك مقابل وجهة نظرى لاقتناعى بتعليماتهم كما تلقيتها، بأنه لا ينبغى السماح لفاروق بالهرب، وإلا أعطينا المحور فرصة دعائية ضدنا وسط العرب والمسلمين، وتراجع «ويفل» قائلا بأنه: «لا داعى لأن نحتكم إلى لندن، لقد عرضت وجهة نظرى فى المناقشة، وإذا كانت تعليمات الخارجية ووجهة نظر السفارة هنا على خلاف مع وجهة نظرى، فإن الموضوع منته بالنسبة لى لأنه بالدرجة الأولى سياسى».



● ويظهر فى الإشارات بعد ذلك ما يدل على أن الوزير المفوض المصرى فى «برن» (سويسرا) عبد الفتاح عسل (بك) طُلب منه القيام باتصال مع السفارة الألمانية هناك، وكانت هذه السفارة مركزا متقدما فى عاصمة الحياد العالمى (سويسرا) تشرف على شبكات واسعة من العلاقات. وقد رأى «عبد الفتاح عسل» أن يجس النبض أولا، فاتصل بالسفير الهنجارى فى «برن» ـ الكونت «فون ويتين» وكان صديقا حميما للسفير الألمانى فى العاصمة السويسرية ـ لكن هذه الاتصالات لم تصل إلى نتيجة تعكسها الوثائق.

● وتظهر الإشارات بعد ذلك أن هناك قناة اتصال فتحت عن طريق أحد معارف الملك من أمراء آل عثمان السابقين واسمه فى هذه الإشارات الأمير «عمر»، وكانت هذه الاتصالات مباشرة فى استنبول مع السفير الألمانى فى تركيا «فون بابن».

وترد فى الوثائق برقية من السير «هيوكنتشبول» سفير بريطانيا فى تركيا، وفيها يقول: «أنه علم أن الأمير «عمر» سأل «فون بابن» (باسم ملك مصر) ـ عن نوايا دول المحور تجاه مصر فى حالة تقدم جيوش هذه الدول فى أراضيها واحتلالها. كما أنه عرض استعداد الملك «فاروق» لأنواع من التعاون إذا حصل على وعد بضمان استقلال مصر بعد الحرب!»

ثم اتضح أن هذه القناة توقفت بناءً على نصيحة من «فون بابن» السفير الألمانى، وتكشف فيما بعد أن «الألمان» حصلوا على كل أسرار السفير البريطانى ـ من قبل أن يتوصل لها خبراء كسر الشفرة ـ فى أنقرة، بواسطة رئيس خدم السفارة الذى كان يقدم لسيده مخدرا فى شرابه كل ليلة، ويسرق مفاتيح خزانته ويصور وثائقه، وكانت نصيحة «فون بابن» بإيحاء من برلين أن تنتقل الاتصالات إلى طهران. فعيون بريطانيا «مفتوحة أكثر من اللازم» هنا ـ وأما هناك فإن نشاط الإنجليز مقيد لأن «رضا خان» شاه إيران وقتها يكره الإنجليز ويشك فى نواياهم. ثم إن طهران مكان مناسب أكثر لاتصالات يجريها ملك مصر ـ لأن صهره (والد «محمد» زوج فوزية ـ أخت فاروق) يستطيع أن يصون ويحمى.

● وهنا أصبحت طهران مورد ومصدر إشارات حساسة، خصوصا وقد رتب لها الملك «فاروق» وبعث «يوسف ذو الفقار» (باشا) ـ والد زوجته الملكة «فريدة» ـ وزيرا مفوضا فى العاصمة الإيرانية.

وكان أشد ما أثار قلق المخابرات البريطانية أن «الألمان» طلبوا معلومات من ملك مصر إثباتا لحسن نيته، وضمنها سؤال عن الخطط البريطانية للدفاع عن دلتا النيل، بما فى ذلك احتمال نسف القناطر الخيرية لإغراق شمال مصر وعرقلة تقدم المدرعات وجرارات المدافع الثقيلة الألمانية وعبورها من الصحراء الغربية إلى قناة السويس.

ولم يكن هذا الطلب بالذات موجودا فى أى «إشارة» لأن «يوسف ذو الفقار» (باشا) انتهز فرصة زيارة أحد أقاربه لطهران (السيد سمير ذو الفقار وقرينته السيدة زينات ذو الفقار)، وسلمه رسالة شفوية أملى عليه نقاطها الرئيسية، وفى طريق عودة هذا «القريب» من طهران إلى القاهرة مرورا بالقدس، تمكنت المخابرات البريطانية من تفتيش أوراقه.

وكانت تلك كلها «قرائن» لا تستطيع الحكومة البريطانية أن تتجاهلها، وعلق السير «ويليام سترانج» ـ الوكيل الدائم لوزارة الخارجية على تقرير من طهران بما نصه: «هذه أوضاع لابد أن نتصدى لها بقوة فى القاهرة».



وفجأة طرأت مضاعفات، ذلك أن القوات البريطانية التى تحارب فى الصحراء الغربية (فى أراضى مصر وأراضى ليبيا) ـ تمكنت من أسر ضابط إيطالى كبير يتولى قيادة فرقة ميكانيكية تقدمت داخل الحدود المصرية، واسمه الجنرال «بيسكا تورى»، وروى رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى مصر الجنرال «ستون» فى تقرير له أنه عندما حكى للملك «فاروق» أن الجنرال «بيسكا تورى» حين وقع فى الأسر، كانت وراءه قافلة سيارات تحمل إحداها أربع جميلات إيطاليات ـ فإن تعليق ملك مصر لم يزد على اقتراح قاله وهو يضحك: «إن العدل بين مصر (التى تجرى المعارك على أرضها)، وبين القوات البريطانية (التى تقاتل فى هذه المعارك) يفرض تقسيم الغنيمة، «الجنرال لكم ـ والبنات لنا». ولم يكن الملك مدركا للجانب الأخطر فى أسر الجنرال الإيطالى، ذلك أن تفتيش سيارة «بيسكا تورى» أدى للعثور فيها على وثائق لها حساسية خاصة؛ ضمنها صورة بالنص لخطة بريطانية وضعت للدفاع عن منطقة «سيوة»، والقوس الواصل بينها وبين «طبرق»، وتلك هى النقطة الأضعف فى الدفاعات البريطانية؛ لأنها النقطة التى يمكن منها تطويق الجبهة الشمالية الساحلية، كما أنها النقطة التى يمكن منها الوصول إلى عمق الصعيد المصرى، وفصل الشمال وفيه دلتا النيل عن الجنوب ـ من أسوان إلى بعيد فى السودان.

وكان وضع هذه الخطة البريطانية قد اقتضى تعاونا مع «وزارة الدفاع الوطنى» المصرية بحكم استعدادات مطلوبة بين سيوة والصعيد يحتاج تنفيذها إلى تعاون السلطات المصرية المختصة. وفى ذلك الوقت كان «على ماهر» (باشا) مازال فى رئاسة الوزارة، ووزير الدفاع الوطنى معه «صالح حرب» (باشا)، ورئيس الأركان «عزيز على المصرى» (باشا)، والإنذار الأحمر بالخطر أن الثلاثة من المصنفين رجالا للقصر الملكى.

وبعد تحقيق فى القضية تولاه الجنرال السير «ميتلاند ويلسون» ـ تبين للسلطات البريطانية أن أوراق الخطة التى عثر عليها فى سيارة الجنرال «بيسكا تورى» هى صورة تسلمها وزير الدفاع الوطنى المصرى بيده من القائد العام للقوات البريطانية فى مصر أثناء التنسيق بين الطرفين لتأكيد خطة الدفاع عن قوس سيوة ـ طبرق. وقد تعهد الوزير «صالح حرب» (باشا) بأن هذه الخطة سوف تحفظ فى خزينته ريثما يتم تنفيذ ما يلزمها من مهام وإجراءات، لكنه تبين من تحقيق الجنرال السير «ميتلاند ويلسون» أن «صالح حرب» (باشا) ـ أمر بنسخ مجموعة صور للخطة: نسخة أرسلها إلى رئيس الوزراء (على ماهر)، ونسخة لرئيس الأركان (عزيز المصرى)، ثم إن نسخة رئيس الوزراء (على ماهر) أرسلت صورة منها إلى القصر الملكى لعلم الملك «فاروق» (وكان ذلك طبيعيا ـ وضروريا).

وكتب الجنرال السير «ميتلاند ويلسون» تقريره السرى عن نتيجة التحقيق، وأشار إلى أنه لم يستطع التوصل إلى نتيجة قاطعة؛ لأن المسئولين المصريين الذين سألهم عمدوا إلى توجيه الاتهام نحو موظف محفوظات فى وزارة الحربية المصرية (قُبض عليه فعلا)، ثم عادت السلطات المصرية للتلميح باحتمال أن تكون نسخة من الخطة قد سُرقت من جهة بريطانية وصلت إليها الأوراق بحكم اختصاصها».

ولم تكن القيادة البريطانية مستعدة لقبول هذه التفسيرات وسندها اعتباران:

أولهما: أن الخطة عليها تعديل تم بناء على طلب «عزيز المصرى» (باشا)، وذلك التعديل مرصود على الخريطة التى عثر عليها ضمن أوراق الجنرال «بيسكا تورى».

وثانيهما: أن وزير الدفاع الوطنى المصرى «صالح حرب» (باشا) ذكر للجنرال «ميتلاند ويلسون» فى البداية أنه لم يرسل نسخة من الخطة إلى أى جهة خارج وزارته، لكنه عاد بعد ذلك وغير أقواله فإذا النسخ التى جرى توزيعها كثيرة ومتناثرة.

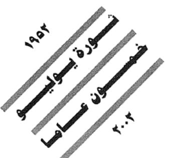
ويلفت النظر خلال التحقيق الذى أجراه الجنرال السير «ميتلاند ويلسون» أن السؤال المضمر وراء كل علامة استفهام كان: «هل للملك فاروق دور فى الموضوع؟»، وكان أشد ما ضايق السلطات البريطانية فى تطور التحقيق أنه عندما طرح السؤال الحرج على استحياء ـ أن القصر الملكى رد بطلب إجراء تحقيق قانونى عن «تسرب خطة الدفاع عن سيوة»، عُهد به إلى النائب العام المصرى «عبد الرحمن الطوير» (باشا).

وكان ذلك آخر ما تريده السلطات البريطانية التى هالها أن يكون هناك تحقيق يجريه النائب العام المصرى وتكون تلك أسرع وسيلة لإذاعة أسرارها ـ (مع ملاحظة أن الخطة الأصلية تم تغييرها قبل نشوب القتال).



وزادت فى تلك الأوقات واقعة أكثر إزعاجا، ذلك أن «عزيز المصرى» (باشا) الذى خرج من منصبه مع إخراج وزارة «على ماهر» (باشا) ـ قام بمغامرة بالغة الغرابة، ذلك أنه بمساعدة اثنين من الطيارين (منهم حسين ذو الفقار صبرى) خطفوا طائرة عسكرية مصرية، وانطلقوا بها فجرا من مطار ألماظة، لكن الطائرة سقطت بعد قليل من إقلاعها، ووجهت إلى الخاطفين الثلاثة تهمة الخيانة. وعندما بدأ التحقيق مع «عزيز المصرى» (باشا) كان دفاعه أنه «قام بما قام به بتكليف من المخابرات البريطانية، حمله إليه ضابط برتبة بريجادير (لا يتذكر اسمه

عندما تشاور الملك «فاروق» مع والدته الملكة «نازلى» فى فكرة الهرب بطائرة عبر البحر إلى إيطاليا أو إلى ليبيا التى اقترحها عليه كبير مهندسى القصر الإيطالى «فيروتشى» قالت له «إنها لا تريد للعائلة المالكة فى مصر أن تفعل ما تفعله أى فلاحة فى الريف. ترفع جلبابها كى تغطى رأسها وهى حين تفعل ذلك تكشف ساقيها.. وربما أكثر



بالكامل) أبلغه ـ وأثبت له ـ أنه مكلف من القيادة العسكرية البريطانية» برسالة مقتضاها أن يطير «عزيز» سرًا إلى بغداد ويقنع رئيس الحكومة الانقلابية التي قامت فيها وهو «رشيد عالي الكيلاني» ـ بأن الأفضل له ولضباطه أن يحتفظوا بولاء العراق التقليدي لبريطانيا، وأن لا يلتفتوا إلى محاولات ألمانية تشدهم ناحية المحور».

وحين نقل رئيس الوزراء «حسين سري» (باشا) هذه الرواية من تفاصيل التحقيق مع «عزيز المصري» إلى السفير البريطاني «مايلز لامبسون»، فقد السفير أعصابه وخبط على المكتب يقول: «إن ذلك كلام لا يصدقه عقل، وأن صاحبه إما مجنون أو أنه يعتقد أن الآخرين مجانين»!

ومرة ثانية تساءل «مايلز لامبسون» موجها كلامه لرئيس الوزراء: «أليس من حقي الشك في أن هذه القصة الملفقة ستار لآخرين وراءها، وأنكم تحاولون تغطية «شيء ما» بتمويه التحقيق مع «عزيز المصري»؟!».

ويمكن القول أن شبح الدبابات البريطانية المتجهة لحصار قصر عابدين «وردع الملك فاروق» بدا في الواقع كرد فعل على رسالة «تأنيب» تلقاها السفير البريطاني السير «مايلز لامبسون» من السير «ألكسندر كادوجان» الوكيل الأول بوزارة الخارجية، وهو القائم على التنسيق بين الدبلوماسية والسياسة، أي بين وزارة الخارجية ورئاسة الوزارة، وفي هذه الرسالة يقول السير «ألكسندر كادوجان» موجها كلامه للسير «مايلز لامبسون» بما نصه: «إنني مندهش أنك مسئول عن مصر من سبع سنوات، ومع ذلك نرى في مصر ما نراه الآن، وهو ما يعني أن قبضة بريطانيا غير محكمة في أمر يتصل بمصالحها الحيوية وأمنها في الشرق الأوسط ومجهودها الحربي جنوب البحر الأبيض».

ثم يضيف «كادوجان» «إن بعض ما يجري في مصر بلغ درجة الخيانة، ومع ذلك فإن حزمنا يبدو رخوا».

ومعنى ذلك أنه حين قدم السير «مايلز لامبسون» إنذاره إلى الملك «فاروق» يوم ٤ فبراير، فإن الرجل ـ إلى جانب أسباب موضوعية ـ كان يدافع عن كرامته وسمعته ومستقبله.

وقد اقتنع «لامبسون» ـ وشاركته لندن ـ أن هذه «الألعاب الملكية» زادت خطورتها، وأن عودة حكومة وفدية إلى السلطة زادت أهميتها كضرورة لضبط الأمور عن طريق «حزب» يمثل «شرعية الأغلبية» في مصر على الأقل، ويكون جاهزا لحفظ المصالح البريطانية: العسكرية والسياسية.

وكان ذلك هو الطريق البريطاني إلى قصر عابدين مساء يوم ٤ فبراير ـ وبالدبابات! ■

الطريق الملكي إلى ٤ فبراير ـ وبعده

■■ كان الملك «فاروق» حين اعتلى عرش مصر سنة ١٩٣٧، صبيا جميلا، مشرقا كالصباح الندي. وبعد غياب الملك «فؤاد» بملامحه العابسة، وشاربه المعقوف، وإصراره العنيد على فرض إرادته فوق الشعب وضد الدستور ـ فإن ابنه ظهر أمام الشعب المصري شابا مهيأ لملاقاة تغييرات ضرورية جاء وقتها وطال انتظارها.

وبدا الأفق أمام الملك الجديد واسعا غير محدود:

● أولا: لأن العلاقات المصرية البريطانية (وهي مفتاح الاستقرار في مصر أيامها)، أمكن ترتيبها على نحو معقول بمعاهدة سنة ١٩٣٦، التي وقعها «مصطفى النحاس» (باشا) زعيم الوفد، وممثل الأغلبية وقتها بغير جدال. وبمقتضى هذه المعاهدة فإن القوات العسكرية البريطانية سوف تنسحب من المدن الرئيسية وتبتعد بالذات عن العاصمة! ـ إلى قواعد في منطقة قناة السويس، وذلك يعطي للبلد «شكل دولة مستقلة». وكان هناك تصور عام بأن استمرار الوجود الإنجليزي في العاصمة المصرية إهانة يومية، لأن الثكنات العسكرية البريطانية وعليها ساريات الأعلام العالية قائمة وسط القاهرة في (ميدان الإسماعيلية (التحرير) وميدان محطة السكك الحديدية) وعلى أطرافها (من ضاحية حلوان إلى العباسية وحتى المرج)، كما أنه في الإسكندرية كانت قوات الاحتلال البريطاني معسكرات متصلة (من رأس التين إلى مصطفى باشا إلى المعمورة).

ويبدو أن التشوق إلى الاستقلال هيأ لكثيرين أن تخبئة الوجود العسكري البريطاني في منطقة القناة تكفي للتظاهر والادعاء بالتحرر.

(وفيما بعد عندما نشبت الحرب العالمية قبل أن يتم إعداد منطقة القناة وطرق المعاهدة إليها، فإن الانسحاب البريطاني في المدن الكبرى في مصر تعطل، بل وأصبح الوجود العسكري الأجنبي أثقل عما كان في أي وقت).

● وثانيا: لأن علاقة القصر بالسفارة البريطانية (وهي معقل القوة الحقيقية) أصبحت قابلة للاستقرار، لأن بريطانيا بعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ أصبحت مستعدة لفتح صفحة جديدة من التعاون انتظارا لجو دولي مضطرب، (أخطر ما فيه أن إيطاليا تحت زعامة «موسوليني» تفتحت شهيتها لحيازة المستعمرات، فقامت بغزو الحبشة الملاصقة للسودان (جنوب مصر)، كما عززت قبضتها على ليبيا (غرب مصر)، وكأنه بعث جديد للإمبراطورية الرومانية، وعلا صوت الدعوة إلى هذا البعث الجديد عندما راح «موسوليني» يتحدث عن «بحرنا» (يقصد البحر الأبيض المتوسط).

ومع أن السياسة البريطانية لعبت باستمرار ـ واستفادت طوال الوقت من التنافس بين قوة الوفد في الشارع، وقوة القصر فوق الهرم الرسمي للسلطة، فإن السفارة البريطانية لم تكن متلهفة ـ في الأوضاع الجديدة ـ على لعبة «فرقْ تَسُدْ» التقليدية، بسبب الصعود السريع لـ: «هتلر» في أوربا وعلاقته الوثيقة مع الدوتشي (الزعيم الإيطالي) «بنيتو موسوليني» ـ وهو ما جعل هذه اللعبة خطرة في ظرف مضطرب!

والواقع أن السفارة ذلك الوقت كانت على استعداد لأن تتقبل من القصر أكثر مما تتقبل من الوفد، وتقديرها، (كما هو واضح في الوثائق) أن الوفد «أدى مهمته» ووقع معاهدة سنة ١٩٣٦ ـ واختفى. وفي القصر الآن ملك جديد له حصانته الدستورية، في حين أن الوفد قوة (شعبية!) يمكن إبعادها بسطور يوقعها الملك، الذي يظل قوة (حاضرة) لا يزيحها غير السلاح، إذا كانت بريطانيا على استعداد لاستعماله في مصر.

ومن ناحية أخرى، فقد بدا أن الميزان في الشارع يميل لصالح الملك الشاب الذي أسر عواطف شعبه، فيما بدا «النحاس» (باشا) في مواجهته رجلا ينتمي إلى زمن مضى!

● وثالثا: لأن النخب المثقفة في مصر تحلقت ملتفة حول القصر، وكانت هذه النخب منذ لحظة طلب الاستقلال الأولى ضمن صفوف الوفد ـ لكنها هاجرت منه موجة بعد موجة إزاء ما اعتبرته ديكتاتورية تهييج تعمدها الوفد لتحويل جماهير الشعب «إلى عبادة فرد بدعوى الوطنية».

فالنخب التي قادها رجال من أمثال «عدلي يكن» و«عبد الخالق ثروت» جرى وصفهم على ألسنة زعماء الوفد بأنهم «برادع الإنجليز». وعندما حاول هؤلاء أن يفاوضوا للحصول على الاستقلال ـ لاحقهم شعار أن «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس»، وتبعه شعار أنه «لو رشح الوفد حجرا لانتخبناه» ـ ثم بلغت «عبادة الفرد» ذروتها حين انطلق شعار «إن الاحتلال على يد سعد، خير من الاستقلال على يد عدلي». ولم تكن تلك «عبادة الفرد» فقط ـ وإنما كانت حملات تخوين سافرة دخلت إلى الميدان السياسي المصري، وهنا فإن النخب المثقفة (هكذا رأت وتصرفت) راحت تهاجر من الوفد موجة بعد موجة، ومن هذه الموجات المهاجرة نشأ حزب الأحرار الدستوريين (بقيادة محمد محمود باشا)، ونشأ حزب السعديين (بقيادة أحمد ماهر باشا)، كما ظهرت تجمعات مختلفة من المستقلين الذي آثروا أن يمارسوا السياسة من خارج الالتزام الحزبي.

لكن مشكلة كل هؤلاء الخارجين من الوفد أن سندهم في الشارع (إزاء شعبية الوفد) كان ضئيلا، وبالتالي فإن اعتمادهم على القصر (أو على الإنجليز أحيانا!) كان كبيرا. وذلك وضعهم بين المطرقة والسندان، والمستجد في الظروف الطارئة أن هؤلاء جميعا راحوا يتنفسون بارتياح، لأن القصر أصبح بوجود الملك «فاروق» صورة جذابة ومحبوبة، كما أن الإنجليز تحولوا بمعاهدة سنة ١٩٣٦ من «قوة احتلال» إلى «صديق وحليف».

● ورابعا: فقد وجد الملك «فاروق» حول عرشه مجموعة من الرجال الأقوياء، أهمهم في ذلك الوقت «علي ماهر» (باشا) رئيس الديوان الملكي، ثم رئيس الوزراء ـ تحيط به مجموعة من أنصاره بينهم شخصيات لها وزنها في مصر وخارجها مثل «عزيز المصري» (باشا)، و«صالح حرب» (باشا)، و«محمد علي علوبة» (باشا).



وكان الأزهر بالتقليد ملكيا، وزاد النفوذ الملكي فيه بشخصية رجل على رأسه مثل الشيخ «محمد مصطفى المراغي»، ومعنى ذلك أن المؤسسة الدينية الرسمية، وهي في تلك الأيام صاحبة مرجعية رفيعة في العالم الإسلامي ـ أعطت للملك شهادة «صلاح» استحقها فيما بدا من ذهابه إلى صلاة الجمعة كل أسبوع مؤديا فرضه وراء الإمام الأكبر العتيد.

وفي نفس الوقت فإن الرجل الأهم في المؤسسة العلمية المصرية كان رجلا نادرا في قيمته الثقافية، حتى لقد اعتبر المعلم الأول في مصر وهو «لطفي السيد» (باشا)، وكان «لطفي السيد» واحدا من قادة النخب المهاجرة من الوفد، لكن قيمة الرجل علميا تجاوزت به نطاق الحزبية (مع الأحرار الدستوريين)، ووضعته على رأس الجامعة، وعلى المقدمة من تيار تنويري متميز.

ومعنى ذلك أنه كان على القمة في علوم الدين والدنيا في ذلك الوقت من مطلع عصر

الملك «فاروق»، رجلان أحدهما وهو الشيخ «المراغى» نافذ على القصر، والثانى وهو «لطفى السيد» نافر من الوفد.

على أنه برغم الآفاق المفتوحة - فإن الفتنة كانت على وشك أن تتحرك، ولم تكن تلك خطيئة أحد، وإنما حكم حقائق تبحث لنفسها عن صيغة مختلفة فى واقع متغير - أو يبدو متغيرا.



كانت مصر - كعادتها - فى كل «لحظة وعد» - تبحث عن نفسها وهويتها ومستقبلها.

● فى لحظة حلم سابقة كان «محمد على» قد أخذ مصر إلى الشام (ضمن مشروع عثمانى يجدد شباب الخلافة فى استنبول بواحد من رجالها جاء مأمورا منها إلى مصر، وهو الآن يريد العودة إليها آمرا ووراءه مصر) - وضاعت «لحظة الوعد» بالنسبة لمحمد على، لأن الحلم كان أكبر من طاقة مصر التى اعتمد عليها طموحه.

● وفى لحظة خيال لاحقة كان إسماعيل (حفيد محمد على) قد أخذ مصر إلى أوربا معتبرا أنها قطعة طارت منها عبر البحر - لكن «أوربة مصر» كانت وهما مستحيلا بسبب الحقائق الجغرافية والتاريخية، ولم يكن كافيا للتغطية على هذه الحقائق استقدام مهندس فرنسى مثل «هوسمان» يفتح شارعا وسط القاهرة مثل شارع «محمد على» يكون بناؤه على طراز شارع «ريفولى» فى باريس - أو أن تقوم فى قلب العاصمة المصرية دار للأوبرا يفتتحها موسيقار إيطالى مثل «فيردى» بأوبرا كتبها خصيصا لحفل الافتتاح مثل أوبرا عايدة!

● وكان الملك «فؤاد» (ابن إسماعيل) قد شهد لحظة «وعد ثالثة» بعد الحرب العالمية الأولى - والداعى أن الحرب العالمية الأولى انتهت بسقوط الخلافة الإسلامية العثمانية فى استنبول، ودفعت إلى خيال الملك «فؤاد» بحلمين لبسا بعضهما: شعبه يطلب الاستقلال، وهو (الملك) يطمح للخلافة (وظنه أنه أجدر بها من رجلين غيره خرجا إلى طلب إرثها هما: «الشريف حسين» أمير مكة، والسلطان «عبدالعزيز آل سعود» أمير نجد).

لكن «لحظة الوعد» فى أحلام «فؤاد» ضاعت بدورها لأن قيادة الحركة الوطنية المطالبة بالاستقلال كانت أقرب إلى «باريس» منها إلى «استنبول»، كما أن الجيش الذى اعتمد عليه حلم «محمد على» لبلوغ قصور البوسفور - لم يكن جاهزا ليحمل حلم حفيده مترا واحدا وراء سيناء!

والآن ومع شباب ملك ويقظة شعب يبحث عن نفسه وهويته ومستقبله - عاد طيف الخلافة يطرح نفسه أمام مجموعة الرجال الأقوياء المحيطين بالقصر وهم الأقدر على الرؤية الأبعد والأوسع.

وكانت البدايات مبهمة تحس بالضرورة التاريخية ولا تجد طرحا سياسيا يعبر عنها.

● فالشيخ «محمد مصطفى المراغى» شيخ الأزهر اقترح أن يكون تتويج الملك الشاب ببيعة إسلامية فى الأزهر.

لكن «مصطفى النحاس» (باشا) رئيس الوزراء رفض وأصر على الرفض (وله كامل الحق)، لأن بيعة ملك فى الأزهر تأخذ الدولة من الحاضر إلى الماضى، كما أنها تهدر فكرة الدستور والقانون، بادعاء يضفى على الملك سلطة أنه ظل الله على الأرض (وذلك خطأ وخطر!).

● و«على ماهر» (باشا) راح فى نفس الاتجاه ولكن على طريقة عائلة «هابسبورج» المالكة فى «فيينا» (والتى قيل أنها وسعت رقعة ملكها داخل غرف نوم الأمراء والأميرات - أى بالمصاهرة - بأكثر مما وسعت هذه الرقعة بفتوح جيوشها فى ساحات الحرب). وكذلك سعى «على ماهر» (باشا) إلى مصاهرة ملكية بين أقوى بلدين فى الشرق: مصر وإيران، وكان أن خُطبت الأميرة «فوزية» أخت «فاروق» إلى «محمد رضا بهلوى» ابن رضا خان شاه إيران.

وكانت تلك محاولات تأخذ السياسة المصرية بأسلوبين مختلفين - إلى ذات الاتجاه:

- «على ماهر» يأخذ السياسة المصرية «بالزواج» - إلى الشرق (عبر سيناء).

- و«مصطفى المراغى» يأخذ السياسة المصرية «بالبيعة» - إلى الشرق (ديار الإسلام).

والشاهد أن تلك كانت أشواقا مبكرة تعبر عن دواع تشد مصر خارج حدودها نحو محيطها الإنسانى والثقافى والأمنى. وفى حين أن تلك الأشواق المبكرة لم تكن محددة، فإن الدواعى المحركة لها كانت حقيقية!

ولم يكن الإنجليز سعداء بمسألة الخلافة، سواء كان التعبير عنها بتتويج ملكى إسلامى فى الأزهر، أو بأميرة مصرية على عرش الطاووس فى طهران.

وكذلك لم يكن «النحاس» (باشا) سعيدا بها، لكن أمر «النحاس» (باشا) فى تلك الفترة كان مما يمكن مواجهته، وبالفعل فإن الملك «فاروق» لم يلبث أن أقال وزارته (آخر ديسمبر ١٩٣٧)، بناء على نصيحة رئيس ديوانه «على ماهر» (باشا)، وبرغم نصيحة أمه الملكة «نازلى» وهى أيامها صاحبة تأثير طاغ عليه (كما قالت لى بنفسها، وكررت أنها حذرت ابنها من «تقليد أبيه» فى عداء الوفد، لأن ذلك سوف يضعه عاجلا أو آجلا ضد شعور الناس!).

على أن الإنجليز وجدوا وسيلة أخرى لمقاومة فكرة الخلافة، وذلك بأن تظهر المعارضة للفكرة من داخل أسرة «محمد على» ذاتها!

وتحفل الوثائق البريطانية فى تلك الفترة بمسألة الخلافة، وعلى سبيل المثال فإن الوثيقة (رقم ٤٥٩ - ملف ٥٨ /٦ /٣٣٨) وهى تقرير من السفارة البريطانية فى القاهرة إلى وزير الخارجية البريطانى - يقول متوجها بالخطاب إلى اللورد «هاليفاكس» وزير الخارجية:

«سيدى اللورد

بالإشارة إلى رسالة فخامتكم بشأن مسألة الخلافة أتشرف بأن أضع أمامكم هذه النقط:

- لا ننصح بتوجيه «لفت نظر» إلى الحكومة المصرية فى شأن هذا الموضوع.

- لا نحتاج إلى تأكيد صعوبة تحقيق هذا الحلم الذى يراود الملك «فاروق» والمحيطين به.

- سوف تقوم فى العالم الإسلامى ومن أطراف متعددة - معارضة للمطلب المصرى والأفضل لنا أن ننتظر.

- فى هذه المرحلة يمكن تنبيه بغداد وجدة واستنبول إلى الأصوات الداعية للخلافة فى القاهرة».

....

....

ولم تمض أيام حتى كان السفير البريطانى فى القاهرة ينبه لندن إلى حديث مهم أدلى به الأمير «محمد على» وهو أكبر أمراء أسرة «محمد على» سنا - وكان رئيسا لمجلس الوصاية على الملك «فاروق» قبل بلوغه سن الرشد - ثم أصبح وليا للعهد بالأمر الواقع (وبمرسوم ملكى فيما بعد).

وفى هذا الحديث أبدى الأمير «محمد على» رأيا صريحا فى موضوع الخلافة ضمن حديث مع مراسل الأهرام فى لندن، قال فيه:

«إن خلافة المسلمين عبء ضخم لا تستطيع مصر تحمله، فتلك مسئولية تكلفها ما لا تطيق، ذلك أن دولة الخلافة لابد أن تكون قادرة وجاهزة للدفاع عن ديار الإسلام على اتساع العالم الإسلامى من الصين إلى المغرب. وذلك يتخطى طاقة مصر ومواردها، ويفوق قدرتها على تحمل المسئولية. وفى نفس الوقت فإن قعودها عن هذه المسئولية - بمحدودية طاقتها ومواردها - يسىء إلى فكرة الخلافة ويسىء إلى مصر فى ظرف يحتاج فيه البلد إلى كل طاقته وموارده لحل مشكلاته الكبيرة والمتراكمة».

وفى كل الأحوال فإن مسألة الخلافة لم تلبث أن توارت لأن الحرب العالمية الثانية دهمت الجميع!

كان الملك «فاروق» «وطنيا مصريا» لا شك فى ذلك، وحتى عندما غرق - لاحقا - فى مستنقع من الفساد زاد وفاض على ما حوله - فإن «وطنية الملك» - على عكس معظم حاشيته - ظلت سليمة فى تعبيرها عن نفسها حتى بتلقائية العاطفة.

وطبقا لرواية «حسن يوسف» (باشا) - فإن الملك «فاروق» كان مهتما بأكثر مما يتصور الناس بمتابعة تطورات الحرب، وقد وضع فى مكتبه خريطة كبيرة لأوربا وراح يدرس معاركها ومواقعها بمساعدة قائد الحرس الملكى «عمر فتحى» (باشا)، وقد بهره سقوط بولندا السريع، وافتتن بقادة الجيش الألمانى إلى درجة أنه كان يحفظ أسماءهم، ويراقب التحركات على جبهاتهم يوما بعد يوم، وفى اهتمام الملك بشئون الحرب فإنه قدر فى عز حماسته أن النصر فيها من نصيب الألمان، وقد تضايق الجنرال «ستون» رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى مصر: لأن «فاروق» امتدح أمامه سرعة حركة الجنرال «فون بيك» الذى قاد المدرعات الألمانية فى عملية بولندا. وسجل الجنرال «ستون» فى أوراقه «أنه نصح الملك بالتروى فى أحكامه لأن الحرب مازالت فى مشاهدها الأولى، وأن إعجابه بأداء «فون بيك» سابق لأوانه، لأن نتيجة الحرب لن تتقرر على مستوى العمليات فى ميدان قتال بالذات، وإنما تتقرر على مستوى الحرب واستراتيجياتها الكبرى» - وأضاف الجنرال «ستون» أن «ملك مصر» يعتبر نفسه خبيرا عسكريا لأنه قضى أقل من عامين فى مدرسة عسكرية بريطانية (وولويتش) لم يتعلم فيها شيئا - وتكرر سقوطه حتى تقرر فصله، ثم سُمح له - مراعاة لمكانته - أن يحضر الدروس مستمعا مرتين فى الأسبوع فترة بعد الظهر، والحاصل أن إعجاب «فاروق» بالقادة العسكريين الألمان ساقه إلى توقع انتصار جيوشهم، وبالنسبة لملك مصر فقد كانت تلك مقدمة ترتب بعدها عليه مسئوليات إزاء عرشه وتجاه بلده!

ويقول «حسن يوسف» (باشا) أنه لم ير فى أوراق القصر

كان الملك « فاروق » « وطنيا مصريا »
لا شك فى ذلك، وحتى عندما
غرق - لاحقا - فى مستنقع الفساد
زاد وفاض على ما حوله - فإن « وطنية الملك » -
على عكس معظم حاشيته - ظلت
سليمة فى تعبيرها عن نفسها
حتى بتلقائية العاطفة



ولم يسمع من الملك ما يؤكد وجود اتصالات بينه وبين الزعماء الألمان أو الطليان ـ لكنه سمع أن «فاروق» ألح أكثر من مرة بأننا «لابد أن نشوف مستقبلنا» ـ ومع ذلك فإن الوثائق الألمانية التي قدمها مدير المخابرات الألماني الجنرال «كاناريس» إلى قيادة الحلفاء عندما اتصل بهم ولجأ إليهم أواخر الحرب ـ كان فيها ما يشير إلى اتصالات قام بها الملك عن طريق «كونت برتغالي له مصالح في البرازيل»، وكانت الإشارات إليه في الأوراق بوصف «البرتغالي» دون زيادة في التفصيل، وفي هذه الإشارات وردت تفاصيل عن اتصالات قام بها «مندوبون عن ملك مصر» في أنقرة وفي طهران وفي جنيف، والواضح في الإشارات أن الملك كان لديه ما يريد توصيله إلى الألمان بالذات وفيه:

● أن حكومته الحالية تتعاون مع الإنجليز ـ في حدود الأمر الواقع المتمثل في توقيع مصر على معاهدة سنة ١٩٣٦، وهي لا تملك خيارا آخر مع وجود قوات بريطانية كبيرة على الأرض المصرية.

● أن الملك يأمل أن تقدر القيادة الألمانية أن مصر ليست طرفا في هذه الحرب حتى مع كون أراضيها وتسهيلاتها مسخرة للجهد الحربي البريطاني ـ ومع أنه شخصيا لا يحب ذلك إلا أنه مضطر إليه.

● وأن حكومته عندما أقرت سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب»، كانت في الواقع تقصد نوعا من إعلان حياد مصر، لتأسيس حقها في الاستقلال عندما تنتهي الحرب (بانتصار المحور).



وفي الأسابيع الأخيرة من سنة ١٩٤١، بدأ القصر يحس أن هناك تغييرا في توجهات السياسة البريطانية في مصر، ويتضح أنه كان هناك سببان رئيسيان قادا إلى ذلك التغيير:

السبب الأول: أن السياسة البريطانية أصبحت واثقة من النتيجة النهائية للحرب بعد أن تورط «هتلر» في غزو الاتحاد السوفيتي و«غرز» في ثلوج الشتاء الروسي المخيف (كما حدث لـ «نابليون» قبل «هتلر») ـ وزاد أن الولايات المتحدة دخلت الحرب (بعد الهجوم الياباني على قواعدها البحرية في بيرل هاربور) ـ ومعنى ذلك أن النتيجة النهائية للحرب لم تعد موضع شك بسبب تحول واضح في موازين القوى بين المتحاربين، ومفهوم ذلك أن الحكومة البريطانية تصبح قادرة وواثقة من تحمل تبعات تغيير كبير في القاهرة.

والسبب الثاني: أن الفيلق الألماني الذي عبر البحر إلى مصر تحت قيادة «روميل» سوف يحاول شن هجوم حاسم وأخير على مصر لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في الشرق، ومع أن ذلك في التقدير البريطاني لن يغير شيئا في النتيجة النهائية للحرب ـ فإن أهمية قناة السويس تفرض على بريطانيا خوض معركة مصر بكل طاقتها ـ وأن لا تفرط في القناة ومنشآتها حتى لو كانت متأكدة من استردادها في يوم قادم على مسار الحرب!

وإذا كان ذلك ـ فإن تأديب الملك «فاروق» ممكن ومطلوب، سواء بإزاحته بعيدا عن العرش ـ أو تركه مكانه بعد تكسير أجنحته وتحويله شبه أسير في قصره.

ويروي «حسن يوسف» (باشا) أن الملك «فاروق» استشعر بعد تورط الألمان في روسيا، وبناء على إلحاح من رئيس الديوان «أحمد محمد حسنين» (باشا)، أن الانتصار الألماني في الحرب لم يعد مضمونا كما كان، وأن الأسلم والأفضل له إعادة حساباته، لأن الإنجليز في حالة الضرورة سوف يعترضون طريقه، ويفرضون عليه ما لا يريد، والأسلم أن يسبقهم ويحصن موقفه إزاءهم بحكومة أغلبية وفدية يرأسها «مصطفى النحاس» (باشا). كذلك أضافت الملكة «نازلي» على طريقتها نصيحة إلى ابنها مؤداها ـ طبقا لرواية «حسن يوسف» (باشا) ـ أن «الإنجليز أولاد ...»، وسوف «يوقعون الدنيا في بعضها»، ويفوزون في النهاية، والأحسن تصليح العلاقة معهم».

وسواء كان الملك «فاروق» أقنعه ما أبداه رئيس ديوانه أو ما علقت به والدته، أو أنه أدرك بحسه أن مسار الحرب يتذبذب ـ على الأقل ـ فإنه وافق على إيفاد «عبد الوهاب طلعت» (باشا) وكيل الديوان الملكي وقتها إلى مقابلة سرية مع «النحاس» (باشا) الذي كان يقيم مع أسرته في الريف بعيدا عن الغارات الجوية التي تعرضت لها القاهرة والإسكندرية من الطيران الألماني والإيطالي. وكانت تعليمات «فاروق» إلى «عبد الوهاب طلعت» (باشا) قبل ذهابه لمقابلة «النحاس» (باشا) في «كفر عشما» قرب سمنود ـ مختصرة في عبارة «شوف عنده إيه؟!».



ويروي «حسن يوسف» (باشا) أن «أحمد حسنين» (باشا) كان لديه مشروع لتشكيل وزارة ائتلافية تحت رئاسة «النحاس» (باشا)، وكان متأكدا أن في وسعه إقناع الملك «فاروق» بالمشروع على أساس أن أفضل وضع لمواجهة احتمال غزو (لن تتغير به نتيجة الحرب على الأرجح، لكنه سوف يكلف مصر غاليا) ـ أن يكون «البلد متماسكا». وكانت أقوى الحجج التي توصل بها «حسنين» (باشا) إلى إقناع الملك هي أنه «لو دخل الألمان والطليان، فإن الجيش الإنجليزي سوف يحمل ملك مصر معه قبل أن يرحل باعتباره ممثل الشرعية المصرية (كما حدث لملوك آخرين في أوربا مثل ملوك النرويج والدانمارك وهولندا) ـ ثم إنه إذا بقي الملك وحده في البلد مع دخول الألمان والطليان، فقد يصبح رهينة في أيديهم في حرب لم تحسم نتائجها بعد ـ ولذلك فالحل الأمثل الآن أن تكون هناك حكومة يرأسها «النحاس» (باشا) ممثلا للأغلبية، ومعه كل زعماء أحزاب الأقلية، وتكون هذه الوزارة هي التي تتصدى للعواصف القوية القادمة».

ويروي «حسن يوسف» (باشا) «أن القصر كان يعرف أن السفارة البريطانية تجري اتصالات مع «النحاس» (باشا) عن طريق «أمين عثمان» (باشا) (وكان من قبل وكيلا لوزارة المالية ثم سكرتيرا عاما للوفد المصري في مفاوضات سنة ١٩٣٦، وقد ظل مقربا من السياسة البريطانية، وزائرا دائما لقصر الدوبارة، وصديقا حميما للسير «مايلز لامبسون») ـ لكن الملك «فاروق» لم يكن يخطر له أن «أمين عثمان» (باشا) يمكن أن «يسبقه»، وإذا سبق فإن «النحاس» (باشا) لن يخاطر بسمعته السياسية بصفقة مع الإنجليز، وإذا قبل «النحاس» (باشا) فإن الإنجليز لابد أن يقنعوه هو (الملك) أولا بالتغيير، وإذا حاولوا الضغط عليه فهو يملك وضع شروطه!

وفجأة والملك منشغل في أزمة صغيرة مع وزارة «حسين سري» (باشا) بسبب تردد «صليب سامي» (باشا) وزير الخارجية إزاء طلب بريطاني بإبعاد الوزير المفوض الفرنسي المسيو «بوتزي»، واتجاه الوزير إلى قبول ذلك على عكس رغبة ظاهرة من الملك ـ قدم رئيس الوزراء «حسين سري» (باشا) استقالة وزارته كلها بدلا من إقالة وزير خارجيته بأمر من القصر.

وفي ظرف ساعات هبت العاصفة: الإنذار البريطاني ـ وحصار القصر بدبابات الاحتلال ـ واقتحام السير «مايلز لامبسون» لمكتب الملك يفرض عليه الخيار المر: التنازل عن العرش أو الاستسلام لمشيئة الاحتلال، وكان أن استسلم ملك مصر ودعا «النحاس» (باشا) لتأليف الوزارة.



ويروي «حسن يوسف» (باشا): أن حادث ٤ فبراير كان نقطة تحول في حياة «فاروق» وفي شخصيته، وكان التحول على خطوات تلاحقت متسارعة:

ـ فاجأه الإنذار البريطاني وأهانته الطريقة التي تصرف بها السير «مايلز لامبسون».

ـ وأدهشه قبول «النحاس» (باشا) لرئاسة الوزارة من يد الاحتلال وعلى «أسنة» حرابه، كما سمع من «أحمد ماهر» (باشا).

ـ وأصابه الذهول لأن مظاهرات شعبية استقبلت تكليف «النحاس» (باشا) بالوزارة بفرحة غامرة.

ـ ثم كانت فجيعته الكبرى حين رأى صور هذه المظاهرات ـ التي أحاطت بمقر مجلس الوزراء مرحبة بدخول «النحاس» (باشا)، تحمل أول زائر جاء لتهنئته وهو السفير البريطاني السير «مايلز لامبسون» على الأعناق ـ مصفقة ومهللة.

ولم يقتنع الملك بما سمعه من رئيس ديوانه من أن جماهير الشعب لم تعرف بما جرى ليلة ٤ فبراير، لأن الرقابة (الإنجليزية) حجبت وقائعه، وبالتالي فإن الوسيلة الوحيدة المتاحة هي الروايات التي تتناقلها الشفاه، وذلك سوف يستغرق وقتا.

ولكن الملك رد على رئيس ديوانه بقوله «ولا وقت ولا زفت». ولم تكن لديه أعصاب رئيس ديوانه الذي طلب نسخة من رواية «مصرع كليوباترا» وراح يتلو منها وصف «أحمد شوقي» لدخول ملكة مصر البطلمية مع عشيقها «مارك أنطوني» إلى الإسكندرية مدعين نصرا على أسطول «أوكتافيوس» ـ وحيث تجري أبيات شوقي بالنص:

اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليه
ملأ الجو هتافا بحياة قاتليه
أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
ياله من ببغاء عقله في أذنيه!

وكان «حسنين» (باشا) يحاول تعزية نفسه وتغطية ما اعتبره فشلا ذريعا كرئيس للديوان الملكي.

لكن الملك «فاروق» لم يجد عزاءً يواسيه ـ وطبقا لرواية «حسن يوسف» (باشا)، فإن «فاروق» يومها كان رجلا فقد الثقة في كل شيء، وفي كل الناس، وأولهم رئيس ديوانه



أصاب «فاروق» الذهول لأن مظاهرات شعبية استقبلت تكليف «النحاس» (باشا) بالوزارة بفرحة غامرة، ولكن فجيعته الكبرى كانت حين رأى صورة هذه المظاهرات التي أحاطت بمقر مجلس الوزراء مرحبة بدخول «النحاس» (باشا)، تحمل أول زائر جاء لتهنئته وهو السفير البريطاني السير «مايلز لامبسون» على الأعناق ـ مصفقة ومهللة!





الذى أقسم له «بشرفه» أنه سوف ينتقم من كل مشارك فيما حصل تلك الليلة الليلاء.



ومع ذلك فإن الملك الذى قد فقد ثقته فى رئيس ديوانه، ظل متمسكا به فى علاقة بين الاثنين شديدة الالتباس.

فقد كان فى قلب «فاروق» سر دفين يتعلق بأمه الملكة «نازلى»، وبرئيس ديوانه «أحمد حسنين» (باشا)، ذلك أن الملك لاحظ أثناء إجازة قام بها مع والدته وأخواته فى «سان موريتز» (سويسرا) قبل جلوسه على العرش رسميا أن علاقة قرب زائد تربط والدته بالأمين الأول وقتها فى بلاطه (وكان حسنين من قبل مرشدا له ومعلما بقرار من والده الملك «فؤاد») - وظن «فاروق» فى البداية أو أحب أن يظن أن «تعامل» والدته بهذا «اللطف» مع أمينه الأول مرجعه ضرورات الرحلة وأجواء السفر، لكنه عندما عاد إلى القاهرة بدا له أن القرب بين الاثنين متواصل ويزداد حتى جاء يوم أوائل سنة ١٩٤١، تصادف فيه وقوع غارة جوية على مدينة القاهرة ليلا، وأراد الملك أن يطمئن أن والدته لم تنزعج بأصوات المدافع المضادة للطائرات. ثم اكتشف أنها ليست فى مقرها الرسمى الذى اتخذته لنفسها وهو قصر والدها «عبد الرحيم صبرى» (باشا) فى الدقى، وسأل عنها فى كل مكان ولم يعثر لها على أثر. وحين ظهرت الملكة «نازلى» بعد منتصف الليل فى بيتها وعرفت بمحاولات ابنها للعثور عليها ذهبت إليه قبل الفجر، وكان بينها وبينه مشهد رواه الملك بنفسه فيما بعد.

«دخلت الأم إلى الجناح الخاص بابنها والدموع فى عينيها وفوجئ «فاروق» بها تنزل راكعة تحت قدميه تعترف له، ومؤدى اعترافها أنها أحبت «أحمد حسنين» وأنه أول رجل دخل حياتها وهى تريد من ابنها أن يسامحها بفهمه، وهو أول من يعرف أن علاقتها بأبيه لم تكن مرضية لاله ولالها (وأفاضت فى الشكوى)، ثم أقسمت أنه لولا «فاروق» وحرصها عليه لكانت تجرأت على طلب الطلاق رغم يقينها أن الملك «فؤاد» لن يمنحها هذه الفرصة - أو لأقدمت على الانتحار، ولكن الأم كتمت أحزانها فى قلبها وعاشت من أجل ابنها. ثم راحت الأم تروى لابنها ما أصابها فى القصر من ذل بسبب جبروت الملك «فؤاد»، وضمن ما روته أنها ذهبت إلى عيادة الأسنان فى القصر وفيها طبيب ألمانى اسمه «شفارتز»، وأن الطبيب بعد أن نظر فى فمها، اكتشف اهتراء لثتها، وقال لها إن تلك «لابد أن تكون عدوى» من «صاحب الجلالة» لأنه مصاب «بالبيوريا» (ولم تكن المضادات الحيوية قد ظهرت بعد لعلاجه)، ورغم علم الملك «فؤاد» بما أصابها، فقد تأكد لها من تصرفه أنه يتعمد نقل مرضه إليها، وحدث حين ترددت أمامه مرة، أن أمر بحبسها فى غرفة نومها أسبوعا كاملا عقابا لها أن تأففت من طلب له، وكانت كبيرة «كلفاوات» القصر هى المشرفة على إذلال ملكة مصر، وهى التى تولت حبسها فى غرفتها، وكانت كبيرة الكلفوات - قبل ذلك وبعده - هى المسئولة عن ترتيبات السهرات الخاصة للملك «فؤاد». ثم قالت الملكة الأم وهى فى «حالة صعبة» أنها «لم تفعل شيئا فى الحرام» وما فعلته أنها تزوجت من «أحمد حسنين» على سنة الله ورسوله، حفاظا على شرف ابنها، واحتفظت بالزواج سرا حتى تنتهز فرصة مناسبة وتحكى له، وانتهت الملكة بأن قالت لابنها، أنها اعترفت بكل الحقيقة متوسلة إليه أن لا يؤذى «أحمد حسنين» بسببها، وهى تقسم له أن «أحمد حسنين» مخلص له ولعرشه، وأنه تردد فى قبول الزواج ولكنها تعهدت له بأنها واثقة أن ابنها - وهو الأقرب إليها من كل الناس - سوف يفهمها ويسامحها، وهى الآن أمامه راكعة على ركبتيها وإذا عفا عنها وعن «حسنين» بقيت عمرها تحت قدميه، وإذا أبى العفو فإنها سوف تشعل النار فى نفسها وتنهى حياتها مثل أى بنت بلد «وقعت فى الغلط». وفيما بعد وعقب وفاة «أحمد حسنين» (باشا) فى حادثة سيارة على كوبرى قصر النيل سنة ١٩٤٦ - هرع الملك إلى بيت «حسنين» فى الدقى، يسبق كل الناس ليأخذ من غرفة نومه أى ورقة تكشف عن علاقته بالملكة الوالدة. وترامت وقتها إشاعات بأن الملك أخذ بعض المقتنيات الذهبية والماسية (بالذات الأوسمة مما كان فى بيت أحمد حسنين)، ولم يكن ذلك منصفا.

وكان السبب الذى دعا الملك إلى البوح: رغبته أن يعمل «حسن يوسف» بكل جهده على اكتشاف أى ورقة فى أى سجل رسمى أو غير رسمى تشير إلى العلاقة بين مرشده ووالدته، واعترف الملك يومها بحزن أنه «كثيرا ما دعا «إن شاء الله حسنين يموت»، ومع ذلك فهو الآن حزين عليه»!

....

....

[وكانت تلك الواقعة بالذات من الوقائع التى تردد «حسن يوسف» (باشا) طويلا فى روايتها، ولم يقنعه فى النهاية إلا أن الخطوط الرئيسية للوقائع نشرت مشوهة فى كتابات عدد من رجال الحاشية السابقين فى القصر (كريم ثابت)، أو بعض الصحفيين المتصلين بالحاشية (مصطفى أمين)].

....

....

كان ذلك طريق الملك فاروق إلى ٤ فبراير ١٩٤٢، فى اتجاه ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكانت تلك أحواله حينما وقفت دبابات الجيش أمام قصر عابدين كتلا من الحديد فى ظلمات الليل. ■

٤ - الطريق الوفدى إلى ٤ فبراير - وبعده

■ كانت نهاية الثلاثينات فترة اختبار قاس لحزب الوفد وزعيمه «مصطفى النحاس» (باشا).

كان الحزب بلا جدال هو ممثل الأغلبية الوطنية فى مصر، وموضع الثقة بالنسبة لجماهير شعبها فى تلك الفترة، وكان زعيمه رمزا للمقاومة المصرية فى مواجهة الاحتلال البريطانى، وفى مواجهة التجاوز الملكى للدستور، سواء بنزعات الاستبداد لدى الملك «فؤاد»، أو بمناورات القصر، وقد راحت تكرر نفسها فى عهد ابنه الصبى الملك «فاروق».

ومع أن وزارات الوفد لم تكن تجىء إلى الحكم إلا بإشارات بريطانية، فإن «النحاس» (باشا) لم يكن يعتبر تلك منحة من دولة الاحتلال بقدر ما هى احتياج إلى شرعية الوفد، خصوصا زمن الأزمات.

وعندما وضع «النحاس» (باشا) توقيعه على معاهدة سنة ١٩٣٦، كان يدرك أنها استقلال منقوص، لكنه يتفهم أن دولة الاحتلال لن تعطيه أكثر فى ذلك الوقت، بينما نذر الحرب العالمية تظهر فى أوربا (ومقدماتها قيام إيطاليا بغزو الحبشة واحتلالها سنة ١٩٣٥)، ثم ما تبع ذلك من تركيز الوجود الإيطالى أكثر فى البحر الأبيض بتعزيز مواقعه فى ليبيا.

ومع أن «مصطفى النحاس» (باشا) تعرض لنقد شديد عند توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ (حتى من بعض أنصاره وبينهم رئيس مجلس النواب الوفدى وقتها «أحمد ماهر» (باشا))، فقد كان يقين «النحاس» (باشا) (وهو سليم) أن المعاهدة التى وقع عليها هى الممكن المتاح فى زمانها، خصوصا عندما دعمها فى العام التالى، بمعاهدة إلغاء الامتيازات الأجنبية خلال مؤتمر عُقد لذلك الغرض (١٩٣٧) فى مونترو (سويسرا).

والحاصل أن «النحاس» (باشا) كان مرتاح الضمير - ومطمئنا. وكذلك فإن إقالة وزارته بعد أسابيع من عودته الظافرة من مؤتمر مونترو - ديسمبر ١٩٣٧ - نزلت صدمة ثقيلة عليه.

كان الرجل يتصور:

● أنه وقد وقع معاهدة ١٩٣٦ - سوف يبقى مسئولا عن تنفيذها. وإذا كانت مخاطر حرب عالمية - محتملة - قد فرضت توقيع المعاهدة - فإن هذه المخاطر ذاتها تفرض وجودها على رئاسة الوزارة لضمان سلامة التنفيذ.

● وكان أمله كبيرا أن الملك «فاروق» سوف يتجنب أخطاء والده الملك «فؤاد» ويتصالح مع الدستور - رغم شكوك «النحاس» (باشا) فى بعض رجال القصر، وأولهم «على ماهر» (باشا).

● وكان ظن «النحاس» (باشا) أنه حتى إذا راح «على ماهر» (باشا) وأصحابه «يلعبون» (على حد تعبيره) - فإن الإنجليز لن يسمحوا باللعب؛ لأن خطر الحرب الذى جعلهم يحرصون على معاهدة مع مصر يوقعها الوفد، هو نفسه مقتضى بقاء الطرف الذى وقع عليها، باعتباره الأقدر.

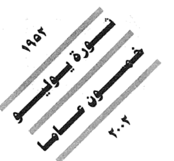
● وكان ما ضايق «النحاس» (باشا) أكثر من أى حساب، صدمته فى لهجة خطاب الإقالة الذى وجهه إليه الملك «فاروق»، وجاء إهانة سياسية وشخصية أصابته على غير استعداد، وفى لحظة إنسانية وعاطفية غير مناسبة.



وهنا تطور ضرورى لتواصل وتكامل الصورة الإنسانية لوقائع التاريخ المصرى الحديث.

والحاصل أن «مصطفى النحاس» (باشا) ولد سنة ١٨٧٩ - وتزوج سنة ١٩٣٥، أى أنه لست وخمسين سنة من عمره ظل أعزب. ومع أنه أحب بلده وبادله البلد شعوره - إلا أن الحب له أوجه أخرى معترف بها حتى فى مقام النبوة؛ لأن البشر يظلون بشرا، والزعيم ليس راهبا، وإذا لم يتزوج بحكم ظروف حياته، فإن هذه الحياة تفرض طبيعتها - ولعلها ضرورتها.

وكذلك كانت للنحاس (باشا) حياة خاصة حرص على صيانتها، لكنه تعرض سنة ١٩٣٢ لواقعة أخرجت حياته الخاصة رغما عنه من الصون الذى حرص



عليه. ففي تلك السنة التقى «النحاس» (باشا) بصحفية إيطالية يظهر أنها كانت على شيء من الجمال اسمها «فيرا» (ولم أجد في السجلات اسمها كاملا). وطبقا للروايات (وهي موثقة) - أن لقاءات «النحاس» (باشا) بالصحفية الإيطالية تكررت، وفي بعض الشهادات أن «فيرا» كانت مدسوسة على «النحاس» (باشا) بتدبير من «إسماعيل صدقي» (باشا) رئيس الوزراء في ذلك الوقت، وكان قصده الإيقاع بزعيم الوفد - بموافقة من الملك «فؤاد»، والوسيلة كشف المقابلات المتكررة بين زعيم الوفد وبين الصحفية الإيطالية.

وكان «النحاس» (باشا) يقابل «فيرا» في عوامة على النيل عند شاطئ العجوزة المقابل لنادي الجزيرة، ورتب «صدقي» (باشا) لمداهمة يقوم بها البوليس للعوامة ومفاجأة من فيها بما لا يتوقعون.

وكان ذلك بعد ظهر يوم أحد، وتصادف وجود «أحمد ماهر» (باشا) في سباق الخيل في نادي الجزيرة، وحدث أنه تقابل مع «أحمد عبود» (باشا)، وإذا هو يفهم منه أن رئيس الوفد على وشك أن يقع في الفخ. وأدرك «أحمد ماهر» خطورة الموقف وهرع مسرعا إلى موقع العوامة، وكان يعرفه، واقتحم طريقه إلى داخلها، والنتيجة أنه عندما وصل البوليس كان رئيس الوفد جالسا في صالون العوامة يتحدث مع واحد من أكبر معاونيه في قيادة الوفد وهو «أحمد ماهر» (باشا).



وفشلت خطة الإيقاع بالنحاس (باشا) - وهنا يتسع نطاق القصة من مجال ما هو شخصي إلى مجال ما هو عام - ذلك لأن عددا من زعماء الوفد الكبار استقر يقينهم على ضرورة أن يتزوج رئيس الوفد، وبأسرع ما يمكن. وكان «النحاس» (باشا) يحتج بأنه تخطى سن الزواج، فهو الآن في السادسة والخمسين، وأي زوجة ترضى به لن يرضى هو بها، لأن الخيار الواقعي أمامه «أن يتزوج عانسا أو مطلقة أو أرملة، وذلك لا يغريه».

وكان «مكرم عبيد» (باشا) سكرتير الوفد (والتوأم الروحي وقتها لزعيمه) أشد المتحمسين لزواج رئيسه، وكذلك كانت السيدة «عايدة» قرينة «مكرم عبيد» (باشا) هي التي فاجأت «النحاس» (باشا) ذات يوم - وهو يتناول الغداء في بيتها - تزف له البشرى بأنها وجدت الزوجة التي تعجبه، فهي جميلة، ليست عانسا وليست مطلقة وليست أرملة، وإنما شابة من أسرة كريمة علمتها كيف تصنع بيتا سعيدا، ثم إن أسرتها «سوف تموت من الفرح» (كلمات السيدة «عايدة» بنصها طبقا لروايتها وهي تستعيد بعض ذكرياتها جالسة في صالون بيتها - وكان زوجها وهو من ألمع رجال مصر قد توفى قبلها بعام ١٩٦١ - دون أن يكون لهما ولد، وطعن أقارب له في وصيته ومقتضاها أن يبقى بيته في منشية البكري ملكا بعد وفاته لها، وقد رفعوا أثناء مرضه قضية حجر عليه، تجددت بقضية طعن في الوصية بعد وفاته، وكتبت السيدة الكريمة إلى «جمال عبد الناصر» شاكية وحزينة).

ولم يكن «النحاس» (باشا) متحمسا حتى رأى العروس وهي الآنسة «زينب الوكيل» - كريمة السيد عبد الواحد الوكيل (من أعيان أسرة كبيرة في مديرية البحيرة وقد نال رتبة الباشوية فيما بعد). وكانت العروس المرشحة بالفعل شديدة الجمال، شديدة الذكاء، حسنة التربية، وعلى قسط من التعليم.

كانت العروس من مواليد سنة ١٩١٢، ومعنى ذلك أن فارق السن بينها وبين زوجها ثلاث وثلاثون سنة - وأن عمرها حين تزوجت سنة ١٩٣٥ كان ٢٣ سنة في حين كان عمر زوجها ٥٦ سنة.

وكان الزواج سعيدا. ومع أن فارق السن كانت له أحكامه، فإن شباب الزوجة توازن مع مكانة الزوج زعيما معترفا به للسواد الأعظم من شعبه.

وفي بداية الزواج كان «النحاس» (باشا) يتأهب للعودة إلى رئاسة الوزارة وإلى المفاوضات مع الإنجليز، وقد انتهت بمعاهدة سنة ١٩٣٦ - وكان يستعد بعدها للسفر إلى «مؤتمر مونترو»، وكانت زوجته الشابة الجميلة في صحبته، والحاصل أن السفر إلى مونترو كان ذروة السعادة في الزواج الجديد، فقبلها كان رئيس الوفد مشغولا بمقدمات التفاوض ومهامه والتحضير لمؤتمر مونترو وأعماله، وبعدها أصبح لديه الوقت لشهر عسل مؤجل على ضفاف بحيرة ليمان الخلابة، وهنا فإن قرينة «النحاس» (باشا) أطلت لأول مرة على العالم المسحور.

وتسجل وقائع الرحلة مفارقات ومواقف رصدها السفير المصري في برلين «حسن نشأت» (باشا) (في تقارير متعددة بعث بها إلى القصر الملكي ولا يزال ملفها محفوظا في أرشيف عابدين)، ذلك أن «النحاس» (باشا) رتب - بعد انتهاء «مؤتمر مونترو» - للقيام بجولة واسعة في أوربا شملت زيارة لألمانيا، وتضمنت مقابلة مع الزعيم الألماني «أدولف هتلر»، وبالتالي فإن «حسن نشأت» (باشا) كان ملازما له طوال زيارته لألمانيا. وفيما رواه «حسن نشأت» (باشا) - (مع التسليم بأنه لم يكن موضع ثقة «النحاس» (باشا) من أيام خدمته في القصر أواخر العشرينات) - أن قرينة «النحاس» (باشا) التي كان عليها أن تجد وصيفة ترافقها في السفر - اختارت سيدة ريفية كانت تقوم على تربيتها من الطفولة في بيت والدها اسمها «أم السعد»، وذلك أحدث ارتباكا في إعداد الملابس التي ظهرت بها (زينب هانم) في مختلف المناسبات، وقد توقف «حسن نشأت» (باشا) كثيرا حول اختيار قبعات «الرأس» المتوافقة مع كل مناسبة.

وكذلك أسهب «حسن نشأت» (باشا) في وصف نوادر «أم السعد» في برلين، بأكثر من حجمها، وإلى جانب ذلك فإن الصورة العامة التي رسمها (السفير) ليقرأها الديوان الملكي أبانت أن رئيس الوفد متيم بعروسه وتقدير «نشأت» (باشا) «أنها شخصية قوية تخبئ قوتها وراء جمالها»، ثم إنها وقد أطلت من قلب أوربا على عالمها المسحور سوف تثبت أنها «شخصية لها دور كبير في الحياة العامة في مصر».

والذي حدث أن «النحاس» (باشا) عاد إلى مصر، ثم لم تمض غير أسابيع حتى كان خطاب الإقالة بتوقيع الملك ينقض مفاجأة عليه، وبطريقة مهينة خصوصا أمام شريكة أهلت على حياته، وأشاعت فيها سعادة لم تكن هناك أي وقت من قبل!



ونشبت الحرب العالمية بعد سنة واحدة، وبدأت مصاعبها بما فيها الغارات الجوية على القاهرة، ولم تكن الغارات الجوية خطرة أيام الطليان عندما قاموا بها وحدهم، لكن عندما وصل الألمان إلى الصحراء الغربية، فإن القنابل زادت حمولاتها وتفاقمت مخاطرها، وكان أن سارعت الطبقة العليا إلى الخروج من العاصمة لائذة بقصورها أو قصور الأقارب في الريف المصري وسط الملكيات الزراعية الشاسعة، وكان رأي عدد من زعماء الوفد أن «النحاس» (باشا) (وهو يسكن وقتها في مصر الجديدة على مقربة من منطقة مطار الماظة) - معرض للخطر، ومن اللازم لسلامته أن يبتعد. وبالفعل فإن «النحاس» (باشا) قرر أن يلحق بآخرين سبقوا إلى الريف المصري وكان ذلك بعد ليلة تكرر فيها سماع صفارات الإنذار ورؤية كشافات الضوء القوية تتقاطع في ظلمات الليل بحثا عن طائرات مغيرة، ثم سماع دوي الانفجارات دون أن يميز أحد على وجه القطع إذا كانت الانفجارات قنابل طائرات أو قذائف مدفعية مضادة. ومع أن «النحاس» (باشا) ظل ثابت الأعصاب طوال ليالي الغارات، فإن زوجته الشابة لحقها الخوف، وسافر زعيم الوفد إلى الريف الواسع، وعلى امتداد شهور سنة ١٩٤١ كان معظم وقته في شمال الدلتا ضيفا مُحتفى به معززا مكرما في قصور العائلات الكبرى، وفيها عائلات أقارب له في «سمنود» وعائلات أخرى من معارفه الراغبين في الحفاوة به، وكانت عائلة السيد «البدراوي»

الملك فاروق والحاشية وكبار رجال الحكم



(باشا) إلى جانب عائلات «المغازى» و«الإتربى» و«جمعة» من أكثر الأسر التى فتحت أبوابها ودعت ورحبت. وفيما روى كثيرون من الذين زاروا رئيس الوفد أيامها، أن الرجل كان سعيدا بعودته إلى الأرض السمراء وحقولها الخضراء، وكان مضيفوه يتسابقون إلى شرف ضيافته رغم علم بعضهم أن «السراى» قد لا تعجبها تلك الحفاوة بزعيم الوفد. وقد ذهب «مكرم عبيد» (باشا) أكثر من مرة إلى زيارته والاطمئنان عليه.

وكان «مكرم عبيد» (باشا) قد اكتشف شابا من ألمع شباب أسرة «البدراوى»، هو الأستاذ «محمد فؤاد سراج الدين» (ابن سراج الدين شاهين باشا وزوج السيدة زكية البدراوى كريمة السيد البدراوى باشا)، وقد لمح «مكرم عبيد» لدى «فؤاد سراج الدين» استعدادا للعمل السياسى من موقع الجاه والغنى، ومعهما طاقة من الحيوية والنشاط لافتة.

وكان الشاب فى سلك النيابة أصلا وأقنعه «مكرم» (باشا) أن ينضم لحزب الوفد، وأن يترشح فى دائرة انتخابية من دوائر عديدة فيها أملاك ونفوذ لأسرته. وفى الظروف المستجدة بدأ نجم «فؤاد سراج الدين» يلمع فى الوسط القريب المحيط برئيس الوفد، ثم أصبح «فؤاد سراج الدين» ملازما للرئيس ومرافقا له باستمرار.



ولم يكن فى الريف وفى زمن الحرب من متعة إلا حوارات الصباح والمساء فى الشأن الجارى وهو حاضر فى فكر الجميع باحتمالاته وعواقبه. على أن الزائرين القادمين من القاهرة لمقابلة زعيم الوفد واستطلاع آرائه، كانوا يحملون معظم الأحيان أخبارا تدعو إلى التشاؤم فيما يتعلق بالحزب وفرصه فى الحال وفى المستقبل، وكذلك عن مشاعر الإحباط لدى أنصاره وأسباب قلقهم وهى كثيرة:

● فيها أن قيود الحرب وتطوراتها تضغط على الناس - لكن الحزب (الوفد) غائب عن التأثير فى القرار: لأن الانتخابات المزورة التى قامت عليها وزارة «محمد محمود» (باشا) (زعيم الأحرار الدستوريين سنة ١٩٣٨) حجبت بقوة السلطة فرص النواب الوفديين حتى فى الدوائر التى لم يكن هناك شك أنها قلاع مكينة لهم.

● ومع أن مشكلات الناس فى الحياة العادية صعبة بحكم القيود التى فرضتها الحرب، فإن الشارع المصرى الذى يأتمر بأوامر الوفد فى الظروف العادية، مقيد الآن رغم ملاءمة الظروف للمعارضة، والسبب قسوة الأحكام العرفية التى اقتضتها مطالب الحرب، بل إن اجتماعات الحزب ولجانه ونشاطه وسياساته لا تصل إلى أحد لأن الرقابة تحذف أخبارها.

● وأن معظم صحف الوفد أصبحت بلا تأثير لسببين أساسيين: من ناحية لأن أصحاب الصحف المحسوبة على الوفد لهم مصالح مع الحكومة أهمها حصص الورق الذى يطبعون عليه جرائدهم، فهذه الحصص بسبب قيود الاستيراد فى يد وزارة المالية توزعها كما تشاء، ومعنى ذلك أن الوزارة القائمة بالحكم تستخدم حصص الورق مكافأةً للتأييد أو شراءً للسكوت؛ أى أن المحظوظين من أصحاب الصحف يسمح لهم بفائض يستطيعون بيعه فى السوق السوداء بأسعار خيالية وأما الآخرون فلهم الحرمان.

● ثم إن كبار الملاك والتجار وأصحاب الثروات الذين كان الوفد يعتمد على دعمهم المادى، أصبحوا يجدون مصالحهم مع السلطة أولى بالرعاية، لأن الحكومة هى التى تمنح أذون الاستيراد والتصدير، وتوجه حركة البنوك والأسواق، وبالتالى فإن هؤلاء الأنصار الذين ساندوا الوفد سواء عن اقتناع بمبادئه أو احتماء بنفوذه، أو رغبة فى تحسين صورتهم أمام الناس - لم يعد يهمهم أمر الوفد كما كان!

● وعلى هذا النحو فإن غياب الوفد عن الحكم سوف يطول، والشعب بعيد أو غير قادر على فرض عودته، وأمور الإنجليز ميسرة فى مصر، وهم مكتفون بتعاون أصدقاء لهم فى رئاسة الوزارة مثل «حسن صبرى» (باشا) أو أصدقاء لهم فى أجهزة الدولة المسيطرة على المرافق العامة فى مصر مثل السكك الحديدية ومديرها فى ذلك الوقت «محمود شاكر» (باشا)، ومثل محافظ البنك الأهلى (البنك المركزى وقتها) وهو تلك الأيام إنجليزى هو «جيمس كوك» - أو مثل أصدقاء من أصحاب الملايين الكبار «أحمد عبود» (باشا) فى القاهرة و«محمد أحمد فرغلى» (باشا) فى الإسكندرية.

وكانت تلك الوساوس وتداعياتها وهذه المناقشات المستمرة فى قصور الريف بعيدا عن العاصمة وهواجسها - مدرسة السياسة التى تمرست فيها عروس رئيس الوفد الشابة.

كانت تجربتها فى الانتقال من بيت والدها إلى بيت زعيم الوفد قد أعطتها رفعة المقام، وكانت إطلالتها الأولى على العوالم المسحورة فى أوربا قد كشفت أمامها أفق العز الوردى، ثم جاءت الإقالة لتعلمها درسا عن حقائق القوة، وأخيرا جاءت أيام الريف تعرض أمامها درسا فى طبائع العمل السياسى وتقلباته.

وفى قصور الريف وسط شمال الدلتا كان درس العمل السياسى واضحا وظروف الحرب تجعله سهل الفهم، واضحا لا يحتاج إلى دليل، وملخصه لها - ولغيرها - أنه إذا كانت تلك هى حقيقة الحال، فإن الوفد رغم كونه المعبر الرئيسى عن أغلبية الشعب المصرى - لا يستطيع الآن أن يصل إلى الحكم بأصوات الناخبين، لأنه غير قادر حتى على مجرد الوصول إليهم ومخاطبتهم - إلا بشق الأنفس وبتأثير محصور، وإذا كان ذلك فالعبرة التى يمكن - ويجب - استخلاصها، أن الطريق الوحيد إلى السلطة مرهون بتراض، أو باتفاق، أو حتى بصفقة (مقبولة ومشروعة فى الواقع) مع واحدة من القوتين: إما القصر الملكى - وإما السفارة البريطانية!

ويوما بعد يوم كان ذلك الاستنتاج (المحرض على التعامل مع حقائق الواقع) يظهر ويتأكد، ويقنع الجميع بـ: «أنه لابد مما ليس منه بد»!



وكان «مكرم عبيد» (باشا) - وهو حتى ذلك الوقت سكرتير الوفد العام وروحه الملهمة، وآخر الكبار التاريخيين من أقطابه - يجىء إلى «النحاس» (باشا) زيارة بعد زيارة، وفى كل مرة كان يسمع أو يرى ما يلفت نظره، ثم يدهشه، ثم يضايقه ويثير أعصابه بعد ذلك، فقد أحس «مكرم عبيد» (وتلك روايته)، أن تلك الشهور التى قضاها «النحاس» (باشا) فى قصور شمال الدلتا أحدثت تحولات إنسانية وسياسية غيرت المشهد كما يعرفه، وبدا له أن ثقة قرينة «النحاس» (باشا) فى نفسها - زادت، وأن اهتمامها بالمناقشات السياسية اتسع، كما أن الأستاذ «محمد فؤاد سراج الدين» برز فى الدائرة المحيطة برئيس الوفد، بأكثر مما توقعه السكرتير العام للحزب (مكرم عبيد نفسه).

ومن الصعب على أى قارئ لتاريخ تلك الفترة أن تغيب عنه دلالة بالغة التعبير عن نفسها فى السياسة المصرية، وتلك هى الحدة الغاضبة التى وقع بها خروج «مكرم عبيد» (باشا) من حزب الوفد (بعد شهور)، وكان الفعل أقرب إلى «الانفلاق» منه إلى «الخروج».

والتفسير المنطقى والإنسانى لهذه الحدة أن ذلك السياسى ذا النفوذ الهائل على الوفد وزعيمه - وجد أن ما كان فى يده ينتقل فعلا إلى أيدى غيره، وهى أيد من صنائعه. فهو الذى اختار لزعيم الوفد عروسه، وهو الذى قدم لزعيم الوفد أذكى أبناء الأعيان الذين استضافوه أيام الغارات!

ويقول «مكرم عبيد» أنه أحس فى الأجواء المحيطة بالنحاس (باشا) أن هناك «مقدمات صفقة سياسية فى الجو».

وقد فهم «مكرم عبيد» (باشا) زيارة «عبدالوهاب طلعت» (باشا) وكيل الديوان الملكى - لزعيم الوفد - على أنها إشارة من القصر إلى شىء ما، ثم فهم زيارات متكررة قام بها «أمين عثمان» (باشا) وهو المقرب من السفارة البريطانية إلى زعيم الوفد - على أنها إشارة إلى شىء آخر.

ويؤكد «مكرم عبيد» (باشا) أن حصار الدبابات البريطانية لقصر عابدين فاجأه، وأحس أيضا أنه فاجأ «النحاس» (باشا) والدائرة الأقرب منه، لكنه شعر أن ما وراء الدبابات لم يكن مفاجئا. بمعنى أن الذى حرك الدبابات إلى عابدين، وطلب تكليف «النحاس» (باشا) قبل الساعة السادسة مساء، وإلا... كان لديه (بلا شك) تأكيد مسبق بأن «النحاس» (باشا) سوف يقبل، أو على الأقل كانت لديه الثقة الضمنية إذا لم يكن لديه التأكيد الصريح!

وجاء الوفد إلى السلطة يوم ٤ فبراير، وكان ذلك بالشرعية حقه - وكان فى مقدور بعض خصومه أن يسلموا له بهذا الحق، ولكن ليس بهذا الأسلوب. وكان فى استطاعة «النحاس» (باشا) أن يرد مطمئنا إلى صدق قوله: «إنه لسوء الحظ لم يكن أمامه بديل»، فقد أقاله الملك «فاروق» نقضا للدستور، كما فعل والده قبله، ثم إنه إذا أراد أحد أن يشير إلى إرادة بريطانية جاءت بوزارته يوم ٤ فبراير ١٩٤٢، ففى وسعه دون تجاوز أن يشير إلى سكوت أو تواطؤ بريطانى فى كل مرة أقيلت فيها وزارته.

وربما أن المشكلة الحقيقية أن مدافع الدبابات الموجهة إلى قصر عابدين لم تترك لأحد فرصة للشك فى مصدر «القرار الأعلى»، وكان قبول الوفد للوزارة فى ذلك الظرف نوعا من القبول بشرعية هذا المصدر الأعلى للقرار، ثم تأكد ذلك عندما حدث أن قادة المظاهرات الوفدية التى حملت «النحاس» (باشا) على الأعناق داخلا لتسلم رئاسة الوزارة، كانت هى نفسها التى حملت - بعده - السير «مايلز لامبسون» السفير البريطانى وهو ذاهب إلى مقر رئيس الوزراء يهنئ «النحاس» (باشا) بعودته إلى الحكم.

وكانت تلك كلها مآزق وطنية، ومآزق شرعية، ومآزق سلطة ترتبت عليها نتائج خطيرة فى كل ما جرى بعدها وحتى هذه اللحظة.

وفى الحقيقة فإن ما جرى ليل ٤ فبراير ١٩٤٢ وما تلاه - وبكل المواصفات والمقاييس، كان هو الانقلاب العسكرى الأول فى التاريخ المصرى القريب. ■

أحس «مكرم عبيد» باشا سكرتير عام الوفد وروحه الملهمة أن الشهور التى قضاها «النحاس» (باشا) فى قصور شمال الدلتا أحدثت تحولات إنسانية وسياسية غيرت المشهد كما يعرفه، وبدا له أن ثقة قرينة «النحاس» (باشا) فى نفسها - زادت، وأن اهتمامها بالمناقشات السياسية اتسع





من هو مايلز لامبسون؟

سفير الإمبراطورية الذي حكم مصر ١٢ سنة

١٩٣٤ - ١٩٤٦

بدأ السير «مايلز لامبسون» خدمته في مصر سنة ١٩٣٤، وقد جاء إليها بعد سنوات في الصين أثبت فيها أنه واحد من هؤلاء الرجال الذين تعتمد عليهم الإمبراطوريات في بناء وإدارة ممالكها.

وكان مجيء «مايلز لامبسون» إلى مصر في ذلك التوقيت مهمة ذات حساسية خاصة لأن البحر الأبيض بدأ يشهد زحفا إيطاليا منظما يبحث عن المستعمرات في جنوبه - في أفريقيا - وأوله غزو الحبشة والدخول إلى عمق البحر الأحمر حتى آخره. ومع وجود إيطالي سابق في ليبيا فإن الحكومة البريطانية رغبت في تعزيز وجودها ونفوذها في مصر، بما في ذلك التوصل إلى «حل من نوع ما» مع القوى الوطنية المصرية ذات التأثير وأولها «حزب الوفد». لذلك كان أول عمل قام به السير «مايلز لامبسون» في مصر كمعتمد بريطاني هو التمهيد والإعداد لعودة حزب الوفد إلى الحكم، عن طريق تراض مع الملك «فؤاد». وجاءت معاهدة سنة ١٩٣٦ التي فاوض ووقع عليها «مصطفى النحاس» (باشا) وهو زعيم الأغلبية الشعبية في مصر وقتها دون شك.

وكان السير «مايلز لامبسون» شخصية إمبراطورية في شكله ومظهره أيضا، فهو طويل القامة بشكل لافت (١٩٢ سنتيمترا)، ضخم البنيان، مغرم بقراءة التاريخ، ويملك موهبة في الكتابة مدهشة إلى درجة أن يومياته الشخصية التي سجلها على امتداد مدة خدمته زادت على ٢ مليون كلمة.

وكان السير «مايلز لامبسون» حين جاء إلى مصر، أرملا لأنه فقد زوجته الأولى في الصين، وعندما تولى منصبه في القاهرة - كان في حاجة إلى مضيفة لبيته، لذلك جاءت ابنته «ماري» لتقيم معه، لكنها عادت بعد قليل إلى إنجلترا، وتولت المسئولية بدلها في بيت المعتمد البريطاني في القاهرة ابنة شقيقة له ما لبث أن دعت بعضا من صديقاتها بالتوالي ليجئن إلى القاهرة، ربما لمشاهدة الأبهة التي تتيحها «الإمبراطورية» لرجالها. وكان بين الضيفات فتاة جميلة اسمها «جاكلين كاستيلاني» وهي من أسرة مختلطة، فالأب وهو الدكتور «ألدو كاستيلاني» طبيب مشهور في أمراض المناطق الحارة، إيطالي الأصل، قصد إلى لندن وافتتح لنفسه عيادة في «هارلي ستريت» (شارع الأطباء). والأم إنجليزية من عائلة تجار مع الشرق من مدينة «ليدز»، وكانت ابنتهما «جاكلين» من مواليد «سيلان».

وأعجب «مايلز لامبسون» بـ«جاكلين» من أول نظرة على ما يظهر، لأنه تزوج منها قبل أن تغادر القاهرة، وتحولت من ضيفة لابنة أخيه إلى زوجة لصاحب البيت، رغم أن فارق السن بين الاثنين ست وثلاثون سنة، وكان هو نفسه يقول إنها في سن ابنته!

....

....

[ومن المفارقات أن «جاكلين» مازالت على قيد الحياة حتى الآن، وهي تعتمد في حياتها إلى جانب معاش زوجها على أربع شقق تملكها وتؤجرها مفروشة بالأسبوع في شارع «سلون جاردن»، وكثيرون من مستأجريها مصريون عرفوها من أيام مضت (وكان بينهم «حسن يوسف» (باشا)). وتحافظ «جاكلين» على صلتها بالسفارة المصرية بما في ذلك احتفالها باليوم الوطني (٢٣ يوليو) - وعندما تتأخر عليها الدعوة فإنها تتصل وتسأل وتستعجل، ومع أنها تجاوزت بالعمر ما بعد التسعين، فإنها مازالت فياضة في الحديث عن ذكرياتها عندما كانت «إمبراطورة» في مصر!]

....

....

وكان السير «مايلز لامبسون» رجلا حريصا إلى درجة أنه كان يبيع البط الذي يصيده في بركة «أكياد» إلى موظفيه، كما أنه كان رجلا عمليا لدرجة أنه حين وجد أن طيور الحداة تكثر في نادي الجزيرة وتقرض كوره وهو يلعب «الجولف» أخذ يحمل معه بندقية يصطاد بها «الحدادي» وهو يتنقل باللعب من ساحة خضراء إلى ساحة خضراء!

ومن الظاهر أن السير «مايلز لامبسون» مثل كل خدام الإمبراطورية رجل استوعب حكمتها ومنها أن الإمبراطورية لها مصالح وليس لها أصدقاء، ومن ذلك مثلا ما كتبه في تقرير له سنة ١٩٣٨، عندما عاد من إجازة في لندن (موسم أعياد ١٩٣٧) ووجد أن الملك «فاروق» أقال وزارة «مصطفى النحاس» (باشا) وهو شريكه في التوقيع على المعاهدة، وكان تعليقه لوزارة الخارجية في لندن قوله:

«يبدو لي أن الملك «فاروق» أصبح متأكدا من نفسه، كما استطاع رجاله المقربون أن يوقظوا فيه نزعات الاستبداد التي مارسها أبوه قبله، لقد أقال «النحاس» (باشا) وهو زعيم الأغلبية إلى جانب أنه شريكنا في توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦، وكان الأولى أن يتركه في منصبه ضمانا لحسن تنفيذها، على أنني لم أشعر بأسف ولم أشأ إثارة الموضوع أصلا، ورأيي أن «النحاس» إذا بقي بعد توقيع المعاهدة، زادت قوته وتدعم مركزه بأكثر من اللازم وحينئذ قد تزيد طلباته وطلبات أصدقائه وأنصاره»!

وبتطورات الحوادث فإن قصة السياسة المصرية كادت أن تتحول خلال الحرب العالمية الثانية لكي تصبح علاقة ملك مصر مع السفير البريطاني، ولم تكن علاقة ود.

وكان السفير يشير إلى الملك في كل تقاريره الرسمية وغير الرسمية بوصف «الولد» the boy ومن جانبه كان الملك يشير إلى السفير في أحاديثه بلقب «جاموس باشا»، (وهو وصف دقيق لأن السير مايلز لامبسون كان أطول من العادة وأعرض في الجسم عما هو معروف عن الإنجليز، ثم إن كتلة رأسه ضخمة!)

وكانت التقارير التي يبعث بها السير «مايلز لامبسون» (وقد أصبح لقبه اللورد كيلرن فيما بعد حين حصل على رتبة الفارس واختار الانتساب إلى مقاطعة في الريف الإسكتلندي جاءت منها أسرته) - سجلا وافيا ومشوقا للحياة في مصر طوال السنوات الاثنتي عشرة من ١٩٣٤ - ١٩٤٦. وهي سنوات حافلة (حتى في التاريخ العالمي لأنها سنوات مقدمات وقيام وختام الحرب العالمية الثانية).

وكان السير «مايلز لامبسون» (اللورد كيلرن)، يرسل إلى لندن برقياته العاجلة طوال أيام الأسبوع حسب مقتضى الأحوال، لكنه كل يوم خميس يبعث إلى لندن برسالة شاملة تحتوي على عدة بنود:

- تقريره هو عن لقاءاته وملاحظاته، وكل ما يصل لسمعه، بما في ذلك الفضائح والإشاعات.
- تقرير يكتبه السير «والتر سمارت» (المستشار الشرقي) وهو حافل بتفاصيل دقيقة عن كل ما جرى في مصر خلال أسبوع، وكان «سمارت» يعتمد على صلات سياسية واجتماعية نافذة، وكان متزوجا من السيدة «إيمي» ابنة «فارس نمر» (باشا) صاحب جريدة «المقطم» ومجلة «المقتطف».
- تقرير يكتبه السير «كين بويد» وهو آخر مستشار إنجليزي لوزارة الداخلية المصرية، وكان يشرف على شبكة علاقات قوية واصلة إلى أعماق الريف المصري، ولها صلاتها بالعائلات الكبيرة وبالإدارة الحكومية في الأقاليم، وكانت تقارير «كين بويد» يومية تسجل كل شيء من «أسعار القطن» إلى «حوادث الثأر» ومن تنقلات الموظفين إلى «زيجات الأعيان»!
- وفي بعض الرسائل كان «مايلز لامبسون» يضع تقارير من آخرين خارج السفارة، أهمها ما كان يكتبه «روبرت فيرنس» وهو المشرف على «الرقابة» (على الصحف - والإذاعة - والبريد)، وحتى التليفونات وتسجيلاتها مما كان يهم السلطة البريطانية، وكان مقر هذه الرقابة غرفة خاصة في مصلحة التليفونات المصرية في «شارع رمسيس»، وكان اسمه أيامها «شارع الملكة نازلي».

إلى جانب ذلك كله - وربما قبله - كان «مايلز لامبسون» لا يأوي إلى فراشه في أي يوم مهما طال السهر، قبل أن يفضي إلى يومياته الخاصة بكل ما رأى وسمع وأحس طوال نهاره وسهره. ويمكن أن يقال أن هذه اليوميات (٢ مليون كلمة)، أهم وأكمل سجل عن الحياة المصرية في تلك الأوقات من التاريخ المصري. وفي حين أن تقارير «مايلز لامبسون» (لورد كيلرن) محفوظة في دار المحفوظات بـ«كيو» - قرب لندن - فإن يومياته مودعة بناء على وصيته في كلية «سان أنتوني» بـ(جامعة أوكسفورد)، وهي الكلية المهتمة بدراسات الشرق الأوسط، ومحفوظات هذه الكلية من مجموعات الأوراق الخاصة مهولة وذات قيمة يصعب تقديرها.

وفيما يلي نص حرفي لما سجله السير «مايلز لامبسون» عن وقائع ٤ فبراير ١٩٤٢ - ثلاثة أيام هزت كيان مصر - بأول انقلاب عسكري في السياسة المصرية!

٤ فبراير:

ماذا جرى بالضبط؟

نصوص ما سجله «لامبسون» فى يومياته السرية عن إنذاره للملك «فاروق»

الاثنين ٢ فبراير - صباحا -

بدأت المسائل تتحرك بسرعة، فى البداية تلقيت تليفونا من (حسين سرى «باشا» - رئيس الوزراء) يبلغنى أنه أصبح مضطرا لتقديم استقالته، وسوف يذهب إلى القصر الساعة ١٢،٣٠ اليوم لتقديمها. اتصلت تليفونيا بـ (أحمد حسنين «باشا» - رئيس الديوان) لأطلب منه ترتيب مقابلة مع الملك لا تزيد على نصف ساعة. بدا «حسنين» مراوغا، ولذلك كلمته بخشونة، وعاد «حسنين» فاتصل بى وحاول أن يعاتبنى على الطريقة التى تكلمت بها معه. ولم أتجاوب وتركته يفهم أننى أعنى ما قلت له، ثم كررت عليه أننى أريد مقابلة عاجلة مع الملك اليوم وفى أسرع وقت، وسوف أكون فى القصر بنفسى فى الساعة الواحدة بعد الظهر بالضبط.

وعلى الفور اتصلت باوكنليك (القائد العام للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط) وكان مع هيئة قيادته فى اجتماع عندما اتصلت به. وعندما علمت أنهم جميعا هناك، قلت له أننى سوف أنضم إليهم على الفور، وأخذت معى «سمارت» (المستشار الشرقى للسفارة)، و«تيرنس شون» (الوزير المفوض)، وطرحت عليهم ما أنوى أن أفعله، وأبدى «أوكنليك» شيئا من التردد، وسيطرت على مشاعرى حتى لا أقول له أن العسكريين لا يستطيعون التصرف فى الأمور السياسية وحدهم، ومن حسن الحظ أن الجنرال «ستون» أيد موقفى معتقدا بأن الوقت قد جاء لنكون حازمين.

وتم الاتفاق فى النهاية على أننى عندما أقابل الملك فى الساعة الواحدة بعد الظهر سوف أضع أمامه النقاط التالية:

١ - إننا نريد أن نرى حكومة موالية لنا، قادرة على تنفيذ المعاهدة بنصوصها وروحها، وبالتحديد المادة الخامسة من المعاهدة (الخاصة بالاتصالات مع قوى خارجية معادية).

٢ - إننا نريد حكومة قوية تستطيع أن تحكم معتمدة على تأييد شعبى كاف.

٣ - هذا يعنى أن عليه أن يستدعى (مصطفى النحاس «باشا» - رئيس الوفد) وهو زعيم حزب الأغلبية فى البلاد وأن يتشاور معه فى شأن تأليف حكومة.

٤ - إننى أطلب أن يتم ذلك فى موعد أقصاه ظهر غد.

٥ - إنه هو شخصيا سوف يكون مسئولا عن وقوع أى اضطرابات أو إخلال بالأمن فى هذه الفترة.

٢ فبراير - بعد الظهر -

استقبلنى الملك الساعة الواحدة كما طلبت، وحاول أن يكون وديا فوق ما هو ضرورى، وشرحت له لماذا طلبت أن أراه بهذه السرعة، فقد علمت أن «سرى» (باشا) قدم استقالته وكممثل للحلفاء فى مصر (وليس بريطانيا وحدها)، فقد وجدت من الضرورى أن أعرف من هو رئيس الوزارة الذى سوف يخلفه، وأتأكد من أنه يملك المؤهلات الكافية لتنفيذ أمين لنصوص وروح معاهدة سنة ١٩٣٦.

سلمت الملك البنود الأربعة الأولى من مقترحاتى التى أرسلتها إلى وزارة الخارجية، وأما بالنسبة للبند الخامس (أى مسئولية الملك عن حفظ الأمن والنظام) فقد قرأت عليه النص شفويا، وكان قصدى من ذلك أن يفهم ما أتحدث عنه بدون أدنى شك.

قبل الملك بدون تردد النقطتين (١) و(٢) فى مطالبى، وقال إنها طلبات معقولة ومفيدة، وأما فيما يتعلق بالبند الثالث (استدعاء النحاس) فقد دخل بشأنه فى شرح طويل، قال إنه كان يعمل من أجل تأليف حكومة وحدة وطنية، وقال إنه يسلم بأنه ليس هناك شخص آخر غير «النحاس» يمكن أن يرأس هذه الحكومة، وأنه يظن أن علاقته تحسنت مع «النحاس»، وهو فى الواقع لا يرى مرشحا آخر غيره. وإذا استعرضنا المرشحين - غير «النحاس» - فسنجد أنهم جميعا لا يصلحون الآن. أضاف الملك أن (أحمد ماهر «باشا» - رئيس حزب السعديين) لديه الحكمة ليدرك أنها ليست ساعته was not his hour انتقل الملك من هذه النقطة إلى إبداء تردده بشأن استدعاء «النحاس» (باشا) ضمن المهلة التى حددتها له. لم يقل أنه لن يستدعى «النحاس» (باشا) للتشاور معه، وإنما حاول أن يعطينى الانطباع أن خلافه معى هو فى المهلة الزمنية، فهو يخشى أن العجلة فى استدعاء «النحاس» (باشا) قد تعطى انطباعا خاطئا. كررت عليه بوضوح مرة أخرى أننى أريده أن يخطرنى فى ظرف ساعة واحدة من الآن أنه استدعى «النحاس» (باشا). لم أستعمل كلمة تهديد مباشرة أو غير مباشرة ولكننى كنت حازما، أضفت أننى لن أقبل أى عذر لأية اضطرابات أو إخلال بالأمن يحدث فى البلد إلى حين استدعاء «النحاس».

رد على الملك بأنه لن تكون هناك أية اضطرابات فقد أرسل هذا الصباح إلى طلبة الأزهر الذين جاءوا فى مظاهرات إلى القصر، وأبلغهم أن عليهم التزام الهدوء. وتركت مكتب الملك وقبل أن أغادر القصر طلبت «حسنين» (رئيس الديوان الملكى)، ورويت له ملخص ما قلته للملك وطلبت منه أن يتأكد من استجابة الملك لما طلبت بحيث يستدعى «النحاس» قبل ظهر غد.

حاول «حسنين» أن يناقش الموضوع وحاول إقناعى بأنهم كانوا يرتبون لحكومة ائتلافية يرأسها «النحاس». لكن تفكيرهم كان يتجه إلى أن تكون البداية وزارة محايدة تقوم بإجراء انتخابات حرة تمهد لوزارة وفدية، وخشيته أنه إذا جرى استدعاء «النحاس» وتكليفه بتشكيل الوزارة فى خطوة واحدة، فإن ذلك سوف يؤدى إلى اكتساح وفدى يعم كل الدوائر الانتخابية، ويؤدى إلى تهميش الأحزاب السياسية الأخرى وبالذات السعديين والأحرار الدستوريين. وحين لمح عدم تقبلى لما يقول أكد أن البداية بوزارة محايدة تجرى انتخابات يمكن أن يكون فيه نوع من الفرملة يكفل سلامة الحكم فيما بعد.

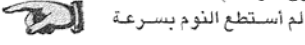
قال لى «حسنين» أيضا أنه إذا كنت أخشى أن «على ماهر» أو بعض أنصاره ربما ينتهزون فرصة التغييرات السياسية المقترحة و«يلعبون»، فهو يستطيع أن يؤكد لى أن «على ماهر» وأصدقاءه سوف يتم استبعادهم بالكامل من الوزارة المستقلة. قلت له إننى أعرف أن «النحاس» لن يقبل بحكومة مستقلة الآن ولا بحكومة ائتلافية فيما بعد. وأن ما يقوله (حسنين) مضيعة للوقت، ومازلت مصرا على ما طلبته. وأرجو ملحا أن أسمع أن «النحاس» دعى لمقابلة الملك والتشاور معه قبل ظهر غد.

٢ فبراير - مساء -

فكرت بعد الظهر أن أبعث «سمارت» ليقابل «حسنين» ويضغط عليه بضرورة العمل وفق ما طلبت منه ظهر اليوم وأن يحذره من عواقب التراخى فى التأخير. لكنى من سوء الحظ اكتشفت أن «سمارت» أوى إلى فراشه مصابا بنوبة برد مفاجئ. وهكذا طلبت من «تيرنس شون» (الوزير المفوض) أن يبعث إلى «حسنين» بوصفه صديقا له رسالة شخصية وعاجلة تؤكد أهمية الاستجابة لما طلبت فى الموعد الذى حددته.

٢ فبراير - ليلا -

ذهبت للعشاء فى احتفال الهلال الأحمر وبحضور الملكتين (نازلى وفريدة). كان الاحتفال فى ستوديو مصر، وكان احتفالا كبيرا، خصوصا مع حضور عدد كبير من وصيفات الشرف للملكتين فقد كان منظر الوصيفات أنيقا. وعندما عُدت إلى السفارة بعد منتصف الليل بقليل وجدت برقية من وزارة الخارجية، وبدا لى أنهم هناك لا يعرفون أن «سرى» استقال ولذلك كتبت إليهم قبل أن أنام عن آخر التطورات، كذلك حرصت على كتابة مذكرة شخصية وخاصة لأنتونى إيدن (وزير الخارجية) أضعه فى الصورة لأنى أريد أن تكون وزارة الحرب على بينة من تراخى «أوكنليك» (القائد العام لقوات الشرق الأوسط).

لم أستطع النوم بسرعة 



٤ فبراير.. ماذا جرى بالضبط؟

لأن عينى كانت ملتهبة وكان لابد أن أضع عليها كمادات لمدة نصف ساعة.

الثلاثاء ٢ فبراير

طلب (أمين عثمان ـ شغل من قبل منصب وكيل وزارة المالية) ـ وأصبح حلقة الاتصال بين «النحاس» (باشا) وبين السفير البريطانى ـ مقابلتى. شرحت له تفاصيل الموقف. قال لى بصراحة أنه جاء إلى باسم «النحاس» لكى يؤكد لى أن «النحاس على أتم استعداد» prepared perfectly ـ لكى يلعب دوره معنا مادمنا سوف نمضى فيه إلى النهاية. قلت له إننى أريد أن يعرف «النحاس» بعض المسائل المهمة التى طرحتها على وزارة الخارجية فى لندن وهى نقاط سوف أثيرها معه (النحاس) مؤخرا عندما يصبح رئيسا للوزراء ـ وهو ما أتوقعه.

وأبديت أننى أذكر له هذه النقاط الآن لكى يكون النحاس مستعدا عندما أطلبها رسميا منه.

أبدى «أمين عثمان» أنه واثق من أن «النحاس» لن يثير أية مشاكل على أى مسألة يمكن أن نطرحها عليه. سألنى «أمين» ما هى نصيحتى للنحاس وكيف يتصرف بعد ظهر غد (عندما يدعوه الملك للمشاورات). قلت لأمين أن «النحاس» يستطيع أكثر من غيره أن يكيف موقفه، ولكن رأيى أن عليه أن يرفض فكرة الحكومة الانتقالية، فهى مجرد حيلة من القصر تعطيهم فرصة للمناورة وترتيب المؤامرات وتدعيم موقفهم فى البلاد. قلت أيضا إن «النحاس» يستطيع إذا أراد أن يقبل رئاسة وزارة ائتلافية ولو أنى أعرف أن هذه مسألة صعبة. وقال «أمين» أنه سوف يعود الآن إلى «النحاس» ليرى ما عنده.

لابد أن أستدرك لأسجل أننى قبل أن يدخل «أمين» عندى، تلقيت اتصالا تليفونيا من «سرى» ليبدى لى ملاحظة سمعتها منى زوجته (السيدة ناهد سرى، وهى فى ذلك الوقت رئيسة الهلال الأحمر) أثناء حضورى لاحتفال الأمس فى ستوديو مصر. قلت له إننى بسبب تسارع الحوادث لم أستطع الاتصال به أمس لأخطره بما جرى. وافقنى «سرى» (باشا) على أن فكرة وزارة محايدة مضيعة للوقت، وأن فكرة حكومة ائتلافية حتى لو كانت برئاسة «النحاس» سوف تؤدى إلى مشاكل كثيرة، وأن الحل الوحيد الحقيقى هو ما رأيته من أفضلية مجىء وزارة وفدية بالكامل.

٢ فبراير ـ بعد الظهر.

الموقف هادئ حتى الساعة ٢,١٥.

جاء «أمين» برسالة من «النحاس». الرسالة كما يلى:

«فى ظروف سابقة كان «النحاس» دائما ينادى بحكومة محايدة تجرى انتخابات. الآن غير رأيه لأن الظروف لا تحتمل. وأما عن فكرة وزارة ائتلافية فرأيه أنها لن تنجح لأسباب كثيرة بينها أنه يعرف أن «أحمد ماهر» رئيس الحزب السعدى مريض ـ أصابته نوبة قلبية خفيفة، ومعنى هذا أن عضوا آخر من حزبه (السعديين) سوف يدخل الوزارة الائتلافية فى حالة تشكيلها وذلك غير مقبول منه (من النحاس). وفى كل الأحوال فهو يرى أن الأوضاع فى البلد غاية فى السوء، والقصر يتآمر حتى ضد وزارة «سرى» رغم أنه قريب للملك. وإذا كان على «النحاس» أن يقدم لنا المطلوب deliver the goods to us، فلا مفر أن تكون الوزارة القادمة وفدية. ونحن نعرف أن «النحاس» تعاون معنا بكل جهده من قبل، وعلينا أن نثق أنه حتى لو لم تكن هناك معاهدة فإنه سوف يتعاون معنا كما فعل فى كل الظروف».

وفيما نقله «أمين عثمان» أيضا أن «النحاس» يريدنا «أن نعرف أن روح المعاهدة تقتضى تعاونا بين الطرفين بكل ما يعنيه التعاون من أبعاد، وأنه إذا كان «حسين سرى» نافعا لنا، فإن «النحاس» سوف يكون أكثر نفعا لنا if Hussein Sirry had been of use to us, Nahas would be even more use. وأن «النحاس» تعاون معنا فى زمن السلم وسوف يكون تعاونه معنا أكثر عشر مرات فى زمن الحرب.

لكنه لكى يتحقق ذلك، فلابد أن تكون يده مطلقة بالكامل فى التعامل مع القصر ـ فما يريده هو الديمقراطية والتعاون معنا، والملك يعارض الهدفين. وإذا أيدناه إزاء الملك فإنه سوف يتكفل بكل شىء. وفى نفس الوقت فهو لا يريد أن يبدو منتقما من الملك (بسبب إقالة وزارته الأخيرة) وقد يكون لصالح الملك أن يرى قوة العلاقة بيننا (الوفد والسفارة) ويلزم حدوده».

وقال لى «أمين عثمان» إن «النحاس» مستعد لقبول حكومة محايدة إذا كنت أنا أريد ذلك، وحكومة ائتلافية إذا كانت تلك نصيحتى، لكنه يريد تذكيرى بأن الحكومات الائتلافية لا تنجح».

قلت لأمين إننى سأملى عليه النقاط التى أريد منه إبلاغها للنحاس: «إن النحاس عليه أن يقول للملك أن الموقف فى غاية السوء، وأنه لا يستطيع الثقة فى ولاء الأحزاب الأخرى التى يمكن أن تشارك فى حكومة ائتلافية إذا أصر الملك على ذلك، وأن الحل الوحيد لتفادى المشكلات والمؤامرات هو تأليف وزارة وفدية خالصة حتى تستطيع أن تتحمل المسئولية. ويستطيع «النحاس» أن يطرح على الملك اقتراحين:

١ ـ تخصيص بعض الدوائر الانتخابية للأحزاب الأخرى.

٢ ـ إمكانية إنشاء مجلس استشارى من زعماء الأحزاب ويكون ذلك بديلا لفكرة الائتلاف».

لم يكد «أمين» يخرج من عندى حتى اتصل بى يبلغنى أنه حين وصل إلى بيت «النحاس» عرف أنه استدعى إلى القصر.

٣ فبراير ـ مساءً.

فى الساعة السادسة مساءً اتصل بى «أمين» ليبلغنى بلقائه مع «النحاس» وبما رواه له عما حدث فى القصر، أملانى «أمين» محضرا كتبه «النحاس» للمقابلة مع الملك he actually dictated Nahas own record of the interview، ولم يعجبنى ما سمعته منسوبا للملك وملخصه أن «فاروق» طلب من «النحاس» تأليف وزارة ائتلافية، وأن «النحاس» رفض مبديا استعداده تأليف وزارة وفدية تتحمل المسئولية.

بناء على ذلك وفى الساعة السابعة، استدعيت «حسنين»، قلت له إننى عرفت بما حدث مع «النحاس» (باشا)، وأنا أريد أن أطلب من الملك «فاروق» أن يستدعى «النحاس» فى أسرع وقت، وأن يكلفه بتشكيل الوزارة. أبلغت (حسنين) أيضا أننى سوف ألتقى بالمجلس الحربى فى مصر الساعة العاشرة من صباح غد، وتركته يفهم ماذا يعنى ذلك، حاول «حسنين» كعادته أن يتلوى، ولكنى أبلغته بوضوح أننى أعنى ما أقول وأن عليه أن يعرف أننى أريد من الملك أن يستدعى «النحاس» لتأليف الوزارة.

بعد خروج «حسنين» بقليل، اتصل بى «أمين عثمان» وأبلغته بما قلته لحسنين. وذهبت إلى العشاء والسهرة وعدت إلى البيت الساعة ١٢,١٥، اتصل بى «أمين» ليسأل إن كان هناك جديد وأجبته بالنفى.

السير «مايلز لامبسون»
فى تقريره إلى «أنتونى ايدن» وزير الخارجية:
«لابد أن أقول أننى استمتعت لأبعد مدى بوقائع هذه الليلة، ولقد راودنى الإغراء فى بعض اللحظات بأن أصر على تنازل الملك «فاروق» ولكنى راجعت نفسى لأن مقتضيات الحذر. أقول ذلك مترددا ـ جعلتنى أترك له الفرصة لاستدعاء النحاس

الأربعاء ٤ فبراير (صباحا)

كنت مازلت مشغولا بالكمادات على عينى فى الصباح الباكر عندما سمعت أن «هنرى هوبكنسون» (ضابط الاتصال السياسى بالسفارة البريطانية فى القاهرة وقتها) جاء يحمل رسالة عاجلة. طلبت أن يصعد إلىَّ فى غرفة النوم. أبلغنى أن «حسنين» اتصل تليفونيا وطلب أن يرانى بأسرع ما يمكن: لأن لديه رسالة يريد إبلاغها لى. وحين عرف أننى مازلت فى غرفة النوم أبدى رغبته أن يذهب «هوبكنسون» إليه فى مكتبه ليتلقى منه الرسالة. وقد رد عليه «هوبكنسون» بأنه سيصعد إلى غرفتى ويعود إلى فى هذا الشأن. ثم يرد عليه. قلت لهوبكنسون «إننى لا أوافق لأن الوقت تأخر وهم يحاولون المماطلة».

فى الساعة العاشرة كان على أن أحضر اجتماع لجنة الحرب (فى مقر وزير الدولة البريطانى المقيم ومكتبه فى ذلك الوقت ١٠ شارع الطلمبات ـ جاردن سيتى) فى السيارة كان معى الملحق العسكرى بالسفارة. فى الطريق قلت له «إن هناك وسيلتين للتصرف فى أزمة من هذا النوع: إما أن نعالج الأمور سياسيا بحزم وهذا ما أفعله، وإما أن تتولى جماعته ـ أى العسكريين ـ حل العقدة، وهذا ما أحاول تجنبه».

عندما وصلت إلى الاجتماع كان الكل حول المائدة.

شرحت للكل ولأوليفر (أوليفر ليتلتون الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط) تطورات الحوادث حتى هذه اللحظة، وقلت إننى أريد أن أعرف منهم تصورهم للمهلة التى يجب أن أعطيها للملك نهائيا حتى يستدعى «النحاس» لتشكيل الوزارة. كانت المناقشة مفيدة واتفقنا على أن أبلغ «حسنين» رسالة بالموعد. ولم أجد مبررا لكى أذهب إليه أو يجىء لى، فاتصلت به (حسنين) تليفونيا وأمليت عليه نصا مكتوبا وافق عليه الجميع، وكان النص كما يلى:

«إذا لم أسمع قبل السادسة مساء اليوم أن «النحاس» دعى لتشكيل حكومة، فإن صاحب الجلالة الملك «فاروق» عليه أن يتحمل العواقب» ـ ولم أترك لحسنين فرصة لمناقشة ما تلقاه منى. وأكملنا اجتماع لجنة الحرب، فقد كانت أمامنا ترتيبات كثيرة عند الساعة السادسة مساء فى حالة ما إذا تأخر الملك فى استجابته لطلباتنا.

واستدعينا الجنرال «ستون» (رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى الجيش المصرى). كان «ستون» يطلب وقتا، وكذلك اتفقنا على أن نبدأ التحرك الساعة الثامنة مساء. فى ذلك الوقت يكون على أن أذهب أنا يرافقنى الجنرال «ستون» إلى قصر عابدين لإبلاغ الملك أن عليه أن يتنازل عن العرش. ولكى نحول دون حدوث أى قلاقل ـ كان لابد أن تسبقنا قوة عسكرية مسلحة تحيط بالقصر قبل أن نصل إليه أنا والجنرال «ستون». وكنا جميعا على اتفاق بأنه لا يجب أن أخرج من القصر إلا وفى جيبى ورقة من اثنتين كلتاهما بإمضاء «فاروق»: واحدة عليها تنازله عن العرش إذا عاند والثانية عليها تكليفه للنحاس إذا قرر أن يطيع!

وناقشنا أين يذهب فى حالة ما إذا تنازل عن العرش واستقر رأينا فى البداية على أنه يمكن نقله إلى إحدى سفن أسطولنا فى الإسكندرية (وبعدها كان الترتيب إرساله إلى المنفى فى كندا، وكان القصد من كندا إعطاءه فرصة لقطع الوقت بالتزلج على الجليد لأن تلك رياضته المفضلة).

تركت قاعة الاجتماع إلى مكتب آخر مجاور واستدعيت «فيتز باتريك» (قائد بوليس القاهرة)، وطلبت منه أن ينسق على الفور مع الجنرال «ستون». كذلك اتصلت بوالتر مونكتون (مساعد وزير الدولة المقيم وهو خبير مرموق فى الشئون الدستورية)، وقد اعتبرت أن وجود «مونكتون» مصادفة سعيدة فى مصر فى ذلك الوقت، لأنه هو الرجل الذى كتب وثيقة تنازل «إدوارد الثامن» عن العرش لكى يتزوج من عشيقته «واليس سمبسون» (التى أصبحت فيما بعد دوقة وندسور بعد أن تنازل «إدوارد» عن العرش مفضلا الغرام على الملك).

عُدت إلى السفارة الساعة ١٢,٣٠ بعد الظهر، استدعيت «حسنين» لمقابلة قصيرة جدا، أعدت عليه مرة أخرى نص ما سبق وأبلغته به. وكتبه مرة أخرى، وقلت له أنه ليس عندى ما أضيفه إلى هذا النص الذى أرجو أن يقنع الملك «فاروق» بأنه الضوء الأحمر هذه المرة، وأننى بكل ما لدى من وسائل الإقناع أريد أن أحذر الملك فأنا أتوقع أن أتلقى ردا يستجيب لما طلبت فى الموعد المحدد وإلا فسوف تحدث أشياء things will happen.

رأيت مناسبا أن أتأكد من موقف النحاس، ولأنى أفهم أنه يصعب العثور عليه فى بعض الأوقات، فقد أردت أن أعرف أين سيكون فى حالة ما إذا دعاه الملك أو احتجت أنا إليه. أبلغت «أمين عثمان» بما حدث مع «حسنين» وأنه من المهم أن يكون «النحاس» موجودا حيث يمكن الاتصال به، أبلغته أيضا أننى «أتمنى أن يكون «النحاس» مازال عند موقفه» ـ قال لى أمين أن «النحاس» نفسه قال له قبل قليل «أنه يتمنى أن لا نغير نحن رأينا».

وقال أمين «إنه لم ير «النحاس» مصمما كما يراه الآن». قال لى «أمين» أن «مكرم» (مكرم عبيد سكرتير الوفد فى ذلك الوقت)، دُعى للقصر.

قلت لأمين «إننى أرجو أن لا يكون مكرم تراوده إمكانية التخاذل الآن، وقد اقتربنا من ساعة الصفر». قال «أمين» «إنه سوف يبقى مع «النحاس» بنفسه طوال بعد الظهر».

لكى أكمل السجل فى هذه اليوميات ـ أضيف أننى تلقيت برقية من وزارة الخارجية تصدق على كل الترتيبات التى اتخذتها.

٤ فبراير ـ بعد الظهر.

على الغداء تلقيت معلومات بأن طلبة جامعة الأزهر خرجوا فى مظاهرة تنادى «يحيا روميل ويسقط الإنجليز»، وتلك بالتأكيد من نتائج تحريض «المراغى» (الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر وكانت السفارة تتهمه بأنه أحد الأعمدة الكبيرة التى يستند عليها القصر) ـ تلقيت أيضا معلومات بأن هناك اضطرابات فى الزقازيق. كان معى على الغداء عدد من الضيوف بينهم الجنرال السير «كلود أوكنليك» (القائد العام للقوات البريطانية فى مصر) وقد ناولته ورقة المعلومات التى وصلت إلىَّ عبر المائدة.

بعد الغداء أبلغنى «أمين» أن «النحاس» وصلته معلومات مؤكدة بأن الملك يحزم حقائبه، ثم عاد «أمين» فأبلغنى أن «النحاس» دعى إلى مقابلة الملك بعد الظهر.

تأكدت من جميع الترتيبات العسكرية لأنى لا أستطيع أن أستبعد إقدام الملك على حماقة.

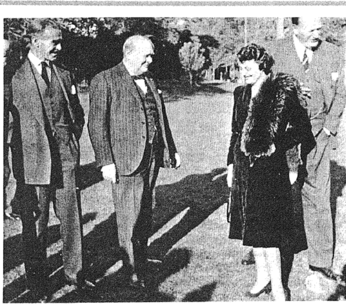
٤ فبراير ـ بعد الظهر.

الساعة ٥,٤٥ ـ لم تصلنى أية إشارة من القصر، وأرسلت إلى وزارة الخارجية أبلغهم أننى الآن ماض فى تنفيذ خطتى.

الساعة ٦ مساءً

جاءتنى رسالة تليفونية من «تيمور بك» (إسماعيل تيمور بك التشريفاتى الأول فى قصر عابدين) الذى أبلغنى أن «حسنين» فى طريقه إلىَّ، ووصل «حسنين» فعلا الساعة ٦,١٥ ومعه رسالة من الملك نصها ما يلى:

«عندما تلقى الملك الإنذار البريطانى دعا إلى القصر فورا الساسة المرفقة أسماؤهم بهذه الرسالة



السير «مايلز لامبسون» وقرينته «جاكلين» و«ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا ووزير الدولة البريطانى فى الشرق الأوسط «كاسيى» فى حديقة السفارة البريطانية فى القاهرة





٤ فبراير.. ماذا جرى بالضبط؟

وهم قادة كل الأحزاب السياسية، وبينهم «النحاس» وعرض عليهم خطورة الموقف، واتفق رأيهم جميعا على صيغة رد طلبوا إبلاغها لى، وكان نص الرد يقول:

«إن الإنذار البريطانى الموجه إلى جلالة ملك مصر يمثل خرقا لمعاهدة الصداقة والتحالف بين البلدين، ولهذا السبب وبناء على نصيحة الزعماء السياسيين، فإن جلالة ملك مصر لا يستطيع قبول هذا الخرق لاستقلال بلاده».

نظرت إلى «حسنين» وقلت له هذا كلام بالغ الخطورة، وسوف أجيء إلى القصر لأبلغ الملك ردى عليه بنفسى فى الساعة التاسعة مساء. وبدا الذهول على وجه «حسنين» وسألنى «ألا يمكن سير «مايلز» لك ولى أن نجد حلا لهذه المشكلة؟» ثم استطرد ولم أقاطعه عامدا حتى أسمع ما لديه - قائلا: «إننا نحتاج الآن إلى حل لإنقاذ ماء الوجه، وإذا وافقت على تشكيل حكومة محايدة فهو (حسنين) على استعداد أن يقسم لى بشرفه أنه فى أقل من شهرين سوف تكون فى البلد حكومة وفدية».

قلت لحسنين: «إننى حاولت مرات من قبل أن أتعاون معه، لكنى أخشى أن يكون ما يقترحه الآن مستحيلا بالنسبة لى».

دعوت لجنة الطوارئ للاجتماع، وبينما نحن مجتمعون وصل «أمين عثمان» للسفارة. ذهبت لمقابلته فى غرفة مجاورة، سألته على الفور: «هل وضع «النحاس» توقيعه حقا على رد الزعماء السياسيين الذى جاء به «حسنين»؟ وإذا كان ذلك فكيف يمكن تفسير تصرفه؟». أكد لى «أمين» أننى لا يجب أن أهتم بأى شيء إلا بتأكيداته هو لى باسم «النحاس».

أضاف «أمين عثمان» أنه يستطيع أن يراهن إلى آخر دولار(-!-) عنده بأن «النحاس» متمسك بما اتفق عليه معى. وكذلك عدت إلى غرفة الاجتماع وطلبت إعداد نص بالكلام الذى أوجهه إلى الملك «فاروق» عندما ألتقيه فى المساء، واتفقنا على نصين:

النص الأول - فيه ما أقوله للملك.

والنص الثانى - وثيقة تنازل من الملك عن العرش.

● النص الأول يقول «خلال السنوات الأخيرة تأكد لنا أنكم تحت تأثير بعض مستشاريكم، لم تكونوا مخلصين للحلف ولبريطانيا العظمى، وإنما على العكس من ذلك عرقلتم جهودهم بما يساعد خصومهم.

إن الاتجاه العام وما يصاحبه من ظواهر تؤكد لنا قيامكم بخرق معاهدة التحالف مع بريطانيا بمقتضى المادة الخامسة التى تفرض عليكم ألا تقوموا باية اتصالات أو علاقات مع أى بلد معاد للحلفاء.

إن جلالتكم فوق ذلك وعن تعمد وبدون داع طلبتم من الحكومة السابقة الرجوع عن قرار اتخذته بمقتضى البند الخامس من المعاهدة (بطرد المسيو «بوتزى» - الوزير المفوض الفرنسى فى القاهرة).

وأخيرا، فإنكم فشلتم فى تامين قيام حكومة وحدة وطنية ورفضتم أن تعهدوا بالسلطة إلى رئيس الحزب الذى يحظى بالأغلبية الشعبية فى البلد والذي يستطيع وحده تامين التنفيذ الدقيق للمعاهدة بالروح التى وضعت بها النصوص. ومثل هذه التصرفات الطائشة وغير المسئولة من جانبكم تعرض أمن مصر وأمن القوات الحليفة فيها للخطر، وهنا فإنهم يعلنون لكم أنكم لم تعودوا جديرين بالجلوس على العرش.

● وأما النص الثانى (وثيقة التنازل عن العرش) فقد كان على النحو التالى:

● «نحن «فاروق» الأول - ملك مصر - تقديرا منا لمصالح بلدنا فإننا هنا نتنازل عن العرش ونتخلى عن أى حق فيه لأنفسنا ولذريتنا، ونتنازل أيضا عن كل الحقوق والامتيازات والصلاحيات التى كانت عندنا بحكم الجلوس على العرش. ونحن هنا أيضا نحل رعايانا من يمين الولاء لشخصنا».

صدر فى قصر عابدين فى هذا اليوم الرابع من فبراير ١٩٤٢.

توقيع «فاروق»

طلبت من وزير الدولة (أوليفر ليتلتون) أن يبقى على العشاء ومعه قرينته الليدى «مويرا». رحنا نناقش ما نحن مقبلون عليه، وكان يرى «أنه حتى «النحاس» رجل مذبذب فى موقفه»، والدليل على ذلك توقيعه على عريضة الزعماء التى أيدوا فيها الملك واتهمونا بالتدخل فى شئون مصر عدوانا على المعاهدة. وهنا كان رأيه (وزير الدولة أوليفر ليتلتون) بعد نقاش طويل «أنه إذا تراجع الولد (the boy) واستسلم للإنذار فلا داعى لوضع وثيقة التنازل أمامه».

قبل أن أخرج من السفارة استدعيت «أمين» لمقابلة أخيرة أريد أن أتاكد فيها من أن كل شيء يسير على نحو ما أريد. قلت له إننى أتوقع ما يلى:

١ - إن «النحاس» سوف يؤلف وزارة وفدية إذا دعاه الملك «فاروق» وطلب منه.

٢ - إنه إذا تنازل الملك عن العرش فإن «النحاس» سوف يؤلف الوزارة وينهض بالمسئولية «بطلب منا»!

تحركت من السفارة الساعة ٨,٤٠ متوجها نحو قصر عابدين، كان معى الجنرال «ستون» وكنت أعرف أن هناك قوة من المدرعات سبقتنا إلى حصار القصر، وكان معنا عدد من السيارات مشت خلفنا - ومجموعة من الضباط يمثلون كل أسلحة الجيش البريطانى وفروعه ترافقنا.

فى الطريق رويت للجنرال «ستون» ما اقترحه وزير الدولة (أوليفر ليتلتون) على العشاء، وأبدى الجنرال «ستون» أنه يوافق بلا تردد، على أنه «إذا تراجع الولد فليس لنا أن نجبره على التنازل عن العرش وإلا وضعنا أنفسنا فى مربع الخطأ».

وهكذا وصلنا إلى القصر، ولأن هذه المقابلة مهمة فإنى أخصص لها فى هذه اليوميات صفحات مستقلة.

....

....

ملحق إضافى:

«لأن ما حدث فى قصر عابدين مساء يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ موضوع مهم من وجهة نظر تاريخية وإنسانية، فقد رأيت أن أودع فى هذه اليوميات صورة كاملة من التقرير الذى بعثت به إلى «أنتونى إيدن» (وزير الخارجية) - وهذا نصه:

١ - صاحب السعادة قد يهمك أن تعرف صورة كاملة لوقائع هذا المساء التى أعتبرها جديرة بالتسجيل.

٢ - فى الساعة التاسعة مساء وصلت إلى قصر عابدين مصحوبا بالجنرال «ستون» ومعنا مجموعة منتقاة من الضباط الذين يمثلون كل أسلحة القوات، وكانوا مسلحين حتى الأسنان. فى طريقنا للقصر مررنا ببقية قواتنا التى كانت تتقدم فى الظلام متجهة إلى القصر لاستكمال حصاره. وعندما وصلنا كان فى وسعى أن أرى نظرة ذهول فى عيون تشريفاتية القصر الذين وقفوا فى استقبالنا عند مدخله، وكانت نظراتهم الذاهلة أول إشارة لى بأن المظاهرة التى قمنا بها حققت آثارها المبدئية.

صعدنا إلى الطابق الثانى وانتظرنا قليلا ونحن نسمع أصوات الدبابات وهى تتخذ مواقعها حول القصر. وكان مشهد دخول وخروج تشريفاتية القصر والياوران من ناحية مكتب الملك وهم يهرولون فى ذعر - لمسة مضافة إلى جو توقعات الشؤم التى ينتظرها أهل القصر.

٣ - بعد قرابة خمس دقائق من التأخير دُعيت إلى مكتب الملك فى نفس اللحظة التى كنت فيها على وشك أن أبلغ رئيس الأمناء أننى لست مستعدا للانتظار ثانية إضافية واحدة. وتوجهت فى الممر المؤدى إلى مكتب الملك ومعى الجنرال «ستون»، ولكن كبير الأمناء (سعيد ذو الفقار باشا) حاول أن يمنع الجنرال «ستون» من مرافقتى، وقد أزحته جانبا بذراعى ودخلت والجنرال «ستون» معى إلى مكتب الملك.

٤ - بدا الملك «فاروق» مأخوذا، وسألنى إذا كان يمكن أن يستبقى «حسنين» معنا أثناء المقابلة، ووافقت على طلبه.

٥ - مضيت مباشرة إلى مهمتى وقلت للملك إننى كنت أتوقع منه ردا بلا أو نعم فى الساعة السادسة على الرسالة التى بعثت بها إلى القصر صباح اليوم. وبدلا من ذلك جاءنى «حسنين» فى الساعة السادسة والربع برسالة اعتبرتها ردا «بلا». وأنا الآن أريد أن أعرف وبدون مراوغة هل هى نعم أم هى لا؟ وبدا أن الملك يفكر ولم أترك له فرصة، وإنما أكملت كلامى على الفور مبديا له بازدراء شديد أن الأمور وصلت إلى نقطة خطيرة أعتبرها بوضوح إجابة بلا. وبناء عليه فإنى بمقتضى السلطات المخولة لى أطلب منه توقيع وثيقة بالتنازل عن العرش، وليس أمامه غير أن يوقع عليها فورا، وإلا فإننى سوف أتخذ إجراءات أخرى للتصرف معه قد لا تكون مرضية له - وناولته ورقة التنازل عن العرش.

٦ - تردد الملك «فاروق» لثوان وأحسست للحظة أنه سوف يأخذ القلم ويوقع، لكن «حسنين» تدخل باللغة العربية وقال شيئا للملك الذى توقف وبدا عليه نوع من الهلع، وقد نظر إلىَّ وسألنى - بطريقة محزنة وبدون أية ادعاءات مما كان يتظاهر به من قبل - «إذا كان فى



الإمكان إعطاؤه فرصة أخرى وأخيرة». وقلت له «إننى لابد أن أعرف فورا وبدون مراوغة ما الذى ينوى عمله»؟! وأجاب بأنه سوف يستدعى «النحاس» على الفور، وزاد فاقترح أن يدعو «النحاس» فى وجودى إذا أردت، وأن يكلفه على مسمع منى بتشكيل وزارة جديدة.

سألته: «هل يفهم بوضوح أنها يجب أن تكون وزارة من اختيار «النحاس» وحده؟»، وقال «إنه يفهم». وقلت له «إننى على استعداد لأن أعطيه فرصة أخيرة لأنى أريد أن أجنب بلاده تعقيدات قد لا تكون سهلة فى هذه الظروف. ولكن عليه أن يدرك أن تصرفه لابد أن يكون فوريا». وقال مرة أخرى وبصوت متأثر بالانفعال «إنه يستوعب أن ضرورات محافظته على شرفه وعلى مصلحة بلاده تقتضى أن يستدعى «النحاس» فورا».

٧ ـ على هذا الأساس وافقت.

٨ ـ حاول الملك «فاروق» بعدها وبجهد يثير الرثاء أن يتلطف وأن يجعل من نفسه شخصا ودودا، وأكثر من ذلك فإنه وجه إلىَّ شخصيا شكره العميق لأننى ساعدته فى اجتياز أزمة بهذه الحدة.

٩ ـ تركت مكتبه وخرجت مارا بالبهو الطويل المؤدى إلى مكتبه، وكان البهو مزدحما على الآخر بعدد من الضباط البريطانيين ومن تشريفاتية القصر، كما أنه عند آخر المر من الناحية الأخرى، كان هناك عدد من السيدات ظهرن لى وكأنهن قطعان من الدجاج المذعور.

وعندما نزلنا إلى بهو القصر كان هناك حشد من الضباط البريطانيين، كما أنه من مدخل القصر بدا لى صلب الخوذات والمسدسات ومدافع التومى، وكلها على استعداد لحالة الإنذار.

وبينما نحن نخرج من مدخل القصر ظهرت أمامى ساحته الواسعة بأضوائها الخافتة، كأنها غابة مغطاة بالدبابات والعربات المصفحة والمدافع المصوبة نحو القصر مستعدة للعمل. وكان المشهد قويا مثيرا للإعجاب بكفاءة الترتيبات العسكرية التى مهدت وساعدت على إنجاح مهمتى بهذه السرعة.

١٠ ـ فور أن وصلت إلى السفارة وجدت «حسنين» على التليفون ينتظرنى بلهفة ويسألنى «متى تنسحب القوات المحيطة بالقصر؟ ـ وداعى لهفته أن وجود القوات يعرقل وصول زوار القصر الآن وأولهم «النحاس»، وهو لا يريد أن نتصور أن هناك تأخيرا ليسوا هم المتسببون فيه»، ووعدت «حسنين» أننى سوف أنظر فى الأمر.

وبعد نصف ساعة من هذه المحادثة وصل «النحاس» إلى مقر السفارة ـ قال لى أنه قادم من مقابلة الملك الذى استقبله مع عدد آخر من الزعماء السياسيين وأن الملك كلفه أمامهم جميعا بتشكيل الوزارة على الفور وكما يريد. كما كلفه بأن يجىء على الفور لإبلاغى بأن كل شىء قد تم كما طلبت، وأن الملك تصرف حسب ما وعدنى وبسرعة.

بقى «النحاس» معى وطلبت أن ينضم إلينا وزير الدولة، وأبلغت «النحاس» فى حضوره أننى سوف أتراجع من الآن إلى خلفية المسرح وأترك له أن يقف فى الواجهة ويتصرف ويقوم بتأليف وزارته. كان «النحاس» متحمسا وإن «عبر عن وساوس لا تزال تراوده حول شرور بعض عناصر القصر»، وكان رأيه أن هذه العناصر وعناصر أخرى من خارج القصر لابد من استبعادها فورا. وقلت له إننى أفضل أن أكون الآن بعيدا، وعليه هو أن يتخذ الإجراءات التى يراها ضرورية.

١١ ـ لابد أن أقول أننى استمتعت لأبعد مدى بوقائع هذه الليلة، ولقد راودنى الإغراء فى بعض اللحظات بأن أصر على تنازل الملك «فاروق»، ولكنى راجعت نفسى لأن مقتضيات الحذر ـ أقول ذلك مترددا ـ جعلتنى أترك له الفرصة لاستدعاء «النحاس». والحقيقة أنه لم يكن فى وسعى أن أرغمه على التنازل عن العرش لأنه تأخر فى استدعاء «النحاس» وفق ما طلبت منه فى إنذارى مدة ثلاث ساعات ـ أى من الساعة السادسة كما طلبت إلى التاسعة كما حدث فعلا!

ولم يكن فى وسعنا أن نبرر سياسيا طرده على هذا الأساس أمام الرأى العام المصرى أو الأجنبى. زيادة على ذلك فقد كان فى اعتبارى عندما ذهبت إلى القصر أنه من واجب الجانب المدنى للسلطة البريطانية هنا فى مصر، أن لا تتسبب فى أى حرج للقيادة العسكرية التى تعاونت معى بطريقة نبيلة طول الوقت. وعلى أى حال فقد كان مسليا أن أرى نزول الملك على طلباتنا الأصلية دون قيد أو شرط، وهو ما أعتبره نصرا كاملا.

١٢ ـ فى الختام لابد أن أسجل تقديرى الشديد للصلاحيات التى أعطيتموها لى بالتصرف، كما أننى أشيد بحكمة وقوة التأييد الذى أعطاه لى وزير الدولة طول الوقت.

٤ فبراير ـ مساءً.

عندما وصلت إلى السفارة كان فى انتظارى كثيرون ينتظرون معرفة النتيجة والتفاصيل، وكان بينهم وزير الدولة (أوليفر ليتلتون)، الذى أعرب عن سعادته بما توصلنا إليه رغم أنه أثناء غيابى فى المهمة التى ذهبت إليها ساءل نفسه عما إذا كان قد جعلنى أتردد فى عزل الملك عندما أبدى بعض التحفظ (بسبب تشككه فى «النحاس» باشا)، وقلت له أننى لم آسف طوال حياتى حتى الآن ـ إلا لأن الملك استسلم بهذه السرعة، فقد كنت أتمنى أن يعاند وأن نتخلص منه. وعلى أى حال فاعتقادى أننى تصرفت بحكمة فى الظروف الراهنة. «إن الولد مازال فى مكانه، لكنه أخذ صدمة عمره بمجىء النحاس إلى الحكم بهذه الطريقة، واعتقادى أننا قصقصنا أجنحته ولن يستطيع أن يطير لمدى طويل».

انضم إلينا «والتر مونكتون» (مساعد وزير الدولة القانونى الذى كتب وثيقة التنازل)، وواصلنا الكلام لبعض الوقت ثم انصرف الجميع راضين، لكنه كان علىَّ أن أسهر إلى ساعة متأخرة من الليل لأكتب تقريرى إلى وزارة الخارجية.

الخميس ٥ فبراير ١٩٤٢.

اتصل بى «حسين سرى» تليفونيا قبل الساعة التاسعة صباحا وسألته عن ردود فعل ما وقع بالأمس، قال إنه يخشى أنه لم يكن هناك سبيل آخر. وروى لى أنه وصل إلى القصر فى الساعة التاسعة والنصف مع عدد آخر من الزعماء الذين دخلوا وسط طوابير القوات البريطانية التى كانت تحاصره. وهو يقدر «أن الولد أفلت بمعجزة»، لكنه يعتقد أن ما جرى كان الحل الأفضل. رأيه «أن الملك سعى وراء المشاكل ونال نصيبه منها». وسألته إذا كان الملك قال شيئا آخر، وأجاب بالنفى. وقلت إننى سوف أحكى له التفاصيل فيما بعد. نزلت من الطابق الأعلى إلى المكتب واستدعيت «أمين عثمان» لحديث عام ضغطت خلاله على فكرتين طلبت منه أن يزرعهما to plant them فى عقل «النحاس» من البداية.

الفكرة الأولى: أن يقنع «النحاس» بالعمل على تعيين «حسين سرى» رئيسا للديوان بدلا من «حسنين».

والفكرة الثانية: العمل على نقل «حسنين» ليصبح رئيسا للتشريفات وهو مؤهل لهذه الوظيفة أكثر من رئاسة الديوان.

وقال «أمين» «إنه سوف يعمل وفق ما طلبت، ولكنه سوف يوحى للنحاس بأن هذه الأفكار من عنده هو وليس من عندى». ووافقت.

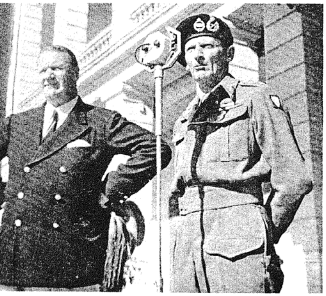
وقلت لأمين بعد ذلك أن المهمة الأولى أمام «النحاس» أن يعمل على نقل «عبدالوهاب طلعت» وكيل الديوان الملكى من القصر، وكذلك إقصاء كل الإيطاليين العاملين فى خدمة الملك. وأبلغته أهمية إفهام «النحاس» أن هذه تعليمات لندن ولا ينبغى أن تكون موضع مناقشة.

الخميس ٥ فبراير ـ ظهرا.

تلقيت البرقية التالية من «أنتونى إيدن» (وزير الخارجية) وقد سعدت بها، نصها:

«أهنئك بحرارة. النتائج تشهد لك بالحزم وتؤكد ثقتنا فيك». أنتونى

شىء جميل! rather nice ■



المارشال «مونتجمرى» قائد معركة العلمين وبجانبه السير «مايلز لامبسون»

بن لادن ليس هتلر

قانون الطوارئ الأمريكي إرهاب ضد الإرهاب

بروس إكرمان

شئتم أم أبيتم، سوف تتكرر الهجمات الإرهابية في وقت ما من مستقبلنا. فقد اختل ميزان التكنولوجيا وجعل بإمكان فريق صغير من المتعصبين إلحاق الدمار في آخر مكان كنا لا نتصور أن يحدث له ذلك - ولن تكون طائرة في المرة المقبلة، بل قد تكون قنبلة نووية في حقيبة سفر، أو إلقاء السموم الحيوية في مصادر المياه. إن هجوم الحادي عشر من سبتمبر نموذج مقولب لأحداث مشابهة سوف تقع بكثرة في القرن الحادي والعشرين. ولابد أن ننظر للأمر بروح تكهنية؛ فما هو الذي يمكننا تعلمه ويتيح لنا التصرف بطريقة أكثر ذكاء في المرة المقبلة؟

وإذا كان رد الفعل الأمريكي هو المرشد، فمطلوب منا على وجه السرعة وضع مفاهيم دستورية جديدة للتعامل مع حماية الحريات الشخصية. وما لم نفعل ذلك، فستهددنا دورة الانحدار. وبعد كل هجوم ناجح، سوف يخرج علينا الساسة بقوانين رادعة ويعدوننا بقدر أكبر من الأمن - لنجد أن مجموعة إرهابية أخرى تنجح في توجيه ضربة بعد ذلك ببضع سنين. وسوف توجد هذه الكارثة بدورها طلباً على المزيد من القوانين الرادعة. وهكذا تستمر الدورة. وحتى لو شهد نصف القرن المقبل أربع أو خمس هجمات بحجم ما جرى في الحادي عشر من سبتمبر، فسوف يثبت أن هذه الدورة التدميرية فيها قضاء على الحريات المدنية بحلول عام ٢٠٥٠.

ومن المغري الرد على هذا التوقع القاسي بدفاع مطلق عن الحرية التقليدية: فبغض النظر عن عظم ما يستتبعه ذلك من ذعر، لابد أن نصر على الحماية الشديدة لكل الحقوق في كل الأوقات. وأنا أحترم وجهة النظر هذه، غير أني لا أشارك فيها. إذ لا يمكن لحُكم ديمقراطي الحفاظ على الدعم الشعبي بدون العمل بفاعلية لتهدئة الذعر والسعي للحيلولة دون وقوع ضربات إرهابية في المستقبل. وإذا كان الاحترام المتزمت للحريات المدنية يتطلب شل حركة الحكم، فلن يتردد أي سياسي جاد قبل التضحية بالحقوق من أجل محاربة الإرهاب. وسوف يحظى بالتأييد الشعبي بتنحيته اعتراضات المدافعين عن الحريات المدنية جانباً، لكونها دون كيشوتية الطابع.

ولتجنب دورة القمع المتكررة، لابد للمدافعين عن الحرية أن يفكروا في مبدأ أكثر واقعية، يسمح بإجراءات طوارئ قصيرة المدى، ولكنه يحول دون القيود الدائمة. وفوق هذا وذاك، لابد لنا من منع الساسة من استغلال الذعر العابر لفرض قيود على الحريات تدوم طويلاً. ووضع نظام دستوري من أجل حالة طوارئ محدودة، عمل يستلزم الحرص. فلو لم تتخذ الاحتياطات المدققة، فإن من عادة إجراءات الطوارئ أن تستمر أكثر مما تدعو إليه الحاجة بكثير. ولا ينبغي السماح للحكومات بأن يجن جنونها حتى أثناء الطوارئ؛ إذ ينبغي أن يظل الاقتراب من كثير من الإجراءات المتطرفة محظوراً. ومع ذلك فإن التصميم الواعي لنظام الطوارئ قد يكون كذلك أفضل دفاع متاح في مواجهة دورة التدمير الدائم التي يحركها الذعر.

والشيء الواضح الوحيد هو أنه لن تكون هناك فرصة لأي رد يجري تكييفه بحرص، ما لم نقف على مسافة محسوبة بدقة من لغة اللحظة الآنية السائدة. فقد جعل جورج بوش وتوني بلير من «الحرب ضد الإرهاب» سلاحاً سياسياً قوياً؛ ولكن لغة الحرب هذه على وجه الدقة هي أصل المشكلة. فيمكنك إن شئت تسمية المناوشات التي وقعت مؤخراً في أفغانستان «حرباً»، ولكن إياك والخلط بينها وبين صراعات القرن العشرين الحاسمة. ذلك أن غلالة من الضباب تهبط بمجرد افتراض أن الحادي عشر من سبتمبر بداية حرب جيلنا ضد هتلر. ففي ظل ذلك الافتراض يبدو من الطبيعي أن يفرض من هم على شاكلة بوش وبلير قيوداً على الحرية كتلك التي تغاضى الناس عنها أثناء الحرب العالمية الثانية.

إلا أن هذا يشوه الملامح الأساسية لوضعنا الراهن. فأدولف هتلر لم ينتقد انحطاط الغرب الأخلاقي بأفلام الدعاية وحسب، كما فعل أسامة بن لادن. بل وقف على رأس جيوش تضم ملايين الجنود بهدف الغزو التام. ومع أن الجماعات الإرهابية قادرة على شن هجمات في الخفاء، فهي غير قادرة على متابعة الانتصارات الحربية المستدامة. وفي الوقت نفسه، فإن «الحرب ضد الإرهاب» قد تقتضي في النهاية ثمناً أكثر خطورة من الحريات المدنية. ورغم ما اتسمت به القيود التي فرضت إبان الحرب العالمية الثانية من قسوة، فقد كانت مؤقتة كذلك. بينما الحرب ضد الإرهاب لا يعرف لها أحد نهاية - ذلك أن الجماعات المنشقة المختلفة، في الداخل والخارج، تحصل عرضاً على تكنولوجيات جديدة ذات أثر مدمر.

ونحن الآن لا علم لنا بعد بمدى نجاح المؤسسات الأمريكية في تعريض حديث الحرب الطارئ للنقد المستدام على مدى السنوات القليلة المقبلة. وإذا حظيت كل الإجراءات المغالى فيها التي أعلنتها حكومة بوش بالدعم في المحاكم، فسيكون الهبوط السريع قد بدأ بداية جادة. إلا أنه من غير المؤكد بحال من الأحوال أن يصدع القضاة بما يؤمرون. كما أن تشريع الكونجرس الأخير الخاص بالإرهاب تتباين الرسائل الصادرة عنه. فمع أنه يطرح مبادرات سيئة كثيرة، فهو يتضمن كذلك بدايات الاعتراف بأن حالة الطوارئ المحكومة بعناية قد تكون أفضل أمل للحريات المدنية في القرن الحادي والعشرين.

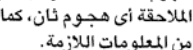
وكان رد الفعل المبدئي تجاه الحادي عشر من سبتمبر معتدلاً لدرجة تدعو للثناء. فرغم كل ما قاله الرئيس بوش عن «حملات» ضد «الشرير»، فقد حصل من الكونجرس على منحة محدودة من سلطة «استخدام كل قوة ضرورية ومناسبة ضد تلك الدول أو المنظمات أو الأفراد الذين يقرر هو أنهم خططوا للهجمات التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أو صرحوا بها، أو ارتكبوها، أو أعانوا على القيام بها». ولأن هذا القرار الصادر عن الكونجرس ركز على حدث واحد، ومنح فقط سلطة استخدام «قوة ضرورية ومناسبة»، فإنه يقل كثيراً عن إعلان الحرب التقليدي. وبدون الإعلان صراحة عن حالة الطوارئ المحدودة، نجده يشير إلى ذلك الاتجاه، وربما أمد المحكمة العليا بموارد قانونية لازمة للحد من بعض إجراءات الحكومة التي تفتقر إلى الحكمة.

ولكنه لن يمدها بكل الموارد. فرغم غياب الأساس القانوني، كان حديث الحكومة الدائم عن «الحرب ضد الإرهاب» سلاحاً سياسياً فعالاً، حيث يمارس أحياناً في سياقات تروغ من المراقبة القضائية اللاحقة. وتشمل السياقات الأكثر إزعاجاً إدارة أخبار الرئاسة. فبعد غضب الإدارة من التغطية التليفزيونية لشريط بن لادن الأول، طالبت الشبكات بممارسة الرقابة الذاتية، بزعم أن الأشرطة التي لا يجري لها المونتاج قد تنقل رسائل سرية للإرهابيين. وهذا التفسير إهانة للاستخبارات الجماعية - فأي عضو يحترم نفسه من أعضاء القاعدة سوف يشاهد النسخة العربية لأحاديث بن لادن على الجزيرة، بدلاً من الثقة في تقرير «سي إن إن». ورغم ذلك، فقد بدأت الشبكات الكبرى بث المجهود الحربي بمقاومة ضعيفة جداً، حيث جاء التعديل الأول في المرتبة الثانية بعد الخوف من التنديد العلني من جانب الرئيس.

واستجابت الإدارة كذلك لموجات الأثير بـ «إنذارات إرهابية» متكررة للجمهور العام. ولا تتضمن هذه الإنذارات أية معلومات مفيدة على الإطلاق، حيث لم تحدد الأهداف أو المناطق المحددة المعرضة للخطر. وكان غرضهم الوحيد هو الحماية الذاتية البيروقراطية في حال تكرر الهجوم. وعند ضم هذه الإنذارات التي لا أساس واضحاً لها إلى الرقابة الذاتية الإعلامية، فإنها قد تولد على الفور سلسلة متصلة الحلقات من الهستيريا الجماهيرية.

ولحسن الحظ أن هذا ليس هو ما يحدث. ففشل القاعدة في توجيه ضربة ثانية، إلى جانب الانتصار السريع في أفغانستان، يهدئ الأوضاع. ولم تحصد الجمرة الخبيثة ما يكفي من الأرواح لدفع الجماهير من على الحافة لتسقط في هاوية الذعر. وربما كانت لدينا فرصة لمراجعة رد الفعل الحكومي تجاه الحادي عشر من سبتمبر في فترة من الهدوء النسبي، واتخاذ الخطوات للحد من الأضرار في المرة التالية.

وكانت البداية هي الإجراءات الأمنية التي اتخذها النائب العام أشكروفت لملاحقة المشتبه فيهم، وشملت ما لا يقل عن ١١٨٢ شخصاً مشتبهاً فيهم. ويبدو أن محصلة الملاحقة كانت متواضعة. والشخص الوحيد الذي اتهم بالمشاركة بشكل مباشر في الهجوم - وهو زكريا موسوي - ألقي القبض عليه قبل الحادي عشر من سبتمبر، والقليل جداً من المعتقلين اعتبروا شهوداً ماديين. ومع ذلك فأنا لا ألوم قرار أشكروفت المبدئي. فقد فشلت أجهزة الاستخبارات فشلاً تاماً في التنبؤ بوقوع هجوم الحادي عشر من سبتمبر، وربما أربكت الملاحقة أي هجوم ثان، كما أنها لم توفر الكثير من المعلومات اللازمة.



وسلوك أشكروفت التالي أمر آخر. فبعد أكثر من أربعة أشهر من الحادي عشر من سبتمبر، لم تكن الحكومة قد حددت بصورة علنية كل المشتبه فيهم الذين ألقي القبض عليهم أثناء ملاحقتها. والاعتقالات السرية سمة من سمات الطغيان؛ فهي مخالفة لأسس الأسلوب الدستوري الصحيح. كما طالب أشكروفت بسلطة التنصت على مكالمات بين المعتقلين والمحامين، في حال وجود «شك معقول» في أن تلك المكالمات « قد... تسهل الحصول على حقائق عن الإرهاب». ويمثل هذا اعتداء على الحصانة القديمة للمحامي وموكله التي يكفلها الدستور. وردت وزارة العدل على طلبه بأن طمأنتنا بقولها إن لجاناً خاصة من محاميها سوف تقيم الأشرطة، تحذف كل المادة التي تدخل ضمن حصانة المحامي وموكله. ولكن الوزارة تشترط عدم حدوث أية مراجعة خارجية لإجراءاتها الداخلية. وهذا ليس كافياً كفاية واضحة. فلا يمكن لنظام الخصومة أن يعمل بنزاهة عندما يكون المتهم موضوعاً تحت رحمة التحقيق بهذه الطريقة غير المسبوقة.

وكان هناك ما هو أسوأ من ذلك. فمع اقتراب الحرب من نهايتها، أكد الرئيس سلطته، باعتباره قائداً عاماً، للالتفاف على المحاكم العادية وعقد محاكم عسكرية خاصة لمحاكمة ومعاقبة الإرهابيين الغرباء. ولم تصدر بعد القواعد التنظيمية النهائية، إلا أن صحيفة «نيويورك تايمز» تشير إلى أن الجيش يحتفظ بحق حجب الإجراءات القانونية عن الجمهور إذا اقتضى الأمن القومي ذلك. ولن يُسمح للمتهمين بالتقدم بطلبات تخفيف الحكم للقضاة المدنيين. وقد يفرض حكم الإعدام بتصويت أربعة من أعضاء اللجنة التي تضم خمسة من ضباط الجيش.

وحتى إذا كان هذا النظام مدخراً للمقاتلين الأعداء الذين يقعون في الأسر على أرض المعركة، فإنه مخالف لالتزامات البلاد الدولية. فطبقاً لما تنص عليه اتفاقية جنيف، فإن على أية دولة أن تستخدم لمعاقبة أسرى الحرب



من عادة إجراءات الطوارئ
أن تستمر أكثر مما تدعو إليه الحاجة بكثير.
ولا ينبغي السماح للحكومات بأن يجن جنونها حتى أثناء الطوارئ.
إذ ينبغي أن يظل الاقتراب من كثير من الإجراءات المتطرفة محظوراً.
ومع ذلك فإن التصميم الواعي لنظام الطوارئ، قد يكون كذلك
أفضل دفاع متاح في مواجهة دورة التدمير
الدائم التي يحركها الذعر

نفس الإجراءات التي تستخدمها لمعاقبة جنودها. ولكن الجنود الأمريكيين يمكنهم التقدم بطلبات لتخفيف مدد عقوبتهم إلى محكمة مستقلة تضم قضاة مدنيين يقومون في الواقع بعمل لا بأس به، محافظين على سلامة النظام. والرئيس بإزالته هذا القيد الأساسي، يخطو خطوة ضخمة للخلف، إلى وقت كان فيه تناقض بين لفظتي «القضاء العسكري» (ويتضح التناقض في الأصل الإنجليزي military justice الذي يعني حرفياً العدالة العسكرية، وبذلك يكون التناقض بين العدالة والعسكرية).

ولتحاشي المخالفة الصارخة للقانون، لجأت وزارة الدفاع إلى اللعب بالكلمات - حيث تسمي الأسرى الذين تشحنهم إلى خليج جوانتانامو «مقاتلين غير شرعيين» وليس «أسرى حرب». ورأى المدافعون عن الحكومة أن هؤلاء «المقاتلين» غير مؤهلين للحماية طبقًا لأحد بنود الاتفاقية الذي يشترط ارتداءهم لشارة مرئية، وحملهم للسلاح صراحة، وامتلاكهم لهيكل قيادي، والتصرف طبقًا لقوانين الحرب. ولكن هذه الشروط تنطبق فقط على جماعات معينة من رجال حرب العصابات غير النظاميين وغير المدمجين في قوات البلاد المسلحة. وتحمي اتفاقية جنيف، طبقًا لما تنص عليه بوضوح، وبلا قيد أو شرط «أي فرد من أفراد القوات المسلحة يدين بالولاء لأية حكومة أو أية سلطة» حتى «لو لم تكن السلطة المعتقلة تعترف بها». ومن المؤكد أن جماعات طالبان والقاعدة المسلحة «تدين بالولاء» للمُلا عمر وغيره من السلطات في إمارة أفغانستان الإسلامية. فلماذا هم غير مؤهلين لأن يكونوا «القوات المسلحة النظامية» لتلك الحكومة؟ كما تنص معاهدة جنيف على أنه «في حال وجود أي شك» فيما يخص وضع أي أسير، فإن «هؤلاء الأفراد يتمتعون بحماية المعاهدة الحالية لحين تحديد إحدى المحاكم المختصة لوضعهم». ومن الواضح أن على محامي الحكومة القيام بعمل ما، وأن على الحلفاء الأوروبيين دعمهم على أعلى مستويات الجدل القانونية.

إلا أن الرئيس لا يفرض نظامه الهش على الجنود الذين أسروا على أرض المعركة وحسب، بل إنه يؤكد سلطة عقاب أي فرد غير مواطن - وهو ما يشمل عشرات الملايين من المهاجرين الشرعيين - يخالف فهمه العريض، وغير المحدد تحديدًا جيدًا، لـ«قوانين الحرب». والسؤال العملي هو إذا ما كانت المحكمة العليا ستسمح له بأن يفلت بهذا التأكيد غير العادي للسلطة أم لا. وكان للمحاكم العسكرية وقع متباين في الماضي. فإبان الحرب الأهلية، ألقي القبض على المتعاطفين الكونفدراليين المسلحين وهم يخططون لتعطيل أعمال مؤتمر الحزب الديمقراطي وإطلاق سراح ثمانية آلاف أسير كونفدرالي في كامب دوجلاس القريب. وعقد لنكون محكمة عسكرية لمعاقبة هؤلاء الرجال، ولكن المحكمة العليا منعت ذلك الإجراء تمامًا. وتكررت المؤامرة في إنديانا، التي لم تكن منطقة حرب. وبما أن المحاكم المدنية كانت تعمل، فقد طالب القضاة بالإجماع الرئيس برفع الأمر إلى المحاكم العادية. ويظل قرارهم هذا، المتحيز لرأي ميليجان، سابقة قانونية قوية.

ولا بد من قراءة هذه القضية مع قضية أساسية أخرى عرضت على المحكمة إبان الحرب العالمية

الأسرى الأفغان في معتقل جوانتانامو

الثانية. فبعد ستة أشهر من ضرب بيرل هاربر، أنزلت غواصة ألمانية ثمانية من مشاة البحرية الألمان على السواحل الأمريكية لتنفيذ مهام تخريبية. وأمر الرئيس روزفلت بأن تحاكمهم محكمة عسكرية سرية. وبعد أن عقدت المحكمة العليا جلسة خاصة مستعجلة لسماع المناقشة الشفوية، تداولت ليوم واحد قبل تأييد الرئيس تحيزًا لرأى كويرين، مع تأجيل إبداء الرأى لوقت لاحق. وعندما تولى كبير القضاء ستون مهمة الكتابة، قدّر مدى صعوبة تبرير قرار المحكمة الأهوج - مشبهًا جهده بـ«كبح جماح شهوة الجسم». ولكن ما من سبيل للتراجع. وبينما كان ستون يجهد نفسه فى كتابة رأيه، كان ستة من الثمانية قد أعدموا - مما جعل تغيير المحكمة لرأيها - دون أن تدين نفسها وكذلك الرئيس - مستحيلاً.

اقتل الآن، ثم وضح السبب لاحقًا: لا يمكن لمؤمن بحكم القانون أن يفخر بقصة كويرين. وعذر القضاة الوحيد، إن كان لهم أى عذر، هو أن الكونجرس كان قد أعلن رسميًا حربًا شاملة ضد الألمان، وأن روزفلت ربما ما كان ليطيع أى أمر آخر (أو هكذا أسرّ لرفاقه). ولكن التهوين من شأن الانهيار القضائى فى قصة كويرين شىء، والسماح بالحديث الفضفاض عن «الحرب ضد الإرهاب» لتوسيع دائرة تأثير القضية الضار شىء آخر. وكما رأينا، فإن الكونجرس لم يصدر أى شىء من قبيل إعلان الحرب التقليدى ردًا على ما حدث فى الحادى عشر من سبتمبر. وكل ما فعله هو تخويل الرئيس سلطة الاستخدام «الضرورى والمناسب للقوة». وفى هذا السياق فإن قضية ميليجان وما شابهها من قضايا تمثل الأسلوب الأصح. والمحاكم المدنية مفتوحة للعمل وقادرة على التعامل مع قضايا الإرهاب بشكل صحيح وبطريقة عادلة ومسئولة. وقد أدى أحد القضاة الفيدراليين مؤخرًا عملاً لا بأس به فى محاكمة العقل المدبر لهجوم سابق على مركز التجارة العالمى؛ ورغم حديث حكومة بوش الذى يعطى الأولوية للعمل العسكرى، فقد عاد من جديد إلى المحاكم المدنية سعيًا وراء إدانة زكريا موسوى، «الإرهابى العشرين» المشتبه فيه. وفى ظل قدرة المحاكم العادية الثابتة، يصبح اللجوء إلى المحاكم العسكرية لا هو «ضرورى» ولا «مناسب»، ومهمة المحكمة العليا توضيح ذلك.



إن الاعتقالات السرية، وتدمير سرية العلاقة بين المحامى وموكله، والمحاكم العسكرية، جميعها خطوات لا تتناسب بالمرة مع حالة الطوارئ المحدودة التى أوجدها ما وقع فى الحادى عشر من سبتمبر. بل إن الرئيس اتخذ تلك الإجراءات من جانب واحد، مما يجعلها عرضة للهجوم إلى حد كبير. ولأسباب ديمقراطية وجيهة، فإن المحكمة العليا أكثر استعدادًا لإبطال أية إجراءات تنفيذية لم يوافق عليها الكونجرس موافقة رسمية.

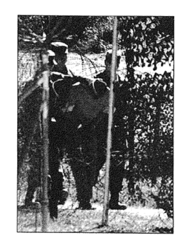
ولكن الكونجرس أبدى نشاطًا على جبهات أخرى، حيث أقر لائحة جديدة مضادة للإرهاب بعد ستة أسابيع من سقوط البرجين التوءم. وعندما أجبر الخوف من الجمرة الخبيثة الكثير من الأعضاء على الخروج من مكاتبهم، وكان احتمال الضربة الإرهابية الثانية يبدو قويًا، لم يكن هناك وقت أسوأ للتفكير من خلال التشريع. ولذلك دهشت إلى حد ما عندما لمس مقال لى نشر فى «لوس أنجلوس تايمز» وترًا حساسًا فى واشنطن العاصمة. فقد اقترحت أن يتضمن أى قانون مضاد للإرهاب شرطًا يقضى بانتهاء أجل العمل باللائحة بعد عامين من بدئه. وبعد فترة قصيرة، تبنى تحالف حر من الجمهوريين اليمينيين والديمقراطيين اليساريين القضية ونجحوا فى إلحاق شرط انتهاء أجل العمل باللائحة بعد عامين إلى مشروع قانون المجلس - وهو عمل مشهود فى مجلس نواب يسيطر عليه الزعماء الجمهوريون ويتعرض لضغط كبير من جانب بوش بشأن هذه المسألة. وكانت الأمور تبدو تبشر بالخير بالنسبة لشرط العامين حين انتقل مشروع القرار إلى مجلس الشيوخ، حيث الديمقراطيون هم الأغلبية؛ فمن المؤكد أنهم سيكونون على نفس قدر مجلس النواب الجمهورى فى حمايتهم للحرية.

ولكن لنتمهل قليلاً. فقد رضخت القيادة الديمقراطية أمام ضغط الحكومة وأسقطت الشرط من نسخة مجلس الشيوخ، حرصًا منها على تحاشى اتهامها بأنها «متراخية مع الإرهاب». وقد أبقت اللائحة الجديدة، كقانون يعمل به، على انتهاء أجل العمل ببعض بنودها - وليس كلها - بعد أربع سنوات.

وسوف يقضى هذا الإنهاء الجزئى بمرور الزمن على بعض ملامح القانون الأكثر سوءًا. ولنفكر مليًا فى المحكمة الفيدرالية الخاصة التى تُنشأ منذ عام ١٩٧٨ بالإشراف على عمليات تجسس على عملاء القوى الأجنبية. وهؤلاء القضاة الذين اختارهم كبير القضاة بصفة خاصة ويعقدون جلساتهم فى سرية تامة، جمعوا سجلاً ضخمًا من التصريح بالتنصت وغيره من أشكال المراقبة السرية - حيث منحوا عشرة آلاف إذن ورفضوا إذنًا واحدًا فقط على مدى العشرين سنة الماضية. ورغم انتهاء الحرب الباردة، فإن هذه الأذون فى تزايد - حيث كانت ٥٤٦ إذنًا فى عام ١٩٨٩ وصارت ١٠٠٥ فى عام ٢٠٠٠.

ولم تقيِّم المحكمة العليا دستورية هذه المحكمة، التى لا يعلم بأمرها إلا القليل، تقييمًا جادًا. وتجعل اللائحة الجديدة ذلك أمرًا واجب الحدوث، حيث إنها وسعت مجال اختصاصات المحكمة السرية بصورة كبيرة. وفى ظل القانون القديم، كان بإمكان المحكمة إصدار الإذن فقط إذا كان «الغرض» هو الاستخبارات الأجنبية. أما الآن فمن الممكن الحصول على تلك الأذون من أجل التحرى الجنائى العادى لمجرد ادعاء أن الاستخبارات الأجنبية «غرض مهم» وإضافى من أغراض المراقبة. وطبقًا لسجل المحكمة، فإن الطريق مفتوح أمام زيادة ضخمة فى التدخل الحكومى. وهذا بند مرعب، غير أن تحديد أجل العمل به ينهى فاعليته فى نهاية عام ٢٠٠٥.

وتبقى الأفكار السيئة الأخرى. فغير المواطنين المشاركين فى «أنشطة إرهابية» يُرحَّلون الآن، ويشمل «الإرهاب» أية جريمة تنطوى على استخدام «سلاح أو جهاز خطير (غير الذى يستخدم لمجرد تحقيق الكسب المادى الشخصى)». وفى ظل هذا التعريف، فإن خناقة فى أحد البارات كافية لتدمير حياة مهاجر مضى عليه زمن طويل فى البلاد وله جذور عميقة فى مجتمعه المحلى. ويؤسفنى أن أقول إن هذا الاتهام العشوائى للمهاجرين أمر يتميز به هذا التشريع. وهذه البنود، التى هى الآن جزء ثابت فى القانون الأمريكى، لم تكن تنتمى إليه فى بادئ الأمر.



لتحاشى المخالفة الصارخة للقانون، لجأت وزارة الدفاع إلى اللعب بالكلمات. حيث تسمى الأسرى الذين تشحنهم إلى خليج جوانتانامو «مقاتلين غير شرعيين» وليس «أسرى حرب». ورأى المدافعون عن الحكومة أن هؤلاء «المقاتلين» غير مؤهلين للحماية طبقًا لأحد بنود الاتفاقية الذى يشترط ارتداءهم لشارة مرئية، وحملهم للسلاح صراحة، وامتلاكهم لهيكل قيادى، والتصرف طبقًا لقوانين الحرب

وسوف يعيد انتهاء أجل العمل بتلك البنود القضية برمتها إلى الكونجرس بعد أربع سنوات. وسوف تحاول وكالات الاستخبارات استدامة ما حققته مؤخرًا من انتصارات، ولكن على المدافعين عن الحريات المدنية الاستعداد بردود الفعل البناءة. ولابد أن تصرح مقترحاتهم المضادة بمجموعة من إجراءات الطوارئ المقيدة تقييدًا حريصًا لفترة قصيرة من الزمن - ولتكن ثلاثة أو ستة أشهر. وعلى الرئيس أن يحصل قبل إعلانه حالة الطوارئ المحدودة على أغلبية فى مجلسى النواب والشيوخ. ولا بد أن يكون مد العمل بقانون الطوارئ لفترات إضافية أصعب مما هو عليه الحال الآن. وقبل أن يحدث هذا، يجب مطالبته بالحصول على الأغلبية العظمى داخل الكونجرس، على أن تزيد النسبة المئوية اللازمة للموافقة مع كل طلب للمد - من الثلثين إلى ثلاثة الأرباع إلى أربعة الأخماس. وتوفر الأغلبية العظمى، إلى حد كبير، ضمان عدم تطبيع نظام الطوارئ، فى ظل إغراء الحزب الموجود فى الحكم بمدها إلى ما لا نهاية.



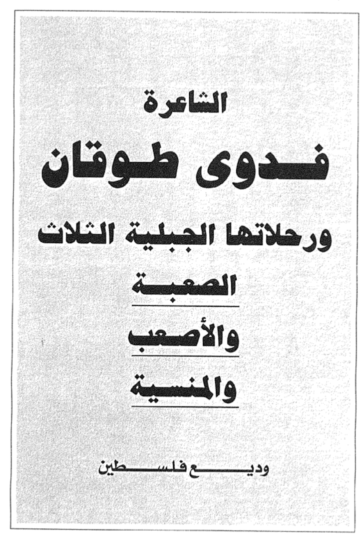
ولكن التفكير القانونى الخلّاق لن يكون كافيًا لوقف دورة التشريع القمعى. فنحن بحاجة إلى خيال سياسى كذلك. والمدافعون عن الحرية موجودون على اليمين وعلى اليسار. وكما تبين قصتى عن تحديد أجل العمل بالقانون، فإن التحدى هو تنظيم تحالف يجمع بين اليمين واليسار ضد أصدقاء السلطة. فقد حدثت أمور غريبة فى السياسة، ومن أجل قضايا أقل نبلاً.

وتؤثر أوروبا بالفعل فى هذه الديناميكية السياسية. وقد حد رفض الحكومة الإسبانية تسليم الإرهابيين المشتبه فيهم من تحمس حكومة بوش للمحاكم العسكرية. وساعدت الجنسية الفرنسية التى يحملها «المتهم العشرون» فى إقناع النائب العام بمحاكمة زكريا موسوى فى محكمة مدنية - ذلك أن ثمن استعداء الحكومة الفرنسية غال جدًا.

وفى المستقبل، لن تكفى هزيمة المقترحات التى تهدد بإلحاق ضرر دائم بالحريات المدنية. وسيكون على الأوروبيين تولى الريادة فى وضع حلول بناءة أكثر. ومن الأحكم بكثير التفكير فى تشريع يخلق نظام طوارئ محدودًا بشكل معقول قبل أن تصبح لندن أو باريس هى الهدف، وليس بعد ذلك. وينبغى أن تكون الغاية الأكثر أهمية هى العمل بلائحة لا تتضمن قيودًا مؤقتة صارمة وحسب، وإنما تشترط أغلبيات تشريعية عظمى لمد أجل العمل بقانون الطوارئ. وسوف يكون لأى قانون هيكلى يخرج من أية دولة أوروبية تأثير عالمى. وسوف يساعدنا على رؤية «الحرب ضد الإرهاب» على حقيقتها؛ أى مجاز مبالغ فيه يحول دون التفكير المسئول فى مشكلة خطيرة.

ترجمة: أحمد محمود

عن مجلة: London Review of Books



الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان هي - دون منازع - شاعرة متفوقة اكتملت لها أدواتها الشعرية من موهبة وإلهام ودراسة ومثابرة على مدى سنوات طويلة قررت لها منزلة رفيعة في دنيا الشعر العربي بدواوينها الستة التي صدرت منذ عام ١٩٥٢ وحتى الآن وهي: «وحدي مع الأيام» و«وجدتها» و«أعطنا حبًا» و«على قمة الدنيا وحيدًا» و«أمام الباب المغلق» و«الليل والفرسان» و«تموز والشيء الآخر»، كما صدر لها كتاب نثري عن شقيقها الشاعر إبراهيم طوقان (١٩٠٥ - ١٩٤١) عنوانه «أخي إبراهيم»، وكذلك سيرتها الذاتية في جزءين عنوان أولهما «رحلة جبلية، رحلة صعبة»، وعنوان الثاني «الرحلة الأصعب». ولأن سيرتها الذاتية اعتمدت على الذاكرة وعلى الأوراق المتاحة لها، فقد فاتتها أشياء لها أهميتها من الناحية الأدبية، فقام باستدراكها الأديب الأردني الدكتور يوسف بكار في كتاب أسماه «الرحلة المنسية - فدوى طوقان وطفولتها الإبداعية: دراسة ونصوص». ونتناول في هذه السطور هذه الرحلات الثلاث التي تتكامل بفضلها صورة الشاعرة فدوى طوقان في جميع مراحل حياتها.

الرحلة الصعبة

ولدت فدوى طوقان في مدينة السلط بفلسطين، وذلك - حسب اعترافها - بعد محاولات يائسة من أمها لإجهاض نفسها عندما كانت تحمل فيها. فقد رزقت قبلها بخمسة من الذكور وانثى وكانت فدوى السابعة في ترتيب الأشقاء، ورزقت بعدها بذكر وانثيين فاكتمل عددهم عشرة.

وعندما كبرت فدوى سألت أمها عن تاريخ مولدها فاجابتها بقولها «كنت يومها أطهو (عكوب - وهو طعام فلسطيني)، وهذه هي شهادة ميلادك الوحيدة التي أحملها. لقد أنسيت الشهر والسنة، ولا أذكر إلا أنني بدأت أشعر بآلام المخاض وأنا انظف أكواز العكوب من أشواكها»! ثم استدركت قائلة: «أنا أدلك على مصدر موثوق حيث يمكن التيقن من عام ميلادك. فحين استشهد ابن عمي كامل عسقلان كنت في الشهر السابع من الحمل». وتقول فدوى: «لم يبق إلا أن أستخرج شهادة ميلادي من شاهد قبر! واتفقنا أن تصحبني أمي في ذلك اليوم التالي إلى المقبرة الشرقية حيث يرقد هناك ابن عمها الشهيد كامل عسقلان». ويؤكد الدكتور يوسف بكار أن كامل عسقلان استشهد في عام ١٩١٧ وهو التاريخ الأرجح لميلاد الشاعرة.

استشعرت فدوى طوقان منذ طفولتها المبكرة انها شخص غير مرغوب فيه في الأسرة، فكانت تُعامل بجفاء شديد من والديها بحكم المجتمع المتزمت الذي كانت مدينة نابلس تعيش فيه. ولئن سمحا لفدوى بأن تذهب إلى مدرسة للبنات حيث تعلقت ببعض زميلاتها وبإحدى مدرساتها ووجدت في صحبتهن انفراجة روحية من حالة الانقباض التي كانت تستولي عليها في سجن البيت، فإن سعادتها لم تدم طويلاً، حيث قرر واحد من أشقائها إبقاءها في المنزل ومنعها من الخروج سواء إلى المدرسة أو إلى أي مكان آخر، اللهم إلا إذا كانت في صحبة سيدات الأسرة أو صديقات موثوق بهن. أما سبب هذه العقوبة الصارمة فهو أن غلامًا في السادسة عشرة من عمره لمح فدوى وهي في طريقها إلى بيت خالتها، فجرى نحوها وقدّم لها عود فُلّ. ولكن كانت هناك أعين تتلصص عليها، وهذه قامت بإبلاغ الواقعة إلى شقيقها الشديد التزمت. وتقول فدوى إنه «دخل عليّ كزوبعة هائجة، وقلت الصدق لأنجو من اللغة الوحيدة التي كان يخاطب بها الآخرين: العنف والضرب بقبضتين حديديتين، وكان يتمتع بقوة بدنية كبيرة لفرط ممارسته رياضة حمل الأثقال. أصدر حكمه القاضي بالإقامة الجبرية في البيت حتى يوم مماتي، كما هددني بالقتل إذا أنا تخطيت عتبة المنزل.

وخرج من الدار لتأديب الغلام: فقبعت فدوى داخل الحدود الجغرافية التي حددها لها شقيقها وهي «ذاهلة مبخوعة لا تكاد تصدق ما حدث».

ومن مظاهر الاستبداد العائلي التي تعرضت لها الشاعرة أن ابن عمها الكبير رآها وهي ترتدي ثوبًا جديدًا ذات يوم، فقام بتمزيقه على الرغم من أن الثوب لم يكن يفتقر إلى الحشمة بحال من الأحوال، ولكن عيبه الوحيد انه كان يكسبها مظهرًا جميلاً.

وتقول فدوى: «رحت كلما ازدادت تعاستي من القهر والكبت أزداد شعورًا بفرديتي وذاتيتي.. وكان شعوري بالاغتراب يتكثف، وبدأ إحساسي باستلاب أحلامي وأمانيّ وتطلعاتي الطموحة يتخذ صفة مرضية».

وكان طبيعيًا أن تفكر فدوى في الخلاص من هذا السجن، ولكن كيف؟ لقد فكرت في الانتحار باعتباره الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تمارسه من خلال الشخصية المستلبة. كانت تريد أن تعبر عن تمردها على الأهل بالانتحار، فهو الوسيلة الوحيدة المتاحة لها للانتقام من ظلم الأهل. فكانت تدخل المطبخ وبيدها علبة ثقاب وأمامها صفيحة الغاز، ولكنها كانت تخاف من الألم الجسماني الذي لا تطيق احتماله. وكثيرًا ما خطر لها أن تتناول السم، ولكن مَنْ يأتيها به؟ ناهيك عن كونه يسبب آلامًا عنيفة قبل الموت. ثم إن فدوى كانت تشفق على أمها من الأحزان المترتبة على الانتحار.

ولكن هذا التردد بين التمسك بالحياة والتخلص منها زايلها عندما فقدت كل أمل في الخلاص من سجن البيت. ولم تر مندوحة من ابتلاع محتويات زجاجة الإسبرين بكاملها، فانقذها من الموت المحقق طبيب الأسرة.

وإذا كان المحيطون بفدوى طوقان قد أكرهوها على العزلة - «وأهلي هم سجني الذي أريد أن أفلت من أبوابه المغلقة» بحسب تعبيرها - فقد التمست السلوى في المطالعة، واستهواها الشعر بصورة خاصة، ولا سيما عندما وجدت من شقيقها الشاعر إبراهيم تشجيعًا لها وعطفًا عليها وتفهمًا لحالتها، وأصبح إبراهيم ملاذها الوحيد من الهموم المتعاظمة من حولها حيث أصبح إبراهيم - بحسب تعبيرها - «المصلح النفسي الذي أنقذني من الانهيارات الداخلية».



كانت فدوى قد وصلت إلى سن البلوغ، وهي تصف هذه المرحلة من حياتها بقولها «لفت نظري تفتح جسدي. خفت وخجلت، وأربكني نمو الصدر الذي أصبح ملحوظًا. فكنت أعمل على إخفاء هذا النمو. ورحت أراقب هذا الأمر كله بحياء شديد كما لو كان ارتكاب ذنب مخجل أستحق العقاب من أجله.. ولدى وصولي إلى تلك المرحلة من العمر لم أكن أعرف شيئًا عن الحب على الإطلاق، فلم يكن هذا الموضوع مما يتناوله أفراد الأسرة على مسمع منا نحن الصغار».

ولكن، عندما هلّ الربيع، عرفت فدوى هذا الشيء المسمى حبًا والذي «ظل يشرنق حول وجودي إلى ما لا نهاية. هنا جاء جواب السؤال الذي حرّمته عليّ أمي، جاءني محمولاً على زهرة فل عبقت رائحتها وعلقت بجدران قلبي، وصرت أستحضر ذكرى تلك الحادثة عشرات من الأعوام»، وعندما بدأت فدوى تنشر شعرها في مجلة «الرسالة» لمحررها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥-١٩٦٨) تمنت لو أن الغلام الذي أهداها عود فلّ قرأ هذا الشعر وأدرك أن فتاته شاعرة مشهورة.

وعلى الرغم من حياة الجفاف التي كانت فدوى تعيشها حيث كانت «أنوثتي تئن كالحيوان الجريح في قفصه لا تجد لها متنفسًا مهما كان نوعه» - حسب تعبيرها - فإن عاطفة الحب لم تغادر خيالها وواقعها، وما أبلغ وصفها للحالة الوجدانية التي أحيت موات عاطفتها حيث قالت: «كانت مراهقتي العاطفية حادّة مشتعلة. نفس مكبوتة تتفتح لأول كلمة حب تاتيها على صفحة رسالة. حب بالمراسلة. كنت أقع في هذا اللون من الحب الخيالي وأغوص فيه.. كنت جائعة إلى شيء غير موجود. ضائعة. وحيدة. لا أملك شيئًا سوى

١ - رحلة جبلية، رحلة صعبة - سيرة ذاتية
فدوى طوقان
عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٨٥

٢ - الرحلة الأصعب - سيرة ذاتية
فدوى طوقان
عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٩٣

٣ - الرحلة المنسية: فدوى طوقان وطفولتها الإبداعية - دراسة ونصوص
الدكتور يوسف بكار
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

هذا الخيال المشتعل.. ظل قلبى حديقة للحب لا تذبل أشجارها أبدًا.. فى لحظات الحب يحس الإنسان بإنسانيته تتكثف، يخرج من القطب الجليدى المعزول ويرحل إلى الوهج والإشراق».

وكان بعض الأدباء المصريين - ومنهم أنور المعدّاوى والشاعر إبراهيم محمد نجا (ولم تذكرهما فدوى بالاسم) - يراسلون الشاعرة ويبثونها لواعجهم ويوقظون مشاعرها دون أن تنسى لهم فرصة الالتقاء بها. فلما تهيأت لفدوى فرصة لزيارة مصر، التقت بهؤلاء الذين كانوا يراسلونها، وكان اللقاء عاديًا اقتصر على المصافحة الباردة بلا أى مشاعر، لقد قتل الزمن حرارة العاطفة وانطوت صفحة دون أن تذرف عليها دمعة.



أما رحلة فدوى مع الشعر فقد بدأت فى المدرسة عندما كانت تستظهر المقطوعات الشعرية المقررة ضمن المنهج، ثم عندما جاءها شقيقها إبراهيم ذات يوم بقصيدة أسمعها إياها وشرح لها مفرداتها ومعانيها وطلب منها أن تستظهرها على أن تلقيها عليه غيبًا فى المساء. وكان هذا الامتحان سهلاً نجحت فيه فدوى، إذ ألقت الأبيات من الذاكرة دون أن تلحن أو تتعثر.

وعندما وقعت فدوى على قصيدة للشاعرة العراقية رباب الكاظمى، وعمرها يقارب عمر فدوى لأنها من مواليد عام ١٩١٨، أُعجبت بالقصيدة أيما إعجاب، فتفجرت موهبتها الشعرية للمرة الأولى، ووجهت أبياتًا إلى رباب ختمتها بقولها:

يا أيها الشعراء لا تقفوا أمام الشاعرات

بعد محاولات فى نظم الشعر، أزمعت فدوى طوقان أمرًا تكتمته عن شقيقها إبراهيم، فنظمت قصيدة بعثت بها بالبريد إلى مجلة لبنانية اسمها «الأمالى» كان يصدرها الدكتور عمر فروخ (١٩٠٦-١٩٨٧) بتوقيع «فدوى» دون بقية اسمها، فاحتفت المجلة بها ونشرتها، مما شجع فدوى على إرسال قصيدة ثانية إلى المجلة بتوقيع «دنانير»، فلقيت إعجابًا شديدًا من أديبين كبيرين هما خليل السكاكينى (١٨٧٨-١٩٥٣) وأبى سلمى عبد الكريم الكريمى (١٩٠٩-١٩٨٠) بعدما اكتشفا أن صاحبة هذا الشعر هى فدوى طوقان.

أصبح الطريق ممهدًا أمام فدوى، فقررت النشر فى مجال أوسع، واختارت مجلة «الرسالة» القاهرية لنشر قصائدها لأنها مجلة واسعة الانتشار فى العالم العربى، كما أن النشر فيها كان يعتبر شهادة على تميز الكاتب أو الشاعر. فرحب محررها أحمد حسن الزيات بقصائد فدوى وأصبح اسمها يندرج على غلاف المجلة بين أسماء كبار الأدباء مثل عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤) وعبد الوهاب عزام (١٨٨٤-١٩٥٩) وغيرهما، وكبار الشعراء كعلى محمود طه (١٩٠٢-١٩٤٩) ومحمود حسن إسماعيل (١٩١٠-١٩٧٧) وغيرهما.

وبلغ من إعجاب على محمود طه (شاعر الجندول) بشعر فدوى طوقان أنه أهداها ديوانه «ليالى الملاح التائه» مطرزًا بعبارات تقدير كريمة، وبادأها بالمراسلة - فاستجابت الشاعرة لهذه اللفتة من شاعر كبير، وأخذت تكاتبه بانتظام. ولكن عين الأهل الساهرة لم ترض عن هذه المراسلات، فأمرت بالكف عنها، ولم تكتف بذلك بل مزقت الصفحة التى تحمل عبارة الإهداء من ديوان على محمود طه! وحاولت فدوى أن تشرح موقفها للشاعر، ولكنها لم تتمكن، فمات وهو لا يعرف سبب الجفوة التى حدثت بينه وبين الشاعرة.

وفى عام ١٩٥٢ جمعت فدوى شجاعتها، وقررت نشر ديوانها الأول «وحدى مع الأيام» فى مصر، فاستقبله النقاد استقبالاً طيبًا، مما شجع فدوى على المضى فى الطريق الذى اختطته لنفسها، وهو طريق الشعر الذى تبثه أنينها وآمالها ورؤاها وأمنيات قلبها. وعندما رآها والدها تقتصر على الشعر الرومانسى دون أن تخرج من قوقعته إلى الشعر الحماسى، عاتبها على مسلكها ورغب إليها فى أن تتحول إلى الشعر السياسى الذى يخدم قضية بلادها. ولكنها قالت له إنها كانت دائمًا بمنأى عن الحياة السياسية، فكيف يتاتى لها أن تنفعل بأحداث لم تكن لها بها أى صلة. ثم إن بعض المتشككين فى شاعرية فدوى كانوا يعتقدون أن أخاها الشاعر إبراهيم هو الذى ينظم لها القصائد فتوقعها باسمها، فلما مات إبراهيم فى عام ١٩٤١ واستمرت الشاعرة تطلع على الناس بقصائدها، أدرك المتشككون أن فدوى لم تكن تختبئ وراء شبح إبراهيم.

ولكن الشاعرة لم تخرج تمامًا من القمقم القديم ومن حياة الحريم إلا عندما زارت إنجلترا فى عام ١٩٦٢ تلبية لدعوة واحد من أبناء عمومتها كان يدرس فى أكسفورد. وهناك التحقت ببعض المعاهد رغبة فى إتقان اللغة الإنجليزية، وأتيح لها فى عطلات نهاية الأسبوع أن تزور المتاحف والمكتبات والآثار، وأن تتريض فى الريف الإنجليزى، والمهم أنها أصبحت سيدة نفسها ليس لأحد عليها سلطان.

وقد أسهبت فدوى فى وصف حياتها فى إنجلترا، وتحدثت بعاطفة قوية عن زميل لها رمزت له بالحرفين الأولين من اسمه A.G. فهو الذى رافقها فى زيارات المتاحف وفى مشاهدة معالم لندن ومتنزهاتها وقصورها.

وكم كانت فدوى تتمنى لو استطالت إقامتها فى بريطانيا، لولا أن الأحزان كانت تطاردها بما يشبه القدر المحتوم. ذلك أنها تلقت من أسرتها برقية تنعى شقيقها الأصغر الدكتور نمر طوقان الذى لقى مصرعه مع المليونير اللبنانى إميل البستانى فى حادث سقوط طائرة البستانى الخاصة بعد مغادرتها مطار بيروت. وكان الدكتور نمر - وهو طبيب يعمل فى جامعة بيروت الأمريكية - هو الشقيق المفضل لفدوى بعد وفاة شقيقها إبراهيم. فحزنت عليه أشد الحزن، وعجلت بالعودة إلى نابلس دون أن تودع زميلها A.G.

لقد كانت هذه الرحلة بحق رحلة جبلية صعبة أبدعت فدوى طوقان فى وصف تفاصيلها بصدق وأمانة.

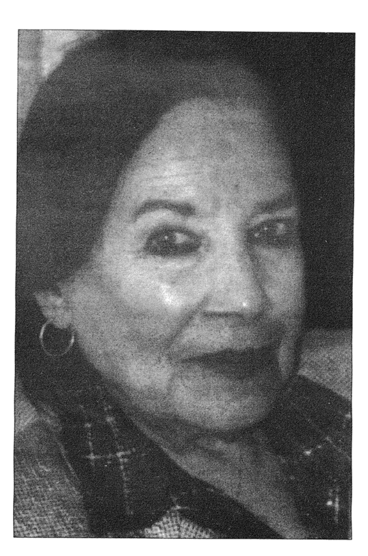
الرحلة الأصعب

وإذا كانت الشاعرة قد خصت الرحلة الصعبة بسيرتها الشخصية وأطوار حياتها منذ ولادتها وحتى استقام عودها، وكان تركيزها الأكبر على الجوانب الذاتية الخالصة من سيرتها، فقد وقفت الرحلة الأصعب على معاناتها فى وطنٍ مغتصب وبين قوم إما أصبحوا شهداء أو مرشحين للشهادة. ولم يكن فى وسع الشاعرة أن تعيش بمعزل عن أحداث وطنها، فألقت بنفسها فى أتون السياسة وشغلتها الأحداث الملهمة عن قضاياها الذاتية. وجاء شعرها فى هذه المرحلة معبرًا عن انفعالاتها الوطنية إزاء الأحداث التى ألمت بأرض الآباء والأجداد. بل لقد وقفت ديوانًا كاملاً على الشهيد وائل زعيتر الذى استشهد فى عام ١٩٧٢ وهو نجل المترجم الفلسطينى الكبير عادل زعيتر (١٨٩٧-١٩٥٧).

وهى تصف التحول الذى طرأ على حياتها من الذاتية المطلقة إلى المشاعر الجَمْعِيّة بقولها: «إنها لضرورة قصوى فى هذا الزمن الشائه أن يتحصن الإنسان العربى بوعى سياسى وعقائدى يحميه من الضياع، وعى تتأكد فيه هويته ويتكثف شعوره بالانتماء ومن المؤكد أن أجدر من يتحصن بهذا الوعى السياسى العقائدى هم أصحاب القلم الذين ينطلقون فى أداء دورهم النضالى من جبهة الفن والفكر والشعر. فلا بد لهؤلاء من اتخاذ موقف من الحياة، وموقع ينطلق منه سلوكهم وأفكارهم وأعمالهم الأدبية. فمثل هذا الموقع ومثل هذا الموقف يضيئان لهم الطريق ويمنحانهم عناصر رؤياهم، ومن خلالهما تنبثق مضامين إنجازاتهم الفكرية والفنية والأدبية».

وبلغ من إنسانية فدوى طوقان أنها باتت تشعر بأنها أم لكل أطفال العالم الذين ولدوا والذين لم يولدوا بعد، وأنها على استعداد دائمًا للموت من أجل إنقاذ طفل أيًا كان، هذا على الرغم من أنه ليس لها أى أبناء.

وتحدثت الشاعرة فى هذا الجزء من سيرتها الذاتية عن دورها فى الحياة العامة ولقائها برجال السياسة وممثلى الصحف وتعرضها لحملات بسبب قصائدها التى كانت تلهب المشاعر. وفى النهوض بدورها النضالى قامت بتهريب المطلوبين من الغاصبين، معرِّضة نفسها وحياتها للتنكيل بها فى حالة اكتشاف مغامرة إيواء مطاردين. وتحدثت عن معاناة المرأة بسبب الاحتلال وعن الإذلال الذى تعرضت له وهى واقفة على جسر اللنبى تنتظر السماح لها بالعبور مما ألهمها قصيدة تمنت فيها أن تلتهم أكباد مَنْ أذلوها، فلم تسلم بعد ذلك من الذين كانوا يسخرون منها بقولهم إنها تشتهى «صحن كبدة»! وبأنها من أكلة لحوم البشر فى القرن العشرين!



فــــدوى طــــوقــان

وعلى درب النضال التقت الشاعرة فدوى طوقان بزملائها الشعراء محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وكذلك بالقاص إميل حبيبى.

والرحلة الأصعب هى رحلة الشاعرة بين الخراب الذى حلّ بالمدن، والترويع الذى أنزل بالناس، والسجون التى اكتظت بنزلائها، والفاتكات التى تحصد الأرواح عشوائيًا، والدماء التى سالت والعائلات التى تمزّق شملها والأطفال الذين يتعرضون للأهوال.

وتقول فدوى: «إن الأطفال هم نقطة الضعف المركزية عندى. حبى لهم يبلغ حدّ الوجع... أولئك هم أحباب الله، فهل يتخلى عن حمايتهم؟ كيف السبيل إلى حماية كل الأطفال من معاناة الخوف والجوع والعطش وأهوال الحرب ومآسيها؟ كم يعوزنى الإيمان.. وكم أنا بحاجة إليه فى هذا الوقت العصيب! يا الله، إنى أفزع إليك لأسألك الرحمة بأحبابك».

فى فصول متتالية صوّرت الشاعرة الجوانب الإنسانية والخلقية والسياسية للأزمة الخانقة التى ابتليت بها بلادها دون أن تتخلى فى هذا السرد المكثّف عن أسلوبها الأدبى وشاعريتها العفوية وقدرتها الفائقة على استخدام سلاحها الوحيد فى معركة الوطن وهو سلاح الكلمة المعبرة والقصيدة المتفجرة. وما أكبر المفارقة بين فدوى القديمة المنعزلة عن الناس وفدوى الخائضة حلبات النضال.

الرحلة المنسية

رغبة فى استكمال الصورة الأمينة التى رسمتها فدوى طوقان لنفسها فى سيرتها الذاتية ذات الجزءين، قام الأديب الأردنى يوسف بكار باستقصاء ما فات الشاعرة تسجيله عن بواكير حياتها الأدبية، فأصدر كتاب «الرحلة المنسية: فدوى طوقان وطفولتها الإبداعية» باعتباره يضم الرحلة المنسية التى سقطت أخبارها من ذاكرة الشاعرة وهى تدون سيرة حياتها. وفى هذا الكتاب استقصى الدكتور بكار الطفولة الشعرية والطفولة النثرية لفدوى منذ ما تفتحت موهبتها الشعرية فى عام ١٩٢٩ أو عام ١٩٣٠، ومنذ ما عالجت النثر فى كتاباتها اعتبارًا من عام ١٩٣٩. وإذا كان المعنى اللغوى «للطفولة» ينصرف إلى الفترة السابقة على الصبى، فإن المعنى المجازى للطفولة الذى أراده الباحث هو البدايات الأولى للرحلة الأدبية للشاعرة.



وكان لابد للدكتور بكار من الرجوع إلى المجلات القديمة التى نشرت فيها آثار فدوى طوقان مثل «الأمالى» و«مرآة الشرق» وجريدة «فلسطين» ومجلة «الرسالة» المصرية، كما أن بعض المخضرمين من الراصدين لتراث فدوى أمدوا الدكتور بكار بما كان فى حوزتهم من هذه الآثار المبكرة، ومنها ما لم يسبق نشره أو ما أغفلته الشاعرة فى دواوينها المنشورة، أو ما أدخلت عليه الشاعرة تنقيحات عند ضمه إلى دواوينها.

والملاحظة العامة على بواكير فدوى تُنبئ بأنها لم تمر فعلاً بمرحلة الطفولة الشعرية أو النثرية، وإنما طالعت الناس منذ بداياتها بشعر صقيل ونثر محبوك، وكان نضجها هو جواز مرورها إلى النشر فى المجلات الرصينة، وهو ما يُعزى إلى أن الشاعرة مهّدت لخروجها إلى النور بقراءات موسعة فى كتب الأدب العربى وفى دواوين الشعراء حتى دانت لها كل إمكانياتها واقتحمت المجال بكفاءة مقدورة. ومع ذلك، فإن الشاعرة - وهى أعرف الناس بحدودها وبالبيئة الصارمة المحيطة بها - استصوبت أن تتخفى وراء أسماء مستعارة مثل «دنانير» و«المطوقة» أو الاقتصار على اسم فدوى دون لقب الأسرة. وخشية أن تُظن بها الظنون من أصحاب النيّات السيئة، حرصت على أن تشير إلى أن دنانير التى تتستّر وراء اسمها كانت «شريفة عفيفة».



وقد حرص الدكتور بكار - وهو باحث أكاديمى مرموق - عند إثبات النصوص الشعرية والنثرية المجهولة لفدوى على أن يثبت البحر الشعرى الذى نظمت فيه القصيدة، وعلى أن يسجّل فى هوامشه الواسعة ملاحظات كاشفة عن ظروف نظم القصيدة أو كتابة المقال النثرى، وأن يعرّف بأسماء الأعلام الواردة فى ثناياها، وأن يشرح الألفاظ المستخدمة فى تضاعيفها، والأهم من ذلك أنه نشر النصوص وفقًا لتسلسلها الزمنى مع تحديد سنة النظم أوالكتابة حتى يساعد القارئ على متابعة التطور الأدبى والفكرى والعاطفى للشاعرة.

وحسب القارئ أن يعرف أن القصائد المجهولة المندرجة فى «الرحلة المنسية» قد بلغ عددها ثلاثين قصيدة، وأن المقالات المنشورة فى الصحف الأدبية والتى لم تجمع فى كتاب هى ثمانى مقالات عداً.

ثم إن الباحث الدكتور بكار قد استصوب ألاّ يفاجئ فدوى بنشر كتابه خشية أن تكون لديها تحفظات عليه، فتوخّى اطلاعها على برنامجه فى إعداد بحثه، وقامت هى نفسها بتزويده ببعض ما كان ينقصه من شعر البدايات التى كانت محجوبة لديها.

وفى اعتقادى أن الرحلات الجبلية الثلاث لفدوى طوقان تعد عملاً فريدًا فى الأدب العربى، بما تميزت به من صدق الرواية وصراحة المكاشفة وبلاغة التعبير عن خلجات النفس دون ادعاء أو تفاخر أو ابتذال فى الحديث عن النفس. وصفوة ما يقال عن هذا العمل الأدبى إنه عمل مُشبع للروح والوجدان، فضلاً عن أنه تسجيل موضوعى لفترة من التاريخ الإجتماعى والوطنى عاشت الشاعرة فى بؤرتها، وذاقت حلوها ومرها، وأضاءت للباحثين جوانب إنسانية تُستخلص من ضجيج الحياة وعجيجها فى عصر حافل بما يسّر وما يسوء. ■

الطريق إلى بابل .. الحيرة بين

الحفاظ على أية لغة خالصة
من التأثيرات الخارجية هو دائماً معركة خاسرة؛
ذلك أن اللغة النقية لا وجود لها

في عام ١٩٥٦ اندلعت المظاهرات في إقليم فريزلاند شمالي هولندا. وكانت الاضطرابات قد بدأت حين رفض أحد القضاة سماع شهادة طبيب بيطرى محلي باللغة الفريزية. وكان القاضي معذوراً في ذلك لعدم معرفته تلك اللغة الجيرمانية القديمة التي تتصل باللغات الهولندية والألمانية والإنجليزية؛ إذ كانت الهولندية هي لغة المعاملات الرسمية والأمور العامة في فريزلاند. وكانت فكرة الفريزية كلغة قومية من نتاج رومانسية القرن التاسع عشر. بعد أن ظلت لا تستخدم في دواوين الحكومة والمدارس والكنائس مئات السنين. وظهرت اللغة من جديد في أوائل القرن التاسع عشر من خلال تشجيع الشعراء الشعبيين لها كلغة قومية. وفي سنة ١٩٣٧ سُمح بتدريسها في المدارس الابتدائية، ثم سُمح بتدريسها في التعليم العالي سنة ١٩٨٠ ويتحدثها الآن حوالي ٤٠٠ ألف شخص. وكان إحياؤها رد فعل لتماثل اللغة الهولندية وتأكيداً للهوية المحلية.

من بين عوامل الجذب الرئيسية التي تتمتع بها أية لغة محلية أو لهجة أو عامية، بل والسبب الأساسي وراء إحيائها أو اختراعها، هو عدم فهم الأغراب لها. واللغة في مجملها شكل من أشكال كلمة السر أو جواز المرور. فإن أنت فهمتها مررت. ومن وجهة نظر إقليمية بحتة، فقدت أنا ووالدي «الهوية» لأننا لا نعرف اللغة الفريزية نتيجة لهجرة جدي إلى أمستردام. كما أننا لن نستعيدها بحال من الأحوال في فريزلاند، ولا يمكننا المرور، هكذا الحياة. فما إن تتجه إلى المركز لا يبقى التراب القديم عالقاً بحذائك لفترة طويلة. وأنا ما زلت أتحدث الهولندية وأكتبها، ولكني أكسب لقمة عيشي من الكتابة بالإنجليزية، التي هي لغة أمي. الآن المركز بالنسبة لي يبعد كثيراً عن أمستردام، خارج الوطن. وليس هذا بالأمر غير العادي كذلك. فأنا مجرد فرد في حشد من البنغاليين والصينيين والألمان والكوبيين والروس والبلجيكيين والبولنديين وغيرهم ممن ساروا على الدرب نفسه.



لقد صارت أمريكا الشمالية، شئنا أم أبينا، مركز العالم بالمعنى اللغوي للكلمة؛ وما سواها هو الهامش. حتى وإن كان مليار من البشر - ١٥ بالمائة من سكان العالم - يتحدثون اللغة الصينية، وكان ٢٦٦ مليوناً يتحدثون اللغة الأسبانية. فالإنجليزية هي اللغة المشتركة المستخدمة في الأعمال التجارية الدولية، وموسيقى البوب، وأشياء كثيرة أخرى. ومع أن الفرنسيين لا يحبون الإنجليزية، فهي الآن اللغة الرئيسية المستخدمة في اجتماعات المفوضية الأوروبية في بروكسل. كما أن الإنجليزية هي لغة أفلام هوليوود، التي هي العملة المشتركة في الترفيه في أنحاء العالم. في الوقت الذي يزداد فيه عدد الدول التي تصبح فيها الإنجليزية لغة العلوم والتعليم العالي، لتحل محل اللاتينية باعتبارها اللغة المشتركة في التعليم.

ومنذ عدة سنوات اقترح أحد وزراء التعليم في هولندا أن تكون اللغة الإنجليزية هي لغة التدريس في الجامعات الهولندية، وكان جاداً في اقتراحه. وتلك فكرة ليست بالجديدة. فقد تقدم وزير التعليم في حكومة موتسوشيتو اليابانية في القرن التاسع عشر باقتراح مشابه، وإن كان أكثر راديكالية؛ إذ قال إنه فقط بعد أن تحل الإنجليزية محل اليابانية كلغة قومية، سوف تصبح اليابان دولة حديثة ومتحضرة. إلا أن دعوته لم تؤت ثمارها. أما بالنسبة لهولندا، فقد أبلغني مؤخراً أحد وزراء التعليم فيها باقتناعه بأن الإنجليزية ستصبح هي اللغة الأولى خلال جيلين أو ثلاثة أجيال. وإذا تحقق ذلك، فسوف يكون مصير الهولندية نفس مصير اللغة الفريزية، مجرد شارة للهوية الحنينية، لا أكثر. وسيكون الخطر في ذلك الحال أن يصبح حال الهولنديين كحال أهل سنغافورة، يتحدثون لغات عدة دون أن يتقنوا أياً منها. وربما تلا الهولنديين غيرهم.

والواقع أن هيمنة لغة مركزية ما، هولندية كانت أم إنجليزية أم صينية، قد تكون أمراً مخيفاً. حيث يعرض ذلك الهويات للخطر. غير أن إتقان اللغة الوطنية في كثير من الأحيان جواز مرور، حتى في المركز ذاته. وأنا على اقتناع بأن جدي لأمي، وهو ابن أحد المهاجرين، وبالتالي بريطاني أكثر من البريطانيين، يتعمد الخطأ في نطقه للفرنسية، لئلا يُفهم خطأ أنه أجنبي. ولذلك فمن الواضح أن اللغة قضية حساسة؛ إلا أنني أعتقد أن المخاوف كثيراً ما تكون في غير موضعها، وتكون عواقبها سيئة حين توجه لأغراض سياسية.

ويشعر البعض بقلق شديد من هيمنة الإنجليزية لدرجة أنه يستخدم في وصفها عبارات من قبيل «اللغة القاتلة»، وكأن الإنجليزية مرض من الأمراض الوبائية يعقد لسان الناس جميعاً فلا ينطقون لغاتهم.

وليس استخدام المصطلح المرضي من قبيل الصدفة. فهؤلاء الذين يتحدثون عن اللغات القاتلة، ويأسون على انقراض لغة امباباران في أستراليا أو لغة وابو في الغرب الأمريكي، يستخدمون كذلك مصطلحات مثل «التنوع اللغوي الحيوي» ويربطون بقاء اللغات بالهموم الإيكولوجية الكبرى، مثل اختفاء الغابات المطيرة وحياة الحيوان والنباتات النادرة. ويزعم اللغويون الإيكولوجيون أنه في بعض الأحيان - ولأسباب وجيهة - تدمر «الموجات البيولوجية» الأوروبية والأمريكية البيئات المحلية، حيث تخترق عالم القبائل والشعوب الصغيرة الهش رغم كثافته. ويقول الخبراء إنه لا تزال هناك حوالي ستة آلاف لغة مستخدمة، من المنتظر أن يبقى ألف منها فقط لفترة على قدر كبير من الطول.



ويخشى حماة اللغات الأشد صحة وقوة، كأعضاء الأكاديمية الفرنسية، الانقراض أقل من خشيتهم التلوث. وتصيبهم كلمات مثل le weekend و le fax بالغثيان. وإذا كنت تظن أن اللغة الفرنسية التي تكثر فيها المفردات الإنجليزية Franglais لغة سيئة، فلتنظر إلى اليابانية التي تحتوي على مفردات مشوهة كثيرة من اللغة الإنجليزية. كما أنها أخذت في السابق من اللغة الصينية، بل ومن اللغتين البرتغالية والهولندية. فالإضراب [strike] هو باليابانية «سوتو» وهي اختصار «سوتورايكي»؛ والإقلاع عن عادة صحية ضارة بالصحة هو عمل «دوكوتا سوتوبو» (doctor's stop)؛ و ارتكاب التحرش الجنسي [harass] هو ارتكاب «سيكو هارا». والكمبيوتر الشخصي يسمى «بازو كون». وهكذا. والسرقة اللغوية الخلاقة أمر سهل في اللغة اليابانية، لأنه يمكن خلق فعل جديد بإضافة اللاحقة «رو» الخاصة بالأفعال في آخر أية عبارة مستعارة، كما في «ماكورو» على سبيل المثال، ومعناه يأكل هامبورجر ماكدونالدز - و«ماكو» هي اختصار «ماكودونارودو»، و«رو». وبالمناسبة، المقابل الفرنسي هو (bouffer un macdo) والشيء اللافت للانتباه هو أن اليابانيين، مثلهم مثل جدي البريطاني، سمعتهم سيئة بالنسبة لتعلم اللغات الأجنبية، الأمر الذي أظن أنه يعود إلى حد ما إلى أسباب تتعلق بكراهية الأجانب؛ وكأن فكرة أن إتقان لغة أجنبية ما يلوث نقاء يابانية المرء قد أصابتهم بالشلل.

والحفاظ على أية لغة خالصة من التأثيرات الخارجية هو دائماً معركة خاسرة؛ ذلك أن اللغة النقية لا وجود لها، وهذا هو الأهم. فقد غيَّر النورمانديون الفرنسيون اللغة الإنجليزية القديمة تغييراً هائلاً، إلا أن الإنجليزية القديمة كانت في حد ذاتها خليطاً من الفريزية ولغة أنجليا والعديد من اللهجات الأنجلو سكسونية. وفي يوم من الأيام روَّج الكاتب الياباني تانكازي جونيتشيرو لفكرة أن اليابانية الخالصة، التي نُقِّيت من المفردات المستعارة من الصينية، قادرة على نقل أعمق التعبيرات الأدبية. وبما أن حوالي ٦٠ بالمائة من اللغة اليابانية عبارة عن كلمات مستعارة من اللغة الصينية، فقد كان ذلك اقتراحاً غير عملي. إلا أنه تقدم به في الثلاثينيات، حيث النعرة القومية على أشدها. وكان ذلك الاتجاه نحو تنقية اللغة دافعه الهموم السياسية أكثر منها الهموم الأدبية.

ويشعر الفرنسيون بقلق من التلوث الأنجلوسكسوني منذ زمن بعيد. و كان شارل مورا الكاتب الفرنسي الموهوب والفيلسوف الذي تقطر كتاباته سمّاً، وهو مؤسس حركة «العمل الفرنسي» اليمينية المتطرفة، مشاهداً غريب الأطوار في أول دورة ألعاب أوليمبية حديثة سنة ١٨٩٦ في أثينا. وكان يستشيط غضباً من صوت اللغة الإنجليزية التي يتحدث بها الناس من حوله، وخاصة الإنجليزية الأمريكية، تلك «اللهجة المقززة». وحقيقة الأمر أنه كان يعتقد أن الألعاب الرياضية العالمية أمر سيئ، لأنها تسمم العالم بالتعابير الأنجلوسكسونية. وكان مورا - ذلك المدافع عن النقاء التقليدي للغة الفرنسية - ينظر للأمور نظرة بيولوجية؛ تماماً مثل علماء اللغة الإيكولوجيين. فالإنجليز لا أصل لهم، وكوزموبوليتانيون، ويصيبون الناس بالعدوى كالأمراض. وطبيعي أنه كان كذلك معادياً شرساً للسامية.



ويشن البلجيكيون الفلمنكيون حرباً طال مداها ضد التلوث الأجنبي. غير أن العدو اللغوي في حالتهم هو اللغة الفرنسية، التي هي لغة الوالون.(سكان المناطق البلجيكية المجاورة لفرنسا المنحدرون من أصول سلتية) الذين كانوا أكثر ثراء وأشد بأساً ممن يتحدثون اللغة الفلمنكية. وكانت الفلمنكية - وهي إحدى لهجات اللغة الهولندية - زاخرة بالمفردات الفرنسية، شأنها شأن اللغة

لغــة القــلب .. ولغــة العقــل!

إيـــان بـــوروما

الإنجليزية. غير أن أسباباً سياسية جعلت المعلمين الفلمنكيين الرسميين يبذلون قصارى جهودهم في البحث عن المقابل الهولندي لكل كلمة استعيرت من اللغة الفرنسية. ونتائج ذلك تتسم بالثراء بصورة عبثية مثيرة للضحك، على الأقل بالنسبة للأذن الهولندية. فقد صارت الطائرة الهليكوبتر wentelwiek ومعناها الحرفي هو «الجناح الطائر». والنتيجة الأخرى هي أن الكثير والكثير من الفلمنكيين يرفضون تعلم اللغة الفرنسية. وبما أن قلة من «الوالون» هي التي تعرف الهولندية، فإن أي فلمنكيين يلتقيان في أنتورب أو لييج سيجدان أنفسهما يتحدثان الإنجليزية في الغالب.



إلا أن خطر الحرص على نقاء اللغة الرئيسية ليس هو العبث بقدر ما هو الركود وانعدام الحياة. ونموذج سنغافورة ليس تحذيراً من استخدام الإنجليزية كلغة التعليم الأساسية في بلد يتحدث الناس فيه لغة سواها وحسب، بقدر ما هو تحذير من الهندسة الزائدة عن الحد. وكان رئيس الوزراء السابق لي كوان يو مدافعاً شرساً في هذا الشأن، حيث كان يسعى إلى حظر اللهجات الصينية في الحياة العامة، وكان يصدر التحذيرات العامة من استخدام اللهجة المالايية الصينية عند التحدث بالإنجليزية. وأحد أسباب عدم إجادة الكثير من أهل سنغافورة التحدث بأية لغة هو وعيهم بذواتهم. فعندما أجبروا على أن يتحدثوا إنجليزية الـ«بي بي سي» في فترة الخمسينيات، ارتدوا فيما بينهم إلى لغة هجين أكثر فضفضة تميل أكثر إلى العامية وتسمى Singlish، وكأنهم يقصدون فيما يبدو إغاظة الناظر الصارم. فالتشدد أكثر من اللازم، أو الميل أكثر من اللازم إلى العامية، لا يمكن أن ينتج أدباً عظيماً.

وليست إنجليزية الـ«بي بي سي» السنغافورية المثال الوحيد للنموذج المجمد زمنيًا. فالصحف الفليبينية لا تزال تستخدم لغة الصحافة الأمريكية التي تعود إلى ثلاثينيات القرن العشرين (Prixie nixes solons) ولا تزال الصحف الهندية الصادرة باللغة الإنجليزية تكتب بلغة كتلك التي كانت تستخدمها «مانشستر جارديان» فيما قبل الحرب العالمية الثانية. وواقع الأمر أن إنجليزية الـ «بي بي سي»، باعتبارها نموذجاً لما ينبغي أن تكون عليه لغة الملكة، لم يعد لها وجود.

بين لغة القلب ولغة العقل

فمذيعو الإذاعة والتليفزيون البريطانيين يتحدثون بلكنات إقليمية عديدة، تحظى بتشجيع منذ الستينيات. وأصبحت إنجليزية المثقفين الإنجليز شيئاً يعرف بـ Thames Estuary، نسبة إلى أحياء لندن الشرقية وما وراءها. وهي إنجليزية الطبقة الوسطى الجنوبية الأنفية مع ظلال من لكنة شرقي لندن cockney. ويميل توني بلير إلى الارتداد إليها. ويتحدث ميك جاجر منذ سنوات بنسخة مصطنعة من لكنة شرقي لندن. بل إن الكلمة التي ألقتها الملكة في عيد الميلاد الماضي كانت تحمل آثاراً منها.



وفي أي الأحوال، سوف تظل الإنجليزية باعتبارها اللغة المشتركة في الأعمال التجارية، وتكنولوجيا الإعلام، والترفيه، تزحف إلى اللغات الأخرى، كما زحفت الفرنسية أو الألمانية والصينية والسنسكريتية والعربية والفارسية. كما أن الإنجليزية تتحول إلى لهجات مهنية ليس فيها إلا رطانة مهنية. وداخل مؤسسات الاتحاد الأوروبي، يتشكل شيء قد نطلق عليه إنجليزية له رطانته الغريبة، بل والتهجية الخاصة به. ويتخاطب الطيارون في أنحاء العالم بإنجليزية لا يفهمها أحد سواهم. وفي بعض الحالات تكون القدر الوحيد الذي يعرفونه من اللغة الإنجليزية. والمعروف أن هذا يسبب المشاكل في حالات الطوارئ، كما أنه أحد أسباب بدء الخطوط الجوية اليابانية في استخدام طيارين أجانب.



والإنجليزية التي يتخذها أهل المهن المختلفة رطانة لهم بالفعل قبيحة، إلا أنها لا تمثل تهديداً قاتلاً لوجود غيرها من اللغات الرئيسية المستمر. بل إنه في الأماكن التي أصبحت فيها الإنجليزية لغة رئيسية ـ بسبب الغزو الاستعماري في الغالب ـ لا يكون الأثر على الهويات المحلية واضحاً بالقدر الذي يفترضه البعض، أو يخشونه. والهند مثال واضح على ذلك. فالإنجليزية هي اللغة الشائعة بين النخب الهندية وفي الدوائر الحكومية. وهي في واقع الأمر اللغة القومية الوحيدة في كل الهند، وإن كان المتحدثون بها حوالي ٥٪ فقط من عدد السكان. فقد وجد الإحساس الحديث بالقومية أول وأبلغ تعبير عنه باللغة الإنجليزية، في كتابات نهرو. وكانت الإنجليزية لغة السادة المستعمرين، ولكنها كانت كذلك لغة الكثير من الوطنيين الذين حاربوا من أجل الاستقلال. والإنجليزية لغة بعض أحسن الكُتّاب الهنود في الوقت الراهن: ليس فقط من يكتبون كتابات حنينية من لندن أو نيويورك، بل وكذلك



الهنود المقيمون في دلهي وكلكتا وبومباي.

ومن المؤكد أن نهرو وغيره كانوا يرغبون في جعل اللغة الهندية لغة قومية. إلا أنهم اختاروا شكلاً اصطناعياً بعض الشيء من اللغة الهندية رُصّع ترصيعاً كثيفاً ببعض المصطلحات العتيقة المستعارة من السنسكريتية. وكان بعض المؤيدين الرئيسيين لتلك اللغة القومية من غير المتحدثين الأصليين باللغة الهندية، وإنما مفكرون هندوس من كوجارات والبنغال. وفي الجنوب لم يكن أحد يتحدث اللغة الهندية بالمرة. ولذلك لم تكن لها الغلبة قط. وقلة هي التي تريد إحياء تلك اللغة، وإن كان هناك مؤيدون للغة الهندية الأكثر شعبية، باعتبارها البديل الرسمي للإنجليزية. وهؤلاء لم يبالغوا كذلك.



وقد عبَّر عن المشكلة أحسن ما يكون التعبير كاتب من جنوب الهند، أخذ أحد أصدقائي مقالاً له من على الإنترنت. ولغة الكاتب الذي يسمى راجيف سرينيفازان الأصلية هي المالايالام، وهي لغة ولاية كيرالا التي يَكُنُّ لها ما لدى مثالي القرن التاسع عشر من مشاعر رومانسية. وهو يقول: «باعتباري شخصاً ثنائي اللغة يتحدث الإنجليزية ولغة المالايالام، يمكنني القول عن يقين بأن لغة المالايالام بالنسبة لي هي لغة القلب، والإنجليزية هي لغة العقل». ويمضي قائلاً إنه ليس بوسع الإنجليزية ولا الهندية التعبير عن «الروح المالايالية المميزة، بما فيها من أساليب حزينة متأملة تتناقض تناقضاً شديداً مع الطبيعة المدارية التي تتفجر مرحاً وحيوية».

وبعد ذلك يستشهد بقصيدة للسير والتر سكوت لتكون حجة على ما يقوله عن لغات القلب والعقل:

هناك يتنفس الرجل الذي ماتت روحه،
الذي لم يقل لنفسه قط
هذه أرضي أنا، التي ولدت عليها!

ولكن حتى إذا كانت كلمات السير والتر سكوت تخاطب عقل راجيف سرينيفازان وحسب، فهو لا يزال يفضل الإنجليزية على الهندية؛ لأن الإنجليزية على أقل تقدير تربطه بالعالم الأوسع ـ ناهيك عن شبكة الإنترنت العالمية ـ بينما تجعل اللغة الهندية من يتحدثون المالايالام يشعرون بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية. وهو يصف اللغة الهندية بأنها «لغة غازية». وبالتالي فإن لغة إمبراطورية قديمة تفيد في إعاقة نمو لغة أخرى.

وهناك أمثلة للظاهرة نفسها في أماكن أخرى. فأهل تيمور الشرقية، ولغتهم المشتركة حالياً هي الإندونيسية أو بهاسا إندونيسيا، يرغبون في أن تكون لهم لغة قومية أخرى. واللغة الأخرى الوحيدة التي يمكنهم التفكير فيها هي البرتغالية. وفي الوقت نفسه يعيش الناس في إيريان جايا وقتاً عصيباً وهم يثورون على سادتهم الإندونيسيين، لكون لغاتهم القَبَلية الكثيرة غير مفهومة فيما بينهم. وهم كذلك قد يستعينون بلغة قومية في كفاحهم من أجل الحكم الذاتي. وربما تكون هذه اللغة هي الهولندية.

والفلبين حالة لافتة للانتباه، حيث تحولت من مستعمرة أوروبية إلى مستعمرة أمريكية. وقد كُتبت أول رواية فلبينية عظيمة، وهي Noli me tangere للروائي خوسيه ريزال ـ حيث كانت الكتاب المقدس للهوية والاستقلال الفلبينيين الذي أذكى نار الشعور الوطني الحديث ـ باللغة الإسبانية. وقد آسى أكثر من كاتب من كُتّاب القرن العشرين الفلبينيين الذين عبروا عن أنفسهم بالإنجليزية على ضياع الإسبانية كلغة قومية. ويود بعض الكُتّاب أن يستخدم لغة التجالوج. إلا أن معظم قراء التجالوج ـ وهم يقيمون في جزيرة لوزون في المقام الأول ـ يفضلون مجلات القصص المصورة على الروايات الأدبية، بغض النظر عن مقدار تعبيرها عن المشاعر الوطنية. وبذلك تظل الإنجليزية لغة النخبة، وبالتالي لغة معظم الأدب الفلبيني ـ وإن لم تكن لغة السينما، التي هي فن أكثر شعبية.



سوف تبقى لغة التجالوج زمناً طويلاً، وهو ما أتوقعه للغة مالايالام. إلا أن الكثير من اللغات الأصغر منها أخذ في الاختفاء، ولا يعود اختفاؤها جميعاً إلى اللغة الإنجليزية. وقد توفى آخر المتحدثين بلغة قوقازية اسمها أوبيخ ويدعى توفيق إيزنش في مزرعته عام ١٩٩٢. كما لم يعد «سحابة الرعد الحمراء» يجد من يتحدث معه لغة كاتاوبا سيوكس ومات سنة ١٩٩٦. وكان في أستراليا ٢٥٠ لغة يتحدثها سكانها الأصليون. وقريباً قد لا يتبقى منها شيء. وهاهي اليديش تحضر ـ بالطبع كلغة أدبية ـ وتكاد لغة اللادينو تموت. وحالات الموت دائماً أحداث تدعو للحزن والأسى. إلا أنني لست متأكداً إن كان علماء اللغة الإيكولوجيون يأسون دائماً على تلك الخسائر لأسباب صحيحة أم لا.

وعندما تموت اللغة نتيجة لذبح المتحدثين بها أو إجبارهم على التغيير، فإن هذا يدعو بالفعل إلى الأسى، ولكن علماء اللغة الإيكولوجيين يظنون أن التنوع شيء مفيد في حد ذاته، وضياع أية لغة، مهما كانت صغيرة، وبغض النظر عن ظروف موتها، خسارة للبشرية. ويقول دانييل نيتل وسوزان رومين مؤلفا كتاب (Vanishing Voices) أصوات تختفي: «كل لغة متحف حي، وهي نصب تذكاري لكل ثقافة كانت أداة لها». ولا شك في أن هذا صحيح. والمتاحف الحية تفتن علماء اللغة وغيرهم من المتحمسين. ولكن هل ينبغي الحفاظ على كل متحف حي لذاته؟ قد تكون للأدب قيمة في حد ذاتها، ولكن هل للغات التي يتحدثها الناس قيمة في حد ذاتها؟ يقول علماء اللغة الإيكولوجيون إن اللغات لها تلك القيمة الأصيلة، وهو ما قد يعود إلى أسباب بيئية. ويقول نيتل ورومين إن اللغات «أشبه بعصفور المناجم؛ فحيثما تكون اللغات في خطر، يكون ذلك علامة تنبئ بوقوع مشاكل بيئية».

فهل هذا صحيح دائماً؟ إن «إنيوت نونافوتن» الذين كانوا يعرفون من قبل بالإسكيمو، مجتمع مُعَرَّضٌ بالفعل للخطر، ليس من جانب الحكومة الكندية، وإنما لأنهم جماعة على حافة العالم يتناقص عددها يوماً بعد يوم. كما أن معدل الانتحار فيما بينهم مخيف. إلا أنهم لا يزالون يتحدثون لغتهم المحلية. والتعبير الآخر عن هويتهم هو اصطياد حوت البحار القطبية الشمالية ببنادق الصيد عيار ٥٠ مللي والأمر هنا لا يدعو للضحك. فالصيد ليس من أجل اللحم وحده. ذلك أنهم يقيمون دفاعهم عن الصيد على أسس ثقافية؛ فصيد الحيتان بالبنادق أمر ضروري للحفاظ على الهوية. وليس هذا بالتأكيد هو ما في ذهن علماء اللغة الإيكولوجيين.

وأحد أسباب الخطر الذي تعرضت له لغات الأقليات خلال القرنين الماضيين هو ظهور النزعة القومية. فقد كانت فرنسا دولة متعددة اللغات. إلا أن فكرة العدالة والمساواة والإخاء الجمهورية كانت تعني ضرورة أن يتحدث كل المواطنين الفرنسيين الفرنسية ـ وحبذا لو تحدثها العالم بأسره كذلك. وهذا أمر ينطوي على الخير والشر معاً. فاللغة المشتركة، من حيث المبدأ، تقوى الإحساس المشترك بالمواطنة الذي يتجاوز الجنس أو الدين، دون أن يكون كذلك من حيث الممارسة. أما الشر فيعود إلى فرضهم لغة مشتركة على

إذا كان مليار من البشر - ١٥ بالمائة من سكان العالم - يتحدثون اللغة الصينية، وكان ٢٦٦ مليوناً يتحدثون اللغة الإسبانية. فالإنجليزية هي اللغة المشتركة المستخدمة في التعلم والتدين والاتصال

البريتون وغيرهم من الأقليات، مما ألحق بهم الضرر. وكان ذلك يقوم على الاعتقاد الخاطئ بأنه ينبغي أن يتحدث الناس لغة واحدة؛ وكأن التعددية اللغوية تمزق الأمة بالضرورة.



ويقول نيتل وورومين إن «علينا التخلص من التسوية التقليدية بين اللغة والأمة والدولة». والواقع أن كلمة «تقليدي» هنا لا تعني الكثير. فمعظم الدول القومية ليست قديمة جداً، ومن المؤكد أنها ليس خالدة. إلا أنهما محقان في قولهما إن لغات كثيرة أقدم من الدول التي تتخذها لساناً لها. ويفضل علماء اللغة الإيكولوجيون التفكير في معظم اللغات باعتبارها تعبيراً عن الثقافة - أي الثقافة المحلية وحتى القَبَلية - وأنها لغات القلب الضاربة بجذورها في تربة بعينها. أما لغات المراكز أو «اللغات الكونية» global languages، فهي من أجل «الاتصال فيما وراء المستويات المحلية والتعبير عن أنفسنا كمواطنين عالميين» - أي أنها لغات العقل.

وهذه كذلك مقولة مشكوك فيه. فقد كانت الألمانية اللغة الرئيسية للإمبراطورية النمساوية المجرية. وكان الكثير من مواطني بودابست في مطلع القرن العشرين يقرأون الصحف الصادرة باللغة الألمانية أكثر من قراءتهم للصحف المجرية. وكان من المفترض أن الألمانية هي لغة العقل. ومع ذلك فإن أعظم ما خرج من الإمبراطورية من أدب وشعر كتبه بالألمانية أناس لم تكن لهم جذور جيرمانية «محلية» بحال من الأحوال. وكان كثيرون منهم يهوداً، أو من يسمون بالكوزموبوليتانيين الذين لا جذور لهم، وبالتالي قد يكونون أكثر الموالين لعهد فرانتس يوزيف، وهم كافكا وجوزيف روث، وموزيل.



قد يكون من الخطأ تسوية اللغة بالدولة، غير أن تسويتها تسوية تامة بإحدى الثقافات المحلية المحددة أو النسب المشترك خطأ كذلك. ولعالم لغة إيكولوجي آخر، هو ديفيد كريستال، رأى متوازن عن اللغة. فهو يقول إن اللغة شارة هوية تعلو ما سواها، ولكنها ليست شارة حصرية؛ فالثقافات تستمر، حتى وإن غيَّرت لغتها. إلا أنه يطلب منا، كوسيلة لتقدير العواقب المأساوية لضياع لغة ما، أن نتخيل ما كان يمكن حدوثه لو أن الفرنسية النورماندية حلت محل الإنجليزية القديمة بعد عام ١٠٦٦؛ فما كان ليصبح هناك تشوسر ولا شكسبير ولا وردزورث ولا ديكنز.

وهذا صحيح إلى حد كبير. ولكنه يقوم على افتراض أن شكسبير ما كان ليعبر عن نفسه إلا بالإنجليزية. وقد نقلب هذا المثال الخيالي ونسأل: ماذا لو لم تكن الإنجليزية قد حلت محل الأيرلندية باعتبارها اللغة الرئيسية في أيرلندا؟ ما كان ليصبح هناك جويس ولا ييتس و لا وايلد ولا شو. وماذا نقول عن بيكيت الذي كتب بالفرنسية والإنجليزية، وعندما سألوه إن كان بريطانياً، فرد بالفرنسية قائلاً: (Au contraire على العكس)؟

تظل العبقرية الأدبية لغزاً من الألغاز. ولا يمكن تفسير ظهور نابوكوف أو بيكيت تفسيراً عقلانياً، ولكن من المؤكد أن علاقة صلة النسب أو الانتماء إلى أمة من الأمم بذلك ضئيلة. وبالطبع فإنه صحيح بصورة عامة أنك تكتسب إحساسك بإيقاع لغة ما وبقدرتها على التعبير وأنت تنمو معها، عن طريق تعلم أناشيد الحضانة وأنت طفل والحديث مع الأطفال الآخرين في المدرسة. ويمكن لأبناء اللغة الذين يعرفون القراءة والكتابة تحديد أي عبارة مبتذلة حين يسمعونها. ولكن هذا ليس مهمّاً. فأي أديب كجوزيف كونراد يمكنه إبدال لغته ويظل عظيماً لا فرق إن كان يعبر عن «الإنجليزية» أو «البولندية».



وعندما بدأ كونراد كتابة رواياته الشهيرة، كانت الإنجليزية هي اللغة المشتركة لإمبراطورية عظيمة، ولكنها لم تكن لغة العالم المشتركة. فهل ستنتج هيمنة الإنجليزية أكثر من كونراد؟ من بين الأحداث الأدبية اللافتة للانتباه خلال الأعوام القليلة الماضية نجاح هاجين الكاتب الصيني الذي يكتب بالإنجليزية. وكان هاجين في العشرينيات من عمره عندما جاء إلى الولايات المتحدة. وقد لا يكون كونراد، إلا أن كتاباته غاية في الروعة. وتتسم هذه الكتابات بنوع من الاقتصاد الأدبي، حيث تخلو تماماً من الإشارات الثقافية أو الأدبية. وتقع أحداث روايته «انتظار» في الصين، ولذلك كانت الإشارات المتصلة بالعالم المتحدث بالإنجليزية ستبدو غريبة بأي حال من الأحوال. إلا أننا نتساءل إن كانت رواية هاجين تبشر بأسلوب إنجليزي عالمي جديد، فيه فصل تام بين الثقافة واللغة، أم لا؟ ولم يستبدل كازوو إيشيجارو، الذي وُلد في اليابان ونشأ في بريطانيا، لغة بأخرى (فهو لا يتحدث اليابانية)، إلا أنه يحاول تجنب أية إشارات لا يفهمها سوى أبناء الإنجليزية. وهو يقول إنه يكتب للعالم. بعبارة أخرى، فإنه يتعمد التخلص من سمة كلمة السر الخاصة باللغة.

ويعيش الجيل الحالي ممن يكتبون بالإنجليزية ولهم خلفية غير إنجليزية في عالم يختلف عن العالم الذي يعيش فيه كونراد أو نابوكوف أو أرثر كوستلر. فقبل



الحرب العالمية الثانية، كان الكُتّاب وقراؤهم - سواء أكانوا من لندن أو سانت بطرسبرج أو بودابست - لا يزالون يشتركون في الإشارات الثقافية. فقد كانت لدى من يعرفون القراءة والكتابة معرفة حية بالعهد القديم والعهد الجديد والميثولوجيا الكلاسيكية. وكان لا يزال هناك شيء مثل الحضارة الأوروبية أو حتى الغربية؛ وهو ما ندر وجوده في الوقت الراهن. والإشارات المشتركة الآن كونية ومحلية، أي أنها أمريكية في عمومها؛ إنها هوليوود وموسيقى البوب ولغة الطيارين والكمبيوتر. وقد تكون عواقب ذلك أشد سوءاً في بعض النواحي بالنسبة للأمريكيين عمن يتحدثون اللغات الصغرى.



الميزة الكبيرة للتحدث بالهولندية أو الدنماركية، أو حتى الألمانية أو البنغالية، هي أن المرء يجبر على إتقان لغة أخرى على الأقل إن كان سيعمل في العالم الحديث. وحتى أكثر علماء اللغة الإيكولوجيين حماساً لا ينادون بأحادية اللغة. فها هو ديفيد كريستال يتحدث عن «ثنائية اللغة الصحية»، وهو مصطلح قد يشوبه شيء من الغموض (فلا بد من الحرص عند استخدام كلمة «صحية»)، ولكن ما يقصده واضح؛ فاللسان الوطني يختص بالتاريخ والثقافة والهوية والأدب، أما اللغة الحضرية فمن أجل الاتصال بالعالم الأوسع. وكما قلت فإنه قد يبالغ في التفريق، ولكن القدرة على تحدث وقراءة أكثر من لغة هو بالتأكيد أمر طيب. فقراءة لغة أخرى لا يتيح لك فقط فهم ما يفكر فيه أناس من مكان مختلف، وإنما معرفة طريقة تفكيرهم كذلك. وليس معنى هذا أن الأفكار والمشاعر تحددها اللغة. فالواقع أنه كلما تعلم المرء فهم اللغات الأخرى، كانت رؤيته للإنسانية المشتركة أكبر. وهذا لا يحل الصراع بين البشر؛ إذ لا يزال احتمال نشوب الحرب قائماً، وإن تحدث العالم بأسره الإنجليزية أو الإسبرانتو. ولكن يمكنك فقط فهم موقعك الثقافي والسياسي والاجتماعي في العالم إن أنت فهمت عالم الآخرين، وهو ما يساعدك على فهم ما يقولون.

ومن ثم يمكن أن يكون المركز أكثر إقليمية من الهامش في بعض الجوانب. فعندما لا يكون تحت يد المرء سوى لغة واحدة - حتى وإن كانت لغة العالم - فإن الآخرين سيبدون له شديدي الغرابة أو مشابهين له بطريقة خادعة. فهم يتحدثون الإنجليزية، ويأكلون هامبورجر ماكدونالدز، ويشاهدون أفلام هوليوود، وبالتالي لا بد أن يكونوا كالأمريكيين تماماً. وهذا كلام مضلل شأنه شأن افتراض غرابة أفكار الناس علينا، لأننا لا نفهم ما يقولونه.

إن الإنجليزية هي اللغة كلمة السر الخاصة بالنخبة العالمية، وهي في ذلك أوسع نطاقاً بكثير مما كانت عليه الفرنسية أو الإسبانية في يوم من الأيام. وهذا ناتج عن التاريخ، وبناء الإمبراطورية، وقوة الولايات المتحدة. فلا شيء في اللغة الإنجليزية ذاتها يقضي بأن تكون هي السائدة. وفي المستقبل البعيد قد تصبح الصينية اللغة المشتركة في الأعمال التجارية أو الثقافة - قد يكون من الصعب تخيل ذلك، ولكنه محتمل من الناحية النظرية.

وتطمح ملايين وملايين في الانضمام إلى النخبة الأنجلوفونية. وربما يكون هناك في يوم من الأيام فهم يكاد يكون عالمياً للإنجليزية. ولكن من المؤكد أن مطمح فهم الجميع لها تقابله رغبة قوية لدى الآخرين في حماية كلمات السر الخاصة بهم التي لا يمكن فهمها بسهولة. وأنا على عكس وزير التعليم الهولندي المتقاعد لا أتوقع اختفاء الهولندية كلغة أساسية عما قريب. بل إني على العكس من ذلك أعتقد أن التجانس السطحي الخاص بالعولمة سوف يثير الأثر الفريزي في أماكن كثيرة. وينظر إلى الإنترنت التي تربط العالم بأسره على أنها موقع الإنجليزية الحصين، ولكن الواقع أنها تتحول بالتدريج إلى منافسة إلكترونية يمكن فيها للناس استخدام ما يحلو لهم من اللغات. فالإنترنت آخذة بالفعل في التحول إلى مستودع ليس فقط للغات الحية، بل كذلك للغات التي يفترض أنها انقرضت. ذلك أنه يمكنك في الفضاء الإلكتروني وحده سماع لغات سكان أستراليا الأصليين مثل الجيوارلي، التي مات آخر متحدث وطني بها عام ١٩٨٦. وهذا هو سبب اعتقادي بأنه تماماً مثلما لا يمكننا منع أنفسنا من إعادة بناء برج بابل، فإنه سيهدم مرات ومرات.■

عن مجلة:
(The New York Review of Books)
May 31, 2001

ترجمة: أحمد محمود

ربما يقصد بعض من يقولون إن العلم يصف ولا يفسر، أن يقارنوا بين العلم واللاهوت الذى يؤكد اللاهوتيون أنه يفسر الأشياء بإرجاعها إلى غايات إلهية، الأمر الذى لا يخوض فيه العلم

في إحدى الأمسيات كنت أتحاور مع بعض أعضاء هيئة التدريس من جامعة تكساس حول العمل الذى أنجزناه فى الفيزياء، وأشرت إلى التقدم الكبير الذى حققناه فى تفسير حقائق تجريبية عن الجسيمات الأولية (الدقائق متناهية الصغر التى تتكون منها الذرات) خلال عقد واحد فقط من السنوات (من منتصف الستينيات إلى منتصف السبعينيات من القرن العشرين)، بعد أن كان علينا أن ندرس - عندما كنا طلابا - كمًا كبيرًا متنوعًا من الحقائق المختلفة عن تلك الجسيمات، وكيف تعلمنا أن نستنتج هذه الحقائق المتنوعة باستخدام بعض القواعد البسيطة، الأمر الذى جعل الفيزيائيين يتنفسون الصعداء. وبمجرد ذكر هذه الملاحظات علق أحد الزملاء قائلاً: «إن العلم لا يفسر الأشياء ولكنه يقوم بوصفها فقط». كنت قد سمعت مثل هذه الملاحظات من قبل، لكنها هذه المرة فاجأتنى لأننى كنت أعتقد أننا قد قمنا بعمل جيد فى تفسير خواص الجسيمات الأولية وليس مجرد وصفها(١).

وأغلب الظن أن ملاحظة الزميل قد نبعت من تخوف كان منتشرًا على نطاق واسع بين فلاسفة العلوم فى فترة ما بين الحربين العالميتين. فقد كتب لودفيج ويتجنشتاين Ludwig Wittgenstein «هناك خداع كامن فى صميم نظرتنا الحديثة للعالم مفاده أن ما يسمى قوانين الطبيعة هو تفسير للظواهر الطبيعية». وقد يكون تفسير شيء ما هو اكتشاف سببه، غير أن برتراند راسل كان قد كتب مقالة ظهرت سنة ١٩١٣ يقول فيها: «إن كلمة سبب ترتبط بشكل لصيق ببعض الأمور الخادعة للدرجة التى تجعل إقصاءها التام من قاموس الفلسفة أمرًا مرغوبًا فيه». ولم يدع هذا الأمر للفلاسفة من أمثال «ويتجنشتاين» إلا شيئا واحدًا فقط يميزون به بين التفسير والوصف، وهو شيء غائى يُعَرِّفُ التفسير بأنه مقولة تتناول الغاية من الشيء موضع التفسير.

وتعطينا إحدى روايات الكاتب فورستر E.M.Forster «أين تخشى الملائكة أن تطأ على الأرض» - مثالاً جيدًا للغائية فى الفرق بين الوصف والتفسير. كان فيليب وصديقته كارولين (من أبطال الرواية) يناقشان موضوع زواج شقيقة فيليب من رجل غير مرغوب فيه، وبعد أن سردت كارولين كل الحوارات التى دارت بينها وبين شقيقة فيليب، قال فيليب: «إنك لم تعطنى سوى وصف وليس تفسيرًا»، وكلنا نعرف ما الذى يعنيه فيليب عندما طلب تفسيرا، لقد كان يرغب فى معرفة أهداف كارولين. ولا توجد غايات فى قوانين الطبيعة. ولأن صديقى صاحب التعليق والفيلسوف «ويتجنشتاين» لا يعرفان أية طريقة للتمييز بين الوصف والتفسير، فقد استنتجا أن هذه القوانين لا يمكن أن تكون تفسيرًا. وربما يقصد بعض من يقولون أن العلم يصف ولا يفسر أن يقارنوا بين العلم واللاهوت الذى يؤكد اللاهوتيون أنه يفسر الأشياء بإرجاعها إلى غايات إلهية، الأمر الذى لا يخوض فيه العلم.



ويبدو لى أن البحث عن السبب أمر خاطئ شكلاً وموضوعًا. فليس من عمل الفلاسفة أو أى إنسان آخر أن يفرض معانى للكلمات غير المعانى الشائعة الاستخدام. وكان أجدى بالفلاسفة أن يحاولوا فهم ما يفعله العلماء، عندما يقولون أنهم يفسرون الأشياء، وذلك بدلاً من اتهامهم بالخطأ. وإذا كان لابد لى مسبقًا أن أُعَرِّف التفسير فى الفيزياء فإننى أقول: «التفسير فى الفيزياء هو ما يفعله الفيزيائيون ثم يتنفسون بعده الصعداء»، غير أن التعريفات المسبقة ليس لها فائدة تذكر (بما فى ذلك هذا التعريف).

وعلى حد علمى فإن هذا التعريف قد أصبح مفهومًا لفلاسفة العلوم، على الأقل منذ الحرب العالمية الثانية. وهناك عدد كبير من المراجع حول طبيعة التفسير أصحابها فلاسفة مثل «بيتر أكينشتاين» Peter Achinstein و«كارل همبل» Carl Hempel و«فيليب كيتشر» Philip Kitcher و«ويزلى سالمون» Wesley Salmon. ومن قراءتى فى هذه المراجع اقتنعت تدريجيًا أن الفلاسفة على الطريق الصحيح فى هذا الشأن: فهم يحاولون الوصول إلى إجابة على السؤال: «ما الذى يفعله العلماء عندما يفسرون شيئًا ما؟» وذلك بمراقبة ما يفعله العلماء فى الواقع.

يقول العلماء المتخصصون فى العلوم البحتة (وليس التطبيقية) إن رسالتهم هى تفسير الأشياء، ولذلك فإن فهم طبيعة التفسير لها أهمية كبرى عندهم، تماما مثل أهميتها للفلاسفة. وتبدو هذه المهمة أسهل بعض الشيء فى الفيزياء (والكيمياء) عنها فى العلوم الأخرى. فبينما يواجه فلاسفة العلوم الحوادث الفردية، يهتم الفيزيائيون بتفسير القواعد العامة للفيزياء. فالبيولوجيون ورجال الأرصاد الجوية والمؤرخون يهتمون بأسباب الأحداث الفردية مثل اختفاء الديناصورات أو العاصفة الثلجية التى حدثت سنة ١٨٨٨ أو الثورة الفرنسية... الخ، بينما لا يهتم الفيزيائيون بحادث فردى إلا إذا كان له مدلول عام مثل اكتشاف النشاط الإشعاعى من حادثة فردية (تعرض ألواح فوتوغرافية إلى «ضوء غير مرئى» رغم وجود هذه الألواح فى الظلام). وقد حاول فيليب كيتشر أن يبعث إلى الحياة من جديد فكرة أن تفسير أى حادث هو إرجاعه إلى أسبابه. لكن الأسباب كثيرة، فما هى بالتحديد الأسباب التى يتحدث فيليب كيتشر عنها من بين العدد اللانهائى من الأشياء التى قد تؤثر فى أى حادث(٢)؟



ويمكن أن نُعَرِّف الفرق بين التفسير ومجرد الوصف - فى مجال الفيزياء - بقولنا: «نحن نفسر قاعدة فيزيائية عندما نثبت إمكانية استنتاجها من قاعدة فيزيائية أخرى سابقة عليها (أى أكثر أصولية)». ومعنى كل كلمة فى هذا التعريف موضع تساؤل. لكننى سأركز هنا على ثلاث كلمات تمثل فى رأيى أكبر الصعوبات: «سابقة عليها أو أصولية» و«استنتاج» و«قاعدة». فكلمة استنتاج لا توحى باتجاه معين، فقد يحدث أن تتمكن من استنتاج قاعدة فيزيائية معينة من أخرى أحدث منها أو العكس. وأفضل مثال على ذلك هو العلاقة بين قوانين نيوتن وقوانين كبلر. فكل واحد منا يعرف أن نيوتن لم يكتشف القانون الذى ينص على تناقص قوى الجاذبية مع مربع المسافة فقط ولكنه اكتشف كذلك قانون الحركة والذى يوضح كيف تتحرك الأجسام تحت تأثير جميع أنواع القوى. وقبل ذلك بقليل كان كبلر قد توصل إلى ثلاثة قوانين لحركة الكواكب: ينص القانون الأول على أن الكواكب تتحرك فى مدارات بيضاوية توجد الشمس فى مركزها. وينص القانون الثانى على أن الخط المار من الشمس إلى أى كوكب يمسح مساحات متساوية فى أزمنة متساوية أثناء دوران الكوكب حول الشمس. أما القانون الثالث فينص على أن مربع زمن دورة الكوكب حول نفسه يتناسب مع مكعب أطول قطر فى المسار البيضاوى للكوكب.

ومن الطبيعى أن نقول بأن قوانين نيوتن تفسر قوانين كبلر. غير أن قوانين الجاذبية لنيوتن - تاريخيًا - قد تم استنتاجها من قوانين كبلر عن حركة الكواكب. وقد استخدم كل من «إدموند هالى» و«كريستوفر رين» و«روبرت هوك» العلاقة التى وضعها كبلر بين مربع زمن دورة الكوكب حول نفسه ومكعب القطر لاستنتاج قانون التربيع العكسى للجاذبية. ثم طور نيوتن هذا الاستخدام ليطبق على المدارات البيضاوية. وعندما تقوم اليوم بدراسة الميكانيكا فإنك تتعلم كيف تستنتج قوانين كبلر من قوانين نيوتن وليس العكس. ونحن نشعر فى أعماقنا أن قوانين نيوتن أكثر أصولية من قوانين كبلر، وفى هذا السياق فإن قوانين نيوتن تفسر قوانين كبلر وليس العكس. وهكذا نجد أنه من الصعب الحكم بأن إحدى قواعد الفيزياء أكثر أصولية من الأخرى.

وقد يكون من المغرى القول بأن الأكثر أصولية هو الأكثر شمولاً. وربما تكون محاولة «كارل همبل» هى أفضل المحاولات لتعريف التفسير الذى يقصده العلماء، فقد ذكر فى مقالة مشتركة مع «باول أوبنهايم» ظهرت سنة ١٩٤٨: «تفسير ظاهرة عامة هو تصنيفها تحت قانون أكثر عمومية»، إلا أن ذلك لا يقلل من الصعوبة. ويستطيع المرء أن يقول أن قوانين نيوتن، مثلاً، لا تتحكم فقط فى حركة الكواكب ولكنها تتحكم كذلك فى المد والجزر على الأرض، وفى الثمار التى تسقط من الأشجار وغيرها. وليس صحيحًا أن قوانين كبلر تتعامل مع مدار حركة الكواكب المحدود فقط، فهى تتحكم كذلك فى حركة الإلكترونات حول النواة، حيث الجاذبية غير ذات موضوع، لكن قوانين الميكانيكا ما زالت قابلة للتطبيق. ولذا فإن قوانين كبلر - بشكل أو بآخر - تحمل عمومية ليست فى قوانين نيوتن.

وهكذا يصبح منافيًا للعقل أن نقول بأن قوانين كبلر تفسر قوانين نيوتن فى الوقت الذى استكان فيه كل إنسان إلى مقولة أن قوانين نيوتن تفسر قوانين كبلر.

ويعد هذا المثال عن قوانين كبلر ونيوتن مفتعلاً إلى حد ما، فليس هناك شك حقيقى بشأن أيهما يفسر الآخر؟ أما فى حالات أخرى فإن الأمر يبدو أكثر صعوبة من ذلك. وسنلجأ هنا إلى مثال آخر: عند تطبيق ميكانيكا الكم على نظرية النسبية العامة لأينشتاين، نجد أن الطاقة والعزم فى مجال الجاذبية تكونان على شكل حزم أو مجموعات من جسيمات لا كتلة لها (مثل جسيمات الضوء - الفوتونات) تعرف باسم «الجرافيتونات». ويؤدى تبادل هذه الجرافيتونات إلى التأثيرات الخاصة

ستيفن واينبرج

هل يفسر العلم كل شيء؟

بالجاذبية، والتى تنبأت بها النسبية العامة. ومن جهة أخرى فإن نظرية الأوتار (أحدث النظريات فى نشأة الكون) قد تنبأت بوجود جسيمات مثل الجرافيتونات تمامًا. وهكذا، فهل تفسر النظرية النسبية العامة وجود الجرافيتونات ؟ أم هل يفسر وجود الجرافيتونات النظرية النسبية العامة؟ فى الواقع نحن لا نعرف الإجابة. وعليه فإن مستقبل الفيزياء يعتمد على إجابة السؤال الآتى : هل ستقوم فيزياء المستقبل على الهندسة الزمكانية (ذات الأبعاد الأربعة: ٣ للمكان وبعد واحد للزمان) كما فى النسبية العامة، أم تقوم على بعض النظريات مثل نظرية الأوتار، التى تتنبأ بوجود الجرافيتونات؟

وتواجه فكرة اعتبار التفسير هو الاستنتاج صعوبات عندما نتعامل مع القواعد (أو المبادئ) الفيزيائية التى تتجاوز القواعد (أو المبادئ) التى تم استنتاجها منها. وتعطينا الديناميكا الحرارية - علم الطاقة والاتزان ودرجة الحرارة - مثالاً على ذلك. فقد نجح «لودفيج بولتسمان» فى استنتاج قوانين الديناميكا الحرارية (بعد صياغتها فى القرن التاسع عشر) من الميكانيكا الإحصائية، وهى فيزياء الأجسام الكبيرة (الماكروية) التى تتكون من عدد كبير من الجزيئات المفردة. وقد تم الاعتراف على نطاق واسع بتفسير بولتسمان للديناميكا الحرارية بواسطة الميكانيكا الإحصائية على الرغم من معارضة عدد قليل من الفيزيائيين أصحاب النظرة القديمة لقوانين الديناميكا الحرارية باعتبارها مبدأ فيزيائيًا حرًا قائمًا بذاته وأساسيًا كأى مبدأ أساسى آخر. وأخيرًا تمكن «جاكوب بيكنشتاين» و«ستيفين هوكينج» فى القرن العشرين من تطبيق الديناميكا الحرارية على الثقوب السوداء (مواقع فى الكون شديدة الجاذبية حتى أن أشعة الضوء لا تستطيع الإفلات منها، من هنا التسمية بالثقوب السوداء)، لا لأنها تتكون من عدد كبير من الجزيئات ولكن ببساطة لأنها تملك سطحًا لا يستطيع أى جسيم أو شعاع أن يفلت منه إلى الخارج. وهكذا تبدو الديناميكا الحرارية وقد تجاوزت الميكانيكا الإحصائية للأنظمة متعددة المكونات، والتى تم استنتاجها أصلاً منها.

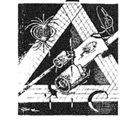
وقد يكون هناك ما يفيد أن قوانين الديناميكا الحرارية ليست أصولية (أو أساسية) مثل مبادئ النسبية العامة أو نظرية النموذج القياسى للجسيمات الأولية (نظرية ظهرت فى الستينيات من القرن العشرين). ومن المهم هنا أن نوضح الفرق بين أمرين: فمن جهة تعتبر الديناميكا الحرارية نظامًا معترفًا به ومؤكدًا يسمح لنا باستنتاجات مثيرة من بضعة قوانين بسيطة. وتنطبق هذه القوانين على الثقوب السوداء والمراجل البخارية وعلى أنظمة أخرى عديدة. ومن جهة أخرى نرى أن هذه القوانين نفسها لا تنطبق على جميع الحالات، فهى لا تعنى شيئًا إذا طبقناها على ذرة مفردة. غير أن الديناميكا الحرارية نفسها ليست تفسيرًا لأى شىء.

وفى هذا المقام فإننى لا أرى فرقًا كبيرًا بين الديناميكا الحرارية والهندسة الإقليدية (الهندسة المستوية)، ففى النهاية تنطبق الهندسة الإقليدية على تنوع هائل من الظروف. فلو اتفق ثلاثة أشخاص على قياس مجموع زوايا المثلث لوجدوا أنها ١٨٠ درجة. وسنحصل على مجموع ١٨٠ درجة لزوايا المثلث سواء كان مصنوعًا من قضبان من الصلب أو مرسومًا بالقلم الرصاص على صفحة من الورق. وهكذا قد يبدو أن الهندسة أكثر أصولية من علم البصريات أو الميكانيكا. غير أن الهندسة الإقليدية عبارة عن نظام معترف به ومؤكد من الاستدلالات (الاستنتاجات) يقوم على فروض قد تنطبق وقد لا تنطبق فى حالات معينة. ونحن نعرف من النظرية النسبية أن الهندسة الإقليدية لا تنطبق فى مجال الجاذبية، لكنها مع ذلك تعتبر من التقريبات الجيدة فى المجال الضعيف لجاذبية الأرض، فقد توصل إقليدس إليها وهو موجود فى مجال جاذبية الأرض. وعندما نستخدم هندسة إقليدس لتفسير أى شىء فى الطبيعة، فإننا نعتمد ضمناً على النسبية العامة لتفسير الهندسة الإقليدية فى الحالات موضع الدراسة.



وإذا بدأنا الحديث عن الاستنتاج فإننا نقحم أنفسنا فى معضلة أخرى، فمن الذى يجرى هذا الاستنتاج؟ وقد اعتدنا القول بأن شيئًا ما يفسر شيئًا آخر دون أن نتمكن من استنتاجه فى واقع الأمر. فمثلاً بعد أن تطورت ميكانيكا الكم فى منتصف العشرينيات من القرن الماضى، وعندما أصبح فى الإمكان حساب الطيف الذرى (أطوال الموجات وشدة الأشعة الممتصة أو المنبعثة من ذرات عنصر ما) وطاقة الربط فى الهيدروجين (الطاقة التى تربط الذرات ببعضها فى الجزيئات) بشكل مفهوم وواضح لأول مرة، اعتقد كثير من الفيزيائيين أن الكيمياء يمكن تفسيرها بواسطة ميكانيكا الكم ومبدأ التجاذب الكهروستاتيكى بين الإلكترونات وأنوية الذرات. وأعلن فيزيائى فى شهرة «باول ديراك» أن كل الكيمياء قد أصبحت الآن مفهومة. وكانوا لم يتمكنوا بعد من استنتاج الخواص الكيميائية لأى جزىء فيما عدا أبسط الجزيئات وهو الهيدروجين. وكان الفيزيائيون على يقين بأن كل الخواص الكيميائية ما هى إلا تداعيات لقوانين ميكانيكا الكم وتطبيقها على الأنوية والإلكترونات.

وقد أيدت خبرتنا هذا الرأى، فاليوم نستطيع أن نستنتج خواص جزيئات على درجة عالية من التعقيد - ليست فى درجة تعقيد البروتينات أو «دنا» (الحمض النووى الشهير) - لكن إلى حد ما جزيئات عضوية معقدة، وذلك بإجراء حسابات متقدمة على أجهزة الكمبيوتر باستخدام ميكانيكا الكم ومبدأ التجاذب الكهروستاتيكى. ويستطيع أى



فيزيائى تقريبًا الادعاء بأن الكيمياء يمكن تفسيرها بواسطة ميكانيكا الكم والخواص البسيطة للإلكترونات وأنوية الذرات. لكننا لن نتمكن من تفسير الظاهرة الكيميائية ككل بهذا الشكل أبداً. وبذلك لن تختفى الكيمياء وستصمد كعلم مستقل. ولا يسمى الكيميائيون أنفسهم بالفيزيائيين، فلهم مجالاتهم العلمية الخاصة بهم وخبراتهم المختلفة عن الفيزيائيين. ومن الصعب التعامل مع الجزيئات المعقدة بالطرق الخاصة بميكانيكا الكم، لكننا مع ذلك نعلم أن الفيزياء تفسر سلوك المواد الكيميائية. وليس هناك تفسير لذلك فى مراجعنا أو مقالاتنا العلمية، إنه فى الطبيعة، فقوانين الفيزياء تتطلب وجود مواد كيمائية لتظهر سلوكها وخواصها المعروفة.

وهناك ملاحظات مماثلة فى مجالات أخرى من العلوم الطبيعية: فنحن نملك نظرية مؤكدة للقوى النووية القوية كجزء من النموذج القياسى - وهذه القوى هى التى تشد وتربط كلا من الجسيمات فى النواة والجسيمات المكونة لتلك الجسيمات - وتسمى كروموديناميكا الكم. ونعتقد أنها تفسر السبب فى وجود كتلة للبروتون (الجسيم الأساسى فى نواة الذرة وهو موجب الشحنة). وتنتج كتلة البروتون من القوى القوية التى تمارسها الكواركات (الجسيمات المكونة للجسيمات الأساسية) على بعضها. وقد يكون من المهم أن نعترف بأن شيئًا ما قد تم تفسيره ولو فى حدود ضيقة. أما مسألة حساب كتلة البروتون فإنها لن تساهم فى تقدم فهمنا لقوانين الطبيعة، لأننا بالفعل نفهم القوى النووية القوية بشكل جيد يكفى لمعرفة أننا لن نحتاج إلى قوانين جديدة فى هذا الحساب.

وهناك مشكلة أخرى، إذا أخذنا التفسير على أنه الاستنتاج: ففى بعض الحالات يمكن أن نستنتج شيئًا دون أن نفسره. قد يبدو ذلك غريبًا، لكن لنقرأ القصة الآتية: عندما بدأ الفيزيائيون جديًا فى التعامل مع نظرية الانفجار العظيم (Big Bang) (نظرية نشأة الكون من انفجار الزمان والمكان وتحول الإشعاع إلى مادة)، فإن أحد الأشياء التى حسبوها كان إنتاج عناصر الضوء خلال الدقائق القليلة الأولى لتمدد الكون. وقد طوروا مصفوفة ضخمة من المعادلات التفاضلية لهذا الغرض ثم عالجوها بالكمبيوتر. وعندما قام كل من «جيمس بيبلز» و «روبرت واجونر» و«وليم فولر» و«فريد هويل» بحل هذه المعادلات، اتضح أنه بعد بضع دقائق من الانفجار كان ربع الكون على شكل هليوم أما الباقى فقد كان كله تقريبًا هيدروجينًا مع نسبة بالغة الضآلة من العناصر الأخرى.

ولو افترضنا أن تمدد الكون أصبح أسرع مما كان عليه فالمتوقع أن تقل نسبة الهليوم فيه، لكن الحسابات أظهرت أن نسبة الهليوم ترتفع مع زيادة سرعة التمدد(!!!). وتفسير ذلك ليس صعبًا مع أنه لا يظهر فى الكمبيوتر بسهولة. فبينما كان الكون يتمدد ويبرد فى الدقائق الأولى، كانت التفاعلات النووية تؤدى إلى تكون الأنوية المعقدة من البروتونات والنيوترونات الأولية. لكن نظرًا لانخفاض كثافة الكون نسبيًا فإن هذه التفاعلات كانت تحدث على مراحل وفى تتابع: أولاً باتحاد بعض البروتونات والنيوترونات لتعطى نواة الهيدروجين الثقيل (الديوتيريوم)، ثم بعد ذلك باتحاد نواة الهيدروجين الثقيل بالبروتونات أوالنيوترونات أو مع أنوية أخرى من نفس النوع لتكوين نواة أثقل مثل الهليوم. لكن أنوية الديوتيريوم رقيقة وضعيفة التماسك نسبيًا، لذلك فإنها لا تتكون إلا بعد أن تنخفض درجة الحرارة إلى حوالى بليون درجة (ألف مليون) فى نهاية الدقائق الثلاث الأولى من لحظة الانفجار العظيم. وخلال هذا الوقت كانت النيوترونات تتحول إلى بروتونات تمامًا كما يحدث فى معاملنا اليوم.

وعندما انخفضت درجة الحرارة إلى هذا الحد (بليون درجة) وأصبحت باردة بما يكفى أنوية الديوتيريوم للتماسك، كان قد تم اقتناص جميع النيوترونات لتكوين أنوية الديوتيريوم ثم اتحاد هذه الأنوية لتعطى الهليوم الذى يتميز بثبات أنويته بشكل خاص. ويتطلب تكوين نواة الهليوم زوجًا من النيوترونات وزوجًا من البروتونات، ولذا فإن عدد أنوية الهليوم التى تكونت فى ذلك الوقت كان بالضبط نصف عدد النيوترونات المتبقية. وبذلك فإن عدد النيوترونات التى تحللت قبل أن تنخفض درجة الحرارة إلى بليون درجة هو الأمر الحاسم الذى حدد كمية الهليوم المتكونة فى الكون المبكر. وكلما كان التمدد أسرع انخفضت درجة الحرارة أسرع، وأصبح الوقت ضيقًا بالنسبة للنيوترونات لتتفكك، وكلما زاد عدد المتبقى منها وبالتالى زاد إنتاج الهليوم. هذا هو التفسير لما جاءت به حسابات الكمبيوتر.

ومع أننى قلت إن الفيزيائيين يهتمون فقط بتفسير القواعد العامة، إلا أنه ليس واضحًا تمامًا ما هى القاعدة وما هو مجرد الحدث؟ ويعطينا كبلر مرة ثانية مثالاً على ذلك. وكبلر معروف اليوم بقوانينه الأساسية الثلاثة عن حركة الكواكب، إلا أنه عندما كان شابًا كان يحاول تفسير أقطار مدارات الكواكب بواسطة تصميم هندسى معقد يتضمن متعدد أضلاع منتظمًا. ونحن نضحك من ذلك اليوم لأننا نعرف أن بعد الكواكب عن الشمس يعكس أحداثًا وقعت عندما تكونت المجموعة الشمسية. ونحن لذلك لا نحاول تفسير أقطار مدارات الكواكب عن طريق استنتاجها من بعض القوانين الأساسية.

وهناك تفسير إحصائى بشكل ما للمسافة بين الشمس والأرض(٣). فلو سألت: لماذا تقع الأرض على مسافة مائة مليون ميل من الشمس وليس مائتى مليون أو خمسين مليون ميل مثلاً أو أبعد أو أقرب، فإن الإجابة قد تأتى على النحو التالى: لو كانت الأرض أقرب كثيرًا من الشمس لكانت أسخن كثيرًا بالنسبة لنا، ولو كانت أبعد لكانت أبرد كثيرًا. وكما هو واضح فإن ذلك تفسير جد سخيف، لأننا نعرف أن المجموعة الشمسية عندما تكونت لم تكن تعلم مسبقًا بحياة الإنسان. غير أن هذا التفسير قد لا يكون سخيفًا تمامًا، لأن هناك عددًا لانهائيًا من الكواكب فى الكون، ولو كانت شريحة ضئيلة منهم موجودة على مسافات مناسبة من نجومها، ولها كتلة وتركيب كيميائى مناسبان يسمحان بنشوء الحياة، إذن لن تكون مفاجأة أن تتساءل المخلوقات الموجودة عن المسافة بين كوكبهم ونجمه، وسيجدون أنهم يعيشون على واحد من كواكب تلك الشريحة الضئيلة.

ويطلق على هذا النوع من التفسيرات اسم «البشرى» Anthropic، وكما نرى فإنه لا يقدم نظرة مفيدة بشكل واف عن فيزياء المجموعة الشمسية. لكن، قد تصبح هذه التفسيرات البشرية مهمة جدًا عند تطبيقها على العالم.

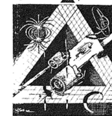
ويفكر علماء الكون - بشكل متزايد - فى أن الانفجار العظيم (Big Bang)، وهو تمدد الكون الذى نعيش فيه، قد يكون واحدًا من عدد كبير من الانفجارات التى حدثت مشتتة هنا وهناك فى عالم مهول أكبر، تمامًا مثلما أن الأرض واحد من كثير من الكواكب. وهم يفترضون ما هو أبعد من ذلك، فيقولون أن بعض الثوابت المفترضة فى الطبيعة قد تكون لها قيم مختلفة فى هذه الانفجارات العظيمة المختلفة، وقد تتخذ بعض ما نسميه قوانين الطبيعة الآن أشكالاً مختلفة. وبناء على ذلك فقد يكون للسؤال: لماذا تتخذ قوانين الطبيعة التى نكتشفها والثوابت التى نقيسها فى الطبيعة هذا الشكل وهذه القيم؟ مجرد تفسير لاهوتى - أى أنه مع هذا النوع من الانفجارات العظمى فقط يحتمل أن يوجد أحد ما ليسأل هذا السؤال.



وإننى أتعشم ألا نكون مدفوعين إلى اللجوء لهذا النوع من التوضيح وتسبيب الأسباب، وأننا سنكتشف يومًا ما منظومة فريدة من قوانين الطبيعة التى ستفسر: لماذا تكون الثوابت الطبيعية على ما هى عليه؟ وعلينا أن نتذكر دائما أن ما نسميه قوانين الطبيعة وثوابت الطبيعة قد يكون مجرد سمات نشأت نتيجة أحداث عشوائية فى الانفجار العظيم الذى تصادف وجودنا فيه، مع وجود أمور قسرية (مثل المسافة بين الأرض والشمس) ووجود مدى تتراوح فيه هذه السمات لتتمكن الكائنات من الظهور وطرح السؤال حول ماهيتها الكائنة عليها. وعلى العكس فمن المحتمل أن نعتبر بعض الظواهر مجرد أحداث عشوائية، بينما هى فى الواقع مجرد إظهار أو تعبير عن مبادئ فيزيائية أساسية. وفى ذلك قد تكمن الإجابة عن سؤال تاريخى ظل يحيرنى سنوات طويلة: لماذا كان «أرسطو» (وكثيرون غيره من الفلاسفة الطبيعيين؛ وبالذات «ديكارت») قانعًا بنظرية للحركة لا تزودنا بأية طريقة للتنبؤ بوضع القذيفة أو موضع أى جسم يسقط فى أية لحظة أثناء طيرانه؟ وهو تنبؤ من النوع الذى تزودنا به قوانين نيوتن. وتبعًا لأرسطو فإن المواد تميل إلى الحركة تجاه أوضاعها الطبيعية - فالوضع الطبيعى للتربة إلى أسفل وللنار إلى أعلى، أما الماء والهواء فيشغلان موضعًا وسطًا بين ذلك، لكن أرسطو لم يحاول حتى الحديث عن سرعة هبوط قطعة من التربة إلى أسفل أو طيران شرارة من النار إلى أعلى. وأنا لا أتساءل لماذا لم يكتشف أرسطو قوانين نيوتن؟ - فمن الواضح أن شخصًا ما كان عليه أن يقوم بهذا الاكتشاف. وقد حاز نيوتن قصب السبق فى ذلك. وما يزعجنى هو: لماذا لم يشعر أرسطو بعدم الرضا لأنه لم يعرف كيف يحسب مواضع القذائف فى أية لحظة على طول مسارها. بل إنه حتى لم يتصور أن هذا الأمر يمثل مشكلة يجب حلها.

وأغلب الظن أن ذلك قد حدث لأن أرسطو كان يفترض أن سرعة حركة الأشياء تجاه مواضعها الطبيعية مجرد أمر عشوائى يتم بالصدفة ولا يخضع للقواعد. ولا نجد تعميمًا حول هذا الأمر (اللهم إلا أن الأجسام الثقيلة تسقط أسرع من الأجسام الخفيفة)، والشيء الوحيد الذى يقبل التعميم كان مسألة الاتزان - حيث تستقر الأشياء. وقد يعكس ذلك ما كان معروفاً عن الفلاسفة الهلينيين من تَرَفُّعٍ عن

يقول العلماء المتخصصون فى العلوم البحتة وليس التطبيقية إن رسالتهم هى تفسير الأشياء، ولذلك فإن فهم طبيعة التفسير لها أهمية كبرى عندهم، تماما مثل أهميتها للفلاسفة



التغيير (ازدراء للتغيير) على نطاق واسع، كما هو واضح فى أعمال «بارامينيداس» الذى كان موضع إعجاب أفلاطون أستاذ أرسطو. كان أرسطو بالطبع على خطأ، لكنك لو تخيلت نفسك فى زمانه، لرأيت كم هو أمر غير واضح أن تكون الحركة محكومة بقواعد رياضية دقيقة يمكن اكتشافها. وعلى حد علمى فإن هذا الأمر قد ظل غير مفهوم حتى بدأ «جاليليو» فى قياس الزمن الذى تستغرقه الكرات لتقطع المسافات المختلفة على سطح مستو مائل. ولا شك أنها واحدة من المهام العظمى للعلم أن يعلم ما هو الحدث وما هى القاعدة، والتى لا نعلم مسبقًا كيف نميز بينهما.

ها أنا قد قمت بتفكيك وتحليل الكلمات: «أساسى أو أصولى» و «يستنتج» و«قاعدة أو مبدأ»، فهل تركت أو أهملت شيئًا فيما اقترحته حول ما نعنيه بكلمة «تفسير» فى الفيزياء، وهى استنتاج قاعدة أو مبدأ ما من قاعدة أو مبدأ أكثر أصولية؟ نعم، لقد تركت شيئًا، لكنه فى إطار تاريخى فقط، إنه النظرة المستقبلية للعلم. فنحن نتحرك دائمًا فى اتجاه صورة مقنعة للعلم. ونتعشم أن نصل فى المستقبل إلى فهم لكل الأمور المنتظمة التى نراها فى الطبيعة، على أساس من بضع قواعد (أو مبادئ) بسيطة وقوانين للطبيعة يمكن استنتاج كل الأمور المنتظمة الأخرى منها. وستصبح هذه القوانين هى التفسير لأية قاعدة أو مبدأ مهما كان (مثل النموذج القياسى والنسبية العامة) بحيث يمكن استنتاجها مباشرة من هذه القوانين، وستصبح هذه القواعد التى استنتجناها مباشرة التفسير لأية قاعدة أو مبدأ يستنتج منها، وهكذا. وعندما نحصل فى النهاية على هذه النظرية الختامية سنعرف بالتأكيد ما هو المبدأ أو القاعدة وما هو الحدث، وأى حقائق الطبيعة مقصور على أية قاعدة أو مبدأ، وأى المبادئ أساسى وأيها أقل أساسية ويمكن تفسيرها بواسطة المبادئ الأساسية.



والآن وبعد أن بذلت قصارى جهدى فى الحديث عما إذا كان العلم يستطيع أن يفسر أى شىء، فإننى سأعيد صياغة السؤال ليصبح: هل يستطيع العلم أن يفسر كل شىء؟ الإجابة واضحة : لا. فستكون هناك دائما حوادث لن يستطيع أحد تفسيرها، ليس لأنها غير قابلة للتفسير إذا عُرِفت كل الظروف التى أدت إلى حدوثها بدقة، ولكن لأننا لن نتمكن أبدا من معرفة كل هذه الظروف. فهناك أسئلة من قبيل: لماذا أصبحت الشفرة الجينية (الوراثية) على ما هى عليه بالضبط؟ أو لماذا ضرب مذنب كوكب الأرض منذ ٦٥ مليون سنة فى مكان محدد بالضبط وليس فى مكان آخر؟ وستظل هذه الأسئلة إلى الأبد خارج قبضتنا. ولن نتمكن من تفسير: كيف قتلت رصاصة أطلقها «جون ويلكنر» الرئيس لنكولن بينما طاشت الرصاصة التى أطلقها البورتوريكى المتعصب ولم تصب الرئيس ترومان. وقد نستطيع تفسير ذلك جزئيًا فقط إذا كان هناك دليل على أن ذراع الرامى قد اصطدمت بشىء ما لحظة الضغط على الزناد، لكن هل حدث ذلك بالفعل؟ إننا لا نعلم. فكل المعلومات من هذا النوع تُفْقَد فى ضباب الزمن. وتعتمد الأحداث على مصادفات لا نملك أن نسترجعها أبدًا. وقد نحاول تفسيرها إحصائيًا: فمثلا قد نقول بنظرية مفادها أن الممثلين فى منتصف القرن التاسع عشر كانوا فى الأغلب رماة جيدين (أصابت رصاصة أحدهم الرئيس لنكولن)، بينما كان المتعصبون البورتوريكيون فى منتصف القرن العشرين رماة سيئين على الأرجح. لكن إذا لم تكن تملك إلا عددًا محدودًا من الأحداث والمعلومات فسيكون إجراء التحليل الإحصائى صعبًا. ويحاول الفيزيائيون تفسير الأشياء التى لا تعتمد على المصادفة، لكن فى العالم الحقيقى يعتمد معظم ما نحاول فهمه على المصادفات.

وفيما عدا ذلك، فإن العلم لن يتمكن أبدًا من تفسير مبادئ الأخلاق. ويبدو كأن هناك هوةً سحيقة لا يمكن إقامة جسر فوقها تفصل بين التساؤلات من النوع «يكون» والتساؤلات من النوع «يجب». وقد نتمكن من تفسير: لماذا يعتقد الناس أنه يجب عليهم القيام ببعض الأشياء؟ أو لماذا تطور الجنس البشرى ليشعر أن هناك أمورًا يجب القيام بها وأمورًا أخرى لا يجب إجراؤها، لكن ما زال الباب مفتوحًا لنتجاوز هذه القواعد الأخلاقية التى قامت على أساس بيولوجى. فقد يكون نوعنا قد تطور بطريقة تجعل الرجال يلعبون أدوارًا مختلفة عن النساء ـ فالرجال تصطاد وتحارب بينما النساء تلد وترعى الصغار ـ لكننا نستطيع محاولة جعل كل أنواع العمل متاحة للنساء كما هى للرجال. ولا يمكن استنتاج المبادئ الأخلاقية ـ التى تدلنا على ما يجب أن نفعله وما لا يجب أن نفعله ـ من معرفتنا العلمية.

كما أن هناك حدودًا لليقين فى تفسيراتنا، وأعتقد أننا لن نتيقن أبدا من أى منها. فكما أن هناك نظريات رياضية عميقة تبين استحالة إثبات صحة علم الحساب، كذلك لن نتمكن من إثبات صحة أكثر قوانين الطبيعة أصولية بواسطة الرياضيات. ولا يزعجنى ذلك، لأننا حتى لو كنا قد عرفنا أن قوانين الطبيعة سليمة رياضيًا، فإننا سنظل غير متيقنين من أنها قوانين صحيحة. وعندما اخترت فى لحظة من حياتك أن تكون فيزيائيًا وليس متخصصًا فى الرياضيات فإنك قد تخلصت من قلقك حول موضوع التيقن.



وأخيرًا يبدو واضحًا أننا لن نتمكن أبدًا من تفسير أكثر القواعد العلمية أصولية. (ربما يكون ذلك هو السبب فى أن بعض الناس يقولون أن العلم لا يقدم التفسيرات، لكن وبهذا المنطق فإنه لا يوجد أى شىء آخر يقدم التفسيرات). وأعتقد أننا سنصل فى النهاية إلى منظومة من القوانين الطبيعية البسيطة والعالمية، وهى قوانين لا يمكن تفسيرها. وإنى أتخيل أن النوع الوحيد من التفسيرات (إذا لم يكن مقدرًا لنا أن نجد منظومة أكثر عمقًا من القوانين، والتى ستزيح السؤال إلى الخلف لا أكثر) هو الذى سيبين أن الصحة الرياضية تتطلب هذه القوانين. لكن من الواضح أن ذلك مستحيل، لأننا نستطيع أن نتخيل منظومات من قوانين الطبيعة تامة الصحة ـ على حد علمنا ـ من الناحية الرياضية، لكنها لا تقدم وصفًا للطبيعة كما نشاهدها.

فمثلا إذا أخذت النموذج القياسى للجسيمات الأولية ونحيت جانبًا كل شىء ما عدا القوى النووية القوية والجسيمات التى تؤثر فيها، وهى الكواركات (Quark) والجليونات (Gluons) فإن ما سيتبقى هو النظرية المعروفة باسم «الكروموديناميكا الكمية». ويبدو أن «الكروموديناميكا الكمية» سليمة رياضيًا بذاتها، إلا أنها تصف كونًا مسلوبًا منه كل شىء ولا يوجد به سوى الجسيمات النووية فقط ـ وليس هناك ذرات أو أناس. أما إذا نحيت جانبًا ميكانيكا الكم والنسبية فإنك تستطيع أن تضع تنوعا هائلا من قوانين الطبيعة السليمة منطقيًا، مثل قوانين نيوتن التى تصف عددًا قليلاً من الأجسام التى تدور حول بعضها بشكل لانهائى (تبعا لهذه القوانين) مع عدم وجود أى شىء آخر فى الكون، وعدم إمكانية حدوث أى شىء. وهذه النظريات سليمة منطقيًا، لكنها جميعًا مسلوبة القوة. وربما يكمن الأمل العظيم فى تفسير نهائى فى اكتشاف منظومة من القوانين النهائية للطبيعة وإثبات أن هذه هى النظرية الوحيدة السليمة منطقيًا، والغنية بما يكفى مثلا لتسمح بوجودنا. وقد يحدث ذلك فى قرن أو اثنين، وساعتها أعتقد أن الفيزياء ستكون قد وصلت إلى منتهى حدود مقدرتها على التفسير. ■

من الطبيعى أن نقول بأن قوانين نيوتن تفسر قوانين كبلر. غير أن قوانين الجاذبية لنيوتن. تاريخيًا. قد تم استنتاجها من قوانين كبلر عن حركة الكواكب

هوامش

(١) هذه المقالة فى الأصل محاضرة ألقيت فى ملتقى حول «العلم وحدود التفسير» فى أمهرست فى الخريف الماضى.

(٢) يورد الفلاسفة مثالاً حول صعوبة تفسير الأحداث بواسطة الأسباب. لنفترض أننا اكتشفنا إصابة عمدة المدينة بشلل نصفى، فهل يمكن تفسير ذلك بكونه كان مريضًا بمرض الزهرى منذ بضع سنوات ولم يعالج منه فى حينه؟ والصعوبة التى تواجه هذا التفسير هى أن معظم الذين لم يعالجوا من الزهرى لا يصابون بالشلل النصفى. ولو قمت بمتابعة تسلسل الأحداث منذ إصابة العمدة بالزهرى وحتى إصابته بالشلل النصفى فستكتشف الكثير من الأمور التى لعبت دورًا رئيسًا: فقد يكون أحد الميكروبات المسببة للزهرى قد تطور بشكل أو بآخر، وقد يكون العمدة قد عانى من نقص فى الفيتامينات. من يعلم؟ ومع ذلك فلدينا شعور بديهى أن الزهرى الذى أصاب العمدة هو التفسير لإصابته بالشلل النصفى، وهو بالقطع الأمر المناسب سياسيًا.

(٣) لفت الأستاذ «هانكينسون .R.J» من جامعة تكساس انتباهى إلى مثال قديم من هذه التفسيرات يعود إلى «جالينوس». ولما كان «جالينوس» قد تناول الموضوع قبل «كوبيرنيكوس» ب ١٤٠٠ سنة، فقد كان معنيًا بتفسير موضع الشمس وليس الأرض (كانت الأرض هى مركز الكون فى نظرهم). يقارن جالينوس فى أحد أعماله «حول فائدة أجزاء الجسم» بين موضع الشمس وموضع قدم الإنسان فى طرف الساق. فكل من الشمس والقدم قد وضعها الخالق فى المكان الذى يجعل لها أعظم فائدة. ومع أن هذه التفسيرات اللاهوتية ليست من صميم العلم الحديث، إلا أن تشبيه «جالينوس» كان أعظم مما يتصور. فكما أن الأرض واحد من عدد مهول من الكواكب، تتحدد مسافاتها من نجومها بمحض الصدفة، فهكذا وضع القدم الذى جاء نتيجة عدد مهول من مصادفات الطفرات أثناء تطور أسلافنا من الفقاريات. فلو كان كائن ما قد وُضعت قدمه فى فمه، إذن لما نجا ليمرر جيناته لذريته، تمامًا مثل الكوكب الذى تكثف بالمصادفة قريبًا جدًا أو بعيدًا جدًا من نجمه فإنه لن يصبح بيتًا للفلاسفة.

عن مجلة :
The New York Review, May 31, 2001, pp 47-50

ترجمة : فتح الله الشيخ

عرائس جزائرية

زينب الميلى

تختلف الثقافات وتختلف الأزمنة.. وتبقى الدمية «العروسة» لعبة الأطفال الأولى فى الشرق والغرب وفى الماضى والحاضر وربما المستقبل. وهذه صفحات من كتاب يصدر قريبًا، وقد جاء الكتاب نتاج جهد كبير لصاحبته «زينب الميلى» امتد لسنوات عديدة جابت فيها بلدها الجزائر لتوثق بالقلم والصورة تراثًا فريدًا فى طريقه للاندثار.

المحرر

خيرة

مناطق كثيرة من الجزائر تسمى بناتها بهذا الاسم. وقد تسمى «أم الخير» أو أخويرة للتدليل.

يطلقون هذا الاسم تبركًا وتفاؤلا بأن تكون خيرة أو أم الخير مصدر خير للعائلة عسى أن يولد بعدها «على رأسها» ولد أو عدد من الذكور.

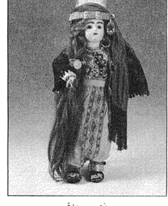
كما يتفاءلون بوفرة المحصول الزراعى عند إطلاق هذا الاسم: أو اسم «الخير» على الذكر.

هى عروسة قد تكون من الحضنة أو من الصحراء.

عادة تزيُّن أم الولد المختتن منتشرة هناك: ترتدى أم هذا المطهَّر كامل زينتها التى لبستها يوم عرسها، ما عدا «الذراية» أو «التغميزة»، كما يلبس الولد الذى سيختتن كامل لباس يوم الختان.

يعد مكان خاص فى الغرفة، تبسط فيه الزرابى والمرقوم.

تجلس أم «المختتن» ابنها فى حجرها، ولا تنهض أو تترك هذا الولد ينهض إلا حينما تسمع الزغرودة التى تطلقها الجدة إيذانا باقتراب مجىء «الطهار» والرجال.



زمـــــردة

يؤتى بقصعة من الخشب أو جفنة من الفخار وبها ماء بارد توضع فيه الرجل اليمنى لأم «المختتن» بعد أن ينزع منها فردة الخلخال. يقال إن ذلك يخفف عنها شدة الخوف على ولدها، ويبعد عنه شبح النزيف.

فخطر النزيف قائم، نظرًا للأساليب البدائية التى تستعمل فى الختان. لم يكونوا يعرفون تعقيم السكين، ومنهم من يستعمل الصوفة المحروقة والتى بها زبل وروث البقر، لوقف النزيف.

بمجرد وصول «الختان» تنزع رجل الأم من الماء، وتلبس لها فردة خلخالها، وتترك الغرفة ويسلم ابنها للطهَّار بحضور رجال الأسرة، وما أن ينتهى من عمله وتطلق زغرودة انتهاء «العملية» حتى تولم الوليمة ويأتى المدعوون ويتبرعون بالنقود للولد.

زمردة

اسم يطلق على البنت فى المناطق التى عرفت نزوحًا من الأندلس، خاصة بعد سقوط غرناطة.

تضع على رأسها منديلا، يسمونه محرمة، من الحرير التركوازى اللون. وتضع «تاجًا»، وهو نوع من الجبين عليه بصمات الأتراك. وهو يرمى على الجزء الخلفى من الرأس بطريقة تجعله يسترسل على الظهر مثل البخنوق. ويسمونه «عبروق» فى الشرق الجزائرى أو الترصيع، كما يسمى فى العاصمة وفى مليانة، أو الطرق حسب تسمية أهل الشام.

ترتدى بدعية، وهى جاكيت من القطيفة المطرّزة، ولها أكمام تختلف عن أكمام المناطق الأخرى، فهى مطرزة بنوع من الخرز يسمى السمسم تعود النازحون على استعماله مع اللون الأسود الذى يفضلونه غالبا على غيره من الألوان.

سروالها يشبه لحد بعيد السروال التركى، ومطرز بخيوط من الحرير على الساتان أو القطيفة. تنتعل حذاء يغلف بقماش القطيفة الأحمر غالبا، وهو نوع من الربحية يلبس يوم الزفاف.

شعر العروسة: لا يضفر غالبا، بل يترك منسابا، وغالبا يكون طويلا لأنه لم يعرف المقص. ولعل سبب ذلك ما يروى عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ التى أوصت النساء بشعرهن خيرًا. وتطويل الشعر والحرص على جماله موجود فى كل المناطق الجزائرية.

عبروقها صنعته من معدن الفضة، وطرزته على قماش التيلو القديم الذى كان موجودا قبل هجمة «النايلون والبليستار».

رسومه: استوحيتُها من رسوم قطع العبروق الذى كانت النسوة يصنعنه لبناتهن كما يتبرعن به للولى الصالح تنفيذا لنذر.

أغلب رسوم العبروق يتوسطها محراب، وبعض الرسوم الأخرى ما زالت موجودة عند النمامشه وميزاب، وجبال أعمور.. ويسمونها «كب وقعد».

مصوغها: يتكون، بالإضافة للجبين، من صيغة تلبسها العاصمية فى رقبتها، هى عبارة عن عقد يسمى «خيط الروح» لالتصاقه بالرقبة والعنق، فهو لا يلبس واسعًا، بل يكون على مقاس الرقبة بالضبط؛ ومن الناس عندنا من يطلق اسم الروح على العنق والرقبة.

لكن التقليد هنا أن خيط الروح هذا يلبس يوم الزفاف على الرأس، لذا نراه موضوعًا مع التاج.

فى أذنيها ترتدى نوعًا من الأقراط يسمونه بـ «لفلايك»، والفلوكة هى الزورق الصغير، ولعل هذه التسمية مأخوذة من شكلها المستطيل. صدرها تملؤه عقود مختلفة الأشكال والطول، علما بأن كل صيغتها مصنوعة من الذهب الخالص.

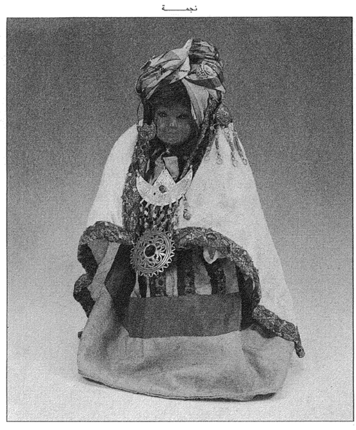
أعراس من الجزائر
زينب الميلى
القاهرة ـ دار الشروق (يصدر قريبا)



خيــــرة



نجمـــة



غـــوثيـــة



العـــارفـــة

اسم يطلق على البنات فى أولاد نايل، ويقصدون به أن حاملته عارفة بشئون النساء والرجال.

المرأة فى هذه المنطقة من الجزائر متحررة نسبيًا، كما هو الشأن فى أولاد عبدى بالأوراس.

مشطة شعرها تكاد تكون متميزة. تلوى شعرها وتجعله على شكل عش العصافير خاصة يوم الزفاف، ثم تضع عليه غطاء يسمح للشعر من الأمام بأن يكون بدون غطاء. ثم يزين بصيغة جميلة، ويكون لحبات من الزجاج الأخضر والأحمر والأزرق حضور كبير.

توضع فوق رأسها قطعة من قطن التيلو، وتدار تلك القطعة على رقبتها. عقدها يتكون من الفضة المختلفة الأشكال والأحجام. وبها أخرى على شكل حجاب، وأخرى لوضع التمائم، وأخرى من خرز أصفر خاص يشبه حبات العمبر الأصفر، إلا أنه خال من الرائحة يسمونه اللوبان الذكر. ويقال عن هذا اللوبان إن به مغناطيسًا خاصا يجذب الشعر ولا يتركه يتساقط على الملابس.

ملحفتها حسب الإمكانات المادية للعائلة، أحيانا من الحرير، وأخرى من الكتان، وفى الشتاء من الصوف. تمسكها كغيرها من الملاحف ذات التأثير الرومانى، تمسكها على الأكتاف بخلالات ومدور. ومن الأسفل بها زينة.

تتصرف البنت هنا قبل الزواج كما يحلو لها، لكن بعد الزواج لا يكلمونها ولو بكلمة بريئة مثل تحية الصباح، لأنها صارت «فى رقبة راجل»، اللهم إلا إذا كانوا من أعز وأصدق أصدقاء الزوج.

غـــوثيـــة

عروسة من وهران، اسمها لا أدرى أهو مأخوذ من كلمة الغوث والاستغاثة أم الغيث والمطر.

غطاء رأسها يختلف بعض الشىء عن غطاء المناطق الأخرى. «تعصب» رأسها بمناديل كغيرها من النساء، وبعد ذلك أى فى الأخير تأخذ محرمة ناعمة ومن لون مغاير للون المحارم الأخرى، تثنيها وتطبقها بحيث تكون أعرض بعض الشىء من عرض الشريط العريض، وتضعها كـ«تقريطة» فوق المحارم الأخرى، وتجعل عقدتها من الخلف، وتتركها مسترسلة من الخلف والظهر أيضا.

ترتدى فى أذنيها أقراطا يسمونها بـ«لونايس»، وهو اسم مأخوذ من أيام الشدة، أى حينما تباع للضرورة تؤنس وحدة صاحبتها ولا تهرب عنها الصواحب. ثم إن الأقراط تؤنس الخد. هاته العروسة هى الوحيدة التى تكون ملابسها من القماش «الدانتيل»، ربما لقربها من إسبانيا المشهورة بصنعه. تلبس يوم عرسها اللون الوردى؛ وترتدى تحت هذا الفستان كغيرها من نساء المدن قميصًا داخليًا أبيض اللون هو قميص ليلة الدخلة؛ بياضه يبين حمرة دم البكارة. فى جيدها سلسال خاص وعريض تتدلى منه قطعتان من الذهب تشبه بعض الشىء «قالونات العساكر»، يسمونه فى وهران صيغة «كرفاش بولحية».

فى يديها ترتدى أساور من ذهب، فالفضة عندها غير محببة.

نجـــمـــة

اسم نجمة كثير الاستعمال فى الجزائر، وعند أهل الصحراء خاصة.

معروف عن البدوى أنه يتقن الاهتداء بالنجوم دون دراسة لها. أى يتعلم ذلك من المشاهدة وما يسمعه من تجارب الأولين.

يهتدى فى سيره بها. وإذا طرق بابه ليلا ضيف ينادى طالبا للاستضافة: «ضيف النبى»، لا يجيبه صاحب البيت بشىء قبل أن يرفع رأسه للسماء، فإن ظهرت به نجمة (أظن أنها نجمة الصبح) يسمونها هم «نجمة أيّس أى إياس» يرد على طالب الضيافة، لقد طلعت عليك نجمة أيس. آنذاك يواصل الضيف سيره.

يستمد الجزائرى بعض أسماء البنات من السماء: نجمة، ثريا، شقت، ضوت، الضاوية، ضياء، شمسة، قمرة إلخ..

نجمتنا عروسة من ورقلة يحمل رأسها عدة محارم من الحرير الزاهى اللون، فيقال «عروسة معكسة ومشلوشة» بالمحارم، تتدلى من أذنيها أقراط من فضة مزركشة تزينها حبيبات أسفل القرط. كما تزين رأسها بنواش من الفضة به مرجان.

تحلى جيدها بعدة عقود يتوسطها هلال به حجرة حمراء، وأخرى بها حرز، ملحفتها من كتان برتقالى اللون وبه تقاليم زرقاء من الحرير تحتوى على حميلة، مما يدل على أن عائلتها ميسورة الحال.

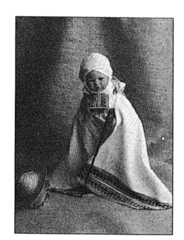
بخنوقها مصنوع من الصوف الأبيض الناعم وبه تطريز وزركشة من خيطان الحرير والصوف.

بـــوقـــرة

اسم يطلق على الوليد الذى يولد أيام القر الشديد، والبرد القارس المصحوب برياح باردة مع تساقط الثلوج بكثرة.

فى الشرق الجزائرى عامة وفى الأوراس والنمامشة خاصة، الولد الذى يولد فى أيام البرد الشديد هذه يسمونه بوقرة. أما إن كان المولود بنتا فلا تحمل هذا الاسم، بل يسمونها باسم ثلجة. وإن كان الموسم موسم مطر يسمونها نوة، تبركًا بأن تكون السنة خصبة.

قميــــــــر



بوقـــــرة

بوقــرة هذا يرتدى برنوســا أبيض، وبه زيقـات «تقليمـات» من تحت، أى على جناحى البرنوس، وكذلك على «التصديرة».

البربر بصفة عامة لا يسمون البرنوس برنوسًا إذا لم تكن به ممطرة لتحمى الرأس من رذاذ المطر على رأسه، ويسمونها: طربوشة، وفى مناطق أخرى يسمونها «قلمونة».

وجود المظلة معه وكذلك عصاته يدل على أنه ابن عائلة تحترف رعى الغنم والماعز.

«فالسارح» ـ كما يسمونه فى هذه المنطقة ـ مضطر إلى الاحتماء بالمظلة التى يضعها فوق رأسه، وهم يصنعونها من الحلفاء أو الخزف لترد عنهم ضربات الشمس القاسية. يضعون لها «مشدا» يسمونه «العلاج» ليثبت المظلة على الرأس حتى لا تاخذها الرياح بعيدًا عن رأسه.

قـــــمـــــيـــــر

عروسة من عين البيضاء، وهذا الاسم مأخوذ من اسم قمرة، وللتدليل والتصغير يسمونها قمير.

فوق رأسها تضع تعصيبة تكون من الحرير الناعم، ويسمونها محرمة شامية، ربما نسبة للمناديل التى تصنع فى الشام.

تضع خرصا يسمى المشرف. وهم فى هذه المنطقة يلبسون الذهب والفضة؛ فهو حسب إمكانات العائلة: إما يكون من الفضة المغطوسة فى الذهب، وإما يكون من الذهب أو من الفضة.

عقدها يحتوى على حبات من المرجان، وخامسات من الذهب أو الفضة. وهو طويل، يصل أحيانا طوله إلى السرة.

ترتدى القندورة من قماش يسمونه حرير التيرى تيرى، ومطرز بخيوط من الفضة، وله ثقوب آخذة أشكالا متناسقة. دون شك هاته التسمية آتية من الكلمة الفرنسية تيرى تيرى، أى اقتل اقتل، يعنى جمالها يقتلنى.

أكمامها من حرير ناعم، يسمونه حرير الماء لشدة شفافيته.

أساورها يسمونها النبيلة أو المقياس.

قدماها وكذلك يداها مخضبة بحنة العرس، وفى رجليها ترتدى خلخالا يسمونه الرديف.

راسها وظهرها مغطى بعبروق مطرز بالفضة، وبعض رسومه أخذت من رسوم السجاد، وأخرى من عبروق مناطق أخرى. ■



لماذا اغتنت أمم

صنع الله إبراهيم

في منتصف الستينيات ترجم «عبد العظيم أنيس» كتاب «بنوك وباشوات» Bankers and Pashas لأستاذ التاريخ والاقتصاد الأمريكي «دافيد لاندز» (نشرته دار المعارف سنة ١٩٦٦)، عندما لاحظ تفرده بين الكتب الغربية التي تناولت تاريخ مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فهذه الكتب، باستثناء كتاب (تيودور روزشتاين) «خراب مصر»، حفلت أساسًا بالجانب السياسي وبالدور الشخصي للحكام، دون الجانب الاقتصادي. أما «لاندز»، فقد استخدم الأرشيف السري لمراسلات اثنين من كبار الممولين الفرنسيين قاعدة لرسالته من أجل نيل الدكتوراه، التي نشرها بعد تأميم قناة السويس ١٩٥٦ بسنتين، وفضح فيها أعمال النهب التي قامت بها شركة قناة السويس والممولون الإنجليز والفرنسيون والألمان والنمساويون واليونانيون لخزانة مصر وفلاحيها، والأساليب الماكرة التي التجأوا إليها لدفع البلاد إلى هاوية الإفلاس ثم الرقابة الثنائية حتى مؤامرة الاحتلال البريطاني.

لكن «لاندز» لم يكن ذلك المؤرخ الموضوعي الذي ينحاز إلى جانب الحقيقة انحيازًا مطلقًا. فهو يقول في نهاية الكتاب: « كان معظم الأوروبيين في مصر يعيشون وفقًا للمبادئ.. غير أن الجميع كانوا متفقين على أن المجتمع المصري متخلف.. وأن مقاييس السلوك المقبولة في أوروبا ـ قيم الأمانة والتعامل العادل والتعقل.. إلخ. التي تشكل على الأقل المبدأ في العلاقات الاجتماعية والمالية في الغرب ـ ينبغي أن تعدل حتى تناسب ظروف هذه البيئة الغريبة ».

وقد لاحظ «عبد العظيم أنيس» بحق في تقديمه لترجمة الكتاب «أن المؤلف، رغم كل منهجه العلمي وعرضه الصريح وأمانته التاريخية، لم يبرأ من تأثير الدعاية الاستعمارية». ولعل هذا التعليق هو أخف ما يمكن قوله اليوم بشأن كتابه الأخير، الذي نعرضه هنا.



ينتمي كتاب « ثروة الأمم وفقرها» الذي جاء في ٦٥٠ صفحة مستندًا إلى أكثر من ١٥٠٠ مرجع، إلى تلك المحاولات الموسوعية التي ميزت كتابة التاريخ في النصف الثاني من القرن العشرين. فبعد انحسار التيار الوصفي، الذي قام على سرد الأحداث، بدأ البحث عن تفسير لها لا يقتصر على دور الشخصيات وإنما يتعداه إلى رؤية شاملة للتطور. وقاد هذا المسعى إلى الانفتاح على العلوم الأخرى وفي مقدمتها الاقتصاد وعلم النفس والتكنولوجيا بل والبيولوجيا .وتجلى هذا الاتجاه في أعمال رائدة «لأرنولد توينبي» و«هاوبسباوم» الإنجليزيين و«برودويل» الفرنسي. والواقع أن كتاب لاندز الأخير يتقاطع في أكثر من موضع مع مجلد برودويل الضخم عن الحضارة المادية. وهو يحاول أن يجيب عن سؤال رئيسي: لماذا اغتنت بعض الأمم وافتقرت غيرها؟

ومنذ البداية يحاول المؤلف التقليل من أثر النهب الاستعماري في هذا التباين بين مصائر الأمم. بل ويقطع بأن الاقتصاديات الأوروبية لم تكسب على الإطلاق من المستعمرات. ولا يمل من اتهام المعادين للإمبريالية والرأسمالية والعنصرية والرق (ويسمى على رأسهم إدوارد سعيد وسمير أمين ونعوم شومسكي و حليم بركات) بأنهم «اعتذاريون». وإذا كان يعترف أحيانا كثيرة بآثام النظام الغربي في حق بقية الشعوب، فإنه لا يلبث أن يتملص من نتائج هذا الاعتراف. فمستوطنو الجزائر الفرنسيون كانوا أبرياء لأنهم أحبوا شعبها وطبيعتها وصدموا عندما ووُجهوا بالكراهية من جانب الوطنيين! والهولنديون والإنجليز كانوا يسعون إلى التبادل لا الاحتلال لكنهم رفضوا أن يتعرضوا للسرقة والاستغلال بواسطة التجار والرسميين المحليين، وعندما واجهوا المتاعب طلبوا العون من حكوماتهم ونماذج التنمية المستقلة «دون كيخوتية».

ورغم أنه زار مصر عدة مرات أثناء إعداد كتابه الأول بعد ذلك، ويعرف الكثير عن تاريخها وحاضرها ،فإنه يتجنب بالمرة الإشارة إلى المشروع الناصري والعدوان الإسرائيلي الذي أجهضه. ولا تجد على طول مئات الصفحات، التي تعرضت بالتفصيل للإمبرياليات الأوروبية، أية إشارة ولو عابرة للإمبريالية الأمريكية، ربما لأنه يعتبر أن ظاهرة الإمبريالية تلاشت في النصف الثاني من القرن العشرين. ولن تجد كلمة واحدة عن فيتنام ، التي استنزفها الفرنسيون ودمرها الأمريكيون. الأمر نفسه بالنسبة للاستيطان اليهودي ودوره في تعطيل تنمية الشرق الأوسط فهو لايشير إلى إسرائيل إلا مرة واحدة عندما يقول عن العرب: «لو لم تكن إسرائيل موجودة لأمسكوا برقاب بعضهم البعض».

والحقيقة أن هناك خيطاً رفيعاً يمتد على طول الكتاب يثير الظنون. فهو يستهل سطره الأول بواقعة موت «ناثان روتشيلد»، أغنى رجل في العالم سنة ١٨٣٦ بسبب التهاب بسيط في قاعدة العمود الفقري، ثم يفيض في الحديث عن دور اليهود في تأسيس الحضارة الغربية، وكيف أن مفهوم الملكية الفردية يعود إلى العصور التوراتية وانتقل منها إلى التعاليم المسيحية، وأن عداء اليهود للأوتوقراطية تشكل في مصر والصحراء حيث دافع «موسى» عن نفسه قائلا إنه لم يأخذ حماراً واحداً من أحد ولم يؤذ أحداً. وأن هذا التقليد هو الذي ميَّز الإسرائيليين عن بقية الممالك المحيطة بهم وبالتأكيد أكسبهم عداء حكامها!! وأن اضطهادهم على يد الأسبان هو أحد عوامل انهيار إمبراطوريته الأخيرتين. وعندما يذكر عرضًا ضحايا الحرب العالمية الثانية لا يلبث أن ينوه، دون ضرورة يفرضها السياق، بأن بينهم ستة ملايين يهودي، ذلك الرقم العتيد موضع الخلاف.



وربما يتصل بذلك عدم دقته في استخدام مصطلح «الإسلام». يقول مثلا: «إن خطأ الإسلام الأكبر كان في رفض المطبعة التي رأى فيها أداة محتملة للكفر والإلحاد». ولو صح هذا لكان خطأ. لكن الإسلام في الحقيقة لا شأن له بذلك. فهو الدين الذي كان أمر القراءة أول التعاليم التي جاء بها. العثمانيون هم الذين ارتكبوا هذه الجريمة في زمان ومكان معينين.

كل ذلك لا يقلل من أهمية الكتاب لمن يحاول تكوين نظرة شاملة للتاريخ وتحليل اللحظة الراهنة في مسيرة البشرية. فهو حافل



لا تجد على طول مئات الصفحات، التي تعرضت بالتفصيل للإمبرياليات الأوروبية، أية إشارة ولو عابرة للإمبريالية الأمريكية، ربما لأنه يعتبر أن ظاهرة الإمبريالية تلاشت في النصف الثاني من القرن العشرين. ولن تجد كلمة واحدة عن فيتنام ، مثلا ، التي شكل كفاحها ضد الفرنسيين ثم الأمريكيين أحد أهم تطورات نصف القرن الماضي. الأمر نفسه بالنسبة للاستيطان اليهودي ودوره في تعطيل تنمية الشرق الأوسط



نحن نعيش في عالم
من عدم المساواة مقسم إلى ثلاثة
أنواع من الأمم: الذين ينفقون
كثيرا على محاولة تخفيض أوزانهم،
ومن يأكلون ليعيشوا ،
ومن لا يعرفون مصدر
الوجبة التالية



The Wealth and Poverty Of Nations
(ثروة الأمم وفقرها)
by David Landes,
w.w.Norton.1998.

بكثير من المقارنات واللمحات المهمة والذكية بخصوص محركات التقدم، والعوامل الذاتية في دوام التخلف. وفي هذا الجانب الأخير تكمن أجل فائدة له.

الفجوة الهائلة:

كان «ناتان روتشيلد» عند وفاته في التاسعة والخمسين من عمره. ولأن المضادات الحيوية لم تكن قد توفرت بعد ولا حتى مضادات الجراثيم والبكتريا مات الرجل، الذي يستطيع شراء أي شيء، من جراء إصابة عادية يمكن اليوم شفاؤها بزيارة بسيطة إلى أي صيدلية. الحكمة أن الطب حقق تقدما هائلا منذ عصر «ناتان» لكن الأهم هو ما تحقق من تقدم على صعيد الوقاية وخاصة الحياة النظيفة. وكان للصناعة الفضل في ذلك باختراعها للقماش القطني الرخيص القابل للغسل الذي حل محل صوف نادرا ما كان لابسوه يغسلونه فضلا عن أن تنظيفه جيداً أمر صعب. ومع القماش القطني الإنتاج الواسع للصابون المصنوع من الزيوت النباتية. ولأول مرة تمكن الرجل العادي من لبس الملابس الداخلية التي كانت حكرا على الأغنياء إذ صار باستطاعته أو استطاعتها أن تغسلها بالصابون بل وتستحم أيضا رغم أن كثرة الاستحمام كانت تعتبر في أوروبا علامة على القذارة.

العامل الثالث في انخفاض المرض والوفيات هو التغذية الأفضل. وكل هذا التقدم نبع من مكاسب تطبيق العلم والمعرفة على التكنولوجيا الأمر الذي يعطي الأمل في المستقبل لولا أن ثمار المعرفة لم توزع بشكل عادل، حتى بين الأمم الغنية. فنحن نعيش في عالم من عدم المساواة مقسم إلى ثلاثة أنواع من الأمم: الذين ينفقون كثيرا على محاولة تخفيض أوزانهم، ومن يأكلون ليعيشوا، ومن لا يعرفون مصدر الوجبة التالية.

إن الفارق في الدخل اليوم بالنسبة للفرد بينه في أغنى أمة صناعية مثل سويسرا وبينه في أفقر أمة غير صناعية مثل موزمبيق هو ٤٠٠ : ١. ومنذ قرنين ونصف قرن كانت الفجوة بين أغنى البلاد وأفقرها ١:٥ وبين أوروبا وشرق آسيا أو جنوبها حوالي ١:٢.

كيف يمكن تقصير هذه الفجوة؟ فكر آخرون في هذه الأمور وقدموا إجابات متنوعة، وانقسم أغلبهم إلى مدرستين، فيقول الأوروبيون: نحن أشطر وأفضل تنظيماً وأكثر إقبالاً على العمل، أما الآخرون فهم جهلة متعالون، كسولون ومتخلفون يؤمنون بالخرافات. المدرسة الثانية تقلب الأمر: الأوروبيون عدوانيون، لا يرحمون، شرهون، طماعون، معدومو الضمير، منافقون. وسنرى كيف أن هناك نصيباً من الصحة في كل من النظرتين.

ولطالما ربط الفلاسفة بسهولة بين البيئة والمزاج الشخصي (البارد والساخن، التدبر الرصين والفوران الباحث عن المتعة) ووزعوا الفضائل طبقا لذلك، إلى أن انقلبت الآية وأصبح أنصار الأفروأمريكية السود يفرقون بين شعوب الشمس الخلاقين السعداء وشعوب الثلج الباردين غير الإنسانيين. هكذا تلوثت الجغرافيا البشرية بالعنصرية مما أدى إلى هزيمتها واختفائها من أقسام الجامعات الأمريكية.

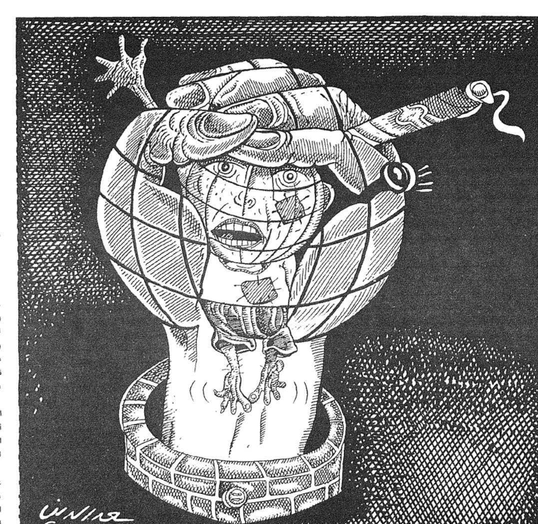
لكن حقائق الجغرافيا لا يمكن إنكارها. فعلى خريطة للعالم عن الإنتاج أو الدخل بالنسبة للفرد سنجد البلاد الغنية واقعة في مناطق معتدلة وخاصة في النصف الشمالي والبلاد الفقيرة في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية. ولا يمكن إنكار التأثيرات المباشرة للبيئة مثل المناخ والمياه إلى آخره على مصائر البلدان. لكن المؤكد أن هناك عوامل أخرى أدت إلى هذا الوضع.

فقد أعطت الجغرافيا لأوروبا الغربية رياحا دافئة وأمطاراً خفيفة ومياها دائمة ومعدلات تبخر منخفضة أي مجموعة العوامل التي تؤدي إلى جودة المحاصيل وتربية الماشية ونمو غابات الخشب الثقيل. لماذا إذن تخلفت أوروبا عن النمو عدة آلاف من السنين بعد مصر وسومر؟ الإجابة مرة أخرى هي الجغرافيا.

مكنت الظروف الطبيعية المواتية الأوروبيين من تربية الماشية دون أن يضطروا إلى الانتقال بعيداً بحثاً عن المرعى. والنتيجة حيوانات أكبر حجماً وأقوى على عكس حيوانات الاستبس والصحراء. مما أعطى ميزة لفرسان «شارل مارتل» سنة ٧٣٢ على الفرسان العرب في فرنسا وأوقف التوسع الإسلامي نحو الغرب. وبعد أربعمائة سنة كانت هذه الميزة نفسها سبباً في نهاية مملكة الصليبيين في القدس على يد صلاح الدين، بجياده ضئيلة الحجم خفيفة الحركة.

لكن الأوروبيين ربحوا على المدى البعيد. فالحيوانات كبيرة الحجم تعني ميزة في العمل الشاق والنقل كما تعني مخصبات أكثر للأرض وزراعة أكثر كثافة وبالتالي طعاماً أوفر وأخيرا إنساناً أطول وأقوى لا يعاني من الأوبئة التي تفشت في الصين والهند.

... وافتقرت أخرى؟



وماذا عن الصين؟ لقد كانت أكثر رواد النمو نجاحاً. فمنذ عدة آلاف من السنين تبين رؤساؤهم العلاقة بين «العدد والغذاء والقوة». وتجلت حنكتهم السياسية من تعبئة الزراع المحتملين وزرعهم في الأراضي الصالحة للزراعة وتخزين الحبوب لإطعام جيوش المستقبل. ولهذا صار من الضروري حفر القنوات لتوفير مياه الري ووسيلة نقل الحبوب. وأدى ذلك إلى اكتشاف الأرز. وعندما حل القرن الخامس الميلادي كان الصينيون قد حققوا ثورة زراعية وحلت ثورة ثانية بين القرنين الثامن والثالث عشر إذ ضاعفوا إنتاج الأرز عدة مرات اعتمادا على قوة العمل البشري لا على الأرض. وأصبحت الصين القوة الزراعية الأولى في العالم بمنافس وحيد محتمل هو الهند.

كان للاعتماد شبه الكامل على الأرز نتائج حسنة وسيئة على صعيد التغذية والأمراض. وعلى التاريخ الصيني كله. فلم يجد الصينيون حاجة لاستخدام العبيد الأجانب ومن ناحية أخرى تطلبت إدارة المياه سلطة مركزية وهو الأمر الذي لاحظه «مونتسكيو» ثم «هيجل» و«ماركس» وأسماه «فيتفوجل» بالاستبداد الشرقي.

من المؤكد أن أوروبا كانت محظوظة. لكن الحظ ليس إلا بداية. من يتأمل التاريخ منذ ألف سنة لن يتنبأ أبداً بمصير عظيم لهذه الرقعة من الطرف الغربي للبسيطة الأوراسية.

في القرن العاشر كانت أوروبا خارجة من عذاب طويل من الغزو والنهب على يد أعداء من كل جانب، من الفايكنج إلى المغاربة المسلمين. وبمرور الزمن استقرت القبائل الشمالية والمجرية وحلت

لماذا اغتنت أمم وافتقرت أخرى

إن الفارق فى الدخل اليوم بالنسبة للفرد بينه فى أغنى أمة صناعية مثل سويسرا وبينه فى أفقر أمة غير صناعية مثل موزمبيق هو ٤٠٠ :١. ومنذ قرنين ونصف قرن كانت الفجوة بين أغنى البلاد وأفقرها ١:٥ وبين أوروبا وشرق آسيا أو جنوبها حوالى ١:٢

الممالك محل مخيمات الرحل الحربية. وبدأت أوروبا طريق النمو والتطور الذى اتخذ طريقا مختلفا عن بقية الحضارات: حضارة الاستبداد الشرقى الفارسية مثلا وحضارة «الديموقراطية» اليونانية.

وظهرت فى أوروبا المدينة شبه المستقلة ذاتيًا التى لم يظهر مثلها خارج أوروبا الغربية بالرغم من انتشار المدن فى بقاع العالم. وتميزت بانها حكومات تجار وقادرة على فرض الوضع الاجتماعى والهوية السياسية لمواطنيها. وهى حقوق جوهرية لممارسة النشاط التجارى وللتحرر من أى تدخل خارجى. الأمر الذى جعلها بوابة للحرية وثقبًا فى نسيج القناة السائد فى الريف.

وكان من حظ أوروبا أن سقطت روما وانفصل العلمانى عن الدينى. فأفلتت من السيطرة على الفكر التى كانت لعنة فى الإسلام. أما الصين فكانت مجتمعًا يتسم بالثبات، وجعلها إحساسها بالاكتمال والتفوق معادية لكل معرفة خارجية مهما كان نفعها.

تمتعت أوروبا بميزة أخرى هى لا مركزية السلطة مما جعلها آمنة من غزو الضربة الواحدة. وابتداء من القرن الحادى عشر عرفت فترة طويلة من الزيادة السكانية والنمو الاقتصادى حتى منتصف القرن الرابع عشر عندما اجتاحها الطاعون الذى التهم نصف السكان. لكن القرن ونصف القرن التاليين شهدا إعادة بناء وتقدمًا تكنولوجيًا ثم شعورًا بالقوة أدى إلى بدء الاستكشافات وغزوات ما وراء البحار. استند هذا التطور إلى ثورة اقتصادية لم يشهدها العالم منذ العصر النيوليثى بين ٨٠٠ و٣٠٠٠ قبل الميلاد الذى اخترعت فيه الزراعة واستئناس الماشية، أى مصادر الطاقة. بالمثل كانت ثورة العصور الوسطى الاقتصادية: التجديد فى تقنية الزراعة باستخدام محراث العجلة ذى الشفرة الحديدية العميقة. وسرعان ما انجرت السلسلة: طاحونة الهواء التى أوجدت هولندة، طوائف التجار والحرف التى منعت تنافس السوق ثم تقسيم العمل وأخيرا تدهور قيود نظام الطوائف.

تحقق التوسع الاقتصادى لأوروبا العصور الوسطى بفضل سلسلة من التجديدات والتنظيمات جاء أغلبها من أسفل. واخترعت جماعة التجار أشكالاً جديدة من الارتباط والتعاقد وتبادل الاستثمارات وضماناتها وتسهيلات الدفع. لقد ولد عالم «آدم سميث» قبل عصره بخمسة قرون.

اختراع الاختراع:

عندما كتب «آدم سميث» عن هذه الأمور فى القرن الثامن عشر أشار إلى أن تقسيم العمل وتوسيع السوق شجعا على الابتكار التكنولوجى. وهذا ما حدث فعلا فى عصور أوروبا الوسطى، أكثر العصور ابتداعًا فى التاريخ على عكس الفكرة السائدة عن هذه الفترة كفاصل مظلم بين عظمة روما وتألق عصر النهضة. ويمكن التدليل على ذلك بأمثلة قليلة: العجلة المائية، النظارة التى ضاعفت العمر الإنتاجى للحرفيين المهرة ومكنت من ابتكار الأدوات الدقيقة، الساعة الميكانيكية، الطباعة، البارود الذى حصل عليه الأوروبيون من الصين فى نهاية القرن الثالث عشر.



لقد استوعب الإسلام وطور منجزات الشعوب التى غزاها. وحتى ١١٠٠ م كان العلم والتكنولوجيا الإسلاميان متفوقين إلى أقصى مدى على أوروبا. كان الإسلام معلم أوروبا. ثم حدث خطأ. هوجم العلم الإسلامى بواسطة المتشددين وانحنى أمامهم. وعندما غزا المسلمون فارس فى ٦٣٧ وصادفوا كمية هائلة من الكتب والمؤلفات العلمية كتب «سعد بن أبى وقاص» إلى «عمر بن الخطاب» «يسأله السماح بتوزيعها على المسلمين بين الغنائم. ورد عليه عمر يأمره بإلقائها فى النهر.

طوال خمسة قرون كتب أعظم علماء العالم باللغة العربية، لكن هذا الازدهار لم يساهم فى التطور البطىء الذى تميزت به التكنولوجيا فى الإسلام. والحضارة الوحيدة التى كان بوسعها تجاوز الإنجاز الأوروبى هى الصين. لكنها عجزت عن ذلك بسبب غياب السوق الحرة وحقوق الملكية وبسبب القيم الكبرى للمجتمع (استبعاد النساء من سوق العمل). أما أوروبا فقد عرفت لذة البحث، لذة الجديد والابتداع. وكانت لذلك أسباب:

- الاحترام اليهودى المسيحى للعمل اليدوى «فالله لم ينقذ نوحا إنما أمره بأن يبنى لنفسه سفينة».
- الإجماع اليهودى المسيحى على إخضاع الطبيعة للإنسان(!!)
- الإدراك اليهودى المسيحى للزمن الخطى الذى يتقدم أو يتراجع بينما ظنته مجتمعات أخرى دائريًا يعود إلى المراحل الأولى ليبدأ من جديد.
- السوق.

الافتتاح العظيم:

بينما كان العالم سنة ١٩٩٢ يستعد للاحتفال بالعيد الخمسمائة لاكتشاف أمريكا على يد «كولومبوس»، ضاعت البهجة. فالرجل الذى كان رمزًا لإنجاز تاريخى وولادة عالم جديد أصبح مصدرًا للحرج السياسى. ذلك أن الكثيرين لم يروا فى أدميرال البحار بطلاً و لا فى وصول الأوروبيين إلى العالم الجديد اكتشافًا يستحق الاحتفال بذكراه.

يحتوى الهجوم على كثير من الحقيقة وكثير من الهراء. جانب الحقيقة يتمثل فى المصير التعس للشعوب المحلية (٢٥ مليون نسمة) التى عوملت بوحشية وسادية وأزيل تسعة أعشارها من الوجود بالميكروبات والفيروسات التى أحضرها الأوروبيون معهم دون دراية. وجرد الباقون من أراضيهم وثقافتهم وكرامتهم.

الهراء فى أسئلة من نوع: العالم الجديد كان موجوداً دائما فكيف يمكن أن يكتشفه كولومبوس؟ الأهالى المحليون هم الذين اكتشفوا أراضيهم من زمن بعيد عندما عبر الآسيويون إلى أمريكا الشمالية. ما حدث فى عام ١٤٩٢ هو أن الشعوب المحلية هى التى اكتشفت كولومبوس.

بالطبع اكتشفوه كما اكتشفهم. فاللقاء يتم بين جانبين. لكن الحملة على الأوروبيين هى قضية سياسية الهدف منها خلق الشعور بالذنب واستثارة الضمائر وتبرير طلب التعويضات. والأفضل أن نسأل: ماذا حدث ولماذا؟

هناك قانون للعلاقات السياسية: عندما تشعر مجموعة من الأمم بأنها قوية لدرجة تكفى لفرض نفوذها على مجموعة أخرى وتحقيق المكاسب من ذلك لا تتورع عن ممارسة قوتها. وإذا لم تفعل قامت شركاتها وأفرادها بالمهمة.

الإمبريالية إذن تعبر عن نزوع بشرى عميق. هكذا تحولت أوروبا بعد قرون من الاضطهاد والقمع والذبح على يد الغزاة إلى الهجوم ابتداء من القرن الحادى عشر وتحت راية الدين فى البداية. هُزمت الحضارة وانتصرت القوة. ففى ١٢٣٦ سقطت قرطبة التى كانت أعظم مركز تعليمى فى أوروبا وتبعتها إشبيلية عاصمة الأندلس الاقتصادية الكبرى وأخيرًا غرناطة فى ١٤٩٢. وتواصلت نزعة الغزو وتشابكت مع الغنائم: الذهب والتوابل والحرير الصينى. وهى بضاعة كان التجار المسلمون يسيطرون عليها.

أراد كولومبوس الذهاب إلى آسيا عن طريق الغرب. لكنه عثر على عالم جديد.. شعوب عارية ما زالت تعيش فى العصر الحجرى. لكنه لم يجد ذهبا أو حريراً أو توابل وكى لا يفقد استمرار اهتمام البلاط الأسبانى بدعم رحلاته أكد لهم أن العالم الجديد صالح لمزارع قصب السكر وتربية الماشية، وبدأ إحلال الماشية محل البشر وجلب العبيد من أفريقيا للعمل فى مزارع السكر.

سُرعت عملية إفراغ الأرض من السكان المحليين بالمذابح والقسوة البربرية والقنوط. كان الأسبان يبقرون بطون الحوامل ويتراهنون على من يستطيع فصل الجسد من وسطه بضربة سيف واحدة، ويحطمون رؤوس الأطفال على الصخور ويحرقون الناس أحياء باسم المسيح ورسله. هؤلاء الضحايا هم الذين وصفهم كولومبوس بأنهم «أبرياء» أعطونا كل ما لديهم.. ولا يرغبون فى ممتلكات الآخرين. اطلب منهم أى شىء فيقدمونه لك بل ويطلبون منك أن تأخذ ما تشاء». هؤلاء كان القنوط يدفعهم إلى الانتحار ووأد الأطفال بل وتجنب العلاقات الجنسية لتلافى الإنجاب.

ما نوع هؤلاء البشر، الأسبان؟ الإجابة فى الاختيار الاجتماعى والتاريخ. من ناحية اجتذب نوع المغامرات المنتظرة فى العالم الجديد أكثر أفراد المجتمع الأسبانى إقدامًا وجوعًا ولؤمًا. ويضيف «تودوروف»: «ليس فى بربرية الأسبان شىء بدائى أو حيوانى، إنها الطبيعة الإنسانية تماما التى أعلنت مقدم العصر الحديث».



بعد كولومبوس جاء «كورتيز» الذى قضى على امبراطورية «الأزتيك». لكن هذه الامبراطورية انهارت لأسباب أعمق. كانت بناء هشًا ساده الطغيان ومزقته النزاعات وأوشك على الانهيار قبل أن يصل الأسبان بالسيوف والخناجر الأكثر فعالية من هراوات الأزتيك ومقالعهم. فضلا عن الميكروبات والجرائم.

وأضعف من مقاومة الأزتيك قيادة مترددة، إذ حار الامبراطور «موكتزوما» طويلا فى تحديد طبيعة الغزاة: هل هم بشر أم آلهة؟ وتكررت نفس القصة مع امبراطورية الإنكا التى كانت أكبر امبراطوريات العالم الجديد وتمتد ٤٠٠٠ كيلومتر، لكنها لا تعرف العجلة أو السفينة.

أما التوسع التجارى والسياسى الأوروبى فى المحيط الهندى وشرق آسيا فتولاه البرتغاليون. الأمر الذى يجعلنا نتساءل: ماذا لو لم يكن القرن السادس عشر فترة فوضى وتشوش سياسى فى آسيا، وحروب فى الهند بين الولايات المحلية والغزاة التركمان، وعزلة صينية؟

بين عامى ١٤٠٥ و١٤٣١ أرسلت الصين سبع رحلات بحرية لاستكشاف مياه إندونيسيا والمحيط الهندى بسفن تجاوزت فى روعتها وضخامتها الأساطيل البرتغالية التى جاءت بعد ذلك. لكن هذه الرحلات لم تتمخض عن شىء. ففى ١٤٣٠ استلم

الامبراطور الجديد لضغط الكونفوشيوسيين الذين كانوا يحتقرون التجارة ويعتبرون الزراعة المصدر الحقيقى الوحيد للثروة. كما أن الخزانة كانت تعانى من تكلفة نقل العاصمة إلى بكين وبناء سور جديد للمدينة وقصر فخم من ألف غرفة. فما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كان من يبنى سفينة بأكثر من شراعين يتعرض لعقوبة الموت. وبعدها بربع قرن خُولت سلطات الشواطئ تدمير أى سفينة تخرج إلى المحيط والقبض على أصحابها.

هذا التخلى عن برنامج الرحلات العظمى كان جزءا من سياسة انغلاق ونقطة تحول كبرى فى التاريخ الصينى. لماذا حدث هذا؟ لأن الصينيين كانوا يفتقرون إلى الفضول. وعلى عكس الأوروبيين لم يحركهم الجشع أو العاطفة . أصبحت العزلة هى الصين.

السكر والعبيد:

كان الصليبيون قد اكتشفوا عندما استولوا على قبرص أن صناعة السكر العربية تعتمد على عمل العبيد المجلوبين من شرق أفريقيا. ولما كان من غير الممكن استرقاق المسيحيين فإن السود متوفرون. فهناك شك فى أنهم من البشر أصلا ولديهم أرواح يمكن استخدامهم إذن لكن بعيداً عن أوروبا. فى مزارع السكر بالعالم الجديد.

جُلب العبيد الأفريقيون بعشرات الألوف، وبلغ عددهم عشرة ملايين على مدى ثلاثة قرون. ذلك غير من ماتوا فى الطريق من لحظة الاختطاف ويقدر عددهم بخمسة ملايين أخرى.

وقد نوقش طويلا دور زراعة قصب السكر فى نمو الاقتصاد الأطلنطى وتصنيع أوروبا. قيل إن أرباح تجارة العبيد واستغلال عملهم روت حديقة الرأسمالية الناشئة. وأصبحت بريطانيا بالذات أول أمة صناعية ترتفع فوق ظهور عبيدها السود التى مزقتها السياط. لكن هل كانت الثورة الصناعية ستجهض لو لم تعتمد على عمل العبيد؟ لا.. لأن التغيرات الجوهرية فى الطاقة (الفحم والبخار) والتعدين تمت بمعزل عن النظام الأطلنطى (السكر والعبيد) وكان هذا أيضاً شأن محاولة مكننة نسج الصوف.

كانت الصناعة ستتطور بالتأكيد بدون الرق وإنما ببطء . فمن الصعب الادعاء بأن توسيع السوق نتيجة أرباح المزارع كان ضرورياً وكافياً لإحداث ثورة صناعية، كما أنه من الصعب أيضاً إنكار التأثير الإيجابى لهذه الأرباح عليها.



جاء الإنجليز إلى المحيط الهندى قبل الهولنديين فى نهاية القرن السادس عشر. جاءوا فى البداية كنهابين ومحتالين ثم تحولوا إلى التجارة. ولكى لا يصطدموا بالهولنديين اتجهوا شمالا نحو الهند فى ضربة حظ . فى البداية استقروا فى «بومباى» ثم انتقلوا إلى «مدراس» وفى ١٦٩٠ شيدوا مدينة تجارية فى «كالكتا» ثم لجأوا إلى القوة. وغير انتصارهم تاريخ الهند. فنتيجة له دفع الهنود لشركة الهند الشرقية والبحرية الإنجليزية تعويضات تقدر اليوم بمليار دولار أمريكى. وحصلت الشركة على أراض واسعة وصار رئيسها حاكما لمستوطنات البنغال.

قادت الهند إلى الصين .فقد شهد القرن الثامن عشر شهية الأوروبيين إلى السلع الصينية: الخزف والحرير الخام والشاى. وكان الأوروبيون يدفعون بالذهب والنقد اللذين يحصلون عليهما من أسبانيا والبرازيل واليابان ،ثم بدأوا يبحثون عن وسيلة تبادل أيسر وأرخص. لكن الصينيين لم يكونوا يرغبون فى شىء من صناعة غيرهم. ووجد الإنجليز الحل فى الأفيون الذى يزرع فى البنغال.

كان مطلع القرن التاسع عشر بمثابة بداية ونهاية فى آن واحد. فقد شهد تصفية شركة الهند الشرقية الهولندية، إلغاء تجارة الرق الإنجليزية عبر الأطلنطى، ذروة واضمحلال كنز السكر، نهاية النظام القديم فى فرنسا، ونهاية عصر الامبراطورية القديمة. العصر الجديد سيشهد فقدان أوروبا السيطرة على أراضى ما وراء البحار (أسبانيا أساساً) لصالح السيطرة الاقتصادية التى ستشق طريقها إلى مناطق كانت منيعة فى السابق مثل الصين واليابان بينما تخلق فى غيرها نوعا جديدا من الدولة على صورتها (الهند وإندونيسيا).

محرك هذا التحول كان الثورة الصناعية التى بدأت فى بريطانيا فى القرن الثامن عشر وأنجزتها بعض البلدان فاغتنت ولم تنجزها بلدان أخرى فظلت فقيرة. هذه العملية بدأت قبل ذلك فى عصر الاكتشافات.

ففتح العالم أدى إلى تبادل أشكال الحياة

شعوب أوروبا الشمالية فقد شيدت بنيانا على العمل.

جذب تقدم الشمال على الجنوب دائما الاهتمام. لماذا يسقط البعض من القمة ويصعد آخرون؟ وربما كان أكثر التفسيرات استفزازا هو الذى قدمه «ماكس فيبر» فى ١٩٠٤: البروتستانتية والكالفينية بالذات شجعت على صعود الرأسمالية الحديثة أى الصناعية بتكريسها أخلاقيات معينة للسلوك اليومى: العمل الشاق المثابر، الأمانة، الجدية.



رفض كثيرون هذا المنطق. وذهب بعضهم إلى أن صعود الرأسمالية هو الذى أتى بالبروتستانتية وأن الاقتصاد الإنجليزى لم ينطلق فى القرن السادس عشر إلا عندما تضاءل النفوذ الدينى وحلت العلمانية محله. وهذا غير صحيح فعلى المستوى الأمبريقى تبين السجلات الدور القيادى الذى لعبه التجّار والصنّاع البروتستانت وعلى المستوى النظرى جوهر الأمر هو خلق نوع جديد من البشر: عقلانى، منظم، مثابر، منتج. وهى صفات عممتها البروتستانتية بين معتنقيها. وليس معنى هذا أن نموذج «فيبر» المثالى يوجد فقط لدى الكالفينيين. فكرته أنه فى ذلك

مغلولة بالدعاوى المنافسة للسلطات العلمانية.

٢- إيجاد منهاج ، أى خلق لغة للبرهنة والإثبات متفق عليها ومفهومة. لابد من التجربة المهدفة: بدلا من أن ننتظر لنرى شيئا يحدث، نحدثه! وتطلب هذا قفزة فكرية وتبديدا للخرافة: أدوات قياس وحساب وتلسكوب.

٣- اختراع الاختراع، أى تحويل البحث إلى عملية روتينية.

لماذا بريطانيا؟ ليست الإجابة عسيرة. ففى بداية القرن الثامن عشر احتلت بريطانيا المقدمة فى الإنتاج وفى التجائها إلى الوقود الإحفورى وفى تكنولوجيا الفروع الجوهرية للثورة الصناعية: النسيج والحديد والطاقة بالإضافة إلى كفاءة الزراعة التجارية والنقل. التفوق المبكر فى هذه الفروع كان نفسه إنجازا فلم يعطه لها الله ولم يحدث صدفة وإنما كان نتيجة العمل والإبداع والخيال والإقدام والمخاطرة.

وكانت لبريطانيا ميزة مبكرة أيضا هى كونها أمة: وحدة واعية بذاتها تتميز بهوية مشتركة والمساواة فى الوضع المدنى منذ صدور «الماجناكارتا» فى عام ١٢١٥.

ولكن لماذا لم تكن الهند؟ يلقى المؤرخون الهنود اللوم على بريطانيا: كانت الهند مزدهرة إلى أن ظهر الغزاة على المسرح

كان للاعتماد شبه الكامل على الأرز نتائج حسنة وسيئة على صعيد التغذية والأمراض. وعلى التاريخ الصينى كله . فلم يجد الصينيون حاجة لاستخدام العبيد الأجانب ومن ناحية أخرى تطلبت إدارة المياه سلطة مركزية. وهو الأمر الذى لاحظه «مونتسكيو» ثم «هيجل» و«ماركس» وأسماه «فيتفوجل» بالاستبداد الشرقى

فى نصفى الأرض. الذرة التى اكتشفها الأوروبيون فى العالم الجديد أصبحت مادة رئيسية فى المطبخ الإيطالى والبطاطس حلت محل الخبز فى بعض الأماكن وبالمقابل جلبت أوروبا للعالم الجديد السكر والحبوب والحصان والماشية والجدرى والحمى الصفراء والملاريا والدفتريا والتيفوس والسل والسيلان. أما أمراض العالم الجديد نفسه فلا نعرف غير واحد منها فقط: الزهرى الذى أسماه الفرنسيون بالمرض الإيطالى والألمان بالمرض الفرنسى.

هكذا جلبت الهجرة الاختيارية والإجبارية (الرق) بين المحيطات موتاً كثيراً للعالم وثروات للأوروبيين. والمثير للسخرية أن الأمتين اللتين استهلتا هذه العملية، أسبانيا والبرتغال، باءتا بالخسران. هنا تتمثل التيمات الكبرى للتاريخ الاقتصادى ونظريته. فكل نماذج النمو تؤكد على أهمية رأس المال. وقد وفرته الامبراطورية لأسبانيا والبرتغال فى شكل خام كنقود يمكن استثمارها أو إنفاقها. وفضلت إسبانيا إنفاقها على الكماليات والحروب. وفعلت ذلك بكرم شديد لأن الثروة لم تكن متوقعة ولم تحصل عليها بكدها. ولم تحدث الصناعة الأسبانية. فلم يعد الأسبان مضطرين لإنتاج الأشياء لأنهم كانوا قادرين على شرائها. وما أن انتهى تدفق الذهب فى منتصف القرن السابع عشر حتى أصبح العرش الأسبانى غارقا فى الديون وبدأت البلاد انحدارها الطويل، أما

المكان والزمان (شمال أوروبا فى القرون ١٦ - ١٨) ساعدت الديانة على ظهور نوع من الشخصية خلق أسلوباً جديداً للإنتاج هو الرأسمالية (الصناعة).

لماذا أوروبا؟

تمخضت سلسلة من الاختراعات فى القرن الثامن عشر عن تحول صناعة القطن البريطانية إلى نوع جديد من الإنتاج - نظام المصنع (عمال معا فى مكان واحد تحت الإشراف) تستخدم مصدرا مركزيا غير بشرى للطاقة .بدون هذا المصدر المركزى يكون لدينا مجرد مانيفاتورة . هذه هى الثورة الصناعية.

لماذا أوروبا بالتحديد وبريطانيا دون غيرها؟

الإجابة على الشطر الأول من السؤال هى: تراكم المعرفة ثم الاختراق، تجاوز العتبات والحدود. لقد لاحظنا انقطاع التقدم الإسلامى والصينى وتشريع هذا الانقطاع مؤسساتيّاً. وكان الأمر على العكس فى أوروبا: تراكم مستمر على ثلاثة أسس:

١- الاستقلال الذاتى المتزايد لعملية التساؤل والبحث الذهنى .فقد كانت يد الكنيسة

وتدخلوا فى السياسات الداخلية وأثاروا النزاعات وحالوا دون تحول «كراخانات» الورش ذات الميكنة البدائية إلى مصانع حديثة. ثم منعوا الحماية الجمركية تحت شعار التجارة الحرة بل وفرضوا الضرائب على المنتج الهندى لإفساح المجال أمام الخيوط والأقمشة الإنجليزية.

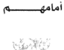
الحقيقة أن التحول إلى الآلات لم يكن منتظرا فى الهند . فمثل هذه القفزة كانت تتطلب انتقالا من المهارات اليدوية المبثوثة فى الطفولة داخل حوانيت منغلقة، والمرتبطة بالهوية، ومن تقسيم للعمل على أساس الجنس والعمر. كما كانت تتطلب خيالاً خارج نطاق الثقافة الهندية وتجربتها الفكرية.

لقد وفدت الثورة الصناعية على عالم فارغ نسبياً بالمقارنة مع الكثافة السكانية التى نعرفها اليوم. وكانت أكبر التخوم فى الانتظار عبر البحار: الأمريكتان أساساً الشمال البريطانى سابقا و الجنوب الأسبانى البرتغالى سابقا. أراضٍ غنية بالثروات الطبيعية. لكن النتيجة جاءت مختلفة فى سياق التكنولوجيا الصناعية الجديدة . فقد جاءت الولايات المتحدة فى الوضع الأفضل. وقال البعض إن الطبيعة هى التى حددت أسبقية النمو . لكن الباحثين قدموا حديثاً تفسيراً جغرافياً أكثر تركيباً يربط الظروف الطبيعية بالثقافة والمؤسسات.

أين يكون الدافع إلى التغيير حينما يكون المجتمع مقسماً بين قليل من ملاك الأراضى المميزين وكتلة ضخمة من

لماذا اغتنت أمم وافتقرت أخرى

لقد استوعب الإسلام وطور منجزات الشعوب التى غزاها. وحتى ١١٠٠ م كان العلم والتكنولوجيا الإسلاميان متفوقين إلى أقصى مدى على أوروبا. كان الإسلام معلم أوروبا. ثم حدث خطأ. هوجم العلم الإسلامى بواسطة المتشددين وانحنى أمامهم



العاملين الفقراء التابعين وربما غير الأحرار؟

لم تكن هذه حالة الولايات المتحدة الشمالية أو كندا : مناخ قصر الزراعة على إنتاج محدود من الحبوب ، ملكيات صغيرة ، أراض شبه مجانية وقوة عمل نادرة مما أدى إلى أجور مرتفعة. كان هذا المجتمع مهد الديموقراطية والمشروع . فالمساواة تنتج تقديرا للذات وطموحا واستعدادا لدخول السوق والتنافس فيها. روح الفردية والمشاكسة. الملكيات الصغيرة شجعت الاكتفاء الذاتى التقنى وعقلية الاعتماد على النفس فلكل مزرعة ورشتها وأدواتها ومبتكراتها.



هكذا وجدت التكنولوجيا الجديدة للثورة الصناعية أرضا خصبة فى المستعمرات الأمريكية ولم تكد الجمهورية تولد حتى كان «صامويل سلاتر» يقوم بتركيب أول آلة للغزل فى «رود أيلاند». لكن الإبداع الأمريكى الحاسم لم يكن آلة معينة وإنما صيغة للإنتاج: استجابة خلاقة لشيئين: سوق متحررة من التفضيلات المحلية والإقليمية والفوارق الطبقية السائدة فى أوروبا وبالتالى جاهزة لقبول سلع موحدة النمط. الشىء الثانى هو ندرة العمالة .

وضع «النظام الأمريكى» مستويات للإنتاجية أمام بقية العالم الصناعى . وقادت كل تكنولوجيا جديدة إلى غيرها: ساعات الحائط والبنادق إلى ساعات اليد وآلات الحياكة وهلمجرا. وأصبحت الزراعة صناعة . وأدى كل هذا إلى اجتثاث السكان الأصليين (بمساعدة التكنولوجيا: الأسلحة الجديدة) عدة مرات لإفساح الطريق أمام القادمين الجدد والمتعطشين إلى الأراضى.

فى ١٨٧٠ صار للولايات المتحدة أكبر اقتصاد فى العالم .وخلق «النظام الأمريكى» للصناعة ، سواء كان هذا حسناً أو سيئاً، عالماً جديداً من استهلاك لا يرتوى. فلأول مرة فى التاريخ صار بوسع الناس العاديين أن يتطلعوا إلى امتلاك السلع الصعبة المنال: ساعات، دراجات ، تليفونات، راديوهات، أجهزة منزلية، سيارات. وتم تيسير كل ذلك بابتكارات فى التسويق: شراء التقسيط، الأوكازيونات، حق إعادة السلعة واستبدالها. الاستهلاك الكبير جعل الإنتاج الكبير ممكناً ومربحاً والعكس صحيح.

لم تقدح البدايات الصناعية فى أمريكا الجنوبية زناد الثورة الصناعية . فلم تكن الظروف الطبيعية والاجتماعية مواتية. وأرجع الباحثون الاعتذاريون فشل النمو فى أمريكا اللاتينية بالمقارنة مع الشمالية إلى آثام الأمم القوية والغنية ، وأطلقوا على ذلك اسم «التبعية» التى تعنى حالة من الدونية لا يملك المرء فيها السيطرة على قدره فيفعل ما يمليه عليه الآخرون. وضرب هؤلاء المثل بتجربة باراجواى، الجمهورية الشاسعة المعتقلة فى غابات تبعد مئات الأميال عن البحر.

وقعت باراجواى بعد الاستقلال مباشرة تحت سيطرة الديكتاتورية ابتداء من عام ١٨١٤: مزيج من الاستبداد الخيِّر والطغيان الشعبوى. فأول ديكتاتور، دكتور «جاسبار دى فرانسيا»، كان يعقوبيا متطرفا سعى إلى إنشاء جمهورية المساواة . كان يجسد الإرادة الشعبية. وعندما كان يستقبل قرويا هنديا يفعل ذلك بترحيب واهتمام . عكس ما يفعله إذا استقبل برجوازيا أو مالكاً. أليس هذا تمييزا طبقيا صارخا؟ أراد الديكتاتور أن يبنى على أساس الطابع المحلى ، وأن يقمع النخبة الأسبانية القديمة. ومن أجل هذا الهدف منع البيض من التزاوج فيما بينهم وفرض عليهم أن يتزاوجوا مع الهنود والمولّدين والسود.

وأراد خليفتاه، «لوبيز» الأب والابن، تحويل البلاد إلى «سبارطة» متنورة : المدرسة الأولية إلزامية ومجانية ابتداء من سن السابعة يرتدى معلموها ملابس رسمية. «فلوت» لكل تلميذ مما يذكرنا بالأهمية التى أكدها أفلاطون على الموسيقى وبدورها فى مدارس «محمد على» بمصر فى نفس الفترة.

وتعاقدوا على قوارب ومحركات بخارية ومجمع صناعى (به مسبك حديد) وترسانة. ودفعوا ثمن المشتريات من حصيلة الصادرات الضئيلة ومن قروض متواضعة من بانى سفن لندنى . استوردوا أيضا الأسلحة الأوروبية، قديمة وصغيرة . وبنوا قلاعاً لمواجهة احتمال الحرب. وأخذ الجيران بدورهم يتسلحون خاصة البرازيليين.



ليس من السهل تحديد من بدأ. لكن عام ١٨٦٤ شهد تحالفا من البرازيل والأرجنتين وأوروجواى تمكن من سحق الوباء بعد ثلاث سنوات من المقاومة مات «لوبيز» وابنه فى نهايتها مع سبعين بالمائة من السكان.

اليابان: بدلا من الشخصية المُرَوّضة، الهادئة ، الذليلة، المستكينة التى جعلت من الصينيين رعايا جاهزين للاستبداد، تميز اليابانيون بالنشاط والاستقلالية وروح الفكاهة. هكذا وصفهم رحالة إنجليزى فى ١٨٣٤.

آمن الصينيون بأنهم مركز العالم ولهذا استقبلوا الأوروبيين بالمحاصرة كأنهم وباء. أما اليابانيون (الذين اعتبروا أنفسهم أيضا شعبا مختارا) فقد أدركوا على العكس القوة الجبارة لهؤلاء الأغراب (تجلت فى إسقاط الطيور أثناء تحليقها) فاستقبلوهم بأذرع مفتوحة وتسابقوا على معرفة أسرارهم . بل وعلى التحول إلى المسيحية مما أثار فزع البوذيين والكونفوشيوسيين. فجرى حظر هذه الديانة فى ١٦١٢ وقمع معتنقيها. وفى البداية لم يؤثر هذا على التجارة لكن التأثير لم يلبث أن تصاعد حتى وصل إلى العزلة التجارية والثقافية وإلى تثبيت النظام الاجتماعى والسياسى ومنع الاختلاف ووضع حدود فاصلة بين المراتب الاجتماعية . وجرى مع كل هذا استبعاد لكل ما هو أجنبى: الأشياء والمعرفة.

نفس ما حدث فى الصين لكن بنتيجة مختلفة . فقد ظل الصينيون كما هم فى الجوهر بينما تغير اليابانيون - المتعلقون بالماضى - لدرجة حملت معها إمكانية التصنيع.

لم تكن فى اليابان كالفينية، لكن تجارها تبنوا أخلاقيات عمل مماثلة. العمل لا الثروة هو المفتاح ومنذ البداية قرروا تجاوز السلع الاستهلاكية إلى صناعة الآلات والمحركات والسفن والقاطرات والموانئ. ولعبت الحكومة دورها فى ذلك بتمويل عمليات الاستكشاف فى الخارج وإحضار الخبراء الأجانب وإقامة المبانى و التركيبات اللازمة والمشاركة فى المشروعات التجارية. لكن الأهم هو موهبة وتصميم الوطنيين اليابانيين الذين كانوا مستعدين لتغيير مهنهم ومسيرة حياتهم من أجل القضية العامة، وقنعوا بأجور بائسة وعمل متواصل بلا يوم راحة. أضف إلى ذلك نوعية العاملين وخاصة المهرة منهم الذين تشكلت مهاراتهم من خلال عمل الفريق تحت إشراف دقيق. كل هذا صنع المعجزة اليابانية: نسخة يابانية من أخلاق «ماكس فيبر» البروتستانتية.

خطأ التاريخ

لا أحد يستطيع فهم الأداء الاقتصادى للأمم الإسلامية دون أن يدرس تجربة الإسلام كعقيدة وثقافة. الإسلام الذى يعنى الخضوع لله هو إحدى ديانات العالم العظمى. ولد فى العراء كسابقيه التوحيديين. و حمل جماعة صغيرة من المحاربين البدو إلى سيطرة واسعة وسريعة. خلال قرن من هجرة الرسول من مكة إلى المدينة عام ٦٢٢ قوض المحاربون العرب أمم وامبراطوريات الشرق الأوسط، واجتاحوا العالم غربا حتى الأطلنطى. وبعد فترة استراحة هضم اندفعت جيوش جديدة إلى الشرق: الهند وما وراءها.

هذا الانفجار للعقيدة والإيمان كان استباقاً لقوة الاجتياح الأوروبى الإمبريالى التالى الذى كان أوسع وأعمق وفرض تقويمه على العالم.

الفارق الدقيق بين الموجتين من السطوة هو موقع التكنولوجيا .فقد اعتمد الإسلام على الوسائل القديمة برجال جدد. على الحماس القتالى لفرسان سريعى الحركة، آمنوا بأن الله والتاريخ يقفان إلى جانبهم فتغلبوا على أتباع ورعايا غير مبالين لامبراطوريات استبدادية. أما الاجتياح الأوروبى (الإمبريالية) فاستند إلى تفوق فى السلاح دافعه هو الربح. غنائم ونهب نعم ، لكن ربح مستمر. كان اندفاعا أقوى بسبب أساسه المادى.



وابتداء من لحظة الذروة فى ١١٨٧ بدأ انحدار الإسلام. ما ذوى هو القوة والسيطرة لا العقيدة. ومع حلول القرن السابع عشر تجلى بوضوح انتقال ميزان القوة العالمية.

مكانان كان فيهما الصدام بين العقائد والامبراطورية حاسما لمجرى التاريخ . الهند التى بدأ فيها الإنجليز التهام الأراضى والعوائد والسيادة. والامبراطورية العثمانية التى قُيدت يدا سلطانها بادعاءات الجيران والانبعاث القومى لرعاياه المسيحيين.

ويعتبر دوام أجل الامبراطورية العثمانية من الألغاز. فبعد قرنين ونصف قرن من التوسع من ١٣٠٠ - ١٥٥٠ كان لا بد أن يؤدى انحدارها إلى تصفيتها فى عدة عقود. لكن الاحتضار استمر ثلاثة قرون . كيف أمكن لجثة حية ، تعفنت كافة أجزائها، أن تستغرق كل هذا الوقت كى تموت؟

العوامل معروفة. لم يكن العثمانيون مخترعين وإنما مقلدين . أدركوا قيمة المدفع لكنهم اعتمدوا على الفنيين المسيحيين فى سبكه. وعلى مر الزمن انعكست العلاقات التجارية بين أوروبا والمشرق. ووجد المنتجون المحليون فى تركيا صعوبة فى منافسة المشترين الأوروبيين للمواد الخام.

« لكن خطأ أتباع الإسلام الأكبر كان فى رفض المطبعة التى رأوا فيها أداة محتملة للكفر والإلحاد» ، الأمر الذى عزل المسلمين عن نهر المعرفة الرئيسى. ونتيجة لهذه العزلة الفكرية والتخلف التقنى والتبعية الصناعية، مال ميزان القوى الاقتصادية باطراد ضد العثمانيين. الشىء الوحيد الذى أنقذها من التحلل السريع هو عدم فعاليتها وفساد

قـادتهـا ومـصـالح الـدول الأقـوى. فـى هـذه الظروف دقت الثورة الصناعية مسامير نعش الصناعة التركية.

وبالرغم من ذلك كـان لقطعـة من الامبراطورية العثمانية عبر البحر المتوسط رأى آخر. إنها مصر التى نامت طويلا فى ظل المماليك حتى نسيت العجلة ، التى سبق أن طارد بها فراعنتها الغزاة . ولم تغير الحكومة التركية كثيرا من أمور البلاد إلى أن تولى أمرها «محمد على».

تمتع محمد على ، على خلاف المحاربين التقليديين، برؤية أكبر وبالخيال الملازم لها. لم ير فى مصر ولاية فترة محدودة وإنما ضيعة شخصية ومجالا للتنمية والتطور. ورأى هذا التطور كعملية شاملة تشمل الزراعة والصناعة والتعليم. وأيضا، لسوء الحظ، برنامجا للأسلحة. وليحقق كل هذا استقدم الفنيين الأجانب.

بين هؤلاء الفنيين الفرنسيين وأكثرهم أهمية كان «لويس ـ ألكسيس جوميل» الذى طور لمصر فى ١٨٢٢ القطن الذى عرف باسمه. تميز هذا القطن بتيلة طويلة رفيعة وقوية صالحة للغزل ومناسبة لصناعة أدق الخيوط وأكثرها نعومة. ولم تمض سنتان حتى تم تصدير أكثر من ١١ مليون كيلوجرام منهاوبلغت نصف صادرات مصر فى ١٨٣٥.

سددت هذه الصادرات كلفة الطموحات الاقتصادية والعسكرية لمحمد على . وجاء الباقى من محاصيل أخرى ، بيعت مثل القطن من خلال وكالات رسمية: احتكارات الدولة.

وابتداء من عام ١٨٢٠ انصب الجزء الأكبر من هذه المداخيل فى جهد تعليمى وصناعى ضخم: كل ما هو ضرورى لإحلال الواردات وتغذية آلة حرب متنامية، بل سعى محمد على إلى استقلال أعمق بشراء الآلات الأوروبية وتقليدها فى مصر.

هنـاك قانون للعلاقات السياسية:
عندما تشعر مجموعة من الأمم بأنها قوية لدرجة تكفى لفرض نفوذها على مجموعة أخرى وتحقيق المكاسب من ذلك لا تتورع عن ممارسة قوتها. وإذا لم تفعل قامت شركاتها وأفرادها بالمهمة



كانت رؤية محمد على «دونكيخوتية» غير واقعية أدت إلى إغضاب المصالح الصناعية والتجارية الأوروبية . كانت أول محاولة من مجتمع متخلف غير غربى لبناء اقتصاد صناعى حديث.. بالأمر من أعلى. وسقط المشروع العظيم عندما بدأ تنفيذ المعاهدة التى فرضت حرية التجارة.

أصحاب الاتجاه «التقدمى» يرون فى ذلك وأدًا لثورة مصر الصناعية أو على الأقل تعطيلا لها لمدة قرن كامل. لكن السؤال هو : هل كانت مصر محمد على جاهزة لثورة صناعية؟ لا. فمشاكل مصر كانت أعمق من كل هذا. وحتى الآن فإن الجهود الصناعية المصرية تتعثر لأسباب لا تختلف عن أيام محمد على. لقد تم نقل التكنولوجيا، لكن المجتمع والثقافة المصريين لم يتغيرا كثيرا فى الأساسيات التى تحدد الكفاءة والأداء. لم تكن مصر جاهزة وقتذاك ، فهل هى الآن؟

لم تحقق مجتمعات الشرق الأوسط الأخرى ما هو أفضل. فأعلى دخل بين البلاد العربية الإسلامية يوجد فقط لدى منتجى النفط ومصدريه. أما غيرهم فلم يحقق شيئا. حتى بين دول «الأوبك» لم تتمخض الثروة عن تحول اقتصادى . المقارنة المثلى تكون مع أسبانيا القرنين السادس عشر والسابع عشر.لقد بادل أثرياء النفط الذهب الأسود بالنقود التى أعادوها إلى البلاد التى دفعتها . اشتروا أسهما كثيرة وقليلة فى منشآت الأمم الصناعية المتقدمة. وبنوا أيضاً بيوتاً جميلة وفنادق وقصوراً واشتروا سيارات كبيرة وأراضى فى الخارج حيث يمكنهم حماية ثرواتهم وممارسة السلوكيات التى لا تقبلها بلدانهم. دفعت السعودية ،بكل صحراواتها، الكثير لتستورد رمال الشواطئ من استراليا ! والأكثر مضيعة هو استثمار هذه البلدان الضخم فى الأسلحة والمفترض أن أغلب هذه الاستثمارات تهدف إلى شراء صداقة صناعها.

لم تطور هذه البلدان اقتصادًا متقدمًا، ومثل أسبانيا الأمس اشترت مهارات وخبرات الآخرين بدلا من أن تتعلم صناعة الأشياء بنفسها. هذه البلدان دون استثناء، غنيها وفقيرها، بلاد استيراد، وقادة غير مسئولين. لا حلول وإنما إسعاف أولى وإدارة للأزمة وبدلا من التماس الشرعية عن طريق التحسين المادى ، يتفاخر القادة العرب بانتصارات على الاستعمار والصهيونية ولو بقميص الجهاد الدموى. لن يتحقق بها ازدهار ولو نجحت «عملية السلام». فالمرض أكثر عمومية من النزاع العربى الإسرائيلى. وهو يكمن فى الثقافة التى لا تولد قوة عمل عارفة وقادرة، تواصل رفض التقنيات والأفكار الجديدة التى تأتى من العدو الغربى (المسيحى)، لا تحترم المعرفة التى يحرزها البعض عن طريق الدراسة فى الخارج أو الحظ الحسن بالداخل. إن نسبة الأمية فضيحة وهى أعلى لدى النساء. وهذا وحده يومئ إلى مجتمع يعطى المرأة وضعًا متدنيًا، وهو أمر له علاقة واضحة بالمواقف التى زرعها الإسلام وخاصة إسلام العالم العربى. إذ يتم تحقير المرأة وإهانتها منذ لحظة الميلاد. وجودها نفسه كارثة وجسدها خطيئة.

هل هناك خطأ ما متأصل فى الإسلام؟ لا.. الإسلام متعدد الأوجه. فهو عالمى ويضم مجتمعات وأجزاء من مجتمعات وثقافات متباينة. وفى نصوصه المقدسة تعاليم عديدة ، بعضها متناقض يمكن استخدامه لأى هدف. له ككل الديانات جوهر نقى وصلب. وفى مجتمع من الذكورية المتطرفة يصبح المزيج مادة متفجرة. من هنا سرعة الالتجاء إلى العنف: ذبح للمعارضين الدينيين فى سوريا، ثورة وقمع فى إيران، استبداد أوتوقراطى فى العراق والسودان ، غازات سامة ضد الأكراد فى العراق، حملة إبادة فى الجنوب الأسود للسودان، اغتيالات عشوائية ومنظمة فى باكستان ومصر والجزائر.

لقد بدأت الإمبراطورية الأوروبية عبر البحار فى القرن الخامس عشر . وانتهت بدرجة أو أخرى فى النصف الثانى من القرن العشرين. خمسة قرون من السيطرة ، لكنها ظاهرة عابرة فى المجرى الأكبر للتاريخ العالمى.

إنها ظاهرة ترجع إلى فجر التاريخ . لكن البعض يصر على أنها نتاج للرأسمالية الحديثة بينما يكذب التاريخ هذا الزعم.

لقد وصف الراديكاليون الموجة الاستعمارية للقرن التاسع عشر بأنها نتيجة الشره الرأسمالى وبأنها كانت ضرورية لازدهار أوروبا. التهمة الأولى حقيقية جزئيا . فالشراهة الآن مطلقة العنان، وليست بالضرورة شراهة رأسمالية بقدر ما هى ظاهرة إنسانية .أما التهمة الثانية فهى هراء. فلم تكسب الاقتصاديات الأوروبية على الإطلاق من الملحقات الجديدة مهما قيل عن دور المستعمرات فى توفير سوق للبلد الأم. هل لا بد من الاستيلاء على بلد ما لإيجاد سوق؟

وعلى العكس شهدت الاقتصاديات الإمبريالية السابقة ازدهارا لم تعرفه من قبل، بينما واجهت أغلب المستعمرات السابقة صعوبة فى السير. ذلك أن سادتها السابقين لم يعلموها الكثير .

لقد حققت أمم العالمين الثالث والرابع نتائج متنوعة للغاية منذ الاستقلال . من النجاحات الباهرة فى شرق آسيا إلى نتائج مختلطة فى أمريكا اللاتينية إلى تراجع صارخ فى بورما وأغلب أفريقيا .وهذا التنوع يرينا أن الاستعمار فى حد ذاته ، بل والرق نفسه ، لا يحتمان الفشل. فما هو كشف الحساب الختامى: هل كانت الإمبريالية خيراً أم شراً؟

هل كان بوسع الأمم المتخلفة اقتصادياً أن تنمو وتتقدم بصورة أسرع لو لم تقع فى براثن الاستعمار؟ تقوم هذه الحجة على افتراض أن هذه الشعوب كانت ستظل آمنة من الاستغلال المحلى والأجنبى ، قادرة على أن تتعلم وتتغير. والحجة المعاكسة تستند إلى التاريخ: الإمبريالية لم تحل دون بعض المستعمرات وتطوير مراكز مستقلة ذاتيا وتعلم واختراع تقنيات الاقتصاد الصناعى: المستعمرات البريطانية فى أمريكا الشمالية ، فنلندة عندما كانت جزءا من روسيا القيصرية ، النرويج تحت سيطرة السويد، وهونج كونج تحت سيطرة بريطانيا.

وبالمقارنة بالنجاح الذى تحقق فى دول شرقى آسيا يبدو بقية العالم كدراسة فى الحركة البطيئة مركزها أفريقيا تحت الصحراء.

إن ٢٢ من أفقر ٢٥ بلدًا توجد اليوم فى أفريقيا . ويعيش ٥٤ بالمائة من الأفريقيين تحت خط الفقر. ولهذا أعلنت الأمم المتحدة بالتعاون مع البنك الدولى عن خطة لجمع ٢٥ مليار دولار فى السنوات العشر التالية للاستثمار فى التنمية الأفريقية. فماذا يمكن أن يفعل هذا المبلغ؟ ابتداء من عام ١٩٩٤ بلغت ديون الأمم الأفريقية ٣١٣ مليار دولار. معنى هذا أن الـ ٢٥ مليار دولار ستكفى لدفع فائدة هذه القروض لسنة واحدة.

إلى أين نحن متجهون ؟

يتطلع البعض إلى ثورة تصحح الأخطاء وتعمم السعادة. الاشتراكيون الماركسيون والشيوعيون من هذه الفئة رغم كثرة إشادتهم بالعلم. البعض الآخر يشعر بالحنين إلى عالم المجتمعات البدائية المشاعى بغير دولة.

وبينما نجد المؤرخين لا أدريين بشأن المستقبل ، فإن المتشائمين الفعليين ، من اقتصاديين ورجال أعمال ، يميلون إلى التفاؤل: سيواصل العالم تقدمه نحو مزيد من الثراء، وسيلحق الفقراء بالأثرياء ، وتصبح جزر النمو قارات كاملة وستحل المعرفة المشاكل وتتغلب على الصعاب المادية والاجتماعية وفى مقدمتها الأخطار التى تهدد البيئة . هكذا كانت الأمور وهكذا ستكون.



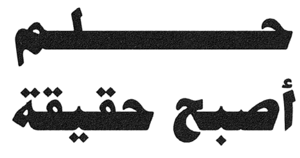
إذا كنا تعلمنا شيئا من تاريخ التنمية الاقتصادية فهو أن الثقافة هى المحك. والمقصود هو القيم الداخلية والتوجهات التى تتحكم فى سلوك شعب معين. أنصار تدخل الدولة لم يستسلموا بعد، فهم يريدون القوة والثروة وعدالة التوزيع والكفاءة. ويعترض الكلاسيكيون الجدد ، فإشارات السوق هى الحقيقة الوحيدة التى يمكن الارتكاز عليها. ومع ذلك فآدم سميث نفسه أدرك أن الدولة ستتولى بعض المهام (الدفاع والشرطة) بصورة أفضل من المنشأة الخاصة . فها هى فى كوريا وتايوان بل واليابان تقدح الزناد وتوجه نشاط السوق. السجل إذن مختلط وتدخل الدولة قد يكون خيراً أو شراً.

إن عملية الانتقاء تمضى فى طريقها. فحرّك المسعى من أجل العمالة الرخيصة الوظائف من البلاد الغنية إلى الفقيرة، أو بعضها على وجه الدقة. وصفق الاقتصاديون والأخلاقيون لهذا الانتقال باعتباره عاكساً للميزة المقارنة. ومع ذلك لا يرحب الأمريكيون والألمان بتوظيف الماليزيين والمكسيكيين لأن من فقدوا وظائفهم غير سعداء وهم الذين يصوتون فى الانتخابات ويتظاهرون ويحدثون الشغب.

الميزة المقارنة لليوم ربما لن تكون صالحة للغد. هل الحماية مشروعة فقط للصناعات الوليدة؟ ليست لهذه الأسئلة إجابات بسيطة واضحة. الدعوة إلى سياسة حكومية نشيطة أمر واتخاذ الإجراءات السليمة وتنفيذها أمر آخر.ومع ذلك هناك أمر واحد جلى. الاتجاه الحالى للانتشار الصناعى العالمى سوف يتمخض بالنسبة للبلاد الغنية عن هبوط مستوى الأجور وزيادة الهوة بين الدخول أو ارتفاع مستوى البطالة.

بوسع البلاد الغنية الصناعية بالتأكيد أن تدافع عن نفسها بالانتقال إلى فروع جديدة تخلق وظائف جديدة. لكن ماذا بشأن الفقراء المتخلفين المجردين من أى مزايا؟ يقول التاريخ إن أنجح علاج للفقر يأتى من الداخل. الأمر الأساسى هو العمل، النمو المعافى، الأمانة، الصبر، العناد والمثابرة.. تكرار المحاولة. ■

صناعة قطع الغيار البشرية



محمد أبو الغار

يقدر عدد المصابين بالأمراض المزمنة الناتجة عن تلف بعض الأعضاء البشرية فى العالم بمئات الملايين، وتتراوح أنواع هذه الأمراض بين خطيرة تؤدى إلى الوفاة وليس لها علاج ناجح مثل فشل الكبد الناتج عن إصابته بفيروسات كبدية أو أمراض متوطنة كالبلهارسيا، أو بعض أمراض المناعة. أما البعض الآخر من الأمراض فهى تسبب إعاقة مزمنة مثل الإصابة بالشلل الرعاش أو مرض الزهايمر الذى تذبل فيه خلايا المخ ويصبح الإنسان غير قادر على تذكر أو حتى معرفة أقرب الناس إليه، وهو المرض الذى أصاب ريجان الرئيس الأمريكي الأسبق. وبعض الأمراض التى تعوق الإنسان عن الحركة مثل إصابات العمود الفقرى أو النزيف فى المخ والتى ينتج عنها شلل نصفى.

وهناك بعض الأمراض التى تؤدى إلى مضاعفات على المدى الطويل مثل مرض السكر الناتج عن فشل الخلايا التى تفرز الأنسولين من البنكرياس. ويقدر عدد المرضى المصابين بالسكر فى العالم بأكثر من مائة وعشرين مليون مريض. ويتكلف علاجه فى الولايات المتحدة وحدها أكثر من مائة مليار دولار سنويًا.

ويكون الحل فى بعض الحالات المرضية مثل الفشل الكبدى أو الكلوى هو نقل الأعضاء السليمة لتحل محل المصابة. وعملية نقل الأعضاء لها مشاكل كبيرة أهمها أن عدد الأعضاء المتوافرة للنقل قليلة جدًا مقارنة بأعداد المرضى المطلوب لهم هذا النوع من العلاج، والمشكلة الأخرى أن نقل الأعضاء من الأقارب أو المتبرعين قد يشكل خطرًا على صحة وحياة المتبرع وفى حالة النقل من حديثى الوفاة فتلزم ذلك شروط وموافقات ومواصفات كثيرة تجعل من هذا التبرع مشكلة صعبة التحقيق، لذا كان استنساخ الأنسجة وتصنيع قطع الغيار فتحًا كبيرًا وجديدًا فى عالم الطب سوف يؤدى إلى ثورة وانقلاب فى علاج الأمراض المزمنة ويؤدى إلى إطالة عمر الإنسان مع تمتعه بصحة جيدة.



وجميع الأمراض التى سبق ذكرها أمراض مزمنة خطيرة وعلاجها الحالى يتم بطرق ذات فاعلية محدودة ربما توقف تقدم المرض أو تساعد على تخفيف أعراضه ومضاعفاته، وكان على العلماء أن يفكروا فى علاج غير تقليدى بعد أن ثبت عدم وجود علاج حقيقى للأنسجة التى دمرها المرض. ومن المنطقى أن يتساءل الأطباء والمرضى لماذا لا نستبدل هذه الأنسجة المريضة بأخرى جديدة وسليمة وليست مصابة بالمرض؟ بالطبع يبدو هذا رائعًا، فبدلاً من الإصلاح وإعادة الإصلاح عدة مرات لطلمبة زيت متهالكة للسيارة فلماذا لا نغير الطلمبة ونحل المشكلة جذريًا. وفى حقيقة الأمر، فإن الإنجازات البشرية الطبية التى حققت نجاحًا باهرًا كانت كلها نتاج أفكار ثورية غير تقليدية، فبدلاً من البحث عن علاج لفيروسات الجدرى تم إنتاج مصل لقاح للوقاية من المرض الذى حل المشكلة نهائيًا وانتهى المرض من العالم تمامًا بل وقررت منظمة الصحة العالمية إلغاء التطعيم ضد الجدرى فى العالم بعد أن كان المرض يقتل عشرات الملايين من البشر كل عام.

وإزاء الطريق المسدود لعلاج الأمراض السابقة لابد أن يكون هناك حل مبتكر ألا وهو استحداث خلايا مماثلة لخلايا الجزء المريض أو الميت من جسم الإنسان. والسؤال التالى: من أين لى بهذه الخلايا؟ والإجابة من الخلايا الجذرية.

ما هى الخلايا الجذرية؟

هى خلايا إذا زُرعت بنجاح داخل المعمل نتج عنها مزرعة من الخلايا تتكاثر بسرعة فائقة إلى مالا نهاية وتنتج مئات الآلاف من الأجيال من نفس الخلايا ومتى نجحت عملية انقسامها فى المزرعة بالمعمل تستمر إلى نهاية الكون ولا تموت أبدًا وتبقى سليمة حية نشيطة ولا تهرم أبدًا وتنتج الملايين والبلايين من الخلايا المماثلة. وهذه الخلايا قادرة على التحول إلى ٢١٠ أنواع مختلفة من الخلايا وهى التى تتكون منها أنسجة جسم الإنسان.

ما هى مصادر الخلايا الجذرية؟

المصدر الأول:

هو من البويضة المخصبة فى المعمل، فعند إجراء عملية أطفال الأنابيب، يتم تنشيط التبويض عند السيدة بإعطائها حقنًا تحتوى على هورمون الغدة النخامية ثم تلتقط البويضات بإبرة عن طريق المهبل بمساعدة الموجات الصوتية ويتم تخصيب البويضات بالحيوانات المنوية للزوج، وبعد ١٨ ساعة تكون البويضات قد خُصِّبَت وتبدأ البويضات المخصبة فى الانقسام ويتم نقلها إلى رحم السيدة بعد ٤٨ إلى ٧٢ ساعة، وذلك بحد أقصى ثلاث بويضات مخصبة. وفى حالات كثيرة يتبقى عدد كبير من البويضات المخصبة يمكن تجميده ونقله لرحم السيدة فى فترات لاحقة. وبعض السيدات يرفضن مبدأ تجميد الأجنة، وفى هذه الحالات يتم التخلص من الأجنة الفائضة، وبدلاً من ذلك يمكن أن تستمر رعايتها فى الحضَّانة ويستمر انقسامها إلى عدد أكبر من الخلايا. وفى حوالى اليوم الخامس بعد الإخصاب تتكون مجموعة من الخلايا فى طرف الجنين هى التى تستخدم فى إنشاء مزرعة الخلايا الجذرية.

ومن المعروف أنه فى أحوال كثيرة أثناء إجراء عملية أطفال الأنابيب تكون هناك أجنة زائدة على الحاجة تستخدم كبداية لإنشاء المزرعة.

المصدر الثانى:

يوجد جزء صغير فى الجنين يتكون منه أثناء تطور نمو الجنين، الخصيتان أو المبيضان وتستخلص خلايا هذا الجزء من الجنين فى حالات الإجهاض التى تتم لأسباب طبية والفترة المناسبة لذلك هى التى يتراوح فيها عمر الجنين بين خمسة وتسعة أسابيع.

المصدر الثالث:

قد أمكن حديثًا استخراج الخلية الجذرية من الإنسان والحيوان المكتمل النمو ولكن بكميات ضئيلة وذلك من بعض أجزاء الجسم مثل الجهاز الدموى والليمفاوى الموجود فى النخاع، وقد اكتشفت الخلايا أيضًا فى أجزاء أخرى من الجسم ويبدو أن قدرة الخلايا المستخرجة من الإنسان أقل قدرة على الانقسام والتحول إلى خلايا متخصصة مقارنة بالخلايا الجذرية المنتجة من الأجنة.

متى تكونت أول مزرعة للخلايا الجذرية؟

وبالرغم من أن الأفكار والتجارب الأولى بدأت فى الستينيات من القرن العشرين، إلا أن الطفرة الحقيقية حدثت فى منتصف التسعينيات وفى عام ١٩٩٨، فى نفس الوقت أعلن عن نجاح تكوين مزرعتين للخلايا الجذرية فى الولايات المتحدة. الأولى فى جامعة ويسكنسن بفريق يرأسه الدكتور تومسون واستخلص الخلايا من جنين مخصب فى المعمل عن طريق أطفال الأنابيب وفائض عن حاجة المريضة. أما المزرعة الثانية فهى من جامعة جون هوبكينز ويرأس الفريق العلمى الدكتور جيهارت، وفى هذه الحالة أخذت الخلايا الجذرية من جنين أجهض فى الأسبوع الثانى للحمل. وحتى الآن فإن الدول التى استطاعت معاملها النجاح فى زراعة الخلايا الجذرية معدودة على الأصابع ويبين الجدول المرفق أسماء الدول وعدد المراكز العلمية وعدد مزارع الخلايا الجذرية.

البلاد التى بها مراكز علمية ويوجد بها مزارع خلايا جذرية

الدولة	المراكز المعملية	عدد المزارع
السويد	٢	٢٤
أمريكا	٤	٢٠
الهند	٢	١٠
استراليا	١	٦
إسرائيل	١	٤

هل للخلايا الجذرية فوائد أخرى؟

بالإضافة إلى استخدامها فى استبدال الأنسجة المصابة لبعض الأمراض المزمنة كقطع

غيار آدمية يمكن أن يؤدى هذا التطور العلمى إلى إجراء تجارب الأدوية الحديثة وهى مازالت فى طور التجارب الأولية على هذه الخلايا للتأكد من أنها لا تحدث ضرراً على خلايا الإنسان، وفى حالة ثبوت أنها غير ضارة تبدأ التجارب على الحيوان ثم الإنسان، وبهذا يمكن أن توفر شركات الدواء أموالاً طائلة ووقتًا وجهدًا طويلاً.

وهناك فائدة مهمة أخرى وهى أننا إذا استطعنا الوصول إلى معرفة أسرار طريقة انقسام الخلايا الجذرية فيعنى ذلك أنه يمكننا الوصول إلى اكتشاف أسباب نوعين مهمين من الأمراض سببهما هو وجود مشكلة فى طريقة انقسام الخلايا. النوع الأول هو التشوهات الخلقية والتى تنتج عن عدم انضباط الانقسام فى فترة معينة أثناء نمو الجنين داخل الرحم. والمرض الآخر هو السرطان والذى تنقسم الخلايا فيه بدون رابط وبسرعة فائقة. فإذا عرفنا أسرار وأسباب انقسام الخلايا الجذرية فى المزرعة المعملية قد نجد مفتاحًا لاكتشاف علاج هذين المرضين الخطيرين المحيرين.

ما هى المشاكل التى يمكن أن يقابلها نسيج الخلايا الجذرية فى المعمل؟

هذه الخلايا تقوم بالانقسام بصفة دائمة وبأعداد هائلة، وحيث إن هذه الخلايا فى الأصل كان من المقرر أن تنتج أنسجة الجنين المختلفة، فيحدث كثيرًا أن تتحول بعض هذه الخلايا تلقائيًا داخل النسيج المعملى للخلايا الجذرية إلى خلايا متخصصة كخلايا الجلد أو العظام أو الأسنان أو أى شىء آخر، وذلك بدون إعطاء إشارة كيميائية لها تطلب منها ذلك. وهذه مشكلة كبيرة لأنه من الأهمية بمكان أن يستمر النسيج من الخلايا الجذرية الأولية البدائية نقيًا حتى يعطيه الباحث الأمر بواسطة إشارات كيميائية خاصة بالتحول إلى نسيج معين محدد مثل نسيج كبدى أو نسيج خلايا عصبية، وذلك لاستخدامه فى علاج مريض عنده مرض معين. ووجود أنواع أخرى من الخلايا المتخصصة داخل هذا النسيج يمنعنا من استخدامه لأننا لا نستطيع مثلاً أن ننقل بعض خلايا العظام أو الأسنان فى الكبد مثلاً وذلك ضمن خلايا الكبد التى ننقلها للمريض، وتجرى الأبحاث المكثفة حاليًا لإيجاد حل لهذه المشكلة، وتتلخص الحلول فى الآتى:

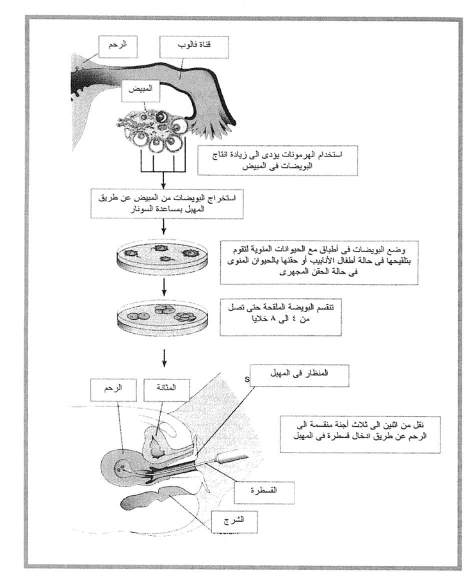
١ - فرز الخلايا المطلوبة وعمل نسيج نقى منها، ويتم ذلك باستخدام ميكروسكوب فلورسنت خاص أو باستخدام الخواص الطبيعية للخلايا كوزن الخلية مثلاً.

٢ - باستخدام مواد وسوائل مغذية للخلايا تحفز التحول إلى نوع واحد من الخلايا وتمنع التحول إلى أكثر من نوع.

٣ - باستخدام خصائص فى الجينات الموجودة فى الخلايا تجعل فصلها ممكنًا.

هل تم نقل الخلايا الجذرية للجسم بنجاح؟

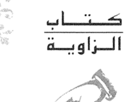
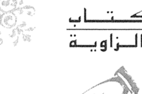
لقد تم استخدام هذه الطريقة بنجاح فى الفئران، فمثلاً تم تحويل جزء من مزرعة خلايا جذرية إلى نسيج خلايا عصبية وتم حقنه فى مخ الفار وتفاعل النسيج فى المخ وأصبح جزءًا منه وبالتالى نجح فى علاج شلل ناتج عن إصابة العمود الفقرى للفار، فقد استطاعت الخلايا العصبية المنقولة أن تحل محل الخلايا المصابة فى العمود



خطوات عملية أطفال الانابيب حتى نقل الاجنة للرحم

نمو الأجنة الفائضة التى لم تنقل للرحم داخل الحضانة، ثم استخلاص الخلايا الجذرية غير المتخصصة وتكوين مزرعة منها ثم تحويلها إلى خلايا متخصصة حسب الحاجة فى المعمل.




كتاب الزاوية

دلائل الإعجاز
عبد القاهر الجرجانى

يقول العلامة الكبير الراحل محمود محمد شاكر محقق كتاب «دلائل الإعجاز» إن المؤلف عبد القاهر الجرجانى أراد بهذا الكتاب أن يؤسس علمًا جديدًا لم يسبقه إليه الأئمة الذين كتبوا فى «البلاغة» وفى «إعجاز القرآن» لكنه (أى الجرجانى) لم يسر فى بناء كتابه سيرة من يؤسس علمًا جديدًا من حيث الأناة فى التبويب والتقسيم والتصنيف فقد كان فى عجلة من أمره وكأن منازعًا كان ينازعه عند كل فكرة يريد أن يجليها ببراعته وذكائه وسرعة لمحه وبقوة حجته ومضاء رأيه.

ويشير شاكر إلى أنه توصل بعد بحث جاد إلى أن الجرجانى قصد من هذا الكتاب مخالفة رأى قاضى القضاة المعتزلى عبدالجبار العالم الكبير فى علم الكلام والأصول والذى يصفه بأنه من أصحاب اللفظ. ويدور كتاب دلائل الإعجاز على رد وإبطال كلام عبد الجبار بأن المعانى لا تتزايد وإنما تتزايد الألفاظ. وأن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلمات ولكن تظهر بالضم بطريقة معينة أى فى الفقرات.

والجرجانى هو الشيخ الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن الجرجانى الأديب النحوى والفقيه الشافعى والمتكلم الأشعرى ومن أشهر كتبه «أسرار البلاغة» وقد توفى على الأرجح عام ٤٧١ أو ٤٧٤ هجرية. ويعتقد العلامة محمود محمد شاكر أن الجرجانى كتب كتابه فى أواخر حياته بدليل أن نسخة الكتاب تشير إلى أن المؤلف كان يوشك على إعادة النظر فى كتابه لكن القدر لم يمهله.

وقد صدر الكتاب المحقق فى طبعة خاصة من مكتبة الخانجى لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كان استنساخ الأنسجة وتصنيع قطع الغيار فتحًا كبيرًا وجديدًا فى عالم الطب، سوف يؤدى إلى ثورة وانقلاب فى علاج الأمراض المزمنة ويؤدى إلى إطالة عمر الإنسان مع تمتعه بصحة جيدة

الفقرى. وتم أيضًا شفاء حالات مرض السكر فى الحيوانات بزرع خلايا تنتج الأنسولين وكذلك تم حقن خلايا القلب والخلايا الدموية بنجاح.

هل يمكن بدء علاج الإنسان بالخلايا الجذرية؟

يحتاج الأمر لمزيد من الأبحاث للإجابة عن بعض الأسئلة وإيجاد حلول لبعض المشاكل، أول وأهم هذه الأسئلة هو:

هل سيقوم الجهاز المناعى للإنسان برفض هذه الخلايا وعدم التجاوب معها كما يحدث فى زراعة الأعضاء الآن والتى تستلزم تعاطى أدوية مكلفة طوال العمر لإضعاف المناعة. بالنسبة للحيوانات لم يتم حدوث أى رد فعل مناعى، وهناك بوادر ترجح احتمال ألا يقوم جسم الإنسان بطرد هذه الخلايا لأنها خلايا بدائية قد لا يتعامل معها كجسم غريب.

ولكن العلماء يقومون بأبحاث كثيرة حاليًا لإيجاد طرق للتصرف فى حالة نشاط الجهاز المناعى للإنسان ضد هذه الخلايا.

* وفى حالة ثبوت أن للخلايا الجذرية أو ناتجها من الخلايا النوعية نشاطًا مناعيًا، عندئذ يمكن تحديد فصائل الأنسجة الجذرية التى تنمو فى المعمل بحيث تنقل الأنسجة المتوافقة مع فصيلة أنسجة المريض ويمكن تجميد هذه الأنسجة فى المعمل وإنشاء بنك به جميع فصائل الأنسجة بحيث ينقل للمريض الفصيلة المناسبة عند الحاجة.

* يمكن باستخدام الهندسة الوراثية تغيير الجينات الموجودة داخل النسيج المعملى بحيث لا يحدث أى تفاعل مع جسم الإنسان أيًا كانت نوعية فصيلة الأنسجة، وفى هذه الحالة يمكن نقل هذا النسيج لأى مريض.

* استنساخ الخلايا من المريض نفسه، وذلك بأخذ بويضة من سيدة متبرعة حيث تفرغ من نواتها التى تحمل الصفات الوراثية لها ثم يتم دمج نواة من خلايا المريض تحمل صفاته الوراثية فى هذه البويضة المفرغة وتؤخذ الخلايا الجذرية من هذه البويضة الملقحة بعد انقسامها، وفى هذه الحالة تكون الخلايا الجذرية من إنتاج المريض، ولها كل صفاته الوراثية والمناعية، ثم يتم تطويرها إلى خلايا الكبد أو خلايا الجهاز العصبى ثم نقلها للمريض نفسه لعلاج العضو المصاب، وبذا لا يحدث طرد لهذه الأنسجة. هذه الطريقة بالرغم من أنها نظريًا ممكنة وبالرغم من نجاحها فى الحيوانات إلا أنه يبدو أن هناك فترة من الزمن ضرورية قبل التاكد من تطبيقها فى الإنسان، وذلك بعد التغلب على بعض الصعاب.

* تمكن العلماء من تطوير الجهاز المناعى للإنسان بحيث لا يقوم بإنتاج أجسام مضادة تؤدى إلى طرد الخلايا والأنسجة المزروعة وتتعايش معها وقد نجح ذلك فى بعض الحيوانات ومن المتوقع فى المستقبل أن يمكن تطبيقه على الإنسان.

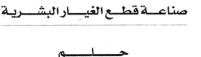
ما هى المخاطر والمضاعفات المحتملة لنقل الخلايا الجذرية للإنسان؟

الخطر الأول: هو رفض الجسم للخلايا وطردها، وقد ذكرنا الطرق المختلفة لمنع ذلك.

الخطر الثانى: هو أنه مثلاً عند نقل الخلايا العصبية للمخ قد يكون النسيج المنقول مختلطاً به بعض الخلايا الجذرية التى لم تتحول إلى خلايا عصبية وقد تبدأ هذه الخلايا الجذرية فى التحول لخلايا وأنسجة مختلفة كخلايا الكبد والأسنان مثلاً، مما يؤدى لحدوث ورم حميد من هذه الخلايا. ويمكن تفادى هذه المشكلة باستخدام خلايا جذرية قد تمت معالجتها بالجينات بحيث يمكن تدميرها فى حالة تحولها إلى أورام بواسطة أدوية معينة، ويمكن أيضًا تطوير بعض الخلايا المتخصصة بحيث تكون لها القدرة على تدمير هذه الخلايا حيث تنقسم لتكوين هذه الأورام.

وبالرغم من أن العلاج بالخلايا الجذرية لايزال فى دوره التجريبى، إلا أنه يستخدم فى علاج السرطان حاليًا فى الإنسان، فبعد أخذ جرعات كبيرة بالعلاج الكيميائى يتم قتل جميع خلايا السرطان، ولكنها أيضًا تقتل الخلايا الحيّة المهمة وأكثرها حساسية هى خلايا النخاع والتى تنتج كرات الدم الحمراء والبيضاء والصفائح الدموية. وقد تمكن العلماء فى هذه الحالات من حقن هذه الخلايا الجذرية داخل النخاع لتبدأ دورة جديدة وتظهر الكرات الحمراء والبيضاء ويعود إنتاج الدم لطبيعته بعد زراعة النخاع، وهذه العملية تجرى بنجاح منذ عدة أعوام.

وقد تم حديثًا استخلاص خلايا جذرية من أجزاء الجسم المكتمل فى الإنسان والحيوان مثل النخاع وأمكن تحويل هذه الخلايا إلى خلايا الكبد والأمعاء والجلد. وفى الفئران تم إصلاح نسيج القلب وأوعيته الدموية باستخدام الخلايا الجذرية المستخرجة من فار بالغ وتم بنجاح أيضًا تكوين خلايا الكبد وخلايا العضلات، ويعطى هذا أملاً فى علاج بعض الأمراض الخطيرة



حلم أصبح حقيقة

كفشل الكبد أو الكلى وكذلك ضمور العضلات في الإنسان.

وقد أمكن علاج اثنى عشر مريضًا عندهم شلل بسبب جلطة في المخ باستخدام الخلايا الجذرية التي تم تحويلها إلى خلايا الجهاز العصبي وحدث تحسن ملموس في هذه الحالات. وفي مثال آخر أمكن أيضًا تغطية جزء من الجلد تمت إزالته بسبب وجود أورام أو حروق وكان ذلك بواسطة جلد مصنَّع من الخلايا الجذرية في المعمل، وتم ذلك بنجاح كامل في حالتين. وحدث أيضًا بعض التقدم في علاج مرض الروماتويد ومرض الذئبة الحمراء بواسطة الخلايا الجذرية المستخدمة من نخاع المريض.

الرأى الأخلاقى والدينى:

كان رد الفعل للهيئات والجمعيات الدينية في العالم يشوبه الحذر والتمزق بين وجهتي نظر، الأولى تقول أن الأديان جميعها تحض على المسئولية الأخلاقية في شفاء المرضى وإزالة آلامهم ومتاعبهم، وبالتالي كان عليها أن تشجع هذا الكشف العظيم لتكتمل أبحاثه ويمكن استخدامه للبشر بفاعلية حيث يشفى مريض السكر والشلل والسرطان وروماتيزم المفاصل وغيرها. غير أن هذه الهيئات الدينية أيضًا ممزقة بين هذه الفوائد العظيمة وبين الموافقة على استخدام الخلايا الجذرية المستخلصة من الأجنة البشرية الفائضة من حالات أطفال الأنابيب أو من حالات الإجهاض في الأسابيع الأولى من الحمل.

وتشجيع هذه الأبحاث يحمل قيمة كبيرة في تحسين فرص رعاية الإنسان والمحافظة على صحته، وفي نفس الوقت يعطي الضوء الأخضر للعلماء بأهمية حرية البحث العلمي، وأن ذلك لا يتعارض مع الآراء الفلسفية والدينية المختلفة.

وجاء التقرير المشترك للجمعية الأمريكية للتقدم العلمي ومعهد المجتمع المدني ليؤكد أن البحث العلمي في مشروع الخلايا الجذرية له آثار مستقبلية مهمة في علوم البيولوجيا، وسوف يعطي فرصة لعلاج أمراض مزمنة ليس لها علاج ناجح في الوقت الحالي. ومن الصعب في الوقت الحالي التكهن بمدى فائدة العلاج بالخلايا الجذرية على المجتمع ولكننا قد رأينا كيف أنقذت الملايين من الأرواح باكتشاف التطعيم ضد الجدرى مثلاً. وقد يكون للعلاج بالخلايا الجذرية أثر مماثل على الحياة البشرية في المستقبل.

وناشدت الهيئة وسائل الإعلام بأن تقوم بعمل حملة إعلامية تثقيفية للمهتمين من الشعب عن المشروعات البحثية للخلايا الجذرية وفائدتها المستقبلية حتى يتكون رأى عام شعبي يؤيدها من جمهور عريض من الشعب.

ومن المعروف أن أى تكنولوجيا حديثة دائمًا ما تثير قلقًا وخوفًا على المجتمع من أن هذا التقدم العلمي قد يؤثر على الحياة وقد تكون له أضرار على الحياة الاجتماعية والأخلاقية. ولابد من وجود فئة من العلماء والمثقفين تكون عندهم نظرة مستقبلية ثاقبة تنظر إلى الأمام وإلى الفائدة الحقيقية للمجتمع بعد إدخال هذه التكنولوجيا. وطالبت هذه الهيئة الحكومة الأمريكية بإعادة النظر في القرار السابق بمنع تمويل أبحاث الخلايا الجذرية لأن ذلك سيؤدى إلى تقدم أسرع في هذا المجال.

ومن المعروف أن هناك قطاعًا من المجتمع الأمريكي محافظ بدرجة شديدة ولا يوافق على بعض أنواع هذه الأبحاث ولكن المهم هو رأى القطاع الأكبر من الشعب.

وبالرغم من القيود المفروضة من الحكومة الأمريكية الفيدرالية بمنع التمويل إلا أن ذلك لم يمنع المؤسسات والجامعات والشركات الخاصة من تمويل هذه الأبحاث. حتى نجح الدكتور جيمس واطسون من جامعة وسكنسن في عام ١٩٨٨ في إنتاج أول مزرعة للخلايا الجذرية. وقد قررت اللجنة الصحية في مجلس النواب الأمريكي الموافقة على إمكانية تمويل أبحاث الخلايا الجذرية في يناير ٢٠٠١.

وفي ٩ أغسطس عام ٢٠٠١ قرر الرئيس الأمريكي بوش إلغاء القرار السابق بمنع تمويل الأبحاث في مجال الخلايا الجذرية والموافقة على تمويل الأبحاث من الأموال الفيدرالية. وقد جاء هذا القرار مخالفًا لوعوده خلال الحملة الانتخابية بعدم تمويل هذه الأبحاث تحت ضغط اليمين الأمريكي المحافظ الذى يؤيده.

وقد كانت الموافقة على التمويل الفيدرالي لهذه الأبحاث نتيجة لشعور أمريكا بأنها قد تصبح خارج المنافسة في هذا المجال الحيوى والذى عند حدوث طفرات في العلاج به سيكون له عائد رأسمالي ضخم يصل إلى مئات المليارات من الدولارات ولا يمكن أن تسمح أمريكا لأوروبا وبعض الدول الأخرى بالانفراد بهذه السوق المستقبلية المحتملة.

وقد قال بوش مفسرًا قراره بأن الأجنة المجمدة التي أخذت من الخلايا الجذرية لم تكن تستعمل على أية حال، وهل من الأخلاق ألا نستخدمها في أبحاث تفيد الإنسان؟ وكخطوة أولى قدم ٢٥٠ مليون دولار للبحث العلمي في مجال الخلايا الجذرية.

ويبدو أن هناك اتجاهًا عامًا في العالم لتشجيع البحوث في هذا المجال وأن الشعب والحكومات ورجال الدين الذين أصبحوا أكثر تفهمًا لوجهة نظر العلماء التي تقول بأن هذه الأبحاث لا تتعارض مع فلسفة الأديان بل هي الاتجاه الصحيح في الطريق المهم لمساعدة الإنسان وعلاجه.■



دلائل الإعجاز

في الكلام على من زهد في رواية الشعر

من زعم أن ذمَّهُ للشعر من أجل ما يَجِدُ فيه من هَزْلٍ وسُخْفٍ وكذبٍ وباطلٍ، فينبغي أن يَذُمَّ الكلامَ كُلَّه، وأن يُفَضِّلَ الخَرَسَ على النُّطْقِ، والعيَّ على البيان. فمنثور كلام الناس على كل حال أكثر من منظومه، والذى زَعَم أن ذَمَّ الشعر من أجله وعاداه بسببه فيه أكثَرُ، لأن الشعراء في كل عصر وزمان معدودون، والعامَّة ومن لا يقول الشعر من الخاصة عَديدُ الرمل. ونحن نعلم أن لو كان منثور الكلام يُجمَعُ كما يُجْمَع المنظوم، ثم عَمَدَ عامِدٌ فجمع ما قيل من جنس الهزل والسخف نثرًا في عصر واحد، لأربَى على جميع ما قاله الشعراءُ نظمًا في الأزمان الكثيرة، ولغَمَره حتى لا يظهر فيه. ثم إنَّك لو لم تَرْوِ من هذا الضرب شيئًا قطُّ، ولا تحفظ إلا الجِدَّ المَحْضَ، وإلا مَا لا مَعَاب عليك في روايته، وفي المحاضَرة به، وفي نسخه وتَدْوينه، لكان في ذلك غنى ومَندوحةٌ، ولَوَجَدْتَ طلبتك ونِلْتَ مُرادك، وحصل لك ما نحن ندعوك إليه من علم الفصاحَة، فاخْتَرْ لنفسك، ودع ما تكرَهُ إلى ما تُحب. هذا، وراوي الشعر حَاك، وليس على الحاكي عَيْبٌ، ولا عليه تَبِعةٌ، إذا هو لم يَقْصِد بحكايته أن ينصر باطلاً، أو يسوء مُسْلمًا، وقد حكى الله تعالى كلام الكفار. فانظر إلى الغرض الذى له رُوِيَ الشعر، ومن أجله أُرِيد، وله دُوِّن، تَعْلَمْ أنك قد زُغْتَ عن المنهج، وأنك مُسيءٌ في هذه العداوة، وهو العصبية منك على الشعر. وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفُحْشُ، وفيها ذكْرُ الفعل القبيح، ثم لم يَعِبهم ذلك، إذ كانوا لم يَقصدوا إلى ذَلك الفحش ولم يُريدوه، ولم يرووا الشعر من أجله.



المشهد الأمريكى فى أستراليا

محمد يوسف عدس

في يوم الثلاثاء الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م، نقلت شاشات التليفزيون إلى الناس في كل ركن من أركان الأرض اثنتى عشرة ساعة من دراما مذهلة مروِّعة، وصفها أحد الكُتّاب الأستراليين بأنها أقرب إلى سيناريو يوم القيامة، وقال آخر: «كأن قوة عظمى شنت هجوماً نووياً مفاجئاً على الولايات المتحدة».

فجّرت الواقعة زلزالاً من الهلع والاضطراب انداح من مركزه في نيويورك إلى كل شبر في الولايات المتحدة، ومن ثم إلى العالم كله.. حتى «أستراليا» تلك الجزيرة / القارة.

وتمثلت ذروة هذا السيناريو بصورة نشرتها صحيفة «كانبرا تايمز» الأسترالية على صدر الصفحة الأولى تحت عنوان كبير: «صناعة رئيس»، أما الصورة فكانت لجورج دبليو بوش يعتلى كومة من أنقاض مركز التجارة العالمى رافعًا بيده العلم الأمريكى وحوله عمال الإنقاذ، وكانت خلاصة الكلام المنشور والتحليلات المصاحبة له أن جورج دبليو بوش ارتفع بين عشية وضحاها من رئيس عادى فاز في انتخابات الرئاسة بحفنة من الأصوات ثار حولها جدل كبير، إلى رئيس حقيقي وزعيم لشعبه وقائد فذ يوشك أن يقود الأمة في معركة ضد أعدائها، وهو أمر لم يكن بوش نفسه يتوقعه أو يحلم به.. تقول الصحيفة إن هذا الانطلاق الصاروخي للرئيس بوش صنعته - في حقيقة الأمر - هذه الأنقاض التى كان يعتليها.

ونشير هنا إلى عوامل بعينها جعلت تأثير الفجيعة الأمريكية على الشعب الأسترالى ربما أقوى منه في أى مكان آخر.. من أهم هذه العوامل أربعة:

الأول: الكتلة السكانية الأساسية للشعب الأسترالى تتألف من العنصر الأنجلوساكسوني، ويتوزع الانتماء الدينى في أستراليا بين الكنيستين الرئيسيتين الأنجليكانية والكاثوليكية، ومن ثم يشترك الأستراليون والأمريكيون في أصول عرقية ودينية وثقافية واحدة.

الثاني: صحيح أن أستراليا لاتزال تتبع من الناحية السياسية للتاج البريطانى، فالملكة إليزابيث هى ملكة أستراليا ويمثلها الحاكم العام في كانبرا، إلا أن الشعب الأسترالى يرى أن نموذج الحياة الأمريكية مثله الأعلى الذى يحاول أن يحتذيه.

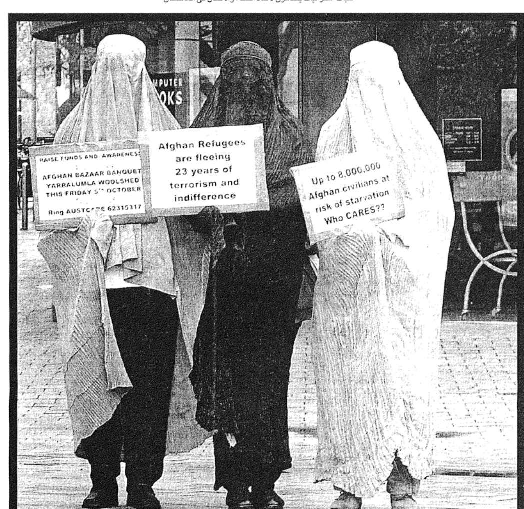
الثالث: تعرضت أستراليا في الحرب العالمية الثانية لخطر الهجوم اليابانى الذى اكتسح في زحفه على جنوب شرق آسيا جيوش الإمبراطورية البريطانية، والقوات المسلحة الأمريكية التى كانت تحتل جزر الفلبين المستعمرة الأمريكية الوحيدة في هذه المنطقة.

وعندما لاذت بريطانيا بالفرار شعرت أستراليا بأنها في مهب الريح أمام عدو كاسح لا قبل لها به، ولكن سرعان ما عاد الجنرال الأمريكي مكارثر ليضع قدمه في أستراليا كخطوة أولى في طريق زحفه إلى الفلبين ومنها إلى اليابان نفسها، وبذلك تحررت أستراليا من الخطر اليابانى.

ومن ثم لا ينسى الأستراليون هذا التاريخ ولا هذا الفضل للقوات الأمريكية المنقذة.

الرابع: تُعانى أستراليا من عقدة كامنة، فالشعب الأسترالى يشعر بانتمائه العرقى والثقافى للغرب ولكن يجد نفسه - جغرافيًا - في قلب شعوب آسيوية ملونة، وهذا مصدر خوف دفين يتغلغل إلى الأعماق، خصوصاً أن أستراليا تشعر أنها محط أطماع إقليمية من جانب جيرانها الأقربين مثل إندونيسيا وجيرانها الأبعدين مثل الصين واليابان. وكذلك كانت أستراليا - ولاتزال - عبر تاريخ سياستها

فتيات استراليات يتظاهرن لانقاذ النساء والأطفال فى أفغانستان



الخارجية تتأرجح بين قطبين: الانتماء الغربي والانتماء الآسيوي الجغرافي.

كان الانتماء الجغرافي يتغلب أحيانًا في السياسة الخارجية خصوصًا تحت الحكومات العمالية وكان يتزعم هذا الاتجاه «جوف ويتلام» رئيس الوزراء الأسبق الذي كانت له مشروعات تعاون مشهورة في المنطقة، وكانت له صداقات قوية مع رؤساء دول جنوب شرق آسيا، وعلى النقيض منه تماماً «جون هوارد» رئيس الحكومة الحالية المحافظة، الذي أحدث بسياسته وتدخله العسكري في جزيرة تيمور شرخًا داميًا بين أستراليا وإندونيسيا، حيث رفضت ميجاواتي سوكارنو استضافته في بلادها، بل أهملت الرد على رسائله إليها بشأن المهاجرين من طالبي اللجوء السياسي، وكان يأمل في مساعدتها لوقف تدفق اللاجئين.

وبشيء من التحليل سنرى أن الوجود الأسترالي في تيمور الشرقية لا يعبر عن طموحات أسترالية إقليمية بقدر ما يعبر عن دعم الولايات المتحدة ورغبتها في انفصال تيمور الشرقية وإيجاد موضع قدم لها هناك من خلال حليفتها الأسترالية، أما لماذا تريد الولايات المتحدة موضع قدم لها في هذه المنطقة بالذات وهو وضع يؤدي إلى إضعاف أي حكومة في جاكرتا، وهي تواجه مشكلات اقتصادية وسياسية وأمنية متفاقمة قد تنتهي بتفكيك هذه الدولة؟ فذلك أمر يحتاج إلى دراسة مستقلة.

المهم هنا هو أن أستراليا لم تكن لتشعر بالأمن في هذا الموقع الجغرافي الصعب بسواحلها المفتوحة على البحار ممتدة لآلاف الأميال، وبكتلتها السكانية الصغيرة التي لم تبلغ بعد العشرين مليونًا، لم تكن لتشعر بالأمن إلا في ظل القوة الأعظم على هذا الكوكب وهي الولايات المتحدة الأمريكية، لا تنس أننا عندما نتحدث عن أستراليا فإننا نتحدث عن قارة واسعة الأرجاء تبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلومتر مربع أي أقل بقليل من مساحة القارة الأوروبية.



تعاني أستراليا من عقدة كامنة، فالشعب الأسترالي يشعر بانتمائه العرقي والثقافي للغرب ولكن يجد نفسه - جغرافياً - في قلب شعوب آسيوية ملونة، وهذا مصدر خوف دفين يتغلغل إلى الأعماق

وربما يفسر لنا هذا الوضع: لماذا أسرع جون هوارد بإعلان التزامه بمساندة الولايات المتحدة في حربها ضد الإرهاب، قبل أن تطلب منه شيئاً بل قبل أن يعلن حلف الأطلنطي نفسه موقفه من الهجوم على نيويورك وواشنطن.

تصادف أن كان جون هوارد في زيارة رسمية لواشنطن وشاهد بنفسه الانفجار الذي أصاب البنتاجون، وكان على موعد في يوم ١٢ سبتمبر للقاء الرئيس بوش في مهمة محددة تتعلق برغبة حكومته أن تخفض الولايات المتحدة دعمها السخي لزراع القمح الأمريكيين، لأن هذا الدعم يضعف قدرة الزراع الأستراليين في المنافسة بالأسواق العالمية.

لم يتمكن جون هوارد من لقاء بوش ولم يستطع العودة إلى بلاده، فاضطر للبقاء في واشنطن حتى وفرت الحكومة الأمريكية طائرة عسكرية لتقله إلى بلاده حيث كان الطيران في ذلك الوقت محظوراً في الأجواء الأمريكية.

وحتى عندما عاد مرة أخرى إلى واشنطن لم يتمكن من عرض قضية القمح على الرئيس بوش، وإنما اكتفى بتقديم العزاء وأكد وعده بالتزام بلاده بالدعم العسكري لواشنطن في حربها ضد الإرهاب، وكان حريصًا لدى رجوعه إلى كانبرا أن يجمع مجلس الوزراء ثم البرلمان في اجتماعين طارئين ليحصل على موافقة الحكومة والبرلمان في الوفاء بوعده للولايات المتحدة.

هاجس الهجرة الملونة:

على رأس ثلاث قضايا شغلت الإعلام الأسترالي قبل حادثة ١١ سبتمبر مباشرة.. كانت مشكلة المهاجرين غير القانونيين من طلاب اللجوء السياسي، الذين يأتون إلى الشواطئ الأسترالية في قوارب تنطلق من إندونيسيا وغالبيتهم من الأفغان والعراقيين، أمام هذه الموجة من قوارب اللاجئين فكان موقف الحكومة الأسترالية متصلبًا رافضًا لاستقبال هذه القوارب مع استخدام القوة إذا لزم الأمر، وقد صاحب ذلك حملة إعلامية شرسة ضد الهجرة والمهاجرين العرب والمسلمين بصفة خاصة.

القضية الثانية تدور حول الاستعداد لحملة انتخابية فيدرالية وانتخابات محلية خاصة بحكومة كانبرا.

أما القضية الثالثة فتتعلق بمشكلة انهيار شركة طيران «آنست» المفاجئ وتشريد آلاف العاملين بها، وهي شركة ملكيتها موزعة بين كل من أستراليا ونيوزيلندا.

اعتاد الأستراليون أن ينظروا إلى هجرة الملونين إلى بلادهم باعتبارها خطراً طالما أرّق قياداتهم السياسية منذ زمن بعيد. من أجل هذا صدرت قوانين أستراليا البيضاء في الماضي لتكون حاجزاً مانعاً لتدفق الهجرة الملونة، ولكن اضطرت الحكومة الأسترالية لإلغاء هذه القوانين العنصرية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، هذا من الناحية الرسمية. أما على مستوى المنفذين في الإدارات المعنية وفي القنصليات الأسترالية التي تقوم باستقبال الطلبات والرد عليها فقد بقيت الآثار النفسية والاجتماعية بظلالها الكثيفة على الموقف.



كانت الحاجة الملحة إلى عناصر معينة من المهاجرين هي التي تفتح باب الهجرة اضطرارًا للملونين وللمسلمين منهم خاصة. فمثلاً حدث أن توسعت أستراليا في التعليم العام توسعًا هائلاً خلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، ولأن مصادرها المفضلة في القارة الأوروبية لم توفر لها العدد الكافي من المدرسين اضطرت أستراليا لفتح الباب قليلاً أمام المهاجرين المتخرجين من الجامعات في الشرق الأوسط، وأنشأت لهم برامج التأهيل التربوي على أوسع نطاق. وحدث انفتاح اضطراري آخر بعد انتهاء حرب فيتنام، حيث تدفقت قوارب اللاجئين من أبناء فيتنام الجنوبية الذين وقفوا مع الولايات المتحدة في حربها ضد الفيتكونج وكان لزامًا على الولايات المتحدة وحلفائها أن توفر لهم المأوى.

وترجع حساسية أستراليا من أمثال هؤلاء المهاجرين الملونين إلى حقائق موضوعية؛ فعدد سكانها قليل كما ذكرنا حيث لا يصل عددهم إلى عشرين مليون نسمة بينما يمكن لهذه القارة باتساع أراضيها ووفرة ثرواتها الطبيعية أن تستوعب أكثر من مائة مليون نسمة، ولكن العنصر الأنجلوساكسوني أو الأبيض الذي يسيطر على مقدرات أستراليا وسياستها يخشى أن يتحول إلى أقلية صغيرة تابعة، في بحر من العناصر الصفراء والسوداء بأطيافها ودرجاتها المتنوعة، وبذلك يفقد المجتمع الأسترالي الأبيض سيطرته وتتلاشى ثقافته وهويته.

ولعل هذا يكمن وراء تشبث الأغلبية الأسترالية البيضاء بتبعية أستراليا للتاج البريطاني إلى آخر رمق فيه.

وقد ظن «بول كيتنج» رئيس الوزراء العمالي السابق أنه قد آن الأوان لانفصال أستراليا عن التاج البريطاني، وكان مقررًا إجراء استفتاء عام - سنة ٢٠٠٠م بهذا الخصوص، ولكن عندما حل موعد الاستفتاء كان بول كيتنج خارج السلطة، فجرى تحت حكومة المحافظين برئاسة جون هوارد، وكان معارضاً للانفصال فشن حملة دعائية ناجحة ضده وبذلك أجهض محاولة بول كيتنج.

لم يتعلم بول كيتنج من الدرس القاسي الذي تلقاه سلفه الكبير «جوف ويتلام» الذي كان له اتجاه انفصالي عن بريطانيا، ورغبة في بناء سياسة مستقلة عن الولايات المتحدة في آسيا وفي الشرق الأوسط، فتضافر عليه الجميع في مؤامرة غير مسبوقة في تاريخ أستراليا حيث أسقطت الحكومة المنتخبة وقام الحاكم العام بتعيين حكومة مؤقتة غير منتخبة من حزب المعارضة، وتلك قصة أخرى ليس هنا مجالها.

أردت أن أوضح أن لأستراليا خصوصيات تقليدية، وتكمن لديها هواجس تتعلق بالهجرة الملونة وعلى الأخص بالنسبة للمسلمين حتى قبل حادث ١١ سبتمبر.



وقد كان لهذه الهواجس حضور واضح إزاء السفينة الإندونيسية «تامبا» التي كانت تحمل على ظهرها أربعمائة مهاجر من أفغانستان والعراق، ولم تسمح لهم القوات الأسترالية بالاقتراب من شواطئها، واضطرتهم للنزول في إحدى الجزر البعيدة رغم إرادتهم، ثم تلتها سفينة أخرى بدفعة من المهاجرين المسلمين غرقت بركابها أمام الشواطئ الأسترالية، وشاع وقتها أن قوات البحرية أطلقت عليها النار فاخترقتها، وهو أمر نفته الحكومة الأسترالية، وتبين - فيما بعد - وجود عدم تطابق بين تصريحات رئيس الوزراء بهذا الصدد وبين تقارير قائد القوات البحرية حيث أعلن أن سيناريو الحكومة لواقعة السفينة الغارقة ليس صحيحًا.

تفجر الغضب ضد العرب والمسلمين:

احتدت حملة الاضطهاد ضد العرب والمسلمين في المدن الأسترالية بعد عرض مشاهد تليفزيونية لمجموعة من الفلسطينيين - قيل إنهم في لبنان - وكانوا يرقصون ابتهاجًا بالهجوم الناجح على نيويورك وواشنطن كما ذكرت الأنباء، ولكن قيل بعد ذلك أن هذه المشاهد هي شريط فيديو (فبركته) إسرائيل أو استلته من سياق مختلف في واقعة سابقة.

وأنا أميل إلى هذا الاعتقاد لأن لي تجربة شخصية في الكشف عن تزييف إسرائيلي مماثل لأفلام وثائقية أهدتها إلى المكتبة الأسترالية الوطنية سنة ١٩٧٥م عن الحروب العربية الإسرائيلية، فقد لاحظت عند فحص فيلم عن حرب ١٩٧٣م أنه يحتوي على عدة أمتار منتزعة من فيلم قديم عن حرب ١٩٦٧م يظهر فيها عدد كبير من أسرى الجيش المصري، وهذا لم يحدث في حرب ١٩٧٣م.

كانت هناك أصابع خفية تدفع الإعلام في طريق الكراهية والغضب ضد الإسلام والمسلمين لتشويههم وتشويه عقيدتهم الدينية.. وهذا نموذج لما سمعته بأذني: في أحد المطاعم بمدينة ملبورن جلس مجموعة من الأستراليين لتناول العشاء، وكان الحديث عن المسلمين وما يفعلون وما يأكلون.. سأل أحدهم: لماذا لا يأكل المسلمون لحم الخنزير؟ وكانت الإجابات المبدئية بعض تعليقات ساخرة، ولكن تطوع النادل الأنيق المثقف بالإجابة الجادة حيث قال: «إن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير لأنهم يعبدون الخنازير تماماً مثل الهندوس لا يأكلون البقر لأنهم يعبدون البقر».. وهي إجابة منطقية ومقنعة جلبت كثيرًا من الرضا والاستحسان، فلا غرابة أن يتورط أناس على هذا القدر من الجهل بالإسلام والمسلمين في أعمال عنف ضدهم.

محاولات لتطويق طوفان الغضب:

كان لابد من محاولات جادة لوضع حد للعنف والاضطهاد والإهانات التي يتعرض لها المسلمون في الشوارع حتى أن بعضهم وعلى الأخص الأطفال والمحجبات لزم البيوت فلم يبرحوها.

وفي هذا الصدد خرجت القيادات الدينية تنبه إلى هذا الخطر المتفاقم، ففي ولاية «كوينز لاند» أكثر الولايات الأسترالية عنصرية وتعصبًا خرج «سلطان دين» رئيس المجلس الإسلامي بالولاية يستغيث بالقيادات السياسية وبالحكماء والعقلاء أن يفعلوا شيئاً لكبح جماح العابثين المخربين، وحماية المسلمين الأستراليين، الذين لا ذنب لهم ولا علاقة لهم بالحادث المشئوم في الولايات المتحدة. قال «سلطان دين» في نداء له على التليفزيون بثته جميع القنوات: «إن المسلمين الأستراليين يتعرضون لإهانات واضطهادات في الشوارع ويتلقون في بيوتهم تهديدات بالقتل عبر الهاتف.. ونصح المسلمين أن يتجنبوا المناقشات مع السكان المحليين».

أما في سيدني عاصمة ولاية «نيوثوس ويلز» فقد أمّ الشيخ الهلالي مفتي أستراليا صلاة جامعة في مسجد «لاكمبا» من أجل السلام وأدان العدوان على المدنيين الأبرياء.

«جون هوارد» رئيس الحكومة الحالية المحافظة، أحدث بسياسته وتدخله العسكرى فى جزيرة تيمور شرخاً دامياً بين أستراليا وإندونيسيا، حيث رفضت ميجاواتى سوكارنو استضافته فى بلادها، بل أهملت الرد على رسائله إليها بشأن المهاجرين من طالبى اللجوء السياسى

ولما تعددت حوادث الاعتداء على الأطفال المسلمين فى المدارس من قرنائهم المسيحيين توجه الأسقف «جورج بل» رئيس الكنيسة الكاثوليكية فى «سان مارى» بموعظة خاصة بهذا الشأن، نصح فيها التلاميذ المسيحيين ألا يضعوا اللوم على قرنائهم المسلمين لشيء حدث فى نيويورك وواشنطن لا ذنب لهم فيه.

لكن حملة التخريب والاضطهاد مضت فى طريقها لتمتص الغضب والكراهية المخزونين فى الأنفس، حيث تم إحراق مساجد فى مدن عدة وتعرضت النساء والمحجبات فى شوارع سيدنى للإهانة والضرب وتمزيق الملابس، ولم تنج حتى الكنائس التى ترفع الصلبان على مبانيها من هجمات الرعاع الذين أحرقوا بعضها لمجرد أنهم رأوا المترددين عليها من جنس العرب، لا يهم بعد ذلك إن كانوا مسيحيين أو مسلمين.

اعتذر الرئيس بوش أو بالأحرى عدّل قليلاً من خطابه السياسى الذى أشعل النار فى قلوب الأمريكيين ضد المسلمين، فتجاوز عبارات «الحرب الصليبية» و«الإرهاب الإسلامى»، حيث أعلن أنه ليس ضد الإسلام والمسلمين وإنما هو ضد «الإرهاب».. والتقى مع قادة المسلمين وتناول معهم الإفطار فى رمضان المبارك.. شيء من التكتيك الإعلامى لا يضير القضية الأساسية!



انتقلت هذه (السُّنة) إلى أستراليا فقامت قيادات سياسية ودينية بزيارة بعض المساجد والتحدث إلى المسلمين فيها، ولكن القيادات العليا للأحزاب كانت منشغلة بالمعارك الانتخابية: فوجدنا زعيم المعارضة العمالى «كيم بيزلى» يحث ما سماهم بالجماعة الإثنية أن يقوم أفراد منهم (وطنيون) بالتبليغ عن العناصر الإرهابية بينهم سواء فى أستراليا أم خارجها...!

أما «جون هوارد» رئيس الوزراء فقد اتخذ من الهجوم على أمريكا ذريعة للهجوم على اللاجئين فى القوارب مشيراً إلى احتمال وجود إرهابيين مدسوسين بينهم، وأكد وزير دفاعه «بيتر ريث» هذا المعنى حيث صرح بأنه «من الممكن وجود إرهابيين بين طالبى اللجوء السياسى.. ولابد أن نحمى شواطئنا على أى حال ضماناً لأمن البلاد من الإرهابيين المتسللين»، وعندما سُئل هل يتوقع عمليات إرهابية فى أستراليا قال: «ينبغى أن نفكر فى المستحيلات فإن ما حدث فى الولايات المتحدة كان يعتبر فى عداد المستحيلات».

فى ٥ أكتوبر خرجت مسيرة كبيرة يتقدمها مجموعة من النساء يلبسن البرقة الأفغانية المشهورة، من جامعة أستراليا الوطنية متجهة إلى وسط العاصمة كانبرا، وذلك لإبراز معاناة المرأة الأفغانية.

ونظمت هذه المسيرة المؤسسة الخيرية «أوست كير» وقد صرح أحد قادة المؤسسة هو «وليام مالى» تعليقاً على الغرض من المسيرة فقال: «نأمل أن يفكر سكان كانبرا ملياً فى الظروف القاسية التى يعانيها اللاجئون الأفغان فى معسكرات الاحتجاز فى أستراليا.. هؤلاء اللاجئون اضطروا اضطراراً للهجرة من وطنهم وتمزقت أسرهم بسبب الحروب الأفغانية التى استمرت ثلاثة وعشرين عاماً بلا انقطاع».

وفى ٢٤ أكتوبر نشرت صحيفة الـ «أستراليان» صورة لامرأة عراقية فى حالة انهيار وبكاء على صفحتها الأولى، وفى الصفحات الداخلية نشرت قصتها المأساوية بالتفصيل، إنها «سندس إسماعيل» التى قدمت على سفينة اللاجئين سيئة الحظ، التى انشقت وغرقت فى المحيط أمام أعين القوات البحرية الأسترالية.. جاءت سندس مع بناتها الثلاث لتلحق بزوجها العراقى المقيم فى سيدنى، ولكنها مُنعت من الوصول إلى الشواطئ الأسترالية وغرق كل أطفالها.. وفى الصحيفة قصص أخرى حزينة تقطع نياط القلوب: قصة «فوز القاسم» الذى فقد كل شيء: زوجته وابنين وثلاث بنات، وقصة «أمل حسن» التى فقدت خمسة هم كل أسرتها تقول: «رأيت عشرات الأطفال يموتون غرقاً أمام عينى ولا أستطيع عمل شيء لإنقاذهم لأننى كنت أقاوم خطر الغرق الذى أحاط بى.. ولن أنسى ماحييت منظر طفلة فى الخامسة من عمرها تقول لأبيها وهى تغرق إذا متُّ هنا فلا تتركنى فى البحر.. ثم جرفها التيار واختفت إلى الأبد».



يعلق الصحفى إيان هندرسون على مأساة اللاجئين الغرقى فيقول: «إن سياسة الحكومة إزاء هذا الحادث المروع سياسة بشعة».

ولا يكتفى الساسة بذلك بل يتخذون من المأساة ورقة يلعب بها كل حزب فى حملته الانتخابية تملقاً لمشاعر الناخبين، ويتفقون جميعاً على أمر واحد وهو أن الذنب ليس فى أستراليا وإنما عند الذين ساعدوا على تهريب اللاجئين من إندونيسيا وباكستان.. خدعوهم وحملوهم على قوارب غير صالحة للملاحة.

لعب الإعلام دوراً خطيراً فى إثارة مشاعر الكراهية الدفينة فى نفوس الناس، وقدم التليفزيون للمشاهدين أناساً سماهم بالخبراء والمتخصصين: هذا فى الإرهاب وذاك فى الحضارات الشرق أوسطية وآخر فى التاريخ الإسلامى، أكثرهم من اليهود والصهاينة، كلهم بدون استثناء كانوا يؤكدون صراحة أو تلميحاً أن المسألة ليست مسألة جماعات متطرفة اتخذت الإرهاب أسلوباً لعملها وإنما تكمن المشكلة فى الإسلام نفسه عقيدة وفكراً، فهو عقيدة لا تعرف غير الاستئصال لمخالفيها.

سلمان رشدى:

نشرت الـ «إيدج» الصادرة فى ملبورن يوم ٦ نوفمبر ٢٠٠١م مقالاً لسلمان رشدى بعنوان: «هذه الحرب هى حول الإسلام»! يرفض فيها حتى اتجاهات المعتدلين من أصحاب النظرة البراجماتية، الذين ينصحون الساسة الأمريكيين بألا يعلنوا أن الإرهاب والإسلام متلازمان إذا أرادت أن تحافظ على تحالفها مع الدول المسلمة فى حربها على الإرهاب. يقول سلمان رشدى إنهم مخطئون فالتلازم قائم بين الإرهاب والإسلام، ثم يورد عشرات الأمثلة كما فعل صامويل هانتنجتون فى كتابه «صدام الحضارات» وهو فى أمثلته يعتسف ويحرِّف الحقائق مثل هانتنجتون ويبالغ فى دلالات الأحداث والوقائع مستهدفاً التحريض السافر.

هذه بعض أمثلة سلمان رشدى يسوقها على شكل أسئلة استنكارية:

- فيم هذه الاحتفالات التى عمت البلاد الإسلامية بالجرائم الإرهابية التى ارتكبها بن لادن والقاعدة؟
- ولم يتظاهر عشرة آلاف باكستانى على الحدود الأفغانية يشهرون سيوفهم ويقودهم الملالى (رجال الدين).. يصرخون الجهاد.. الجهاد؟!
- لماذا يقاتل بريطانيون مسلمون فى صفوف طالبان؟!
- لماذا كل هذا العداء للسامية من جانب المسلمين الذين يحاولون إلصاق تهمة التفجيرات فى حادثة ١١ سبتمبر باليهود، بدعوى أن المسلمين ليست لديهم تكنولوجيا متقدمة ولا منظمات على هذه الدرجة من القوة والإحكام؟
- ولماذا ينصح قادة القاعدة المسلمين ألا يسكنوا الأبراج المرتفعة فى أمريكا حتى لا تصيبهم الطائرات الجهادية القادمة؟
- وفيم الحديث عن تلويث القوات الأمريكية الكافرة للأراضى المقدسة فى السعودية؟ وما هذه القداسة التى يزعمون؟!

يستخلص سلمان رشدى من أمثلته أن المسلمين يحيط بثقافاتهم ركام من تقاليد عتيقة وأفكار بالية وتعصبات ولّدت عندهم أفكاراً متدنية عن المرأة وشاعت لديهم مواعظ شيوخ يكفرون الموسيقى والجنس والشرك، ويبثون الكراهية والاحتقار لأسلوب الحياة الغربية، وظهرت عندهم خلال العقود الثلاثة الماضية جماعات تتغذى على هذه الأفكار وتنشر الإرهاب فى العالم.

ويرى سلمان رشدى أن هزيمة الإرهاب لن تتحقق فى النهاية إلا بأن تأخذ الأنظمة الحاكمة فى الدول المسلمة بالمبدأ العلمانى.. كأنه كان يتنبأ بالأجندة الأمريكية لإعادة تشكيل المجتمعات المسلمة على غرار النموذج التركى الفذ..!، (لاحظ أن سلمان رشدى يمجد الشرك بالله باعتباره من حسنات الحضارة الغربية)!

وفى هذا يبدو «فوكوياما» نفسه أقل تطرفاً من سلمان رشدى، حيث صرح مؤخراً بأن الصراع الحالى ليس ضد الإسلام كدين بل ضد الفاشية الإسلامية، وليس حرب الغرب ضد الإسلام.

بل إن هناك تقارير صحفية وتحليلات لكتّاب يهود أقرب إلى الاعتدال والتوازن من كلام سلمان رشدى الذى يقطر حقداً على الإسلام والمسلمين.. فهذا «أبراهام رالونوفيتش» يكتب عن القدس لصحيفة الـ«أستراليان» فى ١٤ سبتمبر ص٦ يتحدث عن مشاهداته لردود الأفعال فى بلاد الشرق الأوسط، حيث ينقل على لسان أشخاص قابلهم هناك يقولون: لقد حصدت الولايات المتحدة ما تستحقه بسبب مواقفها الداعمة للإرهاب الإسرائيلى ضد الشعب الفلسطينى..، ويذكر رالونوفيتش أن النغمة السائدة على لسان رجل الشارع فى البلاد العربية أنه كان على الولايات المتحدة أن تضغط على إسرائيل لوقف حربها ضد الفلسطينيين.. بل يبرز رالونوفيتش فى تقريره صورة لنموذج عربى أكثر تعاطفاً وولاءً للولايات المتحدة وجده فى الكويت، فقد ألقت حكومة الكويت القبض على عشرين فلسطينياً قاموا بتوزيع الحلوى على الجيران احتفالاً بالهجوم على أمريكا، كما ينقل تصريحاً لأحد كبار رجال الأمن الكويتى قال فيه: «إننا لا يمكن أن نسمح بمثل هذه الاحتفالات على أرضنا.. نحن ضد الإرهاب ونتعاطف مع الشعب الأمريكى فى محنته».

فى هذا السياق نذكر الصحفى «جون بيرنز» الذى كتب لصحيفة «صن داى هيرالد» فى ١٧ سبتمبر تحت عنوان لماذا تولّد أمريكا عند الناس هذا المزيج من الحب والكراهية، يحدد فيه أسباب الغضب عند الشعوب العربية فى أربع نقاط:

- دعمها المتواصل لإسرائيل ضد الشعب الفلسطينى.
- وجود قواتها المسلحة فى الأراضى المقدسة بالسعودية والخليج.
- حصار العراق إلى درجة الاختناق.
- تحالفها مع حكومات فى الشرق الأوسط وآسيا مشهورة بالفساد والطغيان.

وينتقل جون بيرنز ليحلل أسباب التعلق بالولايات المتحدة مشيراً إلى طوابير الشبان الذين يقضون أياماً مضنية واقفين فى طوابير أمام السفارات الأمريكية فى القاهرة وإسلام أباد وغيرها من العواصم، للحصول على تأشيرة الدخول إلى الجنة، فالولايات المتحدة بالنسبة لهؤلاء الشبان هى المكان الذى يمكن فيه أن ينعموا بالحرية التى حُرموا منها فى بلادهم، وهى المكان الذى يستطيع كل إنسان أن يحقق فيه أحلامه.

أما «نورمان أبجوينسن» فلأنه صهيوني يحاول تبرئة الولايات المتحدة وإسرائيل ويلقي باللوم كله على الأنظمة الحاكمة في الدول العربية والإسلامية، ويرى أن المآسي التي تعاني منها شعوب هذه الدول ترجع إلى أوضاع داخلية سيئة لا شأن للولايات المتحدة بها، فهذه الدول غير ديمقراطية ولا تعبأ بحقوق الإنسان لمواطنيها.. ويرى أن الحملة ضد إسرائيل غير عادلة ومن ثم يتجاهل الجرائم البشعة التي تقترفها كل يوم ضد الشعب الفلسطيني، محاولاً توجيه الأنظار إلى أسباب أخرى يفتعلها - مثل غيره - فيزعم أن العداء لإسرائيل إنما يرجع إلى كونها دولة ديمقراطية صغيرة في وسط شعوب متوحشة غير ديمقراطية.

لايزال للعقل والحكمة مكان!

في خضم هذا السعار الإعلامي المتطرف هناك أصوات أخرى.

«جورج نيجوس» صحفي عريق بهيئة الإذاعة الأسترالية جاء إلى كانبرا في أواخر شهر سبتمبر ٢٠٠١م ليلقي كلمة الشرف بمناسبة افتتاح برنامج دراسي جديد عن العلاقات الدولية بجامعة أستراليا الوطنية، قال في كلمته: «إن فهم العالم الإسلامي وليس الانتقام هو الذي سيساعد على حل مشكلة الإرهاب على المدى البعيد.. لن يضمن الانتقام لنا توقف الإرهابيين عن الهجوم على أمريكا أو دول الغرب في المستقبل.. وما لم نعرف لماذا فعل هؤلاء الناس ما فعلوه فلن يكون هناك ضمانات ضد الإرهاب.. ربما يكون الانتقام مردودًا سريعًا، ولكن ليس هذا ضمانًا حقيقيًا بل ربما تولدت منه مواقف أشد تطرفًا وأكثر خطرًا»، ولأنه عاش فترة طويلة بين المجتمعات المسلمة يرى أن هناك جهلاً متبادلاً بين المسلمين والشعوب الغربية، ويعتقد أن ما يحتاجه الغرب هو علاقات دولية أفضل وليس الحرب، فإذا كان لابد من الحرب فلتكن حربًا على الجهل، فالمعرفة والفهم هما أكبر علاج للإرهاب.

في هذا السياق يأتي الأستاذ «آلان بيشنس» وهو رئيس قسم الدراسات الآسيوية والدولية بجامعة فكتوريا (ملبورن)، ويعمل حاليًا أستاذًا زائرًا في الجامعة الوطنية بكانبرا. وهو يلفت النظر إلى حقيقة نفسية عميقة الجذور في الثقافة الأمريكية حيث يقول: الكثرة الغالبة من الأمريكيين ضحايا لأيديولوجية «القوة الأعظم» التي يعتقدون أنهم يملكونها، هذه القوة المتضخمة توحي إليهم أنهم دائمًا على حق وأن الملائكة دائمًا في جانبهم حيثما اتجهوا ومهما فعلوا.. حتى وهم يقومون باضطهاد الآخرين وقهرهم فيما يعتقدون أنه خدمة لبلادهم ومصالحها المقدسة. لذلك نراهم يفعلون أي شيء مهما كان بشعًا خدمة لمصالحهم ولو على حساب الكون كله».

ويطالب «بيشنس» بإنشاء مراكز نشطة في أنحاء العالم يدور فيها حوار جاد وحقيقي بين الحضارات، ويرى أن أستراليا - ربما تكون - أنسب بلاد العالم لأن تأخذ بالمبادرة في هذا المجال، فأستراليا بما تتمتع به من تعددية ثقافية أرض خصبة لهذا الحوار العالمي، تدعو فيه علماء الدين المسلمين والبوذيين والمسيحيين والكونفوشيين والهندوس واليهود، لرسم خريطة عامة يوضحون عليها القيم والمبادئ المشتركة السائدة في هذه الحضارات، فيما يتعلق بقضايا حقوق الإنسان والمساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية... بهذا الفهم المشترك يمكننا أن ندفع إلى زوايا الإهمال والنسيان تلك الأيديولوجيات قصيرة النظر التي يتقوقع فيها بعض مجموعات من الناس منغلقين على أنفسهم، ويشير في هذا الصدد إلى رأي الأستاذ الصيني «وانج جنج فو» (وهو مؤرخ عالمي) في نبوءة صامويل هانتنجتون «صدام الحضارات» حيث يقول: «إن خطورة هذه النبوءة تتمثل في أنها يمكن أن تحقق نفسها.. وأن تأخذ من حادثة مركز التجارة الدولي بداية لذلك».

ماذا قال الخبراء العسكريون؟

الحرب على الإرهاب العالمي وما قيل عنها من أنها نوع جديد من الحرب، فما حقيقة هذه الحرب وما قيمتها وفاعليتها؟

لهذا الغرض التقت مجموعة من الخبراء العسكريين الدوليين جاءوا من بريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا ليتناقشوا في مؤتمر بكانبرا حول هذا الموضوع خلال شهر أكتوبر. وقد انقسم خبراء استراتيجيات الحرب إلى فريقين أو مدرستين مختلفتين إلى حد التصادم في بعض القضايا.

لقد وافق الجميع تقريبًا على استخدام نوع من القوة العسكرية في بعض المراحل ولكن بقي السؤال قائمًا: هل الحملة العسكرية وحدها تكفي لوقف الإرهاب؟ في الإجابة عن هذا السؤال اختلفت المواقف.. يقول «رالف بيتر» الخبير العسكري الأمريكي قائد الجناح المتطرف في المؤتمر: «كثير من الناس في هذا العالم يحسدون الولايات المتحدة ويحقدون عليها حقدًا شديدًا، وهم يعلمون أنهم لن ينجحوا أبدًا في النيل منها، إلى الحد الذي يشلهم عن التفكير في مهاجمتنا».

منطق رالف بيتر كما صرح بنفسه قائم على افتراض أن أولئك الإرهابيين ومن يدعمهم لن يشفي غليلهم شيء ولن يرضوا بأي قدر من التنازلات، والحل عند رالف بيتر وأمثاله هو سحقهم سحقًا بلا رحمة.

هذا الاتجاه المتطرف في فهمه وأسلوبه وجد تعبيره العسكري في معاملة إسرائيل للفلسطينيين، فالحكومة الإسرائيلية الحالية تتبنى فكرة أن أي إخفاق في استخدام أقصى القوة لسحق الأعداء، فكأنك أسلمت نفسك لمن لا يرضيهم ما حصل عليه الفلسطينيون ليتلاعبوا بك!.

وقد رد على هذا الاتجاه في المؤتمر الفريق الآخر الذي رأى أن ما يزعزع مصداقية هذا الاتجاه هو أن القوة الإسرائيلية الهائلة من الدبابات والطائرات والصواريخ لم تنجح في وقف الانتفاضة الفلسطينية، ولذا يرى هذا الفريق أنه رغم أن استراتيجية القوة قد تحقق نجاحًا سريعًا إلا أنه لا مناص من مواجهة الأسباب الكامنة التي تدفع إلى أعمال العنف والإرهاب.



وقد تركزت في هذا المؤتمر الانتقادات الموجهة إلى سياسة الولايات المتحدة في الحرب الأفغانية في ثلاث نقاط:

الأولى: أن الولايات المتحدة تقوم بهذه الحرب كحملة وطنية دون الاستناد إلى المرجعية الدولية الشرعية وهي الأمم المتحدة، مما يدمغ هذه الحرب بأنها مجرد غزو عسكري، ولا تستطيع الولايات المتحدة أن تستغني عن هذه الشرعية بالتحالف الذي جمعته حولها من الدول الإسلامية لأنه تحالف هش ومؤقت - كما يرى المؤتمرون - سرعان ما سيتفكك بمرور الوقت، وخصوصًا مع إصرار الولايات المتحدة على المضيّ في خطتها لتوسيع نطاق هذه الحرب ليشمل دولاً أخرى مسلمة وحركات مقاومة وطنية تحظى بتعاطف واحترام الشعوب المسلمة.

الثانية: تتعلق بالهدف الذي أعلنته الولايات المتحدة لحربها ضد الإرهاب، فقد جعلت على رأس قائمة الأهداف أسامة بن لادن (حيًا أو ميتًا) مع أسماء أخرى، ومعسكرات تدريب القاعدة. هذا الهدف الأخير تحقيقه ممكن حيث يمكن التصويب عليه باعتباره هدفًا ثابتًا. أما الأشخاص فهدف مراوغ ومن ثم لن يتم تدمير شبكة الإرهاب.. وحتى لو قُضي على بعض خلايا هذه الشبكة فستبقى خلايا أخرى قادرة على مواصلة العمل، وبذلك تواجه الآلة العسكرية الرهيبة هواء فارغًا.

الثالثة: إن القضاء على نظام طالبان في أفغانستان لن يؤدي أوتوماتيكيًا للقضاء على الإرهاب فإنك إذا تخلصت من نظام دولة دون أن تحل مكانه نظامًا آخر قويًا وقادرًا على الإمساك بزمام الأمور فإنك بذلك تخلق فوضى ضاربة، وهذا الوضع من شأنه أن يهيئ ظروفًا يفرخ فيها الإرهاب مرة أخرى.

يؤكد هذا الرأي بقوة الجنرال «سير مايكل روز» الذي كان يعمل قائدًا لقوات الأمم المتحدة في حرب البوسنة حيث قال:

«يمكن تحقيق النصر فقط عندما تكون العدالة هي الهدف لا مجرد الانتقام.. إن حل هذه المأساة ينبغي أن يكون حلاً سياسيًا فإن القوة العسكرية وحدها لا تكفي».

في هذا السياق يحذر الكولونيل «مجرجور» من أن خطر التمحور الأمريكي حول الحل التكنولوجي لمشكلة الإرهاب هو خطأ محوري.. فالتكنولوجيا مهما عظم قدرها لا يمكن الاستغناء بها عن الفهم والخيال.. وإذا كانت الولايات المتحدة تعتمد في حربها ضد الإرهاب على ضرب القيادات فإن هذا قد يصلح مع حرب الجيوش المنظمة، فإن الجيوش تنهار بالقضاء على قياداتها، أما ضرب القيادات في حرب الإرهاب فمن شأنه أن يجعل المقاومة أشد شراسة.



أما «كريستين هَلّ» فقد لفت نظره الاستعداء الغبي للإسلام في معركة الأمريكيين ضد الإرهاب، لذلك يحذر من إقحام الإسلام في هذه المعركة، لأنه يرى أن الإيمان الراسخ في الإسلام سلاح بالغ القوة، وأن عقيدة القنابل البشرية التي يسميها المسلمون استشهادًا قوة فعالة ومؤثرة في مواجهة القوة العسكرية المجردة.

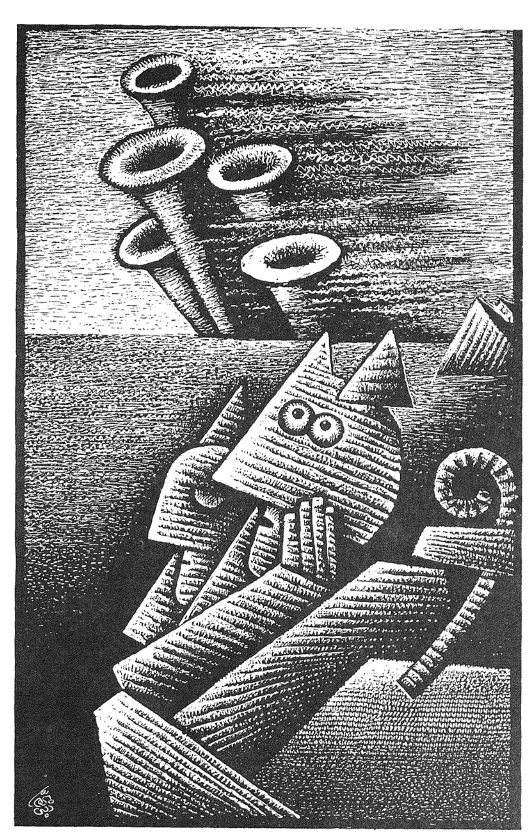
ويفصح عن هذا المعنى بوضوح شديد «روبرت فيسك» الكاتب والصحفي البريطاني في مقال له نُشر في كانبرا تايمز تحت عنوان «قسوة الشعب المطحون» يقول: «لقد احتضنت الولايات المتحدة إسرائيل لسنوات عديدة اعتقادًا منها أن ذلك لن يكلفها شيئًا يذكر، أما الآن فقد اتضح أن الأمر لم يعد كما كانت تظن.. وإنه لمن الشجاعة والحكمة أن تتوقف ولو لبرهة قصيرة لتراجع دورها في العالم، وتتأمل في نتائج تجاهلها لما يعانيه العرب في فلسطين...».

ثم يستدرك قائلاً: «أعلم أن أناسًا كثيرين سوف يعترضون على دعوتي هذه إلى تحليل الأسباب الكامنة وراء هذه الحرب ذات الأبعاد العالمية» ويحذر قائلاً: «إننا إذا لم نفعل هذا ونقوم بالمراجعة الآن فإن علينا أن نواجه صدامًا لم نشهد مثله منذ موت هتلر واستسلام اليابان وانتهاء الحرب في كوريا وفيتنام.. فكل هذا يتقلص ويتضاءل أمام المقارنة بما هو قادم إلينا في المستقبل».



اعتاد الأستراليون أن ينظروا إلى هجرة الملونين إلى بلادهم باعتبارها خطرًا طالما أرّق قياداتهم السياسية منذ زمن بعيد. من أجل هذا صدرت قوانين أستراليا البيضاء في الماضي لتكون حاجزًا مانعًا لتدفق الهجرة الملونة، ولكن اضطرت الحكومة الأسترالية لإلغاء هذه القوانين العنصرية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية

الموســــــيقار موهــــــــــوب



تتطلع الفنون الأدائية جميعها نحو مستوى تتمتع فيه بكيفية موسيقية Musical Quality، ذلك التوافق السحرى الذى ينبعث من العمل الفنى، سواء كان لوحة أو نصًا أدبيًا، أو موسيقا بالطبع، وذلك قبل إدراك أى محتوى أو صيغة. والمفهوم الموسيقى يبسط ظله على الفنون قاطبة، ويدفعها قدمًا نحو التطلع إلى تلك الكيفية الموسيقية، على حد قول شوبنهور Schopenhauer (١٧٨٨ - ١٨٦٠).

ما أروع أن يصلنا موسيقيون عاشوا فى القرن السادس عشر - لم نرهم رأى العين، ولا ندرى شيئًا عن حياتهم - من خلال وسط مجرد كالصوت، يتلاشى بمجرد ظهوره، والأكثر روعة أن يحدث ذلك الاتصال بيننا، وبين مؤلف موسيقى معاصر، يعيش بين ظهرانينا، ولكننا لم نره البته، ولا نعرف عنه شيئًا. ولا تختلف تلك الظاهرة عن تلك التى نعرف بها شكسبير من كتاباته، أو مايكل أنجلو من روائعه فى النحت والتصوير.

كم منا يعطى اهتمامًا لتلك الظاهرة التى تشكل عنصرًا من أهم عناصر فعل التذوق ذاته ألا وهو التواصل الشخصى بين المؤلف الموسيقى والمستمع، ورغم أن الموسيقا لها القدرة على التوصيل، حتى ولو كان مؤلفها مجهولاً، إلا أنه لم تبذل أى محاولة واعية لتحليلها، والدخول فى متاهات الصيغ والأساليب التى لا حصر لها. إن التوجهات الحديثة فى تذوق الفنون بصفة عامة تلقى الآن بالعبء الأكبر على المتلقى. ووسط ضجيج الإعصار المعلوماتى تتردد الآن صيحات محذرة من أن المتلقى قد عانى بما فيه الكفاية من سطوة القابض على «محبس» الإرسال، ويأمل الجميع أن تحرر تكنولوجيا المعلومات المتلقى من براثن مرسله. فمثلما تسعى تلك التكنولوجيا إلى تحرير القارئ من قبضة مؤلفه، والمتعلم من قبضة معلمه، ومستخدم برامج الكمبيوتر من قبضة مصممه، وتسعى نظم الاتصال إلى إضفاء الطابع الشخصى على عملية التلقى، بحيث تكفل للمتلقى قدرًا من الحرية فى اختيار رسالته الإعلامية، سواء من حيث المحتوى أو الشكل أو وقت استقبالها. نجد أن التذوق الموسيقى هو الآخر، يقف بالمرصاد للمؤلف الموسيقى، وقد وضع العقل التفسيرى Interpretative Mind فى مواجهة العقل المبدع Creative Mind، وكأنه يقول والمستمع أيضًا ما هو إلا مبدع (من منازلهم) مادام الخيال هو القاسم المشترك بينهما، ولكن كم من متذوقى الموسيقى لا يدرك تلك الموهبة فيه؟ ونعنى هنا المستمع المتعمق In depth Listener، وليس ذلك المستمع العابر Skipping Listener، ولا ذلك المستمع المتعجل Skimming Listener، الذى يلهث خلف مقاطع الذروة Climaxes، ويتعب نفسه بلا طائل ليتتبع أقصوصة ما أو أحداثًا بعينها.

... والمستمع أيضًا

حسام الدين زكريا

إن الاستماع نفسه موهبة، وهو مثل أى موهبة أخرى نتمتع بها، يكون متفاوت الدرجة، والواقع أن الغالبية العظمى من محبى الموسيقا لديهم ميل ملحوظ للحط من قيمة تلك الموهبة، والارتياب فى قدراتها، بدلاً من المغالاة فى تقديرها

«.. إن إدراك المتعة فى الموسيقا، مع القدرة على إبداعها، لهو هبة الخيال حقًا..»

(كوليريدج)

.. كلما توغلنا فى دهاليز النغم، ومضينا قدماً فى البحث عن آفاق جديدة للمتع الذهنية كلما ترسخ لدينا الاعتقاد بأن العقل، بقدراته غير المحدودة على إطلاق خياله، لهو القلب النابض لحيوية الإبداع الموسيقى، كما أنه القلب النابض أيضًا لتجربة الاستماع ذاتها، والحق أن العقل ذا النزعة الخيالية الحرة Imaginative يمثل ضرورة لا غنى عنها لعملية الإبداع الفنى ذاتها، فى أى مجال من مجالات الفن، وليس الموسيقا فقط، إلا أنه أكثر ضرورة للموسيقا، من حيث هى الفن الذى يحملنا معه لأرحب آفاق الخيال بخصائصه المميزة من حرية وتجريد وانطلاق، فليس هناك محتوى قصصى، أو تمثيل بالصورة Pictorial Repre-sentation، ولا اطّراد فى الأوزان الإيقاعية Me-ter، كالشعر مثلاً، وما من حدود صارمة لإطار يكبح الوظيفة الحدسية للعقل ذى المخيلة. وإذا سلمنا بذلك، فلن ننسى أن الموسيقا لها أنظمتها أيضًا: صيغها الصارمة، ونماذجها الإيقاعية المنتظمة (وفى بعض الأحيان محتواها التصويرى Programmatic) والموسيقا، مثلها فى ذلك مثل الرياضيات والعمارة والتصوير، وفى أى من صيغها المستقرة والمفهومة، ظلت مصدر افتتان للعقل العادى. إلا أن ما يفتن الموسيقى المحترف حقًا، هو أن السمة المميزة للموسيقا تستدعى معالجة خيالية، ولا معنى بتاتًا لحقائق موسيقية مالم يكن هناك خيال يهيم حولها فى حرية وانطلاق، وهنا لا مناص من التركيز على جوانب الموسيقا المعرضة لتأثيرات الخيال الخلاقة.

وما يعنينا هنا هو ملكة الخيال لدى المستمع الموهوب Gifted Listener، لا من نطلق عليه المستمع المقصر أو المتثاقل Backward Lis-tener، وعادة ما يفترض فى موضوعات التذوق أن العائق الرئيسى أمام تذوق الموسيقا، هو عدم القدرة على إطلاق قوى الخيال.

إن الاستماع نفسه موهبة، وهو مثل أى موهبة أخرى نتمتع بها، يكون متفاوت الدرجة، والواقع أن الغالبية العظمى من محبى الموسيقا لديهم ميل ملحوظ للحط من قيمة تلك الموهبة، والارتياب فى قدراتها، بدلاً من المغالاة فى تقديرها. ومن الصعب تحديد أسباب ذلك الشعور بالنقص، طالما ليست هناك طريقة يعتمد عليها فى قياس موهبة الاستماع، وما من أسلوب موثوق به لإدخال الطمأنينة على قلوب هؤلاء الذين يسيئون الحكم على أنفسهم، وعمومًا فهناك ضرورتان أساسيتان يتحقق بهما الاستماع الموهوب Talented Listener: أولاً القدرة على الانفتاح على التجربة الموسيقية وإفساح مجال ينطلق فيه الخيال، وثانيًا القدرة على التقييم النقدى لتلك التجربة، وبالطبع لا يظهر أى من هذين العاملين دون موهبة أخرى يمكن تدريبها وتنميتها، إلا أننا نمارسها لأنفسنا فقط، فما من عائد محسوس من ورائها، والاستماع يجزى عن نفسه، فما من جوائز هناك، أو مسابقات للاستماع الخلاق Creative Listening.

وطوبى لكل موهوب، فما من متع فى الفن تفوق ذلك الاحساس الراسخ لدى المرء بإدراك الجمال كلما هبت عليه نسماته.

وإذا ما ذكرنا المستمع الموهوب فنحن نقصد به ذلك الذى يود أن يحتفظ بوضعه كهاوٍ، ولتعلم عزيزى القارئ أنه ذلك النوع من المستمعين الذى يحفز المؤلف الموسيقى، ويدفعه دفعًا لشحذ قدراته الإبداعية، والمؤلف الموسيقى يعرف تمامًا الكيفية التى سيتفاعل بها الموسيقى المحترف مع الموسيقا، على أن الأمر يبدو شديد الصعوبة مع المستمع الهاوى، فليس هناك ما يشير عليه بما يجب سماعه، وما من خارطة أو دليل يمكنه أن يشد بها الجدائل Strands المختلفة للمقطوعة الموسيقية المعقدة معًا، ولن يؤنسه فى وحدته سوى ذلك الشعاع الضوئى الصادر من مخيلته هو. فإدراك كل مواطن الجمال فى فن مجرد كالموسيقى والتعرف على ما يحتويه من تفاصيل، لهو معجزة صغيرة فى حد ذاته. وفى هذا الصدد فليثق مستمعنا بنفسه إذا لم يجد صدى فى نفسه لمؤلف موسيقى ما (وقد يصاحبه طنطنة وتساؤل ممن حوله من أدعياء الفن.

أما موقف الموسيقى بصفة عامة، والمؤلف الموسيقى على وجه الخصوص، فهو مختلف تمامًا عنه فى حالة المستمع، فاتصاله بمصدر الموسيقا يتيح له فهمًا داخليًا لأسراره، وألفة فى وجود تلك الغوامض، وبذلك يمتلك وعيًا مزدوجًا Dual Awarness، فمن ناحية نراه وقد أدرك السر المبهم الذى يعطى لأنغام عادية بالذات معنى محددًا، ومن ناحية أخرى نجده، وقد أحاط بالمجهود البشرى الضائع فى كل حالة إبداعية، وهو وعى لا أمل للشخص العادى فى أن يتقاسمه. والحق أن هناك نقطة دقيقة فى توازن الوعى عند الموسيقى المحترف تغيب تمامًا عن الهاوى، فالأخير إما يبدى توقيرًا شديدًا أمام المقطوعة الموسيقية، أو تجرفه الإثارة بعيدًا؛ وقد يغرق فى حبه لمقطع منفصل أو يبدى حماسًا محدودًا لمدرسة بعينها أو مؤلف موسيقى بالذات، ورغم ذلك فالاحترافية Professionalism وحدها لا تكفى بتاتًا كضمان للاستماع بذهن متقد، فقدرة الإنجاز والبراعة، حتى لو كانت فائقة، لا تعتبر ضمانًا لغريزة الحكم الصائب. لذا فالمستمع الحسَّاس، لمجرد غياب الأحكام والمفاهيم المسبقة عنده، والتى لا يمتلكها الموسيقى المحترف، يكون فى بعض الأحيان دليلاً أكثر ثقة للحكم على الجودة الحقيقية للمقطوعة الموسيقية. وربما يجمع المستمع النموذجى بين استعداد المحترف المدرب وبراءة الحدس Intuition التى يتمتع بها الهاوى.

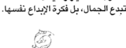
إن الموسيقيين جميعًا، مؤلفين ومؤدين، يعتبرون المستمع الموهوب Gifted Listener هو الشخصية الرئيسية فى عالم الموسيقا، ومن الأهمية بمكان أن نتتبع مصادر تلك الموهبة، وخصائص التجربة الموسيقية التى تدمغه بطابعها المميز. ومستمعنا المثالى هذا هو من يمتلك المقدرة فوق أى اعتبار آخر لكى يهب نفسه تمامًا لطاقة الموسيقى - وهى طاقة تحرك مشاعره كظاهرة فنية على نحو خاص جداً. وإذا كنا غير قادرين على التنقيب عن الأساس الفيزيائى لتلك الظاهرة، فعلينا بالأحرى أن نركز على المضامين الثانوية لنبراتها العاطفية Emo-tional Overtones. وعلى غير ما قد تتوقعه عزيزى القارئ، فالموسيقا لا يمكنها تحريك مشاعرنا على نحو أقوى من أى صيغة من صيغ الفن الأخرى، فالمسرح يمتلك تلك القدرة على نحو أكثر وضوحًا، وإنها لقدرة هائلة بالفعل للدرجة التى قد تثير لدى النظارة، وهم فى خضم أحداث الدراما المسرحية، شعورًا بالاستياء والسخط للسهولة التى يلعب بها الكاتب المسرحى على أوتار عواطفهم. وقد يشعرون أحيانًا بأنهم لوحات مفاتيح Keyboards يمكنه أن يرتجل عليها أى ألحان تروق له، دون مقاومة تذكر من جانبهم، فالعاطفة هنا لها اليد العليا، رغم أن عقولهم قد تستمر فى الاحتجاج متسائلة بأى حق يفعل بهم المؤلف المسرحى ذلك؟!! وكثيرًا ما تتساقط دموعنا فى المسرح، وهو ما لا يحدث إلا فى القليل النادر داخل قاعة الكونسير (أو قد لا يحدث على الإطلاق)، فلِمَ الموسيقا بالذات..؟ لأن الموسيقا ببساطة بها شئ ما يجعلها تحتفظ دائمًا بمسافة بينها وبيننا، حتى فى أشد اللحظات التى يجرفنا فيها تيار الأنغام، ويحتوينا تمامًا فى طيات عالمها السحرى، فالموسيقا لها القدرة على أن تنأى بنفسها بعيدًا عنا، وفى نفس الوقت تكون داخلنا وجزءًا لا يتجزأ من كياناتنا، بل أحيانًا ما تبدو وكأنها عائق أمام انطلاق تفكيرنا، وأحيانًا أخرى نجد أنفسنا وقد تضلعنا فى فهمها. وكثيرًا ما نجد أنفسنا وقد أغوتنا الألحان شيئًا فشيئًا، واستدرجتنا معها، إلا أننا، وعلى نحو عجيب، ندرك أننا لم نفقد السيطرة على مشاعرنا إطلاقًا. إنها الطبيعة شديدة الخصوصية للموسيقا التى تمنحنا تقطيرًا Distillatior للعواطف نجد معه أن جوهر التجربة قد انتقل إلينا، وأصبح أكثر حدة، وتم التعبير عنه بطريقة ما بحيث يمكننا إمعان التفكير فيه، وتأمل تلك التجربة فى نفس اللحظة التى تحملنا فيها الأنغام على أجنحتها.

عندما يهب المستمع الموهوب نفسه لطاقة الموسيقا، فإنه يكون بصدد الحدث Event (الألحان التى يسمعها بالفعل)، وامتثاله Ideali-zation (إضفاء صفة الكمال على الموسيقا بخياله) فى آن واحد؛ فهو يكون فى قلب الحدث، حتى ولو كانت الموسيقا تحافظ تمامًا على ما أطلق عليه إدوارد بالو Edward Ballough المسافة النفسية Psychical Distance بينه وبينها.



إن الملاحظة التى أبداها الشاعر الرمزى بول كلوديل Paul Claudel (١٨٦٨ - ١٩٥٥) على مستمع الموسيقا لهى ملاحظة عميقة حقًا: «.. لقد جعلناه مستغرقًا فى الكونسير لدرجة تلاشى معها تمامًا، ولم يبق منه سوى حالة من التوقع والانتباه..» ولقد أعجبت تلك الرؤية هارون كوبلاند Aaron Copland (١٩٠٠ - ١٩٩٠) المؤلف والناقد الموسيقى الأمريكى ذائع الصيت، والذى يرى أن عنصر التوقع Expectancy إنما يشير إلى قدرة المستمع على أن يستسلم بنفس تواقة لما يسمعه، بينما ينم الانتباه Attention عن الاهتمام بما يقال، والاستغراق التام مع استيعاب ما يتم سماعه، ويسوق كوبلاند تجربة شخصية عندما راقب مرارًا بعض المستمعين، من النوع الذي استغرقته الموسيقى، أثناء الكونسير، واستغرق هو الآخر فى محاولة سبر أغوار طبيعة استجاباتهم بدقة، ولقد كانت تجربة آسرة عندما وجدهم ينصتون لموسيقاه بالذات، ويقول أنه فى تلك الأحوال لا يكون مهتمًا بما تتيحه الموسيقى من متع، بل بمحاولة معرفة ما إذا كانت تبدو مفهومة أم لا، ولا ينسى كوبلاند أن يلفت أنظارنا إلى جانب عجيب من سيكولوجية الموسيقى المبدع، فهو يقول إن الفكرة التى واتته بأن موسيقاه قد تُمتع أو لا تُمتع عددًا لا بأس به من محبى الموسيقى، لم تثره على الإطلاق. وهناك لحظات كان النظارة يبدون فيها استهجانهم لموسيقاه بعنف واضح بالهسهسة والإشارات، ولحظات أخرى يرتفع فيها التصفيق إعجابًا، وفى كلتا الحالتين لم يحرك ساكنًا. ويرجع كوبلاند سبب ذلك إلى أنه ربما يكون قد ظل بمنأى عن النتيجة النهائية، فقد نبعت متعته الحقيقية من مجرد كتابة الموسيقا، خاصة عندما يشعر أنه قد قارب على الانتهاء منها، إلا أنه بمجرد رفع يده عن العمل يجد أن الموسيقا قد أصبحت لها حياتها الخاصة. إن ذلك لا يعنى سوى أن الفنان نفسه ما هو إلا آلة غير واعية Unwitting لا يشبعها أن تبدع الجمال، بل فكرة الإبداع نفسها.

وإذا ما عدنا لمستمعنا الذى استغرقته الموسيقا، فالسؤال الذى يهم المبدع ليس هو المتعة التى خرج بها المستمع، أو لم يخرج أصلاً، بل عما إذا كان قد





استوعب فحوى الموسيقا، وإذا كان قد استوعب فما هو ذلك الذى استوعبه..؟

وهكذا نجد أنفسنا نقترب بحذر من إحدى أكثر المشاكل أشواكًا فى علم الجمال - إيجاد معنى للموسيقا. هنا تبدو مهمة السيمانطيقى Semanticist، وهو يتفحص معانى الكلمات (أو معنى المعنى)، أكثر سهولة مقارنة بذلك الذى يملك روحًا جسورة، وله قدرة شديدة على الاحتمال، كى يغامر بحثًا عن معنى للموسيقا، وقد يتنحى المؤلف الموسيقى جانبًا بسهولة عن تلك القضية. فالجماليات غالبًا ما تكون خارج نطاق اهتمامه، فموهبته الحقيقية إنما تكمن فى قدرته على التعبير، دونما أى تأملات وأفكار نظرية. على أن المشكلة تظل ملحة، وعلى الموسيقى أن يكون لديه شىء ما ذو شأن يقوله لمن يتفلسفون حول الفن، وخاصة أن كل ما كتب حول تفسير الموسيقا أو إيجاد معنى لها نادرًا ما يكون له أساس من المصداقية، فتعدد أوجه الموسيقا، وإمكانية فهمها من زوايا متعددة، يجعل من تقنين تلك الكتابات مسألة عقيمة - مازال الرأى الذى نادى به الشاعر الأمريكى والت هويتمان Walt Whitman (١٨١٩-١٨٩٢) يلقى قبولاً عامًا: الموسيقى هى جماع ما تذكرك به الآلات عندما تستمع إليها -.



الموسيقا ببساطة بها شىء ما يجعلها تحتفظ دائمًا بمسافة بينها وبيننا، حتى فى أشد اللحظات التى يجرفنا فيها تيار الأنغام، ويحتوينا تمامًا فى طيات عالمها السحرى، فالموسيقا لها القدرة على أن تنأى بنفسها بعيداً عنا، وفى نفس الوقت تكون داخلنا وجزءاً لا يتجزأ من كياناتنا، بل أحيانًا ما تبدو وكأنها عائق أمام انطلاق تفكيرنا، وأحيانًا أخرى نجد أنفسنا وقد تضلعنا فى فهمها



ويمكن القول إجمالاً فى هذا الصدد أن هناك نظريتين متعارضتين اتفق عليهما علماء الجمال أخيرًا، واحدة تنادى بأن معنى الموسيقا، إذا كان هناك أى معنى، إنما يكمن فيها ذاتها، ويجرى البحث عنه فى نطاقها، فالموسيقا ليس لها أى معنى خارجها، والأخرى تقول بأن الموسيقى لغة بلا قاموس يقوم المستمع بتفسير رموزها طبقًا للغة عواطف اسبرانتو Esperanto of Emotions غير مكتوبة، وكلما تفحصنا هاتين النظريتين، كلما أيقنا أنهما مرتبطتان ببعضهما ارتباطاً وثيقًا على عكس ما يبدو عادة، ولذا فالموسيقا كلغة رمزية ذات قيمة سيكولوجية وتعبيرية، لا يمكن تفسيرها إلا من خلال الموسيقا نفسها، أما الموسيقا التى يقال أنها لا تعنى إلا نفسها، فهى تشيد أنماطًا من الصوت Patterns of Sound توحى حتمًا بمضامين، ومفاهيم Connotations فى عقل المستمع، حتى وإن لم يتعد ذلك مجرد الفرحة بإبداعها، وعمومًا فمهما كانت الموسيقى، خالصة أم غير خالصة، موضوعية أم لغة، فما من شك أن المؤلفين الموسيقيين يتلقون حافزهم من نفس تلك الدوافع، ولا يمكننا التسليم بأن باخ، وهو يضع مؤلفه Orgelbuchlein - كتاب الأرغن الصغير الذى جمع فيه ٤٦ مقدمة كورال Chorale Prelude للأرغن (١٧١٧) - كان يفكر فى أنه يبدع موضوعًا عبارة عن مجرد نوتات مرصوصة إلى جوار بعضها البعض، أو أن تشايكوفسكى وهو بصدد موسيقاه لبحيرة البجع، لم يكن يعنى بشىء سوى الاندفاع الجامح وراء عواطفه بلا ضابط أو رابط. من الممكن تداول النوتات الموسيقية كما لو كانت أشياء محسوسة بالتأكيد، ومن الممكن استخدامها فى إجراء تمارين، مثلما يفعل الراقص، إلا أنه عندما تكتسب تلك الأنماط الصوتية، التى تشبه التمارين، معنى ما، فإنها تصبح موسيقا على الفور، وهناك تبرير تاريخى يفسر التأكيد بقوة على جانب واحد من ذلك الجدل أحيانًا، ثم على الجانب الآخر أحيانًا أخرى: ففى الفترات التى كانت فيها الموسيقا فاترة ومتحفظة فى عواطفها، ومنعزلة عن باقى الفنون، وتتبع القواعد المعمول بها فى صرامة مدرسية، كان من المحظور على المؤلفين أن يتناولوها كلغة للعواطف، وفى القرن التاسع عشر، عندما تحولت لتحمل السمات الداخلية لحركة العاصفة والاندفاع Sturn Undrang - الحركة الأدبية التى قادها كل من جوته وهيردر وشيللر فى الفن متأثرين بأفكار روسو وكانت إرهاصة مهمة للتيار الرومانسى فى الموسيقى - كان الجو العام يحذر المؤلفين الموسيقيين حتى لا ينسوا أن الموسيقا فن خالص له جماله الذى لا يخضع ولا يدين إلا لذاته. وقد لخص هانزليك، النصير المثالى للموسيقى الخالصة Pure Music فى القرن التاسع عشر، ذلك التضاد الثنائى Dichotomy المتواتر ببراعة فائقة عندما كتب يقول: «.. إنه غناء داخلى وليس شعورًا داخليًا هو الذى يحفز شخصًا موهوبًا لكتابة قطعة موسيقية..»، وعمومًا، فالمؤلف الموسيقى وهو ينكب على عمله لا يشعر بتاتًا بذلك التضاد الثنائى، فالغناء هو الإحساس بالنسبة له، وكلما كان الإحساس بالغناء لديه مكثفًا وشديدًا، كلما ظهر العنصر التعبيرى عنده أكثر نقاءً.

إن التساؤل عن معنى دقيق للموسيقا لهو سؤال لم يكن من الواجب، ولا يجب طرحه على الإطلاق، وعلى أية حال، فهو لن يستدر إجابة دقيقة أو محددة. إنه العقل الملتزم بالنصوص الأدبية Licrary Mind، هو الذى يمثل له الغموض عائقًا يشوش تفكيره (المحدود)، وما من محب حقيقى للموسيقى يتجشم عناء محاولة إدراك الخاصية الرمزية للغة الموسيقية، بل على العكس، فإن ذلك الغموض بالذات هو الذى يثير الفضول ويأسر اهتمام المستمع وينشط الخيال، ومهما كشف علماء دلالات الموسيقى من غموض الموسيقا، سيظل المؤلفون مواظبين على إبداعاتهم، لا يلوون على شىء، وسيعرضون أمامنا تلك المشاعر المعقدة ببراعة فائقة لا تستطيع اللغة حتى تسميتها، ناهيك عن تحديدها. وجملة (ناهيك عن تحديدها) هذه قد وردت فى فصل مقنع بعنوان: «فى مغزى الموسيقى On Significance In Music» لسوزان لانجر Susanne Langer (١٨٩٥-١٩٨٥)، حيث استعرضت مختلف نظريات معنى الموسيقا من أفلاطون حتى شوبنهور، ومن روجر فراى حتى نظريات التحليل النفسى الحديثة، لتستخلص فى النهاية قولها الشهير: «.. الموسيقا هى أسطورة حياتنا الروحية - إنها أسطورة فتية، تفيض حيوية، وحافلة بالمعانى، وهى مازالت فى طورها الإنمائى..».

والأساطير الموسيقية عرضة دائماً لتفسيرات شخصية للغاية، بل إنها تتفوق فى ذلك على الأساطير الشعبية، وما من وسيلة معروفة يمكننا أن نضمن بها مصداقية تفسير زيد أو عبيد من النقاد، وأى تفسير منها أكثر صدقًا، وما الذى يضر لو تبادلت سيمفونية البطولة Eroica اسمها مع سيمفونية القدر (المزعومة) لبيتهوفن..!! على حد قول الناقد الموسيقى ديفيد راندولف، وهو بصدد استنكاره للادعاء بأن الموسيقا يمكنها أن تروى قصة. ولا يسعنى إلا أن أوصيك عزيزى متذوق الموسيقا الجاد بالاعتماد التام على فهمك الغريزى لتلك الرمزية غير اللفظية التى توحيها الأصوات الموسيقية.

إن كل ذلك لا يعنى أى شىء البتة لهدف المستمع الموهوب فى البداية، كما يجب أن يكون، وهو الاستمتاع بالموسيقا. فهو، بدون نظريات، أو أى أفكار مسبقة عما يجب أن تكونه الموسيقا، يهب نفسه بصفته إنسانًا حساساً وواعياً لطاقتها السحرية، وإنها لعلاقة تثير دهشتنا حقًا تلك التى تقوم بين المستمع والموسيقا، فهى علاقة بدائية أساسًا، والواقع أن جميعنا نستمع إلى الموسيقا على مستوى أولى من الوعى الموسيقى، وهو مستوى بدائى تكون أرضيتنا عنده ثابتة. وعلى هذا المستوى، مهما تكن الموسيقى، يمكننا أن نمارس معها ردود أفعال أساسية، كالتوتر أو الاسترخاء، التبلد أو الشفافية، السلاسة أو الغضب الملتهب، مع تدفق الرنين الموسيقى Swelling، وخموده Subsiding، واندفاع الموسيقا، وتراجعها، وامتدادها، وسرعتها، وهديرها، وهمساتها - وآلاف من انعكاسات سيكولوجية لمسيرة حياتنا الواقعية بإيماءاتها، ولفتاتها، وعالمنا اللاواعى برمته.

تلك هى الطريقة التى نستمع بها جميعًا إلى الموسيقا، سواء كنا موهوبين أو خالين من الموهبة، ولا يمكن لكل ما كتب أو يكتب عما نسمعه من موسيقا، سواء كمادة تاريخية أو تحليلية، مهما كان مشوقًا، أن يغير من تلك العلاقة الأساسية.

ولا يعنى ذلك بتاتًا أنه ليس هناك احتمال لتهذيب الذوق الموسيقى، بل على العكس تمامًا، فالصيغ الكبرى فى الموسيقى، كالسيمفونية والكونشرتو، لا تجذب سوى مستمع قد نما ذوقه من خلال الاستماع، أو التدريب أو كليهما، وعمومًا فعملية تهذيب الذوق الموسيقى تبدأ بالقدرة على تمييز الفروق الدقيقة فى الأحاسيس Subtle Nuances of Feeling، وقد يكون فى إمكان أى منا أن يدرك الفرق بين مقطوعة حزينة وأخرى مبتهجة، أما المستمع الموهوب فيتعرف على خصائص الفرحة ذاتها وعلى روح البهجة - سواء كانت بهجة مشوبة بما يعكر صفوها، أو بهجة رقيقة، أو فرحًا لاهيًا، أو هيستيريًا، وما لا نهاية له من الفروق التى لا يمكن تسميتها بسبب لا قياسية الموسيقا Incommensurability مع اللغة.



والفهم الناضج للفروق الطبيعية فى أساليب التعبير المتوقع من الموسيقا على اختلاف عصورها، هو مطلب جد مهم للاستماع بذهن حاد Subtle Listening. إن التيقظ لتاريخ الموسيقا لابد أن يعد المستمع الموهوب لكى يميز بين الفروق الأسلوبية، وعلى سبيل المثال، عند التعبير عن الفرح، فتلك النشوة الصوفية التى يجدها فى موسيقا سكاريابين Scaribin - أليكسندر نيكو لايفتش سكاريابين Alesander Nikolayevich Scribin (١٨٧٢-١٩١٥): مؤلف موسيقى روسى. حاول التعبير عن النشوة الصوفية فى قصيدة السيمفونى «قصيدة النشوة Poem of Ecstasy» (١٩٠٨) مستخدمًا ما سماه بالتآلفات الصوفية Mystic Chords - لا يجدر به أن يبحث عنها فى موسيقى جلوك Gluck - كريستوف فليبالد جلوك Christof Wielebald Gluick (١٧١٤-١٧٨٧): مؤلف موسيقى ألمانى من مطورى الأوبرا العظام - مثلاً أو حتى عند موتسارت. وذلك الإحساس بالألفة «البيتى» الذى يستشعره المرء فى عالم أواخر القرن الخامس عشر، ليجعل المرء متنبهًا لما لا يجب أن يبحث عنه فى موسيقا تلك الفترة (فذلك الإحساس موجود بطبيعة الموسيقا). وبنفس الأسلوب، سنجد أن الإحساس بالألفة الموجود فى التعبيرات الموسيقية لعصر الباروك المتأخر يوحى على الفور بالتطابق مع سمات معينة في الموسيقا العالمية المعاصرة. ومحاولة فهم الموسيقا برمتها على أمل كاذب بأنها ستلطف

الموسيقار موهوب والمستمع أيضا



قد يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو: هل يُصنف المستمعون طبقًا لما يسمعونه، بمعنى أن من يستمع إلى موسيقا تعد من الأعمال الكبرى فى الفن، سيحظى بمقام أرفع، أو يكون على مستوى أخلاقى أسمى..؟ هذا هراء بالطبع. فما على الموسيقا سوى أن توقظ فينا ردود أفعال ذات طابع روحانى. هذا لو كانت عملاً رائعا بالطبع. وهى مشاعر موجودة فينا بالفعل، ولا تحتاج سوى من يوقظها فقط

آلامنا وسط عباب هارمونيات القرن التاسع عشر الذاخرة، لهو خطأ شائع يقع فيه كثير من عشاق الموسيقى العالمية فى يومنا هذا.

هنالك موهبة أخرى يحتاجها مستمعنا، وربما تكون أشد المواهب ندرة، وأكثرها ضرورة فى الواقع. إنها موهبة القدرة على إدراك كل ما يحيط بالإطار الإنشائى Structural Framework لعمل موسيقى متسع الجنبات. فبعد سبر أغوار معنى الموسيقا، تبدو تلك النقطة الأكثر إبهامًا عندما نتعرف على قدرتنا السمعية Sural Faculty، وما من شك أن الطريقة التى نصنف بها (ونضيف إليها، ونتحقق منها فى أذهاننا) تلك الانطباعات، التى لا تبدو علينا إلا منفردة فى لحظات متناثرة خلال الموسيقى المنسابة عبرنا، هى إحدى أندر تجليات الوعى الإنسانى، وهنا لابد للخيال من أن يشتعل. وقد يبدو من المدهش حقاً أن يستطيع المرء تجميع مقطوعة ما فى أذنه الواعية Mind's Ear. إنها لمهمة عسيرة فى أى فن من الفنون، خاصة الفنون الزمانية كالدراما والرواية، إلا أنها، على الأقل، تعتمد على تتابع زمنى Chronology للأحداث، يسترشد به المتفرج أو القارئ عادة، ورغم أن الرقص بطبيعته له بنية تنظيمية مناظرة تقريبًا للموسيقى، إلا أنه هنا أيضاً، ورغم انسياب الحركة، نجد أن كل لحظة منفصلة فيه تمثل صورة ما، على نقيض اللوحة المرسومة، أما فى الموسيقا، فإننا لا نجد تتابعًا زمنياً للأحداث أو صورة لحظية، أو أى شىء نتعلق به. وهنا لا مناص أمامنا من الخيال والخيال فقط، فهو الذى يمتلك القدرة على إحداث التوازن بين الانطباعات المشتركة التى تتركها الألحان (الموضوعات اللحنية Themes)، والإيقاعات، والتلوينات الصوتية (الجرس)، والهارمونيات، والأنسجة الموسيقية Textures، والديناميكية، والتفاعلات بين الموضوعات النغمية، والتباينات Contrasts. وفى الإمكان عمل رسم بيانى Diagram لبنية موسيقية ما، فربما تكون بذات عون للمستمع المجتهد، إلا أننا فى العادة لا نستمع للموسيقى، وقد وضعنا أمامنا مخططات بيانية. وما الحكمة فى ذلك، فالتركيز الزائد على مخططات الشكلية الخالصة لعمل موسيقى ما قد يصرف النظر عن التداعى الحر Free Association مع العناصر الأخرى للمقطوعة الموسيقية (كالإيقاع Rhythm، واللحن Melody، والتآلفات Chord Structure، والتلوين الصوتى Tone Colour)، ولذا فلن نزيد الأمر غموضًا.





ونعود أدراجنا لتلك الموهبة المدهشة، والتى تتيح لصاحبها أن يلخص انطباعاته المتشابكة عن مقطوعة من الموسيقا البحتة بحيث تتحد أحداث التدفق الهارمونى مع النسيج الموسيقى، عند مرورها به لتتشكل فى النهاية صورة كاملة وموحدة لجوهر العمل. إن نجاح المستمع فى تلك المغامرة ليعتمد أولاً على وضوح مفهوم المؤلف، وثانياً على توازن دقيق بين القلب والعقل، وهو توازن يحرك مشاعره فى نفس اللحظة التى يحتفظ فيها باستجابته العاطفية، ليستخدمها فيما بعد لإصدار حكم متوازن فى لحظات استجابة أخرى تالية ومختلفة، سواء وهو بصدد العمل الموسيقى، أو عندما يعاود تجربة الاستماع. وهنا لابد للمستمع أن يهيب بموهبته الشخصية، مستعينًا بقدراته على التحليل والخبرة والخيال، ولابد من اتحادهم معاً ليمدوه بثقة يشعر معها أنه قد تبنى جماع أفكار المؤلف الموسيقى، بحيث أصبحت وكأنها أفكاره هو. هنا إذا ما كان المستمع قد فهم شيئًا ما، فلابد أن يكون ذلك ما أراد المؤلف أن يوصله تمامًا فى صورة نماذج صوتية Patterns of Sound تمثل جوهر شخصيته، أو على الأقل، السمة الغالبة التى انعكست منها فى ذلك العمل بالذات.



وقد يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو: هل يُصنَّف المستمعون طبقًا لما يسمعونه، بمعنى أن من يستمع إلى موسيقا تعد من الأعمال الكبرى فى الفن، سيحظى بمقام أرفع، أو يكون على مستوى أخلاقى أسمى..؟ هذا هراء بالطبع. فما على الموسيقا سوى أن توقظ فينا ردود أفعال ذات طابع روحانى ـ هذا لو كانت عملاً رائعًا بالطبع ـ وهى مشاعر موجودة فينا بالفعل، ولا تحتاج سوى من يوقظها فقط. وعندما تحضنا موسيقا بيتهوفن على أن نكون نبلاء، أو لكى يكون لدينا إحساس بالتعاطف مع الآخرين، أو توحى لنا بالقوة، فهى توقظ فينا أفكارًا أخلاقية موجودة لدينا منذ اشتد عودنا. والموسيقا هنا لا تملك وسيلة للإقناع، بل تحاول فقط أن تميط اللثام عن تلك المشاعر الدفينة داخلنا، وتجعلها واضحة لنا. وهى لا تشكل سلوكًا ما، بل إنها هى ذاتها المثال الحى لأسلوب خاص فى النظرة للحياة. وعمومًا فالكونسير ليس بخطبة وعظ ـ إنه حفلة موسيقية ـ تتجسد فيها من جديد سلسلة أفكار يتضمنها العمل الفنى.

وهناك مشكلة أخرى بدأت تفرض ظلها على الساحة أخيرًا، بل وتزداد وطأتها دومًا، وعلى مستمعنا الموهوب أن يعطيها قدرها الكافى من الاهتمام. فالملاحظ أن وجود أجهزة تسجيل وتشغيل التسجيلات الموسيقية، رغم ما حدث بها من تطور هائل، لم يغن عن العروض الموسيقية الحية حتى الآن، وهو ما أتاح الفرصة لانتشار الولع بالموسيقى الكلاسيكية القديمة على مستوى العالم، وأقصد هنا موسيقى الجهابذة فى مجال موسيقى الآلات Instrumental Music منذ منتصف القرن السابع عشر وحتى قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤): موسيقى عصر الباروك ممثلة فى باخ وهاندل، ثم المرحلة الكلاسيكية: (مدرسة فيينا الأولى) هايدن وموتسارت وبيتهوفن، ثم الموسيقى الرومانتيكية، مرورًا ببراهمز وفاجنر وليست وبرليوز وبروكنر ومالر وريتشارد شتراوس، وهو ما اعتبره خبراء التذوق موقفًا غير صحى بالمرة بتحول الظاهرة إلى نوع من الاستحواذ فرضته الموسيقى القديمة، مما نحى بتجربة التذوق إلى نوع من الاستماع الآمن الخالى من أى مغامرة جمالية، مادامت المادة الموسيقية المطروحة لأساتذة من الجهابذة توطدت مكانتهم على مر العصور، وأصبحت روائعهم قضايا مسلَّمًا بها فى قاعات الكونسير، والبرامج الموسيقية المتخصصة فى محطات الإذاعة حول العالم. إن امتلاء قاعات الكونسير بأصوات موسيقية مألوفة سيعمل على نشر شعور بالطمأنينة بين جماهير المستمعين، بينما هم يفقدون تدريجيًا قدراتهم على ممارسة أحكامهم الموسيقية فى حرية، مع سماع نفس العدد المحدود من المؤلفات الأصيلة، وشيئًا فشيئًا، ومع التداول المتكرر للروائع الموسيقية المضمونة، ستتحول الجماهير إلى الاعتقاد بأن تلك المؤلفات فقط، هى التى تستحق اهتمامها (وليس فى الإمكان أبدع مما كان)، وهو ما من خصائصه أن يُضيِّق مفهوم الجماهير العريضة عن الموسيقى، ويبعدها عن الكيفية التى تتنوع بها التجربة الموسيقية وتتسع، وبذا يلقى بأى أعمال أقل قيمة إلى الظل، أو على الأقل لا يضعها فى مكانها الصحيح، الأمر الذى أصبح معه المبدعون الجدد مهددين بالتجاهل والنسيان فى حياتهم، وتحولت معه قاعات الكونسير إلى متاحف سمعية Auditory Museums ـ أليس هناك ما هو أبلغ ضررًا بتجربة التذوق من التعصب لموسيقى بعينه، وهو ما تؤدى إليه تلك الظاهرة بالطبع، وقد كان أستاذى الراحل د. حسين فوزى دائمًا ما يحكى عن صديقه (فى الثلاثينيات من القرن المنصرم) الذى كان يأتى مهللاً ويقول: ليس هناك من يطاول سيزار فرانك Cesar Franck (١٨٢٢ ـ ١٨٩٠)، وما هى إلا بضعة أسابيع، ويعاودهم قائلاً: لا يعلو على براهمز Brahms (١٨٣٣ ـ ١٩٩٦)، ولا يكاد يمر شهران إلا ويأتى قائلاً: هو موتسارت Mozart ولا غيره..!! ـ على أنه مما يدعو للسخرية هو أن من تم إقناعهم بتركيز اهتمامهم على الروائع الموسيقية فقط، هم تحديدًا الذين يعانون أشد الصعوبات عند استقصاء جوانب التفرد والجمال فى الروائع الموسيقية نفسها. إن الريبرتوار Repertoire الضيق المحدود لقاعة الكونسير لن يتيح سوى تجربة موسيقية ضيقة ومحدودة. وما من متحمس حقيقى للموسيقا يرضى بأن يحبس نفسه مع عدة مئات فقط من سنوات التاريخ الموسيقى، فلديه ميل غريزى للبحث عن كل أنواع التجارب الموسيقية، ويكسبه فهمه الحدسى شعورًا بالثقة سواء كان بصدد كنوز للفن الموسيقى القوطى، تم فك طلاسمها توًا، أو سرعة بديهة وتلقائية مؤلَّف لشابرييه Chabrier، أو آخر لبيزيه Bizet، أو أحدث ما صدرته إيطاليا من تقاليع الدوديكافونية Dodicaphonism (الأسلوب الاثنا عشرى).



والمستمع الموهوب يدرك بفطنته أن الفضول الموسيقى الصحى، والتجربة الموسيقية العريضة، يشحذان ملكة النقد لديه. إن الاستماع لموسيقا فى أسلوب مألوف، والاستماع بروح جديدة ـ مع إغفال ما قاله، أو كتبه الآخرون ـ ثم اختبار القيم التى تضمنتها تلك الموسيقا بنفسك، لهو أول دلائل نجاحك كمستمع جاد وموهوب. وحتى الكلاسيكيات نفسها لابد من إعادة تفسيرها بدلالة عصرنا نحن، هذا إذا ما أردنا استماعها فى ثوب جديد، والمحافظة على حيويتها وإشعاعها الإنسانى فى حالة تمكننا من هضمه جيدًا. إلا أنه لكى نفعل ذلك، لابد لنا من اتباع غذاء موسيقى متوازن يتيح لنا أن نضع تقييمنا للجهابذة القدامى فى مواجهة الاتجاهات الموسيقية الحديثة حتى يظهر التباين جلياً، حيث إن الكلاسيكيات لن تكشف لنا عن معظم ما بها من معان، إلا فى ضوء التجربة الموسيقية الشاملة.

إن حلم أى مبدع موسيقى مخلص، ومحب لفنه، لهو دعوة مستمعيه فى كل مكان كى يشاركوا بفعالية فى المجتمع الموسيقى، باستماعهم لما يقدمه، واتخاذهم لموقف نقدى واع لكل مستمع على حدة، خاصة من كان موهوبًا منهم. إن جماع تلك المواقف معًا لهو المورد الرئيسى لدى المبدعين لجنى ثمار الطاقات الموسيقية المهولة لعصرنا، وفى نفس الوقت سيشكل القاعدة الراسخة لانطلاقهم نحو موسيقا للمستقبل. ■

يعتبر رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) رائد التنوير فى التجربة المصرية، وفوكوزاوا يوكيتشى (١٨٣٥ - ١٩٠١) هو مثيله فى التجربة اليابانية فى القرن التاسع عشر

مصر واليابان ... تجربتان

عفاف عبد المعطى

ليست اليابان فى وعينا الثقافى إلا تلك الأسطورة التى حققت تطورًا اقتصاديًا مذهلاً دفع بها إلى أن تكون فى مقدمة الدول الصناعية الكبرى خلال فترة وجيزة من الزمن. ومع تحول مجتمعاتنا العربية إلى سوق استهلاكية رائجة، تحولت صورة اليابان فى الوعى العربى إلى منتج السيارة والأجهزة الكهربائية بدءًا من الكمبيوتر وانتهاء بجميع الأجهزة المتطورة.

وعلى الجانب الآخر نجد صورة العربى فى العقل اليابانى هى صورة الثرى المستهلك الذى يمتلك موارد الطاقة التى يعتمد عليها الاقتصاد اليابانى اعتمادًا شبه تام، وعلى ذلك يمكن أن نصف العلاقات العربية اليابانية عامة بأنها علاقات يسيطر عليها البُعد النفعى المباشر من الطرفين سيطرة شبه تامة، وقد درج تطور وعى الجماعات البشرية على إدرك أن الثقافة والفكر ليسا إلا أبنية فوقية تصوغ حاجات الإنسان، وتعبر عنه بطرق مختلفة، لذلك تسعى كل جماعة بشرية لفهم الجماعات الأخرى لا من خلال إدراك الروابط النفعية المباشرة فقط، بل من خلال فهم الثقافة والفكر، أى من خلال فهم عقل الآخر. بينما علاقتنا باليابان ظلت - لأسباب كثيرة - علاقة نفعية مباشرة لا تتجاوز علاقة المستهلك بالمنتج إلى أى شكل من أشكال الحوار الثقافى أو التلاقح الفكرى.



جاءت النهضة الحديثة لليابان بأن عصر المايجى (١٨٦٨ - ١٩١٢) متزامنة - تقريبًا - مع محاولة إقامة الدولة الحديثة فى مصر منذ وصول محمد على إلى السلطة عام ١٨٠٥، وتبنى مشروع النهضة التى سبقت النهضة اليابانية بنحو نصف القرن، ولكنها عجزت عن أن تؤتى ثمارها فى الواقع المصرى بسبب الوضع الـ«جيوبوليتيكى» الذى جعل مصر مطمعًا للقوى الاستعمارية الكُبرى، ويزيد من ملامح التشابه بين ظروف اليابان وظروف مصر أن محاولات النهضة فى كلتيهما يمكن تاريخها بنمو الإحساس القومى والوطنى نتيجة لاكتشاف أطماع القوى الاستعمارية الأوروبية، أى نتيجة اكتشاف «الأنا» من خلال «الآخر» المعتدى.

هكذا اكتشفت مصر طاقاتها من خلال الاحتكاك بالمعتدى الفرنسى المتقدم تكنولوجيًا متمثلاً فى الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١)، وبدأت النهضة اليابانية حين دقّ الجنرال الأمريكى ماثيو كالبرايت برى بسفنه الأربع ذات الأعلام السوداء أبواب خليج طوكيو مطالبًا بفتح أبواب موانئ اليابان للتجارة مع الغرب عام ١٨٥٣. لكن إذا كان لهذه الحادثة أهميتها ودلالتها، فإنها لا تمثل وحدها تفسيرًا مُقنعًا لتحول تاريخى فى مسار أمة. وكما كانت الحملة الفرنسية على مصر عاملاً محركًا ضمن عوامل أخرى لبداية النهضة العربية، كذلك كانت حملة الجنرال «برى» جزءًا من مجموعة من العوامل أهمها وأخطرها - فيما يذهب المؤرخون المعاصرون - الهجوم على الصين فيما يعرف بحرب «الأفيون» من أجل فتح موانيها عنوة للتجارة مع الغرب، وبعد حرب الأفيون الأولى (١٨٤٠ - ١٨٤٢) تركز اهتمام أوروبا فى شرق آسيا على الصين، وكان لهذا الاهتمام تأثيره الحاد على اليابان، حيث تكرر مع اليابان ما سبق أن حدث مع الصين من فتح الموانئ جُزافًا فى أربعينيات القرن التاسع عشر، بينما مع اليابان كان فى الخمسينيات من القرن نفسه، وفى كلتا الحالتين كانت القوى البرجوازية الغربية تحاول السيطرة على أمم الشرق الأقصى التى لم يكن التحديث قد أصابها بعد، كى تؤسس سوقًا عالمية رأسمالية موحدة.

وإذا كانت التجربتان اليابانية والمصرية متشابهتين إلى حد كبير فى البدايات، مختلفتين فى النتائج، وكذلك من حيث الأطماع الاستعمارية الأوروبية التى أحاطت بكل منهما، فينبغى السؤال عن كيفية هذه البدايات المشتركة؟ حيث اتفقت المقدمات واختلفت النتائج.

اعتبر رواد التنوير فى القرن التاسع عشر أن قضية تواجدهم الأساسية مرتبطة بالدفاع عن نشوء الدولة الحديثة، وأثارت تحولات مرحلة الانتقال من وضعية تقليدية إلى أخرى حديثة عند أولئك المفكرين الرواد اهتمامًا كبيرًا، ومن ثم عكفوا - فى سبيل ذلك - على إيجاد رؤى مستقبلية قويمة للمجتمع الجديد تخرجه من أسر التقهقر إلى الخلف، إلى محاولة التقدم إلى الأمام، فكشفوا لمجتمعاتهم أفكارًا تقدمية عن واقع المجتمع فى مرحلة التنمية، وعن طبيعة العلاقات الاجتماعية الجديدة على مختلف الأصعدة، وقاموا يرسمون بفكرهم المستنير مستقبل المجتمع ومن ثم أرادوه فى مرحلة انتقالية من أخطر مراحل تواجده هى مرحلة التحول، محددين معالم العقد الاجتماعى الجديد الذى تطمح فيه تلك المرحلة، ثم عملوا على إيجاد نوع من التوافق بين الموروثين الثقافى والاجتماعى، وما يجب أن يُكتسب فى مرحلة الانتقال إلى الدولة الحديثة وصولا إلى إيجاد نسق اجتماعى / ثقافى هجين يحقق التواصل المأمول لحركة المجتمع الحديث، ويحقق - فى الآن نفسه - تقبّل المجتمع عامة لهذه المرحلة.



عرفت اليابان شخصية مقابلة للطهطاوى، هو فوكوزاوا الذى يُعدّ رائدًا للفكر الليبرالى فى عصر «مايجى» ونستطيع أن نميز ثلاث مراحل من تطوره الفكرى، المرحلة الأولى ١٨٦٢ - ١٨٦٩ التى ركز خلالها على التعريف بالغرب وحضارته عبر بعض الكتب التى ذاع صيتها فى حينه مثل «قدوم وذهاب الأجانب»، و«الأحوال فى الغرب»، و«دليل السياحة فى الغرب»، و«العلوم الطبيعية المصورة»،



التنوير بين مصر واليابان

دراسة مقارنة فى فكر رفاعة الطهطاوى وفوكوزاوا يوكيتشى

رءوف عباس

القاهرة: دار ميريت - ٢٠٠١

اهتم كل من فوكوزاوا والطهطاوي في مجال الفكر السياسي بإعادة النظر في الأفكار التقليدية التي تبرر سلطة الحاكم والحكومة من أجل دفع عجلة التقدم إلى الأمام في عملية تكوين الدولة الحديثة



وجدول جميع البلدان». والمرحلة الثانية ١٨٦٩ - ١٨٧٧ قدّم فوكوزاوا أبرز ما يمكن أن يفيد منه اليابان من الحضارة الغربية وعلومها، وكتب في هذه المرحلة كتابين مهمين هما «تشجيع المعرفة» و«الإلمام بالحضارة». أما المرحلة الأخيرة، فتمتد من سنة ١٨٧٧ حتى عصر وفاته ١٩٠١، وقد وضع فيها صيغة يابانية للفكر الحديث في قضية الموروث والمكتسب من الآخر، فرأى الغرب يمتاز عن الشرق بالاعتماد على المنهج العقلي والرياضيات، وطبّق رؤيته على بلاد العالم فوجد أفريقيا تعيش مرحلة التوحّش، وتركيا والصين واليابان يعيشون مرحلة البربرية وأوروبا الغربية وأمريكا تعيشان مرحلة المدنية، فإذا أرادت اليابان أن تأخذ بمرحلة المدنية وأسباب التقدم، فعليها أن تطرح مرحلة البربرية وتتخذ من الغرب المثل الأعلى فتجعل المدنية الغربية هدفها الأسمى الذي تأخذ منه توافقًا مع ظروف موروثها، وحالية حاجاتها.

أما الطهطاوي، فقد أتم دراسته الأزهرية في عام ١٨٢٢، وفي عام ١٨٣٤ نشر كتابه المشهور «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» الذي قدّم فيه وصفًا للمجتمع الفرنسي كما شاهده أثناء إقامته هناك، أيضا قدم فيه العناصر الجديدة للمجتمع الأوروبي مثل وضع النساء ودورهن في المجتمع، والطبقات الاجتماعية المختلفة والأحوال الدينية والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع الفرنسي الحديث، لكن وصفه لتلك الظواهر لم يخل من نظرات نقدية. وفي عام ١٨٧٠ أصدر كتابه المهم «مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية» الذي كان فتحًا جديدًا في الفكر العربي الحديث، حدد فيه معالم الطريق الذي يرشحه لمصر لتسلكه في نهضتها، وكيفية الاستفادة من علوم وثقافة الغرب مع الحفاظ على ما هو إيجابي من الموروث الثقافي العربي الإسلامي، وصاغ المفاهيم الأساسية للوطن والوطنية. وفي عام ١٨٧٢ نشر كتابه الثالث المهم «المُرشد الأمين للبنات والبنين» الذي أودعه خلاصة فكره الاجتماعي والثقافي، ومن هنا يمكن أن ندرك مدى تأثير فكر الطهطاوي على الجيل الذي تلقى تعليمه في عصر إسماعيل، وتفتح وعيه السياسي والثقافي في عهد الاحتلال البريطاني، ولعب دورًا مهمًا في صياغة المشروع الوطني السياسي / الثقافي في إطار التطورات التي شهدتها مصر حتى ثورة ١٩١٩.

لذلك يعتبر رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) رائد التنوير في التجربة المصرية، وفوكوزاوا يوكيتشي (١٨٣٥ - ١٩٠١) هو مثيله في التجربة اليابانية في القرن التاسع عشر، من حيث الدور الريادي / التنويري الذي لعبه كل منهما في مجتمعه، ومن حيث تأثير كل منهما في مجاله الثقافي، رغم اختلاف ظروف اليابان ومصر في مرحلة تكوين الدولة الحديثة هنا وهناك. إلا أنه لا يمكن إنكار أن كلاً من الرائدين فوكوزاوا والطهطاوي قد أثّر تأثيرًا جليًا في التجربة التاريخية لبلاده وما صاحبها من تغيرات جوهرية. وكان إطارهما المرجعي واحدًا وحقبتهما التاريخية متقاربة. فكلاهما تأثر بالنموذج الغربي وكلاهما حاول البحث عن صيغة تمزج بين الموروث والمكتسب، وتحافظ على خصوصية الثقافة الوطنية، وتُطعِّمها بما تراه ضروريًا لتجديدها وإكسابها القدرة على التواؤم مع المتغيرات الحديثة.

في خضم الأحداث التي شهدتها فترة التحوّل إلى الدولة الحديثة في اليابان ومصر، لعبت الظروف الموضوعية لكل من البلدين دورًا مهمًا في تحديد ملامح حقبة الانتقال التي حققت نتائجها في اليابان وعجزت عن تحقيقها في التجربة المصرية، ومع اختلاف الظروف والمعطيات والنتائج؛ فإن لكل من التجربتين جانبها الثقافي الذي تطلب جهدًا فكريًا لمعالجة مرحلة التحوّل. وقد لعب فوكوزاوا في اليابان دورًا شبيهًا بالذي لعبه الطهطاوي في مصر، على اعتبار التواجد التاريخي للطهطاوي قبل فوكوزاوا.



اهتم كل من فوكوزاوا والطهطاوي في مجال الفكر السياسي بإعادة النظر في الأفكار التقليدية التي تبرر سلطة الحاكم والحكومة من أجل دفع عجلة التقدم إلى الأمام في عملية تكوين الدولة الحديثة. بالنسبة لليابان؛ كانت فكرة «الميبون»؛ أو ما يتصل بالخضوع للسلطة في علاقة الحاكم بالمحكوم على نحو مناظر لعلاقة الآباء بأطفالهم والزوج بزوجته في إطار التقاليد اليابانية المتوارثة. ومن ثم مارس الحُكّام سلطة أبوية مطلقة على المحكومين. وساد الاعتقاد بأن البشر غير متساوين في المنزلة وأن المجتمع مجتمع هرمي تراتبي بطبيعته، وأن تساوي الرءوس بين الناس ينتج عنه الفوضى والاضطراب. وما ساعد على ذلك في النموذج الياباني أنه لم يكن هناك ما يبرر خلع الحاكم الظالم تطبيقًا لفكرة تفويض السماء، بل إن سلطة الحاكم امتدت لتطول مختلف مظاهر حياة المحكومين وكانت لا حدود لها، مثلما كانت سلطة الأب على أبنائه لا تعرف حدودًا.

وقد تصدّى فوكوزاوا يوكيتشي في القسم الأول من كتابه «تشجيع التعليم» مقررًا بأن السماء لا تخلق إنسانًا يعلو على غيره أو إنسانًا أدنى من غيره، لأن ذلك يعني أن الناس عندما ولدوا كانوا سواسية لا فرق بينهم في المنزلة، وبتلك العبارة قد نأى فوكوزاوا بنفسه تمامًا عن جوهر الفكر السياسي التقليدي، حيث كانت هناك فجوة كبيرة بين الأفكار التقليدية المتعلقة بالحكومة وتبرير سلطتها.

وأخذ فوكوزاوا على عاتقه نشر أفكار المساواة بإمعان النظر في التوازن بين العلاقات الإنسانية وأن الناس جميعًا متساوون قد يختلفون في المظهر ولكن المساواة إنما تكون في الحقوق، وقد تكون هناك اختلافات بين البشر من حيث المظاهر الخارجية كالغنى والفقر والقوة والضعف والذكاء والغباء، ومهما كانت أوجه الاختلاف بين الناس كالاختلاف بين السحب في عنان السماء والأوحال في الأرض، فإن ذلك لا يبرر التمييز بين الناس في الحقوق؛ فهم فيها سواسية وهي لا تعرف تفرقة بين عظيم وحقير، وأكّد أن التفاوت في الثروات بين الناس إنما جاء نتيجة عملهم وليس بقرار من السماء، لأن الثروة والقوة والعظمة كلها أمور تلعب دورًا فعالاً في تغيير أحوال الناس. فتحرير الإنسان وحصوله على نصيبه من أفراح الوطن وأتراحه أفضل كثيرًا من مبادرة الحُكّام الذين يخضعون الأغلبية لمشيئتهم.



وإذا كان اليابانيون يسعون إلى الاستقلال عن الغرب؛ أو أن تسود اليابان روح الدفاع عن البلاد ضد التهديد الأجنبي، فإن ذلك لا يتحقق إلا عندما يحصل الناس على حقوقهم، وسرعان ما قام الناس الذين تأثروا بأفكار فوكوزاوا بتنظيم الحركة المطالبة بالحرية وحقوق الشعب التي كان هدفها نشر روح الحرية في البلاد.

في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية كانت الشريعة تنظم علاقة الناس ببعضهم البعض، وكذلك علاقتهم بالله، واعتبر المسلمون جميعًا - نظريًا - سواسية في المجتمع لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات، ولكن من الناحية الفعلية كان التمايز موجودًا بين الناس، كما كان لكل فرد موقعه المحدد في الهرم الاجتماعي، واعتبر الحُكّام أنفسهم يستمدون حكمهم من إرادة الله لا معقب عليهم إلا الله ولا رقيب عليهم إلا ضمائرهم، ورغم أن الحاكم كان ملتزمًا - نظريًا - آنذاك باستشارة أهل الرأي في المجتمع قبل اتخاذ قراره وما أحاط بذلك من غموض يتصل بكيفية ممارسة الشورى ومدى التزام الحُكّام بها، فإن تطبيق هذا المبدأ لم يكن موضع الاعتبار، بل رأى المفكرون المسلمون أن وجود الحاكم ضروري لإقامة العدل، وعدّه بعضهم ظل الله على الأرض الذي يجب أن يخضع الناس له مهما صدر عنه.

وربما كان أكثر مظاهر التنظيم السياسي أهمية عند فوكوزاوا والطهطاوي هو المبدأ الأوروبي الخاص بسيادة القانون وارتكان الحكم إليه، فالطهطاوي يلاحظ أن السمات المميزة للحكومة الأوروبية هي دستوريتها بغض النظر عن نوع نظام الحكم، مع وجود فصل واضح بين مختلف فروع السُلطة تطبيقًا لمبدأ الفصل بين السلطات. وعليه كان ينظر إلى السُلطة السياسية من خلال التفكير الإسلامي التقليدي، بل نجده يتوسّع في بعض النواحي توسعًا كبيرًا وخاصة في النقاط التي أثارها حول نظام الحكم، وفي دلالة التطورات التي شاهدها في فرنسا.

ولم تكن فكرة الطهطاوي عن الدولة - بالرغم مما شاهده في باريس - فكرة ليبراليي القرن التاسع عشر، بل كانت الفكرة الإسلامية المأثورة، فهو - توفيقًا - يحاول النظر في الأسس النظرية للفكر السياسي الأوروبي في ضوء الإسلام، تأكيدًا على أن الحكومة ضرورية للمجتمع لا حياة له بدونها «فالملك كالروح والرعية كالجسد، ولا قوام للجسد إلا بالروح»، فهو يرسم لنا تصوره لركني الدولة، وضرورة وجود «القوة الحاكمة» ضمانًا للاستقرار ولانتظام العلاقات بين أفراد «القوة المحكومة»، فإذا كانت القوة الحاكمة «جالبة للمصالح دارئة للمفاسد»، فإن القوة المحكومة هي «القوة الأهلية المحرزة لكمال الحرية المتمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ووجوده وتحصيل سعادته دنيا وآخرة»، فهو هنا يعتبر الحكومة والناس طرفين يقوم عليهما المجتمع، لكلٍ وظائفه ومجاله، فليس الناس ملكًا للحكومة، ولكنهم أحرار لهم حق التمتع بخيرات بلادهم.

وإذا كان الطهطاوي قد قبل بسلطة الحاكم الفرد، إلا أنه كان حريصًا على إبراز الحدود اللازمة على تلك السلطة، فيرى أن أعباء الحكم لا يستطيع حملها فرد واحد، ولذلك وجب على الحاكم أن يفوض سلطاته للمجالس التي تقام لهذا الغرض. ويجب أن يستعين بالعلماء الذين يقدمون له المشورة، وبذلك يوسع مفهوم «العلماء»، فلا يجعله مقصورًا على علماء الدين، بل يشمل العلماء في مختلف مجالات المعرفة. ويذهب الطهطاوي إلى أن العلاقة بين الحاكم والرعية تقوم على الحقوق والواجبات، فللحاكم على الناس حق الطاعة، غير أنه يجب عليه في مقابل ذلك أن يؤدي واجباته تجاههم.

حرص الطهطاوي على أن يجعل تلك الأفكار التي طرحها على القارئ العربي مقبولة، فقرر أنه لا يوجد فرق كبير بين مبادئ الشريعة الإسلامية ومبادئ «القانون الطبيعي» الذي يرتكز إليه التشريع في أوروبا الحديثة، مما يعني إمكانية تفسير الشريعة الإسلامية تفسيرًا يتفق مع حاجات العصر، وفي تبريره لذلك أبرز القاعدة الفقهية التي تذهب إلى أنه يجوز للمؤمن أن يقبل بتفسير لنص مستمد من مذهب آخر غير مذهبه اعتمادًا على مبدأ المصلحة، ويقرر أن من واجب العلماء تفسير الشريعة على ضوء المصلحة التي تغيرت نتيجة للحاجات التي استحدثت.



وقد أدى تكوين الدولة الحديثة في اليابان ومصر إلى ضرورة التماس مع المعارف الغربية الحديثة، ووقع على عاتق المُعلّمين الكبار أمثال فوكوزاوا يوكيتشي ورفاعة الطهطاوي صياغة ملامح التعليم الحديث كلٌ في بلده، فعلى كلٍ منهما أن يدمج المعرفة الحديثة المكتسبة من الغرب في إطار الثقافة الوطنية الموروثة ليخلق منها شكلاً جديدًا من المعرفة يناسب بلده، بمعنى أنه قد سعى كل منهما إلى بناء شكل من أشكال المعرفة الحديثة في بلاده يواجه حاجات المجتمع في مرحلة النمو، دون أن يقطع أواصر الصلة مع الطابع الثقافي المتميز للبلاد.

ولما كان تحقق التقدم دائمًا الشغل الشاغل لرواد فكر التنوير والمحور الذي تدور حوله أفكارهم، فكل من فوكوزاوا والطهطاوي رأى في التاريخ جزءًا من التطور نحو تحقيق الحضارة، واستطاع الرائدان من خلال دراسة مُتأنية أن يكتشف كل منهما موقع المنجزات الحضارية وكيف أصبح الحاضر أفضل من الماضي، وعليه يمكن استشراف التقدم في المستقبل. بالتماس مع النموذج الغربي، فصاغ كل من فوكوزاوا

عند المقارنة بين حال مصر واليابان اليوم يبدو تخلى مصر التام عن هويتها الثقافية والحضارية وتمثلها التام لشخصية الغرب، فى حين أن اليابان لم تبن نهضتها على الاندماج مع تقاليد الغرب وعاداته، إنما كانت تحرص على موروثها وروحها القومية الجماعية

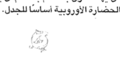


والطهطاوى آراءهما فيما يتصل بتحقيق نمط حضارى خاص ببلد كل منهما يتناسب مع ظروف مجتمعه.

نظر الطهطاوى الى التاريخ باعتباره حركة تقدمية يقطعها الإنسان على طريق الحضارة، وسجلاً للحضارة البشرية، ومن بين مؤلفاته مجلدان عن تاريخ مصر و قصد الكتاب أن يكون الأول فى سلسلة تعرض لكل ما يجب أن يعرفه المصرى الحديث عن بلاده، لأن دراسة التاريخ تفيد الأمم وتلعب دور التعليم نفسه فى صياغة وإذكاء الروح الوطنية. والتبصّر بتجارب الماضى يعين الأمة على حل مشاكلها الراهنة.

شجَع الطهطاوى على الاتصال بأوروبا حتى يحفز التقدم الحضارى فى البلاد العربية، لأن الاتصال بالبلاد الأجنبية يماثل حرية العمل ولا يستقيم بدونها، وأنه يجب على من يقومون بهذا الاتصال طلب العلم والمعرفة وخدمة أهداف الأمة والاتصال بالأجانب وخاصة أهل العلم منهم لتزويد الوطن بأسباب التقدم. وفى هذا السياق امتدح سياسة محمد على الذى أنهى عزلة مصر وتشجيعه الاتصال بالأجانب لأن ذلك يعود بالنفع على الاقتصاد المصرى.

وفى السياق نفسه، لم يحاول فوكوزاوا أن يكتب تاريخًا مستفيضًا لليابان، ولكن كتاباته عن الحضارة قادته إلى تقديم أول نقد للمدرسة التقليدية التاريخية فى اليابان. فقد رأى تلك المدرسة قد جانبها الصواب عندما زكّت السلوك الأخلاقى للحاكم ووزراءه، فليس من الحكمة أن نتصور أن تتحقق الرفاهية فى بلد ما لمجرد تمتع حكامها بحسن الخلق : لأن شعور الناس بالاستقرار يعتمد على ما بلغوه من درجة التقدم ويعتمد هذا بدوره على «روح العصر»، لأن الأبطال والعظماء لا يمكنهم ابتداع أحداث خارجة عن روح العصر فلا يحققون النجاح إلا عندما يسايرونها ولما كان التقدم قانونًا طبيعيًا، فقد رأى فوكوزاوا أن الإنسان بطبعه مرهون بالتقدم والحضارة مرتبط بهما. ولذلك يأخذ بأسبابهما بصورة طبيعية دون أن يشعر. فالحضارة تتسم بالحيوية والحركة، إذ تمر بدورات ومراحل عدّة، فالمجتمعات البدائية تمر بمرحلة شبه التقدم، والمجتمعات شبه المتقدمة تمر بمرحلة الحضارة، والحضارة ذاتها تتطور إلى أشكال أرقى باطّراد. فعلى كل من يهتمون بتقدم بلادهم أن يتخذوا من الحضارة الأوروبية أساسًا للجدل.



كان كل من فوكوزاوا يوكيتشى ورفاعة الطهطاوى رائدًا فاعلاً فى بلاده، وقد ترك كل منهما أثرًا بالغًا على تطور الفكر الحديث وأثّرا تأثيرًا كبيرًا فى جيل المثقفين المعاصرين لهما. وقد حاول كل منهما ان يصوغ أفكارًا فى مجالات السياسة والاقتصاد والنظام الاجتماعى والتعليم والمعرفة، وأن يطرح مفاهيم جديدة للحضارة وسبل ترقيتها متبعًا فى ذلك أساليب راديكالية أحيانًا وتوفيقية أحيانا أخرى. ولما كان المفكران قد تأثرا بالفكر الليبرالى الغربى المُتاح فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، فقد اتفقت مصادرهما بقدر ما اتفقت الأطر المرجعية التى ركنا إليها، ورغم إعجابهما الصريح بالفكر الغربى والحضارة الغربية، إلا أنهما لم يميلا إلى اقتباس تلك الحضارة ونقلها بلا وعى وتبنيها دون تحفظ. فقد فضّلا اتباع أسلوب انتقائى عن الاقتباس من الحضارة الغربية لا يتعارض مع الثقافة الوطنية لمجتمع كل منهما وظروفه الموضوعية.

ولما كان المفكران قد تأثرا بالمصادر والأطر المرجعية للفكر الغربى نفسه، فقد كانت آراؤهما متشابهة فى كثير من الحالات حول موضوعات المساواة وحقوق الشعب والعلاقات الأسرية والتعليم والحضارة والدعوة إلى التقدم رغم اختلاف الظروف التاريخية والثقافية للمجتمعين اليابانى والمصرى اختلافًا جذريًا، مما جعل فوكوزاوا أكثر راديكالية وجرأة فى نقده للمكون الأخلاقى فى الثقافة التقليدية اليابانية فيما يتصل بمسائل شائكة مثل وضع المرأة والعلاقات الأسرية، وقد عالج الطهطاوى الموضوعات نفسها من قبله، ولكن بحرص شديد واتجاه قوى إلى التسامح مع الموروث الثقافى شديد الميل إلى التوفيق بينه وبين الأفكار المُكتسبة.

وكان من السهولة بمكان بالنسبة لفوكوزاوا أن يحارب بضراوة الكنفوشية والتعاليم الصينية التقليدية، وأن ينتقد أفكار الحكماء ويسفه من تعاليمهم التى كانت تعد بمثابة تابوهات أو ما يماثل الثالوث المُحرَم، وهو أمر لم يكن باستطاعة الطهطاوى أن يفعله، لأن القيم الخُلقية التقليدية فى الثقافة العربية ذات اتصال بالدين، والدين له وضع خاص ليس له نظير عند اليابانيين، ولذلك تمتع الطهطاوى بميزة لم تتوفر لفوكوزاوا، فقد استفاد من الإطار الرحب الفضفاض للثقافة الإسلامية فوظّف الجوانب الإيجابية منها لدعم وتمرير الأفكار الجديدة التى طرحها لأول مرة فى محاولة لإقناع الناس وتبديد مخاوفهم منها، فى سياق نقد القصور فى تفسير القيم الثقافية المتوارثة، وإيجاد نوع من الرابطة بينها وبين الأفكار الجديدة التى يدعو إليها.



والسؤال الآخر الذى ينبغى أن نطرحه: لماذا تقدمت اليابان بهذه الصورة وتعثرت مصر؟! بمعنى آخر إذا كانت التجربتان اليابانية والمصرية متشابهتين إلى حد ما من حيث التزامن التاريخى لمحاولة النهوض والارتقاء بشان الأمة، ومن حيث طبيعة الاستعمار الأوروبى الذى أحاط بكل منهما، فما الذى أدّى باليابان إلى سيادة نهضتها عالميًا؟ على حين انتكست مصر إلى درجة لا تحتاج إلى تفسير؟ بداية استطاعت اليابان - بفضل موقعها الجغرافى - أن تنجح فى بناء الدولة القومية الحديثة وأن تدخل فى مصاف الدول الكبرى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وهى ظروف لم تتح لمصر التى تقع فى قلب العالم القديم فى مفترق الطرق بين آسيا وأفريقيا وأوروبا، مما جعلها أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن تحقق درجة من القوة تُمكّنها من أن تصبح قوة إقليمية، أو أن تقع ضحية للقوى الكُبرى صاحبة المصالح المهيمنة على ذلك الإقليم البالغ الأهمية من الناحية الاستراتيجية،وقد صاغ هذان الخياران تاريخ مصر منذ أقدم العصور، فعندما يشتد ساعدها وتقوى - على اعتبار وضعها كشقيقة كبرى للدول العربية من جهة وموقعها فى قلب الوطن العربى من جهة أخرى تصبح الدولة المركزية إقليميًا. فإذا أصابها الوهن كانت ضحية من قبَل القوى الخارجية لسواها. فى حين أن هناك أسبابًا فعلية حققت لليابان تقدمها الملموس:

١ - عكف اليابانيون منذ تسعينيات القرن التاسع عشر على دراسة تغلغل الاستثمارات الأجنبية فى مصر، وما ترتب عليه من نتائج سياسية، وظهرت فى هذا الأمر دراسات متفرقة؛ كتب الرائد الاقتصادى ساوايشى فى يومياته التى نشرت فى هذا الموضوع، كما ظهرت بعض المقالات فى الصحف عن موضوع الديون المصرية والتدخل الأجنبى فى مصر كتبها بعض الساسة البارزين مثل ليتوهنزبومو، وماتاسكانا ميرونيشى، وأوكوماشنديز.

٢ - رأى المفكّر اليابانى يوكوى شونان (١٨٠٩ - ١٨٦٩) أن الانفتاح على الغرب سوف يؤدّى إلى تحقيق الرفاهية الاقتصادية للشعب اليابانى مما يعوقه عن العمل، وإذا تطلّب الأمر الانفتاح يصبح مشروطًا بمصلحة اليابان والشعب اليابانى فحسب.

٣ - عند المقارنة بين حال مصر واليابان اليوم يبدو بسهولة واضحة تخلى مصر التام عن هويتها الثقافية والحضارية وتمثلها التام لشخصية الغرب واعتناقها كل طرائق حياته، والعمل بروح الفردية بدلا من ذيوع روح الجماعية، فى حين أن اليابان لم تبن نهضتها على الاندماج مع تقاليد الغرب وعاداته، إنما كانت تحرص على موروثها وروحها القومية الجماعية والاستفادة من الأجنبى بالقدر الذى يساعد صناعتها وإنتاجها المادى بما ينميه نموًا كاملاً يخطو به إلى تجاوز الأجنبى نفسه.

٤ - أُلّفت فى اليابان كتب كثيرة للدفاع عن الثقافة اليابانية وعن نمط الحياة بشكل عام، وللدفاع أيضًا عن كيان الدولة ضد هجوم المستشرقين، وضد سخرية بعض علماء الغرب من اليابان وعاداتها وتقاليدها.

٥ - هناك خطأ متجذر فى الواقع المصرى يتجسّد فى الولع بالنمط الغربى فى كل شىء منذ عصر إسماعيل حتى التبعية الاقتصادية والسياسية. الأمر الذى أدّى فى النهاية إلى عملية اختراق كاملة فكريًا وثقافيًا وحضاريًا تضافرت كل الجهود الخارجية والداخلية لتكريسها.

٦ - هناك مرحلة من التحوّل شملت مصر استبدلت فيها الاعتماد على الذات وتوظيف كل الموارد لصالح المجتمع بدلا من استجداء الهبات والمساعدات، واستبدال مجتمع البناء والتنمية بمجتمع بيع كل شىء بما فيه التراث والتاريخ.



هذه أسباب ضمن أسباب كثيرة تفرض علينا أن نقف مليًا نتأمل فى الماضى والحاضر، علّنا ننقذ ما تبقى فى المستقبل، خاصة عندما نرى صورة اليابان وقد قدمتها لنا رحلتان تستمد كل منهما أهميتها من حيث الظرف التاريخى الذى وقعت فيه، حيث كانت رحلة الشيخ على أحمد الجرجاوى (صاحب الرحلة الأولى لليابان وقد بدأ رحلته إلى اليابان، ثم نقلها بإعجاب رومانسى بالتجربة اليابانية للنهضة فى عصر مايجى والذى مثّل رجع الصدى لموجة الانبهار بالنصر اليابانى على روسيا عام ١٩٠٥) أول القرن العشرين إلى اليابان، ثم كانت رحلة يوسف القعيد آخره. فتمّ منهما إسقاط مقارنة عادلة بين الأمتين المصرية واليابانية. فكيف كانت اليابان (بلاد الشمس المشرقة) أول القرن العشرين كما صورها الجرجاوى - أو انبهر بها - وكيف صارت حالما زارها القعيد آخر القرن؟ ومما بين الرحلتين من ثوابت ومتغيرات يمكن رصد طرائق التطور المذهل الذى لحق باليابان، بما أدّى إلى صراع الين مع الدولار.

وتجمع الآراء على أن أصل تقدم اليابان المادى والأدبى وعلو شأنها فى مضمار الحضارة هو نشر التعليم العصرى، وهى من القضايا المُسلّم بها، المهم فيها كيفية اعتناء اليابانيين بالتعليم، هذا الاعتناء الذى لم تشاركهم فيه أية دولة شرقية أخرى.

ومع مواكبة هذه الحضارة وشدّ الخطو إليها كان على الأمة اليابانية أن تنظر داخلها الى ترقية أحوال المرأة والتعليم. وقد اهتمت الأمة اليابانية أول القرن العشرين بالمرأة اهتماماً كبيرًا فعندما تصل إلى الخامسة من عمرها يدخلها ولى أمرها المدرسة مهما كان فقيرًا، فإنه يكدّ ويكدح فى سبيل الإنفاق عليها ويقدم الاهتمام بها على كل أمر يهمه فى الحياة، بل إن المجتمع نفسه يعتبر من لم يدخل ابنته من أحط الناس منزلة وأسفههم عقلاً.

وقد ظهرت آثار تربية المرأة اليابانية فى الحرب مع السوفييت ١٩٠٤، بفضل التربية والتعليم، والجرجاوى يقارن بينها وبين المرأة الشرقية التى امتازت بمزية السبق فى ميدان الحضارة على غيرها من نساء الأمم، ولكن إذا

صادفت من يعتنى بها، فلو اعتنى المصريون الاعتناء الحقيقى بتربية البنت لما كُنَّا نرى من مفاسد المجتمع وتأخره شيئًا.

إن كل من يتحدث عن الأمة اليابانية وما وصلت إليه من الرقى المادى والأدبى، لا يمتلك إلا أن يسنده جُلّه إلى العلوم والمعارف التى أقبلت عليها اليابان - منذ بكورة نهضتها - بِنَهَم، ولكن إذا أراد الشرقى أن يدرك سرعة ترقى هذه الأمة، تلك السرعة المذهلة فى الترقى التى لم تُوَفَّق إليها أمّة أخرى من الأمم فى الماضى والحاضر وقف وقفة الحائر، لأن الدرجة التى وصلت إليها فى الترقى لا يكفى لها قرن من الزمان للحديث والوصف، ومبلغ ما يقف عنده المرء من جهد الفكر فى التعليل هو الرغبة الزائدة والإقبال الفائق من سائر طبقات الحكومة والأهالى والأفراد معا فى نشر التعليم.

والعالم الذى يقدمه الشيخ الجرجاوى فى سِفْرِ الحديث عن رحلته أول القرن العشرين لليابان مرتبط برؤيته، وإذا كان من المُسلَّم به أن يتسبب التعليم فى نهضة الأمم، وكان الجرجاوى قد لاحظ الاهتمام الكبير بالتعليم فى بداية القرن العشرين - خاصة تعليم الفتيات - فإن القعيد - خلال رحلته هو الآخر - قد راعه نظام التعليم الموجود فى اليابان الذى أدّى إلى عدم وجود أمّى واحد فى القطر اليابانى بأسره.

فى نهاية القرن العشرين تضم اليابان ما يقرب من ٥٥٠ جامعة منها ٩٥ حكومية وبعض الجامعات الخاصة ذات الوزن الأكاديمى، ولا تكاد تخلو جامعة من مادة أو أكثر فى الدراسات الإسلامية والعربية وشئون الشرق الأوسط. وهناك ثلاثة أقسام متخصصة فى الدراسات الإسلامية والعربية، واحد حكومى فى طوكيو واثنان فى جامعة أوزاكا، ويمكن القول أن نسبة العلماء المتخصصين فى الدراسات العربية والإسلامية فى اليابان هى بمقياس عدد الطلاب كبيرة جداً. والجامعة الثانية فى أوزاكا، وقد زار وفد منها مصر سنة ١٩٨٢ للتمهيد لإنشاء قسم خاص بدراسات الإسلام واللغة العربية فيها وقابل الوفد شيخ الأزهر، وافتتح القسم بها فى العام الدراسى ٨٣/ ١٩٨٤.

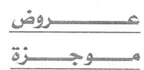
وفى الشوارع المؤدية إلى الجامعة عدد كبير من الدراجات، والشوارع حول الجامعة مصممة لوفود الدراجات، والخطوط البيضاء تحدد لكل دراجة مكانها. وهذا على عكس الجامعات عندنا، حيث نجد أن مدخل الجامعة عبارة عن غابة من السيارات آخر موديل وأحدثه، والمفارقة أن التعليم فى مصر مجانى والتعليم فى اليابان منذ الحضانة إجبارى ومجانى.

وإمعانًا فى الديمقراطية، يظهر مكتب رئيس الجامعة عادياً ولا يوجد أمامه طابور من السعاة والفراشين، وهو يحضر إلى مكتبه فى الثامنة صباحًا وينصرف إلى منزله فى الخامسة، و يتناول وجبة الغداء مع الطلاب بالجامعة ويقف فى الطابور مثلهم من أجل أن يحصل على وجبته، ولا يجرؤ أن يطلب من سكرتيرته أن تذهب بدلاً منه لإحضارها له، لأنها تحصل على وجبة لها مثله.




وإذا كانت اليابان تمثل القوة الاقتصادية الأولى فى العالم، فقد باتت طوكيو آخر القرن أعظم كيان مصرفى فى العالم، وأكبر عشرة بنوك على الأرض، الخمسة الأولى منها يابانية، وفيها ناتج إجمالى يفوق نظيره فى أمريكا وأوروبا، وعلى الرغم من أن اليابان تضم ٣ ٪ من سكّان العالم، إلا أنهم يعيشون على ٠٣,٪ من الأرض، فأى معجزة تلك؟، وإذا كان كل شىء فى اليابان يحكمه النظام الصارم الذى أدى بها على مدار عقود قليلة أن تزود العالم تكنولوجيا واقتصاديا، فإن المدخرات اليابانية هائلة وناتجة عن أن كل مواطن يابانى يدخر ٢٠ ٪ مما يحصل عليه طوال حياته، وهذا يعنى أن البنوك مكتظة بالأموال ويمكنها أن تغذى الصناعة بقروضٍ فوائدها لا تُذكر. وبعد تقديم صورة ملحوظة لتقدم اليابان بصورة تراكمية منذ أول القرن حتى آخره، فالسؤال الذى ينبغى أن يطرح نفسه، ما مشكلات اليابان؟ وهل يعانى مثل هذا المجتمع من الهموم؟ بالفعل اليابان مجتمع يعانى من مشكلات، وهموم اليابان بعضها من الثوابت القديمة وهى قليلة والبعض الآخر من متغيرات العصر، لذلك يدفع اليابانيون بعض ضرائب التقدم المذهل.

من الثوابت ضيق المساحة الشديد الذى دفع باليابانى إلى أن يكون منظمًا لدرجة تفوق الخيال، فالشقة تسكنها عائلة مساحتها ٥٠ مترًا، وسكن الأعزب بمفرده لا يزيد على مترين فقط، والإحساس الحاد بالعزلة الناتجة عن الحياة وسط المياه تحدها من كل جانب. أيضًا انخفاض مُعدَّل المواليد بشكل لافت للنظر - كما تؤكد الدراسات اليابانية - مع بداية القرن الحالى سيصبح ٢٥ ٪ من اليابانيين أعمارهم أكثر من مائة عام، وهم يعتبرون أن الإنسان اليابانى المُتقدّم فى العمر مفخرة لليابان. لكنه سيحمّل المجتمع عبئًا إضافيًا يتمثل فى رعاية كبار السن، وجعل حياتهم ممكنة وسهلة، وهذه المشكلة لها أوجه أخرى فمع مقدمات القرن الحالى سيكون لدى اليابان أقل نسبة سكّان فى سن العمل بين الدول الصناعية الكُبرى، وهذا سيفرض تامينات اجتماعية ستؤثر على دينامية العملية الإنتاجية، كذلك قد تحدث ندرة فى اليد العاملة اليابانية. وهى مشكلة ناتجة عن مشكلة أخرى أكثر تعقيداً هى مشكلة النسل، فالشباب اليابانى لا يريد الزواج، حيث حوّل المجتمع انعدام هذه الرغبة لدى الشباب إلى تجارة، فسلسلة المطاعم التى تحمل اسم العائلة - على سبيل السخرية - تقدم للأعزب كل ما يحتاجه وهو - ربما - يساعد على هذا الموقف ضد الزواج. ■



كتب عربية

المرأة والكتابة

رشيدة بنمسعود

الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٢، ١٧٥ صفحة



الافتراض الأساسي الذي سعت المؤلفة للدفاع عنه هنا هو التأكيد على خصوصية الكتابة النسائية عبر مستويين: نظري وتطبيقي، إذ سعت إلى تصحيح مفهوم الكتابة النسائية الذي تعرض للرفض من قبل النقاد والمبدعين في بداياته، ثم تابعت تطوره منذ الخمسينيات وأثبتت أن أسباب رفض مصطلح أدب المرأة، إنما يعود إلى غياب تصور نقدي غير واع بالقضية ومتأثر بالآراء الداعية إلى المساواة بين الجنسين وبالأفكار الاشتراكية التي جعلت الإنتاج الفني مجرد انعكاس لما يجري في الواقع، ومن ثم لم ير أصحاب هذا الاتجاه في الكتابة النسائية إلا تعبيرًا عن الهموم الاجتماعية المشتركة بين كل إبداع فني سواء أنتجه الرجل أو المرأة، والمبدعات اللاتي رفضن المصطلح فسرن ذلك برغبتهن في انتحال موقع الرجل. وبالعودة إلى التاريخ ومناقشة الأحكام النقدية التي فسرت اقتصار المرأة على بعض الأغراض الشعرية مثل الرثاء بطبيعتها الأنثوية التي تتلذذ بالبكاء والحسرة، كشفت المؤلفة خطأ تلك الأحكام وأرجعتها إلى الواقع المجتمعي العربي آنذاك والذي جعل المرأة تستبدل الأخ بالحبيب أو أحد أفراد العائلة كطرف في الحوار، ولاحظت المؤلفة أن المرأة كتبت في كل الأغراض الشعرية وهو ما بدا جليًا في العصر العباسي.

وتتبعت الباحثة ارتباط عملية الخلق والإبداع بمستوى الوعي التحرري والثقافي عند المرأة، إذ لم يتحقق هذا الوعي - في رأيها - إلا بعد لقاء العرب بالغرب عبر الحملات الاستعمارية والبعثات الثقافية. وتابعت بروز هذا الوعي والدعوة إلى تحرير المرأة عند الطلائع الأولى للنهضة العربية في مصر: رفاعة رافع الطهطاوي، قاسم أمين، ملك حفني ناصف، هدى شعراوي، منيرة ثابت، درية شفيق، عائشة التيمورية، سهير القلماوي، أمينة السعيد وجاذبية صدقي.

وتلمست المؤلفة تأثير الحركة النسوية في مصر على نظيرتها في المغرب وأشارت إلى أن علاقة المغاربة بالتعليم قبل فترة الحماية وخلالها ظلت محكومة بجمود جعل التعليم يتوقف عند الرجال دون النساء. وأرجعت ذلك إلى «التأخر الثقافي عند الإنسان المغربي المرتبط بالأيديولوجية الذكورية السائدة في تلك المرحلة وإلى السقوط السياسي الذي عرفه مغرب ما قبل الحماية».

وفيما يتصل بالوعي النسائي والمسألة الثقافية، تلاحظ المؤلفة أن عدد النساء اللائي يمارسن الكتابة الفكرية والإبداعية في المغرب كبير جدًا. وأرجعت ذلك إلى المشروع النهضوي الذي دافع عنه رواد الحركة الوطنية المغربية وتصوراتهم التقدمية للمسألة الثقافية على الرغم من غياب رموز طلائعية بين الرجال أو النساء تدافع عن قضية تحرير المرأة كما كان الحال في مصر، بالإضافة إلى غلبة السياسي على الثقافي في دفتر المطالبات الشعبية.

وعلى المستوى القصصي، تلاحظ المؤلفة غياب المرأة في مجمل تاريخ القصة المغربي، وتشير إلى أربع من رائدات هذا الفن في المغرب هن آمنة اللوه، ومليكة الفاسي، وخناثة بنونة ورفيقة الطبيعة. وعبر مناهج النقد الأدبي الحديث تقوم المؤلفة بطرح نماذج تطبيقية تعكس تطور الأدب النسائي المغربي وقضاياه وموضوعاته وموقعه من مطالبات التحرر في مفهومه الأشمل وتحقيق الاستقلال السياسي والثقافي.

□ □ □

المرأة ولعبة الحرف في شعر نزار قباني

رفيقة البحوري

تونس: دار محمد علي الحامي ٢٠٠١، ١٦٥ صفحة



تعيد المؤلفة تأكيد ما قاله جبرا إبراهيم جبرا يومًا.. «الكثير من شعر هذا العصر سينقرض. والكثير من الأسماء اللامعة فيه ستنسى. ولكن اسمًا واحدًا من السهل على المرء أن يجزم ببقائه: نزار قباني» ومبرراتها أن نزار حقق واحدة من أهم وظائف الشعر.. «تلك التي تقرن بين شاعر وعصر، وشاعر وأمة».

تتابع المؤلفة في دراستها تلك رصد نزار قباني لتحولات واقع المرأة بوصفها جزءًا من التغيرات التي طالت الواقع العربي، وترى أن رصده هذا الذي امتد نحو نصف قرن كان جريئًا ومناصرًا ومشجعًا، فمن المرأة التي خرجت لتوها من أقبية الحريم إلى الفضاءات العامة. إلى المرأة التي تبحث عن ذاتها وتصارع الضغوط النفسية والاجتماعية، إلى المرأة التي تخلصت من عقدة الحريم وأقامت علاقة متكافئة مع الرجل.

والدراسة تبحث في ملامح صورة المرأة في شعر نزار قباني واختلاف هذه الملامح وأسباب الاختلاف، وتشير إلى سبب مباشر هو العلاقة التي أقامها الشاعر مع المرأة.. «ولا نقصد بذلك علاقة نزار قباني الإنسان بحبيبته أو حبيباته، وإنما نقصد علاقة نزار الشاعر بالمرأة الموضوع الفني الذي أولاه اهتمامه، والكائن الاجتماعي الذي تعاطف معه ودافع عن قضيته».

في هذا الإطار تدرس المؤلفة في ثمانية فصول علاقة نزار بالمرأة: التخصص في شعر المرأة أسبابه وتبعاته، المراحل التي مر بها نزار في علاقته بالمرأة: مرحلة الرغبة والتأمل، مرحلة الإصغاء، مرحلة المحاورة، مرحلة الانسجام والتواصل، مرحلة الفقد والصورة الغائمة.

وفي المستوى الفني ترى المؤلفة أن نزار وإن كان شعره حديثًا فإنه لم ينحز إلى المنزع الحداثي الذي سيطر على الشعر العربي في النصف الثاني من القرن العشرين، فنهج نهجًا مختلفًا لم يغرق في الرمز ولم يسع إلى القطع مع التراث الشعري العربي القديم، وقال حين سُئل عن انتمائه الشعري: «في خضم الحداثات العربية التي صارت أكثر من الهم على القلب.. أفضل أن أنتمي لحداثتي الخصوصية».

وترى المؤلفة أن الصورة الشعرية عند نزار قامت على المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية، وساير فيها الصور التقليدية واستغل معجم الغزل والطبيعة، ثم طور أساليبه في مرحلة تالية. ولعله في هذا متأثر ببودلير وبالمدرسة الرمزية عمومًا».

وترى أن مرحلة الستينيات والسبعينيات تمثل أخصب فترة في شعر نزار قباني من حيث الإنجازات الفنية وتبلور الخصوصيات الشعرية، وقد تحررت قصيدته في هذه الفترة من الأوزان التقليدية وسلكت مسلك الشعر الحر القائم على التفعيلة. وتطور موضوع الغزل عنده فلم يعد محوره وصف المرأة وعالمها، بل صارت العلاقة التي تربط الرجل بالمرأة هي التي تستقطب اهتمامه وتؤكد: يمكن القول أنه بعد أن كان نزار قباني شاعر المرأة أصبح شاعر التحرر العاطفي. وتلاحظ أن نزار لم يعد ينهل من تجربته الشخصية بل من تجربته الجماعية المشتركة. وصارت له أهداف اجتماعية، وهو ما يتجلى بوضوح في شعره السياسي الذي عبَّر بشفافية عن الإحباط الذي تعيشه الأمة العربية عمومًا، ومثَّل دعوة إلى إعادة النظر في الهياكل الاجتماعية التي قادت إلى الهزيمة.

وقد واكب هذا التغير في موضوعات الشعر - كما يقول الكتاب - تغيرًا في بناه أيضًا. وكما أراد نزار أن يكون شعره معبرًا عن مشاعر الجمهور الواسع وأن يكون لسان حاله في الحب والسياسة، أراد للغة أن تكون لغة الجمهور «أيضًا». فصاغ من المعاني المألوفة ومن الكلام العادي شعرًا.

□ □ □

المواجهة المصرية الأوروبية في عهد محمد علي

محمد عبدالستار البدري

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠١، ٢٢٢ صفحة



طفا مصطلح «المسألة الشرقية» على الساحة الأوروبية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر تعبيرًا عن المخاطر الناجمة عن ضعف الدولة العثمانية وعدم قدرتها على حماية ممتلكاتها، وهو ما يفسر كيف أن «رجل أوروبا المريض»، وهو التعبير الذي أُطلق على الدولة العثمانية في شيخوختها، صارت مهمة جدًا لأوروبا في مرحلة ضعفها تلك، ربما أكثر من أهميتها في عقود فتوتها وعنفوانها، فقد مثلت الإمبراطورية العثمانية بممتلكاتها التي شملت - إلى جانب دول الشمال الأفريقي والشام - اليونان وبلغاريا وصربيا وألبانيا والبوسنة والهرسك. وتحكمها في العديد من المضايق ذات الأهمية الاستراتيجية البالغة، سدًا منيعًا في مواجهة الطموحات الروسية الواسعة، وكان الإبقاء على «الرجل المريض» ولو في سرير المرض، مسألة مهمة لحفظ التوازن في القارة الأوروبية، وهكذا أصبحت المسألة الشرقية جزءًا من النسيج الأمني الأوروبي. وصارت المسألة المصرية - بحكم تبعية مصر للدولة العثمانية - جزءًا أصيلاً في هذا النسيج.

على هذه الخلفية لم يكن ممكنًا أن تغض أوروبا الطرف عما يجري في مصر، وعن طموحات واليها محمد علي الذي استشعر ضعف الدولة العثمانية وبدأ في إعداد جيش عربي قوي وأسطول بحري توغل به شرقًا وشمالاً ساعيًا إلى إمبراطورية عظمى تقف شامخة في مواجهة إمبراطوريات أوروبا العريقة.

عـــــروض
مـــوجـــزة

غير أن اهتمام أوروبا بمصر كان أسبق من طموحات محمد على بسنوات قلائل، الحملة الفرنسية، والصراع الإنجليزي الفرنسي للاستحواذ على مصر كان نذيرًا ببروز المسألة المصرية، وكانت المرحلة الثانية «للمسألة» منذ خروج حملة فريزر عام ١٨٠٧ وحتى ١٨٢٥. والتي شملت إصلاحات محمد على وبناء جيش مصري قوى وإعداد البلاد لدور سياسى مستقل، وهو ما أقلق السلطان العثماني قبل أوروبا التي راعها الانتصارات التي حققها إبراهيم باشا ابن محمد على ودحضه للثورة اليونانية، وتطورت الأمور في اتجاه أدى إلى انهيار الوضع في المورة ونشوب معركة نوارين البحرية في أكتوبر ١٨٢٧ التي أغرقت فيها السفن الأوروبية الأسطول المصرى العثماني. مما أدى إلى سحب محمد على بقايا قواته وأسطوله، الأمر الذى أغضب السلطان العثماني معتبرًا أن محمد على يتخلى عنه ويتركه فريسة سهلة لأوروبا، وبدأ الصدام الأول بين مصر محمد على الطامحة نحو الاستقلال وبين الدولة العثمانية. واستغل محمد على انشغال أوروبا بخلافاتها الداخلية والانقسام الحاد داخل النظام الأمنى الأوروبي والدعم الفرنسي لمصر كيدًا في أطماع روسيا وبريطانيا، في تحقيق انتصارات مهمة على الدولة العثمانية في الشام، وهى الانتصارات التي شجعت إبراهيم باشا على المضى قدمًا إلى الأناضول حتى بات قريبًا من الأستانة بعد هزيمة الجيش العثماني في «قونية»، وهنا لم يعد بمقدور أوروبا أن تقف مكتوفة الأيدى، خصوصًا مع المحاولات الروسية لاستثمار الوضع المتردى ومؤازرة السلطان العثماني طمعًا في وراثة ممتلكاته في شرق أوروبا، فنصحت الدول الأوروبية محمد على بإنهاء الأزمة وقبول عرض السلطان العثماني بالاكتفاء بولاية عكا، ولكن محمد على رفض النصيحة وأصر على مطالبه وحصل بالفعل على معظم مطالبه باستثناء الاستقلال عن الدولة العثمانية، وتنبهت أوروبا إلى خطورة الزحف الروسى على شرق القارة الذى أخل تمامًا بتوازن القوى الأوروبي.

من جهة حاول محمد على أن يستفيد من هذه المخاوف ويعرض مساندته لمواجهة الزحف الروسى مقابل دعم أوروبا له في مواجهة السلطان العثماني وقوبلت محاولاته بالرفض وأحيانًا بالاستياء. وتوصل «الفرقاء» إلى أن العمل الأوروبي المشترك هو أفضل الخيارات، وأجبروا محمد على على الإذعان لرؤيتهم وصار الصدام المصرى الأوروبي وشيكًا مع انهيار الدولة العثمانية، التي لم تكن أوروبا لتسمح بانهيارها على هذا النحو، فكان أن تحالفت أوروبا ضد محمد على لإجباره على التوقيع على معاهدة لندن ١٨٤٠ وبدأ الإعداد لتدخل عسكرى مباشر يوقف محمد على عند حده ويحجم أطماعه سياسيًا وعسكريًا تحقيقًا لمصالحها وحفاظًا على توازنات القوى من وجهة نظرها، بصرف النظر عن أية معايير أخلاقية.

□ □ □

الحوار الحضارى فى عصر العولمة

السيد يسين

القاهرة: نهضة مصر ٢٠٠٢، ٤٠٠ صفحة



يضم الكتاب أقسامًا ثلاثة تعالج في مجموعها الإشكاليات التي تثيرها العولمة بوصفها تعبيرًا عن مرحلة من مراحل تطور التاريخ الإنساني. فيناقش في القسم الأول إشكالية الديمقراطية والعولمة في ظل ما عرف بالموجة الثالثة للديمقراطية التي بدأت مع العام ١٩٨٩ وواجهت تحولات وانتكاسات عديدة مع ظهور موضوعات تتجاوز الحدود القومية للدول مثل قضايا البيئة وعالمية الاتصالات والمعرفة وغيرها على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادى، مما دفع الباحثين إلى دراسة إمكانية إعادة صياغة نظرية الديمقراطية في ظل التفاعلات العميقة التي أنتجتها العولمة، وبرزت حركات اجتماعية تقاوم الطابع غير الديمقراطي للعولمة، كما جرى في دافوس وسياتل والدوحة وغيرها للمطالبة بعولمة ذات وجه إنساني.

أما القسم الثاني الذي خصصه المؤلف للبحث في أحوال الديمقراطية في مرحلة التحول إلى العولمة فيعرض فيه لعديد من العناوين المهمة من بينها أزمة الديمقراطية في الوطن العربي حيث يشير إلى مشاريع عدة صاغها مفكرون من اليمين واليسار لحل أزمة الديمقراطية في الوطن العربي والانتقادات التي واجهتها والصراع الأيديولوجي الحاد بين المشاريع السياسية العربية المطروحة على الساحة: المشروع السلطوى والمشروع الإسلامي والمشروع الليبرالي والمشروع القومي والمشروع الماركسي. ويشير إلى عدة نقاط مهمة: أولها أنه لا يمكن تحقيق ديمقراطية تراعى الحريات الأساسية والعدالة الاجتماعية والأصالة الحضارية بغير عملية نقد ذاتي يمارسها أنصار جميع هذه المشاريع وصولاً إلى برنامج للحد الأدنى للنضال ضد السلطوية السياسية السائدة في الوطن العربي.

وثانيها أنه لابد من تحالف يضم جميع الطبقات الراغبة في عملية التغيير تلك والمستفيدة منها بطبيعة الحال، وتامين مصالح الطبقات الداخلة في عملية التغيير تلك بطريقة سلمية مع الأخذ في الاعتبار المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية وأهمها بطبيعة الحال نشوء نظام عالمي جديد يركز دعاته على التعددية السياسية واحترام حقوق الإنسان والفعالية في إدارة شئون الاقتصاد، وثالثها أن عملية التغيير تلك مرهونة بالقدرة على إحياء المجتمع المدنى في مواجهة الدولة التسلطية، والإسهام عبر مبادرة عربية واضحة القسمات في تشكيل النظام العالمي الجديد.

ويطرح في القسم الثالث فيما يخص النموذج المصرى الحاجة إلى سياسة ثقافية شاملة ترفع وعى المواطن وتبيِّن له أن العلاقة بين المشكلات المحلية والعالمية صارت مترابطة ومتشابكة بدرجة يصعب فصل إحداها عن الأخرى، أى أن ثمة عولمة للمشكلات الإنسانية. وينتقد فكرة التحديث التي يتبناها بعض المفكرين ويرى أنها فكرة فات أوانها فالتحديث يتعلق بالتصنيع وإنشاء مجتمع صناعى، فيما نعيش نحن عصر ما بعد التحديث، عصر مجتمعات المعرفة.

□ □ □

التيارات الإسلامية فى مصر ومواقفها تجاه الخارج

وليد محمود عبدالناصر

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠١، ٢٠٠ صفحة



يتناول الكتاب المواقف التي تتبلورها وتتبناها الحركات الدينية ذات التوجه والنشاط السياسي تجاه العلاقات الدولية، وهيكل النظام الدولي، من خلال دراسة حالة لمواقف القوى الإسلامية السياسية في مصر خلال الفترة من عام ١٩٦٧ (عام النكسة) وحتى عام ١٩٨١ (حادث المنصة).

يدرس المؤلف في الفصل الأول مواقف الحركات الإسلامية تجاه قضايا العالم الإسلامي. مثل مسألة الوحدة الإسلامية وكيفية تحقيقها وارتباطها بمفهوم القومية، ورؤية هذه الحركات لتجارب بعينها في إيران والسعودية وليبيا والسودان وباكستان، ويعالج في الفصل الثاني التحديات التي تواجهها هذه الحركات وهى التحدى الإسرائيلي (اليهودى) والتحدى الغربي (المسيحى) والتحدى الشيوعى (الملحد)، ويحلل رؤية الحركات الإسلامية لدور هذه الأطراف الخارجية باعتبارها مسئولة عن المشكلات التي يواجهها العالم الإسلامي.

ويركز بشكل أساسى على تطور مواقف الحركات الإسلامية من القضية الفلسطينية، وكذلك موقفها من الاتحاد السوفيتي وغزو أفغانستان.

ومن المسائل المهمة التي يلفت الكتاب النظر إليها، اللغة السياسية التي استخدمتها هذه القوى في التعبير عن مواقفها الداخلية والخارجية وإلى أى مدى استقتها من مصادر دينية أو معاصرة أو ممارسات لدول أخرى أو آراء لفقهاء مسلمين في مراحل تاريخية سابقة.

الملاحظة الأخرى التي يؤكدها المؤلف هي مشاركة التيارات الإسلامية في مصر في الفترة محل الدراسة للحركات الإسلامية في بقية دول العالم، في اقتناعها بعالمية الدور الحركي للإسلام. واستعانت بعض تلك التيارات بأفكار لمفكرين إسلاميين غير مصريين.

وفي سعيه لكشف التباين بين هذه التيارات يرى المؤلف أن التنظيمات الإسلامية السرية والجماعات الإسلامية في الجامعات المصرية كانت أكثر حدة وجهادية إزاء القضايا الخارجية من تيار الإخوان المسلمين مثلاً، ولاحظ المؤلف تباينًا إزاء رؤية «الأمة» وهل تشمل الأمة الإسلامية بحدودها الحالية أم تمتد لتشمل العالم كله، وكذلك الحال بالنسبة لمفهوم الجهاد. وهل يستخدم للإطاحة بحكام البلدان الإسلامية الذين لا يطبقون الشريعة أو لتحرير الأراضي المحتلة أو لإقامة حكم الشريعة على أرجاء الأرض جميعها. ولاحظ أن التنظيمات السرية أجّلت الجهاد ضد الأعداء الخارجيين للإسلام حتى تتم الإطاحة بالحكومات «الكافرة» في البلدان الإسلامية، ويشير المؤلف إلى أن الغزو السوفيتي لأفغانستان وعملية السلام بين مصر وإسرائيل وتعميق العلاقات المصرية الأمريكية ساعد على تقارب مواقف التيارات الإسلامية المختلفة فيما يتصل بقضايا العلاقات الخارجية، وكذلك تقريب المواقف بين هذه التيارات وقوى المعارضة السياسية غير الإسلامية.

□ □ □

نوة الكرم

نجوى شعبان

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢، ٢٩٥ صفحة



نوة الكرم هي الرواية الثانية لمؤلفتها نجوى شعبان التي سبق أن نشرت رواية الغر عام ١٩٩٨.

تدور أحداث الرواية في مدينة دمياط في القرن السادس عشر عقب الفتح العثماني لمصر. وهي رواية مليئة بالشخصيات المركبة والثرية التي تنتمي إلى مختلف فئات وطبقات المجتمع.

تحاول الكاتبة من خلال روايتها تلك أن تعيد كتابة التاريخ بطريقة أكثر ديمقراطية، فهي لا تسعى إلى سرد أحداث التاريخ الكبرى من خلال عيون الحكام وعلية القوم - كما هو الحال في كتابات التاريخ الرسمي - بل تسعى إلى إعادة الحياة مرة أخرى إلى الواقع المعاش للطبقات التي يتجاهلها هذا التاريخ.

فنوة الكرم أبطالها العديدون هم من الشخصيات التي كثيرًا ما توصف بالمهمّشة مثل الترجمان والخزاف والمزوع والصباغ والقرصان.

تعطي نجوى شعبان مساحات وأدوارًا موسعة للشخصيات النسائية في روايتها بحيث تكون نوة الكرم أيضًا محاولة لإعادة كتابة تاريخ المرأة المصرية. فمن خلال ليلى الكحكية وأختها سنانية والراهبة أمونيت وحتى الراقصة اليهودية تقدم الكاتبة نماذج لسيدات خرجن عن الصور التقليدية المرسومة لهن في الخطاب الرسمي بحيث لعبن أدوارًا جريئة في مجتمعهن الدمياطي. فليلى مثلاً تُعرف بالكحكية أي صانعة الكحك وهي التي تربي وترعى أخواتها وتعولهم بعد وفاة الأهل ولكنها أيضًا شخصية قوية وجريئة.

تحتفي رواية نوة الكرم بالتعددية الثقافية التي أثرت حياة المصريين في العصور الوسطى وهي التعددية التي وإن انكمشت مساحتها كثيرًا في واقع مصر المعاصر فإنها مازالت مدفونة في الطبقات الثقافية الكثيرة للشخصية المصرية. فنوة الكرم تبرز التراث المصري القديم والقبطي مثلاً في تكوين الشخصية المصرية حتى وإن اختلفت دياناتها الآن.

وبحكم موقع دمياط كميناء بحري ونهري فإنها مدينة ساحلية منفتحة على ثقافات من مختلف أنحاء العالم مما ساعد المؤلفة على تقديم شخصيات من خارج المجتمع العربي والمسلم، وبالتالي الإشارة إلى ضرورة الانفتاح على مختلف التجارب الثقافية سواء كانت محلية (كتجارب البدو وأهل السودان وأقباط الصعيد) أو عالمية مثل الشخصيات الأوروبية التي تدخل في نسيج السرد.

وربما تكون شخصية عبدالجليل المطراوي، أحد كبار التجار في دمياط، هي الأكثر تعبيرًا عن هذا الثراء الثقافي الذي تحتفي به نجوى شعبان. فعبدالجليل المطراوي من أصل أوروبي جاء إلى الدولة العثمانية عن طريق ضريبة الدفشرمة ولكن تاجر العبيد باعه لأحد تجار دمياط الذي تبناه وقدمه لأهل المدينة كابنه دون أن يحكي لهم بالطبع أي شيء عن أصله الأوروبي. ويرث عبدالجليل مكانة هذا التاجر في مجتمع دمياط وثروته ويمارس الدور المطلوب من تاجر ثري فينفق كثيرًا من الأموال على الفقراء والمحتاجين الذين يدعون له. ولكنه أيضًا يبني لنفسه قصرًا فخمًا يمارس فيه طقوسًا غريبة على هذا المجتمع ترجع أصولها إلى كرنفالات أوروبا التي عرفها في طفولته.

نجوى شعبان تحاول في هذه الرواية إعادة كتابة هذه التجارب الثقافية والتاريخية وإعادة جو الكوزموبوليتانية والتعددية.

□ □ □

انفجار سبتمبر بين العولمة والأمركة

إبراهيم نافع

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٢، ٢٥٥ صفحة



يعتبر كتاب إبراهيم نافع رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير جريدة الأهرام من أوائل الكتب العربية التي تصدر في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر الماضي. ويسعى إبراهيم نافع في هذا الكتاب إلى مناقشة أحداث سبتمبر وتداعياتها خاصة من حيث إعلان الحرب على الإرهاب و«الدول المارقة» في سياق التطور التاريخي نحو العولمة. ففي هذا الإطار انطلقت دعوة عالمية إلى «عولمة العولمة» والخروج بها من دائرة المصالح الأمريكية الضيقة. فيما أن العالم كله مطالب بدفع فاتورة الأحداث التي تعرضت لها الولايات المتحدة بحكم القوانين الجديدة للعولمة التي فرضت علاقات جديدة بين دول ومناطق العالم، وبما أن كثيرًا من دول العالم مستجيبة لمطالبة الولايات المتحدة لها بالمشاركة في «الحرب ضد الإرهاب»، فلقد بات من حق كل دولة أن تطالب بنفع ما يعود عليها من وراء العولمة بحيث تكون هذه العولمة طريقًا يسير في اتجاهين.

يناقش الكاتب هذه القضايا من عدة زوايا خاصة دور الدول العربية في هذه المتغيرات التاريخية والأسباب التي تدفع دولاً مختلفة للمشاركة في المغانم والمغارم. كما يتناول الجدل القائم حاليًا حول وجود تعارض أساسي بين العولمة والسيادة الوطنية وحول دور الأقلمة ومدى نفيها أو تعارضها مع العولمة كما يؤكد الكاتب على ضرورة أن يكون للعولمة - أيًا كان شكلها - وجهها الإنساني الذي يرعى مصالح البشر.

كتب أجنبية

The Rivals: The Intimate Story of Apolitical Marriage

(المتنافسان: أسرار قصة زواج سياسي)

James Naughtie

London: Fourth estate, 2002, 346PP, £ 15.00



مؤلف هذا الكتاب صحفي إذاعي بريطاني شهير عمل في الصحافة المطبوعة سنوات طويلة قبل أن يتولى مسئولية برنامج سياسي يومي في إذاعة راديو التابع لهيئة الإذاعة البريطانية.

وهو لا يدعي أنه يكشف أسرارًا كثيرة عن موضوعه وهو قصة العلاقة السياسية بين رئيس الوزراء البريطاني توني بلير ووزير الخزانة جوردون براون والتي يعتبرها كثير من المعلقين السياسيين البريطانيين الأساس الفكري والسياسي الذي قام عليه حزب العمال البريطاني الجديد الذي تولى السلطة في مايو عام ١٩٩٧ ومازال فيها حتى الآن.

ولقد توصل بلير وبراون إلى أن حزب العمال بصيغته القديمة القائمة على المبادئ الاشتراكية خاصة التأميم وفرض الضرائب وزيادة الإنفاق أصبحت غير صالحة أو على الأقل غير جذابة للناخب البريطاني ولذلك أحدثا تغييرات جذرية في مبادئ الحزب وأعادا تسميته بحزب العمال الجديد.

يتحدث الكتاب عن كيفية نشوء العلاقة بين بلير وبراون منذ أن دخلا مجلس العموم وكان براون هو الأكثر خبرة ونفوذًا وظل الأمر كذلك إلى أن مات جون كيث زعيم الحزب عام ١٩٩٤، وتقدم الصديقان لكي يحلا محله إلا أن معسكر براون يقول إن هناك مؤامرة حدثت أقنعت براون بالانسحاب لصالح بلير ولكن بشروط منها أنه لو فاز الحزب في الانتخابات فإن براون سيتولى وزارة الخزانة وسيكون له كافة السلطات فيما يتعلق بالشئون الاقتصادية.

وقد مرت العلاقات بين الرجلين بأوقات جيدة وأخرى عصيبة وكانت هناك تسريبات صحفية عن خلافات سرعان ما يتم نفيها رسميًا إلا أن الأمر الذي لا يجادل فيه كثيرون أن براون مازال يحلم برئاسة الوزراء وبلير مازال يستمتع بالسلطة ولا يفكر في التنازل عنها لبراون. ويقول المؤلف إن من بين السيناريوهات التي قد تحدث هو أن يتم التخلص من براون بالضغط من أجل أن يتولى منصبًا اقتصاديًا دوليًا ويبعد عن بريطانيا لكن هناك من يقول العكس وهو إن بلير قد لا يقود حزب العمال في الانتخابات البرلمانية المقبلة إلا أن كل ذلك يبقى في إطار التكهنات.

□ □ □

Open Secret: The Autobiography of the Former Director-general of M15

(السيرة الذاتية لمديرة المخابرات البريطانية الداخلية السابقة)

Stella Rimington

London- Hutchinson, 2002, 314PP, £18.99

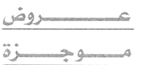


دائمًا ما تحاط أجهزة المخابرات بسرية كبيرة، وكثيرًا ما لا يتم الكشف عن أسماء مديريها. ولذلك يأتي هذا الكتاب الذي وضعته ستيلا رمينجتون مدير جهاز المخابرات البريطاني الداخلي إم آي ليعطي بعض الإيضاحات وليس الأسرار عن عمل المخابرات لأن من الصعب إن لم يكن من المستحيل الكشف عن معلومات حقيقية تفصيلية عن هذا العمل خاصة إذا كان الأمر يتعلق بفترة لم يمض عليها سنوات قليلة كما هي حالة ستيلا رمينجتون.

ولذلك فإن الكاتب يتناول العلاقات داخل الجهاز وحياة رمينجتون وزياراتها للخارج خاصة على سبيل المثال إلى موسكو واجتماعاتها مع رؤساء جهاز المخابرات الروسي «كي جي بي». وفي هذا الصدد فإنها تقول إن كرم وضيافة وترحيب هؤلاء المسئولين كان مثار إعجاب من جانبها إلا أن طريقة العمل كانت غير مألوفة بالنسبة لها. وهنا تتحدث عن صعوبة أن تتم إدارة جهاز للمخابرات في دولة ديمقراطية حيث إن القيم الديمقراطية تفرض نوعًا من التعامل والقواعد تختلف كثيرًا عن قواعد أجهزة المخابرات في دولة ديمقراطية.

وبالنسبة للأسرار، فليس هناك الكثير وعلى سبيل المثال عندما تتحدث المؤلفة عن قضية سقوط طائرة الركاب الأمريكية «بان أمريكان» فوق لوكيربي باسكتلندا فإنها لا تذكر شيئًا جديدًا تقريبًا باستثناء أن التحقيق الذي جرى حول الحادث كان عظيمًا ومليئًا بالتحليلات والمعلومات.

وتقول إنه تم تجنيدها للعمل في



جهاز المخابرات البريطاني عام ١٩٦٧ عندما كانت في الهند عن طريق شخص ما قام بالتنصت عليها ثم فاجأها بالقول هل ترغبين في أن تكوني جاسوسة؟ وتتحدث عن عملها بعد ذلك في مكاتب الجهاز في لندن وعن امتنانها بالشاي وتناول جلسات الشاي التي كانت تعقدها مع زملائها في الجهاز.

وبشكل عام فإن الكتاب ممتع إلا أن نقطة ضعفه الأكيدة والواضحة أنه يفتقر إلى الأسرار وهو أمر مفهوم.

□ □ □

Misere de la Prosperite- La religion marchande et ses ennemis

(بؤس الرخاء. عقيدة التجارة وأعداؤها)

Pascal Bruchner

Ed. Grasset, 2002, 240PP.



هذا هو الكتاب الثامن لكاتب وهب نفسه لنقد عصره وهو ثمرة شعوره بالسخط. ففي بداية عام ١٩٧٠، كان بيتر دراكر والذي كان من كبار رجال الأعمال يعتقد أن الفارق المسموح به في رواتب أي مجتمع ديمقراطي ينبغي أن لا تتجاوز نسبته ١ إلى ٢٦ إلا أن دراكر يرى أن الفارق يتراوح في أيامنا هذه بين ١و١٥٠. وفي عام ١٩٩٨ تجاوزت قيمة ما يملكه أغنى ٣٥٠ شخصًا على مستوى العالم الدخل السنوي المتراكم لما يقرب من نصف سكان العالم.

وجاء إثبات الحالة هذا طبيعيًا: «فالانفتاح الذي وعدت به العولمة - الإمكانية المذهلة للانطلاق بعيدًا عن السكن والأسرة وبلد المنشأ - قد تطور ليأخذ شكل الانغلاق».

ولا يجب أن يلتبس علينا الأمر حيث إن المؤلف لا يهدف من وراء كتابه إلى صياغة معاهدة تبادلات دولية. فعلى العكس من ذلك قام كثيرون من قبله بإنجاز هذا الأمر ببراعة فائقة مثل دافيد لاند (ثراء وفقر الأمم، دار نشر ألبان ميشيل) وهو يوجه لهم تحية تقدير على هذا الفعل. فحديثه لا يهدف إلا إلى تقويض الفكرة الخاطئة السائدة حاليًا عن مساوئ العولمة، هذه العقيدة التي يتولد عنها أبطال، أعوان ومناهضون.

ولذلك فإن الكتاب لن يحظى بثناء أو إعجاب من جانب جيل ١٩٦٨ الذين قاموا بالحركة الطلابية الشهيرة، كما أن بعض القراء قد لا يعجبهم موضوعه باعتبار أن كثيرًا من الكتب تتحدث عن نفس الموضوع وهو العولمة. لكن المؤلف رغم دفاعه عن العولمة يخصص مساحة معتبرة من الكتاب في الهجوم على تصدر الاقتصاد لكافة أوجه الحياة مما يعني تراجع الأخلاق والسياسة والفكر. ولذلك فإنه يطلق صيحة مدوية قائلاً: من سيحررنا من الاقتصاد.

□ □ □

Alexandria Rediscovered

(إعادة اكتشاف الإسكندرية)

Jean-Yves Empereur

Cairo-Auc Press, 2002, L.E120



خلال تسعينيات القرن الماضي قام عالم الآثار الفرنسي جان إيف أمبرور بسلسلة من الاكتشافات المهمة والمثيرة حول تاريخ الإسكندرية القديم. وقد زادت اكتشافاته سواء كان ذلك في أعماق مياه البحر المتوسط أو على الأرض من قدر معلوماتنا عن المدينة التي كانت أحد أهم مدن العالم في العصر القديم.

تأسست الإسكندرية عام ٣٣١ قبل الميلاد على يدي الإسكندر الأكبر القائد الإغريقي الشهير ومنه أخذت اسمها.

وقد ضارعت الإسكندرية أثينا في مجال التأثير الثقافي والفكري ونافست روما سياسيًا، وكانت مركزًا عظيمًا للثقافات الهيلينية واليهودية والمسيحية وأخذت المدينة شهرتها من مكتبتها ومن قصورها الشهيرة كقصر كليوباترا وقصور ذريتها، وللأسف لم يتبق منها شيء.

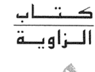
ومع ذلك فإن اكتشافات أمبرور في أعماق البحر المتوسط وجدت أجزاء كثيرة من المنارة القديمة الشهيرة التي كانت تشرف على الميناء في القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الرابع عشر وهي من بين عجائب الدنيا السبع.

وفي نفس الوقت فإنه تم اكتشاف ٦ مواقع على الأرض ومنها مجموعة من المقابر في كوم الشقافة ومقبرة كبيرة في قباري.

وكل هذه الاكتشافات أمدتنا بمعلومات عن العمارة وظروف المعيشة والطقوس الدينية والحياة الفنية في الإسكندرية مدينة الإسكندر وكليوباترا.

والكتاب يشرح الطرق التي استخدمها المؤلف في أعماله الاستكشافية التي جرت في ظروف صعبة للغاية. وهو أيضًا يقوم بتقييم المعلومات التي جرى استخلاصها من الاكتشافات.. والكتاب أيضًا مليء بالصور الرائعة التوضيحية للاكتشافات.

□ □ □





دلائل الإعجاز

التقديم والتأخير

هو باب كثير الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مَسمعهُ، ويَلطُف لديك موقعُهُ، ثم تنظر فتجد سببَ أن راقك ولطُف عندك، أن قُدِّم فيه شيء، وحُوِّل اللفظ عن مكانٍ إلى مكان.

واعلم أن تقديم الشيء على وجهين:

تقديم يقال إنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حُكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدَّمته على الفاعل كقولك: «منطلق زيد» و«ضرب عمرًا زيدٌ»، معلوم أن «منطلق» و«عمرًا» لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعًا بذلك، وكون ذلك مفعولاً ومنصوبًا من أجله، كما يكون إذا أُخِّرَ.

وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقُل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعلَ لهُ بابًا غير بابه، وإعرابًا غيرَ إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرًا له، فتقدِّم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا. ومثاله ما تصنعه بزيد والمنطلق، حيث تقول مرة: «زيدٌ المنطلقُ»، وأخرى «المنطلقُ زيدٌ»، فأنت في هذا لم تقدم «المنطلق» على أن يكون متروكًا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير، فيكون خبر مبتدأ كما كان، بل على أن تنقله عن كونه خبرًا إلى كونه مبتدأ، وكذلك لم تؤخر «زيدًا» على أن يكون مبتدأ كما كان، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبرًا.

اجتماع

المراهقات وألعاب الحب
محمد الحسانين
القاهرة: كتاب الجمهورية ٢٠٠٢

تمثل مرحلة المراهقة في حياة الإنسان انعطافة مهمة تؤثر بما يجري فيها على حياته ومستقبله، المؤلف من خلال عمله الصحفي واجه كثيرًا من مشكلات المراهقين ورد على عشرات الرسائل معهم، وهو هنا يعرض لبعض هذه المشكلات وكيفية مواجهتها حتى يمكن تجاوز هذه المرحلة المهمة والخطرة بسلام.

The Middle of Everywhere: The World's Refugees Come to our Town
(لاجئو العالم في مدينتنا)
Mary Pipher
Harcourt, 2002, 416PP., $ 25.00

المؤلفة اشتهرت بكتبها ودراساتها التي تجمع ما بين الاجتماع والأنثروبولجي وعلم النفس. وفي هذا الكتاب تقوم ماري بيفر بتقديم صور من قريب لعدد من اللاجئين السياسيين الذين يقيمون في ولاية نبراسكا الأمريكية. تحتوي دراستها على التجارب الشخصية للاجئين من روسيا واليمن وكرواتيا والعراق والصومال وإثيوبيا والمجر والبوسنة، وتقدم تحليلاً للتعقيدات التي تنتاب حياة هؤلاء الناس وصدام الثقافات الذي يعيشونه في إطار السياسات العالمية المحيطة.

The Secret Lives of Girls: The Real Feelings of Young Girls About Sex, Violence, Peer Pressure, and Morality
(الحياة السرية للبنات: المشاعر الحقيقية للفتيات الصغار عن الجنس والعنف تأثير الأقران والأخلاق)
Sharon Lamb
Free Press, 2002, 256PP., $ 24.00

المؤلفة أستاذة لعلم النفس في جامعة سان مايكل وتقدم في كتابها هذا نتائج دراسة قامت بها اشتملت على مقابلات مع ١٢٢ فتاة من عرقيات متنوعة وطبقات اجتماعية واقتصادية متباينة في الولايات المتحدة الأمريكية.

إدارة

First Among Equals: How to Manage A Group of Professionals
(الأول بين المتساوين: كيف تدير جماعة من المحترفين؟)
Patrick J. Mckenna and David H. Maister
Free Press, 2002, 288PP., $ 26.00

أي منظومة تصبح أكثر نجاحًا إذا ما جمعت مجموعة من الأفراد الموهوبين في فريق العمل. ولكن المشكلة هي أن معظم الموهوبين - وخاصة المحترفين - يكرهون أن تتم إدارتهم. هذا النوع من التوتر يعالجه مؤلفو الكتاب ويوفرون الاستراتيجيات والنصائح لأي فرد في موقع يحتم عليه إدارة من هم متساوون معه أقران له إلى حد كبير.

Primal Leadership: Realizing the Power of Emotional Intelligence
(القيادة الأولية: إدراك قوة الذكاء العاطفي)
Daniel Goleman, Richard Boyatzis and Annie Mckee
Harvard Business, 2002, 352PP., $ 25.95

يؤكد مؤلفو هذا الكتاب (الذين اشتهر منهم جولمان بكتابه عن الذكاء العاطفي المترجم مؤخرًا إلى العربية) أن المهمة الرئيسية للقائد في العمل هي في إعطاء أفراد فريقه شعورًا بالرضا وبالإيجابية باستمرار وهو الذي يخرج أفضل ما لديهم. وفي الوقت الذي يشترك معظم المديرين في امتلاكهم نسبة عالية من الذكاء إلا أن أكثرهم نجاحًا وتأثيرًا هم الذين يمتلكون الذكاء العاطفي.

Mars & Venus in the Work Place: A Practical Guide for Improving Communication and Getting Results at Work
(الزهرة والمريخ في محل العمل: دليل عملي لتحسين الاتصال والحصول على نتائج في العمل)
John Gray
Harper Collins, 2002, 320PP., $24.95

حقق كتاب جون جراي «الرجال من المريخ والنساء من الزهرة» شعبية كبيرة ومبيعات هائلة، وترجم إلى العديد من اللغات من بينها العربية. وفي هذه المرة ينقل جراي نظريته عن أنماط السلوك الراجعة للتباين النوعي بين الرجل والمرأة من الزواج والعلاقات العاطفية إلى العمل والعلاقات المهنية.

أدب

What We Think of America
(ماذا نعتقد في أمريكا)
Edited by Ian Jack
Granta 77, 254P., £ 8.99

طلب إيان جاك رئيس تحرير المجلة الأدبية جرانتا والتي تصدر ربع سنوية في لندن من ٢٤ كاتبًا (من غير الأمريكيين) من جميع أنحاء العالم، أن يكتبوا عن خبرتهم الأولى مع أمريكا وماذا تعني لهم الآن. وهل فعلاً أمريكا مكروهة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا؟

The Poet and the Murderer: A True Story of Literary Crime and the Art of Forgery
(الشاعر والقاتل: قصة حقيقية عن الجريمة الأدبية وفن التزييف)
Simon Worrall
Dutton, 2002, 288PP., $ 23.95

في عام ١٩٩٧ تم بيع قصيدة للشاعرة إميلي دكنسون في مزاد بقاعة سوثبي الشهيرة بلندن على اعتبار أنها قطعة حديثة الاكتشاف. ثم تبين بعد أربعة شهور أنها قصيدة مزيفة قام بتزويرها تاجر كتب نادرة ومزور قدير اسمه مارك هوفمان. المثير أن هوفمان كان في ذلك الوقت يمضي عقوبة في السجن بتهمة القتل. يروي هذا الكتاب قصة هوفمان وقصصًا أخرى مماثلة من العالم السري للتزوير الأدبي.

اقتصاد

الصين.. التجربة والتحدي
شوقي جلال
القاهرة: دار المعارف ٢٠٠١

عن تجربة الصين العملاقة في مجال التنمية الاقتصادية وقد زارها المؤلف في عام ١٩٨٩ ثم بعد ذلك بنحو عشر سنوات ووقف على حقيقة التجربة وتطورها المستمر وركائز عملية النمو التي تعد واحدة من أعلى معدلات النمو في العالم.

تاريخ وآثار

تاريخ وآثار سيناء من الفتح العربي لمصر حتى اليوم
عدد من الباحثين
القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي ٢٠٠٢

تشتمل سيناء على مجموعة كبيرة من الآثار التي تنتمي لعصور مختلفة فرعونية وقبطية وإسلامية. والكتاب يقدم حصرًا لآثار سيناء منذ الفتح العربي.

صيانة المخطوطات علمًا وعملاً
مصطفى السيد يوسف
القاهرة: عالم الكتب ٢٠٠٢

تعد المخطوطات المادة الخام لدراسة التاريخ وفك طلاسم الحضارات القديمة، لكنها لا تعامل بما تستحقه من الاهتمام والرعاية بوصفها كنوزًا مهمة لا ينبغي التفريط فيها، المؤلف يعرض للتأثيرات المختلفة على المخطوطات وكيفية التعامل معها حفاظًا على هذه الثروة وصيانة لها.

Beria: My Father: Inside Stalin's Kremlin
(بيريا: أبي.. داخل الكريملن أثناء حكم ستالين)
Sergio Beria
edited by: Francoise Thom
Translated by: Brian Pearce
Dachworth, 2002, 320PP., $26.95

دخل لافرينتي بيريا تاريخ الطغاة باعتباره آخر من رأس جهاز البوليس السري في عهد ستالين. وقد قال عنه خروشوف إنه سادي ومختل وإنه حاول الاستفادة من موت ستالين لإنشاء دكتاتورية خاصة به. في هذا الكتاب يكتب سيرجيو بيريا ابن لافرينتي بيريا عن والده الذي أحبه محاولاً الدفاع عنه، وقد ساعدته بالمواد البحثية والأرشيفية شخصية أكاديمية فرنسية معروفة هي فرانسواز توم. الكتاب مترجم عن اللغة الروسية.

The Future of the Past
(مستقبل الماضي)
Alexander Stille
Farrar, Straus & Giroux, 2002, 336PP., $25.00

حول الدائرة المفرغة للترميم والتدمير التي تتعرض لها الآثار التاريخية في مناطق متفرقة من العالم؛ في مصر والهند وصقلية وبابوا نيو غينيا والفاتيكان. ففي كل هذه الأماكن يقوم الدارسون بعمليات الحفظ والترميم للآثار بأحدث الطرق التكنولوجية، في نفس الوقت الذي تزيد فيه نسبة التلوث والتدمير أيضًا بسبب التقدم التكنولوجي.

تعليم

تساؤلات الطفل ومخاوفه
أحمد السعيد يونس
القاهرة: دار قباء ٢٠٠٢

ما أن يبدأ الطفل في الكلام حتى تكثر أسئلته واستفساراته التي تتصاعد صراحتها كلما كبرت سنه، وهي أسئلة يجد الأبوان أنفسهما في وضع حرج للإجابة عليها، المؤلف يقدم حلولاً للآباء في كيفية التعامل مع أسئلة الطفل دون حرج محققة الإشباع الضروري لاحتياجات الطفل المعرفية.

The Internet in School: Promise and Problems
(الإنترنت في المدرسة: الأمل والمشاكل)
Janet W. Schofield and Ann L. Davidson
Jossey -Bass, 2002, 380PP., $ 27.00

في العشر سنوات الماضية، أصبح تطوير المدارس مرادفًا لإمدادها بأجهزة الحاسبات الآلية المتصلة بشبكة الإنترنت العالمية، على فرض أن هذا الاتصال من شأنه رفع مستوى التعليم بشكل جذري. ولكن مؤلفي هذا الكتاب يبرهنان أن هذا الفرض ليس صحيحًا تمامًا.

فبعد خمس سنوات من البحث تؤكد التقارير الناتجة عنه أن هناك مشاكل عديدة منها الخروج عن المهام التعليمية الأساسية وفقدان المدرسين للسيطرة على المنهج وتعرض التلامذة لآراء كثيرة مشتتة للانتباه وتنقصها المصداقية.

Class War: The State of British Education
(حالة التعليم البريطاني)
Chris Woodhead
Little Brown, 2002, 212PP., $14.99

ألف هذا الكتاب كبير مفتشي المدارس السابق في بريطانيا بعد أن قدم استقالته العام الماضي سخطًا على نظام التعليم

الموجود حاليًا. وتصف شهادته هذه مدى سوء أوضاع التعليم والتدهور الذى أصاب مستوى التعليم نتيجة للسياسات العمالية.

حيث يرى وودهيد أن الخطورة تكمن فى كون التعليم لم يعد مطلوبًا فى حد ذاته لتحسين الفرد وإنما أصبح ينظر له فقط كوسيلة لإحراز المال وتحقيق المنافسة الاقتصادية للدولة. ويفسر وودهيد فى كتابه كيف يمكن أن يؤدى مثل هذا التفكير إلى كارثة.

"دوريات"

البحرين الثقافية (دورية)
عبدالرحمن اليتيم
البحرين: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ٢٠٠٢
إطلالة على الحياة الثقافية والفنية والفكرية فى مملكة البحرين، وجولة فى ربوع الفن التشكيلى هناك ومناقشات حول الديمقراطية يشارك فيها إبراهيم بشمى وبدر عبدالملك وحسن مدن.

■■■

الطريق (دورية)
بيروت: ٢٠٠٢
تدخل مجلة الطريق عامها الستين، وبهذه المناسبة يصدر عددها الجديد مشتملاً على مقالات ودراسات عديدة فى السياسة والثقافة والاجتماع والنقد الأدبى، ومن أبرز كتّاب هذا العدد الذين تستضيفهم المجلة: إلياس خورى، إميلى نصرالله، سعيدالصكار ويمنى العيد.

■■■

المستقبل العربى (دورية)
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٢
يتضمن العدد الجديد حوارات ونقاشات حول مستقبل الثقافة فى وطننا العربى خصوصاً فى مصر، بينها حوار مع هشام شرابى ومقالات لأسامة الغزالى حرب وعبدالحسين شعبان.

"روايات وقصص"

مشهد من وراء السور
عزالدين نجيب
القاهرة: الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٢
مجلد يضم ثلاث مجموعات قصصية للفنان والناقد التشكيلى الذى كتب القصة فى مراحل مختلفة من حياته وهى أيام العز والمثلث الفيروزى غير الوترى وأغنية الدمية، وقدم لهذه المجموعة يحيى حقى وإدوار الخراط وعلق عليها عدد من النقاد منهم فؤاد دوارة وسامى خشبة وفاروق عبدالقادر. وتضمن المجلد هذه الدراسات.

■■■

Alexander Volume2
The Sands of Ammon
(الإسكندر - الجزء الثانى - رمال آمون)
Valerio Massimo Manfredi
Translated by: Ian Halliday
Washington Square, 2002, 416PP., $14.00
الجزء الأول من هذه الرواية كان بعنوان: (الإسكندر: ابن الحلم) للمؤلف الإيطالى مانفريدى. وفى هذا الجزء يحول مانفريدى اهتمامه إلى حملة الإسكندر الأكبر على بلاد فارس.

■■■

The Serious Game
(اللعبة الخطيرة)
Hjalmer Soderbery
Translated by: Eva Nelson
Marion Boyars, 2002, 242PP., $ 14.95
هذه الرواية مترجمة عن اللغة السويدية وتروى قصة حب بين أرفيد وليديا اللذين يبتعدان بسبب الطموح والعمل ويتزوج كل منهما من شخص آخر ثم يجتمعان بعد سنوات فى علاقة عاطفية. القصة رغم بساطتها لفتت الأنظار بسبب الأماكن التى تدور فى خلفيتها الأحداث وكلها فى مدينة ستوكهولم، إلى جانب الصراع الأخلاقى الذى يدور فى ضمير البطل أثناء هذه العلاقة.

■■■

The Idea of Perfection
(فكرة المثالية)
Kate Grenville
Viking, 2002, 402PP., $ 24.95
حصلت هذه الرواية لمؤلفتها الأسترالية على جائزة «الأورانج» البريطانية فى العام الماضى. وتدور الأحداث فى مدينة صغيرة فى أستراليا.

■■■

Rouse Up O Young Men of the New Age
(انهضوا يا شباب العصر الجديد)
Kenzaburo Oe
Translated by: John Nathan
Grove, 2002, 272PP., $24.00
الترجمة الإنجليزية للرواية الجديدة التى كتبها الأديب اليابانى الحاصل على جائزة نوبل فى الآداب كنزابورو أو. تدور الرواية حول العلاقة الإنسانية بين أب وابنه الذى يعانى من تلف فى المخ.

"سياسة"

نحو مشروع نهضوى عربى
مجموعة من الباحثين
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٢
يتضمن الكتاب أبحاث الندوة التى أقيمت فى المغرب وشارك فيها عدد كبير من المختصين والأكاديميين وكان سؤالها الأساسى حول المشروع النهضوى العربى الذى يمكن أن يواجه التغيرات المتلاحقة فى عصر العولمة، ويطرح الباحثون تصوراتهم لأسس هذا المشروع وعوامل نجاحه.

■■■

الأخطبوط وخيوط المؤامرة لابتلاع فلسطين
السيناتور جاك تنى
ترجمة: هشام عواض
القاهرة: دار الفضيلة ٢٠٠٢
ماتزال الصهيونية تنسج خيوطها بشراسة لتنفيذ مؤامراتها العالمية التى بدأتها فى نهايات القرن الثامن عشر، ومازال اللوبى الصهيونى يواصل دوره ببراعة ودأب لتحقيق مآربه فى السيطرة على مقدرات العالم، المؤلف يعرض لخيوط المؤامرة التى تتضح معالمها الآن على يد شارون الذى يريد أن يمحو اسم فلسطين من فوق الخريطة.

■■■

Spoiling for A Fight: Third-Party Politics in America
(سياسات الحزب الثالث فى أمريكا)
Michael L. Sifry
Routledge, 2002, 354PP., $27.50
يركز هذا الكتاب على حملة رالف نادر للفوز بالرئاسة فى الانتخابات الرئاسية الأخيرة التى شهدتها الولايات المتحدة. حيث يقدم سيفرى وهو محرر بمجلة «نايشون» مجموعة المشاكل التى تواجهها الأحزاب البديلة، كما يقدم أيضًا الإيجابيات التى تعود على السياسة الأمريكية من مثل هذه الأحزاب.

■■■

The Paradox of American Power: Why The World's Only Superpower Can't Go It Alone
(معضلة القوة الأمريكية: لماذا لا تستطيع أكبر قوة فى العالم أن تكون وحدها)
Joseph S.Nye
Oxford University Press, 2002, 222P, $ 26
عمل جوزيف ناى مستشارًا للدفاع والاستخبارات أثناء حكم الرئيس كلينتون. أما الآن فيشغل منصب عميد كلية كينيدى للدراسات الحكومية فى جامعة هارفارد. يؤكد ناى فى كتابه على أن الولايات المتحدة حتى وهى فى قمة قوتها فى حاجة إلى شركاء وحلفاء. كما يرى أنه على أمريكا الاعتماد على القوة الإقناعية اللينة التى تتمثل فى قيمها وثقافتها أكثر من الاعتماد على القوة العسكرية.

"شعر"

قوس قزح الصحراء
سيف الرحبى
ألمانيا: منشورات الجمل ٢٠٠١
اختار الشاعر الصحراء موضوعًا للغزل بكل ما فيها من رحابة وسماء ونور وحياة، وإلى جانب الغزل يطرح الشاعر خواطره وتأملاته وتطلعاته للمستقبل.

■■■

ديوان القطامى
تحقيق ودراسة
محمود الربيعى
القاهرة: هيئة الكتاب ٢٠٠٢
دراسة تحليلية فى قصائد هذا الشاعر الأموى الذى تعكس أشعاره حال المجتمع الأموى فى مرحلة تاريخية بعينها، وإلى جانب دراسة القصائد، يعرض المحقق لسيرة القطامى ونسبه وقبيلته وحياته.

"طب"

Complications: A Surgeon's Notes on an Imperfect Science
(تعقيدات: ملاحظات جراح عن علم بعيد عن الكمال)
Atul Gawande
Holt/Metropoliton, 2002, 272PP., $24.00
تحول المؤلف من جراح محترف درس الطب فى هارفارد إلى كاتب محترف أيضًا فى مجلة النيويوركر الأمريكية. وفى هذا الكتاب يصف مهنة الجراحة واللحظات الدرامية التى تمتلئ بها حياة الجراح. فالجراح حسب وصف المؤلف يتعامل مع معرفة طبية متغيرة باستمرار، بالإضافة إلى معلومات غير مؤكدة وبشر يمكن أن يخطئوا، وفى نفس الوقت بشر بين الحياة والموت. كذلك على الطبيب فى مواقف كثيرة أن يوازن بين المعرفة والحدس لكى يتخذ قرارات تبدو مستحيلة.
يناقش المؤلف أيضًا التكنولوجيا الحديثة ومتى تكون مفيدة أو معوقة، كما يناقش أنواعا معينة من الأمراض والحالات التى شهدها بنفسه والطرق الجراحية المبتكرة التى نفذت لعلاجها.

■■■

Understanding Depression: What we Know and What you Can do About it
(فهم الاكتئاب: ماذا نعرفه وماذا يمكنك أن تقوم به إزاءه)
Raymond De Paulo Jr., Leslie Alan Tlorvitz
Wiley/Dana Press, 2002, 304PP., $ 24.95
يعمل دوباولو أستاذًا للعلاج النفسى ومديرًا لمستشفى الاضطرابات العقلية بكلية الطب فى جامعة جونز هوبكنز الأمريكية.
فى هذا الكتاب يتوجه دوباولو للقارئ العادى شارحًا له كل ما يتعلق بمرض الاكتئاب، ما هو وكيف نشعر به، ومن الأكثر عرضة له، وأساليب العلاج، ودور الأسرة والأصدقاء تجاه المريض، وأثر المريض فى المحيطين به.

■■■

Living Proof: A Medical Mutiny
(دليل حى: تمرد طبى)
Michael Gearin-Tosh
Scribner, 2002, 327PP., £12.99
يعمل مايكل جيرين توش أستاذًا للإنجليزية فى جامعة أوكسفورد، وقد أصيب بمرض السرطان فى النخاع العظمى قبل عشر سنوات. وبعد أن استشار عددا كبيرا من كبار الأخصائيين فى بريطانيا والولايات المتحدة، قرر عدم الأخذ

بنصائحهم. وقرر أن يجرب علاجات بديلة بتناول العصائر، والفيتامينات والقهوة وتمارين تنفس صينية.

"فكـــر"

ثقافة العنف فى العراق

سلام عبود

كولونيا: منشورات الجمل ٢٠٠٢

رؤية للمأساة السياسية العنيفة فى العراق والممارسات الخارجية تجاه النظام والشعب هناك والتى تتصاعد يومًا بعد آخر وتفرض عليه حصارًا من التجويع والموت. المؤلف يعرض كذلك لعدد من النصوص الأدبية التى كتبت فى فترة الحرب العراقية الإيرانية سواء فى المنفى أو فى العراق نفسه، وسيطرة تلك الأجواء على النصوص.

■■■

صعود وانهيار إمبراطورية الأخلاق

سمير سرحان

القاهرة: أخبار اليوم ٢٠٠٢

مجموعة من المقالات التحليلية والنقدية عن مشكلات وهموم مصرية وعربية أثرت فيما وصل إليه حال الأمة العربية. عن الإدمان وتأثيره على شباب الأمة ومستقبلها، عن قضية فلسطين وتطوراتها، عن تدهور الأخلاق والفضيلة لأسباب مختلفة، ثم فى قضايا النقد والإبداع وهى تخصص المؤلف الأصيل.

■■■

الحضارة الغربية.. الفكرة والتاريخ

توماس س. باترسون

ترجمة: شوقى جلال

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٢

يكشف المؤلف عن عديد من الأفكار المغلوطة لدى الحضارة الغربية وعنها، والطابع الصراعى لهذه الحضارة وتأثير هذه الأفكار الصراعية على مستقبل العالم والمفكرين الغربيين البارزين الذين قاوموا هذه الأفكار وفضحوا زيفها وعنصريتها.

"فكـــر دينى"

الأولياء الثلاثة

صلاح عزام

القاهرة: كتاب الشعب ٢٠٠٢

يتناول المؤلف جوانب لم تدرس تاريخيًا فى حياة ثلاثة من المتصوفة هم رابعة العدوية ومالك بن دينار وذو النون المصرى، ويعرض لنماذج من أشعارهم وأفكارهم التى تأثر بها المتصوفة بعد ذلك.

■■■

أماكن مشهورة فى حياة الرسول

حنفى المحلاوى

القاهرة: عالم الكتب ٢٠٠٢

زاوية جديدة عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، تتناول التأثير المكانى فى الدعوة الإسلامية وأهم الأماكن التى شهدت الدعوة فى بداياتها الأولى وحتى قيام الدولة الإسلامية الأولى وإرساء دعائمها فى العهد النبوى.

■■■

طبيعة العلم.. رؤية إسلامية تطبيقية فى تعليم العلوم

إسلام رفاعى عبدالحليم

القاهرة: عالم الكتب ٢٠٠٢

شجع الإسلام العلم وحث على المعرفة من المهد إلى اللحد، لكن كثيرين يتصورون أن ذلك ينطبق على العلوم النظرية، خصوصًا ذات الصلة باللغة وعلوم الكلام والحديث، المؤلف يقدم نماذج تطبيقية لعلماء مسلمين أسهموا فى تقدم العلوم الطبيعية، كما كانت لهم إسهاماتهم فى علوم اللغة والحديث.

"فلســفة"

الفلسفة على شجرة المستقبل

مجاهد عبدالمنعم مجاهد

القاهرة: دار الثقافة ٢٠٠٢

فى خمسة فصول يتناول المؤلف معنى الفلسفة ومفهومها قديمًا وحديثًا، ويعرض للعلاقة بين الفلسفة والفكر القومى العربى، ودور الفلسفة فى استكشاف المستقبل وفهم الحاضر.

■■■

كتاب تذكارى

تقديم فؤاد زكريا

الإسكندرية: دار الوفاء ٢٠٠٢

تكريمًا للدور الذى لعبه ومازال يلعبه أستاذ الفلسفة عاطف العراقى كأكاديمى وباحث ومساهم راق فى القضايا العامة منحازًا للعقل على الدوام. يأتى هذا الكتاب التذكارى الذى يساهم فيه نخبة من تلاميذه وزملائه، فيتعرضون لأهم الموضوعات التى انشغل بها - خصوصًا الفلسفة الرشدية - ويعد العراقى أكثر المتحمسين لها. كما يتضمن الكتاب عددًا من الحوارات والمقابلات التى أجريت معه فى الصحف المصرية والعربية.

"فنــــون"

موسوعة الفن المصرى القديم

ميرفت عبدالناصر

القاهرة: دار الكتاب المصرى اللبنانى ٢٠٠٢

شغل الفن المصرى القديم ولايزال حيزًا مهمًا فى الدراسة الفنية فى العالم كله، هذه الموسوعة تكشف عن جوانب جديدة فى الحضارة المصرية القديمة من خلال دراسة لفنون النحت والتصوير والطب والخزف.

■■■

The Great Movies

(الأفلام السينمائية العظيمة)

Roger Ebert

Broadway, 2002, 544PP., $27.50

ينتقى الناقد السينمائى الأمريكى روجر إيبرت أعظم مائة فيلم سينمائى، محللاً أسباب عظمة كل فيلم، والأسباب التى تجعل المشاهدين العاديين يتجاوبون مع هذه الأفلام باعتبارها فعلاً أفلامًا عظيمة. المقالات القصيرة التى يحتويها الكتاب ظهرت فى عاموده الأسبوعى الذى يظهر فى عدة صحف فى وقت واحد تحت نفس العنوان.

■■■

You Only As Good As Your Next One: 100 Great Films, 100 Good Films, and 100 for wich I Should be Shot

(١٠٠ فيلم عظيم، و١٠٠ فيلم جيد، و١٠٠ فيلم ينبغى ضربى بالنار بسببها)

Mike Medavoy With Josh Young

Pocket, 2002, 416PP., $27.00

يعد ميدافوى أحد أقطاب الاستوديوهات الكبيرة فى هوليوود، وهو يكتب فى هذا الكتاب بمعاونة الصحفى جوش يونج لتوثيق عشرات السنين قضاها فى مجال إنتاج وتسويق الأفلام. فهو يكتب عن الحملات الإعلانية، والأفلام التى تكلفت إنتاجًا ضخمًا، ومعارك شبابيك التذاكر، وسياسات عقد الاتفاقات والصفقات.

وهو يروى كل هذا ضمن مذكراته الشخصية حيث تنقل من ساع فى استوديوهات يونيفرسال إلى توزيع الأدوار على الممثلين، ثم أصبح من أهم الوكلاء السينمائيين، من ضمن عملائه فرانسيس فورد كوبولا وستيفن سبيلبرج وجين فوندا. بعد ذلك انتقل ميدافوى إلى مجال الإنتاج بانضمامه إلى يونايتد أرتيستس فى ١٩٧٤ لينتج أفلام روكى ونيويورك نيويورك وغيرها. ثم أنشأ شركة أوديون فى عام ١٩٧٨ وعمل مع وودى آلين وأنتج فيها أفلاما ناجحة.. الرقص مع الذئاب وصمت الحملان. وفى عام ١٩٩٠ تولى منصب رئيس مجلس إدارة تريستار.

■■■

Light At the Edge of the World: A Journey through the Realm of Vanishing Cultures

(رحلة فى عالم الثقافات المندثرة)

Wade Davis

National Geographic, 2002, 180PP., $35.00

المؤلف باحث أنثروبولوجى سافر على مدى ٢٥ عامًا إلى بلاد ومناطق بعيدة فى العالم. وخلال هذه الرحلات قام بالتقاط العديد من الصور، وهى التى يضمها هذا الألبوم المصور لمناظر أفراد من الأنديز والأمازون وهايتى وكينيا والتبيت وغيرها من البلاد. الكتاب تنشره الناشيونال جيوغرافيك التى كانت قد نشرت فى عدد سابق من مجلتها الشهرية مقالاً مصورًا يحتوى على جزء من نفس الموضوع.

"مذكرات وسير"

الحمد لله هذه حياتى

عبدالحليم محمود

القاهرة: دار المعارف ٢٠٠٢

سيرة حياة العالم الصوفى الكبير شيخ الأزهر السابق الدكتور عبدالحليم محمود، تتضمن رؤيته للحياة ورأيه فى التصوف وسياحته فى الفكر الصوفى، ودراسته فى الأزهر والشيوخ الذين نقل عنهم وتأثر بهم وتأثيرهم على حياته.

■■■

الوصيــة

دايز ماريا ريلكه

ترجمة: شربل داغر

ألمانيا: منشورات الجمل ٢٠٠٢

مجموعة من الرسائل المتبادلة بين ريلكة والشاعرة الروسية ماريا استمرت أربعة أشهر حتى وفاة ريلكه، وهى تعكس رؤاهما وأفكارهما وفيها كثير عن طفولة ريلكه وصباه وطموحاته.

■■■

أيمن الظواهرى كما عرفته

منتصر الزيات

القاهرة: دار مصر المحروسة ٢٠٠١

ملأ الظواهرى الدنيا وشغل الناس كما فعل أسامة بن لادن خصوصًا فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، حيث بدا أن أيمن الظواهرى هو الساعد الأيمن لبن لادن، والمؤلف باقترابه من الجماعات الإسلامية بوصفه المسئول عن ملفاتهم القانونية يحكى عن الظواهرى الذى عرفه عن قرب. كما ينتقد مواقف حركة طالبان وتحليلاً لتطورات الوضع فى أفغانستان وما آلت إليه الأمور هناك.

■■■

رمضان الشلاشى

فايز الشلاشى

القاهرة: دار المستقبل العربى ٢٠٠٢

عن شخصية المناضل رمضان الشلاشى ودوره فى المعارك ضد الاستعمار الإنجليزى فى سوريا والعراق. المؤلف يعرض لسيرة هذا المجاهد الكبير وكفاحه الوطنى، وكيف تم تجاهل سيرته فى الأدبيات التى تؤرخ للنضال ضد الاستعمار فى هذه المرحلة.

■■■

محمد بوضياف.. اغتيال حلم

محمد عباس

الجزائر: دار هومة، ٢٠٠١

وثيقة شاملة عن الرئيس الجزائرى الراحل الذى اغتيل فى مشهد مأساوى بينما كان يوجه خطابًا إلى شعبه. وبوضياف هو أحد قادة جبهة التحرير الوطنى الجزائرى الكبار، والكتاب يقدم فى ثمانية فصول مسيرة بوضياف وموقعه من رفاقه من قادة جبهة التحرير والأزمة التى سبقت توليه الحكم، وتفاصيل عملية اغتياله، ويتضمن الكتاب شهادات لمجايليه ورفاق نضاله الوطنى فضلاً عن وثائق ورسائل تخص بوضياف نفسه.

■■■

The Letters of Arturo Toscanini

(رسائل أرتورو توسكانينى)

edited by: Harvey Sachs

Knopf, 2002, 528PP., $ 35.00

كتب هارفى ساكس قصة حياة

الموسيقى الإيطالى الكبير توسكانينى منذ عشرين عامًا. وفى ذلك الوقت كتب قائلاً إن رسائل توسكانينى قليلة نسبيًا وليس بها قدر كبير من المعلومات. ولكن بعد سنين من الجمع والبحث والتنقيب وجد ساكس مئات من رسائل توسكانينى تروى الكثير عن حياة هذا الفنان المنطوى.

مسرح

الملحمية فى مسرح يسرى الجندى
نجوى عاتوب
القاهرة: مؤسسة الطوبجى ٢٠٠٢

يتميز مسرح يسرى الجندى بمميزات وخصوصيات فريدة، المؤلفة تناقش فى ثلاثة فصول خصوصيات وأدوات هذا المسرحى المهم ورؤيته للمشكلات السياسية والاجتماعية والعسكرية التى تواجه مجتمعه، وتأثير السير الشعبية فى تناوله لهذه المشكلات.

■■■

رؤية وبيان حالة للمسرح العربى
محمد الفيل
القاهرة: الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٢

مر المسرح العربى خلال الثلاثين عاماً الأخيرة بانعطافات مهمة أثرت على مسيرته وأوصلته إلى حالة غير مسبوقة من الركود.
المؤلف يدرس هذه المرحلة وأسباب الركود ويقارن بينها وبين ما يشهده المسرح فى الغرب، كما يتعرض للاتجاهات المسرحية الحديثة فى العالم وتأثيرها على المسرح العربى وهل ساعدت فى إعادة تشكيله على النحو الذى نراه.

منوعات

أسماء البنين والبنات
أحمد محمود فرج
القاهرة: مكتبة رجب ٢٠٠٢

من بين حقوق الأبناء على الآباء كما شددت عليها تعاليم الإسلام اختيار أسمائهم، فيجب على الأبوين أن يختارا لأبنائهم أسماء حسنة لا تبعث على الخجل ولا تجعل رفقاءهم يعيرونهم بها. المؤلف يشرح أهمية التسمية وأشهر الأسماء العربية ومعانيها وكيفية اختيار الاسم المناسب للأولاد.

■■■

دليلك إلى تطوير شخصيتك
يوسف الأقصرى
بيروت: دار اللطائف ٢٠٠٢

نصائح التنمية الشخصية وتطوير عناصرها الإيجابية وكيفية مواجهة الإنسان للمشكلات التى تصادفه وتؤثر فى شخصيته وصولاً إلى شخصية سوية نفسيًا ومنسجمة مع المجتمع.

■■■

الإسكندرية روعة وعطاء الزمان والمكان والإنسان
عبدالفتاح غنيمة - حسين الشيخ - حازم أبوشليب
الإسكندرية: الهيئة الإقليمية لتنشيط السياحة ٢٠٠٢

تتميز الإسكندرية بأنها مدينة ذات طابع خاص، وقد اتصفت دومًا وحتى وقت قريب بأنها مدينة كوزموبو ليتانية جمعت أجناس وشعوب وثقافات مختلفة مما أكسبها طابعها المميز ومكنها من أن تلعب دورًا بالغ الأهمية فى التاريخ الثقافى لمصر والعالم، المؤلفون يلقون أضواء على هذا الدور.

■■■

تأملات خابية
زينب الكردى
القاهرة: دار الأمين ٢٠٠٢

مقالات ساخرة تتناول الوضع العربى الراهن على الصعيدين السياسى والاجتماعى والمشكلات التى تعترض حياة المواطن العربى وما يؤثر على مسيرة التطور العربية.

نقد

توترات الإبداع الشعرى
حبيب مؤنس
الجزائر: دار الغرب ٢٠٠٢

دراسة نظرية عن تلقى النص الشعرى، تطرح قضايا عدة أهمها الاستحضار المكانى فى القصيدة وحدود الوعى واللاوعى فى بنية النص، ويطبق المؤلف فروضاته على الشاعر نزار قبانى.

■■■

نقد المسكوت عنه فى خطاب المرأة والجسد والثقافة
أمينة غصن
دمشق: دار المدى ٢٠٠١

بحث عن مكانة المرأة فى المجتمع العربى والأحكام التى تتضمنها النصوص الدينية والاجتهادات الفقهية فى شأن المرأة، وكذلك عن خطاب الجسد فى الأدب والسينما ونقد هذا الخطاب.

■■■

History of the Surrealist Movement
(تاريخ الحركة السريالية)
Gerard Durozoi
Translated by: Alison Anderson
University of Chicago, 2002, 816PP., $95.00

عمل ضخم صدر أول مرة فى فرنسا عام ١٩٩٧ للناقد الفنى الفرنسى والفيلسوف المخضرم جيرار ديوروزوا، يتناول فى مجلد واحد تاريخ الحركة السريالية فى الفن والأدب فى القرن العشرين. وقد بدأت هذه الحركة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وانتهت تقريبًا عام ١٩٦٦ مع وفاة أندريه بريتون الذى يعتبر «الأب الروحى للسريالية». الكتاب يضم ٢٣٠ صورة ملونة.

■■■

كتاب الزاوية

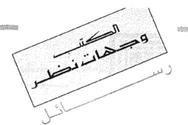
دلائل الإعجاز

القول فى الفصل والوصل

اعلم أن العلمَ بما ينبغى أن يُصنَع فى الجمل من عَطْف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، ومما لا يَتَأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلَّص، وإلا قوم طُبِعُوا على البلاغة، وأوتوا فنًّا من المعرفة فى ذَوْق الكلام هُمْ بها أفراد. وقد بلَغ من قوة الأمر فى ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سُئِل عنها فقال: «معرفة الفَصْل من الوصل»، ذاك لغموضه ودقَّة مسلكه، وأنه لا يَكْمُل لإحراز الفضيلة فيه أحَدٌ، إلا كَمَل لسائر معانى البلاغة.

واعلم أن سبيلنا أن ننظر إلى فائدة العطف فى المُفْرد، ثم نعود إلى الجملة فننظر فيها ونتعرف حالها. ومعلوم أن فائدة العطف فى المفرد أن يُشرِكَ الثانى فى إعراب الأول، وأنه إذا أشركه فى إعرابه فقد أشركه فى حكم ذلك الإعراب، نحو أن المعطوف على المرفوع بأنه فاعل مثلُه، والمعطوف على المنصوب بأنه مفعول به أو فيه أو لهُ، شريك له فى ذلك. وإذا كان هذا أصله فى المُفْرَد، فإن الجمل المعطوف بعضُها على بعض على ضربين: أحدهما: أن يكون للمعطوف عليها موضعٌ من الإعراب، وإذا كانت كذلك كان حُكْمُها حُكْمَ المفرد، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكُون واقعة موقعَ المفرد، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقعَ المفرد، كان عطفُ الثانية عليها جاريًا مَجْرى عطف المفرد على المفرد، وكان وجهُ الحاجة إلى «الواو» ظاهرًا، والإشراكُ بها فى الحكم موجودًا.





الخطاب الدينى المعاصر.. بين التجديد والتغيير

نشرت مجلة «وجهات نظر» فى عددها الأخير مقالاً للدكتور أحمد كمال أبو المجد عن «الخطاب الدينى المعاصر» وأرجو من خلال المجلة أن أوجه إليه هذه الانطباعات التى خرجت بها بعد قراءة المقال.

ليس لدىّ شك يا سيدى فى بواعثك على كتابة هذا المقال الآن. فلك مطلق الحرية أن تكتب وقتما تشاء عما تشاء، كما أننى لست من المؤمنين بنظرية المؤامرة على أى حال. نعم لم تتوقف أنت والعشرات منذ أكثر من عشرين عامًا عن نقد بعض صور الخطاب الدينى السائد، ولا عن الكتابة فى موضوعات الحوار الدينى وآدابه. ولكن يظل السؤال يلح: ماذا حققت أنت وصحبك طيلة هذه السنوات؟ المزيد من المؤتمرات فى الداخل والخارج باعتباركم تمثلون «الإسلام المعتدل». ماذا فعلت هذه المقالات لدرء خطر «مجاذيب الإسلام»، ولن أسميهم الإسلاميين. وماذا فعلت أنت وغيرك لنصر أبوزيد ونجيب محفوظ وفرج فودة وآخرين؟ وأرجو أن تصدقنى حين أقول أننى لا أقصد أن أقسو عليك أو أن أحملك ما لا طاقة لأفراد به. (وعلى أى حال أنت لست خطيبًا، ويعلم الجميع حال القراءة فى مصر والوطن العربى، ومن يقرأ على سبيل المثال مثل هذه المطبوعة القيمة «الجافة»). لقد حاول آخرون من قبل، ولو مجرد محاولة. حاول الطهطاوى والأفغانى ومحمد عبده، وأنت تعرف ما كان من شأن تلميذه رشيد رضا وشلتوت، وكثير ممن لا تحضرنى أسماؤهم.

الكثيرون يا سيدى يحاولون ويحاولون، جزاهم الله كل الخير، ولكن ما مدى نجاح هذه المحاولات؟ أترك لك الإجابة. ورأيى يا سيدى أنها لن تنجح، وأنا لست سعيدًا بهذا النفى، أية محاولة ما لم نعلِ فى مجتمعنا من قيمة حرية الرأى وحقوق الآخرين، مع توفر المظلة القانونية ـ وأنت فى الأصل أستاذ قانون ـ التى تحمى من يتبنى هذه القيمة، وإلا سيكون مصيره السجن أو القتل.

الخطاب الدينى الذى تتحدث عنه هو خطاب الدعاة والوعاظ ومن على شاكلتهم حين يقدم إلى جمهور الناس على أنه الفهم الصحيح للإسلام. نعم أنت محق، هذا الخطاب يحتاج تصحيحًا، لكن لا أنت ولا غيرك سيستطيع تصحيحه مادام الكل ينهل من نفس المنابع العتيقة. تأتى لى بحديث فأرد عليك بأن هذا ليس ما أجمعَ عليه الفقهاء، وربما آتى بعكسه، وتأتى لى بتفسير آية فأرد عليك بأن هذا ليس ما أجمع عليه المفسرون، ولن ينصلح الحال أبدًا. نحن يا سيدى لسنا فى حاجة لمجرد اجتهاد آخر يضاف إلى اجتهادات القرون السابقة. نحن فى حاجة لثورة تعلى من شأن القيم الأساسية التى يجب أن ينبنى عليها المجتمع الحديث.

حرية الرأى فى مصر يا سيدى مقيدة، ولا أقول منتفية. وهذه القيمة هى السبيل الوحيد الذى سيمكنك وغيرك من تصحيح، والأفضل تغيير، الخطاب الدينى. نحن نحتاج لزرع هذه القيمة فى ثقافتنا. فكم قتلنا من خلفائنا، راشدين وغير راشدين، ومن أئمتنا وفقهائنا وعلمائنا. إن هرم القيم عندنا يا سيدى هرم مقلوب للأسف. نعيش فى الدنيا وعيوننا باستمرار على الجنة والنار، وهو أمر محمود فى حد ذاته، ولكننا فى مسعانا هذا ننظر لحقوق الآخرين بطرف عين، ولا أريد أن أقول لا نراهم على الإطلاق. إنه الاعتقاد، الخاطئ فى رأيى، أنه مادمنا نؤدى حق الله فقد ضمنا العفو والرحمة والشفاعة، ومن ثم الجنة. وعلى ذلك اخترنا الطريق الأسهل والأوضح، فى الظاهر، من أداء للفروض والسنن والاهتمام بالأمور الشكلية فقط، من جلباب ولحية وحجاب، (حتى صباح الخير لا يقولها البعض لأنها ليست تحية الإسلام!!!) دون اهتمام بما تبثه العبادات من قيم إنسانية.

حول الخطاب الدينى المعاصر
أحمد كمال أبو المجد

لقد أصبح كل ما يميز دين الإسلام من بساطة ورحمة بكل أسف مجرد وسيلة لتحقيق «أكبر قدر من الحسنات» ليس للحسنات فى حد ذاتها ولكن للتغطية على سيئاتنا وقيمنا الفاسدة. اقرأ كذا قبل النوم وكذا بعد النوم، وقبل أن تدخل الحمَّام وبعد أن تخرج منه، وقبل الأكل وبعد الأكل، وقبل السفر وبعد الوصول، وقبل أن تجامع زوجك وبعد.. إلى آخر ذلك. لو قرأت الصمدية ثلاث مرات كأنك قرأت القرآن كله، والحسنة بعشرة أمثالها، ويستمر «العد»، دون مجرد التفكير فيما نقرأ. ولا أحد يريد إعمال العقل رغم «أفلا تعقلون»، لأنه «وإن جادلوك..»

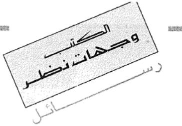
الصلاة هى الوسيلة التى تعلمنا الخشوع واستحضار معية الرب، وتنهانا عن الفحشاء والمنكر. الصلاة الآن لا تؤدى إلا لأنه بدون أدائها لا تدخل الجنة، وتعذب فى القبر، ولأن بين الصلاة والصلاة كفارة، ولأنه من لم يصل الفجر لا يبارك الله فى رزقه، وهكذا. الأذان يصم الآذان من مكبرات الصوت بأصوات فى منتهى القبح، يفعلونها طمعًا فى حسنات من يرفع الأذان، ودون تفكير فى اختلاف الزمن بين من كانوا ينامون بعد غروب الشمس بقليل وبين من كتب عليهم الشقاء حتى ساعات متأخرة من الليل. نعم، فلتذهب حقوق الآخرين إلى الجحيم من مرضى وأطفال وأمهات وأقباط، أو حتى، وبعيدًا عن منطق التكفير، من لا يصلى أصلاً. تذهب إلى مؤسسات ومصالح حكومية فى أوقات الصلاة، فتجد الجميع ركعًا سجودًا، دون أى اعتبار للوقت أو لمصالح الآخرين. ناهيك عن صلاة الجمعة وما تفعله بشوارع القاهرة الضيقة فى الأصل. هل من أحد يعلمنا إعلاء قيمة الوقت وعدم الاعتداء على حرية الآخرين. وأرجو يا سيدى ألا تجادلنى بمنطق العامة وتقول لى إن الصلاة لا تستغرق أكثر من خمس دقائق، وأن إشارة المرور تستغرق قدر وقت صلاة الجمعة، وأنا هنا لا أصادر على رأيك، فقط أقول إن ما ستجادلنى به هو أيضًا جزء من مشكلة انهيار القيم الأساسية فى المجتمع. الصلاة، حتى مع الوضوء، لا تستغرق فعلاً أكثر من خمس دقائق إذا صليتها بمفردك ووضعت القيم الأخرى فى اعتبارك، لأن الحاصل هو أن الجميع يتوضأ أو ينتظر انتهاء الآخرين من الوضوء، ثم يقيم أحدهم الصلاة ويستغرق فيها فى خشوع «كاذب»، ثم يصلى معظمهم بعدها السنن، وهكذا. وأرجو يا سيدى أن تحاول أن تعرض عليهم أن تضاف نصف ساعة إلى يوم عملهم حتى يصلُّون «على حسابهم» وليس على حساب محل عملهم، لترى ماذا سيكونون بك فاعلين.

الصوم سمو بالنفس عن الدنايا. الناس الآن لا تصوم إلا لأن إفطار يوم لا يعوضه صوم الدهر، وإلى آخر ما تعلمته أنت أكثر منى. بالله عليك يا سيدى هل ما تراه أمامك من أمر الصائمين يرضى الله؟ إنه شهر لا ترتفع فيه القيم بل تزداد انهيارًا. من يذهب إلى عمله وهو نائم، ومن لا يذهب على الإطلاق، ومن يذهب ولا يستطيع العمل بكفاءة كنتيجة طبيعية للصوم، من يستيقظ قبل الإفطار بسويعات، من يقضى الساعات يصلى التراويح، وهو سارح فى ملكوت الله، ليكتب له أنه ختم القرآن، ومن يقرأ القرآن ليختمه أيضًا فى هذا الشهر، لا بهدف الفهم والاعتبار ولكن لمجرد «حصد الحسنات». أما الحج فقد أصبح مظهرًا اجتماعيًا، سواء من حيث اللقب أو عدد المرات أو كم الهدايا أو حتى مؤخرًا نوع الرحلة.

المشكلة يا سيدى، فى رأيى، ليست فى الفريضة، بل فى الصدق، لأننا فى نهاية الأمر لا نخدع إلا أنفسنا إذا تصورنا أننا سندخل الجنة ونحصد الحسنات بمجرد أداء الفرائض. وإذا قلت لى أنه لا يعلم الغيب إلا الله وربما يكون هؤلاء على حق ويتقبل الله منهم، لقلت لك بنفس المنطق، إذن دعنى وشأنى فربما كانت الجنة من نصيبى أنا. وكل ما أرجوه منك ألا تعتدى على حريتى وحقوقى. إذا لم تذهب معهم للصلاة استوقفوك متسائلين لماذا لا تصلى. وإذا أفطرت فى العلن، التف الجميع من حولك ناصحين محذرين. كم، أو من منا يعطى المرأة حقوقها، أو لغير المسلمين، سواء كتابيين أو غيرهم، حقوقهم؟ وأرجوك، ومرة أخرى ليست مصادرة على رأيك، لا تعطنى درسًا فيما قدمه الإسلام للمرأة أو لغير المسلمين، من قرون، من حقوق، مستشهدًا بالآيات والأحاديث التى نحفظها جميعًا عن ظهر قلب.

إذا لم يحدث تغير فى المفاهيم فسيظل الخطاب الدينى على ما هو عليه. ومادام الكتَّاب «المعتدلون» يلجأون فى أحاديثهم وكتاباتهم إلى مراجع تفسر القرآن والحديث تعود لقرون مضت فلا أمل ولا رجاء، وسيظلون «يؤذنون فى مالطة» (حتى دون مكبر الصوت). نحن فى زمن يحتاج لتفسير ثورى يحررنا من أصفاد التفاسير العتيقة وهو ما لن يتحقق دون تمكن قيمة حرية الرأى فى مجتمعنا ودون مواجهة قاسية مع النفس ومع ما نتبناه من قيم. فبدون هذه الحرية سيكون مصير من يجتهد السجن أو القتل. أما لو وفر القانون حرية الرأى للأفراد، مهما كان فى ذلك من شطط أحيانًا قد يقترب فى رأى آخرين من الكفر، أو حتى هو الكفر، فسوف تولد أفكار جديدة وتطفو على السطح مرة أخرى قيم كانت قد اختنقت محرومة من هواء الحرية، وقد نرى حينئذ من سيتبع من. (والمضحك يا سيدى أن نسمع عمن ادعى الألوهية، وكأننا فى حاجة للمزيد، أما القرقرة فتأتى من أنه وجد من يصدقه، رغم كل هذا المد الدينى الذى يحاصرنا). الدين يا سيدى ليس هدفا فى ذاته، فى رأيى، بل وسيلة لتحقيق سعادة البشر فى الدنيا أيضًا كما فى الآخرة. ولنترك لصاحب الأمر الحكم على مقاصدنا وأفعالنا، بدلاً من أن نمثل بجثث بعضنا البعض كما يحدث فى الجزائر، ويشتد فى شهر رمضان وهو ما لا يصدقه عقل، فتزيغ من العجب والشفقة أعين من نعتبرهم فى الغرب كفارًا.

محمد حلمى محمود
مدير بشركة استشارات
٣٠ ش دسوق ـ العجوزة



هـــيـــكـــل.. وجـــهـــات نظر

بحجم زلزال سبتمبر وتوابعه بحجم تعدد «وجهات نظر» حوله أسبابًا ونتائج، وبقدر ما أعلن حول الحدث تظل الجوانب الخفية تحتل حتمًا صفحات آلاف التقارير السرية التي لم يأت بعد، وربما لا يأتي أبدًا موعد الإعلان عنها.

وبقدر الإجابات التي تم ترويجها إعلاميًا وسياسيًا على نطاق واسع، بقدر الأسئلة التي لازالت تحتفظ بعلامات استفهامها.

مقال الأستاذ هيكل في عدد فبراير ٢٠٠٢ من «وجهات نظر» أثار جدلاً واسعًا امتد للعديد من الصحف العربية. كما كان موضوعًا لعدد من الرسائل التي تلقتها المجلة والتي تنشر هنا سطورًا منها.

المحرر



أئمة الجهاد الإمبريالي

في عدد فبراير من وجهات نظر، والذي قبله، أماط لنا الأستاذ هيكل اللثام عن حقيقة سيناريوهات الجهاد الأفغاني وواضعي رواياته، ومخرجي مشاهده وممولي عملياته بحكم ما لديه من رصيد معرفي ثمين وحنكة سياسية راسخة وشبكة اتصالات دولية نافذة إلى أعماق الحقائق وكاشفة للأستار المسدلة عليها مبينًا أن الجهاد الأفغاني برمته، لم يكن سوى عملية مخابراتية بحتة، تآزرت على تنفيذها عدة أجهزة متكاتفة نعرض فيما يلي بيانها:

أولاً: القطب الأوحد والأب الروحي الأكبر للعمليات برمتها: المخابرات المركزية الأمريكية التي قامت برسم الخطة الرئيسية العامة وتحديد ملامحها وخطوات تنفيذها وفقًا للتصورات التي وضعها خبراء الأمن القومي لديها بناء على اقتراح مستشاري رئيسهم، استدراجًا للسوفييت إلى مستنقع أفغانستان، واستنزافًا للبقية الباقية من قوته، ودعمًا للمخططات الرامية إلى الإجهاز عليه، وإزاحته بعيدًا عن الجمهوريات المتحلقة حول بترول بحر قزوين، فضلاً عن إرساء قواعد لها حول باطن الصين المارد المتثائب، وذلك كله انتقامًا من الصين وفيتنام اللذين استدرجاها من قبل إلى مستنقع الأخيرة.

ثانيًا: إخوان الصفا وخلان الوفا من أعضاء نادي سفاري المخابرات العربية «مصر، السعودية، إيران، الشام، المغرب» والذين وافقوا على الاشتراك في الحرب ضد السوفييت بتقديم مصر للرجال والبغال المستوردة من قبرص فضلاً عن الأسلحة السوفيتية المسلمة لها لمحاربة إسرائيل، وتولى عمليات نقلها إلى ساحة المعارك. وقيام السعودية بتمويل ونقل المحاربين القادمين من مصر وباقي الدول العربية إلى معسكرات تدريبهم بواسطة خبراء مسرحين من الجيش المصري خصيصًا للقيام بهذه المهمة، للجهاد في أفغانستان ثم العودة للجهاد في مصر، بعد انتهاء الحرب فيها.

ثالثًا: المراجع الفقهية أصحاب الحوزة الفعلية: للمال والعتاد من قادة أجهزة مخابرات باكستان العامة والعسكرية، والذين حولوا أراضيها خطوطا خلفية للحرب الأفغانية، وساحة لاستقبال وتأهيل ونقل المحاربين وعتادهم إلى أفغانستان بدءًا من محاربة السوفييت وانتهاء بالقضاء على صنائعهم طالبان إذا كان قد تم أصلاً محاربتهم هناك أو القضاء على القاعدة وقادتها المزعوم طلبهم أحياء أو أمواتا.

رابعًا: العالم العلامة والحبر الفهامة: المخابرات الإسرائيلية بأجهزتها المختلفة ومراكز دراساتها العلمية والأكاديمية العاكفة على استقصاء جذور العقيدة الإسلامية وأئمة فقهائها واجتهاداتهم وتأويلاتهم بواسطة خبرائهم في هذه المسائل ومستشرقين ناعقين بخراب هذه العقيدة منذ هبوط رسالتها على النبي، وسعي يهود المدينة بقيادة كعب أحبارهم إلى دحضها ونسفها وإلصاق أبشع التهم بنبيها، ودس إسرائيلياتهم في أحاديثه.

وهكذا يتضح أن حقيقة الجهاد الأفغاني لا تعدو أن يكون مؤامرة تحالفت أربعة أجهزة مخابرات عالمية ألا وهي المركزية الأمريكية والسفاري العربية والموساد الإسرائيلية على تصميم وتنفيذ عملياتها إراقة لأموالنا ودمائنا في أفغانستان لحساب المصالح الإمبريالية المشرئبة بأعناقها للسيطرة على مخزون وقود بحر قزوين الإستراتيجي ثم استخدام المجاهدين العرب الأفغان في القضاء على نظم بلادهم من تكريس أموالهم وأرواحهم للقضاء على إسرائيل ونصرة شعبها وحماية قدسها.

عادل الدمراوي



اعـــتـــراف بالحق

مقال الأستاذ هيكل في عدد فبراير غاية في الروعة والاتساق والانضباط. الأستاذ - بالطبع - لا ينتظر مني مثل هذه الشهادة ولكنه الاعتراف بالحق.. ولعل مقالة فبراير من أجمل وأدق ما كُتب حتى الآن عن أفغانستان.

وصفي حنا واصف

دفـــاتر أســئلة

في مقال دفاتر أزمة للأستاذ محمد حسنين هيكل عدد يناير ٢٠٠٢ سأل محرر مجلة «لانوفيل أوبسر فاتور» الفرنسية زبجنيو برجنسكي هل تعلمون بذلك أنكم أعطيتم السلاح للإرهابيين الذين أصبحوا أعداء لكم؟ أي أنكم خلقتكم صورة الإسلام الإرهابي، فرد عليه برجنسكي والذي لا أخفي إعجابي به وبعقليته السياسية والاستراتيجية الخطيرة جدًا قائلاً متسائلاً: أيهما أفضل للعرب: انهيار الاتحاد السوفيتي أو ممارسة الإرهاب بواسطة الجماعات الإسلامية مستطردًا أيهما أخطر على الغرب طالبان أم موسكو؟

وعند سؤاله مرة أخرى لكن الإرهاب الإسلامي يمكن أن يتحول إلى موجة عالمية؟ بالله عليك «عزيزي محرر بريد القراء» انظر إلى هذا الرد الذي لا أريد أن أقول إنه يعتبر مدرسة في علم الاستراتيجيات السياسية كمدح أو أقول أنه رد شاف للسؤال الأول عن أيهما أخطر على الغرب الإرهاب أم الشيوعية وهذا الرد وإن كان ناعمًا كالحرير وإنما أيضًا قاطع كالسيف انظر معي لكلمات برجنسكي: «هذا كلام فارغ يخلط بين الإسلام وبين ظواهر العولمة فلننظر إلى الأحوال الإسلامية بدون تهييج هناك دين له احترامه وله أتباع «١،٥ مليار» ثم يقارن شخصيات المسلمين كأحد أعمق الأطباء النفسيين متسائلاً: ما الذي يجمع مسلما أصوليا سعوديا أو مسلما عسكريا باكستانيا أو مسلما معتدلاً مغربيا أو مسلما متعلما مصريا؟ «لاحظ الصفات جيدًا فهي ذات دلالة خطيرة» ثم يستطرد بأخطر شيء في كلامه ولا أدري إن كان صحيحًا أو خاطئًا.. لا شيء يجمع هؤلاء إطلاقًا «المسلمين» لا يجمعهم إلا ما يجمع المسيحيين في العالم وهو لا شيء».

بالله عليك ما أحوجنا إلى عقول مثل هذا البرجنسكي في دهاليز صناعة سياستنا الخارجية مع اختلاف الغايات والوسائل بدلاً من المحسوبيات والوسائط في اختيار ممثلي بلادنا وصناع قراراتنا.

أحمد أبو زيد
المنيا



«وجـــهـــات نظر» وســنوات من العطاء

على مدى ثلاثة أعوام هي عمر مجلة «وجهات نظر» قدّمت خلالها عطاء متميزا وفكرا جديدا ورؤية عميقة، وساهمت في إثراء الحياة الثقافية في مصر والعالم العربي، وقدّمت للقارئ جديداً كانت الساحة الثقافية في حاجة إليه.

وكواحد من قراء المجلة أعتبرها واحة ثقافية تطل علينا مع بداية كل شهر بأحداث ومقالات وتحليلات وموضوعات ثقافية وفكرية وسياسية، وعروض عربية وأجنبية لأهم الإصدارات في عالم المطبوعات وقضايا الساعة التي تهم القراء؛ وهذا هو العطاء الثقافي للمجلة والرسالة الحقيقية التي تقوم بها والإضافة التي أضافتها إلى الحياة الثقافية والجديد الذي قدمته للقراء باعتبارها نافذة ثقافية ورافداً معرفيًا وجسرًا للتواصل بين العالم العربي وقرائها في كل مكان؛ مما يؤكد أنها تحترم عقلية القارئ.

وبما أن المجلة قدّمت لنا في افتتاحية عددها قبل الماضي حصاد أعوام ثلاثة فأشير هنا في عجالة سريعة إلى أن نجاح المجلة واكتسابها قراءً جدداً يرجع لأسباب عدة منها: التزامها بما رسمته لنفسها من البداية وتميزها بإخراجها الفني الأنيق والمادة التحريرية وتنويع أبوابها وتجديدها وطرقها لموضوعات الساعة والمناسبات التاريخية، ولأنها أفردت مساحات لوجهات النظر المتعددة - حتى وإن اختلفت معها - وهذا يساهم في إثراء الحياة الثقافية بشكل من الأشكال، فسماع الآخر شيء مهم والأهم أن نسمح بنشر وجهة النظر المخالفة مادامت في حدود أدب الحوار والنقد البناء الذي يعود على الفرد والمجتمع بالخير.

وعموماً فإن مجلة «وجهات نظر» تساهم مع غيرها من المجلات الثقافية المصرية والعربية المتخصصة في إثراء حياتنا الثقافية، ومازالت الساحة الثقافية في حاجة إلى مزيد من النوافذ المعرفية الجديدة والإصدارات الأدبية المتجددة وتفعيل دور المجلات الثقافية الموجودة ودعمها لتخرّج لنا طاقات إبداعية واعدة في الأدب والفكر والفنون وشتى مناحي الثقافة، وهذا يستلزم جهداً كبيراً من كل المجلات الثقافية وفي مقدمتها «وجهات نظر».

والحق يقال إن «وجهات نظر» مجلة ثرية تشبع نهم المثقف العربي وتنمي أفقه الفكري باعتبارها نافذة ثقافية في مصر والعالم العربي، فتحية لأولئك الفرسان القائمين على إصدارها كمجلس إدارة وهيئة تحرير وعلى رأسهم الكاتب الصحفي الكبير الأستاذ سلامة أحمد سلامة الذي نجح في استكتاب عدد كبير من الكتّاب رغم أننا نأمل أن تقدم المجلة كتّابا وأدباء وشعراء جددا من الشبان الأكفاء، وتحية للكاتب الكبير أستاذ الأجيال وعميد الصحفيين والكتّاب المعاصرين محمد حسنين هيكل الذي يمتعنا كل شهر بتحليلات مهمة في موضوعات متنوعة وقضايا ساخنة.. وأمنياتي للمجلة بالازدهار الدائم والنجاح المستمر والعطاء المتواصل.

بدوي طه
القاهرة

“ نون ”

نظرية الشر في السياسة الأمريكية

لم يحدث من قبل أن استخدم الغرب في صراعاته السياسية في العصر الحديث وربما منذ الحروب الصليبية لغة أخلاقية ذات محتوى ديني، تسعى إلى وضع الآخر موضع الدفاع عن نفسه، أو بعبارة أخرى موضع الاتهام الذي يبرر شن الحرب ضده، بحيث تصبح الحرب في هذه الحالة ضرورة أخلاقية تصل إلى حد القداسة الدينية للرد على العنف والكراهية، وليست ضرورة سياسية للدفاع عن المصالح، أو درءًا للتهديد بأخطار قائمة أو محتملة، أو صدًا لعدوان مباشر أو غير مباشر يستهدف التوسع والاستيلاء على حقوق الغير.

ولكن هذا ما حدث بالفعل أخيرًا حين أعلن الرئيس بوش وجماعته من اليمين الأمريكي من أمثال رامسفيلد وأشكروفت الحرب ضد «محور الشر»، الذي يتسم أصحابه بالإرهاب، ومعاداة الحرية والأخلاق والقيم التي يتمسك بها المجتمع الأمريكي. واعتبرت واشنطن نفسها بقيادة بوش ممثلة لمبدأ الخير في العالم، في مواجهة قوى شريرة يقودها رجال أشرار من أمثال بن لادن وصدام حسين.. يمتلكون أسلحة كيماوية وبيولوجية وتدميرية يهددون بها المبادئ الخيرة التي قامت عليها الولايات المتحدة. ومن هذا المنطلق شنت أمريكا حملتها العسكرية لمحاربة الأشرار الجدد فيما أطلقت عليه «عملية الحرية الدائمة». ولم يخطئ بوش حين استخدم تعبير «الحرب الصليبية». الذي تراجع عنه بعد ذلك. ولكنه كان يقصده في دخيلة نفسه، مستندًا إلى خطاب شعبي ديني اعتمده المؤسسون الأوائل للأمة الأمريكية.

وعلى الرغم من أن الدستور الأمريكي يفصل فصلًا كاملًا بين الكنيسة والدولة، إلا أن كثيرًا من مفردات اليمين الأمريكي، الذي يتشكل من طائفة المسيحيين الصهاينة الذين يؤمنون بأن الظهور الثاني للمسيح لن يتأتى إلا بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة وبناء هيكل سليمان والقضاء على أعداء المسيح، تظهر بوضوح في الخطاب الرسمي الأمريكي. وهو ما أشار إليه الرئيس بوش في الصين حين أكد على أهمية الدين في الولايات المتحدة الأمريكية ولدى المواطن الأمريكي. وطبقًا لدراسات حديثة فإن الانتشار الواسع لأتباع هذه الطائفة وتعدد كنائسها ومؤسساتها الإعلامية والتليفزيونية على اتساع الولايات المتحدة يؤثر تأثيرًا قويًا على صنع القرار وعلى أصوات الناخبين بشكل خاص. ومن ثم لم يكن غريبًا أن يتسرب تعبير «محور الشر» إلى أفكار الرئيس بوش، سواء كان هو صاحبه أو تراثًا ريجانيًا قديمًا أطلقه ريجان في وصف «امبراطورية الشر» على الاتحاد السوفيتي لكي يدمغ به أعداء أمريكا، في مقابل معسكر الخير الذي يملك أكبر ترسانة عسكرية من أكثر الأسلحة تطورًا وتقدمًا والذي باستطاعته أن ينزل الهزيمة الساحقة بخصومه الأشرار.



من هنا يبدو جنوح الفكر السياسي الأمريكي إلى إصدار أحكام أخلاقية ذات طابع ديني، نكوصًا غير مسبوق عن منطق الصراعات والحروب التي شهدها القرن العشرون... حين كانت الحروب والصراعات دفاعًا عن مبادئ الحرية والاستقلال والديمقراطية والمساواة والتقدم والعدالة، وغيرها من القيم التي تمثل نسقًا سياسيًا متكاملاً في الحضارة الغربية المسيحية دون أن تتخذ طابعًا دينيًا، وتبدو إشارات الجنوح في تعميمها «لثقافة الشر» جلية واضحة وضوح الشمس حين تظهر في واحدة من أهم المجلات الأمريكية المعبرة عن صوت الاتجاه السياسي المحافظ الذي يعضد الرئيس بوش، كتابات تدعو إلى ضرب «مكة» بقنبلة نووية بهدف إرسال «إشارة للمسلمين».

وقد جاءت هذه الكتابات لأحد محرري مجلة «ناشيونال ريفيو» الواسعة الانتشار ويدعو ريتش لورى ردًا على رسائل تلقاها من بعض القراء حول ماذا يكون رد الفعل المناسب في حالة تعرض أمريكا لهجوم نووي. وقال الكاتب في رده: «إن بغداد وطهران هما الأقرب لتلقي الضربة النووية الأولى. ولو كان لدينا قنابل نظيفة تضمن حصر الدمار في نقطة الهجوم لوضعنا غزة ورام الله على القائمة أيضًا، ويجب في هذه الحالة أن نحذر القاهرة ودمشق والجزائر وطرابلس والرياض من خطر الإبادة الفورية إذا أبدوا أي اعتراض..».

على أن أخطر ما في خطاب من هذا النوع الذي يروج لثقافة الشر، هو ما ينطوي عليه من تبريرات دينية وأخلاقية، وتلاعب بمشاعر الخوف والذعر لدى ملايين الأمريكيين البسطاء الذين يتلقون ثقافتهم من قنوات التليفزيون ووسائل الإعلام المسيّرة، التي تضع كل مواطن أمريكي تحت وطأة التهديد بخطر محدق كالذي تعرض له في سبتمبر، سوف ينزل عليه بغتة من جانب جماعات همجية مسلمة تضمر الحقد والشر للمجتمع الأمريكي.. يستخدمها بوش وجماعته كغطاء لتمكين إسرائيل من فرض سيطرتها على الفلسطينيين بأكثر الوسائل خسة وفظاعة، والاستعداد لضرب أعداء أمريكا في العراق وإيران وكوريا الشمالية.. مع تهيئة الشعب الأمريكي نفسيًا لقبول تكاليف الحرب واحتمال وقوع خسائر بين جنوده. فلا تكاد تهدأ النفوس قليلاً ويعود المجتمع الأمريكي إلى حياته الطبيعية، حتى تتوالى النذر والإيحاءات من البنتاجون وأجهزة المخابرات ووسائل الإعلام بأن خطرًا وشيكا سوف يقع لا محالة.. إن لم يكن داخل أمريكا فخارجها. المهم أن تظل الأعصاب مشدودة، والأصابع على الزناد، والاستعداد للقتال في سبيل محاربة الشر وأعوانه ورموزه قائمًا لا يفتر ولا يتراجع.. أي أن يتحول الخوف والغضب إلى بخار مكتوم لا بد من تنفيسه في حرب تقودها أمريكا زعيمة العالم ضد قوى الشر التي وجدت بؤرة ارتكازها الأولى في أفغانستان، ولكنها لم تلبث أن تفشت وانتشرت في دول أخرى من العالم على حد قولهم، وامتدت إلى أهداف لا يعرف أحد مداها ولا يجرؤ على السؤال عنها.



ببساطة شديدة تحول هذا الخطاب الإعلامي الثقافي «عن محور الشر» إلى استراتيجية أمنية عالية تعبئ القوى لمحاربة الشر، كان من الضروري أن تجد لها إدارة الرئيس بوش سندًا قويًا لدى جماعة من المثقفين والمفكرين الأمريكيين الذين سعوا إلى وضع نظرية لثقافة الشر.. ٦٠ منهم بادروا إلى إصدار إعلان بعنوان «لأي هدف نحارب؟» نشرته معظم صحف العالم. لكي ترد به على تبرير بن لادن لضربات سبتمبر باعتبارها موجهة «لرأس الكفر في العالم»، وتؤسس للإطار الفكري والنظري الذي يجعل من الحرب التي تخوضها أمريكا «حربًا عادلة» ضد العنف والكراهية والظلم، تأمر بها الأديان كافة؛ مسيحية ويهودية وإسلامية، ضد رأس الشر في العالم، مقصودًا بذلك تلك «الشبكة الإسلامية الدولية التي تعرف باسم القاعدة».

استخدم الموقعون على هذه العريضة لغة أخلاقية ذات مسحة دينية، لتعريف «الحرب العادلة» من وجهة النظر الأمريكية، واستبعدت من معادلاتها وتعريفاتها نضال الشعوب التي ليس لها دولة أو جيش أو نظام سياسي مكتمل، أو بعبارة أخرى حروب التحرير بمعناها القديم والحديث. واعتبرت أن القتل باسم الله مناقض لمفهوم الإيمان بالله، حيث لا يصح أن يستغل المعبود في خدمة أهداف دنيا، وهي رسالة موجهة بالدرجة الأولى إلى المسلمين سواء أولئك الذين شنوا هجماتهم على نيويورك وواشنطن، أو من يتعاطفون معهم، أو أولئك الذين يقاومون الهيمنة الأمريكية.

أما القيم التي تحكم المجتمع الأمريكي، فهي وإن شابتها بعض الثغرات والنواقص، إلا أن «القيم الأمريكية» في أوقات الحروب والأزمات لا تخص أمريكا وحدها بل تخص البشرية جمعاء.. وهي الأساس الوحيد الممكن لمجتمع عالمي يقوم على السلام والعدل!

بهذه المبادئ وضع أصحاب العريضة الأساس النظري والعملي والذي استخدمه بوش لتحديد «محور الشر»، وضمنه تلك الدول والقوى والجماعات التي لا تحترم القيم الأمريكية ولا تؤمن بها. والتي لا ترى فيها غير مجرد أسلوب للدفاع عن المصالح الأمريكية. وفيما يبدو فإن كثيرًا من الدول والحكومات الأوروبية وغير الأوروبية، بل ومن بينها حكومات ودول عربية، قد انساقت للمفهوم الأمريكي «لثقافة الشر» وانضمت إلى التحالف العالمي الذي تكتل لمحاربة محور الشر وأتباعه.

هل معنى ذلك أن أمريكا هي التي تمسك بزمام المبادرة في صياغة خطاب أخلاقي عالمي، نتيجة إمساكها بزمام القوة والتفوق الاقتصادي والعسكري والسياسي؛ هل بوسع أمريكا أن تملي على شعوب العالم تعريفها هي لمفهوم الشر ومفهوم الخير، وتحدد من هي الدول الصالحة والأخرى الطالحة، وأن تعيد صياغة الخطاب الأخلاقي صياغة جديدة تتفق ومصالحها فتبارك أنصارها وأصدقاءها وتلعن خصومها ومعارضيها؟

لقرون طويلة ظل الدين هو المنبع الأول للضمير الأخلاقي الذي يحدد القيم الإنسانية التي تميز بين الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والطيب والقبيح.. فهل بات ضروريًا ونحن في مجتمع العولمة الذي سقطت فيه الحدود والسدود، ونحن في مطلع القرن الواحد والعشرين، أن يترك لدولة واحدة أو لمجموعة من الدول صياغة الخطاب الأخلاقي الذي تصنف الشعوب على أساسه - طبقًا لمعايير سياسية شبه أخلاقية وشبه دينية - كأعضاء في معسكر الشر أو معسكر الخير؟!

سلامة أحمد سلامة

Mobile Banking

البنك العربي

ARAB BANK

بنك فى متناول يديك على مدار اليوم



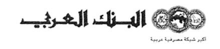
فى إطار سعيه الدائم لتقديم أفضل الخدمات المصرفية، يسر البنك العربى أن يقدم لعملائه خدمة البنك المحمول التى تنفرد باحتوائها على قائمة تشغيل مباشرة تتيح للمستخدم، من خلال الضغط على أزرار التليفون المحمول، إمكانية إجراء مجموعة هائلة من العمليات البنكية المتكاملة فى أى وقت ومن أى مكان

- الإستفسار عن أرصدة حساباتك.
- طلب كشف حساب.
- الابلاغ عن فقدان البطاقات الإئتمانية.
- الإبلاغ عن فقدان بطاقة الصراف الآلى.
- إجراء التحويلات بين حساباتك.
- الإستفسار عن آخر المعاملات التى تمت على الحساب.
- إعلامك لحظياً أينما كنت بالمعاملات التى تنفذ على حسابك.
- إصدار أوامرك للبنك لوقف صرف الشيكات المفقودة.

Checkmate Adv.

تمتع بمجانية الإشتراك بهذه الخدمة
من الآن ولمدة ستة أشهر

vodafone



لمزيد من المعلومات برجاء الإتصال بتليفون ٨٨٨ ٩٤ ٣٠
أو برقم ٨٨٨ من أى محمول ڤودافون



Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 40 - May 2002

مجلة شهرية . العدد الأربعون . السنة الرابعة . مايو ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

الحصار
الاجتياح
المقاومة

قراءة فى ما يجرى

ومقال

محمد حسنين هيكل

تحالف
ضد الملك !

ثورة يوليو

خمسون عاما

حلمى التونى 2002

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الأربعون
مايو ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد :

كتَّاب العدد :

- أيمن الصياد .. صحفى.
- تونى يوت .. مدير معهد رومارك بجامعة نيويورك.
- حسن حنفى.. أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عفيف البهنسى.. أستاذ وباحث فى العمارة والفن.
- قدرى حفنى.. أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد الميلى... المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- حلمى محمد قاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- هاشم النحاس.. ناقد سينمائى.
- هبة رءوف عزت.. مدرس مساعد العلوم السياسية - جامعة القاهرة.
- يوسف القعيد... صحفى وروائى.

رسوم العدد للفنان :

محمد حجى





المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص . ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير. اليمن ٣٠٠ ريال. فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

إعـــــادة قــــــراءة

إذا كانت الصحيفة اليومية تقدم الحدث «متابِعةً»، والأسبوعية تقراه «وصفًا وفهمًا وتحليلاً»، فإن «تأصيل» ما يجرى، والبحث المتأنى فى جذوره وأبعاده، ربما كان المهمة التى يجب أن تضطلع بها شهرية مثل «وجهات نظر». هى بطبيعتها ـ وبحتمية دوريتها ـ «مجلة أفكار لا أخبار». لا يمكنها ـ كما أنه غير مطلوب منها ـ اللهاث خلف تدافع أحداث تقذف أخبارها كل لحظة وسائلُ إعلام، تلك وظيفتها وهذا دورُها.

قبل أن تندلع «النارُ فى الجوار» منذرةً بحريق قد لا يبقى ولا يذر، كانت المطبعة قد دارت بعدد أبريل من «وجهات نظر»، وكان الأستاذ هيكل قد بدأ قراءة جديدة للتاريخ تظل فى التحليل النهائى ضرورية لفهم بعض أبعاد ما جرى ويجرى. بادئًا سلسلة مقالاته «ثورة يوليو/خمسون عامًا» فى مناسبة ذكرى مرور نصف قرن على قيامها. طارحًا ومحاولاً الإجابة عن مجموعة من الأسئلة بينها:

* هل كانت الثورة فى مصر سنة ١٩٥٢ حتمية، أو ضرورية؟

* من هو جمال عبد الناصر ـ الرجل فيه قبل الرئيس أو الزعيم أو الأسطورة ـ وهو أهم شخصية عربية فى القرن العشرين، حتى وإن وقع الاختلاف على تقييم دوره بين مؤيد ومعارض. محب وكاره؟

* ما الذى صنعته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وما الذى عجزت عنه، وما الذى بقى منها ـ أو ضاع ـ بعد نصف قرن، وعلى مداخل قرن جديد؟

هيكل الذى بدأت علاقته بيوليو ـ التاريخ والحدث ـ ربما فى حرب فلسطين ١٩٤٨، استمرت علاقته «الوثيقة» طوال تلك السنوات: مشاركًا ومتابعًا، ومهتمًا.. أو بالأحرى مهمومًا. وبعد كل ذلك.. وربما قبله أيضًا «كاتبًا» ينتظر منه قُرّاؤه أن يكتب، وأن يحكى.. خاصة ووراء كل كلمة ـ كما عودنا ـ سند ووثيقة.



أيّاً ما كان أمر ما كان من علاقة درامية ومتوازية بين قصة يوليو ١٩٥٢ وما بدأ فى فلسطين ١٩٤٨. يظل الثابت والمتفق عليه ـ مهما كانت زاوية النظر ـ أن العلاقةَ، تأثيرًا وتأثرًا، مازالت قائمة ـ بحكم التاريخ والجغرافيا.. وحسابات السياسة ـ بادية ملامحها، رغم السنين والأيام والتحولات.. والقول بأن «مياهًا كثيرة قد جرت فى النهر..».



ولأن حقائق التاريخ تقول بأن «الأمس هو الأب الشرعى لليوم كما هو للغد» تأتى دائمًا أهمية «قراءة اليوم» لما حدث وظن البعض أن «طواه التاريخ»!!

قبل حوالى العامين، وقبل أن تمور المنطقة بالأحداث.. والدماء، قدمت «وجهات نظر» قراءة لكتاب يحكى فيه كاتبه ـ الإسرائيلى هذه المرة ـ ميرون بنفينستى كيف قام الإسرائيليون قبل نصف قرن بأكبر عملية تطهير عرقى لم تجد حظها أبدًا فى إلقاء الضوء أو الاهتمام التاريخى.

يحكى الكتاب الإسرائيلى وقائع النزوح القسرى للفلسطينيين قبل خمسة عقود. يومها ـ كما هو معروف ـ أصدرت الأمم المتحدة توصيتها بتقسيم فلسطين إلى دولتين: يهودية على ٥٤٪ من مساحة فلسطين مُنحت لمن يملكون ٥٪ فقط منها، ودولة عربية على مساحة ٤٦٪ تركها القرار لمن يملكون فعليًا ٩٥٪ من الأرض. ويومها استقبل العرب القرار «الظالم» بالاحتجاجات والتظاهرات، فى حين استقبله اليهود، الذين صار اسمهم «الإسرائيليون»، بعمل منظم، وتنفيذٍ لخطة كانت تفاصيلها بين أوراق «بن جوريون» قبل سنوات. وقد لا تكون مصادفة ـ فالتاريخ لا يعرف المصادفة. عادة ـ أن الأسلوب لم يختلف كثيرًا عما نراه اليوم على شاشات الفضائيات. يومها حاصروا القرى الصغيرة، ونسفوا المنازل العربية فى أبو كبير ودير أيوب تطبيقًا «لمبدأ الردع بالترويع» الذى دأب الإسرائيليون ومازالوا على انتهاجه.. ويومها ـ وليس فى الأمر أيضًا مصادفة ـ لم يكن اسم «إريل شارون» بعيدًا عما يجرى.

ويمضى المؤلف الإسرائيلى ليحكى وقائع الأيام الستة والثلاثين، والتى كان على اليهود أن ينهوا فيها الجزء الأكبر من عمليتهم، قبل أن ينهى البريطانيون انتدابهم فى ١٥ مايو ١٩٤٨. وكيف نجح بن جوريون فى طرد ٤١٠,٠٠٠ من سكان القرى الفلسطينية. ويصف المذابح التى كان الإسرائيليون يقومون بها لترويع سكان القرى. وكيف كان المستوطنون والجنود يقتلون الشباب الفلسطينى بعد اعتقالهم فى مجموعات بحيث تدفن المجموعة التالية من سبقها «قبل أن تقتل بدورها». وكيف شحنوا النساء والأطفال فى سيارات لرميهم ـ كدرع بشرى على خطوط القوات العربية ـ ثم كيف أجلسوهم فى منتصف الطريق على أكوام حصيد القمح الناشف، وصبوا عليهم بنزينًا.. وأحرقوهم.

هل يذكرنا اليوم بالبارحة.. ربما.



كثير من القراء والذين استوقفهم مقال رئيس تحرير النيوزويك: «شارون.. وزير خارجية أمريكا» تذكروا مقال الأستاذ هيكل فى «وجهات نظر» قبل عام كامل عن رواية «عملية هبرون» والتى تحكى تفاصيل عملية استخباراتية «مغامِرَةٍ ومخاطِرَة» خطط لها الموساد الإسرائيلى، بهدف وضع أحد عملائه فى المكتب البيضاوى للبيت الأبيض رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، ليكون ذلك هو «الضَمان النهائى الذى لا ضَمان بَعده ولا ضَمان فوقه.. فهو كفيل بأن يُحَقِّق لها كل ما تَحلم به، وأبعَد وأوسَع من الحلم أيضًا». ذلك أن رئيس وزراء إسرائيل ـ فى القِصّة ـ يَشعُر أن إسرائيل تَحتاج إلى ضمان أمريكى نهائى يُوَفِّر لها طول السنوات القادمة الحاسمة ـ وفيها التسوية الكاملة النهائية لأزمة الشرق الأوسط ـ ما لا تَقدِر عليه جَماعات الضغط المؤيِّدة لها، وما هو أنفع من «أغلبية صديقة من الشيوخ والنواب، وما هو أقوى من صَفٍّ طويل مُتَعاطِف من رُؤساء تحرير الصحف ومديرى الفضائيات وشركات السينما».



وبغض النظر عن تفاصيل رواية يلتبس فيها ـ بالضرورة ـ الواقع بالخيال.. والقص بالمحتمل والممكن. رغم أن كاتبها رجل مخابرات أمريكى سابق. يذكر القراء أيضًا قراءة هيكل للوثائق الإسرائيلية (وجهات نظر ـ نوفمبر ٢٠٠٠) والتى تحكى كيف يتعاطى الإسرائيليون مع القمم العربية... وتشرح أيضًا كيف يرى بن جوريون أن «العرب، المثقلين أصلاً بتناقضاتهم الداخلية، نفسهم قصير.. فهم قد يستطيعون تعبئة جهودهم لفترة زمنية محدودة، لكنهم إذا طال الوقت تراخت تعبئتهم، وضعفت حماستهم، وأخذتهم شواغل أخرى غير تلك التى جمعت بينهم..».

يومها حكى هيكل حواره مع الرئيس الفرنسى «فرانسوا ميتران» حول اتفاق أوسلو بعد أسابيع من إعلانه عام ١٩٩٣ والذى عبر فيه الرئيس الفرنسى ـ رغم أجواء التفاؤل الاحتفالية وقتها ـ عن اعتقاده بأن الطرفين لن يصلا إلى حل قبل خمس أو ست سنوات «رغم كل ما قدمه عرفات يومها» لأن الإسرائيليين سيلجئون إلى تدويخ الفلسطينيين حتى يخفضوا سقف توقعاتهم قبل الدخول فى التفاوض الجاد. وذلك بإضاعة الوقت و«الجهد» كليهما فى الاقتراب من مائدة المفاوضات ثم «الابتعاد» عنها.. وطرح الصيغ الواسعة المطاطة، التى تصبح كفيلة بإضاعة وقت إضافى فى تفسيرها. فضلاً عن إغراق المفاوض الفلسطينى فى بحر من الأفكار والمقترحات، والوسطاء والوساطات.. ثم الالتفاف حول كل شىء للعودة دائمًا لنقطة البداية.



لا شىء يتغير إذن، ولكن بعضنا لا يقرأ.

ورغم كل ما يجرى، وكل ما يقال. تؤكد هيئة تحرير تلك المجلة على ما نبه له هيكل قبل أشهر من خطورة اتجاه بدا حريصًا ـ بقصد أو بدونه ـ على أن «تظل الأمة حبيسة لإحساس الهزيمة وأسيرة لذلها حتى تقبل فى أمورها الداخلية والخارجية ما هو مقبول منها أن تقبله، دون مراجعة أو احتجاج..».

وجهات نظر



لأسباب يقدرُها، ترتبطُ ـ كما قال لنا ـ «باهتمامات مفتَرضة للقارئ فى هذه اللحظة الساخنة»، ارتأى الأستاذ هيكل ألا يأخذ مقاله هذا العدد مكانه «الطبيعى» الذى اعتاده وألِفَهُ قارئ هذه المجلة طوال سنوات ثلاث انقضت من عمرها منذ أن بدأت فكرةً تحمس لها ورعاها.. وكان أن خصها بمقال شهرى ينتظره المتشوقون ـ دائمًا ـ إلى معرفة رأيه فيما يجرى.. وقراءته لما جرى. [مقال الأستاذ هيكل صفحة ٤٤].



أيمن الصياد

حجر.. وحجر.. وحجر.. ودماء.

قصة هذا الشعب/الوطن: نصف قرن من الحجارة والدماء.

حجارةُ بيت تركوه فى الـ ٤٨ على ظنٍ فى عودةٍ.. لم تحدث أبدًا.

وحجارةُ بيت سوته الجرافات أيام القهرِ والغل والإهانة، على ما فيه من طمانينة قلقة.. وذكريات مختلطة.. ورغبةٍ متعطشةٍ. بحكم آلام الزمن وتجاعيد السنين. فىَ الأمنِ والسكينةِ و... السلام.

وحجارةُ طفل فشلت صورتُه «عاريَ الصدر أمام دبابة» ولمدة عامين كاملين أن تستصدرَ قرارًا من المنظمة «الدولية» بإرسال مراقبين لضمان أمن «الطرفين».

وتحت وطأة الفيتو الأمريكى «المتكرر» وإطلالة «الاباتشى» اليومية، يبدو أن خيار الحجارة كان حتميًا أن يسقط أمام خيار الدماء.

هل كان الفلسطينيون حقًا بحاجة إلى سفينة الأسلحة «ذات الروايات المتعددة المتضاربة» كى يحاربوا؟!

فى وطن اختار دماء أبنائه «الاستشهاديين» سلاحًا، لا يصبح للسؤال محل. وتفقد «هل» مضمونها الاستفسارى.. وتلحق علامةُ التعجب. بالضرورة. علامةَ الاستفهام.

ماذا بعد أن قال السياسي الإسرائيلى يوسي ساريد: «لم يبق في المناطق المحتلة حجر فوق حجر..»؟

ماذا بعد أن قال عزمى بشارة «الإسرائيلى / العربي» الذى لم تقبله الديمقراطية الإسرائيلية: «لم يعد أمام الشعب الفلسطينى غير المقاومة»؟

وماذا بعد أن أدمى الجنود بكعوب بنادقهم وجه «النائب» محمد بركة عضو الكنيست، عندما خرج إلى الشارع يعبر عن رأيه و«رأى ناخبيه» فى بلد يقول. أو يدعى. أنه الديمقراطى الوحيد فى الشرق الأوسط؟

الذين جربوا إذن وعمليًا الديمقراطية الإسرائيلية، لفظتهم عنصرية الإرث والواقع.

والذين راهنوا على أوسلو، أحبطتهم مفارقة أن تل أبيب هددت باعتبار المبعوث الدولى رود لارسن (السياسى النرويجى وأحد مهندسى أوسلو) شخصا غير مرغوب فيه. لانه تجرأ وأعلن عن أله لما شاهده فى مخيم جنين المدمر. وأحبطهم أيضا أن الجميع قد نسوا أن فوهات الدبابات فى رام الله مصوبة إلى نافذة «ذلك الحاصل على نوبل». عقابًا له على عدم امتثاله. الكامل. للعب دور الشرطى الساهر على أمن «عدوه التاريخى» المعن فى التملص، حكومةً بعد حكومة، من اتفاقات وتعهدات.. و«تفاهمات». ولمن لا يذكر أن يعيد قراءة أوسلو وجدولها الزمنى!! ثم واى ريفر وشرم الشيخ وأوراق كلينتون المرفوضة فى كامب ديفيد؟

وعليه أن يقرأ. ثانيًا. على أرض الواقع، مسلسل تهويد القدس واجتياح بيت الشرق، وتوسيع المستوطنات، وتجريف الأراضى الزراعية، ونسف المنازل، واغتيالات الأباتشى اليومية.. والإذلال المهين على حواجز تفصل بين مدن وقرى هى فى التوصيف القانونى المجرد «محتلة».

وإذا لم يكن هذا يكفى. فعليه أن يقرأ. ثالثًا. التقارير المحايدة بحكم طبيعتها. للمنظمة (الدولية) للطفولة «اليونيسيف» والتى تقول بوضوح أن ١٤٠٠ طفل فلسطينى لقوا حتفهم نتيجة الممارسات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة منذ اندلاع انتفاضة الأقصى نهاية ٢٠٠٠ من بينهم ما يزيد على الخمسمائة بإصابات مباشرة من رصاص جنود الاحتلال أو قذائف الدبابات وصواريخ الطائرات!!

ويسألونك عن الإرهاب؟!

ولا يجد الرئيس الامريكى حرجًا فى أن يقف فى حديقة الورود يداعب كلبه ويقول للصحافة «بوضوح»: إن شارون رجل سلام. وأن على عرفات أن يتكفل بالقضاء على «أولئك المجرمين» لا أن يكتفى بالتنديد بهم.. وأن على «أصدقائنا» فى العالم العربى خصوصًا مصر والسعودية والأردن، أن يلتزموا بوصف «آيات الأخرس» بالإرهاب!!

خلطُ الأوراقِ والمفاهيم، وغيومٌ سوداء تبدو فى الأفق، سرعان ما استدرجت سياسيين و«فقهاء» فى بلدان أحرج البعضَ فيها تظاهراتٌ أقدمت على حرق أعلام «صديقة» إلى جدل عقيم حول الألفاظ ومدلولاتها.. ومدى «ملاءمتها». وسرعان ما بحث محررو بعض الصحف فى معاجمهم عن لفظة «بديلة» لمصطلحات الشهادة والشهداء والاستشهاديين.



مرة أخرى.. لننظر إلى المشهد بتجرد تام.

طيار إسرائيلى يجلس «مطمئنًا» فى طائرته الأباتشى المتطورة، يطلق صاروخًا على سيارة «مدنية» فى أحد أزقة نابلس فيقتل من فيها ومن تصادف مروره بجوارها.. ويعود سالمًا ليحتسى فنجالاً من القهوة. يُذكر الخبر مجردًا: «طائرة إسرائيلية أصابت هدفها..».

أما إذا تمنطقت فتاةٌ فى السادسة عشرة من عمرها بالشجاعة وحزام من المتفجرات، وذهبت لتفجر «نفسها» قبل أن تفجر حافلة إسرائيلية بها «مدنيون». أو بالأحرى عسكريون فى ثياب مدنية. عائدون من، أو ذاهبون إلى ميدان القتال والتقتيل.. تصبح الأوصافُ جاهزة، أو سابقة التجهيز. فالعملية «إرهابية». والفتاة الصغيرة «مجرمة انتحارية».. يا للمقارنة.. ويا لازدواجية المعايير.

كأن الدماء غير الدماء. والبشر غير البشر. وكأن كل المطلوب من آيات الأخرس أن تركب الأباتشى أو تتخندق داخل دبابة لتطلق صاروخًا أو قذيفة وتعود آمنة.. لتنجو من دمغها بالإرهاب والوحشية!!

تعالوا مرة أخرى لننظر.. ونقارن.

إذا اغتالت إسرائيل «الدولة» زعيمًا فلسطينيًا «أبو على مصطفى» وهو عضو فى قيادة لكيان ارتضت أن تبدأ معه مسيرة سلام.. فلا توجد مشكلة. ولا يوجد ثمة انتهاك لخطوات «بناء الثقة». أما إذا انتقم رفاق الرجل لاغتياله فى مكتبه وأردوا الإسرائيلى المتطرف «زئيفى» قتيلاً. تقوم الدنيا ولا تقعد وتراق دماء الفلسطينيين أنهارًا قبل أن تضطر سلطتهم المدنية



«المحاصرة» إلى إصدار أحكام مشددة على «قتلة العدو» أملاً فى فك الحصار، أو على أحسن الفروض فى إنقاذهم من «إعدام بلا محاكمة».

من يحاكم إذن قتلة أبو على مصطفى..؟ لا أحد!

ومن يطالب حتى بمحاكمتهم..؟ أيضًا لا أحد!

فرغم أن كوفى آنان وعد بإعادة تشكيل اللجنة بناء على طلب إسرائيل وتعهد بأن مهمتها لن تشمل «التحقيق»، اعتبر نتانياهو أنه «من الوقاحة» أن ترسل الأمم المتحدة لجنة لتقصى الحقائق فى مجزرة جنين. وأعلن مسؤول إسرائيلي آخر أن الخطأ الوحيد الذى ارتكبه الجيش فى المخيم هو أنه «ترك فيه أحياء».

ولأن صور الصحافة العالمية لانتشال الجثث والأحياء من تحت أنقاض المخيم لم تمنع شيمون بيريز أن يقول إن عدد الضحايا لم يتجاوز «الثلاثة»، فلا شىء أبدًا يمنع آرى فلايشر الناطق باسم البيت الأبيض أن يخرج «ليوضح» للصحافة أن أولئك الفلسطينيين مفجرى أنفسهم، ليسوا حتى انتحاريين «بل قتلة.. فقط قتلة»!

كما أنه. وبالتالى. لا شىء أبدًا يمنع جورج دبليو بوش أن يطلب منا. ويحذر ربما. من إطلاق صفة الشهادة على هؤلاء!



هل كان يمكن حقًا. كما يقول البعض. بكثير من الدبلوماسية وقليل من الحجارة، تجنب الدمار؟

لم يترك شارون أبدًا فرصة لأحد.

هل تذكرون الشرط الإسرائيلى بأسبوع من الهدوء «الفلسطينى»؟

للذين نسوا نُذكّر أنه. قبل شهرين. وعندما استجاب عرفات. فى واحدة من استجاباته الكثيرة. واستجاب له الآخرون، أحصى العداد الذى لا يتوقف ٨٣ عملية اغتيال لقيادات فلسطينية معظمهم فى العشرينيات من العمر.

وللذين نسوا نُذكّر أن آيات الأخرس ذات الثمانية عشر ربيعًا والشعر الأسود الفاحم الطويل والعينين العسليتين والنظرة البريئة على غلاف «النيوزويك»، والأسرة التى نزحت مرتين (فى ١٩٤٨ من إحدى قرى الداخل إلى غزة، وفى ١٩٦٧ من غزة إلى مخيم الدهيشة قرب بيت لحم)، لم تكن يومًا منتمية إلى تنظيم من تلك المصنفة أمريكيًا «إرهابية»، بل لم تكن منضوية أصلاً تحت لواء أى تنظيم كان. بل لم تكن حتى بشهادة الجميع ذات اهتمامات سياسية . وللذين نسوا نُذكّر أنها لم تذهب «للثأر» والشهادة إلا بعد أن شهدت بعينيها جارها عيسى فرج «المدنى» والمسالم، والمقهور أصلاً تحت احتلال دام خمسة وثلاثين عامًا يفقد حياته فى باحة منزله المجاور بعد أن أطلق عليه جنود «الاحتلال» النار من نافذة بيته المفتوحة. ساعتها كان عيسى يلعب بالمكعبات الملونة مع ابنته الصغيرة. وساعتها قررت آيات أن تثأر. غير مبالية، أو غير عارفة أصلاً برأى آرى فلايشر أو جورج دبليو بوش فى البيت الأبيض.

يخطئ جدًا من يعتقد أنه لو لم تكن الهجمات الاستشهادية لما كانت عملية الاجتياح النازى التى أسمتها إسرائيل «الجدار الواقى». كما بالضبط يخطئ من يريدنا أن نصدق أن عرفات المحاصر «دائمًا» أضاع فرصة تاريخية عندما لم يقبل فى كامب ديفيد العرض «السخى» الذى قدمه له كلينتون وباراك قبل عامين ليتنازل عن القدس وحق العودة مقابل ٨٦٪ من الضفة الغربية (مزروعة بالمستعمرات/ المستوطنات الإسرائيلية ومقسمة بشبكة طرق تقع تحت السيطرة الكاملة للجيش الإسرائيلى)!! هذا أو لا حل.

مستر عرفات.. أو السيد الرئيس – لافرق – عليك أن تنسى. بشجاعة الفرسان. ليس فقط حلمك القديم بتحرير كل فلسطين. ولا حلمك اليوتوبى: «دولة ديمقراطية للشعبين». ولا حتى كل تلك القرارات الدولية التى لم تأخذ منها على مدى نصف قرن غير أرقام حُفرت فى ذاكرتك. وإنما عليك أن تنسى. أيضًا. كل ما كانت أوسلو قد وعدتك به. رغم التوقيعات والتطمينات والشركاء.. والرعاة.

ماذا بعد كل تلك الدماء والدمار..؟

يقول الإسرائيليون. الذين مازالوا يبحثون عن شرطى مناسب مستعيدين من الذاكرة ما فعلوه مع أمين الحسينى رئيس حكومة عموم فلسطين قبل نصف قرن. إننا نفكر فى الإفراج عن عرفات ليذهب إلى غزة (٣٦٠ كيلومترا مربعا) لنجرب ما إذا كان سينجح فى كبح جماح كل أولئك الذين أصبح الحائط وراءهم ودماؤهم أمامهم.. ولا خيار.

ويقول الأمريكيون أن الكرة فى ملعب عرفات.. وأن الإسرائيليين وفوا بوعدهم بالانسحاب.

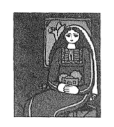
ويقول الواقع. والأرض. أن الإسرائيليين لم يغيروا خطتهم أبدا نتيجة للتدخل الأمريكى. فبوش طلب فى الرابع من أبريل وقف الغزو وبدء الانسحاب «بلا تأخير». وخرجت كوندوليزا رايس بعد يومين فقط لتوضح المعنى: «بلا تأخير، تعنى بلا تأخير.. أى الآن». إلا أن الأمر احتاج فى الواقع لثلاثة أسابيع إضافية من القتل والتدمير (هى بالضبط الفترة التى كان الإسرائيليون قد قرروها مسبقا لعمليتهم) ليبدأوا. لا بالانسحاب. وإنما فقط بإعادة الانتشار. أى الخروج بالدبابات من داخل (بعض) المدن للمرابطة خارجها. فضلا عن اجتياح مدن وقرى أخرى.

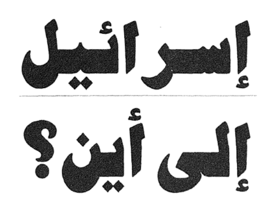
لا يهم.. فالأمريكيون مرتاحون فى تصريحاتهم الرسمية إلى أن الإسرائيليين «يستجيبون».. ونحن ننتظر الآن من عرفات.

يخطئ كثيرا إذن من يراهن. وفقط. على واشنطن كما يخطئ من يعتقد أن الموقف الأمريكى. البادى الانحياز لإسرائيل. هو فقط من تداعيات ١١ سبتمبر. التى يخطئ أيضا من بين العرب من يعتقد أن عليه الاكتفاء بالتراجع أمام التداعيات.. أو الانحناء حتى تمر العاصفة. فطول الانحناء قد يكسر الظهر.. كما يقول المثل العربى القديم.



فى «وجهات نظر» خصصنا الصفحات التالية لقراءة فى بعض أوراق الملف القديم الجديد.. المتفجر والدامى. والذى اختلطت كثير من سطوره ومفاهيمه.





إسرائيل إلى أين؟



تـــونـى يـــوت

في عـام ١٩٥٨، وفي ذروة أزمة الجـزائر، حـيث كـان العـرب يفجرون المقاهي الفرنسـيـة، وتدين باريس في السر لجوء الجيش الفرنسي المحتل للتعذيب، وبينما كـان الكولونيالات شبه العسكريين يطالبون بحرية اتخـاذ ما يؤدي إلى إنهاء الإرهاب، أصدر الفيلسوف الفرنسي ريمون آرون كتاباً صغيراً بعنوان(L'Algérie et la Rép-ublique الجـزائر والجـمهورية). وبعد تجـاوزه لمزاعم الطرفين الانفعـاليـة والتـاريخـيـة، شرح آرون في كـتـابه شديد الروعة سبب ضرورة أن يرحل الفرنسيـون عن الجـزائر. وكـانت فرنسـا تفتقر إلى كل من الإرادة والوسيلة لفرض الحكم الفـرنسي على العـرب، أو إعطاء العـرب مكاناً متكافئاً داخل فرنسا. فإذا بقي الفرنسيون، فإن الوضع لن يزداد إلا تـدهوراً، وسـوف يضطرون للرحيل في يوم مـا ـ ولكن في ظروف أشد سوءاً وبإرث أكثـر مرارة. وكـان الضـرر الذي تلحـقـه فرنسا بالجـزائريين يفوقه الضرر الذي تلحقه الجمهورية بنفسها. وبغض النظر عما كان يبدو عليه الاختيـار من استـحالة، فقد كان شديداً في بساطته رغم ذلك؛ فلا بد أن ترحل فرنسا.

وبعد سنوات كثيرة، سُئل آرون عن سبب عدم دخوله في المسائل شديدة السخونة في ذلك الوقت؛ وهي التـعذيب، والإرهاب، والسيـاسة الفرنسيـة الخـاصة بالاغتيال السيـاسي الذي ترعاه الدولة، والمطالب الوطنيـة العربية، وتراث الفرنسيين الاستـعماري. فرد بقوله إن الجـميع كانوا يتحدثون عن تلك الأشياء؛ فماذا سيضيف صوتي؟ لم يكن المهم هو تحليل أصول المأساة، ولا تحديد من يلقى عليه اللوم في حـدوثها. بل كان المهم هو عمل ما يجب عمله.

ووسط الأصـوات المتنافرة من التـعليـقات والاتهـامـات التي تدور حـول مـأسـاة الشـرق الأوسط، نفتقد بشدة وضوح آرون الذي لا زواق فيه. ذلك أن حل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني واضح وضـوحـاً جليـاً. فإسـرائيل موجـودة، وسوف يقبل الفلسطينيون وغيرهم من العـرب وجودها في آخر الأمر؛ بل إن كـثـيرين قـبلوه بالـفـعل. ولا يمكن مـحـو الفلسطينيـين من «إسرائيل الكبرى» ولا دمجـهم فيـهـا؛ فإن هم طردوا إلى الأردن، فسوف ينفجر الأردن انفجاراً تكون عـواقـبـه وخـيـمـة على إسـرائيل. والفلسطينيون بحاجة إلى دولة حقيقية خاصة بهم، وسيـحصلون عليها. وسوف ترسم حـدود الدولـتـين حـسب الخـريطة التي رسـمت في مفاوضات طابا في ينـاير ٢٠٠١، التي سـتعدل بموجبها حدود ١٩٦٧، إلا أن كل الأراضي المحتلة تقريباً ستخضع للحكم الفلسطيني. وبذلك يكون مـحكوماً على كل المسـتوطنات الإسرائيليـة في المناطق المحتلة بالاختـفاء، وسوف يفكك الكثير منها، وهو ما يعترف به إسرائيليون كثيرون في السر. ولن يكون هناك حق للعرب في العـودة؛ وقد حان الوقت للتخلي عن حق العودة اليهودي الذي ينطوي على مفارقة تاريخية. كما أن القدس مقسمة بالفعل على أساس عرقي، وسوف تكون في النهـاية عـاصـمـة لكلتـا الدولتـين. وبما أنه ستكون لهاتين الـدولتين مصلحـة مشتركة في الاستقلال والاهتمامات المدنية المشتـركة، فسوف تتـعلمـان في الوقت المناسب كيف تتـعـاونان. وسوف تسير المنظمات التي لها قاعدة مجتمعية مثل حـمـاس، إن هي مُنحت الـفرصة لتـحويل نفسها من شبكات إرهابية إلى أحزاب سيـاسية، في نفس السبيل. فهناك العديد من السوابق.



إذا كان هذا هو مستقبل المنطقة، فلمـاذا يبدو الوصول إلى ذلك شديد الصعوبة؟ لقد أخرج ديجول أبناء وطنه من الجزائر بسهولة نسبية، بعد أربع سنوات من مقال آرون. وبعد خمسين سنة من القـمع والاستـغلال البـغيضين، سلم الجنوب أفريقيون البيض السلطة لـلأغلبيـة السوداء التي حلت محلهم بدون عنف أو انتقام. فـهل الشرق الأوسط يختلف اختـلافاً شديداً؟ إن الفلسطينيـين يرون أن التناظر الاسـتـعـمـاري متوافق، وأن السابقة الخـارجية يمكن تطبيقها. إلا أن الإسرائيليين يصرون على عكس ذلك.

لا يزال مـعظم الإسـرائيليـين أسـرى قصـة تفردهم. فـالبـعض يرى أن هذا التـفـرد يكمن في الوجـود الأزلي لـدولة يهودية قـديمـة على أرض إسرائيل الـحديثـة. ويرى غـيرهم أنه كـائن في اللقب الذي منحـــهم إياه الرب لأراضي يهـودا والسـامرة. ولا يزال كثـيرون يثـيرون مسـألة الهولوكست ويزعمون أنه يعطي اليـهود الحق في جـعـل المجـتـمع الدولـي يدفع الثـمن. بل إن هؤلاء الذين يرفضون كل تلك الدعـاوى الخـاصة يشيرون إلى الجـغرافيـا دفاعـاً عن تميزهم. فهم يقولون إننا مـعـرضـون للخطر، ويحـيط بنا الأعـداء، بالشكل الذي يجب علينا مـعـه عـدم المخـاطرة أو ارتكاب خطأ واحـد. لقد انسـحب الفرنسيون عبر البحر المتوسط؛ وجنوب أفريقيا بلد كـبـيـر جداً. أما نـحن فليس لنا مكان نذهب إليـه. وأخـيـراً، فـإن وراء كل رفض إسرائيلي لمواجهة حتمية الخيارات الصعبة يقف الضمان الخفي الذي تقدمه الولايات المتحدة.

والمشكلة بالنسـبـة لسـائر دول العـالم أن إسرائيل تغيرت منذ عام ١٩٦٧ بطريقة تجعل من التـوصيف التـقليدي الذي تصف به نفسـهـا أمراً مثيراً للضحك. فهي الآن قوة استـعمارية إقليميـة، تعدها بعض الحـسابات رابع أكـبر مؤسـسة عـسكرية في العـالم. وإسـرائيل دولة، بكل مـا للدولة من أمـارات وقدرات. وفي المقـابل الفلسطينيـون ضـعـاف بـحق. فرغم عظم أخطاء القـيـادة الفلسطينيـة ودمـوية العـمليـات الفلسطينيـة، فـالحـقيـقة هي أن إسرائيل تملك المبـادرة العـسكرية والسـيـاسـيـة. وبذلك فـإن مسئولية الخروج من المأزق الحالي تقع في المقام الأول على عـاتق إسـرائيل (وإن لم يكن بالـكامل كما سنرى).

ولكن الإسـرائيليـين أنفسـهم لا يرون ذلك. فـهم يرون أنهم لا يزالون مـجـتـمـعـاً ضـحـيـة صـغيراً، يدافـعون عن أنفسـهم بضـبط نفس وتردد في مواجـهة صعاب طاغيـة. في حين أن قيادتهم السيـاسيـة العـاجزة أضاعت ثلاثين عـامـاً منذ انتـصـــار ١٩٦٧ الذي شـجـع على الشعور بـالصلف والغرور. وفي ذلك الوقت بنى الإسرائيليون مجتمعات غير مشروعة على الأراضي المحتلة واتخـذوا لنفسـهم درعـاً من الاسـتـخـفـاف بالأعراف: تجـاه الفلسطينيـين، الذين ينظرون إليـهم باحتـقار، وتجـاه الولايات المتحدة، الـتي اسـتـغلوا تحـررها المتـعـاطف السابق بلا حياء.

ولا تشكل إسرائيل خطراً دائمـاً بالنسـبـة لسـوريا أو لـحـزب الله في لبنان، أو للجـناح العـسكري في حـمـاس، أو لأي تنظيم مـتطرف آخـر. بل على العكس من ذلك، حـقـق هؤلاء نجاحاً منذ زمن طويل بسبب ردود أفعالها غير المتوقعة تجاه هجماتهم. ولكن حكومة إسرائيل الـحـاليــة توشك أن تقـضي على السلطة الفلسطينية. وبعد أحداث الشهر الماضي، سوف يعـاقب الساسة الفلسطينيون، الذين كـانوا من الغباء بحـيث صدقوا الإسرائيليين، باعـتبارهم خـونة يتـعـاملون مع قوات الاحتـلال، ويقضي بالتـالي عليـهم. وبذلك تكون دولة إسرائيل قد حرمت نفسها من المحاورين الفلسطينيين الذين يتمتعون بالمصداقية.

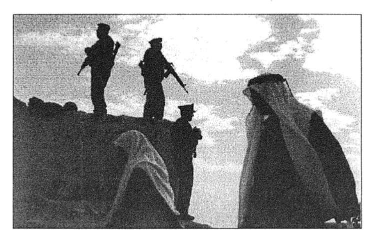
هذا هو الإنجـاز الواضح لأريئـيل شـارون، المشـهـور بين الجنود بعـجـزه الاسـتـراتيـجي ـ حيث لم يكن نجاحـه التكتـيكي فيـمـا يتـعلق باجتيـاح الدبابات الجسور متوافقاً قط مع أي فهم للـصورة الأكبـر ـ والذي أثبت أنه على ذلك القدر من السوء الذي كان يخشاه كـثيرون منا. فقد كرر (أو حـاول أن يكرر في حالة طرد عرفات) كل أخطاء احتلاله للبنان عام ١٩٨٢، بما في ذلك الخطاب الذي يسـتـخـدمـه. ويذكـرنا انشـغـال شارون الشديد بياسر عرفات بشخصية المفتش جافير عند (فيكتور هيجو) في روايتـه البؤساء، الذي كرس بجنون حياته ومسـتقبله العملي للقضاء على جان فالجان، على حساب أي إجراء ومنطق، بما في ذلك منطقه هو (والمقارنة الأدبية تظهر كـلاً من شارون وعرفات على السـواء أفضل مما هما عليه).

وفي الوقت نفسـه رفع شـارون وحـده وبلا أية مسـاعـدة مكانة عـرفـات الدوليـة إلى أعلى نقطة لها منذ سنوات. وإذا تخلص شـارون من عرفات في يوم من الأيام، وظل مفـجـرو القنابل يأتون، كـمـا سيـحـدث، فـماذا يفـعل حـينذاك؟ ومـاذا سيـفـعل حـين يتطوع الشـبـاب العـربي داخل إسـرائيل نفسـهـا، وقد ألهبت حـمـاسـهم معاملة إسرائيل لأبناء عمومتهم في جنين ورام الله المحـتلـتـين، للقيـام بمهام انتـحـارية؟ هل سيـرسل الدبابات إلى الجليل؟ أم يقيم أسـواراً مكهربة حول الأحياء العربية في حيفا؟



يقع اللوم في المقام الأول فيما يخص الأزمة الحالية على المؤسسة السياسية الإسرائيلية ـ ناهيك عن الطبقـة المثقفة الليبرالية في البلاد التي نفضت يدها من المسئوليـة، كـمـا فـعل (بيـــلاطِس) ـ وإن لـم تكـن وحــــدهـا. فالإسرائيليون يفترضون على وجه التحديد أن معـهم شيكاً على بياض من واشنطن بمشـاركة الولايات المتـحدة في هذه الفوضى شـاءت أم أبت. فقد بدأت كل الجـهود الجادة في الثـلاثين سنة الماضـيــة لإيجـاد السـلام في الشـرق الأوسط، من هنري كيسنجر إلى بيل كلينتون، بتشجيع أمريكا وبتدخلها. فلماذا تنحت إدارة بوش جـانباً كل هذا الوقت، مما يثـير الغـضب العـالمي ويعرِّض تأثيرها المستقبلي للخطر؟

لماذا ظل الرئيس الأمريكي حـابسـاً نفسـه في أواخـر مـارس وأوائل أبريل داخل الاقـتـراح المراوغ بأن «على عـرفات أن يفـعل المزيد» لكبح جماح مفجري القنابل الانتحاريين، بينما زعيم





السلطة الفلسطينية حبيس داخل ثلاث غرف، وتحت يده تليفون محمول واحد؟ ولماذا قَبِل رجل بحصافة كولين باول وذكائه أثناء تزايد حدة الأزمة الحالية صاغراً طلب شارون بفترة غير محددة من «الهدوء التام» (فيما عدا الاغتيالات الإسرائيلية) قبل بدء أية مناقشات سياسية؟ لماذا وقفت الولايات المتحدة تتفرج بينما «قُتل ما يزيد على ٢٠٠ فلسطيني وجُرح أكثر من ١٥٠٠ آخرون من اجتياح الدبابات وطائرات الهليكوبتر للضفة الغربية في ٢٩ مارس»، كما جاء في صحيفة «نيويورك تايمز» في عددها الصادر في ٩ أبريل؟ باختصار، لماذا ربطت الولايات المتحدة نفسها طواعية بمقود اسمه «الإرهاب» يمكن لشارون أن يدفعها به للأمام وللخلف متى شاء؟

الإجابة بكل أسف هي الحادي عشر من سبتمبر. فحتى ذلك التاريخ كان بوش عازماً على ضرورة تحذير إسرائيل من «الاغتيالات المستهدفة»، كما فعل في أغسطس الماضي. ولكن منذ الحادي عشر من سبتمبر أسكتت كلمتا «إرهاب» و«إرهابي» الجدل العقلاني الخاص بالسياسة الخارجية. ولم يكن على شارون سوى أن يعلن أن عرفات رئيس «شبكة إرهابية» كي تتفق واشنطن بطريقة غبية مع أي تدبير عسكري يتخذه. ونحن مندهشون من الخطاب الجديد الخاص بهذه «الحرب ضد الإرهاب»؛ ذلك أن أي سياسي يمكنه أن يلصق بطريقة مقنعة صفة «إرهابيين» بأي منتقدين له في الداخل أو الخارج سوف يضمن على أقل تقدير أذناً مصغية في الحكومة الأمريكية، وعادة شيئاً آخر بالإضافة إلى ذلك.

إن التهديدات «الإرهابية» في سبيلها لأن تكون تعويذة عصرنا هذا، كما كانت «الشيوعية» و«الرأسمالية» و«البورجوازية» وغيرها من أخطار قبلها. وهي مثلها تغلق باب كل مناقشة تالية. وهذه الكلمة لها تاريخها؛ فقد وصف هتلر وستالين خصومهما كذلك بأنهم «إرهابيون». والإرهابيون موجودون في الواقع بطبيعة الحال، تماماً كما أن هناك بورجوازيين حقيقيين وشيوعيين فعليين؛ فالإرهاب ضد المدنيين هو السلاح المفضل لدى الضعفاء. ولكن المشكلة هي أن «الإرهابي» شأنه شأن «الدولة المارقة» خدعة خطابية سريعة التشكل ترتد إلى نحر قائلها: فالإرهابيون اليهود كانوا بين مؤسسي دولة إسرائيل، وقد لا يمضي وقت طويل حتى توافق الأمم المتحدة على قرار يُعرِّف إسرائيل على أنها دولة مارقة.



إذن فالمرحلة الأولى من أي حل في الشرق الأوسط هي أن تتخلى الولايات المتحدة عن الفكرة الخطابية المسيطرة عليها التي تحمل هزيمتها في طياتها والخاصة بالحرب ضد الإرهاب، وهي الفكرة التي أعادت الولايات المتحدة إلى جيب شارون من جديد، والبدء في التصرف كدولة عظمى كما هو شأنها. وبدلاً من أن يبتز رئيس وزراء إسرائيل واشنطن كي تلوذ بالصمت، لا بد أن تطلب هي منه ومن أي ممثلين فلسطينيين نجوا من اتهاماته أن يبدءوا المحادثات. ومنذ عامين، بل منذ عام واحد، كان من المنطقي أن يُطلب من السلطة الفلسطينية وقف مثل هذه التفجيرات قبل بدء المحادثات. ولكن بفضل شارون، فإن أي فلسطيني يمكنه الدخول في مفاوضات ليس في وضع يمكنه من تلبية هذا المطلب. ولذلك فلا بد أن تكون هناك محادثات واتفاقية سلام في وجود التفجيرات أو عدم وجودها.

وبالطبع سيسأل الإسرائيليون كيف يمكنهم التحدث مع أناس تغاضوا عن التفجيرات الانتحارية التي استهدفت مدنيين إسرائيليين. وسوف يرد الفلسطينيون بأنه ليس لديهم ما يقولونه لهؤلاء الذين يزعمون أنهم يرغبون في السلام الدائم ولكنهم بنوا ثلاثين مستوطنة استعمارية جديدة في العام المنقضي وحده.

هناك الكثير الذي يجب نسيانه. فالفلسطينيون يتذكرون الطرد الجماعي في عام ١٩٤٨، ونزع ملكية الأراضي، والاستغلال الاقتصادي، واستعمار الضفة الغربية، والاغتيالات السياسية، والإهانات اليومية البسيطة. ويتذكر الإسرائيليون حرب ١٩٤٨، ورفض العرب الاعتراف بدولتهم قبل ١٩٦٧، والتهديدات المتكررة بإلقاء اليهود في البحر، والمذابح المدنية العشوائية المرعبة في العام المنقضي.

ولكن الذاكرات الشرق أوسطية ليست فريدة من نوعها وليست مميزة في حجمها. فعلى مدى عقدين ظل الجيش الجمهوري الأيرلندي يقتل المواطنين البروتستانت على أعتاب دورهم، وأمام أعين أطفالهم. وكان رد المسلحين البروتستانت بالمثل. والعنف مستمر، ولكنه خف كثيراً. ولكن هذا لم يمنع البروتستانت المعتدلين من التحدث علناً مع نظرائهم من الشين فين؛ (الجناح السياسي للجيش الجمهوري).

وبينما كانت الحرب العالمية الثانية توشك أن تضع أوزارها، قُتل مئات الآلاف من البولنديين والأوكرانيين أو أخرجوا من ديارهم على أيدي جيرانهم البولنديين والأوكرانيين. ومع ذلك فإن البولنديين والأوكرانيين اليوم يعيشون، رغم ذكرياتهم المأساوية، ليس فقط في سلام، بل في تعاون متنام تفصلهما حدود تتسم بالهدوء.

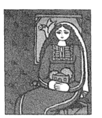
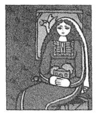
وهذا ممكن حدوثه. ففي الشرق الأوسط اليوم يعيش كل طرف داخل ذكريات أُحكم إغلاقها، وسرد وطني لا تسمع فيه ألم الطرف الآخر ولا تراه. ولكن ذلك كان حال الجزائريين والفرنسيين، والفرنسيين والألمان، والأوكرانيين والبولنديين، وكان بالأخص حال البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا الشمالية. وليست هناك لحظة سحرية تنهار فيها الأسوار، بل هي سلسلة واضحة الحلقات من الأحداث: فيأتي أولاً الحل السياسي، وهو يُفرض عادة من الخارج ومن فوق. وغالباً ما يكون ذلك في ذروة الاستياء المتبادل. وساعتها فقط يبدأ النسيان.

واللحظة الآنية، حيث يوشك شارون على بدء دورة طويلة من الموت والفناء في المنطقة، قد تكون هي آخر فرصة ممكنة، كما أدرك الرئيس الأمريكي متأخراً. وهي بالتأكيد كذلك بالنسبة لإسرائيل. فقبل أن يحصل العرب على أرضهم ودولتهم بوقت طويل، ستكون إسرائيل قد تحللت من الداخل. فالخوف من الظهور كمن يبدي تضامنه مع شارون، وهو ما يمنع بالفعل الكثيرين من زيارة إسرائيل، سوف يمتد بسرعة إلى المجتمع الدولي ككل، مما يجعل إسرائيل دولة منبوذة. ورغم ما عليه شارون من سوء بالنسبة للفلسطينيين، فسوف ينجون منه. كما أن التوقعات بالنسبة لإسرائيل أقل ضماناً. فأزمة الشرق الأوسط تمثل بالنسبة لسائر دول العالم احتمالاً يجري تعزيزه لوقوع حرب دولية، وضماناً محتملاً لفشل حرب أمريكا ضد الإرهاب، مهما وصف.

وفي بعض الأحيان يضع مراقبو الشرق الأوسط المعاصر ذوو النوايا الحسنة ثقتهم في المصلحة الذاتية المستنيرة لدى الطرفين المتحاربين. فهم يرون أن الفلسطينيين سيكون حالهم أفضل بكثير إن هم قبلوا الهيمنة الإسرائيلية مقابل إعادة رفاهيتهم المادية وأمنهم الخاص، بحيث يتخلون بالتأكيد عاجلاً أم لاحقاً عن مطالبتهم بالاستقلال التام. وفيما يتصل بالحساب الاستراتيجي الذي وراء دبابات شارون، فالأمر هو أن العرب الذين يتم ترهيبهم بالقدر الكافي سوف يرون مقدار ما سيخسرونه بقتالهم ويوافقون على حياة آمنة بالشروط الإسرائيلية.

قد يكون هذا هو أكثر الأوهام الاستعمارية خطورة. فهناك بعض الشك في أن حال معظم العرب الجزائريين كان سيصبح في ظل الحكم الفرنسي أفضل مما هو عليه في ظل الأنظمة الحاكمة الوطنية القمعية التي حلت محله. ويصدق الشيء نفسه على المواطنين في الكثير من الدول ما بعد الكولونيالية التي كانت في يوم من الأيام تُحكم من لندن. ولكن مقياس الحياة الطيبة لا يحسب فقط بالدخل وطول العمر، أو حتى بالأمن. فالأمر كما أشار آرون «هو إنكار لتجربة قرننا كي نفترض أن الناس سوف يضحون بعواطفهم من أجل مصالحهم». وهذا هو السبب في أن الإسرائيليين بمعاملتهم لرعاياهم العرب يسيرون في سبيل لن يؤدي بهم إلى أي مكان. فليس هناك من بديل لمفاوضات السلام والتسوية النهائية. وإن لم يحدث ذلك الآن، فمتى؟ ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة: أحمد محمود



شارون
من هو؟
وماذا يريد؟



قدرى حفنى

■■ حين يكتب مثلى من المتخصصين فى علم النفس تحت هذا العنوان، يتوقع القارئ أن يجد شيئًا مثيرًا يتعلق بطفولة شارون وما بها من أحداث تركت بصماتها على شخصيته وعلى سلوكه الراهن. وربما يتوقع القارئ أيضًا ما يشبه الشهادة الطبية التى تثبت جنون شارون.

وللقارئ الحق كل الحق فى توقعاته. فالشائع لدى غير المتخصصين فى علم النفس أن صفة الجنون يمكن أن تطلق على جميع أنواع السلوك التى نستبشعها لخروجها عن المعايير الأخلاقية والإنسانية التى نعرفها، فى حين أن الإنسان «العاقل» هو ذلك الإنسان الطيب المتزن ذو الخلق الرفيع إلى آخر تلك الصفات الأخلاقية السامية. والأمر بالنسبة للمتخصصين فى علم النفس ليس كذلك على الإطلاق، بل إننا لا نستخدم تعبير «الجنون» مطلقًا فى كتاباتنا وتقاريرنا العلمية، والتعبير الشائع لدينا علميًا هو «المرض النفسى». ويحكمنا فى تعاملنا مع هؤلاء المرضى قاعدة نلتزم بها التزامًا صارمًا فى هذا التعامل خلاصتها التسامح حيال ما يصدر عن ذلك المريض من أفعال قد تدهشنا وقد تغضبنا وقد تدفعنا للاشمئزاز ولكنها أبدًا لا ينبغى أن تدفعنا للغضب. ويتفق ذلك مع القول السائر «ليس على المجنون من حرج». ولا أظن أحدًا يطلب مثل تلك المعاملة المتسامحة مع شارون، لذلك أرجو ألا أكون محبطًا للقارئ إذا ما افتقد فى هذه السطور ما قد يتوقعه من إثارة.

شارون لمن ينتمى؟

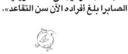
تضم اللغة الإسرائيلية العديد من تلك المصطلحات ذات المذاق الخاص، والتى تم صكها داخل المجتمع الإسرائيلى، ومن واقع التجربة الإسرائيلية، ولا نعنى هنا بطبيعة الحال ذلك الركام الهائل من المصطلحات التى شملتها عملية العبرنة السريعة التى لجأ إليها الإسرائيليون، ومازالوا ماضين فيها لاعتبارات عديدة لسنا بصدد التعرض لها. فالأمر لا يتعدى فى تلك الحالة مجرد ترجمة أو تسمية بسيطة أو حتى معقدة لظواهر اجتماعية أو طبيعية تعرفها مجتمعات كثيرة وتتعدد تسمياتها بتعدد لغات تلك المجتمعات. إن ما نعنيه بالتحديد هو تلك المصطلحات التى تم صكها للتعبير عن واقع إسرائيلى فريد لا نظير له فى المجتمعات الأخرى ولا تعنى عملية الصك هذه بالضرورة ابتداع المصطلح ابتداعًا، بمعنى إضافة كلمة جديدة إلى مفردات اللغة لم يكن يضمها قاموس تلك اللغة من قبل لتعبر عن ذلك المقصد الجديد. بل إن ما يحدث فى كثير من الأحيان خاصة فى مجال المصطلحات الاجتماعية إنه من خلال ملابسات اجتماعية محددة يتم إضفاء معنى جديد على كلمة مستخدمة بالفعل، أى على كلمة موجودة من قبل ضمن مفردات اللغة المعنية. وذلك هو ما حدث بالتحديد بالنسبة لمصطلح الكيبوتز مثلاً فى إسرائيل. إن كلمة كيبوتز بالعبرية تعنى جماعة، ولكن ثمة ملابسات اجتماعية تاريخية محددة أضفت على تلك الكلمة القاموسية المعتادة معنى اجتماعيًا خاصًا بحيث أصبحت تعبر عن ظاهرة اجتماعية يتميز بها المجتمع الإسرائيلى، والأمر بالمثل بالنسبة لمصطلحات أخرى عديدة تضمها اللغة المستخدمة فى إسرائيل حاليًا.



وقد توحى القراءة العابرة للكتابات الإسرائيلية بأن مصطلح الصابرا ليس سوى تسمية عبرية تدل على الشباب الإسرائيلى، وتحت عنوان «الصابرا» يدور الحديث عادة عن طلبة وجنود وأطفال ومراهقين وما إلى ذلك. أى أنه حديث يدور عن شباب، ومادام الشباب ظاهرة تعرفها المجتمعات البشرية جميعًا، فإن تناول مصطلح الصابرا باعتباره تعبيرًا عن واقع إسرائيلى فريد قد يعد تعسفًا لا محل له فى مجال التناول العلمى الموضوعى.

إن المعنى الحرفى لكلمة الصابرا فى اللغة العبرية هو نبات التين الشوكى ولعل معرفتنا بالملابسات الاجتماعية التى صاحبت إضفاء ذلك المعنى الفضفاض لجيل «الصابرا» على كلمة التين الشوكى وتحويلها إلى مصطلح اجتماعى تسهم إسهامًا كبيرًا فى إلقاء الضوء على دلالة ذلك المصطلح.

لقد أصدر جورج فريدمان عالم الاجتماع الفرنسى المعروف والرئيس الأسبق للجمعية الدولية لعلم الاجتماع فى عام ١٩٦٥ كتابه المعنون: «هل هى نهاية الشعب اليهودى؟» وقد ضمنه تقييمًا مفصلاً للتجربة الإسرائيلية كما شاهدها خلال زيارتين قام بهما لإسرائيل فى عامى ١٩٣٦، ١٩٤٦ على التوالى وقابل خلالهما العديد من قادة الفكر والعلم والدولة فى إسرائيل فضلاً عن لقاءاته بالعديد من الإسرائيليين المنتمين لمختلف الفئات. وفى مستهل الفصل الرابع فى ذلك الكتاب والمعنون «الصابرا: أزمة القيم» يورد فريدمان قصة الملابسات الاجتماعية التاريخية التى صاحبت إطلاق تسمية الصابرا هذه مقررًا أن ذلك المصطلح قد أخذ يتردد فى أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة وأنه قد انبثق للمرة الأولى فى مدرسة هرزليا الثانوية فى تل أبيب. وكانت من كبرى المدارس فى فلسطين آنذاك، أى فى فترة الانتداب البريطانى وكانت تلك المدرسة تضم بين تلاميذها اليهود آنذاك شبابًا يهوديًا من مواليد فلسطين إلى جانب آخرين من أولئك الذين نزحوا مع آبائهم من أوروبا إلى فلسطين. وغالبًا ما كان أولئك الأوروبيون الذين قدموا من حضارة أكثر تقدمًا ونشأوا فى ظروف أكثر يسرًا، يتفوقون فى الدراسة على زملائهم من مواليد فلسطين أبناء الحضارة الأقل تقدمًا والذين نشأوا فى ظروف أكثر خشونة، وبالتالى فقد كان مواليد فلسطين هؤلاء يحسون نقصًا حيال أقرانهم الأوروبيين اللامعين دراسيًا، ومن ثم كانوا يلجأون لتعويض شعورهم بالنقص إلى تحدى أولئك الأقران المتفوقين فى نوع من النشاط يرد لهم اعتبارهم وقد تمثل ذلك النشاط فى الإمساك بثمرات التين الشوكى وتقشيرها بالأيدى العارية. وكان اليهود من أبناء فلسطين فى مدرسة هرزليا يكسبون التحدى فى ذلك المضمار عادة، ويتمكنون بسهولة من نزع القشرة الشائكة وتحمل وخز أشواكها والحصول على الثمرة الحلوة. ومن هنا التصقت كلمة «التين الشوكى» ـ «الصابرا» ـ بأولئك الذين كانوا يتفوقون فى تقشيره فى مدرسة هرزليا ومن هنا أيضًا انتشرت التسمية لتغطية ما يسمى بجيل «الصابرا» ذلك الجيل الذى يختتم فريدمان روايته هذه بالإشارة إليه قائلاً: «وهكذا فقد شهدت إسرائيل فى العشرينيات جيلاً من الصابرا بلغ أفراده الآن سن التقاعد».



ويلقى جورج مايكس مزيدًا من الضوء على هذه القضية فى كتابه «عزم النبى: إسرائيل اليوم وغدًا». يقول مايكس فى معرض حديثه عن الصابرا: «لقد غيرت كلمة الصابرا من معناها مرتين. كانت تطلق فى الأصل على ثمرة حلوة صغيرة شائكة، ثم أصبحت تعنى الشباب المولود فى إسرائيل. لقد كان الصابرا منذ عشرين عامًا شيئًا نادرًا بين أصحاب ذلك البلد من المهاجرين. أما اليوم فإن ما يزيد على نصف السكان مولودون بالفعل فى إسرائيل. ومن ثم فقد غيرت الكلمة معناها مرة أخرى.. إن الأطفال الستة والسبعة الذين أنجبتهم أسرة مغربية مثلاً، والذين ولدوا بالفعل فى إسرائيل، ولكنهم تربوا فى ظل التقاليد الشرقية البالية مثل هؤلاء الأطفال بعيدون عن الصابرا بُعد موشى ديان عن القرآن»؟

مرة أخرى: من هم هؤلاء الصابرا؟ يقول جورج فريدمان فى كتابه الذى أشرنا إليه آنفًا والمعنون: «أهى نهاية الشعب اليهودى»:

«أعتقد أن ثمة ثقافة فرعية هى ثقافة الصابرا قد اتخذت لها مكانة راسخة فى إسرائيل حيث يمكن التمييز بالفعل بين عدد من مثل تلك الثقافات الفرعية: ثقافة الفاتيكيم ذات الأساس الراسخ والتى اندمج فيها جميع المهاجرين القدامى، وأغلبهم من الاشكنازيم الذين يحتلون مراكز المسئولية فى جميع قطاعات الحياة الإسرائيلية، ثم هناك ثقافة الكيبوتزيم، وثقافة الموشافيم القدامى التى تشكلت قبل موجات الهجرة الكثيفة التى شهدتها الخمسينيات.. وهناك أخيرًا ثقافة جيل الصابرا الجديد، وهم أبناء الفاتيكيم الذين لم يبلغوا الثلاثين».

الصابرا إذن وفقًا لعبارة فريدمان هم أبناء الفاتيكيم الذين هم أساسًا من الاشكنازيم الذين يحتلون مراكز المسئولية فى جميع قطاعات الحياة الإسرائيلية.



والصابرا ـ وفقًا لفهمنا لذلك التعبير ـ هم الأقرب إلى تصور السلطة الإسرائيلية لما ينبغى أن يكون عليه الشباب فى إسرائيل، وليس ذلك على أى حال بالأمر المستغرب، فهؤلاء الصابرا ليسوا فى النهاية سوى الأبناء الشرعيين لأصحاب السلطة التاريخية الحقيقية فى إسرائيل. كذلك فإن أولئك الصابرا يمثلون الجانب الغالب ـ عددًا وتأثيرًا ـ من بين العسكريين الإسرائيليين الذين يواجهوننا بالفعل.

ولقد حظى جيل الصابرا بالعديد من الدراسات النفسية المتخصصة التى قام بإجراء غالبيتها علماء من اليهود والإسرائيليين. ولسنا بصدد عرض تفصيلى لتلك الدراسات. يكفينا أن نشير فى عجالة إلى أهم ما أسفرت عنه من نتائج. لقد أسفرت تلك الدراسات عن جيل الصابرا أنه يتميز بعدد من الخصائص النفسية أبرزها: الانطوائية والكآبة والتشكك والتشاؤم والشعور بالدونية والعدوانية واللامبالاة والبرود الانفعالى والإحساس بالفشل والحساسية المفرطة للنقد والحاجة إلى المديح والإطراء وخشونة المظهر والعدوانية.

شارون نموذج يجسد جيلاً

كان صموئيل موردخاى شينرمان المزارع وزوجته التى تعمل بالتمريض من الأسر الصهيونية المتشددة التى هاجرت من روسيا إلى فلسطين فى فترة مبكرة واستقرت فى مستوطنة كفار مالال وهى واحدة من أوائل المستوطنات الزراعية اليهودية «الموشاف» التى أقيمت فى فلسطين، حيث أنجبا أريل شينرمان عام ١٩٢٨ بعد أن اتخذت عائلته اسمًا يهوديًا



هو شارون، وهو اسم لواد يبعد عشرة أميال من تل أبيب وفيه يقع موشاف كفار مالال.

ورغم أن عام ١٩٣٤ كان هادئًا نسبيًا فيما يتعلق بالمواجهات بين المسلمين واليهود في فلسطين، فما يروى عن شارون الذي كان يبلغ السادسة آنذاك أن والده قد زوده بهراوة لحماية المزرعة من الأطفال الذين يحاولون سرقة الفواكه منها، وتمضي الرواية لتقول إن شارون الطفل حين بلغ العاشرة والتحق بحركة شباب العمل كان مازال يحتفظ بهراوته محاولاً أن يسيطر بها على أقرانه إلى أن منعه رئيس الفريق من ذلك.

وعندما بلغ شارون الرابعة عشرة أي في عام ١٩٤٢ التحق بالجادناع وهي منظمة صهيونية شبه عسكرية تتبع منظمة الهاجاناه وتتولى تدريب وإعداد الشبيبة.

وحين بلغ العشرين شارك في حرب ١٩٤٨ ضمن ضباط المدفعية، وجرح خلال الحرب.

وفي يونيو ١٩٥٣ شكلت قيادة الجيش الإسرائيلي مجموعة عمليات خاصة عرفت باسم الوحدة ١٠١ لشن عمليات ترويع للفلسطينيين، وقد تولى شارون قيادة هذه الوحدة التي تولت تحت قيادته ارتكاب مذبحة مخيم البرج في غزة في أغسطس ١٩٥٣. وتشير مذكرات الجنرال فاجن بيننيك من قادة قوات الأمم المتحدة إلى أن تعليمات شارون كانت تقضي بإلقاء القنابل من نوافذ أكواخ المخيم التي ينام فيها اللاجئون الفلسطينيون، فإذا ما حاول أحدهم الفرار اصطادته طلقات الأسلحة الخفيفة».

وبعد أقل من شهرين أقدم شارون ورجاله على ارتكاب مذبحة قبية في أكتوبر ١٩٥٣ التي وصفها موشي شاريت رئيس وزراء إسرائيل آنذاك في مذكراته بأنها «سوف تظل لصيقة بنا ولن نستطيع محوها لسنوات طويلة». ولقد أثبتت تقارير شهود الرؤية من رجال الأمم المتحدة الذين دخلوا القرية في اليوم التالي أن رجال شارون كانوا يجبرون الأهالي على البقاء داخل منازلهم ثم يفجرونها على رؤوسهم.

كان لشارون ومازال موقف مستمر من كافة مشاريع واتفاقيات السلام. لقد صوت ضد اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩ حين كان وزيرًا في وزارة بيجن، كما صوت عام ١٩٨٥ ضد انسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان لما أطلق عليه «الحدود الآمنة» في جنوب لبنان، وعارض مشاركة إسرائيل في مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١، وعارض في الكنيست إبرام اتفاقية أوسلو عام ١٩٨٣، كما امتنع في العام التالي عن التصويت لصالح اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية. حتى أنه عندما اضطر للمشاركة في محادثات واي ريفر باعتباره وزير الخارجية في وزارة نتانياهو عام ١٩٩٨، رفض محادثة عرفات أو مصافحته ولو من قبيل المجاملة البروتوكولية.

لقد سجل شارون كتابة عام ١٩٩١ أي بعد مضي ثمانية أعوام على توقيع اتفاقية أوسلو، أنه يرى أن الفلسطينيين جميعًا إرهابيون لا يستثني منهم أحدًا. وصرح لمجلة التايمز في ١٩/١٠/١٩٩١، أي بعد اثنى عشر عامًا من توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية أن الدول العربية جميعًا تمثل تهديدًا لإسرائيل، وأنه منذ انهيار الاتحاد السوفيتي أصبح التهديد الأساسي لأمن العالم يتمثل في الدول العربية وإيران.



خلاصة القول إن شارون يعد أكثر القادة الإسرائيليين اتساقًا مع أفكاره، وتمسكًا بها، وإصرارًا عليها. ترى ألا يعني ذلك أن له سياسة واضحة المعالم من البداية إلى اليوم؟

ولكن يبقى سؤال قد يخطر للقارئ. لقد كان شارون بمثابة القاسم المشترك الأعظم في كافة المذابح التي ارتكبتها إسرائيل ضد الفلسطينيين عبر تاريخهم من مذبحة مخيم البرج في غزة في أغسطس ١٩٥٣، وهو أول من يعلم أن تلك المذابح لم تكفل أمنًا للإسرائيليين. ترى هل يعتقد شارون حقًا أن نتيجة المذابح الجارية هذه الأيام ستكون مختلفة عما سبقها؟ لا نظن أن شارون على هذا القدر من السذاجة. إنه يعرف نتائج ما يفعله جيدًا. وقد يبدو الأمر بهذه الصورة متناقضًا، ولكن فلنتأمل بعض التفاصيل.

لقد كان هدف شارون المعلن لمذابحه الأخيرة هو القضاء على البنية الأساسية لما يسميه بالإرهاب، مادام الرئيس عرفات لا يبذل جهدًا حقيقيًا في هذا الصدد. فماذا فعل شارون؟ لقد بدأ بحصار عرفات صاحب أوسلو والحائز على جائزة نوبل للسلام، وانقض على رجاله من أفراد الأمن الوطني، ودمر معالم البنية الأساسية الوليدة للسلطة الوطنية الفلسطينية. وارتكب المجازر دون تمييز في جنين ونابلس وامتد عنفه ليشمل كنيسة المهد وغيرها من المواقع التي يعلم شارون قبل غيره مدى قداستها، ومازالت المجازر مستمرة. إنه يقوم عمليًا بإفناء ذلك الجيل من رجال وشباب وأطفال فلسطين الذين نما لديهم أمل واهن في إمكانية السلام والتعايش مع الإسرائيليين. ومع انتهاء هذا الأمل لا يصبح أمام الجيل الفلسطيني الجديد إلا ممارسة العنف لتحقيق الاستقلال. وقد يبدو غريبًا أن يكون ذلك هو الهدف الحقيقي لشارون، ولكن فلنعد إلى التاريخ القريب.

لعلنا مازلنا نذكر الوعد الباراكي الذي أتى بحكومة باراك السابقة والذي تركز على تحقيق الوحدة القومية ليهود إسرائيل، وهو الأمر الذي أخفق باراك في تحقيقه، وانهار ائتلافه الحاكم ليأتي شارون إلى الحكم بوعده الجديد: تحقيق الأمن ليهود إسرائيل ومع تصاعد العنف الإسرائيلي في مواجهة الانتفاضة الفلسطينية يومًا بعد يوم منذ تولى شارون رئاسة الوزارة الإسرائيلية، واستمرار الصمود الفلسطيني، ومن ثم خفوت تحقيق الوعد بالأمن ظاهريًا، توقع الكثيرون أن تتدهور شعبية شارون. ولكن ما حدث هو العكس تمامًا.

ولعل تفسير ذلك التناقض يقتضينا أن نسترجع ظروف اشتعال الانتفاضة الفلسطينية الراهنة: لقد بدأت الانتفاضة كردة فعل لزيارة شارون للمسجد الأقصى رغم ما تلقاه من تحذيرات بأن هذه الزيارة سوف تفجر الشارع الفلسطيني. ولعله لم يكن في حاجة أصلاً لمثل تلك التحذيرات، فقدر بسيط من الحنكة كفيل بالتنبؤ بما حدث بالفعل في أعقاب الزيارة، ومن ثم فليس من المعقول أن يكون شارون قد أخفق في قراءة ما سوف يترتب على خطوته تلك. ترى لماذا أقدم عليها إذن؟ ترى هل نبالغ إذا قلنا أنه كان يستهدف بالفعل إشعال الشارع الفلسطيني. ولكن لماذا؟ وكيف يتفق ذلك مع جوهر الوعد الشاروني للشارع الإسرائيلي عشية الانتخابات الأخيرة؟ وهو ما ردده ويردده دومًا من أن هدفه الأساسي بل والوحيد هو القضاء على ذلك «العنف» الذي يهدد إسرائيل. ومن ناحية أخرى ترى لماذا لم تنخفض شعبيته إذن بمقدار إخفاقه حتى الآن في القضاء على «العنف»؟

ألا يدفعنا ذلك إلى مراجعة حقيقة جوهر ذلك «الوعد الشاروني»؟ إن الجوهر الحقيقي لذلك الوعد فيما نرى هو نفس جوهر الوعد الباراكي القديم الذي أخفق باراك في تحقيقه وهو الوعد بالوحدة القومية. وفيما يبدو فقد استوعب شارون أسباب إخفاق باراك في تحقيق تلك الوحدة، مدركًا أن ذلك الهدف المنشود يتناقض تناقضًا جوهريًا مع التفاوض من أجل السلام. بمعنى أن تحقيق الوحدة القومية ليهود إسرائيل وفقًا للتصور الاستيطاني التوسعي، لا يمكن أن يتفق مع رفع شعارات سلام إسرائيلي فلسطيني أيا كان جوهر تلك الشعارات، إنها تتعارض مع مبدأ التفاوض الإسرائيلي الفلسطيني، الذي يعني كحد أدنى التسليم أصلاً بوجود طرف فلسطيني، بل مع مبدأ التفاوض الإسرائيلي العربي على الإطلاق. ولذلك فقد استهل شارون مواجهته للانتفاضة التي تعمد إشعالها بأن يعلن انتهاء اتفاقات أوسلو وما تلاها وترتب عليها، وأنه «لم يعد ثمة شريك فلسطيني للتفاوض معه». لقد أدرك الجنرال شارون بحكم خبراته العنيفة السابقة أن أداة التوحيد القومي التي أثبت تاريخ دولة إسرائيل فعاليتها هي «افتقاد الأمن».

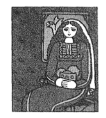


لقد قامت إسرائيل منذ البداية كتجمع استيطاني عسكري يضم أبناء قوميات عديدة يتباينون في أصولهم الحضارية، ولم يكن ثمة ما يمكن أن يوحدهم تمهيدًا لصهرهم سوى زرع الإحساس بالخطر في أعماقهم بحيث يستشعرون دومًا بأن العالم المحيط بهم - أي العالم العربي - يهددهم بالفناء، مع تأكيد مواز للقدرة العسكرية الإسرائيلية على التصدي لذلك التهديد. وكانت تلك هي المهمة الأساسية التي مارسها باقتدار قادة ومؤسسو إسرائيل، مهمة ترويع يهود إسرائيل لكي يتوحدوا، وتأكيد قدرة الدولة على حمايتهم. وكان أبرز هؤلاء القادة وأقدرهم على تحقيق الهدف هو شارون صاحب أشهر المذابح، وعدو أية اتفاقيات مع العرب من حيث المبدأ.

إن رعب شارون الحقيقي إنما هو من استعادة مشهد تحول إسرائيل إلى مجتمع طبيعي تحكمه تناقضاته الداخلية. وقد كانت نذر ذلك التحول قد بدأت بالفعل في ظل السلام متمثلة في تأييد قطاعات متزايدة من الشارع اليهودي في إسرائيل للسلام، إذ ترى فيه المناخ المناسب لحصولها على مزيد من المكاسب الاقتصادية والاجتماعية. وبالفعل فقد ارتفعت أصوات جماعات السلام في إسرائيل، والأهم من ذلك أن معالم الخريطة الفئوية داخل يهود إسرائيل بدأت في البروز والتبلور. ولعل الأمر يزداد وضوحًا لو استعدنا كلمات باراك في حملة الانتخابات التي فاز فيها على نتانياهو إذ يشير إلى أنه «منذ انتخاب نتانياهو لرئاسة الوزراء انفتحت بوابات جحيم الكراهية والتصادم: السكان القدامى في مواجهة المهاجرين القادمين، واليمين في مواجهة اليسار، والاشكنازيم في مواجهة السفارديم.. لقد افتقدنا التسامح فيما بيننا.. ومسئولية ذلك كله تقع على عاتق نتانياهو». وفي حقيقة الأمر فإن نتانياهو لم يكن بحال هو مصدر ذلك التفكك الذي يشير إليه باراك، بل إنه تآكل التهديد العربي. وفشل نتانياهو في استعادته. وهو بالتحديد ما يسعى شارون لاستعادته من خلال مذابحه المروعة.

لقد كان هدف شارون الحقيقي ومازال يتمثل في استعادة ذلك الحد من التهديد الذي تآكل منذ مسيرة السلام. ولم يكن أمامه لتحقيق ذلك سوى البدء بإشعال الأرض الفلسطينية، لتكون مجرد بداية ولعل الأمر يتطور بعدها لتمتد نيران التهديد إلى المنطقة بأسرها.

ترى هل يستطيع الاستمرار؟ وإلى متى؟ ■



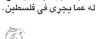

أنا أكذب
أنا أكره
أنا أقتل

إذن أنا شارون



يوسف القعيد

حتى لو لم يرتكب شارون سوى مجازر الأيام الأخيرة منذ اقتحامه المسجد الأقصى منذ تسعة عشر شهراً وحتى الآن - أبريل ٢٠٠٢ - لأصبح من أكبر السفاحين في التاريخ. انتهك حرمة الأقصى، وضرب كنيسة المهد بالطائرات، وهدم المساجد، ترك الجرحى في الشوارع حتى وفاتهم. وضع جثث شهداء فلسطين على مدافع الدبابات التي دارت بهم في شوارع قراهم. لم يستثن من حظر التجول المرضى والحوامل. ولدت النساء على نقاط التفتيش ومات المرضى على المعابر. مثّل بالأجنة. ما إن احتل جنوده رام الله حتى أوقفوا البث الفلسطيني من تليفزيون فلسطين ووضعوا بدلاً منه مواد جنسية فاضحة. ولأن حظر التجول يشمل الأربع والعشرين ساعة فلن يكون أمام المحاصرين سوى مشاهدة التليفزيون. ضخ مياهاً ملوثة لمقر عرفات مما دفع مرافقي عرفات إلى طلب زجاجات مياه من الصليب الأحمر الدولي. فلم يسمح سوى بعشرين زجاجة في اليوم لكل المحاصرين. ولكل فرد حبة بطاطا واحدة في اليوم بليلة. في جنين أعلن جنوده وقف إطلاق النار ولمن يريد الحصول على ماء أو غذاء الخروج. وما إن خرجت النساء حتى استخدمهن كدروع بشرية فوق مقدمات الدبابات وبهذه الدناءة تمكن من اقتحام المخيم. وفي نابلس القديمة سمح جيشه لسيارات الإسعاف بالدخول لنقل الجرحى وما إن دخلت حتى استخدمت كسواتر للضرب من ورائها. كثير من التفاصيل الصغيرة التي تؤكد وحشية هذا الإنسان وتجرده من أبسط المشاعر الإنسانية. لدرجة أن الروائي جارثيا ماركيز طالب له بجائزة نوبل في القتل في مقال شهير له عما يجري في فلسطين.



صدرت عن شارون في المكتبة العربية ستة كتب. أولها وأقدمها: شارون هذا الرجل وحياته مترجم عن العبرية مباشرة وهو عبارة عن مجموعة مقالات عنه. قدم لها الدكتور محجوب عمر. وصدر سنة ١٩٨٤ عن مؤسسة الأبحاث العربية «بيروت»، وثانيها: هو مذكرات أريبل شارون. وثالثها: هو شارون مصاص

مذكرات أريبل شارون، ٧٦٦ صفحة
وضعها بالعبرية: دافيد شانوف
ترجمها إلى الفرنسية: غبريال روث
وترجمها إلى العربية: أنطوان عبيد
بيروت: مكتبة بيسان، ١٩٩٢

الدماء لمازن النقيب. ورابعها: هو مدافع شارون لمدحت الزاهد. وكتاب شارون مجرم مذبحة الأسرى المصريين، كيف يكون مفاوضًا في السلام لجابر عبدالسلام. وكتاب شارون ابن هيرودوس وتحديد نهاية العالم باليوم والساعة من إعداد إبراهيم عياد جرجس. وذلك علاوة على مذكراته. فضلاً عن فصول عنه في مذكرات زملائه ومن شاركوا في معارك الصراع العربي الإسرائيلي. هذه محاولة لرسم صورة له من بعيد. تنطلق من المبدأ القديم: اعرف عدوك. في زمنه عرفت البشرية - ربما لأول مرة - موتى لا يدفنون. جرحى لا يعالجون. حريقًا في كنيسة لا يجد من يطفئه. قتلى على الحواجز. وهو تقريباً ما فعلت أمريكا مثله في أفغانستان منذ شهور. وإن كان شارون قد تفوق على أمريكا. إن الرجل يخوض منذ ٧٤ عاماً في دماء الضحايا. يسبح في ٧٤ بحراً من الدماء. يعترف أنه لم يعرف نفسه ولا أهله ولا وطنه ولكنه ركز معرفته بالعدو. وحتى هذه المعرفة لم يحرز فيها أي تقدم. لأنه يقول أنه طالما أن هناك فلسطينيّاً واحدًا على أرض إسرائيل لن يكون هناك أمان ليهودي واحد.

يقول عن طفولته: لم أعرف المودة في ظل عائلتي. أبي صمويل وأمي فيرا لم يفصحا عن عواطفهما أبداً وميزة أمه في نظره أنها امرأة تفعل ما يتوجب عليها دون أن تطرح أسئلة كثيرة أو حتى تشكو. والصورة التي تبقى في ذهنه عن أسرته، تتلخص في أربع كلمات: القوة، العزم، العناد، العزلة. الكلمة الوحيدة التي كان والده يكثر من استخدامها: فردي. لم يكن يخفي عداءه للآخرين. جده لأبيه كان صديقاً لوالد مناحيم بيجين ومن الأعمال التي قاما بها معاً. أنهما خلعا باب المجمع الديني الحديد لأن الحاخام رفض إعطاءهما الإذن لتنظيم حفلة دينية. في ذكرى تيودور هرتزل.

يقول شارون إن جده هاجر إلى إسرائيل سنة ١٩١٠، إنه يطلق على فلسطين اسم إسرائيل قبل اغتصابها واحتلالها بـ ٣٧ سنة. كما أنه لا يقول سوى يهودا والسامرة ولا يذكر سوى أورشليم. إن كل مفردات فلسطين لا تعرف طريقها إليه. يهرب والده وأمه من روسيا إلى فلسطين سنة ١٩١٧. وسمى والده الرحلة: عودة إلى البلاد. ينحدر من عائلة برجماتية. ذرائعية لا مكان للخيال فيها. عائلة عاجزة عن القدرة على الحلم. ترفض الاعتراف بكل ما لا تعترف به الحواس الخمس. ينتمي لعائلة كان اسمها تشيرمان قبل أن تغير اسمها إلى شارون قبل هجرتها إلى فلسطين.



أول هدية قدمتها له أمه بعد ميلاده سنة ١٩٢٨ بخمس سنوات كانت بندقية، وأول هدية قدمها له والده كانت خنجراً. ولذلك كانت أول هدية من شارون لابنه بندقية قتل الطفل بها نفسه. وأول لعبة كان شارون يلعبها في طفولته إدخال القط على الفئران التي كانت تتقافز في بيتهم. والتمتع بمشاهدة المعركة غير المتكافئة. القط يلتهم الفئران المذعورة. كان يتساءل لمن ستكون الغلبة في المعركة؟ رغم أنه كان يدرك أن القط هو الذي سيكتب له البقاء وأنه لن يبقى من الفئران سوى أذنابها.

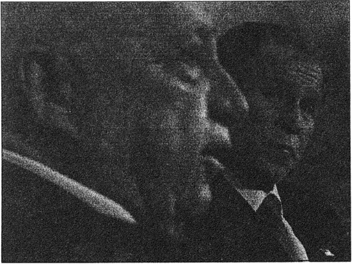
كان يشاهد أمه وبيدها مقص ضخم كانت تستخدمه في قص السور الذي يحد الأرض بينهم وبين جيرانهم. عندما كان شارون في القاهرة يتفاوض مع المصريين. اتصل بوالدته. ولأنها تعرف أن المكالمات مراقبة. قالت له بالروسية: لا تصدقهم. لا تثق بهم. لا تضع ثقتك في قطعة من الورق يوقعون لك عليها. وخاله الذي كان يعيش في تركيا. زور في أوراقه وغير اسمه حتى يتمكن من الهجرة إلى أمريكا.

فشل في تعليمه. حاول أن يتعلم الزراعة وفشل، وحاول تعلم التجارة وفشل، وحاول تعلم الإدارة وفشل، وأخيراً وفي سنة ١٩٦٦ عندما كان في الثامنة والثلاثين من العمر حصل على إجازة الحقوق. وعندما كان ابنه غور في الحضانة. أخذه في زيارة لوحدته العسكرية، يفرض على أبنائه في البيت أن يؤدوا له التحية العسكرية عند الدخول عليه أو الانصراف من عنده. لم يحسن في حياته سوى صناعة الحرب. ولم يمارس سوى القتل. وإن كان يفعل هذا من خلال الجنود الذين يكتفي بإصدار الأوامر لهم. يقف في المؤخرة دائماً. لأن أعماقه ترتجف من الخوف. وحتى كضابط فإنه يفقد أهم شروط العسكرية. غير منضبط لا ينفذ تعليمات رؤسائه. يلغيهم. وعندما يستدعى لتأنيبه يأخذ معه عدداً من الضباط الأقل رتبة منه. مرءوسيه. يحتمي بوجودهم. يضع بهذه الحيلة حداً للتأنيب والشتائم التي يمكن أن توجه له.



إنسان غير سياسي. لا يملك خطة ولا تصوراً من أجل المستقبل لا تخيفه سوى كلمتي الأفق السياسي. تبدأ مشاكله عندما يتكلم أحد أمامه عن الأفق السياسي. تتوقف عملية الفهم لديه. لا يستطيع استقبال ما يقال له. أما فهمه فتلك مسألة أكثر من مستحيلة. تقول عنه صحافة بلده: لا يجيد سوى حرق الطبخات. وتصفه بأنه يفكر ولكن بمسدسه. والناس تطلق عليه في الشارع مستر سيكيورتي وذلك للتدليل على إحساسه المتضخم بفكرة الأمن. تصفه يديعوت أحرونوت في ٢٠٠٢/٣/٨: إنسان مبتز. الخوف الداخلي المترسب في أعماقه يجعله أقرب إلى الإنسان المجنون بالمعنى المرضي للجنون.

سجله الإرهابي طويل. في الرابعة عشرة انضم إلى منظمة الهاجاناه السرية التي مارست القتل والإرهاب ضد الفلسطينيين. في ١٩٥٣ وهو في الخامسة والعشرين. أسس وحدة كوماندوز تسمى الوحدة ١٠١. وهو



شارون.. وبوش

المسئول عن مجزرة قبية. راح ضحيتها ٦٩ مدنياً فلسطينياً. هو المسئول عن قتل الأسرى المصريين فى حرب ٦٧. اغتال أبو جهاد فى تونس. شارك فى الهجوم على القيادة العسكرية فى تونس. قام بالعديد من العمليات القذرة خارج إسرائيل وداخلها لم يحن أوان الكشف عنها فى إسرائيل. شارك فى حرب يوم الغفران. ضمن كتيبة احتياط. ومع هذا طرد من الخدمة العسكرية. ثم عاد إلى الجيش أكثر من مرة. بعد زواجه ظل مهدداً لسنوات طويلة بانه لن ينجب. بسبب رصاصة أصابت خصيتيه فى أول حياته. وعندما كانت أمه وأبوه يمران بحالة حسن المزاج فى الفراش. كان يتظاهر بالنوم حتى يرى ما لا يجب أن يراه.

الأسرة التى خرج منها:

كان والده عاجزاً عن قبول التسويات والحلول الوسط. فى تعامله مع الآخرين لم يكن يعرف سوى المماحكات. كان يعارض الآخرين. وحتى إن خسر كان يرفض الخضوع للقرارات التى تتبناها الأكثرية. عندما مات أبوه لم يكن يريد أن يرثيه أحد من سكان الموشاف. وتشاء الصدف الغريبة أن تكون قطعة الأرض المجاورة لقبر والده مخصصة لمن كان خصمه الكبير طوال سنوات عديدة. أمه لاحظت ذلك. فامرت بوقف الدفن. أوقفت إنزال الخشبة إلى التربة وطلبت من حفارى القبور أن يحفروا قبراً فى مكان أبعد. ثم دفنت أمه بين أبيه وخصمه. يكمل شارون: وهكذا ترقد أمى بين الخصمين. قضى شارون طفولة معزولة وحيدة. لم يدخل منزل أى طفل فى سنه. والألعاب كانت تتوقف عند باب بيته.

وهو شخص كسول بطبعه. لديه نهم للطعام. عندما يتناول طعامه فإنه يتناوله باقصى سرعة ممكنة. يلتهم طعامه دون تذوق. أو حتى مضغ. يمارس عملية بلع شديدة السرعة. كأنه فى حالة سباق. وليس تناول طعام. وكان يسرق لنفسه من وراء والده قرون الخروب التى كان يضيفها والده إلى علف البهائم. متعصب ضد العرب منذ سنواته الأولى. يتكلم عن غزو عربى لإسرائيل سنة ١٩٢٩. كان عمره سنة واحدة. إنها نفس قدرته على قلب الحقائق. التى تطورت معه إلى حالة من احتراف الكذب. بل إنه ابتداء من سن الخامسة من عمره. يصف العربى بالإرهابى. ولهذا كان والده وكانت أمه.. مسلحين بمسدسين طوال الوقت. وفى سن الخامسة قدمت له أمه أول هدية فى حياته. كانت بندقية. أما والده فكانت هديته خنجرًا مزين القبضة يشكه تحت حزامه. يصف ثورة ١٩٣٦ بالتمرد وأعمال التخريب. كان يرى أن حياة اليهود أصبحت خطرة بسبب العنف العربى المنظم. وعندما يكبر يكتشف أن العداوة ليست حكراً على اليهود ضد العرب. بل هى تتحكم باليهود بعضهم مع بعض. عندما بدأ القراءة كان يقرأ عن العنف. طوال دراسته كان طالباً متوسطًا أو أقل من المتوسط. لم يرتفع إلى مستوى فوق المتوسط أبداً. أخته كانت أفضل منه وكانت تهمته هى: الكسل. وهكذا قرر والده أن يبقى للعمل فى المزرعة.



عندما وصل إلى تل أبيب لأول مرة وهو فى الثالثة عشرة من عمره. تصور أنها قطعة من خيرات السماء وذلك بسبب روائح الطعام الخارجة من مطاعمها. رائحة الخبز الطازج وفطائر السبانخ الخارجة من الأفران. ودخان الكباب الخارج من المطاعم. كان يتوقف أمام كشك المثلجات فى تل أبيب ويبتلع زجاجات كثيرة من الليمونادة المثلجة. التى أصبحت شرابه المفضل فيما بعد. انتظم فى ليسيه تل أبيب. وكان ينظر من نافذتها إلى فندق مقابل. تقصده بنات هوى تل أبيب والجنود الإنجليز من طالبى اللذة. عندما بلغ الرابعة عشرة انتظم فى منظمة الهاجاناه السرية، وضع يداً على التوراة والأخرى على المسدس واقسم يمين الولاء. وبدأ التعليم على أسلحة أخرى: بندقية آلى. القنبلة اليدوية. والرشاش. المسدس. السكين. مع التدريب على العراك الجسدى.

كانت العملية الأولى التى كلف بها. هى سرقة سيارة من شاب عربى. سرقها بالإكراه. ولكن صاحب السيارة نجح فى الهروب ومعه مفاتيح السيارة. يرى أن دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ كان «مذبحة مغولية جديدة» وكانت مهمته الأولى فى هذه الحرب هى نسف الجسر المؤدى إلى قلقيلية. فى حرب ٤٨ تلقى رصاصة فى بطنه فصاح «ماما». وتطلع حوله ليرى إن كان أحد قد سمع صرخته. ذلك أنه كان قائد الفصيلة. وقال لرفاقه وهو يتصنع الشجاعة: ساخرجكم من هذه الورطة. وكانت إصابته فى ٤٨ فى خصيتيه كما يحدد هو نفسه بخط يده.

بعد انتهاء علاجه شارك فى حصار الفالوجا. ويكتب اسم قائد الأربعة آلاف جندى مصرى المحاصرين وهو سعيد طه بك. وتتخصص وحدة شارون فى الهجوم على عراق المنشية ولم يكن يعلم أن الضابط الذى رفض الانسحاب والاستسلام وقرر أن يقاوم حتى آخر نفس لأنه يدافع عن شرف الجيش المصرى. كان جمال عبد الناصر. ويعترف شارون أن قتلاه كانوا ثمانية وتسعين. عندما قبلت الدول العربية وقف إطلاق النار كان شارون قد أمضى ثمانية عشر شهراً فى القتال وراء خطوط العدو فى كل الجبهات ويعترف: «وساهمت فى معارك دامية ومعارك جريئة». وكان شعوره كما يصفه: لم أستطع تحرير نفسى من الشعور بأن هذه العمليات كان يمكن التخطيط لها والقيام بها على نحو أفضل. وبالتالى كان يمكن تغيير مسارها إلى الأفضل.

وهكذا نكتشف أن شارون الذى وصل إلى العشرين لم يشارك سوى فى حروب. ولم يعرف غير القتال. وأن كلمة السياسة لم ترد فى ذهنه. والثقافة لم تداعب خياله. والأنانية هى التى ملأت ذهنه. عمل ضابطاً. ثم ضابط استخبارات وكان من القادة الذين تعامل معهم موشيه ديان. الذى نادراً ما كان يكلم أحدًا ولا يلقى السلام على أحد. كان إنساناً وحيداً. ولذلك يعجب به شارون بدون حدود. يصفه بكلمتين: ثعلب الحكاية. كانوا يسمون المناطق بأسماء حيوانات. الثعلب كان رمز منطقة الجنوب العسكرية. والأسد رمز منطقة الوسط العسكرية. وبعد أن يوجه له لوم بسبب التقصير فى عمله يقرر ترك الاستخبارات.

يصاب بمرض الحمى. ويعالج ويتقرر سفره خارج البلاد لأول مرة. وهكذا اشترى أول جاكيت وأول حذاءين واطئين. لم يكن ينتعل سوى أحذية الفلاحين. ورغم هذا فإن عمه عندما أخذه من مطار أورلى إلى المنزل. كان أول ما فعله أن رمى ملابسه واستبدلها ببدلة فاخرة. وأخذه إلى الترزى، الذى صنع له بدلة. ومن باريس إلى لندن ومنها إلى نيويورك. حاولت عمته استخراج رخصة قيادة له. حتى يتفسح على راحته. فشل فى امتحانات القيادة الخطية بالإنجليزية. ولكن العمة عندما شرحت للفاحص أنه قائد سرية فى الجيش الإسرائيلى. أصابت وتراً حساساً فى نفسه. فمنحه الرخصة متجاوزاً عن «سقوطه» فى الامتحان. وينبهر بأمريكا أكثر من باريس. يعود إلى بلاده التى أصبح اسمها دولياً إسرائيل. يعين رئيس استخبارات منطقة الشمال العسكرية. وعين ديان قائداً للمنطقة نفسها. ورغم إعجابه السابق بديان إلا أنه يصف علاقته به «بالمعقدة» وأنه كانت هناك حالة من الريبة بينهما. ويدخل جنديان إسرائيليان إلى الأراضى الأردنية فيتم القبض عليهما. ولا يكون لدى شارون سوى حل واحد. خطف رهائن أردنيين حتى تتم إعادة الجنديين ويتجاوز دوره كرجل استخبارات. بل ويتحرك دون أمر خطى أو شفهى له بذلك من ديان حسب الأصول. ألغى رئيسه وتصرف بفوضوية. ونفذ ما طرأ على ذهنه. فكيف يتصرف الآن وهو على قمة السلطة فى تل أبيب؟ ويصل إلى جسر نهر الأردن. يجد ثلاثة من الجنود الأردنيين. يقول لهم بالعربية أنه يبحث عن بقرة سرقت من الكيبوتز. كان الأردنيون الثلاثة عبارة عن رقيب واثنين من العساكر. طلب شارون



أنا أكـــــذب
أنا أكـــــره
أنا أقـــــتل

من الرقيب أن يرسل من يبحث عن البقرة. فأرسل اثنين وبقي اثنان. وبحركة غدر جردهما من سلاحهما وأخذهما كرهائن. يعترف أنه لم يشعر بندم لأنه استغل طيبة وثقة الرقيب الأردني وتعامل معه بنذالة. رقي شارون بعدها وأصبح على رأس وحدة من صفوف الجيش أعدت لمكافحة الإرهابيين.



في خريف ١٩٥٢ كان عمره أربعاً وعشرين سنة. منها خمس سنوات خدمة في الجيش. أمه كانت تلح عليه أن يكمل تعليمه. كان قد سجل نفسه سنة ١٩٤٧ في كلية الزراعة. ولكنه انصرف عنها. ثم عاد بعد خمس سنوات وسجل نفسه من جديد لدراسة الإدارة. ثم سجل نفسه لدراسة الحقوق وأخيراً لدراسة تاريخ الشرق الأوسط في الجامعة العبرية. وبعد أن عاش طفولة وحيدة منعزلة في المزرعة. وتعلم الكراهية في سنوات الجيش. فإنه يقابل الفتاة التي تلفت نظره «غالي» يصفها بأنها ذات شخصية باردة التفكير ميالة إلى التحليل وفي ٢٩ مارس ١٩٥٣ تزوجها. عقد قرانهما حاخام عسكري وأرسلا برقيات إلى والديه اللذين كانا يبعدان عنه مسافة ساعة بالسيارة. وإلى عمته سانا في أمريكا وإلى أهل غالي في حيفا.

يقطع دراسته من جديد. لأنه يكلف بخطف فلسطيني هو مصطفى صموئيل الذي يعيش في قرية النبي صموئيل وقتله. كان يسكن في بيت ملاصق لمسجد. ورمى شارون الديناميت عليه ولكنه لم ينفجر. ثم ألقى قنبلتين ولم تنفجرا. فشل في مهمته. وكتب تقريراً يقول إن مثل هذه العملية لا يجب إسنادها إلى الهواة. وإلا ماذا يفعل المحترفون. وطلب إنشاء وحدة خاصة من خيرة أبناء الجيش لمثل هذا النوع من المهمات. وعندما استجاب بن جوريون لتقريره عينه على رأس هذه الوحدة. وهكذا أنشئت وحدة الكوماندوز ١٠١ مكونة من خمسة وأربعين عنصراً. وكان الهدف الوحيد هو تصفية عصابات الإرهابيين. وأول درس كان عن العراك بالسلاح الأبيض. والعرك بالأيدي وذلك للرد على الرعب العربي. يقول أن ما علمه لجنوده كان الفظاظة والوقاحة فهل هناك مفردات عصابات أكثر من هذا؟ في المهمة الأولى كان شارون وجنوده يحملون ستمائة كيلو جرام من المتفجرات. بواقع عشرة كيلو جرامات يحملها كل رجل. في الطريق إلى قرية قبيه قتل شارون عشرة من الجنود العرب يصفهم بالميليشيات. ويقتل جنديين في سيارة جيب. هرب أهل القرية فدمر بيوتها بالديناميت. استغرق التدمير ساعات. وكانت النتيجة التي قدمها شارون عن المهمة. نسف اثنين وأربعين بيتاً. قتل تسعة وستين شخصاً من المدنيين.

ولكنه عندما عين قائداً للمظليين تم دمج الوحدة ١٠١ مع المظليين. كل من زاملوه وكتبوا عنه يقولون أنه لم يكن في مقدمة جنوده في أي موقعة، كان يفضل أن يكون في آخر الجنود. وعندما سئل عن السبب في ذلك. قال حتى لا يترك أي جريح أو قتيل ويضمن أن يأخذه معه. كانت بطولته هي البقاء في المؤخرة. وكان من عاداته أن يطلب من كل جندي أن يتجسس على الآخرين ويبلغه بما يعرفه. ومن يعرف أي شيء كان يمكنه طرق باب بيت شارون حتى لو كان الوقت ما بعد منتصف الليل. لم تعرف حياته كلمة أخلاق أبداً. وعندما يقابل جنوداً عراقيين يتجمد الدم في عروقه من الخوف يصبح مشلولاً. عاجزاً عن تحريك أي عضلة في جسمه. استولى عليه الذعر من رؤية العدو. فوضى فكرية انتابته. تجمد الذراعان والقدمان والعقل. تعوزه اليقظة. يصبح على آخر رمق.

في ٢٨ فبراير ١٩٥٥ يهاجم شارون مقر قيادة الجيش المصري في قطاع غزة. ولأن المصريين كبدوه خسائر فادحة. قال له ديان: «القتلى قتلى والأحياء أحياء» معبراً عن غضبه إزاء فشل شارون في عملية غزة. ورغم فشله فلم يكن يضايق ديان منه سوى عدوانيته. عندما يخطئ قائد كتيبة تابعة له. فإن شارون يصفعه بيده على وجهه. يلجأ الضابط إلى القضاء العسكري. وينتحر برصاصة من سلاحه. ولكن القضية تظل منظورة. وفي المحاكمة يتضح أن شارون يتعاطى المخدرات أثناء وجوده في وحدته. مع أنه صفع زميله الضابط لمجرد أن صديقته كانت معه في سيارته عند قيامه بإحدى المهمات. وعندما يصل جنديان من الشرطة العسكرية لتفتيش مكتب شارون. حول موضوع الصفعة. يوسط أحد زملائه حتى يكلم ديان. وهكذا تتآجل القضية. وتتوه ولا تنظر ولا يبقى لها أي وجود.



يتقرر عزل شارون من منصبه. ويعين حاييم بارليف مكانه. فيقدم شارون استقالته احتجاجاً على ذلك. ولكن ديان قال له إن بارليف مؤقت وإنه هو الذي سيبقى. فعدل عن الاستقالة. ثم يعزله ديان بعد ذلك. ويبلغه بقرار ديان قبل إعلانه جندي يعمل في مكتبه مكلف بالتجسس عليه لصالح شارون. ويذهب شارون إلى بن جوريون والدموع في عينيه. ويستجيب بن جوريون ويبقيه في موقعه. يسيطر على بن جوريون من خلال سكرتيره نحميا أرغوب. عندما ينتحر نحميا لا يأسف سوى على أن بن جوريون بتأثير سكرتيره كان سيعين شارون رئيساً لأركان الجيش الإسرائيلي. لا يأسف عليه إلا لأنه حليف ممتاز لشارون في الصراعات التي يواجهها في الجيش. الناس بالنسبة له مجرد أدوات تحقق أهدافه وقطع غيار بشرية. يستخدمها حسبما يريد.

عند الاستعداد للعدوان الثلاثي على مصر واستدعائه لمقابلة بن جوريون. يفرح. تصل سعادته إلى ذروتها. يكتب. كنت أشعر أن نفحات التاريخ تمر بجانبي. وعلى الرغم من التحالف الإسرائيلي الفرنسي البريطاني في هذه الحرب. فهو يصفهما بقوله: امبراطوريتان آفلتان. وغداً ستتورطان في مسألة شديدة التعقيد وجسيمة النتائج للعالم أجمع. يقول: أطلال دولتين. فأي أخلاق هذه؟ يقول: لم نكن نثق ببريطانيا وفرنسا. كنا أقل ثقة بهم. لم يكن هناك يهودي مستعد أن يغفر لهما موقفهما من اليهود خلال الحرب العالمية الثانية. يصفهما ديان: أنهما «يريدان غسل أيديهما في مياه نظيفة».

في طريقهم إلى سيناء قبل عدوان ٥٦ كانوا يسرقون طعامهم من مزارع المصريين الذين في سيناء. يصف هجومهم بأنه اقتصاص من مصر وليس سرقة. كان يقود ألفا ومائتي رجل ومعهم بعض مدافع الميدان وثلاث دبابات صغيرة. كانت التعليمات لديه ألا يتقدم أبعد من الممر الشرقي لممر متلا في سيناء. ولكنه تقدم. ويقتل المصريون سائق الدبابة الأولى. ثم أصيبت الدبابة الثانية. قتلى المعركة كانوا ثمانية وثلاثين. ومائة جريح. يصبح الناس ضده.

فيتحصن بالكذب. يقول أن قتلى المصريين أكثر من ثلاثمائة. وتشكل لجنة لمحاكمته بعد انتهاء الحرب التي يسميها حملة سيناء. يلعب على التناقض بين ديان وبن جوريون. وتهدأ القضية ولكن من الصعب نسيان الأمر. ضابط غير منضبط. يتصرف من تلقاء نفسه وكأن وحدته هي مزرعته يتصرف فيها كيف يشاء. دون الرجوع لأحد. وتأتيه برقية أن زوجته أنجبت ولداً ويكتب بالحرف الواحد: أعجوبة. وعندما يذهب إلى المستشفى يكتب: هذا الصبي هو ابني. ومات أبوه بعد ثلاثة أسابيع. ويكتشف أرييل بعد وفاة والده أنه لم يحاول أن يعرفه أبداً. كان الابن مشغولاً عن الأب بطموحه المدمر وطاووسيته التي يحاول إخفاء فراغه الداخلي بها. عندما كان ينام فإنه لم يكن يحلم. كانت هناك كوابيس عبارة عن معارك وحروب مستمرة بلا نهاية والأعداء فيها والقتلى من العرب. وفي المقدمة منهم المصريون والفلسطينيون والسوريون والعراقيون واللبنانيون.



يكتب بخيلاء وغرور: «كنت في عمر يقتنع فيه المرء أنه قادر على كل شيء وأنه خالد. وأنه قادر على غزو العالم». يحتفل الصهاينة بالانتصار في حملة سيناء. تحضر الممثلة أورنا بوارت تقدم مشهداً من إحدى مسرحياتها. يعجب بها بن جوريون. وبدلاً من أن يرى شارون في هذا الإعجاب معنى إنسانياً. يكتب أن بن جوريون كان ينظر إلى الممثلين في شهوة. ويقول إننا جميعاً كنا نعرف علاقته السرية بها. ولأن شارون إنسان لا يعرف ما يريد فهو بعد أن يكتب عن علاقة بن جوريون بالممثلة ويتكلم عن الشهوة. يعود ويقول أن أسرار الحياة كانت مصانة في جيلهم.

الجيش الذي عمل فيه

يذهب إلى بريطانيا للتدريب في معهد عسكري. ويقابل الملكة إليزابيث. ويرتكب حماقة. فيها خروج على البروتوكول. تسأله الملكة: كيف حالك؟ وبدلاً من أن يقول لها: شكراً سيدتي. سألها بدوره: كيف حالك سيدتي؟ فأثار استغراب واستنكار كل الضباط الحاضرين. في مايو ١٩٦٢ تموت زوجته في حادث سير. كل ما يعنيه كان كيف يبلغ ابنه وهو في الخامسة من عمره خبر فقد أمه. تلك كانت مشكلته الوحيدة. ثم يتزوج من أختها ليلي لمجرد أن ابنه ارتبط بها وأنها نجحت في أن تنسيه أمه. وفي نهاية ١٩٦٣ يعين إسحق رابين رئيساً لأركان الجيش. يطلب منه بن جوريون حل مشكلة شارون الذي يرفض الجميع التعامل معه. فيعين في المنطقة الشمالية العسكرية. ولا يسلمه قائد المنطقة العمل إلا بعد أن يفهمه أنه لن يتولى قيادة المنطقة بدلاً منه أبداً. يسافر إلى أفريقيا. كانت

أول لعبة كان شارون يلعبها في طفولته إدخال القط على الفئران التي كانت تتقافز في بيتهم. والتمتع بمشاهدة المعركة غير المتكافئة. القط يلتهم الفئران المذعورة. كان يتساءل: لمن ستكون الغلبة في المعركة؟ رغم أنه كان يدرك أن القط هو الذي سيكتب له البقاء وأنه لن يبقى من الفئران سوى أذنابها

أنا أكـــــذب
أنا أكـــــره
أنا أقـــــتل

هناك سياسة «الاستراتيجية الدائرية» وهي إقامة علاقات مع كل الدول التي تحيط بالدائرة العربية. يصل إلى مصوع في الحبشة أولاً. ومنها إلى عنتيبي في أوغندا. يعود إلى إسرائيل. ينتظر ترقية في عمله. يبقى في منزله ثلاثة شهور ونصف. يوشك أن يصل إلى حافة الجنون. من أين له بالصبر؟ كان الانتظار يخرجه عن شعوره. وقبل أن يبلغه رابين بالترقية. يعدد له عيوبه وأخطاءه الكثيرة. والترقية هي إلى رتبة عميد. ورئيس فرع التدريب في قيادة الأركان. علاوة على قيادة فرقة عسكرية احتياطية.

في ١٩ مايو ١٩٦٧، كان شارون منهاراً. يكتب شارون: لم نكن قادرين على مواجهة جيش مصر مرة واحدة. القيادة ترى أنه يجب محاربة جيش مصر على مراحل. هكذا اعتقد الجميع. والمرحلة الأولى تبدأ بقطاع غزة أولاً. شارون رفض فكرة حرب المراحل. قال له ليفي أشكول: كلامك غير مسئول. لا يرد على أشكول في مواجهته. يكتب عنه في مذكراته: رجل يفتقد الثقة بنفسه وتأكله الحيرة. كان محبطاً. وأعزل وضائعاً. يبحث عمن يستند إليه. إن الرجل الذي تنسب إليه كل هذه الصفات كان رئيس وزراء إسرائيل. ولأن شارون كذاب بطبعه يقول عن حرب ٦٧: كانت هذه الحرب مفروضة علينا. وليس أمامنا سوى سحق الجيش المصري.



يكتب رسالة لزوجته. يقول فيها: لا خيار أمامنا سوى خوض هذه الحرب. يطلب من ضابط معه اسمه ناتكي أن يضرب المصريين. يقول له: تستطيع الإطباق عليهم بقدر ما تريد. فهم المصريون. يعود إلى سيناء بهدف تجميع آلاف المصريين التائهين في الصحراء. يلمح إلى تصفية قسم كبير من الناجين من أبناء الجيش المصري. لسبب بسيط وهو أنهم كانوا سيفعلون هذا بجنود إسرائيل لو وقعوا في أياديهم. انظر إلى الكذب. لم يرتكب الجيش المصري أي مذبحة ضد الصهاينة أبداً. يبرر هذا بقوله: من طبيعة الحرب أن يقتل الجندي عدوه.

انظر إلى قسوته وعدم إنسانيته؛ قرروا الاحتفاظ بالضباط فقط لمبادلتهم مع أسراهم لدى مصر. لم تكن هناك علامات تميز الضابط عن الجندي. اختفت العلامات. والكل غير حليق. يكتشف الصهاينة من خلال التجسس على المصريين أن الضباط يلبسون سراويل من الحرير بينما سراويل الجنود من القطن. يسخر من الفكرة لأنها ضد الديمقراطية. وهكذا أمر آلاف الأسرى بإنزال البنطلونات. من كان سرواله من الحرير يسجن ومن كان سرواله من القطن يقتل. رائحة الموت كانت تخيم على سيناء وسحابات الذباب الأسود كانت تشكل غيمة متحركة على الرمال. كانت تحتها الجثث. تنهي خدمته في الجيش. يلجأ شارون إلى ديان فيرفض مساعدته. يصف ديان: جبان ورعديد عند اتخاذ أي قرار. يذهب إلى جولدا مائير حتى تبقيه في الجيش فترفض التدخل. كان في الحادية والأربعين ولذلك يتجه إلى الميدان الذي يكرهه بدون حدود: العمل السياسي. رغم أن شعار حياته كان: كلما سمعت كلمة أفق سياسي تحسست مسدسي. يكتب: ماداموا لا يريدونني في الجيش. فسأتجه إلى ممارسة السياسة. ذهب يعرض نفسه على مناحيم بيجين. «كنت أحس عرقاً بارداً يتساقط على عنقي». ليس أمامي سوى الاندفاع إلى عالم يخرج عن سيطرتي. ثم إن نظرات بيجين لي لم تكن مريحة. يصل إلى اتفاق مع بيجين. وبعد الاتفاق: أحسست كأن انسكاباً جديداً من العرق البارد يسيل فوق عنقي. يطلب بيجين زجاجة كونياك احتفالاً بالاتفاق. يقول شارون: وهكذا أصبحت سجيناً. هل نحتاج إلى دليل أكثر من هذا على فشله السياسي؟ رجل يعتبر العسكرية قمة الحرية والعمل السياسي سجناً. لقد تورط في مأزق حرية العمل السياسي. في صباح اليوم التالي يهرب من اتفاقه. ذلك أن بارليف عندما قرأ في الصحف احتراف شارون العمل السياسي. أعاده فوراً إلى الجيش. هنا يمكن أن يكون أقل ضرراً. أعاده بدون عمل محدد. ولكن بعد أن اتضحت نذالته أمام بيجين الذي وثق به. لأنه نسف اتفاقه مع بيجين أمام عودته إلى الجيش.

خلال حرب الاستنزاف يتحرك الفلسطينيون في غزة. كان رأي ديان الإيقاع بينهم. وتركهم يتقاتلون. ولكن شارون كان يرى أن البتر النهائي هو الحل الأمثل. ويوافقه ديان على أن يبدأ العمل. لأن شارون هو الضابط الوحيد الذي لا يطلب تعليمات مكتوبة بما يطلب منه. كان شارون ينفذ حتى إن كانت أوامر ديان حركة من رأسه. كان عليه تصفية ثمانمائة «إرهابي» حسب وصفه مختبئين وسط نصف مليون فلسطيني مستخدماً القوة العسكرية وسط المدنيين. ولذلك فإن شارون عندما يعمل كان يرتجل من العدم وهذا نص ما يكتبه. وكان جوهر خطته يقوم على التخلص من مخيمات اللاجئين. وبمجرد أن ينتهي من قتل كل من وصل إليه من الفلسطينيين. طلع ديان على التليفزيون وشكره على ما قام به. وفي صباح اليوم التالي عزله من عمله. وهكذا لم يعد أمامه سوى جبهة قناة السويس ليعمل فيها. وفي نهاية ١٩٧٢ قال له دافيد اليعازر رئيس الأركان الجديد أنهم في انتظار استقالته من الجيش.



كان في الخامسة والأربعين من عمره. ولم يصبح أمامه سوى المرور بالتجربة المذلة التي يتجرعها الجنرالات المتقاعدون. يشتري مزرعة في شمال النقب. جذبه إليها وحشة المكان ورهبته وعزلته. حتى علاقته بالمكان فيها وحشية. يبحث عن المال. يذهب إلى صديق قديم. ميزته الوحيدة فرديته المطلقة. يساعده في الحصول على قرض قدره ٢٠٠ ألف دولار. ومن فرع لبنك أمريكي يحصل على ٤٠٠ ألف دولار أخرى. ونقل إلى المزرعة أربعة خيول. حصان له وآخر لزوجته والثالث والرابع لابنيه. يحاول أن يؤسس تجمعاً للمعارضة. يستأجر قاعة ويدعو الصحفيين ويفجر قنبلته. وإن كان لا يعرف سوى الخطوة الأولى فقط. إنه يقول: إن من يدخل عالم السياسة. يكتشف أنه لا يملك سوى فم ليتكلم ويد لتنتخب. مثل جاره على الطاولة. بدون أي تمييز. وهذا الجار قد يكون جاهلاً بكل شيء ومع ذلك له فم ليتكلم ويد لتنتخب. هل من المعقول أن يصبح من يفكر هكذا رئيساً لدولة؟ إلا إن كانت هذه الدولة عصابة؟

في مايو ١٩٧٢ وردت معلومات - هكذا يقول - إن المصريين يستعدون لعبور قناة السويس. ومما يؤكد كذبه أنه يقول بعد هذه العبارة مباشرة أنه انتقل إلى بئر سبع في سيناء والمعروف أن بئر سبع في النقب في فلسطين. ووضع خطة عبور مضاد من عند الإسماعيلية. وهذه كذبة كبيرة أخرى. فإسرائيل لم تعرف بخبر الحرب إلا بعد يوم ٤ أكتوبر ١٩٧٣. وكتاب التقصير يذكر هذا. شارون يكذب كما يتنفس وكما يقول من عاشروه أنه أول من يصدق أكاذيبه. يقول أنه في مايو ١٩٧٢ وضع خططاً لثلاث حالات عبور مضادة لعبور المصريين.

يروي شارون روايتين لاستدعائه للخدمة العسكرية. والروايتان متناقضتان وهما معاً تتناقضان مع الرواية السابقة. في الأولى يقول: أنه في الأول من أكتوبر جاءه اتصال من القيادة. كانوا يريدون سؤاله في معلومات سرية. والرواية الثانية تدور في الجمعة ٥ أكتوبر. وإن قال في الرواية الأولى إنه كان في مقر الليكود لحظة استدعائه. فإنه في الثانية كان في مزرعته الخاصة. وفي كلتا المرتين كان مطلوباً منه التوجه إلى القيادة العامة. حرب أكتوبر كانت سلسلة من الأخطاء الإسرائيلية وشارون يخرج نفسه منها جميعاً والمسئولون عنها هم رؤساؤه أو زملاؤه. حتى خط بارليف يقول أنه كان ضده منذ بنائه وأنه أكبر كذبة عسكرية في تاريخ إسرائيل. وحتى عندما يقول: أن الجنود المصريين الذين واجهونا في ٨ أكتوبر ١٩٧٣، كانوا أول مشاة في العصر الحديث مجهزين ومدربين ليقاوموا الدبابات. بل ليصلوها ناراً قاتلة بأسلحة مصممة خصيصاً لذلك. فإن الهدف من هذا هو إدانة زملائه والهجوم عليهم. كان يهاجم دافيد أليعازر رئيس الأركان وحاييم بارليف الذي عين قائدا للمنطقة الجنوبية. لا تستخدم كلمة الجنوب في مذكراته إلا من أجل الإشارة إلى مصر. يصف رئيس الأركان ومن تولى قيادة المنطقة فوقه بأنهما من أبطال الدسائس والحسابات الصغيرة. يكتب: لم يكن ينقصني سوى بارليف. لقد وقفت على باب عش للدبابير. إن الوضع يذكرني بسقوط الجمهورية الأسبانية. لقد بدد الجمهوريون قواهم بدلاً من مواجهة فرانكو. وكل ما يحركه إلى هذا هو رفض القيادة تعيينه في حلمه الأول: رئيس الأركان. أو حلمه الثاني: قيادة المنطقة الجنوبية.



يقول إنه بدون تعليمات من قادته وفي السادسة والنصف من صباح العاشر من أكتوبر وصل من خلال الثغرة بين الجيشين الثاني والثالث الميدانيين إلى القناة. اتصل برئيسه ليقول له أنه يلمس مياه القناة بيديه. صاح فيه قائده. في السابعة والنصف طلب منه التراجع. يرفض العودة. يتصل بمساعد رئيس الأركان. وترفض رئاسة الأركان الاستماع إليه. فانسحب وعاد. وهكذا يكتفي بالدفاع في أيام من ١٠ إلى ١٣ أكتوبر. وإيراد كافة هذه التفاصيل هدفها أن يكون هو وحده الفاعل والفاهم والمدرك. والذي يسبق زمانه. ولا يسمح له بالعبور إلا بعد أن هزم المصريون في السادسة والثلث من

أسس شارون وحدة كوماندوز تسمى الوحدة ١٠١. وهو المسئول عن مجزرة قبية. راح ضحيتها ٦٩ مدنياً فلسطينياً. وهو المسئول عن قتل الأسرى المصريين في حرب ٦٧، اغتال أبو جهاد في تونس. شارك في الهجوم على القيادة العسكرية في تونس





أنا أكذب
أنا أكره
أنا أقتل

صباح الأحد ١٤ أكتوبر ١٩٧٣، ويبدأ العمل والتخطيط للعبور المضاد من صباح اليوم التالي ومن شدة غروره يضع عنواناً للمهمة «مهمة منتهية» ويرسل بالشفرة: «مدافعنا تكاد تلامس مدافعهم» ومن أجل مزيد من الدراما يقول كاذباً إنه وردت له معلومات بوقف العبور المضاد فوراً. ويستدعي إلى القيادة فيرفض ترك المكان. ويكتب صفحات كاملة في وصف مزايا وأهمية وجوده بين قواته على الأرض. مع أن التقدم العلمي يتيح له قيادة المعركة عن بعد. ويتجاهل حقيقة أنه لم يعبر في مقدمة قواته. بل بقي في أمان بمقر قيادته يتابع باللاسلكي. يتضاعف عدد القتلى. يقول له بارليف أن هناك مسافة ضخمة بين ما وعد به وما نفذه. يكتب: الجواب الوحيد هو صفع بارليف على وجهه. ينتقم منه في الكتابة: كان بارليف أنيقاً. حليقاً نظيفاً أكثر من اللازم ثم يكتب: لا أعرف كيف سيطرت على أعصابي بدلاً من صفعه. كززت على أسناني. ولا يقول إن السبب في هذا هو فوز بارليف بقيادة المنطقة بدلاً منه.

في المساء تطلب منه القيادة تطوير الهجوم فيأتي رده بالرفض. الرجل يختلف مع قادته لمجرد الرغبة في الاختلاف. يدلي شارون بحديث لمعاريف ٢٥/١/١٩٧٤، يقول أن رؤساءه حاولوا تخطي قراراته التكتيكية دون الحضور إلى الجبهة ليروا ما يراه. ولذلك رفضت تنفيذ تدخلهم في عملي. ولا يقول إن لجنة اجرانات حاكمته بعد الحرب بتهمة رفض تنفيذ أوامر رؤسائه. باختصار أنه إنسان فوضوي. يلغي الآخرين من أجل ذاته فقط. لقد وصفت لجنة اجرانات قراراته بأنها قرارات «غريزية» أي أن الغريزة هي التي تحركه. ومن تحركه الغريزة يلغي العقل والقلب والضمير. إن الغريزة تسيطر فقط على الإنسان البدائي. صاحب العقلية البدائية. أما هو فيكتب: لم أعد أثق في أحد. وكأنه وحده الذي حارب. الحرب عمل جماعي. إلا عند شارون الذي يتصرف وكأن ذاته هي محور الكون. عندما يفقد منصبه العسكري. يصف إسرائيل هكذا: بلاد مرهقة. محاصرة مخنوقة. بلد فقد راحة باله. بلد بلا هدف. وعندما يصل إلى المنصب تتغير نظرته لإسرائيل. تصبح الجنة الموعودة على الأرض.

وفي ٢٠ أكتوبر يبعد شارون عن فرقته. يقول كاذباً أنه كان صاحب القرار وأنه كان موفقاً فيه لأن لحظة الانسحاب آتية. وهو لن ينفذها. وعندما يعود إلى بيته ينفذ الأسلوب العسكري فيه مع زوجته وابنيه. يكتب: «أنا الذي أحرزت النصر» لاحظ أنه يكتب عن حرب أكتوبر. يضيف: أن هذا النصر فريد من نوعه في تاريخ جيش الدفاع الإسرائيلي. وحتى عندما يأتي السلام يزعم أنه هو الذي أرسى قواعده.

يتجه إلى العمل السياسي. يحاول العودة إلى الجيش وأن يكون في نفس الوقت نائباً في الكنيست. يرفض طلبه. لا يجد أمامه سوى المزرعة. التي يشرح كيف اشتراها. ومع هذا تكتب صحف إسرائيل أن هناك فسادًا في ذلك. في سنة ١٩٧٤ كان ابنه عمري في العاشرة. وجيلاد في الثامنة. لا يستطيع أن يمتدحهما لأنه عندما مات ابنه البكري قال انه هو الأذكى والابرع. يقول عن صداقة إسرائيل لأمريكا: إنه لابد من المعاملة بالمثل. لا فضل لهم على إسرائيل.

شيطان السياسة

في صيف ١٩٧٥ يعمل مستشاراً لرابين علاوة على إدارة مزرعته. ولكن العمل لم يستمر بعد فبراير ١٩٧٦. في هذه الفترة يقابل هنري كيسنجر الذي يقول له: قيل لي أنك أخطر رجل في الشرق الأوسط. وإن كان يكتب قبيل انتخابات ١٩٧٧: لقد استولى عليّ من جديد شيطان السياسة. دخلت ذلك الميدان وإن كنت عاجزاً عن إيضاح أسباب اتخاذي هذا القرار. ورغم دخوله السياسة يصف علاقاته بقادة الأحزاب جميعاً بالبرودة والجفاف. بل إنه يقول إن السياسي لا ينجح في هذا البلد دون عملاء ودارسين للسوق. عندما تدمر إسرائيل المفاعل النووي العراقي. وكان شارون وقتها وزيراً للزراعة. لكنه ينسب ذلك لنفسه. يكتب: أعجز عن إحصاء المرات الكثيرة التي تكلمت فيها سواء في مجلس الوزراء أو الكنيست عن ضرورة تدمير المفاعل النووي العراقي. ذلك خط أحمر. وكنت أتكلم عن توازن الرعب النووي في المنطقة. أكثر من هذا. كتبت أكثر من مرة لبيجين حول الموضوع. ومن الطبيعي أن يعارض الجميع القرار ثم يرضخون لشارون في النهاية. إنه ينظر لنفسه باعتباره ملهماً. وبعد أن تنجح العملية. يكتب: وضع بيجين يده على كتفي - وهي حركة نادراً ما تصدر عنه - وقال لي: أريبل، لولا عنادك، لا أدري ماذا كنا أطلقنا على هذه العملية. بعدها يكتب عن نفسه: «لقد أصبحت سياسياً محنكاً» والسياسي المحنك يكتب: إن الاتفاقيات القانونية عاجزة عن تحقيق ما نصبو إليه ما لم تستجب للضرورات الجوهرية. ويعود ليكتب: ليس للأوراق والوثائق أهمية في نظري إن لم تدعمها وتبررها حقيقة ملموسة.

ويصبح شارون بعد انتخابات ١٩٨١ وزيراً للدفاع في حكومة الإرهابي مناحيم بيجين. ورغم أن شارون يقول أن ذلك تقدير من بيجين له، إلا أن الصحف تقول إن بيجين جاء بشارون في هذا الوقت وأعطاه حقيبة الدفاع حتى يخلصه من سكان مستوطني مستوطنات سيناء. بدلاً من أن يتولى بيجين نفسه هذه المهمة الصعبة. يقول شارون إنه صاحب فكرة تدمير مستوطنة ياميت: وقلت للمصريين: «إن ذلك هو الحل الوحيد حتى لا يعود سكان المستوطنة إليها من جديد»، لقد محوت ياميت حتى استحالت رمالاً. قالت عنه الصحف: الرجل الذي دمر ياميت. أما هو فيكتب: «إن قيام مدينة مصرية على حدودنا من شانه أن يهدد السلام». حتى تهجير يهود الفلاشا من أثيوبيا إلى إسرائيل ينسب الفضل فيه إلى نفسه. وكان هناك رافضون للمسألة منهم يوسف جورج وزير داخلية إسرائيل. ولكنه مثل كل مرة يصر وينتصر إصراره على رفض الرافضين.

صبرا وشاتيلا

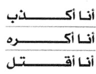
تعالوا ننظر كيف يورد شارون مذبحة صبرا وشاتيلا في مذكراته: بينما كنت في سريري في الساعة الواحدة والنصف. تلقيت اتصالاً من صحفي في التليفزيون الإسرائيلي يدعى رون بن يشاعي. نقل لي هذا الصحفي ما سمعه. ومفاده أن الكتائب يقتلون المدنيين في شاتيلا. فقد تحدث إلى ضباط إسرائيليين سمعوا شهود عيان يخبرون جنودهم عن المجزرة التي شاهدوها. سألته إن كان قد رأى ما يرويه. قال أنه سمعه من أناس سمعوا عنه هم أيضا. لم يكن فيما قاله بن يشاعي أي جديد. فالتقارير التي وردتني من رئيس هيئة الأركان والوزارة. نقلت إلى أن قوات مسيحية تورطت في مجزرة. وكنت أعرف ما جهله بن يشاعي وهو أن القوات الإسرائيلية بقيادة رافول وأميردوري هي التي قامت باللازم لإيقاف المجزرة. وفي اليوم التالي اتضح أن ما حدث في صبرا وشاتيلا تجاوز المجزرة. ولأنه يكذب ومن يكذب ينسى، فهو يكتب في الفقرة التالية: في السادسة مساء. طلبت تقريراً مفصلاً عن الكارثة التي أطلق عليها اسم: المجزرة وعندما انفجرت الفضيحة في إسرائيل. لا يجد أي تبرير سوى أن التنافس مع حزب العمل هو الذي ضخم من أمر المجزرة: لقد استغل حزب العمل الأمر استغلالاً سياسيًا بذيئاً. كان التنافس على مركز الصدارة في البلاد دمويًا.

يكتب: لم يتورط أي ضابط وفقاً لمعلوماتي وحكمي فيما جرى بصبرا وشاتيلا. في نفس الفقرة. يقول أنه رفض تشكيل لجنة للتحقيق في أحداث صبرا وشاتيلا. والسبب: فأنا لا أرغب في القيام بأي عمل قد يعطي انطباعاً بأنني أحاول الاختباء وراء الجيش. وإن كان يرى أن قراره هذا كان خطأ. لأن بيجين تحت الضغوط السياسية والشعبية اضطر لتشكيل لجنة برئاسة القاضي إسحق كاهانا. يكتب: عندما بدأت اللجنة تمارس عملها. وقعت فريسة هواجس أنذرتني بوقوع الشر لأنه لابد من كبش محرقة على الصعيد السياسي. لابد من إنسان يلقون عليه اللوم. في هذه اللجنة خطر يتهدد الشعب اليهودي. لقد أدت إلى مظاهرات تهتف: شارون سفاح. نهاية هذه اللجنة وخيمة. فالحاجة أصبحت ماسة لإيجاد مسئول والقضاء عليه. على رغم عدم ارتباطه بالأحداث نفسها. لقد أصبح ذلك أمرًا لا يقاوم. ثم يذهب إلى الكنيست. عندما كان يقرأ تقريره رأى القاضيين كاهانا وباراك مسئولي لجنة التحقيق في صبرا وشاتيلا يدخلان الكنيست، يصف لحظة رؤيتهما هكذا: راحا يحدجاني بتلك النظرة الحادة والعدوانية وكأنهما غرابان أسودان. كانت نظراتهما إشارة أتقنت التعبير عما سيحدث. فهل يكتب هذا إنسان بريء؟ إن وصف متهم لقاضيه بأنه غراب أسود هو اعتراف باقترافه جريمته. يكتب أنه ذهب إلى بيروت لمقابلة أمين الجميل: وعندما أثرت موضوع صبرا وشاتيلا. نظر الرئيس أمين ورجاله في أعيننا ونفوا أي علاقة لهم بالمسألة من دون أن يرف لهم جفن. كل هذه منه كانت محاولات لرمي التهمة على الآخرين. مذكراته هذه منشورة قبل أن يقوم بقتل إيلي حبيقه بعد أن أعلن أن لديه أدلة تثبت مسئولية شارون الشخصية عن هذه المذبحة. لا أعرف ماذا يمكن لشارون أن يفعل حيال تقرير كاهانا أو تحقيق أمنوك كابليوك حول المجزرة. أو تحقيق جان جنيه حول المذبحة. وكل هذه التحقيقات والتقارير تعتبر شارون هو المسئول الأول والأخير عن المجزرة. لا يرد طبعاً على ما كتبته مجلة تايم في ١٣/٢/١٩٨٣ من أن شارون تحدث في لقائه مع أمين الجميل والشيخ بيار الجميل قبل مراسم دفن بشير الجميل عن «حاجة الكتائب إلى الانتقام لهذا الاغتيال».

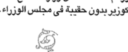
يستدعى شارون إلى اللجنة لاستجوابه. كان أول طلب له عدم استجواب ضباط الموساد أو موظفيه. وقبل ذهابه إلى اللجنة أعلن انه سيقدم استقالته في حالة توجيه أي تهمة له. قبل إعلان تقرير اللجنة يذهب إلى بيجين يطلب منه أن يتحد الوزراء حول براءة الحكومة وبراءة العسكريين. بيجين لم يعده بشيء. قال له فقط: سنواجه موقفاً في غاية الصعوبة.

كان قرار اللجنة الذي نشر في ٨ فبراير

إن شارون يقول حتى الآن أن الفلسطيني الطيب هو الفلسطيني الميت. فأي مستقبل ينتظر دولة يقودها مثل هذا السفاح؟



١٩٨٣ يرى أن يمارس رئيس الوزراء حقه في تجريد شارون من حقيبة الدفاع. ورغم أن إسرائيل امتلأت بالمظاهرات أمام مزرعة شارون وأمام وزارة الدفاع وأمام مجلس الوزراء احتجاجاً على سلوك شارون. إلا أنه يكتب أنه عندما وصل إلى مجلس الوزراء ليرد على ما جاء في التقرير. يقول أنه وجد أمام مجلس الوزراء متعاطفين معه. «ولما توقفت برهة لأحييهم. وجدتني وسط دوامة تلقيت فيها ألف يد ويد طلبت مصافحتي. وسمعت ألف عبارة وعبارة كان يملؤها الحماس والتشجيع. إن الرجل يكذب كما يتنفس. إنه يحدد عبارات الحماس بألف عبارة وعبارة وكأنه كان يحمل آلة لتسجيل وعد هذه العبارات. ويجرى التصويت في مجلس الوزراء على قبول تقرير اللجنة. وتكون النتيجة ستة عشر صوتاً تقبل التقرير. وصوتاً واحداً ضده. وفي الواقع كان هذا الصوت الواحد والوحيد. هو صوت شارون نفسه. فهل لديه ما يمكن أن يقوله بعد ذلك؟ لا يكتفي بهذا. يذهب في اليوم التالي إلى بيجين في منزله. فيكون أول سؤال من بيجين له: متى تنوى تقديم استقالتك؟ يرد عليه: بعد أسبوع. يسأله من جديد: لم تستغرق استقالتك هذه الفترة الطويلة؟! يصف خروجه من الوزارة ـ بعد كل هذا ـ: كان الصباح حافلاً بالناس الذين جاءوا لوداعي بعضهم بالزهور. والبعض الآخر بالدموع. يقول إن شاعرة لبنانية اسمها ليلى المر وصلت من بيروت صباحاً يرافقها بعض الأصدقاء. وقفت وقرأت قصيدة جميلة. يدعي أنه وصلت له أربعة آلاف رسالة من كافة أنحاء العالم ـ رد عليها كلها ـ تشجعه وتؤيده وتشد من أزره. ويفسر ما جرى له بأنه خيانة من أناس لم يستطيعوا مواصلة النضال معه. لم يتحلوا بشجاعة قناعاتهم. ورغم استقالته من وزارة الدفاع فقد قبل البقاء كوزير بدون حقيبة في مجلس الوزراء.



إن السباق بين الحبر ودماء الشهداء مازال مستمرًا. وحتى كتابة هذه الكلمات فجر يوم ١٧/٤/٢٠٠٢ كان شارون قد ألقى القبض على أكثر من عشرة آلاف فلسطيني دون سند من قانون. يقف في المقدمة منهم مروان البرغوثي. الذي وصفت وكالات الأنباء الغربية عملية القبض عليه بأنها فتح لبوابة من بوابات الجحيم الفلسطيني على شارون وكل إسرائيل.

أما عدد شهداء مخيم جنين فلم يتوصل إليه أحد. كل المعروف أن سكان المخيم كان عددهم خمسة عشر ألفًا. أما من تبقى منهم فسنعرفه. ولكن من المؤكد أنها مجزرة يزيد عدد شهدائها عن أي من مجازر شارون السابقة. وربما عن أعداد مجازره السابقة مجتمعين.

يعاني شارون من عقدة كراهية شخصية لياسر عرفات. منذ أكثر من عشرين عامًا مضت. وشارون غير قادر ولا هو راغب في التحرر من جبال الكراهية بداخله. فهل يصلح من لا يستطيع التحرر من كراهيته أن يصبح سياسيًا؟ وهل يؤتمن على مصير مجتمع ومستقبله؟ وهل يمكنه الوصول إلى مشارف أي سلام مع نفسه؟ قبل أن يصل إلى سلام مع الآخرين؟ مشكلة شارون مع شارون قبل أن تكون مع الآخرين سواء كانوا إسرائيليين أم فلسطينيين.

وماذا عن إسرائيل؟

إن كان شارون يعاني من كل هذا العطب الداخلي. فالأمر ليس فرديًا. المجتمع الإسرائيلي أيضاً مريض. شارون هو ثالث رئيس وزراء ينتخب مباشرة من قبل الناخبين. وقد حصل على أعلى نسبة من الأصوات. أكثر من اللذين سبقاه ناتنياهو وباراك. وجوده في السلطة يعني أن إسرائيل مجتمع غير طبيعي. مجتمع غير قادر على إدراك حجم اليأس في صدور شبان فلسطين. مجتمع يعرف كيف يبدأ معاركه ولكنه لا يستطيع أن ينهيها. وقائده الآن يتوه في التفاصيل الصغيرة. إنه يقول عن إسرائيل: بلد منعزل يحيط به الأعداء. ولابد من كسر حدة الطوق العربي الذي يحيط بإسرائيل من كل ناحية. حلفاؤنا بعيدون عن حدودنا وراء البحار. عدد القتلى الإسرائيليين منذ توليه الحكم. وقبل بدء الانتفاضة الحالية: ٤٨٠، وهو رقم يفوق قتلى حكم رابين وبيريز وناتنياهو وباراك. نسبة الهروب من الجيش تزايدت في حكمه. بلغت بين القوات النظامية ٣١٪ والاحتياط ٢٠٪ مع تزايد رافضي الخدمة من جنود الاحتياط في الأراضي الفلسطينية.

بدأت لأول مرة في أيامه الهجرة العكسية إلى خارج إسرائيل. وبنوك إسرائيل تواجه أزمة طلبات فتح حسابات في الخارج. ٢,٨ مليار دولار مودعة في الخارج لمواطنين إسرائيليين. وهذا لا يعكس الموقف من سعر الفائدة أو السياسة الضريبية. إن تدفق الأموال الإسرائيلية إلى الخارج لا يعكس سوى مخاوف الإسرائيليين حول مستقبل الدولة التي يعيشون فيها. ومع هذا لم نر أي مظاهرات ضد سياساته. هل يعني هذا أن مجيئه كان يعني موت الديمقراطية؟ أم أن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية تعلو فوق الأحزاب وكافة مؤسسات المجتمع الإسرائيلي؟ يحكم إسرائيل الآن إنسان يفخر بأنه لا يحترم توقيعه على أي ورقة. تقول عنه أدبيات بلده: إن المستحيل هو القول أن شارون إنسان شجاع. وتتساءل صحافته: متى تمتلئ كأس شارون بالدماء؟! ويقولون إن خطته ستقود المنطقة إلى الفوضى. لأن شارون يقول حتى الآن أن الفلسطيني الطيب هو الفلسطيني الميت. فأي مستقبل ينتظر دولة يقودها مثل هذا السفاح؟

آخر استطلاع للرأي في إسرائيل يقول أن ٧٥٪ من المواطنين يؤيدون ما يقوم به شارون. وأن ٢٥٪ من الإسرائيليين يرون طرد عرفات خارج فلسطين. هذا على الرغم من المذابح التي ارتكبها شارون في الأسبوع الثاني من أبريل الماضي. في يوم واحد السبت ٦/٤/٢٠٠٢ كانت هناك أربع مذابح تدار في وقت واحد. الأولى في نابلس القديمة والثانية في غزة والثالثة أمام مقر ياسر عرفات والرابعة في مخيم جنين. من السفاح شارون: أم أن كل سكان إسرائيل سفاحون؟!

كتاب الزاوية

دير ياسين
الجمعة ٩/٤/١٩٤٨

كان اليوم يوم جمعة، ٩ أبريل ١٩٤٨، ولم يكن فجره قد انبلج حين انقضّت فجأة وبمعرفة قيادة الهاجاناه التابعة للوكالة اليهودية، قوات منظمتي شتيرن (ليحى) والإرغون (إيتسل) الإرهابيتين على قرية دير ياسين المواجهة للضواحي اليهودية الغربية للقدس، على بُعد أقل من خمسة كيلومترات من مقر حكومة الانتداب البريطانية السياسي والعسكري في عاصمة فلسطين. وما كادت شمس ذلك اليوم تغرب، بعد قتال عنيف دام أكثر من اثنتي عشرة ساعة واشتركت فيه، إلى جانب المهاجمين، وحدات من قوات البلماح الضاربة التابعة للهاجاناه، حتى تم للمعتدين ما عقدوا النية عليه واحتُلّت القرية واستُشهد من سكانها (البالغ عددهم ٧٥٠ نسمة تقريبًا) مائة شخص ونيف، معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال، وهُجِّر الناجون كافة ليدخلوا في شتات لا نهاية له، يحملون فيه إلى يوم الدين جروحًا نفسية لا تندمل، وغدا اسم دير ياسين عبر الآفاق والعقود رمزًا لدموية الصهيونية وبربريتها.

وقد أحسن الدكتور وليد الخالدي الأستاذ الفلسطيني البارز في الجامعات الأمريكية صنعًا عندما جمع في كتاب كل الشهادات التي روت تفاصيل هذا اليوم المأساوي في تاريخ العرب سواء كانت شهادات الناجين من المذبحة، بما في ذلك شهادات لمقاتلين دافعوا عن القرية أو شهادات قادة وأفراد المنظمتين الإرهابيتين اللتين قامتا بالمذبحة، ثم شهادات للمندوب السامي البريطاني في القدس في حينه، وكذلك ردود الفعل العربية.

وقد صدر الكتاب عام ١٩٩٨ عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.



أحمد وداود
الســلام المســتحيل

حلمى محمد قاعود

[١]

ولد «فتحى غانم» بالقاهرة عام ١٩٢٤ لأسرة بسيطة، وتخرج فى كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًا) عام ١٩٤٤، وعمل بالصحافة فى مؤسسة «روزاليوسف»، ثم انتقل إلى جريدة «الجمهورية» أو مؤسسة دار التحرير رئيسًا لمجلس الإدارة والتحرير، ثم عاد مرة أخرى إلى «روزاليوسف» حتى وفاته عام ١٩٩٩ عن خمسة وسبعين عامًا.

وقد أصدر عددًا من المجموعات القصصية والروايات، منها: مجموعة «تجربة حب» عام ١٩٥٧، ورواية «الجبل» ١٩٥٩ (أول رواية صدرت له)، ورباعية «الرجل الذى فقد ظله»، و«الساخن والبارد»، و«الأفيال»، و«زينب والعرش»، و«بنت من شبرا»، و«حكاية تو».. وقد ظهر بعضها فى مسلسلات ناجحة على شاشة التليفزيون، وقد لقيت هذه المسلسلات إقبالاً ملحوظًا، خاصة «زينب والعرش» التى تناولت الحياة السياسية فى فترة الستينيات، وكان معظم أبطالها من الصحفيين.

وقد ارتبط «فتحى غانم» ببعض التنظيمات السياسية، أبرزها «التنظيم الطليعى» الذى شكّلته الحكومة فى فترة الستينيات لحماية النظام، ويبدو أنه كان مضطرًا إلى ذلك، فطبيعته كانت تميل إلى الاستقلال والتأمل والتفكير العميق، وهو ما يتناقض مع واقع التنظيمات السياسية من حركية واندماج وبراجماتية.

[٢]

وتتناول روايته «أحمد وداود»، موضوعًا مهمًا يرتبط بصراع الوجود بيننا وبين العدو النازى اليهودى فى فلسطين المحتلة، ويلاحظ أن الرواية صدرت فى فترة حساسة من تاريخنا المعاصر، حيث ظن فريق من الناس أن توقيع بعض الدول العربية لاتفاقيات أو معاهدات مع العدو النازى اليهودى، قد هيأت المجال ليعيش العرب واليهود فى سلام، ويعود اللاجئون الفلسطينيون، إلى وطنهم السليب، وتنتهى مأساة الشعب الفلسطينى التى استمرت قرابة نصف قرن.

ولكن الواقع أخلف هذا الظن، فقد كشف اليهود عن وجههم الحقيقى الذى يحمل ملامح القبح والتعصب والجشع والدموية والرغبة فى الهيمنة على المنطقة العربية كلها، فضلاً عن عدم التسليم بحقوق الشعب الفلسطينى أو الموافقة على تنفيذ القرارات الدولية الصادرة عن مجلس الأمن الدولى أو الجمعية العامة للأمم المتحدة.

تكشف رواية «أحمد وداود» أعماق القبح والتعصب والجشع والخسّة، والتوحش فى الشخصية اليهودية، وتوضح مراحل اغتصاب فلسطين، وأساليب السيطرة عليها، والقفز على القيم الإنسانية، والقوانين الدولية وتكريس العنف والدم وذبح الفلسطينيين بلا رحمة.

أحمد وداود
فتحى غانم
القاهرة - دار الهلال - ١٩٨٩



يقدم لنا «فتحى غانم» من خلال شخصية «أحمد سالم» المسلم، وشخصية داود بن شالوم اليهودى، صورة مبسطة ولكنها عميقة؛ للصراع الذى فرضه النازيون اليهود على الأمة العربية والإسلامية بمساعدة الغرب الاستعمارى، وذلك عبر العلاقة الحميمة التى كانت تربط بين الشخصيتين منذ الصغر، ثم انتهت هذه العلاقة بالغدر والخيانة والقتل، والاستيلاء على الأرض واستباحة العرض، من جانب داود وأشياعه!

[٣]

تبدأ رواية أحمد وداود هكذا..

«عندما قال لى الطبيب إنى مريض.. قابلت ما سمعت بوجوم وبلادة، وكأنه يتحدث عن شخص آخر لا أعرفه، أو ربما أعرفه ولكننى لا أستطيع أن أحدد نوع علاقتى به، ومع ذلك لابد أنى كنت خائفًا بل مذعورًا دون أن أدرى، فقد عانيت من تقلصات فى بطنى، وكنت ألهث وأنا أمشى كما لو كنت أجرى هاربًا من شىء مجهول يجرى خلفى ويطاردنى، وأنا أرفض أن أواجه أن الذى أريد أن أهرب منه قابع فى أعماقى».(ص٧)

ومن خلال هذه البداية يقوم الكاتب بعملية تخييل ليوهم القارئ أن ما يكتبه يمتزج بالخيال، «فأنا أكتب لأسجل تجربة شخصية غريبة بعد أن راودتنى تلك الأحلام الليلية ولا أدرى كيف بدأت»(ص٧)، ثم يوضح سببًا معقولاً لحكاية هذه التجربة يتلخص فى أن المرض الذى أصابه ويوشك أن يخرجه من هذه الدنيا قد ساعد على إفراز نوع من الهرمونات حولته إلى شخصين. أحدهما المريض، والآخر ذلك الذى تراوده أحلام الليل وهو «أحمد سالم» الذى يعيش فى بلدة «د» على مقربة من القدس «ولا أدرى كيف تتقمصنى شخصية أحمد، ولا أدرى كيف عرفت القدس التى لم أزرها قط، ولكنى واثق أنى رأيتها من خلال هذا الشخص الآخر الذى هو أحمد». (ص٧)



وفكرة التقمص هذه، أو انقسام الشخصية إلى اثنين، سبقت معالجتها، ولعل أبرز من لجأ إليها «نجيب الكيلانى» فى روايته «عمر يظهر فى القدس»، و«لويس عوض» فى روايته «العنقاء أو قصة حسن مفتاح»، وهى وسيلة من وسائل التغلب على بعض مصاعب السرد بالضمير الأول - أو ضمير المتكلم - والتمكن من تقديم صورة أكثر شمولاً واكتمالاً لبعض ملامح الشخصية أو جوانب الحدث. وهو ما نلاحظه على امتداد الرواية التى صاغها الكاتب عبر فصول مرقمة تبلغ ستة عشر فصلاً تتضمن مراحل استلاب فلسطين وذبح أهلها وطرد معظم من تبقى منهم بعد تدمير بيوتهم وقراهم، كما تصور تحول اليهودى الغريب البائس إلى كائن دموى لا يعرف غير القتل والسلب والنهب والإرهاب والترويع!

ويكون الحلم عادة هو الآلية التى يلجأ إليها الروائى لإطلاق عملية التقمص، حيث يتجاوز الزمان أو المكان، ليعبر من خلال الشخصية المتخيلة أو المستدعاة عبر الحلم،

أحمد وداود
الســـــلام
المســتحيل

عما يريد من تصورات أو أفكار أو مفاهيم، وهو ما يشير إليه «فتحى غانم» فى روايته. «ولقد رأيت فيما يرى النائم، أنى أجرى لاهثًا نحو قريتى «د» فى يوم قائظ وهلع كبير ينهش صدرى، لأن أمى وأبى وإخوتى وأطفالهم يذبحون بالخناجر بينما ينسف الديناميت بيوتنا، ولا أعرف كيف جاءنى النبأ، وقد أتبين تفاصيل ذلك فيما بعد(ص٩)».



كما يستعين الكاتب بالخيال الذى يطلق له العنان لينقل القارئ إلى الزمان البعيد والمكان البعيد أيضًا، وها هو ينقلنا إلى الشام والماضى الذى شهد المأساة الفلسطينية من خلال الجَد/الإنسان الذبيح الذى قضى عليه اليهود غدرًا وغيلة:

«وكان خيالى يسرح مع جسده المسجى على الفراش فأكاد أراه ممتداً حتى الشام. تلك البلاد التى لم أزرها والتى يسكنها أشقاؤه. وقبل أن أنتبه جذبتنى الأيدى بعيدًا عن فراش الموت بينما ارتفع صوت النواح والبكاء يزلزل أرجاء البيت، ومع غياب جدى لم يعد أحد يذكر شيئًا عن أهلنا فى الشام، ولكن شيئًا ما ظل محفورًا فى أعماقى كما لو كان سردابًا فى نهايته عالم مسحور يقف فيه جدى بحكاياته وأهله وعياله فى الشام. وأصبحت الشام ذلك الأفق الذى يمتد إليه الخيال، والذى تعيش فيه الذكريات المنسية، وذلك الاتساع أو تلك الرحابة التى تهفو إليها النفس عندما تحاصرها هموم الواقع وأحزانه (ص٨)».

إن الحلم مع الخيال يشكلان مدخلاً إلى البناء الروائى بحيث تتواصل الأرواح، والأحداث أيضًا، كأن يرغب «أحمد» بطل الرواية فى لقاء صديق الطفولة «داود»، أو ينتظر منه أن ينقذه من الموت الذى ينشره اليهود فى كل مكان، ولكنه يطلق الرصاص عليه وتبدو المفارقة فى المواقف شاسعة وصاعقة بين سذاجة «أحمد» الطيب، وشراسة «داود» الشرير.

«وتقدمت خطوات وانا واثق انى رايته. داود بشحمه ولحمه. رآنى كما رأيته. وتهلل وجهه كما تهلل وجهى. فإذا كان داود موجودًا فلا أظن انه يسمح بذبح ابى وامى وإخوتى، الأنباء التى وصلتنى مبالغ فيها، ولكن هؤلاء الغرباء من اليهود منتشرون فى كل مكان.. بينهم فتيات لعل سارة بينهن.. إحداهن تلوح بخنجر.. يا إلهى إنه ملوث بالدماء. أسرع إلىّ يا داود، خبّرنى ما الذى حدث، سمعته يصيح أحمد، وصحت به داود. كان يقترب منى وأنا أقترب منه، وكانت فى يده بندقية ولكن منظرها لم يزعجنى. فقد كانت نوبة الهلع تتراجع وتنحسر بسرعة، وذكريات صداقتنا أنا وداود تتدفق فى راسى، حاملة معها مشاعر مختلطة.. (ص٩)».

ولكن الأحداث فيما بعد تشير إلى غير ذلك، فقد نسى داود الصداقة، ولم يقم بإغاثة صديقه، بل قام مع شقيقته «سارة» بالغدر بالصديق وأهله وقريته جميعًا!

وهذا البناء الروائى الذى يعتمد تيار الوعى والمونولوج الطويل الممتد، يتم فى وقت ضيق للغاية، أو فترة زمنية قصيرة للغاية هى فترة

إطلاق الرصاص على أحمد وانتظاره لطلوع الروح، أو خروجها من جسده، ويشير إليه الكاتب عبر السرد فى صراحة، وكأنه يذكرنا نحن القراء بهذه الحقيقة التى تكاد تتلاشى فى خضم الصراع بين الأشخاص والأحداث: «هذا الذى أراه كما عاشه داود يتكشف لى كرسالة متأخرة تأتى عبر الزمان. وأنا أقترب من هذا الجزء من الألف من الثانية الذى تبقى لى من الحياة» (ص٩٨).

ولا يمل الكاتب من الإشارة إلى هذه الحقيقة كلما تقدم السرد واقترب من النهاية، «ولكنى فى لحظات متقطعة أقاوم العتمة والغمام، ويخيل إلىّ أنه انقشع فتدب فى أوصالى حياة أعرف أنها توشك أن تفلت منى.

وتتراءى لى مشاهد من ذكرياتى يخيّل إلىّ أنها تأتينى كتدبير من الله سبحانه وتعالى، فمازالت إرادته فوق إرادة جميع البشر، ولها إشارات تكشف عن نفسها لمريض مثلى وهو يشرف على نهاية الرحلة على ظهر الأرض. إنها إشارات كالأساطير أو هى حقائق، والأيام حبلى بها، ربما ستتكشف عنها بعد طول انتظار فى عالم الغيب..» (ص١٣٥).

إن سرد الرواية يأبى إلا أن يذكرنا بأن الراوى يسرد الأحداث فى لحظات مكثفة للغاية وهو يقترب من النهاية، التى يصورها فى مشهد بديع مع القرين الذى حل فيه وقدم لنا صورة من الصراع بين الغزاة الغرباء وأهل البلاد الطيبين، وانتهت إلى المذابح والإبادة والتهجير لهؤلاء، والتمكين والحياة والتفوق لأولئك:

«يا إلهى. نظرت حولى، كانت شوارع المدينة قد اختفت، رغم انى مازلت أذكرها، ورايت أمامى غابة من أشجار الزيتون، وكان نور الفجر يشقشق فى السماء..

وهمست بصوت ضعيف:

إلى أين تمضى بى؟

قال وهو يضمنى إلى صدره:

ـ أما وقد عرفتنى.. آن لك أن تستريح.

كانت سحب كثيفة رمادية فى السماء، وكأنى اسير إليها مبتعدًا عن الأرض. وكانت قدماى تقودانى إلى سرداب تحت أشجار الزيتون.

وكان أحمد سالم يبتسم» (ص ١٣٩).

إن انتهاء الرواية بالفراق بين الراوى والبطل، يضع حداً لرحلة عذاب عاشها الشعب الفلسطينى من خلال «أحمد سالم» المسلم وأسرته ومواطنيه، على يد الغزاة اليهود الذين جاءوا من شتى أقطار الأرض ليقيموا دولة تعتمد على الإرهاب والعنف والدم، ويشاركهم اليهود المقيمون الذين تنكروا للماضى والأخلاق والعلاقات الحميمة.



بيد أن الرواية فى بنائها الفنى، وإن اهتمت بإبراز مظاهر الخداع والغدر والوحشية لدى اليهود، وانتصارهم الإجرامى على الشعب المسالم، لم يغفل الإشارة إلى المستقبل، والتنبؤ به من خلال بعض اللقطات التى تشى بالأمل وتصحيح الخطأ واستعادة الحقوق، فهناك حقيقة أن الفلسطينيين ـ مع كثرة المذابح والشهداء ـ يتفوقون فى الإنجاب وعدد الأولاد، مما يعنى أن الأغلبية لهم بالضرورة فى قادم الأيام. ثم إن الفلسطينى يعيش فى المنفى ويحمل معه وثائقه ومفتاح داره مما يعنى أن حقه لن يضيع طالما ظل يطالب به، فهذا الصندوق الذى يعيش مع الفلسطينى المقيم فى بورسعيد يحمل بداخله أوراق التسجيل فى الشهر العقارى لأملاكه، «سوف يحمل أولاده هذا الصندوق فى طريقهم إلى القدس، كما حمل جنود اليهود صندوق الشريعة يتقدمون به إلى القتال، لابد أن يتحقق العدل الذى تثبته المستندات والأوراق فى الصندوق..» (ص١٣٦)، بل إن الحلم بالعودة والحرية والاستقلال يتحول إلى ما يشبه الحقيقة الواقعة من خلال هذا الحوار بين «أحمد سالم» وقرينه أو الراوى، وفيه إشارة لا تخفى إلى الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧ التى تمردت على الخوف والبؤس والاستكانة:

«ورأيت سارة والسكين فى يدها يقطر دمًا. لم أحب سواها، وكان يقول لى:

فى أرضنا تلد الأرض الأبناء كما تلدهم أرحام الأمهات.

همست:

ـ متى ولدتك الأرض؟

قال ضاحكًا وضحكاته تتحول إلى قهقهة صاخبة:

ـ يوم خصبت الأرض بدمك.

همست:

ـ يوم قتلنى ذلك المارد.

قال ساخرًا:

ـ أى مارد.. ليس بينهم مردة ولا عمالقة.

ورأيته ينحنى على الأرض ويمسك بحصاة.. وقال فى مرح وهو يقذف بالحصاة بعيدًا:

ـ إننا نرجمهم كما نرجم الزانى والزانية.

سألت فى لهفة:

ـ متى يحدث هذا؟

قال بسرعة:

ـ الآن..» (ص١٣٨).

[٤]

بالضرورة؛ فإن مكان الأحداث هو فلسطين قبل الاحتلال النازى اليهودى، ولكن الكاتب جعل بؤرة المكان تتركز فى قرية «د»، وهى تسمية رمزية كما نرى، لأن القرية المجهولة القريبة من القدس صارت تشير إلى كل القرى والأماكن التى تشمل فلسطين، وترتبط بالمدينة المقدسة جغرافياً أو روحياً، التسمية الرمزية إذًا تشير إلى عمومية المكان، وبالتالى عمومية القضية التى يعالجها الراوى من مكان آخر لم يوضحه بدقة، ولعله يقصد بذلك أن يكون هذا المكان فى القاهرة أو دمشق أو بغداد أو الخرطوم أو الدار البيضاء. هذه الأماكن ترمز إلى العرب خارج فلسطين، مما يعنى أن المسألة أو المأساة ليست قاصرة على الفلسطينيين وحدهم، ولكنها تمتد لتشمل المحيطين بفلسطين من المحيط إلى الخليج، وكان يمكن أن تمتد أكثر لتشمل البعد الإسلامى، بوصف القضية تعنى المسلمين جميعًا لما تمثله القدس من رمز روحى وتاريخى يعنى الشعوب الإسلامية، ولكن الرواية تجنبت الإشارة إلى هذا البعد واكتفت بالبعد العربى، بل إنها اختزلت هذا البعد فى شخصيات الرواية داخل مصر وحدها، فى صورة ضابط مصرى يأتى للتدريب فى معسكرات الإنجليز بالقدس، فيقوم بمساعدة الفلسطينيين عن طريق التدريب والإمداد بالسلاح.

ويظل المكان فى الرواية محورًا مهمًا، فهو من ناحية موطن الفلسطينيين الذين عاشوا فيه قرونًا طويلة، ويتمسكون به، ويستضيفون من يأتى إليهم ويودعونه بعد أن تنتهى ضيافته، ولكنهم لم يتصوروا يومًا أن يتحول الضيوف إلى أصحاب بيت يخرجون أصحابه منه، بل يذبحونهم ويبيدون قراهم ومدنهم، ومن ناحية أخرى فإن

شخصية «أحمد سالم» المسلم، وشخصية داود بن شالوم اليهودى، صورة مبسطة ولكنها عميقة؛ للصراع الذى فرضه النازيون اليهود على الأمة العربية والإسلامية بمساعدة الغرب الاستعمارى، وذلك عبر العلاقة الحميمة التى كانت تربط بين الشخصيتين منذ الصغر، ثم انتهت هذه العلاقة بالغدر والخيانة والقتل



أحمد وداود

الســــلام المســتحيل

الغـربـاء تحت دعـاوى أسطورية باطلة يتصورون أن أرض فلسطين بلادهم الأصلية التى خرجوا منها قبل آلاف السنين ومن حقهم أن يعودوا إليها بالسيف والدم وكل الأساليب المتاحة لهم.. وهكذا تعرَّضت قرية «د» وبقية القرى والمدن الفلسطينية المسالمة إلى حمَّامات الدم التى أقامها اليهود لسكانها، مع أن قرية «د» مثلاً كان أهلها فى علاقة قوية مع اليهود من خلال السوق عند «بركة المياه»، لدرجة أن النساء العربيات تعلمن العبرية ليخاطبن الزبائن اليهود، وقدَّمن أفضل ما لديهن من بيض ودجاج وحليب، واشتغل «أبو مروان» فى إقامة الصهاريج فى مستعمراتهم، ورحب «مختار» العجوز بالدكتور «روزنبرج» مالكًا جديدًا لضيعة الأنصارى!

قرية «د» هى الأرض، وهى البركة، وهى البيارة، وهى قلعة الأنصارى، وهى القدس وبناياتها المغسولة، وهى مدرسة المجلس الإسلامى، وهى فلسطين عند الفلسطينيين يدور حولها الصراع، ويسعى الغاصبون إلى تقسيمها كما فعل وايزمان وكوبلاند فى اتفاقهما الغادر.

وقرية «د» هى الأرض الطاهرة، وهى شرف اليهود، وهى المعبد اليهودى، وهى المستعمرات، أو هى الكيبوتزات، وهى دكان شالوم بائع الساعات، وهى الوكالة اليهودية، وهى مدرسة إيفيلينا دى روتشيلد، وهى مستقبل اليهود الغزاة الذين حولوها إلى حمام دم، بعد أن ذبحوا أهلها وروعوهم وطردوا من بقى منهم حيًا!

المكان فى الرواية يمثل بؤرة الصراع البشرى بين فريقين، الفريق الطيب الساذج الذى يتعامل بعفوية وبراءة، والفريق الشرير الغازى الذى يخطط بخبث ودأب وشراسة ليحقق أهدافه فى الأرض «الطاهرة»، حيث وصف هذا الفريق الأرض التى قدم منها فى أوروبا وآسيا وأمريكا بالأرض «العاهرة»، وهو ما يعطى دلالة على القسوة اليهودية البشعة ضد الفلسطينيين أصحاب الأرض الحقيقيين.

للأسف لم يفكر الفريق الطيب الساذج فى قيمة الأرض إلا بعد أن تكشفت الجريمة والخديعة من الفريق الشرير الغازى، وهو ما عبر عنه «أحمد» بعد حين، فى تيار شعوره المتدفق عقب إطلاق الرصاص عليه، وانتظاره للموت، إنه يتذكر علاقة الصداقة بينه وبين داود، ويستعيد معالم الطفولة وهما يلعبان ويتسابقان. وكان السباق بينهما يعادل السباق بين العرب واليهود على امتلاك فلسطين والبقاء فيها؛ وتبدو أهمية الأرض بالنسبة لأحمد حيث صارت بينها وبينه لغة مشتركة وأحاسيس متبادلة:

«.. كنت واثقًا أنى سالحق به، وساصل إلى الشجرة قبله، لأن قدمىَّ تعرفان الأرض، وبينها وبين كل موطئ قدم عمار وألفة، والأرض أرضى، والشجرة شجرتى، وارتطام عظام قدمى بالأرض يملؤنى دفئًا، وتجرى أحاديث خاصة بين قدمىَّ وأرضى، لغة مشتركة، بينهما من الأحاسيس والتجاوب الذى يسرى فى أوصالى، وأشعر به ممتدًا فى التراب والحصى والهواء، ممتدًا فى عروقى وأنفاسى، وكلنا واحد، وأنا لا أعدو إلى الشجرة، لأنى وهى كيان واحد، حتى وأنا بعيد عنها، وهى معى وهى هناك تنتظر مقدمى..».

ولا يفوت البطل، وهو يتحدث عن هذا السباق المحموم بين طفلين ودلالته الجديدة التى تحولت من لعب برىء إلى غدر دام:

«كان داود فى تلك الأيام يلهث بجوارى، أنفاسنا تتصاعد، وهو يقول لى:

ـ ساسبقك المرّة القادمة.

لم يقل لى فى ذلك الوقت.

ـ سنقتلك المرة القادمة»

(ص٤١).

أحمد طفل برىء يرتبط بأرضه شعوريًا ويتبادل معها الأحاسيس، و«داود» طفل غامض، حذر، يسعى لتملك الأرض بعد أن اشتد عوده، وقتل أهلها الأصليين، وأفسح المجال ـ بالقتل والدم ـ لليهود الجدد الذين يخافون من ظلّهم، ويفرون من بلادهم خوفًا من هتلر (ص٤٤).



وتظهر فى المكان أهمية المستعمرات اليهودية على أساس أنها بؤر انطلاق عسكرية، ينطلق منها المستعمرون اليهود لشن غارات على أهل البلاد الأصليين وقتلهم أو إرغامهم على الرحيل والهروب، بعد ترك دورهم وممتلكاتهم. لقد تحولت ضيعة «شوكت» مثلاً إلى مستعمرة يهودية تغص بالمتدربين والسلاح، وتحوطها الأسوار والأسلاك الشائكة، وتفضلها البنات اليهوديات على الذهب والحرير، لأنهن يتسلحن بالقنابل ويحملن السلاح.

من أجل ترسيخ المستعمرات وتهويد الأرض يسعى اليهود إلى إزاحة العرب عن كل مكان يساعد على استمرار الحياة العربية ونموها وهو ما حدث مع «بركة المياه» التى كان يشرب منها الفلسطينيون ويتوضأون، وتتجمع حولها القرويات لبيع البيض والجبن لليهود بأرخص الأسعار، ولكنهم اليهود يعملون على سحب مياهها لزراعة المستعمرات، وتعديل مسار الطريق، وتقوية شوكة المستعمرين، ويلقون فيها بجثة جمل ميت حتى لا يقربها العرب، وكأنها ـ أى جثة الجمل ـ نبوءة بأنها ستكون مقدمة لخاتمة «تنتهى بجثثنا جميعًا» كما قال والد أحمد (ص٧٥).

المكان يشكل لب الصراع وجوهره على مدى سطور الرواية. وسطور الواقع أيضًا، وهو ما شكل طبيعة الشخصيات الروائية عبر هذه السطور، ورسم سلوكهم وتصوراتهم. وجعل الرواية قصة مكان يخلو من أصحابه ويحل مكانهم غرباء أشرار أقوياء!

أما الزمان فيبدو وكأنه توقف على مدى قرن من الزمان، حيث إن ما جرى بالأمس هو ما يجرى اليوم، أو ما سيجرى غدًا، مع تغيرات وتطورات تبدو هامشية، وإن كانت الانتفاضة الثانية (٢٨سبتمبر ٢٠٠٠) تبدو وكأنها تبشر بتحريك الزمان لتكون أحداثه كيفية أو نوعية مختلفة عن العقود الماضية، ولعل هذا ما جعل الكاتب لا يحدد الزمان التاريخى تحديدًا قاطعًا، ولكنه تركه لاستنتاج القارئ، حيث يعلم من ثنايا الرواية أنه مرحلة الغدر اليهودى بالشعب الفلسطينى والاستيلاء على أرض فلسطين وإقامة الكيان الصهيونى على أطلال القرى والبيارات والمدن الكبرى والصغرى التى احتلها بقوة السلاح. إنها فترة الثلاثينيات والأربعينيات التى شهدت التآمر الخارجى والقلق الداخلى فى البلاد العربية وانتهت بهزيمة الجيوش العربية وانتصار اليهود بإقامة دولة لهم فى فلسطين يحميها المستعمرون الكبار فى أوروبا وأمريكا وروسيا، سياسيًا ودبلوماسيًا واقتصاديًا وإعلاميًا. لقد كانت هذه الفترة التاريخية حافلة بالأحداث والآلام، وكان لها تأثيرها فيما بعد على القضية الفلسطينية والدول العربية جميعًا، وإن بدت الأحداث متشابهة والنتائج متشابهة: إحباط وهزائم ودماء وضياع ومتاعب، مع أن الانتفاضة الثانية ـ كما أشرت ـ قد بدأت تعطى الأحداث طعمًا آخر يخرج بها من دائرة الأحداث المتشابهة والنتائج المتشابهة!

أما الزمن الروائى، فهو كما أوضحت سلفًا يجرى مكثفًا ومركزًا فى إطار لحظة احتضار البطل «أحمد» الذى يتذكر قبيل موته أو استشهاده على يد من كان يعدهم أصدقاءه تاريخ حياته وعلاقته بداود وشقيقته «سارة» اليهوديين منذ الطفولة، وعن طريق الحوار الداخلى يمتد الزمان ويتسع ليقدم لنا قصة الوطن السليب الذى ضاع بسذاجة أصحابه وطيبتهم، وغدر أعدائه ومكرهم، ويلاحظ أنه زمن دائرى يبدأ من نقطة الاحتضار ليعود إليها، بعد أن توغّل فى الماضى ودار فى أرجائه، ثم رجع إلى حاضره المأساوى الذى يشهد موته وانتهاء حياته وضياع وطنه. وهذا الزمن فى مجمله غير طيب، ولا يوجد فيه ما يدل على الخير «هذه أيام النحس.. لا شىء يكتمل» (ص١٠٣). والوصف هنا قاصر على ما يخص العرب الفلسطينيين: أشخاصًا وأحداثًا. أما الأعداء فقد سرقوا الوطن وتمكنوا منه واستمتعوا به وأيديهم ملوثة بالدم وصفحاته مجللة بالغدر.

[٥]

«أحمد» هو البطل، ويتقمص الراوى شخصية أحمد ليحكى فى لحظة احتضاره تاريخ طفولته مُذْ ولد لرجل بسيط يملك معملاً لصناعة الخزانات المائية للبيوت، وامرأة فلاحة تعمل ليل نهار. الوالد يتعرض للبطش من رجال الحكومة كى يدفع الإتاوات أو الضرائب الباهظة، وللضغوط من مختار العجوز كى يتزوج ابنته، وللديون التى لا يستطيع معمله الذى يملكه الوفاء بها، وفى الوقت ذاته لا يقدر على استمرار تشغيله. والطفل «أحمد» هو آخر «العنقود» مما يجعله محل سخرية من شقيقيه الكبيرين «مروان» و«حسان»، فهو المدلل المرفَّه الذى لم يتحمل المسئولية، وهو الذى يشغله «أبوه»: زير النساء، كما تشغله «سارة» اليهودية شقيقة «داود» التى حاول أن يكسب ودّها بحكم نشأتهما معًا منذ الطفولة، ولكنه يخفق، فهو ليس مثل أبيه، ويغمره إحساس بالمهانة أكبر من احتماله. يقول له أبوه:

«ماذا دهاك يا ولد.. مالك ذاهل حزين. أرى دموعًا جامدة تضر عينيك. هل أنت متيم تعانى من غرام امرأة. هأنذا أراها مختفية تحت جلدك» (ص١٥) ويعلق أحمد: «خيل إلىّ أن قلبى يتفسأ، وجلدى يتمزق وقد انتشرت فيه شقوق تؤلمنى، ولكن سارة اليهودية تظهر من بين هذه الشقوق» (ص١٥)، لأن سارة فى كل الأحوال بالنسبة لأحمد «جسد لذيذ ولا يلد الأولاد» (ص١٤) أو ليس فى هذه الحياة «بصيص فرحة أو ضحكة. سوى تلك التى وجدتها عند سارة» (ص٥١).

أحمد يبدو شخصًا طيبًا ساذجًا، يظن أن سارة ستعطيه الحياة، ولكنها فى حقيقة الأمر وكما ستثبت الأحداث ستحرمه من هذه الحياة بطريقة وأخرى، وحين تتكشف له طبيعة المؤامرة اليهودية والغدر اليهودى، ويسعى للانضمام إلى المجاهدين الفلسطينيين، فإن سارة تقف حائلاً بينه وبين العمل المثمر. إنها

إن انتهاء الرواية بالفراق بين الراوى والبطل، يضع حداً لرحلة عذاب عاشها الشعب الفلسطينى من خلال «أحمد سالم» المسلم وأسرته ومواطنيه، على يد الغزاة اليهود الذين جاءوا من شتى أقطار الأرض ليقيموا دولة تعتمد على الإرهاب والعنف والدم، ويشاركهم اليهود المقيمون



أحمد وداود
السـلام المستحيل

تشغله عن الجهاد، وتحبط محاولة جادة لمقاومة الإجرام اليهودى، شارك فيه «أحمد» لأنه نسى المهمة التى كُلِّف بها، وتسلل إلى المستعمرة التى تقيم فيها وتتدرب(!)، ولكن الشهيد «عبد القادر الحسينى» يتسامح معه، بعد أن يلقنه درسًا فى كيفية أن يتطهر المقاوم من التلوث!

وفى نهاية المطاف لا يسلم «أحمد» من الغدر، ويموت شهيدًا على يد أصدقائه اليهود، ويرى وهو فى غمرات الموت «سارة» فى فناء الدار تقترب من أبيه «تميل عليه، عيناه نصف مغمضتين، أتريان، مازال جسده دافئًا، مرّت بالسكين على رقبته، نحرته، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها. وقال العازار الكاهن لرجال الجند الذين ذهبوا للحرب هذه فريضة الشريعة، الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والرصاص، كل ما يدخل النار تجيرونه فى النار فيكون طاهرًا.. أحصى النهب المسبى من الناس والبهائم، ونصف النهب بين الذين باشروا القتال الخارجين إلى الحرب وبين كل الجماعة، إنها الشريعة» (ص١١٦ـ ١١٧).



هكذا كانت فجيعته فى الفتاة اليهودية التى أحبَّها. لقد جزّت رأس أبيه بالسكين وفقًا للشريعة اليهودية، وهو الذى كذب على «عبد القادر الحسينى» ولم يذهب لينسف مستودع الذخيرة الذى كُلِّف بنسفه، وذهب لينسف غرامًا يشعر نحوه بالذنب، فكان لابد من الفشل، ولابد من الدموع، وكان على «عبد القادر الحسينى» أن يلقنه الدرس:

« ـ نحن جميعًا مازلنا نتعلم.. لقد سبقونا.. وعلموا حتى نساءهم.. فاصبر..» (ص٨٦).

وتكتمل الفجيعة حين تتنكر لأحمد وهو جثة ملقاة بجانب الجثث الأخرى التى قتلها المتوحشون اليهود:

«وكانت تقول لهانز أولافسون قبل أن تمد يدها إلى الجثة التى جاءوا بها أخيرًا والقوا بها فى نهاية الصف، حيث يقف «هانز» مع «سارة»:

ـ أما هذا فاسمه أحمد.

وسألها هانز فى دهشة:

ـ أتعرفينه؟

قالت بصوت أجش:

ـ لا.. لم أعرفه أبدًا.

ولم يسألها هانز كيف عرفت اسمه. كانت خشونة صوتها تعنى أنها لا تستريح لمواصلة الحديث» (ص١٣٣).

لقد كان «أحمد» يلتمس لها الأعذار، وكان يراها عطوفة ناعمة وهى مسلحة بالقنابل ومدججة بالسلاح، وأراها طيبة حنونًا، «وهى مريبة خادعة تعيش مع أوغاد يسوسونها» (ص١٧).



إنه يرجع ما تفعله إلى قادتها الذين جندوها، وحوّلوها إلى كائن مسخ، سلاح فى يد الإنجليز، سارة وَهْمٌ، لم تعد فتاة ولا امرأة، ولا أنثى «لن أرى بلادى من خلال جسد امرأة» (ص١٠٥).

«سارة» شقيقة داود. إنها بنت «شالوم» الساعاتى، صاحب دكان فى القدس، وابنة امرأة سمينة ضخمة كسولة مسترخية متدينة بخيلة، على العكس من «أم أحمد» التى تعمل ليل نهار. انضمت سارة إلى العصابات اليهودية وتدربت على السلاح وصارت مثل الشبان، ولكنها عادت إلى البيت مع سائر البنات بعد إعلان فشل التجربة، وقيل إن المرأة للبيت والحياة الوادعة والرفاهية، وأن الاعتماد على الرجل فقط. المرأة ليست لحرث الأرض والتدريب على إطلاق الرصاص والهجوم بالخناجر.. ولكنها مع ذلك عادت إلى المزرعة ـ المستعمرة (الكوبيتزم). لتتحول إلى فتاة شرسة، ويبدو «فتحى غانم» سباقًا فى استنتاج أن فتيات اليهود أشد قسوة من الرجال، وذلك من خلال الحوار على لسان إحدى الشخصيات (ص٨٢). إنها فى المزرعة / المستعمرة ترتدى السروال والحذاء الضخم، فى يدها مدفع رشاش، وعلى رأسها قبعة، لا تبالى بمن يفترض أن يحبها وهو «أحمد. إنها تسخر منه، وتراه مجنونًا حين ينتظرها فى الشتاء، فهى لا تكترث بحبه أو انتظاره، وتلوح بالمدفع الرشاش فى يدها وتحدثه بمنتهى القسوة، إنه قد ينتظر لتقتله، وأنها لو رأته فى أية مناسبة قادمة يحوم حولها فى المزرعة / المستعمرة، فسوف تقتله برصاص مدفعها الرشاش، وتحذره من الاقتراب من موقعها كى لا ترديه قتيلاً، وهو القتل الذى تمارسه مع العرب، وقد مارسته فيما بعد، مع أسرة «أحمد» ورآها وهى تحزّ رأس أبيه بالسكين.

و«سارة» ليست وحدها فى هذا السياق، فهناك غيرها كثيرات، وعلى رأسهن «راشيل» التى تقود البنات فى المزرعة / المستعمرة، إنها راشيل هادمة اللذات ومفرقة الأحباب، إنها الجادة التى تعلم البنات اليهوديات أعمال الرجال، حتى حراسة المزرعة، وتتحول البنت الأنثى الناعمة إلى أفعى شرسة مقاتلة تقبض على الخناجر تغمدها فى بطون النساء الفلسطينيات، وتمزق الأجنة، وتتوضأ بالدم الطاهر لأطفال أبرياء. إن «راشيل» تعمل من أجل إخراج البنات اليهوديات من المطبخ لزراعة الخضروات التى يحتجن إليها فى المطبخ، وفلاحة الأرض ليجنين المحاصيل والفاكهة، وتدريبهن على السلاح لحراسة الأرض، وتتحدى الدكتور «روزنبرج» الذى يستبعد قيام المرأة اليهودية بهذه الأعمال، وتقنعه بأن هذا أقل ما يجب أن تقدمه فتاة تعيش هنا.. «إنهن محظوظات إذ ولدن فى هذه الأرض» (ص٦٥) لقد أرادت «راشيل» أن تؤجر الضيعة للبنات تجمعهن من البيوت الشرقية ليتحولن إلى فتيات صالحات لبناء مجتمعهن الجديد!

إن «راشيل» تتغلغل فى أعماق البنات اليهوديات، لدرجة تعلقهن بها ودفاعهن عنها وعن خطتها بحكم أن اليهود ـ آنئذ ـ كانوا أقلية فى فلسطين، كما يعتقدن ويؤمن.



أما «داود» فلا يختلف عن أخته «سارة» كثيرًا، فقد كان صديقًا حميمًا لأحمد، ولكنه يمثل الشبان اليهود من أمثاله، وهم مصدر الهلاك والدمار بالنسبة للفلسطينيين. لقد تحولوا ـ وهو معهم ـ من حملان إلى ذئاب ويتحركون بمقولة إن اليهود لا يعرفون الراحة ولا يتركون للأمم الأخرى فرصة للراحة، ويسعون فى كل الأحوال إلى امتلاك «أورشليم» حتى تصبح بالنسبة لهم «تسبيحة الأرض»!

«داود» يترك فلسطين، ويسافر إلى «باريس» ليدرس هناك. أطبقت عليها جيوش الألمان، فاعتقلته مع أشباهه من اليهود، ونجا بأعجوبة حين زعم أنه ـ يا للمفارقة ـ عربى من فلسطين!، فأطلقوا سراحه، ولكنه عاد ليتفوق على النازيين فى قتل الفلسطينيين وتخريب ممتلكاتهم أو الاستيلاء عليها، مسكونًا بهوس إقامة المعبد الثالث مكان المسجد الأقصى.. لقد تحول «داود» إلى مصاص دماء مع أقرانه من الشباب والفتيات.

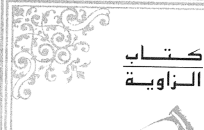
على الجانب الآخر كانت رموز العمل الفلسطينى تبدو مترهلة متناقضة متخالفة، ضاعت فيما بينها الأرض والكرامة، وكان وضع الأشخاص يدور فى إطار ذاتية أنانية أو عجز شخصى أو خيانة مقيتة أو مقاومة ضعيفة تعانى ضغطًا من الأهل والأعداء على السواء. وسوف نتوقف مع بعض الشخصيات التى رسمها الكاتب من خلال سلوكها وأفكارها لنتعرف على المدى الذى وصلت إليه المأساة الفلسطينية.

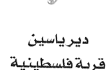
أبرز الشخصيات الروائية فى الجانب الفلسطينى «شوكت الأنصارى»، وهو زعيم شركسى يتحكم فى المنطقة، وهو سيدها المطلق لا ينازعه أحد. لا يحتاج إلى أن يفرض كلمته غير فرقعة سوط. إنه وتد من أوتاد الأرض برجاله وماله وسلاحه. كما يملك ضيعة عظيمة ولكنه باعها لليهود، يرى أنها ليست أرض أجداده، وإنما أرض أجداده فى أورفة (بتركيا)، وهو لا يريد الارتباط بالفلسطينيين إلى الأبد. ظل يمارس القهر ضدهم طوال وجوده بينهم، ويلعب القمار بالمال الذى يجلبه منهم بالقوة فى «مونت كارلو». ومع ذلك يتعلق الناس به طمعًا فى حمايته لهم، ولكنه لا يستجيب، ويرسل رجاله ليتناولوا الطعام مع اليهود ويطلبوا التعاون معهم، وبعد أن باع ضيعته لليهودى الألمانى الدكتور «روزنبرج» حين كثرت خسائره فى القمار، وقرر الرحيل مع الشراكسة عن فلسطين فى مشهد تمثيلى؛ كان من الطبيعى أن ينكشف سره كما يصفه أحمد:

«شيء ثقيل أصم ينمو فى صدرى بينما الجمال تتهادى خارجة من ضيعة شوكت الأنصارى تحمل الصناديق المزركشة ومن حولها الشراكسة فوق جيادهم متجهمين شرسين. فى نظراتهم قسوة وغضب، والويل لمن يقترب خطوة نحو الجمال، سوف يلسعه سوط الموت.

الويل لمن يقترب من الذهب المكدس فى الصناديق. إنه شوكت الأنصارى أغنى أغنياء الأرض، سيد الأرض ومن عليها، ملاذ الرجال، مصدر القوة، الجاه والنفوذ، مصدر الرهبة والخوف،

بالضرورة؛ فإن مكان الأحداث هو فلسطين قبل الاحتلال النازى اليهودى، ولكن الكاتب جعل بؤرة المكان تتركز فى قرية « د »، وهى تسمية رمزية كما نرى، لأن القرية المجهولة القريبة من القدس صارت تشير إلى كل القرى والأماكن التى تشمل فلسطين



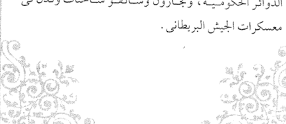


دير ياسين
قرية فلسطينية

كانت دير ياسين تقع على المنحدرات الشرقية لتل يبلغ علو قمته ٨٠٠متر، وكانت تواجه الضواحى الغربية اليهودية للقدس التى كانت أقربها (مستعمرة غفعت شاؤول) تبعد عنها ١٢٠٠ متر تقريبًا، والتى تألفت من ست مستعمرات هى من الشمال إلى الجنوب: غفعت شاؤول، مونتفيورى، بيت هكيرم، شخونات هبوعليم، يفينوت وبيت فيغان. شكلت سدًا منيعًا بين دير ياسين والقدس. وأشرفت دير ياسين على مشهد واسع من الجهات كافة، وفصل بينها وبين المستعمرات اليهودية واد ذو مصاطب غُرست فيها أشجار اللوز والتين والزيتون وكروم العنب. وارتبطت دير ياسين بالعالم الخارجى بواسطة طريق ترابى واحد تسلكه السيارات شمالى الوادى، وتمر عبر غفعت شاؤول، ومنها إلى القدس وغيرها.

بلغت مساحة أراضى دير ياسين ٢٧٠٠ دونم، كان أكثر من نصفها مزروعًا سنة ١٩٤٨. وكانت هذه الأراضى غنية بالحجر الكلسى المفضَّل للبناء. وهكذا بازدهار حركة البناء فى القدس فى إبان الانتداب ازدهرت صناعة قلع الحجارة وصقلها وتكسيرها فى دير ياسين، فانتشرت المحاجر والكسّارات على جانبى الطريق الموصلة إلى مستعمرة غفعت شاؤول.

وبازدهار دير ياسين زاد عدد سكانها من ٤٢٨ نسمة سنة ١٩٣١ إلى ٧٥٠ نسمة سنة ١٩٤٨، وارتفع عدد منازلها فى الفترة ذاتها من ٩١ منزلاً إلى ١٤٤ منزلاً. وتنوعت المهن التى عمل أهلها فيها، فمنهم معلمون فى مدارس قروية، وكتبة فى الدوائر الحكومية، ونجارون وسائقو شاحنات ونُدُل فى معسكرات الجيش البريطانى.





وهؤلاء الحراس يحرسون، الكنوز التى تحملها الجمال. هذا الذهب الذى يحرسه الشراكسة جمعوه بالسياط والبنادق وسال من أجله عرق غزير ودماء أغزر...» (ص٣٨).

بالطبع لم يكن ما تحمله الجمال ذهبًا، ولكنها أحجار أغلقت عليها الصناديق ليظل وهم السيادة الشركسية قائمًا، وهو ما كشفت عنه الأحداث فيما بعد، حيث خسر الأنصارى كل ما جمعه على موائد القمار فى «مونت كارلو»!

«شوكت الأنصارى» فى كل الأحوال يمثل النموذج الأنانى الذى لا يعنيه إلا نفسه، وتدفعه أنانيته إلى التفاهم مع اليهود وبيع ضيعته وخيانة أشقائه المسلمين على النحو الذى نراه مبثوثًا فى ثنايا الرواية.

فى خلفية الأحداث تظهر شخصية «عبد القادر الحسينى» - شهيد القسطل، ورمز المقاومة الشرسة للغزاة اليهود - خافتة وإن كان تأثيرها يبدو طاغيًا على كثيرين، إنه يبدو نموذجًا وقدوة للشباب الفلسطينى، ومنهم «أحمد» بطل الرواية، كما تبدو كلماته منهجًا يسيرون عليه، ولعله كان سابقًا إلى منهج المقاومة المستمرة حتى لا يستريح العدو ولا يلتقط أنفاسه لتكون حياته صعبة ووجوده على أرض فلسطين مكلفًا للغاية، ومن كلماته المأثورة التى وردت فى الرواية عبر السرد: «عندما يحين القتال لابد أن تكون مستعدًا، اضرب ضربتك بكل قوة وقسوة وبلا تردد. وعندما تضرب اضرب بكل طاقاتك، لا تبخل بشىء، فلحظة أن تضرب، هى كل حياتك، لحظة فيها حياتك أو مماتك، ولا شىء آخر. ولكننا لم نجمع قوانا. انفقناها فى الغضب والانفعالات» (ص١٢٦).

هنالك ما يمكن تسميته بمجموعة الشخصيات على الجانب اليهودى، سواء شخصيات الرجال أو شخصيات الفتيات لهم ملامح مشتركة فى الفكر والسلوك، ويمكن تلخيصها فى الإيمان بالتوراة وتعاليمها وخاصة ما يتعلق بفلسطين والتمسك بها وطنًا قوميًا، ودولة الحلم الموعود، وضرورة تحقيق هذا الحلم بكل السبل وكل الوسائل بدءًا من الخداع والمراوغة حتى القتل وسفك الدماء، هو ما تبدى فى سلوك هذه المجموعات فى المستعمرات أو فى عمليات الذبح والقتل وبقر البطون وتمزيق الأحشاء وطرد الأحياء من الفلسطينيين إلى خارج فلسطين والاستيلاء على ممتلكاتهم وأراضيهم وبيوتهم.

تحرص هذه المجموعات على تنفيذ تعاليم يهودية مثل مهاجمتهم لصحيفة تعمل يوم السبت، ويرون أنها لا يمكن أن تكون صحيفة يهودية وتعمل يوم السبت، ومثل اعتقادهم أن الأم اليهودية هى التى تمنح وليدها ديانته اليهودية. وفى الوقت ذاته نرى هذه المجموعات تعمل بهمة وعزيمة لبناء الكيان الغاصب على أطلال فلسطين وشعبها، «كان الناس يتزاحمون فى الطريق، عيون ساخرة، وعيون هازئة، وعيون فيها قسوة، وبنات يرتدين ملابس العمال يرصفن مدخل حارة بيت إسرائيل. سارة وديبوراه فى فرقة البنات، فرّق بينهن الطرب وجمع بينهن العمل بالزفت والقطران فى رصف الطريق» (ص١٠٨)، وإذا كان رصف الطريق يمثل هذه الهمة وتلك العزيمة فإن هذه المجموعات تمارس القتل والذبح للفلسطينيين بالهمة ذاتها والعزيمة نفسها، وصفحات الرواية لا تبخل بتقديم نماذجها الوحشية والبشعة التى تخلف الجثث والأشلاء، والأصابع المقطوعة، والبطون التى خرجت أمعاؤها، والرؤوس المفصولة، وأجزاء الأطفال: الأيدى والسيقان.. لقد زرعوا الموت فى كل بيت!!



ويمكن القول إن رواية «أحمد وداود» قد نجحت من خلال شخصياتها فى تقديم المواقف والأحداث على الجانبين الفلسطينى واليهودى. الأول طيب وساذج مشغول بالأنا الذاتية، يعيش متناقضات مزعجة، الآخر يعلم هدفه جيدًا يمارس المكر والخداع ويوظف كل الإمكانات لبناء قوته ويمارس العنف والإرهاب والذبح لتحقيق غاياته وتصوراته.

ولأن الرواية مكتظة بالأحداث والشخوص، فقد كان من الصعب أن يرسمها جميعًا الكاتب من الداخل، لهذا جاء معظمها مرسومًا من الخارج من خلال الأفكار والسلوك. صحيح أنه توقف مثلاً عند «سارة» ورسمها من حيث هيئتها: وجهًا وخدودًا وعينين وأنفًا وشفتين، كما رسمها من حيث سلوكها الداخلى فهى متقلبة المزاج نهمة إلى الجنس والدماء والعمل من أجل الدولة الحلم، ولكن الشخصية التى حظيت بحفاوة فنية واهتمام تصويرى كبير هى شخصية أحمد، وإن كان قد ركز على داخله من خلال استبطان عميق.

[٦]

«فتحى غانم» أديب يمارس الصحافة، وقد أفسدت الصحافة أساليب كثير من الكتاب، ولكن «فتحى غانم» كان حريصًا على الاحتفاظ لأسلوبه بالسلامة اللغوية والتعبير الدقيق باستثناء أخطاء قليلة، ومن هنا جاء أسلوبه فى روايته «أحمد وداود» بسيطًا دقيقًا يعتمد على سرد ما يقوله بطل الرواية «أحمد» على لسان الراوى من خلال الضمير الأول، مما يتيح له أن يحكى كأنه يتحدث بتلقائية وعفوية إلى صديق حميم، فتأتى جُمله فى الغالب قصيرة وموجزة بلا فضلات ولا زوائد، وكثيرًا ما ترد فى صورة الجملة الاسمية. يكتفى من علامات الترقيم بالنقطة بديلاً عن الفاصلة والفاصلة



أحمد وداود
السلام المستحيل

المنقوطة وعلامتى التعجب والاستفهام، وقد يأتى تكرار بعض أسماء الإشارة تأكيدًا لوصف يلح عليه. الفصل والوصل لهما دلالة وإيقاع وإيحاء:

«الدم يسيل ولكنه فى لحظات سوف يجف. كما جفت دمائى بعد أن سالت ونزفت فى عشق سارة. كرهتها بقدر ما أحببتها. ولا أدرى ما الفرق بين حب وكره لهذه الفتاة. لهذه المرأة، لهذه العاهرة، لهذه الأنثى القاتلة» (ص٥٢).

ولأن الرواية تعتمد الحوار الداخلى أو المونولوج الممتد الذى يكاد يشمل صفحاتها، فإن الكاتب ينجح فى تصوير ما يدور بداخل البطل ويبرزه بصورة ملموسة وحية تكاد تتحرك:

«فعندما يفيض بى الشوق ينخرنى جزع يسلمنى إلى فزع وفزع يسلمنى إلى جزع يستوليان على ويتقاذفانى حتى تصرخ أعماقى لابد من التخلص منها لابد من قتلها. يا إلهى أنا أول من فكرت فى القتل..» (ص٥٢).

ويختلط الحوار الداخلى بالتوليد الذهنى والفكرى مما ينتج عنه الاستطراد فى السرد، ولكنه استطراد محكوم بالبناء الروائى، بل يوظفه الكاتب لتقديم «الحلم» و«التخيل» و«التذكر»، مما يعطى صورة متكاملة عن الشخصية الروائية وأبعادها العميقة، وهو ما نراه على امتداد الرواية:

«كان شالوم يتحدث مع أبى عن الجنيه الفلسطينى ويقول له إنه يساوى ثلاثة دولارات ونصفًا وسمعته يقول:

ـ الحكومة لديها فائض كبير من المال، وسوف يسمح لها هذا الفائض أن تغيث القادمين من ألمانيا.

ثم صاح الرجل بصوت أشبه بولولة زوجته:

ـ إنهم يطاردوننا فى كل مكان..» (ص٣٥).

بيد أن الحوار فى الرواية بصفة عامة يشكل مرتكزًا مهمًا فى الكشف عن الأحداث وسلوك الشخصيات، وقد وظفه الكاتب غالبًا ليقدم صورة مكثفة للوحشية اليهودية وتجلياتها الظالمة والمظلمة، ونرى ذلك فى مواضع عديدة على صفحات الرواية، كما يكشف الحوار عن الرغبات الدفينة لدى اليهود وخططهم المستقبلية المدمرة بالنسبة للشعب الفلسطينى من خلال المواقف العابرة أو الهامشية التى تقدم فى النهاية دلالة عميقة وأصيلة.

وتستدعى الرواية فى بعض المواقف إشارات إلى القصص التوراتية. من ذلك ما تتحدث به سارة إلى أحمد عن انتماء أبنائها إلى العقيدة اليهودية، فيما لو تزوجته:

«لن أسمح لك أن تنازعنى أولادى. لن أطلب من سليمان أن يشطر الولد شطرين. لأنه لى وحدى، وهو يهودى كما أنا يهودية وسيظل يهودى (كذا!) كما أنا يهودية..» (ص٥٤).

كما تستدعى الرواية بعض الحكايات التى تجرى على أرض فلسطين ويغلفها إطار شبه أسطورى، كما نرى فى حدوتة سعود الخضرة وحروب الثأر بين أهل سعود وأهل المسعود، فى الوقت الذى يتناسى فيه الفلسطينيون ما يفعله بهم اليهود والإنجليز.

هناك تضمين من نوع آخر الغاية منه الكشف عن الظاهر والباطن فى مواقف اليهود الغزاة، وأيضًا كشف سلوك الإنجليز المعادى ونفاقهم، وعدم جدّيتهم فى ردع اليهود، وترك الحبل لهم على الغارب لينفذوا مآربهم. وفى الوقت نفسه تحرص الرواية على كشف مواقف جادة وجيدة لبعض الإنجليز. فهناك مثلاً حادثة مقتل اللورد موين بالقاهرة مما يعد غدرًا بالإنجليز، وتشرشل خاصة، وهو الذى قدم لليهود خدمات جليلة وانتصر لوعد بلفور الظالم، ولكن بن جوريون يعتمد على الوقت والنسيان خاصة أن تشرشل رجل عجوز، ويعد بأن تستأنف عمليات القتل والاغتيال بعد أن تهدأ العاصفة، بشرط البدء فى عملية ضخمة واحدة ليتأكد الإنجليز أن اليهود جادون، فإما أن ينفذوا وعودهم أو يبدأ اليهود فى عملياتهم ضد الإنجليز.

فإن «فتحى غانم» قدم فى روايته «أحمد وداود» قصة الغزو الاستعمارى اليهودى لفلسطين، واقتلاع أهلها منها، وزرع غرباء أجانب على أرضها، من خلال شخصية «أحمد» الذى غدر به أصدقاؤه اليهود، وذبحوا أهله وقومه، وقد حكى «فتحى غانم» هذه القصة بسلاسة ويسر، ووراءهما جهد كبير وفن جميل.

المفارقة أن «فتحى غانم» وهو من المنتمين إلى اليسار، كتب هذه الرواية بتصور يتطابق مع التصور الإسلامى، ولا يتناقض معه، ولو أن أديبًا إسلاميًا أراد أن يكتب عن المأساة الفلسطينية بمثل هذا الوعى وذلك النضج لما كتب بغير هذا التصور، وهو ما يطرح مسألة هيمنة التصور الإسلامى على الأدباء العرب على اختلاف توجهاتهم الفكرية والأدبية بدرجات متفاوتة حتى يصل إلى درجة التطابق، كما رأينا عند «فتحى غانم»، وإن كان هذا التصور يتلاشى عند بعضهم إلى حد كبير، وخاصة ممن يناصبونه العداء والرفض.

وتبقى الإشارة إلى أن الرواية العربية فى شتى البلاد العربية قد عالجت المأساة الفلسطينية. وجاءت هذه المعالجة فى الغالب ناضجة تنظر إلى الأعماق، وتطرح الحلول الملائمة والمجدية، وتعد رواية «أحمد وداود» من أهم الروايات، حيث أوضحت طبيعة العدو الغادرة، ورصدت أسلوبه وسلوكه مع العرب، وتنبأت بموقف الأجيال الجديدة من المأساة الفلسطينية، ولعل ما يحدث الآن على أرض فلسطين هو تحقيق لهذه النبوءة الروائية أو جانب منها على الأقل.

كتاب الزاوية

دير ياسين
لماذا؟!

لم تكن دير ياسين أول قرية فلسطينية تعتدى عليها القوات الصهيونية سنة ١٩٤٨، نسفًا وقتلاً، كما لم تكن دير ياسين أول قرية فلسطينية تحتلها القوات الصهيونية سنة ١٩٤٨ وتطرد سكانها منها بعد أن استُشهد منهم من استُشهد، فقد سبقها كل من خُلدة ودير محيسن (الرملة)، ولفتا والقسطل (القدس).

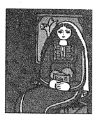
كذلك لم تكن دير ياسين آخر قرية فلسطينية يصيبها ما أصابها، سنة ١٩٤٨، من قتل ونسف وتهجير واحتلال، فقد تبعها خلال السنة ذاتها أربعمائة قرية ونيف. فلماذا اكتسبت دير ياسين، من دون غيرها، هذه «المكانة»؟

أولاً: تميزت دير ياسين عن معظم شقيقاتها بقربها من عاصمة البلد، الأمر الذى مكّن من الاطلاع على ما جرى فيها بكل دقائقه.

ثانيًا: عقد قادة المنظمتين الإرهابيتين شتيرن والإرغون فى القدس، الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة (٩ أبريل) ذاته، مؤتمرًا صحفيًا تباهوا فيه بنصرهم «العسكرى» وبأنهم قاموا باحتلال «أول» قرية فلسطينية.

ثالثًا: اضطرت الوكالة اليهودية، فى إثر ضجة الاستنكار العالمية التى قامت، إلى تكذيب اشتراك قواتها - أى قوات البلماح - فى الهجوم، وهو ما حدث فعلاً. واضطرت أيضًا إلى توجيه برقية اعتذار إلى الملك عبدالله ملك الأردن، أعقبتها برقية اعتذار شخصية إلى دافيد بن جوريون، وتصاريح تشجب أفعال المنشقين (أى أعضاء عصابتى شتيرن والإرغون) من قبل كبار الحاخامات، الأمر الذى ركز الأنظار على هول ما حدث.





الجهاد في التراث الإسلامي

حسن حنفي

(١) الجهاد من أركان الإسلام

في هذا الوقت العصيب الذي تتم فيه التضحية بشعب فلسطين على مذبحة الكيان الصهيوني وشهادة العرب والمسلمين جميعاً. في الوقت الذي يقف فيه شعب فلسطين بمفرده يدافع عن كيانه ووجوده وأرضه ومستقبله، في الوقت الذي تتصدى فيه المقاومة الفلسطينية للعدوان الصهيوني لتصفية القضية الفلسطينية، نصفها في ١٩٤٨ ونصفها الآخر عام ٢٠٠٢ يصدر العرب البيانات ويصوغون المبادرات، ويطلقون الشعارات، ويعقدون الاجتماعات، وتتكرر مأساة حصار بيروت في ١٩٨٢ في حصار مدن الضفة الغربية. وفي كلتا الحالتين وقفت الأنظمة العربية تستنكر وتشجب وتدين والدماء تسيل، والجرحى يموتون، والشهداء يتساقطون، والبيوت تدمر، والكل يستنجد بالغير لا بنفسه، والكل يستصرخ الآخرين، الضمير العالمي، والأمم المتحدة، وروسيا، والاتحاد الأوروبي، بل إن الكل يتوسل إلى الجلاد كي يرحم الضحية.

وماذا يفعل المفكر العربي إلا أن يستصرخ أيضاً، يشحذ الهمة، ويشارك انتفاضة الشارع العربي بالكتابة، ويستنصر تراث الأمة وتاريخها وثقافتها لعله يجد في الجهاد والشهادة ما يقوى به المناضلين في فلسطين، يواسي الجرحى، ويعزى بالحياة الأبدية، وبالخلاص القريب. وهو هروب إلى الماضي، وعجز عن مواجهة الحاضر، فمازال الشهيد هو بارقة الأمل الباقية بالرغم من آلام الفراق وعذاب الضمير. في هذا الإطار وفي هذا الوضع النفسي تتم كتابة الجهاد في التراث الإسلامي، بيان أنه ركن من أركان الإسلام أولاً، وتحليل معاني الجهاد في القرآن الكريم ثانياً، وفي السنة النبوية ثالثاً، وفي التراث الفقهي رابعاً، وعند المصلحين المحدثين تماماً ولعل في ذلك بعض العزاء للنفس وللآخرين.



الجهاد ركن من أركان الإسلام. وهو عند بعض الفقهاء الركن السادس. وعند آخرين الركن الأول لأن الأركان الخمسة الأولى تقوم عليه. فالشهادة فعلان من أفعال الشعور «لا إله» ثم «إلا الله». الأول للرفض والنفي، نفي الآلهة المزيفة للعصر. الثروة والجاه والشهرة والمرأة والترف ومباهج الحياة. والثاني قبول ورضا بأن يتساوى جميع البشر أمام إله واحد، لا ظالم ولا مظلوم، ولا قوي، ولا ضعيف، ولا غني ولا فقير، بل الكل متساوون بفعل الخلق. وهي شهادة أي رؤية وإعلان بالقول والعمل، بالفكر والوجدان. فالساكت عن الحق شيطان أخرس، (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه). وهي شهادة حق وليست شهادة زور. هي التزام بقضايا العصر وقبول للتحديات، والعمل في سبيل تقدمه ورفعته.

والصلاة جهاد في الزمان، وحفاظ على الوقت، وقيام وقعود بالبدن، وحياة الفضيلة، وحب الخير للناس، وإيمان عامر بالقلب، وفعل يحقق مصالح الناس، وعمل فردي وجماعي، وتضامن اجتماعي. فالصلاة أحد أنواع الجهاد، جهاد النفس، ومقاومة الكسل والدعة والخمول، والحرص على الوعي اليقظ، واستبعاد الوعي الخامل.

والزكاة جهاد بالمال، وتزكية وتطهير للنفس بالبذل والعطاء، وحق الآخر في مال النفس، ورفض الاكتناز، والعمل على سيولة رأس المال حتى لا يدور في يد حفنة من الأشخاص. هو استثمار جماعي لقضاء حاجات الآخرين، وإيجاد فرص عمل للعاطلين (والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم).



والصيام جهاد للنفس، وتقوية للإرادة، وسيطرة على الرغبات والانفعالات والأهواء. هو إحساس بفقر الفقراء، وجوع الجوعى، وحاجة المحتاجين (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً). الصيام صلة بالله كما أن الجهاد عود إليه.

والحج جهاد سنوي للعمل الجماعي، والتذكير بمصالح الأمة، والاجتماع العلني لكل الناس في مساواة تامة أمام الحق ولإعلان البراءة من البطالة، وتحديد من هم أعداء الأمة ومن هم أصدقاؤها ؟ أين معاركها وما إمكانياتها ؟ إلى أي مدى وصل إحساس المسلمين بالأمانة والخلافة في الأرض وتعميرها ؟ الحج سفر وجهد ومشقة، وسعي وطواف كما أن الجهاد سفر للأعداء، ومقاومة للعدوان، وسعي وطواف في ساحة القتال.

لذلك لا يساوي أي ركن من أركان الإسلام حتى ولو كان الحج ركن الجهاد (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله).

فالجهاد هو كل شيء في الإسلام، له أشكال عديدة. يقوم على شحذ الطاقة، وبذل الوسع، وإفراغ الجهد. وهو المعنى الاشتقاقي للفظ «جهد» قبل أن يتحول إلى «جاهد» أي «قاوم»، و«اجتهد» أي بذل الجهد في الفهم والمعرفة. فالاجتهاد مصدر رابع للتشريع بعد الكتاب والسنة والإجماع وكما كتب السيوطي « الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض».



الجهاد هو كل شيء في الإسلام، له أشكال عديدة. يقوم على شحذ الطاقة، وبذل الوسع، وإفراغ الجهد. وهو المعنى الاشتقاقي للفظ « جهد » قبل أن يتحول إلى « جاهد » أي « قاوم »، و« اجتهد » أي بذل الجهد في الفهم والمعرفة. فالاجتهاد مصدر رابع للتشريع بعد الكتاب والسنة والإجماع

ونظراً لأهمية «الجهاد في سبيل الله» في حياة المسلمين المعاصرين بعد أن أطبق عليهم الاستعمار أثناء ضعف دولة الخلافة ثم هزيمتها في الحرب العالمية الأولى قبل القضاء عليها كلية في ١٩٢٦ بعد الثورة الكمالية في تركيا في ١٩٢٣ بدأ المصلحون يؤكدون دور الجهاد في سبيل الله ضد محاولات العصور المتأخرة في النيل من أهميته واستبعاده. فقد انتهى عصر الفتوحات، ولم يبق إلا جهاد النفس كما يفعل الصوفية. وتم الترويج للحديث الذي يشكك في روايته معظم المصلحين. «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». وكتب كل من أبي الأعلى المودودي وحسن البنا وسيد قطب رسالة في «الجهاد في سبيل الله» لتصحيح الصورة، ورد الاعتبار للجهاد ضد الاستعمار والاحتلال والصهيونية باعتبارها استعماراً استيطانيًا.

ويرتبط بمفهوم الجهاد مفهوم الشهادة، ومفهوم الحياة. فالجهاد بداية والشهادة نهاية. والشهادة تبدأ بالوعي بالعصر وبالزمن أي الوعي بالحق. فالله يشهد وهو خير الشاهدين، والإنسان يشهد، والحواس تشهد. الشهادة تعني النطق بالحق، المعاصرة والإعلان دون الكتمان، والشهادة على النفس دون شهادة الزور. والشهادة تدوين للتاريخ، وسجل للحوادث، وحفظ للحقوق في العقود. واللفظ في القرآن اسم أكثر منه فعلاً، شاهد وشهيد وشاهدون وشهود وأشهاد وشهداء وشهادة ومشهد ومشهود، مما يدل على أن فعل الشهادة من فعل الشاهد والشهيد. الله شاهد، والرسول شاهد، والملائكة شهود، والمؤمنون شهداء.

والشهيد والشاهد من نفس الفعل. الشهيد يشمل بالفعل، والشاهد يشهد بالقول. وكلاهما إعلان. الشهيد إعلان عملي والشاهد إعلان نظري. والشهداء مع النبيين والصديقين (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين). فالأنبياء والشهداء يعرفون الحق النظري والعملي (وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم

بالحق وهم لا يظلمون). وكما أن الأنبياء والصالحين فى فوز ونجاة كذلك الشهداء (والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم).

ولفظ الحياة فى القرآن اسم أكثر منه فعلاً أى أن الحياة قيمة مستقلة عن أفعالها. هى حياة الأرض والنبات والماء والزرع. فالله أنزل من السماء ماء أحيا به الأرض بعد موتها والله هو الذى يحيى الإنسان بعد أن يميته والإيمان هو الذى يحيى الإنسان ويوقظه من الغفلة، ويجعله يؤثر الحياة الآخرة على الحياة الدنيا. والله هو الحى القيوم. فالحياة صفة لله، وصفة للإنسان على حد سواء. الله يحيا والإنسان يحيا.

والحى هو الذى يقاتل فى سبيل الله، ويشترى حياة الآخرة بحياة الدنيا (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة). والشهيد حى لا يموت، آثر الحياة الأبدية على الحياة الظاهرة (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون). إنما هو ألم الفراق بالرغم من الفرح بالشهادة، وحزن الدم بالرغم من فرح العرس. (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله). وآخرون أحياء فى الظاهر، موتى فى الباطن لأنهم رضوا بالحياة الدنيا ومتاع الغرور. استسلموا لقوى الطغيان بالرغم من الاستنصار فى الله وفى الدين وفى الوطن وفى الأخوة وفى العروبة، وآثروا الحكم على الشرف، والسلطة على الكرامة، والدنيا على الآخرة. هم (أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون).

(٢) الجهاد فى القرآن الكريم

والجهاد لفظاً هو بذل الوسع والجهد واستنفاد الطاقة من أجل تحقيق غاية بصرف النظر عن طبيعة هذه الغاية للحق أم للباطل. فقد يجاهد الآباء الأبناء دفعاً لهم نحو الشرك (وإن جاهداك لتُشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما). وهى الحالة الوحيدة التى يجوز للأبناء فيها عصيان الآباء. والجهاد جزء من طبيعة الإنسان. فالإنسان طاقة وحركة ونشاط وفاعلية، دافع حيوى أو طاقة روحية كما يقول برجسون، تيار متدفق وإلا تحول إلى بركة آسنة، ركدت وتبخرت وتعفنت.

والجهاد جهاد للنفس، شحذاً لطاقاتها، وتقوية لإرادتها، وإحياء لمقاصدها. الجهاد للذات قبل الموضوع، للنفس قبل العالم (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه. إن الله لغنى عن العالمين). وهو ما لاحظه الشاعر الفيلسوف محمد إقبال بأن الذات تتخلق بالمقاصد، وتحيا بالآمال، وتشعر بالجمال، وتدرك الحقائق، وتتحد بحركة الكون والتاريخ. لذلك لا يكون الجهاد إلا قدر الوسع والطاقة لعدم جواز تكليف ما لا يطاق، (والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم).

وإذا كان الجهاد لا يكون فوق الطاقة لعدم جواز تكليف ما لا يطاق فإنه لا يكون أيضاً أقل مما يستطيعه الإنسان، يؤثر عليه الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن، (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا). الجهاد لا يكون إلا فى سبيل الله وابتغاء مرضاته. هو الجهاد الخالص الذى لا يهدف إلى شهرة إعلامية «إنى شهيد يا رفاق».

وقد ورد لفظ «جهد» ومشتقاته فى القرآن الكريم فى صيغ اسمية. ويدل ذلك على أن الجهاد فعل أكثر منه شيئاً. وهو أولاً فعل أمر للرسول وللمؤمنين،(يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم). والكفار هم قتلة الأنبياء الذين يعصون الحق ويتنكرون له مثل الصهاينة المعاصرين. والمنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس بقلوبهم مثل الأمريكيين الذين يؤيدون الفلسطينيين باللسان ويدعمون الكيان الصهيونى بالأعمال. والكفار لا أمان لهم حتى ولو عرضوه، (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً). والأغلب هو أمر الجماعة بالجهاد أمراً مباشراً.

يبدأ الجهاد بالتقوى أى بالإيمان الصادق وإخلاص النية. وهو الطريق إلى الله، (اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله). والجهاد بالنفس وبالمال، بالشهادة، وبالعطاء (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله). وهو حكم عام لا استثناء فيه لوجاهة اجتماعية، (وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم). الجهاد فى سبيل الله هو الجهاد الخالص الذى ينطلق من الإيمان العميق بالقضية، (وجاهدوا فى الله حق جهاده).

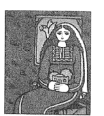
والجهاد ليس فقط فعل أمر، مباشر للفرد والجماعة، للرسول وللمؤمنين لتحقيق ما يستحيل تحقيقه بل هو حقيقة تاريخية، وممارسة جماعية، قام بها السابقون. لذلك يأتى الفعل فى صيغة الماضى أيضاً أكثر من صيغة الأمر تدعيماً للأمر الحاضر بفعل التاريخ وشهادة المجاهدين السابقين. فالجهاد تجربة ومحك واختبار للفوز والفلاح، (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)، (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم). الجهاد ابتلاء (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم).

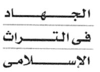
ويتطلب الجهاد الإيمان بالقضية، فالجهاد عمل، والعمل جوهر الإيمان، (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم). وهو إيمان يقينى بلا ريب أو شك، يتحول تلقائياً إلى فعل جهادى، (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم).

وقد يتطلب الجهاد الهجرة فى سبيل الله، فأرض الله واسعة، ولا تضيق على المؤمنين بما رحبت. لذلك ارتبط الجهاد بالهجرة فى عديد من الآيات القرآنية، (والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله). فالأمة واحدة، والعدوان عليها واحد، والعرب الأفغان يجاهدون فى أفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك وكوسوفو ولبنان وفلسطين وفى أى أرض إسلامية يقع عليها العدوان. فالإسلام أممى لا يعترف بحدود الدولة الوطنية أو القومية، رابطة الأخوة الإسلامية. ووحدة العقيدة دليل على وحدة الأمة.

ويتطلب الجهاد الجمع بين الإيمان والهجرة، فالإيمان بداية، والهجرة طريق، والجهاد نهاية، (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم

ما لاحظه الشاعر الفيلسوف محمد إقبال بأن الذات تتخلق بالمقاصد، وتحيا بالآمال، وتشعر بالجمال، وتدرك الحقائق، وتتحد بحركة الكون والتاريخ. لذلك لا يكون الجهاد إلا قدر الوسع والطاقة لعدم جواز تكليف ما لا يطاق





الجهاد في التراث الإسلامي

وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض). وهو عمل جماعي لإيواء المجاهدين ونصرتهم والجهاد معهم بالنفس والمال (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم). وهم أعظم درجة عند الله.

والإيمان والهجرة والجهاد، كل ذلك يتطلب الصبر، والتخطيط على الأمد الطويل. وقد يفتن الإنسان في جهاده ويضعف استجداء للحق ثم يندم. فإن الله غفور رحيم. (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا، إن ربك من بعدها لغفور رحيم).

والجهاد فقط ليس أمراً من الله للرسول وللمؤمنين، وليس فقط حقيقة تاريخية وممارسات في الماضي بل هو أيضاً فعل مستمر في الحاضر، يضم الإيمان والجهاد. (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله). الجهاد حركة مستمرة من أول الخلق حتى نهايته، من البداية إلى النهاية، من الخلق إلى البعث.

والجهاد لا يقتضي القسم بجهد الإيمان بل يتطلب فعل الإيمان وليس قوله، الجهاد بالفعل وليس بالوعد، في الحاضر وليس في المستقبل. في هذه الحالة يكون الإيمان «جهداً» لا جهاداً، أي مجرد إعلان نوايا وليس تحقيق أفعال، (ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم). يكون الجهاد مجرد وعد بالإيمان دون تحقيقه، (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها). والقسم عن غير علم جهل مثل القسم على عدم البعث بعد الموت، (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت). والقسم دليل على سوء النية لأن الإيمان لا يحتاج إلى قسم بل إلى فعل، (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن). القسم كلام بلا فعل، وعد بلا تحقق، إعلان بلا التزام، (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم).

ونقيض الجهاد الاستئذان والقعود والتخلف والنكوص، (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا)، فالاستئذان بعدم الجهاد تناقض بين الإيمان والجهاد. فالجهاد من متطلبات الإيمان، والإيمان بلا جهاد كالإيمان بلا عمل، والقول بلا فعل، والنية بلا تحقق، وهي سمة المنافقين. والتخلف ليس فرحاً بل هو حزن ونكوص (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا)، فالرسول قدوة، والقدوة يؤتم بها.

والجهاد لا يقتضي خوف اللائمين، وحسد الحاسدين، وشماتة الشامتين، (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم). الجهاد صدق النية، وإخلاص القصد، والتوجه إلى الله، غاية الغايات، وقصد المقاصد.

لذلك لا يستوي القاعدون مع المجاهدين، (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله) الخائفين على عرض الدنيا، (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة)، (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا).



الجهاد إذن مبدأ الحركة في الإسلام ومناط التقدم فيه، نقيضه النكوص والتراجع والتخلف. الإسلام إقدام لا إحجام، حركة إلى الأمام وليس حركة إلى الخلف. وهو مسار الوحي في التاريخ تدريجياً ومرحلياً، من نبوة إلى نبوة. وهو مسار التشريع داخل النبوة حتى تتم صياغة الشريعة طبقاً للأهلية والقدرة. وهو مثل الاجتهاد في التشريع لا يتوقف مادامت الحياة مستقرة والزمان متجددًا، والواقع متغيرًا.

ليس الجهاد مجرد إعلان عن قصد لا يوجد، والتعبير عن نية هشة في كل مرة تشتد فيها الأزمات، ويزداد فيها الإحساس بالعجز، رغبة في ادعاء بطولة أو استثارة إيمان. الجهاد جهاد بالفعل دون إعلان بالقول. هو جهاد الصامتين وليس بيانات العاجزين.

صحيح أن مداد العلماء مثل دماء الشهداء ولكن تظل لدماء الشهيد الأولوية المطلقة على مداد العلماء. الدماء تروي الأرض والمداد يجف على الأوراق. الدماء دورة الحياة الأبدية في حين تبلى الأوراق.

(٣) معاني الجهاد في السنة النبوية

وقد أفرد البخاري في الجزء الرابع من صحيحه باباً في «فضل الجهاد والسير. ويبدؤه بالآية الكريمة: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به). ويتداخل الباب مع الدعوة إلى الإسلام شرقاً وغرباً لكسرى وقيصر، ودخول الإسلام بالبيعة على الإسلام والجهاد.

نحن الذين بايعوا محمدًا
على الجهاد ما حيينا أبدا

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرد عليهم:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة
فاغفر للأنصار والمهاجرة

فالجهاد ليس فقط عقيدة بل شريعة، وليس فقط أمراً واجباً بل سيرة متحققة في التاريخ، الجهاد والمجاهدون، النظر والعمل، الأمر والتحقق.

والجهاد في أي مكان يقع فيه اضطهاد البشر في عقائدهم وحرماتهم. والشهادة في أي مكان وفي أي موقع وفي أي موقف. وأنشد أسير للمسلمين:

ما أبالي حين أقتل مسلماً
على أي شق كان في الله مصرعي

قد تشير بعض الأحاديث إلى أن أفضل الأعمال الصلاة على ميقاتها ثم بر الوالدين ثم الجهاد في سبيل الله. وهذا لا يعني تأخير الجهاد إلى الدرجة الثالثة، فالكل جهاد، الصلاة، في وقتها وبر الوالدين جهاد بالوقت وجهاد بالعمر والنفس. وكذلك إذا روى «أفضل الجهاد حج مبرور، فالحج جهاد بالوقت والجهد والمشقة».

وقد يكون الحج جهاداً لما بينهما من قرينة الجهد والنصب « نعم الجهاد الحج» خاصة للنساء. ومع ذلك تخرج النساء مع الرجال للقتال لري العطشى ومداواة الجرحى، كما كانت تفعل نساء الرسول وأمهات المؤمنين، ويحملن القتلى إلى دورهم.

كما أن المجاهد مثل الصائم، جهاد النفس وجهاد العدو. ومع ذلك فقد آثر بعض الصحابة الغزو على الصوم «من آمن بالله، ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان دخل الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها» فالجهاد بالأعمال، أعمال الصلاة والصوم.

ويروى في نفس الوقت أنه لا يوجد عمل يعدل الجهاد «لغزوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها».



ويتمنى الشهيد أن يعود إلى الدنيا حتى يقاتل ويستشهد مرة أخرى، «ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى»، «والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل»، «لولا أن في ذلك مشقة على الأمة ألا تتخلف عن سرية، ولا تجد حمولة تمنعها من الخروج في سبيل الله وتتخلف عن الركب». ففي الشهادة لذة وفرح وسرور للشهيد ولرفاقه من الشهداء.

والجهاد في المكان دون الهجرة. الجهاد في الأرض في الوقت، «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد نية، وإذا استنفرتم فانفروا». والدنيا رباط وجهاد. والأمة في رباط إلى يوم القيامة، «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها. والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها». الجهاد تثبت بالأرض، ودرء للعدوان، والدفاع عن الحرمات.

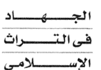
والصبر عند القتال، «إذا لقيتم فاصبروا». والصمود وقت الزحف. والنفس الطويل ينتصر على النفس القصير. والزمان والتاريخ مع المجاهدين. كانت حروب إسرائيل باستمرار خاطفة. والآن انتفاضة الاستقلال تطول وتصبر وتصمد في حرب المخيمات ونضال المجاهدين. ولا يعني وجود ضعاف في الأمة نكوصاً عن القتال. فالقتال دفاع عن الحرمات «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟». القتال دفاع عن النفس ضد العدوان وحماية للضعفاء الذين لا يستطيعون القتال، كالأطفال والنساء والشيوخ والمرضى.



والقتال من أجل الحق وليس من أجل العدوان والغنيمة والسلب والنهب «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». ويعني ذلك الانتصار للحق ومواجهة الظلم دفاعاً عن الحرية والمساواة ضد الاستعلاء والاستكبار. الجهاد لدرء العدوان. والقتال

ارتبط الجهاد بالهجرة في عديد من الآيات، (والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله). فالأمة واحدة، والعدوان عليها واحد، والعرب الأفغان يجاهدون في أفغانستان والشيشان والبوسنة وكوسوفو ولبنان وفلسطين وفي أي أرض إسلامية يقع عليها العدوان





مفروض على المسلمين، «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا». لذلك كتب القتال على المسلمين وهو كره لهم لما فيه من نصب. الجهاد للدفاع وليس للعدوان، لدرء المخاطر وليس لتهديد أحد.

والنصر بالرعب، «نصرت بالرعب». فلا يوجد عدو لا يقهر. والرعب فى قلب العدو، رعب الظلم والعدوان على الأبرياء. لذلك يفر العدو عند اللقاء أو يرفض النزال لأنه يعلم أنه مغتصب للأرض.

والحرب خدعة، الحرب فن الانتصار. ويتحقق النصر بعدة طرق وليس بالمواجهة المباشرة فقط، وفن خداع العدو ضمن الفنون العسكرية.

ويحرم قتل النساء والصبيان فى الحرب أو حرق الدور والنخيل فى حين أنه يجوز قتل العدو المحارب، فللحرب آدابها. وللقتال قواعده. ولا يكون القتال إلا مع المقاتلين القادرين حتى يتكافأ الخصمان.

ويرجز فى الحرب، وينشد الشعر فى القتال، فالشعر والثورة صنوان وكان ينشد يوم الخندق:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأعداء قد بغوا علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا

وكان المسلمون يقرأون فى الحرب (سيهزم الجمع ويولون الدبر. بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر). فالشعر والقرآن تقوية للروح المعنوية، ويمثلان الوجدان العربى قبل الإسلام وبعده.

ولا يجوز ربط الأسير أو تجويع الأبرياء أو ترك المرضى يموتون والجرحى ينزفون «فكوا العانى، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض». فللحرب آدابها. ولا نزال إلا بين المقاتلين.

ويقاتل عن أهل الذمة ويدافع عنهم. ولا يجوز استرقاقهم، ويوفى لهم. فللكنائس والمعابد حرمتها. ومن احتمى بكنيسة أو معبد فله الحماية.

والجهاد بالنفس وبالمال. الجهاد بالمال تجهيز المجاهدين والعناية بأسر الشهداء، «من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا». ومن احتبس فرساً فى سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة». وفرس اليوم هو الطائرة والدبابة والمصفحة والصاروخ والمدفع والبارجة، البذل فيها والعطاء لها موزون لصاحبه يوم القيامة.

ويطلب الولد للجهاد كما طلب داود. وللطليعة الفضل فى الجهاد، فالسابقون السابقون. وكان الرسول يتعوذ من الجبن والكسل والعجز والضعف.

والمجاهد فى سبيل الله يركب البحر كما تركب الملوك على الأسرة. وأول جيش من الأمة يغزو البحر فله أجر السبق، «أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا». وأول جيش للأمة يغزو الروم فله السبق أيضاً، «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم».

والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة. والخيل الآن هى المصفحة والدبابة والطائرة والصاروخ. كانت الخيل هى السلاح الرئيسى عند القدماء. لذلك كثرت الأحاديث فيه. والآن تنوع السلاح فى البر والبحر والجو بل وفى الفضاء.

والرمى بالرمح قديماً مثل الرمى براجمات اللهب وبالصواريخ حديثاً، «ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً»، «مالكم لا ترمون»، «ارموا فأنا معكم كلكم». فإذا تكاثر العدو على المسلمين فالرمى بالنبال «إذا أكثبوكم فاقتلوا بالنبل» مثل الصواريخ المضادة للدبابات والطائرات والرماح للرمى عن بعد مثل النبال، «جعل رزقى تحت رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى».



واليهود ضمن أعداء الأمة وهم اليهود الذين يخونون العهد، وينقضون الوعد، ويضمرون العدوان. وهم أشبه بصهاينة اليوم. وهم فى عداء للمسلمين، والمسلمون فى قتال معهم إلى يوم القيامة، «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر يقول يا عبدالله هذا يهودى ورائى فاقتله». ولا تقوم الساعة قبل أن يحدث ذلك، فينتصر المسلمون على اليهود. وعلى المسلمين إجلاء اليهود عن أراضى العرب درءاً للعدوان والغدر، ومنعاً لوجود بؤرة استيطانية تتوسع فيما بعد حتى تشمل أراضى العرب. ويظل اليهود كارهين للعرب، فقد تحولت النبوة منهم إليهم، وغضب الله عليهم وحكم عليهم بالتيه، فإما أن يسلموا وإما أن يغادروا، «انطلقوا إلى يهود.. اسلموا تسلموا، واعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإنى أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله». وكان الرسول يكبر فى حروبه مع اليهود «الله أكبر، خربت خيبر» وقد حاول اليهود سم الرسول: فإن كان كاذباً يستريحون وإن كان نبياً فلن يضره السم».

ويعدد النبى ست مراحل مستقبلية حتى يوم الساعة. الأولى من موته حتى فتح بيت المقدس. فبيت المقدس فتح للمسلمين. والثانية والثالثة موتتان ويصبح المسلمون كالغنم وربما هما الغزوتان، غزوة الصليبيين والاستعمار الحديث من الغرب والتتار والمغول من الشرق. والرابعة وفرة المال حتى ليعطى الرجل مائة دينار ويظل ساخطاً وربما هى فترة النفط وثروة النفط وعوائد النفط. والخامسة فتنة لا تترك بيتاً للعرب إلا دخلته. وهو حال العرب الآن من التفكيك والضعف والحروب الأهلية فى لبنان والجزائر أو الحروب بين العرب والمسلمين مثل حربى الخليج الأولى والثانية. والسادسة هدنة بين العرب وبنى الأصفر الذين يغدرون بالعرب، ويأتونهم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً. وهو حال العرب الذين صالحوا إسرائيل، وعقدوا معاهدات سلام معها، وغدرها بالعرب فى فلسطين بعد أوسلو ومدريد، وحصار المدن والمخيمات بمئات من الدبابات والمصفحات، والقضاء على السلطة الوطنية المنتخبة.

ومن أعداء الأمة قوم ينتعلون نعال الشعر، عراض الوجوه، صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، وهم أقرب إلى الآريين وإلى الغربيين الرومان أو الشرقيين التتار والمغول. « إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً ينتعلون نعال الشعر.. وأن تقاتلوا قوماً عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المطرقة». وأحياناً يعينون بالترك.

لقد نشأ الإسلام وسط الإمبراطوريتين القديمتين، الروم غرباً والفرس شرقاً. وورثهما المسلمون، فلا قيصر غرباً ولا كسرى شرقاً.. فالإسلام هو القوة البازغة فى نظام العالم القديم «هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده، وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده، ولتقسمن كنوزهما فى سبيل الله». وهو كذلك أيضاً فى نظام العالم الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية فى الشرق، وبداية التفسخ فى المجتمع الرأسمالى الغربى ومعارضة الشعوب للعولمة ورموزها مثل منظمة التجارة العالمية، ومجموعة الثمانية، واتفاقية الجات، والمجمع الصناعى العسكرى، والشركات المتعددة الجنسيات، واقتصاد السوق.



وللمجاهد الشهيد الجنة إن لم يرجع سليما مع أجر أو غنيمة. الجهاد بمقاييس الدنيا أخذ وعطاء، فوز وتضحية، غنم وغرم، وبمقاييس الآخرة غنم وفوز. وللمجاهدين فى الجنة درجات تبلغ المائة، ما بين درجة وأخرى كما بين السماء والأرض. أوسطها الفردوس، وأعلاها فوق العرش، ومنه تفجر الأنهار. دار الشهداء أحسن الدور. ويأتى الشهيد يوم القيامة اللون لون الدم، والرائحة ريح المسك. والشهادة تغفر الذنوب. والتضحية بالنفس تجب كل شىء، «ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار»، فتمسه و«الجنة تحت ظلال السيوف». وظل الملائكة على الشهيد «مازالت الملائكة تظله بأجنحتها تباركه وتحييه وتسعده».

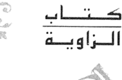
(٤) معانى الجهاد عند الفقهاء

ولم يتأخر الفقهاء عن التأليف فى الجهاد كباب مستقل من أبواب الفقه مثل «كتاب الجهاد» لعبدالله بن المبارك (١٨١هـ). وكتب الفقه تجميع للآيات القرآنية والأحاديث النبوية حول موضوع واحد اعتماداً على الحجة النقلية دون العقلية، ومع أقل قدر من التنظير العقلى أو وصف لبنية الموضوع بالرغم من قسمته إلى جزءين.

ويعتبر ابن المبارك أن الجهاد تطبيق لمبدأ وحدة القول والعمل، (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون). فالجهاد عمل لتحقيق القول، والقول إعلان عن الإيمان فى الشهادة، (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم). والجنة فى مقابل

الإيمان بلا جهاد كالإيمان بلا عمل، والقول بلا فعل، والنية بلا تحقق، وهى سمة المنافقين. والتخلف ليس فرحاً بل هو حزن ونكوص







دير ياسين
خطة الهجوم

حشدت إيتسل وليحى قوة عددها ٢٠٠ من أشرس مقاتليهما للهجوم على دير ياسين. وقد وُضع نحو ٧٠ منهم فى الاحتياط، بينما نُظِّم الباقون كقوة هجومية قُسِّمت إلى أربع شرازم، وعُيِّن بن تسيون كوهيل (إيتسل) قائدًا للهجوم.

ووُزِّعت البنادق والرشاشات الأوتوماتيكية على المقاتلين، كما أعطى كل مقاتل قنبلتين يدويتين ومسدسًا وهراوة. وكان لكل شرذمة مدفع رشاش.

تضمنت خطة الهجوم التحرك على أربعة محاور:

أولاً: شرذمة ليحى بقيادة موردخاى بن عوزيهو تتقدم من غفعت شاؤول إلى دير ياسين من الشمال فى اتجاه الزاوية القائمة حيث تلتقى الطريق الرئيسية غرب - شرق، الموصلة من غفعت شاؤول إلى دير ياسين، الطريق شمال - جنوب التى تمر أمام قلب القرية (الحارة)؛ ثانيًا: شرذمة مختلطة تتقدمها مصفحة عليها مكبِّر للصوت بقيادة منشه أيخلر، تندفع من الشرق إلى قلب القرية على الطريق الرئيسية من غفعت شاؤول، ثالثًا: شرذمة بقيادة يهودا سيغل تنطلق من مستعمرة بيت هكيرم وتقتحم القرية من الناحية الشرقية الجنوبية عند جامع الشيخ ياسين، رابعًا: شرذمة بقيادة يهودا لبيدوت تنطلق من بيت هكيرم وتهاجم القرية من الجنوب الغربى كى تسيطر على الأعالى الغربية للقرية من الخلف.

وعُيِّنت ساعة الصفر فى الخامسة والربع فجرًا، على ألاّ تبدأ القوات المهاجمة إطلاق النار قبل أن تصل كل منها إلى هدفها فى أطراف القرية وفى وسطها، وبعد أن تُطلق رشقة ضوئية من مدفع رشاش إيذانًا ببدء الهجوم العام.





الجهاد فى التراث الإسلامى

الشهادة: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة).

والشهادة تعبير عن صدق الإيمان، (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً). وهى استباق للخير، (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض). وهى النفير للحق والقيام دفاعاً عنه، (انفروا خفافاً وثقالاً)، (والسابقون السابقون). الشهادة منافسة وتسابق وتسارع لنيل الخير. ومن يقاتل مع النبى فهو ربانى مثله، (وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير).

والشهيد مثل القائم الصائم الخاشع الراكع الساجد. فالشهادة عبادة، وركن من أركان الإسلام. المجاهد فى سبيل الله كالصائم القائم بآيات الليل وآناء النهار. فالشهادة ركن من أركان الإسلام تعادل كل ركن وتفضلها جميعاً. «رباط يوم وليلة كصيام شهر وقيامه». المجاهد للعدو فى ساحة الوغى مثل المجاهد نفسه بالصلاة والصيام والزكاة.« يوشك أن يأتى على الناس زمان خير الناس فيه منزلا، رجل أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله، كلما سمع هيعة استوى على فرسه ثم طلب الموت مظانه، ورجل فى غنيمة فى شعب من هذه الشعاب، مقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعتزل الناس إلا من خير حتى يأتيه الموت».

ولا يوجد فضل يعادل الشهادة، «والذى نفسى بيده لو أنفقت ما فى الأرض ما أدركت فضل غدوتهم». فالتضحية بالنفس أغلى من التضحية بالوقت والشبع والمال والجهد. هى التضحية الشاملة، «لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله» فهى رهبانية الخارج وليست رهبانية الداخل، فى العالم وليست مع النفس، و«سياحة الأمة الجهاد فى سبيل الله». فالجهاد سعى فى الأرض، وانتشار فى العالم.

والشهداء أمناء الله، قتلوا أو ماتوا على فراشهم، سقطوا فى المعركة أم قضى نحبهم من جراحهم. فالشهادة نية وفعل، قصد وتحقق. وقد انتقل خالد بن الوليد إلى ربه وهو على فراش الموت ولا توجد بقعة فى جسمه إلا وبها ضربة سيف أو طعنة رمح. والشهيد بالنية حتى لو لدغته هامة أو أوقعته دابة. فالشهادة سعى فى سبيل الله غدوة ورواحاً، «إن خير الناس رجل مجاهد». فالجهاد لا يعدله فضل صدقة أو عون أو تقوى.

والأمة فى رباط إلى يوم القيامة، «إن الله بعثنى بالسيف بين يدى الساعة، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعل الذل والصغار على من خالفنى، ومن تشبه بقوم فهو منهم». فالأمة حاملة للرسالة، والرسالة أمانة فى الأرض. والتدافع قانون تاريخى. ومن ثم تظل الأمة إلى يوم الدين حاملة لهذه الأمانة.

والشهداء على ثلاث درجات. الأول الشهيد الممتحن وهو المؤمن المجاهد بنفسه وماله، وفى خيمة الله تحت عرشه، ولا يفضله إلا النبى، والثانى الشهيد الذى كفر عن ذنوبه بشهادته، فالسيف ممحاة للخطايا. والثالث الشهيد المنافق وهو أقل الدرجات لأن السيف لا يمحو النفاق. فالشهادة صدق فى البداية وصدق فى النهاية.



وأول من يحبهم الله «رجل كان فى فئة أو سرية فانكشف أصحابه فنصب نفسه ونحره حتى قتل». فهو شهيد مرتين، مرة لأنه ضحى بنفسه، ومرة لأنه أحيا الآخرين. الشهيد من سد الثغرة، وحمى الرفاق، وضحى بالنفس فى سبيل المجاهدين». «وأفضل الشهداء عند الله الذين يلقون فى الصف فلا يلتفتون وجوههم حتى يقتلوا»، أى المجاهد الذى يخلص فى القتال، ويواجه العدو دون تردد، الإقدام دون الإحجام واليقين فى المواجهة، والتركيز على العدو.

وأفضل جهاد « من عقر جواده وأهريق دمه»، أى من فقد سلاحه وداهمه العدو. فالجهاد قوة إرادة أكثر من كثرة السلاح، ويقاتل الفلسطينيون بسلاح أقل وإرادة أشد عدواً بسلاح أكثر وإرادة أضعف. «يوم فى سبيل الله خير من القيام فيما سواه». فالزمان تاريخ، والعمر خلود، المجاهد مصب التاريخ ومحرك الزمان، ومغير الأحوال، ومبدل الأمم والشعوب.

والشهداء أربعة. مؤمن لاقى العدو حتى قتل، ومؤمن أقل إيماناً أتاه سهم فقتل. ومؤمن خلط عملاً صالحاً بعمل طالح، ومسرف على نفسه قاتل فقتل، والكل شهيد ولكن على درجات متفاوتة. أفضلها الإيمان والفعل وأقلها الفعل حتى وإن ضعف الإيمان والشهادة عمل صالح لا يختلط بعمل أقل صلاحاً. الجهاد قصد، وغاية الاستشهاد نية وفتح، وليس مجرد إسراف فى القتل، قتل النفس أو قتل الآخر.

وخير الناس منزلاً من امتطى فرسه فى سبيل الله فجاهد حتى قتل، ثم امرىء اعتزل يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعتزل شرور الناس، فالجهاد فى العالم له الأولوية على الجهاد فى النفس. « المجاهد من جاهد نفسه بنفسه».

والجهاد فى بقاع الأرض بالشام والعراق واليمن. وخير الجهاد فى الشام فإنه جهاد الأنبياء، «إنكم ستجندون أجناداً، جنداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن.. وعليك بالشام، فمن أبى فليلحق بيمنه وليستق بغدره فإن الله عز وجل تكفل لى بالشام وأهلها». وفلسطين جزء من الشام والمدخل إليه. فالجهاد فى فلسطين لإزاحة الاحتلال الصهيونى والحصار عن شعب العراق مثل الجهاد فى الشام. وفى اليمن خير وبركة، فالحكمة يمانية. الشام أرض الأنبياء، والمدخل الشرقى لمصر وأمنها القومى، وقد زرعت إسرائيل بالشام لفصل المشرق العربى عن المغرب العربى وتهديد مصر.



والغزو فى البر والبحر. بل إن القتال فى البحر خير من القتال فى البر. وشهيد البحر له أجران مثل شهيد البر. ومن ثم كان الدفاع عن البحر الأحمر كامن قومى عربى جهادا فى سبيل الله. والدفاع عن سواحل الشام والخليج ضد القواعد الأجنبية جهادا فى سبيل الله. «من لم يدرك معى فليغز فى البحر فإن قتال يوم فى البحر خير من قتال يومين فى البر. وإن أجر الشهيد فى البحر كأجر شهيدين فى البر، وإن خيار الشهداء عند الله عز وجل أصحاب الأكف، قوم تكفأ عليهم مراكبهم فى البحر». لذلك عبر المسلمون أفريقيا إلى الأندلس ركوباً للبحر وفتحوا جزر البحر الأبيض المتوسط قبرص وكريت ومالطة عبر البحر. وانطلقت دولة الخلافة إلى أوروبا الشرقية عبر مضيقى الدردنيل والبوسفور. وانطلق المسلمون شرقاً عبر خليج فارس وبحر العرب حتى ماليزيا وأندونيسيا والفلبين ومن يركب الناقة قادر على أن يركب الفلك وامتداد الصحراء فى الأفق مثل امتداد المحيطات، ولا نهائية اليابس لا تختلف عن لا نهائية الماء، ومن فاته الغزو فى البر مع الرسول فإنه فى البحر مع الأمة.

والغزو فى البر والبحر لا تراجع فيه، ولا انحسار للفتوحات، فالأرض التى يبلغها الإسلام تظل كذلك إلى يوم الدين، «إنكم ستجندون أجناداً، وتكون لكم ذمة وخراج، ويكون لكم على سيف البحر مدائن وقصور. فمن أدرك ذلك فاستطاع أن يحبس نفسه فى مدينة من تلك المدائن أو قصر من تلك القصور حتى يموت فليفعل».

والشهيد أول من يدخل الجنة قبل العبد المملوك والعفيف المتعفف. فهو أول المستحقين. والاستحقاق بالحياة له الأولوية على الاستحقاق بالفعل. والكل يسبق الجزء. فالشهيد فى أعلى عليين. «ومن رمى بسهم فبلغه فله درجة فى الجنة». الشهادة نضال فى الأرض وفوز فى السماء، تحقيق قصد فى الأرض ونيل فوز فى السماء.

وثلاثة عيون لا تحرقها النار أبداً، العين الباكية من خشية الله، والعين الساهرة مع كتاب الله، والعين الحارسة للمجاهد فى سبيل الله.



وأجر المجاهد على الله قد يسلب منه الحق فى الأرض، وقد يناله بعض السوء من طغيان الحكام. ومع ذلك هو فى زمرة الأنبياء والرسل، «إنه سيكون فى أمتى قوم يسد بهم الثغور، تؤخذ منهم الحقوق، ولا يعطون حقوقهم، أولئك منى وأنا منهم، أولئك منى وأنا منهم.

وأفضل الشهداء تدركهم الشهادة وهم فى رباط مثل شهداء المقاومة الفلسطينية، «يبعث الله عز وجل يوم القيامة أقواماً يمرون على الصراط كهيئة الريح ليس عليهم حساب ولا عذاب.. أقوام يدركهم موتهم فى الرباط».

والشهادة عمل مستمر حتى يوم القيامة، عمل يولد أعمالاً صالحة. الشهادة حياة مستمرة فى الأرض وفى السماء، وفى الأوطان وفى الجنان، «كل ميت يختم على عمله إلا الذى يموت فى سبيل الله فإنه يجرى عليه أجر عمله حتى يبعث».

(٥) معانى الجهاد عند بعض المصلحين

وتبدأ معانى الجهاد عند المصلحين من القرآن والسنة والفقه بالإضافة إلى ظروف العصر وتحدياته والقدرة على الخروج من المنهج النصى إلى المنهج الاجتماعى. فالجهاد ليس فقط أمراً شرعياً بل هو أيضاً حركة اجتماعية، تبدأ من الفرد وتمتد إلى الجماعة، ثم تتحول إلى حركة تاريخية.

فأقرب الكتابات الإصلاحية إلى الكتاب والسنة والفقه القديم هو رسالة «الجهاد فى سبيل الله» للإمام الشهيد حسن البنا. إذ يبين - أولاً - أن الجهاد ركن من أركان الإسلام، وفريضة على كل مسلم ومسلمة. ثم يذكرنا - ثانياً - بعض آيات الجهاد فى الكتاب ليس عن طريق تحليل الألفاظ، لفظ «الجهاد»، بل عن طريق معانيه مثل القتال والغزو والاستعداد والتخلف عن القتال والجهاد بالنفس والمال ثم الفوز فى الآخرة. فالجهاد فرض، (كتب عليكم القتال وهو كره لكم)، ومع ذلك فعسى أن نكره شيئاً وهو خير لنا. وعسى أن نحب شيئاً وهو شر لنا. فالقتال فى الظاهر ألم وفراق وجهد ومشقة واستشهاد. وهو فى الباطن فرح ونعيم وسعادة وفوز أبدى. ويظن القاعدون والمخلفون والمنافقون أن التخلف عن الجهاد منجاة من الموت، والموت حكم عام على البشر جميعاً، القاعدين والمجاهدين، (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت). والشهداء أحياء عن ربهم يرزقون، (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون). فالمجاهد هو الذى اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، وقاتل فى سبيل الله فيؤتيه أجراً عظيماً. الجهاد أمر شرعى بالاستعداد لملاقاة العدو، وإرهاب عدو الله. وهو أمر بتحريض النبى المؤمنين على القتال، والقلة الصابرة تغلب الكثرة الباغية. وقتال البغاة جزء من عذاب الله لهم بأيدى المؤمنين. والجهاد استنفار لبذل المال والنفس، (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون). أما المخلفون فإنهم يخشون القتال لما به من نصيب وجهد ومشقة فى الحر. والقاعد أول مرة لن يجاهد ثانى مرة. فالجهاد طواعية

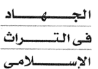


دير ياسين
القتل الجماعى

تروى زينب عطية، زوجة محمود زهران، الذى كان منزله بعيداً عن منازل سائر آل زهران وفى وسط القرية، أنها كانت عند بدء الهجوم فى المنزل مع أخيها موسى عطية (١٥ عامًا) وأولادها: آمنة (٥٠ يومًا) وخليل (عامان) ومريم (٣ أعوام) وسهيلة (٥ أعوام)، وسمعت إطلاق رصاص غزير وصراخًا وعويلاً من جهة منازل آل زيدان القريبة منها، والتى كان منزلها ذو الطبقتين يشرف عليها. فتنظر عبر النافذة وتشاهد اليهود وقد جمعوا عموم أفراد عائلة زيدان أمام منازلهم الثلاثة، وأخذوا يطلقون الرصاص عليهم، فلا يسلم منهم أحد.

وتقول زينب: «رأيت هذا بأم عينى حيث إننى أسكن مقابل منازل هؤلاء وكلهم أفراد عائلة واحدة يعيشون مع بعضهم البعض». وبعد فترة يقترب من منزل زينب خمسة يهود تصحبهم فتاتان يحملون السلاح وأكياسًا بداخلها قنابل يدوية، ويطلبون منها أن تفتح الباب وإلا ألقوا قنبلة على المنزل. فترفض وتقول فى نفسها: «قنبلة تجهز علينا دفعة واحدة أفضل من أن نُقتل بالرصاص كما فعلوا بعائلة زيدان». وإذ بهم يقذفون البيت بقنبلة تحطم الباب والزجاج، وتجرح كلاً من آمنة ومريم، ثم يقتحمون المنزل ويمسك أحدهم بأخيها موسى فتستغيث وتستعطف ألاّ يقتله وتعرض عليه مبلغ ٢٠٠ جنيه فى مقابل إنقاذه فيُبدى قبولاً ويأخذ المبلغ ويضعه فى جيبه، لكنه يدفع بموسى إلى الشارع ويوقفه رافعًا يديه أمام حائط ويرديه. وتتابع زينب: «بعدها أخذتُ أنحنى على قدميه متوسلة حتى لا يقتل أطفالى فأخذنا جميعًا إلى حيث كانوا يجمعون النساء وتركنا هناك.





لا جبراً، وحرية لا قسراً، يرتعشون من سورة القتال بعد نزولها.



والأحاديث كثيرة على الجهاد والقتال. يشير البعض منها إلى تمنى الشهيد أن يقتل ثم يعود إلى الدنيا ليقتل من جديد لعذوبة الشهادة. والمجاهد من جاهد بنفسه وماله، من امتطى جواده ومن أعده وجهزه. وهو ركن من أركان الإسلام، يعادل الصيام والصلاة. والحج. ومن رابط ليلة كمن صام ألف ليلة. والشهيد لا يتالم فى موته. ولا يشعر بالضربة إلا كقرصة. ومن عاش ولم ينو الجهاد مرة لقى ربه خجولاً. «من لقى الله بغير أثر من جهاد لقى الله وفيه ثلمة». الجهاد ترك عرض الدنيا والتوجه لما هو أبقى، « إذا تبايعتم بالنسيئة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم». ومن مات ولم يغز مرة فى حياته مات وفى قلبه بعض النفاق، « من مات ولم يغزْ ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق».

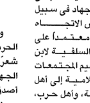
أما حكم الجهاد عند فقهاء الأمة فإنه عند الأحناف بذل الوسع من القول والفعل، ورد البغاة والمعتدين، فهو فرض كفاية، وبداية بالقتال. وعلى الإمام أن يبعث بسرية إلى دار حرب كل سنة مرة أو مرتين مع إعانة الرعية له. وإن لم تقع الكفاية إلا بجميع الناس فإنه يصبح فرض عين كالصلاة ولقول الرسول «الجهاد ماض إلى يوم القيامة. وإن امرأة سبيت بالمشرق وجب على أهل المغرب تخليصها ما لم تدخل حصونهم وحرزهم». وعند المالكية الجهاد فى سبيل الله فرض كفاية أيضاً إلا إذا جعله الإمام فرض عين كالصلاة إذا ما هجم العدو واعتدى على المسلمين. وعند الشافعية الجهاد فرض كفاية إلا إذا وقع الاعتداء على المسلمين فإنه يصبح فرض عين. وعند الحنابلة هو أيضاً فرض كفاية إلا إذا تقابل الزحفان وإذا وقع الاعتداء على المدن الآمنة وإذا استنفر الإمام المسلمين. وهو فرض على الأقل مرة كل عام.

ويقاتل المسلم استعداداً لردع العدوان وحماية للأمة لأن الإسلام رسالة هداية وعدل. فإذا ما طلب العدو السلم استجيب له، (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله). والقصد من الجهاد إعلاء كلمة الله وليس الجاه وحب الظهور والطمع فى الغنيمة والغلبة، «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله».



وبالرغم من القتال إلا أن الرحمة واردة فى الجهاد. إذ يحرم الاعتداء، (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين). والعدل عام ينطبق على الناس جميعاً أقرباء وأباعد، (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)، فالغزو باسم الله دون غل أو غدر أو تمثيل أو قتل للأطفال والنساء والشيوخ، «اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا». ولا يتطلب القتال تشويه الوجه والتمثيل بالجثة، «إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه». وإن من الجهاد أيضاً قول الحق فى وجه إمام جائر، «إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». فالجهاد ضد الطغيان فى الداخل والخارج.

ويبين المودودى فى رسالته «الجهاد فى سبيل الله» خطأ ترجمة الغربيين لها بلفظ Holy War أى الحرب المقدسة أسوة بما كانت تقوم به الكنيسة فى الغرب. وذلك مثل خطأ الغرب فى اعتبار الإسلام نحلة Religion والأمة دولة وطنية . Nation وحقيقة الجهاد من طبيعة الإسلام باعتباره فكرة انقلابية ومنهجاً انقلابياً، تعيد بناء المجتمع بأسره على أساس من الحرية والمساواة وتحت شعار «لا إله إلا الله». وهذا يتطلب الجهاد. وهو يعادل لفظة Struggle بالإنجليزية. وهو جهاد فى سبيل الله، وابتغاء وجه الله ضد الذين يقاتلون فى سبيل الطاغوت، (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت). الجهاد فى سبيل الله جهاد فى سبيل الحرية والمساواة ضد العلو والإفساد فى الأرض، (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين). ودعوة الإسلام الانقلابية تقتضى ألا تكون العبودية إلا لله، (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله). فالإسلام دعوة إلى انقلاب عالمى شامل وتطبيق للحاكمية، (إن الحكم إلا لله)، ضد الملوك والطغاة. (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون). وقد ادعى فرعون الألوهية وقال (أنا ربكم الأعلى)، (ما علمت لكم من إله غيرى)، (أنا أحيى وأميت)، (وقالوا من أشد منا قوة)، وتقتضى دعوة الإسلام الانقلابية تغيير النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتغييرها تغييراً شاملاً دون سطوة طبقة على طبقة. الجهاد إذن هو الوسيلة لتحقيق الحاكمية، وتحويل العقيدة إلى شريعة، نظام العدل فى مواجهة نظام الظلم.



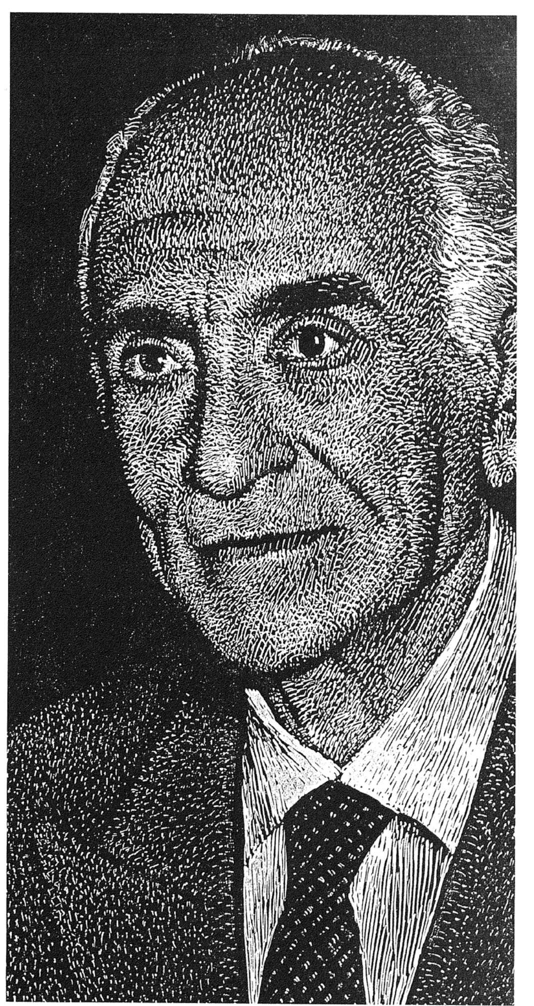
ولا تجوز قسمة الجهاد إلى هجومى Offensive ودفاعى Defensive فالدفاع اعتذار، إنما الإسلام بطبيعته حركة تحرر فى التاريخ، يقلب نظم البغى والطغيان. فالإسلام والجور نقيضان. والحرية والقهر لا يلتقيان. ولا خوف على حقوق أهل الذمة فى الإسلام فقد جمعته المواطنة والمساواة فى الحقوق والواجبات مع المسلمين. إنما يناهض الجهاد قوى الطغيان. وهما بلغة العصر الاستعمار والاستغلال .

ويأخذ سيد قطب فى رسالته «الجهاد فى سبيل الله» نفس الاتجاه التحررى معتمداً على الكتابات السلفية لابن القيم وتقسيم المجتمعات غير الإسلامية إلى أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة. ولا يقاتل أهل العهد إلا بعد خرقهم له وإعلامهم بذلك. وأهل الذمة جزء من الأمة. أما أهل الحرب فهم الذين يقاتلون الذين نزلت فيهم سورة «براءة». وهذا يدل على أن الإسلام يتسم بالواقعية الجدية، والواقعية الحركية، والحركة الدائبة، والضبط التشريعى لعلاقة المجتمعات بعضها بالبعض. الجهاد ضد الاستكبار فى الأرض والقوى السياسية التى تقوم عليه. ولا فرق بين دفاع وهجوم كما هو الحال عند المودودى. والإسلام إعلان عام لتحرير الإنسان فى الأرض من عبودية العباد إلى عبودية الله (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله)، وهو ليس الحكم الثيوقراطى المعروف فى الغرب بل حكم الشريعة. القتال إذن لدرء العدوان، والدفاع عن الحرية، (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله). فالقتال للبغاة، (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم). والجهاد ضد البغاة ومن يساعدونهم، (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة). ولقد أخطأ المستشرقون عندما تصوروا أن الإسلام انتشر بالسيف للإكراه على العقيدة مع أن تحرر البشر حركة طبيعية لا تحتاج إلى سيف. السيف للبغى والظلم والعدوان وهو مضاد لطبيعة البشر.

وفى «ضرب الكليم» والذى أعلن فيه الحرب على العصر الحاضر أنشد محمد إقبال شعرًا فى الجهاد ضد فتاوى الشيوخ التى تنكر الجهاد وتكتفى بالعلم، فى حين أن السيف أصدق إنباء من الكتب. فالوعظ مجرد لغو فى حين أن السيف هو أداة النضال ضد الطغاة، فلدى المسلمين الحق دون القوة، ولدى الغربيين القوة دون الحق.

الشيخ أفتى أنه عصر القلم
والسيف فيه حاكم بين الأمم
أما درى الشيخ أن وعظه
فى مسجد قد صار من لغو الكلم
فما ترى السلاح كف مسلم
بل قلبه من لذة الموت حرم
من قلبه يهاب موت كافر
فكيف ميتة الشهيد يغتنم
فعلمن ترك الجهاد طاغية
من كفه يسيل فى العالم دم
أما ترى الغرب بدا مدججاً
ليحفظ الباطل فى عز عمم
يا مفتياً على الكنيس مشفقاً
قد صار فى أحكامه أولو الفهم
الحرب فى المشرق شر داهم
والحرب فى المغرب شر لا جرم
إن يبتغ الحق فكيف حاسب
المسلم لا الفرنج ذلك الحكم ■

يقاتل المسلم استعداداً لردع العدوان وحماية للأمة لأن الإسلام رسالة هداية وعدل . فإذا ما طلب العدو السلم استجيب له، والقصد من الجهاد إعلاء كلمة الله وليس الجاه وحب الظهور والطمع فى الغنيمة والغلبة



■■ استطاع كمال الشيخ بأول فيلم من إخراجه (المنزل رقم ١٣) ١٩٥٢، وما تلاه من أفلام، أن يسجل اسمه باعتباره رائدًا لأفلام التشويق في السينما العربية عامة. وإذا كان كل عمل فني لا يخلو من التشويق بالضرورة، إلا أن ما نقصده بأفلام التشويق هنا هو الأفلام التي تعمل على إثارة نوع معين من التوتر الذهني والعاطفي لدى الجمهور مما يدفعه إلى ملاحقة أحداثها وترقب نتائجها، والأهم من ذلك أنها تجعل من هذه الإثارة هدفًا في حد ذاته باعتبارها مصدر متعة للجمهور وليست مجرد وسيلة لتمرير مضامين معينة، وإن كانت هذه الأفلام لا تخلو من مضامين (أخلاقية عادة). وفيها تقوم الجريمة بالدور الرئيسي غالبًا حيث تمثل مركز الثقل في معظمها.

والنموذج الشائع لهذه النوعية من الأفلام على المستوى العالمي هو أفلام هتشكوك، وإن كان كمال الشيخ (في حديث خاص معي) ينكر تأثره بهذا الفنان العالمي ويرى أنه أقرب إلى التأثر بفنان عالمي آخر هو «فريتزلانج» الذي شاهد له وهو في مرحلة التكوين فيلمه الرائع «متروبوليس» وكان من عوامل إبهاره بالسينما وانجذابه إليها.

ومع حرص كمال الشيخ على الاحتفاظ بعامل التشويق في كل أفلامه (٣٤ فيلمًا حتى الآن)، فإنه حرص في نفس الوقت على تقديم نماذج مختلفة منها، كما كان لعامل النضج الفكري والحرفي معًا أثرهما بالطبع في اختلاف مستوياتها وتعميق اتجاهاتها على نحو ما يتبين لنا من محاولتنا التالية لتأمل أعمال هذا الفنان السينمائي المبدع.

أفلام الجريمة

هي الأفلام التي تبنى عوامل التشويق فيها على أساس جريمة يرتكبها الشخص بدافع ذاتي هو الطمع في الحصول على المال أو الجنس في غالب الأمر، ويمثلها من أفلام كمال الشيخ: «المنزل رقم ١٣» عام ١٩٥٢، «تجار الموت» ١٩٥٧، «من أجل امرأة» ١٩٥٩، «ملاك وشيطان» ١٩٦٠، «لن أعترف» ١٩٦١، «الشيطان الصغير» و«الليلة الأخيرة» ١٩٦٣، و«الخائنة» ١٩٦٥.

وتمتلك السينما الأمريكية - خاصة - تاريخًا طويلاً من أفلام الجريمة، يبدأ مع بدايات السينما بفيلم «سرقة القطار الكبرى» إخراج بورتر ١٩٠٣. وتدور الكثير من هذه الأفلام حول جرائم العصابات، ومن أشهرها «بوني وكلايد» إخراج آرثر بن ١٩٦٧، والأب الروحي إخراج كوبولا ١٩٧٢، غير أن الجريمة لا تقتصر على العصابات وحدها، هناك الكثير من الجرائم التي يرتكبها أفراد يعيشون على السطح كمواطنين يراعون القانون ولكنهم متورطون في مشروعات غير قانونية. وهذا

من التشويق إلى التحريض

هاشم النحاس

الشكل من الجريمة الفردية هو ما يتناوله كمال الشيخ - غالبًا - في أفلامه، ولعل هذا يرجع إلى أنه الأقرب إلى مجتمعنا الذي يخلو تقريبًا من عصابات الجريمة المنظمة.

ويعتبر فيلم «المنزل رقم ١٣» ١٩٥٢ - في رأيي - نموذجًا نمطيًا بارزًا لأفلام الجريمة التي أبدعها كمال الشيخ في السينما المصرية حيث يبدأ بجريمة يرتكبها (عماد حمدي) بدون وعي وإن كان يتذكرها كما لو كانت حلمًا أو كابوسًا. إلا أنه يجد على قميصه بقعة دم، كما يجد مفتاحًا غريبًا في جيبه نعلم فيما بعد أنه مفتاح الشقة التي ارتكب بها الجريمة، ومع تقدم الأحداث نعلم أن المجرم الحقيقي هو الطبيب النفسي (محمود المليجي) الذي يعالجه، وقد ساقه لارتكاب الجريمة تحت تأثير التنويم المغناطيسي للحصول على التأمين الذي رصده الضحية لعشيقته من بعده.

ويعتمد السيناريو في إثارة التشويق على توظيف «المفارقة الدرامية» حينما يكشف للمتفرج عن شخصية المجرم الحقيقي بينما تبقى مجهولة بالنسبة للضحية. وإمعانًا في إثارة التوتر ورفع نسبة التشويق بتطوير استخدام نفس الحيلة - وهي المفارقة الدرامية - نجد عروس الضحية (فاتن حمامة) بعد القبض على عريسها وسجنه تلجأ إلى الطبيب (محمود المليجي) وهو المجرم الحقيقي طلبًا لمعونته في إنقاذ عريسها، وفي سبيل ذلك تكشف له عن خطة المحامي في البحث عن المجرم دون أن تعي خطورة ما تقدم عليه.

وتلعب المفاجأة دورها في إثارة التوتر عندما تقبل العروس (فاتن حمامة) على شقة الشاهد الوحيد على المجرم في نفس اللحظة التي يغتاله فيها (محمود المليجي)، لكنها بدلاً من أن تكتشف حقيقة المليجي يستطيع هو أن يختبئ لتفاجأ بالقتيل ثم تفاجأ بقدوم المليجي ليأخذها بعيدًا عن موقع الجريمة بينما ترك حقيبتها إلى جانب القتيل ثم يبلغ عنها البوليس ويدفع المجرم الأحداث إلى مزيد من التشويق عندما يجبر العروس وهي تحت تأثير التنويم المغناطيسي على كتابة اعتراف بقتل الشاهد وقرارها بالانتحار.

ويصل الفيلم إلى ذروته بحيلة التشويق التقليدية التي تتمثل في «المطاردة والإنقاذ في آخر لحظة»، حيث يهرب البريء (عماد حمدي) من سجنه ليطارد المجرم (محمود المليجي) بعد أن عرف حقيقته، في اللحظة التي يقود فيها المجرم عروسه (فاتن حمامة) للانتحار من فوق الكوبري. ويتم الإنقاذ في آخر لحظة بعد معركة بين البطل والشرير، ويأتي البوليس في الوقت المناسب للقبض على المجرم الحقيقي.

ويلجأ كمال الشيخ في هذه المطاردة الأخيرة إلى استخدام تكنيك «التوليف المتوازي» لينقلنا بالتناوب عدة مرات بين طرفي الصراع حيث نرى الطبيب وهو يقود ضحيته إلى موقع الانتحار بينما يحاول البطل اللحاق به قبل تنفيذ جريمته. وهي نفس الحيلة التي اشتهر باستخدامها هتشكوك لإثارة الترقب والتشويق في كثير من أفلامه كما في أفلام «الدرجات التسع والثلاثون» ١٩٣٥، و«الفتاة الصغيرة» ١٩٣٨، و«السيدة المختفية» ١٩٣٨، و«المراسل الأجنبي» ١٩٤٠، و«الشك» ١٩٤١، و«المخرب» ١٩٤٢.. وغيرها.

يقول كمال الشيخ - في حديث خاص - أنه استمد فكرة الفيلم من خبر قرأه في إحدى الجرائد عن طبيب نفساني في الخارج استعان بالتنويم المغناطيسي للسيطرة على شخص وتوجيهه إلى إطلاق مسدس (فارغ) على شخص آخر. ولجأ كمال الشيخ إلى علي الزرقاني لكتابة سيناريو الفيلم الذي جاء على صورة تخالف الفيلم المصري التقليدي الشائع وقتها بابتعاده عن الرقص والأغنية والأحداث الرومانسية أو الميلودراما.

كما جاء الفيلم على مستوى من التمكن الحرفي في سرد الأحداث وضبط الإيقاع والأداء عامة - بالنسبة لمرحلته التاريخية في إطار السينما المصرية خاصة - مما يجعله فتحًا جديدًا لهذه النوعية من الأفلام في السينما العربية، مستعينًا في ذلك بأساليب التشويق الدرامية التي وظفها بمهارة وحافظ على استخدامها في أفلامه التالية بحيث أصبحت سمات أسلوبه المميزة، ومنها مما جاء ذكره في التحليل السابق: الغموض، والمفارقة الدرامية، والمفاجأة، والمطاردة، والتوليف المتوازي، والإنقاذ في آخر لحظة.

هذا بالإضافة إلى أن الفيلم تضمن أيضًا من الأفكار ما كان بمثابة الجذور أو المحاور الرئيسية لبعض أفلامه الأخرى مثل: الجريمة الغامضة (كما في تجار الموت، والخائنة، والليلة الأخيرة، وعلى من نطلق الرصاص) والمتهم البريء (كما في لن أعترف والخائنة)، واستخدام المفارقة الدرامية باللجوء إلى المجرم نفسه طلبًا للمعونة (كما في لن أعترف والمخربون)، واستغلال فكرة بوليصة التأمين (كما في تجار الموت ومن أجل امرأة)، والاستعانة باكتشافات علم النفس (كما في أفلامه النفسية التي نتعرض لها لاحقًا).

ويعتبر فيلم «تجار الموت» ١٩٥٧ - في نظري - إعادة صياغة (من بعض الوجوه) لفيلمه الناجح الأول «المنزل رقم ١٣». ذلك أن دافع الجريمة فيهما واحد وهو القتل من أجل الحصول على التأمين، والمجرم المدبر فيهما طبيب يستغل مهنته في تدبير الجريمة، وكان ممثل هذا الدور فيهما واحدًا هو (محمود المليجي). ولا عجب أن كاتب السيناريو لهما واحد وهو علي الزرقاني.

ولكن الأحداث في الفيلم تبدو أكثر كثافة وأكثر تشابكًا وأكثر حبكة وإحكامًا، وبذلك يصعد المخرج في هذا الفيلم بأسلوب التشويق إلى مستوى أكثر حدة. الفيلم يتضمن ثلاث جرائم لا جريمة واحدة، وكل منها يتم بطريقة مختلفة تكشف عن سعة حيلة هذا الطبيب المجرم، لكن أطرفها وأكثرها تعقيدًا الجريمة الأساسية الثالثة التي لم تتم، حيث يغري طبيب شركة التأمين (محمود المليجي) أحد المتورطين في سرقة الخزينة (فريد شوقي) على الزواج، مع وضع خطة لقتل الزوجة بعد التأمين على حياتها بمبلغ كبير، على أن يتم تقسيم المبلغ بينهما بعد نجاح المؤامرة. غير أن أمين الخزينة (فريد شوقي) يقع في حب زوجته البريئة. ومن هنا ينشأ صراع حاد بينه وبين نفسه، وبينه وبين الطبيب (محمود المليجي) الذي ينتهي بعد تشابكات عديدة بهزيمة الشرير رغم ما أبداه في تدبيراته من ذكاء حاد كان يفاجئ به خصمه كما يفاجئ المشاهد مما يضاعف من عامل التشويق. والفيلم مأخوذ من وقائع حقيقية لعصابة كشفت عنها أجهزة الأمن ودفعت بأصحابها للمحاكمة.

ومع ذلك لم يحقق الفيلم النجاح الكبير المتوقع له، ويرى كمال الشيخ - في لقائي معه - أن السبب هو أن الدور الذي أسند لفريد شوقي جاء على غير ما يتوقع الجمهور، حيث يتوقعه في دور شرير (كما ظهر في أفلامه السابقة)، فلم يقتنع به رغم إتقان فريد لدوره في الفيلم. ولكن لعل من الأسباب أيضًا - في رأيي - أن الجمهور اعتبر هذا الفيلم تكرارًا لفيلمه السابق «المنزل رقم ١٣».



وفي فيلم «ملاك وشيطان» ١٩٦٠ يبدأ التشويق باقتحام اللصوص المنزل لسرقة المجوهرات. ويزداد التشويق مع اختطاف الطفلة التي كادت تكشف عنهم.

ويكشف الفيلم بوضوح عن مقدرة كمال الشيخ في توجيه الأطفال بمهارة نادرة في أفلامنا. وقد ظهرت هذه المهارة في فيلمه «حياة أو موت» ١٩٥٤ الذي قامت ببطولته أيضًا طفلة صغيرة. كما أسند دورًا بطوليًا لطفل في فيلم ثالث فيما بعد هو «الشيطان الصغير» ١٩٦٣. ولكن دور الطفلة في هذا الفيلم «ملاك وشيطان» كان أكثرها عمقًا وأقواها تأثيرًا، ولا يرجع ذلك إلى أدائها المتقن وإنما يرجع في الأساس إلى البناء الدرامي للشخصية الذي جعل منها عاملاً فعالاً في تطوير الأحداث وتطوير الشخصيات من بداية الفيلم حتى نهايته.

الطفلة هي التي تحول بين اللصوص وسرقة المجوهرات، ويؤدي اختطافها إلى تحويل خطة اللصوص من السرقة إلى الابتزاز بطلب فدية من والديها. وعندما يخفيها رئيس العصابة عند أحد أعوانه (رشدي أباظة) تؤدي تصرفاتها البريئة التي لا تخلو من ذكاء - منها إنقاذ (رشدي أباظة) من ورطته في البئر - إلى تحويل مشاعره نحوها مما يؤدي بالتالي إلى الصراع بينه وبين رئيس العصابة وأعوانه، وينتصر عليهم ليعيد الطفلة إلى أهلها ومعها المجوهرات التي سرقتها العصابة.

ويعتبر فيلم «الليلة الأخيرة» ١٩٦٣ نموذجًا لاستخدام أسلوب الغموض الفني في أفلام كمال الشيخ حيث نرى الفتاة «فاتن حمامة» من بداية الفيلم تقوم من النوم لتكتشف أن كل ما حولها غريب عنها، فحجرة النوم ليست حجرتها، وثيابها ليست هي ما تعرفه عن ثيابها،

بدأت أفلام كمال الشيخ عن الجريمة. كما بدأت في تاريخ السينما عامة والأمريكية خاصة. بتقديم المجرم الذي يُولد ولا يُصنع، لكنه ما لبث أن انتقل إلى مستوى آخر من المعالجة للجريمة في فيلم «اللص والكلاب» ١٩٦٢، حيث لم يقتصر على الكشف عن الدوافع النفسية للجريمة، وإنما يسعى للكشف عن جذورها الاجتماعية، حتى ليبدو المجرم نتاجًا طبيعيًا لبيئته

سينما كمال الشيخ

وتفاجأ أن «محمود مرسي» زوجها بينما ما تعرفه أنه زوج أختها، كما تفاجأ بأن لها ابنة واليوم هو زفافها، حتى اسم «فوزية» الذي يطلقونه عليها ليس اسمها وإنما هو اسم أختها أما هي فاسمها «نادية».

ويظل المشاهد في حيرة طوال الفيلم من حقيقة الفتاة: هل هي نادية كما تدعي وتحاول أن تثبت ذلك رافضة الحياة المفروضة عليها وإن عرّضها ذلك للمخاطرة بحياتها، أم أنها فوزية كما يؤكد زوجها؟! ولا ينقشع هذا الغموض إلا في النهاية بعد عمليات من التحقيق والمقاومة بمساعدة أحد المعارف من الأطباء (أحمد مظهر)، حيث نعلم أن الزوج (محمود مرسي) استغل فقدانها الذاكرة منذ خمسة عشر عامًا على أثر غارة فقدت فيها كل أسرتها ومن بينها أختها فوزية زوجته الحقيقية، فأطلق عليها اسم زوجته طمعًا في الحصول على ثروة الأسرة.

وعن هذا الفيلم يقول كمال الشيخ: «هو الترجمة الأمينة والدقيقة لأسلوبي الفني» (مجلة فن ٤ ديسمبر ١٩٩٥). وقد نال الفيلم جائزة أحسن مخرج في مسابقة وزارة الثقافة كما مثّل مصر في مهرجان كان ١٩٦٤ (ملفات إدارة المهرجان بالمركز القومي للسينما).

والعلاقة التي تربط هذه الأفلام ببعضها وتربطها بنوعية أفلام الجريمة، الطموح غير المشروع للشخصيات الرئيسية، والخطر الملازم لحياتهم ووجودهم. ولما كان المجتمع لا يتسامح مع النشاط الإجرامي، فإن احتمال القبض على المجرم وافتضاح أمره يمثل من الضغوط ما يشكل سلوكه ومواقفه العصبية نحو البيئة المحيطة به، وهو ما يفسر لنا حدة انفعال الزوج وأكاذيبه التي تبدو غريبة في فيلم «الليلة الأخيرة» إلى أن نعرف السبب في النهاية. كما أنها وراء الحرص والتدبير الدقيق لشخصيات مرتكبي الجريمة في بقية الأفلام.

وفيما عدا الزوج المجرم في «الليلة الأخيرة» الذي يكشف انفعاله عن افتقاده للثقة بالنفس ورباطة الجأش، نجد أن المجرمين في بقية الأفلام يقومون بتخطيطهم الإجرامي عن ثقة شديدة بأنفسهم كما في «المنزل رقم ١٣» و«تجار الموت» و«من أجل امرأة». وتمثل هذه الثقة إحدى السمات الرئيسية لشخصياتهم في هذه النوعية من الأفلام، فضلاً عما يبديه المجرم من ذكاء وإقدام وقدرة على الاستجابة السريعة مما يساعد على حدة الصراع وإثارة التشويق لدى المشاهد.



ويتولّد اهتمامنا في هذه الأفلام من خلال رغبتنا في رؤية التنفيذ الناجح لخطة عويصة، وهو ما يثير إعجابنا مادامت لا تمثل خطرًا مباشرًا علينا. ويؤدي هذا الإعجاب إلى اتهام هذه النوعية من الأفلام بتشويه القيم وإضفاء البهاء على المجرم. إلا أن الحس الأخلاقي في أفلام كمال الشيخ يرتفع دائمًا بحيث لا يدع لهذا الاتهام من موضع. ولا يقتصر ذلك على أن ينال المجرم الجزاء العادل على ما اقترفه في النهاية، وإنما غالبًا ما نجد الشخصيات الخيّرة التي تعين الضحية. وتتكرر في أفلامه حالات يقظة الضمير لدى الشخص المقدم على المشاركة في الجريمة كما في «تجار الموت» و«الشيطان الصغير»، أو بعد ارتكابها كما في «لن أعترف». أما في «ملاك وشيطان» فيتحول المجرم إلى منقذ للطفلة متأثرًا ببراءتها. وهو ما يكشف عن مثالية كمال الشيخ الأخلاقية الزائدة أحيانًا مما قد يضعف من شأن مصداقية الدراما.

ويحتفظ كمال الشيخ بنفس النزعة التي تمثل بُعدًا أساسيًا في بقية أفلامه الأخرى من احترام للقيم الأخلاقية السائدة، والأسرية منها على وجه خاص.

التشويق بدون جريمة

لا يقتصر كمال الشيخ في خلق التشويق على الجريمة وحدها التي تمثل العنصر الرئيسي في هذا النوع من الأفلام في تاريخ السينما عامة، ولكنه يوسع من نطاق أفلام التشويق لتشمل أفلامًا أخرى بعيدة عن تناول الجريمة. وفي فيلمي «حياة أو موت» و«أرض السلام» يقدم لنا مستوى آخر من مستويات هذا التشويق البعيد عن الجريمة.

كان «حياة أو موت» ١٩٥٤ هو ثالث أفلام كمال الشيخ، وثاني أفلامه المهمة التي لفتت إليه الأنظار وحققت له المكانة حيث يعتبر إضافة جديدة لريادة كمال الشيخ لنوعية أفلام التشويق. الفيلم لا يعتمد على قصة وإنما مجرد موقف يتمثل في حصول طفلة على مادة سامة من الصيدلية - بدلاً من الدواء - وتحملها إلى والدها المريض بالبيت. وزمن الأحداث لا يتعدى نصف نهار. هذا وقد تم تصوير معظم الأحداث في شوارع القاهرة. والفيلم في كل هذا يمثل محاولة غير مسبوقة في السينما العربية.

يبدأ التشويق في «حياة أو موت» بعد الدقائق الأولى من بداية الفيلم حينما تأخذ الطفلة على عاتقها شراء الدواء لأبيها المريض الذي يعاني من آلام شديدة وتتركه وحده في البيت.

والحيلة الأساسية التي يلجأ إليها السيناريو - إلى جانب المطاردة - لخلق التشويق هي وضع العقبات أمام الشخصيات وهي في طريقها لتحقيق غايتها. فالطفلة لا تجد الصيدلية القريبة مفتوحة. والصيدلية الوحيدة المفتوحة وقتها تبعد عنها مسافة كبيرة تقتضي استخدام المواصلات.

وعندما تحصل على الدواء وتأخذ طريقها للعودة يقفز التشويق عدة درجات دفعة واحدة عندما نفاجأ بأنها أخذت سمًا بدلاً من الدواء.

الفيلم بعد ذلك عبارة عن سباق مثير، تعترضه العقبات، بين الطفلة التي تسعى للوصول إلى أبيها بالدواء والصيدلي الذي يسعى للحاق بها أو الوصول إلى والدها قبل أن يتناول الدواء السام، مستعينًا بالبوليس والجيران وحتى حكمدار العاصمة والإذاعة.

في حديث له مع «محمد الدسوقي» في مجلة «فن» بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩٩٥، يقول كمال الشيخ عن هذا الفيلم: «قال النقاد عقب مشاهدتهم للفيلم أنه فيلم واقعي، لكني لا أراه واقعيًا وإنما فانتازيا». وهو يشير بذلك إلى المثالية الأخلاقية التي بدت عليها كل شخصياته المسئولة وغير المسئولة، فضلاً عن أفراد الأسرة، الأمر الذي يعبر عن حلم صاحبه فيما يجب أن يكون عليه المجتمع والناس، ولم يكن يعنيه التعبير عن الواقع. وقد اشترك الفيلم في مهرجان كان في منتصف الخمسينيات.

أما فيلم «أرض السلام» ١٩٥٧ فكان الفيلم العربي الثاني بعد «فتاة من فلسطين» ١٩٤٨ الذي يتطرق إلى موضوع القضية الفلسطينية، وإن اكتفى بتقديم رموز القضية دون التعرض لتفاصيلها. فهناك العدو الإسرائيلي المغتصب للأرض، وهناك مجموعة من الفلسطينيين العرب المطرودين من ديارهم، وهناك المقاومة التي يمثلها ثلاثة من الفدائيين المصريين. ويركز الفيلم على العملية الفدائية التي يقومون بها، حيث يموت اثنان ويبقى الثالث (عمر الشريف) الذي يستعين بالفلسطينيين في مهمته، ويقع في حب إحدى بناتهم (فاتن حمامة) ويعود بها بعد نجاح المهمة.

والفيلم إذ يقوم بناؤه من بدايته على متابعة العملية الفدائية، حافظ على أسلوب المخرج في التشويق وهو ما يتمثل هنا في عمليات التسلل والاقتحام والصدام مع العدو والهروب والاختباء ومفاجآت الهجوم والمطاردة.

الاضطرابات النفسية

تمثل الاضطرابات النفسية وما يكتنفها من غموض مجالاً خصبًا لأفلام التشويق، وعليها اعتمدت السينما العالمية في تقديم بعض أفلامها، ومن أبرزها بعض أعمال هتشكوك مثل «المأخوذ» و«سيكو»..

ويميل كمال الشيخ إلى الإفادة من علم النفس واكتشافاته عامة في قصص أفلامه. وقد ظهر ذلك في أول أفلامه «المنزل رقم ١٣» الذي كان الطبيب النفسي أحد أبطاله، وعقدة الأحداث تقوم على أساس استخدام هذا الطبيب لإمكانية التنويم المغناطيسي في السيطرة على الآخرين وارتكاب جرائمه. ويبدأ فيلم «الملاك الصغير» ١٩٥٨ بفتاة (زبيدة ثروت) مريضة بفقدان الذاكرة أثر على حادثة قضت على والديها. وتقوم حبكة فيلم «الليلة الأخيرة» أساسًا على استرداد البطلة لذاكرتها بعد أن فقدتها لمدة ١٥ سنة. ويلعب كل من الطبيب النفسي في الفيلم والتحليل النفسي دورًا رئيسيًا في الكشف عن الحقيقة.



غير أن فيلم «بئر الحرمان» ١٩٦٩ هو أكثر أفلام كمال الشيخ التصاقًا بعلم النفس المرضي، فالحالة المرضية هنا ليست مجرد وسيلة لبناء أحداث درامية (خارجة عنها) كما رأينا فيما سبق، وإنما هي الوسيلة والغاية معًا، حيث يعتبر الفيلم دراسة درامية لحالة من حالات ازدواج الشخصية وما ينجم عنها من مشاكل.

الفيلم مأخوذ عن قصة لإحسان عبدالقدوس وكتب له السيناريو يوسف فرانسيس. يتناول شخصية ناهد (سعاد حسني) المصابة بازدواج الشخصية، حيث تتحول في المساء إلى شخصية أخرى تحمل اسم مرفت التي ترتدي فستانًا أحمر مثيرًا وتضع على وجهها ماكياجًا ثقيلاً وتطلق لنفسها العنان بالتحرر في علاقتها بالرجال، حتى مع سائق سيارتها، مما يوقعها في المشاكل. لكنها تستطيع في النهاية - بمساعدة الطبيب - الكشف عن أسباب هذا المرض بالرجوع إلى مرحلة الطفولة وعلاقتها بوالديها وعلاقة والديها ببعضهما. وهي علاقة (أعني علاقة الوالدين) تبدو غامضة في البداية وتتكشف لنا أسباب غرابتها مع اكتشافنا لأسباب مرض ناهد.

الجاسوسية

من خلال فيلم «الصعود إلى الهاوية» ١٩٧٨ يقدم كمال الشيخ عملاً آخر من أعماله الرائدة، حيث إنه أول فيلم عربي عن الجاسوسية. والفيلم قائم على أحداث حقيقية مأخوذة من ملفات المخابرات المصرية عن فتاة مصرية تنجح المخابرات الإسرائيلية في تجنيدها أثناء تواجدها في بعثة علمية بباريس. ويتسرب عن طريقها

من الأخبار ما يؤدى إلى تدمير قاعدتى صواريخ أبوسلطان وفايد، ولكن المخابرات المصرية تنجح فى اكتشافها والتحايل لدفعها إلى السفر لوالدها فى تونس حيث يتم القبض عليها فى هدوء، وترحيلها مباشرة من الطائرة التونسية إلى الطائرة المصرية التى تنقلها إلى القاهرة.

أحداث متلاحقة فى إيقاع حى ومفاجآت مقنعة تكشف عن مباراة حامية بين ذكاء المخابرات المصرية والمخابرات الإسرائيلية، فضلاً عن توتر البحث، والتسلل، والمطاردات، واصطياد الفريسة من قبل المخابرات الإسرائيلية مرة ثم المخابرات المصرية مرة أخرى. وكلها من العوامل المثيرة للتشويق التى يتيحها هذا النوع من أفلام الجاسوسية. ويصل فيها كمال الشيخ إلى أفضل مستوياته الفنية. وعنه فاز بجائزة أحسن مخرج فى مسابقة وزارة الثقافة.

الخيال العلمى

يخوض كمال الشيخ من خلال فيلم «قاهر الزمان» ١٩٨٧ مجالاً آخر من مجالات الابتكار والريادة على مستوى السينما العربية، حيث يقدم لأول مرة فيلمًا من أفلام الخيال العلمى. ولاشك أن الخيال العلمى بما يثيره فى الذهن من توقعات متضاربة يمثل أحد الروافد الغنية بالتشويق، الجديرة بتغذية هذه النوعية من الأفلام التى حرص كمال الشيخ على تقديمها.



تدور الفكرة الرئيسية للفيلم حول طبيب (جميل راتب) يجرى تجاربه النهائية على الإنسان من أجل تجميد جثته لفترة من الوقت ثم إعادتها للحياة، وتؤدى تصرفاته إلى إثارة فضول أحد الصحفيين فيذهب إلى بيته للحصول على تحقيق صحفى مثير لكنه يختفى، ويبحث عنه قريبه الصحفى الآخر (نور الشريف)، ونمر معه بمغامرات التسلل والاختباء والمطاردة والاشتباك بينه وبين الطبيب ومعاونيه وابنته (آثار الحكيم).

ولكن رغم نجاح التجربة فى النهاية إلا أن أحد معاونى الطبيب يرمى هذه المحاولة العلمية بالكفر وتنتابه لوثة عصبية يندفع على أثرها إلى تحطيم المعامل بما فيها من أجهزة ومعدات ومواد. ويمثل الفيلم بذلك إنذارًا بخطورة التيار الدينى المتطرف على العلم والتقدم. إلا أن الفيلم ينتهى بلقطة للقاهرة عام ٢١١٠ لنرى لافتة على أحد المبانى تشير إلى أنه مبنى وحدة التجميد، تعبيرًا عن الأمل فى انتصار دعوة الطبيب فى المستقبل.

ولاشك أن هذه الفكرة الرئيسية التى يدور حولها الفيلم جديرة بإثارة مناقشات خصبة حول الحياة والموت وموقف الدين والعلم منهما، خاصة أن هناك محاولة فى الفيلم لربط أحداثه بعقيدة البحث عن قدماء المصريين وقصة أهل الكهف الدينية.

الجريمة وأفلام التحريض

بدأت أفلام كمال الشيخ عن الجريمة - كما بدأت فى تاريخ السينما عامة والأمريكية خاصة - بتقديم المجرم الذى يُولد ولا يُصنع، لكنه ما لبث أن انتقل إلى مستوى آخر من المعالجة للجريمة فى فيلم «اللص والكلاب» ١٩٦٢، حيث لم يقتصر على الكشف عن الدوافع النفسية للجريمة، وإنما يسعى للكشف عن جذورها الاجتماعية، حتى ليبدو المجرم نتاجًا طبيعيًا لبيئته.

والفيلم مأخوذ عن رواية نجيب محفوظ التى تحمل نفس العنوان وشارك فيه كمال الشيخ بكتابة السيناريو مع صبرى عزت. وكان الفيلم هو المحاولة الثانية من نوعها فى التعامل مع أدب نجيب محفوظ، وذلك بعد فيلم «بداية ونهاية» المأخوذ أيضًا عن رواية محفوظ التى تحمل نفس العنوان، وأخرجه صلاح أبوسيف قبل ذلك بعام واحد تقريبًا.



وإذا كان كمال الشيخ قد وجد فى رواية «اللص والكلاب» ضالته من عوامل التشويق التى تثير اهتمامه ويتسم بها أسلوبه، وتمثل الجريمة أحداثها الرئيسية، فهى إلى جانب ذلك قد أمدته بالمعنى الاجتماعى والسياسى وراء الأحداث، مما حقق نقلة كيفية داخل إطار أفلامه عن الجريمة تجاوز بها التشويق إلى التحريض، بما تحمله هذه الأفلام - وأولها اللص والكلاب - من وجهة نظر اجتماعية سياسية تدعو المشاهد إلى تغيير المجتمع وإعادة النظر فيما يدور حوله من أمور الحياة.

يبدأ الفيلم كالمعتاد فى أفلام كمال الشيخ بحادث مثير للانتباه؛ جريمة سرقة يقدم عليها سعيد مهران (شكرى سرحان) باقتحام أحد المنازل، بينما يشى به مساعده، ليزج به فى السجن ويستولى مساعده على زوجته بعد أن يطلقها منه. وعندما يخرج من السجن تنكره طفلته التى لا تتعرف عليه. وعندما يلجأ إلى أستاذه رءوف علوان (كمال الشناوى) يتخلى عنه بعد أن أصبح أحد أعلام الصحافة. وكان هو الذى سبق وبرر له السرقة باسم العدالة الاجتماعية المهدرة.

وعلى خلاف كل المجرمين الذين رأيناهم فى أفلام كمال الشيخ السابقة شديدى الحساسية بأهمية البقاء على قيد الحياة - الأمر الذى ينعكس بوضوح فى حرصهم الشديد فى تصرفاتهم - نجد أن المجرم فى «اللص والكلاب» لا يملك هذا الإحساس بالحرص على حياته، ومن ثم لا يوجد ما يحول بينه وبين الاندفاع فى تهوراته، فيندفع للانتقام ممن تخلوا عنه وخانوه، حتى يلقى حتفه.

ويحقق المجرم فى «اللص والكلاب» تفوقًا على أقرانه فى أفلام الجريمة عند كمال الشيخ من ناحية إثارة الاهتمام والتشويق، وليس ذلك لاندفاعه ومهاراته (رغم إخفاقه) فى النهاية ولكن من خلال التمسك بوجهات نظر أخلاقية فيما يقوم به من أعمال. فهو ينتقم من الخونة والانتهازيين.

ونحن إذ لا نقره (اجتماعيًا) على تصرفه العدوانى الفردى نحوهم إلا أننا نشاركه الحكم عليهم بالخيانة والانتهازية. وهنا قد نجد مكانًا لمقولة الناقد الأمريكى «روبرت شو» عن رجل العصابة الذى يراه بطلاً «ينوب عن الإنسان المعاصر الذى يعانى ضغوط إلغاء الشخصية فى حياة المدينة» (٢١٩ من كتاب أنواع الفيلم الأمريكى الصادر عن هيئة الكتاب ١٩٩٥).



والفيلم إذ يكشف عن انتهازية رءوف علوان الذى يبرر السرقة باسم العدالة الاجتماعية، يحذرنا من هذه النوعية من الشخصيات التى أودت بسعيد مهران إلى الضياع، كما ينتقد النظام الذى جعل من رءوف علوان أحد أعلام الصحافة، بقدر ما ينتقد الصحافة الكاذبة التى يتلاعب بها الانتهازيون. ومما يرفع من قيمة الفيلم الاجتماعية - إلى جانب قيمته الفنية - أنه ظهر فى نفس العهد الذى يدعو إلى الاشتراكية ويعلن ملكية الصحافة للشعب، فكشف بذلك عن التناقض بين الشعارات والواقع.

وفى مقدمة أفلام هذه المجموعة فيلم «غروب وشروق» ١٩٧٠، المعد عن رواية للكاتب جمال حماد وكتب له السيناريو رأفت الميهى: يتحول أحد ضباط الطيران (رشدى أباظة) وزميله (صلاح ذوالفقار) إلى النشاط السرى المناهض لحكومة قبل الثورة على أثر اغتيال صديقهم الثالث بتدبير من «حميه» رئيس البوليس السياسى (محمود المليجى). ويقبل (رشدى أباظة) الزواج من ابنة رئيس البوليس السياسى (سعاد حسنى) ليصور مذكرات الباشا السرية ويتم نشرها فى كتاب يؤدى إلى غضب السراى عليه وإقالته. وفى اللحظة التى يقرر فيها الباشا الانتقام من الشابين يهبط عليه معاونه السابق مع قوة للقبض عليه بأمر السراى.

إن ما يصل إليه كمال الشيخ فى هذا الفيلم من تشويق فى أعلى مستوياته، من خلال ما يقدمه من أحداث متلاحقة فى إيقاع لاهث يمتلئ بالمفاجآت ويحتدم بها الصراع، يكشف لنا عن بشاعة البوليس السياسى قبل الثورة، ويصور شكلاً من أشكال الكفاح الوطنى ضد الفساد واستبداد السلطة فى تلك المرحلة، مما يربط الأحداث بالمجتمع ويمنحها المصداقية ويجعل للفيلم معنى يتجاوز التوقف عند حد التشويق وينتقل بنا بشكل أو آخر إلى مستوى التحريض، وهو ما يؤكده كمال الشيخ بقوله: «على الرغم من أن القصة قالت بوضوح أن الأحداث دارت قبل الثورة وكانت تمهيدًا لها، إلا أننى تمنيت أن يكون الفيلم صيحة تحذير مهمة وقوية تقول أن التجاوزات لم تتوقف ولم تختف من حياتنا بعد». (مجلة فن ١٩٩٥/٢/١١).



ويمثل فيلم «الهارب» ١٩٧٥ أحد نماذج أفلام المطاردة المتقدمة فى السينما العربية. حيث تقوم فكرته الرئيسية على أساس هروب أحد المساجين، والفيلم كله مطاردة لهذا الهارب.

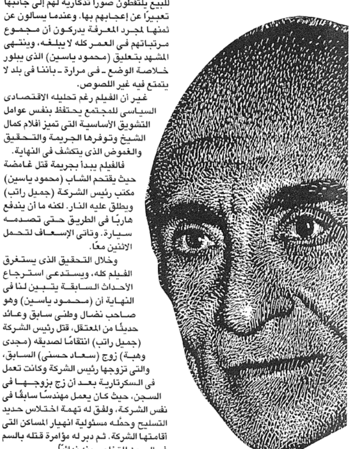
غير أن قيمة الفيلم تتجاوز مجرد المطاردة المثيرة بالكشف عن جوانب اجتماعية وسياسية مما يرفع من قيمته ويمنح المطاردة أبعادًا لها مغزاها. فالهارب عندما يختبئ فى إحدى الشقق تكتشف أن صاحبها صحفى كبير يقضى وقتًا مع عشيقته فى غياب زوجته وأولاده، والعشيقة تفضح استغلاله لها، كما نحاط بجانب آخر من سيرته الفاسدة باستغلال وظيفته فى الاختلاس من خلال التلاعب فى صفقة المطابع.

ونعلم أن الهارب دخل السجن بتهمة لا يعرفها، فهم يطلبون منه معلومات عن أخيه وأعضاء الخلية الوطنية الذين يعمل معهم. وهو لا يعلم عن أخيه وأعضاء هذه الخلية شيئًا. لذلك عندما يحاصرونه فى النهاية - وكان على وشك الهروب إلى الخارج - يصيح فى وجه المحاصرين أن يسمعوه أولاً قبل أن يقبضوا عليه.

وبهذه النهاية يوجه الفيلم صرخته ضد الاستبداد والحكم البوليسى بشكل مطلق، وإن شاب الفيلم بطء الإيقاع أحيانًا، وربما يرجع القصور فى كثافة الأحداث إلى ما تعرض له الفيلم فى الرقابة من حذف الكثير من مشاهده مما اقتضى إعادة صياغته على هذا النحو.



سينما كمال الشيخ



ومع ذلك فقد حصل مخرجه على جائزة أحسن مخرج فى مسابقة وزارة الثقافة.

ويعتبر فيلم «على من نطلق الرصاص» ١٩٧٥ سيناريو رأفت الميهى واحدًا من أشد الأفلام نقدًا للقطاع العام، كما تنبأ بالمأساة الاجتماعية الاقتصادية لعصر الانفتاح الاستهلاكى الذى لم يكن قد بدأ رسميًا بعد. وهو إذ يواجه الواقع مباشرة يؤكد طوال العرض أنه يتناول الواقع المُعاش فى حينه (وليس تاريخًا لواقع سابق قريب أو بعيد).

ومن أفصح مشاهد الفيلم تعبيرًا عن مضمونه وأكثرها حيوية، مشهد يجمع بين مرح الشباب ومأساة الأوضاع، يضم (مجدى وهبة) وخطيبته (سعاد حسنى) وصديقهما الحميم (محمود ياسين) وهم فى نزهة بشوارع القاهرة يتطلعون إلى الفاترينات وأسعار معروضاتها المشتعلة. وعندما يلمحون فى طريقهم سيارة جميلة معروضة للبيع يلتقطون صورًا تذكارية لهم إلى جانبها تعبيرًا عن إعجابهم بها. وعندما يسألون عن ثمنها لمجرد المعرفة يدركون أن مجموع مرتباتهم فى العمر كله لا يبلغه، وينتهى المشهد بتعليق (محمود ياسين) الذى يبلور خلاصة الوضع - فى مرارة - بأننا فى بلد لا يتمتع فيه غير اللصوص.

غير أن الفيلم رغم تحليله الاقتصادى السياسى للمجتمع يحتفظ بنفس عوامل التشويق الأساسية التى تميز أفلام كمال الشيخ وتوفرها الجريمة والتحقيق والغموض الذى يتكشف فى النهاية.

فالفيلم يبدأ بجريمة قتل غامضة حيث يقتحم الشاب (محمود ياسين) مكتب رئيس الشركة (جميل راتب) ويطلق عليه النار. لكنه ما أن يندفع هاربًا فى الطريق حتى تصدمه سيارة. وتأتى الإسعاف لتحمل الاثنين معًا.

وخلال التحقيق الذى يستغرق الفيلم كله، ويستدعى استرجاع الأحداث السابقة يتبين لنا فى النهاية أن (محمود ياسين) وهو صاحب نضال وطنى سابق وعائد حديثًا من المعتقل، قتل رئيس الشركة (جميل راتب) انتقامًا لصديقه (مجدى وهبة) زوج (سعاد حسنى) السابق، والتى تزوجها رئيس الشركة وكانت تعمل فى السكرتارية بعد أن زج بزوجها فى السجن، حيث كان يعمل مهندسًا سابقًا فى نفس الشركة، ولفق له تهمة اختلاس حديد التسليح وحمَّله مسئولية انهيار المساكن التى أقامتها الشركة. ثم دبر له مؤامرة قتله بالسم فى السجن للتخلص منه نهائيًا.

وتتكشف هذه الحقائق تدريجيًا خلال سلسلة متشابكة من الأحداث تنتهى بوضع الحراسة على رئيس الشركة المجنى عليه وقد أصبح متهمًا بعد فتح ملف المهندس (مجدى وهبة) من جديد لتأخذ العدالة مجراها. ولكن رغم تعقد الأحداث وتشابكها وما تضمنه الفيلم من استرجاعات كثيرة لأحداث ماضية (فلاش باك)، ظل الفيلم محتفظًا بوضوحه. كما كان لحيوية إيقاعه السريع ومفاجآت اكتشافاته، فضلاً عن تماسك بنائه الدرامى، وسلامة بناء الشخصيات وأدائها، وذكاء الحوار، الفضل فى الحفاظ على اهتمام المشاهد طوال الفيلم وإثارة تشويقه.

أفلام الشخصية

وهى الأفلام التى تعنى بتقديم معالجة درامية متعمقة لشخصية من الشخصيات الإنسانية شأنها فى ذلك شأن الأعمال الأدبية الكبيرة التى نجحت فى تقديم شخصيات أصبحت لها شهرة ذائعة لما تميزت بها من بناء درامى محكم ومؤثر جعلها تعيش بيننا رغم بُعد المسافة الزمنية لتأليفها مثل أوديب وأليكترا وأنتيجونا من كلاسيكيات الأدب اليونانى، وماكبث وعطيل وهملت من مسرحيات شكسبير الخالدة. وقد لجأت السينما إلى تحويل هذه الأعمال الأدبية إلى أفلام، ومنها ما تكرر تقديمه أكثر من مرة بأكثر من لغة.



ومن الأفلام المصرية التى استعانت بالأدب العالمى لتقديم إحدى شخصياته كان فيلم «الغريب» ١٩٥٦ الذى يعتبر أحد نماذج أفلامنا الناجحة المعدة عن رواية أدبية أجنبية. والرواية هى «مرتفعات وذرنج» للكاتبة أميلى برونتى من القرن التاسع عشر. وتعتبر الرواية أحد أعمال الأدب العالمية البارزة. ولاشك أن محاولة تعريبها عن طريق الفيلم هى محاولة مشروعة لتقريب الأدب العالمى للمشاهد العربى. كتب لها السيناريو حسين حلمى المهندس وأخرجها كمال الشيخ من خلال تجربة فريدة من نوعها حيث اشترك معه فى إخراجها فطين عبدالوهاب.

وقد وفق الفيلم إلى حد كبير فى تعريب الرواية التى تكشف عن مدى الحقد الذى زرعته المعاملة السيئة لأبناء الطبقة الغنية فى نفس الفتى الفقير الذى أطلق عليه اسم «غريب». كان الأب قد أتى به ليربيه بين أبنائه، ولكن الابن «محرز» لا يقبل وجوده بينهم ويسىء معاملته. وينمو الفتى ليصبح شابًا وينمو الحب بينه وبين ياسمين ابنة الأسرة التى ترعاه. ورغم أنه يتحمل المهانة والإذلال فى بقائه إلى جانب حبه إلا أنه يفاجأ باستعداد ياسمين للزواج من ابن العائلة الثرية فى القرية المجاورة، فيهجر المكان زمنًا ليعود ومعه المال والرغبة فى الانتقام ممن أذلوه. وينجح فى شراء القصر وكل ممتلكات الأسرة التى يفقدها ابن الأسرة بالقمار. ويشعل الغيرة بين ياسمين وليلى أخت زوجها التى أوقعها فى غرامه. ويفسد العلاقة بين ياسمين وزوجها. وعندما تموت ياسمين على كتفه بسبب عملية ولادة متعسرة لا يخفى حقده عليها لدرجة أن يطلب لها العذاب فى الآخرة.



غير أن تعبيره عن كل هذا الحقد أو الغضب المشتعل فى قلبه من ناحيتها يكشف فى نفس الوقت عن مدى حبه العميق الدفين لها الذى لايزال يصليه نارًا. وينجح الفيلم بذلك فى تقديم دراسة درامية كاشفة لبعض جوانب النفس البشرية وتعقيداتها.

ورغم البداية المشوِّقة التى يبدأ بها الفيلم بمحاولة فاشلة لسائق السيارة فى الاعتداء على «غريب» للاستيلاء على محفظته المنتفخة (التى عاد بها)، مما يوهم بأننا بصدد مشاهدة فيلم من أفلام الجريمة، إلا أنه تناول الأحداث بعد ذلك بمعالجة كلاسيكية رصينة وأداء تمثيلى متمكن يكشف عن حدة المشاعر، حافظ على مفهوم الرواية وطابعها الرومانسى. ونجح فى تقديم شخصياتها وأحداثها بوضوح يقربها إلى ذهن وقلب المشاهد العربى، وإن شاب إحساسه بعض الغرابة التى ظلت قائمة بفعل الأصل الأجنبى.

ويبتعد فيلم «الرجل الذى فقد ظله» ١٩٦٨ مثل سابقه - الغريب - عن أفلام التشويق المعهودة لكمال الشيخ القائمة على الحركة المثيرة التى تتمثل فى المطاردات والتحقيقات والجريمة والمفاجآت.. إلخ، ومع ذلك هو من أنضج أفلام كمال الشيخ ومن أكثرها أهمية. ولا يخلو من تشويق، يبدو - فى نظرى - أكثر عمقًا وأقوى تأثيرًا فى النفس. ويقوم التشويق هنا على أساس البناء الدرامى للشخصية. والفيلم مأخوذ عن رواية فتحى غانم التى تحمل نفس العنوان.

يقدم الفيلم شخصية الصحفى الانتهازى «يوسف عبدالحميد السويفى» الذى يبيع كل شىء من أجل التسلق للطبقة الأعلى. يتخلى عن أهله، ويشى بصديقه، وينافق أستاذه، ويقضى عليه عند اللزوم، ويمالئ السراى والإنجليز.. حتى حبه يتنازل عنه من أجل أن يصل.. ولأنه باع كل شىء.. فقد كل شىء.. حتى ظله.. وإن كان ما يدور فى ذهنه فى آخر الفيلم، يرهص بما ينوى من تغيير جلده ليواصل التسلق حتى آخر لحظة، فعندما تجتاح البلاد المظاهرات ضد الحكومة والسراى نسمع ما يدور فى ذهنه وهو يعد نفسه للمرحلة القادمة بالكشف عن أصوله الفقيرة، ليجعل من نفسه البطل المكافح ويركب الموجة القادمة.

والفيلم إذ يرد أسباب ميوله الانتهازية إلى نشأته الفقيرة وعجزه عن الزواج من ابنة الباشا التى أحبها، وزواج أبيه من الخادمة، يكشف لنا - وهذا هو الأهم - عن البيئة الاجتماعية الثقافية التى ساعدت على نمو هذه الشخصية.

ومن خلال البناء الدرامى المُحكم للأحداث والشخصيات استطاع الفيلم تجسيم هذا النموذج الفريد لشخصية الصحفى الانتهازى فى الأربعينيات ومرحلة ما قبل الثورة، تجسيمًا نابضًا بالحياة، يجعل منه أحد الشخصيات الدرامية البارزة فى السينما العربية. ولم يقتصر الفيلم على تقديم هذه الشخصية الرئيسية وحدها التى أدَّاها كمال الشناوى باقتدار، وإنما تضمن إلى جانبها نماذج أخرى من الشخصيات المصرية التى برع فى تقديمها، ومنها شخصية مبروكة (ماجدة) الخادمة الجاهلة الساذجة التى تحولها الحياة إلى مناضلة فى النهاية. وشخصية شوقى (صلاح ذوالفقار) المناضل الوطنى الإنسانى دون تشنج أو جمود أو انفعال زائد. وقد جاءت هذه النماذج البشرية المصرية الثلاثة على قدر من المصداقية غير مسبوق، مما يرفع من قيمة الفيلم ويحتفظ لمخرجه كمال الشيخ بمكانة رفيعة فى تاريخ السينما المصرية.

ولاشك أن الأداء التمثيلى المتقن لكل من كمال الشناوى فى دور يوسف عبدالحميد السويفى، وماجدة فى دور الخادمة مبروكة، وصلاح ذوالفقار فى دور المناضل شوقى كان له الفضل فى تأكيد هذه المصداقية لهذه الشخصيات التى قامت على أساس سليم من البناء الدرامى للسينما والحوار، وكاتبها على الزرقانى، الكاتب الأثير لدى المخرج كمال الشيخ الذى كتب له مجموعة من أهم أفلامه. وقد فاز الفيلم بجائزة أحسن إخراج فى مسابقة وزارة الثقافة.



ورغم أن فيلم «ميرامار» ١٩٦٩ لم يلتزم الدقة عامة فى ترجمة شخصيات رواية نجيب محفوظ المأخوذ عنها وتحمل نفس العنوان، وذلك على نحو ما بيَّناه فى كتابنا «نجيب محفوظ على الشاشة» ١٩٧٥ عندما تعرضنا لشخصيات ميرامار بين الفيلم والرواية، إلا أن الفيلم استطاع أن يقدم لنا شخصية الانتهازى سرحان البحيرى فى ثوبه الجديد فى عهد الثورة والاشتراكية، وهى الشخصية الوحيدة

التى حافظ الفيلم على أبعادها تقريبًا كما جاءت فى الرواية. فهو يحب زهرة العاملة فى البنسيون التى أحبته، لكنه يرى أن الزواج صفقة لا جدوى منها إذا لم ترفعه درجة. لذلك يصادر حبه لزهرة ويقنع نفسه بالزواج من مدرِّستها - دون عاطفة - لأنها تحقق له نفعًا أكبر بوظيفتها وأسرتها. كان وفديًا قبل الثورة، ومع الثورة تحول إلى اشتراكى ونفذ داخل منظماتها السياسية. لا يطمئن إلى طلبة مرزوق وحسنى علام ممثلى الإقطاع لكنه يتودد إليهما. ويؤدى به طموحه المادى المنحرف فى النهاية إلى الجريمة حيث يدبر مع صديقه المهندس مؤامرة لسرقة حمولة لورى بالغزل من الشركة التى يعملان بها.

وقد نجح يوسف شعبان بتجسيد هذه الشخصية كما نجح يوسف وهبى فى تجسيد شخصية الإقطاعى وإن جاء مخالفًا لشخصيته فى الرواية. وقد وسَّع الفيلم من دوره على حساب شخصيات أخرى وجعل منه نجم الجزء الأول من الفيلم حيث يقوم بتقديم الشخصيات، ويعلق على الأحداث بخفة دم لاذعة، والأهم من ذلك أنه يعبِّر عن رأى الجمهور بسخرياته المتوالية على تصرفات وأقوال سرحان البحيرى كاشفًا عن انتهازيته.

وكان الفيلم - كما كانت الرواية - صفعة على وجه الانتهازية السياسية فى عهد الثورة الاشتراكية. كما أدان الفيلم الشيوعى (عبدالرحمن على) لتخاذله وفقدانه الإرادة، والإقطاعى (أبوبكر عزت) لاستغراقه فى اللهو، والشيخ الوفدى القديم لعجزه عن الفعل.

والفيلم على هذا النحو يشارك - نوعًا - فيما قصدته الرواية من تعرية للأوضاع السياسية والاجتماعية فى حينها، وذلك تحريضًا على طلب التغيير المنشود، بالتخلص من كل هذه السلبيات، وكان موت سرحان البحيرى فى الفيلم (والرواية) بمثابة النبوءة لنهاية النظام الذى يمثله.

ويعود كمال الشيخ إلى تقديم نموذج آخر من نماذج الشخصية الانتهازية فى فيلم «شىء فى صدرى» ١٩٧١ المأخوذ عن رواية إحسان عبدالقدوس التى تحمل نفس العنوان.

تختلف شخصية الانتهازى فى هذا الفيلم عن شخصية سرحان البحيرى فى «ميرامار» من ناحية المرحلة التاريخية التى تمثلها حيث تدور أحداثها قبل الثورة. كما تختلف عن شخصية يوسف عبدالحميد السويفى فى «الرجل الذى فقد ظله» من ناحية المجال الاجتماعى الذى تتحرك داخله. فإذا كان سرحان البحيرى يعمل بالقطاع العام ويمارس النشاط السياسى، ويوسف عبدالحميد السويفى يعمل بالصحافة، فالباشا فى هذا الفيلم «شىء فى صدرى» من رجال الأعمال. إن كمال الشيخ بهذه الثلاثية يقدم لنا دراسة لتنوعات شخصية الانتهازى (فى الواقع المصرى) فى أزمان مختلفة ومجالات مختلفة، محاولاً أن يكشف عن بشاعة هذه الشخصيات وفسادها وإفسادها مما يحرض المشاهد على اتخاذ الموقف المضاد لها. ويعتبر نموذج الباشا الانتهازى فى فيلم «شىء فى صدرى» من أنضج النماذج السينمائية فى تقديم الشخصية.




وترجع مهارة البناء الدرامى للفيلم وإتقان رسم شخصياته وعلى الأخص شخصيتا الباشا (رشدى أباظة) والأم (هدى سلطان) إلى كاتب السيناريو والحوار الفذ رأفت الميهى الذى أصبح أحد المخرجين المتميزين فيما بعد. وقد نجح فى كتابة مجموعة من أفضل أعمال كمال الشيخ، كان أولها «غروب وشروق» ١٩٧٠، وبعده جاء «شىء فى صدرى» ١٩٧١، و«الهارب» ١٩٧٥، ويصلان إلى قمة عملهما المشترك فى «على من نطلق الرصاص» ١٩٧٥. وكل من الفيلمين الأولين تم إعداده عن عمل أدبى، أما الفيلمان الآخران فمن تأليف رأفت الميهى. وعنه يقول كمال الشيخ: «أذكر أن رأفت الميهى حين عمل معى لأول مرة رأيت فيه مفكرًا أكثر منه مجرد كاتب سيناريو وحوار محترف ينفذ ما يطلب منه فقط» (مجلة فن ١٨ ديسمبر ١٩٩٥).

منذ البداية يكشف الفيلم فى مشاهده الأولى عن سطوة هذا الباشا واستغلاله عندما يصله خبر عن قرار جديد لمجلس الوزراء لا يرضيه فيأمر بتحويل باخرة القمح التى استوردها إلى العراق بدلاً من مصر لإحداث مجاعة وإحراج الحكومة.



غير أن هذا الباشا الذى يملك كل هذه السطوة والتحكم فى الحكومة وقوت الشعب يؤرقه تاريخه المخزى الذى تكشف عنه علاقته مع زميله القديم - منذ عهد الدراسة بمدرسة الصنايع - محمد أفندى السيد الذى رفض دعوته للمشاركة فى مشروع مقاولات مع الإنجليز، كما رفض طلبه الزواج من أخته. وفى آخر لقاء بينهما - قبل وفاته - رفض المنصب الكبير الذى عرضه عليه فى شركته. وكانت بينهما مشادة اتهمه فيها محمد أفندى بأنه أحد حيتان الفساد.

نحن نتعرف على هذه العلاقة الكاشفة بين الباشا ومحمد أفندى من خلال لقطات استرجاعية قصيرة (فلاش باك). أما ما نراه من أحداث حاضرة فهى محاولة الباشا التسلل إلى أسرة محمد أفندى بعد موته بحجة أنه الصديق الحميم لعائلها المتوفى. يعلن لمعاونه (وللمتفرج أيضًا) أنه يريد أن يعرف سر قوة محمد أفندى وصلابته الأخلاقية والوطنية التى أرَّقته ولازالت تؤرقه. لكنه بتسلله إلى الأسرة بإغداق المال والمساعدات لأفرادها يفعل ما هو أكثر من ذلك. إنه يحاول إفساد هذه الأسرة انتقامًا من عائلها المتوفى غريمه محمد أفندى. وليثبت لنفسه - من ناحية أخرى - أنه كان على صواب فى اختيار طريقه.

يوهم الأم (هدى سلطان) بالزواج حتى تستسلم له. ويحاول أن ينال من الابنة الشابة (ميرفت أمين). وعندما يجدها فى علاقة حب مع شاب فى سنها، يتدخل بألاعيبه لإفساد هذه العلاقة وإسناد وظيفة للشاب بعيدًا بإحدى شركاته النائية فى سفاجة. وعندما تكشف الأسرة حقيقته ويتم عقد زواج الفتاة على الشاب، يدبر معاون الباشا مؤامرة فاشلة لقتل الشاب فى المصنع مما يثير غضب الباشا عليه ويعزله عن خدمته، فيتقلب عليه المعاون ويدبر له كبسة من بوليس الآداب فى غرفة النوم مع عشيقته المتزوجة، تؤدى إلى عودة إصابته بأزمة قلبية لكنها تقضى عليه هذه المرة.

ولاشك أن البناء الدرامى المُحكم للشخصية فضلاً عن قيام (رشدى أباظة) بدور الباشا فى «شىء فى صدرى» ساعد على تجسيم هذه الشخصية وأضفى عليها حيوية تترك أثرها القوى فى الذهن.

عند المقارنة بين النماذج الانتهازية الثلاثة فى «الرجل الذى فقد ظله»، و«ميرامار» و«شىء فى صدرى»، نجد أن شخصية يوسف عبدالحميد السويفى تأتى فى مقدمتها من حيث قوة البناء والتأثير، ويرجع ذلك إلى أنها الشخصية الوحيدة التى تابع الفيلم أحداث نموها خطوة بخطوة، كاشفًا عن العوامل الذاتية والاجتماعية لتكوين هذه الشخصية وتصاعدها، الأمر الذى لم يتوفر بالنسبة للشخصيتين الآخريين.

وقد يؤخذ على «شىء فى صدرى» وضوح حبكته القصصية المدبرة على خلاف «ميرامار» و«الرجل الذى فقد ظله»، ولكنه كان بهذه الحبكة أكثرها درامية وأقرب هذه الثلاثية من أفلام كمال الشيخ إلى إثارة التشويق، حيث يبدأ الصراع مبكرًا مع بداية الفيلم بقرار الباشا اختراقه لأسرة محمد أفندى، مما يضع المشاهد فى حالة من الترقب الدائم وانتظار النتيجة لهذا الصراع الذى يجرى سجالاً بين الباشا وأعضاء الأسرة. أما الصراع الأساسى فى «الرجل الذى فقد ظله» وفى «ميرامار» فيأتى بعد تقديم الشخصيات الذى يستغرق وقتًا من الفيلم ليس بقصير.

وإن كانت شخصية الباشا فى «شىء فى صدرى» أكثر إشباعًا من شخصية سرحان البحيرى فى فيلم «ميرامار» الذى توزع الاهتمام فيه بين عدد كبير من الشخصيات، إلا أن شخصية يوسف عبدالحميد السويفى فى «الرجل الذى فقد ظله» تبقى هى أكثر الشخصيات إشباعًا. كما كانت نهايته فى الفيلم أوقع من الموت الذى انتهى إليه كل من الباشا وسرحان البحيرى، حيث نراه وهو يعد نفسه لتغيير جلده استعدادًا للمواءمة مع العهد الجديد، الأمر الذى يرهص بامتداد حياته رغم سقوط الرموز التى تسلق عليها، باتخاذ رموزًا جديدة، وهذه النهاية أكثر مصداقية وأكثر تحذيرًا وأكثر تحريضًا.

الخلاصة

لقد اقتصر - تقريبًا - كمال الشيخ فى أفلامه الأولى على تقديم أفلام الجريمة على نحو ما بيَّناه، وكانت محاولاته التالية فى خلق التشويق لأفلامه بالاستعانة بعلم النفس إضافة جديدة إلى عامل التشويق تمثل - فى نظرى - خطوة إلى الأمام نحو فهم بعض العلاقات الإنسانية خارج نطاق الجريمة، ولم يكن ارتياده لمجالى الجاسوسية والخيال العلمى بمثابة توسيع لمجال أفلام التشويق فقط وإنما تجاوز ذلك إلى إضافة معانٍ جديدة ومحاولة لتعميق فهمنا للحياة.

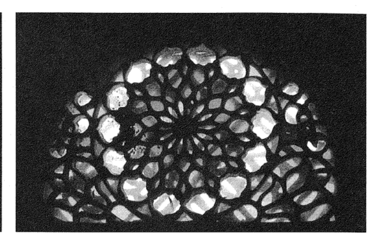
وكان كمال الشيخ فى كل ذلك رائدًا، حين قدم أول أفلام التشويق الناضجة فى السينما العربية «المنزل رقم ١٣» عام ١٩٥٢، وحين قدم تجربته الفريدة فى «حياة أو موت» ١٩٥٤، وحين قدم أول فيلم عربى عن الجاسوسية «الصعود إلى الهاوية» ١٩٧٨، وأول فيلم عربى عن الخيال العلمى «قاهر الزمن» ١٩٧٨.

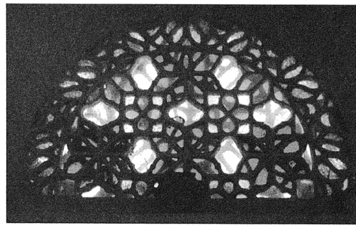
غير أنه يصل إلى أفضل مستوياته الحرفية والفنية فى مجموعة أفلامه التى تجاوزت المعالجة الأخلاقية للجريمة إلى الكشف عن أسبابها الاجتماعية، وكانت بمثابة أفلام تحريضية ضد فساد المجتمع، وفى مقدمتها «اللص والكلاب» ١٩٦٢، و«غروب وشروق» ١٩٧٠، و«على من نطلق الرصاص» ١٩٧٥.

أما أفلامه التى اعتمدت على تقديم الشخصية واحتفظت بقيمتها التحريضية، فقد وصل بها إلى ذروته وعلى رأسها «الرجل الذى فقد ظله» ١٩٦٨، و«شىء فى صدرى» ١٩٧١.

وقد حق لكمال الشيخ بهذا التاريخ الإبداعى وما أضافه للسينما العربية على امتداد ما يقرب من نصف قرن أن يكون واحدًا من الآباء البارزين لهذه السينما التى لازالت تنتظر منه المزيد. ■


TOSHIBA





صنعـــــاء..
عمــــارة التـــاريخ

عفيـــف البهنـــــسى

١ـ صنعـــاء وعـمــارة الماضى

أصبحت مدينة صنعاء كعبة الأثريين والمعماريين والسياح، يحاولون التمتع بخصائصها المعمارية، ويتعمقون فى البحث عن ميزاتها وعناصرها الفنية، ولقد اهتمت بها دول العالم والمؤسسات الثقافية العالمية بعد النداء الذى وجهته المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو)، فقُدمت المعونات المادية والفنية، وتشكلت فى صنعاء هيئة مؤلفة من مجلس أمناء برئاسة مجلس الوزراء، ومكتب فنى تنفيذى، وبوشرت أعمال الحماية والحفاظ على مدينة صنعاء القديمة، وتحققت حتى الآن إنجازات واضحة.

١ـ إن صنعاء التى كانت مجهولة تقريبًا لصعوبة اختراق حدود اليمن سابقًا، أصبحت اليوم أكثر وضوحًا، ولجمال عمارتها وخصائصها الفنية أصبحت مسئولية حمايتها عالمية.

ترتفع صنعاء عن سطح البحر ٢٣٠٠م وهى مدينة جبلية، ولذلك فإن أبنيتها مرتفعة تصل إلى حدود تسعة طوابق، وهىَ تختلف عن المدن اليمنية الساحلية التى لا ترتفع أكثر من طابقين.

وتقع صنعاء القديمة فى السفح الغربى لجبل «نُقُمْ»، وكانت المدينة محاطة بسور مازالت آثاره واضحة، ومازالت بعض أبراجه ماثلة وتجرى عمليات ترميمه حثيثًا اليوم.

تبلغ مساحة صنعاء القديمة مائة وخمسين هكتارًا، وتتصل بالخارج بواسطة أبواب ستة، ثلاثة فى الجنوب، وهى باب ستران وباب اليمن وباب خزيمة، وبابان شماليان هما باب شعوب وباب شقاديف وباب غربى، هو باب السبحة، ومازال من هذه الأبواب، باب اليمن الذى أعاد بناءه العثمانيون عام ١٨٩٧م.

وكانت صنعاء مقسمة إلى أحياء حسب التوزيع القبلى، ولقد وصف الرازى فى كتابه (تاريخ صنعاء) هذه الأحياء التى حفظت أسماءها المساجد الواقعة فيها اليوم.

وكما وصف المدينة فى القرن الحادى عشر الميلادى وعدد مساجدها وبيوتها وسمسراتها (الفنادق) ولعله بالغ فى تعدادها، ومازالت بعض معالمها القديمة ماثلة من أهمها الجامع الكبير، أما البيوت وباقى المنشآت فإنها تعود إلى عهود متأخرة.

إن مدينة صنعاء كباقى المدن الجبلية اليمنية مثل شبام ووادى حضرموت مؤلفة من نسيج عمرانى متلاحم لا تفصله إلا حارات ودروب ضيقة، وترتفع البيوت إلى ما يقرب من ثلاثين مترًا أحيانًا، فهى أبنية سامقة كالأبراج البابلية، مؤلفة من خمسة طوابق وتصل إلى تسعة طوابق فى بعض الأبنية. وتفتح واجهات هذه الأبنية على الحارات والدروب، أو على البساتين التى تسمى «المقشامة» أو المقاسم والتى تتوزع فى أنحاء المدينة القديمة، مشكلة رئة ومشهدًا جميلاً وموردًا لحاجات السكان من الخضار والفواكه.

ويبلغ عدد المساكن العالية فى صنعاء القديمة اليوم سبعة آلاف مسكن، وأقدم مسكن فيها يعود إلى ٤٠٠ سنة خلت، وكثير منها يعود إلى ٣٥٠ـ٢٥٠ سنة وبعضها حديثة يعود إلى ١٥٠ـ٥٠ سنة.

ويبلغ عدد سكان صنعاء القديمة فى عام ١٩٨٩ ثمانية وأربعين ألفًا، وهم بازدياد مطّرد. وفى صنعاء تسعة وأربعون مسجدًا، وسبعة عشر حمامًا فى قسميها الشرقى والغربى.

إن منشآت صنعاء القديمة مبنية من الحجر فى أقسامها السفلى، ثم من الياجور «وهو الواح الطين المشوى» فى أقسامها العليا، وذلك للتخفيف من الحمولات. وهى تنفتح على الخارج بواسطة شبابيك ومشربيات ونوافذ عريضة، وتشكل واجهاتها الأربع مجالاً للزخرفة المعمارية المؤلفة من أشكال الفتحات ومن الزخارف الأفقية «الأحزمة» التى تفصل ما بين الطوابق، أو الزخارف الشاقولية التى تحيط الفتحات أو تزين بعض الجدران. وتستمد الزخارف صيغها من العناصر الطبيعية، وخاصة من النباتات ولكنها تبتعد جدًا عن المحاكاة الواقعية وتقترب من الرمز والتجريد.

إن مبانى صنعاء العالية والمؤلفة من طوابق متعددة، تشكل بمجموعها بيتًا واحدًا وليس بيوتًا مستقلة، على الرغم من أن لكل طابق منافعه المستقلة وبابه الخاص، يسمى «باب الحاجز» ويستعمل الدور الأرضى كمخازن للحبوب والحطب، وكحظائر للماشية ومستودعًا لعلفها. وفى بعض أركانه حجرة للمطاحن وسقائف تسمى «الطابق المسروق». وفى بعض البيوت حجرات فوق الطابق الأول، تسمى «المحاكم» إذا كان صاحب البيت قاضيًا أو تخصص لنزول الضيوف والشركاء.

ويسمى الطابق الأول «الحافة السفلى» وهو مؤلف من حجرات واسعة تسمى «الدواوين». والطابق الثانى خاص بالمعيشة مخصص للنساء والأكل والنوم والسهرات العائلية. ويسمى «الحافة الوسطى»، وهو مؤلف من حجرات موزعة على أطراف البناء الأربعة تسمى «المناظر». وتسمى بحسب الجهات التى تشرف عليها، المنظر العدنى فى الجنوب، والمنظر القبلى فى الشمال، ثم المنظر الشرقى والمنظر الغربى.

أما الأدوار العليا، فينفرد بها الرجال وبخاصة الحجرة المبنية فى أعلى البيت وتسمى الواحدة منها «مفرج»، وهى غرفة مستطيلة ذات نوافذ واسعة منخفضة تفسح المجال لرؤية البساتين والمشاهد الجميلة، ويجلس السمّار فى المفارج على أرائك بعد الظهيرة، فيدخنون النرجيلة، ويمضغون القات، ويستمعون إلى بعض العزف الموسيقى والغناء، أو ينشدون الشعر ويتحدثون فى التاريخ والأدب.

وترتفع المفارج عن مستوى الطابق الأخير بغرفة قليلة الارتفاع تحيطها فسحة مسورة بحاجز وتسمى «التجواب». وتقوم المفارج فوق «قطب» البناء وهو نواة السلم الصاعد لولبيا إلى الأعلى مرورًا بالطوابق جميعها.

وفى كل بيت بئر تغذى أصحاب البيت بالماء اللازم للغسل والتنظيف.



وتمتاز صنعاء بأسواقها التى تقع إلى جهة الغرب. ولكل حرفة أو تجارة سوق، مثل سوق البقر وسوق البزّ وسوق الحب، وسوق الحرير، وسوق الحلقة وسوق الزبيب وسوق العلف وسوق العنب وسوق الفتلة، وسوق الفضة وسوق القشر وسوق القصب وسوق الكوافى وسوق المبساطة وسوق المخياطة وسوق الملح وسوق النحاس. وحاليًا فى صنعاء القديمة ألف وسبعمائة دكان وثلاثون سمسرة. والدكان حجرة صغيرة مربعة مرتفعة عن مستوى الطريق العام.

والسمسرات (جمع سمسرة) هى فنادق للمسافرين والتجار وقوافلهم، وتقع فى أطراف السوق، هى أبنية مغطاة بعقود مؤلفة من طابقين أو ثلاثة فى كل طابق عدد من الغرف التى تنفتح على فناء السمسرة المغطى فى الأعلى، والطابق الأرضى مع أرض الفناء مخصص للقوافل والبضائع والدواب، اما الطوابق العليا فهى لإقامة المسافرين.

٢ـ الإبـــداع الـــفـــنـــى فى العـمـارة الصنعـانيـة

عندمـا يتـحـدث المفكرون الغـربيـون عن جمالية العمارة العربية وعن الخلفية الفكرية والاجتماعية لهذه الجمالية فإنهم يرون هذه العمارة وقد انكفأت إلى الداخل كانعكاس لواقع المجتمع العربى المغلق بنظرهم بينما يتفاخرون بمجتمعهم المنفتح وبعمارتهم التى تخدم هذا الانفتاح إلى الخارج ومثالهم على ذلك البيوت المعلقة فى بلاد الشام وفى الخليج ومصر. ولكن بعضهم يرى أنه لابد من تقسيم العمارة العربية إلى نوعين، نوع منغلق ونوع آخر منفتح ومثاله العمارة اليمنية والعمارة المغربية فى الجنوب.

على أن تقسيم العمارة هذا قد تم نتيجة اختلاف البيئة، ففى الأماكن الرطبة والمتقلبة المناخ لابد من فسحة فناء داخلى تساعد على تخفيف حدة الطقس المتغير مثل الساحل اليمنى ومثل مدينة زبيد وفى الأماكن الجبلية فلم يعد الفناء أساسًا ووحدة تصميمية، بل إن اعتدال الطقس وجمال المناظر الطبيعية وإحاطة المساكن بالبساتين «المقشامة» قد غير تمامًا طابع العمارة وأعطاها شكلاً جديدًا نموذجه المتكامل فى مدينة صنعاء.



ومع ذلك فإن العمارة الحديثة المنفتحة انتشرت بعد الحرب العالمية الثانية فى البلاد العربية، ومن المؤسف أن نموذج هذه العمارة كان عديم الهوية، فهو لا غربى تمامًا ولا هو شرقى. ذلك أن هذه العمارة المؤلفة من طوابق ذات شرفات ونوافذ منفتحة على الخارج لم تستوح ذلك من الظروف المناخية كذلك تعارضت كليًا مع العمارة المنفتحة داخليًا على صحن كبير يضمن للمنزل الهواء النقى والضوء الطبيعى، ويتحاشى تأثير الظروف المناخية المتقلبة.

لقد كان على البيوت الحديثة المنفتحة ضمن شروط مناخية محددة أن تختار النموذج اليمنى وبخاصة الصنعانى، لكى يكون نموذج البيت العربى الحديث، ذلك أن هذا البيت المنفتح على أوسع أفق بصرى قد ضمن الشروط الاجتماعية وهى العادات والتقاليد، كما ضمن أصالة الإبداع الفنى فى تنظيم الواجهات والفتحات وتكوينها.

إن حديثنا عن جمالية العمارة الصنعائية يبدو أكثر وضوحًا عندما نقارنها مع جمالية العمارة الدمشقية مثلاً. وكلتاهما، دمشق القديمة وصنعاء القديمة موضوع حماية وحفاظ يتناول المبانى العامة والمساكن الخاصة والأسواق.

إن المبدأ الأساسى فى تنظيم مدينة صنعاء وأكثر المدن اليمنية فى الشمال والجنوب هو مبدأ استغلال الحيز المركزى فى المدينة بإقامة المبانى العالية. ولكن إذا كان هذا المبدأ قد قام فى المدن الحديثة فى الغرب والشرق على أساس استغلال مساكن مستقلة متراكبة فوق بعضها. فإن البيت اليمنى كان أقسامًا متراكبة تشكل منزلاً واحدًا مستقلاً.

إن هذه الوحدة المعمارية السابقة قد شكلت بجدرانها الخارجية الأربعة مجالاً واسعًا للإبداع الصنعائى الذى تجلى على أكمل وجه بالألوان والفتحات والنسيج الإنشائى. وبصورة عامة تتحدد ميزات الجمالية المعمارية فى صنعاء بالخصائص التالية:

١ـ الوحدة والتعددية:

تمتاز العمارة الصنعائية بوحدة كاملة تتجلى فى شكل العمارة وبنظامها وفى زخرفتها ومادة إنشائها، وفى وحدة وظائفها الأسروية وليس من يخطئ فى تحديد هوية الزخرفة والفن الصنعائى وهى هوية أصيلة لا نراها مستمدة من عناصر غربية ونستطيع القول، إن جميع هذه العناصر كانت مجردة أغنت الخيط الرفيع الهندسى والرقش النباتى، لقد كانت أشكالاً مجردة تحمل قيمتها من التناسق والتلوين الجمالى الذى يتفاعل مع نور الشمس التى تخترق الزجاج الملون فتزيده إشراقًا أو التى تنعكس على البروزات الزخرفية أو الشرفات فتشكل ظلالها خطوطًا تزيد الزخرفة حيوية وتلوينًا.

على أن هذه الوحدة لم تكن نتيجة استنساخ تشكيلى، بل إن الغنى الذى تحفل به العمارة الصنعائية لا حد له، ولقد تجلى فى تكوين قمريات النوافذ الملونة، وفى تصميم الأحزمة العرضانية التى تفصل ما بين الطوابق.

٢ـ البرانية المتلاحمة مع الجوانية:

إذا كان البيت الصنعائى منفتحًا على الخارج، على خلاف البيت فى زبيد، فإن هذا الانفتاح قد فرض نوعًا من الإبداع الفنى ينسجم مع صفة الانفتاح باتجاه العالم الخارجى. فالفن الذى خصصه المعمار الفنان لساكن البيت الزبيدى يختلف عن الفن المخصص للناس جميعًا فى البيت الصنعائى، ولكن هذه البرانية فى التشكل الإبداعى ليست منفصمة مع الإبداعية الجوانية، فالقمريات والفتحات والنوافذ التى تفصل الداخل عن الخارج، توزع جمالها إلى الطرفين، فيتمتع الساكن أيضًا بالنور المتسرب من الفتحات عبر القمريات الزجاجية الملونة فيزداد داخل الغرف فتنة ويتمتع الساكن بسعادة التعايش مع نور الطبيعة الذى لا مسته يد الفنان الصناع.

وتتلاحم البرانية مع الجوانية فى محاولة إظهار متعمدة لبطانة الواجهات، وهى الطلاء الجصى الأبيض الذى يغطى الجدران الداخلية وبخاصة جدران الدواوين بزخارفها المؤلفة من رفوف «صفيف» وأفاريز وحليات جصية، وتظهر هذه البطانات البيضاء على شكل إطارات غير منتظمة، لكى تذكر من فى الخارج بعالم داخلى أبيض السريرة ينظف البيئة. إذ أن هذه الإطارات البيضاء تتجدد باستمرار كتعبير وإعلان عن استمرارية الاستقرار والسعادة والنظافة فى الداخل.



على أن أوضح مثال على اندماج البرانية بالجوانية هو المفرج الذى ينهض فى ذروة المسكن والذى ينفتح من جوانبه الأربعة على فضاء المدينة وجبالها ومساكنها ومساجدها، فلا يشعر المواطن الصنعائى وضيوفه أنهم محصورون داخل جدران أربعة، بل إنهم فى جلستهم متصلين بالمدينة بكامل مفاتنها لا يفصلهم عنها أى حاجز حتى «التجواب» المحيطة «بالمفرج» الذى ينخفض إلى حد السماح بالرؤية الشاملة.

٣ـ المحافظة والتواصل:

إن بناء المسكن الصنعائى أو اليمنى عامة، قد كفل احترام الحياة الاجتماعية التقليدية التى تقوم على الخصوصية وعدم الاختلاط، ولكن هذا لا يعنى أن المسكن قد جعل الأسرة اليمنية وبخاصة المرأة معزولة عن محيطها الخارجى، لقد عمد المعمار إلى تقسيم الفتحات إلى قسمين، قسم علوى مخصص لدخول الشمس والنور والهواء، وقسم سفلى مخصص لدخول الهواء أيضًا والإطلال على المحيط الخارجى، ومن الممكن للنساء أن يزددن إطلالاً على الشارع عن طريق المشربيات البارزة والتى تفسح للرؤية مجالاً من جميع الجهات.

وتبدو هذه الفتحات بأشكال مختلفة، فقد تكون مؤلفة من قسمين مستقلين تمامًا، يبدو القسم الأعلى وقد انتهى بقوس مؤطر أو بسيط، بينما يبقى القسم السفلى مربعًا أو مستطيلاً. أو تكون هذه الفتحات متصلة فيبدو على شكل مستطيل ممشوق. وكثيرًا ما تبدو هذه الفتحات على شكل دائرتين منفصلتين الواحدة فوق الثانية، تربطهما أشرطة زخرفية. ومع ذلك فإن ثمة فتحة مصمتة تبدو فى أسفل هاتين الفتحتين لتغطية الفراغ القائم بين النهاية السفلى والحزام الطابقى.

إن الهدف الأساسى من إقامة المسكن هو تحقيق وظيفة الإسكان التى يشترط فيها الراحة والاستقلال والأمن، ولقد استوفت العمارة اليمنية هذه الشروط جميعًا، على عكس العمارة الحديثة التى لم تستطع ضمان هذه الشروط، مما دفع إلى سد النواقص أو التخفيف منها بواسطة «ترقيعات» وإضافات على أن هذه الإضافات قد أخلت بجمالية العمارة، فلقد كانت الحلول الطارئة سببًا فى إفساد الشكل الجمالى المعمارى.

ولكن فى العمارة اليمنية فإن الوظيفة والإبداع يتلاحمان عضويًا دون أن يفسد الواحد الآخر، فلقد كانا هدف المعمار منذ البداية.

ومع ذلك فإن الناظر إلى العمارة الصنعائية وهى أكثر العمارة اليمنية زخرفة وفنًا. يرى أن الجمال الفنى كان من صنع الوظيفة وليس العكس. إن عيب العمارة الحديثة المستوردة هو أن التصميم المعمارى كان أساس الوظيفة وكثيرًا ما يشعر الساكن فيها أنها ليست على القياس الإنسانى بل هى على قياس التصميم النظرى.

لقد أغنت العناصر الإبداعية العمارة فى صنعاء، بل أغنت الوظيفة ذاتها، فكانت العنصر الجاذب والمنافس اجتماعيًا، فالعمارة الأكثر جمالاً هى العمارة الممثلة لحالة ساكنها الاجتماعية المتفوقة، ويتبارى السكان منذ العصور الحجرية لتزويق وتجميل أماكن إقامتهم للتعبير عن تفوقهم الاجتماعى وتأكيد مكانتهم الممتازة.

على أن هذا التبارى الجمالى لا ينعكس فقط على مالك السكن وحده، بل ينعكس على المدينة والمجتمع كله، فالواجهات المعمارية الجمالية تصافح رؤية السكان المجاورين فتسعدهم يتمتعون بها أكثر من صاحب السكن ذاته أحيانًا، وهكذا فإن الفن فى العمارة الصنعائية هو فن للمدينة وسكانها والعابرين فيها، هو فن ذو وظيفة اجتماعية متبادلة مما لا نراه فى البيوت التى لا تتمتع بجمال خارجى، بل إن أكثر جدرانها عارية من أية زخرفة وفن وتبقى الواجهات المطلة على الصحن الداخلى وحدها، هى المجال الواسع لاستيعاب العناصر المعمارية الإبداعية.



ومن جهة ثانية لقد فرضت الوظيفة الإسكانية شروطًا تتعلق بتأمين التهوية والتبريد وتحقيق عمليات التصريف الصحى. وهكذا بدت المشربيات، وهى نافذة بارزة محاطة بمشبكات خشبية «البرامق» لتساعد على التهوية والإطلال. وهى شرط مهم لراحة الساكنين.. ودخلت هذه المشربيات فى التصميم المعمارى وفى عملية الإبداع الفنى بشكل عضوى منسجم يساعد فى تحقيق العمليات الاختلافية الجمالية بين السطح والبروز، بين العاتم والمشرق، وحتى الظلال التى تسببها البروزات الزخرفية فهى تساعد على تخفيف وطأة الشمس.

٤ـ الخلافية والانسجام:

تبدو الخلافية فى الأشرطة والأحزمة أيضًا، فهى مكسرات أو معينات أو مثلثات تشكل إيقاعات مستمرة تغنيها الظلال التى يصنعها بروز هذه التشكيلات.

لقد وصل الفنان فى هذه التأليفات الإيقاعية إلى حدود التجريد البصرى، ولكن الفنان البصرى الحديث Op. art مازال يحاول جهده اصطناع التحولات الحقيقية فى الأشكال، مما يخدع البصر فيوحى بالحركة والتفاعل. ولكن الفنان اليمنى لم يصطنع ذلك بل لقد أصبح مألوفًا لديه أن يخالف السكونية لكى يحقق الحركة، مما دفع أحد الجماليين أن يقول «إن الحركة فى هذه الأشرطة هى أشبه بالرقص»،

لقد تضافرت الموسيقى مع اللون والعمارة لكى تشكل الفن المعمارى اليمنى.

هكذا نرى أن الخلافية التى دفعت الفنان للابتعاد عن المألوف والواقعى قد قامت على انسجام فنى متكامل، حتى الخلافية فى توزيع الفتحات على واجهة العمارة، فقلما نراها متناظرة متشابهة، بل إننا نرى المعمار قد وزع الفتحات بانسجام فنى وبأشكال مبدعة، مربعة، مستطيلة، دائرية وشاقولية. تم كل ذلك بانسجام كامل مع الوظيفة، فالفتحات فى المستودعات والمطابخ تختلف عن الفتحات فى غرف المعيشة، وهذه تختلف عن الفتحات فى المفارج. إن فنانه يصوره من دمشق، وقد أذهلها هذا الانسجام الرائع فى توزيع الأشكال والألوان على صفحة الواجهات المعمارية الصنعائية قامت بإنجاز مجموعة من اللوحات الزيتية التى نقلتها عن هذه الواجهات الرائعة.

إن الخلافية والانسجام فى تشكيل العناصر الزخرفية وفى توزيع الفتحات تتجلى أيضًا فى توزيع الخطوط الشاقولية والعرضانية. لقد امتازت العمارة اليمنية بالامتشاق والارتفاع، وكان بعضها شبيهًا بالأبراج، ومع ذلك فلقد استطاع الفنان أن يعدل من حدة هذا الطابع البرجى، وذلك بتقطيع الارتفاع إلى مربعات أو مستطيلات، تفصلها الأحزمة الزخرفية، وهى أشرطة زخرفية عريضة يصل ارتفاعها إلى ما يقرب من المتر، تزينها كما ذكرنا تشكيلات هندسية، ويكاد لا يخلو مسكن فى صنعاء لا تتحاور فيه الخطوط الشاقولية والأفقية بانسجام عضوى مما لا نرى له نظيرًا فى العمارات الشاهقة التى نشاهدها فى المدن الأمريكية والتى تبدو كتلاً هندسية مجردة أشبه بالمعلبات.



وتعتمد هذه الأشرطة أو الأحزمة على «الياجور» المنتظم الأبعاد فى عملية الزخرفة والتشكيل، ولذلك نراها أكثر غنى فى الطوابق العليا المبنية من الياجور «أى الآجر».

ثم إن هذه الشرائط تبدو أكثر تنوعًا واختصارًا فى نهاية العمارة العليا حيث نرى «الشراتيح» فى أطراف البناء وفى وسطه، وحيث نرى «التجواب» على شكل سلسلة الأقواس الزخرفية التى تحلى الحواجز المحيطة «بالمفارج». هذه العناصر الخلافية تزيد البناء ثروة بل تزيده انسجامًا إبداعيًا.

ويبدو عنصر الخلافية والانسجام واضحًا فى تشكيل مدينة صنعاء كلها، فإذا كانت أكثر بيوت مدينة زبيد لا ترتفع أكثر من طابقين فقط لكى لا يفسح المجال للإطلال على الحياة الداخلية فى البيوت المجاورة المطلة على أفنيتها، فإن سكان بيوت مدينة صنعاء لا يقلقهم تطفل الجوار الذين تتعالى بيوتهم بارتفاعات مختلفة.

فالبيت اليمنى فى صنعاء مطل على الخارج منفتح بطبيعته، وهو مصان من فضول الآخرين على طريقته المعمارية الفذة، ولذلك فإن بيوت صنعاء المتلاحمة متفاوتة الارتفاع وإن كان أكثرها سامقًا. ومنظر المدينة يصور بوضوح تلك الخلافية بالارتفاع، ذلك الانسجام فى الإيقاعات المتغيرة التى يحدثها اختلاف الارتفاع وتشكل الفراغات وتنوع التشكيل البصرى، ثم اختلاف التشكيلات الواجهية واختلاف الألوان. لقد استغل المعمار الاختلاف القائم فى مادة البناء، فإذا كان الحجر «الجعم» البركانى هو المادة الأساسية لبناء الطابق الأول، وكانت واجهات هذا الطابق مصمتة إلا من فتحة الباب الرئيسى وفى حدود الملاط «الطِّب» الذى كان يملأ الفراغات بين الأحجار. فإن مادة بناء الطوابق الأخرى هى من الحجر الأبيض المبنى على طريقة «اللفق»، أى بدون فواصل، ثم بالآجور أو الياجور الأحمر اللون أو البنى. ولم يقم المعمار بتغطية سطوح هذه العمارة، ولم يوحدها بملاط كلسى كما فعل المعمار الشامى، بل استبقاها احترامًا لها، كما يفعل اليوم المعمار الحديث، بل إنه كحّل أطرافها بمادة الكلس الأبيض كرمز لنظافة البناء والرغبة بتجديده فى كل مناسبة، وعلى الأقل فى كل عام مرة.

وبدت هذه الخلافية بين اللون الأبيض، لون الكلس، واللون الأحمر أو الرمادى لون الحجر والياجور، طابعًا خاصًا لازم الفن المعمارى اليمنى حتى فى البيوت القروية الصغيرة.

إن دراسة العناصر الإبداعية فى العمارة الصنعائية هى جزء من دراسة الجمالية العربية التى تحتاج إلى المزيد من الإغناء لإقامة فلسفة فنية عربية متكاملة، قادرة على تفسير شخصية الفن العربى وعلى تثبيت هويته فى العمارة الحديثة. والذى نأمله أن تأخذ العمارة الحديثة فى اليمن دائمًا من النموذج الفنى الأصيل للفن التشكيلى والمعمارى الماثل فى مدينة صنعاء القديمة.

٢- عمارة الجامع الكبير بصنعاء

لم يبق من المساجد التى أنشئت فى عهد الرسول إلا مسجد صنعاء، ومن هنا تفسير المكانة التى يحظى بها هذا المسجد عند اليمنيين كافة، وبخاصة عند الصنعائيين، الذين يتلمسون فيه بركة التاريخ الإسلامى، بل آثار تاريخ اليمن فى جميع العصور، إذ قلما نرى بناء يتكون من عناصر معمارية تاريخية تنتسب إلى عهود مختلفة ويصبح بذلك متحفًا حيًا، وعندما نزور هذا المسجد نعيش فى مناخ تاريخ اليمن وحضارته.

ولأن هذا المسجد - فى بدايته - أنشئ على هدى مسجد الرسول فى المدينة، فإن الصنعائيين أشد اعتزازًا به من غيرهم.

لقد شهد عهد الرسول وحمل خصائص وشروط مسجد الرسول، وهى البساطة والتقشف. لقد بدا بناء مسجد يقيم فيه المسلمون صلواتهم ويرمز إلى إسلامهم وإيمانهم برب العالمين أمرًا جوهريًا، عندما أنشئ المسجد فى صنعاء فى العام السادس للهجرة كان فروة بن مسيك ينفذ أمرًا من الرسول أن يقيم مسجدًا يجمع المؤمنين، وأوصاه بحسن الدعوة إلى الإيمان من خلال المسجد إذ قال له ﷺ: «ادعهم إلى الإيمان، فإن أطاعوا لك به، فاشرع لهم بالصلاة، فإذا أطاعوا لك فمُر ببناء المسجد فى بستان «باذان» ما بين الصخرة المللمة إلى غمدان».. لقد كان الرسول ﷺ يؤكد على أهمية المسجد كمكان لاجتماع المؤمنين ومكان لالتقاء السلطة الجديدة مع المؤمنين حديثى الإيمان، وكان هذا اللقاء تأسيسيًا، فنحن نذكر أن الرسول عندما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن واليًا، أثنى على لجوئه إلى الاجتهاد، ومنذ ذلك الوقت أصبح الاجتهاد مصدرًا من مصادر الشريعة.

وحدد الرسول مكان المسجد فى بستان «باذان بن ساسان» الذى كان حاكمًا فارسيًا، ثم أسلم فسماه الرسول واليًا على اليمن، فإن القصد من إقامة المسجد فى بستانه، هو ربط جماعته بالإسلام، وتعزيز مركز باذان المسلم بين المؤمنين جميعًا.



ويجب أن نذكر أيضًا أن المكان الذى حدده الرسول كان مكانًا معمورًا حفل ببقايا المنشآت السابقة، أهمها بقايا قصر غمدان الذى تحدث عنه هشام الكلبى ووصفه شعرًا الهمدانى فى الإكليل «ج٨ ص١٩»، ثم كانت كاتدرائية «القليس» التى بناها أبرهة وتحدث عنها الأزرقى فى «أخبار مكة» وياقوت فى معجم البلدان، ولقد أنشئ على هدى كنيسة الميلاد فى بيت لحم.

إن صنعاء التى مازالت ثغر العروبة والإسلام، كانت متاخمة لبلاد الأحباش الذين حكموا اليمن آخر مرة من ٥٢٥ - ٥٧٥م وفى صنعاء كانوا قد أقاموا الكاتدرائية التى أطلق عليها اسم القليس.

وكانت عمارة ضخمة حتى أن أبرهة الحبشى الذى بناها كتب إلى النجاشى قائلاً: «لقد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك، ولست بمنته من بنائها حتى أصرف إليها حجيج العرب». لقد كان أبرهة يعد العدة لاجتياح بلاد العرب ولهدم الكعبة، وكان ذلك عام ٥٧٠م وهو عام الفيل الذى ولد فيه الرسول محمد بن عبد الله وهُزِم أبرهة، إذ إن السجيل «الجدرى» فتك بجنده.

وهكذا فإن ذكرى حرب الأحباش لم تكن سهلة على اليمنيين بعد الإسلام، وكان القليس يثير لديهم الشعور بتفوق الأقباط بل والأحباش الذين أنشأوا القليس.

توسع وتجديد الجامع مع توسع المسلمين فى صنعاء:

لقد كان بناء المسجد علامة من علامات تغيير النظام السياسى والدينى فى صنعاء، وعندما ابتدأ الناس يتهافتون بازدياد على المسجد، كان ذلك دليلاً على تزايد نفوذ الإسلام وانتشار تعاليمه لتحل محل التعاليم السابقة الوثنية وغيرها.

لقد حقق المسجد فى بداية إنشائه التى كانت بداية متواضعة وظيفته الأساسية، وهى جمع المسلمين وتقوية اتحادهم وإسلامهم وتنظيم شعائرهم وتحقيق تعاونهم وارتباطهم بعضهم ببعض، وأصبح المسجد منبر الحكم والعلم، وفيه كان الوالى الذى يمثل السلطة المركزية يحقق السياسة الشاملة والإدارة الداخلية من عدل وحسبة وأمن.

ولكن بناء المسجد الأول لم يعد كافيًا لاستيعاب المؤمنين ونشاطاتهم الاجتماعية والثقافية إلى جانب ممارساتهم العقائدية. كذلك عمارته البسيطة لم تكن كافية للتعبير عن عظمة دولة الإسلام، وبخاصة أن بناء القليس كان متفوقًا فى عمارته وزخارفه، وكان الأمويون فى الشام قد فطنوا لضرورة تعزيز هيبة الدولة ووظائفها بإقامة المنشآت الدينية والمدنية، فلقد أنشأوا فى القدس المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة، كما أقاموا فى دمشق الجامع الكبير.



إن عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥م) كان عهد إنشاء وتعمير، ولقد امتد ذلك إلى المدينة حيث أعيد إنشاء مسجد الرسول، كما امتد إلى صنعاء، وفيها أعاد الوالى أيوب ابن يحيى الثقفى إنشاء المسجد الجامع الكبير مستوحى من مسجد دمشق، مؤلفًا من حرم وصحن ومئذنة. ومن المؤكد أنه استوعب منبرًا ومحرابًا، وهكذا أصبح المسجد مؤئلاً للمؤمنين يتزاحمون إليه حتى أن أروقة أضيفت للمسجد فى صحنه، كانت جديرة أن تستوعب العدد المتزايد من المصلين، ولم تلبث هذه الأروقة أن أغلقت فتحاتها على الصحن لتصبح حرمًا إضافيًا فى الجنبين وفى الجهة المقابلة للقبلة.

هكذا أصبح المسجد أضخم منشأة إسلامية في صنعاء استوعبت الوظائف الدينية والإدارية أيضًا. وكانت توسعاته المستمرة دليلاً على زيادة مكانة صنعاء كمدينة إسلامية، ودليلاً على حجم دوره في زيادة النشاط الاجتماعي ورفع مستواها إلى الحدود الثقافية الإسلامية التي نمت داخل المسجد وانطلقت منه.

كانت الفترة التي تمت بين ١٣٢هـ/٧٥٠م - ١٣٤هـ/٧٥٢م. فترة قلقة في اليمن وفي صنعاء خاصة. فلقد تغير الحكم وانتقل من الأمويين إلى العباسيين، وكان لابد للسلطة الجديدة في صنعاء والمتمثلة بالوالي الجديد علي بن الربيع من أن تزيد في توسيع المسجد وتحصينه ضد المقاومة التي كانت تنفجر من الموالين للحكم الأموي. وتشهد الزيادة المهمة التي حققها هذا الوالي على طبيعة هذه المرحلة القلقة والتي لم تستقر إلا عن طريق زيادة قوة السلطة وتحصين مواقعها. وكان الجامع الكبير أبرز شاهد على هذا التحصين، ومازال لوح حجري منقوش بكتابة تاريخية مثبت على جدار صحن الجامع قرب قاعدة المئذنة الشرقية. وفيه «أن أمير المؤمنين أكرمه الله، أمر بإصلاح المساجد وعمارتها على يد الأمير علي بن الربيع أصلحه الله، في سنة ست وثلاثين ومائة» ويذكر النص اسم الخليفة المهدي والصواب أن الخليفة كان المنصور.

وهكذا فلقد أنشئ بين عامي ١٣٣-١٣٦ تعديل مهم تمثل بإنشاء المجنب الشرقي بعرض ١١,٧متر وأضاف للمسجد جدرانًا وأبوابًا في الشرق ومازالت ألواح تذكارية ناقصة تخلد هذا العمل، مثبتة على هذا الجدار من الخارج.

وإذا كانت هذه الزيادة قد سجلت تحولاً مهمًا في نظام الحكم وفي علاقة سكان المدينة بالمسجد المؤسسة التي ترمز إلى السلطة، فإن ما أصاب المدينة من دمار إثر السيل الذي انحدر مدمرًا من جبل نُقُم سنة ٢٦٢ هـ فهدم أجزاء كثيرة من شطري صنعاء، الشمالي ويسمى «السرار» و«السقطيع» هو الجنوبي، هذا السيل الذي وصفه وعدد أضراره الجندي في كتابه السلوك «لوح ٢٩» فإن المسجد الجامع الكبير قد سجل هذا الحدث أيضًا بعد أن أصابه من الخراب ما أصاب المدينة وسكانها، فلقد تهدمت أطراف المسجد وبخاصة الواجهة الشمالية الشرقية وتهدم الجداران القبلي والشرقي، ثم قام الأمير محمد بن يعفر بترميمه وتحسينه وتزويقه في سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م.

القرامطة في صنعاء والجوامع:

ويسجل المسجد بترميماته وتوسعاته، حادثة اجتماعية مهمة تمت في سنة ٢٩٩هـ/٩١٢م، ذكرها الجندي أيضًا في السلوك «ص٢٣٨». وهذه الحادثة كان بطلها علي بن الفضل والقرامطة الذين استولوا على صنعاء للمرة الثانية في تلك السنة، ويبالغ المؤرخون في أثر هذا الاستيلاء السيئ على المدينة، ولكنهم لا ينكرون أن ذلك تم مع أمطار غزيرة غمرت المسجد وأنحاء المدينة.

وبعد تحرير صنعاء من سيطرة القرامطة، اهتم أهل صنعاء وأميرهم أسعد بن يعفر بترميم المسجد وهو رمز السلطة الشرعية. ويتحدث القاضي الحبيشي (في الاعتبار) عن مقدار ما أنفقه بنو يعفر على ترميم المسجد، والأرقام الضخمة تبين مدى تعاطف الناس في صنعاء مع مسجدهم الكبير. يقول الحبشي: «إن مقدار ما أنفقه بنو يعفر على بناء جامع صنعاء خمسة وعشرين ألف خزانة، في كل خزانة أربعة عشر ألف مثقال يعفري. والجملة ثلاثمائة ألف وخمسون ألفًا، والدينار اليعفري يومئذ ثلاثة دنانير ملكية». وجمعت هذه الأموال من أهل صنعاء.

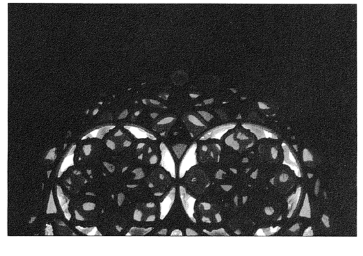
ويتحدث بعض المؤرخين عن تعديلات تمت في المسجد في عهد السيدة الحرة الملكة أروى بنت أحمد، يقول صاحب كتاب «غرة الحق»، أن الحرة الملكة هي التي وسعت جامع صنعاء ورممت بناءه وزينته، وأمرت أن تكون أسماء الأئمة من الإمام علي بن أبي طالب حتى الإمام المعاصر لها منقوشة على سقفه. ولقد تم نقش ذلك وتسجيله في الجدار الشمالي للمسجد بناء على أمرها. ثم أزيلت أو كشطت هذه النقوش في عهد إمام الزيدية أحمد بن سليمان (٥٦٦هـ/١١٧١م) ثم غلفت بالجبس والسراس في عهد حاتم بن أحمد (٥٤٥هـ/١١٥٠م).

هكذا يبدو المسجد شاهدًا على أحداث اجتماعية أخرى فهذا التحول في التشيع والانتماء قد سجل مباشرة على جدران المسجد، وبقيت آثاره زمنًا.

أعمال المبدعين الصنعائيين في الجامع:

يختزن مسجد صنعاء أعمالاً فنية رائعة قدمها المبدعون من الصنعائيين، فكان بذلك متحفًا حيًا للمدينة، وتتمثل هذه الأعمال بالزخارف المتنوعة التي تغطي «مصندقات» سقوف الحرم، والتي تعود إلى عهود متعاقبة، وهي آيات فنية تمتاز بخصب الصيغ النجمية والزهرية، والتي حددت خصائص الفن الصنعائي، الذي انتقل إلى أماكن أخرى ليزين سقوف المساجد فيها، مثل جامع شبام - كوكبان. وثمة دراسة عرضنا فيها الشبه بين زخارف جامع صنعاء والزخارف المماثلة في مسجد الرسول في المدينة كما وصفها سوفاجيه.

ومع ذلك فإننا نعتبر أن زخارف الجامع الكبير في صنعاء، هي من إنتاج الفنانين المحليين على مر العصور. ولقد كانت هذه الزخارف مدرسة خرجت أجيالاً متعاقبة من الرسامين الذين بلغوا ذروة الإبداع، فيما قدموه من أعمال مبتكرة، مازالت قائمة حتى يومنا هذا، بيد أنها تحتاج عناية وترميمًا لابد منه.



والكتابات القرآنية التي تزين الأفاريز العليا من الجدار الغربي للحرم وهي بالخط الكوفي، تعتبر الأكثر قدمًا في الجامع، وفي أفاريز الجناح الشرقي كتابات قرآنية أخرى أقرب عهدًا، وثمة كتابات وخطوط أخرى عرضناها تفصيلاً في كتابنا عن الجامع الكبير بصنعاء.

لقد تحدث الهمداني في «الإكليل» عن الخطاطين الصنعائيين، ومما لا شك فيه أن هؤلاء الخطاطين وغيرهم شاركوا في كتابة خطوط الجامع الكبير، ومرة أخرى يبدو الجامع متحفًا يضم روائع الخط كما ضم روائع الزخرفة الملونة.



الجامع معهد لثقافة الصنعائيين:

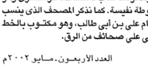
لم يكن الجامع معبدًا فقط، يؤمه الناس لإقامة الصلاة، بل كان معهدًا للتدريس، ومازالت حلقات التدريس في الجامع قائمة حتى يومنا هذا، ويتحلق طلاب العلم حول مدرسيهم، يدرسون على يده القرآن الكريم والحديث وأصول الفقه والتشريع. ثم هم يلجأون إلى مكتبته يستزيدون المعرفة مما حوته من أمهات المخطوطات.

لقد أكدت المخطوطات المكتشفة في عام ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م في جدار الحرم القبلي على مدى أهمية الكتب التي كانت تحويها المكتبة، وعلى مدى روعة الخط الذي كتبت به. ولقد بلغ عدد هذه المخطوطات عشرة آلاف مخطوطة وهي تتألف من مصاحف شريفة تعود إلى القرن الهجري الأول وحتى القرن التاسع مكتوبة على الرق بالخط الكوفي الحجازي وبأحجام مختلفة، ومن المخطوطات ما هو مكتوب بالخط النسخي، وهي تمتاز بحسن الخط والتذهيب والتزويق، وتعود إلى القرن الهجري التاسع.

وعدا عن المصاحف، فمن المخطوطات ما كان موضوعه فقهيًا أو نحويًا أو بيانيًا، ومنها ما كان علميًا في الطب والفلك والتشريح.

ومما لا شك فيه، أن هذه المخطوطات كانت من محتويات المكتبة ولقد عزلت في مكان مغلق بعد أن تلفت أوراقها من الاستعمال وهي إذ تشكل ثروة فنية تم ترميمها وتصنيفها وحفظها، فهي آثار فنية تؤكد براعة الخطاطين الصنعائيين ومشاركتهم المستمرة بإغناء المكتبة الخاصة بالجامع الكبير بالمخطوطات المكتوبة بخطوط جميلة وبزخارف متقنة.

ومن المؤكد أن أفضل ما كان ينتجه الرسامون والرقاشون والخطاطون، كان يقدم إلى المسجد الجامع، وهكذا فإن هذا المسجد كان المشجع الدائم على استمرار النشاط الإبداعي في صنعاء. ومازالت المكتبة تحتفظ بشواهد من روائع المخطوطات، نذكر منها مخطوطة «مقامات الحريري» التي أنجزها بخطه محمد ابن دغيش (١١٢١هـ/١٧٠٩م)، وفي هذا المخطوط صور إيضاحية ملونة لبعض المقامات، وتمتاز هذه المخطوطة بغلافها الخارجي الجلدي وعليه رقائق مذهبة تغطي زخارف من الرقش العربي النباتي.



ونذكر هنا كتاب «الكشاف» للزمخشري وهو مخطوطة نفيسة. كما نذكر المصحف الذي ينسب للإمام علي بن أبي طالب، وهو مكتوب بالخط الكوفي على صحائف من الرق.

إن الجامع الكبير الذى كان مدرسة عليا لتدريس العلوم والآداب والفقه خرّج كبار الفقهاء والأدباء فى صنعاء، كما خرّج كبار المدرسين والقضاة والفرضيين والمقرئين، ومازالت حلقات اختصاصية فى كل فن وعلم تقام فى إرجاء المسجد. ولعل أبرز القضاة، إذ لم يكونوا جميعًا قد تخرجوا من مدرسة الجامع الكبير التى كان يديرها قضاة كبار، كانوا يمارسون القضاء والفصل فى الخصومات بين الناس، وكان القاضى يجلس فى ركن من أركان حرم الجامع، وخلفه رئيس الأعوان ليسجل الأحكام ويأمر بتنفيذها.

٤. الحفاظ على العمارة الصنعانية

ليس من مثال على الأصالة المعمارية والعمرانية يمتاز بلاغة ووضوحًا على مثال أصالة العمارة والعمران فى المدن اليمنية، صنعاء وشام وزبيد وتريم وغيرها.

ولكن هذا المثال الرائع كان محجوزًا عليه خلف أسوار الحصار الذاتى، ومغيبًا فى ضباب التعتيم المعرفى والإعلامى، حتى إذا قامت الثورة فى عام ١٩٦٠ فوجئ العالم بمشهد تلك العمارات الشاهقة والأحياء المتداخلة، حافلة بزخرفات متنوعة صنعها وابتكرها الإنسان اليمنى كما تلبى حاجاته السكنية والاجتماعية والجمالية أيضًا، وكان هذا الإنسان رجلاً معتدًا بتاريخه يتمنطق خنجرًا فضيًا معقوفًا يرمز إلى القوة السلمية والمنعة المتحدية، كما كانت اليمنية امرأة تعتد بعفافها وحشمتها وقد ارتدت ملاءات وأثوابًا ملونة زينت تلك البيئة العمرانية الداكنة أو البيضاء بألوان الزهور والربيع، فكانت إيقاعًا متحركًا يبث الحياة والفعالية فى الأحياء والأسواق والمدارس والمساجد التى مازالت قائمة، بعضها يرجع إلى عصر الرسول كجامع صنعاء وجامع الصحابى مَرْوه بن مُسَيْك «الجبانة».



ومنذ الانفتاح على العالم والتعرف على روائع اليمن مدينة وشعبًا وتاريخًا، ومنذ ازدهار الحياة الاقتصادية وزيادة الحاجة إلى تطوير الحياة حسب تقنيات العصر الحديث، ظهرت أحياء جديدة تزاحم بعمارتها وخصائصها المدنية القديمة، التى لم يكن من السهل تكييفها مع تقنيات العصر الحديث.

لقد غادرت أسر كثيرة الأحياء القديمة القابعة ضمن نطاق التاريخ، وتركت منشآتها مهملة تعبث بها وظائف غريبة تزيد الإهمال تهديمًا واستهلاكًا. فكان لابد من توجيه نداء عالمى عام ١٩٨٠ تبنته منظمة اليونسكو لحشد الجهود لحماية المدن القديمة وأحيائها.

وهكذا تأسست سنة ١٩٨٧ الهيئة العامة للحفاظ على مدينة صنعاء والتى أصبحت بعد الوحدة شاملة المدن اليمنية وتحمل اسم الهيئة العامة للمحافظة على المدن التاريخية Gophcy.

ولقد حققت الهيئة الأولى إنجازات لحماية صنعاء القديمة استحقت عليها جائزة أغاخان ١٩٩٥، كترميم بيت المطهر ويعود إلى عام ١٦٠٠ وسمسرة المنصورية ١٨٥٠ وسمسرة النحاس ١٨١١ وبيت العمرى ١٦٠٠ وبيت سريع ١٣٠٠ وغيرها. كما قامت بتعبيد الطرقات. وإنشاء البنية التحتية والصرف الصحى، بعد أن تم جمع المال اللازم من الدولة ومن هيئات دولية ومن دول كبرى معنية بحماية التراث الإنسانى، مثل إيطاليا وهولندا وكوريا والنرويج وسويسرا والولايات المتحدة.

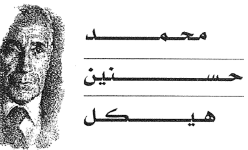
وقد كانت خطط الترميم والصيانة تخضع لبرامج علمية تراقبها الهيئة العامة وتكون نتائج أعمالها موضوع ندوات يشترك فيها كبار الاختصاصيين فى العالم. عدا عن إشراف منظمة اليونسكو المباشر.

لقد أصبحت صنعاء القديمة قادرة على مجابهة تحدى المدنية الحديثة التى تتنامى بسرعة، مستقطبة اهتمام السلطة والشعب، ولذلك كان لابد من استمرار دعم صمود المدينة القديمة بقوة تعادل دعم نمو المدينة الحديثة، ولن يقتصر هذا الدعم على عمليات الصيانة والترميم، بل على تأهيل هذه المدينة للحياة الاجتماعية، وتأهيلها لتبقى شاهدًا تاريخيًا أو تحفة متحفية تحكى قصة امتدت أحداثها الحضارية منذ سد مأرب على الأقل، كانت فيها اليمن مركزًا سياسيًا واقتصاديًا مهمًا فى جنوبى البلاد العربية.



وكان لابد من ترميم أسوار صنعاء منذ عام ١٩٨٧ وإعادة تنظيم وادى السايلة الذى كان يصون المدينة من غمار السيول السنوية الهابطة من جبل نقم. ويجب أن نعترف أن أهم انتصار تحقق فى مدينة صنعاء نتيجة عمليات الترميمات فى البنية التحتية والأبنية العامة ورصف الطرقات بالحجارة السوداء وتسهيل مرور وسائل النقل والانتقال، هو إعادة الارتباط الشعبى بهذه المدينة، فلقد أقبل المواطنون على العودة إلى مدينتهم بعد هجرتها منذ عام ١٩٧٠ وقاموا بترميمها بإشراف الهيئة، مثل بيت الروضة. وانتعشت الأسواق وأصبحت مركزية فى المدينة كلها قديمها وحديثها، وتسابق المالكون للعناية بممتلكاتهم التى سبق أن هجروها للإقامة فيها أو لتوظيفها حسبما تقتضيه ظروف مدينة ساحرة متميزة بعمارتها وطابعها، لم تستطع المدينة الحديثة مجاراتها بطرافتها وأصالتها. ولقد كان على الهيئة المسئولة أن تضع خطة لمتابعة صيانة هذه المدينة لتكون نموذجًا عمليًا يساعد فى التخطيط لصيانة باقى المدن اليمنية الأصيلة، لتحقق هدفًا يتفق مع الطموحات التقدمية للسلطة اليمنية فى الحفاظ على التراث والاعتزاز به ليبقى ذاكرة التاريخ وشاهد الحضارة، على أن يوظف فى أغراض ثقافية وسياحية، بعد أن أصبحت المدينة الحديثة قادرة على استيعاب الوظيفة السكنية حسب الشروط المعاشية الحديثة.

على أن ضخامة التراث المعمارى اليمنى تتطلب جهودًا مكثفة وتتطلب ميزانيات ضخمة، ولكن لابد من دعم المواطنين وتشجيعهم على صيانة ممتلكاتهم، ولابد من التعاون مع قطاعات الثقافة والسياحة لاستغلال هذه المدينة وتوظيف منشآتها لأغراض هذه القطاعات. وهذا لا يعنى أن مهمة الهيئة العامة المسئولة تنتهى عند هذه الحدود، بل إن مهمة التنسيق بين مشاريع الصيانة والتوظيف ضمن حدود قانون الآثار تبقى أساسية، وإن وضع خطة المحافظة على المدن التاريخية اليمنية وتنفيذها مازالت من مهامها. ■





السؤال الأول

هل كانت الثورة لازمة؟



تحالف ضد الملك!

فبراير ١٩٤٢ - ١٩٤٤

بصرف النظر عن **الوقائع والتفاصيل**، والأحكام والآراء - فإن **تلك الأيام الثلاثة التى هزت** كيان مصر - والتى بلغت ذروتها **مساء ٤ فبراير - ١٩٤٢** جاءت تأكيدا قاطعا **لصحة المعادلة التى حكمت** الحياة السياسية فى مصر قبل **ثورة يوليو ١٩٥٢**، ومجملها باختصار أن السلطة فى مصر **موزعة بين** ثلاثة أطراف:

● العرش - وهو الرمز الرسمى لفكرة السيادة.

● والوفد - وهو الممثل الفعلى للأغلبية الشعبية.

● والسفارة البريطانية - وهى مالكة القول الفصل والكلمة النهائية فى الشأن المصرى.

يلحق بذلك ويترتب عليه أن أحداث ٤ فبراير كانت بالنسبة لكل طرف من الأطراف الثلاثة فى المعادلة الحاكمة، درسا مفيدا، وخبرة مضافة، تساوى أن توضع فى أساليب التعامل وحساب النتائج!

وكانت الطريقة التى جرت بها الحوادث مساء ٤ فبراير - إنسانية ومباشرة فى إنسانيتها حتى لقد جعلت لعبة السلطة - ثلاثية الأطراف - تبدو على السطح كأنها اشتباك وعراك بين ثلاثة رجال. وكانت هذه الإنسانية المباشرة ثقيلة إلى درجة توارى الواقع خلف أقنعتها، فأصبحت ملامحه «فاروق» و«النحاس» و«لامبسون» - أكثر مما هى القصر - والوفد - والإنجليز، وحركتهم جميعا على أرض وطن محتل فى أحوال عالم مضطرب!

وكذلك على السطح وفى الظاهر فإن السياسة فى مصر لم تعد حقائق صراع وطنى وإقليمى وعالمى، وإنما أصبحت تعبيرات مشاعر فيها الحب والكره، وفيها الإقبال والصد، وفيها العطاء والحرمان، وفيها النصيحة والنميمة، بل ودخل فيها الحب والقتل!

وفى الممارسة العملية لعلاقات كل يوم فإن كل رجل من الرجال الثلاثة خرج من أزمة ٤ فبراير ومعه «خلاصة» و«عبرة تجربة» ملكت عليه نفسه، وتولت صياغة مواقفه، ووجهت ردود فعله (بأسلوب طلقات النار أحيانا!).

● كانت الخلاصة التى توصل إليها «فاروق» - وعبرة تجربته - أنه أُهين فى قصره واعتُدى عليه كملك، ورجل، ورأس أسرة وراءها فى مصر تاريخ قرن ونصف قرن. ومع أنه مجروح فى هيبته وكبريائه وكرامته - فإنه غير قادر على قبول ما جرى، بحيث يسكت ويترك أمره للمقادير، تجىء له بحقه وتضعه على عتبة قصر عابدين. وفى ذلك فإن الملك كان يدرك أنه لا يقدر على تحريك ساكن ضد الوفد إلا إذا وصل إلى نقطة ضمن فيها سكوت الإنجليز على أقل تقدير، وكان شبه يائس من بلوغ هذه النقطة؛ لأن «لامبسون» بتصرفه يوم ٤ فبراير وضع كل أرصدته فى رهان على رئيس الوفد، ومعنى ذلك أن ما يصيب «النحاس» يصيبه هو أيضا!

● والخلاصة التى توصل إليها «مصطفى النحاس» - وعبرة تجربته - أن التوجس التقليدى بين القصر والوفد أصبح الآن على المكشوف، وأنه وقد وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه، فهو لا يحتاج أن يدارى، لأن الملك مهما كان أو يكون «خارج لاصطياده». وإذا كان هو لا يستطيع اصطياد الملك (لأنه لا يملك حق عزله بمثل ما يملك فاروق حق إقالته) - فهو على الأقل يستطيع حصاره، وبالتالى حصر عداوته. وفى المبتدأ والمنتهى فهو لا يستطيع ممارسة سياسته إلا إذا تأكد أن الإنجليز لن يخذلوه.

● والخلاصة التى توصل إليها «**مايلز لامبسون**» - وعبرة تجربته - أن ما وقع مساء ٤ **فبراير يصعب** تكراره، فليس ممكنا كل يوم أو كل أزمة **أن تقوم** الدبابات البريطانية بحصار قصر عابدين لكى تفرض على ملك مصر وزارة - حتى لو كانت وزارة أغلبية. وإذا كان ذلك، فإن حكمة السياسة أقنعت السفير البريطانى بأن عليه الابتعاد إلى مؤخرة الصورة (كذلك قال بنفسه للنحاس باشا) - وبهذا الابتعاد فهو يستعيد لنفسه دور الحكم فى العلاقة بين القصر والوفد - ومع أنه بمشاعره مع رئيس الوزراء الذى فرضه بالقوة المسلحة على الملك، فإنه لا يحق له نسيان أن الملك مازال جالسا على العرش، وأكثر من ذلك فإن هذا الملك الجالس على العرش - مجروح فى كرامته وكبريائه وحتى «شبابه»!

وهو مهما كان نفوره من «الولد» - كما كان يسمى ملك مصر - الذى كان بدوره يسميه «**جاموس باشا**» - ليس حرا فى نسيان أنه ممثل إمبراطورية تخوض حربا هى بالنسبة لها مسألة موت أو حياة!

وفى المحصلة فإن الخلاصات - وعبر التجارب - التى توصل إليها كل واحد من الأطراف الثلاثة - مع وجودهم فى ظرف استثنائى جميعا - هو ظرف حرب عالمية لها أولوياتها الحاكمة عليهم وعلى غيرهم، فرضت - مهما كانت مشاعرهم - حياة مشتركة حتى أجل غير منظور داخل إطار لا يرضيهم - بل سجن لا يهتم بأمزجتهم. وذلك جعل الساحة السياسية المصرية تلك الفترة أشبه ما تكون بغرفة مغلقة تسربت إليها غازات قابلة للاشتعال - أى أنه احتكاك عود كبريت بسطح خشن، وشرارة، وحريق!





الملكة «نازلي» ـ ليدي «جاكلين لامبسون» ـ السيدة «زينب الوكيل».. كان القول الشائع في مصر أن السلطة وقعت في أيديهن



الملك «فاروق»

تحـــالف ضـــد المــــلك!
١٩٤٢ - ١٩٤٤



١ - الدروس التى تعلمهـــا القصـــر الملكى - ومارســـها

صباح يوم ٥ فبراير كان الشعور فى القصر الملكى مزيجا من الغيظ والإحباط والإحساس بالذل والانكسار، وظهرت مشاهد قادت إليها انفعالات عاطفية مأزومة، والسبب أن سرعة الحوادث أخذت أصحاب هذه المشاهد ولم تنتظرهم حتى يقرروا كيف يتصرفون فى اللحظة المناسبة، ثم أفاق هؤلاء من الصدمة وأصبح مطلبهم تعويض ما ظنوه قصورا من جانبهم، وهكذا جاءت انفعالاتهم فالتة فى مظاهرها.

وكان أول هذه المظاهر أن عددا من ضباط الحرس الملكى قصدوا إلى عملهم فى ثكنات عابدين، وفى داخل القصر (مكاتب الياوران والحاشية) - وعرفوا بتفاصيل ما جرى، ثم هرول بعضهم إلى مكتب الملك - وكان «فاروق» قد جاء إليه بعد ليلة من الأرق المشوب بالعذاب - منتظرا أن تجىء إليه مراسيم تشكيل الوزارة، وبعض تحفزه أنه من بين الأسماء سوف يكتشف اتجاهات.

وسمع «فاروق» وهو فى مكتبه صراخ وبكاء بعض الضباط الذين وصلوا إلى بابه، وفى أصواتهم لوعة سؤال: «كيف أن أحدا لم يفكر فى دعوتهم وقد لاحت نذر أزمة تهدد «سلامة» الملك الذى أقسموا أن يدافعوا عنه حتى «الموت»؟». (وكان بين هؤلاء الضباط «اليوزباشى» «محمد أحمد صادق»، الفريق «محمد أحمد صادق» وزير الدفاع فيما بعد زمن الرئيس «أنور السادات»).

وعلى مائدة الغداء ذلك اليوم وقعت نصف مشادة بين الملكتين: «فريدة» و«نازلى». فقد تساءلت الملكة الشابة: «إنها حقيقة لا تعرف - أين كان الحرس الملكى؟» - وردت الملكة «نازلى» بتؤدة تقول: «الحمد لله أنهم لم يكونوا موجودين، وإلا لحدثت مصيبة». وحين حاولت الملكة «فريدة» تأكيد وجهة نظرها قائلة «على الأقل كان يمكن لهم رمزيا أن يظهروا استعدادهم للدفاع عن ملكهم، ويكون الملك هو الذى يأمرهم بالانحناء للعاصفة!»، واحتدت الملكة «نازلى» ورأيها «أنه لم يكن فى مقدور أحد أن يكتب «السيناريو» على هذا النحو، خصوصا أن «المجانين كتار» وليس فى صالح الملك أن تقع مذبحة فى مكتبه، لأن هناك قوة أكبر من حرسه تحاصر القصر».

ولم يكمل الملك «فاروق» غداءه، وقام عائدا إلى مكتبه، وهناك جاء إليه «أحمد حسنين» (باشا) ومعه خطاب استقالة، مهد له باعتراف «إنه فشل فى توقعاته لمسار الأزمة، وبسبب ذلك الفشل «جرى فى مكتب مولانا بالأمس ما جرى»، وأقر «حسنين» أنه لم يكن يتوقع أن السير «مايلز لامبسون» سوف يمضى فى الشوط إلى نهايته حتى حصار القصر بالدبابات، ولو كان توقع، لما اقترح على الملك دعوة زعماء الأحزاب - على هيئة جبهة وطنية - لرفض التدخل البريطانى فى الشئون المصرية». وبقى «حسنين» والملك «فاروق» وحدهما فى المكتب لأكثر من نصف ساعة، ثم عرف بعدها أن «فاروق» «جدد ثقته فى رئيس ديوانه»، وأن رئيس الديوان نزل على أمر «مولاه»، وسوف يبقى فى القصر لأن هناك الكثير مما هو لازم الآن وممكن وضرورى!

وفى ظرف أسابيع قليلة - بعد ٤ فبراير ١٩٤٢، كان «أحمد حسنين» (باشا) رئيس الديوان الملكى قد رسم الخطوط العريضة لهذا اللازم والممكن والضرورى - فى شكل خطة تنفذ على مرحلتين:

- المرحلة الأولى: عملية انتقام ملكى مما جرى (وقد سماها الملك فاروق باسم «الكونت دى مونت كريستو» - أمير الانتقام فى قصة ألكسندر دوما الشهيرة، ويظهر أنه قرأها أو شاهد فيلما عنها).
- والمرحلة الثانية: البدء بإعداد «ملف الإقالة» المقبلة لحكومة «النحاس» (باشا)، وذلك بمراقبة تصرفاتها وعد أخطائها والإمساك بأدلتها وترتيب عريضة اتهام قوية تقنع الإنجليز - وتقنع الشعب أيضا بأن حزب الوفد فقد صلاحيته، وضيع سمعته، وبدد شعبيته.

وأصبحت «خطة الانتقام» عماد سياسة القصر ومرجعيته، خصوصا أنها خطة يمكن البدء بتنفيذها على الفور ودون رجوع لأحد (السفارة البريطانية)، وذلك على عكس خطة إعداد «ملف الإقالة» لأنها تقتضى انتظار وترصد ممارسات حكومة الوفد، فضلا عن أنه لا يمكن السير فيها إلى آخر الشوط إلا بموافقة طرف ثالث (السفارة البريطانية).



كانت أجواء خطة الانتقام كما وضعها «أحمد حسنين» (باشا) - وأقرها الملك، قريبة الشبه مما عرفه التاريخ الفرنسى قبل قرون، حين كان الكرادلة الكبار (مثل ريشيليو ومازيرينى) يقومون بالوصاية على ملوك آلت العروش إليهم فى سن الصبا (مثل لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر)، ويكون الكرادلة هم الذين يتولون مسئوليات الحكم باسم الملوك الصبيان، وأكثر من ذلك يعشقون أمهاتهم (مارى لويز - وكاثرين دى مديتشى).

وكانت خطة «أمير الانتقام المصرى» (الكونت دى مونت كريستو - كما سماها «فاروق») تجرى على عدة خطوط:

الخط الأول: من فلق إلى كسر

العمل على كسر حزب الوفد بتعميق «الفلق» الذى ظهر على سطحه، وبان فى توتر العلاقات بين «مكرم عبيد» (باشا) و«مصطفى النحاس» (باشا)، أو بمعنى أصح قرينة «النحاس» (باشا). وذلك التوتر لم يكن خفيا، ففى قصور الريف شمال الدلتا لم تكن السيدة «زينب الوكيل» تخفى أنها لا تحب ما يراه الناس من سيطرة «مكرم» على «رفعة الباشا». ومن ناحية أخرى فإن «مكرم عبيد» (باشا) لم يخف «أنه ليس راضيا عن نفوذ قرينة رئيس الوفد عليه، وكلامه (صريحا بغير إبهام) أن نفوذها ظاهرة طارئة لم يعرفها الحزب من قبل». ثم يخفف «مكرم عبيد» (باشا) من صدمة القول على سامعيه فيضيف «أنه المسئول عن ذلك لسوء الحظ، فهو الذى خطب لزعيم الوفد عروسا كان يمكن «بالراحة» أن تكون ابنته وليست زوجته!».

ومن ناحية ثانية فإن «مكرم عبيد» (باشا) لم يكن راضيا عن زيادة تواجد «فؤاد سراج الدين» فى الدائرة الألصق بالنحاس (باشا)، وكان قوله «إن «فؤاد» يقوم بعملية «أكبر» منه وقد لعبها على أرضه (فى قصور الريف شمال الدلتا) - لكن عقلية الأعيان من ملاك الأرض لا تصلح للعمل السياسى فى العاصمة وتياراتها المتشابكة.

زيادة على ذلك فإن «مكرم عبيد» كان مع كل زيارة لقصور شمال الريف يحس أكثر وأكثر بميل «النحاس» (باشا) إلى صفقة يعود بها الوفد إلى الحكم، إما بدعوة من السراى، (بشاهد زيارة وحيدة قام بها «عبد الوهاب طلعت» (باشا) - وكيل الديوان الملكى وقتها - للنحاس (باشا). أو بدعوة من السفارة البريطانية، بشاهد الزيارات المتكررة التى يقوم بها «أمين عثمان» (باشا)، وكان إحساس «مكرم عبيد» (باشا) أن هناك «طبخة» من نوع جديد على الوفد يجرى تحضيرها.

وقد لمح رئيس الديوان «أحمد محمد حسنين» حالة «مكرم عبيد»، ولأنه يعرف أن الرجل كتلة أعصاب مشدودة باستمرار، فقد حدد خط الانفلاق وركز عليه.

وهنا كانت دعوة «مكرم عبيد» ظهر ٤ فبراير لمقابلة الملك (قبل النحاس) - وهنا أيضا كانت مفاجأة «مكرم عبيد» عندما عرف بالإنذار البريطانى بتكليف «النحاس» برئاسة وزارة وفدية، وهنا كذلك - ومؤخرا - أيقن «مكرم عبيد» أنها صفقة مستوفية الأركان (عرضا وقبولا وسعرا) - وكان تقديره أن الثمن فادح على الوفد، (وأنه إذا كانت هناك ضرورة لصفقة، فقد كان الأولى أن تكون مع القصر) - ولذلك كان إصراره على «النحاس» (باشا) لتوضيح الأصول والمبادئ بخطابات متبادلة بين «النحاس» و«مايلز لامبسون» بحيث

تتعهد الحكومة البريطانية باحترام قاعدة أن تكليف الوزارات وصرفها سلطة ملك مصر وحده.

(كانت تلك كلها مفاجآت لم يستطع «مكرم عبيد» (باشا) قبولها، على أنه وهذا رأى فؤاد سراج الدين (باشا) - وهو وارد - أن أكثر ما ضايق «مكرم عبيد» أن المسألة تمت من وراء ظهره ودون علمه، وذلك وضع جديد عليه وعلى علاقته بالنحاس، وقد تبدى له «نذير شؤم»).

والواضح أن «مكرم عبيد» دخل الوزارة فى حالة توتر شديد، وكانت حالته انكشافا خطيرا فى أوضاع الوفد.

الخط الثانى: الجيش والملك

كان الخط الثانى - على اتصال بالتداعى من السؤال الذى طرحته الملكة «فريدة» على مائدة الغداء يوم ٥ فبراير، «أين كان الحرس الملكى؟»، وكان هذا السؤال بداية خط تمادى بأكثر مما كان متصورا فى الخطة الأصلية. كان الخط الأصلى لأحمد حسنين يتعلق بالجيش المصرى، وأهمية أن يصبح بالكامل حرسا ملكيا. ومع أن الجيش تقليديا «جيش العرش»، باعتبار الملك هو القائد الأعلى - فإن الجيش المصرى بدا رقما مجهولا فى معادلة القوة الداخلية، وسؤالا معلقا.

....

....

[والشاهد أن الجيش المصرى الحديث واجه ظروفا متغيرة أدت مرات إلى ظهوره بالمصادفة ومرات إلى اختفائه بالحل.

● وابتداءً فإن قوات المماليك يصعب اعتبارها جيشا مصريا، ولذلك فإن الجيش المصرى الأول فى العصر الحديث كان جيش «محمد على». وكان «محمد على» فى الأساس يريد لجيشه أن يكون تركيا، ثم خطر له أن يكون سودانيا، واستقر بعد تردد على أن يكون جيشه مصريا، لكنه تعامل مع هذا الجيش المصرى بقسوة مروعة لا تصنع ولاءً وطنيا (ويمكن فى هذه الجزئية مراجعة كتاب «كل رجال الباشا» وهو رسالة دكتوراه من جامعة أوكسفورد للمؤرخ المصرى الدكتور «خالد فهمى»). والحقيقة أن ضباط هذا الجيش كانوا من الأجانب - فرنسيين أو أتراكا، وأما جنوده فقد كانوا فلاحين خطفتهم السخرة خطفا من قراهم وانتزعتهم قسرا من عائلاتهم. ومع أن جيش «محمد على» كان جيشا قويا فى وقت من الأوقات - فإن هذا الجيش أصبح مأزقا أكثر منه مخرجا، ذلك أن هذا الجيش لم يحارب دفاعا عن وطن ينتمى إليه، ولا ضد عدو يهدد هذا الوطن، وإنما استعمل هذا الجيش لهدفين:

- إما فرض طاعة الخليفة العثمانى على أقاليم جنحت إلى الخروج عليه (كما حدث فى شبه الجزيرة العربية).

- أو عصيان هذا الخليفة العثمانى نفسه عندما جمحت الأحلام بوالى مصر وزحف نحو عاصمة الخلافة يحلم بعمامتها (كما حدث فى حروب الشام) - وفى الحالتين فإن هذا الجيش حارب ضد عرب ومسلمين، وذلك ارتباك يصل إلى حد الأزمة فى عقيدة جيش مصرى. وفى نهاية الأمر فإن جيش «محمد على» جرى حله بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠.

● ثم حاول الخديو «إسماعيل» - بعد «محمد على» أن ينشئ جيشا مصريا حديثا، وكان هدفه استكمال فتوحات السودان، متصورا أنها توسعة لملكه بطريقة تقبلها القوى الأوربية، باعتبار هذه الفتوحات نفاذا «حضاريا» فى عمق أفريقيا (شرقها خصوصا) - على أن ضباط هذا الجيش فى الغالب كانوا من الأوربيين، وكبار قادته من الشركس - وكذلك كان الجيش شرسا فى تصرفاته لأن قياداته شبه مرتزقة، حتى وإن حملوا رتبا مصرية، وانتهى أمر هذا الجيش بقياداته الأجنبية ومقاتليه المصريين إلى الحل مرة ثانية بعد فشل الثورة العرابية.

● كانت هناك محاولة ثالثة لإنشاء جيش مصرى حديث (محدود فى عدده وعدته بحيث لا يهدد خليفة أو يفتح إقليما حتى ولو من باب الكشف الجغرافى)، وكان ذلك فى عهد الخديو «محمد توفيق» (باشا) وولى عهده «عباس حلمى الثانى» وقد بقى هذا الجيش شبه حلية أميرية تظهر فى المناسبات وتؤدى مراسمها.

وفى المرات التى تحولت فيها وحدات هذا الجيش إلى شبه تشكيلات، فإن وحداته - آلاف المجندين بالسخرة - أرسلوا فيالق بعد فيالق هدايا من خديو مصر إلى ملوك وأمراء فى أوربا وأمريكا الجنوبية (لكى يحاربوا دفاعا عن عروش تركتها القوى الاستعمارية وراءها (فى البرازيل مثلا)، والداعى أن هذه العروش احتاجت إلى مدافعين عنها بغير أجر (غير تكاليف الطعام والملبس) - وكان ولاة مصر على علاقة بهذه العروش ويريدون مجاملتها ولو بأرواح وأجساد رعاياهم.

وتشير كل التقديرات التى يمكن الوثوق فيها إلى عشرات ألوف حملتهم السفن ولم تعد بهم، لأن الغربة ووحشتها استهلكت الأرواح والأجساد!

● زاد على ذلك أثناء الحرب العالمية الأولى أن السلطان «حسين كامل»، وبعده الملك «فؤاد» وافقوا على تزويد المجهود الحربى البريطانى بمئات ألوف من الرجال، يعملون على الخطوط الخلفية للإمداد والتموين، وتمهيد الطرق، ومد خطوط السكك الحديدية، وحفر الخنادق، وتهيئة المواقع الدفاعية لعرقلة تقدم تركى محتمل فى اتجاه قناة السويس، وتشير نفس التقديرات الموثوق بها أن قرابة مائة وأربعين ألف شاب من هؤلاء المجندين بالسخرة لخدمة «السلطة» (وفق التعبير الذى شاع أيامها) ذهبوا ولم يعودوا.

● ثم جدت بعد ذلك مرحلة ما بعد معاهدة سنة ١٩٣٦، وفيها (وبمقتضى المعاهدة) - فإن أبواب الجيش المصرى فتحت لضباط مصريين من كل الطبقات، وذلك سمح لأول مرة بدخول عناصر وطنية طلبت شرف الخدمة فى صفوفه، وقد تخرجت الدفعات الأولى من هذه العناصر مع قيام الحرب العالمية الثانية، وفى ظروف تلك الحرب قام عدد من ضباط هذا الجيش ببعض المسئوليات فى الخطط الإمبراطورية فى مصر - وكانت مسئوليات محدودة ولكنها موجودة.

والآن - بعد ٤ فبراير - كان «أحمد حسنين» يطلب التفاف الجيش حول الملك، ولكن التساؤل الذى طرح فى القصر: أى جيش؟ فقد كان فى الاعتبار بالطبع أن العناصر الوطنية الجديدة التى دخلت صفوف الجيش - دخلت بالفرصة التى أتاحتها معاهدة ١٩٣٦، التى وقعها «مصطفى النحاس» - زعيم الوفد، لكن «حسنين» (باشا) طمأن نفسه (ولم يكن مخطئا) بـ: أن الجيش مؤسسة ثبات واستقرار لا تخضع لحزب أو لوزارة والجيش يؤدى يمين الولاء للملك (بعد الله والوطن) ولا يؤديه لزعيم أو لسياسى.

ومؤدى ذلك أنه جيش الملك - وإن كان التعامل معه يقتضى الحذر. بمعنى أن القصر يستطيع أن يعتمد على الجيش بصفة عامة، وأن يربط علاقته بالملك مباشرة دون وساطة، وأن يبنى على تقاليد سابقة دون داع للتردد - شريطة أن تظل العلاقة بين القصر الملكى والوطنية المصرية بغير تعارض أو تناقض.

الجيش المصرى الأول فى العصر الحديث كان جيش «محمد على».
وكان «محمد على» فى الأساس يريد لجيشه أن يكون تركيًا، ثم خطر له أن يكون سودانيا، واستقر بعد تردد على أن يكون جيشه مصريا، لكنه تعامل مع هذا الجيش المصرى بقسوة مروعة لا تصنع ولاءً وطنيا



الخط الثالث: الحرس الملكى. وتجربة ملك رومانيا

ومن داخل الاهتمام بالجيش - وهذا هو الخط الثالث فى سياسة «أحمد حسنين» الجديدة - فإن الحرس الملكى يجب أن يحظى بمعاملة خاصة تجعل الولاء موصولا ومباشرا. وهنا جرى اختيار مجموعة من أكثر العناصر فى الجيش جراة واندفاعا - مع مراعاة انتمائهم إلى الشريحة الاجتماعية المتوسطة وما فوقها.

وكانت تلك مهمة عُهد بها إلى اللواء «عمر فتحى» (باشا) (قائد الحرس الملكى) مع صدور تعليمات إلى أفراد الأسرة المالكة بأن يكون تعاملهم مع ضباط الحرس «باعتبارهم» النطاق الخارجى من تركيبة عائلة. والهدف خلق «ولاء» مباشر بين العرش والضباط المحيطين به والمدافعين عنه. وبحيث لا ينشأ ظرف تسأل فيه الملكة «أين كان حرس الملك؟»، كما فعلت «فريدة» على مائدة غداء يوم ٥ فبراير ١٩٤٢.

ثم حدث ولم يكن ذلك فى التخطيط الأصلى لأحمد حسنين (باشا) أن زادت على ضرورة العناية بالحرس فكرة مستعارة من رومانيا. ومن تجربة ملكها «كارول» الذى أنشأ داخل حرسه الكبير نواة صلبة ومحدودة أطلق عليها وصف «الحرس الفولاذى» تعبيرا عن كون أفراده جدارا من الفولاذ حول «كارول» يحميه ويصد عنه ويرتبط به شخصيا، وكذلك بدأت فكرة «الحرس الحديدى» حول الملك «فاروق»!

لكن نقلة خطيرة حدثت عندما التحق الدكتور «يوسف رشاد» بخدمة القصر طبيبا خاصا للملك، واقترب بسرعة من «فاروق»، وتحول بعد قليل إلى صديق مؤتمن، وأصبحت قرينته السيدة «ناهد رشاد» نجمة لامعة فى البلاط الملكى. ثم راح «يوسف رشاد» يفكر أن الحرس الحديدى المحيط بالملك كى يدافع عنه - يستطيع من الآن أن يتحول إلى قوة هجوم ضد أعداء الملك (باعتبار أن الهجوم خير وسيلة للدفاع)!

وفى حين أن «أحمد حسنين» اعتمد العمل السياسى (أو المؤامرة السياسية) أسلوبا للانتقام من خصوم الملك (مثل فلق حزب الوفد مثلا واستغلال التوتر بين رئيسه وسكرتيره العام) - فإن «يوسف رشاد» (مستجيبا لغرائز «أمير الانتقام الملكى» الملك «فاروق»)، أخذ منطق الهجوم إلى نهايته الدموية، وكذلك جرى وضع قائمة بمن يتحتم عقابهم على المشاركة فى إهانة الملك يوم ٤ فبراير ١٩٤٢، وكان «مصطفى النحاس» - زعيم الوفد - أول القائمة. وكان «أمين عثمان» - المهندس المصرى لدور الوفد و«النحاس» فى ٤ فبراير ١٩٤٢ - هو الرجل الثانى فى القائمة.

والقائمة بعد ذلك مفتوحة لإضافات تمليها مستجدات الظروف.



وتكشف الوثائق البريطانية (والأمريكية) عن محاولات تصل إلى درجة الحماقة مما جرى التفكير فيه والتخطيط له من جانب القصر. وفى برقية من السفير البريطانى السير «مايلز لامبسون» تحت رقم ٨٧٨ (تاريخ أبريل ١٩٤٤) - تجىء رسالة معنونة بأنها سرية جدا وذات حساسية خاصة، إلى جانب إشارة بأن الشفرة المستعملة فيها مزدوجة لتأكيد سريتها، وبداية النص بعد ذلك على النحو التالى:

مهم: هناك أنباء عن مؤامرة يقوم بها عشرون ضابطا من الجيش لتصفية «النحاس» ومجلس وزرائه. وقد سمع رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى مصر - بذلك من وزير الدفاع المصرى «حمدى سيف النصر» (باشا) الذى ذكر للجنرال «ستون» أن رئيس أركان الحرب «إبراهيم عطا الله» (باشا)، وهو رجل القصر - ضالع فى العملية. وقال وزير الدفاع (الوفدى) أنه تقرر اتخاذ إجراءات عنيفة، أولها نقل عدد من وحدات الجيش المصرى إلى خارج العاصمة. ويقول الجنرال «ستون» «إننى طلبت من وزير الدفاع

.. دروس تعلمها القصر

المصرى عن طريق رئيس البعثة العسكرية البريطانية أهمية التصرف بحذر في الموضوع، وضرورة تحديد المسئولية حتى يمكن حصر المسألة في أضيق نطاق، مع ضرورة التحقق الكامل من الوقائع والأشخاص».

لكنه لم تكد تمض على ذلك أسابيع حتى طرأ جديد يتصل به، فقد ظهرت في ملفات لجنة التنسيق العسكرى البريطاني الأمريكى فى واشنطن - وثيقة تنذر بالخطر، وكانت على شكل مذكرة طرحها الجانب الأمريكى للمناقشة، ملخصها «أن القصر الملكى فى القاهرة طلب شراء صفقة أسلحة أمريكية للحرس الشخصى للملك «فاروق»، والمطلوب فى هذه الصفقة ٢٠٠ مدفع ماكينة، ومائة ألف دورة من الطلقات، ومائة قنبلة يدوية من قنابل الدخان».

وكان طبيعيا أن تخطر السفارة البريطانية فى القاهرة بالموضوع مع طلب تعليقها عليه، وكذلك كتب السفير مذكرة قال فيها: «إن هذا الطلب «الغريب» لشراء أسلحة للحرس الشخصى لفاروق تم تقديمه إلى السلطات العسكرية الأمريكية فى مصر بدون علم وزير الدفاع المصرى. وقد سألت «أمين عثمان» (وزير المالية) - إذا كانت وزارته قد فتحت اعتمادات لهذه الصفقة بالطريق الرسمى، وبالخصم على ميزانية القصر - وأكد وزير المالية - مندهشا - أن وزارته لا تعرف شيئا عن الموضوع من أوله لآخره!».

الخط الرابع: مباشرة مع لندن!

وكان الخط الرابع فيما رسم به «أحمد حسنين» (خطته الأصلية للانتقام)، السعى لإيجاد صلة مباشرة مع «لندن»، بحيث يمكن تفادى وزارة الخارجية المصرية (ووزيرها حزبى رغم علاقتها الخاصة بالقصر باعتبار أن السفراء والوزراء المفوضين - ممثلون للملك) - وفى الوقت نفسه تفادى السفارة البريطانية فى القاهرة (والمسئول عنها ذلك الوقت هو أس البلاء - السير «مايلز لامبسون»).

وكذلك اعتمد هذا الخط نقطتين:

● الأولى أن يكون للملك سفير خاص فى لندن، ووقع الاختيار فعلا على «عبد الفتاح عمرو» وهو بالمهنة محام (وإن قامت شهرته على أساس فوزه ببطولة العالم فى لعبة الإسكواش راكيت)، وبالفعل فإن «عبد الفتاح عمرو» بدأ فى نقل رسائل من ملك مصر إلى دوائر هوايتهول، وظل يقوم بتلك المهمة سنوات قبل أن تسنح له الفرصة ويصبح سفيرا لمصر فى «لندن» (خلفا لحسن نشأت)، وكانت مهمة «عمرو» محددة قبل أن يتولى السفارة وبعدها، ومجملها أن يعمل على توضيح صورة الملك وتصرفاته فى «لندن»، لأن القصر يعرف الكفاية عن تحيز السير «مايلز لامبسون» بعد حادث ٤ فبراير، ولأن الملك - وذلك قبل صراحة - لم تعد لديه ثقة أن السير «مايلز لامبسون» قادر أن ينقل إلى لندن حقيقة ما يجرى فى القاهرة (مهما تظاهر بالحياد بين الوفد والقصر).

(وكان رأى «حسنين» (باشا) الذى عرف به «عمرو» (باشا) فيما بعد، وتضايق منه أن رئيس الديوان الملكى يتصور دوره بالنسبة للقصر مماثلا لدور «أمين عثمان» (باشا) بالنسبة للوفد فى العلاقة مع الحكومة البريطانية، بمعنى أن «عمرو» (باشا) هو «أمين عثمان» - ملكى، بمقدار ما أن «أمين عثمان» هو «عمرو» (باشا) - وفدى).

● والنقطة الأخرى - أن يسعى الملك «فاروق» إلى إنشاء علاقة مباشرة وحميمة مع كبار القادة العسكريين البريطانيين، وهم بطبائع البشر يريدون لأنفسهم رأيا مستقلا عن رأى السفارة، فليس هناك قائد عسكرى كبير يعمل فى بلد خارج الوطن، يريد اعتبار سفير بلاده - وهو مدنى - سلطة أعلى منه، لها حق تحديد علاقاته وتكييف صلاته مع المحيط الذى يمارس فيه عمله متباهيا برتبته الرفيعة.

والواقع أن ميل العسكريين البريطانيين للقصر كان قائما قبل ٤ فبراير وكان الديوان الملكى يشعر به، ومن شواهده أن الجنرال «ميتلاند ويلسون» (القائد العام لقوات بريطانيا فى مصر) لم يضع فى تحقيقه - عن تسرب وثيقة الدفاع عن سيوة إلى الإيطاليين - إشارة تقطع بمسئولية الملك «فاروق»، كما كان معروفا أن الجنرال أوكنليك (القائد العام للقوات البريطانية) لم يكن متحمسا لتخصيص قوة عسكرية تشارك أو تصاحب السير «مايلز لامبسون» فى حصار قصر عابدين مساء ٤ فبراير ١٩٤٢.

وهكذا اعتمد القصر جهدا منظما يسعى إلى إنشاء علاقات مباشرة بين الملك وكبار القادة الإنجليز فى مصر، وكان أكبر نجاح تحقق فى هذا الصدد، نشوء صداقة خاصة بين «فاروق» والجنرال «شولتو دوجلاس» قائد الطيران البريطانى فى الشرق الأوسط ومقر قيادته مطار الماظة. وكان «شولتو» لسنوات طويلة ضيفا دائما على مائدة الملك فى سهراته خارج القصر (فى ملهى الأوبرج وسط شارع الهرم).

وفى نفس الوقت فإن أمراء الأسرة وأميراتها، تلقوا توجيها ملكيا بفتح بيوتهم لكبار الضباط الإنجليز ضمن حملة علاقات عامة واسعة، وقبل بعضهم ورفض بعضهم، وكان على رأس الرافضين - لنفسه ولأبنائه وبناته الأمير «عمر طوسون».

على أن كثيرين من شباب الأمراء والأميرات والنبلاء والنبيلات لم يكونوا فى انتظار توجيهات القصر لفتح بيوتهم للضباط الإنجليز (وللضباط الأمريكيين فيما بعد)، فهذه البيوت كانت مفتوحة بالفعل، وكذلك كانت القلوب - أو على الأقل بعضها - وكان بين الأمراء والأميرات والنبلاء والنبيلات من يعمل لحساب نفسه، أو من يرتب لظروف متغيرة، وفى كل الأحوال فإن صحبة الضباط الإنجليز والأمريكان كانت حلوة، كما أن ظروف الحرب جاءت من لندن وواشنطن بنجوم جاءوا لرفع معنويات القوات، وفيهم كتاب كبار مثل «بريستلى»، ونجوم مسرح مثل «نويل كاورد»، وممثلات سينما من هوليوود مثل «آن شريدان».

الخط الخامس: عائلة رباطها الكراهية!

وكان فى خطة «أحمد حسنين» (باشا) - خط انتقام خامس لم يحقق نجاحا من البداية، فقد تصور رئيس الديوان أن «فاروق» مهما توترت علاقاته مع بقية «أمراء» و«نبلاء» أسرته، يستطيع فى الظروف الطارئة أن يبنى جسورا معهم، ولو من باب الاحتياط. وحتى لا يعثر الإنجليز على بديل «جاهز» يحل محله إذا تجددت بينه وبينهم أزمة من درجة ٤ فبراير، ولم تنجح خطة كاردينال القصر؛ لأنه رغم قربه من دهاليز قصور أسرة «محمد على»، لم يدرك أن العداء بينهم ضارب فى القلوب وفى الأعصاب إلى النخاع. ومع أن فروع الأسرة - فيما سبق من تجارب - خانت بعضها فى السباق إلى العرش، فإن ما فعله الملك «فؤاد» ظل جريمة لا تغتفر من رجل لا يستحق الغفران. وفى الواقع فقد كانت أهم فروع الأسرة: توفيق - وطوسون - وإبراهيم، تعتبر الملك «فؤاد» مغتصبا للملك، وذلك ينطبق على وريثه «فاروق» الذى تعامل معهم بأطراف أصابعه!

وتحفل الوثائق البريطانية بذكر زيارات شبه يومية يقوم بها الأمير «محمد على» (عميد أمراء الأسرة وولى عهد المملكة) - إلى دار السفارة البريطانية يقابل السير «مايلز لامبسون» أو السير «والتر سمارت» المستشار الشرقى، ليشكو من أفعال «فاروق».

فالملك فى نظر «ولى العهد» عميل للطليان يوما، ثم للألمان فى يوم آخر، وجاسوسا للدولتين طول الوقت، ثم إن أمه (الملكة نازلى) تسيطر عليه، و«حسنين» (عشيقها فى وصف الأمير محمد على) حاكم بأمره فى عابدين. ورغم كل ما مر «بالبلد» من ظروف، فإن الملك لم يفكر مرة فى التشاور مع عميد الأسرة المالكة وولى العهد، بل إنه فى كل مناسبة (كما حدث أخيرا فى الاحتفال السنوى بذكرى الملك فؤاد) يتعمد تجاهله أمام كل الناس بما يحرج موقفه ويسىء إلى وضعه.

وفى إحدى برقياته نقل السفير البريطانى عن ولى العهد، أنه ذهب بشكاواه إلى «النحاس» (باشا) وهو صديق له يسأله «ماذا يستطيع كرئيس وزراء دستورى أن يفعل لتصحيح وضع ولى العهد؟»، وأبدى «النحاس» عجزه عن عمل شىء مع شخص مثل «فاروق»!

وفى يوم من الأيام (برقية السفارة البريطانية ١٧٤٢) دخل الأمير «محمد على» إلى مكتب السفير البريطانى يقدم له شكوى بأن «الملك يعامل كبار الأمراء كما لو كانوا خدما له. وذلك لم يعد ممكنا احتماله من جانب كل أفراد الأسرة العلوية» - إلا واحدة فقط من الأميرات وهى «شويكار».

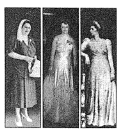
وفى رأى الأمير «محمد على» أن الأميرة «شويكار» تلعب لعبة غريبة، فهى تجذب «فاروق» إلى حفلاتها لكى تقوى مركزها وتزيد ثروتها، لكنها فى حقيقة الأمر تكرهه. فهى (الأميرة شويكار) زوجة سابقة لوالده الملك «فؤاد» قبل أن يلى العرش ويتزوج أمه الملكة «نازلى»، ثم هى والدة الزوجة السابقة لأحمد حسنين الذى خطفته الملكة «نازلى»، وأمرته بتطليق زوجته الأولى وهجرها - هى وأولادها - حتى تتزوجه هى (نازلى نفسها). ثم إنه (فاروق أيضا) ابن الرجل الذى أرهق شقيقها «أحمد سيف الدين» حتى أطلق عليه الرصاص فى نادى محمد على (نادى التحرير الآن)، ولهذا السبب وُضع فى مستشفى للأمراض العقلية قضى فيه بقية حياته.

وكان الأمير «محمد على» يتهم الأميرة «شويكار» بأنها فى سبيل الانتقام (الانتقام أيضا) لا تمانع فى خراب «الأسرة العلوية» كلها!

ووعد السفير (وسجل فى رسالته) - أنه سوف يبعث بشكوى ولى العهد المصرى إلى لندن!

● وكان الخط السادس أن يكون للملك إعلام خاص يسلط الأضواء الوردية عليه ويكثف الظلال الرمادية على خصومه. وكان «أحمد حسنين» (باشا) بارعا فى استمالة عدد من الصحفيين القادرين على الكتابة السهلة والجذابة، وكان بينهم الأستاذ «مصطفى أمين» وهو وقتها رئيس تحرير مجلة الاثنين التى كانت تصدر عن دار الهلال والتى حققت نجاحا مشهودا حينما كان رئيس تحريرها. ورغم أن الأستاذ «مصطفى أمين» لم يكن وحده فى محيط «أحمد حسنين» (باشا)، فقد كان الألمع وكان الأسرع. ومن المفارقات أن شقيقه التوأم

كثيرون من شباب الأمراء والأميرات لم يكونوا فى انتظار توجيهات القصر لفتح بيوتهم للضباط الإنجليز (وللضباط الأمريكيين فيما بعد)، فهذه البيوت كانت مفتوحة بالفعل، وكذلك كانت القلوب. أو على الأقل بعضها. وكان منهم من يعمل لحساب نفسه، أو من يرتب لظروف متغيرة، وفى كل الأحوال فإن صحبة الضباط الإنجليز والأمريكان كانت حلوة



الأســتـاذ «علي أمين» كـان في ذلك الوقت سكرتيرا خاصا لأمين عثمان (باشا) ـ وكان «فاروق» بنفسه قد اختار مستشارا صحفيا يجمع إلى جانب المهنة (كرئيس تحرير لجريدة المقطم) ـ صلة بالسفارة البريطانية، سببها أن ابنة خاله «فارس نمر» (باشا) صاحب المقطم ـ وهى السيدة «إيمى نمر» متزوجة من السير «والتر سمارت» السكرتير الشرقي للسفارة البريطانية في القاهرة.

وعندما غاب «أحمد حسنين» (باشا) سنة ١٩٤٦، تجمع النفوذ الملكي الصحفي في أيدى «كريم ثابت»، وانتقلت إليه مهمة المحافظة على المحيط الصحفي الذي التف حول «حسنين» (باشا).

ولم يكن الملك «فاروق» يحب أن يتعامل بنفسه مع الصحافة، وكان رأيه في المهنة لا يختلف كثيرا عن رأى والده، وربما أن «كريم ثابت» كان الاستثناء الوحيد. وقد نقل «كريم» عن الملك قوله: «إنه يفضل أن يتعامل مع الصحافة لابسا قفازًا» ـ ويضيف «كريم ثابت»: «وكنت أنا هذا القفاز»!

والحاصل أن الصحافة الموالية للقصر بدأت تهاجم الخطوط الخلفية للوفد وهو في الحكم على طريقة حرب العصابات، وفي اللحظة التي صدرت فيها أمر «الإرادة الملكية» بإقالة وزارة «النحاس» (باشا) ـ فإن الصحافة الموالية للقصر تحولت إلى مدفعية ثقيلة تدك المواقع، ومدرعات سريعة الحركة تخترق الخنادق وتدوس فوقها.

كان «أحمد حسنين» (باشا) يواصل خطته للانتقام على هذه الخطوط الستة التي رسمها، وقد أزاح كل خصومه من الطريق، ففي تلك الظروف المحتقنة (بعد ٤ فبراير ١٩٤٢) ظهر في عابدين حزب يدعو إلى نوع من السلم الأهلي بين القصر والوفد، وقد تزعمه «مراد محسن» (باشا) ناظر الخاصة الملكية (المشرف على إدارة مصالح القصر المالية، وهو بطبيعة عمله يرغب في علاقة طيبة مع الإدارة الحكومية ـ وفي بعض اللحظات تصور «مراد محسن» (باشا) أن «عمر فتحي» (باشا) قائد الحرس يؤيد وجهة نظره.

على أن الاتفاق بين الرجلين (ناظر الخاصة وقائد الحرس) كان اتفاقا على مسألة واحدة فقط ـ هي أن «أحمد حسنين» (باشا) يقود الملك إلى معركة خاسرة مع الوفد، ثم تباعدت الطرق لأن ناظر الخاصة الملكية كان يريد سلاما بين القصر والوزارة يسهل تمرير المصالح الملكية، لكن «عمر فتحي» (باشا) كان يكره «أحمد حسنين»، إذ خطر بباله لحظة من اللحظات أن الملكة «نازلي» أعجبت به، لكن «حسنين» (باشا) فاز بقلبها في النهاية.

ومهما يكن فإن «حسنين» (باشا) انتصر في هذا الصراع الداخلي في كواليس قصر عابدين! ثم وضع الخطوط الخمسة لحرب أمير الانتقام الملكي من خصومه ـ موضع التنفيذ، ومن ثم بدأت المعارك.



٢ ـ الدروس التي تعلمها الوفد ومخاطرها!

لا يستطيع أن يقدر صعوبة الدرس الذي تعلمه حزب الوفد وقاسى منه زعيمه «مصطفى النحاس» (باشا) ـ إلا من يستطيع تمثل دور هذا الحزب، وشخصية الرجل الذي آلت إليه زعامته.

● كان حزب الوفد عند نشأته في قلب الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ـ نموذجا أصيلا لمقدرة الحركة الوطنية في آسيا وأفريقيا على تعبئة شعوبها، وقيادة مطالبها لتحرير الأوطان من القهر الإمبراطوري الذي نزل عليها (بالتحديد من أوربا).

وعلى ساحة الحركة الوطنية (في آسيا وأفريقيا) ـ كانت هناك ثلاثة أحزاب كبيرة، كل واحد منها له شأن في وطنه ـ وحول وطنه ـ وربما أبعد.

وكانت هذه الأحزاب الثلاثة هي:

ـ حزب «الجومنتانج» في الصين ـ وقد أسسه «سن يان سن» وقاد به حلم شعبه في التحرر من السيطرة الأجنبية التي وزعت ساحل الصين الشرقي كله مناطق سيادة لمستعمرات أوربية، ومن هذه المستعمرات نفذت الشركات والاحتكارات التجارية والمالية إلى قلب «مملكة السماء»، وتعاملت مع أمراء حرب محليين يسيطرون على المقاطعات، ويتحكمون في الموارد الهائلة وقوة العمل المهولة، ويتشاركون في نزح الناتج الاقتصادي الصيني إلى ما وراء البحار، وكانت ثورة «سن يان سن» دموية في بعض مراحلها ـ لكن الحقائق على الأرض أملت.

ـ وكان حزب المؤتمر الهندي ـ الذي تزعمه زعيم الهند الأسطوري «المهاتما غاندي» هو الذي خاض معركة شعب الهند على طريق التحرر في معركة مزدوجة ضد الاستعمار البريطاني المسيطر وضد أعوانه في أقاليم الهند الشاسعة من المهراجات (الهندوس والمسلمين)، وكان الفارق بين «الراج البريطاني» الحاكم في دلهي والمهراجات المتحكمين في أعماق الهند ـ حلف سيطرة ومصالح، وكذلك وجد حزب المؤتمر نفسه في مواجهة ضد سلطة الحكم المركزي وسلطة التحكم في الولايات.

وكان «غاندي» بمسئولية الزعامة يدرك حساسية التركيبة الهندية، عرقية وطائفية ودينية، ولشدة حرصه على تماسك الوطن ـ كان الدم آخر ما يريده، وكذلك جاءت إضافته العظيمة إلى أساليب الكفاح الوطني وهي: المقاومة السلبية.

ـ وأخيرا كان حزب الوفد الذي قاده «سعد زغلول» (باشا) حركة تحرر وطني ضد الاستعمار الأجنبي وفي طلب الحرية السياسية، ولم يكن متاحا له ما هو أكثر بسبب أوضاع ملتبسة، فهناك أسرة مالكة لها جذورها، وهناك سيطرة أجنبية على الموارد وراءها جسور عبر البحر الأبيض مباشرة إلى أوربا، وهناك قوة احتلال بريطاني ضمن شبكة دفاع عن مواصلات إمبراطورية كبيرة. (وذلك وضع ليس فيه أمراء حرب يمكن تطويقهم في الداخل (مثل الصين)، أو مهراجات (هندوس ومسلمين) يمكن تضييق نفوذهم (مثل الهند).

ومع ذلك كان هناك تماثل في الظروف بين الأحزاب الثلاثة الكبيرة على الساحة (آسيا وأفريقيا):

● الأحزاب الثلاثة عمليا ضد السيطرة الأجنبية ـ وهي أيضا على تناقض مع مصالح في الداخل محلية وأجنبية.

● والأحزاب الثلاثة في تركيبها جبهات وطنية تعتمد بالدرجة الأولى على قوى الطبقة المتوسطة، لكن أجنحتها واصلة يمينا ويسارا تتسع لتوجهات لها الأسبقية، خصوصا في المراحل السياسية من العمل التحرري.

● وهذه الأحزاب الثلاثة تخوض معاركها على جبهة أوسع من أوطانها، بحيث يتصل نضالها بقوى صديقة لها على اتساع العالم حولها.

ويلفت النظر أن الأحزاب الثلاثة الكبرى (الجومنتانج في الصين ـ والمؤتمر في الهند ـ والوفد في مصر) تحمست وقبلت بالنقط الأربعة عشر التي أعلنها الرئيس الأمريكي «ويلسون» بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى (عن حق شعوب الأرض في الحرية والاستقلال والكرامة ... إلخ) واعتبرتها دعامة لنضالها ضد السيطرة الإمبراطورية.



والواقع أن ظروف حزب الوفد، وبسبب الأحوال المصرية كانت شديدة التعقيد ـ بدايتها أنه يجيء إلى الساحة بعد محاولات وطنية متوالية ضربتها القوى الخارجية (الثورة العرابية) أو بعثرتها التناقضات الشخصية (الحزب الوطني بعد اختفاء قياداته بالموت المبكر أو بالمنفى البعيد).

وعندما توفي «سعد زغلول» زعيم الوفد الأول ـ كان خليفته الذي انتخب رئيسا للحزب بعده هو «مصطفى النحاس» (باشا) ـ وكان «النحاس» شخصية فريدة. والواقع أنه لم يكن المرشح الطبيعي لخلافة «سعد» وإنما كان أقرب منه إليها بعض الأقوياء داخل الحزب، بظن أنهم أقدر على تحمل مسئولياته وعلى إدارة علاقاته (خصوصا مع القصر الملكي ومع قوة الاحتلال البريطاني)، وكان أبرز هؤلاء الأقوياء «فتح الله بركات» (باشا) ـ لكن الذي حدث أن المرشحين الآخرين حاربوا بعضهم، ثم كان «مصطفى النحاس» (باشا) ـ هو الرجل الذي وصل فعلا، وقد ظن الأقوياء المختلفون فيما بينهم أنه وهو الأضعف قوة، سوف يكون الأسلس قيادا، بحيث يسيطر عليه آخرون وينفذون به أغراضهم إذا ما استقروا في دائرته، واقتربوا من أذنه!

لكن «النحاس» (باشا) أثبت ـ كما فعل غيره في التاريخ (وأشهرهم في الزمن القريب الرئيس الأمريكي هاري ترومان الذي خلف الرئيس الأسطوري فرانكلين روزفلت) ـ أن من يحسبون على

.. دروس تعلمها الوفد

الضعف قادرون على امتلاك القوة لأسباب أهمها، أن خصومهم أو منافسيهم لا يحسبون الحساب اللازم لرجل تتغير أحواله ـ وحتى طبيعته ـ إذا وقع اللقاء بين استعداد كامن عنده وبين ظروف طرأت عليه.

وكذلك فإن «النحاس» (باشا) تفوق على خصومه ومنافسيه، بل وطرد كثيرين منهم إلى خارج الحزب، وظلت له وحده شرعية الوفد (وكان «فتح الله بركات» (باشا) نفسه أول المطرودين).

وكذلك أدار «مصطفى النحاس» علاقات الوفد ـ مع قصر فيه الملك «فؤاد» ـ الكاره للدستور ـ كما أدار علاقات مفاوضات مع الإنجليز مرة بلا نتيجة سنة ١٩٣٠ ـ ومرة بتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦، وكانت تجاربه تسبغ على شخصيته إضافات أعطتها طابعها الخاص مزيجا غير عادى من لقاء نادر بين الصلابة والمرونة ـ وعناد داخلى مع بساطة على السطح تكاد أحيانا توحى بالسذاجة ـ وإحساس بمشاعر ومطالب الناس تقدر عليه الزعامة ـ واعتزال فى نفس الوقت للحياة الاجتماعية، رسخته تجربة القضاء الذى عمل «النحاس» (باشا) فى سلكه سنوات شبابه ـ ثم قرون استشعار حساسة تستطيع فى ظلمات الليل أن تحس بمواضع الأشياء وتقلبات المناخ.

لكن الرجل فى منتصف الثلاثينيات ـ من القرن ـ أحس بالتعب لأسباب عديدة:

ـ بينها أن وزارة «إسماعيل صدقى» الأولى (١٩٣٠ ـ ١٩٣٣) أرهقت الحزب. (وتسجل وثائق قصر عابدين تقريرا من «توفيق نسيم» (باشا) إلى الملك «فؤاد» نسب فيه إلى «النحاس» (باشا) قوله: «إن رجالنا تعبوا») ـ والشاهد أن حكومة «صدقى» (باشا) حاصرت الوفد ورئيسه حتى استحقت اللقب الذى أطلق عليها: «وزارة الحديد والنار».

ـ والسبب الثانى أنه بعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ ـ تصور «النحاس» (باشا) أنه حقق ما سمحت به الظروف، وأن أمامه فترة انتظار طويل لأن نصوص المعاهدة لا تفتح الباب لإعادة النظر فيها قبل عشر سنوات (أى عند منتصف مدة سريان نصوصها العامة)، وعلى أى حال فإنه حتى يحين الأوان فهناك حياة أخرى (توفرها السلطة وهو الآن فيها وذلك حقه بنص الدستور وبشفاعة المعاهدة).

ـ والسبب الثالث أن الرجل فى سن السادسة والخمسين تزوج شابة جميلة فى الثالثة والعشرين من عمرها، شديدة الذكاء، وقد وجدت نفسها مرة واحدة فى عالم جديد عليها، وهو (أى زوجها) راغب أن يبهرها ويعلمها دروسا فى الحياة وفى السياسة، تعطيها مذاق العز لعله يعوض فارق السن.

وكانت تلك الظروف الخاصة لرئيس الوفد تتفاعل مع ظروف عامة فى مصر أهمها وفاة ملك عبوس («أحمد فؤاد») ومجىء ملك بشوش («فاروق»)، ومتفاعلة أيضا ـ وهذا هو الأهم ـ مع قيام حرب عالمية كبرى كانت مصر أحد ميادينها الرئيسية.

وكانت أجواء هذه الحرب بين مقدمات ٤ فبراير ١٩٤٢ ـ وهنا اختلف مسار الوفد عن مسار الأحزاب الكبرى فى عصره (الجومنتانج فى الصين ـ والمؤتمر فى الهند)، والحقيقة أن كل واحد من هذه الأحزاب وجد طريقا يناسبه، وتفرقت الطرق واختلفت النتائج.



كان حزب الوفد الذى أخذ السلطة مساء ٤ فبراير، وعاش الساعات المثيرة لأول انقلاب عسكرى فى السياسة المصرية ـ حزبا من نوع مختلف وكذلك جاءت بالضرورة ممارساته، والشاهد أنه فى كل مرة وصل فيها الحزب إلى حقه الشرعى فى السلطة، كان وصوله أشبه ما يكون بوصول قاطرة قوية، عادت من عنابر الصيانة والتجديد، لامعة متحفزة، جاهزة أمام أنصار ينتظرون فى محطة القيام ـ وقد طال صبرهم، متشوقين للرحلة مع وزارة يثقون فيها، فى صحبة آمال يتطلعون إليها، نحو هدف يريدون السفر إليه، مخترقين طريقا يعرفون أنه مأمون، وأنه مريح؛ لأن قائد القاطرة ومهندسها كلاهما يعرف ما يفعل، فهما ـ قائد القاطرة ومهندسها ـ اللذان أشرفا على عملية الصيانة والتجديد ـ أيام المعارضة ـ لتكون صالحة لأيام الحكم، بما فى ذلك التأكد من كفاية الوقود، ووضوح خط السير مرحلة بعد مرحلة، وسلاسة حركة العجلات تنزلق على قضبان الحديد على امتداد «السكة» الطويلة.

لكن قاطرة الوفد التى اندفعت إلى الرصيف صباح يوم ٥ فبراير وقفت بطريقة مختلفة أشبه بالارتطام منها بالوقوف، ثم إن الفوضى عمت على الرصيف زحاما وصراخا عاليا تمتزج فيه دقات طبول مع هدير جنازير دبابات وهرج ومرج على الأرصفة، وجمهور حيرته الفوضى، لا يفهم حقيقة ما يرى ـ والغريب أن الجمهور الذى ينتظر راوده إحساس بأن «وجهة السفر» ليست واضحة، وأن قائد القاطرة لا يبدو واثقا من نفسه، ومهندس القاطرة متردد فى الصعود إلى مكانه أمام المحركات وفوقها لوحات الرقابة والمتابعة، يسترشد بها قائد القاطرة.

وبالطبع فإن قائد القاطرة وفق هذا التشبيه كان زعيم الوفد «مصطفى النحاس» (باشا)، فى حين أن مهندس القاطرة كان «مكرم عبيد» (باشا) سكرتير الوفد.

والواقع أن كلا الرجلين ـ وهما فى تلك اللحظة مسئولان رئيسيان عن الوفد (ووزارته الجديدة) ـ كانا فى محنة إنسانية تختلف أسبابها عند أحدهما عن الآخر. وكانت للمحنة أسباب موضوعية بصرف النظر عن دواعى التوتر بين الرجلين، وأهم الأسباب:

● أن الحزب جاء إلى الحكم هذه المرة بأسلوب شديد الالتباس. فهو بالفعل حزب الأغلبية ـ لكن دخوله إلى الحكم جاء مناقضا للشرعية.

● والحزب لم يدخل إلى السلطة من باب الانتخابات (رغم أنها وسيلته المضمونة)، وإنما جاء بإملاء أجنبى، والإملاء لم يكن سرا وإنما علنا وبمظاهرة سلاح بريطانى.

● ولأن الحزب جاء بهذه الطريقة فإنه وصل إلى الحكم فجاة، وبالتالى فهو على غير استعداد.

● ولأن الحزب جاء فجأة فإن برنامجه (خط سيره) لم يتحدد أو يطرح على الناس، وفى العادة فإن برامج حزب الوفد تُطرح خلال الحملات الانتخابية فى مرحلة انتقال تقوم عليها بالتقاليد «حكومة محايدة» ـ لكن مثل هذه الحكومة لم يكن لها دور هذه المرة، وبالتالى فإن قطار الوفد وصل إلى الحكم قبل تحديد خط سيره ـ نحو هدفه ـ أى بغير برنامج.

● وكان المألوف أن إشراف وزارة محايدة على العملية الانتخابية يعفى الوفد من الظنون التى تحيط بإدارتها، ومع أن حزب الوفد عادة فى غير حاجة إلى تدخل إدارى ـ فإن الواقع المادى هذه المرة كان يضع الحزب إزاء بقية الأحزاب وسط مساحة معرضة للشك، خصوصا أن الإدارة فى العادة ميالة إلى هوى السلطة، حتى إذا لم تكن السلطة راغبة فى هذا النوع من الهوى!

● يتصل بذلك أن الوفد وحكومته دخلوا إلى منافسة سهلة على أرض مفتوحة، وذلك أغرى كثيرين من الذين يترددون عادة قبل دخول المعارك الانتخابية ومشاكلها ومتاعبها ـ لكنهم هذه المرة ـ والسبل ميسرة ـ راحوا يتقدمون ويلحون وضمنهم عدد من رجال وأبناء العائلات التى دعت ورحبت واستضافت فى مزارع وقصور شمال الدلتا، (عندما أصبحت هذه القصور ملجأ وملاذا بعيدا عن قيود الإضاءة والإظلام فى القاهرة وفى منجاة وأمان من خطر غارات الطائرات الإيطالية والألمانية).

● وكان الأصعب فى الدواعى الموضوعية للمحنة أن الوفد يعود إلى السلطة بعد غياب، لكنه لا يستطيع أن يبدأ على الفور (وكالمعتاد) بتزكية نفسه على حساب غيره، خصوصا فى القضايا الوطنية وهى وقتها موضع المحك والاختبار!

فوزارات الأقلية التى سبقت الوفد (وهى بالفعل أقلية) ـ هى التى أعلنت ونفذت سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب»، وهى التى نادت بشعارات من نوع «إنها حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل»، ثم إن قصارى ما تعاونت فيه تلك الوزارات مع الإنجليز هو تنفيذ نصوص ـ وليس روح ـ معاهدة ١٩٣٦ التى وقعها «مصطفى النحاس» (باشا) بنفسه، وسماها أمام الناس معاهدة الشرف والفخار (وإن كان الرجل بضميره الوطنى أقل حماسة فى أعماقه مما بدا فى تعبيره) ـ فقد أخذ الممكن فى الظرف المستحيل (هكذا كان تقديره).

ومهما يكن فإن الوفد هذه المرة لا يستطيع أن يتهم أحدا بالتفريط، ولا أن يشير بأصبعه إلى آخرين يسميهم «برادع الإنجليز» ـ أو أنه «جورج السادس يفاوض جورج السادس» (كما قيل من قبل عن «عدلى يكن» مع جورج السادس!).

● وزاد على ذلك أن الطريقة التى جاء بها الوفد إلى الحكم، أخذت تتسرب تدريجيا إلى الناس، وراحت أحزاب المعارضة تستأسد بما تذيع عنها من روايات، وقد بادرت بعض هذه الأحزاب على ضعفها إلى طبع منشورات سبقت دخول الوزراء الوفديين الجدد إلى مكاتبهم، والمنشورات حافلة بتفاصيل ما جرى فى القصر بصيغة المبالغة، ولكنها مبالغة لها أساس من الحقيقة، وتلك أكثر أنواع المبالغات قابلية للتصديق، لأنها تصل إلى العقول ومعها شواهد ـ تعززها وقائع!

● ثم إنه كان هناك مناخ عام مختلف وغير صحى خيَّم على الأفق، فقد كانت العادة أن الوفد يجىء إلى السلطة «مظلوما يستعيد حقه»، وفى هذه المرة فإن الملك «فاروق» كان هو المظلوم الذى اعتدى عليه فى قصره ـ فى بيته وأمام أهله.



و«النحاس» (باشا) ليس رجلا «ساذجا» ـ «مبروكا» كما كان يروج بعض أنصاره (وخصومه!)، وإنما سياسى ذكى وقادر على «وزن» المواقف، وكان «وزنه» لموقفه صحيحا،

كانت تجارب «مصطفى النحاس» باشا تسبغ على شخصيته إضافات أعطتها طابعها الخاص، مزيجا غير عادى من لقاء نادر بين الصلابة والمرونة. وعناد داخلى مع بساطة على السطح تكاد أحيانا توحى بالسذاجة. واحساس بمشاعر ومطالب الناس تقدر عليه الزعامة



عندما أدرك أن أكثر ما يحتاجه الوفد الآن هو «التغطية السياسية» أمام الناس بكل الوسائل، وتلك في العادة مهمة مهندس الحزب (أي سكرتيره العام «مكرم عبيد» (باشا)).

فهو الرجل الذي يدير عجلة الحزب: يكتب البيانات، ويصك الشعارات، ويختار قوائم المرشحين، ويتصدر لإدارة الحملات الانتخابية عنيفا على خصوم الوفد، فاتحا الطريق مثل مدفعية ثقيلة أمام مرشحيه كي يكتسحوا ويتقدموا ويحتلوا مقاعد البرلمان. لكن زعيم الوفد هذه المرة ليس واثقا في سكرتيره العام، لأن العلاقة بين التوأمين تأثرت بشروخ زاد اتساعها وتحولت إلى كسور.

وكانت تلك فترة ألم مكبوت وصامت في حياة رئيس الوفد، فقد كان ممزقا بين شريكة سعادته وشريك جهاده، فضلا عن أنه كان في أعماقه يحس أنه ليس «في ثوبه» (على حد تعبير «على الشمسي» (باشا)).

لكن طبائع الأشياء كانت لها قوة اندفاعها في حد ذاتها، ذلك أن الأجواء التي مهدت لصفقة الحكم، فتحت الأبواب لكثيرين أمسكوا بمواقع السلطة دون أن يكونوا مثقلين بالهموم مثل زعيمه، بل وكان لدى كل منهم جدول أعمال وقائمة فرص.

وعندما انتهى شهر فبراير - أي في ظرف ثلاثة أسابيع من انقلاب ٤ فبراير ١٩٤٢ - كان انتشار القادمين على مواقع النفوذ سريعا وواسعا:

- في هذه الأسابيع الثلاثة تعرض ١٥٢٠ من كبار ومتوسطي موظفي الدولة للإحالة إلى المعاش، أو الفصل، أو النقل، وعين بدلهم آخرون من الموثوق بهم، وطالت التغييرات مناصب الإدارة في القاهرة وفي الأقاليم على السواء.

وبادر السير «ألكسندر كين بويد» (مستشار الأمن الداخلي في السفارة وكان من الأصل مستشارا لوزارة الداخلية المصرية) بلفت نظر السير «مايلز لامبسون» إلى الآثار السلبية التي تترتب على هذه «التصرفات»، واتصل «مايلز لامبسون» بأمين عثمان (باشا) يطلب إليه أن يتحدث في الأمر مع «النحاس» (باشا)، «لأن تلك التصرفات قد تنسب إلينا بمسئوليتنا عن إعادة الوفد إلى الحكم».

- ورجع «أمين عثمان» برسالة من «النحاس» سجلها السير «والتر سمارت» في تقرير له بتاريخ ١٣ مارس ١٩٤٢: «دافع «النحاس» (باشا) عن نقل وفصل هذه الأعداد الكبيرة من الموظفين بأنهم من رجال أحزاب الأقلية وممن ناصبوا الوفد العداء، ولا تستطيع الوزارة الجديدة أن تضبط الأمور في البلد إلا بمن تثق فيهم، وكذلك لا تستطيع أن تنفذ سياساتها إلا برجالها، وذلك يحدث في أعقاب كل انتخابات، وعند تشكيل كل وزارة».

- في نفس الفترة لاحظ وزير المالية (وهو مكرم عبيد باشا) أن عشرات الطلبات انهالت على وزارة التموين، تطلب تصريحات بتصدير «أرز» و«غزل» و«زيت بذرة قطن» و«سكر» و«صابون» - إلى بلدان عربية وشرق أوسطية مازال التبادل التجاري معها ممكنا، لم توقفه ظروف الحرب. وفي وزارة التموين (وتصدير السلع الغذائية اختصاصها) - كان سيل الطلبات لافتا للنظر، خصوصا أن اسم السيد «أحمد الوكيل» شقيق قرينة رئيس الوفد تكرر في العديد منها، كذلك وقع سباق على حصص الأسمنت والجلود ومواد الصباغة التي كانت لها سوق سوداء واسعة. وكان معظم الطلب والإلحاح من «أصهار وأنسباء» بتعبير «مكرم عبيد» (باشا). وبوصفه وزير المالية (ومشرفا على وزارة التموين) - فإن «مكرم» (باشا) وحتى لا يتهم بالتعنت - وافق فعلا على بعض الطلبات، ورفض عامدا بعضها الآخر، وتوجهت التظلمات إلى رئيس الوفد.

واكتشف بعضهم أن تجارة الذهب في العالم العربي مربحة لأن سعره في مصر أرخص، وكذلك جرت عملية متابعة ورصد تبين بعدها أن هناك خروجا للذهب من مصر على نطاق لفت نظر مدير البنك الأهلي (وكان وقتها يقوم بدور البنك المركزي) - واتصل المستر «جيمس كوك» بمكتب وزير المالية «مكرم عبيد» (باشا) ينبه ويحذر!

ويسجل السير «مايلز لامبسون» في تقرير له «أنه استدعى «أمين عثمان» ولفت نظره إلى تصرفات لا يمكن وصفها إلا بأنها استغلال للنفوذ». ويروى «مايلز لامبسون» في تقرير إلى وزير الخارجية البريطاني «أنني أعرف، وكذلك أكد لي «أمين عثمان» أن «النحاس» نفسه بريء من هذه التصرفات، لكن قرينته تتدخل، كما أن بعض أقاربها أفاقون «Rascals»» ثم اختص السير «مايلز لامبسون» في تقريره السيد «أحمد الوكيل» (شقيق قرينة رئيس الوفد) بعدد من «الأوصاف الثقيلة» (لا داعي لترجمتها). وأبدى السفير البريطاني قلقه مرة أخرى من أن المسئولية قد تنسب «إلينا» لأننا جئنا بالوفد. وكان رد «أمين عثمان» أن تلك مسألة يجب أن تؤخذ باحتراس، لأننا لا نستطيع أن نطلب من «الرجل» أن يخاصم بيته!

ثم يسجل السير «مايلز لامبسون» واقعة كاشفة ملخصها أنه:

«في يوم ٢٧ مايو ١٩٤٣ استقلت السيدة قرينة «النحاس» (باشا) عربة مخصصة لرئيس الوزراء ضمن قطار للسكة الحديدية المصرية - وكان في رفقتها شقيقها السيد «أحمد الوكيل»، ومعها شريك له اسمه «الشويكلي». وكانت عربة القطار مليئة بـ: «السبائك الذهبية»، ومجموعات من النقود الذهبية، وشحنة من الماس والمجوهرات. وكانت القاطرة متجهة بكل عرباتها - وضمنها العربة المخصصة لقرينة «النحاس» (باشا) ومعها شقيقها السيد «أحمد الوكيل» - إلى فلسطين محمية بالحصانة المكفولة لرئيس وزراء مصر. وفي القدس نزل الجميع بما معهم من حقائب وصناديق، وجرى تسليم كل شيء إلى مجموعة من السماسرة هما، «ميشيل طارابي» و«عمر داود الدجاني».

ويشير التقرير إلى «أن الماس له أهمية خاصة بالنسبة لعمليات المخابرات؛ لأنه بسبب صغر حجمه وغلو سعره، أسهل في دفع كبار العملاء من سبائك الذهب لأنها ثقيلة الوزن، وأوراق النقد التي لا يثق فيها أحد، خصوصا أزمنة الحروب!».

ثم يكون تعليق السير «مايلز لامبسون» عن هذه الوقائع وغيرها في تقريره السنوي إلى وزير الخارجية البريطانية في ختام سنة ١٩٤٣، قوله بالحرف:

«ليس لدى شك في أن حكومة الوفد في صراعها مع الملك، قامت باستغلال كل الإمكانات الاقتصادية والاجتماعية لمصلحة الحزب وأعضائه، وفي عملها ذلك فإن هذه الحكومة أضرت بعناصر الاستقرار في البلاد. ومن سوء الحظ أن الوفد لم يعد يملك الحماسة التي تؤهله للإخلاص اللازم للإصلاح السياسي والاجتماعي. والحقيقة أن الوفد الآن لم يعد يؤيده إلا مجموعة مصالح متنوعة، لها شهية مفتوحة على الآخر، وبعضها بلا مثل أعلى ولا خلفية ثقافية حتى إنه أصبح مثل Tamany Hall (هو مقهى للشراب اشتهرت حجراته الخلفية المعبأة بدخان التبغ - بأنها مجال الصفقات المشبوهة بين النفوذ السياسي والانتفاع المالي)، وقد أصبحت هذه البارات نموذجا للفساد في عصر الرئيس الأمريكي «هاردنج» - وكان من أسوأ عصور السياسة الأمريكية».

يستطرد السير «مايلز لامبسون» في تقرير لاحق (٧٣١) - إلى القول:

«إن حكومة الوفد أبعد ما تكون عن الكفاءة، لكنها الأقدر على مواصلة «تقديم البضاعة» but they continue to deliver the goods.

ونحن لا نستطيع نسيان موقفهم أيام العلمين، مضافا إلى ذلك فإني أظن أن الأغلبية مازالت معهم!



وفي الفترة نفسها وقعت تصرفات لم يكن في مقدور السفير البريطاني أن يلفت النظر إليها لأنه كان المسئول عنها. وفي تقرير له بتاريخ ٢ أبريل ١٩٤٢ يكتب السير «مايلز لامبسون» ما نصه: «بناء على طلب مني تشكلت لجنة مشتركة لتنسيق التصرف في المواد الغذائية. وعقدت هذه اللجنة أول اجتماع لها يوم ١٤ فبراير، واتفقنا على أن تدخل هيئة التموين البريطانية في السوق المصرية مشترية للقمح بسعر ٣ جنيهات للأردب، وهو السعر الذي حددته الحكومة. ونفس الشيء بالنسبة للأرز والقطن».

ولحق بذلك أن «أحمد محمد عبود» (باشا) وهو رئيس مجلس إدارة شركة السكر، عقد اتفاقا مع هيئة التموين البريطانية يبيعها بمقتضاه «مائة ألف طن من السكر» سنويا. وكان «مكرم عبيد» (باشا) هو الذي لفت نظر السفير البريطاني على خطورة هذه التصرفات بوصفه وزيرا للمالية، وكان رأيه وقد أبلغه في الوقت نفسه لأمين عثمان (باشا) - «أن هذه الصفقات سوف تؤدي إلى نقص في المواد يتحول بالتكرار إلى أزمة، تتحمل حكومة الوفد مسئوليتها، وإذا دافعت عن نفسها بأنها مسئولية الإنجليز - وقعت في «فخ» لا تستطيع النجاة منه».

وينقل «أمين عثمان» (باشا) ملاحظات «مكرم» (باشا) إلى السير «مايلز لامبسون»، ويكون رده: «أولا نحن في العام الماضي قمنا بتسليف الحكومة المصرية كميات من القمح بسبب نقص المحصول. وثانيا فإن ظروف الحرب في «العلمين» استدعت اعتماد بريطانيا على حليفها المصري بمقتضى معاهدة سنة ١٩٣٦ - التي وقعها «مصطفى النحاس» بنفسه»!

- وإلى جانب ذلك، وقعت تصرفات أخرى بطلب من السفير البريطاني، وأولها سلسلة من الاعتقالات، فلم تمض على وزارة الوفد غير أيام (يوم ١٢ فبراير) حتى صدر أمر الحاكم العسكري «النحاس» (باشا) (بوصفه رئيسا للوزراء) باعتقال «على ماهر» (باشا)، والنبيل «عباس حليم»، و«محمد طاهر» (باشا) رئيس مجلس إدارة نادي السيارات وابن عمة الملك، والأمير «عمر الفاروق» (من آل عثمان). وكان المزعج في اعتقال «على ماهر» أنه كرئيس سابق له مصادر في وزارة الداخلية، ولذلك عرف مبكرا بصدور أمر اعتقاله وأن توقيته هذه الليلة، ونزل من بيته مسرعا إلى مبنى مجلس الشيوخ يلجأ إليه باعتباره عضوا فيه، وظنه وهو يدخل رحابه أنه تحت حماية إضافية إلى جانب الحصانة

يسجل السير «مايلز لامبسون» في تقرير له «أنه استدعى «أمين عثمان» ولفت نظره إلى تصرفات لا يمكن وصفها إلا بأنها «استغلال للنفوذ». ويروى في تقرير إلى وزير الخارجية البريطاني «أنني أعرف، وكذلك أكد لي «أمين عثمان» أن «النحاس» نفسه بريء من هذه التصرفات، لكن قرينته تتدخل، كما أن بعض أقاربها أفاقون



.. دروس تعلمـهـــــا الوفـد

المكفولة لأعضاء البرلمان. لكن أوامر «النحاس» جاءت صريحة: «اقبضوا عليه أينما كان». وروى «النحاس» (باشا) لضيوف على العشاء في بيته ليلتها (بينهم أحمد عبود باشا ـ وأمين عثمان باشا) ما حدث وهو يلخص رأيه في الأمر كله: «أن على ماهر جرى إلى مجلس الشيوخ بتصور أن الحصانة تحميه. وهذا شغل تياترو ـ لا أقبله!».

وبالفعل فإن البوليس اقتحم حرم مجلس الشيوخ واعتقل «على ماهر» (باشا). وتوالت بعدها الاعتقالات.

ـ يتبين أيضا أن المخابرات البريطانية M.I.S تعمل بنشاط في مصر، وذلك يمكن أن يكون من طبائع الظروف ـ لكن تقارير السفارة ما تلبث أن تسجل وصولا إلى مصر ونشاطا وترتيبات يقوم بها الجنرال د.س. «هوليس»، وهو رئيس M.I.S. وتلك هي الهيئة المشرفة على الأمن الداخلي في بريطانيا، وهي مماثلة لـ "F.B.I" «مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكية». وكان أهم ما قام به الجنرال «هوليس» في مصر أنه احتل جناحا في مبنى مصلحة التليفونات المصرية، ووضع فيه أجهزة تابعة لإدارته، تقوم بالتنصت والتسجيل ـ وتلك أول مرة في مصر ـ بجهاز رقابة على التليفونات يتابع ساسة مصريين، بعضهم في القصر الملكي نفسه، وبعضهم من خارجه، وممن تعتقد الـ M.I.S باحتمالات أن تكون لهم علاقات مع «الأعداء»!

وكان حكمدار بوليس القاهرة الإنجليزي «راسل» (باشا) يعرف ويتابع، وإن لم يظهر دليل في الأوراق أنه أخطر أحدا من رؤسائه المصريين بما فيهم وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين».



ومن ذلك كله ومن غيره، ما كان «مكرم» (باشا) متأكدا منه في حينه أو عرف به فيما بعد واطلع على وثائقه، فإن الرجل لم يكن راضيا. وكانت أسباب عدم رضاه تتراكم كل يوم!

كان «مكرم عبيد» (باشا) يخسر المعركة على عقل «النحاس» (باشا) وقلبه، لأن «صديق العمر» وقع في مأزق إنساني، فهو الآن فوق الستين، وقد اقتصت منه سنوات الجهاد ضرائبها. وكان مناه أن يستريح ويسعد، لكن الراحة مستحيلة، والسعادة مؤرقة، والسبب أن «مكرم» لا يسكت. وطبقا لما قاله «النحاس» ووصل إلى أسماع «مكرم»: «لقد بدأ «مكرم» في الأول ينق بالشكوى مثل الضفادع، وهو الآن ينفث السم مثل الأفاعي».

وكان القصر جاهزا للحركة، وكان الكاردينال الملكي فيه «أحمد محمد حسنين» (باشا) متأهبا.

وجرى وضع خطة عمل تصور فيها «حسنين» (باشا) أنه يقدر على ضرب عصفورين بنفس الحجر (والغريب أنه وهو يسعى إلى تنفيذ خطته بدا كما لو أنه مطلع على فكر «النحاس» (باشا):

● العصفور الأول هو انتزاع «مكرم عبيد» من قلب الوفد إلى خارجه، وفي الواقع فتلك ليست رمية حجر ـ بل سكينا يقتطع من جسم الوفد. فخروج «مكرم» الآن من الوفد أكبر من أي خروج سبق من الوفد بلا استثناء، وذلك في حد ذاته انتصار كبير. ثم إن «مكرم» (باشا) ـ جاهز للخروج وقد تدرج موقفه من «مندهش» إلى «معاتب»، ومن «ساخط» إلى «غاضب»، ومن «رجل لا يستطيع أن يقبل مثل هذه الأوضاع» إلى «رجل لم يعد أمامه غير الخروج منها»، والتفصيل الوحيد الباقي هو كيف يمكن تهيئة السبل لذلك.

● العصفور الثاني تقدير «حسنين» (باشا) أنه إذا استطاع تحويل موقف «مكرم عبيد» (باشا) من كونه خروجا «من» الوفد بحيث يصبح خروجا «على» الوفد، وبحيث يتحول من شقيق وشريك إلى معارض وعدو ـ إذن فتلك بداية الهجوم المضاد على «مصطفى النحاس» (باشا)، وبالتبعية على الذين جاءوا به أي السير «مايلز لامبسون». وإذا أمكن التخطيط جيدا لمراحل هذا الهجوم المضاد بحيث لا تتسرب قوة الدفع منه، فقد يصبح الخطوة الأولى على الطريق الطويل إلى «الإقالة»!



ولتحقيق هدف خروج «مكرم» «من» الوفد، وتحويله إلى خروج «على» الوفد، كانت خطة المعركة إجراءات متوالية:

ـ يستقيل «مكرم عبيد» من الوفد ويسبب استقالته بأسلوب لا يحتمل الظنون.

ـ وقبل أن يستقيل ـ ومن موقعه في السلطة ـ يتعين عليه أن يعد ملف أسباب استقالته بوقائعها ومستنداتها.

ـ وهذه الأسباب يمكن أن تتحول إلى «عريضة» يقدمها «مكرم» (باشا) «لملك البلاد» باعتباره المرجع الدستوري الأعلى في ظرف خلل رزئ به الوطن.

ـ وبعدها يقوم الملك بإخطار رئيس الوزراء (مصطفى النحاس) بمحتوى العريضة التي تلقاها من رجل لا سبيل إلى الشك في أنه كان قريبا، ولا سبيل إلى التشكيك في أنه كان عارفا، فهو سكرتير الوفد الملقب بـ: «المجاهد الأكبر»، وهو الوزير الأقوى في الحكومة حتى هاله ما رأى ومن ثم اشتكى، واحتج، ثم إنه الآن ـ وبلا خيار آخر مفتوح أمامه ـ جاء يعرض على «مليك البلاد» وعلى الرأي العام أثقالا زادت وطأتها على ضميره الوطني، والوفدي، والإنساني!

وخطة «أحمد حسنين» ساعتها أن يكون التوجيه الملكي إلى رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» ـ إبلاغه أنه مسئول عن سمعة البلد وسمعة الوزارة، وليس أمامه غير إبلاغ النائب العام كي يتولى التحقيق فيما أورده «مكرم عبيد» من وقائع بالمستندات في عريضته.

وإذا بدأ النائب العام تحقيقا ـ فمعنى ذلك أن الباب انفتح على مصراعيه لإصابة الوفد ورئيسه وأسرته وأنصاره!

وكانت تلك في التخطيط: افتتاحية المعركة، وبعدها تكون الحركة وفق ما تتيحه الفرص، وتمكن منه تداعيات الأفعال وردود الأفعال.

ومثل أي معركة كانت المفاجأة هي العنصر الأهم في تنفيذ الخطة، بمعنى أن التحضير لابد أن يُحاط بأقصى درجات السرية والكتمان، وبالفعل أمكن ترتيب قناة اتصال سري بين القصر الملكي و«مكرم عبيد» (باشا)، بحيث لا يراها أحد لا «النحاس» (باشا) ولا وزراؤه ولا القلم المخصوص (الأمن السياسي) في وزارة الداخلية، وجاء الترتيب محكما.

فقد كان أحد الأمناء في الديوان السيد «على الحمامصي» شقيقا للصحفي الأقرب من «مكرم عبيد» (باشا) ـ الأستاذ «جلال الحمامصي».

وبدأت قناة الاتصال تعمل خفية والسجلات تتضخم بالوقائع والتصرفات والتفاصيل والمستندات والتهم: من الرضوخ للإنجليز، إلى الرضوخ للأنسباء والأصهار والأقارب، إلى فصل ونقل وتعيين مئات في وظائف الدولة الكبرى بالاستثناء أو بغير استحقاق، إلى وقائع استغلال النفوذ عن طريق أذونات التصدير والاستيراد، واحتكار السلع للمضاربة في السوق السوداء ـ إلى غيره ـ والقائمة طويلة.

واكتمل السجل واختير له عنوان «الكتاب الأسود»، وأضاف «مكرم» (باشا) في اللحظة الأخيرة للعنوان جزءا آخر يكتمل به السطر: «للعهد الأسود».

كان التحضير لهذه المعركة السياسية الداخلية يجري في السر بين «مكرم» و«حسنين»، لكن معركة كبرى في مسار الحرب العالمية الثانية ـ كانت على وشك أن تبدأ، ومسرحها صحراء مصر الغربية، ذلك أن ربيع سنة ١٩٤٢ شهد هجوما صاعقا شنه الماريشال الألماني «إروين روميل»، وفوجئ به قائد القوات البريطانية والحليفة الماريشال «أوكنليك» (من أصل نيوزيلندي)، وفي اندفاعة واحدة نفذت قوات الفيلق الأفريقي الألماني من طبرق إلى العلمين، وهناك تمهلت الحركة استعدادا لاندفاعة أخرى تأخذها إلى الإسكندرية ثم إلى قناة السويس (بينما تترك القاهرة للقوات الإيطالية يدخلها موسوليني على حصان أبيض وصل فعلا بالطائرة إلى مرسى مطروح ينتظر وصول راكبه الذي قرر (كما تكشف الوثائق الإيطالية) أن يتخذ لنفسه لقب «حامي الإسلام» (على مثال نابليون قبله).

كان الجيش البريطاني يرتب لوقفة في «دلتا النيل»، وكانت السفارة البريطانية تحرق أوراقها المهمة استعدادا للرحيل، وراح السير «مايلز لامبسون» يطرح ـ على لجنة الحرب التي يرأسها الوزير البريطاني المقيم في الشرق الأوسط ـ عددا من الأسئلة العاجلة:

١ ـ هل يأخذون الملك «فاروق» في حالة الانسحاب معهم، وكيف إذا رفض؟ (ونفس الشيء مع «النحاس» (باشا) ونفس السؤال؟).

٢ ـ إلى أين الانتقال؟ إلى الخرطوم (في السودان) كما يقترح بعضهم ـ أو جنوب أفريقيا كما يقترح البعض الآخر؟

٣ ـ إلى أين ينقل احتياطي الذهب المصري في البنك الأهلي قبل إخلاء القاهرة ـ إلى الخرطوم أو إلى جنوب أفريقيا مرة أخرى؟!

٤ ـ متى وكيف يمكن إخطار «الحكومة المصرية» بأن خطط الدفاع عن مصر تقتضي نسف القناطر الخيرية لإغراق دلتا النيل كي تتحول إلى بركة من طين يصعب فيها زحف المدرعات وجرارات المدافع الثقيلة!

وكان القصر الملكي يتابع.

وكان «النحاس» (باشا) يسمع، وفي الحقيقة فإنه مع غياب «مكرم عبيد» ومع الفراغ الذي تركه في الوفد وفي الوزارة، فإن «النحاس» (باشا) لم يعد يجد متحدثا معه غير «أمين عثمان» (باشا) ـ و«أمين عثمان» (باشا) ينقل رأي السفارة البريطانية ـ و«النحاس» (باشا) متحير.

كان القصر مازال يتلقى تأكيدات يقدمها السفير وعدد من كبار الضباط البريطانيين في القاهرة، ملخصها أن الجبهة في صحراء مصر الغربية سليمة، وأن «روميل» يحتاج إلى قدر

كان «مكرم عبيد» (باشا) يخسر المعركة على عقل «النحاس» (باشا) وقلبه، لأن «صديق العمر» وقع في مأزق إنساني، فهو الآن فوق الستين، ومناه أن يستريح ويسعد، لكن الراحة مستحيلة، والسعادة مؤرقة، والسبب أن «مكرم» وطبقا لما قاله النحاس: «بدأ ينق بالشكوى مثل الضفادع، وهو الآن ينفث السم مثل الأفاعي»



كبير من «الحظ» لاختراقها ودخول الإسكندرية!

ومع ذلك فإن القصر كان أمام سؤال لا يستطيع الاعتماد على التقديرات، والافتراضات بماذا؟ وإذا؟ وأشار «حسنين» (باشا) أكثر من مرة فى لقاءات له مع «والتر سمارت» المستشار الشرقى للسفارة «أن الملك فى كل الظروف يشعر أن مكانه مع شعبه».

وكان «النحاس» (باشا) يسمع ويتصرف بطريقته وهو بدوره جعل الإنجليز يعرفون أنه لن يخرج من «البلد».



ووقع تلك الأيام مشهد من أطرف ما عرف التاريخ المصرى الحديث، والمشهد حوار جرى بين «مصطفى النحاس» رئيس الوزراء من ناحية، ومن الناحية الأخرى «عبد الخالق حسونة» (باشا) محافظ الإسكندرية من الناحية الأخرى (وقد أصبح «حسونة» (باشا) أمينا عاما لجامعة الدول العربية).

وجرى الحوار حين اتصل «عبد الخالق حسونة» (بوصفه محافظا للإسكندرية) برئيس الوزراء يقول «إن مدير المباحث فى المحافظة أبلغه أن إحدى الدوريات الألمانية وصلت إلى منطقة الدخيلة على طرف الإسكندرية»، وأنه (مدير المباحث) عندما طلب من ضابط الاتصال البريطانى تأكيد الخبر - نفى له الضابط البريطانى صحة ما بلغه. لكن محافظ الإسكندرية يرى أن الوضع بالغ الخطورة ولا يعرف «ماذا يفعل إذا أطبق «روميل» على مدينته - وماذا تفعل الإدارة وفيها البوليس إذا وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام القوات الألمانية؟ ورد رئيس الوزراء بقوله «لا تدخلوا فى قتال». وأراد المحافظ أن يستوضح «وإذا طلبوا أن نسلم سلاح البوليس»، ورد «النحاس» (باشا) «لا تسلموا السلاح!».

وكان «حسونة» (باشا) يريد أن يستوثق، فقال «وإذا حاولوا نزعه منا بالقوة؟» ورد «النحاس» (باشا) «تصرف يا أخى. تصرف!»

ولم يكن ذلك مما يمكن أن يتصرف فيه محافظ الإسكندرية، وهكذا عاد الرجل يطلب توجيهات محددة، وهنا قال له «النحاس» (باشا) «رأيى عندما تتأكد من صحة البلاغ، أن تسبق وتذهب بنفسك إلى القائد الألمانى «روميل» وتسلم له «مفاتيح المدينة» وتبلغه أنها مدينة مفتوحة»!

واتصل «حسونة» (باشا) بالديوان الملكى يطلب مشورة إضافية من «حسن يوسف» (باشا) (وكيل الديوان وعديله فى الزواج)، وشرح «حسونة» (باشا) مشكلته: «الإسكندرية ليس لها باب، وبالتالى ليس لها مفتاح، ووضع أى «مدينة مفتوحة» يقتضى إعلانا دوليا مسبقا يعترف به الآخرون بموجب اشتراطات متفق عليها. وفضلا عن ذلك فإنه («عبد الخالق حسونة») لا يعرف كيف يتأكد من البلاغ، ثم يسبق بالتصرف ويذهب بنفسه إلى لقاء «روميل» وسط معركة هائلة يتقرر بها مستقبل البحر الأبيض المتوسط كله وما حوله؟!

وتلقى «حسونة» (باشا) توجيها من القصر «بأن ينتظر فى مكانه ولا يفعل شيئا لأن الحوادث نفسها وفى الوقت المناسب سوف تقرر له جواب سؤاله وتحدد أمامه: كيف يتصرف!»



ومن حسن الحظ أن معركة البحر الأبيض لم تعد مجرد معركة، وإنما أصبحت نقطة تحول كبرى فى مجرى الحرب، فقد انتصرت قوات الجيش البريطانى الثامن تحت قيادة الماريشال «مونتجمرى»، بينما تراجع الفيلق الأفريقى وقائده الماريشال «روميل»، وتواصل التقدم والتراجع حتى أصبح انسحابا ألمانيا وإيطاليا كاملا من كل أفريقيا!

ويظهر أن معركة «الكتاب الأسود» كانت تنتظر الحسم فى معركة البحر الأبيض، ذلك أن أصوات المدافع التى خفتت وتلاشت أصداؤها بابتعاد ميادين القتال إلى ليبيا وتونس - أخلت الأجواء فى القاهرة بلا حرج لمعركة «الكتاب الأسود»، وكانت الأوراق والمستندات قد اكتملت فى ملفات استقرت فى خزينة رئيس الديوان الملكى. وجاء يوم قدم فيه «مكرم عبيد» (باشا) استقالته من الوزارة وخرج ومعه عدد كبير من رجاله وأنصاره، وكان خروج «مكرم عبيد» (باشا) أكبر فلق فى تاريخ الوفد، بل وتحول إلى كسر بحساب الظروف التى خرج فيها.

وقصد «مكرم» (باشا) إلى القصر وليس فى يده شىء، ودخل مكتب رئيس الديوان، وخرج وفى يده ملف منتفخ بما فيه، وتوجه نحو مكتب الملك «فاروق» ليقدم له ما يحمله على شكل عريضة مرفوعة «إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك».

وذاع النبأ فى المحافل السياسية المصرية بسرعة البرق.

وقام «فاروق» بنفسه بعد أيام - وكان السير «مايلز لامبسون» على موعد معه يقدم له زائرا كبيرا - بانتهاز الفرصة وأعطاه نسخة من العريضة، وكتب «مايلز لامبسون» يقول: «لقد كان سخفا منه أن يحرجنى بإعطائى هذه الأوراق!»، واستطرد «لامبسون» «إننى سمعت عما تحتويه من فضائح وكلها مما يمكن أن يقع فى مجتمعات الشرق الفاسدة، والشره الطامع بين أصحاب النفوذ إلى كسب المنافع الشخصية».

وبينما كان السفير خارجا من مكتب الملك، جاءه الأمين الخاص المناوب، برجاء من «حسنين» (باشا) يرجوه المرور خمس دقائق على مكتبه، وتوجه «مايلز لامبسون» إلى مكتب «حسنين» (باشا) الذى بادره بقوله «ألا تعتقد سير «مايلز» أن مصر تستحق حكومة أنظف؟ لقد كنا نعذركم فى تأييد هذه الحكومة عندما كان «روميل» على الأبواب، والآن ألا ترون أن الموقف تغير؟!

ورد السفير البريطانى بقوله: «لماذا تصرون على دفع الملك إلى صدام مع وزارة تمثل الأغلبية فى بلده. لم يتعلم القصر حتى الآن درس احترام الدستور من أيام الملك «فؤاد» و«زغلول» حتى الآن.

ورد «حسنين» قائلا: «لكن الوضع الآن مختلف؛ لأن الشعب مع الملك، أى أن الملك «فاروق» الآن هو فى الموضع الذى كان فيه «سعد زغلول» - فى حين أن «مصطفى النحاس» الآن فى الوضع الذى كان فيه الملك «فؤاد».

ورد «مايلز لامبسون» «بأنه ليس متأكدا من هذه الفرضية، ثم أضاف بحدة: «إن الحرب مازالت مستمرة، والقوات المتحالفة فى مصر لها ضروراتها. وعلى أى حال فإنه لا يمكن أن تتخذ اتهامات «مكرم» على علاتها حجة ضد «النحاس»، لأن الأمر يحتاج إلى تحقيق وليس أكثر الآن.

وتحولت معركة الكتاب الأسود إلى مواجهة:

(رأى «النحاس» (باشا) أن النائب العام لا اختصاص له فى تحقيق ما ورد فى الكتاب الأسود (كما يطلب الملك)، وإنما الاختصاص للبرلمان حيث يستطيع «مكرم» أن يحول عريضته إلى استجواب للوزارة أمام مجلس النواب (وكان ذلك رأى اثنين من فقهاء الوفد وقتها: «أحمد نجيب الهلالى» (باشا) وزير المعارف - و«محمد صبرى أبو علم» (باشا) وزير الحقانية).

(وحاول القصر أن يعاند ويصر على أن يكون البلاغ للنائب العام؛ لأن هناك فى التصرفات جرائم، وفى النهاية لم يكن القصر على استعداد لتفويت الفرصة وتضييع الوقت فى جدل قانونى حول الاختصاص: النيابة العامة أو البرلمان. والظن أن الطرق على الحديد وهو ساخن مفيد فى أى مكان!

وكذلك فاز النحاس (باشا) بما أراد، ومن منظور القصر فإن عملية «الطرق على الحديد وهو ساخن» بدأت فى شكل استجواب قدمه «مكرم عبيد» (باشا). (وكان المشهد مأساة إغريقية بين صديقين قديمين - توأمين فى الروح - وقعت الفتنة بينهما، وتحولت الفتنة إلى قتال وقتل!).

....

....

[كانت معركة «الكتاب الأسود» أول تجربة مباشرة لى مع الحياة السياسية المصرية، وكان رئيس التحرير الذى قضيت معه فترة التأهيل العملى للاشتغال بالصحافة وهو رئيس تحرير الإجيبشيان جازيت «هارولد إيرل» من مدرسة فى المهنة تعتقد أن «صنع صحفى» يجب أن يبدأ أولا بالعمل فى تغطية أخبار الجريمة، فتلك فى رأيه - نظرة بالعمق إلى المآزق الإنسانى على مستوى الأفراد - تليها فترة ثانية فى تغطية أخبار الحرب لأنها فى رأيه أيضا - رؤية بالعمق إلى مآزق المجتمعات فى صراعها مع غيرها، وبعد ذلك يكون اقتراب الصحفى - (إذا توافر لديه الاستعداد) - من السياسة، بدءا من «البرلمان» لأنه الساحة التى يتبين فيها تجليات الفعل السياسى - سواء عند صلاحه أو عند فساده.

ومثل غيرى مشيت على نفس الخطى، وكان أول تجربتى فى البرلمان - بعد الجريمة والحرب طوال سنة ١٩٤٢ - تغطية استجواب «الكتاب الأسود» من شرفة الصحافة فى مجلس النواب، جالسا بين اثنين من كبار الصحفيين المصريين - الأستاذ «كامل الشناوى» مندوب الأهرام (وكان المقعد الأول من الشرفة محجوزا باستمرار لهذه الجريدة الأعرق بين صحافة مصر، فى حين كان المقعد الثانى مخصصا للإجيبشيان جازيت، وذلك هو المقعد الذى جلست يومها عليه) - إلى جانب السيدة «روزاليوسف» التى جاءت تتابع الاستجواب (وكان ذلك أول لقاء لى بالاثنين).

ومن شرفة الصحافة صيف سنة ١٩٤٣ ألقيت أول نظرة على الساحة السياسية المصرية، حين بدأ «مكرم عبيد» (باشا) يعرض وقائع استجوابه، وبدا لى الرجل لأول وهلة متوترا، مشدود الأعصاب، يمسك نفسه بصعوبة بالغة، ويبتسم ابتسامات يختلط فيها انفعال يحاول صاحبه كبته، وافتعال للتماسك لا يستطيع صاحبه إحكام السيطرة عليه. ومع أن الصخب الذى ووجه به «مكرم» (باشا) كان شديدا، فلم يكن ذلك فى حد ذاته كافيا لشرح الحالة العصبية لسكرتير الوفد السابق كما رأيناها من شرفة الصحافة.]

....

قدم «مكرم عبيد» (باشا) استقالته من الوزارة وخرج ومعه عدد كبير من رجاله وأنصاره، وكان خروج «مكرم عبيد» (باشا) أكبر فلق فى تاريخ الوفد، بل وتحول إلى كسر بحساب الظروف التى خرج فيها

.. دروس تعلمـهـــا الوفـد

[وفيما بعد بسنوات ـ وحين أتيح لى أن أتعرف على «مكرم» (باشا) سمعت منه تفسير ما استغربته فى أوانه ـ فقد قال «مكرم» (باشا) ما مؤداه أن: «إلى شهور قليلة مضت كان هؤلاء الصاخبين من رجاله هو ـ «مكرم» (باشا)ـ يوجهم، وهو يصك الشعارات التى يهتفون بها، وهو يحدد لهم ماذا يفعلون وأين يذهبون؟ ومع أن بعضهم الآن أعضاء فى مجلس النواب، فهم فى نظره «مشاة الوفد المشتبكين مع خصومه فى الشارع» (ينظمون المظاهرات ويقودونها ويطلقون الشعارات ويحركون تنظيمات الحزب فى الجامعات وفى النقابات العمالية) ـ والآن كان رئيسهم النائب «حسن ياسين» يقود عملية تحريض ضد «مكرم» (باشا) داخل قاعة مجلس النواب، وكان المنظم لصخب الشوشرة والمقاطعة وإرباك السياق الذى اختاره صاحب الاستجواب لعرض موضوعه.]

....

....



وكان «مكرم عبيد» (باشا) قد قسم استجوابه إلى عدة محاور:

١ ـ الحصول على الثراء عن طريق النظارة على الأوقاف.

٢ ـ استغلال أملاك الدولة ضد المصلحة العامة وضد القانون.

٣ ـ التستر على فساد انغمس فيه «أصهار وأنسباء».

٤ ـ تفشى الوساطة والرشوة والتلاعب فى شئون الوظائف، بما فى ذلك تعيين العمد والمشايخ، وحتى إلحاق الطلبة بالمدارس والجامعات ـ وتعطيل تنفيذ الأحكام القضائية.

٥ ـ الشبهات الظاهرة فى صفقات التموين سواء للسوق السوداء فى مصر أو للتصدير، (أو التهريب) خارج الحدود.

٦ ـ وقائع استغلال شخصى صغير (مثل قيام السفارة المصرية فى لندن بشراء معطف فراء لقرينة رئيس الوفد من أحد محلات بوند ستريت) ـ وكذلك قبعات رأس لمختلف المناسبات. (ومن المفارقات أن السفير المصرى فى لندن ذلك الوقت كان نفسه «حسن نشأت» (باشا) كاتب تلك التقارير المستفيضة قبل سنوات من برلين، الذى تحدث فيها عن سوء اختيار السيدة «أم السعد» مربية «زينب هانم الوكيل» لقبعات قرينة رئيس الوفد أثناء زيارة رسمية لألمانيا سنة ١٩٣٧).

٧ ـ فضائح المحسوبية والاستثناءات (وذلك هو الوصف الذى اختاره المؤرخ المتميز «الدكتور يونان لبيب رزق» فى كتابه «الوفد والكتاب الأسود»)، وذلك بإجراءات فصل ونقل لمئات ومئات من الموظفين صنفهم الوفد أنصارا لخصومه ـ مع تعيين آخرين بدلهم يستطيع الوفد أن يطمئن إليهم!

وكان فى الأسئلة والأجوبة ما يمس «النحاس» (باشا) شخصيا، مثل النظارة على الأوقاف، ومثل انتقاله من مسكنه فى مصر الجديدة (قريبا من بيت مكرم عبيد باشا) إلى بيت آخر فى جاردن سيتى (مواجه لبيت فؤاد سراج الدين باشا)، وكان هذا البيت الجديد فى جاردن سيتى مدرسة للتدبير المنزلى تابعة لوزارة المعارف، وتقرر إخلاء المدرسة لكى يتمكن رئيس الوفد من تأجيره وسكناه، (والبيت الآن مقر لجمعية أصدقاء الفنون الجميلة) ـ وقد وقف «النحاس» (باشا) بنفسه يدافع عن تصرفه قائلا لأعضاء المجلس بالحرف: «وأنتم تعرفون أن زعيمكم لا يحب من المسكن غير المريح، ولا من الملبس غير المليح».

....

....

[ووصل صدى هذه العبارة إلى سمعى وإلى شعورى، مستغربا (فقد كنت ولا أزال أحتفظ للرجل ولدوره ـ وحتى لظروفه ـ بتقدير لم أخفه فى أى وقت!)]

....

....

وتوالت مراحل الاستجواب، وما تلاه من مناقشات ـ فيها ما يثير الدهشة مرات، وفيها ما يبعث عن الحزن أحيانا، فقد كانت المأساة الإنسانية (شبه الإغريقية) ـ وراء المشهد فى قاعة مجلس النواب المصرى ـ دامية وراء الصور وخلف الظواهر.

....

....

[لكن المشهد الذى لم أستطع إبعاده عن خيالى (ولا عن مشاعرى) جاء قرب نهاية معركة «الكتاب الأسود».

كان مشاة الوفد الذين حاولوا قطع الطريق على «مكرم» (باشا) عند عرض استجوابه قد انتقلوا من الدفاع إلى الهجوم بتوجيهات من قيادتهم، وكذلك تقدم أحد نوابهم بسؤال إلى وزير المعارف، وهو وقتها «أحمد نجيب الهلالى» (باشا) عن عملية صنع أثاث فى مدرسة الفنون التطبيقية لبيت «أحمد حسنين» (باشا) ـ ثم إن صاحب البيت ـ رئيس الديوان الملكى ـ لم يسدد ثمن ما طلبه رغم أنه استلمه، وكان واضحا أن السؤال والجواب كلاهما غارة وفدية مضادة على أكبر مواقع القصر الملكى (رئيس الديوان) ـ وقام «الهلالى» (باشا) يرد على السؤال. والحقيقة أنه ثبت التهمة وتركها معلقة فوق رأس «حسنين» (باشا)، وهنا وقف عدد من نواب الوفد يعلقون على هؤلاء الذين يتهربون من ديونهم على حساب الدولة. وأحسست من تعليقات هامسة أسمعها من الناحيتين (الأستاذ كامل الشناوى والسيدة روزاليوسف) أن التحدى الوفدى للقصر قد خرج سافرا، وأصبح مخاطرة على أرض مجهولة (خصوصا أن السفير البريطانى السير «مايلز لامبسون» كان قد وضع نفسه فى موضع الحكم بين الوزارة والسراى!).

وبعد ظهر اليوم التالى عدنا كما أصبحت العادة على مدى أسابيع ـ إلى مقاعدنا فى شرفة الصحافة، وأمسكت نسخة من مضبطة اجتماع المجلس بالأمس، ورحت أقرؤها مستغربا فقد وجدتها خالية من أى ذكر لما رأيناه وسمعناه بالأمس فقط. ولاحظ الأستاذ «كامل الشناوى» أننى أقلب الصفحات وأعيد تقليبها، فقال لى وللسيدة روزاليوسف وهى بجانبى من الناحية الأخرى «لن تجدوا شيئا، لأن كله حُذف من المضبطة وسوف نرى ونسمع الآن عجبا».

وكان كذلك بالفعل(!) فلم يلبث أن وصل إلينا أن المستشار الشرقى للسفارة البريطانية السير «والتر سمارت» جاء إلى مجلس النواب قبل منتصف الليل أمس، وقابل «عبد السلام فهمى جمعة» (باشا) رئيس المجلس، الذى استدعى من بيته يتلقى منه ما لديه، ومؤداه «أن السفارة البريطانية ترى أن ما دار من مناقشات بالأمس يمثل استفزازا «لملك البلاد» يستحيل قبوله، بالنسبة للسفارة البريطانية وسفيرها. والقرار أنه لابد من اعتذار علنى عنه». واتصل رئيس مجلس النواب برئيس الوزراء، يوقظه من نومه، وفهم «مصطفى النحاس» (باشا) أن السفارة البريطانية تلوح باستعدادها لرفع يدها، تاركة الملك يرد العدوان على رئيس ديوانه بالطريقة التى يراها مناسبة. وبعد اتصالات تدخل فيها «أمين عثمان» (باشا) ودخل فيها «فؤاد سراج الدين» (باشا)، أمكن التوصل إلى حل وسط يكون بمثابة اعتذار صامت من الوفد: حزبا وحكومة، وهذا الحل الوسط حذف كل ما دار بشأن رئيس الديوان الملكى من مضبطة المجلس وتم ذلك ـ وطبعت مضبطة الجلسة وكان شيئا لم يكن!

ولما كانت العادة أن تبدأ كل جلسة لمجلس النواب بالتصديق على مضبطة الجلسة السابقة ـ فإن النائب البرلمانى اللامع والصحفى الكبير الأستاذ «فكرى أباظة» رفع يده مستأذنا فى الكلام يقول «إن مضبطة جلسة الأمس التى وجدها أمامه اليوم ليست صحيحة، لأنها خالية من أى ذكر لوقائع وكلمات «رأيناها جميعا» بالأمس و«سمعناها». وصدر زعيق وصياح من بعض أعضاء المجلس (مشاة الوفد فى الشارع)، ودعواهم أن «المضبطة صحيحة»، وأن ما نطق به «فكرى أباظة» كذب وافتراء، ثم تكررت النداءات على «فكرى أباظة» «اقعد.. اقعد».

لكن «فكرى أباظة» لجأ إلى رئيس المجلس يوجه له خطابه ويستشهد بكل من يراهم أمامه، وفى المقدمة منهم رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» (باشا) الذى كان جالسا على المقعد الأول لمقاعد الحكومة (وكان فكرى أباظة يتكلم من الصف الثانى من مقاعد المعارضة)، وتضايق «النحاس» (باشا) وزاد ضيقه، حتى راح بصوت خافت، تنبئ به حركة الشفاه أكثر مما تنطق به أصوات الحنجرة «اقعد.. اقعد يا ابن الـ ...».

وسمع «فكرى أباظة» ورأى (ولمحنا نحن فى شرفة الصحافة ولاحظنا)، وهكذا سأل موجها الكلام مباشرة «هل صحيح ما سمعت منك يا رفعة الباشا؟»، ورد «النحاس» بصوت مسموع «أيوه صحيح.. صحيح»، وأراد الأستاذ «فكرى أباظة» أن يمسك باللحظة ويسجل. وكذلك كرر سؤاله للنحاس (باشا) «ما هو الصحيح يا رفعة الباشا.. وماذا قلت؟».

ولمح «النحاس» (باشا) أن ذلك البرلمانى الواعى نصب له فخا، فتحفظ، ولكنه أصر على القول: «صحيح.. صحيح»، ولم يزد.

....

....

[وبجوارى سمعت صوت «كامل الشناوى» يعلق بعفويته «يا نهار أسود»!]

....

....

[وكان رئيس مجلس النواب يطلب من المجلس أن يقرر إخراج «فكرى أباظة» من القاعة لأن مسلكه «شائن» ولا يليق بنواب الشعب، وقال «فكرى أباظة» موجها كلامه للمجلس إننى خارج قبل أن يطردنى أحد»!]

....

....



وتلاحقت الحوادث بعد معركة «الكتاب الأسود» ـ واتخذ مجلس النواب قرارا بإسقاط العضوية عن «مكرم عبيد» (باشا) لأنه فقد

قامت السفارة المصرية فى لندن بشراء معطف فراء لقرينة رئيس الوفد. ومن المفارقات أن السفير المصرى فى لندن ذلك الوقت كان نفسه «حسن نشأت» (باشا) كاتب تلك التقارير المستفيضة قبل سنوات من برلين، الذى تحدث فيها عن سوء اختيار «أم السعد» مربية «زينب هانم الوكيل» لقبعات قرينة رئيس الوفد!



أهلية «تمثيل الأمة» ـ ثم صدر قرار باعتقاله من الحاكم العسكرى العام وهو رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» (باشا) ـ وكان الرجل الذى أوكل إليه التنفيذ هو «فؤاد سراج الدين» (باشا) الذى أصبح وزيرا للداخلية، (وكانت المأساة الإغريقية قد بلغت ذروتها).

ومن الواضح أن هذه التطورات المتلاحقة تركت أثرها على زعيم الوفد، وكذلك تدهورت فجأة صحة الرجل ولزم الفراش أكثر من ستة أسابيع!

وكان فى وسع أى مراقب للسياسة المصرية (خصوصا من المنظور الإنسانى) ـ أن يدرك أن أوجاع «النحاس» (باشا) نفسية أكثر منها عضوية، فالرجل فى ظروف مستجدة عليه (ومتعارضة مع تاريخه وشخصيته وفكره) ـ يواجه فى أعماقه تناقضات لا يستطيع حلها، ولا يستطيع قبولها، ولا يستطيع فى نفس الوقت تجاهلها. وكان خروج «مكرم عبيد» (باشا) وانقلابه عليه (بصرف النظر عن الأسباب) يطرح عليه أزمة حزب الوفد من أولها لآخرها.

ذلك أن الحزب منذ تكوينه حكمت حركته معادلات دقيقة وحساسة:

● المعادلة الأولى: أن الوفد قام على أساس تحالف بين قوتين من أكبر القوى فى المجتمع المصرى، عدد من كبار ملاك الأرض الزراعية فى الريف، وصفوة من المثقفين فى المدن (معظمهم من رجال القانون). وكان التقليد فى الوفد يجرى على أن المثقفين فيه هم القيادة الشعبية للحزب فى المدن (دائما محامين ومن نجوم المرافعات القضائية غالبا)، ثم إن ملاك الأراضى هم العمود الفقرى لقوة الحزب، فى الريف يؤثرون على جماهير الفلاحين، ويضخون التبرعات فى خزائنه.

وعلى أساس هذه الصيغة بدأت زعامة الوفد بمحام «سعد زغلول» ثم توالى على سكرتارية الوفد «مصطفى النحاس» (قاض) ـ «مكرم عبيد» (محام).

وبعد خروج «مكرم عبيد» (باشا) من الوفد، فإن موقع السكرتير العام للحزب آل إلى الأستاذ «محمد صبرى أبو علم» (باشا)، لكن موازين القوة الحقيقية فى الحزب راحت تميل أكثر إلى ناحية كبار الملاك، يمثلهم ذلك النجم الصاعد بقوة فى مراتب الوفد العليا: «فؤاد سراج الدين».

● والمعادلة الثانية وهى مهمة فى تكوين الوفد، مضمونها أن التحالف بين «المثقفين» و«ملاك الأراضى» يجاوره توافق إسلامى ـ قبطى يعطى للوفد طابعا خاصا يعبر بصدق عن «تآلف دينين فى وطن واحد»، وهو معنى صاغه بفهم سياسى وثقافى عميق «مكرم عبيد» (باشا) حين وصف نفسه بأنه «قبطى دينا ومسلم وطنا»، يقصد بذلك أن يؤكد ما عبر عنه كل المتنورين من مسيحيى المشرق، ومؤداه أن «شعوب الأمة العربية ـ مسلمين ومسيحيين ـ عربية باللغة وإن اختلفت الأديان، ثم إن شركة الحضارة العربية تفاعلات فى محيط إسلامى وذلك جوهر أربعة عشر قرنا من التاريخ».

وفى مصر فإن هذه المعادلة (اختلاف الأديان ووحدة الأوطان) عكست نفسها فى تركيب عرفته مصر فى أوقات رفعتها، ومؤداه أن الإمارة فى الأساس إسلامية، وإن الإدارة بالمشاركة ـ قبطية. وفى حزب الوفد بالذات فإن عبقرية هذا التركيب وضعت الوفد طوال الثلاثينيات من القرن العشرين فى موضع لا يقاربه حزب آخر: كان «النحاس» (باشا) فى الإمارة، وكان توأمه «مكرم» (باشا) فى الإدارة، أولهما على رئاسة الحزب، والثانى على أمانته العامة.

● كانت هناك معادلة ثالثة شبه كيميائية، خلاصتها أن مناخ الوفد قادر على تربية قيادات لها جاذبية تشبه السحر فى تأثيرها على الجماهير ـ كذلك كان «سعد زغلول» (باشا) وبعده «مصطفى النحاس» (باشا)، وأيضا «مكرم عبيد» (باشا)، وبظروف «النحاس» (باشا) فإن الرجل أصبح شبه محتجب، وعندما خرج «مكرم عبيد» من الوفد، فإن نجم الحزب الساطع فى سماء اختفى تاركا وراءه ثقبا مظلما وموحشا. وكان الصف التالى فى قيادة الوفد رجالا من أمثال: «صبرى أبو علم» (باشا)، و«محمود سليمان غنام» (باشا)، و«أحمد حمزة» (باشا)، و«زكى العرابى» (باشا)، و«عبد السلام فهمى جمعة» (باشا) ـ لكن هؤلاء جميعا على ما لدى كل منهم من مزايا، كانوا رجالا يقدرون على الجلوس فى المكاتب، ولا يقدرون على التألق وسط السماء، وإذا كان المعيار هو العمل داخل المكاتب، فإن الأحزاب الأخرى لديها فى المكاتب ـ وأكثر من الوفد ـ شخصيات أثقل وزنا وأعلى شأنا.

وكانت المعادلات الآن تتغير، وكانت الرموز تمارس تعبيرها عن تغيير فى حركة المعادلات.

● فانتقال «النحاس» (باشا) من بيته فى مصر الجديدة إلى بيت آخر (قصر) فى جاردن سيتى ـ بدا رمزا له معناه فى انتقال مركز الثقل من دائرة المثقفين إلى دائرة كبار الملاك حتى بالجوار ـ أى من بيوت شركة مصر الجديدة إلى قصور جاردن سيتى.

● ثم إن خروج «مكرم عبيد» (باشا) من الوفد استوجب خروجا قبطيا ظاهرا من الحزب لم يستطع «النحاس» (باشا) تعويضه. وبعد خروج «مكرم»، فإنه أسند وزارة المالية إلى «كامل صدقى» (باشا) ـ لكنها شهور قليلة ثم عجز «كامل صدقى» عن الدور، فترك الوزارة إلى ديوان المحاسبات. وظهر فى دائرة الحكم قبطى آخر: «فهمى ويصا» (بك) وهو سليل واحدة من الأسر القبطية الكبيرة.

● بل إن هؤلاء الرجال الوفديين الجالسين فى المكاتب أصبحوا بالطبيعة غير راضين عن مجرى الأمور، حتى أن السفير البريطانى ينقل عن رئيس مجلس الشيوخ «زكى العرابى» (باشا) فى تقرير له إلى لندن «قال لى «زكى العرابى» (باشا) رئيس مجلس الشيوخ أنه محبط مما يجرى فى البلد الآن، وقد فقد قدرته فى الدفاع عنه واستنفد حججه وذرائعه، وأنه لا يعرف لمن يتحدث فى همومه». وحاول السفير البريطانى طبقا لكلامه أن «يقوى عزم رئيس مجلس الشيوخ المصرى، وأن يحرضه على طلب مقابلة زعيم الوفد ومصارحته بالحقائق مهما كانت قاسية عليه الآن، ذلك صالحه وصالح الحزب وصالح البلد».

لكن تقرير «مايلز لامبسون» إلى لندن لا يظهر أن «العرابى» (باشا) على استعداد لأن يأخذ فى يده زمام المبادرة.

وكانت شكوى رئيس مجلس الشيوخ ـ قطب الوفد الكبير ـ للسير «مايلز لامبسون» (السفير البريطانى فى مصر) ـ من أحوال الوزارة الوفدية رمزا آخر له دلالته.

ومضت الرموز تواصل تعبيرها عن الحقائق ـ وكلها مُرة.



والواقع أن الذين تعرضوا لدراسة تلك الفترة من الحياة السياسية المصرية ـ لم يتوقفوا بالقدر الضرورى والمنصف أمام الظروف الإنسانية التى أحاطت بذلك الرجل الذى ظل لسنوات طويلة ممثلا لإرادة الأمة.

كان «النحاس» (باشا) تلك الفترة مرهقا يحارب معركتين:

● معركة فى داخله تعصف بسلامه النفسى، ومحركها عودته إلى الحكم بالطريقة التى عاد بها فى فبراير ١٩٤٢، وكان تناقضه الداخلى أنه مع حقه الشرعى فى السلطة ممثلا لأغلبية الشعب المصرى ـ تسلم رئاسة الوزارة من سلطة غير شرعية. ثم لحق بذلك أن حزب الوفد جاء إلى السلطة وقد اهتزت كل معادلاته الحاكمة بخروج «مكرم» ومعه دور المثقفين فى قيادة الحزب العليا، ومعه أيضا «شىء ما» من الصيغة الجامعة للإمارة والإدارة فى وحدة العمل الوطنى، ثم إن الرجال الذين بقوا فى الحزب ينقصهم شىء ما فى كيمياء التأثير على الجماهير.

● وكانت المعركة الثانية خارجية ـ بالذات مع القصر الملكى المتربص، يتحين الفرص لأى خطأ، ويساعد على قسمة الصفوف، ويعطل ويعرقل تمهيدا للانقضاض على الوزارة بخطاب إقالة (إذا أحس أن الظروف خففت لسبب أو آخر) من استعداد السفارة البريطانية للتدخل بكل الوسائل لمساندة الوزارة)!

وكان «النحاس» (باشا) فى تلك الفترة يشعر بحسه المرهف أن الحزب والوزارة يخسران المعارك واحدة بعد الأخرى أمام القصر وحتى من قبل معركة «الكتاب الأسود»، فقد مضى «النحاس» (باشا) يستجمع كل ما تبقى لديه، مدركا أن معركته مع القصر مسألة بقاء أو ضياع، وقد رأى ضرورة أن يخرج الوفد للهجوم ولا ينتظر على الدفاع. وأجرى حسابا لمواقع القوة العامة للقصر «للسراى»، وأخذ يستعد لمهاجمتها، وتقديره (فى إجماع عدد كبير من أقطاب السياسة المصرية وكذلك رجال السفارة البريطانية) ـ على النحو التالى:

١ ـ أن هناك ثلاثة مواقع تقليدية لقوة «القصر الملكى» هى: الأزهر ـ والجيش ـ والقضاء.

والداعى أن هذه المؤسسات الثلاث هى قبل كل شىء وبعد كل شىء «مؤسسات استقرار» تصون نفسها عن التأثر بنجاح حزب فى الانتخابات أو بمجىء وزارة أو ذهابها، ولذلك فإنها فى الاعتبار العام قلاع القصر ـ ولابد من الاقتراب منها على نحو ما.

وبرغم محاولات متكررة جرت لتقليل النفوذ الملكى فى هذه المؤسسات فإن الوفد لم ينجح، وأبسط الأسباب أن تولى المناصب الكبرى فى هذه المؤسسات (الأزهر والجيش والقضاء لا يتم إلا بمرسوم ملكى).

٢ ـ أن الملك فى يده سلطة شديدة التأثير (فى الحياة السياسية المصرية وقتها) وهى سلطة منح الرتب والألقاب، ومع أن العُرف جرى على أن الأعضاء الجدد فى أى وزارة يمنحون رتبة «الباشوية» تلقائيا، فإن منح «الباشوية» اختصاص ملكى، وهكذا فإنه بعد شهور كان الوزراء الجدد مع «النحاس» (باشا) مازالوا «عراة» بلا ألقاب، كذلك كان عدد من الأقارب والأصهار الذين انتظروا بالشوق الحارق أن يصل الوفد إلى الحكم كى «يتغطوا» بالألقاب.

لكن القصر يؤجل ويسوف.

كان انتقال «النحاس» (باشا) من بيته فى مصر الجديدة إلى بيت آخر (قصر) فى جاردن سيتى ـ رمزا له معناه فى انتقال مركز الثقل من دائرة المثقفين إلى دائرة كبار الملاك حتى بالجوار ـ أى من بيوت شركة مصر الجديدة إلى قصور جاردن سيتى

ثـــورة يــوليـــــو

خمـــــون عــــامــا

.. دروس تـعلمـهـــــا الوفـد

وحين رأى السفير البريطاني السير «مايلز لامبسون» أن الوزارة متأزمة من هذا العُرى، قرر أن يتحدث في الأمر مع رئيس الديوان الملكي «أحمد حسنين» (باشا)، الذي رد عليه بقول سجله «مايلز لامبسون» في تقريره إلى لندن: «إن جلالة الملك لا يستطيع أن يمنح الوزراء الوفديين ألقابا يظهر منها أنه يكافئهم على ما تورطوا فيه».

٣ ـ يتصل بذلك أن هناك الكثير من التصرفات الحكومية لابد لنفاذها من اعتماد ملكي، ومرسوم، وتوقيع. والقصر يناقض كل إجراء ويتعسف ويتمنع ـ بما يؤدي إلى تعطيل في جهاز الأداء الحكومي يكشف قصوره أمام الناس دون أن يكون في مقدور الوزارة أن تشير صراحة إلى الأسباب، وإذا أشارت ولو ضمنا فإن القصر جاهز لتغطية موقفه بطرح دواعي للشك يراها في هذه التصرفات (وذلك سهل في كل الأحوال).

٤ ـ أن القصر الملكي قرر بعد معركة «الكتاب الأسود» أن يوقف تعاملاته مع عدد من الوزراء، بعضهم لأن التهم التي وردت عنهم في «الكتاب الأسود» بقيت معلقة دون تبرئة لساحتهم. وبالتالي فإن القصر «لا يستطيع أن يتعامل مع رجال تقع عليهم ظلال الشك، وبعضهم الآخر لأنهم أثناء معركة «الكتاب الأسود» تصدوا بما لا يليق للقصر وللملك، وكان منهم «نجيب الهلالي» (باشا) وزير المعارف الذي اتهم رئيس الديوان الملكي بأنه ماطل في دفع ما عليه لورش مدرسة «الفنون والصنايع» التي وردت له أثاثا طلبه لبيته!

وفي تلك الأيام فإن مقاطعة القصر لأعمال وزير، كانت تؤثر على أعمال وزارته، وعلى هيبته الشخصية، خصوصا إذا وقع استبعاده من استقبالات الدولة واحتفالاتها الكبرى ومراسمها الباذخة (إلى جانب العُرى من الألقاب).

وظلت المعركة بين الوزارة والقصر دائرة بين شد وجذب، حتى فوجئ «مصطفى النحاس» (باشا) وهو مازال بعد على فراش المرض بالملك «فاروق» زائرا لأقاليم الصعيد ـ مشغولا ومحزونا: لأن وباء الملاريا انتشر بسرعة في مديريات الجنوب، ثم راح يفتك بـ «رعاياه الطيبين»، فيما الحكومة القائمة على الأمر في غفلة لا تستطيع معها تقدير «كارثة الوباء» وجل همها أن تغطي «بالرقابة» على أخبار الكارثة بالرقابة على الصحف أكثر مما كان همها أن تبادر بتوفير العلاج والدواء.

والمدهش أن تقارير السفارة البريطانية إلى وزارة الخارجية في لندن كانت لشهور متواصلة تلفت النظر إلى «الكارثة الإنسانية التي أحدثها وباء الملاريا في الصعيد» ـ بل إن السير «مايلز لامبسون» طرح مشكلة قصور الجهود الحكومية في مواجهة الوباء عن الحد الأدنى الضروري والممكن، كما أنه كرر نفس الشيء في لقاءات متعددة مع «أمين عثمان»، ومع ذلك فإن الملك «فاروق» سبق الوزارة وذهب بنفسه إلى المناطق المنكوبة، يواسي رعاياه ويتحدث عن مأساتهم، عارفا أن الرقابة لا تستطيع أن تتعرض لما يصدر على لسان الملك، وقصارى ما تستطيع عمله أن تحدد المساحات المخصصة لكلامه، وتطوق أحجام الصور المنشورة لمواقع زياراته، واتساع العناوين المستعملة لتغطية أخباره ذاهبا إلى القرى والنجوع، متفقدا للمستشفيات في المدن، وشاكيا طول الزيارة من نقص الجهد إزاء فداحة الخطر. وعندما عاد الملك إلى القاهرة راح يتحدث عن المأساة في كل مكان ومع كل من يلقاه، حتى لقرينة الوزير المفوض السوفيتي التي فوجئت بملك مصر يقول لها (وقد نقل زوجها للسفير البريطاني ما سمعته، ما نصه طبقا للبرقية رقم ٣٥١ المسجلة ٤١٣٢٦ / ٣٧١ محفوظات الخارجية البريطانية):

«قال الملك «فاروق» لعدد ممن التقاهم أخيرا حتى في مناسبات اجتماعية وبينهم زوجة الوزير السوفيتي المفوض، أن الأحوال في صعيد مصر بالغة السوء، وأن المرض يحصد «رعاياه» بلا شفقة، وأن هناك نقصا فادحا في كل شيء حتى في المواد الغذائية، والسبب أن القوات البريطانية في مصر لها الأولوية في كل شيء من الغذاء إلى الدواء».

وتمضي برقية السفير إلى وزارة الخارجية في لندن فتقول بالنص:

«أنه ليس هناك شك في أن موقف الحكومة ضعيف، فوباء الملاريا متفش من أواخر سنة ١٩٤٢ وهو يزداد تفاقما حتى الآن، وقد لفت النظر أكثر من مرة إلى فداحة الكارثة دون أن أجد استجابة كافية، والآن فإن القصر يستغل الكارثة ويتباكى على الفلاحين التعساء بدموع تماسيح، لأن الملك نفسه وهو أكبر ملاك الأراضي في جنوب مصر كان يستطيع أن يخفف قليلا من استغلال رعاياه العاملين في مزارعه ولا يزيد شقاءهم، على الأقل كان يستطيع أن يساعدهم بالدواء بدلا من أن يصرخ بالشكوى».

ويمضي تقرير السفير فيقول: «المازق بالنسبة للسفارة أننا لا نستطيع أن نترك للملك هذا الميدان يصول فيه ويجول، مستغلا كارثة إنسانية كبرى، وفي نفس الوقت لا نستطيع أن نبرئ أنفسنا لمجرد أننا لفتنا نظر الوزارة بإلحاح منبهين إلى خطورة الأحوال، ولو حاولنا أن نرفع المسئولية عن أنفسنا فسوف يؤدي ذلك إلى إضعاف موقف الوزارة وكشفها».

وفي برقية تالية تحت رقم ٣٩٣ (٤١٣٢٧/ ٣٧١ محفوظات وزارة الخارجية البريطانية) يكتب السير «مايلز لامبسون»:

«دعاني «النحاس» (باشا) إلى لقائه، ذهبت إليه وكان يريد أن يتحدث عن الأوضاع الداخلية، قلت له «إنه لا يساورني أدنى شك في أن أداء حكومته إزاء الأحوال في مصر العليا كان بالغ السوء وبدرجة تدعو للرثاء، وأن الملك «فاروق» لسوء الحظ استطاع استغلال الموقف وعزز شرعيته في شئون البلاد».

ذكَّرت «النحاس» (باشا) بأن قصور الوزارة يكلفنا نحن غاليا «لأننا الذين جئنا بالوزارة وفرضناها على الملك ومازلنا ندعم وجودها.

قلت له: «إننا لم ننس عرفاننا لوزارة الوفد أنها تعاونت بإخلاص في الظروف العسكرية الحرجة سنة ١٩٤٢ (معركة العلمين) لكننا الآن نجد أنفسنا في وضع مزعج بسبب تأييدنا له.

ويمضي قول السفير: «لفت نظر «النحاس» إلى أن وزارته حاولت تقليل الضرر الذي لحق بها، بزيادة تدخلها في الرقابة على الصحف، ولكن ذلك نوع من قصر النظر لأن المسألة لن تذهب لمجرد أن الرقابة تحذف من الصحف أخبارها!

ثم يكتب السير «مايلز لامبسون» خطابا إلى وزير الخارجية البريطانية يقول ما نصه:

«إن رئيس الوفد ـ وبالذات قرينته ـ لابد لهما من إعادة ترتيب البيت».

ثم يضيف السفير البريطاني:

«ولسوء الحظ فإن «حكومة الوفد» لم يعد لها محرك إلا ضرورات الحكم، ومن الواضح أن «النحاس» (باشا) معزول عن الواقع، وأن كبار الوفديين أنفسهم وبينهم رئيس مجلس الشيوخ «محمود زكي العرابي» (باشا) لا يخفون سخطهم على ما آلت إليه الأمور».

ويزيد السفير البريطاني (تقرير رقم ١٢٠٨ ـ مسجل في المحفوظات برقم ٤١٣٢٧/ ٣٧١ وزارة الخارجية) ما نصه:

«إن التفاصيل عن استغلال الرقابة على الصحف وصلت إلى حد يثير الضحك، فقد منعت الرقابة نشر خبر اعتقال طباخ في بيت «النحاس» (باشا)، والسبب أن هذا الطباخ دأب على «استعمال البصل» بكثرة في أطباق يقدمها لسيده، ومع أن قرينة «الباشا» قامت بتأنيب الطباخ لأنه يضع في طبق الشوربة الخاص به كمية من البصل يمكن أن تضر صحته، فإن الطباخ وهو يعرف مزاج «النحاس» (باشا) واصل ما دأب عليه، وكذلك صدر أمر من وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» بوضع الرجل في السجن عقابا له، ومنعت الرقابة نشر الخبر عندما تسرب إلى إحدى الصحف».



كذلك كان نفوذ الملك يكبر ونفوذ الوفد يضمر.

وأسوأ من ذلك كان القول الشائع في مصر وقتها «أن سلطة الحكم في مصر وقعت في أيدي ثلاث سيدات:

- الملكة «نازلي» ـ في القصر الملكي ـ وهي والدة الملك (وزوجة ـ بعقد عرفي ـ لرئيس ديوانه).
- والسيدة «زينب الوكيل» زوجة «النحاس» (باشا) (وتأثيرها طاغ في الحزب وفي الحكومة).
- والليدي «جاكلين لامبسون» زوجة السفير البريطاني في القاهرة ونفوذها واصل إلى كل مكان.

والسيدات الثلاث يتشابهن في ظروف معينة: كل منهن جميلة على نحو ما ـ كل منهن قوية في محيطها ـ كل منهن زوجة لرجل كان يمكن أن يكون والدها!

ثم تدخلت المقادير لترفع شعبية الملك إلى القمة الأعلى، ذلك أنه أصيب في حادثة سيارة خلعت فخذه، وأحدثت شرخا في الحوض، عندما كان عائدا من الإسماعيلية إلى القاهرة. وكذلك نقل «ملك مصر» إلى أقرب مركز طبي وكان مستشفى ميدان بريطاني في «نقطة القصاصين» وعندما أذيع الخبر، والملك أيامها يقود معركة تفشي وباء الملاريا في صعيد مصر، انقلبت الدنيا رأسا على عقب، وأصبحت قرية القصاصين (الشرقية) ومستشفى ميدان عسكري بريطاني فيها، مقصدا ومزارا لجموع رسمية وشعبية زحفت إلى هناك تطمئن على صحة الملك وتدعو له بالشفاء، وتجدد مشاعر الولاء له.

وجاء شهر ديسمبر ١٩٤٣، كان الملك «فاروق» مازال في القصاصين في عهدة أطباء

دأب طباخ «النحاس» (باشا)، على «استعمال البصـل» بكثرة في أطباق يقدمها لسيده، ومع أن قرينة (الباشا) قامت بتأنيبه لأنه يضع في طبق الشوربة الخاص به كمية من البصل يمكن أن تضر صحته، فإن الطباخ واصل ما دأب عليه، فصدر أمر من وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» بوضع الرجل في السجن عقابا له





الجيش البريطاني، وقد انتهز قادة الجيش البريطاني الفرصة وتحلقوا حول الملك وقضوا سهرات طويلة معه في فترة النقاهة، يسمعون منه ويكتشفون الجوانب الحلوة في شخصيته.

وفي تلك الظروف وبينما شباب الملك يلعب دوره مستغلا كهولة رئيس وزرائه، الذي زادت وتكاثرت عليه الضغوط وأرهقته المعارك، تقدم شاب آخر من صفوف الوفد يعرض نفسه، وكان هذا الشاب هو الأستاذ «محمد فؤاد سراج الدين» الذي ترك وزارة الزراعة التي ظهر فيها وزيرا لأول مرة في تشكيل ٤ فبراير، ثم وصل في نهاية السنة إلى وزارة الداخلية، وبدا أنه يشق طريقه بقوة إلى شغل قوة ومنصب «مكرم عبيد» (باشا) - وكان ذلك انتقالا مهما في قيادة الوفد بين جيلين: جيل الشارع، وجيل القصور: جيل الفلاحين وجيل ملاك الأراضي، جيل التعبئة الجماهيرية، وجيل الاتصالات السياسية والتسويات. وهكذا كان الانتقال ينطوي على إشارات اجتماعية وفكرية وسياسية.

....

....

[وكانت قضية انتقال قيادة الوفد من المثقفين إلى ملاك الأراضي الزراعية موضع مناقشة طويلة بين «فؤاد سراج الدين» (باشا) وبيني منذ طرحتها أول مرة في كتاب «ملفات السويس» (١٩٨٦)، وكنت أهديت نسخة من ذلك الكتاب إلى الصديق الأستاذ «محمد فؤاد سراج الدين» - تحية لذكرى شهور في السجن تقاربت فيها الزنزانات (أثناء اعتقالات سبتمبر ١٩٨١) - ويومها وكنا على الغداء في قصره في جاردن سيتي ومعنا صديق السجن «عبد الفتاح حسن» (باشا) - وهو من أقطاب الوفد في مرحلة متأخرة - ومعنا السيدة «ليلى المغازي» (وكانت لسنوات عديدة وحتى وفاته - سيدة في بيت «فؤاد سراج الدين» - راعية لشئونه ومضيفة رسمية إلى جانبه، وكان وجودها إلى جواره في سنوات سنه المتقدمة، لمسة من الإخلاص والحنان خففت وحشة السن وثقل المرض) - لم نصل في تلك المناقشة إلى توافق. فقد كان هو يقلل من أهمية انتقال النفوذ داخل الوفد من المثقفين إلى كبار ملاك الأرض الزراعية (باعتبار أن كبار الملاك يمكن أيضا أن يكونوا مثقفين)، وقد حاولت أن أشرح أن ما كتبته «وصف طبيعة» وليس «حكم قيمة»].

....

....

وفي أواخر سنة ١٩٤٣ وأوائل سنة ١٩٤٤، كان «فؤاد سراج الدين» يعرض نفسه بشدة على دائرة أوسع من تلك الدائرة المحدودة المحيطة بالنحاس (باشا) - ويكتب السير «مايلز لامبسون» السفير البريطاني تقريرا (برقم ٨٧٤٣ مسجل تحت ٤١٣٢٧/ ٣٧١ محفوظات وزارة الخارجية) - موجها إلى وزير الخارجية عنوانه «مناقشة مع فؤاد سراج الدين (بتاريخ ١١ مارس ١٩٤٤) وفيه قوله:

«اشتكى لي «فؤاد سراج الدين» من الطريقة التي تصرف بها الملك «فاروق» - عندما كان معه (بوصفه وزيرا للداخلية) في زيارة لمنطقة قناة السويس.

وكان «فؤاد سراج الدين» يشعر بقلق لأنه يحس في معاملة الملك «فاروق» له بشعور لا يريحه، فقد كان الملك في تصرفه مع النجم الصاعد في الوفد يوحي إليه بأنه يعرف عنه أكثر مما يقول، ويكاد في بعض اللحظات يشير إلى أن لديه شيئا يداريه، وكان ذلك يجعله متوترا على الدوام في حضرة الملك.

يمضي تقرير السفير البريطاني:

«قال لي «فؤاد سراج الدين» أن الملك أنعم برتبة الباشوية على محافظ بورسعيد وعلى اثنين غيره من أعيان المدينة برتبة الباشوية، وتم ذلك دون علم الوزارة، وأن «النحاس» (باشا) تضايق عندما أبلغه على التليفون بخبر هذه الإنعامات الملكية».

ويمضي تقرير السفير البريطاني:

«كان «فؤاد سراج الدين» يتحدث إلي بطريقة فائقة الود، وكان يحاول إعطائي الانطباع بأنه يفتح لي قلبه كصديق يؤتمن، لكن عندما كان يتكلم كان يراودني الشعور بأنه يكاد يموت حتى يعرف رأي السفارة فيه وما هو تقديرنا فيه كوزير للداخلية» He is dying to know what the Embassy thinks of him as Minster of Interior.

يستطرد السفير: «ناقشت «سراج الدين» في شدة الرقابة على الصحف، قال لي أنه سوف يبذل جهده لتخفيف القيود، ثم أكد لي «أنني أستطيع الاعتماد على نفوذه لدى رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» (باشا) في أية مسألة، واعتقادي أنه بالفعل يملك نفوذا عظيما لدى رئيس الوزراء، وقد أعطاني الانطباع بأنه ينتظر أية إشارة مني تحدد له الخط الذي أريد منه اتباعه»!



وكانت وزارة الوفد تشعر بالأجواء المحيطة بها وتخشى أن يكون في هذه المرحلة ما يغري القصر بأن ينقض على الوزارة بخطاب إقالة، وكانت الدائرة المتنفذة في الوفد والمحيطة برئيسه تخشى من أن السفارة في القاهرة ربما تقل مساندتها، خصوصا بعد الصلات التي توثقت بين الملك وبين عناصر من الدبلوماسيين والعسكريين الإنجليز، عندما كان طريح الفراش في مستشفى ميدان بريطاني عقب حادث القصاصين.

وهكذا فقد تقرر إرسال مبعوث سري إلى لندن يقابل كبار المسئولين في وزارة الخارجية، وأولهم وكيلها الدائم السير «ألكسندر كادوجان» - إلى جانب رئيس القسم المصري فيها «سكريفنر».

وسافر المبعوث بالفعل يؤدي مهمته السرية لتحذير من يعنيهم الأمر في لندن، كي يتنبهوا إلى أن الملك «فاروق» يتربص وعلى وشك أن ينقض، وعليهم أن يكونوا على حذر أكثر مما كانوا في أي وقت مضى.

وكان مما يتسق مع التطورات الجديدة على الوفد أن هذا المبعوث الخاص كان المليونير «أحمد محمد عبود» (باشا). وقد روى طبقا لما ورد في تقارير الخارجية «أنه يتحدث باسم النحاس باشا» (والحقيقة أن سفره إلى لندن كان تكليفا من صديقه الأستاذ «محمد فؤاد سراج الدين»). ■



٣ - السفارة البريطانية - خصما وحكما - وكل شيء!

■ كان السفير البريطاني السير «مايلز لامبسون» ما يزال يخوض معركة المحافظة على الإنجاز الذي حققه بانقلاب عسكري مساء يوم ٤ فبراير ١٩٤٢.

وبرغم معارك البحر الأبيض - والكتاب الأسود، فإن السفير البريطاني ظل يرى أن بقاء الوفد في الحكم لازم، وأن محاولات القصر لإقالته عليها أن تنتظر إلى يوم آخر، ولعل اليوميات الخاصة للسير «مايلز لامبسون» أكثر ما يكشف عن موقف السياسة البريطانية إزاء ما يجري في مصر تلك السنوات المحكومة بضرورات الحرب العالمية. وتجري بعض المداخل الهامة في يوميات السير «مايلز لامبسون» على النحو التالي:

٢٧ يناير (١٩٤٣):

اتصل بي «أحمد حسنين»، سألني إذا كان رئيس الوزراء البريطاني «ونستون تشرشل» هنا في البلد؟ فقد ترامى إلى أسماعهم شيء يفيد ذلك، وأوحيت له بأن ما فهمه صحيح (جاء يتفقد القوات التي حققت النصر ضد روميل ويهنئ قائدها مونتجومري).

سألني «حسنين» هل يستطيع الملك «فاروق» أن يرى المستر «ونستون تشرشل» ولو لبضع دقائق، فهو يريد أن يرحب به بنفسه على أرض مصر. وأضاف «إن الملك سوف يجيء بنفسه إلى السفارة لكي يرى «الرجل الكبير» ويسلم عليه ويمشي. وقلت لحسنين إنني ساعرض اقتراحه على رئيس الوزراء. ووافق «تشرشل» وأبلغت «حسنين» أن رئيس الوزراء سوف يكون جاهزا ما بين السادسة والنصف إلى السابعة والنصف لكي يرى الملك «فاروق» في أي وقت خلال هذه الفترة. أبلغت «حسنين» أيضا أن رئيس الوزراء لا يريد مراسم لا لزوم لها مع مجيء الملك. أخبرني «حسنين» أن الملك سوف يجيء ومعه ياور واحد. نسيت إبلاغ أمن السفارة أن يسمحوا للملك بالدخول، ولذلك عدت مسرعا من دعوة كنت فيها قبل الفترة المحددة، ومن حسن الحظ أنني عدت ووجدت أن «فاروق» تمكن من

.. السـفـارة البـريطـانيـة

الدخول بسلام. لأن أحدا من الداخل أبلغهم أن يسمحوا بدخول سيارة «فاروق».

دخل «فاروق» إلى مكتبى الذى يعمل منه «تشرشل»، ودعيت فى منتصف المقابلة للانضمام إليهم. عندما دخلت كان «فاروق» يتحدث عن مجموعته من الأسلحة الصغيرة، وعندما شاركت فى الحديث انتقل «تشرشل» بالمناقشة وبمهارة إلى الكلام عن الملك «جورج السادس» وعن علاقته به، وأنه (ملك بريطانيا) يدعوه لتناول طعام الغداء معه كل أسبوع فى قصر «باكنجهام». وفهم «فاروق» الإشارة بذكاء، ورد عليها بقوله «إنه مستعد أن يدعو «تشرشل» للغداء معه كل أسبوع ولكن لسوء حظه فإن رئيس وزرائه اسمه «مصطفى النحاس». ».

كان «فاروق» قد وصل الساعة السابعة تماما ونظرت فى ساعتى وكانت الثامنة، وأشرت إليه أن الوقت قد حان لترك رئيس الوزراء يمارس مهامه. وبينما نحن خارجون من المكتب توقف «فاروق» أمام خريطة لشمال أفريقيا، وأشار إلى مقاطعة برقة (فى ليبيا)، والتفت إلى «تشرشل» الذى كان يشارك فى وداعه وقال له «هذه المنطقة كانت جزءا من مصر فى يوم من الأيام». ولم تفت «تشرشل» الملاحظة، وإنما قال لفاروق «كانت هذه المنطقة من أملاك تركيا (الدولة العثمانية) كما كانت مصر نفسها».

على العشاء سألت جاكلين (زوجة السفير) - رئيس الوزراء عن رأيه فى الملك «فاروق» فقال لها أنه " Cheeky صفيق».

ويتواصل ما سجله السير مايلز لامبسون.

٢٨ يناير:

اتصل بى «أمين عثمان» يسألنى هل صحيح أن رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» هنا (فى مصر) وأنه استقبل الملك «فاروق»؟ ورددت بالإيجاب. وقال «أمين عثمان»: إذن فإن «النحاس» (باشا) لابد أن يقابله ولو ليصافحه وإلا استقوى الملك وفرد أجنحته.

بالفعل جاء «النحاس» وبدأ بتهنئة رئيس الوزراء على انتصارنا فى «طرابلس». وشكره «تشرشل» على المساعدات التى تلقيناها من مصر، وعلى الإخلاص الذى تصرفت به وزارته. لم يضيع «النحاس» فرصة، وإنما راح يشكو مما يقابله من عرقلة القصر لعمل وزارته. كذلك ألقى بكمية كبيرة من الشكوك على مواقف «أعيان الجالية البريطانية فى مصر» وفى مقدمتهم عميدها السير «سيسل كامبل» متهما إياهم بأنهم متعاطفون مع القصر.



بعد أقل من شهرين يكتب السير «مايلز لامبسون» فى يومياته:

٨ أبريل ١٩٤٢:

قابلت «حسنين» الذى أثار معى على الفور موضوع «الكتاب الأسود» الذى كتبه «مكرم عبيد» عما أسماه فضائح الوزارة. وأبلغنى أن «مكرم» جاء إلى مكتبه فى مقابلة رسمية وقدم إليه هذا الكتاب، راجيا اعتباره عريضة مرفوعة إلى صاحب الجلالة الملك، عن حقائق الأحوال فى مملكته. أبلغنى «حسنين» أن الملك متأثر جدا بما جاء فى الكتاب ويراه إدانة كاملة للوزارة، ودليلا قويا على فساد تصرفاتها.

قلت لحسنين أننى أعرف شيئا عما جاء فى هذا الكتاب، وقد تلقينا نسخة منه (مباشرة من «فاروق»)، لكن الملك لا يستطيع اتخاذه ذريعة لإقالة الوزارة، وقال «حسنين» أنه لا يفهم سببا لتحفظى على إقالة الوزارة إذا كانت قد فقدت ثقة الشعب بكل هذا الذى نسب إليها، خصوصا أن الموقف العسكرى قد تغير بطريقة كاملة عما كان عليه قبل عام. قلت لحسنين أن عليه أن يتذكر أن الحرب مازالت مستمرة، وأن الحلفاء مازالوا يواجهون تحديا كبيرا فى أوربا. قلت أيضا أننى لست متأكدا من قوله أن «النحاس» فقد ثقة الشعب، وإذا كان ذلك رأى القصر فالسبيل الوحيد هو إجراء انتخابات جديدة وتكون تلك عودة بالأمر كله إلى الشعب.

لم يبد لى أن «حسنين» اقتنع وأحسست أنهم ربما يدبرون شيئا.

٢٧ أبريل:

بدأت فى استطلاع موقف القيادة العسكرية فى حالة ما إذا اضطرتنا الظروف للتدخل ومنع الملك «فاروق» من ارتكاب أى حماقة، أحسست أن الجنرال «باجيت» (القائد العام للقوات البريطانية فى مصر) لا يظهر حماسة بظن أن الجزء الأكبر من القوات البريطانية ابتعد غربا بكثير عن مصر (وراء العاصمة الليبية طرابلس)، وبالتالى فإن «باجيت» يخشى أنه لا يستطيع توفير القوات اللازمة لأى «تصرف» نقوم به أو لمواجهة «عواقبه». اتفقنا على استشارة لندن.

١ مايو ١٩٤٣:

وصلتنى نسخة من البرقية التالية التى بعث بها رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» إلى الجنرال «ميتلاند ولسون» (القائد العام للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط) - نصها كما يلى:

«إنك مكلف بتأييد سفير حكومة صاحب الجلالة الملك فى تنفيذ الإجراءات التى يراها ضرورية لتأكيد نصيحته للملك «فاروق» (بعدم تغيير الوزارة).

١٧ مايو ١٩٤٣:

اتصل بى «حسنين» يبلغنى أن الملك «فاروق» يدعونى لمقابلته فى الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم. ذهبت إلى القصر ووجدت الملك فى حالة معنوية طيبة، وقد هنأنى بالانتصارات التى أحرزتها قواتنا فى تونس، وقدم لى مذكرة قرأتها فى حضوره، وكان مؤداها أنه يدرك أن مصالحنا العسكرية كانت تمنع تغيير «النحاس»، وأما الآن وبعد التحولات الكبرى فى مسار الحرب، فهو يريد أن يفهم حقيقة موقفنا.

وضعت المذكرة على المكتب وقلت لفاروق بدون مواراة أننا لا ينبغى أن نلف وندور، وقلت له أنه مازال شابا فى مقتبل العمر، وأمامه سنوات طويلة يقضيها على العرش، فى حين أن الحكومات تذهب وتجىء، لكن عليه أن يعرف أن هناك أصولا وقواعد تحفظ الممالك وتحافظ على الملوك. قلت له إن «الكتاب الأسود» الذى قدمه «مكرم عبيد» لا يصح أن يكون أساسا لإقالة وزارة، وأن عليه أن يفكر جديا فى التعامل مع وزارته بطريقة تطمئنها إلى أن القصر لا يتربص بها، والدليل على ذلك أنه يقاطع نصف الوزراء ولا يتعامل معهم.

١٨ أغسطس ١٩٤٣

ذهبت إلى الأوبرج (كازينو فى شارع الهرم)، ومعى «نويل كاورد» (فنان يكتب ويمثل ويغنى، وكان فى ذلك الوقت من أشهر الفنانين الإنجليز). وجدت الملك «فاروق» على إحدى الموائد ومعه الجنرال «شولتو دوجلاس» (قائد الطيران البريطانى فى الشرق الأوسط)، وكانت مع شولتو «صديقته» وهى ممثلة شابة.

لم أعرف فيم كان يتحدث الاثنان وما هو سر العلاقة بينهما، وعلى أى حال فقد اكتشفت عندما أردنا الانصراف أن الملك دفع حسابنا بالنيابة عنا، بمعنى أننا كنا ضيوفه دون أن نعلم.

يواصل السفير البريطانى يومياته:

٣ يناير ١٩٤٤:

جاءنى الأمير «محمد على» (ولى العهد) الساعة ١٢ ظهرا، قال لى إن الملك على وجه التأكيد سىء الخلق ومختل العقل، والدليل أنه حضر حفلة فى بيت الأميرة شويكار أمس، وجاء إليه الأمير «محمد عبد المنعم» يهنئه بشفائه بعد حادثة القصاصين، ورد الملك على تهنئته بقوله «لابد أن نجاتى سببت خيبة أمل لأناس كثيرين». كانت «جاكلين» (زوجة السفير) موجودة فى الحفلة، وقد حضرت المشهد وقالت لى أنها تعتقد أن «الولد» حالة ميئوس منها، وأخشى أن ذلك صحيح.

١٢ أبريل ١٩٤٤:

أشعر أن القصر يفكر فى ألاعيب جديدة، وهم يعرفون أن الجنرال السير «برنارد باجيت» يتخذ موقفا مترددا، ويظنون أن ذلك يعكس اتجاها له تأثير فى لندن.

تلقينا اتصالا من القصر بأن الملك يريد أن يرانى فى الساعة الرابعة بعد الظهر. دخلت لأجد الملك مبتسما، لكن ابتسامته كانت تمهيدا لقنبلة، فقد سلمنى مذكرة نظرت فيها ووجدته يقول إنه لم يعد مستعدا لتحمل «النحاس» أكثر من ذلك. He could not stand Nahas any longer. أكملت قراءة المذكرة، لابد أن أعترف أنها تحتوى على حجج وجيهة. انتهيت من قراءتها ووضعتها أمامى، وسألنى إذا كنت أوافق على أن الوقت قد حان كى يكلف وزارة محايدة يرأسها صديق له ولنا، بمعنى أنه يحوز رضا الطرفين. سألته أولا عن السبب الذى يدعوه إلى طلب التغيير الآن، فقال إنه غاضب لأن «النحاس» ذهب إلى بعض محافظات الصعيد فى زيارة أعقبت زيارة سبقه الملك بها لمناطق انتشار وباء الملاريا، وأنه هناك تصرف بطريقة «ملكية» وأنه ليس هناك بلد يتحمل وجود «ملكين» فى نفس الوقت.

وقلت له ضاحكا إنه لا سمح الله أن يكون فى مصر ملكان وقد اكتشفنا أن ملكا واحدا فيه الكفاية. God forbid, we have found that one king is quite enough.

سألته من هو مرشحه لرئاسة هذه الوزارة الموالية له ولنا، وأجابنى بأنه يفكر فى «أحمد حسنين» رئيس الديوان. وعرض على قائمة بأسماء عدد من المرشحين للمناصب الوزارية

**قال «تشرشل» للنحاس
أن ملك بريطانيا يدعوه (تشرشل)
لتناول طعام الغداء معه كل أسبوع فى قصر
«باكنجهام». وفهم «فاروق» الإشارة بذكاء، ورد عليها بقوله
«إنه مستعد أن يدعو «تشرشل» للغداء معه
كل أسبوع ولكن لسوء حظه فإن رئيس
وزرائه اسمه «مصطفى النحاس». »**





المختلفة. قلت للملك أننى لا أستطيع أن أجيبه إلا بعد الرجوع إلى لندن. ذكرته بأن رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» هو الذى يشرف بنفسه الآن على أعمال وزير الخارجية فى غياب الوزير، وأبدى «فاروق» ارتياحه الشديد لما قلت معلقا أن ذلك أفضل لأن «تشرشل» «صديقه». ولا أعرف من أين ولا كيف نشأت هذه الصداقة بين الاثنين.

١٨ أبريل ١٩٤٤:

أبلغنى «سمارت» (السير والتر سمارت المستشار الشرقى للسفارة) أن «حسنين» اتصل به تليفونيا ليبلغه أن الملك «فاروق» وقع خطاب إقالة وزارة «النحاس». طلبت من «سمارت» أن يتصل تليفونيا بحسنين وأن يبلغه أننى أطلب مقابلة الملك فورا، وأننى مكلف بإبلاغه رسالة من رئيس الوزراء. وعاد «حسنين» فاتصل بسمارت يخطره بأن الملك ينتظرنى فورا ولا ينبغى أن أتأخر حتى لتغيير ملابسى، بحيث أرتدى بذلة الردنجوت التى تفرضها المراسم على زوار الملك.

دخلت مكتب الملك الساعة ١,٤٥ بعد الظهر، وبدأنا بمجاملات استغرقت ثوانى، ثم دخلت فى الموضوع، فقلت له أننى قلقت من رسالة أبلغها «حسنين» إلى «سمارت». أخرجت من جيبى رسالة كنت قد تلقيتها قبل الظهر من لندن، وهى بتوقيع «ونستون تشرشل» نفسه نصها كما يلى:

«إن المشاكل التى تستحكم لسوء الحظ بينكم وبين وزارة «النحاس» (باشا) مهمة بحيث أننى أفضل أن أستطلع فيها رأى وزارة الحرب. وسوف أفعل ذلك فى الأسبوع القادم، وأثق أنكم لن تقوموا بأى تصرف فى هذه المهلة. وقد أصدرت تعليماتى للسفير البريطانى بأن يتخذ كل الإجراءات التى تكفل أن «النحاس» (باشا) من جانبه سوف يمتنع عن أى تصرف مستفز. وأود أن تعرفوا أن حكومة صاحب الجلالة الملك سوف تعاقب أى طرف يبدأ بتصرف فجائى تجاه الطرف الآخر. إننا استطعنا حماية مصر من بشاعة غزو محتمل ومن أن تتحول مدنها إلى ميادين قتال وحشية، ونحن مصممون على تحمل مسئولياتنا فى ظروف هادئة نسبيا، ولذلك فمن حقنا أن نبدى رأينا فيما يحدث».

أعطيت الملك الرسالة ولفت نظره إلى المقاطع المهمة فيها، وقد راح يبدى حججا عرجاء فى شرح موقفه، لكنه بوضوح كان يغطى تراجعه. قال إن «النحاس» فى طريقه الآن إلى الإسكندرية، وسوف يكرر نفس المظاهر التى تصرف بها فى الصعيد، والملك لا يطيق مثل ذلك. أبلغت الملك أن لدينا الآن تعليمات من «تشرشل» نفسه وأن علينا أن ننتظر لنعطيه (تشرشل) الفرصة لعرض الموضوع على وزارة الحرب.

عدت إلى السفارة، اتصل بى «حسنين» تليفونيا. أبلغنى أن الملك سوف يؤخر أى قرار يتخذه إلى حين أتلقى تعليمات من لندن.

١٩ أبريل ١٩٤٤:

تلقيت برقية شخصية من رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» نصها:

«سوف تجتمع وزارة الحرب غدا وهى فى الغالب سوف تقرر منح تأييدها للوزارة المنتخبة ديمقراطيا فى مصر ضد عصابة القصر التى يرأسها طاغية شرقى أثبت فى كل مناسبة أنه ليس صديقا لبريطانيا. تأكد من أن القائد العام سوف يؤمن لك ما قد تحتاجه من القوات حتى تتمكن من التعامل مع أى شغب ملكى يقدم عليه «فاروق».

عقدت اجتماعا مع وزير الدولة شارك فيه العسكريون. لاحظت أن الجنرال «باجيت» يتخذ موقفا مترددا. تذكرت ما قاله لى الأمير «محمد على» قبل فترة عن علاقة «باجيت» بسيدة معينة (إحدى أميرات الأسرة المالكة فى مصر). شرح الجنرال «باجيت» تردده بأنه يخشى من تدخل وحدات عسكرية مصرية دفاعا عن الملك، خصوصا وأنه يعرف أن عددا من ضباط الجيش المصرى أحسوا بالإهانة من تصرفنا فى ٤ فبراير، وأقسموا ألا يسمحوا بتكراره. عرضت على المجتمعين برقية رئيس الوزراء لى وكانت نسخة منها قد وصلت إلى وزير الدولة. وشرحت لهم الأسلوب الذى أنوى اتباعه. قلت أننى سوف أحذر الملك، لكنى فى النهاية سوف أذهب إلى لقائه ومعى الجنرال «باجيت» وسوف أقول له بوضوح أنه إذا لم يمتثل فإننى سوف أتركه (مقبوضا عليه) فى عهدة الجنرال «باجيت» نفسه.

٢١ أبريل ١٩٤٤:

أصبحت الأمور شديدة الوضوح أمامنا جميعا. فقد تلقيت رسالة عاجلة من لندن نصها:

«عاجل جدا»

الرسالة التالية من رئيس الوزراء «ونستون تشرشل»:

ناقشت وزارة الحرب اليوم عدة احتمالات واردة من الشرق الأوسط بشأن العلاقات بين الملك «فاروق» وحكومته. وقد صدرت تعليمات إلى سفير حكومة صاحب الجلالة البريطانية بأن يسلم تبليغا من وزارة الحرب إلى الملك «فاروق» هذا نصه:

«إن وزارة الحرب استمعت بقلق إلى آراء لجلالتكم تشير إلى اعتزامكم تغيير الوزارة فى مصر رغم أن هذه الوزارة لا تزال تتمتع بأغلبية فى البرلمان ولازال أمامها ثلاث سنوات قانونية تقضيها مع الأغلبية التى تمثلها. ومن وجهة نظر برلمانية ودستورية فإن تصرفكم على النحو الذى سمعنا به يدفع بالأمور إلى منحنى خطر. وإذا كنتم جلالتكم تشعرون أن هناك دواعى للتغيير فإن السبيل الوحيد أن تقنعوا رئيس وزرائكم بأن يعرض نفسه على الناخبين من جديد، وأن يدعو إلى انتخابات عامة تشرف عليها وزارته لانتخاب برلمان جديد. وقد أصدرت وزارة الحرب تعليمات إلى السفير البريطانى فى القاهرة للتأكد من تنفيذ سياساتها وأخطرت قائد القوات البريطانية فى مصر بأن يتخذ كل الإجراءات التى تدعم أى خطوات يرى السفير البريطانى فى القاهرة اتخاذها».

فى الساعة الخامسة توجهت إلى مقابلة الملك «فاروق» وسلمته دون مقدمات رسالة رئيس الوزراء وطلبت إليه أن يعتبرها تبليغا شفويا إليه. وسألته على الفور عن تصرفه وهو لن يخرج عن واحد من اثنين: أن تبقى وزارة «النحاس» كما هى، أو يقوم «النحاس» بالدعوة إلى انتخابات برلمانية جديدة. نظر إلىَّ الملك وسألنى هل الحكومة البريطانية مستعدة أن تختار نهائيا بين ملك مصر وبين بقاء «النحاس» (باشا) فى الحكم؟ وسألت الملك عن داعيه إلى وضع الأمر على هذا النحو الفظ، وقال الملك أن عليه الدفاع عن شرفه. وسألته: هل يختلف شرف الملك عن شرف الدستور الذى ينظم ممارسة السلطة فى بلاده؟

كان موقفى حازما وقد راح الملك يتمتم بما فهمت منه أنه مستعد للوصول إلى النهاية (التنازل عن العرش).

٢٤ أبريل ١٩٤٤:

اتصل بى «حسنين» (باشا) تليفونيا. أبلغنى أن الملك لديه رد على رسالة وزارة الحرب إليه. أملانى نصها وهى على النحو التالى:

«ردًا على رسالة وزارة الحرب التى قمتم سعادتكم بإبلاغها إلى صاحب الجلالة الملك يوم ٢١ أبريل ـ أمرنى جلالته بإبلاغ سعادتكم أنه قرر عدم تغيير الوزارة الحالية فى الوقت الحاضر».

قلت لحسنين أن ما سمعته منه يريحنى كثيرا.

أبلغت لندن برد الملك.

تلقيت رسالة من «تشرشل» نصها كما يلى:

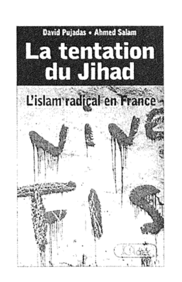
«برافو. كنت واثقا من أن تقديرك للموقف سليم، والآن أريدك أن تبلغ «النحاس» أن يصحح مواقفه ويرتب أموره مع القصر بطريقة تعفينا من التدخل ما بين وقت وآخر. والحقيقة أننى أعترض على إدخالى بهذا الشكل فى الشئون الداخلية المصرية».

وكان صبر الحكومة البريطانية على هذا «النكد» المستمر بين القصر والوفد على وشك أن ينفد! ■

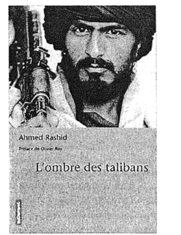












عولمة وأصولية

كتب يقرؤها الغرب

محمد الميلي

نعم هناك باحثون تنبأوا بفشل الإسلام الراديكالي؛ وهناك شهادات تسجل عناد المقاومة التي تقودها مجتمعات مدنية ضد النظام الذي يريد إقامته مجانين الله. لكن الإسلام الأصولي كان يسجل باستمرار تقدمًا ملحوظًا وانتشارًا واسعًا كما يدل على ذلك تتبع ما يجري في بلدان إسلامية من الجزائر إلى السودان، ومن أفغانستان إلى إيران وحماس الفلسطينية



لم تسجل أى فترة من فترات التاريخ المعاصر من الاهتمام بالإسلام في بلاد الغرب، دراسة ونقدًا أو هجومًا وتجريحًا، ما سجلته فترة ما بعد ١١ سبتمبر. وقد تجدد الاهتمام بالقرآن إلى درجة أن مبيعاته سجلت أرقامًا لم تبلغها قبلاً؛ بل لقد نفدت المصاحف من مكتبات عديدة في باريس.

ومن المفارقات الغريبة حادثة وقعت في مطار «أورلي»، نهاية شهر نوفمبر الماضي تدل على مدى التوجس من كل ما من شأنه أن يمثل دعاية «إسلاموية» كما يقال. وقد روت صحيفة «لوموند» الصادرة بتاريخ أول ديسمبر ٢٠٠١ هذه الحادثة. وهي تتصل بالرقابة التي أصبحت شديدة بعد ١١ سبتمبر على كل ما يرد على فرنسا من كتب أجنبية أو كتب فرنسية مترجمة إلى لغات أجنبية. وقد تعودت مكتبة تركية تقع في الدائرة العاشرة بباريس على استيراد كتب مترجمة للتركية أو عنها، يرتادها الأتراك والأكراد المقيمون في باريس.

فوجئت صاحبة المكتبة بحجز ٣٣ عنوانًا من بين ١٨٤٩ في الشحنة التي وصلت يوم ٢٢ نوفمبر الماضي. وبعد اطلاع الجهات المختصة على الكتب المحجوزة يتقرر إذا كان يسمح بتوزيعها أم لا. وهو ما يستغرق ثلاثة أشهر. ومن بين هذه الكتب التي حجزت، ترجمة لكتاب صدر في أكتوبر بالفرنسية تحت عنوان «ظل طالبان» وهو يوزع في فرنسا دون قيد. كما حجزت ترجمة لكتاب «ناعوم شومسكي» عن التدخلات الأمريكية في العالم، وكذلك كتاب «فرانز فانون» «معذبي الأرض» الذي يوجد في مكتبات فرنسا منذ أربعين سنة. وكتب مسموح بها، مثل الكتب عن الحزب العمالي الكردي المسموح بتوزيعها في تركيا!

كانت حادثة ١١ سبتمبر تحولاً جدد الاهتمام بقوة بالإسلام الذي أصبح موضوع تصريحات سياسية من طرف مسئولين في أوروبا وأمريكا على أعلى مستوى، في نفس الوقت الذي أجَّجَ الخوف منه.

وإذا كانت الإحاطة صعبة بكل ما كُتب عن الإسلام، وعن التيارات الإسلامية السياسية، فالملاحظ أن هناك قاسمًا مشتركًا يجمع بين العديد من تلك الكتابات، وهو التكهن بأن الأصولية الإسلامية قد بلغ أجلها ودقت ساعتها.

ونكتفي في هذا الصدد بعينة واحدة تعبر عن تيار كامل، وهو ما كتبه المفكر الفرنسي بيرنار - هنري ليفي (Bernard-Henri Levy) في صحيفة لوموند الصادرة بتاريخ ٢١ ديسمبر الماضي، إذ يقول:

«إن الأصولية (يعني الإسلامية) ما فتئت منذ عشرين سنة تسير من انتصار إلى انتصار. نعم هناك باحثون تنبأوا بفشل الإسلام الراديكالي؛ وهناك شهادات تسجل عناد المقاومة التي تقودها مجتمعات مدنية ضد النظام الذي يريد إقامته مجانين الله. لكن الإسلام الأصولي كان يسجل باستمرار تقدمًا ملحوظًا وانتشارًا واسعًا كما يدل على ذلك تتبع ما يجري في بلدان إسلامية من الجزائر إلى السودان، ومن أفغانستان إلى إيران وحماس الفلسطينية.. إنها انتصارات توالت على امتداد العقود الأخيرة.. وهنا تحدث المفاجأة، تنقلب الأدوار. وإذا كانت الأصولية لم تسحق كلية فقد عرفت هزيمتها الأولى عسكريًا. إنها بداية الانحسار والجزر.

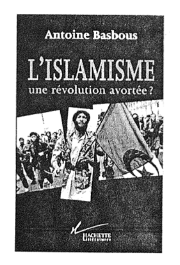
صراع بين إسلاميين؟

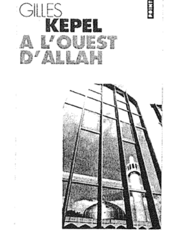
في هذا المقال ينفي الكاتب عن نفسه الأخذ بفكرة «صدام الحضارات»، بل هو ينتقدها محتجًا بالتدخل العسكري الأمريكي في صربيا دفاعًا عن مسلمين ضد الصرب وهم مسيحيون. ويبسط في هذا الصدد فكرة رددها في العديد من كتاباته، لينشرها أخيرًا ضمن أبحاث ومقالات جمعها في كتاب صدر عن دار Grasset في أكتوبر الماضي تحت عنوان: «تأملات في الحرب والشر ونهاية التاريخ». وخلاصة هذه الفكرة أنه إذا كان لابد من الحديث عن صدام، فهذا الصدام «ليس حربًا صليبية تقودها أمريكا ضد الإسلام، ولكنه صدام بين إسلاميين». إسلام أصولي تمثله «الطائفة الجديدة للحشاشين التي تمثل حركة متطرفة تطورت على مستوى العالم لتحارب ما يقال عن انهيار التدين وتراجع المعارف الدينية، ولتعلن حربًا لا هوادة فيها على الكفار من جهة وضد الإسلام العلماني من جهة أخرى». ويصف هذا الإسلام العلماني بأنه إسلام متفتح معتدل يعاود الاتصال بفكر ابن رشد (الحفيد) في نفس الوقت الذي يسجل فيه قطيعة مع التأويلات الأيديولوجية التي عرفها القرن الثامن عشر والتاسع عشر والتي حوصلتها الحركة الوهابية بعد ذلك بعشرة قرون».



ويشرح الفكرة نفسها في مقدمة كتابه الذي أشرنا إليه آنفًا، وهي مقدمة كتبها يوم ١٨ سبتمبر ٢٠٠١. وفيها يستعرض بعض ما قيل عن الإسلام بعد الهجوم على نيويورك وواشنطن، ويحوصل أفكار المهاجمين في موقفين: موقف - يمثل أحسن الحالات - يعتبر الإسلام متضمنًا لنظرة ظلامية عن العالم، غير قابلة لأن تتعاطى مع الحداثة، وغير متلائمة مع حقوق الانسان والديمقراطية والعلمانية والأفكار التنويرية. والموقف الثاني يمثل أسوأ الحالات، يعتبر الإسلام دين قتل وغزو، يتضمن في طياته التحريض على التقتيل، دين قرر إعلان حرب مطلقة على أمريكا وأوروبا. وفي سياق الموقف الثاني يسوق ما قاله ملاحظون بأن الأدب قال كل شيء عن الإسلام قبل كل الناس، «لأن قاصًا فرنسيًا ندد بالإسلام وبكتابه المقدس قبل مأساة ١١ سبتمبر ببضعة أيام».

والأديب الذي يشير إليه بيير هنري ليفي،









عن الإسلام

هو الحائز على جائزة جونكور عام ١٩٩٨، وهو «ميشيل هويلبيك» الذي أصدر قصة بعنوان «مصطبة» أو «قاعدة» في العام الماضي والتي سجلت مبيعات قياسية.

وهي قصة تروي وقائع موظف في وزارة الثقافة، أصبح عشيق مسئولة في شركة سياحة كبيرة. وبدلاً من أن تقتصر الحكاية على مغامرات غرامية عادية، تحولت بسبب هذا اللقاء إلى سرد لمجهودات العشيقين من أجل بناء قرى سياحية في آسيا أو أمريكا اللاتينية تستهوي كل من يلهث وراء السياحة الجنسية.

وفي القسم الأخير من القصة يشن هجومًا شديدًا على لسان بطل القصة الذي يحمل نفس الاسم (Michel) ضد الإسلام والعرب والفلسطينيين.

وقد أجرت معه مجلة «Lire» حديثًا ظهر في عدد سبتمبر ٢٠٠١ - أي قبل ١١ سبتمبر، فهي شهرية - سألته فيه عن هجومه على الإسلام والسياحة الجنسية، وهل هو يبحث عن المواضيع التي تصدم وتثير السخط، فيجيب:

«لا أبحث عن تلك المواضيع، ولكني أصطدم بها، فقد أثار انتباهي شيء نتيجة التقاء هذين الموضوعين، يتمثل في السواح العرب الذين يترددون على بانكوك. كنت أتصور بكل بلاهة أن كل المسلمين طيبون.. لكني تبينت أن كثيرين لا عقيدة لهم ويعيشون في نفاق مطلق. في تايلاند يكونون أشد سعارًا من الغربيين في بحثهم عن اللذة».

يلاحظ مستجوبه أن حديثه عن الإسلام لا يوحي بالاحتقار بل ينم عن الحقد، فيجيبه: نعم يمكن أن تسميه حقدًا.

ثم يسأله الصحفي: هل يرجع سبب حقدك على الإسلام لكون أمك اعتنقته؟

فيقول:

- كلا.. لأني لم آخذ إسلامها مأخذ جد. لكنها وجدت في ذلك آخر وسيلة تزعج بها الناس بعد سلسلة تجارب لا تقل عن الإسلام تفاهة.

والواقع أني شعرت في سيناء، حيث تلقى موسى الوصايا العشر، بنوع من الوحي السلبي يدفعني لرفض كل الديانات التوحيدية. قلت في نفسي: إن الاعتقاد في إله واحد لا يصدر إلا عن غبي أبله».

ويسأله محاوره: «إن بطلك الرئيسي ينطق بهذه الجملة: «كلما عرفت أن إرهابيًا أو طفلاً فلسطينيًا أو امرأة فلسطينية حبلى سقطت تحت الرصاص في قطاع غزة، تعتريني نشوة ارتياح». فيكون جوابه:

«الانتقام شعور لا أعرفه. لكن الوضع الذي يوجد فيه ميشيل، (بطل القصة) يدفعه إلى قتل أكبر عدد ممكن من المسلمين. إن الإسلام دين خطر.. ومن حسن الحظ أنه محكوم عليه بالزوال من جهة لأن الله غير موجود، ومن جهة أخرى لأن الإسلام ملغوم من الداخل بالرأسمالية».



إلا أن بيرنار - هنري ليفي لا يوافق طبعًا على ما جاء في القصة على لسان بطلها، ولا على ما جاء في حديثه للمجلة، بل هو يشير مجرد إشارة إلى القصة وصاحبها دون أن يسميهما، في سياق استنكاري يرفض أمثال هذه المقولات. بل إنه يؤكد - على رغم كونه غير متخصص في الإسلام كما يقول - على أن بعض ما يعرفه من تاريخ الإسلام ومواقف بعض المسلمين وما يعرفه عن الفكر القومي العربي الناصري، يجعله يتأكد أن الإسلام في جوهره لا يتعارض مع العلمانية. ثم يقول:

«عرفت عن قرب إسلام البوسنة، وعرفت بدرجة أقل إسلام الطرق الصوفية في السنغال، وكلاهما يقوم دليلاً على أن الإسلام ليس أجنبيًا عن الديموقراطية». ثم يذكر أن الادعاء بأن الإسلام كله يعادي كل الغرب، يعني تقديم هدية لا تعوض إلى بن لادن لأن مثل هذا الادعاء يعزز صف الذين يسيرون في ركابه وعلى نهجه.



إن الذي يهمنا من استعراض آراء هذا المفكر هو رأيه في أن ما يسميه بالأصولية، وما يسميه آخرون بالإسلام السياسي، آخذ في الانحسار والانكماش.

والواقع أن التكهن بهذا الانحسار لم يظهر بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فقط. فقد سبق لمجلة العالمين الإسلامي والمتوسطي، (Revue des mondes musulmans et de la Mediterranee) في عدديها ٨٥ و ٨٦، اللذين صدرا في مجلد واحد في مارس ١٩٩٩ أن خَصَّصَتْهُ لموضوع سمته «ما بعد الإسلام» (Le Port - Islamisne) أو «ما بعد الإسلام السياسي»؛ شارك في كتابة أبحاثه عدد من الخبراء والأساتذة لا يقل عن ثمانية. وبعد ذلك بسنة واحدة بالضبط، صدر كتابان بفرنسا، في مارس ٢٠٠٠، أحدهما لصحافي لبناني مقيم بباريس والآخر لأستاذ جامعي وباحث فرنسي مختص في شئون الإسلام المعاصر.

الإسلام السياسي

بالنسبة للمجلة يرى كاتب التقديم أن التساؤل حول ما بعد الإسلام السياسي يعني فشل هذا التيار في إقامة دولة إسلامية تدير المجتمع حسب المبادئ الإسلامية. وفي هذا التقديم يقول صاحبه إن التساؤل عما بعد الإسلام السياسي، مرادف للتساؤل حول ما بعد الإسلام: ويشرح مقصوده من ذلك قائلاً:

«من الواضح أن الآثار أو الجراح التي خلفتها فترة انتشار الاتجاه الإسلامي جراح عميقة. ومن الواضح أيضًا أن ظهور فضاء العلمانية خارج فكر ديني يضع تصورًا له ويمنحه الشرعية، يمكن أن يتسبب في أزمة تدينه (أي تراجع الممارسات الدينية).

لكن ملاحظاتنا هنا لا تنصب على انحسار الممارسة الدينية، (لأن الأبحاث تنقصنا) ولكنها تتناول ظهور الممارسة الدينية في مجالات اجتماعية وفردية متنوعة».



أما الإجابات التي تمت صياغتها لبلورة الاهتمام بالممارسة الدينية فيلخصها صاحب المقدمة في ثلاثة:

** هناك قبل كل شيء صيغة الأصولية الجديدة التي تسعى، بعد أن لاحظت أزمة الإسلام السياسي، إلى تحديد الممارسة الإسلامية بالاحترام الدقيق للواجبات والممنوعات. وحتى في حالة ما إذا كان الأصوليون الجدد ماسكين بزمام الحكم (مثل الطالبان) بحيث يكون باستطاعتهم أن يستعملوا ضغط الدولة لتحقيق ذلك، فإن نقطة الحسم في نشاطهم لا تتناول المجتمع بوصفه مجتمعًا فهم يجهلونه، ولكنه ينصب على الفرد المؤمن. فالأصولية الجديدة تساهم في فردية التدين، وترفض الدولة، رغم ما تردده في خطابها عن «الأمة» لأن هذه أصبحت مجرد صورة خيالية.

** يأتي بعد ذلك التقليد المحافظ الذي يتصف به علماء مندمجون في جهاز الدولة، مثل مصر، فهم يفاوضونها حول الفضاء الذي يمكنهم أن ينشطوا فيه ليمارسوا رقابتهم الاجتماعية؛ وبذلك فهم يحددون المشروع الإسلامي بحدود الأخلاق، تاركين مجال السياسة للدولة التي تستعملهم.

** وهناك أخيرًا المشروع المتعلق بعلم الكلام الحديث (أو فلسفة الدين) الذي يسعى لإجراء تفكير جديد في الإسلام على ضوء معوقات تجرده من مفهوم الثقافة وتبعده عن ميدان السياسة.

بعد التقديم يأتي المبحث الأول فهو الذي يهم موضوعنا، وهو يحمل نفس العنوان الموضوع على غلاف المجلة «ما بعد الإسلام السياسي». وقد كتبه

«أوليفيى روا» (Olvier Ray) الذى يبدأ بحثه بتقرير حقيقة قل أن ينازع فيها أحد إذ يقول:

«إن الإسلام السياسى يواجه اليوم مأزقًا، رغم أنه لايزال عامل تعبئة شعبية». أما المأزق فيفسره بوجود آراء متضاربة داخل مشروعه السياسى والاجتماعى، سواء عندما يتعلق الأمر بصياغة برنامج حقيقى للحكم كما هو الشأن فى إيران، أو بسبب القمع وانسداد باب العمل السياسى كما هو الشأن فى سوريا ومصر والجزائر وكذلك تركيا. فذلك من شأنه أن يدفع عددًا من المنظرين إلى إعادة صياغة غير تكتيكية لمشروع العودة إلى الإسلام. (بينما تتجه أقلية منهم نحو أعمال العنف اليائس).

ذلك أن ممارسة السياسة كان من نتائجها أن المجتمع المدنى الذى هو مجال تحركهم الذى ينطلقون منه إلى الحكم، ينفلت منهم، دون أن تتمكن السلطة الرسمية من احتوائه، كما هو الشأن فى مصر والجزائر، ودون أن تستفيد من ذلك المعارضة كما هو الشأن فى إيران.

وبعبارة أخرى إن العوائق التى اصطدم بها مشروع الدولة الإسلامية ـ وهى تختلف باختلاف الفضاءات التى يتحرك فيها الإسلاميون ـ اضطرت منظريهم إلى تكييف دعوتهم والبحث عن صياغة جديدة لمشروعهم. وهذا ما أدى إلى تعدد الاجتهادات والمدارس، بما فيها مدارس التكفير التى توالدت بصورة أميبية ترجع فى جملة ما ترجع إليه إلى سطحية التكوين، وضحالة الاستيعاب لأصول الإسلام، مع غياب ثقافة تاريخية وانعدام الاطلاع على الفقه فضلاً عن التمكن من اللغة العربية والتضلع فى علوم الدين وأصوله، الذى هو ضرورى لكل من يريد أن يجتهد فى الدين ويستنبط أحكام الشرع.

إن العراقيل التى اصطدمت بها المشاريع الإسلامية، لأن هناك أكثر من مشروع لتصور كيفية إقامة الدولة الإسلامية، قد أفضت عمليًا إلى نتيجتين: الأولى: هى اضطرار دعاة المشروع إلى إعادة صياغته بما يتلاءم مع المحددات والضغوط المذكورة. وهذا يستلزم التخفيف من الغلو الذى اتسمت به الدعوة الإسلامية فى أوج انتشارها؛ وبالتالى يدفع ذلك الوضع الإسلاميين إلى صياغة مشروع أكثر اعتدالاً وأقل شططًا.

الثانية: البحث عن فضاءات جديدة للتبشير بمشروعهم فى صياغته الجديدة، وخاصة فى اتجاه الجاليات العربية والإسلامية التى تعيش فى أرض المهجر بأوروبا وأمريكا.

إن الالتجاء إلى تلك الأقليات تسبب فى خلق وضعية جديدة مليئة بالتناقضات:

ـ فالأقليات المذكورة تعرف أنها لا تستطيع أن تصبح أغلبية فى موطنها الجديد؛ ونظرًا إلى أنها لا تفكر إطلاقًا فى العودة إلى الوطن الأم، فهى تضطر لأن تتكيف مع القوانين اللائيكية التى هى قوام النظام فى أوروبا وأمريكا.

ومن شأن ذلك أن يؤثر على الخطاب الإسلامى الموجه إلى هذه الأقليات. وهذا ما يفسر ظاهرة برزت فى بلد مثل فرنسا تتمثل فى إقرار فكرة التلاؤم مع النظام القائم، ومواءمة قوانينه. وهو ما يؤدى إلى اجتهادات وتأويلات فى صياغات الدعوة الإسلامية تهدف إلى كسب المسلمين المهاجرين دون أن تصطدم مع النظام الغربى أو نظام الأغلبية.

David Pujadas • Ahmed Salam

La tentation du Jihad

L'islam radical en France

الأصولية الجديدة تساهم فى فردية التدين، وترفض الدولة، رغم ما تردده فى خطابها عن «الأمة» لأن هذه أصبحت مجرد صورة خيالية

من هنا أصبحت هذه الأقليات مصدرًا من مصادر الاجتهاد عندما يكون المنظر من داخلها، وملهمة للاجتهاد عندما يكون المنظر من خارجها. ويتوجه إليها بالخطاب، لأنه مضطر لمراعاة ظروفها، وسواء كان هذا أو ذاك فإن النتيجة العملية هى أن تلك الاجتهادات تؤثر على الإسلام السياسى.

ثم إن دولة القانون السائدة فى أوروبا وفى أمريكا والمناخ الديموقراطى المتوفر هناك لمواطنيها ولغير مواطنيها كان فرصة لأنصار الاتجاه الإسلامى المتطرف، استغلوه فى إقامة شبكات دعم وتمويل وإمداد لبعض التنظيمات «الجهادية» المسلحة العاملة فى بعض البلدان كالجزائر مثلاً.

أدَّتْ هذه التناقضات إلى نتائج متضاربة وخاصة بعد ١١ سبتمبر. فالملاحظ، قبل ذلك التاريخ، أن شكوى البلدان المتضررة من شبكات الدعم المشار إليها، مثل مصر والجزائر، لم تلق آذانًا مصغية فى أوروبا أو فى أمريكا، مادامت شبكات الدعم تلك لم تمس الأمن الداخلى فيها. وليس من المستبعد، كما تدل على ذلك بعض المؤشرات، أن البلدان الغربية كانت تتصور أنها بذلك اشترت الأمن، وضمنت عدم تجرؤ الشبكات المذكورة فى أن تتحرك ضد محتضنيها؛ ومن الواضح أن هذه الشبكات تعرف أن مصلحتها هى فى عدم القيام بأى عمل فى أرض الغربة، لأن أى إخلال بالأمن من شأنه أن ينقلب عليها.

هذه المنفعة المتبادلة لم تمنع من ظهور أفكار داخل المغتربين الذين يعدون من جمهور الإسلاميين، تدعو إلى تكيف الأقلية المسلمة مع المجتمع اللائيكى الذى تعيش وسطه. وهذا فى الوقت الذى كانت فيه عناصر أخرى تعتبر أن واجب المسلم الملتزم يفرض عليه أن يسعى لنشر الإسلام بين الأوروبيين والأمريكان؛ وهو مسعى يكمل وينسجم مع مسعى «أسلمة» المجتمعات العربية والإسلامية التى يرى بعض المنظرين أنها ابتعدت عن الإسلام، بل هناك من حكم عليها بالكفر، فيجب أن تدخل فى الإسلام من جديد.

هذا الاتجاه يمثل فى الواقع أقلية بالنسبة للاتجاه الداعى للتكيف مع المجتمعات اللائيكية، إلا أنه تعزز بعناصر الجيل الثانى من أبناء المهاجرين الذين ترددوا على أفغانستان وباكستان، ليتلقوا نوعًا من التأهيل فى مدارس إسلامية، ينتقلون بعدها إلى معسكرات التدريب العسكرية فى بيشاور، ويقدر مؤلفا كتاب «إغراء الجهاد»، دافيد بوجادا وأحمد سلام، (باريس عام ١٩٩٥، La Teutation du Jihad) عدد الذين ترددوا على أفغانستان وباكستان بعدة آلاف، دون أن يذكروا رقمًا مدققًا (ص ٦٤). وهذا يعنى أن هذه الأقلية من الإسلاميين متحفزة للتحرك والتبشير بالإسلام. بل إن بعض الجمعيات الإسلامية أصبح يستعمل مصطلحًا جديدًا: فجمعية «اتحاد الشبان المسلمين» عقدت مؤتمرها عام ١٩٩٤ الذى أعلن فيه بعض الخطباء أن «فرنسا لم تعد دار عهد» بالنسبة للمسلمين، بل أصبحت دار كفر يجب التبشير بالإسلام فيها، أو تعتبر «دار إسلام» مادام هناك مسلمون فيها يمارسون شعائرهم الدينية دون قيود.

كما ذكر ذلك جيل كيبيل فى كتابه A l' mest d' Allah (منشورات لوسوى عام ١٩٩٤. ص ٢٣٩).

ولا شك أن الذى ضاعف من تحفيز الجيل الثانى لهذا العمل وتقبلهم الدعوة لنشر الإسلام فى فرنسا أنهم سمعوا ما يحكيه آباؤهم عن بطولات حرب التحرير ضد فرنسا، فكان لديهم نوع من شعور الحرمان إن لم يدركوا ذلك العهد؛ فهم يريدون من خلال هذا الموقف أن يعوضوا ما فاتهم، بل أن يكونوا أفضل من الجيل السابق.

هذه الشريحة من المغتربين وجدت فى دعوة بن لادن ما يوافق هواها، فى نفس الوقت الذى وجد فيه تنظيم القاعدة أن هذه الشريحة «خميرة» صالحة للاستعمال يمكن تحريكها عندما يقتضى الحال.



لكن الدعوة إلى أسلمة فرنسا لم تثر الاهتمام لأنها لم تؤخذ مأخذ الجد، وخصوصًا أن هناك وجهة النظر الأخرى التى تطالب بتكيف الأقلية مع واقع مجتمع لائيكى، علمًا بأن هناك مؤشرات ترجح كون هذه الدعوة قد أتت ثمارها ممثلة فى الذين اندمجوا فى المجتمع الفرنسى اندماجًا كليًا، وفى بعض مشائخ الدين الذين لهم جنسية فرنسية ويعتبرون أن واجبهم هو الانسجام مع القوانين اللائيكية.



يتبين مما تقدم أن الأقليات المسلمة فى بلاد الغرب، غير منسجمة فيما بينها، ولا تنطق بصوت واحد: إلا أن تناقضاتها لم تظهر إلا بعد ١١ سبتمبر، فقد وجدت مع ذلك اليوم، وضعية جديدة جعلت السلطات الغربية تشعر بخطر يمكن أن يدهمها من داخل هذه الأقليات التى تبين أنها تحتضن «شبكات نائمة من الإرهابيين» الذين هم على استعداد لضرب مصالحها عندما تأتيهم التعليمات.

وهذا ما يفسر لجوء كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية إلى سن قوانين جديدة تمكنها من ملاحقة «الإرهابيين» المحتملين.

أما فرنسا فلم تفعل ذلك؛ ولعلها شعرت أن دعاة التكيف نجحوا فى مسعاهم. لكن ذلك لم يمنع بعض السياسيين والصحافيين من أن يثيروا، ما حدث فى مباراة كرة القدم بين الجزائر وفرنسا يوم ٦ أكتوبر: فقد عمد بعض الشبان الفرنسيين من أصل جزائرى إلى التصفير عندما عزف النشيد الوطنى الفرنسى «لامارسييز». اعتبر بعضهم ذلك نذير خطر ولاموا الوزير الأول الفرنسى على أنه لم يغادر الملعب احتجاجًا على الاستهزاء بالنشيد الوطنى. لكن هناك سياسيين ومفكرين فرنسيين آخرين لم يعطوا لهذا الحدث أية دلالة خاصة، واعتبروه مجرد انفعال عابر لشباب عديم التجربة.

جيل جديد من رجال الإسلام الرسمى

والواقع أن السعى لتحسين صورة الإسلام فى الغرب قد بدأ منذ عدة سنوات، من خلال ندوات ودراسات عديدة. ولعل هذا هو ما دفع بعض البلدان العربية ـ الإسلامية إلى التفكير فى الخروج كليًا أو جزئيًا عن المألوف فى إسناد بعض المهام الدينية، مثل مشيخة الأزهر فى مصر والمجلس الإسلامى الأعلى فى الجزائر، إذ وجدت كل منهما أنها واقعة بين شقى رحى: مجتمع مدنى يدفع إلى مزيد من الأخذ بالحداثة والاندماج فى العصر، ودعوة الإسلام السياسى التى تتخذ أحيانًا صورة انغلاق مطلق ورفض كامل للحداثة، حتى بلغ الأمر فى الجزائر بهذا التيار إلى أن يحمل السلاح ضد نظام يعتبره كافرًا.

فقد عينت الجزائر، منذ ١٩٩٤ رئيسًا للمجلس الإسلامى الأعلى شخصية «مدنية» إن صح هذا التعبير، هو المرحوم عبد المجيد مزيان الذى يتقن اللغات الأجنبية زيادة على العربية، كما يتقن اللهجات المحلية، وقد كان أستاذًا جامعيًا لامعًا، عرف بسعة اطلاعه وتضلعه فى علوم الاجتماع والتاريخ. وقد شغل قبل ذلك منصب أمين عام رئاسة الجمهورية فى أول حكومة جزائرية بعد الاستقلال، تحت رئاسة الزعيم أحمد بن بلا. وقد عرف أيضًا بقدرته العجيبة على المحاجة.

وعندما توفى عين مكانه الأستاذ «الشيخ بوعمران» الذى يتمتع هو الآخر بإتقان اللغة العربية واللغة الفرنسية، وكان مهتمّاً منذ شبابه الباكر بالدراسات الإسلامية، ومن ثم كان احتكاكه بفكر شخصيات أوروبية اهتمت بالإسلام وحضارته مثل الفرنسى «ماسينيون»، والإنجليزى «جيب» وتجدر الملاحظة أن لفظة «الشيخ» هى جزء من اسمه، وليس صفة علمية تعطى لمشايخ الدين، وقد أجرت معه صحيفة الوطن الناطقة بالفرنسية الصادرة بتاريخ ١٣ ديسمبر الماضى استجوابًا حول مشاكل الساعة المتصلة بالإسلام والتعاطى مع الحداثة، ومعنى الجهاد.



وقد أجاب عن سؤال الجهاد بما ترجمته:

«إن مفهوم الجهاد له معنيان: أحدهما واسع والآخر ضيق، فالجهاد بالمعنى الواسع يعنى الجهد الذى يبذله المرء إزاء نفسه للتحكم فى أهوائه. والمعنى الآخر يعنى الحق المشروع فى الدفاع ضد احتلال أجنبى. إن الغرب يترجم عادة هذا الجهاد بـ «الحرب المقدسة» فى حين أن الترجمة الأمينة هى «الحرب العادلة».

وقد ترك لنا نبى الإسلام حديثًا مشهورًا يتضمن هذين المعنيين، قاله عند عودته من إحدى الغزوات: «عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». والإسلام ما فتئ يحرم العنف غير المشروع كما تؤكد ذلك الآية التالية من سورة «المائدة»:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.. ثم يواصل الأستاذ بوعمران حديثه قائلاً: «إن بعض الحركات (الإسلامية) قد أوّلت أثناء ظروف تاريخية معينة مفهوم الجهاد تأويلاً خاطئًا لا يجيزه الإسلام الصحيح. ثم إن المرجعية فى إعلان الجهاد هم كبار العلماء الذين يمثلون الأمة الإسلامية فى مجموعها وليس هذه الأقلية أو تلك ممن هم غير مؤهلين لإبداء الرأى فى الموضوع».

ومعروف أن أكثر من جهة إسلامية أيدت مثل هذا الرأى لتصحيح صورة الإسلام عند غرب يضع أحيانًا كل المسلمين وكل مدارس الإسلام فى سلة واحدة جنبًا إلى جنب مع الإرهاب.

الإسلام السياسى والعولمة

هناك ظاهرة أخرى جديرة بالتسجيل فى هذا السياق وهى أن العولمة قد أجبرت الإسلام - والإسلام السياسى خاصة - على أن «يتعولم» هو الآخر. ولا شك أن وجود أقليات مسلمة فى أوروبا وأمريكا ساعد على عولمة التيار الإسلامى المسيس، فلم يعد نشاط الإسلام السياسى قاصرًا على بلد واحد؛ أصبح ممثلوه يسعون لإقامة تنظيمات تربط أشتاته وتعمل على توحيد ممثليه على مستوى العالم.

ونظرًا للظروف التاريخية التى قامت منذ انفراد أمريكا بالهيمنة على العالم، فقد عمل أبرز تيارات الإسلام السياسى وأكثرها حركية على توحيد المسلمين فى ظل الكراهية لأمريكا. وهكذا كانت أمريكا، وهى أكبر داعية لانفتاح العالم بعضه على بعض فى إطار عولمة بلا حدود هى الضحية المشهودة لإسلام سياسى معولم.

إن الإسلام السياسى إذ استغل العولمة، قد أعطى الانطباع بأنه هدفه ليس فقط محاربة لأمريكا، ولكنه يتمثل أيضًا فى إقامة مجال حضارى إسلامى يخترق الحدود ويعبر القارات.

لقد كانت الأمم والبلدان الإسلامية، تأخذ كل منها بالإسلام على طريقتها، وبمقتضى الظروف التاريخية التى تحكمت فى صياغة ثقافاتها وتكوين فهمها للإسلام. فلم يكن يوجد اتصال وثيق بينها، ولم يكن هناك تبادل فعلى متواصل بين تياراته.

أما بعد عولمة الإسلام السياسى فقد تبين أن هناك مسعى جاداً لتوحيد تيارات الإسلام السياسى، بصورة مرعبة فى عدائها للغرب ولإسرائيل كما سجل بعضهم.

وهذا ما جعل مجلة «Le Debat» (النقاش) - وهى مجلة تاريخية وسياسية اجتماعية، تتعرض للموضوع، فى عددها رقم ١١٧ الصادر بتاريخ نوفمبر وديسمبر ٢٠٠١.

وبما أن مواد العدد قد جهزت قبل ١١ سبتمبر فقد كتبت تعليقًا فى خاتمته بعنوان: «عالم أصبح مظلمًا، طرحت فيه عددًا من التساؤلات تنم عن حيرة وخوف. فهى تلاحظ أن توحيد الإسلام السياسى بصدد أن يتحقق فى ظل الكراهية لأمريكا والعداء لإسرائيل، لكن محتواه غير واضح: فهل هو يعادى الغرب أم يعادى الحداثة. وفى هذه الحالة لابد أن نفحص العوامل التى أدت إلى هذا الواقع، فهى فى آن واحد تاريخية وكولونيالية واجتماعية وسياسية، واقتصادية وثقافية وتقنية ودينية. وهى عوامل لا ترجع إلى زمن تاريخى واحد، ولاتتعلق كلها بكل المجتمعات الإسلامية، فأى الأحاسيس كان حاسمًا داخل هذه الشبكة من الحقد والعداوة والرفض للآخر؟».

ثم تضيف:

«إن الاختصاصيين يقولون إن الإسلام السياسى قد فشل، وأن الثورة الإسلامية قد انتهت، وأن حلم إقامة أنظمة سياسية حسب تعاليم العقيدة الإسلامية فقد إشعاعه كما فقد قدرته على التعبئة. لكن هل يعنى ذلك أننا تخلصنا من المشكل السياسى للإسلام، أى من طموح العقيدة للتأثير على المجرى السياسى للمجتمعات وعلى نظام العالم؟ إنهما أمران مختلفان لا يجوز لنا أن نخلط بينهما. فبقدر ما يكون الخلط بين الإسلام والإرهاب باعثًا على السخرية، بقدر ما تكون غير ذات موضوع الفكرة التى ترى فى الإسلام كتلة واحدة لابد من الاصطدام بها؛ على أن ذلك لا يجردنا من حقنا وواجبنا فى أن نُسائل الإسلام عن التبعات والتطبيقات السياسية التى تستلزمها رسالته الدينية. إننا لا نستطيع أن نتجنب نقاشًا فى العمق مع المؤمنين الصادقين. لماذا يفلت الإسلام، دون الأديان الأخرى مثل اليهودية، من امتحان النقد الذى خضعت له المسيحية فى العصر الحديث؟ يجب التذكير بأن المسيحية لم تصبح متسامحة ولم تقبل بفصل الدين عن الدولة من



العوائق التى اصطدم بها مشروع الدولة الإسلامية اضطرت منظريهم إلى تكييف دعوتهم والبحث عن صياغة جديدة لمشروعهم. وهذا ما أدى إلى تعدد الاجتهادات والمدارس، بما فيها مدارس التكفير التى توالدت بصورة أميبية

تلقاء نفسها ولكن تحت ضغط عدة قرون من كفاح فكرى واجتماعى وسياسى لا هوادة فيه».

بعد هذا تسجل المجلة التلازم الذى يلحظه المرء بين تأكيد الهوية الدينية فى المجتمعات الإسلامية وبين السخط والاحتجاج الاجتماعى نتيجة الأوضاع الاقتصادية المتردية، لتنتهى إلى القول إن هذا الاقتران بين الهوية والسخط الاجتماعى «يفرض أيضًا التساؤل عن أسباب فقر أغلبية سكان البلدان الإسلامية. فى هذا الإطار يجب أن نطرح السؤال حول مسئولية الخطاب الدينى للإسلام فى تجميد التطور بالبلدان التى يوجد فيها على رأس الحكم».

وإذا كان القارئ يسلم ببعض الاستنتاجات السابقة فلا يَسَعُ القارئ خصوصًا المسلم إلا أن يشك فى سلامة الربط بين الفقر وحكم الإسلام. لأن هناك عدة بلدان غير مسلمة فضلاً عن أن يحكمها الإسلام، وتعانى من الفقر الشديد، سواء فى القارة الأفريقية أو فى آسيا. كما أن هناك بلدانًا محكومة بنظام إسلامى لا تعانى من ظاهرة انتشار الفقر. فمحاولة إيجاد علاقة بين الإسلام والفقر تهدف - سواء قصد لذلك صاحب التعليق أم لم يقصد - إلى تبرئة النظام الاقتصادى العالمى وصندوق النقد الدولى من مسئولية انتشار الفقر. وهذا لا يعنى طبعًا إعفاء حكومات بلدان إسلامية من مسئوليتها فيما آلت إليه مجتمعاتها من فقر وضياع.

ومهما يكن من شىء فإن أكثر من ملاحظ غربى يسلم بأن الصدى الذى لقيته دعوة بن لادن فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى يرجع إلى كونه أعطى الانطباع بأنه لا يكتفى بمحاربة أمريكا. وأنه يسعى لإقامة فضاء حضارى إسلامى. هذا ما جعل فيلسوفًا مثل الفرنسى «إدجار موران» (Edgard Morim) يعتبر أن مشروع بن لادن إذا جُرِّد من «البنلادنية»، وتَعَاطى مع الديمقراطية يصبح إيجابيًا لأنه يسير فى اتجاه التجمعات الكبرى.

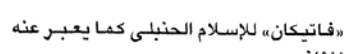
الإسلام السياسى ثورة أجهضت؟

أنطوان بسبوس (٤٧ سنة تقريبًا)، صحافى يعيش فى فرنسا منذ نحو عشرين سنة. كان قريبًا من «الكتائب» خلال الحرب الأهلية فى لبنان. أنشأ منذ أكثر من عشر سنوات «مرصد البلدان العربية» وهو مكتب استشارة متخصص فى الدراسات الاستراتيجية، التى تهم الشركات الصناعية الكبرى كما تهم المؤسسات الفرنسية.

كتابه «الإسلام السياسى ثورة أجهضت» خصصه للحديث عن ظاهرة انحسار المد الإسلامى، وهو يشتمل على خمسة فصول. خصص الفصل الأول للتيار الإسلامى السياسى كما ظهر فى خضم النزاع الأمريكى السوفياتى، ويركز بصفة خاصة على دور الأفغان العرب فى أفغانستان، وعن احتضان الطالبان، بعد استلامهم الحكم، لأسامة بن لادن، وبعد أن يشير لأهم الأحداث والظواهر التى عرفتها المنطقة العربية، مثل «الانتشار الذى حققه الإسلام الشيعى» فى لبنان، حسب تعبيره، ومثل تمرد جهيمان فى الكعبة مطلع ١٩٨٠، ينهى هذا الفصل بتخصيص نحو ست عشرة من الصفحات لأسامة بن لادن الذى يسميه «شى جيفارا» الإسلام. ويذكر أنه أصبح ملتزمًا التزامًا كلياً بقضية الإسلام السياسى منذ ١٩٨٤، وأنه انتهى من تنظيم «القاعدة» عام ١٩٨٨. ومن أفغانستان نشر بواسطة الأفغان العرب شبكاته فى أكثر من عشرين بلدًا عربيًا وغربيًا. وما لبث بن لادن أن أصبح العدو رقم واحد لأمريكا ومطلوبًا رأسه من أكثر من بلد عربى بالإضافة إلى أمريكا. وبعد أن يستعرض محاولات الاغتيال التى تعرض لها، يتحدث عن مفاوضات الأمريكان مع نظام الطالبان من أجل تسليم أسامة بن لادن مقابل اعتراف أمريكا والأمم المتحدة بنظام طالبان. لكن المفاوضات فشلت لأن العقلية الأفغانية لا تقبل تسليم من هو فى حمايتها. ويستشهد المؤلف فى هذا الصدد بأن الأفغان، رفضوا عقب الحرب العالمية الثانية تسليم ألمان لجأوا إليهم وأصروا على عدم تسليمهم إلى الحلفاء.

فى الفصل الأول يتعرض الكاتب للعلاقة بين التيار الإسلامى العالمى ومذهب محمد بن عبد الوهاب، هذا المذهب الذى تطور حتى أصبح بمثابة





كتاب الزاوية

دير ياسين
مراسل أجنبي يروي

وصف مراسل الإسوشييتد برس فظائع اليهود في قرية دير ياسين فقال إنه ذهب إلى أحد مستشفيات الحكومة ليلة أمس حيث التقى بفتاة عربية تسمى فهيمة مصطفى على أصيبت بجراح نتيجة لانفجار قنبلة يدوية وراحت تروى له في فزع شديد كيف هاجمت عصابات الإرهاب اليهودي قريتها.

ومضت الفتاة تقول: كانت القرية كلها نائمة عندما بدأ حوالي ٥٠٠ يهودي بمدافعهم الثقيلة هجومهم الفظيع، وحاول حراس القرية وعددهم حوالي ٤٠ رجلاً أن يصدّوا هذا الهجوم. ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح. واقترب اليهود من باب بيتنا فألقى أبي عليهم قنبلة يدوية، فأطلقوا عليه رصاصهم فأصابوه في كتفه. فخرج من البيت مسرعًا ليختفي في فرن القرية، وصحبت أنا أشقائي وشقيقاتي إلى فناء البيت، واحتمينا خلف حمار، ولكن شقيقتي الطفلة أعولت فدلّت اليهود على مخبئنا وأوقفونا جميعًا في صف واحد بما فينا جدتي وانهالوا علينا بالسباب والإهانات التي أعقبوها برصاص مدافعهم الرشاشة.

ونقلونا في سيارتين إلى مستعمرة غفعت شاؤول حيث وقف اليهود يسخرون منا ويضحكون، ونُقلنا بعد ذلك إلى الطريق العام حيث طُلب منا أن نغادر السيارتين.

وطلبوا إلينا بعد ذلك أن نعطيهم كل ما نملك وإلاّ أطلقوا علينا النيران. ثم وقف اليهود في دائرة حولنا ودخلت الفتيات اليهوديات إلى الدائرة ونزعن ثيابنا جميعًا، وتركننا عاريات كما ولدتنا أمهاتنا وسلبن الأقراط والخواتم التي نملكها، والتقطوا لنا صورًا ونحن عاريات ثم أمرونا أن نرتدي ملابسنا ونسير في اتجاه بوابة يافا.

«فاتيكان» للإسلام الحنبلي كما يعبر عنه المؤلف.

يعقد بعد ذلك فصلاً ثالثًا عنوانه «خاتمي يقلب صفحة الثورة الخمينية». وهو يعتبر خاتمي نصيرًا للحداثة ومنفتحًا على الغرب. وهو إذ يتعرض للعبة الشد والجذب بين رئاسة الجمهورية ومؤسسة الملالي، يؤكد أن «الإيرانيين بعد عشرين سنة من الثورة الإسلامية أدركوا أن مكان الدين هو المسجد وليس الحلبة السياسية. لأن طبقة رجال الدين خسرت ما كانت تحظى به من تقدير عندما أصرت على ممارسة حكم مطلق» (ص ١٠١).



أما الفصل الرابع فيخصصه للجزائر تحت العنوان التالي: «فشل الديمقراطية وإفلاس الإسلام السياسي بالجزائر». وفيه يستعرض الأطوار التي مرت بها الجزائر منذ «انتفاضة» ١٩٨٨ إلى أن تم انتخاب الرئيس عبد العزيز بوتفليقة.

وفي الفصل الخامس يتحدث عن النظام المصري ومزاوجته بين التفاهم مع التيار الإسلامي وقمعه.

ويختم الكتاب بخلاصة يقول فيها: «انتهى القرن العشرون بكارثة حقيقية حلت بالتيار الإسلامي الراديكالي في البلدان العربية، كارثة قضت على فرصته في أن يستولي على الحكم في المدى القريب. إن الإسلاميين إذ اعتمدوا مذهبًا يتناقض مع العالم العصري واستعملوا عنفًا أعمى، قد تعرضوا للانقسام، وتلاعب بهم البوليس السياسي، وأصبحوا يمثلون الشر في نظر السكان، فخسروا المعارك التي أنشبوها ضد الحكومات القائمة، لأنهم اصطدموا مع سلطات متسلطة، وواجهوها في ميدانها المفضل: وهو العنف والقمع. إن الأنظمة العربية تدافع عن نفسها بأقصى ما يمكن من قوة، دون أن تابه بالرأي العام، وطنيًا كان أو عربيًا أو دوليًا: كل الأنظمة العربية واجهتهم بصرامة سواء كانت ملكية أو جمهورية، علمًا بأن النظم الجمهورية سجلت أرقامًا قياسية في طول البقاء، ويحاول بعضها أن يؤسس لتوريث الحكم في خلفه». (ص ٢٥٧).

ويتساءل المؤلف في هذه الخاتمة: «هل يعني هذا أن الخطر الإسلامي قد زال نهائيًا؟ رغم أننا شرعنا في نهاية دورة تفضي إلى وضعية جديدة، فإننا أبعد ما نكون عن استخلاص نهاية الإسلام السياسي كايديولوجية سياسية - دينية، تطمح إلى ممارسة الحكم وتدين «المنحرفين»، وتبعد آخرين، وتدعو إلى العنف وتمارسه. ونظرًا لاستمرار الأسباب التي مهدت لظهور وانتشار الإسلام السياسي حاضرًا، فسوف نشهد في المستقبل انبعاث هذه الظاهرة خاصة في بلدان لم تعرف جحيم العنف والحرب الأهلية، في الوقت الذي يتواصل فيه العنف، بدرجات متفاوتة في الجزائر التي انفجر فيها عام ١٩٩٢».

لقي هذا الكتاب عند صدوره رواجًا كبيرًا، إذ يلبي حاجة جمهور متلهف لمعرفة كل شيء عن الإسلام السياسي، وقلق من الآثار التي يمكن أن يخلفها في بلد مثل فرنسا عرف عمليات إرهابية، كان تنظيم بن لادن وراءها ولو بصورة غير مباشرة، كما يلمح لذلك كتاب أنطوان بسبوس.



ولعل أحد عوامل نجاح هذا الكتاب عندما صدر أنه زيادة على ما ذكر، سهل التناول؛ فهو يعتمد في معظم ما يقدمه من معلومات على كتابات صحفية مستقاة من صحف عربية وغربية. ومن هنا وقوعه في أخطاء تاريخية، اقصد أنه يسوق أحيانًا معلومات صحيحة لكن يضعها في غير وقتها. فهو مثلاً ينسب تصريحًا للرئيس بومدين حول الرشوة على أنه صدر عنه سنة ١٩٧٤، في حين أنه صدر منه أثناء اجتماع في عاصمة الغرب الجزائري انعقد عام ١٩٦٦. (ص١١٢). كما أن هناك مصطلحات مثل «الإسلام الثوري» تحتاج إلى تدقيق. كما أنه لم يتعرض بالتحليل للأسباب التاريخية التي أدت إلى أزمة السكن (ص١١٤) فهي ترجع إلى عهد الرئيس بومدين الذي رفض منذ ١٩٦٦ سياسة تنظيم النسل التي اقترحت عليه، ولم يضع سياسة إسكان اجتماعي، بل صدرت تنظيمات غير مفهومة تمنع التعامل مع العقار أي الأرض المعدة للبناء، بيعًا وشراء.

وكذلك ما ذكره في هامش ص ١١٦، عن فتوى صدرت بإعدام «ابن بيتور» عندما عين رئيس حكومة عام ١٩٩٩ «لأنه إباضي» حسب ما أورده. فهي لا تستحق الذكر إلا في سياق توضيحي كامل، لأنها تجعل القارئ غير الجزائري يتصور أن حكم الإعدام صدر في حقه لانتمائه الطائفي وليس لكونه تحمل مسئولية في نظام تعتبره الجماعات المسلحة «كافرًا». فالمذهب الإباضي ما فتئ مقبولاً في الجزائر، ولم يتعرض الإباضيون لأي اعتداء أو معاملة سيئة بسبب مذهبهم. وهم متواجدون في جميع أنحاء الجزائر. وأول ما ظهرت فكرة التمييز ضد الإباضيين عام ١٩٥٥ بإيعاز من مصدر استعماري، لذلك تصدت لها جبهة التحرير في الإبان وأحبطتها بسرعة.

وفي صفحة ١١٧ يستعرض ما يقوله السكان وما تردده صحيفة الجبهة الإسلامية للإنقاذ عندما تنتقد أزمة السكن وتندد بانعدام المساواة فيه؛ فهو يصدر عن فكرة التسوية المطلقة بين الناس، كأنهم «أسنان مشط» (egalitarinne) وليس عن المساواة بمفهومها الإسلامي أو المدني أو هما معًا - فالصورة التي يقدمها في هذا الصدد كانت تبدو نشازًا عام الاستقلال. أما في عام ١٩٩٨ فقد تنوسيت وتعود عليها الناس، فلا مكان لها في كتاب يحلل أزمة التيار الإسلامي، إلا إذا كان ذلك ضمن تحليل شامل ومعمق لجميع مظاهر الأزمة وجذورها التاريخية.

ومجمل القول في هذا الكتاب أنه سد، كما قلنا، فراغًا عند صدوره، لكنه لا يمثل دراسة

معمقة لأزمة التيار الإسلامي. ولعل عذر كاتبه أنه يتوجه به لقراء عاديين في فرنسا وليس لباحثين أو متخصصين.



إنهاك الأيديولوجية الإسلامية

أما كتاب «جيل كيبيل» «الجهاد: انتشار وانحسار الإسلام السياسي» الذي صدر عن دار جاليمار عام ٢٠٠٠ أيضًا، فهو من تأليف باحث متخصص، ٤٦ سنة، أستاذ جامعي وعالم اجتماع وسياسة. وقد كان أول أعماله أطروحة عن الحركات الإسلامية المصرية عام ١٩٨٤، وأصدر كتاب «ضواحي الإسلام» عام ١٩٨٧، و«انتقام الله» عام ١٩٩١. وكتابه الذي نعرض له اليوم عن انتشار وانحسار الإسلام السياسي، قضى خمس سنوات في إعداده.

وهو يحدد هوية كتابه هذا في المقدمة عندما يتعرض للكم الضخم من الخُطب والمواثيق والنشرات والأدبيات والأبحاث التي صدرت عن الإسلاميين خلال الأربعين سنة الماضية بدءًا من المودودي في باكستان، وسيد قطب في مصر، والخميني في إيران، وانتهاء بالجيل الجديد الذي خلفهم هنا وهناك. ولا شك أن استنطاق هذا الكم الكبير من الوثائق أمر صعب لأنه يتطلب معرفة جيدة باللغات التي كتبت بها، واطلاعًا واسعًا على الظروف التي حفت بصدورها، والتي تختلف باختلاف المناطق من ماليزيا إلى باكستان إلى الجزائر إلى مصر وتركيا وإيران والبوسنة. ويشير أن ما صدر من أبحاث معتمدة على استنطاق تلك الوثائق ظل حبيس الدوائر الأكاديمية، ثم يقول: «إن طموح هذا الكتاب هو أن يعرض الظاهرة في مجموعها، من خلال العالم، على مدى ربع القرن الذي مضى. وذلك بملاحظة تطورها وتتبع مختلف مكوناتها وعلاقاتها مع محيطها، سواء في البلدان المعنية بها بدرجة أولى، أو في مجتمعات ودول البلدان الغربية. إذ من الممكن الآن بعد مرور جيل كامل على بدايات ظهورها أن نضبط حصيلة حقيقية لها».



وهو إذ يشير إلى اختلاف الظروف الاجتماعية والنفسية والتاريخية التي تطورت فيها الظاهرة الإسلامية، يسجل أن تعقيدات تلك الظواهر وسمكها وكثافتها تجعل لاغية كل محاولة تؤسس على أحكام قيمية تنطلق من تصوير مثالي للحركة، أو تنديد شديد بها. كما يسجل أن مثل المسعى الذي التزم به كان يبدو مستحيلاً منذ عشر سنوات، لكنه أصبح الآن ضرورة لا محيد عنها. لأن الحركات الإسلامية دخلت مرحلة انحسار تضاعفت وتيرتها منذ منتصف سنوات التسعينيات من القرن العشرين. ومن هنا فإن التعرف على أسباب هذا الانحسار، وتقييم تأثيراته، والتنبؤ بنتائجه، يمثل رهانًا عصيبًا بالنسبة للمستقبل القريب لعالم إسلامي أصبح يَعُدُّ في بداية الألفية الثالثة أكثر من مليار نسمة متجاوزًا بذلك عدد المسيحيين في العالم.

إن الظاهرة الإسلامية خلال الفترة الفاصلة بين عام ١٩٧٠ وعام ٢٠٠٠ كانت - كما تبين لنا فيما بعد - قد كشفت عن الانقلابات المهمة والمتغيرات المأساوية التي عرفتها عوالمها بعد مرور جيل بعد الاستقلال. إنها شكلت إلى حد بعيد مرحلة النفي للعصر الذي سبقها وهو عصر الحركة الوطنية. ومن هنا فإن الإنهاك الذي لحق بالأيديولوجية الإسلامية يفتح الطريق لعصر ثالث يفترض فيه أن يتجاوز ما سبقه. ثم يقول المؤلف: «إن هذه المرحلة التي تبتدئ مع القرن الحادي والعشرين سوف تشهد دخول العالم الإسلامي في زمن الحداثة حسب أشكال من الاندماج في العالم الغربي لم يسبق أن عُرفت، وخاصة عن طريق الهجرات وما تفرزه من ظواهر، وبسبب الإعلام وثورة الاتصالات. ولكي يكون توقعنا للنتائج المستقبلية دقيقًا، يجب أن نقدم حصيلة للعصر الذي مضى، ونفهم كيف استطاع الإسلام السياسي أن يُخَلِّفَ الفكر الوطني مع احتفاظه ببعض خصائصه، ثم يجب أن نفهم كيف يمكن للانحسار الإسلامي أن يفتح الطريق بدوره لديمقراطية إسلامية تبحث عن طريقها».



من الصعب أن يحوصل الإنسان هذا الكتاب - الحصيلة ويلخصه في صفحات محدودة؛ فهو أولاً كتاب ضخم، من حيث عدد الصفحات، بالقياس إلى سابقه، إذ يمثل ثلاثة أضعافه. وهو ثانيًا دراسة متعمقة وشاملة في الوقت نفسه؛ فقد خصص الفصل الأول للتحول والانقلاب الذي حدث في كل البلدان العربية بعد يونيو ١٩٦٧، ثم يتناول بالتشريح حالة الإخوان المسلمين بمصر؛ ويقدم في نفس الفصل صورة عن العلاقة بين الإسلاميين ورجال الأعمال في ماليزيا والتوترات العرقية فيها. كما يتناول دكتاتورية ضياء الحق في باكستان والشرعية التي أصبغها عليه التيار الإسلامي. وينهي هذا الفصل الأول بقسم عن الدروس المستخلصة من الثورة الإيرانية ومفارقاتها.

في الفصل الثاني يسهب الحديث عن انتشار الإسلام السياسي وتناقضاته، فيستعرض الفورة التي أحدثتها الثورة الإسلامية في إيران وما ترتب عليها من تأثير في محيطها العربي وغير العربي. كما يتعرض للحواجز التي أقيمت في وجهها، ومن ضمنها الجهاد في أفغانستان. ويخصص قسمًا من هذا الفصل، هو الثالث للكلام عن الإسلام المالي والهيمنة السعودية. وفي القسم الرابع من



دير ياسين دموع التماسيح؟!

علقت صحيفة «فلسطين» على الحادث قائلة: مضت ثلاثة أيام على الهجوم الوحشي الأثيم على قرية دير ياسين ولم يصدر عن الهيئات اليهودية أي تصريح سوى ذلك المؤتمر الصحفي الذي عقده اثنان من السفاحين قالا إنهما يمثلان عصابتي شتيرن والإرغون وقد أفضوا أمام المراسلين الأجانب بأنهم قتلوا مائتي عربي أو يزيد محاولين إيهام المراسلين بأن القتلى الرجال هم المجاهدون العرب، وقد تسنى لهم بذلك إحراز نصر عسكري مزعوم.

وقصدت العصابات اليهودية - ومن ورائها الوكالة اليهودية - في كذبتها هذه إظهار مقدراتها العسكرية في العالم الخارجي ولاسيما في أمريكا حيث أخذ الرأي العام يدرك قوة اليهود العسكرية على حقيقتها وليس كما صورتها له الدعاية الكاذبة، وأرادوا من عرض نساء وأطفال القرية العربية في القدس رفع الروح المعنوية عند أهالي القدس اليهود الذين تحطمت أعصابهم مؤخرًا وعرتهم خيبة أمل شديدة بسبب الهزائم المتلاحقة التي مُنوا بها على أيدي الأبطال العرب.

إن تنصل الوكالة من ذلك العمل الإجرامي الشنيع كذب وتضليل جديد تضيفهما إلى سجلها الحافل بالأضاليل.

إن مناورات الاستنكار بالكلام لم تعد تجوز على أحد حتى ولا على حكومة الانتداب التي أوجدت الوكالة وعصاباتها المختلفة. فإن لم تستطع الوكالة اكتشاف المجرمين والقبض عليهم وتسليمهم للعدالة، فلا يعني ذلك إلا موافقتها على عملهم الدنيء وعجزها عن السيطرة على الشعب الذي تدَّعي رعاية شئونه.



الفصل الثانى يتحدث عن الانتفاضة فى فلسطين و«أسلمة» القضية الفلسطينية، لينتقل فى القسم الموالى إلى سنوات الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى الجزائر. ويعنون القسم السادس بـ «الانقلاب العسكرى والإسلاميين بالسودان». ليختتم هذا الفصل الثانى بقسم يخصصه لأوروبا كأرض إسلام والحجاب والفتوى.

أما الفصل الثالث فيعنونه بـ «بين العنف والديمقراطية». ويجزئه إلى أحد عشر فرعًا. يبدئها بحرب الخليج الثانية وما أحدثته من تجزئة وانقسام فى الصف الإسلامى، ويعقب عليه بشرح ما يسميه «الفخ الذى نصبته السعودية لنفسها». وينتقل بعد ذلك للحديث عن «تحلل وتوالد الجهاد الأفغانى» ثم حرب البوسنة ورفض تطعيمها بالجهاد. وفى قسم خامس يتحدث عن «حرب الجزائر الثانية ومنطق المجازر»، لينتقل إلى مصر وخطر الإرهاب على الظاهرة الإسلامية. ثم يحلل ما يسميه «الحرب التى أخطأت الغرب». وفى جزء ثامن من هذا الفصل الثالث يتحدث عن «أسامة بن لادن وأمريكا والإرهاب والمشهد الكبير». ثم يعود إلى فلسطين «بين المطرقة والسندان: حماس، إسرائيل وعرفات». ليتحول إلى الأردن، ويختتم هذا الفصل عن تركيا والضغط على الإسلاميين الأتراك ليقبلوا باللائيكية.

وفى خاتمة الكتاب يخصص نحوًا من أربعة عشر صفحة للخلاصة التى يعنونها بتساؤل: «نحو ديمقراطية إسلامية».

Ahmed Rashid
Préface de Olivier Roy
L'ombre des talibans

لقد كانت الأمم والبلدان الإسلامية، تأخذ كل منها بالإسلام على طريقتها، وبمقتضى الظروف التاريخية التى تحكمت فى صياغة ثقافاتها وتكوين فهمها للإسلام. فلم يكن يوجد اتصال وثيق بينها، ولم يكن هناك تبادل فعلى متواصل بين تياراته

توظيف أفغانستان ضد إيران وضد فلسطين

يتبين من استعراض الفصول الثلاثة ومحتوياتها، أنه من غير الممكن تلخيص الكتاب ونقده فى هذه الصفحات. وفى انتظار فرصة تسمح بكتابة عرض نقدى مفصل، يمكن أن نأخذ فكرة عن محتواه من خلال تلخيص التمهيد أو المدخل الذى كتبه فى نحو خمسين صفحة، فهو يرجع - وليس الوحيد الذى فعل ذلك - بدايات الإسلام السياسى إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣. ويعتبر أن المرحلة الأولى للانتشار الكاسح تمثلها الثورة الإسلامية فى إيران ١٩٧٩. ونظرًا للقفزة الكبرى فى أسعار البترول التى تسببت فيها حرب أكتوبر، فقد وجدت إيران الإمام الخمينى فى متناولها أداة تخدم توجهها الراديكالى وتعبئتها لمن تسميهم «المستضعفين»، بينما «وضعت المملكة العربية السعودية ثروتها الضخمة فى خدمة مفهوم محافظ للعلاقات الاجتماعية». ومن هنا اتسم الإسلام السياسى منذ بداياته بـ «الازدَواجية»، وذلك ما يفسر الصعوبة التى يصطدم بها من يحاول فهمه. فنحن نجد فى صفوفه شباب المدن الفقير نتيجة الانفجار الديموجرافى فى العالم الثالث، والهجرة الجماعية من الريف إلى المدينة التى مكنت لأول مرة فى التاريخ هؤلاء من الدخول إلى أقسام المدرسة. كما نجد ضمن الصفوف نفسها البرجوازية التجارية والطبقات الوسطى المتدينة؛ ونجد أيضًا أطباء ومهندسين أو رجال أعمال انتقلوا إلى البلدان البترولية بحثًا عن عمل. فهؤلاء إذ أصبحوا أثرياء، أُبعدوا عن السياسة. إن هذه الجماعات و«الفئات الاجتماعية التى تفرق بينها مطامحها ونظرتها إلى العالم، ستجد، طيلة جيل من الزمان، فى لغة الإسلام السياسى وخطابه ترجمة مشتركة لمشاعر الحرمان المختلفة لدى هؤلاء وأولئك وتعبيرًا عن آمالهم المستقبلية التى تختلف من فئة لأخرى».

أما الخطاب السياسى الذى يجمع بين هذه الفئات المختلفة فهو صادر عن «شباب مثقف، حديث عهد بالتخرج من كليات علمية وتقنية يغذيها أصحاب الأيديولوجيات التى ظهرت فى سنوات الستينيات». (وهو يقصد بذلك كلا من الإمام الخمينى، والمودودى وسيد قطب).



وهكذا تشكلت قوة ضخمة، سياسية لفتت انتباه دول المنطقة؛ بعضها حاول قمعها، وبعضها شجعها. ذلك أن الثورة الإسلامية الإيرانية جعلت الأنظمة تنتبه إلى أن هزيمة الشاه ترجع إلى أنه استعدى رجال الدين، وأن الخمينى انتصر لأنه عرف كيف يوحد الجماهير حوله، فقراء وتجارًا وحتى الفئات اللائيكية المتوسطة. وقد انصرف جهد الأنظمة فى المنطقة إلى محاولة فصل البرجوازية المتدينة عن الإسلام السياسى، بتقديم تنازلات معنوية وثقافية ساعدت عمليا على مناخ «الأسلمة» التى تمت «فى اتجاه رجعى»، كما ضحت الأنظمة بالمثقفين اللائيكيين والكتاب وكل النخبة المتأثرة بالغرب. وقد «أدت المملكة العربية السعودية دورًا مركزيًا فى هذا المسار، بتوزيع المال واستقطاب الطبقات الوسطى المتدينة اعتمادًا على ما يوفره النظام البنكى الإسلامى الذى تهيكل فى هذه الفترة» (ص ١٣).

وقد تميزت العشرية الأولى (١٩٧٩ - ١٩٨٩) بصراع حاد على المستوى العالمى بين المملكة السعودية وإيران الخمينى. «ففى مواجهة تصدير الثورة الذى تسعى لتحقيقه إيران، على النمط السوفيتى وحسب ما عمدت إليه الثورة الفرنسية، عبأت المملكة السعودية إمكانياتها لإيجاد سدود توقف انتشار وتصدير الثورة، حسب الأسلوب الذى استعملته أمريكا ضد الاتحاد السوفيتى فى سنوات الحرب الباردة» (ص١٣).

ذلك هو الإطار الذى يتناول فيه المؤلف حركة «الجهاد» التى دارت معاركها على الأرض الأفغانية، والتى خطفت الأضواء من المعارك التى يديرها صدام ضد إيران بدعم من دول الخليج، ومن الممارسات الإيرانية فى لبنان بواسطة حزب الله وفى الحرم المكى حيث سعت إلى إثارة القلاقل. فحرب أفغانستان ضد الوجود السوفيتى تهدف - زيادة على إلحاق هزيمة بموسكو مثل الهزيمة التى لحقت بأمريكا فى فيتنام - تهدف أيضًا إلى استقطاب المناضلين الإسلاميين فى العالم وصرفهم عن تلبية دعوة الإمام الخمينى للتعبئة ضد «الشيطان الأكبر»، أمريكا - وفى نفس الوقت تحل قضية أفغانستان وتأخذ مكان فلسطين فى الخيال العربى، فاتحة الطريق لأن يأخذ الإسلام السياسى مكان القومية العربية.

«وقد ظلت المصالح الخاصة السعودية والأمريكية والباكستانية، تتطور إلى غاية ١٩٨٩ أن حركة الأفغان تحت السيطرة (ص ١٤) لكن هذه السنة عرفت الانتفاضة الفلسطينية التى برزت فيها «حماس» مكان منظمة التحرير، كما ظهرت الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالجزائر، فى الوقت الذى فتح فيه انقلاب عسكرى بالسودان الطريق أمام حسن الترابى الذى يصبح هو المنظِّر الأساسى للإسلام السياسى وسيد النظام فى الخرطوم.

وإذا كان الإمام الخمينى قد اضطر فى هذه الفترة إلى الانسحاب من الجبهة العراقية موقعًا الهدنة مع صاحب بغداد، فإنه سعى لتعويض هذا الفشل بالفتوى التى أصدرها بإعدام سلمان رشدى: فهو بذلك وَسَّعَ الفضاء الإسلامى رمزيًا إلى العالم الغربى ابتداء بأوروبا الغربية. وتزامن ذلك مع مسالة الحجاب التى شغلت فرنسا عندما أصرَّت تلميذات على ارتداء الحجاب داخل المدارس الفرنسية، فسجلن بذلك دخول الجيل الجديد من المهاجرين فى معترك السياسة. ولا شك أن انهيار الاتحاد السوفيتى قد فتح مجالاً جديدًا للإسلام السياسى فى عدد من الجمهوريات السوفيتية سابقًا.

لكن الإحساس بالانتشار الساحق للإسلام السياسى يعتمد على قواعد اجتماعية هشة. فالحلف الذى يضم الشباب الفقير فى المدن مع الطبقات الوسطى المتدينة، الذى عززه مثقفون صهروا المذهب النظرى الإسلامى، لم يصمد كثيرًا فى مواجهته للأنظمة القائمة؛ فقد نجحت هذه فى الكشف عن التعارض بين الطموحات الملموسة والحلم المبهم بإقامة الدولة الإسلامية وبين تطبيق أحكام الشريعة.



وهكذا لم تتحقق آمال البعض ولم تتأكد مخاوف الآخرين. فقد بدأ عقد التسعينيات باحتلال جماعات متطرفة للمجال الإسلامى العالمى، مثل «الجماعات الإسلامية المسلحة» فى الجزائر، وحركة الطالبان فى أفغانستان.

وينسب المؤلف بدايات الشروخ التى عرفتها تحالفات الإسلام السياسى إلى حرب الخليج الثانية. وبعد سقوط «كابول» فى أيدى بعض الحركات الجهادية، أبريل ١٩٩٢، توزع المجاهدون بين بلدان ثلاثة: البوسنة والجزائر ومصر، لكن اتفاقيات «دايتون» عام ١٩٩٥ سجلت فشلهم فى البوسنة، بينما حمل الأفغان العرب للجماعات المسلحة فى الجزائر دعمًا معتبرًا. ولا شك أن الأساليب والممارسات التى عمدت إليها الجماعات الإسلامية فى الجزائر، وانفصالها عن واقع الطموحات الشعبية التى كانت تغذى التيار الإسلامى، على امتداد سنوات الثمانينيات، قد وضعت حداً لانتشار المد الإسلامى الذى بدأ فى الانحسار منذ ١٩٩٤ - ١٩٩٥. وفى ١٩٩٦ عندما استولى الطالبان على الحكم فى كابول، شرعوا فى ممارسات أفزعت الطبقات الوسطى المتدينة، مثل الإجراءات التى اتخذت ضد النساء وإعدام العصاة، وعمليات القتل ضد الكفار، وضد شيعة البنجاب وهندوس كشمير.

وابتداء من عام ١٩٩٧ ظهرت مؤشرات على أن عددًا من القوى التى يتشكل منها التحالف بين الإسلاميين، بدأوا يبحثون عن مخرج. وقد كان انتخاب الرئيس خاتمى ضد إرادة رجال الدين ومؤسستهم وبفضل دعم الشباب الذى لم يعرف الثورة الإسلامية والطبقات المتوسطة فى المدن أول مظهر قوى من مظاهر التحول الجديد.

ويختتم المؤلف هذه المقدمة بتساؤل يتراوح بين التفاؤل بالمستقبل والشك فيه، إذ يقول: «يبقى الآن أن ننتظر كيف يتطور هذا التيار الجديد، وهل تستطيع النخب الحاكمة خاصة أن تغتنم فرصة تاريخية من أجل أن تؤسس الديمقراطية فى البلاد التى تحكمها، وهل تقدر على تقديم التضحيات اللازمة لتوسيع القاعدة الاجتماعية، أم تصر على التمسك بمنطق امتلاك الدولة، وهو ما ينذر بعواصف جديدة وكوارث شديدة». ■

أبـــــراج أمـــريكـــا العـــاجيـــة..

هبــــة رءوف عـــزت

إسبوزيتو تعـرض بعـد ١١ سبتمبر مباشـرة لهجـوم شرس كان كفيلاً بأن يسـكته أو يهـزه على الأقـل مثلمـا أفلـح فى إسـكات وإرهـاب آخرين من أسـاتذة الدراسـات الإسـلامية والشـرق أوسـطية بـل ودفـع بعضهـم لترك الساحة الأكاديمية الأمريكـية برمتها والذهـاب للتدريس فى إنجلترا

■■ ربما لم نسمع مؤخرًا كلمات أصدق من كلمات جون إسبوزيتو الأستاذ البارز بجامعة جورج تاون ومؤسس ومدير مركز التفاهم الإسلامى المسيحى فى زيارته للقاهرة منذ أيام والتى التقى فيها بمحررى وكتَّاب مجلة «الكتب وجهات نظر» حين قال فى معرض تحليله لأحداث الحادى عشر من سبتمبر وآثارها الواسعة: «يجب أن ندرك جميعًا أن هذه اللحظة كانت لحظة تحول حقيقى، وأن تداعياتها ستغير وجه العالم وتوازنات القوى به، وأن علينا أن نعمل بضعف الجهد ونعطى ضعف الوقت لدعم قيم الحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية.

الإرهاب والساحـة الأكاديميـة الأمريكيـة:

فى جولته التى استغرقت ٥ أيام بالقاهرة وحاضر فيها إسبوزيتو فى أكثر من دائرة فكرية والتقى بالعديد من الباحثين والأكاديميين والمفكرين، وأصر على أن يؤكد أنها زيارة خاصة للالتقاء بالأصدقاء والزملاء، قام جون إسبوزيتو بتدشين كتابه الأخير الذى صدر مع وصوله لمصر فأرسلت له دار أوكسفورد الجامعية للنشر النسخ الأولى للقاهرة مباشرة، وهو الكتاب الذى اختار له عنوان «حرب غير مقدسة: الرعب باسم الإسلام»، والذى تم طرحه بالمكتبات فى أوروبا وأمريكا منذ أقل من أسبوعين. ولعل المتابع لأعمال إسبوزيتو بدءًا من «التهديد الإسلامى: وهم أم حقيقة» ومرورًا بموسوعة أوكسفورد للعالم الإسلامى (٤ أجزاء)، و«الإسلام: الطريق المستقيم» و«الإسلام والعلمنة فى الشرق الأوسط» و«المرأة فى القوانين الإسلامية للأسرة» و«الإسلام والتنمية»، يدرك أهمية أن نقرأ ما نشره إسبوزيتو بعد ١١ سبتمبر.

1- Unholy War
Terror In the Name of Islam
(حرب غير مقدسة: إرهاب باسم الإسلام)
John Esposito
OxFord University Press, 2002.

2 - Ivory Towers on Sand: Failure of Middle Eastern Studies in America
(أبراج عاجية فوق الرمال: فشل دراسات الشرق الأوسط فى أمريكا)
Martin Kramer
Washington: The Washington Institute For Near East Blicy, 2001.

ليس لأن إسبوزيتو كان موضوعيًا فى كتاباته كلها عن الإسلام وفى نشاطات مركزه بجامعة جورج تاون والذى يدرس الإسلام ويدرِّسه لطلاب الجامعة فى المراحل الأكاديمية المختلفة، مثلما يدرس ويدرس المسيحية الشرقية ودور نصارى العرب فى التاريخ والحضارة والواقع والمستقبل، بل لأن إسبوزيتو تعرض بعد ١١ سبتمبر مباشرة لهجوم شرس كان كفيلاً بأن يسكته أو يهزه على الأقل مثلما أفلح فى إسكات وإرهاب آخرين من أساتذة الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية بل ودفع بعضهم لترك الساحة الأكاديمية الأمريكية برمتها والذهاب للتدريس فى إنجلترا. ولا عجب أن يأتى هذا الهجوم من اللوبى المناوئ الذى يقدم أسوأ صورة للإسلام والمسلمين فى الدراسات الأكاديمية وينشط فى الدوائر السياسية الأمريكية لدعم إسرائيل والدفاع عن صورتها ومصالحها لدى الإدارة الأمريكية.

ولكن دعونا نبدأ بالهجوم. وتحديدًا بكتاب مارتن كريمر الأكاديمى القادم من جامعة برنستون حاملاً رسالته للدكتوراه والذى قام بالتدريس فى أبرز جامعات الولايات المتحدة وهى جامعات شيكاغو وكورنيل وجورج تاون، وكان زميلاً لمركز وودرو ويلسون الدولى بواشنطن، ثم معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، إحدى أبرز الدوائر الأكاديمية اليهودية فى واشنطن، والأهم من ذلك كله أن كريمر كان مديرًا لمركز موشى ديان للدراسات الشرق أوسطية والأفريقية بجامعة تل أبيب.

كتاب مارتن كريمر الذى صدر بنهاية عام ٢٠٠١ كان بمثابة قنبلة فجَّرت جدلاً حادًا فى حقل دراسات الشرق الأوسط بأمريكا، واختار كريمر لكتابه عنوان «أبراج عاجية فوق الرمال: فشل دراسات الشرق الأوسط فى أمريكا» والناشر هو معهد واشنطن مرة أخرى. الأهم أن هدف نشر هذا الكتاب لم يكن سرًا، بل كتبه معهد واشنطن فى تقديمه للكتاب حيث أكد المعهد أنه يقوم بنشر هذا الكتاب «ليكون بين يدى صانع القرار فى واشنطن، هذا السياسى الذى قد لا يجد وقتًا لقراءة الكتابات الضخمة أو البحوث الطويلة». وبالفعل الكتاب جاء فى متن لا يزيد على ١٠٠ صفحة بعد حذف الهوامش والملاحق البحثية، رسالته واضحة وأفكاره محددة المعالم.. ورسالته لا لبس فيها ولا غموض. ضربة ١١ سبتمبر الموجعة هى مسئولية الأكاديميين فى مجال دراسات الشرق الأوسط والذين فشلوا فى أن «يتنبأوا» بالكارثة. ولماذا فشلوا؟ لأن الحقل برمته يرزح تحت وطأة أزمة حادة، أوضح كريمر معالمها بوضوح فى فصول الكتاب المختلفة وصاغها بإحكام ليصل إلى نتيجة محددة. مراجعة الدعم الفيدرالى لمراكز وأقسام دراسات الشرق الأوسط بالجامعات الأمريكية، ووضع معايير صارمة لأى تمويل لهذا الحقل، والدفع بعدد أكبر من غير الأكاديميين فى موقع الإشراف على المنح الأكاديمية بالحقل، وأخيرًا: اشتراط أن يخدم الحقل الحكومة الأمريكية بشكل مباشر فى سياساتها تجاه الشرق الأوسط.

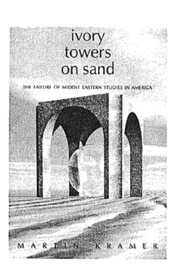


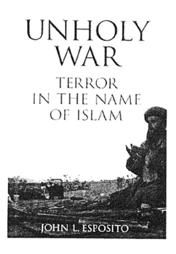
هذه النتيجة كانت بمثابة الحل الوحيد للمشكلة المعقدة، والأزمة الحادة التى حدد كريمر معالمها عبر ترتيب أفكار أطروحته كالتالى:

١ - إن الحقل كان أصلاً اختراعًا أمريكيًا بنهاية الأربعينيات كما تقوم الدوائر الجامعية الأمريكية بتقديم فهم أعمق للمنطقة يخدم سياساتها و«المصلحة القومية» الأمريكية ويضمن أن سياساتها التى ستؤثر على ملايين البشر بها ليست سياسات عمياء بل رشيدة. لكن الأكاديميين الذين قام الحقل على أيديهم كانوا فى أحيان كثيرة من الأمريكيين العرب أو من العقول الأكاديمية الأوروبية التى هاجرت لأمريكا للتدريس، وبذلك فإن المصلحة القومية لم تكن شغلها الشاغل بقدر ما كان البحث العلمى ومنهجيته، وهى مسألة مفهومة لكنها حالت دون أن يكون الحقل على صلة مباشرة بصنع السياسة الأمريكية.

٢ - إن اللحظة التى بدأت فيها أزمة الحقل تتضح مع نهايات السبعينيات هى اللحظة التى نشر فيها إدوارد سعيد (الفلسطينى!) كتابه «الاستشراق»، والذى ما لبث أن صار نصًا مرجعيًا يتهم كل من يدرس العرب والمسلمين وفق المناهج الغربية بالعنصرية والتحيز والمركزية الأوروبية، مما «أرهب» الأكاديميين وجعلهم «يحاولون» إثبات موضوعيتهم بالبحث فى الجوانب الإيجابية فى الثقافة والسياسة العربية، ورغم أن الحقل فشل فى «التنبؤ» بالثورة الإيرانية، فقد استمر أثر كتاب إدوارد سعيد كاسحًا فى دعم «ما بعد الاستشراق» وكتاباته.

٣ - إن المد الإسلامى الذى شهدته المنطقة العربية فى الثمانينيات والتسعينيات وكان «ينذر» بالخطر قد تم التعتيم عليه من قبل الباحثين فى مجال دراسات الشرق الأوسط ويخص هنا كريمر كتابات إسبوزيتو بهجوم خاص يتكرر فى فصول الكتاب المختلفة ويفرد له ١٢ صفحة من الكتاب محدود الصفحات، حيث يرى أن إسبوزيتو قد ضلل صانع السياسة الأمريكية خاصة فى عهد كلينتون وصرف نظره عن هذا الخطر الإسلامى بحديثه عن القوى الإسلامية باعتبارها قوى اجتماعية مدنية يجب دراستها فى سياق دراسة التحول الديمقراطى كعملية تاريخية ممتدة، وأن





محاولة إسبوزيتو التركيز على أصوات الاعتدال والتجديد كانت السبب الأول فى التقليل من خطر أصوات التشدد والعنف.



ويرى كريمر أن الانتفاضة الفلسطينية قد كرَّست هذا التوجه، إذ تمت دراستها باعتبارها حركة مدنية اجتماعية نضالية مما صرف النظر أيضًا عن الآفاق الخطيرة للانتفاضة على الصراع العربى ـ الإسرائيلى وتفجر «العنف».

وقد اعتبر الكتاب أن أحد عناصر قوة دراسات الشرق الأوسط فى أمريكا هو الدعم الفيدرالى الذى يعطى مكانة للهيئات الأكاديمية التى تتلقى هذا الدعم (على ضآلته والتى أشار كريمر ذاته إلى أنها لا تتجاوز ٤ ملايين دولار أى أقل من ثمن ٥ صواريخ كروز على أى بارجة أمريكية!)، ودعا للتدخل المباشر للكونجرس فى الرقابة على هذا المال وإلزام الأكاديميين بالتواصل مع السياسيين كشرط لتلقى الدعم الفيدرالى بعد أن أصرَّت الجمعية الأمريكية لدراسات الشرق الأوسط MESA لعقود على الحفاظ على استقلال البحث العلمى عن السياسة الرسمية الأمريكية ومؤسسات صنع القرار لضمان نزاهته ومصداقيته فى الداخل وفى الشرق الأوسط، وهو الاتجاه الذى ظل كريمر يسخر منه ويكيل له الاتهامات بأنه كان البرج العاجى الذى اعتصم به الأكاديميون فكانت النتيجة هى أنهم فشلوا فى الحفاظ على الأمن القومى الأمريكى (وهى أقسى تهمة يمكن أن توجه لأى جماعة فى الولايات المتحدة الآن!)، ويبارز كريمر رموز حقل دراسات الشرق الأوسط بشتى الاتهامات والتلميحات، فإسبوزيتو الذى تعده الهيرالد تريبيون أبرز باحث فى شئون العالم الإسلامى فى الولايات المتحدة، والذى وصفته جريدة الوول ستريت بأنه أحد العقول الأمريكية البارزة فى فهم واقع الإسلام، وهو الوصف الذى يرافق عروض كتبه ومحاضراته وتقديمه فى أجهزة الإدارة الأمريكية وفى الإعلام السياسى كمستشار وكمرجعية فى هذا المجال، يختزله كريمر فى كونه «باحثًا قادمًا من جامعة يسوعية حاصلاً على درجة الدكتوراه فى الأديان المقارنة تحت إشراف إسماعيل الفاروقى (الفلسطينى!) ومؤسس مركز التفاهم الإسلامى ـ المسيحى فى جامعة جورج تاون والذى قام على تمويل من مسيحى عربى قومى بالأساس، و«ارتضته» دار إكسفورد للنشر الجامعى ليصبح أبرز كتَّابها فى واقع العالم الإسلامى ما بين موسوعات ومعاجم وكتب بحثية».



وتهمة إسبوزيتو الأساسية أنه «قدم الإسلام للغرب بشكل ميسور الفهم ومن خلال المفاهيم الغربية حتى لا يظل الإسلام غريبًا وبعيدًا عن الذهنية الثقافية والأكاديمية الغربية»، وبسرعة يقفز كريمر للحديث عن العمليات «الانتحارية» فى «إسرائيل» وأحداث ١١ سبتمبر ليسخر من أى كلام عن التجديد الإسلامى، مؤكداً أن قوة التغيير الحقيقية نحو الديمقراطية والاعتدال هى الأنظمة العربية والدولة وليس المجتمع المدنى الوهمى، وربما نجا هنا نزيه أيوبى من هجوم كريمر لأنه غادر دنيانا بعد أن دحض هذا الزعم فى كتابه الضخم والمهم «تكريس الدولة العربية» (Overstating the Arab State) فى حين يؤكد كريمر أن الذى حدث فى حقل دراسات الشرق الأوسط «الراكد» هو «خطأ تأويل الدولة» (Misstating the State)، وادعاءات الأفق المدنى الديمقراطى للتيارات الإسلامية بل وللإسلام بشكل عام، ولا يخفى كريمر رؤيته هذه، بل يكرسها فى مدحه لمدرسة الاستشراق التى «كان لها آباء عظام» ـ على حد قوله ـ فى حين أن مدرسة ما بعد الاستشراق وجهود حقل دراسات الشرق الأوسط الأمريكى «بلا رموز»!

ويصوغ كريمر حججه متجاهلاً حقيقة أن حقل دراسات الشرق الأوسط فى الولايات المتحدة متنوع التيارات، ثرى بالتوجهات، وأن دراسة الأفق الليبرالى للإسلام وللمجتمع الإسلامى كان الشغل الشاغل للعديد من الباحثين فى العقدين الماضيين وفى دوائر دراسات المنطقة العربية والشرق الأوسط فى دول مختلفة ودوائر عديدة، وأن «اختراق الأمن القومى الأمريكى» ليس مسئولية الأكاديميين بل مسئولية أجهزة المخابرات والدفاع التى فشلت بشكل مذهل فى التنبؤ بأحداث سبتمبر، ورغم التهديد الصريح لأسامة بن لادن منذ ١٩٩٤ بما حدث، وتكرار إنكاره لمسئوليته عن أحداث العنف فى الرياض والظهران رغم مدحه المستمر الصريح لمن قام بها، وهى ذات الاستراتيجية التى اتبعها إلى نهاية العام الماضى قبل الدخول فى مرحلة «الجزيرة»، وهكذا فإن مسئولية الأكاديميين التى يؤكدها ما هى إلا محاولة منه للتعتيم على مسئولية الإدارة وأجهزتها الأمنية، فى حين يقدم نفسه ومركزه البحثى القريب من اللوبى اليهودى بمستشاريه من دبلوماسيين وعسكريين سابقين باعتبارهم الأكثر فهماً وحرصًا على المصلحة القومية الأمريكية، ويخاطب بهذه الفكرة العنكبوتية وبدون مواربة صانع السياسة فى واشنطن «ليتجاهل» كل ما يقال له من أهل التخصص الذين «خذلوه»!



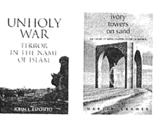
ويختتم كريمر كتابه بإلقاء ظلال من الشك حول جدوى حقل دراسات الشرق الأوسط برمته، متأرجحًا ما بين القول بأن تخلف المنطقة العربية مرجعه ثقافتها وبذلك فلا داعى للدراسات المقارنة أو ربط تحولها بتحولات عالمية من ناحية، ومؤكدًا فى المقابل فى فقرات أخرى أن العولمة ستقلل من خصوصية المنطقة بما يدفع للتساؤل حول مستقبل دراسات المناطق والحاجة إليها ولاستمرارها. لا عجب إذًا أن يثير كتاب كريمر «المتحلى» بالموضوعية والذى لا يصمد أمام البحث والتمحيص والتدقيق ضجة هائلة بين المتخصصين فى دراسات الشرق الأوسط فى الولايات المتحدة، وأن يفلح فى إخافة البعض واستعداء فريق من صنَّاع القرار ضد أهل التخصص فى لحظة تاريخية تحتاج فيها السياسة الأمريكية عقولاً مركبة تعرف ثقافة المنطقة وتاريخ الصراع العربى الإسرائيلى وأبعاده وتتجاوز معرفتها بواقع العرب والمسلمين تقارير المخابرات ودردشات الدبلوماسية فى حفلات الكوكتيل بعد تبادل الأنخاب مع رموز فكرية لا تختلف فى رؤيتها كثيرًا عن نخبة واشنطن.

هكذا تحدث إسبوزيتو:

فى المقابل نجد كتاب إسبوزيتو يؤكد منذ اللحظة الأولى أن الحرب ضد الإرهاب لا يجب أن تقترن برؤية موازية لصراع الحضارات. وأن مكافحة الإرهاب لا يجب أن تعنى تهديد قيم الليبرالية فى الداخل أو فى سياسات أمريكا فى العالم الإسلامى، وهى رسالة يرسلها فى كتابه فى المقدمة ثم يتدرج عبر فصول الكتاب فى شرح خريطة «الجهاد الإسلامى». تلك الكلمة التى صارت تُخيف الغرب وتقترن بالعنف والعمليات «الإرهابية» ليدعو إلى التمييز بين الجهاد فى مدلوله الإسلامى الشرعى والفقهى وبين توظيفات هذا المصطلح فى صراعات السياسة.

وإذا كان كريمر قد اتهم الباحثين فى دراسات الشرق الأوسط بأنهم قللوا من خطر بن لادن فإن إسبوزيتو يبدأ كتابه بتحليل مسيرة بن لادن موضحًا ـ كما ذكرنا ـ أن بن لادن لم يكن خافيًا على أحد، وأن تهديده لأمريكا بدأ عام ١٩٩٤، وأن السعودية لم تسقط عنه الجنسية السعودية عبثًا، وأن تحركاته وتحركات القاعدة كانت معلومة لجميع المراقبين، وتنقلاته بين السودان وأفغانستان مرصودة ومسجلة، ومبايعته للملا عمر منذ أواخر التسعينيات وتحالفه مع طالبان علنى، وبذلك يؤكد فى تحليله (دون أن يذكر ذلك نصًا) أن الادعاء بأن بن لادن تم التقليل من شأنه وخطره هراء، لكن تحديد الخطر على الأمن القومى مهمة أجهزة الأمن القومى لا مهمة الباحثين والأكاديميين بالأساس.

وعبر تحليله لشخصية بن لادن وتطور علاقته بأيمن الظواهرى يكشف إسبوزيتو عن نظرة القاعدة للخطر الغربى، تلك النظرة التى تبلورت عام ٢٠٠٠ فى الإعلان عن تشكيل «الجبهة الإسلامية للجهاد ضد اليهود والصليبيين» والتى طالبت



بطرد الأمريكان من جزيرة العرب والتزامها بدعم الجهاد الإسلامى فى الشيشان وكشمير وفلسطين.

ويفرد إسبوزيتو جزءًا من كتابه للبحث فى مفهوم الجهاد. مؤكدًا أن الفقه الإسلامى قدم رؤى ثرية للجهاد وضوابطه ومستوياته، وأن هذا الفقه فى تأصيله للجهاد المسلح ضد الآخر قد اتجه فى مدارسه الكبرى لرؤية الجهاد الدفاعية، وأن التعريفات الراديكالية للجهاد كانت وليدة ظروف راديكالية، وهنا فالإسلام لا يختلف عن الديانات السماوية الأخرى ويمكن بسهولة إجراء مقارنات مع المسيحية واليهودية، وتاريخ نظرة الفقه والفكر فى الديانتين عبر التاريخ للحرب وضوابطها، مؤكدًا أن التمييز بين الدفاع عن النفس والعدوان مسألة محسومة فى الفقه الإسلامى الذى لا يقرن التجديد بالإرهاب ولا المقاومة بالعنف، ومستعرضًا المدارس الرئيسية فى هذا الجدل مرورًا بابن تيمية، ومحمد بن عبدالوهاب، وصولاً إلى سيد قطب، وأحداث الحرم المكى ١٩٧٩، وباحثًا فى دور الاستبداد فى تغذية رد الفعل المتطرف.

ويقف إسبوزيتو أمام تجربة «حماس»، فيؤكد أن اختزال «حماس» فى «حركة إرهابية» اختزال سطحى. فالحركة حركة اجتماعية اقتصادية طورت جناحًا عسكريًا لطبيعة وضع الاحتلال والصراع مع العدو الإسرائيلى. ويرصد إسبوزيتو أن أول استخدام للجسد فى عمليات استشهادية كان فى بداية التسعينيات فى أعقاب أحداث الحرم الإبراهيمى التى قتل فيها متطرف إسرائيلى العشرات وهم فى صلاتهم بالمسجد. أى أنها بدأت كرد فعل للتطرف الوحشى الإسرائيلى. وأن عنف الجزائر على الطرف الآخر فجَّرته مصادرة الديمقراطية التى اختار فيها الناس التيار الإسلامى فى مواجهة سلطة العسكر، وهى حقائق يذكر بها إسبوزيتو حتى لا تضيع فى ظل دخان المعركة ضد الإرهاب، مؤكدًا أن الساحة الإسلامية الفقهية والشعبية متعددة الرؤى، بل والفتاوى فى مجملها تدين العنف ضد الأبرياء، وهكذا فإن تسليط الضوء على حركات العنف وتجاهل التيار الوسطى التجديدى الواسع فى الفقه وبين الحركات فى عالم الإسلام بالشرق الأوسط وفى آسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا هو موقف لا يساعدنا كثيرًا على الفهم، ناهيك عن صنع سياسة رشيدة.

الخيار الديمقراطى والإسلام الحضارى

الفصل الأخير من كتاب إسبوزيتو هو حقًا الصفحات القليلة التى يجب أن يقرأها صانع السياسة الأمريكى الذى لا يجد وقتًا لقراءة البحوث الطويلة والكتب الأكاديمية، وهو فصل تتضح فيه خبرة إسبوزيتو فى مجال دراسة عالم الإسلام فى العقود الثلاثة الماضية، إذ يستخلص فيه تحت عنوان: «إلى أين نذهب؟» الرؤية التى يجب أن تحكم صناعة القرار فى واشنطن وعلاقة أمريكا بالعالم الإسلامى.

ويرى إسبوزيتو أنه يتوجب بداية إعادة إدراك الإسلام باعتباره السياق الحضارى للعالم الإسلامى وللقضية الفلسطينية تحديدًا، وأن الكثير من صنَّاع السياسة والإعلاميين والمثقفين فى واشنطن لا يعرفون معلومات أساسية عن الإسلام، وكلمة «الله» بالنسبة لهم لا تعنى المقابل لكلمة God فى اللغة العربية بل هى وصف «لإله المسلمين».. وأن أحداث ١١ سبتمبر كانت السبب المباشر فى إدراك البعض فى واشنطن وببالغ الدهشة أن عدد المسلمين من الأمريكيين يقارب عشرة ملايين وأنه آن الأوان لإدراك الثقافة الأمريكية فى الألفية الجديدة باعتبارها ستكون ثقافة يهودية - مسيحية - إسلامية.

وإذا كان البعض ينظرون نظرة استعلائية لعالم الإسلام اليوم، لأنه يقع فى النطاق الاقتصادى لدول الجنوب فى معظمه فإن إسبوزيتو يوضح أن هذه مرحلة تاريخية وليست سمة حضارية، مشيرًا للصعود والهبوط فى الحضارات كسنة تاريخية، وساردًا ومضة من تاريخ الحضارة الإسلامية فى أيام صعودها وتفوقها، وصيغ التعايش بين الثقافات والأديان التى احتضنتها تلك الحضارة، ومنتقدًا أسئلة العلاقة بين الإسلام والحداثة، باعتبارها تستبطن أن الحداثة الغربية عالمية، وأن عالم الإسلام يجب أن يلحق بها، ومؤكدًا أن الفكر والفقه الإسلامى الحديث والمعاصر حاول تقديم إجابات مركبة باتجاه حداثة إسلامية معاصرة، وأن مراجعات المشروع العلمانى فى الغرب على يد أبرز علماء الاجتماع الدينى وإعلان أزمة العلمنة الحداثية، وكذلك أزمة الفكر القومى الذى قامت عليه الدولة الحديثة فى ظل العولمة، كلها تحولات لا تقلل من شأن الإسلام كعقيدة وحضارة بل بالعكس تستدعى البحث فى الإجابات التى يحاول عالم الإسلام صياغتها للرد على هذه الأسئلة سواء أكانت إجابات نظرية أم اجتهادات اجتماعية وأهلية وسياسية تقرأها على خريطة الواقع السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى العالم الإسلامى بتنوع ثقافاته الفرعية، ويقرأ إسبوزيتو هنا فكر خاتمى فى إيران وأنور إبراهيم فى ماليزيا فى معرض حديثه هذا.

لكن الأزمة الآن هى أن هناك «سوقًا رائجة لفكرة صدام الحضارات» كما يقول إسبوزيتو، والضحية الأولى ستكون جهود التحول الديمقراطى فى العالم الإسلامى، فإذا كانت الولايات المتحدة تبحث عن حلفاء فإنها ستتوجه للأنظمة والحكومات، وستتخذ الأنظمة مناخ «الحرب ضد الإرهاب» لتكريس شرعيتها فى مواجهة ضغوط التحول الديمقراطى والحقوق المدنية، وهو ما يراه إسبوزيتو أيضًا يمثل خطرًا على المصداقية الليبرالية للولايات المتحدة فى الداخل، مع تنامى إجراءات تقييد الحريات المدنية والإجراءات الأمنية بالداخل الأمريكى.

ويختتم إسبوزيتو كتابه بالقول إن إلصاق الإرهاب بالإسلام وبالعالم الإسلامى خطره أن يعفى الولايات المتحدة من مراجعة سياساتها التى خلقت شروطًا اجتماعية واقتصادية وسياسية أثمرت هذا العنف وتلك الكراهية لأمريكا، وأن التحدى الذى يواجه العالم الإسلامى على الجانب الآخر هو الدفاع عن الإسلام الحضارى والوقوف بحزم ضد الذين «يختطفون» الإسلام لمعسكرهم لصالح مكاسب سياسية، وتأكيد الضوابط الإنسانية للجهاد التى استقرت فى الفقه الإسلامى منذ نشأته والتزم بها «جهاد محمد» فى عصر الرسالة.

ويقتبس إسبوزيتو فقرة من مقال للمؤرخ الأمريكى بول كينيدى نشر فى ٥ أكتوبر ٢٠٠١ فى جريدة الوول ستريت حين قال: «إن علينا أن نتخيل أن عالم الإسلام توحَّد فى قوة واحدة فى حين تفككت الولايات المتحدة لدول مستقلة ومتنازعة، وأن هذا العالم الإسلامى صارت لديه قوة ضاربة تجوب البحار وتتحكم فى المجال الجوى وتتدخل فى النزاعات المحلية وتفرض سياساتها بالقوة وتنشر نمط حياتها، فماذا سيكون رد الفعل الأمريكى حينئذ؟ لاشك أنه سيكون الكراهية والرغبة فى إلحاق الأذى بهذه القوة المهيمنة. هذا هو بالضبط ما يجرى الآن معكوسًا».

وما يدل عليه هذا الاقتباس ورؤية إسبوزيتو التى تتفق معه، هو أن العقل السياسى لابد له من رؤية تاريخية عميقة، والإعلان عن «حرب ضد الإرهاب» دليل على غياب هذه الرؤية فى واشنطن، فالحرب الحقيقية ضد الإرهاب تكون بسياسات طويلة الأجل لتأسيس شروط عادلة للعلاقات الدولية وظروف عادلة لشعوب العالم الإسلامى، لكن البطش لن يؤدى إلا إلى مزيد من العنف والعداء، والحل هو صعود دبلوماسية شعبية تتحدى فكرة صراع الحضارات وتبنى جسور الفهم المتبادل.

إن الأبراج العاجية فى الولايات المتحدة ليست أبراج الباحثين فى مجال الشرق الأوسط، إنها الأبراج العاجية فى واشنطن، وهى التى تؤدى بالضرورة للحروب غير المقدسة لأمريكا دفاعًا عن وجودها الاستراتيجى فى العالم الإسلامى.

والرسالة التى يرسلها كتاب إسبوزيتو (التى قالها فى محاضراته بالقاهرة فى مجلة وجهات نظر ومجلس العلاقات الخارجية، وموقع إسلام أون لاين. نت، وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة)، هى أن الجهد العربى والإسلامى، الشعبى والرسمى، يجب أن يتضاعف للتأثير فى السياسة الخارجية الأمريكية، وأن صفوف المسلمين الأمريكيين يجب أن تتحد وتقوى لتؤثر من الداخل، وتبقى مهمة العالم الإسلامى التاريخية هى صياغة نهضة إنسانية ديمقراطية تواجه بحسم تيارات التطرف والعنف الخارجة عن التيار العام التاريخى للفقه والفكر الإسلامى، وتدافع عن حقوق الإنسان والحريات السياسية والعدل الاجتماعى. ■

كتاب مارتن كريمر الذى صدر بنهاية عام ٢٠٠١ كان بمثابة قنبلة فجَّرت جدلاً حاداً فى حقل دراسات الشرق الأوسط بأمريكا. ورسالته لا لبس فيها ولا غموض. ضربة ١١ سبتمبر الموجعة هى مسئولية الأكاديميين فى مجال دراسات الشرق الأوسط والذين فشلوا فى أن «يتنبأوا» بالكارثة


جواب نهائى؟
إلعب انت كمان . فيه جوايز جديدة لكل كسبان
MOTOROLA
إلعب على المليون..
بالرسائل على التليفون
إزاى؟
إبعث رسالة قصيرة SMS مكونة من حرف (M) للعب باللغة الإنجليزية أو حرف (MA) للعب باللغة العربية وأرسلها لرقم (6565) وأجب على 15 سؤال بحد أقصى دقيقتين لكل سؤال للحصول على مليون نقطة، مع إمكانية استخدام 3 وسائل مساعدة:
50:50 حذف إجابتين - F
خذ وقت إضافى - E
أسأل الجمهور - P
قرار الانسحاب - S
+ للاستفسار الإتصال برقم 300 من محمول موبينيل مجانا
إكسب*
الجائزة الكبرى
٣٠٠٠ جنيه نقداً
الجائزة الثانية:
• إقامة ليلتين بغرفة مزدوجة شاملة الإفطار فى فندق من أفخم فنادق القاهرة فندق ماريوت القاهرة.
الجائزة الثالثة والرابعة والخامسة:
• رصيد دقائق مجانية (قيمته ٧٥ جنيه)
الجائزة السادسة - العاشرة:
• رصيد دقائق مجانية (قيمته ٥٠ جنيه)
* الجوائز الجديدة للمسابقة تمنح اعتبارا من ١/٤/٢٠٠٢
www.mobinil.com
١٠ فائزين كل إسبوعين
شروط المسابقة:
• أن يكون المتسابق مشتركا لدى موبينيل مدة لا تقل عن ٣ أشهر.
• لا يحق للمتسابق الفوز بأى جائزة مرة أخرى إلا بعد مرور ٥ أشهر من تاريخ فوزه السابق.
• يحق للمتسابق الفوز بجائزة واحدة فقط. حتى لو كان يمتلك أكثر من خط مسجل باسمه.
من موبينيل وبس
+ سعر الرسالة القصيرة ٢٥ قرش للاشتراك الشهرى و ٥٠ قرش لمشتركى آلو
celador
©2002 Celador International Ltd
MOTOROLA
CAIRO Marriott HOTEL AND OMAR KHAYYAM CASINO
MobiNiL
المحمول فى يد الجميع



كتب عربية

شبابيك الغزالة

سهير أبو عقصة داود

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢، ١١٦ صفحة



غزالة بنت عيد الطقطوق هي الستار الذي توارت خلفه الكاتبة تنسج من العادي والمألوف ذكرياتها الحميمة، وتطل من شبابيكها على واقع إنسان الأرض العربية المحتلة في فلسطين ومعاناته اليومية. حديث الغزالة عن الحارة والأب والأم والمدرسة ولعب الأولاد، والذي روته على فراش الموت - هكذا تتخيل الكاتبة - لم يذهب عبثًا، أبقى الأشياء حية يافعة.. «وكأن الخيال تجسد في الواقع، وكأن البلاد لاتزال قائمة ولو غيبتها جميع الخرائط». والحكمة الأثيرة التي تكتسب بها أحاديث الغزالة أهميتها هي: لكي لا تموت عليك أن تتذكر، ولكي تتذكر عليك أن تنقل التاريخ كما هو.

الأم التي حلمت ببيت كبير به حديقة وزهور وأشجار بلعت حلمها مضطرة، حين اضطرت للخروج بنفسها كي تعمل في مصنع للخياطة بعد حرب يونيو ١٩٦٧، واكتفت ببيت قديم عبارة عن غرفة واحدة واسعة، شمرت يديها وخرجت إلى العمل كي تصنع أحلامها بيدها. والأب عيد الطقطوق الناشط في خلية شيوعية، عامل بسيط، يشتغل أيامًا ويتعطل أيامًا، وهو منبع الحكمة، الحكمة التي صنعت من غزالة شاعرة، أو هكذا تمنت قبل أن تموت عاجزة مقهورة.

سألت غزالة أباها يومًا عن الكائنات الفضائية وما يميزها عن الكائنات الأرضية، فقال الأب: إنهم مثلنا لكنهم يختلفون عنا، احتارت غزالة وعاودت السؤال، فأجاب الأب بأنهم يتكلمون ويتزوجون ويموتون كما يموت أهل الأرض، ونفد صبر غزالة فسألته:

- إذًا بم يختلفون عنا؟

فأجاب الأب: بالأحلام.

لم يعجب الجواب غزالة وتساءلت بنفاد صبر: أيمكن أن تكون الأحلام مهمة إلى هذا الحد، ويجيب الأب بحتمية قاطعة: لا يوجد أهم منها.

وحين كتبت غزالة موضوع إنشاء لم تصدق مدرستها أنها هي التي كتبته وكان نصيبها صفرًا كبيرًا. لم يغضب الأب وإنما كان منتشيًا بالسعادة، قال لها: ستصبحين شاعرة يا غزالة وستقفزين فوق الزمن، ويكون لك شأن كبير بين العرب، وتتعجب غزالة: ألست غاضبًا مني ولا من الصفر الكبير، ويهز عيد الطقطوق رأسه: ليس لكل الناس خيال، وأنا رأيت الصفر بخيالي موعدًا لك مع الكلمات.

تفتح غزالة رسائل أمها إلى أبيها قبل أن يتزوجا، ويدهشها أن أمها أيضًا شاعرة، وتتيقن أن الشعر وراثة، وتعاهد أمها فيما بينها وبين نفسها: سأحب يومًا كما أحببت وسأكتب الرسائل كما كتبت وأحتفظ بها كما احتفظت. لكن التاريخ يعيد نفسه وهذه المرة على شكل مأساة. فالشعر الذي كتب للحب يومًا، سيكتب للجرح والبعد والحلم البعيد.

يربت الأب على ظهر غزالة:

- راحت فلسطين يا غزالة.

وتصر غزالة: إللي فات ما مات.

ويسأل الأب: من علمك هذه الكلمات وهذا الحماس؟

فتجيب: تعلمتها منك، لكنك نسيت وأنا مازلت أذكر.

ويقول الأب كلمته الأخيرة قبل الرحيل: حافظي على هذا الكنز «الذاكرة».

وزارت غزالة الكاتبة في المنام وأوصتها حين تموت أن تشترى لها ثوبًا فضفاضًا بألوان علم الوطن لتلفها فيه، ثوبًا واسعًا كي تحمل معها الذكريات التي أبدًا لن تموت.

هذا بعض ما روته الغزالة.

□ □ □

ماذا يأكل مرضى السكري؟

كارولين ليونتوس

ترجمة: هناء العمري

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠١، ٢٣٥ صفحة



المصابون بمرض السكري ليسوا محظوظين قطعًا، لكنهم بالتأكيد أوفر حظًا من آخرين مصابين بالمرض لكنهم لم يعرفوا ذلك بعد، أو عرفوه بعد أن ظهرت عليهم أعراضه في أجزاء الجسم المختلفة.

السؤال الأساسي الذي يواجه مريض السكر هو: هل عليَّ أن أتخلى عما أحب من صنوف الطعام، المؤلفة تدعو مرضى السكري إلى التفكير في ثلاثة أمور: التنويع والاعتدال والتوازن.

إن إحدى أسهل طرق الأكل الصحي تكون بتصنيف أنواع عديدة من المأكولات بعقلك تحصل على الفائدة الغذائية والمتعة في الوقت نفسه، مثلاً: أن تأكل رغيفًا من الخبز مضافًا محشوًا بقطع من اللحم مضافًا إليهما رقائق من الخس والطماطم، فإذا شربت مع ذلك كله كوبًا من الحليب تكون قد حصلت على وجبة غذاء كاملة.

أما الاعتدال فيعني أن تختار وتخفف من الأطعمة التي تحتوى على الدسم والسكر، باختصار: ركز على الطعام الجيد والمغذِّي، وأكثر من الفاكهة بديلاً عن الحلويات ولا تحذف من قاموس غذائك «الأطعمة الممنوعة» كما ينصح عادة، بل وائم بين جميع مأكولاتك المفضلة من وقت لآخر.

أما مفهوم التوازن، فهو المفهوم الذي يدمج التنويع والاعتدال معًا، والتوازن لا يعني فقط أن نأكل أنواعًا مختلفة من الغذاء، وإنما أن نأكل الكميات الصحيحة منه.

الناس عمومًا لديهم فكرة خاطئة مؤداها أن احتياجاتهم من البروتين تتوافر فقط في اللحوم والأسماك، كما أن الناس تتصور أن الكميات الكبيرة من البروتين تعني صحة أفضل، والتصوران غير صحيحين، فالبروتين يوجد في مواد عديدة أخرى، كما أن الإنسان لا يحتاج لأكثر من ٣٠ جرامًا من البروتين يوميًا، هذا يعني أن التوازن هو أن تأكل الأغذية الصحيحة بكميات صحيحة.

«هرم دليل الغذاء» الذي ينصح به الأطباء عادة هو دليل للأكل الجيد، ويتضمن إلى جانب ذلك نصائح مهمة تؤكد على تناول الوجبات في أوقات منتظمة، وأن تباعد بين الوجبات الرئيسية من خمس إلى ست ساعات، كي تعطي جسمك فرصة لهضمه.

بعض الناس يميلون إلى تناول «ست وجبات صغيرة» بديلاً عن ثلاث وجبات أساسية، وهذا يعني أن عليهم توزيع السعرات الحرارية على مدى الوجبات الست، وهذا أمر عسير نسبيًا.

تشير المؤلفة كذلك إلى عادات الأكل، وهي تختلف بحسب تراث الشعوب وإقبالها على الطعام في مناسبات بعينها بما يهدم النظام الغذائي كله، وتعدد المناسبات التي ترتبط في معظمها بالأكل، يجعل الكلام عن إنقاص الوزن أو اتباع أسلوب غذائي معتدل ومتوازن محض خيال.

إن تناول وجبات منتظمة مهمة للغاية، وخصوصًا أن نحو ٨٠٪ من مرضى السكر كان السبب الأساسي لإصابتهم به هو سمنتهم المفرطة، ويساعد تناول الوجبات المنتظمة المتوازنة في سعراتها الحرارية على ضبط السكر في دم الإنسان بصورة كبيرة، فضلاً عن ممارسة الرياضة والجهود التي يبذلها الشخص لإنقاص وزنه.

المؤلفة تقدم عبر صفحات كتابها وصفات للوجبة الصحية والممتعة وخططًا للتغذية، وأخرى لإنقاص الوزن، فالطعام الصحي سيساعدك في نهاية المطاف - حتى لو لم تكن مريضًا بالسكري - على أن تعيش حياة مديدة وأنت صحيح معافى.

□ □ □

كشف الأقنعة عن نظريات التنمية الاقتصادية

جلال أمين

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢، ٢٧٠ صفحة



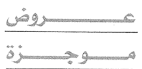
لم يرتبط الحديث عن التنمية لدى الاقتصاديين بالرغبة الحقيقية في إحداثها، وإنما ارتبط بمصالح وتحيزات جعلتهم يبدون وكأنهم يبذلون جهودًا كبيرة لتقديم التبريرات النظرية لسياسات بعينها، ما أثار شكوكًا حول اجتهاداتهم التي بدت مرتبكة إلى حد التناقض، خصوصًا خلال الخمسين عامًا الأخيرة.

المؤلف يتابع الكتابات التي تناولت موضوع التنمية في هذه الحقبة. ويقدم قبلها استعراضًا عامًا لما كان يجري حول المسألة ذاتها بدءًا من عصر التجاريين (١٥٠٠-١٧٥٠). وهؤلاء لم يقدموا نظرية حقيقية في التنمية، وإنما كانت لديهم قناعة أن على الدولة أن تلعب دورًا في الاقتصاد القومي، وأنه كلما زادت الصادرات زادت ثروة الدولة.

في هذا العصر كان التنافس حادًا بين الدول الاستعمارية على مناطق النفوذ فيما وراء البحار. وكانت الحاجة ماسة إلى حكومة قوية تبسط سطوتها في اتجاهات عدة.

وحين ظهر آدم سميث (١٧٧٦) ورفاقه من الاقتصاديين التقليديين الذين سادت أفكارهم إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر، كانت سياسة حرية التجارة المقترنة بحد أدنى من التدخل الحكومي تلائم المصالح البريطانية في ذلك الوقت، ومثَّل كارل ماركس الذي ظهرت كتاباته أساسًا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تيارًا مضادًا لم يكتب له الشيوع آنذاك لتصادمه مع مصالح المؤسسات السائدة.

وخلال أكثر من ثلاثة أرباع القرن (١٨٧٠-١٩٤٥) أهمل تمامًا موضوع النمو الاقتصادي والتنمية، لأن التنمية كانت متحققة فعلاً في أوروبا، أما تنمية العالم الثالث فلم تكن موضوعًا ذا بال إلا



من زاوية تسهيل وصول المواد الخام وكيفية استغلالها في دول المستعمرات القديمة، وحتى ما بدا أنه اهتمام بالتعليم وتدريب الكوادر ومظاهر التنمية البشرية الأخرى، كان يصب في الاتجاه ذاته.

ولم يختلف الأمر كثيرًا مع الاستعمار الحديث، بقي الهدف واحدًا لكن تعددت صور الاستغلال، فبعد أن كانت الأهداف هي الحصول على مواد أولية رخيصة وقوة عمل رخيصة وتصريف فائض السلع، تضاءلت أهمية الهدفين الأول والثاني واحتاج تحقيق الثالث إلى خلق طبقة جديدة قادرة على استهلاك المنتج الغربي الجديد، الأكثر تقنية والأعلى سعرًا، وهو ما يفسر تنامي طبقة المتغربين وتصاعد نزعات الاستهلاك والمحاكاة، وتوجيه مليارات الدولارات للاستثمار في مناطق الاستعمار القديم من فوائض رأس المال الغربي، كي يصبح السوق أكثر اتساعًا وأكثر قدرة على استهلاك المنتج الغربي في صورته الحديثة.

ما يجرى على هذا النحو ليس تنمية بحال، إذ لا يعني هؤلاء أن يقيموا مؤسسات وهياكل اقتصادية وسياسية وثقافية قادرة بذاتها على إحداث تنمية حقيقية تفي بإشباع الحاجات الأساسية والتوزيع العادل للثروة وليس فقط رفع المستويات العامة للدخول، ما يجرى هو عملية نمو يروج لها اقتصاديو الغرب وتابعوهم، الذين يروجون كذلك لنظرية «التساقط» ومؤداها أن الثراء المطرد وتركيز الثروة في يد حفنة قليلة لابد أنه سيصيب «العوام» في نهاية المطاف، إذ ستضطر هذه الحفنة القليلة إلى توجيه ثرواتها في اتجاه الاستثمار وادخار فوائض وعوائد هذا الاستثمار، بما يعني فرص عمل جديدة ومشروعات جديدة تخدم الأغلبية، والشرط الوحيد هنا أن تبقى الدولة بعيدة تمامًا عما يجرى وأن تترك الأمور تسير وفق قوانين السوق وقوى العرض والطلب دون فرض إجراءات حمائية من أي نوع.

ثمة أسباب موضوعية وعوامل متداخلة يعج بها المشهد الدولي الراهن تؤكد شيوع وسيادة هذه الفكرة: انهيار الاتحاد السوفيتي وانفراد الولايات المتحدة ونموذجها الرأسمالي بالمسرح. حركة الحياد الإيجابي صارت أثرًا بعد عين، المعونات تراجعت لتحل محلها الاستثمارات الأجنبية، حكومات العالم الثالث ضعفت وترهلت، ثم كان العامل الحاسم هو نمو الشركات العملاقة متعددة الجنسيات التي يغطي نشاطها الكرة الأرضية كلها.

المؤلف ينحاز - وأظنني معه - إلى تعريف مميز للتنمية لا يتوقف فقط عند رفع مستويات الدخول العامة، قدمه - هذه المرة - عالم إنثروبولوجيا يرى أن التنمية هي «التحقيق المتزايد لقيم وثقافة المجتمع الخاصة».

ويدعونا تأمل معه أن يعود الاهتمام بقضايا التنمية الحقيقية «بمجرد أن تتراخى سرعة هذه الثورة التكنولوجية الراهنة، وتضعف قدرتها على صنع الأعاجيب الخارقة للعادة».

□ □ □

مصر المحروسة: إطلالة على ذاكرة الوطن
القاهرة: ماكس جروب، يناير ٢٠٠٢



تعنى هذه الدورية بتاريخ مصر الحديث خلال فترة الاحتلال البريطاني وقبل قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ وإن كانت تتناول هذا التاريخ من وجهة نظر الهاوي غير الأكاديمي. وقد خصصت الدورية عددها الصادر في يناير ٢٠٠٢ لتناول حريق القاهرة الشهير في يناير ١٩٥٢ والذي مضى عليه خمسون عامًا.

يضم هذا العدد مقالاً واحدًا فقط كتبه المهندس صلاح الدين حلمي تحت عنوان «حريق القاهرة ١٩٥٢» يسرد فيه الوقائع التاريخية الأساسية التي شهدتها مصر في الفترة السابقة للحريق من حيث إلغاء معاهدة ١٩٣٦ والأعمال الفدائية ضد الاحتلال البريطاني التي قام بها المصريون كما يتناول محاولات سلطات الاحتلال لقمع الحركة الوطنية المسلحة من خلال هدم قرية كفر عبده بالسويس ثم مجزرة الإسماعيلية.

ويعرض الكاتب سريعًا لعدة وجهات نظر حول الحريق للتكهنات المختلفة للأدوار التي يعتقد أن يكون القصر أو حزب الوفد أو سلطات الاحتلال قد لعبتها. المقال أقرب إلى موجز للآراء الشائعة عن حريق القاهرة منه إلى أي محاولة لرصد أو تحليل وقائع هذا الحريق. كما أنه - وتبعًا لكون الدورية تعنى بالتاريخ الهاوي غير المحترف - يفتقد الهوامش التي تشير إلى مصادر اطلاع الكاتب وإن كان المقال قد ذيل ببعض الفقرات من تقرير اللجنة التي شكلتها السفارة البريطانية لتقصي الحقائق بعد اندلاع الحريق.

إن ما يميز هذا العدد من مصر المحروسة هو مجموعة الصور الفوتوغرافية التي نشرت من صفحة ١٨ إلى صفحة ١٢٨ وهي عبارة عن الملف الكامل الذي صوره ستوديو رياض شحاتة بتكليف من الملك فاروق والذي أصبح جزءًا من تقرير الحادث الذي رفع لجلالته. تعرض الصور لمختلف المنشآت التي تم تدميرها بفعل الحريق وقد رتبت بحيث يشعر القارئ وكأنه في جولة في شوارع القاهرة سائرًا على قدميه وتبدأ الجولة من شارع ألفي بك مرورًا بشوارع فؤاد وعدلي وثروت وقصر النيل والأهرام وإبراهيم باشا وعماد الدين وسليمان باشا وميدان محطة مصر فشارع الملكة وأحياء شبرا والظاهر والسكاكيني والفجالة وحدائق القبة. وتمثل هذه المجموعة من الصور سجلاً لمدى الخسارة التي أحدثها الحريق فهي كلها صور لمبان ومنشآت قد دمرت، بعضها أعيد بناؤه لاحقًا وبعضها اختفى للأبد مع انتهاء هذه المرحلة من تاريخ المدينة. نادرًا ما يظهر الأفراد «المواطنون» في هذا السجل ولربما هناك دلالة ما لعدم ظهورهم في سجل القاهرة بعد احتراقها.

هذه صور نادرة للقاهرة في لحظة تاريخية فاصلة معظمها صور منشآت أجنبية: شركات، مطاعم، ملاه، وسينمات. من بين الصور النادرة عدة صور لفندق شبرد الذي كان مسرحًا لأحداث سياسية كثيرة في فترة تاريخية ما بحيث كان لاحتراقه - كما كان لاحتراق القاهرة - دلالات سياسية عميقة.

□ □ □

الجينوم
السيرة الذاتية للنوع البشري
مات ريدلي
ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي
الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠١، ٤٠٠ صفحة



يحتوي الجسم البشري على ما يقرب من ١٠٠ تريليون (مليون مليون) من الخلايا، معظمها يقل عرضه عن عشر من المليمتر، ويوجد في الداخل من كل خلية بقعة سوداء تسمى النواة، وداخل النواة مجموعتان كاملتان من الجينوم، عدا خلايا البويضات والحيوانات المنوية التي يحوي كل منها نسخة واحدة فقط، وتأتي إحدى مجموعتي الجينوم من الأم والأخرى من الأب.

وتحتوي كل مجموعة على الجينات نفسها التي يبلغ عددها ما بين ٦٠ إلى ٨٠ ألف جين موجودة على الكروموسومات الثلاثة والعشرين التي يتضمنها الجينوم البشري.

هذا هو المدخل الذي اختاره المؤلف كما يشرح بسلاسة موضوعًا يبدو مثيرًا ومعقدًا في الوقت نفسه، فلو افترضنا - كما يقترح المؤلف - أن الجينوم كتاب، فإنه يحتوي على بليون كلمة، ولو قرر المؤلف أن يقرأ كتاب الجينوم مستغرقًا ثانية واحدة لكل كلمة لمدة ٨ ساعات يوميًا، فإن ذلك سيستغرق منه قرنًا كاملاً، ولو أنه دون الجينوم البشري، بمعدل حرف واحد في كل ملليمتر فإن النص الذي سيكتبه سيكون بطول نهر الدانوب.

المؤلف يتتبع الكروموسومات الثلاثة والعشرين وكأنها نصوص بالفعل في كتاب على النحو التالي: الحياة - النوع - التاريخ - المصير - البيئة - الذكاء - الغريزة - الصراع - الاهتمام بالذات - المرض - التوتر - الشخصية - تجميع الذات - ما قبل التاريخ - الخلود - الجنس - الذاكرة - الموت - العلاج - الوقاية - السياسة - تحسين النسل - الإرادة الحرة.

يطرح الكتاب تساؤلات عميقة ومهمة مثلاً عن توارث الذكاء، وعما إذا كان غباء الشخص أو نبوغه أمرًا مفروضًا عليه، وجين الذكاء موجود على كروموسوم ٦، لكن اختبارات الذكاء التي أجراها العلماء طوال عقود لم تبرهن على أن جين الذكاء هو المحدد الوحيد لذكاء الشخص، بمعنى «حتمية» أن يكون الابن ذكيًا لأن الأب كان كذلك، وزاد الأمر صعوبة أنه لا يوجد تعريف واحد للذكاء، فهل هو سرعة التفكير أو القدرة على الاستدلال أو الحساب الذهني أو المعلومات العامة.

وبشكل عام فإن ثمة تداخلاً بين البيئة والجين، بين الطبع والتطبع، فالبيئة التي يمارسها أحد الأطفال تكون نتيجة لعوامل خارجية بقدر ما تكون نتيجة لجيناته، فالطفل يلتمس بيئته ويخلقها في الوقت نفسه، فإذا كان له نزعة ميكانيكية فإنه يمارس مهارات ميكانيكية، وإذا كان دودة كتب فإنه سيهوى القراءة وهكذا، ما لم تكن البيئة عائقًا أمام تنمية ذكائه وهذا أمر وارد في كثير من الأحيان.

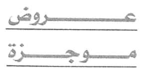
ما يقال عن جين الذكاء تجد مثله عبر بقية الجينات بدرجات متفاوتة، أي أننا محكومون بجيناتنا الوراثية، لكننا أيضًا أصحاب إرادة حرة تمنحنا التمايز والاختلاف.

□ □ □

العرب الأصل والصورة
مصطفى الفقي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٣١٥ صفحة



يشتمل الكتاب على نحو ٥٠ مقالاً صنَّفها المؤلف تحت عناوين عدة: الماضي يتحدث، العرب والعالم، النظم العربية، العرب خصوصية وتوحد، القضية



المركزية، الخطاب المعاصر، الجامعة والقمة، التعددية ميزة قومية، الفتنة الكبرى، صورة الآخر، العرب والغرب.

وكثير من المقالات وإن تناولت أحداثًا بعينها بذل المؤلف جهودًا لتحليلها وتقديم وجهة نظر نقدية بشأنها، فإنها تظل صالحة للقراءة لأن الأمور - كما اعتدنا في عالمنا العربي - تتغير وئيدًا أو لا تتغير أصلاً. من ذلك مثلاً الرؤية النقدية التي يقدمها للخطاب العربي المعاصر الذي ينطلق في الغالب من مواريث تاريخية وقيم اجتماعية ليست مفهومة بالنسبة للطرف الآخر، كما أن هذا الخطاب يعجز في مجمله عن تقديم نفسه وفقًا لروح العصر وأساليبه وأدواته، إذ مازلنا نتحدث بروح «المونولوج» بينما أسلوب التفكير المشترك هو التعبير الجديد المقبول لدى كل الأطراف، وهو ما يفقدنا قطاعات عريضة من الرأي العام العالمي الذي قد يكون مستعدًا للتعاطف معنا بشرط أن نخاطبه بلغة يفهمها.

ويقترح المؤلف اهتمامًا أكبر باللغات الأجنبية في مناهجنا التعليمية. إذ لا معنى لمخاطبة الغرب بلغتنا وبمفاهيم بعيدة حتمًا عن إدراكه، وكذلك فهمًا أكبر لروح العصر وطبيعة ومعطيات القرن الجديد، بالبحث عن نقاط الاتفاق قبل نثر نقاط الخلاف التي قد تنهي الحوار قبل أن يبدأ.

وفي مقال آخر يتساءل المؤلف: هل من أسلوب جديد للتعامل مع إسرائيل. وبعد أن يسرد السيناريوهات المقترحة والتي تتراوح بين التلويح بالحرب وتحكيم العقل ومحاصرة إسرائيل بالسلاح وإفشال المخطط الشاروني لتفجير الأوضاع في المنطقة، يطرح اجتهادًا يستند إلى عدة محاور: توزيع الأدوار بما يضمن تنظيم الدور العربي في الصراع، وردم الهوة بين الجماهير والقيادات، ومراجعة الخطاب السياسي العربي بما يحقق التأثير المطلوب، وإعداد خطة عمل طويلة النفس لتحريك المسيرة السلمية مع الاحتفاظ بمظاهر القوة الذاتية ورفع مستوى الأداء العربي لإشعار الخصم بإمكانية توظيف الموارد عند اللزوم، ويؤكد على أهمية الديمقراطية للأقطار العربية كي تتحقق الشفافية المطلوبة والحشد الجماهيري خلف قرارات الحكام التي تضمن الديمقراطية مشاركة الناس في صناعتها. وفي واحدة من المقالات التي يتناول فيها أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتحت عنوان: «بأي حال عدت يا عيد»، يطالب بإعمال العقل ودقة الحسابات وبخطاب ديني إسلامي ومسيحي - ذكي ومتسامح ومتفهم للأوضاع، لتفويت الفرصة على إسرائيل التي ستسعى إلى الاستفادة إلى أقصى حد من أحداث سبتمبر (وهي تفعل ذلك فعلاً)، وأن تتضمن رسالتنا الإعلامية إلى العالم استنكارًا عربيًا ورفضًا فلسطينيًا لسقوط الأبرياء من أي قومية أو ديانة أو جنسية، وينهي المؤلف مقاله الذي كتبه في ديسمبر الماضي بقوله: الأجواء عاصفة والسماء ملبدة بالغيوم، ويبدو أن الأيام الصعبة لم تبدأ بعد. وقد صدق حدسه.

□ □ □

رحلات شاعر عاشق

حسن توفيق

الدوحة: مطابع الراية، ٢٠٠١، ٦٩٥ صفحة



يجمع الكتاب بين دفتيه حصاد رحلات قام بها المؤلف مشاركًا في مهرجانات شعرية وندوات أدبية في عديد من العواصم العربية والعالمية، ناقلاً انطباعاته عن المدن والبشر وليالي الثقافة والفن والسياسة أيضًا، وإلى هذه الانطباعات والمتابعات الصحفية الرشيقة، يروي نتفًا من لحظات حميمة جمعته بأصدقاء ربما قرأ لبعضهم أو سمع به وكانت هذه المهرجانات فرصة اللقاء الأول، غير أن فرحته بالمدن واكتشافها لا تقل عن فرحة اقتناص لحظات قرب حميمة من رفاق القلم والفكر، فنجده يكتب عن مدينة فاس المغربية: فاس قصيدة حب رائعة، قصيدة حب طويلة وجليلة، فيها تتزاوج الحضارات، وفيها تمتزج ثقافات، وفيها شعب رقيق تنبض قلوب أبنائه أجمعين بالإحساس العربي الأصيل.

ومعان قريبة من تلك يكتبها عن مدينتي طهران وشيراز واصفًا رحلته إلى حضارة فارس العريقة وانطباعاته عن حديث الرئيس الإيراني محمد خاتمي في افتتاح مؤتمر سعدي الشيرازي الشعري الذي نظمته جائزة عبد العزيز البابطين الشعرية، ودهشته لفيض العلم والرسوم، ووضوح الرؤية الذي بدا عليه الرئيس الإيراني، واهتمام الإيرانيين - في أرقى درجات المسئولية - بالتراث الشعري والأدبي العربي وما يمثله سعدي الشيرازي من جسر للتواصل بين الثقافتين العربية والفارسية، هذا بعض ما يتضمنه الكتاب الذي يجول في باريس ولندن ومدريد وطوكيو وهيروشيما وحواضر عربية وإسلامية عديدة.

كتب أجنبية

La Plus Belle histoire des animausc

(أجمل قصص الحيوانات)

Pascal Picq, Yean & Pierre Digard
Bois Cyrulnik et Karine Rou Matignan
224 pages, 2002



هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من اللقاءات تجريها محررة تدعى كارين لو ماتينون مع عالم بارز في الجيولوجيا اسمه باسكال بيك وتقابل أيضًا جون بيير ديجار وهو أخصائي الحيوانات الأليفة.

وأخيرًا مع أحد المكتشفين وأخصائي الأعصاب والنفسية بوريس سيرولينك الذي كان قد كتب سلسلة من الأبحاث الجريئة عن حياة الحيوانات. وياليتها تركت الثلاثة يتحاورون فيما بينهم!

في صفحات قليلة يروي باسكال بيك قصة تطور ٤ مليارات سنة: تاريخ الحياة على الأرض عندما لم يكن واضحًا الحاجز بين المعدن والنبات والحيوان.

لقد تطلب التطور من عصر الزعنفة إلى عصر الأطراف ٣٧٠ مليون سنة. كل الأحياء ذات الفقرات بما فيها الإنسان تنحدر من هذه الأسماك ذات الزعانف. أما الأسماك ذات الأطراف فقد كان لها من خمسة إلى ثمانية أصابع. ولم يبق إلا نموذج الخمسة أصابع ولا ندري سببًا لذلك.

إن أقاصيص بيك تدعو للتأمل: اكتشاف البيضة.. ثم ٧٠٠٠٠٠ عام من الانفجارات البركانية التي أدت إلى اختفاء الديناصورات وآلاف الأنواع من الحشرات والديدان والحيوانات المائية، كذلك أدت إلى تحول الماء إلى يابس، واليابس إلى ماء، وتحول قشر السمك إلى ريش كما أن الدجاجة لم تعد في حاجة إلى أسنان.

ويلاحظ أن الحياة اتجهت إلى البساطة. إذ إن التطور ليس في التعقيد ولكن في عمل أنظمة تعمل بأعلى كفاءة ممكنة استنادًا إلى أساس بسيط.

جون بيير ديجار في مشوار طويل مع الترويض واستخدام الحيوان بواسطة الإنسان، يروي لنا كثيرًا من القصص الحقيقية وعلاقات المحبة أو الفضول أو الاستغلال وهي كلها علاقات أغنى مما يبدو: الجواد البري الحقيقي الوحيد الذي مات منذ سنة ٨٨٠ ولولا أن الإنسان قرر أن يجعل من الجواد ملكية نبيلة لانقرضت السلالة بأكملها.

□ □ □

All The Pasha's men Mohamed Ali, His Army and The Making of Modern Egypt

(كل رجال الباشا.. محمد علي، جيشه وتأسيس مصر الحديثة)

Khaled Fahmy
The Auc Press, 2002, 334PP.,LE80

تقليديًا يعتبر المؤرخون والدارسون محمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة، لكن مؤلف الكتاب الدكتور خالد فهمي يقدم رؤية جديدة لدور محمد علي في صعود القومية المصرية. فهو يحصر محمد علي في السياق العثماني بمعنى أنه نتاج طبيعي للامبراطورية العثمانية بكل تجلياتها السياسية والعسكرية والثقافية والاجتماعية، لكنه في نفس السياق مصطلح عثماني طموح، وإن كان هذا الوصف مثيرًا للجدل بشكل كبير.

ويعتمد المؤلف في كتابه على وثائق ومادة أرشيفية أهملها مؤرخون كثيرون ليصل إلى أن محمد علي سعى إلى تطوير الاقتصاد المصري وبناء الجيش ليس بهدف حصول مصر على استقلالها من الامبراطورية العثمانية، ولكن لدعم طموحاته بأن تصبح مصر ملكية وراثية له ولأبنائه وأحفاده من بعده.

ومن خلال التركيز على الخبرات اليومية للجيش والجنود يقوم برسم صورة تفصيلية لكل محاولات التحديث والإصلاح وكيف تم التخطيط لها وتنفيذها من جانب مصلحين مختلفين وكيف تفهم الرأي العام، على نطاق أوسع هذه الإصلاحات وتفاعل معها.

وفي هذا الإطار، فإن العمل يساهم بشكل ثرى في النقاش المنهجي والنظري المتعلق بكيفية بناء الأمم وبناء سلطة الدولة وبشكل خاص في سياق التجربة المصرية خلال القرن التاسع عشر.

وينقسم الكتاب إلى مقدمة و٧ فصول عن طبيعة التوسع العسكري لمحمد علي، ومولد الجيش والمقاومة التي أبداها الذين أراد محمد علي تجنيدهم في الجيش ثم تحول المصريين من فلاحين إلى جنود وتدريبات الجيش وإنجازاته، وهناك فصل كامل عن الحياة اليومية في معسكرات الجيش ثم فصل عن جيش محمد علي والأمة المصرية وآخر ولاة مصر والبشوات العثمانيين.

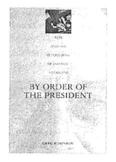
وخالد فهمي دارس جاد يعمل أستاذًا مساعدًا في قسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة نيويورك.

□ □ □

By order of the President FDR and the internment of Japanese American

(بأوامر الرئيس)

Gref Robinson
Harvard University Press, 2002, 322PP., £19.50,



هذا الكتاب يأتي في موعده ويمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة خاصة لأبناء الجالية العربية المقيمين في الولايات المتحدة والذين يتعرض بعضهم للاعتقال السري ويتم انتهاك حقوقهم والتمييز ضدهم. يتحدث المؤلف عن ١٠٠ ألف ياباني كانوا يعيشون في الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية، ثلثاهم كانوا يحملون الجنسية الأمريكية لكنهم جميعًا وضعوا في مراكز اعتقال خلال الحرب العالمية الثانية.

لعقود طويلة قبل تلك الحرب تعرض المهاجرون اليابانيون للتمييز والحرمان في الولايات المتحدة فلم يكن لهم الحق في الامتلاك وجرى رفض طلبات عديد منهم للحصول على الجنسية ثم توقفت الهجرة تمامًا من اليابان لأمريكا عام ١٩٢٤.

ورغم أن الرئيس الأمريكي الراحل فرانكلين روزفلت أو «إف دي آر» اختصارًا، كان صديقًا لبعض اليابانيين ودائمًا ما كان يعبر عن إعجابه بالإنجازات العظيمة للشعب الياباني، كما أنه لم يكن يعتقد أن اليابانيين أدنى من الأمريكيين إلا أنه كان يؤمن بأنه لا يمكن أن يشعر الأمريكيون من أصل ياباني بالولاء للولايات المتحدة وطنهم الجديد، وعندما واجه ضغوطًا لإبعاد اليابانيين بعد الهجوم على «بيرل هاربر» كان سعيدًا للاستجابة لهذا الطلب الذي يخالف الدستور. وقد جرى وضع هؤلاء اليابانيين في هاواي حيث عاشوا في عزلة وتعرضوا للمخاطر.

والكتاب في مجمله لا يركز على حياة هؤلاء اليابانيين المأساوية في تلك الفترة بل يتناول بشكل تفصيلي تعامل إدارة روزفلت والرئيس نفسه مع هذه القضية ويشير إلى أن روزفلت خاطب مجموعة من الكاثوليك الأيرلنديين واليهود الألمان عام ١٩٤٢ قائلاً: إن هذا بلد «أمريكا» بروتستانتي وأن الكاثوليك واليهود موجودون هنا لأننا سمحنا بذلك وعليكم أن تنفذوا أي شيء أريده منكم في هذه الأيام، وإذا كانت تلك هي طريقة تعامل روزفلت مع الكاثوليك واليهود فمن الممكن تصور كيف كان وضع اليابانيين «البوذيين وأتباع الشنتو» أسوأ بكثير.

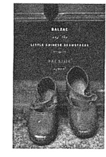
ولأن لا شيء يبقى على حاله بالنسبة للبشر، فإن أحوال الأمريكيين من أصل ياباني حاليًا تحسنت بصورة لا يمكن تصديقها بالمقارنة بسنوات الأربعينيات للقرن العشرين وما قبلها، فالمجتمع الياباني في أمريكا حاليًا يحتل أفضل الوظائف خاصة في شركات التكنولوجيا والمعلومات. ويشغل عديد من اليابانيين من أصل أمريكي مراكز مهمة في المجتمع. وقد مرت جاليات كثيرة بما مر به اليابانيون في الولايات المتحدة بدرجة قد تختلف إلى حد ما، مثل الجالية الإيطالية التي ارتبطت باسمها عصابات المافيا والمخدرات والجرائم ثم تحسنت أحوالها بعد ذلك. واعتمد الأمر كثيرًا على جهود أبناء تلك الجاليات وإقناعهم المجتمع الأمريكي بأنهم جادون وجديرون بأن يشغلوا مكانة جيدة في المجتمع الأمريكي.

□ □ □

Balzac and the little chinese Seamstress

(بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة)

Dai Sijie
Translated by: Ina Rike
London- Vintage, 2002, 172PP., £6.99



مؤلف هذه الرواية صيني ولد في عام ١٩٥٤ وعاني من آثار الثورة الثقافية في عهد الزعيم الراحل ماوتسي تونج، حيث دخل برنامج إعادة التعليم في الفترة من ١٩٧١ إلى ١٩٧٤ وغادر الصين عام ١٩٨٤ وهو يكتب بالفرنسية. ومؤلفه «بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة» يرسم آثار الثورة الثقافية من خلال مغامرات كوميدية لاثنين من المراهقين اللذين ولدا في المدينة. ويعيش هذان الصديقان في قرية نائية وجبلية في الصين. ويحاول الصديقان التكيف مع حياة الفلاحين ثم يقعان في حب ابنة ترزى في القرية.

وقد فازت الرواية بخمس جوائز في فرنسا كما تحولت إلى فيلم حظي باهتمام كبير خاصة في «مهرجان كان» السينمائي الفرنسي. ويتمتع المؤلف بروح فكاهية واضحة ولديه ولع بالتاريخ. وقد أشاد مجموعة من النقاد البريطانيين بالرواية وبالمؤلف الذي يمثل نافذة أخرى على الصين التي ظلت لسنوات طويلة غامضة على الغرب.

□ □ □

We Won the Victory

(فزنا بالنصر)

Ian Crawford perth, Fremantle Arts centre Australia
Distributed in the uk by Central Books, 2002, £15.99



يعيد المؤلف في هذا الكتاب بعض الحقائق والمصطلحات التي تحدث عنها الغربيون في بداية مواجهتهم أو تفاعلهم كما يقول المؤلف مع «الأوبرجين» وهم السكان الأصليون لأستراليا على الشاطئ الشمالي الغربي لتلك القارة المكتشفة. وبدون أن ينكر الطبيعة الوحشية والعنيفة للغزو الأوروبي يحاول الكتاب أن يوضح طبيعة ثقافة «الأوبرجين»، ويشير إلى أن بعد منطقة كمبرلي وعدم تناسبها مع الغزاة الجدد إلى حد ما ساهم في أن تحتفظ الجماعات الأصلية بأرضها واستقلالها لفترات زمنية أكبر من المواقع القريبة من مراكز تجمع المستوطنين الغربيين في سيدني وملبورن. ولأن هذه الجماعات كانت قريبة من الساحل فإنها كانت قبل وصول البريطانيين، على اتصال بالصيادين الإندونيسيين على سبيل المثال لقرون كثيرة خلت. ويجادل المؤلف بأن هذا التاريخ من التفاعل الثقافي مكن جماعات الأوبرجين في كمبرلي من أن يواجهوا الغربيين الذين أصبحوا «أستراليين» كأنداد وأن يعملوا لحماية مصالحهم.

ولأن المؤلف عالم آثار ومؤرخ ثقافي فإنه عمل في منطقة كمبرلي مع جماعات الأوبرجين لمدة تصل إلى أربعين عامًا، ولذلك فإن الكتاب ثري بالمعلومات وبالقدرة على شرح وتوضيح دواخل الثقافة التي يحاول الأوبرجين الحفاظ عليها في ظل طغيان الثقافة الغربية التي أصبحت مدن مثل سيدني وملبورن وكانبرا مراكز مهمة لها. ومن خلال هذا التفاعل مع السكان الأصليين وأيضًا قراءة الوثائق الغربية يعمل المؤلف على «بناء» تاريخ مروي للمنطقة.

وما تحاول الدراسة إظهاره أن هناك تواريخ عديدة لجماعات الأوبرجين فتلك التي كانت تعيش على الساحل تختلف عن التي عاشت قرب تجمعات الأوروبيين. وفي كل الأحوال لابد من الانتباه إلى تلك الفروق ومراعاتها عند كتابة تاريخ الأوبرجين بشكل عام.

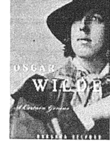
ولكن بغض النظر عن التاريخ، فإن هناك حاليًا حركة منظمة بين جماعات الأوبرجين تطالب بحصولهم على حقوقهم وباعتراف الأستراليين من أصل أوروبي بثقافتهم وبأنهم استولوا على أراضيهم عندما جاءوا لغزو أستراليا قبل قرون عديدة. الأمر الذي سيفتح المجال أمام تعويضات هائلة تخشى حكومة المحافظين الأسترالية بزعامة جون هوارد رئيس الوزراء من عواقبها. وفي المقابل فإن هناك اعترافًا شعبيًا متزايدًا من جانب الأستراليين بمدى الظلم والغبن اللذين حاقا بالأوبرجين.

□ □ □

Oscar Wild: A Certain Genius

(أوسكار وايلد.. عبقري حقيقي)

Barbara Belford
London. Bloomsbury, 2002, £8.99



الأحداث السياسية في حياة الكاتب الشهير أوسكار وايلد معروفة، فقد عاش طفولته في أيرلندا وتعلم في كلية ترينتي في دبلن وفي أكسفورد وحقق نجاحًا كبيرًا عندما عاش في لندن في نهاية القرن التاسع عشر وكان معروفًا ككاتب وفي نفس الوقت كشاب وسيم جميل الثياب والحديث.

ولذلك لا يبقى من الأحداث الخلافية حول أوسكار وايلد سوى قضية القذف التي أقيمت ضده واتهامه بالشذوذ الجنسي والتغطية الكبيرة التي حظيت بها محاكمته وصدور حكم بسجنه ثم سفره إلى فرنسا كمنفي. إن شخصية وايلد الساحرة لازالت تجتذب اهتمام الكثيرين. ومن حين إلى آخر يطفو الاهتمام به ليس في بريطانيا وحدها بل في دول عديدة ولازال وايلد هو أكثر الكتاب الذين يتم اقتباس أقوالهم بعد وليام شكسبير.

وقد استغلت المؤلفة الاهتمام الكبير بوايلد لكي تخرج هذه السيرة الذاتية الجديدة عنه.

□ □ □

أدب

صفحات من كتاب الحب
سلوى المناخ
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

سبعة فصول تتناول حياة وسيرة المتيمين العذريين من أمثال عنترة وعبلة والمرقش الأكبر وأسماء والمرقش الأصغر وفاطمة وعبد الله بن العجلان وهند وقيس بن الحداوية ونعم وعمرو بن كعب وعقيلة، وفي الفصل الثاني: تتناول بعضًا من سيرة شهيد الغرام العفيف جميل بثينة، وفي القسم الثالث: صفحات من كتاب الحب الحديث، وفي الفصل الرابع: شيء من سيرة إمام قرطبة أبو حزم الأندلسي صاحب «طوق الحمامة» وهو كتاب في الحب العفيف، وفي الخامس: بعض من سير الصوفية والحب، ثم تخصص السادس: لإمامهم الشاعر عمر بن الفارض، وتخصص المؤلفة القسم الأخير من كتابها لـ «أوفيد» صاحب كتاب فن الهوى.

في حنايا الوطن الملهم
أحمد علبي
بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠١

أغنية حب للبنان هذا الوطن الجميل العزيز على كل عربي، بإسهاماته في الثقافة والفنون والتنوير وعطائه الذي لم ينقطع حتى في أحلك ظروفه وطوال سنوات الحرب الأهلية القاسية. والمؤلف ينسج من ذكرياته وطبيعة لبنان الساحرة وعطائه الغامر صفحات كتابه.

مكان اسمه كميت
نجم والي
السويد: دار الهمبرا، ٢٠٠٢

نص يتناول فترة حرجة من حياة المجتمع العراقي، وهي الفترة التي سبقت الحرب العراقية الإيرانية في أواخر السبعينيات والضغوط التي عاناها العراقيون ومنها اشتداد وطأة الفروق الطبيعية واتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء وانهيار الاقتصاد لحساب الطغمة الحاكمة والقيود السياسية الرهيبة التي كممت أفواه العراقيين.

اقتصاد

دور الملكية الفكرية والصناعية والتجارة الالكترونية في عملية التنمية
كنعان الأحمر
دمشق: دار الرضا ٢٠٠١

عن أهمية الدور الذي تلعبه الملكية الفكرية في جميع الاتجاهات وتأثيرها بالذات على الاقتصاد الدولي، يقدمها المؤلف وهو محام من زاوية قانونية وتشريعية.

George Soros on Globalization
(جورج سوروس يكتب عن العولمة)
George Soros
Public Affairs, 2002, 160PP., $20

العقلية المالية الأبرز في عالمنا المعاصر جورج سوروس ترك بصمته بإيمانه بالمجتمع المفتوح وتبنيه سياسة خارجية تقدمية إلى جانب مشروعاته الخيرية المتعددة. في هذه الرسالة التي يمثلها كتابه الأخير، يقدم جورج سوروس للعالم حلاً لأزمة العولمة من أجل أن تصبح الرأسمالية العالمية أكثر استقرارًا وأكثر مساواة.

يقترح جورج سوروس إصلاح المؤسسات والتجارة المالية الدولية بدلاً من إغلاقها كما ينادي المعادون للعولمة. وهو يقترح إجراءات محددة وسياسات مفصلة توفر الدعم من الدول الغنية للدول الفقيرة من خلال صندوق نقد الدولي.

The China Dream: The Quest for the Last Great Untapped Market on Earth
(حلم الصين: البحث عن آخر سوق كبير على الأرض لم يُستَغل حتى الآن)
Joe Studwell
Atlantic Monthly, 2002, 384PP., $ 26

منذ أكثر من ألفي عام مثل عدد السكان الضخم للصين إغراءً للمصدرين والتجار والمستثمرين من جميع أنحاء العالم.

أما في التسعينيات فقد تم سكب ثلاثمائة مليار دولار في الصين، كرأس مال استثماري أجنبي وبذلت كثير من النفقات من أجل بيع بضائع مختلفة هناك. وباستثناءات قليلة، هذه المشاريع كانت كارثية. هكذا يقول مؤلف هذا الكتاب، وهو صحفي اقتصادي تخصص في تغطية الصين. يحلل ستادويل في كتابه العوامل الثقافية التي تجعل السوق الصينية غير قابلة للاختراق الأجنبي، كما يتنبأ بأزمة اقتصادية - سياسية قادمة في الصين.

إعلام واتصالات

الاتصال في عصر العولمة
مي عبدالله سنو
بيروت: دار النهضة العربية ٢٠٠١

دراسة نظرية من خمسة أقسام تتحدث عن الإطار المنهجي والنظري والعولمة وتوسع أشكال الاتصال ووسائل الاتصال الحديثة في العالم العربي ولبنان واستخدامات وسائل الاتصال، ثم أخيرًا وضع الاتصالات في لبنان مستقبلاً والتحديات التي تواجهها.

التنظيم القانوني لشبكة الانترنت
طوني عيسى
بيروت: دار الكتب الجامعية، ٢٠٠١

عن مخاطر التعامل السلبي مع شبكة الإنترنت، وكيفية ترشيد استخدامها للاستفادة القصوى مما تقدمه من إمكانات إيجابية وتجنب السلبيات إلى أدنى حد ممكن.

الصحافة الإخبارية
مرعي مدكور
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

فرضت التطورات التي شهدتها «الميديا» في السنوات الأخيرة أشكالاً جديدة ومختلفة على الصحافة الإخبارية بسبب المنافسة المفروضة عليها من وسائل الاتصال الحديثة والإنترنت والشبكات الفضائية. هذا التطور يضع الصحافة الإخبارية في موقف لا تحسد عليه ويرسم لها أدوارًا إصلاحية وتنموية وتنويرية لم تكن مطلوبة في الماضي.

Mobocracy: How the Media's Obsession with Polling Twists the News, Alters Elections and Undermines Democracy
(حكم الغوغاء: كيف يؤدي الولع الإعلامي باستطلاعات الرأي إلى لي الحقائق والعبث بالانتخابات وإفساد الديموقراطية)
Mathew Robinson
Prima, 2002, 272PP., $ 24.95

هجوم شديد على استطلاعات الرأي الإعلامية من جانب المؤلف الذي ينتمي إلى التيار المحافظ في الولايات المتحدة. ويبين في كتابه المنهاجية المعيبة وغير المتقنة التي تتم في معظم الاستطلاعات، كما ينتقد وسائل الإعلام لعدم إفصاحها عن الأساليب والعمليات التي تم بها جمع البيانات. وهو يوجه هذه الانتقادات في إطار اتهام الإعلام الأمريكي بالتحيز لصالح الليبراليين، مذكرًا على سبيل المثال أن الاستطلاعات الإعلامية هذه هي التي أنقذت كلينتون من حكم القانون.

تاريخ

المدينة المنورة في العصر المملوكي
عبد الرحمن المديرس
الرياض: مركز الملك فيصل، ٢٠٠١

سكن الأمراء والسلاطين المماليك حواضر بعيدة عن منابع الدين الإسلامي الحنيف في مكة المكرمة والمدينة المنورة مثل مصر والشام، ولم ترد في تاريخهم صور للحرمين الشريفين، وهذا هو الجهد الرئيسي الذي اضطلع به المؤلف حيث يرسم صورًا لهما اجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا ودينيًا في تلك الحقبة.

دراسات في التاريخ والثقافة العربية
عبادة كحيلة وآخرون
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

مجموعة من الدراسات والأبحاث حول التاريخ والثقافة العربية مهداة إلى الدكتور رءوف عباس حامد بمناسبة بلوغه السبعين، وتستعرض بعض الدراسات دور رءوف عباس في تطوير الدراسات التاريخية ومنهجه في التاريخ.

فطير صهيون
العماد مصطفى طلاس
دمشق: دار طلاس، ٢٠٠١

الصهاينة هم النازيون الجدد، هذا ما برهنت عليه الأحداث الأخيرة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، ومازال شارون وزبانيته رغم كل نداءات المجتمع الدولي ورغم الضغوط الأوروبية وغيرها ماضيًا في هدفه نحو تصفية الشعب الفلسطيني والقضاء عليه، المؤلف يلقي أضواء على مجازر الصهاينة على مر العصور، ويركز على جريمة قتل الراهب توما الكبوشي وخادمه في دمشق، وغيرها مما يبين النزعة الدموية في العقلية الإسرائيلية.

Six Days of War: June 1967 and the Making of the Modern Middle East
(ستة أيام من الحرب: يونيو ١٩٦٧ وتشكيل الشرق الأوسط المعاصر)
Michael B.Oren
OxFord University, 2002, 512PP., $30.00

عمل مايكل أورين مديرًا لإدارة العلاقات ما بين الأديان في إسرائيل ومستشارًا لوفد إسرائيل في الأمم المتحدة وهو الآن زميل في مركز شالم بالقدس. وكتابه هذا الذي يصدر في يونيو القادم، ينال اهتمامًا واسعًا، فهو يروي قصة حرب ١٩٦٧، مستخدمًا آلاف من الوثائق السرية وأوراق روسية وعربية ومقابلات شخصية انفرادية، محاولاً إعادة خلق السياق الدولي والمحلي في هذه الفترة والأزمات الداخلية التي تفجرت في الدول الأطراف. يتناول الكتاب كذلك الشخصيات الرئيسية في الصراع: جمال عبدالناصر، موشي ديان، حافظ الأسد، إسحق رابين، لندون جونسون وأليكسي كوسيجين.

تراث

السادر والمخاطب في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء
عبد الله الغزالي
الكويت: جامعة الكويت، ٢٠٠١

دراسة تحليلية للخط الدرامي المتبع في كتاب فاكهة الخلفاء، وتقييم لأهم الحكايات والنوادر الشعبية التي يتضمنها وتأثير هذه الحكايات على الفن القصصي في تراثنا السردي ودلالاتها.

في بيان الحاجة إلى الطب والأطباء ووصاياهم
تحقيق ودراسة: محمد فؤاد الذاكري
الإمارات: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٢

دراسة في تاريخ الطب والمدارس الطبية القديمة ومدى الارتباط بين الطب والحكمة، ويجول المؤلف في الطب النبوي وإسهاماته في تطوير مدارس الطب القديمة، ويحقق نسخًا تتحدث عن وصايا الأطباء في عصور مختلفة لعلاج عديد من الأمراض، وسلوك الطبيب وأخلاقياته.

معجم صفات النساء
عبد الناصر الحمد
الكويت: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١

دراسة لأهم صفات المرأة والمعايير المعتبرة للجمال والذكاء والفراسة والاستيعاب.. إلخ، مستعينًا بالشعر والشعراء ومدللاً من قصائدهم على اختلاف هذه المعايير من زمن لآخر ومن شاعر لآخر.

"تربية"

مكونات ثقافة الطفل العربي
حسن مدن وآخرون
الإمارات: دائرة الثقافة والإعلام ٢٠٠١

مجموعة من الدراسات التي ترسم خطة منهجية لتنمية الطفل خصوصًا على الصعيدين الثقافي والعقلي. وتقدم بدائل لخطاب التوجيه السائد الذي يكرّس قيمًا لا تحفل بالجدل وإثراء ملكات التساؤل والمشاركة من أجل طفل عربي جديد.

■■■

Killing Monsters: Why Children Need Fantasy, Super Heroes, and Make - Believe Violence
(الوحوش القاتلة: لماذا يحتاج الأطفال إلى الخيال والأبطال الخوارق، والعنف المحاكى)
Gerard James
Basic, 2002, 288PP., $25.00

يدافع المؤلف عن تقديم جرعات من العنف في وسائل التسلية المتاحة للأطفال. فعلى عكس ما كتب في السابق، يرى المؤلف أن تجريم مشاهدة مثل هذا العنف غير الحقيقي يؤذي التطور العاطفي لدى الأطفال. فالأطفال تعرف جيدًا الفرق بين الخيال والواقع، وفي الوقت الذي يفزع الكبار من المعنى الحرفي والمعرفي من بعض البرامج، إلا أن الأطفال يقبلون على هذه البرامج من أجل شحناتها العاطفية، التي تفيد في جعلهم يتعرفون على مثل هذه المشاعر القوية ويشعرون بالقدرة على السيطرة عليها، سواء كانت مشاعر غضب أو عنف أو جنس.

"تخطيط مدن"

Haussman: His Life and Times, and the Making of Modern Paris
(هاوسمان: حياته وعصره، وإنشاء باريس الحديثة)
Michel Carmona
Translated From the Frach by: Patrick Camiller
Ivan R. Dec, 2002, 630PP., $35.00

قام البارون جورج يوجين هاوسمان في عهد نابليون الثالث بتحويل باريس من منطقة مدنية ساكنة تنتمي للعصور الوسطى إلى مدينة امبريالية متنصرة. وكان هاوسمان يؤمن بالشوارع الرئيسية الفسيحة والمتسعة أيًا ما كان العائق في طريق إنشائها، فتم على يديه ترحيل آلاف من السكان الفقراء من وسط المدينة، وتحطيم عدة مدن تاريخية.

هذا الكتاب يلقي الضوء على حياة هاوسمان ومشروعه في إعادة تخطيط مدينة باريس، والحملات الصحفية التي قامت ضده والاحتجاجات الشعبية التي واجهها بسبب الآثار التي كانت تنتج عن تنفيذ مشروعاته.

"دوريات"

مصر الحديثة
مجموعة باحثين
القاهرة: دار الكتب القومية، ٢٠٠٢

دورية جديدة تعنى بتاريخ مصر الحديث والمرتكزات التي قامت عليها نهضتها المعاصرة وعلاقتها بدول بدأت معها النهضة في نفس الوقت تقريبًا مثل اليابان، فضلاً عن العلاقات التاريخية التي ربطت مصر بجيرانها وتأثير هذه العلاقات على مصر وجيرانها أيضًا.

"رواية وقصص"

أموت وأفهم
سناء البيسي
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

مجموعة من القصص القصيرة واللوحات التي تغوص في قلب المجتمع المصري معبرة عن آمال بسطائه ومشاكلهم وهمهم اليومي الذي قد لا نعيره اهتمامًا لكن انعكاساته تؤثر في الجميع.

■■■

تكسير الركب
زكريا تامر
بيروت: رياض الريس ٢٠٠١

ثلاث وستون قصة قصيرة ترسم ملامح البيئة العربية وإشكالاتها وتخبط الإنسان العربي البسيط في موجاتها المتلاطمة، وهي مصاغة بالأسلوب الساخر الذي عُرف عن الكاتب السوري الشهير.

■■■

طريق النشر
إدوار الخراط
القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٢

في خضم البطولات الجسورة والتضحيات العظيمة التي قدمها الشعب الفلسطيني في انتفاضته الأخيرة، تأتي هذه الرواية للمؤلف التي تتناول مواقف شبيهة وبطولات للشعب المصري في الإسكندرية في مواجهة الاحتلال في الأربعينيات، وكيف أن هذه التضحيات كانت هي عربون الاستقلال الذي حققه المصريون في نهاية المطاف.

■■■

قانون الوراثة
ياسر عبد اللطيف
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

رواية تنهل من سيرة ذاتية لراو يبحث عن تاريخه وأسرته وعائلته التي يحمل وجهه الأسمر ملامحها. وهي أسرة نوبية هاجرت إلى القاهرة في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتتخلل ذاكرة الراوي الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية التي ميزت تلك الفترة وأهم التحولات الانعطافية فيها.

■■■

لصوص متقاعدون
حمدي أبو جليل
القاهرة: دار ميريت ٢٠٠٢

مجموعة قصصية جديدة عن المهمشين في المجتمع المصري وتفاصيل حياتهم واهتماماتهم الصغيرة وعلاقتهم بالمجتمع ورؤيتهم للتحولات من حولهم ونظرة المجتمع لهم.

■■■

The Doctor's House
(بيت الطبيب)
Ann Beattie
Scribner, 2002, 283PP., $24.00

الرواية الأحدث لإحدى أهم الأديبات الأمريكيات، وهي رواية مظلمة وكئيبة إلى حد كبير، حيث تتناول الآثار المدمرة التي تخلفها الخيانات الزوجية للوالد على زوجته وأولاده، والطفولة المضطربة التي تخلو من الحب، والنشأة بدون فهم لكيفية إعطاء واستقبال الحب مع الآخرين.

■■■

The Weather in Berlin
(الطقس في برلين)
Ward Just
Houghton Mifflin, 2002, 320PP., $24.00

بطل الرواية مخرج عمره أربعة وستون عامًا، يدعى ديسكون جرينوود، أول أفلامه كان فيلمًا صُور في ألمانيا في أواخر الستينيات، واشتهر بوصفه من الأفلام المعادية للحرب. وبعد خمسة عشر عامًا من الجفاف الإبداعي اقتنع جرينوود أنه فقد جمهوره وموهبته، ويعود إلى برلين عام ١٩٩٩ بمناسبة حصوله على الزمالة في أحد المعاهد الألمانية هناك.

"رياضة"

The Ultimate Golf Book: A History and a Celebration of the World's Greatest Game
(كتاب الجولف الأساسي: تاريخ واحتفاء بأعظم لعبة رياضية عرفها العالم)
Charles Mc Grath, David Mc Cormick, (editors)
John Garrity (Historical Text)
Houghton Mifflin, 2002, 272PP., $40.00

محرر هذا الكتاب هو رئيس تحرير ملحق الكتب التابع لصحيفة «النيويورك تايمز» وهو يقدم في هذا الكتاب الخاص، ثمانية عشر مقالاً عن تاريخ وقواعد ومتعة لعبة الجولف. هذه المقالات كتبتها شخصيات أدبية وسياسية مرموقة مثل جون أبدايك وديفيد أوين. كذلك يضم الكتاب ثلاثمائة صورة فوتوغرافية.

"سياسة"

اتجاهات الفكر التربوي المعاصر في إسرائيل
محمد فوزي عبد المقصود
القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢

يلعب الفكر التربوي في إسرائيل دورًا بالغ الخطورة داخل المجتمع الصهيوني تدعيمًا لأفكار ونظريات الصهاينة الأوائل ومقاومة لأفكار القومية العربية. المؤلف يرصد لهذه الاتجاهات كما يبين سبل مواجهة هذا المخطط بخطط واعية واستراتيجيات بعيدة المدى.

■■■

القدس في السياسة الأمريكية
إبراهيم أبو حليوة
بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠١

ستظل القدس هي العنوان الدائم للصراع بين العرب واليهود. ولا حل للنزاع في منطقة الشرق الأوسط إلا بحل قضية القدس حلاً جذريًا. الدراسة تقدم رؤية لموضوع القدس في السياسة الأمريكية منذ الأربعينيات حتى اليوم، توضح الارتباك المدفوع بالمصلحة في الموقف من القدس كما تتبناه السياسة الأمريكية.

■■■

درب الأشواك.. حماس. الانتفاضة. السلطة
عماد عبد الحميد الفالوجي
فلسطين: دار الشروق، ٢٠٠٢

عن بدايات تكوين حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وأهم القادة فيها والدور الذي تلعبه حماس في دعم صفوف المقاومة الفلسطينية لمواجهة العدو الصهيوني وكيف غيرت بإسهاماتها في النضال الفلسطيني صور وأشكال المقاومة منذ إنشائها وحتى الآن.

■■■

حال الأمة العربية. الوثائق. القرارات. البيانات
مجموعة من الباحثين
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

أثبتت الأحداث الأخيرة في الأراضي الفلسطينية المحتلة وتجليات الانتفاضة التي أكدت بطولة الشعب الفلسطيني وبسالته دفاعًا عن الأرض والمقدسات في مواجهة الآلة العسكرية الإسرائيلية الغاشمة، أن الموقف الرسمي العربي أعجز من أن يتخذ قرارات ترقى لمستوى طموحات الشعوب. حوالي ست عشرة دراسة يتضمنها هذا الكتاب تحلل الوضع العربي وآليات صنع القرار على مستوى الأنظمة وأسباب ما آل إليه الحال وكيفية الخروج من المأزق.

■■■

صهيونية القرن الـ ٢١
إياد عبيد
بيروت: دار بلال، ٢٠٠١

تقوم الأيديولوجية الصهيونية على أسس عنصرية واستعلائية مستقاة من أفكار تلمودية توراتية لا صلة لها بصحيح الديانة اليهودية، لكنها تقدم التبريرات الكافية لتنفيذ الحلم الصهيوني القديم بلم شمل الأقليات اليهودية المبعثرة في العالم كله، وحشرها في «أرض الميعاد» بعد طرد سكانها الأصليين، وفي سبيل تحقيق هذا الحلم الاستيطاني تستخدم كل الوسائل عسكرية وسياسية وغيرها.

والمؤلف يتابع مسيرة هذه الأيديولوجية وسعيها لتحقيق أهدافها.

■■■

لعبة الانتخابات اللبنانية
سليمان الحكيم
القاهرة: دار الجميل، ٢٠٠٢

تحليلات سياسية عن الوضع في لبنان، وما وصل إليه الحال في أعقاب الحرب الأهلية التي استمرت ربع قرن تقريبًا والتي أدت إلى هجرة الآلاف من جحيمها إلى خارج حدود الوطن، ثم انطفاء جذوة هذه الحرب اللعينة وعودة الناس ومشهد تعمير ما خربته الحرب.

ثم يتناول المشهد الأكثر ارتباكًا في لبنان وهو المشهد السياسي الذي تتداخل فيه المصالح بالأهداف النبيلة بالتدخلات الخارجية ومصالح القوى الكبرى.

■■■

من نهج الثورة إلى فكر الإصلاح
مصطفى الفقي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

ثمة تمايز أكيد بين أسلوبين في صناعة التاريخ، أسلوب الثورة حلاً جذريًا لا بديل عنه لإصلاح النظام السياسي وتأكيد نزاهة الحكم وتحقيق العدالة على الصعيد الاجتماعي. وأسلوب آخر يرى الإصلاح عملية تدريجية مدروسة وليس انقلابًا فجائيًا، عملية تستلهم التطور من علاقة متوازية مع عنصر الزمن، وقد كان لكلا المنهجين مناصروه في مسيرة السياسة والثقافة المصرية منذ محمد علي وحتى اليوم.

■■■

نهاية عملية السلام.. أوسلو وما بعدها
إدوارد سعيد
بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

مجموعة من المقالات نشرها المفكر الكبير على مدى السنوات الماضية ويقر فيها سعيد بعدم إمكانية تحقيق سلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين وفق اتفاقيات أوسلو التي عكست خللاً شديدًا في توازن القوى وأجبرت الفلسطينيين وهم الطرف الأضعف على قبول تنازلات ضخمة فرَّغت السلام من مضمونه.

والمعروف أن إدوارد سعيد وقف منذ البداية ضد اتفاقيات أوسلو واعتبرها مجحفة بحق العرب والفلسطينيين.

■■■

How Democratic is the American Constitution?

(إلى أي مدى الدستور الأمريكي ديمقراطي؟)
Robert A. Dahl
Yale Univ., 2002, 184PP., $19.95

يعد روبرت داهل من أهم أساتذة العلوم السياسية وكتابه «عن الديمقراطية» من أهم المراجع العلمية عن الأسس النظرية والعملية للديمقراطية. أما في كتابه هذا، فيقدم روبرت داهل نظرة نقدية للدستور الأمريكي الذي لازال يحكم الحياة السياسية في أمريكا. يقول بروفيسور داهل: «هذه الوثيقة تم إنتاجها منذ قرنين من الزمان على يد خمسة وخمسين رجلاً فانيًا، ووقعها تسعة وثلاثون منهم فقط، وتبنتها ثلاث عشرة ولاية فقط».

والدستور الأمريكي من وجهة نظره فشل كأداة لحكومة ديمقراطية حقيقية. فقد تضمن الدستور عددًا من العناصر غير الديمقراطية مثل القبول بالعبودية، وقصر الناخبين على الرجال من البيض، إلى جانب مجلس الشيوخ والهيئة الانتخابية، الأمر الذي يربط الأصوات بالجغرافيا وليس بالسكان، ويفرز سياسات محابية لجماعات الضغط القوية بدلاً من محاباة أكبر عدد من المواطنين. على عكس الدول التي تتبنى نظام التمثيل النسبي الذي يفرز نظام التعددية الحزبية والحكومات الائتلافية ويقدم مساواة ديمقراطية أكثر نقاء.

■■■

The Shield of Achilles

(درع أخيل)
Philip Bobbit
Knopf., 2002, 884PP., $46.00

هذه دراسة رائدة في عملية تحول النظام السياسي المعاصر من نظام الدولة القومية إلى نظام الدولة التجارية. فالدولة القومية التي تطورت خلال ستة قرون ماضية باعتبارها المؤسسة الأعلى لشن الحرب وتنظيم السلام أصبحت في طريقها للتواري خلف الدولة التجارية التي تسعى لتعظيم فرص شعبها عن طريق العلاقات التجارية المختلفة. بينما الدولة القومية تستخدم القوة والقانون لتحقيق الرخاء المادي لمواطنيها.

شـــعـر

انفجارات إضافية
إبراهيم داود
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

ديوان أخير لأحد الأصوات الشعرية المهمة في التسعينيات والتي بدأها بديوانه «تفاصيل صغيرة»، وهو هنا يواصل مقاربة الواقع على طريقته، راسمًا لوحات لقضايا عديدة لا يغيب عنها الوطن والحلم والمستقبل.

■■■

دائمًا يتحدث مع غائبين
حسن خضر
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

الديوان الثاني للشاعر برغم بداياته الشعرية المبكرة، وفيه تتضافر مشاعر الحزن الذاتية مع الهموم العامة والأصداء ذات الأبعاد الوطنية والاجتماعية وهو ما يميز إبداع الشاعر عمومًا.

■■■

قبل أن يبرد الياسمين
جهاد هديب
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

عدة بورتريهات يرسمها الشاعر مستخدمًا خيال المبدع وأدواته، تطالعنا فيها صور للعدو الغاصب والوطن وشباب المقاومة وأطفال الانتفاضة.

عـــلوم

العلوم الطبيعية.. خواصها وملامح تاريخها وبعض أعلامها
سمير حنا صادق
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢

لم يؤثر شيء في مسيرة التطور والفكر العربيين قدر نفوره من العلم وتطبيقاته وغياب العقلية العلمية التي تعنى بالمقدمات والنتائج وتبحث عن حلول عملية وبدائلها. المؤلف يؤكد هنا أهمية العلم في حياتنا ودوره في تطور الأمم من خلال تركيزه على العلوم الطبيعية تاريخها وتطورها، والأعلام من العلماء الذين ساهموا في هذه المسيرة.

■■■

The Next Fifty Years: Science in the first Half of the Twenty- First Century

(الخمسون عامًا القادمة: العلم في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين)
John Brochman (editor)
Vintage, 2002, 320PP., $14.00

قام المحرر بتجميع خمسة وعشرين كاتبًا لمناقشة مستقبل العلم في مجالات دراسة واختصاص كل منهم. وتنقسم مجموعة المقالات التي يحتويها الكتاب إلى قسمين: المستقبل في النظرية والمستقبل في الممارسة العملية.

تحتوي الموضوعات النظرية على العلوم الفلكية، وطبيعة الوعي، وإمكانية وجود كائنات ذكية خارج كوكب الأرض. أما الموضوعات العملية فتتناول مستقبل تطبيقات «الدنا»، واستكشاف المريخ، وإنجاب الأطفال.

من ضمن التنبوءات التي يحتويها الكتاب ما كتبه روبرت سابوتسكي أخصائي علم الأعصاب عن مرض الحزن الذي يرى أنه سوف يكون إحدى الكوارث الطبية التي سيشهدها النصف القادم من القرن الحالي، جنبًا إلى جنب مع الزهايمر والإيدز.

فـكـــــر

التغريب في المسألة الإيرانية الحديثة
غسان طحان
بيروت: بيان للنشر، ٢٠٠٢

ساهمت الثقافة الفارسية بنصيب وافر في الحضارة الإسلامية من خلال علماء أفذاذ في علوم اللغة والحديث والفلسفة وحتى في العلوم الطبيعية، وهو فضل غير منكور لعلماء المسلمين من الفرس. لكن كيف تساهم هذه الثقافة في المشهد الثقافي المعاصر وما هو مستقبلها في ضوء الإشكاليات الراهنة.

■■■

الغرب والإسلام
رسول محمد رسول
عمَّان: دار الفارس، ٢٠٠١

تشغل علاقة الغرب بالإسلام مساحة كبيرة في أذهان المفكرين على الجانبين، ومع بروز كتابات فوكوياما عن نهاية التاريخ وهنتنجتون عن صراع الحضارات زادت هذه المساحة وربما زادتها أحداث ١١ سبتمبر ارتباكًا. هذا الكتاب إضافة في هذا السبيل.

■■■

سؤال الأخلاق
طه عبد الرحمن
الرباط: بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١

يحمل الكتاب عنوانًا فرعيًا آخر هو مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة العربية، والكتاب يبحث في الروابط بين الأخلاق والدين، وبين الاثنتين والحداثة بمظاهرها المختلفة.

■■■

كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد
جودة سعيد، خالص جلبي، هشام علي حافظ
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١

تحليل النفس البشرية وخصوصًا في لحظات ضعفها وكيف يمكنها قبول الاستبداد والقهر، وكيف لهذا القهر والاستبداد أن يحولها إلى قطعان تصبح قابلة للقهر وعاجزة عن المطالبة بحقوقها في الحياة والحرية.

فـنـــون

In Responce to Place: Photographs from the Nature Conservancy

(استجابة للمكان: صور فوتوغرافية من المحميات الطبيعية)
Terry Tenipest Williams, Andy Grundberg
Bulfinch Press, 2001, 160pp., $ 50.00

يحتفي هذا الكتاب بالمحميات الطبيعية حول العالم، ويحتوي على ٢٠٠ صورة فوتوغرافية من هذه الأماكن لكبار المصورين في العالم.

■■■

Sundance to Sarajevo: Film Festivals and the World they Made

(من ســاندانس إلى ســرايـيـفـو: المهرجانات السينمائية والعالم الذى تصنعه)

Kenneth Turan
Univ. of California, 2002, 192PP., $24.95

الناقد السينمائى فى جريدة «لوس أنجيلوس تايمز» يمزج تاريخ الفيلم بأدب الرحلات وهو يكتب عن تفاصيل اثنى عشر مهرجانًا سينمائيًا من بين أربعمائة مهرجان سينمائى فى العالم. يبين المؤلف كيف توفر هذه المهرجانات بيئة صالحة للعلاقات العامة ونمو صناعة الفيلم ككل.

"لغـــة"

العربية الفصحى شعلة لا تنطفئ
جبران مسعود
بيروت: بيت الحكمة، ٢٠٠١

سيظل القرآن الكريم حافظًا للغة العربية من الاندثار أو الضياع على ألسنة أهلها الذين لو عرفوا لآلئها وجمالياتها، انصرفوا عنها إلى غيرها تحدثًا وإبداعًا. هذا الكتاب يلقى أضواء على بعض جماليات اللغة العربية والأساليب البديعة والصور البيانية والبلاغية التى تزخر بها.

■■■

المفصّل فى صنعة الإعراب
الزمخشرى
تحقيق: محمد عبد المقصود وحسن عبد المقصود
القاهرة: بيروت: دار الكتاب المصرى اللبنانى، ٢٠٠١

هذا هو أول تحقيق علمى للكتاب رغم شهرته الكبيرة، وهو أول كتب الدراسات النحوية التى تناولت مسائل النحو بتبويب منظم، وقد دعم المحققان الكتاب بمجموعة فهارس فنية اشتملت على فهرس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشواهد الشعرية وغيرها.

■■■

علم الاكتناه العربى الإسلامى
قاسم السامرائى
الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث، ٢٠٠١

رؤية لمفهوم علم الاكتناه فى اللغة العربية ومقارنة بين المفهوم العربى لهذا العلم ونظيره فى الغرب، وكيف أفاد هذا العلم فى الفهرسة والتبويب وحفظ المؤلفات من الخلط والضياع.

"مجتمــع"

الدليل الموحد لمصطلحات الإعاقة
جمال الخطيب وآخرون
البحرين: المكتب التنفيذى لمجلس وزراء العمل بدول مجلس التعاون ٢٠٠١

شهدت السنوات الأخيرة اهتمامًا حقيقيًا بالمعاقين وذوى الاحتياجات الخاصة فى سعى حثيث لإدماج هؤلاء فى الحياة وإشعارهم بأهميتهم وبإمكانية مشاركتهم الفاعلة فى الحياة، لهذا يأتى هذا الكتاب جسرًا للتواصل بين المعاقين ومحاولة لحل شفرة لغة الإعاقة.

■■■

المسنون وربيع العمر الجميل
عبد التواب يوسف
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

كثيرون ما أن يجاوز العمر بهم العقد الخامس، حتى ييأسوا من حياتهم ويفقدوا شهيتهم للحياة والتفاعل معها، لكن الحقيقة التى يبرزها الكتاب هى أن لهذا العمر جماله وإمكانيات الاستمتاع به، والمجتمع ذاته لابد أن يستثمر هذه الخبرات التى لا يجوز تركها ليد الإهمال دون أن يستفاد منها.

■■■

زوجات قاتلات
سراج الدين الروبى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

شهدت السنوات الأخيرة فى مصر نوعية من الجرائم لم تكن معتادة فى المجتمع المصرى الذى عرف بتماسكه على المستوى الأسرى، وقد هزت حوادث قتل الأزواج المجتمع، وصارت مثار تندر واستلهمت منها السينما بعض الأعمال التى قدمتها استنادًا إلى قصص واقعية، المؤلف بحكم خبرته وتجاربه فى جهاز الشرطة، يرصد بعض هذه التجارب ودوافع القاتلات وحيلهن واعترافاتهن فى المحاضر الرسمية.

■■■

The Common Thread: Mothers, Daughters and the Power of Empathy

(الخيط المشترك: الأمهات وبناتهن وقوة التقمص العاطفى)

Martha Manning
Marrow, 2002, 368PP., $ 25.95

تبدأ العلاقة بين الأم وابنتها منذ لحظة الحمل وتمتد إلى ما بعد موت إحداهما. تقوم رؤية المؤلفة لهذه العلاقة على فكرة التقمص العاطفى - أو قدرة كل من الأم والابنة على تفهم مشاعر الأخرى. وهى تقدم قراءة لكتابات عديدة تناولت هذه العلاقة بالتحليل وتقدم نصائحها خاصة لأمهات المراهقات فى كيفية إدارة هذه العلاقة فى الفترات والمواقف الحرجة. كما تقدم نصائحها للنساء الأكبر فى كيفية معاملة أمهاتهن فى سن الشيخوخة.

"مذكرات وسير"

الأمير عبد الإله.. صورة قلمية
عطا عبد الوهاب
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

صورة من قريب للأمير عبد الإله الذى كان وصيًا على عرش العراق لمدة ناهزت عقدين من الزمان حتى وقوع الانقلاب فى عام ١٩٥٨ فى العاصمة العراقية بغداد. والمؤلف هو السكرتير الخاص فى الديوان الملكى العراقى، حيث أتاح له هذا الاقتراب أن يتعمق أكثر فى النواحى الإنسانية والفكرية لدى الأمير عبد الإله وهى مجهولة لكل من تناول سيرته ومسيرته.

■■■

المنهج التاريخى عند القلقشندى
ظمياء السامرائى
الرياض: مركز الملك فيصل، ٢٠٠٢

تتابع المؤلفة المنهج الذى اتبعه القلقشندى فى مؤلفاته، فضلاً عن سيرة حياته اجتماعيًا وثقافيًا وأهم مؤلفاته ورؤيته التاريخية للأحداث.

■■■

خالد بن الوليد.. بطل ومسجد
محمد فيصل شيخانى
دمشق: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١

تحليل القائد الإسلامى خالد بن الوليد مكانة مهمة فى التاريخ العسكرى الإسلامى بفتوحاته العظيمة التى كان لها أكبر الأثر فى بناء واتساع رقعة دولة الإسلام، المؤلف يقدم سيرة هذا البطل المجاهد ويحدثنا أيضًا عن المسجد الذى يحمل اسمه، تاريخه وأهم معالمه.

■■■

رحلة فى فكر زكى نجيب محمود مع نص رسالته عن الجبر الذاتى
إمام عبدالفتاح إمام
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٢

سيرة حياة المفكر الفيلسوف ومراحل تطوره وتارجحاته بين العقل والدين ثم محاولته المزج بين العقل والدين والبحث عن قواسم مشتركة بين البرجماتى والروحانى فى الفلسفات الإنسانية.

وإلى جانب مجموعة كبيرة من الدراسات التى كتبها تلاميذه وأصدقاؤه يعرض المؤلف لرأى زكى نجيب محمود فى موضوع حرية الإرادة عند الإنسان. والذى شغله سنوات طويلة.

■■■

سليمان الجزائرى.. مع فتاواه ورسائله
أبو القاسم كرو
تونس: مؤسسة عبد الله للنشر، ٢٠٠١

عاش العالم الفقيه سليمان الجزائرى فى القرن التاسع عشر وتوفى فيه أيضًا، لكن الأثر الذى تركه فى مجال الفتاوى والدراسات الفقهية والدينية مازال باديًا حتى اليوم لدى عديد من تلاميذه وتلاميذهم أيضًا.

■■■

مذكرات عربجى
فكرى أباظة
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢

أوراق من حياة الضاحك الباكى فكرى أباظة، صاحب المسيرة الطويلة المهمة فى بلاط صاحبة الجلالة. تقدم إطلالة على عالم هذا الصحفى والكاتب البارز وتلقى أضواء على مرحلة زمنية طويلة من وجهة نظره.

■■■

من حياتى مع الموسيقى
سمحة الخولى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

تقدم المؤلفة فى هذا الكتاب خلاصة تجربتها الطويلة مع الموسيقى فى خمسة فصول تتناول خلالها فرسان الموسيقى والتلحين من أمثال سيد درويش وسلامة حجازى، فضلاً عن آخرين ساهموا بكتاباتهم فى تنمية الوعى الموسيقى من أمثال د. حسين فوزى ود. مصطفى مشرفة والمايسترو يوسف السيسى، ودور المؤلفة ذاتها فى التصدى لمن يحاولون تشويه الموسيقى الشرقية.

■■■

Herman Melville: A Biography, Volume 2, 1851 - 1891

(هرمانت ميلفيل: سيرة حياته، الجزء الثانى، ١٨٥١ - ١٨٩١)

Hershel Parker
John Hopkins Univ., 2002, 1.184PP., $45

يبدأ هذا الجزء من حياة هيرمان ميلفيل بصدور روايته الشهيرة عن الحوت الأبيض «موبى ديك» عام ١٨٥١. وكانت هذه أسعد أيام ميلفيل ولكنها شهدت تحوله من كاتب شهير وله شعبية بين جمهور القراء كاول كاتب أمريكى يكتب فى الجنس، إلى أديب يكتب روايات يهتم بها النقاد، ولا تاتى بمبيعات، وهكذا تراكمت الديون عليه واضطر للعمل فى الجمارك ليرعى أسرته، وتم نسيانه شيئاً فشيئاً.

"نقــــد"

خليفة الوقيان فى رحلة الحلم والهم
نجمة إدريس
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢

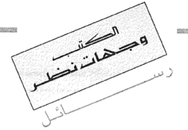
ترك الوقيان تراثًا شعريًا مهمًا ليس فى مسيرة الشعر الكويتى فحسب وإنما فى مسيرة الشعر العربى كله. وهذه الدراسة تشير إلى مسيرة الوقيان الشعرية وروافد ثقافته وإبداعه والقضايا التى عنى بها أكثر من غيرها.

■■■

زمن للشعر والشعراء
فاروق شوشة
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

ثمة مقولة شاعت فى السنوات الأخيرة مؤداها أن الشعر لم يعد ديوان العرب وأن الرواية احتلت مكانه ومكانته. وهى مقولة حظها من الصحة ليس قليلاً. المؤلف ربما عن غير قصد يؤكد هذه المقولة حيث يحدثنا عن تذوق الشعر فى القدم وكيف كانت القبائل تحتفى بالشاعر وتقيم موائد الفرح لنبوغه بينهم، ثم يحلل الأسباب التى أدت إلى عزوف الناس عن الشعر وتقلص عدد قرائه، ويقدم نماذج لشعراء كبار تركوا بصماتهم فى مسيرة الشعر العربى مثل أحمد شوقى وصلاح عبدالصبور والهمشرى ومحمود حسن إسماعيل وآخرين.

■■■



❞ ترحب وجهات نظر بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها ❝

كنوز جميلة فى مكتبة الطفل المصرى

لأن مجلتكم تعنى بالكتب، فقد لفت انتباهى أنكم تتجاهلون الكتب الموجهة للأطفال. الأمر الذى اعتقدت معه ولفترة طويلة، أن المكتبة العربية تخلو من كتب للأطفال تستحق العناية بها.

وقد دفعنى هذا للبحث طويلاً فى معارض لكتب الأطفال وفى مكتبات كثيرة، وكدت أن أصاب بالإحباط إلى أن ذهبت إلى معرض كتب الأطفال فى أرض المعارض فى فبراير الماضى ووجدت كنزًا من الكتب المتنوعة، الشابة المبهجة، وشاركنى فى سعادتى بها ابنتاى حيث أصبحتا الآن فى سن السادسة والسابعة وأصبحت حدوتة قبل النوم هى أجمل لحظات اليوم.

وبدأنا فى استطلاع الكنز وكانت أول جوهرة وجدناها هى «حكاية أراجوز» وهى قصة ولوحة فنية فى آن واحد، فقد استطاعت كاتبتها سميرة شفيق أن ترجعنا إلى زمن الأراجوز وعروسة المولد والفرسان وحياة الموالد الشعبية التى قاربنا على نسيانها، وكل هذا وسط الرسومات الرائعة للفنان «إيهاب شاكر» الذى أضافت رسوماته بُعدًا فنيًا رائعًا. وقد قام هذا الثنائى الجميل بعمل آخر هو «لو كنت ملكًا» ويحكى قصة شمسة ودانا فتاتان على جزيرة ومعهما أصدقاؤهما من الحيوانات وهم جميعًا يتبادلون الأحلام عما سيفعلونه لو أصبح كل منهم ملكًا. وهذا الكتاب فريد فى أنه مكتوب ومرسوم بأسلوب الكارتون فالحوار يدور بين الأبطال فى مجموعة صور تبين الأحداث فى كل موقف. هذا الأسلوب يبدو غريبًا فى بادئ الأمر لمن لم يعتد قراءة مجلات ميكى وسمير وغيرها إلا أنه سرعان ما يصبح شيقًا وسهلاً خاصة لمن يستطيع القراءة بنفسه من الأطفال.

كنزنا الثمين احتوى على لؤلؤة أخرى غاية فى الجمال وهى كتاب «أجمل الحكايات الشعبية» إعداد يعقوب الشارونى ورسم الفنان البديع حلمى التونى، وهذا الكتاب كما يوحى عنوانه من القصص القصيرة، كل منها مبنى على حكاية شعبية مصرية قديمة، ورسوم حلمى التونى كلها تضفى عليها إحساسًا بماضينا الثرى الجميل، وقد حصل هذا الكتاب على جائزة بولونيا الدولية لكتب الأطفال لهذا العام.

قام الفنان حلمى التونى برسم العديد من الكتب الأخرى التى مررنا عليها منها كتاب «أشعار وصور الحروف» شعر محمد الهراوى حيث لكل حرف من الحروف الأبجدية بيت شعر ولوحة فنية. وقد رأيت هذا الكتاب على هيئة بوستر جميل. كما أن «الفنان حلمى التونى» شارك أيضًا فى كتاب هو من أعز الكتب إلى ابنتى الصغرى، وهو «هلال القدس البسام» تأليف الكاتب والشاعر الرقيق شوقى حجاب، هذا الكتاب قدم لنا الشعر والسياسة والفن فى نسيج جميل رقيق. حيث إنه يحكى لنا قصة يمامة تعيش بجوار هلال أعلى المسجد الأقصى وهو هلال مبتسم دائمًا ومن حوله الكنائس والجوامع فى مدينة جميلة كل من بها يحب الآخر، إلى أن تاتى اليمامة ذات يوم فتجد الهلال حزينًا ذهبت عنه الابتسامة بعد أن حضرت البومة الشريرة بمساعدة الذئبة السمينة ودمَّرت وفجَّرت وساد الحزن فى مدينة السلام.

وهناك مجموعة من الكتب ذات الأفكار الجديدة والرسومات المبهجة، فهناك سلسلة كتب للدكتور عبدالوهاب المسيرى، ورسوم الفنانة صفاء نبعة وكلها تمزج الحكايات الكلاسيكية بواقعنا المصرى فتخلق مزيجًا خياليًا وجميلاً ومثيرًا، من هذه القصص «سندريللا وزينب هانم خاتون» وفيها تسكن سندريللا مع أمها فى مصر الجديدة، وتبلغها صديقتها نور بانها مدعوة إلى حفل مقام على شرف الأمير، وكانت تبحث عن ثوب يليق بالمناسبة. وإذا بزينب هانم خاتون تحضر لزيارة والدتها وتحكى لها المشكلة فتخرج من حقيبتها السحرية فستانًا وحذاء زجاجيًا.. ويتم نسج الحكاية ما بين الماضى والحاضر، والخيال والواقع بصورة جديدة جدًا وشيقة. وقد شاركت الفنانة صفاء نبعة فى كتاب آخر خيالى جميل هو «هف بلف» قصة أمل فرح.

انتقلنا بعد ذلك إلى كتاب «الوصفة العجيبة وأخواتها» وهى حكايات من التراث الشعبى والعالمى مقدمة فى قصص قصيرة لا تتعدى كل منها الثلاث صفحات ولكنها تذكرنى بحكايات.

وحتى الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور وجدت له كتاب «حى بن يقظان لابن طفيل» وتخيلت أن يكون هذا الكتاب صعبًا فى قراءته للسن الصغيرة إلا أن أسلوبه السلس والرسومات البديعة للفنان مصطفى حسين جعلته سهل القراءة والفهم. وقرأنا أيضًا كتاب «حياة محمد فى عشرين قصة» تأليف عبد التواب يوسف ورسوم صلاح بيصار وهو تجديد فى مجال كتابة الحكايات الدينية للأطفال حيث من السهل أن تصبح مملة أو أن تكون الموعظة فيها مباشرة لكنه كتاب شيق. أما سلسلة الأستاذ أحمد بهجت مع الفنان حلمى التونى والتى يتناول فيها القصص القرآنية التى تم ذكر الحيوان فيها، مثل «حوت يونس» و«غراب قابيل وهابيل» و«هدهد سليمان» و«فيل أبرهة» وهى ليست كتبًا جديدة وإنما يجب ذكرها هنا حيث إنها تعتبر من أوائل الكتب التى قدمت للأطفال بهذا الأسلوب المبسط.

وهنا أصل إلى مجموعة من الكتب التى أراها بداية لفكر جديد فى الكتابة للأطفال. فهى كتب شابة، حية جدًا، مصرية جدًا، تمس الحياة اليومية للأطفال. فالكاتبة فاطمة المعدول والفنان وليد طاهر لهما سلسلة كتب جميلة نشارك فيها الأبطال أول يوم لهم فى المدرسة وزيارتهم للطبيب وغيرها من المواقف اليومية التى قد تكون مصدرًا للخوف أو القلق عند الطفل، وهذا الثنائى له أيضًا كتابان للأطفال الأصغر سنًا يتعلمون منها الألوان بطريقة شيقة وهما «عشر بالونات» و«الكتكوت الأبيض» وهى نفس فكرة كتاب «ألوان البهلوان» لفيفى لطفى ورسوم أحمد هنو. وليد طاهر قام أيضًا برسم كتاب «بحبوح» للكاتب الشاعر شوقى حجاب، وهو مرة أخرى كتاب سياسى وفنى فى آن واحد، حيث يعرف الحصان بحبوح صديقيه الحصانين شيشى وحاحا حقوقهما من خلال جمعية الرفق بالحيوان فنتعرف على عمل النقابات وعلاقة العامل برئيسه وكلها قد تبدو موضوعات جافة ونظرية إلا أنها مقدمة فى صورة زجل بسيط طريف وغير مباشرة وهى بحق مدخل جميل لمعرفة أسس الأنظمة السياسية والاجتماعية.

وليد طاهر له أيضًا كتاب «صاحبى الجديد» وهو كتاب فى غاية الرقة قام بكتابته ورسمه بنفسه يحكى عن اكتشاف صبى للقمر وكيف أصبح القمر صديقًا دائمًا له. وهذا الكتاب جديد فى الفكرة وفى بساطة التقديم.

قامت رانيا حسين أمين بكتابة سلسلة من القصص القصيرة للبطلة «فرحانة» والتى نرافقها فى الكثير من المواقف اليومية وهى بنت مصرية صغيرة شقية. ونفس الكاتبة لها كتاب آخر جميل هو «سيوه قصة حب صغيرة صغيرة» وهو كتاب بسيط قريب إلى القلب يحكى صداقة تنشأ بين بنت وولد صغيرين فى رحلة مع أسرتيهما إلى واحة سيوة فنكتشف هذه البقعة من أرضنا التى قلما نتذكرها.

جدير بالذكر أن الكاتبة رانيا حسين أمين ترسم كتبها بنفسها ورسوماتها بسيطة قريبة إلى القلب وقد خاض أحمد سليمان تجربة مماثلة حيث كتب ورسم «الدراجة الحمراء» وهى قصة عن طفل يحقق أحلامه عن طريق رسمها ومعايشة أحداثها من خلال لوحاته. هناك أيضًا «يافراشة طيرى طيرى» لمنى ثابت وهى تحكى عن «سرحان طفل مصرى يقع فى كثير من المغامرات لأنه دائمًا سرحان. وقرأنا أيضًا «مغامرات عمر وشبل هول» وهى قصة يتم دمج الحاضر فيها ببعض الشخصيات المقتبسة من التاريخ الفرعونى وهى للكاتب وائل نوارة ورسوم لمحمد متولى.

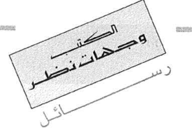
لقد انتهى سردى للكتب التى وقعت فى يدى وبالتأكيد فهو ليس شاملاً، ولكن ما أسعدنى هو أنها بداية قوية وثرية للكتابة للطفل المصرى، هذه الكتب كلها تم إخراجها بطريقة جميلة، فاختيار الورق والطباعة كلها تعطى الكتاب قيمة لابد أن تنعكس على احترام الطفل للكتاب. يبقى أن تنتشر هذه الكتب بين القراء، فالحصول عليها ليس سهلاً فهى موجودة فى مكتبات محدودة وعن تجربة شخصية فهى تحتاج إلى بحث ومثابرة للحصول عليها مما قد لا يكون متاحًا للجميع، بالرغم من أننى لا أستطيع الشكوى من أسعارها، فهى فى متناول يد الكثيرين. يبقى أيضًا أن تستمر هذه الانطلاقة قدمًا، وأن تغطى اهتمامات جميع الأعمار فيصبح لدينا كتابات جادة تخاطب الشباب من سن الثانية عشرة إلى الثامنة عشرة فهذه السن لها اهتماماتها وأحلامها وقلقها وهى سن تصقل الشخصية وتحدد تفاصيلها.

وبقى أن نحلم بأن يصبح الكتاب هدية ثمينة فى أعياد الميلاد أو أن يصبح أملاً يستحق ادخار المصروف من أجله، وأن يحصل الكتاب على نفس الاحترام والتقدير الذى يحصل عليه فيلم الفيديو أو العروسة أو الملابس.

الكتاب عند أطفال هذا الزمان قيمته مهدرة مسفهة وغالبًا ما يقرن بالدراسة والواجب. وأعتقد أن هذا له علاقة قوية بطريقة التدريس وبالكتب المدرسية التى تفتقد الروح والفكر والإخراج فتقرن القراءة بالملل، فلماذا لا يكون هناك تعاون بين الكاتب للطفل وأستاذ وزارة التعليم، فيقدم الأخير المادة العلمية المطلوبة فى سنة معينة ومادة معينة ثم يخرج الكاتب والفنان هذا العلم فى إطار درامى فنى شيق. لو تم تدريس التاريخ والجغرافيا وحتى العلوم بهذه الطريقة قد تصبح الدراسة أقل جمودًا وأكثر تشويقًا وقد تعود للقراءة بهجتها.

أما وقد وجدنا أنا وابنتاى هذا الكنز فإننا نغرق يوميًا فى خياله وفنه فنتعلم الشعر المصرى، والسياسة والتاريخ المصرى، ونود أن نشكر كل من ساهموا فى هذا الكنز فقد أسعدونا وجعلونا أكثر مصرية.

د. هنا أبو الغار



ملاحظات مستمدة من اسم المجلة

أعتقد أن «وجهات نظر» لم تعد بحاجة إلى رسائل الإشادة بقدر حاجتها إلى نظرة نقدية متأنية، وإذا كنت أرى أنه فوق طاقتى تناول المجلة بالنقد والتحليل فإننى أظن أنه بوسعى إبداء بعض الملاحظات غايتها أن تصل المجلة إلى درجة إشباع حاجات القارئ.

هذه الملاحظات أستمدها من عنوان المجلة..

الكتب - وجهات نظر فى - الثقافة - والسياسة - والفكر

١ - الكتب: من الضرورى تخصيص أبواب ثابتة لمناقشة الكتب لا باعتبارها آخر إصدارات المطابع ولكن مناقشة أهم أعمال كبار المفكرين مناقشة واسعة متعمقة أيًا كان المدى الذى تتطلبه هذه المناقشة، فعلى سبيل المثال نحن بحاجة ملحة إلى قراءة واعية ورصينة لأعمال مفكر مثل العبقرى جمال حمدان، وباحث مبدع مثل الدكتور المسيرى، أو صحفى متألق مثل الأستاذ هيكل، أو أعمال طه حسين والعقاد وابن خلدون.. فالمطلوب إذن مناقشة أفكار المبدعين وليس عرض كتبهم فقط منفصلة عن مشروعهم الفكرى.

٢ - وجهات نظر: من المهم وجود ملف ثابت للحوار وطرح وجهات النظر المختلفة حول أهم الموضوعات التى تطرح نفسها على الساحة الفكرية، الأمر الذى يتيح للقارئ مجالاً أوسع لتعميق الرؤية وربما إمكانية المشاركة والحوار.

٣ - فى السياسة: الإنتاج فى هذا الباب غزير ومتميز ومثمر وتعد مشاركة المجلة ومتابعتها لأحداث العالم السياسية لاسيما بعد ١١ سبتمبر متابعة ممتازة أتاحت الفرصة لفهم صحيح وسليم، وعلى وجه الخصوص كتابات الأستاذ هيكل الرائعة.

٤ - الثقافة والفكر: هناك قصور وإهمال فى تناول مجالات ثقافية وفكرية هى فى الحقيقة أعلى درجات الفكر وعلى رأسها الفكر الفلسفى، فنحن فى الحقيقة نفتقد معالجة جادة للفلسفة الإنسانية على اختلاف توجهاتها كما أننا فى أشد الحاجة إلى محاولة لتقييم الفكر الفلسفى الغربى الحديث على سبيل المثال وأعتقد أن «وجهات نظر» قادرة بجدارة على النهوض بهذا الدور.

٥ - كتّاب المجلة: فى تقديرى أن عودة الأستاذ هيكل إلى الكتابة المنتظمة هو أهم إنجازات المجلة فكتابات الأستاذ هيكل - فى اعتقادى على الأقل - هى أحد مكونات فكر وضمير أمة بأكملها إلى جانب كونها شعاعًا ينير الطريق أمام القارئ فى محاولاته الشاقة والمضنية للبحث عن الحقيقة.

٦ - فى المقابل هناك غياب مؤثر لمجموعة من كبار المثقفين والمفكرين، من المحزن حقًا أن كل إسهام الدكتور المسيرى مقالة واحدة عن التفكيكية، وإسهام الأستاذ فهمى هويدى خمسة مقالات أحدها كان تعليقًا على مقالة أخرى، أين كتابات الأستاذ جميل مطر التى تفيض عذوبة وسهولة وعمقًا وأمانة؟ وأين الدكتور أنور عبدالملك، السيد يس، نعمات فؤاد، محمد عمارة، أحمد صدقى الدجانى، محمد جابر الأنصارى، محمد عابد الجابرى ومحمود أمين العالم.. إلخ؟

٧ - هناك تجاهل فى متابعة أحداث تاريخية مهمة ومؤثرة فى واقعنا السياسى الذى تهتم المجلة بأبعاده، فعلى سبيل المثال كان إسهام المجلة فى التعليق على حريق القاهرة مجرد مقال ضعيف لم نصل منه إلى التعرف على أسبابه والجهات المسئولة عنه، أيضًا تجاهلت المجلة حادث ٤ فبراير الذى مر عليه هذا العام ٦٠ عامًا رغم تأثيره الواضح، وهذا العام هو العام الخمسون على ثورة يوليو وأرى أن المجلة يجب أن تقوم بدور يفرضه عليها ضميرها المهنى ودورها التنويرى وهو محاولة فتح ملفات يوليو ومناقشتها بصورة هادئة وعميقة ورصينة بعيدًا عن الكتابات الدعائية الفجة أو العدائية غير الأمينة التى تبعدنا عن جوهر الحقيقة ومعرفة ما حدث.

٨ - أخيرًا.. نحتاج كثيرًا لفهارس سنوية تريحنا من عناء البحث عن الموضوعات السابقة وتحافظ على المجلة من عبث التقليب المستمر فى أوراقها مما يعرضها للتلف ونحن فى أمس الحاجة إليها.

مصطفى عبدالعزيز ريحان



الوليمة الشهرية

هذه أول مرة أكتب إلى باب رسائل منذ العدد الأول وحتى العدد الثامن والثلاثين من عمر «المجلة/الكتاب/الكتب/وجهات نظر».

قرأت وحاولت استيعاب وتمتعت وفكرت وحمدت الله على الولائم الشهرية «كل عدد» والولائم اليومية «كل مقال أو تلخيص كتاب».

يا حبذا لو أنه مع كل مقال أو تلخيص كتاب أن تذكر نبذة قصيرة عن المترجم إذا كان الكتاب صادرًا فى الأصل بلغة غير عربية (الجنسية/العمل الأصلى/التخصص) إذ إن ذلك يقرب المترجم إلى القارئ ويقوى استفادته بما قام به المترجم، كذلك أن تكتب جنسية أى مؤلف مع اسمه.

تحية وتقديرًا إلى كل من يساهم فى الوليمة الشهرية.

مصطفى عبد الوهاب صالح
مهندس استشارى - القاهرة

تبرعًا للفلسطينيين

أود أن أتقدم بالشكر على نشر مقالتى فى العدد التاسع والثلاثين (أبريل ٢٠٠٢) وأتمنى أن أواصل مقالاتى فى هذه المجلة الرائعة المحترمة التى تلقى كل تقدير من المصريين والعرب على السواء.

إننى أعمل أساسًا كطبيب وأعتقد أن أى كتابات أو مساهمات لى لا أتوقع عنها أجرًا، وإنما هو شرف كبير لى أن أكتب شيئًا فى مجلتكم العظيمة. وحيث إن المجلة قدمت شيكًا لى مكافأة عن المقالة وأن الشيك قد تم إصداره بالفعل فإننى أرجو أن تتبرع به المجلة إلى دعم الشعب الفلسطينى، وأشكركم وأحييكم.

محمد أبو الغار
أستاذ بطب القاهرة



الأوبرا والبنك المركزى

فى عدد أبريل ٢٠٠٢، وفى مقال الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل ثورة يوليو.. خمسون عامًا وتحديدًا فى الصفحة رقم «١٥» «أود أن تقوم فى قلب العاصمة المصرية دار للأوبرا يفتتحها موسيقار إيطالى مثل فردى بأوبرا كتبها خصيصًا لحفل الافتتاح مثل أوبرا عايدة»!

المعلومات الواردة فى هذه الفقرة خطأ شاع استعماله وصحة المعلومة كما يلى:- دار الأوبرا الخديوية بميدان الأوبرا أو ميدان إبراهيم باشا (١٨٦٩ - ١٩٧١) تم افتتاحها رسميًا فى ١/١١/١٨٦٩ إبان احتفالات افتتاح قناة السويس، وقد طلب الخديوى إسماعيل من فردى إعداد نشيد أو أوبرا بمناسبة الافتتاح فرفض الأخير قائلاً: إنه ليس مؤلفًا للمناسبات وعليه تم الافتتاح فى موعده بغنائية كانتاتا وأوبرا ريجوليتو من أعمال فردى أيضًا، وغابت أوبرا عايدة عن حفل الافتتاح. ولكن تم تقديم أوبرا عايدة - لأول مرة فى مصر - فى ٢٤/١٢/١٨٧١ حيث حضر الافتتاح الخديوى إسماعيل الذى أنعم على الموسيقار الإيطالى بوسام العثمانية من رتبة كومانداتور.

وفى الصفحة رقم ١٩، العمود الثانى، الفقرة الثالثة من نفس المقال يقول بالنص: «مثل محافظ البنك الأهلى (البنك المركزى وقتها) جيمس كوك وتوخيًا للدقة التى عودنا عليها الأستاذ الكبير فإن السيد كوك Cook كان محافظًا للبنك الأهلى فى الفترة من أول مارس ١٩٣١ وحتى أكتوبر ١٩٤٠، ولم يكن محافظًا إبان أزمة فبراير ١٩٤٢، وجاء بعده السيد نيكسون Nixon كمحافظ للبنك الأهلى المصرى من عام ١٩٤٠ وحتى عام ١٩٤٦ كما لم يكن هناك ما يسمى بالبنك المركزى وحتى عام ١٩٦٠.

ففى العام ١٨٩٨ تم إنشاء البنك الأهلى كبنك تجارى له امتياز إصدار النقد لمدة ٥٠ سنة، وفى ١٩/٧/١٩٦٠ صدر القانون رقم ٢٥٠ لسنة ١٩٦٠ بإنشاء مؤسسة عامة مستقلة تحت اسم «البنك المركزى المصرى» وأباح القانون للبنك الأهلى مزاولة جميع العمليات المصرفية العادية كبنك تجارى مسجل لدى البنك المركزى ومنذ العام ١٩٦١ تولى البنك المركزى المصرى إصدار أوراق النقد المصرية.

مهندس/ شريف سيد عفت
استشارى - القاهرة



فهرس كامل للمجلة

أزجى إليكم أخلص التهانى على إصدار هذه المجلة الرائعة، التى تعتبر إنجازًا ثقافيًا كبيرًا، وإضافة مهمة بعد أن أصبحت من المعالم الحضارية فى البلاد العربية.

وحيث إننى جمعت كافة الأعداد وقمت بتجليدها فى مجلدات تضم ستة أعداد فى مجلد واحد، فإنى أرجوكم التكرم بنشر فهرس كامل فى أى عدد قادم لجميع المقالات حسب موضوع كل مقال وتاريخ نشره. وهذا الفهرس الشامل مهم جدًا وأساسى لمن يرغب فى الاحتفاظ بجميع الأعداد فى مجلدات.

عمر النابلسى
عمان - الأردن

هذه فكرة جيدة. والمجلة بصدد تنفيذها قريبًا.

المحرر



الثقافة العالية!

الإخوة فى «وجهات نظر» فى الواقع يشرفنى أن تكون هناك مجلة بهذا المستوى فى عالم وصلت فيه الثقافة إلى الحدود التى تساوى فيها حفنة من الجوائز. وطبعًا ربما يكون هذا الكلام نابعًا من الحنين إلى الماضى حيث كان احترام القارئ هو الأساس وبالتالى تكون المادة جدية، وفى نفس الوقت ممتعة على العموم، أرجو من الإخوة فى المجلة الكريمة أن يفيدونى عن اتجاه المجلة الثقافى، بمعنى هل هو أكاديمى بحت. حيث لا يحق لغير أصحاب الشهادات العليا الكتابة فيها ولا يحق لشخص مثلى لا يحمل غير الإجازة فى الفلسفة أن يكتب فيها؟

فإذا كان لديكم الإفادة اللازمة فأرجو ذلك فقد انتهى زمن الثقافة العالية وحل محلها زمن ثقافة السندويتش ولا بأس فليس أمام الأزمة إلا أن تنفرج.

محمد محمود - لبنان




الطريق المسدود أمام الشباب في العالم العربي

فجرت موجة المظاهرات الغاضبة التى اجتاحت العالم العربى، احتجاجًا على المعارك الدامية التى خاضها الشعب الفلسطينى، شعورًا قويًا بأن أجيال الشباب التى أزيحت فى معظم المجتمعات العربية إلى زاوية الإهمال، تحت وطأة اليد الثقيلة لأنظمة سياسية متآكلة، وجيل من الآباء المحبطين المهزومين، قد استيقظت أخيرًا واستعادت وعيها الغائب على وقع أصداء قصف الدبابات الإسرائيلية وصواريخ طائرات الأباتشى الأمريكية والعمليات الاستشهادية التى دفع الشباب الفلسطينى، فتيانًا وفتيات، ثمنها من حياته ودمائه.

وجاءت هذه الصحوة وسط أسباب قوية تدعو للاعتقاد بأن أجيال الشباب فى العالم العربى تمر بأزمة خانقة، تحول بينها وبين ممارسة دورها الطبيعى فى حركة النمو والتقدم العالمى التى يفترض أن تكون المجتمعات العربية جزءًا منها. وقد ظهر أن كثيرًا من الأعراض المرضية التى أصابت هذه المجتمعات وأقعدتها عن ملاحقة التقدم فى مجالات متعددة، ترجع إلى أن أجيال الشباب قد أقصيت عمدًا وبتدبير مسبق من الحكومات العربية عن الخوض فى السياسات الداخلية والخارجية وعن المشاركة الفعالة فى إدارة مشاكلها بحيث يمكن القول بأن الشباب العربى قد تم وضعه فى «صوبات» أو أجواء مصنوعة، حجبت عنه عوامل الطقس الطبيعية، وحالت بينه وبين الاحتكاك بالمتغيرات الواقعية، وأبقته تحت الوصاية المفروضة بأحكام الطوارئ واستئثار الكبار بالسلطة.

وقد كانت النتيجة الطبيعية لذلك والتى أثارت ومازالت تثير الحيرة والإحباط، ما لوحظ فى معظم الأوساط الشبابية من مظاهر عدم الاكتراث والسلبية واللامبالاة. وكأنهم تعرضوا لغسيل مخ جعلهم غير قادرين على المشاركة فى الاهتمام بقضايا مجتمعاتهم والرغبة فى تغييرها إلى الأفضل.. الأفضل من وجهة نظرهم وليس كما يراه الكبار. واقترنت هذه السلبية بغياب تام للثقة فى النظام، وظهور فجوة واسعة بين الشباب والسلطة. وهو ما أدى إلى انتشار الشكوى من الجيل الجديد واتهامه بأنه محدود الثقافة، منصرف عن الاهتمام بالحياة العامة والقضايا القومية، أكثر إغراقًا فى الجرى وراء الإغراءات العاجلة والمكاسب السريعة.

ولكن المفاجأة وقعت، حين انخرطت جموع واسعة من الشباب من أعمار مختلفة اقترب بعضها من سن الطفولة إلى فتيان وفتيات فى شرخ الشباب، فى أشكال غير مألوفة من التظاهر والتعبير عن الغضب بعفوية وتلقائية غير مدبرة، تضامنًا مع شعب عربى آخر يتعرض لغائلة الطغيان والجبروت الإسرائيلى المنظم.. تفجرت طاقة غضب هائلة لم تبددها ذكريات جيل مهزوم، ولا خبرات آباء تعلموا الخضوع والانصياع. واضطرت النظم الحاكمة فى الدول العربية إلى مواجهة موقف لم تكن اعتادته، لقمع المشاعر المتمردة على مظاهر العجز العربى المرسوم على الوجوه والأشكال، وقبل كل شىء على الأقوال والأفعال..



هل تمثل هذه الصحوة ظاهرة عابرة، أم أنها تعبير عن نفاد صبر جيل طال تجاهله وتجاهل دوره فى المجتمع، وأصبح لا ينظر إليه إلا باعتباره إما مصدرًا لمتاعب لا يريد أحد أن يتفهمها أو مجرد مستودع لآمال مستقبلية لا يريد أحد أن يمنحها فرصة التحقق؟

يمثل الشباب دون سن الخامسة والثلاثين فى مصر نسبة تصل إلى ثلثى تعداد السكان. وتزيد هذه النسبة عن ذلك فى مجتمعات عربية كثيرة، مما يعطى للشباب أغلبية عددية بين سكان العالم العربى. ولكنها أغلبية محاصرة ومهدرة، إما حملانٌ شاردة أو طاقات عنف متفجرة، ولكنهم فى النهاية يمثلون المشكلة والحل معًا. وبينما شهد العالم خلال العقدين الأخيرين تطورات متسارعة فى المجتمعات المتقدمة، احتل فيها الشباب مكان الصدارة فى السياسة والحكم، ودنيا المال والأعمال، والمهارات التقنية والإنجازات العلمية.. استمرت حالة الركود بل الجمود فى المجتمعات العربية فلم يطرأ تغير يذكر على الزعامات والقيادات السياسية إلا ما تمليه قوانين الوراثة. وبينما تحرك الشباب فى المجتمعات الأخرى نحو مزيد من الاستقلال عن الأسرة وعن المؤسسة وعن السلطة، تحرك شبابنا نحو مزيد من التبعية والاعتماد على الأسرة وعلى الحكومة وعلى القبيلة أو العشيرة.

فى المجتمعات الأوروبية شهدت الستينيات والسبعينيات ثورة الشباب ضد «المؤسسة» القائمة بكل أشكالها وتجلياتها، فأفرزت جيلاً جديدًا هو الذى يتولى مقاليد السلطة فى معظم الدول الغربية الآن: فى بريطانيا تونى بلير، وفى ألمانيا جيرهارد شرودر، وفى أمريكا كلينتون وبعده بوش.. هذه الأجيال هى التى قضت على التراتبية التى تقوم على السن والأقدمية، وتتواكب مع المجتمعات الحديثة التى تقوم على التكنولوجيا وثورة المعلومات فى ظل ثقافة جديدة تختلف فى معطياتها ومهاراتها وأخلاقياتها وسلوكياتها عن تلك التى أفرزت الأجيال السابقة.

أما فى المجتمعات العربية فقد أبعد الشباب عن ممارسة السياسة بل وعن ممارسة التفكير المستقل والتعبير الحر فى ظل نظام تعليمى عقيم وفاسد. وأصبح الشباب مطالبًا إما بالانضمام إلى «المؤسسة» المفلسة فكريًا وسياسيًا وأخلاقيًا، أو البحث عن منافذ أخرى أفضت به إلى تنظيمات دينية متطرفة تتجه إلى الماضوية بحثًا عن حلول لحاضر متغير، أو إلى الانحرافات الشبابية المعروفة بالإغراق فى المخدرات والجريمة والضياع.

وقد كانت الصدمة التى فوجئ الجميع بها فى كل المجتمعات العربية: المحافظة وغير المحافظة، الدينية والعلمانية أو شبه العلمانية، هذه الأعداد الكبيرة من الشباب التى هجرت مجتمعاتها وهاجرت إلى ديار وأوطان أخرى، فى أفغانستان أو الصومال أو أحراش السودان وجبال اليمن.. أو هربت من واقعها إلى دول أوروبية بعد أن ووجهت بإجراءات قمعية وأمنية عنيفة، وعجزت مجتمعاتها عن استيعابها واحتوائها، لتنضم إلى تنظيمات وجماعات أشد قمعًا وأكثر تخلفًا، ولكنها تقدم بدائل مغرية استوعبت نزعات التمرد والغضب والثورة الطبيعية لدى الشباب.



ومع ذلك، فمازالت هذه الشريحة الواسعة التى تمثل قلب المجتمعات العربية وحاضرها ومستقبلها، بعيدة عن أن تلقى ما تستحقه من اهتمام ودراسة وتحليل.. بعيدة عن أن يُستمع إلى صوتها أو يُلتفت إلى همومها وأشواقها ومشاكلها.. بعيدة عن المشاركة فى تحمل المسئولية وأن تكون طرفًا فاعلاً فى حوار متجدد على كافة المستويات. وقد ظن البعض أنه يكفى أن تيسر للشباب فرص العمل والمسكن ومكان فى الجامعة إن توفرت الإمكانات المادية لذلك.. ولكن هذه الضروريات التى يعتبرها الشباب حقًا لهم على المجتمع، لم تسهم فى عبور الهوة الفاصلة بين هذه الأجيال وتلك التى مازالت تمسك بالزمام. بل يمكن القول بأن الهوة تزداد اتساعًا. ويضاعف منها أن الآباء لا يملكون المعرفة الكافية ولا الإجابات الشافية التى تمكنهم من الدخول فى حوار متكافئ مع أبنائهم، سواء فى التكنولوجيا أو السياسة أو الدين أو الحياة العامة أو العلاقة بين الرجل والمرأة.

ونظرة مدققة إلى ما يحدث فى المجتمع المصرى على سبيل المثال تكشف عن عمق الهوة..

فقد عجزت الأحزاب السياسية عن اجتذاب الشباب إليها، أو استثارة اهتمامهم وحماسهم حتى لمجرد الدخول من أبوابها.

ومن يقرأ ما يكتبه الشباب فى مواقع الإنترنت المفتوحة للنقاش عن رأيهم فى النظم السياسية القائمة والديكتاتوريات الحاكمة والشعوب الذبيحة.. يدرك إلى أى مدى فقدت هذه الأحزاب السياسية المصنوعة والمعلبة مصداقيتها لدى الشباب. وبقدر درجة الإحباط التى يعانون منها فى مجتمع يصعب سلوك سبل الترقى والتقدم إلى المواقع الأمامية فيه دون درجة كبيرة من الفساد والشللية، سواء فى سوق العمل أو فى مجال السياسة.

وكما عجزت المؤسسة السياسية عن استيعاب طموحات الشباب ونزوعهم إلى الاستقلال والحرية فإن إخفاق المؤسسة الدينية لم يكن أقل تأثيرًا.. وهناك أسباب قوية تدعو إلى الاعتقاد بأن المرحلة التى انساقت فيها نسبة كبيرة من الشباب وراء الأفكار السلفية والاتجاهات الدينية المحافظة قد آذنت بزوال بعد أن لم تعد تجد ما يشبعها ويلبى احتياجاتها الروحية والدينية. وأن ثمة أسئلة جديدة تمور بها صدورهم وتشغل بالهم لا يجدون الإجابة المقنعة عنها فيما تقدمه لهم وسائل الإعلام على لسان المراجع التقليدية. ولهذا تبدو ظاهرة الدعاة الجدد، الذين يقدمون فهمًا عصريًا للدين يتسم بالبساطة واليسر ولا يعادى الحداثة والتقدم، من أكثر الظواهر انتشارًا فى غير وسائل التعبير والإعلام الرسمية.. ويبدو مثيرًا للدهشة أن تنتقل هذه الظاهرة من مصر عبر الفضائيات إلى مجتمعات عربية أخرى، لتتصادم بوضوح وقوة مع أصوات الدعاة التقليديين الذين احتكروا منابر المساجد وميكروفونات الإذاعة والتليفزيون.

ويدخل فى هذا السياق ما يجرى من مناقشات حادة حول الحجاب وعلاقة الشاب والفتاة، وما يعكسه ذلك من حيرة شديدة بحثًا عن حلول وسلوكيات جديدة، لا تصطدم بتقاليد ومواضعات اجتماعية راسخة الجذور، ولا تفرض فى الوقت نفسه قيودًا على العقل والفكر وحق الشباب فى اختيار طريقه بنفسه دون إكراه أو جبر، وهو يرى ويعايش بنفسه مجتمعات وثقافات أخرى قد لا يجد فيها هويته، ولكنه يجد فيها من القواعد والمعاملات الاجتماعية ما يقرب بينه وبين الثقافات الأخرى فى العالم المتقدم.

هذه القضايا ليست غير نقطة فى بحر من المشاكل الشبابية التى تعبر عن نفسها فى طفرات وانفجارات مفاجئة، وهى تمثل تيارًا واسعًا تحت سطح المجتمعات العربية، لن يسهل التعامل معها بدون دراستها ومناقشتها والاعتراف بها.

سلامة أحمد سلامة